الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الحادي والعشرون

الاجزاء من ٣٩٤ الى ٤١٣

الحَاوِي فِي التَّفسِير

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ ❋

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
394	سورة يوسف	الآية 26 الى الآية 29	2
395	=	الآية 30 الى الآية 34	473
396	=	الآية 35 الى الآية 40	798
397	=	الآية 41 الى الآية 49	1071
398	=	الآية 50 الى الآية 53	1403
399	=	الآية 54 الى الآية 68	2042
400	=	الآية 69 الى الآية 76	2495
401	=	الآية 77 الى الآية 87	2869
402	=	الآية 88 الى الآية 100	3292
403	=	الآية 101 الى الآية 104	3707
404	=	الآية 105 الى الآية 110	4126
405	=	الآية 111	4385
406	سورة الرعد	فصول مهمة	4822
407	=	الآية 1 الى الآية 6	5136
408	=	الآية 7 الى الآية 11	5558
409	=	الآية 12 الى الآية 15	5876
410	=	الآية 16 الى الآية 18	6122
411	=	الآية 19 الى الآية 25	6533
412	=	الآية 26 الى الآية 30	6717
413	=	الآية 31 الى الآية 39	6967

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والتسعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/394)

الجزء الرابع والتسعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 26 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 29 ﴾ من نفس السورة

(4/394)

قوله تعالى ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

وأما هو عليه الصلاة والسلام فجرى على سجايا الكرام بأن سكت ستراً عليها وتنزهاً عن ذكر الفحشاء ، فكأنه قيل : فماذا قال حين قذفته بهذا ؟ فقيل ﴿ قال ﴾ دافعاً عن نفسه لا هاتكاً لها ﴿ هي ﴾ بضمير الغيبة لاستيحائه عن مواجهتها بإشارة أو ضمير خطاب ﴿ راودتني عن نفسي ﴾ وما قال ذلك إلا حين اضطرته إليه بنسبته إلى الخيانة ،

وصدقه لعمري فيما قال لا يحتاج إلى بيان أكثر من الحال الذي كانا فيه ، وهو أنهما عند الباب ، ولو كان الطلب منه لما كانا إلا في محلها الذي تجلس فيه ، وهو صدر البيت وأشرف موضع فيه ﴿ وشهد ﴾ ولما كان كل صالح للشهادة كافياً ، فلم تدع ضرورة إلى تعيينه ، قال : ﴿ شاهد ﴾ أي عظيم ﴿ من أهلها ﴾ لأن الأهل أعظم في الشهادة ، رضيع بيراءته – نقله الرماني عن ابن عباس وأبي هريرة .رضى الله عنهما .وسعيد ابن جبير ، كما شهد للنبي .صلى الله عليه وسلم .في حجة الوداع صبي من أهل اليمامة يوم ولد بأنه رسول الله ، فكان يدعي : مبارك اليمامة .

فقال ذلك الشاهد ﴿ إن كان ﴾ أي حال المراوغة ﴿ قميصه ﴾ أي فيما يتبين لكم ﴿ قدَّ ﴾ أي شق شقاً مستأصلاً ﴿ من قبل ﴾ أي من جهة ما أقبل من جسده ﴿ فصدقت ﴾ ولا بد من تقدير فعل التبين ، لأن الشروط لا تكون معانيها إلا مستقبلة ولو كانت ألفاظها ماضية .

ولما كان صدقها ليس قاطعاً في منع صدقه ، قال : ﴿ وهو من الكاذبين ﴾ لأنه لولا إقباله – وهي تدفعه عنها أو تهرب منه وهو يتبعها ويعثر في قميصه – ما كان القد من القبل

﴿ وإن كان ﴾ أي فيما يظهر لكم ﴿ قميصه ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ قدَّ من دبر ﴾ أي من جهة ما أدبر منه ، وبنى " قُدَّ " للمجهول للنزاع في القادّ ﴿ فكذبت ﴾ ولما كان كذلك كذبُها في إرادته السوء لا يعين صدقه في إرادتها له ، قال : ﴿ وهو من الصادقين ﴾ لأنه لولا إدباره عنها وإقبالها عليه لما وقع ذلك ، فعرف سيدها صحة ذلك بلا شبهة ، لأن معنى " إن " هنا الشرط في جهة التقرير للمعنى الذي يوجب غيره لا على الشك ، وقدم أمارة صدقها لأنه مما يحبه سيدها ، فهو في الظاهر اهتمام بها ، وفي الحقيقة تقرير لكذبها مرتين : الأولى باللزوم ، والثانية بالمطابقة .

(6/394)

ولما كان المعنى : فنظر ، بنى عليه قوله : ﴿ فلما رءا ﴾ أي سيدها ﴿ قميصه ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ قدّ من دبر قال ﴾ لها وقد قطع بصدقه وكذبها ، مؤكداً لأجل إنكارها ﴿ إنه ﴾ أي هذا القذف له ﴿ من كيدكن ﴾ معشر النساء ؛ والكيد : طلب الإنسان بما يكرهه ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ والعظيم : ما ينقص مقدار غيره عنه حساً أو معنى ، فاستعظمه لأنه أدق من مكر الرجل وألطف وأخفى ، لأن الشيطان عليهن لنقصهن أقدر ، وكيدهن الذي هو من كيد الشيطان أضعفُ ضعيف بالنسبة إلى

ما يدبره الله عز وجل في إبطاله ؛ ثم قال العزيز آمراً له عليه السلام مسقطاً لحرف النداء دلالة على أن قربه من قلبه على حاله : ﴿ يوسف أعرض ﴾ أي انصرف بكليتك مجاوزاً ﴿ عن هذا ﴾ أي اجعله بمنزلة ما تصرف وجهك عنه إلى جهة العرض بأن لا تذكره لأحد ولا تهتم به ، فإني لم أتأثر منك بوجه ، لأن عذرك قد بان ، وأقبل إليها فقال : ﴿ واستغفري ﴾ أي اطلبي الغفران ﴿ لذنبك ﴾ في أن لا يحصل لك عقوبة مني ولا من الله ؛ واستأنف بيان ما أشار إليه بقوله : ﴿ إنك كنت ﴾ أي كوناً جبلياً ﴿ من الخاطئين ﴾ أي العريقين في الخطأ بغاية القوة ، يقال : خطئ يخطأ - إذا أذنب متعمداً . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 32 ـ 33 ﴾

(7/394)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾

واعلم أن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف عليه السلام احتاج يوسف

إلى إزالة هذه التهمة فقال : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ ، وأن يوسف عليه السلام ما هتك سترها في أول الأمر إلا أنه لما خاف على النفس وعلى العرض أظهر الأمر .

(8/394)

واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق : فالأول : أن يوسف عليه السلام في ظاهر الأمر كان عبداً لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحد والثاني : أنهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدو عدواً شديداً ليخرج والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه ، والثالث : أنهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه ، وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى ، الرابع : أنهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذا الفعل المنكر ، وذلك أيضاً مما يقوي الظن ، الخامس : أن المرأة ما نسبته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاماً مجملاً مبهماً ، وأما يوسف عليه السلام فإنه صرح بالأمر ولو أنه كان متهماً لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فإن الخائن خائف ؛ السادس : قيل : إن زوج المرأة كان عاجزاً وآثار طلب الشهوة في حق المرأة كانت متكاملة فإلحاق

هذه الفتنة بها أولى ، فلما حصلت هذه الأمارات الكثيرة الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعلمه بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة ، ثم إنه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلاً آخر يقوي تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه بريء عن الذنب وأن المرأة هي المذنبة ، وهو قوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ وفي هذا الشاهد ثلاثة أقوال : الأول : أنه كان لها ابن عم وكان رجلاً حكيماً واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص إلا أنا لا ندري أيكما قدام صاحبه ، فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب وإن كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة فلما نظروا إلى القميص ورأوا الشق من خلفه ، قال ابن عمها : ﴿ إِنَّهُ مِنَ

(9/394)

كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أي من عملكن .

ثم قال ليوسف أعرض عن هذا واكتمه ، وقال لها استغفري لذنبك ، وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين .

والثاني : وهو أيضاً منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك :

إن ذلك الشاهد كان صبياً أنطقه الله تعالى في المهد ، فقال ابن عباس : تكلم في المهد أربعة صغار شاهد يوسف ، وابن ماشطة بنت فرعون ، وعيسى بن مريم ، وصاحب جريج الراهب قال الجبائي : والقول الأول أولى لوجوه : الأول : أنه تعالى لو أنطق الطفل بهذا الكلام لكان مجرد قوله إنها كاذبة كافياً وبرهاناً قاطعاً ، لأنه من البراهين القاطعة القاهرة ، والاستدلال بتمزيق القميص من قبل ومن دبر دليل ظني ضعيف والعدول عن الحجة القاطعة حال حضورها وحصولها إلى الدلالة الظنية لا يجوز .

الثاني : أنه تعالى قال : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ وإنما قال من أهلها ليكون أولى بالقبول في حق المرأة لأن الظاهر من حال من يكون من أقرباء المرأة ومن أهلها أن لا يقصدها بالسوء والإضرار ، فالمقصود بذكر كون ذلك الرجل من أهلها تقوية قول ذلك الرجل وهذه الترجيحات إنما يصار إليها عند كون الدلالة ظنية ، ولو كان هذا القول صادراً عن الصبي الذي في المهد لكان قوله حجة قاطعة ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها ، وبين أن لا يكون من أهلها وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر .

والثالث : أن لفظ الشاهد لا يقع في العرف إلا على من تقدمت له معرفة بالواقعة وإحاطة بها .

والقول الثالث : أن ذلك الشاهد هو القميص ، قال مجاهد : الشاهد كون قميصه مشقوقاً من دبر ، وهذا في غاية الضعف لأن القميص لا يوصف بهذا ولا ينسب إلى الأهل .

واعلم أن القول الأول عليه أيضاً إشكال وذلك لأن العلامة المذكورة لا تدل قطعاً على براءة يوسف عليه السلام عن المعصية لأن من المحتمل أن الرجل قصد المرأة لطلب الزنا فالمرأة غضبت عليه فهرب الرجل فعدت المرأة خلف الرجل وجذبته لقصد أن تضربه ضرباً وجيعاً فعلى هذا الوجه يكون القميص متخرقاً من دبر مع أن المرأة تكون بريئة عن الذنب والرجل يكون مذنباً .

وجوابه : أنا بينا أن علامات كذب المرأة كانت كثيرة بالغة مبلغ اليقين فضموا إليها هذه العلامة الأخرى لا لأجل أن يعولوا في الحكم عليها ، بل لأجل أن يكون ذلك جارياً مجرى المقويات والمرجحات .

ثم إنه تعالى أخبر وقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ ﴾ وذلك يحتمل السيد الذي هو زوجها ويحتمل الشاهد فلذلك اختلفوا فيه ، قال : ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ أي أن قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً من كيدكن إن كيدكن عظيم .

فإن قيل : إنه تعالى لما خلق الإنسان ضعيفاً فكيف وصف كيد المرأة بالعظم ، وأيضاً فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء .

والجواب عن الأول : أن خلقة الإنسان بالنسبة إلى خلقة الملائكة والسموات والكواكب خلقة ضعيفة وكيد النسوات بالنسبة إلى كيد البشر عظيم ولا منافاة بين القولين وأيضاً فالنساء لهن في هذا الباب من المكر والحيل ما لا يكون للرجال ولأن كيدهن في هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال .

(11/394)

واعلم أنه لما ظهر للقوم براءة يوسف عليه السلام عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى عنه أنه قال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ فقيل : إن هذا من قول العزيز ، وقيل : إنه من قول الشاهد ، ومعناه : أعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار العظيم بسببها ، وكما أمر يوسف بكتمان هذه الواقعة أمر المرأة بالاستغفار فقال : ﴿ واستغفري لِذَنبِكِ ﴾ وظاهر ذلك طلب المغفرة ، ويحتمل أن يكون المراد من الزوج ويكون معنى المغفرة العفو والصفح ، وعلى هذا التقدير فالأقرب أن قائل هذا القول هو الشاهد ، ويحتمل أن يكون المراد بالاستغفار من الله ، لأن أولئك الأقوام كانوا يثبتون الصانع ، إلا أنهم مع ذلك كانوا يعبدون الأوثان بدليل أن يوسف عليه السلام قال : ﴿ مُّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار ﴾ [يوسف : 39] وعلى هذا التقدير : فيجوز أن يكون القائل

هو الزوج.

وقوله : ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ﴾ نسبة لها إلى أنها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم ، وهذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف في أول الأمر أن الذنب للمرأة لا ليوسف ، لأنه كان يعرف عنها إقدامها على ما لا ينبغي .

وقال أبو بكر الأصم : إن ذلك لزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار .

قال صاحب "الكشاف" : وإنما قال من الخاطئين بلفظ التذكير ، تغليباً للذكور على الإناث ، ويحتمل أن يقال : المراد إنك من نسل الخاطئين ، فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبيث فيك . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 98. 100 ﴾

(12/394)

وقال الماوردى :

﴿ قال هي راودتني عن نفسي ﴾

لأنها لما برأت نفسها بالكذب عليه احتاج أن يبرىء نفسه بالصدق عليها ، ولو كفت عن الكذب عليه لكف عن الصدق عليها .

﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ لأنهما لما تعارضا في القول احتاج الملك إلى شاهد يعلم به صدق الصادق منهما من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أي حكم حاكم من أهلها لأنه حكم منه وليس شهادة .

وفيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه صبي أنطقه الله تعالى في مهده ، قاله ابن عباس وأبو هريرة والحسن وسعيد بن جبير والضحاك .

الثاني : أنه خلق من خلق الله تعالى ليس بإنس ولا جن ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه رجل حكيم من أهلها ، قاله قتادة . قال السدي وكان ابن عمها .

الرابع : أنه عنى شهادة القميص المقدود (1) ، قاله مجاهد أيضاً .

﴿ إن كان قميصُه قد مِن قُبل فصدقت وهو من الكاذبين ﴾

﴿ وإن كان قميصه قد من دُبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ لأن الرجل إذا طلب المرأة كان مقبلاً عليها فيكون شق قميصه من قبله دليلاً على طلبه . وإذا هرب من المرأة كان مدبراً عنها فيكون شق قميصه من دبره دليلاً على هربه .

وهذه إحدى الآيات الثلاث في قميصه : إن كان قُدَّ من دبر فكان فيه دليل على صدقه ، وحين جاءوا على قميصه بدم كذب ، وحين ألقي على وجه أبيه فارتدّ بصيراً .

﴿ فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُرٍ قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ علم بذلك صدق

يوسف فصدّقه وقال إنه من كيد كن .

وفي الكيد هما وجهان :

أحدهما : يعني به كذبها عليه .

الثاني : أنه أراد السوء الذي دعته إليه .

وفي قائل ذلك قولان :

أحدهما : أنه الزوج ، قاله محمد بن إسحاق .

الثاني : أنه الشاهد ، حكاه علي بن عيسى .

قوله عزوجل : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أعرض عن هذا الأمر ، قال قتادة : على وجه التسلية له في ارتفاع الإثم .

الثاني : أعرض عن هذا القول ، قاله ابن زيد على وجه التصديق له في البراءة من الذنب .

---

(1) وهل القميص من أهلها ؟ ؟ ! ! ! .

ومثله فى الضعف والبعد القول الثانى : أنه خلق من خلق الله تعالى ليس بإنس ولا جن ،

فماذا يكون إذن . ؟ ؟ ! ! ! .

هذه أقوال مردودة لا تخفى على المتأمل . والله أعلم .

﴿ واستغفري لذنبك ﴾ هذا قول الملك لزوجه وهو القائل ليوسف أعرض عن هذا .

وفيه قولان :

أحدهما : أنه لم يكن غيوراً فلذلك كان ساكتاً .

الثاني : أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كفى بادرته وحلم عنها فأمرها بالاستغفار من ذنبها توبة منه وإقلاعاً عنه .

﴿ إنك كنت من الخاطئين ﴾ يعني من المذنبين ، يقال لمن قصد الذنب خَطِىءَ ، ولمن لم يقصده أخطأ ، وكذلك في الصوب والصواب ، قال الشاعر :

لعمرك إنما خطئي وصوبي . . . عليّ وإنما أهلكت مالي

وقال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات لتغليب المذكر على المؤنث . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(14/394)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ ﴾ الْآيَةَ

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَهِلَالِ بْنِ يَسَارٍ : " أَنَّهُ صَبِيٌّ فِي الْمَهْدِ " وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا ، وَالْحَسَنِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ وَعِكْرِمَةَ قَالُوا : " هُوَ رَجُلٌ " وَقَالَ عِكْرِمَةُ : " إنَّ الْمَلِكَ لَمَّا رَأَى يُوسُفَ مَشْقُوقَ الْقَمِيصِ عَلَى الْبَابِ قَالَ ذَلِكَ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ ، فَقَالَ : إنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ ، فَإِنَّهُ طَلَبَهَا فَامْتَنَعَتْ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ دُبُرٍ ، فَإِنَّهُ فَرَّ مِنْهَا وَطَلَبَتْهُ " .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي الْحُكْمِ بِالْعَلَامَةِ فِي اللُّقَطَةِ إذَا ادَّعَاهَا مُدَّعٍ وَوَصَفَهَا . وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي مُدَّعِي اللُّقَطَةِ إذَا وَصَفَ عَلَامَاتٍ فِيهَا ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَزُفَرُ وَمُحَمَّدٌ وَالشَّافِعِيُّ : " لَا يَسْتَحِقُّهَا بِالْعَلَامَةِ حَتَّى يُقِيمَ الْبَيِّنَةَ ، وَلَا يُجْبَرُ الْمُلْتَقِطُ عَلَى دَفْعِهَا إلَيْهِ بِالْعَلَامَةِ ، وَيَسَعُهُ أَنْ يَدْفَعَهَا ، وَإِنْ لَمْ يُجْبَرْ عَلَيْهِ فِي الْقَضَاءِ " . وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : " فِي قِيَاسِ قَوْلِ مَالِكٍ يَسْتَحِقُّهَا بِالْعَلَامَةِ وَيُجْبَرُ عَلَى دَفْعِهَا إلَيْهِ ، فَإِنْ جَاءَ مُسْتَحِقٌّ فَاسْتَحَقَّهَا بِبَيِّنَةٍ لَمْ يَضْمَنْ الْمُلْتَقِطُ شَيْئًا " .

وَقَالَ مَالِكٌ : " وَكَذَلِكَ اللُّصُوصُ إذَا وُجِدَ مَعَهُمْ أَمْتِعَةٌ فَجَاءَ قَوْمٌ فَادَّعَوْهَا وَلَيْسَ لَهُمْ بَيِّنَةٌ أَنَّ السُّلْطَانَ يَتَلَوَّمُ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ لَمْ يَأْتِ غَيْرُهُمْ دَفَعَهُ إلَيْهِمْ ، وَكَذَلِكَ الْآبِقُ " .

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ حَيٍّ : " يَدْفَعُهَا إلَيْهِ بِالْعَلَامَةِ " وَقَالَ أَصْحَابُنَا فِي اللَّقِيطِ إذَا ادَّعَاهُ رَجُلَانِ وَوَصَفَ أَحَدُهُمَا عَلَامَةً فِي جَسَدِهِ : " إنَّهُ أَوْلَى مِنْ الْآخَرِ " .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ فِي مَتَاعِ الْبَيْتِ إذَا اخْتَلَفَ فِيهِ الرَّجُلُ ، وَالْمَرْأَةُ : " إنَّمَا يَكُونُ لِلرَّجُلِ فَهُوَ لِلرَّجُلِ وَمَا كَانَ لِلنِّسَاءِ

فَهُوَ لِلْمَرْأَةِ وَمَا كَانَ لِلرَّجُلِ ، وَالْمَرْأَةِ فَهُوَ لِلرَّجُلِ " فَحَكَمُوا فِيهِ بِظَاهِرِ هَيْئَةِ الْمَتَاعِ .

وَقَالُوا فِي الْمُسْتَأْجِرِ ، وَالْمُؤَاجِرِ إذَا اخْتَلَفَا فِي مِصْرَاعِ بَابٍ مَوْضُوعٍ فِي الدَّارِ : " إنَّهُ إنْ كَانَ وَفْقًا لِمِصْرَاعٍ مُعَلَّقٍ فِي الْبِنَاءِ فَالْقَوْلُ قَوْلُ رَبِّ الدَّارِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَفْقًا لَهُ فَالْقَوْلُ قَوْلُ الْمُسْتَأْجِرِ ، وَكَذَلِكَ إنْ كَانَ جِذْعٌ مَطْرُوحٌ فِي دَارٍ وَعَلَيْهِ نُقُوشٌ وَتَصَاوِيرُ مُوَافِقَةٌ لِنُقُوشِ جُذُوعِ السَّقْفِ وَوَفْقًا لَهَا فَالْقَوْلُ قَوْلُ رَبِّ الدَّارِ ، وَإِنْ كَانَتْ مُخَالِفَةً لَهَا فَالْقَوْلُ قَوْلُ الْمُسْتَأْجِرِ " .

وَهَذِهِ مَسَائِلُ قَدْ حَكَمُوا فِي بَعْضِهَا بِالْعَلَامَةِ وَلَمْ يَحْكُمُوا بِهَا فِي بَعْضٍ .

وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَصْحَابِنَا أَنَّ رَجُلَيْنِ لَوْ تَنَازَعَا عَلَى قِرْبَةٍ وَهُمَا مُتَعَلِّقَانِ بِهَا وَأَحَدُهُمَا سَقَّاءٌ ، وَالْآخَرُ عَطَّارٌ أَنَّهُ بَيْنَهُمَا نِصْفَيْنِ وَلَا يُقْضَى لِلسَّقَّاءِ بِذَلِكَ عَلَى الْعَطَّارِ ، فَأَمَّا قَوْلُهُمْ فِي

اللُّقَطَةِ ، فَإِنَّ الْمُلْتَقِطَ لَهُ يَدٌ صَحِيحَةٌ ، وَالْمُدَّعِي لَهَا يُرِيدُ إزَالَةَ يَدِهِ وَقَالَ النَّبِيُّ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي ، وَالْيَمِينُ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ ﴾ وَكَوْنُ الَّذِي فِي يَدِهِ مُلْتَقَطًا لَا يُخْرِجُ الْمُدَّعِيَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُدَّعِيًا فَلَا يُصَدَّقُ عَلَى دَعْوَاهُ إلَّا بِبَيِّنَةٍ ؛ إذْ لَيْسَتْ لَهُ يَدٌ ، وَالْعَلَامَةُ لَيْسَتْ بِبَيِّنَةٍ ؛ لِأَنَّ رَجُلًا لَوْ ادَّعَى مَالًا فِي يَدِ رَجُلٍ وَأَعْطَى عَلَامَتَهُ وَالَّذِي فِي يَدِهِ غَيْرُ مُلْتَقِطٍ لَمْ يَكُنْ ذِكْرُ الْعَلَامَةِ بَيِّنَةً يَسْتَحِقُّ بِهَا شَيْئًا .

وَأَمَّا قَوْلُ أَصْحَابِنَا فِي الرَّجُلَيْنِ يَدَّعِيَانِ لَقِيطًا كُلُّ وَاحِدٍ يَدَّعِي أَنَّهُ ابْنُهُ وَوَصَفَ أَحَدُهُمَا عَلَامَةً فِي جَسَدِهِ ، فَإِنَّمَا جَعَلُوهُ ، أَوْلَى اسْتِحْسَانًا ، مِنْ قِبَلِ أَنَّ مُدَّعِيَ اللَّقِيطِ يَسْتَحِقُّهُ بِدَعْوَاهُ مِنْ غَيْرِ عَلَامَةٍ وَيَثْبُتُ النَّسَبُ مِنْهُ بِقَوْلِهِ وَتَزُولُ يَدُ مَنْ هُوَ فِي

(17/394)

يَدِهِ ، فَلَمَّا تَنَازَعَهُ اثْنَانِ صَارَ كَأَنَّهُ فِي أَيْدِيهِمَا ؛ لِأَنَّهُمَا قَدْ اسْتَحَقَّا أَنْ يُقْضَى بِالنَّسَبِ لَهُمَا لَوْ لَمْ يَصِفْ أَحَدُهُمَا عَلَامَةً فِي جَسَدِهِ ، فَلَمَّا زَالَتْ يَدُ مَنْ هُوَ فِي يَدِهِ صَارَ بِمَنْزِلَتِهِ لَوْ كَانَ فِي أَيْدِيهِمَا مِنْ طَرِيقِ الْحُكْمِ جَمِيعُهُ فِي يَدِ هَذَا وَجَمِيعُهُ فِي يَدِ هَذَا ، فَيَجُوزُ حِينَئِذٍ اعْتِبَارُ الْعَلَامَةِ .

وَنَظِيرُهُ الزَّوْجَانِ إذَا اخْتَلَفَا فِي مَتَاعِ الْبَيْتِ ، لَمَّا كَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ يَدٌ فِي الْجَمِيعِ اُعْتُبِرَ

أَظْهَرُهُمَا تَصَرُّفًا وَآكَدُهُمَا يَدًا ، وَكَذَلِكَ الْمُسْتَأْجِرُ لَهُ يَدٌ فِي الدَّارِ ، وَالْمُؤَاجِرُ أَيْضًا لَهُ يَدٌ فِي جَمِيعِ الدَّارِ فَلَمَّا اسْتَوَيَا فِي الْيَدِ فِي الْجَمِيعِ كَانَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ الْعَلَامَةُ الْمُوَافِقَةُ لِصِحَّةِ دَعْوَاهُ أَوْلَى ، وَكَانَ ذَلِكَ تَرْجِيحًا لِحُكْمِ يَدِهِ لَا أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ بِهِ الْحُكْمَ لَهُ بِالْمِلْكِ كَمَا يَسْتَحِقُّ بِالْبَيِّنَاتِ .

(18/394)

فَهَذِهِ الْمَوَاضِعُ الَّتِي اعْتَبَرُوا فِيهَا الْعَلَامَةَ إنَّمَا اعْتَبَرُوهَا مَعَ ثُبُوتِ الْيَدِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ الْمُدَّعِيَيْنِ فِي الْجَمِيعِ ، فَصَارَتْ الْعَلَامَةُ مِنْ حُجَّةِ الْيَدِ دُونَ اسْتِحْقَاقِ الْمِلْكِ بِالْعَلَامَةِ ، وَأَمَّا الْمُدَّعِيَانِ إذَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمَا شَيْءٌ مِنْ الْمَتَاعِ وَأَحَدُهُمَا مِمَّنْ يُعَالِجُ مِثْلَهُ وَهُوَ مِنْ آلَتِهِ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا فِي صِنَاعَتِهِ ، فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ فِي يَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا النِّصْفَ وَأَنَّ مَا فِي يَدِ هَذَا لَيْسَ فِي يَدِ الْآخَرِ مِنْهُ شَيْءٌ ، فَلَوْ حَكَمْنَا لِأَحَدِهِمَا بِظَاهِرِ صِنَاعَتِهِ ، أَوْ بِعَلَامَةٍ مَعَهُ لَكُنَّا قَدْ اسْتَحْقَقْنَا عَلَيْهِ يَدًا هِيَ لَهُ دُونَهُ ، فَهُمَا فِيهِ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ إسْكَافٍ ادَّعَى قَالِبَ خُفٍّ فِي يَدِ صَيْرَفِيٍّ فَلَا يَسْتَحِقُّ يَدَ الصَّيْرَفِيِّ لِأَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِنَاعَتِهِ ، وَمَسْأَلَةُ اللُّقَطَةِ هِيَ هَذِهِ بِعَيْنِهَا ؛ لِأَنَّ الْمُدَّعِيَ لَا يَدَ لَهُ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ اسْتِحْقَاقَ يَدِ الْمُلْتَقِطِ بِالْعَلَامَةِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ

(19/394)

لَا يَسْتَحِقُّهَا بِالدَّعْوَى إذَا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ عَلَامَةٌ ، فَكَذَلِكَ الْعَلَامَةُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْتَحِقَّ بِهَا يَدَ الْغَيْرِ ، وَأَمَّا مَا رُوِيَ فِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ عَنْ اللُّقَطَةِ فَقَالَ : اعْرِفْ عِفَاصَهَا وَوِعَاءَهَا وَوِكَاءَهَا ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً ، فَإِنْ جَاءَ صَاحِبُهَا وَإِلَّا فَشَأْنُك بِهَا ﴾ ، فَإِنَّهُ لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّ مُدَّعِيهَا يَسْتَحِقُّهَا بِالْعَلَامَةِ ؛ لِأَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ إنَّمَا أَمَرَهُ بِمَعْرِفَةِ الْعِفَاصِ ، وَالْوِعَاءِ ، وَالْوِكَاءِ لِئَلَّا يَخْتَلِطَ بِمَالِهِ وَلِيُعْلَمَ أَنَّهَا لُقَطَةٌ ، وَقَدْ يَكُونُ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى صِدْقِ الْمُدَّعِي فَيَسَعُهُ دَفْعُهَا إلَيْهِ ، وَإِنْ لَمْ يَلْزَمْ فِي الْحُكْمِ ، وَقَدْ يَكُونُ لِذِكْرِ الْعَلَامَةِ وَلِمَا يَظْهَرُ مِنْ الْحَالِ تَأْثِيرٌ فِي الْقَلْبِ يَغْلِبُ فِي الظَّنِّ صِدْقُهُ وَلَكِنَّهُ لَا يَعْمَلُ عَلَيْهِ فِي الْحُكْمِ ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى كَذِبِ إخْوَةِ يُوسُفَ بِأَنَّهُ لَوْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ لَخَرَّقَ قَمِيصَهُ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ شُرَيْحٍ وَإِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ أَشْيَاءُ نَحْوُ هَذَا رَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : " اخْتَصَمَ إلَى شُرَيْحٍ امْرَأَتَانِ فِي وَلَدِ هِرَّةٍ ، فَقَالَتْ إحْدَاهُمَا : هَذِهِ وَلَدُ هِرَّتِي ، وَقَالَتْ الْأُخْرَى : هَذِهِ وَلَدُ هِرَّتِي ، فَقَالَ : أَلْقُوهَا مَعَ هَذِهِ ، فَإِنْ دَرَّتْ وَقَرَّتْ وَاسْبَطَرَّتْ فَهِيَ لَهَا ، وَإِنْ هَرَّتْ وَفَرَّتْ وَازْبَأَرَّتْ فَلَيْسَ لَهَا " .

(20/394)

وروى حمّادُ بْن سَلَمَةَ قال: أَخْبرني مُخْبرٌ عنْ إياس بْنِ مُعاوية: أنّ امْرأتين ادّعَتا كُبّةَ غزْلٍ، فَخَلا بإحْداهُما، وقال: علام كَبَبْت غزْلَك؟ فقالتْ: على جوْزَةٍ، وخلا بالْأُخْرى فَقَالَتْ: على كِسْرةِ خُبْزٍ، فَنَقَضوا الْغزْل فدفعُوه إلى الّتي أَصابتْ" وهذا الّذي كانَ يَفْعلُهُ شُرَيْحٌ وإياسٌ مِنْ نَحْو هذا لَمْ يَكُنْ على وجْهِ إمْضاءِ الْحُكْمِ بِهِ

وإلْزامِ الْخصْمِ إيّاهُ، وإنّما كانَ على جهَةِ الاسْتدْلال بما يَغْلِبُ في.

الظّنّ مِنْه فيُقرّرُ بعْدَ ذلك الْمُبْطِلِ منْهُمَا، وقدْ يَسْتَحْيِي الْإنْسانُ إذا ظَهَرَ مِثْل هَذا مِنْ الْإقَامَةِ على الدّعْوى فيُقرّ فَيُحْكَمُ عَلَيْه بالْإقْرار. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص جـ 3 ص﴾

(21/394)

وقال ابن العربى:

قَوْله تعَالَى: ﴿قالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ الصّادِقِينَ﴾.

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : لَيْسَتْ هَذِهِ الشَّهَادَةُ مِنْ شَهَادَاتِ الْأَحْكَامِ الَّتِي تُفِيدُ الْإِعْلَامَ عِنْدَ الْحُكَّامِ ، وَيَتَفَرَّدُ بِعِلْمِهَا الشَّاهِدُ فَيَطَّلِعُ عَلَيْهَا الْحَاكِمُ ، وَإِنَّمَا هِيَ بِمَعْنَى أَخْبَرَ عَنْ عِلْمِ مَا كَانَ عَنْهُ الْقَوْمُ غَافِلِينَ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْقَمِيصَ جَرَتْ الْعَادَةُ فِيهِ أَنَّهُ إذَا جُذِبَ مِنْ خَلْفِهِ تَمَزَّقَ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ ، وَإِذَا جُذِبَ مِنْ قُدَّامٍ تَمَزَّقَ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ ، وَلَا يُجْذَبُ الْقَمِيصُ مِنْ خَلْفِ اللَّابِسِ إلَّا إذَا كَانَ مُدْبِرًا ، وَهَذَا فِي الْأَغْلَبِ ، وَإِلَّا فَقَدْ يَتَمَزَّقُ [الْقَمِيصُ بِالْقَلْبِ مِنْ ذَلِكَ] إذَا كَانَ الْمَوْضِعُ ضَعِيفًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : يَتَكَلَّمُ النَّاسُ فِي هَذَا الشَّاهِدِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ : الْأَوَّلُ : الشَّاهِدُ هُوَ الْقَمِيصُ .

الثَّانِي : أَنَّهُ كَانَ ابْنَ عَمِّهَا .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْعَزِيزِ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ كَانَ صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ .

فَأَمَّا إِذَا قُلْنَا إِنَّهُ الْقَمِيصُ فَكَانَ يَصِحُّ مِنْ جِهَةِ اللُّغَةِ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ حَالِهِ بِتَقْدِيرِ مَقَالِهِ ؛ فَإِنَّ لِسَانَ الْحَالِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ ، وَقَدْ تُضِيفُ الْعَرَبُ الْكَلَامَ إِلَى الْجَمَادَاتِ بِمَا تُخْبِرُ عَنْهُ بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الصِّفَاتِ ، وَمِنْ أَجْلَاهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : قَالَ الْحَائِطُ لِلْوَتَدِ : لِمَ تَشُقُّنِي .

قَالَ : سَلْ مَنْ يَدُقُّنِي ، مَا تَرَكَنِي وَرَأْيِي هَذَا الَّذِي وَرَائِي ، وَلَكِنَّ قَوْلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ فِي صِفَةِ الشَّاهِدِ يُبْطِلُ أَنْ يَكُونَ الْقَمِيصَ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ ابْنُ عَمِّهَا أَوْ رَجُلٌ آخَرُ مِنْ أَصْحَابِ الْعَزِيزِ ، فَإِنَّهُ مُحْتَمَلٌ ؛ لَكِنَّ قَوْلَهُ : ﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ يُعْطِي اخْتِصَاصًا مِنْ جِهَةِ الْقَرَابَةِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ كَانَ صَغِيرًا فَهُوَ الَّذِي يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَنَّهُ قَدْ تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ أَرْبَعَةٌ : " عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَابْنُ مَاشِطَةِ فِرْعَوْنَ ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، " وَنَقَصَهُمْ اثْنَانِ : أَحَدُهُمَا : وَهُوَ الَّذِي ﴿ ذَكَرَ النَّبِيُّ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ أَنَّهُمْ لَمَّا حُفِرَتْ لَهُمُ الْأَرْضُ ، وَرُمِيَ فِيهَا بِالْحَطَبِ وَأُوقِدَتِ النَّارُ عَلَيْهَا ، وَعُرِضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقَعُوا فِيهَا أَوْ يَكْفُرُوا الْحَدِيثَ بِطُولِهِ .

فَوَقَفَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ ، وَكَانَ فِي ذِرَاعِهَا صَبِيٌّ فَقَالَ لَهَا : يَا أُمَّهْ ، إِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ .

﴾ وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ .

وَالثَّانِي : مَا رُوِيَ أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ تُرْضِعُ صَبِيًّا فِي حِجْرِهَا ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ لَهُ شَارَةٌ وَحَوْلَهُ حَفَدَةٌ ، فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا ، فَتَرَكَ الصَّبِيُّ الثَّدْيَ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ، وَمَرَّ بِامْرَأَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ : سَرَقْت وَلَمْ تَسْرِقْ وَزَنَيْت وَلَمْ تَزْنِ .

فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا ، فَتَرَكَ الصَّبِيُّ الثَّدْيَ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا .

وَأَوْحَى إلَى نَبِيِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ أَنَّ الْأَوَّلَ لَا خَيْرَ فِيهِ ، وَأَنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ فَعَلَتْ وَهِيَ لَمْ تَفْعَلْ .

هَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ .

فَالَّذِي صَحَّ فِيمَنْ تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ أَرْبَعَةٌ : صَاحِبُ الْأُخْدُودِ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَهَذَا الصَّبِيُّ الَّذِي تَكَلَّمَ فِي حِجْرِ الْمَرْأَةِ بِالرَّدِّ عَلَى أُمِّهِ فِيمَا اخْتَارَتْهُ وَكَرِهَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ بَعْضُ [الْعُلَمَاءِ] الْمُفَسِّرِينَ : لَوْ كَانَ هَذَا الْمُشَاهِدُ طِفْلًا لَكَانَ فِي كَلَامِهِ فِي الْمَهْدِ وَشَهَادَتِهِ آيَةٌ لِيُوسُفَ ، وَلَمْ يُحْتَجْ إلَى ثَوْبٍ وَلَا إلَى غَيْرِهِ .

وَهَذَا ضَعِيفٌ فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الصَّبِيُّ

يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى هَذَا الدَّلِيلِ الَّذِي كَانُوا عَنْهُ غَافِلِينَ ، وَكَانَتْ آيَةً ، كَمَا قَالَ : تَبَيَّنَتْ بِهَا بَرَاءَةُ يُوسُفَ مِنْ الْوَجْهَيْنِ : مِنْ جِهَةِ نُطْقِ الصَّبِيِّ ، وَمِنْ جِهَةِ ذِكْرِ الدَّلِيلِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْعَمَلِ بِالْعُرْفِ وَالْعَادَةِ لِمَا ذُكِرَ مِنْ أَخْذِ الْقَمِيصِ مُقْبِلًا وَمُدْبِرًا ، وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْإِقْبَالُ مِنْ دَعْوَاهَا ، وَالْإِدْبَارُ مِنْ صِدْقِ يُوسُفَ ؛ وَهَذَا أَمْرٌ تَفَرَّدَ بِهِ الْمَالِكِيَّةُ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِنَا .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا .

قُلْنَا : عَنْهُ جَوَابَانِ .

: أَحَدُهُمَا : أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

الثَّانِي : أَنَّ الْمَصَالِحَ وَالْعَادَاتِ لَا تَخْتَلِفُ فِيهَا الشَّرَائِعُ .

أَمَّا أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَخْتَلِفَ وُجُودُ الْمَصَالِحِ فَيَكُونَ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ ، فَإِذَا وُجِدَتْ فَلَا بُدَّ مِنْ اعْتِبَارِهَا .

وَقَدْ اسْتَدَلَّ يَعْقُوبُ بِالْعَلَامَةِ ، فَرَوَى الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْإِخْوَةَ لَمَّا ادَّعَوْا أَكْلَ الذِّئْبِ [لَهُ] قَالَ : أَرُونِي الْقَمِيصَ .

فَلَمَّا رَآهُ سَلِيمًا قَالَ : لَقَدْ كَانَ هَذَا الذِّئْبُ حَلِيمًا .

وَهَكَذَا فَاطَّرَدَتْ الْعَادَةُ وَالْعَلَامَةُ ، وَلَيْسَ هَذَا بِمُنَاقِضٍ لِقَوْلِهِ [عَلَيْهِ السَّلَامُ] ﴿ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ﴾ .

وَالْبَيِّنَةُ إِنَّمَا هِيَ الْبَيَانُ ، وَدَرَجَاتُ الْبَيَانِ تَخْتَلِفُ بِعَلَامَةٍ تَارَةً ، وَبِأَمَارَةٍ أُخْرَى ؛ وَبِشَاهِدٍ أَيْضًا ، وَبِشَاهِدَيْنِ ثُمَّ بِأَرْبَعٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(25/394)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾

قال نوف الشامي : كان يوسف عليه السلام لم يبن على كشف القصة ، فلما بغت به غضب فقال الحق ، فأخبره أنها هي راودته عن نفسه ، فروي أن الشاهد كان الرجل ابن عمها ، قال : انظر إلى القميص فإن كان قده من دبر فكذبت ، أو من قبل فصدقت ، قاله السدي . وقال ابن عباس : كان رجلاً من خاصة الملك ، قاله مجاهد وغيره . وقيل : إن الشاهد كان طفلاً في المهد فتكلم بهذا ، قاله أيضاً ابن عباس وأبو هريرة وابن جبير وهلال بن يساف والضحاك .

قال القاضي أبو محمد : ومما يضعف هذا أن في صحيح البخاري ومسلم : لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصاحب جريج ، وابن السوداء الذي تمنت له أن يكون كالفاجر الجبار ، فقال : لم يتكلم وأسقط صاحب يوسف منها ، ومنها أن الصبي لو تكلم

لكان الدليل نفس كلامه دون أن يحتاج إلى الاستدلال بالقميص . وأسند الطبري إلى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تكلم في المهد أربعة " ، فذكر الثلاثة وزاد صاحب يوسف ، وذكر الطبري عن ابن عباس : أن ابن ماشطة فرعون تكلم في المهد ، فهم على هذا خمسة ، وقال مجاهد - أيضاً - الشاهد القميص .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف لأنه لا يوصف بأنه من الأهل .

وقرأ جمهور الناس : " من قبُلٍ " و" من دبُرٍ " بضم الباءين وبالتنوين ، وقرأ ابن يعمر والجارود بن أبي سبرة ونوح وابن أبي إسحاق " من قُبُلُ " و" من دُبُرُ " بثلاث ضمات من غير تنوين ، قال أبو الفتح : هما غايتان بنيتا ، كقوله تعالى : ﴿ من قبل ومن بعد ﴾ [الروم : 4] قال أبو حاتم : وهذا رديء في العربية جداً ، وإنما يقع هذا البناء في الظروف ، وقرأ الحسن " من قبْلٍ " و" من دبْرٍ " بإسكان الباءين والتنوين ، ورويت عن أبي عمرو وروي عن نوح القاري أنه أسكن الباءين وضم الأواخر ولم ينون ورواها عن ابن أبي إسحاق عن يحيى بن يعمر .

وسمي المتكلم بهذا الكلام ﴿ شاهد ﴾ من حيث دل على الشاهد ونفس الشاهد هو تخريق القميص.

وقرأت فرقة: "فلما رأى قميصه عط من دبر". والضمير في ﴿ رأى ﴾ هو للعزيز، وهو القائل: ﴿ إنه من كيدكن ﴾، قاله الطبري وقيل: بل "الشاهد" قال ذلك، والضمير في ﴿ إنه ﴾ يريد مقالها المتقدم في الشكوى ب "يوسف".

ونزع بهذه الآية من يرى الحكم بالأمارة، من العلماء، فإنها معتمدهم، و﴿ يوسف ﴾ في قوله: ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ منادى، قاله ابن عباس، ناداه الشاهد، وهو الرجل الذي كان مع العزيز، و﴿ أعرض عن هذا ﴾ معناه: عن الكلام به، أي اكتمل ولا تتحدث به؛ ثم رجع إليها فقال: ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ أي استغفري زوجك وسيدك، وقال: ﴿ من الخاطئين ﴾ ولم يقل: من الخاطئات لأن الخاطئين أعم، وهو من: خطىء يخطأ خطئًا وخطأً، ومنه قول الشاعر [أوس بن غلفاء]: [الوافر]

لعمرك إنما خطئي وصوبي... عليّ وإنما أتلفت مالي

وينشد بيت أمية بن أبي الصلت: [الوافر]

عبادك يخطئون وأنت رب... بكفيك المنايا والحتوم. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قال العلماء : لما برّأت نفسها ؛ ولم تكن صادقة في حبه لأن من شأن المحبّ إيثار المحبوب قال : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها وكذبها عليه .

قال نُوفٌ الشاميّ وغيره : كأنّ يوسف عليه السلام لم يَبِن عن كشف القضية ، فلما بَغَت به غضب فقال الحق .

الثانية : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ لأنهما لما تعارضا في القول احتاج الملك إلى شاهد ليعلم الصادق من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أي حكم حاكم من أهلها ؛ لأنه حكم منه وليس بشهادة .

وقد اختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة : الأوّل أنه طفل في المهد تكلم ؛ قال السّهيلي : وهو الصحيح ؛ للحديث الوارد فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : " لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة " وذكر فيهم شاهد يوسف .

وقال القُشيريّ أبو نصر : قيل (فيه) : كان صبياً في المهد في الدار وهو ابن خالتها ؛ وروى

سعيد بن جُبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تكلم أربعة وهم صغار " فذكر منهم شاهد يوسف ؛ فهذا قول.

الثاني أن الشاهد قَدُّ القميص ؛ رواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد ، وهو مجاز صحيح من جهة اللغة ؛ فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال ؛ وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتخبر عنها بما هي عليه من الصفات ، وذلك كثير في أشعارها وكلامها ؛ ومن أحلاه قول بعضهم : قال الحائط للوتد لِمَ تَشقُّني ؟ قال له : سَلْ من يَدقُّني.

إلا أن قول الله تعالى بعد "مِنْ أَهْلِهَا" يبطل أن يكون القميص.

الثالث أنه خَلْق من خلق الله تعالى ليس بإنسي ولا بجنّيّ ؛ قاله مجاهد أيضاً ، وهذا يرده قوله تعالى : "مِنْ أَهْلِهَا".

(28/394)

الرابع أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها فقال : قد سمعت الاستدبار والجَلَبة من وراء الباب ، وشق القميص ، فلا يدرى أيكما كان قدّام صاحبه ؛ فإن كان شقّ القميص من قدّامه فأنتِ صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق ؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف ؛ هذا قول الحسن

وعِكرمة وقتادة والضّحاك ومجاهد أيضاً والسدّي .

قال السدّي : كان ابن عمها ؛ وروي عن ابن عباس ، وهو الصحيح في الباب ، والله أعلم .

وروي عن ابن عباس رواه (عنه) إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة قال : كان رجلاً ذا لحية .

وقال سفيان عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال : كان من خاصة الملك .

وقال عكرمة : لم يكن بصبيّ ، ولكن كان رجلاً حكيماً .

وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : كان رجلاً .

قال أبو جعفر النحاس : والأشبه بالمعنى والله أعلم أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة ؛ ولو كان طفلاً لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تغني عن أن يأتي بدليل من العادة ؛ لأن كلام الطفل آية معجزة ، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة ؛ وليس هذا بمخالف للحديث "تكلم أربعة وهم صغار" منهم صاحب يوسف ؛ يكون المعنى : صغيراً ليس بشيخ ؛ وفي هذا دليل آخر وهو : أن ابن عباس رضي الله عنهما روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبيّ .

قلت : قد رُوي عن ابن عباس وأبي هريرة وابن جُبير وهلال بن يِساف والضّحاك أنه كان صبياً في المهد ؛ إلا أنه لو كان صبياً تكلم لكان الدليل نفس كلامه ، دون أن يحتاج إلى

استدلال بالقميص ، وكان يكون ذلك خرق عادة ، ونوع معجزة ؛ والله أعلم .

وسيأتي من تكلم في المهد من الصبيان في سورة "البروج" إن شاء الله .

(29/394)

الثالثة : إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلاً صغيراً فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات كما ذكرنا ؛ وإذا كان رجلاً فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة في اللقطة وكثير من المواضع ؛ حتى قال مالك في اللصوص : إذا وجدت معهم أمتعة فجاء قوم فادعوها ، وليست لهم بيّنة فإن السلطان يَتَلَوّم لهم في ذلك ؛ فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم .

وقال محمد في متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل : إن ما كان للرجال فهو للرجل ، وما كان للنساء فهو للمرأة ، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل .

وكان شُرَيح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات في الحكومات ؛ وأصل ذلك هذه الآية ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ كان في موضع جزم بالشرط ، وفيه من النحو ما يشكل ، لأن حروف الشرط تردّ الماضي إلى المستقبل ، وليس هذا في كان ؛ فقال المبرد

محمد بن يزيد : هذا لقوّة كان ، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال .

وقال الزجاج : المعنى إن يكن ؛ أي إن يُعلَم ، والعلم لم يقع ، وكذا الكون لأنه يؤدي عن العلم .

"قُدَّ مِنْ قُبُلٍ" فخبّر عن "كان" بالفعل الماضي ؛ كما قال زهير :

وكان طوَى كَشْحاً على مُسْتَكِنّةٍ . . .

فلا هو أبداها ولم يَتقدَّمِ

وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبي إسحق "مِن قُبُلُ" بضم القاف والباء واللام ، وكذا "دُبُرُ" قال الزجاج : يجعلهما غايتين كقبل وبعدُ ؛ كأنه قال : من قُبُلِه ومن دُبُرِه ، فلما حذف المضاف إليه وهو مراد صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له .

ويجوز "من قُبُلَ" "ومن دُبُرَ" بفتح الراء واللام تشبيها بما لا ينصرف ؛ لأنه معرفة ومزال عن بابه .

وروى محبوب عن أبي عمرو "من قُبْلٍ" "ومن دُبْرٍ" مخفّفان مجروران .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ قيل : قال لها ذلك العزيز عند قولها : "مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً" .

وقيل : قاله لها الشاهد .

والكيد : المكر والحيلة ، وقد تقدّم في "الأنفال" .

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وإنما قال "عَظِيمٌ" لعظم فتنتهنّ واحتيالهن في التخلّص من ورطتهنّ .

وقال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 76] وقال : إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ " .

قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ القائل هذا هو الشاهد .

و"يوسف" نداء مفرد ، أي يا يوسف ، فحذف .

"أَعْرِضْ عَنْ هَذَا" أي لا تذكره لأحد واكتمه .

ثم أقبل عليها فقال : وأنتِ ﴿ واستغفري لِذَنبِكِ ﴾ يقول : استغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك .

﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فغلّب المذكر ؛ والمعنى : من الناس الخاطئين ، أو من القوم الخاطئين ؛ مثل : ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [النمل : 43] ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ [التحريم : 12] .

وقيل : إن القائل ليوسف اعرض ولها استغفري زوجها الملك ؛ وفيه قولان : أحدهما : أنه

لم يكن غيوراً ؛ فلذلك كان ساكناً .

وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود .

الثاني : أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كُفي بادرته وعفا عنها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(31/394)

وقال الخازن :

﴿ قال ﴾ يعني يوسف ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ يعني طلبت مني الفحشاء فأبيت وفررت وذلك أن يوسف ما كان يريد أن يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج إلى إزالة هذه التهمة عن نفسه فقال هي راودتني عن نفسي ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ يعني وحكم حاكم من أهل المرأة واختلفوا في ذلك الشاهد ، فقال سعيد بن جبير والضحاك : كان صبياً في المهد فأنطقه الله وهو رواية عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة ابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم " ذكره البغوي بغير سند والذي جاء في الصحيحين " ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وابن المرأة " وقصتهم

مخرجة في الصحيح قيل كان هذا الصبي شاهد يوسف ابن خال المرأة.

وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: لم يكن صبياً ولكنه كان رجلاً حكيماً ذا رأي، وقال السدي: هو ابن عم امرأة فحكم فقال ﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾ أي من قدام ﴿ فصدقت وهو من الكاذبين ﴾.

(32/394)

﴿ وإن كان قميصه قد من دبر ﴾

أي من خلف ﴿ فكذبت وهو من الصادقين ﴾ وإنما كان هذا الشاهد من أهل المرأة ليكون أقوى من نفي التهمة عن يوسف ونفي التهمة عنه من وجوه منها أنه كان في الظاهر مملوك هذه المرأة والمملوك لا يبسط يديه إلى سيدته ومنها أنهم شاهدوا يوسف يعدو هارباً منها والطالب لا يهرب ومنها أنهم رأوا المرأة قد تزينت بأكمل الوجوه فكان إلحاق التهمة بها أولى ومنها أنهم عرفوا يوسف في المدة الطويلة فلم يروا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذه الحالة فكان مجموع هذه العلامات دلالة على صدقه مع شهادة الشاهد له بصدقه أيضاً ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر ﴾ يعني فلما رأى قطفير زوج المرأة قميص يوسف قد من خلفه عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف ﴿ قال ﴾ يعني قال لها زوجها قطفير ﴿

إنه ﴾ يعني هذا الصنيع ﴿ من كيدكن ﴾ يعني من حيلكن ومكركن ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ فإن قلت كيف وصف كيد النساء بالعظيم مع قوله تعالى وخلق الإنسان ضعيفاً وهلا كان مكر الرجال أعظم من مكر النساء .

(33/394)

قلت أما كون الإنسان خلق ضعيفاً فهو بانسبة إلى خلق ما هو أعظم منه كخلق الملائكة والسموات والأرض والجبال ونحو ذلك وأما عظم كيد النساء ومكرهن في هذا الباب فهو أعظم من كيد جميع البشر لأن لهن من المكر والحيل والكيد في إتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب ، وقيل : إن قوله إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم من قول الشاهد وذلك أنه لما ثبت عنده خيانة المرأة وبراءة يوسف قال هذه المقالة ﴿ يوسف ﴾ يعني يا يوسف ﴿ أعرض عن هذا ﴾ يعني اترك هذا الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يفشو ويشيع وينتشر بين الناس وقيل معناه يا يوسف لا تكترث بهذا الأمر ولا تهتم به فقد بان عذرك وبراءتك ثم التفت إلى المرأة فقال لها ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ يعني توبي إلى الله مما رميت يوسف به من الخطيئة وهو بريء منها وقيل إن هذا من قول الشاهد يقول للمرأة سلي زوجك أن يصفح عنك ولا يعاقبك بسبب ذنبك ﴿ إنك كنت من الخاطئين ﴾ يعني

من المذنبين حين خنت زوجك ورميت يوسف بالتهمة وهو بريء وإنما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات تغليباً لجنس الرجال على النساء وقيل إنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد الخبر عن كل ما يفعل هذا الفعل تقديره إنك كنت من القوم الخاطئين فهو كقوله وكانت من القانتين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(34/394)

وقال أبو حيان فى الآيات :

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾

قد الثوب : شقه.

السيد فيعل من ساد يسود ، يطلق على المالك ، وعلى رئيس القوم.

وفيعل بناء مختص بالمعتل ، وشذ بيئس وصيقل اسم امرأة.

السجن : الحبس.

﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم.

قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت

وهو من الكاذبين .

وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين .

فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيد كن إن كيد كن عظيم .

يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ : أي واستبق

يوسف وامرأة العزيز إلى الباب هذا للخروج والهروب منها ، وهذه لمنعه ومراودته .

وأصل استبق أن يتعدى بإلى ، فحذف اتساعاً .

وتقدم أنّ الأبواب سبعة ، فكان تنفتح له الأبواب باباً باباً من غير مفتاح ، على ما نقل عن

كعب أن فراش القفل كان يتناثر ويسقط ، حتى خرج من الأبواب .

ويحتمل أن تكون الأبواب المغلقة ليست على الترتيب باباً فباباً ، بل تكون في جهات مختلفة

كلها منافذ للمكان الذي كانا فيه ، فاستبقا إلى باب يخرج منه .

ولا يكون السابع على الترتيب ، بل أحدها .

وقدت يحتمل أن يكون معطوفاً على واستبقا ، ويحتمل أن يكون حالاً أي : وقد قدّت

جذبته من خلفه بأعلى القميص من طوقه ، فانخرق إلى أسفله .

والقدّ : القطع والشق ، وأكثر استعماله فيما كان طولاً قال :

تقدّ السلوقي المضاعف نسجه . . .

وتوقد بالصفاح نار الحباحب

والقط : يستعمل فيما كان عرضاً ، وقال المفضل بن حرب : رأيت في مصحف قط من دبر أي شق .

قال يعقوب : الشق في الجلد في الصحيح ، والثوب الصحيح .

وقال ابن عطية : وقرأت فرقة قط .

وألفيا سيدها أي : وجد أو صادفا زوجها وهو قطفير .

والمرأة تقول لبعلها : سيدي ، ولم يضف إليهما ، لأن قطفير ليس سيد يوسف على الحقيقة .

ويقال : ألفاه ووارطه وصادفه ووالطه ولاظه ، كله بمعنى واحد .

قيل : ألفياه مقبلاً يريد أن يدخل ، وقيل : مع ابن عم المرأة .

وفي الكلام حذف تقديره : فرابه أمرهما وقال : ما لكما ؟ فلما سأل وقد خافت لومه ، أو سبق يوسف بالقول ، بادرت أن جاءت بحيلة جمعت فيها بين تبرئة ساحتها من الريبة ، وغضبها على يوسف وتخويفه طمعاً في مواقعتها خيفة من مكرها ، كرهاً لما آيست أن يواقعها طوعاً ألا ترى إلى قولها : ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن ؟ ولم تصرح باسم يوسف ، بل

أتت بلفظ عام وهو قولها : ما جزاء من أراد ، وهو أبلغ في التخويف .

وما الظاهر أنها نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية أي : أيّ شيء جزاؤه إلا السجن ؟

وبدأت بالسجن إبقاء على محبوبها ، ثم ترقت إلى العذاب الأليم ، قيل : وهو الضرب بالسوط .

وقولها : ما جزاء أي : إن الذنب ثابت متقرر في حقه ، وأتت بلفظ بسوء أي : بما يسوء ، وليس نصاً في معصية كبرى ، إذ يحتمل خطابه لها بما يسوؤها ، أو ضربه إياها .

وقوله : إلا أن يسجن أو عذاب ، يدل على عظم موقع السجن من ذوي الأقدار حيث قرنته بالعذاب الأليم .

وقرأ زيد بن علي : أو عذاباً أليماً ، وقدره الكسائي أو يعذب عذاباً أليماً .

ولما أغرت بيوسف وأظهرت تهمته احتاج إلى إزالة التهمة عن نفسه فقال : هي راودتني عن نفسي ، ولم يسبق إلى القول أولاً ستراً عليها ، فلما خاف على نفسه وعلى عرضه الطاهر قال : هي ، وأتى بضمير الغيبة ، إذ كان غلب عليه الحياء أن يشير إليها ويعينها بالإشارة فيقول : هذه راودتني ، أو تلك راودتني ، لأن في المواجهة بالقبيح ما ليس في الغيبة .

ولما تعارض قولاهما عند العزيز وكان رجلاً فيه إناءة ونصفة ، طلب الشاهد من كل منهما ، فشهد شاهد من أهلها .

فقال أبو هريرة ، وابن عباس ، والحسن ، وابن جبير ، وهلال بن يساف ، والضحاك : كان ابن خالتها طفلاً في المهد أنطقه الله تعالى ليكون أدل على الحجة .

وروي في الحديث : "أنه من الصغار الذين تكلموا في المهد" وأسنده الطبري .

وفي صحيح البخاري وصحيح مسلم : "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصاحب جريج ، وابن السوداء" وقيل : كان ابن عمها الذي كان مع زوجها لدى الباب ، ولا ينافي هذا قول قتادة ، كان رجلاً حليماً من أهلها ذا رأي يأخذ الملك برأيه ويستشيره .

وقيل : كان حكماً حكمه زوجها فحكم بينهما ، وكان الشاهد من أهلها ليكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة .

ويحتمل أن يكون معهما في الدار بحيث لا يشعر به ، فبصر بما جرى بينهما ، فأغضبه الله ليوسف ، وشهد بالحق .

ويبعد قول مجاهد وابن حبيب أنّ الشاهد هو القميص المقدود لقوله : شاهد من أهلها ، ولا يوصف القميص بكونه شاهداً من أهل المرأة .

وسمى الرجل شاهداً من حيث دل على الشاهد ، وهو تخريق القميص .

وقال الزمخشري : سمى قوله شهادة لأنه أدى تأديتها في ثبت قول يوسف وبطل قولها ، وإن كان قميصه محكي إما بقال مضمرة على مذهب البصريين ، وإما بشهد ، لأنّ الشهادة قول من الأقوال على مذهب الكوفيين .

وكان هنا دخلت عليها أداة الشرط ، وتقدم خلاف المبرد والجمهور فيها ، هل هي باقية على مضيها ولم تقلها أداة الشرط ؟ أو المعنى : أن يتبين كونه .

فأداة الشرط في الحقيقة إنما دخلت على هذا المقدر .

وجواب الشرط فصدقت وفكذبت ، وهو على إضمار قد أي : فقد صدقت ، وفقد كذبت .

ولو كان فعلاً جامداً أو دعاء لم يحتج إلى تقدير قد .

وقرأ الجمهور : من قبل ، ومن دبر ، بضم الباء فيهما والتنوين .

وقرأ الحسن وأبو عمر ، وفي رواية : بتسكينها وبالتنوين ، وهي لغة الحجاز وأسد .

وقرأ ابن يعمر ، وابن أبي إسحاق ، والعطاردي ، وأبو الزناد ، ونوح القارىء ، والجارود بن أبي سبرة بخلاف عنه : من قبل ، ومن دبر ، بثلاث ضمات .

وقرأ ابن يعمر ، وابن أبي إسحاق ، والجارود أيضاً في رواية عنهم : بإسكان الباء مع بنائهما على الضم ، جعلوها غاية نحو : من قبل .

ومعنى الغاية أن يصير المضاف غاية نفسه بعدما كان المضاف إليه غايته ، والأصل إعرابهما لأنهما إسمان متمكنان ، وليسا بظرفين .

وقال أبو حاتم : وهذا رديء في العربية ، وإنما يقع هذا البناء في الظروف .

وقال الزمخشري : والمعنى من قبل القميص ومن دبره ، وأما التنكير فمعناه من جهة يقال لها : قبل ، ومن جهة يقال لها : دبر .

وعن ابن أبي إسحاق : أنه قرأ من قبل ومن دبر بالفتح ، كان جعلهما علمين للجهتين ، فمنعهما الصرف للعلمية والتأنيث .

وقال أيضاً : (فإن قلت) : إن دل قد قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتذبت ثوبه إليها فقدّته ، فمن أين دل قدّه من قبل على أنها صادقة ، وأنه كان تابعها ؟ (قلت) : من وجهين : أحدهما : أنه إذا كان تابعها وهي دافعة عن نفسها فقدت قميصه من قدامه بالدفع .

والثاني : أن يسرع خلفها ليلحقها ، فيتعثر في قدام قميصه فيشقه انتهى .

وقوله : وهو من الكاذبين ، وهو من الصادقين ، جملتان مؤكدتان لأنّ من قوله : فصدقت ، يعلم كذبه .

ومن قوله : فكذبت ، يعلم صدقه .

وفي بناء قد للمفعول ستر على من قده ، ولما كان الشاهد من أهلها راعي جهة المرأة فبدأ بتعليق صدقها على تبين كون القميص قد من قبل ، ولما كانت كل جملة مستقلة بنفسها أبرز إسم كان بلفظ المظهر ، ولم يضمر ليدل على الاستقلال ، ولكون التصريح به أوضح .

وهو نظير قوله : "من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى" فلما رأى العزيز ، وقيل : الشاهد قميصه قد من دبر قال : إنه أي إن قولك : ما جزاء إلى آخره قاله الزجاج ، أو أن هذا الأمر وهو طمعها في يوسف ذكره الماوردي والزمخشري ، أو إلى تمزيق القميص قاله : مقاتل والخطاب في من كيدكن لها ولجواريها ، أولها وللنساء .

ووصف كيد النساء بالعظم ، وإن كان قد يوجد في الرجال ، لأنهن ألطف كيداً بما جبلن عليه وبما تفرغن له ، واكتسب بعضهن من بعض ، وهن أنفذ حيلة .

وقال تعالى : ﴿ ومن الشر النفاثات في العقد ﴾ وأما اللواتي في القصور فمعهن من ذلك ما لا يوجد لغيرهن ، لكونهن أكثر تفرغاً من غيرهن ، وأكثر تأنساً بأمثالهن .

يوسف أعرض عن هذا أي : عن هذا الأمر واكتمه ، ولا تتحدث به .

وفي ندائه باسمه تقريب له وتلطيف ، ثم أقبل عليها وقال : واستغفري لذنبك ، والظاهر أنّ المتكلم بهذا هو العزيز .

وقال ابن عباس : ناداه الشاهد وهو الرجل الذي كان مع العزيز وقال : استغفري لذنبك ، أي لزوجك وسيدك انتهى .

ثم ذكر سبب الاستغفار وهو قوله : لذنبك ، ثم أكد ذلك بقوله : إنك كنت من الخاطئين ، ولم يقل من الخاطئات ، لأن الخاطئين أعم ، لأنه ينطلق على الذكور والإناث بالتغليب .

يقال : خطىء إذا أذنب متعمداً .

قال الزمخشري : وما كان العزيز إلا حليماً ، روي أنه كان قليل الغيرة انتهى .

وتربة إقليم قطفير اقتضت هذا ، وأين هذا مما جرى لبعض ملوكنا أنه كان مع ندمائه المختصين به في مجلس أنس وجارية تغنيهم من وراء ستر ، فاستعاد بعض خلصائه بيتين من الجارية كانت قد غنت بهما ، فما لبث أن جيء برأس الجارية مقطوعاً في طست وقال له الملك : استعد البيتين من هذا الرأس ، فسقط في يد ذلك المستعيد ، ومرض مدة حياة ذلك الملك . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ وجوابٌ عما يقال : فماذا قال يوسفُ حينئذ ؟ فقيل : قال : ﴿ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ أي طالبتني للمواتاة لا أني أردتُ بها سوءاً كما قالت وإنما قاله عليه السلام لتنزيه نفسِه عما أُسند إليه من الخيانة وعدم معرفة حقِّ السيد ودفعِ ما عرَضَتْه له من الأمرين ، وفي التعبير عنها بضمير الغَيبة دون الخطاب أو اسم الإشارةِ مراعاةٌ لحسن الأدبِ مع الإيماء إلى الإعراض عنها ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل : هو ابنُ عمها ، وقيل : هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب ، وقيل : كان حكيماً يرجِعُ إليه الملكُ ويستشيره ، وقد جُوِّز أن يكون بعضُ أهلها قد بصُر بها من حيث لا تشعُر فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيامِ بالحق ، وإنما ألقى الله سبحانه الشهادةَ إلى من هو من أهلها ليكون أدلَّ على نزاهته عليه السلام وأنفى للتُّهمة ، وقيل : كان الشاهدُ ابنَ خالٍ لها صبياً في المهد أنطقه الله تعالى ببراءته وهو الأظهر ، فإنه رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تكلم أربعةٌ وهم صغار ، ابنُ ماشطةَ بنتِ فرعون ، وشاهدُ يوسف ، وصاحبُ جريج ، وعيسى عليه السلام " رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وذكر كونَه من أهلها لبيان الواقع إذ لا يختلف الحالُ في هذه الصورة بين كون الشاهدِ من أهلها أو من غيرهم .

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ أي إن عُلم أنه قدّ من قُبُل ، ونظيره إن أحسنتَ إلى فقد أحسنتُ إليك فيما قبلُ ، فإن معناه : إن تعتدّ بإحسانك إلي فأعتدُّ بإحساني السابقِ إليك ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ بتقدير قد ، لأنها تقرب الماضي إلى الحال أي فقد صدقت ، وكذا الحال في قوله : ﴿ فَكَذَّبَتَ ﴾ وهي وإن لم تصرِح بأنه عليه السلام أراد بها سوءاً إلا أن كلامَها حيث كان واضحَ الدِلالة عليه ، أُسند إليها الصدقُ والكذب بذلك الاعتبار ، فإنها كما يعرِضان الكلامَ باعتبار منطوقِه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه ، وبذلك الاعتبار يعرضان للإنشاءات ﴿ وَهُوَ مِنَ الكاذبين ﴾ وهذه الشرطيةحيث لا ملازمةَ عقليةً ولا عاديةً بين مقدّمها وتاليها ليست من الشهادة في شيء وإنما ذُكرت توسيعاً للدائرة وإرخاءً للعِنان إلى جانب المرأة بإجراء ما عسى يحتمله الحالُ في الجملة بأن يقع القدُّ من قُبُل بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند إرادتِه المخالطةَ والتكشفَ مُجرى الظاهرِ الغالبِ الوقوعِ تقريباً لما هو المقصودُ بإقامة الشهادة ، أعني مضمونَ الشرطية الثانية التي هي قوله عز وجل :

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصادقين ﴾

إلى التسليم والقَبول عند السامع لكونه أقربَ إلى الوقوع وأدلَّ على المطلوب وإن لم يكن بين طرفيها أيضاً ملازمةٌ ، وحكايةُ الشرطيةِ بعد فعل الشهادةِ لكونها من قبيل الأقوال أو بتقدير القول . أي شهد قائلاً الخ وتسميتُها شهادةً مع أنه لا حكمَ فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤداها ، بل لأنها شهادةٌ على الحقيقة ، وحُكمٌ بصدقه وكذبها أما على تقدير كونِ الشاهدِ هو الصبيَّ فظاهرٌ إذ هو إخبارٌ بهما من قِبَل علامِ الغيوب ، والتصويرُ بصورة الشرطية للإيذان بأن ذلك ظاهرٌ من العلائم أيضاً وأما على تقدير كونِه غيرَه فلأن الظاهرَ أن صورةَ الحالِ معلومةٌ له على ما هي عليه إما مشاهدةً أو إخباراً فهو متيقّنٌ بعدم مقدَّم الشرطيةِ الأولى ، وبوجود مقدمِ الشرطيةِ الثانية ومن ضرورته الجزمُ بانتفاء تالي الأولى وبوقوع تالي الثانية ، فإذن هو إخبارٌ بكذبها وصدقِه عليه السلام ولكنه ساق شهادتَه مساقاً مأموناً من الجَرْح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددةِ ظاهراً بين نفعها ونفعِه ، وأما حقيقةً فلا تردد فيها قطعاً . لأن الشرطية الأولى تعليقٌ لصدقها بما يستحيل وجودُه من قدّ القميص من قُبُل فيكون مُحالاً لا محالة ، ومن ضرورته تقررُ كذبها ، والثانية تعليقٌ لصدقه عليه السلام بأمر محققِ الوجود وهو القدُّ من دبر فيكون محققاً ألبتةَ

، وهذا كما قيل فيمن قال لامرأة : زوجيني نفسك ، فقالت : لي زوجٌ فكذبها في ذلك فقالت : إن لم يكن لي زوجٌ فقد زوجتُك نفسي ، فقبل الرجل فإذا لا زوج لها فهو نكاحٌ ، إذ تعليقُ الشيء بأمر مقرَّر تنجيزٌ له . وقرىء منْ قُبلُ ومن دُبرُ بالضم لأنهما قطعا عن الإضافة كقبلُ وبعدُ وبالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعا الصرفَ للتأنيث والعلمية وقرىء بسكون العين .

(42/394)

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ كأنه لم يكن رأى ذلك بعدُ أو لم يتدبّرْه فلما تنبه له وعلم حقيقةَ الحال ﴿ قَالَ إِنَّهُ ﴾ أي الأمرَ الذي وقع فيه التشاجرُ وهو عبارةٌ عن إرادة السوءِ التي أُسندت إلى يوسف وتدبيرِ عقوبته بقولها : ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً إلى آخره لكن لا من حيث صدورُ تلك الإرادةِ والإسنادُ عنها بل مع قطع النظرِ عن ذلك لئلا يخلُوَ قوله تعالى ﴿ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ أي من جنس حيلِتكن ومكرِكن أيتها النساءُ لا من غيركن عن الإفادة وتدبيرِ العقوبة وإن لم يمكن تجريدُه عن الإضافة إليها إلا أنها لما صوّرته بصورة الحق أفاد الحكمَ بكونه من كيدهن إفادةً ظاهرةً فتأمل . وتعميمُ الخطاب للتنبيه على أن ذلك خُلُق لهن عريق :

ولا تحسَبا هنداً لها الغدرُ وحدها . . . سجيةُ نفسٍ ، كلُّ غانيةٍ هندُ

ورجْعُ الضميرِ إلى قولها : ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً فقط عدولٌ عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاعُ من أن إرادةَ السوءِ ممن هي إلى البحث عن شُعبة من شُعَبه ، وجعلُه للسوء أو للأمر المعبّر به عن طمعها في يوسف عليه السلام يأباه الخبرُ فإن الكيدَ يستدعي أن يعتبر مع ذلك هَناتٌ أُخرُ من قِبلها كما أشرنا إليه ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ فإنه ألطفُ وأعلقُ بالقلب وأشدُّ تأثيراً في النفس . وعن بعض العلماء إني أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فإنه تعالى يقول : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ﴾ وقال للنساء : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ولأن الشيطان يوسوس مُسارقةً وهن يواجِهْن به الرجال .

﴿ يُوسُفَ ﴾

(43/394)

حُذف منه حرفُ النداء لقربه وكمالِ تفطُّنه للحديث وفيه تقريبٌ له وتلطيفٌ لمحله ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ أي عن هذا الأمرِ وعن التحديث به واكتُمه فقد ظهر صدقُك ونزاهتُك ﴿ واستغفرى ﴾ أنت يا هذه ﴿ لِذَنبِكِ ﴾ الذي صدر عنك وثبَت عليك ﴿ إِنَّكِ كُنتَ ﴾ بسبب ذلك ﴿ مِنَ الخاطئين ﴾ من جملة القوم المتعمّدين للذنب أو من

جنسهم ، يقال : خطِىء إذا أذنب عمداً ، وهو تعليلٌ للأمر بالاستغفار ، والتذكيرُ لتغليب الذكورِ على الإناث وكان العزيزُ رجلاً حليماً فاكتفى بهذا القدرِ من مؤاخذتها ، وقيل : كان قليلَ الغَيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(44/394)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف وجواب عما يقال : فماذا قال يوسف عليه السلام حينئذ ؟ فقيل : قال : ﴿ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ أي طالبتني للمواتاة لا أني أردت بها سوءاً كما زعمت وإنما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عن التهمة ودفع الضرر عنها لا لتفضيحها . وفي التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الإشارة مراعاة لحسن الأدب مع الإيماء إلى الإعراض عنها كذا قالوا ، وفي هذا الضمير ونحو كلام فقد ذكر ابن هشام في بعض حواشيه على قول ابن مالك في ألفيته :

فما الذي غيبة أو حضور . . .

الخ لينظر إلى نحو ﴿ هِىَ رَاوَدَتْنِى ﴾ فإن ﴿ هِىَ ﴾ ضمير باتفاق ، وليس هو للغائب

بل لمن بالحضرة، وكذا ﴿ يا أبت استجره ﴾ [القصص : 26] وهذا في المتصل وذاك في المنفصل، وقول من يخاطب شخصاً في شأن آخر حاضر معه قلت له : اتق الله تعالى وأمرته بفعل الخير، وقد يقال : إنه نزل الضمير فيهن منزلة الغائب وكذا في عكس ذلك يبلغك عن شخص غائب شيء فنقول : ويحك يا فلان أتفعل كذا ؟ تنزلاً له منزلة من بالحضرة، وحينئذ يقال : الحد المستفاد مما ذكر إنما هو للضمير باعتبار وضعه اه .

(45/394)

وقال السراج البلقيني في رسالته المسماة نشر العبير لطي الضمير المفسر لضمير الغائب إما مصرح به أو مستغنى بحضور مدلوله حساً أو علماً فالحس نحو قوله تعالى : ﴿ هِىَ رَاوَدَتْنِى ﴾ و ﴿ يا أبت استجره ﴾ [القصص : 26] كما ذكره ابن مالك، وتعقبه شيخنا أبو حيان بأنه ليس كما مثل به لأن هذين الضميرين عائدان على ما قبلهما فضمير ﴿ هِىَ رَاوَدَتْنِى ﴾ عائد على الأهل في قولها : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ [يوسف : 25] ولما كنت عن نفسها بذلك ولم تقل بي بدل ﴿ بِأَهْلِكَ ﴾ كنى هو عليه السلام عنها بضمير الغيبة فقال : ﴿ هِىَ رَاوَدَتْنِى ﴾ ولم يخاطبها بأنت راودتيني، ولا أشار إليها بهذه راودتني وكل هذا على سبيل الأدب في الألفاظ والاستيحاء في الخطاب

الذي لا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، فأبرز الاسم في صورة ضمير الغائب تأدباً مع العزيز وحياءاً منه ، وضمير ﴿ استجره ﴾ عائد على موسى فمفسره مصرح بلفظه ، وكأن ابن مالك تخيل أن هذا موضع إشارة لكون صاحب الضمير حاضراً عند المخاطب فاعتقد أن المفسر يستغنى عنه بحضور مدلوله حساً فجرى الضمير مجرى اسم الإشارة ، والتحقيق ما ذكرناه هذا كلامه .

وعندي أن الذي قاله ابن مالك أرجح مما قاله الشيخ ، وذلك أن الإثنين إذا وقعت بينهما خصومة عند حاكم فيقول المدعي للحاكم : لي على هذا كذا : فيقول المدعى عليه : هو يعلم أنه لا حق له علي ، فالضمير في هو إنما هو لحضور مدلوله حساً لا لقوله : لي كما هو المتبادر إلى الأفهام ، وأيضاً يرد على ما ذكره في ضمير

﴿ استجره ﴾ [القصص : 26] أن موسى عليه السلام لم يسبق له ذكر عند حضوره مع بنت شعيب عليه السلام ، وقد قالت : ﴿ إِحْدَاهُمَا يا أبت استجره ﴾ [القصص : 26] وقصدها بالضمير الرجل الحاضر الذي بان لها من قوته وأمانته الأمر العظيم ، ثم إن من خاصم زوجته فقال للحاضرين من أهلها .

أو من غيرهم : هي طالق تطلق زوجته لوجود ما قرره ابن مالك ، ولا يتمشى على ما قرره الشيخ كما لا يخفى ، وبالجملة إن التأويل الذي ذكره في الآيتين وإن سلم فيهما لكن لا يكاد يتمشى معه في غيرهما هذا فليفهم ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ ذهب جمع إلى أنه كان ابن خالها ، وكان طفلاً في المهد أنطقه الله تعالى ببراءته عليه السلام ، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : " تكلم أربعة في المهد وهم صغار : ابن ماشطة ابنة فرعون .

وشاهد يوسف عليه السلام .

وصاحب جريج .

وعيسى ابن مريم عليهما السلام " وتعقب ذلك الطيبي بقوله : يرده دلالة الحصر في حديث الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم .

وصاحب جريج .

وصبي كان يرضع من أمه فمر راكب حسن الهيئة فقالت : أمه اللهم اجعل ابني مثل هذا فترك الصبي الثدي ، وقال اللهم لا تجعلني مثله " اه ، ورده الجلال السيوطي فقال : هذا منه على جاري عادته من عدم الإطلاع على طرق الأحاديث ، والحديث المتقدم صحيح أخرجه أحمد في مسنده .

وابن حبان في صحيحه .

والحاكم في مستدركه وصححه من حديث ابن عباس ، ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبي هريرة ، وقال صحيح على شرط الشيخين ، وفي حديث الصحيحين المشار إليه آنفاً زيادة على الأربعة " الصبي الذي كان يرضع من أمه فمر راكب " الخ فصاروا خمسة وهم أكثر من ذلك ، ففي "صحيح مسلم" تكلم الطفل في قصة أصحاب الأخدود ، وقد جمعت من تكلم في المهد فبلغوا أحد عشر ، ونظمتها فقلت :

تكلم في المهد النبي محمد . . .

ويحيى وعيسى والخليل ومريم

ومبرى جريج ثم شاهد يوسف . . .

وطفل لذي الأخدود ويرويه مسلم

وطفل عليه مر بالأمة التي . . .

يقال لها تزنى ولا تتكلم

وماشطة في عهد فرعون طفلها . . .

وفي زمن الهادي المبارك يختم

اه ، وفيه أنه لم يرد الطيبي الطعن على الحديث الذي ذكر كما توهم ، وإنما أراد أن يبين الحديث الدال على الحصر وغيره تعارضاً يحتاج إلى التوفيق ؛ وفي "الكشف" بعد ذكره حديث الأربعة ، وما تعقب به مما تقدم عن الطيبي أنه نقل الزمخشري في سورة البروج خامساً فإن ثبتت هذه أيضاً فالوجه أن يجعل في المهد قيداً وتأكيداً لكونه في مبادىء الصبا ، وفي هذه الرواية يحمل على الإطلاق أي سواء كان في المبادي أو بعيدها بحيث يكون تكلمه من الخوارق ، ولا يخفى أنه توفيق بعيد .

وقيل : كان ابن عمها الذي كان مع زوجها لدى الباب وكان رجلاً ذا لحية ولا ينافي هذا قول قتادة : إنه كان رجلاً حكيماً من أهلها ذا رأي يأخذ الملك برأيه ويستشيره ، وجوز أن يكون بعض أهلها وكان معهما في الدار بحيث لم يشعرا به فبصر بما جرى بينهما فأغضبه الله تعالى ليوسف فقال الحق ، وعن مجاهد أن الشاهد هو القميص المقدود وليس بشيء كما لا يخفى ، وجعل الله تعالى الشاهد من أهلها قيل : لكون أدل على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة وألزم لها ، وخص هذا بما إذا لم يكن الشاهد الطفل الذي أنطقه الله تعالى الذي أنطق كل شيء ، وأما إذا كان ذلك فذكر كونه من أهلها لبيان الواقع فإن شهادة الصبي حجة قاطعة ولا فرق فيها بين الأقارب وغيرهم ، وتعقب بأن كون شهادة القريب مطلقاً أقوى مما لا ينبغي أن يشك فيه ، وسمي شاهداً لأنه أدى تأديته في أن ثبت بكلامه قول يوسف وبطل قولها ، وقيل : سمي بذلك من حيث دل على الشاهد وهو تخريق القميص ،

وفسر مجاهد فيما أخرجه عنه ابن جرير الشهادة بالحكم أي وحكم حاكم من أهلها ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ أي من قدام يوسف عليه السلام .

(48/394)

أو من قدام القميص ؛ و﴿ إن ﴾ شرطية ، و﴿ كَانَ ﴾ فعل الشرط وقوله سبحانه : ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ جواب الشرط وهو بتقدير قد ، وإلا فالفاء لا تدخل في مثله ، وعن ابن خروف أن مثل هذا على إضمار المبتدا ، والجملة جواب الشرط لا الماضي وحده ، وفي "الكشاف" إن الشرطية هنا نظير قولك : إن أحسنت إليك منقبل لمن يمتنّ عليك بإحسانه فإنه على معنى إن تمتن على أمتن عليك ، وكذا هنا المراد أن يعلم أنه كان قميصه قدّ ونحوه وإلا فبين أن الذي للاستقبال و﴿ كَانَ ﴾ تناف قيل : وهو مبني على ما ذهب إليه البعض من أن ﴿ كَانَ ﴾ قوية في الدلالة على الزمان فحرف الشرط لا يقلب ماضيها مستقبلاً وإلا فلا ماض دخل عليه الشرط قلبه مستقبلاً من غير حاجة إلى التأويل ، وتعقب بأنه لا بد من التأويل ههنا وجعل حدوث العلم ونحوه جزئي الشرطية كأن يقال : إن يعلم أو يظهر كونه كذلك فقد ظهر الصدق ، ويقال نظيره في الشرطية الأخرى الآتية : وإن كانت ﴿ كَانَ ﴾ مما يقلب حرف الشرط ماضيها مستقبلاً كسائر الأفعال الماضية لأن المعنى ليس على

تعليق الصدق أو الكذب في المستقبل على كون القميص كذا أو كذا كذلك بل على تعليق ظهور أحد الأمرين الصدق والكذب على حدوث العلم بكونه كذلك وهو ظاهر ، وهل هذا التأويل من باب التقدير .

أو من غيره ؟ فيه خلاف ، والذي يشير إليه كلام بعض المدقين أنه ينزل في مثل ذلك العلم بالشيء منزلة استقباله لما بينهما من التلازم كما قيل : أي شيء يخفى ؟ فقيل : ما لا يكون فليفهم ، ثم إن متعلق الصدق ما دل كلامها عليه من أن يوسف أراد بها سوءاً وهو متعلق الكذب المسند إليها فيما بعد ، وهما كما يتعلقن بالنسبة التي يتضمنها الكلام باعتبار منطوقه يتعلقان بالنسبة التي يتضمنها باعتبار ما يستلزمه فكأنه قيل : ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ ﴾ في دعواها أن يوسف أراد بها سوءاً ﴿ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ في دعواه أنها راودته عن نفسه .

(49/394)

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ﴾

أي من خلف يوسف عليه السلام أو خلف القميص ﴿ فَكَذَّبَتَ ﴾ في دعواها ﴿ وَهُوَ مِنَ الصادقين ﴾ في دعواه ، والشرطيتان محكيتان : إما بقول مضمر أي شهد قائلاً أو فقال

﴿ إِن كَانَ ﴾ الخ كما هو مذهب البصريين ، وإما يشهد لأن الشهادة قول من الأقوال فجاز أن تعمل في الجمل كما هو مذهب الكوفيين ، والإظهار في موضع الإضمار في الشرطية الثانية ليدل على الاستقلال مع رعاية زيادة الإيضاح ، وجملتا ﴿ وهو من الكاذبين ﴾ [يوسف : 26] ﴿ وهو من الصادقين ﴾ مؤكدتان لأن من قوله : ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ [يوسف : 26] يعلم كذبه ، ومن قوله : ﴿ فَكَذَّبَتْ ﴾ يعلم صدقه ، ووجه دلالة قدّ القميص من دبر على كذبها أنها تبعته وجذبت ثوبه فقدته ، وأما دلالة قده من قبل على صدقها فمن وجهين : أحدهما : أنه إذا كان تابعها وهي دافعته عن نفسه قدت قميصه من قدام بالدفع ، وثانيهما : أن يسرع إليها ليلحقها فيتعثر في مقام قميصه فيشقه كذا في "الكشاف" ، وتعقب ابن المنير الوجه الأول بأن ما قرر في اتباعه لها يحتمل مثله في اتباعها له فإنها إنما تقد قميصه من قبل بتقدير أن يكون عليه السلام أخذ بها حتى صارا متقابلين فدفعته عن نفسها ، وهذا بعينه يحتمل إذا كانت هي التابعة بأن تكون اجتذبته حتى صارا متقابلين ثم جذبت قميصه إليها من قبل بل هذا أظهر لأن الموجب لقدّ القميص غالباً الجذب لا الدفع ، والوجه الثاني بأن ما ذكر بعينه محتمل لو كانت هي التابعة وهو فار منها بأن ينقدّ قميصه في إسراعه للفرار اه .

وأجيب عما ذكره أولاً : بأنه غير وارد لأن تلك الحالة السريعة لا تحتمل إلا أيسر ما يمكن وأسرعه ، وعلى تقدير اتباعها له تعين القدّ من دبر لأنه أهون الجذبين ، ثم لا نفرض كر الفار ليدفعها أو كما لحقت جذبت فهذا الفرض لا وجه له هنالك فإذا ثبت دلالته في الجملة على هذا القسم تعينت ، وعما ذكره ثانياً : بأن الظاهر على تقدير أن تكون تابعة أنه إذا تعثر الفار يتعلق به التابع متشبثاً وإذا كانا منفلتين بعد ذلك الاحتمال .

وذكر الفاضل المتعقب أن الحق في هذا الفصل أن يقال : إن الشاهد المذكور إن كان صبياً أنطقه الله تعالى في المهد كما ورد في بعض الأحاديث فالآية في مجرد كلامه قبل أوانه حتى لو قال صدق يوسف وكذبت لكفى برهاناً على صدقه عليه السلام كما كان مجرد إخبار عيسى عليه السلام في المهد برهاناً على صدق مريم ، فلا تنبغي المناسبة بين الأمارة المنصوبة وما رتب عليها لأن العمدة في الدلائل نصبها لا مناسبتها ، وإن كان قريباً لها قد بصر بها من حيث لا تشعر فهذا والله تعالى أعلم كان من حقه أن يصرح بما رأى فيصدق يوسف عليه السلام ويكذبها ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن قدّ قميصه إنما كان من دبر فنصبه أمارة لصدقه وكذبها ، ثم ذكر القسم الآخر وهو قده من قبل على علم بأنه لم ينقد كذلك حتى ينفى عن نفسه التهمة في الشهادة وقصد الفضيحة وينصفهما جميعاً فلذا ذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده ،

وأخرجهما مخرجاً واحداً وبنى ﴿ قَدْ ﴾ لما لم يسم فاعله في الموضعين ستراً على من قدّه ، وقدم أمارة صدقها في الذكر إزاحة للتهمة ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هي الواقعة فلا يضره تأخيرها .

(51/394)

والحاصل أن عمدة هذا الشاهد الأمارة الأخير فقط والمناسبة فيها محققه ، وأما الأمارة الأولى فليست مقصودة وإنما هي كالغرض ذكرت توطئة للثانية فلم يلتمس لها مناسبة مثل تلك المناسبة ، وأما إن كان الحكيم الذي كان الملك يرجع إلى رأيه فلا بد من التماس المناسبة في الطرفين لأنها عمدة الحكيم ، وأقرب وجه في المناسبة أن قدّ القميص من دبر دليل على إدباره عنها ، وقدّه من قبل دليل على إقباله عليها بوجهه ، ولا يخفى أن مثل هذا الوجه لا يصلح أن يكون مطمح نظر الحكيم الذي لا يلتفت إلا لليقينيات ، فالأولى أن يقال : يحتمل أن ذلك الحكيم كان واقفاً على حقيقة الحال بطريق من الطرق الممكنة ، ويسهل أمر ذلك إذا قلنا : إنه كان ابن عم لها فهو متيقن بعدم مقدم الشرطية الأولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية ، ومن ضروريات ذلك الجزم بانتفاء تالي الأولى ووقوع تالي الثانية فإذا هو إخبار بكذبها وصدقه عليه السلام لكنه ساق شهادته مساقاً مأموناً من الجرح والطعن

حيث صورها بصورة الشرطية المترددة ظاهراً بين نفعها ونفعه، وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعاً كما أشير إليه وإلى كون الشرطية الأولى غير مقصودة بالذات ذهب العلامة ابن الكمال معرضاً بغفلة القاضي البيضاوي حيث قال: إن قوله تعالى: ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ [يوسف: 26] ابخ من قبيل المسامحة في أحد شقي الكلام لتعين الآخر عند القائل تنيزلاً للمحتمل منزلة الظاهر لأن الشق بالجذب في هذا الشق أيضاً محتمل، ومن غفل عن هذا قال: لأنه يدل على أنه قصدها فدفعت عن نفسها إلى آخر عبارة البيضاوي، وحاصل ذلك على ما قرره بعض مشايخنا عليهم الرحمن أن القائل: يعلم يقيناً وقوع الشق من دبر لكنه ذكر الشق من القبل مع أنه محتمل أن يكون بجذبها إياه إلى طرفها كما أن كونه من دفعها إياه من بعض محتملاته تنزيلاً لهذا المحتمل منزلة الظاهر تأكيداً ومبالغة لثبوت ما دلت عليه الشرطية الثانية

(52/394)

من صدقه وكذبها يعني أنا نحكم بصدقها وكذبه بمجرد وقوع الشق في القبل، وإن كان محتملاً لأسباب أخر غير دفعها لكنه ما وقع هذا الشق أصلاً فلا صدق لها وذلك كما إذا قيل لك: بلغت إلى زيد الكلام الفلاني في هذا اليوم؟ فقلت: إن كنت تكلمت في هذا اليوم

مع زيد فقولكم هذا صادق مع أن تكلمك معه في هذا اليوم مطلقاً لا يدل على صدق دعواهم لاحتمال أنك تكلمت معه بكلام غير ذلك الكلام لكنك قلت ذلك تحقيقاً لعدم تبليغك ذلك الكلام إليه ، هذا وذكر شيخ مشايخنا العلامة صبغة الله الحيدري طيب الله تعالى ثراه : أن الظاهر أن دلالة كل من الشقين في الشقين على ما يدل عليه من حيث موافقته لما ادعاه صاحبه فإنها كانت تقول : هو طلبني مقبلاً على فخلصت نفسي عنه بالدفع أو الفرار وهو كان يقول : هي الطالبة ففرت منها وتبعتني واجتذبت ثوبي فقدته فوقوع الشق في شق الدبر يدل على كونه مدبراً عنها لا مقبلاً عليها وعكسه على عكسه ، ثم فرع على هذا أن ما ذكره ابن الكمال غفلة عن المخاصمة بالمقاولة وهو توجيه لطيف للآية الكريمة ، بيد أن دعوى وقوع المخاصمة بالمقاولة على الطرز الذي ذكره رحمه الله تعالى مما لا شاهد لها ، وعلى المدعى البيان على أنه يبعد عقلاً أن تقول هو طلبني مقبلاً فخلصت نفسي منه فانقدّ قميصه من قبل وهو الذي تقتضيه دعواه أن الظاهر أن دلالة كل من الشقين الخ لظهور أن ظهور كذبها حينئذ أسرع ما يكون ، وبالجملة قيل : إن الاحتمالات المضعفة لهذه المشاهدة كثيرة : منها ما علمت .

ومنها ما تعلمه بأدنى التفات ، ومن هنا قالوا : إن ذلك من باب اعتبار الأمارة ، ولذلك احتج بالآية كما قال ابن الفرس : من يرى الحكم من العلماء بالأمارات والعلامات فيما لا تحضره البينات كاللقطة .

والسرقة .

والوديعة .

ومعاقد الحيطان .

والسقوف وغير ذلك .

(53/394)

وذكر الإمام أن علامات كذب المرأة كانت كثيرة بالغة مبلغ اليقين فضموا إليها هذه العلامة الأخرى لا لأجل أن يعوّلوا في الحكم عليها بل لأجل أن يكون ذلك جارياً مجرى المقويات والمرجحات والله تعالى أعلم .

وقرأ الحسن .

وأبو عمرو في رواية ﴿ مِن قَبْلُ وَمِن دُبُرٍ ﴾ بسكون الباء فيهما والتنوين وهي لغة الحجاز .

وأسد ، وقرأ أبو يعمر .

وابن أبي إسحاق .

والعطاردي .

وأبو الزناد .

وآخرون ﴿ مِن قَبْلُ وَمِن دُبُرٍ ﴾ بثلاث ضمات ، وقرأ الأولان .

والجارود في رواية عنهم بإسكان الباء فيهما مع بنائهما على الضم جعلوهما كقبل .

وبعد بعد حذف المضاف إليه ونية معناه ، وتعقب ذلك أو حاتم بأن هذا رديء في العربية وإنما يقع بعد البناء في الظروف ، وهذان اللفظان اسمان متمكنان وليسا بظرفين ، وعن ابن إسحاق أنه قرأ من قبل ومن دبر بالفتح قيل : كأنه جعلهما علمين للجهتين فمنعهما الصرف للعلمية والتأنيث باعتبار الجهة .

﴿ فَلَمَّا رَأَى ﴾

(54/394)

أي السيد ، وقيل : الشاهد ، والفعل من الرؤية البصرية أو القبلية أي فلما علم ﴿ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ ﴾ أي هذا القد والشق كما قال الضحاك ﴿ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ أي ناشى من احتيالكن أيتها النساء ومكركن ومسبب عنه ، وهذا تكذيب لها وتصديق له عليه السلام على ألطف وجه كأنه قيل : أنت التي راودتيه فلم يفعل وفرّ فاجتذبتيه فشققت قميصه فهو الصادق في إسناد المراودة إليك وأنت الكاذبة في نسبة السوء إليه ، وقيل : الضمير للأمر الذي وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن إرادة السوء التي أسندت إلى يوسف

عليه السلام وتدبير عقوبته بقولها ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ [يوسف : 25] الخ أي إن ذلك من جنس مكركن واحتيالكن ، وقيل : هو للسوء وهو نفسه وإن لم يكن احتيالاً لكنه يلازمه ، وقال الماوردي : هو لهذا الأمر وهو طمعها في يوسف عليه السلام ؛ وجعله من الحيلة مجاز أيضاً كما في الوجه الذي قبله ، وقال الزجاج : هو لقولها : ﴿ مَا جَزَاءُ ﴾ [يوسف : 25] الخ فقط ، واختار العلامة أبو السعود القيل الأول وتكلف له بما تكلف واعترض على ما بعده من الأقوال بما اعترض .

ولعل ما ذكرناه أقرب للذوق وأقل مؤنة مما تكلف له ؛ وأياً مّا كان فالخطاب عام للنساء مطلقاً وكونه لها ولجواريها كما قيل ليس بذاك ، وتعميم الخطاب للتنبيه على أن الكيد خلق لهن عريق

: ولا تحسبا هنداً لها الغدر وحدها . . .

سجية نفس كل غانية هند

(55/394)

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ فإنه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس ولأن ذلك قد يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال ، ولربات القصور منهن القدح المعلى من ذلك لأنهن

أكثر تفرغاً من غيرهن مع كثرة اختلاف الكيادات إليهن فهن جوامع كوامل ، ولعظم كيد النساء اتخذهن إبليس عليه اللعنة وسائل لإغواء من صعب عليه إغواؤه ، ففي الخبر " ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من جهة النساء " وحكي عن بعض العلماء أنه قال : أنا أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فإنه تعالى يقول : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 76] وقال للنساء : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 82] ولأن الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به ، ولا يخفى أن استدلاله بالآيتين مبني على ظاهر إطلاقهما ، ومثله ما تنقبض له النفس وتنبسط يكفي فيه ذلك القدر فلا يضر كون ضعف كيد الشيطان إنما هو في مقابلة كيد الله تعالى ، وعظيم كيدهن إنما هو بالنسبة إلى كيد الرجال ، وما قيل : إن ما ذكر لكونه محكياً عن قطفير لا يصلح للاستدلال به بوجه من الوجوه ليس بشيء لأنه سبحانه قصه من غير نكير فلا جناح في الاستدلال به كما لا يخفى .

﴿ يُوسُفَ ﴾ حذف منه حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث ، وفي ندائه باسمه تقريب له عليه السلام وتلطيف .

وقرأ الأعمش ﴿ يُوسُفَ ﴾ بالفتح ، والأشبه على ما قال أبو البقاء : أن يكون أخرجه على أصل المنادي كما جاء في الشعر :

يا عدياً لقد وقتك الأواقي . . .

وقيل : لم تضبط هذه القراءة عن الأعمش ، وقيل : إنه أجرى الوقف مجرى الوصل ونقل إلى الفاء حركة الهمزة من قوله تعالى : ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ أي عن هذا الأمر واكتمه ولا تتحدث به فقد ظهر صدقك وطهارة ثوبك ، وهذا كما حكى الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله بالوصل والفتح ، وقرىء ﴿ أَعْرَضَ ﴾ بصيغة الماضي فيوسف حينئذٍ مبتدأ والجملة بعده خبر ، ولعل المراد الطلب على أتم وجه فيؤول إلى معنى ﴿ أَعْرَضَ ﴾ ﴿ واستغفرى ﴾ أنت أيتها المرأة ، وضعف أبو البقاء هذه القراءة بأن الأشبه عليها أن يقال : فاستغفري ﴿ لِذَنبِكِ ﴾ الذي صدر عنك وثبت عليك ﴿ إِنَّكِ كُنتَ ﴾ بسبب ذلك ﴿ مِنَ الخاطئين ﴾ أي من جملة القوم المتعمدين للذنب ، أو من جنسهم يقال : خطىء يخطىء خطأ وخطأ إذا أذنب متعمداً ، وأخطأ إذا أذنب من غير تعمد ، وذكر الراغب أن الخطأ العدول عن الجهة وهو أضرب : الأول : أن يريد غير ما تحسن إرادته فيفعله ، وهذا هو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان ، والثاني أن يريد ما يحسن فعله ولكن يقع منه خلاف ما يريد وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " من اجتهد فأخطأ فله أجر " الثالث : أن يريد ما لا يحسن فعله ويتفق منه خلافه فهذا

مخطىء في الإرادة مصيب في الفعل ، ولا يخفى أن المعنى الذي ذكرناه راجع إلى الضرب الأول من هذه الضروب ، والجملة المؤكدة في موضع التعليل لأمر والتذكير لتغليب الذكور على الإناث واحتمال أن يقال : المراد إنك من نسل الخاطئين فمنهم سرى ذلك العرق الخبيث فيك بعيد جداً ، وهذا النداء قيل : من الشاهد الحكيم ، وروي ذلك عن ابن عباس ، وحمل الاستغفار على طلب المغفرة والصفح من الزوج ، ويحتمل أن يكون المراد به طلب المغفرة من الله تعالى ويقال : إن أولئك القوم وإن كانوا يعبدون الأوثان إلا أنهم مع ذلك يثبتون الصانع ويعتقدون أن للقبائح عاقبة سوء من لديه سبحانه إذا لم يغفرها ،

(57/394)

واستدل على أنهم يثبتون الصانع أيضاً بأن يوسف عليه السلام قال لهم : ﴿ أأرباب مُّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار مَا ﴾ [يوسف : 39] ، والظاهر أن قائل ذلك هو العزيز ، ولعله كما قيل : كان رجلاً حليماً ، وروي ذلك عن الحسن ، ولذا اكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها ، وروي أنه كان قليل الغيرة وهو لطف من الله تعالى بيوسف عليه السلام ، وفي "البحر" أن تربة إقليم قطفير اقتضت ذلك ، وأين هذا مما جرى لبعض ملوك المغرب أنه كان مع ندمائه المختصين به في مجلس أنس وجارية تغنيهم من وراء ستر فاستعاد

بعض خلصائه بيتين من الجارية كانت قد غنت بهما فما لبث أن جيء برأس الجارية مقطوعاً في طست، وقال له الملك: استعد البيتين من هذا الرأس فسقط في يد ذلك المستعيد ومرض مدة حياة الملك. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(58/394)

وقال القاسمى:

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾

لأن قدَّه منه أمارة الدفع عن نفسها به، أو تعثره في مقادم قميصه بسبب إقباله عليها، فقدَّ لإسراعه خلفها.

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ لأنه أمارة إدباره عنها بسب أنها تبعته، واجتذبت ثوبه إليها فقدّته.

ومن اللطائف ما قيل: إن هذا الشاهد أراد ألا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها. ثم ذكر القسم الآخر، وهو قدَّه من قُبل، على علم بأنه لم ينقدّ من قبل حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة، وقصد

الفضيحة ، وينصفهما جميعاً ، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكره أمارة على صدقه المعلوم وجوده . ومن ثم قدم أمارة على صدقها ، على أمارة صدقه في الذكر ؛ إزاحة للتهمة ، ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هي الواقعة ، فلا يضره تأخيرها . وهذه اللطيفة بعينها – والله أعلم – هي التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر : من الآية 28] . فقدم قسم الكذب على قسم الصدق ، إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق إليه في حق موسى عليه السلام ، ووثوقاً بأن القسم الثاني وهو صدقه ، هو الواقع ، فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة ، ومن ثم قال : ﴿ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ ولم يقل : كل ما يعدكم ، تعريضاً بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخسه حقه ، وبنحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام ، لكشف وعاء أخيه الآتي ذكره ، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه الذي أمر بوضع السقاية فيه – والله أعلم – .

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ يعني بالكيد : الحيلة والمكر . وإنما استعظم كيدهن ؛ لأنه ألطف وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيراً في النفس

، ولهن فيه نيقة ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال .

تنبيه :

قال ابن الفرس : يحتج بالآية من يرى الحكم بالأمارات والعلامات ، فيما لا تحضره البينات ، كاللقطة ، والسرقة ، والوديعة ، ومعاقد الحيطان ، والسقوف وشبهها .

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾

نودي بحذف حرف النداء ، لقربه وكمال تفطنه للحديث .

أي : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر واكتمه ، ولا تحدث به .

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ﴾ أي : الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو بريء منه .

﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ أي : من جملة القوم المتعمدين للذنب . يقال : خطئ إذا أذنب متعمداً ، وأخطأ إذا فعله من غير تعمد . ولهذا يقال : أصاب الخطأ ، وأخطأ الصواب ، وأصاب الصواب . وإيثار جمع السالم تغليباً للذكور على الإناث . ودل هذا على أن العزيز كان رجلاً حليماً ؛ إذ اكتفى من مؤاخذتها بهذا المقدار .

قال ابن كثير : أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه . ويقال : إنه كان قليل الغيرة .

قال الشهاب : وهو لطف من الله تعالى بيوسف عليه السلام .

وقال أبو حيان : إنه مقتضى تربة مصر . انتهى .

وقد تقرر لدى المحققين أن لاختلاف أحوال العمران في الخصب والجدب، وأقاليمه في الحرارة والبرودة وتوابعها؛ أثراً في أخلاق البشر وأبدانهم. انظر المقدمة الرابعة والخامسة من "مقدمة ابن خلدون". انتهى انتهى. اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 9 صـ 174 . 176﴾

(60/394)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة:

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ) .

(مَسْأَلَةُ الْمُرَاوَدَةِ وَالْهَمِّ وَالْمُطَارَدَةِ) :

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ وَصِيَّةِ الْعَزِيزِ لِامْرَأَتِهِ بِإِكْرَامِ مَثْوَاهُ، وَمَا عَلَّلَهَا بِهِ مِنْ حُسْنِ الرَّجَاءِ فِيهِ، وَمَا بَيَّنَهُ اللهُ - تَعَالَى - مِنْ عِنَايَتِهِ بِهِ وَتَمْهِيدِ سَبِيلِ الْكَمَالِ لَهُ بِتَمْكِينِهِ فِي الْأَرْضِ، يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا نَظَرَتْ إِلَيْهِ بِغَيْرِ الْعَيْنِ الَّتِي نَظَرَ إِلَيْهِ بِهَا زَوْجُهَا، وَأَرَادَتْ مِنْهُ غَيْرَ مَا أَرَادَهُ هُوَ وَمَا أَرَادَهُ اللهُ مِنْ فَوْقِهِمَا، هُوَ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ قَهْرَمَانًا أَوْ وَلَدًا لَهُمَا، وَاللهُ أَرَادَ أَنْ يُمَكِّنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُ سَيِّدَ الْبِلَادِ كُلِّهَا، وَهِيَ أَرَادَتْ أَنْ يَكُونَ عَشِيقًا لَهَا، وَرَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ، أَيْ خَادَعَتْهُ عَنْهَا

وَرَاوَغَتْهُ ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَرُودَ أَوْ يُرِيدَ مِنْهَا مَا تُرِيدُ هِيَ مِنْهُ مُخَالِفًا لِإِرَادَتِهِ هُوَ وَإِرَادَةِ رَبِّهِ (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) 21 قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ : أَرَادَ الرَّجُلُ كَذَا إِرَادَةً وَهُوَ الطَّلَبُ وَالِاخْتِيَارُ ، وَرَاوَدْتُهُ عَلَى الْأَمْرِ مُرَاوَدَةً وَرِوَادًا (مِنْ بَابِ قَاتَلَ) طَلَبْتُ مِنْهُ فِعْلَهُ ، وَكَأَنَّ فِي الْمُرَاوَدَةِ مَعْنَى الْمُخَادَعَةِ ؛ لِأَنَّ الْمُرَاوِدَ يَتَلَطَّفُ فِي طَلَبِهِ تَلَطُّفَ الْمُخَادِعِ وَيَحْرِصُ حِرْصَهُ

.

وَقَالَ الرَّاغِبُ :

(61/394)

الْمُرَاوَدَةُ أَنْ تُنَازِعَ غَيْرَكَ فِي الْإِرَادَةِ فَتُرِيدُ غَيْرَ مَا يُرِيدُ ، أَوْ تَرُودُ غَيْرَ مَا يَرُودُ ، وَذَكَرَ شَوَاهِدَ الْآيَاتِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَمِنْهَا قَوْلُ إِخْوَةِ يُوسُفَ لَهُ : (سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ) 61 أَيْ نَحْتَالُ عَلَيْهِ وَنَخْدَعُهُ عَنْ إِرَادَتِهِ لِيُرْسِلَ أَخَاهُ مَعَنَا . وَقَالَ فِي أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ : وَرَاوَدَهُ عَنْ نَفْسِهِ خَادَعَهُ عَنْهَا وَرَاوَغَهُ ، وَقَالَ فِي الْكَشَّافِ : الْمُرَاوَدَةُ مُفَاعَلَةٌ مِنْ رَادَ يَرُودُ إِذَا جَاءَ وَذَهَبَ ، كَأَنَّ الْمَعْنَى خَادَعَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ ، أَيْ فَعَلَتْ مَا يَفْعَلُ الْمُخَادِعُ عَنِ الشَّيْءِ

(62/394)

الَّذِي لَا يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ يَدِهِ، يَحْتَالُ أَنْ يَغْلِبَهُ عَلَيْهِ وَيَأْخُذَهُ مِنْهُ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّحَيُّلِ لِمُوَاقَعَتِهِ إِيَّاهَا. انْتَهَى. وَلَوْ رَأَتْ مِنْهُ أَدْنَى مَيْلٍ إِلَيْهَا وَهِيَ تَخْلُو بِهِ فِي مَخَادِعِ بَيْتِهَا لَمَا احْتَاجَتْ إِلَى مُخَادَعَتِهِ بِالْمُرَاوَدَةِ، وَلَمَا خَابَتْ فِي التَّعْرِيضِ لَهُ بِالْمُغَازَلَةِ وَالْمُهَازَلَةِ، تَنَزَّلَتْ إِلَى الْمُكَاشَفَةِ وَالْمُصَارَحَةِ، إِذْ كَانَ كُلُّ مَا سَبَقَهُ مِنْهَا وَحْدَهَا وَلَمْ يُشَارِكْهَا فِيهِ، (وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ) أَيْ أَحْكَمَتْ إِغْلَاقَ بَابِ الْمَخْدَعِ الَّذِي كَانَا فِيهِ، وَبَابِ الْبَهْوِ الَّذِي يَكُونُ أَمَامَ الْحُجُرَاتِ وَالْغُرَفِ فِي بُيُوتِ الْكُبَرَاءِ، وَبَابِ الدَّارِ الْخَارِجِيِّ، وَقَدْ يَكُونُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْقُصُورِ أَبْوَابٌ أُخْرَى مُتَدَاخِلَةٌ (وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) أَيْ هَلُمَّ أَقْبِلْ وَبَادِرْ، وَزِيَادَةُ لَكَ بَيَانٌ لِلْمُخَاطَبِ، كَمَا يَقُولُونَ: هَلُمَّ لَكَ وَسَقْيًا لَكَ، وَاقْتَصَرَ عَلَى هَذَا فِي التَّنْزِيلِ، وَهُوَ مُنْتَهَى النَّزَاهَةِ فِي التَّعْبِيرِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا زَادَتْهُ مِنَ الْإِغْرَاءِ وَالتَّهْيِيجِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْحَالُ، وَنَقَلَ رُوَاةُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ عَنْهَا وَكَذَا عَنْهُ مِنَ الْوَقَاحَةِ مَا يُعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ كَذِبٌ، فَإِنَّ مِثْلَهُ لَا يُعْلَمُ إِلَّا مِنَ اللهِ - تَعَالَى - أَوْ بِالرِّوَايَةِ الصَّحِيحَةِ عَنْهَا أَوْ عَنْهُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدَّعِيَ هَذَا أَحَدٌ كَمَا يَأْتِي قَرِيبًا. وَ (هَيْتَ) اسْمُ فِعْلٍ قُرِئَ بِفَتْحِ الْهَاءِ وَكَسْرِهَا مَعَ فَتْحِ التَّاءِ وَبِضَمِّهَا كَحَيْثُ، وَرُوِيَ

أَنَّهَا لُغَةُ عَرَب حوْرَانَ ، وكَانَ سَبَبُ اخْتِيَارِهَا أَنَّهَا أَخْصَرُ مَا يُؤَدِّي الْمُرَادَ بِأَكْمَلِ النَّزَاهَةِ اللَّائِقَةِ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، وَهُوَ مَا لَمْ يَعْقِلْهُ أُولَئِكَ الرُّوَاةُ لِمَا يُخَالِفُهُ وَيُنَاقِضُهُ (قَالَ مَعَاذَ اللهِ) أَيْ أَعُوذُ بِاللهِ مَعَاذًا وَأَتَحَصَّنُ بِهِ فَهُوَ يُعِيذُنِي أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ الْفَاسِقِينَ ، كَمَا قَالَ بَعْدَ أَنِ اسْتَعَانَتْ عَلَيْهِ بِكَيْدِ صَوَاحِبِهَا مِنَ النِّسْوَةِ : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) 33 .

وَجُمْلَةُ (قَالَ مَعَاذَ اللهِ) إِلَخْ بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِجَوَابِ يُوسُفَ مَبْنِيٌّ عَلَى سُؤَالٍ تَقْدِيرُهُ : وَمَاذَا قَالَ بَعْدَ تَسَفُّلِ الْمَرْأَةِ – وَهِيَ سَيِّدَتُهُ – إِلَى هَذِهِ الدَّرَكَةِ مِنَ التَّذَلُّلِ لَهُ ؟ وَهُوَ كَمَا قَالَتْ

مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ لِلْمَلَكِ الَّذِي تَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا : (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) 19 : 18 وَعَلَّلَ هَذِهِ الِاسْتِعَاذَةَ بِقَوْلِهِ : (إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ) أَيْ إِنَّهُ – تَعَالَى – وَلِيُّ أَمْرِي كُلِّهِ ، أَحْسَنَ مَقَامِي عِنْدَكُمْ وَسَخَّرَكُمْ لِي بِمَا وَفَّقَنِي لَهُ مِنَ الْأَمَانَةِ وَالصِّيَانَةِ ، فَهُوَ يُعِيذُنِي وَيَعْصِمُنِي مِنْ عِصْيَانِهِ وَخِيَانَتِكُمْ ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَرَادَ بِرَبِّهِ مَالِكَهُ الْعَزِيزَ فِي الصُّورَةِ وَإِنْ كَانَ حُرًّا مَظْلُومًا فِي الْحَقِيقَةِ ، كَمَا يُقَالُ : رَبُّ الدَّارِ ، وَكَانَ مِنْ عُرْفِهِمْ إِطْلَاقُهُ عَلَى

الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ كَمَا يَأْتِي فِي قَوْلِهِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِسَاقِي الْمَلِكِ فِي السِّجْنِ (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) 42 وَلَكِنَّ اللهَ عَاقَبَهُ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ حِينَئِذٍ رَبَّهُ، فَكَانَ نِسْيَانُهُ لَهُ سَبَبًا لِطُولِ مُكْثِهِ فِي السِّجْنِ كَمَا يَأْتِي، ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ الْمَلِكِ، إِذْ جَاءَهُ يَطْلُبُهُ لِأَجْلِهِ: (ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ).

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ – وَقَدْ جَرَى عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ – يَكُونُ الضَّمِيرُ فِي إِنَّهُ مَا يُسَمُّونَهُ ضَمِيرَ الشَّأْنِ وَالْقِصَّةِ، أَيْ إِنَّ الشَّأْنَ الَّذِي أَنَا فِيهِ هُوَ أَنَّ

(65/394)

سَيِّدِي الْمَالِكَ لِرَقَبَتِي قَدْ أَحْسَنَ مُعَامَلَتِي فِي إِقَامَتِي عِنْدَكُمْ وَأَوْصَاكِ بِإِكْرَامِ مَثْوَايَ، فَلَنْ أَجْزِيَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ بِشَرِّ الْإِسَاءَةِ وَهُوَ خِيَانَتُهُ فِي أَهْلِهِ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ تَعْلِيلٌ لِرَدِّ مُرَاوَدَتِهَا بَعْدَ الِاسْتِعَاذَةِ بِاللهِ مِنْهَا، لَا تَعْلِيلٌ لِلِاسْتِعَاذَةِ نَفْسِهَا كَالْأَوَّلِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا دَقِيقٌ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْعُمُومِ فِي الْأَوَّلِ وَالْخُصُوصِ فِي الثَّانِي، ثُمَّ عَلَّلَ امْتِنَاعَهُ بِمَا هُوَ خَاصٌّ بِنَزَاهَةِ نَفْسِهِ فَقَالَ: إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلنَّاسِ كَالْخِيَانَةِ لَهُمْ وَالتَّعَدِّي عَلَى أَعْرَاضِهِمْ وَشَرَفِهِمْ، وَلَا يُفْلِحُونَ فِي الدُّنْيَا بِبُلُوغِ مَقَامِ الْإِمَامَةِ الصَّالِحَةِ وَالرِّيَاسَةِ الْعَادِلَةِ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ بِجِوَارِ اللهِ وَنَعِيمِهِ وَرِضْوَانِهِ . . . . . . وَفِي جُمْلَةِ الْجَوَابِ مِنَ الِاعْتِصَامِ وَالِاعْتِزَازِ بِالْإِيمَانِ

بِاللَّهِ ، وَالْأَمَانَةِ لِلسَّيِّدِ صَاحِبِ الدَّارِ ، وَالتَّعْرِيضِ بِخِيَانَةِ امْرَأَتِهِ لَهُ الْمُتَضَمِّنِ لِاحْتِقَارِهَا ، مَا أَضْرَمَ فِي صَدْرِهَا نَارَ الْغَيْظِ وَالِانْتِقَامِ ، مُضَاعَفَةً لِنَارِ الْغَرَامِ ، وَهُوَ مَا بَيَّنَهُ - تَعَالَى - بِقَوْلِهِ مُؤَكِّدًا بِالْقَسَمِ لِأَنَّهُ مِمَّا يُنْكِرُهُ الْأَخْيَارُ مِنْ شُرُورِ الْفُجَّارِ .

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) أَيْ وَتَاللَّهِ لَقَدْ هَمَّتِ الْمَرْأَةُ بِالْبَطْشِ بِهِ لِعِصْيَانِهِ أَمْرَهَا ، وَهِيَ فِي نَظَرِهَا سَيِّدَتُهُ وَهُوَ عَبْدُهَا ، وَقَدْ أَذَلَّتْ نَفْسَهَا لَهُ بِدَعْوَتِهِ الصَّرِيحَةِ إِلَى نَفْسِهَا بَعْدَ الِاحْتِيَالِ عَلَيْهِ بِمُرَاوَدَتِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَمِنْ شَأْنِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَكُونَ مَطْلُوبَةً لَا طَالِبَةً ،

وَمُرَاوَدَةً عَنْ نَفْسِهَا لَا مُرَاوِدَةً ، حَتَّى إِنَّ حُمَاةَ الْأُنُوفِ مِنْ كُبَرَاءِ الرِّجَالِ ؛ لَيُطَأْطِئُونَ الرُّءُوسَ لِفَقِيرَاتِ الْحِسَانِ رَبَّاتِ الْجَمَالِ ، وَيَبْذُلُونَ لَهُمْ مَا يَعْتَزُّونَ بِهِ مِنَ الْجَاهِ وَالْمَالِ ، بَلْ إِنَّ الْمُلُوكَ لَيُذِلُّونَ أَنْفُسَهُمْ لِمَمْلُوكَاتِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَلَا يَأْبَوْنَ أَنْ يَسِمُوا أَنْفُسَهُمْ عَبِيدًا لَهُنَّ ، كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ :

نَحْنُ قَوْمٌ تُذِيبُنَا الْأَعْيُنُ النُّجْـ . . . ـلُ عَلَى أَنَّنَا نُذِيبُ الْحَدِيدَا

فَتَرَانَا لَدَى الْكَرِيهَةِ أَحْرَا . . . رًا وَفِي السِّلْمِ لِلْمِلَاحِ عَبِيدًا

وَلَكِنَّ هَذَا الْعَبْدَ الْعِبْرَانِيَّ الْخَارِقَ لِلطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي حُسْنِهِ وَجَمَالِهِ، وَفِي جَلَالِهِ وَكَمَالِهِ، وَفِي إِبَائِهِ وَتَأَلُّهِهِ، قَدْ عَكَسَ الْقَضِيَّةَ، وَخَرَقَ نِظَامَ الطَّبِيعَةِ وَالْعَوَائِدِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ، فَأَخْرَجَ الْمَرْأَةَ مِنْ طَبْعِ أُنُوثَتِهَا فِي إِدْلَالِهَا وَتَمَنُّعِهَا، وَهَبَطَ بِالسَّيِّدَةِ الْمَالِكَةِ مِنْ عِزَّةِ سِيَادَتِهَا وَسُلْطَانِهَا، وَدَهْوَرَ الْأَمِيرَةَ (الْأُرُسْتُقْرَاطِيَّةَ) مِنْ عَرْشِ عَظَمَتِهَا وَتَكَبُّرِهَا، وَأَذَلَّهَا لِعَبْدِهَا وَخَادِمِهَا، وَبِمَا هَوَّنَهُ عَلَيْهَا: قُرْبُ الْوِسَادِ، وَطُولُ السِّوَادِ وَالْخَلْوَةُ مِنْ وَرَاءِ الْأَسْتَارِ وَالْأَبْوَابِ، حَتَّى إِنَّهَا لَتُرَاوِدُهُ عَنْ نَفْسِهِ فِي مَخْدَعِ دَارِهَا، فَيَصُدُّ عَنْهَا عُلُوًّا وَنِفَارًا، ثُمَّ تُصَارِحُهُ بِالدَّعْوَةِ إِلَى نَفْسِهَا فَيَزْدَادُ عُتُوًّا وَاسْتِكْبَارًا، مُعْتَزًّا عَلَيْهَا بِالدِّيَانَةِ وَالْأَمَانَةِ، وَالتَّرَفُّعِ عَنِ الْخِيَانَةِ،

(68/394)

وَحِفْظِ شَرَفِ سَيِّدِهِ وَهُوَ سَيِّدُهَا وَزَوْجُهَا وَحَقُّهُ عَلَيْهَا أَعْظَمُ، إِنَّ هَذَا الِاحْتِقَارَ لَا يُطَاقُ، وَلَا عِلَاجَ لِهَذَا الْفَاتِنِ الْمُتَمَرِّدِ إِلَّا تَذْلِيلُهُ بِالِانْتِقَامِ، هَذَا مَا ثَارَ فِي نَفْسِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْمَفْتُونَةِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ (كَمَا يُقَالُ) وَشَرَعَتْ فِي تَنْفِيذِهِ أَوْ كَادَتْ، بِأَنْ هَمَّتْ بِالْبَطْشِ بِهِ فِي ثَوْرَةِ غَضَبِهَا، وَهُوَ انْتِقَامٌ مَعْهُودٌ مِنْ مِثْلِهَا وَمِمَّنْ دُونَهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَأَكْثَرُ بِمَا تَرْوِيهِ لَنَا

مِنْهُ قَضَايَا الْمَحَاكِمِ وَصُحُفُ الْأَخْبَارِ ، وَكَادَ يَرُدُّ صِيَالَهَا وَيَدْفَعُهُ بِمِثْلِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) وَلَكِنَّهُ رَأَى مِنْ بُرْهَانِ رَبِّهِ فِي سَرِيرَةِ نَفْسِهِ ، مَا هُوَ مِصْدَاقُ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) 21 وَهُوَ إِمَّا النُّبُوَّةُ الَّتِي تَلِي الْحُكْمَ

(69/394)

وَالْعِلْمَ اللَّذَيْنِ آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُمَا بَعْدَ بُلُوغِ الْأَشُدِّ ، وَشَاهِدُهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) 4 : 174 وَإِمَّا مُعْجِزَتُهَا كَمَا قَالَ - تَعَالَى - لِمُوسَى فِي آيَتَيِ الْعَصَا وَالْيَدِ (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ) 28 : 32 وَإِمَّا مُقَدِّمَتُهَا مِنْ مَقَامِ الصِّدِّيقِيَّةِ الْعُلْيَا وَهِيَ مُرَاقَبَتُهُ لِلَّهِ - تَعَالَى - وَرُؤْيَةُ رَبِّهِ مُتَجَلِّيًا لَهُ نَاظِرًا إِلَيْهِ ، وِفَاقًا لِمَا قَالَهُ أَخُوهُ مُحَمَّدٌ - خَاتَمُ النَّبِيِّينَ - فِي تَفْسِيرِ الْإِحْسَانِ : (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) فَيُوسُفُ قَدْ رَأَى هَذَا الْبُرْهَانَ فِي نَفْسِهِ ، لَا صُورَةَ أَبِيهِ مُتَمَثِّلَةً فِي سَقْفِ الدَّارِ ، وَلَا صُورَةَ سَيِّدِهِ الْعَزِيزِ فِي الْجِدَارِ ، وَلَا صُورَةَ مَلَكٍ يَعِظُهُ بِآيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الصُّوَرِ الَّتِي رَسَمَتْهَا أَخْيِلَةُ بَعْضِ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مِنَ اللُّغَةِ وَلَا الْعَقْلِ وَلَا الطَّبْعِ وَلَا الشَّرْعِ ، وَلَمْ يُرْوَ فِي خَبَرٍ مَرْفُوعٍ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الصِّحَاحِ وَلَا فِيمَا دُونَهَا . وَمَا قُلْنَاهُ هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنَ اللُّغَةِ وَوَقَائِعِ الْقِصَّةِ ، وَمُقْتَضَى مَا

وَصَفَ اللهُ بِهِ يُوسُفَ فِي هذَا السِّيَاقِ وَغَيْرِهِ مِنَ السُّورَةِ ، وَلَاسِيَّمَا قَوْلُهُ فِي أَوَّلِه : (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) 22 وَمَا فَسَّرَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِهِ الْإِحْسَانَ ، وَقَوْلُهُ فِي تَعْلِيلِه :

(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ) أَيْ كَذَلِكَ فَعَلْنَا وَتَصَرَّفْنَا فِي أَمْرِهِ لِنَصْرِفَ عَنْهُ دَوَاعِيَ مَا أَرَادَتْهُ بِهِ أَخِيرًا مِنَ السُّوءِ ، وَمَا رَاوَدَتْهُ عَلَيْهِ قَبْلَهُ مِنَ الْفَحْشَاءِ ، بِحَصَانَةٍ أَوْ عِصْمَةٍ مِنَّا تَحُولُ دُونَ تَأْثِيرِ دَوَاعِيهِمَا الطَّبِيعِيَّةِ فِي نَفْسِهِ ، فَلَا يُصِيبُهُ شَيْءٌ يُخْرِجُهُ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ شَهِدْنَا لَهُ بِأَنَّهُ مِنْهُمْ ، إِلَى جَمَاعَةِ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ذَمَّهُمْ وَشَهِدَ هُوَ فِي رَدِّهِ عَلَيْهَا بِأَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ وَشَهَادَتُهُ حَقٌّ (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) بِفَتْحِ اللَّامِ وَهُمْ آبَاؤُهُ الَّذِينَ أَخْلَصَهُمْ رَبُّهُمْ وَصَفَّاهُمْ مِنَ الشَّوَائِبِ وَقَالَ فِيهِمْ : (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ 38 : 45 – 47 وَقَدْ قُلْنَا فِي أَوَّلِ الْقِصَّةِ : إِنَّ يُوسُفَ هُوَ الْحَلْقَةُ الرَّابِعَةُ فِي سِلْسِلَتِهِمُ الذَّهَبِيَّةِ ، وَأَنَّ أَبَاهُ بَشَّرَهُ بِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَصَّ عَلَيْهِ رُؤْيَاهُ إِذْ قَالَ لَهُ : (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) 6 فَالِاجْتِبَاءُ هُوَ الِاصْطِفَاءُ ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ

(الْمُخْلِصِينَ) بِكَسْرِ اللَّامِ . وَالْقِرَاءَتَانِ مُتَلَازِمَتَانِ فَهُمْ مُخْلِصُونَ لِلَّهِ فِي إِيمَانِهِمْ بِهِ وَحُبِّهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ لَهُ ،

وَمُخْلَصُونَ عِنْدَهُ بِالْوِلَايَةِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْعِنَايَةِ

(71/394)

وَالْوِقَايَةِ مِنْ كُلِّ مَا يُبْعِدُهُمْ عَنْهُ وَيُسْخِطُهُ عَلَيْهِمْ ، وَالْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِصَرْفِ اللهِ لِلسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ عَنْهُ ، وَلَمْ يَقُلْ : لِنَصْرِفَهُ عَنِ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ فَإِنَّهُ لَمْ يَعْزِمْ عَلَيْهِمَا ، بَلْ لَمْ يَتَوَجَّهْ إِلَيْهِمَا فَيُصْرَفُ عَنْهُمَا ، وَهَمُّهُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ بِدَفْعِ صِيَالِهَا هَمٌّ بِأَمْرٍ مَشْرُوعٍ ، وُجِدَ مُقْتَضِيهِ مُقْتَرِنًا بِالْمَانِعِ مِنْهُ وَهُوَ رُؤْيَتُهُ بُرْهَانَ رَبِّهِ فَلَمْ يُنَفِّذْهُ ، فَكَانَ الْفَرْقُ بَيْنَ هَمِّهَا وَهَمِّهِ أَنَّهَا أَرَادَتِ الِانْتِقَامَ مِنْهُ شِفَاءً لِغَيْظِهَا مِنْ خَيْبَتِهَا وَإِهَانَتِهِ لَهَا ، فَلَمَّا رَأَى أَمَارَةَ وُثُوبِهَا عَلَيْهِ اسْتَعَدَّ لِلدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ وَهَمَّ بِهِ ، فَكَانَ مَوْقِفُهُمَا مَوْقِفَ الْمُوَاثَبَةِ ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْمُضَارَبَةِ ، وَلَكِنَّهُ رَأَى مِنْ بُرْهَانِ رَبِّهِ وَعِصْمَتِهِ مَا لَمْ تَرَ هِيَ مِثْلَهُ ، فَأَلْهَمَهُ أَنَّ الْفِرَارَ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي تَتِمُّ بِهِ حِكْمَتُهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِيمَا أَعَدَّهُ لَهُ ، فَلَجَأَ إِلَى الْفِرَارِ تَرْجِيحًا لِلْمَانِعِ عَلَى الْمُقْتَضِي ، وَتَبِعَتْهُ هِيَ مُرَجِّحَةً لِلْمُقْتَضِي عَلَى الْمَانِعِ حَتَّى صَارَ جَزْمًا ، وَاسْتَبَقَا بَابَ الدَّارِ ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ ، وَتَقَدَّمَ عَلَيْهِ رَأْيُ الْجُمْهُورِ فِي الْهَمِّ مِنَ

الْجَانِبَيْنِ .

رَأْيُ الْجُمْهُورِ فِي هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا وَبَيَانُ بُطْلَانِهِ :

(72/394)

ذَهَبَ الْجُمْهُورُ وَالْمَخْدُوعُونَ بِالرِّوَايَاتِ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهَا هَمَّتْ بِفِعْلِ الْفَاحِشَةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مُعَارِضٌ وَلَا مَانِعٌ مِنْهَا ، وَهَمَّ هُوَ بِمِثْلِ ذَلِكَ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ لَاقْتَرَفَهَا وَلَمْ يَسْتَحِ بَعْضُهُمْ أَنْ يَرْوِيَ أَخْبَارَ اهْتِيَاجِهِ وَتَهَوُّكِهِ فِيهِ وَوَصْفَ انْهِمَاكِهِ وَإِسْرَافِهِ فِي تَنْفِيذِهِ ، وَتَهَتُّكَ الْمَرْأَةِ فِي تَبَذُّلِهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، مَا لَا يَقَعُ مِثْلُهُ إِلَّا مِنْ أَوْقَحِ الْفُسَّاقِ الْمُسْرِفِينَ الْمُسْتَهْتَرِينَ ، الَّذِينَ طَالَ عَلَيْهِمْ عَهْدُ اسْتِبَاحَةِ الْفَوَاحِشِ وَأُلْفَتِهَا حَتَّى خَلَعُوا الْعِذَارَ ، وَتَجَرَّدُوا مِنْ جَلَابِيبِ الْحَيَاءِ ، وَأَمْسَوْا عُرَاةً مِنْ لِبَاسِ التَّقْوَى وَحُلَلِ الْآدَابِ ، كَأَهْلِ مَدَنِيَّةِ هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي مَوَاخِيرِ الْبِغَاءِ السِّرِّيَّةِ ، وَمَا يَقْرُبُ مِنْهُ فِي حَمَّامَاتِ الْبَحْرِ الْجَهْرِيَّةِ ، حَتَّى كَادُوا يُعِيدُونَ لِلْعَالَمِ فُجُورَ مَدِينَةِ (بُومْبَايِ) الرُّومَانِيَّةِ ، الَّتِي خَسَفَ اللَّهُ بِهَا وَأَمْطَرَ عَلَيْهَا مِنْ بَرَاكِينِ النَّارِ مِثْلَمَا أَمْطَرَ عَلَى قَرْيَةِ قَوْمِ لُوطٍ مِنْ قَبْلِهَا ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا الَّذِي افْتَرَوْهُ فِي قِصَّةِ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ، لَا يَقَعُ مِثْلُهُ مِمَّنِ ابْتُلِيَ بِالْمَعْصِيَةِ أَوَّلَ مَرَّةٍ مِنْ سَلِيمِي الْفِطْرَةِ ، وَلَا مِنْ

سُذَّجِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَمْ تَغْلِبْهُمْ سَوْرَةُ الشَّهْوَةِ الْجَامِحَةِ عَلَى حَيَائِهِمُ الْفِطْرِيِّ، وَإِيمَانِهِمْ وَحَيَائِهِمْ مِنْ نَظَرِ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ،

فَضْلًا عَنْ نَبِيٍّ عَصَمَهُ اللهُ وَوَصَفَهُ بِمَا وَصَفَ، وَشَهِدَ لَهُ بِمَا شَهِدَ، وَقَدْ بَلَغَ بِبَعْضِهِمْ (كَالسُّدِّيِّ) الْجَهْلُ بِالدِّينِ وَالْوَقَاحَةُ وَقِلَّةُ الْأَدَبِ أَنْ يَزْعُمُوا أَنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمْ يَرَ بُرْهَانًا وَاحِدًا، بَلْ رَأَى عِدَّةَ بَرَاهِينَ مِنْ رُؤْيَةِ وَالِدِهِ مُتَمَثِّلًا لَهُ مُنْكِرًا عَلَيْهِ، وَتَكْرَارِ وَعْظِهِ لَهُ، وَمِنْ رُؤْيَةِ بَعْضِ الْمَلَائِكَةِ وَنُزُولِهِمْ عَلَيْهِ بِأَشَدِّ زَوَاجِرِ الْقُرْآنِ بِآيَاتٍ مِنْ سُوَرِهِ، فَلَمْ تَنْهَهُ مِنْ شَبَقِهِ، وَلَمْ تَنْهَهُ عَنْ غَيِّهِ، حَتَّى كَانَ أَنْ خَرَجَتْ شَهْوَتُهُ مِنْ أَظَافِرِهِ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَكُفَّ إِلَّا عَجْزًا عَنِ الْإِمْضَاءِ، أَفَبِهَذَا صَرَفَ اللهُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، وَكَانَ مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُخْلَصِينَ، وَأَنْبِيَائِهِ الْمُصْطَفَيْنَ الْمُجْتَبَيْنَ الْأَخْيَارِ؟

وَلَئِنْ كَانَ عُقَلَاءُ الْمُفَسِّرِينَ أَنْكَرُوا هَذِهِ الرِّوَايَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةَ ، حِمَايَةً لِعَقِيدَةِ عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكَدْ يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْ تَأْثِيرِ بَعْضِهَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَتَسْلِيمِهِمْ لَهُمْ أَنَّ الْهَمَّ مِنَ الْجَانِبَيْنِ كَانَ بِمَعْنَى الْعَزْمِ عَلَى الْفَاحِشَةِ ، إِلَّا مَنْ خَالَفَ قَوَاعِدَ اللُّغَةِ فَقَالَ إِنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى - : (وَهَمَّ بِهَا) جَوَابٌ لِقَوْلِهِ : (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ وَمَنْ قَالَ : إِنَّ جَوَابَهُ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ ، فَهُوَ عَلَى هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ لَمْ يَهُمَّ بِشَيْءٍ ، وَهُوَ خِلَافُ الْمُتَبَادِرِ مِنَ الْعِبَارَةِ أَوْ ظَاهِرِهَا ، وَتَأَوَّلَهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ هَمَّهُ بِالْفَاحِشَةِ بِمُقْتَضَى الدَّاعِيَةِ الْفِطْرِيَّةِ لَا يُنَافِي الْعِصْمَةَ ، وَإِنَّمَا يُنَافِيهَا طَاعَتُهَا بِدَلِيلِ مَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ (مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَفْعَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ) ، وَأَنَّ امْتِنَاعَهُ عَنْهَا بِتَرْجِيحِ دَاعِيَةِ الْإِيمَانِ وَطَاعَةِ اللهِ - تَعَالَى - مَعَ طُغْيَانِهَا وَإِلْحَاحِهَا الطَّبِيعِيِّ عَلَيْهِ أَدَلُّ عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ مِنْ كَوْنِهِ لَمْ يَفْعَلْهَا كَرَاهَةً لَهَا وَعُزُوفًا عَنْهَا لِقُبْحِهَا ، وَلَهُمْ تَأْوِيلَاتٌ مِنْ هَذَا ، وَلَقَدْ كَانُوا لَوْلَا تَأْثِيرُ الرِّوَايَةِ فِي غِنًى عَنْهَا .

(75/394)

وَالتَّأْوِيلُ الْأَخِيرُ أَوَّلُهُ مَقْبُولٌ وَآخِرُهُ مَرْدُودٌ ، فَهُنَا مَرْتَبَتَانِ : إِحْدَاهُمَا الْكَفُّ عَنِ الْمَعْصِيَةِ جِهَادًا لِلنَّفْسِ وَكَبْحًا لَهَا خَوْفًا مِنَ اللهِ - تَعَالَى - وَهِيَ مَرْتَبَةُ الصَّالِحِينَ الْأَبْرَارِ ، وَمَرْتَبَةُ الْكَرَاهَةِ لَهَا وَالِاشْمِئْزَازِ مِنْهَا حَيَاءً مِنَ اللهِ وَمُرَاقَبَةً لَهُ وَاسْتِغْرَاقًا فِي شُهُودِهِ ، وَهِيَ مَرْتَبَةُ

الصِّدِّيقِينَ وَالنَّبِيِّينَ الْأَخْيَارِ ، الَّذِينَ إِذَا عَرَضَتْ لَهُمُ الشَّهْوَةُ الْمُسْتَلَذَّةُ بِالطَّبْعِ ، بِالصُّورَةِ الْمُحَرَّمَةِ فِي الشَّرْعِ ، عَارَضَهَا مِنْ وِجْدَانِ الْإِيمَانِ ، وَتَجَلِّي الرَّحْمَنِ ، مَا تَغْلِبُ بِهِ رُوحَانِيَّتُهُمُ الْمَلَكِيَّةُ ، عَلَى طَبِيعَتِهِمُ الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَهَذَا مِمَّا قَدْ يَحْصُلُ لِمَنْ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْهُمْ ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَرَوْنَ بُرْهَانَ رَبِّهِمْ بِأَعْيُنِ قُلُوبِهِمْ ، وَيَنْعَكِسُ نُورُهُ عَنْ بَصَائِرِهِمْ فَيَلُوحُ لِأَبْصَارِهِمْ ، كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ آنِفًا ؟

(76/394)

وَلِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ دَرَجَاتٌ مِنْهَا : فَقْدُ الشَّهْوَةِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي هَذِهِ الْحَالِ ، أَوْ فَقْدُ الشُّعُورِ بِالْقُدْرَةِ عَلَى وَضْعِهَا فِي الْمَوْضِعِ الْمُحَرَّمِ مَعَ وُجُودِهَا عَلَى أَشُدِّهَا ، وَلَا عَجَبَ ؛ فَقُوَى النَّفْسِ وَانْفِعَالَاتُهَا الْوِجْدَانِيَّةُ تَتَنَازَعُ فَيَغْلِبُ أَقْوَاهَا أَضْعَفَهَا . حَتَّى إِنَّ مِنَ الْإِبَاحِيِّينَ وَالْإِبَاحِيَّاتِ مِنْ أَهْلِ الْحُرِّيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ مَنْ يَمْلِكُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْخَلْوَةِ مَنْعَ نَفْسِهِ أَنْ يُبِيحَهَا لِمَنْ يُرَاوِدُهُ عَنْهَا ، لَا خَوْفًا مِنَ اللهِ وَلَا حَيَاءً مِنْهُ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِهِ أَوْ بِعِقَابِهِ ، بَلْ وَفَاءً لِزَوْجٍ أَوْ عَشِيقٍ عَاهَدَهُ عَلَى الِاخْتِصَاصِ بِهِ فَصَدَقَهُ .

حَدَّثَنَا مُصَوِّرٌ سُورِيٌّ كَانَ زِيرَ نِسَاءٍ فَاسِقًا أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكَانِيَّةِ ، فَأَعْلَنَ فِي بَعْضِ الْجَرَائِدِ أَنَّهُ يَطْلُبُ امْرَأَةً جَمِيلَةً لِأَجْلِ أَنْ يُصَوِّرَهَا كَمَا يَشَاءُ بِجُعْلٍ مُعَيَّنٍ مِنَ

الْمَالِ ، وَهَذَا مَعْهُودٌ عِنْدَ الْإِفْرِنْجِ ، فَجَاءَهُ عِدَّةٌ مِنَ الْحِسَانِ اخْتَارَ إِحْدَاهُنَّ وَخَلَا بِهَا فِي حُجْرَتِهِ الْخَاصَّةِ وَأَوْصَدَ بَابَهَا ، وَأَمَرَهَا بِالتَّجَرُّدِ مِنْ جَمِيعِ ثِيَابِهَا ، فَتَجَرَّدَتْ فَطَفِقَ

يُصَوِّرُهَا عَلَى أَوْضَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنِ انْتِصَابٍ وَانْحِنَاءٍ ، وَمَيْلٍ وَالْتِوَاءٍ ، وَإِقْبَالٍ وَإِدْبَارٍ ، وَهُوَ لَا يُفَكِّرُ فِي غَيْرِ إِتْقَانِ صِنَاعَتِهِ ، فَعَرَضَ لَهَا دُوَارٌ فِي رَأْسِهَا ، فَجَلَسَتْ عَلَى أَرِيكَةٍ لِلِاسْتِرَاحَةِ فَجَلَسَ بِجَانِبِهَا ، وَأَنْشَأَ يُلَاعِبُهَا وَيُدَاعِبُهَا وَهِيَ سَاكِنَةٌ سَاكِتَةٌ ، فَتَنَبَّهَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الشُّعُورِ مَا كَانَ غَافِلًا أَوْ نَائِمًا ، فَرَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا ، فَتَمَنَّعَتْ بَلِ امْتَنَعَتْ ، فَعَرَضَ عَلَيْهَا الْمَالَ فَأَعْرَضَتْ ، فَقَالَ لَهَا : أَنْتِ حُرَّةٌ فِي نَفْسِكِ ، وَلَكِنِّي أَرْجُو مِنْكِ أَنْ تُجِيبِينِي عَنْ سُؤَالٍ عِلْمِيٍّ هُوَ مَا بَيَانُ سَبَبِ هَذَا الِامْتِنَاعِ ؟ قَالَتْ : سَبَبُهُ أَنِّي عَاهَدْتُ رَجُلًا يُحِبُّنِي وَأُحِبُّهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنَّا لِلْآخَرِ لَا يُشْرِكُ فِي الِاسْتِمْتَاعِ بِهِ أَحَدًا ، وَلَا يَبْتَغِي بِهِ بَدَلًا ، فَقَالَ لَهَا : إِنِّي أُهَنِّئُكِ وَأَحْتَرِمُ وَفَاءَكِ هَذَا ، ثُمَّ أَتَمَّ صِنَاعَتَهُ وَنَقَدَهَا الْجُعْلَ الْمُعَيَّنَ فَأَخَذَتْهُ وَانْصَرَفَتْ .

وَالرَّاجِحُ عِنْدِي أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ لَمْ تَشْتَهِ مُوَاتَاةَ هَذَا الرَّجُلِ فَتُجَاهِدُ نَفْسَهَا عَلَى الِامْتِنَاعِ، وَأَنَّ الْمَانِعَ مِنِ اشْتِهَائِهِ تَوْطِينُ نَفْسِهَا عَلَى الْوَفَاءِ لِعَشِيقِهَا الْأَوَّلِ، حَتَّى لَمْ تَعُدْ تَتَوَجَّهُ إِلَى الِاسْتِمْتَاعِ بِغَيْرِهِ، وَتَوْجِيهُ النَّفْسِ إِلَى الشَّيْءِ أَوْ عَنْهُ هُوَ صَاحِبُ السُّلْطَانِ الْأَعْلَى عَلَى الْإِرَادَةِ، وَتَرْبِيَةُ الْإِرَادَةِ هِيَ أَصْلُ التَّخَلُّقِ بِالْفَضَائِلِ وَالتَّخَلِّي عَنِ الرَّذَائِلِ بِاتِّفَاقِ الْحُكَمَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ، وَيُسَمِّي هَؤُلَاءِ سَالِكَ طَرِيقِ الْحَقِّ مُرِيدًا،

وَالْوَاصِلَ إِلَى غَايَتِهِ مُرَادًا، أَيْ مُجْتَبًى مُخْتَارًا، وَهُوَ لَا يَكُونُ عَلَى كَمَالِهِ إِلَّا لِأَصْحَابِ الْإِيمَانِ الْيَقِينِيِّ الْوِجْدَانِيِّ، وَمَنْ ذَاقَ عَرَفَ، وَمَنْ حُرِمَ انْحَرَفَ، كَمَا قَالَ أُسْتَاذُنَا فِي رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ، وَلَقَدْ عَجِبْنَا أَنْ أَنْكَرَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْمَحْرُومِينَ عَنْ هَذَا مِمَّنْ نَعُدُّهُمْ بِحَقٍّ مِنَ الصَّالِحِينَ قَوْلَنَا فِي الْمَقْصُورَةِ الرَّشِيدِيَّةِ فِيمَنِ امْتَنَعَ مِنْ رُقْيَةِ صَدْرِ فَتَاةٍ حَسْنَاءَ:

أَتَتْ فَتًى خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ . . . مَا زَالَ يَنْهَى نَفْسَهُ عَنِ الْهَوَى
لَمْ يَقْتَرِفْ فَاحِشَةً قَطُّ وَلَمْ يَعْزِمْ . . . وَلَا هَمَّ بِهَا وَلَا نَوَى
بِغِرَّةٍ مِنْهَا وَصَفْوِيَّةٍ . . . فِي مَعْزِلٍ تُشْهِيهِ أَقْصَى مَا اشْتَهَى
مِمَّا يُمَنِّيهِ بِهِ شَيْطَانُهُ مِنْ . . . حَيْثُ لَا يَطْمَعُ مِنْهُ فِي خَنَا
لَكِنَّهُ اسْتَعْصَمَ رَاوِيًا لَهَا . . . مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَمَا نَهَى

إِذْ ظَنَّ الْمُنْكِرُ فِيهِ أَنَّهُ فَضَّلَ نَفْسَهُ عَلَى يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَيْنَ هَذَا مِنْ ذَاكَ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ أَعْظَمَ مَزَايَا الْبَشَرِ فِي قُوَّةِ الْإِرَادَةِ فَلَوْلَاهَا لَكَانَ الْإِنْسَانُ كَالْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ عَبْدَ الطَّبِيعَةِ ، وَلِذَلِكَ كَانَتِ الْمُرَاوَدَةُ احْتِيَالًا لِتَحْوِيلِ الْإِرَادَةِ وَجَعْلِهَا خَاضِعَةً لِلْمُرَاوِدِ ، وَإِنَّمَا يَظْفَرُ فِيهَا مَنْ كَانَتْ إِرَادَتُهُ أَقْوَى ، وَفَوْقَ ذَلِكَ عِنَايَةُ اللهِ - تَعَالَى - (فَتَأَمَّلْ وَتَدَبَّرْ) .

فَإِذَا كَانَ فِي أَهْلِ الْإِبَاحَةِ وَالْحُرِّيَّةِ الْمُطْلَقَةِ مَنْ تَمْلِكُ إِرَادَتَهَا وَلَا تَلِينُ لِمُرَاوِدِهَا ، وَلَا يُغْرِيهَا

الْمَالُ وَهُوَ الْمَعْبُودُ الْأَكْبَرُ لِأَمْثَالِهَا فِي بِلَادِهَا ، فَيَحْمِلُهَا عَلَى نَقْضِ عَهْدِهَا فِي مِثْلِ تِلْكَ الْخَلْوَةِ وَذَلِكَ التَّجَرُّدِ بَيْنَ يَدَيْ مُصَوِّرِهَا ، وَلَقَدْ كَانَ مِنْ أَجْمَلِ الشَّبَابِ ، وَأَبْرَعِهِنَّ فِي تَصَبِّي النِّسَاءِ ، أَفَيَكْثُرُ أَوْ يُسْتَغْرَبُ فِي رَأْيِ أُولَئِكَ الرُّوَاةِ ، أَنْ يَكُونَ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ فِي وِرَاثَتِهِ الْفِطْرِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَمَقَامِ النُّبُوَّةِ عَنْ آبَائِهِ الْأَكْرَمِينَ ، وَمَا اخْتَصَّهُ بِهِ رَبُّهُ وَكَوْنُهُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ مِنْ تَرْبِيَتِهِ وَعِنَايَتِهِ ، وَمَا شَهِدَ لَهُ بِهِ مِنَ الْعِرْفَانِ وَالْإِحْسَانِ

وَالاصْطِفَاءِ ، وَمَا صَرَفَ عَنْهُ مِنْ دَوَاعِي السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ، وَمَا قَصَّ عَلَيْنَا مِنْ شَهَادَةِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ لَهُ عَلَى نَفْسِهَا بِقَوْلِهَا : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) 32 أَيِ اسْتَمْسَكَ بِعُرْوَةِ الْعِصْمَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا انْفِصَامَ لَهَا ، ثُمَّ شَهِدَ لَهُ بِهِ صَوَاحِبُهَا مِنَ الْمُرَاوِدَاتِ مِنْ قَوْلِهِنَّ : (حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ

مِنْ سُوءٍ) 51 أَيْ أَدْنَى شَيْءٍ سَيِّئٍ ، ثُمَّ مَا أَيَّدَتْ بِهِ شَهَادَتَهُنَّ مِنْ قَوْلِهَا : (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) 51 أَيُكْثَرُ عَلَيْهِ أَوْ يُسْتَغْرَبُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَمْلَكَ لِنَفْسِهِ مِنْ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْإِبَاحِيَّةِ ، أَوْ بِمَنْجَاةٍ مِنَ الْهَمِّ الَّذِي زَعَمُوهُ ، وَصَوَّرُوهُ بِشَرِّ مَا تَصَوَّرُوهُ ، أَوْ بِمَا صَوَّرَهُ لَهُمْ مُضِلُّوهُمْ مِنْ زَنَادِقَةِ الْيَهُودِ لِيُلَبِّسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَيُشَوِّهُوا بِهِ تَفْسِيرَ كَلَامِ رَبِّهِمْ ؟ ثُمَّ يَكُونُ مُنْتَهَى شَوْطِ الْمُنْكِرِينَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَأَوَّلُوا تَفْسِيرَهُمْ تَأْوِيلًا ، وَالْقُرْآنُ يَتَبَرَّأُ مِنْهُ بِلُغَتِهِ وَأُسْلُوبِهِ وَأَدَبِهِ وَهِدَايَتِهِ ، وَالْعِبْرَةُ الْمُرَاوَدَةُ مِنْهُ لِخَاتَمِ رُسُلِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ إِسْنَادُ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ إِلَى بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَنَا مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى وَضْعِهَا عَلَيْهِمْ ، أَوْ تَصْدِيقِهِمْ لِقَوْلِ بَعْضِ الْيَهُودِ فِيهَا إِلَّا بُطْلَانُ مَوْضُوعِهَا فِي نَفْسِهِ ، وَكَوْنِهِ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ فِي الْقِصَّةِ الَّتِي لَمْ يَعْلَمْ رَسُولُ اللهِ مِنْهَا غَيْرَ مَا قَصَّهُ اللهُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ

السُّورَةِ – كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي آيَةِ (102) آخِرِهَا – لَوْ لَمْ يَكُنْ لَنَا مِنْ أَدِلَّةِ وَضْعِهَا غَيْرُ هَذَا لَكَفَى ، فَكَيْفَ وَهِيَ مُخَالِفَةٌ لِلْقُرْآنِ فِي لُغَتِهِ كَمُخَالَفَتِهَا لَهُ فِي هِدَايَتِهِ أَيْضًا !

رَدُّ قَوْلِ الْجُمْهُورِ فِي تَفْسِيرِ هَمِّهَا وَهَمِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

فَأَنَا أَرُدُّ عَلَى جَمِيعِ مَنْ فَسَّرُوا هَمَّ الْمَرْأَةِ بِغَيْرِ مَا اخْتَرْتُهُ ، لَا هَمَّهُ وَحْدَهُ ، وَأَقُولُ : لَوْلَا الْغُرُورُ بِالرِّوَايَاتِ الْبَاطِلَةِ لَمْ يَخْطُرْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ غَيْرُهُ ، أَرُدُّ عَلَيْهِمْ بِعِبَارَةِ الْقُرْآنِ فِي مَدْلُولِهَا اللُّغَوِيِّ فَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ فَأَقُولُ :

أَجْمَعَ أَهْلُ اللُّغَةِ عَلَى أَنَّ الْهَمَّ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْأَعْمَالِ ، لَا بِالشُّخُوصِ وَالْأَعْيَانِ ، وَتَحْقِيقُ مَعْنَاهُ أَنَّهُ مُقَارَبَةُ فِعْلٍ تَعَارَضَ فِيهِ الْمَانِعُ وَالْمُقْتَضِي فَلَمْ يَقَعْ لِرُجْحَانِ الْمَانِعِ ، وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِقَوْلِ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ فِي التَّعَارُضِ الْأَعَمِّ ، وَلَكِنَّ رُجْحَانَ الْمَانِعِ هُنَا قَدْ يَكُونُ بِإِرَادَةِ صَاحِبِ الْهَمِّ وَمِنْهُ هَمُّ يُوسُفَ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِ وَمِنْهُ هَمُّ هَذِهِ الْمَرْأَةِ : كَانَ هَمُّهُمَا وَاحِدًا وَهُوَ الْبَطْشُ بِالضَّرْبِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ ، وَكَانَ الْمَانِعُ مِنْهُ إِرَادَتَهُ هُوَ وَعَجْزَهَا هِيَ بِهَرَبِهِ ، وَهَاكَ الشَّوَاهِدَ عَلَى الْقِسْمَيْنِ .

حَكَى اللهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ أَنَّهُمْ مَكَرُوا بِالرَّسُولِ لِيُثْبِتُوهُ أَوْ يَقْتُلُوهُ أَوْ يُخْرِجُوهُ ،

وَحَكَى عَنْهُمْ وَعَنِ الْمُنَافِقِينَ فِي التَّوْبَةِ أَنَّهُمْ (هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ) آيَةَ 13 - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ بَلَدِهِ مَكَّةَ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا لِأَنَّهُمْ خَافُوا أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْعَرَبِ فَيَقْوَى أَمْرُهُ، فَرَجَّحُوا الْمَانِعَ بِإِرَادَتِهِمْ، وَحَكَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ (هَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) آيَةَ 74 إِذْ حَاوَلُوا أَنْ

(83/394)

يُشْرِدُوا بِهِ بَعِيرَهُ فِي الْعَقَبَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَلَمْ يَنَالُوا مُرَادَهُمْ عَجْزًا مِنْهُمْ وَحِفْظًا مِنْ رَبِّهِ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - لَهُ: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ) 4 : 113 وَلَكِنَّهُ قَدَّمَ هُنَا وَلَوْلَا فَكَانَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُمْ فَكَّرُوا فِي ذَلِكَ وَمَا قَارَبُوا . وَقَالَ فِي بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ: (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا) 3 : 122 أَيْ تَتْرُكَا الْمُضِيَّ مَعَ الرَّسُولِ لِلْقِتَالِ يَوْمَ (أُحُدٍ) جُبْنًا وَاتِّبَاعًا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ . وَلَكِنْ غَلَبَ عَلَيْهِمَا دَاعِي الْإِيمَانِ فَلَمْ تَفْشَلَا، وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى -: (وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا) 3 : 122 فَرَجَّحَتَا الْمَانِعَ مِنَ الْفَشَلِ بِالْمُقْتَضِي لِلْجِهَادِ . وَفِي الْمُسْنَدِ وَالصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَمَّ أَنْ يَأْمُرَ رَجُلًا يُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ يَأْمُرَ مَنْ يُحَرِّقُ عَلَى الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ بُيُوتَهُمْ

- وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ: ثُمَّ آتِي قَوْمًا يُصَلُّونَ فِي بُيُوتِهِمْ لَيْسَتْ بِهِمْ عِلَّةٌ فَأُحَرِّقُهَا عَلَيْهِمْ) يَعْنِي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ هَذَا حَتَّى كَادَ يَفْعَلُهُ، وَلَكِنَّهُ امْتَنَعَ تَرْجِيحًا لِلْمَانِعِ عَلَى الْمُقْتَضِي .

(84/394)

إِذَا عُلِمَ هَذَا، فَمِنَ الْجَلِيِّ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ تَفْسِيرُ: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) بِهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي أَثْبَتْنَاهُ بِشَوَاهِدِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَّا بِمَا قَرَّرْنَاهُ، وَأَنَّ مَا قَالَهُ الْجُمْهُورُ بَاطِلٌ لِمُخَالَفَتِهِ لَهُ، بَلْ لِلُغَةِ الْقُرْآنِ وَهِدَايَتِهِ، وَإِنَّمَا خَدَعَتْهُمْ بِهِ الرِّوَايَاتُ الْبَاطِلَةُ، وَبَيَانُهُ مِنْ وُجُوهٍ:

(أَوَّلُهَا) أَنَّ الْهَمَّ لَا يَكُونُ إِلَّا بِفِعْلٍ لِلْهَامِّ، وَالْوِقَاعُ لَيْسَ مِنْ أَفْعَالِ الْمَرْأَةِ فَتَهُمَّ بِهِ، وَإِنَّمَا نَصِيبُهَا مِنْهُ قَبُولُهُ مِمَّنْ يَطْلُبُهُ مِنْهَا بِتَمْكِينِهِ مِنْهُ، وَهَذَا التَّمْكِينُ هُوَ الَّذِي يَثْبُتُ بِهِ دُخُولُ الزَّوْجِيَّةِ الَّذِي تَسْتَحِقُّ فِيهِ الْمَرْأَةُ النَّفَقَةَ مِنْ زَوْجِهَا كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي الْفِقْهِ .

(ثَانِيهَا) أَنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمْ يَطْلُبْ مِنِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ هَذَا الْفِعْلَ فَيُسَمَّى قَبُولُهَا لِطَلَبِهِ وَرِضَاهَا بِتَمْكِينِهِ مِنْهُ هَمًّا لَهَا، فَإِنَّ نُصُوصَ الْآيَاتِ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَبَعْدَهَا تُبَرِّئُهُ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مِنْ وَسَائِلِهِ وَمُقَدِّمَاتِهِ أَيْضًا .

(ثَالِثُهَا) لَوْ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ لَكَانَ الْوَاجِبُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ أَنْ يُقَالَ: (وَلَقَدْ هَمَّ بِهَا وَهَمَّتْ بِهِ)؛

لِأَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الْمُقَدَّمُ بِالطَّبْعِ وَالْوَضْعِ وَهُوَ الْهَمُّ الْحَقِيقِيُّ . وَالْهَمُّ الثَّانِي مُتَوَقِّفٌ عَلَيْهِ لَا يَتَحَقَّقُ بِدُونِهِ .

(رَابِعُهَا) أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ مِنَ الْقِصَّةِ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ كَانَتْ عَازِمَةً عَلَى مَا طَلَبَتْهُ

طَلَبًا جَازِمًا مُصِرَّةً عَلَيْهِ ، لَيْسَ عِنْدَهَا أَدْنَى تَرَدُّدٍ فِيهِ وَلَا مَانِعَ مِنْهُ يُعَارِضُ الْمُقْتَضِي لَهُ ، فَإِذَنْ

لَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ إِنَّهَا هَمَّتْ بِهِ مُطْلَقًا ، حَتَّى لَوْ فُرِضَ جَدَلًا أَنَّهُ كَانَ قَبُولًا لِطَلَبِهِ وَمُوَاتَاةً لَهُ ؛ إِذِ الْهَمُّ مُقَارَبَةُ الْفِعْلِ الْمُتَرَدَّدِ فِيهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَصِحُّ فِيمَا حَقَّقْنَاهُ مِنْ إِرَادَةِ تَأْدِيبِهِ بِالضَّرْبِ عَلَى أَهْوَنِ تَقْدِيرٍ ، فَهَذَا هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنْ نَصِّ اللُّغَةِ وَمِنَ السِّيَاقِ وَأَقْرَبُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :

(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ) أَيْ فَرَّ يُوسُفُ مِنْ أَمَامِهَا هَارِبًا إِلَى بَابِ الدَّارِ يُرِيدُ الْخُرُوجَ مِنْهُ لِلنَّجَاةِ مِنْهَا ، تَرْجِيحًا لِلْفِرَارِ عَلَى الدِّفَاعِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَدَاهُ ، وَتَبِعَتْهُ تَبْغِي إِرْجَاعَهُ حَتَّى لَا يُفْلِتَ

مِنْ يَدِهَا ، وَهِيَ لَا تَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ إِذَا هُوَ خَرَجَ وَلَا مَا يَقُولُ وَمَا يَفْعَلُ ، وَتَكَلَّفَ كُلٌّ مِنْهُمَا أَنْ يَسْبِقَ الْآخَرَ ، فَأَدْرَكَتْهُ (وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ) إِذْ جَذَبَتْهُ بِهِ مِنْ وَرَائِهِ فَانْقَدَّ ، قَالُوا : إِنَّ الْقَدَّ خَاصٌّ بِقَطْعِ الشَّيْءِ أَوْ شَقِّهِ طُولًا وَالْقَطُّ قَطْعُهُ عَرْضًا (وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) أَيْ وَجَدَا زَوْجَهَا عِنْدَ الْبَابِ ، وَكَانَ النِّسَاءُ فِي مِصْرَ يُلَقِّبْنَ الزَّوْجَ بِالسَّيِّدِ وَاسْتَمَرَّ هَذَا إِلَى زَمَانِنَا ، وَلَمْ يَقُلْ سَيِّدَهُمَا لِأَنَّ اسْتِرْقَاقَ يُوسُفَ غَيْرُ شَرْعِيٍّ ، وَهَذَا كَلَامُ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا كَلَامُ الرَّجُلِ الْمُسْتَرِقِّ لَهُ ، وَلَعَلَّهُ كَانَ قَدْ تَبَنَّاهُ بِالْفِعْلِ ، فَلَمَّا دَخَلَ وَرَآهُمَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْمُنْكَرَةِ (قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) أَيْ شَيْئًا يَسُوءُكَ مَهْمَا يَكُنْ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَنْكِيرُ (سُوءًا) ، (إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ) أَيْ إِلَّا سِجْنٌ يُعَاقَبُ بِهِ أَوْ (عَذَابٌ أَلِيمٌ) مُوجِعٌ يُؤَدِّبُهُ وَيُلْزِمُهُ الطَّاعَةَ . وَكَانَ هَذَا الْقَوْلُ مَكْرًا وَخِدَاعًا لِزَوْجِهَا مِنْ وُجُوهٍ .

(أَوَّلُهَا) إِيهَامُ زَوْجِهَا أَنَّ يُوسُفَ قَدِ اعْتَدَى عَلَيْهَا بِمَا يَسُوءُهُ وَيَسُوءُهَا .

(ثَانِيهَا) أَنَّهَا لَمْ تُصَرِّحْ بِذَنْبِهِ لِئَلَّا يَشْتَدَّ غَضَبُهُ فَيُعَاقِبُهُ بِغَيْرِ مَا تُرِيدُهُ كَبَيْعِهِ مَثَلًا .

(ثَالِثُهَا) تَهْدِيدُ يُوسُفَ وَإِنْذَارُهُ مَا يُعْلَمُ بِهِ أَنَّ أَمْرَهُ بِيَدِهَا لِيَخْضَعَ لَهَا وَيُطِيعَهَا .

فَمَاذَا قَالَ يُوسُفُ فِي دَفْعِ التُّهْمَةِ الْبَاطِلَةِ عَنْهُ وَإِسْنَادِهَا إِلَيْهَا بِالْحَقِّ ؟ وَلَوْلَاهُ لَأَسْبَلَ عَلَيْهَا

ذَيْلَ السِّتْرِ ؟

(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ

كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) .

(آيَاتُ تَحْقِيقِ زَوْجِهَا فِي الْقَضِيَّةِ) :

هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ فِي تَحْقِيقِ الْقَضِيَّةِ وَعِلْمِ زَوْجِهَا بِهِ بِرَاءَةَ يُوسُفَ وَثُبُوتَ خَطِيئَتِهَا ، وَبُدِئَ بِبَيَانِ جَوَابِهِ الصَّرِيحِ الْمُنْتَظَرِ بَعْدَ اتِّهَامِهَا إِيَّاهُ بِالتَّلْمِيحِ وَهُوَ :

(88/394)

(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي) فَامْتَنَعْتُ وَفَرَرْتُ كَمَا تَرَى . فَصَارَتِ النَّازِلَةُ أَوِ الْقَضِيَّةُ بِاخْتِلَافِ قَوْلَيْهِمَا مَوْضُوعَ بَحْثٍ وَتَحْقِيقٍ وَتَشَاوُرٍ بَيْنَ زَوْجِهَا وَأَهْلِهَا لَمْ يُبَيِّنْ لَنَا التَّنْزِيلُ تَفْصِيلَهُ ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقِصَّةِ فِيهِ بَيَانُ نَزَاهَةِ يُوسُفَ وَفَضَائِلِهِ لِلْعِبْرَةِ لَهَا . وَإِنَّمَا عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا وَقَعَ بِالْفِعْلِ ، كَمَا نَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ مُتَوَقَّعًا بِحُكْمِ الْعَادَةِ وَالْعَقْلِ ، وَمِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - :

(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) أَيْ أَخْبَرَ عَنْ مُشَاهَدَةٍ أَوْ عِلْمٍ كَالْمُشَاهَدَةِ، وَقِيلَ: حَكَمَ مُسْتَدِلًّا بِمَا ذُكِرَ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الشَّاهِدِ كَعَادَتِهِمْ فِي الْمُبْهَمَاتِ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا التَّخَيُّلُ وَالِاخْتِرَاعُ، هَلْ كَانَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا أَوْ حَكِيمًا أَوْ مِنْ خَاصَّةِ الْمَلِكِ أَوْ حَيَوَانًا، حَتَّى رَوَوْا عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ بِإِنْسٍ وَلَا جَانٍّ، هُوَ خَلْقُ اللهِ، مَعَ قَوْلِ اللهِ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا، وَلَكِنَّ الرِّوَايَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكِ أَنَّهُ كَانَ صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ، يُؤَيِّدُهَا مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ جَرِيرٍ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: (تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ: ابْنُ مَاشِطَةِ فِرْعَوْنَ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ يُوسُفَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ تَكَلَّمُوا فِي الْمَهْدِ) وَهَذَا

مَوْقُوفٌ وَالْمَرْفُوعُ ضَعِيفٌ، وَقَدِ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَحَكَاهُ ابْنُ كَثِيرٍ بِدُونِ تَأْيِيدٍ وَلَا رَدٍّ، وَأَمَّا هَذِهِ الشَّهَادَةُ - وَفَسَّرَهَا بَعْضُهُمْ بِالْحُكْمِ - فَهِيَ قَوْلُهُ:

(إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ) أَيْ مِنْ قُدَّامٍ فَصَدَقَتْ فِي دَعْوَاهَا أَنَّهُ أَرَادَ بِهَا سُوءًا، فَإِنَّهُ لَمَّا وَثَبَ عَلَيْهَا أَخَذَتْ بِتَلَابِيبِهِ فَجَاذَبَهَا فَانْقَدَّ قَمِيصُهُ وَهُمَا يَتَنَازَعَانِ وَيَتَصَارَعَانِ (وَهُوَ مِنَ

الْكَاذِبِينَ) فِي دَعْوَاهُ أَنَّهَا رَاوَدَتْهُ فَامْتَنَعَ وَفَرَّ فَتَبِعَتْهُ وَجَذَبَتْهُ تُرِيدُ إِرْجَاعَهُ، (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ) أَيْ مِنْ خَلْفٍ (فَكَذَبَتْ) فِي دَعْوَاهَا أَنَّهُ هَجَمَ عَلَيْهَا يُرِيدُ ضَرْبَهَا (وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فِي قَوْلِهِ إِنَّهُ فَرَّ مِنْهَا هَارِبًا. وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ ظَاهِرَةٌ عَلَى التَّفْسِيرِ الْمُخْتَارِ الَّذِي قَرَّرْنَاهُ، وَمُشْكِلَةٌ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ بَعْضُ الْمُدَقِّقِينَ.

(فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ) أَيْ إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ وَمُحَاوَلَةَ التَّنَصُّلِ

مِنْهُ بِالِاتِّهَامِ، مِنْ كَيْدِكُنَّ الْمَعْهُودِ مِنْكُنَّ مَعْشَرَ النِّسَاءِ. فَهُوَ لَمْ يَخُصَّ الْكَيْدَ بِزَوْجِهِ فَيُقَالُ: إِنَّهُ أَمْرٌ شَاذٌّ مِنْهَا يَجِبُ التَّرَوِّي فِي تَحْقِيقِهِ بِأَكْثَرَ مِمَّا شَهِدَ بِهِ أَحَدُ أَهْلِهَا، وَهُوَ لَا يُتَّهَمُ فِي التَّحَامُلِ عَلَيْهَا وَظُلْمِهَا، بَلْ هُوَ سُنَّةٌ عَامَّةٌ فِيهِنَّ فِي التَّفَصِّي مِنْ خَطِيئَاتِهِنَّ، فَقَدْ أَثْبَتَ خَطِيئَتَهَا مُسْتَدِلًّا عَلَيْهَا بِالسُّنَّةِ الْعَامَّةِ لَهُنَّ فِي أَمْثَالِهَا (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) لَا قِبَلَ لِلرِّجَالِ بِهِ، وَلَا يَفْطِنُونَ لِحِيَلِكُنَّ فِي دَقَائِقِهِ.

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: وَلِرَبَّاتِ الْقُصُورِ مِنْهُنَّ الْقِدْحُ الْمُعَلَّى مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُنَّ أَكْثَرُ تَفَرُّغًا لَهُ مِنْ غَيْرِهِنَّ، مَعَ كَثْرَةِ اخْتِلَافِ الْكَيَّادَاتِ إِلَيْهِنَّ. وَهَهُنَا يَذْكُرُونَ قَوْلَهُ - تَعَالَى -: (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) 4: 76 يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى أَنَّ كَيْدَ النِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ

، وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ ، وَإِنْ فَرَضْنَا أَنَّ حِكَايَةَ قَوْلِ هَذَا إِقْرَارٌ لَهُ ، فَالْمَقَامُ مُخْتَلِفٌ ، وَإِنَّمَا كَيْدُ النِّسْوَانِ بَعْضُ كَيْدِ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهَا وَإِلَى يُوسُفَ قَائِلًا :

(يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) الْكَيْدِ الَّذِي جَرَى لَكَ وَلَا تَتَحَدَّثْ بِهِ ، وَلَا تَخَفْ مِنْ تَهْدِيدِهَا لَكَ (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ) أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ وَتُوبِي إِلَى اللهِ - تَعَالَى - (إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) أَيْ مِنْ جِنْسِ الْمُجْرِمِينَ مُرْتَكِبِي الْخَطَايَا الْمُتَعَمِّدِينَ لَهَا .

(91/394)

وَلِهَذَا غَلَّبَ فِيهِ جَمْعَ الْمُذَكَّرِ فَلَمْ يَقُلْ مِنَ الْخَاطِئَاتِ (وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْكَرْخِيُّ بِقَوْلِ هَذَا الْوَزِيرِ الْكَبِيرِ لِزَوْجِهِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَلِيلَ الْغِيرَةِ وَسَيَأْتِي مَا يُؤَيِّدُهُ ، وَزَعَمَ أَبُو حَيَّانَ فِي (الْبَحْرِ الْمُحِيطِ) أَنَّ هَذَا مُقْتَضَى طَبِيعَةِ تُرْبَةِ مِصْرَ وَبِيئَتِهَا ، وَأَنَّهَا لِرَخَاوَتِهَا لَا يَنْشَأُ فِيهَا الْأَسَدُ وَلَوْ دَخَلَ فِيهَا لَا يَبْقَى . وَهَذَا كَلَامٌ غَيْرُ مَبْنِيٍّ عَلَى عِلْمٍ صَحِيحٍ ، فَأَمَّا سَبَبُ عَدَمِ نُشُوءِ الْأَسَدِ فِي هَذَا الْقُطْرِ فَهُوَ خُلُوُّهُ مِنَ الْغَابَاتِ وَالْأَدْغَالِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا ، وَأَمَّا كَوْنُهُ إِذَا أُدْخِلَ لَا يَبْقَى ، فَإِنْ صَحَّ بِالتَّجْرِبَةِ فِي الْمَاضِي فَسَبَبُهُ عَدَمُ وُجُودِ الْمَأْوَى لَهُ ، وَهَا نَحْنُ أُولَاءِ نَرَى الْأُسُودَ وَالْفُهُودَ وَالنُّمُورَ تَعِيشُ وَتَتَنَاسَلُ فِي حَدِيقَةِ الْحَيَوَانِ بِالْجِيزَةِ ، وَإِنَّمَا أَشَرْنَا إِلَى هَذَا

لِلرَّدِّ عَلَى زَاعِمِيهِ ، وَالْإِطَالَةُ فِيهِ لَيْسَتْ مِنْ مَوْضُوعِ التَّفْسِيرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 227 . 239 ﴾

(92/394)

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ قال هي راودتني عن نفسي ﴾

من قول يوسف عليه السّلام ، وفصلت لأنها جاءت على طريقة المحاورة مع كلامها .

ومخالفة التعبيرين بين ﴿ أن يسجن أو عذابٌ ﴾ دون أن يقول : إلا السجنُ أو عذاب ، لأن لفظ السجن يطلق على البيت الذي يوضع فيه المسجون ويطلق على مصدر سجن ، فقوله : ﴿ أن يسجن ﴾ أوضح في تسلط معنى الفعل عليه .

وتقديم المبتدأ على خبره الذي هو فعل يفيد القصر ، وهو قصر قلب للرد عليها .

وكان مع العزيز رجل من أهل امرأته ، وهو الذي شهد وكان فطناً عارفاً بوجوه الدلالة .

وسمي قوله شهادة لأنه يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف عليه السّلام على سيدته أو دحضه .

وهذا من القضاء بالقرينة البينة لأنها لو كانت أمسكت ثوبه لأجل القبض عليه لعقابه لكان

ذلك في حال استقباله له إياها فإذا أراد الانفلات منها تخرق قميصه من قُبُل ، وبالعكس إن كان إمساكه في حال فرار وإعراض .

ولا شك أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص تحاول أن تجعله حجة على أنها أمسكته لتعاقبه ، ولولا ذلك ما خطر ببال الشاهد أن تمزيقاً وقع وإلا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص .

والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها فأراد أن يقيم دليلاً على صدقها فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السّلام .

وجملة ﴿ إن كان قميصه ﴾ مبينة لفعل ﴿ شهد ﴾ .

وزيادة ﴿ وهو من الكاذبين ﴾ بعد ﴿ فصدقت ﴾ ، وزيادة ﴿ وهو من الصادقين ﴾ بعد ﴿ فكذبت ﴾ تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو شأن الأحكام .

وأدوات الشرط لا تدل على أكثر من الربط والتسبب بين مضمون شرطها ومضمون جوابها من دون تقييد باستقبال ولا مضي .

فمعنى ﴿ إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت ﴾ وما بعدها : أنه إن كان ذلك حصل في الماضي فقد حصل صدقها في الماضي .

والذي رأى قميصه قدّ من دبر وقال : إنه من كيدكن ، هو العزيز لا محالة .

وقد استبان لديه براءة يوسف عليه السّلام من الاعتداء على المرأة فاكتفى بلوم زوجه بأن ادّعاءها عليه من كيد النساء ؛ فضمير جمع الإناث خطاب لها فدخل فيه من هن من صنفها بتنزيلهن منزلة الحواضر .

C

والكيد : فعل شيء في صورة غير المقصودة للتوصل إلى مقصود .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن كيدي متينٌ ﴾ في سورة الأعراف (183) .

ثم أمر يوسفَ عليه السّلام بالإعراض عما رمتْه به ، أي عدم مؤاخذتها بذلك ، وبالكف عن إعادة الخوض فيه .

وأمر زوجه بالاستغفار من ذنبها ، أي في اتهامها يوسف عليه السّلام بالجرأة والاعتداء عليها .

قال المفسرون : وكان العزيز قليل الغيرة .

وقيل : كان حليماً عاقلاً .

ولعله كان مولعاً بها ، أو كانت شبهة المِلك تخفف مؤاخذة المرأة بمراودة مملوكها .

وهو الذي يؤذن به حال مراودتها يوسف عليه السّلام حين بادرته بقولها : ﴿ هِيتَ لك ﴾ كما تقدم آنفاً .

والخاطئ : فاعل الخطيئة ، وهي الجريمة .

وجَعَلَها من زمرة الذين خَطِئوا تخفيفاً في مؤاخذتها .

وصيغة جمع المذكر تغليب .

وجملة ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ من قول العزيز إذ هو صاحب الحكم .

وجملة ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ عطف على جملة ﴿ يوسف أعرض ﴾ في كلام العزيز عطف أمر على أمر والمأمور مختلف .

وكاف المؤنثة المخاطبة متعين أنه خطاب لامرأة العزيز ، فالعزيز بعد أن خاطبها بأن ما دبّرته هو من كيد النساء وجه الخطاب إلى يوسف عليه السّلام بالنداء ثم أعاد الخطاب إلى المرأة .

وهذا الأسلوب من الخطاب يسمى بالإقبال ، وقد يسمى بالالتفات بالمعنى اللغوي عند الالتفات البلاغي ، وهو عزيز في الكلام البليغ .

ومنه قول الجَرمي من طي من شعراء الحماسة :

إخَالكَ مُوعدي ببني جفَيْف

وهالةَ إنني أنْهاكِ هَالا . . .

قال المرزوقي في "شرح الحماسة" : والعرب تجمع في الخطاب والإخبار بين عدة ثم تقبل أو تلتفت من بينهم إلى واحد لكونه أكبرهم أو أحسنهم سماعاً وأخصّهم بالحال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(95/394)

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ .

يفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين ، وكذب الآخر . لأن ذكر الله لهذه القصة في معرض تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف يدل على أن الحكم بمثل ذلك حق وصواب . لأن كون القميص مشقوقاً من جهة دبره دليل واضح على أنه هارب عنها ، وهي تنوشه من خلفه ، ولكنه تعالى بين في موضع آخر أن محل العمل بالقرينة ما لم تعارضها قرينة أقوى منها ، فإن عارضتها قرينة أقوى منها

أبطلتها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : 18] . لأن أولاد يعقوب لما جعلوا يوسف في غيابة الجب ، جعلوا على قميصه دم سخلة . ليكون وجود الدم على قميصه قرينة على صدقهم في دعواهم أنه أكله الذئب .

ولا شك أن الدم قرينة على افتراس الذئب له ، ولكن يعقوب ابطل قرينتهم هذه بقرينة أقوى منها ، وهي عدم شق القميص ، فقال : سبحان الله ! متى كان الذئب حليماً كيساً يقتل يوسف ولا يشق قميصه . ولذا صرح بتكذيبه لهم في قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : 18] .

وهذه الآيات المذكورة أصل في الحكم بالقرائن .

(96/394)

ومن أمثلة الحكم بالقرينة : الرجل يتزوج المرأة من غير أن يراها سابقاً . فتزفها إليه ولائد لا يثبت بشهادتهن أن هذه هي فلانة التي وقع عليها العقد . فيجوز له جماعها من غير احتياج إلى بينة تشهد على عينها أنها هي التي وقع العقد عليها . اعتماداً على قرينة النكاح .

وكالرجل ينزل ضيفاً عند قوم ، فتأتيه الوليدة أو الغلام بالطعام . فيجوز له الأكل من غير

احتياج إلى ما يثبت مالك الطعام له في الأكل ، اعتماداً على القرينة .

وكقول مالك ، ومن وافقه : إن من شم في فيه ريح الخمر يحد حد الشارب ، اعتماداً على القرينة ، لأن وجود ريحها في فيه قرينة على أنه شربها ، وكمسائل اللوث وغير ذلك .

وقد قدمنا في سورة المائدة صحة الاحتجاج بمثل هذه القرائن ، وأوضحنا بالأدلة القرآنية . أن التحقيق أن شرع من قبلنا الثابت بشرعنا شرع لنا ، إلا بدليل على النسخ غاية الإيضاح – والعلم عند الله تعالى .

وقال القرطبي – في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَآءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : 18] .

استدل الفقهاء بهذه الآية في أعمال الأمارات في مسائل من الفقه ، كالقسامة وغيرها .

وأجمعوا على ان يعقوب – عليه السلام – استدل على كذبهم بصحة القميص .

(97/394)

وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت ، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح ، وهي قوة التهمة ، ولا خلاف في الحكم بها ، قاله ابن العربي . اه كلام القرطبي .

واختلف العلماء في الشاهد في قوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ .

فقال بعض العلماء : هو صبي في المهد ، وممن قال ذلك ابن عباس ، والضحاك ، وسعيد بن جبير .

وعن ابن عباس أيضاً – أنه رجل ذو لحية ، ونحوه الحسن .

وعن زيد بن أسلم – أنه ابن عم لها كان حكيماً ، ونحوه عن قتادة وعكرمة .

وعن مجاهد – أنه ليس بأنس ولا جان ، هو خلق من خلق الله .

قال مقيده – عفا الله عنه :

قول مجاهد هذا يرده قوله تعالى : ﴿ من أهلها ﴾ ، لأنه صريح في أنه إنسي من أهل المرأة .

وأظهر الأقوال : أنه صبي ، لما رواه أحمد ، وابن جرير ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم » اه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ .

هذه الآية الكريمة إذا ضمت ، لها آية أخرى حصل بذلك بيان أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان ، والآية المذكورة هي قوله : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 76] لأن قوله في النساء ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 28] ، وقوله في الشيطان ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 76] يدل على أن كيدهن أعظم من

كيده .

قال القرطبي : قال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير ، عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان . لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ﴾ . وقال إن ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ » اه .

وقال الأديب الحسن بن أيه الحسني الشنقيطي :

ما استعظم الإله كيدهنه . . . إلا لأنهن هن هنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 ص ﴾

(98/394)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾

وتأتي كلمة " شاهد " في القرآن بمعان متعددة .

فهي مرَّة تكون بمعنى " حضر " ، مثل قول الحق سبحانه : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النور : 2] .

وتأتي مرَّة بمعنى " علم " ، مثل قوله سبحانه : ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ [يوسف :

. [81

وتأتي " شهد " بمعنى " حكم وقضى " أي : رجَّح كلاماً على كلام لاستنباط حق في أحد الاتجاهين . والشاهد في هذه الحالة وثّق القرآنُ أن قرابته من ناحية المحكوم عليه ، وهو امرأة العزيز ، فلو كان من طرف المحكوم له لَرُدَّتْ شهادته .

وهكذا صار الموقف رباعياً : امرأة العزيز ، ويوسف ، وعزيز مصر ، والشاهد ، وحملت الآية نصف قول الشاهد :

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ [يوسف : 26] .

لأن معنى هذا والواقع لم يكن كذلك أن يوسف عليه السلام وهو مَنْ أقبل عليها ؛ تدلّى منه ثوبه على الأرض ، فتعثر فيه ، فتمزّق القميص . ويتابع الله قول الشاهد : ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ . . . ﴾ .

أي : أن قميص يوسف عليه السلام إن كان قُدَّ من الخلف ؛ فيوسف صادق ، وامرأة العزيز كاذبة .

ونلحظ أن الشاهد هنا قال هذا الرأي قبل أن يشاهد القميص ؛ بل وضع في كلماته الأساس الذي سينظر به إلى الأمر ، وهو إطار دليل الإثبات .

وهذا ما تشرحه الآية التالية ، فيقول سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ . . . ﴾ .

وقول الحق سبحانه عن الشاهد القاضي : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ . . . ﴾ [يوسف :

28] ، يدلُّ على أنه رتّب الحكم قبل أن يرى القميص ، وقرر المبدأ أولاً في غيبة رؤية القميص ، ثم رآه بعدها ، وهكذا جعل الحيثية الغائبة هي الحكم في القضية الشاغلة .

لذلك تابع قوله بما يدين امرأة العزيز :

(99/394)

﴿ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 28] .

والكيد كما نعلم هو الاحتيال على إيقاع السوء بخفاء ، ويقوم به مَنْ لا يملك القدرة على المواجهة ، وكَيْد المرأة عظيم ؛ لأن ضعفها أعظم .

وتعود آيات السورة بعد ذلك إلى موقف عزيز مصر ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان الزوج : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ . . . ﴾ .

وبهذا القول من الزوج أنهى الحقُّ سبحانه هذا الموقف الرُّباعي عند هذا الحد ، الذي جعل عزيز مصر يُقِرُّ أن امرأته قد أخطأت ، ويطلب من يوسف أن يعرض عن هذا الأمر لِيَكتمه .

وهذا يبين لنا سياسة بعض أهل الجاه مع بيوتهم ، وهو أمر نشاهده في عصرنا أيضاً ؛ فنجد الرجل ذا الجاه وهو يتأبّى أن يرى أهله في خطيئة ، ويتأبى أكثر من ذلك فيرفض أن يرى الغيرُ

أهله في مثل هذه القضية ، ويحاول كتمان الأمر في نفسه ؛ فيكفيه ما حدث له من مهانة الموقف ، ولا يريد أن يشمتَ به خصومه أو أعداؤه .

وهنا مَلْحظ يجب أن نتوقف عنده ، وهو قضية الإيمان ، وهي لا تزال متغلغلة حتى في المنحرفين والمتسترين على المنحرفين ، فعزيز مصر يقول ليوسف :

﴿ أَعْرِضْ عَنْ هذا . . . ﴾ [يوسف : 29] .

ويقول لزوجته :

﴿ واستغفري لِذَنبكِ إنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ﴾ [يوسف : 29] .

وهو في قوله هذا يُقِرُّ بأن ذنباً قد وقع ؛ وهو لن يُقِرَّ بذلك إلا إذا كان قد عرف عن الله منهجاً سماوياً ، وهو في موقف لا يسعه فيه إلا أن يطلب منها أن تستغفر الله .

وبعد أن كان المشهد رباعياً : فيه يوسف ، وامرأة العزيز ، والعزيز نفسه ، ثم الشاهد الذي فحص القضية وحكم فيها ، ينتقل بنا الحق سبحانه إلى موقف أوسع ؛ وهو دائرة المجتمع الذي وقعتْ فيه القضية .

وهذا يدل على أن القصور لا أسرار لها ؛ لأن لأسرار القصور عيوناً تتعسس عليها ،

وألسنة تتكلم بها ؛ حتى لا يظن ظان أنه يستطيع أن يحمي نفسه من الجريمة ؛ لأن هناك مَنْ

سوف يكشفها مهما بلغتْ قدرة صاحبها على التستُّر والكتمان .

وقد تلصص البعض من خدم القصر ؛ إلى أن صارت الحكاية على ألسنة النسوة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(101/394)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

أخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وشهد شاهد . . . ﴾ قال : حكم حاكم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال : صبي في المهد .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال : صبي ، أنطقه الله كان في الدار .

وأخرج أحمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم " .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " عيسى ، وصاحب يوسف ، وصاحب جريج ، تكلموا في المهد " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جريج وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال : كان صبياً في المهد .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال : كان رجلاً ذا لحية .

وأخرج الفريابي وابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال : كان من خاصة الملك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال : رجل له عقل وفهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم رضي الله عنه في قوله ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال : ابن عم لها كان حكيماً .

(102/394)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال : ذكر لنا أنه رجل حكيم من أهلها . قال : القميص يقضي بينهما ، إن كان قميصه قدّ إلى آخره .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن عكرمة رضي الله عنه مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال : ليس بإنسي ولا جان ، هو خلق من خلق الله . وفي لفظ قال : قميصه مشقوق من دبر ، فتلك الشهادة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن الشعبي رضي الله عنه قال : كان في قميص يوسف عليه السلام ثلاث آيات : حين قدّ قميصه من دبر ، وحين ألقي على وجه أبيه فارتدّ بصيرا ، وحين جاؤوا على قميصه بدم كذب ، عرف أن الذئب لو أكله خرق قميصه .

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ قال: عن هذا الأمر والحديث ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ أيتها المرأة.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ قال: لا تذكره.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ قال: حلماً. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(103/394)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة:

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾

التفسير:

قوله تعالى: «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ» ..

الواو للعطف، وهو عطف حدث على حدث ..

والمراودة: المخادعة، والمخاتلة، والتدسس إلى النفس فى أسلوب من التلطف

والاحتيال . .

وهيت لك : هو صوت استدعاء لهذا الأمر الذي يكون بين الرجل والمرأة ، وقد جاء به القرآن الكريم ، على هذه الصورة التي لم تعرفها اللغة العربية فى لسانها قبل نزول القرآن . . لأنه يحدث عن حال من شأنه أن يكون سرا بين الرجل والمرأة ، ولغة مفهومة لهما ، لا يعرفها غيرهما . . وذلك إعجاز من إعجاز القرآن . . ودع عنك ما ذهب إليه الذاهبون من تأويلات وتخريجات لكلمة « هيت » وخذها على أنها حكاية صوت ، لا على أنها من لغة التخاطب المتعامل بها فى كل مقام ! ! . . إنها فى مقامها هذا كلمة استدعاء . .

وكفى ! .وفى قوله تعالى : « الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا » إشارة إلى أنها ذات سلطان عليه ، وأنه ربيب نعمتها ، ونزيل بيتها . . وأن لها أن تأمر وعليه أن يطيع . .

ولكنها جاءته مترفقة ، متلطفة . . إذ كان هذا الأمر الذي تدعوه إليه لا يجاء له بأسلوب الأمر والقهر ! .وفى قوله تعالى : « وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ » إشارة إلى أنها هى التي تولت بنفسها الإعداد لهذا الأمر الذي دعته إليه . . فهى التي راودته عن نفسه بما ألقت إليه من كلمات ، وإشارات ، وتلميحات . . وهى التي غلقت الأبواب ، فكانت تلك دعوة صريحة منها إليه . . ثم هى التي .حين رأت أن ذلك كله لم يدعه إليها ، ولم يقرّ به منها . دعته إلى نفسها ، وقالت :

« هَيْتَ لَكَ » أي هأنذا لك ، فأقبل ! وهذا ما لا تفعله الحرّة ذات الجاه والسلطان ، إلا إذا كانت قد استبدّت بها الرغبة ، ثم لم تجد من الجانب الآخر استجابة منه لها . . عندئذ تخلع عذار حيائها ، وتتخلّى عن مكانتها كامرأة تطلب ولا تطلب ! . . وفى كل هذا ما يحدّث عن تعفّف يوسف عليه السلام ، وامتلأكه لداعى الشهوة أمام هذه المغريات ، التي تنحلّ لها عزمات الرجال ، وتطيش معها أحلام ذوى الحلوم ! « قالَ مَعاذَ اللَّهِ . . إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ . . إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » ومع كل هذا الذي ساقته المرأة إلى يوسف ـ عليه السلام ـ من جمالها ، وسلطانها ، ومن تلطفّها به ، واستدعائها له ، وعرض نفسها عليه ، ومع هذا الشباب المتفجّر فيه ، والدماء الحارة المتدفقة فى عروقه ـ فإنه اعتصم بدينه ، واستمسك بمروءته ، فلم يقبل هذه الدعوة الآثمة ، قائلا : « مَعاذَ اللَّهِ » أي عياذا باللّه ، ولجأ إليه لدفع هذا المكروه عنّى . .

ـ « إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ » ـ أي إن هذا الفعل فوق أنه عصيان للّه ، وتعدّ لحدوده ، هو خيانة للمروءة ، وإنكار لإحسان هذا السيد الذي رباه ،

وأحسن مثواه . . والمثوى : المأوى الذي يأوى إليه الإنسان . .

ـ « إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » . . الضمير فى « إنه » ضمير الشأن . . أي إنه فى أىّ حال وشأن لا يفلح الظالمون ، الذين يعتدون على حقوق الناس ، فيخونون الأمانة فيما اؤتمنوا

عليه، أو يجحدون نعمة من كان له نعمة وفضل عليهم . . !

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ . . كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » .

اختلف المفسرون فى معنى الهمّ الذي همّ به يوسف . . أهو همّ عزيمة، أم همّ رغبة؟ وهل هو همّ فعل، أم همّ ترك؟

(105/394)

وصريح اللفظ أنه ـ عليه السلام ـ همّ بها، كما همّت به . . « وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا » هكذا صريح للفظ القرآنى . . فلا وجه إذا للتفرقة بين أمرين متساويين، لفظا ومعنى . .

كذلك اختلف المفسّرون فى قوله تعالى : « لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ » . اختلفوا فى البرهان . . أهو ملك جاءه من اللّه؟ أم شىء وجده فى نفسه؟ أم صورة أبيه يعقوب، وقد ظهر عاضّا على إصبعه، محذرا من هذا الخطر الذي هو مقبل عليه . . إلى غير ذلك من عشرات الصور التي صوّر فيها المفسّرون هذا البرهان . !

وهم فى هذا كلّه إنما يريدون أن يدفعوا عن مقام هذا النبي الكريم أن يطوف به طائف من السوء، أو تنحلّ عزيمته أمام أية فتنة، أو تستجيب طبيعته لأى إغراء . . فمقام النبوة هو

القمة التي لا ترقى إليها الشبه ، ولا يرتفع إلى سمائها هذا الدخان المتصاعد من شهوات النفوس وأهوائها ، حين تشبّ فيها نيران الشهوة ، ويتّقد لهيب الفتنة ؟ ولكن فات هؤلاء الذين ينظرون إلى النبي هذه النظرة. ونحن ننظر إليه كما ينظرون. فاتهم أن النبي بشر قبل أن يكون نبيّا . . وأنه حين يلبس ثوب النبوة لا يخلع ثوب البشرية أبدا . .

وغاية ما هنالك أنها بشرية فى أعلى مستواها وأشرف منازلها . .

وعلى هذا ، فإن الذي نطمئن إليه ، هو أن هذا البرهان كان شيئا حسيا ، أو بمعنى آخر ، كان حدثا وقع فى تلك اللحظة الحاسمة ، فحال دون وقوع هذا الأمر ، وكان صارفا عنه . . والذي لولاه لوقع ! وهذا البرهان هو. والله أعلم. إشارة كانت تعلن عن قدوم العزيز إلى أهله . . إذ من المعقول جدا أن يكون للعزيز شارة من الشارات ، ينبّه بها زوجه إلى أنه قادم إليها . . وذلك كرسول يتقدمه ، أو نفير يعلن عنه . . أو نحو هذا . .

شأن أصحاب السلطان ، حين يغدون ، أو يروحون ، بين مجلس الحكم ، ومجلسه الخاص فى أهله وولده. (1)

---

(1) كلام فى غاية البعد .

وعلى هذا يكون المراد بربه هنا ، هو سيده الذي ربّاه ، وهو « العزيز » الذي يقول عنه : « إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ » . . ويكون بذلك ، الضمير فى « ربه » عائدا إلى ربه هذا . . وقد جاء على لسان يوسف أكثر من مرّة ، الحديث عن السيد بلفظ الرب . . « اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » . . « ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » . .

وهذا الحدث الذي كان سببا مباشرا فى الحيلولة دون وقوع المعصية ، هو بالنسبة ليوسف عليه السلام برهان من ربّه ، وآية من آيات فضله عليه ، وحراسته له . . !

فالأسباب الموصّلة إلى الأعمال الطيبة ، أو الحائلة دون السيئة ، هى دليل على عناية اللّه وتوفيقه . . كما أن الأسباب المؤدية إلى الشرّ ، أو الصارفة عن الخير ، دليل على خذلان اللّه للعبد ، وتخليته وأهواء نفسه ونزغات شيطانه ! فللذين التقوا بالأنبياء والرسل ، وكانوا من حوارييهم وخلصائهم ، إنما

انتصبت لهم الأسباب المسعدة التي وصلتهم بهم ، ومكنت لهم من أن يقبسوا من الهدى الذي بين أيديهم ! وكذلك الذين التقوا بالرسل والأنبياء ، وكانوا حربا عليهم ، وظلاما يحجب ضوء الهدى عن الناس ـ إنما اجتمعت لهم الأسباب التي وقفت بهم هذا الموقف ،

وساقتهم إلى هذا البلاء ! فالأسباب ، ألطاف من ألطاف اللّه ، وآيات من آيات رحمته ، يدنيها ـ سبحانه ـ من أوليائه ، وييسرهم لها . . أو هى مزالق وعثرات يهوى إليها أعداء اللّه ، ويتساقطون فيها . . « فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى » (5 ـ 10 : الليل) ومجىء العزيز ، أو ظهور الشّارة الدالة على مجيئه فى تلك اللحظة الحاسمة ، هى آية من آيات اللّه ، ورحمة من رحمته ، ولطف من ألطافه ، وحراسة قائمة على هذا النبي الكريم أن تزلّ قدمه . . وهكذا تحفّ ألطاف اللّه بعباده المخلصين ، وتتداركهم رحمته ، فى أمثال هذه الساعات الحرجة . . يقول اللّه تعالى فى يونس عليه السلام : « فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » (143 ـ 144 : الصافات) . . فهذا التسبيح الذي ألهمه اللّه إيّاه ، هو اللطف الذي أمدّه اللّه به ، وهو حبل النجاة الذي أرسله إليه وهو فى بطن الحوت . .

(108/394)

ويقول سبحانه فى يونس أيضا : « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ

الصَّالِحِينَ » (50.48 : القلم) وفى هذا يقول تبارك وتعالى لمحمد صلوات اللّه وسلامه عليه : « وَلَوْلا أَنْ ثبّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً »

(75.74 : الإسراء) ويقول سبحانه عن رسله جميعا : « حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا » (110 : يوسف) فالرسل ، والأنبياء ـ صلوات اللّه وسلامه عليهم ـ مبتلون بما يبتلى به الناس من فتن ، تلحّ عليهم بأهوالها ، فيتلقونها بعزماتهم ، ويصدّونها بإيمانهم ، ويستعصمون منها بكل ما فى طاقاتهم من قوّى ، حتى إذا استنفدوا كل ما فى كيانهم من صبر وبلاء ، وكادوا يهزمون فى هذا الصراع المحتدم ، جاءهم نصر اللّه ، وتوافدت عليهم أمداده وألطافه ، فربطت على قلوبهم ، وثبتت من أقدامهم ، وإذا هم فى مقامهم الرفيع الكريم ، وإذا الفتن صرعى بين أيديهم ، ملففة فى تراب الخزي والاندحار ! وأي فضل لأنبياء اللّه ورسله على غيرهم من الناس ، إذا هم لم يبتلوا هذا البلاء ، وإذا هم لم يجاهدوا هذا الجهاد فى مواجهة الفتن ومغالبة الأهواء والشهوات ؟ وأي فضل لهم إذا كانت الفتن لا تحوم حولهم ، وكانت الأهواء والشهوات تتساقط من نفوسهم من غير جهد وعناء ؟ وأي فضل لهم يحمدون عليه ، ويستأهلون به هذا المقام العظيم الذي هم فيه ، إذا لم تتحرك فيهم دواعى الشهوات ، ولم تنازعهم الأهواء ؟

إن الثواب ـ كما يقولون ـ على قدر المشقة . .

وهذا يعنى : أن نصيب أنبياء اللّه ، ورسله ، وأوليائه من المعاناة والمشقة أكبر نصيب ، وأنه بقدر ما واجهوا من بلاء وفتنة بقدر ما كان لهم من منزلة عند ربهم . .

وفى رسول اللّه ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ المثل الأعلى فيما امتحن به ، وفيما تعرض له ، من فتن وابتلاء ، فى مشاعره ، وعواطفه ، ونوازعه . . فلقد شهد أهله يتمزّقون بين يديه شيعا ، ورأى أتباعه وأحبابه يعذّبون بسياط الظلم بين يديه ، ويموتون تحت وطأة هذا العذاب ، كما رآهم وهم يخرجون مهاجرين ، فارّين من وجه هذا البلاء ، مخلّفين وراءهم أهلهم وديارهم وأموالهم . . ثم رآهم فى ميدان القتال يخرون صرعى ، يفدّونه بأنفسهم ، ويودّه لو فدّاهم بنفسه . .

وهكذا كانت حياة النبىّ ساعة بساعة ، بل ولحظة لحظة ، مسيرة شاقّة على درب طويل من الآلام والمحن . . وبهذا استحقّ تلك المنزلة التي استوى بها على هامة الإنسانية كلها ، فكان سيد خلق اللّه ، وخاتم رسل اللّه ، وإمام أنبياء اللّه ! ! وعلى هذا ، فإنّ لنا أن نفهم قوله تعالى : « وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ » على أن امرأة العزيز قد همّت

به ، وأنه ـ عليه السلام ـ همّ بها وكاد الأمر يقع ، لولا أن تداركه رحمة من ربّه ، فأقام هذا السبب المادىّ حائلا دون وقوع الفاحشة . .

(110/394)

وفى هذا تتجلّى رحمة اللّه بأوليائه ، ورعايته لهم ! ومن جهة أخرى ، فإن رسل اللّه ـ صلوات اللّه وسلامه عليهم ـ ليسوا من عالم الملائكة ، وإنما هم بشر ، تتحرك فى كيانهم نوازع الإنسان وشهواته ، وأنّهم يغالبون هذه النوازع ، ويمسكون زمام تلك الشهوات ، ولكن إلى مدى ، هو غاية ما يبلغه احتمال البشر . . حتى إذا كان النبىّ من أنبياء اللّه أو الرسول من رسله فى مواجهة تجربة كهذه التجربة ، التي استنفد فيها ـ كإنسان وكنبىّ معا ـ كلّ ما لديه من صبر واحتمال ، بشرىّ ـ جاءت أمداد اللّه ، لتمد النبىّ فى هذه المعركة التي لا بد أن يكسبها ، ويكتب له النصر فيها ، وذلك لحساب النبوّة والرسالة ، ولحساب النبىّ كنبىّ والرسول كرسول . . تماما كما جاءت أمداد السّماء لتشارك فى معركة بدر ، ولتقوم إلى جانب الجهد الإنسانىّ ، فى كسب أول معركة للإسلام ، تلك المعركة التي كان لا بد له أن يكسبها ! !

قد أحسن الإمام البيضاوي ، حين قال عن همّ امرأة العزيز بيوسف وهمّه هو بها : «

قصدت مخالطته، وقصد مخالطتها . . والهمّ بالشيء : قصده والعزم عليه . . والمراد بهمّه عليه السلام، ميل الطبع، ومنازعة الشهوة، لا القصد الاختياري، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من اللّه، من يكفّ نفسه عند قيام هذا الهمّ ومشارفة الهمّ» .

.وفى قوله تعالى : «كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ» أي بمثل هذا البرهان نجىء به إليه، لنصرف عنه «السّوء» أي الأذى، الذي تتعرض له فطرته السليمة «والفحشاء» أي المنكر الممثل فى الزّنا . «إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ» هو تعليل لما أراد اللّه بهذا النبىّ الكريم من خير، فصرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباد اللّه الذي اصطفاهم اللّه، وجعلهم خالصة له .

«وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ» .

حين رأى يوسف برهان ربّه، وهو الشارة الدلّة على مقدم العزيز إليهما .رأته معه كذلك امرأة العزيز، فأسرعا إلى الباب المغلق دونهما ، وأسرع كل منهما طالبا الخروج من المخدع

، وقد كان يوسف أسرع منها ، فتناولته من خلف بيدها لتسبقه ، ولتنجو بنفسها ، فعلقت يدها بقميصه فقدّته من دبر ، أي قطعته طولا ، من الخلف . . وما كاد يفتح الباب حتى كان « العزيز » معهما وجها لوجه . . وكان جوابها حاضرا ، إذ كانت تعيش فى هذه المحنة أياما وليالى ، وتفكر فيها وتقلّبها على جميع وجوهها واحتمالاتها . . ومن هذه الاحتمالات أن يعلم زوجها بالأمر ، أو يضبطها متلبسة به . . فلما وقعت الواقعة ، وجدت الجواب الذي أعدته . « قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ » .

وهكذا تتّهم ، وتحكم فى التهمة ، فلا تدع لزوجها فرصة للتفكير فيما ينبغى أن يواجه به هذه الموقف . . فها هو ذا الحلّ حاضر بين يديه ، لا يحتاج منه إلى تفكير ! . وفى قولها : « مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً » إشارة إلى أن الأمر لم يجاوز حدّ الرغبة والإرادة .

. وفى قولها « بِأَهْلِكَ » بدلا من قولها « بي » لتضيف نفسها إلى العزيز ، فتثير عاطفته نحوها ، على حين أنها تغريه بهذا الذي اعتدى على العزيز فى أهله ! « قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي . . وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها . . إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

وكان ردّ يوسف على هذا الاتهام الجريء له، قوله: «هِيَ راوَدَتْني عَنْ نَفْسِي» .. ففى هذه الكلمات القليلة المستغنية بصدقها عن كل قول، دفع يوسف التهمة الظالمة التي رمى بها .. وهكذا شأن أصحاب الحقّ، يجدون فى الكلمة المرسلة على طبيعتها من غير حلف أو توكيد، ما يغنى عن كل قول .. وليس كذلك شأن أصحاب الزور والبهتان .. إنهم يكثرون من الثرثرة واللغو، ويبالغون فى الأيمان الكاذبة الفاجرة، ليداروا هذا الباطل الذي يجرونه على ألسنتهم، وليبعثوا فيه شيئا من الحرارة والحياة! ـ قوله تعالى: «وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها» .. هو جملة حاليّة، جاءت مصدقة لقول يوسف: «هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي» .. أي قال هذا القول الذي صدّقه الحال، والذي استدل به العزيز على صدق يوسف وكذبها ..

وقد اختلف المفسرون فى هذا الشاهد الذي شهد .. فقالوا إنه طفل، أنطقه اللّه، وقالوا إنه رجل من أهل العلم .. وقالوا، وقالوا! والذي نراه ـ واللّه أعلم ـ أن هذا الشاهد هو العزيز نفسه، وأنه إذ نظر إلى يوسف، فرأى قميصه ممزقا، أدار بينه وبين نفسه حديثا عن هذا القميص:

لم مزّق ؟ ومن مزّقه ؟ ولم كان ممزقا من خلف لا من أمام ؟ وهل لذلك من دلالة ؟ . . ثم أسلم نفسه لتفكير عميق ، وفى رأسه تدور الأفكار ، وتموج الخواطر . . يقلّب الأمر على جميع وجوهه ، ويعرضه على كل احتمالاته . . ثم ينتهى به الرأى إلى تلك الحقيقة التي هى فيصل الأمر ، ومقطع الرأى : «إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ» . . هذا ما أمسك به العزيز من الخواطر الكثيرة ، والآراء المتدافعة التي كانت تتوارد عليه . . وقد أمسك أولا بالخاطر الذي يبرىء زوجه ، ويدين يوسف ، فذلك هو الذي كان يرجوه ، ويودّ لو أن هذه الفاجعة قد أقامت له الدليل عليه ! «إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ . . »

وإذ استراح العزيز إلى هذا الرأى ، تلّفت إلى يوسف ، وأخذه بعينيه ، ونظر إلى القميص ، فرآه قد قدّ من دبر ! «فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» . .

وهكذا برئت ساحة يوسف . وهو البريء دائما . وأقبل العزيز على المرأة ، لا ليدينها فى شخصها ، بل ليجعل هذه التهمة قسمة مشاعة فى بنات جنسها جميعا . . «إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ» أيتها النساء «إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» إنّ فيكنّ المكر والدهاء ، وسعة الحيلة فى هذا المجال . . وإذن فلا يستغرب منك هذا ، بل ولا ينكر منك ، فما أنت إلّا واحدة من

بنات جنسك ! ! فلا عليك ! « يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ » .

- « يوسف » منادى ، أي يا يوسف ، والمنادى له هو العزيز ، يحذّره - وإن

ظهرت براءته عنده - من أن يحوم حول هذا الحمى ! ثم يلتفت إلى المرأة يطلب إليها أن تستغفر لهذا الذنب ، وأن تطلب الصفح عن هذه الخطيئة التي كادت تقع فيها . . . !

وليس من الحتم اللازم أن تكون هذه المرأة مؤمنة باللّه ، حتى تستغفر لذنبها - كما يقول بذلك المفسرون - بل يجوز - وهو الغالب - أن تكون وثنية ، تطلب الصفح والمغفرة من وثنها الذي تعبده ، أو من الكاهن الذي يقوم على خدمة هذا الوثن ! - وفى قوله تعالى : « إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ » بدلا من قوله : إنك كنت من الخاطئات ، ليخفف على نفسها وقع هذه التهمة التي واجهها بها ، فلا يجعل تلك الخطيئة مقصورة على بنات جنسها وحدهن ، بل يشاركهن الرجال فيها ، وهو منهم . . فلا عليها إذن أن تستغفر لذنبها هذا ، الذي كان الناس - من نساء ورجال - معرّضين له . . فإذا كنت قد أخطأت فما أكثر الخاطئين قبل الخاطئات ! . .

وقد رأينا من قبل كيف أنه لم يواجهها بالتهمة فى شخصها ، بل واجهها بها فى بنات جنسها : «إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ» . .

وقد اتهم بعض المفسرين «العزيز» بأنه كان ناقصا فى رجولته ، ولم يكن له أرب فى النساء ، لأنه استقبل فعلة امرأته بهذا الاستخفاف والبرود ! . .

وهذا تعليل غير صحيح . . إذ المعروف أن من كان فى رجولتهم شىء من النقص ، داروه بتلك الغيرة الزائدة ، المجاوزة لكل حدّ ! . .

ولعل أقرب تعليل لموقف «العزيز» هذا ، هو أنه كان ينظر إلى يوسف نظرته إلى ابنه ، وأن ما كان من امرأته لم يكن إلا نزوة طائشة ، أعمتها عن أن تنظر إلى يوسف نظرة الأم إلى ولدها ، وأنها سرعان ما تعود إلى رشدها وتصحح نظرتها إليه . .

والذي جعلنا نميل إلى القول بأن الشاهد الذي شهد بإدانة امرأة العزيز ، هو العزيز نفسه.

الذي جعلنا نميل إلى هذا القول ، هو ما يشهد به واقع الحال ، وهو أن «العزيز» وهو صاحب هذا المقام فى قومه ، ما كان له أن يفضح نفسه وأهله على الملأ ، وأن يستدعى من يحتكم إليه ، فى أمر شهده هو بنفسه ، واطلع عليه من غير أن يدله عليه أحد ! وإنه لمن

السفاهة والحمق ، بل والعجز ، أن يعرّض العزيز مكانته ، وشرفه وشرف أهله لهذه الفضيحة على الملأ . . فيصبح ، وإذا هو وزوجه على ألسنة الناس ، يطلقون فيهما قالة السوء ، ويولدون من هذا الحدث أحداثا تنمو وتتضخم على الأيام ! فكان من الحكمة إذا أن يتدبر « العزيز » أمره بنفسه ، وأن يحصر الأمر فى أضيق حدوده ، وأن يحسمه هذا الحسم الرشيد ، فى غير صخب وضجيج . . فكان حكمه هكذا :

- « يُوسُفُ : أَعْرِضْ عَنْ هذا » . .

- « وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ . . إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ » . .

لفتة إلى يوسف ، ولفتة إليها . .

ثم انتهى الأمر عند هذا الحد . . ولكن إلى حين . . . !

فلقد دبّر العزيز فى نفسه أمرا . . ولكن بعد أن تنتهى هذه العاصفة . . فتحيّن ليوسف فرصة يدفع به إلى السجن بها . . ولكن من غير أن يكون لامرأته - فى ظاهر الأمر - شأن يتعلق بها فى أمر يوسف وسجنه . . من قريب أو من بعيد ! على ما سنرى فى أحداث القصة . . بعد . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 6 صـ 1252 - 1263 ﴾

وقال الدكتور وهبة الزحيلي في الآيات السابقة :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾

الإعراب :

هَيْتَ لَكَ اسم لهلمّ ، ولذلك كانت مبنية ، وكان الأصل أن تبنى على السكون ، إلا أنه لم يمكن أن تبنى على السكون لأنهم لا يجمعون بين ساكنين وهما الياء والتاء . ومنهم من بناها على الفتح لأنه أخف الحركات . ومنهم من بناها على الكسر لأنه الأصل في التحريك لالتقاء الساكنين ، ومنهم من بناها على الضم لحصول الغرض من زوال التقاء الساكنين .

ومن قرأ : هيئت لك بالهمز فمعناه : تهيأت لك ، وتكون التاء مضمومة لأنها تاء المتكلم .

مَعَاذَ اللَّهِ منصوب على المصدر ، يقال : عاذ يعوذ معاذا وعوذا وعياذا .

رَبِّي في موضع نصب على البدل من هاء إِنَّهُ وهي اسم إن .

أَحْسَنَ مَثْوَايَ فعل ومفعول ، ومن قرأ أحسن فهو خبر إنّ ، أي إن ربي أحسن مثواي .

إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الهاء ضمير الشأن والحديث . وجملة لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ جملة فعلية خبر إن .

لَوْلا أَنْ رَأى . . لَوْلا حرف يمتنع له الشيء لوجود غيره . وأَنْ رَأى في موضع رفع لأنه مبتدأ . ولا يجوز إظهار خبره بعد لَوْلا لطول الكلام بجوابها ، وقد حذف خبر المبتدأ هنا والجواب معا ، والتقدير : لولا رؤية برهان ربه موجودة لهمّ بها . ولا يجوز أن يكون وَهَمَّ بِها جواب لَوْلا لأن جواب لَوْلا لا يتقدم عليه .

كَذلِكَ لِنَصْرِفَ الكاف من كَذلِكَ يجوز أن تكون رفعا ، بأن تكون خبر مبتدأ محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويجوز أن تكون نعتا لمصدر محذوف ، أي أريناه البراهين رؤية كذلك .

البلاغة :

فَصَدَقَتْ وفَكَذَبَتْ والصَّادِقِينَ والْكاذِبِينَ بين كلّ طباق .

مِنَ الْخاطِئِينَ من باب تغليب الذكور على الإناث .

المفردات اللغوية :

وَراوَدَتْهُ طلبت منه زليخا مواقعتها برفق ولين ومخادعة ، ومنه قوله : سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ [يوسف 12/ 61] أي نحتال عليه ونخدعه عن إرادته ، ليرسل أخاه بنيامين معنا ، ومنه الرائد : الذاهب لطلب شيء .

والمراد من آية وَراوَدَتْهُ تحايلت لمواقعته إياها ، ولم تجد منه قبولا . وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ أحكمت إغلاق أبواب البيت ، قيل : كانت سبعة ، والتشديد : للتكثير أو للمبالغة في

الإيثاق . هَيْتَ لَكَ أي هلمّ وأقبل وبادر ، أو تهيأت ، وهي لغة عرب حوران والكلمة : اسم فعل مبني على الفتح ، ولام لَكَ للتبيين ، كالتي في « سقيا لك » .

قالَ : مَعاذَ اللَّهِ أعوذ باللّه وأتحصن من الجهل والفسق . إِنَّهُ رَبِّي إن الذي اشتراني سيدي قطفير ، أو إن الشأن أَحْسَنَ مَثْوايَ مقامي ، أي أحسن تعهدي ، إذ قال لك :

(118/394)

أَكْرِمِي مَثْواهُ فلا أخونه في أهله . وقيل : إن الضمير للّه تعالى ، أي إنه الذي خلقني وأحسن منزلتي بأن عطف عليّ قلب سيدي ، فلا أعصيه . إِنَّهُ أي الشأن لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ المجازون الحسن بالسيء ، وقيل : الزناة ، فإن الزنى ظلم على الزاني والمزني بأهله .

هَمَّتْ بِهِ قصدت منه الجماع ومخالطته أو أن تبطش به لعصيانه أمرها ، والهم بالشيء : قصده والعزم عليه ومنه الهمام : وهو الذي إذا همّ بشيء أمضاه . وَهَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ أي لولا وجود النبوة ، أو مراقبة اللّه تعالى وطاعته ورؤية ربه متجليا عليه ، لقصد مخالطتها ، والمفهوم من لَوْ لا أنه لم يقصد ذلك أصلا ، لوجود خشية اللّه في قلبه لأن لَوْ لا حرف امتناع لوجود ، فعند ما تقول : لولا إتيان ضيف إلى البارحة لجئت إليك ، تعني تعذر المجيء لصاحبك بسبب مجيء ضيف يزورك ، فالضيف مانع من حصول المجيء ،

وكذلك هنا : لولا برهان النبوة ومراقبة اللّه لهمّ بها .

كَذلِكَ أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه وأريناه البرهان . لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ الخيانة وَالْفَحْشاءَ الزنى إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ المختارين الذين اجتباهم اللّه واختارهم لطاعته وعلى قراءة كسر اللام الْمُخْلَصِينَ يكون المراد : المخلصين في الطاعة .

وَاسْتَبَقَا الْبابَ أي تسابقا إلى الباب ، فحذف الجار ، أو ضمن الفعل معنى الابتدار ، أي أسرع كل منهما نحو الباب ، وذلك أن يوسف فرّ منها ليخرج ، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج ،

(119/394)

فمبادرته كانت للفرار ، ومبادرتها كانت للتشبّث فيه ، فأمسكت ثوبه وجذبته إليها .

وَقَدَّتْ شقت قميصه من دبر ، أي من الخلف والقد : الشق طولا . وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ وجدا زوجها وصادفاه عند الباب . قالَتْ : ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً أي نزهت نفسها ، وأوهمت زوجها أنها فرّت منه تبرئه لساحتها عنده وإغراء به للانتقام من يوسف . وما نافية أو استفهامية ، والمعنى : أي شيء جزاؤه إلا السجن أي الحبس . أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ مؤلم بأن يضرب .

وتعبير وَاسْتَبَقَا الْبابَ من اختصار القرآن المعجز ، الذي يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة .

قالَ : هِيَ راوَدَتْنِي قال يوسف : هي طالبتني بالمواتاة ، دفاعا عن نفسه لما عرضت له من السجن أو العذاب ، ولو لم تكذب عليه لما قال ذلك . وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها قيل : ابن عمها ، أو ابن خالها ، وكان صبيا في المهد ، أنطقه اللّه تعالى .

مِنْ قُبُلٍ من قدام أو أمام . مِنْ دُبُرٍ من خلف . فَلَمَّا رَأى زوجها قالَ : إِنَّهُ أي إن قولك : ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً مِنْ كَيْدِكُنَّ أي من حيلتكن أيها النساء ، والخطاب لها ولأمثالها ، أو لسائر النساء . إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ أي إن كيد النساء ألصق وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيرا في النفس ، ولا قدرة للرجال عليه ولا يفطنون لحيلهن .

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا أي ثم قال زوجها : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر ، ولا تذكره واكتمه لئلا يشيع الخبر بين الناس . وَاسْتَغْفِرِي يا زليخا . إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ أي الاثمين المذنبين ، ولكن شاع الخبر واشتهر . والتذكير للتغليب .

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى ما أكرم به يوسف من المكارم المادية بالإقامة في قصر عزيز مصر ، والمعنوية من النبوة أو العلم والحكمة ، ذكر هنا محنته مع امرأة العزيز ، والتزامه العفة والنزاهة والطهارة ، حتى إنه آثر دخول السجن على ارتكاب الفاحشة ، والتخلص من افتتان النساء به .

التفسير والبيان :

كان يوسف عليه السّلام في غاية الحسن والجمال ، وقد أوصى عزيز مصر امرأته بإكرامه وحسن تعهده ، فأحبته حبا شديدا لجماله وحسنه وبهائه ، فحملها ذلك على أن تجملت له ، ودعته لمخالطتها ، وتمحلت لمواقعته إياها ، وأحكمت إغلاق الأبواب عليه قيل : كانت سبعة ، وقالت : هيت لك ، أي هلمّ أقبل وبادر ، وتهيأت لك ، وزيدت كلمة لَكَ لبيان المخاطب ، مثل : سقيا لك ورعيا لك . وهذا أسلوب في غاية الاحتشام .

فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، وقال : أعوذ باللّه معاذا ، وألتجئ إليه وأعتصم به مما تريدين مني ، فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين إِنَّهُ (الضمير للشأن والحديث) ربي أي سيدي ومالكي (قطفير) أَحْسَنَ مَثْوايَ أي منزلي ومقامي وأحسن إلي ، حين قال لك : أكرمي مثواه فلا أقابله بالخيانة ، وإتيان الفاحشة في أهله ، إنه لا يفلح الظالمون الذين يجازون الإحسان بالإساءة ، أو لا يظفر الظالمون بمطالبهم ، ومنهم الخائنون المجازون الإحسان بالسوء .

ولقد همّت بالانتقام منه والتنكيل به، لعصيانه أمرها، وعدم نزوله عند رغبتها، ومخالفته مرادها، وهي سيدته وهو عبدها، أو همت بمخالطته.

(121/394)

وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كثر كلام الناس وتعليقاتهم حول معنى هذه الآية، والأمر فيها سهل يسير، لا يصح تفسير كلمة وَهَمَّ بِها وحدها دون بقية الجملة، وإذا فسرت الجملة مع بعضها، تبين أنه لم يهمّ بها قط لأن رؤية برهان ربه قد منعه من ذلك، بدليل أن لَوْلا حرف امتناع لوجود وجوابها محذوف دائما، وتقديره: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ولخالطها لأن قوله: وَهَمَّ بِها يدل عليه، كقولك: (هممت بقتله لولا أني خفت اللّه) معناه: (لولا أني خفت اللّه لقتلته) ففي الكلام تقديم وتأخير، أي لولا أن رأى برهان ربه لهم بها.

ثم إن المراد بالهم: خطرات حديث النفس، والميل إلى المخالفة بحكم الطبيعة البشرية، وهذا لا مؤاخذة فيه شرعا، فلا يقال: كيف جاز على نبي اللّه أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها؟ ودليل رفع المؤاخذة على الهم الذي هو مرتبة دون العزم والحزم ما أورده البغوي من حديث عبد الرزاق والصحيحين عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم: «يقول اللّه تعالى: إذا همّ عبدي بحسنة، فاكتبوها

له حسنة ، فإن عملها ، فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن همّ بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإنما تركها من جرائي ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها » .

والبرهان الذي رآه : هو برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ، أو هو حجة اللّه تعالى في تحريم الزنى ، والعلم بما على الزاني من العقاب .

وقيل : هو تطهير نفوس الأنبياء عليهم السلام عن الأخلاق الذميمة ، وقيل : هو النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش ، وجائز أن يراد كل هذه المعاني لأنها متقاربة غير متعارضة ، تحقق هدفا واحدا وهو طاعة اللّه عز وجل .

(122/394)

والخلاصة : لم يرتكب يوسف عليه السّلام المعصية قط ، ولولا حفظ اللّه ورعايته وعصمته لهمّ بها . وللعلماء في الآية تفسيران : الأول - إنه لم يهمّ بها لرؤية برهان ربه ، فهو الذي منعه من الهمّ ، والثاني - إنه همّ بمقتضى الطبيعة البشرية ، ثم تنبه للمانع من وقوع المعصية ، ورأى برهان اللّه وتذكره ، مثل قوله تعالى :

وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا [الإسراء 17/ 74] .

وبه تبين وجود الفارق بين الهمين : همها به وهمه ، فهي قد همت بالانتقام منه والتنكيل به ،

شفاء لغيظها ، أو همت بمخالطته ، فكان همها المعصية ، وهو همّ عزم وتصميم . وهو قد همّ بالدفاع عن نفسه ، والتخلص منها ، حين رأى بوادر الإقدام عليه ، ولكنه رأى برهان ربه وعصمته التي جعلته يهم بالفرار من هذا المأزق ، فكان همه النجاة منها وهو مجرد حديث نفس وخاطر ، وما هم بالسوء بها لما رأى برهان ربه لعصمة الأنبياء ، قال تعالى :

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ

لذا أتبعه بقوله : وَاسْتَبَقَا الْبَابَ أي فبادر إلى الباب هربا ، وبادرت هي إلى الباب صدا له عن الهرب . وأراد اللّه صرف السوء عنه فقال : كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ أي مثل ذلك التثبيت على العفة أمام دواعي الفتنة والإغراء ثبتناه ، وكما أريناه برهانا صرفه عما كان فيه ، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره . والسوء : المنكر والمعصية وخيانة السيد ، والفحشاء : الزنى والفجور .

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ أي إن يوسف من عباد اللّه الذين اصطفاهم واختارهم لوحيه ورسالته وصفاهم من الشوائب ، فلا يستطيع الشيطان إغواءهم ، كما قال تعالى : وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ [ص 38/ 47] .

وحدثت المفاجأة الغريبة المحرجة بقدوم زوجها ، وهما يتسابقان إلى الباب ، فقال تعالى : وَاسْتَبَقَا الْبابَ أي وتسابقا إلى الباب ، بناء على حذف الجارّ وإيصال الفعل كقوله تعالى : وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ [الأعراف 7/ 155] أو بناء على تضمين اسْتَبَقَا معنى : ابتدرا ، والتسابق مختلف الغرض ، فيوسف فرّ منها مسرعا يريد الباب ليخرج ، وهي أسرعت وراءه لتمنعه الخروج. وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ أي لحقته في أثناء هربه ، فأمسكت بقميصه من الخلف ، فقطعته.

وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ أي وحينئذ وجدا سيدها وهو زوجها عند الباب ، فحاولت بمكرها وكيدها التنصل من جرمها وإلصاق التهمة بيوسف ، فقالت : ما جزاء من أراد بأهلك فاحشة إلا أن يحبس ، أو عذاب مؤلم موجع ، فيضرب ضربا شديدا. وكانت نساء مصر تلقب الزوج بالسيد ، ولم يقل :

سيدهما لأن استرقاق يوسف غير شرعي.

وهنا ذكر الرازي علامات كثيرة دالة على أن يوسف عليه السّلام هو الصادق وهي « 1 » :

1 - إن يوسف عليه السّلام كان في اعتبارهم عبدا ، والعبد لا يتسلط على مولاه إلى هذا الحد.

2 - شوهد يوسف يعدو عدوا شديدا ليخرج ، وطالب المرأة لا يفعل ذلك.

3 – زيّنت المرأة نفسها على أكمل الوجوه ، خلافا لما كان عليه حال يوسف .

4 – لم تكن سيرة يوسف في المدة الطويلة دالة على حالة تناسب ، هذا الفعل المنكر .

5 – لم تصرح المرأة بنسبته إلى الفاحشة ، بل أجملت كلامها ، وأما يوسف فصرح بالأمر .

6 – إن زوج المرأة كان عاجزا ، فطلب الشهوة منها أولى .

لكل هذا لم تطلب عقوبة شديدة ، وإنما أرادت أن يحبس يوما أو أقل ، على سبيل التخفيف والتخويف لأن حبها الشديد ليوسف حملها على أن تشفق عليه ، ولكنها من جانب آخر استحيت أن تقول : إن يوسف قصدني بالسوء ، وأرادت تصيّد عذر ما ، وحماية سمعتها وكرامتها أمام زوجها .

ذكر بعضهم : ما زال النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة حتى نبأه اللّه ، فألقى عليه هيبة النبوة ، فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه .

ثم جاء دور براءة يوسف : قالَ : هِيَ راوَدَتْنِي . . قال يوسف بارّا صادقا مدافعا عن نفسه حينما اتهمته بقصد السوء : هي التي راودته عن نفسه ،

---

(1) المرجع السابق : 18/ 123

فامتنع منها ، وأنها تبعته وجذبته حتى قدت قميصه ، ولم تترك حيلة إلا لجأت إليها لمواقعتها .

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا . . وللعلماء قولان في هذا الشاهد ، هل هو صغير أو كبير ؟ وهل هو إنسان أو القميص ؟ ، فصار في تعيين هذا الشاهد ثلاثة أقوال :

الأول - أنه كان ابن عم لها كبير ، وكان رجلا حكيما عاقلا حصيف الرأي ، فقال : إن كان « 1 » شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب ، وإن كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة ، فلما نظروا إلى القميص ، ورأوا الشق من خلفه ، قال ابن عمها : إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ . . أي من عملكن ، ثم قال ليوسف : أعرض عن هذا واكتمه ، وقال لها : استغفري لذنبك . وهذا قول طائفة كبيرة من المفسرين .

والثاني - وهو قول ابن عباس وجماعة : أن ذلك الشاهد كان صبيا أنطقه اللّه تعالى في المهد .

روى ابن جرير حديثا مرفوعا عن ابن عباس عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم قال : « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم » .

والثالث - أن ذلك الشاهد هو القميص . قال الرازي : وهذا في غاية الضعف لأن القميص لا يوصف بهذا ، ولا ينسب إلى الأهل .

ولما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به وظهر للقوم براءة يوسف عن هذا المنكر ، قال العزيز أو الشاهد : إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إن هذا

---

(1) إن كان قميصه : كان في موضع جزم بالشرط ، وفيه إشكال نحوي لأن حروف الشرط ترد الماضي إلى المستقبل ، وليس هذا في كان ، فقال المبرد : هذا لقوة كان ، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال . وقال الزجاج : المعنى : إن يكن ، أي إن يعلم ، والعلم لم يقع .

الاتهام من جملة كيد كن إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ أي إن مكر المرأة وكيدها شديد التأثير في النفوس ، غريب لا يفطن له الرجال ، ولا قبل لهم به ، ولا لحيلها وتدبيرها .

ويا يوسف أعرض عن ذكر هذه الواقعة واكتم خبرها عن الناس ، ويا أيتها المرأة اطلبي المغفرة لذنبك ، إنك كنت من زمرة الخاطئين أي المذنبين . وقوله هذا لأنه لم يكن غيورا ، فكان ساكنا ، أو لأن اللّه تعالى سلبه الغيرة ، وكان فيه لطف بيوسف ، حتى كفي ما قد يبادر به وعفا عنها .

فقه الحياة أو الأحكام :

موضوع الآيات بيان محنة يوسف ، وإظهار براءته ، واتهام زوجة العزيز ، وتكون الآيات

دالة على ما يأتي :

1 – اتهام امرأة العزيز بمراودة يوسف عن نفسه ، وذكر في الآية ثلاثة تصرفات تؤكد تهمتها وهي : المراودة ، وإغلاق الأبواب ، ودعوتها يوسف لنفسها قائلة : هَيْتَ « 1 » لَكَ وهي لغة أهل حوران جنوب سوريا ، أي هلمّ أقبل وتعال .

2 – دفاع يوسف عن نفسه ، مستخدما في الجواب ثلاثة أشياء : مَعاذَ اللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ، استعاذ باللّه واستجار به مما دعته إليه ، وتذكر فضل سيده عليه إذ آواه وأحسن مثواه ومقامه وتعهده بالرعاية والحفظ ، ونظر إلى المستقبل نظرة العاقل المتأمل الذي يصون

---

(1) قال النحاس : فيها سبع قراءات : هيت وهيت وهيت (الهاء فيهن مفتوحة) وهيت لك بكسر الهاء وفتح التاء ، وهيت لك بكسر الهاء والياء الساكنة والتاء المضمومة ، وهئت لك ، وهئت لك .

مستقبله ، وقرر أنه لا يظفر الظالمون الخائنون الذين يقابلون الإحسان بالإساءة .

3 – هناك فرق واضح بين همّها به وهو المعصية من مخالطة وانتقام ، وبين همّه بها وهو

الفرار والنجاة منها لأن الأنبياء معصومون عن المعاصي .

وأدلة عصمة الأنبياء « 1 » :

الدليل الأول - إن الزنى من منكرات الكبائر ، وكذلك الخيانة من منكرات الذنوب ، وأيضا مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموقعة بالفضيحة التامة والعار الشديد من منكرات الذنوب ، ثم إن إقدام الصبي الذي تربى في حجر إنسان على الإساءة إلى المنعم عليه من أقبح المنكرات والأعمال .

الدليل الثاني - إن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عن النبي ، لقوله تعالى :

كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ ثم إن اللّه تعالى جعل يوسف عليه السّلام من عباده المخلصين - بفتح اللام - الذين خلصهم اللّه من الأسواء ، وبكسر اللام : من الذين أخلصوا دينهم للّه تعالى ، ويحتمل أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه السّلام الذين قال اللّه فيهم : إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ [ص 38/ 46 - 47] .

الدليل الثالث - من المحال أن يصدر عن الأنبياء عليهم السلام زلة أو هفوة ثم لا يتبعونها بالتوبة والاستغفار .

الدليل الرابع - كل من كان له تعلق بتلك الواقعة ، فقد شهد ببراءة يوسف عليه السّلام من المعصية .

والذين لهم تعلق بهذه الواقعة : يوسف عليه السّلام ، وتلك المرأة وزوجها ،

---

(1) تفسير الرازي : 18/ 115 وما بعدها .

والنسوة ، والشهود ، ورب العالمين ، وإبليس ، الكل شهدوا ببراءة يوسف عن الذنب والمعصية ، كما تقدم سابقا .

4 - قال العلماء : لما برّأت نفسها ولم تكن صادقة في حبه - لأن من شأن المحبّ إيثار المحبوب - قال : هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها وكذبها عليه .

5 - الشاهد من أهلها : إما طفل في المهد تكلم ، قال السهيلي : وهو الصحيح ، للحديث المتقدم : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة »

وذكر فيهم شاهد يوسف ، وإما رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها .

6 - في آية قدّ القميص مقبلا ومدبرا دليل على القياس والاعتبار ، والعمل بالعرف والعادة لأن القميص إذا جبذ من خلف تمزّق من تلك الجهة ، وإذا جبذ من قدّام تمزق من تلك الجهة ، وهذا هو الأغلب .

7 – إذا كان الشاهد على براءة يوسف طفلا صغيرا ، فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات وإذا كان رجلا صحّ الاعتماد على الأمارة ، كالعلامة في اللقطة وغيرها فقال مالك في اللصوص : إذا وجدت معهم أمتعة ، فجاء قوم فادعوها ، وليست لهم بينة ، فإن السلطان ينظر في ذلك ، فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم .

وقال الحنفية وغيرهم : إذا اختلف الرجل والمرأة في متاع البيت : إن ما كان للرجال فهو للرجال ، وما كان للنساء فهو للمرأة ، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل . وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات في الحكومة وأصل الاعتماد على الأمارات هذه الآية .

8 – الحذر من فتنة النساء ، فإن كيدهن عظيم لعظم فتنتهن ، واحتيالهن في التخلص من ورطتهن ،

ذكر مقاتل عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن اللّه تعالى يقول : إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً [النساء 4/ 76] ، وقال : إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير المنير حـ 12 صـ 139 250. ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26) ﴾

وقال ابن عطية : " وقرأت فرقة " قُطَّ " . قال أبو الفضل ابن حرب : " رأيت في مصحفٍ " قُطَّ مِنْ دُبُر " ، أي : شُقَّ " . قال يعقوب : " القَطُّ في الجلدِ الصحيح والثوبِ الصحيح " .

وقال الشاعر :

2766 تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المُضاعفَ نَسْجُهُ . . . وتُوْقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ

/ قوله : ﴿ مَا جَزَاءُ ﴾ يجوز في " ما " هذه أن تكونَ نافيةً ، وأن تكونَ استفهاميةً ، و " مَنْ " يجوز أن تكونَ موصولةً أو نكرةً موصوفةً ، وقوله : ﴿ إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ ﴾ خبرُ المبتدأ ، ولَمَّا كان " أَنْ يُسجن " في قوة المصدر عَطَف عليه المصدر وهو قوله : ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . و " أو " تحْمل معانيها ، وأظهرُها التنويع .

وقرأ زيد بن علي : ﴿ أَوْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ بالنصب . وخرجَّه الكسائي على إضمار فعلٍ ، أي : أو أَنْ يُعَذَّبَ عذاباً أليماً .

قوله : ﴿ هِيَ ﴾ ولم يَقُل " هذه " ولا " تلك " لفرط استحيائه وهو أدبٌ حسن ، حيث

أتى بلفظ الغيبة دون الحضور . و " مِنْ أهلها " صفة ل " شاهد " ، وهو المُسَوِّغ لمجيءِ الفاعل من لفظِ الفعل إذ لا يجوزُ : قام القائم ، ولا قعد القاعد لعدم الفائدة .

قوله : ﴿ إِن كَانَ ﴾ هذه الجملة الشرطية : إمَّا معمولةٌ لقولٍ مضمر تقديرُه : فقال : إن كان ، عند البصريين ، وإمَّا معمولة ل " شَهِد " لأنه بمعنى القول عند الكوفيين .

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) ﴾

(129/394)

قوله تعالى : ﴿ مِن دُبُرٍ ﴾ و ﴿ مِن قُبُلٍ ﴾ : قرأ العامَّة جميع ذلك بضمتين والجرِّ والتنوين ، بمعنى مِنْ خلف ومن قُدَّام أي : مِنْ خلف القميص وقدَّامه ، أو يوسف . وقرأ الحسن وأبو عمرو في روايةٍ بتسكين العين تخفيفاً وهي لغة الحجاز وأسد . وقرأ ابن يعمر وابن أبي إسحاق والعطاردي والجارود بثلاث ضمات ، ورُوي عن الجارود وابن أبي إسحاق وابن يعمر وأيضاً بسكون العين وبنائهما على الضم ، ووجه ضمِّهما أنهم جعلوهما كقبل وبعد في بنائهما على الضم عند قطعهما عن الإضافة ، فجعلوهما غاية ، ومعنى الغاية أن يُجعل المضافُ غايةَ نفسِه بعدما كان المضافُ إليه غايتَه ، والأصل إعرابُهما لأنهما اسمان متمكنان وليسا بظرفَيْن . قال أبو حاتم : " وهذا رديءٌ في العربية وإنما يقع هذا البناءُ في

الظروف " .

وقال الزمخشري : " والمعنى : مِنْ قُبُل القميص ومِنْ دُبُره ، وأمَّا التنكير فمعناه مِنْ جهةٍ يُقال لها قُبُل ومِنْ جهة يُقال لها دُبُر ، وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ " مِنْ قبلَ ومِنْ دبرَ " بالفتح كأنه جعلهما عَلَمَيْن للجهتين ، فَمَنْعُهما الصرفَ للعلمية والتأنيث " . وقد تقدَّم الخلافُ في " كان " الواقعة في حَيِّز الشرط : هل تبقى على معناها مِن المُضيِّ وإليه ذهب المبرد ، أم تنقلب إلى الاستقبال كسائر الأفعال ، وأن المعنى على التبيين ؟

وقوله : ﴿ فَكَذَبَتْ ﴾ و ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ على إضمار " قد " لأنها تُقَرِّب الماضي من الحالة ، هذا إذا كان الماضي متصرِّفاً ، أما إذا كان جامداً فلا يحتاج إلى " قد " لا لفظاً ولا تقديراً .

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29) ﴾

(130/394)

قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ ﴾ منادى محذوفٌ منه حرفُ النداء . قال الزمخشري : " لأنه منادى قريبٌ مُفاطِن للحديث ، وفيه تقريبٌ له وتلطيف بمحلِّه " انتهى . وكلُّ منادى يجوز حَذْفُ حرفِ النداء منه إلا الجلالةَ المعظمة واسمَ الجنس غالباً والمستغاثَ والمندوبَ

واسمَ الإِشارة عند البصريين والمضمَر إذا نُودي .

والجمهور على ضمِّ فاء " يوسف " لكونه مفرداً معرفة . و قرأ الأعمش بفتحها . وقيل : لم تَثْبُتْ هذه القراءةُ عنه ، وعلى تقدير ثبوتها فقال أبو البقاء فيها وجهين ، أحدهما : أن يكون أخرجه على أصل المنادى كما جاء في الشعر :

2767 . . . . يا عَدِيّاً لقد وَقَتْكَ الأواقي

يريد بأصل المنادى أنه مفعولٌ به فَحَقُّه النصبُ كالبيت الذي أنشده ، واتفق أن يوسُفَ لا يَنْصرف فَفَتْحَتُه فتحةُ إعراب . والثاني وجعله الأَشْبَه : أن يكونَ وقف على الكلمة ثم وَصَل وأَجْرى الوصل مُجْرى الوقف ، فألقى حركة الهمزة على الفاء وحَذَفَها فصار اللفظ بها " يوسُفَ اعْرِض " وهذا كما حُكِي " اللَّهَ اكبرَ اشْهدَ الاَّ " بالوصل والفتح . قلت : يعني بالفتح في الجلالة ، وفي أكبر ، وفي اشهد ، وذلك أنه قدَّر الوقفَ على كل كلمة مِنْ هذه الكلم ، وألقى حركة الهمزة من كلٍ من الكلمِ الثلاثِ على الساكن قبله ، وأجرى الوصلَ مُجرى الوقف في ذلك ، والذي حَكَوه الناس إنما هو في " أكبر " خاصة لأنها مَظِنَّةُ الوقف ، وقد تقدَّم ذلك في أول آل عمران .

وقرىء " يوسُفُ أَعْرَضَ " بضم الفاء و " أعرض " فعلاً ماضياً ، وتخريجُها أن يكون " يوسف " مبتدأً ، و " أَعْرِض " جملةٌ مِنْ فعل وفاعل خبره . قال أبو البقاء : " وفيه ضعف

لقوله " واستغفِري " ، وكان الأشبهُ أن يكون بالفاء : فاستغفري " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 471.474 ﴾

(131/394)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

أفصح يوسف عليه السلام بجُرْمها إذ ليس للفاسق حُرْمَة يجب حِفْظُها ، فلم يُبَالِ أنْ هَتَكَ سترها فقال : ﴿ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ فلمّا كان يوسفُ صادقاً في قوله ؛ ولم يكن له شاهدٌ أنطق اللَّهُ الصبيَ الصغيرَ الذي لم يبلغ أوانَ النطق . ولهذا قيل إذا كان العبد صادقاً في نفسه لم يبالِ اللَّهُ أن يُنْطِقَ الحجرَ لأجله .

قوله : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ . . . . ﴾ لما اتضح الأمرُ واستبان الحالُ وظهرت براءة ساحة يوسف عليه السلام قال العزيز : ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ : دلَّت الآية على أنَّ الزنا كان مُحرّماً في شرعهم .

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29) ﴾

لم يُرِدْ أن يهتك ستر امرأته فقال ليوسف : أَعرِضْ عن هذا الحديث ، ثم قال لها : ﴿ وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ ﴾ : دلَّ على أنه لم يكن في شرعهم على الزنا حدٌّ - وإن كان مُحَرَّماً - حيث عَدَّه ذنباً .

ويقال ليس كلُّ أحد أهلاً للبلاء ؛ لأن البلاء من صفة أرباب الولاء ، فأمَّا الأجانب فيُتَجَاوزُ عنهم ويُخْلَى سبيلُهم - لا لكرامةِ مَحلِّهم - ولكن لحقارة قدرهم ، فهذا يوسف عليه السلام كان بريءَ السَّاحةِ ، وظهرت للكلِّ سلامةُ جانبه وابُتلِيَ بالسجن . وامرأة العزيز في سوء فِعْلها حيث قال : ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ ، وقال لها : ﴿ وَاسْتَغْفِرِى لِذَنبِكَ ﴾ . . . ثم لم تنزل بها شظيةٌ من البلاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 181﴾

(132/394)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ الر تِلْكَ ﴾

وذلك أن اليهود والنصارى ، قالوا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلوا صاحبكم عن انتقال يعقوب ، وأولاده من كنعان إلى مصر ، ومبدأ أمرهم ، فنزل : ﴿ الر ﴾ يقول : أنا الله أرى ، وأسمع سؤالهم إياك يا محمد ، عن هذه القصة .

ويقال معناه : أنا الله أرى صنيع إخوة يوسف ، ومعاملتهم معه .

ويقال : أنا الله أرى ما يرى الخلق ، وما لا يرى ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ يعني : حججه وبراهينه .

ويقال : هذه الآيات ، التي وعدتكم في التوراة ، أن أنزلها على محمد صلى الله عليه وسلم . وعدهم بأن ينزل عليه كتاباً ، في كثير من أوائل سوره حروف الهجاء .

﴿ المبين ﴾ يعني : مبين حلاله وحرامه .

ويقال : بَيَّنَ فيه خبر يوسف وإخوته .

وروى معمر ، عن قتادة ، قال : بَيَّنَ الله رشده وهداه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ يقول : إنا أنزلنا جبريل ليقرأ على محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ، بلسان العرب ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يعني : لعلكم تفهمون ما فيه .

ثم قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ وذلك أن المسلمين ، قالوا لسلمان : أخبرنا عن التوراة ، فإن فيها العجائب .

فأنزل الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ في هذا القرآن ، ويقال : لا يصح

هذا ، لأن سلمان أسلم بالمدينة ، وهذه السورة مكية .

ولكن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تمنوا نزول سورة ، لا يكون فيها أمر ونهي وأحكام ، فنزلت هذه السورة .

ويقال :

كانت اليهود تفاخروا بأن لهم قصة يوسف مذكورة في التوراة ، فنزلت هذه السورة أفصح من لغة اليهود ، لذهاب افتخارهم على المسلمين .

فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ سماه الله في ابتدائه أحسن القصص ، وفي آخره عبرة ، فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأوْلِى الألباب مَا كَانَ حَدِيثًا يفترى ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : 111] .

ويقال : ينزل عليك جبريل بأحكم الخبر ، ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يقول : بالذي أوحينا إليك .

ويقال : بوحينا إليك ﴿ هذا القرءان وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ ﴾ يعني : وقد كنت من قبل أن

ينزل عليك القرآن ، ﴿ لَمِنَ الغافلين ﴾ عن خبر يوسف ، لم تعلمه .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يا أبت ﴾ قرأ ابن عامر : ﴿ يا أبتَ ﴾ بنصب التاء ، في جميع القرآن ، لأن أصلها يا أبتاه .

وقرأ الباقون بالكسر ، لأجل الإضافة .

﴿ لأَبِيهِ يا أبت إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ يعني : رأيت في المنام كأن أحد عشر كوكباً ، نزل من السماء والشمس والقمر نزلا من السماء يسجدون لي .

وروي عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : الكواكب إخوته ، والشمس والقمر أبواه .

وقال معمر : قال بعض أهل العلم : أبوه وخالته .

وفي رواية الكلبي : رؤياه كانت ليلة القدر ، في ليلة الجمعة .

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا ءادَمُ بِنِى لاَ تَقْصُصْ رُءيَاكَ على إِخْوَتِكَ ﴾ فلمّا قصّها على أبيه ، انتهره وزجره ، وقال ليوسف في السر : إذا رأيت رؤيا بعد هذا ، فلا تقصها على إخوتك ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ يعني : يعملوا بك عملاً ، ويحتالوا بك حيلة في هلاكك فإن قيل قوله : ﴿ رَأَيْتُهُمْ ﴾ هذا اللفظ يستعمل في العقلاء ، وفي غير العقلاء ، يقال : رأيتها ورأيتهن ، فكيف قال ههنا : رأيتهم ؟ قيل له : لأنه حكى عنها الفعل الذي يكون من العقلاء

، وهي السجدة .

فذكر باللفظ الذي يوصف به العقلاء .

﴿ إِنَّ الشيطان للإنسان عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة .

قرأ أبو جعفر القاريء المدني ، ﴿ أَحَدَ عَشْرَ ﴾ بجزم العين ، وقراءة العامة ﴿ أَحَدَ عَشَرَ ﴾ بالنصب .

قال أبو عبيدة : هكذا تقرؤها ، لأنها أعرف اللغتين ، والناس عليه .

ثم قال : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يقول : يصطفيك ويختارك بالنبوة .

قال : بالحسن ، والجمال ، والمحبة في القلوب .

﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الاحاديث ﴾ يعني : من تعبير الرؤيا .

ويقال : يعني : هي الكتب المنزلة .

ويقال : عواقب الأمور ، يعني : يفهمك حتى تكون عالماً بعواقبها ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ يعني : يثبتك على الإسلام ، ويقال : بالنبوة والإسلام ﴿ وعلى ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ يعني : إخوة يوسف ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إبراهيم وإسحاق ﴾ وأكرمهما بالنبوة ، وثبتهما

على الإسلام.

قال الزجاج وقد فسّر له يعقوب الرؤيا، فالتأويل أنه لما قال يوسف: ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ تأول لأحد عشر نفساً لهم فضل وأنهم يستضاء بهم، لأن الكواكب لا شيء أضوء منها، وتأول الشمس والقمر أبويه، فالقمر الأب، والشمس الأم، والكواكب إخوته، فتأول ليوسف أنه يكون نبياً، وأن إخوته يكونون أنبياء، لأنه أعلمه أن الله تعالى يتم نعمته عليه، وعلى إخوته، كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق.

ويقال: ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ ﴾ حين رأى إبراهيم في المنام ذبح ابنه، فأمره الله تعالى أن يفديه.

وروي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنه كان يجعل الجد أباً، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ ﴾ ثم قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يعني: عليم بما صنع به إخوته، حكيم بما حكم من إتمام النعمة عليه.

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ قرأ ابن كثير: "آية" بلفظ الوحدان، وهكذا قرأ مجاهد.

يعني : فيه علامة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ الباقون : "آيات" بلفظ الجماعة ، وهذا موافق لمصحف الإمام عثمان .

حكى أبو عبيدة : أنه رأى في مصحف الإمام هكذا ، ومعنى الآية : أن في خبر يوسف ، وإخوته عبرة وموعظة لمن سأل عن أمرهم .

قال ابن عباس : وذلك أن حبراً من أحبار اليهود ، دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، وكان قارئاً للتوراة ، فوافق رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة يوسف كما أنزلت في التوراة ، فقال له الحبر : يا محمد ، من علمكها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله علمنيها .

فرجع الحبر إلى اليهود ، فقال لهم : أتعلمون ، والله إن محمداً يقرأ سورة يوسف كما أنزلت في التوراة ؟ فانطلق بنفرٍ منهم حتى جاؤوا ، ودخلوا عليه ، فجعلوا يستمعون إلى قراءته ، ويتعجبون ، فقالوا : يا محمد ، من علمكها ؟ قال : الله علمنيها ، فنزلت : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ .

وكان بدء أمرهم أن يعقوب عليه السلام كان مع خاله ، وكان لخاله ابنتان إحداهما "لايا" ، ويقال : "لاواه" ، وهي أكبرهما ، والأخرى "راحيل" وهي أصغرهما ، فخطب يعقوب إلى خاله بأن يزوجه إحداهما ، فقال له خاله : هل لك مال ؟ قال : لا ولكن أعمل لك .

قال : صداقها أن ترعى لي سبع سنين .

وفي بعض الروايات ، قال : أن تخدمني سبع سنين .

فقال يعقوب : أخدمك سبع سنين ، على أن تزوجني راحيل ، وهي شرطي ، قال : ذلك بيني وبينك ، فرعى له يعقوب سبع سنين ، فلما قضى الأجل زفت إليه الكبرى ، وهي لايا .

قال يعقوب : إنك خدعتني ، وإنما أردت راحيل ، فقال له خاله : إنا لا ننكح الصغيرة قبل الكبيرة ، فهلمَّ فاعمل لي سبع سنين أخرى ، أزوجك أختها ، وكان الناس يجمعون بين الأختين ، إلى أن بعث الله موسى عليه السلام .

فرعى له سبع سنين ، فزوجه راحيل ، فجمع بينهما ، وكان خاله حين جهزها دفع إلى كل واحدة منهما أمة تخدمها ، فوهبتا الأمتين ليعقوب .

فولدت لايا أربعة بنين ، وولدت راحيل اثنين ، وولدت كل واحدة من الأمتين ثلاثة بنين ، فجملة بنيه اثنا عشر سوى البنات .

قال الفقيه أبو الليث : سمعت أهل التوراة يقولون إن أسماء أولاد يعقوب مبينة في التوراة : روبيل ، وشمعون ، ويهوذا ، ولاوي ، فهؤلاء من امرأته لايا .

ويوسف ، وبنيامين ، من امرأته الأخرى راحيل .

والستة الباقون من الأمتين : خورية ، وبالعربية يساخر ، وزبلون وبالعربية زبالون ، ودون ، ونفتال ، وحوذ وبالعربية حاذ ، وروى بعضهم : خاذ بالخاء ، وأوشر .

فأراد يعقوب أن يخرج إلى بيت المقدس ، ولم يكن له نفقة ، وكان ليوسف خال له أصنام من ذهب ، فقالت لابا ليوسف : اذهب واسرق من أصنامه ، فلعلنا نستنفق به .

فذهب يوسف فأخذها ، وكان يوسف أعطف على أبيه ، وكان أحب أولاده إليه .

فحسده إخوته مما رأوا من حب أبيه له .

ورأى يوسف في المنام ، أن أحد عشر كوكباً ، والشمس ، والقمر ساجدين له ﴿ إِذْ قَالُواْ ﴾ عند ذلك ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ بنيامين ، ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ يعني : جماعة عشرة ، فهو يؤثرهما علينا ، في المنزلة والحب ، ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني : في خطأ بَيِّنٍ في حب يوسف وأخيه ، حيث قدم الصغيرين في المحبة علينا ، ونحن جماعة ، ونفعنا أكثر من نفعهما .

وقال مقاتل : كان فضل حُسْنِ يوسف على الناس في زمانه ، كفضل القَمَرِ ليلة البدر على سائر الكواكب .

وقال القتبي : العصبة : ما بين العشرة إلى الأربعين .

ثم قال بعضهم لبعض : ﴿ اقتلوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرْضًا ﴾ بعيداً من أبيكم ﴿ يَخْلُ

لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ يقول : ليقبل لكم أبوكم بوجهه ، ويصف لكم وجهه .

ويقال : يصلح حالكم عند أبيكم ، وتكونوا من بعدِهِ قوماً صالحين .

يعني : تصلح أحوالكم عند أبيكم ، بعد ذهاب يوسف .

ويقال : وتكونوا من بعد هلاكه قوماً تائبين إلى الله تعالى .

وقال بعض العلماء : هكذا يكون المؤمن يهيىء التوبة قبل المعصية .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ يعني : من إخوة يوسف ﴿ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ فإن قتله عظيم .

وقال الكلبي : كان صاحب هذا القول : يهوذا ، لم يكن أكبرهم ، ولكن كان أعقلهم .

وقال قتادة ، والضحاك : صاحب هذا القول : روبيل ، وكان أكبر القوم سناً .

﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ يعني اطرحوه في أسفل الجب .

وقال الزجاج : الغيابة كل ما غاب عنك أو غيب شيئاً عنك .

قرأ نافع : غيابات بلفظ الجماعة ، وقرأ الباقون غَيَابَة ، لأن المعنى على موضع واحد .

وروي عن أبي بن كعب ، أنه كان يقرأ : ﴿ غَيَابَةِ الجب ﴾ .

وقال الزجاج: الجُبُّ: البئر.

التي ليست بمطوية سميت جُبًّا، لأنها قطعت قطعاً، ولم يحدث فيها غير القطع.

ثم قال: ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ يعني: يأخذه بعض من يمر عليه من المسافرين ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ يعني: إن كنتم لا بد فاعلين من الشر الذي تريدون.

وروي عن الحسن، ومجاهد، أنهما قرآ: ﴿ تلتقطه ﴾ بالتاء، ومعناه: تلتقطه السيارة، وينصرف إلى المعنى.

فلما قال لهم ذلك يهوذا أو روبيل، أطاعوه في ذلك، وجاؤوا إلى أبيهم و ﴿ قَالُواْ يا أَبَانَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا على يُوسُفَ ﴾ أن ترسله معنا، ﴿ وِإِنَّا لَهُ لناصحون ﴾ يعني: لحافظون.

ويقال: محبون مشفقون.

قرأ أبو جعفر القارىء المدني: ﴿ لاَ تَأْمَنَّا ﴾ بجزم النون، وقرأ الباقون بإشمام النون إلى الرفع، لأن أصلها تأمننا، فأدغمت إحداهما في الأخرى، وأقيم التشديد مقامه، وبقي رفعه.

ثم قال: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً ﴾ يعني: أخوة يوسف قالوا لأبيهم: أرسل يوسف معنا إلى الغنم ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ قال مجاهد: يحفظ بعضنا بعضاً، ونتحارس.

وقال قتادة : نشط ، ونسعى ، ونلهو .

وقال القتبي : من قرأ بتسكين العين ، أي نأكل يقال : رتعت الإبل إذا رعت ، ومن قرأ بكسر العين ، أراد به نتحارس ، ويرعى بعضنا بعضاً ، أي : يحفظ .

قرأ ابن كثير : ﴿ نَرْتَعِ ﴾ بالنون وكسر العين ، ﴿ نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ بالنون .

وقرأ نافع : ﴿ يَرْتَعْ ﴾ بالياء وكسر العين ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم : ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ بالياء وجزم العين ، وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ بالنون وجزم العين .

واتفقوا في جزم الباء .

قال أبو عبيدة ، قلت لأبي عمرو : كيف يقولون نلعب وهم أنبياء ؟ قال : لم يكونوا يومئذٍ أنبياء .

قال أبو الليث رحمه الله : لم يريدوا به اللعب الذي هو منهيّ عنه ، وإنما أرادوا به المطايبة في خروجهم ، وفيه دليل أن القوم إذا خرجوا من المصر ، فلا بأس بالمطايبة والمزاح ، في غير مأثم .

ويقال : ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ يعني : يجيء ويذهب ، حتى يتشجع ويترجل .

ويقال : حتى نجمع النفع والسرور .

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ لا يصيبه أذًى ولا مكروه، وإنا مشفقون عليه ﴿ قَالَ ﴾ لهم يعقوب: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ يعني: إنَّ ذهابكم به ليحزنني.

قرأ نافع: ﴿ لَيُحْزِنُنِي ﴾ بضم الياء وكسر الزاي، وقرأ الباقون بنصب الياء، وضم الزاي.

ومعناهما واحد.

ثم قال ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذئب ﴾ يعني: أخاف أن تضيعوه فيأكله الذئب، ﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافلون ﴾ يعني: مشغولين في أمركم.

قرأ أبو عمرو، والكسائي، ونافع، في رواية ورش: ﴿ الذِّيبُ ﴾ بغير همز.

وقرأ الباقون بالهمز، وهما لغتان.

وروي عن بعض الصحابة، أنه قال: لا ينبغي أن يلقن الخصم بحجة، لأن إخوة يوسف كانوا لا يعلمون أن الذئب يأكل الناس، إلى أن قال ذلك يعقوب، وإنما قال ذلك يعقوب، لأنه رأى في المنام أن ذئباً كان يعدو على يوسف فأنجاه بنفسه.

﴿ قَالُواْ ﴾ يعني : إخوة يوسف ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ يعني : جماعة عشرة ﴿ إِنَّا إِذًا لخاسرون ﴾ يعني : لعاجزين .

فلما قالوا ذلك رضي بخروجه ، فبعثه معهم ، وأوصاهم عند خروجه ، أن يحسنوا إليه ، ويتعاهدوا أمره ، ويردوه إذا طلب الرجوع .

فقبلوا ذلك منه .

ويقال : إنه أبى أن يرسله معهم ، حتى أتوا يوسف ، فقالوا له : اطلب من أبيك ليبعثك معنا ، وطلب يوسف ذلك من أبيه ، فبعثه معهم .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ ﴾ يعني : فلما برزوا به إلى البَرِّيَة ﴿ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ يقول : واتفقوا أن يلقوه في أسفل الجب ، ثم أظهروا له العداوة فجعل أحدهم يضربه فيستغيث ، فيضربه الآخر ، فجعل لا يرى منهم رحيماً ، فضربوه حتى كادوا يقتلونه .

فقال يهوذا : أليس قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه ؟ فانطلقوا به إلى الجب ، وهي بئر على رأس فرسخين من كنعان ، ويقال : أربع فراسخ ، فجعلوا يدلونه في البئر ، فيتعلق بشفة البئر ، فربطوا يديه ونزعوا قميصه .

فقال : يا إخوتاه ، ردوا عليّ قميصي أتوارى به في الجب ، فقالوا : ادع الأحد عشر كوكباً ، والشمس ، والقمر يؤنسوك فدلوه في البئر ، حتى إذا بلغ نصفها ألقوه ، وأرادوا أن يموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم أوى إلى صخرة في البئر ، وقام عليها وجعل يبكي .

فجاءه جبريل يؤنسه ويطعمه .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ ﴾ يعني : لتخبرهم ﴿ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ يعني : بصنيعهم هذا بمصر ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ يعني : لا يعرفونك بمصر .

ويقال : معناه وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ، أن الله تعالى أوحى إليه ، وهم لا يعرفون .

ويقال : لما أرادوا أن يلقوه في البئر ، تعلق بإخوته ، فقال له جبريل : لا تتعلق بهم فإنك تنجو من البئر .

فألقوه حتى وقع في قعرها ، فارتفع حجر حتى قام عليه ، ثم إنهم أخذوا جدياً من الغنم فذبحوه ، ثم لطخوا القميص بدمه .

﴿ وَجَاءوا أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ ﴾ يعني : أقبلوا إلى أبيهم عشاء يبكون ، فلما سمع أصواتهم يعقوب ، فزع وقال : يا بني ما لكم ﴿ قَالُواْ يأَبَانَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ يعني : ويقال : نتصيّد ننتضل ، أي يسابق بعضنا البعض في الرمي ، ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذئب ﴾ فلما قالوا هذا القول : بكى يعقوب ، وصاح بأعلى صوته : ثم قال

: أين قميصه؟ فأخذ القميص وبكى، ثم قال إن هذا الذئب كان بابني رحيماً، كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه؟ وروى سماك، عن عامر، أنه قال: في قميص يوسف ثلاث آيات، حين قُدَّ قميصه من دبر، وحين ألقي على وجه أبيه، فارتد بصيراً، وحين جاؤوا على قميصه بدم كذب، على أن الذئب لو أكله لخرق قميصه.

فقال لهم كذبتم، فقالوا له: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ يعني: بمصدق لنا في مقالتنا ﴿ وَلَوْ كُنَّا صادقين ﴾ في مقالتنا ﴿ وَجَاءوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ يعني: بدم السخلة ولم يكن دم يوسف.

ويقال: بدم كذب أي مكذوب به.

وقرأ بعضهم: ﴿ بِدَمٍ ﴾ بالدال، يعني: بدم طري.

فأروه القميص بالدم ليعرف به، وهي قراءة شاذة، وقراءة العامة بالذال ﴿ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ يقول: زينت واشتهت لكم أنفسكم أمراً، فضيعتموه ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ يعني: على صبر جميل، بلا جزع.

ويقال: معناه لا حيلة لي إلا الصبر.

ويقال: فصبري صبر جميل.

وروي عن بعض الصحابة، أنه كان يقرأ ﴿ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾، يعني: أصبر صبراً جميلاً.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن قوله ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ قال " صبر لا شكوى فيه ، ومن بث فلم يصبر " .

ثم قال : ﴿ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ يقول : أستعين بالله ، وأطلب العون من الله ، على ما تقولون ، وتكذبون من أمر يوسف .

قوله تعالى :

﴿ وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ ﴾ أي : قافلة يمرون من قبل مدين إلى مصر ، فنزلوا بقرب البئر ، ﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾ أي : طالب مائهم ، ويقال : أرسل كل قوم ساقيهم ليستقي لهم الماء ، فجاء مالك بن ذعر إلى الجب ، الذي فيه يوسف ، ﴿ فأدلى دَلْوَهُ ﴾ يقول أرخى ، وأرسل دلوه في البئر ، فتعلق يوسف بالدلو ، فنظر مالك بن ذعر ، فإذا هو بغلام أحسن ما يكون من الغلمان .

﴿ قَالَ يَا ءادَمُ بُشْرىً هذا غُلاَمٌ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ يَا بُشْرَايَ ﴾ بالألف والياء ، ونصب الياء ، وقرأ عاصم : ﴿ الرياح بُشْرىً ﴾ بنصب الراء وسكون الياء ، وقرأ نافع ، في رواية ورش : بالألف والياء مع السكون ﴿ يَا بُشْرَايْ

﴾ ، وكذلك يقرأ في ﴿ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ و ﴿ مَحْيَايَ ﴾ و ﴿ هِىَ عَصَاىَ ﴾ ، بسكون بالياء .

وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ يَا بُشْرِي ﴾ بغير ألف ، وسكون الياء ، وكسر الراء .

فمن قرأ : ﴿ يا بشرَايَ ﴾ ، يكون بمعنى الإضافة إلى نفسه ، ومن قرأ : ﴿ الرياح بُشْرىً ﴾ يكون على معنى تنبيه المخاطبين ، كقوله يا عجبًا ، وإنما أراد به : اعجبوا ، ومن قرأ : ﴿ الرياح بُشْرىً ﴾ ، كأنه اسم رجل دعاه باسمه بشرى ، وقال أبو عبيدة : هذه القراءة تقرأ ، لأنها تجمع المعنيين ، إن أراد به الاسم ، أو أراد به البشرى بعينها .

وقال السدي : تعلق يوسف بالحبل ، فخرج فلما رآه صاحب الدلو ، نادى رجلاً من أصحابه ، يقال له البشرى ، وقال : يا بشراي ، هذا غلام .

وقال قتادة وغيره : إنه بشر واردهم حين وجد يوسف .

(142/394)

ثم قال : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بضاعة ﴾ يعني : التُّجار بعضهم من بعض ، وقال بعضهم لبعض : اكتموه من أصحابكم لكيلا يسألوكم فيه شركة ، فإن قالوا لكم ما هذا الغلام؟ قولوا : استبضعنا بعض أهل الماء ، لنبيعه لهم بمصر ، فذلك قوله : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بضاعة ﴾ يعني :

أسروه ، وأعلنوه بضاعة ، فرجع إخوته بعد ثلاثة أيام ، فرأوا يوسف في أيديهم ، فقالوا : هذا غلام أبق منا منذ ثلاثة أيام ، فقيل لهم : ما بال هذا الغلام لا يشبه العبيد ، وإنما هو يشبهكم ؟ فقالوا : إنما وُلِدَ في حجرنا وإنه ابن وليدة أمنا ، أمرتنا ببيعه .

وقالوا ليوسف بلسانهم : لئن أنكرت أنك عبد لنا ، أخذناك وقتلك .

أترى أنا نرجع بك إلى يعقوب أبداً ، وقد أخبرناه أن الذئب قد أكلك .

فقال : يا إخوتاه ارجعوا بي إلى أبي ، ضامن لكم رضاه ، وأنا لا أذكر لكم هذا أبداً .

فأبوا عليه فذلك قوله تعالى ﴿ والله عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : بما يصنع به إخوته .

قوله تعالى ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ بثمن ، يعني : باعوه ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ يعني : ظلماً وحراماً لم يحل بيعه .

ويقال : بدراهم رديئة ويقال : البخس : الخسيس ﴿ دراهم مَعْدُودَةٍ ﴾ أي : يسير عددها .

وقال مجاهد : البخس القليل ، والمعدودة : عشرين درهماً ، وقال : كان في ذلك الزمان ، ما كان فوق الأوقية ، وزنوه وزناً وما كان دون الأوقية عدّوه عداً .

وقال بعضهم : باعوه بعشرة دراهم لأن اسم الدرهم يقع على ما بين الثلاثة إلى العشرة ، فأصاب كل واحد منهم درهماً .

وروي عن الضحاك ، أنه قال : باعوه باثني عشر درهماً ، وقال ابن مسعود بيع بعشرين درهماً ، وقال عكرمة : البخس : أربعون درهماً ، وقال بعضهم : لم يبعه إخوته ولكن الذين وردوا الماء ، وجدوه في البئر ، وأخرجوه من البئر ، فباعوه بثمن بخس ، دراهم معدودة ، وهو قول المعتزلة ، لأن مذهبهم أن الأنبياء معصومون عن الكبيرة قبل النبوة ، لأن الكبيرة عندهم تخرج المؤمن عن الإيمان ، وعند أهل السنة ، الكبيرة لا تخرج المؤمن عن الإيمان . وجاز جريان المعصية قبل النبوة وقال عامة المفسرين : إن إخوته باعوه وروي عن ابن عباس : أن إخوته باعوه بعشرين درهماً ، وكتب يهوذا شراءه على رجل منهم .

ثم قال : ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزهدين ﴾ يعني : الذين اشتروه لم يعلموا بحاله وقصته .

ويقال : يعني : إخوة يوسف ، في ثمنه لم يكونوا محتاجين إليه .

ثم إن مالك بن ذعر ، لما أدخله مصر باعه .

قال مقاتل : باعه بعشرين ديناراً ، ونعلين ، وحلة .

وقال الكلبي : بعشرين درهماً ، ونعلين ، وحلة .

وقال بعضهم : باعه بوزنه فضة .

وقال بعضهم : باعه بوزنه ذهباً .

وقال وهب بن منبه : باعه مالك بن ذعر ، بعدما عرضه في بيع "من يزيد" ، ثلاثة أيام ، فزاد

الناس بعضهم على بعض ، حتى بلغ ثمنه بحيث لا يقدر أحد عليه ، فاشتراه عزيز مصر ، وكان خازن الملك وصاحب جنوده لامرأته زليخا ، بوزنه مرة مسكاً ، ومرة لؤلؤاً ، ومرة ذهباً ، ومرة فضة ، ومرة حللاً ، وسلم إليه كلها .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذى اشتراه مِن مّصْرَ لِامْرَأَتِهِ ﴾ قال ابن عباس : كان اسمه قطيفر ، وهو العزيز ، قال لامرأته ، واسمها : زليخا ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ يعني : منزله وولايته ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ في ضياعنا وغلاتنا ، على وجه التبرك به ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ يقول : نتبناه فيكون ابناً لنا .

وروى ابن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : أفرس الناس ثلاثة : العزيز ، حين قال لامرأته ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ وبنت شعيب التي قالت ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يا أبت استأجره إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوى الأمين ﴾ [القصص : 26] وأبو بكر ، حين تفرّس في عمر وولاه من بعده .

قال الله تعالى : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرض ﴾ يعني : في أرض مصر ، وهي أربعين فرسخاً في أربعين فرسخاً ﴿ وَلِنُعَلّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الاحاديث ﴾ يعني : كي يلهمه تعبير

الرؤيا ، وغير ذلك من العلوم ، ﴿ واللهُ غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ إذا أمر بشيء ، لا يقدر أحد أن يرد أمر الله تعالى ، إذا أراد بأحد من خلقه .

ويقال : ﴿ والله تَعَالَى غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ ، يعني : وليته فيتم أمر يوسف ، الذي هو كائن ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : أهل مصر .

ويقال : يعني : أهل مكة لا يعلمون أن الله تعالى غالب على أمره .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ يعني : تمت قوة نفسه ، وعقله .

ويقال : بلغ مبلغ الرجال .

ويقال : الأشد بلوغ ثلاثين سنة .

وقال الضحاك : يعني : بلغ ثلاثاً وثلاثين سنة .

ويقال الأشد : ما بين ثماني عشرة سنة ، إلى ثمان وثلاثين سنة ﴿ اتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ أي : أكرمناه بالنبوة ، والعلم ، والفهم ، والفقه ، فجعلناه حكيماً ، وعليماً ، ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ يعني : هكذا نكافىء من أحسن .

ويقال : هكذا نجزي المخلصين في العمل ، بالفهم والعلم .

قوله تعالى ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ يعني : راودته عما أرادت عليه ، مما تريد النساء من الرجال ، فعلم بذكره ذكر الفاحشة ، ومعناه : طلبت إليه أن يمكنها من نفسه ، يعني : امرأة العزيز واسمها زليخا ﴿ وَغَلَّقَتِ الأبواب ﴾ عليها ، وعلى يوسف ، وجعلت تغره وتمازحه ، ويوسف يعظها بالله ، ويزجرها .

ويروى عن ابن عباس ، أنه قال : كان يوسف إذا تبسم ، رأيت النور في ضواحكه ، وإذا تكلم ، رأيت شعاع النور في كلامه ، يذهب من بين يديه ، ولا يستطيع آدمي أن ينعت نعته .

فقالت له : يا يوسف ما أحسن عينيك قال : هما أول شيء يسيلان إلى الأرض من جسدي .

ثم قالت : يا يوسف ما أحسن ديباج وجهك قال : هو للتراب يأكله .

ثم قالت : يا يوسف ما أحسن شعرك قال : هو أول ما ينتشر من جسدي .

﴿ وَقَالَتِ ﴾ : يا يوسف ، ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، ﴿ هَيْتَ ﴾ بنصب الهاء والتاء ، يعني : أقبل ، ويقال : هلم إليّ ، والعرب تقول : هيت فلان لفلان ، إذا دعاه وصاح به ، وهكذا قرأ ابن مسعود وابن عباس والحسن ، وقرأ ابن عامر في رواية هشام ﴿ هِئْتُ ﴾ بكسر الهاء والهمز وضم التاء ، بمعنى تهيأت لك ، وقرأ ابن كثير ﴿ وَقَالَتْ هَيْتُ ﴾ لك بنصب الهاء وضم التاء ، ومعناه أنا لك ، وأنا فداؤك ، وقرأ نافع وابن عامر في إحدى الروايتين ﴿ هِيْتَ ﴾

بكسر الهاء ونصب التاء ، بغير همز .

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ يعني : قال يوسف : أعوذ بالله أن أعصيه وأخونه .

﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ يعني : إن سيدي الذي اشتراني أحسن إكرامي ، فلم أكن لأفعل بامرأته ذلك .

﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ يعني : لا ينجو الزناة من عذاب الله تعالى ، وفي هذه الآية دليل أن معرفة الإحسان واجب ، لأن يوسف امتنع عنها لأجل شيئين لأجل المعصية والظلم ، ولأجل إحسان الزوج إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ روى حماد بن سلمة ، عن الكلبي أنه قال : كان من همها أنها دعته إلى نفسها واضجعت وهَمَّ بها بالموعظة والتخويف من الله تعالى ، وقيل إنه حلَّ سراويله ، وجلس بين رجليها ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ يقول : مثل له يعقوب في الحائط عاضاً على شفتيه ، فاستحيى ، فتنحى بنفسه ، وقال وهب بن منبه : لم تزل تخدعه حتى همَّ بها ، ودخل معها في فراشها ، فنودي من السماء .

مهلاً يا يوسفُ فإنك لو وقعت في الخطيئة محي اسمك عن ديوان النبوة .

وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه سئل عن قوله ﴿ لَقَدِ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ما بلغ من همه؟ قال: أطلق هميانه فنودي يا يوسف لا تكن كالطائر له ريش فزنى، فسقط ريشه.

ويقال: كان همها هم إرادة وشهوة، وهمه همّ اضطرار وغلبة.

وقال بعضهم: كان همه حديث النفس والفكر، وحديث النفس والفكر مرفوعان.

وقال بعضهم: ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ يعني: يضربها.

وقال بعضهم: يعني: هم بالفرار عنها.

وقال بعضهم: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ تم الكلام، ثم ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ يعني: لما رأى البرهان لم يهم بها، فقد قيل هذه الأقاويل، والله أعلم.

وقد روي في الخبر أنه ليس من نبي إلا وقد أخطأ أو همّ بخطيئة غير يحيى بن زكريا، ولكنهم كانوا معصومين من الفواحش.

قوله تعالى: ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: مثل له يعقوب، فضرب بيده على صدره، فخرجت شهوته من أنامله.

وقال محمد بن كعب ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال: لولا أن قرأ القرآن من تحريم الزنى، وذلك أنه استقبل بكتاب الله تعالى ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 32].

قال الله تعالى ﴿ كذلك لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء والفحشاء ﴾ يقول : هكذا صرفت السوء والفحشاء عن يوسف بالبرهان ، حين استعاذ إليّ بقوله : معاذ الله .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ بالتوحيد والطاعة .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿ المخلصين ﴾ بكسر اللام ، ومعناه ما ذكرناه .

وقرأ الباقون ﴿ المخلصين ﴾ بالنصب ، يعني : المعصومين من الذنوب والفواحش ، ويقال : أخلصه الله تعالى بالنبوة والرسالة والإسلام .

قوله تعالى : ﴿ واستبقا الباب ﴾ يعني : تبادرا إلى الباب ، يعني : يوسف وزليخا .

أما يوسف ، فاستبق ليخرج من الباب ، وأما زليخا فاستبقت لتغلق الباب على يوسف ، فأدركته قبل أن يخرج ، فتعلقت به قبل أن يخرج من الباب .

﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ يعني : مزقت قميصه من خلفه .

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ يعني : صادفَ ، ووجدا سيدها ﴿ لدى الباب ﴾ يعني : زوجها عند الباب .

﴿ قَالَتْ ﴾ زليخا لزوجها : ﴿ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءا ﴾ يعني : قالت لزوجها

: ﴿ مَا جَزَاءُ ﴾ ، يعني : ما عقاب ﴿ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ يعني : قصد بها الزنى

﴿ إِلا أَن يُسْجَنَ ﴾ يعني : يحبس في السجن .

﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني : يضرب ضرباً وجيعاً ، وذلك أن الزوج قال لهما ما شأنكما ؟

قالت له زليخا : كنت نائمة في الفراش عريانة ، فجاء هذا الغلام العبراني ، وكشف ثيابي ،

وراودني عن نفسي ، فدفعته عن نفسي ، فانشق قميصه .

﴿ قَالَ ﴾ يوسف : بل ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ يعني : دعتني إلى نفسها ﴿

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال مجاهد : قميصه شاهد أنه قَدْ قُدَّ من دبر فظهر أن الذنب

لها بتلك العلامة .

وروي عن ابن عباس أنه قال : كان صبي في المهد لم يتكلم بعد فتكلم ، وقال ﴿ إِن كَانَ قَدْ

قَمِيصُهُ مِن قُبُلٍ ﴾ الآية .

وقال قتادة : كان رجلاً حكيماً من أهلها .

ويقال : كان رجلاً من خواصّ الملك .

وروي عن عكرمة أنه قيل له إنه صبي قال : لا ، ولكنه رجل حكيم .

وقال الحسن : كان رجلاً له رأي ، فقال برأيه .

وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال : كان زوجها على الباب مع ابن عم لها يقال له ممليخا ، وكان رجلاً حكيماً ، فقال : قد سمعنا الاشتداد والجلبة من وراء الباب ، ولا ندري أيكما قدام صاحبه ؟ إن كان قد شقّ القميص من قدامه فأنت صادقة فيما قلت ، وإن كان مشقوقاً من خلفه فهو صادق ، فنظروا إلى قميصه ، فإذا هو مشقوق من خلفه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ ﴾ يعني : زليخا ﴿ وَهُوَ ﴾ يعني : يوسف ﴿ مِنَ الكاذبين ﴾ .

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ ﴾ ، يعني : زليخا ﴿ وَهُوَ ﴾ يعني : يوسف ﴿ مِنَ الصادقين ﴾ وذلك أن الرجل لا يأتيها إلا مقبلاً .

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ يعني : مقدوداً من دبر ﴿ قَالَ ﴾ ابن العم ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ يعني : صنيعكن ، ويقال قال الزوج : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ يعني : صنيعكن عظيم يخلص إلى البريء والسقيم والصالح والطالح .

وفي هذه الآية دليل أن القضاء بشهادة الحال جائز وقال بعض الحكماء : سمى الله كيد الشيطان ضعيفاً ، وسمى كيد النساء عظيماً لأن كيد الشيطان بالوسوسة والخيال ، وكيد النساء بالمواجهة والعيان .

ثم أقبل على يوسف فقال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ يعني : يا يوسف أعرض عن هذا القول ، ولا تذكره ، واكتم هذا الحديث .

ثم أقبل عليها فقال : ﴿ واستغفري لِذَنبِكِ ﴾ يعني : توبي وارجعي عن ذنبك ، ويقال ابن عمها هو الذي قال لها : واستغفري لذنبك ، يعني : اعتذري إلى زوجك من ذنبك .

﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ﴾ يعني : من المذنبين .

وفشا ذلك الخبر في مصر وتحدثت النساء فيما بينهن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 178. 189 ﴾

(149/394)

وقال الثعلبى

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين ﴾

يعني البيّن حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وهداه وبركته ، قال معاذ بن جبل : بيّن فيه الحروف التي سقطت من ألسن الأعاجم وهي ستة أحرف .

﴿ إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ يعني الكتاب ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ بلغتكم يا معشر العرب ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لكي تعلموا معانيه وتقيموا ما فيه ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي نقرأ ، وأصل القصص

تتبع الشيء ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [القصص : 11] فالقاص يتتبع الآثار ويخبر بها .

﴿ أَحْسَنَ القصص ﴾ يعني قصة يوسف ﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ و ﴿ ما ﴾ المصدر أي بإيحائنا إليك هذا القرآن ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ ﴾ من قبل وحينا ﴿ لَمِنَ الغافلين ﴾ قال سعد بن أبي وقاص : أُنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زماناً ، وكأنهم ملّوا فقالوا : لو قصصت علينا ، فأنزل الله تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ الآية ، فقالوا : يا رسول الله لو ذكرتنا وحدثتنا فأنزل الله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ [الحديد : 16] الآية ، فقال الله تعالى على هذه الآية : أحسن القصص .

واختلف الحكماء فيها لم سميت أحسن القصص من بين الأقاصيص؟ فقيل : سماها أحسن القصص لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم والنكت ما تتضمن هذه القصة ، وقيل : سمّاها أحسن لامتداد الأوقات فيما بين مبتداها إلى منتهاها ، قال ابن عباس : كان بين رؤيا يوسف ومصير أبيه وأخوته إليه أربعون سنة ، وعليه أكثر المفسرين ، وقال الحسن البصري : كان بينهما ثمانون سنة .

وقيل : سماها أحسن القصص لحسن مجاورة يوسف إخوته ، وصبره على أذاهم ، وإغضائه عند الإلتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه في العفو عنهم وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والأنس والجن والأنعام والطير ، وسير الملوك والمماليك ، والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء ، وحيلهن ومكرهن ، وفيها أيضاً ذكر التوحيد والعفة والسير وتعبير الرؤيا السياسة وتدبير المعاش ، وجعلت أحسن القصص لما فيها من المعاني الجزيلة والفوائد الجليلة التي تصلح للدين والدنيا ، وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب المحبوب . وقيل : أحسن القصص ها هنا بمعنى أعجب .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ قراءة العامة يوسف بضم السين ، وقرأ طلحة بن مصرف بكسر السين ، واختلفوا فيه فقال أكثرهم : هو اسم عبريّ فلذلك لا يجري ، وقال بعضهم : هو اسم عربي .

سمعت أبا القاسم الحبيبي ، قال : سمعت أبي يقول : سمعت أبا الحسن الأقطع ، وكان حكيماً ، وسئل عن يوسف ، فقال : الأسف : الحزن ، والأسيف : العبد واجتمعا في يوسف فلذلك سمي يوسف .

﴿ لأَبِيهِ ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم السلام) . روى أبو سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف

بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم السلام) " .

﴿ يا أبت ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر بفتح التاء في جميع القرآن على تقدير يا أبتاه ، وقرأ الباقون بالكسر ، لأنه أصله يا أبه على هاء الوقف والجر .

﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ نصب الكوكب على التمييز ، ﴿ والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ ولم يقل : رأيتها لي ساجدة ، والهاء والميم والياء والنون من كنايات ما يعقل ؛ لأن السجود فعل ما يعقل فعبّر عنها بكنايتها كقوله ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ [النمل : 18] الآية .

(151/394)

روى السدّي عن عبد الرحمن بن [ساريا] ، عن جابر ، قال : " سأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ من اليهود يقال له بستان ، فقال : يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها ، فسكت ؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هل أنت مؤمن إن أخبرتُ بأسمائها ؟ " قال : نعم ، فقال : " حرثان والطارق والذيال وذو النقاب وقابس ووثاب وعمودان والمصبح والفليق والضروح وذو الفرغ ، رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء فسجدن له فقال اليهودي : إي والله إنها لأسماؤها " .

قال ابن عباس : الشمس والقمر أبواه والكواكب إخوته الأحد عشر . وقال قتادة : الشمس أبوه والقمر خالته ، وذلك أن أمه راحيل كانت قد ماتت ، قال وهب : وكان يوسف رأى وهو ابن سبع سنين ، أن احدى عشرة عصاً طوالا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة وإذا عصا صغيرة ثبتت عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لأبيه ، فقال له : إياك أن تذكر هذا لإخوتك ، ثم رأى وهو ابن اثني عشرة سنة أنّ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سجدن له فقصّها على أبيه فقال له : ﴿ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً ﴾ فيبغوا لك الغوايل ويحتالوا في إهلاكك ، لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك ﴿ إِنَّ الشيطان لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

واختلف النحاة في وجه دخول اللام في قوله لك ، فقال بعضهم : معناه فيكيدوك واللام صلة ، كقوله ﴿ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف : 154] وقال آخرون : هو مثل قولهم : نصحتك ونصحت لك ، وشكرتك وشكرت لك ، وحمدتك وحمدت لك ، وقصدتك وقصدت لك .

﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ كقوله : [يصطفيك ويختارك] ليوسف ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ تعبير الرؤيا وسمي تأويلا لأنه يؤوّل أمره إلى ما رأى في منامه ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعلى آلِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَآ على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بالخلة وإنجائه من النار قال عكرمة : بأن نجّاه من الذبح وفداه بذبح عظيم . وقال الباقون : بإخراج يعقوب ، والأسباط من صلبه .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ولهذا قيل : العرق نزّاع والأصل لا يخطئ ، فلمّا بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه ، قال ابن زيد : كانوا أنبياء ، وقالوا : ما رضي أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه ، فبغوه بالعداوة .

يقول الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ ﴾ أي في خبره وخبر إخوته ﴿ وَإِخْوَتِهِ ﴾ وأسماؤهم روبيل وهو أكبرهم ، وشمعون ، ولاوي ، ويهودا ، وزبالون ، وأمنجر ، وأُمهم ليا بنت ايان وهي ابنة خال يعقوب ، وولد له من سريّتين له اسم احداهما زاد الأُخرى ملده ، أربعة نفر ، دان ونفتالي وجاد وآشر ، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، وكان بنو يعقوب اثني عشر رجلا .

﴿ آيَاتٌ ﴾ قرأ أهل مكة آية على الواحد ، أي عظة وعبرة ، وقيل : عجب ، يقال : فلان آية في الحسن والعلم أي عجب ، وقرأ الباقون : آيات على الجمع ﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ وذلك أن اليهود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فأخبرهم بها كما في التوراة

فعجبوا منه وقالوا : من أين لك هذا يا محمد ؟ قال : "علّمنيه ربي" وقيل : معناه للسائلين ولمن لم يسأل ، كقوله : ﴿ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ .

(153/394)

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ ﴾ اللام فيه جواب القسم تقديره : تالله ليوسف وأخوه بنيامين ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي جماعة والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة ، وقيل : إلى الخمسة عشر ، وقيل : ما بين العشرة إلى الأربعين ولا واحد لها من لفظها كالنفر والرهط ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ خطأ بيّن في إيثاره يوسف وأخاه علينا .

﴿ اقتلوا يُوسُفَ ﴾ اختلفوا في تأويل هذا القول ، فقال وهب : قاله شمعون ، كعب : دان ، مقاتل : روبيل ﴿ أَوِ اطرحوه أَرْضاً ﴾ أي في أرض ﴿ يَخْلُ لَكُمْ ﴾ يخلص ويصفو لكم .

﴿ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ عن شغله بيوسف فإنه قد شغله عنّا وصرف وجهه إليه عنّا ﴿ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ ﴾ من بعد قتل يوسف ﴿ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ تائبين ، وقال مقاتل : يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم .

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهو روبيل ، وقال السدي : هو يهودا ، وهو أعظمهم وكان ابن خالة

يوسف ، وكان أحسنهم فيدا يا نهاهم عن قتله وقال لهم : ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ فإن قتله عظيم .

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غيابت الجب ﴾ أي في قعر الجب وظلمته حيث يغيب خبره ، قتادة : في أسفله ، والغيابة : كل شيء غَيَّبَ شيئاً ، وأصلها من الغيبوبة ، وقرأ أهل المدينة : غيابات الجب ، على الجمع ، والباقون : غيابة ، على الواحد ، والجبّ : البئر غير المطويّة ، قتادة : هو بئر بيت المقدس ، وقال وهب : هو بأرض الأردن ، كعب : بين مدين ومصر ، مقاتل : على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب .

﴿ يَلْتَقِطْهُ ﴾ بعض السيارة يأخذه ، قراءة العامة بالياء لأنه البعض وقرأ الحسن : تلتقطه بالتاء لأجل السيارة ، والعرب تفعل ذلك في كل خبر كان عن مضاف إلى مؤنث يكون الخبر عن بعضه خبراً عن جميعه ، كقول الشاعر :

أرى مرّ السنين أخذن مني . . . كما أخذ السرار من الهلال

ولم يقل أخذت وقال الآخر :

إذا مات منهم سيد قام سيد . . . فدانت له أهل القرى والكنائس

﴿ بَعْضُ السيارة ﴾ بعض مارّي الطريق من المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى فينستر خبره ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ ما أقول لكم .

قيل للحسن : أيحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بني يعقوب ؟ لهذا قيل : الأب جلاب ، والأخ سلاب ، فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين والده بضرب من الاحتيال ، فقالوا ليعقوب ﴿ قَالُواْ يا أبانا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا ﴾ قرأ أبو جعفر بالنون ، وقرأ الباقون بإشمام النون للضمّة ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، لأن أصله تأمننا بنونين فأُدغمت أحدهما في الأخرى .

﴿ لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ نحوطه ونحفظه حتى نردّه إليك ، مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير وذلك أن أخوة يوسف قالوا لأبيهم ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ قال أبوهم : ﴿ إِنّي ليحزنني أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ فحينئذ قالوا ﴿ مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا على يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً ﴾ إلى الصحراء ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ .

وقرأ أبو عمرو بالنون فيهما وكذلك ابن عامر قال ، هارون : فقلت لأبي عمرو : كيف تقرأ نرتع ونلعب وهم أنبياء ؟ قال : لم يكونوا يومئذ أنبياء ، وقرأ أهل الكوفة كلاهما بالياء أي ننعم ونأكل وننشط ونلهو ، يقال : رتع فلان في ماله إذا أنعم وأنفقه في شهواته . قال القطامي

:

أكفراً بعد ردّ الموت عنّي . . . وبعد عطائك المائة الرتاعا

وقال ابن زيد : معناه يرعى غنمه ، وينظر ويعقل فيعرف ما يعرف الرجل .

وقرأ يعقوب (نرتع) بالنون ﴿ وَيَلْعَبْ ﴾ بالياء ردّاً للعب إلى يوسف والرتوع إلى إخوته ، وقرأ أهل الحجاز نرتع بكسر العين من الارتعاء ، أي نتحارس ويحفظ بعضنا بعضاً ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

(155/394)

﴿ قَالَ ﴾ لهم يعقوب ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ أي ذهابكم ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ لا تشعرون ، وذلك أن يعقوب رأى في منامه أن الذئب قد شدّ على يوسف وكان يحذره ، ومن ثم قال هذا فلقّنهم العلة وكانوا لا يدرون فقالوا : ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ عشرة رجال ﴿ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ ضعفة عجزة مغبونون .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ ﴾ في الكلام إضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلمّا ذهبوا به ﴿ وأجمعوا ﴾ وعزموا على ﴿ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ هذه الواو

مقحمة زائدة تقديره أوحينا ، كقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ ﴾ [الصافات : 103104] أي ناديناه وقال امرؤ القيس :

فلما أجزنا ساحة الحيّ وانتحى . . . بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل

أراد انتحى .

﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعني أوحينا إلى يوسف ، [سوف تتحقق] رؤياك ، ولتخبرنّ إخوتك بصنيعهم هذا وما فعلوه بك ، وهم لا يشعرون بوحي الله إليه وإعلامه إياه ذلك ، وهذا معنى قول مجاهد ، وقيل : معناه وهم لا يشعرون أنك يوسف . قال ابن عباس : لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطنّ وقال : أنه ليخبرني هذا الجام إنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ، يدنيه دونكم ، وإنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب ثم جئتم أباكم فقلتم : إن الذئب أكله وبعتموه بثمن خس ، فذلك قوله ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال السدّي : أرسل يعقوب يوسف معهم فأخرجوه وبه عليهم من الكرامة ، فلمّا برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ، فجعل لا يجد منهم رحمة ، فضربوه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح ويقول : يا أبتاه يا يعقوب ، لو تعلم ما يصنع بابنك هؤلاء الأبناء .

فلمّا كادوا ليقتلوه قال يهودا : أليس سألنا أبانا موثقاً ألاّ تقتلوه ؟ فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فجعلوا يدلونه في البئر ، فتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال : يا إخوتاه ، ردّوا عليّ القميص أتوارى به في الجب ، فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً تؤنسك ، قال : إنّي لم أرَ شيئاً .

فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فيه فقام عليها ، فلمّا ألقوه في الجب جعل يبكي فنادوه فظن أنّها رحمة أدركتهم ، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه فقام يهودا فمنعهم وقال : قد أعطيتموني موثقاً ألاّ تقتلوه ، وكان يهودا يأتيه بالطعام . ويقال : إن الله تعالى أمر صخرة حتى ارتفعت من أسفل البئر فوقف يوسف عليها وهو عريان ، وكان إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم حين أُلقي في النار جرّد من ثيابه وقذف في النار عرياناً فأتاه جبريل (عليه السلام) بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه وكان ذلك [القميص] عند إبراهيم ، فلمّا مات ورثه إسحاق ، فلمّا مات إسحاق ورثه يعقوب ، فلمّا شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص

في تعويذ وعلّقه في عنقه ، فكان لا يفارقه ، فلمّا أُلقي في البئر عرياناً جاء جبرئيل وكان عليه ذلك التعويذ أخرج القميص منه وألبسه إياه ، قال ابن عباس : ثم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف .

(157/394)

﴿ وجآءوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ ليكونوا أجرأ في الظلمة على الاعتذار وترويج ما مكروا ، وقد قيل : لا تطلب الحاجة بالليل وإن الحياء في العينين ، ولا يعتذر من ذنب في النهار فيتلجلج في الاعتذار فلا يقدر على إتمامه ، وقيل : أخّروا المجيء إلى وقت العشاء الآخرة ليدلّسوا على أبيهم

قال السدّي : فلمّا سمع أصواتهم فزع وقال : ما لكم يا بنيّ ؟ وهل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فما أصابكم ؟ وأين يوسف ؟

﴿ قَالُواْ ياأبانا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي نترامى ، دليله قول عبد الله : ننتضل ، السدّي وابن حيان : نشتد ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذئب وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ ﴾ مصدّق ﴿ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ لسوء ظنّك بنا وتهمتك لنا ، وهذا قميصه ملطخ بالدم فذلك قوله ﴿ وَجَآءُو على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي بدم كذب ، وقيل : بدم ذي كذب لأنه لم يكن دم

يوسف وإنما كان دم شاة ، وهذا كما يقال : الليلة الهلال ، وقيل : معناه بدم مكذوب فيه ، فوضع المصدر موضع الاسم ، كما يقال : ماله عقل ولا معقول .

وقرأت عائشة : بدم كدب بالدال غير المعجمة ، أي طري ، فبكى يعقوب عند ذلك ، وقال لبنيه : أروني قميصه فأروه ، فقال : يا الله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا ، أكل ابني ولم يخرق عليه قميصه ، فحينئذ ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ رتبت ﴿ أَمْراً فَصَبْرٌ ﴾ أي فمنّي أو فعليّ صبر ، وقيل : فصبري صبرٌ ﴿ جَمِيلٌ ﴾ وقرأ الأشهب والعقيلي : فصبراً على المصدر أي فلأصبرنّ صبراً جميلا ، وهو الصبر الذي لا جزع ولا شكوى فيه . وقيل : معناه لا أعاشركم على كآبة الوجه وحبوس الحنين ، بل أكون في المعاشرة معكم جميلا كما كنت .

(158/394)

وروى عبد الرزاق عن الثوري عن حبيب بن ثابت أن يعقوب النبي (عليه السلام) كان قد سقط حاجباه على عينيه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحزان فأوحى الله إليه : يا يعقوب أتشكوني ؟ قال : يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي .

﴿ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ من الكذب ، قالوا : وكان يوسف حين أُلقي في الجب ابن ثماني عشرة سنة ، وقيل : سبع عشرة سنة ، وقيل : كان ابن عشر ، ومكث فيه ثلاثة أيام .

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ أي رفقة مارة من قبل مدين يريدون مصر ، فأخطأوا الطريق فانطلقوا يمشون على غير الطريق حتى نزلوا قريباً من الجب ، وكان الجب في قفرة بعيداً من العمران ، إنما هو للرعاة والمجتازة ، وكان ماؤه مالحاً فعذب حين أُلقي فيه يوسف ، فلما نزلوا أرسلوا رجلا من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر ليطلب لهم الماء فذلك قوله ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ الوارد : الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فيُهيّئ الأرشية والدلاء ، فوصل إلى البئر ﴿ فأدلى ﴾ فيها ﴿ دَلْوَهُ ﴾ أي أرسلها يقال : أدليت الدلو في الماء إذا أرسلتها فيها ، ودلَوتها دلواً إذا أخرجتها منها ، فتعلّق يوسف (عليه السلام) بالحبل ، فلمّا خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون من الغلمان .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أُعطي يوسف شطر الحسن والنصف الآخر لسائر الناس " ، قال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ، ضخم العينين ، مستوي الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساقين والساعدين والعضدين ، خميص البطن ، صغير السرة ، وكان إذا ابتسم رأيت النور في ضواحكه ، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع النور ، ينبهر بين ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه ، وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ،

وكان يشبه آدم (عليه السلام) يوم خلقه الله وصوره ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية ، ويقال : إنه ورث ذلك الجمال من جدّته سارة وكانت قد أُعطيت سدس الحسن .

(159/394)

فلمّا رآه مالك بن ذعر ﴿ قَالَ يا بشرى هذا غُلَامٌ ﴾ واختلفت القراء في قوله : يا بشري ، فقرأ أهل الكوفة بسكون الياء ، وقالوا : نادى مالك في رجلا من أصحابه ، اسمه بشري ، فقال : يا بشر ، كما يقول : يا زيد ، وهذا في محل رفع على النداء المفرد ، وهذا قول السدّي .

وقرأ الباقون : يا بشرايَ بالألف وفتح الياء على الإضافة وقالوا : بشّر المستقي أصحابه بأنه أصاب عبداً .

﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ واخفوه ﴿ بِضَاعَةً ﴾ نصب على الحال ، قال مالك بن ذعر أصحابه من التجار الذين معه وقالوا لهم : هو بضاعة استبضعناها بعض أهل الماء إلى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه الشركة إنْ علموا بثمنه ، عطية عن ابن عباس : يعني بذلك إخوة يوسف ، أسرّوا شأن يوسف أن يكون أخاهم وقالوا : هو عبد لنا أبق منّا .

قال الله تعالى ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فأتى يهودا يوسف بالطعام فلم يجده في البئر فأخبر أخوته بذلك فطلبوه ، فإذا هم مالك وأصحابه نزول ، فأتوهم فإذا هم بيوسف فقالوا : هذا عبد أبق منّا ، وقال وهب : كان يهودا [مستنداً] من بعيد ينظر ما يطرأ على يوسف ، فلمّا أخرجوه رآه فأخبر الآخرين ، فأتوا مالكاً وقالوا : هذا عبدنا ، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ، فقال مالك : أنا اشتريه منكم ، فباعوه منه فذلك قوله تعالى ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ أي باعوه ، قال ابن مفرغ الحميري :

وشريتُ بُرداً ليتني . . . من بعد بُرد كنتُ هامه

أي بعت برداً وهو غلامه .

(160/394)

﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ ناقص وهو مصدر وضع موضع الاسم ، قال قتادة : ظلم ، الضحاك ومقاتل والسدي : حرام ، لأن ثمن الحر حرام ، عكرمة والشعبي : قليل ، ابن حيان : زيف ﴿ دَرَاهِمَ ﴾ بدل من الثمن ﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ وذكر العدد عبارة عن القلة ، أي باعوه بدراهم معدودة قليلة غير موزونة ، ناقصة غير وافية ، وقال قوم : إنما قال معدودة لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان وزنه أقل من أربعين درهماً ، إنما كان يعدونها عدّاً ، فإذا

بلغ أوقية وزنوه ، لأن أقل أوزانهم وأصغرها يومئذ كان أوقية ، والأوقية أربعون درهماً .

واختلف العلماء في مبلغ عدد الدراهم التي باعوه بها ، فقال ابن سعود وابن عباس وابن قتادة والسدّي : عشرون درهماً ، فاقتسموها درهمين درهمين ، مجاهد : اثنان وعشرون درهماً ، عكرمة : أربعون درهماً .

﴿ وَكَانُواْ ﴾ يعني أخوة يوسف ﴿ فِيهِ ﴾ في يوسف ﴿ مِنَ الزاهدين ﴾ لم يعلموا كرامته على الله ولا منزلته عنده .

ثم انطلق مالك بن ذعر وأصحابه بيوسف وتبعهم إخوته يقولون لهم : استوثقوا منه لا يأبق ، فذهبوا حتى قدموا به مصر ، فاشتراه قطفير ، قاله ابن عباس ، وقيل : اطفير بن روجيت وهو العزيز وكان على خزائن مصر .

وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريان بن الوليد بن ثروان بن ارامة بن فاون بن عمرو ابن عملاق بن لاود بن سام بن نوح ، وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتبع يوسف على دينه ثم مات يوسف بعد حيّ ، فملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن البيلواس بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوي بن سام بن نوح وكان كافراً فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى أن يقبل .

قال ابن عباس : لما دخلوا مصر تلقى قطفير مالك بن ذعر فابتاع يوسف منه بعشرين ديناراً وزوج نعل وثوبين أبيضين ، وقال ابن منبه : قدمت السيّارة بيوسف مصر [فعرضوه] للبيع فترافع الناس في ثمنه وتزايد حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً فابتاعه قطفير بن مالك بهذا الثمن فذلك قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الذي اشتراه مِن مّصْرَ ﴾ .

فإن قيل : كيف أثبت الشرى في قوله وشروه واشتراه ولم ينعقد عليه؟ والجواب : إن الشراء هو المماثلة فلمّا ماثله بمال من عنده جاز أن يقال : اشتراه ، على التوسع ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ ﴾ [التوبة : 111] الآية ، فلمّا مرّ قطفير وأتى به منزله قال لامرأته واسمها راحيل بنت رعابيل ، قاله محمد بن إسحاق بن يسار .

قال الثعلبي : وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا ابن منبه ، قال : حدثنا أبو حامد المستملي ، حدثنا أبو هشام الرفاعي ، قال : اسم امرأة العزيز التي ضمّت يوسف زليخا بنت موسى .

﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ منزله ومقامه ، قتادة وابن جريج : منزلته ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَآ ﴾ فيكفينا إذا بلغ وفهم الأُمور وبعض ما نحن [نستقبله] من أُمورنا .

﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ أي نتبنّاه ، قال ابن إسحاق : كان قطفير لا يأتي النساء ، وكانت امرأته راحيلحسناء ناعمة طاعمة في ملك ودنيا .

قال الثعلبي : أخبرنا أبو بكر الجوزقي ، أخبرنا أبو العباس الدغولي ، حدثنا علي بن الحسن الهلالي ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا زهير عن أبي إسحاق عن أبي عبيد عن عبد الله قال : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرّس في يوسف فقال : أكرمي مثواه ، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها : يا أبت استأجره ، وأبو بكر حين استخلف عمر .

﴿ وكذلك ﴾ أي وكما أنقذ يوسف من أيدي إخوته وقد هموا بقتله فأخرجناه من الجُبّ بعد أن ألقي فيه ، فصيرناه إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض ﴾ يعني أرض مصر ، فجعلناه على خزائنها ، قال أهل الكتاب : لما تمّت ليوسف (عليه السلام) ثلاثون سنة ، استوزره فرعون .

﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ أي ولكي نعلمه من عبارة الرؤيا ، مكنّا له في الأرض ﴿ والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ اختلفوا في هذه الكناية ، فقال قوم : هي راجعة إلى الله عزّ وجلّ ، وتقدير الكلام : لا يغلب الله شيء ، بل هو الغالب على أمره يفعل ما يشاء ، ويعلم ما يريد ، وقال آخرون : راجعة إلى يوسف ، ومعنى الآية : والله مستول على أمر يوسف يسوسه ويحوطه ويدبّر أمره ، ولا يكله إلى غيره .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ما الله صانع بيوسف ، و [ما] إليه يوسف من أمره صائر ، وهم الذين زهدوا فيه وباعوه بثمن بخس وفعلوا به ما فعلوا .

قالت الحكماء في هذه : والله غالب على أمره حيث أمر يعقوب يوسف (عليهما السلام) أن لا يقصّ رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حين قصّ ، ثم أراد يعقوب أن لا يكيدوا فغلب أمره حتى كادوا ، ثم أراد أخوة يوسف قتله فغلب أمره حتى لم يقتلوه ، ثم أرادوا أن يلقوه في الجب ليلتقطه بعض السيارة فيندرس اسمه ، فغلب أمره حتى لم يندرس اسمه وصار مذكوراً مشهوراً .

ثم باعوه ليكون مملوكاً فغلب أمره حتى صار ملكاً والعبيد بين يديه ، ثم أرادوا أن يخلوا لهم وجه أبيهم ، فغلب أمره حتى ضاق عليهم قلب أبيهم ، ثم تدّبروا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين تائبين ، فغلب أمره حتى نسوا الذنب وأصروا حتى أقروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد أربعين سنة ، وقالوا : وإن كنا خاطئين ، وقالوا لأبيهم : إنا كنا خاطئين .

ثم أرادوا أن يغرّوا باسم القميص والدم والبكاء ، فغلب أمره حتى لم يخدع ، وقال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ ثم احتالوا أن تذهب محبته من قبل أبيه ، فغلب أمره حتى

ازدادت المحبة والشوق في قلبه ، ثم تدبّر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقي ، فغلب أمره حتى نسي الساقي في ذكره ، ولبث في السجن بضع سنين ، ثم احتالت امرأة العزيز أن [تترك] المراودة عن نفسها حتى قالت ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سوءا ﴾ الآية ، فغلب أمره حتى شهد الشاهد من أهلها .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي منتهى شبابه وشدّة قوته ، قال مجاهد : ثلاثاً وثلاثين سنة ، الضحاك : عشرين سنة ، وروى ابن عباس أنه ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة ، وقيل : إلى أربعين ، وقيل : إلى ستين ، والأشُدّ : جمع شد ، مثل قدّ ، أقُدّ ، وشرّ وأشُرّ ، وضر وأضرّ ، قال حميد :

وقد أتى لو تعبت العواذل . . . بعد الاشل أربع كوامل

قال الشاعر :

هل غير أن كثر الأشل وأهلكت . . . حرب الملوك أكاثر الأموال

﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾ قال مجاهد : العقل والفهم والعلم قبل النبوة ، وقال أهل المعاني : يعني إصابة في القول ، وعلماً بتأويل الرؤيا وموارد الأُمور ومصادرها .

﴿ وكذلك نَجْزِي المحسنين ﴾ قال ابن عباس : المؤمنين ، وعنه أيضاً : المهتدين ، وقال [الصدوق] عن الضحاك : يعني الصابرين على النوائب كما صبر يوسف ، وقال محمد بن كعب : هذا وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن ، فإن المراد به محمد نبي الله صلى الله

عليه وسلم يقول : كما فعلت بيوسف بعد ما لقي من إخوته ما لقي وقاسى من البلاء ما قاسى فمكّنته في الأرض ، ووطّأت له في البلاد ، وآتيته الحكم والعلم فكذلك أفعل بك ، أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأُمكّن لك في الأرض ، وأزيدك الحكم والعلم ؛ لأن ذلك جزائي لأهل الإحسان في أمري ونهيي .

(164/394)

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ يعني امرأة العزيز ، وطلبت منه أن يواقعها ﴿ وَغَلَّقَتِ الأبواب ﴾ وكانت سبعة .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، اختلف القراء فيه ، فقرأ ابن عباس والسلمي وأبو وائل وقتادة : هِئْتُ لك بكسر الهاء وضم التاء مهموزاً ، بمعنى تهيأتُ لك ، وأنكرها أبو عمرو ، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : سمعت أبا عمرو وسئل عن قراءة من قرأ : هِئتُ لك بكسر الهاء وهمز الياء فقال أبو عمرو : باطل ، جعلها من تهيأت ، اذهب واستعرض العرب حتى تنتهي إلى اليمن ، هل تعرف أحداً يقول هذا ؟

وقال الكسائي أيضاً : لم يُحكَ هِئت عن العرب ، وقال عكرمة : هِئتُ لك : أي زّينت لك وحسنت وهي قراءة غير مرضية ، وقرأ نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وعبدالله بن أبي

إسحاق : هيت لك بفتح الهاء وكسر التاء ، وقرأ يحيى بن وثاب : هِيتُ بكسر الهاء وضم التاء ، وقرأ ابن كثير بفتح الهاء وضم التاء ، وأنشد طرفة :

ليس قومي بالأبعدين إذا . . . ما قال داع من العشيرة هَيتَ

هم يجيبون إذا هم سراعا . . . كالأبابيل لا يغادر بيت

وقرأ أهل المدينة والشام بكسر الهاء وفتح التاء ، وقرأ الباقون بفتح الهاء والتاء ، وهي لغة النبي صلى الله عليه وسلم واللغة المعروفة عند العرب ، الشعبي عن عبد الله بن مسعود : أقرأني النبي صلى الله عليه وسلم هَيتَ لك .

وروى الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود أنه قرأ هيت لك ، فقيل له : هيت لك ، فقال ابن مسعود : إنما نقرأها كما تعلّمناها وسمعناها جميعاً هلُمَّ وأقبل وادنُ ، قال الشاعر [يخاطب] أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه) :

أَبلغْ أمير المؤمنين اهل العراق إذا أتيتا . . . أن العراق وأهله سلم [إليك] فهيت هيتا

قال السّدّي : هي بالقبطيّة هلمّ لك ، وقال الحسين : هيت لك كلمة بالسريانية أي عليك ، قال أبو عُبيد : كان الكسائي يقول هي لغة لأهل حوران وقعت إلى الحجاز معناها تعالَ ،

قال أبو عبيد : سألتُ شيخاً عالماً من حوران فذكرَ أنها لغتُهم ، وكذا قال عكرمة ، وقال مجاهد وغيره : هي لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها وهي كلمة حَثّ وإقبال على الشيء ، وأصلهما من [الدعوة] والصياح تقول العرب : هيّتَ فُلان بفلان إذا دعاهُ وصاحَ به ، قال الشاعر :

قَدْ رابني أنّ الكريّ أسكتا . . . لو كان مَعْنيّاً بها لهَيّتَا

أي صاح به ، والكريّ المكاريّ .

وقال أُستاذنا أبو القاسم بن حبيب : رأيتُ في بعض التفاسير هيتَ لك يقول : هل لك رغبة في حُسني وجمالي ، وذكر أبو عبيدة أن العرب لا تُثنّي هَيتَ ولا تجمع ولا تؤنّث ، وإنّها بصورة واحدة في كلّ حال وإنّما تتميّز بما بَعدها وبما قبلها .

قال يوسف (عليه السلام) عندَ ذلك : ﴿ مَعَاذَ الله ﴾ أعتصمُ وأستجيرُ بالله ممّا دعوتِني إليه وهو مصدر تقديره : عياذاً بالله .

﴿ إِنَّهُ ربي ﴾ يعني إنّ زَوجكِ قطفير سيديّ ، ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أي منزلتي ، وعلى هذا أكثر المفسّرين ، قال بعضهم : إنّها مردودة الى الله ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أي آواني ومن بلاء الحب عافاني .

﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ يعني إن فعلتُ ، وأْتمنني هذا فخنتُه في أهلِه بعدما أكرمني وأْتَمنني وأحسنَ مثواي فأنا ظالم ولا يُفلح الظالمون ، وقيل الزناة .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ يعني الهَمُّ بالشيء : حَديث المرء نفسَهُ به ، ولمّا يفعل ذلك .

يقول الشاعر :

هممتُ ولَمْ أفعلْ وكِدتُ وليتني . . . تركتُ على عثمان تبكي حَلائلهُ

(166/394)

فأما ما كان من همّ يوسف (عليه السلام) بالمرأة وهمتها بِهِ ، فإنّ أهل العلم (اختلفوا) في ذلك ، فروى سفيان بن عُيينة عن عُبيد الله بن أبي يزيد قال : سَمِعتُ ابن عباس سُئِلَ : ما بلغَ من همّ يوسف قال : حَلّ الهميان وجلس منها مجلس المُجامع .

وروى ابن جريج عن ابن أبي عطية ، قال : سألتُ ابن عباس (رضي الله عنه) : ما بلغَ من همّ يوسف ، قال : استلقتْ له على قفاها وقعد بين رجليها لينزع ثيابَهُ .

سعيد بن جُبير : أطلق تكة سراويله ، مُجاهد : حَلّ السراويل حَتّى بلغَ الثفن ، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته .

الضحاك : جرى الشيطان فيما بينهما فضرب بيده إلى جيد يوسف ، وباليد الأخرى إلى جيد المرأة حتّى جمع بينهما .

قال السّديّ وابن اسحاق : لمّا أرادت امرأة العزيز مُراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر لهُ

محاسن نفسه وتُشوّقه إلى نفسها فقالت له : يا يوسف ما أحسن شعرك قال : هو أوّل ما ينتثر من جسدي ، قالت : يا يوسف ما أحسنَ عينك قال : هي أوّل ما تسيل إلى الأرض من جسدي ، قالت : ما أحسن وجهك قال : هو للتّراب يأكله ، فلم تزل تُطيعه مرّة وتخيفه أُخرى وتدعوه إلى اللذّة ، وهو شاب مستقبل بجد من شبق الشباب ما يجد الرجل ، وهي حسناء جميلة حتى لانَ لها ممّا يرى من كلفها به ولما يتخوف منها حتى خليا في بعض البيوت وهمَّ بها ، فهذه أقاويل المفسّرين من السلف الصالحين .

وقالت جماعة من المتأخرين : لا يليق هذا بالأنبياء [:] فأوّلوا الآية بضروب من التأويل ، وقال بعضهم : وهمَّ بالفرار منها ، وهذا لا يصحّ لأنّ الفرار مذكور وليس له في الآية ذكر ، وقيل : هَمَّ بضربها ودفعها ، وقيل : هَمَّ بمخاصمتها ومرافعتها إلى زوجها ، وقيل : وهَمَّ بها هو كناية عن غير مذكور ، وقيل : تَمَّ الكلام عند قوله : ولقد همّت به ثمّ ابتدأ الخبر عن يوسف وقال : وهمَّ بها .

﴿ لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ : على التقديم والتأخير تقديرها : لولا أن رأى برهان ربّه لهمَّ بها ولكنّه رأى البرهان فلم يهمّ كقوله : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشيطان

﴾ [النساء : 83]

وهذا فاسدٌ عند أهلِ اللغة لأنّ العرب لا تُقدّم جواب (لولا) قبلها ، لا يقول : لقد قمت لولا زيد ، وهو يُريد ، لولا زيد لقمتُ ، جويبر عن الضحّاك عن ابن عباس قال : همّت بيوسف أن يفترشها وهمّ بها يوسف يعني تمنّاها أن تكون له زوجة .

وهذه التأويلات التي حكيناها كلها غير قويّة ولا مُرضية لمخالفتها أقوال القُدماء من العلماء الذين يؤخذ عنهم التأويل ، وهم قد أخذوا عن الذين شهدوا التنزيل .

وكما روي في الخبر الصحيح أنّ يوسف لما دخل على الملك وأقرّت المرأة ، وقال يوسف : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ قال له جبرئيل عليه السلام : ولا حين هَمَمت بها يا يوسف ؟ فقال يوسف عند ذلك ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نفسي إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء إِلاَّ مَا رَحِمَ ربي ﴾ .

وأما أهل الحقائق فإنّهم قالوا في وجه هذه الآية : إنّ الهمّ همّان : همٌّ مُقيمٌ (ثابت) وهو إذا كان مع عزيمة وعقد ونيّة ورضى مثل همّ امرأة العزيز فالعهد مأخوذ .

وهمٌّ عارض وارد وهو الخطرة والفكرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزيمة مثل همّ يوسف (عليه السلام) ، والعهد غير مأخوذ ما لم يتكلّم به أو يفعله ، يدلّ عليه ما روي عن ابن (المبارك) قال : قلتُ لسفيان : أيؤخذ العهد بالهمّة ؟ قال : إذا كان عزماً أُخذ بها .

وروي عن أبي هُريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله عزّ وجل : " إذا همّ عبدي بالحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة ، وإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هَمَّ عبدي بالسيّئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإنْ عملها كتبتها عليه سيّئة واحدة ، فإنْ تركها من أجلي كتبتها له حسنة " " .

والقول بإثبات مثل هذه : الزلاّت والصغائر على الأنبياء (عليهم السلام) غير محظور لضرب من الحكمة :

أحدها : ليكونوا من الله تعالى على وجل إذا ذكروها فيجدّون في طاعته إشفاقاً منها ولا يتّكلون على سعة رحمة الله .

والثاني : ليُعرّفهم موقع نعمته وامتنانه عليهم بصرفه عنهم .

والثالث : ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء رحمة الله وترك اليأس من عفوه وفضله .

وقد روى عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد إلاّ يلقى الله عزّ وجل قد هَمّ بخطيئة أو عملها إلاّ يحيى بن زكريا فإنّه لم يهم ولم يعملها " .

وعن مصعب بن عبد الله قال : حدّثني مصعب بن عثمان قال : كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً ، فدخلت عليه امرأة تستفتيه : (فتأمنته) بنفسه فامتنع عليها وذكّرها ، فقالت له : إن لم تفعل لأشهّرنَّ بك ولأصيحنَّ بك ، قال : فخرج وتركها ، فرأى في

منامه يوسف النبي (عليه السلام)، فقال له: أنت يوسف؟ قال: أنا يوسف النبي هممتُ وأنت سُليمان الذي لم تَهمّ.

وأمّا البرهان الذي رآه يوسف (عليه السلام) فإنّ العلماء اختلفوا فيه، فأخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيى عن أبي العباس الأصمّ عن الحسن بن علي، عن الحسين بن عطية عن إسرائيل عن أبي حصين عن سعيد عن ابن عباس ﴿ لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال: مثل له يعقوب فضرب يده في صدره، فخرجت شهوته من أنامله.

وقال الحسن وسعيد بن جُبير وحميد بن عبد الرحمن ومجاهد وعكرمة وابن سيرين وأبو صالح وشمر بن عطية والضحّاك: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضاً على إصبعه.

وقال ابن جبير: فكل ولد يعقوب وِلدَ له اثنا عشر ولداً إلاّ يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل نقص من شهوته حين رأى صورة أبيه فاستحياهُ.

قُتادة: رأى صورة يعقوب فقال: يا يوسف تعمل عمل السُّفهاء وأنت مكتوبٌ من الأنبياء؟

ابن أبي مليكه: عن ابن عباس قال: نودي: يا يوسف أتزني فتكون كالطير وقع ريشه

فذهب يطير فلا ريش له ؟ السدّي : نودي يا يوسف تواقعها ؟ إنّما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جو السماء لا يُطلق ، ومثلُكَ إنْ واقعتها مثل [الطير] إذا مات وقع في الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يُعمل عليه ، ومثلك إنْ واقعتها مثل الثور حين يموت فيدخل النمل في أصل قرنيه ، فلا يستطع أن يدفع عنه نفسه .

أبو مردود عن محمّد بن كعب القرضي : قال : رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت حين همّ فرأى كتاباً في حائط البيت ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 32]

. أبو معشر عنه : لولا ما رأى بالقرآن من تعظيم الزنا وتحريمه ، وزاد القرضي : بالقرآن وصحف إبراهيم (عليه السلام) .

ليث عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ قال : حلّ سراويله وقعد منها مقعد الرجل من امرأته وإذا بكفّ قد مُدّت فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الإنفطار : 10-12] .

قال : فقام هارباً وقامت ، فلمّا ذهب عنهما الرُعب عادت وعاد ، فلمّا قعد منها مقعد الرجل من امرأته فإذا بكف قد مدّتْ فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها ﴿ واتقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ توفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 281] ، فقام هارباً وقامت فلمّا ذهب عنهما الرُعب عادت وعاد ، فلمّا قعد منها مقعد الرجل من امرأته ، قال الله تعالى لجبريل (عليه السلام) : يا جبرئيل أدرك عبدي قبل أن يُصيب الخطيئة ، فرأى جبريل عاضاً على أصبعه أو كفّه وهو يقول : يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء ؟ فذلك قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوءَ والفحشآءَ ﴾ .

قتادة عن عطية عن وهب بن مُنبه ، إنّه قال : لمّا همّ يوسف وامرأة العزيز بما همّا خرجت كفّ بلا جسد بينهما مكتوبٌ عليها بالعبرانية ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] ثُمّ انصرفت الكفّ وقاما مقامهما ، ثمّ رجعت الكفّ بينهما مكتوبٌ عليها بالعبرانية ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الإنفطار : 10-12] ، ثمّ انصرفت الكفّ وقاما مقامهما ، فعادت الكفّ بالعبرانية مكتوب عليها : ﴿ ولاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 32] فانصرفت الكفّ وقاما مقامهما ، فعادت الكفّ رابعة مكتوبٌ عليها بالعبرانية : ﴿

واتقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ﴾ [البقرة : 281] فولّى يوسف هارباً .

وروى عطية عن ابن عباس ، أنّ البرهان الذي رآه يوسف أنّه أُرِيَ تمثال الملك ، وروى عمر بن اسحاق عن بعض أهل العلم أنّه قطفير سيّده حين دنا من الباب في ذلك الحين ، إنّه لما هرب منها واتّبعته ألفاه لدى الباب .

(171/394)

روى علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر الصادق ج قال : حدّثني أبي عن أبيه علي ابن الحسين ، في قوله تعالى : ﴿ لولا أن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال : قامت امرأة العزيز إلى الصنم فاظلت دونه بثوب فقال لها يوسف : ما هذا ؟ فقالت : أستحيي من الصنم أن يرانا ، فقال يوسف : أتستحيين ممّن لا يسمع ولا يُبصر ولا يفقه ولا يشهد ولا أستحيي ممّن خلق الأشياء وعلّمها ؟

وقال جعفر بن محمد : البرهان النبوّة التي : أودع الله صدره هي التي حالت بينه وبين ما يسخط الله .

وقيل : هو ما آتاه الله من العلم والحكمة ، وقال أهل الإشارة : إنّ المؤمن له بُرهان من ربّه في سرّه من معرفته فرأى ذلك البُرهان وهو زاجره .

فالبرهان الآية والحجّة ، وجواب (لولا) محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربّه لزنا ، وحقّق الهمّة الغريزية بهمّة الكسب ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ [النور : 10] [النور : 20] ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور : 10] ﴿ وأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيْم ﴾ [النور : 20] مجازه لهلكتم ، وقال امرؤ القيس :

فلو أنّها نفس تموت سوية . . . ولكنّها نفسٌ تساقط أنفسنا

أراد [بسقطت] فنيت ولهان عليّ ، ونحوها .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء ﴾ الإثم ﴿ والفحشآء ﴾ الزنا .

(172/394)

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ قرأ أهل مكّة والبصرة بكسر اللام أي المُخلِصين التوحيد والعبادة لله ، وقرأ الآخرون بفتح اللام أي المختارين للنبوّة ، دليلها قوله ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ﴾ [ص : 46] . وروى الزهري عن حمزة بن عبيد الله بن عمران بن عمر قال : قال : " لمّا اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم الألم الذي توفّي فيه ، قال صلى الله عليه وسلم : يصلّي بالناس أبو بكر " ، قالت عائشة : يا رسول الله إنّ أبا بكر رجل رقيق ، وإنّه لا يملك نفسه حين يقرأ القرآن ، فَمُره عمر يصلّي بالناس ، قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم " يصلّي بالناس أبو بكر " فراجعته ، فقال " ليصلِ بالناس أبو بكر فإنّكن صويحبات يوسف " ، قالت عائشة : والله ما حملني في ذلك الأمر عليهم أن يكون أوّل رجل قام مقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . "

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عبدالله بن محمد بن شيبة قال : حدّثنا أبو حامد أحمد بن جعفر المستملي قال : حدّثنا بعض أصحابنا قال : قال جعفر بن سليمان : سمعتُ امرأة في بعض الطرق وهي تتكلم ببعض الرفث فقلت لها [. . . .] إنّكن صويحبات يوسف ، فقالت له المرأة : واعجباً نحنُ دعوناه إلى اللذّة ، وأنتم أردتم قتله ، فمن أصحابه نحن أو أنتم ، وقتل النفس أعظم ممّا أردناه ؟

﴿ واستبقا الباب ﴾ وذلك أنّ يوسف لمّا رأى البُرهان قامَ مُبادراً إلى باب البيت ، هارباً ممّا أرادته منه ، واتبعته المرأة فذلك قوله تعالى .

﴿ واستبقا الباب ﴾ : يعني بادر يوسف وراحيل إلى الباب ، أمّا يوسف ففراراً من ركوب الفاحشة ، وأمّا المرأة فطلبها ليوسف لتقضي حاجتها أيّ راودته عليها ، فأدركته فتعلّقت بقميصه من خلفه فجذبته إليها مانعة له من الخروج .

﴿ وَقَدَّتْ ﴾ أي خرّقتْ وشقّت ﴿ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ : من خلف لا من قُدّام ، لأنّ يوسف كان الهارب والمرأة الطالبة ، فلمّا خرجا ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الباب ﴾ ، أي وجدا زوجها قطفير عند الباب جالساً مع ابن عمّ لراحيل ، فلمّا رأته هابته فقالت : سابقة بالقول لزوجها : ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سوءاً ﴾ يعني الزنا ، ﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ ﴾ يُحبس ، ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني الضرب بالسياط ، قاله ابن عباس : ﴿ قَالَ ﴾ يُوْسِف : بل ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ ، اختلفوا في هذا الشاهد ، قال سعيد بن جُبير وهلال بن يسار والضحّاك : كان صبيّاً في المهد أنطقه الله بقدرته .

وحدّثنا العوفي عن ابن عباس وشهر بن حوشب عن أبي هريرة ، ويدلّ عليه ما روى عطاء ابن السائب عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تكلّم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب بن جُريج ، وعيسى ابن مريم (عليه السلام) . "

وقيل : كان ذلك الصبيّ ابن خال المرأة ، وقال الحسن : غلامه ، قتادة والضحّاك ومجاهد برواية [. . .] : ما كان بصبي ولكنه كان رجلا حكيماً ذا لحية ، له رأي ومقال وآية ، وهو رواية ابن أبي مليكة عن ابن عباس ، قال : وكان من خاصّة الملك . وقال السدي : هو ابن عمّ راحيل ، وكان جالساً مع زوجها على الباب فحُكِّم وأخبر الله تعالى عنه : ﴿

إِن كَانَ قَمِيصُهُ ﴾ الآية .

قال عيسى عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : إنّ الشاهد قميصه المقدود من دُبر ، ومعنى شَهِد شاهد حكم حاكم من أهلها ، قال مجاهد : قال الشاهد : تبيان هذا الأمر في القميص .

(174/394)

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ أي قدام ﴿ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ وخفّف ابن أبي إسحاق القُبل والدُبر وثقّلهما الآخرون وهما لغتان .

فجيء بالقميص فإذا هو قُدّ من دُبر ، فلمّا رأى قطفير قميصه قُدّ من دُبر عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف فـ ﴿ قَالَ ﴾ لها ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي إنّ هذا الصنيع ﴿ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ، وقيل : إنّ هذا من قول الشاهد .

ثمّ أقبل قطفير على يوسف فقال : ﴿ يُوسُفُ ﴾ يعني يا يوسف ، لفظ مفرد ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ الحديث فلا تذكره لأحد ، وقيل : معناه لا تكترث له فقد كان عفوك لبراءتك ، ثمّ قال لامرأته : ﴿ واستغفري لِذَنبِكِ ﴾ وقيل : هو من الشاهد ليوسف والراحيل ،

وأراد بقوله : استغفري لذنبك ، يقول : سلي زوجك ألاّ يعاقبكَ على ذنبك ويصفح عنك ، وهذا معنى قول ابن عباس .

﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطِئين ﴾ من المذنبين حين راودت شابّاً عن نفسه وخُنتِ زوجك ، فلمّا استعصم كذبت عليه ، يقال خطأ يخطأ خطأً ، وخِطأً ، وخطاً وخِطاءً ، إذا أذنب والاسم منه الخطيئة ، قال الله تعالى : ﴿ إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء : 31] وقال أُميّة :

عبادك يخطأون وأنت ربٌّ . . . بكفّيك المنايا والحتومُ

أي يُذنبون ؛ فإذا أرادوا التعمّد قيل : خَطأ خطأ هنا لأنّ الفعل بالألف قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً ﴾ [النساء : 92] ، وإنّما قال ﴿ مِنَ الخاطئين ﴾ ولم يقل : الخاطئات لأنّه لم يقصد بذلك قصد الخبر عن النساء ، وإنّما قصد به الخبر عمّن يفعل ذلك ، وتقديره : من القوم الخاطئين . ومثله قوله : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ [التحريم : 12] ، بيانه قوله : إنّها كانت من قوم كافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 196. 216 ﴾

وقال الزمخشري :

سورة يوسف

(مكية [إلا الآيات 1 و2 و3 و7 فمدنية] وهي مائة وإحدى عشرة آية [نزلت بعد سورة هود]) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة يوسف (12) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (3)

تِلْكَ إشارة إلى آيات السورة. والْكِتابِ الْمُبِينِ السورة، أى تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم. أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند اللّه لا من عند البشر. أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم. أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف. فقد روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين : سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف أَنْزَلْناهُ أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه قُرْآناً عَرَبِيًّا وسمى بعض القرآن قرآناً، لأنّ القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ

آياتُهُ. الْقَصَصِ على وجهين: يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص، تقول: قصّ الحديث يقصه قصصاً، كقولك:

شله يشله شللا، إذا طرده. ويكون «فعلا» بمعنى «مفعول» كالنفض والحسب. ونحوه النبأ والخبر: في معنى المنبأ به والمخبر به. ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر، كالخلق والصيد.

وإن أريد المصدر، فمعناه: نحن نقص عليك أحسن القصص بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ أى بإيحائنا إليك هذه السورة، على أن يكون أحسن منصوبا نصب المصدر، لإضافته إليه، ويكون المقصوص محذوفاً، لأنّ قوله بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ مغن عنه. ويجوز أن

ينتصب هذا القرآن بنقصّ، كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إليك. والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتصّ على أبدع طريقة وأعجب أسلوب. ألا ترى أنّ هذا الحديث مقتص في كتب الأولين وفي كتب التواريخ، ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقاربا لاقتصاصه في القرآن. وإن أريد بالقصص المقصوص، فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من

العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها «1» والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه، كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم، يراد في فنه. فإن قلت: ممّ اشتقاق القصص؟ قلت: من قصّ أثره إذا اتبعه، لأنّ الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، كما يقال: تلا القرآن، إذا قرأه، لأنه يتلو أى يتبع ما حفظ منه آية بعد آية وَإِنْ كُنْتَ إن مخففة من الثقيلة. واللام هي التي تفرق بينها وبين النافية. والضمير في قَبْلِهِ راجع إلى قوله: ما أوحينا. والمعنى: وإنّ الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه، أى: من الجاهلين به، ما كان لك فيه علم قط ولا طرق سمعك طرف منه.

[سورة يوسف (12): آية 4]

إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (4)

إِذْ قالَ يُوسُفُ بدل من أحسن القصص، وهو من بدل الاشتمال، لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصوص، فإذا قصّ وقته فقد قص. أو بإضمار «اذكر» ويوسف اسم عبراني، وقيل عربى وليس بصحيح، لأنه لو كان عربيا لا نصرف لخلوّه عن سبب آخر سوى التعريف. فإن قلت: فما تقول فيمن قرأ «يوسف» بكسر السين، أو «يوسف» بفتحها، هل يجوز على قراءته أن يقال «هو عربى» لأنه على وزن المضارع المبنى للفاعل أو المفعول من آسف. وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل؟ قلت: لا، لأنّ القراءة

المشهورة قامت بالشهادة، على أن الكلمة أعجمية، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى، ونحو يوسف:

يونس، رويت فيه هذه اللغات الثلاث ولا يقال هو عربى لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من آنس وأونس. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «إذا قيل: من الكريم؟ فقولوا: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم «2»» يا أَبَتِ

---

(1). قوله «ليست في غيرها» لعله «في غيره» كعبارة النسفي. (ع)

(2). أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إن الكريم ابن الكريم إلى آخره» وفي البخاري عن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «الكريم بن الكريم إلى آخره» وهو في المتفق عليه عن أبى هريرة لكن بلفظ «سئل النبي صلى اللّه عليه وسلم: أى الناس أكرم؟ فقال أكرمهم عند اللّه أتقاهم. قالوا: يا رسول اللّه ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس يوسف نبى اللّه بن نبى اللّه بن نبى اللّه بن خليل اللّه».

قرئ بالحركات الثلاث . فإن قلت : ما هذه التاء ؟ قلت : تاء تأنيث وقعت عوضاً من ياء الإضافة ، والدليل على أنها تاء تأنيث قلبها هاء في الوقف . فإن قلت : كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر ؟ قلت : كما جاز نحو قولك : حمامة ذكر ، وشاة ذكر ، ورجل ربعة ، وغلام يفعة . فإن قلت : فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة ؟ قلت : لأنَّ التأنيث والإضافة يتناسبان في أنّ كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره . فإن قلت : فما هذه الكسرة ؟ قلت : هي الكسرة التي كانت قبل الياء في قولك : يا أبى ، قد زحلقت إلى التاء ، لاقتضاء تاء التأنيث أن يكون ما قبلها مفتوحا : فإن قلت : فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء وتبقى التاء ساكنة ؟ قلت : امتنع ذلك فيها ، لأنها اسم ، والأسماء حقها التحريك لأصالتها في الإعراب ، وإنما جاز تسكين الياء وأصلها أن تحرّك تخفيفاً ، لأنها حرف لين . وأما التاء فحرف صحيح نحو كاف الضمير ، فلزم تحريكها .

فإن قلت : يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة الجمع بين العوض والمعوّض منه ، لأنها في حكم الياء ، إذا قلت : يا غلام ، فكما لا يجوز «يا أبتى» لا يجوز «يا أبت» . قلت الياء والكسرة قبلها شيئان والتاء عوض من أحد الشيئين ، وهو الياء والكسرة غير متعرض لها ، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه ، إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير . ألا ترى إلى قولهم «يا أبتا» مع كون الألف فيه بدلا من التاء ، كيف جاز الجمع بينها وبين التاء ، ولم يعد ذلك جمعاً بين العوض والمعوّض منه ، فالكسرة أبعد من ذلك . فإن قلت : فقد دلت الكسرة في

يا غلام على الإضافة، لأنها قرينة الياء ولصيقتها . فإن دلت على مثل ذلك في «يا أبت»

فالتاء المعوّضة لغو : وجودها كعدمها .

قلت : بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت يا أبى . فإن قلت : فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها ؟ قلت : أما من فتح فقد حذف الألف من «يا أبتا» واستبقى الفتحة قبلها، كما فعل من حذف الياء في «يا غلام» ويجوز أن يقال : حركها بحركة الباء المعوض منها في قولك «يا أبى» .

وأما من ضم فقد رأى اسماً في آخره تاء تأنيث، فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال : «يا أبت» كما تقول «يا تبة» «1» من غير اعتبار لكونها عوضا من ياء الاضافة . وقرئ :

---

(1) . قوله «كما تقول يا تبة» بكسر التاء وتشديد الباء : الحالة الشديدة . وفي نسخة : يا ابنة، كذا بهامش الأصل . (ع)

إنى رأيت، بتحريك الياء . وأحد عشر : بسكون العين، تخفيفا لتوالى المتحركات فيما هو في حتم اسم واحد ، وكذا إلى تسعة عشر ، إلا اثنى عشر ، لئلا يلتقى ساكنا ، ورأيت من الرؤيا ، لا من الرؤية ، لأنَّ ما ذكره معلوم أنه منام ، لأنّ الشمس والقمر لو اجتمعا مع

الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة ، لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام ، ولما خفيت عليه وعلى الناس . فإن قلت : ما أسماء تلك الكواكب ؟ قلت : روى جابر أنّ يهودياً جاء إلى النبىّ صلى اللّه عليه وسلم فقال : يا محمد ، أخبرنى عن النجوم التي رآهنّ يوسف ، فسكت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم لليهودي «إن أخبرتك هل تسلم» ؟ قال : نعم . قال : «جريان ، والطارق ، والذيال ، وقابس ، وعمودان ، والفليق ، والمصبح ، والضروح ، والفرغ . ووثاب ، وذو الكتفين .

رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له «1»» فقال . اليهودي : إي واللّه ، إنها لأسماؤها . وقيل : الشمس والقمر أبواه . وقيل : أبوه وخالته : والكواكب . إخوته . وعن وهب أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة ، وإذا عصا صغير تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها ، فوصف ذلك لأبيه فقال : إياك أن تذكر هذا لإخوتك ، ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له ، فقصها على أبيه فقال له : لا تقصها عليهم ، فيبغوا لك الغوائل . وقيل :

كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة . وقيل : ثمانون . فإن قلت لم أخر الشمس والقمر ؟ قلت : أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص ، بياناً

لفضلهما واستبدادهما بالمزية على عيرهما من الطوالع ، كما أخر جبريل وميكائيل عن الملائكة ، ثم عطفهما عليها لذلك ، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ، أى : رأيت الكواكب مع الشمس والقمر . فإن قلت : ما معنى تكرار رأيت «2» قلت : ليس بتكرار ، إنما هو كلام مستأنف

---

(1) . أخرجه الحاكم من طريق أسباط عن السدى عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال «جاء بستان اليهودي إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : يا محمد ، هل تعرف النجوم التي رآها يوسف فسجدن له ؟ فسكت الحديث» ولم يذكر فيهن الشمس والقمر وقال : رآها يوسف محيطة بأكناف السماء ساجدة له ، وزاد : فقصها على أبيه فقال له : إن هذا أمر قد تشتت وسيجمعه اللّه بعد» رواه أبو يعلى والبزار والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل والطبراني وأبو حاتم في رواية الحاكم بن زهير عن السدى نحوه ، وذكره العقيلي من حديثه وقال : لا يثبت . وقال البزار : لا نعلم له طريقاً إلا هكذا . والحاكم ليس بقوى ، وكذا قال البيهقي : إن الحاكم تفرد به . وغفل عن طريق شيخ الحاكم وذكره ابن الجوزي في الموضوعات . وأعله بالحاكم . وطريق الحاكم يدفع على الحكم وذكر ابن أبى حاتم في العلل عن أبى زرعة أنه قال : حديث منكر .

(2) . قال محمود : «إن قلت ما معنى تكرار رأيت . . . الخ» قال أحمد : وأحسن من

ذلك أن الكلام طال بين الفعل . الحال ، فطري ذكر الفعل لمناسبة الحال وهي المقصودة ، إذ الآية في السجود كانت ، واللّه أعلم .

(179/394)

على تقدير سؤال وقع جواباً له ، كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً كيف رأيتها سائلا عن حال رؤيتها ؟ فقال رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ . فإن قلت . فلم أجريت مجرى العقلاء في رأيتهم لي ساجدين ؟ قلت : لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود . أجرى عليها حكمهم ، كأنها عاقلة ، وهذا كثير شائع في كلامهم ، أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه ، فيعطى حكما من أحكامه إظهارا لأثر الملابسة والمقاربة .

[سورة يوسف (12) : الآيات 5 إلى 6]

قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)

عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه اللّه مبلغاً من الحكمة ،

ويصطفيه للنبوّة ، وينعم عليه بشرف الدارين ، كما فعل بآبائه ، فخاف عليه حسد الإخوة ويغيهم .

والرؤيا بمعنى الرؤية ، إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة ، فرق بينهما بحرفى التأنيث كما قيل : القربة والقربى . وقرئ : روياك ، بقلب الهمزة واواً . وسمع الكسائي : رُيَّاك ورِيَّاك ، بالإدغام وضم الراء وكسرها ، وهي ضعيفة ، لأنّ الواو في تقدير الهمزة فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام في قولهم «اتزر» من الإزار ، و«اتجر» من الأجر فَيَكِيدُوا منصوب بإضمار «أن» والمعنى : إن قصصتها عليهم كادوك : فإن قلت : هلا قيل : فيكيدوك ، كما قيل : فكيدوني ؟ قلت : ضمن معنى فعل يتعدى باللام ، ليفيد معنى فعل الكيد ، مع إفادة معنى الفعل المضمن ، فيكون آكد وأبلغ في التخويف ، وذلك نحو : فيحتالوا لك . ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر عَدُوٌّ مُبِينٌ ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء ، ولقوله لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شرّ ، ليورّط من يحمله ، ولا يؤمن أن يحملهم على مثله وَكَذلِكَ ومثل ذلك الاجتباء يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ يعنى وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن ، كذلك يجتبيك ربك لأمور عظام .

وقوله وَيُعَلِّمُكَ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه ، كأنه قيل : وهو يعلمك ويتمّ نعمته عليك . والاجتباء . الاصطفاء ، افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك ،

وجبيت الماء في الحوض : جمعته . والأحاديث : الرؤيا : لأنّ الرؤيا إمّا حديث نفس أو ملك أو شيطان .

وتأويلها . عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا ، وأصحهم

عبارة لها . ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب اللّه وسنن الأنبياء ، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها . وسميت أحاديث ، لأنه يحدث بها عن اللّه ورسله ، فيقال : قال اللّه وقال الرسول كذا وكذا . ألا ترى إلى قوله تعالى فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ، اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة . ومعنى إتمام النعمة عليهم أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ، بأن جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكا . ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة . وقيل : أتمها على إبراهيم بالخلة ، والإنجاء من النار ، ومن ذبح الولد .

وعلى إسحاق بإنجائه من الذبح ، وفدائه بذبح عظيم ، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه . وقيل :

علم يعقوب أنّ يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالا بضوء الكواكب، فلذلك قال وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ وقيل: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا: ما رضى أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه. وقيل: كان يعقوب مؤثرا له بزيادة المحبة والشفقة لصغره، ولما يرى فيه من المخايل. وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة، فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه، فتبالغ فيهم الحسد. وقيل: لما قص رؤياه على يعقوب قال: هذا أمر مشتت يجمع اللّه لك بعد دهر طويل. وآل يعقوب: أهله وهم نسله وغيرهم. وأصل آل:

أهل، بدليل تصغيره على أُهَيل، إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر. يقال: آل النبي، وآل الملك. ولا يقال: آل الحائك، ولا آل الحجام، ولكن أهلهما. وأراد بالأبوين: الجد، وأبا الجد، لأنهما في حكم الأب في الأصالة. ومن ثم يقولون: ابن فلان، وإن كان بينه وبين فلان عدّة. وإِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ عطف بيان لأبويك إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ يعلم من يحق له الاجتباء حَكِيمٌ لا يتم نعمته إلا على من يستحقها.

[سورة يوسف (12): آية 7]

لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (7)

فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ أى في قصتهم وحديثهم آياتٌ علامات ودلائل على قدرة اللّه وحكمته في كل شيء لِلسَّائِلِينَ لمن سأل عن قصتهم وعرفها. وقيل آيات على نبوّة محمد صلى اللّه

عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها ، فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب .

وقرئ : آية ، وفي بعض المصاحف : عبرة . وقيل : إنما قص اللّه تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغى إخوته عليه ، لما رأى من بغى قومه عليه ليتأسى به .

وقيل أساميهم :

يهوذا : وروبيل ، وشمعون ، ولاوى ، وربالون ، ويشجر ، ودينة ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وآشر :

السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب ، والأربعة الآخرون من سريتين : زلفة ، وبلهة :

فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل ، فولدت له بنيامين ويوسف .

[سورة يوسف (12) : آية 8]

إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (8)

لَيُوسُفُ اللام للابتداء . وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة . أرادوا أنّ زيادة محبته لهما

أمر ثابت «1» لا شبهة فيه وَأَخُوهُ هو بنيامين. وإنما قالوا أخوه وهم جميعاً إخوته، لأنّ أمّهما كانت واحدة. وقيل أَحَبُّ في الاثنين، لأن أفعل من لا يفرّق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه «من» ولا بد من الفرق مع لام التعريف، وإذا أضيف جاز الأمران. والواو في وَنَحْنُ عُصْبَةٌ واو الحال. يعنى: أنه يفضلهما في المحبة علينا، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقه، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك. والعصبة والعصابة: العشرة فصاعداً. وقيل: إلى الأربعين، سموا بذلك لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النوائب. وروى النزال بن سبرة عن علىّ رضى اللّه عنه: ونحن عصبة، بالنصب. وقيل: معناه ونحن نجتمع عصبة. وعن ابن الأنبارى هذا كما تقول العرب، إنما العامري عمته، أى يتعهد عمته.

[سورة يوسف (12): آية 9]

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (9)

---

(1). قال محمود: «اللام للتوكيد، دخلت للاشعار بأن زيادة محبة أبيهم لهما أمر ثابت ... الخ» قال أحمد:

وهذه تؤيد قراءة ابن مروان هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ بالنصب. وقد قال سيبويه فيها: احتبى ابن مروان في لحنه، أى تمكن. وحيث تأيدت بقراءة أمير المؤمنين كرم اللّه وجهه،

فلا بد من التماس المحمل الصحيح لها وليس ذلك ببعيد إن شاء الله فنقول : لو قالوا «ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن نحن» على طريقة :

أنا أبو النجم وشعري شعري

ونحو : أنا أنا وأنت أنت . لم يكن في فصاحته مقال : وقد علمت أن معنى أنا أنا : أي أنا الموصوف بالأوصاف الشهيرة التي استغنى عن ذكرها ، فلا بعد والحالة هذه في حذف الخبر ، لمساواته المبتدأ وعدم زيادته عليه لفظا ، وراحة من تكرار اللفظ بعينه ، والسياق يرشد إلى المحذوف ، وإذا كان كذلك فقول القائلين لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ معناه : ونحن نحن ، ولكن استغنوا عن الخبر للسر الذي ذكرناه ، فقولهم : نَحْنُ كلام تام بالتقدير بالمذكور ، فلا غرو في وقوع الحال بعده ، وهذا بعينه يجرى في قوله هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فقوله هُنَّ في حكم الكلام التام . والمراد : هؤلاء بناتي هن المشهورات بالأوصاف الحميدة الظاهرة . وأصل الكلام : هن هن ، فوقع الحال بعد التمام ، والله أعلم .

اقْتُلُوا يُوسُفَ من جملة ما حكى بعد قوله : إذ قالوا ، كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وقيل : الآمر بالقتل شمعون ، وقيل : دان ، والباقين كانوا راضين ، فجعلوا آمرين أَرْضاً أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران ، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف ، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم. والمراد : سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها ، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ، لأنّ الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه. ويجوز أن يراد بالوجه الذات ، كما قال تعالى وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ وقيل يَخْلُ لَكُمْ يفرغ لكم من الشغل بيوسف مِنْ بَعْدِهِ من بعد يوسف ، أى من بعد كفايته بالقتل أو التغريب ، أو يرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا أو اطرحوا قَوْماً صالِحِينَ تائبين إلى اللّه مما جنيتم عليه.

أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه. أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلوّ وجه أبيكم. وتَكُونُوا إمّا مجزوم عطفاً على يَخْلُ لَكُمْ أو منصوب بإضمار «أن والواو» بمعنى مع ، كقوله وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ.

[سورة يوسف (12) : آية 10]

قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (10)

قَائِلٌ مِنْهُمْ هو يهوذا ، وكان أحسنهم فيه رأيا . وهو الذي قال ، فلن أبرح الأرض .

قال لهم : القتل عظيم أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وهي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله . قال المنخل :

وَإِنْ أَنَا يَوْماً غَيَّبَتْنِى غَيَابَتِى فَسِيرُوا بِسَيْرِى فِى الْعَشِيرَةِ وَالأَهْلِ «1»

أراد غيابة حفرته التي يدفن فيها . وقرئ غيابات ، على الجمع . وغيابات ، بالتشديد . وقرأ الجحدري : غيبة . والجب : البئر لم تطو ، لأن الأرض تجب جبا لا غير يَلْتَقِطْهُ يأخذه بعض السيارة بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق . وقرئ : تلتقطه . بالتاء على المعنى ، لأنّ بعض السيارة سيارة ، كقوله :

كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ «2»

---

(1) . للمنخل . والغيابة : ما غاب عن الناظر من أسفل البئر ونحوه . يقول : وإن غيبتني مقبرتى ، كناية عن موته ، فسيروا بسيرى ، أى فانعونى وسيروا بذكر خصالى ، على عادة العرب إذا مات منها رئيس . ويحتمل أنه يوصى أقاربه بالخير ، وأنهم يسيرون بمثل سيره ، ويفعلون كفعله في جيرانه وقرابته .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 395 فراجعه إن شئت اه مصححه .

ومنه : ذهبت بعض أصابعه إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم ، فهذا هو الرأى .

[سورة يوسف (12) : الآيات 11 إلى 12]

قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (12)

ما لَكَ لا تَأْمَنَّا قرئ بإظهار النونين ، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام . و : تيمنا : بكسر التاء مع الإدغام . والمعنى : لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ؟ وما وجد منا في بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمقة «1» وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعاد به في حفظه منهم . وفيه دليل على أنه أحسّ منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه يَرْتَعْ نتسع في أكل الفواكه وغيرها . وأصل الرتعة : الخصب والسعة . وقرئ : نرتع ، من ارتعى يرتعى . وقرئ : يرتع ويلعب ، بالياء ، ويرتع ، من أرتع ماشيته . وقرأ العلاء بن سيابة :

يرتع بكسر العين ، ويلعب ، بالرفع على الابتداء . فإن قلت : كيف استجاز لهم يعقوب

عليه السلام اللعب؟ قلت: كان لعبهم الاستباق والانتضال، ليضروا أنفسهم بما يحتاج إليه لقتال العدوّ لا للهو، بدليل قوله إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وإنما سموه لعباً لأنه في صورته.

[سورة يوسف (12) : آية 13]

قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (13)

لَيَحْزُنُنِي اللام لام الابتداء، كقوله إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ودخولها أحد ما ذكره سيبويه من سببى المضارعة. اعتذر إليهم بشيئين، أحدهما: أنّ ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة. والثاني: خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه «2» برعيهم ولعبهم، أو قلّ به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم. وقيل: رأى في النوم أنّ الذئب قد شدّ على يوسف فكان يحذره، فمن ثم قال ذلك فلقنهم العلة، وفي أمثالهم: «البلاء موكل بالمنطق». وقرئ الذِّئْبُ بالهمزة على الأصل وبالتخفيف. وقيل: اشتقاقه من «تذاءبت الريح» إذا أتت من كل جهة.

---

(1) . قوله «ما يدل على خلاف النصيحة والمقة» أى المحبة. وقد ومقه يمقه، بالكسر فيهما: أى أحبه، فهو وامق، كذا في الصحاح. (ع)

(2) . قال محمود: «اعتذر لهم بأمرين: أحدهما حزنه لمفارقته، والثاني خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه...

الخ» قال أحمد: وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه، لأنه مظنة هلاكه. وأما

حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالما إليه عما قليل ، فأمر سهل ، فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه ، واللّه أعلم .

[سورة يوسف (12) : آية 14]

قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (14)

القسم محذوف تقديره : واللّه لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ واللام موطئة للقسم . وقوله إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط ، والواو في وَنَحْنُ عُصْبَةٌ واو الحال :

حلفوا له لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم - وحالهم أنهم عشرة رجال ، بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب - إنهم إذاً لقوم خاسرون ، أى هالكون ضعفا وخورا وعجزا .

أو مستحقون أن يهلكوا لأنه لا غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم . أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدّمار ، وأن يقال : خسرهم اللّه ودمّرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون .

وقيل : إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذا وخسرناها . فإن قلت : قد

اعتذر إليهم بعذرين ، فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر ؟ قلت : هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمرّين «1» فأعاروه آذاناً صما ولم يعبئوا به .

[سورة يوسف (12) : آية 15]

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (15)

أَنْ يَجْعَلُوهُ مفعول أَجْمَعُوا من قولك : أجمع الأمر وأزمعه فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ .

وقرئ : في غيابات الجب : قيل هو بئر بيت المقدس . وقيل : بأرض الأردنّ . وقيل : بين مصر ومدين . وقيل : على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب . وجواب «لما» محذوف .

ومعناه : فعلوا به ما فعلوا من الأذى ، فقد روى أنهم لما برزوا به إلى البرّية أظهروا له العداوة وأخذوا يهنونه ويضربونه ، وكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا بالإهانة والضرب ، حتى كادوا يقتلونه . فجعل يصيح : يا أبتاه ، لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء ، فقال يهوذا : أما أعطيتموني موثقاً ألا تقتلوه فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده ، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ، فقال : يا إخوتاه ، ردّوا علىّ قميصي أتوارى به ، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم ، فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تؤنسك ، ودلوه في البئر ، فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكى ، فنادوه فظنّ أنها رحمة أدركتهم

، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه فمنعهم يهوذا ، وكان

---

(1) . قوله «ويذيقهم الأمرين» الأمرين - بنون الجمع - : الدواهي ، كذا بهامش . وفي الصحاح : الأمران :

الفقر والهرم . وفيه أيضاً : الأمر : المصارين يجتمع فيها الفرث . قال الشاعر :

فلا تهد الأمر وما يليه ولا تهدن معروق العظام

وقال أبو زيد : لقيت منه الأمرين ، بنون الجمع : وهي الدواهي اه (ع)

(185/394)

يهوذا يأتيه بالطعام . ويروى أن إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار وجرّد عن ثيابه أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق ، وإسحاق إلى يعقوب ، فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف ، فجاء جبريل فأخرجه وألبسه إياه وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ قيل أوحى إليه في الصغر كما أُوحى إلى يحيى وعيسى : وقيل كان إذ ذاك مدركا . وعن الحسن : كان له سبع عشرة سنة لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وإنما أُوحى اليه ليؤنس في الظلمة والوحشة ، ويبشر بما يؤول إليه أمره . ومعناه : لتتخلصن مما أنت فيه ، ولتحدّثن إخوتك بما فعلوا بك وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أنك يوسف لعلوّ شأنك وكبرياء سلطانك ،

وبعد حالك عن أوهامهم ، ولطول العهد المبدّل للهيئات والأشكال ، وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون ، دعا بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فطنّ فقال : إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ، وكان يدنيه دونكم ، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب ، وقلتم لأبيكم : أكله الذئب ، وبعتموه بثمن بخس . ويجوز أن يتعلق وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بقوله وَأَوْحَيْنا على أنا آنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة ، وهم لا يشعرون ذلك ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له . وقرئ : لننبئنهم ، بالنون على أنه وعيد لهم . وقوله وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ متعلق بأوحينا لا غير .

[سورة يوسف (12) : الآيات 16 إلى 17]

وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (16) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ (17)

وعن الحسن : عشيا ، على تصغير عشىّ . يقال : لقيته عشيا وعشياناً ، «1» وأصيلا وأصيلاناً ورواه ابن جنى : عشى ، بضم العين والقصر . وقال عشوا من البكاء . وروى أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت ، فقال له الشعبي : يا أبا أمية ، أما تراها تبكى ؟ فقال : قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة : ولا ينبغي لأحد أن يقضى إلا بما أمر أن يقضى به من السنة المرضية . وروى أنه لما سمع صوتهم «2» فزع وقال : ما لكم يا بنىّ ؟ هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا . قال :

فما لكم وأين يوسف؟ قالوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ أى نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان

---

(1) . قوله «يقال: لقيته عشياً وعشياناً» وهذا لو حذفت نونه صار عشيا، كقراءة الحسن. (ع) [. . . . . .]

(2) . قال محمود: «روى أنه لما سمع أصواتهم قال: يا بنى، هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا لا. . الخ» قال أحمد: وقواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه أولا.

أكل الذئب إياه، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وكثيرا ما الأعذار الباطلة من قلق في المخاطب المعتذر إليه، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار.

كالانتضال والتناضل: والارتماء والترامي، وغير ذلك. والمعنى. نتسابق في العدو أو في الرمي.

وجاء في التفسير: ننتضل بِمُؤْمِنٍ لَنا بمصدّق لنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ ولو كنا عندك من أهل

الصدق والثقة ، لشدّة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيئ الظن بنا ، غير واثق بقولنا ؟

[سورة يوسف (12) : آية 18]

وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (18)

بِدَمٍ كَذِبٍ ذى كذب . أو وصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب : هو الكذب بعينه ، والزور بذاته . ونحوه :

فَهُنَّ بِهِ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهِ بُخْلُ

وقرئ ، كذبا . نصبا على الحال ، بمعنى : جاءوا به كاذبين ، ويجوز أن يكون مفعولا له . وقرأت عائشة رضى اللّه عنها : كدب ، بالدال غير المعجمة ، أى كدر . وقيل : طرى ، وقال ابن جنى : أصله من الكدب ، وهو الفوف «1» البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث . كأنه دم قد أثر في قميصه . روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها ، وزلّ عنهم أن يمزقوه . وروى أنّ يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال : أين القميص ؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تا للّه ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا ، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه . وقيل كان في قميص يوسف ثلاث آيات : كان دليلا ليعقوب على كذبهم ، وألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، ودليلا على براءة يوسف حين قدّ من دبر . فإن قلت : عَلى قَمِيصِهِ ما محله ؟ قلت : محله النصب على

الظرف ، كأنه قيل : وجاءوا فوق قميصه بدم كما تقول : جاء على جماله بأحمال . فإن قلت : هل يجوز أن تكون حالا متقدمة ؟ قلت : لا ، لأنّ حال المجرور لا تتقدم عليه سَوَّلَتْ سهلت من السول وهو الاسترخاء ، أي : سهلت لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً عظيما ارتكبتموه من يوسف وهوّنته في أعينكم : استدل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص . أو أُوحى إليه بأنهم قصدوه فَصَبْرٌ جَمِيلٌ خبر أو مبتدأ ، لكونه موصوفا أى فأمرى صبر جميل ، أو فصبر جميل أمثل . وفي قراءة أبىّ : فصبراً جميلا . والصبر الجميل جاء في الحديث المرفوع «أنه الذي لا شكوى فيه إلى الخلق» «2» ألا ترى إلى قوله نمّا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ

---

(1) . قوله «وهو الفوف البياض» عبارة الصحاح : الفوف البياض الذي يكون في أظفار الأحداث اه ، فجعل البياض خبرا عن الفوف وتفسيرا له ، فلعله هنا : أى البياض . (ع)

(2) . أخرجه الطبري من طريق حيان بن أبى حثلة قال : سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن قوله فَصَبْرٌ جَمِيلٌ قال : «صبر لا شكوى فيه . من بث لم يصبر» هذا مرسل .

وقيل : لا أعايشكم على كآبة الوجه ، بل أكون لكم كما كنت . وقيل : سقط حاجبا يعقوب على عينيه فكان يرفعهما بعصابة ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال : طول الزمان وكثرة الأحزان . فأوحى اللّه تعالى إليه : يا يعقوب أتشكوني ؟ قال : يا رب . خطيئة فاغفرها لي وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ أى أستعينه عَلى احتمال ما تَصِفُونَ من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه .

[سورة يوسف (12) : آية 19]

وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (19)

وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر ، وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب ، فأخطئوا الطريق فنزلوا قريباً منه ، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة . وقيل : كان ماؤها ملحاً . فعذب حين ألقى فيه يوسف فَأَرْسَلُوا رجلا يقال له مالك ابن ذعر الخزاعي ، ليطلب لهم الماء . والوارد : الذي يرد الماء ليستقى للقوم يا بُشْرى نادى البشرى ، كأنه يقول : تعالى ، فهذا من آونتك . وقرئ : يا بشراى ، على إضافتها إلى نفسه . وفي قراءة الحسن وغيره : يا بشرى ، بالياء مكان الألف ، جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة ، وهي لغة للعرب مشهورة سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم : يا سيدي وموليّ . وعن نافع :

يا بشراى بالسكون ، وليس بالوجه لما فيه من التقاء الساكنين على غير حدّه ، إلا أن يقصد الوقف . وقيل : لما أدلى دلوه أى أرسلها في الجب تعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون ، فقال : يا بشراى هذا غُلامٌ وقيل : ذهب به ، فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به وَأَسَرُّوهُ الضمير للوارد وأصحابه : أخفوه من الرفقة . وقيل : أخفوا أمره ووجدانهم له في الجب ، وقالوا لهم : دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر . وعن ابن عباس أنّ الضمير لإخوة يوسف ، وأنهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا ، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه . وبِضاعَةً نصب على الحال ، أى : أخفوه متاعا للتجارة . والبضاعة : ما بضع من المال للتجارة ، أى قطع وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ لم يخف عليه أسرارهم ، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم . أو : والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع .

[سورة يوسف (12) : آية 20]

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)

وَشَرَوْهُ وباعوه بِثَمَنٍ بَخْسٍ مبخوس ناقص عن القيامة نقصانا ظاهرا ، أو زيف

ناقص العيار دَراهِمَ

لا دنانير مَعْدُودَةٍ قليلة «1» تعدّ عدّاً ولا توزن، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقيه وهي الأربعون، ويعدّون ما دونها. وقيل للقليلة معدودة، لأنّ الكثيرة يمتنع من عدّها لكثرتها.

وعن ابن عباس: كانت عشرين درهماً. وعن السدى:

اثنين وعشرين وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن «2» لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالى بم باعه، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أوّل مساوم بأوكس الثمن. ويجوز أن يكون معنى وَشَرَوْهُ واشتروه، يعنى الرفقة من إخوته وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ لأنهم اعتقدوا أنه آبق فخافوا أن يخطروا بما لهم فيه. ويروى أنّ إخوته اتبعوهم يقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق. وقوله فِيهِ ليس من صلة الزَّاهِدِينَ لأنّ الصلة لا تتقدّم على الموصول. ألا تراك لا تقول: وكانوا زيدا من الضاربين، وإنما هو بيان، كأنه قيل: في أى شيء زهدوا؟ فقال: زهدوا فيه.

[سورة يوسف (12): آية 21]

وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (21)

الَّذِي اشْتَراهُ قيل هو قطفير أو أطفير ، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر ، والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف ، فملك بعده قابوس بن مصعب ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى ، واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ، وقام في منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة ، وآتاه اللّه العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : كان الملك في أيامه فرعون موسى ، عاش أربعمائة سنة بدليل قوله وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف . وقيل : اشتراه العزيز بعشرين دينارا وزوجي نعل وثوبين أبيضين . وقيل : أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه ، حتى بلغ ثمنه وزنه

---

(1) . قال محمود : «المعدودة كناية عن القليلة . . . الخ» قال أحمد : ومن التعبير عن القلة بالعدد : الدعوة المأثورة على الكفرة : «اللهم أحصهم عددا ، واستأصلهم بددا ولا تبق منهم أحدا» فالمدعو به وإن كان إحصاؤهم عدداً في الظاهر ، إلا أن هذا ليس مرادا لأن اللّه تعالى أحصى كل شيء عددا وأحاط به علما ، فلا بد من مقصود وراء ذلك وهو لازم العدد وذلك القلة ، فلما كان كل قليل معدودا وكل كثير غير معدود ، دعى عليهم بالقلة وعبر عنها بلازمها وهو الإحصاء . واللّه أعلم .

(2) . قوله «فيبيعه بما طف من الثمن» أى قل . وفي الصحاح : الطفيف القليل . (ع)

مسكا وورقا وحريرا ، فابتاعه قطفير بذلك المبلغ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ، أى حسناً مرضياً ، بدليل قوله إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا . ويقال للرجل : كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة ، يراد : هل تطيب نفسك بثوائك عنده ، وهل يراعى حق نزولك به . واللام في لِامْرَأَتِهِ متعلقة بقال ، لا باشتراه عَسى أَنْ يَنْفَعَنا لعله إذا تدرّب وراض الأمور وفهم مجاريها ، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته . أو نتبناه ونقيمه مقام الولد ، وكان قطفير عقيما لا يولد له ، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك . وقيل : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس في يوسف ، فقال لامرأته أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا والمرأة التي أتت موسى وقالت لأبيها يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ وأبو بكر حين استخلف عمر رضى اللّه عنهما . وروى أنه سأله عن نفسه ، فأخبره بنسبه فعرفه وَكَذلِكَ الإشارة إلى ما تقدّم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه ، والكاف منصوب تقديره : ومثل ذلك الإنجاء والعطف مَكَّنَّا له ، أى : كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز ، كذلك مكنا له في أرض مصر وجعلناه ملكا يتصرف فيها بأمره ونهيه وَلِنُعَلِّمَهُ

مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ كان ذلك الإنجاء والتمكين لأنّ غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ على أمر نفسه : لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضى . أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره ، قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد اللّه ودبره وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أن الأمر كله بيد اللّه .

[سورة يوسف (12) : آية 22]

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)

قيل في الأشدّ : ثماني عشرة ، وعشرون ، وثلاث وثلاثون ، وأربعون . وقيل : أقصاه ثنتان وستون حُكْماً حكمة وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه . وقيل : حكما بين الناس وفقها وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تنبيه على أنه كان محسنا في عمله ، متقيا في عنفوان أمره ، وأنّ اللّه آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه . وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه اللّه الحكمة في اكتهاله .

[سورة يوسف (12) : آية 23]

وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)

المراودة : مفاعلة ، من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى :

فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ قيل : كانت سبعة .

وقرئ هَيْتَ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء ، وبناؤه كبناء أين ، وعيط . وهيت كجير وهيت كحيث . وهئت بمعنى تهيأت . يقال : هاء يهيء ، كجاء يجيء : إذا تهيأ . وهيئت لك . واللام من صلة الفعل . وأما في الأصوات فللبيان «1» كأنه قيل : لك أقول هذا ، كما تقول : هلم لك مَعاذَ اللَّهِ أعوذ باللّه معاذاً إِنَّهُ إن الشأن والحديث رَبِّي سيدي ومالكى ، يريد قطفير أَحْسَنَ مَثْوايَ حين قال لك أكرمى مثواه ، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ الذين يجازون الحسن بالسيئ . وقيل : أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم .

وقيل : أراد اللّه تعالى ، لأنه مسبب الأسباب .

[سورة يوسف (12) : آية 24]

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)

همّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه . قال :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِى تَرَكْتُ عَلَى عُثْمانَ تَبْكى حَلَائِلُهْ «2»

ومنه قولك : لا أفعل ذلك ولا كيداً ولا هما . أى ولا أكاد أن أفعله كيداً ، ولا أهم بفعله هماً ، حكاه سيبويه ، ومنه : الهمام وهو الذي إذا همّ بأمر أمضاه ولم ينكل عنه . وقوله وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ معناه . ولقد همت بمخالطته وَهَمَّ بِها وهمّ بمخالطتها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ جوابه محذوف ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، فحذف ، لأنّ قوله وَهَمَّ بِها يدل

---

(1) . قوله «و أما في الأصوات فللبيان» في الصحاح : هيت به وهوت به ، أى صاح به ودعاه . وفيه أيضا قولهم «هيت لك» أى هلم لك وفيه . هلم يا رجل - بفتح الميم - : بمعنى تعالى . (ع)

(2) . لعمير بن ضابئ البرجمي ، دخل على عثمان وهو مقتول فوطئ بطنه وكسر ضلعه وقال : عزمت على قتل عثمان ولم أقتله ، وكدت أن أفعل وليتني قتلته . وكنى عن ذلك بقوله : «تركت على عثمان تبكى حلائله» وهو من باب التنازع . وأصله : تركت على عثمان حلائله تبكى فجعل حلائله فاعلا . وحذف مفعول تركت الأول لعلمه من الكلام ، ولأنه فضلة وهي لا تضمر في هذا الباب . والمعنى ليتني قتلته فصيرت نساءه تبكى عليه ، ودخل هذا الرجل على الحجاج وقال : يا أمير المؤمنين : أنا شيخ ضعيف ، وخرج اسمى في هذا البعث ، فاقبل ابني بديلا عنى فقبله منه وخرج فقال عتبة بن سعيد : أيها الأمير ، هذا هو الذي فعل بعثمان كذا وكذا ، فقال : ردوه على ، فقال له :

أيها الشيخ ، هلا بعثت إلى عثمان أمير المؤمنين بديلا يوم الدار ؟ إن في قتلك صلاحا ، يا حرسى ، اضربا عنقه.

أمير الحرسي بقتله وخاطبه خطاب المثنى على لغة الحرس الذين نسب المخاطب إليهم هذا . وقيل : إن القصة مع ضابئ نفسه ، وأن عثمان كان حبسه في هجوه بنى نهشل ، فلما قتل عثمان أفلت وفعل به ذلك.

(191/394)

عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أنى خفت اللّه ، معناه لولا أنى خفت اللّه . فإن قلت : كيف جاز على نبىّ اللّه أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها ؟ قلت : المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه «1» ميلا يشبه الهم به والقصد إليه ، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان اللّه المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هماً لشدّته لما كان صاحبه ممدوحا عند اللّه بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته . ولو كان همه كهمها عن عزيمة ، لما مدحه اللّه بأنه من عباده المخلصين . ويجوز أن يريد بقوله وَهَمَّ بِها

وشارف أن يهم بها ، كما يقول الرجل : قتلته لو لم أخف الله ، يريد مشارفة القتل ومشافهته

كأنه شرع فيه فإن قلت : قوله وَهَمَّ بِها داخل تحت حكم القسم في قوله وَلَقَدْ هَمَّتْ «2» .

بِهِ أم هو خارج منه ؟ قلت : الأمران جائزان ، ومن حق القارئ إذا قدّر خروجه من حكم

القسم وجعله كلاما برأسه أن يقف على قوله وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ويبتدئ قوله وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ

رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ وفيه أيضا إشعار بالفرق بين الهمين . فإن قلت : لم جعلت جواب لولا

محذوفاً يدل عليه هم بها ، وهلا جعلته هو الجواب مقدما ؟ قلت : لأن لولا لا يتقدم عليها

جوابها ، من قبل أنه في حكم الشرط ، وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من

الجملتين مثل كلمة واحدة ، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض .

وأما حذف بعضها إذا دلّ الدليل عليه فجائز ، فإن قلت : فلم جعلت «لولا» متعلقة بهمّ

بها وحده ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لأن الهمّ لا يتعلق بالجواهر

ولكن بالمعاني ، فلا بدّ من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا من اثنين معا ، فكأنه قيل :

ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما ؟ قلت : نعم ما قلت ، ولكنّ الله سبحانه

وتعالى قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها فكان إغفاله

إلغاء له ، فوجب أن يكون التقدير . ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها ، على أنّ المراد

بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه ، وتوصله إلى ما هو حظه من

قضاء شهوته منها ، لولا أن رأى برهان ربه ، فترك التوصل إلى حظه من الشهوة ، فلذلك

كانت «لولا» حقيقة بأن تعلق بهمّ بها وحده ، وقد فسرهمّ يوسف بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع ، وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها ، وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً : إياك وإياها ، فلم يكترث له ، فسمعه ثانياً فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً : أعرض عنها ، فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب

---

(1) . قوله «و قرمه» أي شدة شهوته ، أفاده الصحاح.

(2) . قوله «مشافهته» لعله : ومشابهته .

عاضا على أنملته . وقيل : ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله . وقيل : كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف ، فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين همّ ، وقيل : صيح به : يا يوسف ، لا تكن كالطائر : كان له ريش ، فلما زنى قعد لا ريش له . وقيل :

بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم ، مكتوب فيها وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ فلم ينصرف ، ثم رأى فيها وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلًا فلم ينته ، ثم رأى فيها وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ فلم ينجع فيه ، فقال الله لجبريل عليه السلام :

أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة ، فانحط جبريل وهو يقول : يا يوسف ، أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء ؟ وقيل : رأى تمثال العزيز . وقيل : قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت : أستحيى منه أن يرانا . فقال يوسف استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ، ولا أستحيى من السميع البصير ، العليم بذوات الصدور . وهذا ونحوه . مما يورده أهل الحشو والجبر « 1 » الذين دينهم بهت اللّه تعالى وأنبيائه ، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد اللّه بسبيل ، ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره ، كما نعيت على آدم زلته ، وعلى داود ، وعلى نوح ، وعلى أيوب . وعلى ذى النون ، وذكرت توبتهم واستغفارهم ، كيف وقد أثنى عليه وسمى مخلصاً ، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض ، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوّة والعزم ، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح ، حتى استحق من اللّه الثناء فيما أَنزل من كتب الأولين ، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصداق لها ، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها ، ليجعل له لسان صدق في الآخرين ، كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم عليه السلام ، وليقتدى به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العثار ، فأخزى اللّه أولئك في إيرادهم ما يؤدّى إلى أن يكون إنزال اللّه السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدى بنبي من أنبياء اللّه ، في القعود بين شعب الزانية وفي حل تكته للوقوع عليها ، وفي أن ينهاه ربه

بثلاث كرّات ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن، وبالتوبيخ العظيم، وبالوعيد الشديد، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه، وهو جاثم في مربضه لا يتحلحل ولا ينتهى ولا ينتبه، حتى يتداركه اللّه بجبريل وبإجباره.

ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة وأصلحهم وجهاً لقى بأدنى ما لقى به

---

(1). قوله «مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت اللّه تعالى» يريد بهم أهل السنة، ويريد بأهل العدل المعتزلة. وبهت الشخص: نسبه إلى قبيح لم يفعله، ولولا أن ذلك دائر بين السلف لما أوردوه. (ع)

(193/394)

نبى اللّه مما ذكروا، لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرّك. فيا له من مذهب ما أفحشه، ومن ضلال ما أبينه كَذلِكَ الكاف منصوب المحل، أى مثل ذلك التثبيت ثبتناه. أو مرفوعه، أى الأمر مثل ذلك لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ من خيانة السيد وَالْفَحْشاءَ من الزنا إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ الذين أخلصوا دينهم للّه، وبالفتح. الذين أخلصهم اللّه لطاعته بأن عصمهم. ويجوز أن يريد بالسوء. مقدّمات الفاحشة، من القبلة والنظر بشهوة، ونحو ذلك. وقوله مِنْ عِبادِنَا معناه بعض عبادنا، أى: هو مخلص من جملة المخلصين. أو هو ناشئ منهم،

لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال فيهم إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ.

[سورة يوسف (12) : الآيات 25 إلى 29]

وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (25) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (26) وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (29)

وَاسْتَبَقَا الْبابَ وتسابقا إلى الباب على حذف الجارّ وإيصال الفعل، كقوله وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ على تضمين «استبقا» معنى «ابتدرا» نفر منها يوسف، فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج. فإن قلت: كيف وحد الباب، وقد جمعه في قوله وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ؟ قلت: أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار، فقد روى كعب أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل «1» يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ اجتذبته من خلفه فانقد، أى انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه وَأَلْفَيا سَيِّدَها وصادفا بعلها وهو قطفير، تقول المرأة لبعلها: سيدي. وقيل: إنما لم يقل سيدهما، لأنّ ملك يوسف لم يصح، فلم يكن سيداً له على الحقيقة. قيل

:

ألفياه مقبلا يريد أن يدخل. وقيل جالساً مع ابن عمّ للمرأة. لما اطلع منها زوجها على تلك

---

(1). قوله «فراشة القفل» هو ما ينشب فيه. يقال أقفل فأفرش. (ع)

الهيئة المريبة وهي مغتاظة على يوسف إذ لم يؤاتها «1» جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها: وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف، وتخويفه طمعاً في أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها، وكرها لما أيست من مؤاتاته طوعا. ألا ترى إلى قولها وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ و«ما» نافية، أى: ليس جزاؤه إلا السجن. ويجوز أن تكون استفهامية، بمعنى: أى شيء جزاؤه إلا السجن، كما تقول: من في الدار إلا زيد. فإن قلت: كيف لم تصرح في قولها بذكر يوسف، وإنه أراد بها سوءا «2» قلت: قصدت العموم، وأنّ كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب، لأنّ ذلك أبلغ فيما قصدته من تخويف يوسف. وقيل: العذاب الأليم الضرب بالسياط. ولما أغرت به وعرّضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال: هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ولولا ذلك لكتم عليها وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها قيل كان ابن عمّ لها، إنما ألقى اللّه الشهادة

على لسان من هو من أهلها ، لتكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه . وقيل : هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب . وقيل كان حكيما يرجع إليه الملك ويستشيره ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه اللّه ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق . وقيل : كان ابن خال لها صبيا في المهد . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى» «3»

---

(1) . قوله «إذ لم يؤاتها» في الصحاح : وتقول آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة ، إذا وافقته وطاوعته . والعامة تقول : وأتيته . (ع)

(2) . قال محمود : «إن قلت : لم قالت ما قالت غير مصرحة بذكر يوسف . . . الخ» ؟ قال أحمد : أو أظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة أن تقول لبعلها : هذا أراد بى سوءاً ولذلك أيضا كنت بالسوء عما أضمرته من الهناة مبالغة في المكر والكيد ، وإبعاد للتهمة عنها بتوقى ما يشعر منها بالتبرج والقحة ، وعلى الضد من مقصودها وإن وافق ملاحظتها بحشمة الإجمال : قول ابنة شعيب تمدح موسى عليه السلام فيما حكى اللّه عنها قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ولم تقل : إنه قوى أمين ، حياء من التعيين وحشمة وخفراً ، ولكن هذه إنما بعثها على هذا الأدب شيمة الحياء ، وامرأة العزيز إنما بعثها عليه التكلف والاستعمال لذلك الغرض الفاسد من المكر ، واللّه

أعلم.

(3) . أخرجه الحاكم وابن حبان وأحمد وابن أبى شيبة والبزار وأبو يعلى. والطبري والبيهقي في السادس عشر من الشعب كلهم من رواية حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى اللّه عنهما رفعه «لما أسرى بى مرت رائحة طيبة – الحديث» فيه قصة الماشطة، وفي آخره قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «تكلم في المهد أربعة، وهم صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم» وفي الحاكم أيضاً من رواية مسلم بن إبراهيم عن جريج بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رفعه «لم يتكلم في المهد إلا أربعة وهم صغار: عيسى، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون» وذكره بلفظ ثلاثة. وذكر الثالث ابن المرأة التي ألقيت في النار. فخشيت على ولدها فكلمها» وفي الصحيحين من وجه آخر عن أبى هريرة مرفوعا: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وصبى كان يرضع فمر رجل راكب على دابة – الحديث» اقتصر الطيبي على هذا الأخذ فلم يصب، وبهذا الاعتبار صاروا خمسة. وروى الثعلبي عن الضحاك أنهم ستة زادهم يحيى بن زكريا. [. . . . .]

فإن قلت : لم سمى قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة ؟ «1» قلت : لما أدّى مؤدّى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمى شهادة : فإن قلت : الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة ؟ قلت : لأنها قول من القول ، أو على إرادة القول ، كأنه قيل :

وشهد شاهد فقال إن كان قميصه . فإن قلت : إن دل قدّ قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتبذت ثوبه إليها فقدّته ، فمن أين دل قدّه من قبل على أنها صادقة ، وأنه كان تابعها ؟

قلت : من وجهين ، أحدهما : أنه إذا كان تابعها وهي دافعته عن نفسها قدت قميصه من قدّامه بالدفع . والثاني : أن يسرع خلفها ليلحقها فيتعثر في مقادم قميصه فيشقه «2» .

وقرئ : من قبل ،

---

(1) . قال محمود : «إن قلت لم سمى قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة . . . الخ» ؟ قال أحمد : مهما قدره من ذلك في اتباعه لها ، يحتمل مثله في اتباعها له ، فإنها إنما تقد قميصه من قبل بتقدير أن يكون اجتذبها حتى صارا متقابلين فدفعته عن نفسها ، وهذا بعينه يحتمل إذا كانت هي التابعة أن تكون اجتذبته حتى صارا متقابلين ، ثم جذبت قميصه

إليها من قبل ، بل هاهنا أظهر ، لأن الموجب لقد القميص غالبا الجذب لا الدفع .

(2) . عاد كلامه . قال : «والثاني أن يسرع خلفها ليلحقها فيعثر في مقادم قميصه فينقد» قال أحمد : وهذا بعينه محتمل لو كانت هي التابعة وهو فار منها فانقد قميصه في إسراعه للفرار ، والله أعلم . فليس كلام الزمخشري في هذا الفصل بذاك . والحق - والله ولي التوفيق - أن الشاهد المذكور إن كان صبيا في المهد كما ورد في بعض الحديث ، فالآية في مجرد كلامه قبل أوانه ، حتى لو قال : صدق يوسف وكذبت ، لكفى برهانا على صدقه عليه السلام ، كما كان مجرد إخبار عيسى عليه السلام في المهد برهانا على صدق مريم ، فلا تبقى المناسبة بين الأمارة المنصوبة وما رتب عليها ، لأن العمدة في الدلالة نصبها لا مناسبتها ، وإن كان الشاهد بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له وإقامة الحق كما ذكر الزمخشري . فهذا والله أعلم كان من حقه أن يصرح بما رأى فيصدق يوسف ويكذبها ، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر فنصبه أمارة لصدقه وكذبها ، ثم ذكر القسم الآخر وهو قده من قبل ، على علم بأنه لم ينقد من قبل حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة وقصد الفضيحة ، وينصفهما جميعا فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده ، ومن ثم قدم أمارة صدقها على أمارة صدقه في الذكر ، إزاحة للتهمة ووثوقا بأن الأمارة الثانية هي الواقعة ، فلا يضره تأخيرها . وهذه

اللطيفة بعينها – والله أعلم – هو التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ فقدم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة التهمة التي خشي أن تنطرق إليه في حق موسى عليه السلام، ووثوقا بأن القسم الثاني وهو صدقه هو الواقع. فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة.

ومن ثم قال بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ولم يقل: كل ما يعدكم تعريضا بأنه معهم عليه، وأنه حريص على أن بخسه حقه، وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام لكشف وعاء أخيه، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه، والله أعلم. فقصد هذا الشاهد الأمارة الآخرة فقط.

والمناسبة فيها محققة. وأما الأمارة الأولى فليست مقصودة، وإنما ذكرها توطئة كما تقدم. فلم يلتمس لها مناسبة جلية صحيحة على اليقين، وإنما هي كالفرض والتقدير والله أعلم. وكأنه قال: إن كان قميصه قد من قبل فهي صادقة.

لكنه يعلم انتفاء الأمارة المذكورة، فعلق صدقها على محال وهو وجود قده من قبل حالة، فهذا التقرير هو الصواب والحق اللباب، والله الموفق. وأما إن كان الشاهد الحكيم الذي كان الملك يرجع إليه ويستشيره كما ورد في بعض التفاسير، فلا بد من التماس المناسبة في الطرفين لأنها عهدة الحكيم. وأقرب وجه في المناسبة أن قد القميص من دبر دليل على إدباره عنها، وقده من قبل دليل على إقباله عليها بوجهه، والله أعلم.

ومن دبر ، بالضم على مذهب الغايات . والمعنى : من قبل القميص ومن دبره . وأما التنكير فمعناه من جهة يقال لها قبل ، ومن جهة يقال لها دبر . وعن ابن أبى إسحاق أنه قرأ : من قبل ومن دبر بالفتح ، كأنه جعلهما علمين للجهتين فمنعهما الصرف للعلمية والتأنيث . وقرئا «1» بسكون العين . فإن قلت : كيف جاز الجمع بين «إن» الذي هو للاستقبال وبين «كان» ؟ قلت : لأنّ المعنى أن يعلم أنه كان قميصه قدّ ، ونحوه كقولك : إن أحسنت إلىّ فقد أحسنت إليك من قبل ، لمن يمتن عليك بإحسانه ، تريد : إن تمتن علىّ أمتنّ عليك فَلَمَّا رَأى يعنى قطفير وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها قالَ إِنَّهُ إن قولك ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً «2» أو إنّ الأمر وهو طمعها في يوسف مِنْ كَيْدِكُنَّ الخطاب لها ولأمتها . وإنما استعظم كيد النساء لأنه وإن كان في الرجال ، إلا أنّ النساء ألطف كيداً وأنفذ حيلة . ولهنّ في ذلك نيقة «3» ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال . ومنه قوله تعالى وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ والقصريات من بينهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البواتق «4» وعن بعض العلماء : أنا أخاف من النساء أكثر ما أخاف من الشيطان ، لأنّ الله تعالى يقول إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً وقال للنساء إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . يُوسُفُ حذف منه حرف النداء

لأنه منادى قريب مفاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله أَعْرِضْ عَنْ هذا الأمر واكتمه ولا تحدّث به وَاسْتَغْفِرِي أنت لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ من جملة القوم المتعمدين للذنب. يقال:

خطئ، إذا أذنب متعمداً، وإنما قال مِنَ الْخاطِئِينَ بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الإناث، وما كان العزيز إلا رجلا حليما. وروى أنه كان قليل الغيرة. انتهى انتهى. اهـ

﴿الكشاف حـ 2 صـ 440. 461﴾

---

(1). قوله «وقرئا» أى: قبل ودبر، وقوله «بسكون العين»: أى الباء. (ع)

(2). قال محمود: «الضمير راجع إلى قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً... الخ» قال أحمد: وفيما قاله هذا العالم نظر، لأن الآية التي ذكر فيها كيد الشيطان من قول اللّه تعالى غير محكي. وأما هذه الآية فكيد النساء فيها من قول العزيز، ولكن حكاه اللّه تعالى عنه فيحتمل حكايته عنه أن يكون تصحيحا له، ويحتمل أن لا يكون المراد تصويبه، وأيضا فان كيد الشيطان مذكور في الآية مقابلا لكيد اللّه تعالى، فكان ضعيفا بالنسبة إليه. ألا ترى أول الآية الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً وأيضاً فان الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهن مستفاد من الشيطان بوسوسته وتسويله وشواهد الشرع قائمة على ذلك، فلا يتصور حينئذ أن يكون كيد هن أعظم من كيده، واللّه أعلم.

(3) . قوله «نيقة» اسم للتأنق في الأمر . أفاده الصحاح. (ع)

(4) . قوله «مع غيرهن من البوائق» أي الدواهي . أفاده الصحاح. (ع)

وقال الزمخشري :

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى آيات السورة .

و ﴿ الكتاب المبين ﴾ السورة ، أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم .

أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر .

أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم .

أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف .

فقد روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين : سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟

وعن قصة يوسف ﴿ أنزلناه ﴾ أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه ﴿ قُرْءانًا عَرَبِيًّا ﴾ وسمى بعض القرآن قرآناً ، لأنّ القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرْءانا أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ [فصلت : 44] .

﴿ القصص ﴾ على وجهين : يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص ، تقول : قصّ الحديث يقصه قصصاً ، كقولك : شله يشله شللاً ، إذا طرده .

ويكون "فعلا" بمعنى "مفعول" كالنفض والحسب .

ونحوه النبأ والخبر : في معنى المنبأ به والمخبر به .

ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر ، كالخلق والصيد .

وإن أريد المصدر ، فمعناه : نحن نقص عليك أحسن القصص ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا القرءان ﴾ أي بإيحائنا إليك هذه السورة ، على أن يكون أحسن منصوباً نصب المصدر ، لإضافته إليه ، ويكون المقصوص محذوفاً ؛ لأنّ قوله : ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا القرءان ﴾ مغن عنه .

ويجوز أن ينتصب هذا القرآن بنقصّ ، كأنه قيل : نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إليك .

والمراد بأحسن الاقتصاص : أنه اقتصّ على أبدع طريقة وأعجب أسلوب .

ألا ترى أنّ هذا الحديث مقتص في كتب الأولين وفي كتب التواريخ ، وألا ترى اقتصاصه في

كتاب منها مقاربًا لاقتصاصه في القرآن .

وإن أريد بالقصص المقصوص .

(198/394)

فمعناه : نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث ، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه ، كما يقال في الرجل : هو أعلم الناس وأفضلهم ، يراد في فنه .

فإن قلت : ممّ اشتقاق القصص ؟

قلت : من قصّ أثره إذا اتبعه ، لأنّ الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئًا فشيئًا ، كما يقال : تلا القرآن ، إذا قرأه ، لأنه يتلو أي يتبع ما حفظ منه آية بعد آية ﴿ وَإِن كُنتُ ﴾ إن مخففة من الثقيلة .

واللام هي التي تفرق بينها وبين النافية .

والضمير في ﴿ قَبْلِهِ ﴾ راجع إلى قوله : ما أوحينا والمعنى : وإنّ الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه ، أي : من الجاهلين به ، ما كان لك فيه علم قط ولا طرق سمعك طرف منه .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ بدل من أحسن القصص ، وهو من بدل الاشتمال ، لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصوص ، فإذا قصّ وقته فقد قص .

أو بإضمار "اذكر" ويوسف اسم عبراني ، وقيل عربي وليس بصحيح ؛ لأنه لو كان عربياً لانصرف لخلوّه عن سبب آخر سوى التعريف .

فإن قلت : فما تقول فيمن قرأ : "يوسِف" بكسر السين ، أو "يوسَف" بفتحها ، هل يجوز على قراءته أن يقال "هو عربي" لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل أو المفعول من آسف . وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل ؟

قلت : لا ؛ لأنّ القراءة المشهورة قامت بالشهادة ، على أن الكلمة أعجمية ، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى ، ونحو يوسف : يونس ، رويت فيه هذه اللغات الثلاث ولا يقال هو عربي لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من آنس وأونس .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم :

(538) "إذا قيل : من الكريم ؟

فقولوا : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم "

﴿ يا أبت ﴾ قرئ بالحركات الثلاث .

فإن قلت : ما هذه التاء ؟

قلت : تاء تأنيث وقعت عوضاً من ياء الإضافة ، والدليل على أنها تاء تأنيث قلبها هاء في الوقف .

فإن قلت : كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر ؟

قلت : كما جاز نحو قولك : حمامة ذكر وشاة ذكر ، ورجل ربعة ، وغلام يفعة .

فإن قلت : فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة ؟

قلت : لأنّ التأنيث والإضافة يتناسبان في أنّ كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره .

فإن قلت فما هذه الكسرة ؟

قلت : هي الكسرة التي كانت قبل الياء في قولك : يا أبي ، قد زحلقت إلى التاء ، لاقتضاء تاء التأنيث أن يكون ما قبلها مفتوحاً : فإن قلت : فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء وتبقى التاء ساكنة ؟

قلت : امتنع ذلك فيها ، لأنها اسم ، والأسماء حقها التحريك لأصالتها في الإعراب ، وإنما جاز تسكين الياء وأصلها أن تحرّك تخفيفاً ، لأنها حرف لين .

وأما التاء فحرف صحيح نحو كاف الضمير ، فلزم تحريكها .

فإن قلت : يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة الجمع بين العوض والمعوّض منه ، لأنها في

حكم الياء ، إذا قلت : يا غلام ، فكما لا يجوز "يا أبتي" لا يجوز "يا أبت" .

قلت الياء والكسرة قبلها شيآن والتاء عوض من أحد الشيئين ، وهو الياء والكسرة غير متعرض لها ، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه ، إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير .

ألا ترى إلى قولهم "يا أبتا" مع كون الألف فيه بدلا من التاء ، كيف جاز الجمع بينها وبين التاء ، ولم يعد ذلك جمعاً بين العوض والمعوّض منه ، فالكسرة أبعد من ذلك .

فإن قلت : فقد دلت الكسرة في يا غلام على الإضافة ؛ لأنها قرينة الياء ولصيقتها .

فإن دلت على مثل ذلك في "يا أبت" فالتاء المعوّضة لغو : وجودها كعدمها .

قلت : بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت يا أبي .

فإن قلت : فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها ؟

قلت : أما من فتح فقد حذف الألف من "يا أبتا" واستبقى الفتحة قبلها ، كما فعل من حذف الياء في "يا غلام" ويجوز أن يقال : حركها بحركة الباء المعوض منها في قولك "يا أبي" .

وأما من ضم فقد رأى اسماً في آخره تاء تأنيث ، فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال :

"يا أبت" كما تقول "يا تبة" من غير اعتبار لكونها عوضاً من ياء الإضافة ، وقرئ : "إني رأيت" بتحريك الياء .

"وأحد عشر" بسكون العين ، تخفيفاً لتوالي المتحركات فيما هو في حكم اسم واحد ، وكذا إلى تسعة عشر ، إلا اثني عشر لئلا يلتقي ساكنان ، ورأيت من الرؤيا ، لا من الرؤية ، لأنّ ما ذكره معلوم أنه منام ؛ لأنّ الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة ، لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام ، ولما خفيت عليه وعلى الناس .

فإن قلت : ما أسماء تلك الكواكب ؟

قلت :

(539) روى جابر أنّ يهودياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، أخبرني عن النجوم التي رآهنّ يوسف ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لليهودي "إن أخبرتك هل تسلم" ؟

قال : نعم .

قال : "جريان ، والطارق ، والذيال ، وقابس ، وعمودان ، والفليق ، والمصبح ، والضروح ، والفرغ ، ووثاب ، وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له" فقال اليهودي : إي والله ، إنها لأسماؤها .

وقيل : الشمس والقمر أبواه .

وقيل : أبوه وخالته .

والكواكب : إخوته وعن وهب أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة ، وإذا عصا صغير تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها ، فوصف ذلك لأبيه فقال : إياك أن تذكر هذا لإخوتك ، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له ، فقصها على أبيه فقال له : لا تقصها عليهم ، فيبغوا لك الغوائل .

وقيل : كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة .

وقيل : ثمانون .

فإن قلت لم أخر الشمس والقمر ؟

قلت : أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص ، بيانا لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع ، كما أخر جبريل ، وميكائيل عن الملائكة ، ثم عطفهما عليها لذلك ، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ، أي : رأيت الكواكب مع الشمس

والقمر .

فإن قلت : ما معنى تكرار رأيت قلت : ليس بتكرار ، إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له ، كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله : ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها ؟

فقال : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ فإن قلت : فلم أجريت مجرى العقلاء في رأيتهم لي ساجدين ؟

قلت : لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود .

أجرى عليها حكمهم ، كأنها عاقلة ، وهذا كثير شائع في كلامهم ، أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه ، فيعطى حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة .

عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوّة ، وينعم عليه بشرف الدارين ، كما فعل بآبائه ، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم ، والرؤيا بمعنى الرؤية ؛ إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة ، فرق بينهما بحرفي التأنيث كما قيل : القربة والقربى .

وقرىء : "روياك" بقلب الهمزة واواً .

وسمع الكسائي : "رُيَّاك" و "رِيَّاك" بالإدغام وضم الراء وكسرها ، وهي ضعيفة ؛ لأنّ الواو في تقدير الهمزة فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام في قولهم "اتزر" من الإزار ، و

"اتجر" من الأجر ﴿ فَيَكِيدُواْ ﴾ منصوب بإضمار "أن" والمعنى : إن قصصتها عليهم كادوك : فإن قلت : هلا قيل : فيكيدوك ، كما قيل : فكيدوني ؟

(202/394)

قلت : ضمن معنى فعل يتعدى باللام ، ليفيد معنى فعل الكيد ، مع إفادة معنى الفعل المضمن ، فيكون آكد وأبلغ في التخويف ، وذلك نحو : فيحتالوا لك .

ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر ﴿ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء ، ولقوله ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شرّ ، ليورّط من يحمله ، ولا يؤمن أن يحملهم على مثله ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الأجتباء ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يعني وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن ، كذلك يجتبيك ربك لأمور عظام .

وقوله ﴿ وَيُعَلّمُكَ ﴾ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه ، كأنه قيل : وهو يعلمك ويتمّ نعمته عليك .

والاجتباء ، الاصطفاء ، افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك ، وجبيت الماء في الحوض : جمعته .

والأحاديث : الرؤيا : لأنّ الرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان .

وتأويلها عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا ، وأصحهم عبارة لها .

ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء ، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها .

وسميت أحاديث ؛ لأنه يحدث بها عن الله ورسله .

فيقال : قال الله وقال الرسول كذا وكذا .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 185] ، ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ [الزمر : 23] وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة .

ومعنى إتمام النعمة عليهم أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ، بأن جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكاً .

ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة .

وقيل : أتمها على إبراهيم بالخلة ، والإنجاء من النار ، ومن ذبح الولد .

وعلى إسحاق بإنجائه من الذبح ، وفدائه بذبح عظيم ، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه .

وقيل : علم يعقوب أنّ يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالا بضوء الكواكب ، فلذلك قال ﴿ وعلى ءالِ يَعۡقُوبَ ﴾ وقيل : لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا : ما رضي أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه .

وقيل : كان يعقوب مؤثراً له بزيادة المحبة والشفقة لصغره ولما يرى فيه من المخايل وكان إخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه ، فتبالغ فيهم الحسد .

وقيل : لما قص رؤياه على يعقوب قال : هذا أمر مشتت يجمع الله لك بعد دهر طويل .

وآل يعقوب .

أهله وهم نسله وغيرهم .

وأصل آل : أهل ، بدليل تصغيره على أُهَيل ، إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر .

يقال : آل النبي ، وآل الملك .

ولا يقال : آل الحائك ، ولا آل الحجام ، ولكن أهلهما .

وأراد بالأبوين : الجد ، وأبا الجد ؛ لأنهما في حكم الأب في الأصالة .

ومن ثم يقولون : ابن فلان ، وإن كان بينه وبين فلان عدّة .

و ﴿ إبراهيم وإسحاق ﴾ عطف بيان لأبويك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ يعلم من يحق له

الاجتباء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يتم نعمته إلا على من يستحقها .

﴿ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ أي في قصتهم وحديثهم ﴿ ءايات ﴾ علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته في كل شيء ﴿ لّلسَّائِلِينَ ﴾ لمن سأل عن قصتهم وعرفها .

وقيل آيات على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها ، فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب .

وقرىء : "آية" ، وفي بعض المصاحف : عبرة ، وقيل : إنما قص الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغي إخوته عليه ، لما رأى من بغي قومه عليه ليتأسى به .

وقيل أساميهم : يهوذا : وروبيل ، وشمعون ، ولاوي ، وربالون ، ويشجر ، ودينة ، ودان ، ونفتالي ، وجاد ، وآشر : السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب ، والأربعة الآخرون من سريتين : زلفة ، وبلهة .

فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل ، فولدت له بنيامين ويوسف .

﴿ لِيُوسُفَ ﴾ اللام للابتداء .

وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة .

أرادوا أنّ زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ هو بنيامين .

وإنما قالوا أخوه وهم جيمعاً إخوته ، لأنّ أمّهما كانت واحدة .

وقيل ﴿ أَحَبُّ ﴾ في الاثنين ، لأن أفعل من لا يفرّق فيه بين الواحد وما فوقه ، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه "من" ولا بد من الفرق مع لام التعريف ، وإذا أضيف جاز الأمران .

والواو في ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ واو الحال .

يعني : أنه يفضلهما في المحبة علينا ، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ، ونحن جماعة عشرة رجال كفأة نقوم بمرافقه ، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما ، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك .

والعصبة والعصابة : العشرة فصاعداً .

وقيل : إلى الأربعين ، سموا بذلك لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النوائب .

وروى النزال بن سبرة عن عليّ رضي الله عنه : "ونحن عصبة" ، بالنصب .

وقيل : معناه ونحن نجتمع عصبة .

وعن ابن الأنباري هذا كما تقول العرب ؛ إنما العامري عمته ، أي يتعهد عمته .

﴿ اقتلوا يُوسُفَ ﴾ من جملة ما حكى بعد قوله : إذ قالوا : كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال ﴿ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ وقيل : الآمر بالقتل شمعون ، وقيل : دان ، والباقين كانوا راضين

، فجعلوا آمرين ﴿ أَرْضًا ﴾ أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران ، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف ، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم . والمراد : سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها ، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ؛ لأنّ الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه .

(205/394)

ويجوز أن يراد بالوجه الذات ، كما قال تعالى : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبّكَ ﴾ [الرحمن : 27] وقيل ﴿ يَخْلُ لَكُمْ ﴾ يفرغ لكم من الشغل بيوسف ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ من بعد يوسف ، أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب ، أو يرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا أو اطرحوا ﴿ قَوْمًا صالحين ﴾ تائبين إلى الله مما جنيتم عليه .

أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه .

أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلوّ وجه أبيكم .

و ﴿ تَكُونُواْ ﴾ إمّا مجزوم عطفاً على ﴿ يَخْلُ لَكُمْ ﴾ أو منصوب بإضمار أن والواو بمعنى مع ، كقوله : ﴿ وَتَكْتُمُواْ الحق ﴾ [البقرة : 42] .

﴿ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ هو يهوذا ، وكان أحسنهم فيه رأيا .

وهو الذي قال : فلن أبرح الأرض .

قال لهم : القتل عظيم ﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ وهي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله .

قال المنخل :

وَإِنْ أَنَا يَوْماً غَيَّبَتْنِي غَيَابَتِي . . .

فَسِيرُوا بِسَيْرِي في الْعَشِيرَةِ والأَهْلِ

أراد غيابة حفرته التي يدفن فيها .

وقرىء : "غيابات" على الجمع .

و"غيابات" بالتشديد .

وقرأ الجحدري "غيبة" والجب : البئر لم تطو ، لأن الأرض تجبّ جباً لا غير ﴿ يَلْتَقِطْهُ ﴾ يأخذه بعض السيارة بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق .

وقرىء : "تلتقطه" بالتاء على المعنى ؛ لأنّ بعض السيارة سيارة ، كقوله :

كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ . . .

ومنه : ذهبت بعض أصابعه ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم ، فهذا هو الرأي .

﴿ مالك لا تأمنّا ﴾ قريء بإظهار النونين ، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام .

و"تيمنا" بكسر التاء مع الإدغام .

والمعنى : لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ؟

وما وجد منا في بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمقة وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم .

وفيه دليل على أنه أحسّ منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه ﴿ نرتع ﴾ نتسع في أكل الفواكه وغيرها .

وأصل الرتعة : الخصب والسعة .

وقرىء : "نرتع" من ارتعى يرتعي .

وقرىء : "يرتع ويلعب" بالياء ، ويرتع ، من أرتع ماشيته .

وقرأ العلاء بن سيابة : يرتع بكسر العين ، ويلعب ، بالرفع على الابتداء .

فإن قلت : كيف استجاز لهم يعقوب عليه السلام اللعب ؟

قلت : كان لعبهم الاستباق والانتضال .

ليضروا أنفسهم بما يحتاج إليه لقتال العدوّ لا للهو ، بدليل قوله ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ [يوسف : 17] وإنما سموه لعباً لأنه في صورته .

﴿ لَيَحْزُنُنِى ﴾ اللام لام الابتداء ، كقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ [النحل : 124] ودخولها أحد ما ذكره سيبويه من سبي المضارعة .

اعتذر إليهم بشيئين ، أحدهما : أنّ ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .

والثاني : خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم ، أوقلّ به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم .

وقيل : رأى في النوم أنّ الذئب قد شدّ على يوسف فكان يحذره ، فمن ثم قال ذلك فلقنهم العلة ، وفي أمثالهم : البلاء موكل بالمنطق .

وقرىء : "الذئب" بالهمزة على الأصل وبالتخفيف .

وقيل : اشتقاقه من تذاءبت الريح إذا أتت من كل جهة .

القسم محذوف تقديره : والله ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب ﴾ واللام موطئة للقسم .

وقوله : ﴿ إِنَّا إِذَا لخاسرون ﴾ جواب للقسم مجزىء عن جزاء الشرط ، والواو في ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ واو الحال : حلفوا له لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم – وحالهم أنهم عشرة رجال ، بمثلهم تعصب الأمور وتكفي الخطوب – إنهم إذاً لقوم

خاسرون ، أي هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً .

أو مستحقون أن يهلكوا لأنه لا غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم .

أو مستحقون لأن يدعي عليهم بالخسارة والدّمار ، وأن يقال : خسرهم الله ودمّرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون .

وقيل : إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشنا إذاً وخسرناها فإن قلت : قد اعتذر إليهم بعذرين ، فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر ؟

قلت : هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمّرين فأعاروه آذاناً صما ولم يعبؤوا به .

﴿ أَن يَجْعَلُوهُ ﴾ مفعول ﴿ أَجْمَعُواْ ﴾ من قولك : أجمع الأمر وأزمعه ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ﴾ [يونس : 71] .

وقرىء : "في غيابات" الجب : وقيل هو بئر بيت المقدس .

وقيل : بأرض الأردنّ وقيل : بين مصر ومدين .

وقيل : على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

وجواب "لما" محذوف .

ومعناه : فعلوا به ما فعلوا من الأذى ، فقد روي أنهم لما برزوا به إلى البرّية أظهروا له العدواة وأخذوا يهنونه ويضربونه ، وكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا بالإهانة والضرب ، حتى كادوا يقتلونه .

فجعل يصيح : يا أبتاه ، لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء ، فقال يهوذا : أما أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه ؟

فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده ، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ، فقال : يا إخوتاه ، ردّوا عليّ قميصي أتوارى به ، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم ، فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً تؤنسك ، ودلوه في البئر ، فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي ، فنادوه فظنّ أنها رحمة أدركتهم ، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه فمنعهم يهوذا ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام .

ويروى أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وجرّد عن ثيابه أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق ، وإسحاق إلى يعقوب ، فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف ، فجاء جبريل فأخرجه وألبسه إياه ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ قيل أُوحي إليه في الصغر كما أُوحي إلى يحيى وعيسى : وقيل كان إذا ذاك مدركاً .

وعن الحسن: كان له سبع عشرة سنة ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ وإنما أُوحي إليه ليؤنس في الظلمة والوحشة، ويبشر بما يؤول إليه أمره.

ومعناه: لتتخلصن مما أنت فيه، ولتحدّثن إخوتك بما فعلوا بك ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف لعلوّ شأنك وكبرياء سلطانك، وبعد حالك عن أوهامهم، ولطول العهد المبدّل للهيئات والأشكال، وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون، دعا بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فطنّ فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف، وكان يدنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب، وقلتم لأبيكم: أكله الذئب، وبعتموه بثمن بخس.

ويجوز أن يتعلق ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بقوله ﴿ وَأَوْحَيْنَا ﴾ على أنا آنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة، وهم لا يشعرون ذلك ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له

وقرىء: "لننبئنهم" بالنون على أنه وعيد لهم.

وقوله: ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ متعلق بأوحينا لا غير.

وعن الحسن "عشيا" على تصغير عشيّ يقال: لقيته عشيا وعشياناً، وأصيلا وأصيلاناً

ورواه ابن جني: عشى، بضم العين والقصر.

وقال عشوا من البكاء.

وروي أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت فقال له الشعبي : يا أبا أمية ، أما تراها تبكي ؟ فقال : قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة : ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضي به من السنة المرضية .

وروي أنه لما سمع صوتهم فزع وقال : ما لكم يا بنيّ ؟

هل أصابكم في غنمكم شيء ؟

قالوا : لا .

قال : فما لكم وأين يوسف ؟

﴿ قَالُواْ يَأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي نتسابق ، والافتعال والتفاعل يشتركان كالانتضال والتناضل : والارتماء والترامي ، وغير ذلك .

والمعنى : نتسابق في العدو أو في الرمي .

(209/394)

وجاء في التفسير : ننتضل ﴿ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ بمصدّق لنا ﴿ وَلَوْ كُنَّا صادقين ﴾ ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة ، لشدّة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيء الظن بنا ، غير واثق بقولنا .

﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ ذي كذب .

أو وصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب : هو الكذب بعينه ، والزور بذاته .

ونحوه .

فَهُنَّ بِهِ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهِ بُخْلُ . . .

وقرئ : "كذباً" نصباً على الحال ، بمعنى جاءوا به كاذبين ، ويجوز أن يكون مفعولاً له .

وقرأت عائشة رضي الله عنها : كدب ، بالدال غير المعجمة ، أي كدر .

وقيل : طري ، وقال ابن جني : أصله من الكدب وهو الفوف : البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث .

كأنه دم قد أثر في قميصه .

روي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها ، وزلّ عنهم أن يمزقوه .

وروي أنّ يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال : أين القميص ؟

فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا ، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه .

وقيل كان في قميص يوسف ثلاث آيات : كان دليلاً ليعقوب على كذبهم ، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً ، ودليلا على براءة يوسف حين قدّ من دبر .

فإن قلت : ﴿ على قَمِيصِهِ ﴾ ما محله ؟

قلت : محله النصب على الظرف ، كأنه قيل : وجاءوا فوق قميصه بدم كما تقول : جاء على جماله بأحمال .

فإن قلت : هل يجوز أن تكون حالا متقدمة ؟

قلت : لا ، لأنّ حال المجرور لا تتقدم عليه ﴿ سَوَّلَتْ ﴾ سهلت من السول وهو الاسترخاء ، أي : سهلت ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ عظيماً ارتكبتموه من يوسف وهوّنته في أعينكم : استدل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وسلامة القميص . أو أُوحي إليه بأنهم قصدوه ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ خبر أو مبتدأ لكونه موصوفاً أي فأمري صبر جميل ، أو فصبر جميل أمثل ، وفي قراءة أبيّ : "فصبرا جميلاً" والصبر الجميل جاء في الحديث المرفوع :

---

(540) ["أنه الذي لا شكوى فيه" ومعناه الذي لا شكوى فيه إلى الخلق .

] ألا ترى إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ ﴾ [يوسف : 86] وقيل : لا أعايشكم على كآبة الوجه ، بل أكون لكم كما كنت وقيل : سقط حاجبا يعقوب على

عينيه فكان يرفعهما بعصابة ، فقيل له : ما هذا ؟

فقال : طول الزمان وكثرة الأحزان .

فأوحى الله تعالى إليه : يا يعقوب أتشكوني ؟

قال : يا رب .

خطيئة فاغفرها لي ﴿ والله المستعان ﴾ أي أستعينه ﴿ على ﴾ احتمال ﴿ مَا تَصِفُونَ ﴾ من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه .

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر ، وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب ، فأخطئوا الطريق فنزلوا قريباً منه ، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة .

وقيل : كان ماؤها ملحاً .

فعذب حين ألقي فيه يوسف ﴿ فَأَرْسَلُواْ ﴾ رجلا يقال له مالك ابن ذعر الخزاعي ، ليطلب لهم الماء .

والوارد : الذي يرد الماء ليستقي للقوم ﴿ يا بشرى ﴾ نادى البشرى ، كأنه يقول : تعالى ، فهذا من آونتك وقرىء : "يا بشراي" على إضافتها إلى نفسه .

وفي قراءة الحسن وغيره : "يا بشري" بالياء مكان الألف ، جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة وهي لغة للعرب مشهورة سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم : يا سيدي

ومولي .

وعن نافع : يا بشراي بالسكون ، وليس بالوجه لما فيه من التقاء الساكنين على غير حدّه ، إلا أن يقصد الوقف .

وقيل : لما أدلى دلوه أي أرسلها في الجب تعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون ، فقال : يا بشراي ﴿ هذا غُلاَمٌ ﴾ وقيل : ذهب به ، فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ الضمير للوارد وأصحابه : أخفوه من الرفقة .

وقيل : أخفوا أمره ووجدانهم له في الجب ، وقالوا لهم : دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر .

وعن ابن عباس أنّ الضمير لإخوة يوسف ، وأنهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا ، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه .

و﴿ بضاعة ﴾ نصب على الحال ، أي : أخفوه متاعاً للتجارة .

والبضاعة : ما بضع من المال للتجارة أي قطع ﴿ والله عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ لم يخف عليه

أسرارهم ، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم .

أو : والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع .

> ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ وباعوه ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً ، أو زيف ناقص العيار ﴿ دراهم ﴾ لا دنانير ﴿ مَّعْدُودَةٍ ﴾ قليلة تعدّ عدّاً ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية وهي الأربعون ، ويعدّون ما دونها .

وقيل للقليلة معدودة ؛ لأنّ الكثيرة يمتنع من عدّها لكثرتها .

وعن ابن عباس : كانت عشرين درهماً .

وعن السدي : اثنين وعشرين ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين ﴾ ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن لأنهم التقطوه ، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بم باعه ، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أوّل مساوم بأوكس الثمن .

ويجوز أن يكون معنى ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ واشتروه ، يعني الرفقة من إخوته ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزهدين ﴾ لأنهم اعتقدوا أنه آبق فخافوا أن يخطروا بما لهم فيه .

ويروى أنّ إخوته اتبعوهم يقولون لهم : استوثقوا منه لا يأبق .

وقوله : ﴿ فِيهِ ﴾ ليس من صلة ﴿ الزاهدين ﴾ لأنّ الصلة لا تتقدّم على الموصول .

ألا تراك لا تقول : وكانوا زيداً من الضاربين ، وإنما هو بيان ، كأنه قيل : في أي شيء

زهدوا ؟

فقال : زهدوا فيه .

(212/394)

﴿ الذى اشتراه ﴾ قيل هو قطفير أو أطفير ، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر ، والملك يؤمئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف ، فملك بعده قابوس بن مصعب ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى ، واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة ، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة .

وقيل : كان الملك في أيامه فرعون موسى ، عاش أربعمائة سنة بدليل قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات ﴾ [غافر : 34] وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف .

وقيل : اشتراه العزيز بعشرين ديناراً وزوجي نعل وثوبين أبيضين .

وقيل : أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه ، حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً وحريراً ،

فابتاعه قطفير بذلك المبلغ ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ، أي حسناً مرضياً ، بدليل قوله ﴿ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ [يوسف : 23] والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا .

ويقال للرجل : كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة ، يراد : هل تطيب نفسك بثوائك عنده ، وهل يراعى حق نزولك به .

واللام في ﴿ لاِمْرَأَتِهِ ﴾ متعلقة بقال ، لا باشتراه ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ لعله إذا تدرّب وراض الأمور وفهم مجاريها ، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته .

أو نتبناه ونقيمه مقام الولد ، وكان قطفير عقيماً لا يولد له ، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك .

وقيل : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس في يوسف ، فقال لامرأته ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ والمرأة التي أتت موسى وقالت لأبيها ﴿ يا أبت استجره ﴾ [القصص : 26] وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما .

وروي أنه سأله عن نفسه، فأخبره بنسبه فعرفه ﴿ وكذلك ﴾ الإشارة إلى ما تقدّم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه، والكاف منصوب تقديره: ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿ مَكَّنَّا ﴾ له، أي: كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز، كذلك مكنا له في أرض مصر وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الاحاديث ﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين لأنّ غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل ﴿ والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ على أمر نفسه: لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي.

أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الأمر كله بيد الله.

قيل في الأشدّ: ثماني عشرة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون.

وقيل: أقصاه ثنتان وستون ﴿ حُكْمًا ﴾ حكمة وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه.

وقيل: حكما بين الناس وفقها ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ تنبيه على أنه كان محسناً في عمله، متقياً في عنفوان أمره، وأنّ الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه.

وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله.

المراودة: مفاعلة، من راد يرود إذا جاء وذهب، كأن المعني: خادعته عن نفسه، أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه

عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها ﴿ وَغَلَّقَتِ الأبواب ﴾ قيل: كانت سبعة.

وقرىء: "هَيت" بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء، وبناؤها كبناء أين، وعيط.

وهيت كجير وهيت كحيث.

وهئت بمعنى تهيأت يقال: هاء يهيء، كجاء يجيء: إذا تهيأ.

وهيئت لك واللام من صلة الفعل وأما في الأصوات فللبيان كأنه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هلم لك ﴿ مَعَاذَ الله ﴾ أعوذ بالله معاذاً ﴿ إِنَّهُ ﴾ إن الشأن والحديث ﴿ ربى ﴾ سيدي ومالكي، يريد قطفير ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ حين قال لك أكرمي مثواه، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ الذين يجازون الحسن بالسيء.

وقيل: أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم.

وقيل: أراد الله تعالى، لأنه مسبب الأسباب.

همّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه، قال:

هممْتُ ولَمْ أفعل وكِدْتُ وَلَيْتَني . . .

تَرَكْتُ عَلَى عُثْمانَ تَبْكي حلاَئِلُهْ

ومنه قولك : لا أفعل ذلك ولا كيداً ولا هماً .

أي ولا أكاد أن أفعله كيداً ، ولا أهم بفعله هماً ، حكاه سيبويه ، ومنه : الهمام وهو الذي إذا همّ بأمر أمضاه ولم ينكل عنه .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ معناه .

ولقد همت بمخالطته ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ وهمّ بمخالطتها ﴿ لَوْلا أَن رأى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ جوابه محذوف ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، فحذف ؛ لأنّ قوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ يدل عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أني خفت الله ، معناه لولا أني خفت الله [لقتلته] .

فإن قلت : كيف جاز على نبيّ الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصدٌ إليها ؟

قلت المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهم به والقصد إليه ، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم .

وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هماً لشدّته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع ؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته .

ولو كان همه كهمها عن عزيمة ، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين .

ويجوز أن يريد بقوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ وشارف أن يهم بها ، كما يقول الرجل : قتلته لو لم أخف الله ، يريد مشارفة القتل ومشافهته .

كأنه شرع فيه فإن قلت : قوله ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ داخل تحت حكم القسم في قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أم هو خارج منه ؟

قلت : الأمران جائزان .

ومن حق القارىء إذا قدّر خروجه من حكم القسم وجعله كلاماً برأسه أن يقف على قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ ويبتدىء قوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ وفيه أيضاً إشعار بالفرق بين الهمين .

فإن قلت : لم جعلت جواب لولا محذوفاً يدل عليه هم بها وهلا جعلته هو الجواب مقدماً

فإن قلت : لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها ، من قبل أنه في حكم الشرط ، وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة ، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض .

وأما حذف بعضها إذا دلّ الدليل عليه فجائز ، فإن قلت : فلم جعلت "لولا" متعلقة بهمّ بها

وحده ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ لأن الهمّ لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني .

فلا بدّ من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا من اثنين معاً ، فكأنه قيل : ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما ؟

قلت : نعم ما قلت ، ولكنّ الله سبحانه وتعالى قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ فكان إغفاله إلغاء له ، فوجب أن يكون التقدير ، ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها ، على أنّ المراد بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه ، وتوصله إلى ما هو حظه من قضاء شهوته منها ﴿ لَوْلا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فترك التوصل إلى حظه من الشهوة ؛ فلذلك كانت "لولا" حقيقة بأن تعلق بهمّ بها وحده ، وقد فسر همّ يوسف بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع ، وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها ، وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً : إياك وإياها ، فلم يكترث له ، فسمعه ثانياً فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً : أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على أنملته .

وقيل : ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله .

وقيل : كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف ، فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين همّ ، وقيل : صيح به : يا يوسف ، لا تكن كالطائر : كان له ريش ، فلما زنى قعد لا ريش له .

وقيل : بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم ، مكتوب فيها ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين كِرَاما كاتبين ﴾ [الانفطار : 11] فلم ينصرف ، ثم رأى فيها ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 32] فلم ينته ، ثم رأى فيها ﴿ واتقوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ﴾ [البقرة : 281] فلم ينجع فيه ، فقال الله لجبريل عليه السلام : أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة ، فانحط جبريل وهو يقول : يا يوسف ، أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء ؟

وقيل : رأى تمثال العزيز .

وقيل : قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت : أستحي منه أن يرانا .

فقال يوسف استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ، ولا أستحي من السميع البصير ، العليم بذوات الصدور .

وهذا ونحوه .

مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه ، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل ، ولو وُجِدَت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنُعِيت عليه وذُكِرَت توبته واستغفاره ، كما نُعِيَت على آدم زلته ، وعلى داود ، وعلى نوح ، وعلى أيوب ، وعلى ذي النون ، وذُكِرت توبتهم واستغفارهم ، كيف وقد أثنى عليه وسمي مخلصاً ، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض ، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أُولي القوّة والعزم ، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح ، حتى استحق من الله الثناء فيما أَنزل من كتب الأولين ، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصداق لها ، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب صورة كاملة عليها ، ليجعل له لسان صدق في الآخرين ، كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم عليه السلام ، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العثار ، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدّي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدي بنبي من أنبياء الله ، في القعود بين شعب الزانية وفي حل تكته للوقوع عليها ، وفي أن ينهاه ربه ثلاث كرّات ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن ، وبالتوبيخ العظيم ، وبالوعيد

الشديد ، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه ، وهو جاثم في مربضه لا يتحلحل ولا ينتهي ولا ينتبه ، حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره ، ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة وأصلحهم وجهاً لقي بأدنى ما لقي به نبي الله مما ذكروا ، لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرّك .

فيا له من مذهب ما أفحشه ، ومن ضلال ما أبينه ﴿ كذلك ﴾ الكاف منصوب المحل ، أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه .

(218/394)

أو مرفوعه ، أي الأمر مثل ذلك ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء ﴾ من خيانة السيد ﴿ والفحشاء ﴾ من الزنا ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم .

ويجوز أن يريد بالسوء .

مقدّمات الفاحشة ، من القبلة والنظر بشهوة ، ونحو ذلك .

وقوله : ﴿ مّنْ عِبَادِنَا ﴾ معناه بعض عبادنا ، أي : هو مخلص من جملة المخلصين .

أو هو ناشىء منهم ، لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال فيهم ﴿ إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ﴾ [

ص : 46] .

﴿ واستبقا الباب ﴾ وتسابقا إلى الباب على حذف الجارّ وإيصال الفعل ، كقوله ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] [أو] على تضمين "استبقا" معنى "ابتدرا" نفر منها يوسف ، فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج .

فإن قلت : كيف وجد الباب ، وقد جمعه في قوله ﴿ وَغَلَّقَتِ الأبواب ﴾ [يوسف : 23] قلت : أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار ، فقد روى كعب أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ اجتذبته من خلفه فانقد ، أي انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ وصادفا بعلها وهو قطفير ، تقول المرأة لبعلها : سيدي .

وقيل : إنما لم يقل سيدهما ، لأنّ ملك يوسف لم يصح ، فلم يكن سيداً له على الحقيقة .

قيل : ألفياه مقبلاً يريد أن يدخل .

وقيل جالساً مع ابن عمّ للمرأة .

لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المريبة وهي مغتاظة على يوسف إذ لم يؤاتها جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها : وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف ، وتخويفه طمعاً في أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها ، وكرها لما أيست من مؤاتاته طوعاً .

ألا ترى إلى قولها : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ [يوسف : 32] و "ما" نافية ، أي : ليس جزاؤه إلا السجن .

ويجوز أن تكون استفهامية ، بمعنى : أي شيء جزاؤه إلا السجن ، كما تقول : مَنْ في الدار إلا زيد .

فإن قلت : كيف لم تصرح في قولها بذكر يوسف ، وإنه أراد بها سوءاً ؟

قلت : قصدت العموم ، وأنّ كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب ، لأنّ ذلك أبلغ فيما قصدته من تخويف يوسف .

وقيل : العذاب الأليم الضرب بالسياط .

ولما أغرت به وعرّضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ ولولا ذلك لكتم عليها ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل كان ابن عمّ لها ، إنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها ؛ لتكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه .

وقيل : هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب .

وقيل كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشيره ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق .

وقيل : كان ابن خال لها صبياً في المهد .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم :

(541) " تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى " فإن قلت : لم سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة ؟

قلت : لما أدّى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمي شهادة : فإن قلت : الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة ؟

قلت : لأنها قول من القول ، أو على إرادة القول ، كأنه قيل : وشهد شاهد فقال إن كان قميصه .

فإن قلت : إن دل قدّ قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتبذت ثوبه إليها فقدّته ، فمن أين دل قدّه من قبل على أنها صادقة ، وأنه كان تابعها ؟

قلت : من وجهين ، أحدهما : أنه إذا كان تابعها وهي دافعته عن نفسها قدت قميصه من قدّامه بالدفع .

والثاني : أن يسرع خلفها ليلحقها فيتعثر في مقادم قميصه فيشقه .

وقرئ : "من قبل" ومن دبر ، بالضم على مذهب الغايات .

والمعنى : من قبل القميص ومن دبره .

وأما التنكير فمعناه من جهة يقال لها قبل ، ومن جهة يقال لها دبر .

وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ : "من قبل" و "من دبر" بالفتح ، كأنه جعلهما علمين للجهتين فمنعهما الصرف للعلمية والتأنيث .

وقرئا بسكون العين .

فإن قلت : كيف جاز الجمع بين "إن" الذي هو للاستقبال وبين "كان" ؟

قلت : لأنّ المعنى أن يعلم أنه كان قميصه قدّ ، ونحوه كقولك : إن أحسنت إليّ فقد أحسنت إليك من قبل ، لمن يمتن عليك بإحسانه ، تريد : إن تمتن عليّ أمتنّ عليك ﴿ فَلَمَّا رَءَا ﴾ يعني قطفير وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها ﴿ قَالَ إِنَّهُ ﴾ إن قولك ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أو إنّ الأمر وهو طمعها في يوسف ﴿ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ الخطاب لها ولأمثها .

وإنما استعظم كيد النساء لأنه وإن كان في الرجال ، إلا أنّ النساء ألطف كيداً وأنفذ حيلة .

ولهنّ في ذلك نيقة ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِى العقد ﴾ [الفلق : 4] والقصريات من بينهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البوائق وعن بعض العلماء : أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان ، لأنّ الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 76] وقال للنساء : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ يُوسُفَ ﴾ حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ الأمر واكتمه ولا تحدّث به ﴿ واستغفرى ﴾ أنت ﴿ لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنب .

يقال : خطىء ، إذا أذنب متعمداً ، وإنما قال : ﴿ مِنَ الخاطئين ﴾ بلفظ التذكير تغليباً للذكور على الإناث ، وما كان العزيز إلا رجلاً حليماً .

وروي أنه كان قليل الغيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ ﴾

(221/394)

وقال ابن الجوزى :

﴿ الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) ﴾

فصل في نزولها .

هي مكية بالإجماع .

وفي سبب نزولها قولان .

أما القول الأول ، فروي عن سعد بن أبي وقاص .

قال : أُنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ آلر . تلك آيات الكتاب المبين ﴾ إلى قوله : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ ، فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يا رسول الله ، لو حدثتنا ، فأنزل الله تعالى ﴿ الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ [الزمر : 23] كل ذلك يؤمرون بالقرآن .

وقال عون بن عبد الله : ملَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مَلَّة ، فقالوا : يا رسول الله حدّثنا ، فأنزل الله عز وجل ﴿ الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ [الزمر : 23] ، ثم إِنهم ملوّا مَلَّة أخرى ، فقالوا : يا رسول الله ، فوق الحديث ، ودون القرآن ، يعنون القصص ، فأنزل الله ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ ، فأراد الحديث ، فدلهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص ، فدلهم على أحسن القصص .

والثاني : رواه الضحاك عن ابن عباس قال : سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف ، فأنزل الله عز وجل ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين .

إِنا أنزلناه قرآنا عربياً ﴾ وذلك أن التوراة بالعبرانية ، والإِنجيل بالسريانية ، وأنتم قوم عرب ، ولو أنزلته بغير العربية ما فهمتموه .

وقد بينا تفسير أول هذه السورة في أول (يونس) ، إِلا أنه قد ذكر ابن الأنباري زيادة وجه في هذه السورة ، فقال : لما لحق أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مللٌ وسآمة ، فقالوا له : حدثنا بما يزيل عنا هذا الملل ، فقال : "تلك الأحاديث التي تقدرون الانتفاع بها وانصراف الملل ، هي آيات الكتاب المبين" .

وفي معنى ﴿ المبين ﴾ خمسة أقوال .

أحدها : البيِّن حلاله وحرامه ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : المبيِّن للحروف التي تسقط عن ألسن الأعاجم ، رواه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل .

والثالث : البيِّن هداه ورشده ، قاله قتادة .

والرابع : المبيِّن للحق من الباطل .

والخامس : البيِّن إِعجازه فلا يعارَض ، ذكرهما الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ إِنا أنزلناه ﴾ في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إِلى الكتاب ، قاله الجمهور .

والثاني : إِلى خبر يوسف ، ذكره الزجاج ، وابن القاسم .

قوله تعالى : ﴿ قرآناً عربياً ﴾ قد ذكرنا معنى القرآن واشتقاقه في سورة [النساء : 82] .

وقد اختلف الناس ، هل في القرآن شيء بغير العربية ، أم لا ، فمذهب أصحابنا أنه ليس فيه شيء بغير العربية .

وقال أبو عبيدة : من زعم أن في القرآن لساناً سوى العربية فقد أعظم على الله القول ، واحتج بقوله : ﴿ إِنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ [الزخرف : 3] وروي عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة أن فيه من غير لسان العرب ، مثل "سجيل" و"المشكاة" و"اليم" و"الطور" و"أباريق" و"إِستبرق" وغير ذلك .

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : قال أبو عبيد : وهؤلاء أعلم من أبي عبيدة ، ولكنهم ذهبوا إِلى مذهب ، وذهب هو إِلى غيره ، وكلاهما مصيب إِن شاء الله ، وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل ، فقال : أولئك على الأصل ، ثم لفظت به العرب بألسنتها فعربته فصار عربياً بتعريبها إِياه ، فهي عربية في هذه الحالة ، أعجمية الأصل ، فهذا القول يصدِّق الفريقين جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ قال ابن عباس : لكي تفهموا .

قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ قد ذكرنا سبب نزولها في أول الكلام .

وقد خُصّت بسبب آخر ، فروي عن سعيد بن جبير قال : اجتمع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلى سلمان ، فقالوا : حدّثنا عن التوراة فانها حسن ما فيها ، فأنزل الله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ يعني : قصص القرآن أحسن مما في التوراة . قال الزجاج : والمعنى نحن نبين لك أحسن البيان ، والقاصُّ ، الذي يأتي بالقصة على حقيقتها .

قال : وقوله : ﴿ بما أوحينا إليك ﴾ أي : بوحينا إليك هذا القرآن .

قال العلماء : وإنما سميت قصة يوسف أحسن القصص ، لأنها جمعت ذكر الأنبياء ، والصالحين ، والملائكة ، والشياطين ، والأنعام ، وسير الملوك ، والمماليك ، والتجار ، والعلماء ، والرجال ، والنساء ، وحيلهن ، وذكر التوحيد ، والفقه ، والسرّ ، وتعبير الرؤيا ، والسياسة ، والمعاشرة ، وتدبير المعاش ، والصبر على الأذى ، والحلم ؛ والعزّ ، والحكم ،

إلى غير ذلك من العجائب .

قوله تعالى : ﴿ وإِن كنت ﴾ في "إِن" قولان :

أحدهما : أنها بمعنى "قد" .

والثاني : بمعنى "ما"

قوله تعالى : ﴿ من قبله ﴾ قال ابن عباس : من قبل نزول القرآن .

﴿ لَمِن الغافلين ﴾ عن علم خبر يوسف وما صنع به إِخوته .

قوله تعالى : ﴿ إِذ قال يوسف لأبيه ﴾ في "إِذ" قولان :

أحدهما : أنها صلة للفعل المتقدِّم ، والمعنى : نحن نقص عليك إِذ قال يوسف .

والثاني : أنها صلة لفعل مضمر ، تقديره : اذكر إِذ قال يوسف ، ذكرهما الزجاج ، وابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ يا أبت ﴾ قرأ أبو جعفر ، وابن عامر بفتح التاء ، ووقفا بالهاء ، وافقهما ابن كثير في الوقف بالهاء ، وقرأ الباقون بكسر التاء .

فمن فتح التاء ، أراد : يا أبتا ، فحذف الألف كما تحذف الياء ، فبقيت الفتحة دالة على الألف ، كما أن الكسرة تبقى دالة على الياء .

ومن وقف على الهاء ، فلان تاء التأنيث تبدل منها الهاء في الوقف .

وقرأ أبو جعفر أحد عشر ، وتسعة عشر ، بسكون العين فيهما .

وفي ما رآه يوسف قولان :

أحدهما : أنه رأى الشمس والقمر والكواكب ، وهو قول الأكثرين .

قال الفراء : وإنما قال : "رأيتهم" على جمع ما يعقل ، لأن السجود فعل ما يعقل ، كقوله : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ [النمل : 18] .

قال المفسرون : كانت الكواكب في التأويل إخوته ، والشمس أمه ، والقمر أباه ، فلما قصَّها على يعقوب أشفق من حسد إخوته .

وقال السدي : الشمس أبوه ، والقمر خالته ، لأن أمه كانت قد ماتت .

والثاني : أنه رأى أبويه وإخوته ساجدين له ، فكنى عن ذكرهم ، وهذا مروي عن ابن عباس ، وقتادة .

فأما تكرار قوله : ﴿ رأيتهم ﴾ فقال الزجاج : إنما كرره لمَّا طال الكلام توكيداً .

وفي سن يوسف لما رأى هذا المنام ثلاثة أقوال :

أحدها : سبع سنين .

والثاني : اثنتا عشرة سنة والثالث : سبع عشرة سنة .

قال المفسرون : علم يعقوب أن إِخوة يوسف يعلمون تأويل رؤياه ، فقال : ﴿ لا تقصص رؤياك على إِخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ ، قال ابن قتيبة : يحتالوا لك حيلة ويغتالوك .

وقال غيره : اللام صلة ، والمعنى : فيكيدوك .

والعدو المبين : الظاهر العداوة .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ قال الزجاج ، وابن الأنباري : ومثل ما رأيت من الرفعة والحال الجليلة ، يختارك ربك ويصطفيك من بين إِخوتك .

وقد شرحنا في [الأنعام : 87] معنى الاجتباء .

وقال ابن عباس : يصطفيك بالبنوة .

قوله تعالى : ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ فيه ثلاثة اقوال :

أحدها : أنه تعبير الرؤيا ، قاله ابن عباس ومجاهد ، وقتادة ، فعلى هذا سمي تأويلاً لأنه بيان ما يؤول أمر المنام إِليه .

والثاني : أنه العلم والحكمة ، قاله ابن زيد .

والثالث : تأويل أحاديث الأنبياء والأمم والكتب ، ذكره الزجاج .

قال مقاتل : و"من" هاهنا صلة .

قوله تعالى : ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : بالنبوة ، قاله ابن عباس .

والثاني : باعلاء الكلمة .

والثالث : بأن أحوج إِخوته إِليه حتى أنعم عليهم ، ذكرهما الماوردي .

(225/394)

وفي ﴿ آل يعقوب ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم ولده ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : يعقوب وامرأته وأولاده الأحد عشر ، أتم عليهم نعمته بالسجود ليوسف ، قاله مقاتل .

والثالث : أهله ، قاله أبو عبيدة ، واحتج بأنك إِذا صغَّرت الآل ، قلت : أُهيل .

قوله تعالى : ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل إِبراهيم وإِسحق ﴾ قال عكرمة : فنعمته على إِبراهيم أن نجاه من النار ، ونعمته على إِسحاق أن نجاه من الذبح .

قوله تعالى : ﴿ إِن ربك عليم ﴾ أي : عليم حيث يضع النبوة ﴿ حكيم ﴾ في تدبير خلقه .

قوله تعالى : ﴿ لقد كان في يوسف وإِخوته ﴾ أي : في خبر يوسف وقصة إِخوته ﴿ آيات

﴾ أي: عِبَر لمن سأل عنهم، فكل حال من أحواله آية.

وقرأ ابن كثير "آيةٌ".

قال المفسرون: وكان اليهود قد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف، فأخبرهم بها كما في التوراة، فعجبوا من ذلك.

وفي وجه هذه الآيات خمسة أقوال:

أحدها: الدلالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم حين أخبر أخبار قوم لم يشاهدهم، ولا نظر في الكتب.

والثاني ما أظهر الله في قصة يوسف من عواقب البغي عليه.

والثالث: صدق رؤياه وصحة تأويله.

والرابع: ضبط نفسه وقهر شهوته حتى قام بحق الأمانة.

والخامس: حدوث السرور بعد اليأس.

فإن قيل: لم خص السائلين، ولغيرهم فيها آيات أيضاً؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أن المعنى: للسائلين وغيرهم، فاكتفى بذكر السائلين من غيرهم، كما اكتفى بذكر الحر من البرد في قوله: ﴿ تقيكم الحر ﴾ [النحل: 81].

والثاني: أنه إذا كان للسائلين عن خبر يوسف آية، كان لغيرهم آية أيضاً؛ وإنما خص السائلين، لأن سؤالهم نتج الأعجوبة وكشف الخبر.

قوله تعالى : ﴿ إِذ قالوا ﴾ يعني إِخوة يوسف .

﴿ لَيُوسُفُ وأخوه ﴾ يعنون ابن يامين .

وإِنما قيل له : ابن يامين ، لأن أمه ماتت نفساء .

ويامين بمعنى الوجع ، وكان أخاه لأمه وأبيه .

والباقون إِخوته لأبيه دون أمه .

(226/394)

فأما العصبة ، فقال الزجاج : هي في اللغة الجماعة الذين أمرهم واحد يتابع بعضهم بعضاً في الفعل ، ويتعصب بعضهم لبعض .

وللمفسرين في العصبة ستة أقوال :

أحدها : أنها ما كان أكثر من عشرة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنها ما بين العشرة إِلى الأربعين ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال قتادة .

والثالث : أنها ستة أو سبعة ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : أنها من عشرة إِلى خمسة عشر ، قاله مجاهد .

والخامس : الجماعة ، قاله ابن زيد ، وابن قتيبة ، والزجاج .

والسادس : عشرة ، قاله مقاتل .

وقال الفراء : العصبة عشرة فما زاد .

قوله تعالى : ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ فيه ثلاثة اقوال :

أحدها : لفي خَطَأٍ من رأيه ، قاله ابن زيد .

والثاني : في شَقَاءٍ ، قاله مقاتل ؛ والمراد به عناء الدنيا .

والثالث : لفي ضلال عن طريق الصواب الذي يقتضي تعديل المحبة بيننا ، لأن نفعنا له أعم .

قال الزجاج : ولو نسبوه إلى الضلال في الدين كانوا كفاراً ، إنما أرادوا : إنه قدَّم ابنين صغيرين علينا في المحبة ونحن جماعة نفعنا أكثر .

قوله تعالى : ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ قال أبو علي : قرأ ابن كثير ، ونافع ، والكسائي : "مبينٌ اقتلوا" بضم التنوين ، لأن تحريكه يلزم لالتقاء الساكنين ، فحركوه بالضم ليُتبعوا الضمة الضمة ، كما قالوا : "مدُّ" و"ظُلُمات" .

وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، بكسر التنوين ، فلم يتبعوا الضمة كما قالوا .

"مدَّا" "ظُلُمات" .

قال المفسرون : وهذا قولهم بينهم ﴿ أو اطرحوه أرضاً ﴾ قال الزجاج : نصب "أرضاً"

على إِسقاط "في" ، وأفضى الفعل إِليها ؛ والمعنى : أو اطرحوه أرضاً يبعد بها عن أبيه .

وقال غيره : أرضاً تأكله فيها السباع .

قوله تعالى : ﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ أي : يفرغ لكم من الشغل بيوسف .

﴿ وتكونوا من بعده ﴾ أي : من بعد يوسف .

﴿ قوماً صالحين ﴾ فيه قولان : أحدهما : صالحين بالتوبة من بعد قتله ، قاله ابن عباس .

(227/394)

والثاني : يصلح حالكم عند أبيكم ، قاله مقاتل .

وفي قصتهم نكتة عجيبة ، وهو أنهم عزموا على التوبة قبل الذنب ، وكذلك المؤمن لا ينسى التوبة وإِن كان مرتكباً للخطايا .

قوله تعالى : ﴿ قال قائل منهم ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه يهوذا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال وهب بن منبه ، والسدي ، ومقاتل .

والثاني : أنه شمعون ، قاله مجاهد .

والثالث : روبيل ، قاله قتادة ، وابن إِسحاق .

فأما غيابة الجب ، فقال أبو عبيدة : كل شيء غيَّب عنك شيئاً فهو غيابة ، والجب : الرَّكية التي لم تطو .

وقال الزجاج : الغيابة : كل ما غاب عنك ، أو غيَّب شيئاً عنك ، قال المنخِّل :

فإنْ أنا يَوْماً غيَّبَتْني غَيَابَتي . . .

فسِيروا بِسَيْري في العشيرة والأهْلِ

والجب : البئر التي لم تطو ؛ سميت جباً من أجل أنها قُطعت قطْعاً ، ولم يحدث فيها غير القطع من طي وما أشبهه .

وقال ابن عباس : "في غيابة الجب" أي : في ظلماته .

وقال الحسن : في قعره .

وقرأ نافع : "غيابات الجب" فجعل كل منه غيابة .

وروى خارجة عن نافع : "غيَّابات" بتشديد الياء .

وقرأ الحسن ، وقتادة ، ومجاهد : "غيبة الجب" بغير ألف مع إسكان الياء .

وأين كان هذا الجب ، فيه قولان :

أحدهما : بأرض الأردن ، قاله وهب .

وقال مقاتل : هو بأرض الأردن على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب .

والثاني : ببيت المقدس ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ قال ابن عباس : يأخذه بعض من يسير .

﴿ إِن كنتم فاعلين ﴾ أي : إِن أضمرتم له ما تريدون .

وأكثر القراء قرؤوا "يلتقطه" بالياء .

وقرأ الحسن ، وقتادة ، وابن أبي عبلة بالتاء .

قال الزجاج : وجميع النحويين يجيزون ذلك ، لأن بعض السيارة سيارة ، فكأنه قال : تلتقطه سيارة بعض السيارة .

وقال ابن الأنباري : من قرأ بالتاء ، فقد أَنَّث فعل بعض ، وبعض مذكر ، وإِنما فعل ذلك حملاً على المعنى ، إِذ التأويل : تلتقطه السيارة ، قال الشاعر :

رأت مَرَّ السِّنِينَ أَخَذْنَ مني . . .

كما أَخَذَ السِّرارُ مِنَ الهِلاَلِ

أراد : رأت السنين ، وقال الآخر :

طُولُ الليالي أَسْرَعتْ في نَقْضي . . .

طَوَيْنَ طُولِي وطَوَيْنَ عَرْضِي

أراد : الليالي ، أسرعت ، وقال جرير :

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ . . .

سُورُ المَدِينَةِ والْجِبَالُ الخُشَّعُ

أراد : تواضعت المدينة ، وقال الآخر :

وتشْرَقُ بالْقَوْلِ الَّذي قد أَذَعْتُهُ . . .

كما شَرِقتْ صدْرُ القَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

أراد : كما شرقت القناة .

قال المفسرون : فلما عزم القوم على كيد يوسف ، قالوا لأبيه : ﴿ مالك لا تأمنّا ﴾ قرأ الجماعة "تأمنا" بفتح الميم وإدغام النون الأولى في الثانية والإشارة إلى إعراب النون المدغمة بالضم ؛ قال مكي : لأن الأصل "تأمننا" ثم أدغمت النون الأولى ، وبقي الإشمام يدل على ضمة النون الأولى .

والإشمام : هو ضم شفتيك من غير صوت يُسمع ، فهو بعد الإدغام وقبل فتحه النون الثانية .

وابن كيسان يسمي الإشمام الإشارة ، ويسمى الرَّوم إشماماً ؛ والرَّوْم : صوت ضعيف يُسمع خفياً .

وقرأ أبو جعفر "تأمنّا" بفتح النون من غير إشمام إلى إعراب المدغم .

وقرأ الحسن "مَالَكَ لا تأمُنّا" بضم الميم .

وقرأ ابن مقسم "تأمننا" بنونين على الأصل ، والمعنى : مالك لا تأمنا على يوسف فترسله معنا ، فانه قد كبر ولا يعلم شيئًا من أمر المعاش ﴿ وإِنا له لناصحون ﴾ فيما أشرنا به عليك ؛ ﴿ أرسله معنا غداً ﴾ إِلى الصحراء .

وقال مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير ، وذلك أنهم قالوا له : أرسله معنا ، فقال إِني لَيَحْزُنُني أن تذهبوا به ، فقالوا : مالك لا تأمنا .

قوله تعالى : ﴿ نرتع ونلعب ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو "نرتع ونلعب" بالنون فيهما ، والعين ساكنه ؛ وافقهم زيد عن يعقوب في "نرتع" فحسب .

وفي معنى "نرتع" ثلاثة أقوال :

أحدها : نَلْهُ ، قاله الضحاك .

والثاني : نَسْعَ ، قاله قتادة .

والثالث : نأكل ؛ يقال : رتعت الإِبل : إِذا رعت ، وأرتعتها : إِذا تركتها ترعى .

قال الشاعر :

وَحَبيب لِي إذَا لاقَيْتُهُ . . .

وإِذَا يَخْلُوا لَهُ لَحْمِي رَتَعْ

أي : أكله ، هذا قول ابن الأنباري ، وابن قتيبة .

وقرأ عاصم ، وحمزة والكسائي : "يرتع ويلعب" بالياء فيهما وجزْم العين والباء ، يعنون "يوسف" .

وقرأ نافع : "نرتعِ" بكسر العين من "نرتع" من غير بلوغ إلى الياء .

قال ابن قتيبة : ومعناها : نتحارس ، ويرعى بعضنا بعضاً ، أي : يحفظ ؛ ومنه يقال : رعاك الله ، أي : حفظك .

وقد رويت عن ابن كثير أيضاً "نرتعي" باثبات ياء بعد العين في الوصل والوقف .

وقرأ أنس ، وأبو رجاء "نُرتِعْ" بنون مرفوعة وكسر التاء وسكون العين ، و "نلعبْ" بالنون .

قال أبو عبيدة : أي : نرتع إبلنا .

فأما قوله : ﴿ ونلعب ﴾ فقال ابن عباس : نلهو .

فإن قيل : كيف لم ينكر عليهم يعقوب ذِكر اللعب ؟

فالجواب : من وجهين .

أحدهما : أنهم لم يكونوا حينئذ أنبياء ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

والثاني : أنهم عَنَوْا مباح اللعب ، قاله الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ إِني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ أي : يحزنني ذهابكم به ، لأنه يفارقني فلا أراه .

﴿ وأخاف أن يأكُلَهُ الذئب ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة : "الذئب" بالهمز في الثلاثة المواضع .

وقرأ الكسائي ، وأبو جعفر ، وشيبة بغير همز .

قال أبو علي : "الذئب" مهموز في الأصل .

يقال : تذاءَبَتِ الريح : إِذا جاءت من كل جهة كما يأتي الذئب .

وفي علة تخصيص الذئب بالذكر ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه رأى في منامة أن الذئب شد على يوسف ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن أرضهم كانت كثيرة الذئاب ، قاله مقاتل .

والثالث : أنه خافهم عليه فكنى بذكر الذئب ، قاله الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : غافلون في اللعب .

والثاني : مشتغلون برعيتكم .

قوله تعالى : ﴿ لئن أكله الذئب ونحن عُصْبَةٌ ﴾ أي : جماعة نرى الذئب قد قصده ولا نرد عنه ﴿ إنا إذاً لخاسرون ﴾ أي : عاجزون .

قال ابن الأنباري : ومن قرأ "عصبةً" بالنصب ، فتقديره : ونحن نجتمع عصبة .

قوله تعالى : ﴿ فلما ذهبوا به ﴾ في الكلام اختصار وإضمار ، تقديره : فأرسله معهم فلما ذهبوا .

﴿ وأجمعوا ﴾ أي : عزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب .

الإشارة إلى قصة ذهابهم

قال المفسرون : قالوا ليوسف : أما تشتاق أن تخرج معنا فتلعب وتتصيد ؟ قال : بلى ، قالوا : فسل أباك أن يرسلك معنا ، قال : أفعل ، فدخلوا بجماعتهم على يعقوب ، فقالوا : يا أبانا إن يوسف قد أحب أن يخرج معنا ، فقال : ما تقول يا بني ؟ قال : نعم يا أبت ، قد أرى من إخوتي اللين واللطف ، فأنا أحب أن تأذن لي ، فأرسله معهم ، فلما أصحروا ، أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة ، وأغلظوا له القول ، وجعل يلجأ إلى هذا ، فيضربه ، وإلى هذا ، فيؤذيه ، فلما فطن لما قد عزموا عليه ، جعل ينادي : يا أبتاه ، يا يعقوب ، لو رأيت يوسف وما ينزل به من إخوته لأَحَزْنَكَ ذلك وأبكاك ، يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك ، وضيّعوا وصيّتك ، وجعل يبكي بكاءً شديداً .

قال الضحاك عن ابن عباس : فأخذه روبيل فجلد به الأرض ، ثم جثم على صدره وأراد قتله ، فقال له يوسف : مهلاً يا أخي لا تقتلني ، قال : يا ابن راحيل صاحبَ الأحلام ، قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ، ولوى عنقه ليكسرها ، فنادى يوسف : يا يهوذا اتق الله فيّ ، وخل بيني وبين مَنْ يريد قتلي ، فأدركته له رحمة ، فقال يهوذا : يا إِخوتاه ، ألا أدلكم على أمرٍ هو خير لكم وأرفق به ؟ قالوا : وما ذاك ؟ قال : تلقونه في هذا الجب فيلتقطه بعض السيارة ، قالوا : نفعل ؛ فانطلقوا به إِلى الجب ، فخلعوا قميصه ، فقال : يا إِخوتاه ، لِمَ نزعتم قميصي ؟ ردوه عليَّ أستر به عورتي ويكون كفناً لي في مماتي ؛ فأخرج الله له حجراً في البئر مرتفعاً من الماء ، فاستقرت عليه قدماه .

وقال السدي : جعلوا يدلونه في البئر ، فيتعلق بشفير البئر ؛ فربطوا يديه ونزعوا قميصه ، فقال : يا إِخوتاه ، ردوا عليَّ قيمصي أتوارى به ، فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً ، فدلّوه في البئر ، حتى إِذا بلغ نصفها ألقوه إِرادة أن يموت ، فكان في البئر ماءٌ فسقط فيه ، ثم أوى إِلى صخرة فيها فقام ، عليها ؛ فلما أَلْقَوْهُ في الجب جعل يبكي ، فنادوه ، فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم ، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ، فمنعهم يهوذا ، وكان

يهوذا يأتيه بالطعام .

وقال كعب : جمعوا يديه إلى عنقه ونزعوا قميصه ، فبعث الله إليه مَلَكاً ، فحلَّ عنه وأخرج له حجراً من الماء ، فقعد عليه ؛ وكان يعقوب قد أدرج قميص إبراهيم الذي كساه الله إياه يوم أُلقي في النار في قصبة ، وجعلها في عنق يوسف ، فألبسه إياه الملك حينئذ ، وأضاء له الجب .

وقال الحسن : أُلقي في الجب ، فعَذُبَ ماؤه ، فكان يغنيه عن الطعام والشراب ؛ ودخل عليه جبريل ، فأنس به ، فلما أمسى ، نهض جبريل ليذهب ، فقال له يوسف : إنك إذا خرجت عني استوحشت ، فقال : إذا رهبت شيئاً فقل : يا صريخ المستصرخين ، ويا غوث المستغيثين ، ويا مفرِّج كرب المكروبين ، قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري .

فلما قالها حفّته الملائكة ، فاستأنس في الجب ومكث فيه ثلاثة أيام ، وكان إخوته يرعون حول الجب .

وقال محمد بن مسلم الطائفي : لما أُلقي يوسف في الجُبِّ ، قال : يا شاهداً غير غائب ، ويا

قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب ، اجعل لي فرجاً مما أنا فيه ؛ قال : فما بات فيه .

وفي مقدار سِنّه حين أُلقي في الجب أربعة أقوال :

أحدها : اثنتا عشرة سنة ، قاله الحسن .

والثاني : ست سنين ، قاله الضحاك .

والثالث : سبع عشرة ، قاله ابن السائب ، وروي عن الحسن أيضاً .

والرابع : ثمان عشرة .

قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إِليه ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه إِلهام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنه وحي حقيقة .

قال المفسرون : أُوحي إِليه لتخبرنّ إِخوتك بأمرهم ، أي : بما صنعوا بك وأنت عالٍ عليهم .

وفي قوله : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ قولان :

أحدهما : لا يشعرون أنك يوسف وقت إِخبارك لهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل .

والثاني : لا يشعرون بالوحي ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد .

فعلى الأول يكون الكلام من صلة "لتنبئنهم" ؛ وعلى الثاني من صلة "وأوحينا إِليه" .

قال حميد : قلت للحسن : أيحسد المؤمنُ المؤمنَ ؟ قال : لا أبالك ، ما نسّاك بني يعقوب ؟

قوله تعالى : ﴿ وجاؤوا أباهم عشاء يبكون ﴾ وقرأ أبو هريرة ، والحسن ، وابن السميفع ، والأعمش : "عشاء" بضم العين .

قال المفسرون : جاؤوا وقت العتمة ليكونوا أجرأ في الظلمة على الاعتذار بالكذب ، فلما سمع صوتهم فزع ، وقال : مالكم يا بَنِيّ ، هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فما أصابكم ؟ وأين يوسف ؟ ﴿ قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ننتضل ، قاله ابن عباس ، وابن قتيبة ، قال : والمعنى ، يسابق بعضنا بعضاً في الرمي ، والثاني : نشتد ، قاله السدي .

والثالث : نتصيد ، قاله مقاتل .

فيكون المعنى على الأول : نستبق في الرمي لننظر أينا أسبق سهماً ؛ وعلى الثاني : نستبق على الأقدام ؛ وعلى الثالث : للصيد .

قوله تعالى : ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أي : ثيابنا .

﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ أي : بمصدِّق .

وفي قوله : ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ قولان :

أحدهما : أن المعنى : وإِن كنا قد صدقنا ، قاله ابن إِسحاق .

والثاني : لو كنا عندك من أهل الصدق لا تهمتنا في يوسف لمحبتك إِياه ، وظننت أنا قد كذبناك ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وجاؤوا على قميصه بدم كذب ﴾ قال اللغويون : معناه : بدم مكذوب فيه ، والعرب تجعل المصدر في كثير من الكلام مفعولاً ، فيقولون للكذب مكذوب ، وللعقل معقول ، وللجلد مجلود ، قال الشاعر :

حَتَّى إِذا لَمْ يَتْرُكُوا لِعِظَامِهِ . . .

لَحْماً وَلاَ لِفُؤَادِهِ مَعْقُولاَ

أراد : عقلاً .

وقال الآخر :

قد والذي سَمَكَ السماءَ بِقُدْرَةٍ . . .

بُلغ العَزَاءُ وأُدْرِكَ المَجْلُودُ

يريد : أُدرك الجلد .

ويقولون : ليس لفلان عقد رأي ، ولا معقود رأي ، ويقولون : هذا ماء سكْب ، يريدون : مسكوباً ، وهذا شراب صب ، يريدون : مصبوباً ، وماء غور ، يعنون : غائراً ، ورجل

صوم، يريدون: صائماً، وامرأة نَوْح، يريدون: نائحة؛ وهذا الكلام مجموع قول الفراء، والأخفش، والزجاج، وابن قتيبة في آخرين.

قال ابن عباس: أخذوا جدياً فذبحوه، ثم غمسوا قميص يوسف في دمه، وأتوه به وليس فيه خرق، فقال: كذبتم، لو كان أكله الذئب لخرّق القميص.

وقال قتادة: كان دم ظبية.

وقرأ ابن أبي عبلة: "بدمٍ كذباً" بالنصب.

وقرأ ابن عباس، والحسن، وأبو العالية: "بدم كدب" بالدال غير معجمة، أي: بدم طريّ.

قوله تعالى: ﴿ بل سَوَّلَتْ ﴾ أي: زَيَّنَتْ ﴿ لكم أنفسكم أمراً ﴾ غير ما تصفون ﴿ فصبر جميل ﴾ قال الخليل: المعنى: فشأني صبر جَميل، والذي أعتقده صبر جميل.

وقال الفراء: الصبر مرفوع، لأنه عزّى نفسه وقال: ما هو إلا الصبر، ولو أمرهم بالصبر، لكان نصباً.

وقال قطرب: المعنى: فصبري صبر جميل.

وقرأ ابن مسعود ، وأُبيّ ، وأبو المتوكل : "فصبراً جميلاً" بالنصب .

قال الزجاج : والصبر الجميل ، لا جزع فيه ، ولا شكوى إلى الناس .

قوله تعالى : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : على ما تصفون من الكذب .

والثاني : على احتمال ما تصفون .

قوله تعالى : ﴿ وجاءت سيارة ﴾ أي : قوم يسيرون ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ قال الأخفش : أنّث السيارة وذكّر الوارد ، لأن السيارة في المعنى للرجال .

وقال الزجاج : الوارد : الذي يَرِدُ الماء ليستقي للقوم .

وفي اسم هذا الوارد قولان .

أحدهما : مالك بن ذُعْر بن يؤيب بن عيفا بن مدين بن إبراهيم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : مجلث بن رعويل ، قاله وهب بن منبه .

قوله تعالى : ﴿ فأدلى دَلْوَهُ ﴾ أي : أرسلها .

قال الزجاج : يقال : أدليت الدلو : إذا أرسلتها لتملأها ودلوتها : إذا أخرجتها .

﴿ قال يا بشراي ﴾ قرأه ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "يا بشرايَ" بفتح الياء وإثبات الألف .

وروى ورش عن نافع "بشرايْ" و"محيايْ" [الأنعام : 162] و"مثواي" [يوسف : 23] بسكون الياء .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي "يا بشرى" بألف بغير ياء .

وعاصم بفتح الراء ، وحمزة ، والكسائي يميلانها .

قال الزجاج : من قرأ "يا بشراي" فهذا النداء تنبيه للمخاطبين ، لأن البشرى لا تجيب ولا تعقل ؛ فالمعنى : أبشروا ، ويا أيها البشرى هذا من أوانك ، وكذلك إِذا قلت : يا عجباه ، فكأنك قلت : اعجبوا ، ويا أيها العجب هذا من حينك ؛ وقد شرحنا هذا المعنى [هود 69 و74] .

فأما قراءة من قرأ "يا بشرى" فيجوز أن يكون المعنى : يا من حضر ، هذه بشرى .

ويجوز أن يكون المعنى : يا بشرى هذا أوانك على ما سبق بيانه من تنبيه الحاضرين .

وذكر السدي أنه نادى بذاك أحدهم وكان اسمه بشرى .

وقال ابن الأنباري : يجوز فيه هذه الأقوال ، ويجوز أن يكون اسم امرأة .

وقرأ أبو رجاء ، وابن أبي عبلة : "يا بُشْرَيَّ" بتشديد الياء وفتحها من غير ألف .

قال ابن عباس : لما أدلى دَلْوَه ؛ تعلق يوسف بالحبل فنظر إِليه فإذا غلام أحسن ما يكون من الغلمان ، فقال لأصحابه : البشرى ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : هذا غلام في البئر ، فأقبلوا يسألونه الشركة فيه ، واستخرجوه من الجُبِّ ، فقال بعضهم لبعض : اكتموه عن أصحابكم لئلا يسألونكم الشركة فيه ، فإن قالوا : ما هذا ؟ فقولوا : استبضعنَاه أهل الماء لنبيعه لهم بمصر ؛ فجاء إخوة يوسف فطلبوه فلم يجدوه في البئر ، فنظروا ، فإذا هم بالقوم ومعهم يوسف ، فقالوا لهم : هذا غلام أبق منا ، فقال مالك بن ذعر : فأنا أشتريه منكم ، فباعوه بعشرين درهماً وحُلَّة ونعلين ، وأسره مالك بن ذعر من أصحابه ، وقال : استبضعَناه أهل الماء لنبيعه لهم بمصر .

قوله تعالى : ﴿ وأسرُّوه بضاعة ﴾ قال الزجاج : "بضاعةً" منصوب على الحال ، كأنه قال : وأسرّوه جاعليه بضاعة .

وقال ابن قتيبة : أسرّوا في أنفسهم أنه بضاعة وتجارة .

في الفاعلين لذاك قولان :

أحدهما : أنهم واردو الجب .

أسرّوا ابتياعه عن باقي أصحابهم ، وتواصَوا أنه بضاعة استبضعهم إِياها أهل الماء ؛ وقد ذكرنا هذا المعنى عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثاني : أنهم إِخوته ، أسروّا أمره ، وباعوه ، وقالوا : هو بضاعة لنا ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ يعمّ الباعة والمشترين .

قوله تعالى : ﴿ وشروه ﴾ هذا حرف من حروف الأضداد ، تقول : شريت الشيء ، بمعنى بعته ؛ وشريته ؛ بمعنى اشتريته .

فإن كان بمعنى باعوه ، ففيهم قولان .

أحدهما : أنهم إِخوته ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : أنهم السيارة ، ولم يبعه إِخوته ، قاله الحسن ، وقتادة .

وإِن كان بمعنى اشتروه ، فإنهم السيارة .

قوله تعالى : ﴿ بثمن بَخْسٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الحرام ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة في آخرين .

والثاني : أنه القليل ، قاله عكرمة ، والشعبي ، قال ابن قتيبة : البخس : الخسيس الذي بُخس به البائع .

والثالث : الناقص ، وكانت الدراهم عشرين درهماً في العدد ، وهي تنقص عن عشرين في الميزان ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ دراهم معدودة ﴾ قال الفراء : إِنما قيل : "معدودة" ليُستدَل بها على القِلَّة .

وقال ابن قتيبة : أي : يسيرة ، سهل عددها لقلّتها ، فلو كانت كثيرة لثقل عددها .

وقال ابن عباس : كانوا في ذلك الزمان لا يَزِنُون أقل من أربعين درهماً ، وقيل : إِنما لم يَزِنُوها لزهدهم فيه .

وفي عدد تلك الدراهم خمسة أقوال :

أحدها : عشرون درهماً ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس في رواية ، وعكرمة في رواية ، ونوف الشامي ، ووهب بن منبِّه ، والشعبي ، وعطية ، والسدي ، ومقاتل في آخرين .

والثاني : عشرون درهماً وحُلَّة ، ونعلان ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : اثنان وعشرون درهماً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والرابع : أربعون درهماً ، قاله عكرمة في رواية ، وابن إِسحاق .

والخامس : ثلاثون درهماً ، ونعلان ، وحُلَّة ، وكانوا قالوا له بالعبرانية : إِما أن تُقَرَّ لنا بالعبودية ، وإِما أن نأخذَك منهم فنقتلَك ، قال : بل أُقِرُّ لكم بالعبودية ، ذكره إِسحاق بن

بشر عن بعض أشياخه .

قال المفسرون : اقتسموا ثمنه ، فاشتَروا به نعالاً وخفافاً .

وكان بعض الصالحين يقول : والله ما يوسف وإِن باعه أعداؤه بأعجبَ منك في بيعكَ نفسَكَ بشهوةِ ساعةٍ من معاصيك .

قوله تعالى : ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ الزهد : قلَّة الرغبة في الشيء .

وفي المشار إِليهم قولان : أحدهما : أنهم إِخوته ، قاله ابن عباس ؛ فعلى هذا ، في هاء "فيه" قولان :

أحدهما : أنها ترجع إِلى يوسف ، لأنهم لم يعلموا مكانه من الله تعالى ، قاله الضحاك ، وابن جريج .

والثاني : أنها ترجع إِلى الثمن .

وفي علَّة زهدهم قولان : أحدهما : رداءته .

والثاني : أنهم قصدوا بُعد يوسف ، لا الثمن .

والثاني : أنهم السيارة الذين اشتَروه .

وفي علَّة زهدهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم ارتابوا لقلة ثمنه .

والثاني : أن إِخوته وصفوه عندهم بالخيانة والإِباق .

والثالث : لأنهم علموا أنه حر .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر ﴾ قال وهب : لما ذهبت به السيارة إلى مصر ، وقفوه في سوقها يعرضونه للبيع ، فتزايد الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنَه مسكاً ، ووزنه ورِقاً ، ووزنه حريراً ، فاشتراه بذلك الثمن رجل يقال له : قطفير ، وكان أمين فرعون وخازنه ، وكان مؤمناً .

وقال ابن عباس : إنما اشتراه قطفير من مالك بن ذعر بعشرين ديناراً ، وزوجَيْ نعل ، وثوبَيْن أبيضين ، فلما رجع إلى منزله قال لامرأته : أكرمي مثواه .

وقال قوم : اسمه أُطفير .

وفي اسم المرأة قولان : أحدهما : راعيل بنت رعاييل ، قاله ابن إسحاق .

والثاني : أزليخا بنت تمليخا ، قاله مقاتل .

قال ابن قتيبة : "أكرمي مثواه" يعني أكرمي منزله ومقامه عندك ، من قولك : ثويت بالمكان : إذا أقمت به .

وقال الزجاج: أحسني إِليه في طول مُقامه عندنا .

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرَّس في يوسف ، فقال لامرأته : "أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا" وابنة شعيب حين قالت : ﴿ يا أبت استأجره ﴾ [القصص 26] ، وأبو بكر حين استخلف عمر .

وفي قوله : ﴿ عسى أن ينفعَنَا ﴾ قولان :

أحدهما : يكفينَا إِذا بلغ أمورنا .

والثاني : بالربح في ثمنه .

قوله تعالى : ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ قال ابن عباس : نتبنَّاه .

وقال غيره : لم يكن لهما ولد ، وكان العزيز لا يأتي النساء .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنَّا ليوسف ﴾ أي : وكما أنجيناه من إِخوته وأخرجناه من ظلمة الجُبِّ ، مكنَّا له في الأرض ، أي : ملَّكناه في أرض مصر فجعلناه على خزائنها .

﴿ ولنعلِّمه ﴾ قال ابن الأنباري : إِنما دخلت الواو في "ولنعلِّمه" لفعل مضمر هو المجتلب للام ، والمعنى : مكنَّا ليوسف في الأرض ، واختصصناه بذلك لكي نعلِّمه من تأويل الأحاديث .

وقد سبق تفسير "تأويل الأحاديث" [يوسف 6] .

﴿ والله غالب على أمره ﴾ في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إِلى الله ، فالمعنى : أنه غالب على ما أراد من قضائه ، وهذا معنى قول ابن عباس .

والثاني : أنها ترجع إِلى يوسف ، فالمعنى : غالب على أمر يوسف حتى يبلِّغه ما أراده له ، وهذا معنى قول مقاتل .

وقال بعضهم : والله غالب على أمره حيث أمر يعقوبُ يوسفَ أن لا يقصَّ رؤياه على إِخوته ، فعلموا بها ، ثم أراد يعقوب أن لا يكيدوه ، فكادوه ، ثم أراد إِخوة يوسف قَتْلَه ، فلم يقدَّر لهم ، ثم أرادوا أن يلتقطه بعض السيارة فيندرس أمره ، فعلا أمره ، ثم باعوه ليكون مملوكاً ، فغلب أمره حتى ملك ، وأرادوا أن يعطفوا أباهم ، فأباهم ، ثم أرادوا أن يغرّوا يعقوب بالبكاء والدم الذي ألقَوْه على القميص ، فلم يَخْفَ عليه ، ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين ، فنسوا ذنبهم إِلى أن أقرُّوا به بعد سنين .

فقالوا : ﴿ إِنا كنا خاطئين ﴾ [يوسف 97] ، ثم أرادوا أن يمحوا محبَّته من قلب أبيه ، فازدادت ، ثم أرادت أزليخا أن تلقي عليه التهمة بقولها : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ [يوسف 25] ، فغلب أمره ، حتى شهد شاهد من أهلها ، وأراد يوسف أن

يتخلص من السجن بذكر الساقي، فنسي الساقي حتى لبث في السجن بضع سنين.

قوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده﴾ قد ذكرنا معنى الأشد في [الأنعام: 152]، واختلف العلماء في المراد به هاهنا على ثمانية أقوال: أحدها: أنه ثلاث وثلاثون سنة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة.

والثاني: ثماني عشرة سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عكرمة.

والثالث: أربعون سنة، قاله الحسن.

والرابع: بلوغ الحلم، قاله الشعبي، وربيعة، وزيد بن أسلم، وابنه.

والخامس: عشرون سنة، قاله الضحاك.

والسادس: أنه من نحو سبع عشرة سنة إلى نحو الأربعين، قاله الزجاج.

والسابع: أنه بلوغ ثمان وثلاثين سنة، حكاه ابن قتيبة.

والثامن: ثلاثون سنة، ذكره بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿آتيناه حكماً﴾ فيه أربعة أقوال:

أحدها: أنه الفقه والعقل، قاله مجاهد.

والثاني: النبوَّة، قاله ابن السائب.

والثالث: أنه جُعل حكيماً، قاله الزجاج، قال: وليس كل عالم حكيماً، إنما الحكيم: العالم المستعمِل علمه، الممتنع به من استعمال ما يجهَّل فيه.

والرابع: أنه الإِصابة في القول، ذكره الثعلبي.

قال اللغويون: الحكم عند العرب ما يصرف عن الجهل والخطأ، ويمنع منهما، ويردُّ النفس عما يشينها ويعود عليها بالضرر، ومنه: حكمَة الدابة.

وأصل أحكمت في اللغة: منعت، وسمي الحاكم حاكماً، لأنه يمنع من الظلم والزيغ.

وفي المراد بالعلم هاهنا قولان.

أحدهما: الفقه.

والثاني علم الرؤيا.

(240/394)

قوله تعالى: ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي: ومثل ما وصفنا من تعليم يوسف وحراسته، نثيب من أحسن عمله، واجتنب المعاصي، فننجِّيه من الهلكة، ونستنفذه من الضلالة فنجعله من أهل العلم والحكمة كما فعلنا بيوسف.

وفي المراد بالمحسنين هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها: الصابرون على النوائب.

والثاني: المهتدون، رويا عن ابن عباس.

والثالث: المؤمنون.

قال محمد بن جرير: هذا، وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن، فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى: كما فعلتُ بيوسف بعد ما لقي من البلاء فمكَّنته في الأرض وآتيته العلم، كذلك أفعل بك وأنجيك من مشركي قومك.

قوله تعالى: ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ أي: طلبت منه المواقعة، وقد سبق اسمها.

قال الزجاج: المعنى: راودته عما أرادته مما يريد النساء من الرجال.

﴿ وقالت هيت لك ﴾ قرأ ابن كثير: "هَيْتُ لك" بفتح الهاء وتسكين الياء وضم التاء.

وقرأ نافع، وابن عامر: "هِيتَ لك" بكسر الهاء وتسكين الياء وفتح التاء، وهي مروية عن علي بن أبي طالب.

وروى الحُلواني عن هشام عن ابن عامر مثله، إلا أنه همزه.

قال أبو علي الفارسي: هو خطأ.

وروي عن ابن عامر: "هِئْتُ لك" بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء، وهي قراءة ابن عباس، وأبي الدرداء، وقتادة.

قال الزجاج: هو من الهيئة، كأنها قالت: تهيأت لك.

وعن ابن محيصن، وطلحة بن مصرف، مثل قراءة ابن عباس؛ إلا أنها بغير همز، وعن ابن

محيصن بفتح الهاء وكسر التاء، وهي قراءة أبي رزين، وحميد.

وعن الوليد بن عتبة بكسر الهاء والتاء مع الهمز، وهي قراءة أبي العالية.

وقرأ ابن خثيم مثله، إلا أنه لم يهمز.

وعن الوليد بن مسلم عن نافع بكسر الهاء وفتح التاء مع الهمز، وقرأ ابن مسعود، وابن السميفع، وابن يعمر، والجحدري: "هُيِّئْتُ لك" برفع الهاء والتاء وبياء مشددة مكسورة بعدها همزة ساكنة.

وقرأ أُبَيّ بن كعب: "ها أنا لك".

(241/394)

وقرأ الباقون بفتح الهاء والتاء بغير همز.

قال الزجاج: وهو أجود اللغات، وأكثرها في كلام العرب، ومعناها: هلم لك، أي: أقبل على ما أدعوك إليه، وقال الشاعر:

أَبْلِغْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَخَا العِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا . . .

أَنَّ العِرَاقَ وَأَهْلَهُ عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا . . .

أي: فأقبل وتعال.

وقال ابن قتيبة : يقال : هيَّت فلان لفلان : إِذا دعاه وصاح به ، قال الشاعر :

قد رابني أَنَّ الكَرِيَّ أَسْكَتَا . . .

لو كانَ مَعْنِيّاً بها لَهَيَّتَا

أي : صار ذا سكوت .

واختلف العلماء في قوله : "هيت لك" بأي لغة هي ، على أربعة أقوال :

أحدها : أنها عربية ، قاله مجاهد .

وقال ابن الأنباري : وقد قيل : إِنها من كلام قريش ، إِلا أنها مما درس وقلَّ في أفواههم آخراً ، فأتى الله به ، لأن أصله من كلامهم ، وهذه الكلمة لا مصدر لها ، ولا تصرُّف ، ولا تثنية ، ولا جمع ، ولا تأنيث ، يقال للاثنين : هيت لكما ، وللجميع : هيت لكم ، وللنسوة : هيت لَكُنَّ .

والثاني : أنها بالسريانية ، قاله الحسن .

والثالث : بالحورانية ، قاله عكرمة ، والكسائي .

وقال الفراء : يقال : إِنها لغة لأهل حوران ، سقطت إِلى أهل مكة فتكلموا بها .

والرابع : أنها بالقبطية ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ قال معاذ الله ﴾ قال الزجاج : هو مصدر ، والمعنى : أعوذ بالله أن أفعل هذا ، يقال : عذت عياذاً ومعاذاً ومعاذة .

﴿ إنه ربي ﴾ .

أي : إن العزيز صاحبي ﴿ أحسن مثواي ﴾ ، قال : ويجوز أن يكون "إنه ربي" يعني الله عز وجل "أحسن مثواي" أي : تولاني في طول مُقامي .

قوله تعالى : ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي : إن فعلت هذا فخنته في أهله بعدما أكرمني فأنا ظالم .

وقيل : الظالمون هاهنا : الزناة .

قوله تعالى : ﴿ ولقد همَّت به ﴾ الهم بالشيء في كلام العرب : حديث المرء نفسه بمواقعته مالم يواقع .

فأما همّ أزليخا ، فقال المفسرون : دعته إلى نفسها واستلقت له .

واختلفوا في همّه بها على خمسة أقوال :

أحدها : أنه كان من جنس همّها ، فلولا أن الله تعالى عصمه لفعل ، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسدي ، وهو قول عامة المفسرين المتقدمين ، واختاره من المتأخرين جماعة منهم ابن جرير ، وابن الأنباري .

وقال ابن قتيبة : لا يجوز في اللغة : هممت بفلان ، وهمّ بي ، وأنت تريد : اختلاف الهمَّين .

واحتجَ مَنْ نصر هذا القول بأنه مذهب الأكثرين من السلف والعلماء الأكابر ، ويدل عليه ما سنذكره من أمر البرهان الذي رآه .

قالوا : ورجوعه عما همّ به من ذلك خوفاً من الله تعالى يمحو عنه سيء الهمِّ ، ويوجب له علوَّ المنازل ، ويدل على هذا الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ثلاثة خرجوا فلجؤوا إلى غار ، فانطبقت عليهم صخرة ، فقالوا : ليذكر كل واحد منكم أفضل عمله .

فقال أحدهم : اللهم إنك تعلم أنه كانت لي بنت عم فراودتها عن نفسها فأبت إلا بمائة دينار ، فلما أتيتها بها وجلست منها مجلس الرجل من المرأة ، أُرعدتْ وقالت : إن هذا لعملٌ ما عملته قطُّ ، فقمت عنها وأعطيتها المائة الدينار ، فإن كنتَ تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرِج عنا ، فزال ثلث الحجر .

والحديث معروف ، وقد ذكرته في "الحدائق" فعلى هذا نقول : إنما همت ، فترقَّت همَّتها إلى العزيمة ، فصارت مصرَّةً على الزنا .

فأما هو ، فعارضه ما يعارض البشر من خَطَرَاتِ القلب ، وحديث النفس ، من غير عزم ، فلم يلزمه هذا الهمُّ ذنباً ، فإن الرجل الصالح قد يخطر بقلبه وهو صائم شرب الماء البارد ، فإذا لم يشرب لم يؤاخذ بما هجس في نفسه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم " عفي لأمتي

عما حدثت به أنفسها مالم تتكلم أو تعمل " وقال صلى الله عليه وسلم " هلك المصرّون " ، وليس الإِصرار إلا عزم القلب ، فقد فرّق بين حديث النفس وعزم القلب .

(243/394)

وسئل سفيان الثوري : أيؤاخذ العبد بالهمة ؟ فقال : إِذا كانت عزماً ، ويؤيده الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقول الله تعالى : إِذا همّ عبدي بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبتها عليه سيئة " واحتج القاضي أبو يعلى على أن همته لم تكن من جهة العزيمة ، وإِنما كانت من جهة دواعي الشهوة بقوله : "قال معاذ الله إِنه ربي" وقولِه : "كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء" وكل ذلك إِخبار ببراءة ساحته من العزيمة على المعصية .

فإن قيل : فقد سوّى القرآن بين الهمتين ، فلم فرقتم ؟

فالجواب : أن الاستواء وقع في بداية الهمة ، ثم ترقت همتها إِلى العزيمة ، بدليل مراودتها واستلقائها بين يديه ، ولم تتعد همته مقامها ، بل نزلت عن رتبتها ، وانحل معقودها ، بدليل هربه منها ، وقولِه : "معاذ الله" ، وعلى هذا تكون همته مجرد خاطر لم يخرج إِلى العزم .

ولا يصح ما يروى عن المفسرين أنه حلّ السراويل وقعد منها مقعد الرجل ، فإنه لو كان هذا

، دل على العزم ، والأنبياء معصومون من العزم على الزنا .

والقول الثاني : أنها همت به أن يفترشها ، وهمّ بها ، أي : تمنّاها أن تكون له زوجة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والقول الثالث : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره : ولقد همت به ، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، فلما رأى البرهان ، لم يقع منه الهم ، فقُدِّم جواب "لولا" عليها ، كما يقال : قد كنتَ من الهالكين ، لولا أن فلاناً خلَّصك ، لكنت من الهالكين ، ومنه قول الشاعر :

فَلا يَدْعُني قَوْمِي صَرِيْحاً لِحُرَّةٍ . . .

لَئِن كُنْتُ مَقْتُولاً وَتَسْلَمُ عَامِرُ

أراد : لئن كنت مقتولاً وتسلم عامر ، فلا يدعني قومي ، فقدم الجواب .

وإلى هذا القول ذهب قطرب ، وأنكره قوم ، منهم ابن الأنباري ، وقالوا : تقديم جواب "لولا" عليها شاذ مستكره ، لا يوجد في فصيح كلام العرب ، فأما البيت المستشهَد به ، فمن اضطرار الشعراء ، لأن الشاعر يضيق الكلام به عند اهتمامه بتصحيح أجزاء شعره ، فيضع الكلمة في غير موضعها ، ويقدِّم ما حكمه التأخير ، ويؤخِّر ما حكمه التقديم ،

ويعدل عن الاختيار إلى المستقبح للضرورة، قال الشاعر:

جَزَى ربُّه عَنّي عَدِيَّ بن حَاتِمٍ . . .

بتَرْكي وَخِذْلاَني جزَاءً موفَّراً

تقديره: جزى عني عديَّ بن حاتم ربُّه، فاضطر إلى تقديم الرب، وقال الآخر:

لَمَّا جَفَا إخوانُه مُصْعَباً . . .

أدَّى بذَاكَ البيعَ صَاعاً بِصاعِ

أراد: لما جفا مصعباً إخوانه، وأنشد الفراء:

طَلَباً لعُرْفكَ يا بْنَ يحيى بَعْدَمَا . . .

تَتَقَطَّعَت بي دونَكَ الأَسْبَابُ

فزاد تاء على "تقطعت" لا أصل لها ليصلح وزن شعره، وأنشد ثعلب:

إنَّ شَكْلِي وَإنَّ شَكْلَكَ شَتَّى . . .

فَالْزِمي الخَفْضَ وانعمي تَبْيَضِّضي

فزاد ضاداً لا أصل لها لتكمل أجزاء البيت، وقال الفرزدق:

هُمَا تَفَلاَ في فِيَّ مِن فَمَوَيْهِمَا . . .

عَلَى النَّابِحِ العَاوِي أشدُّ لِجَامِيا

فزاد واواً بعد الميم ليصلح شعره.

ومثل هذه الأشياء لا يحمل عليها كتاب الله النازل بالفصاحة ، لأنها من ضرورات الشعراء .

والقول الرابع : أنه همّ أن يضربها ويدفعها عن نفسه ، فكان البرهان الذي رآه من ربه أن الله أوقع في نفسه أنه إن ضربها كان ضربه إياها حجة عليه ، لأنها تقول : راودني فمنعته فضربني ، ذكره ابن الأنباري .

والقول الخامس : أنه همّ بالفرار منها ، حكاه الثعلبي ، وهو قول مرذول ، أفَتراه أراد الفرار منها ، فلما رأى البرهان ، أقام عندها ؟ ! قال بعض العلماء : كان همّ يوسف خطيئة من الصغائر الجائزة على الأنبياء ، وإنما ابتلاهم بذلك ليكونوا على خوف منه ، وليعرفهم مواقع نعمته في الصفح عنهم ، وليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء الرحمة .

قال الحسن : إن الله تعالى لم يقصص عليكم ذنوب الأنبياء تعييراً لهم ، ولكن لئلا تقنطوا من رحمته .

يعني الحسن : أن الحجة للأنبياء ألزم ، فإذا قبل التوبة منهم ، كان إلى قبولها منكم أسرع .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أنه قال : " ما من أحد يلقى الله تعالى إلا وقد همّ بخطيئة أو عملها ، إلا يحيى بن زكريا ، فإنه لم يهم ولم يعملها " .

قوله تعالى : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ جواب "لولا" محذوف .

قال الزجاج : المعنى : لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما همّ به .

قال ابن الأنباري : لزنا ، فلما رأى البرهان كان سبب انصراف الزنا عنه .

وفي البرهان ستة أقوال :

أحدها : أنه مُثّل له يعقوب .

روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال : نُودي يا يوسف ، أتزني فتكون مثل الطائر الذي نُتف ريشه فذهب يطير فلم يستطع ؟ فلم يعط على النداء شيئاً ، فنودي الثانية ، فلم يعط على النداء شيئاً ، فتمثل له يعقوب فضرب صدره ، فقام ، فخرجت شهوته من أنامله .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : رأى صورة أبيه يعقوب في وسط البيت عاضّاً على أنامله ، فأدبر هارباً ، وقال : وحقّك يا أبت لا أعود أبدا .

وقال أبو صالح عن ابن عباس : رأى مثال يعقوب في الحائط عاضّاً على شفتيه .

وقال الحسن : مثّل له جبريل في صورة يعقوب في سقف البيت عاضّاً على إبهامه أو بعض أصابعه .

وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن سيرين ، والضحاك في آخرين .

وقال عكرمة : كل ولد يعقوب ، قد ولد له اثنا عشر ولداً ، إلاَّ يوسف فانه ولد له أحد عشر ولداً ، فنُقص بتلك الشهوة ولداً .

والثاني : أنه جبريل عليه السلام .

روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال : مثّل له يعقوب فلم يزدجر ، فنودي : أتزني فتكون مثل الطائر نتف ريشه ؟ ! فلم يزدجر حتى ركضه جبريل في ظهره ، فوثب .

والثالث : أنها قامت إلى صنم في زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال لها يوسف : أي شيء تصنعين ؟ قالت : أستحي من إلهي هذا أن يراني على هذه السوأة ، فقال : أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ، ولا أستحي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت ؟ فهو البرهان الذي رأى ، قاله علي بن أبي طالب ، وعلي بن الحسين ، والضحاك .

والرابع : أن الله بعث إليه ملكاً ، فكتب في وجه المرأة بالدم : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ قاله الضحاك عن ابن عباس .

وروي عن محمد بن كعب القرظي : أنه رأى هذه الآية مكتوبة بين عينيها ، وفي رواية أخرى عنه ، أنه رآها مكتوبة في الحائط .

وروى مجاهد عن ابن عباس قال : بدت فيما بينهما كف ليس فيها عضد ولا معصم ، وفيها مكتوب ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ [الإسراء : 32] ، فقام هارباً ، وقامت ، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد ، فلما قعد إذا بكفٍّ قد بدت فيما بينهما فيها مكتوب ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . . .

.

.

﴾ [البقرة 281] ، فقام هارباً ، فلما عاد ، قال الله تعالى لجبريل : أدركْ عبدي قبل أن يصيب الخطيئة ، فانحط جبريل عاضاًّ على كفه أو أصبعه وهو يقول : يا يوسف ، أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء ؟ ! .

وقال وهب بن منبه : ظهرت تلك الكف وعليها مكتوب بالعبرانية ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ [الرعد : 33] ، فانصرفا ، فلما عادا رجعت وعليها مكتوب ﴿ وإنَّ عليكم لحافظين .

كراماً كاتبين ﴾ [الأنفطار : 11-12] ، فانصرفا ، فلما عادا عادت وعليها مكتوب ﴿ ولا تقربوا الزنا . . .

﴾ الآية ، فعاد ، فعادت الرابعة وعليها مكتوب ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ ، فولَّى يوسف هارباً .

الخامس : أنه سيّدُه العزيز دنا من الباب ، رواه ابن إسحاق عن بعض أهل العلم .

وقال ابن إسحاق : يقال : إن البرهان خيال سيّده ، رآه عند الباب فهرب .

والسادس : أن البرهان أنه علِم ما أحل الله مما حرّم الله ، فرأى تحريم الزنا ، روي عن محمد بن كعب القرظي ، قال ابن قتيبة : رأى حجة الله عليه ، وهي البرهان ، وهذا هو القول الصحيح ، وما تقدَّمه فليس بشيء ، وإنما هي أحاديث من أعمال القصاص ، وقد أشرت إلى فسادها في كتاب "المغني في التفسير" .

وكيف يُظن بنبيٍّ لله كريمٍ أنه يخوَّف ويرعَّب ويُضطر إلى ترك هذه المعصية وهو مصرّ ؟ ! هذا غاية القبح .

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي : كذلك أريناه البرهان ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ وهو خيانة صاحبه ﴿ والفحشاءَ ﴾ ركوبَ الفاحشة ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر بكسر اللام ، والمعنى : إنه من عبادنا الذين أخلصوا

دينهم .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بفتح اللام ، أرادوا : من الذين أخلصهم الله من الأسواء والفواحش .

وبعض المفسرين يقول : السوء : الزنى ، والفحشاء : المعاصي .

قوله تعالى : ﴿ واستبقا الباب ﴾ يعني يوسف والمرأة ، تبادرا إِلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه ، وأراد يوسف أن يسبق ليفتح الباب ويخرج ، وأرادت هي إِن سبقت إِمساك الباب لئلا يخرج ، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه ، فجذبته إِليها ، فقدَّت قميصه من دبر ، أي : قطعته من خلفه ، لأنه كان هو الهارب وهي الطالبة له .

(248/394)

قال المفسرون : قطعت قميصه نصفين ، فلما خرجا ، ألفيا سيدها ، أي : صادفا زوجها عند الباب ، فحضرها في ذلك الوقت كيد ، فقالت سابقةً بالقول مبرّئةً لنفسها من الأمر ﴿ ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً ﴾ قال ابن عباس : تريد الزنا ﴿ إِلا أن يسجن ﴾ أي : ما جزاؤه إِلا السجن ﴿ أو عذاب أليم ﴾ تعني الضرب بالسياط ، فغضب يوسف حينئذ وقال : ﴿ هي راودتني ﴾ .

وقال وهب ابن منبِّه : قال له العزيز حينئذ : أخنتني يا يوسف في أهلي ، وغدرتَ بي ، وغررتني بما كنت أرى من صلاحك ؟ فقال حينئذ : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ وذلك أنه لما تعارض قولاهما ، احتاجا إلى شاهد يُعلَم به قول الصادق .

وفي ذلك الشاهد ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه كان صبياً في المهد ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وشهر بن حوشب عن أبي هريرة ، وبه قال سعيد بن جبير ، والضحاك ، وهلال بن يساف في آخرين .

والثاني : أنه كان من خاصة الملك ، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس .

وقال أبو صالح عن ابن عباس : كان ابن عم لها ، وكان رجلاً حكيماً ، فقال : قد سمعنا الاشتداد والجلبة من وراء الباب ، فإن كان شقُّ القميص من قدّامه فأنتِ صادقة وهو كاذب ، وإن كان من خلفه فهو صادق وأنت كاذبة ، وقال بعضهم : كان ابن خالة المرأة .

والثالث : أنه شقُّ القميص ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وفيه ضعف ، لقوله : "من أهلها" .

فإن قيل : كيف وقعت شهادة الشاهد هاهنا معلَّقة بشرط ، والشارط غير عالم بما يشرطه ؟

فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري :

أحدهما : أن الشاهد شاهد بأمر قد علمه ، فكأنه سمع بعض كلام يوسف وأزليخا ، فعلم ، غير أنه أوقع في شهادته شرطاً ليَلزم المخاطبين قبولُ شهادته من جهة العقل والتمييز ، فكأنه قال : هو الصادق عندي ، فإن تدبرتم ما أشترطه لكم ، عقلتم قولي .

ومثل هذا قول الحكماء : إن كان القَدَر حقاً ، فالحرص باطل ، وإن كان الموت يقيناً ، فالطمأنينة إلى الدنيا حمق .

والجواب الثاني : أن الشاهد لم يقطع بالقول ، ولم يعلم حقيقة ما جرى ، وإنما قال ما قال على جهة إظهار ما يسنح له من الرأي ، فكان معنى قوله : "وشهد شاهد" أعلم وبيَّن .

فقال : الذي عندي من الرأي أن نقيس القميص ليوقَف على الخائن .

فهذان الجوابان يدلان على أن المتكلم رجل .

فإن قلنا : إنه صبي في المهد ، كان دخول الشرط مصحِّحاً لبراءة يوسف ، لأن كلام مثله أعجوبة ومعجزة لا يبقى معها شك .

قوله تعالى : ﴿ فلما رأى قميصه ﴾ في هذا الرائي والقائل : ﴿ إنه من كيدكن ﴾ قولان :

أحدهما : أنه الزوج .

والثاني : الشاهد .

وفي هاء الكناية في قوله : "إِنه من كيد كن" ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إِلى تمزيق القميص ، قاله مقاتل .

والثاني : إِلى قولها : "ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً" فالمعنى : قولكِ هذا من كيد كن ، قاله الزجاج.

والثالث : إِلى السوء الذي دعته إِليه ، ذكره الماوردي .

قال ابن عباس : "إِن كيد كن" أي : عملكن "عظيم" تخلطن البريء والسقيم .

قوله تعالى : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ المعنى : يا يوسف أعرض .

وفي القائل له هذا قولان :

أحدهما : أنه ابن عمها وهو الشاهد ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الزوج ، ذكره جماعة من المفسرين .

قال ابن عباس : أَعرضْ عن هذا الأمر فلا تذكره لأحد ، واكتمه عليها .

وروى الحلبي عن عبد الوراث : "يوسف أعرَضَ عن هذا" بفتح الراء على الخبر .

قوله تعالى : ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ فيه قولان :

أحدهما : استغفي زوجك لئلا يعاقبَكِ ، قاله ابن عباس .

والثاني : توبي من ذنبكِ فإِنكِ قد أثمتِ .

وفي القائل لهذا قولان.

أحدهما : ابن عمها .

والثاني : الزوج.

قوله تعالى : ﴿ إنكِ كنتِ من الخاطئين ﴾ يعني : من المذنبين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(250/394)

وقال النسفى :

﴿ الر تِلْكَ ءايَاتُ الكتاب المبين ﴾

﴿ تلك ﴾ إشارة إلى آيات هذه السورة ، و ﴿ الكتاب المبين ﴾ السورة أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب ، أو التي تبين لمن تدَبَّرها أنها من عند الله لا من عند البشر ، أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم ، أو قد أبيّن فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف عليه السلام ، فقد رُوي أن علماء اليهود قالوا للمشركين : سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي أنزلنا هذا الكتاب

الذي فيه قصة يوسف عليه السلام في حال كونه قرآناً عربياً ، وسمي بعض القرآن قرآنا لأنه اسم جنس يقع على كله وبعضه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لكي تفهموا معانيه ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ [فصلت : 44] ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ نبين لك أحسن البيان .

والقاص الذي يأتي بالقصة على حقيقتها عن الزجاج ، وقيل : القصص يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص تقول : قص الحديث يقصه قصصاً ، ويكون فعلاً بمعنى مفعول كالنفض والحسب ، فعلى الأول معناه نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا القرءان ﴾ أي بإيحائنا إليك هذه السورة على أن يكون ﴿ أحسن ﴾ منصوباً نصب المصدر لإضافته إليه والمقصوص محذوف لأن ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ مغن عنه .

والمراد بأحسن الاقتصاص أنه اقتص على أبدع طريقة وأعجب أسلوب فإنك لا ترى اقتصاصه في كتب الأولين مقارباً لاقتصاصه في القرآن .

وإن أريد بالقصص المقصوص فمعناه نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث ، وإنما كان أحسن لما يتضمن من العبر والحكم والعجائب التي ليس في غيره .

والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه كما يقال "فلان أعلم الناس" أي في فنه ، واشتقاق القصص من قص أثره إذا تبعه لأن الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ ﴾ الضمير يرجع إلى ﴿ ما أوحينا ﴾ ﴿ لَمِنَ الغافلين ﴾ عنه "إن" مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية يعني وإن الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الجاهلين به

.

﴿ إِذْ قَالَ ﴾ بدل اشتمال من ﴿ أحسن القصص ﴾ لأن الوقت مشتمل على القصص أو التقدير : أذكر إذ قال ﴿ يُوسُفَ ﴾ اسم عبراني لا عربي إذ لو كان عربياً لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف ﴿ لأَبِيهِ ﴾ يعقوب ﴿ يَاأَبَتِ ﴾ ﴿ أبتَ ﴾ شامي وهي تاء تأنيث عوضت عن ياء الإضافة لتناسبهما ، لأن كل واحدة منهما زائدة في آخر الاسم ولهذا قلبت هاء في الوقف .

وجاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر كما في رجل ربعة ، وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة .

ومن فتح التاء فقد حذف الألف من "يا أبتا" واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الياء في "يا غلام" ﴿ إِنِى رَأَيْتُ ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾

أسماؤها ببيان النبي عليه السلام : جريان والذيال والطارق وقابس وعمودان والفليق والمصبح والصروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين ﴿ والشمس والقمر ﴾ هما أبواه أو أبوه وخالته والكواكب إخوته .

قيل : الواو بمعنى "مع" أي رأيت الكواكب مع الشمس والقمر .

وأجريت مجرى العقلاء في ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ لأنه وصفها بما هو المختص بالعقلاء وهو السجود وكررت الرؤيا لأن الأولى تتعلق بالذات والثانية بالحال ، أو الثانية كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له كأن أباه قال له : كيف رأيتها ؟ فقال : رأيتهم لي ساجدين أي متواضعين وهو حال ، وكان ابن ثنتي عشرة سنة يومئذ وكان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة أو ثمانون .

﴿ قَالَ يَا بُنَيِّ ﴾ بالفتح حيث كان .

حفص ﴿ لاَ تَقْصُصْ رُءيَاكَ ﴾ هي بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة ، وفرق بينهما بحرفي التأنيث كما في القربة والقربى ﴿ على إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ ﴾ جواب النهي أي إن قصصتها عليهم كادوك .

عرف يعقوب عليه السلام أن الله يصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين فخاف عليه حسد الإخوة.

وإنما لم يقل فيكيدوك كما قال ﴿ فيكدوني ﴾ [هود : 55] لأنه ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وأبلغ في التخويف وذلك نحو "فيحتالوا لك" ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر وهو ﴿ كَيْدًا إِنَّ الشيطان للإنسان عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة فيحملهم على الحسد والكيد.

﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الاجتباء الذي دلت عليه رؤياك ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يصطفيك، والاجتباء الاصطفاء افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض جمعته ﴿ وَيُعَلّمُكَ ﴾ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل : وهو يعلمك ﴿ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ أي تأويل الرؤيا، وتأويلها عبارتها وتفسيرها وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا، أو تأويل أحاديث الأنبياء وكتب الله وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعلى ءالِ يَعْقُوبَ ﴾ بأن وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة أي جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكاً، ونقلهم عنها إلى الدرجات العلى في الجنة.

وآل يعقوب أهله وهم نسله وغيرهم ، وأصل آل أهل بدليل تصغيره على " أهيل " إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر ، يقال آل النبي وآل الملك ولا يقال آل الحجام ، ولكن أهله ، وإنما علم يعقوب أن يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالاً بضوء الكواكب فلذا قال ﴿ وعلى آل يعقوب ﴾ ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ أراد الجد وأبا الجد ﴿ إبراهيم وإسحاق ﴾ عطف بيان ل ﴿ أبويك ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ يعلم من يحق له الاجتباء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع الأشياء في مواضعها .

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ أي في قصتهم وحديثهم ﴿ ءايات ﴾ علامات ودلالات على قدرة الله وحكمته في كل شيء .

﴿ آية ﴾ مكي ﴿ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ لمن سأل عن قصتهم وعرفها ، أو آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب ، وأسماؤهم : يهوذا وروبين وشمعون ولاوي وزبولون ويشجر وأمهم ليا ليان ، ودان ونفتالي وجاد وآشر من سريتين زلفة وبلهة ، فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف .

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىَّ أَبِينَا مِنَّا ﴾ اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة ، أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه .

وإنما قالوا ﴿ وأخوه ﴾ وهم إخوته أيضاً لأن أمهما كانت واحدة ، وإنما قيل ﴿ أحب ﴾ في الاثنين لأن أفعل من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث ، ولا بد من الفرق مع لام التعريف وإذا أضيف ساغ الأمران .

والواو في ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ للحال أي أنه يفضلهما في المحبة علينا وهما صغيران لا كفاية فيهما ونحن عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقه ، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ غلط في تدبير أمر الدنيا ولو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا .

(254/394)

والعصبة العشرة فصاعدا ﴿ اقتلوا يُوسُفَ ﴾ من جملة ما حكى بعد قوله ﴿ إذ قالوا ﴾ كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال : لا تقتلوا يوسف وقيل : الآمر بالقتل شمعون والباقون كانوا راضين فجعلوا آمرين ﴿ أَوِ اطرحوه أَرْضًا ﴾ منكورة مجهولة بعيدة عن العمران وهو معنى تنكيرها وإخلائها عن الوصف ولهذا الإبهام نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم ، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ، لأن

الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه، وجاز أن يراد بالوجه الذات كما قال ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ [الرحمن: 27] ﴿ وَتَكُونُواْ ﴾ مجزوم عطفاً على ﴿ يخل لكم ﴾ ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ من بعد يوسف أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب، أو من بعد قتله أو طرحه فيرجع الضمير إلى مصدر "اقتلوا" أو "اطرحوا" ﴿ قَوْمًا صالحين ﴾ تائبين إلى الله مما جنيتم عليه أو يصلح حالكم عند أبيكم.

﴿ قَالَ قَائِلٌ مّنْهُمْ ﴾ هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً ﴿ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ فإن القتل عظيم ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الجب ﴾ في قعر البئر وما غاب منه عن عين الناظر.

غيابات وكذا ما بعده: مدني ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ به شيئاً ﴿ قَالُواْ يَأَبَانَا مالك لاَ تَأْمَنَّا على يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لناصحون ﴾ أي لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق، عليه وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم وفيه دليل على أنه أحسن منهم، بما أوجب أن لا يأمنهم عليه ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ ﴾ نرتع نتسع في أكل الفواكه وغيرها والرتعة السعة ﴿ وَيَلْعَبْ ﴾ ونلعب نتفرج بما يباح كالصيد والرمي والركض.

بالياء فيهما مدني وكوفي ، وبالنون فيهما : مكي وشامي وأبو عمرو ، وبكسر العين : حجازي من ارتعى يرتعي افتعال من الرعي ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ من أن يناله مكروه.

﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُواْ بِهِ ﴾ أي يحزنني ذهابكم به واللام لام الابتداء ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافلون ﴾ اعتذر إليهم بأن ذهابهم به مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة وأنه يخاف عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب ﴾ اللام موطئة للقسم والقسم محذوف تقديره والله لئن أكله الذئب.

والواو في ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع للحال ﴿ إِنَّا إِذَا لخاسرون ﴾ جواب للقسم مجزىء عن جزاء الشرط أي إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذا وخسرناها ، وأجابوا عن عذره الثاني دون الأول لأن ذلك كان يغيظهم.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ أي عزموا على إلقائه في البئر وهي بئر على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام ، وجواب "لما" محذوف تقديره فعلوا به ما فعلوا من الأذى ، فقد روي أنهم لما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة وضربوه وكادوا يقتلونه فمنعهم يهوذا ، أرداوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم فيحتالوا به على أبيهم ودلوه في البئر ،

وكان فيها ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي وكان يهوذا يأتيه بالطعام .

ويروى أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فدفعه إبراهيم إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف فأخرجه جبريل وألبسه إياه ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ قيل : أوحي إليه في الصغر كما أوحي إلى يحيى وعيسى عليهما السلام .

وقيل : كان إذ ذاك مدركاً ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ أي لتحدثن إخوتك بما فعلوا بك ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف لعلو شأنك وكبرياء سلطانك ، وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون ، دعا بالصواع فوضعه على يديه ثم نقره فطن فقال : إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وأنكم ألقيتموه في غيابة الجب وقلتم لأبيه أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس ، أو يتعلق ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ ب ﴿ أوحينا ﴾ أي آنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة ولا يشعرون بذلك .

﴿

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً ﴾ للاستتار والتجسر على الاعتذار ﴿ يَبْكُونَ ﴾ حال عن الأعمش لا تصدق باكية بعد إخوة يوسف ، فلما سمع صوتهم فزع وقال ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا .

قال : فما بالكم وأين يوسف ؟ ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي نتسابق في العدو أو في الرمي .

والافتعال والتفاعل يشتركان كالإرتماء والترامي وغير ذلك ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذئب وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ بمصدق لنا ﴿ وَلَوْ كُنَّا صادقين ﴾ ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا ؟ !

﴿ وَجَاءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ ذي كذب أو وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه والزور بذاته .

رُوي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها وزل عنهم أن يمزقوه ، ورُوي أن يعقوب عليه السلام لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال : أين القيمص ، فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم ، من

هذا أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه .

وقيل : كان في قميص يوسف ثلاث آيات كان دليلاً ليعقوب على كذبهم ﴿ وألقاه على وجهه فارتد بصيراً ﴾ ودليلاً على براءة يوسف حين قد من دبره .

ومحل ﴿ على قميصه ﴾ النصب على الظرف كأنه قيل : وجاؤا فوق قميصه بدم ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ زينت أو سهلت ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ عظيماً ارتكبتموه ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ خبر أو مبتدأ لكونه موصوفاً أي فأمري صبر جميل ، أو فصبر جميل أجمل وهو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ﴿ والله المستعان ﴾ أي استعينه ﴿ على ﴾ احتمال ﴿ مَا تَصِفُونَ ﴾ من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه .

﴿ وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ ﴾ رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب ، فأخطأوا الطريق فنزلوا قريباً منه ، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران وكان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقي فيه يوسف ﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾ هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم اسمه مالك بن ذعر الخزاعي ﴿ فأدلى دَلْوَهُ ﴾ أرسل الدلو ليملأها فتشبث يوسف بالدلو فنزعوه ﴿ قَالَ يُبْشْرَىٰ ﴾ كوفي نادى البشرى كأنه يقول : تعالى فهذا أوانك .

غيرهم ﴿ بشراي ﴾ على إضافتها لنفسه أو هو اسم غلامه فناداه مضافاً إلى نفسه ﴿ هذا غُلاَمٌ ﴾ قيل : ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ الضمير للوارد وأصحابه أخفوه من الرفقة ، أو لأخوة يوسف فإنهم قالوا للرفقة : هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا ، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ﴿ بضاعة ﴾ حال أي أخفوه متاعاً للتجارة ، والبضاعة ما بضع من المال للتجارة أي قطع ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ بما يعمل أخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ وباعوه ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً أو زيف ﴿ دراهم ﴾ بدل من ﴿ ثمن ﴾ ﴿ مَّعْدُودَةً ﴾ قليلة تعد عداً ولا توزن لأنهم كانوا يعدون ما دون الأربعين ويزنون الأربعين وما فوقها وكانت عشرين درهماً ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزهدين ﴾ ممن يرغب عما في يده فيبيعه بالثمن الطفيف ، أو معنى ﴿ وشروه ﴾ واشتروه يعني الرفقة من إخوته ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ أي غير راغبين لأنهم اعتقدوا أنه آبق .

ويُروى أن إخوته اتبعوهم وقالوا : استوثقوا منه لا يأبق .

و ﴿ فيه ﴾ ليس من صلة ﴿ الزاهدين ﴾ أي غير راغبين لأن الصلة لا تتقدم على الموصول ، وإنما هو بيان كأنه قيل : في أي شيء زهدوا ؟ فقال : زهدوا فيه .

﴿ وَقَالَ الذى اشتراه مِن مّصْرَ ﴾ هو قطفير وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد وقد آمن بيوسف ومات في حياته واشتراه العزيز برنته ورقاً وحريراً ومسكاً وهو ابن سبع عشرة سنة ، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة ، وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة ﴿ لاِمْرَأَتِهِ ﴾ راعيل أو زليخا واللام متعلقة ب ﴿ قال لا ب ﴿ اشتراه ﴾ ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً أي حسنا مرضياً بدليل قوله ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ وعن الضحاك : بطيب معاشه ولين لباسه ووطىء فراشه ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ لعله إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أو نتبناه ونقيمه مقام الولد ، وكان قطفير عقيماً وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك ﴿ وكذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه .

والكاف منصوب تقديره ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ أي كما أنجيناه وعطَّفنا عليه العزيز كذلك مكنا له ﴿ فِي الأرض ﴾ أي أرض مصر وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه ﴿ وَلِنُعَلّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين ﴿ والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ لا يمنع عما شاء أو على أمر يوسف بتبليغه ما أراد له دون ما

أراد إخوته ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ منتهى استعداد قوته وهو ثمان عشرة سنة أو إحدى وعشرون ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ حكمة وهو العلم مع العمل واجتناب ما يجهل فيه أو حكماً بين الناس وفقهاً ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ تنبيه على أنه كان محسناً في عمله متقياً في عنفوان أمره .

(260/394)

﴿ وَرَاوَدَتْهُ التى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي طلبت يوسف أن يواقعها والمراودة مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب كأن المعنى خادعته عن نفسه أي فعلت فعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها ﴿ وَغَلَّقَتِ الأبواب ﴾ وكانت سبعة ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ هو اسم لتعال وأقبل وهو مبني على الفتح ﴿ هيتُ ﴾ مكي بناه على الضم ، ﴿ هِيتَ ﴾ مدني وشامي واللام للبيان كأنه قيل لك أقول هذا كما تقول هلم لك ﴿ قَالَ مَعَاذَ الله ﴾ أعوذ بالله معاذاً ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي إن الشأن والحديث ﴿ رَبّي ﴾ سيدي ومالكي يريد قطفير ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَّ ﴾ حين قال لك ﴿ أكرمي مثواه ﴾ فما جزاؤه أن إخونه في أهله ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ الخائنون أو الزناة ، أو أراد بقوله ﴿ إنه ربي ﴾ الله

تعالى لأنه مسبب الأسباب ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ هم عزم ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ هم الطباع مع الامتناع قاله الحسن.

وقال الشيخ أبو منصور رحمه الله: وهم بها هم خطرة ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه، ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين.

وقيل: همَّ بها وشارف أن يهم بها، يقال: هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه.

وجواب ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ محذوف أي لكان ما كان.

وقيل: ﴿ وهمّ بها ﴾ جوابه ولا يصح، لأن جواب "لولا" لا يتقدم عليها لأنه في حكم الشرط وله صدر الكلام والبرهان الحجة.

ويجوز أن يكون ﴿ وهم بها ﴾ داخلاً في حكم القسم في قوله ﴿ ولقد همت به ﴾ ويجوز أن يكون خارجاً.

ومن حق القارىء إذا قدر خروجه من حكم القسم وجعله كلاماً برأسه أن يقف على ﴿ به ﴾ ويبتدىء بقوله ﴿ وهم بها ﴾ وفيه أيضاً إشعار بالفرق بين الهمين.

وفسر همَّ يوسف بأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها ، وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً إياك وإياها مرتين فسمع ثالثاً أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على أنملته ، وهو باطل ، ويدل على بطلانه قوله ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ ولو كان ذلك منه أيضاً لما برأ نفسه من ذلك ، وقوله ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه وقوله ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ ولو كان كذلك لخانه بالغيب ، وقوله ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوء ﴾ ﴿ الآن حصص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ ولأنه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره كما كان لآدم ونوح وذي النون وداود عليهم السلام ، وقد سماه الله مخلصاً فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولي العزم ناظراً في دلائل التحريم حتى استحق من الله الثناء .

ومحل الكاف في ﴿ كذلك ﴾ نصب أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه ، أو رفع أي الأمر مثل ذلك ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء ﴾ خيانة السيد

﴿ والفحشاء ﴾ الزنا ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ بفتح اللام حيث كان : مدني وكوفي أي الذين أخلصهم الله لطاعته ، وبكسرها غيرهم أي الذين أخلصوا دينهم لله .

ومعنى ﴿ من عبادنا ﴾ بعض عبادنا أي هو مخلص من جملة المخلصين .

﴿ واستبقا الباب ﴾ وتسابقا إلى الباب ، هي للطلب وهو للهرب ، على حذف الجار وإيصال الفعل كقوله ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] أو على تضمين ﴿ استبقا ﴾ معنى ابتدارا ففر منها يوسف فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج ووحد الباب وإن كان جمعه في قوله ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ لأنه أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار ولما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ اجتذبته من خلفه فانقد أي انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَّا الباب ﴾ وصادفا بعلها قطفير مقبلاً يريد أن يدخل ، فلما رأته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة ولتخويف يوسف طمعاً في أن يواطئها خيفة منها ومن مكرها حيث ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ "ما" نافيه أي ليس جزاؤه إلا السجن أو عذاب أليم وهو الضرب بالسياط ، ولم تصرح بذكر يوسف وأنه أراد بها سوءً لأنها قصدت العموم أي كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب ، لأن ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف . ولما عرضته للسجن والعذاب ووجب عليه الدفع عن نفسه .

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ لولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ هو ابن عم لها ، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون

أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف .

وقيل : كان ابن خال لها وكان صبياً في المهد .

(263/394)

وسمي قوله شهادة لأنه أدى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصادقين ﴾ والتقدير : وشهد شاهد فقال : إن كان قميصه : وإنما دل قدّ قميص من قبل على أنها صادقة لأنه يسرع خلفها ليلحقها فيعثر في مقادم قميصه فيشقه ، ولأنه يقبل عليها وهي تدفعه عن نفسه فيتخرق قميصه من قبل .

وأما تنكير ﴿ قبل ﴾ و ﴿ دبر ﴾ فمعناه من جهة يقال لها قبل ومن جهة يقال لها دبر ، وإنما جمع بين "إن" التي للاستقبال وبين "كان" لأن المعنى أن يعلم أنه كان قميصه قد .

﴿ فَلَمَّآ رَأَى ﴾ قطفير ﴿ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها ﴿ قَالَ إِنَّهُ ﴾ إن قولك ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ أو إن هذا الأمر وهو الاحتيال لنيل الرجال ﴿ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ الخطاب لها ولأمتها ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ لأنهن ألطف كيداً وأعظم حيلة وبذلك يغلبن الرجال ، والقصريات منهن معهن ما ليس مع

غيرهن من البوائق .

وعن بعض العلماء : إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان ، لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشيطان ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 76] وقال لهن ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ﴿ يُوسُفَ ﴾ حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث ، وفيه تقريب له وتلطيف لمحله ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ الأمر واكتمه ولا تتحدث به .

ثم قال لراعيل ﴿ واستغفرى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنب .

يقال : خطىء إذا أذنب متعمداً ، وإنما قال بلفظ التذكير تغليباً للذكر على الإناث ، وكان العزيز رجلاً حليماً قليل الغيرة حيث اقتصر على هذا القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 219.210 ﴾

(264/394)

وقال ابن جزى :

﴿ الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) ﴾

﴿ الكتاب المبين ﴾

يعني القرآن ، والمبين يحتمل أن يكون بمعنى البيِّن ، فيكون غير متعد ، أو يكون متعدياً بمعنى أنه أبان الحق أي أظهره ﴿ لَّعَلَّكُمْ ﴾ يتعلق بأنزلناه أو بعربياً .

﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ يعني قصة يوسف ، أو قصص الأنبياء على الإطلاق ، والقصص يكون مصدراً أو اسم مفعول ؛ بمعنى المقصوص ، فإن أريد به هنا المصدر فمفعول نقصّ محذوف ، لأن ذكر القرآن يدل عليه ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ الضمير في قبله للقصص أي من الغافلين عن معرفته ، وفي هذا احتجاج على أنه من عند الله ؛ لكونه جاء به من غير تعليم .

﴿ إِذْ قَالَ ﴾ العامل فيه اذكر المضمر ، أو القصص ﴿ يا أبت ﴾ أي يا أبي والتاء للمبالغة ، وقيل : للتأنيث وكسرت دلالة على ياء المتكلم والتاء عوض من ياء المتكلم ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ كرر الفعل لطول الكلام ، وأجرى الكواكب والشمس والقمر مجرى العقلاء في ضمير الجماعة لما وصفها بفعل من يعقل ، وهو السجود وتأويل الكواكب في المنام إخوته ، والشمس والقمر أبواه ؛ وسجودهم له تواضعهم له ودخولهم تحت كنفه وهو ملك ﴿ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ إنما قال ذلك لأنه علم أن تأويلها ارتفاع منزلته فخاف عليه من الحسد ﴿ يَجْتَبِيكَ ﴾ يختارك ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ قيل : هي عبارة الرؤيا ، واللفظ أعم من ذلك ﴿ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ يعني ذريته .

﴿ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ أي لمن سأل عنها ، رُوي أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف أو أمروا قريشاً أن يسألوه عنها ، فهم السائلون على هذا ، واللفظ أعم من ذلك ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ هو بنيامين ، وهو أصغر من يوسف ، ويقال إنه شقيق يوسف ، وكان أصغر أولاد يعقوب ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي : جماعة تقدر على النفع والضر بخلاف الصغيرين ، والعصبة : العشرة فما فوقها إلى الأربعين ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : خطأ وخروج عن الصواب بإفراط حبة ليوسف وأخيه .

﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ أي : لا يشارككم غيره في محبته لكم وإقباله عليكم ﴿ قَوْماً صالحين ﴾ أي : بالتوبة والاستقامة وقيل : هو صلاح حالهم مع أبيهم ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ هو يهوذا ، وقيل : روبيل ﴿ غيابت الجب ﴾ غوره وما غاب منه ﴿ السيارة ﴾ جمع سيار ، وهم القوم الذين يسيرون في الأرض للتجارة ، وغيرها ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي هذا هو الرأي إن فعلتموه .

﴿ مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا على يُوسُفَ ﴾ أي : لم تخاف عليه منا ، وقرأ السبع تأمنا ، بالإدغام والإشمام لأن أصله بضم النون الأولى ﴿ يَرْتَعْ ﴾ من قرأه بكسر العين فهو من الرعي أي من رعي الإبل ، أو من رعي بعضهم لبعض ، وحراسته ، ومن قرأ بالإسكان ، فهو من الرتع وهو الإقامة في الخصب والتنعم ، والتاء على هذا أصلية ، ووزن الفعل يفعل ، ووزنه على

الأول نفتعل، ومن قرأ: يرتع ويلعب بالياء فالضمير ليوسف، ومن قرأ بالنون فالضمير للمتكلمين وهم إخوته، وإنما قالوا: نلعب، لأنهم لم يكونوا حينئذ أنبياء، وكان اللعب من المباح للتعلم كالمسابقة بالخيل.

﴿ وأجمعوا ﴾ أي: عزموا، وجواب لما محذوف، وقيل: إنه أجمعوا، أو وأوحينا على زيادة الواو ﴿ وَأَوْحَيْنَآ ﴾ يحتمل أن يكون هذا الوحي بواسطة ملك، أو بإلهام، والضمير في إليه ليوسف، وقيل: ليعقوب والأول هو الصحيح، ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ في موضع الحال من لتنبئنهم أي: لا يشعرون حين تنبؤهم فيكون خطاباً ليوسف عليه السلام، أو من أوحينا لا يشعرون حين أوحينا إليه فيكون خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم.

﴿ نَسْتَبِقُ ﴾ أي: نجري على أقدامنا لننظر أينا يسبق ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ أي بمصدّق لمقالتنا ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أي لا تصدّقنا ولو كنا عندك من أهل الصدق، فكيف وأنت تتهمنا، وقيل: معناه لا تصدقنا وإن كنا صادقين في هذه المقالة، فذلك على وجه المغالطة منهم، والأول أظهر ﴿ وَجَآءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي: ذي كذب أو وصف بالمصدر مبالغة، وروي أنهم لطخوا قمصه بدم جدْي، وقالوا ليعقوب: هذا

دمه في قميصه فقال لهم : ما بال الذئب أكله ولم يخرق قميصه ، فاستدل بذلك على كذبهم ﴿ سَوَّلَتْ ﴾ أي زينت ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وعد من نفسه بالصبر ، وارتفاعه على أنه مبتدأ تقديره : صبر جميل أمثل ، أو خبر مبتدأ تقديره : شأني صبر جميل .

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ رُوي أن هؤلاء السيارة من مَدْين ، وقيل : هم أعراب ﴿ وَارِدَهُمْ ﴾ الوارد هو الذي يستقي الماء لجماعة ، ونقل السهيلي أن اسم هذا الوارد مالك بن دعر من العرب العاربة ، ولم يكن له ولد فسأل يوسف أن يدعو له بالولد فدعا له ، فرزقه الله اثني عشر ولداً ، أعقب كل واحد منهم قبيلة ﴿ قَالَ يا بشرى ﴾ أي نادى البشرى كقولك : يا حسرة ، وأضافها إلى نفسه ، وقرئ يا بشرى بحذف ياء المتكلم ، والمعنى كذلك وقيل : على هذه القراءة نادى رجلاً منهم اسمه بشرى ، وهذا بعيد ، ولما أدلى الوارد الحبل في الجب تعلق به يوسف فحينئذ قال : يا بشراي هذا غلام ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ الضمير الفاعل للسيارة والضمير المفعول ليوسف أي أخفوه من الرفقة ، أو قالوا لهم : دفعة لنا قوم لنبيعه لهم بمصر ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ أي باعوه ، والضمير أيضاً للذين أخذوه ، وقيل : الضمير لإخوة يوسف وأنهم رجعوا إليه فقالوا : للسيارة هذا عبدنا ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أي ناقص

عن قيمته ، وقيل : البخس هنا الظلم ﴿ دراهم مَعْدُودَةٍ ﴾ عبارة عن قلتها ﴿ وَكَانُواْ ﴾ الضمير للذين أخذوه أو لإخوته .

﴿ وَقَالَ الذي اشتراه ﴾ يعني العزيز ، وكان حاجب الملك وخازنه ، وقال السهلي : اسمه قطفير ﴿ مِن مِّصْرَ ﴾ هو البلد المعروف ، ولذلك لم ينصرف ، وكان يوسف قد سيق إلى مصر فنودي عليه في السوق حتى بلغ ثمنه وزنه ذهباً ، وقيل : فضة فاشتراه العزيز ﴿ تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ قد تقدم ﴿ والله غالب على أَمْرِهِ ﴾ في عود الضمير وجهان : أحدهما أن يعود على الله فالمعنى أنه يفعل ما يشار لا رادّ لأمره ، والثاني : أنه يعود على يوسف أي يدبر الله أمره بالحفظ له والكرامة .

﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ قيل : الأشدّ البلوغ ، وقيل : ثماني عشرة سنة ؛ وقيل : ثلاث وثلاثون ، وقيل : أربعون ﴿ حُكْماً ﴾ هي الحكمة والنبوة ﴿ وراودته التي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي : طلبت منه ما يكون من الرجل إلى المرأة وهي زليخا امرأة العزيز ﴿ وَغَلَّقَتِ الأبواب ﴾ روي أنها كانت سبع أبواب ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ اسم فعل معناه تعال وأقبل ، وقرئ بفتح الهاء وكسرها وبفتح التاء وضمها ، والمعنى في ذلك كله واحد ، وحركة التاء

للبناء ، وأما من قرأ بالهمز فهو فعل من تهيأتُ كقولك : جئت ﴿ مَعَاذَ اللهِ ﴾ منصوب على المصدرية ، والمعنى أعوذ بالله ﴿ إِنَّهُ ربي ﴾ يحتمل ان يكون الضمير لله تعالى ، أو للذي اشتراه ، لأن السيد يقال له رب ، فالمعنى لا ينبغي لي أن أخونه ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ الضمير للأمر والشأن ، ويحتمل ذلك في الأوّل أي الضمير . رقم الصفحة

(269/394)

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ أكثَرَ الناسُ الكلام في هذه الآية حتى ألفوا فيها التآليف ، فمنهم مُفْرِط ومفرّط ، وذلك أن منهم من جعل همّ المرأة وهمّ يوسف من حيث الفعل الذي أرادته ، وذكروا في ذلك روايات من جلوسه بين رجليها ، وحلت التكة وغير ذلك ، مما لا ينبغي أن يقال به لضعف نقله ، ولنزاهة الأنبياء عن مثله ، ومنهم من جعل أنها همت به لتضربه على امتناعه وهمّ بها ليقتلها أو يضربها ليدفعها وهو بعيد ، يرده قوله : لولا أن رأى برهان ربه ، ومنهم من جعل همها به من حيث مرادها وهمه بها ليدفعها ، وهذا أيضاً بعيد ، لاختلاف سياق الكلام ، والصواب إن شاء الله : إنها همت به من حيث مرادها وهمّ بها كذلك ، لكنه لم يعزم على ذلك ، ولم يبلغ إلى ما ذكر من حل التكة وغيرها ؛ بل كان همه خطرة خطرت على قلبه لم يطعها ولم يتابعها ، ولكنه بادر بالتوبة والإقلاع عن تلك الخطرة

حتى محاها من قلبه لما رأى برهان ربه ، ولا يقدح هذا في عصمة الأنبياء لأن الهمّ بالذنب ليس بذنب ولا نقص عليه في ذلك ، فإنه من همَّ بذنب ثم تركه كتبت له حسنة ﴿ لولا أَن رَّأَى برهان رَبِّهِ ﴾ جوابه محذوف تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، وإنما حذف لأن قوله همّ بها يدل عليه ، وقد قيل : إن " هم بها " هو الجواب ، وهذا ضعيف لأن جواب لولا لا يتقدم عليها ، واختلف في البرهان الذي رآه ، فقيل ناداه جبريل يا يوسف أتكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء ، وقيل : رأى يعقوب ينهاه ، وقيل : تفكر فاستبصر ، وقيل : رأى زليخا غطت وجه صنم لها حياء منه ، فقال : أنا أولى أن أستحي من الله ﴿ كذلك لِنَصْرِفَ عَنْهُ ﴾ الكاف في موضع نصب متعلقة بفعل مضمر ، التقدير : ثبتناه مثل ذلك التثبيت ، أو في موضع رفع تقديره : الأمر مثل ذلك ﴿ السوء والفحشآء ﴾ خيانة سيده والوقوع في الزنا ﴿ المخلصين ﴾ قرئ بفتح اللام حيث وقع أي الذين أخلصهم الله لطاعته ، وبالكسر أي

الذي أخلصوا دينهم لله .

﴿ واستبقا الباب ﴾ معناه : سبق كل واحد منهما صاحبه إلى الباب فقصد هو الخروج والهروب عنها ، وقصدت هي أن تردّه ، فإن قيل : كيف قال هنا الباب بالإفراد وقد قال بالجمع وغلقت الأبواب فالجواب أن المراد هنا الباب البرّاني الذي هو المخرج من الدار ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ أي قطعته من وراء ، وذلك أنها قبضت قميصه من خلفه لتردّه فتمزق القميص ، والقدّ القطع بالطول ، و [القَطُّ] القطع بالعرض ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ أي وجدا زوجها عند الباب ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سوءا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ ﴾ لما رأت الفضيحة عكست القضية ، وادعت أن يوسف راودها عن نفسها ، فذكرت جزاء كل من فعل ذلك على العموم ، ولم تصرح بذكر يوسف لدخوله في العموم ، وبناء على أن الذنب ثابت عليه بدعواها ، وما جزاء يحتمل أن تكون ما نافية أو استفهامية ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ برّأ نفسه من دعواها ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ ﴾ قيل : هو ابن عمها وقيل : كان طفلاً في المهد فتكلم ، وكونه من أهلها أوجبُ للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف ، وكونه لم يتكلم قط ، ثم تكلم بذلك كرامة ليوسف عليه السلام ، والتقدير شهد شاهد فقال : أو ضمنت الشهادة معنى القول ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ ﴾ لأنها كانت تدافعه فتقدّ قميصه من قبل ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ ﴾ لأنها جذبته إلى نفسها حين فرّ منها فقدّت قميصه من دبر ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ فاعل رأى زوجها أو الشاهد ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ الضمير للأمر أو لقولها ما جزاء ﴿

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ أي اكتمه ولا تحدث به ، ويوسف منادى حذف منه حرف النداء لأنه قريب ، وفي حذف الحرف إشارة إلى تقريبه وملاطفته ﴿ واستغفري لِذَنبِكِ ﴾ خطاب لها ، وذلك من كلام زوجها أو من كلام الشاهد ﴿ مِنَ الخاطئين ﴾ جاء بلفظ التذكير ، ولم يقل من الخاطئات تغليبا للذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 118.114 ﴾

(271/394)

وقال البيضاوى :

﴿ الر تِلْكَ ءايَاتُ الكتاب المبين ﴾

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى آيات السورة وهي المراد ب ﴿ الكتاب ﴾ ، أي تلك الآيات آيات السورة الظاهرة أمرها في الإعجاز أو الواضحة معانيها ، أو المبينة لمن تدبرها أنها من عند الله ، أو لليهود ما سألوا إذ روي أن علماءهم قالوا لكبراء المشركين سلوا محمداً لم أنتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام فنزلت :

﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ أي الكتاب . ﴿ قُرْءانًا عَرَبِيًّا ﴾ سمى البعض ﴿ قُرْءانًا ﴾ لأنه في الأصل اسم جنس يقع على الكل والبعض وصار علماً للكل بالغلبة ، ونصبه على الحال

وهو في نفسه إما توطئة للحال التي هي ﴿ عَرَبِيّاً ﴾ أو حال لأنه مصدر بمعنى مفعول ، و﴿ عَرَبِيّاً ﴾ صفة له أو حال من الضمير فيه أو حال بعد حال وفي كل ذلك خلاف . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ علة لإنزاله بهذه الصفة أي أنزلناه مجموعاً أو مقروءاً بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه ، أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص معجز لا يتصور إلا بالإيحاء .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ أحسن الاقتصاص لأن اقتص على أبدع الأساليب ، أو أحسن ما يقص لاشتماله على العجائب والحكم والآيات والعبر فعل بمعنى مفعول كالنقص والسلب ، واشتقاقه من قص أثره إذا أتبعه ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي بإيحائنا . ﴿ هذا القرءان ﴾ يعني السورة ، ويجوز أن يجعل هذا مفعول نقص على أن أحسن نصب على المصدر . ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط ، وهو تعليل لكونه موحى وإن هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ بدل من ﴿ أَحْسَنَ القصص ﴾ إن جعل مفعولاً بدل الاشتمال ، أو منصوب باضمار اذكر و﴿ يُوسُفَ ﴾ عبري ولو كان عربياً لصرف . وقرئ بفتح السين وكسرها على التلعب به لا على أنه مضارع بني للمفعول أو الفاعل من آسف لأن المشهورة شهدت بعجمته . ﴿ لأَبِيهِ ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وعنه عليه الصلاة السلام " الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ أصله يا أبي فوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ولذلك قلبها هاء في الوقف ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وكسرها لأنها عوض حرف يناسبها ، وفتحها ابن عامر في كل القرآن لأنها حركة أصلها أو لأنه كان يا أبتا فحذف الألف وبقي الفتحة ، وإنما جاز "يا أبتا" ولم يجز يا أبتي لأنه جمع بين العوض والمعوض . وقرئ بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض ، وإنما لم تسكن كأصلها لأنها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب .

﴿ إِنِّى رَأَيْتُ ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية لقوله : ﴿ لاَ تَقْصُصْ رُءيَاكَ ﴾ ولقوله : ﴿ هذا تَأْوِيلُ رؤياى مِن قَبْلُ ﴾ ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشمس والقمر ﴾ . روي عن جابر رضي الله تعالى عنه (أن يهودياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف ، فسكت فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال إذا أخبرتك هل تسلم قال نعم ، قال جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق

والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودي إي والله إنها لأسماؤها) ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها فلا تكرير وإنما أجريت مجرى العقلاء لوصفها بصفاتهم .

(273/394)

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ ﴾ تصغير ابن صغره للشفقة أو لصغر السن لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة . وقرأ حفص هنا وفي "الصافات" بفتح الياء . ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ فيحتالوا لإهلاكك حيلة ، فهم يعقوب عليه السلام من رؤياه أن الله يصطفيه لرسالته ويفوقه على إخوته ، فخاف عليه حسدهم وبغيهم والرؤيا كالرؤية غير أنها مختصة بما يكون في النوم ، فرق بينهما بحرفي التأنيث كالقربة والقربى وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك ، والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ ، فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك ، ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة ، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا

بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا احتاجت إليه ، وإنما عدى كاد باللام وهو متعد بنفسه لتضمنه معنى فعل يتعدى به تأكيداً ولذلك أكد بالمصدر وعلله بقوله : ﴿ إِنَّ الشيطان للإنسان عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة لما فعل بآدم عليه السلام وحواء فلا يألوا جهداً في تسويلهم وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد .

﴿ وكذلك ﴾ أي وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس . ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ للنبوة والملك أو لأمور عظام ، والاجتباء من جبيب الشيء إذا حصلته لنفسك . ﴿ وَيُعَلِّمُكَ ﴾ كلام مبتدأ خارج عن التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك . ﴿ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ من تعبير الرؤيا لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقة ، وأحاديث النفس أو الشيطان إن كانت كاذبة . أو من تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء وكلمات الحكماء ، وهو اسم جمع للحديث كأباطيل اسم جمع للباطل . ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بالنبوة أو بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة . ﴿ وعلى ءالِ يَعْقُوبَ ﴾ يريد به سائر بنيه ، ولعله استدل على نبوتهم بضوء الكواكب أو نسله . ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ ﴾ بالرسالة وقيل على إبراهيم بالخلة والإِنجاء من النار وعلى إسحاق بانقاذه من الذبح

وفدائه بذبح عظيم . ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلك أو من قبل هذا الوقت . ﴿ إبراهيم وإسحاق ﴾ عطف بيان لأبويك . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق الاجتباء . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل الأشياء على ما ينبغي .

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ أي في قصتهم . ﴿ ءايات ﴾ دلائل قدرة الله تعالى وحكمته ، أو علامات نبوتك وقرأ ابن كثير "آية" . ﴿ لّلسَّائِلِينَ ﴾ لمن سأل عن قصتهم ، والمراد بإخوته بنو علاته العشرة وهم : يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وزبالون ويشخر ودينة من بنت خالته ليا تزوجها يعقوب أولاً فلما توفيت تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف . وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرماً حينئذ وأربعة آخرون : دان ونفتالي وجاد وأشر من سريتين زلفة وبلهة .

(275/394)

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ بنيامين وتخصيصه بالإضافة لاختصاصه بالاخوة من الطرفين . ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ وحده لأن أفعل من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ، والمذكر وما يقابله بخلاف أخويه فإن الفرق واجب في المحلي جائز في المضاف . ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ والحال أنا جماعة أقوياء أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية فيهما ، والعصبة

والعصابة العشرة فصاعداً سمواً بذلك لأن الأمور تعصب بهم. ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ لتفضيله المفضول أو لترك التعديل في المحبة. روي أنه كان أحب إليه لما يرى فيه من المخايل وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه، فتبالغ حسدهم حتى حملهم على التعرض له.

﴿ اقتلوا يُوسُفَ ﴾ من جملة المحكي بعد قوله إذ قالوا كأنهم اتفقوا على ذلك الأمر إلا من قال "لا تقتلوا يوسف". وقيل إنما قاله شمعون أو دان ورضي به الآخرون.

﴿ أَوِ اطرحوه أَرْضًا ﴾ منكورة بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإبهامها ولذلك نصبت كالظروف المبهمة. ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ جواب الأمر. والمعنى يصف لكم وجه أبيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا ينازعكم في محبته أحد. ﴿ وَتَكُونُواْ ﴾ جزم بالعطف على ﴿ يَخْلُ ﴾ أو نصب بإضمار أن. ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ من بعد يوسف أو الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه. ﴿ قَوْمًا صالحين ﴾ تائبين إلى الله تعالى عما جنيتم أو صالحين مع أبيكم بصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه، أو صالحين في أمر دنياكم فإنه ينتظم لكم بعده بخلو وجه أبيكم.

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ يعني يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً . وقيل روبيل . ﴿ لا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ فإن القتل عظيم . ﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ في قعره ، سمي بها لغيبوبته عن أعين الناظرين . وقرأ نافع في "غيابات" في الموضعين على الجمع كأنه لتلك الجب غيابات . وقرئ "غيبة" و"غيابات" بالتشديد . ﴿ يَلْتَقِطْهُ ﴾ يأخذه . ﴿ بَعْضُ السيارة ﴾ بعض الذين يسيرون في الأَرض . ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ بمشورتي أو إن كنتم على أن تفعلوا ما يفرق بينه وبين أبيه .

﴿ قَالُواْ يأَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا على يُوسُفَ ﴾ لم تخافنا عليه . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لناصحون ﴾ ونحن نشفق عليه ونريد له الخير ، أرادوا به استنزاله عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم ، والمشهور ﴿ تَأْمَنَّا ﴾ بالإدغام بإشمام . وعن نافع بترك الإِشمام ومن الشواذ ترك الإِدغام لأنهما من كلمتين وتيمنا بكسر التاء .

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً ﴾ إلى الصحراء . ﴿ يَرْتَعَ ﴾ نتسع في أكل الفواكه ونحوها من الرتعة وهي الخصب . ﴿ وَيَلْعَبُ ﴾ بالاستباق والانتضال . وقرأ ابن كثير نرتع بكسر العين على أنه من ارتعى يرتعي ونافع بالكسر والياء فيه وفي ﴿ يلعب ﴾ . وقرأ الكوفيون ويعقوب بالياء والسكون على إسناد الفعل إلى يوسف . وقرئ ﴿ يَرْتَعْ ﴾ من أرتع ماشيته و ﴿ يَرْتَعِ ﴾ بكسر العين و ﴿ يلعب ﴾ بالرفع على الابتداء . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ من أن يناله مكروه .

﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُواْ بِهِ ﴾ لشدة مفارقته علي وقلة صبري عنه. ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب ﴾ لأن الأرض كانت مذأبة. وقيل رأى في المنام أن الذئب قد شد على يوسف وكان يحذره عليه، وقد همزها على الأصل ابن كثير ونافع في رواية قالون، وفي رواية اليزيدي وأبو عمرو وقفاً وعاصم وابن عامر وحمزة درجاً واشتقاقه من تذاءبت الريح إذا هبت من كل جهة. ﴿ وَأَنتُمْ عَنْهُ غافلون ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ اللام موطئة للقسم وجوابه: ﴿ إِنَّا إِذَا لخاسرون ﴾ ضعفاء مغبونون، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسار والواو في ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ للحال.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ وعزموا على إلقائه فيها ، والبئر بئر بيت المقدس أو بئر بأرض الأردن أو بين مصر ومدين ، أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب وجواب لما محذوف مثل فعلوا به ما فعلوا من الأذى . فقد روي (أنهم لما برزوا به إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه ، فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا : أما عاهدتموني أن لا تقتلوه فأتوا به إلى البئر ، فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم ، فقال : يا إخوتاه ردوا علي قميصي أتوارى به فقالوا : ادع الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يلبسوك ويؤنسوك فلما بلغ نصفها ألقوه وكان فيها ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكي فجاءه جبريل بالوحي) كما قال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ وكان ابن سبع عشرة سنة . وقيل كان مراهقاً أوحي إليه في صغره كما أوحي إلى يحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام . وفي القصص : أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب فجعله في تميمة علقها بيوسف فأخرجه جبريل عليه السلام وألبسه إياه ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ لتحدثنهم بما فعلوا بك ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم وطول العهد المغير للحلى والهيئات ، وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر حين دخلوا عليه ممتارين ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ . بشره بما يؤول إليه أمره إيناساً له

وتطييباً لقلبه. وقيل ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ متصل ب ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ أي آنسناه بالوحي وهم لا يشعرون ذلك.

(279/394)

﴿ وَجَاءوا أَبَاهُمْ عِشَاء ﴾ أي آخر النهار. وقرىء "عشياً" وهو تصغير عشي وعشي بالضم والقصر جمع أعشى أي عشوا من البكاء. ﴿ يَبْكُونَ ﴾ متباكين. روي أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال ما لكم يا بني وأين يوسف.

﴿ قَالُواْ يأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ نتسابق في العدو أو في الرمي، وقد يشترك الافتعال والتفاعل كانتضال والتناضل. ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ متاعنا فأَكَلَهُ الذئب وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ بمصدق لنا ﴿ وَلَوْ كُنَّا صادقين ﴾ لسوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف.

﴿ وَجَاءوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي ذي كذب بمعنى مكذوب فيه، ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة وقرىء بالنصب على الحال من الواو أي جاؤوا كاذبين و ﴿ كَذَّبَ ﴾ بالدال غير المعجمة أي كدر أو طري. وقيل: أصله البياض الخارج على أظفار الأحداث فشبه به الدم اللاصق على القميص، وعلى قميصه في موضع النصب على الظرف أي فوق قميصه أو على الحال من الدم إن جوز تقديمها على المجرور. روي: أنه لما

سمع بخبر يوسف صاح وسأل عن قميصه فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه . ولذلك ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أي سهلت لكم أنفسكم وهونت في أعينكم أمراً عظيماً من السول وهو الاسترخاء . ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي فأمري صبر جميل ، أو فصبر جميل أجمل ، وفي الحديث " الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق " ﴿ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ على احتمال ما تصفونه من إهلاك يوسف وهذه الجريمة كانت قبل استنبائهم إن صح .

(280/394)

﴿ وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ ﴾ رفقة يسيرون من مدين إلى مصر فنزلوا قريباً من الجب وكان ذلك بعد ثلاث من إلقائه فيه . ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ الذي يرد الماء ويستقي لهم وكان مالك بن ذعر الخزاعي . ﴿ فأدلى دَلْوَهُ ﴾ فأرسلها في الجب ليملأها فتدلى بها يوسف فلما رآه . ﴿ قَالَ يَا بُشْرَىً هذا غُلاَمٌ ﴾ نادى البشرى بشارة لنفسه أو لقومه كأنه قال تعالى فهذا أوانك . وقيل هو اسم لصاحب له ناداه ليعينه على إخراجه . وقرأ غير الكوفيين "يا بشراي" بالإضافة ، وأمال فتحة الراء حمزة والكسائي . وقرأ ورش بين اللفظين وقرىء ﴿

يَا بُشْرى ﴾ بالإدغام وهو لغة و"بشراي" بالسكون على قصد الوقف. ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ أي الوارد وأصحابه من سائر الرفقة. وقيل أخفوا أمره وقالوا لهم دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر. وقيل الضمير لإخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلامنا أبق منا فاشتروه، فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه. ﴿ بضاعة ﴾ نصب على الحال أي أخفوه متاعاً للتجارة، واشتقاقه من البضع فإنه ما بضع من المال للتجارة. ﴿ والله عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ لم يخف عليه أسرارهم أو صنيع إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم.

(281/394)

﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ وباعوه، وفي مرجع الضمير الوجهان أو اشتروه من اخوته. ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ مبخوس لزيفه أو نقصانه. ﴿ دراهم ﴾ بدل من الثمن. ﴿ مَّعْدُودَةً ﴾ قليلة فإنهم يزنون ما بلغ الأوقية ويعدون ما دونها. قيل كان عشرين درهماً وقيل كان اثنين وعشرين درهماً. ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ ﴾ في يوسف. ﴿ مِنَ الزهدين ﴾ الراغبين عنه والضمير في ﴿ وَكَانُواْ ﴾ إن كان للإخوة فظاهر وإن كان للرفقة وكانوا بائعين فزهدهم فيه، لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل في بيعه، وإن كانوا مبتاعين فلأنهم

اعتقدوا أنه آبق وفيه متعلق بالزاهدين إن جعل اللام للتعريف ، وإن جعل بمعنى الذي فهو متعلق بمحذوف بينه الزاهدين لأن متعلق الصلة لا يتقدم على الموصول .

﴿ وَقَالَ الذى اشتراه مِن مّصْرَ ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر واسمه قطفير أو إطفير ، وكان الملك يومئذ ريان بن الوليد العمليقي وقد آمن بيوسف عليه السلام ومات في حياته . وقيل كان فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات ﴾ والمشهور أنه من أولاد فرعون يوسف . والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء . روي : أنه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة . واختلف فيما اشتراه به من جعل شراءه به غير الأول : عشرون ديناراً وزوجا نعل وثوبان أبيضان . وقيل ملؤه فضة وقيل ذهباً . ﴿ لامْرَأَتِهِ ﴾ راعيل أو زليخا . ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ اجعلي مقامه عندنا كريماً أي حسناً والمعنى أحسني تعهده . ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ في ضياعنا وأموالنا ونستظهر به في مصالحنا . ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ نتبناه وكان عقيماً لما تفرس فيه من الرشد ، ولذلك قيل : أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر

، وابنة شعيب التي قالت ﴿ يا أبت استجره ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله تعالى عنهما . ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرض ﴾ وكما مكنا محبته في قلب العزيز أو كما مكناه في منزله أو كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز مكنا له فيها . ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ عطف على مضمر تقديره ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه أي كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس ، ويعلم معاني كتب الله تعالى وأحكامه فينفذها ، أو تعبير المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحل كما فعل لسنيه . ﴿ والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ لا يرده شيء ولا ينازعه فيما يشاء أو على أمر يوسف أراد به إخوته شيئاً وأراد الله غيره فلم يكن إلا ما أراده . ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ

يَعْلَمُونَ ﴾ أن الأمر كله بيده ، أو لطائف صنعه وخفايا لطفه .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف ما بين الثلاثين والأربعين ، وقيل سن الشباب ومبدؤه بلوغ الحلم . ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل ، أو حكماً بين الناس . ﴿ وَعِلْماً ﴾ يعني علم تأويل الأحاديث . ﴿

وكذلك نجزي المحسنين ﴾ تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاء على إحسانه في عمله وإتقانه في عنفوان أمره .

﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ طلبت منه وتمحلت أن يواقعها ، من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد . ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ قيل كانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الإيثاق . ﴿ وقالت هيت لك ﴾ أي أقبل وبادر ، أو تهيأت والكلمة على الوجهين اسم فعل بني على الفتح كأين واللام للتبيين كالتي في سقيا لك . وقرأ ابن كثير بالضم وفتح الهاء تشبيها له بحيث ، ونافع وابن عامر بالفتح وكسر الهاء كعيط . وقرأ هشام كذلك إلا أنه يهمز . وقد روي عنه ضم التاء وهو لغة فيه . وقرىء ﴿ هيت ﴾ كجير و"هئت" كجئت من هاء يهيىء إذا تهيأ وقرىء هيئت وعلى هذا فاللام من صلته . ﴿ قال معاذ الله ﴾ أعوذ بالله معاذاً . ﴿ إنه ﴾ إن الشأن . ﴿ ربي أحسن مثواي ﴾ سيدي قطفير أحسن تعهدي إذ قال لك في ﴿ أكرمي مثواه ﴾ فما جزاؤه أن أخونه في أهله . وقيل الضمير لله تعالى أي إنه خالقي أحسن منزلتي بأن عطف على قلبه فلا أعصيه . ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ المجازون الحسن بالسيء . وقيل الزناة فإن الزنا ظلم على الزاني والمزني بأهله .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ وقصدت مخالطته وقصد مخالطتها ، والهم بالشيء قصده والعزم عليه ومنه الهمام وهو الذي إذا هم بالشيء أمضاه ، والمراد بهمه عليه الصلاة والسلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري ، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم ، أو مشارفة الهم كقولك قتلته لو لم أخف الله . ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ في قبح الزنا وسوء مغبته لخالطها لشبق الغلمة وكثرة المغالبة ، ولا يجوز أن يجعل ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ فإنها في حكم أدوات الشرط فلا يتقدم عليها جوابها ، بل الجواب محذوف يدل عليه . وقيل رأى جبريل عليه الصلاة والسلام . وقيل تمثل له يعقوب عاضاً على أنامله . وقيل قطفير . وقيل نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء . ﴿ كذلك ﴾ أي مثل التثبيت ثبتناه ، أو الأمر مثل ذلك . ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء ﴾ خيانة السيد . ﴿ والفحشاء ﴾ الزنا . ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالكسر في كل القرآن إذا كان في أوله الألف واللام أي الذين أخلصوا دينهم لله .

﴿ واستبقا الباب ﴾ أي تسابقا إلى الباب ، فحذف الجار أو ضمن الفعل معنى الابتدار . وذلك أن يوسف فرّ منها ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج . ﴿ وَقَدَّتْ

قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ اجتذبته من ورائه فانقد قميصه والقد الشق طولاً والقط الشق عرضاً . ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ وصادفا زوجها . ﴿ لدى الباب قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إيهاماً بأنها فرت منه تبرئة لساحتها عند زوجها وتغييره على يوسف وإغراءه به انتقاماً منه ، و ﴿ مَا ﴾ نافية أو استفهامية بمعنى أي شيء جزاءه إلا السجن .

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ طالبتني بالمؤاتاة ، وإنما قال ذلك دفعاً لما عرضته له من السجن أو العذاب الأليم ، ولو لم تكذب عليه لما قاله . ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل ابن عم لها . وقيل ابن خال لها صبياً في المهد . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " تكلم أربعة صغاراً ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام " وإنما ألقى الله الشهادة على لسان أهلها لتكون ألزم عليها . ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قدامه بالدفع عن نفسها ، أو أنه أسرع خلفها فتعثر بذيله فانقد جيبه .

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصادقين ﴾ لأنه يدل على أنها تبعته

فاجتذبت ثوبه فقدته . والشرطية محكية على إرادة القول أو على أن فعل الشهادة من القول ، وتسميتها شهادة لأنها أدت مؤداها والجمع بين إن وكان على تأويل أن يعلم أنه كان ونحوه ونظيره قولك : إن أحسنت إلى اليوم فقد أحسنت إليك من قبل ، فإن معناه أن تمنن علي بإحسانك أمنن عليك بإحساني لك السابق . وقرىء ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ﴿ وَمِنْ دُبُرٍ ﴾ بالضم لأنهما قطعا عن الإضافة كقبل وبعد ، وبالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعا الصرف وسكون العين .

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ ﴾ إن قولك ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أو إن السوء أو إن هذا الأمر . ﴿ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ من حيلتكن والخطاب لها ولأمثالها أو لسائر النساء . ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ فإن كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس ولأنهن يواجهن به الرجال والشيطان يوسوس به مسارقة .

﴿ يُوسُفَ ﴾ حذف منه حرف النداء لقربه وتفطنه للحديث . ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ اكتمه ولا تذكره. ﴿ واستغفرى لِذَنبِكِ ﴾ يا راعيل . ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ﴾ من

القوم المذنبين من خطىء إذا أذنب متعمداً والتذكير للتغليب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 284.271 ﴾

(287/394)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

سورة يوسف

عليه السلام مكية كلها

مائة وإحدى عشرة آية وعدد كلماتها ألف وتسعمائة وست وتسعون كلمة وعدد حروفها سبعة آلاف ومائة وستة وسبعون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي وسع كل شيء قدرة وعلماً ﴿ الرحمن ﴾ لجميع خلقه المبين لهم طريق الهدى ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص حزبه بالإبعاد عن مواطن الردى وقوله تعالى:

﴿ الر ﴾ تقدّم الكلام على أوائل السور أوّل سورة البقرة ، وقرأ ورش بالإمالة بين بين ، وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي بالإمالة محضة ، والباقون بالفتح ، واختلف في سبب نزول هذه السورة فعن سعيد بن جبير أنه قال : لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يتلوه على قومه فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا ، فنزلت هذه

السورة ، فتلاها عليهم فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا فنزل ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ فقالوا : لو ذكرتنا فنزل : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ (الحديد) ، وعن ابن عباس أنه قال : سألت اليهود النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : حدّثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف ، فنزلت هذه السورة ، وقوله تعالى : ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى آيات هذه السورة ، أي : تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة المسماة بالر هي ﴿ آيات الكتاب ﴾ ، أي : القرآن ﴿ المبين ﴾ ، أي : المبين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام المظهر للحق من الباطل الذي ثبت فيه قصص الأوّلين والآخرين ، وشرحت فيه أحوال المتقدّمين .

﴿ إنا أنزلناه ﴾ ، أي : الكتاب ﴿ قرآناً عربياً ﴾ ، أي : بلغة العرب لكي يعلموا معانيه ويفهموا ما فيه . روي أنّ علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين اسألوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن كيفية قصة يوسف ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وذكر فيها أنه تعالى عبّر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها ، والتقدير أنا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف حال كونه قرآناً عربياً ، وسمي بعض القرآن قرآناً ؛ لأن القرآن اسم

جنس يقع على الكل والبعض ﴿ لعلكم ﴾ يا أهل مكة ﴿ تعقلون ﴾ ، أي : إرادة أن تفهموا أو تحيطوا بمعانيه ، ولا يلتبس عليكم ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ (يوسف ،) . واختلف العلماء هل في القرآن شيء بغير العربية ؟ فقال أبو عبيدة : من زعم أنّ في القرآن لساناً غير العربية فقد أعظم على الله القول واحتج بهذه الآية ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً ﴾ وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أنّ فيه من غير لسان العرب من سجيل ومشكاة وأليم وإستبرق ، وجمع بعض المفسرين بين القولين بأنّ هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وإن كانت غير عربية في الأصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم وصارت لهم لغة وهو جمع حسن .

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ ، أي : أحسن الاقتصاص ؛ لأنه اقتص على أبدع الأساليب ، والقصص اتباع الخبر بعضه بعضاً ، وأصله في اللغة من قص الأثر إذا اتبعه ، وإنما سميت الحكاية قصة ؛ لأنّ الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً ، والمعنى : أنا نبين لك يا محمد أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان ، أو قصة يوسف عليه السلام خاصة ، وسماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت

والفوائد التي تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والغلمان ومكر النساء والصبر على إيذاء الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك. قال خالد بن معدان في سورة يوسف ومريم: يتفكه فيهما أهل الجنة في الجنة. وقال ابن عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها ﴿ بما ﴾، أي: بسبب ما ﴿ أوحينا ﴾، أي: بإيحائنا ﴿ إليك ﴾ يا محمد ﴿ هذا القرآن ﴾ الذي قالوا فيه أنه مفترى، فنحن نتابع القصص القصة بعد القصة حتى لا يشك شاك ولا يمتري ممتر أنه من عند الله ﴿ وإن كنت من قبله ﴾، أي: إيحائنا إليك أو هذا القرآن ﴿ لمن الغافلين ﴾، أي: عن قصة يوسف وإخوته؛ لأنه صلى الله عليه وسلم إنما علم ذلك بالوحي، وقيل لمن الغافلين عن الدين والشريعة، وإن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية وقوله تعالى:

﴿ إذ قال يوسف لأبيه ﴾ بدل من ﴿ أحسن القصص ﴾ أو منصوب بإضمار اذكر، ويوسف اسم عبري، وقيل: عربي، وردّ بأنه لو كان عربياً لصرف، وسئل أبو الحسن الأقطع عن يوسف فقال: الأسف في اللغة الحزن، والأسيف العبد، واجتمعا في يوسف فسمي به، وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الكريم ابن الكريم ابن

الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" وقوله ﴿ يا أبت ﴾ أصله يا أبي فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ، ولذلك قلبها ابن كثير وابن عامر هاء في الوقف ، ووقف الباقون بالتاء كالرسم ، وفي الوصل بالتاء للجميع ، وفتح التاء في الوصل ابن عامر ، وكسرها الباقون ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمسم والقمر ﴾ قال أهل التفسير : رأى يوسف عليه الصلاة والسلام في منامه ، وكان ابن اثنتي عشرة ، سنة ، وقيل : سبع عشرة ، وقيل : سبع سنين ليلة الجمعة ، وكانت ليلة القدر كأنّ أحد عشر كوكباً نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر ، فسجدوا له وفسروا الكواكب بإخوته ، وكانوا أحد عشر يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم ، والشمس والقمر بأبيه وأمّه بجعل الشمس للأمّ ؛ لأنها مؤنثة والقمر للأب ؛ لأنه مذكر . والذي رواه البيضاوي تبعاً "للكشاف" عن جابر من أنّ يهودياً قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف فأخبره بأسمائها فقال اليهودي: ، أي : والله إنها لأسماؤها . قال ابن الجوزي : إنه موضوع ، وقوله : ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها فلا تكرار ؛ لأنّ الرؤية الأولى تدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر والثانية تدل على أنه شاهد كونها ساجدة له .

وقال بعضهم : إنه لما قال : إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر قيل له : كيف رأيت ؟ قال : رأيتهم لي ساجدين . وقال آخرون : يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا ، وهذا القائل لم يبين أنّ أيهما يحمل على الرؤية وأيهما يحمل على الرؤيا ؟ قال الرازي : فذكر قولاً مجملاً غير مبين . فإن قيل : قوله : رأيتهم وقوله : ساجدين لا يليق إلا بالعقلاء والكواكب جمادات فكيف جاءت اللفظة المخصوصة بالعقلاء في حق الجمادات ؟

أجيب : بأنها لما وصفت بالسجود صارت كأنها تعقل وأخبر عنها كما أخبر عمن يعقل كما قال تعالى في صفة الأصنام : ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ (الأعراف ،) وكما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ (النمل ،) . فإن قيل : لم أفرد الشمس والقمر بالذكر مع أنهما من جملة الكواكب ؟

أجيب : بأنه أفردهما لفضلهما وشرفهما على سائر الكواكب كقوله تعالى : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ (البقرة ،) وهل المراد بالسجود نفس السجود حقيقة أو التواضع ؟ كلاهما محتمل ، والأصل في الكلام حمله على الحقيقة قال أهل التفسير : إن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف عليه السلام فحسده إخوته لهذا السبب ، وظهر وذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا ، وكان تأويلها أن أبويه وإخوته يخضعون

له ، وخاف عليه حسدهم وبغيهم .

﴿ قال ﴾ له أبوه ﴿ يا بنيّ ﴾ بصيغة التصغير للشفقة أو لصغر سنه على ما تقدّم ، وقرأ حفص في الوصل بفتح الياء ، والباقون بالكسر والتشديد للجميع ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك ﴾ ، أي : لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها ﴿ فيكيدوا لك كيدا ﴾ ، أي : فيحتالوا في هلاكك . فإن قيل : لم لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدوني ؟

أجيب : بأنّ هذه اللام تأكيد للصلة كقوله : ﴿ للرؤيا تعبرون ﴾ (يوسف ،) وكقوله : نصحتك ونصحت لك ، وشكوتك وشكوت لك . ا

و قيل صلة كقوله : ﴿ لربهم يرهبون ﴾ (الأعراف ،) . ﴿ إن الشيطان للإنسان عدوّ مبين ﴾ ، أي : ظاهر العداوة كمل فعل بآدم وحوّاء فلا يألو جهداً في تسويلهم وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد ، وعن أبي قتادة قال : كنت أرأى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطا ن فإذا رأى أحدكم ما يحبه فلا يحدّث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتفل عن يسا ره ثلاثاً وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم و شرّها فإنها لا تضرّه"

وعن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضرّه" . وعن أبي رزين العقيلي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوّة ، وهي على رجل طائر ما لم يحدّث بها فإذا حدّث بها سقطت" قال : وأحسبه قال : "ولا يحدّث بها إلا لبيباً أو حبيباً " وإنما أضيفت الرؤيا المحبوبة إلى الله إضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وإن كانتا جميعاً من خلق الله تعالى وتدبيره وإرادته ولا فعل للشيطان فيهما ، ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها ، فيستحب إذا رأى الشخص في منامه ما يحب أن يحدّث به من يحب ، وإذا رأى ما يكره فلا يحدّث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرها ، وليتفل ثلاثاً ، وليتحول عن جنبه الآخر فإنها لا تضرّه ، فإنّ الله تعالى جعل هذه الأسباب سبباً لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سبباً لوقاية المال . قال الحكماء : إنّ الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين ، قالوا : والسبب فيه أن رحمة الله تعالى تقتضي أن لا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا

عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل ، وأمّا الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدّماً على ظهوره بزمن طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حضور ذلك الخير أكثر وأتم ، ولهذا لم تظهر رؤيا يوسف عليه السلام إلا بعد أربعين سنة ، وهو قول أكثر المفسرين ، وقال الحسن البصري : كان بينهما ثمانون سنة حتى اجتمع على أبويه وإخوته وخروا له ساجدين .

(294/394)

﴿ وكذلك ﴾ ، أي : وكما اجتباك ربك للاطلاع على هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكمال نفس ﴿ يجتبيك ﴾ ، أي : يختارك ويصطفيك ﴿ ربك ﴾ بالدرجات العالية واجتباء الله تخصيصه بفيض إلهي يحصل منه أنواع الكرامات بلا سعي من العبد ، وذلك مخصوص بالأنبياء وبعض من يقاربهم من الصدّيقين والشهداء والصالحين وقوله : ﴿ ويعلمك ﴾ كلام مستأنف خارج عن التشبيه والتقدير وهو يعلمك ﴿ من ﴾ ، أي : بعض ﴿ تأويل الأحاديث ﴾ من تأويل الرؤيا وغيرها من كتب الله تعالى والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدّمين ، وكان يوسف عليه السلام في تعبير الرؤيا وغيرها غاية ، والتأويل ما تؤل إليه عاقبة الأمر ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ بالنبوّة .

قال ابن عباس : لأنّ منصب النبوّة ، أي : ومع الرسالة أعلى من جميع المناصب ، وكل الخلق دون درجة الأنبياء ، فهذا من تمام النعمة عليهم ؛ لأنّ جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة والنبوّة فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر ليس إلا النبوّة والرسالة ، وقيل : يجتبيك بالنبوّة ويتم نعمته عليك بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة ، أمّا سعادات الدنيا فالإكثار من الأولاد والخدم والأتباع والتوسع في المال والجاه والإجلال في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد ، وأمّا سعادات الآخرة فالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى ﴿ وعلى آل يعقوب ﴾ ، أي : أولاده وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب ، وتمام النعمة هو النبوّة والرسالة كما مرّ فلزم حصولها لآل يعقوب وأيضاً أن يوسف عليه السلام قال : إني رأيت أحد عشر كوكباً وكان تأويله أحد عشر نفساً لهم فضل وكمال ويستضىء بعلمهم ودينهم أهل الأرض ؛ لأنه لا شيء أضوأ من الكواكب وبها يهتدي ، وذلك يقتضي أن تكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلاً .

فإن قيل : كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام ؟

أجيب : بأنّ ذلك وقع منهم قبل النبوّة ، والعصمة من المعاصي إنما تعتبر بعد النبوّة لا قبلها على خلاف فيه . ﴿ كما أتمها على أبويك ﴾ بالنبوّة والرسالة ، وقيل : إتمام النعمة على إبراهيم عليه السلام خلاصه من النار واتخاذه خليلاً ، وعلى إسحاق خلاصه من الذبح وفداؤه بذبح عظيم على قول أن إسحاق هو الذبيح . ﴿ من قبل ﴾ ، أي : من قبل هذا الزمان وقوله : ﴿ إبراهيم وإسحاق ﴾ عطف بيان لأبويك ثم إن يعقوب عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله : ﴿ إن ربك عليم ﴾ ، أي : بليغ العلم ﴿ حكيم ﴾ ، أي : بليغ الحكمة وهي وضع الأشياء في أتقن مواضعها .

﴿ لقد كان في ﴾ خبر ﴿ يوسف وإخوته ﴾ وهم أحد عشر ؛ يهوذا وروبيل وشمعون ولاوي وزبلون قال البقاعي : بزاي وباء موحدة ويشجر وأمّهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب وولد له من سريتين إحداهما زلفى ، والأخرى يلقم كذا قاله البغويّ . وقال الرازي : والأخرى بلهمة أربعة أولاد وأسماؤهم دان ونفتالى ؛ قال البقاعي : بنون مفتوحة وفاء ساكنة ومثناة فوقية ولام بعدها ياء ، وجاد وأشر ، ثم توفيت ليا فتزوّج بأختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين ، وقيل : جمع بينهما ولم يكن الجمع محرماً حينئذٍ ﴿ آيات ﴾ ، أي : علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء ﴿ للسائلين ﴾ عن قصصهم .

قال الرازيّ : ولمن لم يسأل عنها وهو كقوله تعالى : ﴿ في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ (فصلت ،) وقيل : آيات على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أنّ اليهود سألوه عن قصة يوسف ، وقيل : سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان إلى أرض مصر فذكر لهم قصة يوسف فوجدوها موافقة لما في التوراة ، فعجبوا منه فكان دلالة على نبوّته صلى الله عليه وسلم لأنه لم يقرأ الكتب المتقدّمة ولم يجالس العلماء وأصحاب الأخبار ، ولم يأخذ عنهم شيئاً ، فدل ذلك على أنّ ما يأتي به وحي سماوي أوحاه الله تعالى إليه وعرفه به ، وهذه السورة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف عليه السلام وما حقق الله تعالى فيها من حسد إخوته وما آل إليه أمره من الملك ، ومنها ما اشتمل على حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد ، وغير ذلك من الآيات التي إذا فكر فيها الإنسان اعتبر ، وقرأ ابن كثير ﴿ آية ﴾ على التوحيد ، والباقون على الجمع .

﴿ إذ ﴾ ، أي : واذكر إذ ﴿ قالوا ﴾ ، أي : بعض إخوة يوسف لبعض بعد أن بلغتهم الرؤيا وقالوا : ما يرضى أن تسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه ﴿ ليوسف وأخوه ﴾ ، أي : بنيامين ﴿ أحب إلى أبينا منا ﴾ اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أردوا أنّ زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه ، وخبر المبتدأ أحب ووحد ؛ لأن أفعل يستوي فيه الواحد وما فوقه مذكراً كان أو مؤنثاً إذا لم يعرّف أو لم يضف ، وقيل : اللام لام قسم تقديره والله ليوسف ، وإنما قالوا : وأخوه وهم جميعاً إخوته ؛ لأنّ أمّهما كانت واحدة ، والواو في قولهم : ﴿ ونحن عصبة ﴾ واو الحال ، أي : يفضلهما في المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ، ونحن جماعة أقوياء نقوم بمرافقه فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ، والعصبة والعصابة العشرة فما فوقها . وقيل : إلى الأربعين سموا بذلك ؛ لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفى بهم النوائب ﴿ إنّ أبانا لفي ضلال ﴾ ، أي : خطأ ﴿ مبين ﴾ ، أي : بيّن في إيثاره حب يوسف وأخيه علينا والقرب المقتضي للحب في كلنا واحد ؛ لأنّا في البنوّة سواء ولنا مزية تقتضي تفضيلنا وهي إنا عصبة لنا من النفع له والذّب عنه والكفاية ما ليس لهما .

تنبيه : ها هنا سؤالات : الأوّل : إنّ من المعلوم أنّ تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد فلم أقدم يعقوب عليه السلام على ذلك ؟

أجيب : بأنه إنما فضلهما في المحبة والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذوراً فيها ولا يلحقه في ذلك لوم .

(298/394)

الثاني : كيف اعترضوا على أبيهم وهم يعلمون أنه نبيّ وهم مؤمنون به ؟ وأجيب : بأنهم وإن كانوا مؤمنين بنبوّته لكن جوّزوا أن يكون فعله باجتهاد ، ثم أنّ اجتهادهم أدّى إلى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد لكونهم أكبر سناً وأكثر نفعاً وغاب عنهم أنّ تخصيصهما بالبرّ كان لوجوه : أحدها : أنّ أمّهما ماتت ، ثانيها : أنه كان في يوسف من آثار الرشد والنجابة ما لم يجده في سائر أولاده ، ثالثها : أنه وإن كان صغيراً إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدمة أعلى وأشرف مما كان يصدر عن سائر أولاده ، والحاصل أنّ هذه المسألة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في دين الآخر .

الثالث : أنهم نسبوا أباهم إلى الضلال عن رعاية مصالح الدنيا والبعد عن طريق الرشد لا الضلال في الدين . الرابع : أنّ قولهم : ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ محض حسد ، والحسد من أمّهات الكبائر لا سيما وقد أقدموا بسبب ذلك الحسد على أمورٍ مذمومة

منها قولهم:

﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ﴾ ، أي : بحيث يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه ، ومنها القاؤه في ذل العبودية ، ومنها أنهم أبقوا أباهم في الحزن الدائم والأسف العظيم ، ومنها إقدامهم على الكذب وكل ذلك يقدح في العصمة والنبوّة ؟

أجيب : بما تقدّم أنّ ذلك كان قبل النبوّة ، وقرأ نافع وابن كثير وهشام والكسائي بضم التنوين من مبين في الوصل ، والباقون بالكسر ، فإن وقف القارئ على مبين وامتحن في الابتداء يبتدئ بالضم للجميع ، وقولهم : ﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ جواب الأمر ، أي : يصف لكم وجه أبيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا ينازعكم في محبته أحد ، وقولهم : ﴿ وتكونوا ﴾ مجزوم بالعطف على يخل لكم أو منصوب بإضمار أن ﴿ من بعده ﴾ ، أي : قتل يوسف أو طرحه ﴿ قوماً صالحين ﴾ بأن تتوبوا إلى الله تعالى بعد فعلكم فإنه يعفو عنكم ، وقال مقاتل : يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم .

﴿ قال قائل منهم ﴾ هو يهوذا وكان أحسنهم رأياً فيه ، وهو الذي قال : ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ (يوسف ،) وقيل : روبيل وكان أكبرهم سناً ﴿ لا تقتلوا يوسف وألقوه ﴾ ، أي

: اطرحوه ﴿ في غيابت الجب ﴾ ، أي : في أسفله وظلمته ، والغيابة كل موضع ستر شيئاً وغيبه عن النظر قال القائل:

*فإن أنا يوماً غيبتني غيابتي ** فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

أراد غيابة حفرته التي يدفن فيها ، والجب البئر الكبيرة التي ليست مطوية سميت جباً لأنها قطعت قطعاً ولم يحصل فيها شيء غير القطع من طيّ أو ما أشبهه ، وإنما ذكر الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين . قال بعض أهل العلم : إنهم عزموا على قتله وعصمه الله تعالى رحمة بهم ولو فعلوا لهلكوا أجمعين ، واختلف في موضع ذلك الجب ، فقال قتادة : هو ببيت المقدس وقال وهب : هو بأرض الأردن . وقال مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب . وقرأ نافع بألف بين الباء والتاء على الجمع والباقون بغير ألف على التوحيد ﴿ يلتقطه ﴾ ، أي : يأخذه ﴿ بعض السيارة ﴾ جمع سيار ، أي : المبالغ في السير ، وذلك الجب كان معروفاً يرد عليه كثير من المسافرين ، فإذا أخذوه ذهبوا به إلى ناحية أخرى فنستريح منه ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ ، أي : ما أردتم من التفريق فاكتفوا بذلك ولما أجمعوا على التفريق بين يوسف وأبيه بضرب من الحيل .

﴿ قالوا ﴾ إعمالاً للحيلة في الوصول إليه مستفهمين على وجه التعجب ؛ لأنه كان أحس منهم السوء فكان يحذرهم عليه ﴿ يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف و ﴾ الحال ﴿ إنا له

لناصحون ﴾ ، أي : قائمون بمصلحته وحفظه .

تنبيه : اتفق القراء على إخفاء النون الساكنة عند النون المتحرّكة واتفقوا أيضاً على إدغامها مع الإشمام .

﴿ أرسله معنا غداً ﴾ ، أي : إلى الصحراء ﴿ نرتع ﴾ ، أي : نتسع في أكل الفواكه ونحوها وأصل الرتع أكل البهائم في الخصب في زمن الربيع ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير ﴿ ونلعب ﴾ روي أنه قيل لأبي عمرو : كيف يقولون نلعب وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء ، وأيضاً جاز أن يكون المراد باللعب الإقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر كما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لجابر : "فهلا بكراً تلاعبها ، وتلاعبك" وأيضاً كان لعبهم الاستباق والانتضال والغرض منه المحاربة والمقاتلة مع الكفار ، والدليل عليه قولهم ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ وإنما سموه لعباً لأنه في صورته .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون فيهما ، والباقون بالياء ، وسكن العين أبو عمرز وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ، وكسرها الباقون في الوصل ، ولقنبل وجه آخر وهو أنه يثبت الياء في نرتع بعد العين وقفاً ووصلاً ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ ، أي : بليغون في الحفظ له حتى

نردّه إليك سالماً . قال أبو حيان : وانتصب ﴿ غداً ﴾ على الظرف وهو ظرف مستقبل يطلق على اليوم الذي يلي يومك وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد ، وأصل غداً غدو فحذفت الواو انتهى . ثم إنّ يعقوب عليه السلام اعتذر لهم بعذرين الأوّل : ما حكاه الله تعالى عنه بقوله :

﴿ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ ، أي : ذهابكم به ، والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ؛ لأنه كان لا يقدر أن يصبر عنه ساعة ، وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي ، والباقون بفتح الياء وضم الزاي ، والثاني : قوله : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم به ، وكان يعقوب عليه السلام رأى في النوم أنّ الذئب شدّ على يوسف فكان يحذره فمن أجل هذا ذكر ذلك ، وكأنه لقنهم العلة ، وفي أمثال العرب البلاء موكل بالمنطق ، والمراد به الجنس ، وكانت أرضهم كثيرة الذئاب .

﴿ قالوا ﴾ مجيبين عن الثاني بما يلين الأب لإرساله مؤكدين لتطييب خاطره دالين على القسم بلامه ﴿ لئن أكله الذئب ونحن ﴾ ، أي : والحال أنَّا ﴿ عصبة ﴾ ، أي : جماعة عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب ، وأجابوا عن القسم بما أغنى عن

جواب الشرط بقولهم ﴿إنّا إذاً﴾ ، أي : إذا كان هذا ﴿لخاسرون﴾ ، أي : كاملون في الخسارة ؛ لأنا إذا ضيّعنا أخانا فنحن لما سواه من أموالنا أشد تضييعاً ، وأعرضوا عن جواب الأول ؛ لأن حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الأوّل وهو شدّة حبه له ، فلما سمعوا ذلك المعنى تغافلوا عنه وأقله أن يقولوا : ما وجه الشح بفراقه يوماً والسماح بفراقنا كل يوم . وقرأ الذيب ورش والسوسي والكسائي بإبدال الهمزة ياء وقفاً ووصلاً ، وحمزة وقفاً لا وصلاً ، والباقون بالهمزة وقفاً ووصلاً . وقوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَاذَا وَهُمْ يَشْعُرُونَ * وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَاأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَآءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ * وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَابُشْرَى هَاذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمُ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾

﴿ فلما ذهبوا به ﴾ فيه إضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب ﴾ ، أي : وعزموا على إلقائه فيها ولا بدّ من تقدير جواب ، وهو فجعلوه فيها وحذف الجواب في القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلاً عليه وهنا كذلك ، قال وهب وغيره من أهل السير والأخبار : إن إخوة يوسف قالوا له : ما تشتاق أن تخرج معنا إلى مواشينا فتصيد وتستبق ؟ قال : بلى . قالوا : فاسأل أباك أن يرسلك معنا قال يوسف : أفعل ، فدخلوا جميعاً على أبيهم وقالوا : يا أبانا إن يوسف قد أحب أن يخرج معنا إلى مواشينا ، فقال يعقوب : ما تقول يا بنيّ ؟ قال : نعم يا أبت إني أرى من إخوتي اللين واللطف فأحب أن تأذن لي ، وكان يعقوب عليه الصلاة والسلام يكره مفارقته ويحب مرضاته ، فأذن له فأرسله معهم ، فلما خرجوا من عند أبيهم جعلوا يحملونه على رقابهم وأبوهم ينظر إليهم ، فلما بعدوا عنه وصاروا إلى الصحراء ألقوه على الأرض وأظهروا له ما في أنفسهم من العداوة وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعلوا كلما جاء إلى واحد منهم واستغاث به يضربه فلم ير منهم رحيماً فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح يا أبتاه ويا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من إخوته لأحزنك ذلك وأبكاك يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وجعل يبكي بكاء شديداً ، فأخذه روبيل فجلد به الأرض ، ثم جلس على صدره وأراد قتله فقال له : مهلاً يا أخي لا تقتلني فقال له : يا ابن راحيل أنت صاحب الأحلام الكاذبة قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ، ولوى عنقه ، فاستغاث يوسف بيهوذا ، وقال له :

اتق الله فيّ وحل بيني وبين من يريد قتلي فأدركته رحمة ورقة ، فقال يهوذا : يا إخوتاه ما على هذا عاهدتموني ، فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فيه ، فجاؤوا به على بئر على غير الطريق واسع الأسفل ضيق الرأس ، فجعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ، فقال : يا إِخوتاه ردّوا عليّ قميصي أستتر به في الجب فقالوا

: ادع الشمس

والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال : إني لم أر شيئاً فألقوه فيها ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم أوى إلى صخرة كانت في البئر فقام عليها فنادوه فظنّ أنها رحمة أدركته فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه ، فمنعهم يهوذا من ذلك وكان يهوذا يأتيه بالطعام وبقي فيها ثلاث ليال .

﴿ وأوحينا إليه ﴾ في الجب في صغره وهو ابن سبع عشرة سنة أو دونها كما أوحى إلى يحيى وعيسى عليهما السلام في صغرهما ، وفي القصص أنّ إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جرّد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ودفعه إبراهيم عليه السلام إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب ، فجعله يعقوب في تميمة علقها بيوسف فأخرجها جبريل وألبسه إياها ﴿ لتنبئنهم ﴾ ، أي : لتخبرنهم بعد هذا اليوم ﴿ بأمرهم ﴾ ، أي : بصنعهم ﴿ هذا وهم لا يشعرون ﴾ ، أي : أنك يوسف لعلوّ شأنك وبعده عن أوهامهم وطول العهد المغير للهيئات كما قال تعالى : ﴿ فعرفهم وهم له منكرون ﴾ (يوسف ،) والمقصود من ذلك تقوية قلبه وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ، ويصير مستولياً عليهم ، ويصيرون تحت أمره ونهيه وقهره . روي أنهم لما دخلوا عليه لطلب الحنطة عرفهم وهم له منكرون ودعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطنّ فقال : إنه ليخبرني هذا الجام إنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف فطرحتموه وقلتم لأبيكم : أكله الذئب ، وقيل : لا يشعرون بإيحائنا إليك وأنت في البئر بأنك ستخبرهم بصنيعهم هذا ، والفائدة في إخفاء ذلك الوحي عنهم أنهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم وكانوا يقصدون قتله ، وقيل : إنّ المراد من هذا الوحي الإلهام كما في قوله تعالى ﴿ وأوحينا إلى أمّ موسى ﴾ (القصص ،) وقوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ (النحل ،) ﴿ و ﴾ لمّا كان من

المعلوم أنه ليس بعد هذا الفعل الذي فعلوه إلا الاعتذار ﴿ جاؤوا أباهم ﴾ دون يوسف ﴿ عشاءً ﴾ في ظلمة الليل لئلا يتفرس أبوهم في وجوههم إذا رآها في ضياء النهار ضدّ ما

جاؤوا به من الاعتذار وقد قيل : لا تطلب الحاجة في الليل فإنّ الحياء في العينين ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار ﴿ يبكون ﴾ والبكاء جريان الدمع من العين ، والآية تدل على أنه لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع ، روي أنّ امرأة حاكمت إلى شريح فبكت فقال الشعبي : يا أبا أمية أما تراها تبكي فقال : قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق فعند ذلك فزع يعقوب عليه السلام فقال : هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا . قال : فما فعل يوسف ؟ .

﴿ قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق ﴾ قال الزجاج : يسابق بعضنا بعضاً في الرمي ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : "لا سبق إلا في خف أو نضل أو حافر" يعني بالنضل الرمي ، وقيل : العدو لنتبين أينا أسرع عدواً ﴿ وتركنا يوسف ﴾ أخانا ﴿ عند متاعنا ﴾ ، أي : ما كان معنا مما نحتاج إليه في ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحو ذلك ﴿ فأكله ﴾ ، أي : فتسبب عن انفراده أن أكله ﴿ الذئب وما ﴾ ، أي : والحال أنك ما ﴿ أنت بمؤمن ﴾ ، أي : بمصدّق لما

علموا أنه لا يصدّقهم بغير أمارة ﴿لنا ولو كنا صادقين﴾ في هذه القصة لمحبة يوسف عندك فكيف وأنت تسيء الظنّ بنا ؟ وقيل : لا تصدّقنا ؛ لأنه لا دليل لنا على صدقنا وإن كنا صادقين عند الله تعالى .٧

(306/394)

﴿و﴾ لما علموا أنه لا يصدّقهم بغير أمارة ﴿جاؤوا على قميصه﴾ ، أي : يوسف عليه السلام ﴿بدم كذب﴾ قال الفراء : ، أي : مكذوب فيه إلا أنه وصفه بالمصدر على تقدير ذي كذب أو مكذوب أطلق على المصدر مبالغة ؛ لأنه غير مطابق للواقع ؛ لأنهم ادّعوا أنه دم يوسف عليه السلام والواقع أنه دم سخلة ذبحوها ولطخوا القميص بذلك الدم . قال القاضي : ولعلّ غرضهم في نزع قميصه عند إلقائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيداً لصدقهم إذ يبعد أن يفعلوا ذلك طمعاً في نفس القميص ولا بدّ في المعصية من أن يقترن بها الخذلان ، فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الاتهام أقوى فلما شاهد يعقوب عليه السلام القميص صحيحاً علم كذبهم ، روي أنّ يعقوب عليه السلام أخذ القميص منهم ، وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق قيمصه .

تنبيه : على قميصه محله النصب على الظرفية كأنه قيل : وجاؤوا فوق قميصه بدم كما تقول : جاء على جماله بأحماله ، ولا يصح أن يكون حالاً متقدّمة ؛ لأنّ حال المجرور لا يتقدّم عليه . قال الشعبي : قصة يوسف كلها في قميصه ، وذلك أنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه ولما شهد الشاهد قال : ﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾ (يوسف ،) ولما أتي بقميصه إلى يعقوب وألقي على وجهه ارتدّ بصيراً .

(307/394)

ثم ذكر تعالى أنّ إخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم ﴿ قال ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿ بل سوّلت ﴾ ، أي : زينت ﴿ لكم أنفسكم أمراً ﴾ ففعلتموه به ، واختلف في السبب الذي عرف به كونهم كاذبين على وجوه : الأوّل : أنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم . الثاني : كان عالماً بأنه حيّ ؛ لأنه عليه السلام قال ليوسف : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ (يوسف ،) وذلك دليل على كذبهم في ذلك القول ، الثالث : أنه لما رأى قميصه صحيحاً قال : كذبتم لو أكله الذئب لخرق ثوبه ، وقيل : إنه لما قال ذلك قال بعضهم : بل قتله ، اللصوص فقال : كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم وقوله : ﴿ فصبرٌ

جميلٌ ﴾ مرفوع بالابتداء لكونه موصوفاً ، وخبره محذوف والتقدير : فصبر جميل أولى من الجزع ، ومنهم من أضمر المبتدأ قال الخليل : الذي أفعله صبر جميل وقال قطرب : معناه فصبري صبر جميل . وقال الفراء : فهو صبر جميل . وعن الحسن أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل ؟ فقال : "صبر لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر كما قال يعقوب ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ " . وقال مجاهد : فصبر جميل من غير جزع . وقال الثوري : إنّ من الصبر أن لا تحدّث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكي نفسك . وروي أنّ يعقوب عليه السلام كان قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له : ما هذا ؟ فقال : طول الزمان وكثرة الأحزان فأوحى الله تعالى إليه يا يعقوب أتشكوني ؟ فقال : يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي .

وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها في قصة الإفك أنها قالت : والله لئن حلفت لا تصدّقوني ولئن اعتذرت لا تعذروني فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده والله المستعان على ما تصفون فأنزل الله تعالى في عذرها ما أنزل .

وقوله ﴿ فصبر جميل ﴾ يدل على أنّ الصبر على قسمين قد يكون جميلاً ، وقد يكون غير جميل ، فالصبر الجميل أن ينكشف له أنّ هذا البلاء ، من الحق فاستغراقه في شهود نور المبلي يمنعه من الاشتغال بالشكاية من البلاء ولذلك قيل : المحبة التامّة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء ؛ لأنها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب و الحظ و موصل النصيب لا يكون محبوباً بالذات بل بالعرض ، فهذا هو الصبر الجميل وأمّا الصبر لا للرضا بقضاء الله تعالى بل كان لسائر الأغراض فذلك الصبر لا يكون جميلاً . فإن قيل : الصبر على قضاء الله تعالى واجب ، وأمّا الصبر على ظلم الظالمين فغير واجب ، بل الواجب إزالته لا سيما في الضرر العائد إلى الغير ، فلم صبر يعقوب على ذلك ولم يبالغ في البحث مع شدّة رغبته في حضور يوسف ونهاية حبه له وكان من بيت عظيم شريف وكان الناس يعرفونه ويعتقدون فيه ؟ .

أجيب : بأنه يحتمل أن يكون منع من الطلب بوحي تشديداً للمحنة عليه زيادةً في أجره ، أو أنه لو بالغ في البحث لربما أقدموا على إيذائه ولم يمكنوه من الطلب والفحص فرأى أنّ الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى وقال : ﴿ والله المستعان ﴾ ، أي : المطلوب منه العون ﴿ على ما تصفون ﴾ ، أي : تذكرون من أمر يوسف ، والمعنى أنّ إقدامه على الصبر لا يكون إلا بمعونة الله تعالى ؛ لأنّ الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع ، وهي قوية والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر ،

فكأنّ المحاربة وقعت بين الصنفين فما لم تحصل إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة ، فقوله : ﴿ فصبر جميل ﴾ يجري مجرى قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ (الفاتحة ،) وقوله : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ يجري مجرى قوله : ﴿ وإياك نستعين ﴾ (الفاتحة ،) .

ولما أراد الله تعالى خلاص يوسف من الجب بين سببه بقوله تعالى:

﴿ وجاءت سيارة ﴾ وهم القوم المسافرون سموا بذلك ؛ لأنهم يسيرون في الأرض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر ، فأخطؤوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق ، فهبطوا على أرض فيها جب يوسف وكان الجبّ في قفرة بعيدة عن العمران ، أي : لم يكن إلا للرعاة . روي أنّ ماءه كان ملحاً فعذب حين ألقي يوسف فيه ، فلما نزلوا أرسلوا رجلاً يقال له : مالك بن ذعر لطلب الماء فذلك قوله تعالى : ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ ، أي : الذي يريد الماء ليستقي منه ، والوارد هو الذي يتقدّم الرفقة إلى الماء فيهيئ الأرشية والدلاء ﴿ فأدلى ﴾ ، أي : أرسل ﴿ دلوه ﴾ في البئر يقال : أدليت الدلو إذا أرسلتها في البئر ودلوتها إذا أخرجتها ، والدلو معروف والجمع الدلاء فلما أرسلها تعلق بالحبل يوسف عليه السلام فلما خرج فإذا هو بغلام أحسن ما يكون قال صلى الله عليه وسلم "أعطي يوسف

شطر الحسن" . ويقال : إنه ورث ذلك الجمال من جدّته سارة ، وكانت جدّته قد أعطيت سدس الحسن قال ابن إسحاق : ذهب يوسف وأمّه بثلثي الحسن . وحكى الثعلبي عن كعب الأحبار قال : كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرّة ، وكان إذا تبسم رأيت النور في ضواحكه ، وإذا تكلم رأيت شعاع من ثناياه لا يستطيع أحد وصفه ، وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله وصوّره قبل أن يصيب الخطيئة ، فلما رآه مالك بن ذعر ﴿ قال يا بشرى هذا غلام ﴾ نادى البشرى بشارة لنفسه ، كأنّه قال تعالى فهذا أوانك .

وعن الأعمش أنه قال : دعا امرأة اسمها بشرى فقال : يا بشرى . وعن السدي أنّ المدلي نادى صاحبه وكان اسمه بشرى فقال : يا بشرى . كما قرأه حمزة وعاصم والكسائي ، فإنهم قرؤوا بحذف الياء بعد الألف ، والباقون بإثبات الياء . وقيل : ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك . وروي أنّ جدران البئر كانت تبكي على يوسف حين أخرج منها واختلف في ضمير ﴿ وأسرّوه بضاعة ﴾ إلى من يعود ؟ وفيه قولان:

الأوّل : أنه عائد إلى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه بالجب ، وذلك أنهم قالوا : إن قلنا للسيارة : التقطناه شاركونا ، وإن قلنا اشتريناه سألونا الشركة فالأصوب أن نقول : إنّ أهلاً لنا جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر .

والثاني : ونقل عن ابن عباس أنه قال : وأسرّوه يعني إخوة يوسف أسرّوا شأنه ، وذلك أنّ يهوذا كان يأتيه بالطعام كل يوم فلم يجده في البئر فأخبر إخوته فطلبوه ، فإذا هم بمالك بن ذعر وأصحابه نزول فأتوهم فإذا هم بيوسف فقالوا : هذا عبد لنا أبق منا وتابعهم يوسف على ذلك ؛ لأنهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية . قال الرازي : والأوّل أولى ؛ لأنّ قوله ﴿ وأسرّوه بضاعة ﴾ يدل على أنّ المراد أنهم أسرّوه حال ما حكموا بأنه بضاعة ، وذلك إنما يليق بالوارد لا بإخوة يوسف .

تنبيه : البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشيء إذا قطعته . قال الزجاج : وبضاعة منصوب على الحال كأنه قال : وأسرّوه حال ما جعلوه بضاعة ولما جعل تعالى هذا البلاء سبباً لوصوله إلى مصر ، ثم صارت وقائعه إلى أن صار ملكاً بمصر ، وحصل ذلك الذي رآه في النوم ، فكان العمل الذي عمله الأعداء في دفعه عن ذلك المطلوب صيّره الله تعالى سبباً لحصول ذلك المطلوب ، فلهذا المعنى قال تعالى : ﴿ والله عليم ﴾ ، أي : بالغ العلم ﴿ بما يعملون ﴾ ، أي : لم يخف عليه ما فعلوه بيوسف وأبيهم .

﴿ وشروه ﴾ ، أي : باعوه إذ قد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال : شريت الشيء بمعنى بعته وإنما حمل هذا الشراء على البيع ؛ لأنّ الضمير في (شروه) وفي ﴿ كانوا فيه من الزاهدين ﴾ يرجع إلى شيء واحد ، وذلك أنّ إخوته زهدوا فيه فباعوه ، وقيل : إنّ الضمير يعود إلى مالك بن ذعر وأصحابه ، وعلى هذا يكون لفظ الشراء على بابه .

وقال محمد بن إسحاق : ربك أعلم أَإِخوته باعوه أم السيارة ، واختلفوا في معنى قوله تعالى : ﴿ بثمن بخس ﴾ فقال الضحاك: ، أي : حرام ، لأنّ ثمن الحرّ حرام وسمي الحرام بخساً ؛ لأنه مبخوس البركة . وقال ابن مسعود : أي : زيوف ، وقال عكرمة : أي : بثمن قليل ، ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ دراهم معدودة ﴾ لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان أقل من أربعين درهما إنما كانوا يأخذون ما دونها عداً ، فإذا بلغتها وهي أوقية وزنوها ، واختلفوا في عدد تلك الدراهم فقال ابن عباس : كانت عشرين درهماً فاقتسموها درهمين درهمين ، وعلى هذا لم يأخذ أخوه بنيامين شقيقه منها شيئاً ، وقال مجاهد : كانت اثنتين وعشرين درهماً . وقال عكرمة : أربعين درهماً . ﴿ وكانوا ﴾ ، أي : إخوته ﴿ فيه ﴾ ، أي : يوسف ﴿ من الزاهدين ﴾ لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله تعالى ، ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال : زهد فلان في كذا إذا لم يرغب فيه ، وأصله القلة ، يقال : رجل زهيد إذا كان قليل الطمع ، وقيل : كانوا في الثمن من الزاهدين ؛ لأنهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن ، وإنما

كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه . وقيل : الضمير في كانوا للسيارة ؛ لأنهم التقطوه ، والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل في بيعه لا جرم باعوه بأوكس الأثمان .

(312/394)

روي في الأخبار أنّ مالك بن ذعر انطلق هو وأصحابه بيوسف وتبعهم إخوته يقولون : استوثقوا منه ؛ لأنه آبق فذهبوا به حتى أتوا مصر وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير أو اطفير وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر ، والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العمالقة ، وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى ، واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله تعالى العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة ، وقيل : كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ (غافر ،) وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، وقيل : اشتراه العزيز بعشرين ديناراً وزوجي نعل وثوبين أبيضين .

وقال وهب بن منبه : قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهباً وزنه فضة ووزنه مسكاً وحريراً ، وكان وزنه أربعمائة رطل وكان عمره حينئذ سبع عشرة سنة ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ، فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن فذلك قوله تعالى:

﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته ﴾ واسمها زليخا وقيل : راعيل ﴿ أكرمي مثواه ﴾ قال الرازي : اعلم أن شيئاً من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت أيضاً في خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شيء من هذه الروايات فاللائق بالعاقل أن يحترز من ذكرها انتهى . ولكن البغوي ذكرها وتبعه على ذلك جماعة من المفسرين واللام في امرأته متعلقة بقال لا باشتراه ، والمثوى موضع الإقامة ، أي : اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ، أي : حسناً مرضياً بدليل قول يوسف : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكية حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ساكنة في كنفنا .

قال المحققون : أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه دون إكرام نفسه يدل على أنه كان ينظر إليه على سبيل الإجلال والتعظيم وهو كما يقال : سلام الله على المجلس العالي . ولما أمر بإكرام مثواه

علّل ذلك بأن قال : ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ ، أي : يقوم بإصلاح مهما تنا ، أو نبيعه بالربح إن أردنا بيعه ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ ، أي : نتبناه وكان حصوراً ليس له ولد .

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة العزيز في يوسف حيث قال لامرأته : ﴿ أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا ﴾ ، وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى : ﴿ استأجره ﴾ ، وأبو بكر في عمر حيث استخلفه . ﴿ وكذلك ﴾ ، أي : وكما نجيناه من القتل والجب وعطفنا عليه قلب العزيز ﴿ مكنا ليوسف في الأرض ﴾ ، أي : أرض مصر . قال البقاعي : التي هي كالأرض كلها لكثرة منافعها بالملك فيها لتمكنه من الحكم بالعدل والنبوّة ، وقوله تعالى : ﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ ، أي : تعبير الرؤيا عطف على مقدر متعلق بمكنا ، أي : لنمكنه أو الواو زائدة ﴿ والله غالب على أمره ﴾ ، أي : الأمر الذي يريده ؛ لأنه تعالى فعال لما يريد ، ولا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه في أرضه وسمائه أو على أمر يوسف أراد إخوته قتله ، فغلب أمره عليهم ، وأرادوا أن يلتقطه بعض السيارة ليندرس اسمه ، فغلب أمره وظهر اسمه واشتهر ، ثم باعوه ليكون مملوكاً فغلب الله أمره حتى صار ملكاً وسجدوا بين يديه ، ثم أرادوا أن يضرّوا أباهم ويطيبوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه فغلب أمره

تعالى فأظهره على مكرهم ، واحتالت عليه امرأة العزيز لتخدعه عن نفسه فغلب أمره تعالى فعصمه حتى لم يهمّ بسوء بل هرب منه غاية الهرب ، ثم بذلت جهدها في إذلاله وإلقاء التهمة عليه فأبى الله تعالى إلا إعزازه وبراءته ، ثم أراد يوسف عليه السلام ذكر الساقي له فغلب أمره تعالى فأنساه ذكره حتى مضى الأجل الذي ضربه الله تعالى له وكم من أمر كان في هذه القصة وفي غيرها يرشد إلى أنه لا أمر لغيره ﴿ ولكنّ أكثر الناس ﴾ وهم الكفار ﴿ لا يعلمون ﴾ أنّ الأمر كله

بيد الله تعالى ، أو أنّ أكثر الناس لا يعلمون ما هو صانع بيوسف وما يريد منه فمن تأمّل في الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن أنّ الأمر كله لله ، وأنّ قضاء الله تعالى غالب . ولما بين تعالى أنّ إخوته أساؤوا إليه وصبر على تلك الشدائد والمحن ومكنه في الأرض اتبعه الأمر بتمام النعمة عليه بقوله تعالى:

﴿ ولما بلغ أشدّه ﴾ ، أي : منتهى شبابه وقوّته وشدّته تقول العرب : بلغ فلان أشدّه إذا انتهى منتهاه في شبابه وقوّته ، وهذا اللفظ مستعمل في الواحد والجمع يقال : بلغ فلان أشدّه وبلغوا أشدّهم وهو ثلاث وثلاثون سنة . وقال السدي : بلغ ثلاثين سنة ، وقال الضحاك :

عشرين سنة. وقال الكلبي: الأشد ما بين ثمانية عشر إلى ثلاثين، وقيل: أقصاه اثنان وستون سنة. قال الأطباء: إنّ الإنسان يحدث في أوّل الأمر ويتزايد كل يوم شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهي إلى غاية الكمال، ثم يأخذ في التراجع إلى أن ينتهي إلى العدم والمحاق كالقمر.

﴿ آتيناه حكما ﴾، أي: حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكماً بين الناس

﴿ وعلماً ﴾، أي: علم تأويل الأحاديث، وقيل: المراد بالحكم النبوّة والرسالة.

وتقدّم أنّ قوله تعالى: ﴿ وأوحينا ﴾ أنه وحي حقيقة. قال الرازي: فلا يبعد أن يقال: إنّ ذلك الوحي إليه في ذلك الوقت لا لأجل بعثته إلى الخلق بل لأجل تقوية قلبه وإزالة الحزن عن صدره؛ ولأجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام ﴿ وكذلك ﴾، أي: ومثل ذلك الجزاء الذي جزيناه به ﴿ نجزي المحسنين ﴾ قال ابن عباس: يعني المؤمنين، وعنه أيضاً يعني المهتدين، وقال الضحاك: يعني الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام. وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله. ولما أخبر تعالى أنّ سبب النعمة عليه إحسانه اتبعه دليله فقال تعالى:

﴿ وراودته التي هو في بيتها ﴾ ، أي : امرأة العزيز راودت يوسف ﴿ عن نفسه ﴾ لأنها لما رأته في غاية الحسن والجمال طمعت فيه ، ويقال : إنّ زوجها كان عاجزاً ، والمراودة مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب كان المعنى خادعته عن نفسه ، أي : فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهو عبارة عن التمحل لمواقعته إياها ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ ، أي : أطبقتها وكانت سبعة ، والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الإيثاق ، لأنّ مثل هذا الفعل لا يكون إلا في ستر وخفية لا سيما إذا كان حراماً ومع قيام الخوف الشديد ﴿ وقالت ﴾ له ﴿ هيت ﴾ أي تهيأت وتصنعت ﴿ لك ﴾ خاصة فأقبل إليّ وامتثل أمري . قال الواحدي : هيت لك اسم للفعل نحو رويد وصه ومه ، ومعناه : هلم في قول جميع أهل اللغة ، وقرأ نافع وابن عامر بكسر الهاء ، والباقون بالفتح قرأ وهشام بعد الهاء بهمزة ساكنة ، والباقون بياء ساكنة ، وقرأ ابن كثير بضم التاء وفتحها ، والباقون بالفتح ﴿ قال ﴾ لها يوسف عليه السلام ﴿ معاذ الله ﴾ ، أي : أعوذ بالله وأعتصم به وألجأ إليه مما تدعينني إليه ﴿ إنه ﴾ ، أي : الذي اشتراني ﴿ ربي ﴾ ، أي : سيدي ﴿ أحسن مثواي ﴾ ، أي : أكرم منزلي فلا أخونه في أهله وقيل : إنه أي : الله ربي أحسن مثواي ، أي : آواني ومن بلاء الجب أنجاني ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ ، أي : إن فعلت هذه الفعلة فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون .

﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ ، أي : قصدت مخالطته وقصد مخالطتها ، والهمَّ بالشيء قصده والعزم عليه ، ومنه الهمام وهو الذي إذا هم بشيء أمضاه والمراد بهمته ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري ، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهمّ ، ولهذا قال بعض أهل الحقائق : الهمّ قسمان : همّ ثابت وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز ، فالعبد مأخوذ به ، وهمّ عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام ، والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل ، كما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : "يقول الله عز وجل : إذا تحدّث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها حسنة ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشرة أمثالها ، وإذا تحدّث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها" .

قال في "الكشاف" : ويجوز أن يريد بقوله : ﴿ وهم بها ﴾ شارف أن يهم بها كما يقول الرجل : قتلته لو لم أخف الله ، يريد مشارفة القتل ومشافهته كأنّه شرع فيه ﴿ لولا أن رأى ﴾ ، أي : بعين قلبه ﴿ برهان ربه ﴾ ، أي : الذي آتاه إياه من الحكم والعلم ، أي : لهمّ بها لكنه كان البرهان حاضراً لديه حضور من يراه بالعين فلم يهمّ أصلاً مع كونه في غاية الاستعداد لذلك لما آتاه الله تعالى من القوّة مع كونه في سن الشباب ، فلولا المراقبة لهمّ بها لتوفر الداعي غير أنّ نور الشهود محاها أصلاً ، وهذا التقدير هو اللائق بمثل مقامه عليه السلام مع أنه الذي تدلّ عليه أساليب هذه الآيات من جعله من المخلصين والمحسنين المصروف عنهم السوء وأنّ السجن أحب إليه من ذلك مع قيام القاطع على كذب ما تضمنه قولها : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ الآية من مطلق الإرادة ومع ما يتحتم من تقدير ما ذكر بعد لولا في خصوص هذا التركيب من أساليب كلام العرب ، فإنه يجب أن يكون المقدّر بعد كل شرط من معنى ما دل عليه ما قبله ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ (القصص ،) ، أي : لأبدت به ، وأما ما ورد عن السلف مما يعارض ذلك من تفسيرهم بها بأن حل الهيمان وجلس بها مجلس المجامع وبأنه حلّ تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها ، ومن تفسير البرهان بأنه سمع صوتاً : إياك وإياها فلم يكترث له ، فسمعه ثانياً فلم يعمل به ، فسمعه ثالثاً أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على أنملته ، وقيل : ضرب بيده على صدره

فخرجت شهوته من أنامله ، وقيل : كل ولد يعقوب ولد له اثنا عشر ولداً إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين همّ ، وقيل : صيح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنا قعد لا ريش له ، وقيل : بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها : ﴿ وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ (الأنفطار ، ،)

(319/394)

فلم ينصرف

ثم رأى فيها : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ (الإسراء ،) فلم ينته ثم رأى فيها ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ (البقرة ،) فلم ينجع فيه فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام : أدرك عبدي قبل أن يدرك الخطيئة ، فانحط جبريل وهو يقول : يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء ؟ وقيل : رأى تمثال العزيز . d وقيل : قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت : أستحي أن يرانا ، فقال يوسف : استحيت مما لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع العليم بذات الصدور ، فلم يصح منه شيء عن أحد منهم مع أنّ هذه الأقوال التي وردت عنهم إذا جمعت تناقضت وتكاذبت . قال الزمخشريّ : وهذا ونحوه ممن يورده أهل الجبر والحشو الذين دينهم بهت الله

وأنبيائه فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدّي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدي بنبيّ من أنبياء الله تعالى فيما ذكروه وأهل العدل والتوحيد .ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل وأطال في ردّ ذلك ، وكذا فعل الرازي .

وقيل : وهمّ بها ، أي : بزجرها ووعظها . وقيل : همّ بها ، أي : غمه امتناعه منها . وقيل : همّ بها ، أي : نظر إليها وقيل : همّ بضربها ودفعها . وقيل : هذا كله قبل نبوّته ، وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن إلى يوسف عليه السلام ميل شهوة حتى نبأه الله تعالى فألقى عليه هيبة النبوّة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه ﴿ كذلك ﴾ ، أي : مثل ذلك التثبيت نثبته في كل أمر ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ ، أي : الهمّ بالزنا وغيره ﴿ والفحشاء ﴾ أي : الزنا وغيره ، وقيل : السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة ، والفحشاء هي الزنا ، فكأنه قيل : لم فعل به هذا ؟ فقيل : ﴿ إنه من عبادنا ﴾ ، أي : الذين عظمناهم ﴿ المخلصين ﴾ ، أي : في عبادتنا الذين هم خير صرف لا يخالطهم غش ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام بعد الخاء ، والباقون بالفتح .

قال الرازي : فوروده باسم الفاعل دل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص ، ووروده باسم المفعول يدلّ على أنّ الله تعالى استخلصه واصطفاه لحضرته ، وعلى كلا اللفظين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه وهذا مع قول إبليس : ﴿ لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (الحجر : ،) شهادة من إبليس أنّ يوسف عليه السلام بريء من الهمّ فمن نسبه إلى الهمّ إن كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته ، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ، قال : ولعلهم يقولون كنا في أوّل الأمر تلامذة إبليس إلا أنا زدنا وفجرنا عليه في السفاهة كما قال الجزوري:

*وكنت فتى من جند إبليس فارتقى ** بي الأمر حتى صار إبليس من جندي

*فلو مات قبلي كنت أحسن بعده ** طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

ثم ذكر سبحانه وتعالى مبالغة في الامتناع بالجدّ في الهرب دليلاً على إخلاصه وأنه لم يهمّ أصلاً فقال:

﴿ واستبقا الباب ﴾ ، أي : أوجد المسابقة بغاية الرغبة من كل منهما هذا للهرب منها ، وهذه لمنعه ، فكل منهما بذل أقصى جهده في السبق ، فلحقته عند الباب الأقصى مع أنه قد كان سبقها بقوّة الرجولية وقوّة الداعية إلى الفرار إلى الله تعالى ، ولكن عاقه إتقانها للمكر بكون الأبواب كانت مغلقة فكان يشتغل بفتحها فتعلقت بأدنى ما وصلت إليه من قميصه وهو ما كان من ورائه خوف فواته فاشتد تعلقها به مع إعراضه هو عنها وهربه منها ففتحه فأراد الخروج فمنعته ﴿ و ﴾ لم تزل تنازعه حتى ﴿ قدّت ﴾ ، أي : شقت ﴿ قميصه ﴾ وكان القدّ ﴿ من دبر ﴾ ، أي : الناحية من الخلف منه ، وانقطعت منه قطعة فبقيت في يدها ﴿ وألفيا ﴾ ، أي : وجدا ﴿ سيدها ﴾ ، أي : زوجها قطفير وهو العزيز تقول المرأة لبعلها : سيدي ولم يقل : سيدهما ؛ لأنّ ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيداً له على الحقيقة ﴿ لدى ﴾ ، أي : عند ﴿ الباب ﴾ جالساً مع ابن عمّ المرأة . فإن قيل : كيف وحد الباب وقد جمعه في قوله : ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ ؟

أجيب : . بأنه أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار ، فقد روى كعب الأحبار : أنّ يوسف لما هرب جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب فلما رأت المرأة ابن عمها هابته وخافت التهمة فسابقت يوسف بالقول و ﴿ قالت ﴾ لزوجها ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ ، أي : فاحشة زنا أو غيره ، ثم خافت عليه أن يقتل وذلك لشدّة حبها له فقالت : ﴿ إلا أن يسجن ﴾ ، أي : يحبس في السجن ويمنع

التصرّف ﴿ أو عذاب أليم ﴾ ، أي : مؤلم بأن يضرب بالسياط ونحوها ، وإنما بدأت بالسجن قبل العذاب ؛ لأنّ المحب لا يشتهي إيلام المحبوب ، وإنما أرادت أن يسجن عندها يوماً أو يومين ولم ترد السجن الطويل فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة ، بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين ، ألا ترى أن فرعون هكذا قال في حق موسى عليه السلام في قوله : ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ (الشعراء ،) . فلما سمع يوسف عليه السلام مقالتها

﴿ قال ﴾ مبرئاً نفسه ﴿ هي ﴾ بضمير الغيبة لاستحيائه بمواجهتها بإشارة أو ضمير خطاب ﴿ راودتني عن نفسي ﴾ ، أي : طلبت مني الفاحشة فأبيت وفررت منها ، وذلك أنّ يوسف عليه السلام ما كان يريد أن يذكر ذلك القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج إلى إزالة هذه التهمة عن نفسه ، وصدقه لعمري فيما قال لا يحتاج إلى بيان أكثر من الحال الذي كان فيه وهو أنهما عند الباب ولو كان الطلب منه لما كان إلا في محلها الذي تجلس فيه وهو صدر البيت وأشرف موضع فيه ، وأيضاً هو عبد لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحال ، وأيضاً أنّ المرأة زينت نفسها على

أكمل الوجوه ، وأما يوسف فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى .

ثم إنه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلاً آخر يقوي تلك الدلائل المذكورة ، ويدل على أنه بريء من الريب وأنّ المرأة هي المذنبة وهو قوله تعالى : ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ ، أي : وحكم حاكم من أهل المرأة ، واختلفوا في هذا الشاهد ، فقال سعيد بن جبير والضحاك : كان صبياً في المهد أنطقه الله تعالى كرامة ليوسف عليه السلام .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "تكلم في المهد أربعة وهم صغار شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى ابن مريم وصاحب جريج الراهب" رواه الإمام أحمد ، وفي الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال : "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ؛ عيسى ابن مريم وصاحب جريج وصبيّ كان يرضع أمّه فمرّ راكب حسن الهيئة فقالت أمّه : اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي : اللهم لا تجعلني مثله" وبهذا الاعتبار صاروا خمسة وزاد الثعلبي سادساً وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام وزاد غيره على ذلك ، ولعل الحصر فيما ذكر في الحديث كان قبل العلم بالزيادة فلا تناقض وأوصلهم السيوطي إلى أحد عشر ونظمهم فقال:

*تكلم في المهد النبي محمد ** ويحيى وعيسى والخليل ومريم

*ومبري جريج ثم شاهد يوسف ** وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم

*وطفل عليه مرّ بالأمّة التي ** يقال لها تزني ولا تتكلم

*وماشطة في عهد فرعون طفلها ** وفي زمن الهادي المبارك يختم

وقالت طائفة عظيمة من المفسرين : إنها كان لها ابن عم وكان رجلاً حكيماً واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال : قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص إلا أنّا لا ندري أيكما قدّام صاحبه ولكن ﴿ إن كان قميصه قدّ من قبل ﴾ ، أي : من قدام ﴿ فصدقت وهو من الكاذبين ﴾ ﴿ وإن كان قميصه قد من دبر ﴾ ، أي : من خلف ﴿ فكذبت وهو من الصادقين ﴾ لأنه لولا إدباره منها وإقبالها عليه لما وقع ذلك ، فعرف سيدها صحة ذلك بلا شبهة كما قال تعالى:

﴿ فلما رأى ﴾ ، أي : سيدها ﴿ قميصه ﴾ ، أي : يوسف عليه السلام ﴿ قدّ من دبر قال ﴾ لها زوجها قطفير وقد قطع بصدقه وكذبها مؤكداً لأجل إنكارها ﴿ إنه ﴾ ، أي : هذا القذف له ﴿ من كيدكن ﴾ معشر النساء ، والكيد طلب الإنسان بما يكره ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ والعظيم ما ينقص مقدار غيره عنه حساً أو معنى . فإن قيل : كيف وصف كيد النساء بالعظم مع قوله تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ (النساء ،) وهلا كان مكر الرجال أقوى من مكر النساء ؟

أجيب : بأنّ الإنسان ضعيف بالنسبة لخلق ما هو أعظم منه كخلق السموات والأرض وبأن كيدهنّ أدق من كيد الرجال وألطف وأخفى ؛ لأنّ الشيطان عليهنّ لنقصهنّ أقدر ومكرهنّ في هذا الباب أعظم من كيد جميع البشر ؛ لأنّ لهنّ من المكر والحيل والكيد في إتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب ؛ ولأنّ كيدهنّ في هذا الباب يورث العار ما لا يورثه كيد الرجال ، ولما ظهر للقوم براءة يوسف من ذلك الفعل المنكر حكى تعالى أنه قال:

﴿ يوسف ﴾ ، أي : يا يوسف ﴿ أعرض ﴾ ، أي : انصرف بكليتك مجاوزاً ﴿ عن هذا ﴾ الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يشيع وينشر بين الناس ، ثم التفت إلى المرأة وقال لها : ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ ، أي : توبي إلى الله تعالى مما رميتي يوسف به من الخطيئة وهو بريء منها ﴿ إنك كنت من الخاطئين ﴾ ، أي : الآثمين .

قال أبو بكر الأصم : إنّ ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار ، وقيل : إنّ القائل المذكور هو الشاهد . فإن قيل : كيف قال من الخاطئين بلفظ التذكير ؟

أجيب : بأنه قال ذلك تغليباً للذكور على الإناث أو أن المراد أنك من نسل الخاطئين ، فمن

ذلك النسل سرى ذلك العرق الخبيث فيك ، ثم شاع الخبر واشتهر . انتهى انتهى . ا هـ
﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 128 . 151 ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :
﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾
المراودة : الإرادة والطلب برفق ولين وقيل : هي مأخوذة من الرود أي : الرفق والتأني ، يقال أرودني : أمهلني .
وقيل : المراودة مأخوذة من راد يرود إذا جاء وذهب .
كأن المعنى : أنها فعلت في مراودتها له فعل المخادع ، ومنه الرائد لمن يطلب الماء والكلأ ، وقد يخص بمحاولة الوقاع فيقال : راود فلان جاريته عن نفسها ، وراودته هي عن نفسه : إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع ، وهي مفاعلة ، وأصلها أن تكون من الجانبين ، فجعل السبب هنا في أحد الجانبين قائماً مقام المسبب ، فكأن يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق والزيادة في الحسن سبباً لمراودة امرأة العزيز له مراود .
وإنما قال : ﴿ التى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ ولم يقل : امرأة العزيز ، وزليخا قصداً إلى زيادة التقرير

مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها ﴿ وَغَلَّقَتِ الأبواب ﴾ قيل : في هذه الصيغة ما يدلّ على التكثير ، فيقال : غلق الأبواب ، ولا يقال : غلق الباب ، بل يقال : أغلق الباب ، وقد يقال : أغلق الأبواب ، ومنه قول الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء :

ما زلت أغلق أبواباً وأفتحها . . . حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

قيل : وكانت الأبواب سبعة .

قوله : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

قرأ أبو عمرو ، وعاصم ، والكسائي ، وحمزة ، والأعمش بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء ، وبها قرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة .

قال ابن مسعود : لا تنطعوا في القراءة ، فإنما هو مثل قول أحدكم : هلمّ وتعال ، وقرأ ابن أبي إسحاق النحوي بفتح الهاء وكسر التاء .

وقرأ عبد الرحمن السلمي وابن كثير " هيت " بفتح الهاء وضم التاء ، ومنه قول طرفة :

كَيْسَ قومي بالأبعدين إذا ما . . . قال داع من العشيرة هَيتُ

وقرأ أبو جعفر ونافع بكسر الهاء وسكون الياء وفتح التاء .

وقرأ عليّ وابن عباس في رواية عنه وهشام بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة وضم التاء .

وقرأ ابن عامر وأهل الشام بكسر الهاء وبالهمزة وفتح التاء .

ومعنى "هيت" على جميع القراءات معنى هلمّ وتعال ؛ لأنها من أسماء الأفعال إلاّ في قراءة

من قرأ بكسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة .

فإنها بمعنى : تهيأت لك .

وأنكر أبو عمرو هذه القراءة .

وقال أبو عبيدة : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء والهمزة وضم التاء فقال :

باطل جعلها بمعنى تهيأت ، اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهي إلى اليمن ، هل تعرف

أحداً يقول هكذا ؟ وأنكرها أيضاً الكسائي .

وقال النحاس : هي جيدة عند البصريين ؛ لأنه يقال : هاء الرجل يهاء ويهيء هيئة ،

ورجح الزجاج القراءة الأولى ، وأنشد بيت طرفة المذكور هيتا بالفتح ، ومنه قول الشاعر

في عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه :

أبلغ أمير المؤمنين . . . أخا العراق إذا أتيتا

أن العراق وأهله . . . سلم إليك فهيت هيتا

وتكون اللام في ﴿ لَكَ ﴾ على القراءات الأولى التي هي فيها بمعنى اسم الفعل للبيان ، أي : لك .

أقول هذا كما في هلمّ لك .

قال النحويون : هيت جاء بالحركات الثلاث : فالفتح للخفة ، والكسر لالتقاء الساكنين ، والضم تشبيهاً بحيث ، وإذا بين باللام نحو : ﴿ هيت لك ﴾ فهو صوت قائم مقام المصدر كأف له ، أي : لك أقول هذا ، وإن لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل ، إما خبر أي : تهيأت ، وإما أمر أي : أقبل .

وقال في الصحاح : يقال : هوّت به وهيت به إذا صاح به ودعاه ، ومنه قول الشاعر :

يحدو بها كل فتى هيات . . . وقد روي عن ابن عباس والحسن أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه إلى نفسها .

قال أبو عبيدة : كان الكسائي يقول : هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناها تعال .

قال أبو عبيدة : فسألت شيخاً عالماً من حوران فذكر أنها لغتهم .

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أي : أعوذ بالله معاذاً مما دعوتني إليه ، فهو مصدر منتصب بفعل محذوف مضاف إلى اسم الله سبحانه ، وجملة ﴿ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز ، والضمير للشأن أي : إن الشأن ربي ، يعني : العزيز أي سيدي الذي رباني وأحسن مثواي حيث أمرك بقوله : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ ، فكيف أخونه في أهله وأجيبك إلى ما تريدين من ذلك ؟ وقال الزجاج : إن الضمير لله سبحانه أي : إن الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرّمه ، وجملة ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها ، والفلاح : الظفر .

والمعنى : أنه لا يظفر الظالمون بمطالبهم ، ومن جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية التي تطلبها امرأة العزيز من يوسف .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ يقال : همّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه .

والمعنى : أنه همّ بمخالطتها كما همت بمخالطته ومال كل واحد منهما إلى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجبلة الخلقية ، ولم يكن من يوسف عليه السلام القصد إلى ذلك اختياراً كما يفيده ما تقدّم من استعاذته بالله ، وإن ذلك نوع من الظلم .

ولما كان الأنبياء معصومين عن الهمّ بالمعصية والقصد إليها شطح أهل العلم في تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلف ، فمن ذلك ما قاله أبو حاتم قال : كنت أقرأ على أبي عبيدة غريب

القرآن ، فلما أتيت على ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ قال : هذا على التقديم والتأخير : كأنه قال : ولقد همت به

ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها .

وقال أحمد بن يحيى ثعلب : أي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرّة ، وهمّ يوسف ولم يوقع ما همّ به ، فبين الهمين فرق ، ومن هذا قول الشاعر :

هممت بهم من ثنية لؤلؤ . . . شفيت غليلات الهوى من فؤاديا

فهذا إنما هو حديث نفس من غير عزم ، وقيل همّ بها بمعنى تمنى أن يتزوّجها .

وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف إلى ما قدّمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوي ، ويدل على هذا ما سيأتي من قوله : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ [يوسف : 52] ، وقوله : ﴿ وَمَا أُبَرّىء نَفْسِى إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ [يوسف : 53] ومجرد الهمّ لا ينافي العصمة ، فإنها قد وقعت العصمة عن الوقوع في المعصية ، وذلك المطلوب ، وجواب " لو " في ﴿ لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبّهِ ﴾ محذوف : أي لولا أن رأى برهان ربه لفعل ما همّ به .

واختلف في هذا البرهان الذي رآه ما هو؟ فقيل: إن زليخا قامت عند أن همت به وهمّ بها إلى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني على هذه الصورة، فقال يوسف: أنا أولى أن أستحي من الله تعالى.

وقيل: إنه رأى في سقف البيت مكتوباً ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء: 32].

وقيل: رأى كفاً مكتوباً عليها ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين ﴾ [الانفطار: 10] وقيل إن البرهان هو تذكره عهد الله وميثاقه وما أخذه على عباده.

وقيل: نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؟ وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدار عاضاً على أنملته يتوعده، وقيل غير ذلك مما يطول ذكره.

والحاصل أنه رأى شيئاً حال بينه وبين ما همّ به.

قوله: ﴿ كذلك لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء والفحشاء ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف، والإشارة بذلك إلى الإراءة المدلول عليها بقوله: ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبّهِ ﴾ أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك أي: مثل تلك الإراءة أريناه، أو مثل ذلك التثبيت ثبتناه.

﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء ﴾ أي: كل ما يسوؤه، والفحشاء كل أمر مفرط القبح.

وقيل : السوء الخيانة للعزيز في أهله ، والفحشاء : الزنا ؛ وقيل : السوء الشهوة ، والفحشاء : المباشرة ؛ وقيل : السوء الثناء القبيح .

والأولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولاً أولياً ، وجملة ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ تعليل لما قبله .

قرأ ابن عامر ، وابن كثير ، وأبو عمرو " المخلصين " بكسر اللام ، وقرأ الآخرون بفتحها .

والمعنى على القراءة الأولى : أن يوسف عليه السلام كان ممن أخلص طاعته لله ، وعلى الثانية أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة ، وقد كان عليه السلام مخلصاً مستخلصاً .

﴿ واستبقا الباب ﴾ أي : تسابقا إليه ، فحذف حرف الجرّ وأوصل الفعل بالمفعول ، أو ضمن الفعل معنى فعل آخر يتعدّى بنفسه كابتدرا الباب ، وهذا الكلام متصل بقوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ وما بينهما اعتراض .

ووجه تسابقهما أن يوسف يريد الفرار والخروج من الباب ، وامرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه ، ووحد الباب هنا وجمعه فيما تقدّم ، لأن تسابقهما كان إلى الباب الذي يخلص منه إلى خارج الدار ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ أي : جذبت قميصه من ورائه فانشق إلى أسفله ، والقدّ : القطع ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً ، والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضاً ، وقع منها ذلك عند أن فرّ يوسف لما رأى برهان ربه ، فأرادت أن تمنعه من الخروج

بجذبها لقميصه ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لدى الباب ﴾ أي : وجدا العزيز هنالك ، وعني بالسيد : الزوج لأن القبط يسمون الزوج سيداً ، وإنما لم يقل : سيدهما ، لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحاً فلم يكن سيداً له .

وجملة ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فما كان منهما عند أن ألفيا سيدها لدى الباب ، و " ما " استفهامية ، والمراد بالسوء هنا الزنا .

قالت هذه المقالة طلباً منها للحيلة وللستر على نفسها ، فنسبت ما كان منها إلى يوسف أيّ : جزاء يستحقه من فعل مثل هذا ، ثم أجابت عن استفهامها بقولها : ﴿ إِلا أَن يُسْجَنَ ﴾ أي : ما جزاؤه إلاّ أن يسجن ، ويحتمل أن تكون " ما " نافية أي : ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم .

قيل : والعذاب الأليم هو الضرب بالسياط ، والظاهر أنه ما يصدق عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره ، وفي الإبهام للعذاب زيادة تهويل .

وجملة ﴿ قَالَ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ مستأنفة كالجملة الأولى .

وقد تقدّم بيان معنى المراودة أي : هي التي طلبت مني ذلك ولم أرد بها سوءاً ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أي : من قرابتها ، وسمي الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل ، قيل : لما التبس الأمر على العزيز احتاج إلى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب .

قيل : كان ابن عمّ لها واقفاً مع العزيز في الباب .

وقيل : ابن خال لها .

وقيل : إنه طفل في المهد تكلم .

قال السهيلي : وهو الصحيح للحديث الوارد في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر من تكلم في المهد ، وذكر من جملتهم شاهد يوسف .

وقيل : إنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره في أموره ، وكان من قرابة المرأة ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ أي : فقال الشاهد هذه المقالة مستدلاً على بيان صدق الصادق منهما ، وكذب الكاذب ، بأن قميص يوسف إن كان مقطوعاً من قبل : أي من جهة القبل ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ أي : فقد صدقت بأنه أراد بها سوءاً ﴿ وَهُوَ مِنَ الكاذبين ﴾ في قوله إنها راودته عن نفسه .

وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق " من قبل " بضم اللام ، وكذا قرأ " من دبر " قال

الزجاج: جعلاهما غايتين كقبل وبعد كأنه قيل: من قبله ومن دبره، فلما حذف المضاف إليه: وهو مراد صار المضاف غاية بعد أن كان المضاف إليه هو الغاية.

(331/394)

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ أي: من ورائه ﴿ فَكَذَّبَتْ ﴾ في دعواها عليه ﴿ وَهُوَ مِن الصادقين ﴾ في دعواه عليها، ولا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدّميهما وتاليهما، لا عقلاً ولا عادة، وليس ها هنا إلاّ مجرد أمارة غير مطردة، إذ من الجائز أن تجذبه إليها وهو مقبل عليها فينقدّ القميص من دبر، وأن تجذبه وهو مدبر عنها فينقدّ القميص من قبل.

﴿ فَلَمَّا رَأَى ﴾ أي: العزيز ﴿ قَمِيصِهِ ﴾ أي: قميص يوسف ﴿ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ ﴾ أي: هذا الأمر الذي وقع فيه الاختلاف بينكما، أو أن قولك: ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءا ﴾ ﴿ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ أي: من جنس كيدكنّ يا معشر النساء ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ والكيد: المكر والحيلة.

ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ أي: عن هذا الأمر الذي جرى واكتمه ولا تتحدّث به، ثم أقبل عليها بالخطاب فقال: ﴿

واستغفري لِذَنبِكِ ﴾ الذي وقع منك ﴿ إِنَّكِ كُنتَ ﴾ بسبب ذلك ﴿ مِنَ الخاطئين ﴾ أي : من جنسهم ، والجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار ولم يقل من الخاطئات تغليباً للمذكر على المؤنث كما في قوله : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ [التحريم : 12] ومعنى ﴿ من الخاطئين ﴾ من المتعمدين ، يقال : خطىء إذا أذنب متعمداً ، وقيل : إن القائل ليوسف ولامرأة العزيز بهذه المقالة هو الشاهد الذي حكم بينهما .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ التى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ قال : هي امرأة العزيز .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : راودته حين بلغ مبلغ الرجال .

وأخرج أبو عبيد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ قال : هلمّ لك تدعوه إلى نفسها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه قال : هلم لك بالقبطية ، وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : هي كلمة بالسريانية أي : عليك .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : معناها تعال .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد : إنها لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها .

وأخرج أبو عبيد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قرأ : (هئت لك) مكسورة الهاء مضمومة التاء مهموزة ، قال : تهيأت لك .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّى ﴾ قال : سيدي ، قال : يعني زوج المرأة .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : لما همت به تزينت ثم استلقت على فراشها ، ﴿ وهمّ بها ﴾ جلس بين رجليها يحلّ ثيابه ، فنودي من السماء يا ابن يعقوب لا تكن كطائر نتف ريشه ، فبقي لا ريش له ، فلم يتعظ على النداء شيئاً حتى رأى برهان ربه جبريل في صورة يعقوب ، عاضاً على أصبعه ، ففزع فخرجت شهوته من أنامله ، فوثب إلى الباب فوجده مغلقاً ، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفرج له ، واتبعته فأدركته ، فوضعت يديها في قميصه فشقته حتى بلغت عضلة ساقه ، فألفيا سيدها لدى الباب .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ قال : طمعت فيه وطمع فيها ، وكان فيه من الطمع أن همّ بحل التكة ، فقامت إلى صنم لها مكلل

بالدرّ والياقوت في ناحية البيت ، فسترته بثوب أبيض بينها وبينه ، فقال : أيّ شيء تصنعين ؟ فقالت : أستحي من إلهي أن يراني على هذه السوءة ، فقال يوسف : تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ، ولا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ثم قال : لا تناليها مني أبداً ، وهو البرهان الذي رأى .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال : مثل له يعقوب ، فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله .

وقد أطال المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه ، واختلفت أقوالهم في ذلك اختلافاً كثيراً .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال : السيد الزوج ، يعني في قوله : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لدى الباب ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال : القيد .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ

مّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال : صبي أنطقه الله كان في الدار .

وأخرج أحمد ، وابن جرير ، والبيهقي ، في الدلائل عن ابن عباس ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم " وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال : كان رجلاً ذا لحية .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وأبو الشيخ عنه قال : كان من خاصة الملك .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن الحسن قال : هو رجل له فهم وعلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : ابن عمّ لها كان حكيماً .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد قال : إنه ليس بإنسيّ ولا جنيّ هو خلق من خلق الله .

قلت : ولعله لم يستحضر قوله تعالى : ﴿ مّنْ أَهْلِهَا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والتسعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والتسعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 30 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 34 ﴾ من نفس السورة

(4/395)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان في هذا من شرف العفة ما يدل على كمال العصمة ، وأكده تعالى بما يدل على تسامي حسنه وتعالي جماله ولطفه ، لأن العادة جرت بأن ذلك كان بعضه لأحد كان مظنة لميله ، لتوفير الدواعي على الميل إليه ، فقال تعالى : ﴿ وقال نسوة ﴾ أي جماعة من النساء لما شاع الحديث ؛ ولما كانت البلدة كلما عظمت كان أهلها أعقل وأقرب إلى الحكمة ، قال

: ﴿ في المدينة ﴾ أي التي فيها امرأة العزيز ساكنة ﴿ امرأت العزيز ﴾ فأضفنها إلى زوجها إرادة الإشاعة للخبر ، لأن النفس إلى سماع أخبار أولى الأخطار أميل ؛ والعزيز : المنيع بقدرته من أن يضام ، فالعزة أخص من مطلق القدرة ، وعبرن بالمضارع في ﴿ تراود فتاها ﴾ أي عبدها نازلة من افتراش العزيز إلى افتراشه ﴿ عن نفسه ﴾ إفهاماً لأن الإصرار على المراودة صار لها كالسجية ؛ والفتى : الشاب ، وقيده الرماني بالقوي ، قال : وقال الزجاج : وكانوا يسمون المملوك فتى شيخاً كان أو شاباً ، ففيه اشتراك على هذا ﴿ قد شغفها ﴾ ذلك الفتى ﴿ حباً ﴾ أي من جهة الحب ، قال الرماني : شغاف القلب غلافه ، وهو جلدة عليه ، يقال : دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب ، عن السدى وأبي عبيدة وعن الحسن أنه باطن القلب ، وعن أبي علي : وسط القلب -انتهى .

والذي قال في المجمل وغيره أنه غلاف القلب ، وأحسن من توجيه أبي عبيدة له أن حبه صار شغافاً لها ، أي حجاباً ، أي ظرفاً محيطاً بها ، وأما " شعفها " - بالمهملة فمعناه : غشى شعفة قلبها ، وهي رأسه عند معلق النياط ، وقال الرماني : أي ذهب بها كل مذهب ، من شعف الجبال ، وهي رؤوسها .

ولما قيل ذلك ، كان كأنه قد قيل : فكان ماذا ؟ فقيل - وأكد لأن من رآه عذرها وقطع بأنهن لو كن في محلها عملن عملها ولم يضللن فعلها : ﴿ إنا لنراها ﴾ أي نعلم أمرها علماً هو كالرؤية ﴿ في ضلال ﴾ أي محيط بها ﴿ مبين ﴾ لرضاها لنفسها بعد عز السيادة بالسفول عن رتبة العبد ، ودل بالفاء على أن كلامهن نقل إليها بسرعة فقال : ﴿ فلما سمعت ﴾ أي امرأة العزيز ﴿ بمكرهن ﴾ وكأنهن أردن بهذا الكلام أن يتأثر عنه ما فعلت امرأة العزيز ليرينه ، فلذلك سماه مكراً ﴿ أرسلت إليهن ﴾ لتريهن ما يعذرنها بسببه فتسكن قالتُهن ﴿ وأعتدت ﴾ أي هيأت وأحضرت ﴿ لهن متكأً ﴾ أي ما يتكئن عليه من الفرش اللينة والوسائد الفاخرة ، فأتينها فأجلستهن على ما أعدته لهن ﴿ وأتت كل واحدة ﴾ على العموم ﴿ منهن سكيناً ﴾ ليقطعن بها ما يحتاج إلى القطع مما يحضر من الأطعمة في هذا المجلس ؛ قال أبو حيان : فقيل : كان لحماً ، وكانوا لا ينهشون اللحم ، إنما كانوا يأكلونه حزاً بالسكاكين .

وقال الرماني : ليقطعن فاكهة قدمت إليهن - انتهى .

هذا الظاهر من علة إتيانهن وباطنه إقامة الحجة عليهن بما لا يجدن له مدفعاً مما يتأثر عن ذلك ﴿ وقالت ﴾ ليوسف فتاها عليه الصلاة والسلام ﴿ اخرج عليهن ﴾ فامتثل له ما أمرته به كما هو دأبه معها في كل ما لا معصية فيه ، وبادر الخروج عليهن ﴿ فلما رأينه ﴾ أي النسوة ﴿ أكبرنه ﴾ أي أعظمن يوسف عليه الصلاة والسلام جداً إعظاماً كرّبهن

﴿ وقطعن ﴾ أي جرحن جراحات كثيرة ﴿ أيديهن ﴾ وعاد لومهن عذراً ، والتضعيف يدل على التكثير ، فكأن السكين كانت تقع على يد إحداهن فتجرحها فترفعها عن يدها بطبعها ، ثم يغلبها الدهش فتقع على موضع آخر وهكذا ﴿ وقلن حاش ﴾ أي تنزيهاً عظيماً جداً ﴿ لله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له صفات الكمال التي خلق بها مثل هذا .

(6/395)

ولما كان المراد بهذا التنزيه تعظيمه ، بينه بقولهن : ﴿ ما هذا بشراً ﴾ لأنه فاق البشر في الحسن جداً ، وأعرض عن الشهوة من غير علة ، نراها مانعة له لأنه في غاية القوة والفحولية ، فكأنه قيل : فما هو؟ فقلن : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هذا ﴾ أي في هذا الحسن والجمال ، وأعدن الإشارة دفعاً لإمكان الغلط ﴿ إلا ملك كريم ﴾ وذلك لما ركز في الطباع من نسبة كل معنى فائق إلى الملائكة من الحسن والعفة وغيرهما وإن كانوا غير مرئيين ، كما ركز فيها نسبة ضد ذلك إلى الجن والشياطين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 33 . 35 ﴾

(7/395)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

لم لم يقل : ﴿ وَقَالَت نِسْوَةٌ ﴾ قلنا لوجهين : الأول : أن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث ، الثاني : قال الواحدي تقديم الفعل يدعو إلى إسقاط علامة التأنيث على قياس إسقاط علامة التثنية والجمع .

المسألة الثانية :

قال الكلبي : هن أربع ، امرأة ساقي العزيز .

وامرأة خبازه وامرأة صاحب سجنه .

وامرأة صاحب دوابه ، وزاد مقاتل وامرأة الحاجب .

والأشبه أن تلك الواقعة شاعت في البلد واشتهرت وتحدث بها النساء .

وامرأة العزيز هي هذه المرأة المعلومة ﴿ تُرَاوِدُ فتاها عَن نَّفْسِهِ ﴾ الفتى الحدث الشاب والفتاة الجارية الشابة ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّا ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

أن الشغاف فيه وجوه : الأول : أن الشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب يقال شغفت فلاناً إذا أصبت شغافه كما تقول كبدته أي أصبت كبده فقوله : ﴿ شَغَفَهَا حُبّا ﴾ أي دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب .

والثاني : أن حبه أحاط بقلبها مثل إحاطة الشغاف بالقلب ، ومعنى إحاطة ذلك الحب بقلبها هو أن اشتغالها بحبه صار حجاباً بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها إلا إياه .

والثالث : قال الزجاج : الشغاف حبة القلب وسويداء القلب .

والمعنى : أنه وصل حبه إلى سويداء قلبها ، وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم .

المسألة الثانية :

قرأ جماعة من الصحابة والتابعين ﴿ شعفها ﴾ بالعين .

قال ابن السكيت : يقال شعفه الهوى إذا بلغ إلى حد الاحتراق ، وشعف الهناء البعير إذا بلغ منه الألم إلى حد الاحتراق ، وكشف أبو عبيدة عن هذا المعنى فقال : الشعف بالعين إحراق الحب القلب مع لذة يجدها ، كما أن البعير إذا هنىء بالقطران يبلغ منه مثل ذلك ثم يستروح إليه .

وقال ابن الأنباري : الشعف رؤوس الجبال ، ومعنى شعف بفلان إذا ارتفع حبه إلى أعلى المواضع من قلبه .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ حبها ﴾ نصب على التمييز .

ثم قال : ﴿ حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في ضلال عن طريق الرشد بسبب حبها إياه كقوله : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : 8] .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

المراد من قوله : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أنها سمعت قولهن وإنما سمي قولهن مكراً لوجوه : الأول : أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر إلى وجهه لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها

عندهن .

الثاني : أن امرأة العزيز أسرت إليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر ، فلما أظهرن السر كان ذلك غدراً ومكراً .

الثالث : أنهن وقعن في غيبتها ، والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر .

المسألة الثانية :

أنها لما سمعت أنهن يلمنها على تلك المحبة المفرطة أرادت إبداء عذرها فاتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن وأعتدت لهن متكأ ، وفي تفسيره وجوه : الأول : المتكأ النمرق الذي يتكأ عليه .

الثاني : أن المتكأ هو الطعام .

قال العتبي والأصل فيه أن من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة تسمى الطعام متكأ على الاستعارة ، والثالث : متكأ أترجاً ، وهو قول وهب وأنكر أبو عبيد ذلك ولكنه محمول على أنها وضعت عندهن أنواع الفاكهة في ذلك المجلس .

والرابع : متكأ طعاماً يحتاج إلى أن يقطع بالسكين ، لأن الطعام متى كان كذلك احتاج الإنسان إلى أن يتكأ عليه عند القطع .

ثم نقول : حاصل ذلك أنها دعت أولئك النسوة وأعدت لكل واحدة منهن مجلساً معيناً وآتت كل واحدة منهن سكيناً أي لأجل أكل الفاكهة أو لأجل قطع اللحم ثم إنها أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج إليهن ويعبر عليهن وأنه عليه السلام ما قدر على مخالفتها خوفاً منها ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

في ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ قولان : الأول : أعظمنه .

والثاني : ﴿ أكبرن ﴾ بمعنى حضن .

قال الأزهري والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر وفيه وجه آخر ، وهو أن المرأة إذا خافت وفزعت فربما أسقطت ولدها فحاضت ، فإن صح تفسير الإكبار بالحيض فالسبب فيه ما ذكرناه وقوله : ﴿ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ كناية عن دهشتهن وحيرتهن ، والسبب في حسن هذه الكناية أنها لما دهشت فكانت تظن أنها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يد نفسها ، أو يقال : إنها لما دهشت صارت بحيث لا تميز نصابها من حديدها وكانت تأخذ الجانب

الحاد من ذلك السكين بكفها فكان يحصل الجراحة في كفها .

المسألة الثالثة :

(10/395)

اتفق الأكثرون على أنهن إنما أكبرنه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل قيل : كان فضل يوسف على الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مررت بيوسف عليه السلام ليلة عرج بي إلى السماء فقلت لجبريل عليه السلام من هذا ؟ فقال هذا يوسف فقيل يا رسول الله كيف رأيته ؟ قال : كالقمر ليلة البدر " وقيل : كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها ، وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه ، وهذا القول هو الذي اتفقوا عليه ، وعندي أنه يحتمل وجهاً آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة ، وآثار الخضوع والاحتشام ، وشاهدن منها مهابة النبوة ، وهيئة الملكية وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح ، وعدم الاعتداد بهن ، وكان الجمال العظيم مقروناً بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وعظمنه ، ووقع الرعب والمهابة منه في قلوبهن ، وعندي أن حمل الآية على هذا الوجه

أولى .

فإن قيل : فإذا كان الأمر كذلك فكيف ينطبق على هذا التأويل قولها : ﴿ فذلكن الذى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ وكيف تصير هذه الحالة عذراً لها في قوة العشق وإفراط المحبة ؟

قلنا : قد تقرر أن الممنوع متبوع فكأنها قالت لهن مع هذا الخلق العجيب وهذه السيرة الملكية الطاهرة المطهرة فحسنه يوجب الحب الشديد وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول إليه فلهذا السبب وقعت في المحبة ، والحسرة ، والأرق والقلق ، وهذا الوجه في تأويل الآية أحسن والله أعلم .

المسألة الثالثة :

(11/395)

قرأ أبو عمرو ﴿ وَقُلْنَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ بإثبات الألف بعد الشين وهي رواية الأصمعي عن نافع وهي الأصل لأنها من المحاشاة وهي التنحية والتبعيد ، والباقون بحذف الألف للتخفيف وكثرة دورها على الألسن اتباعاً للمصحف "وحاشا" كلمة يفيد معنى التنزيه ، والمعنى ههنا تنزيه الله تعالى من المعجز حيث قدر على خلق جميل مثله .

أما قوله : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ فالتعجب من قدرته على خلق عفيف

مثله .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ مَا هذا بَشَرًا إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ فيه وجهان :

الوجه الأول : وهو المشهور أن المقصود منه إثبات الحسن العظيم له قالوا : لأنه تعالى ركز في الطباع أن لا حي أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لا حي أقبح من الشيطان ، ولذلك قال تعالى في صفة جهنم ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءوسُ الشياطين ﴾ [الصافات : 65] وذلك لما ذكرنا أنه تقرر في الطباع أن أقبح الأشياء هو الشيطان فكذا ههنا تقرر في الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك ، فلما أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف عليه السلام بالحسن لا جرم شبهنه بالملك .

والوجه الثاني : وهو الأقرب عندي أن المشهور عند الجمهور أن الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة ، وجواذب الغضب ، ونوازع الوهم والخيال فطعامهم توحيد الله تعالى وشرابهم الثناء على الله تعالى ، ثم إن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم يلتفت إليهن ألبتة ورأين عليه هيبة النبوة وهيبة الرسالة ، وسيما الطهارة قلن إنا ما رأينا فيه أثراً من أثر الشهوة ، ولا شيئاً من البشرية ، ولا صفة من الإنسانية ، فهذا قد تطهر عن جميع الصفات المغروزة في البشر ، وقد ترقى عن حد الإنسانية ودخل في الملكية .

فإن قالوا : فإن كان المراد ما ذكرتم فكيف يتمهد عذر تلك المرأة عند النسوة ؟ فالجواب

قد سبق .

والله أعلم .

المسألة الخامسة :

(12/395)

القائلون بأن الملك أفضل من البشر احتجوا بهذه الآية فقالوا : لا شك إنهن إنما ذكرت هذا الكلام في معرض تعظيم يوسف عليه السلام .

فوجب أن يكون إخراجه من البشرية وإدخاله في الملكية سبباً لتعظيم شأنه وإعلاء مرتبته ، وإنما يكون الأمر كذلك لو كان الملك أعلى حالاً من البشر ، ثم نقول : لا يخلو إما أن يكون المقصود بيان كمال حاله في الحسن الذي هو الخلق الظاهر ، أو كمال حاله في الحسن الذي هو الخلق الباطن ، والأول باطل لوجهين : الأول : أنهم وصفوه بكونه كريماً ، وإنما يكون كريماً بسبب الأخلاق الباطنة لا بسبب الخلقة الظاهرة ، والثاني : أنا نعلم بالضرورة أن وجه الإنسان لا يشبه وجوه الملائكة ألبتة .

أما كونه بعيداً عن الشهوة والغضب معرضاً عن اللذات الجسمانية متوجهاً إلى عبودية الله تعالى مستغرق القلب ، والروح فيه فهو أمر مشترك فيه بين الإنسان الكامل وبين الملائكة .

وإذا ثبت هذا فنقول : تشبيه الإنسان بالملك في الأمر الذي حصلت المشابهة فيه على سبيل الحقيقة أولى من تشبيهه بالملك فيما لم تحصل المشابهة فيه ألبتة ، فثبت أن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك في هذه الآية إنما وقع في الخلق الباطن ، لا في الصورة الظاهرة ، وثبت أنه متى كان الأمر كذلك وجب أن يكون الملك أعلى حالاً من الإنسان من هذه الفضائل ، فثبت أن الملك أفضل من البشر والله أعلم .

المسألة السادسة :

لغة أهل الحجاز إعمال "ما" عمل ليس وبها ورد قوله : ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ ومنها قوله : ﴿ مَّا هُنَّ أمهاتهم ﴾ [المجادلة : 2] ومن قرأ على لغة بني تميم .

(13/395)

قرأ ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ وهي قراءة ابن مسعود وقرىء ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ أي ما هو بعبد مملوك للبشر ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ثم نقول : ما هذا بشراً ، أي حاصل بشراً بمعنى هذا مشترى ، وتقول : هذا لك بشراً أم بكراً ، والقراءة المعتبرة هي الأولى لموافقتها المصحف ، ولمقابلة البشر للملك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 101 ـ 104.﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾

قال جويبر : كن أربعاً : امرأة الحاجب وامرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة القهرمان . قال مقاتل : وامرأة صاحب السجن وفي هذه المدينة قولان :

أحدهما : مصر .

الثاني : عين شمس . ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ قلن ذلك ذماً لها وطعناً فيها وتحقيقاً لبراءة يوسف وإنكاراً لذنبه .

والعزيز اسم الملك مأخوذ من عزته ، ومنه قول أبى داؤد :

درة غاص عليها تاجر . . . جلبت عند عزيز يوم طل

﴿ قد شغفها حبّاً ﴾ أي قد دخل حبه من شغاف قلبها . وفي شغاف القلب خمسة أقاويل :

أحدها : أنه حجاب القلب ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه غلاف القلب وهو جلدة رقيقة بيضاء تكون على القلب وربما سميت لباس

القلب ، قاله السدي وسفيان .

الثالث : أنه باطن القلب ، قاله الحسن ، وقيل هو حبة القلب .

الرابع : أنه ما يكون في الجوف ، قاله الأصمعي .

الخامس : هو الذعر والفزع الحادث عن شدة الحب ، قاله إبراهيم .

وقد قرىء في الشواذ عن ابن محيصن : قد شعفها حباً (بالعين غير معجمة) واختلف في الفرق بينهما على قولين :

أحدهما : أن الشغف بالغين معجمة هو الجنون وبالعين غير معجمة هو الحب ، قاله الشعبي .

والثاني : أن الشغف بالإعجام الحب القاتل ، والشعف بغير إعجام دونه ، قاله ابن عباس وقال أبو ذؤيب :

فلا وجْدَ إلا دُون وجْدٍ وجَدته . . . أصاب شغافَ القلب والقلبُ يشغف

﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ فيه وجهان : أحدهما : في ضلال عن الرشد وعدول عن الحق .

الثاني : معناه في محبة شديدة . ولما اقترن شدة حبها بالشهوة طلبت دفع الضرر عن نفسها بالكذب عليه ، ولو خلص من الشهوة طلبت دفع الضرر عنه بالصدق على نفسها .

قوله عز وجل : ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه ذمهن لها وإنكارهن عليها .

الثاني : أنها أسرت إليهن بحبها له فأشعْن ذلك عنها .

﴿ أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ ﴾ وفي ﴿ أعتدت ﴾ وجهان :

(15/395)

أحدهما : أنه من الإعداد .

الثاني : أنه من العدوان .

وفي (المُتْكَأَ) ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه المجلس ، قاله ابن عباس والحسن .

والثاني : أنه النمارق والوسائد يتكأ عليها ، قاله أبو عبيدة والسدي .

الثالث : أنه الطعام مأخوذ من قول العرب اتكأنا عند فلان أي طعمنا عنده ، وأصله أن من دعي إلى طعام أُعد له متكأ فسمي الطعام بذلك متكأ على الاستعارة. فعلى هذا أي الطعام هو ؟

فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه الزُّماورد ، قاله الضحاك وابن زيد .

الثاني : أنه الأترج ، قاله ابن عباس ومجاهد وهو وتأويل من قرأها مخففة غير مهموزة ، والمتْك في كلامهم الأترج ، قال الشاعر :

نشرب الإثم بالصُّواع جهارا . . . وترى المتك بيننا متسعارا

والإثم : الخمر ، والمتك : الأترج .

الثالث : أنه كل ما يجز بالسكين وهو قول عكرمة لأنه في الغالب يؤكل على متكأ .

الرابع : أنه كل الطعام والشراب على عمومه ، وهو قول سعيد بن جبير وقتادة .

﴿ وآتت كلَّ واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن ﴾ وإنما دفعت ذلك إليهن في الظاهر معونة على الأكل ، وفي الباطن ليظهر من دهشتهن ما يكون شاهداً عليهن . قال الزجاج : كان كالعبد لها فلم تمكنه أن يخرج إلا بأمرها .

﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ وفيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : معناه أعظمنه ، قاله ابن عباس .

الثاني : معناه وجدن شأنه في الحسن والجمال كبيراً ، قال ابن بحر .

الثالث : معناه : حضن عند رؤيته ، وهو قول رواه عبد الصمد بن علي الهاشمي عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس .

وقيل : إن المرأة إذا جزعت أو خافت حاضت ، وقد يسمى الحيض إكباراً ، قال الشاعر :

نأتي النساء على أطهارهن ولا . . . نأتي النساء إذا أكبرن إكباراً

﴿ وقطعن أيديهن ﴾ دهشاً ليكون شاهداً عليهن على ما أضمرته امرأة العزيز فيهن .

وفي قطع أيديهن وجهان :

أحدهما : أنهن قطعن أيديهن حتى بانت .

الثاني : أنهن جرحن أيديهن حتى دميت ، من قولهم قطع فلان يده إذا جرحها .

(16/395)

﴿ وقلن حاش لله ﴾ بالألف في قراءة أبي عمرو ونافع في رواية الأصمعي وقرأ الباقون حاش لله بإسقاط الألف ، ومعناهما واحد .

وفي تأويل ذلك وجهان :

أحدهما : معاذ الله ، قاله مجاهد .

الثاني : معناه سبحان الله ، قاله ابن شجرة .

وفي أصله وجهان : أحدهما : أنه مأخوذ من قولهم كنت في حشا فلاأي في ناحيته .

والثاني : أنه مأخوذ من قولهم حاش فلاناً أى اعزله في حشا يعني في ناحية . ﴿ ما هذا بشراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما هذا أهلاً للمباشرة .

الثاني : ما هذا من جملة البشر . وفيه وجهان :

أحدهما : لما علمهن من عفته وأنه لو كان من البشر لأطاعها .

الثاني : لما شاهدن من حسنه البارع وجماله البديع ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ وقرىء ما هذا بشراً (بكسر الباء والشين) أي ما هذا عبداً مشترى إن هذا إلا ملك كريم ، مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيماً لشأنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(17/395)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾

ذكر الفعل المسند إلى " النسوة " لتذكير اسم الجمع و﴿ نسوة ﴾ جمع قلة لا واحد له من لفظه ، وجمع التكثير نساء ، و﴿ نسوة ﴾ فعلة ، وهو أحد الأبنية الأربعة التي هي لأدنى العدد ، وقد نظمها القائل ببيت شعر : [البسيط]

بأفعل وبأفعال وأفعلة . . . وفعلة يعرف الأدنى من العدد

ويروى أن هؤلاء النسوة كن أربعاً : امرأة خبازة ، وامرأة ساقية ، وامرأة بوابة ، وامرأة سجانة . و﴿ العزيز ﴾ : الملك ومنه قول الشاعر : [الرمل]

درة غاص عليها تاجر . . . جلبت عند عزيز يوم طل

و" الفتى " الغلام ، وعرفه في المملوك - وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يقل أحدكم عبدي وأمتي ، وليقل فتأي وفتاتي " ، ولكنه قد يقال في غير المملوك ، ومنه ﴿ إذ قال موسى لفتاه ﴾ [الكهف : 60] وأصل " الفتى " في اللغة الشاب ، ولكن لما كان جل الخدمة شباباً استعير لهم اسم الفتى . و﴿ شغفها ﴾ معناه : بلغ حتى صار من قلبها موضع الشغاف ، وهو على أكثر القول غلاف من أغشية القلب ، وقيل : " الشغاف " : سويداء القلب ، وقيل : الشغاف : داء يصل إلى القلب .

وقرأ أبو رجاء والأعرج وعلي بن أبي طالب والحسن بخلاف ويحيى بن يعمر وقتادة بخلاف وثابت وعوف ومجاهد وغيرهم : " قد شعفها " بالعين غير منقوطة ، ولذلك وجهان : أحدهما أنه علا بها كل مرقبة من الحب ، وذهب بها كل مذهب ، فهو مأخوذ - على هذا - من شعف الجبال وهي رؤوسها وأعاليها ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن " .

والوجه الآخر أن يكون الشعف لذة بحرقة يوجد من الجراحات والجرب ونحوها ومنه قول

امرئ القيس : [الطويل]

أيقتلني وقد شعفت فؤادها . . . كما شَعَفَ المهنوءةَ الرجلُ الطالي

(18/395)

والمشعوف في اللغة الذي أحرق الحب قلبه ، ومنه قول الأعشى :

تعصي الوشاة وكان الحب آونة . . . مما يزين للمشعوف ما صنعا

وروي عن ثابت البناني وأبي رجاء أنهما قرآ : " قد شعِفعما " بكسر العين غير منقوطة .

قال أبو حاتم : المعروف فتح العين وهذا قد قرئ به . وقرأ ابن محيصن : ﴿ قد شغفها ﴾ أدغم الدال في الشين .

وروي أن مقالة هؤلاء النسوة إنما قصدن بها المكر بامرأة العزيز ليغضبنها حتى تعرض عليهن يوسف ليبين عذرها أو يحق لومها . وقد قال ابن زيد الشغف في الحب والشغف في البغض ، وقال الشعبي : الشغف والمشغوف بالغين منقوطة في الحب والشعف الجنون والمشعوف المجنون ، وهذان القولان ضعيفان .

وقوله تعالى : ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ الآية ، إنما سمي قولهن مكراً من حيث أظهرن إنكار منكر وقصدن إثارة غيظها عليهن ، وقيل : ﴿ مكرهن ﴾ انهن أفشين ذلك عنها

وقد كانت أطلعتهن على ذلك واستكتمتهن أياه ، وهذا لا يكون مكراً إلا بأن يظهرن لها خلاف ذلك ويقصدن بالإفشاء أذاها .

ومعنى ﴿ أرسلت إليهن ﴾ أي ليحضرن ، و﴿ أعتدت ﴾ معناه : أعدت ويسرت ، و﴿ متكأ ﴾ ما يتكأ عليه من فرش ووسائد ، وعبر بذلك عن مجلس أعد لكرامة ، ومعلوم أن هذا النوع من الكرامات لا يخلو من الطعام والشراب ، فلذلك فسر مجاهد وعكرمة " المتكأ " بالطعام ؛ قال ابن عباس : ﴿ متكأ ﴾ معناه مجلساً ، ذكره الزهراوي . وقال القتبي : يقال : اتكأنا عند فلان أي أكلنا .

وقوله : ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ يقتضي أنه كان في جملة الطعام ما يقطع بالسكاكين ، فقيل كان لحماً ، وكانوا لا ينتهسون اللحم وإنما كانوا يأكلونه حزاً بالسكاكين ؛ وقيل : كان أترجاً ، وقيل : كان زماورد ، وهو من نحو الأترج موجود في تلك البلاد ، وقيل : هو مصنوع من سكر ولوز وأخلاط .

وقرأ ابن عباس ومجاهد والجحدري وابن عمر وقتادة والضحاك والكلبي وأبان بن تغلب " مُتْكاً " بضم الميم وتنوين الكاف . واختلف في معناه ، فقيل : هو الأترنج ، وقيل : هو اسم

يعم ما يقطع بالسكين من الفواكه كالأترنج والتفاح وغيره ، وأنشد الطبري :

نشرب الإثم بالصواع جهاراً . . . وترى المتك بيننا مستعارا

وقرأ الجمهور : " متَّكأ " بشد التاء المفتوحة والهمز والقصر ، وقرأ الزهري : " متّكا " مشدد التاء من غير همز - وهي قراءة أبي جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح ، وقرأ الحسن " متكاء " بالمد على إشباع الحركة .

و" السكين " تذكر وتؤنث ، قاله الكسائي والفراء ، ولم يعرف الأصمعي إلا التذكير .

وقولها : ﴿ اخرج ﴾ أمر ليوسف ، وأطاعها بحسب الملك ، وقال مكي والمهدوي : قيلك إن في الآية تقديماً وتأخيراً في القصص ، وذلك أن قصة النسوة كانت قبل فضيحتها في القميص للسيد ، وباشتهار الأمر للسيد انقطع ما بينها وبين يوسف .

قال القاضي أبو محمد : وهذا محتمل إلا أنه لا يلزم من ألفاظ الآية ، بل يحتمل أن كانت قصة النساء بعد قصة القميص وذلك أن العزيز كان قليل الغيرة بل قومه أجمعين ، ألا ترى أن الإنكار في وقت القميص إنما كان بأن قيل : ﴿ إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ [يوسف : 28] وهذا يدل على قلة الغيرة ، ثم سكن الأمر بأن قال : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ [يوسف : 29] وأنت ﴿ استغفري ﴾ [يوسف : 29] وهي لم تبق حينئذ إلا على إنكارها وإظهار الصحة ، فلذلك تغوفل عنها بعد ذلك ، لأن دليل القميص لم يكن قاطعاً وإنما كان أمارة ما ؛ هذا إن لم يكن المتكلم طفلاً .

وقوله : ﴿ أكبرنه ﴾ معناه : أعظمنه واستهولن جماله ، هذا قول الجمهور ، وقال عبد الصمد بن علي الهاشمي عن أبيه عن جده : معناه : حضن ، وأنشد بعض الناس حجة لهذا التأويل : [البسيط]

يأتي النساء على أطهارهنّ ولا . . . يأتي النساءَ إذا أكبرن إكبارا

(20/395)

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول ضعيف من معناه منكور ، والبيت مصنوع مختلف - كذلك قال الطبري وغيره من المحققين ، وليس عبد الصمد من رواة العلم رحمه الله .

وقوله : ﴿ وقطّعن أيديهن ﴾ أي كثّرن الحز فيها بالسكاكين ، وقال عكرمة : " الأيدي " هنا الأكمام ، وقال مجاهد هي الجوارح ، وقطعنها حتى ألقينها .

قال القاضي أبو محمد : فظاهر هذا أنه بانت الأيدي ، وذلك ضعيف من معناه ، وذلك أن قطع العظم لا يكون إلا بشدة ، ومحال أن يسهو أحد عنها ، والقطع على المفصل لا يتهيأ إلا بتلطف لا بد أن يقصد ، والذي يشبه أنهن حملن على أيديهن الحمل الذي كن يحملنه قبل المتك فكان ذلك حزاً ، وهذا قول الجماعة .

وضوعفت الطاء في ﴿ قطّعن ﴾ لكثرتهن وكثرة الحز فربما كان مرارا ً.

وقرأ أبو عمرو وحده " حاشى لله " وقرأ أبيّ وابن مسعود " حاشى الله " ، وقرأ سائر السبعة " حاش لله ، وفرقة " حشى لله " وهي لغة ، وقرأ الحسن " حاش لله " بسكون الشين وهي ضعيفة وقرأ الحسن - أيضاً - " حاش الإلاه " محذوفاً من " حاشى " . فأما " حاش " فهي حيث جرت حرف معناه الاستثناء ، كذا قال سيبويه ، وقد ينصب به ، تقول : حاشى زيد وحاشى زيداً ، قال المبرد : النصب أولى إذ قد صح أنها فعل بقولهم : حاش لزيد ، والحرف لا يحذف منه .

قال القاضي أبو محمد : يظهر من مجموع كلام سيبويه والمبرد أن الحرف يخفض به لا غير ، وأن الفعل هو الذي ينصب به ، فهذه اللفظة تستعمل فعلاً وحرفاً ، وهي في بعض المواضع فعل وزنه فاعل ، وذلك في قراءة من قرأ " حاشى لله " معناه مأخوذ من معنى الحرف ، وهو إزالة الشيء عن معنى مقرون به ، وهذا الفعل مأخوذ من الحشا أي هذا في حشى وهذا في حشى ، ومن ذلك قول الشاعر : [المعطل الهذلي] .

يقول الذي يمسي إلى الحرز أهله . . . بأي الحشى صار الخليط المباين

ومنه الحاشية كأنها مباينة لسائر ما هي له ، ومن المواضع التي حاشى فيه فعل هذه الآية ، يدل على ذلك دخولها على حرف الجر ، والحروف لا تدخل بعضها على بعض ، ويدل على ذلك حذف الياء منها في قراءة الباقين " حاش " على نحو حذفهم من لا أبال ولا أدر ولو تر ، ولا يجوز الحذف من الحروف إلا إذا كان فيها تضعيف مثل : لعل ، فيحذف ، ويرجع عل ، ويعترض في هذا الشرط بمنذ وفد حذف دون تضعيف فتأمله .

قال القاضي أبو محمد : ومن ذلك في حديث خالد يوم مؤتة : فحاشى بالناس ، فمعنى " حاشى لله " أي حاش يوسف لطاعة الله أو لمكان من الله أو لترفيع الله له أن يرمي بما رميته به ، أو يدعى إله مثله لأن تلك أفعال البشر ، وهو ليس منهم إنما هو ملك - هكذا رتب أبو علي الفارسي معنى هذا الكلام ، على هاتين القراءتين اللتين في السبع - وأما قراءة أبي بن كعب وابن مسعود ، فعلى أن " حاشى " حرف استثناء - كما قال الشاعر [ابن عطية] : [الكامل]

حاشى أبي ثوبان إنَّ به . . . ضنّاً عن الملحاة والشتم

وتسكين الشين في إحدى قراءتي الحسن ، ضعيف ، جمع بين ساكنين ، وقراءته الثانية محذوفة الألف من " حاشى " .

قال القاضي أبو محمد : والتشبيه بالملك هو من قبيل التشبيه بالمستعظمات وإن كانت لا ترى .

وقرأ أبو الحويرث الحنفي والحسن " ما هذا بشر إن هذا إلا مِلك كريم " بكسر اللام في " مِلك " ، وعلى هذه القراءة فالكلام فصيح لما استعظمن حسن صورته قلن : ما هذا إلا مما يصلح أن يكون عبد بشراء ، إن هذا مما يصلح أن يكون ملكاً كريماً .

ونصب " البشر " من قوله : ﴿ ما هذا بشراً ﴾ هو على لغة الحجاز شبهت ﴿ ما ﴾ بليس ، وأما تميم فترفع ، ولم يقرأ به .

وروي أن يوسف عليه السلام أعطي ثلث الحسن ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه أعطي نصف الحسن ، ففي بعض الأسانيد هو وأمه ، وفي بعضها هو وسارة جدة أبيه .

(22/395)

قال القاضي أبو محمد : وهذا على جهة التمثيل ، أي لو كان الحسن مما يقسم لكان حسن يوسف يقع في نصفه ، فالقصد أن يقع في نفس السامع عظم حسنه على نحو التشبيه برؤوس الشياطين وأنياب الأغوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(23/395)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المدينة ﴾

ويقال : "نُسوة" بضم النون ، وهي قراءة الأعمش والمفضّل والسُّلَميّ ، والجمع الكثير نساء .

ويجوز : وقالت نسوة ، وقال نسوة ، مثل قالت الأعراب وقال الأعراب ؛ وذلك أن القصة انتشرت في أهل مصر فتحدّث النساء .

قيل : امرأة ساقي العزيز ، وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه .

وقيل : امرأة الحاجب ؛ عن ابن عباس وغيره .

﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ الفتى في كلام العرب الشاب ، والمرأة فتاة .

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ﴾ قيل : شغفها غلبها .

وقيل : دخل حبه في شغافها ؛ عن مجاهد وغيره .

وروى عمرو بن دينار عن عِكرمة عن ابن عباس قال : دخل تحت شَغافها .

وقال الحسن : الشّغف باطن القلب .

السديّ وأبو عبيد : شغاف القلب غلافه ، وهو جلدة عليه .

وقيل : هو وسط القلب ؛ والمعنى في هذه الأقوال متقارب ، والمعنى : وصل حبه إلى

شَغافها فغلب عليه ؛ قال النابغة :

وقد حال هَمٌّ دون ذلك داخلٌ . . .

دخولَ الشّغافِ تبتغيه الأصابعُ

وقد قيل : إن الشّغاف داء ؛ وأنشد الأصمعي للراجز :

يتبعها وهي له شَغافُ . . .

وقرأ أبو جعفر بن محمد وابن محيصن والحسن "شَعَفَها" بالعين غير معجمة ؛ قال ابن الأعرابي : معناه أحرق حبه قلبها ؛ قال : وعلى الأوّل العمل .

قال الجوهريّ : وشَعَفه الحب أحرق قلبه .

وقال أبو زيد : أمرضه .

وقد شُعِف بكذا فهو مشعوف .

وقرأ الحسن "قَدْ شَعَفَهَا" قال : بَطَنها حبًّا .

قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب ؛ لأن شِعَاف الجبال : أعاليها ؛ وقد شُغِف بذلك شُغْفاً بإسكان الغين إذا أُولِع به ؛ إلا أن أبا عبيدة أنشد بيت امرىء القيس :

لتقتلني وقد شَعَفْتُ فؤادَها . . .

كَمَا شَعَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرّجُل الطَّالِي

قال: فشبهت لوعةُ الحبّ وجَوَاه بذلك.

(24/395)

ورُوي عن الشّعْبي أنه قال: الشّغف بالغين المعجمة حُبّ، والشّعف بالعين غير المعجمة جنونٌ.

قال النحاس: وحكي "قد شَغِفَها" بكسر الغين، ولا يعرف في كلام العرب إلا "شَغَفَها" بفتح الغين، وكذا "شَعَفَها" أي تركها مشعوفة.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة عن الحسن: الشّغَاف حجاب القلب، والشّعَاف سويداء القلب، فلو وصل الحبّ إلى الشّعاف لماتت؛ وقال الحسن: ويقال إن الشّغَاف الجلدة اللاصقة بالقلب التي لا ترى، وهي الجلدة البيضاء، فلصق حبُّه بقلبها كلصوق الجلدة بالقلب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في هذا الفعل.

وقال قَتَادَة: "فَتَاهَا" وهو فتى زوجها، لأن يوسف كان عندهم في حكم المماليك، وكان ينفذ أمرُها فيه.

وقال مقاتل عن أبي عثمان النَّهْديّ عن سلمان الفارسيّ قال : إن امرأة العزيز استوهبت زوجها يوسف فوهبه لها ، وقال : ما تصنعين به؟ قالت : أتخذه ولداً ؛ قال : هو لك ؛ فربته حتى أَيفع وفي نفسها منه ما في نفسها ، فكانت تنكشف له وتتزيّن وتدعوه من وجه اللطف فعصمه الله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أي بغيبتهنّ إياها ، واحتيالهن في ذمها .

وقيل : إنها أطلعتهنّ واستأمنتهن فأفشين سرها ، فسمى ذلك مكراً .

وقوله : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ في الكلام حذف ؛ أي أرسلت إليهن تدعوهنّ إلى وَليمة لتُوقعهنّ فيما وقعت فيه ؛ فقال مجاهد عن ابن عباس : إن امرأة العزيز قالت لزوجها إني أريد أن أتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النّسوة ؛ فقال لها : افعلي ؛ فاتخذت طعاماً ، ثم نَجَّدت لهن البيوت ؛ ؛ نَجّدت أي زيّنت ؛ والنّجْد ما يُنْجَد به البيت من المتاع أي يُزيّن ، والجمع نُجُود عن أبي عُبيد ؛ والتّنجيد التزيين ؛ وأرسلت إليهنّ أن يحضُرن طعامها ، ولا تتخلف منكنّ امرأة ممن سميتُ .

قال وهب بن مُنبِّه : إنهنّ كنّ أربعين امرأة فجئن على كَرْه منهنّ ، وقد قال فيهنّ أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت :

حتى إذا جئنها قسراً . . .

ومهدت لهن أنضاداً وكبابا

ويُروى : أنماطاً .

قال وهب بن (مُنَبّه) : فجئن وأخذن مجالسهنّ .

﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ أي هيأت لهنّ مجالس يتكئن عليها .

قال ابن جُبير : في كل مجلس جَامٌ فيه عسل وأُتْرُجّ وسكّين حاد .

وقرأ مجاهد وسعيد بن جُبير : "مُتْكاً" مخففاً غير مهموز ، والمُتْك هو الأُتْرُجّ بلغة القبط ، وكذلك فسره مجاهد .

روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : المُتَّكأ مثقّلاً (هو) الطعام ، والمُتْك مخفّفاً (هو) الأُتْرُجّ ؛ وقال الشاعر :

نَشْربُ الإثْمَ بالصُّواعِ جِهَاراً . . .

وتَرَى المُتْك بَيْنَنَا مُسْتَعَارَا

وقد تقول أَزْدُ شَنُوءَة : الأُترجّة المُتْكَة ؛ قال الجوهريّ : المُتْك ما تُبقيه الخاتنة .

وأصل المُتْك الزُّماوَرْد .

والمَتْكَاء من النّساء التي لم تُخْفَض.

قال الفرّاء: حدثني شيخ من ثقات أهل البصرة أن المُتْك مخففاً الزُّما وَرْد.

وقال بعضهم: إنه الأترجّ؛ حكاه الأخفش.

ابن زيد: أترجًّا وعسلاً يؤكل به؛ قال الشاعر:

فَظِلْنا بنعمة واتكأنا . . .

وشَرِبْنا الحلالَ من قُلِله

أي أكلنا.

النحاس: قوله تعالى: "وَأَعْتَدَتْ" من العَتَاد؛ وهو كل ما جعلته عُدّة لشيء.

"مُتَّكَأً" أصح ما قيل فيه ما رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: مجلساً، وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير: طعام متكأ، مثل: ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف: 82]؛ ودلّ على هذا الحذف "وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً" لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يُقطع بالسكاكين؛ كذا قال في كتاب "إعراب القرآن" له.

وقال في كتاب "معاني القرآن" (له): وروى مَعْمَر عن قَتَادة قال: "المتكأ" الطعام.

وقيل : "المتكأ" كل ما اتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث ؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة ، إلا أن الروايات قد صحت بذلك .

وحكى القُتبيّ أنه يقال : اتكأنا عند فلان أي أكلنا ، والأصل في "متكأ" موتكأ ، ومثله مُتَّزن ومُتَّعد ؛ لأنه من وزنت ووعدت ووكأت ، ويقال : اتكأ يَتَّكئ اتكاء .

﴿ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ مفعولان ؛ وحكى الكسائي والفراء أن السِّكين يذكر ويؤنث ، وأنشد الفراء :

فَعَيّثَ فِي السَّنَامِ غَدَاةَ قُرٍّ . . .

بسكّينٍ مُوَثَّقَة النِّصَاب

الجوهريّ : والغالب عليه التذكير ، وقال :

يُرى ناصحاً فيما بَدَا فإذا خَلاَ . . .

فذلك سكّينٌ على الحَلْقِ حَاذِقُ

الأصمعي : لا يعرف في السكين إلا التذكير .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اخرج عَلَيْهِنَّ ﴾ بضم التاء لالتقاء الساكنين ؛ لأن الكسرة تَثْقل إذا كان بعدها ضمة ، وكسرت التاء على الأصل .

قيل : إنها قالت لهن : لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن ، ثم قالت لخادمها : إذا قلت لك

ادع لي إيلا فادع يوسف ؛ وإيل : صنم كانوا يعبدونه ، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين ، وقد شدّ مِئزره ، وحسَرَ عن ذراعيه ؛ فقالت للخادم : ادع لي إيلاً ؛ أي ادع لي الربّ ؛ وإيل بالعبرانية الربّ ؛ قال : فتعجب النسوة وقلن : كيف يجيء ! فصعدت الخادم فدعت يوسف ، فلما انحدر قالت لهن : اقطعن ما معكن .

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بالمُدَى حتى بلغت السكاكين إلى العظم ؛ قاله وهب بن مُنَبِّه .

سعيد بن جُبير : لم يخرج عليهن حتى زينته ، فخرج عليهن فجأة فدهشن فيه ، وتحيّرن لحسن وجهه وزينته وما عليه ، فجعلن يقطعن أيديهن ، ويحسبن أنهن يقطعن الأُتْرجّ ؛ واختلف في معنى "أَكْبَرْنَهُ" فروى جُوَيبر عن الضّحاك عن ابن عباس : أعظمنه وهِبْنه ؛ وعنه أيضاً أَمْنَيْنَ وأَمْذَيْنَ من الدّهش ؛ وقال الشاعر :

إذا ما رأين الفحلَ من فوق قَارةٍ . . .

(27/395)

صَهَلْنَ وأَكْبَرْنَ المنيّ المدفقا

وقال ابن سمعان عن عدة من أصحابه : إنهم قالوا أمذين عشقاً ؛ وهب بن مُنبّه : عشقنه

حتى مات منهن عشرة في ذلك المجلس دَهَشا وحيرة ووَجْداً بيوسف .

وقيل : معناه حضْن من الدَّهش ؛ قَاله قتادة ومقاتل والسُّديّ ؛ قال الشاعر :

نأتي النساءَ على أطهارهنّ ولا . . .

نأتي النّساءَ إذا أَكْبَرن إِكبَارا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا : ليس ذلك في كلام العرب ، ولكنه يجوز أن يكنّ حضن من شدّة إعظامهن له ، وقد تفزع المرأة فتسقط ولدها أو تحيض .

قال الزجاج : يقال أكبرنه ، ولا يقال حِضْنه ، فليس الإكبار بمعنى الحيض ؛ وأجاب الأزهري فقال : يجوز أَكْبرت بمعنى حاضت ؛ لأن المرأة إذا حاضت في الابتداء خرجت من حَيِّز الصغر إلى الكبر ؛ قال : والهاء في "أَكْبَرْنهُ" يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية ؛ وهذا مزَيَّف ، لأن هاء الوقف تسقط في الوصل ، وأمثل منه قول ابن الأنباري : إن الهاء كناية عن مصدر الفعل ، أي أكبرن إكباراً ، بمعنى حِضْن حَيْضاً .

وعلى قول ابن عباس الأول تعود الهاء إلى يوسف ؛ أي أعظمن يوسف وأجْلَلْنه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ قال مجاهد : قطّعنها حتى ألقينها .

وقيل : خَدشْنها .

وروى ابن أبي نجيح (عن مجاهد) قال : حَزًّا بالسكّين ، قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس قطعاً تبِينُ منه اليد ، إنما هو خَدْش وحزّ ، وذلك معروف في اللغة أن يقال إذا خدش

الإنسان يد صاحبه قطع يده .

وقال عِكرمة : "أَيدِيهُنّ" أكمامهنّ ، وفيه بُعْد .

وقيل : أناملهنّ ؛ أي ما وجدن ألَماً في القطع والجرح ، أي لشغل قلوبهن بيوسف ، والتقطيع يشير إلى الكثرة ، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها في مواضع ، ويمكن أن يرجع إلى عددهنّ .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أي معاذ الله .

وروى الأصمعيّ عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء .

(28/395)

"وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ" بإثبات الألف وهو الأصل ، ومن حذفها جعل اللام في "لله" عوضاً منها .

وفيها أربع لغات ؛ يقال : حَاشَاكَ وحَاشَا لَكَ وحاشَ لَكَ وحَشَا لَكَ .

ويقال : حَاشَا زيدٍ وحاشا زيداً ؛ قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : النصب أولى ؛ لأنه قد صحّ أنها فعل لقولهم حاش لزيد ، والحرف لا يحذف منه ؛ وقد قال النابغة :

وَلَا أحاشِي من الأقوام من أَحَدِ . . .

وقال بعضهم: حاشَ حرف، وأُحاشي فعل.

ويدلّ على كون حاشا فعلاً وقوع حرف الجر بعدها.

وحكى أبو زيد عن أعرابيّ: اللهم اغفر لي ولمن يَسمع، حاشَا الشيطانَ وأبا الأصبغ؛

فنصب بها.

وقرأ الحسن "وَقُلْنَ حَاشْ لِلَّهِ" بإسكان الشين، وعنه أيضاً "حاش الإله".

ابن مسعود وأُبَيّ: "حَاشَ اللَّهِ" بغير لام، ومنه قول الشاعر:

حاشا أَبي ثَوْبَانَ إنّ بِهِ . . .

ضنًّا عنِ الْمَلْحَاةِ والشَّتْمِ

قال الزجاج: وأصل الكلمة من الحاشية، والحَشَا بمعنى الناحية، تقول: كنت في حَشَا

فلانٍ أي في ناحيته؛ فقولك: حاشا لزيدٍ أي تَنَحَّى زيدٌ من هذا وتباعد عنه، والاستثناء

إخراج وتنحية عن جملة المذكورين.

وقال أبو علي: هو فاعل من المحاشاة؛ أي حاشا يوسف وصار في حاشية وناحية مما

قُرِف به، أو من أن يكون بشراً؛ فحاشا وحاش في الاستثناء حرف جرّ عند سيبويه،

وعلى ما قال المبرّد وأبو عليّ فعل.

قوله تعالى : ﴿ مَا هذا بَشَراً ﴾ قال الخليل وسيبويه : "ما" بمنزلة ليس ؛ تقول : ليس زيد قائماً ، و"ما هذا بشراً" و ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ [المجادلة : 2] وقال الكوفيون : لما حذفت الباء نصبت ؛ وشرح هذا فيما قاله أحمد بن يحيى أنك إذا قلت : ما زيد بمنطلق ، فموضع الباء موضع نصب ، وهكذا سائر حروف الخفض ؛ فلما حذفت الباء نصبت لتدلّ على محلها ، قال : وهذا قول الفرّاء ، قال : ولم تعمل "ما" شيئًا ؛ فألزمهم البصريون أن يقولوا : زيد القمرَ ؛ لأن المعنى كالقمر ! فردّ أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخل في حروف الخفض من الكاف ؛ لأن الكاف تكون اسما .

قال النحاس : لا يصح إلا قول البصريين ؛ وهذا القول يتناقض ؛ لأن الفرّاء أجاز نصًّا ما بمنطلق زيدٌ ، وأنشد :

أَمَا واللَّهِ أَنْ لو كنتَ حُرًّا . . .

وما بالحُرِّ أنتَ ولا العَتِيق

ومنع نصًّا النصب ؛ ولا نعلم بين النحويين اختلافاً أنه جائز : ما فيك براغب زيدٌ ، وما إليك بقاصدٍ عمرٌو ، ثم يحذفون الباء ويرفعون .

وحكى البصريون والكوفيون ما زيدٌ منطلقٌ بالرفع ، وحكى البصريون أنها لغة تميم ، وأنشدوا :

أَتيما تَجعلون إليّ نِدًّا . . .

وما تَيْمٌ لِذِي حَسَبٍ نَدِيدُ

النّد والنّديد والنّدِيدةُ المِثْل والنّظير.

وحكى الكسائي أنها لغة تِهامة ونَجْد .

وزعم الفراء أن الرفع أقوى الوجهين : قال أبو إسحاق : وهذا غلط ؛ كتاب الله عز وجلّ ولغة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى وأولى .

قلت : وفي مصحف حَفْصة رضي الله عنها "مَا هَذَا بِبَشَرٍ" ذكره الغَزْنويّ.

(30/395)

قال القُشَيْريّ أبو نصر : وذكرت النّسوة أن (صورة) يوسف أحسن من صورة البشر ، بل هو في صورة مَلَك ؛ وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] والجمع بين الآيتين أن قولهن : "حَاشَ لِلَّهِ" تبرئة ليوسف عمّا رمته به امرأة العزيز من المراودة ، أي بعد يوسف عن هذا ؛ وقولهنّ : "لله" أي لخوفه ، أي براءة لله من هذا ؛ أي قد نجا يوسف من ذلك ، فليس هذا من الصورة في شيء ؛ والمعنى : أنه في التبرئة عن المعاصي كالملائكة ؛ فعلى هذا لا تناقض .

وقيل: المراد تنزيهه عن مشابهة البشر في الصورة، لفرط جماله.

وقوله: "لله" تأكيد لهذا المعنى؛ فعلى هذا المعنى قالت النسوة ذلك ظناً منهن أن صورة المَلَك أحسن، وما بلغهنّ قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: 4] فإنه من كتابنا.

وقد ظنّ بعض الضَّعفة أن هذا القول لو كان ظناً باطلاً منهنّ لوجب على الله أن يردّ عليهنّ، ويبيّن كذبهنّ، وهذا باطل؛ إذ لا وجوب على الله تعالى، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الردّ عليه؛ وأيضاً أهل العرف قد يقولون في القبيح كأنه شيطان، وفي الحسَن كأنه مَلَك؛ أي لم ير مثله، لأن الناس لا يرون الملائكة؛ فهو بناء على ظنّ في أن صورة المَلَك أحسن، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبعده عن التّهم.

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ ﴾ أي ما هذا إلا مَلَك؛ وقال الشاعر:

فلستَ لإِنْسِيٍّ ولكن لِمَلأَكٍ . . .

تَنَزَّلَ من جَوّ السماءِ يَصُوبُ

وروي عن الحسن: "مَا هَذَا بِشِرًى" بكسر الباء والشين، أي ما هذا عبداً مُشترًى، أي ما ينبغي لمثل هذا أن يباع، فوضع المصدر موضع اسم المفعول، كما قال: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر ﴾ أي مصيده، وشبهه كثير.

(31/395)

ويجوز أن يكون المعنى : ما هذا بثمن ، أي مثله لا يثمن ولا يقوّم ؛ فيراد بالشراء على هذا الثمن المشترى به : كقولك : ما هذا بألفٍ إذا نفيت قول القائل : هذا بألف .

فالباء على هذا متعلقة بمحذوف هو الخبر ، كأنه قال : ما هذا مقدراً بشراء .

وقراءة العامة أشبه ؛ لأن بعده "إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ" مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيماً لشأنه ، ولأن مثل "بِشْرًى" يكتب في المصحف بالياء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(32/395)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾

يعني وقال جماعة من النساء وكنّ خمساً وقيل كن أربعاً وذلك لما شاع خبر يوسف والمرأة في مدينة مصر وقيل هي مدينة عين الشمس وتحدثت النساء فيما بينهن بذلك وهن امرأة

حاجب الملك وامرأة صاحب دوابه وامرأة خبازه وامرأة ساقيه وامرأة صابح سجنه وقيل نسوة من أشراف مصر امرأة العزيز يعني زليخا تراود فتاها عن نفسه يعني تراود عبدها الكنعاني عن نفسه لأنها تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها والفتى الشاب الحديث السن ﴿ قد شغفها حباً ﴾ يعني قد علقها حباً والشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب والمعنى أنه حبه دخل الجلدة حتى أصاب القلب وقيل إن حبه قد أحاط بقلبها كإحاطة الشغاف بالقلب قال الكلبي حجب حبه قلبها حتى لا تعقل شيئاً سواه ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ يعني في خطأ بيّن ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر وأحبت فتاها .

﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾

(33/395)

يعني فلما سمعت زليخا بقولهن وما تحدثن به إنما سمى قولهن ذلك مكراً لأنهن طلبن بذلك رؤية يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله فقصدن أن يرينه وقيل إن امرأة العزيز أفشت إليهن سرها واستكتمتهن فأفشين ذلك عليها فلذلك سماه مكراً ﴿ أرسلت إليهن ﴾ يعني أنها لما سمعت بأنهن يلمنها على محبتها ليوسف أرادت أن تقيم عذرها عندهن قال

وهب اتخذت مائدة يعني صنعت لهن وليمة وضيافة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتي عيرنها ﴿ وأعتدت لهن متكأً ﴾ يعني ووضعت لهن نمارق ومساند يتكئن عليها ، وقال ابن عباس وابن جبير والحسن وقتادة ومجاهد : متكئاً يعني طعاماً وإنما سمي الطعام متكئاً لأن كل من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسائد يجلس ويتكئ عليها فسمي الطعام متكأً على الاستعارة ويقال : اتكأنا عند فلان أي طعمنا عنده المتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث ولذلك جاء النهي عنه في الحديث وهو قوله (صلى الله عليه وسلم) " لا آكل متكئاً " وقيل المتكأ الأترج وقيل هو كل شيء يقطع بالسكين أو يحزبها ويقال إن المرأة زينت البيت بألوان الفاكهة والأطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتي عيرنها بحب يوسف ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ يعني وأعطت كل واحدة من النساء سكيناً لتأكل بها وكان من عادتهم أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين ﴿ وقالت اخرج عليهن ﴾ يعني وقالت زليخا ليوسف اخرج على النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واختبأته في مكان آخر ﴿ فلما رأينه ﴾ يعني النسوة ﴿ أكبرنه ﴾ يعني أعظمنه ودهشن عند رؤيته وكان يوسف قد أعطي شطر الحسن ، وقال عكرمة : كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم وروى أبو سعيد الخدري رضي الله

تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " رأيت ليلة أسري بي إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر " ذكره البغوي بغير سند ، وقال إسحاق بن أبي

(34/395)

فروة : كان يوسف إذا سار في أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران ويقال إنه ورث حسن آدم يوم خلقه الله قبل أن يخرج من الجنة وقال أبو العالية هالهن أمره وبهتن إليه وفي رواية عن ابن عباس قال أكبرنه أي حضن ونحوه ، عن مجاهد والضحاك قال : حضن من الفرج وأنكر أكثر أهل اللغة هذا القول .

(35/395)

قال الزجاج : هذه اللفظة ليست معروفة في اللغة والهاء في أكبرنه تمنع من هذا لأنه لا يجوز أن يقال النساء قد حضنه لأن حضن لا يتعدى إلى مفعول قال الأزهري إن صحت هذه اللفظة فلها مخرج وذلك أن المرأة إذا حاضت أول ما تحيض فقد خرجت من حد الصغار إلى حد الكبار فيقال لها أكبرت أي حاضت على هذا المعنى فإن صحت الرواية عن ابن

عباس ، سلمنا له وجعلنا الهاء في قوله أكبرنه هاء الوقف لا هاء الكناية ، وقيل : إن المرأة إذا خافت أو فزعت فربما أسقطت ولدها وتحيض فإن كان ثم حيض فربما كان من فزعهن وما هالهن من أمر يوسف حين رأينه قال الإمام فخر الدين الرازي : وعندي أنه يحتمل وجهاً آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة آثار الخضوع والإخبات وشاهدن فيه مهابة وهيبة ملكية وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان ذلك الجمال العظيم مقروناً بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وأعظمنه ووقع الرعب والمهابة في قلوبهن قال وحمل الآية على هذا الوجه أولى ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ يعني : وجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين التي معهن وهون يحسبن أنهن يقطعن الأترج ولم يجدن الألم لدهشتهن وشغل قلوبهم بيوسف قال مجاهد فما أحسسن إلا بالدم ، وقال قتادة : أبن أيديهن حتى ألقينها والأصح أنه كان قطعاً من غير إبانة ، قال وهب : مات جماعة منهن ﴿ وقلن ﴾ يعني النسوة ﴿ حاش لله ما هذا بشراً ﴾ أي معاذ الله أن يكون هذا بشراً ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ يعني على الله والمقصود من هذا إثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف لأنه قد ركز في النفوس أن لا شيء أحسن من الملك فلذلك وصفته بكونه ملكاً وقيل لما كان الملك مطهراً من بواعث الشهوة وجميع الآفات والحوادث التي تحصل للبشر وصفن يوسف بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) ﴾

النسوة بكسر النون فعلة ، وهو جمع تكسير للقلة لا واحد له من لفظه .

وزعم ابن السراج أنه اسم جمع .

وقال الزمخشري : النسوة اسم مفرد لجمع المرأة ، وتأنيثه غير حقيقي ، ولذا لم تلحق فعله تاء التأنيث انتهى .

وعلى أنه جمع تكسير لا يلحق التاء لأنه يجوز : قامت الهنود ، وقام الهنود .

وقد تضم نونه فتكون إذ ذاك اسم جمع ، وتكسيره للكثرة على نسوان ، والنساء جمع تكسير للكثرة أيضاً ، ولا واحد له من لفظه .

شغف : خرق الشغاف ، وهو حجاب القلب .

وقيل : سويداؤه ، وقيل : داء يصل إلى القلب فينفذ إلى القلب .

وكسر الغين لغة تميم .

وقيل : الشغاف جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب ، شغف وصلت الحدة إلى القلب فكان يحترق من شغف البعير إذا هنأه فأحرقه بالقطران ، والمشغوف الذي أحرق الحب قلبه .

ومنه قول الأعشى :

يعصي الوشاة وكان الحب آونة . . .

مما يزين للمشفوف ما صنعا

وقد تكسر غينه .

﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ : لم تلحق تاء التأنيث لأنه جمع تكسير المؤنث ، ويجوز فيه الوجهان .

ونسوة كما ذكرنا جمع قلة .

وكن على ما نقل خمساً : امرأة خبازة ، وامرأة ساقية ، وامرأة بوابة ، وامرأة سجانة ، وامرأة صاحب دوابة في المدينة هي مصر .

ومعنى في المدينة : أنهم أشاعوا هذا الأمر من حب امرأة العزيز ليوسف ، وصرحوا بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع ، لأن النفوس أقبل لسماع ذوي الأخطار وما يجري لهم .

وعبرت بتراود وهو المضارع الدال على أنه صار ذلك سجية لها ، تخادعه دائماً عن نفسه كما تقول : زيد يعطي ويمنع .

ولم يقلن : راودت فتاها ، ثم نبهن على علة ديمومة المراودة وهي كونه قد شغفها حباً أي : بلغ حبه شغاف قلبها .

(37/395)

وانتصب حباً على التمييز المنقول من الفاعل كقوله : ملأت الإناء ماء ، أصله ملأ الماء الإناء .

وأصل هذا شغفها حبه ، والفتى الغلام وعرفه في المملوك .

وفي الحديث : " لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي " ، وقد قيل في غير المملوك .

وأصل الفتى في اللغة الشاب ، ولكنه لما كان جل الخدمة شباناً استعير لهم اسم الفتى .

وقرأ ثابت البناتي : شغفها بكسر الغين المعجمة ، والجمهور بالفتح .

وقرأ علي بن أبي طالب ، وعلي بن الحسين ، وابنه محمد بن علي ، وابنه جعفر بن محمد ، والشعبي ، وعوف الأعرابي : بفتح العين المهملة ، وكذلك قتادة وابن هرمز ومجاهد وحميد والزهري بخلاف عنهم ، وروي عن ثابت البناني وابن رجاء كسر العين المهملة .

قال ابن زيد : الشغف في يالحب ، والشغف في البغض .

وقال الشعبي : الشغف والمشغوف بالغين منقوطة في الحب ، والشغف الجنون ، والمشغوف المجنون .

وأدغم النحويان ، وحمزة ، وهشام ، وابن محيصن دال قد في شين شغفها .

ثم نقمن عليها ذلك فقلن : إنا لنراها في ضلال مبين أي : في تحير واضح للناس .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾

المتكأ : الوسادة ، والنمرقة .

المتك : الأترج ، والواحد متكة قال الشاعر :

فاهدت متكة لهي أبيها . . .

وقيل : اسم يعم جميع ما يقطع بالسكين الأترج وغيره من الفواكه .

قال :

يشرب الإثم بالصواع جهاراً . . .

ونرى المتك بيننا مستعارا

وهو من متك بمعنى بتك الشيء أي قطعه .

وقال صاحب اللوامح : المتك بالضم عند الخليل العسل ، وعند الأصمعي الأترج .

وقال أبو عمر : والشراب الخالص .

وقال أبو عمر : وفيه ثلاث لغات ، المتك بالحركات الثلاث ، وقيل : بالكسر الخلال ، وقيل :

بل المسك .

وقال الكسائي أيضاً : فيه اللغات الثلاث ، وقد يكون بالفتح المجمر عند قضاعة .

وقال أيضاً : قد يكون في اللغات الثلاث الفالوذ المعقد .

(38/395)

وقال الفضل : في اللغات الثلاث هو البزماورد ، وكل ملفوف بلحم ورقاق .

وقال أيضاً : المتك بالضم المائدة ، أو الخمر في لغة كندة .

السكين : تذكر وتؤنث ، قاله الفراء والكسائي .

ولم يعرف الأصمعي فيه إلا التذكير .

حاش : قال الفراء من العرب من يتمها ، وفي لغة الحجاز : حاش لك ، وبعض العرب :

حشى زيد كأنه أراد حشى لزيد ، وهي في أهل الحجاز انتهى .

وقال الزمخشري : حاشى كلمة تفيد معنى التنزيه في الاستثناء ، تقول : أساء القوم حاشى

زيد .

قال :

حاشى أبي ثوبان أن لنا . . .

ضنا عن الملحاة والشتم

وهي حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة ، فمعنى حاش الله : براءة الله ، وتنزيه الله انتهى .

وما ذكر أنها تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء غير معروف عند النحويين ، لا فرق بين قولك : قام القوم إلا زيداً ، وقام القوم حاشى زيد .

ولما مثل بقوله أساء القوم حاشى زيد ، وفهم من هذا التمثيل براءة زيد من الإساءة ، جعل ذلك مستفاداً منها في كل موضع .

وأما ما أنشده من قوله : حاشى أبي ثوبان ، فكذا ينشده ابن عطية ، وأكثر النحاة .

وهو بيت ركبوا فيه صدر بيت على عجز آخر ، وهما من بيتين وهما :

حاشى أبي ثوبان أن أبا . . .

ثوبان ليس ببُكْمَة فدْمِ

عمرو بن عبد الله إن به . . .

ضنًّا عن الملحاة والشتَم

﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهنّ متكئاً وآتت كل واحدة منهنّ سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ : روي أن تلك المقالة الصادرة عن النسوة إنما قصدن بها المكر بامرأة

العزيز ليغضبنها حتى تعرض عليهن يوسف ليبين عذرها ، أو يحق لومها ومكرهن هو اغتيابهن إياها ، وسوء مقالتهن فيها أنها عشقت يوسف .

وسمي الاغتياب مكراً ، لأنه في خفية وحال غيبة ، كما يخفي الماكر مكره .

وقيل : كانت استكتمتهن سرها فأفشينه عليها ، أرسلت إليهن ليحضرن .

(39/395)

قيل : دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات .

والظاهر عود الضمير على تلك النسوة القائلة ما قلن عنها .

وأعتدت لهن متكئاً أي : يسرت وهيأت لهن ما يتكئن عليه من النمارق والمخادّ والوسائد ، وغير ذلك مما يكون في مجلس أعد للكرامة .

ومن المعلوم أن هذا النوع من الإكرام لا يخلو من طعام وشراب ، وهنا محذوف تقديره : فجئن واتكأن .

ومتكئاً إما أن يراد به الجنس ، وإما أن يكون المراد وأعتدت لكل واحدة منهن متكئاً ، كما جاءت وآتت كل واحدة منهن سكيناً .

قال ابن عباس متكئاً مجلساً ، ذكره الزهراوي ، ويكون متكئاً ظرف مكان أي : مكاناً

يتكئن فيه .

وعلى ما تقدم تكون الآلات التي يتكأ عليها .

وقال مجاهد : المتكأ الطعام يحز حزاً .

قال القتبي : يقال اتكأنا عند فلان أي أكلنا ، ويكون هذا من المجاز عبر بالهيئة التي يكون عليها الآكل المترف بالمتكأ وهي عادة المترفين ، ألا ترى إلى قوله (صلى الله عليه وسلم) : " أما أنا فلا آكل متكئاً " أو كما قال : وإذا كان المتكأ ليس معبراً به عما يؤكل ، فمعلوم أنّ مثل هذا المجلس لا بد فيه من طعام وشراب ، فيكون في جملة الطعام ما يقطع بالسكاكين .

فقيل : كان لحماً وكانوا لا ينهشون اللحم ، إنما كانوا يأكلونه حزاً بالسكاكين .

وقيل : كان أترجاً ، وقيل : كان بزماورد وهو شبيه بالأترج موجود في تلك البلاد .

وقيل : هو مصنوع من سكر ولوز وأخلاط ، ومضمونه : أنه يحتاج إلى أن يقطع بالسكين ، وعادة من يقطع شيئاً أن يعتمد عليه ، فيكون متكئاً عليه .

قيل : وكان قصدها في بروزهن على هذه الهيئات متكئات في أيديهن سكاكين يحززن بها شيئين : أحدهما : دهشهن عند رؤيته وشغلهن بأنفسهن ، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها فتبكتهن ، ويكون ذلك مكراً بهن إذ ذهلن عما أصابهنّ من تقطيع أيديهن ، وما أحسسن به مع الألم الشديد لفرط ما غلب عليهن من استحسان يوسف وسلبه عقولهن .

والثاني : التهويل على يوسف بمكرها إذا خرج على نساء مجتمعات في أيديهن الخناجر ، توهمه أنهن يثبن عليه ، فيكون يحذر مكرها دائماً .

ولعله يجيبها إلى مرادها على زعمها ذلك ، ويوسف قد عصمه الله من كل ما تريده به من السوء .

وقرأ الزهري ، وأبو جعفر ، وشيبة : متكي مشدد التاء من غير همز بوزن متقي ، فاحتمل ذلك وجهين : أحدهما : أن يكون من الاتكاء ، وفيه تخفيف الهمز كما قالوا في توضأت توضئة .

والثاني : يكون مفتعلاً من أوكيت السقاء إذا شددته أي : ما يشتددن عليه ، إما بالاتكاء ، وإما بالقطع بالسكين .

وقرأ الأعرج : متكئاً مفعلاً من تكأ يتكأ إذا اتكأ .

وقرأ الحسن : وابن هرمز : متكاء بالمد والهمز ، وهو مفتعل من الاتكاء ، إلا أنه أشبع الفتحة فتولدت منها الألف كما قالوا : ومن ذم الرجال بمنتزاح .

وقالوا :

أعوذ بالله من العقراب . . .

الشائلات عقد الأذناب

وقرأ ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والجحدري ، والكلبي ، وابان بن تغلب : متكئاً بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف ، وجاء كذلك عن ابن هرمز .

وقرأ عبد الله ومعاذ ، وكذلك إلا أنهما فتحا الميم ، وتقدم تفسير متك ، ومتك في المفردات .

وقالت : اخرج عليهن ، هذا الخطاب ليوسف عليه السلام .

وخروجه يدل على طواعيتها فيما لا يعصي الله فيه ، وفي الكلام حذف تقديره : فخرج عليهن .

ومعنى أكبرنه : أعظمنه ودهشن برؤية ذلك الجمال الفائق الرائع .

قيل : كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء .

"وفي حديث الإسراء أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لما أخبر بلقيا يوسف قيل : يا رسول الله كيف رأيته ؟ قال : "كالقمر ليلة البدر" " وقيل : كان إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران ، كما يرى نور الشمس .

وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه .

وقيل : ورث الجمال عن جدته سارة .

وقال عبد الصمد بن علي الهاشمي ، عن أبيه ، عن جده : معناه حضن ، وأنشد بعض النساء حجة لهذا التأويل :

تأتي النساء على أطهارهن ولا . . .

تأتي النساء إذا أكبرن إكبارا

قال ابن عطية : وهذا قول ضعيف ، والبيت مصنوع مختلق ، كذلك قال الطبري وغيره من المحققين ، وليس عبد الصمد من رواة العلم رحمة الله .

وقال الزمخشري : وقيل أكبرن بمعنى حضن ، والهاء للسكت يقال : أكبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته من الكبر لأنها بالحيض تخرج عن حد الصغر إلى حد الكبر ، وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع . . .

فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

انتهى .

وإجماع القراء على ضم الهاء في الوصل دليل على أنها ليست هاء السكت ، إذ لو كانت هاء السكت ، وكان من أجرى الوصل مجرى الوقف ، لم يضم الهاء .

والظاهر أن الضمير يعود في أكبرنه على يوسف إن ثبت أن أكبر بمعنى حاض ، فتكون الهاء

عائدة على المصدر أي : أكبرن الإكبار .

وقطعن أيديهن أي جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي .

والتضعيف للتكثير إما بالنسبة لكثرة القاطعات ، وإما بالنسبة لتكثير الحز في يد كل واحدة منهن .

فالجرح كأنه وقع مراراً في اليد الواحدة وصاحبتها لا تشعر لما ذهلت بما راعها من جمال يوسف ، فكأنها غابت عن حسها .

والظاهر أن الأيدي هي الجوارح المسماة بهذا الاسم .

وقال عكرمة : الأيدي هنا الأكمام ، ولما فعلن هذا الفعل الصعب من جرح أيديهن ، وغلب عليهن ما رأين من يوسف وحسنه قلن : حاش لله .

قرأ الجمهور : حاش لله بغير ألف بعد الشين ، ولله بلام الجر .

وقرأ أبو عمرو : حاشا لله بغير ألف ، ولام الجر .

وقرأت فرقة منهم الأعمش : حشى على وزن رمى لله بلام الجر .

وقرأ الحسن : حاش بسكون الشين وصلاً ، ووقفاً بلام الجر .

وقرأ أبيّ وعبد الله : حاشى الله بالإضافة ، وعنهما كقراءة أبي عمر ، قاله صاحب اللوامح .

وقرأ الحسن : حاش الإله .

قال ابن عطية : محذوفاً من حاشى .

وقال صاحب اللوامح : بحذف الألف ، وهذه تدل على كونه حرف جر يجر ما بعده .

فأما الإله فإنه فكه عن الإدغام ، وهو مصدر أقيم مقام المفعول ، ومعناه المألوه بمعنى المعبود .

قال : وحذفت الألف من حاش للتخفيف انتهى .

وهذا الذي قاله ابن عطية وصاحب اللوامح : من أن الألف في حاشى في قراءة الحسن محذوفة لا تتعين ، إلا أن نقل عنه أنه يقف في هذه القراءة بسكون الشين ، فإن لم ينقل عنه في ذلك شيء فاحتمل أن تكون الألف حذفت لالتقاء الساكنين ، إذ الأصل حاشى الإله ، ثم نقل فحذف الهمزة وحرّك اللام بحركتها ، ولم يعتد بهذا التحريك لأنه عارض ، كما تنحذف في يخشى الإله .

ولو اعتد بالحركة لم تحذف الألف .

وقرأ أبو السمال : حاشا لله بالتنوين كرعياً لله ، فأما القراآت لله بلام الجر في غير قراءة أبي السمال فلا يجوز أن يكون ما قبلها من حاشى ، أو حاش ، أو حشى ، أو حاش حرف جر

، لأنّ حرف الجر لا يدخل على حرف الجر ، ولأنه تصرف فيهما بالحذف ، وأصل التصرف بالحذف أن لا يكون في الحروف .

وزعم المبرد وغيره كابن عطية : أنه يتعين فعليتها ، ويكون الفاعل ضمير يوسف أي : حاشى يوسف أن يقارف ما رمته به .

ومعنى لله : لطاعة الله ، أو لمكانة من الله ، أو لترفيع الله أن يرمي بما رمته به ، أو يذعن إلى مثله ، لأنّ ذلك أفعال البشر ، وهو ليس منهم ، إنما هو ملك .

وعلى هذا تكون اللام في لله للتعليل أي : جانب يوسف المعصية لأجل طاعة الله ، أو لما ذهب قبل .

وذهب غير المبرد إلى أنها اسم ، وانتصابها انتصاب المصدر الواقع بدلاً من اللفظ بالفعل كأنه قال : تنزيهاً لله .

ويدل على اسميتها قراءة أبي السمال حاشا منوناً ، وعلى هذا القول يتعلق لله بمحذوف على البيان كلك بعد سقيا ، ولم ينون في القراآت المشهورة مراعاة لأصله الذي نقل منه وهو الحرف .

ألا تراهم قالوا : من عن يمينه ، فجعلوا عن اسماً ولم يعربوه وقالوا : من عليه فلم يثبتوا ألفه مع المضمر ، بل أبقوا عن على بنائه ، وقلبوا ألف على مع الضمير مراعاة لأصلها ؟ وأما قراءة الحسن وقراءة أبي بالإضافة فهو مصدر مضاف إلى ألفه كما قالوا : سبحان الله ، وهذا اختيار الزمخشري .

وقال ابن عطية : وأما قراءة أبي بن كعب وابن مسعود فقال أبو علي : إن حاشى حرف استثناء ، كما قال الشاعر :

حاشى أبي ثوبان . . .

انتهى .

وأما قراءة الحسن حاش بالتسكين ففيها جمع بين ساكنين ، وقد ضعفوا ذلك .

قال الزمخشري : والمعنى تنزيه الله من صفات العجز ، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله .

وأما قوله : حاشى لله ، ما علمنا عليه من سوء ، فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله .

ما هذا بشراً لما كان غريب الجمال فائق الحسن عما عليه حسن صور الإنسان ، نفين عنه البشرية ، وأثبتن له الملكية ، لما كان مركوزاً في الطباع حسن الملك ، وإن كان لا يرى .

وقد نطق بذلك شعراء العرب والمحدثون قال بعض العرب :

فلست لأنسى ولكن لملاك . . .

تنزل من جو السماء يصوب

وقال بعض المحدثين :

قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة . . .

حسناً وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

وانتصاب بشراً على لغة الحجاز ، ولذا جاء ﴿ ما هن أمهاتهم إنْ أمهاتهم ﴾ وما منكم من أحد عنه حاجزين ، ولغة تميم الرفع .

قال ابن عطية : ولم يقرأ به .

وقال الزمخشري : ومن قرأ على سليقته من بني تميم قرأ بشر بالرفع ، وهي قراءة ابن مسعود انتهى .

وقرأ الحسن وأبو الحويرث الحنفي : ما هذا بشرى ، قال صاحب اللوامح : فيحتمل أن يكون معناه بمبيع أو بمشرى أي : ليس هذا مما يشترى ويباع .

ويجوز أن يكون ليس بثمن كأنه قال : هو أرفع من أن يجري عليه شيء من هذه الأشياء ، فالشراء هو مصدر أقيم مقام المفعول به .

وتابعهما عبد الوارث عن أبي عمرو على ذلك ، وزاد عليهما : إلا ملك بكسر اللام واحد الملوك ، فهم نفوا بذلك عنه ذل المماليك وجعلوه في حيز الملوك ، والله أعلم انتهى .

ونسب ابن عطية كسر اللام للحسن وأبي الحويرث اللذين قرآ بشرى قال : لما استعظمن حسن صورته قلن هذا ما يصلح أن يكون عبداً بشرى ، إنْ هذا إلا يصلح أن يكون ملكاً كريماً .

وقال الزمخشري : وقرئ ما هذا بشرى أي : بعبد مملوك لئيم ، إنْ هذا إلا ملك كريم .

تقول : هذا بشرى أي حاصل بشرى ، بمعنى هذا مشتري .

وتقول : هذا لك بشرى ، أي بكراً .

وقال : وإعمال ما عمل ليس هي اللغة القدمى الحجازية ، وبها ورد القرآن انتهى .

وإنما قال القدمي ، لأنّ الكثير في لغة الحجاز إنما هو جر الخبر بالباء ، فتقول : ما زيد بقائم ، وعليه أكثر ما جاء في القرآن .

وأما نصب الخبر فمن لغة الحجاز القديمة ، حتى أنّ النحويين لم يجدوا شاهداً على نصب الخبر في أشعار الحجازيين غير قول الشاعر :

وأنا النذير بحرة مسودة . . .

تصل الجيوش إليكم أقوادها

أبناؤها متكنفون أباهم . . .

حنقو الصدور وما هم أولادها

وقال الفراء وهو سامع لغة حافظ ثقة : لا يكاد أهل الحجاز ، ينطقون إلا بالباء ، فلما غلب على أهل الحجاز النطق بالباء قال الزمخشري : اللغة القدمى الحجازية ، فالقرآن جاء باللغتين القدمى وغيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(45/395)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾

أي جماعةٌ من النساء وكنّ خمساً : امرأةُ الساقي وامرأةُ الخبّاز وامرأةُ صاحب الدوابِّ وامرأةُ صاحبِ السجنِ وامرأةُ الحاجب ، والنسوةُ اسمٌ مفردٌ لجمع المرأةِ وتأنيثُه غير حقيقي كتأنيث اللُّمَة وهي اسمٌ لجماعة النساء والثُبَة وهي اسم لجماعة الرجال ، ولذلك لم يلحَق فعلَه تاءُ التأنيث ﴿ فِى المدينة ﴾ ظرفٌ لقال أي أشعْن الأمرَ في مصر أو صفةٌ النسوة ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ ﴾ أي الملك ، يُرِدْن قطفير ، وإضافتُهن لها إليه بذلك العنوانِ دون أن يصرِّحن باسمها أو اسمِه ليست لقصد المبالغةِ في إشاعة الخبر بحكم أن النفوسَ إلى سماع

أخبارِ ذوي الأخطارِ أميل كما قيل ، إذ ليس مرادُهن تفضيحَ العزيز بل هي لقصد الإشباعِ في لومها بقولهن : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا ﴾ أي تطالبه بمواقعته لها وتتحمل في ذلك وتخادعه ﴿ عَن نَّفْسِهِ ﴾ وقيل : تطلب منه الفاحشة ، وإيثارُهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودةِ والفتى من الناس الشابُّ وأصله فتيٌ لقولهم : فتيان والفتوة شاذة وجمعه فتية وفتيان ويستعار للمملوك وهو المراد هاهنا وفي الحديث : " لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي " ، وتعبيرُهن عن يوسف عليه السلام بذلك مضافاً إليها لا إلى العزيز الذي لا تستلزم الإضافةُ إليه الهوان بل ربما يشعر بنوع عزةٍ لإبانة ما بينهما من التباُين البيِّن الناشىءِ عن المالكية والمملوكية ، وكلُّ ذلك لتربية ما مر من المبالغة والإشباعِ في اللوم فإن من لا زوج لها من النساء أو لها زوجٌ دنيءٌ قد تُعذر في مراودة الأخدان لا سيما إذا كان فيهم علوُّ الجناب ، وأما التي لها زوجٌ وأيُّ زوج ، عزيزُ مصرَ فمراودتُها لغيره لا سيما لعبدها الذي لا كفاءةَ بينها وبينه أصلاً وتماديها في ذلك غايةُ الغي ونهايةُ الضلال .

(46/395)

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ﴾ أي شق حبُّه شَغافَ قلبها وهو حجابُه أو جلدةٌ رقيقةٌ يقال لها لسانُ القلبِ حتى وصل إلى فؤادها ، وقرىء شعَفها بالعين من شعف البعيرَ إذا هنَأه

فأحرقه بالقطِران . وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما الشغَفُ الحبُّ القاتل والشعف حبٌّ دون ذلك ، وكان الشعبي يقول : الشغفُ حبٌّ والشعفُ جنون والجملةُ خبرٌ ثانٍ أو حال من فاعل تُراود أو من مفعوله ، وأيًا ما كان فهو تكريرٌ للّوم وتأكيدٌ للعذْل ببيان اختلال أحوالِها القلبية كأحوالها القالَبية ، وجعلُها تعليلاً لدوام المراودةِ من حيث الإنية مصيرٌ إلى الاستدلال على الأجلي بالأخفى ، ومن حيث اللُمية ميلٌ إلى تمهيد العذر من قِبلها ولسْن بذلك المقام ، وانتصابُ حباً على التمييز لنقله عن الفاعلية إذ الأصل قد شغفها حبُّه كما أشير إليه ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا ﴾ أي نعلمها علماً متاخماً للمشاهدة والعِيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفْرِطة مستقرةً ﴿ فِى ضلال ﴾ عن طريق الرشد والصوابِ أو عن سنن العقل ﴿ مُّبِينٌ ﴾ واضح لا يخفى كونُه ضلالاً على أحد أو مُظهرٍ لأمرها بين الناس ، فالجملةُ مقرِّرةٌ لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيلٌ عليها بأنها في أمرها على خطأ عظيم ، وإنما لم يقُلن إنها لفي ضلال مبين إشعاراً بأن ذلك الحكمَ غيرُ صادر عنهن مجازفةً بل عن علم ورأي مع التلويح بأنهن متنزّهاتٌ عن أمثال ما هي عليه .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾

باغتيابهن وسوءِ قالتِهن وقولِهن : امرأةُ العزيز عشِقت عبدَها الكنعاني وهو مَقَتها ، وتسميتُه مكراً لكونه خفيةً منها كمكر الماكر ، وإن كان ظاهراً لغيرها . وقيل : استكْتَمَتْهن سِرَّها فأفشَيْنه عليها ، وقيل : إنما قلن ذلك لتُرِيَهُنّ يوسف عليه السلام ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ تدعوهن ، قيل : دعت أربعين امرأةً منهن الخمسُ المذكورات ﴿ وَأَعْتَدَتَ ﴾ أي أحضرت وهيأت ﴿ لَهُنَّ ﴾ أي ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد ، أو رتّبت لهن مجلسَ شراب لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترَفين ، ولذلك نُهي الرجل أن يأكل متّكِئاً . وقيل : متّكأً طعاماً من قولهم : تكأنا عند فلان أي طعِمنا ، قال جميل :

فظِلْنا بنعمةٍ واتكأنا . . . وشرِبْنا الحلالَ من قُلَلِهْ

وعن مجاهد متّكأً طعاماً يُحَزّ حزاً ، كأن المعنى يُعتمد بالسكين عند القطع لأن القاطعَ يتكىء على المقطوع بالسكين ، وقرىء بغير همز وقرىء بالمد بإشباع حركة الكاف كمُنتَزاح في مُنتزَح ويَنْباع في ينبَع وقرىء مُتُكاً وهو الأُتْرُجّ وأنشدوا :

وأهدت مُتْكةً لبني أبيها . . . تخُب بها العَثَمْثَمةُ الوَقاحُ

أو ما يقطع من متك الشيء إذا بتكه إذا تكى ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ لتستعمله في قطع ما يُعهد قطعُه مما قدّم بين أيديهن وقرِّب إليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متّكئات وغرضُها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن ﴿ وَقَالَتِ ﴾ ليوسف وهن مشغولاتٌ بمعالجة السكاكين وإعمالِها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها ، والعطفُ بالواو ربما يشير إلى أن قولها : ﴿ اخرج عَلَيْهِنَّ ﴾ أي ابرُزْ لهن لم يكن عَقيب ترتيب أمورِهن ليتم غرضُها من استغفالهن ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ ﴾ عطفٌ على مقدر يستدعيه الأمرُ بالخروج وينسحب عليه الكلام أي فخرج عليهن فرأينه وإنما حذف تحقيقاً لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكرِ خروجِه عليهن كما حُذف لتحقيق السُّرعةِ في قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا رَءاهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ بعد قوله : ﴿ قَالَ الذى عِندَهُ عِلْمٌ مّنَ الكتاب أَنَاْ ءاتِيكَ ﴾ وفيه إيذانٌ بسرعة امتثالِه عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد مضرّتَه من الأفاعيل ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ عظّمنه وهِبْن حسنَه الفائقَ وجمالَه الرائعَ الرائقَ فإن فضلَ جمالِه على جمال كلِّ جميلٍ كان كفضل القمرِ ليلة البدرِ على سائرِ الكواكب . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " رأيتُ يوسفَ ليلةَ المعراج كالقمر ليلةَ البدر " وقيل : كان يُرى تلألؤُ وجهِه على الجُدران كما يُرى نورُ الشمس على الماء ، وقيل : معنى أكبرْنَ حِضْن والهاء للسكت أو ضمير راجع إلى يوسف عليه السلام على حذف اللام أي حضْن له من شدة الشبَق كما قال

المتنبي :

خفِ اللهَ واستُرْ ذا الجمالَ ببرقعٍ . . . فإنْ لُحْتَ حاضتْ في الخدورِ العواتقُ

(49/395)

﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي جرَحْنها بما في أيديهن من السكاكين لفرْطِ دهشتِهن وخروجِ حركات جوارحِهن ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعُرْن به ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقصِ والعجزِ وتعجباً من قدرته على مثل ذلك الصنعِ البديع ، وأصلُه حاشا كما قرأه أبو عمرو في الدرج فحُذفت ألفُه الأخيرةُ تخفيفاً وهو حرفُ جر يفيد معنى التنزيهِ في باب الاستثناء فلا يُستثنى به إلا ما يكون موجباً للتنزيه فوضع موضعَه ، فمعنى حاشا الله تنزيهُ الله وبراءةُ الله وهي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه ، واللام لبيان المنزَّه والمبرَّأ عز وجل كما في سُقياً لك ، والدليلُ على وضعه موضعَ المصدر قراءةُ أبي السمال حاشاً بالتنوين وقراءةُ أبي عمرو بحذف الألف الأخيرة وقرأةُ الأعمش بحذف الأولى فإن التصرّفَ من خصائص الاسمِ فيدل على تنزيله منزلتَه ، وعدمُ التنوين لمراعاة أصلِه كما في قولك : جلست مِنْ عن يمينه .

(50/395)

وقولُه: غدت مِنْ عليه منقلبُ الألف إلى الياء مع الضمير وقرىء حاش لله بسكون الشين إتباعاً للفتحة الألفَ في الإسقاط وحاش الإله، وقيل: حاشا فاعلٌ من الحشا الذي هو الناحية وفاعلُه ضميرُ يوسف أي صار في ناحية من أن يقارف ما رمتْه به لله أي لطاعته أو لمكانه أو جانبَ المعصية لأجل الله ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ على إعمال ما بمعنى ليس وهي لغةُ أهلِ الحجازِ لمشاركتهما في نفي الحالِ وقرىء بشرٌ على لغة تميم وبِشِرًى أي بعبد مشترى لئيم، نفَين عنه البَشَرية لما شاهدْن فيه من الجمال العبقري الذي لم يُعهدْ مثالُه في البشر وقصَرْنه على الملكية بقولهن: ﴿ إنْ هذا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ بناءً على ما ركَزَ في العقول مِنْ ألاّ حيَّ أحسنُ من الملك كما ركب فيها أن لا أقبحُ من الشيطان ولذلك لا يزال يُشبَّه بهما كلُّ متناهٍ في الحسن والقبح وغرضُهن وصفُه بأقصى مراتبِ الحسن والجمال.

انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(51/395)

وقال الآلوسى:

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾

المشهور وإليه ذهب أبو حيان أنه جمع تكسير للقلة كصبية .

وغلمة ، وليس له واحد من لفظه بل من معناه وهو امرأة .

وزعم ابن السراج أنه اسم جمع ، وعلى كل فتأنيثه غير حقيقي ولا التفات إلى كون ذلك المفرد مؤنثاً حقيقاً لأنه مع طرو ما عارض ذلك ليس كسائر المفردات ولذا لم يؤنث فعله ، وفي نونه لغتان : الكسر وهي المشهورة والضم وبه قرأ المفضل .

والأعمش .

والسلمي كما قال القرطبي فلا عبرة بمن أنكر ذلك ، وهو إذ ذاك اسم جمع بلا خلاف ، ويكسر للكثرة على نساء .

ونسوان ، وكنّ فيما روى عن مقاتل خمساً : امرأة الخباز .

وامرأة الساقي .

وامرأة البواب .

وامرأة السجان .

وأمرأة صاحب الدواب .

وروى الكلبي أنهن كنّ أربعة بإسقاط امرأة البواب ﴿ فِى المدينة ﴾ أريد بها مصر ، والجار والمجرور في موضع الصفة لنسوة على ما استظهره بعضهم ، ووصفن بذلك لأن إغاظة كلامهن بهذا الاعتبار لاتصافهن بما يقوى جانب الصدق أكثر فإن كلام البدويات

لبعدهن عن مظان الاجتماع والاطلاع على حقيقة أحوال الحضريات القصريات لا يلتفت إلى كلامهن فلا يغيظ تلك الإغانظة ، والكثير على اختيار تعلقه بقال ومعنى كون قولهن في المدينة إشاعته وإفشاؤه فيها ، وتعقب بأن ذلك خلاف الظاهر ﴿ امرأت العزيز ﴾ هو في الأصل الذي يقهر ولا يقهر كأنه مأخوذ من عز أي حصل في عزاز وهي الأرض الصلبة التي يصعب وطؤها ويطلق على الملك ، ولعلهم كانوا يطلقونه إذ ذاك فيما بينهم على كل من ولاه الملك على بعض مخصوص من الولايات التي لها شأن فكان من خواصه ذوي القدر الرفيع والمحل المنيع ، وهو بهذا المعنى مراد هنا لأنه أريد به قطفير ، وهو في المشهور كما علمت إنما كان على خزائن الملك وكان الملك الريان بن الوليد وقيل : المراد به الملك ، وكان قطفير ملك مصر .

(52/395)

واسكندرية ، وإضافتهن لها إليه بهذا العنوان دون أن يصرحن باسمها أو اسمه ليظهر كونها من ذوات الأخطار فيكون عوناً على إشاعة الخبر بحكم أن النفوس إلى سماع أخبار ذوي الأخطار أميل ، وقيل وهو الأولى إن ذاك لقصد المبالغة في لومها بقولهن ﴿ تُرَاوِدُ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي تطلب مواقعته إياها وتتمحل في ذلك ، وإيثارهن صيغة المضارع للدلالة

على دوام المراودة كأنها صارت سجية لها ، والفتى من الناس الطري من الشبان ، وأصله فتى بالياء لقولهم في التثنية وهي ترد الأشياء إلى أصولها فتيان ، فالفتوة على هذا شاذ ، وجمعه فتية.

وفتيان ، وقيل : إنه يائي وواوي ككنوت وكنيت ، وله نظائر كثيرة ، ويطلق على المملوك والخادم لما أن جل الخدمة شبان.

وفي الحديث " لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي " وأطلق على يوسف عليه السلام هنا لأنه كان يخدمها ، وقيل : لأن زوجها وهبه لها فهو مملوكها بزعم النسوة ، وتعبيرهن عنه عليه السلام بذلك مضافاً إليه لا إلى العزيز لإبانة ما بينهما من التباين البين الناشيء عن الخادمية والمخدومية أو المالكية والمملوكية ؛ وكل ذلك لتربية ما مر من المبالغة في اللوم فإن من لا زوج لها من النساء أو لها زوج دنيء قد تعذر في مراودة الأخدان لا سيما إذا كان فيهم علو الجناب ، وأما التي لها زوج وأي زوج فمراودتها لغيره لا سيما لمن لم يكن بينها وبينه كفاءة لها وتماديها في ذلك غاية الغي ونهاية الضلال ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّا ﴾ أي شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه.

وقيل : هو جلدة رقيقة يقال لها : لسان القلب حتى وصل إلى فؤادها ، وبهذا يحصل المبالغة في وصفها بالحب له ، وقيل : الشغاف سويداء القلب ، فالمبالغة حينئذ ظاهرة ،

وإلى هذا يرجع ما روى عن الحسن من أن الشغاف باطن القلب ، وما حكى عن أبي علي من أنه وسط والفعل مفتوح الغين المعجمة عند الجمهور .

(53/395)

وقرأ ثابت للبناني بكسرها وهي لغة تميم ، وقرأ عليه كرم الله تعالى وجهه .

وعلي بن الحسين .

وابنه محمد .

وابنه جعفر رضي الله تعالى عنهما .

والشعبي .

وعوف الأعرابي شعفها بفتح العين المهملة ، وهي رواية عن قتادة .

وابن هرمز .

ومجاهد .

وحميد .

والزهري ، وروى عن ثابت البناني أنه قرأ كذلك أيضاً إلا أنه كسر العين ، وهو من شعف البعير إذ هنأه فأحرقه بالقطران ، فالمعنى وصل حبه إلى قلبها فكاد يحترق ، ومن هذا قول

الأعشى

: يعصى الوشاة وكان الحب آونة . . .

مما يزين للمشعوف ما صنعا

وذكر الراغب أنه من شعفة القلب وهي رأسه عند معلق النياط ، ويقال : لأعلى الجبل شعفة أيضاً ، وأخرج ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن ابن عباس أن الشغف الحب القاتل .

والشعف حب دون ذلك ، وأخرجا عن الشعبي أن الشغف الحب ، والشعف الجنون ، وأخرجا أيضاً عن ابن زيد أن الشغف في الحب ، والشعف في البغض ، وهذا المعنى ممتنع الإرادة هنا على هذه القراءة ، وفي كتاب أسرار البلاغة في فصل ترتيب الحب أن أول مراتب الحب الهوى .

ثم العلاقة وهي الحب اللازم للقلب .

ثم الكلف وهو شدة الحب .

ثم العشق وهو اسم لما فضل عن المقدار المسمى بالحب .

ثم الشعف بالمهملة وهو احتراق القلب مهع لذة يجدها ، وكذلك اللوعة واللاعج .

ثم الشغف بالمعجمة وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب .

ثم الجوى وهو الهوى الباطن .

ثم التيم هو أن يستعبده الحب .

ثم التبل وهو أن يسقمه الحب .

ثم التدله وهو ذهاب العقل من الحب .

ثم اليهوم وهو أن يذهب الرجل على وجهه لغلبة الهوى عليه اه .

(54/395)

ورتب بعضهم ذلك على طرز آخر والله تعالى أعلم ، وأيّاً ما كان فالجملة إما خبر ثان أو حال من فاعل ﴿ تُرَاوِدُ ﴾ أو من مفعوله ، والمقصود منها تكرير اللوم وتأكيد العذل ببيان اختلاف أحوالها القلبية كأحوالها القالبية ، وجوز أبو البقاء كونها استئنافية فهي حينئذ على ما قيل : في موضع التعليل لدوام المراودة ، وليس بذاك لأنه إن اعتبر من حيث الإنية كان مصيره إلى الاستدلال بالأخفى على الأجل ، وإن اعتبر من حيث اللمية كان فيه ميل إلى تمهيد العذر من قبلها وليس المقام له ، وانتصاب ﴿ حبّاً ﴾ على التمييز وهو محول عن الفاعل إذ الأصل قد شغفها حبه كما أشير إليه ، وأدغم النحويان .

وحمزة .

وهشام .

وابن محصين دال ﴿ قَدْ ﴾ في شين شغفها .

﴿ أَنَّا ﴾ أي نعلمها ، فالرؤية قلبية واستعمالها بمعنى العلم حقيقة كاستعمالها بمعنى الإحصاص بالبصر ، وإذا أريد منها البصرية ثم تجوز بها عن العلمية كان أبلغ في إفادة كونها فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة ﴿ لَنَرَاكَ فِي ضلال ﴾ عظيم عن طريق الرشد والصواب أو سنن العقل ﴿ مُّبِينٌ ﴾ واضح لا يخفى كونه ضلالاً على أحد ، أو مظهر لأمرها بين الناس ، فالتنوين للتفخيم والجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع ، وتسجيل عليها بأنها في أمرها على خطأ عظيم ، وإنما لم يقلن : إنها لفي ضلال مبين إشعاراً كما قيل : بأن ذلك الحكم غير صادر منهن مجازفة بل عن علم ورأى مع التلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ما هي عليه ، وصح اللوم على الشغف قيل : لأنه اختياري باعتبار مباديه كما يشير إليه قوله

: مازحته فعشقته . . .

والعشق أوله مزاح

وإلا فما ليس باختياري لا ينبغي اللوم عليه كما أشار إليه البوصيري بقوله

: يا لائمي في الهوى العذري معذرة . . .

مني إليك ولو أنصفت لم تلم

وقيل : اللوم عليه باعتبار الاسترسال معه وترك علاجه فإنهم صرحوا بأن ذلك من جملة الإدواء ، وذكروا له من المعالجة ما ذكروا ، ومن أحسن ما ذكر له من ذلك تذكر مساوي المحبوب والتفكر في عواقبه فقد قيل

: لو فكر العاشق في منتهى . . .

حسن الذي يسبيه لم يسبه

وتمام الكلام في هذ المقام يطلب في محله .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾

أي باغتيابهن وسوء مقالتهن ، وتسمية ذلك مكراً لشبهه له في الإخفاء ، وقيل : كانت استكتمتهن سرها فأفشينه وأطلعن أمرها ، وقيل : إنهن قصدن بتلك المقالة إغضابها حتى تعرض عليهن يوسف لتبدي عذرها فيفزن بمشاهدته ، والمكر على هذين القولين حقيقة ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ تدعوهن ، قيل : دعت أربعين امرأة منهن الخمس أو الأربع المذكورات ، وروى ذلك عن وهب ، والظاهر عود الضمير على تلك النسوة القائلة ما قلن عنها ﴿ وَأَعْتَدَتْ ﴾ أي هيأت ﴿ لَهُنَّ مُتَّكَئًا ﴾ أي ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد كما روى عن ابن عباس ، وهو من الاتكاء الميل إلى أحد الشقين ، وأصله موتكأ لأنه من توكأت فأبدلت الواو تاءاً وأدغمت في مثلها ، وروى عن الحبر أيضاً أن المتكأ مجلس

الطعام لأنهم كانوا يتكون له كعادة المترفين المكبرين ، ولذلك نهى عنه ، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يأكل الرجل بشماله وأن يأكل متكئاً ، وقيل : أريد به نفس الطعام قال العتبي : يقال : اتكأنا عند فلان أي أكلنا ؛ ومن ذلك قول جميل :

فظللنا بنعمة واتكأنا . . .

وشربنا الحلال من قلله

وهو على هذا اسم مفعول أي متكئاً له أو مصدر أي اتكاء ، وعبر بالهيئة التي يكون عليها الآكل المترف عن ذلك مجازاً ، وقيل : هو من باب الكناية ، وعن مجاهد أنه الطعام يحز حزاً بالسكين واختلفوا في تعيينه ، فقيل : كان لحماً وكانوا لا ينهشون اللحم وإنما يأكلونه حزاً بالسكاكين ، وقيل : كان أترجا .

وموزاً .

وبطيخاً ، وقيل : الزماورد وهو الرقاق الملفوف باللحم وغيره أو شيء شبيه بالأترج ، وكأنه إنما سمي ما يقطع بالسكين بذلك لأن عادة من يقطع شيئاً أن يعتمد عليه فيكون متكأ

عليه ، وقرأ الزهري .

وأبو جعفر .

وشيبة متكى مشدد التاء من غير همز بوزن متقى وهو حينئذ إما أن يكون من الاتكاء وفيه تخفيف الهمزة كما قالوا في توضأت : توضيت ، أو يكون مفتعلاً من أوكيت السقاء إذا شددته بالوكاء ، والمعنى أعتدت لهن ما يشتد عليه بالاتكاء أو بالقطع بالسكين ، وقرأ الأعرج متكأ على وزن مفعلاً من تكاء يتكأ إذا اتكأ ، وقرأ الحسن .

وابن هرمز متكأ بالمد والهمز وهو مفتعل من الاتكاء إلا أنه أشبع الفتحة فتولدت منها الألف وهو كثير في كلامهم ، ومنه قوله :

وأنت من الغوائل حين ترمى . . .

وعن ذم الرجال بمنتزاح

وقوله :

ينباع من ذفرى عضوب حسرة . . .

زيافة مثل الفنيق المكرم

وقرأ ابن عباس .

وابن عمر .

ومجاهد .

وقتادة .

وآخرون متكا بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف ، وجاء ذلك عن ابن هرمز أيضاً ،

وهو الأترج عند الأصمعي .

وجماعة والواحد متكة ، وأنشد :

فأهدت (متكة) لبني أبيها . . .

تخب بها العثمثمة الوقاح

وقيل : هو اسم يعم جميع ما يقطع بالسكين كالأترج .

وغيره من الفواكه ، وأنشد :

نشرب الاثم بالصواع جهارا . . .

ونرى (المتك) بيننا مستعاراً

وهو من متك الشيء بمعنى بتكه أي قطعه ، وعن الخليل تفسير المتك مضموم الميم بالعسل ، وعن أبي عمرو تفسيره بالشراب الخالص ، وحكى الكسائي تثليث ميمه ، وفسره بالفالوذج ، وكذا حكى التثليث المفضل لكن فسره بالزماورد ، وذكر أنه بالضم المائدة أو الخمر في لغة كندة ، وبالفتح قرأ عبد الله .

ومعاذ رضي الله تعالى عنهما ، وفي الآية على سائر القراآت حذف أي فجئن وجلسن ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ .

وقال بعض المحققين : لا يبعد أن تسم هذه الواو فصيحة ، وإنما أعطت كل وحدة ذلك لتستعمله في قطع ما يعهد قطعه مما قدم بين أيديهن وقرب إليهن ، وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن لتبكتهنّ بالحجة .

وقيل : غرضها ذاك والتهويل على يوسف عليه السلام من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهن الخناجر توهمه أنهن يثبت عليه فيكون خائفاً من مكرها دائماً فلعله يجيبها إلى مرادها ، والسكين مذكر عند السجستاني قال : وسألت أبا زيد الأنصاري .

والأصمعي .

وغيرهم ممن أدركناه فكلهم يذكره وينكر التأنيث فيه ، وعن الفراء أنه يذكر ويؤنث .

وذلك حكى عن اللحياني .

ويعقوب ، ومنع بعضهم أن يقال : سكينة ، وأنشد عن الكسائي ما يخالف ذلك وهو قوله :

الذئب سكينته في شدقه . . .

ثم قراباً نصلها في حلقه

﴿ وَقَالَتِ ﴾ ليوسف عليه السلام وهن مشغولات بمعالجة السكاكين وإعمالها فيما بأيدهن ، والعطف بالواو ربما يشير إلى أن قوله : ﴿ اخرج عَلَيْهِنَّ ﴾ أي ابرز لهن لم يكن عقيب ترتيب أمورهنّ ليتم غرضها بهن .

والظاهر أنها لم تأمره بالخروج إلا لمجرد أن يرينه فيحصل مرامها ، وقيل : أمرته بالخروج عليهن للخدمة أو للسلام ، وقد أضمرت مع ذلك ما أضمرت يحكى أنها ألبسته ثياباً بيضاً في ذلك اليوم لأن الجميل أحسن ما يكون في البياض ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ ﴾ عطف على مقدر يستدعيه الأمر بالخروج وينسحب عليه الكلام أي فخرج عليهن فرأينه ، وإنما حذف على ما قيل : تحقيقاً لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن ، وفيه إيذان بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد مضرته من الأفاعيل .

ونظير هذا آت كما مر آنفاً ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي أعظمنه ودهشن برؤية جماله الفائق الرائع الرائق ، فإن فضل جماله على جمال كل جميل كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب .

وأخرج ابن جرير .

وغيره عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر ، وحكى أنه عليه السلام كان إذا سار في أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس ، وجاء عن الحسن أنه أعطى ثلث الحسن ، وفي رواية عن أنس مرفوعاً أنه عليه السلام أعطى هو وأمه شطر الحسن وتقدم خبر أنه عليه اللاسم كان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه ربه ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن معنى أكبرن حضن ، ومن ذلك قوله :

يأتي النساء على أطهارهن ولا . . .

يأتي النساء إذا أكبرن إكباراً

وكأنه إنما سمي الحيض إكباراً لكون البلوغ يعرف به فكأنه يدخل الصغار سن الكبر فيكون في الأصل كناية أو مجازاً ، والهاء على هذا إما ضمير المصدر فكأنه قيل : أكبرن إكباراً . وإما ضمير يوسف عليه السلام على أسقاط الجار أي حضن لأجله من شدّة شبقهن ، والمرأة كما زعم الواحدي إذا اشتدّ شبقها حاضت ومن هنا أخذ المتنبي قوله :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع . . .

إذا لحت حاضت في الخدور العواتق

وقيل : إن الهاء للسكت ، ورد بأنها لا تحرك ولا تثبت في الولص ، وءجراء الوصل مجرى الوقف وتحريكها تشبيهاً لها بالضمير كما في قوله :

واحر قلباه ممن قلبه شبم . . .

ضعيف في العربية

على تسليم صحته ضعيف في العربية واعترض في "الكشف" التخريجين الأولين فقال : إن نزع الخافض ضعيف لأنه إنما يجري في الظروف والصفات والصلات ، وذلك لدلالة الفعل على مكان الحذف ، وأما في مثل هذا فلا ، والمصدر ليس من مجازه إذ ليس المقام للتأكيد ، وزعم أن الوجه هو الأخير ، وكل ما ذكره في حيز المنع كما لا يخفى .

وأنكر أبو عبيدة مجيء أكبرن بمعنى حضن ، وقال : لا نعرف ذلك في اللغة ، والبيت مصنوع مختلق لا يعرفه العلماء بالشعر ، ونقل مثل ذلك عن الطبري .

وابن عطية .

وغير واحد من المحققين ، ورواية ذلك عن ابن عباس إنما أخرجها ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد ، وهو وإن روى ذلك عن أبيه عن أبيه علي عن أبيه ابن عباس لا يعول عليه فقد قالوا : إنه عليه الرحمة ليس من رواة العلم .

وعن الكميت الشاعر تفسير أكبرن بأمنين ، ولعل الكلام في ذلك كالكلام فيما تقدم تخريجاً وقبولاً ، وأنا لا أرى الكميت من خيل هذا الميدان وفرسان ذلك الشأن ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي جرحنها بما في أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات جوارحهن عن منهاج الاختيار حتى لم يعلمن بما عملن ولم يشعرن بما ألم ما نالهن ، وهذا كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، وهو معنى حقيقي للتقطيع عند بعض .

وفي "الكشف" إنه معنى مجازي على الأصح ، والتضعيف للتكثير إما بالنسبة لكثرة القاطعات .

وإما بالنسبة لكثرة القطع في يد كل واحدة منهن .

وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن مجاهد أنه فسر التقطيع بالإبانة ، والمعنى الأول أسرع تبادراً إلى الذهن ، وحمل الأيدي على الجوارح المعلومة مما لا يكاد يفهم خلافه ، ومن العجيب ما روى عن عكرمة من أن المراد بها الأكمام ، وأظن أن منشأ هذا محض استبعاد وقوع التقطيع على الأيدي بالمعنى المتبادر ؛ ولعمري لو عرض ما قاله على أدنى الأفهام لاستبعدته ﴿ وَقُلْنَ ﴾ تنزيهاً

لله سبحانه عن صفات التقصير والعجز وتعجباً من قدرته جل وعلا على مثل ذلك النصع البديع ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ أصله حاشا الله بالألف كما قرأ أبو عمرو في الدرج فحذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً ، وهو على ما قيل : حرف وضع للاستثناء والتنزيه معاً ثم نقل وجعل اسماً بمعنى التنزيه وتجرد عن معنى الاستثناء ولم ينون مراعاة لأصله المنقول عنه ، وكثيراً ما يراعون ذلك ألا تراهم قالوا : جلست من عن يمينه ؟ فجعلوا عن اسماً ولم يعربوه ، وقالوا : غدت من عليه فلم يثبتوا ألف على مع المضمر كما أثبتوا ألف فتى في فتاه كل ذلك مراعاة للأصل ، واللام للبيان فهي متعلقة بمحذوف ، ورد في "البحر" دعوى إفادته التنزيه في الاستثناء بأن ذلك غير معروف عند النحاة ، ولا فرق بين قام القوم إلا زيداً .

وحاشا زيداً ، وتعقب بأن عدم ذكر النحاة ذلك لا يضر لأنه وظيفة اللغويين لا وظيفتهم ، واعترض بعضهم حديث النقل بأن الحرف لا يكون اسماً إلا إذا نقل وسمى به وجعل علماً ، وحينئذ يجوز فيه الحكاية والإعراب ، ولذا جعله ابن الحاجب اسم فعل بمعنى برىء الله تعالى من السوء ، ولعل دخول اللام كدخولها في ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ [المؤمنون : 36] وكون المعنى على المصدرية لا يرد عليه لأنه قيل : إن أسماء الأفعال موضوعة لمعاني المصادر وهو المنقول عن الزجاج ، نعم ذهب المبرد .

وأبو علي .

وابن عطية .

وجماعة إلى أنه فعل ماض بمعنى جانب ، وأصله من حاشية الشيء وحيه أي جانبه وناحيته ، وفيه ضمير يوسف واللام للتعليل متعلقة به أي جانب يوسف ما قرف به لله تعالى أي لأجل خوفه ومراقبته ، والمراد تنزيهه وبعده كأنه صار في جانب عما اتهم به لما رؤى فيه من آثار العصمة وأبهة النبوة عليه الصلاة والسلام ، ولا يخفى أنه على هذا يفوت معنى التعجب ، واستدل على اسميتها بقراءة أبي السمال ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ بالتنوين ، وهو في ذلك على حد : سقياً لك ، وجوز أن يكون اسم فعل والتنوين كما في صه ، وكذا بقراءة أبيّ .

وعبد الله رضي الله تعالى عنهما حاشا الله بالإضافة كسبحان الله ، وزعم الفارسي أن ﴿ حاشا ﴾ في ذلك حرف جر مراداً به الاستثناء كما في قوله :

(حاشا) أبي ثوبان إن أبا . . .

ثوبان ليس ببكمة فدم

ورد بأنه لم يتقدمه هنا ما يستثنى منه ، وجاء في رواية عن الحسن أنه قرأ حاش لله بسكون الشين وصلاً ووقفاً مع لام الجر في الاسم الجليل على أن الفتحة اتبعت الألف في الاسقاط

لأنها كالعرض اللاحق لها ، وضعفت هذه القراءة بأن فيها التقاء الساكنين على غير حده ، وفي رواية أخرى عنه أنه قرأ حاش الإله وقرأ الأعمش حاشا لله بحذف الألف الأولى ، هذا واستدل المبرد .

وابن جني .

والكوفيون على حاش قد تكون فعلاً بالتصرف فيها بالحذف كما عملت في هذه القراآت ، وبأنه قد جاء المضارع منها كما في قول النابغة :

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه . . .

ولا أحاشى من الأقوام من أحد

ومقصودهم الرد على س وأكثر البصرية حيث أنكروا فعليتها ، وقالوا : إنها حرف دائماً بمنزلة إلا لكنها تجر المستثنى ، وكأنه لم يبلغهم النصب بها كما في قوله : حاشا قريشاً فإن الله فضلهم وربما يجيبون عن التصرف بالحذف بأن الحذف قد يدخل الحرف كقولهم : أما والله .

وأم والله ، نعم ردّ عليهم أيضاً بأنها تقه قبل حرف الجر ، ويقابل هذا القول ما ذهب إليه الفراء من أنها لا تكون حرفاً أصلاً بل هي فعل دائماً ولا فاعل لها ، والجر الوارد بعدها كما في :

حاشاي إني مسلم معذور . . .

والبيت المار آنفاً بلام مقدرة ، والحق أنها تكون فعلاً تارة فينصب ما بعدها ولها فاعل وهو ضمير مستكن فيها وجوباً يعود إما على البعض المفهوم من الكلام .

أو المصدر المفهوم من الفعل ، ولذا لم يثن .

ولم يجمع .

ولم يؤنث ، وحرفا أخرى ويجر ما بعدها ، ولا تتعلق بشيء كالحروف الزائدة عند ابن هشام ، أو تتعلق بما قبلها من فعل أو شبهه عند بعض ، ولا تدخل عليها إلا كما إذا كانت فعلاً خلافاً للكسائي في زعمه جواز ذلك إذا جرت ، وأنها إذا وقعت قبل لام الجر كانت اسم مصدر مرادفاً للتنزيه ، وتمام الكلام في محله ﴿ لِلَّهِ مَا هذا بَشَرًا ﴾ نفين عنه البشرية لما شاهدن من جماله الذي لم يعهد مثاله في النوع الإنساني ، وقصرهن على الملكية بقولهن : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي ما هذا ﴿ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ أي شري كثير المحاسن بناءاً على ما ركز في الطباع من أنه لا حي أحسن من الملك كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ، ولذا لا يزال يشبه بهما كل متناه في الحسن والقبح وإن لم يرهما أحد ، وأنشدوا لبعض العرب :

فلست لأنسي ولكن لملأك . . .

تنزل من جو السماء يصوب

وكثر في شعر المحدثين ما هو من هذا الباب ، ومنه قوله :

ترك إذا قوبلوا كانوا ملائكة . . .

حسناً وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

وغرضهن من هذا وصفه بأنه في أقصى مراتب الحسن والكمال الملائم لطباعهن ، ويعلم مما قرر أن الآية لا تقوم دليلاً على أن الملك أفضل من بني آدم كما ظن أبو علي الجبائي .

(63/395)

وأتباعه ، وأيده الفخر ولا فخر له بما أيده ، وذهب غير واحد إلى أن الغرض تنزيهه عليه السلام عما رمى به على أكم لوجه ، وافتتحوا ذلك بحاشا لله على ما هو الشائع في مثل ذلك ، ففي "شرح التسهيل" الاستعمال على أنهم إذا أرادوا تبرئة أحد من سوء ابتدأوا تبرئة الله سبحانه من السوء ثم يبرئون من أرادوا تبرئته على معنى أن الله تعالى منزه عن أن لا يطهره مما يميمه فيكون آكد وأبلغ ، والمنصور ما أشير إليه أولاً وهو الذي يقتضيه السياق والسباق ، نعم هذا الاستعمال ظاهر فيما يأتي إن شاء الله تعالى من قوله تعالى عن النسوة

: ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ [يوسف : 51] و﴿ مَا ﴾ عاملة عمل ليس وهي لغة للحجازيين لمشابهتها لها في نفي الحال على ما هو المشهور في ليس من أنها لذلك أو في مطلق النفي بناءاً على ما قال الرضي من أنها ترد لنفي الماضي.

والمستقبل، والغالب على لغتهم جر الخبر بالباء حتى أن النحويين لم يجدوا شاهداً على النصب في أشعارهم غير قوله:

وأنا النذير بحرة مسودة . . .

تصل الجيوش إليكم قوادها

أبناؤها متكنفون أباهم . . .

حنقوا الصدور وما هم أولادها

والزمخشري يسمى هذه اللغة: اللغة القدمى الحجازية، ولغة بني تميم في مثل ذلك الرفع، وعلى هذا جاء قوله:

ومهفهف الأعطاف قلت له انتسب . . .

فأجاب ما قتل المحب حرام

وبلغتهم قرأ ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، وزعم ابن عطية أنه لم يقرأ بها أحد هنا، وقرى الحسن.

وأبو الحويرث الحنفي ما هذا بشرى بالباء الجارة، وكسر الشين على أن شرى كما قال

صاحب اللوائح مصدر أقيم مقام المفعول به أي ما هذا بمشرى أي ليس ممن يشتري بمعنى أنه أعز من أن يجري عليه ذلك .

وروى هذه القراءة عبد الوارث عن أبي عمرو أيضاً إلا أنه روى عنه أنه مع ذلك كسرى اللام من ملك ، وروى الكسرى ابن عطية عن الحسن .

(64/395)

وأبي الحويرث أيضاً ، والمراد إدخاله في حيز الملوك بعد ، ففي كونه مما يصلح للملوكية فبين الجملتين تناسب ظاهر ، وكأن بعضهم لم ير أن من قرأ بذلك قرأ أيضاً ﴿ مُلْكُ ﴾ بكسر اللام فقال : لتحصيل التناسب بينهما في تفسير ذلك أي ما هذا بعبد مشتري لئيم ، وعلى التقديرين لا يقال : إن هذه القراءة مخالفة لمقتضى المقام ، نعم إنها مخالفة لرسم المصحف لأنه لم يكتب ذلك بالياء فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(65/395)

وقال القاسمي :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾

العزيز : الأمير ، مأخوذ من (العز) وهو الشدة والقهر ، وقد غلب على أمير مصر والإسكندرية .

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ﴾ أي : خرق حبه شغاف قلبها ، حتى وصل إلى الفؤاد ، و (الشغاف) كسحاب : حجاب القلب .

﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : في خطأ عن طريق الرشد والصواب . وإقحام الرؤية ؛ للإشعار بأن حكمهن بضلالها صادر عن رؤية وعلم ، مع التلويح إلى تنزههن عن مثل ذلك .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾

أي : اغتيابهن ، وسوء قالتهن . استعير (المكر) لـ (الغيبة) لشبهها له في الإخفاء أو (المكر) على حقيقته ، وكن قلن ذلك لتريهن يوسف .

﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي : تدعوهن للضيافة مكراً بهن ﴿ وَأَعْتَدَتْ ﴾ أي : أحضرت وهيأت : ﴿ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ أي : ما يتكئن عليه من الوسائد ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ أي : ليعالجن بها ما يأكلن من الفواكه ونحوها ﴿ وَقَالَتِ ﴾ أي : ليوسف : ﴿ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ أي : ابرز إليهن .

(66/395)

قال الزمخشري : قصدت بتلك - الهيئة - وهي قعودهن متكئات والسكاكين في أيديهن ؛ أن يدهشن ويُبهتن عند رؤيته ، ويشغلن عن نفوسهن ، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها ؛ لأن المتكئ إذا بُهت لشيء وقعت يده على يده ، فتبكتهن بالحجة ، وقد كان ذلك كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي : أعظمنه ، وهبن حسنه الفائق ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي : جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، تريد : جرحتها : ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ حاش : أصله حاشا ، وحذفت ألفه تخفيفاً ، وبها قرأ أبو عَمْرو في الدرج ، أي : تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقص والعجز ، وتعجباً من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع . وإنما نفين عنه البشرية لغرابة جماله ، وأثبتن له الملكية على نهج القصر ؛ بناء على ما ركز في الطباع ألا أحسن من الملك ، كما ركز فيها ألا أقبح من الشيطان ، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 177 . 178 ﴾

(67/395)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾

النسوة : اسم جمع امرأة لا مفرد له ، وهو اسم جمع قِلة مثله نساء .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ونساءَنا ونساءَكم ﴾ في سورة آل عمران (61) .

وقوله : ﴿ في المدينة ﴾ صفة لنسوة.

والمقصود من ذكر هذه الصفة أنهن كنّ متفرقات في ديار من المدينة .

وهذه المدينة هي قاعدة مصر السفلى وهي مدينة (مَنْفِيسْ) حيث كان قصر العزيز ،

فنقل الخبر في بيوت المتصلين ببيت العزيز .

وقيل : إن امرأة العزيز باحت بالسر لبعض خلائلها فأفشينه كأنّها أرادت التشاور معهن ،

أو أرادت الارتياح بالحديث إليهن (ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره) .

وهذا الذي يقتضيه قوله : ﴿ وأعْتَدت لهن متكئاً ﴾ [سورة يوسف : 31] وقوله : ﴿

ولئن لم يفعل ﴾ [سورة يوسف : 32] .

والفتى : الذي في سنّ الشباب ، ويكنى به عن المملوك وعن الخادم كما يكنى بالغلام

والجارية وهو المراد هنا .

وإضافته إلى ضمير امرأة العزيز ﴾ لأنه غلام زوجها فهو غلام لها بالتبع ما دامت زوجة

لمالكه .

وشَغَف : فعل مشتق من اسم جامد ، وهو الشِغاف بكسر الشين المعجمة وهو غلاف القلب .

وهذا الفعل مثل كَبَدَهُ وراَهُ وجَبَهه ، إذا أصاب كَبده ورئته وجَبهته .

والضمير المستتر في ﴿ شغفها ﴾ ل ﴿ فتاها ﴾ .

ولما فيه من الإجمال جيء بالتمييز للنسبة بقوله : ﴿ حبّا ﴾ .

وأصله شغفها حبه ، أي أصاب حبه شغافها ، أي اخترق الشغاف فبلغ القلب ، كناية عن التمكن .

وتذكير الفعل في ﴿ وقال نسوة ﴾ لأن الفعل المسند إلى ألفاظ الجموع غير الجمع المذكر السالِم يجوز تجريده من التاء باعتبار الجمع ، وقرنه بالتاء باعتبار الجماعة مثل ﴿ وجاءت سيارة ﴾ [سورة يوسف : 19] .

وأما الهاء التي في آخر نسوة ﴾ فليست علامة تأنيث بل هي هاء فِعلة جمع تكسير ، مثل صبية وغلمة .

وقد تقدم وجه تسمية الذي اشترى يوسف عليه السّلام باسم العزيز عند قوله تعالى : ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته ﴾ [سورة يوسف : 21] .

وتقدم ذكر اسمه واسمها في العربية وفي العبرانية .

ومجيء تراود ﴾ بصيغة المضارع مع كون المراودة مضت لقصد استحضار الحالة العجيبة لقصد الإنكار عليها في أنفسهن ولومها على صنيعها .

ونظيره في استحضار الحالة قوله تعالى : ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ [سورة هود : 74] .

وجملة قد شغفها حباً ﴾ في موضع التعليل لجملة ﴿ تراود فتاها ﴾ .

وجملة ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ استئناف ابتدائي لإظهار اللوم والإنكار عليها .

والتأكيد بـ (إنّ) واللام لتحقيق اعتقادهِن ذلك ، وإبعاداً لتهمتهن بأنهن يحسدنها على ذلك الفتى .

والضلال هنا : مخالفة طريق الصواب ، أي هي مفتونة العقل بحب هذا الفتى ، وليس المراد الضلال الديني .

وهذا كقوله تعالى آنفاً : ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ [سورة يوسف : 8] .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾

حقّ سمع أن يعدّى إلى المسموع بنفسه ، فتعديته بالباء هنا إما لأنه ضمن معنى أخْبِرت ، كقول المثل : "تسمع بالمعيدي خير من أن تراه" أي تخبر عنه .

وإما أن تكون الباء مزيدة للتوكيد مثل قوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [سورة المائدة : 6] .

وأطلق على كلامهن اسم المكر ، قيل : لأنهن أردن بذلك أن يبلغ قولهن إليها فيغريَها بعَرضها يوسف عليه السّلام عليهن فيرَيْنَ جماله لأنهن أحببن أن يرينه .

وقيل : لأنهن قلنه خفية فأشبه المكر ، ويجوز أن يكون أطلق على قولهن اسم المكر لأنهن قلنه في صورة الإنكار وهن يُضمرن حسَدَها على اقتناء مثله ، إذ يجوز أن يكون الشغف بالعبد في عادتهم غير منكر .

وأعتدت ﴾ : أصله أعددت ، أبدلت الدال الأولى تاء ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وأعتدنا للكافرين عذاباً مُهيناً ﴾ في سورة النساء (37) .

والمتّكأ : محل الاتكاء .

(69/395)

والاتكاء : جِلسة قريبة من الاضطجاع على الجنب مع انتصاب قليل في النصب الأعلى . وإنما يكون الاتكاء إذا أُريد إطالة المكث والاستراحة ، أي أحضرت لهن نمارق يتّكِئْن عليها لتناول طعام .

وكان أهل الترف يأكلون متكئين كما كانت عادةً للرومان ، ولم تزل أسرّة اتكائهم موجودة في ديار الآثار .

وقال النبي : أمّا أنَا فلا آكلُ متكئاً .

ومعنى آتت ﴿ أمرت خدمها بالإيتاء كقوله : ﴿ يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ [سورة غافر : 36] .

والسكين : آلة قطع اللحم وغيره .

قيل : أحضرت لهن أتْرُجاً ومَوْزاً فحضرن واتكأن ، وقد حذف هذان الفعلان إيجازاً .

وأعطت كل واحدة سكيناً لقشر الثمار .

وقولها : أُخرج عليهن ﴾ يقتضي أنه كان في بيت آخر وكان لا يدخل عليها إلا بإذنها .

وعدّي فعل الخروج بحرف (على) لأنه ضمن معنى (أُدخل) لأن المقصود دخوله عليهن لا مجرد خروجه من البيت الذي هو فيه .

ومعنى ﴿ أكبرنه ﴾ أعظمنه ، أي أعظمن جماله وشمائله ، فالهمزة فيه للعدّ ، أي أعددنه كبيراً ، وأطلق الكبر على عظيم الصفات تشبيهاً لِوفرة الصفات بعظم الذات .

وتقطيع أيديهن كان من الذهول ، أي أجرين السكاكين على أيديهن يحسبن أنهن يقطعن الفواكه .

وأريد بالقطع الجُرح ، أطلق عليه القطع مجازاً للمبالغة في شدته حتى كأنه قَطْع قطعة من لحم

اليد .

و﴿ حاش لله ﴾ تركيب عربي جرى مجرى المثل يراد منه إبطال شيء عن شيء وبراءته منه .

وأصل (حاشا) فعل يدل على المباعدة عن شيء ، ثم يعامل معاملة الحرف فيجَرُّ به في الاستثناء فيقتصر عليه تارة .

وقد يوصل به اسم الجلالة فيصير كاليمين على النفي يقال : حَاشَا الله ، أي أحاشيه عن أن يكذب ، كما يقال : لا أقسم .

وقد تزاد فيه لام الجر فيقال : حاشا لله وحاش لله ، بحذف الألف ، أي حاشا لأجله ، أي لخوفه أن أكذب .

حكي بهذا التركيب كلام قالته النسوة يدل على هذا المعنى في لغة القبط حكاية بالمعنى .

(70/395)

وقرأ أبو عَمرو "حاشا لله" بإثبات ألف حاشا في الوصل ، وقرأ البقية بحذفها فيه .

واتفقوا على الحذف في حالة الوقف .

وقولهن : ﴿ مَا هذا بشراً ﴾ مبالغة في فوْته محاسن البشر ، فمعناه التفضيل في محاسن

البشر ، وهو ضد معنى التشابه في باب التشبيه .

ثم شبّهنه بواحد من الملائكة بطريقة حصره في جنس الملائكة تشبيهاً بليغاً مؤكّداً .

وكان القبط يعتقدون وجود موجودات علوية هي من جنس الأرواح العلوية ، ويعبرون عنها بالآلهة أو قضاة يوم الجزاء ، ويجعلون لها صورا ، ولعلهم كانوا يتوخّوْن أن تكون ذواتاً حسنة .

ومنها ما هي مدافعة عن الميت يوم الجزاء .

فأطلق في الآية اسم الملك على ما كانت حقيقته مماثلة لحقيقة مسمّى الملك في اللغة العربية تقريباً لأفهام السامعين .

فهذا التشبيه من تشبيه المحسوس بالمتخيل ، كقول امرىء القيس :

ومسنونة زرق كأنياب أغوال . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(71/395)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾

وكلمة " النسوة " ، وكلمة " نساء " تدلُّ على الجماعة ، لكن مفرد كلٍّ منهما ساقط في اللغة

، فمفرد " نسوة " امرأة ؛ ومفرد " نساء " أيضاً هو " امرأة " .

ومن العجيب أن المفرد ، وهو كلمة " امرأة " له مثنى هو " امرأتان " ، لكن في صيغة الجمع لا توجد " امراءات " ، وتوجد كلمة نسوة اسم لجماعة الإناث ، واحدتها امرأة ، وجمعها نساء .

وقد قالت النسوة : ﴿ امرأةُ العزيز تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ [يوسف : 30] .

وما قُلْنَه هو الحق ؛ لكنهن لم يَقُلْنَ ذلك تعصباً للحق ، أو تعصباً للفضيلة .

وشاء سبحانه أن يدفع هذه المقالة عنهن ، ففضح الهدف المختفي وراء هذا القول في الآية التالية حين قال : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخرج عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للَّهِ مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ . . . ﴾ [يوسف : 31-32] .

والمكر هو سَتْر شيء خلف شيء ، وكأن الحق يُنبِّهنا إلى أن قول النسوة لم يكن غضبةً للحق ؛ ولا تعصباً للفضيلة ، ولكنه الرغبة للنِّكاية بامرأة العزيز ، وفَضْحاً للضلال الذي أقامت فيه امرأة العزيز .

وأردْن أيضاً شيئاً آخر ؛ أن يُنزِلْنَ امرأة العزيز عن كبريائها ، وينشرن فضيحتها ، فَأَتَيْنَ بنقيضين ؛ لا يمكن أن يتعدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج .

فهي امرأة العزيز ، أي : أرفع شخصية نسائية في المجتمع ، قد نزلت عن كبريائها كزوجة لرجل يُوصَفُ بأنه الغالب الذي لا يُغلب ؛ لأن كلمة " العزيز " مأخوذة من المعاني الحسية .

(72/395)

فيُقال : " الأرض العَزَاز " أي : الأرض الصخرية التي يصعب المشي عليها ، ولا يقدر أحد أنْ يطأها ؛ ومن هذا المعنى جاءت كلمة " العزيز " .

فكيف بامرأة العزيز حين تصير مُضْغة في الأفواه ؛ لأنها راودتْ فتاها وخادمها عن نفسه ؛ وهو بالنسبة لها في أدنى منزلة ، وتلك فضيحة مزرية مشينة .

وقالت النسوة أيضاً :

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ﴾ [يوسف : 30]

والحب منازل ؛ وأول هذه المنازل " الهوى " مثل : شقشقة النبات ، ويُقال : " رأى شيئاً فهواه " .

وقد ينتهي هذا الهوَى بلحظة الرؤية ، فإذا تعلَّق الإنسان بما رأى ؛ انتقل من الهوى إلى العَلاقة .

وبعد ذلك يأتي الكلف ؛ أي : تكلَّف أن يصل إلى ما يطلبه من هذه العَلاقة . ثم ينتقل بعد

ذلك إلى مرتبة فيها التقاء وهي العشق ، ويحدث فيها تبادل للمشاعر ، ويعلن كل طرف كَلَفه ؛ ولذلك يسمونه " عاشق ومعشوق " .

ثم ينتقل إلى مرحلة اسمها " التدليه " ؛ أي : يكاد أن يفقد عقله . ثم يصير الجسم إلى هُزَال ويقال " تبلت الفؤاد " أي : تاه الإنسان في الأمر .

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الهُيَام ، أي : يهيم الإنسان على وجهه ؛ فلا يعرف له هدفاً ، فإن تبع ذلك جرم صار اسمه " جوى " .

تلك هي مراحل الحب التي تمر بالقلب ، والقلب كما نعلم هو الجهاز الصنوبري ، ويسمونه مَقَرّ العقائد المنتهية ، والتي بحثها الإنسان واعتقدها بالفعل .

فالإنسان منا يدرك الأشياء بحواسه الظاهرة ، يرى ويشُمّ ويسمع ويذوق ويلمس ، فإذا أدرك بعضاً من الأمور ؛ فهو يعرضها على العقل ليوازن بينها ؛ ويختار الأكثر قبولاً منه ، وبعد ذلك تذهب تلك الأمور المقبولة إلى القلب ؛ لتستقر عقيدة فيه لا يحيد عنها .

أما المسائل العقلية ؛ فقد تأتي مسائل أخرى تزحزحها ؛ ولذلك يُقال للأمور التي استقرت في القلب " عقائد " ، أي : شيء معقود لا ينحل أبداً .

وما يصل إلى هذه المرتبة يظهر أثره في إخضاع سلوك حركة الحياة عليه ، وإذا ما استقر المبدأ في نفس الإنسان ؛ فهو يجعل كل حركته في ظل هذا المبدأ الذي اعتقده .

وهكذا نعرف : كيف تمرُّ العقيدة بعدَّة مراحل قبل أن تستقر في النفس ، فالإدراك يحدث أولاً ؛ ثم التعقُّل ثانياً ؛ وبعد ذلك يعتقد الإنسان الأمر ، ويصبح كل سلوك من بعد ذلك وِفْقاً لما اعتقده الإنسان .

وكلمة : ﴿ شَغَفَهَا حُبّاً . . ﴾ [يوسف : 30] .

تعني أن المشاعر انتقلتْ من إدراكها إلى عقلها إلى قلبها ، والشغاف هو الغِشَاء الرقيق الذي يستر القلب ؛ أي : أن الحب تمكَّن تماماً من قلبها .

وقولهن :

﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : 30] .

هو قول حَقٍ أُريد به باطل .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يفضح مَقْصِدهن : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ . . ﴾ .

ولسائل أن يقول : وكيف انتقل لَهُنَّ الكلام عن الذي حدث بينها وبين يوسف ؟

لا بُدَّ أن هناك مرحلة بين ما حدث في القصر ؛ وكان أبطاله أربعة هم : العزيز ، وامرأته ، ويوسف ، والشاهد ، ولا بد أن يكون مَنْ نقل الكلام إلى خارج القصر ؛ إنسان له علاقتان

؛ علاقة بالقصر فسمع ورأى وأدرك ؛ ونقل ما علم إلى مَنْ له به علاقة خارج القصر .

وبحث العلماء عن علاقة النسوة اللاتي ثرثرن بالأمر ، وقال العلماء : هُنَّ خمسة نساء : امرأة الساقي ، وامرأة الخباز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة صاحب الدواب (أي : سائس الخيل) ، وامرأة السجان .

وهؤلاء النسوة يَعِشْنَ داخل بيوتهن ؛ فمَنِ الذي نقل لَهُنَّ أسرار القصر ؟

لا بُدَّ أن أحداً من أزواجهن قد أراد أن يُسلِّي أهله ، فنقل خبر امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام ؛ ثم نقلتْ زوجته الخبر إلى غيرها من النسوة .

وحين وصل إلى امرأة العزيز الخبر ؛ وكيف يمكرن بها ؛ أرسلت إليهن :

(74/395)

﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً . . ﴾ [يوسف : 31] .

والمتكأ هو الشيء الذي يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به مَلَلٌ من كيفية جِلْسته ، والمقصود بالقول هو أن الجلسة سيطول وقتها ، وقد خططتْ لتكشف وَقْع رؤية يوسف عليهن ، فقدَّمتْ لكل منهن سكيناً ؛ وهو ما يوحي بأن هناك طعاماً سوف يؤكل .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ اخرج عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ . . . ﴾ [يوسف : 31] .

ويُقال : أكبرْتَ الشيء ، كأنك قد تخيّلته قبل أن تراه على حقيقته ؛ وقد يكون خيالك قد رسم له صورة جميلة ، إلا أنك حين ترى الشيء واقعاً ؛ تكبر المرائي عن التخيُّل .

والمثل أن إنساناً قد يُحدِّثك بخير عن آخر ؛ ولكنك حين ترى هذا الآخر تُفاجأ بأنه أفضل مما سمعتَ عنه .

والشاعر يقول :

كَادَتْ مُسَاءلةُ الرُّكْبانِ تُخبِرني . . . عن جَعْفرِ بنِ حبيبٍ أصدقَ القيمِ

حتَّى التقيْنَا فَلا والله مَا سَمِعتْ . . . أُذني بأطيبَ مِمَّا قَدْ رأى بَصَرِي

ويقولون في المقابل : سماعك بالمعيدي خير من أن تراه . أي : يا ليتك قد ظللتَ تسمع عنه دون أن تراه ؛ لأن رؤيتك له ستنُقِص من قدر ما سمعت .

وهُنَّ حين آذَنْ امرأة العزيز بتداول خبر مُراودتها له عن نفسه ، تخيَّلْنَ له صورةً ما من الحُسْن ، لكنهُنَّ حين رأيْنَهُ فاقتْ حقيقته المرئية كل صورة تخيَّلْنَها عنه ؛ فحدث لهُنَّ انبهار .

وأول مراحل الانبهار هي الذهول الذي يجعل الشيء الذي طرأ عليك يذهلك عما تكون بصدده ؛ فإن كان في يدك شيء قد يقع منك .

وقد قطعتْ كلٌ منهن يدها بالسكين التي أعطتها لها امرأة العزيز لتقطيع الفاكهة ، أو الطعام

المُقدَّم لَهُنّ .

وقال الحق سبحانه في ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : 31] .

وهل هناك تصوير يوضح ما حدث لَهُنَّ من ذهول أدقّ من هذا القول ؟

(75/395)

ويتابع سبحانه :

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : 31] .

وكلمة : ﴿ حَاشَ . . . ﴾ [يوسف : 31] .

هي تنزيه لله سبحانه عن العجز عن خَلْق هذا الجمال المثالي ، أو : أنهُنَّ قد نَزَّهْنَ صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة بينه وبين امرأة العزيز ، أو : أن يوسف عليه السلام لا بد أن يكون قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التي يعرفنها ؛ فقُلْنَ : لا بدّ أنه مَلَكٌ كريم .

وصورة الملك كما نعلم هي صورة مُتخيَّلة ؛ والإنسان يحكم على الأشياء المُتَخيَّلة بما يناسب صورتها في خياله ، مثلما نتخيل الشيطان كأبشع ما تكون الصورة .

والبشاعة نفسها تختلف من واحد إلى آخر ؛ فما تراه بَشِعاً قد لا يراه غيرك كذلك ؛ لأن مقاييس القبح أو الجمال تختلف من أمة إلى أخرى .

فالمرأة الجميلة في أواسط أفريقيا في نظر الرجل هي ذات الشفاه الغليظة جداً ؛ أو صاحبة الشعر المُجعَّد والمُتموج .

وأكدت الحضارة الحديثة أن هذا لونٌ من الجمال ينجذب إليه الرجل في بعض الحالات ؛ بدليل أن بعضاً من السيدات ذوات الشعر الناعم للغاية يذهبْن إلى مُصفِّفة الشعر ، ويطلبْنَ منها تجعيد شعورهن .

إذن : فالجمال يُقاس بالأذواق ؛ هذا يرى جمالاً قد يراه غيره غير هذا ؛ وذاك يرى جمالاً لا يراه غيره كذلك .

والحق سبحانه يقذف معايير الجمال في النفس الإنسانية على قَدْر مُقوِّمات الالتقاء في الانسجام .

ولذلك يُقال في الريف المصري هذا المثل "كل فُولة ولها كَيَّال" .

ونجد شاباً يتقدم لفتاة يرغب في الزواج منها ؛ وما أنْ يراها حتى ينفر منها ، ويتقدم لها شاب آخر فيقع في هَواها ، ويتعجَّل الزواج منها ، وهذا يعني أن مقاييس الأول تختلف عن مقاييس الثاني .

وحين يشاء الحق سبحانه أن يجمع بين اثنين فلا أحدَ بقادر على أن يمنع القبول من كل طرف للطرف الآخر ؛ وهذه مسألة لها من الأسرار ما لا نعرفه نحن ؛ لأنه سبحانه الذي يكتب القبول ؛ ويُظهِر في المرأة جمالاً قد يجذب رجلاً ولا يجذب رجلاً آخر ، ونفسَ المسألة تحدث في نفسية المرأة .

إذن : فحين رأت النسوة يوسف عليه السلام ؛ قُلْنَ :

﴿ مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : 31] .

وهذا يعني أن يوسف هو الصورة العليا في الجمال التي لا يوجد لها مثيل في البشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(77/395)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قد شغفها حباً ﴾ قال غلبها.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قد شغفها ﴾ قال: قتلها حب يوسف. الشغف، الحب القاتل، والشغف، حب دون ذلك. والشغاف، حجاب القلب.

وأخرج الطستي عن ابن عباس، أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله ﴿ قد شغفها حباً ﴾ قال: الشغاف في القلب في النياط، قد امتلأ قلبها من حب يوسف. قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت نابغة بني ذبيان وهو يقول:

وفي الصدر حب دون ذلك داخل . . . وحول الشغاف غيبته الأضالع

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قد شغفها حباً ﴾ قال: قد علقها.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ، عن الحسن رضي الله عنه أنه كان يقرؤها ﴿ قد شغفها حباً ﴾ قال: بطنها حباً. قال: وأهل المدينة يقولون بطنها حباً.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي رضي الله عنه في قوله ﴿ قد شغفها حباً ﴾ قال: الشغوف، المحب. والمشغوف، المحبوب.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن إبراهيم النخعي رضي الله عنه أنه كان يقرؤها ﴿ قد شغفها حباً ﴾ ويقول : الشغف ، شغف الحب . والشعف ، شغف الداب حين تذعر .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ قد شعفها حباً ﴾ بالعين المهملة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ قد شغفها حباً ﴾ قال : هو الحب اللازق بالقلب .

(78/395)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان رضي الله عنه قال : الشغاف ، جلدة رقيقة تكون على القلب بيضاء ، حبه خرق ذلك الجلد حتى وصل إلى القلب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد قال : إن الشعف والشغف يختلفان ، فالشعف في البغض . والشغف في الحب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد العباداني قال : قال رجل ليوسف عليه السلام : إني أحبك . فقال له يوسف : لا أريد أن يحبني أحد غير الله ، من حب أبي ألقيت في الجب ،

ومن حب امرأة العزيز ألقيت في السجن .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ قد شغفها حباً ﴾ قال : دخل حبه في شغافها .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ قد شغفها حباً ﴾ قال : دخل حبه تحت الشغاف .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ قد شغفها حباً ﴾ يقول : هلكت عليه حباً .

وأخرج ابن جرير ، عن الأعرج رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ قد شعفها حباً ﴾ بالعين المهملة ، وقال ﴿ شغفها حباً ﴾ يعني بالغين معجمة ، إذا كان هو يحبها .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فلما سمعت بمكرهنّ ﴾ قال : بحديثهن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان رضي الله عنه في قوله ﴿ سمعت بمكرهن ﴾ قال : بعملهن . وقال : كل مكر في القرآن فهو عمل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ رضي الله عنه في قوله ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ قال : هيأت لهن مجلساً ، وكان سنتهم إذا وضعوا المائدة ، أعطوا

كل إنسان سكيناً يأكل بها . فلما رأينه قال : فلما خرج عليهن يوسف عليه السلام ﴿ أكبرنه ﴾ قال : أعظمنه ونظرت إليه ، وأقبلن يحززن أيديهن بالسكاكين . وهن يحسبن أنهن يقطعن الطعام .

(79/395)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ قال : أعطتهن أترنجاً ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ، فلما رأين يوسف أكبرنه وجعلن يقطعن أيديهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترنج .

وأخرج مسدد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : المتكأ ، الأترنج ، وكان يقرؤها خفيفة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر من وجه آخر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ متكأ ﴾ قال : هو الأترنج .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من وجه ثالث ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : من قرأ ﴿ متكأ ﴾ شددها ، فهو الطعام . ومن قرأ " مَتَكاً " خففها فهو الأترنج .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن سلمة بن تمام أبي عبيد الله القسري رضي الله عنه قال: ﴿ متكاً ﴾ بكلام الحبش، يسمون الأترنج مَتَكاً.

وأخرج ابو الشيخ عن أبان بن تغلب رضي الله عنه أنه كان يقرؤها ﴿ واعتدت لهن متكا ﴾ مخففة. قال: الأترنج.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ واعتدت لهن متكأ ﴾ قال: طعام وشراب وتكاء.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن الضحاك رضي الله عنه مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ متكأ ﴾ قال: كل شيء يقطع بالسكين.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن ابن زيد رضي الله عنه قال: أعطتهن ترنجاً وعسلاً، فكن يحززن الترنج بالسكين، ويأكلن بالعسل، فلما قيل له اخرج عليهن، خرج. فلما رأينه أعظمنه وتهيمن به حتى جعلن يحززن أيديهن بالسكين وفيها الترنج ولا يعقلن، لا يحسبن إلا أنهن يحززن الأترنج، قد ذهبت عقولهن مما رأين وقلن ﴿ حاشا لله، ما هذا بشراً ﴾ ما هكذا يكون البشر، ما هذا إلا ملك كريم.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق دريد بن مجاشع، عن بعض أشياخه قال: قالت للقيم: أدخله عليهن وألبسه ثياباً بيضاً، فإن الجميل أحسن ما يكون في البياض.

فأدخله عليهن وهن يحززن ما في أيديهن، فلما رأينه حززن أيديهن وهن لا يشعرن من النظر إليه، فنظرن إليه مقبلاً، ثم أومأت إليه أن ارجع. فنظرن إليه مدبراً وهن يحززن أيديهن بالسكاكين لا يشعرن بالوجع من نظرهن إليه، فلما خرج نظرن إلى أيديهن وجاء الوجع، فجعلن يولولن. وقالت لهن: أنتن من ساعة واحدة هكذا صنعتن، فكيف أصنع أنا؟!... ﴿ قلن: حاشا لله، ما هذا بشراً، إن هذا إلا ملك كريم ﴾.

وأخرج أبو الشيخ من طريق عبد العزيز بن الوزير بن الكميت بن زيد بن الكميت الشاعر قال: حدثني أبي عن جدي قال: سمعت جدي الكميت يقول في قوله ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ قال أمنين. وأنشد في ذلك:

لما رأته الخيل من رأس شاهق... صهلن وأكبرن المنيّ المدفقا

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه عن جده ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ قال: لما خرج عليهن يوسف حضن من الفرح، وقال الشاعر:

نأتي النساء لدى اطهارهن ولا... نأتي النساء إذا أكبرن أكباراً

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ قال: أعظمنه ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ قال: حزًّا بالسكين حتى ألقينها ﴿ وقلن حاشا لله ﴾ قال: معاذ الله.

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف والخطيب في تالي التلخيص، عن أسيد بن يزيد أن في مصحف عثمان ﴿ وقلن حاش لله ﴾ ليس فيها ألف.

وأخرج ابن جرير، عن أبي الحويرث الحنفي أنه قرأها ﴿ ما هذا بشرا ﴾ أي ما هذا بمشترى.

(81/395)

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ قال: قلن ملك من الملائكة من حسنه.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن يزيد بن أساس رضي الله عنه قال: لما قررن وطابت أنفسهن، قالت لقيمها: آتهن ترنجاً وسكيناً. فأتاهن بهن، فجعلن يقطعن ويأكلن، فقالت: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: ما شئت فأمرت قيمها فأدخله عليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أصابعهن مع الأترنج وهن لا يشعرن، فلا يجدن ألماً مما رأين من حسنه، فلما ولى

عنهن قالت : هذا الذي لمتنني فيه ، فلقد رأيتكن تقطعن أيديكم وما تشعرن . قال : فنظرن إلى أيديهن فجعلن يصحن ويبكين . قالت : فكيف أصنع ؟ فقلن : ﴿ حاشا لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ وما نرى عليك من لوم بعد الذي رأينا .

وأخرج أبو الشيخ عن منبه عن أبيه قال : مات من النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، تسع عشرة امرأة كمداً .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أعطي يوسف وأمه شطر الحسن " .

وأخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال " أعطي يوسف وأمه ثلث الحسن " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت المرأة إذا أتت لحاجة ستر وجهه مخافة أن تفتتن به .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أوتي يوسف عليه السلام وأمه ثلث حسن خلق الإنسان : في الوجه والبياض وغير ذلك .

وأخرج أبو الشيخ ، عن إسحق بن عبد الله رضي الله عنه قال : كان يوسف عليه الصلاة

والسلام إذا سار في أزقة مصر ، تلألأ وجهه على الجدران كما يتلألأ الماء والشمس على الجدران .

(82/395)

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أعطي يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا ، وأعطي الناس الثلثين " .

وأخرج ابن عساكر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قسم الله الحسن عشرة أجزاء ، فجعل منها ثلاثة أجزاء في حواء ، وثلاثة أجزاء في سارة ، وثلاثة أجزاء في يوسف ، وجزأ في سائر الخلق . وكانت سارة من أحسن نساء الأرض ، وكانت من أشد النساء غيرة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ربيعة الجرشي رضي الله عنه قال : " قسم الله الحسن نصفين ، فجعل ليوسف وسارة النصف ، وقسم النصف الآخر بين سائر الناس .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه قال : قسم الحسن ثلاثة أقسام ، فأعطي يوسف الثلث ، وقسم الثلثان بين الناس ، وكان أحسن الناس .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن عكرمة رضي الله عنه قال : كان فضل حسن يوسف على الناس ، كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء .

وأخرج الحاكم عن كعب رضي الله عنه قال : قسم الله ليوسف عليه السلام من الجمال الثلثين ، وقسم بين عباده الثلث ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله تعالى ، فلما عصى آدم عليه السلام نزع منه النور والبهاء والحسن ، ووهب له الثلث من الجمال مع التوبة ، فأعطى الله ليوسف عليه السلام ذلك الثلثين ، وأعطاه تأويل الرؤيا . وإذا تبسم رأيت النور من ضواحكه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(83/395)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ النسوةُ فيها أقوالُ ، المشهور أنها جمعُ تكسير للقلة على فِعْلة كالصِّبْيَة والغِلْمَة . ونصَّ بعضُهم على عَدَمِ اطِّرادها وليس لها واحدٌ مِنْ لفظها . والثاني : أنها اسمٌ مفردٌ لجمع المرأة ، قاله الزمخشري . والثالث : أنها اسمُ جمعٍ / قاله أبو بكر بن

السراجِ وكذلك أخواتها كالصِّبْيَة والفِتْية . وعلى كل قولٍ فتأنيثها غير حقيقي باعتبار الجماعة ، ولذلك لم يلحق فعلَها تاءُ التأنيث ، والمشهور كسرُ نونها ، ويجوز ضمُّها في لغةٍ ، ونقلها أبو البقاء قراءةً ولم أَحْفَظْه ، وإذا ضُمَّتْ نونُه كان اسمَ جمع بلا خلاف ، ويُكسَّر في الكثرة على نِسْوان ، والنساء جمع كثرة أيضاً ولا واحدَ له من لفظه ، كذا قال الشيخ ، ومقتضى ذلك أن لا يكونَ النساءُ جمعاً لنسوة لقوله : " لا واحد له من لفظه " .

و " في المدينة " يجوز تعلُّقه بمحذوفٍ صفةً لنسوة وهو الظاهر ، و ب " قال " وليس بظاهر .

قوله : ﴿ تُرَاوِدُ ﴾ خبر " امرأة العزيز " ، وجيء بالمضارع تنبيهاً على أن المراوَدَة صارتْ سَجيَّةً لها ودَيْدَناً ، دون الماضي ، فلم يَقُلْن " راوَدَتْ " . ولام " الفتى " ياء لقولهم الفتيان وفُتَيّ ، وعلى هذا فقولُهم " الفتوَّة " في المصدر شاذ .

(84/395)

قوله : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا ﴾ هذه الجملة يجوز أن [تكون] خبراً ثانياً ، وأن تكونَ مستأنفة ، وأن تكونَ حالاً : إمَّا من فاعل " تُراوِدُ " وإمَّا مِنْ مفعوله . و " حبَّاً " تمييزٌ ، وهو منقولٌ من الفاعلية ، والأصل : قد شغَفَها حبُّه . والعامَّة على " شَغَفَها " بالغين المعجمة مفتوحةً

بمعنى خَرَقَ شِغاف قلبها ، وهو مأخوذ من الشّغاف والشّغاف : حجاب القلب جُلَيْدَة رقيقة . وقيل : سويداء القلب . وقيل : داءٌ يَصل إلى القلب من أجل الحب وقيل : جُلَيْدَةٌ رقيقة يقال لها لسان القلب ليسَتْ محيطةً به ، ومعنى شَغَفَ قلبَه ، أي : خرق حجابَه أو أصابه فأحرقه بحرارة الحبّ ، وهو مِنْ شَغَفَ البعيرَ بالهِناء إذا طَلاَه بالقَطِران فأحرقه .

والمَشْغوف : مَنْ وصل الحبُّ لقلبه ، قال الأعشى :

2768 تَعْصِي الوُشاةَ وكان الحُبُّ آوِنَةً . . . مِمَّا يُزَيِّنُ للمَشْغوف ما صنعا

وقال النابغة الذبياني :

2769 وقد حالَ هَمٌّ دونَ ذلك والِجٌ . . . مكانَ الشَّغافِ تَبْتَغيه الأصابعُ

وقرأ ثابت البناني بكسر الغين . قيل : وهي لغة تميم .

وقرأ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعلي بن الحسين وابنه محمد وابنه جعفر والشعبي وقتادة بفتح العين المهملة ، وروي عن ثابت البناني وأبي رجاء كَسْرُ المهملة أيضاً .

واختلف الناس في ذلك فقيل : هو مِنْ شَعَفَ البعيرَ إذا هَنَأَ فأحرقه بالقَطِران ، قاله الزمخشري ، وأنشد :

2770 . . . . كما شَعَفَ

المَهْنُوْءَةَ الرجلُ الطالي

والناسُ إنما يَروونه بالمعجمة ويُفَسِّرونه بأنه أصاب حبي شَغَافَ قلبها أي أحرق حجابَه ،

وهي جُلَيْدَة رقيقة دونه ، "كما شَغَفَ" ، أي : كما أَحْرق وبالغ المهنوءة ، أي : المَطْلِيّة بالهِناء وهو القَطِران ، ولا ينشدونه بالمهملة .

(85/395)

وقال أبو البقاء لَمَّا حكى هذه القراءة : "مِنْ قولك : فلان مَشْعوفٌ بكذا ، أي : مغرى به ، وعلى هذه الأقوال فمعناها متقارب . وفرَّق بعضُهم بينهما فقال ابن زيد : "الشَّغَف يعني بالمعجمة في الحب ، والشَّعَفُ في البغض" . وقال الشعبي : "الشَّغَف والمَشْغوف بالغين منقوطةً في الحُبّ ، والشَّعَفُ الجنون ، والمَشْعوف : المجنون" .

قوله : ﴿ مُتَّكَأً ﴾ العامَّةُ على ضم الميم وتشديدِ التاءِ وفَتْحِ الكاف والهمز ، وهو مفعولٌ به بأَعْتَدَتْ ، أي : هَيَّأَتْ وأَحْضَرَتْ . والمتَّكأ الشيءُ الذي يُتَّكأُ عليه من وسادةٍ ونحوها . وقيل : المتكأ : مكان الاتّكاء . وقيل : طعام يُحَزُّ حَزّاً وهو قول مجاهد . قال القتبيُّ : "يُقال : اتَّكَأْنا عند فلان ، أي : أَكَلْنا" .

قال الزمخشري : "مِنْ قولك : اتَّكَأْنا عند فلان : طَعِمنا ، على سبيل الكناية ؛ لأنه مِنْ دَعَوْته لِيَطْعَمَ عندك" : اتخذت له تكأةً يتكِىء عليها . قال جميل :

2771 فَظَلِلْنا بنعمةٍ واتَّكَأْنا . . . وشَرِبْنا الحَلالَ مِنْ قُلَلِه"

انتهى . قلت : فقوله : " وشَرِبْنا " مُرَشّحِ لمعنى اتَّكَأْنا بأكلنا .

وقرأ أبو جعفر والزهري " مُتَّكَا " مشدد التاء دون همز وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكونَ أصلُه مُتَّكأ كقراءة العامَّة وإنما خُفِّفَ همزُه كقولهم توَضَيْتُ في تَوَضَّأْتُ ، فصار بزنة مُتَّقَى . والثاني : أن يكونَ مُفْتَعَلاً مِنْ أَوْكَيْتُ القِرْبَةَ إذا شَدَدْتَ فاها بالوِكاء ، فالمعنى : أَعْتَدَتْ شيئاً يَشْتَدِدْن عليه : إمَّا بالاتِّكاء وإمَّا بالقطع بالسكين ، وهذا الثاني تخريج أبي الفتح .

وقرأ الحسن وابن هرمز " مُتَّكاءً " بالتشديد والمدِّ ، وهي كقراءةِ العامَّة إلا أنه أشبع الفتحة فتولَّد منها ألفٌ كقوله :

2772 . . . . ومِنْ ذَمِّ الرجالِ

بمنتزاحِ

وقوله :

(86/395)

2773 يَنْباعُ مِنْ ذِفرى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ . . . .

. . . .

وقوله :

2774 أَعوذُ باللَّهِ مِنَ العَقْرابِ . . . الشّائلاتِ عُقَدَ الأَذْنابِ

أي : بمنترح وبَنْبع والعقرب الشائلة .

وقرأ ابن عباس وابن عمر ومجاهد وقتادة/ والضحاك والجحدري وأبان بن تغلب " مُتْكَاً " بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف ، وكذلك قرأ ابن هرمز وعبد اللَّه ومعاذ ، إلا أنهما فتحا الميم . والمُتْكُ بالضم والفتح الأُتْرُجُّ ، ويقال الأُتْرُنْجُ لغتان ، وأنشدوا :

2775 فَأَهْدَتْ مُتْكَةً لبني أبيها . . . تَخُبُّ بها العَثَمْثَمَةُ الوَقاحُ

وقيل : بل هو اسم لجميع ما يُقطع بالسكين كالأُتْرُجِّ وغيره من الفواكه ، ونشدوا :

2776 نَشْرَبُ الإِثمَ بالصُّواعِ جِهاراً . . . وترى المُتْكَ بيننا مُسْتعارا

قيل : وهو مِنْ مَتَك بمعنى بَتَك الشيءَ ، أي : قطعه ، فعلى هذا يحتمل أن تكونَ الميم بدلاً من الباء وهو بدل مُطَّرد في لغة قومٍ ، واحتُمِل أن يكونَ من مادةٍ أخرى وافَقَتْ هذه . وقيل : بالضم العسلُ الخالص عند الخليل ، والأُتْرُجُّ عند الأصمعي . ونقل أبو عمرو فيه اللغات الثلاث ، أعني ضمَّ الميمِ وفتحَها وكسرَها قال : وهو الشرابُ الخالص .

وقال المفضل : هو بالضم المائدة ، أو الخمر في لغة كِنْدة .

وقوله : ﴿ لَهُنَّ مُتَّكَئاً ﴾ : إمَّا أَنْ يريدَ كل واحدةٍ مُتَّكَأً ، ويَدُلُّ له قوله : ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ ، وإمَّا أن يريدَ الجنس .

والسِّكِّين يُذَكَّرُ ويؤنَّثُ، قاله الكسائي والفراء، وأنكر الأصمعي تأنيثه. والسِّكِينة فَعِيلة من السكون. وقال الراغب: "سُمِّي به لإزالتِه حركةَ المذبوح".

(87/395)

قوله: ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ الظاهر أن الهاء ضمير يوسف. ومعنى أَكْبَرْنَه عَظَّمْنه ودُهِشْن مِنْ حُسْنه. وقيل: هي هاء السكت. قال الزمخشري: "وقيل: أَكْبَرْنَ بمعنى "حِضْنَ" والهاء للسكت، يقال: أَكْبَرَتِ المرأةُ إذا حاضَتْ، وحقيقتُه: دَخَلَتْ في الكِبَر؛ لأنها بالحيض تخرُجُ مِنْ حَدِّ الصِّغَرِ إلى الكِبَر، وكأنَّ أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

2777 خَفِ اللَّهَ واسْتُرْ ذا الجمالَ ببُرْقُعٍ ... فإنْ لُحْتَ حاضَتْ في الخُدورِ العواتِقُ

انتهى. وكونُ الهاء للسكتِ يَرُدُّه ضمُّ الهاءِ، ولو كانت للسكت لَسَكَنَتْ وقد يقال: إنه أَجْراها مُجْرى هاء الضمير، وأَجْرى الوصلَ مُجْرى الوقف في إثباتها. قال الشيخ: " وإجماعُ القُرَّاء على ضمِّ الهاء في الوصل دليلٌ على أنها ليسَتْ هاءَ السكت؛ إذ لو كانت هاءَ السكت وكان من إجراء الوصلِ مُجْرى الوقفِ لم يضمَّ الهاء". قلت: وهاء السكت تُحَرَّك بحركةِ هاءِ الضمير إجراءً لها مُجْراها، وقد حَقَّقْتُ هذا في الأنعام، وقد قالوا ذلك في قول المتنبي أيضاً:

2778 واحرَّ قلباه مِمّنْ قَلْبُه شَبِمُ . . . .

فإنه رُوِي بضمِّ الهاء في " قلبها " وجعلوها هاءَ سكتٍ . ويمكن أن يكون " أَكْبَرْنَ " بمعنى حِضْنَ ولا تكون الهاءُ للسَّكْت ، بل تُجْعل ضميرَ المصدرِ المدلولِ عليه بفعله أي : أَكْبَرْنَ الإِكبار ، وأنشدوا على أن الإِكبار بمعنى الحيض قولَه :

2779 يأتي النساءَ على أَطْهارِهِنَّ ولا . . . يأتي النساءَ إذا أَكْبَرْن إكبارا

قال الطبري : " البيت مصنوعٌ " .

(88/395)

قوله : { حَاشَ لِلَّهِ } " حاشى " عَدَّها النحويون من الأدوات المترددةِ بين الحرفية والفعلية فإنْ جَرَّتْ فهي حرفٌ ، وإنْ نَصَبَتْ فهي فعلٌ ، وهي من أدواتِ الاستثناء ولم يَعْرف سيبويه فعليَّتها وعَرَفَها غيرُه ، وحَكَوا عن العرب " غَفَرَ اللَّهُ لي ولِمَنْ سمع دعائي حاشى الشيطانَ وابنَ الأصبغ " بالنصب ، وأنشدوا :

2780 حشى رَهْطَ النبيِّ فإنَّ منهمْ . . . بُحوراً لا تكدِّرُها الدِّلاءُ

بنصب " رَهْط " . و " حشى " لغةٌ في حاشى كما سيأتي . وقال الزمخشري : " حاشى

كلمةٌ تفيد التنزيه في باب الاستثناء تقول: أساءَ القومُ حاشى زيدٍ قال:

2781 حاشى أبي ثوبانَ إنَّ بهِ . . . ضِنّاً عنِ المَلْحاة والشَّتْمِ

وهي حرفٌ من حروف الجر فوُضِعَتْ موضعَ التنزيه والبراءة، فمعنى حاشى اللَّهِ: براءة اللَّهِ وتنزيه اللَّه، وهي قراءة ابن مسعود ". قال الشيخ: "وما ذكر أنها تفيد التنزيهَ في باب الاستثناء غير معروف عند النحويين، لا فرقَ بين قولك: "قام القومُ إلا زيداً" و"قام القوم حاشى زيدٍ"، ولَمَّا مَثَّل بقوله: "أساء القومُ حاشى زيدٍ" وفَهِم هو من هذا التمثيلِ براءةَ زيدٍ من الإِساءة جعل ذلك مستفاداً منها في كل موضعٍ، وأمّا ما أنشده مِنْ قوله: حاشا أبي ثوبان، فهكذا ينشده ابن عطية وأكثرُ النحاة، وهو بيتٌ ركَّبوا فيه صدرَ بيتٍ على عجز آخرَ وهُما من بيتين، وهما: /

2782 حاشى أبي ثَوْبان إنَّ أبا . . . ثَوْبانَ ليس ببُكْمَةٍ فَدْمِ

عمرَو بنَ عبدِ اللَّه إنَّ به . . . ضِنّاً عن المَلْحاةِ والشَّتْمِ

قلت: قوله "إنَّ المعنى الذي ذكره الزمخشري لا يعرفه النحاة لم ينكروه وإنما لم يذكروه في كتبهم؛ لأنهم غالبُ فنهم في صناعة الألفاظ دون المعاني، ولمَّا ذكروا مع أدواتِ الاستثناء

"ليس" و"لا يكون" و"غير" لم يذكروا معانيها، إذ مرادُهم مساواتُها ل"إلا" في الإِخراج وذلك لا يمنعُ من زيادةِ معنى في تلك الأدوات.

وزعم المبرد وغيره كابن عطية أنها تتعيَّنُ فعليَّتُها إذا وقع بعدها حرفُ جر كالآية الكريمة، قالوا لأن حرفَ الجرِّ لا يدخل على مثله إلا تأكيداً كقوله:

2783 .... ولا لِلِما بهم

أبداً دواءُ

وقول الآخر:

2784 فأَصْبَحْنَ لا يَسْأَلْنني عن بما به ....

....

فتعيَّن أن تكونَ فعلاً، فاعلُه ضمير يوسف أي: حاشى يوسف، و"للَّه" جارٌّ ومجرورٌ متعلقٌ بالفعل قبله، واللامُ تفيد العلةَ أي: حاشى يوسفَ أن يقارِفَ ما رَمَتْه به لطاعة اللَّه ولمكانه منه أو لترفيع الله أن يرمى بما رَمَتْه به، أي: جانَبَ المعصيةَ لأجل اللَّه.

وأجاب الناسُ عن ذلك بأنَّ حاشى في الآية الكريمة ليست حرفاً ولا فعلاً، وإنما هي اسمُ مصدرٍ بدلٌ من اللفظة بفعله كأنه قيل: تنزيهاً للَّه وبراءةً له، وإنما لم يُنَوَّنْ مراعاةً لأصله الذي نُقِل منه وهو الحرف، ألا تراهم قالوا: مِنْ عن يمينه فجعلوا "عن" اسماً ولم يُعْربوه، وقالوا "مِنْ عليه" فلم يُثْبتوا ألفه مع المضمر، بل أَبْقَوا "عن" على بنائه، وقلبوا ألف "على" مع

المضمر ، مراعاةً لأصلها ، كذا أجاب الزمخشري ، وتابعه الشيخ ولم يَعْزُله الجواب . وفيه نظر .

(90/395)

أمّا قوله : " مراعاة لأصله " فيقتضي أنه نُقِل من الحرفية إلى الاسمية ، وليس ذلك إلا في جانب الأعلام ، يعني أنهم يُسَمُّون الشخصَ بالحرف ، ولهم في ذلك مذهبان : الإِعرابُ والحكاية ، أمّا أَنَّهم ينقلون الحرف إلى الاسم ، أي : يجعلونه اسماً فهذا غيرُ معروفٍ . وأمّا استشهادُه ب " عن " و " على " فلا يفيده ذلك ؛ لأنَّ " عن " حال كَونِها اسماً إنما بُنيت لشبهها بالحرفِ في الوضع على حرفين لا أنها باقيةٌ على بنائها .

وأمّا قَلْبُ ألفِ " على " مع الضمير فلا دلالة فيه لأنَّا عَهِدنا ذلك فيما هو ثابتُ الاسمية بالاتفاق ك " لدى " .

والأَوْلى أن يقال : الذي يظهر في الجواب عن قراءةِ العامة أنها اسمُ منصوبٌ كما تقدَّم تقريره ، ويدلُّ عليه قراءة أبي السمَّال " حاشاً للَّه " منصوباً ، ولكنهم أَبْدلوا التنوين ألفاً كما يبدلونه في الوقف ، ثم إنهم أَجْروا الوصل مجرى الوقف كما فعلوا ذلك في مواضعَ كثيرةٍ تقدَّم منها جملةٌ وسيمر بك مثلها .

وقيل في الجواب عن ذلك : بل بُنيت " حاشا " في حال اسميتها لشبهها ب " حاشا " في حال حرفيّتها لفظاً ومعنى ، كما بُنِيَتْ " عن " و " على " لما ذكرنا .

وقال بعضُهم : إنّ اللامَ زائدةٌ . وهذا ضعيفٌ جداً بابُه الشعرُ . واستَدَلَّ المبرد وأتباعُه على فعليتها بمجيء المضارِع منها . قال النابغة الذبياني :

2785 ولا أرى فاعِلاً في الناس يُشْبِهُهُ . . . ولا أُحاشي من الأقوام مِنْ أَحَدِ

قالوا : وتَصرُّفُ الكلمةِ من الماضي إلى المستقبل دليلُ فعليّتها لا مَحالةَ .

وقد أجاب الجمهور عن ذلك : بأنّ ذلك مأخوذٌ من لفظِ الحرفِ كما قالوا : " سَوَّفْتُ بزيد " و " لَوْلَيْتَ له " ، أي : قلت له : سوف أفعلُ . وقلت له : لو كان ولو كان ، وهذا من ذلك ، وهو محتمل .

(91/395)

ومَّن رَجَّح جانبَ الفعلية أبو علي الفارسي قال : " لا تَخْلو " حاش " في قوله : " حاش للَّه " من أن تكونَ الحرفَ الجارَّ في الاستثناء ، أو تكون فعلاً على فاعَل ، ولا يجوز أن تكونَ الحرفَ الجارّ لأنه لا يدخل على مثله ، ولأن الحروفَ لا يُحْذَفُ منها إذ لم يكن فيها تضعيف ، فثبت أنه فاعَل مِن الحشا الذي يُراد به الناحية ، والمعنى : أنه صار في حَشَاً ، أي في

ناحية، وفاعل "حاش" "يوسف" والتقدير: بَعُدَ من هذا الأمرِ لله، أي: لخوفِه".

قوله: "حرفُ الجر لا يدخل على مثله" مُسَلَّم، ولكن ليس هو هنا حرفَ جر كما تقدَّم تقريرُه. وقوله: "لا يُحْذف من الحرفِ إلا إذا كان مضعفاً" ممنوع، ويدلُّ له قولهم "مُنْ" في "منذ" إذا جُرَّبها، فحذفوا عينها ولا تضعيفَ. قالوا: ويدلُّ على أنَّ أصلَها "منذ" بالنون تصغيرُها على "مُنَيْذ" وهذا مقرَّر في بابه.

وقرأ أبو عمرو وحده "حاشى" بألفين: ألفٍ بعد الحاء، وألف بعد الشين في كلمتي هذه السورة وصلاً، وبحذفها وقفاً إتباعاً للرسم كما سننبِّه عليه. والباقون بحذف الألفِ الأخيرةِ وصلاً ووقفاً.

فأمَّا قراءةُ أبي عمروٍ فإنه جاء فيها بالكلمة على أصلها. وأمَّا الباقون فإنهم اتَّبعوا في ذلك الرسمَ ولمَّا طال اللفظ حَسُن تخفيفه بالحذف ولا سيما على قول مَنْ يَدَّعي فعليَّتَها، كالفارسي.

قال الفارسي: "وأمَّا حذفُ الألف فعلى "لم يَكُ" و"لا أَدْرِ" و"أصاب الناسَ جُهْدٌ، ولَوْ تَرَ أهلَ مكة"، و[قوله]:

2786 وصَّانيَ العجَّاجُ فيما وَصَّني/ . . . في شعر رؤبة، يريد: لم يكن، ولا أدري، ولو ترى، ووصَّاني. وقال أبو عبيد: "رأيتُها في الذي يقال: إنه الإمام مصحف عثمان رضي اللَّه عنه: "حاش للَّه" بغير ألف، والأخرى "مثلُها". وحكى الكسائي أنها رآها في مصحف عبد اللَّه كذلك، قالوا: فعلى ما قال أبو عبيد والكسائي تُرَجَّح هذه القراءةُ، ولأنَّ عليها ستةً من السبعة، ونقل الفراء أن الإتمامَ لغةُ بعض العرب، والحذفُ لغة أهل الحجاز قال: "ومِنْ العرب من يقول: "حشى زيد" أراد حشى لزيد". فقد نقل الفراءُ أن اللغاتِ الثلاثَ مسموعةٌ، ولكنَّ لغةَ الحجازِ مُرَجَّحَةٌ عندهم.

وقرأ الأعمش في طائفة "حشى لله" بحذف الألفين وقد تقدَّم أن الفراء حكاها لغةً عن بعض العرب، وعليه قوله:

2787 حشى رَهْطِ النبيِّ . . . .

البيت. وقرأ أُبَي وعبد اللَّه "حاشى اللَّهِ" بجرِّ الجلالة، وفيها وجهان، أحدهما: أن تكونَ اسماً مضافاً للجلالة [نحو: "سبحان اللَّه" وهو اختيارُ الزمخشري. الثاني: أنه حرفُ استثناء جُرَّ به ما بعده، وإليه ذهب الفارسي،] وفي جَعْلِهِ "حاشى" حرفَ جرٍّ مُراداً به الاستثناءُ نظرٌ، إذ لم يتقدَّم في الكلام شيءٌ يستثنى منه الاسمُ المعظَّم بخلافِ "قام القومُ حاشى زيد".

واعلمْ أنَّ النحويين لمَّا ذكروا هذا الحرفَ جعلوه من المتردد بين الفعلية والحرفية، عند مَنْ أثبتَ فعليَّته، وجعله في ذلك كخلا وعدا، عند مَنْ أثبت حرفيَّة "عدا"، وكان ينبغي أن يذكروه من المتردد بين الاسميةِ والفعلية والحرفية، كما فعلوا ذلك في "على" فقالوا: يكون حرف جر في "عليك"، واسماً في قوله: "مِنْ عليه"، وفعلاً في قوله:

(93/395)

2788 عَلاَ زيدُنا يومَ النَّقا . . . .

وإن كان فيه نظرٌ ذكرتُه مستوفىً في غير هذا المكان، ملخصُه أن "على" حال كَونها فعلاً غير "على" حال كونها غيرَ فعل، بدليل أنَّ ألف الفعلية منقلبة عن واو، ويدخلها التصريف والاشتقاق دون ذَيْنَك. وقد يتعلَّق مَنْ ينتصر للفارسي بهذا فيقول: لو كانت "حاشى" في قراءة العامَّة اسماً لذكر ذلك النحويون عند تردُّدِها بين الحرفية والفعلية، فلمَّا لم يذكروه دَلَّ على عدمِ اسميتها.

وقرأ الحسن "حاشْ" بسكون الشين وصلاً ووقفاً كأنه أجرى الوصلَ مجرى الوقف. ونقل ابن عطية عن الحسن أنه قرأ: "حاشى الإِله" قال: "محذوفاً مِنْ حاشى" يعني أنه قرأ

بحذف الألف الأخيرة ، ويدلُّ على ذلك ما صرَّح به صاحب " اللوامح " فإنه قال : " بحذف الألف " ثم قال : وهذا يدلُّ على أنه حرفُ جرٍ يَجُرُّ ما بعده ، فأما " الإِله " فإنه فكَّه عن الإِدغامِ ، وهو مصدرٌ أُقيم مُقامَ المفعول ، ومعناه المعبود ، وحُذِفت الألف من " حاشى " للتخفيف "

قال الشيخ : " وهذا الذي قاله ابن عطية وصاحبُ " اللوامح " من أنَّ الألفَ في " حاشى " في قراءة الحسن محذوفةُ الألف لا يتعيَّنُ ، إلا إنْ نَقَل عنه أنه يقف في هذه القراءِة بسكون الشين ، فإن لم يُنْقَلْ عنه في ذلك شيءٌ فاحتمل أن تكونَ الألفُ حُذِفت لالتقاء الساكنين ؛ إذا الأصلُ : " حاشى الإِله " ثم نَقَل فحذف الهمزة وحَرَّك اللام بحركتها ، ولم يَعْتَدَّ بهذا التحريك لأنه عارض ، كما تنحذف في "يَخْشَى الإِله " ، ولو اعتدَّ بالحركة لم تُحْذف الألف " .

(94/395)

قلت : الظاهر أن الحسنَ يقف في هذه القراءة بسكون الشين ، ويُسْتأنس له بأنه سكَّن الشين في الرواية الأخرى عنه ، فلمَّا جِيءَ بشيءٍ يُحْتَمَلُ ينبغي أن يُحْمَلَ على ما صُرِّح به .

وقول صاحب " اللوامح " : " وهذا يدلُّ على أنه حرف جر يُجَرُّ به ما بعده " لا يصحِّ لما

تقدم مِنْ أنه لو كان حرف جر لكان مستثنى به ولم يتقدَّمْ ما يستثنى منه بمجروره .

واعلمْ أنَّ اللامَ الداخلةَ على الجلالة متعلقة بمحذوف على سبيل البيان، كهي في "سقياً لك ورعياً لزيد" عند الجمهور، وأمَّا عند المبرد والفارسي فإنها متعلقة بنفس "حاشى" لأنها فعلٌ صريحٌ عندهما، وقد تقدم أن بعضَهم ادعى زيادتَها .

قوله : ﴿ مَا هذا بَشَراً ﴾ العامَّة على إعمال "ما" على اللغة الحجازية، وهي اللغة الفصحى، ولغةُ تميم الإِهمالُ، وقد تقدَّم تحقيق هذا أول البقرة وما أنشدتُه عليه من قوله :

2789 وأنا النذيرُ بحَرَّةٍ مُسْوَدَّةٍ . . . .

. . . . .

البيتين . ونقل ابن عطية أنه لم يَقْرأ أحد إلا بلغة الحجاز . وقال الزمخشري : "ومَنْ قرأ على سليقته من بني تميم قرأ "بشرٌ" بالرفع وهي قراءةُ ابن مسعود" . قلت : فادِّعاء ابن عطية أنه لم يُقرأ به غير مُسَلَّم .

وقرأ العامَّة "بَشَراً" بفتح الباء على أنها كلمة واحدة . وقرأ الحسن وأبو الحويرث الحنفي "بشرى" بكسر الباء، وهي باء الجر دخلت على "شِرى" فهما كلمتان جار ومجرور، وفيها تأويلات، أحدُهما : ما هذا بمشترى، فوضع المصدرَ موضع المفعول به كضَرْب الأمير . الثاني : ما هذا بمُباعٍ، فهو أيضاً مصدر واقع موقع المفعول به إلا أن المعنى يختلف

.

الثالث : ما هذا بشمن ، يَعْنِين أنه أَرْفَعُ مِنْ أنْ يجرى عليه شيءٌ من هذه الأشياء .

(95/395)

وروى عبد الوارث عن أبي عمرو كقراءة الحسن وأبي الحويرث إلا أنه قرأ عنه " إلا مَلِك " بكسر اللام واحد الملوك ، نَفَوا عنه ذُلَّ المماليك / وأثبتوا له عِزَّ الملوك .

وذكر ابن عطية كسرَ اللام عن الحسن وأبي الحويرث . وقال أبو البقاء : " وعلى هذا قُرِىء " مَلِك " بكسر اللام " كأنه فهم أنَّ مَنْ قرأ بكسر الياء قرأ بكسر اللام أيضاً للمناسبة بين المعنيين ، ولم يذكر الزمخشريُّ هذه القراءةَ مع كسر الباء البتة ، بل يُفهم من كلامِه أنه لم يَطَّلع عليها فإنه قال : " وقرىء ، ما هذا بشرى أي ما هو بعبدٍ مملوكٍ لئيم ، إنْ هذا إلا مَلَك كريم ، تقول : " هذا بشرى " أي : حاصلٌ بشرى بمعنى يشترى ، وتقول : هذا لك بشرى أم بكِرا ؟ والقراءةُ هي الأَوْلى لموافقتها المصحف ومطابقة " بشر " ل " ملك " .

قوله : " لموافقتها المصحفَ " يعني أنَّ الرسم " بشراً " بالألف لا بالياء ، ولو كان المعنى على " بشرى " لَرُسِمَ بالياء . وقوله : " ومطابقة " دليلُ على أنه لم يَطَّلِعْ على كسر اللام عن مَنْ قرأ بكسر الباء . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 474 . 490﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) ﴾

إنَّ الهوى لا ينكتم ، ولا تكون المحبة إلا وأبيح لها لسان عذول ، فلما تحققت محبتها ليوسف بسطت النّسوةُ فيها لسانَ الملامة .

ولما كانت أحسن منهن قيمةً - فقد كُنَّ من جملة خدَمِها - كانت أسرعَ إلى الملامة .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾

أرادتْ أن يغلب عليهن استحقاقُ الملامة ، وتَنْفِي عن نفسها أن تكون لها أهلاً ، ففعلت بهن ما عمِلَتْ ، فلمَّا رأينه تغيَّرْنَ وتحيَّرْنَ ونطقن بخلاف التمييز ، فقلن : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ : وقد كان بشراً ، وقلن : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ : ولم يكن ملَكاً . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 182 ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آَمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ (32) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فكأنه قيل : فما قالت لهن امرأة العزيز؟ فقيل : ﴿ قالت فذلكن ﴾ أي الفتى العالي الرتبة جداً ﴿ الذي لمتنني فيه ﴾ .

ولما علمت أنهن عذرنها ، قالت مؤكدة استلذاذاً بالتهتك في حبه : ﴿ ولقد ﴾ أي أقول هذا والحال أني والله لقد تحقق أني ﴿ راودته عن نفسه ﴾ أي لأصل إليه بما أريد ﴿ فاستعصم ﴾ أي فأوجد العصمة والامتناع عليّ فاشتد اعتصامه ، وما أنا براجعة عنه ؛ ثم توعدته وهو يسمع ليلين ، فقالت لهن مؤكدة لأن حال حبها يوجب الإنكار لأن

تفعل ما يؤذي المحبوب : ﴿ ولئن لم يفعل ﴾ أي هذا الفتى الذي قام عذرى عندكن فيه ﴿ ما أمره ﴾ أي أمري ﴿ ليسجنن ﴾ أي ليمنعن من التصرف بالحبس بأيسر سعي مني .

(98/395)

ولما كان عزمها على السجن أقوى من العزم على إيقاع الصغار به ، أكدته بالنون الثقيلة وقالت : ﴿ وليكونا ﴾ بالنون الخفيفة ﴿ من الصاغرين ﴾ أي الأذلاء ، أو أن الزيادة في تأكيد السجن لأنه يلزم منه إبعاده ، وإبعاد الحبيب أولى بالإنكار من إهانته ، فقال له النسوة : أطعها لئلا تسجنك وتهينك ، فكأنه قيل : فما قال ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ يهتف بمن فنى بشهوده عن كل مشهود ، دافعاً عن نفسه ما ورد عليه من وسوسة الشيطان في أمر جمالها وأمر رئاستها ومالها ، ومن مكر النسوة اللاتي نوّعن له القول في الترغيب والترهيب عالماً بأن القوة البشرية تضعف عن حمل مثل هذا إلا بتأييد عظيم ، مسقطاً للأداة على عادة أهل القرب : ﴿ رب السجن ﴾ وهو محيط مانع من الاضطراب فيما خرج عنه ﴿ أحب إليّ ﴾ أي أقل بغضاً ﴿ مما يدعونني ﴾ أي هؤلاء النسوة كلهن ﴿ إليه ﴾ لما علم من سوء عاقبة المعصية بعد سرعة انقضاء اللذة ، وهذه العبارة تدل على غاية البغض لموافقتها ، فإن السجن لا يتصور حبه عادة ، وإنما المعنى أنه لو كان يتصور الميل إليه كان ميلي إليه

أكثر ، لكنه لا يتصور الميل إليه لأنه شر محض ، ومع ذلك فأنا أوثره على ما دعونني إليه ، لأنه أخف الضررين ، والحاصل أنه أطلق المحبة على ما يضادها في هذا السياق من البغض بدلالة الالتزام ، فكأنه قيل : السجن أقل بغضاً إلى ما تدعونني إليه ، وذلك هو ضد " أحب " الذي معناه أكثر حباً ، ولكن حولت العبارة ليكون كدعوى الشيء مقروناً بالدليل ، وذلك أنه لما فوضل في المحبة بين شيئين أحدهما مقطوع ببغضه ، فُهم قطعاً أن المراد إنما هو أن بغض هذا البغيض دون بغض المفضول ، فعلم قطعاً أن ذلك يظن حبه أبغض من هذا المقطوع ببغضه ، وكذا كل ما فوضل بينهما في وصف يمنع من حمله على الحقيقة كون المفضل متحققاً بضده – والله الموفق ؛ والدعاء : طلب الفعل من المدعو ، وصيغته كصيغة الأمر إلا أن الدعاء لمن فوقك ، والأمر لمن دونك ﴿ وإلا تصرف ﴾ أي أنت يا رب

(99/395)

الآن وفيما يستقبل من الزمان ، مجاوزاً ﴿ عني كيدهن ﴾ أي ما قد التبس من مكرهن وتدبيرهن الذي يردن به الخبث احتيالاً على الوصول إلى قصدهن خديعة وغروراً ﴿ أصب ﴾ أي أمل ميلاً عظيماً ﴿ إليهن ﴾ لما جبل الآدمي عليه من الميل النفساني إلى مثل ذلك ، ومتى انخرق سياج صيانته بواحدة تبعها أمثالها ، واتسع الخرق على الراقع ،

ولذلك قال : ﴿ وأكن ﴾ أي كونا هو كالجبلة ﴿ من الجاهلين ﴾ أي الغريقين في الجهل بارتكاب مثل أفعالهم ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ أي أوجد المحسن إليه إيجاداً عظيماً إجابة دعائه الذي تضمنه هذا الثناء ، لأن الكريم يغنيه التلويح عن التصريح – كما قيل :

إذا أثنى عليك المرء يوماً . . .

كفاه من تعرّضه الثناءُ

وفعل ذلك سبحانه وتعالى إكراماً له وتحقيقاً لما سبق من وعده في قوله : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء ﴾ [يوسف : 24] الآية ﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه هو السميع ﴾ أي للأقوال ﴿ العليم ﴾ بالضمائر والنيات ، فيجيب ما صح فيه القصد وطاب منه العزم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 35 . 36 ﴾

(100/395)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾

اعلم أن النسوة لما قلن في امرأة العزيز قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين ، عظم ذلك

عليها فجمعتهن ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فعند ذلك ذكرت أنهن باللوم أحق لأنهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها مع أنه طال مكثه عندها .

فإن قيل : فلم قالت : ﴿ فذلكن ﴾ مع أن يوسف عليه السلام كان حاضراً ؟

والجواب عنه من وجوه : الأول : قال ابن الأنباري : أشارت بصيغة ذلكن إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس .

والثاني : وهو الذي ذكره صاحب "الكشاف" وهو أحسن ما قيل : إن النسوة كن يقلن إنها عشقت عبدها الكنعاني ، فلما رأينه ووقعن في تلك الدهشة قالت : هذا الذي رأيتموه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني فيه يعني : أنكن لم تتصورنه حق تصوره ولو حصلت في خيالكن صورته لتركتن هذه الملامة .

واعلم أنها لما أظهرت عذرها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم ﴾ .

واعلم أن هذا تصريح بأنه عليه السلام كان بريئاً عن تلك التهمة ، وعن السدي أنه قال : ﴿ فاستعصم ﴾ بعد حل السراويل وما الذي يحمله على إلحاق هذه الزيادة الفاسدة الباطلة بنص الكتاب .

ثم قال : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مّن الصاغرين ﴾ والمراد أن يوسف عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار ، ومعلوم أن التوعد

بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام ، وقوله : ﴿ وَلَيَكُونًا ﴾ كان حمزة والكسائي يقفان على ﴿ وَلَيكونَا ﴾ بالألف ، وكذلك قوله : ﴿ لَنَسْفَعاً ﴾ [العلق : 15] والله أعلم .

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾

(101/395)

واعلم أن المرأة لما قالت : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مّنَ الصاغرين ﴾ [يوسف : 32] وسائر النسوة سمعن هذا التهديد فالظاهر أنهن اجتمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك في مخالفة أمرها وإلا وقعت في السجن وفي الصغار فعند ذلك اجتمع في حق يوسف عليه السلام أنواع من الوسوسة : أحدها : أن زليخا كانت في غاية الحسن .

والثاني : أنها كانت ذات مال وثروة ، وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطلوبها .

والثالث : أن النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر ، ومكر النساء في هذا الباب شديد ، والرابع : أنه عليه السلام كان خائفاً من شرها

وإقدامها على قتله وإهلاكه ، فاجتمع في حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها وجميع جهات التخويف على مخالفتها ، فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه .

واعلم أن القوة البشرية والطاقة الإنسانية لا تفي بحصول هذه العصمة القوية ، فعند هذا التجأ إلى الله تعالى وقال : ﴿ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾ وقرىء ﴿ السجن ﴾ بالفتح على المصدر ، وفيه سؤالان :

السؤال الأول : السجن في غاية المكروهية ، وما دعونه إليه في غاية المطلوبية ، فكيف قال : المشقة أحب إلي من اللذة ؟

والجواب : أن تلك اللذة كانت تستعقب آلاماً عظيمة ، وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة ، وذلك المكروه وهو اختيار السجن كان يستعقب سعادات عظيمة ، وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة ، فلهذا السبب قال : ﴿ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾ .

السؤال الثاني : أن حبسهم له معصية كما أن الزنا معصية ، فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية .

والجواب : تقدير الكلام أنه إذا كان لا بد من التزام أحد الأمرين أعني الزنا والسجن ، فهذا أولى ، لأنه متى وجب التزام أحد شيئين كل واحد منهما شر فأخفهما أولاهما بالتحمل .

ثم قال : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِين ﴾ أصب إليهن أمل إليهن يقال : صبا إلى اللهو يصبو صبواً إذا مال ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الإنسان لا ينصرف عن المعصية إلا إذا صرفه الله تعالى عنها قالوا : لأن هذه الآية تدل على أنه تعالى إن لم يصرفه عن ذلك القبيح وقع فيه وتقريره : أن القدرة والداعي إلى الفعل والترك إن استويا امتنع الفعل ، لأن الفعل رجحان لأحد الطرفين ومرجوحية للطرف الآخر وحصولهما حال استواء الطرفين جمع بين النقيضين وهو محال ، وإن حصل الرجحان في أحد الطرفين فذلك الرجحان ليس من العبد وإلا لذهبت المراتب إلى غير النهاية بل هو من الله تعالى فالصرف عبارة عن جعله مرجوحاً لأنه متى صار مرجوحاً صار ممتنع الوقوع لأن الوقوع رجحان ، فلو وقع حال المرجوحية لحصل الرجحان حال حصول المرجوحية ، وهو يقتضي حصول الجمع بين النقيضين وهو محال ، فثبت بهذا أن انصراف العبد عن القبيح ليس إلا من الله تعالى .

ويمكن تقرير هذا الكلام من وجه آخر ، وهو أنه كان قد حصل في حق يوسف عليه السلام جميع الأسباب المرغبة في تلك المعصية وهو الانتفاع بالمال والجاه والتمتع بالمنكوح والمطعوم

وحصل في الإعراض عنها جميع الأسباب المنفرة ، ومتى كان الأمر كذلك ، فقد قويت الدواعي في الفعل وضعفت الدواعي في الترك ، فطلب من الله سبحانه وتعالى أن يحدث في قلبه أنواعاً من الدواعي المعارضة النافية لدواعي المعصية إذ لو لم يحصل هذا المعارض لحصل المرجح للوقوع في المعصية خالياً عما يعارضه ، وذلك يوجب وقوع الفعل وهو المراد بقوله : ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 106.104 ﴾

(103/395)

وقال الماوردى :

قوله عزوجل ﴿ قال رب السجن أحب إلىّ مما يدعونني إليه ﴾

وهذا يدل على أنها دعته إلى نفسها ثانية بعد ظهور حالهما ، فقال : ﴿ رب السجن أحب إليّ ﴾ يعني الحبس في السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه .

ويحتمل وجهين :

أحدهما : أنه أراد امرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة وكنى عنها بخطاب الجمع إما تعظيماً لشأنها في الخطاب وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض .

الثاني : أنه أراد بذلك جماعة النسوة اللاتي قطعن أيديهن حين شاهدنه لاستحسانهن له واستمالتهن لقلبه .

﴿ وإلاّ تصرف عني كيدهن ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ما دعي إليه من الفاحشة إذا أضيف ذلك إلى امرأة العزيز .

الثاني : استمالة قلبه إذا أضيف ذلك إلى النسوة .

﴿ أصْبُ إليهن ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أتابعهن ، قاله قتادة .

الثاني : أمل إليهن ، ومنه قول الشاعر :

إلى هند صبا قلبي . . . وهند مثلها يصبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(104/395)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : أُكْرِهَ يُوسُفُ عَلَى الْفَاحِشَةِ بِالسِّجْنِ ، وَأَقَامَ فِيهِ سَبْعَةَ أَعْوَامٍ ، وَمَا رَضِيَ بِذَلِكَ لِعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ وَشَرِيفِ قَدْرِهِ ، وَلَوْ أُكْرِهَ رَجُلٌ بِالسِّجْنِ عَلَى الزِّنَا مَا جَازَ لَهُ ذَلِكَ إجْمَاعًا ، فَإِنْ أُكْرِهَ بِالضَّرْبِ فَاخْتَلَفَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ ؛ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ إذَا كَانَ فَادِحًا فَإِنَّهُ يَسْقُطُ إثْمُ الزِّنَا وَحْدَهُ .

وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : إنَّ الْإِكْرَاهَ لَا يُسْقِطُ الْحَدَّ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ عَلَى عَبْدِهِ الْعَذَابَيْنِ ، وَلَا يَصْرِفُهُ بَيْنَ الْبَلَاءَيْنِ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْحَرَجِ فِي الدِّينِ ، وَصَبَرَ يُوسُفُ عَلَى السِّجْنِ ، وَاسْتَعَاذَ مِنْ الْكَيْدِ فَقَالَ : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ الْآيَتَيْنِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ أَحَبُّ ﴾ بِنَاءُ أَفْعَلَ فِي التَّفْضِيلِ يَكُونُ لِلْمُشْتَرِكَيْنِ فِي الشَّيْءِ ، وَلِأَحَدِهِمَا الْمَزِيدُ فِي الْمُشْتَرَكِ فِيهِ عَلَى الْآخَرِ ، وَلَمْ يَكُنْ الْمَدْعُوُّ إلَيْهِ حَبِيبًا إلَى يُوسُفَ ، وَلَكِنَّهُ كَنَحْوِ الْقَوْلِ : الْجَنَّةُ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ النَّارِ ، وَالْعَافِيَةُ أَحَبُّ إلَى [قَلْبِي] مِنْ الْبَلَاءِ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِنَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾

قال الطبري : المعنى : فهذا ﴿ الذي لمتنني فيه ﴾ ، أي هذا الذي قطعتن أيديكن بسببه هو الذي جعلتنني ضالة في هواه ، والضمير عائد على يوسف في ﴿ فيه ﴾ ويجوز أن تكون الإشارة إلى حب يوسف ، والضمير عائد على الحب ، فيكون ذلك إشارة إلى غائب على بابه .

ثم أقرت امرأة العزيز للنسوة بالمراودة واستنامت إليهن في ذلك إذ قد علمت أنهن قد عذرنها ، و﴿ استعصم ﴾ معناه : طلب العصمة وتمسك وبها وعصاني ، ثم جعلت تتوعده وهو يسمع بقولها : ﴿ ولئن لم يفعل ﴾ إلى آخر الآية .

واللام في قوله : ﴿ ليسجنن ﴾ لام القسم ، واللام الأولى هي المؤذنة بمجيء القسم ، والنون هي الثقيلة والوقف عليها بشدها ، و﴿ ليكوناً ﴾ نونه هي النون الخفيفة ، والوقف عليه بالألف ، وهي مثل قوله : ﴿ لنسفعاً ﴾ [العلق : 15] ومثلها قول الأعشى : [الطويل]

وصلّ على حين العشيات والضحى . . . ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

أراد فاعبدن .

وقرأت فرقة " وليكونن " بالنون الشديدة . و﴿ الصاغرين ﴾ الأذلاء الذين لحقهم

الصغار.

وقوله تعالى: ﴿ قال ربي السجن أحب إليّ ﴾ ، وروي أنه لما توعدته امرأة العزيز قال له النسوة: أطع مولاتك، وافعل ما أمرتك به؛ فلذلك قال: ﴿ مما يدعونني إليه ﴾ قال نحوه الحسن ووزن "يدعون" في هذه الآية: يفعلن، بخلاف قولك: الرجال يدعون.

وقرأ الجمهور "السِّجن" بكسر السين، وهو الاسم، وقرأ الزهري وابن هرمز ويعقوب وابن أبي إسحاق "السَّجن" بفتح السين وهي قراءة عثمان رضي الله عنه وطارق مولاه، وهو المصدر، وهو كقولك: الجزع والجزع.

(106/395)

وقوله: ﴿ وإلا تصرف ﴾ إلى آخر الآية، استسلام لله تعالى ورغبة إليه وتوكل عليه؛ المعنى: وإن لم تنجني أنت هلكت، هذا مقتضى قرينة كلامه وحاله، والضمير في ﴿ إليه ﴾ عائد على الفاحشة المعنية بما في قوله ﴿ مما ﴾ . و ﴿ أصب ﴾ مأخوذة من الصبوة، وهي أفعال الصبا، ومن ذلك قول الشاعر - أنشده الطبري - [الهزج]

إلى هند صبا قلبي . . . وهند مثلها يصبي

ومن ذلك قول دريد بن الصمة: [الطويل]

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه . . . فلما علاه قال للباطل ابعدِ

و ﴿ الجاهلين ﴾ هم الذين لا يراعون حدود الله تعالى ونواهيه .

وقوله : ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ الآية ، قول يوسف عليه السلام : ﴿ رب السجن ﴾ إلى قوله : ﴿ من الجاهلين ﴾ كلام يتضمن التشكي إلى الله عز وجل من حاله معهن ، والدعاء إليه في كشف بلواه . فلذلك قال - بعد مقالة يوسف - ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ أي أجابه إلى إرادته وصرف عنه كيدهن في أن حال بينه وبين المعصية ، وقوله : ﴿ السميع العليم ﴾ صفتان لائقتان بقوله : ﴿ فاستجاب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾

لما رأت افتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها : "لُمْتُنَّنِي فِيهِ" أي بحبه ، و"ذلك" بمعنى "هذا" وهو اختيار الطَّبري .

وقيل : الهاء للحب ، و"ذلك" على بابه ، والمعنى : ذلكن الحُب الذي لمتنني فيه ، أي حبّ

هذا هو ذلك الحب .

واللوم الوصف بالقبيح .

ثم أقرّت وقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاستعصم ﴾ أي امتنع ؛ وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية .

وقيل : "استعصم" أي استعصى ، والمعنى واحد .

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ عاودته المراودة بمحضر منهن ، وهتكت جلباب الحياء ، ووعدت بالسجن إن لم يفعل ، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لَوْماً ولا مقالاً خلافَ أوّل أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها .

﴿ وَلَيَكُوناً مِّن الصاغرين ﴾ أي الأذلاء .

وخط المصحف "وليكوناً" بالألف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد ؛ ونون التأكيد تثقّل وتخفّف والوقف على قوله : "لَيُسْجَنَنَّ" بالنون لأنها مثقلة ، وعلى "ليكوناً" بالألف لأنها مخففة ، وهي تشبه نون الإعراب في قولك : رأيت رجلاً وزيداً وعمراً ، ومثله قوله : ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾ ونحوها الوقف عليها بالألف ، كقول الأعشى :

وَلاَ تَعبدِ الشيطان واللَّهَ فاعبدا . . .

أي أراد فاعبداً ، فلما وقف عليه كان الوَقف بالألف .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدعونني إِلَيْهِ ﴾

أي دخول السجن ، فحذف المضاف ؛ قاله الزّجاج والنّحاس .

"أَحَبُّ إِلَيَّ" أي أسهل عليّ وأهون من الوقوع في المعصية ؛ لا أنّ دخول السجن مما يُحَبّ على التحقيق .

وحُكي أن يوسف عليه السلام لما قال : "السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ" أوحى الله إليه "يا يوسف ! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحبّ إليّ ، ولو قلت العافية أحبّ إليّ لعوفيت" .

(108/395)

وحكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ : "السَّجْن" بفتح السين وحكي أن ذلك قراءة ابن أبي إسحق وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب ؛ وهو مصدر سَجَنه سَجْناً .

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ أي كيد النّسوان .

وقيل : كيد النّسوة اللاتي رأينه ؟ فإنهنّ أمرنه بمطاوعة امرأة العزيز ، وقلن له : هي مظلومة وقد ظلمتها .

وقيل : طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة في امرأة العزيز ؛ والقصد بذلك أن تعذِله في حقها ، وتأمره بمساعدتها ، فلعله يجيب ؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له :

يا يوسف ! اقض لي حاجتي فأنا خير لك من سيد تك ؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده ؛ فقال : يا رب كانت واحدة فصرن جماعة .

وقيل : كيد امرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة ؛ وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها في الخطاب ، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض .

والكيد الاحتيال والاجتهاد ؛ ولهذا سميت الحرب كيداً لاحتيال الناس فيها ؛ قال عمر بن لَجَأ :

تَراءتْ كَيْ تكيدَكَ أُمُّ بِشْرٍ . . .

وكيدٌ بالتَّبَرُّجِ مَا تَكِيدُ

﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ جواب الشرط ، أي أَمِلْ إليهن ؛ من صبا يصبو إذا مال واشتاق صُبُوّاً وصَبْوة ؛ قال :

إِلَى هِنْدٍ صَبَا قَلْبِي . . .

وهِنْدٌ مِثْلُها يُصْبِي

أي إن لم تَلطُف بي في اجتناب المعصية وقعت فيها .

﴿ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين ﴾ أي ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم ، أو ممن يعمل عمل الجهال ؛ ودلّ هذا على أن أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله ؛ ودلّ أيضاً على قبح الجهل والذم لصاحبه .

قوله تعالى : ﴿ فاستجاب لَهُ رَبُّهُ ﴾ لِمَا قال .

"وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ" تعرّض للدعاء ، وكأنه قال : اللهم اصرف عني كيدهنّ ؛

فاستجاب له دعاءه ، ولطف به وعصمه عن الوقوع في الزنى .

"كَيْدَهُنَّ" قيل : لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه .

وقيل : يعني كيد النساء .

وقيل : يعني كيد امرأة العزيز ، على ما ذكر في الآية قبل ؛ والعموم أولى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(109/395)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾

(110/395)

يعني قالت امرأة العزيز للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته فذلكن الذي لمتنني في محبته وإنما قالت ذلك لإقامة عذرها عندهن حين قلن إن امرأة العزيز قد شغفها فتاها الكنعاني حباً وإنما قالت فذلكن الذي الخ بعد ما قام من المجلس وذهب وقال صاحب الكشاف قالت فذلكن ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعا لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتن به ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعاني تقول هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه ثم إن امرأة العزيز صرحت بما فعلت فقالت ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ يعني فامتنع من ذلك الفعل الذي طلبته منه وإنما صرحت بذلك لأنها علمت أنه لا ملامة عليه منهن وأنهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ثم إن امرأة العزيز قالت ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ﴾ يعني وإن لم يطاوعني بما دعوته إليه ﴿ ليسجنن ﴾ أي ليعاقبن بالسجن والحبس ﴿ وليكوناً من الصاغرين ﴾ يعني : من الأذلاء المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك إليه فاختار يوسف السجن على المعصية حين توعدته المرأة بذلك ﴿ قال رب ﴾ أي يا رب ﴿ السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه ﴾ قيل : إن الدعاء كان منها خاصة وإنما أضافه إليهن جميعاً خروجاً من التصريح إلى العريض ، وقيل : إنهن جميعاً دعونه إلى أنفسهن ، وقيل : إنهن لما قلن له أطع مولاتك صحت إفاضة الدعاء إليهن جميعاً أو لأنه كان بحضرتهن قال بعضهم أو لم يقل السجن أحب إليّ لم يبتل بالسجن والأولى بالعبد أن يسأل الله العافية ﴿ وإلا تصرف

عني كيدهن ﴾ يعني ما أردن مني ﴿ أصب إليهن ﴾ أي أمل إليهن يقال صبا فلان إلى كذا إذا مال إليه واشتاقه ﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ يعني من المذنبين وقيل معناه أكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل ، وفيه دليل على أن من ارتكب ذنباً إنما يرتكبه عن جهالة ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ يعني فأجاب الله تعالى دعاء يوسف ﴿ فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع ﴾ يعني لدعاء

(111/395)

يوسف وغيره ﴿ العليم ﴾ يعني بحاله وفي الآية دليل على أن يوسف لما أظلته البلية بكيد النساء ومطالبتهن إياه بما لا يليق بحاله لجأ إلى الله وفزع إلى الدعاء رغبة إلى الله ليكشف عنه ما نزل به من ذلك الأمر مع الاعتراف بأنه إن لم يعصمه من المعصية وقع فيها فدل ذلك على أنه لا يقدر أحد عن الانصراف عن المعصية إلا بعصمة الله ولطفه به . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(112/395)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾

ذا اسم الإشارة ، واللام لبعد المشار ، وكن خطاب لتلك النسوة .

واحتمل أن يكون لما رأى دهشهن وتقطيع أيديهن بالسكاكين وقولهن : ما هذا بشراً ، بعد عنهن إبقاء عليهن في أنْ لا تزداد فتنتهن ، وفي أنْ يرجعن إلى حسنهن ، فأشارت إليه باسم الإشارة الذي للبعيد ، ويحتمل أن تكون أشارت إليه وهو للبعد قريب بلفظ البعيد رفعاً لمنزلته في الحسن ، واستبعاداً لمحله فيه ، وأنه لغرابته بعيد أن يوجد منه .

واسم الإشارة تضمن الأوصاف السابقة فيه كأنه قيل : الذي قطعتن أيديكن بسببه وأكبرتنه وقلتن فيه ما قلتن من نفي البشرية عنه وإثبات الملكية له ، هو الذي لمتنني فيه أي : في محبته وشغفي به ، قال الزمخشري : ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن : عشقت عبدها الكنعاني تقول : هذا ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه ، يعني : إنكن لو تصورنه بحق صورته ، ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتنني في الافتنان به انتهى .

والضمير في فيه عائد على يوسف .

وقال ابن عطية : ويجوز أن تكون الإشارة إلى حب يوسف ، والضمير عائد على الحب ، فيكون ذلك إشارة إلى غائب على بابه انتهى .

ثم أقرت امرأة العزيز للنسوة بالمراودة ، واستنامت إليهن في ذلك ، إذ علمت أنهن قد

عذرنها .

فاستعصم قال ابن عطية : معناه طلب العصمة ، وتمسك بها وعصاني .

وقال الزمخشري : والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها ، ونحو : استمسك ، واستوسع ، ، واستجمع الرأي ، واستفحل الخطب .

وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شيء أنور منه على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهمّ والبرهان انتهى .

والذي ذكر التصريفيون في استعصم أنه موافق لاعتصم ، فاستفعل فيه موافق لافتعل ، وهذا أجود من جعل استفعل فيه للطلب ، لأن اعتصم يدل على وجود اعتصامه ، وطلب العصمة لا يدل على حصولها .

وأما أنه بناء مبالغة يدل على الاجتهاد في الاستزادة من العصمة ، فلم يذكر التصريفيون هذا المعنى لاستفعل .

وأما استمسك واستوسع واستجمع الرأي فاستفعل فيه موافقة لافتعل ، والمعنى :

امتسك واتسع واجتمع الرأي ، وأما استفحل الخطب فاستفعل فيه موافقة لتفعل أي : تفحل الخطب نحو : استكبر وتكبر .

ثم جعلت تتوعده مقسمة على ذلك وهو يسمع قولها بقولها : ولئن لم يفعل ما آمره .

والضمير في آمره عائد على الموصول أي : ما آمر به ، فحذف الجار ، كما حذف في أمرتك الخير .

ومفعول آمر الأول محذوف ، وكان التقدير ما آمره به .

وإن جعلت ما مصدرية جاز ، فيعود الضمير على يوسف أي : أمري إياه ، ومعناه : موجب أمري .

وقرأت فرقة : وليكونن بالنون المشددة ، وكتبها في المصحف بالألف مراعاة لقراءة الجمهور بالنون الخفيفة ، ويوقف عليها بالألف كقول الأعشى :

ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا . . .

ومن الصاغرين : من الأذلاء ، ولم يذكر هنا العذاب الأليم الذي ذكرته في ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ، لأنها إذ ذاك كانت في طراوة غيظها ومتنصلة من أنها هي التي راودته ، فناسب هناك التغليظ بالعقوبة .

وأما هنا فإنها في طماعية ورجاء ، وأقامت عذرها عند النسوة ، فرقت عليه ، فتوعدته بالسجن .

وقال له النسوة : أطع وافعل ما أمرتك به ، فقال : رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه .

فأسند الفعل إليهن لما ينصحن له وزين له مطاوعتها ، ونهينه عن الفاء نفسه في السجن والصغار ، فالتجأ إلى الله تعالى .

والتقدير : دخول السجن .

(114/395)

وقرأ عثمان ، ومولاه طارق ، وزيد بن علي ، والزهري ، وابن أبي إسحاق ، وابن هرمز ، ويعقوب : السجن بفتح السين وهو مصدر سجن أي : حبسهم إياي في السجن أحب إليّ

وأحب هنا ليست على بابها من التفضيل ، لأنه لم يحب ما يدعونه إليه قط ، وإنما هذان شران ، فآثر أحد الشرّين على الآخر ، وإن كان في أحدهما مشقة وفي الآخر لذة ، لكن لما يترتب على تلك اللذة من معصية الله وسوء العاقبة ، ولم يخطر له ببال .

ولما في الآخر من احتمال المشقة في ذات الله ، والصبر على النوائب ، وانتظار الفرج ، والحضور مع الله تعالى في كل وقت داعياً له في تخليصه .

آثره ثم ناط العصمة بالله ، واستسلم لله كعادة الأنبياء والصالحين ، وأنه تعالى لا يصرف السوء إلا هو .

فقال : وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن أي : أمل إلى ما يدعونني إليه .

وجعل جواب الشرط قوله : أصب ، وهي كلمة مشعرة بالميل فقط ، لا بمباشرة المعصية .

وقرئ أصب إليهن من صببت صبابة فأنا صب ، والصبابة إفراط الشوق ، كأنه ينصب فيما يهوي .

وقراءة الجمهور : أصب من صبا إلى اللهو يصبو صباً وصبوّا ، ويقال : صبا يصبا صباً ، والصبا بالكسر اللهو واللعب .

وأكن من الجاهلين من الذين لا يعلمون بما ، لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء ، أو من السفهاء لأنّ الوقوع في موافقة النساء والميل إليهن سفاهة .

قال الشاعر :

إحدى بليلي وما هام الفؤاد بها . . .

إلا السفاه وإلا ذكرة حلما

وذكر استجابة الله له ولم يتقدم لفظ دعاء لأن قوله : وإلا تصرف عني ، فيه معنى طلب الصرف والدعاء ، وكأنه قال : رب اصرف عني كيدهن ، فصرف عنه كيدهن أي : حال بينه وبين المعصية .

إنه هو السميع لدعاء الملتجئين إليه ، العليم بأحوالهم وما انطوت عليه نياتهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(115/395)

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

فَصْلٌ :

وَفِي قَوْلِ يُوسُفَ : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ عِبْرَتَانِ : " إحْدَاهُمَا " اخْتِيَارُ السِّجْنِ وَالْبَلَاءِ عَلَى الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي . و " الثَّانِيَةُ " طَلَبُ سُؤَالِ اللَّهِ وَدُعَائِهِ أَنْ يُثَبِّتَ الْقَلْبَ عَلَى دِينِهِ وَيَصْرِفَهُ إلَى طَاعَتِهِ وَإِلَّا فَإِذَا لَمْ يُثَبِّتْ الْقَلْبَ صَبَا إلَى الْآمِرِينَ بِالذُّنُوبِ وَصَارَ مِنْ الْجَاهِلِينَ . فَفِي هَذَا تَوَكُّلٌ عَلَى اللَّهِ وَاسْتِعَانَةٌ بِهِ أَنْ يُثَبِّتَ الْقَلْبَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ وَفِيهِ صَبْرٌ عَلَى الْمِحْنَةِ وَالْبَلَاءِ وَالْأَذَى الْحَاصِلِ إذَا ثَبَتَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ .

(116/395)

وَهَذَا كَقَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي

نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . وَمِنْهُ قَوْلُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ . فَلَا بُدَّ مِنَ التَّقْوَى بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَقْدُورِ كَمَا فَعَلَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اتَّقَى اللَّهَ بِالْعِفَّةِ عَنْ الْفَاحِشَةِ وَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُمْ لَهُ بِالْمُرَاوَدَةِ وَالْحَبْسِ وَاسْتَعَانَ اللَّهَ وَدَعَاهُ حَتَّى يُثَبِّتَهُ عَلَى الْعِفَّةِ فَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ وَصَبَرَ عَلَى الْحَبْسِ .

وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ

الْمُبِينُ ﴾ ﴿ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَذًى لِكُلِّ مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا فَإِنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى الْأَذَى فِي طَاعَةِ اللَّهِ بَلْ اخْتَارَ الْمَعْصِيَةَ كَانَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنْ الشَّرِّ أَعْظَمَ مِمَّا فَرَّ مِنْهُ بِكَثِيرِ . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ . وَمَنْ احْتَمَلَ الْهَوَانَ وَالْأَذَى فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَلَى الْكَرَامَةِ وَالْعِزِّ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَمَا فَعَلَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَغَيْرُهُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ مَا حَصَلَ لَهُ مِنْ الْأَذَى قَدْ انْقَلَبَ نَعِيمًا وَسُرُورًا كَمَا أَنَّ مَا يَحْصُلُ لِأَرْبَابِ الذُّنُوبِ مِنْ التَّنَعُّمِ بِالذُّنُوبِ يَنْقَلِبُ حُزْنًا وَثُبُورًا . فَيُوسُفُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَافَ اللَّهَ مِنْ الذُّنُوبِ وَلَمْ يَخَفْ مِنْ أَذَى الْخَلْقِ وَحَبْسِهِمْ إذْ أَطَاعَ اللَّهَ بَلْ آثَرَ الْحَبْسَ وَالْأَذَى مَعَ الطَّاعَةِ عَلَى الْكَرَامَةِ وَالْعِزِّ وَقَضَاءِ الشَّهَوَاتِ وَنَيْلِ

الرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ مَعَ الْمَعْصِيَةِ فَإِنَّهُ لَوْ وَافَقَ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ نَالَ الشَّهْوَةَ وَأَكْرَمَتْهُ الْمَرْأَةُ بِالْمَالِ وَالرِّيَاسَةِ

وَزَوْجُهَا فِي طَاعَتِهَا فَاخْتَارَ يُوسُفُ الذُّلَّ وَالْحَبْسَ وَتَرْكَ الشَّهْوَةِ وَالْخُرُوجَ عَنْ الْمَالِ

وَالرِّيَاسَةِ مَعَ الطَّاعَةِ عَلَى الْعِزِّ وَالرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ وَقَضَاءِ الشَّهْوَةِ مَعَ الْمَعْصِيَةِ . بَلْ قَدَّمَ الْخَوْفَ مِنْ الْخَالِقِ عَلَى الْخَوْفِ مِنْ الْمَخْلُوقِ وَإِنْ آذَاهُ بِالْحَبْسِ وَالْكَذِبِ فَإِنَّهَا كَذَبَتْ عَلَيْهِ ؛ فَزَعَمَتْ أَنَّهُ رَاوَدَهَا ثُمَّ حَبَسَتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ . وَقَدْ قِيلَ : إنَّهَا قَالَتْ لِزَوْجِهَا إنَّهُ هَتَكَ عِرْضِي لَمْ يُمْكِنْهَا أَنْ تَقُولَ لَهُ رَاوَدَنِي فَإِنَّ زَوْجَهَا قَدْ عَرَفَ الْقِصَّةَ ؛ بَلْ كَذَبَتْ عَلَيْهِ كِذْبَةً تَرُوجُ عَلَى زَوْجِهَا . وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ هَتَكَ عِرْضَهَا بِإِشَاعَةِ فِعْلِهَا وَكَانَتْ كَاذِبَةً عَلَى يُوسُفَ لَمْ يَذْكُرْ عَنْهَا شَيْئًا ؛ بَلْ كَذَبَتْ أَوَّلًا وَآخِرًا ؛ كَذَبَتْ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ طَلَبَ الْفَاحِشَةَ وَكَذَبَتْ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ أَشَاعَهَا وَهِيَ الَّتِي طَالَبَتْ وَأَشَاعَتْ فَإِنَّهَا قَالَتْ لِلنِّسْوَةِ : فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ . وَلَقَدْ رَاوَدْته عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ . فَهَذَا غَايَةُ الْإِشَاعَةِ لِفَاحِشَتِهَا لَمْ تَسْتُرْ نَفْسَهَا . وَالنِّسَاءُ أَعْظَمُ النَّاسِ إخْبَارًا بِمِثْلِ ذَلِكَ وَهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعْنَ قَوْلَهَا قَدْ قُلْنَ فِي الْمَدِينَةِ : ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فَكَيْفَ إذَا اعْتَرَفَتْ بِذَلِكَ وَطَلَبَتْ رَفْعَ الْمَلَامِ عَنْهَا ؟ .

(119/395)

وَقَدْ قِيلَ : إنَّهُنَّ أَعَنَّهَا فِي الْمُرَاوَدَةِ وَعَذَلْنَهَا عَلَى الِامْتِنَاعِ . وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إلَيْهِنَّ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ ارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ كَيْدًا مِنْهُنَّ وَقَدْ قَالَ لَهُنَّ

الْمَلِكُ : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فَهُنَّ لَمْ يُرَاوِدْنَهُ لِأَنْفُسِهِنَّ ؛ إذْ كَانَ ذَلِكَ غَيْرَ مُمْكِنٍ وَهُوَ عِنْدَ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا وَتَحْتَ حِجْرِهَا ؛ لَكِنْ قَدْ يَكُنَّ أَعَنَّ الْمَرْأَةَ عَلَى مَطْلُوبِهَا . وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي فِعْلِ الْفَاحِشَةِ فَغَيْرُهَا مِنْ الذُّنُوبِ أَعْظَمُ مِثْلُ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ لِلْخَلْقِ كَقَتْلِ النَّفْسِ الْمَعْصُومَةِ وَمِثْلُ الْإِشْرَاكِ بِاَللَّهِ وَمِثْلُ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فَهَذِهِ أَجْنَاسُ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي لَا تُبَاحُ بِحَالِ وَلَا فِي شَرِيعَةٍ وَمَا سِوَاهَا - وَإِنْ حَرُمَ فِي حَالٍ - فَقَدْ يُبَاحُ فِي حَالٍ .

فَصْلٌ :

وَاخْتِيَارُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ وَلِأَهْلِهِ الِاحْتِبَاسَ فِي شِعْبِ بَنِي هَاشِمٍ بِضْعَ سِنِينَ لَا يُبَايِعُونَ وَلَا يُشَارُونَ ؛ وَصِبْيَانُهُمْ يَتَضَاغَوْنَ مِنْ الْجُوعِ قَدْ هَجَرَهُمْ وَقَلَاهُمْ قَوْمُهُمْ وَغَيْرُ قَوْمِهِمْ . هَذَا أَكْمَلُ مِنْ حَالِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَإِنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا يَدْعُونَ الرَّسُولَ إلَى

الشِّرْكِ وَأَنْ يَقُولَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ . يَقُولُ : مَا أَرْسَلَنِي وَلَا نَهَى عَنْ الشِّرْكِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ ﴿ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ . وَكَانَ كَذِبُ هَؤُلَاءِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمَ مِنْ الْكَذِبِ عَلَى يُوسُفَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إنَّهُ سَاحِرٌ وَإِنَّهُ كَاهِنٌ وَإِنَّهُ مَجْنُونٌ وَإِنَّهُ

مُفْتَرٍ . وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ أَعْظَمُ مِنْ الزِّنَا وَالْقَذْفِ ؛ لَا سِيَّمَا الزِّنَا الْمَسْتُورُ الَّذِي لَا يَدْرِي بِهِ أَحَدٌ . فَإِنَّ يُوسُفَ كَذَبَ عَلَيْهِ فِي أَنَّهُ زَنَى وَأَنَّهُ قَذَفَهَا وَأَشَاعَ عَنْهَا الْفَاحِشَةَ ؛ فَكَانَ الْكَذِبُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمَ مِنْ الْكَذِبِ عَلَى يُوسُفَ . وَكَذَلِكَ الْكَذِبُ عَلَى أُولِي الْعَزْمِ مِثْلُ نُوحٍ وَمُوسَى حَيْثُ يُقَالُ عَنْ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ : إنَّهُ مَجْنُونٌ وَإِنَّهُ كَذَّابٌ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ وَمَا لَقِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ أَعْظَمُ مِنْ مُجَرَّدِ الْحَبْسِ فَإِنَّ يُوسُفَ حُبِسَ وَسُكِتَ عَنْهُ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَأَصْحَابُهُ كَانُوا يُؤْذَوْنَ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ مَعَ مَنْعِهِمْ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِمْ الْمُعْتَادَةِ . وَهَذَا مَعْنَى الْحَبْسِ فَإِنَّهُ لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِالْحَبْسِ سُكْنَاهُ فِي السِّجْنِ بَلْ الْمُرَادُ مَنْعُهُ مِنْ التَّصَرُّفِ الْمُعْتَادِ . وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبْسٌ وَلَا لِأَبِي بَكْرٍ ؛ بَلْ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ السِّجْنَ عُمَرُ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ يُسَلِّمُ الْغَرِيمَ إلَى غَرِيمِهِ وَيَقُولُ : مَا فَعَلَ أَسِيرُك ﴾ فَيَجْعَلُهُ أَسِيرًا مَعَهُ حَتَّى يَقْضِيَهُ حَقَّهُ وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ مِنْ الْحَبْسِ .

وَالصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مَنَعُوهُمْ مِنْ التَّصَرُّفِ بِمَكَّةَ أَذًى لَهُمْ حَتَّى خَرَجَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَاخْتَارُوا السُّكْنَى بَيْنَ أُولَئِكَ النَّصَارَى عِنْدَ مَلِكٍ عَادِلٍ

(122/395)

عَلَى السُّكْنَى بَيْنَ قَوْمِهِمْ وَالْبَاقُونَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ أَيْضًا مَعَ مَا آذَوْهُمْ بِهِ حَتَّى قَتَلُوا بَعْضَهُمْ وَكَانُوا يَضْرِبُونَ بَعْضَهُمْ وَيَمْنَعُونَ بَعْضَهُمْ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ وَيَضَعُونَ الصَّخْرَةَ عَلَى بَطْنِ أَحَدِهِمْ فِي رَمْضَاءِ مَكَّةَ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذَى . وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْتَارُ الْأَذَى فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَلَى الْإِكْرَامِ مَعَ مَعْصِيَتِهِ كَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ اخْتَارَ الْقَيْدَ وَالْحَبْسَ وَالضَّرْبَ عَلَى مُوَافَقَةِ السُّلْطَانِ وَجُنْدِهِ عَلَى أَنْ يَقُولَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ فِي كَلَامِهِ وَعَلَى أَنْ يَقُولَ مَا

لَا يَعْلَمُ أَيْضًا فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَ بِكَلَامِ يَعْرِفُ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ بَاطِلٌ وَبِكَلَامِ مُجْمَلٍ يَحْتَاجُ إلَى تَفْسِيرٍ ؛ فَيَقُولُ لَهُمْ الْإِمَامُ أَحْمَد : مَا أَدْرِي مَا هَذَا ؟ فَلَمْ يُوَافِقْهُمْ عَلَى أَنْ يَقُولَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ . وَلَا عَلَى أَنْ يَقُولَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُ .

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بَعْدَ كَلَامٍ :

(123/395)

[يَهُمُّ أَحَدُهُمْ] بِالذَّنْبِ فَيَذْكُرُ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ فَيَدَعُهُ فَكَانَ يُوسُفُ مِمَّنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى . ثُمَّ إنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ شَابًّا عَزَبًا أَسِيرًا فِي بِلَادِ الْعَدُوِّ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَقَارِبُ أَوْ أَصْدِقَاءُ فَيَسْتَحِي مِنْهُمْ إذَا فَعَلَ فَاحِشَةً فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَمْنَعُهُ مِنْ مُوَاقَعَةِ الْقَبَائِحِ حَيَاؤُهُ مِمَّنْ يَعْرِفُهُ فَإِذَا تَغَرَّبَ فَعَلَ مَا يَشْتَهِيهِ . وَكَانَ أَيْضًا خَالِيًا لَا يَخَافُ مَخْلُوقًا فَحُكْمُ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ - لَوْ كَانَتْ نَفْسُهُ كَذَلِكَ - أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُعْتَرِضَ لَهَا ؛ بَلْ يَكُونُ هُوَ الْمُتَحَيِّلَ عَلَيْهَا كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ كَثِيرٍ مِمَّنْ لَهُ غَرَضٌ فِي نِسَاءِ الْأَكَابِرِ إنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ الدَّعْوَةِ ابْتِدَاءً . فَأَمَّا إذَا دُعِيَ وَلَوْ كَانَتْ الدَّاعِيَةُ خَدَّامَةً لَكَانَ أَسْرَعَ مُجِيبٍ فَكَيْفَ إذَا كَانَتْ الدَّاعِيَةُ سَيِّدَتَهُ الْحَاكِمَةَ عَلَيْهِ الَّتِي يَخَافُ الضَّرَرَ بِمُخَالَفَتِهَا . ثُمَّ إنَّ زَوْجَهَا الَّذِي عَادَتُهُ أَنْ يَزْجُرَ الْمَرْأَةَ لَمْ يُعَاقِبْهَا ؛ بَلْ أَمَرَ

يُوسُفَ بِالْإِعْرَاضِ كَمَا يَنْعَرُ الدَّيُّوثُ ثُمَّ إنَّهَا اسْتَعَانَتْ بِالنِّسَاءِ وَحَبَسَتْهُ وَهُوَ يَقُولُ : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ . فَلْيَتَدَبَّرْ اللَّبِيبُ هَذِهِ الدَّوَاعِيَ الَّتِي دَعَتْ يُوسُفَ إلَى مَا دَعَتْهُ وَأَنَّهُ مَعَ تَوَفُّرِهَا وَقُوَّتِهَا لَيْسَ لَهُ عَنْ ذَلِكَ صَارِفٌ إذَا فَعَلَ ذَلِكَ وَلَا مَنْ يُنْجِيهِ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ ؛ لِيَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الَّذِي اُبْتُلِيَ بِهِ يُوسُفُ كَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمُورِ وَأَنَّ تَقْوَاهُ وَصَبْرَهُ عَنْ الْمَعْصِيَةِ - حَتَّى لَا يَفْعَلَهَا مَعَ ظُلْمِ الظَّالِمِينَ لَهُ حَتَّى لَا يُجِيبَهُمْ - كَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْحَسَنَاتِ وَأَكْبَرِ الطَّاعَاتِ وَأَنَّ نَفْسَ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَتْ مِنْ أَزْكَى الْأَنْفُسِ فَكَيْفَ أَنْ يَقُولَ : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ وَاَللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ نَفْسَهُ بَرِيئَةٌ لَيْسَتْ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ ؛ بَلْ نَفْسٌ زَكِيَّةٌ مِنْ أَعْظَمِ النُّفُوسِ زَكَاءً وَالْهَمُّ الَّذِي وَقَعَ كَانَ زِيَادَةً فِي زَكَاءِ نَفْسِهِ وَتَقْوَاهَا وَبِحُصُولِهِ مَعَ تَرْكِهِ لِلَّهِ لِتَثْبُتَ لَهُ بِهِ حَسَنَةٌ مِنْ أَعْظَمِ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تُزَكِّي نَفْسَهُ . " الْوَجْهُ السَّادِسُ " أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ إذَا كَانَ مَعْنَاهُ عَلَى مَا زَعَمُوهُ أَنَّ يُوسُفَ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ الْعَزِيزُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ فِي امْرَأَتِهِ عَلَى قَوْلِ أَكْثَرِهِمْ ؛ أَوْ لِيَعْلَمَ الْمَلِكُ أَوْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَا مَا

يُشَارُ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ مِنْ يُوسُفَ كَلَامٌ يُشِيرُ بِهِ إلَيْهِ وَلَا تَقَدَّمَ أَيْضًا ذِكْرُ عَفَافِهِ وَاعْتِصَامِهِ ؛ فَإِنَّ الَّذِي ذَكَرَهُ النِّسْوَةُ قَوْلُهُنَّ : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ وَقَوْلُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وَهَذَا فِيهِ بَيَانُ كَذِبِهَا فِيمَا قَالَتْهُ أَوَّلًا لَيْسَ فِيهِ نَفْسُ فِعْلِهِ الَّذِي فَعَلَهُ هُوَ. فَقَوْلُ الْقَائِلِ : إنَّ قَوْلَهُ (ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ مِنْهُ هُنَا قَوْلٌ وَلَا عَمَلٌ لَا يَصِحُّ بِحَالِ . " الْوَجْهُ السَّابِعُ " أَنَّ الْمَعْنَى عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ - لَوْ كَانَ هُنَا مَا يُشَارُ إلَيْهِ مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ أَوْ عَمَلِهِ - إنَّ عِفَّتِي عَنْ الْفَاحِشَةِ كَانَ لِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ وَيُوسُفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنَّمَا تَرَكَهَا خَوْفًا مِنْ اللَّهِ وَرَجَاءً لِثَوَابِهِ ؛ وَلِعِلْمِهِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ ؛ لَا لِأَجْلِ مُجَرَّدِ عِلْمِ مَخْلُوقٍ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ وَأَنَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ . وَمَنْ تَرَكَ الْمُحَرَّمَاتِ لِيَعْلَمَ الْمَخْلُوقُ بِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ هَذَا لِأَجْلِ بُرْهَانٍ مِنْ رَبِّهِ وَلَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ مُخْلَصًا فَهَذَا الَّذِي أَضَافُوهُ إلَى يُوسُفَ إذَا فَعَلَهُ آحَادُ النَّاسِ لَمْ يَكُنْ لَهُ ثَوَابٌ مِنْ اللَّهِ ؛ بَلْ يَكُونُ ثَوَابُهُ عَلَى مَنْ عَمِلَ لِأَجْلِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ يُوسُفُ أَوَّلًا : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ . قِيلَ : إنْ كَانَ مُرَادُهُ بِذَلِكَ سَيِّدَهُ : فَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَحْسَنَ إلَيَّ ؛ وَأَكْرَمَنِي فَلَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَخُونَهُ فِي أَهْلِهِ فَإِنِّي أَكُونُ ظَالِمًا وَلَا يُفْلِحُ الظَّالِمُ ؛ فَتَرَكَ خِيَانَتَهُ فِي أَهْلِهِ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ لَا لِيَعْلَمَ هُوَ بِذَلِكَ . فَإِنْ قِيلَ : مُرَادُهُ تَأْتِي إظْهَارُ بَرَاءَتِي لِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ فَالْمُعَلَّلُ إظْهَارُ بَرَاءَتِهِ لَا نَفْسَ عَفَافِهِ . قِيلَ : لَمْ يَكُنْ مُرَادُهُ بِإِظْهَارِ بَرَاءَتِهِ مُجَرَّدَ عِلْمٍ وَاحِدٍ ؛ بَلْ مُرَادُهُ عِلْمُ الْمَلِكِ وَغَيْرِهِ . وَلِهَذَا قَالَ لِلرَّسُولِ : ﴿ ارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ وَلَوْ كَانَ هَذَا مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ لَقَالَ : ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنِّي بَرِيءٌ وَأَنِّي مَظْلُومٌ . ثُمَّ هَذَا لَا يَلِيقُ أَنْ يُذْكَرَ عَنْ يُوسُفَ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ظَهَرَتْ بَرَاءَتُهُ وَحَصَلَ مَطْلُوبُهُ فَلَا يَحْتَاجُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ لِتَحْصِيلِ ذَلِكَ . وَهُمْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ إنَّمَا تَأَخَّرَ لِتَظْهَرَ بَرَاءَتُهُ فَلَا يَحْتَاجُ مِثْلُ هَذَا أَنْ يَنْطِقَ بِهِ .

" الْوَجْهُ الثَّامِنُ " أَنَّ النَّاسَ عَادَتُهُمْ فِي مِثْلِ هَذَا يُعَرِّفُونَ بِمَا عَمِلُوهُ مِنْ لِذَلِكَ عِنْدَهُ قَدْرٌ وَهَذَا يُنَاسِبُ لَوْ كَانَ الْعَزِيزُ غَيُورًا وَلِلْعِفَّةِ عِنْدَهُ جَزَاءٌ كَثِيرٌ وَالْعَزِيزُ قَدْ ظَهَرَتْ عَنْهُ مِنْ قِلَّةِ الْغَيْرَةِ وَتَمْكِينِ امْرَأَتِهِ مِنْ جِنْسِهِ مَعَ الظَّالِمِينَ مَعَ ظُهُورِ بَرَاءَتِهِ مَا يَقْتَضِي أَنَّ مِثْلَ هَذَا يَنْبَغِي

فِي عَادَةِ الطِّبَاعِ أَنْ يُقَابَلَ عَلَى ذَلِكَ بِمُوَاقَعَةِ أَهْلِهِ . فَإِنَّ النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ تَقُولُ فِي مِثْلِ هَذَا : هَذَا لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ إحْسَانِي إلَيْهِ وَصَوْنِي لِأَهْلِهِ وَكَفِّ نَفْسِي عَنْ ذَلِكَ ؛ بَلْ سَلَّطَهَا وَمَكَّنَهَا . فَكَثِيرٌ مِنْ النُّفُوسِ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهَا الْفَاحِشَةُ إذَا رَأَتْ مَنْ حَالُهُ هَذَا تَفْعَلُ الْفَاحِشَةَ إمَّا نِكَايَةً فِيهِ وَمُجَازَاةً لَهُ عَلَى ظُلْمِهِ وَإِمَّا إهْمَالًا لَهُ لِعَدَمِ غَيْرَتِهِ وَظُهُورِ دِيَاثَتِهِ وَلَا يَصْبِرُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ عَنْ الْفَاحِشَةِ إلَّا مَنْ يَعْمَلُ لِلَّهِ خَائِفًا مِنْهُ وَرَاجِيًا لِثَوَابِهِ لَا مَنْ يُرِيدُ تَعْرِيفَ الْخَلْقِ بِعَمَلِهِ . "الْوَجْهُ التَّاسِعُ" أَنَّ الْخِيَانَةَ ضِدُّ الْأَمَانَةِ وَهُمَا مِنْ جِنْسِ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ . وَلِهَذَا يُقَالُ : الصَّادِقُ الْأَمِينُ وَيُقَالُ الْكَاذِبُ الْخَائِنُ . وَهَذَا حَالُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ ؛ فَإِنَّهَا لَوْ كَذَبَتْ عَلَى يُوسُفَ فِي مَغِيبِهِ وَقَالَتْ رَاوَدَنِي لَكَانَتْ كَاذِبَةً وَخَائِنَةً فَلَمَّا اعْتَرَفَتْ بِأَنَّهَا هِيَ الْمُرَاوِدَةُ كَانَتْ صَادِقَةً فِي هَذَا الْخَبَرِ أَمِينَةً فِيهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَتْ : ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فَأَخْبَرَتْ بِأَنَّهُ صَادِقٌ

(128/395)

فِي تَبْرِئَتِهِ نَفْسَهُ دُونَهَا .

فَأَمَّا فِعْلُ الْفَاحِشَةِ فَلَيْسَ مِنْ بَابِ الْخِيَانَةِ وَالْأَمَانَةِ ؛ وَلَكِنْ هُوَ بَابُ الظُّلْمِ وَالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ يُوسُفَ : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ

مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ هُنَا الْخَائِنِينَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الْخِيَانَةَ ؛ فَلْيَتَدَبَّرْ اللَّبِيبُ هَذِهِ الدَّقَائِقَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى. " الْوَجْهُ الْعَاشِرُ " أَنَّ فِي الْكَلَامِ الْمَحْكِيِّ الَّذِي أَقَرَّهُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ نَفْسٍ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ ؛ بَلْ مَا رَحِمَ رَبِّي لَيْسَ فِيهِ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ. وَقَدْ ذَكَرَ طَائِفَةٌ مِنْ النَّاسِ أَنَّ النَّفْسَ لَهَا ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ : تَكُونُ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ ثُمَّ تَكُونُ لَوَّامَةً أَيْ تَفْعَلُ الذَّنْبَ ثُمَّ تَلُومُ عَلَيْهِ أَوْ تَتَلَوَّمُ فَتَتَرَدَّدُ بَيْنَ الذَّنْبِ وَالتَّوْبَةِ. ثُمَّ تَصِيرُ مُطْمَئِنَّةً. و " الْمَقْصُودُ هُنَا " أَنَّ مَا رَحِمَ رَبِّي مِنْ النُّفُوسِ لَيْسَتْ بِأَمَّارَةٍ وَإِذَا كَانَتْ النُّفُوسُ مُنْقَسِمَةً إلَى مَرْحُومَةٍ وَأَمَّارَةٍ فَقَدْ عَلِمْنَا قَطْعًا أَنَّ نَفْسَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ مِنْ النُّفُوسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ؛ لِأَنَّهَا أَمَرَتْ بِذَلِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وَرَاوَدَتْ وَافْتَرَتْ وَاسْتَعَانَتْ بِالنِّسْوَةِ وَسَجَنَتْ وَهَذَا مِنْ

أَعْظَمِ مَا يَكُونُ مِنْ الْأَمْرِ بِالسُّوءِ. وَأَمَّا يُوسُفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَفْسُهُ مِنْ النُّفُوسِ الْمَرْحُومَةِ عَنْ أَنْ تَكُونَ أَمَّارَةً فَمَا فِي الْأَنْفُسِ مَرْحُومٌ ؛ فَإِنَّ مَنْ تَدَبَّرَ قِصَّةَ يُوسُفَ عَلِمَ أَنَّ الَّذِي رُحِمَ بِهِ وَصُرِفَ عَنْهُ مِنْ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا

ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ وَجَعَلَهُ عِبْرَةً وَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّالِحِينَ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ إلَّا وَنَفْسُهُ إذَا ابْتُلِيَتْ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّوَاعِي أَبْعَدُ عَنْ أَنْ تَكُونَ مَرْحُومَةً مِنْ نَفْسِ يُوسُفَ. وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ نَفْسُ يُوسُفَ مَرْحُومَةً: فَمَا فِي النُّفُوسِ مَرْحُومَةٌ فَإِذًا كُلُّ النُّفُوسِ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ وَهُوَ خِلَافُ مَا فِي الْقُرْآنِ. وَلَا يُلْتَفَتُ إلَى الْحِكَايَةِ الْمَذْكُورَةِ عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ؛ أَنَّ أَعْرَابِيَّةً دَعَتْهُ إلَى نَفْسِهَا وَهُمَا فِي الْبَادِيَةِ؛ فَامْتَنَعَ وَبَكَى وَجَاءَ أَخُوهُ وَهُوَ يَبْكِي فَبَكَى وَبَكَتْ الْمَرْأَةُ وَذَهَبَتْ فَنَامَ فَرَأَى يُوسُفَ فِي مَنَامِهِ وَقَالَ: أَنَا يُوسُفُ الَّذِي هَمَمْت وَأَنْتَ مُسْلِمٌ الَّذِي لَمْ تَهُمَّ فَقَدْ يَظُنُّ مَنْ يَسْمَعُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ أَنَّ حَالَ مُسْلِمٍ كَانَ أَكْمَلَ. وَهَذَا جَهْلٌ لِوَجْهَيْنِ: "أَحَدُهُمَا" أَنَّ مُسْلِمًا لَمْ يَكُنْ تَحْتَ حُكْمِ الْمَرْأَةِ الْمُرَاوِدَةِ وَلَا لَهَا عَلَيْهِ حُكْمٌ وَلَا لَهَا عَلَيْهِ قُدْرَةٌ أَنْ تَكْذِبَ عَلَيْهِ وَتَسْتَعِينَ بِالنِّسْوَةِ

وَتَحْبِسَهُ، وَزَوْجُهَا لَا يُعِينُهُ وَلَا أَحَدٌ غَيْرُ زَوْجِهَا يُعِينُهُ عَلَى الْعِصْمَةِ؛ بَلْ مُسْلِمٌ لَمَّا بَكَى ذَهَبَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ وَلَوْ اسْتَعْصَمَتْ لَكَانَ صُرَاخُهُ مِنْهَا أَوْ خَوْفُهَا مِنْ النَّاسِ يَصْرِفُهَا عَنْهُ. وَأَيْنَ هَذَا مِمَّا اُبْتُلِيَ بِهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. "الثَّانِي" أَنَّ الْهَمَّ مِنْ يُوسُفَ لَمَّا تَرَكَهُ لِلَّهِ كَانَ لَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَلَا نَقْصَ عَلَيْهِ. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ

يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ : رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَهَذَا لِمُجَرَّدِ الدَّعْوَةِ فَكَيْفَ بِالْمُرَاوَدَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ وَالْحَبْسِ ؟ . وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ مَنْصِبٍ وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ فَإِنَّ امْرَأَةَ عَزِيزِ مِصْرَ يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ جَمِيلَةً . وَأَمَّا الْبَدَوِيَّةُ الدَّاعِيَةُ لِمُسْلِمِ فَلَا رَيْبَ أَنَّهَا دُونَ ذَلِكَ وَرُؤْيَاهُ فِي الْمَنَامِ وَقَوْلُهُ : أَنَا يُوسُفُ الَّذِي هَمَمْت وَأَنْتَ مُسْلِمٌ الَّذِي لَمْ تَهُمَّ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ لَهُ يُوسُفُ فِي الْيَقَظَةِ وَإِذَا قَالَ هَذَا : كَانَ هَذَا خَيْرًا لَهُ وَمَدْحًا وَثَنَاءً وَتَوَاضُعًا مِنْ يُوسُفَ وَإِذَا تَوَاضَعَ الْكَبِيرُ مَعَ مَنْ دُونَهُ لَمْ تَسْقُطْ مَنْزِلَتُهُ . " الْوَجْهُ الْحَادِي عَشَرَ " أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ فِيهِ - مَعَ الِاعْتِرَافِ

(131/395)

بِالذَّنْبِ - الِاعْتِذَارُ بِذِكْرِ سَبَبِهِ فَإِنَّ قَوْلَهَا : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فِيهِ اعْتِرَافٌ بِالذَّنْبِ وَقَوْلُهَا : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ إشَارَةٌ تُطَابِقُ لِقَوْلِهَا : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ ﴾ أَيْ أَنَا مُقِرَّةٌ بِالذَّنْبِ مَا أَنَا مُبَرِّئَةٌ لِنَفْسِي . ثُمَّ بَيَّنَتْ السَّبَبَ فَقَالَتْ : ﴿ إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ . فَنَفْسِي مِنْ هَذَا الْبَابِ فَلَا يُنْكَرُ صُدُورُ هَذَا مِنِّي . ثُمَّ ذَكَرَتْ مَا يَقْتَضِي طَلَبَ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ فَقَالَتْ : ﴿ إنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ: فَهَذَا كَلَامُ مَنْ يُقِرُّ بِأَنَّ الزِّنَا ذَنْبٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ يَغْفِرُ لِصَاحِبِهِ. قُلْت: نَعَمْ. وَالْقُرْآنُ قَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ حَيْثُ قَالَ زَوْجُهَا: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ فَأَمْرُهُ لَهَا بِالِاسْتِغْفَارِ لِذَنْبِهَا دَلِيلٌ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ ذَلِكَ ذَنْبًا وَيَسْتَغْفِرُونَ مِنْهُ وَإِنْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ مُشْرِكِينَ فَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ مُشْرِكِينَ وَهُمْ يُحَرِّمُونَ الْفَوَاحِشَ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ مِنْهَا حَتَّى ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَايَعَ هِنْدَ بِنْتَ عتبة بْنِ رَبِيعَةَ بَيْعَةَ النِّسَاءِ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكَ بِاَللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقَ وَلَا تَزْنِيَ. قَالَتْ: أَوَتَزْنِي الْحُرَّةُ؟ ﴾ وَكَانَ الزِّنَا مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ فِي الْإِمَاءِ. وَلِهَذَا غَلَبَ عَلَى لُغَتِهِمْ أَنْ يَجْعَلُوا الْحُرِّيَّةَ فِي مُقَابَلَةِ الرِّقِّ وَأَصْلُ

(132/395)

اللَّفْظِ هُوَ الْعِفَّةُ وَلَكِنَّ الْعِفَّةَ عَادَةُ مَنْ لَيْسَتْ أَمَةً؛ بَلْ قَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ العطاردي أَنَّهُ رَأَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ قِرْدًا يَزْنِي بِقِرْدَةِ فَاجْتَمَعَتْ الْقُرُودُ عَلَيْهِ حَتَّى رَجَمَتْهُ. وَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ الشُّيُوخِ الصَّادِقِينَ أَنَّهُ رَأَى فِي جَامِعٍ نَوْعًا مِنْ الطَّيْرِ قَدْ بَاضَ فَأَخَذَ النَّاسُ بَيْضَهُ وَجَاءَ بِبَيْضِ جِنْسٍ آخَرَ مِنْ الطَّيْرِ فَلَمَّا انْفَقَسَ الْبَيْضُ خَرَجَتْ الْفِرَاخُ مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ فَجَعَلَ الذَّكَرُ يَطْلُبُ جِنْسَهُ حَتَّى اجْتَمَعَ مِنْهُنَّ عَدَدٌ فَمَا زَالُوا بِالْأُنْثَى حَتَّى قَتَلُوهَا وَمِثْلُ هَذَا مَعْرُوفٌ فِي عَادَةِ الْبَهَائِمِ. وَالْفَوَاحِشُ مِمَّا اتَّفَقَ أَهْلُ الْأَرْضِ عَلَى

اسْتِقْبَاحِهَا وَكَرَاهَتِهَا وَأُولَئِكَ الْقَوْمُ كَانُوا يُقِرُّونَ بِالصَّانِعِ مَعَ شِرْكِهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ يُوسُفُ : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . " الْوَجْهُ الثَّانِي عَشَرَ " أَنْ يُقَالَ : إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَذْكُرْ عَنْ نَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ذَنْبًا إلَّا ذَكَرَ تَوْبَتَهُ مِنْهُ ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى قَوْلَيْنِ : إمَّا أَنْ يَقُولُوا بِالْعِصْمَةِ مِنْ فِعْلِهَا وَإِمَّا

أَنْ يَقُولُوا بِالْعِصْمَةِ مِنْ الْإِقْرَارِ عَلَيْهَا ؛ لَا سِيَّمَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ فَإِنَّ الْأُمَّةَ مُتَّفِقَةٌ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مَعْصُومٌ أَنْ يُقَرَّ فِيهِ عَلَى خَطَأٍ فَإِنَّ ذَلِكَ يُنَاقِضُ مَقْصُودَ الرِّسَالَةِ وَمَدْلُولَ الْمُعْجِزَةِ . وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ بَسْطِ الْكَلَامِ فِي ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَذْكُرْ فِي كِتَابِهِ عَنْ نَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ذَنْبًا إلَّا ذَكَرَ تَوْبَتَهُ مِنْهُ كَمَا ذَكَرَ فِي قِصَّةِ آدَمَ وَمُوسَى وَدَاوُد وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ . وَبِهَذَا يُجِيبُ مَنْ يَنْصُرُ قَوْلَ الْجُمْهُورِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْعِصْمَةِ مِنْ الْإِقْرَارِ عَلَى مَنْ يَنْفِي الذُّنُوبَ مُطْلَقًا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ حُجَجِهِمْ مَا اعْتَمَدَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ حَيْثُ قَالُوا : نَحْنُ مَأْمُورُونَ بِالتَّأَسِّي بِهِمْ فِي الْأَفْعَالِ وَتَجْوِيزُ ذَلِكَ يَقْدَحُ فِي التَّأَسِّي ؛ فَأُجِيبُوا بِأَنَّ

التَّأَسِّي إنَّمَا هُوَ فِيمَا أُقِرُّوا عَلَيْهِ كَمَا أَنَّ النَّسْخَ جَائِزٌ فِيمَا يُبَلِّغُونَهُ مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَلَيْسَ تَجْوِيزُ ذَلِكَ مَانِعًا مِنْ وُجُوبِ الطَّاعَةِ لِأَنَّ الطَّاعَةَ تَجِبُ فِيمَا لَمْ يُنْسَخْ فَعَدَمُ النَّسْخِ يُقَرِّرُ الْحُكْمَ وَعَدَمُ الْإِنْكَارِ يُقَرِّرُ الْفِعْلَ وَالْأَصْلُ عَدَمُ كُلٍّ مِنْهُمَا . وَيُوسُفُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ فَعَلَ مَعَ الْمَرْأَةِ مَا يَتُوبُ عَنْهُ أَوْ يَسْتَغْفِرُ مِنْهُ أَصْلًا . وَقَدْ اتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى أَنَّهُ لَمْ تَقَعْ مِنْهُ الْفَاحِشَةُ وَلَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَذْكُرُ أَنَّهُ وَقَعَ

مِنْهُ بَعْضُ مُقَدِّمَاتِهَا مِثْلُ مَا يَذْكُرُونَ أَنَّهُ حَلَّ السَّرَاوِيلَ وَقَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الْخَاتِنِ وَنَحْوَ هَذَا وَمَا يَنْقُلُونَهُ فِي ذَلِكَ لَيْسَ هُوَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ فِيهِ إلَّا النَّقْلُ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَدْ عُرِفَ كَلَامُ الْيَهُودِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَغَضُّهُمْ مِنْهُمْ كَمَا قَالُوا فِي سُلَيْمَانَ مَا قَالُوا وَفِي دَاوُد مَا قَالُوا فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعَنَا مَا يَرُدُّ نَقْلَهُمْ لَمْ نُصَدِّقْهُمْ فِيمَا لَمْ نَعْلَمْ صِدْقَهُمْ فِيهِ فَكَيْفَ نُصَدِّقُهُمْ فِيمَا قَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى خِلَافِهِ . وَالْقُرْآنُ قَدْ أَخْبَرَ عَنْ يُوسُفَ مِنْ الِاسْتِعْصَامِ وَالتَّقْوَى وَالصَّبْرِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ مَا لَمْ يُذْكَرْ عَنْ أَحَدٍ نَظِيرُهُ فَلَوْ كَانَ يُوسُفُ قَدْ أَذْنَبَ لَكَانَ إمَّا مُصِرًّا وَإِمَّا تَائِبًا وَالْإِصْرَارُ مُمْتَنِعٌ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ تَائِبًا . وَاَللَّهُ لَمْ يَذْكُرْ عَنْهُ تَوْبَةً فِي هَذَا وَلَا اسْتِغْفَارًا كَمَا ذَكَرَ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَا فَعَلَهُ يُوسُفُ

كَانَ مِنْ الْحَسَنَاتِ الْمَبْرُورَةِ وَالْمَسَاعِي الْمَشْكُورَةِ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي يُوسُفَ كَذَلِكَ ؛ كَانَ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ إنَّمَا يُنَاسِبُ حَالَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ لَا يُنَاسِبُ حَالَ يُوسُفَ فَإِضَافَةُ الذُّنُوبِ إلَى يُوسُفَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ فِرْيَةٌ عَلَى الْكِتَابِ وَالرَّسُولِ

(135/395)

وَفِيهِ تَحْرِيفٌ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَفِيهِ

الِاغْتِيَابُ لِنَبِيِّ كَرِيمٍ وَقَوْلُ الْبَاطِلِ فِيهِ بِلَا دَلِيلٍ وَنِسْبَتُهُ إلَى مَا نَزَّهَهُ اللَّهُ مِنْهُ وَغَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ أَنْ يَكُونَ أَصْلُ هَذَا مِنْ الْيَهُودِ أَهْلِ البهت الَّذِينَ كَانُوا يَرْمُونَ مُوسَى بِمَا بَرَّأَهُ اللَّهُ مِنْهُ فَكَيْفَ بِغَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ؟ وَقَدْ تَلَقَّى نَقْلَهُمْ مَنْ أَحْسَنَ بِهِ الظَّنَّ وَجَعَلَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ تَابِعًا لِهَذَا الِاعْتِقَادِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُنْحَرِفِينَ فِي مَسْأَلَةِ الْعِصْمَةِ عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ كِلَاهُمَا مُخَالِفٌ لِكِتَابِ اللَّهِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ : قَوْمٌ أَفْرَطُوا فِي دَعْوَى امْتِنَاعِ الذُّنُوبِ حَتَّى حَرَّفُوا نُصُوصَ الْقُرْآنِ الْمُخْبِرَةَ بِمَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنْ التَّوْبَةِ مِنْ الذُّنُوبِ وَمَغْفِرَةِ اللَّهِ لَهُمْ وَرَفْعِ دَرَجَاتِهِمْ بِذَلِكَ . وَقَوْمٌ أَفْرَطُوا فِي أَنْ ذَكَرُوا عَنْهُمْ مَا دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى بَرَاءَتِهِمْ مِنْهُ وَأَضَافُوا إلَيْهِمْ ذُنُوبًا وَعُيُوبًا

نَزَّهَهُمْ اللَّهُ عَنْهَا . وَهَؤُلَاءِ مُخَالِفُونَ لِلْقُرْآنِ وَهَؤُلَاءِ مُخَالِفُونَ لِلْقُرْآنِ وَمَنْ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ كَانَ مِنْ الْأُمَّةِ الْوَسَطِ مُهْتَدِيًا إلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى جـ 15 صـ 130 . 150 ﴾

(136/395)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَتْ فذلكن ﴾

الفاء فصيحةٌ والخطابُ للنسوة والإشارةُ إلى يوسف بالعنوان الذي وصفْنه به الآن من الخروج في الحسن والجمال عن المراتب البشريةِ والانتصار على الملَكية ، فاسمُ الإشارة مبتدأٌ والموصولُ خبرُه والمعنى إن كان الأمرُ قلتنّ فذلكنّ الملكُ الكريمُ النائي عن المراتب البشريةِ هو ﴿ الذى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ أي عيّرْتُنّني في الافتتان به حيث ربّأْتُن بمحلّي بنسبتي إلى العزيز ووضعتُنّ قدرَه بكونه من المماليك أو بالعنوان الذي وصفْنه به فيما سبق بقولهن : امرأةُ العزيز عشِقت عبدَها الكنعاني فهو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي فهو ذلك العبدُ

الكنعانيُّ الذي صورتنّ في أنفسكن وقلتنّ فيه وفيَّ ما قلتن فالآن قد علمتُنّ من هو وما قولُكن فينا ، وأما ما يقال تعني أنكن لم تصوِّرْنه بحقّ صورتِه ولو صوّرتُنَّه بما عاينتُنّ لعذرتُنّني في الافتتان به فلا يلائمُ المقام فإن مرادَها بدعوتهن وتمهيدِ ما مهّدَتْه لهن تبكيتُهن وتنديمُهن على ما صدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بما لا مزيدَ عليه ، وما ذكر من المقال فحقُّ المعتذر قبل ظهور معذرتِه وقد قيل في تعليل الملَكية : أن الجمعَ بين الجمال الرائقِ والكمال الفائق والعصمةِ البالغةِ من الخواصِّ الملكية وهو أيضاً لا يلائم قولها : ﴿ فذلكن الذى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ فإن عنوانَ العصمةِ مما ينافي تمشيةَ مرامِها ثم بعدما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرَها وقد أصابهن من قِبله عليه السلام ما أصابها باحت لهن ببقية سرِّها فقالت :

(137/395)

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ حسبما قلتنّ وسمعتن ﴿ فاستعصم ﴾ امتنع طالباً للعصمة وهو بناءُ مبالغةٍ يدل على الامتناع البليغِ والتحفّظ الشديد كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها كما في استمسك واستجمع الرأيَ وفيه برهانٌ نيّرٌ على أنه لم يصدُر عنه عليه السلام شيء مُخِلٌّ باستعصامه بقوله : معاذ الله من الهمّ وغيرِه . اعترفت لهن

أولاً بما كن يسمعنْه من مراودتها له وأكدته إظهاراً لابتهاجها بذلك ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون ولم يَمِلْ إليها قط ثم زادت عليه أيضاً أنها مستمرةٌ على ما كانت عليه غير مرغوبة عنه لا بلوم العواذل ولا بإعراض الحبيب فقالت :

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءامُرُهُ ﴾ أي آمرُ به فيما سيأتي كما لم يفعل فيما مضى فحُذف الجارُّ وأوصل الفعلُ إلى الضمير كما في أمرتك الخيرَ فالضميرُ للموصول أو أمري إياه أي موجبَ أمري ومقتضاه ، فما مصدرية والضميرُ ليوسف وعبّرت عن مراودتها بالأمر إظهاراً لجريان حكومتِها عليه واقتضاءً للامتثال بأمرها ﴿ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ بالنون المثقلة آثرت بناءَ الفعل للمفعول جرياً على رسم الملوكِ أو إيهاماً لسرعة ترتبِ ذلك على عدم امتثالِه لأمرها كأنه لا يدخُل بينهما فعلُ فاعل ﴿ وَلَيَكُونًا ﴾ بالمخففة ﴿ مِنَ الصاغرين ﴾ أي الأذلاء في السجن وقد قرىء الفعلان بالتثقيل ولكن المشهورةَ أولى لأن النونَ كُتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف ، واللامُ الداخلة على حرف الشرطِ موطئةٌ للقسم وجوابُه سادٌّ مسدَّ الجوابين ولقد أتتْ بهذا الوعيدِ المنطوي على فنون التأكيدِ بمحضر منهن ليعلم يوسفُ عليه السلام أنها ليست في أمرها على خُفية ولا خفية من أحد فتضيقَ عليه الحيلُ وتعيا به العللُ وينصحن له ويُرشِدْنه إلى موافقتها . ولما كان هذا الإبراقُ والإرعادُ منها مظِنةً لسؤال سائل يقول : فما صنع يوسفُ حينئذ ؟ قيل :

﴿ قَالَ ﴾ مناجياً لربه عزّ سلطانه ﴿ رَبِّ السجن ﴾ الذي أوعَدْنني بالإلقاء فيه وقرأ يعقوبُ بالفتح على المصدر ﴿ أَحَبُّ إِلَىَّ ﴾ أي آثَرُ عندي لأنه مشقةٌ قليلةٌ نافذةٌ إثرَها راحاتٌ جليلةٌ أبديةٌ ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾ من مؤاتاتها التي تؤدي إلى الشقاء والعذاب الأليم ، وهذا الكلامُ منه عليه السلام مبنيٌّ على ما مر من انكشاف الحقائقِ لديه وبروزِ كلَ منها بصورتها اللائقةِ بها ، فصيغةُ التفضيلِ ليست على بابها إذ ليس له شائبةُ محبةٍ لما دعتْه إليه ، وإنما هو والسجنُ شران أهونُهما وأقربُهما إلى الإيثار السجنُ . والتعبيرُ عن الإيثار بالمحبة لحسم مادةِ طمعِها عن المساعدة خوفاً من الحبس والاقتصار على ذكر السجنِ من حيث إن الصَّغارَ من فروعه ومستتبعاتِه ، وإسنادُ الدعوةِ إليهن جميعاً لأن النسوة رغّبْنه في مطاوعتها وخوَّفْنه من مخالفتها ، وقيل : دعَوْنه إلى أنفسهن ، وقيل : إنما ابتُلي عليه السلام بالسجن لقوله هذا ، وكان الأولى به أن يسألَ الله تعالى العافية ، ولذلك ردّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبرَ ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ ﴾ أي إن لم تصرف ﴿ عَنّى كَيْدَهُنَّ ﴾ في تحبيب ذلك إليّ وتحسينه لديّ بأن تُثبِّتَني على ما أنا عليه من العِصمة والعِفة ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي أمِلْ إلى إجابتهن أو إلى أنفسهن على قضية الطبيعةِ وحكم القوةِ الشهوية ، وهذا فزعٌ منه عليه السلام إلى ألطاف الله تعالى جرياً على سُنن الأنبياءِ والصالحين في قصر نيلِ الخيراتِ والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل

وسلبِ القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغةٌ في استدعاء لطفِه في صرف كيدِهن بإظهار أن لا طاقةَ له بالمدافعة كقول المستغيثِ : أدركْني وإلا هلكتُ لا أنه يطلب الإجبارَ والإلجاءَ إلى العصمة والعفةِ وفي نفسه داعيةٌ تدعوه إلى هواهن ، والصبْوةُ الميلُ إلى الهوى ومنه الصَّبا لأن النفوسَ تصبو إليها

لطيب نسيمِها ورَوْحِها . وقرىء أصبّ إليهن من الصبابة وهي رقةُ الشوق ﴿ وَأَكُن مّنَ الجاهلين ﴾ الذين لا يعملون بما يعلمون لأن من لا جدوى لعلمه فهو والجاهل سواءٌ أو من السفهاء بارتكابِ ما يدعونني إليه من القبائح لأن الحكيمَ لا يفعل القبيح .

﴿ فاستجاب لَهُ رَبُّهُ ﴾

دعاءَه الذين تضمنه قولُه : وإلا تصرف عني كيدهن الخ ، فإن فيه استدعاءً لصرف كيدِهن على أبلغ وجهٍ وألطفِه كما مر ، وفي إسناد الاستجابة إلى الرب مضافاً إليه عليه السلام ما لا يخفى من إظهار اللطف ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ حسب دعائِه وثبّته على العصمة والعفة ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لدعاء المتضرعين إليه ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ قَالَتْ فذلكن ﴾

الفاء فصيحة والخطاب للنسوة والإشارة حسبما يقتضيه الظاهر إلى يوسف عليه السلام بالعنوان الذي وصفته به الآن من الخروج في الحسن والكمال عن المراب البشرية ، والاقتصار على الملكية ، أو بعنوان ما ذكر مع الاخبار وتقطيع الأيدي بسببه أيضاً ، فاسم الإشارة مبتدأ والموصول خبره ، والمعنى إن كان الأمر كما قلتن فذلكن الملك الكريم الخارج في الحسن عن المراتب البشرية ، أو الذي قطعتن أيدين بسببه وأكبرتنه ووصفتنه بما وصفته هو ﴿ الذى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ أي عيرتنني في الافتنان فيه أو بالعنوان الذي وصفنه به فيما سبق بقولهن : امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ، فاسم الإشارة خبر لمبتدأ محذوف دخلت الفاء عليه بعد حذفه ، والموصول صفة اسم الاشارة أي فهو ذلكن العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن وقلتن فهي وفيّ ما قلتن ، فالآن قد علمتن من هو وما قولكن فينا ، وقيل : أرادت هذا ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه على معنى أنكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتنني في الافتنان به ،

والإشارة بما يشار به إلى البعيد مع قرب المشار إليه وحضوره قيل : رفعاً لمنزلته في الحسن واستبعاداً لمحله فيه ، وإشارة إلى أنه لغرابته بعيد أن يوجد مثله .

وقيل : إن يوسف عليه السلام كان في وقت اللوم غير حاضر وهو عند هذا الكلام كان حاضراً فإن جعلت الإشارة إليه باعتبار الزمان الأول كانت على أصلها ، وإن لوحظ الثاني كان قريباً ، وكانت الإشارة بما ذكر لتنزيله لعلو منزلته منزلة البعيد ، واحتمال أنه عليه السلام أبعد عنهن وقت هذا الكلام لئلا يزددن دهشة وفتنة ولذا أشير إليه بذلك بعيد .

وجوز ابن عطية كون الإشارة إلى حب يوسف عليه السلام ، وضمير ﴿ فيه ﴾ عائد إليه ، وجعل الإشارة على هذا إلى غائب على بابها وبعده على ما فيه .

(141/395)

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ وهو إباحة منها ببقية سرها بعد أن أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها وقد أصابهن من قبله ما أصابها أي والله لقد راودته حسبما قلتن وسمعتن ﴿ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ قال ابن عطية : أي طلب العصمة وتمسك بها وعصاني .

وفي " الكشاف " أن الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه

في عصمة وهو مجتهد في الاستزادة منها ، ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطب اه .

وفي " البحر " ((والذي ذكره الصرفيون في ﴿ استعصم ﴾ أنه موافق لاعتصم ، وأما استمسك واستوسع واستجمع فاستفعل فيه أيضاً موافقة لافتعل ، والمعنى امتسك واتسع واجتمع ، وأما استفحل فاستفعل فيه موافقة لتفعل أي تفحل نحو استكبر وتكبر))

فالمعنى فامتنع عما أرادت منه ؛ وبالامتناع فسرت العصمة على إرادة الطلب لأنه هو معناها لغة ، قيل : وعنت بذلك فراره عليه السلام منها فإنه امتنع منها أولاً بالمقال ثم لما لم يفده طلب ما يمنعه منها بالفرار ، وليس المراد بالعصمة ما أودعه الله تعالى في بعض أنبيائه عليهم السلام مما يمنع عن الميل للمعاصي فإنه معنى عرفي لم يكن قبل بل لو كان لم يكن مراداً كما لا يخفى .

وتأكيد الجملة بالقسم مع أن مضمونها من مراودتها له عن نفسه مما تحدث به النسوة لإظهار ابتهاجها بذلك .

وقيل : إنه باعتبار المعطوف وهو الاستعصام كأنها نظمته لقوة الداعي إلى خلافه من كونه عليه السلام في عنفوان الشباب ومزيد اختلاطه معها ومراودتها إياه مع ارتفاع الموانع فيما تظن في سلك ما ينكر ويكذب المخبر به فأكدته لذلك وهو كما ترى .

وفي الآية دليل على أنه عليه السلام لم يصدر منه ما سود به القصاص وجوه الطروس ، وليت السدي لو كان قد سد فاء عن قوله : فاستعصم بعد حل سراويله .

(142/395)

ثم إنها بعد أن اعترفت لهن بما سمعنه وتحدثهن به وأظهرت من إعراضه عنها واستعصامه ما أظهرت ذكرت أنها مستمرة على ما كانت عليه لا يلويها عنها لوم ولا إعراض فقالت ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ ﴾ أي الذي آمره به فيما سيأتي كما لم يفعل فيما مضى - فما - موصولة والجملة بعدها صلة والعائد الهاء ، وقد حذف حرف الجر منه فاتصل بالفعل وهذا أمر شائع مع أمر كقوله :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به . . .

ومفعول (آمر) الأول إما متروك لأن مقصودها لزوم امتثال ما أمرت به مطلقاً كما قيل ، وإما محذوف لدلالة ﴿ يفعل ﴾ عليه وهو ضمير يعود على يوسف أي ما آمره به .

وجوز أن يكون الضمير الموجود هو العائد على يوسف والعائد على الموصول محذوف أي به ، ويعتبر الحذف تدريجاً لاشتراطهم في حذف العائد المجرور بالحرف كونه مجروراً بمثل ما جرّ به الموصول لفظاً ومعنى ومتعلقاً ، وإذا اعتبر التدريج في الحذف يكون المحذوف

منصوباً ، وكذا يقال في أمثال ذلك .

وقال ابن المنير في " تفسيره " : إن هذا الجار مما أنس حذفه فلا يقدر العائد إلا منصوباً مفصولاً كأنه قيل : أمر يوسف إياه لتعذر اتصال ضميرين من جنس واحد ، ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية فالضمير المذكور ليوسف أي لئن لم يفعل أمري غياه ، ومعنى فعل الأمر فعل موجبه ومقتضاه فهو إما على الإسناد المجازي أو تقدير المضاف ، وعبرت عن مراودتها بالأمر إظهار لجريان حكومتها عليه واقتضاءاً للامتثال لأمرها .

﴿ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ بالنون الثقيلة آثرت بناء الفعل للمفعول جرياً على رسم الملوك .

وجوز أن يكون إيهاماً لسرعة ترتب ذلك على عدم امتثاله لأمرها كأنه لا يدخل بينهما فعل فاعل .

﴿ وَلَيَكُونَا ﴾ بالمخففة ﴿ مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أي الأذلاء المهانين ، وهو من صغر كفرح ، ومصدر صغر بفتحتين ، وصغرا بضم فسكون ، وصغار بالفتح ، وهذا في القدر ، وأما في الجثة والجرم فالفعل صغر ككرم ، ومصدره صغر كعنب ، وجعل بعضهم الصغار مصدراً لهذا أيضاً وكذا الصغر بالتحريك ، والمشهور الأول ، وأكدت السجن بالنون الثقيلة قيل :

لتحققه ، وما بعده بالنون الخفيفة لأنه غير متحقق .

وقيل : لأن ذلك الكون من توابع السجن ولوازمه ، فاكتفت في تأكيده بالنون الخفيفة بعد أن أكدت الأول بالثقيلة ، وقرأت فرقة بالتثقيل فيهما وهو مخالف لرسم المصحف لأن النون رسمت فيه بالألف ك ﴿ نسفعاً ﴾ [العلق : 15] على حكم الوقف وهي يوقف عليها بالألف كما في قول الأعشى :

ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا . . .

وذلك في الحقيقة لشبهها بالتنوين لفظاً لكونها نوناً ساكنة مفردة تلحق الآخر ، واللام الداخلة على حرف الشرط موطئة للقسم وجوابه سادٌّ مسدّ الجوابين ، ولا يخفى شدة ما توعدت به كيف وأن للذل تأثيراً عظيماً في نفوس الأحرار وقد يقدمون الموت عليه وعلى ما يجرّ إليه .

قيل : ولم تذكر العذاب الأليم الذي ذكرته في ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سواءاً ﴾ [يوسف : 25] الخ لأنها إذ ذاك كانت في طراوة غيظها ومتنصلة من أنها هي التي راودته فناسب هناك التغليظ بالعقوبة ، وأما هنا فإنها في طماعية ورجاء ، وإقامة عذرها عند النسوة فرقت عليه فتوعدته بالسجن وما هو من فروعه ومستتبعاته .

وقيل : إن قولها [ليكونا من الصاغرين ﴾ إنما أتت به بدل قولها هناك : ﴿ عذاب أليم ﴾ [يوسف : 25] ذله بالقيد أو بالضرب أو بغير ذلك ، لكن يحتمل أنها أرادت بالذلوالعذاب الأليم ما يكون بالضرب بالسياط فقط أو ما يكون به أو بغيره ، أو أرادت بالذل ما يكون بالضرب وبالعذاب الأليم ما يكون به أو بغيره أو بالعكس ، وكيفما كان الأمر فما طلبته هنا أعظمم ما لوحت بطلبه هناك لمكان الواو هنا و (أو) هناك ، ولعلها إنما بالغت في ذلك بمحضر من تلك النسوة لمزيد غيظها بظهور كذبها وصدقه وإصراره على عدم بلّ غليلها ، ولتعلم يوسف عليه السلام أنها ليست في أمرها على خيفة ولا خفية من أحد ، فيضيق عليه الحيل ويعيى به العللوينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها فتدبر .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأن سائلاً يقول : فماذا صنع يوسف حينئذ ؟ فقيل : قال مناجياً لربه عز وجل : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ ﴾ الذي وعدتني بالإلقاء فيه ، وهو اسم للمحبس .

وقرأ عثمان ومولاه طارق وزيد بن علي والزهري وابن أبي اسحق وابن هرمز ويعقوب ﴿ السجن ﴾ بفتح السين على أنه مصدر سجنه أي حبسه ، وهو في القراءتين مبتدأ خبره ما بعده ، وقرأ ﴿ رب ﴾ بالضم و ﴿ السجن ﴾ بكسر السين والجر على الإضافة - فرب - حينئذ مبتدأ والخبر هو الخبر .

والمعنى على ما قيل : لقاء صاحب السجن أو مقاساة أمره ﴿ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ أي آثر عندي لأن فيه مشقة قليلة نافدة إثرها راحات كثيرة أبدية ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ من مواتاتها التي تؤدي إلى الشقاوة والعذاب الأليم .

وصيغة التفضيل ليست على بابها إذ ليس له عليه السلام شائبة محبة لما يدعونه إليه وإنما هو والسجن شران أهونهما وأقربهما إلى الإيثار السجن .

والتعبير عن الإيثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة لها على مطلوبها خوفاً من الحبس ، والاقتصار على السجن لكون الصغار من مستتبعاته على ما قيل .

(145/395)

وقيل : اكتفى عليه السلام بذكر السجن عن ذكره لوفائه بالغرض وهو قطع طمعها عن المساعدة خوفاً مما توعدته به لأنها تظن أن السجن أشد عليه من الصغار بناءاً على زعمها أنه فتاها حقيقة وأن الفتيان لا يشق عليهم ذلك مشقة السجن ، ومتى كان الأشد أحب إليه مما يدعونه إليه كان غير الأشد أحب إليه من باب أولى ، وفيه منع ظاهر .

وإسناد الدعوة إليهن لأنهن خوفنه عن مخالفتها وزيّن له مطاوعتها ، فقد روي أنهنّ قلن له : أطع مولاتك واقض حاجتها لتأمن من عقوبتها فإنها المظلومة وأنت الظالم ، وروي أن كلاً

منهنّ طلبت الخلوة لنصيحته فلما خلت به دعته إلى نفسها ، وعن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أن كل واحدة منهن أرسلت إليه سراً تسأله الزيارة ، فإسناد ذلك إليهنّ لأنهن أيضاً دعونه إلى أنفسهن صريحاً أو إشارة .

وفي أثر ذكره القرطبي أنه عليه السلام لما قال : ﴿ رب السجب أحب إليّ ﴾ الخ أوحى الله تعالى إليه : يا يوسف أنت جنيت على نفسك ولو قلت : العافية أحب إليَّ عوفيت ، ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر ، فقد روى الترمذي عن معاذ بن جبل عنه عليه الصلاة والسلام أنه سمع رجلاً وهو يقول : " اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم : سألت الله تعالى البلاء فاسأله العافية "

(146/395)

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ ﴾ أي وإن لم تدفع ﴿ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ في تحبيب ذلك إلي وتحسينه لدي بأن تثبتني على ما أنا عليه من العصمة والفعة ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي أمل على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية إلى إجابتهن بمواتاتها أو إلى أنفسهن وهو كناية عن مواتاتهن ((وهذا فزع منه عليه السلام إلى ألطاف الله تعالى جرياً على سنن الأنبياء عليهم السلام والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله تعالى وسلب القوى

والقدر عن أنفسهم ومبالغة في استدعاء لطفه سبحانه في صرف كيدهن بإظهار أنه لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث : أدركني وإلا هلكت ، لا انه عليه السلام يطلب الإجبار [و] الإلجاء إلى العصمة والعفة وفي نفسه داعية تدعوه إلى السوء)) كذا قرره المولى أبو السعود وهو معنى لطيف وقد أخذه من كلام الزمخشري لكن قال القطب وغيره : إنه فرار إلى الاعتزال وإشارة إلى جواب استدلال الأشاعرة بهذه الآية على أن العبد لا ينصرف عن المعصية إلا إذا صرفه الله تعالى ، وقد قرر ذلك الإمام بما قرره فليراجع وليتأمل .

وأصل ﴿ إلا ﴾ إن لا فهي مركبة من إن الشرطية ولا النافية كما أشرنا إليه ، وقد أدغمت فيه النون باللام و ﴿ أصب ﴾ من صبا يصبو صبواً وصبوة إذا مال إلى الهوى ، ومنه الصبا للريح المخصوصة لأن النفوس تميل إليها لطيب نسيمها وروحها مضارع مجزوم على أنه جواب الشرط ، والجملة الشرطية عطف على قوله : ﴿ السجن أحب ﴾ وجيء بالأولى اسمية دون الثانية لأن أحببته السجن مما يدعونه إليه كانت ثابتة مستمرة ولا كذلك الصرف المطلوب .

وقرئ ﴿ أصب ﴾ من صبيت صبابة إذا عشقت ، وفي " البحر " الصبابة إفراط الشوق كأن صاحبها ينصب فيما يهوى ، والفعل مضمن معنى الميل أيضاً ولذا عدي بإلى أي أصب مائلاً إليهن ﴿ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي الذين لا يعملون بما يعلمون لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء ، أو من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه من القبائح لأن الحكيم لا يفعل القبيح ، فالجهل بمعنى السفاهة ضد الحكمة لا بمعنى عدم العلم ، ومن ذلك قوله :

ألا لا يجهلن أحد علينا . . .

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾

أي أجاب له على أبلغ وجه دعاءه الذي تضمنه قوله : ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن ﴾ [يوسف : 33] الخ فإنه في قوة قوله : اصرفه عني بل أقوى منه في استدعاء الصرف على ما علمت .

وفي إسناد الاتسجابة إلى الرب مضافاً إلى ضميره عليه السلام ما لا يخفى من إظهار اللطف ، وزاد حسن موقع ذلك افتتاح كلامه عليه السلام بندائه تعالى بعنوان الربوبية ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ حسب دعائه بأن ثبته على العصمة والعفة وحال بينه وبين المعصية ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعاء المتضرعين إليه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وما انطوت

عليه نياتهم وبما يصلحهم لا غيره سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(148/395)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

يقال : " نُسوة " بضم النون ، وهي قراءة الأعمش ، والمفضل والسُّلَمِيّ ، ويقال : ﴿ نسوة ﴾ بكسر النون ، وهي قراءة الباقين ، والمراد جماعة من النساء ، ويجوز التذكير في الفعل المسند إليهنّ كما يجوز التأنيث .

قيل : وهي امرأة ساقي العزيز وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه ، وامرأة حاجبه .

والفتى في كلام العرب : الشاب ، والفتاة : الشابة ، والمراد به هنا : غلامها ، يقال : فتاي وفتاتي أي : غلامي وجاريتي ، وجملة ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ في محل رفع على أنها خبر ثانٍ للمبتدأ ، أو في محل نصب على الحال ، ومعنى ﴿ شغفها حباً ﴾ : غلبها حبه ، وقيل

: دخل حبه في شغافها .

قال أبو عبيدة : وشغاف القلب غلافه وهو جلدة عليه .

وقيل : هو وسط القلب ، وعلى هذا يكون المعنى : دخل حبه إلى شغافها فغلب عليه ،

وأنشد الأصمعي قول الراجز :

يتبعها وهي له شغاف . . . وقرأ جعفر بن محمد ، وابن محيصن ، والحسن " شعفها " بالعين

المهملة .

قال ابن الأعرابي : معناه أجرى حبه عليها .

وقرأ غيرهم بالمعجمة .

قال الجوهري : شغفه الحبّ : أحرق قلبه .

وقال أبو زيد : أمرضه .

قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة : قد ذهب بها كل مذهب ؛ لأن شغاف الجبال :

أعاليها ، وقد شغف بذلك شغفاً بإسكان الغين المعجمة : إذا ولع به ، وأنشد أبو عبيدة

بيت امرىء القيس :

أتقتلني وقد شغفت فؤادها . . . كما شغف المهنوءَة الرجل الطالي

قال : فشبهت لوعة الحب بذلك .

وقرأ الحسن : " قد شغفها " بضم الغين .

قال النحاس : وحكي قد شغفها بكسر الغين ، ولا يعرف ذلك في كلام العرب إلاّ شغفها بفتح الغين .

(149/395)

ويقال : إن الشغاف الجلدة اللاصقة بالكبد التي لا ترى ، وهي الجلدة البيضاء ، فكأنه لصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالكبد ، وجملة ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ مقرّرة لمضمون ما قبلها .

والمعنى : إنا لنراها ، أي : نعلمها في فعلها هذا ، وهو المراودة لفتاها في ضلال عن طريق الرشد والصواب المبين : واضح لا يلتبس على من نظر فيه .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ ﴾ امرأة العزيز ﴿ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أي : بغيبتهنّ إياها ، سميت الغيبة مكراً لاشتراكهما في الإخفاء ، وقيل : أردن أن يتوسلن بذلك إلى رؤية يوسف ، فلهذا سمي قولهنّ مكراً .

وقيل : إنها أسرّت عليهنّ فأفشين سرّها فسمي ذلك مكراً ، ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي : تدعوهنّ إليها لينظرن إلى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأً ﴾ أي : هيأت لهن مجالس يتكئن عليها ، وأعتدت من الاعتداد ، وهو كل ما جعلته عدّة لشيء .

وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير ﴿ متكأ ﴾ مخففاً غير مهموز ، والمتك : هو الأترج بلغة القبط ، ومنه قول الشاعر :

نشرب الإثم بالصواع جهاراً . . . وترى المتك بيننا مستعارا

وقيل : إن ذلك هو لغة أزد شنوءة .

وقيل : حكي ذلك عن الأخفش .

وقال الفراء : إنه ماء الورد .

وقرأ الجمهور ﴿ متكأ ﴾ بالهمز والتشديد ، وأصح ما قيل فيه : إنه المجلس ، وقيل : هو الطعام ، وقيل : المتكأ : كل ما اتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث .

وحكى القتيبي أنه يقال : اتكأنا عند فلان ، أي : أكلنا ، ومنه قول الشاعر :

فظللنا بنعمةٍ واتكأنا . . . وشربنا الحلال من قلله

ويؤيد هذا قوله : ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ فإن ذلك إنما يكون لشيء يأكلنه بعد أن يقطعنه ، والسكين تذكر وتؤنث ، قاله الكسائي والفراء .

قال الجوهري : والغالب عليه التذكير ، والمراد من إعطائها لكل واحدة سكيناً : أن يقطعن ما يحتاج إلى التقطيع من الأطعمة ، ويمكن أنها أرادت بذلك ما سيقع منهنّ من تقطيع أيديهنّ وقالت ليوسف ﴿ اخرج عَلَيْهِنَّ ﴾ أي : في تلك الحالة التي هنّ عليها من الاتكاء والأكل وتقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام .

قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي : عظمنه ، وقيل : أمذين ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما رأين الفحل من فوق قلة . . . صهلن وأكبرن المنيّ المقطرا

وقيل : حضن .

قال الأزهري : "أكبرن" بمعنى حضن ، والهاء للسكت ، يقال : أكبرت المرأة أي : دخلت في الكبر بالحيض ، وقع منهنّ ذلك دهشاً وفزعاً لما شاهدنه من جماله الفائق ، وحسنه الرائق ، ومن ذلك قول الشاعر :

نأتي النساء على أطهارهنّ ولا . . . نأتي النساء إذا أكبرن إكبارا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره ، قالوا : ليس ذلك في كلام العرب .

قال الزجاج : يقال : أكبرنه ولا يقال : حضنه ، فليس الإكبار بمعنى الحيض .

وأجاب الأزهري فقال : يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية .

وقد زيف هذا بأن هاء الوقف تسقط في الوصل .

وقال ابن الأنباري : إن الهاء كناية عن مصدر الفعل أي : أكبرن إكباراً بمعنى حضن حيضاً

﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي : جرحنها ، وليس المراد به القطع الذي تبين منه اليد ، بل المراد به : الخدش والحزّ ، وذلك معروف في اللغة كما قال النحاس ، يقال : قطع يد صاحبه إذا خدشها .

وقيل : المراد بأيديهنّ هنا : أناملهنّ ، وقيل : أكمامهنّ .

والمعنى : أنه لما خرج يوسف عليهنّ أعظمنه ودهشن ، وراعهنّ حسنه حتى اضطربت أيديهنّ فوقع القطع عليها ، وهنّ في شغل عن ذلك ، بما دهمهنّ ، مما تطيش عنده الأحلام ، وتضطرب له الأبدان ، وتزول به العقول " وقلن حاشا لله " كذا قرأ أبو عمرو بن العلاء بإثبات الألف في حاشا .

وقرأ الباقون بحذفها .

وقرأ الحسن " حاش لله " بإسكان الشين .

(151/395)

وروي عنه أنه قرأ " حاش الإله " .

وقرأ ابن مسعود وأبي " حاشا الله " .

قال الزجاج : وأصل الكلمة من الحاشية بمعنى الناحية ، تقول كنت في حاشية فلان : أي

في ناحيته ، فقولك حاشا لزيد من هذا أي : تباعد منه .

وقال أبو عليّ : هو من المحاشاة : وقيل : إن حاش حرف ، وحاشا فعل ، وكلام أهل النحو في هذه الكلمة معروف ، ومعناها هنا التنزيه ، كما تقول : أسى القوم حاشا زيداً ، فمعنى ﴿ حاشا لله ﴾ : براءة لله وتنزيه له .

قوله : ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ إعمال " ما " عمل ليس هي لغة أهل الحجاز ، وبها نزل القرآن كهذه الآية ، وكقوله سبحانه : ﴿ مَّا هُنَّ أمهاتهم ﴾ [المجادلة : 2] .

وأما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس .

وقال الكوفيون : أصله ما هذا ببشر ، فلما حذفت الباء انتصب .

قال أحمد بن يحيى ثعلب : إذا قلت ما زيد بمنطلق ، فموضع الباء موضع نصب ، وهكذا سائر حروف الخفض .

وأما الخليل ، وسيبويه ، وجمهور النحويين فقد أعملوها عمل ليس ، وبه قال البصريون والبحث مقرّر في كتب النحو بشواهده وحججه ، وإنما نفين عنه البشرية ؛ لأنه قد برز في صورة قد لبست من الجمال البديع ما لم يعهد على أحد من البشر ، ولا أبصر المبصرون ما يقاربه في جميع الصور البشرية ، ثم لما نفين عنه البشرية لهذه العلة أثبتن له الملكية وإن كن لا يعرفن الملائكة لكنه قد تقرّر في الطباع أنهم على شكل فوق شكل البشر في الذات والصفات ، وأنهم فائقون في كل شيء ، كما تقرّر أن الشياطين على العكس من ذلك ، ومن

هذا قول الشاعر :

فلست لإنسيٍّ ولكن لملاكٍ . . . تنزل من جوّ السماء يُصوب

وقرأ الحسن "ما هذا بشراء" ، على أن الباء حرف جرّ ، والشين مكسورة : أي ما هذا بعبد يشترى ، وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله : ﴿ إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

(152/395)

واعلم أنه لا يلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن من صور بني آدم ، فإنهنّ لم يقلنه لدليل ، بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طباعهن وذلك ممنوع ، فإن الله سبحانه يقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] .

وظاهر هذا أنه لم يكن شيء مثله من أنواع المخلوقات في حسن تقويمه وكمال صورته .

فما قاله صاحب الكشاف في هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ في عقله من أقوال المعتزلة ، على أن هذه المسألة أعني : مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر ليست من مسائل الدين في ورد ولا صدر ، فما أغنى عباد الله عنها وأحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف .

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ الإشارة إلى يوسف ، والخطاب للنسوة أي : عيرتنني فيه .

قالت لهنّ هذا لما رأت افتتانهنّ بيوسف إظهاراً لعذر نفسها ، ومعنى ﴿ فيه ﴾ أي : في حبه .

وقيل : الإشارة إلى الحب ، والضمير له أيضاً ، والمعنى : فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب ، والأول أولى .

ورجحه ابن جرير .

وأصل اللوم : الوصف بالقبيح .

(153/395)

ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لهنّ ضاق صدرها عن كتم ما تجده في قلبها من حبه ، فأقرّت بذلك وصرّحت بما وقع منها من المراودة له ، فقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَم ﴾ أي : استعف وامتنع مما أريده طالباً لعصمة نفسه عن ذلك ، ثم توعدته إن لم يفعل ما تريده كاشفة لجلباب الحياء ، هاتكة لستر العفاف ، فقالت : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّن الصاغرين

﴾ أي : لئن لم يفعل ما قد أمرته به فيما تقدّم ذكره عند أن غلقت الأبواب ، وقالت : هيت لك ﴿ ليسجنن ﴾ أي : يعتقل في السجن ﴿ وليكونن من الصاغرين ﴾ الأذلاء لما يناله من الإهانة ، ويسلب عنه من النعمة والعزّة في زعمها ، قرىء "ليكوننّ" بالتثقيل والتخفيف ، قيل : والتخفيف أولى لأن النون كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف . وذلك لا يكون إلاّ في الخفيفة ، وأما ﴿ ليسجنن ﴾ فبالتثقيل لا غير .

فلما سمع يوسف مقالها هذا ، وعرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز قال مناجياً لربه سبحانه : ﴿ رَبّ السجن ﴾ أي : يا ربّ السجن الذي أوعدتني هذه به ﴿ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾ من مؤاتاتها والوقوع في المعصية العظيمة التي تذهب بخير الدنيا والآخرة .

قال الزجاج : أي دخول السجن ، فحذف المضاف .

وحكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ "السجن" بفتح السين ، وقرأ كذلك ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن الأعرج ، ويعقوب ، وهو مصدر سجنه سجناً ، وإسناد الدعوة إليهنّ جميعاً ، لأن النسوة رغبنه في مطاوعتها وخوّفنه من مخالفتها ، ثم

جرى على هذا في نسبة الكيد إليهن جميعاً ؛ فقال : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ ﴾ أما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصه الله سبحانه في هذه السورة ، وأما كيد سائر النسوة فهو ما تقدّم من الترغيب له في المطاوعة والتخويف من المخالفة .

وقيل : إنها كانت كل واحدة تخلو به وحدها وتقول له : يا يوسف اقض لي حاجتي فأنا خير لك من امرأة العزيز ، وقيل : إنه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيماً لها ، أو عدولاً عن التصريح إلى التعريض .

والكيد : الاحتيال .

وجزم ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ على أنه جواب الشرط أي : أمل إليهنّ ، من صبا يصبو : إذا مال واشتاق ، ومنه قول الشاعر :

إلى هند صبا قلبي . . . وهند حبها يصبي

﴿ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين ﴾ معطوف على ﴿ أصب ﴾ أي : أكن ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه ، أو ممن يعمل عمل الجهال .

قوله : ﴿ فاستجاب لَهُ رَبُّهُ ﴾ لما قال : ﴿ وإلاّ تصرف عني كيدهنّ ﴾ كان ذلك منه تعرضاً للدعاء ، وكأنه قال : اللهمّ اصرف عني كيدهنّ ، فالاستجابة من الله تعالى له هي بهذا الاعتبار ؛ لأنه لم يتقدّم دعاء صريح منه عليه السلام ، والمعنى : أنه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية ؛ لأنه إذا صرف عنه كيدهنّ لم يقع شيء مما رمنه منه ، ووجه إسناد

الكيد قد تقدّم ، وجملة ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ تعليل لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه أي : إنه هو السميع لدعوات الداعين له ، العليم بأحوال الملتجئين إليه .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا ﴾ غلبها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه ﴿ قَدْ شَغَفَهَا ﴾ قال : قتلها حب يوسف .

الشغف : الحبّ القاتل ، والشعف : حبّ دون ذلك ، والشغاف : حجاب القلب .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ قَدْ شَغَفَهَا ﴾ قال : قد علقها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ قال : بحديثهنّ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ قال : بعملهن ، وكل مكر في القرآن فهو عمل .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في قوله : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ متكأ ﴾ قال : هيأت لهن مجلساً ، وكان سنتهم إذا وضعوا المائدة أعطوا كل إنسان سكيناً يأكل بها ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ ﴾ قال : فلما خرج عليهن يوسف ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ قال :

أعظمنه ونظرن إليه ، وأقبلن يحززن أيديهنّ بالسكاكين وهنّ يحسبن أنهن يقطعن الطعام .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ متكأ ﴾ قال : أعطتهنّ أترنجا ، وأعطت كل واحدة منهنّ سكيناً ، فلما رأين يوسف أكبرنه ، وجعلن يقطعن أيديهنّ وهن يحسبن أنهنّ يقطعن الأترنج .

وأخرج مسدد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عنه : المتكأ : الأترنج ، وكان يقرأها خفيفة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد ﴿ متكأ ﴾ قال : طعاماً .

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر عنه قال : هو الأترنج .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : هو كل شيء يقطع بالسكين .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن الضحاك مثله .

وأخرج أبو الشيخ من طريق عبد العزيز بن الوزير بن الكميت بن زيد قال : حدّثني أبي ، عن جدّي يقول في قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ قال : أمنين .

وأنشد :

ولما رأته الخيل من رأس شاهق . . . صهلن وأمنين المنى المدفقا

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده ابن عباس في قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ قال: لما خرج عليهنّ يوسف حضن من الفرح، وذكر قول الشاعر الذي قدّمنا ذكره:

نأتي النساء لدى أطهارهنّ ولا . . . نأتي النساء إذ أكبرنَ إكباراً

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ قال: أعظمنه ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ قال: حزّاً بالسكين حتى ألقينها ﴿ وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ ﴾ قال: معاذ الله.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ قال: قلن ملك من الملائكة من حسنه.

وأخرج أبو الشيخ عن منبه، عن أبيه قال: مات من النسوة التي قطعن أيديهنّ تسع عشرة امرأة كمداً.

وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم عن أنس، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أعطي يوسف وأمه شطر الحسن"، وقد وردت روايات عن جماعة من السلف في وصف حسن يوسف، والمبالغة في ذلك، ففي بعضها أنه أعطي نصف الحسن، وفي بعضها ثلثه، وفي بعضها ثلثيه.

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ فاستعصم ﴾ قال : امتنع .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ فاستعصم ﴾ قال : فاستعصى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ ﴾ قال : إن لا تكن منك أنت القوي والمنعة لا تكن مني ولا عندي .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ قال : أتبعهنّ .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : أطاوعهنّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(157/395)

وقال القاسمى :

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾

أي : في الافتتان به : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ ﴾ أي : امتنع ، طالباً للعصمة ، مستزيداً منها .

قال الزمخشري : الاستعصام بناء مبالغة ، يدل على الامتناع البليغ ، والتحفظ الشديد ،

كأنه في عصمة ، وهو يجتهد في الاستزادة منها . ونحوه : استمسك ، واستوسع الفتق ، واستجمع الرأي ، واستفحل الخطب . وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام ، لا مزيد عليه ، وبرهان لا شيء أنور منه ، على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو ، مما فسروا به الهم والبرهان . انتهى .

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ أي : ليعاقبن بالسجن والحبس : ﴿ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أي : الأذلاء المهانين .

ولما سمع يوسف تهديدها :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أي : من مواتاتها ؛ لأنه مشقة قليلة تعقبها راحات أبدية . ثم فزع إلى الله تعالى في طلب العصمة بقوله : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ يعني : ما أردن مني : ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي : أمل إلى إجابتهن بمقتضى البشرية : ﴿ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي : بسبب ارتكاب ما يدعونني إليه من القبيح .

قال أبو السعود : هذا فزع منه ، عليه السلام ، إلى ألطاف الله تعالى . جرياً على سنن الأنبياء والصالحين ، في قصر نيل الخيرات ، والنجاة من الشرور ، على جناب الله عز وجل ، وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة ، كقول المستغيث : أدركني وإلا هلكت ، لا أنه يطلب الإجبار

والإلجاء إلى العصمة والعفة ، وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهن . انتهى .

قال القاشاني : وذلك الدعاء هو صورة افتقار القلب الواجب عليه أبداً .

(158/395)

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ أي : أجاب له دعاءه : ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ أي : أيده بالتأييد القدسي ، فصرفه إلى جناب القدس ، ودفع عنه بذلك كيدهن : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ أي : لدعاء المتضرعين إليه : ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ أي : بما يصلحهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿محاسن التأويل حـ 9 صـ 178.179 ﴾

(159/395)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾

والفاء في ﴿ فذلكن ﴾ فاء الفصيحة ، أي إن كان هذا كما زعمتنّ ملكاً فهو الذي بلَغكن خبره فلمتنني فيه .

و ﴿ لمتنني فيه ﴾ (في) للتعليل ، مثل " دخلت امرأةٌ النار في هرة " .

وهنالك مضاف محذوف ، والتقدير : في شأنه أو في محبته .

والإشارة بـ (ذلكن) لتمييز يوسف عليه السّلام ، إذ كُنّ لم يرينه قبلُ .

والتعبير عنه بالموصولية لعدم علم النسوة بشيء من معرّفاته غير تلك الصلة ، وقد باحت لهن بأنها راودته لأنها رأت منهن الافتتان به فعلمت أنهن قد عذرنها .

والظاهر أنهن كن خلائل لها فلم تكتم عنهن أمرها .

واستعصم : مبالغة في عصم نفسه ، فالسين والتاء للمبالغة ، مثل : استمسك واستجمع الرأي واستجاب .

فالمعنى : أنه امتنع امتناع معصوم ، أي جاعلاً المراودة خطيئة عصم نفسه منها .

ولم تزل مصممة على مراودته تصريحاً بفرط حبها إياه ، واستشماخاً بعظمتها ، وأن لا يعصي أمرها ، فأكدت حصول سجنه بنوني التوكيد ، وقد قالت ذلك بمسمع منه إرهاباً له .

وحذف عائد صلة ﴿ ما آمره ﴾ وهو ضمير مجرور بالباء على نزع الخافض مثل : أمرتك الخير . . .

والسجن بفتح السين : قياس مصدر سجَنه ، بمعنى الحبس في مكان محيط لا يخرج منه .

ولم أره في كلامهم بفتح السين إلا في قراءة يعقوب هذه الآية .

والسجن بكسر السين : اسم للبيت الذي يسجن فيه ، كأنهم سموه بصيغة المفعول كالذبح وأرادوا المسجون فيه .

وقد تقدم قولها آنفاً : ﴿ إلا أن يُسجن أو عذابٌ أليم ﴾ [سورة يوسف : 25] .

والصاغر : الذليل .

وتركيب من الصاغرين ﴾ أقوى في معنى الوصف بالصّغار من أن يقال : وليكونن صاغراً ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة البقرة (67) ، وقوله : ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ في آخر سورة براءة (119) .

وإعداد المُتّكأ لهن ، وبوحها بسرّها لهن يدل على أنهن كن من خلائلها .

(160/395)

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾

استئناف بياني ، لأن ما حُكي قبله مقام شدة من شأنه أن يَسأل سامعه عن حال تلقي يوسف عليه السّلام فيه لكلام امرأة العزيز .

وهذا الكلام مناجاة لربه الذي هو شاهدهم ، فالظاهر أنه قال هذا القول في نفسه .

ويحتمل أنّه جهر به في ملئهن تأييساً لهن من أن يفعل ما تأمره به .

وقرأ الجمهور "السّجن" بكسر السين .

وقرأه يعقوب وحده بفتح السين على معنى المصدر ، أي أن السجن أحب إليّ .

وفضّل السجن مع ما فيه من الألم والشدة وضيق النفس على ما يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسنة النفيسة على ما فيه منا للذة ولكن كرهه لفعل الحرام فضل عنده مقاساة السجن .

فلما علم أنه لا مَحيص من أحد الأمرين صار السجن محبوباً إليه باعتبار أنّه يخلصه من الوقوع في الحرام فهي محبة ناشئة عن ملاءمة الفكر ، كمحبة الشجاع الحرب .

فالإخبار بأن السجن أحبُّ إليه مِن الاستمتاع بالمرأة مستعمل في إنشاء الرضى بالسجن في مرضاة الله تعالى والتباعد عن محارمه ، إذ لا فائدة في إخبار من يعلم ما في نفسه فاسم التفضيل على حقيقته ولا داعي إلى تأويله بمسلوب المفاضلة .

وعبّر عما عرضته المرأة بالموصولية لما في الصلة من الإيماء إلى كون المطلوب حالة هي مظنة الطواعية ، لأن تمالىء الناس على طلب الشيء من شأنه أن يوطن نفس المطلوب للفعل ، فأظهر أن تمالئهن على طلبهن منه امتثالَ أمْر المرأة لم يَفُلّ من صارم عزمه على الممانعة ، وجعل ذلك تمهيداً لسؤال العصمة من الوقوع في شَرَك كيدهن ، فانتقل من ذكر الرضى بوعيدها إلى سؤال العصمة من كيدها .

وأسند فعل ﴿ يدعونني ﴾ إلى نون النسوة ، فالواو الذي فيه هو حرف أصلي وليست واو الجماعة ، والنون ليست نون رفع لأنه مبني لاتصاله بنون النسوة ، ووزنه يفعُلْنَ .

(161/395)

وأسند الفعل إلى ضمير جمع النساء مع أنّ التي دعته امرأة واحدة ، إما لأن تلك الدعوة من رغبات صنف النساء فيكون على وزان جمع الضمير في ﴿ كيدهن ﴾ ، وإما لأنّ النسوة اللاّتي جمعتهن امرأة العزيز لما سمعن كلامها تَمالأن على لوم يوسف عليه السّلام وتحريضه على إجابة الداعية ، وتحذيره من وعيدها بالسجن .

وعلى وزان هذا يكون القول في جمع الضمير في ﴿ كيدهن ﴾ [سورة يوسف : 28] أي كيد صنف النساء ، مثل قول العزيز إنّ كيدكنّ عظيم ﴾ ، أي كيد هؤلاء النسوة .

وجملة ﴿ وإلاّ تصرف عني كيدهن ﴾ خبر مستعمل في التخوّف والتوقع التجاء إلى الله وملازمة للأدب نحو ربه بالتبرؤ من الحَول والقوة والخشية من تقلب القلب ومن الفتنة بالميل إلى اللذة الحرام .

فالخبر مستعمل في الدعاء ، ولذلك فرع عنه جملة ﴿ فاستجاب له ربّه ﴾ .

ومعنى ﴿ أصبُ ﴾ أمِلْ .

والصبو: الميل إلى المحبوب.

والجاهلون: سفهاء الأحلام، فالجهل هنا مقابِل الحلم.

والقول في أن مبالغة ﴿ أكن من الجاهلين ﴾ أكثرُ من أكن جاهلاً كالقول في ﴿ وليكوناً من الصاغرين ﴾ [سورة يوسف: 32].

وعطْف جملة فاستجاب ﴾ بفاء التعقيب إشارة إلى أنّ الله عجّل إجابة دعائه الذي تضمنه قوله: ﴿ وإلاّ تصرف عني كيدهن ﴾.

واستجاب: مبالغة في أجاب، كما تقدم في قوله: ﴿ فاستعصم ﴾ [سورة يوسف: 32].

وصَرْف كيدهن عنه صَرْف أثره، وذلك بأن ثبّته على العصمة فلم ينخدع لكيدها ولا لكيد خلائلها في أضيق الأوقات.

وجملة إنّه هو السميع العليم ﴾ في موضع العلة ل ﴿ استجاب ﴾ المعطوف بفاء التعقيب، أي أجاب دعاءه بدون مهلة لأنه سريع الإجابة وعليم بالضمائر الخالصة.

فالسمع مستعمل في إجابة المطلوب، يقال: سمع الله لمن حمده.

وتأكيده بضمير الفصل لتحقيق ذلك المعنى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾

وكأنها وجدت الفرصة لتثبت لنفسها العذر في مراودتها له ، فيوسف باعترافهن قد بلغ من الجمال ما لا يوجد مثله في البشر .

وقولها : ﴿ فذلكن ﴾ [يوسف : 32] ، مُكوَّن من " ذا " إشارة ليوسف ، و " ذِلكُنَّ " خطاب للنسوة ، والإشارة تختلف عن الخطاب .

وهنا موقف أسلوبي ؛ لأن الكلام حين يُنطق به ، أو حين يُكتب لِيُقْرأ ؛ له ألوان متعددة ، فمرة يكون نثراً لا يجمعه وزن أو قافية ؛ وقد يكون نثراً مسجوعاً أو مُرْسَلاً ، ومرة يكون الكلام شعراً محكوماً بوزن وقافية .

والمثل على النثر المسجوع هو قول الحق سبحانه : ﴿ والطور * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ * والبيت المعمور ﴾ [الطور : 1-4] .

وهذا نثر مسجوع بلا تكلُّف ، وأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً ؛ فأذنك تأخذ منه على قدر سُمُوِّ أسلوبه ، لكنك إن انتقلت من أسلوب إلى أسلوب ، فأذنك تلتقط الفارق بين الأسلوبين .

والمثل نجده في الرسالة التي كتبها ابن زيدون مُسْتعطفاً ابن جهور : " هذا العَتْب محمودٌ

عواقبه ، وهذه الغَمْرة نَبْوة ثم تنجلي ، ولن يريبني من سيدي إنْ أبطأ سببه أو تأخر ، غير ضنين ضناه ، فأبطأ الدِّلاء قَبْضاً أملؤها ، وأثقلُ السحابِ مشياً أعقلها ، ومع اليوم غد .

ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله ، ولا عَتْب عليه في اغتفاله .

فإنْ يكُن الفعلُ الذي سَاء واحداً . . . فَأَفْعالُه اللاتي سَرَرْنَ أُلوفُ

وهكذا تشعر انتقال ابن زيدون من النثر إلى الشعر ، ولكنك وأنت تقرأ القرآن ، تنتقل من النثر المُرْسل إلى النثر المسجوع إلى النظم الشعري على وزن بحور الشعر ، فلا تكاد تفرق في الأسلوب بين شعر أو نثر .

والمثل نجده في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي ﴾ [يوسف : 32] .

فهي موزونه من بحر البسيط ، ولكنك لا تشعر أنك انتقلت من نثر إلى شعر .

(163/395)

وكذلك قوله الحق : ﴿ واللهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النور : 46] .

وأيضاً قوله الحق : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم ﴾ [الحجر : 49] .

وتأتي تلك الآيات في مواقع قد يكون ما قبلها نثراً ، مما يدلُّ على أن النغم الذي قاله الله نَظْماً

أو شعراً أو نثراً لا نشاز فيه ، ويكاد أن يكون سَيْلاً واحداً .

وهذا لا يتأتَّى إلا من كلام الحق تبارك وتعالى ، وأنت لن تشعر بهذا الأمر لو لم يُنبِّهك أحد لِمَا في بعض الآيات من وزن شعري .

أما كلام البشر ؛ فأنت إنْ قرأتَ الموزون ؛ ثم انتقلت إلى المنثور ؛ أحسَّتْ أُذنك بهذا الانتقال ؛ ونفس المسألة تشعر بها حين تقرأ المنثور ، ثم تنتقل إلى الموزون ؛ وستشعر أذنك بهذا الانتقال .

﴿ قَالَتْ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ولَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم ﴾ [يوسف : 32] .

قالت ذلك بجراءة مَنْ رأت تأثير رؤيتهن ليوسف ، وأعلنت أنه " استعصم " ، وهذا يعني أنه قد تكلَّف المشقة في حجز نفسه عن الفعل ، وهو قول يثبت أن رجولة يوسف غير ناقصة ، فقد جاهد نفسه لِيكبتَها عن الفعل .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز :

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّن الصاغرين ﴾ [يوسف : 32] .

قالت ذلك وكأنها هي التي تُصدِر الأحكام ، والسامعات لها هُنَّ من أكبرْنَ يوسف لحظة رؤيته ؛ تعلن لهُنَّ أنه إن لم يُطِعْها فيما تريد ؛ فلسوف تسجنه وتُصغِّر من شأنه لإذلاله وإهانته .

أما النِّسْوة اللاتي سَمِعْنَها ؛ فقد طمعتْ كل منهن أن تطرد امرأة العزيز يوسف من القصر ؛ حتى تنفرد أي منهن به .

ولذلك يُورِد لنا الحق سبحانه قول يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ . . . ﴾ .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء قول يوسف بالجمع ، وقال :

﴿ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدعونني إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : 33] .

(164/395)

على الرغم من أن امرأة العزيز هي التي قالت : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ [يوسف : 32] .

ونقول : لا بُدَّ أن يوسف عليه السلام قد رأى منهن إشاراتٍ أو غمزات تُوحي له بألاّ يُعرض نفسه لتلك الورطة التي ستؤدي به إلى السجن ؛ لذلك أدخل يوسف عليه السلام في قوله المفرد امرأة العزيز في جمع النسوة اللاتي جمعتْهُنَّ امرأة العزيز ، وهُنَّ اللاتي طلبْنَ منه غَمْزاً أو إشارة أن يُخرج نفسه من هذا الموقف .

ولعل أكثر من واحدة منهن قد نظرت إليه في محاولة لاستمالته ، وللعيون والانفعالات وقَسَمات الوجه تعبير أبلغ من تعبير العبارات ، وقد تكون إشارات عُيونهن قد دلَّتْ

يوسف على المراد الذي تطلبه كل واحدة منهن ، وفي مثل هذه الاجتماعات تلعب لغة العيون دوراً هاماً .

وها هو ذا أبو دلامة الشاعر وقد جلس في مجلس الخليفة ، وكان أبو دلامة مشهوراً بقدرة كبيرة على الهجاء . وأراد الخليفة أن يداعبه فقال له : عزمتُ عليك إلا هجوتَ واحداً منا .

ودارت عيون في المجلس ، وأشار له كل مَنْ حضر المجلس خُفيةً بأنه سيُجزل له العطاء إن ابتعد أبو دلامة عن هجائه ؛ ولأن أبا دلامة معروفٌ بالطمع ، وخشي أن يضيع منه أيُّ شيء من العطايا ؛ لذلك قام بهجاء نفسه ؛ وقال :

ألا أبلغْ لديْك أبا دلامة . . . فليسَ منَ الكِرامِ ولا كَرامه

إذَا لَبسَ العِمَامة كان قِرداً . . . وخِنْزيراً إذا خلَع العِمَامه

وهكذا خرج من قسم الأمير ؛ وكسب العطايا التي وعده بها من حضروا المجلس .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد يوسف عليه السلام قد جمع امرأة العزيز مع النسوة ؛ فقال :

﴿ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدعونني إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : 33] .

أي : أن السجن أفضل لديه من أن يوافق امرأة العزيز على فعل الفحشاء ، أو يوافق النسوة

على دعوتهن له أن يُحرِّر نفسه من السجن بأن يستجيب لها ، ثم يخرج إليهن من القصر من بعد ذلك .

(165/395)

ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه ، فقال :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين ﴾ [يوسف : 33] .

ولسائل أن يقول : ولماذا لم يَقُلْ يوسف " يا إلهي " وهو يعلم أن مناط التكليف في الألوهية ب " افعل " و " لا تفعل " ؟

نقول : أراد يوسف أن يدعو ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله سبحانه ؛ لأنه هو جَلَّ وعلا مَنْ ربَّاه وتعهّده ؛ وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألاَّ يتخلى عنه في هذا الموقف .

فيوسف عليه السلام يعرف أنه من البشر ؛ وإنْ لم يصرف الله عنه كيدهُنَّ ؛ لاستجاب لغوايتهن ، ولأصبح من الجاهلين الذين لا يلتفون إلى عواقب الأمور .

وعلى الرغم من أن السجن أمر كريه ؛ إلا أنه قد فضَّله على معصية خالقه ، ولأنه لجأ إلى المُربِّي الأول . لتأتي الاستجابة منه سبحانه .

يقول الحق : ﴿ فاستجاب لَهُ . . . ﴾ .

وهكذا تفضَّل عليه الله الذي خلقه وتولّى تربيته وحمايته ، فصرف عنه كيدهُنَّ ؛ الذي تمثل في دَعْوتِهنَّ له أن يستسلم لِمَا دَعته إليه امرأة العزيز ، ثم غُوايتهن له بالتلميح دون التصريح .

تلك الغواية التي تمثلت في قول الملك من بعد ذلك : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سوء . . . ﴾ [يوسف : 51] .

وهكذا أنجاه الله من مَكْر النسوة ؛ وهو جَلَّ وعَلا له مُطْلق السمع ومُطْلق العلم ، ولا يخفى عليه شيء ، ويستجيب لأهل الصدق في الدعاء . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(166/395)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آَمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ (32) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في

قوله ﴿ فاستعصم ﴾ قال: امتنع.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فاستعصم ﴾ قال: فاستعصى.

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33)

أخرج سنيد في تفسيره وابن أبي حاتم، عن ابن عيينة رضي الله عنه قال: إنما يوفق من الدعاء للمقدر، أما ترى يوسف عليه السلام قال ﴿ رب السجن أحب إلي ﴾ ؟..

قال: لما قال اذكرني عند ربك، أتاه جبريل عليه السلام فكشف له عن الصخرة فقال: " ما ترى؟ قال: أرى نملة تقضم. قال: يقول ربك انا لم أنس هذه، أنساك؟ أنا حبستك. أنت قلت ﴿ رب السجن أحب إلي ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن ﴾ قال: إن لا يكن منك أنت القوى والمنعة، لا تكن مني ولا عندي.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أحب إليهن ﴾ يقول: اتبعهن.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أصب إليهن ﴾ قال: أطاوعهن.

وأخرج أبو الشيخ، عن عمرو بن مرة. رضي الله عنه قال: من أتى ذنباً عمداً أو خطأ،

فهو جاهل حين يأتيه . ألا ترى إلى قول يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ ؟ قال : فقد عرف يوسف أن الزنا حرام ، وإن أتاه كان جاهلاً .

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34)

(167/395)

أخرج ابن المنذر عن بكر بن عبيد الله رضي الله عنه قال : دخلت امرأة العزيز على يوسف عليه السلام ، فلما رأته عرفته وقالت : الحمد لله الذي صير العبيد بطاعته ملوكاً ، وجعل الملوك بمعصيته عبيداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور جـ 4 ص ﴾

(168/395)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فذلكن ﴾ : مبتدأ والموصول خبره ، أشارت إليه إشارة البعيد وإن كان

حاضراً تعظيماً له ورفعاً منه لتُظْهِرَ عُذْرَها في شَغَفها .

وجَوَّز ابنُ عطية أن يكونَ " ذلك " [إشارةً إلى] حُبِّ يوسف ، والضميرُ في " فيه " عائدٌ على الحبِّ فيكون " ذلك " إشارة إلى غائب على بابه . قلت : يعني بالغائب البعيدَ ، وإلا فالإِشارةُ لا تكون إلا لحاضر مطلقاً .

قوله : ﴿ مَآ آمُرُهُ ﴾ في " ما " وجهان ، أحدُهما : أنها مصدرية . والثاني : أنها موصولةٌ ، وهي مفعولٌ بها بقوله : " يفعلْ " والهاءُ في " آمُرُه " تحتمل وجهين ، أحدُهما : العَوْد على " ما " الموصولة إذا جعلناها بمعنى الذي . والثاني : العَوْد على يوسف . ولم يُجَوِّزْ الزمخشري عَوْدَها على يوسف إلا إذا جُعِلت " ما " مصدرية " فإنه قال : " فإن قلت : الضمير في " آمُره " راجعٌ إلى الموصول أم إلى يوسف؟ قلت : بل إلى الموصول والمعنى : ما آمُرُ به فحذف الجارّ كما في قوله :

2790 أَمَرْتُكَ الخيرَ . . . .

. . .

ويجوز أن تُجْعَلَ " ما " مصدريةً فيعود على يوسف ، ومعناه : ولَئِنْ لم يفعلْ أمري إياه ، أي : مُوْجِبَ أمري ومقتضاه " . قلت : وعلى هذا فالمفعولُ الأول محذوفٌ تقديره : ما آمُره به وهو ضميرُ يوسف .

والسين في " استعصم " [فيها وجهان ، أحدهما : أنها] ليست على بابها مِن الطلب ، بل استفعل هنا بمعنى افتعل ، فاستعصم واعتصم واحد . وقال الزمخشري : " الاستعصامُ بناءُ مبالغةٍ يدلُّ على الامتناع البليغ والتحفُّظِ الشديدِ ، كأنه في عِصْمةٍ وهو يجتهدُ في الاستزادةِ منها ، ونحو : استمسك واستوسع الفَتْقُ ، استجمع الرأيَ ، واستفحل الخطبُ " ، فردَّ السين إلى بابها من الطلب وهو معنىً حسنٌ ، ولذلك قال ابن عطية : " طلب العِصْمة واستمسك بها وعصاني " .

قال الشيخ : " والذي ذكره التصريفيون في " استعصم " أنه موافقٌ ل " اعتصم " فاستفعل فيه موافقٌ ل " افتعل " ، وهذا أجودُ مِنْ جَعْلِ استفعل فيه للطلب لأنَّ " اعتصم " يدلُّ على وجود اعتصامه ، وطلب العصمة لا يدلُّ على حصولها ، وأمَّا أنه بناءُ مبالغةٍ يَدُلُّ على الاجتهاد في الاستزادة من العصمة فلم يذكر التصريفيون هذا المعنى ل " استفعل " ، وأمَّا استمسك واستوسع واستجمع الرأي فاستفعل فيه لموافقة افْتَعَل ، والمعنى : امتسك واتَّسع واجتمع ، وأمَّا " استفحل الخطبُ " فاستفعل فيه موافِقَةٌ لتفعَّل ، أي : تَفَحَّل الخطب ، نحو استكبر وتكبَّرَ " .

وقرأ العامَّةُ بتخفيف نون " وليَكونَنْ " ، ويَقِفون عليها بالألف إجراءً لها مجرى التنوين ، ولذلك يَحْذفونها بعد ضمةٍ أو كسرةٍ نحو : " هل تقومون " و " هل تقومين " في : " هل تَقُومُن

" و " هل تقومِن " ، والنونُ الموجودةُ في الوقف نونُ الرفعِ رَجَعوا بها عند عدمِ ما يقتضي حَذْفَها ، وقد قَرَّرْتُ ذلك فيما تقدم .

وقرأت فرقةٌ بتشديدها ، وفيها مخالفةٌ لسواد المصحف لكَتْبِها فيه ألفاً ، لأنَّ الوقفَ عليها كذلك كقوله :

2791 وإياكَ والمَيْتاتِ لا تَقْرَبَنَّها . . . ولا تَعْبُدِ الشيطانَ واللَّهَ فاعبدا

أي : فاعبدَنْ فَأُبْدَلها ألفاً ، وهو أحدُ الأقوال في قول امرىء القيس :

(170/395)

2792 قِفا نَبْكِ . . . .

. . . .

وأجرى الوَصْل مجرى الوقفِ .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السجن ﴾ : العامَّة على كسر الباء لأنه مضافٌ لياء المتكلم ، اجتُزِىءَ عنها بالكسرة وهي الفصحى . و " السجن " بكسر السين ورفعِ النون على أنه مبتدأ ، والخبر " أحبُّ " . والسِّجْن الحبس ، والمعنى : دخول السجن .

وقرأ بعضهم : " رَبُّ " بضمِّ الباء وجرِّ النون على أنَّ " ربُّ " مبتدأ و " السجنِ " خفض

بالإِضافة ، و " أَحبُّ " خبرُه ، والمعنى : ملاقاةُ صاحبِ السجن ومقاساته أحبُّ إليّ .

وقرأ عثمان ومولاه طارق وزيد بن علي والزهري وابن أبي إسحاق وابن هرمز ويعقوب بفتح السين ، وفي الباقي كالعامَّة . والسَّجْن مصدر ، أي : الحَبْس أحبُّ إلي ، و " إليَّ " متعلقٌ ب " أحبُّ " وقد تقدَّم أن الفاعل هنا يُجَرُّ ب " إلى " والمفعول باللام ، / وفي الحقيقة ليست هنا أَفْعَل على بابها من التفضيل لأنه لم يُحبَّ ما يدعونه إليه قط ، وإنما هذان شرَّان فآثر أحدَ الشَّرين على الآخر .

قوله : ﴿ أَصْبُ ﴾ قرأ العامة بتخفيف الباء مِنْ صبا يَصْبو أي : رَقَّ شَوْقُه . والصَّبْوة : المَيْلُ إلى الهوى ، ومنه " الصَّبا " لأنَّ النفوس تَصْبو إليها أي : تميل ، لطيب نسيمِها ورَوْحِها يقال : صَبَا يَصْبو صَبَاءً وصُبُوّاً ، وصَبِي يَصبى صَبَاً ، والصِّبا بالكسر اللَّهْوُ واللعب .

وقرأت فرقة " أَصَبُّ " بتشديدها مِنْ صَبَبْتُ صَبابة فأنا صَبٌّ ، والصَّبابَةُ : رِقَّةُ الشوق وإفراطه كأنه لفرط حبه ينصبُّ فيما يَهْواه كما ينصبُّ الماء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 490.494 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾

أَثَّرَتْ رويتُهن له فيهن فَقَطَّعْنَ أيديَهن بدل الثمار ، ولم يشعرن ، وضعفن بذلك عندها فقالت : ألم أقل لكن ؟ أنتن لم تتمالكن حتى قطّعْتنَّ أيديَكُنَّ ! فكيف أصبر وهو في منزلي ؟ ! وفي معناه أنشدوا :

(أنت عند الخصام عدوي . . . .)

ويقال إن امرأة العزيز كانت أَتَم في حديث يوسف – عليه السلام – من النسوة فَأَثَّرَتْ رؤيتُه فيهن ولم تُؤَثِّرْ فيها ، والتَّغَيُّرُ صفة أهل الابتداء في الأمر ، فإذا دام المعنى زال التغيُّر ؛ قال أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – لمن رآه يبكي وهو قريب العهد في الإسلام : هكذا كُنَّا حتى قَسَتْ القلوبَ . أي وقَرَتْ وصَلُبَتْ . وكذا الحريق أول ما يطرح فيها الماء يُسْمَعُ له صوتٌ فإذا تَعَوَّدَ شُرْبَ الماء سَكَنَ فلا يُسْمَعُ له صوت .

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) ﴾

الاختبار مقرونٌ بالاختيار ؛ ولو تمنّى العافية بدل ما كان يُدْعى إليه لعلَّه كان يُعَافَى ، ولكنه لما قال : ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ طُولِبَ بِصِدْق ما قال .

ويقال إن يوسف عليه السلام نطق من عين التوحيد حيث قال : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ فقد علم أن نجاته في أن يَصْرِفَ - سبحانه - البلاءَ عنه لا بتكلُّفه ولا بتجنبه .

ويقال لمَّا آثر يوسفُ - عليه السلام - لحوقَ المشقة في اللهِ على لّذة نفسه آثره عَصْرُهُ حتى قيل له : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف : 91] .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ﴾

(172/395)

لمَّا رجع إلى الله بصدق الاستغاثة تداركه الله سبحانه بوشيكِ الإغاثة . . . كذلك ما اغبرَّ لأحدٍ - في الله تعالى - قدمٌ إلَّا روّحه بكَرَمه وتولَّاه بنعمه - إنه هو ﴿ السَّمِيعُ ﴾ لأقوال السائلين ، ﴿ العَلِيمُ ﴾ بأحوالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 184.183 ﴾

(173/395)

فصل

قال صاحب الميزان فى الآيات السابقة :

﴿ ولما بلغ اشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين وراودته التى هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى احسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ (بيان) تتضمن الآيات قصته (عليه السلام) ايام لبثه في بيت العزيز وقد ابتلي فيها بحب امرأة العزيز له ومراودتها اياه عن نفسه ومني بتعلق نساء المدينة به ومراودتهن اياه عن نفسه وكان ذلك بلوى وقد ظهر خلال ذلك من عفة نفسه وطهارة ذيله أمر عجيب

ومن

تولهه في محبة ربه ما هو اعجب .

قوله تعالى : " ولما بلغ اشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين " بلوغ الاشد ان يعمر الإنسان ما تشتد به قوى بدنه وتتقوى به اركانه بذهاب آثار الصباوة ويأخذ ذلك من ثمانية عشر من عمره إلى سن الكهولة التى عندها يكمل العقل ويتم الرشد .

والظاهر ان المراد به الانتهاء إلى اول سن الشباب دون التوسط فيه أو الانتهاء إلى آخره كالاربعين والدليل عليه قوله تعالى في موسى (عليه السلام) : " ولما بلغ اشده واستوى آتيناه حكما وعلما " القصص : 14 حيث دل على التوسط فيه بقوله : " استوى " وقوله : " حتى إذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعنى ان اشكر نعمتك " الآية الاحقاف

: 15 فلو كان بلوغ الاشد هو بلوغ الاربعين لم تكن حاجة إلى تكرار قوله بلغ .

فلا مجال لما ذكره بعضهم ان المراد ببلوغ الاشد بلوغ الثلاثين أو الثلاث والثلاثين وكذا ما قاله آخرون ان المراد به بلوغ الاربعين وهو سن الاربعين على ان من المضحك ان تصبر امرأة العزيز عن يوسف مدى عنفوان شبابه وريعان عمره حتى إذا بلغ الاربعين من عمره واشرف على الشيخوخة تعلقت به وراودته عن نفسه .

(174/395)

وقوله : " آتيناه حكما " الحكم هو القول الفصل وازالة الشك والريب من الأمور القابلة للاختلاف على ما يتحصل من اللغة ولازمه اصابة النظر في عامة المعارف الإنسانية الراجعة إلى المبدأ والمعاد والاخلاق النفسانية والشرائع والاداب المرتبطة بالمجتمع البشرى .

وبالنظر إلى قوله (عليه السلام) لصاحبيه في السجن " ان الحكم الا لله " الآية : 40 من السورة وقوله بعد " قضي الأمر الذي فيه تستفتيان " الآية : 41 من السورة يعلم ان هذا الحكم الذى اوتيه كان هو حكم الله فكان حكمه حكم الله وهذا هو الذى سأله إبراهيم (عليه السلام) من ربه إذ قال : " رب هب لى حكما والحقني بالصالحين " الشعراء : 83 .

وقوله " وعلما " وهذا العلم المذكور المنسوب إلى ايتائه تعالى كيفما كان واى مقدار كان علم لا يخالطه جهل كما ان الحكم المذكور معه حكم لا يخالطه هوى نفساني ولا تسويل شيطاني كيف ؟ والذى آتاهما هو الله سبحانه وقد قال تعالى : " والله غالب على امره الآية 21 من السورة وقال : " ان الله بالغ امره " الطلاق : 3 فما آتاه من الحكم لا يخالطه تزلزل الريب والشك وما يؤتيه من العلم لا يكون جهلا البتة .

ثم من المعلوم ان هذه المواهب الإلهية ليست بأعمال جزافية ولا لغوا أو عبثا منه تعالى فالنفوس التى تؤتى هذا الحكم والعلم لا تستوى هي والنفوس الخاطئة في حكمها المنغمرة في جهلها وقد قال تعالى : " والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا " الأعراف : 58 والى ذلك الإشارة بقوله : " وكذلك نجزى المحسنين " حيث يدل على ان هذا الحكم والعلم اللذين آتاهما الله اياه لم يكونا موهبتين ابتدائيتين لا مستدعى لهما اصلا بل هما من قبيل الجزاء جزاه الله بهما لكونه من المحسنين .

وليس من البعيد ان يستفاد من قوله : " وكذلك نجزى المحسنين ان الله تعالى يجزى كل محسن على اختلاف صفات الاحسان شيئا من الحكم والعلم يناسب موقعه في الاحسان

وقد قال تعالى : " يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به " الحديد : 28 وقال تعالى : " أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس " الأنعام : 122 .

وهذا العلم المذكور في الآية يتضمن ما وعد الله سبحانه تعليمه ليوسف من تأويل الاحاديث فانه واقع بين قوله تعالى في الآيات السابقة : " وليعلمه من تأويل الاحاديث " وقوله حكاية عن يوسف في قوله لصاحبيه في السجن : " ذلكما مما علمني ربى " فافهم ذلك .

قوله تعالى : " وراودته التى هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربى احسن مثواى انه لا يفلح الظالمون " قال في المفردات الرود هو التردد في طلب الشئ برفق ومنه الرائد لطالب الكلاء قال والإرادة منقولة من راد يرود إذا سعى في طلب شئ قال : والمراودة ان تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد أو ترود غير ما يرود وراودت فلانا عن كذا قال تعالى : " هي راودتني عن نفسي " وقال : " تراود فتاها عن نفسه " أي تصرفه عن رأيه وعلى ذلك قوله : " ولقد راودته عن نفسه " " سنراود عنه اباه " انتهى .

وفي المجمع المراودة المطالبة بأمر بالرفق واللين ليعمل به ومنه المرود لأنه يعمل به ولا يقال في المطالبة بدين راوده واصله من راد يرود إذا طلب المرعى وفى

المثل الرائد لا يكذب اهله والتغليق اطباق الباب بما يعسر فتحه وانما شدد ذلك لتكثير الاغلاق أو للمبالغة في الايثاق انتهى .

وهيت لك اسم فعل بمعنى هلم ومعاذ الله أي اعوذ بالله معاذا فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله .

والآية الكريمة : " وراودته التى هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربى احسن مثواى انه لا يفلح الظالمون " على ما فيها من الايجاز تنبئ عن اجمال قصة المراودة غيران التدبر في القيود المأخوذة فيها والسياق الذى هي واقعة فيه وسائر ما يلوح من اطراف قصته الموردة في السورة يجلى عن حقيقة الحال ويكشف القناع عن تفصيل ما خبئ من الأمر .

يوسف هو ذا طفل صغير حولته ايدى المقادير إلى بيت العزيز عليه سيما العبيد ولعله لم يسأل الا عن اسمه ولم يتكلم إلا أن قال اسمى يوسف أو قيل عنه ذلك ولم يلح من لهجته الا انه كان قد نشأ بين العبريين ولم يسأل عن بيته ونسبه فليس للعبيد بيوت ولم يكن من المعهود ان يحفظ للارقاء انساب وهو ساكت مختوم على لسانه لا يتكلم بشئ وكم من حديث بين

جوانحه فلم يعرف نسبه الا بعد سنين من ذلك حينما قال لصاحبيه في السجن " واتبعت ملة آبائى إبراهيم واسحاق ويعقوب " ولا كشف عما في سره من توحيد العبودية لله بين اولئك الوثنيين الا ما ذكره لامرأة العزيز حين راودته عن نفسه بقوله " معاذ الله انه ربى " الخ

.

هو اليوم حليف الصمت والسكوت لكن قلبه ملئ بما يشاهده من لطيف صنع الله به فهو على ذكر مما بثه إليه ابوه يعقوب النبي من حقيقة التوحيد ومعنى العبودية ثم ما بشر به من الرؤيا ان الله سيخلصه لنفسه ويلحقه بآبائه إبراهيم واسحاق ويعقوب وليس ينسى ما فعله به اخوته ثم ما وعده به ربه في غيابة الجب حين ما انقطع عن كافة الأسباب : انه تحت الولاية الإلهية والتربية الربوبية معني بأمره وسينبؤ اخوته بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . فكان (عليه السلام) مملوء الحس مستغرق النفس في مشاهدة الطاف ربه الخفية يرى نفسه تحت

ولاية الله محبورا بصنائعه الجميلة لا يرد إلا على خير ولا يواجه الا جميلا .

وهذا هو الذى هون عليه ما نزل به من النوائب وتواتر عليه من المحن والبلايا فصبر عليها على ما بها من المرارة فلم يشك ولم يجزع ولم يضل الطريق وقد ذكر ذلك لاخوته حين عرفهم نفسه بقوله : " انه من يتق ويصبر فأن الله لا يضيع أجر المحسنين " الآية 90 من السورة فلم يزل يوسف (عليه السلام) تنجذب نفسه إلى جميل صنائع ربه ويمعن قلبه في لطيف الاشارات إليه ويزداد كل يوم حبا بما يجده من شواهد الولاية ويشاهد أن ربه هو القائم على كل نفس بما كسبت وهو على كل شئ شهيد حتى تمكنت المحبة الإلهية منه واستقر الوله والهيمان في سره فكان همه في ربه لا يشغله عنه شاغل ولا يصرفه عنه صارف ولا طرفة عين وهذا بمكان من الوضوح لمن تدبر فيما تحكي عنه السورة من المحاورات كقوله : " معاذ الله انه ربي " وقوله : " ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ " وقوله : " إن الحكم الا لله " وقوله : " انت وليي في الدنيا والآخرة وغير ذلك كما سنبين ان شاء الله تعالى .

فهذا ما عند يوسف (عليه السلام) فقد كان شبحا ما وراءه الا محبة الهية أنسته نفسه وشغلته عن كل شئ وصورة معناها انها خالصة اخلصها الله لنفسه لم يشاركه فيه احد .

ولم يظهر للعزيز منه اول يوم إذ حل في بيته الا انه غلام صغير عبرى مملوك له غير ان قوله : " لامراته اكرمي مثواه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا " يكشف انه شاهد منه وقارا وتمكينا وتفرس فيه عظمة وكبرياء نفسانية اطمعته في ان ينتفع به أو يلحقه بنفسه بالتبنى على ما في يوسف من عجيب الجمال والحسن .

امرأةالعزيز : امرأةالعزيز وهى عزيزةمصر وصاها العزيز يوسف ان تكرم مثواه واعلمها ان له فيه اربة وامنية فلم تزل تجتهد في اكرام يوسف وتحسن مثواه وتهتم بأمره لا كما يهتم في أمر رقيق مملوك بل كما يعنى بامر جوهر كريم أو قطعة كبد وتحبه لبديع جماله وغزير كماله وتزداد كلما مضت الايام حبا إلى حب حتى إذا بلغ الحلم واستوى على مستوى

الرجال لم تملك نفسها دون ان تعشقه وتذل على ما لها من مناعة الملك والعزة وعصمة العفة والخدارة تجاه هواه القاطن بسرها الاخذ بمجامع قلبها .

وقد كان يوسف يلازمها في العشرة ولا يفارق بينها من جانب وكانت عزيزة لا يثنى امرها ولا ترد عزيمتها وكانت فيما تزعم سيده يوسف وهو عبدها المملوك لا يسعه إلا أن يطيعها وينقاد لها ولبيوت الملوك والاعزة ان تحتال لشتى مقاصدها ومآربها بانواع الحيل والمكايد فإن عامة الأسباب وان عزت وامتنعت ميسرة لها وكانت العزيزة ذات جمال وزينة فان حريم الملوك لا تدخلها كل شوهاء دميمة ولا تحل بها الا غوان ذوات حسن فتانات .

والعادة تحكم ان هذه الأسباب وقد اجتمعت على عزيزة مصر اسعرت في سرها كل لهيب واججت كل نار حتى استغرقت في حب يوسف وتولهت في غرامه واشتغلت به

عن كل شئ وقد احاط بقلبها من كل جانب هو اول منطقها إذا تكلمت وفي ضميرها إذا سكتت فلا هم لها الا يوسف ولا بغية لها الا فيه قد شغفها حبا وليوسف الجمال الذى يأخذ بمجامع القلوب فكيف إذا امتلات به عين محب واله وادام النظر إليه مهيم ذو غرام .

يوسف وأمراة العزيز لم تزل عزيزة مصر تعد نفسها وتمنيها بوصال يوسف والظفر بما تبتغيه منه وتلاطفه في عشرته وتشفع ذلك بما لربات الحسن والزينة من الغنج والدلال لتصطاده بما عندها كما اصطاده بما عنده ولعل الذى كانت تشاهده من صبر يوسف وسكوته كان يغرها فيما ترومه ويغريها عليه .

حتى إذا تاقت نفسها له وبلغت بها وأعيتها المذاهب خلت به في بيتها وقد غلقت الابواب فلم يبق فيه الا هي ويوسف وهى لا تشك ان سيطيعها يوسف في امرها ولا يمتنع عليها لما كانت ولا تزال تراه بالسمع والطاعة وتشاهد ان الاوضاع والأحوال الحاضرة تقضى بفوزها ونيلها ما تريده منه .

فتى واله في حبه وفتاة تائقة في غرامها اجتمعا في بيت خالية اما هي فمشغوفة بحب يوسف تريد ان تصرفه عن نفسه إلى نفسها وتتوسل إلى ذلك بتغليق الابواب ومراودته عن

نفسه والاعتماد على ما لها من العزة والملك حيث تدعوه إلى نفسها بلفظ الأمر " هيت لك " لتقهره على ما تريده منه .

واما هو فقد استغرق في حب ربه واخلص وصفى ذلك نفسه فلم يترك لشئ في قلبه محلا غير حبيبه فهو في خلوة مع ربه وحضرة منه يشاهد فيها جماله وجلاله وقد طارت الأسباب الكونية على ما لها من ظاهر التأثير من نظره فهو على خلافها لا يتبجح بالاسباب ولا يركن إلى الاعضاد .

ترى انها تتوسل عليه بالاسباب بتغليق الابواب والمراودة والأمر بقولها هيت لك واما هو فقد قابلها بقوله معاذ الله فلم يجبها بتهديد ولم يقل انى اخاف العزيز أو لا اخونه أو انى من بيت النبوة والطهارة أو ان عفتى أو عصمتي تمنعني من الفحشاء ولم يقل انى ارجو ثواب الله أو اخاف عذابه إلى غير ذلك ولو كان قلبه متعلقا بشئ من الأسباب الظاهرة لذكره وبدا به عند مفاجأة الشدة ونزول الاضطرار على ما هو مقتضى طبع الإنسان .

بل استمسك بعروة التوحيد واجاب بالعياذ بالله فحسب ولم يكن في قلبه احد سوى ربه ولا تعدى بصره اياه إلى غيره فهذا هو التوحيد الخالص الذى هدته إليه المحبة الإلهية واولهه في ربه فانساه الأسباب كلها حتى انساه نفسه فلم يقل انى اعوذ منك بالله أو ما يؤدى معناه

وانما قال معاذ الله وكم من الفرق بين قوله هذا وبين قول مريم للروح لما تمثل لها بشرا سويا : " انى اعوذ بالرحمان منك ان كنت تقيا " مريم : 18 .

(180/395)

واما قوله لها ثانيا " انه ربى احسن مثواى انه لا يفلح الظالمون " فإنه يوضح كلمة التوحيد الذى افاده بقوله " معاذ الله " ويجليه يقول ان الذى اشاهده ان اكرامك مثواى عن قول العزيز لك اكرمي مثواه فعل من ربى واحسان منه الي فربى احسن مثواى وان انتسب اليك ذلك بوجه فهو الذى يجب علي ان اعوذ به والوذ إليه وانما اعوذ به لأن اجابتك فيما تسألين وارتكاب هذه المعصية ظلم ولا يفلح الظالمون فلا سبيل إلى ارتكابه .

فقد افاد (عليه السلام) بقوله " انه ربى احسن مثواى " اولا : انه موحد لا يرى شرك الوثنية فليس ممن يتخذ اربابا من دون الله كما تقول به الوثنية يتخذون مع الله اربابا أخرى ينسبون إليهم تدبير العالم بل هو يقول بان الله هو ربه لا رب سواه .

وثانيا : انه ليس ممن يوحد الله سبحانه قولا ويشرك به فعلا باعطاء الاستقلال لهذه الأسباب الظاهرة تؤثر ما تؤثر باذن الله بل هو يرى ما ينسب من جميل الاثار إلى الأسباب فعلا جميلا لله سبحانه في عين هذا الانتساب فيما تراه امرأة العزيز انها هي التى اكرمت

مثواه عن وصية العزيز وانها وبعلها ربان له يتوليان امره يرى هو ان الله سبحانه هو الذى احسن مثواه وانه ربه الذى يتولى تدبير امره فعليه ان يعوذ به .

وثالثا : انه انما تعوذ بالله مما تدعوه إليه لأنه ظلم لا يفلح المتلبس به ولا يهتدى إلى سعادته ولا يتمكن في حضرة الأمن عند ربه كما قال تعالى حكاية عن جده إبراهيم (عليه السلام) : " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون " الأنعام : 82 .

(181/395)

ورابعا انه مربوب أي مملوك مدبر لله سبحانه ليس له من الأمر شئ ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله له أو احب ان ياتي به ولذلك لم يرد ما سألته منه بصريح اللفظ بل بالكناية عنه بقوله " معاذ الله " الخ فلم يقل لا أفعل ما تأمرينني به ولم يقل لا ارتكب كذا ولم يقل اعوذ بالله منك وما يشابه ذلك حذرا من دعوى الحول والقوة واشفاقا من وسمة الشرك والجهالة اللهم الا ما في قوله " انه ربى احسن مثواى " حيث اشار فيه إلى نفسه مرتين وليس فيه الا تثبيت المربوبية وتأكيد الذلة والحاجة ولهذه العلة بعينها بدل الأكرام احسانا فاتى حذاء قول العزيز اكرمي مثواه بقوله احسن مثواى لما في الأكرام من الاشعار باحترام الشخصية وتعظيمها .

وبالجملة الواقعة وان كانت مراجعة ومغالبة بين امرأة العزيز ويوسف (عليه السلام) بحسب ظاهر الحال فهى كانت تنازعا بين حب وهيمان الهى وعشق وغرام حيوانى يتشاجران في يوسف كل منهما يجذبه إلى نفسه وكانت كلمة الله هي العليا فاخذته الجذبة السماوية الإلهية ودافعت عنه المحبة الإلهية والله غالب على امره .

فقوله تعالى : " وراودته التى هو في بيتها عن نفسه " يدل على أصل المراودة والاتيان بالوصف اعني كونه في بيتها للدلالة على ان الاوضاع والأحوال كانت لها عليه وان الأمر كان عليه شديدا وكذا قوله وغلقت الابواب حيث عبر بالتغليق وهو يدل على المبالغة وعلق الغلق بالابواب وهو جمع محلى باللام وكذا قوله " وقالت هيت لك " حيث عبر بالأمر المولوي الدال على اعمال المولوية والسيادة مع اشعاره بأنها هيأت له

من نفسها ما ليس بينه وبين طلبتها الا مجرد اقبال من يوسف ولا بين يوسف على ما هيأت من العلل والشرائط ونظمتها بزعمها وبين الاقبال عليها شئ حائل غير ان الله كان اقرب إلى يوسف من نفسه ومن العزيزة امرأة العزيز ولله سبحانه العزة جميعا .

وقوله " قال معاذ الله انه ربى احسن مثواى " إلى آخر الآية جواب ليوسف يقابل به مسألتها بالعياذ بالله يقول اعوذ بالله معاذا مما تدعينني إليه لأنه ربى الذى تولى امرى واحسن مثواى وجعلني بذلك سعيدا مفلحا ولو اقترفت هذا الظلم لتغربت به عن الفلاح وخرجت به من تحت ولايته .

وقد راعى (عليه السلام) في كلامه هذا ادب العبودية كله كما تقدم وقد اتى اولا بلفظة الجلالة ثم بصفة الربوبية ليدل به على انه لا يعبد ربا غير الله ملة آبائه إبراهيم واسحاق ويعقوب .

واحتمل عدة من المفسرين ان يكون الضمير في قوله انه " ربى احسن مثواى " للشأن والمراد ان ربى ومولاى وهو العزيز بناء على ظاهر الأمر فقد اشترى يوسف من السيارة احسن مثواى حيث امركم بإكرام مثواى ولو اجبتك على ما تسألين لكان ذلك خيانة له وما كنت لاخونه .

ونظير الوجه قول بعضهم ان الضمير عائد إلى العزيز وهو اسم ان وخبرها قوله ربى وقوله احسن مثواى خبر بعد خبر .

وفيه انه لو كان كذلك لكان الانسب أن يقال انه لا يفلح الخائنون كما قال للرسول وهو في السجن : " ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب وان الله لا يهدى كيد الخائنين " الآية : 52 من السورة ولم يقل انى لم اظلمه بالغيب .

على انه (عليه السلام) لم يكن ليعد العزيز ربا لنفسه وهو حر غير مملوك له وان كان الناس يزعمون ذلك بناء على الظاهر وقد قال لاحد صاحبيه في السجن: " اذكرني عند ربك " الآية: 42 من السورة وقال لرسول الملك " ارجع إلى ربك " الآية: 51 من السورة ولم يعبر عن الملك بلفظ ربى على عادتهم في ذكر الملوك وقال أيضا لرسول الملك: " اسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن ايديهن ان ربى بكيدهن عليم " حيث يأخذ الله سبحانه ربا لنفسه قبال ما ياخذ الملك ربا للرسول.

ويؤيد ما ذكرنا أيضا قوله في الآية التالية: " لولا ان راى برهان ربه ".

قوله تعالى: " ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين " التدبر البالغ في اطراف القصة وامعان النظر فيما محتف به الجهات والأسباب والشرائط العاملة فيها يعطى ان نجاة يوسف منها لم تكن الا امرا خارقا للعادة وواقعة هي اشبه بالرؤيا منها باليقظة.

فقد كان يوسف (عليه السلام) رجلا ومن غريزة الرجال الميل إلى النساء وكان شابا بالغا أشده وذلك أوان غليان الشهوة وثوران الشبق وكان ذا جمال بديع يدهش العقول ويسلب

الألباب والجمال والملاحة يدعو إلى الهوى والترح وكان مستغرقا في النعمة وهنئ العيش محبورا بمثوى كريم وذلك من اقوى اسباب التهوس والاتراف وكانت الملكة فتاة فائقة الجمال وكذلك تكون حرم الملوك والعظماء .

وكانت لا محالة متزينة بما يأخذ بمجامع كل قلب وهى عزيزة مصر وهى عاشقة والهة تتوق إليها النفوس وتتوق نفسها إليه وكانت لها سوابق الأكرام والاحسان والأنعام ليوسف وذلك كله مما يقطع اللسان ويصمت الإنسان وقد تعرضت له ودعته إلى نفسها والصبر مع التعرض اصعب وقد راودته هذه الفاتنة واتت فيها بما في مقدرتها من الغنج والدلال وقد الحت عليه فجذبته إلى نفسها حتى قدت قميصه والصبر معها اصعب وأشق وكانت عزيزة لا يرد امرها ولا يثنى رأيها وهى ربته خصه بها العزيز وكانا في قصر زاه من قصور الملوك ذى المناظر الرائقة التى تبهر العيون وتدعو إلى كل عيش هنئ .

وكانا في خلوة وقد غلقت الابواب وارخت الستور وكان لا يأمن الشر مع الامتناع وكان في امن من ظهور الأمر وانهتاك الستر لانها كانت عزيزة بيدها اسباب الستر والتعمية ولم تكن هذه المخالطة فائتة لمرة بل كان مفتاحا لعيش هنئ طويل وكان يمكن ليوسف ان يجعل هذه المخالطة والمعاشقة وسيلة يتوسل بها إلى كثير من آمال الحياة وامانيها كالملك والعزة والمال

.

فهذه اسباب وامور هائلة لو توجهت إلى جبل لهدته أو اقبلت على صخرة صماء لا ذابتها ولم يكن هناك مما يتوهم مانعا الا الخوف من ظهور الأمر أو مناعة نسب يوسف أو قبح الخيانة للعزيز .

اما الخوف من ظهور الأمر فقد مر انه كان في أمن منه ولو كان بدا من ذلك شئ لكان في وسع العزيزة ان تؤوله تأويلا كما فعلت فيما ظهر من أمر مراودتها فكادت حتى ارضت نفس العزيز ارضاء فلم يؤاخذها بشئ وقلبت العقوبة ليوسف حتى سجن .

واما مناعة النسب فلو كانت مانعة لمنعت اخوة يوسف عما هو اعظم من الزنا واشد اثما فانهم كانوا ابناء إبراهيم واسحاق ويعقوب امثال يوسف فلم تمنعهم شرافة النسب من ان يهموا بقتله ويلقوه في غيابت الجب ويبيعوه من السيارة بيع العبيد ويثكلوا فيه اباهم يعقوب النبي (عليه السلام) فبكى حتى ابيضت عيناه .

واما قبح الخيانة وحرمتها فهو من القوانين الاجتماعية والقوانين الاجتماعية انما تؤثر اثرها بما تستتبعه من التبعة على تقدير المخالفة وذلك انما يتم فيما إذا كان الإنسان تحت سلطة القوة المجرية والحكومة العادلة واما لو اغفلت القوة المجرية أو فسقت فأهملت أو خفى الجرم عن نظرها أو خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذ لشئ من هذه القوانين كما سنتكلم فيه عن قريب .

فلم يكن عند يوسف (عليه السلام) ما يدفع به عن نفسه ويظهر به على هذه الأسباب القوية التى كانت لها عليه الا أصل التوحيد وهو الإيمان بالله وان شئت فقل المحبة الإلهية التى ملات وجوده وشغلت قلبه فلم تترك لغيرها محلا ولا موضع اصبع فهذا هو ما يفيده التدبر في القصة ولنرجع إلى متن الآية .

فقوله تعالى : " ولقد همت به وهم بها لو لا ان رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين " لا ريب ان الآية تشير إلى وجه نجاة يوسف من هذه الغائلة والسياق يعطى ان المراد بصرف السوء والفحشاء عنه انجاؤه مما اريد منه وسئل بالمراودة والخلوة وان المشار إليه بقوله كذلك هو ما يشتمل عليه قوله : " ان رأى برهان ربه " .

فيؤل معنى قوله : "كذلك لنصرف " إلى آخر الآية إلى انه (عليه السلام) لما كان من عبادنا المخلصين صرفنا عنه السوء والفحشاء بما رأى من برهان ربه فرؤية برهان ربه هي السبب الذى صرف الله سبحانه به السوء والفحشاء عن يوسف (عليه السلام) .

ولازم ذلك ان يكون الجزاء المقدر لقوله : " لولا ان رأى برهان ربه " هو ارتكاب السوء والفحشاء ولازم ذلك ان يكون لولا ان رأى الخ قيدا لقوله وهم بها وذلك يقتضى ان يكون المراد بهمه بها نظير همها به هو القصد إلى المعصية ويكون حينئذ همه بها داخلا تحت الشرط والمعنى انه لولا ان رأى برهان ربه لهم بها واوشك ان يرتكب فان لولا وان كانت ملحقة بأدوات الشرط وقد منع النحاة تقدم جزائها عليها قياسا على ان الشرطية إلا أن قوله وهم بها ليس جزاء لها بل هو مقسم به بالعطف على قوله : " ولقد همت به " وهو في معنى الجزاء استغنى به عن ذكر الجزاء فهو كقولنا والله لاضربنه ان يضربني والمعنى والله ان يضربني اضربه ومعنى الآية والله لقد همت به والله لولا ان راى برهان ربه لهم بها واوشك ان يقع في المعصية وانما قلنا اوشك ان يقع ولم نقل وقع لأن الهم كما قيل لا يستعمل الا فيما كان مقرونا بالمانع كقوله تعالى : " وهموا بما لم ينالوا " التوبة : 74 وقوله : " إذ همت طائفتان منكم ان تفشلا " آل عمران : 122 وقول صخر : أهم بأمر الحزم لا استطيعه * وقد حيل بين العير والنزوان فلولا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهم والاقتراب دون الارتكاب والاقتراف وقد اشار سبحانه إلى ذلك بقوله : " لنصرف عنه السوء والفحشاء " ولم يقل لنصرفه من السوء والفحشاء فتدبر فيه .

ومن هنا يظهر ان الانسب ان يكون المراد بالسوء هو الهم بها والميل إليها كما ان المراد

بالفحشاء اقتراف الفاحشة وهى الزنا فهو (عليه السلام) لم يفعل ولم يكد ولولا ما اراه الله من البرهان لهم وكاد ان يفعل وهذا المعنى هو الذى يؤيده ما قدمناه من الاعتبار والتأمل في الأسباب والعوامل المجتمعة في هذا الحين القاضية لها عليه .

(187/395)

فقوله تعالى : " ولقد همت به " اللام فيه للقسم والمعنى واقسم لقد قصدت يوسف بما تريده منه ولا يكون الهم الا بان تشفع الإرادة بشئ من العمل وقوله : " وهم بها لولا ان رأى برهان ربه " معطوف على مدخول لام القسم من الجملة السابقة والمعنى اقسم لولا رؤيته برهان ربه لهم بها وكاد ان يجيبها لما تريده منه .

والبرهان هو السلطان ويراد به السبب المفيد لليقين لتسلطه على القلوب كالمعجزة قال تعالى : " فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملاه " القصص : 32 وقال : " يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم " النساء : 174 وقال : " أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين " النمل : 64 وهو الحجة اليقينية التى تجلى الحق ولا تدع ريبا لمرتاب .

والذى رآه يوسف (عليه السلام) من برهان ربه وان لم يوضحه كلامه تعالى كل الايضاح لكنه على أي حال كان سببا من اسباب اليقين لا يجامع الجهل والضلال بتاتا ويدل على انه

كان من قبيل العلم قول يوسف (عليه السلام) فيما يناجى ربه كما سيأتي : " والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين " الآية : 33 من السورة ويدل على انه ليس من العلم المتعارف بحسن الأفعال وقبحها ومصلحتها ومفسدتها ان هذا النوع من العلم قد يجامع الضلال والمعصية وهو ظاهر قال تعالى : " أفرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم " الجاثية : 23 وقال : " وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم " النمل : 14 .

فالبرهان الذى اراه به وهو الذى يريه الله عباده المخلصين نوع من العلم المكشوف واليقين المشهود تطيعه النفس الإنسانية طاعة لا تميل معها إلى معصية اصلا وسنورد فيه بعض الكلام ان شاء الله تعالى .

(188/395)

وقوله : "كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء " اللام في لنصرف للغاية أو التعليل والمال واحد وكذلك متعلق بقوله لنصرف والاشارة إلى ما ذكر من رؤية برهان ربه والسوء هو الذى يسوء صدوره من العبد بما هو عبد وهو مطلق المعصية اوالهم بها والفحشاء هو ارتكاب الأعمال الشنيعة كالزنا وقد تقدم ان ظاهر السياق انطباق السوء والفحشاء على الزنا والهم به .

والمعنى الغاية أو السبب في ان رأى برهان ربه هي ان نصرف عنه الفحشاء والهم بها .

ومن لطيف الإشارة في الآية ما في قوله : " لنصرف عنه السوء والفحشاء " حيث اخذ السوء والفحشاء مصروفين عنه لا هو مصروفا عنهما لما في الثاني من الدلالة على انه كان فيه ما يقتضى اقترافهما المحوج إلى صرفه عن ذلك وهو ينافى شهادته تعالى بأنه من عباده المخلصين وهم الذين اخلصهم الله لنفسه فلا يشاركه فيهم شئ فلا يطيعون غيره من تسويل شيطان أو تزيين نفس أو أي داع يدعو من دون الله سبحانه .

وقوله : " انه من عبادنا المخلصين " في مقام التعليل لقوله كذلك لنصرف الخ والمعنى عاملنا يوسف كذلك لأنه من عبادنا المخلصين وهم يعاملون هذه المعاملة .

ويظهر من الآية ان من شأن المخلصين من عباد الله ان يروا برهان ربهم وان الله سبحانه يصرف كل سوء وفحشاء عنهم فلا يقترفون معصية ولا يهمون بها بما يريهم الله من برهانه وهذه هي العصمة الإلهية .

ويظهر أيضا ان هذا البرهان سبب علمي يقيني لكن لا من العلوم المتعارفة المعهودة لنا .

وللمفسرين من العامة والخاصة في تفسير الآية اقوال مختلفة : 1 - منها : ما ذكره بعضهم ونسب إلى ابن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة والحسن وغيرهم ان المعنى انها همت بالفاحشة وانه هم بمثله لولا ان راى برهان ربه لفعل .

وقد وصفوا همه (عليه السلام) بما يجل عنه مقام النبوة ويتنزه عنه ساحة الصديق فذكروا انه قصدها بالفاحشة ودنا منها حتى حل السراويل وجلس منها مجلس الخاتن فأدركه برهان من ربه ابطل الشهوة ونجاه من الهلكة وذكروا في وصف هذا البرهان امورا كثيرة مختلفة .

قال الغزالي في تفسيره لهذه السورة اختلفوا فيه يعني في البرهان ما هو ؟ قال بعضهم ان طائرا وقع على كتفه فقال في اذنه لا تفعله فان فعلت سقطت من درجة الأنبياء وقيل انه رأى يعقوب عاضا على اصبعه وهو يقول يا يوسف أما تراني وقال الحسن البصري رآها وهى تغطى شيئا فقال لها ما تصنعين ؟ قالت اغطى وجه صنمي لئلا يرانى فقال يوسف انت تستحيين الجماد الذى لا يعقل ولا يرى فانا اولى ان استحيى ممن يرانى ويعلم سرى وعلانيتي .

قال ارباب اللسان انه نودي في سره يا يوسف اسمك مكتوب في ديوان الأنبياء وتريد ان تفعل فعل السفهاء وقيل رأى كفا قد خرج من الحائط مكتوب عليها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا وقيل انفرج سقف البيت فرأى صورة حسنة تقول يا رسول العصمة لا تفعل فانك معصوم وقيل نكس رأسه فرأى على الأرض مكتوبا ومن يعمل سوء يجز به وقيل اتاه ملك ومسح جناحيه على ظهره فخرجت شهوته من اصابع رجليه وقيل

رأى الملك في البيت وهو يقول ألست ههنا وقيل وقع بينهما حجاب فلا يرى احد صاحبه وقيل رأى جارية من جواري الجنة فتحير من حسنها فقال لها لمن انت قالت لمن لا يزنى . وقيل جاز عليه طائر فناداه يا يوسف لا تعجل فانها لك حلال ولك خلقت وقيل رأى ذلك الجب الذى كان بحذائه عليه ملك قائم يقول يا يوسف أنسيت هذا الجب وقيل رأى زليخا على صورة قبيحة فهرب منها وقيل رأى شخصا فقال يا يوسف انظر إلى يمينك فنظر فرأى ثعبانا اعظم ما يكون فقال الزانى في بطني غدا فهرب منه انتهى .

(190/395)

ومما قيل فيه انه تمثل له يعقوب فضرب في صدره ضربة خرجت بها شهوته من اطراف انامله رواه في الدر المنثور عن مجاهد وعكرمة وابن جبير إلى غير ذلك من الوجوه المختلفة التى اوردها في التفسير بالمأثور .

والجواب عنه مضافا إلى انه (عليه السلام) كان نبيا ذا عصمة الهية تحفظه من المعصية وقد تقدم اثبات ذلك ان الذى اورده الله تعالى من كرائم صفاته واخلاص عبوديته لا يبقى شكا في انه اطهر ساحة وارفع منزلة من ان ينسب إليه امثال هذه الالواث فقد ذكر تعالى انه من عباده الذين اخلصهم لنفسه واجتباهم لعبوديته وآتاهم حكما وعلما وعلمه من

تأويل الاحاديث وانه كان عبدا متقيا صبورا في الله غير خائن ولا ظالم ولا جاهل وكان من المحسنين وقد الحقه بآبائه الصالحين إبراهيم واسحاق ويعقوب .

وكيف يستقيم هذه المقامات العالية والدرجات الرفيعة الا لانسان طاهر في وجدانه منزه في اركانه صالح في اعماله مستقيم في احواله .

واما من ذهب لوجهه في معصية الله وهم بما هو من افحش الاثم في دين الله وهو زنا ذات البعل وخيانة من احسن إليه ابلغ الاحسان في عرضه واصر عليه حتى حل التكة وجلس منها مجلس الرجل من المرأة فأتته لصرفه آية بعد آية فلم ينصرف وازدجر بنداء بعد نداء من كل جانب فلم يستحى ولم يكف حتى ضرب في صدره ضربة خرجت بها شهوته من رؤس اصابعه وشاهد ثعبانا اعظم ما يكون من عن يمينه فذعر منه وهرب من هول ما رأى فمثله احرى به ان لا يسمى انسانا فضلا ان يتكئ على اريكة النبوة والرسالة ويأتمنه الله على وحيه ويسلم إليه مفاتيح دينه ويؤتيه حكمه وعلمه ويلحقه بمثل إبراهيم الخليل لكن هؤلاء المتعلقين بهذه الاقاويل المختلفة والاسرائيليات والاثار الموضوعة إذ يتهمون جده إبراهيم (عليه السلام) في زوجته سارة لا يبالون ان يتهموا نجله (عليه السلام) في زوجة غيره .

قال في الكشاف وقد فسر هم يوسف بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع وبانه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الاربع وهى مستلقية على قفاها وفسر البرهان بأنه سمع صوتا اياك واياها فلم يكترث له فسمعه ثانيا فلم يعمل به فسمع ثالثا اعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على انملته وقيل ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من انامله .

وقيل كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولدا الا يوسف فانه ولد له احد عشر ولدا من اجل ما نقص من شهوته حين هم وقيل صيح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنى قعد لا ريش له وقيل بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها " وان عليكم لحافظين كراما كاتبين " فلم ينصرف ثم راى فيها " ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا " فلم ينته ثم رأى فيها " واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله " فلم ينجع فيه فقال الله لجبرئيل ادرك عبدى قبل ان يصيب الخطيئة فانحط جبريل وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وانت مكتوب في ديوان الأنبياء ؟ وقيل رأى تمثال العزيز وقيل قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت استحيى منه ان يرانا فقال يوسف استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا استحيي من السميع البصير العليم بذات الصدور ؟ وهذا ونحوه مما يورده اهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وانبيائه واهل العدل والتوحيد ليسوا من

مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل .

ولو وجدت من يوسف (عليه السلام) ادنى زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره كما

نعيت على آدم زلته وعلى داود وعلى نوح وعلى ايوب وعلى ذى النون وذكرت توبتهم واستغفارهم كيف وقد اثنى عليه وسمى مخلصا ؟ فعلم بالقطع انه ثبت في ذلك المقام الدحض وانه جاهد نفسه مجاهدة اولى القوة والعزم ناظرا في دليل التحريم ووجه القبح حتى استحق من الله الثناء فيما انزل من كتب الاولين ثم في القرآن الذى هو حجة على سائر كتبه ومصدق لها ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صدق في الاخرين كما جعله لجده الخليل إبراهيم (عليه السلام) وليقتدى به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الازار والتثبت في مواقع العثار .

فأخزى الله اولئك في ايرادهم ما يؤدى إلى ان يكون انزال الله السورة التى هي احسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدى بنبى من انبياء الله في القعود بين شعب الزانية وفي حل تكته للوقوع عليها وفي ان ينهاه ربه ثلاث مرات ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن وبالتوبيخ العظيم وبالوعيد الشديد وبالتشبية بالطائر الذى سقط ريشه حين

سفد غير اناه وهو جاثم في مربضه لا يتحلحل ولا ينتهى ولا ينتبه حتى يتداركه الله بجبريل وباجباره ولو ان اوقح الزناة واشطرهم واحدهم حدقة اجلحهم وجها لقى بأدنى ما لقى به مما ذكروا لما بقى له عرق ينبض ولا عضو يتحرك فيا له من مذهب ما افحشه ومن ضلال ما ابينه انتهى .

(193/395)

وما احسن ما قال بعض اهل التفسير في ذم اصحاب هذا القول انهم يتهمونه (عليه السلام) في هذه الواقعة وقد شهد ببراءته وطهارته كل من لها تعلق ما بها فالله سبحانه يشهد بذلك إذ يقول " انه من عبادنا المخلصين " والشاهد الذى شهد له من اهلها إذ قال ان كان قميصه قد من قبل إلى آخر الآيتين والعزيز إذ قال لامراته انه من كيدكن وامرأة العزيز إذ قالت الان حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين والنسوة إذ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ويوسف ينفى ذلك عن نفسه وقد سماه الله صديقا إذ قال انى لم اخنه بالغيب .

وعمدة السبب في تعاطيهم هذا القول امران احدهما افراطهم في الركون إلى الاثار وقبول الحديث كيفما كان وان خالف

صريح العقل ومحكم الكتاب فلعبت باحلامهم الاسرائيليات وما يلحق بها من الاخبار الموضوعة المدسوسة وانستهم كل حق وحقيقة وصرفتهم عن المعارف الحقيقية .

ولذلك تراهم لا يرون لمعارف الدين محتدا وراء الحس ولا للمقامات المعنوية الإنسانية كالنبوة والولاية والعصمة والاخلاص اصلا الا الوضع والاعتبار نظائر المقامات الوهمية الاعتبارية الدائرة في مجتمع الإنسان الاعتباري التى ليست لها وراء التسمية والمواضعة حقيقة تتكئ عليها وتطمئن إليها .

فيقيسون نفوس الأنبياء الكرام على سائر النفوس العامية التى تنقلب بين الاهواء وبلغت بها الجهالة والخساسة فان ارتقت فانما ترتقى إلى منزلة التقوى ورجاء الثواب وخوف العقاب تصيب كثيرا وتخطئ وان لحقت بها عصمة الهية في مورد أو موارد فانما هي قوة حاجزة بين الإنسان والمعصية لا تعمل عملها الا بابطال سائر الأسباب والقوى التى جهز بها الإنسان والجاء الإنسان واضطراره إلى فعل الجميل واقتراف الحسنة ولا جمال لفعل ولا حسن لعمل ولا مدح لانسان مع الالجاء والاضطرار وللكلام تتمة سنوردها في بحث يختص به .

الثاني ظاهر قوله تعالى : " ولقد همت به وهم بها لو لا ان رأى برهان ربه " بناء على ما ذكره النحاة ان جزاء لولا لا يتقدم عليها قياسا على ان الشرطية وعلى هذا يصير قوله وهم بها جملة تامة غير متعلقة بالشرط وجواب لولا قولنا لفعل أو ما يشبه ذلك والتقدير ولقد همت امرأة العزيز بيوسف وهم يوسف بها لولا ان رأى برهان ربه لفعل وهو المطلوب .

وقد عرفت فساد ذلك وان الجملتين معا اعني قوله ولقد همت به وقوله وهم بها قسميتان وان جزاء لولا في معنى الجملة الثانية حذف لدلالتها عليه والكلام على تقدير واقسم لقد همت به واقسم لولا ان رأى برهان ربه لهم بها نظير قولهم والله لاضربنه ان ضربني .

على ان الذى قدروه من المعنى كان الانسب به أن يقال ولولا ان رأى برهان ربه بالوصل ولا وجه ظاهرا من جهة السياق يوجه به الفصل .

2 - ومن الاقوال في الآية ان المراد بهمه (عليه السلام) ميل الطبع وانتزاع الغريزة قال في الكشاف فان قلت كيف جاز على نبى الله ان يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها ؟ قلت المراد ان نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلا يشبه الهم به والقصد إليه وكما تقتضيه صورة تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويرده بالنظر إلى برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم . ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته ولو كان همه كهمها

عن عزيمة لما مدحه الله بانه من عباده المخلصين ويجوز ان يريد بقوله وهم بها وشارف ان يهم بها كما يقول الرجل قتلته لو لم اخف الله يريد مشارفة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه .

(195/395)

ثم قال فان قلت لم جعلت جواب لولا محذوفا يدل عليه هم بها وهلا جعلته هو الجواب مقدما قلت لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها من قبل انه في حكم الشرط وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض واما حذف بعضها إذا دل الدليل عليه فجائز .

فان قلت فلم جعلت لولا متعلقة بهم بها وحده ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله ولقد همت به وهم بها لأن الهم لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني فلابد من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون الا باثنين معا فكأنه قيل ولقد هما بالمخالطة لولا ان منع مانع احدهما .

قلت نعم ما قلت ولكن الله سبحانه قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال ولقد همت به وهم بها فكان اغفاله الغاء له فوجب ان يكون التقدير ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها على ان المراد بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه وتوصله إلى ما هو حظه من قضاء شهوته منها لولا ان راى برهان ربه فترك التوصل إلى

حظه من الشهوة فلذلك كانت لو لا حقيقة بان تعلق بهم بها وحده انتهى .

ولخصه البيضاوى في تفسيره حيث قال المراد بهمه (عليه السلام) ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والاجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشارفة الهم كقولك قتلته لو لم اخف الله انتهى .

ورد هذا القول بأنه مخالف لما ثبت في اللغة من معنى الهم وهو القصد إلى الفعل مع مقارنته ببعض الأعمال الكاشفة عن ذلك من حركة إلى الفعل المراد أو شروع في بعض مقدماته كمن يريد ضرب رجل فيقوم إليه واما مجرد ميل الطبع ومنازعة القوة الشهوانية فليس يسمى هما البتة والهم بمعناه اللغوى مذموم لا ينبغى صدوره من نبى كريم والطبع وان كان غير مذموم لخروجه عن تحت التكليف لكنه لا يسمى هما .

اقول هذا انما يصلح جوابا لقولهم ان المراد بهمه (عليه السلام) ميل الطبع ومنازعة الشهوة واما تجويزه ان يكون المراد بالهم الاشراف على الهم فلا بل هو قول على حدة في معنى الآية وهو ان يفرق بين الهمين المذكورين فالمراد بهمها القصد العمدي إلى المخالطة وبهمه اشرافه (

عليه السلام) على الهم بها من دون تحقق للهم بالفعل والقرينة عليه هو وصفه تعالى اياه بما فيه مدح بالغ ولو كان همه حقيقيا بالقصد العمدي إلى مخالطتها كان فعلا مذموما لا يتعلق به مدح اصلا فمن هنا يعلم ان المراد بهمه (عليه السلام) اشرافه على الهم لا الهم بالفعل .

والجواب انه معنى مجازى لا يصار إليه الا مع عدم امكان الحمل على المعنى الحقيقي وقد تقدم انه بمكان من الامكان .

على ان الذى ذكروه في معنى رؤيته برهان ربه وان المراد بها الرجوع إلى الحجة العقلية القاضية بوجوب الانتهاء عن النواهي الشرعية والمحارم الإلهية معنى بعيد من اللفظ إذ الرؤية لا تستعمل الا في الابصار الحسي أو المشاهدة القلبية التى هي بمنزلتها أو اظهر منها واما مجرد التفكر العقلي فلا يسمى رؤية البتة .

3 - ومن الاقوال في الآية ان المراد بالهمين مختلف فهمها هو قصدها مخالطته وهمه بها هو قصده ان يضربها للدفاع عن نفسه والدليل على التفرقة بين الهمين شهادته تعالى على انه من عباده المخلصين وقيام الحجة عقلا على عصمة الأنبياء (عليه السلام) قال في مجمع البيان ان الهم في ظاهر الآية قد تعلق بما لا يصح تعلق العزم به على الحقيقة لأنه قال ولقد همت به وهم بها فعلق الهم بهما وذاتاهما لا يجوز ان يراد ويعزم عليهما لأن الموجود الباقي لا يصح ان يراد ويعزم عليه فإذا حملنا الهم في الآية على العزم فلا بد

من تقدير أمر محذوف يتعلق العزم به وقد امكن ان نعلق عزمه بغير القبيح ونجعله متنا ولا لضربها أو دفعها عن نفسه فكأنه قال ولقد همت بالفاحشة منه وارادت ذلك وهم يوسف بضربها ودفعها عن نفسه كما يقال هممت بفلان أي بضربه وايقاع مكروه به .

وعلى هذا فيكون معنى رؤية البرهان ان الله سبحانه اراه برهانا على انه ان اقدم على ما هم به اهلكه اهلها أو قتلوه أو ادعت عليه المراودة على القبيح وقذفته بانه دعاها إليه وضربها لامتناعها منه فاخبر سبحانه انه صرف عنه السوء والفحشاء اللذين هما القتل وظن اقتراف الفاحشة به ويكون التقدير لو لا ان رأى برهان ربه لفعل ذلك ويكون جواب لو لا محذوفا كما حذف في قوله تعالى : " ولو لا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤف رحيم " انتهى موضع الحاجة .

والجواب انه قول لا بأس به لكنه مبنى على التفرقة بين الهمين وهو خلاف الظاهر لا يصار إليه الا إذا لم يمكن حملهما على معنى واحد وقد عرفت امكان ذلك .

على ان لازمه ان يكون المراد بالبرهان الذى رآه ما يدل على انه ان ضربها استتبع ذلك هلاكه أو مصيبة أخرى تصيبه ويكون المراد بالسوء والفحشاء القتل والتهمة كما اشار إليه في المجمع وهذا خلاف ما يستفاد من السياق قطعا .

واما ما ذكره في المجمع من عدم جواز ارادة العزم على المخالطة من الهمين معا ومحصله ان

الهم انما يتعلق بمن لا ينقاد للعازم الهام فيما يريده وإذا فرض تحقق الهم من احد الطرفين لم يصح تحققه مع ذلك من الطرف الاخر إذ لا معنى لتعلق الإرادة بالمريد والطلب من الطالب وبعث من هو مبعوث بالفعل .

(198/395)

ففيه انه لا مانع من تحقق الهم من الطرفين إذا فرض تحققهما دفعة واحدة من دون سبق ولحوق أو قارن ذلك عناية زائدة كانسانين يريدان الاقتراب والاجتماع فربما يثبت احدهما ويتحرك إليه الاخر وربما يتحركان ويقتربان ويتدليان معا وجسمين يريدان الانجذاب والاتصال فربما يجذب احدهما وينجذب إليه الاخر وربما يتجاذبان ويتدانيان .

4 - ومن الاقوال في الآية ان المراد بالهم في الموردين معا الهم بالضرب والدفاع فهى لما راودته وردها بالامتناع والاستنكاف ثارت منها داعية الغضب والانتقام وهاج في باطنها الوجد الممزوج بالسخط والاسف فهمت به لتضربه على تمرده من امتثال ما امرته به وهو لما شاهد ذلك استعد للدفاع عن نفسه وضربها ان مستها بسوء غير ان ضربه اياها ومقاومته لدفعها لما كان ربما يتهمه في انه راودها عن نفسها ودعاها إلى الفحشاء اراه الله سبحانه بفضله برهانا فهم منه ذلك وألهم ان يختار للدفاع عن نفسه سبيل الفرار فقصد

باب البيت ليفتحه ويخرج من عندها فعقبته فاستبقا الباب .

ولا مساغ لحمل الهم على الهم بالمخالطة اما في قوله ولقد همت به فلان الهم لا يكون الا بفعل للهام والوقاع ليس من افعال المرأة فتهم به وانما نصيبها منه قبولها لمن يطلبه منها بتمكينه منه هذا اولا .

على ان يوسف لم يطلب من امرأة العزيز هذا الفعل فيسمى قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه منه هما لها فان نصوص الآيات قبل هذه الآية وبعدها تبرئه من ذلك بل من وسائله ومقدماته أيضا وهذا ثانيا .

على ان ذلك لو وقع لكان الواجب في التعبير عنه أن يقال ولقد هم بها وهمت به لأن الأول هو المقدم في الطبع والوضع وهو الهم الحقيقي والهم الثاني متوقف عليه لا يتحقق بدونه وهذا ثالثا .

على انه قد علم من القصة ان هذه المراة كانت عازمة على ما طلبته طلبا جازما مصرة عليه ليس عندها ادنى تردد فيه ولا مانع منه يعارض المقتضى له فاذن لا يصح أن يقال انها همت به مطلقا حتى لو فرض جدلا انه كان قبولا لطلبه ومواتاة له إذ الهم مقاربة الفعل

المتردد فيه واما الهم بمعنى قصدها له بالضرب تأديبا فيصح ذلك فيه بأهون تقدير وهذا رابعا انتهى ملخصا مما اورده صاحب المنار في تفسيره .

والجواب انه يشارك القول السابق في معنى همه بها فيرد عليه ما اوردناه على سابقه واما ما يختص به ان المراد بهمها به قصدها اياه بضرب ونحوه فمما لا دليل عليه اصلا واما مجرد اتفاق ذلك في بعض نظائر القصة فليس يوجب حمل الكلام عليه من غير قرينة تدل على ذلك .

واما ما ذكره في استبعاد ان يراد من قوله ولقد همت به الهم على المخالطة أو عدم صحته فوجوه سخيفة جدا فان من المعلوم ان هذه المخالطة تتألف عادة من حركات وسكنات شأن المرأة فيها الفعل دون الانفعال والعمل دون القبول فلو همت به

بضم أو ما يناظره ليلتهب بذلك ما خمدت من نار غريزته الكامنة وتلجئه إلى اجابتها فيما تريده منه صح أن يقال انها همت به أي بمخالطته وليس من الواجب ان يفسر همها به بقصدها خصوص ما هي قابلة له حتى لا يصح به اطلاق الهم عليه .

واما ما ذكره اخيرا انها كانت جازمة غير مترددة فلا يصح ان يراد بهمها الهم على ما تريده من المخالطة ففيه انها انما كانت جازمة في ارادتها منه وعزيمتها عليه واما في تحقق الفعل ووقوعه على ما قدرته فلا كيف ؟ وقد شاهدت من يوسف الامتناع والاباء عن

مراودتها وانما همت به لما قابلها بالاستنكاف ولا جزم لها مع ذلك باجابته لها ومطاوعته لما ارادته منه وهو ظاهر .

(200/395)

---

5 - ومن الاقوال في الآية حمل الكلام على التقديم والتاخير ويكون التقدير ولقد همت به ولولا ان رأى برهان ربه لهم بها ولما راى برهان ربه لم يهم بها ويجرى ذلك مجرى قولهم قد كنت هلكت لولا انى تداركتك وقد كنت قتلت لولا انى خلصتك والمعنى لولا تداركي لهلكت ولو تخليصي لقتلت وان كان لم يقع هلاك وقتل ومثله قول الشاعر فلا تدعني قومي ليوم كريهة * لئن لم اعجل ضربة أو اعجل وفى القرآن الكريم ان كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها " نسبه في المجمع إلى أبى مسلم المفسر .

والجواب انه ان كان المراد به ما ربما يقوله المفسرون ان في القرآن تقديما وتأخيرا فانما ذلك فيما يكون هناك جمل متعددة بعضها متقدمة على بعضها بالطبع فأهمل النظم واكتفى بمجرد العد من غير ترتيب لعناية تعلقت به كما قيل في قوله تعالى : " وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب " هود : 71 انه من التقديم والتأخير وان التقدير فبشرناها فضحكت واما قوله : " وهم بها لولا ان رأى برهان ربه "

فالمعنى يختلف فيه بالتقديم والتاخير فهو إذا قدم كان هما مطلقا من غير تقييد لعدم جواز كونه جوابا للولا مقدما عليها على ما ذكروه وإذا اخر كان هما مقيدا بالشرط .

وان كان المراد انه جواب للولا مقدم عليها فالنحاة لا يجوزونه قياسا على ان الشرطية ويؤولون ما سمع من ذلك اللهم إلا أن يكون ذلك خلافا منه لهم لعدم الدليل على هذا القياس ولا موجب لتأويل ما ورد في الكلام مما ظاهره ذلك 6 - ومن الاقوال في الايه ما ذكروا انها اول ما همت به في منامها وهم بها لأنه رآها في منامه فعند ذلك علم انها له فلذلك هم بها اورده الغزالي في تفسيره قال وهذا وجه حسن لأن الأنبياء كانوا معصومين لا يقصدون المعاصي انتهى .

والجواب انه ان اريد به ان قوله وهم بها حكاية ما رآه يوسف (عليه السلام) في المنام فهو تحكم لا دليل عليه من جهة اللفظ البتة وان اريد به انه (عليه السلام) رآها في المنام وهم بها فيه واعتقد من هناك انها له وخاصة بناء على ان رؤيا الأنبياء وحي ثم هم بها في اليقظة في مجلس المراودة بالمضي على اعتقاده فيها فادركته رؤية برهان من ربه يبين له انه قد اخطأ في زعمه ففيه اثبات خطأ الأنبياء في تلقى الوحى وليس ذلك باقل محذورا من

تجويز اقدامهم على المعاصي .

على ان الآية السابقة وقد عد فيها المخالطة ظلما لا يفلح صاحبه واستعاذ بالله منه تناقض ذلك فكيف يزعم انها له وهو يعده ظلما ويستعيذ منه بالله سبحانه ؟ فهذه عمدة الاقوال في الآية وهى مع ما قدمناه اولا ترتقى إلى سبعة أو ثمانية وقد علمت ان معنى رؤية البرهان يختلف بحسب اختلاف الاقوال فمن قائل انه سبب يقيني شاهده يوسف (عليه السلام) ومن قائل انه الآيات والامور التى ظهرت له فردعته عن اقتراف الخطيئة ومن قائل انه العلم بحرمة الزنا وعذابه ومن قائل انه ملكة العفة ومن قائل انه العصمة والطهارة وقد عرفت ما هو الحق منها وسنعود إليه في كلام خاص به بعد تمام البحث عن الآيات ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى : " واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر " الاستباق هو التسابق وقد تقدم والقد والقط هو الشق إلا أن القد هو الشق طولا والقط هو الشق عرضا والدبر والقبل كالخلف والامام .

والسياق يعطى ان استباقها كان لغرضين مختلفين فكان يوسف (عليه السلام) يريد ان يفتحه ويتخلص منها بالخروج من البيت وامرأة العزيز كانت تريد ان تسبقه إليه فتمنعه من الفتح والخروج لعلها تفوز بما تريده منه وان يوسف سبقها الى الباب فاجتذبته من قميصه من الوراء فقدته ولم ينقد الا لأنه كان في حال الهرب مبتعدا منها والا لم ينشق طولا .

وقوله : " وألفيا سيدها لدى الباب " الالفاء الوجدان يقال الفيته كذا أي وجدت والمراد بسيدها زوجها قيل انه جرى على عرف مصر وقد كانت النساء بمصر يلقبن زوجهن بالسيد وهو مستمر إلى هذا الزمان .

قوله تعالى : " قالت ما جزاء من اراد باهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب اليم " لما ألفيا سيدها لدى الباب انقلب مجلس المراودة إلى موقف التحقيق وانما اوجد هذا الموقف وجود العزيز لدى الباب وحضورهما والهيئة هذه الهيئة عنده ويتكفل ما جرى في هذا الموقف قوله : " وألفيا سيدها لدى الباب " إلى تمام خمس آيات .

فبدأت امرأة العزيز تشكو يوسف إليه وتسأله ان يجازيه فذكرت انه اراد بها سوء وعليه ان يسجنه أو يعذبه عذابا اليما لكنها لم تصرح بذلك ولا بشئ من اطراف الواقعة بل كنت وأتت بحكم عام عقلائي يتضمن مجازاة من قصد ذوات البعل بالفحشاء فقالت " ما جزاء من اراد باهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب اليم " فلم يصرح باسم يوسف وهو المريد ولا باسم نفسها وهى الاهل ولا باسم السوء وهو الزنا بذات البعل كل ذلك تأدبا في حضرة العزيز وتقديسا لساحته .

ولم يتعين الجزاء بل رددته بين السجن والعذاب الاليم لأن قلبها الواله إليه الملئ بحبه ما كان يساعدها على التعيين فان في الابهام نوعا من الفرج إلا أن في تعبيرها بقولها " باهلك " نوعا من التحريض عليه وتهييجه على مؤاخذته ولم يكن ذلك الا كيدا منها للعزيز بالتظاهر بالوجد والاسى لئلا يتفطن بواقع الأمر فيؤاخذها اما إذا صرفته عن نفسها المجرمة فان صرفه عن مؤاخذة يوسف (عليه السلام) لم يكن صعبا عليها تلك الصعوبة .

(203/395)

قوله تعالى : " قال هي راودتني عن نفسي " لم يبدأ يوسف (عليه السلام) بالقول ادبا مع العزيز وصونا لها ان يرميها بالجرم لكن لما اتهمته بقصدها بالسوء لم ير بدا دون ان يصرح بالحق فقال هي راودتني عن نفسي وفي الكلام دلالة على القصر وهى من قصر القلب أي لم اردها بالسوء بل هي التى ارادت ذلك فراودتني عن نفسي .

وفي كلامه هذا وهو خال عن اقسام التأكيد كالقسم ونحوه دلالة على سكون نفسه (عليه السلام) وطمأنينته وانه لم يحتشم ولم يجزع ولم يتملق حين دعوى براءته مما رمته به إذ كان لم يأت بسوء ولا يخافها ولا ما اتهمته وقد استعاذ بربه حين قال معاذ الله قوله تعالى : " وشهد شاهد من اهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين "

إلى آخر الآيتين لما كانت الشهادة في معنى القول كان قوله ان كان قميصه الخ بمنزلة مقول القول بالنسبه إليه فلا حاجة إلى تقدير القول قبل قوله ان كان قميصه الخ وقد قيل ان هذا القول لما ادى مؤدى الشهادة عبر عنه بلفظ الشهادة .

وقد اشار هذا الشاهد إلى دليل ينحل به العقدة ويتضح طريق القضية فتكلم فقال ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين فان من البين ان احدهما صادق في دعواه والاخر كاذب وكون القد من قبل يدل على منازعتهما ومصارعتهما بالمواجهة فالقضاء لها عليه وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فان كون القد من دبر يدل على هربه منها وتعقيبها اياه واجتذابها له إلى نفسها فالقضاء له عليها وهو ظاهر .

واما من هذا الشاهد ؟ فقد اختلف فيه المفسرون فقال بعضهم كان رجلا حكيما اشار للعزيز بما اشار كما عن الحسن وقتادة وعكرمة وقيل كان رجلا وهو ابن عم المرأة وكان جالسا مع زوجها لدى الباب وقيل لم يكن من الانس ولا الجن بل خلقا من خلق الله كما عن مجاهد ورد بمنافاته الصريحة لقوله تعالى : " من اهلها " .

ومن طرق اهل البيت (عليه السلام) وبعض طرق اهل السنة انه كان صبيا في المهد من اهلها وسيجئ في البحث الروائي التالى ان شاء الله تعالى .

والذى ينبغى ان ينظر فيه ان الذى اتى به هذا الشاهد بيان عقلي ودليل فكرى يؤدى إلى نتيجة هي القاضية لاحد هذين المتداعيين على الاخر ومثل هذا لا يسمى شهادة عرفا فانها هي البيان المتعمد على الحس أو ما في حكمه وبالجملة القول الذى لا يعتمد على التفكير والتعقل كما في قوله : " شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم " حم السجدة : 20 وقوله : " قالوا نشهد انك لرسول الله " المنافقون : 1 فان الحكم بصدق الرسالة وان كان في نفسه مستندا إلى التفكر والتعقل لكن المراد بالشهادة تأدية ما عنده من الحق المعلوم قطعا من غير ملاحظة كونه عن تفكر وتعقل كما في موارد يعبر عنه فيها بالقول ونحوه .

فليس من البعيد ان يكون في التعبير عن قول هذا القائل بمثل وشهد شاهد اشارة إلى كون ذلك كلاما صدر عنه من غير ترو وفكر فيكون شهادة لعدم اعتماده على تفكر وتعقل لا قولا يعبر به عرفا عن البيان الذى يبتنى على ترو وتفكر وبهذا يتايد ما ورد من الرواية انه كان صبيا في المهد فقد كان ذلك بنوع من الاعجاز ايد الله سبحانه به قول يوسف (عليه السلام) .

قوله تعالى : " فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم " أي فلما

رأى العزيز قميص يوسف والحال انه مقدود مشقوق من خلف قال ان الأمر من كيدكن معاشر النساء ان كيدكن عظيم فمرجع الضمائر معلوم من السياق .

ونسبة الكيد إلى جماعة النساء مع كونه من امرأته للدلالة على انه انما صدر منها بما انها من النساء وكيدهن معهود معروف ولذا استعظمه وقال ثانيا ان كيدكن عظيم وذلك ان الرجال اوتوا من الميل والانجذاب اليهن ما ليس يخفى واوتين من اسباب الاستمالة والجلب ما في وسعهن ان ياخذن بمجامع قلوب الرجال ويسخرن ارواحهم بجلوات فتانة واطوار سحارة تسلب احلامهم وتصرفهم إلى ارادتهن من حيث لا يشعرون وهو الكيد وارادة الإنسان بالسوء ومفاد الآية ان العزيز لما شاهد ان قميصه مقدود من خلف قضى ليوسف (عليه السلام) على امراته .

قوله تعالى : " يوسف اعرض عن هذا واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين " من مقول قول العزيز أي انه بعد ما قضى له عليها أمر يوسف ان يعرض عن الأمر وامر امرأته ان تستغفر لذنبها ومن خطيئتها فقوله يوسف : " اعرض عن هذا " يشير إلى ما وقع من الأمر ويعزم على يوسف ان يعرض عنه ويفرضه كان لم يكن فلا يحدث به ولا يذيعه ولم يرد في

كلامه تعالى ما يدل على ان يوسف (عليه السلام) حدث به احدا وهو الظن به (عليه السلام) كما نرى انه لم يظهر حديث المراودة للعزيز حتى اتهمته بسوء القصد فذكر الحق عند ذلك لكن كيف يخفى حديث استمر عهدا ليس بالقصير وقد استولى عليها الوله وسلب منها الغرام كل حلم وحزم ولم تكن المراودة مرة أو مرتين والدليل على ذلك ما سيأتي من قول النسوة امرأة العزيز

تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا .

وقوله واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين يقرر لها الذنب ويأمرها ان تستغفر ربها لذلك الذنب لانها كانت بذلك من اهل الخطيئة ولذلك قيل من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات .

وهذا كله من كلام العزيز على ما يعطيه السياق لا من كلام الشاهد لأنه قضاء وحكم والقضاء العزيز لا للشاهد .

ومن الخطأ قول بعضهم ان معنى واستغفرى لذنبك سلى زوجك ان لا يعاقبك على ذنبك انتهى بناء على ان الجملة من كلام الشاهد لا من كلام العزيز وكذا قول آخر معناه استغفري

الله من ذنبك وتوبى إليه فان الذنب كان منك لا من يوسف فانهم كانوا يعبدون الله تعالى مع عبادة الأصنام انتهى .

وذلك ان الوثنيين يقرون بالله سبحانه في خالقيته لكنهم لا يعبدون الا الالهة والارباب من دون الله سبحانه وقد تقدم الكلام في ذلك في الجزء السابق من الكتاب على ان الآية لا تشتمل إلا على قوله واستغفرى من دون ان يذكر المتعلق وهو ربها المعبود لها في مذهبها .

وربما قيل ان الآية تدل على ان العزيز كان فاقدا للغيرة والحق ان الذى تدل عليه انه كان شديد الحب لامراته ان قوله تعالى : " وقال نسوة في المدينة امراة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها في ضلال مبين " قصة نسوة مصر مع يوسف في بيت العزيز تتضمنها الآية إلى تمام ست آيات .

والذى يعطيه التدبر فيها بما ينضم إليها من قرائن الأحوال وما يستوجبه طبع القصة انه لما كان من أمر يوسف والعزيزة ما كان شاع الخبر في المدينة تدريجا وصارت النساء وهن سيدات المدينة يتحدثن به في مجامعهن ومحافلهن فيما بينهن ويعيرن بذلك عزيزة مصر ويعبنها انها تولهت إلى فتاها وافتتنت به وقد احاط بها حبا فظلت تراوده عن نفسه وضلت به ضلالا مبينا .

وكان ذلك مكرا منهن بها على ما في طبع اكثر النساء من الحسد والعجب فان المرأة تغلبه العواطف الرقيقة والاحساسات اللطيفة وركوز لطف الخلقة جمال الطبيعة فيها مشعوفة

القلب بالزينة والجمال متعلقة الفؤاد برسوم الدلال ويورث ذلك فيها وخاصة في الفتيات اعجابا بالنفس وحسدا للغير .

(207/395)

وبالجملة كان تحديثهن بحديث الحب والمراودة مكرا منهن بالعزيزة وفيه بعض السلوة لنفوسهن والشفاء لغليل صدورهن ولما يرين يوسف ولا شاهدن منه ما شاهدته العزيزة فولها وهتك سترها وانما كن يتخيلن شيئا ويقاسن قياسا واين الرواية من الدراية والبيان من العيان .

وشاع التحديث به في المسامرات حتى بلغ الخبر امرأة العزيز تلك التى لا هم لها إلا أن تفوز في طلب يوسف وبلوغ ما تريد منه ولا تعبؤ في حبه بشئ من الملك والعزة الا لأن تتوصل به إلى حبه لها وميله إليها وانجاحه لطلبتها فاستيقظت من رقدتها وعلمت بمكرهن بها فأرسلت اليهن للحضور لديها وانهن سيدات ونساء اشراف المدينة واركان البلاد ممن له رابطة المعاشرة مع بيت العزيز أو لياقة الحضور فيه .

فتهيأن للحضور وتبرزن باحسن الجمال واوقع الزينة على ما هو الدأب في امثال هذه الاحتفالات من امثال هؤلاء السيدات وكل تتمنى ان ترى يوسف وتشاهد ما عنده من

الحسن الذى اوقع على العزيزة ما اوقع وفضحها .

والعزيزة لا هم لها يومئذ إلا أن تريهن يوسف حتى يعذرنه ويشتغلن عنها بانفسهن فتتخلص من لسانهن فتأمن مكرهن وهى لا تعبؤ بافتتانهن بيوسف ولا تخاف عليه منهن لانها على ما تزعم مولاته وصاحبته ومالكة امره وهو فتاها المخصوص بها وهى تعلم ان يوسف ليس بالذى يرغب فيهن أو يصبو اليهن وهو لا ينقاد لها فيما تريده منه بما عنده من الاستعصام والاعتزاز عن هذه الاهواء والاميال .

ثم لما حضرن عند العزيزة واخذن مقاعدهن ووقع الانس وجرت المحادثة والمفاوضة واخذن في التفكه آتت كل واحدة منهن سكينا وقد هيئت لهن وقدمت اليهن الفاكهة عند ذلك امرت يوسف ان يخرج اليهن وقد كان مستورا عنهن .

(208/395)

فلما طلع يوسف عليهن ووقعت عليه اعينهن طارت عقولهن وطاحت احلامهن ولم يدرين دون ان قطعن ايديهن مكان الفاكهة التى فيها لما دخل عليهن من البهت والذهول وهذه خاصة الوله والفزع فان نفس الإنسان إذا انجذبت إلى شئ مما تفرط في حبه أو تخافه وتهوله اضطربت وبهتت ففاجأها الموت أو سلبت الشعور اللازم في تدبير القوى والاعضاء

وتنظيم الأمر فربما اقدم مسرعا إلى الخطر الذى ادهشه لقاؤه وربما نسى الفرار فبقي كالجماد الذى لا حراك به وربما يفعل غير ما هو قاصده وفاعله اختباطا ونظائرها في جانب الحب كثيرة وحكايات المغرمين والمتولهين من العشاق مشهورة .

وكان هذا هو الفرق بين العزيزة وبينهن فان استغراقها في حب يوسف انما حصل لها تدريجا واما نساء المدينة فانهن فوجئن به دفعة فغشيت قلوبهن غاشية الجمال وغادرهن الحب ففضحهن واطار عقلهن واضل رأيهن فنسين الفاكهة وقطعن ايديهن وتركن كل تجلد واصطبار وابدين ما في انفسهن من وله الحب وقلن : " حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم " .

هذا وهن في بيت العزيز وهو بيت يجب فيه التحفظ على كل ادب ووقار وكان يجب ان يتقينها ويحتشمن موقعها وهن شريفات ذوات جمال وذوات بعولة وذوات خدر وستر وهذه كلها جهات مانعة عن الخلاعة والتهتك وهن لم ينسين ما كن بالامس يتحدثن به ويلمن ويذممن امرأة العزيز في حبها ليوسف وهما في بيت واحد منذ سنين .

فكان من الواجب على كل منهن ان تتقى صواحبها فلا تتهتك وهن يعلمن ما انجر إليه أمر امرأة العزيز من سوء الذكر وفضاحة الشهرة هذا كله ويوسف واقف امامهن يسمع قولهن ويشاهد صنعهن .

لكن الذى شاهدنه على المفاجأة من حسن يوسف نسخ ما قدرنه من قبل في انفسهن وبدل مجلس الأدب والاحتشام حفلة عيش لا يكتم محتفلوها من انفسهم ضميرا ولا يبالى حضارها ما قيل أو يقال فيهم ولم يلبثن دون ان قلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم وقد قلن غير بعيد " امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها في ضلال مبين " .

وكلامهن هذا بعد قولهن ذاك اعذار منهن فمفاده ان الذى كنا نقوله قبل انما هو حق لو كان هذا بشرا وليس به وانما يذم الإنسان ويعاب لو ابتلى بهوى بشر ومراودته وكان في وسعه ان يكتفى عنه بما يكافئه ويغنى عنه واما الجمال الذى لا يعادله جمال ويسلب كل حزم واختيار فلا لوم على هواه ولا ذم في غرامه .

ولهذا انقلب المجلس دفعة وانقطعت قيود الاحتشام فانبسطن وتظاهرن بالقول في حسن يوسف وكل تتكلم بما في ضميرها منه وقالت امرأة العزيز : " فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم " فأبدت سرا ما كانت تعترف به قبل ثم هددت يوسف تجلدا وحفظا لمقامها عندهن وطمعا في مطاوعته وانقياده : " ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين " .

واما يوسف فلم يأخذه شئ من تلك الوجوه الحسان بالحاظها الفتانة ولا التفت إلى شئ من

لطيف كلامهن ونعيم مراودتهن أو هائل تهديدها فقد كان وجهة نفسه جمال فوق كل جمال وجلال يذل عنده كل عزة وجلال فلم يكلمهن بشئ ولم يلتفت إلى ما كانت امرأة العزيز تسمعه من القول وانما رجع إلى ربه " فقال رب السجن احب إلى مما يدعونني إليه والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين .

(210/395)

" وكلامه هذا إذا قيس إلى ما قاله لامرأة العزيز وحدها في مجلس المراودة " معاذ الله انه ربى احسن مثواى انه لا يفلح الظالمون " دل بسياقه على ان هذا المقام كان اشق وامر على يوسف (عليه السلام) إذ كان بالامس يقاوم هم امرأة العزيز ويعالج كيدها وحدها وقد توجهت إليه اليوم همهن ومكايدهن جميعا وكان ما بالامس واقعة في خلوة على تستر منها وهى وهن اليوم متجاهرات في حبه متظاهرات في اغوائه ملجآت على مراودته وجميع الأسباب والمقتضيات اليوم قاضية لهن عليه اشد مما كانت عليه بالامس .

ولذا تضرع إلى ربه سبحانه في دفع كيدهن ههنا واكتفى بالاستعاذة إليه سبحانه هناك فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم .

ولنرجع إلى البحث عن الآيات .

فقوله تعالى : " وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها " الخ النسوة اسم جمع للمرأة وتقييد بقوله في المدينة تفيد انهن كن من جهة العدد أو الشأن بحال تؤثر قولهن في شيوع الفضيحة .

وامرأة العزيز هي التى كان يوسف في بيتها وقد راودته عن نفسه والعزيز معناه معروف وقد كان يلقب به السيد الذى اشترى يوسف من السيارة وكان يلقب به الرؤساء بمصر كما لقب به يوسف بعد ما جعل على خزائن الأرض .

وفى قوله تراود دلالة على الاستمرار وهو افحش المراودة والفتى الغلام الشاب والمرأة فتاة وقد شاع تسمية العبد فتى وكأنه بهذه العناية اضيف إلى ضميرها فقيل فتاها .

وفى المفردات شغفها حبا أي اصاب شغاف قلبها أي باطنه عن الحسن وقيل وسطه عن أبى علي وهما يتقاربان انتهى وشغاف القلب غلافه المحيط به .

(211/395)

والمعنى وقال عدة من نساء المدينة لا يخلو قولهن من اثر فيها وفي حقها امرأة تستمر في مراودة عبدها عن نفسه ولا يحرى بها ذلك لانها مرأة ومن القحة ان تراود المرأة الرجل بل ذاك ان كان من طبع الرجال وانها امرأة العزيز فهى عزيزة مصر فمن الواجب الذى لا معدل

عنه ان تراعى شرف بيتها وعزة زوجها ومكانة نفسها وان الذى علقت به عبدها ومن الشنيع ان يتوله مثلها وهى عزيزة مصر بعبد عبرانى من جملة عبيده وانها احبته وتعدت ذلك إلى مراودته فامتنع من اجابتها فلم تنته حتى الحت واستمرت على مراودته وذلك اقبح واشنع وامعن في الضلال .

ولذلك عقبن قولهن امرأة العزيز تراود الخ بقولهن : " انا لنراها في ضلال مبين " .

قوله تعالى : " فلما سمعت بمكرهن ارسلت اليهن واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا " قال في المجمع المكر هو الفتل بالحيلة على ما يراد من الطلبة انتهى وتسمية هذا القول منهن مكرا بامرأة العزيز لما فيه من فضاحتها وهتك سترها من ناحية رقيباتها حسدا وبغيا وانما ارسلت اليهن لتريهن يوسف وتبتليهن بما ابتليت به نفسها فيكففن عن لومها ويعذرنها في حبه .

وعلى هذا انما سمى قولهن مكرا ونسب السمع إليه لأنه صدر منهن حسدا وبغيا لغاية فضاحتها بين الناس .

وقيل انما كان قولهن مكرا لانهن جعلنه ذريعة إلى لقاء يوسف لما سمعن من حسنه البديع فانما قلن هذا القول لتسمعه امرأة العزيز فترسل اليهن ليحضرن عندها فتريهن اياه ليعذرنها فيما عزلنها له فيتخذن ذلك سبيلا إلى ان يراودنه عن نفسه هذا والوجه الأول اقرب إلى سياق الآيات .

وقوله ارسلت اليهن معناه معلوم وهو كناية عن الدعوة إلى الحضور عندها وقوله واعتدت لهن متكا وآتت كل واحدة منهن سكينا الاعتاد الاعداد والتهيئة أي اعدت وهيأت والمتكأ بضم الميم وتشديد التاء اسم المفعول من الاتكاء والمراد به ما يتكو عليه من نمرق أو كرسى كما كان معمولا في بيوت العظماء وفسر المتكأ بالاترج وهو نوع من الفاكهة كما قرئ في الشواذ متكأ بالضم فالسكون وهو الاترج وقرئ متكا بضم الميم وتشديد التاء من غير همز .

وقوله : " وآتت كل واحدة منهن سكينا " أي لقطع ما يرون اكله من الفاكهة كالاترج أو ما يشابهه من الفواكه المأكولة بالقطع وقوله : " وقالت اخرج عليهن " أي امرت يوسف ان يخرج عليهن وهن خاليات الاذهان فارغات القلوب مشتغلات بأخذ الفاكهة وقطعها وفى اللفظ دلالة على انه (عليه السلام) كان غائبا عنهن وكان في مخدع هناك أو بيت آخر في داخل بيت المأدبة الذى كن فيه فانها قالت اخرج عليهن ولو كان في خارج من البيت لقالت ادخل عليهن .

وفى السياق دلالة على ان هذا التدبير كان مكرا منها تجاه مكرهن ليفتضحن به فيعذرنها

فيما عذلنها وقد اصابت في رأيها حيث نظمت برنامج الملاقاة فأعتدت لهن متكا وآتت كل واحدة منهن سكينا واخفت يوسف عن اعينهن ثم فاجأتهن باظهاره دفعة لهن ليغبن عن عقولهن ويندهشن بذاك الجمال البديع ويأتين بما لا ياتي به ذو شعور البتة وهو تقطيع الايدى مكان الفواكه لا من الواحدة والثنتين منهن بل من الجميع .

قوله تعالى : " فلما رأينه اكبرنه وقطعن ايديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم " الأكبار الاعظام وهو كناية عن اندهاشهن وغيبتهن عن شعورهن وارادتهن بمفاجأة مشاهدة ذاك الحسن الرائع طبقا للناموس الكونى العام وهو خضوع الصغير للكبير وقهر العظيم للحقير فإذا ظهر العظيم الكبير بعظمته وكبريائه لشعور الإنسان قهر سائر ما في ذهنه من المقاصد والافكار فأنساها وصار يتخبط في اعماله .

ولذلك لما رأينه قهرت رؤيته شعورهن فقطعن ايديهن تقطيعا مكان الفاكهة التى كن يردن قطعها وفي صيغة التفعيل دلالة على الكثرة يقال قتل القوم تقتيلا وموتهم الجدب تمويتا .

وقوله : " وقلن حاش لله " تنزيه لله سبحانه في أمر يوسف وهذا كقوله تعالى : " ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم " النور : 16 وهو من ادب الكلام عند المليين

إذا جرى القول في أمر فيه نوع تنزيه وتبرئة لاحد يبدء فينزه الله سبحانه ثم يشتغل بتنزيه من اريد تنزيهه فهن لما اردن تنزيهه (عليه السلام) بقولهن ما هذا بشرا الخ بدأن بتنزيهه تعالى ثم اخذن ينزهنه .

وقوله : " ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم " نفى ان يكون يوسف (عليه السلام) بشرا واثبات انه ملك كريم وهذا بناء على ما يعتقده المليون منهم الوثنيون ان الملائكة موجودات شريفة هم مبادئ كل خير وسعادة في العالم منهم يترشح كل حياة وعلم وحسن وبهاء وسرور وسائر ما يتمنى ويؤمل من الأمور ففيهم كل جمال صوري ومعنوي وإذا مثلوا تخيلوا في حسن لا يقدر بقدر ويتصوره اصحاب الأصنام في صور انسانية حسنة بهية .

ولعل هذا هو السبب في قولهن : " ان هذا الا ملك كريم " حيث لم يصفنه بما يدل على حسن الوجه وجمال المنظر مع ان الذى فعل بهن ما فعل هو حسن وجهه واعتدال صورته بل سمينه ملكا كريما لتكون فيه اشارة إلى حسن صورته وسيرته معا وجمال خلقه وخلقه وظاهره وباطنه جميعا والله اعلم .

وتقدم قولهن هذا على قول امرأة العزيز : " فذلكن الذى لمتننى فيه " يدل على انهن لم يفهمن بهذا الكلام اعذارا لامرأة العزيز في حبها له وتيمها وغرامها به وانما كان ذلك اضطرارا منهن على الثناء عليه واظهارا قهريا لانجذاب نفوسهن وتوله قلوبهن إليه فقد كان فيه فضاحتهن ولم تقل امرأة العزيز فذلكن الذى لمتننى فيه الا بعد ما فضحتهن

فعلا وقولا بتقطيع الايدى وتنزيه الحسن فلم يبق لهن إلا أن يصدقنها فيما تقول ويعذرنها فيما تفعل .

(214/395)

قوله تعالى : " قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم " إلى آخر الآية الكلام في موضع دفن الدخل كان قائلا يقول فماذا قالت امرأة العزيز لهن ؟ فقيل قالت فذلكن الذى لمتننى فيه .

وقد فرعت كلامها على ما تقدمه من قولهن وفعلهن واشارت إلى شخص الذى لمنها فيه ووصفته بانه الذى لمنها فيه ليكون هو بعينه جوابا لما رمينها به من ترك شرف بيتها وعزة زوجها وعفة نفسها في حبه وعذرا قبال لومهن اياها في مراودته واقوى البيان ان يحال السامع إلى العيان ومن هذا الباب قوله تعالى : " أهذا الذى يذكر آلهتكم " الأنبياء : 36 وقوله : " ربنا هؤلاء اضلونا " الأعراف : 38 .

ثم اعترفت بالمراودة وذكرت لهن انها راودته لكنه اخذ بالعفة وطلب العصمة وانما استرسلت واظهرت لهن ما لم تزل تخفيه لما رأت موافقة القلوب على التوله فيه فبثت الشكوى لهن ونبهت يوسف انها غير تاركته فليوطن نفسه على طاعتها فيما تأمر به وهذا

معنى قولها ولقد راودته عن نفسه فاستعصم .

ثم ذكرت لهن ما عزمت عليه من اجباره على الموافقة وسياسته لو خالفت فقالت : " ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين " وقد اكدت الكلام بوجوه من التأكيد كالقسم والنون واللام ونحوها ليدل على انها عزمت على ذلك عزيمة جازمة وعندها ما يجبره على ما ارادته ولو استنكف فليوطن نفسه على السجن بعد الراحة والصغار والهوان بعد الأكرام والاحترام وفي الكلام تجلد ونوع تعزز وتمنع بالنسبة اليهن ونوع تنبيه وتهديد بالنسبة إلى يوسف (عليه السلام) .

وهذا التهديد الذى يتضمنه قولها : " ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين " اشد واهول مما سألته زوجها يوم المراودة بقولها : " ما جزاء من اراد بأهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب اليم " .

اما اولا فلانها رددت الجزاء هناك بين السجن والعذاب الاليم وجمع ههنا بين الجزائين وهو السجن والكون من الصاغرين .

واما ثانيا فلانها ههنا قامت بالتهديد بنفسها لا بأن تسأل زوجها وكلامها كلام من لا يتردد فيما عزم عليه ولا يرجع عما جزم به وقد حققت انها تملك قلب زوجها وتقدر ان تصرفه مما يريده إلى ما تريده وتقوى على التصرف في امره كيفما شاءت ؟ قوله تعالى : " قال رب السجن احب إلى مما يدعونني إليه والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين " قال الراغب في المفردات صبا فلان يصبوصبوا وصبوة إذا نزع واشتاق وفعل فعل الصبيان قال تعالى : " اصب اليهن وأكن من الجاهلين " انتهى وفى المجمع الصبوة لطافة الهوى انتهى .

تفاوضت امرأة العزيز والنسوة فقالت وقلن واسترسلن في بت ما في ضمائرهن ويوسف (عليه السلام) واقف امامهن يدعونه ويراودنه عن نفسه لكن يوسف (عليه السلام) لم يلتفت اليهن ولا كلمهن ولا بكلمة بل رجع إلى ربه الذى ملك قلبه بقلب لا مكان فيه الا له ولا شغل له الا به " وقال رب السجن احب إلى مما يدعونني إليه " الخ .

وقوله هذا ليس بدعاء على نفسه بالسجن وان يصرف الله عنه ما يدعونه إليه بالقائه في السجن وانما هو بيان حال لربه وانه عن تربية الهية يرجح عذاب السجن في جنب الله على لذة المعصية والبعد منه فهذا الكلام منه نظير ما قاله لامرأة العزيز حين خلت به وراودته عن نفسه معاذ الله انه ربى احسن مثواى انه لا يفلح الظالمون ففى الكلامين معا تمنع وتعزز بالله وانما الفرق انه يخاطب باحدهما امرأة العزيز وبالاخر ربه القوى العزيز وليس شئ من

الكلامين دعاء البتة .

وفي قوله رب السجن احب إلى الخ نوع توطئة لقوله " والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن " الخ الذى هو دعاء في صورة بيان الحال .

(216/395)

فمعنى الآية رب انى لو خيرت بين السجن وبين ما يدعونني إليه لاخترت السجن على غيره واسألك ان تصرف عنى كيدهن فانك ان لا تصرف عنى كيدهن انتزع وأمل اليهن واكن من الجاهلين فانى انما اتوقى شرهن بعلمك الذى علمتنيه وتصرف به عنى كيدهن فان امسكت عن افاضته علي صرت جاهلا ووقعت في مهلكه الصبوة والهوى .

وقد ظهر من الآية بمعونة السياق اولا : ان قوله رب السجن احب الي " الخ ليس دعاء من يوسف (عليه السلام) على نفسه بالسجن بل بيان حال منه لربه بالاعراض عنهن والرجوع إليه ومعنى احب الي انى اختاره على ما يدعونني إليه لو خيرت وليس فيه دلالة على كون ما يدعونه إليه محبوبا عنده بوجه الا بمقدار ما تدعو إليه داعية الطبع الإنساني والنفس الامارة .

وان قوله تعالى : " فاستجاب له ربه " اشارة إلى استجابة ما يشتمل عليه قوله والا تصرف

عنى كيدهن الخ من معنى الدعاء ويؤيده تعقيبه بقوله فصرف عنه كيدهن وليس استجابة لدعائه بالسجن على نفسه كما توهمه بعضهم .

ومن الدليل عليه قوله بعد في قصة دخوله السجن ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ولو كان دعاء بالسجن واستجابه الله سبحانه وقدر له السجن لم يكن التعبير بثم وفصل المعنى عما تقدمه بأنسب فافهم .

وثانيا ان النسوة دعونه وراودنه كما دعته امرأة العزيز إلى نفسها وراودته عن نفسه واما انهن دعونه إلى انفسهن أو إلى امرأة العزيز أو أتين بالامرين فدعينه بحضرة من امرأة العزيز إليها ثم اسرت كل واحدة منهن داعية اياه إلى نفسها فالآية ساكتة عن ذلك سوى ما يستفاد من قوله والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن إذ لولا دعوة منهن إلى انفسهن لم يكن معنى ظاهر للصبوة اليهن .

والذى يشعر به قوله تعالى حكاية عن قوله في السجن لرسول الملك " ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن ايديهن إلى ان قال قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ذلك ليعلم انى لم

اخنه بالغيب وان الله لا يهدى كيد الخائنين " الآيات : 50 - 52 من السورة انهن دعينه إلى امرأة العزيز وقد اشركهن في القصة ثم قال لم اخنه بالغيب ولم يقل لم اخن بالغيب ولا قال لم اخنه وغيره فتدبر فيه .

ومع ذلك فمن المحال عادة ان يرين منه ما يغيبهن عن شعورهن ويدهش عقولهن ويقطعن ايديهن ثم ينسللن انسلالا ولا يتعرض له اصلا ويذهبن لوجوههن بل العادة قاضية انهن ما فارقن المجلس الا وهن متيمات فيه والهات لا يصبحن ولا يمسين الا وهو همهن وفيه هواهن يفدينه بالنفس ويطمعنه بأي زينة في مقدرتهن ويعرضن له انفسهن ويتوصلن إلى ما يردنه منه بكل ما يستطعن .

وهو ظاهر مما حكاه الله من يوسف في قوله " رب السجن احب الي مما يدعونني إليه والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن " فانه لم يعرض عن تكليمهن إلى مناجاة ربه الخبير بحاله السميع لمقاله الا لشدة الأمر عليه واحاطة المحنة والمصيبة من ناحيتهن به .

وثالثا : ان تلك القوة القدسية التى استعصم بها يوسف (عليه السلام) كانت كأمر تدريجي يفيض عليه آنا بعد آن من جانب الله سبحانه وليست الأمر الدفعي المفروغ عنه والا لانقطعت الحاجة إليه تعالى ولذا عبر عنه بقوله : " والا تصرف عنى " ولم يقل وان لم تصرف عنى وان كانت الجملة الشرطية منسلخة الزمان لكن في الهيئة اشارات .

ولذلك أيضا قال تعالى : " فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن " الخ فنسب دفع الشر

عنه إلى استجابة وصرف جديد .

ورابعا ان هذه القوة القدسية من قبيل العلوم والمعارف ولذا قال (عليه السلام) واكن من الجاهلين ولم يقل وأكن من الظالمين كما قال لامرأة العزيز انه لا يفلح الظالمون أو اكن من الخائنين كما قال للملك وان الله لا يهدى كيد الخائنين وقد فرق في نحو الخطاب بينهما وبين ربه فخاطبهما بظاهر الأمر رعاية لمنزلتهما في الفهم فقال : انه ظلم والظالم لا يفلح وانه خيانة والله لا يهدى كيد الخائن وخاطب ربه بحقيقة الأمر وهو ان الصبوة اليهن من الجهل .

وستوافيك حقيقة الحال في هذين الامرين (1) في ابحاث ملحقة بالبيان ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى : " فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم " أي استجاب الله مسألته في صرف كيدهن عنه حين قال والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن "

---

(1) اي الأمر الثالث والرابع .

انه هو السميع باقوال عباده العليم باحوالهم (ابحاث حول التقوى الدينى ودرجاته) في فصول 1 - القانون والاخلاق الكريمة والتوحيد لا يسعد القانون الا بايمان تحفظه الاخلاق

الكريمة والاخلاق الكريمه لا تتم الا بالتوحيد فالتوحيد هو الأصل الذى عليه تنمو شجرة السعادة الإنسانية وتتفرع بالاخلاق الكريمة وهذه الفروع هي التى تثمر ثمراتها الطيبة في المجتمع قال تعالى : "ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار " إبراهيم : 26 فجعل الإيمان بالله كشجرة لها أصل وهو التوحيد لا محالة" واكل تؤتيه كل حين باذن ربها " وهو العمل الصالح وفرع وهو الخلق الكريم كالتقوى والعفة والمعرفة والشجاعة والعدالة والرحمة ونظائرها .

وقال تعالى : " إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه " الفاطر : 10 فجعل سعادة الصعود إلى الله وهو القرب منه تعالى للكلم الطيب وهو الاعتقاد الحق وجعل العمل الذى يصلح له ويناسبه هو الذى يرفعه ويمده في صعوده .

بيان ذلك : ان من المعلوم ان الإنسان لا يتم له كماله النوعى ولا يسعد في حياته التى لا بغيه له اعظم من اسعادها الا باجتماع من افراد يتعاونون على اعمال الحياة على ما فيها من

الكثرة والتنوع وليس يقوى الواحد من الإنسان على الاتيان بها جميعا .

وهذا هو الذى احوج الإنسان الاجتماعي إلى ان يتسنن بسنن وقوانين يحفظ بها حقوق الافراد عن الضيعة والفساد حتى يعمل كل منهم ما في وسعه العمل به ثم يبادلوا اعمالهم فينال كل من النتائج المعدة ما يعادل عمله ويقدره وزنه الاجتماعي من غير ان يظلم القوى المقتدر أو يظلم الضعيف العاجز .

ومن المسلم ان هذه السنن والقوانين لا تثبت مؤثرة الا بسنن وقوانين أخرى جزائية تهدد المتخلفين عن السنن والقوانين المتعدين على حقوق ذوى الحقوق وتخوفهم بالسيئة قبال السيئة وباخرى تشوقهم وترغبهم في عمل الخيرات وتضمن اجراء الجميع القوة الحاكمة التى تحكم فيهم وتسيطر عليهم بالعدل والصدق .

وانما تتحقق هذه الامنية إذا كانت القوة المجرية للقوانين عالمة بالجرم وقوية على المجرم واما إذا جهلت ووقع الاجرام على جهل منها أو غفلة وكم له من وجود فلا مانع يمنع من تحققه والقوانين لا ايدى لها تبطش بها وكذا إذا ضعفت الحكومة بفقد القوى اللازمة أو مساهلة في السياسة والعمل فظهر عليها المجرم أو كان المجرم اشد قوة ضاعت القوانين وفشت التخلفات والتعديات على حقوق الناس والإنسان كما مر مرارا في المباحث السابقة من هذا الكتاب مستخدم بالطبع يجر النفع إلى نفسه ولو اضر غيره .

ويشتد هذا البلوى إذا تمركزت هذه القوة في القوة المجرية أو من يتولى ازمة جميع الأمور فاستضعف الناس وسلب منهم القدرة على رده إلى العدل وتقويمه بالحق فصار ذا قوة وشوكة لا يقاوم في قوته ولا يعارض في ارادته .

والتواريخ المحفوظة مملوءة من قصص الجبابرة والطواغيت وتحكماتهم الجائرة على الناس وهو ذا نصب اعيننا في اكثر اقطار الأرض .

فالقوانين والسنن وان كانت عادلة في حدود مفاهيمها واحكام الجزاء وان كانت بالغة في شدتها لا تجرى على رسلها في المجتمع ولا تسد باب الخلاف وطريق التخلف الا باخلاق فاضلة انسانية تقطع دابر الظلم والفساد كملكة اتباع الحق واحترام الإنسانية والعدالة والكرامة والحياة ونشر الرحمة ونظائرها .

ولا يغرنك ما تشاهده من القوة والشوكة في الأمم الراقية والانتظام والعدل الظاهر فيما بينهم ولم يوضع قوانينهم على اسس اخلاقية حيث لا ضامن لاجرائها فانهم امم يفكرون فكرة اجتماعية لا يرى الفرد منهم الا نفع الأمة وخيرها ولا يدفع الا ما يضر امته ولا هم لامته الا استرقاق سائر الأمم الضعيفة واستدرارهم واستعمار بلادهم واستباحة نفوسهم واعراضهم واموالهم فلم يورثهم هذا التقدم والرقى الا نقل ما كان يحمله الجبابرة الماضون على الافراد إلى المجتمعات فقامت الأمة اليوم مقام الفرد بالامس

وهجرت الالفاظ معانيها إلى اضدادها تطلق الحرية والشرافة والعدالة والفضيلة ولا يراد بها الا الرقية والخسة والظلم والرذيلة .

وبالجملة السنن والقوانين لا تأمن التخلف والضيعة الا إذا تأسست على اخلاق كريمة انسانية واستظهرت بها .

(221/395)

ثم الاخلاق لا تفى بإسعاد المجتمع ولا تسوق الإنسان إلى صلاح العمل الا إذا اعتمدت على التوحيد وهو الإيمان بأن للعالم ومنه الإنسان الها واحدا سرمديا لا يعزب عن علمه شئ ولا يغلب في قدرته عن احد خلق الأشياء على اكمل نظام لا لحاجة منه إليها وسيعيدهم إليه فيحاسبهم فيجزى المحسن باحسانه ويعاقب المسئ باساءته ثم يخلدون منعمين أو معذبين .

ومن المعلوم ان الاخلاق إذا اعتمدت على هذه العقيدة لم يبق للإنسان هم الا مراقبة رضاه تعالى في اعماله وكان التقوى رادعا داخليا له عن ارتكاب الجرم ولولا ارتضاع الاخلاق من ثدي هذه العقيدة عقيدة التوحيد لم يبق للإنسان غاية في اعماله الحيوية الا التمتع بمتاع الدنيا الفانية والتلذذ بلذائذ الحياة المادية واقصى ما يمكنه ان يعدل به معاشه فيحفظ به القوانين

الاجتماعية الحيوية ان يفكر في نفسه ان من الواجب عليه ان يلتزم القوانين الدائرة حفظا للمجتمع من التلاشى وللاجتماع من الفساد وان من اللازم عليه ان يحرم نفسه من بعض مشتهياته ليحتفظ به المجتمع فينال بذلك البعض الباقي ويثنى عليه الناس ويمدحوه ما دام حيا أو يكتب اسمه في اوراق التاريخ بخطوط ذهبية .

اما ثناء الناس وتقديرهم العمل فانما يجرى في امور هامة علموا بها اما الجزئيات وما لم يعلموا بها كالاعمال السرية فلا وقاء يقيها واما الذكر الجارى والاسم السامى ويؤثر غالبا فيما فيه تفدية وتضحية من الأمور كالقتل في سبيل الوطن وبذل المال والوقت في ترفيع مباني الدولة ونحو ذلك فليس ممن يبتغيه ويذعن به ثم لا يذعن بما وراء الحياة الدنيا الا اعتقادا خرافيا إذ لا انسان على هذا بعد الموت والفوت حتى يعود إليه شئ من النفع بثناء أو حسن ذكر واى عاقل يشترى تمتع غيره بحرمان نفسه من غير أي فائدة عائدة أو يقدم الحياة لغيره باختيار الموت لنفسه وليس عنده بعد الموت الا البطلان والاعتقاد الخرافى يزول بأدنى تنبه والتفات .

فقد تبين ان شيئا من هذه الأمور ليس من شأنه ان يقوم مقام التوحيد ولا ان يخلفه في صد الإنسان عن المعصية ونقض السنن والقوانين وخاصة إذا كان العمل مما من طبعه ان لا يظهر للناس وخاصة إذا كان من طبعه ان لو ظهر ظهر على خلاف ما هو عليه لاسباب تقتضي ذلك كالتعفف الذى يزعم انه كان شرها وبغيا كما تقدم من حديث مراودة امرأة العزيز يوسف (عليه السلام) وقد كان امره يدور بين خيانة العزيز في امرأته وبين اتهام المرأة اياه عند العزيز بقصدها بالسوء فلم يمنعه (عليه السلام) ولا كان من الحري ان يمنعه شئ الا العلم بمقام ربه .

2 - يحصل التقوى الدينى بأحد امور ثلاثة وان شئت فقل انه سبحانه يعبد بأحد طرق ثلاثة الخوف والرجاء والحب قال تعالى : " في الاخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور " الحديد : 20 فعلى المؤمن ان يتنبه لحقيقة الدنيا وهى انها متاع الغرور كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا فعليه ان لا يجلعها غاية لاعماله فيالحياة وان يعلم ان له وراءها دارا وهى الدار الاخرة فيها ينال غاية اعماله وهى عذاب شديد للسيئات يجب ان يخافه ويخاف الله فيه ومغفرة من الله قبال اعماله الصالحة يجب ان يرجوها ويرجو الله فيها ورضوان من الله يجب ان يقدمه لرضى نفسه .

وطباع الناس مختلفة في ايثار هذه الطرق الثلاثة واختيارها فبعضهم وهو الغالب يغلب

على نفسه الخوف وكلما فكر فيما اوعد الله الظالمين والذين ارتكبوا المعاصي والذنوب من انواع العذاب الذى اعد لهم زاد في نفسه خوفا ولفرائصه ارتعادا وساق بذلك إلى عبادته تعالى خوفا من عذابه .

وبعضهم يغلب على نفسه الرجاء وكلما فكر فيما وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة والكرامة وحسن العاقبة زاد رجاء وبالغ في التقوى والتزام الأعمال الصالحات طمعا في المغفرة والجنة .

(223/395)

وطائفة ثالثا وهم العلماء بالله لا يعبدون الله خوفا من عقابه ولا طمعا في ثوابه وانما يعبدونه لأنه اهل للعبادة وذلك لانهم عرفوه بما يليق به من الأسماء الحسنى والصفات العليا فعلموا انه ربهم الذى يملكهم وارادتهم ورضاهم وكل شئ غيرهم ويدبر الامر

وحده وليسوا الا عباد الله فحسب وليس للعبد إلا أن يعبد ربه ويقدم مرضاته وارادته على مرضاته وارادته فهم يعبدون الله ولا يريدون في شئ من اعمالهم فعلا أو تركا الا وجهه ولا يلتفتون فيها إلى عقاب يخوفهم ولا إلى ثواب يرجيهم وان خافوا عذابه ورجوا رحمته والى هذا يشير قوله (عليه السلام) " ما عبدتك خوفا من نارك ولا رغبة في جنتك

بل وجد تك اهلا للعبادة فعبد تك " .

وهؤلاء لما خصوا رغباتهم المختلفة با بتغاء مرضات ربهم ومحضوا اعمالهم في طلب غاية هو ربهم تظهر في قلوبهم المحبة الإلهية وذلك انهم يعرفون ربهم بما عرفهم به نفسه وقد سمى نفسه باحسن الأسماء ووصف ذاته بكل صفة جميلة ومن خاصة النفس الإنسانية ان تنجذب إلى الجميل فكيف بالجميل على الإطلاق وقال تعالى : " ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شئ فاعبدوه " الأنعام : 102 ثم قال : " الذى احسن كل شئ خلقه " الم السجدة : 7 فأفاد ان الخلقة تدور مدار الحسن وانهما متلازمان متصادقان ثم ذكر سبحانه في آيات كثيرة ان ما خلقه من شئ آية تدل عليه وان في السماوات والأرض لايات لاولى الألباب فليس في الوجود ما لا يدل عليه تعالى ولا يحكى شيئًا من جماله وجلاله . فالاشياء من جهة انواع خلقها وحسنها تدل على جماله الذى لا يتناهى ويحمده ويثنى على حسنه الذى لا يفنى ومن جهة ما فيها من انواع النقص والحاجة تدل على غناه المطلق وتسبح وتنزه ساحة القدس والكبرياء كما قال تعالى : " وان من شئ الا يسبح بحمده " اسرى 44 .

فهؤلاء يسلكون في معرفة الأشياء من طريق هداهم إليه ربهم وعرفها لهم وهو انها آيات له وعلامات لصفات جماله وجلاله وليس لها من النفسية والاصالة والاستقلال الا انها كمرائى تجلى بحسنها ما وراءها من الحسن غير المتناهى وبفقرها وحاجتها ما احاط بها من الغنى المطلق وبذلتها واستكانتها ما فوقها من العزة والكبرياء ولا يلبث الناظر إلى الكون بهذه النظرة دون ان تنجذب نفسه إلى ساحة العزة والعظمة ويغشى قلبه من المحبة الإلهية ما ينسيه نفسه وكل شئ ويمحو رسم الاهواء والاميال النفسانية عن باطنه ويبدل فؤاده قلبا سليما ليس فيه الا الله عز اسمه قال تعالى : " والذين آمنوا اشد حبا لله " البقرة : 165 .

ولذلك يرى اهل هذا الطريق ان الطريقين الاخرين اعني طريق العبادة خوفا

وطريق العبادة طمعا لا يخلوان من شرك فان الذى يعبده تعالى خوفا من عذابه يتوسل به تعالى إلى دفع العذاب عن نفسه كما ان من يعبده طمعا في ثوابه يتوسل به تعالى إلى الفوز بالنعمة والكرامة ولو امكنه الوصول إلى ما يبتغيه من غير ان يعبده لم يعبده ولا حام حول معرفته وقد تقدمت الرواية عن الصادق (عليه السلام) " هل الدين الا الحب " وقوله (

عليه السلام) في حديث : وانى اعبده حبا له وهذا مقام مكنون لا يمسه الا المطهرون " الحديث وانما كان اهل الحب مطهرين لتنزههم عن الاهواء النفسانية والالواث المادية فلا يتم الاخلاص في العبادة الا من طريق الحب 3 - كيف يورث الحب الاخلاص ؟ عبادته تعالى خوفا من العذاب تبعث الإنسان إلى التروك وهو الزهد في الدنيا للنجاة في الاخرة فالزاهد من شأنه ان يتجنب المحرمات أو ما في معنى الحرام اعني ترك الواجبات وعبادته تعالى طمعا في الثواب تبعث إلى الأفعال وهو العبادة في الدنيا بالعمل الصالح لنيل نعم الاخرة والجنة فالعابد من شأنه ان يلتزم الواجبات أو ما في معنى الواجب وهو ترك الحرام والطريقان معا انما يدعوان إلى الاخلاص للدين لا لرب الدين .

واما محبة الله سبحانه فانها تطهر القلب من التعلق بغيره تعالى من زخارف الدنيا وزينها من ولد أو زوج أو مال أو جاه حتى النفس وما لها من حظوظ وآمال وتقصر القلب في التعلق به تعالى وبما ينسب إليه من دين أو نبى أو ولى وسائر ما يرجع إليه تعالى بوجه فان حب الشئ حب لآثاره .

فهذا الإنسان يحب من الأعمال ما يحبه الله ويبغض منها ما يبغضه الله ويرضى برضا الله ولرضاه ويغضب بغضب الله ولغضبه وهو النور الذى يضئ له طريق العمل قال تعالى : " أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس " الأنعام : 122 والروح الذى يشير إليه بالخيرات والاعمال الصالحات قال تعالى : " وايدهم بروح منه " المجادلة : 22 وهذا هو السر في انه لا يقع منه الا الجميل والخير ويتجنب كل مكروه وشر .

واما الموجودات الكونية والحوادث الواقعة فانه لا يقع بصره على شئ منها خطير أو حقير كثير أو يسير الا احبه واستحسنه لأنه لا يرى منها الا انها آيات محضة تجلى له ما وراءها من الجمال المطلق والحسن الذى لا يتناهى العارى من كل شين ومكروه .

ولذلك كان هذا الإنسان محبورا بنعمة ربه بسرور لا غم معه ولذة وابتهاج لا الم ولا حزن معه وامن لا خوف معه فان هذه العوارض السوء انما تطرء عن ادراك للسوء وترقب للشر والمكروه ومن كان لا يرى الا الخير والجميل ولا يجد الا ما يجرى على وفق ارادته ورضاه فلا سبيل للغم والحزن والخوف وكل ما يسوء الإنسان ويؤذيه إليه بل ينال من السرور والابتهاج والامن ما لا يقدره ولا يحيط به الا الله سبحانه وهذا أمر ليس في وسع النفوس العادية ان تتعقله وتكتنهه الا بنوع من التصور الناقص .

واليه يشير امثال قوله تعالى : " إلا أن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا

وكانوا يتقون " يونس : 63 وقوله : " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون " الأنعام : 82 .

(227/395)

وهؤلاء هم المقربون الفائزون بقربه تعالى إذ لا يحول بينهم وبين ربهم شئ مما يقع عليه الحس أو يتعلق به الوهم أو تهواه النفس أو يلبسه الشيطان فان كل ما يترائى لهم ليس الا آية كاشفة عن الحق المتعال لا حجابا ساترا فيفيض عليهم ربهم علم اليقين ويكشف لهم عما عنده من الحقائق المستورة عن هذا الاعين المادية العمية بعد ما يرفع الستر فيما بينه وبينهم كما يشير إليه قوله تعالى : " كلا ان كتاب الابرار لفى عليين وما ادراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون " المطففين : 21 وقوله تعالى : " كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم " التكاثر : 6 وقد تقدم كلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم " المائدة : 105 في الجزء السادس من الكتاب .

وبالجملة هؤلاء في الحقيقة هم المتوكلون على الله المفوضون إليه الراضون بقضائه المسلمون لامره إذ لا يرون الا خيرا ولا يشاهدون الا جميلا فيستقر في نفوسهم من الملكات الشريفة والاخلاق الكريمة ما يلائم هذا التوحيد فهم مخلصون لله في اخلاقهم كما كانوا مخلصين له في

اعمالهم هذا معنى اخلاص العبد دينه لله قال تعالى : " هو الحى لا اله هو فادعوه مخلصين له الدين " المؤمن : 65 .

4 – واما اخلاصه تعالى عبده له فهو ما يجده العبد في نفسه من الاخلاص له منسوبا إليه تعالى فان العبد لا يملك من نفسه شيئًا الا بالله والله سبحانه هو المالك لما ملكه اياه فاخلاصه دينه وان شئت فقل اخلاصه نفسه لله هو اخلاصه تعالى اياه لنفسه .

(228/395)

نعم ههنا شئ وهو ان الله سبحانه خلق بعض عباده هؤلاء على استقامة الفطرة واعتدال الخلقة فنشأوا من بادئ الأمر بأذهان وقادة وادراكات صحيحة ونفوس طاهرة وقلوب سليمة فنالوا بمجرد صفاء الفطرة وسلامة النفس من نعمة الاخلاص ما ناله غيرهم بالاجتهاد والكسب بل اعلى وارقى لطهارة داخلهم من التلوث بألواث الموانع والمزاحمات والظاهر ان هؤلاء هم المخلصون بالفتح لله في عرف القرآن .

وهؤلاء هم الأنبياء والائمة وقد نص القرآن بأن الله اجتباهم أي جمعهم لنفسه واخلصهم لحضرته قال تعالى : " واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم " الأنعام : 87 وقال : " هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج " الحج : 78 .

وآتاهم الله سبحانه من العلم ما هو ملكة تعصمهم من اقتراف الذنوب وارتكاب المعاصي وتمتنع معه صدور شئ منها عنهم صغيرة أو كبيرة وبهذا يمتاز العصمة من العدالة فانهما معا تمنعان من صدور المعصية لكن العصمة يمتنع معها الصدور بخلاف العدالة .

وقد تقدم آنفا ان من خاصة هؤلاء القوم انهم يعلمون من ربهم ما لا يعلمه غيرهم والله سبحانه يصدق ذلك بقوله : " سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين " الصافات 160 وان المحبة الإلهية تبعثهم على ان لا يريدوا الا ما يريده الله وينصرفوا عن المعاصي والله سبحانه يقرر ذلك بما حكاه عن ابليس في غير مورد من كلامه كقوله : " قال فبعزتك لا غوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين " ص 83 .

ومن الدليل على ان العصمة من قبيل العلم قوله تعالى خطابا لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) : " ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الا انفسهم وما يضرونك من شئ وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما " النساء : 113 وقد فصلنا الكلام في معنى الآية في تفسير سورة النساء .

وقوله تعالى حكاية عن يوسف (عليه السلام) : " قال رب السجن احب الي مما يدعونني إليه والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين " يوسف : 33 وقد اوضحنا وجه دلالة الآية على ذلك .

ويظهر من ذلك اولا ان هذا العلم يخالف سائر العلوم في ان اثره العملي وهو صرف الإنسان عما لا ينبغي إلى ما ينبغي قطعي غير متخلف دائما بخلاف سائر العلوم فان الصرف فيها اكثري غير دائم قال تعالى : " وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم " النمل : 14 وقال : " أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم " الجاثية : 23 وقال : " فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم " الجاثية : 17 .

ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى : " سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين " الصافات : 160 وذلك ان هؤلاء المخلصين من الأنبياء والائمة (عليه السلام) قد بينوا لنا جمل المعارف المتعلقة باسمائه تعالى وصفاته من طريق السمع وقد حصلنا العلم به من طريق البرهان أيضا والآية مع ذلك تنزهه تعالى عن ما نصفه به دون ما يصفه به اولئك المخلصون فليس إلا أن العلم غير العلم وان كان متعلق العلمين واحدا من وجه .

وثانيا ان هذا العلم اعني ملكة العصمة لا يغير الطبيعة الإنسانية المختارة في افعالها الارادية ولا يخرجها إلى ساحة الاجبار والاضطرار كيف ؟ والعلم من مبادئ الاختيار ومجرد قوة العلم لا يوجب الا قوة الإرادة كطالب السلامة إذا ايقن بكون مائع ما سما قاتلا من حينه فانه

يمتنع باختياره من شربه قطعا وانما يضطر الفاعل ويجبر إذا اخرج من يجبره احد طرفي الفعل والترك من الامكان إلى الامتناع .

(230/395)

ويشهد على ذلك قوله : " واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون " الأنعام : 88 تفيد الآية انهم في امكانهم ان يشركوا بالله وان كان الاجتباء والهدى الإلهى مانعا من ذلك وقوله : " يا ايها النبي بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته " المائدة : 67 إلى غير ذلك من الآيات .

فالانسان المعصوم انما ينصرف عن المعصية بنفسه ومن عن اختياره وارادته ونسبة الصرف إلى عصمته تعالى كنسبة انصراف غير المعصوم عن المعصية إلى توفيقه تعالى .

ولا ينافى ذلك أيضا ما يشير إليه كلامه تعالى ويصرح به الاخبار ان ذلك من الأنبياء والائمة بتسديد من روح القدس فان النسبة إلى روح القدس كنسبة تسديد المؤمن إلى روح الإيمان ونسبة الضلال والغواية إلى الشيطان وتسويله فان شيئًا من ذلك لا يخرج الفعل عن كونه فعلا صادرا عن فاعله مستندا إلى اختياره وارادته فافهم ذلك .

نعم هناك قوم زعموا ان الله سبحانه انما يصرف الإنسان عن المعصية لا من طريق اختياره وارادته بل من طريق منازعة الأسباب ومغالبتها بخلق ارادة أو ارسال ملك يقاوم ارادة الإنسان فيمنعها عن التأثير أو يغير مجراها ويحرفها إلى غير ما من طبع الإنسان ان يقصده كما يمنع الإنسان القوى الضعيف عما يريده من الفعل بحسب طبعه .

وبعض هؤلاء وان كانوا من المجبرة لكن الأصل المشترك الذى يبتنى عليه نظرهم هذا واشباهه انهم يرون ان حاجة الأشياء إلى البارئ الحق سبحانه انما هي في حدوثها واما في بقائها بعد ما وجدت فلا حاجة لها إليه فهو سبحانه سبب في عرض الأسباب الا انه لما كان اقدر واقوى من كل شئ كان له ان يتصرف في الأشياء حال البقاء أي تصرف شاء من منع أو اطلاق واحياء أو اماتة ومعافاة أو تمريض وتوسعة أو تقتير إلى غير ذلك بالقهر .

فإذا اراد الله سبحانه ان يصرف عبدا عن شر مثلا ارسل إليه ملكا ينازعه في مقتضى طبعه ويغير مجرى ارادته مثلا عن الشر إلى الخير أو اراد ان يضل عبدا لاستحقاقه ذلك سلط عليه ابليس فحوله من الخير إلى الشر وان كان ذلك لا بمقدار يوجب الاجبار والاضطرار .

وهذا مدفوع بما نشاهده من انفسنا في اعمال الخير والشر مشاهدة عيان انه ليس هناك سبب آخر يغايرنا وينازعنا فيغلب علينا غير انفسنا التى تعمل اعمالها عن شعور بها وارادة مترتبة عليه قائمين بها فالذي يثبته السمع والعقل وراء نفوسنا من الأسباب كالملك والشيطان سبب طولى لا عرضى وهو ظاهر .

مضافا إلى ان المعارف القرآنية من التوحيد وما يرجع إليه يدفع هذا القول من أصله وقد تقدم شطر وافر من ذلك في تضاعيف الأبحاث السالفة .

(بحث روائي) في المعاني باسناده عن أبى حمزة الثمالى عن السجاد (عليه السلام) في حديث تقدم صدره في البحث الروائي السابق .

قال (عليه السلام) : وكان يوسف من اجمل اهل زمانه فلما راهق يوسف راودته امرأة الملك عن نفسه فقال معاذ الله انا اهل بيت لا يزنون فغلقت الابواب عليها وعليه وقالت لا تخف والقت نفسها عليه فافلت منها هاربا إلى الباب ففتحه فلحقته فجذبت قميصه من خلفه فاخرجته منه فأفلت يوسف منها في ثيابه فألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من اراد باهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب اليم .

قال فهم الملك بيوسف ليعذبه فقال له يوسف - ما اردت باهلك سوءا - بل هي راودتني عن نفسي - فسل هذا الصبى اينا راود صاحبه عن نفسه ؟ قال كان عندها من اهلها

صبى زائر لها – فانطق الله الصبى لفصل القضاء – فقال ايها الملك انظر إلى قميص يوسف فان كان مقدودا من قدامه فهو الذى راودها وان كان مقدودا من خلفه فهى التى راودته .

(232/395)

فلما سمع الملك كلام الصبى وما اقتصه – افزعه ذلك فزعا شديدا فجئ بالقميص فنظر إليه فلما رآه مقدودا من خلفه قال لها انه من كيدكن ان كيدكن عظيم وقال ليوسف اعرض عن هذا ولا يسمعه منك احد واكتمه .

قال فلم يكتمه يوسف واذاعه في المدينة حتى قلن نسوة منهن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه فبلغها ذلك فارسلت اليهن وهيات لهن طعاما ومجلسا ثم اتتهن باترنج وآتت كل واحدة منهن سكينا ثم قالت ليوسف اخرج عليهن فلما رأينه اكبرنه وقطعن ايديهن وقلن ما قلن يعنى النساء فقالت لهن هذا الذى لمتننى فيه تعنى في حبه وخرجن النسوة من تحتها – فارسلت كل واحدة منهن إلى يوسف سرا من صاحبتها تسأله الزيارة فأبى عليهن وقال الا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين وصرف الله عنه كيدهن .

فلما شاع أمر يوسف وامرأة العزيز والنسوة في مصر بدا للملك بعد ما سمع قول الصبى ليسجنن يوسف فسجنه في السجن ودخل السجن مع يوسف فتيان وكان من قصتهما

وقصة يوسف ما قصه الله في الكتاب قال أبو حمزة ثم انقطع حديث على بن الحسين (عليه السلام).

اقول وروى ما في معناه العياشي في تفسيره عن أبى حمزة عنه (عليه السلام) باختلاف يسير وقوله (عليه السلام) " قال معاذ الله انا اهل بيت لا يزنون " تفسير بقرينة المحاذاة لقوله في الآية " انه ربى احسن مثواى " الخ وهو يؤيد ما قدمناه في بيان الآية ان الضمير إلى الله سبحانه لا إلى عزيز مصر كما ذهب إليه اكثر المفسرين فافهم ذلك.

وقوله فأبى عليهن وقال " الا تصرف عنى " الخ ظاهر في انه (عليه السلام) لم ياخذ قوله رب السجن احب إلى مما يدعونني إليه جزءا من الدعاء فيوافق ما قدمناه في بيان الآية انه ليس بدعاء.

وفي العيون باسناده عن حمدان عن على بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا على بن موسى فقال له المأمون يا ابن رسول الله - ا ليس من قولك: ان الأنبياء معصومون قال بلى وذكر الحديث إلى ان قال فيه: (قال ظ) فاخبرني عن قول الله تعالى: " ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه " فقال الرضا (عليه السلام) لقد

همت به ولولا ان راى برهان ربه لهم بها لكنه كان معصوما والمعصوم لا يهم بذنب ولا يا تيه

.

ولقد حدثنى أبى عن ابيه الصادق (عليه السلام) انه قال همت بان تفعل وهم بان لا يفعل

فقال المأمون لله درك يا ابا الحسن .

اقول : تقدم ان ابن الجهم هذا لا يخلو عن شئ لكن صدر الحديث اعني جواب الرضا (عليه السلام) يوافق ما قدمناه في بيان الآية واما ما نقله عن جده الصادق (عليه السلام) انها همت بان تفعل وهم بان لا يفعل فلعل المراد به ما ذكره الرضا (عليه السلام) من الجواب لقبوله الانطباق عليه ولعل المراد به همه بقتلها كما يؤيده الحديث الاتى فينطبق على بعض الاحتمالات المتقدمة في بيان الآية .

وفيه باسناده عن أبى الصلت الهروي قال : لما جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا (عليه السلام) اهل المقالات من اهل الإسلام ومن الديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين وسائر اهل المقالات فلم يقم احد الا وقد الزمه حجته كأنه القم حجرا .

قام إليه على بن محمد بن الجهم فقال يا ابن رسول الله أتقول بعصمة الأنبياء ؟ فقال نعم فقال له فما تقول في قوله عزوجل في يوسف " ولقد همت به وهم بها " ؟ فقال له اما قوله تعالى في يوسف " ولقد همت به وهم بها " فانها همت بالمعصية وهم يوسف

بقتلها ان اجبرته لعظيم ما تداخله فصرف الله عنه قتلها والفاحشة وهو قوله عزوجل " كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء " والسوء القتل والفحشاء الزنا .

(234/395)

وفي الدر المنثور اخرج أبو نعيم في الحلية عن على بن أبى طالب في قوله : " ولقد همت به وهم بها " قال طمعت فيه وطمع فيها وكان من الطمع ان هم بحل التكة فقامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوب ابيض بينها وبينه فقال أي شئ تصنعين ؟ فقالت استحيى من الهى ان يرانى على هذه الصورة فقال يوسف (عليه السلام) تستحين من صنم لا ياكل ولا يشرب ولا استحيى انا من الهى الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ثم قال لا تنالينها منى ابدا وهو البرهان الذى راى .

اقول والرواية من الموضوعات كيف ؟ وكلامه وكلام سائر ائمة اهل البيت (عليه السلام) مشحون بذكر عصمة الأنبياء ومذهبهم في ذلك مشهور .

على ان سترها الصنم وانتقاله من ذلك إلى ما ذكره لها من الحجة لا يعد من رؤية البرهان وقد ورد هذا المعنى في عدة روايات من طرق اهل البيت (عليه السلام) لكنها آحاد لا تعويل عليها نعم لا يبعد ان تقوم المراة إلى ستر صنم كان هناك فتنزع نفس يوسف (عليه

السلام) إلى مشاهدة آية التوحيد عند ذلك فيرتفع الحجاب بينه وبين ساحة الكبرياء فيرى ما يصرفه عن كل سوء وفحشاء كما كان له ذلك من قبل وقد قال تعالى في حقه : انه من عبادنا المخلصين فان صح شئ من هذه الروايات فليكن هذا معناه .

وفيه اخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال " : عثر يوسف (عليه السلام) ثلاث عثرات حين هم بها فسجن وحين قال اذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين فأنساه الشيطان ذكر ربه وحين قال انكم لسارقون قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل .

اقول والرواية تخالف صريح كلامه تعالى حيث يذكر ان الله اجتباه واخلصه لنفسه وان الشيطان لا سبيل له إلى من اخلصه الله لنفسه وكيف يستقيم لمن هم على افحش معصية وانساه الشيطان ذكر ربه ثم كذب في مقاله فعاقبه الله بالسجن ثم بلبثه فيه بضع سنين وجبه بالسرقة ان يعده الله صديقا من عباده المخلصين والمحسنين ويذكر انه آتاه الحكم والعلم واجتباه واتم عليه نعمته وعلى هذا السبيل روايات جمة رواها في الدر المنثور وقد تقدم نقل شطر منها عند بيان الآيات ولا تعويل على شئ منها .

وفيه اخرج احمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه

وآله وسلم) قال : تكلم اربعة وهم صغار ابن ماشطه بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم .

وفي تفسير القمى قال وفي رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (عليه السلام) : في قوله " قد شغفها حبا " يقول قد حجبها حبه عن الناس فلا تعقل غيره والحجاب هو الشغاف والشغاف هو حجاب القلب .

وفيه في حديث جمعها النسوة وتقطيعهن ايديهن قال " : فما امسى يوسف (عليه السلام) في ذلك اليوم – حتى بعثت إليه كل امراه رأته تدعوه إلى نفسها فضجر يوسف في ذلك اليوم فقال رب السجن احب إلى مما يدعونني إليه والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين فاستجاب له ربه – فصرف عنه كيدهن . الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الميزان حـ 11 صـ 117.168﴾

(236/395)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والتسعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والتسعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 35 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 40 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت هذه الأمور موجبة لرفعته ، فكان حينئذٍ أبعد شيء عن السجن لو كان الناس متمكنين من جري أمورهم على حسب السديد من عقولهم ، أخبر تعالى أنهم خالفوا داعي السداد واستبدلوا الغيّ بالرشاد ، لحكمه بأن السجن سبب عظيم لصرف كيدهن عنه وإثبات العز والمكنة له ، ففعلوا – مع علمهم بأن ذلك ظلم وسفه – إجابة لغالب أمر الله وإظهاراً لعليّ قدره بمخالفة العوائد مرة بعد مرة ، وهدم سداد الأسباب كرة أثر كرة ؛ فقال : ﴿ ثم ﴾ لهذا المعنى ، وهو أنهم كان ينبغي أن يكونوا من سجنه في غاية البعد ﴿ بدا ﴾ أي ظهر بعد الخفاء كما هي عادتهم ﴿ لهم ﴾ والبداء في الرأي : التلون فيه لظهور ما لم يكن ظهر منه .

ولما كان ذلك الظهور في حين من الدهر تلونوا بعده إلى رأي آخر ، أدخل الجار دلالة على

ذلك فقال : ﴿ من بعد ما رأوا ﴾ أي رؤيتهم ﴿ الأيات ﴾ القاطعة ببراءته القاضية بنزاهته من قد القميص وشهادة الشاهد وغير ذلك .

(5/396)

ولما كان فاعل " بداء " رأى ، فسره بقوله مؤكداً ، لأنه لا يصدق أن الإنسان يفعل ما ظهر له المانع منه : ﴿ ليسجننه ﴾ فيمكث في السجن ﴿ حتى حين ﴾ أي إلى أن تنسى تلك الإشاعة ، ويظهر الناس أنها لو كانت تحبه ما سعت في سجنه ، وقيل : إن ذلك الحين سبع سنين ، قيل : كان سبب ذلك أنها قالت للعزيز : إن هذا قد فضحني في الناس وهو يعتذر إليهم ويصف الأمر كما يحب ، وأنا محبوسة ، فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر كما يعتذر ، وإما أن تسويه بي في السجن ؛ قال أبو حيان : قال ابن عباس -رضى الله عنهما - : فأمر به فحمل على حمار وضرب أمامه بالطبل ، ونودي عليه في أسواق مصر أن يوسف العبراني أراد سيدته ، فهذا جزاءه أن يسجن ! قال أبو صالح : ما ذكر ابن عباس -رضى الله عنهما -هذا الحديث إلاّ بكى - انتهى .

وهذا دليل على قوله ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ [يوسف : 28] .

قال الإمام فخر الدين الرازي في كتاب اللوامع : وعلى الجملة فكل أحوال يوسف عليه

الصلاة والسلام لطف في عنف ، ونعمة في طي بلية ونقمة ، ويسر في عسر ، ورجاء في يأس ، وخلاص بعد لات مناص ، وسائق القدر ربما يسوق القدر إلى المقدور بعنف ، وربما يسوقه بلطف ، والقهر والعنف أحمد عاقبة وأقل تبعة - انتهى .

(6/396)

ولما ذكر السجن ، وكان سبباً ظاهراً في الإهانة ، شرع سبحانه يقص من أمره فيه ما حاصله أنه جعله سبب الكرامة ، كل ذلك بياناً للغلبة على الأمر والاتصاف بصفات القهر ، مع ما في ذلك من بيان تحقق ما تقدم به الوعد الوفي ليوسف عليه الصلاة والسلام وغير ذلك من الحكم ، فقال تعالى : ﴿ ودخل ﴾ أي فسجنوه كما بدا لهم ودخل ﴿ معه السجن فتيان ﴾ : خباز الملك وساقيه ، ورفع إليه أن الخباز أراد أن يسمه ، وظن أن الساقي مالأه على ذلك ، و " مع " تدل على الصحبة واستحداثها ، فهي تدل على دخول الثلاثة السجن في آن واحد - قاله أبو حيان ، فلما دخلوا السجن كان يوسف عليه الصلاة والسلام يحسن إلى أهله فيسلي حزينهم ، ويعود مريضهم ، ويسأل لفقيرهم ، ويهديهم إلى الخير ، ويذكرهم بالله ، فمالت إليه القلوب وكلفت به النفوس لحسن حديثه ولطيف تأتيه وما حباه الله به من الفضل والنبل وحسن الخَلق والخُلق ، وكان في السجن ناس قد انقطع

رجاءهم واشتد بلاءهم ، فلم يزل يرفق بهم حتى قالوا : بارك الله فيك ! ما أحسن وجهك وأحسن خلقك وأحسن حديثك ! لقد بورك لنا في جوارك ، ما نحب أنا كنا في غير هذا لما تخبرنا به من الأجر والكفارة والثواب والطهارة ، من أنت يا فتى ؟ فأخبرهم بنسبه الشريف ، فقال عامل السجن : لو استطعت لخليت سبيلك ! ولكن سأحسن جوارك وإيثارك ، وأحبه الفتيان ولزماه فقال : أنشد كما الله أن تحباني ، فوالله ما أحبني أحد قط إلاّ دخل على من جهته بلاء ! لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ من جهتها بلاء ، ثم أحبني أبي فدخل عليّ من جهته بلاء ، ثم أحبتني زوجة صاحبي هذا فدخل عليّ من جهتها بلاء ، فلا تحباني ، فأبيا إلاّ حبه ، فكأنه قيل : أيّ شيء اتفقى لهما بعد الدخول معه ؟ فقيل : ﴿ قال أحدهما ﴾ ليوسف عليه الصلاة والسلام ، ولعل التأكيد إما لأنه كانت عادتهما المزح ، وإما لأنهما ما رأيا شيئاً - كما قال الشعبي - وإنما صنفا هذا ليختبراه به ﴿ إني أراني ﴾ حكى الحال

الماضية في المنام ﴿ أعصر ﴾ والعصر : الاعتماد على ما فيه مائية ليحتلب منه ﴿ خمراً ﴾ أي عنباً يؤل إلى الخمر ﴿ وقال الآخر ﴾ مؤكداً لمثل ما مضى ﴿ إني أراني

أحمل ﴾ والحمل : رفع الشيء بعماد نقله ﴿ فوق رأسي خبزاً ﴾ أي طعاماً مهيأ للأكل بالخبز ، وهو عمل الدقيق المعجون بالبسط واللزق في حامٍ بالنار حتى يصلح للأكل ﴿ تأكل الطير منه ﴾ وسيأتي شرح الرؤيا من التوراة ، فكأنه قيل : فماذا تريدان من الإخبار بهذا ؟ فقالا : ﴿ نبئنا ﴾ أي أخبرنا إخباراً عظيماً ﴿ بتأويله ﴾ أي ما يرجع أمره ويصير إليه ، فكأنه قيل : وما يدريكما أني أعرف تأويله ؟ فقالا : ﴿ إنا نراك ﴾ على حالٍ علمنا بها علماً هو كالرؤية أنك ﴿ من المحسنين ﴾ أي العريقين في وصف الإحسان لكل أمر تعانيه ، فلذلك لاح لنا أنك تحسن التأويل قياساً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 38.37 ﴾

(8/396)

فصل

قال الفخر :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن زوج المرأة لما ظهر له براءة ساحة يوسف عليه السلام فلا جرم لم يتعرض له ، فاحتالت المرأة بعد ذلك بجميع الحيل حتى تحمل يوسف عليه السلام على موافقتها على مرادها ، فلم يلتفت يوسف إليها ، فلما أيست منه احتالت في طريق آخر وقالت لزوجها : إن هذا العبد العبراني فضحني في الناس يقول لهم : إني راودته عن نفسه ، وأنا لا أقدر على إظهار عذري ، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر وإما أن تحبسه كما حبستني ، فعند ذلك وقع في قلب العزيز أن الأصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة ، فهذا هو المراد من قوله ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حِينٍ ﴾ لأن البداء عبارة عن تغير الرأي عما كان عليه في الأول ، والمراد من الآيات براءته بقد القميص من دبر ، وخمش الوجه ، وإلزام الحكم أياها بقوله : ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 28] وذكرنا أنه ظهرت هناك أنواع أخر من الآيات بلغت مبلغ القطع ولكن القوم سكتوا عنها سعياً في إخفاء الفضيحة .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ بدا لهم ﴾ فعل وفاعله في هذا الموضع قوله : ﴿ الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ وظاهر هذا الكلام يقتضي إسناد الفعل إلى فعل آخر ، إلا أن النحويين اتفقوا على أن إسناد الفعل إلى الفعل لا يجوز ، فإذا قلت خرج ضرب لم يفد ألبتة ، فعند هذا قالوا : تقدير الكلام ثم بدا لهم سجنه ، إلا أنه أقيم هذا الفعل مقام ذلك الاسم ، وأقول : الذوق يشهد بأن جعل الفعل مخبر عنه لا يجوز وليس لأحد أن يقول الفعل خبراً فجعل الخبر مخبراً عنه لا يجوز ، لأنا نقول : الاسم قد يكون خبراً كقولك : زيد قائم فقائم اسم وخبر فعلمنا أن كون الشيء خبراً لا ينافي كونه مخبراً عنه ، بل نقول في هذا المقام : شكوك أحدها : أنا إذا قلنا : ضرب فعل فالمخبر عنه بأنه فعل هو ضرب ، فالفعل صار مخبراً عنه .

فإن قالوا : المخبر عنه هو هذه الصيغة وهي اسم فنقول : فعلى هذا التقدير يلزم أن يكون المخبر عنه بأنه فعل اسم لا فعل وذلك كذب وباطل ، بل نقول المخبر عنه بأنه فعل إن كان فعلاً فقد ثبت أن الفعل يصح الإخبار عنه وإن كان اسماً كان معناه : أنا أخبرنا عن الاسم بأنه فعل ومعلوم أنه باطل ، وفي هذا الباب مباحث عميقة ذكرناها في "كتب المعقولات" .

المسألة الثالثة :

قال أهل اللغة : الحين وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه ، وعلى الطويل ، وقال ابن عباس : يريد إلى انقطاع المقالة وما شاع في المدينة من الفاحشة ، ثم قيل : الحين ههنا خمس سنين ، وقيل : بل سبع سنين ، وقال مقاتل بن سليمان : حبس يوسف اثنتي

عشر سنة ، والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة ، وإنما القدر المعلوم أنه بقي محبوساً مدة طويلة لقوله تعالى :

﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : 45] .

(10/396)

أما قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانَ ﴾ فههنا محذوف ، والتقدير : لما أرادوا حبسه حبسوه وحذف ذلك لدلالة قوله : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانَ ﴾ عليه قيل : هما غلامان كانا للملك الأكبر بمصر أحدهما صاحب طعامه ، والآخر صاحب شرابه رفع إليه أن صاحب طعامه يريد أن يسمه وظن أن الآخر يساعده عليه فأمر بحبسهما بقي في الآية سؤالات :

السؤال الأول : كيف عرفا أنه عليه السلام عالم بالتعبير ؟

والجواب : لعله عليه السلام سألهما عن حزنهما وغمهما فذكرا إنا رأينا في المنام هذه الرؤيا ، ويحتمل أنهما رأياه وقد أظهر معرفته بأمور منها تعبير الرؤيا فعندها ذكرا له ذلك .

السؤال الثاني : كيف عرف أنهما كانا عبدين للملك :

الجواب : لقوله : ﴿ فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ [يوسف : 41] أي مولاه ولقوله : ﴿ اذكرنى

عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف : 42] .

السؤال الثالث : كيف عرف أن أحدهما صاحب شراب الملك ، والآخر صاحب طعامه ؟

والجواب : رؤيا كل واحد منهما تناسب حرفته لأن أحدهما رأى أنه يعصر الخمر والآخر كأنه يحمل فوق رأسه خبزاً .

السؤال الرابع : كيف وقعت رؤية المنام ؟

والجواب : فيه قولان :

القول الأول : أن يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله إني أعبر الأحلام فقال أحد الفتيين ، هلم فلنخبر هذا العبد العبراني برؤيا نخترعها له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً .

قال ابن مسعود : ما كانا رأيا شيئاً وإنما تحالما ليختبرا علمه .

والقول الثاني : قال مجاهد كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف عليه السلام فسألاه عنها ، فقال الساقي أيها العالم إني رأيت كأني في بستان فإذا بأصل عنبة حسنة فيها

ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكأن كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيتها الملك فشربه فذلك قوله : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ وقال صاحب الطعام إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها خبز وألوان وأطعمه وإذا سباع الطير تنهش منه فذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الآخر إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطير مِنْهُ ﴾ .

السؤال الخامس : كيف عرف يوسف عليه السلام أن المراد من قوله : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ رؤيا المنام ؟

الجواب : لوجوه : الأول : أنه لو لم يقصد النوم كان ذكر قوله : ﴿ أَعْصِرُ ﴾ يغنيه عن ذكر قوله ﴿ أَرَانِي ﴾ والثاني : دل عليه قوله : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ [يوسف : 36] .

السؤال السادس : كيف يعقل عصر الخمر ؟

الجواب : فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أن يكون المعنى أعصر عنب خمر ، أي العنب الذي يكون عصيره خمراً فحذف المضاف .

الثاني : أن العرب تسمي الشيء باسم ما يؤل إليه إذا انكشف المعنى ولم يلتبس يقولون فلان يطبخ دبساً وهو يطبخ عصيراً .

والثالث : قال أبو صالح : أهل عمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة إلى أهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك : نزل القرآن بألسنة جميع العرب .

السؤال السابع : ما معنى التأويل في قوله : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ .

الجواب : تأويل الشيء ما يرجع إليه وهو الذي يؤل إليه آخر ذلك الأمر .

السؤال الثامن : ما المراد من قوله : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ .

الجواب من وجوه : الأول : معناه إنا نراك تؤثر الإحسان وتأتي بمكارم الأخلاق وجميع الأفعال الحميدة .

(12/396)

قيل : إنه كان يعود مرضاهم ، ويؤنس حزينهم فقالوا إنك من المحسنين أي في حق الشركاء والأصحاب ، وقيل : إنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا إنك من المحسنين في أمر الدين ، ومن كان كذلك فإنه يوثق بما يقوله في تعبير الرؤيا ، وفي سائر الأمور ، وقيل : المراد ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ في علم التعبير ، وذلك لأنه متى عبر لم يخط كما قال ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الاحاديث ﴾ [يوسف : 101] .

السؤال التاسع : ما حقيقة علم التعبير ؟

الجواب : القرآن والبرهان يدلان على صحته .

أما القرآن فهو هذه الآية ، وأما البرهان فهو أنه قد ثبت أنه سبحانه خلق جوهر النفس الناطقة بحيث يمكنها الصعود إلى عالم الأفلاك ، ومطالعة اللوح المحفوظ والمانع لها من ذلك

اشتغالها بتدبير البدن وفي وقت النوم يقل هذا التشاغل فتقوى على هذه المطالعة فإذا وقعت الروح على حالة من الأحوال تركت آثاراً مخصوصة مناسبة لذلك الإدراك الروحاني إلى عالم الخيال فالمعبر يستدل بتلك الآثار الخيالية على تلك الإدراكات العقلية فهذا كلام مجمل ، وتفصيله مذكور في "الكتب العقلية" ، والشريعة مؤكدة له روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الرؤيا ثلاثة : رؤيا ما يحدث به الرجل نفسه ، ورؤيا تحدث من الشيطان ورؤيا التي هي الرؤيا الصادقة حقة " وهذا تقسيم صحيح في العلوم العقلية وقال عليه السلام : " رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 106.109 ﴾

(13/396)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ﴾

في الآيات التي رأوها وجهان :

أحدهما : قدُّ القميص وحز الأيدي .

الثاني : ما ظهر لهم من عفته وجماله حتى قلن ﴿ ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

﴿ ليسجننه حتى حين ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الحين ها هنا ستة أشهر ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : أنه سبع سنين ، قاله عكرمة .

الثالث : أنه زمان غير محدود ، قاله كثير من المفسرين .

وسبب حبسه بعد ظهور صِدْقه ما حكى السدي أن المرأة قالت لزوجها : إن هذا العبد العبراني قد فضحني وقال إني راودته عن نفسه ، فإما أن تطلقني حتى أعتذر وإما أن تحبسه مثل ما حبستني ، فحبسه .

قوله عز وجل : ﴿ ودخَلَ معه السجن فتيان ﴾

قال ابن عباس :

كان أحدهما خازن الملك على طعامه ، وكان الآخر ساقي الملك على شرابه ، وكان الملك وهو الملك الأكبر الوليد بن الرّيان قد اتهمهما بسمّه فحبسهما ، فحكى مجاهد أنهما قالا ليوسف لما حُبسا معه : والله لقد أحببناك حين رأيناك ، فقال يوسف : أنشدكما بالله أن أحببتماني فما أحبّني أحد إلا دخل عليّ من حبه بلاء ، لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ من حبها بلاء ، ثم أحبني أبي فدخل عليّ من حبه بلاء ، ثم أحبتني زوجة صاحبي العزيز فدخل عليّ من حبها بلاء ، لا أريد أن يحبني إلا ربي .

وقال ﴿ فتيان ﴾ لأنهما كان عبدين ، والعبد يسمى فتى صغيراً كان أم كبيراً .

﴿ قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحملُ فوق رأسي خُبزاً تأكل الطير منه ﴾ وسبب قولهما ذلك ما حكاه ابن جرير الطبري أنهما سألاه عن علمه فقال : إني أعبر الرؤيا ، فسألاه عن رؤياهما وفيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها قال مجاهد وابن إسحاق : وكذلك صدق تأويلها . روى محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً

" . الثاني : أنها كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجربة ، فلما أجابهما قالا : إنما كنا نلعب فقال ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ وهذا معنى قول ابن مسعود والسدي .

الثالث : أن المصلوب منهما كان كاذباً ، والآخر صادقاً ، قاله أبو مجلز .

وقوله ﴿ إني أراني أعصر خمراً ﴾ أي عنباً . وفي تسميته خمراً وجهان :

أحدهما : لأن عصيره يصير خمراً فعبر عنه بما يؤول إليه .

الثاني : أن أهل عُمان يسمون العنب خمراً ، قال الضحاك . وقرأ ابن مسعود : إني أراني أعصر عنباً .

﴿ نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ فيه ستة أقاويل :

أحدها : أنهم وصفوه بذلك لأنه كان يعود مريضهم ويعزي حزينهم ويوسع على من ضاق مكانه منهم ، قاله الضحاك .

الثاني : معناه لأنه كان يأمرهم بالصبر ويعدهم بالثواب والأجر .

الثالث : إنا نراك ممن أحسن العلم . حكاه ابن جرير الطبري .

الرابع : أنه كان لا يرد عذر معتذر .

الخامس : أنه كان يقضي حق غيره ولا يقضي حق نفسه .

السادس : إنا نراك من المحسنين إن أنبأتنا بتأويل رؤيانا هذه ، قاله ابن إسحاق . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(15/396)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾

قِيلَ : فِيهِ إضْمَارُ عَصِيرِ الْعِنَبِ لِلْخَمْرِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْخَمْرَ الْمَائِعَةَ لَا يَتَأَتَّى فِيهَا الْعَصْرُ .

وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَعْصِرُ مَا يَئُولُ إلَى الْخَمْرِ ، فَسَمَّاهُ بِاسْمِ الْخَمْرِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ خَمْرًا عَلَى وَجْهِ

الْمَجَازِ .

وَجَائِزٌ أَنْ يَعْصِرَ مِنْ الْعِنَبِ خَمْرًا بِأَنْ يَطْرَحَ الْعِنَبَ فِي الْخَابِيَةِ وَيُتْرَكَ حَتَّى يَنُشَّ وَيَغْلِيَ فَيَكُونَ مَا فِي الْعِنَبِ خَمْرًا فَيَكُونَ الْعَصْرُ لِلْخَمْرِ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ .

وَقَالَ الضَّحَّاكُ : فِي لُغَةٍ تُسَمِّي الْعِنَبَ خَمْرًا .

قَوْله تَعَالَى : نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ قَالَ قَتَادَةُ : "كَانَ يُدَاوِي مَرِيضَهُمْ وَيُعَزِّي حَزِينَهُمْ وَيَجْتَهِدُ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ " .

وَقِيلَ : "كَانَ يُعِينُ الْمَظْلُومَ وَيَنْصُرُ الضَّعِيفَ وَيَعُودُ الْمَرِيضَ" وَقِيلَ : "مِنْ الْمُحْسِنِينَ فِي عِبَارَةِ الرُّؤْيَا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْبُرُ لِغَيْرِهِمَا " . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(16/396)

وقال ابن عطية :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾

لما أبى يوسف المعصية ، ويئست منه امرأة العزيز طالبته بأن قالت لزوجها : إن هذا الغلام العبراني قد فضحني في الناس وهو يعتذر إليهم ويصف الأمر بحسب اختياره ، وأنا

محبوسة محجوبة ، فإما أذنت لي فخرجت إلى الناس فاعتذرت وكذبته ، وإما حبسته كما أنا محبوسة . فحينئذ بدا لهم سجنه . قال ابن عباس : فأمر به فحمل على حمار ، وضرب بالطبل ونودي عليه في أسواق مصر إن يوسف العبراني أراد سيدته فهذا جزاؤه أن يسجن ؛ قال أبو صالح : ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى .

و ﴿ بدا ﴾ معناه : ظهر ، والفاعل ب ﴿ بدا ﴾ محذوف تقديره بدو – أو – رأي . وجمع الضمير في ﴿ لهم ﴾ والساجن الملك وحده من حيث كان في الأمر تشاور . و ﴿ يسجننه ﴾ جملة دخلت عليها لام القسم . ولا يجوز أن يكون الفاعل ب ﴿ بدا ﴾ ل ﴿ يسجننه ﴾ لأن الفاعل لا يكون جملة بوجه ، هذا صريح مذهب سيبويه . وقيل الفاعل ﴿ ليسجننه ﴾ وهو خطأ ، وإنما هو مفسر للفاعل .

و ﴿ الآيات ﴾ ذكر فيها أهل التفسير أنها قد القميص ، قاله مجاهد وغيره ، وخمش الوجه الذي كان مع قد القميص ، قاله عكرمة ، وحز النساء أيديهن ، قاله السدي .

قال القاضي أبو محمد : ومقصد الكلام إنما هو أنهم رأوا سجنه بعد بدو الآيات المبرئة له من التهمة ، فهكذا يبين ظلمهم له وخمش الوجه وحز النساء أيديهن ليس فيهما تبرية ليوسف ، ولا تتصور تبرية إلا في خبر القميص ، فإن كان المتكلم طفلاً – على ما روي – فهي آية عظيمة ، وإن كان رجلاً فهي آية فيها استدلال ما ، والعادة أنه لا يعبر بآية إلا فيما

ظهوره في غاية الوضوح، وقد تقع ﴿ الآيات ﴾ أيضاً على المبينات كانت في أي حد اتفق من الوضوح.

(17/396)

ويحتمل أن يكون معنى قوله : ﴿ من بعد ما رأوا الآيات ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم من وجوه الأمر وقرائنه أن يوسف بريء ، فلم يرد تعيين آية بل قرائن جميع القصة .

و" الحين " في كلام العرب وفي هذه الآية الوقت من الزمن غير محدود يقع للقليل والكثير ، وذلك يين موارده في القرآن ؛ وقال عكرمة " الحين " - هنا - يراد به سبعة أعوام ، وقيل : بل يراد بذلك سنة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا بحسب ما كشف الغيب في سجن يوسف .

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقرأ " عتى حين " بالعين - وهي لغة هذيل - فقال له : من أقرأك ؟ قال : ابن مسعود ، فكتب عمر إلى ابن مسعود : إن الله أنزل القرآن عربياً بلغة قريش ، فبها أقرىء الناس ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، وروي عن ابن عباس أنه قال : عثر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات :

﴿ همّ ﴾ [يوسف : 24] فسجن ، وقال : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ [يوسف : 42

] ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ [يوسف : 42] فطول سجنه ، وقال : ﴿ إنكم لسارقون ﴾ [يوسف : 70] فروجع : ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ [يوسف : 77] .

وقوله تعالى : ﴿ ودخل معه السجن ﴾ الآية ، المعنى : فسجنوه فدخل معه السجن غلامان سجنا أيضاً ، وهذه " مع " تحتمل أن تكون باقتران وقت الدخول ، وأن لا تكون بل دخلوا أفذاذاً ، وروي أنهما كانا للملك الأعظم - الوليد بن الريان - أحدهما : خبازه ، والآخر : ساقيه .

(18/396)

و " الفتى " الشاب ، وقد تقع اللفظة على المملوك وعلى الخادم الحر ، ويحتمل أن يتصف هذان بجميع ذلك ، واللفظة من ذوات الياء ، وقولهم : الفتوة شاذ . وروي أن الملك اتهمهما بأن الخابز منهما أراد سمه ، ووافقه على ذلك الساقي ، فسجنهما ، قاله السدي ، فلما دخل يوسف السجن استمال الناس فيه بحسن حديثه وفضله ونبله ، وكان يسلي حزينهم ويعود مريضهم ويسأل لفقيرهم ويندبهم إلى الخير ، فأحبه الفتيان ولزماه ، وأحبه صاحب السجن والقيم عليه ، وقال له : كن في أي البيوت شئت فقال له يوسف : لا تحبني

يرحمك الله ، فلقد أدخلت علي المحبة مضرات : أحبتني عمتي فامتحنت لمحبتها ، وأحبني أبي فامتحنت لمحبته لي ، وأحبتني امرأة العزيز فامتحنت لمحبتها بما ترى ، وكان يوسف عليه السلام قد قال لأهل السجن : إني أعبر الرؤيا وأجيد ، فروي عن ابن مسعود أن الفتيين استعملا هاتين المنامتين ليجرباه ؛ وروى عم مجاهد أنهما رأيا ذلك حقيقة ، فأرادا سؤاله ، فقال أحدهما واسمه بنو ، فيما روي ، إني رأيت حبلة من كرم لها ثلاثة أغصان حسان ، فيها عناقيد عنب حسان ، فكنت أعصرها وأسقي الملك ؛ وقال الآخر ، واسمه مجلث ، كنت أرى أني أخرج من مطبخة الملك وعلى رأسي ثلاث سلال فيها خبز ، والطير تأكل من أعلاه .

وقوله ﴿ أعصر خمراً ﴾ قيل : إنه سمى العنب خمراً بالمآل ، وقيل : هي لغة أزد عمان ، يسمون العنب خمراً ، وقال الأصمعي : حدثني المعتمر ، قال : لقيت أعرابياً يحمل عنباً في وعاء فقلت : ما تحمل ؟ قال : خمراً ، أراد العنب .

وفي قراءة أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود "إني أراني أعصر عنباً" .

قال القاضي أبو محمد : ويجوز أن يكون وصف الخمر بأنها معصورة ، إذ العصر لها ومن أجلها وقوله ﴿ خبزاً ﴾ يروى أنه رأى ثريداً فوق رأسه ، وفي مصحف ابن مسعود "فوق رأسي ثريداً تأكل الطير منه" .

وقوله ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ قال الجمهور : يريدان في العلم ، وقال الضحاك وقتادة : المعنى : ﴿ من المحسنين ﴾ في جريه مع أهل السجن وإجماله معهم ، وقيل : إنه أراد إخباره أنهما يريان له إحساناً عليهما ويداً إذا تأول لهما ما رأياه ، ونحا إليه ابن إسحاق.

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(20/396)

وقال القرطبى :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ أي ظهر للعزيز وأهل مشورته "مِن بَعْدِ أن رأوا الآيات" أي علامات براءة يوسف من قدّ القميص من دبر ، وشهادة الشاهد ، وحَزّ الأيدي ، وقلة صبرهنّ عن لقاء يوسف أن يسجنوه كتماناً للقصة ألاّ تشيع في العامة ، وللحيلولة بينه وبينها .

وقيل : هي البركات التي كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم ؛ والأول أصح .

قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس في قوله : "ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ" قال : القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدي من الآيات ، وإعظام النساء إياه من الآيات .

وقيل : ألجأها الخجل من الناس ، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب ، لتشتفي إذا مُنعت من نظره ؛ قال :

وما صَبابةُ مشتاقٍ على أملٍ . . .

مِن اللّقاء كمشتاقٍ بلا أَمَل

أو كادته رجاء أن يَمَل حبسه فيبذل نفسه .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ "يَسْجُنُنَّهُ" في موضع الفاعل ؛ أي ظهر لهم أن يسجنوه ؛ هذا قول سيبويه .

قال المبرّد : وهذا غلط ؛ لا يكون الفاعل جملة ، ولكن الفاعل ما دلّ عليه "بَدَا" وهو مصدر ؛ أي بدا لهم بَداءٌ ؛ فحذف لأن الفعل يدلّ عليه ؛ كما قال الشاعر :

وحقّ لمن أبو موسى أبوهُ . . .

يُوَفّقه الذي نَصَب الجبالاَ

أي وحقّ الحقُّ ، فحذف .

وقيل : المعنى ثم بدا لهم رأيٌ لم يكونوا يعرفونه ؛ وحذف هذا لأن في الكلام دليلاً عليه ،

وحذف أيضاً القول ؛ أي قالوا : ليسجننه ، واللام جواب ليمين مضمر ؛ قاله الفرّاء ، وهو فعل مذكَّر لا فعل مؤنث ؛ ولو كان فعلاً مؤنثاً لكان يَسْجُنّانه ؛ ويدلّ على هذا قوله "لَهُمْ" ولم يقل لهنّ ، فكأنه أخبر عن النسوة وأعوانهنّ فغلب المذكر ؛ قاله أبو عليّ .

(21/396)

وقال السّديّ : كان سبب حبس يوسف أن امرأة العزيز شكت إليه أنه شهَّرها ونشر خبرها ؛ فالضمير على هذا في "لَهُمْ" للملك .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ حتى حِينٍ ﴾ أي إلى مدّة غير معلومة ؛ قاله كثير من المفسّرين .

وقال ابن عباس : إلى انقطاع ما شاع في المدينة .

وقال سعيد بن جُبَيْر : إلى ستة أشهر .

وحكى الكِيَا أنه عَنَى ثلاثة عشر شهراً .

عِكْرمة : تسع سنين .

الكَلْبيّ : خمس سنين .

مقاتل : (سبع) .

وقد مضى في "البقرة" القول في الحين وما يرتبط به من الأحكام .

وقال وهب : أقام في السجن اثنتي عشرة سنة .

و"حتى" بمعنى إلى ؛ كقوله ﴿ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ وجعل الله الحبس تطهيراً ليوسف صلى الله عليه وسلم من هَمِّه بالمرأة .

وكأن العزيز وإن عرف براءة يوسف أطاع المرأة في سجن يوسف .

قال ابن عباس : عثر يوسف ثلاث عثرات : حين هَمّ بها فسجن ، وحين قال للفتى : "اذكرني عِنْدَ رَبِّكَ" فلبث في السجن بضع سنين ، وحين قال لإخوته : "إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ" فقالوا : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ .

الرابعة : أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن ، وأقام خمسة أعوام ، وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره ؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجماعاً .

فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء ، والصحيح أنه إذا كان فادحاً فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحدّه .

وقد قال بعض علمائنا : إنه لا يسقط عنه الحدّ ، وهو ضعيف ؛ فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين ، ولا يصرفه بين بلاءين ؛ فإنه من أعظم الحرج في الدين .

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] .

وسيأتي بيان هذا في "النحل" إن شاء الله .

وصبر يوسف ، واستعاذ به من الكيد ، فاستجاب له على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانِ ﴾

"فتيان" تثنية فتى ؛ وهو من ذوات الياء ، وقولهم : الفُتُوّ شاذ .

(22/396)

قال وهب وغيره : حمل يوسف إلى السجن مقيّداً على حمار ، وطِيف به "هذا جزاء من يعصي سيد ته" وهو يقول : هذا أيسر من مُقَطَّعات النِّيران ، وسرابيل القَطِران ، وشراب الحميم ، وأكل الزّقوم .

فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوماً قد انقطع رجاؤهم ، واشتد بلاؤهم ؛ فجعل يقول لهم : اصبروا وأبشروا تؤجروا ؛ فقالوا له : يا فتى ! ما أحسن حديثك ! لقد بورك لنا في جوارك ، من أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ابن صفيّ الله يعقوب ، ابن ذبيح الله إسحق ، ابن خليل الله إبراهيم .

وقال ابن عباس : لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني ، وأنا أريد أن تسجنه ، فسجنه في السجن ؛ فكان يُعزّي فيه الحزين ، ويعود فيه المريض ، ويداوي فيه الجريح ، ويصلي الليل كله ، ويبكي حتى تبكي معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن ، واستأنس به أهل السجن ؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى

يجلس في السجن مع يوسف ، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه ، ثم قال (له) : يا يوسف ! لقد أحببتك حبًّا لم أحبّ شيئاً حبك ؛ فقال : أعوذ بالله من حبك ، قال : ولِمَ ذلك ؟ فقال : أحبني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه ، وأحبتني سيدتي فنزل بي ما ترى ، فكان في حبسه حتى غضب الملك على خبَّازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه ، فدسّوا إلى خبّازه وصاحب شرابه أن يَسُمَّاه جميعاً ، فأجاب الخبّاز وأبي صاحب الشّراب ، فانطلق صاحب الشّراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما ، فاستأنسا بيوسف ، فذلك قوله : "وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ" وقد قيل : إن الخبّاز وضع السم في الطعام ، فلما حضر الطعام قال السّاقي : أيها الملك ! لا تأكل فإن الطعام مسموم .

(23/396)

وقال الخبّاز : أيها الملك لا تشرب ! فإن الشراب مسموم ؛ فقال الملك للساقي : اشرب ! فشرب فلم يضرّه ، وقال للخباز : كُلْ ؛ فأبى ، فجرّب الطعام على حيوان فنفق مكانه ، فحبسهما سنة ، وبقيا في السجن تلك المدة مع يوسف .

واسم الساقي منجا ، والآخر مجلث ؛ ذكره الثعلبيّ عن كعب .

وقال النقاش : اسم أحدهما شرهم ، والآخر سرهم ؛ الأوّل بالشين المعجمة ، والآخر

بالسين المهملة.

وقال الطّبريّ: الذي رأى أنه يعصر خمراً هو نبو، قال السّهيليّ: وذكر اسم الآخر ولم أقيده.

وقال "فتيان" لأنهما كانا عبدين، والعبد يسمّى فتى، صغيراً كان أو كبيراً؛ ذكره الماورديّ.

وقال القُشَيريّ: ولعلّ الفتى كان اسماً للعبد في عرفهم؛ ولهذا قال: "تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ".

ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً.

ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه.

"قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا" أي عنباً؛ كان يوسف قال لأهل السجن: إني أعبّر الأحلام؛ فقال أحد الفتيين لصاحبه: تعال حتى نجرّب هذا العبد العبراني؛ فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً؛ قاله ابن مسعود.

وحكى الطّبريّ أنهما سألاه عن علمه فقال: إني أعبّر الرؤيا؛ فسألاه عن رؤياهما.

قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صدق تأويلها.

وفي الصحيح عن أبي هُريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أصدقكم رؤيا أصدقكم

حديثاً " وقيل : إنها كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجريباً ؛ وهذا قول ابن مسعود والسّدي.

وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذباً ، والآخر صادقاً ؛ قاله أبو مِجْلَز.

وروى الترمذيّ عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من تَحَلَّم كاذباً كُلِّف يوم القيامة أن يَعقِد بين شَعِيرتين (ولن يَعقِد بينهما) " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح.

(24/396)

وعن عليّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" من كذب في حُلمه كُلِّف يوم القيامة عَقْد شَعِيرة " قال : حديث حسن.

قال ابن عباس : لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين ؛ فقال لهما يوسف : مالي أراكما مكروبين ؟ قالا : يا سيدنا إنا رأينا ما كرهنا ؛ قال : فقصّا عليّ ، فقصّا عليه ؛ قالا : نبّئنا بتأويل ما رأينا ؛ وهذا يدلّ على أنها كانت رؤيا منام.

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإحسانه ، أنه كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعزّي الحزانى ؛ قال الضّحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسّع له ، وإذا

احتاج جمع له، وسأل له.

وقيل: "مِنَ الْمُحْسِنِينَ" أي العالمين الذين أحسنوا العلم، قاله الفراء.

وقال ابن إسحق: "مِن الْمُحْسِنِينَ" لنا إن فَسَّرته، كما يقول: افعل كذا وأنت محسن.

قال: فما رأيتما؟ قال الخبّاز: رأيت كأني اختبزت في ثلاثة تنانير، وجعلته في ثلاث سلال، فوضعته على رأسي فجاء الطير فأكل منه.

وقال الآخر: رأيت كأني أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض، فعصرتهن في ثلاث أوان، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتي فيما مضى، فذلك قوله: "إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا" أي عنباً، بلغة عُمان، قاله الضّحاك.

وقرأ ابن مسعود: "إِنِّي أرَانِي أَعْصِرُ عِنَباً".

وقال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب فقال له: ما معك؟ قال: خمر.

وقيل: معنى.

"أَعْصِرُ خَمْرًا" أي عنب خمر، فحذف المضاف.

ويقال: خَمْرة وخَمْر وخُمُور، مثل تمرة وتمر وتُمور. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ثم بدا لهم ﴾

يعني للعزيز وأصحابه في الرأي وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الإعراض وكتم الحال وذلك أن المرأة قالت لزوجها إن ذلك العبد العبراني قد فضحني عند الناس يخبرهم بأني قد راودته عن نفسه فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر إلى الناس وإما أنت تحبسه فرأى حبسه ﴿ من بعد ما رأوا الآيات ﴾ يعني الدالة على صدق يوسف وبراءته من قد القميص وكلام الطفل وقطع النساء أيديهن وذهاب عقولهن عند رؤيته ﴿ ليسجننه ﴾ أي ليحبسن يوسف في السجن ﴿ حتى حين ﴾ يعني إلى مدة يرون رأيهم فيها ، وقال عطاء : إلى أن تنقطع مقالة الناس ، وقال عكرمة : إلى سبع سنين ، وقال الكلبي : خمس سنين فحبسه ، قال السدي : جعل الله ذلك الحبس تطهيراً ليوسف من همه بالمرأة .

﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾

وهما غلامان كانا للوليد بن شروان العمليق ملك مصر الأكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه وكان قد غضب عليهما الملك فحبسهما ، وكان السبب في ذلك أن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فمضنوا لهذين الغالمين مالاً على أن يسما الملك في طعامه وشرابه فأجابا إلى ذلك ثم إن الساقي ندم فرجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم فقال للساقي اشرب فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فأبى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر الملك بحبسهما مع يوسف وكان يوسف لما دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول إني أعبر الأحلام فقال أحد الغلامين لصاحبه هلم فلنجرب هذا الغلام العبراني فتراءيا له فسألاه من غير أن يكونا قد رأيا شيئاً قال ابن مسعود ما رأيا شيئاً إنما تحالما ليجربا يوسف وقال بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا أنهما غلامان للملك وقد حبسهما وقد رأيا رؤيا قد غمتهما فقال يوسف قصا علي ما رأيتما فقصا عليه ما رأياه ذلك قوله تعالى : ﴿ قال أحدهما ﴾ وهو صاحب شراب الملك ﴿ إني أراني أعصر خمراً ﴾ يعني عنباً سمي العنب خمراً باسم ما يؤول إليه يقال فلان يطبخ الآجر أي يطبخ اللبن حتى يصير آجراً ، وقيل : الخمر العنب بلغة عمان وذلك أنه قال إني رأيت في المنام كأني في بستان وإذا فيه أصل حبلة عليها

ثلاثة عناقيد عنب فجنيتها وكان كأس الملك في يدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه

﴿ وقال الآخر ﴾ وهو صاحب طعام الملك ﴿ إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل

الطير منه ﴾ وذلك أنه قال إني رأيت في المنام كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان

الأطعمة وسباع الطير تنهش منها ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ أي أخبرنا بتفسير ما رأينا وما يؤول

إليه أمر هذه الرؤيا ﴿ إنا

(27/396)

نراك من المحسنين ﴾ يعني من العالمين بعبارة الرؤيا والإحسان هنا بمعنى العلم ، وسئل

الضحاك ما كان إحسانه فقال : كان إذا مرض إنسان في الحبس عاده وقام عليه وإذا ضاق

على أحد وسع عليه وإذا احتاج أحد جمع له شيئاً مع هذا يجتهد في العبادة يصوم النهار

ويقوم الليل كله للصلاة .

وقيل : إنه لما دخل السجن وجد فيه قوماً اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم

فجعل يسليهم ويقول إصبروا وأبشروا فقالوا بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك

وخلقك وحديثك لقد بورك لنا في جوارك فمن أين أنت قال أنا يوسف بن صفي الله يعقوب

بن ذبيح الله إسحاق بن خليل الله إبرايهم فقال له صاحب السجن يا فتى والله لو استطعت

لخليت سبيلك ولكن سأرفق بك وأحسن جوارك واختر أي بيوت السجن شئت وقيل إن الفتيين لما رأيا يوسف قالا إنا قد أحببناك منذ رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما بالله أن لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ من ذلك بلاء وأحبني أبي فألقيت في الجب وأحبتني امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه رؤياهما كره يوسَف أن يعبرها لهما حين سألاه لما علم ما في ذلك من المكروه لأحدهما وأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره من إظهار المعجزة والنبوة والدعاء إلى التوحيد وقيل إنه عليه السلام راد أن يبين لهما أن درجته في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدا فيه وذلك أنهما طلبا منه علم التعبير ولا شك إن هذا العلم مبني على الظن والتخمين فأراد أن يعلمهما أنه يمكنه الإخبار عن المغيبات على سبيل القطع واليقين وذلك مما يعجز الخلق عنه وإذا قدر على الإخبار عن الغيوب كان أقدر على تعبير الرؤيا بطريق الأولى.

وقيل: إنما عدل عن تعبير رؤياهما إلى إظهار المعجزة لأنه علم أن أحدهما سيصلب فأراد أن يدخله في الإسلام ويخلصه من الكفر ودخول النار فأظهر له المعجزة لهذا السبب.

انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ثم بدا لهم ﴾

أي : ظهر لهم ، والفاعل لبدا ضمير يفسره ما يدل عليه المعنى أي : بدا لهم هو أي رأى أو بدا .

كما قال :

بدا لك من تلك القلوص بداء . . .

هكذا قاله النحاة والمفسرون ، إلا من أجاز أن تكون الجملة فاعلة ، فإنه زعم أن قوله : ليسجننه في موضع الفاعل لبدا أي : سجنه حتى حين ، والرد على هذا المذهب مذكور في علم النحو .

والذي أذهب إليه أن الفاعل ضمير يعود على السجن المفهوم من قوله : ليسجنن ، أو من قوله : السجن على قراءة الجمهور ، أو على السجن على قراءة من فتح السين .

والضمير في لهم للعزيز وأهله ، والآيات هي : الشواهد الدالة على براءة يوسف .

قال مجاهد وغيره : قد القميص ، فإن كان الشاهد طفلاً فهي آية عظيمة ، وإن كان رجلاً فيكون استدلالاً بالعادة .

والذي يظهر أنّ الآية إنما يعبر بها عن الواضح الجلي ، وجمعها يدل على ظهور أمور واضحة دلت على براءته ، وقد تكون الآيات التي رأوها لم ينص على جميعها في القرآن ، بل رأوا قول

الشاهد .

وقد القميص وغير ذلك مما لم يذكره .

وأما ما ذكره عكرمة أن من الآيات خمش وجهها ، والسدي من حز أيديهن ، فليس في ذلك دلالة على البراءة فلا يكون آية .

وليسجننه جواب قسم محذوف والقسم وجوابه معمول لقول محذوف تقديره قائلين .

وقرأ الحسن : لتسجننه بالتاء على خطاب بعضهم العزيز ومن يليه ، أو العزيز وحده على وجه التعظيم .

وقرأ ابن مسعود : عتى بإبدال حاء حتى عينا ، وهي لغة هذيل .

وأقرأ بذلك فكتب إليه يأمره أن يقرئ بلغة قريش حتى لا بلغة هذيل ، والمعنى : إلى زمان .

والحين يدل على مطلق الوقت ، ومن عين له هنا زماناً فإنما كان ذلك باعتبار مدة سجن يوسف ، لا أنه موضوع في اللغة كذلك ، وكأنها اقترحت زماناً حتى تبصر ما يكون منه .

وفي سجنهم ليوسف دليل على مكيدة النساء ، واستنزال المرأة لزوجها ومطاوعته لها ، وعشقه لها ، وجعله زمام أمره بيدها ، هذا مع ظهور خيانتها وبراءة يوسف .

روي أنه لما امتنع يوسف من المعصية ، ويئست منه امرأة العزيز قالت لزوجها : إن هذا الغلام العبراني قد فضحني في الناس ، وهو يعتذر إليهم ويصف الأمر بحسب اختياره ، وأنا محبوسة محجوبة ، فأما أذنت لي فخرجت إلى الناس فاعتذرت وكذبته ، وإلا حبسته كما أنا محبوسة ، فحينئذ بدا لهم سجنه ، قال ابن عباس : فأمر به فحمل على حمار ، وضرب بالطبل ، ونودي عليه في أسواق مصر أنّ يوسف العبراني أراد سيدته ، فهذا جزاؤه أن يسجن .

قال أبو صالح : ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكي .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾

عصر العنب وغيره أخرج ما فيه من المائع بقوة .

الخبز : معروف ، وجمعه اخباز ، ومعانيه خباز .

﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ : في الكلام حذف تقديره : فسجنوه ، فدخل معه السجن غلامان .

وروي أنهما كانا للملك الأعظم الوليد بن الريان ، أحدهما خبازه ، والآخر ساقيه .

وروي أن الملك اتهمهما بأن الخابز منهما أراد سمه ووافقه على ذلك الساقي ، فسجنهما

قاله : السدي .

ومع تدل على الصحبة واستحداثها ، فدل على أنهم سجنوا الثلاثة في ساعة واحدة .

ولما دخل يوسف السجن استمال الناس بحسن حديثه وفضله ونبله ، وكان يسلي حزينهم ، ويعود مريضهم ، ويسال لفقيرهم ، ويندبهم إلى الخير ، فأحبه الفتيان ولزماه ، وأحبه صاحب السجن والقيم عليه وقال له : كن في أي البيوت شئت فقال له يوسف : لا تحبني يرحمك الله ، فلقد أدخلت على المحبة مضرات ، أحبتني عمتي فامتحنت بمحبتها ، وأحبني أبي فامتحنت بمحبته ، وأحبتني امرأة العزيز فامتحنت بمحبتها بما ترى .

وكان يوسف عليه السلام قد قال لأهل السجن : إني أعبر الرؤيا وأجيد .

وروي أن الفتيين قالا له : إنا لنحبك من حين رأيناك فقال : أنشدكما الله أنْ لا تحباني ، وذكر ما تقدم .

وعن قتادة : كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم ، فجعل يقول : اصبروا وابشروا تؤجروا إن لهذا لأجراً فقالوا : بارك الله عليك ، ما أحسن وجهك ، وما أحسن خلقك ! لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى ؟ قال يوسف : ابن صفي الله يعقوب ، ابن

ذبيح الله إسحاق بن خليل الله ابراهيم .

فقال له عامل السجن : لو استطعت خليت سبيلك .

وهذه الرؤيا التي للفتيين قال مجاهد : رأيا ذلك حقيقة فأراد سؤاله .

وقال ابن مسعود والشعبي : استعملاها ليجرباه .

والذي رأى عصر الخمر اسمه بنو قال : رأيت حبلة من كرم لها ثلاثة أغصان حسان ، فيها عناقيد عنب حسان ، فكنت أعصرها وأسقي الملك .

والذي رأى الخبز اسمه ملحب قال : كنت أرى أن أخرج من مطبخة الملك وعلى رأسي ثلاث سلال فيها خبز ، والطير تأكل من أعلاه ، ورأى الحلمية جرت مجرى أفعال القلوب في جواز كون فاعلها ومفعولها ضميرين متحدي المعنى ، فأراني فيه ضمير الفاعل المستكن ، وقد تعدى الفعل إلى الضمير المتصل وهو رافع للضمير المتصل ، وكلاهما لمدلول واحد .

ولا يجوز أن يقول : اضربني ولا أكرمني .

وسمى العنب خمراً باعتبار ما يؤول إليه .

وقيل : الخمر بلغة غسان اسم العنب .

وقيل : في لغة ازد عمان .

وقال المعتمر : لقيت أعرابياً يحمل عنباً في وعاء فقلت : ما تحمل ؟ قال : خمراً ، أراد العنب .

وقرأ أبي وعبد الله : أعصر عنباً ، وينبغي أن يحمل ذلك على التفسير لمخالفته سواد المصحف ، وللثابت عنهما بالتواتر قراءتهما أعصر خمراً .

قال ابن عطية : ويجوز أن يكون وصف الخمر بأنها معصورة ، إذ العصر لها ومن أجلها .

وفي مصحف عبد الله : فوق رأسي ثريداً تأكل الطير منه ، وهو أيضاً تفسير لا قراءة .

والضمير في تأويله عائداً إلى ما قصا عليه ، أجرى مجرى اسم الإشارة كأنه قيل : بتأويل ذلك .

(31/396)

وقال الجمهور : من المحسنين أي في العلم ، لأنهما رأيا منه ما علما به أنه عالم .

وقال الضحاك وقتادة : من المحسنين في حديثه مع أهل السجن وإجماله معهم .

وقال ابن إسحاق : أرادا إخباره أنهما يريان له إحساناً عليهما ويداً ، إذا تأول لهما ما رأياه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(32/396)

وقال أبو السعود :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾

أي ظهر للعزيز وأصحابه المتصدّين للحل والعقد ريثما اكتفَوا بأمر يوسف بالكتمان والإعراض عن ذلك ﴿ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ ﴾ الصارفةَ لهم عن ذلك البداءِ وهي الشواهدُ الدالة على براءته عليه السلام ، وفاعل بدا إما مصدرُه أو الرأي المفهوم من السياق أو المصدر المدلول عليه بقوله : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ والمعنى بدا لهم بداءٌ أو رأيٌ أو سَجنُه المحتومُ قائلين : والله ليسجُنُنّه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالاً من ضميرهم ، وما كان ذلك البداءُ إلا باستنزال المرأةِ لزوجها وفتلها منه في الذروة والغارب وكان مطواعةً لها تقوده حيث شاءت ، قال السدي إنها قالت للعزيز : إن هذا العبدَ العبراني قد فضحني في الناس يخبرهم بأني راودتُه عن نفسه فإما أن تأذن لي فأخرجَ فأعتذرَ إلى الناس وإما أن تحبِسه فحبسه ، ولقد أرادت بذلك تحقيقَ وعيدِها لتُلين به عريكتَه وتنقادَ لها قرونته لمّا انصرمت حبالُ رجائها عن استتباعه بعرض الجمالِ والترغيبِ بنفسها وبأعوانها . وقرىء لتسجُنُنه على صيغة الخطاب بأن خاطب بعضُهم العزيزَ ومن يليه أو العزيزَ وحده على وجه التعظيم أو خاطب العزيزَ ومَن عنده مِن أصحاب الرأي المباشرين للسجن والحبس ﴿ حتى حِينٍ ﴾ إلى حين انقطاعِ قالةِ الناسِ وهذا بادي الرأي عند العزيز وذويه ، وأما عندها فحتى يذِلّله السجنُ ويسخره لها

ويحسبَ الناسُ أنه المجرمُ وقرىء عتى حين بلغة هذيل .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ﴾

(33/396)

أى فى صحبته ﴿ السجن فَتَيَانَ ﴾ من فتيان الملك ومماليكه أحدهما شرابيه والآخر خبازه . روى أن جماعة من أهل مصر ضمنوا لهما مالا ليسما الملك فى طعامه وشرابه فأجابهم إلى ذلك ثم إن الساقى نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما حضر الطعام قال الساقى لا تأكل أيها الملك فإن الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشربه فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بدابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أن أدخلاه معه وتأخير الفاعل عن المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكن ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح فى قوله تعالى ﴿ فأوجَسَ فى نفسه خِيفة ﴾ وتأخير السجن عن الظرف لإيهام العكس أن يكون الظرف خبراً مقدما على المبتدأ وتكون الجملة حالا من فاعل دخل فتأمل ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ ﴾ استئناف مبنى على سؤال من يقول ما صنعا بعد ما دخلا معه السجن فأجيب بأنه قال أحدهما وهو

الشرابى ﴿ إني أرانيا ﴾ أى رأيتنى والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أى عنباً سماه بما يؤول إليه لكونه المقصود من العصر وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه أعصر عنباً ﴿ وَقَالَ الآخر ﴾ وهو الخباز ﴿ إِنِّي أراني أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً ﴾ تأخير المفعول عن الظرف لما مر آنفاً وقوله ﴿ تَأْكُلُ الطير مِنْهُ ﴾ أى تنهس منه صفة للخبز أو استئناف مبنى على السؤال ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ بتأويل ما ذكر من الرؤيين أو ما رئى بإجراء الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة فإن اسم الإشارة يشار به إلى متعدد كما فى قوله

فيها خطوط من سواد وبلق . . . كأنه فى الجلد توليع البهق

(34/396)

أى كائن ذلك والسر فى المصير إلى إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة مع أنه لا حاجة إليه بعد تأويل المرجع بما ذكر أو بما رئى أن الضمير إنما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من أحواله فلا يتسنى تأويله بأحد الاعتبارين إلا بإجرائه مجرى اسم الإشارة الذى يدل على المشار إليه بالاعتبار الذى جرى عليه فى الكلام فتأمل هذا إذا قالاه معاً أو قاله أحدهما من جهتهما ليتعدد المرجع بل عبارة كل منهما نبئنى بتأويله

مستفسراً لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة فى الحكاية دون المحكى على طريقة قوله عز وجل ﴿ يَاأَيُّها الرُّسل كُلُوا من الطيبات ﴾ فإنَّهم لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم فى زمانه بصيغة مفردة خاصة به ﴿ إِنَّا نَرَاكَ ﴾ تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارها منه عليه السلام ﴿ مِنَ المحسنين ﴾ من الذين يحيدون عبارة الرؤيا لما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤو لها له تأويلا حسناً أو من العلماء لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه وفضله أو من المحسنين إلى أهل السجن أى فأحسن إلينا بكشف غمتنا إن كنت قادراً على ذلك .

(35/396)

روى أنه عليه السلام كان إذا مرض منهم رجل قام عليه وإذا ضاق مكانه أوسع له وإذا احتاج جمع له وعن قتادة رضى الله عنه كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا فقالوا بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يا فتى فقال أنا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله إسحق بن خليل الله إبراهيم فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكنى أحسن جوارك فكن فى أى بيوت السجن شئت وعن الشعبى أنهما تحالما

له ليمتحناه فقال الشرابى أرانى فى بستان فإذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخباز إنى أرانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة وإذا سباع الطير تنهس منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(36/396)

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾

أي ظهر للعزيز وأصحابه المتصدين للحل والعقد ريثما اكتفوا بأمر يوسف عليه السلام بالكتمان والإعراض عن ذلك ﴿ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ ﴾ الصارفة لهم عن ذلك البداء وهي الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وطهارته من قد القميص وقطع النساء أيديهن ، وعليهما اقتصر قتادة فيما أخرجه عنه ابن جرير ، وفيه إطلاق الجمع على اثنين والأمر فيه هين ، وعن مجاهد الاقتصار على القد فقط لأن القطع ليس من الشواهد الدالة على البراءة في شيء حينئذ

للتعظيم ، ويحمل الجمع حينئذ على التعظيم أو أل على الجنسية وهي تبطل معنى الجمعية

كذا قيل، وهو كما ترى.

ووجه بعضهم عدّ القطع من الشواهد بأن حسنه عليه الصلاة والسلام الفاتن للنساء في مجلس واحد، وفي أول نظرة يدل على فتنتها بالطريق الأولى وأن الطلب منها لا منه، وعدّ بعضهم استعصامه عليه السلام عن النسوة إذ دعونه إلى أنفسهن فإن العزيز وأصحابه قد سمعوه وتيقنوا به حتى صار كالمشاهد لهم، ودلالة ذلك على البراءة ظاهرة.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال: سألت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن الآيات فقال: ما سألني عنها أحد قبلك من الآيات: قد القميص وأثرها في جسده وأثر السكين فعدّ رضي الله تعالى عنه الأثر من الآيات ولم يذكر فيما سبق، ومن هنا قيل: يجوز أن يكون هناك آيات غير ما ذكر ترك ذكرها كما ترك ذكر كثير من معجزات الأنبياء عليهم السلام.

وفاعل ﴿ بدا ﴾ ضمير يعود إما للبداء مصدر الفعل المذكور أو بمعنى الرأي كما في قوله:

لعلك والموعود حق لقاؤه. . .

(بدا) لك في تلك القلوص بداء

وإما للسجن بالفتح المفهوم من قوله سبحانه: ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ وجملة القسم وجوابه إما مفعول لقول مضمر وقع حالاً من ضميرهم وإلى ذلك ذهب المبرد، وإما مفسرة للضمير المستتر في ﴿ بدا ﴾ فلا موضع لها.

وقيل : إن جملة ﴿ ليسجننه ﴾ جواب – لبدا – لأنه من أفعال القلوب ، والعرب تجريها مجرى القسم وتتلقاها بما يتلقى به ، وزعم بعضهم أن مضمون الجملة هو فاعل ﴿ بدا ﴾ كما قالوا في قوله سبحانه : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون ﴾ [السجدة : 26] وقوله تعالى : ﴿ وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾ [إبراهيم : 45] أن الفاعل مضمون الجملة أي كثرة إهلاكنا وكيفية فعلنا ، وظاهر كلام ابن مالك في " شرح التسهيل " أن الفاعل في ذلك الجملة لتأويلها بالمفرد حيث قال : وجاز الإسناد في هذا الباب باعتبار التأويل كما جاز في باب المبتدأ نحو ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ [البقرة : 6] وجمهور النحاة لا يجوزون ذلك كما حقق في موضعه .

واختار المازني في الفاعل الوجه الأول .

قيل : وحسن بدا لهم بداء وإن لم يحسن ظهر لهم ظهور لأن البداء قد استعمل في غير المصدرية كما علمت ، واختار أبو حيان الوجه الأخير وكونه ضمير السجن السابق على قراءة من فتح السين ، والأولى كونه ضمير السجن المفهوم من الجملة أي بدا لهم سجنه المحتوم قائلين : والله ليسجننه .

وكان ذلك البداء باستنزال المرأة لزوجها ومطاوعته لها وحبه إياها وجعله زمام أمره بيدها .

روي أنه عليه السلام لما استعصم عنها ويئست منه قالت للعزيز : إن هذا الغلام العبراني قد فضحني في الناس يخبرهم بأني راودته عن نفسه فأبى ويصف الأمر حسبما يختار ، وأنا محبوسة محجوبة فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر إلى الناس وأكذبه وإما أن تحبسه كما أني محبوسة فحبس ، قال ابن عباس : إنه أمر به عليه السلام فحمل على حمار وضرب معه الطبل ونودي عليه في أسواق مصر أن يوسف العبراني راود سيدته فهذا جزاؤه ، وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كما قال أبو صالح : كلما ذكر هذا بكى .

وأرادت بذلك تحقيق وعيدها لتلين به عريكته وتنقاد لها قرونته لما انصرمت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال بنفسها وبأعوانها .

(38/396)

وقرأ الحسن – لتسجننه – على صيغة الخطاب بأن خاطب بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده على وجه التعظيم ، أو خاطب به العزيز ومن عنده من أصحاب الرأي المباشرين للسجن والحبس .

﴿ حَتَّى حين ﴾ قال ابن عباس : إلى انقطاع المقال وما شاع في المدينة من الفاحشة ، وهذا بادي الرأي عند العزيز ، وأما عندها فحتى يذلله السجن ويسخره لها ويحسب الناس أنه المجرم ، وقيل : الحين ههنا خمس سنين ، وقيل بل سبع .

وقال مقاتل : إنه عليه السلام حبس اثنتي عشرة سنة ، والأولى أن لا يجزم بمقدار ، وإنما يجزم بالمدة الطويلة ، والحين عند الأكثرين وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه والطويل ، وقد استعمل في غير ذلك كما ذكرناه في " شرح القادرية " .

وقرأ ابن مسعود – عتى – بإبدال حاء ﴿ حتى ﴾ عيناً وهي لغة هذيل ، وقد أقرأ رضي الله تعالى عنه بذلك إلى أن كتب إليه عمر رضي الله تعالى عنه أن يقرئ بلغة قريش ﴿ حتى ﴾

بالحاء .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾

غلامان كانا للملك الأكبر الريان بن الوليد أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه ، وكان قد غضب عليهما الملك بسبب أن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله فضمنوا لهما مالاً على أن يسماه في طعامه وشرابه فأجابا إلى ذلك ثم إن الساقي ندم فرجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر بين يدي الملك قال الساقي : لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم ، وقال الخباز : لا تشرب فإن

الشراب مسموم ، فقال للساقي : اشربه فشربه فلم يضره ، وقال للخباز : كل من طعامك فأبى فأطعم من ذلك لدابة فهلكت فأمر الملك بحبسهما فاتفق أن أدخلا معه السجن ، ولعله إنما عبر – بدخل – الظاهر في كون الدخول بالاختيار مع أنه لم يكن كذلك للإشارة على ما قيل : إلى أنهما لما رأيا يوسف هان عليهما أمر السجن لما وقع في قلوبهما من محبته : وهوى كل نفس حيث حل حبيبها رضي الله عنR . . .

(39/396)

فقد أخرج غير واحد عن ابن إسحاق أنهما لما رأياه قالا له : يا فتى لقد والله أحببناك حين رأيناك ، فقال لهما عليه السلام : أنشدكما الله تعالى أن لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط الا دخل عليَّ من حبه بلاء ، لقد أحبتني عمتي فدخل عليَّ من حبها بلاء ، ثم أحبني أبي فدخل عليَّ من حبه بلاء ، ثم أحبتني زوجة صاحبي هذا فدخل عليَّ بحبها إياي بلاء فلا تحباني بارك الله تعالى فيكما فأبيا إلا حبه والله حيث كان .

وقيل : عبر بذلك لما أن ذكر ﴿ معه ﴾ يفيد اتصافه عليه السلام

بما ينسب إليهما ، والمناسب في حقه نسبة الدخول لمكان قوله عليه السلام : ﴿ رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ [يوسف : 33] لا الادخال المفيد لسلب الاختيار

، ولو عبر بأدخل لأفاد ذلك نسبة الإدخال إليه فلم يكن بدّ من التعبير بالدخول ترجيحاً لجانبه عليه السلام .

والظاهر أن – مع – تدل على الصحبة والمقارنة لفاعل الفعل في ابتداء تلبسه بالفعل ، فتفيد أن دخولهما مصاحبين له وأنهم سجنوا الثلاثة في ساعة واحدة ، وتعقب بأن هذا منتقض بقوله سبحانه :

(40/396)

﴿ وأسلمت مع سليمان ﴾ [النمل : 44] حكاية عن بلقيس إذ ليس إسلامها مقارناً لابتداء إسلام سليمان عليه السلام ، وأجيب بأن الحمل على المجاز هنالك للصارف ولا صارف فيما نحن فيه فيحمل على الحقيقة ، ويشهد لذلك ما ذكره الزمخشري في قوله سبحانه : ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ [الصافات : 102] من أنه بيان متعلق بمحذوف لتعذر التعلق – ببلغ – أو السعي معنى أو لفظاً وقال صاحب " الكشف " : إنه لا يتعين المحكي عنها لمعية الفاعل فجاز أن يراد أسلمت لله ولرسوله مثلاً ، وتقديم مع للإشعار بأنها كانت تظنّ أنها على دين قبل وأنها كانت مسلمة فيما كانت تعبد من الشمس فدل على أنه إسلام يعتدّ به من أثر متابعة نبيه لا إسلام كالأول فاسد ، وهذا معنى صحيح حمل

الآية عليه أولى ، وإن حمل على معية الفاعل لم يكن بدّ من محذوف نحو مع بلوغ دعوته وإظهار معجزته لأن فرق ما بين المعية ومطلق الجمع معلوم بالضرورة اه .

وفرق بعضهم بين الفعل الممتدّ كالإسلام وغيره كالدخول بأن الأول لا يقتضي مقارنتهما في ابتدائه بخلاف الثاني ، وهو على ما قيل : راجع إلى الجمع وليس من المعية في شيء على أنه حينئذ لا يحتاج إلى تأويل في آية ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ [الصافات : 102] واختير أن المقارنة هي الأصل ولا يعدل عنها ما أمكنت فتأمل .

وتأخير الفاعل عن المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده فضل تمكن ، ولعل تقديم الظرف على السجن لأن الاهتمام بأمر المعية اشدّ من الاهتمام بأمره لما أنها المنشأ لما كان ، وقيل : إنما قدم لأن تأخيره يوهم أن يكون خبراً مقدماً على المبتدأ ، وتكون الجملة حالاً من فاعل – دخل – وتعقب بأن حاصل التركيب الأول مصاحبة الفتيين له عند دخولهما ، وحاصل الثاني مصاحبة الفتيين له عند دخوله ، ويؤول الأمران إلى دخولهما ودخوله متصاحبين فافهم .

والجملة على ما قيل : معطوف على محذوف ينساق إليه الذهن كأنه قيل : فلما بدا لهم ذلك سجنوه ودخل معه الخ .

وقرأ ﴿ السجن ﴾ بفتح السين على معنى موضع السجن .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال من يقول : ما صنعا بعد ما دخلا ؟ فأجيب بأنه قال ﴿ أَحَدُهُمَا ﴾ وهو الشرابي واسمه بنو ﴿ إِنِّي أَرَانِي ﴾ أي رأيتني في المنام والتعبير بالمضارع لاستحضار الصور الماضية ﴿ أَعْصِر خَمْراً ﴾ أي عنباً .

روي أنه قال : رأيت حبلة من كرم حسنة لها ثلاثة أغصان فيها عناقيد عنب فكنت أعصرها وأسقي الملك .

وسماه بما يؤول إلى الخمر وكون الذي يؤول إليه ماؤه لا جرمه لا يضر لأنه المقصود منه فما عداه غير منظور إليه فليس فيه تجوزان

بالنظر إلى المتعارف فيه .

وقيل : الخمر بلغة غسان اسم للعنب ، وقيل : في لغة أزد عمان .

وقرأ أبيّ وعبد الله - أعصر عنباً - قال في " البحر " : وينبغي أن يحمل ذلك على التفسير لمخالفته لسواد المصحف والثابت عنهما بالتواتر قراءتهما ﴿ أعصر خمراً ﴾ انتهى ، وقد أخرج القراءة كذلك عن الثاني البخاري في " تاريخه " وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق ، وذكروا أنه قال : والله لقد أخذتها من رسول الله

صلى الله عليه وسلم هكذا فافهم .

وقال ابن عطية ((يجوز أن يكون وصف الخمر بأنها معصورة لأن العصر من أجلها))

فليس ذلك من مجاز الأول ، والمشهور أنه منه كما قال الفراء : مؤنثة وربما ذكرت ، وعن السجستاني أنه سمع التذكير ممن يوثق به من الفصحاء .

ورأى الحلمية جرت مجرى أفعال القلوب في جواز كون فاعلها ومفعولها ضميرين متحدي المعنى ، ولا يجوز ذلك في غير ما ذكر ، فلا يقال : أضربني ولا أكرمني ، وحاصله أرى نفسي أعصر خمراً .

﴿ وَقَالَ الآخَرُ ﴾ وهو الخباز واسمه مجلث ﴿ إنّي أَراني أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسي خُبْزاً ﴾ ، وفي مصحف ابن مسعود - ثريداً .

(42/396)

﴿ تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ وهذا كما قيل أيضاً : تفسير لا قراءة ، روي أنه قال : رايت أني أخرج من مطبخة الملك وعلى رأسي ثلاث سلال فيها خبز والطير تأكل من أعلاه .

والخبز معروف ، وجمعه أخباز وهو مفعول (أحمل) والظرف متعلق - بأحمل - وتأخيره عنه لما مرّ ، وقيل : متعلق بمحذوف وقع حالاً منه ، وجملة ﴿ تأكل ﴾ الخ صفة له أو

استئناف مبني على السؤال ﴿ نَبِّئْنَا ﴾ أي أخبرنا ﴿ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ بتعبيره وما يؤول إليه أمره ، والضمير للرؤيتين بتأويل ما ذكر أو ما رؤي وقد أجري الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة فإن اسم الإشارة يشار به إلى متعدد كما مرت الإشارة إليه غير مرة ؛ هذا إذا قالاه معاً أو قاله أحدهما من جهتهما معاً ، وأما إذا قاله كل منهما إثر ما قص ما رآه فالمرجع غير متعدد ولا يمنع من هذا الاحتمال صيغة المتكلم مع الغير لاحتمال أن تكون واقعة في الحكاية دون المحكي على طريقة قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ [المؤمنون : 51] فإنهم لم يخاطبوا دفعة بل خوطب كل منهم في زمان بصيغة مفردة خاصة به .

﴿ إِنَّا نَرَاكَ ﴾ تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارهما منه عليه السلام أي إنا نعتقدك ﴿ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ اي من الذين يحسنون تأويل الرؤيا لما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤوّلها لهم تأويلاً حسناً ، وكان عليه السلام حين دخل السجن قد قال : إني أعبر الرؤيا وأجيد أو من العلماء كما في قول علي كرم الله تعالى وجهه : قيمة كل امرئ ما يحسنه وذلك لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه وفضله .

أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن قتادة قال : لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوماً قد انقطع رجاؤهم واشتد بلاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول : أبشروا واصبروا تؤجروا إن لهذا لأجراً فقالوا : يا فتى بارك الله تعالى فيك ما أحسن وجهك وأحسن خلقك وخلقك لقد بورك لنا في جوارك ما نحب أنا كنا في غير هذا منذ جئتنا لما تخبرنا من الأجر والكفارة والطهارة ، فمن أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ابن صفي الله تعالى يعقوب ابن ذبيح الله تعالى إسحاق ابن خليل الله تعالى إبراهيم فقال له عامل السجن : يا فتى لو استطعت خليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك فكن في أي بيوت السجن شئت ، أو من المحسنين إلى أهل السجن أي فأحسن إلينا بكشف غمتنا إن كنت قادراً على ذلك ، وإلى هذا ذهب الضحاك ، أخرج سعيد بن منصور والبيهقي وغيرهما عنه أنه سئل ما كان إحسان يوسف ؟ فقال : كان إذا مرض إنسان في السجن قام عليه ، وإذا ضاق عليه مكان أوسع له ، وإذا احتاج جمع له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(44/396)

وقال القاسمى :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم ﴾ أي : ظهر للعزيز وأهله ﴿ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ ﴾ أي : الشواهد

على براءته : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ أي : إلى مدة يرون رأيهم فيها .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ ﴾ روي أنهما غلامان كانا لفرعون مصر ، أحدهما رئيس سقاته ، والآخر رئيس طعامه ، غضب عليهما فحبسهما ، فكانا مع يوسف . ثم رآهما يوماً وهما مهمومان ، فسألهما عن شأنهما ، فذكرا له أنهما رأيا رؤيا غمتهما ، وليس لهما من يعبرها . فقال لهما : أليس التأويل لله ؟ قصّا عليّ ! فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ ﴾ وهو صاحب شرابه : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً ﴾ أي : عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول إليه ، أو الخمر بلغة عمان : اسم للعنب ، وذلك أنه قال : رأيت في المنام كأن بين يدي وعاءاً فيه ثلاثة قضبان عنب ، ثم نضجت عناقيدها وصارت عنباً ، وكانت كأس فرعون في يدي ، فأخذت العنب ، وعصرته في الكأس ، وناولتها لفرعون .

﴿ وَقَالَ الآخَرُ ﴾ وهو صاحب طعامه : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ وذلك أنه قال له : رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال حُواري ، والطير تأكل من السلة العليا فوق رأسي .

﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي : أخبرنا بتفسير ما رأينا ، وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، تداوي مريضهم ، وتعزي حزينهم ، وتوسع على فقيرهم ، فأحسن إلينا بكشف غمتنا ، إن كنت قادراً على ذلك .

(45/396)

ثم أشار ، عليه السلام ، لهما بأن ما رأياه سهل التأويل ، لوجود مثاله في المنام ، وأن له علماً فوقه ، وهو أن يبين لهما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلة ، وإن لم يكن هناك مقدمة المنام ، حتى إن الطعام الموظف الذي يأتيهما كل يوم ، يبينه لهما قبل إتيانه ، وإن ذلك ليس من باب الكهانة ، بل من الفضل الرباني لمن يصطفيه بالنبوة ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ . انتهى . اهـ

﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 179 . 180 ﴾

(46/396)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) .

(حَادِثَةُ مَكْرِ النِّسْوَةِ بِامْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَمُرَاوَدَةِ يُوسُفَ) :

هَذِهِ الْآيَاتُ السِّتُّ فِي حَادِثَةِ النِّسْوَةِ مِنْ كِبَارِ بُيُوتَاتِ مِصْرَ ، اللَّائِي مَكَرْنَ بِامْرَأَةِ الْعَزِيزِ

لِتَجْمَعَهُنَّ بِهَذَا الشَّابِّ الَّذِي فَتَنَهَا جَمَالُهُ، وَأَذَلَّهَا عَفَافُهُ وَكَمَالُهُ، حَتَّى رَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَهُوَ فَتَاهَا، وَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا فَرَدَّهَا وَأَبَاهَا، خَشْيَةً وَطَاعَةً لِلَّهِ، وَحِفْظًا لِأَمَانَةِ السَّيِّدِ الْمُحْسِنِ إِلَيْهِ، أَنْ يَخُونَهُ فِي أَعَزِّ شَيْءٍ لَدَيْهِ، لَعَلَّهُ يَصْبُو إِلَيْهِنَّ، وَيَجْذِبُهُ مِنْ جَمَالِهِنَّ الطَّارِئِ الْمُفَاجِئِ لَهُ، مَا لَمْ يَجْذِبْهُ مِنْ جَمَالِهَا الَّذِي أَلِفَهُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَكَانَ نَظَرُهُ إِلَيْهَا نَظَرَ الرَّقِيقِ إِلَى سَيِّدَتِهِ،

أَوِ الْوَلَدِ إِلَى وَالِدَتِهِ، وَقَدْ جَاءَتْ فِي السُّورَةِ بِأَبْدَعِ صُورَةٍ مِنَ الْإِيجَازِ وَالْبَلَاغَةِ، وَأَعْلَى تَعْبِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ وَالنَّزَاهَةِ، وَهُوَ:

(47/396)

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ) النِّسْوَةُ: جَمْعُ قِلَّةٍ لِلْمَرْأَةِ مِنْ غَيْرِ مَادَّةِ لَفْظِهَا، وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا التَّنْزِيلُ عَدَدَهُنَّ وَلَا أَسْمَاءَهُنَّ وَلَا صِفَاتِهِنَّ؛ لِأَنَّ الْفَائِدَةَ فِي الْعِبْرَةِ مَحْصُورَةٌ فِي أَنَّ عَمَلَهُنَّ عَمَلُ جَمَاعَةٍ قَلِيلَةٍ يُعْهَدُ فِي الْعُرْفِ ائْتِمَارُهُنَّ وَاتِّفَاقُهُنَّ عَلَى الِاشْتِرَاكِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَكْرِ الْمُنْكَرِ، فِي مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ كَعَاصِمَةِ مِصْرَ، الَّتِي بَلَغَتْ مُنْتَهَى فَنِّ الْحَضَارَةِ، وَمَا تَقْتَضِيهِ مِنَ التَّمَتُّعِ بِالشَّهَوَاتِ وَالزِّينَةِ، وَلَفْظُ النِّسْوَةِ مُفْرَدٌ مُذَكَّرٌ فَيَجُوزُ تَذْكِيرُ ضَمِيرِهِ لِلَفْظِهِ وَتَأْنِيثِهِ لِمَعْنَاهُ.

وَمِنْ غَرِيبِ فِتْنَةِ الرِّوَايَاتِ الْبَاطِلَةِ، أَنْ يَدَّعِيَ بَعْضُهُمْ أَنَّ اللَّوَاتِي أَجَبْنَ دَعْوَتَهَا الْآتِيَةَ مِنْهُنَّ

كُنَّ أَرْبَعِينَ امْرَأَةً ، وَهُوَ مَرْدُودٌ بِالتَّعْبِيرِ عَنِ الْعَاذِلَاتِ كُلِّهِنَّ بِجَمْعِ الْقِلَّةِ ، وَكَذَا مَا عُلِمَ بِقَرِينَةِ الْحَالِ وَالْمَقَالِ مِنْ أَنَّهُنَّ مِنْ بُيُوتَاتِ كِبَارِ الدَّوْلَةِ ، فَإِنَّ نِسَاءَ الْبُيُوتِ الدُّنْيَا وَكَذَا الْوُسْطَى لَا يَتَسَامَيْنَ - بَعْدَ الْإِنْكَارِ عَلَى امْرَأَةِ الْعَزِيزِ كَبِيرِ وُزَرَاءِ الْمَلِكِ - إِلَى الْوُصُولِ إِلَيْهَا بِالْمَكْرِ وَالْحِيلَةِ ، لِمُشَارَكَتِهَا فِي فِتْنَتِهَا بَلْ نِعْمَتِهَا ، أَوْ سَلْبِ عَشِيقِهَا مِنْهَا ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا يَأْتِي مِنْ عَاقِبَةِ حَادِثِهِنَّ ، وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ الْمَعْهُودِ أَنْ يَعْرِفْنَ نَبَأَهَا مَعَهُ ، وَيَكُونَ حَدِيثُهُنَّ الشَّاغِلَ لَهُنَّ فِي مَجَالِسِهِنَّ الْخَاصَّةِ ، وَكَانَ خُلَاصَتُهُ

(48/396)

الْوَجِيزَةُ الْمُؤَدِّيَةُ لِمُرَادِهِنَّ مِنْهُ مَا حَكَاهُ التَّنْزِيلُ عَنْهُنَّ وَهُوَ قَوْلُهُنَّ : (امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ) هَذَا خَبَرٌ يُرَادُ بِهِ لَازِمُهُ ، وَهُوَ التَّعَجُّبُ وَالْإِنْكَارُ الصُّورِيُّ مِنَ النَّوَاحِي أَوِ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ :

(1) كَوْنُ الْمُتَحَدَّثِ عَنْهَا امْرَأَةَ عَزِيزِ مِصْرَ وَزِيرِ الْمَلِكِ الْأَكْبَرِ فِي عُلُوِّ مَرْكَزِهَا . (2) كَوْنُهَا تُهِينُ نَفْسَهَا وَتُحَقِّرُ مَرْكَزَهَا بِأَنْ تَكُونَ مُرَاوِدَةً لِرَجُلٍ عَنْ نَفْسِهِ ، وَشَأْنُ مِثْلِهَا - إِنْ سَخِتَ بِعِفَّتِهَا - أَنْ تَكُونَ مُرَاوَدَةً عَنْ نَفْسِهَا لَا مُرَاوِدَةً لِغَيْرِهَا كَمَا تَقَدَّمَ .

(3) أَنَّ الَّذِي تُرَاوِدُهُ عَنْ نَفْسِهِ هُوَ فَتَاهَا وَرَقِيقُهَا .

(4) أَنَّهَا بَعْدَ أَنِ افْتُضِحَ أَمْرُهَا وَعَرَفَ بِهِ سَيِّدُهَا وَزَوْجُهَا ، وَعَامَلَهَا بِالْحِلْمِ ، وَأَمَرَهَا بِاسْتِغْفَارِ رَبِّهَا ، لَا تَزَالُ مُصِرَّةً عَلَى ذَنْبِهَا ، مُسْتَمِرَّةً عَلَى مُرَاوَدَتِهَا ، وَهُوَ مَا أَفَادَهُ قَوْلُهُنَّ : (تُرَاوِدُ) وَهُوَ فِعْلُ الْمُضَارِعِ الدَّالُّ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) أَيْ قَدِ اخْتَرَقَ حُبُّهُ شَغَافَ قَلْبِهَا أَيْ غِلَافَهُ الْمُحِيطَ بِهِ ، وَغَاصَ فِي سُوَيْدَائِهِ ، فَمَلَكَ عَلَيْهَا أَمْرَهَا ، حَتَّى إِنَّهَا لَا تُبَالِي مَا يَكُونُ مِنْ عَاقِبَةِ تَهَتُّكِهَا ، وَاللَّائِقُ بِمَقَامِهَا الْكِتْمَانُ وَمُكَابَرَةُ الْوِجْدَانِ (إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أَيْ إِنَّا لَنَرَاهَا بِأَعْيُنِ بَصَائِرِنَا وَحُكْمِ رَأْيِنَا غَائِصَةً فِي غَمْرَةٍ مِنَ الضَّلَالِ الْبَيِّنِ الظَّاهِرِ الْبَعِيدِ عَنْ مَحَجَّةِ الْهُدَى وَالصَّوَابِ .

(49/396)

وَهُنَّ مَا قُلْنَ هَذَا إِنْكَارًا لِلْمُنْكَرِ وَكُرْهًا لِلرَّذِيلَةِ ، وَلَا حُبًّا فِي الْمَعْرُوفِ وَنَصْرًا لِلْفَضِيلَةِ ، وَإِنَّمَا قُلْنَهُ مَكْرًا وَحِيلَةً ، لِيَصِلَ إِلَيْهَا فَيَحْمِلَهَا عَلَى دَعْوَتِهِنَّ ، وَإِرَاءَتِهِنَّ بِأَعْيُنِ أَبْصَارِهِنَّ ، مَا يُبْطِلُ مَا يَدَّعِينَ رُؤْيَتَهُ بِأَعْيُنِ بَصَائِرِهِنَّ ، فَيَعْذُرُونَهَا فِيمَا عَذَلْنَهَا عَلَيْهِ ، فَهُوَ مَكْرٌ لَا رَأْيٌ .

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ) وَكَانَ مِنَ الْمُتَوَقَّعِ أَنْ تَسْمَعَهُ لِمَا اعْتِيدَ بَيْنَ هَذِهِ الْبُيُوتِ ، مِنَ التَّوَاصُلِ بِالزِّيَارَاتِ ، وَاخْتِلَافِ الْخَدَمِ مِنْ كُلٍّ مِنْهَا إِلَى الْآخَرِ ، وَهُنَّ مَا قُلْنَهُ إِلَّا لِتَسْمَعَهُ ،

فَإِنْ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا عَفْوًا ، احْتَلْنَ فِي إِيصَالِهِ قَصْدًا ، فَكَانَ مَا أَرَدْنَهُ : (أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا)

(50/396)

أَيْ دَعَتْهُنَّ إِلَى الطَّعَامِ فِي دَارِهَا ، وَمَكَرَتْ بِهِنَّ كَمَا مَكَرْنَ بِهَا ، بِأَنْ أَعَدَّتْ وَهَيَّأَتْ لَهُنَّ مَا يَتَّكِئْنَ عَلَيْهِ إِذَا جَلَسْنَ مِنَ الْكَرَاسِيِّ وَالْأَرَائِكِ وَهُوَ الْمُعْتَادُ فِي دُورِ الْكُبَرَاءِ ، قَالَ - تَعَالَى - فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ : (مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ) 18 : 31 وَكَانَ ذَلِكَ فِي حُجْرَةِ مَائِدَةِ الطَّعَامِ ، وَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا لِيَقْطَعْنَ بِهِ مَا يَأْكُلْنَ مِنْ لَحْمٍ أَوْ فَاكِهَةٍ ، وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِ مُفَسِّرِي السَّلَفِ تَفْسِيرُ الْمُتَّكَأِ بِالطَّعَامِ الَّذِي يُتَّكَأُ عَلَيْهِ ، أَيْ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ لِأَجْلِ قَطْعِهِ كَالْجَامِدِ وَالشَّدِيدِ الْقِوَامِ ، دُونَ الرَّخْوِ كَالْمَوْزِ النَّاضِجِ مِنَ الْفَاكِهَةِ وَالْحَسَاءِ مِنَ الطَّعَامِ ، وَالِاتِّكَاءُ عَلَى الشَّيْءِ هُوَ التَّمَكُّنُ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهِ أَوِ الِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ بِالْيَدِ أَوِ الْيَدَيْنِ ، قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ : وَتَوَكَّأَ عَلَى عَصَاهُ اعْتَمَدَ عَلَيْهَا ، وَاتَّكَأَ جَلَسَ مُتَمَكِّنًا ، وَفِي التَّنْزِيلِ : (وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) 43 : 34 أَيْ يَجْلِسُونَ . وَقَالَ : (وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً) 31 أَيْ مَجْلِسًا يَجْلِسْنَ عَلَيْهِ . قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : وَالْعَامَّةُ لَا تَعْرِفُ الِاتِّكَاءَ إِلَّا الْمَيْلَ فِي الْقُعُودِ مُعْتَمِدًا عَلَى أَحَدِ الشِّقَّيْنِ ، وَهُوَ يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا ، يُقَالُ : اتَّكَأَ إِذَا

أَسْنَدَ ظَهْرَهُ أَوْ جَنْبَهُ إِلَى شَيْءٍ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِ ، وَكُلُّ مَنِ اعْتَمَدَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدِ اتَّكَأَ عَلَيْهِ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ

(51/396)

تَفْسِيرُ الْمُتَّكَأِ هُنَا بِالْأُتْرُجِّ أَوِ الْأُتْرُنْجِ لِأَنَّهُ لَا يُقْطَعُ إِلَّا بِالِاتِّكَاءِ عَلَيْهِ ، وَفِي السُّنَّةِ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا كَانَ يَأْكُلُ وَهُوَ مُتَّكِئٌ (وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ) أَيْ أَمَرَتْ يُوسُفَ بِالْخُرُوجِ عَلَيْهِنَّ ، وَكَانَ فِي حُجْرَةٍ أَوْ مَخْدَعٍ فِي دَاخِلِ حُجْرَةِ الطَّعَامِ الَّتِي كُنَّ فِيهَا مَحْجُوبًا عَنْهُنَّ ، وَلَوْ كَانَ فِي مَكَانٍ خَارِجٍ عَنْهَا لَقَالَتِ : ادْخُلْ عَلَيْهِنَّ ، فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّهَا تَعَمَّدَتْ أَنْ يَفْجَأَهُنَّ وَهُنَّ مَشْغُولَاتٌ بِمَا يَقْطَعْنَهُ وَيَأْكُلْنَهُ ، عَالِمَةً بِمَا يَكُونُ لِهَذِهِ الْفُجَاءَةِ مِنْ تَأْثِيرِ الدَّهْشَةِ ، وَهُوَ مَا حَكَاهُ التَّنْزِيلُ عَنْهُنَّ مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - :

(فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ) أَيْ أَعْظَمْنَهُ وَدُهِشْنَ لِذَلِكَ الْحُسْنِ الرَّائِعِ ، وَالْجَمَالِ الْبَارِعِ ، وَغِبْنَ عَنْ شُعُورِهِنَّ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ بَدَلًا مِنْ تَقْطِيعِ مَا يَأْكُلْنَ ، ذُهُولًا عَمَّا يَعْمَلْنَ ، بِأَنِ اسْتَمَرَّتْ حَرَكَةُ السَّكَاكِينِ الْإِرَادِيَّةُ بَعْدَ فَقْدِ الْإِرَادَةِ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ فَقْدِهَا ، وَلَكِنَّهَا وَقَعَتْ عَلَى أَكُفِّ شَمَائِلِهِنَّ ، وَقَدْ سَقَطَ مِنْهَا مَا كَانَ فِيهَا مِنِ اسْتِرْخَائِهَا بِذُهُولِ تِلْكَ الدَّهْشَةِ فَقَطَعَتْهَا أَيْ جَرَحَتْهَا ، وَلَوْلَا اسْتِرْخَاؤُهَا لَأَبَانَتْهَا ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ مُضَيِّفَتَهُنَّ تَعَمَّدَتْ جَعْلَهَا مَشْحُوذَةً

فَوْقَ الْمَعْهُودِ فِي سَكَاكِينِ الطَّعَامِ مُبَالَغَةً فِي مَكْرِهَا بِهِنَّ ؛ لِتَقُومَ لَهَا الْحُجَّةُ عَلَيْهِنَّ بِمَا لَا يَسْتَطِعْنَ إِنْكَارَهُ ،

(52/396)

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْقَطْعِ ، هَلْ كَانَ قَطْعَ إِبَانَةٍ انْفَصَلَتْ بِهِ الْكَفُّ مِنَ الْمِعْصَمِ أَوِ الْأَصَابِعُ مِنَ الْكَفِّ ؟ أَمْ قَطْعَ جَرْحٍ أُطْلِقَ فِيهِ لَفْظُ بَدْءِ الشَّيْءِ عَلَى غَايَتِهِ مِنْ بَابِ الْمُبَالَغَةِ ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ بِالْمَجَازِ الْمُرْسَلِ ؟
الْأَكْثَرُونَ عَلَى الثَّانِي ، وَهُوَ مُسْتَعْمَلٌ إِلَى الْيَوْمِ بِالْإِرْثِ عَنْ قُدَمَاءِ الْعَرَبِ فِيمَنْ يُحَاوِلُ قَطْعَ شَيْءٍ فَتُصِيبُ السِّكِّينُ يَدَهُ فَتَجْرَحُهَا ، يَقُولُ : كُنْتُ أَقْطَعُ اللَّحْمَ أَوِ الْحَبْلَ (مَثَلًا) فَقَطَعْتُ يَدِي ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : كَادَ مَا أَرَدْتُهُ مِنْ قَطْعِ اللَّحْمِ يَكُونُ بِيَدِي مِمَّا أَخْطَأْتُ ، وَلَا يُقَالُ فِيمَنْ جَرَحَ عُضْوًا مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ كَالطَّبِيبِ قَاصِدًا جَرْحَهُ إِنَّهُ قَطَعَهُ إِلَّا إِذَا بَالَغَ فِيهِ ، يُقَالُ : أَرَادَ أَنْ يَجْرَحَ رِجْلَهُ لِيُخْرِجَ مِنْهَا شَظِيَّةً نَشِبَتْ فِيهَا فَقَطَعَهَا ، يُرِيدُ أَنَّهُ بَالَغَ فَكَادَ يَقْطَعُهَا ، وَقَدْ أَشَارَ الزَّمَخْشَرِيُّ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْقَيْدِ فِي اسْتِعْمَالِ الْقَطْعِ بِمَعْنَى الْجَرْحِ فَقَالَ : (كَمَا تَقُولُ : كُنْتُ أَقْطَعُ اللَّحْمَ فَقَطَعْتُ يَدِي) يُرِيدُ فَأَخْطَأْتُ فَجَرَحْتُهَا حَتَّى كِدْتُ أَقْطَعُهَا (وَقُلْنَ حَاشَ

لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا) أَيْ قُلْنَ هذا تَعَجُّبًا وَتَنْزِيهًا لِلَّهِ - تَعَالَى - أَنْ يَكُونَ خَلَقَ هَذَا الشَّخْصَ الْعَجِيبَ فِي جَمَالِهِ وَعِفَّتِهِ مِنْ نَوْعِ الْبَشَرِ، وَهُوَ مَا لَمْ

(53/396)

يُعْهَدْ لَهُ فِي النَّاسِ مِثْلٌ، إِنَّهُ لَيْسَ بَشَرًا مِثْلَنَا (إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) أَيْ مَا هَذَا إِلَّا مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الرُّوحَانِيِّينَ تَمَثَّلَ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ الْبَدِيعِيَّةِ الَّتِي تُدْهِشُ الْأَبْصَارَ وَتَخْلُبُ الْأَلْبَابَ (كَمَا كَانَ يُصَوِّرُ لَهُمْ صُنَّاعُهُمُ الرَّسَّامُونَ وَالنَّحَّاتُونَ أَرْوَاحَ الْمَلَائِكَةِ وَالْآلِهَةِ بِالصُّوَرِ وَالتَّمَاثِيلِ لِتَكْرِيمِهَا وَعِبَادَتِهَا) وَأَحْسَنُ كَلِمَةٍ رُوِيَتْ فِي الْآيَةِ عَنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ قَوْلُ ابْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ الْمَدَنِيِّ: أَعْطَتْهُنَّ أُتْرُنْجًا وَعَسَلًا فَكُنَّ يَحْزُزْنَ الْأُتْرُنْجَ بِالسِّكِّينِ وَيَأْكُلْنَهُ بِالْعَسَلِ، فَلَمَّا قِيلَ لَهُ: اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ، خَرَجَ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَعْظَمْنَهُ وَتَهَيَّمْنَ بِهِ حَتَّى جَعَلْنَ يُحَزِّزْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِالسِّكِّينِ وَفِيهَا الْأُتْرُنْجُ، وَلَا يَعْقِلْنَ وَلَا يَحْسَبْنَ إِلَّا أَنَّهُنَّ يُحَزِّزْنَ الْأُتْرُنْجَ، قَدْ ذَهَبَتْ عُقُولُهُنَّ مِمَّا رَأَيْنَ (وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا) مَا هَكَذَا يَكُونُ الْبَشَرُ، مَا هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ. انْتَهَى.

فَفَسَّرَ قَطْعُ الْأَيْدِي بِحَزِّهَا، وَالْحَزُّ أَقَلُّ مَا يُحْدِثُهُ السِّكِّينُ كَالْقَرْضِ فِي الْخَشَبَةِ، وَهُنَا يَتَسَاءَلُ الْمُتَسَائِلُونَ: مَاذَا قَالَتْ لَهُنَّ، وَقَدْ غَلَبَ مَكْرُهَا مَكْرَهُنَّ؟ وَصَارَ حَالُهَا وَحَالُهُنَّ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَبصرَهُ عَاذِلِي عَلَيْهِ . . . ولَمْ يكنْ قَبْلَهَا رَآهْ

فَقَالَ لِي لَوْ عَشِقْتَ هَذَا . . . مَا لامَكَ النَّاسُ فِي هَوَاهُ

فَظَلَّ مِنْ حَيْثُ لَيْسَ يَدْرِي . . . يَأْمُرُ بِالْعِشْقِ مَنْ نَهَاهُ

(54/396)

(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ) أَيْ حِينَئِذٍ قَالَتْ لَهُنَّ مَا يُعْلَمُ شَرْحُهُ مِنْ قَرِينَةِ الْحَالِ ، لِمَا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ مِنْ إِيجَازٍ وَإِجْمَالٍ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ مَا رَأَيْتُنَّ بِأَعْيُنِكُنَّ ، وَمَا أَكْبَرْتُنَّ فِي أَنْفُسِكُنَّ ، وَمَا فَعَلْتُنَّ بِأَيْدِيكُنَّ ، وَمَا قُلْتُنَّ بِأَلْسِنَتِكُنَّ ، فَذَلِكُنَّ هُوَ الْأَمْرُ الْبَعِيدُ الْغَايَةِ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ، وَأَسْرَفْتُنَّ فِي عَذْلِي عَلَيْهِ ، إِذْ قُلْتُنَّ مِنْ قَبْلُ مَا قُلْتُنَّ ، فَالْمُشَارُ إِلَيْهِ بِكَافِ الْبُعْدِ هُوَ أَمْرُ لَوْمِهِنَّ لَهَا ، أَوْ يُوسُفُ الْبَعِيدُ فِي حَقِيقَتِهِ الْبَدِيعُ فِي صُورَتِهِ عَمَّا تُصَوَّرْنَهُ بِهِ ، فَمَا هُوَ عِبْرَانِيٌّ أَوْ كَنْعَانِيٌّ مَمْلُوكٌ ، وَخَادِمٌ صُعْلُوكٌ ، قَدْ شَغَفَ مَوْلَاتَهُ الْمَالِكَةَ لِرِقِّهِ حُبًّا وَغَرَامًا ، فَهِيَ تُرَاوِدُهُ عَنْ نَفْسِهِ ضَلَالًا مِنْهَا وَهُيَامًا ، بَلْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْظَمُ ، هُوَ مَلَكٌ رُوحَانِيٌّ ، تَجَلَّى فِي شَكْلٍ إِنْسَانِيٍّ ، أُوتِيَ

(55/396)

مِنْ رَوْعَةِ الْجَمَالِ مَا خَلَبَ أَلْبَابَكُنَّ فِي الْوَهْلَةِ الْأُولَى مِنْ ظُهُورِهِ لَكُنَّ ، فَمَا قَوْلُكُنَّ فِي أَمْرِي مَعَهُ وَافْتِتَانِي بِهِ ، وَإِنَّمَا تَرَعْرَعَ فِي دَارِي ، وَبَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى بَيْنَ سَمْعِي وَبَصَرِي ، فَأَنَا أُشَاهِدُهُ فِي قُعُودِهِ وَقِيَامِهِ ، وَيَقَظَتِهِ وَمَنَامِهِ ، وَطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ ، وَحَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ ، وَأَخْلُو بِهِ فِي لَيْلِي وَنَهَارِي ، فَأَرَاهُ بَشَرًا سَوِيًّا ، إِنْسِيًّا لَا جِنِّيًّا ، وَجَسَدًا لَا مَلَكًا رُوحَانِيًّا ، فَأَتَرَاءَى لَهُ فِي زِينَتِي ، وَأَعْرِضُ عَلَى نَظَرِهِ مَا ظَهَرَ وَمَا خَفِيَ مِنْ مَحَاسِنِي ، فَيُعْرِضُ عَنْهَا احْتِقَارًا ، فَأَتَصَبَّاهُ بِكُلِّ مَا أَمْلِكُ مِنْ كَلَامٍ عَذْبٍ يَخْلُبُ اللُّبَّ ، وَلِينِ قَوْلٍ وَخُشُوعِ صَوْتٍ يُرَقِّقُ الْقَلْبَ ، فَلَا يَصْبُو إِلَيَّ ، وَأَمُدُّ عَيْنَيَّ إِلَى مَحَاسِنِهِ فِيهِمَا كُلُّ مَا يُكِنُّهُ قَلْبِي مِنْ صَبَابَةٍ وَشَوْقٍ وَخَلَاعَةٍ ، مَعَ فُتُورِ جَفْنٍ ، وَانْكِسَارِ طَرْفٍ ، وَطُولِ تَرْنِيقٍ وَتَحْدِيقٍ ، فَلَا يَرْفَعُ إِلَيَّ طَرْفًا ، وَلَا يَمِيلُ نَحْوِي عِطْفًا ، بَلْ تَتَجَلَّى فِيهِ الرُّوحُ الْمَلَكِيَّةُ بِأَظْهَرِ مَجَالِيهَا ، وَالْعِبَادَةُ الْإِلَهِيَّةُ بِأَكْمَلِ مَعَانِيهَا ، أَمِثْلُ هَذَا الْمَلِكِ الْقَاهِرِ يُسَمَّى عَبْدًا طَائِعًا ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْمَقْهُورَةِ تُسَمَّى سَيِّدَةً مَالِكَةً ، تَأْمُرُ بَلْ تُسِيرُ فَتُطَاعُ ، وَيُنْكِرُ عَلَيْهَا أَنْ تُرَاوِدَ فَتُرَدُّ ، ثُمَّ تُرِيدُ إِظْهَارَ سُلْطَانِهَا فَتَعْجِزُ ؟ لَقَدِ انْكَشَفَ الْقِنَاعُ ، فَلَا أَمْرَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ ، (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) أَيِ اسْتَمْسَكَ بِعُرْوَةِ

عِصْمَتِهِ الَّتِي وَرِثَهَا عَمَّنْ نَشَئُوا عَلَيْهَا ، كَأَنَّهُ يَطْلُبُ مَزِيدَ الْكَمَالِ مِنْهَا .

هَهُنَا أَقُولُ : وَاللهِ مَا عَجَبِي مِنْ يُوسُفَ أَنْ رَاوَدَتْهُ مَوْلَاتُهُ فَاسْتَعْصَمَ ، وَأَنْ قَالَتْ لَهُ : (هَيْتَ لَكَ) فَقَالَ : (أَعُوذُ بِاللهِ) فَكَمْ قَالَ هَذَا مَنْ لَيْسَ لَهُ مَقَامُهُ فِي مَعْرِفَتِهِ بِاللهِ وَمُرَاقَبَتِهِ لِلَّهِ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا رَاوَدَ أَعْرَابِيَّةً فِي لَيْلَةٍ لَيْلَاءَ ، وَقَالَ : إِنَّهُ لَا يَرَانَا غَيْرُ كَوَاكِبِ هَذِهِ السَّمَاءِ ، فَقَالَتْ : وَأَيْنَ مُكَوْكِبُهَا ؟

وَإِنَّمَا عَجَبِي بَلْ إِعْجَابِي بِيُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّ نَظَرَهُ إِلَى اللهِ أَوْ نَظَرَ اللهِ إِلَيْهِ لَمْ يَدَعْ فِي قَلْبِهِ الْبَشَرِيِّ مَكَانًا خَالِيًا لِنَظَرَاتِ هَذِهِ الْعَاشِقَةِ الَّتِي شَغَفَهَا حُبًّا ، لِتُصِيبَهَا لَهُ قَبْلَ أَنْ يَخُونَهَا صَبْرُهَا فَتُنَفِّرُهُ بِمُصَارَحَتِهَا ، وَإِنَّ مِنْ أَقْوَى غَرَائِزِ الْبَشَرِ حُبُّ الْإِنْسَانِ لِمَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ ، وَإِنْ كَانَ مَشْغُولَ الْقَلْبِ عَنْهُ بِحُبِّ مَنْ لَا يُحِبُّهُ ، كَمَا قِيلَ :

وَنَظْرَةُ الْمَحْبُوبِ لِلْمُحِبِّ وَاللهِ عَنْ إِنْسَانِ عَيْنِ الْقَلْبِ

وَأَمَّا الْخَالِي فَلَا يَكَادُ يَسْلَمُ مِنْ تَأْثِيرِ التَّحَبُّبِ فِي اسْتِمَالَتِهِ كَمَا قَالَتْ عُلَيَّةُ بِنْتُ الْمَهْدِيِّ الْعَبَّاسِيِّ :

تَحَبَّبْ فَإِنَّ الْحُبَّ دَاعِيَةُ الْحُبِّ

فَالْحُبُّ أَقْوَى غَرَائِزِ الْبَشَرِ ، وَأَكْبَرُ مَا يَفْتِنُ الرِّجَالَ بِالنِّسَاءِ وَالنِّسَاءَ بِالرِّجَالِ ، وَإِنَّ مِنَ الْحُبِّ لَصَادِقًا وَكَاذِبًا ، وَإِنَّ مِنَ الْعِشْقِ لَعُذْرِيًّا عَفِيفًا ، وَشَهْوِيًّا فَاسِقًا ، وَإِنَّ مَفَاسِدَهُ فِي الْحَضَارَةِ لَكَبِيرَةٌ ، وَإِنَّ فِتْنَتَهُ لَعَظِيمَةٌ ، وَسَنَعْقِدُ لَهُ فَصْلًا فِي بَابِ الْعِبْرَةِ بِالْقِصَّةِ فِي إِجْمَالِ تَفْسِيرِ السُّورَةِ .

(58/396)

(وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ) بِهِ ، أُقْسِمُ لَكُنَّ آكَدَ الْأَيْمَانِ ، وَلْتَسْمَعْ ذَلِكَ مِنْهُ الْآذَانُ (لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ) أَيِ الْأَذِلَّةِ الْمَقْهُورِينَ ، تَعْنِي أَنَّ زَوْجَهَا الْعَزِيزَ يُعَاقِبُهُ بِمَا تُرِيدُ مِنْ إِلْقَائِهِ فِي السِّجْنِ وَهُوَ الْمُدَبِّرُ لَهُ الْمُتَوَلِّي لِأَمْرِهِ ، وَمَنْ جَعَلَهُ كَغَيْرِهِ مِنَ الْعَبِيدِ بَعْدَ تَكْرِيمِ مَثْوَاهُ وَجَعْلِهِ كَوَلَدِهِ ، وَهَذَا أَشَدُّ مِمَّا أَنْذَرَتْهُ أَوَّلًا إِذْ قَالَتْ لِزَوْجِهَا عِنْدَ الْتِقَائِهِمَا بِهِ لَدَى الْبَابِ : (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) هُنَالِكَ أَنْذَرَتْهُ أَحَدَ الْعِقَابَيْنِ : سِجْنٌ غَيْرُ مُؤَكَّدٍ ، أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ نَكِرَةٌ غَيْرُ مُعَرَّفٍ ، قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ السِّجْنُ الْمُطْلَقُ بِأَخَفِّ صُوَرِهِ وَأَقَلِّهَا ، وَالْعَذَابُ الْمُنْكَرُ بِأَهْوَنِ أَنْوَاعِهِ وَأَلْطَفِهَا ، فَذَاكَ بِحَبْسِهِ فِي حُجْرَةٍ مِنَ الدَّارِ ، وَهَذَا بِلَطْمَةٍ يَحْتَدِمُ بِهَا مَا فِي خَدَّيْهِ مِنَ الِاحْمِرَارِ ، وَهُنَا أَنْذَرَتْهُ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا ، وَأَكَّدَتِ

السِّجْنَ بِالْقَسَمِ وَبِنُونِ التَّوْكِيدِ الثَّقِيلَةِ ، وَفَسَّرَتِ الْعَذَابَ بِالصَّغَارِ الَّذِي تَأْبَاهُ الْأَنْفُسُ الْكَبِيرَةُ ، وَاكْتَفَتْ فِيهِ بِالنُّونِ الْخَفِيفَةِ ، وَهُوَ أَشَقُّ عَلَى مِثْلِ يُوسُفَ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ بِالْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ ؛ لِأَنَّهَا أَهْوَنُ عَلَى كِرَامِ النَّاسِ مِنَ الْهَوَانِ وَالصَّغَارِ بِاحْتِقَارِ النَّفْسِ ، وَفِعْلُهُ صَغِرَ كَتَعِبَ ، وَأَمَّا صَغُرَ كَضَخُمَ فَهُوَ خَاصٌّ بِصِغَرِ الْجِسْمِ ، وَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - :

(59/396)

حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ 9 : 29 .

وَفِي هَذَا التَّهْدِيدِ مِنْ ثِقَةِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بِسُلْطَانِهَا عَلَى زَوْجِهَا الْوَزِيرِ الْكَبِيرِ عَلَى عِلْمِهِ بِأَمْرِهَا ، وَاسْتِعْظَامِهِ لِكَيْدِهَا ، مَا حَقُّهُ أَنْ يُخِيفَ يُوسُفَ مِنْ تَنْفِيذِ إِرَادَتِهَا ، وَيُثْبِتُ عِنْدَهُ عَدَمَ غَيْرَتِهِ عَلَيْهَا ، كَمَا هُوَ شَأْنُ كَثِيرٍ مِنَ الْوُزَرَاءِ الْمُتْرَفِينَ ، وَلَا سِيَّمَا الْعَاجِزِينَ عَنْ إِحْصَانِ أَزْوَاجِهِنَّ ، وَالْمَحْرُومِينَ مِنْ نِعْمَةِ الْأَوْلَادِ مِنْهُنَّ ، وَمَاذَا فَعَلَ يُوسُفُ وَمَا قَالَ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْمَاكِرَةَ قَدْ عِيلَ صَبْرُهَا ، وَهُتِكَتْ سِتْرُهَا ، وَكَاشَفَتْ نِسْوَةَ كِبَارِ بَلَدِهَا بِمَا تُسِرُّ وَمَا تُعْلِنُ مِنْ أَمْرِهَا ؟ وَرَأَى أَنَّهُنَّ تَوَاطَأْنَ مَعَهَا عَلَى كَيْدِهَا ، وَرَاوَدْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ كَمَا رَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَهُوَ تَوَاطُؤٌ لَا قِبَلَ لِرَجُلٍ بِهِ ، إِلَّا بِمَعُونَةِ رَبِّهِ وَحِفْظِهِ .

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) أَيْ قَالَ : أَيْ رَبِّي ، الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِي ،

الْعَالَمُ بِسِرِّي وَجَهْرِي ، إِنَّ الْحَبْسَ وَالِاعْتِقَالَ فِي السِّجْنِ مَعَ الْمُجْرِمِينَ حَيْثُ شَظَفُ الْعَيْشِ أَحَبُّ إِلَى نَفْسِي ، وَآثَرُ عِنْدِي عَلَى مَا يَدْعُونِي إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةُ مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِهِنَّ فِي تَرَفِ هَذِهِ الْقُصُورِ وَزِينَتِهَا ، وَالِاشْتِغَالِ بِحُبِّهِنَّ عَنْ حُبِّكَ ، وَبِقُرْبِهِنَّ عَنْ قُرْبِكَ ، وَبِمُغَازَلَتِهِنَّ عَنْ

مُنَاجَاتِكَ ، وَإِنَّمَا يُفَسِّرُ وَيُشْرَحُ هَذَا بِمَا يُعْلَمُ مِنْ سِيَاقِ الْقُرْآنِ ، وَمِنْ طِبَاعِ الرِّجَالِ وَالنِّسْوَانِ ، وَمِنَ التَّارِيخِ الْعَامِّ ، وَالسُّنَنِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ ، وَسِيرَةِ الصَّالِحِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ ، دُونَ حَاجَةٍ إِلَى مَا لَا سَنَدَ لَهُ وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنَ الرِّوَايَاتِ وَدَسَائِسِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَمِنْهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي السِّجْنِ إِلَّا الِاعْتِبَارُ بِأَحْكَامِ الْمُلُوكِ وَأَعْوَانِهِمْ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْقُضَاةِ عَلَى مَنْ يَسْخَطُونَ عَلَيْهِمْ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، مِمَّا يَزِيدُنِي إِيمَانًا بِقَضَائِكَ ، وَصَبْرًا عَلَى بَلَائِكَ ، وَشُكْرًا لِنَعْمَائِكَ ، وَعِلْمًا بِشُئُونِ خَلْقِكَ ، وَيَفْتَحُ لِي بَابَ الدَّعْوَةِ إِلَى مَعْرِفَتِكَ وَتَوْحِيدِكَ ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِإِقَامَةِ الْحَقِّ ، وَنَصْبِ مِيزَانِ الْعَدْلِ ، فِيمَا عَسَى أَنْ تُخَوِّلَنِي مِنَ الْأَمْرِ ، إِذَا مَكَّنْتَ لِي كَمَا وَعَدْتَنِي فِي الْأَرْضِ .

هَذا مَا يَتبَادرُ إلى الْفهْم مِنْ توْجيهِ التَّفْضِيل فِي الْحُبِّ، تَدُلُّ عَلَيْهِ حَالَةُ يُوسُفَ وَسَابِقُ قِصَّتِهِ وَلَاحِقُهَا بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا تَحَكُّمٍ، كَمَا هُوَ دَأْبُنَا فِي كُلِّ مَا تُفَسَّرُ بِهِ هَذِهِ الْقِصَّةُ وَغَيْرُهَا، وَهُوَ يَصْدُقُ فِي جَعْلِ اسْمِ التَّفْضِيل هُنَا لَا مَفْهُومَ لَهُ أَوْ عَلَى غَيْرِ بَابِهِ كَمَا يُقَالُ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ مَا يَدْعُونِي إِلَيْهِ مَحْبُوبٌ عِنْدِي وَالسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ إِذَا تَعَارَضَا وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَحَدِهِمَا، فَالسِّجْنُ آثَرُ وَأَوْلَى بِالتَّرْجِيحِ؛ لِأَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ لَهُ فَائِدَةٌ عَاجِلَةٌ، وَعَاقِبَةٌ صَالِحَةٌ، وَأَمَّا مُجَاهَدَةُ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةِ مَعَ الْمُكْثِ مَعَهُنَّ، فَهُوَ أَشَقُّ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْعَارِفِ بِرَبِّهِ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْفَائِدَةِ وَالْعَاقِبَةِ مَا لِلسِّجْنِ، فَهُوَ - أَيِ اسْمُ التَّفْضِيلِ - مِنْ قَبِيلِ قَوْلِ الْمُحَدِّثِينَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ:

هُوَ أَصَحُّ مَا فِي هَذَا الْبَابِ، يَعْنُونَ: أَقْوَى مَا فِيهِ وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا غَيْرَ صَحِيحَةٍ، بَلْ هُوَ كَقَوْلِهِ الْآتِي: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ 39 .

وَقِيلَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ التَّفْضِيلِ تَرْجِيحَ الْأَحَبِّ بِمُقْتَضَى الْإِيمَانِ وَحُكْمِ الشَّرْعِ عَلَى الْمَحْبُوبِ بِمُقْتَضَى الْغَرِيزَةِ وَدَاعِيَةِ الطَّبْعِ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالصُّلَحَاءَ كَسَائِرِ الْبَشَرِ يُحِبُّونَ

النِّسَاءَ وَيَشْتَهُونَ الِاسْتِمْتَاعَ بِهِنَّ ، وَلَكِنَّهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يَكُونَ مِنْ غَيْرِ الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ وَشَرِهِ الِاعْتِدَاءِ عَلَى نِسَاءِ النَّاسِ . وَلَمَّا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْفُقَرَاءِ : (وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ) قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ : أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ : (أَرَأَيْتُمْ إِذَا وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ ؟ كَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ .

وَفِي حَدِيثِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ حَيْثُ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ : (وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ وَمَنْصِبٍ إِلَى نَفْسِهَا فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ) وَهُوَ حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَذَلِكَ بِأَنَّ لِلْمَرْأَةِ ذَاتِ الْمَنْصِبِ سُلْطَانًا عَلَى قَلْبِ الرَّجُلِ فَوْقَ سُلْطَانِ الْوَضِيعَةِ فِي طَبَقَتِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةَ الصُّورَةِ ، فَيَثْقُلُ عَلَى طَبْعِهِ وَتَضْعُفُ إِرَادَتُهُ أَنْ يَرُدَّ طَلَبَهَا ، فَكَيْفَ بِهَا إِذَا جَمَعَتْ بَيْنَ سُلْطَانِ الْجَمَالِ وَسُلْطَانِ الْمَنْصِبِ ثُمَّ ذَلَّتْ لَهُ وَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا ؟

(فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا ابْتَذَلَتْ نَفْسَهَا فَبَذَلَتْهَا لِلرَّجُلِ بَذْلًا ، وَتَحَوَّلَ دَلُّهَا عَلَيْهِ مَهَانَةً وَذُلًّا ، فَإِنَّهُ يَحْتَقِرُهَا ، وَتَتَحَوَّلُ رَغْبَتُهُ فِيهَا رَغْبَةً عَنْهَا ، وَكُلَّمَا تَمَنَّعَتْ عَلَيْهِ ازْدَادَ حُبًّا لَهَا وَشَوْقًا

إِلَيْهَا ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

مَنَعْتِ شَيْئًا فَأَكْثَرْتُ الْوَلُوعَ بِهِ . . . أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا

(64/396)

(قُلْنَا) : نَعَمْ إِنَّ هَذَا مُقْتَضَى الطَّبْعِ السَّلِيمِ ، كَمَا أَنَّ رَدَّ ذَاتِ الْجَمَالِ وَالْمَنْصِبِ مِنْ ضَعْفِ الرَّجُلِ أَمَامَ الْمَرْأَةِ ، وَلَكِنَّ الْمُرَاوَدَةَ قَلَّمَا تَبْلُغُ مِنْ هَؤُلَاءِ حَدَّ الْوَقَاحَةِ فِي الصَّرَاحَةِ فَتَكُونُ مُنَفِّرَةً ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهَا احْتِيَالٌ وَمُرَاوَغَةٌ لِتَحْوِيلِ الْإِرَادَةِ ، وَإِنَّ لِنِسَاءِ الْأَكَابِرِ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي أَفْسَدَتْهَا الْحَضَارَةُ كَيْدًا فِيهَا وَخِدَاعًا ، وَإِنَّ لِأُسْتَاذِهِنَّ الشَّيْطَانِ مَسَالِكًا مِنْ إِغْوَائِهِنَّ وَالْإِغْوَاءُ بِهِنَّ يَخِرُّ أَقْوَى الرِّجَالِ تُجَاهَهَا صَرِيعًا ، وَلَكِنَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَعِنَايَةُ رَبِّهِمْ بِهِمْ تَغْلِبُ غِوَايَتَهُ وَمَكْرَ النِّسْوَانِ ، وَقَدْ لَجَأَ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى هَذِهِ الْعِنَايَةِ ، إِذْ عَرَضَ لَهُ كَيْدُ بِضْعِ نِسْوَةٍ مِنْ ذَوَاتِ الْجَمَالِ وَالْمَنْصِبِ لَا بِضَاعَةَ لَهُنَّ إِلَّا أَبْضَاعُهُنَّ ، فَقَالَ : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) يَعْنِي : إِنْ لَمْ تُحَوِّلْ عَنِّي مَا يَنْصِبْنَهُ لِي مِنْ شِرَاكِ الْكَيْدِ ، وَيَمُدُّنَهُ مِنْ شِبَاكِ الصَّيْدِ ، لَمْ أَسْلَمْ مِنَ الصَّبْوَةِ إِلَيْهِنَّ ، وَهِيَ الْمَيْلُ إِلَى مُوَافَقَتِهِنَّ عَلَى أَهْوَائِهِنَّ ، يُقَالُ : صَبَا يَصْبُو صَبْوًا وَصَبْوَةً إِذَا مَالَ إِلَى اللَّهْوِ وَمَا يَطِيبُ لِلنَّفْسِ مِنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى ، وَمِنْهُ رِيحُ الصَّبَا وَهِيَ الَّتِي تَهُبُّ عَلَى بِلَادِ الْعَرَبِ مِنْ مَشْرِقِ

الشَّمْسِ ، لِأَنَّ النُّفُوسَ تَصْبُو إِلَيْهَا لِطِيبِ نَسِيمِهَا وَرُوحِهَا ، حَتَّى إِنَّ تَغَزُّلَ شُعَرَائِهِمْ بِهَا لَيُضَاهِي

(65/396)

تَغَزُّلَهُمْ بِعَشِيقَاتِهِمْ رِقَّةً وَصَبَابَةً ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا اقْتَرَنَا وَامْتَزَجَا كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَانًا لِقَلْبِهِ . . . فَقَدْ كَادَ رَيَّاهَا يَطِيرُ بِلُبِّهِ

وَإِيَّاكُمَا ذَاكَ النَّسِيمَ فَإِنَّهُ . . . إِذَا هَبَّ كَانَ الْوَجْدُ أَيْسَرَ خَطْبِهِ

(وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أَيْ مِنْ صِنْفِ السُّفَهَاءِ الَّذِينَ تَسْتَخِفُّهُمْ أَهْوَاءُ النَّفْسِ فَيَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ، وَهِيَ مَا يُخَالِفُ مُقْتَضَى الْحِلْمِ وَالْأَنَاةِ ، أَوْ مُقْتَضَى الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، فَإِنَّ مَنْ يَعِيشُ بَيْنَ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةِ الْمَاكِرَاتِ الْمُتْرَفَاتِ - مِثْلِي - لَا مَفَرَّ لَهُ مِنَ الْجَهْلِ إِلَّا بِعِصْمَتِكَ وَحِفْظِكَ بِمَا هُوَ فَوْقَ الْأَسْبَابِ الْمُعْتَادَةِ ، وَهَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ مِنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِأَنَّهُ مَا صَبَا إِلَيْهِنَّ ، وَلَا أَحَبَّ أَنْ يَعِيشَ مَعَهُنَّ ، وَإِنَّمَا بَيَّنَ مُقْتَضَى الِاسْتِهْدَافِ لِكَيْدِ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ ، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُدِيمَ لَهُ مَا وَعَدَهُ فِي قَوْلِهِ : كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ . 24

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ مَا دَعَاهُ بِهِ وَطَلَبَهُ مِنْهُ ، الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الِابْتِهَالُ

وَالالْتِجَاءُ إِلَيْهِ وطَوَى ذِكْرَهُ إيجَازًا فصرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ فَلَمْ يَصْبُ إِلَيْهِنَّ، فَيَحْتَاجُ إِلَى جِهَادِ نَفْسِهِ لِكَفِّهَا عَنِ الِاسْتِمْتَاعِ بِهِنَّ، وَعَصَمَهُ أَنْ يَكُونَ (مِنَ الْجَاهِلِينَ) بِاتِّبَاعِ هَوَاهُنَّ (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْمُجِيبُ) لِمَنْ أَخْلَصَ لَهُ الدُّعَاءَ، جَامِعًا بَيْنَ مَقَامَيِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، الْعَلِيمُ بِصِدْقِ إِيمَانِهِمْ، وَمَا يَصْلُحُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، فَعَطَفَ اسْتِجَابَةَ رَبِّهِ لَهُ، وَصَرْفَ كَيْدِهِنَّ عَنْهُ بِالْفَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّعْقِيبِ، وَتَعْلِيلُهَا بِأَنَّهَا مُقْتَضَى كَمَالِ صِفَتَيِ السَّمْعِ وَالْعِلْمِ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ رَبَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لَمْ يَتَخَلَّ عَنْ عِنَايَتِهِ بِتَرْبِيَتِهِ، أَقْصَرَ زَمَنٍ يَهْتَمُّ فِيهِ بِأَمْرِ نَفْسِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ، وَمُؤَيِّدٌ لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي أَوَّلِ سِيَاقِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) 21.

(ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ) بَدَا هَذِهِ مِنَ الْبَدَاءِ (بِالْفَتْحِ) لَا مِنَ الْبُدُوِّ الْمُطْلَقِ، أَيْ ثُمَّ ظَهَرَ لَهُمْ مِنَ الرَّأْيِ مَا لَمْ يَكُنْ ظَاهِرًا مِنْ قَبْلُ، وَمِنْهُ كَلِمَةُ سَيِّدِنَا عَلِيٍّ الْبَلِيغَةُ (فَمَا عَدَا مِمَّا

بدا) أيْ فمَا عدَاكَ وصرفَكَ عمّا كُنْتَ فِيهِ ممّا بدا لكَ الْآنَ وكَانَ خَفيًّا عنْكَ قَبْلَهُ ، ولِذَلِكَ عُطِفَتِ الْجُمْلَةُ بِـ (ثُمَّ) الّتِي تُفِيدُ الِانْتِقَالَ مِمّا كَانُوا فِيهِ إلَى طَوْرٍ جَدِيدٍ بَعْدَ التَّشَاوُرِ وَالتَّرَوِّي فِي الْأَمْرِ ، وَضَمِيرُ لَهُمْ يَرْجِعُ إلَى أَهْلِ دَارِ الْعَزِيزِ وَامْرَأَتِهِ وَمَنْ يَعْنِيهِ أَمْرُهُمَا كَالشَّاهِدِ الّذِي شَهِدَ عَلَيْهَا مِنْ أَهْلِهَا ، وَالْمُرَادُ بِـ (الْآيَاتِ) مَا شَهِدُوهُ وَاخْتَبَرُوهُ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ يُوسُفَ إنْسَانٌ غَيْرُ الْأَنَاسِيِّ الَّتِي عَرَفُوهَا فِي عَقِيدَتِهِ وَإِيمَانِهِ وَأَخْلَاقِهِ ، مِنْ عِفَّةٍ وَنَزَاهَةٍ وَاحْتِقَارٍ لِلشَّهَوَاتِ وَالزِّينَةِ وَالْإِتْرَافِ الْمُتَّبَعِ فِي قُصُورِ هَذِهِ الْحَضَارَةِ ، وَمِنْ عِنَايَةِ رَبِّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ بِهِ كَمَا يُؤْمِنُ وَيَعْتَقِدُ ، فَمِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ : أَنْ تُفْتَنَ سَيِّدَتُهُ فِي مُرَاوَدَتِهِ ، وَلَمْ يُحْدِثْ أَدْنَى تَأْثِيرٍ فِي جَذْبِ خُلَسَاتِ نَظَرِهِ ، وَلَا فِي خَفَقَاتِ قَلْبِهِ ، بَلْ ظَلَّ مُعْرِضًا عَنْهَا مُتَجَاهِلًا لَهَا ، حَتَّى إذَا مَا صَارَحَتْهُ بِكَلِمَةِ هَيْتَ لَكَ اقْشَعَرَّ جِلْدُهُ ، وَاسْتَعَاذَ بِرَبِّهِ ، رَبِّ آبَائِهِ الّذِينَ يَفْتَخِرُ بِاتِّبَاعِ مِلَّتِهِمْ ، وَعَيَّرَهَا بِالْخِيَانَةِ لِزَوْجِهَا .

(68/396)

(وَمِنْهَا) أَنَّهَا لَمَّا غَضِبَتْ وَهَمَّتْ بِالْبَطْشِ بِهِ هَمَّ بِمُقَاوَمَتِهَا وَالْبَطْشِ بِهَا وَهِيَ سَيِّدَتُهُ ، وَمَا مَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ إلَّا مَا رَأَى مِنَ الْبُرْهَانِ فِي دَخِيلَةِ نَفْسِهِ . مُؤَيِّدًا لِمَا يَعْتَقِدُهُ مِنْ صَرْفِ رَبِّهِ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ عَنْهُ .

(وَمِنْهَا) أَنَّهَا لَمَّا اتَّهَمَتْهُ

بِالتَّعَدِّي عَلَيْهَا وَأَرَادُوا التَّحْقِيقَ

فِي الْمَسْأَلَةِ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا هُوَ جَدِيرٌ بِالدِّفَاعِ عَنْهَا، بِمَا تَضَمَّنَ الْحُكْمُ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا كَاذِبَةٌ فِي اتِّهَامِهَا إِيَّاهُ بِإِرَادَةِ السُّوءِ بِهَا، وَأَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا ادَّعَاهُ مِنْ مُرَاوَدَتِهَا إِيَّاهُ عَنْ نَفْسِهِ

.

(وَمِنْهَا) مَسْأَلَةُ انْتِشَارِ خَبَرِهَا مَعَهُ وَخَوْضِ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ فِي افْتِتَانِهَا بِهِ وَإِذْلَالِ نَفْسِهَا بِبَذْلِهَا لَهُ مَعَ إِعْرَاضِهِ عَنْهَا .

(وَمِنْهَا) مَسْأَلَةُ مَكْرِ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةِ وَأَعْمَقِهِنَّ كَيْدًا مَعَهُ، إِذْ حَاوَلْنَ رُؤْيَتَهُ وَتَوَاطَأْنَ عَنْ مُرَاوَدَتِهِ وَدَهْشَتِهِنَّ مِمَّا شَاهَدْنَ مِنْ جَمَالِهِ، حَتَّى قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ بَدَلًا مِمَّا فِي أَيْدِيهِنَّ وَهُنَّ لَا يَشْعُرْنَ .

(69/396)

فَجَمِيعُ هَذِهِ الْآيَاتِ تُثْبِتُ أَنَّ بَقَاءَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ بَيْنَ رَبَّتِهَا وَصَدِيقَاتِهَا مِنْ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةِ مَثَارُ فِتْنَةٍ لِلنِّسَاءِ لَا تُدْرَكُ غَايَتُهَا، وَأَنَّ الْحِكْمَةَ وَالصَّوَابَ فِي أَمْرِهَا هُوَ تَنْفِيذُ رَأْيِهَا الْأَوَّلِ فِي سِجْنِهِ - وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةَ النِّيَّةِ مَاكِرَةً فِيهِ - لِإِخْفَاءِ ذِكْرِهِ، وَكَفِّ أَلْسِنَةِ النَّاسِ عَنْهَا فِي

أَمْره ، (فَأَقْسَمُوا لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينَ) أَيْ إِلَى أَجَلٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ ، حَتَّى يَكُونُوا مُطْلَقِي الْحُرِّيَّةِ فِي طُولِ مُكْثِهِ وَقَصْرِهِ وَإِخْرَاجِهِ ، وَيَرَوْا مَا يَكُونُ مِنْ تَأْثِيرِ السِّجْنِ فِيهِ وَحَدِيثِ النَّاسِ عَنْهُ . وَهَذَا الْقَرَارُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ كَانَتْ مَالِكَةً لِقِيَادِ زَوْجِهَا الْوَزِيرِ الْكَبِيرِ ، تَقُودُهُ بِقَرْنَيْهِ كَيْفَ شَاءَ هَوَاهَا ، وَأَنَّهُ كَانَ فَاقِدًا لِلْغَيْرَةِ كَأَمْثَالِهِ مِنْ كُبَرَاءِ الدُّنْيَا صِغَارِ الْأَنْفُسِ عَبِيدِ الشَّهَوَاتِ ، وَقَدْ أَعْجَبَنِي فِيهِ قَوْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ عَلَى قِلَّةِ مَا أَعْجَبَنِي مِنْ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الَّتِي شَوَّهَتْهَا عَلَيْهِمُ الرِّوَايَاتُ الْإِسْرَائِيلِيَّةُ الْمُخْتَرَعَةُ وَالْعِنَايَةُ بِإِعْرَابِهَا ؛ قَالَ فِي تَفْسِيرِ مَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ : وَهِيَ الشَّوَاهِدُ عَلَى بَرَاءَتِهِ ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا بِاسْتِنْزَالِ الْمَرْأَةِ لِزَوْجِهَا ، وَفَتْلِهَا مِنْهُ فِي الذُّرْوَةِ وَالْغَارِبِ وَكَانَ مِطْوَاعًا لَهَا ، وَجَمَلًا ذَلُولًا زِمَامُهُ فِي يَدِهَا ، حَتَّى أَنْسَاهُ

ذَلِكَ مَا عَايَنَ مِنَ الْآيَاتِ ، وَعَمِلَ بِرَأْيِهَا فِي سِجْنِهِ لِإِلْحَاقِ الصَّغَارِ بِهِ كَمَا أَوْعَدَتْهُ ، وَذَلِكَ لَمَّا أَيِسَتْ مِنْ طَاعَتِهِ ، وَطَمِعَتْ فِي أَنْ يُذَلِّلَهُ السِّجْنُ وَيُسَخِّرَهُ لَهَا . اهـ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ أَنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ أَكْمَلَ مَثَلٍ لِلْعِفَّةِ وَالصِّيَانَةِ وَالْأَمَانَةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ، وَهِيَ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ نَاقِصَةٌ وَمُخَالِفَةٌ لِمَا هُنَا فِي دَعْوَى

الْمَرْأَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَنْ مُؤَلِّفُ سِفْرِ التَّكْوِينِ الْمَجْهُولُ بِمَا كَانَ وَبِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 239.249 ﴾

(71/396)

وقال ابن عاشور :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾

﴿ ثم ﴾ هنا للترتيب الرتبي ، كما هو شأنها في عطف الجمل فإن ما بدا لهم أعجب بعد ما تحققت براءته .

وإنما بدا لهم أن يسجنوا يوسف عليه السّلام حين شاعت القالة عن امرأة العزيز في شأنه فكان ذلك عقب انصراف النسوة لأنها خشيت إنْ هُنّ انصرفن أن تشيع القالة في شأنها وشأن براءة يوسف عليه السّلام فرامت أن تغطي ذلك بسجن يوسف عليه السّلام حتى يظهر في صورة المجرمين بإرادته السوء بامرأة العزيز ، وهي ترمي بذلك إلى تطويعه لها .

ولعلها أرادت أن توهم الناسَ بأن مراودته إيّاها وقعت يوم ذلك المجمع ، وأن تُوهم أنّهن شواهد على يوسف عليه السّلام .

والضمير في ﴿ لهم ﴾ لجماعة العزيز من مشير وآمر .

وجملة ﴿ ليسجننه ﴾ جواب قسم محذوف ، وهي معلّقة فعلَ ﴿ بدَا ﴾ عن العمل فيما بعده لأجل لام القسم لأن ما بعد لام القسم كلام مستأنف .

وفيه دليل للمعمول المحذوف إذ التحقيق أن التعليق لا يختص بأفعال الظن ، وهو مذهب يونس بن حبيب ، لأن سبب التعليق وجود أداة لها صَدر الكلام .

وفي هذه الآية دليله .

والتقدير : بدا لهم ما يدل عليه هذا القسَم ، أي بدا لهم تأكيد أن يسجنوه .

وذكر في "المغني" في آخر الجمل التي لها محل من الإعراب : وقوع الخلاف في الفاعل ونائب الفاعل ، هل يكون جملة ؟ فأجازه هشام وثعلب مطلقاً ، وأجازهُ الفراء وجماعة إذا كان الفعل قلبياً ووجد معلّق ، وحملوا الآية عليه ، ونسب إلى سيبويه .

وهو يؤول إلى معنى التعليق ، والتعليق أنسب بالمعنى .

والحين : زمن غير محدود ، فإن كان ﴿ حتى حينٍ ﴾ من كلامهم كان المعنى : أنهم أمروا بسجنه سجناً غير مؤجل المدة .

وإن كان من الحكاية كان القرآن قد أبهم المدة التي أذنوا بسجنه إليها إذ لا يتعلق فيها الغرض من القصة .

والآيات : دلائل صدق يوسف عليه السّلام وكذب امرأة العزيز .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾

اتفق جميع القراء على كسر سين ﴿ السّجن ﴾ هنا بمعنى البيت الذي يسجن فيه ، لأنّ الدخول لا يناسب أن يتعلق إلا بالمكان لا بالمصدر .

وهذان الفتيان هما ساقي المَلك وخبّازُه غضب عليهما الملك فأمر بسجنهما .

قيل : اتهما بتسميم الملك في الشراب والطعام .

وجملة ﴿ قال أحدهما ﴾ ابتداء محاورة ، كما دل عليه فعل القول .

وكان تعبير الرؤيا من فنون علمائهم فلذلك أيّد الله به يوسف عليه السّلام بينهم .

وهذان الفتيان توسّما من يوسف عليه السّلام كمال العقل والفهم فظنّا أنه يحسن تعبير الرؤيا ولم يكونا عِلما منه ذلك من قبل ، وقد صادفا الصواب ، ولذلك قالا : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ ، أي المحسنين التعبير ، أو المحسنين الفهم .

والإحسان : الإتقان ، يقال : هو لا يحسن القراءة ، أي لا يتقنها .

ومن عادة المساجين حكاية المرائي التي يرونها ، لفقدانهم الأخبار التي هي وسائل المحادثة والمحاورة ، ولأنهم يتفاءلون بما عسى أن يبشرهم بالخلاص في المستقبل .

وكان علم تعبير الرؤيا من العلوم التي يشتغل بها كهنة المصريين ، كما دل عليه قوله تعالى حكاية عن ملك مصر ﴿ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ [سورة يوسف :

43] كما سيأتي .

والعصر : الضغط باليد أو بحَجر أو نحوه على شيء فيه رطوبة لإخراج ما فيه من المائع زيتٍ أو ماءٍ .

والعصير : ما يستخرج من المعصور سمي باسم محله ، أي معصور من كذا .

والخبز : اسم لقطعة من دقيق البر أو الشعير أو نحوهما يعجن بالماء ويوضع قرب النار حتى ينضج ليؤكل ، ويسمى رغيفاً أيضاً .

والضمير في بتأويله ﴾ للمذكور ، أو للمرئي باعتبار الجنس .

وجملة ﴿ إِنّا نراك ﴾ تعليل لانتفاء المستفاد من ﴿ نبّئنا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(73/396)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآَيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾

وبعد أن ظهرتْ العلامات الشاهدة على براءة يوسف عليه السلام أمام العزيز وأهل مشورته ، وانكشف لهم انحرافُ امرأة العزيز وإصرارها على أن تُوقِع بيوسف في الفعل

الفاضح معها ، دون خجل أو خوف من الفضيحة .

لذلك رأى العزيز وأهل مشورته أن يُوضَع يوسف عليه السلام في السجن ؛ ليكون في ذلك فَصْلٌ بينه وبينها ؛ حتى تهدأ ضجة الفضيحة ؛ وليظهر للناس أنه مسئول عن كل هذا السوء الذي ظهر في بيت العزيز .

كما أن كلمة : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ [يوسف : 35] .

فيها نوع من استبقاء الحب الذي يُكِنُّه العزيز ليوسف ، فهو لم يأمر بقتله أو نفيه بعيداً ؛ بل احتفظ به بعيداً عن الزوجة المُصِرَّة على الخيانة ، وعن المجتمع الذي يَلُوكُ تلك الوقائع .

والسجن كما نعلم هو حَبْس المسجون لتقييد حركته في الوجود ؛ وهو إجراء يتخذه القاضي أو الحاكم كعقوبة يُراد بها إذلال المسجون ، أو وقاية المجتمع من شرِّه .

ونعلم أن الإنسان لا يجتريء على الأحكام إلا حين يظن أو يعلم أن له قدرة ؛ وله غلبة ؛ فيعلن له القاضي أو الحاكم نهاية تلك الغلبة والقدرة ، ويأمر بدخوله إلى السجن ويحرس تقييد حريته سَجَّان ؛ وقد يتعرض للضرب أو الإهانة .

هذا هو السجن المتعارف عليه في العصور القديمة والحديثة ، حين تعزل المسجون عن المجتمع ، وقد يعطف عليه بعض من أبناء المجتمع ، ويزوره بعضٌ من أقاربه ؛ ومعهم المأكولات ؛ والمطلوبات .

ولكن هناك سجن ديني أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حين عزل المجتمع الإيماني

عن السجين ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألاّ يُكلِّم أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج معه للقتال بحجج واهية ؛ بل وتسامى هذا العزل إلى أن صار عَزْلاً عن الأهل ، إلى أن أمر صلى الله عليه وسلم بإنهاء هذا العزل بعد أن تحقق الغرض منه .

(74/396)

وماذا عن حال يوسف في السجن ؟

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن . . . . ﴾ .

المعية التي دخل فيها اثنان من الفتية معه السجن هي معية ذات ، وقِيل : إنهما الخبَّاز والساقي ، وقيل : إن سبب دخولهما هو رغبة بطَانة عزيز مصر في التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى ؛ هي فَضيحة مراودة امرأة العزيز ليوسف ؛ ورفض يوسف لذلك .

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز ؛ وأن الساقي والخباز قد تم ضبطهما بمحاولة وضع السُّمِّ للعزيز .

وبعد فترة من حياة الاثنين مع يوسف داخل السجن ، وبعد معايشة يومية له تكشَّف لهما سلوك يوسف كواحد من المحسنين .

وحدث أن رأى كل منهما حُلْماً ، فقررا أن يطلبا منه تأويل هذين الحُلْمين ، والسجين غالباً ما يكون كثير الوساوس ، وغير آمن على غَدِه ؛ ولذلك اتجها إليه في الأمر الذي يُهمهم :

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا آَنِي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآَخر إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطير مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ [يوسف : 36] .

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حُلْمين ؛ فواحد منهما رأى في منامه أنه يعصر خمراً ، ورأى الثاني أنه يحمل خُبْزاً فوق رأسه تأكل منه الطير ، واتجه كلاهما أو كُلٌّ منهما على حِدَة يطلبان تأويل الرؤيتين المناميتيْنِ ، أو أنهما قد طلبا نبأ تأويل هذا الأمر الذي رأياه .

وحيثية لجوئهما إليه هو قولهما :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ [يوسف : 36] .

وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المنحرفة ، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عملُه مقاييسَ الإحسان في ذهن مَنْ يصدر هذا الحكم .

فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين في الكون ، ونظروا إلى أيِّ أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم ؛ لَعرفوا أن الإحسان قَدْر مشترك بين الجميع .

ونجد اللص على سبيل المثال لا يسيئه أن يسرق أحداً ، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقته ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفض في أعماقه حين يتوجه السوء إليه ، ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة ؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير ؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .

إذن : إنْ أَردتَ أن تعرف مقام الإحسان في مقاييس الفضائل والأخلاق ؛ فافهم الأمر بالنسبة لك إيجاباً وسَلْباً .

والمثال الذي أضربه دائماً هو : قبل أن تَمُدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءاً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحُسْن إن نقلتَ الأمر إلى الصورة العكسية ؛ حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .

هنا ستجد الميزان ميزانك للأمور وقد اعتدل .

وإذا أردتَ اعتدال الميزان في كل فعل ؛ فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك ؛ وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك ؛ وانظر إلى الراجح في نفسك من الأمرين ستجد قب الميزان منضبطاً .

وأقول دائماً : إن الحق سبحانه حين حرَّم عليك أن تسرق غيرك ، لم يُضيِّق حريتك ؛ بل ضيِّق حرية الملايين كي لا يسرقوك ، وهذا مكسب لك .

إذن : فالذي يعرف مقام الإحسان ؛ لا ينسب الفعل الصادر منه على الغير ؛ والفعل الصادر من الغير عليه ؛ بل ينظر إليهما معاً ؛ فما استقبحه من الغير عليه ؛ فليستقبحه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعَلِم يوسف عليه السلام من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما ؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذي جاءاه من أجله ، واستغل هذه المسألة ؛ لا لقضاء حاجتهما منه ؛ ولكن لقضاء حاجته منهما .

(76/396)

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ؛ والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما ؛ قبل أن يعطيهما حاجتهما منه ؟

وكأنه قال لهما : ماذا رأيتُما من إحساني ؟ هل رأيتم حُسْن معاملتي لكم ؟ أم أن كلاً منكما قد رأى دقة اختياري للحَسَن من القول ؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندي بفضل الله ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك في الآية التالية : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ

إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(77/396)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن عكرمة رضي الله عنه قال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ﴾ . قال : ما سألني عنها أحد قبلك . من الآيات : قد القميص ، وأثرها في جسده ، وأثر السكين ، وقالت امرأة العزيز : إن أنت لم تسجنه ليصدقنه الناس .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة رضي الله عنه قال : من الآيات : شق في القميص ، وخمش في الوجه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات . . . ﴾ قال : قدّ القميص من دبر .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ من بعد ما رأوا الآيات ﴾ قال : من الآيات كلام الصبي .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : الآيات ، جَزّهن أيديهن ، وقدّ القميص .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه قال : قال رجل ذو رأي منهم للعزيز إنك متى تركت هذا العبد ، يعتذر إلى الناس ، ويقص عليهم أمره ، وامرأةٌ في بيتها لا تخرج إلى الناس عذروه وفضحوا أهلك . فأمر به فسجن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : عوقب يوسف عليه السلام ثلاث مرات ، أما أول مرة فبالحبس ، لما كان من همه بها . والثانية لقوله : اذكرني عند ربك ، فلبث في السجن بضع سنين ، عوقب بطول الحبس . والثالثة حيث قال ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ فاستقبل في وجهه ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ ليسجننه حتى حين ﴾ قال : سبع سنين .

وأخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء والخطيب في تاريخه، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك رضي الله عنه، عن أبيه قال: سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقرأ هذا الحرف ﴿ ليسجننه حتى حين ﴾ فقال له عمر رضي الله عنه: من أقرأك هذا الحرف؟ قال: ابن مسعود رضي الله عنه. فقال عمر رضي الله عنه ﴿ ليسجننه حتى حين ﴾ ثم كتب إلى ابن مسعود رضي الله عنه: سلام عليك، أما بعد.

فإن الله أنزل القرآن فجعله قرآناً عربياً مبيناً، وأنزله بلغة هذا الحي من قريش، فإذا أتاك كتابي هذا فأقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ قال أحدهما خازن الملك على طعامه، والآخر ساقيه على شرابه.

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه مثله.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحق رضي الله عنه قال: في قوله ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ قال: غلامان كانا للملك الأكبر الريان بن الوليد، كان

أحدهما على شرابه والآخر على بعض أمره في سخطة سخطها عليهما ، اسم أحدهما مجلب ، والآخر نبوا الذي كان على الشراب . فلما رأياه قالا : يا فتى ، والله لقد أحببناك حين رأيناك ، قال ابن إسحق : فحدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد رضي الله عنه ، أن يوسف عليه الصلاة والسلام قال لهما حين قالا له ذلك : أنشدكما بالله أن لا تحباني ، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل علي من حبه بلاء . قد أحبتني عمتي فدخل علي من حبها بلاء ، ثم أحبني أبي فدخل علي بحبه بلاء ، ثم أحبتني زوجة صاحبي فدخل علي بمحبتها إياي بلاء . فلا تحباني بارك الله فيكما ، فأبيا إلا حبه وألفه حيث كان ، وجعل يعجبهما ما يريان من فهمه وعقله . وقد كانا رأيا حين ادخلا السجن رؤيا ، فرأى مجلب أنه رأى فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، ورأى نبوا أنه يعصر خمراً ، فاستفتياه فيها وقالا له ﴿ نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ إن فعلت فقال لهما ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ يقول في نومكما ﴿ إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ ثم دعاهما إلى الله وإلى الإسلام فقال ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ أي خير أن تعبدوا ، إلهاً واحداً أم آلهة متفرقة لا تغني عنكم شيئاً ؟ . . . . ثم قال لمجلب : أما أنت فتصلب فتأكل الطير من رأسك . وقال لنبوا أما أنت ، فترد على عملك ويرضى عنك صاحبك ، ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ .

وأخرج وكيع في الغرر ، عن عمرو بن دينار قال : قال يوسف عليه السلام : ما لقي أحد في

الحب ما لقيت ، أحبني أبي فألقيت في الجب ، وأحبتني امرأة العزيز ، فألقيت في السجن .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إني أراني أعصر خمراً ﴾ قال عنباً .

(80/396)

وأخرج البخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري وأبو الشيخ وابن مردويه ، من طرق عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه قرأ [اني أراني أعصر عنباً] وقال : والله لقد أخذتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ اني أراني أعصر خمراً ﴾ يقول : أعصر عنباً ، وهو بلغة أهل عمان ، يسمون العنب خمراً .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ قال : عبارته .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إني أراني أعصر خمراً ﴾ قال : هو بلغة عمان . وفي قوله ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ قال : كان احسانه فيما ذكر لنا أنه كان يعزي حزينهم ويداوي مريضهم ، ورأوا منه عبادة واجتهاداً فأحبوه به ، وقال لما انتهى يوسف عليه السلام إلى السجن ، وجد فيه قوماً قد انقطع رجاؤهم ،

واشتد بلاؤهم ، وطال حزنهم ، فجعل يقول : أبشروا ، اصبروا تؤجروا ، إن لهذا أجراً ، إن لهذا ثواباً . فقالوا : يا فتى ، بارك الله فيك . ما أحسن وجهك ، وأحسن خلقك ، وأحسن خلقك ! . . . لقد بورك لنا في جوارك ، إنا كنا في غير هذا منذ حبسنا لما تخبرنا من الأجر والكفارة والطهارة ، فمن أنت يا فتى ؟ ! ! ! . . . قال : أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحق ابن خليل الله إبراهيم ، عليهم الصلاة والسلام ، وكانت عليه محبة . وقال له عامل السجن : يا فتى ، والله لو استطعت لخليت سبيلك ، ولكن سأحسن جوارك ، وأحسن آثارك ، فكن في أي بيوت السجن شئت .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : دعا يوسف عليه السلام لأهل السجن فقال : " اللهم لا تعم عليهم الأخبار ، وهون عليهم مر الأيام " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان ، عن الضحاك رضي الله عنه ؛ أنه سئل عن قوله ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ ما كان إحسان يوسف عليه السلام ؟ قال : كان إذا مرض إنسان في السجن قام عليه ،

وإذا ضاق عليه المكان أوسع له ، وإذا احتاج جمع له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(82/396)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا ﴾ : في فاعله أربعة أوجه ، أحسنها : أنه ضمير يعود على السَّجن بفتح السين أي : ظهر لهم حَبْسُه ، ويدل على ذلك لفظة " السِّجن " في قراءة العامة ، وهو بطريق اللازم ، ولفظُ " السَّجن " في قراءة مَنْ فتح السين . والثاني : أن الفاعل ضمير المصدر المفهوم مِنْ الفعل وهو " بدا " أي : بَدا لهم بداءٌ ، وقد صرَّح الشاعرُ به في قوله :

2793 . . . . بَدا لك في تلك القَلوص بداءُ

والثالث : أن الفاعلَ مضمرٌ يدلُّ عليه السياق ، أي : بدا لهم رأيٌ . والرابع : أنَّ نفسَ الجملة مِنْ " لَيَسْجُنُنَّه " هي الفاعل ، وهذا من أصول الكوفيين .

و" حتى " غايةٌ لما قبله . وقوله : " لَيَسْجُنُنَّه " على قول الجمهور جوابُ لقسم محذوف ،

وذلك القسمُ وجوابه معمول لقول مضمر ، وذلك القولُ المضمر في محلّ نصب على الحال ، أي : ظهر لهم كذا قائلين : واللَّهِ لَيَسْجُنُنَّه حتى حين .

وقرأ الحسن "لَتَسْجُنُنَّه" بتاء الخطاب ، وفيه تأويلان ، أحدهما : أن يكونَ خاطب بعضُهم بعضاً بذلك . والثاني : أن يكونَ خوطب به العزيز تعظيماً له .

وقرأ ابن مسعود "عتى" بإبدال حاء "حتى" عيناً ، وأقرأ بها غيرَه فبلغ ذلك عمرَ بن الخطاب فكتب إليه : "إن هذا القرآن نزل بلغة قريش ، فَأَقْرِىء الناسَ بلغتهم" . قلت : وإبدال الحاء عيناً لغة هُذَلِيَّة .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ ﴾ : مستأنف لا محل له ، ولا يجوز أن يكونَ حالاً ؛ لأنهما لم يقولا ذلك حال الدخول . ولا جائز أن تكونَ مقدرةً ؛ لأن الدخول لا يَؤُول إلى الرؤيا . و "إني" وما في حَيِّزه في محلِ نصب بالقول .

(83/396)

و "أراني" هنا متعديةٌ لمفعولين عند بعضِهم إجراءً للحُلْمِيَّة مجرى العِلْمِيَّة ، فتكون الجملة مِنْ قوله : "أَعْصِرُ" في محلِ المفعول الثاني ، ومَنْ منع كانت عنده في محل الحال . وجرت

الحُلُمية مَجْرى العِلْمية أيضاً في اتّحاد فاعلها ومفعولِها ضميرين متصلين ، ومنه الآيةُ الكريمة ؛ فإن الفاعلَ والمفعولَ متحدان في المعنى ؛ إذ هما للمتكلم ، وهما ضميران متصلان .

ومثْلُه : " رَأَيْتُكَ في المنام قائماً " و " زيدٌ رآه قائماً " ، ولا يجوز ذلك في غير ما ذُكر ، لا تقول : أَكْرَمْتُني ، ولا أكرمْتُك ، ولا زيد أكرمه ، فإن أردت ذلك قل : أكرمتُ نفسي ، أو إياي ونفسك ، أو إياك ونفسَه ، أو إياه ، وقد تقدَّم تحقيق هذا .

وإذا دَخَلَتْ همزةُ النقل على هذه الحُلُمِيَّة تعدَّت لثالث ، وقد تقدَّم هذا في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً ﴾ [الأنفال : 43] ، ولو أراكهم كثيراً .

والخَمْر : العِنَب أُطلق عليه ذلك مجازاً ، لأنه آيلٌ إليه كما يُطْلق الشيءُ على الشيء باعتبار ما كان عليه كقوله : ﴿ وَآتُواْ اليتامى ﴾ [النساء : 2] ومجازُ هذا أقربُ : وقيل : بل الخمر : العنب حقيقة في لغة غسان وأزد عمان . وعن المعتمر : " لقيت أعرابياً حاملاً عنباً في وعاءٍ فقلت : ما تحمل ؟ فقال : خمراً .

وقراءة أُبَيّ وعبد الله " أَعْصِر عنباً " لا تدل على الترادف لإرادتها التفسيرَ لا التلاوة ، وهذا كما في مصحف عبد اللَّه " فوق رأسي ثريداً " فإنه أراد التفسير فقط .

و " تأكل الطير " صفةٌ لخبزاً . و " فوق " يجوز أن يكون ظرفاً للحمل ، وأن يتعلق بمحذوف حالاً من " خبزاً " لأنه في الأصل صفةٌ له . والضمير في قوله : " نَبِّئْنا بتأويله " قال الشيخ : " عائدٌ على ما قَصَّا عليه ، أُجري مُجْرى اسم الإشارة كأنه قيل بتأويل ذلك " وهذا قد سبقه إليه الزمخشري ، وجعله سؤالاً وجواباً . وقال غيره : " إنما وَحَّد الضمير لأنّ كل واحد سأل عن رؤياه ، فكأن كل واحد منهما قال : نَبِّئْنا بتأويل ما رأيت . انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 494 . 495﴾

(85/396)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآَيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) ﴾

لَمَّا سجَنَ يوسفَ - عليه السلام - مع ظهور براءة ساحته اتقاءً على امرأته أن يُهتَكَ سترُها حوَّل اللَّهُ مُلْكه إليه ، ثم في آخر الأمر حكَمَ اللَّهُ بأن صارت امرأَته بعد مقاساتها الضُّر . . . وهذا جزاء مَنْ صبَرَ .

ويقال لمَّا ظُلِمَ يوسفُ عليه السلام بما نُسِبَ إليه أنطق الله تلك المرأة حتى قالت في آخر

أمرها بما كان فيه هنك سترها ، فقالت : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف : 51] .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾

لصحبة السجن أثرٌ يظهر ولو بعد حين ؛ فإنّ يوسف عليه السلام لمّا قال لصاحبه اذكرني عند ربك فأنساه الشيطانُ ذكر ربّه فبقي يوسف في السجن زماناً ، ثم إن خلاصه كان على لسانه حيث قال : فأَرْسِلوا إلى يوسف وقيل له : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ الآية [يوسف : 46] فالصحبة تُعْطى بَركاتِها وإن كانت تُبْطِي .

قوله : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : الشهادة بالإحسان ذريعةٌ ، بها يُتَوسَّل إلى استجلاب إحسانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 184 ﴾

(86/396)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) ﴾

التفسير : قد ثبت في الأخبار أن الذي اشتراه إما من الإخوة أو من الواردين ذهب به إلى مصر وباعه فاشتراه العزيز - واسمع قطفير أو أطفير - ولم يكن ملكاً ولكنه كان يلي خزائن مصر ، والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف فملك بعده قابوس بن مصعب ولم يؤمن بيوسف . روي أن العزيز اشتراه ابن سبع عشرة سنة وأقام في منزله ثلاثة عشرة واستوزره بعد ذلك ريان بن الوليد ثم آتاه الله الحكمة والعلم ابن ثلاث وثلاثين وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة .

وقيل : كان الملك في أيامه فرعون موسى ، عاش أربعمائة سنة دليله قوله : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ [غافر : 34] وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف . والمعنى ولقد جاء آباءكم . وقيل : اشتراه العزيز بعشرين ديناراً وزوجي نعل وثوبين أبيضين . وقيل : أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً وحريراً فابتاعه قطفير بذلك المبلغ . ومعنى ﴿ أكرمي مثواه ﴾ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً أي حسناً مرضياً . وفي هذه العبارة دلالة على أنه عظم شأن

يوسف كما يقال سلام على المجلس العالي . وقال في الكشاف : المراد تعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا . ويقال للرجل : كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل الرجل به من إنسان رجل أو امرأة يراد هل تطيب نفسك بثوائك عنده ؟ واللام في ﴿ لامرأته ﴾ تتعلق ب ﴿ قال ﴾ . ثم بين الغرض من الإكرام فقال : ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ بكفاية بعض مهماتنا ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ لأن قطفير كان لا يولد له ولد وكان حصوراً . وعن ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين قال لامرأته أكرمي مثواه فتفرس في يوسف ما تفرس ، والمرأة التي أتت موسى وقالت لأبيها يا أبت استأجره ، وأبو بكر حين استخلف عمر . وروي أنه سأله عن نفسه فأخبره بنسبه فعرفه . ثم قال : ﴿ وكذلك ﴾ أي كما أنعمنا عليه بالإنجاء من الجب وعطف قلب العزيز عليه ﴿ مكنا له ﴾ في أرض مصر حتى يتصرف فيها بالأمر والنهي ﴿ ولنعلمه ﴾ قد مر في الوقوف بيان متعلقه وفي أوائل لسورة معنى تأويل الأحاديث . والمراد من الآية حكاية إعلاء شأن يوسف في الكمالات الحقيقية وأصولها القدرة ، وأشار إليها بقوله : ﴿ مكنا ﴾ والعلم وأشار إليه بقوله ﴿ ولنعلمه ﴾ ولا ريب أن ابتداء ذلك كان حين ألقي في الجب كما قال ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم ﴾ وكان يرتقي في ذلك إلى أن بلغ حد الكمال وصار مستعداً للدعوة إلى الدين الحق وللإرسال إلى الخلق ﴿ والله غالب على

أمره ﴾ أي على أمر نفسه لا منازع له ولا مدافع ، أو على أمر يوسف لم يكله إلى غيره ولم ينجح كيد إخوته فيه ولم يكن إلا ما أراد الله ودبر . ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن الأمر كله بيد الله . ثم إنه سبحانه بين وقت استكمال أمره فقال : ﴿ ولما بلغ أشدّة ﴾ قيل في الأشد ثماني عشرة سنة وعشرون ، وثلاث وثلاثون وأربعون إلى ثنتين وستين ﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ فالحكم الحكمة العملية والعلم الحكمة النظرية ، وإنما قدمت العملية لأن أصحاب الرياضيات والمجاهدات يصلون أوّلاً إلى الحكمة العملية ثم إلى العلم اللدني بخلاف أصحاب الأفكار والأنظار ، والأول هو طريقة يوسف لأنه صبر على البلاء ، والمحن ففتح عليه أبواب المكاشفات ، وقيل : الحكم النبوّة لأن النبي حاكم على الخلق والعلم علم الدين .

وقيل : الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على النفس الأمارة قاهرة لها ، فحينئذٍ تفيض الأنوار القدسية والأضواء الإلهية من عالم القدس على جوهر النفس . والتحقيق في هذا الباب أن استكمال النفس الناطقة إنما يتيسر بواسطة استعمال الآلات الجسدانية ،

وفي أوان الصغر تكون الرطوبات مستولية عليها فتضعف تلك الآلات ، فإذا كبر الإنسان واستولت الحرارة الغريزية على البدن نضجت تلك الرطوبات وقلت واعتدلت فصارة الآلات صالحة لأن تستعملها النفس الإنسانية في تحصيل المعارف واكتساب الحقائق .

فقوله ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ إشارة إلى اعتدال الآلات البدنية ، وقوله : ﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ إشارة إلى استكمال النفس الناطقة وقوة لمعان الأضواء القدسية فيها . قال في الكشاف : ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ فيه تنبيه على أنه كان محسناً في عمله متقياً في عنفوان أمره ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه . واعترض عليه بأن النبوة غير مكتسبة . والحق أن الكل بفضل الله ورحمته ولكن للوسائط والمعدات مدخل عظيم في كل ما يصل إلى الإنسان من الفيوض والآثار ، فالأنوار السابقة تصير سبباً للأضواء اللاحقة وهلم جراً . عن الحسن : من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله .

ثم إن يوسف كان في غاية الحسن والجمال ، فلما شب طمعت فيه امرأة العزيز وذلك قوله : ﴿ وراودته ﴾ والمراودة مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب ، ضمنت معنى الخداع أي فعلت ما يفعل المخادع بصاحبه حتى يزله عن الشي الذي يريد أن يخرجه من يده ، وقد

يخص بمحاولة الوقاع فيقال : راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه إذا حاول كل منهما الوطء والجماع ، وإنما قال : ﴿ التي هو في بيتها ﴾ ولم يقل زليخا قصداً إلى زيادة التقرير مع استهجان اسم المرأة ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ لا ريب أن التشديد يدل على التكثير لأن غلق متعد كنقيضه وهو فتح . والمفسرون رووا أن الأبواب كانت سبعة ﴿ وقالت هيت لك ﴾ هذه اللغة في جميع القراءات اسم فعل بمعنى هلم إلا عند من قرأ ﴿ هئت لك ﴾ بهاء مكسورة بعدها همزة ساكنة ثم تاء مضمومة فإنها معنى تهيأت لك . يقال : هاء يهيء مثل جاء يجيء بمعنى تهيأ . قال النحويون : هيت جاء بالحركات الثلاثة : فالفتح للخفة ، والكسر للالتقاء الساكنين ، والضم تشبيهاً بحيث . وإذا بين باللام نحو " هيت لك " فهي صوت قائم مقام المصدر كأفٍ له أي لك أقول هذا . وإذا لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر قائم مقام الفعل ويكون اسم فعل ، ومعناه إما خبر أي تهيأت وإما أمر أي أقبل . وقد روى الواحدي بإسناده عن أبي زيد ﴿ قالت هيت لك ﴾ بالعبرانية هيتالج أي تعال عربه القرآن .

وقال الفراء : إنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فتكلموا بها . وقال ابن الأنباري : هذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم في القسطاس ، ولغة العرب والفرس في السجيل ، ولغة العرب والترك في الغساق ، ولغة العرب والحبشة في ناشئة الليل . ثم إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام أجاب يوسف عليه السلام بثلاثة أجوبة : الأول ﴿ قال معاذ الله ﴾ وهو من المصادر التي لا يجوز إظهار فعلها أي أعوذ بالله معاذاً ، وفيه إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل ، الثاني ﴿ إنه ﴾ والضمير للشأن ﴿ ربي ﴾ أي سيدي ومالكي بزعمهم واعتقاهم وإلا فيوسف كان عالماً بأنه حر والحر لا يصير عبداً بالبيع ، أو المراد التربية أي الذي رباني ﴿ أحسن مثواي ﴾ حين قال ﴿ أكرمي مثواه ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن حق الخلق أيضاً يمنع عن ذلك العمل . وقيل : أراد بقوله : ﴿ ربي ﴾ الله تعالى لأنه مسبب الأسباب . الثالث قوله : ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ الذين يجازون الحسن بالسيء ، أو أراد الذين يزنون لأنهم ظلموا أنفسهم . وفيه إشارة إلى الدليل العقلي فإن صون النفس عن الضرر واجب وهذه اللذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة ، فعلى العاقل أن يحترز عنها فما أحسن نسق هذه الأجوبة .

قوله سبحانه ﴿ ولقد همت به وهمّ بها ﴾ لا شك أن الهم لغة هو القصد والعزم، لكن العلماء اختلفوا فقال جم غفير من المفسرين الظاهريين : إن تلك الهمة بلغت حد المخالطة فقال أبو جعفر الباقر رضي الله عنه بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إنها طمعت فيه وإنه طمع فيها حتى هم أن يحل التكة . وعن ابن عباس أنه حل الهميان أي السربال وجلس منها مجلس الجامع . وعنه أيضاً أنها استقلت له وقعد هو بين شعبها الأربع . وروي أن يوسف حين قال : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال له جبرائيل : ولا حين هممت يا يوسف ؟ فقال يوسف عند ذلك ﴿ وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ وقال آخرون : إن الهمة ما كانت إلا ميلة النفس ولم يخرج شيء منها من القوة إلى الفعل ولكن كانت داعية الطبيعة وداعية العقل والحكمة متجاذبتين . أما الأولون فقد فسروا برهان ربه بأن المرأة قامت إلى صنم لها مكلل بالدر والياقوت في زاوية من زاويا البيت فسترته بالأثواب فقال يوسف : ولم ؟ فقالت : أستحيي من إلهي هذا أن يراني على المعصية . فقال يوسف : تستحيي من صنم لا يسمع ولا يعقل ولا أستحيي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت، فوالله لا أفعل ذلك أبداً . وعن ابن عباس أنه مثل له يعقوب عاضاً فوه على أصابعه قائلاً : أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب في زمرة الأنبياء ؟ وإلى هذا ذهب عكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والضحاك ومقاتل وابن سيرين .

وقال سعيد بن جبير : تمثل له يعقوب فضربه في صدره فخرجت شهوته من أنامله . وقيل : صيح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له رئيس فلما زنى قعد لا ريش له . وقيل : بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ ﴿ الإنفطار : 11 ، 12] فلم ينصرف ثم رأى فيها ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ [الإسراء : 32] فلم ينته ثم رأى فيها ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ [البقرة : 281] فلم ينجع فيه فقال الله تعالى لجبرائيل : أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة . فانحط لجبرائيل وهو يقول : يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في يوان زمرة الأنبياء ؟ وقيل : رأى تمثال العزيز . وأما الآخرون فما سلموا شيئاً من هذه الروايات . وعلى تقدير التسليم فتوارد الدلائل على المطلوب الواحد غير بعيد وكذا ترادف الزواجر فهو عليه وجوب اجتناب المحارم وبحسب ما أعطاه الله من النفس القدسية المطهرة النبوية ، لكنه انضاف إلى ذلك البرهان هذ الزواجر تكميلاً للألطاف وتتميماً للعناية . قالوا : ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم إذا لقي ما لقي به نبي الله مما ذكروا لما بقي منه عرق ينبض وعضو يتحرك فكيف احتاج النبي إلى جميع هذه الزواجر والمؤكدات حتى ينتهي عن إمضاء العزمة . قالوا : والهم لا يتعلق بالأعيان وإنما يتعلق بالمعاني ، فأنتم تضمرون أنه قد هم بمخالطتها ونحن نقول هم بدفعها لولا أن عرف برهان ربه وهو أن

الشاهد سيشهد له أنه كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ، فلعله لو اشتغل
بأن يدفعها أمكن أن يتمزق قميصه من قبل فكانت الشهادة عليه لا له فلذلك ولى هارباً
عنها . وفي قوله : ﴿ وهمّ بها ﴾ فائدة أخرى هي أن ترك المخالطة بها ما كان لعدم رغبته
في النساء وعوز قدرته عليهن بل لأجل أن دلائل دين الله منعته عن ذلك العمل ، وكيف يظن
بيوسف معصية وقد ادعى البراءة بقوله : ﴿ هي راودتني ﴾ وبقوله : ﴿ رب السجن

(94/396)

أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ والمرأة اعترفت بذلك حين قالت للنسوة ﴿ ولقد راودته عن
نفسه فاستعصم ﴾ وقالت ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ وزوج المرأة صدّقه فقال : ﴿ إنه
من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ وشهد له شاهد من أهلها كما يجيء وشهد له الله تعالى
فقال : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه أو الأمر مثل ذلك ﴿ لنصرف عنه السوء
﴾ خيانة السيد ﴿ والفحشاء ﴾ الزنا أو السوء مقدمات الجماع من القبلة والنظر بشهوة
ونحو ذلك . ثم أكد الشهادة بقوله : ﴿ إنه من عبادنا ﴾ والإضافة للتشريف كقوله : ﴿
وعباد الرحمن ﴾ [الفرقان : 63] ثم زاد في التأكيد فوصفه بالمخلصين أي هو من جملة
من اتصف في طاعاته بصفة الإخلاص ، أو من جملة من أخلصه الله تعالى بناء على قراءتي

فتح اللام وكسرها .

ويحتمل أن يكون " من " للابتداء لا للتبعيض أي هو ناشىء منهم لأنه من ذرية إبراهيم عليه السلام . فكل هذه الدلائل تدل على عصمة يوسف عليه السلام وأنه بريء من الذنب ، ولو كان قد وجدت منه زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره كما في آدم وذي النون وغيرهما ولما استحق هذا الثناء والله أعلم بحقائق الأمور .

(95/396)

وقوله : ﴿ واستبقا الباب ﴾ أي تسابقا إليه على حذف الجار وإيصال الفعل مثل ﴿ واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف : 155] أو على تضمين استبقا معنى ابتدرا . وإنما وحد الباب لأنه أراد الداني لا جميع الأبواب التي غلقتها . روى كعب أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ﴿ وقدت قميصه من دبر ﴾ لأنها اجتذبته من خلفه فانقد أي انشق طولاً ﴿ وألفيا سيدها ﴾ صادفا بعلها وهو قطفير . وإنما لم يقل سيدهما لأن ملك يوسف لم يكن ملكاً في الحقيقة . روي أنهما ألفياه مقبلاً يريد أن يدخل وقيل جالساً مع ابن عم للمرأة . ثم إنه كان للسائل أن يسأل فما قالت المرأة إذا ذاك؟ فقيل : قالت : ﴿ ما جزاء ﴾ هي استفهامية أو نافية معناه أي شيء جزاؤه ، أو

ليس جزاءه إلا السجن أو العذاب الأليم . وربما فسر العذاب ﴿ الأليم بالضرب بالسياط جمعت بين غرضين تنزيه ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف وتخويفه طمعاً في أن يواتيها خوفاً وإن لم يواتيها طوعاً . ثم إنها لحبها يوسف راعت دقائق المحبة فذكرت السجن أوّلاً ثم العذاب لأن المحب لا يريد ألم المحبوب ما أمكن . وأيضاً لم تصرح بذكر يوسف وأنه أراد بها سوءاً بل قصدت العموم ليندرج يوسف فيه . وفي قولها : ﴿ إلا أن يسجن ﴾ إشعار بأن ذلك السجن غير دائم بخلاف قول فرعون لموسى ﴿ لأجعلنك من المسجونين ﴾ [الشعراء : 29] ففيه إشعار بالتأبيد ﴿ قال ﴾ يوسف ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ وإنما صرح بذلك لأنها عرضته للسجن والعذاب فوجب عليه الدفع عن نفسه ولولا ذلك لكتم عليها . قال سبحانه ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال جمع من المفسرين : الشاهد ابن عم المرأة وكان رجلاً حكيماً ، اتفق في ذلك الوقت أنه كان مع العزيز فقال : قد سمعت الجلبة من وراء الباب وشق القميص إلا أنا لا ندري أيكما قدام صاحبه ، فإن كان شق القميص من قدام فأنت صادقة والرجل كاذب ، وإن كان من خلف فالرجل صادق وأنت كاذبة ، فلما نظروا إلى

القميص ورأوا الشق من خلفه قال ابن عمها : ﴿ إنه من كيدكن ﴾ وعن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك أن الشاهد ابن خال لها وكان صبياً في المهد وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه " تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم "

وعن مجاهد : الشاهد هو القميص المشقوق من خلف وضعف بأن القميص لا يوصف بالشهادة ولا بكونه من الأهل ، واعترض على القول الأول بأن العلامة المذكورة لا تدل قطعاً على براءة يوسف لاحتمال أن الرجل قصد المرأة وهي قد غضب عليه ففر فعدت خلفه كي تدركه وتضربه ضرباً وجيعاً . وأجيب بأن هناك أمارات أخر منها أن يوسف كان عبداً لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحد ، ومنها قرينة الحال كتزين المرأة فوق المعتاد وما شوهد من أحوال يوسف في مدة إقامته بمنزلهم . واعترض على القول الثاني بأن شهادة الصبي أمر خارق للعادة فتكون حجة قطعية فلم يبق للاستدلال بحال القميص ولا لكونه من أهلها فائدة . وأيضاً لفظ ﴿ شاهد ﴾ لا يقع في العرف إلا على من تقدمت معرفته بالواقعة . والجواب أن تعيين الطريق في الإخبار والإعلام غير لازم ، وكون

الشاهد من أهلها أوجب للحجة عليها وألزم لها والشاهد ههنا مجاز ووجه حسنه أنه أدى مؤدى الشاهد حيث ثبت به قول يوسف وبطل قولها . قال في الكشاف : التنكير في " قبل " . و " دبر " معناه من جهة يقال لها قبل ومن جهة يقال لها دبر . أما الضمير في قوله : ﴿ فلما رأى ﴾ وفي قوله : ﴿ قال إنه من كيدكن ﴾ فقيل : إنه للشاهد الذي هو ابن عمها كما ذكرنا أي إن قولك وهو ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ، أو إن هذا الأمر وهو الذي أفضى إلى هذه الريبة من عملكن ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ قال بعض العلماء : أنا أخاف النساء أكثر مما أخاف الشيطان لأنه تعالى يقول : ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ [النساء : 76] وقال للنساء : ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ وأقول : لا شك أن القرآن كلام الله إلا أن هذا حكاية قول الشاهد فلا يثبت به ما ادعاه ذلك العالم ولو سلم فالمراد إن كيد الشيطان ضعيف بالنسبة إلى ما يريد الله تعالى إمضاءه وتنفيذه ، وكيد النساء عظيم بالنسبة إلى كيد الرجال فإنهم يغلبنهم ويسلبن عقولهم إذا عرضن أنفسهن عليهم ولهذا قال صلى الله عليه

وسلم : " النساء حبائل الشيطان " .

ثم قال الشاهد : ﴿ يوسف ﴾ أي يا يوسف فحذف حرف النداء ﴿ أعرض عن هذا ﴾ الأمر واكتمه ولا تحدّث به ﴿ واستغفري ﴾ يا امرأة ﴿ لذنبك ﴾ والاستغفار إما من الزوج أو من الله تعالى لأنهم كانوا يثبتون الإله الأعظم ويجعلون الأصنام شفعاء ولهذا قال يوسف لصاحبه في السجن ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ [يوسف : 39] ﴿ إنك كنت من الخاطئين ﴾ من المتعمدين للذنب . يقال : خطىء إذا أذنب متعمداً والتذكير للتغليب . وقيل : الضمير في ﴿ رأى ﴾ وفي ﴿ قال ﴾ لزوج المرأة وأنه كان قليل الغيرة فلذلك اكتفى منها بالاستغفار قاله أبو بكر الأصم . ﴿ وقال نسوة ﴾ هو اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي ولذلك حسن حذف التاء من فعله وقد تضم نونها .

قال الكلبي : هن أربع في مدينة مصر : إمرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن ، وزاد مقاتل امرأة الحاجب ، والفتى الغلام الشاب والفتاة الجارية ﴿ قد شغفها ﴾ أي خرق حبه شغاف قلبها والشغاف حجاب القلب ، وقيل : جلدة

رقيقة يقال لها لسان القلب و ﴿ حباً ﴾ نصب على التمييز وحقيقة شغفه أصاب شغافه كما يقال : كبده إذا أصاب كبده وكذا قياس سائر الأعضاء . وقرىء بالعين المهملة أي أحرقها مع تلذذ من شغف البعير إذا هنأه فأحرقه بالقطران . وقال ابن الأنباري : هذا من الشغف وهو رؤوس الجبال أي ارتفع محبته إلى أعلى المواضع من قلبها . والضلال المبين الخطأ عن طريق الصواب . ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ اغتيابهن وسوء قالتهن فيها ، وإنما حسن التعبير عن الاغتياب بالمكر لاشتراكهما في الإخفاء . وقيل : التمست منهن كتمان سرها فأفشينه فسمي مكراً ﴿ أرسلت إليهن ﴾ تدعوهن . وقيل : أردن بذلك أن يتوسلن إلى رؤية يوسف عليه السلام فلهذا سمي مكراً . وقيل : كن أربعين . ﴿ وأعتدت ﴾ وهيأت ﴿ لهن متكئاً ﴾ موضع اتكاء وأصله موتكئاً لأنه من توكأت أبدلت الواو تاء ثم أدغمت ، والمراد هيأت لهن نمارق يتكئن عليها كعادة المترفهات كأنها قصدت بذلك تهويل يوسف عليه السلام من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهن السكاكين توهمه أنهن يثبن عليه . وقيل : المتكأ مجلس الطعام لأنهن كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث على هيئة المتنعمات ، ولذلك نهى أن يأكل الرجل متكئاً . وآتهن السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن بها . وقيل : أراد بالمتكأ الطعام على سبيل الكناية لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له متكأ . وقال مجاهد : هو طعام يحتاج الى أن يقطع بالسكين لأن القاطع متكىء على المقطوع بآلة القطع وقرىء متكاً مضموم الميم ساكن التاء

مقصوراً وهو الأترج ﴿ فلما رأينه أكبرته ﴾ أعظمنه وهبن ذلك الجمال ، وكان أحسن خلق الله إلا أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان

أملح . قيل : كان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه ربه وما كان أحد يستطيع وصفه ويرى تلألؤ وجهه على الجداران وقد ورث الجمال من جدته سارّة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " مررت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء فقلت لجبرائيل : ما هذا ؟ فقال : يوسف . فقيل : يا رسول الله كيف رأيته ؟ قال : كالقمر ليلة البدر " وقال الأزهري : أكبرن بمعنى حضن والهاء للسكت . يقال : أكبرت المرأة أي دخلت في الكبر بالحيض ، ووجه حيضهن حينئذٍ بأن المرأة إذا فزعت أسقطت ولدها فحاضت ، فالمراد حضن ودهشن . وقيل : أكبرنه لما رأين عليه من نور النبوة وسيماء الرسالة وآثار الخضوع والإخبات والأخلاق . الفاضله الملكية كعدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح فلذلك وقعت الهيبة والرعب في قلوبهن ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ أي جرحنها بأن لم يعرفن الفاكهة من اليد ، أو بأن لم يفرقوا بين الجانب الحاد من السكين وبين مقابله فوقع الطرف الحاد في أيديهن وكفهن وحصل الاعتماد على ذلك الطرف فجرح الكف وهذا القول شديد الملاءمة لقولهن ﴿

حاش لله ﴾ أي ننزهه عما يشينه من خصلة ذميمة ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ في السيرة والعفة والطهارة.

(101/396)

وأما قول زليخا : ﴿ فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾ فإنما ينطبق على هذا التأويل من حيث إن الصورة الحسنة مع العفة الكاملة توجب حصول اليأس من الوصال وحصول الغرض المجازي وذلك يستتبع فرط الحيرة وزيادة العشق . وعلى القولين الأولين فالمعنى تنزيه الله من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله ، كما أن قولهن ﴿ حاش لله ما علمنا عليه ﴾ تعجب من قدرته على خلق عفيف مثله . قال صاحب الكشاف : " حاشا "كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء واللام في ﴿ لله ﴾ لبيان من يبرأ وينزه وهي حرف من حروف الجر وضع موضع التنزيه والبراءة . وقال أبو البقاء : الجمهور على أنه ههنا فعل لدخوله على حرف الجر وفاعله مضمر ، وحذف الألف من آخره للتخفيف وكثرة دوره على الألسنة تقديره حاشى يوسف أي بعد عن المعصية لخشية الله وصار في حاشية أي ناحية . ﴿ ما هذا بشراً ﴾ أعمال ما عمل ليس لغة حجازية ﴿ إن هذا ﴾ أي ما هذا الشخص ﴿ إلا ملك كريم ﴾ استدل بعضهم بالآية على أفضلية الملك كما مر

في أول سورة البقرة قالوا : وإنما قلن ذلك لما ركز في العقول أن لا أحسن من صورة الملك كما ركز فيها أن لا أقبح من صورة الشيطان . واعترض عليه بأنه لا مشابهة بين صورة الإنسان وصورة الملك . وأجيب بعد التسليم بتغيير المدعي وهو أنهن أردن المشابهة في الأخلاق الباطنة وبها يحصل المطلوب ، وزيف بأن قول النساء لا يصلح للحجة ، وفي الآية دلالة على أن اللوم انتفى لأنه لحقهن بنظرة واحدة يلحقها في مدة طويلة وأنظار كثيرة فلذلك ﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾ وسئل ههنا إن يوسف كان حاصراً فلم أشارت بعبارة البعيد ؟ وأجاب ابن الأنباري بأنها أشارت إليه بعد انصرافه من المجلس وهذا شيء يتعلق بالنقل . وأما علماء البيان فإنهم بنوا الأمر على أن يوسف حاضر وأجابوا بأنها لم تقل فهذا رفعاً لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به واستبعاداً لمحله ، أو هو إشارة إلى المعنّي بقولهن في

المدينة عشقت عبدها الكنعاني كأنها قالت هو ذلك العبد الكنعاني الذي صوّرتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه يعني أنكن لم تصوّرنه قبل ذلك حق التصوير وإلا عذرتنني في الافتتان به . ولما أظهرت عذرها عند النسوة صرحت بحقيقة الحال فقالت : ﴿ ولقد راودته عن

نفسه فاستعصم ﴾ قال السدي : أي بعد حل السراويل : والذين يثبتون عصمة الأنبياء قالوا : إن ﴿ استعصم ﴾ بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحرز الشديد كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها ، وفيه شهادة من المرأة على أن يوسف ما صدر عنه أمر بخلاف الشرع والعقل أصلاً .

(103/396)

﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ﴾ قال في الكشاف : معناه الذي آمر به فحذف الجار كما في أمرتك الخير ، أو ما مصدرية والضمير ليوسف أي أمري إياه أي موجب أمري ومقتضاه ﴿ وليكونا من الصاغرين ﴾ هي نون التأكيد المخففة ولهذا تكتب بالألف لأن الوقف عليها بالألف . والصغار الذل والهوان ، ومعلوم أن التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس جليل القدر مثل يوسف ثم إنه اجتمع على يوسف في هذه الحالة أنواع من المحن والفتن منها : أن زليخا كانت في غاية الحسن ، ومنها أنها كانت ذات مال وثروة قد عزمت أن تبذل الكل ليوسف على تقدير أن يساعدها ، ومنها أن النسوة اجتمعن عليه مرغبات ومخوفات ، ومنها أنها كانت ذات قدرة ومكنة وكان خائفاً من شرها ومن إقدامها على قتله ، ولا ريب أن نطاق عصمة البشرية يضيق عن بعض هذه الأسباب فضلاً عن كلها

وعن أزيد منها ولهذا لجأ يوسف عليه السلام إلى الله تعالى قائلاً : ﴿ رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه ﴾ لأن السجن وإن كان مشقة فهي زائلة والذي يدعونه إليه وإن كان لذة إلا أنها عاجلة مستعقبة لخزي الدنيا وعذاب الآخرة ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن ﴾ بترجيح داعية الخير وعزوف النفس أو بمزيد الألطاف والعصمة ﴿ أصب إليهن ﴾ والصبوة الميل إلى الهوى ومنها الصبا لأن النفوس تصبوا إلى روحها . ﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ الذين لا يعملون بما يعلمون ولا يكون في علمهم فائدة ، أو من السفهاء لأن الحكيم لا يفعل القبيح . ولما كان في قوله : ﴿ وإلا تصرف ﴾ معنى الدعاء وطلب الصرف قال سبحانه ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ ثم إن المرأة أخذت في الاحتيال وقالت لزوجها إن هذا العبد العبراني فضحني في الناس ويقول لهم في المجالس إني راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على إظهار عذري ، فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر ، وإما أن تحبسه كما حبستني فعند ذلك وقع في قلب العزيز أن الأصلح حبسه حتى ينسى الناس هذا الحديث فذلك قوله تعالى :

﴿ ثم بدا ﴾ أي ظهر ﴿ لهم ﴾

للعزيز ومن يليه أو له وحده والجمع على عادتهم في تعظيم الأشراف ﴿ من بعد ما رأو الآيات ﴾ الدالة على براءة يوسف من شهادة الصبي واعتراف المرأة وشهادة النسوة له بالسيرة الملكية والعفة . وفاعل بدا مضمر أي ظهر لهم رأي أو سجنه وإنما حذف لدلالة ما يفسره عليه وهو ﴿ ليسجننه ﴾ والقسم محذوف ﴿ حتى حين ﴾ إلى زمان ممتد .

عن أبن عباس : إلى زمان انقطاع القالة وما شاع في المدينة .

وعن الحسن : خمس سنين . وعن غيره سبع سنين . وعن مقاتل : أنه حبس اثنتي عشرة سنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 84.75 ﴾

(105/396)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾

الحلقة الثانية من حلقات القصة ، وقد وصل يوسف إلى مصر ، وبيع بيع الرقيق ؛ ولكن الذي اشتراه توسم فيه الخير والخير يتوسم في الوجوه الصباح ، وبخاصة حين تصاحبها السجايا الملاح فإذا هو يوصي به امرأته خيراً ، وهنا يبدأ أول خيط في تحقيق الرؤيا .

ولكن محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده ، وقد أوتي حكماً

وعلماً يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التي لا يقف لها إلا من رحم الله . إنها محنة التعرض للغواية في جو القصور ، وفي جو ما يسمونه " الطبقة الراقية " وما يغشاها من استهتار وفجور . . ويخرج يوسف منها سليماً معافى في خلقه وفي دينه ، ولكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها . .

﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته : أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . .

إن السياق لا يكشف لنا حتى الآن عمن اشتراه ، وسنعلم بعد شوط في القصة أنه عزيز مصر (قيل : إنه كبير وزرائها) ولكنا نعلم منذ اللحظة أن يوسف قد وصل إلى مكان آمن ، وأن المحنة قد انتهت بسلام ، وأنه مقبل بعد هذا على خير :

﴿ أكرمي مثواه ﴾ . .

والمثوى مكان الثويّ والمبيت والإقامة ، والمقصود بإكرام مثواه إكرامه ، ولكن التعبير أعمق ، لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب ، ولكن لمكان إقامته . . وهي مبالغة في الإكرام . في مقابل مثواه في الجب وما حوله من مخاوف وآلام !

ويكشف الرجل لامرأته عما يتوسمه في الغلام من خير ، وما يتطلع إليه فيه من أمل :

﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ . .

ولعلهما لم يكن لهما أولاد كما تذكر بعض الروايات . ومن ثم تطلع الرجل أن يتخذاه ولداً إذا صدقت فراسته ، وتحققت مخايل نجابته وطيبته مع وسامته .

وهنا يقف السياق لينبه إلى أن هذا التدبير من الله ، وبه وبمثله قدر ليوسف التمكين في الأرض وها قد بدأت بشائره بتمكين يوسف في قلب الرجل وبيته ويشير إلى أنه ماض في الطريق ليعلمه الله من تأويل الأحاديث على الوجهين اللذين ذكرناهما من قبل ويعقب السياق على هذا الابتداء في تمكين يوسف بما يدل عليه من قدرة الله غالبه ، لا تقف في طريقها قوة ، وأنه مالك أمره ومسيطر عليه فلا يخيب ولا يتوقف ولا يضل :

﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره ﴾ . .

وها هو ذا يوسف أراد له إخوته أمراً ، وأراد له الله أمراً ، ولما كان الله غالباً على أمره ومسيطراً فقد نفذ أمره ، أما إخوة يوسف فلا يملكون أمرهم فأفلت من أيديهم وخرج على ما أرادوا :

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

.

لا يعلمون أن سنة الله ماضية وأن أمره هو الذي يكون.

ويمضي السياق ليقرر أن ما شاء الله ليوسف، وقال عنه:

﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ ..

قد تحقق حين بلغ أشده:

﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً. وكذلك نجزي المحسنين ﴾ ..

فقد أوتي صحة الحكم على الأمور، وأوتي علماً بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا، أو بما هو أعم، من العلم بالحياة وأحوالها، فاللفظ عام ويشمل الكثير. وكان ذلك جزاء إحسانه. إحسانه في الاعتقاد وإحسانه في السلوك:

﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ ..

وعندئذ تجيئه المحنة الثانية في حياته، وهي أشد وأعمق من المحنة الأولى. تجيئه وقد أوتي صحة الحكم وأوتي العلم رحمة من الله ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذي سجله الله له في قرآنه.

والآن نشهد ذلك المشهد العاصف الخطير المثير كما يرسمه التعبير:

﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك ! قال : معاذ الله . إنه ربي أحسن مثواي . إنه لا يفلح الظالمون ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدى الباب . قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ؟ إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال : هي راودتني عن نفسي . وشهد شاهد من أهلها . إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ؛ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال : إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين ﴾ . .

إن السياق لم يذكر كم كانت سنها وكم كانت سنه ؛ فلننظر في هذا الأمر من باب التقدير . لقد كان يوسف غلاماً عندما التقطته السيارة وباعته في مصر . أي إنه كان حوالي الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد . فهذه في السن التي يطلق فيها لفظ الغلام ، وبعدها يسمى فتى فشاباً فرجلاً . . وهي السن التي يجوز فيها أن يقول يعقوب : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ . . وفي هذا الوقت كانت هي زوجة ، وكانت وزوجها لم يرزقا أولاداً كما يبدو من قوله : ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ . . فهذا الخاطر . . خاطر التبني . . لا يرد على النفس عادة

إلا حين لا يكون هناك ولد ؛ ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد . فلا بد أن تكون قد مضت على زواجهما فترة ، يعلمان فيها أن لا ولد لهما . وعلى كل حال فالمتوقع عن رئيس وزراء مصر ألا تقل سنه عن أربعين سنة ، وأن تكون سن زوجه حينئذ حوالي الثلاثين . ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنة عندما يكون يوسف في الخامسة والعشرين أو حواليها .

وهي السن التي نرجح أن الحادثة وقعت فيها . . نرجحه لأن تصرف المرأة في الحادثة وما بعدها يشير إلى أنها كانت مكتملة جريئة ، مالكة لكيدها ، متهالكة كذلك على فتاها . ونرجحه من كلمة النسوة فيما بعد . . ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ . . وإن كانت كلمة فتى تقال بمعنى عبد ، ولكنها لا تقال إلا ولها حقيقة من مدلولها من سن يوسف . وهو ما ترجحه شواهد الحال .

نبحث هذا البحث ، لنصل منه إلى نتيجة معينة . لنقول : إن التجربة التي مر بها يوسف أو المحنة لم تكن فقط في مواجهة المراودة في هذا المشهد الذي يصوره السياق . إنما كانت في حياة يوسف فترة مراهقته كلها في جو هذا القصر ، مع هذه المرأة بين سن الثلاثين وسن

الأربعين ، مع جو القصور ، وجو البيئة التي يصورها قول الزوج أمام الحالة التي وجد فيها امرأته مع يوسف :

﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

وكفى . . !

والتي يتحدث فيها النسوة عن امرأة العزيز ، فيكون جوابها عليهن ، مأدبة يخرج عليهن يوسف فيها ، فيفتتن به ، ويصرحن ، فتصرح المرأة :

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ . .

فهذه البيئة التي تسمح بهذا وذلك بيئة خاصة . هي بيئة الطبقة المترفة دائماً . ويوسف كان فيها مولى وتربى فيها في سن الفتنة . . فهذه هي المحنة الطويلة التي مر بها يوسف ، وصمد لها ، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة . ولسنه وسن المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة في تقدير مدى الفتنة وخطورة المحنة والصمود لها هذا الأمد الطويل . أما هذه المرة فلو كانت وحدها وكانت مفاجأة بلا تمهيد من إغراء طويل ، لما كان عسيراً أن يصمد لها يوسف ، وبخاصة أنه هو مطلوب فيها لا طالب . وتهالك المرأة قد يصد من نفس الرجل . وهي كانت متهالكة .

والآن نواجه النصوص :

﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب ، وقالت : هيت لك ! ﴾ . .

وإذن فقد كانت المراودة في هذه المرة مكشوفة ، وكانت الدعوة فيها سافرة إلى الفعل الأخير . . وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلا في اللحظة الأخيرة ، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الحاسمة التي تهتاج فيها دفعة الجسد الغليظة ، ونداء الجسد الأخير :

﴿ وقالت : هيت لك ! ﴾ .

هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة . إنما تكون في الدعوة الأخيرة . وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً . والفتى يعيش معها وفتوته تتكامل ، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج ، فلا بد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة ، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة .

﴿ قال : معاذ الله . إنه ربي أحسن مثواي . إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

.

﴿ معاذ الله ﴾ . .

أعيذ نفسي بالله أن أفعل .

﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ . .

وأكرمني بأن نجاني من الجب وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن .

﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ . . الذين يتجاوزون حدود الله ، فيرتكبون ما تدعينني اللحظة إليه .

والنص هنا صريح وقاطع في أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبي ، المصحوب بتذكر نعمة الله عليه ، وبتذكر حدوده وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود . فلم تكن هناك استجابة في أول الموقف لما دعته إليه دعوة غليظة جاهزة بعد تغليق الأبواب ، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في حكايته وروايته :

﴿ وقالت : هيت لك ﴾ .

﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ !

لقد حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين نظرهم في تلك الواقعة الأخيرة . فأما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعاً شبقاً ، والله يدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع ! صورت له هيئة أبيه يعقوب في سقف

المخدع عاضاً على أصبعه بفمه ! وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن أي نعم من القرآن ! تنهى عن مثل هذا المنكر ، وهو لا يرعوي ! حتى أرسل الله جبريل يقول له : أدرك عبدي ، فجاء فضربه في صدره . . إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع !

وأما جمهور المفسرين فسار على أنها همت به هم الفعل ، وهم بها هم النفس ، ثم تجلى له برهان ربه فترك . وأنكر المرحوم الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار على الجمهور هذا الرأي . وقال : إنها إنما همت بضربه نتيجة إبائه وإهانته لها وهي السيدة الآمرة ، وهم هو برد الاعتداء ؛ ولكنه آثر الهرب فلحقت به وقدت قميصه من دبر . . وتفسير الهم بأنه هم الضرب ورد الضرب مسألة لا دليل عليها في العبارة ، فهي مجرد رأي لمحاولة البعد بيوسف عن هم الفعل أو هم الميل إليه في تلك الواقعة . وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص .

أما الذي خطر لي وأنا أراجع النصوص هنا ، وأراجع الظروف التي عاش فيها يوسف ، في داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة ، وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعدما أوتيهما . .

الذي خطر لي أن قوله تعالى :

﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ . .

هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعدما أبى يوسف في أول الأمر واستعصم . . وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ؛ ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة . . ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة ؛ لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة ، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك . فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً .

هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص ، ونتصور الظروف . وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية . وما كان يوسف سوى بشر . نعم إنه بشر مختار . ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات . فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه ، بعد لحظة الضعف الطارئة ، عاد إلى الاعتصام والتأبي .

﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين ﴾ . .

﴿ واستبقا الباب ﴾ . .

فهو قد آثر التخلص بعد أن استفاق . . وهي عدت خلفه لتمسك به ، وهي ما تزال في هياجها الحيواني .

﴿ وقدت قميصه من دبر ﴾ . .

نتيجة جذبها له لترده عن الباب . .

وتقع المفاجأة :

﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ . .

وهنا تتبدى المرأة المكتملة ، فتجد الجواب حاضراً على السؤال الذي يهتف به المنظر المريب . إنها تتهم الفتى :

﴿ قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ؟ ﴾ . .

ولكنها امرأة تعشق ، فهي تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون .

﴿ إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ !

ويجهر يوسف بالحقيقة في وجه الاتهام الباطل :

﴿ قال : هي راودتني عن نفسي ﴾ !

وهنا يذكر السياق أن أحد أهلها حسم بشهادته في هذا النزاع :

﴿ وشهد شاهد من أهلها : إن كان قميصه قُدّ من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قُدّ من دُبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ . .

فأين ومتى أدلى هذا الشاهد بشهادته هذه ؟ هل كان مع زوجها (سيدها بتعبير أهل مصر) وشهد الواقعة ؟ أم أن زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر ، كما يقع في مثل هذه الأحوال أن يستدعي الرجل كبيراً من أسرة المرأة ويطلعه على ما رأى ، وبخاصة تلك الطبقة الباردة الدم المائعة القيم !

هذا وذلك جائز . وهو لا يغير من الأمر شيئاً . وقد سمي قوله هذا شهادة ، لأنه لما سئل رأيه في الموقف والنزاع المعروض من الجانبين ولكل منها ومن يوسف قول سميت فتواه هذه شهادة ، لأنها تساعد على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه . . فإن كان قميصه قد من قبل فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها فهي صادقة وهو كاذب . وإن كان قميصه قد من دبر فهو إذن من أثر تملصه منها وتعقبها هي له حتى الباب ، فهي كاذبة وهو صادق . . وقدم الفرض الأول لأنه إن صح يقتضي صدقها وكذبه ، فهي السيدة وهو فتى ، فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول ! والأمر لا يخرج عن أن يكون قرينة .

﴿ فلما رأى قميصه قدّ من دُبر ﴾ . .

تبين له حسب الشهادة المبنية على منطق الواقع أنها هي التي راودت ، وهي التي دبرت الاتهام . . وهنا تبدو لنا صورة من " الطبقة الراقية " في الجاهلية قبل آلاف السنين وكأنها

هي هي اليوم شاخصة .

رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية ؛ وميل إلى كتمانها عن المجتمع ، وهذا هو المهم كله :

﴿ قال : إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ !

(113/396)

هكذا . إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . . فهي اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق . والتلطف في مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله ، فيما يشبه الثناء .

فإنه لا يسوء المرأة أن يقال لها : إن كيدكن عظيم ! فهو دلالة في حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم !

والتفاتة إلى يوسف البريء :

﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ . .

فأهْمِلْه ولا تُعِرْه اهتماماً ولا تتحدث به . . وهذا هو المهم . . محافظة على الظواهر !

وعظة إلى المرأة التي راودت فتاها عن نفسه ، وضبطت متلبسة بمساورته وتمزيق قميصه

:

﴿ واستغفري لذنبك . إنك من الخاطئين ﴾ . .

إنها الطبقة الأرستقراطية ، من رجال الحاشية ، في كل جاهلية . قريب من قريب !

ويسدل الستار على المشهد وما فيه . . وقد صور السياق تلك اللحظة بكل ملابساتها وانفعالاتها ولكن دون أن ينشئ منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجاهرة ، ولا مستنقعاً للوحل الجنسي المقبوح !

ولم يحل السيد بين المرأة وفتاها . ومضت الأمور في طريقها . فهكذا تمضي الأمور في القصور ! ولكن للقصور جدراناً ، وفيها خدم وحشم . وما يجري في القصور لا يمكن أن يظل مستوراً . وبخاصة في الوسط الأرستقراطي ، الذي ليس لنسائه من هم إلا الحديث عما يجري في محيطهن . وإلا تداول هذه الفضائح ولوكها على الألسن في المجالس والسهرات والزيارات :

﴿ وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . قد شغفها حباً . إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ . .

وهو كلام أشبه بما تقوله النسوة في كل بيئة جاهلية عن مثل هذه الشؤون . ولأول مرة نعرف أن المرأة هي امرأة العزيز ، وأن الرجل الذي اشتراه من مصر هو عزيز مصر أي كبير وزرائها ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة :

﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ . .

ثم بيان لحالها معه :

﴿ قد شغفها حباً ﴾ . .

فهي مفتونة به ، بلغ حبه شغاف قلبها ومزقه ، وشغاف القلب غشاؤه الرقيق :

﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ . .

وهي السيدة الكبيرة زوجة الكبير ، تفتتن بفتاها العبراني المشترى . أم لعلهن يتحدثن عن اشتهارها بهذه الفتنة وانكشافها وظهور أمرها ، وهو وحده المنتقد في عرف هذه الأوساط لا الفعلة في ذاتها لو ظلت وراء الأستار ؟ !

وهنا كذلك يقع ما لا يمكن وقوعه إلا في مثل هذه الأوساط . ويكشف السياق عن مشهد من صنع تلك المرأة الجريئة ، التي تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بمكر كمكرهن وكيد من كيدهن :

﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت : اخرج عليهن .

فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن : حاش لله ! ما هذا بشراً . إن هذا إلا ملك كريم .

قالت : فذلكن الذي لُمْتُنَّني فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم . ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ﴾ . .

لقد أقامت لهن مأدبة في قصرها . وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية . فهن اللواتي يدعين إلى المآدب في القصور . وهن اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر . ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا على عادة الشرق في ذلك الزمان . فأعدت لهن هذا المتكأ . وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها في الطعام ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً ، وأن الترف في القصور كان عظيماً . فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية . وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة ، فاجأتهن بيوسف :

﴿ وقالت : اخرج عليهن ﴾ . .

﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ . .

بهتن لطلعته ، ودهشن .

﴿ وقطعن أيديهن ﴾ . .

وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجئة .

﴿ وقلن حاش لله ! ﴾ . .

وهي كلمة تنزيه تقال في هذا الموضع تعبيراً عن الدهشة بصنع الله . .

﴿ ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ . .

(115/396)

وهذه التعبيرات دليل كما قلنا في تقديم السورة على تسرب شيء من ديانات التوحيد في ذلك الزمان .

ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها ، وأنهن لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول . فقالت قولة المرأة المنتصرة ، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها ؛ والتي تفخر عليهن بأن هذا في متناول يدها ؛ وإن كان قد استعصى قياده مرة فهي تملك هذا القياد مرة أخرى :

﴿ قالت : فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾ . .

فانظرن ماذا لقيتن منه من البهر والدهش والإعجاب !

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ . .

ولقد بهرني مثلكن فراودته عن نفسه فطلب الاعتصام تريد أن تقول : إنه عانى في الاعتصام والتحرز من دعوتها وفتنتها ! ثم تظهر سيطرتها عليه أمامهن في تبجح المرأة من

ذلك الوسط ، لا ترى بأساً من الجهر بنزاوتها الأنثوية جاهرة مكشوفة في معرض النساء :

﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ﴾ !

فهو الإصرار والتبجح والتهديد والإغراء الجديد في ظل التهديد .

ويسمع يوسف هذا القول في مجتمع النساء المبهورات ، المبديات لمفاتنهن في مثل هذه المناسبات . ونفهم من السياق أنهن كن نساء مفتونات فاتنات في مواجهته وفي التعليق على هذا القول من ربة الدار ؛ فإذا هو يناجي ربه :

﴿ قال : رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ .

ولم يقل : ما تدعونني إليه . فهن جميعاً كن مشتركات في الدعوة . سواء بالقول أم بالحركات واللفتات . . وإذا هو يستنجد ربه أن يصرف عنه محاولاتهن لإيقاعه في حبائلهن ، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم ، فيقع فيما يخشاه على نفسه ، ويدعو الله أن ينقذه منه :

﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ .

.

وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته . الذي لا يغتر بعصمته ؛ فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته ، يعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء .

﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم ﴾ . .

(116/396)

وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن ، بعد هذه التجربة ؛ أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى لا يحس في نفسه أثراً منه . أو بهما جميعاً .

﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ الذي يسمع ويعلم ، يسمع الكيد ويسمع الدعاء ، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء . وهكذا اجتاز يوسف محنته الثانية ، بلطف الله ورعايته . وانتهت بهذه النجاة الحلقة الثانية من قصته المثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 1985.1978 ﴾

(117/396)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : لما أخرجوا يوسف القلب من جب الطبيعة ذهبوا به إلى مصر الشريعة فاشتراه عزيز مصرها وهو الدليل المربي على جادة الطريقة ليوصله إلى عالم الحقيقة . ﴿ فقال

لامرأته ﴾ وهي الدنيا ﴿ أكرمي مثواه ﴾ اخدميه بقدر الحاجة الضرورية ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ حتى يكون صاحب الشريعة فيتصرف في الدنيا باكسير النبوة فتصير الشريعة حقيقة والدنيا آخرة ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ نربيه بلبان ثدي الشريعة والطريقة إلى أن يرى الفطام عن الدنيا الدنية ﴿ وكذلك مكنا ﴾ يشير إلى أن تمكين يوسف القلب في أرض البشرية إنما هو لتعلم العلم اللدني ، لأن الثمرة إنما تظهر على الشجرة إذا كان أصل الشجرة راسخاً في الأرض ﴿ والله غالب على ﴾ أمر القلب في توجيهه إلى محبة الله وطلبه ، أو على أمر القالب بجذبات العناية وإقامته على الصراط المستقيم فتكون تصرفاته بالله ولله وفي الله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أنهم خلقوا مستعدّين لهذا الكمال ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي كما أفضنا على القلب ما هو مستحقه من الحكمة والعلم كذلك نجزي الأعضاء الرئيسية والجوارح إذا أحسنوا الأعمال والأخلاق على قاعدة الشريعة والطريقة خير الجزاء ، وهو التبليغ إلى مقام الحقيقة . ﴿ وراودته ﴾ فيه إشارة إلى أن يوسف القلب وإن استغرق في بحر صفات الألوهية لا ينقطع عنه تصرفات زليخا الدنيا ما دام هو في بيتها أي في الجسد الدنياوي ﴿ وغلقت ﴾ أبواب أركان الشريعة ﴿ وقالت هيت لك ﴾ أقبل إلى وأعرض عن الحق ﴿ قال ﴾ أي القلب الفاني عن نفسه الباقي ببقاء ربه ﴿ معاذ الله ﴾ عما سواه . ﴿ أحسن مثواي ﴾ في عالم الحقيقة ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ الذين يقبلون على الدنيا ويعرضون عن المولى ﴿ وهمّ بها ﴾ فوق الحاجة

الضرورية ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ وهو نور خصلة القناعة التي هي من نتائج نظر العناية ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ الحرص على الدنيا ﴿ والفحشاء ﴾ بصرف حب الدنيا فيه ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ الذي خلصوا

(118/396)

من سجن الوجود المجازي ووصلوا إلى الوجود الحقيقي . ﴿ واستبقا ﴾ باب الموت الاختياري ﴿ وقدت ﴾ قميص بشريته ﴿ من دبر ﴾ بيد شهواتها قبل خروجه من الباب ﴿ وألفيا سيدها ﴾ وهو صاحب ولاية تربية يوسف القلب وزوج زليخا الدنيا لأنه يتصرف في الدنيا كما ينبغي تصرف الرجل في المرأة ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ هو حاكم العقل الغريزي دون العقل المجرد الذي هو ليس من الدنيا وأهلها في شيء ، فبين حاكم العقل أن يد تصرف زليخا الدنيا لا تصل إلى يوسف القلب إلا بواسطة قميص بشريته ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ وهو قطع طريق الوصول إلى الله لعظيم على القلب السليم . ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ فإن ذكر الدنيا يورث محبتها وحب الدنيا رأس كل خطيئة . ﴿ وقال نسوة ﴾ هي الصفات البشرية من البهيمية والسبعية والشيطانية في مدينة الجسد ﴿ تراود فتاها ﴾ لأن الرب إذا تجلى للعبد خضع له كل شيء " يا دنيا اخدمي

من خدمني " ﴿ واعتدت لهن متكئاً ﴾ أطعمة مناسبة لكل منها ﴿ وآتت كل واحد منهن سكيناً ﴾ هو سكين الذكر ﴿ وقالت اخرج عليهن ﴾ إشارة إلى غلبات أحوال القلب على الصفات البشرية ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ بالذكر عما سوى الله. ﴿ ثم بدا لهم ﴾ أي ظهر لمربي القلب بلبان الشريعة وهو شيخ الطريقة ومن يراعي صلاح حال القلب ﴿ من بعد ما رأوا ﴾ آثار عناية الله وعصمة القلب من الالتفات إلى ما سواه ﴿ ليسجننه ﴾ في سجن الشرع إلى حين قطع تعلقه عن الجسد بالموت نظيره ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر: 99] وإذا كان النبي مع نهاية كماله مأموراً بأن يكون مسجوناً في هذا السجن فكيف بمن دونه والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 84 . 86﴾

(119/396)

قوله تعالى ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما رآهما بصيرين بالأمور ﴿ قال ﴾ إشارة إلى أنه يعرف ذلك وأدق منه ، ليقبلا نصحه فيما هو أهم المهم لكل أحد ، - وهو ما خلق العباد له من الاجتماع على الله - لتفريغهما للفهم لكلامه والقبول لكل ما يلقيه لاحتياجهما إلى إفتائهما ، مؤكداً ما وصفاه به من الإحسان بما اتبعه من وصف نفسه بالعلم ، انتهازاً لفرصة النصيحة عند هذا الإذعان بأعظم ما يكون النصح به من الأمر بالإخلاص في عبادة الخالق والإعراض عن الشرك ، فعلى كل ذي علم إذا احتاج إلى سؤاله أحد أن يقدم على جوابه نصحه بما هو الأهم له ، ويصف له نفسه بما يرغبه في قبول علمه إن كان الحال محتاجاً إلى ذلك ، ولا يكون ذلك من باب التزكية بل من الإرشاد إلى الإئتمام به بما يقرب إلى الله فيكون له مثل أجره : ﴿ لا يأتيكما ﴾ أي في اليقظة ﴿ طعام ﴾ وبين أنه خاص بهما دون أهل السجن بقوله : ﴿ ترزقانه ﴾ بناه للمفعول تعميماً ﴿ إلاّ نبأتكما ﴾ أي أخبرتكما إخباراً جليلاً عظيماً ﴿ بتأويله ﴾ أي به وبما يؤل ويرجع إليه أمره .

ولما كان البيان في جميع الوقت الذي بينه وبين الطعام الذي قبله ، نزع الخافض فقال : ﴿ قبل أن يأتيكما ﴾ أي أخبرتكما بأنه يأتيكما طعام كذا ، فيكون سبباً لكذا ، فإن المسبب الناشىء عن السبب هو المال .

(121/396)

ولما وصف نفسه من العلم بما يدعو كل ذي همة إلى السعي في الأسباب التي حصل له ذلك بها ليصير مثله أو يقرب منه ، وكان محل أن يقال : من علمك ذلك ؟ قال مرشداً إلى الله داعياً إليه أحسن دعاء بما تميل إليه النفوس من الطمع في الفضل : ﴿ ذلكما ﴾ أي الأمر العظيم ؛ ونبه على غزارة علمه بالتبعيض في قوله : ﴿ مما علمني ربي ﴾ أي الموجد لي والمربي لي والمحسن إليّ ، ولم أقله عن تكهن ولا تنجم ، فكأنه قيل : ما لغيرك لا يعلّمه مثل ما علمك ؟ فقال معللاً له مطمعاً كل من فعل فعله في فضل الله ، مؤكداً إعلاماً بأن ذلك أمر عظيم يحق لمثله أن يفعل : ﴿ إني تركت ملة قوم ﴾ أي وإن كانوا أقوياء على محاولة ما يريدون ، فلذلك قدروا على أذاي وسجني بعد رؤية الآيات الشاهدة لي ، ونبه على أن ذلك لا يقدم عليه إلاّ من لا يحسب العاقبة بوجه ، فقال : ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي يجددون الإيمان لما لهم من العراقة في الكفر ﴿ بالله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا يخفى أمره على ذي

لب من أهل مصر وغيرهم ؛ ثم لوح إلى التحذير من يوم الجزاء الذي لا يغنى فيه أحد عن أحد ، منبهاً على أن الكفر به هو القاطع عن العلم وعن كل خير ، فقال مؤكداً تأكيداً عظيماً ، إشارة إلى أن أمرهم ينبغي أن ينكره كل من يسمعه ، ولا يصدقه ، لما على الآخرة من الدلائل الواضحة جداً الموجبة لئلا يكذب به أحد : ﴿ وهم بالآخرة ﴾ أي الدار التي لا بد من الجمع إليها ، لأنها محط الحكمة ﴿ هم ﴾ أي بضمائرهم كما هم بظواهرهم ، وفي تكرير الضمير تنبيه على أن هؤلاء اختصوا بهذا الجهل ، وأن غيرهم وقفوا على الهدى ﴿ كافرون ﴾ أي عريقون في التغطية لها ، فلذلك أظلمت قلوبهم فكانوا صوراً لا معاني لها ؛ والملة : مذهب جماعة يحمي بعضها لبعض في الديانة ، وأصله من المليلة ، وهي حمى تلحق الإنسان - قاله الرماني .

وفي القاموس إن المليلة : الحر الكامن في العظم .

(122/396)

وعبر ب ﴿ تركت ﴾ موضع " تجنبت " مثلاً مع كونه لم يلابس تلك الملة قط ، تأنيساً لهما واستدراجاً إلى تركهما ؛ ثم اتبع ذلك بما يدل على شرف أصله وقدم فضله بأنه من بيت النبوة ومعدن الفتوة ، ليكون ذلك أدعى إلى قبول كلامه وإصابة سهامه وإفضاء مرامه ،

فقال : ﴿ واتبعت ﴾ أي بغاية جهدي ورغبتي ﴿ ملة آباءي إبراهيم ﴾ خليل الله ، وهو جد أبيه ﴿ وإسحاق ﴾ ابنه نبي الله وهو جده ﴿ ويعقوب ﴾ أبيه إسرائيل : الله .

وهو أبوه حقيقة ، وتلك هي الحنيفية السمحة التي هي الميل مع الدليل من غير جمود مع هوى بوجه من الوجوه ؛ روى البخاري في التفسير وغيره عن أبي هريرة -رضى الله عنهم- قال : " سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : أيّ الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم ، قالوا : ليس عن هذا نسألك .

قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله : ابن خليل الله ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن العرب تسألوني ؟ قالوا : نعم ، قال : فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا " فكأنه قيل : ما تلك الملة ؟ فقال : ﴿ ما كان لنا ﴾ أي ما صح وما استقام بوجه من الوجوه ، لما عندنا من نور العلم الذي لم يدع عندنا لبساً بوجه أصلاً ﴿ أن نشرك ﴾ أي نجدد في وقت ما شيئاً من إشراك ﴿ بالله ﴾ أي الذي له الأمر كله ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ من شيء ﴾ أي بما شرعه لنا من الدين القويم كانت ملتنا التوحيد ، ومن التأكيد العموم في سياق النفي ، ليعم ذلك كل شيء من عاقل ملك أو إنسي

أو جنى أو غيره ؛ ثم علل ذلك بما يعرف به أنه كما وجب عليهم ذلك وجب على كل أحد فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي كان هذا الانتفاء أو ذلك التشريع – للملة الحنيفية وتسهيلها وجعل الفطر الأولى منقادة لها مقبلة عليها – العلي الشأن العظيم المقدار ﴿ من ﴾ أجل ﴿ فضل الله ﴾ أي المحيط بالجلال والإكرام ﴿ علينا ﴾ خاصة ﴿ وعلى الناس ﴾ الذين هم إخواننا في النسب عامة ، فنحن وبعض الناس شكرنا الله ، فقبلنا ما تفضل به علينا ، فلم نشرك به شيئاً ؛ والفضل : النفع الزائد على مقدار الواجب ، فكل عطاء الله فضل ، فإنه لا واجب عليه ، فكان لذلك واجباً على كل أحد إخلاص التوحيد له شكراً على فضله لما تظافر عليه دليلاً العقل والنقل من أن شكر المنعم واجب ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي لما لهم من الاضطراب مع الهوى عموا عن هذا الواجب ، فهم ﴿ لا يشكرون ﴾ فضله بإخلاص العمل له ويشركون به إكراهاً لفطرهم الأولى ، فالآية من الاحتباك : ذكر نفي الشرك أولاً يدل على وجوده ثانياً ، وذكر نفي الشكر ثانياً يدل على حذف إثباته أولاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 38 . 41 ﴾

(124/396)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات ﴿ إني أراني أعصر ﴾ بالفتح في الحرفين : أبو جعفر ونافع ، وأبو عمرو وافق ابن كثير في ﴿ أراني ﴾ كليهما . الباقون : بسكون ياء المتكلم في الكل : ﴿ نبينا ﴾ بغير همزة : أوقية والأعشى وحمزة في الوقف . ﴿ ترزقانه ﴾ مختلسة : الحلواني عن قالون ﴿ نبأتكما ﴾ مثل ﴿ أنشأنا ﴾ ﴿ ربي إني ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ آبائي ﴾ بالفتح : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿ إني أرى ﴾ بالفتح : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ رؤياي ﴾ بالإمالة : عليّ غير قتيبة . أبو عمرو بالإمالة اللطيفة . والقول في ترك الهمزة مثل ما تقدم ﴿ للرؤيا ﴾ ممالة : عليّ ، وأبو عمرو بالإمالة اللطيفة . ﴿ لعلي أرجع ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير غير ابن مجاهد عن ابن ذكوان وأبو عمرو ﴿ دأبا ﴾ بفتح الهمزة : حفص . الآخرون بالسكون ﴿ تعصرون ﴾ بتاء الخطاب : حمزة وعليّ وخلف والمفضل . الباقون على الغيبة . ﴿ ما بال النسوة ﴾ بضم النون : الشموني والبرجمي ﴿ نفسي ﴾ ﴿ رحم ربي ﴾ بالفتح فيهما : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو .

الوقوف : ﴿ فتيان ﴾ ط ﴿ خمراً ﴾ ج فصلاً بين القضيتين مع اتفاق الجملتين ﴿ الطير منه ﴾ ط للعدول عن قول آخر منهما إلى قولهما المضمر أي فقالا . ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ ج لاحتمال التعليل . ﴿ المحسنين ﴾ 5 ﴿ أن يأتيكما ﴾ ط ﴿ ربي ﴾ ط ﴿ كافرون ﴾ 5 ﴿ ويعقوب ﴾ ط ﴿ من شيء ﴾ ط ﴿ لا يشكرون ﴾ 5 ﴿ القهار ﴾ 5 ط ﴿ من سلطان ﴾ ط ﴿ إلا الله ﴾ ط ﴿ إلا إياه ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ خمراً ﴾ ج فصلا بين الجوابين مع اتفاق الجملتين ﴿ من رأسه ﴾ ط لأن قوله : ﴿ قضى ﴾ جواب قولهما كذبنا وما رأينا رؤيا ﴿ تستفتيان ﴾ ط لاستئناف حكاية أخرى ﴿ عند ربك ﴾ ز ﴿ سنين ﴾ 5 ط ﴿ يابسات ﴾ ط ﴿ تعبرون ﴾ 5 ﴿ أحلام ﴾ ج للنفي مع العطف ﴿ بعالمين ﴾ 5 ﴿ فأرسلون ﴾ 5 ﴿ ياباسات ﴾ لا لتعلق " لعلى " ﴿ يعلمون ﴾ 5 ﴿ دأباً ﴾ ج للشرط مع الفاء ﴿ تأكلون ﴾ 5 ﴿ تحصنون ﴾ 5 ﴿ يعصرون ﴾ 5 ﴿ ائتوني به ﴾ ج ﴿ أيديهن ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ 5 ﴿ عن نفسه ﴾ ط ﴿ من سوء ﴾ ط ﴿ الحق ﴾ ز لانقطاع النظم واتصال المعنى واتحاد القائل .

﴿ الصادقين ﴾ 5 ﴿ الخائنين ﴾ 5 ﴿ نفسي ﴾ ج للحذف أي عن السوء ﴿ ربي ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 87.88 ﴾

(126/396)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن المذكور في هذه الآية ليس بجواب لما سألا عنه فلا بد ههنا من بيان الوجه الذي لأجله عدل عن ذكر الجواب إلى هذا الكلام والعلماء ذكروا فيه وجوهاً : الأول : أنه لما كان جواب أحد السائلين أنه يصلب ، ولا شك أنه متى سمع ذلك عظم حزنه وتشتد نفرته عن سماع هذا الكلام ، فرأى أن الصلاح أن يقدم قبل ذلك ما يؤثر معه بعلمه وكلامه ، حتى إذا جاء بها من بعد ذلك خرج جوابه عن أن يكون بسبب تهمة وعداوة .

(127/396)

الثاني : لعله عليه السلام أراد أن يبين أن درجته في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدوا فيه ، وذلك لأنهم طلبوا منه علم التعبير ، ولا شك أن هذا العلم مبني على الظن والتخمين ، فبين لهما أنه لا يمكنه الإخبار عن الغيوب على سبيل القطع واليقين مع عجز كل الخلق عنه ، وإذا كان الأمر كذلك فبأن يكون فائقاً على كل الناس في علم التعبير كان أولى ، فكان المقصود من ذكر تلك المقدمة تقرير كونه فائقاً في علم التعبير واصلاً فيه إلى ما لم يصل غيره ، والثالث : قال السدي : ﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ ﴾ في النوم بين ذلك أن علمه بتأويل الرؤيا ليس بمقصور على شيء دون غيره ، ولذلك قال : ﴿ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ ﴾ الرابع : لعله عليه السلام لما علم أنهما اعتقدا فيه وقبلا قوله : فأورد عليهما ما دل على كونه رسولاً من عند الله تعالى ، فإن الاشتغال بإصلاح مهمات الدين أولى من الاشتغال بمهمات الدنيا ، والخامس : لعله عليه السلام لما علم أن ذلك الرجل سيصلب اجتهد في أن يدخله في الإسلام حتى لا يموت على الكفر ، ولا يستوجب العقاب الشديد ﴿ لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ ﴾ [الأنفال : 42] والسادس : قوله : ﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ ﴾ محمول على اليقظة ، والمعنى : أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا أخبرتكما أي طعام هو ، وأي لون هو ، وكم هو ، وكيف يكون عاقبته ؟ أي إذا أكله الإنسان فهو يفيد الصحة أو السقم ، وفيه وجه آخر ، قيل : كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً فأرسله إليه ، فقال يوسف لا يأتيكما طعام ألا أخبرتكما أن فيه سماً

أم لا ، هذا هو المراد من قوله : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ وحاصله راجع إلى أنه ادعى الإخبار عن الغيب ، وهو يجري مجرى قوله عيسى عليه السلام ،

﴿ وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران : 49] فالوجوه الثلاثة الأول لتقرير كونه فائقاً في علم التعبير ، والوجوه الثلاثة الآخر لتقرير كونه نبياً صادقاً من عند الله تعالى .

فإن قيل : كيف يجوز حمل الآية على ادعاء المعجزة مع أنه لم يتقدم ادعاء للنبوة ؟

قلنا : إنه وإن لم يذكر ذلك لكن يعلم أنه لا بد وأن يقال : إنه كان قد ذكره ، وأيضاً ففي قوله : ﴿ ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِى رَبّى ﴾ وفي قوله : ﴿ واتبعت مِلَّةَ ءابَاءي ﴾ ما يدل على ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِى رَبّى ﴾ أي لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم ، وإنما أخبرتكما بوحي من الله وعلم حصل بتعليم الله .

ثم قال : ﴿ إِنّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لقائل أن يقول : في قوله : ﴿ إِنّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله ﴾ توهم أنه عليه السلام كان

في هذه الملة .

فنقول جوابه من وجوه : الأول : أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضاً فيه .

والثاني : وهو الأصح أن يقال إنه عليه السلام كان عبداً لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد ، ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفاً منهم على سبيل التقية ، ثم إنه أظهره في هذا الوقت ، فكان هذا جارياً مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر .

المسألة الثانية :

تكرير لفظ ﴿ هُمْ ﴾ في قوله : ﴿ وَهُمْ بالاخرة هُمْ كافرون ﴾ لبيان اختصاصهم بالكفر ، ولعل إنكارهم للمعاد كان أشد من إنكارهم للمبدأ ، فلأجل مبالغتهم في إنكار المعاد كرر هذا اللفظ للتأكيد .

واعلم أن قوله : ﴿ إِنّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله ﴾ إشارة إلى علم المبدأ .

(129/396)

وقوله : ﴿ وَهُمْ بالاخرة هُمْ كافرون ﴾ إشارة إلى علم المعاد ، ومن تأمل في القرآن المجيد وتفكر في كيفية دعوة الأنبياء عليهم السلام علم أن المقصود من إرسال الرسل وإنزال

الكتب صرف الخلق إلى الإقرار بالتوحيد وبالمبدأ والمعاد ، وإن ما وراء ذلك عبث .

ثم قال تعالى : ﴿ واتبعت مِلَّةَ ءابَاءِي إبراهيم وإسحاق ويَعْقُوبَ ﴾ وفيه سؤالات :

السؤال الأول : ما الفائدة في ذكر هذا الكلام .

الجواب : أنه عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب قرن به كونه من أهل بيت النبوة ، وأن أباه وجده وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله ، فإن الإنسان متى ادعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه ، وأيضاً فكما أن درجة إبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب كان أمراً مشهوراً في الدنيا ، فإذا ظهر أنه ولدهم عظموه ونظروا إليه بعين الإجلال ، فكان انقيادهم له أتم وأثر قلوبهم بكلامه أكمل .

السؤال الثاني : لما كان نبياً فكيف قال : إني اتبعت ملة آبائي ، والنبي لا بد وأن يكون مختصاً بشريعة نفسه .

قلنا : لعل مراده التوحيد الذي لم يتغير ، وأيضاً لعله كان رسولاً من عند الله ، إلا أنه كان على شريعة إبراهيم عليه السلام .

السؤال الثالث : لم قال : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ وحال كل المكلفين كذلك ؟

والجواب : ليس المراد بقوله : ﴿ مَا كَانَ لَنَا ﴾ أنه حرم ذلك عليهم ، بل المراد أنه تعالى ظهر

آباءه عن الكفر ، ونظيره قوله : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ [مريم : 35] .

السؤال الرابع : ما الفائدة في قوله : ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ .

الجواب : أن أصناف الشرك كثيرة ، فمنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد النار ، ومنهم من يعبد الكواكب ، ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة ، فقوله : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ رد على كل هؤلاء الطوائف والفرق ، وإرشاد إلى الدين الحق ، وهو أنه لا موجد إلا الله ولا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله .

ثم قال : ﴿ ذلك مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ وفيه مسألة .

وهي أنه قال : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ .

ثم قال : ﴿ ذلك مِن فَضْلِ اللهِ ﴾ فقوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من عدم الإشراك ، فهذا يدل على أن عدم الإشراك وحصول الإيمان من الله .

ثم بين أن الأمر كذلك في حقه بعينه ، وفي حق الناس .

ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون ، ويجب أن يكون المراد أنهم لا يشكرون الله على نعمة الإيمان ، حكي أن واحداً من أهل السنة دخل على بشر بن المعتمر ، وقال : هل تشكر الله

على الإيمان أم لا .

فإن قلت : لا ، فقد خالفت الإجماع ، وإن شكرته فكيف تشكره على ما ليس فعلاً له ، فقال له بشر إنا نشكره على أنه تعالى أعطانا القدرة والعقل والآلة ، فيجب علينا أن نشكره على إعطاء القدرة والآلة ، فأما أن نشكره على الإيمان مع أن الإيمان ليس فعلاً له ، فذلك باطل ، وصعب الكلام على بشر ، فدخل عليهم ثمامة بن الأشرس وقال : إنا لا نشكر الله على الإيمان ، بل الله يشكرنا عليه كما قال : ﴿ أولئك كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : 19] فقال بشر : لما صعب الكلام سهل .

واعلم أن الذين ألزمه ثمامة باطل بنص هذه الآية ، وذلك لأنه تعالى بين أن عدم الإشراك من فضل الله ، ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون هذه النعمة ، وإنما ذكره على سبيل الذم فدل هذا على أنه يجب على كل مؤمن أن يشكر الله تعالى على نعمة الإيمان وحينئذ تقوى الحجة وتكمل الدلالة .

(131/396)

قال القاضي قوله : ﴿ ذلك ﴾ إن جعلناه إشارة إلى التمسك بالتوحيد فهو من فضل الله تعالى لأنه إنما حصل بألطافه وتسهيله ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى النبوة .

والجواب : أن ذلك إشارة إلى المذكور السابق ، وذاك هو ترك الإشراك فوجب أن يكون ترك الإشراك من فضل الله تعالى ، والقاضي يصرفه إلى الألطاف والتسهيل ، فكان هذا تركاً للظاهر وأما صرفه إلى النبوة فبعيد ، لأن اللفظ الدال على الإشارة يجب صرفه إلى أقرب المذكورات وهو ههنا عدم الإشراك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 111.109 ﴾

(132/396)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا يأتيكما طعام ترزقانه في النوم إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما في اليقظة قاله السدي .

الثاني : لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يصلكما لأنه كان يخبر بما غاب مثل عيسى ، قاله الحسن .

الثالث : أن الملك كان من عادته إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معروفاً وأرسل به إليه ،

فكره يوسف تعبير رؤيا السوء قبل الإياس من صاحبها لئلا يخوفه بها فوعده بتأويلها عند وصول الطعام إليه ، فلما ألحّ عليه عبرها ، لئلا يخوفه بها فوعده بتأويلها عند وصول الطعام إليه ، فلما ألحَّ عليه عبرها ، قاله ابن جريج . وكذلك روى ابن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من رأى رؤيا فلا يقصها إلا على حبيب أو لبيب " .

﴿ ذلكما مما علمنى ربي ﴾ يعني تأويل الرؤيا .

﴿ إني تركت ملة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ . وإنما عدل عن تأويل ما سألاه عنه لما كان فيها من الكرامة ، وأخبر بترك ملة قوم لا يؤمنون تنبيهاً لهم على ثبوته وحثاً لهم على طاعة الله .

قوله عز وجل : ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ قال ابن عباس : من فضل الله علينا أن جعلنا أنبياء ، وعلى الناس أن بعثنا إليهم رسلاً .

ويحتمل وجهاً آخر ذلك من فضل الله علينا في أن برأنا من الزنى ، وعلى الناس من أن خلصهم من مأثم القذف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ الْآيَةَ

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَدَلَ عَنْ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا إلَى الْإِخْبَارِ بِهَذَا لَمَّا رَأَى عَلَى أَحَدِهِمَا فِيهِ مِنْ الْمَكْرُوهِ ، فَلَمْ يَدَعْهُ حَتَّى أَخْبَرَهُمَا بِهِ " .

وَقِيلَ : " إنَّمَا قَدَّمَ هَذَا لِيَعْلَمَا مَا خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ النُّبُوَّةِ وَلِيُقْبِلَا إلَى طَاعَةِ اللَّهِ " وَقَدْ كَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا بَيْنَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ زَمَانًا فَلَمْ يَحْكِ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ ذَكَرَ لَهُمْ شَيْئًا مِنْ الدُّعَاءِ إلَى اللَّهِ وَكَانُوا قَوْمًا يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَطْمَعْ مِنْهُمْ فِي الِاسْتِمَاعِ ، وَالْقَبُولِ ، فَلَمَّا رَآهُمْ مُقْبِلِينَ إلَيْهِ عَارِفِينَ بِإِحْسَانِهِ أَمَلَ مِنْهُمْ الْقَبُولَ وَالِاسْتِمَاعَ فَقَالَ : ﴿ يَا صَاحِبَيْ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الْآيَةَ وَهُوَ مِنْ قَوْله تَعَالَى ﴿ اُدْعُ إلَى سَبِيلِ رَبِّك بِالْحِكْمَةِ ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ وَتَرَقَّبْ وَقْتَ الِاسْتِمَاعِ ، وَالْقَبُولِ مِنْ الدُّعَاءِ إلَى سَبِيلِ اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ ، وَإِنَّمَا حَكَى اللَّهُ ذَلِكَ لَنَا لِنَقْتَدِيَ بِهِ فِيهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

روي عن السدي وابن إسحاق : أن يوسف عليه السلام لما علم شدة تعبير منامه رأى الخبز وأنها تؤذن بقتله ، ذهب إلى غير ذلك من الحديث ، عسى ألا يطالباه بالتعبير ، فقال لهما - معلماً بعظيم علمه للتعبير- : إنه لا يجيئكما طعام في نومكما ، تريان أنكما رزقتماه إلا أعلمتكما بتأويل ذلك الطعام ، أي بما يؤول إليه أمره في اليقظة ، قبل أن يظهر ذلك التأويل الذي أعلمكما به . فروي أنهما قالا : ومن أين لك ما تدعيه من العلم وأنت لست بكاهن ولا منجم ؟ فقال لهما : ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ ثم نهض ينحي لهما على الكفر ويحسن لهما الإيمان بالله : فروي أنه قصد في ذلك وجهين : أحدهما : تنسيتهما أمر تعبير ما سألا عنه - إذ في ذلك النذارة بقتل أحدهما - والآخر : الطماعية في إيمانهما . ليأخذ المقتول بحظه من الإيمان وتسلم له آخرته . وقال ابن جريج : أراد يوسف عليه السلام : ﴿ لا يأتيكما طعام ﴾ في اليقظة ﴿ ترزقانه إلا نبأتكما ﴾ منه بعلم وبما يؤول إليه أمركما ﴿ قبل أن يأتيكما ﴾ ذلك المآل .

قال القاضي أبو محمد : فعلى هذا إنما أعلمهم بأن يعلم مغيبات لا تعلق لها برؤيا . وقصد بذلك أحد الوجهين المتقدمين . وهذا على ما روي من أنه نبيء في السجن ، فإخباره كإخبار عيسى عليه السلام ، وقال ابن جريج : كانت عادة ذلك الملك إذا أراد قتل أحد

ممن في سجنه بعث إليه طعاماً يجعله علامة لقتله .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله لا يقتضيه اللفظ ولا ينهض به إسناد .

(135/396)

وقوله : ﴿ تركت ﴾ مع أنه لم يتشبث بها ، جائز صحيح ، وذلك أنه أخبر عن تجنبه من أول بالترك ، وساق لفظة الترك استجلاباً لهما عسى أن يتوكأ الترك الحقيقي الذي هو بعد أخذ في الشيء ، والقوم المتروكة ملتهم : الملك وأتباعه . وكرر قوله : ﴿ هم ﴾ على جهة التأكيد ، وحسن ذلك للفاصلة التي بينهما .

وقوله : ﴿ واتبعت ﴾ الآية ، تمادٍ من يوسف عليه السلام في دعائهما إلى الملة الحنيفية ، وزوال عن مواجهة - مجلث - لما تقتضيه رؤياه .

وقرأ "آبائي" بالإسكان في الياء الأشهب العقيلي وأبو عمرو ، وقرأ الجمهور "آبائيَ" بياء مفتوحة ، قال أبو حاتم : هما حسنتان فاقرأ كيف شئت . وأما طرح الهمزة فلا يجوز ، ولكن تخفيفها جيد ؛ فتصير ياء مكسورة بعد ياء ساكنة أو مفتوحة .

وقوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ملتهم وشرعهم ، وكون ذلك فضلاً عليهم بين ، إذ خصهم الله تعالى بذلك وجعلهم أنبياء . وكونه فضلاً على الناس هو إذ يدعون به إلى الدين

ويساقون إلى النجاة من عذاب الله عز وجل .

وقوله ﴿ من شيء ﴾ هي ﴿ من ﴾ الزائدة المؤكدة التي تكون مع الجحد . وقوله ﴿ لا يشكرون ﴾ يريد الشكر التام الذي فيه الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(136/396)

وقال القرطبى :

"قال" لهما يوسف : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾

يعني لا يجيئكما غداً طعام من منزلكما ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ لتعلما أني أعلم تأويل رؤياكما ، فقالا : افعل ! فقال لهما : يجيئكما كذا وكذا ، فكان على ما قال ؛ وكان هذا من علم الغيب خُصّ به يوسف .

وبيّن أن الله خصّه بهذا العلم لأنه ترك ملّة قوم لا يؤمنون بالله ، يعني دين الملك .

ومعنى الكلام عندي : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله ، فاسمعوا أوّلاً ما يتعلق بالدين لتهتدوا ، ولهذا لم يعبّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام ، فقال : ﴿ ياصاحبي السجن أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار مَا تَعْبُدُونَ ﴾

الآية كلها ، على ما يأتي .

وقيل : علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام ليَسْعَدا به .

وقيل : إن يوسف كره أن يعبر لهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما ، وأخذ في غيره فقال : "لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ" في النوم "إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا" بتفسيره في اليقظة ، قاله السُّدّيّ ، فقالا له : هذا من فعل العَرّافين والكَهَنة ، فقال لهما يوسف عليه السلام : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك مما علّمنيه ربّي ، إني لا أخبركما به تَكهُّناً وتنجيماً ، بل هو بوحي من الله عزّ وجلّ .

وقال ابن جُرَيج : كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معروفاً فأرسل به إليه ، فالمعنى : لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة ، فعلى هذا "تُرْزَقَانِه" أي يجري عليكما من جهة الملك أو غيره .

ويحتمل يرزقكما الله .

قال الحسن : كان يخبرهما بما غاب ، كعيسى عليه السلام .

وقيل : إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام ، وجعل المعجزة التي يستدلان بها إخبارهما بالغيوب .

قوله تعالى : ﴿ واتبعت مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ لأنهم أنبياء على الحق .

﴿ مَا كَانَ ﴾ أي ما ينبغي .

﴿ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ "مِنْ" للتأكيد ، كقولك : ما جاءني من أحد .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا ﴾ إشارة إلى عصمته من الزنى .

﴿ وَعَلَى الناس ﴾ أي على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك .

وقيل : "ذِلكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا" إذ جعلنا أنبياء ، "وَعَلَى النَّاسِ" إذا جعلنا الرسلَ إليهم .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ على نعمة التوحيد والإيمان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(138/396)

وقال الخازن :

﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله ﴾

قيل : أراد به في النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما إلا أخبرتكما خبره في اليقظة ، وقيل : أراد به اليقظة يقول لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه يعني تطعمانه وتأكلانه إلا

نبأتكما بتأويله يعني أخبرتكما بقدره ولونه والوقت الذي يصل إليكما فيه ﴿ قبل أن يأتيكما ﴾ يعني قبل أن يصل إليكما وأي طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم وهذا مثل معجزة عيسى حيث قال وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم فقالا ليوسف هذا من علم العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم ؟ فقال ما أنا بكاهن ولا عراف وإنما ذلك إشارة إلى المعجزة والعلم الذي أخبرهما به ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ يعني أن هذا الذي أخبرتكما به وحي من الله أوحاه إليّ وعلم علمنيه ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ﴾ فإن قلت ظاهر قوله أني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله أنه كان داخلاً في هذه الملة ثم تركها وليس الأمر كذلك لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من حين ولدوا وظهروا إلى الوجود هم على التوحيد فما معنى هذا الترك في قوله تركت .

قلت الجواب من وجهين : الأول : أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء والالتفات إليه بالمرة وليس من شرطه أن يكون قد كان داخلاً فيه ثم تركه ورجع عنه .

والوجه الثاني : وهو الأقرب أن يوسف لما كان عند العزيز وهو كافر وجميع من عنده كذلك وقد كان بينهم وكان يوسف على التوحيد والإيمان الصحيح صح قوله إني تركت ملة قوم لا

يؤمنون بالله ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ فترك ملتهم وأعرض عنهم ولم يوافقهم على ما كانوا عليه وتكرير لفظة هم في قوله وهم بالآخرة هم كافرون للتوكيد لشدة إنكارهم للمعاد وقوله ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ لما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر أنه من أهل بيت النبوة وأن آباءه كلهم كانوا أنبياء وقيل لما كان إبراهيم وإسحاق ويعقوب مشهورين بالنبوة والرسالة ولهم الدرجة العليا في الدنيا عند الخلق والمنزلة الرفيعة في الآخرة أظهر يوسف أنه من أولادهم وأنه من أهل بيت النبوة ليسمعوا قوله ويطيعوا أمره فيما يدعوهم إليه من التوحيد ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ معناه أن الله سبحانه وتعالى لما اختارنا لنبوته واصطفانا لرسالته وعصمنا من الشرك فما كان ينبغي لنا أن نشرك به مع جميع هذه الاختصاصات التي اختصّنا بها .

قال الواحدي : لفظة من في قوله من شيء زائدة مؤكدة كقولك ما جاءني من أحد ، وقال صاحب الكشاف : ما كان لنا ما صح لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله من شيء أي شيء كان من ملك أو جني أو نسي فضلاً أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر ﴿ ذلك من فضل الله ﴾ يعني ذلك التوحيد وعدم الإشراك والعلم الذي رزقنا من فضل الله ﴿ علينا وعلى الناس ﴾ يعني بما نصب لهم من الأدلة الدالة على وحدانيته وبين لهم طريق الهداية إليه فكل ذلك من فضل الله على عباده ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ يعني أن أكثرهم لا

يشكرون الله على هذه النعم التي أنعم بها عليهم لأنهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهما إلى الإسلام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(140/396)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

قال الزمخشري : لما استعداه ووصفاه بالإحسان افترض ذلك، فوصف يوسف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما، ويصفه لهما ويقول : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كما أخبرهما، ويجعل ذلك تخليصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما، ويقبح لهما الشرك بالله، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجبه عليه مما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك.

وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده، وغرضه أن يقتبس منه، وينتفع به في الدين، لم يكن من باب التزكية بتأويله ببيان ماهيته وكيفيته، لأنّ ذلك

يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معاينة انتهى .

وهذا الذي قاله الزمخشري يدل على أن إتيان الطعام يكون في اليقظة ، وهو قول ابن جريج قال : أراد يوسف لا يأتيكما في اليقظة ترزقانه إلا نبأتكما منه بعلم ، وبما يؤول إليه أمركما أن يأتيكما ، فعلى هذا أراد أن يعلمهم أنه يعلم مغيبات لا تتعلق بالرؤيا ، وهذا على ما روي أنه نبىء في السجن .

وقال السدي وابن إسحاق ، لما علم من تعبير منامه رأى الخبز أنها تؤذن بقتله ، أخذ في غير ذلك الحديث تنسية لهما أمر المنام ، وطماعية في أيمانهما ، ليأخذ المقتول بحظه من الإيمان ، وتسلم له آخرته فقال لهما معلناً بعظيم علمه للتعبير : إنه لا يجيئكما طعام في يومكما تريان أنكما رزقتماه ألا أعلمتكما بتأويل ذلك الطعام أي : بما يؤول إليه أمره في اليقظة ، قبل أن يظهر ذلك التأويل الذي أعلمكما به .

فروى أنهما قالا له : ومن أين لك ما تدعيه من العلم وأنت لست بكاهن ولا منجم ؟ فقال لهما : ذلك مما علمني ربي .

والظاهر أن قوله لا يأتيكما إلى آخره ، أنه في اليقظة ، وأن قوله : مما علمني ربي دليل على

أني إذ ذاك كان نبياً يوحى إليه .

والظاهر أن قوله : إني تركت ، استئناف إخبار بما هو عليه ، إذ كانا قد أحباه وكلفا بحبه وبحسن أخلاقه ، ليعلمهما ما هو عليه من مخالفة قومهما فيتبعاه .

وفي الحديث : " لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم " وعبر بتركت مع أنه لم يتشبث بتلك الملة قط ، إجراء للترك مجرى التجنب من أول حالة ، واستجلاباً لهما لأن يتركا تلك الملة التي كانا فيها .

ويجوز أن يكون إني تركت تعليلاً لما قبله أي : علمني ذلك ، وأوحي إلي لأني رفضت ملة أولئك ، واتبعت ملة الأنبياء ، وهي الملة الحنيفية .

وهؤلاء الذين لا يؤمنون هم أهل مصر ، ومن كان الفتيان على دينهم .

ونبه على أصلين عظيمين وهما : الإيمان بالله ، والإيمان بدار الجزاء ، وكررهم على سبيل التوكيد وحسن ذلك الفصل .

وقال الزمخشري : وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة ، وأن غيرهم مؤمنون بها .

ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهاً على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء انتهى .

وليست عندنا هم تدل على الخصوص ، وباقي ألفاظه ألفاظ المعتزلة .

ولما ذكر أنه رفض ملة أولئك ذكر اتباعه ملة آبائه ليريهما أنه من بيت النبوة ، بعد أن عرفهما أنه نبي ، بما ذكر من إخباره بالغيوب لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله .

وقرأ الأشهب العقيلي والكوفيون : آبائي بإسكان الياء ، وهي مروية عن أبي عمرو .

ما كان لنا ما صح ولا استقام لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله من شيء عموم في الملك والجني والإنسيّ ، فكيف بالصنم الذي لا يسمع ولا يبصر ؟ فشيء يراد به المشرك .

ويجوز أن يراد به المصدر أي : من شيء من الإشراك ، فيعم الإشراك ، ويلزم عموم متعلقاته .

ومن زائدة لأنها في حيز النفي ، إذ المعنى : ما نشرك بالله شيئًا ، والإشارة بذلك إلى شركهم وملتهم أي : ذلك الدين والشرع الحنيفي الذي انتفى فيه الإشراك بالله ، ومن فضل الله علينا أي : على الرسل ، إذ خصوا بأن كانوا وسائط بين الله وعباده .

وعلى الناس أي : على المرسل إليهم ، إذ يساقون به إلى النجاة حيث أرشدوهم اليه .

وقوله : لا يشكرون أي : لا يشكرون فضل الله فيشركون ولا ينتبهون .

وقيل : ذلك من فضل الله علينا ، لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدل بها ، وقد

نصب مثل ذلك لسائر الناس من غير تفاوت ، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يشكرون اتباعاً لأهوائهم ، فيبقون كافرين غير شاكرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(143/396)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾

في مقامكما هذا حسب عادتِكما المطردةِ ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم الأحوال أي لا يأتيكما طعامٌ في حال من الأحوال إلا حالَ ما نبأتكما به بأن بينتُ لكما ماهيّتَه وكيفيته وسائرَ أحواله ﴿ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ وإطلاقُ التأويل عليه إما بطريق الاستعارةِ فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعامِ المُبهمِ بمنزلة التأويل بالنظر إلى ما رُئِيَ في المنام وشبيهٌ له ، وإما بطريق المشاكلة حسبما وقع في عبارتهما من قولهما : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ ولا يبعُد أن يراد بالتأويل الشيءُ الآئلُ لا المآلُ فإنه في الأصل جعلُ شيءٍ آئلاً إلى شيء آخرَ فكما يجوز أن يراد به الأولُ فالمعنى إلا نبأتكما بما يؤول إليه من الكلام والخبرِ المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما : اليوم يأتيكما طعامٌ صفتُه كيتَ وكيت فيجدانه كذلك ،

ومرادُه عليه السلام بذلك بيانُ كلِّ ما يُهِمّهما من الأمور المترقَّبة قبل وقوعِها ، وإنما تخصيصُ الطعام بالذكر لكونه عريقاً في ذلك بحسب الحال مع ما فيه من مراعاة حسنِ التخلص إليه مما استعبراه من الرؤيَيَيْن المتعلقتين بالشراب والطعام ، وقد جعل الضميرُ لما قصا من الرؤيين على معنى لا يأتيكما طعامٌ ترزقانِه حسب عادتِكما إلا أخبرتكما بتأويل ما قصصتما عليَّ قبل أن يأتيكما ذلك الطعامُ الموقت مراداً به الإخبارُ بالاستعجال في التنبئة . وأنت خبيرٌ بأن النظم الكريمَ ظاهرٌ في تعدد إتيانِ الطعام والإخبار بالتأويل وتجدُّدِهما وأن المقام مقامُ إظهارِ فضلِه في فنون العلومِ بحيث يدخل في ذلك تأويلُ رؤياهما دخولاً أولياً ، وإنما لم يكتفِ عليه السلام بمجرد تأويلِ رؤياهما مع أن فيه دِلالةً على فضلة لأنهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام في سِمْط المحسنين وأنهما قد علما ذلك حيث قالا : إنا نراك من المحسنين توسّم عليه السلام فيهما خيراً وتوجّهاً إلى قَبول الحق فأريد أن

يخرُجَ آثرَ ذي أثيرٍ عما في عُهدته من دعوة الخلقِ إلى الحق فمهّد قبل الخوضِ في ذلك مقدمةً تزيدهما علماً بعظم شأنِه وثقةً بأمره ووقوفاً على طبقته في بدائع العلومِ توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه ، وقد تخلّص إليها من كلامهما فكأنه قال : تأويلُ ما قصصتماه عليّ في

طرف التمام حيث رأيتما مثاله في المنام وإني أبيّن لكما كلَّ جليل ودقيق من الأمور المستقبلة وإن لم يكن هناك مقدمة إلمامٍ حتى إن الطعام الموظفَ الذي يأتيكما كلَّ يوم أبيّنه قبل إتيانه ، ثم أخبرهما بأن عمله ذلك ليس من قبيل علوم الكهنةِ والعرّافين ، بل هو فضلٌ إلهيٌّ يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال :

﴿ ذلكما ﴾ أي ذلك التأويلُ والإخبارُ بالمغيّبات ومعنى البُعد في ذلك للإشارة إلى علو درجتِه وبُعد منزلتِه ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ﴾ بالوحي والإلهامِ أي بعضٌ منه أو من ذلك الجنسِ الذي لا يحوم حول إدراكِه العقولُ ، ولقد دلهما بذلك على أن له علوماً جمّةً ، ما سمعاه قطعةٌ من جملتها وشُعبةٌ من دوحتها ، ثم بين أن نيل تلك الكرامةِ بسبب اتباعِه ملةَ آبائِه الأنبياءِ العظامِ وامتناعِه عن الشرك فقال : ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وهو استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال نشأ من قوله : ذلكما مما علمني ربي وتعليلاً له لا للتعليم الواقع صلةً للموصول لتأديته إلى معنى أنه مما علمني ربي لهذا السبب دون غيرِه ، ولا لمضمون الجملةِ الخبرية لأن ما ذُكر بصدد التعليلِ ليس بعلةٍ لكون التأويلِ المذكورِ بعضاً مما علمه ربُّه أو لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ما علمه فكأنه قيل : لماذا علمك ربُّك تلك العلومَ البديعة ؟ فقيل : لأني تركت ملة الكفرةِ أي دينَهم الذي اجتمعوا عليه من الشرك وعبادةِ الأوثان ، والمراد بتركها الامتناعُ عنها رأساً كما يفصح عنه قوله :

﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ لا تركُها بعد ملابستها ، وإنما عبّر عنه بذلك لكونه أدخلَ بحسب الظاهرِ في اقتدائهما به عليه السلام ، والتعبيرُ عن كفرهم بالله تعالى بسلب الإيمان به للتنصيص على أن عبادتَهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليست بإيمان به تعالى كما هو زعمُهم الباطلُ على ما مر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ ﴿ وَهُم بالآخرة ﴾ وما فيها من الجزاء ﴿ هُمْ كافرون ﴾ على الخصوص دون غيرِهم لإفراطهم في الكفر .

﴿ واتبعت مِلَّةَ ءابَاءيَ إبراهيم وإسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾

(146/396)

يعني أنه إنما حاز هذه الكمالاتِ وفاز بتلك الكراماتِ بسبب أنه اتبع ملةَ آبائه الكرامِ ولم يتبع ملةَ قومٍ كفروا بالمبدأ والمعاد وإنما قاله عليه السلام ترغيباً لصاحبيه في الإيمان والتوحيدِ وتنفيراً لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال ، وقُدّم ذكرُ تركه لملّتهم على ذكر اتباعِه لملة آبائِه لأن التخليةَ متقدمةٌ على التحلية ﴿ مَا كَانَ ﴾ أي ما صح وما استقام فضلاً عن الوقوع ﴿ لَنَا ﴾ معاشرَ الأنبياءِ لقوة نفوسِنا ونور علومِنا ﴿ أَن نُّشْرِكَ بالله مِن

شَىْء ﴾ أيّ شيءٍ كان من ملك أو جنّي أو إنسي فضلاً عن الجماد البحت ﴿ ذلك ﴾ أي التوحيدُ المدلولُ عليه بقوله : ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴿ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا ﴾ أي ناشىءٌ من تأييده لنا بالنبوة وترشيحِه إيانا لقيادة الأمةِ وهدايتِهم إلى الحق وذلك مع كونه من التوحيد ودواعيه نعمةٌ جليلةٌ وفضلٌ عظيمٌ علينا بالذات ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ كافةً بواسطتنا وحيث عبّر عن ذلك بذلك العنوان عبّر عن التوحيد الذي يوجبه بالشكر فقيل : ﴿ ولكن أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ أي لا يوحّدون فإن التوحيدَ مع كونه من آثار ما ذُكر من التأييد شكرٌ لله عز وجل على تلك النعمةِ وإنما وُضع الظاهرُ موضعَ الضمير الراجعِ إلى الناس لزيادة توضيحٍ وبيانٍ ولقطع توهمِ رجوعِه إلى المجموع المُوهمِ لعدم اختصاصِ غير الشاكرِ بالناس ، وقيل : ذلك التوحيدُ من فضل الله علينا حيث نصَب لنا أدلةً ننظر فيها ونستدلّ بها على الحق . وقد نصَب مثلَ تلك الأدلةِ لسائر الناس أيضاً ولكن أكثرَهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتّباعاً لأهوائهم فيبقَوْن كافرين غيرَ شاكرين ولك أن تقول : ذلك التوحيدُ من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولاً ومشاعرَ نستعملها في دلائلِ التوحيد التي مهدها في الأنفس والآفاقِ وقد أعطى سائرَ الناس أيضاً مثلها ولكن أكثرَهم لا يشكرون أي لا يصرِفون تلك القُوى والمشاعرَ إلى ما

خُلقت هي له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيدِ الآفاقيةِ والأنُفسية والعقليةِ والنقلية. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(148/396)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانه ﴾

في الحبس حسب عادتكما المطردة ﴿ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بتَأْويله ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا يأتيكما طعام في حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما به بأن بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله ﴿ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ ، وحاصله لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما قبل إتيانه إياكما بأنه يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت.

وإطلاق التأويل على ذلك - مع أن حقيقته في المشهور تفسير الألفاظ المراد منها خلاف الظاهر ببيان المراد بطريق الاستعارة فإن ذلك يشبه تفسير المشكل، أو أنه بالنسبة إلى الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالتأويل بالنسبة إلى ما رؤي في المنام وشبيه له.

ويحسن هذه الاستعارة ما في ذلك من المشاكلة لما وقع في عبارتهما من قولهما : ﴿ نبئنا

بتأويله ﴾ [يوسف : 36] وكون المراد بالتأويل الأمر الآيل لا المآل بناءاً على أنه في الأصل جعل شيء آيلاً إلى شيء آخر وكما يجوز أن يراد به الثاني يجوز أن يراد به الأول ، ويكون المعنى إلا نبأتكما بما يؤول إليه من الكلام والخبرِ المطابق للواقع ، في غاية البعد بل لا يكاد يلتفت إليه كما لا يخفى على المنصف .

وكأنه عليه السلام أراد أن يعرض عليهما التوحيد ويزينه لهما ويقبح لهما الشرك بالله تعالى قبل أن يجيبهما عما سألاه من تعبير رؤياهما ثم يجيبهما عن ذلك .

(149/396)

وهذه طريقة على كل ذي عقل أن يسلكها مع الجهلة والفسقة إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الإرشاد والنصيحة أولاً ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه ، ولعل ذلك كان مفترضاً عليه عليه السلام فوصف نفسه أولاً بما هو فوق علم العلماء وهو الإخبار بالمغيبات وجعله تخلصاً لما أراد كالتخلصات المعروفة عندهم فإن الإخبار بالغيب يناسب ما سألاه من تأويل رؤياهما وأن من كان هكذا لا محالة يكون بغيره صادقاً ، ويقوي أمر المناسبة تخصيص الطعام بالذكر من بين سائر المغيبات كما لا يخفى ، ويناسب ما أراده من الدعوة إلى التوحيد لأنه ثبت صدقه ونبوته وكونه من المرتضين عند الله تعالى

الصادقين في أقوالهم وأفعالهم ، وفي حكاية الله تعالى ذلك إرشاد لمن كان له قلب ، وقد أدمج فيه أن وصف العالم نفسه لينتفع به لا يحرم ولا يعد ذلك من التزكية المحظورة .

وإلى ما ذكرنا من حمل الإتيان على الإتيان في اليقظة ذهب غير واحد من الأجلة وروي عن ابن جريج ، وحمله بعضهم على الإتيان مناماً .

قال السدي وابن إسحاق : إنه عليه السلام لما علم من رؤية الخباز أنه يقتل أخذ في حديث آخر تنسية لهما أمر المنام وطماعية في إيمانهما ليأخذ المقتول بحظه من الإيمان وتسلم له آخرته فقال بعظيم علمه بالتعبير : إنه لا يجيئكما طعام في نومكما تريان أنكما ترزقانه إلا أعلمتكما بما يؤول إليه أمره في اليقظة قبل أن يظهر ذلك .

ولا يخفى أن حديث الطماعية المذكورة مما لا بأس إلا أن حديث التنسية لا يخلو عن منع .

وجاء في رواية أخرى عن ابن جريج أخرجها ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عنه ما يقرب من هذا الحديث من وجه فإنه قال : إنه عليه السلام كره العبارة لهما فأجابهما بأن له علماً بما يأتيهما من الطعام ولم يصرح بما تدل عليه رؤياهما شفقة على الهالك منهما ، وكان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معلوماً فأرسل به إليه فلما لم يكتفيا بذلك وطلبا منه

التعبير أيضاً دعاهما إلى التوحيد كراهة للعبارة أيضاً ، فلما لم يكتفيا عبر لهما وأوضح ما تدل عليه رؤياهما وهو كما ترى .

وأياً مّا كان فالضمير في (تأويله) يعود على الطعام ، وجوز عوده على ما قصاه عليه من الرؤيتين على معنى لا يأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما إلا أخبرتكما بتأويل ما قصصتما عليَّ قبل أن يأتيكما ذلك الطعام الموقت ، والمراد الإخبار بالاستعجال بالتنبئة وفيه أنه خلاف الظاهر مع أن الإخبار بالاستعجال مما ليس فيه كثير مناسبة لما هو بصدده .

وقد يقال : يجوز عود الضمير إلى ما قصاه ويكون المراد من الطعام المرزوق ما رأياه في النوم ، ولا يخفى ما فيه أيضاً لكن التأويل على هذين الوجهين لا يحتاج إلى التأويل بل يراد منه ما أريد من تأويله في كلامهما ، وكذا الضمير المستتر في ﴿ يأتيكما ﴾ يعود على الطعام وعوده على التأويل وإن كان أقرب بعيد .

ثم إنه عليه السلام أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من علوم الكهنة والمنجمين بل هو فضل إلهي يؤتيه من يشاء فقال : ﴿ ذَلِكُمَا ﴾ ويروى أنهما قالا له : من أين لك ما تدعيه من العلم

وأنك لست بكاهن ولا منجم ؟ ! وقيل : قالا إن هذا كهانة أو تنجيم فقال : أي ذلك

التأويل والكشف عن المغيبات ، ومعنى البعد في (ذلك) للإشارة إلى بعد منزلته وعلو

درجته ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ بالوحي أو بنحو ذلك مما يحصل به العلم كما يكون للأولياء

أهل الكشف رضي الله تعالى عنهم ، واقتصر بعضهم على الأول وادعى أن الآية دليل على

أنه عليه السلام كان إذ ذاك نبياً ، وأياً مّا كان فالمراد أن ذلك بعض مما علمنيه الله تعالى أو

من ذلك الجنس الذي لا يناله إلا الأصفياء ، ولقد

دلهما بذلك على أن له علوماً جمة ما سمعاه قطرة من تيارها وزهرة من أزهارها .

وقوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ مما

تقدم وتعليلاً له كأنه قيل : لماذا علمك ربك تلك العلوم الجليلة الشأن ؟ فقال : لأني تركت

دين الكفر الذي اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الأوثان .

وقيل : تعليل للتعليم الواقع صلة وهو يؤدي إلى معنى أنه مما علمني ربي لهذا السبب دون

غيره وليس بمراد .

وقيل : لمضمون الجملة الخبرية .

وفيه أن ما ذكر ليس بعلة لكون التأويل المذكور بعضاً مما علمه ربه أو لكونه من جنسه بل

لنفس التعليم .

والمراد بالترك الامتناع فإنه لم يتلوث بتلك قط كما يفصح عنه ما يأتي من كلامه عليه السلام

قريباً إن شاء الله تعالى لكن عبر به عن ذلك استجلاباً لهما لأن يتركا تلك الملة التي هم عليها على أحسن وجه .

والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الإيمان به سبحانه للتنصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليست بإيمان به تعالى كما يزعمونه .

(152/396)

وأراد بأولئك القوم المتصفين بعنوان الصلة حيث كانوا ، وقيل : أهل مصر فإنهم كانوا عبدة إذ ذاك ﴿ وَهُم بالآخرة ﴾ وما فيها من الجزاء ﴿ هُمْ كافرون ﴾ أي على الخصوص دون غيرهم من الكنعانيين الذين هم على ملة إبراهيم عليه السلام على ما يفيده توسيط ضمير الفصل هنا عند البعض ، وذكر أن تقديم الضمير للتخصيص وتكريره للتأكيد ، ولعله إنما أكد إنكارهم للمعاد لأنه كان أشد من إنكارهم للمبدأ فتأمل .

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

داخل في حيز التعليل كأنه قال : إنما فزت بما فزت بسبب أني لم أتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد واتبعت ملة آبائي الكرام المؤمنين بذلك ، وإنما قاله عليه السلاة ترغيباً لصاحبيه في الإيمان والتوحيد وتنفيراً لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال ، وقدم ذكر تركه لملتهم

على ذكر اتباعه لملة آبائه عليهم السلام لأن التخلية مقدمة على التحلية .

وجوز بعضهم أن لا يكون هناك تعليل وإنما الجملة الأولى مستأنفة ذكرت تمهيداً للدعوة والثانية إظهاراً لأنه من بيت النبوة لتقوى الرغبة فيه ، وفي كلام أبي حيان ما يقتضي أنه الظاهر وليس بذاك .

وقرأ الأشهب العقيلي والكوفيون ﴿ آبائي ﴾ بإسكان الياء وهي مروية عن أبي عمرو ﴿ مَا كَانَ ﴾ ما صح وما استقام فضلاً عن الوقوع ﴿ لَنَا ﴾ معاشر الأنبياء لقوة نفوسنا ، وقيل : أي أهل هذا البيت لوفور عناية الله تعالى بنا ﴿ أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ من شَيْءٍ ﴾ أي شيئاً أي شيء كان من ملك أو جني أو إنسي فضلاً عن الصنم الذي لا يسمع ولا يبصر - فمن - زائدة في المفعول به لتأكيد العموم ، ويجوز أن يكون المعنى شيئاً من الإشراك قليلاً كان أو كثيراً فيراد من ﴿ شيء ﴾ المصدر وأمر العموم بحاله ، ويلزم من عموم ذلك عموم المتعلقات .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي التوحيد المدلول عليه بنفي صحة الشرك ﴿ من فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا ﴾ أي ناشئ من تأييده لنا بالنبوة والوحي بأقسامه ، والمراد أنه فضل علينا بالذات ﴿ وَعَلَى

النّاس ﴾ بواسطتنا ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ أي لا يوحدون ، وحيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذي يوجبه بالشكر لأنه مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر لله عز وجل .

ووضع الظاهر موضع الضمير الراجع إلى الناس لزيادة التوضيح والبيان ولقطع توهم رجوعه إلى مجموع الناس وما كنى عنه – بنا – الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس ، وفيه من الفساد ما فيه .

وجوز أن يكون المعنى ذلك التوحيد ناشئ من فضل الله تعالى علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق ، وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس أيضاً من غير تفاوت ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتباعاً لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين ، والفضل على هذا عقلي وعلى الأول سمعي .

وجوز المولى أبو السعود أن يقال : المعنى ذلك التوحيد من فضل الله تعالى علينا حيث أعطانا عقولاً ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد التي مهدها في الأنفس والآفاق ، وقد أعطى سائر الناس أيضاً مثلها ولكن أكثرهم لا يشكرون أي لا يصرفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خلقت هي له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والأنفسية والعقلية والنقلية انتهى .

ولك أن تقول : يجوز أن تكون الإشارة إلى ما اشير إليه ب ﴿ ذلكما ﴾ [يوسف : 37]
ويراد منه ما يفهم مما قبل من علمه بتأويل الرؤيا .

(154/396)

و ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من فضل الله ﴾ تبعيضية ، ويكون قد أخبر عنه أولاً بأنه مما علمه إياه ربه وثانياً بأنه بعض فضل الله تعالى عليه وعلى آبائه بالذات وعلى الناس بواسطتهم لأنهم يعبرون لهم رؤياهم فيكشفون لهم ما أبهم عليهم ويزيلون عنهم ما أشغل أذهانهم مع ما في ذلك من النفع الذي لا ينكره إلا نائم أو متناوم ، ومن وقف على ما ترتب على تعبير رؤيا الملك من النفع الخاص والعلم لم يشك في أن علم التعبير من فضل الله تعالى على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون فضل الله تعالى مطلقاً أو فضله عليهم بوجود من يرجعون إليه في تعبير رؤياهم ، ويكون ذلك نظير قولك لمن سألك عن زيد : ذلك أخي ذلك حبيبي ، لكنه وسط ههنا ما وسط وتفنن في التعبير فأتى باسم الإشارة أولاً مقروناً بخطابهما ولم يأت به ثانياً كذلك وأتى بالرب مضافاً إلى ضميره أولاً وبالاسم الجليل ثانياً ، ويجوز أن يكون المشار إليه في الموضعين الإخبار بالمغيبات مطلقاً ، والكلام في سائر الآية عليه لا أظنه مشكلاً ، وعلى الوجهين لا ينافي تعليل نيل تلك الكرامة - بتركه ملة الكفرة واتباعه ملة آبائه الكرام -

الإخبار بأن ذلك من فضل الله تعالى عليه وعلى من معه كما لا يخفى ، نعم إن حمل الإشارة على ما ذكر وتوجيه الآية عليه بما وجهت لا يخلو عن بعد .

ومن الناس من جعل الإشارة إلى النبوة وفيه ما فيه أيضاً .

(155/396)

هذا أوجب الإمام كون المراد في قوله : ﴿ لا يشكرون ﴾ لا يشكرون الله تعالى على نعمة الإيمان ، ثم قال : وحكي أن واحداً من أهل السنة دخل على بشر بن المعتمر فقال : هل تشكر الله تعالى على الإيمان أم لا ؟ فإن قلت : لا فقد خالفت الإجماع ، وإن شكرته فكيف تشكره على ما ليس فعلاً له ؟ ! فقال بشر : إنا نشكره على أن أعطانا القدرة والعقل والآلة ، وأما أن نشكره على الإيمان مع أنه ليس فعلاً له فذلك باطل ، وصعب الكلام على بشر فدخل عليهم ثمامة بن الأشرس ، فقال : إنا لا نشكر الله تعالى على الإيمان بل الله تعالى يشكره علينا كما قال سبحانه : ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ [الإسراء : 19] فقال بشر : لما صعب الكلام سهل ، وتعقب ذلك عليه الرحمة بأن الذي التزمه ثمامة باطل (وهو على طرف الثمام) بنص هذه الآية لأنه سبحانه بين فيها أن عدم الإشراك من فضل الله تعالى ، ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون هذه النعمة ، وقد ذكر

سبحانه ذلك على سبيل الذم فدل على أنه يجب على [كل] مؤمن أن يشكر الله تعالى على الإيمان لئلا يدخل في الذم وحينئذ تقوى الحجة وتكمل الدلالة اه .

ولعل الوجه في الآية ما تقدم فليفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

أي : قبل أن يصلكما . والمراد بالطعام : ما يبعث إلى أهل السجن . وتأويله ذكر ما هو ، بأن يقول : يأتيكما طعام كيت وكيت ، فيجدانه كذلك . وحقيقة (التأويل) : تفسير الألفاظ المراد منها خلاف ظاهرها ببيان المراد .

قال أبو السعود : فإطلاقه على تعيين ما سيأتي من الطعام ، إما بطريق الاستعارة . فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل ، بالنظر إلى ما رُئي في المنام ، وشبيه له . وإما بطريق المشاكلة ، حسبما وقع في عبارتهما من قولهما : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ . ومراده عليه السلام بذلك : بيان كل ما يهمهما من الأمور المترقبة قبل وقوعها . وإنما تخصيص الطعام بالذكر ؛ لكونه عريقاً في ذلك ، بحسب الحال ، مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص

إليه مما استعبراه من الرؤيتين المتعلقتين بالشراب والطعام .

﴿ ذَلِكُمَا ﴾ أي : ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات : ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ أي : بالوحي والإلهام ، لا من التكهن والتنجيم . وفيه إشعار بأن له علوماً جمة ، ما سمعاه شذرة من جواهرها . وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

هذه الجملة إما مسوقة لبيان علة تعليم الله له بالوحي والإلهام ، أي : خصني بذلك لترك الكفر ، وسلوك طريق آبائي المرسلين ، أو كلام مستأنف ، ذكر تمهيداً للدعوة ، وإظهار أنه من بيت النبوة ، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه ، والوثوق به ، والمراد بتركه ملة الكفر : الامتناع عنها رأساً ، كما يفصح عنه قوله : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : ما صح ولا استقام ذلك لنا ، فضلاً عن الوقوع . وإنما عبر عنه بذلك ؛ لكونه أدخل بحساب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام ، والتخصيص بهم مع أن الشرك لا يصح من

غيرهم أيضاً ؛ لأنه يثبت بالطريق الأولى . أو المراد : نفي الوقوع منهم لعصمتهم . وتكرير (هم) للدلالة على اختصاصهم ، وتأكيد كفرهم بالآخرة ، وزيادة (من) في المفعول أعني : ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ ؛ لتأكيد العموم ، أي : لا نشرك به شيئاً من الأشياء ، قليلاً أو حقيرا ، صنماً أو ملكاً أو جنياً أو غير ذلك .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ يعني عدم الإشراك بالله ، وهو التوحيد ، من نعم الله العامة ، التي يجب شكره تعالى على الهداية لها بالفطر السليمة ، ونصب الدلائل الأنفسية والآفاقية .

ثم بين أن أكثر الناس نبذوا هذه النعمة بعد ما حق عليهم شكرها . انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 180 . 181 ﴾

(158/396)

وقال ابن عاشور :

جملة ﴿ قال لا يأتيكما ﴾

جواب عن كلامهما ففصلت على أسلوب حكاية جمل التحاور .

أراد بهذا الجواب أن يفترص إقبالَهما عليه وملازمة الحديث معه إذ هما يترقبان تعبيره الرؤيا

فيدمج في ذلك دعوتهما إلى الإيمان الصحيح مع الوعد بأنّه يعبّر لهما رؤياهما غير بعيد ، وجعل لذلك وقتاً معلوماً لهم ، وهو وقت إحضار طعام المساجين إذ ليس لهم في السجن حوادث يوقتون بها ، ولأن انطباق الأبواب وإحاطة الجدران يحول بينهم وبين رؤية الشمس ، فليس لهم إلا حوادث أحوالهم من طعام أو نوم أو هبوب منه .

ويظهر أن أمد إتيان الطعام حينئذٍ لم يكن بعيداً كما دل عليه قوله : ﴿ قبل أن يأتيكما ﴾ من تعجيله لهما تأويل رؤياهما وأنه لا يتريث في ذلك .

ووصف الطعام بجملة ﴿ ترزقانه ﴾ تصريح بالضبط بأنه طعام معلوم الوقت لا ترقب طعام يهدى لهما بحيث لا ينضبط حصوله .

وحقيقة الرزق : مَا به النفع ، ويطلق على الطعام كقوله : ﴿ وجَد عندها رزقا ﴾ [سورة آل عمران : 37] أي طعاماً ، وقوله في سورة الأعراف (50) ﴿ أو ممّا رزقكم الله ﴾ وقوله : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ [سورة مريم : 62] .

ويطلق على الإنفاق المتعارف كقوله : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ [سورة النساء : 5] .

ومن هنا يطلق على العطاء الموقت ، يقال : كان بنو فلان من مرتزقة الجند ، ورزق الجند كذا كل يوم .

وضمير بتأويله ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ بتأويله ﴾ [سورة يوسف : 36]

الأول، وهو المرئي أو المنام.

ولا ينبغي أن يعود إلى طعام إذ لا يحسن إطلاق التأويل عن الأنباء بأسماء أصناف الطعام خلافاً لما سلكه جمهور المفسرين.

والاستثناء في قوله: إلاّ نبّأتكما بتأويله ﴾ استثناء من أحوال متعددة تناسب الغرض، وهي حال الإنباء بتأويل الرؤيا وحال عدمه، أي لا يأتي الطعام المعتاد إلا في حال أني قد نبأتكما بتأويل رؤياكما، أي لا في حال عدمه.

فالقصر المستفاد من الاستثناء إضافي.

وجردت جملة الحال من الواو (وقد) مع أنها مَاضية اكتفاء بربط الاستثناء كقوله تعالى: ﴿ ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾ [سورة التوبة: 121].

وجملة ذلكما مما علمني ربي ﴾ استئناف بياني، لأنّ وعده بتأويل الرؤيا في وقت قريب يثير عجب السائلين عن قوة علمه وعن الطريقة التي حصل بها هذا العلم، فيجيب بأن ذلك مما علمه الله تخلصاً إلى دعوتهما للإيمان بإلهٍ واحد.

وكان القبط مشركين يدينون بتعدد الآلهة.

وقوله : ﴿ ممّا علمني ربي ﴾ إيذان بأنّه علّمه علوماً أخرى ، وهي علوم الشريعة والحكمة والاقتصاد والأمانة كما قال : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [سورة يوسف : 55] .

وزاد في الاستيناف البياني جملة إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ﴾ لأن الإخبار بأن الله علّمه التّأويل وعلوماً أخرى مما يثير السؤال عن وسيلة حصول هذا العلم ، فأخبر بأن سبب عناية الله به أنّه انفرد في ذلك المكان بتوحيد الله وترك ملة أهل المدينة ، فأراد الله اختياره لديهم ، ويجوز كون الجملة تعليلاً .

والملة : الدين ، تقدم في قوله : ﴿ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ في سورة الأنعام (161) .

وأراد بالقوم الذين لا يؤمنون بالله ما يشمل الكنعانيين الذين نشأ فيهم والقبط الذين شبّ بينهم ، كما يدلّ عليه قوله : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها ﴾ [سورة يوسف : 39] ، أو أراد الكنعانيين خاصة ، وهم الذين نشأ فيهم تعريضاً بالقبط الذين ماثلوهم في الإشراك .

وأراد بهذا أن لا يواجههم بالتشنيع استنزالاً لطائر نفورهم من موعظته .

وزيادة ضمير الفصل في قوله : هم كافرون ﴾ أراد به تخصيص قوم منهم بذلك وهم الكنعانيون ، لأنهم كانوا ينكرون البعث مثل كفار العرب .

وأراد بذلك إخراج القبط لأن القبط وإن كانوا مشركين فقد كانوا يثبتون بعث الأرواح والجزاء .

والترك : عدم الأخذ للشيء مع إمكانه .

(160/396)

أشار به إلى أنه لم يتبع ملة القبط مع حلوله بينهم ، وكون مولاه متديناً بها .

وذكر آباءه تعليماً بفضلهم ، وإظهاراً لسابقية الصلاح فيه ، وأنه متسلسل من آبائه ، وقد عقله من أول نشأته ثم تأيد بما علّمه ربّه فحصل له بذلك الشرف العظامي والشرف العصامي .

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن أكرم الناس : "يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبيء ابن نبيء ابن نبيء ابن نبيء" .

ومثل هذه السلسلة في النبوءة لم يجتمع لأحد غير يوسف عليه السّلام إذا كان المراد بالنبوءة أكملها وهو الرسالة ، أو إذا كان إخوة يوسف عليه السّلام غير أنبياء على رأي فريق من العلماء .

وأراد باتّباع ملّة آبائه اتباعَها في أصولها قبل أن يعطى النبوءة إذا كان فيما أوحي إليه زيادة

على ما أوحي به إلى آبائه من تعبير الرؤيا والاقتصاد ؛ أو أن نبوءته كانت بوحي مثل ما أوحي به إلى آبائه ، كقوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً إلى قوله أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه ﴾ [سورة الشورى : 13] .

وذكر السلف الصالح في الحقّ يزيد دليل الحقّ تمكّناً ، وذكر ضدهم في الباطل لقصد عدم الحجة بهم بمجردهم .

كما في قوله الآتي : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ﴾ [سورة يوسف : 40] .

وجملة ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ في قوة البيان لما اقتضته جملة ﴿ واتّبعتُ ملة آبائي ﴾ من كون التوْحيد صار كالسجية لهم عرف بها أسلافه بين الأمم ، وعرّفهم بها لنفسه في هذه الفرصة .

ولا يخفى ما تقتضيه صيغة الجحود من مبالغة انتفاء الوصف على الموصوف ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب ﴾ في سورة آل عمران (79) ، وعند قوله تعالى : ﴿ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقٍ ﴾ في آخر سورة العقود (116) .

و﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ مِن شيء ﴾ مزيدة لتأكيد النفي .

وأدخلت على المقصود بالنفي .

(161/396)

وجملة ﴿ ذلك من فضل الله علينا ﴾ زيادة في الاستئناف والبيان لقصد الترغيب في اتباع دين التوحيد بأنه فضل.

وقوله: ﴿ وعلى الناس ﴾ أي الذين يتبعونهم، وهو المقصود من الترغيب بالجملة.

وأَتى بالاستدراك بقوله: ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ للتصريح بأن حال المخاطبين في إشراكهم حال من يكفر نعمة الله، لأن إرسال الهداة نعمة ينبغي أن ينظر الناس فيها فيعلموا أن ما يدعونَهم إليه خير وإنقاذ لهم من الانحطاط في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولأن الإعراض عن النظر في أدلة صدق الرسل كفر بنعمة العقل والنظر. انتهى

انتهى. ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(162/396)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

وبذلك أوضح لهما أنهما لا يريان منه إلا الظاهر من السلوك ، ولكن هناك أمور مخفية ، وكأنه يُنمي فيهما شعورهما بمنزلته وبإحسانه وبقدرته على أن يخبرهما بأوصاف ونوع أيِّ طعام يُرزقَانِه قبل أن يأتي هذا الطعام .

وهذه ليست خصوصية في يوسف أو من عِنْدياته ، ولكنها من علم تلقَّاه عن الله ، وهو أمر يُعلِّمه الله لعباده المحسنين ؛ فيكشف الله لهم بعضاً من الأسرار .

وهما السجينان يستطيعان أن يكونا مثله إنْ أحسنا الإيمان بالله . ولذلك يتابع الحق سبحانه :

﴿ ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [يوسف : 37] .

وكأنه بذلك يهديهما إلى الطريق الذي يجعلهما من المحسنين الذين يعطيهم الله بعضاً من هِبَات الخير ، فيعلمون أشياء تَخْفى على غيرهم .

وهذا يدلُّنا على أن المؤمن إذا رأى في إنسان ما مَخِيلَة خير فَلْينمي هذه المخيلة فيه ليصل إلى خير أكبر ؛ وبذلك لا يحتجز الخصوصية لنفسه حتى لا يقطع الأسوة الحسنة ؛ ولكي يُطمِع العباد في تجليات الله عليهم وإشراقاته .

ولذلك أوضح يوسف عليه السلام للسجينين أنه ترك مِلَّة قوم لا يؤمنون بالله بما يليق الإيمان به سبحانه ، ولا يؤمنون بالبعث والحساب ثواباً بالجنة ، أو عقاباً في النار .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام : ﴿ واتبعت مِلَّةَ . . . ﴾

.

وبذلك أوضح يوسف عليه السلام أنه ترك مِلَّة القوم الذين لا يعبدون الله حَقَّ عبادته ، ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب ، وهم مَنْ أرسلهم الله لهداية الخلق إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالآخرة ثواباً بالجنة وعذاباً بالنار .

(163/396)

وذلك من فضل الله بإنزاله المنهج الهادي ، وفضله سبحانه قد شمل آباء يوسف بشرف التبليغ عنه سبحانه ؛ ولذلك ما كان لِمَنْ يعرف ذلك أنْ يشرك بالله ، فالشرك بالله يعني اللجوء إلى آلهة متعددة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : 91] .

فلو أن هناك آلهة غير الله سبحانه لصنع كُلُّ إله شيئاً لا يقدر على صُنْعه الإله الآخر ؛ ولأصبح الأمر صراعاً بين آلهة متنافرة .

ومن فضل الله هكذا أوضح يوسف عليه السلام أن أنزل منهجه على الأنبياء ؛ ومنهم آباؤه

إبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ لِيُبلغوا منهجه إلى خَلْقه ، وهم لم يحبسوا هذا الفضل القادم من الله ، بل أبلغوه للناس .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : 38] .

وساعة تقرأ أو تسمع كلمة : ﴿ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : 38] اعلم أن الأمر الذي أنت بصدده هو في مقاييس العقل والفطرة السليمة يستحق الشكر ، ولا شُكْر إلا على النعمة .

ولو فَطِنَ الناس لَشكروا الأنبياء والرسل على المنهج الذي بلَّغوه عن الله ؛ لأنه يهديهم إلى حُسْن إدارة الدنيا ، وفوق ذلك يهديهم إلى الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(164/396)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

أخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن جريج رضي الله عنه في

قوله ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ قال : كره العبارة لهما ، فاجابهما بغير جوابهما ليريهما ان عنده علماً ، وكان الملك إذا أراد قتل انسان ، صنع له طعاماً معلوماً فأرسل به إليه .

فقال يوسف عليه السلام ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ إلى قوله ﴿ تشكرون ﴾ فلم يدعه صاحب الرؤيا حتى يعبر لهما فكرة العبارة ، فقال ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب . . . ﴾ إلى قوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ قال : فلم يدعاه فعبر لهما .

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

أخرج الترمذي وحسنه والحاكم وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام " .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم ، عن أبي الأحوص رضي الله عنه قال : فاخر أسماء بن خارجة الفزاري رجلاً فقال : أنا من الأشياخ الكرام ، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله .

وأخرج الحاكم عن عمر رضي الله عنه ؛ أنه استأذن عليه رجل فقال : استأذنوا لابن الأخيار ، فقال عمر : ائذنوا له ، فلما دخل قال : من أنت ؟ قال : فلان ابن فلان ابن فلان ، فعدّ رجالاً من أشراف الجاهلية ، فقال له عمر رضي الله عنه : أنت يوسف بن يعقوب بن

إسحق بن إبراهيم ؟ ! قال : لا . قال : ذاك من الأخيار ، وأنت في الأشرار ، إنما تَعُدّ لي جبال أهل النار .

(165/396)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه كان يجعل الجد أباً ويقول : من شاء لاعناه عند الحجر ما ذكر الله جداً ولا جدة ، قال الله إخباراً عن يوسف عليه السلام ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ذلك من فضل الله علينا ﴾ قال : إن جعلنا أنبياء ﴿ وعلى الناس ﴾ قال : إن جعلنا رسلاً إليهم .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ قال : إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله ، ويشكر ما في الناس من نعمة الله ، ذكر لنا أن أبا الدرداء رضي الله عنه كان يقول : يا ربّ شاكر نعمة غير منعم عليه لا يدري ، ويا ربّ حامل فقه غير فقيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(166/396)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

و" تُرْزَقانه " صفة ل" طعام " . وقوله : إلا نَبَّأْتُكما " استثناءُ مفرَّغ . وفي موضع الجملة بعده وجهان أحدُهما : أنها في محل نصب على الحال ، وساغ ذلك من النكرة لتخصُّصها بالوصف . / والثاني : أن تكونَ في محل رفع نعتاً ثانياً ل" طعام " ، والتقدير : لا يأتيكما طعامٌ مرزوقٌ إلا حال كونه منبِّئاً بتأويله أو مُنَبَّأً بتأويله . و" قبل " الظاهرُ أنها ظرفٌ ل" نَبَّأْتكما " ، ويجوز أن يتعلق ب" تأويله " ، أي : نَبَّأْتكما بتأويله الواقع قبل إتيانِه .

قوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ ﴾ يجوز أن تكونَ هذه مستأنفةً أخبر بذلك عن نفسه . ويجوز أن تكونَ تعليلاً لقوله ﴿ ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي ﴾ ، أي : تَرْكي عبادةَ غيرِ اللَّه سببٌ لتعليمه إياي ذلك ، وعلى الوجهين لا محلَّ لها من الإعراب . و" لا يؤمنون " صفة ل" قوم " . وكرَّر " هم " في قوله ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ﴾ قال الزمخشري : " للدلالةِ على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة ، وأن غيرَهم مؤمنون بها " . قال الشيخ : " وليست " هم " عندنا تدل على الخصوص " . قلت : لم يَقُل الزمخشري إن " هم تدل على الخصوص . وإنما قال " تكرير " هم " للدلالة ، فالتكرير هو الذي أفاد الخصوصَ ، وهو معنىً حَسَنٌ فهمه أهلُ

البيان .

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

وسَكَّن الكوفيون الياء من "آبائي" ، ورُوِيَتْ عن أبي عمروٍ أيضاً . و "إبراهيم" وما بعده بدلٌ أو عطفُ بيان ، أو منصوب على المدح. انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 497.496 ﴾

(167/396)

قوله تعالى ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أقام لهم الدليل على ما هو عليه من الدين الحنيفي تبعاً لخلاصة الخلق ، بما تقرر في الأذهان من أن الله تعالى هو المنعم وحده سبحانه فيجب شكره ، بعد أن قرر لهم أمر نبوته وأقام دليلها بما يخبرهم به من المغيبات ، ودعاهم إلى ما يجب عليهم من التوحيد وهو

الإسلام ، وكان أكثر الخلق إلاّ الفذ النادر يقرون بالإله الحق ، ولكنهم يشركون به بعض خلقه ، أتبعه برهان التمانع على فساد كل ملة غير الإسلام الذي يطابق عليه الأنبياء والرسل كلهم ، تأييداً لأدلة النقل بقاطع العقل ، فقال منادياً لهما باسم الصحبة بالأداة التي تقال عند ما له وقع عظيم في النفوس في المكان الذي تخلص فيه والمودة ، وتمحض فيه النصيحة ، وتصفي فيه القلوب ، ويتعمد الإخلاص رجاء الخلاص - : ﴿ يا صاحبي السجن ﴾ والصحبة : ملازمة اختصاص كأصحاب الشافعي مثلاً ، لملازمة الاختصاص بمذهبه ، وهي خلاف ملازمة الاتصال .

(168/396)

ولما فرغ أفهامهما بالنداء لما يلقيه ، قرع أسماعهما بالإنكار مع التقرير فقال : ﴿ أرباب ﴾ أي آلهة ﴿ متفرقون ﴾ متباينون بالذوات والحقائق تشاهدونهم محتاجين إلى المكان مع كونهم جماداً ، ولو كانوا أحياء لأمكن تمانعهم ، فأدى إلى إمكان عجز كل منهم القاطع بعدم صلاحيته للإلهية ﴿ خير ﴾ أي أعظم في صفة المدح وأولى بالطاعة ﴿ أم الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ الواحد ﴾ بالذات ، فهو لا يحتاج إلى شيء أصلاً ﴿ القهار ﴾ لكل شيء ، لا يزال قهره يتكرر أبداً ، فهذا برهان لا خطأ به كما ظن ، وأبرزه - صلى الله عليه وسلم -

على وجه الاستفهام استجلاباً للسامع برد العلم إليه ، وسماها أرباباً لمثل ذلك بناء على زعمهم ، وكذا المشاركة في أفعل التفضيل ، لأن ذلك أقرب إلى الإنصاف ، لكونه ألين في القول ، فيكون أدعى إلى القبول .

ولما كان الجواب لكل من يعقل : الله خير ، أشار إلى ذلك بجزم القول بعد ذلك الاستفهام في سلب صلاحيتهم قبل هذا الإمكان بعدم حياتهم ، وعلى تقدير حياتهم بعجزهم ، فقال : ﴿ ما تعبدون ﴾ والعبادة : خضوع بالقلب في أعلى مراتب الخضوع ، وبين حقارة معبوداتهم وسفولها بقوله : ﴿ من دونه ﴾ أي الله الذي قام برهان التمانع - الذي هو البرهان الأعظم - على إلهية وعلى اختصاصه بذلك ﴿ إلا أسماء ﴾ وبين ما يريد وأوضحه بقوله : ﴿ سميتموها ﴾ أي ذوات أوجدتم لها أسماء ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ لا معاني لها ، لأنه لا أرواح لها فضلاً عن أن تتحقق بمعنى ما سميتموها به من الإلهية ، وإن كان لها أرواح فهي منتف عنها خاصة الإلهية ، وهي الكمال المطلق الذي يستلزم إحاطة العلم والقدرة .

ولما كان مقصود السورة وصف الكتاب بالإبانة للهدى ، وكان نفي الإنزال كافياً في الإبانة ، لأن عبادة الأصنام باطلة ، ولم يكن في السياق كالأعراف مجادلة توجب مماحكة ومماطلة ومعالجة ومطاولة ، قال نافياً للإنزال بأي وصف كان : ﴿ ما أنزل الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة .

فلا أمر لأحد معه ﴿ بها ﴾ وأعرق في النفي فقال : ﴿ من سلطان ﴾ أي برهان تتسلط به على تعظيمها ، فانتفى تعظيمها لذاتها أو لغيرها ، وصار حاصل الدليل : لو كانوا أحياء يحكمون لم يصلحوا للإلهية ، لإمكان تمانعهم المؤدي إلى إمكان عجز كل منهم الملزوم لأنهم لا صلاحية فيهم للإلهية ، لكنهم ليسوا أحياء ، فهم أجدر بعدم الصلاحية ، فعلم قطعاً أنه لا حكم لمقهور ، وأن كل من يمكن أن يكون له ثان مقهور ؛ فأنتج هذا قطعاً أن الحكم إنما هو لله الواحد القهار ، وهو لم يحكم بتعظيمها ؛ وذلك معنى قوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ الحكم إلاّ لله ﴾ أي المختص بصفات الكمال ؛ والحكم : فصل الأمر بما تدعو إليه الحكمة .

ولما انتفى الحكم عن غيره ، وكان ذلك كافياً في وجوب توحيده ، رغبة فيما عنده ، ورهبة مما بيده ، أتبعه تأكيداً لذلك وإلزاماً به أنه حكم به ، فقال : ﴿ أمر ألا تعبدوا ﴾ أي أيها الخلق في وقت من الأوقات على حال من الأحوال ﴿ إلا إياه ﴾ أي وهو النافذ الأمر المطاع الحكم .

ولما قام هذا الدليل على هذا الوجه البين ، كان جديراً بالإشارة إلى فضله ، فأشار إليه بأداة البعد ، تنبيهاً على علو مقامه وعظيم شأنه فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الشأن الأعظم ،

وهو توحيده وإفراده عن خلقه ﴿ الدين القيم ﴾ أي الذي لا عوج فيه فيأتيه الخلل من جهة عوجه ، الظاهر أمره لمن كان له قلب ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي لما لهم الاضطراب مع الحظوظ ﴿ لا يعلمون ﴾ أي ليس لهم علم ، لأنهم لا ينتفعون بعقولهم ، فكأنهم في عداد البهائم العجم ، فلأجل ذلك هم لا يفردون الله بالعبادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 41.42 ﴾

(170/396)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ يَشْكُرُونَ يا صاحبى السجن ﴾ يريد صاحبي في السجن ، ويحتمل أيضاً أنه لما حصلت مرافقتهما في السجن مدة قليلة أضيفا إليه وإذا كانت المرافقة القليلة كافية في كونه صاحباً فمن عرف الله وأحبه طول عمره أولى بأن يبقى عليه اسم المؤمن العارف المحب .

المسألة الثانية :

اعلم أنه عليه السلام لما ادعى النبوة في الآية الأولى وكان إثبات النبوة مبنياً على إثبات الإلهيات لا جرم شرع في هذه الآية في تقرير الإلهيات ، ولما كان أكثر الخلق مقرين بوجود الإله العالم القادر وإنما الشأن في أنهم يتخذون أصناماً على صورة الأرواح الفلكية ويعبدونها ويتوقعون حصول النفع والضر منها لا جرم كان سعي أكثر الأنبياء في المنع من عبادة الأوثان ، فكان الأمر على هذا القانون في زمان يوسف عليه السلام ، فلهذا السبب شرع ههنا في ذكر ما يدل على فساد القول بعبادة الأصنام وذكر أنواعاً من الدلائل والحجج .

الحجة الأولى : قوله : ﴿ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الواحد القهار ﴾ وتقرير هذه الحجة أن نقول : إن الله تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم وهو قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل ، وكون الإله واحداً يقتضي حصول النظام وحسن الترتيب فلما قرر هذا المعنى في سائر الآيات قال ههنا : ﴿ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الواحد القهار ﴾ والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار .

والحجة الثانية : أن هذه الأصنام معمولة لا عاملة ومقهورة لا قاهرة ، فإن الإنسان إذا أراد كسرها وإبطالها قدر عليها فهي مقهورة لا تأثير لها ، ولا يتوقع حصول منفعة ولا مضرة من جهتها وإله العالم فعال قهار قادر يقدر على إيصال الخيرات ودفع الشرور والآفات فكان المراد أن عبادة الآلهة المقهورة الذليلة خير أم عبادة الله الواحد القهار ، فقوله :

﴿ ءَأَرْبَابٌ ﴾ إشارة إلى الكثرة فجعل في مقابلته كونه تعالى واحداً وقوله : ﴿ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ إشارة إلى كونها مختلفة في الكبر والصغر ، واللون والشكل ، وكل ذلك إنما حصل بسبب أن الناحت والصانع يجعله على تلك الصورة فقوله : ﴿ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ إشارة إلى كونها مقهورة عاجزة وجعل في مقابلته كونه تعالى قهاراً فبهذا الطريق الذي شرحناه اشتملت هذه الآية على هذين النوعين الظاهرين .

والحجة الثالثة : أن كونه تعالى واحداً يوجب عبادته ، لأنه لو كان له ثان لم نعلم من الذي خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا ، فيقع الشك في أنا نعبد هذا أم ذاك ، وفيه إشارة إلى ما يدل على فساد القول بعبادة الأوثان وذلك لأن بتقدير أن تحصل المساعدة على كونها نافعة ضارة إلا أنها كثيرة فحينئذ لا نعلم أن نفعنا ودفع الضرر عنا حصل من هذا الصنم أو من ذلك الآخر أو حصل بمشاركتهما ومعاونتهما ، وحينئذ يقع الشك في أن المستحق للعبادة هو هذا أم ذاك أما إذا كان المعبود واحداً ارتفع هذا الشك وحصل اليقين في أنه لا يستحق للعبادة إلا هو ولا معبود للمخلوقات والكائنات إلا هو ، فهذا أيضاً وجه لطيف

مستنبط من هذه الآية .

الحجة الرابعة : أن بتقدير أن يساعد على أن هذه الأصنام تنفع وتضر على ما يقوله أصحاب الطلسمات إلا أنه لا نزاع في أنها تنفع في أوقات مخصوصة وبحسب آثار مخصوصة ، والإله تعالى قادر على جميع المقدورات فهو قهار على الإطلاق نافذ المشيئة والقدرة في كل الممكنات على الإطلاق فكان الاشتغال بعبادته أولى .

الحجة الخامسة : وهي شريفة عالية ، وذلك لأن شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهاراً لكل ما سواه وهذا يقتضي أن يكون الإله واجب الوجود لذاته إذ لو كان ممكناً لكان مقهوراً لا قاهراً ويجب أن يكون واحداً ، إذ لو حصل في الوجود واجبان لما كان قاهراً لكل ما سواه ، فالإله لا يكون قهاراً إلا إذا كان واجباً لذاته وكان واحداً ، وإذا كان المعبود يجب أن يكون كذلك فهذا يقتضي أن يكون الإله شيئاً غير الفلك وغير الكواكب وغير النور والظلمة وغير العقل والنفس .

فأما من تمسك بالكواكب فهي أرباب متفرقون وهي ليست موصوفة بأنها قهارة ، وكذا القول في الطبائع والأرواح والعقول والنفوس فهذا الحرف الواحد كاف في إثبات هذا

التوحيد المطلق وأنه مقام عال فهذا مجموع الدلائل المستنبطة من هذه الآية بقي فيها سؤالان
:

السؤال الأول : لم سماها أرباباً وليست كذلك .

والجواب : لاعتقادهم فيها أنها كذلك ، وأيضاً الكلام خرج على سبيل الفرض والتقدير :

والمعنى أنها إن كانت أرباباً فهي خير أم الله الواحد القهار .

السؤال الثاني : هل يجوز التفاضل بين الأصنام وبين الله تعالى حتى يقال إنها خير أم الله

الواحد القهار ؟

الجواب : أنه خرج على سبيل الفرض ، والمعنى : لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير

فهي خير أم الله الواحد القهار .

ثم قال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمْ مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن

سلطان ﴾ وفيه سؤال : وهو أنه تعالى قال فيما قبل هذه الآية : ﴿ ءأَرْبَابٌ مُّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ

الواحد القهار مَا ﴾ وذلك يدل على وجود هذه المسميات .

ثم قال عقيب تلك الآية : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ وهذا يدل على

أن المسمى غير حاصل وبينهما تناقض .

الجواب : أن الذات موجودة حاصلة إلا أن المسمى بالإله غير حاصل وبيانه من وجهين :

الأول : أن ذوات الأصنام وإن كانت موجودة إلا أنها غير موصوفة بصفات الإلهية ، وإذا كان كذلك كان الشيء الذي هو مسمى بالإله في الحقيقة غير موجود ولا حاصل ، الثاني : يروى أن عبدة الأوثان مشبهة فاعتقدوا أن الإله هو النور الأعظم وأن الملائكة أنوار صغيرة ووضعوا على صورة تلك الأنوار هذه الأثان ومعبودهم في الحقيقة هو تلك الأنوار السماوية ، وهذا قول المشبهة فإنهم تصوروا جسماً كبيراً مستقراً على العرش ويعبدونه وهذا المتخيل غير موجود ألبتة فصح أنهم لا يعبدون إلا مجرد الأسماء .

(174/396)

واعلم أن جماعة ممن يعبدون الأصنام قالوا نحن لا نقول : إن هذه الأصنام آلهة للعالم بمعنى أنها هي التي خلقت العالم إلا أنا نطلق عليها اسم الإله ونعبدها ونعظمها لاعتقادنا أن الله أمرنا بذلك ، فأجاب الله تعالى عنه ، فقال أما تسميتها بالآلهة فما أمر الله تعالى بذلك وما أنزل في حصول هذه التسمية حجة ولا برهاناً ولا دليلاً ولا سلطاناً ، وليس لغير الله حكم واجب القبول ولا أمر واجب الالتزام بل الحكم والأمر والتكليف ليس إلا له ، ثم إنه أمر أن

ألا تعبدوا إلا أياه ، وذلك لأن العبادة نهاية التعظيم والإجلال فلا تليق إلا بمن حصل منه نهاية الإنعام وهو الإله تعالى لأن منه الخلق والإحياء والعقل والرزق والهداية ، ونعم الله كثيرة وجهات إحسانه إلى الخلق غير متناهية ثم إنه تعالى لما بين هذه الأشياء ، قال ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وتفسيره أن أكثر الخلق يسندون حدوث الحوادث الأرضية إلى الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية لأجل أنه تقرر في العقول أن الحادث لا بد له من سبب فإذا رأوا أن تغير أحوال هذا العالم في الحر والبرد والفصول الأربعة ، إنما يحصل عند تغير أحوال الشمس في أرباع الفلك ربطوا الفصول الأربعة بحركة الشمس ، ثم لما شاهدوا أن أحوال النبات والحيوان مختلفة بحسب اختلاف الفصول الأربعة ربطوا حدوث النبات وتغير أحوال الحيوان باختلاف الفصول الأربعة ، فبهذا الطريق غلب على طباع أكثر الخلق أن المدبر لحدوث الحوادث في هذا العالم هو الشمس والقمر وسائر الكواكب ، ثم إنه تعالى إذا وفق إنساناً حتى ترقى من هذه الدرجة وعرف أنها في ذواتها وصفاتها مفتقرة إلى موجد ومبدع قاهر قادر عليم حكيم ، فذلك الشخص يكون في غاية الندرة ، فلهذا قال : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 112. 114 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ذلك الدين المستقيم ، قاله السدي . الثاني : الحساب البيّن ، قاله مقاتل بن حيان .

الثالث : يعني القضاء الحق ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(176/396)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

وصفه لهما ب ﴿ صاحبي السجن ﴾ هو : إما على أن نسبهما بصحبتهما للسجن من حيث سكناه - كما قال : ﴿ أصحاب الجنة ﴾ [الأعراف : 44 ، الحشر : 20] ، و ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ [البقرة : 119] ونحو هذا - وإما أن يريد صحبتهما له في

السجن ، فأضافهما إلى السجن بذلك ، كأنه قال : يا صاحبيَّ في السجن ، وهذا كما قيل في الكفار إن الأصنام شركاؤهم ؛ وعرضه عليهما بطول أمر الأوثان بأن وصفها " بالتفرق " ، ووصف الله تعالى ب " الوحدة " و " القهر " تلطف حسن وأخذ بيسير الحجة قبل كثيرها الذي ربما نفرت منه طباع الجاهل وعاندته ، وهكذا الوجه في محاجة الجهلة أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها ، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها ، ثم كذلك أبداً حتى يصل إلى الحق ، وإن أخذ الجاهل بجميع المذهب الذي يساق إليه دفعة أباه للحين وعانده ؛ وقد ابتلي بأرباب متفرقين من يخدم أبناء الدنيا ويؤملهم .

وقوله : ﴿ إلا أسماء ﴾ ذهب بعض المتكلمين إلى أنه أوقع في هذه الآية الأسماء على المسميات وعبر عنها بها إذ هي ذوات أسماء .

(177/396)

قال القاضي أبو محمد : والاسم الذي هو ألف وسين وميم - قد يجري في اللغة مجرى النفس والذات والعين ، فإن حملت الآية على ذلك صح المعنى ، وليس الاسم - على هذا - بمنزلة التسمية التي هي رجل وحجر ، وإن أريد بهذه الأسماء التي في الآية أسماء الأصنام التي هي بمنزلة اللات والعزى ونحو ذلك من تسميتها آلهة ، فيحتمل أن يريد : إلا ذوات

أسماء ، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ؛ ويحتمل - وهو الراجح المختار إن شاء الله - أن يريد : ما تعبدون من دونه ألوهية ولا لكم تعلق بإله إلا بحسب أن سميتم أصنامكم آلهة ، فليست عبادتكم لإله إلا باسم فقط لا بالحقيقة ، وأما الحقيقة فهي وسائر الحجارة والخشب سواء ، فإنما تعلقت عبادتكم بحسب الاسم الذي وضعتم ، فذلك هو معبودكم إذا حصل أمركم ؛ فعبر عن هذا المعنى باللفظ المسرود في الآية ، ومن هذه الآية وهم من قال - في قولنا : رجل وحجر - إن الاسم هو المسمى في كل حال ، وقد بانت هذه المسألة في صدر التعليق .

ومفعول "سميتم" الثاني محذوف ، تقديره : آلهة ، هذا على أن ﴿ الأسماء ﴾ يراد بها ذوات الأصنام ، وأما على المعنى المختار - من أن عبادتهم إنما هي لمعان تعطيها الأسماء وليست موجودة في الأصنام - فقوله ﴿ سميتموها ﴾ بمنزلة وضعتموها ، فالضمير للتسميات ، ووكد الضمير ليعطف عليه .

وال ﴿ سلطان ﴾ الحجة ، وقوله : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي ليس لأصنامكم التي سميتموها آلهة من الحكم والأقدار والأرزاق شيء ، أي فما بالها إذن ؟ ويحتمل أن يريد الرد على حكمهم في نصبهم آلهة دون الله تعالى وليس لهم تعدي أمر الله في أن لا يعبد غيره ، و﴿ القيم ﴾ معناه : المستقيم .

و ﴿ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ لجهالتهم وغلبة الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(178/396)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا صاحبي السجن ﴾

أي يا ساكني السجن ؛ وذكر الصحبة لطول مقامهما فيه ، كقولك : أصحاب الجنة ، وأصحاب النار .

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ أي في الصغر والكبر والتوسط ، أو متفرقون في العدد .

﴿ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار ﴾ وقيل : الخطاب لهما ولأهل السّجن ، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى ، فقال ذلك إلزاماً للحجة ؛ أي آلهة شَتَّى لا تضر ولا تنفع .

"خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ" الذي قهر كل شيء .

نظيره : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وقيل : أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدّد الإله لتفرقوا في الإرادة ولعلا بعضهم على بعض ، وبيّن أنها إذا تفرّقت لم تكن آلهة .

قوله تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً ﴾ بيّن عجز الأصنام وضعفها فقال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أي من دون الله إلا ذوات أسماء لا معاني لها .

﴿ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ من تلقاء أنفسكم .

وقيل : عنى بالأسماء المسميات ؛ أي ما تعبدون إلا أصناماً ليس لها من الإلهية شيء إلا الاسم ؛ لأنها جمادات .

وقال : "مَا تَعْبُدونَ" وقد ابتدأ بخطاب الاثنين ؛ لأنه قصد جميع من هو على مثل حالهما من الشّرك .

﴿ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ ﴾ فحذف المفعول الثاني للدلالة ؛ والمعنى : سميتموها آلهةً من عند أنفسكم .

﴿ مَّآ أَنزَلَ اللهُ ﴾ ذلك في كتاب .

قال سعيد بن جُبير : ﴿ مِن سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة .

﴿ إِنِ الحكم إِلَّا لِلَّهِ ﴾ الذي هو خالق الكل .

﴿ أَمَرَ أَلَّا تعبدوا إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ .

﴿ ذلك الدين القيم ﴾ .

أي القويم ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ يا صاحبي السجن ﴾

يريد يا صاحبيَّ في السجن فأضافهما إلى السجن كما تقول يا سارق الليلة لأن الليلة مسروق فيها غير مسروقة ويجوز أن يريد يا ساكني السجن كقوله أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴿ أأرباب متفرقون ﴾ يعني آلهة شتى من ذهب وفضة وصفر وحديد وحشب وحجارة وغير ذلك وصغير وكبير ومتوسط متباينون في الصفة وهي مع ذلك لا تضر ولا تنفع ﴿ خير أم الله الواحد القهار ﴾ يعني أن هذه الأصنام أعظم صفة في المدح واستحقاق اسم الإلهية والعبادة أم الله الواحد القهار ، قال الخطابي : الواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده وقيل هو المنقطع عن القرين والمعدوم الشريك والنظير وليس هو كسائر الآحاد من الأجسام المؤلفة لأن ذلك قد يكثر بانضمام بعضها إلى بعض والواحد ليس

كذلك فهو الله الواحد الذي لا مثل له ولا يشبهه شيء من غيره: القهار هو الذي قهر كل شيء وذلله فاستسلم وانقاد وذل له، والمعنى أن هذه الأصنام التي تعبدونها ذليلة مقهورة إذا أراد الإنسان كسرها وإهانتها قدر عليه والله هو الواحد في ملكه القهار لعباده الذي لا يغلبه شيء وهو الغالب لكل شيء سبحانه وتعالى ثم بين عجز الأصنام وأنها لا شيء البتة فقال ﴿ ما تعبدون من دونه ﴾ يعني من دون الله وإنما قاله تعبدون بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية في المخاطبة لأنه أراد جميع من في السجن من المشركين ﴿ إلا أسماء سميتموها ﴾ يعني سميتموها آلهة وأرباباً وهي حجارة جمادات خالية عن المعنى لا حقيقة لها ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ يعني من قبلكم سموها آلة ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ يعني أن تسمية الأصنام آلهة لا حجة لكم بها ولا برهان ولا أمر الله بها وذلك أنهم كانوا يقولون إن الله أمرنا بهذه التسمية فرد الله عليهم بقوله: ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان أن الحكم إلا لله ﴾ يعني أن الحكم والقضاء والأمر والنهي لله تعالى لا شريك له في ذلك ﴿ أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ لأنه هو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي سميتموها آلهة ﴿

ذلك الدين القيم ﴾ يعني عبادة الله هي الدين المستقيم ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(182/396)

وقال أبو حيان :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

لما ذكر ما هو عليه من الدين الحنيفي تلطف في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام ، فناداهما باسم الصحبة في المكان الشاق الذي تخلص فيه المودة وتتمخض فيه النصيحة .

واحتمل قوله : يا صاحبي السجن ، أن يكون من باب الإضافة إلى الظرف ، والمعنى : يا صاحبيّ في السجن ، واحتمل أن يكون من إضافته إلى شبه المفعول كأنه قيل : يا ساكني السجن ، كقوله ﴿ أصحاب النار ﴾ ﴿ وأصحاب الجنة ﴾ ثم أورد الدليل على بطلان ملة قومهما بقوله : أأرباب ، فأبرز ذلك في صورة الاستفهام حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام .

وهكذا الوجه في محاجة الجاهل أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها ، فإذا قبلها

لزمته عنها درجة أخرى فوقها ، ثم كذلك إلى أن يصل إلى الإذعان بالحق .

وقابل تفرق أربابهم بالواحد ، وجاء بصفة القهار تنبيهاً على أنه تعالى له هذا الوصف الذي معناه الغلبة والقدرة التامة ، وإعلاماً بعروّ أصنامهم عن هذا الوصف الذي لا ينبغي أن يعبد إلا المتصف به ، وهم عالمون بأن تلك الأصنام جماد .

والمعنى : أعبادة أرباب متكاثرة في العدد خير أم عبادة واحد قهار وهو الله ؟ فمن ضرورة العاقل يرى خيرية عبادته ، ثم استطرد بعد الاستفهام إلى إخبار عن حقيقة ما يعبدون .

والخطاب بقوله : ما تعبدون ، لهما ولقومهما من أهل .

ومعنى إلا أسماء : أي ألفاظاً أحدثتموها أنتم وآباؤكم فهي فارغة لا مسميات تحتها ، وتقدّم تفسير مثل هذه الجملة في الأعراف .

إنْ الحكم إلا لله أي : ليس لكم ولا لأصنامكم حكم ما الحكم في العبادة والدين إلا لله ثم بين ما حكم به فقال أمر أن لا تعبدوا إلا إياه .

ومعنى القيم : الثابت الذي دلت عليه البراهين .

لا يعلمون بجهالاتهم وغلبة الكفر عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ يا صاحبى السجن ﴾

أي يا صاحبيَّ في السجن كما تقول : يا سارق الليلةِ ناداهما بعنوان الصحبة في مدار الأشجانِ ودارِ الأحزان التي تصفو فيها المودةُ وتخلُص النصيحةُ ليُقبلا عليه ويَقبَلا مقالتَه وقد ضرب لهما مثلاً يتضح به الحقُّ عندهما حقَّ اتضاحٍ فقال : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ لا ارتباطَ بينهم ولا اتفاقَ يستعبدُ كما كلٌّ منهم حسبما أراد غيرَ مراقب للآخَرين مع عدم استقلاله ﴿ خَيْرٌ ﴾ لكما ﴿ أَمِ اللهُ ﴾ المعبودُ بالحق ﴿ الواحد ﴾ المتفرد بالألوهية ﴿ القهار ﴾ الغالبُ الذي لا يغالبه أحدٌ . وبعد ما نبههما على فساد تعددِ الأرباب بين لهما سقوطَ آلهتِهما عن درجة الاعتبار رأساً فضلاً عن الألوهية فقال معمِّماً للخطاب لهما ولمن على دينهما : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أي من دون الله شيئاً ﴿ إِلَّا أَسْمَاءً ﴾ فارغةً لا مطابقَ لها في الخارج لأن ما ليس فيه مصداقُ إطلاقِ الاسم عليه لا وجودَ له أصلاً فكانت عبادتُهم لتلك الأسماء فقط ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ جعلتموها أسماءً وإنما لم يَذكُرِ المسمَّياتِ تربيةً لما يقتضيه المقامُ من إسقاطها عن مرتبة الوجودِ وإيذاناً بأن تسميتهم في البطلان حيث كانت بلا مسمّى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود ﴿ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم ﴾ بمحض جهلكم وضلالِكم ﴿ مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا ﴾ أي بتلك التسميةِ المستتبعةِ للعبادة ﴿ مّن سلطان ﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿ إِنِ الحكم ﴾ في أمر العبادة المتفرعةِ على

تلك التسمية ﴿ إِلَا لِلَّهِ ﴾ عز سلطانه لأنه المستحقُّ لها بالذات إذ هو الواجبُ بالذات الموجدُ للكل والمالكُ لأمره ﴿ أَمَرَ ﴾ استئنافٌ مبني على سؤال ناشىءٍ من قوله : إن الحكم إلا لله فكأنه قيل : فماذا حكم الله في هذا الشأن ؟ فقيل : أمر على ألسنة الأنبياءِ عليهم السلام ﴿ أَلَّا تَعْبُدُواْ ﴾ أي بأن لا تعبُدوا ﴿ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ حسبما تقضي به قضيةُ العقل أيضاً ﴿ ذلك ﴾ أي تخصيصُه تعالى

(184/396)

بالعبادة ﴿ الدين القيم ﴾ الثابتُ المستقيم الذي تعاضدت عليه البراهينُ عقلاً ونقلاً ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك هو الدينُ القيم لجهلهم بتلك البراهينِ أو لا يعلمون شيئاً أصلاً فيعبدون أسماءً سمّوها من تلقاء أنفسِهم معْرِضين عن البرهان العقليّ والسلطانِ النقليّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(185/396)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾

أي يا صاحبي فيه إلا أنه أضيف إلى الظرف توسعاً كما في قولهم : يا سارق الليلة أهل الدار ؛ ولعله إنما ناداهما بعنوان الصحبة في مدار الأشجان ودار الأحزان التي تصفو فيها المودة وتتمحض النصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته ؛ ويجوز أن يراد بالصحبة السكنى كما يقال : أصحاب النار وأصحاب الجنة لملازمتهم لهما ، والإضافة من باب إضافة الشيء إلى شبه المفعول عند أبي حيان وإلى المفعول عند غيره ولا اتساع في ذلك ، وقيل : بل هناك اتساع أيضاً ، وأنه أضافهما إلى السجن دونه لكونهما كافرين وفيه نظر ، ولعل في ندائهما بذلك على هذا الوجه حثاً لهما على الإقرار بالحق كأنه قال لهما : يا ساكني هذا المكان الشاق والمحل الضنك إني ذاكر لكم أمراً فقولوا الحق فيه ولا تزيغوا عن ذلك فأنتم تحت شدة ولا ينبغي لمن كان كذلك أن يزيغ عن الحق ، وإنما حمل الصاحب على ما سمعت لأن صاحب السجن في الاستعمال المشهور السجان أو الملك ، والنداء – بيا – بناءاً على الشائع من أنها للبعيد للإشارة إلى غفلتهما وهيمانهما في أودية الضلال .

وقد تلطف عليه السلام بهما في ردهما إلى الحق وإرشادهما إلى الهدى حيث أبرز لهما ما يدل على بطلان ما هما عليه بصورة الاستفهام حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بإبطال ما ألفاه دهراً طويلاً ومضت عليه أسلافهما جيلاً فجيلاً فقال : ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾

متعددون متكثرون يستعبد كما منهم هذا وهذا ، والكلام على ما صرح به أبو حيان على حذف مضاف أي أعبادة أرباب متفرقين ﴿ خَيْرٌ ﴾ لكما ﴿ أَمِ اللَّهُ ﴾ أي أم عبادة الله سبحانه ﴿ الْوَاحِدُ ﴾ المنفرد بالألوهية ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الغالب الذي لا يغالبه أحد جل وعلا ، وهو أولى مما قاله الخطابي من أنه الذي قهر الجبابرة بالعقوبة والخلق بالموت .

وذكر الزمخشري أن هذا مثل ضرب لعبادة الله تعالى وحده ولعبادة الأصنام ، واعترضه القطب بأن ذلك إنما يصح لو نسبا تارة إلى أرباب شتى وأخرى إلى رب واحد كما في قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء ﴾ [الزمر : 29] الآية لكنهما نسبا إلى أرباب وإلى الله تعالى ، فكيف يكون مثلاً ؟ ! وأجاب بأنه يفسر الله تعالى برب واحد لأنه في مقابلة أرباب ، وإنما عبر عن رب واحد بالله تعالى لانحصاره فيه جل جلاله .

وقال الطيبي أيضاً : إن في ذلك إشكالاً لأن الظاهر من الآية نفي استواء الأصنام وعبادتها بالله تعالى وعبادته فأين المثل ؟ ثم قال : لكن التقدير أسادات شتى تستعبد مملوكاً واحداً خير من سيد واحد قهار فوضع موضع الرب ، والسيد الله لكونه مقابلاً لقوله : ﴿ أأرباب ﴾ فيكون كقوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء ﴾

[الزمر : 29] الآية .

وقرر في " الكشف " ما ادعى معه ظهور كونه مثلاً ظهوراً لا إشكال فيه ، والحق أنه ظاهر في نفي الاستواء وإنّ جعله مثلاً يحتاج إلى تأويل حسبما سمعت عن الطيبي إلا أنه لا يخلو عن لطف ؛ ولعله الأولى وإن أحوج إلى ما أحوج .

وحمل التفرق على التفرق في العدد والتكاثر مما ذهب إليه غير واحد ، وحمله بعضهم على الاختلاف في الكبر والصغر والشكل ونحو ذلك مما يحصل لها بواسطة تأثير الغير فيها ، وجعله إشارة إلى كونها مقهورة عاجزة .

وأما التعدد فيشير إليه جمع أرباب باعتبار أنه جمع فيكون ذكر الواحد على هذا في مقابلة ما أشير إليه من التعدد ، والقهار في مقابلة ما أشير إليه من المقهورية والعجز ، والمعنى أمتعددون سميتموهم أرباباً عجز مقهورون متأثرون من غيرهم خير أم الله أي صاحب هذا الاسم الجليل الواحد الذي يستحيل عليه التكثر بوجه من الوجوه القهار الذي لا موجود إلا وهو مسخر تحت قهره وقدرته عاجز في قبضته .

وقيل: المراد من ﴿ متفرقون ﴾ مختلفو الأجناس والطبائع كالملك والجن والجماد مثلاً، ويجوز أن يراد منه من لا ارتباط بينهم ولا اتفاق، وكثيراً ما يكنى بذلك عن العجز واختلال الحال، وقد استنبط الإمام من الآية غير ما حجة على بطلان عبادة الأصنام، وظاهر كلامه أنه لم يعتبرها مثلاً فليتأمل.

ثم إنه عليه السلام زاد في الإرشاد ببيان سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأساً فضلاً عن الألوهية، وأخرج ذلك على أتم وجه فقال معمماً للخطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر كما هو الظاهر، وقيل: مطلقاً، وقيل: من معهما من أهل السجن:

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ﴾

أي من دون الله تعالى شيئاً ﴿ إِلاَّ أَسْمَاءَ ﴾ أي ألفاظاً فارغة لا مطابق لها في الخارج لأن ما ليس فيه مصداق إطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلاً فكانت عبادتهم لتلك الألفاظ فقط ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ جعلوها أسماء ﴿ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ﴾ بمحض الجهل والضلالة ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا ﴾ أي بتلك التسمية المستتبعة للعبادة ﴿ مِن سُلْطَانٍ ﴾ أي حجة تدل على صحتها، قيل: كانوا يطلقون على معبوداتهم الباطلة اسم الآلهة ويزعمون الدليل على ذلك فردوا بأنكم سميتم ما لم

يدل على استحقاقه هذا الاسم عقل ولا نقل ثم أخذتم تعبدون ذلك باعتبار ما تطلقونه عليه ، وإنما لم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام من إسقاطها عن مرتبة الوجود وإيذاناً بأن تسميتهم في البطلان حيث كانت بلا مسمى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود ، ويلحق بهؤلاء الذين يزعمون أنهم يعبدون الله تعالى وهم يتخيلونه سبحانه جسماً عظيماً جالساً فوق العرش أو نحو ذلك مما ينزهه العقل والنقل عنه تعالى - تعالى الله عما يقول الظالمون - علواً كبيراً لأن ما وضع له الاسم الجليل في نفس الأمر ليس هو الذي تخيلوه بل هو أمر وراء ذلك وهو المستحق للعبادة وما وضعوه هم له ليس بإله في نفس الأمر ولا مستحق للعبادة وهو الذي عبدوه فما عبدوا في الحقيقة إلا اسماً لا مطابق له في الخارج لأن ما في الخارج أمر وما وضعوا الاسم له أمر آخر .

﴿ إنِ الْحُكْمُ ﴾ أي ما الحكم في شأن العبادة المتفرعة على تلك التسمية وفي صحتها ﴿ إلاَّ لله ﴾ عزَّ سلطانه لأنه المستحق لها بالذات إذ هو الواجب بالذات الموجد للكل والمالك لأمره ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا ﴾ أي بأن لا تعبدوا أحداً ﴿ إلاَّ إِيَّاهُ ﴾ حسبما يقتضي به قضية العقل أيضاً .

والجملة استئناف مبني على سؤال ناشئ من الجملة السابقة كأنه قيل : فماذا حكم الله سبحانه في هذا الشأن ؟ فقيل : أمر الخ ، وقيل : في موضع التعليل لمحذوف كأنه قيل :

حيث لم يكن الحكم في أمر العبادة إلا له فلا تكون العبادة إلا له سبحانه أو لمن يأمر بعبادته وهو لا يأمر بذلك ولا يجعله لغيره لأنه سبحانه أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، وهو خلاف الظاهر .

(189/396)

وجوز أن يكون سرد هذه الجمل على هذا الطرز لسدّ الطرق في توجيه صحة عبادة الأصنام عليهم أحكم سدّ فإنهم إن قالوا : إن الله تعالى قد أنزل حجة في ذلك ردوا بقوله : ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ وإن قالوا : حكم لنا بذلك كبراؤنا ردوا بقوله : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ وإن قالوا : حيث لم ينزل حجة في ذلك ولم يكن حكم لغيره بقي الأمر موقوفاً إذ عدم إنزال حجة تدل على الصحة لا يستلزم إنزال حجة على البطلان ردوا بقوله : ﴿ أمر ألاَّ تعبدوا إلا إياه ﴾ .

﴿ ذلك ﴾ أي تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿ الدّينُ الْقيّمُ ﴾ الثابت الذي دلت عليه البراهين العقلية والنقلية ﴿ وَلكنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم تلك البراهين أو لا يعلمون شيئاً أصلاً فيعبدون أسماء سموها من عند أنفسهم معرضين عما يقتضيه العقل ويسوق إليه سائق النقل ، ومنشأ هذا الإعراض الوقوف عند المألوفات

والتقيد بالحسيات وهو مركوز في أكثر الطباع ومن ذلك جاء التشبيه والتجسيم ونسبة الحوادث الكونية إلى الشمس والقمر وسائر الكواكب ونحو ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(190/396)

وقال القاسمى :

ولما ذكر ، عليه السلام ، ما هو عليه من الدين القويم ، تلطف في الاستدلال على بطلان ما عليه قومهما من عبادة الأصنام ، فضرب لهما مثلاً يتضح به الحق حق اتضاح ، بقوله :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ وصفهما بالصحبة الضرورية المقتضية للمودة ، وبذل النصيحة . أي : يا صاحبي فيه . فجعل الظرف توسعاً ، مفعولاً به . أي : أأرباب شتى تستعبد الناس خير لهم ، أم أن يكون لهم رب واحد قهار لا يغالب ؟ ! .

قال بعضهم : دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالباً بالاعتقاد ، جاء هادياً لوجه الحسن فيه . وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم . وهو يذهب بكل فريق إلى

التعصب لما وجه قلبه إليه ، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى . أما اعتقاد جميعهم بإله واحد ، فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه ، وفي ذلك نظام أخوتهم ، وهي قاعدة سعادتهم . فالشرع جاء مبيناً للواقع في أن معرفة الله بصفاته حسنة في نفسها ، فهو ليس مُحْدِثَ الحسن . انتهى .

وفي قوله : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ إشارة إلى ما كان عليه أهل مصر لعهده عليه السلام ، من عبادة أصنام شتى . يقول بعضهم : كما أن مصر كانت تغلبت في العلوم والسلطة ، كذلك في عبادة الأصنام ، فإن أهلها فاقوا كل من سواهم في الضلال ، فكانوا يسجدون للشمس وللقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوام وأدنى حشرات الأرض .

(191/396)

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أي : من دون الله : ﴿ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم ﴾ يعني أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها : ﴿ مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أي : حجة تدل على صحتها : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾ أي : في أمر العبادة والدين : ﴿ إِلاَّ لِلّهِ ﴾ لأنه مالك ، وهو لم

يحكم بعبادتها ؛ لأنه : ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ؛ لأن العبادة غاية التذلل ، فلا يستحقها إلا من له غاية العظمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي : التوحيد الدال على كمال عظمة الله ، بحيث لا يشاركه فيها غيره : ﴿ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أي : الحق المستقيم الثابت ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لجهلهم ، ولذا كان أكثرهم مشركين .

تنبيه :

لا يخفى أن قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ ﴾ إلى هنا ، مقدمة لجواب سؤالهما عن تعبير رؤياهما ، مهد عليه السلام بها له ليدعوهما إلى التوحيد ، ليزدادا علماً بعظم شأنه ، وثقة بأمره ؛ توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه من هدايتهما ، لا سيما وأن أحدهما ستعاجله منيته بالصلب ، فرجا أن يختم له بخير .

(192/396)

قال الزمخشري : لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، افترض ذلك ، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام ، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ، ويعرض عليهما الإيمان ، ويزينه لهما ، ويقبح إليهما الشرك بالله . وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا

استفتاه واحد منهم ، أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة الحسنة والنصيحة أولاً ، ويدعوه إلى ما هو أولى به ، وأوجب عليه مما استفتي فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك . وفيه : أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم ، فوصف نفسه بما هو بصدده – وغرضه أن يقتبس منه ، وينتفع به في الدين – لم يكن من باب التزكية . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 183.182 ﴾

(193/396)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا) .

(سِيرَةُ يُوسُفَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فِي السِّجْنِ) :

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي إِظْهَارِ مُعْجِزَةِ النُّبُوَّةِ ، وَالتَّمْهِيدِ لِدَعْوَةِ الرِّسَالَةِ .

(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ) هَذَا عَطْفٌ عَلَى مَفْهُومِ مَا قَبْلَهُ ، أَيْ فَسَجَنُوهُ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ بِتَقْدِيرِ اللهِ الْخَفِيِّ الَّذِي يُعَبِّرُ عَنْهُ جَاهِلُوهُ بِالْمُصَادَفَةِ وَالِاتِّفَاقِ : فَتَيَانِ مَمْلُوكَانِ ، تَبَيَّنَ فِيمَا بَعْدُ أَنَّهُمَا مِنْ فِتْيَانِ مَلِكِ مِصْرَ .

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَحَدَهُمَا خَازِنُ طَعَامِهِ وَالْآخَرَ سَاقِيهِ ، فَمَاذَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ مَعَهُمَا

؟ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا أَيْ رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ رُؤْيَا وَاضِحَةً جَلِيَّةً كَأَنِّي أَرَاهَا فِي الْيَقَظَةِ الْآنَ وَهِيَ أَنَّنِي أَعْصِرُ خَمْرًا ، أَيْ عِنَبًا لِيَكُونَ خَمْرًا لَا لِيُشْرَبَ الْآنَ ، وَقِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأُبَيٍّ فِي الشَّوَاذِّ (أَعْصِرُ عِنَبًا) تَفْسِيرٌ لَا قُرْآنٌ ، وَمَا كُلُّ الْعِنَبِ لِأَجْلِ التَّخْمِيرِ ، فَمَا نُقِلَ مِنْ أَنَّ عَرَبَ غَسَّانَ وَعَمَّانَ يُسَمُّونَ الْعِنَبَ خَمْرًا ، فَمَحْمُولٌ عَلَى هَذَا النَّوْعِ الْمَخْصُوصِ مِنْهُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ وَسُرْعَةِ اخْتِمَارِهِ ، دُونَ مَا يُؤْكَلُ فِي الْغَالِبِ تَفَكُّهًا لِكِبَرِ

حَجْمِهِ وَاكْتِنَازِ شَحْمِهِ وَقِلَّةِ مَائِهِ ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا أَصْنَافٌ (وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ) الطَّيْرُ جَمْعٌ وَاحِدُهُ طَائِرٌ ، وَتَأْنِيثُهُ أَكْثَرُ مِنْ تَذْكِيرِهِ ، وَجَمْعُ الْجَمْعِ : طُيُورٌ وَأَطْيَارٌ (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) أَيْ قَالَ لَهُ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا : نَبِّئْنِي بِتَأْوِيلِ مَا رَأَيْتُ ، أَيْ بِتَفْسِيرِهِ الَّذِي يَئُولُ إِلَيْهِ فِي الْخَارِجِ إِذَا كَانَ حَقًّا لَا مِنْ أَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ ، وَيَصِحُّ إِعَادَةُ الضَّمِيرِ الْمُفْرَدِ عَلَى الْكَثِيرِ كَاسْمِ الْإِشَارَةِ بِمَعْنَى الْمَذْكُورِ أَوْ مَا ذُكِرَ وَمِنْهُ قَوْلُ الرَّاجِزِ :

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ . . . كَأَنَّهُ فِي الْجِسْمِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ

(إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) عَلَّلُوا سُؤَالَهُمْ عَنْ أَمْرٍ يُهِمُّهُمْ وَيَعْنِيهِمْ دُونَهُ ، بِرُؤْيَتِهِمْ إِيَّاهُ مِنَ

الْمُحْسِنِينَ - بِمُقْتَضَى غَرِيزَتِهِمْ - الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْخَيْرَ وَالنَّفْعَ لِلنَّاسِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ خَاصَّةٌ وَلَا هَوًى ، وَقِيلَ : (مِنَ الْمُحْسِنِينَ) لِتَأْوِيلِ الرُّؤَى ، وَمَا قَالَا هَذَا الْقَوْلَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ رَأَيَا مِنْ سَعَةِ عِلْمِهِ وَحُسْنِ سِيرَتِهِ مَعَ أَهْلِ السِّجْنِ مَا وَجَّهَ إِلَيْهِ وُجُوهَهُمَا ، وَعَلَّقَ بِهِ أَمَلَهُمَا . وَهَذَا مِنْ إِيجَازِ الْقُرْآنِ الْخَاصِّ بِهِ .

(195/396)

افْتَرَضَ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ثِقَةَ هَذَيْنِ السَّائِلَيْنِ بِعِلْمِهِ وَفَضْلِهِ ، وَإِصْغَاءَهُمَا لِقَوْلِهِ وَاهْتِمَامَهُمَا بِمَا يَسْمَعَانِ مِنْ تَأْوِيلِهِ لِرُؤَاهُمَا ، فَبَدَأَ حَدِيثَهُ بِمَا هُوَ أَهَمُّ عِنْدَهُ وَهُوَ دَعْوَتُهُمَا وَسَائِرِ مَنْ فِي السِّجْنِ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ وَحْيَ الرِّسَالَةِ جَاءَهُ بَعْدَ دُخُولِ السِّجْنِ فَحَقَّقَ قَوْلَهُ : (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) 33 كَمَا أَنَّ وَحْيَ الْإِلْهَامِ جَاءَهُ عِنْدَ إِلْقَائِهِ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ عَلَى مَا سَبَقَ ، وَحِكْمَةُ هَذَا مِنْ نَاحِيَتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ظَاهِرَةٌ بِمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - جَعَلَ لَهُ فِي كُلِّ مِحْنَةٍ ظَاهِرَةٍ ، مِنْحَةً بَاطِنَةً ، وَفِي كُلِّ بِدَايَةٍ مُحْرِقَةٍ ، نِهَايَةً مُشْرِقَةً ، تَحْقِيقًا لِمَا فَهِمَهُ أَبُوهُ مِنِ اجْتِبَاءِ رَبِّهِ لَهُ إِلَخْ .

وَحِكْمَتُهُ مِنْ نَاحِيَةِ دَعْوَةِ الدِّينِ أَنَّ أَقْوَى النَّاسِ وَأَقْرَبَهُمُ اسْتِعْدَادًا لِفَهْمِهَا وَالِاهْتِدَاءِ بِهَا هُمُ : الضُّعَفَاءُ وَالْمَظْلُومُونَ وَالْفُقَرَاءُ . وَأَعْتَاهُمْ وَأَبْعَدُهُمْ عَنْ قَبُولِهَا هُمْ : الْمُتْرَفُونَ

وَالْمُتَكَبِّرُونَ ، بَدَأَ يُوسُفُ بِالدَّعْوَةِ بَعْدَ مُقَدِّمَةٍ فِي بَيَانِ الْآيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ وَالثِّقَةِ بِقَوْلِهِ ، وَهِيَ إِظْهَارُ مَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ تَعْلِيمِهِ مَا شَاءَ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ ، وَأَقْرَبُهَا إِلَى اقْتِنَاعِهِمْ مَا يَخْتَصُّ بِمَعِيشَتِهِمْ ، فَكَانَ هَذَا مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ وَتُوجِبُهُ الرِّسَالَةُ مِنْ جَوَابِهِمْ ، وَهُوَ :

(196/396)

(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ) وَهُوَ مَالَا تَدْرُونَ ، وَإِنِّي وَإِيَّاكُمْ فِي هَذَا السِّجْنِ لَمَحْجُوبُونَ (إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا) أَيْ أَخْبَرْتُكُمَا بِهِ وَهُوَ عِنْدَ أَهْلِهِ ، وَبِمَا يُرِيدُونَ مِنْ إِرْسَالِهِ وَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَيْكُمَا : أُنَبِّئُكُمَا بِكُلِّ هَذَا مِنْ شَأْنِ هَذَا الطَّعَامِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا .

رُوِيَ أَنَّ رِجَالَ الدَّوْلَةِ كَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى الْمُجْرِمِينَ أَوِ الْمُتَّهَمِينَ طَعَامًا مَسْمُومًا يَقْتُلُونَهُمْ بِهِ ، وَأَنَّ يُوسُفَ أَرَادَ هَذَا ، وَمَا قُلْتُهُ يَشْمَلُ هَذَا إِذَا صَحَّ ، وَهُوَ مَا يُفْهَمُ مِنْ تَسْمِيَةِ إِنْبَائِهِمَا بِهِ تَأْوِيلًا ، فَإِنَّ التَّأْوِيلَ الْإِخْبَارُ بِمَا يَئُولُ إِلَيْهِ الشَّيْءُ ،

(197/396)

وَهُوَ فَرْعُ مَعْرِفَتِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ سَمَّاهُ تَأْوِيلًا مِنْ بَابِ الْمُشَاكَلَةِ لِمَا سَأَلَاهُ عَنْهُ مِنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَاهُمَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْمُرَادَ: لَا تَرَيَانِ فِي النَّوْمِ طَعَامًا يَأْتِيكُمَا إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ، وَهُوَ بَعِيدٌ. وَفَسَّرَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَمَنْ قَلَّدَهُ (تَأْوِيلَهُ) (بِبَيَانِ مَا هَيْئَتُهُ وَكَيْفِيَّتُهُ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُشْبِهُ تَفْسِيرَ الْمُشْكِلِ وَالْإِعْرَابَ عَنْ مَعْنَاهُ) اهـ. وَهُوَ تَكَلُّفٌ سَرَى إِلَيْهِ مِنْ مَفْهُومِ التَّأْوِيلِ فِي اصْطِلَاحِ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ لَا مِنْ صَمِيمِ اللُّغَةِ (ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) أَيْ ذَلِكَ الَّذِي أُنَبِّئُكُمَا بِهِ بَعْضُ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي بِوَحْيٍ مِنْهُ إِلَيَّ، لَا بِكِهَانَةٍ وَلَا عِرَافَةٍ وَلَا تَنْجِيمٍ، وَلَا مَا يُشْبِهُهَا مِنْ طُرُقٍ صِنَاعِيَّةٍ أَوْ تَعْلِيمٍ بَشَرِيٍّ يَلْتَبِسُ بِهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَيَشْتَبِهُ الصَّوَابُ بِالْخَطَأِ، فَهُوَ آيَةٌ، كَقَوْلِ عِيسَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِهِ: (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) 3 : 49 .

(198/396)

(إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ) خَالِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا كَمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ، أَيْ: تَرَكْتُ دُخُولَهَا وَاتِّبَاعَ أَهْلِهَا مِنْ عَابِدِي الْأَوْثَانِ الْمُنْتَحِلَةِ عَلَى كَثْرَةِ أَهْلِهَا وَدَعْوَتِهِمْ إِلَيْهَا، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ مُتَّبِعًا لَهَا ثُمَّ تَرَكَهَا، فَقَوْلُهُ - تَعَالَى -:
(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) 75 : 36 ؟ أَيْ بَعْدَ مَوْتِهِ فَلَا يُبْعَثُ، لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ

كَانَ سُدًى قَبْلَهُ ، فَتَرْكُ الشَّيْءِ يَصْدُقُ بِعَدَمِ مُلَابَسَتِهِ مُطْلَقًا ، وَبِالتَّحَوُّلِ عَنْهُ بَعْدَ التَّلَبُّسِ بِهِ ، وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا بِقَرِينَةِ الْحَالِ أَوِ الْمَقَالِ أَوْ كِلَيْهِمَا كَمَا هُنَا .

وَالْمُتَبَادَرُ أَنَّهُ أَرَادَ بِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ : الْكَنْعَانِيِّينَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ سُكَّانِ أَرْضِ الْمِيعَادِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا ، وَالْمِصْرِيِّينَ الَّذِينَ هُوَ فِيهِمْ وَبَيْنَهُمْ ، فَإِنَّهُمُ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً مَعْرُوفَةً فِي التَّارِيخِ ، أَعْظَمُهَا الشَّمْسُ وَاسْمُهَا عِنْدَهُمْ (رَعْ) وَمِنْهَا

(199/396)

فَرَاعِنَتُهُمْ وَالنِّيلُ وَعِجْلُهُمْ (أَبِيسُ) وَإِنَّمَا كَانَ التَّوْحِيدُ خَاصًّا بِحُكَمَائِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) أَيْ وَهُمُ الْآنَ يَكْفُرُونَ بِالْمَعْنَى الصَّحِيحِ لِلْآخِرَةِ ، فَإِنَّ الْمِصْرِيِّينَ وَإِنْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ ، إِلَّا أَنَّهُ فَشَا فِيهِمْ تَصْوِيرُ هَذَا الْإِيمَانِ بِصُوَرٍ مُبْتَدَعَةٍ ، وَمِنْهَا أَنَّ فَرَاعِنَتَهُمْ يَعُودُونَ إِلَى الْحَيَاةِ الْأُخْرَى بِأَجْسَادِهِمُ الْمُحَنَّطَةِ وَيَعُودُ لَهُمُ السُّلْطَانُ وَالْحُكْمُ ، وَلِهَذَا كَانُوا يَدْفِنُونَ أَوْ يَضَعُونَ مَعَهُمْ جَوَاهِرَهُمْ وَغَيْرَهَا ، وَيَبْنُونَ الْأَهْرَامَ لِحِفْظِ جُثَثِهِمْ وَمَا مَعَهَا ، وَلَعَلَّهُ لِهَذَا أَكَّدَ الْحُكْمَ بِالْكُفْرِ بِهَا بِإِعَادَةِ الضَّمِيرِ (هُمْ) لِيُبَيِّنَ أَنَّ إِيمَانَهُمْ بِالْآخِرَةِ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ فَهُوَ غَيْرُ صَحِيحٍ .

(وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي) أنبياءِ الله الَّذين دعَوْا إلى توْحيدِهِ الْخالِص ، وبَيَّنَ أسْماءَهُمْ مِن الأب الأعْلى إلى الأدْنى بقَوْلِه : (إبْراهيمَ وإسْحاق ويَعْقُوبَ) فَلَفْظُ الآباءِ يَشْمَلُ الْجُدُودَ وإنْ عَلَوْا ، وبَيَّنَ أساسَ مِلَّتِهِمُ الَّتي اتَّبعَها وراثةً وتَلْقِينًا فكانَتْ يَقِينًا لَهُ ولَهُمْ وِجْدانًا ، بقَوْلِهِ مَا كَانَ لَنَا أيْ مَا كانَ مِنْ شأْنِنا مَعْشَرَ الأنْبياءِ ، ولَا مِمَّا يقَعُ مِنَّا

(200/396)

(أنْ نُشْرِكَ باللهِ مِنْ شَيْءٍ) نَتَّخِذُهُ رَبًّا مُدبِّرًا أوْ إلَهًا مَعْبُودًا مَعَهُ ، لَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَلَا مِنَ الْبَشَرِ (كَالْفَرَاعِنَةِ) فَضْلًا عَمَّا دُونَهُمَا مِنَ الْبَقَرِ (كَالْعِجْلِ أبيس) أوْ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، أوْ مَا يَتَّخِذُهُ لِهَذِهِ الْآلِهَةِ مِنَ التَّمَاثِيلِ وَالصُّوَرِ (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا) بِهِدَايَتِنَا إلَى مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ بِوَحْيِهِ وَآيَاتِهِ فِي خَلْقِهِ وَعَلَى النَّاسِ بِإرْسَالِنَا إلَيْهِمْ نَنْشُرُ فِيهِمْ دَعْوَتَهُ ، وَنُقِيمُ عَلَيْهِمْ حُجَّتَهُ ، وَنُبَيِّنُ لَهُمْ هِدَايَتَهُ (وَلَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ ، فَهُمْ يُشْرِكُونَ

بِهِ أرْبَابًا وَآلِهَةً مِنْ خَلْقِهِ ، يَذِلُّونَ أنْفُسَهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ ، وَهُمْ مَخْلُوقُونَ لِلَّهِ مِثْلُهُمْ أوْ أدْنَى مِنْهُمْ ، ثُمَّ صَرَّحَ لَهُمَا بِبُطْلَانِ مَا هُمَا عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ وَنَبَّهَهُمْ إلَى بُرْهَانِ التَّوْحِيدِ فَقَالَ :

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أأرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلَّا

أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

(الدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ بِبُرْهَانِهِ)

(201/396)

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ) أَضَافَهُمَا إِلَى السِّجْنِ بِمَعْنَى يَا سَاكِنَيِ السِّجْنِ، أَوْ بِمَعْنَى يَا صَاحِبَيَّ فِي السِّجْنِ. كَمَا قِيلَ: يَا سَارِقَ اللَّيْلَةِ أَهْلَ الدَّارِ. أَيْ سَارِقَهُمْ فِيهَا (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ) هَذَا اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ بَعْدَ تَخْيِيرٍ، وَمُقَدِّمَةٌ لِأَظْهَرِ بُرْهَانٍ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَكَانَ الْمِصْرِيُّونَ الْمُخَاطَبُونَ بِهِ يَعْبُدُونَ كَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ أَرْبَابًا مُتَفَرِّقِينَ فِي ذَوَاتِهِمْ، وَفِي صِفَاتِهِمُ الْمَعْنَوِيَّةِ يَنْعَتُونَهُمْ بِهَا، وَفِي صِفَاتِهِمُ الْحِسِّيَّةِ الَّتِي يُصَوِّرُهَا لَهُمُ الْكَهَنَةُ وَالرُّؤَسَاءُ بِالرُّسُومِ الْمَنْقُوشَةِ وَالتَّمَاثِيلِ الْمَنْصُوبَةِ فِي الْمَعَابِدِ وَالْهَيَاكِلِ، وَفِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يُسْنِدُونَهَا إِلَيْهِمْ بِزَعْمِهِمْ، فَهُوَ يَقُولُ لِصَاحِبَيْهِ: (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ) أَيْ عَدِيدُونَ، هَذَا شَأْنُهُمْ فِي التَّفَرُّقِ وَالِانْقِسَامِ، وَمَا يَقْتَضِيهِ بِطَبْعِهِ مِنَ التَّنَازُعِ وَالِاخْتِلَافِ فِي الْأَعْمَالِ، وَالتَّدْبِيرِ الْمُفْسِدِ لِلنِّظَامِ، هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا وَلِغَيْرِكُمَا مِنَ الْأَفْرَادِ وَالْأَقْوَامِ، فِيمَا تَطْلُبُونَ وَيَطْلُبُونَ مِنْ كَشْفِ الضُّرِّ وَجَلْبِ النَّفْعِ، وَكُلِّ مَا تَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى الْمَعُونَةِ وَالتَّوْفِيقِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ أَمِ

اللهُ الْوَاجِبُ الْوُجُودِ ، الْخَالِقُ

لِكُلِّ مَوْجُودٍ الْوَاحِدُ .

(202/396)

فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، الْمُنْفَرِدُ بِالْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّسْخِيرِ ، الَّذِي لَا يُنَازَعُ وَلَا يُعَارَضُ فِي التَّصَرُّفِ وَالتَّدْبِيرِ الْقَهَّارُ بِقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَإِرَادَتِهِ الْعَامَّةِ ، وَعِزَّتِهِ الْغَالِبَةِ ، لِجَمِيعِ الْقُوَى وَالسُّنَنِ وَالنَّوَامِيسِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا نِظَامُ الْعَوَالِمِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ ، كَالنُّورِ وَالْهَوَاءِ وَالْمَاءِ الظَّاهِرَةِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ الْبَاطِنَةِ ، الَّتِي كَانَ الْجَهْلُ بِحَقِيقَتِهَا ، وَسَبَبُ اخْتِلَافِ مَظَاهِرِهَا ، هُوَ سَبَبُ عِبَادَتِهَا وَالْقَوْلِ بِرُبُوبِيَّتِهَا . الْجَوَابُ الَّذِي لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ عَاقِلَانِ أَدْرَكَا السُّؤَالَ : (بَلْ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ : وَلِذَلِكَ رَتَّبَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ :

(203/396)

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ) أَيْ غَيْرَ هَذَا الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) مِنْ قَبْلِكُمْ، أَيْ وَضَعْتُمُوهَا لِمُسَمَّيَاتٍ نَحَلْتُمُوهَا صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وَأَعْمَالَ الرَّبِّ الْوَاحِدِ، فَاتَّخَذْتُمُوهَا أَرْبَابًا وَمَا هِيَ بِأَرْبَابٍ تَخْلُقُ، وَلَا تَرْزُقُ، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُدَبِّرُ وَلَا تَشْفَعُ، فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا مُسَمَّيَاتٍ لَهَا بِالْمَعْنَى الْمُرَادِ مِنْ لَفْظِ الرَّبِّ الْإِلَهِ الْمُسْتَحِقِّ لِلْعِبَادَةِ، حَتَّى يُقَالَ إِنَّهَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ خَيْرٌ (مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا) أَيْ بِتَسْمِيَتِهَا أَرْبَابًا عَلَى أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (مِنْ سُلْطَانٍ) أَيْ: أَيَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْبُرْهَانِ وَالْحُجَّةِ، فَيُقَالُ إِنَّكُمْ تَتَّبِعُونَهُ بِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ - تَعَالَى - مِنْهُ، تَعَبُّدًا لَهُ وَحْدَهُ وَطَاعَةً لِرُسُلِهِ، فَيَكُونُ اتِّبَاعُهَا أَوْ تَعْظِيمُهَا غَيْرَ مُنَافٍ لِتَوْحِيدِهِ، كَاسْتِلَامِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ عِنْدَ الطَّوَافِ بِالْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمَةِ، مَعَ الِاعْتِقَادِ بِأَنَّهُ حَجَرٌ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ - فَهِيَ تَسْمِيَةٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا مِنَ النَّقْلِ السَّمَاوِيِّ فَتَكُونُ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ، وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهَا مِنَ الْعَقْلِ فَتَكُونُ مِنْ نَتَائِجِ الْبُرْهَانِ.

وَأَقُولُ: إِنَّهُ لَمَّا قَامَتْ هَذِهِ الْحُجَّةُ عَلَى النَّصَارَى بِبُطْلَانِ ثَالُوثِهِمُ الَّذِي اتَّبَعُوا فِيهِ ثَالُوثَ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ وَالْهُنُودِ، ادَّعَوْا أَنَّ لَهُ أَصْلًا مِنَ الْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَوْ تَلَامِيذِهِ، وَأَنَّهُ بِهَذَا لَا يُنَافِي التَّوْحِيدَ، فَالثَّلَاثَةُ وَاحِدٌ وَالْوَاحِدُ ثَلَاثَةٌ، وَالَّذِي

حققه علماء الإفرنج المؤرخون تبعًا للمسلمين أنه لا أصل له من الوحي ، وأن كلمات الأب والابن وروح القدس لها معان عند الذين آمنوا بالمسيح في حياته ، هي غير المعاني الاصطلاحية عند كنائس الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت الجامعة لأكثر النصارى . والأحرار العقليون من نصارى الإفرنج يرفضونها كلهم ، وهم ملايين ولكن ليس لهم كنيسة جامعة ، وإنما يقولون في المسيح ما قرره الإسلام فيه وأكثرهم لا يعلمون ذلك ، ولو عرفوا حقيقة الإسلام لكانوا كلهم مسلمين ، ولكنهم سيعلمون ويسلمون اتباعًا ، كما أسلموا فطرة وعقلًا .

(إن الحكم إلا لله) أي ما الحكم الحق في الربوبية ، والعقائد والعبادات الدينية إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله ، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه ولا بعقله واستدلاله ، ولا باجتهاده واستحسانه ، فهذه القاعدة هي أساس دين الله - تعالى - على ألسنة جميع رسله ، لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة .

ثُمَّ بَيَّنَ أَوَّلَ أَصْلٍ بُنِيَ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَا يَجِبُ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ مَنْ عَرَفَهَا ، فَقَالَ : (أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) بَلْ إِيَّاهُ وَحْدَهُ فَادْعُوا وَاعْبُدُوا ، وَلَهُ وَحْدَهُ فَارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ فَتَوَجَّهُوا ، حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الرُّوحَانِيِّينَ ، وَلَا مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ الْحَاكِمِينَ ، وَلَا كَاهِنًا مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ ، وَلَا شَمْسًا وَلَا قَمَرًا ، وَلَا نَجْمًا وَلَا شَجَرًا ، وَلَا نَهْرًا مُقَدَّسًا كَالْكَنْجِ وَالنِّيلِ ، وَلَا حَيَوَانًا كَالْعِجْلِ أَبِيس ، فَالْمُؤْمِنُ الْمُوَحِّدُ لِلَّهِ لَا يَذِلُّ نَفْسَهُ بِالتَّعَبُّدِ لِغَيْرِ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ بِدُعَاءٍ وَلَا غَيْرِهِ ، لِإِيمَانِهِ بِأَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ الْمُدَبِّرُ الْمُسَخِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّ كُلَّ مَا عَدَاهُ خَاضِعٌ لِإِرَادَتِهِ وَسُنَنِهِ فِي أَسْبَابِ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ ، لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ غَيْرَ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الْقُوَى الَّتِي هِيَ قِوَامُ جِنْسِهِ وَمَادَّةُ حَيَاةِ شَخْصِهِ (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) 20 : 50 فَإِلَيْهِ وَحْدَهُ الْمَلْجَأُ فِي كُلِّ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْإِنْسَانُ أَوْ يَجْهَلُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ لِلْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْحِسَابِ (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) أَيِ الْحَقُّ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ مِنْ جَهَالَةِ الْوَثَنِيِّينَ ، الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ جَمِيعُ رُسُلِ اللهِ أَقْوَامَهُمْ وَمِنْهُمْ آبَائِي : إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ذَلِكَ

حَقَّ الْعِلْمِ ، لِاتِّبَاعِهِمْ أَهْوَاءَ آبَائِهِمُ الْوَثَنِيِّينَ ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَرْبَابًا مُتَفَرِّقَةً لَيْسَ لَهَا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ أَدْنَى نَصِيبٍ .

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الَّتِي بَيَّنَهَا الْقُرْآنُ فِي مِئَاتٍ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ تُتْلَى فِي السُّوَرِ الْكَثِيرَةِ بِالْأَسَالِيبِ الْبَلِيغَةِ ، صَارَ يَجْهَلُهَا كَثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ اتِّبَاعَ الْقُرْآنِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَجْهَلُ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ نَفْسِهِ ، فَيَتَوَجَّهُونَ إِلَى غَيْرِ اللهِ إِذَا مَسَّهُمُ الضُّرُّ أَوْ عَجَزُوا عَنْ بَعْضِ مَا يُحِبُّونَ مِنَ النَّفْعِ ، فَيَدْعُونَهُمْ خَاشِعِينَ رَاغِبِينَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَيُسَمُّونَهُمْ شُفَعَاءَ وَوَسَائِلَ عِنْدَ اللهِ ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُ مَعْنَى التَّوْحِيدِ وَلَكِنَّهُمْ يَجْهَلُونَ أَنَّ جَمِيعَ رُسُلِ اللهِ دَعَوْا إِلَيْهِ جَمِيعَ الْأُمَمِ ، زَاعِمِينَ أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ انْفَرَدَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَالرُّسُلُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ فَقَطْ ، كَمَا يَفْهَمُونَ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْإِفْرِنْجِ ، فَهُمْ يَكْتُبُونَ هَذَا فِي الصُّحُفِ وَفِي أَسْفَارِ التَّارِيخِ وَفِيمَا يُسَمُّونَهُ فَلْسَفَةَ الدِّينِ أَوْ فَلْسَفَةَ التَّفْكِيرِ ، فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْبَشَرَ نَشَئُوا عَلَى الْأَدْيَانِ الْوَثَنِيَّةِ حَتَّى كَانَ أَوَّلَ مَنْ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ إِبْرَاهِيمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ زُهَاءِ أَرْبَعَةِ آلَافِ سَنَةٍ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ بِتَصْرِيحِهِ أَنَّ

اللهَ - تَعَالَى - أَرْسَلَ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ رُسُلًا دَعَوْهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ أَوَّلُهُمْ نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَإِنَّ قَوْمَهُ كَانُوا أَوَّلَ مَنْ عَبَدَ الصَّالِحِينَ الْمَيِّتِينَ وَاتَّخَذُوا لَهُمُ الصُّوَرَ وَالْأَصْنَامَ، وَكَانَ الْبَشَرُ

(209/396)

قَبْلَهُمْ عَلَى الْفِطْرَةِ وَتَوْحِيدِ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

(فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمْ يَدْعُ صَاحِبَيْهِ فِي السِّجْنِ وَسَائِرَ مَنْ كَانَ مَعَهُمَا فِيهِ إِلَى غَيْرِ التَّوْحِيدِ مِنْ شَرْعِ آبَائِهِ فَمَا سَبَبُ ذَلِكَ ؟ (قُلْتُ) : إِنَّ أَهْلَ مِصْرَ كَانُوا أَصْحَابَ شَرِيعَةٍ تَامَّةٍ لَمْ يُبْعَثْ لِنَسْخِهَا وَلَا لِتَغْيِيرِهَا، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ سَمَاوِيَّةٌ، وَإِنَّمَا طَرَأَتِ الْوَثَنِيَّةُ عَلَى تَوْحِيدِهِمْ لِلَّهِ - تَعَالَى - وَأَحْدَثُوا تَقَالِيدَ خَيَالِيَّةً فِي الْبَعْثِ، فَهُوَ قَدْ دَعَاهُمْ إِلَى أَصْلِ الدِّينِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ جَمِيعُ رُسُلِ اللهِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْآخِرَةُ وَمَا فِيهَا مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، وَقَدْ طَرَأَ عَلَيْهَا عِنْدَهُمْ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفًا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ :

(210/396)

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) 37 يَعْنِي كُفْرَهُمْ بِأَنَّ الْجَزَاءَ يَكُونُ فِي عَالَمٍ آخَرَ بَعْدَ فَنَاءِ هَذِهِ الْأَجْسَادِ ، وَبَعْثَهُمْ فِي نَشْأَةٍ أُخْرَى لَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَمَا يَزْعُمُونَ ، وَعَقَائِدُهُمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مُدَوَّنَةٌ فِي التَّارِيخِ الْمَأْخُوذِ مِنْ آثَارِ الْفَرَاعِنَةِ ، وَأَشْهَرُهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يُحَنِّطُونَ أَجْسَادَهُمْ لِأَجْلِ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهَا الْحَيَاةُ الَّتِي فَارَقَتْهَا ، وَكَانَ مُلُوكُهُمْ يَحْفَظُونَ فِي أَهْرَامِهِمْ وَغَيْرِهَا مِنْ قُبُورِهِمْ حُلِيَّهُمْ وَحُلَلَهُمْ وَمَتَاعَهُمْ لِأَجْلِ أَنْ يَتَمَتَّعُوا بِهَا فِي النَّشْأَةِ الْأُخْرَى حَيْثُ يَعُودُونَ مُلُوكًا كَمَا كَانُوا ، فَهَذِهِ أَبَاطِيلُ طَرَأَتْ عَلَى الْعَقَائِدِ الْأَصْلِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ ، وَتَقَالِيدُهُ هَذِهِ مَنْقُوشَةٌ مِنْ مَوَاضِعَ مِنَ الْأَهْرَامِ وَتَوَابِيتِ الْمَوْتَى وَصَفَائِحِ الْقُبُورِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِنَعِيمِ الْعَوَامِّ ، وَمِنْهُ أَنَّهُمْ يَتَشَكَّلُونَ بِالصُّوَرِ الَّتِي يُحِبُّونَهَا . وَتَشَكُّلُ الْأَرْوَاحِ فِي الصُّوَرِ هُوَ الْأَصْلُ الْعِلْمِيُّ الْمَعْقُولُ لِعَقِيدَةِ الْبَعْثِ فِي هَيْكَلٍ أَثِيرِيٍّ يَلْبَسُ جَسَدًا كَثِيفًا كَالْجَسَدِ الدُّنْيَوِيِّ كَمَا رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ – رَحِمَهُ اللهُ – وَمِنْهُ مَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ مِنْ تَشَكُّلِ أَرْوَاحِ الشُّهَدَاءِ فِي صُوَرِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ التَّشَكُّلُ عَلَى أَكْمَلِهِ فِي الْجَنَّةِ ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْ خَيْرِ أَهْلِهَا .

وَأَمَّا الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ وَهُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَتَرْكُ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، فَكَانَ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَكْتَفِي مِنْهُ بِمَا كَانَ خَيْرَ قُدْوَةٍ فِيهِ كَمَا عُلِمَ مِنْ قِصَّتِهِ فِي بَيْتِ وَزِيرِ الْبِلَادِ وَفِي السِّجْنِ ثُمَّ فِي إِدَارَتِهِ لِأُمُورِ الْمُلْكِ ، وَكَانَ يُقِرُّهُمْ عَلَى سَائِرِ شَرِيعَتِهِمْ كَمَا سَيَأْتِي فِي احْتِيَالِهِ عَلَى أَخْذِ أَخِيهِ الشَّقِيقِ بِمُقْتَضَى شَرِيعَتِهِمُ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ بِقَوْلِ اللهِ - تَعَالَى - : (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) 76 . الْخَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 250.256 ﴾

(212/396)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

استيناف ابتدائي مصدر بتوجيه الخطاب إلى الفتيين بطريق النداء المسترعي سمعهما إلى ما يقوله للاهتمام به .

وعبّر عنهما بوصف الصحبة في السجن دون اسميهما إمّا لجهل اسميهما عنده إذ كانا قد دخلا السجن معه في تلك الساعة قبل أن تطول المعاشرة بينهما وبينه ، وإما للإيذان بما حدث من الصلة بينهما وهي صلة المماثلة في الضراء الإلف في الوحشة ، فإن الموافقة في

الأحوال صلة تقوم مقام صلة القرابة أو تفوقها .

واتفق القراء على كسر سين ﴿ السِّجن ﴾ هنا بمعنى البيت الذي يسجن فيه المعاقبون ، لأن الصاحب لا يضاف إلى السجن إلا بمعنى المكان .

والإضافة هنا على تقدير حرف الظرفية ، مثل : مكر الليل ، أي يا صاحبيْن في السجن .

وأراد بالكلام الذي كلّمهما به تقريرهما بإبطال دينهما ، فالاستفهام تقريري .

وقد رَتّب لهما الاستدلال بوجه خطابي قريب من أفهام العامة ، إذ فرض لهما إلهاً واحداً مستفرداً بالإلهية كما هو حال ملته التي أخبرهم بها .

وفرض لهما آلهة متفرقين كل إله منهم إنما يتصرف في أشياء معينة من أنواع الموجودات تحت سلطانه لا يعدوها إلى ما هو من نطاق سلطان غيره منهم ، وذلك حال ملة القبط .

ثم فرض لهما مفاضلة بين مجموع الحالين حال الإله المنفرد بالإلهية والأحوال المتفرقة للآلهة المتعددين ليصل بذلك إلى إقناعهما بأن حال المنفرد بالإلهية أعظم وأغنى ، فيرجعان عن اعتقاد تعدد الآلهة .

وليس المراد من هذا الاستدلال وجود الحالين في الإلهية والمفاضلة بين أصحاب هذين الحالين لأن المخاطبين لا يؤمنون بوجود الإله الواحد .

هذا إذا حمل لفظ ﴿ خير ﴾ على ظاهر المتعارف منه وهو التفضيل بين مشتركات في

صفة.

ويجوز أن يكون ﴿ خير ﴾ مستعملاً في معنى الخير عند العقل، أي الرجحان والقبول.

(213/396)

والمعنى: اعتقاد وجود أرباب متفرقين أرجح أم اعتقاد أنه لا يوجد إلا إله واحد، ليستنزل بذلك طائر نظرهما واستدلالهما حتى ينجلي لهما فساد اعتقاد تعدد الآلهة، إذ يتبين لهما أن أرباباً متفرقين لا يخلو حالهم من تطرق الفساد والخلل في تصرفهم، كما يومىء إليه وصف التفرق بالنسبة للتعدد ووصف القهار بالنسبة للوحدانية.

وكانت ديانة القبط في سائر العصور التي حفظها التاريخ وشهدت بها الآثار ديانة شِرك، أي تعدد الآلهة.

وبالرغم على ما يحاوله بعض المؤرخين المصريين والإفرنج من إثبات اعتراف القبط بإله واحد وتأويلهم لهم تعدد الآلهة بأنها رموز للعناصر فإنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا إلا أن هذا الإله هو معطي التصرف للآلهة الأخرى.

وذلك هو شأن سائر أديان الشرك، فإن الشرك ينشأ عن مثل ذلك الخيال فيصبح تعدد آلهة.

والأممُ الجاهلة تتخيل هذه الاعتقادات من تخيلات نظام ملوكها وسلاطينها وهو النظام الإقطاعي القديم.

نعم إن القبط بنوا تعدد الآلهة على تعدد القوى والعناصر وبعض الكواكب ذات القوى.

ومثلهم الإغريق فهم في ذلك أحسن حالاً من مشركي العرب الذين ألّهوا الحجارة.

وقصارى ما قسموه في عبادتها أن جعلوا بعضها آلهة لبعض القبائل كما قال الشاعر:

وفرّت ثقيف إلى لاتها

وأحسن حالاً من الصابئة الكلدانيين والأشوريين الذين جعلوا الآلهة رموزاً للنجوم والكواكب.

وكانت آلهة القبط نحواً من ثلاثين رباً أكبرها عندهم آمون رُعْ.

ومن أعظم آلهتهم ثلاثة أخر وهي: أوزوريس، وأزيس، وهوروس.

فلله بلاغة القرآن إذ عبر عن تعددها بالتفرق فقال: ﴿ أأربابٌ متفرقون ﴾ [سورة يوسف: 39].

وبعد أن أثار لهما الشك في صحة إلهيّة آلهتهم المتعددين انتقل إلى إبطال وجود تلك الآلهة على الحقيقة بقوله : ما تَعبدون من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ ، يعني أن تلك الآلهة لا تحقق لحقائقها في الوجود الخارجي بل هي توهّمات تخيّلوها .

ومعنى قصرها على أنها أسماء قصراً إضافياً ، أنها أسماء لا مسميا تٍ لها فليس لها في الوجود إلا أسماؤها .

وقوله : ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ جملة مفسرة للضمير المرفوع في ﴿ سميتموها ﴾ .

والمقصود من ذلك الردّ على آبائهم سدّاً لمنافذ الاحتجاج لأحقيتها بأن تلك الآلهة معبودات آبائهم ، وإدماجاً لتلقين المعذرة لهما ليسهل لهما الإقلاع عن عبادة آلهة متعددة .

وإنزال السلطان : كناية عن إيجاد دليل إلهيتها في شواهد العالم .

والسلطانُ : الحجة .

وجملة ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ إبطال لجميع التصرفات المزعومة لآلهتهم بأنها لا حكم لها فيما زعموا أنه من حكمها وتصرفها .

وجملة ﴿ أمَرَ أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ انتقال من أدلة إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية إلى التعليم بامتثال أمره ونهيه ، لأن ذلك نتيجة إثبات الإلهية والوحدانية له ، فهي بيان لجملة ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ من حيث ما فيها من معنى الحكم .

وجملة ﴿ ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ خلاصة لما تقدم من الاستدلال ، أي ذلك الدين لا غيرُه مما أنتم عليه وغيركم .

وهو بمنزلة رد العجز على الصدر لقوله : ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله إلى لا يشكرون ﴾ [سورة يوسف : 38] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(215/396)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

وكلمة " صاحب " معناها ملازم ؛ والجامع بين يوسف والسجينين هو السجن ، ونحن نقول " فلان صاحب الدراسة " أو " صاحب حج " ، الشيء الذي يربط بين اثنين أو أكثر ، إما أن تنسبه للمكان ، أو تنسبه إلى الظرف الذي جمع بين تلك المجموعة من الصحبة .

وطرح يوسف السؤال :

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار ﴾ [يوسف : 39] وحين تطرح سؤالاً عبر مقابل لك ، فأنت تعلم مُقدّماً أنه يفهم أن أرباباً متفرقون ليسوا خيراً من إله واحد ،

وكأن يوسف قد وَثِق من أن إجابتهما لن تكون إلا بقولهم " بل عبادة إله واحد خير " .

وهو لم يكنْ ليسأل إلاَّ إذا عرف أنهما سيُديرانِ كل الأجوبة ؛ فلا يجدان جواباً إلا الجواب الذي أراده .

فهما قد عبدا آلهة متعددة ؛ وكان المفروض في مقاييس الأشياء أن تُغنِيكم تلك الآلهة عن اللجوء لمن يعبد الإله الواحد .

إذن : في قُوَى البشر نجد التعدد يُثْرِي ويُضخِّم العمل ، لكن في الألوهية نجد الشرك يُضعِف العمل .

ولذلك نجد الصوفي يقول : اعمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه . ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبي السجن :

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ . . . ﴾ [يوسف : 39] .

ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ ذواتٍ لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ تَكرار لما كان لهذا التكرار لزوم ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّق اختصاصات ، فهذا يعني أن لكل منهم نقطةَ قوة ونقاطَ ضعف ؛ وتفرُّقهم هذا دليل نقص .

ولذلك رحمنا الحق نحن المؤمنين به لنعبد إلهاً واحداً ، فقال : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحمد للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 29] .

وقد حاول يوسف عليه السلام أن يهديهم إلى عباد الإله الواحد ، وقال لهم من بعد ذلك ما جاء به الحق سبحانه : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ . . . ﴾ .

ونلحظ أن يوسف عليه السلام لم يتكلم حتى الآن مع السجينين عن مطلوبهما منه ، وهو تأويل الرُّؤيَتَيْنِ ، وهو لو تكلم في المطلوب منه أولاً ؛ لانصرف ذِهْن وانتباه كُلٍّ من السجينين إلى قضاء حاجتهما منه ؛ ولن يلتفتا بعد ذلك إلى ما يدعو إليه ؛ ولأن الذي يدعو إليه هو الأمر الأبقى ، وهو الأمر العام الذي يتعلق بكل حركة من حركات الحياة .

وبذلك كان يوسف عليه السلام يؤثر السجينين ؛ فقد أراد أن يلفتهما إلى الأمر الجوهري قبل أن يتحدث عن الجزئية الصغيرة التي يسألانِ فيها ؛ وأراد أن يُصحِّح نصرة الاثنين إلى المنهج العام الذي يدير به الإنسان كل تفاصيل الحياة وجزئياتها ؛ وفي هذا إيثار لا أثرة .

وهنا قال الحق سبحانه على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم . . . ﴾ [يوسف : 40] .

أي : أن ما تعبدونه من آلهة مُتعدّدة هو مُجرَّد عبادة لأسماء بلا معنى ولا وجود ؛ أسماء ورثتموها عن آبائكم أو أنشأتموها أنتم ، فكفرتُمْ بإنشاء أسماء لآلهة غير موجودة ، كما كفر

آباؤكم كُفْر نسيان التكليف أو إنكار التكليف .

وتُوضع الأسماء عادةً للدلالة على المُسَمَّى ؛ فإذا نطقنا الاسم تجيء صورة المسمى إلى الذِّهْن ؛ ولذلك نسمي المولود بعد ولادته باسم يُميِّزه عن بقية إخوته ؛ بحيث إذا أُطلِق الاسم انصرف إلى الذات المشخصة .

وإذا أُطلق اسم واحد على متعددين ؛ فلا بد أن يوضح واضع الاسم ما يميز كل ذات عن الأخرى .

والمَثل من الريف المصري ؛ حين يتفاءل أب باسم " محمد " ؛ فيسمِّي كل أولاده بهذا الاسم ، ولكنه يُميِّز بينهم بأن يقول : " محمد الكبير " و " محمد الأوسط " و " محمد الصغير " .

(217/396)

أما إذا وُضِع اسم لمُسمَّى غير موجود ؛ فهذا أمر غير مقبول أو معقول ، وهم قد وضعوا أسماء لآلهة غير موجودة ؛ فصارت هناك أسماء على غير مُسمَّى .

ويأتي هؤلاء يوم القيامة ؛ لِيُسألوا لحظة الحساب : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الكَافِرِينَ ﴾ [غافر : 73-74] .

وهكذا يعترف هؤلاء بأنه لم تَكُنْ هناك آلهة ؛ بل كان هنا أسماء بلا مُسمَّيات .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ ﴾ [يوسف : 40] . وكأن يوسف يتساءل : ءَإذا كانت لكم حاجة تطلبونها من السماء ، هل ستسألون الاسم الذي لا مُسمَّى له ؟

وهل يسعفكم الاسم بدون مُسمَّى ؟

ويوسف عليه السلام يعلم أن المعبود لا يمكن أن يكون اسماً بلا مُسمَّى ، وهو يعلم أن المعبود الحق له اسم يبلغه لرسله ، ويُنزِل معهم المنهج الذي يوجز في " افعل " و " لا تفعل " .

وهم قد سموا أسماء لا مُسمَّى لها ، ولا يستطيع غير الموجود أن يُنزِل منهجاً ، أو يُجيب مضطراً .

ولذلك يتابع القرآن ما جاء على لسان يوسف عليه السلام في وَصْف تلك الأسماء التي بلا مُسمَّيات ، فيقول :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف : 40] .

أي : ما أنزل الله بها من حجة .

وتتابع الآية الكريمة ما جاء على لسان يوسف :

﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ . . . ﴾ [يوسف : 40] .

(218/396)

أي : إنني والكلام ليوسف إن قلتُ شيئاً فلأنّي ناقلٌ للحكم عن الله ، لا عن ذاتي ؛ ولا من عندي ؛ ولا عن هواي ؛ لأنه هو سبحانه الذي أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، أي : لا تطيعوا أمراً أو نهياً إلا ما أنزله الله في منهجه الهادي للحق والخير .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة :

﴿ ذلك الدين القيم ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 40] .

أي : أن هذا هو الدين المستقيم دون سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بمعنى : أن الرسل قد بلَّغتهم بالمنهج ، ولكنهم لم يُوظِّفوا هذا العلم في أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(219/396)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن قتادة رضي الله عنه في الآية . قال لما عرف نبي الله يوسف عليه السلام إن أحدهما مقتول ، دعاهما إلى حظهما من ربهما وإلى نصيبهما من آخرتهما .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ يا صاحبي السجن ﴾ يوسف يقوله .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أبي العالية رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ قال : أسس الدين على الإخلاص لله وحده ولا شريك له .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ قال العدل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(220/396)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ياصاحبي السجن ﴾: يجوز أن يكون من باب الإِضافة للظرف، إذ الأصل يا صاحبي في السجن. ويجوز أن تكون من باب الإِضافة إلى المشبه بالمفعول به، والمعنى: يا ساكني السجن كقوله: ﴿ أَصْحَابُ النار ﴾ [البقرة: 39].

قوله ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ [يوسف: 38] يجوز أن يكون مصدراً، أي: شيئاً من الإِشراك. ويجوز أن يكون واقعاً على المُشْرَك، أي: ما كان لنا أَنْ نُشْرك شيئاً غيرَه مِنْ مَلَك وإنْسِيّ وجني فكيف بصنم؟ و "مِنْ" مزيدة على التقديرين لوجودِ الشرطين.

قوله: ﴿ أَمِ الله ﴾ هنا متصلةٌ عطفت الجلالة على "أرباب".

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ أَسْمَآءً ﴾: إمَّا أن يُراد بها المُسَمَّيات أو على حذف مضاف، أي: ذوات لمُسَمَّيات. و "سَمَّيْتموها" صفةٌ، وهي متعدية لاثنين حُذِف ثانيهما، أي: سَمَّيْتموها آلهة و "ما أنزل" صفةٌ ل "أسماء" و "مِنْ" زائدة في "منْ سلطان"، أي: حُجَّة. و "إنِ الحكم": "إنْ" نافية. ولا يجوز الإِتباعُ لضمة الحاء كقوله: قالتُ اخْرُجْ" ونحوه، لأنَّ الألف واللامَ كلمةٌ مستقلة فهي فاصلةٌ بينهما.

قوله: ﴿ أَمَرَ أَلاَّ ﴾ يجوز في "أَمَر" أن يكون مستأنفاً، وهو الظاهر، وأن يكون حالاً و "قد" معه مرادةٌ عند بعضهم. قال أبو البقاء: "وهو ضعيفٌ لضعف العامل فيه" قلت:

يعني بالعامل ما تضمَّنه الجارُّ في قوِله : "إلا للَّه" من الاستقرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 498.497 ﴾

(221/396)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

التَّثَبُّتُ في الجواب دون التسرع من أمارات أهل المكارم ، كيوسف عليه السلام وعدهما أن يجيبهما ولم يُسْرِعْ الإجابةَ في الوقت .

ويقال لمَّا أَخَّرَ الإجابة عَلَّقَ قلوبهما بالوعد ؛ وإذا لم يكن نَقْدٌ فليكن وَعْدٌ .

ويقال لمَّا فاتحوه بسؤالهم قدَّم على الجواب ما اقترحه عليهما من كلمة التوحيد فقال : ﴿ ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي إِنّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ . . . ﴾ .

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

ولما فرَغ من تفسير التوحيد ، والدعاء إلى الحق سبحانه أجابهما فقال :

﴿ ياصاحبي السجن أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ

أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الحكم إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلك الدين القيم ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

هكذا كاد يوسف عليه السلام ألا يسكتَ حين أخذ في شرح التوحيد وذكر المعبود ، وفي الخبر : " مَنْ أحبَّ شيئاً أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 186.185 ﴾

(222/396)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾

معنى ﴿ بَدَا لَهُمْ ﴾ ظهر لهم ، والضمير للعزيز وأصحابه الذين يدبرون الأمر معه ويشيرون عليه ، وأما فاعل ﴿ بَدَا لَهُمْ ﴾ فقال سيبويه : هو ﴿ ليسجننه ﴾ أي : ظهر لهم أن يسجنوه .

قال المبرد : وهذا غلط ؛ لأن الفاعل لا يكون جملة ، ولكن الفاعل ما دلّ عليه ﴿ بدا ﴾ وهو المصدر كما قال الشاعر :

وحق لمن أبو موسى أبوه . . . يوفقه الذي نصب الجبالا

أي وحقّ الحقّ ، فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه .

وقيل : الفاعل المحذوف هو أي : وظهر لهم رأي لم يكونوا يعرفونه من قبل ، وهذا الفاعل حذف لدلالته ﴿ ليسجننه ﴾ عليه ، واللام في ليسجننه جواب قسم محذوف على تقدير القول ، أي : ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين : والله ليسجننه ، وقرىء " لتسجننه " بالمثناة الفوقية على الخطاب ، إما للعزيز ومن معه ، أو له وحده على طريق التعظيم ، والآيات : قيل : هي القميص وشهادة الشاهد وقطع الأيدي ، وقيل : هي البركات التي فتحها الله عليهم بعد وصول يوسف إليهم ولم يجد ذلك فيهم بل كانت امرأته هي الغالبة على رأيه ، الفاعلة لما يطابق هواها في يوسف ، وإنفاذ ما تقدّم منها من الوعيد له بقولها : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءامُرُهُ بِهِ * لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مّن الصاغرين ﴾ قيل : وسبب ظهور هذا الرأي لهم في سجن يوسف أنهم أرادوا ستر القالة ، وكتم ما شاع في الناس من قصة امرأة العزيز معه .

وقيل : إن العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته ، لما علم أنها قد صارت بمكان من حبه لا تبالي معه بحمل نفسها عليه على أيّ صفة كانت ، ومعنى قوله : ﴿ حتى حِينٍ ﴾ إلى مدّة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين .

وقيل : إلى انقطاع ما شاع في المدينة .

وقال سعيد ابن جبير : إلى سبع سنين ، وقيل : إلى خمس ، وقيل : إلى ستة أشهر ، وقد تقدّم في البقرة الكلام على تفسير الحين .

وحتى بمعنى إلى .

قوله : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانَ ﴾ في الكلام حذف متقدّم عليه ، والتقدير : وبدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين فسجنوه ، ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ ، ومع للمصاحبة ، وفتيان تثنية فتى ، وذلك يدّل على أنهما عبدان له ، ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً ، وقد قيل : إن أحدهما خباز الملك ، والآخر ساقيه ، وقد كانا وضعا للملك سما لما ضمن لهما أهل مصر مالاً في مقابلة ذلك ، ثم إن الساقي رجع عن ذلك وقال للملك : لا تأكل الطعام فإنه مسموم ، وقال الخباز : لا تشرب فإن الشراب مسموم ، فقال الملك للساقي : اشرب فشرب فلم يضرّه ، وقال للخباز كل فأبى ، فجرّب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما ، وكان دخولهما السجن مع دخول يوسف ، وقيل : قبله ، وقيل : بعده .

قال ابن جرير : إنهما سألا يوسف عن علمه فقال : إني أعبر الرؤيا ، فسألاه عن رؤياهما

كما قص الله سبحانه : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أي : رأيتني ، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة .

والمعنى : إني أراني أعصر عنباً ، فسماه باسم ما يئول إليه لكونه المقصود من العصر .

وفي قراءة ابن مسعود "أعصر عنباً" .

قال الأصمعي : أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب ، فقال له : ما معك ؟ فقال خمر .

وقيل : معنى ﴿ أعصر خمراً ﴾ أي : عنب خمر ، فهو على حذف المضاف ، وهذا الذي رأى هذه الرؤيا هو الساقي ، وهذه الجملة مستأنفة بتقدير سؤال ، وكذلك الجملة التي بعدها وهي ﴿ وَقَالَ الآخر إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا ﴾ ثم وصف الخبز هذا بقوله : ﴿ تَأْكُلُ الطير مِنْهُ ﴾ وهذا الرائي لهذه الرؤيا هو الخباز ، ثم قالا ليوسف جميعاً بعد أن قصا رؤياهما عليه ﴿ نَبّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي : بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرئيين ، أو بتأويل المذكور لك من كلامنا ؛ وقيل : إن كل واحد منهما قال له ذلك عقب قصّ رؤياه عليه ، فيكون الضمير راجعاً إلى ما رآه كل واحد .

منهما ؛ وقيل : إن الضمير في بتأويله موضوع موضع اسم الإشارة ، والتقدير بتأويل ذلك ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : من الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، وكذا قال الفراء : إن معنى ﴿ من المحسنين ﴾ من العالمين الذين أحسنوا العلم ، وقال ابن إسحاق : من المحسنين إلينا إن فسرت ذلك ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، فقد روي أنه كان ذلك .

(225/396)

وجملة ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، ومعنى ذلك أنه يعلم شيئاً من الغيب ، وأنه لا يأتيهما إلى السجن طعام إلاّ أخبرهما بماهيته قبل أن يأتيهما ، وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه ، بل جعله عليه السلام مقدّمة قبل تعبيره لرؤياهما بياناً لعلوّ مرتبته في العلم ، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظنّ وتخمين ، فهو كقول عيسى عليه السلام ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ ﴾ [آل عمران : 49] وإنما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر ، ومعنى ﴿ ترزقانه ﴾ يجري عليهما من جهة الملك أو غيره ، والجملة صفة لطعام ، أو يرزقكما الله سبحانه ، والاستثناء بقوله : ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ مفرّغ من أعمّ الأحوال : أي : لا

يأتيكما طعام في حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما أي : بينت لكما ماهيته وكيفيته قبل أن يأتيكما ، وسماه تأويلاً بطريق المشاكلة ؛ لأن الكلام في تأويل الرؤيا ، أو المعنى : إلا نبأتكما بما يؤول إليه الكلام من مطابقة ما أخبركما به للواقع .

(226/396)

والإشارة بقوله : ﴿ ذلكما ﴾ إلى التأويل ، والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِى رَبّى ﴾ بما أوحاه إليّ وألهمني إياه : لا من قبيل الكهانة والتنجيم ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ ، ثم بين لهما أن ذلك الذي ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم الجمة هو بسبب ترك الملة التي لا يؤمن أهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملة الأنبياء من آبائه فقال : ﴿ إِنّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله ﴾ وهو كلام مستأنف يتضمن التعليل لما قبله ، والمراد بالترك : هو عدم التلبس بذلك من الأصل ، لا أنه قد كان تلبس به ، ثم تركه كما يدلّ عليه قوله : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بالله ﴾ ثم وصف هؤلاء القوم بما يدلّ على تصلبهم في الكفر وتهالكهم عليه .

فقال : ﴿ وَهُمْ بالاخرة هُمْ ﴾ أي : هم مختصون بذلك دون غيرهم لإفراطهم في الكفر بالله .

وقوله : ﴿ واتبعت ﴾ معطوف على ﴿ تركت ﴾ ، وسماهم آباء جميعاً ؛ لأن الأجداد آباء ، وقدّم الجدّ الأعلى ، ثم الجدّ الأقرب ، ثم الأب لكون إبراهيم هو أصل هذه الملة التي كان عليها أولاده ، ثم تلقاها عنه إسحاق ، ثم يعقوب ، وهذا منه عليه السلام لترغيب صاحبيه في الإيمان بالله ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ ﴾ أي : ما صحّ لنا ذلك فضلاً عن وقوعه ، والضمير في ﴿ لنا ﴾ له وللأنبياء المذكورين ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الإيمان المفهوم من قوله : ما كان لنا أن نشرك بالله ، و ﴿ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ خبر اسم الإشارة أي : ناشىء من تفضلات الله علينا ولطفه بنا بما يجعله لنا من النبوّة المتضمنة للعصمة عن معاصيه ، ومن فضل الله على الناس كافة ببعثة الأنبياء إليهم وهدايتهم إلى ربهم ، وتبيين طرائق الحق لهم ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ الله سبحانه على نعمه التي أنعم بها عليهم ، فيؤمنون به ويوحدونه ، ويعملون بما شرعه لهم .

(227/396)

قوله : ﴿ ياصاحبى السجن ءأَرْبَابٌ مُّتَّفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار ﴾ جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه ، وقيل : المراد يا صاحبي في السجن ؛ لأن السجن ليس بمصحوب فيه ، وأن ذلك من باب يا سارق الليلة ، وعلى الأوّل يكون من باب قوله :

﴿ أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ [الأعراف : 42] ﴿ أصحاب النار ﴾ [المائدة : 29] والاستفهام للإنكار مع التقريع والتوبيخ .

ومعنى التفرّق هنا هو التفرّق في الذوات والصفات والعدد أي : هل الأرباب المتفرقون في ذواتهم ، المختلفون في صفاتهم ، المتنافون في عددهم خير لكما يا صاحبي السجن ، أم الله المعبود بحق ، المتفرّد في ذاته وصفاته ، الذي لا ضدّ له ولا ندّ ولا شريك ، القهار الذي لا يغالبه مغالب ، ولا يعانده معاند ؟

أورد يوسف عليه السلام على صاحبي السجن هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام ، لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام .

وقد قيل : إنه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب ، ولهذا قال لهما : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أي : إلا أسماء فارغة سميتموها ولا مسميات لها ، وإن كنتم تزعمون أن لها مسميات ، وهي الآلهة التي تعبدونها ، لكنها لما كانت لا تستحق التسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لا مسميات لها .

وقيل: المعنى ما تعبدون من دون الله إلاّ مسميات أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم من تلقاء أنفسكم، وليس لها من الإلهية شيء إلاّ مجرد الأسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضرّ؛ وإنما قال: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ على خطاب الجمع، وكذلك ما بعده من الضمائر؛ لأنه قصد خطاب صاحبي السجن ومن كان على دينهم، ومفعول سميتموها الثاني محذوف أي: سميتموها آلهة من عند أنفسكم ﴿ مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا ﴾ أي: بتلك التسمية ﴿ مِّن سلطان ﴾ من حجة تدلّ على صحتها ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ أي: ما الحكم إلا لله في العباد، فهو الذي خلقكم وخلق هذه الأصنام التي جعلتموها معبودة بدون حجة ولا برهان، وجملة ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ مستأنفة، والمعنى: أنه أمركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون أنه معبود، ثم بين لهم أن عبادته وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره، فقال: ﴿ ذلك ﴾ أي: تخصيصه بالعبادة ﴿ الدين القيم ﴾ أي: المستقيم الثابت ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك هو دينه القويم، وصراطه المستقيم، لجهلكم وبعدكم عن الحقائق.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات ﴾ فقال: ما سألني عنها أحد قبلك، من الآيات قد القميص، وأثرها في جسده، وأثر السكين، وقالت امرأة العزيز: إن أنت لم تسجنه ليصدقنه الناس.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال : من الآيات كلام الصبي .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : الآيات حزّهنّ أيديهنّ ، وقدّ القميص .

(229/396)

وأقول : إن كان المراد بالآيات : الآيات الدالة على براءته فلا يصح عدّ قطع أيدي النسوة منها ؛ لأنه وقع منهن ذلك لما حصل لهن من الدهشة عند ظهوره لهن مع ما ألبسه الله سبحانه من الجمال ، الذي تنقطع عند مشاهدته عرى الصبر ، وتضعف عند رؤيته قوى التجلد ، وإن كان المراد : الآيات الدالة على أنه قد أعطي من الحسن ما يسلب عقول المبصرين ، ويذهب بإدراك الناظرين ، فنعم يصح عدّ قطع الأيدي من جملة الآيات ، ولكن ليس هذه الآيات هي المرادة هنا .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : عوقب يوسف ثلاث مرات : أما أوّل مرة فبالحبس لما كان من همّه بها ، والثانية لقوله : ﴿ اذكرنى عِندَ رَبّكَ ﴾ ﴿ فَلَبِثَ فِى السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ عوقب بطول الحبس ، والثالثة حيث قال : ﴿ أَيَّتُهَا العير إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ فاستقبل في وجهه : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا ﴾ خازن الملك على طعامه ، والآخر ساقيه على شرابه .

وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ قال : عنباً .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ قال : عبارته .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ قال : كان إحسانه فيما ذكر لنا أنه كان يعزّي حزينهم ، ويداوي مريضهم . ورأوا منه عبادة واجتهاداً فأحبوه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في الشعب عن الضحاك قال : كان إحسانه أنه إذا مرض إنسان في السجن قام عليه ، وإذا ضاق عليه المكان أوسع له ، وإذا احتاج جمع له .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : دعا يوسف لأهل السجن فقال : اللهمّ لا تعمّ عليهم الأخبار ، وهوّن عليهم مرّ الأيام .

وأخرج أبو عبيد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله : ﴿ لاَ

يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ ﴾ الآية ، قال : كره العبارة لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريهما أن عنده علماً ، وكان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معلوماً فأرسل به إليه ، فقال يوسف : ﴿ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ فلم يدعه صاحبا الرؤية حت يعبر لهما ، فكره العبارة فقال : ﴿ يا صاحبى السجن ءأَرْبَابٌ مُّتَفَرّقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ قال : إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله ، ويشكر ما بالناس من نعم الله ، وذكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول : يا ربّ شاكر نعمة غير منعم عليه لا يدري ، ويا ربّ حامل فقه غير فقيه .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ ءأَرْبَابٌ مُّتَفَرّقُونَ ﴾ الآية ، قال : لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما إلى حظهما من ربهما ، وإلى نصيبهما من آخرتهما .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج في قوله : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ قال : العدل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والتسعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/397)

الجزء السابع والتسعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 41 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 49 ﴾ من نفس السورة

(4/397)

قوله تعالى ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم نصحه وعلا قدحه بإلقائه إليهما ما كان أهمّ لهما لو علما لمآله إلى الحياة الأبدية والرفعة السرمدية .

أقبل على حاجتهما تمكيناً لما ذكره وتأكيداً للذي قرره ، فناداهما بالأداة الدالة على أن ما بعدها كلام له موقع عظيم لتجتمع أنفسهما لسماع ما يلقى إليهما من التعبير ، فقال :

﴿ ياصاحبي السجن ﴾ أي الذي تزول فيه الحظوظ ويحصل الانكسار للنفس والرقة في

القلب فتتخلص فيه المودة.

ولما كان في الجواب ما يسوء الخباز، أبهم ليجوّز كل واحد أنه الفائز، فإن ألجأه إلى التعيين كان ذلك عذراً له في الخروج عن الأليق فقال: ﴿أما أحدكما﴾ وهو الساقي فيلخص ويقرب ﴿فيسقي ربه﴾ أي سيده الذي في خدمته ﴿خمراً﴾ كما كان ﴿وأما الآخر﴾ وهو الخباز.

ولما كان الذي له قوة أن يصلب إنما هو الملك، بنى للمفعول قوله: ﴿فيصلب﴾ ويعطب ﴿فتأكل﴾ أي فيتسبب عن صلبه أنه تأكل ﴿الطير من رأسه﴾ والآية من الاحتباك: ذكر ملزوم السلامة والقرب أولاً دليلاً على العطب ثانياً، وملزوم العطب ثانياً دليلاً على السلامة أولاً، وسيأتي شرح تعبيره من التوراة، فكأنه قيل: انظر جيداً ما الذي تقول! وروى أنهما قالا: ما رأينا شيئاً، إنما كنا نلعب، فقال مشيراً بصيغة البناء للمفعول إلى عظمة الله وسهولة الأمور عليه: ﴿قضي الأمر﴾ وبينه بقوله: ﴿الذي فيه﴾ أي لا في غيره ﴿تستفتيان﴾ أي تطلبان الإفتاء فيه عملاً بالفتوة، فسألتما عن تأويله، وهو تعبير رؤياكما كذبتما أو صدقتما، لم أقله عن جهل ولا غلط.

وما أحسن إيلاء هذا العلم الثابت لختم الآية السالفة بنفي العلم عن الأكثر ، والأحد : المختص من المضاف إليه بمبهم له مثل صفة المضاف ، ولا كذلك " البعض " فلا يصدق : رأيت أحد الرجلين - ألا برجل منهما ، بخلاف " بعض " والفتيا : الجواب بحكم المعنى ، وهو غير الجواب بعلته - ذكره الرماني .

ولعل رؤيتهما تشيران إلى ما تشير إليه رؤيا الملك ، فالعصير يشير إلى السنابل الخضر والبقر السمان ، لأنه لا يكون إلا عن فضل ، والخبز - الذي طارت به الأطيار ، وسارت بروح صاحبه الأقدار -يشير إلى اليابسة والعجاف - والله أعلم .

ولما كان كل علم بالنسبة إلى علم الله عدماً ، عبر عن علمه بالظن ، ويمكن أن يكون الظن على بابه لكونه قال ما مضى اجتهاداً بقرائن فيؤخذ منه أنه يسوغ الجزم بما أدى إلى ظن ، فقال : ﴿ وقال ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ للذي ظن ﴾ مع الجزم بأنه أراد به العلم لقوله : ﴿ قضى الأمر ﴾ ، ويجوز أن يكون ضمير " ظن " للساقي ، فهو حينئذ على بابه ﴿ أنه ناج منهما ﴾ وهو الساقي ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ أي سيدك ملك مصر ، بما رأيت مني من معالي الأخلاق وطهارة الشيم الدالة على بعدي مما رُميت به ، والمراد بالرب هنا غير المراد به في قوله :

﴿ أرباب متفرقون ﴾ [يوسف : 39] .

فنجا الساقي وصلب صاحبه وفق ما قال لهما يوسف عليه الصلاة والسلام

﴿ فأنساه ﴾ أي الساقي ﴿ الشيطان ﴾ أي البعيد من الرحمة المحترق باللعنة ﴿ ذكر ﴾ يوسف عليه الصلاة والسلام عند ﴿ ربه ﴾ أي بسبب اعتماده عليه في ذلك (1) ﴿ فلبث ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام بسبب هذا النسيان ﴿ في السجن ﴾ من حين دخل إلى أن خرج ﴿ بضع سنين ﴾ ليعلم أن جميع الأسباب إنما أثرها بالله تعالى ، وحقيقة البضع من الثلاث إلى التسع ، والمروي هنا أنه كان سبعاً .

---

(1) لله در الإمام البقاعى ، فهذا هو الصحيح والراجح .إن شاء الله .خلافا لكثير من المفسرين الذين زعموا أن الضمير فى قوله ﴿ فأنساه ﴾ يعود على يوسف .عليه السلام. وعدوا ذلك ذنبا فعاقبه تعالى بلبثه فى السجن بضع سنين ، والحق الذى لا ريبة فيه أن يوسف .عليه السلام. برىء من هذا الاتهام ومتى غفل عن ذكر ربه طرفة عين ؟ ؟ ! ! ! ، ولو تمهلوا قليلا لأدركوا عدم صحة ما توهموه ، فيوسف .عليه السلام. هو الذى قال ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾

ولما جاءه رسول الملك لم يسارع بالخروج من السجن بل قال ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾

ومتى كان للشيطان سبيلا على الأنبياء وقد قال الله تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) ﴾ . والله أعلم .

ذكر ما مضى من هذه القصة من التوراة

قال بعد ما مضى : فأهبط المدينيون يوسف إلى مصر ، فاشتراه قوطيفر الأمير صاحب شرطة فرعون – رجل مصري – من يد الأعراب الذين أهبطوه إلى هناك ، فكان الرب سبحانه وتعالى بعونه مع يوسف ، وكان رجلاً منجحاً ، وأقام في منزل المصري سيده ، فرأى سيده أن الرب بعونه معه ، وأن الرب ينجح جميع أفعاله ، فظفر يوسف منه برحمة ورأفة فخدمه ، وسلطه على بيته ، وخوله جميع ما له ، ومن اليوم الذي سلطه على بيته وخوله جميع ما له بارك الرب في بيت المصري من أجل يوسف وفي سببه ، فحلَّت بركة الرب في جميع ما له في البيت والحقل ، فخول كل شيء له ، ولم يكن يعلم بشيء مما له في يده لثقته به ما خلا الخبز الذي كان يأكله ، وكان يوسف حسن المنظر صبيح الوجه .

فلما كان بعد هذه الأمور لحت امرأة سيده بنظرها إلى يوسف فقالت له : ضاجعني : فأبى ذلك وقال لامرأة سيده : إن سيدي لثقته بي ليس يعلم ما في بيته ، وقد سلطني على جميع ما له ، وليس في هذا البيت أعظم مني ، ولم يمنعني شيئاً ما خلاك أنت لأنك امرأته ، فكيف أرتكب هذا الشر العظيم ، فأخطئ بين يدي الله ، وإذا كانت تراوده كل يوم لم يطعها

ليضاجعها ويصير معها ، فبينا هو ذات يوم دخل يوسف إلى البيت ليعمل عملاً ، ولم يكن أحد من أهل البيت هناك ، فتعلقت بقميصه وقالت له : ضاجعني ، فترك قميصه في يدها وهرب ، فخرج إلى السوق ، فلما رأت أنه قد ترك قميصه في يدها وخرج هارباً إلى السوق ، دعت بأهل بيتها وقالت لهم : انظروا ، إنه أتانا رجل عبراني ليفضحنا ، لأنه دخل عليّ يريد مضاجعتي ، وهتفت بصوت عال ، فلما رآني قد رفعت صوتي وهتفت ، ترك قميصه في يدي وهرب إلى السوق .

فصيرت قميصه عندها حتى دخل سيدها البيت ، فقالت : له مثل هذه الأقاويل : دخل عليّ هذا العبد العبراني الذي جلبته علينا يريد يفضحني ، فلما رفعت صوتي فصحت ترك قميصه في يدي وهرب فخرج إلى السوق ؛ فلما سمع سيده كلام امرأته استشاط غيظاً ، فأمر به سيده فقذف في الحبس الذي كان أسرى الملك فيه محبوسين فمكث هناك في السجن ، وكان الرب يبصره ، ورزقه المحبة والرحمة ، وألقى له في قلب السجان رحمة ، فولى يوسف جميع المسجونين الذين في الحبس ، وكل فعل كانوا يفعلونه هناك كان عن أمره ، ولم يكن رئيس السجن يضرب على يديه في شيء ، لأن الرب كان بعونه معه ، وكل شيء

كان يفعله ينجحه الرب .

فلما كان بعد هذه الأمور ، أذنب صاحب شراب ملك مصر والخباز – وفي نسخة موضع الخباز : ورئيس الطباخين – بين يدي سيدهما ملك مصر ، فغضب فرعون على خادميه : على رئيس أصحاب الشراب ورئيس الخبازين – وفي نسخة : الطباخين – فأمر بحبسهما في سجن صاحب الشرط في الحبس الذي كان فيه يوسف ، فسلط صاحب السجن يوسف عليهما فخدمهما ، فلبثا في السجن أياماً ، فرأيا رؤيا جميعاً ، كل واحد منهما رئيا بكل في ليلة واحدة ، وكل واحد منهما أحب تعبير حلمه ، : الساقي وخباز – وفي نسخة : وطباخ – ملك مصر ، فدخل عليهما يوسف بالغداة ، فرآهما عابسين مكتئبين فسألهما وقال : ما بالكما يومكما هذا عابسي مكتئبين ؟ فقالا له : إنا رأينا رؤيا وليس لها معبر ، فقال لهما يوسف : إن علم التعبير عند الله ، قصا عليّ .

(8/397)

فقص رئيس أصحاب الشراب على يوسف وقال له : إني رأيت في الرؤيا كأن حبلة بين يدي ، في الحبلة ثلاثة قضبان ، فبينا هي كذلك إذ فرعت ونبت ورقها ، وأينعت عناقيدها ، فصارت عنباً ، وكأن كأس فرعون في يدي ، فتناولت من العنب ، فعصرته في كأس فرعون

، وناولت الكأس فرعون ، فقال له يوسف عليه السلام : هذا تفسير رؤياك : الثلاثة قضبان هي ثلاثة أيام ، ومن بعد ثلاثة أيام يذكرك فرعون فيردك على عملك ، وتناول فرعون الكأس في يده على العادة الأولى التي لم تزل تسقيه ، فاذكرني حينئذ إذا أنعم عليك ، وأنعم عليّ بالنعمة والقسط ، فاذكرني بين يدي فرعون ، وأخرجني من هذا الحبس ، لأني إنما سرقت من أرض العبرانين سرقة ، وحصلت في الحبس ها هنا أيضاً بلا جرم جاء مني .

فرأى رئيس الخبازين - وفي نسخة : الطباخين - أنه قد فسر تفسيراً حسناً فقال يوسف : رأيت أنا أيضاً في منامي كأن ثلاثة أطباق فيها خبز درمك على رأسي ، وفي الطبق الأعلى من كل ما كل فرعون مما يصنعه الخباز - وفي نسخة : عمل طباخ حاذق - وكان السباع والطير تأكلها من الطبق من فوق رأسي ؛ فأجاب يوسف وقال له : هذا تفسير رؤياك : ثلاثة أطباق هي ثلاثة أيام ، وبعد ثلاثة أيام يأمر فرعون بضرب عنقك وصلبك على خشبة ، ويأكل الطير لحمك .

فلما كان اليوم الثالث - وهو يوم ولاد فرعون - اتخذ فرعون وليمة ، فجمع عبيده وافتقد رئيس أصحاب الشراب ورئيس الخبازين - وفي نسخة : الطباخين - فأمر برد رئيس أصحاب الشراب على موضعه ، وسقى فرعون الكأس كعادته ، وأمر بصلب رئيس الخبازين كالذي فسر لهما يوسف عليهما الصلاة والسلام ، فلم يذكر رئيس أصحاب

الشراب يوسف عليه الصلاة والسلام ونسيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 46.43 ﴾

(9/397)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في سبب لبث يوسف في السجن :

ومن الإسرائيليات ما يذكره بعض المفسرين في مدة سجن يوسف عليه السلام وفي سبب لبثه في السجن بضع سنين ، وذلك عند تفسير قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف : الآية 42] .

فقد ذكر ابن جرير ، والثعلبي ، والبغوي ، وغيرهم أقوالا كثيرة في هذا ، فقد قال وهب بن منبه : أصاب أيوب البلاء سبع سنين ، وترك يوسف في السجن سبع سنين ، وعذب بختنصر فحول في السباع سبع سنين 1 .

وقال مالك بن دينار : لما قال يوسف للساقي : اذكرني عند ربك . قيل له : يا يوسف

اتخذت من دوني وكيلا ، لأطيلن حبسك ، فبكى يوسف ، وقال : يا رب ، أنسى قلبي كثرة البلوى فقلت كلمة ، ولن أعود .

وقال الحسن البصري : دخل جبريل عليه السلام على يوسف في السجن فلما رآه يوسف عرفه ، فقال له : يا أخا المنذرين ، إني أراك بين الخاطئين ؟ ! فقال له جبريل : يا طاهر يا ابن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ، ويقول لك : أما استحيت مني أن استشفعت بالآدميين ؟ ! فوعزتي وجلالي لألبثنك في السجن بضع سنين ، فقال يوسف : وهو في ذلك عني راضٍ ؟ قال : نعم ، قال : إذاً لا أبالي .

---

1 لا أدري ما المناسبة بين نبي الله ، وبختنصر الذي أذل اليهود وسباهم ؟

وقال كعب الأحبار : قال جبريل ليوسف : إن الله تعالى يقول : من خلقك ؟ قال : الله عز وجل . قال : فمن حبَّبَك إلى أبيك ؟ قال : الله ، قال : فمن نجاك من كرب البئر ؟ قال : الله ، قال : فمن علمك تأويل الرؤيا ؟ قال : الله ، قال : فمن صرف عنك السوء ، والفحشاء ؟ قال : الله ، قال : فكيف استشفعت بآدمي مثلك ؟ 1 ، فلما انقضت سبع سنين قال الكلبي : وهذه السبع سوى الخمسة2 التي قبل ذلك جاء الفرج من الله ، فرأى

الملك ما رأى من الرؤيا العجيبة ، وعجز الملأ عن تفسيرها ، تذكر الساقي يوسف وصدق تعبيره للرؤى ، فذهب إلى يوسف ، فعبرها له خير تعبير ، فكان ذلك سبب نجاته من السجن ، وقول امرأة العزيز : ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

وأغلب الظن عندي : أن هذا من الإسرائيليات ، فقد صورت سجن يوسف على أنه عقوبة من الله لأجل الكلمة التي قالها ، مع أنه عليه السلام لم يقل هجرا ، ولا منكرا ، فالأخذ في أسباب النجاة العادية ، وفي أسباب إظهار البراءة والحق ، لا ينافي قط التوكل على الله تعالى ، والبلاء للأنبياء ليس عقوبة ، وإنما هو لرفع درجاتهم ، وليكونوا أسوة وقدوة لغيرهم ، في باب الابتلاء ، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أشد الناس بلاء الأنبياء ، فالأمثل ، فالأمثل" .

وقد روى ابن جرير ههنا حديثا مرفوعا فقال : حدثنا ابن وكيع قال : حدثنا عمرو بن محمد ، عن إبراهيم بن يزيد ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس مرفوعًا ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "لو لم يقل -يعني يوسف- الكلمة التي قالها ما لبث في السجن طول ما لبث ، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله" .

ولو أن هذا الحديث كان صحيحا أو حسنا : لكان للمتمسكين بمثل هذه الإسرائيليات التي أظهرت سيدنا يوسف بمظهر الرجل المذنب المدان وجهة ، ولكن الحديث شديد

الضعف ، لا يجوز الاحتجاج به أبدا .

---

1 تفسير البغوي : ج4 ص 444 ، 445 .

2 بعض المفسرين لا يكتفي بالسبع بل يضم إليها خمسا قبل ذلك ولا أدري ما مستنده في هذا ؟ وظاهر القرآن لا يشهد له ولو كان كذلك لصرح به القرآن ، أو لأشار إليه .

(11/397)

قال الإمام الحافظ الناقد : ابن كثير : "وهذا الحديث ضعيف جدا" 1 ؛ لأن سفيان بن وكيع الراوي عنه ابن جرير ضعيف ، وإبراهيم بن يزيد أضعف منه أيضا ، وقد روى عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما ، وهذه المرسلات ههنا لا تقبل2 ، ولو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن ، والله أعلم3" وقد تكلف بعض المفسرين للإجابة عما يدل عليه هذا الحديث ، وحاله كما سمعت بل تكلف بعضهم ، فجعل الضمير في : "فأنساه" ليوسف وهو غير صحيح ، والذي يجب أن نعتقده أن يوسف عليه الصلاة والسلام مكث في السجن كما قال الله تعالى بضع سنين .

والبضع : من الثلاث إلى التسع ، أو إلى العشر من غير تحديد للمدة ، فجائز أن تكون سبعا ، وجائز أن تكون تسعا ، وجائز أن تكون خمسا ، ما دام ليس هناك نقل صحيح عن المعصوم

صلى الله عليه وسلم وكذلك : نعتقد أنه لم يكن عقوبة على كلمة وإنما هو بلاء ورفعة درجة ثم كيف يتفق هذا الحديث الضعيف هو وما روي عن النبي في الصحيحين عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " . . . ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي" وفي لفظ للإمام أحمد : "لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 229 . 231 ﴾

---

1 الضعيف جداً لا يحتج به لا في الأحكام ولا في الفضائل فما بالك في مثل هذا ؟

2 لأن المرسل احتج به بعض الفقهاء أما في مثل الذي فيه إدانة بعض الأنبياء ، وإلقاء اللوم عليه فلا .

3 تفسير ابن كثير : ج 4 ص 448 .

(12/397)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

اعلم أنه عليه السلام لما قرر أمر التوحيد والنبوة عاد إلى الجواب عن السؤال الذي ذكراه ،

والمعنى ظاهر ، وذلك لأن الساقي لما قص رؤياه على يوسف ، وقد ذكرنا كيف قص عليه قال له يوسف : ما أحسن ما رأيت أما حسن العنبة فهو حسن حالك ، وأما الأغصان الثلاثة فثلاثة أيام يوجه إليك الملك عند انقضائهن فيردك إلى عملك فتصير كما كنت بل أحسن ، وقال للخباز : لما قص عليه بئسما رأيت السلال الثلاث ثلاثة أيام يوجه إليك الملك عند انقضائهن فيصلبك وتأكل الطير من رأسك ، ثم نقل في التفسير أنهما قالا ما رأينا شيئاً فقال : ﴿ قُضِيَ الأمر الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَان ﴾ واختلف فيما لأجله قالا ما رأينا شيئاً فقيل إنهما وضعا هذا الكلام ليختبرا علمه بالتعبير مع أنهما ما رأيا شيئاً وقيل : إنهما لما كرها ذلك الجواب قالا ما رأينا شيئاً .

فإن قيل : هذا الجواب الذي ذكره يوسف عليه السلام ذكره بناء على الوحي من قبل الله تعالى أو بناء على علم التعبير ، والأول باطل لأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نقل أنه إنما ذكره على سبيل التعبير ، وأيضاً قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ [يوسف : 42] ولو كان ذلك التعبير مبنياً على الوحي لكان الحاصل منه القطع واليقين لا الظن والتخمين ، والثاني : أيضاً باطل لأن علم التعبير مبني على الظن والحسبان .

الجواب : لا يبعد أن يقال : إنهما لما سألاه عن ذلك المنام صدقا فيه أو كذبا فإن الله تعالى أوحى إليه أن عاقبة كل واحد منهما تكون على الوجه المخصوص ، فلما نزل الوحي بذلك الغيب عند ذلك السؤال وقع في الظن أنه ذكره على سبيل التعبير ، ولا يبعد أيضاً أن يقال : إنه بنى ذلك الجواب على علم التعبير ، وقوله : ﴿ قُضِيَ الأمر الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ما عنى به أن الذي ذكره واقع لا محالة بل عنى به أنه حكمه في تعبير ما سألاه عنه ذلك الذي ذكره .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في أن الموصوف بالظن هو يوسف عليه السلام أو الناجي فعلى الأول كان المعنى وقال الرجل الذي ظن يوسف عليه السلام كونه ناجياً ، وعلى هذا القول وجهان : الأول : أن تحمل هذا الظن على العلم واليقين ، وهذا إذا قلنا بأنه عليه السلام إنما ذكر ذلك التعبير بناء على الوحي .

قال هذا القائل وورود لفظ الظن بمعنى اليقين كثير في القرآن .

قال تعالى : ﴿ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : 46] وقال : ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى ملاق حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : 20] والثاني : أن تحمل هذا الظن على حقيقة الظن ، وهذا

إذا قلنا إنه عليه السلام ذكر ذلك التعبير لا بناء على الوحي ، بل على الأصول المذكورة في ذلك العلم ، وهي لا تفيد إلا الظن والحسبان .

والقول الثاني : أن هذا الظن صفة الناجي ، فإن الرجلين السائلين ما كانا مؤمنين بنبوة يوسف ورسالته ، ولكنهما كانا حسني الاعتقاد فيه ، فكان قوله لا يفيد في حقهما إلا مجرد الظن .

المسألة الثانية :

قال يوسف عليه السلام لذلك الرجل الذي حكم بأنه يخرج من الحبس ويرجع إلى خدمة الملك ﴿ اذكرنى عِندَ رَبّكَ ﴾ أي عند الملك .

(14/397)

والمعنى : اذكر عنده أنه مظلوم من جهة إخوته لما أخرجوه وباعوه ، ثم إنه مظلوم في هذه الواقعة التي لأجلها حبس ، فهذا هو المراد من الذكر .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَنسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبّهِ ﴾ وفيه قولان : الأول : أنه راجع إلى يوسف ، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه ، وعلى هذا القول ففيه وجهان : أحدهما : أن تمسكه بغير الله كان مستدركاً عليه ، وتقريره من وجوه : الأول : أن مصلحته كانت في

أن لا يرجع في تلك الواقعة إلى أحد من المخلوقين وأن لا يعرض حاجته على أحد سوى الله ، وأن يقتدي بجده إبراهيم عليه السلام ، فإنه حين وضع في المنجنيق ليرمى إلى النار جاءه جبريل عليه السلام وقال : هل من حاجة ، فقال أما إليك فلا ، فلما رجع يوسف إلى المخلوق لا جرم وصف الله ذلك بأن الشيطان أنساه ذلك التفويض ، وذلك التوحيد ، ودعاه إلى عرض الحاجة إلى المخلوقين ، ثم لما وصفه بذلك ذكر أنه بقي لذلك السبب في السجن بضع سنين ، والمعنى أنه لما عدل عن الانقطاع إلى ربه إلى هذا المخلوق عوقب بأن لبث في السجن بضع سنين ، وحاصل الأمر أن رجوع يوسف إلى المخلوق صار سبباً لأمرين : أحدهما : أنه صار سبباً لاستيلاء الشيطان عليه حتى أنساه ذكر ربه ، الثاني : أنه صار سبباً لبقاء المحنة عليه مدة طويلة .

الوجه الثاني : أن يوسف عليه السلام قال في إبطال عبادة الأوثان ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

[يوسف : 39] ثم إنه ههنا أثبت رباً غيره حيث قال : ﴿ اذكرني عِندَ رَبِّكَ ﴾ ومعاذ الله أن يقال إنه حكم عليه بكونه رباً بمعنى كونه إلهاً ، بل حكم عليه بالربوبية كما يقال : رب الدار ، ورب الثوب على أن إطلاق لفظ الرب عليه بحسب الظاهر يناقض نفي الأرباب .

الوجه الثالث : أنه قال في تلك الآية ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، وذلك نفي للشرك على الإطلاق ، وتفويض الأمور بالكلية إلى الله تعالى ، فههنا الرجوع إلى غير الله تعالى كالمناقض لذلك التوحيد .

واعلم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فهذا وإن كان جائزاً لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب .

الوجه الثاني : في تأويل الآية أن يقال : هب أنه تمسك بغير الله وطلب من ذلك الساقي أن يشرح حاله عند ذلك الملك ، إلا أنه كان من الواجب عليه أن لا يخلي ذلك الكلام من ذكر الله مثل أن يقول إن شاء الله أو قدر الله فلما أخلاه عن هذا الذكر وقع هذا الاستدراك .

القول الثاني : أن يقال إن قوله : ﴿ فَأَنسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ راجع إلى الناجي والمعنى : أن الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر يوسف للملك حتى طال الأمر ﴿ فَلَبِثَ فِى السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ بهذا السبب ، ومن الناس من قال القول الأول أولى لما روي عنه عليه السلام قال : " رحم الله يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك ما لبث في السجن " وعن قتادة أن يوسف عليه السلام عوقب بسبب رجوعه إلى غير الله ، وعن إبراهيم التيمي أنه لما انتهى إلى باب السجن قال له صاحبه : ما حاجتك قال : أن تذكرني عند رب سوى الرب الذي

قال يوسف ، وعن مالك لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك قيل : يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال : طول البلاء أنساني ذكر المولى فقلت هذه الكلمة فويل لإخوتي .

(16/397)

قال مصنف الكتاب فخر الدين الرازي رحمه الله ، والذي جربته من أول عمري إلى آخره أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة ، والشدة والرزية ، وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين ، فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى وإحسانه ومن الناس من رجح القول الثاني لأن صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل أولى من صرفها إلى يوسف الصديق ، ولأن الاستعانة بالعباد في التخلص من الظلم جائزة .

واعلم أن الحق هو القول الأول وما ذكره هذا القائل الثاني تمسك بظاهر الشريعة وما قرره القائل الأول تمسك بأسرار الحقيقة ومكارم الشريعة ، ومن كان له ذوق في مقام العبودية

وشرب من مشرب التوحيد عرف أن الأمر كما ذكرناه ، وأيضاً ففي لفظ الآية ما يدل على أن هذا القول ضعيف ، لأنه لو كان المراد ذلك لقال فأنساه الشيطان ذكره لربه .

المسألة الثالثة :

الاستعانة بغير الله في دفع الظلم جائزة في الشريعة لا إنكار عليه إلا أنه لما كان ذلك مستدركاً من المحققين المتوغلين في بحار العبودية لا جرم صار يوسف عليه السلام مؤاخذاً به ، وعند هذا نقول : الذي يصير مؤاخذاً بهذا القدر لأن يصير مؤاخذاً بالإقدام على طلب الزنا ومكافأة الإحسان بالإساءة كان أولى فلما رأينا الله تعالى آخذه بهذا القدر ، ولم يؤاخذه في تلك القضية ألبتة ، وما عابه بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء علمنا أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية إليه .

المسألة الرابعة :

الشيطان يمكنه إلقاء الوسوسة ، وأما النسيان فلا ، لأنه عبارة عن إزالة العلم عن القلب ، والشيطان لا قدرة له عليه ، وإلا لكان قد أزال معرفة الله تعالى عن قلوب بني آدم .

وجوابه : أنه يمكنه من حيث إنه بوسوسته يدعو إلى سائر الأعمال واشتغال الإنسان بسائر الأعمال يمنعه عن استحضار ذلك العلم وتلك المعرفة .

المسألة الخامسة :

قوله : ﴿ فَلَبِثَ فِى السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ فيه بحثان :

البحث الأول : بحسب اللغة قال الزجاج : اشتقاقه من بضعت بمعنى قطعت ومعناه القطعة من العدد قال الفراء : ولا يذكر البضع إلا مع عشرة أو عشرين إلى التسعين وذلك يقتضي أن يكون مخصوصاً بما بين الثلاثة إلى التسعة ، وقال هكذا رأيت العرب يقولون وما رأيتهم يقولون بضع ومائة ، وروى الشعبي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه : "كم البضع " قالوا الله ورسوله أعلم قال : " ما دون العشرة " واتفق الأكثرون على أن المراد ههنا ببضع سنين ، سبع سنين قالوا : إن يوسف عليه السلام حين قال لذلك الرجل : ﴿ اذكرنى عِندَ رَبّكَ ﴾ كان قد بقي في السجن خمس سنين ثم بقي بعد ذلك سبع سنين .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما تضرع يوسف عليه السلام إلى ذلك الرجل كان قد اقترب وقت خروجه فلما ذكر ذلك لبث في السجن بعده سبع سنين ، وروي أن الحسن روى قوله صلوات الله عليه وسلامه : " رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها لما لبث في السجن هذه المدة الطويلة " ثم بكى الحسن وقال : نحن إذا نزل بنا أمر تضرعنا إلى الناس .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 114. 117 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يا صاحبي السجين أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾

وهو الذي قال : إني أراني أعصر خمراً ، بشره بالنجاة وعوده إلى سقي سيده خمراً لأنه كان ساقيه .

﴿ وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ وهو الذي قال ﴿ إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ﴾ فأنذره بالهلكة وكان خباز الملك ، قال ابن جرير : وكان اسمه مجلثاً ، واسم الساقي نبواً . فلما سمع الهالك منهما تأويل رؤياه قال : إنما كنا نلعب .

قال ﴿ قُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : قضي السؤال والجواب .

الثاني : سيقضى تأويله ويقع .

فإن قيل : فكيف قطع بتأويل الرؤيا وهو عنده ظن من طريق الاجتهاد الذي لا يقطع فيه ؟

ففيه وجهان :

أحدهما : يجوز أن يكون قاله عن وحي من الله تعالى .

الثاني : لأنه نبي يقطع بتحقيق ما أنطقه الله تعالى وأجراه على لسانه ، بخلاف من ليس بنبي .

قوله عز وجل : ﴿ وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك ﴾

فيه قولان : أحدهما : يعني للذي علم أنه ناج ، فعبر عن العلم بالظن ، قاله ابن شجرة .

الثاني : أنه ظن ذلك من غير يقين .

وفي ظنه وجهان :

أحدهما : لأن عبارة الرؤيا بالظن فلذلك لم يقطع به ، قاله قتادة .

الثاني : أنه لم يتيقن صدقهما في الرؤيا فكان الظن في الجواب لشكه في صدقهما .

﴿ اذكرني عند ربك ﴾ أي عند سيدك يعني الملك الأكبر الوليد بن الريان تأميلاً للخلاص إن ذكره عنده .

﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربِّه ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الذي نجا منهما أنساه الشيطان ذكر يوسف عند سيده حتى رأى الملك الرؤيا قاله محمد بن إسحاق .

الثاني : أن يوسف أنساه الشياطن ذكر ربه في الاستغاثة به والتعويل عليه .

روى أبو سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال : اذكرني عند ربك ما لبث في السجن ما لبث

" . ﴿ فلبث في السِّجن بضع سنين ﴾ قال ابن عباس : عوقب يوسف بطول السجن بضع سنين لما قال للذي نجا منهما اذكرني عند ربك ، ولو ذكر يوسف ربه لخلصه . وفي " البضع "أربعة أقاويل :

أحدها : من ثلاث إلى سبع ، وهذا قول أبي بكر الصديق وقطرب .

الثاني : من ثلاث إلى تسع ، قاله مجاهد والأصمعي .

الثالث : من ثلاث إلى عشر ، قاله ابن عباس .

الرابع : ما بين الثلاث إلى الخمس ، حكاه الزجاج .

قال الفراء : والبِضع لا يذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين ، ولا يذكر بعد المائة .

وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجوناً ثلاثة أقاويل :

أحدها : سبع سنين ، قاله ابن جريج وقتادة .

الثاني : أنه لبث اثنتي عشرة سنة ، قاله ابن عباس .

الثالث : لبث أربعة عشرة سنة ، قاله الضحاك ، وإنما البضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله .

وقال وهب : حبس يوسف سبع سنين ، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين .

قال الكلبي : حبس سبع سنين بعد الخمس السنين التي قال فيها ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(20/397)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اُذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّك فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾

(21/397)

الظَّنُّ هَهُنَا بِمَعْنَى الْيَقِينِ ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ يَقِينًا وُقُوعَ مَا عَبَّرَ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إنِّي ظَنَنْت أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ وَمَعْنَاهُ أَيْقَنْت وَقَوْلُهُ ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ﴾ هَذِهِ الْهَاءُ تَعُودُ عَلَى يُوسُفَ عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ إسْحَاقَ " عَلَى السَّاقِي " وَفِيهِ بَيَانُ أَنَّ لَبْثَهُ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ إنَّمَا كَانَ ؛ لِأَنَّهُ سَأَلَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ

الْملكِ وكَانَ ذَلكَ مِنْهُ عَلَى جِهَةِ الْغَفْلَةِ ، فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ عَلَى مَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَنْسَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذِكْرَ رَبِّهِ يَعْنِي ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّ الْأَوْلَى كَانَ فِي تِلْكَ الْحَالِ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ وَلَا يَشْتَغِلَ بِمَسْأَلَةِ النَّاجِي مِنْهُمَا أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ صَاحِبِهِ فَصَارَ اشْتِغَالُهُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ سَبَبًا لِبَقَائِهِ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ، وَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَنْسَى السَّاقِيَ فَلِأَنَّ يُوسُفَ لَمَّا سَأَلَ السَّاقِيَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنْ اللَّهِ تَوْفِيقٌ لِلسَّاقِي وَخَلَّاهُ وَوَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ وَخَوَاطِرَهُ حَتَّى أَنْسَاهُ ذِكْرُ رَبِّهِ أَمْرَ يُوسُفَ ، وَأَمَّا الْبِضْعُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ " هُوَ مِنْ الثَّلَاثَةِ إلَى الْعَشْرِ " وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ " إلَى التِّسْعِ " وَقَالَ وَهْبٌ لَبِثَ سَبْعَ سِنِينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(22/397)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا صَاحِبَيْ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : رُوِيَ أَنَّ الْفَتَيَيْنِ لَمَّا صَحِبَاهُ فِي السِّجْنِ وَكَلَّمَاهُ ، وَرَأَيَا فَضْلَهُ وَأَدَبَهُ وَفَهْمَهُ

سَأَلَاهُ عَنْ الَّذِي قَالَا إِنَّهُمَا رَأَيَاهُ مِنْ أَمْرِ الْخَمْرِ وَالْخُبْزِ ، فَأَعْرَضَ يُوسُفُ عَنْهُمَا ، وَأَخَذَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ يَتَكَلَّمُ فِيهِ مَعَهُمَا ، فَقَالَ لَهُمَا : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ وَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ كَانَ قَدْ عَلَّمَهُ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا ، وَذَلِكَ بَيِّنٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ يَعْنِي مَا يَكُونُ سَبَبًا لِظُهُورِ بَرَاءَتِهِ وَمَنْزِلَتِهِ ، وَقَدْ كَانَ أَطْلَعَهُ مِنْ الْغُيُوبِ عَلَى مَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ الْبَوَاطِنِ ، حَتَّى رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ الْمَلِكُ إذَا أَرَادَ إهْلَاكَ أَحَدٍ أَرْسَلَ إلَيْهِ طَعَامًا مَسْمُومًا ، فَلَمَّا سَأَلَاهُ عَمَّا رَأَيَا فِي الْمَنَامِ مِنْ أَمْرِ الطَّعَامِ أَعْلَمَهُمَا أَنَّهُ يُخْبِرُهُمَا بِحَالِ كُلِّ طَعَامٍ يَأْتِيهِمَا فِي الْيَقَظَةِ وَالْمَنَامِ ، وَأَقْبَلَ يُبَيِّنُ لَهُمَا حَالَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ الْحَقِّ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُ مِنْ قَبْلِهِ كَذَلِكَ ، وَنَصَبَ لَهُمَا الْأَدِلَّةَ ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى تَأْوِيلِ مَا رَأَيَا ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُمَا بِالتَّأْوِيلِ نَدِمَا عَلَى مَا فَعَلَا ، وَقَالَا : كَذَبْنَا .

(23/397)

فَقَالَ لَهُمَا يُوسُفُ : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : وَمَنْ كَذَبَ فِي رُؤْيَا فَفَسَّرَهَا الْعَابِرُ لَهُ ، أَيَلْزَمُهُ حُكْمُهَا ؟ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ :

قُلْنَا : لَا يَلْزَمُهُ ؛ وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ فِي يُوسُفَ ؛ لِأَنَّهُ نَبِيٌّ .

وَقَدْ قَالَ : إنَّهُ يَكُونُ كَذَا وَيَقَعُ كَذَا ، فَأَوْجَدَ اللَّهُ مَا أَخْبَرَ كَمَا قَالَ ؛ تَحْقِيقًا لِنُبُوَّتِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّمَا مَخْرَجُ كَلَامِ يُوسُفَ فِي أَنَّهُ يَكُونُ كَذَا إِنْ كَانَا رَأَيَاهُ .

قُلْنَا : ذَلِكَ جَائِزٌ ؛ وَلَكِنْ الْفَتَيَانِ أَرَادَا اخْتِبَارَهُ بِذَلِكَ ، فَحَقَّقَ اللَّهُ قَوْلَهُ [آيَةً] ، وَقَابَلَ الْهَزْلَ بِالْجِدِّ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ ، قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي رَأَيْت كَأَنِّي أَعْشَبْت ، ثُمَّ أَجْدَبْت ، ثُمَّ أَعْشَبْت ، ثُمَّ أَجْدَبْت .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَنْتَ رَجُلٌ تُؤْمِنُ ، ثُمَّ تَكْفُرُ ، ثُمَّ تُؤْمِنُ ، ثُمَّ تَكْفُرُ ، ثُمَّ تَمُوتُ كَافِرًا .

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : مَا رَأَيْت شَيْئًا .

فَقَالَ عُمَرُ : قَدْ قُضِيَ لَك مَا قُضِيَ لِصَاحِبِ يُوسُفَ .

قُلْنَا : لَيْسَتْ لِأَحَدٍ بَعْدَ عُمَرَ ؛ لِأَنَّ عُمَرَ كَانَ مُحَدَّثًا ، وَكَانَ إِذَا ظَنَّ ظَنًّا كَانَ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِهِ وَقَعَ عَلَى مَا وَرَدَ فِي أَخْبَارِهِ ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ ؛ مِنْهَا : أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ : أَظُنُّك كَاهِنًا ، فَكَانَ كَمَا ظَنَّ خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ .

(24/397)

وَمِنْهَا : أَنَّهُ سَأَلَ رَجُلًا عَنْ اسْمِهِ ، فَقَالَ لَهُ أَسْمَاءً فِيهَا النَّارُ كُلُّهَا ، فَقَالَ لَهُ : أَدْرِكْ أَهْلَك فَقَدْ احْتَرَقُوا ؛ فَكَانَ كَمَا قَالَ .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: هَاهُنَا نُكْتَةٌ بَدِيعَةٌ: وَهِيَ أَنَّ يُوسُفَ وَإِنْ كَانَ قَالَ لَهُمَا ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اُذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّك ﴾ فَكَيْفَ يَقُولُ قُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ يَجْعَلُ نَجَاتَهُ ظَنًّا ؟

وَأَجَابَ عَنْهُ النَّاسُ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: قَالُوا: إنَّمَا أَخْبَرَ عَنْهُ بِالظَّنِّ؛ لِأَنَّ تَفْسِيرَ الرُّؤْيَا لَيْس بِقَطْعٍ، وَإِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ، وَهَذَا بَاطِلٌ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي حَقِّ النَّاسِ، فَأَمَّا فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ فَلَا؛ فَإِنَّ حُكْمَهُمْ حَقٌّ كَيْفَمَا وَقَعَ.

الثَّانِي: إنَّ ظَنَّ هَاهُنَا بِمَعْنَى أَيْقَنَ وَعَلِمَ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ أَحَدُهُمَا مَوْضِعَ الْآخَرِ لُغَةً.

قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اُذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّك فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾.

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الضَّمِيرِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ فَأَنْسَاهُ ﴾ هَلْ هُوَ عَائِدٌ عَلَى يُوسُفَ أَمْ عَلَى الْفَتَى ؟ فَقِيلَ: هُوَ عَائِدٌ عَلَى يُوسُفَ، أَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ، وَذَكَرَ الْمَلِكَ؛ فَعُوقِبَ بِطُولِ اللُّبْثِ فِي السِّجْنِ، وَكَانَتْ كَلِمَتُهُ كَقَوْلِ لُوطٍ: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

وَقِيلَ : هُوَ عَائِدٌ عَلَى الْفَتَى نَسِيَ تَذْكِرَةَ الْمَلِكِ ، فَدَامَ طُولُ مُكْثِ يُوسُفَ فِي السِّجْنِ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : [فَإِنْ قِيلَ :] إنْ كَانَ الضَّمِيرُ عَائِدًا عَلَى يُوسُفَ فَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يُضَافَ نِسْيَانُهُ إلَى الشَّيْطَانِ ، وَلَيْسَ لَهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ سُلْطَانٌ ؟ قُلْنَا : أَمَّا النِّسْيَانُ فَلَا عِصْمَةَ لِلْأَنْبِيَاءِ عَنْهُ إلَّا فِي [وَجْهٍ وَاحِدٍ هُوَ] جِهَةُ الْخَبَرِ عَنْ الْإِبْلَاغِ فَإِنَّهُمْ مَعْصُومُونَ فِيهِ نِسْيَانًا وَذِكْرًا ، وَإِذَا وَقَعَ مِنْهُمْ النِّسْيَانُ حَيْثُ يَجُوزُ وُقُوعُهُ فَإِنَّهُ يُنْسَبُ إلَى الشَّيْطَانِ إطْلَاقًا ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ إنَّمَا يَكُونُ فِيمَا يُخْبِرُ اللَّهُ بِهِ عَنْهُمْ ، أَوْ يُخْبِرُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَا يَجُوزُ لَنَا نَحْنُ ذَلِكَ فِيهِمْ . .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : لَمَّا تَعَلَّقَ يُوسُفُ بِالْمَخْلُوقِ دَامَ مُكْثُهُ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ، وَسَيَأْتِي ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الرُّومِ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : الْبِضْعُ مِنْ ثَلَاثٍ إلَى عَشْرٍ ، وَعَيَّنَهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ كَانَ سَبْعَ سِنِينَ ، وَهِيَ مُدَّةُ بَلَاءِ أَيُّوبَ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِيهَا جَوَازُ التَّعَلُّقِ بِالْأَسْبَابِ ، وَإِنْ كَانَ الْيَقِينُ حَاصِلًا ؛ لِأَنَّ الْأُمُورَ بِيَدِ

مُسَبِّبِهَا ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَهَا سِلْسِلَةً ، وَرَكَّبَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ ؛ فَتَحْرِيكُهَا سُنَّةٌ ، وَالتَّعْوِيلُ عَلَى الْمُنْتَهَى يَقِينٌ .

(26/397)

وَالَّذِي يَدُلُّك عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ نِسْبَةُ مَا جَرَى مِنْ النِّسْيَانِ إلَى الشَّيْطَانِ ، كَمَا جَرَى لِمُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لِقَاءِ الْخِضْرِ .

وَهَذَا بَيِّنٌ فَتَأَمَّلُوهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : { عِنْدَ رَبِّك } أَطْلَقَ هَاهُنَا عَلَى السَّيِّدِ اسْمَ الرَّبِّ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ رَبِّهِ يُرَبِّهِ إذَا دَبَّرَهُ بِوُجُوهِ التَّغْذِيَةِ ، وَحَفِظَ عَلَيْهِ مَرَاتِبَ التَّنْمِيَةِ .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي ؛ لِيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي ، وَلَا يَقُلْ رَبِّي وَلْيَقُلْ سَيِّدِي } .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا جَائِزًا فِي شَرْعِ يُوسُفَ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ { أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ }

(27/397)

وقال ابن عطية :

ثم نادى ﴿ يا صاحبي السجن ﴾

ثانية لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب ، فروي أنه قال لنبو : أما أنت فتعود إلى مرتبتك وسقاية ربك ، وقال لمجلث : أما أنت فتصلب ، وذلك كله بعد ثلاث ، فروي أنهما قالا له ما رأينا شيئاً وإنما تحالمنا لنجربك ؛ وروي أنه لم يقل ذلك إلا الذي حدثه بالصلب ؛ وقيل : كانا رأيا ثم أنكرا .

وقرأت فرقة : "يَسقي ربه" من سقى ، وقرأت فرقة من أسقى ، وهما لمعنى واحد لغتان وقرأ عكرمة والجحدري : "فيُسقَى ربه خمراً" بضم الياء وفتح القاف أي ما يرويه .

وأخبرهما يوسف عليه السلام عن غيب علمه من قبل الله تعالى : إن الأمر قد قضي ووافق القدر .

وقوله : ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج ﴾ الآية . "الظن" هاهنا - بمعنى اليقين ، لأن ما تقدم من قوله : ﴿ قضي الأمر ﴾ يلزم ذلك ، وهو يقين فيما لم يخرج بعد إلى الوجود : وقال قتادة : "الظن" - هنا - على بابه لأن عبارة الرؤيا ظن .

قال القاضي أبو محمد : وقول يوسف عليه السلام : ﴿ قضي الأمر ﴾ دل على وحي ولا يترتب قول قتادة إلا بأن يكون معنى قوله ﴿ قضي الأمر ﴾ أي قضي كلامي وقلت ما

عندي وتم ، والله أعلم بما يكون بعد .

وفي الآية تأويل آخر ، وهو : أن يكون ﴿ ظن ﴾ مسنداً إلى الذي قيل له : إنه يسقي ربه خمراً ، لأنه دخلته أبهة السرور بما بشر به وصار في رتبة من يؤمل حين ظن وغلب على معتقده أنه ناج : وذلك بخلاف ما نزل بالآخر المعرف بالصلب .

ومعنى الآية : قال يوسف لساقي الملك حين علم أنه سيعود إلى حالته الأولى مع الملك : ﴿ اذكرني ﴾ عند الملك ، فيحتمل أن يريد أن يذكره بعلمه ومكانته ، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق ، أو يذكره بهما .

(28/397)

والضمير في ﴿ أنساه ﴾ قيل : هو عائد على يوسف عليه السلام ، أي نسي في ذلك الوقت أن يشتكي إلى الله ، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق ، فروي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله عز وجل في ذلك ، وطول سجنه عقوبة على ذلك ، وقيل : أوحي إليه : يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن حبسك ، وقيل : إن الضمير في ﴿ أنساه ﴾ عائد على الساقي - قاله ابن إسحاق - أي نسي ذكر يوسف عند ربه ، فأضاف الذكر إلى ربه إذ هو عنده ، و" الرب " على هذا التأويل - الملك .

و﴿ بضع ﴾ في كلام العرب اختلف فيه ، فالأكثر على أنه من الثلاثة إلى العشرة ، قاله ابن عباس ، وعلى هذا هو فقه مذهب مالك رحمه الله في الدعاوى والأيمان ؛ وقال أبو عبيدة : " البضع " لا يبلغ العقد ولا نصف العقد ، وإنما هو من الواحد إلى الأربعة ، وقال الأخفش " البضع " من الواحد إلى العشرة ، وقال قتادة : " البضع " من الثلاثة إلى التسعة ، ويقوي هذا ما روي من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصديق في قصة خطره مع قريش في غلبة الروم لفارس

" أما علمت أن البضع من الثلاث إلى التسع " وقال مجاهد : من الثلاثة إلى السبعة ، قال الفراء : ولا يذكر البضع إلا مع العشرات ، لا يذكر مع مائة ولا مع ألف ، والذي روي في هذه الآية أن يوسف عليه السلام سجن خمس سنين ثم نزلت له قصة الفتيين وعوقب على قوله ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ بالبقاء في السجن سبع سنين ، فكانت مدة سجنه اثنتي عشرة سنة ، وقيل : عوقب ببقاء سنتين ، وقال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث " ، ثم بكى الحسن وقال : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً ﴾ أي قال للساقي : إنك تُردّ على عملك الذي كنت عليه من سقي الملك بعد ثلاثة أيام ، وقال للآخر : وأمّا أنت فتُدعَى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيتُ شيئًا ؛ قال : رأيت أو لم ترَ ﴿ قُضِيَ الأمر الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

وحكى أهل اللغة أن سقى وأسقى لغتان بمعنًى واحد ، كما قال الشاعر :

سَقَى قومي بَنِي مَجْدٍ وأَسْقَى . . .

نُمَيْراً والقبائلَ من هِلال

قال النحاس : الذي عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاه ناوله فشرب ، أو صبّ الماء في حلقه ومعنى أَسْقاه جعل له سُقْيا ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتاً ﴾ [المرسلات : 27] .

الثانية : قال علماؤنا : إن قيل من كذب في رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها ؟ قلنا : لا يلزمه ؛ وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبيّ ، وتعبير النبيّ حكم ، وقد قال : إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقاً لنبوّته ؛ فإن قيل : فقد روى عبد الرزاق

عن مَعْمَر عن قَتَادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إني رأيتُ كأني أعْشَبْتُ ثم أجْدبتُ ثم أعْشبتُ ثم أجْدبتُ ، فقال له عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ، ثم تؤمن ثم تكفر ، ثم تموت كافراً ؛ فقال الرجل : ما رأيت شيئاً ؛ فقال له عمر : قد قضي لك ما قضي لصاحب يوسف ؛ قلنا : ليست لأحد بعد عمر ؛ لأن عمر كان مُحَدَّثاً ، (وكان إذا ظن ظناً كان) وإذا تكلم به وقع ، على ما ورد في أخباره ؛ وهي كثيرة ؛ منها أنه دخل عليه رجل فقال له : أظنك كاهناً فكان كما ظن ؛ خرجه البخاريّ.

ومنها أنه سأل رجلاً عن اسمه فقال له فيه أسماء النار كلها ، فقال له : أدرك أهلك فقد احترقوا ، فكان كما قال ، خرجه الموطأ .

(30/397)

وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة "الحجر" إن شاء الله تعالى .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ ﴾ "ظن" هنا بمعنى أيقن ، في قول أكثر المفسرين وفسره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين ؛ قال : إنما ظنّ يوسف نجاته لأن العابر يظن

ظنًّا وربك يخلق ما يشاء ؛ والأوّل أصح وأشبه بحال الأنبياء وأن ما قاله للفتيين في تعبير الرؤيا كان عن وحي ، وإنما يكون ظنا في حكم الناس ، وأما في حق الأنبياء ، فإن حكمهم حق كيفما وقع .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ اذكرني عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي سيّدك ، وذلك معروف في اللغة أن يقال للسّيد ربّ ؛ قال الأعشى :

رَبِّي كريمٌ لا يُكَدِّرُ نِعْمَةً . . .

وإذا تُنُوشِدَ في المَهَارِقِ أَنْشَدَا

أي اذكر ما رأيته ، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك ، وأخبره أَنِّي مظلوم محبوسٌ بلا ذنب .

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يَقُلْ أحدُكم اسق ربَّك أطعمْ ربك وضِّىءْ ربَّك ولا يَقل أحدُكم ربِّي ولْيقل سيِّدي مولاي ولا يقلْ أحدُكم عبدي أَمتي ولْيقلْ فَتَايَ فَتَاتِي غلامي " وفي القرآن : "اذكرني عِندَ رَبِّكَ" "إِلَى رَبِّكَ" "إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ" أي صاحبي ؛ يعني العزيز .

ويقال لكل من قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد رَبَّهُ يَرُبُّهُ ، فهو رَبٌّ له .

قال العلماء قوله عليه السلام : "لا يَقُلْ أحدُكم" "ولْيقلْ" من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى ؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرّم ؛ ولأنه قد جاء عنه عليه السلام : " أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا

"أي مالكها وسيّدها ؛ وهذا موافق للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ ؛ فكان محل النهي في هذا الباب ألاّ نتخذ هذه الأسماء عادة فنترك الأولى والأحسن .

(31/397)

وقد قيل : إن قول الرجل عبدي وأمتي يجمع معنيين : أحدهما : أن العبودية بالحقيقة إنما هي لله تعالى ؛ ففي قول الواحد من الناس لمملوكه عبدي وأمتي تعظيم عليه ، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه ؛ وذلك غير جائز .

والثاني : أن المملوك يدخله من ذلك شيء في استصغاره بتلك التسمية ، فيحمله ذلك على سوء الطاعة .

وقال ابن شعبان في "الزاهي" : "لا يقل السّيد عبدي وأمتي ولا يقل المملوك ربّي ولا ربّتي" وهذا محمول على ما ذكرناه .

وقيل : إنما قال صلى الله عليه وسلم : "لا يقل العبد ربّي وليقل سيّدي" لأن الرب من أسماء الله تعالى المستعملة بالاتفاق ؛ واختلف في السيّد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا ؟ فإذا قلنا ليس من أسماء الله فالفرق واضح ؛ إذ لا التباس ولا إشكال ، وإذا قلنا إنه من أسمائه فليس في الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الرّب ، فيحصل الفرق .

وقال ابن العربي: يحتمل أن يكون ذلك جائزاً في شرع يوسف عليه السلام.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ فَأَنسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ الضمير في "فَأَنسَاهُ" فيه قولان: أحدهما: أنه عائد إلى يوسف عليه السلام، أي أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقي الملك حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك ﴿ اذكرني عِندَ رَبِّكَ ﴾ نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق؛ فعوقب باللّبث، قال عبد العزيز بن عُمير الكِنْديّ: دخل جبريل على يوسف النبي عليه السلام في السجن فعرفه يوسف، فقال: يا أخا المنذرين! مالي أراك بين الخاطئين؟! فقال جبريل عليه السلام: يا طاهر (ابن) الطاهرين! يقرئك السلام رب العالمين ويقول: أما استحيت إذ استغثت بالآدميين؟! وعزّتي! لألبثنّك في السجن بضع سنين؛ فقال: يا جبريل! أهو عنّي راضٍ؟ قال: نعم! قال: لا أبالي الساعة.

(32/397)

ورُوي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطوّل سجنه، وقال له: يا يوسف! من خلّصك من القتل من أيدي إخوتك؟! قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الجبّ؟ قال: الله تعالى قال: فمن عَصَمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن

صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله ؟ ! قال : يا رب كلمة زلّت مني ! أسألك يا إله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني ؛ فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين .

ورَوى أبو سلَمة عن أبي هُريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال : ﴿ اذكرني عِندَ ربِّكَ ﴾ ما لبث في السجن بضع سنين "

وقال ابن عباس : عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لمّا قال للذي نجا منهما ﴿ اذكرني عِندَ ربِّكَ ﴾ ولو ذكر يوسف ربه لخلّصه .

وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا كلمة يوسف يعني قوله : ﴿ اذكرني عِندَ ربِّكَ ﴾ ما لبث في السجن ما لبث " قال : ثم يبكي الحسن ويقول : نحن ينزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس .

وقيل : إن الهاء تعود على الناجي ، فهو الناسي ؛ أي أنسى الشيطانُ الساقي أن يذكر يوسف لربه ، أي لسيده ؛ وفيه حذف ، أي أنساه الشيطانُ ذكره لربه ؛ وقد رجّح بعض العلماء هذا القول فقال : لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن ؛ إذ الناسي غير مؤاخذ .

وأجاب أهل القول الأوّل بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك ، فلما ترك ذكر الله ودعاه

الشيطان إلى ذلك عوقب ؛ ردّ عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ فدلّ على أن الناسي (هو) الساقي لا يوسف ؛ مع قوله تعالى :

(33/397)

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء : 65] فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان ، وليس له على الأنبياء سلطنة ؟ ! قيل : أما النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد ، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلّغونه ، فإنهم معصومون فيه ؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً ، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم ، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " نسي آدم فنسيت ذريته " وقال : " إنما أنا بشر أنسى كما تَنسون " وقد تقدم .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِي السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البضع قطعة من الدّهر مختلف فيها ؛ قال يعقوب عن أبي زيد : يقال بَضْع وبِضْع بفتح الباء وكسرها ، قال أكثرهم : ولا يقال بضع ومائة ، وإنما هو إلى التسعين .

وقال الهَرَوِيّ : العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع .

والبضع والبضعة واحد ، ومعناهما القطعة من العدد .

وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع ما دون نصف العِقْد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء.

وفي الحديث "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "وكم البضع" فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: "اذهب فزائدْ في الخَطَر" وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبيّ.

قال الماورديّ: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقُطْرُب.

وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعيّ.

ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة.

وحكى الزّجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس.

قال الفرّاء: والبضع لا يُذْكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة.

وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجوناً ثلاثة أقاويل: أحدها: سبع سنين، قاله ابن جُرَيج وقتادة ووهب بن مُنَبِّه، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

الثاني : اثنتا عشرة سنة ، قاله ابن عباس .

الثالث : أربع عشرة سنة ، قاله الضحاك .

وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف في السجن خمساً وبضعاً .

واشتقاقه من بضعت الشيء أي قطعته ، فهو قطعة من العدد ، فعاقب الله يوسف بأن حُبِس سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت ، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله .

قال وهب بن مُنَبِّه : حبس يوسف في السجن سبع سنين ، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين ، وعذّب بُخْتُنَصَّر بالمسخ سبع سنين .

وقال عبد الله بن راشد البصريّ عن سعيد بن أبي عَرُوبة : إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتي عشرة سنة .

الخامسة : في هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلاً فإن الأمور بيد مُسبِّبها ، ولكنه جعلها سلسلة ، وركَّبَ بعضها على بعض ، فتحريكها سنّة ، والتعويل على المنتهى يقين .

والذي يدلّ على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر ؛ وهذا بيّن فتأمّلوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن:

ولما فرغ يوسف من الدعاء إلى الله وعبادته رجع إلى تعبير رؤياهما فقال ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ يعني أن صاحب شراب الملك يرجع إلى منزلته ويسقي الملك خمراً كما كان يسقيه أولاً والعناقيد الثلاثة هي ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعو به الملك ويرده إلى منزلته التي كان عليها ﴿ وأما الآخر فيصلب ﴾ يعني صاحب طعام الملك والسلال الثلاث ثلاثة أيام ثم يدعو به الملك فيصلبه ﴿ فتأكل الطير من رأسه ﴾ قال ابن معسود فلما سمعا قول يوسف قالا ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب قال يوسف ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ يعني فرغ من الأمر الذي سألتما عنه ووجب حكم الله عليكما بالذي أخبرتكما به رأيتما شيئاً أم لم تريا ﴿ وقال ﴾ يعني يوسف ﴿ للذي ظن ﴾ يعني علم وتحقق فالظن بمعنى العلم ﴿ أنه ناج منهما ﴾ يعني ساقي الملك ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ يعني سيدك وهو الملك الأكبر فقل له إن في السجن غلاماً محبوساً مظلوماً طال حبسه ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ في هاء الكناية في فأنساه إلى من تعود قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الساقي وهو قول عامة المفسرين والمعنى فأنس الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك قالوا لأن صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل الساقي حتى أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها إلى يوسف.

والقول الثاني : وهو قول أكثر المفسرين أن هاء الكناية ترجع إلى يوسف ، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق مثله في دفع الضرر وتلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فإن الاستعانة بالمخلوق في دفع الضرر جائزة إلا أنه لما كان مقام يوسف أعلى المقامات ورتبته أشرف المراتب وهي منصب النبوة والرسالة لا جرم صار يوسف مؤاخذاً بهذا القدر فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

فإن قلت كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه .

(36/397)

قلت بشغل الخاطر وإلقاء الوسوسة فإنه قد صح في الحديث " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم " فأما النسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر وإزالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ .

اختلفوا في قدر البضع فقال مجاهد ما بين الثلاثة إلى السبع وقال قتادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع ، وقال ابن عباس هو ما دون العشرة وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين وكان يوسف قد لبث قبلها في السجن خمس سنين فجملة ذلك اثنتا عشرة سنة

وقال وهب : أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف في السجن سبع سنين .

وقال مالك بن دينار : لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك قال له يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يا رب أنسى قلبي ذكرك كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبي (صلى الله عليه وسلم) " رحم الله يوسف لولا كلمته التي قالها ما لبث في السجن ما لبث " يعني قوله اذكرني عند ربك ثم بكى الحسن وقال نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس ذكره الثعلبي مرسلاً وبغير سند وقيل إن جبريل دخل على يوسف في السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يوسف يا أخا المنذرين مالي أراك بين الخاطئين فقال له جبريل يا طاهر بن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك ما استحييت مني أن أستغثت بالآدميين فوعزتي وجلالي لألبثنك في السكن بضع سنين قال يوسف وهو في ذلك عني راض قال نعم قال إذن لا أبالي وقال كعب قال جبريل ليوسف يقول الله لك من خلقك قال الله فمن رزقك قال الله قال فمن حببك إلى أبيك قال الله قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن صرفك عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استغثت بآدمي مثلك قالوا فلما انقضت سبع سنين .

قال الكلبي : وهذه السبع سوى الخمس سنين التي كانت قبل ذلك ودنا فرج يوسف وأراد الله إخراجه من السجن رأى ملك مصر الأكبر رؤيا عجيبة هالته وذلك أن رأى في منامه سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم خرجن عقيبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال فابتلع العجاف السمان ودخلن في بطونهن ولم ير منهن شيء ولم يتبين على العجاف منها شيء ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبع سنبلات أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتها شيء فجمع السحرة والكهنة والمعبرين وقص عليهم رؤياه التي رآها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(38/397)

وقال أبو حيان :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

البضع : ما بين الثلاث إلى التسع قاله قتادة .

وقال مجاهد : من الثلاثة إلى السبعة ، وقال أبو عبيدة : البضع لا يبلغ العقد ولا نصف العقد ، وإنما هو من الواحد إلى العشرة .

وقال الفراء : ولا يذكر البضع إلا مع العشرات ، ولا يذكر مع مائة ولا ألف .

﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضيَ الأمر الذي فيه تستفتيان .

وقال للذي ظنّ أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴾ : لما ألقى إليهما ما كان أهم وهو أمر الدين رجاء في إيمانهما ، ناداهما ثانياً لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب ، فروي أنه قال : لبنوّ : أما أنت فتعود إلى مرتبتك وسقاية ربك ، وما رأيت من الكرامة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده ، وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه .

وقال لملحب : أما أنت فما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتصلب ، فروي أنهما قالا : ما رأينا شيئاً ، وإنما تحالمنا لنجرّبك .

وروي أنه لم يقل ذلك إلا الذي حدثه بالصلب .

وروي أنهما رأيا ثم أنكرا .

وقرأ الجمهور : فيسقي ربه من سقى ، وفرقة : فيسقي من أسقى ، وهما لغتان بمعنى واحد .

وقرىء في السبعة : نسقيكم ونسقيكم .

وقال صاحب اللوامح : سقى وأسقى بمعنى واحد في اللغة ، والمعروف أن سقاه ناوله

ليشرب ، وأسقاه جعل له سقياً .

ونسب ضم الفاء لعكرمة والجحدري ، ومعنى ربه .

سيده .

وقال ابن عطية : وقرأ عكرمة والجحدري : فيسقي ربه خمراً بضم الياء وفتح القاف ، أي ما يرويه .

وقال الزمخشري : وقرأ عكرمة فيسقى ربه ، فيسقى ما يروى به على البناء للمفعول ، ثم أخبرهما يوسف عليه السلام عن غيب علمه من قبل الله أنّ الأمر قد قضى ووافق القدر ، وسواء كان ذلك منكما حلم ، أو تحالم .

(39/397)

وأفرد الأمر وإن كان أمر هذا ، لأنّ المقصود إنما هو عاقبة أمرهما الذي أدخلا به السجن ، هو اتهام الملك إياهما بسمه ، فرأيا ما رأيا ، أو تحالما بذلك ، فقضيت وأمضيت تلك العاقبة من نجاة أحدهما ، وهلاك الآخر .

وقال أي : يوسف للذي ظن : أي أيقن هو أي يوسف : إنه ناج وهو الساقي .

ويحتمل أن يكون ظن على بابه ، والضمير عائد على الذي وهو الساقي أي : لما أخبره

يوسف بما أخبره ، ترجح عنده أنه ينجو ، ويبعد أن يكون الظن على بابه ، ويكون مسنداً إلى يوسف على ما ذهب إليه قتادة والزمخشري .

قال قتادة : الظن هنا على بابه ، لأن عبارة الرؤيا ظن .

وقال الزمخشري : الظان هو يوسف عليه السلام إن كان تأويله بطريق الاجتهاد فيبعد ، لأنه قوله : قضي الأمر ، فيه تحتم ما جرى به القدر وإمضاؤه ، فيظهر أن ذلك بطريق الوحي ، إلا أن حمل قضي الأمر على قضى كلامي ، وقلت ما عندي ، فيجوز أن يعود على يوسف .

فالمعنى أن يوسف عليه السلام قال لساقي الملك حين علم أنه سيعود إلى حالته الأولى مع الملك : اذكرني عند الملك أي : بعلمي ومكانتي وما أنا عليه مما آتاني الله ، أو اذكرني بمظلمتي وما امتحنت به بغير حق .

وهذا من يوسف على سبيل الاستعانة والتعاون في تفريج كربه ، وجعله بإذن الله وتقديره سبباً للخلاص كما جاء عن عيسى عليه السلام : ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ وكما كان الرسول يطلب من يحرسه .

والذي أختاره أن يوسف إنما قال لساقي الملك : اذكرني عند ربك ليتوصل إلى هدايته وإيمانه بالله ، كما توصل إلى إيضاح الحق للساقي ورفيقه .

والضمير في فأنساه عائد على الساقي ، ومعنى ذكر ربه : ذكر يوسف لربه ، والإضافة

تكون بأدنى ملابسة.

وإنساء الشيطان له بما يوسوس إليه من اشتغاله حتى يذهل عما قال له يوسف، لما أراد الله بيوسف من إجزال أجره بطول مقامه في السجن.

وبضع سنين مجمل، فقيل: سبع، وقيل: اثنا عشر.

والظاهر أن قوله: فلبث في السجن، إخبار عن مدّة مقامه في السجن، منذ سجن إلى أن أخرج.

وقيل: هذا اللبث هو ما بعد خروج الفتيين وذلك سبع.

وقيل: سنتان.

وقيل: الضمير في أنساه عائد على يوسف.

ورتبوا على ذلك أخبارا لا تليق نسبتها إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. انتهى. ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

وبعد تحقيقِ الحقّ ودعوتِهما إليه وبيانِه لهما مقدارَه الرفيعَ ومرتبةَ علمِه الواسعِ شرع في تفسير ما استعبراه ولكونه بحثاً مغايراً لما سبق فصلُه عنه بتكرير الخطاب فقال :

﴿ يا صاحبى السجن أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾

(42/397)

وهو الشرابيُّ وإنما لم يعيّنه ثقةً بدلالة التعبير وتوسلاً بذلك إلى إبهام أمرِ صاحبه حِذارَ مشافهتِه بما يسوءه ﴿ فَيَسْقِى رَبَّهُ ﴾ أي سيدَه ﴿ خَمْرًا ﴾ روي أنه عليه السلام قال له : ما رأيت من الكرمة وحسنها فالملكُ وحسنُ حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فثلاثةُ أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه . وقرأ عكرمة فيسقى ربُّه على البناء للمفعول أي يُسقى ما يروى به ﴿ وَأَمَّا الآخر ﴾ وهو الخباز ﴿ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطير مِن رَّأْسِهِ ﴾ روي أنه عليه السلام قال له : ما رأيت من السلال ثلاثةُ أيام تمرّ ثم تخرج فتقتل ﴿ قُضِىَ ﴾ أي تم وأحكم ﴿ الأمر الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ وهو ما رأياه من الرؤيين قطعاً لا مآلُه الذي هو عبارة عن نجاة أحدِهما وهلاكِ الآخر كما يوهمه إسنادُ القضاء إليه إذ

الاستفتاءُ إنما يكون في الحادثة لا في حكمِها يقال : استفتى الفقيهَ في الحادثة أي طلب منه بيانَ حكمِها ولا يقال استفتاه في حكمها ، وكذا الإفتاءُ فإنه يقال : أفتى فلانٌ في الواقعة الفلانية بكذا ولا يقال أفتى في حكمها أو جوابها بكذا ، ومما هو علَمٌ في ذلك قولُه تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الملأ أَفْتُونِى فِى رؤياى ﴾ ومعنى استفتائهما فيه طلبُهما لتأويله بقولهما : نبئنا بتأويله وإنما عبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلاً لأمره وتفخيماً لشأنه إذ الاستفتاءُ إنما يكون في النوازل المشكِلة والحُكمِ المبهم الجواب ، وإيثارُ صيغة الاستقبالِ مع سبق استفتائِهما في ذلك لما أنهما بصدده إلى أن يقضيَ عليه السلام من الجواب وطرَه ، وإسنادُ القضاءِ إليه مع أنه من أحوال مآلِه لأنه في الحقيقة عينُ ذلك المآلِ وقد ظهر في عالم المثالِ بتلك الصورةِ ، وأما توحيدُه مع تعدد رؤياهما فوارِدٌ على حسب ما وحّداه في قولهما : نبئنا بتأويله لا لأن الأمرَ ما اتُّهما به وسُجنا لأجله من سَمِّ الملكِ فإنهما لم

(43/397)

يستفتيا فيه ولا فيما هو صورتُه بل فيما هو صورةٌ لمآله وعاقبتِه فتأمل . وإنما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقاً لتعبيره وتأكيداً له ، وقيل : لما عبّر رؤياهما جحَدا وقالا : ما رأينا شيئاً فأخبرهما إن ذلك كائنٌ أصدقتما أو كذبتما ، ولعل الجحودَ من الخبّاز إذ لا داعيَ إلى

جحود الشرابيِّ إلا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه .

﴿ وَقَالَ ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ ﴾ أُوثر على صيغة المضارعِ مبالغةً في الدلالة على تحقق النجاةِ حسبما يفيده قوله تعالى : ﴿ قُضِىَ الأمر الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ وهو السرُّ في إيثار ما عليه النظمُ الكريم على أن يقال للذي ظنه ناجياً ﴿ مِنْهُمَا ﴾ من صاحبيه ، وإنما ذكر بوصف النجاةِ تمهيداً لمناط التوصيةِ بالذكر عند الملكِ وعنوانِ التقربِ المفهوم من التعبير المذكورِ وإن كان أدخلَ في ذلك وأدعى إلى تحقيق ما وصّاه به لكنه ليس بوصف فارقٍ يدور عليه الامتيازُ بينه وبين صاحبه المذكورِ بوصف الهلاكِ ، والظانُّ هو يوسفُ عليه السلام لا صاحبُه لأن التوصيةَ المذكورة لا تدور على ظن الناجي بل على ظن يوسفَ وهو بمعنى اليقينِ كما في قوله تعالى :

(44/397)

﴿ ظَنَنتُ أَنِّى ملاق حِسَابِيَهْ ﴾ فالتعبيرُ بالوحي كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ قُضِىَ الأمر ﴾ الخ ، وقيل : هو بمعناه والتعبيرُ بالاجتهاد والحكمُ بقضاء الأمر أيضاً اجتهاديٌّ ﴿ اذكرنى ﴾ بما أنا عليه من الحال والصفة ﴿ عِندَ رَبّكَ ﴾ سيّدِك وصِفْني له بصفتي التي شاهدتَها ﴿ فَأَنْسَاهُ الشيطان ﴾ أي أنسى الشرابيَّ بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالاً

تعوقه عن الذكر وإلا فالإنساءُ في الحقيقة لله عز وجل والفاءُ للسببية فإن توصيتَه عليه السلام المتضمنةَ للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثةً لما ذكر من الإنساء ﴿ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ أي ذكرَ الشرابيِّ له عليه السلام عند الملِك ، والإضافة لأدنى ملابسةٍ ، أو ذكرَ إخبارِ ربِّه ﴿ فَلَبِثَ ﴾ أي يوسف عليه السلام بسبب ذلك الإنساءِ أو القول ﴿ فِى السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البِضْعُ ما بين الثلاث إلى التسع من البَضْع وهو القطعُ ، وأكثرُ الأقاويل أنه لبث فيه سبعَ سنين ، وروي عن النبي عليه السلام : " رحم الله أخي يوسفَ لو لم يقُل اذكُرْني عند ربِّك لما لبث في السجن سبعاً بعد الخمس " والاستعانةُ بالعباد وإن كانت مرخصةً لكن اللائقَ بمناصب الأنبياءِ عليهم السلام الأخذُ بالعزائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(45/397)

وقال الآلوسى :

ثم إنه عليه السلام بعد تحقيق الحق وبيانه لهما مقدار علمه الواسع شرع في إنبائهما عما استنبآه عنه ، ولكونه بحثاً مغايراً لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال :

﴿ يا صَاحِبَىِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾

أراد به الشرابي ، وإنما لم يعينه عليه السلام ثقة بدلالة التعبير مع ما فيه من رعاية حسن الصحبة ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ ﴾ أي سيده ﴿ خَمْراً ﴾ روي أنه عليه السلام قال له : ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده ، وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه .

وقرئ ﴿ فيسقى ﴾ بضم الياء والبناء للفاعل من أسقى قال صاحب "اللوامح" : يقال : سقى وأسقى بمعنى ، وقرئ في السبعة وأسقاه جعل له سقياً ، ونسب ضم الياء لعكرمة والجحدري ، وذكر بعضهم أن عكرمة قرأ ﴿ فيسقى ﴾ بالبناء للمفعول ، و – ريه – بالياء المثناة والراء المكسورة ، والمراد به ما يروى به وهو مفعول ثان – ليسقى – والمفعول الأول الضمير النائب عن الفاعل العائد على (أحد) ، ونصب ﴿ خمراً ﴾ حينئذ على التمييز ﴿ وَأَمَّا الآخَرُ ﴾ وهو الخباز ﴿ فَيُصْلَبُ فتأكُلُ الطَّيْرُ من رَّأسه ﴾ روي أنه عليه السلام قال له : ما رأيت من السلال الثلاث ثلاثة أيام تمر ثم تخرج فتصلب .

﴿ قُضِيَ ﴾ أتم وأحكم ﴿ الأَمْرُ الَّذي فيه تَسْتَفْتِيَان ﴾ وهو ما يؤول إليه حالكما وتدل عليه رؤياكما من نجاة أحدكما وهلاك الآخر ، ومعنى استفتائهما فيه سؤالهما عنه ، أخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : ما رأى صاحبا يوسف شيئاً إنما تحالما ليجربا علمه فلما أول رؤياهما قالا : إنما كنا نلعب ولم نر

شيئاً ، فقال عليه السلام قضي الأمر الخ يقول : وقعت العبارة اه .

وقيل : المراد بالأمر ما اتهما به ، والكلام حينئذ على حذف مضاف أي عاقبة ذلك .

(46/397)

وذهب بعض المحققين غلى أن المراد به ما رأياه من الرؤيين ، ونفى أن يكون المراد ما يؤول إليه أمرهما ، قال : لأن الاستفتاء إنما يكون في الحادثة لا في حكمها يقال : استفتي الفقيه في الحادثة أي طلب منه بيان حكمها ولا يقال : استفتاه في حكمها وكذا الإفتاء ، يقال : أفتى في الواقعة الفلانية بكذا ولا يقال : أفتى في حكمها بكذا ، ومما هو علم في ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ﴾ [يوسف : 43] ومعنى استفتائهما فيه طلبهما لتأويله بقولهما ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ [يوسف : 36] وعبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلاً لأمره وتفخيماً لشأنه إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلة الحكم المبهمة الجواب .

وإيثار صيغة المضارع لما أنهما بصدد الاستفتاء إلى أن يقضي عليه السلام من الجواب وطره وإسناد القضاء إليه مع أنه

من أحوال مآله لأنه في الحقيقة عين ذلك المآل ، وقد ظهر في عالم المثال بتلك الصورة ، وأما

توحيده مع تعدد رؤياهما فوارد على حسب ما وحداه في قولهما :

﴿ نبئنا بتأويله ﴾ [يوسف : 36] لا لأن الأمر ما اتهما به وسجنا لأجله من سم الملك فإنهما لم يستفتيا فيه ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمل اه .

وتعقب بأنه لا مانع من أن يراد بالأمر المآل كما يقتضيه ظاهر إسناد القضاء إليه وإليه ذهب الكثير ، وتجعل – في – للسببية مثلها في قوله عليه الصلاة والسلام : " دخلت امرأة النار في هرة " ويكون معنى الاستفتاء فيه الاستفتاء بسببه أي طلب بيان حكم الرؤيين لأجله ، وهما إنما طلبا ذلك لتعرف حالهما ومآل أمرهما .

وإن أبيت ذلك فأي مانع من أن يكون الاستفتاء في الأمر مع أن الاستفتاء إنما يكون في الحادثة ، وهي هنا الرؤيان لما أن بين الأمر وتلك الحادثة اتحاداً كما ادعاه

هو ، ووجه به إسناد القضاء إلى الأمر بالمعنى الذي حمله عليه مع أنه من أحوال مآله ، وليس له أن يقول بصحة اعتبار العينية في إسناد القضاء وعدم صحة اعتبارها في تعلق الاستفتاء إذ بعد اعتبار العينية بين شيئين يكون صحة نسبة ما هو من أحوال أحدهما إلى الآخر دون صحة نسبة ما هو من أحوال ذلك الآخر إليه ترجيحاً بلا مرجح ، ومنع ذلك

مكابرة ، ويرجح ما ذهب إليه الكثير أن فيه سلامة من نزع الخف قبل الوصول إلى الماء كما لا يخفى على من تيمم كعبة الإنصاف ، وبأن ما ذكره في تعليل عدم صحة تفسير الأمر بما اتهما به وسجنا لأجله لا يخلو عن دغدغة على أن ذلك كان تعريضاً بصاحب " الكشاف " وهو على ما قال الطيبي : ما عنى بالأمر إلا العاقبة ، نعم صدر كلامه ظاهر فيما ذكر والأمر فيه سهل ، ولعل وجه الأمر بالتأمل في كلام هذا المحقق مجموع ما ذكرناه فتأمل .

ثم إن هذا الإخبار كما يحتمل أن يكون للرد عليهما حسبما ورد في الأثر يحتمل أن يكون تحقيقاً لتعبيرة وتأكيداً له ، ولا يشكل على الأول أنه لا داعي لجحود الشرابي لأنا نقول على تقدير كذبهما في ذلك يحتمل أن يكون لمراعاة جانب صاحبه الخباز .

وجاء في بعض الآثار أن الذي جحد هو الخباز .

فحينئذ الأمر واضح .

واستدل بذلك على ما هو المشهور من أن الرؤيا تقع كما تعبر ، ولذا قيل : المنام على جناح طائر إذا قص وقع .

﴿ وَقَالَ ﴾ أي يوسف عليه السلام .

﴿ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ ﴾ أوثر على صيغة المضارع مبالغة في الدلالة على تحقيق النجاة حسبما يفيده قوله : ﴿ قضي الأمر ﴾ [يوسف : 41] الخ ، وهو السر في إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال : للذي ظنه ناجياً ﴿ مِّنْهُمَا ﴾ أي من صاحبيه ، وإنما ذكر

بوصف النجاة تمهيداً لمناط التوصية بالذكر بما يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك .

(48/397)

والظانّ هو يوسف عليه السلام لا صاحبه ، وإن ذهب إليه بعض السلف لأن التوصية لا تدور على ظنّ الناجي بل على ظنّ يوسف عليه السلام وهو بمعنى اليقين كما في قوله تعالى : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ [البقرة : 46] ونظائره .

ولعل التعبير به من باب إرخاء العنان والتأدب مع الله تعالى ، فالتعبير على هذا بالوحي كما ينبئ عنه قوله : ﴿ قضي الأمر ﴾ [يوسف : 41] الخ ، وقيل : هو بمعناه ، والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الأمر أيضاً اجتهادي .

واستدل به من قال : إن تعبير الرؤيا ظني لا قطعي ، والجار والمجرور إما في موضع الصفة - لناج - أو الحال من الموصول ولا يجوز أن يكون متعلقاً - بناج - لأنه ليس المعنى عليه ﴿ اذْكُرْنِي ﴾ بما أنا عليه من الحال والصفة .

﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ سيدك ، روي أنه لما انتهى بالناجي في اليوم الثالث إلى باب السجن قال له : أوصني بحاجتك ، فقال عليه السلام : حاجتي أن تذكرني عند ربك وتصفني بصفتي التي

شاهدتها ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي أنسى ذلك الناجي بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالاً حتى يذهل عن الذكر ، وإلا فالإنساء حقيقة لله تعالى ، والفاء للسببية فإن توصيته عليه السلام المتضمنة للاستعانة بغيره سبحانه وتعالى كانت باعثة لما ذكر من إنسائه ﴿ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ أي ذكر يوسف عليه السلام عند الملك ، والإضافة لأدنى ملابسة ، ويجوز أن تكون من إضافة المصدر إلى المفعول بتقدير مضاف أي ذكر إخبار ربه .

(49/397)

﴿ فَلَبِثَ ﴾ أي فمكث يوسف عليه السلام بسبب ذلك القول أو الإنساء ﴿ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع كما روي عن قتادة ، وعن مجاهد أنه من الثلاث إلى دون المائة والألف ، وهو مأخوذ من البضع بمعنى القطع ؛ والمراد به هنا في أكثر الأقاويل سبع سنين وهي مدة لبثه كلها فميا صححه البعض ، وسنتان منها كانت مدة لبثه بعد ذلك القول ، ولا يأبى ذلك فاء السببية لأن لبث هذا المجموع مسبب عما ذكر ، وقيل : إن هذه السبع مدة لبثه بعد ذلك القول ، وقد لبث قبلها خمساً فجميع المدة اثنتا عشرة سنة ، ويدل عليه خبر " رحم الله تعالى أخي يوسف لو لم يقل : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ لما لبث في السجن سبعاً بعد خمس " .

وتعقب بأن الخبر لم يثبت بهذا اللفظ وإنما الثابت في عدة روايات " ما لبث في السجن طول ما لبث " وهو لا يدل على المدعى .

وروى ابن أبي حاتم عن طاوس والضحاك تفسير البضع ههنا بأربع عشرة سنة وهو خلاف المعروف في تفسيره ، والأولى أن لا يجزم بمقدار معين كما قدمنا .

وكون هذا اللبث مسبباً عن القول هو الذي تظافرت عليه الأخبار كالخبر السابق والخبر الذي روي عن أنس قال : " أوحى الله تعالى إلى يوسف عليه السلام من استنقذك من القتل حين هم إخوتك أن

يقتلوك ، قال : أنت يا رب ، قال : فمن استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه ، قال : أنت يا رب ، قال : فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك ، قال : أنت يا رب ، قال : فما بالك نسيتني وذكرت آدمياً ، قال : يا رب كلمة تكلم بها لساني ، قال : وعزتي لأدخلنك في السجن بضع سنين " وغير ذلك من الأخبار .

ولا يشكل على هذا أن الاستعانة بالعباد في كشف الشدائد مما لا بأس به ، فقد قال سبحانه : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ [المائدة : 2] فكيف عوتب عليه السلام في

ذلك لأن ذلك مما يختلف باختلاف الأشخاص ، واللائق بمناصب الأنبياء عليهم السلام ترك ذلك والأخذ بالعزائم ، واختار أبو حيان أن يوسف عليه السلام إنما قال للشرابي ما قال ليتوصل بذلك إلى هداية الملك وإيمانه بالله تعالى كما توصل إلى إيضاح الحق لصاحبيه ، وإن ذلك ليس من باب الاستعانة بغير الله تعالى في تفريج كربه وخلاصه من السجن ، ولا يخفى أن ذلك خلاف الظاهر ، وموجب للطعن في غير ما خبر ، نعم إنه اللائق بمنصبه عليه الصلاة والسلام .

وجوز بعضهم كون ضمير – أنساه – و﴿ ربه ﴾ عائدين على يوسف عليه السلام ، وإنساء الشيطان ليس من الإغواء في شيء بل هو تك الأولى بالنسبة لمقام الخواص الرافعين للأسباب من البين ، وأنت تعلم أن الأول هو المناسب لمكان الفاء ، ولقوله تعالى الآتي : ﴿ وادّكر بعد أمّة ﴾ [يوسف : 45] . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(51/397)

وقال الشوكانى

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

هذا هو بيان ما طلباه منه من تعبير رؤياهما .

والمراد بقوله : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾ هو الساقي ، وإنما أبهمه لكونه مفهوماً أو لكراهة التصريح للخباز بأنه الذي سيصلب ﴿ فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ أي : مالكه ، وهي عهدته التي كان قائماً بها في خدمة الملك ، فكأنه قال : أما أنت أيها الساقي فستعود إلى ما كنت عليه ويدعو بك الملك ويطلقك من الحبس ﴿ وَأَمَّا الآخر ﴾ وهو الخباز ﴿ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطير مِن رَّأْسِهِ ﴾ تعبيراً لما رآه من أنه يحمل فوق رأسه خبزاً فتأكل الطير منه ﴿ قُضِىَ الأمر الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ وهو ما رأياه وقصاه عليه ، يقال : استفتاه إذا طلب منه بيان حكم شيء سأله عنه مما أشكل عليه ، وهما قد سألاه تعبير ما أشكل عليهما من الرؤيا .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ أي : قال يوسف ، والظان هو أيضاً يوسف .

والمراد بالظنّ العلم ؛ لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابي وهلاك الخباز ، هكذا قال جمهور المفسرين .

وقيل : الظاهر على معناه ؛ لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظناً ، والأوّل أولى وأنسب بحال الأنبياء .

ولا سيما وقد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه الله على شيء من علم الغيب كما في قوله : ﴿ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ الآية ، وجملة : ﴿ اذكرنى عِندَ رَبّكَ ﴾ هي مقول القول ، أمره بأن يذكره عند سيده ، ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والاطلاع

على شيء من علم الغيب ، وكانت هذه المقالة منه عليه السلام صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان ، فيكون ضمير المفعول في أنساه عائداً إلى يوسف ، هكذا قال بعض المفسرين ويكون المراد بربه في قوله : ﴿ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ وهو الله سبحانه ، أي : إنساء الشيطان يوسف ذكر الله تعالى في تلك الحال .

(52/397)

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ يذكره عند سيده ليكون ذلك سبباً لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات ما يدل على براءته .

وذهب كثير من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو الذي نجا من الغلامين ، وهو الشرابي ، والمعنى : إنساء لشيطان الشرابي ذكر سيده ، أي : ذكره لسيده فلم يبلغ إليه ما أوصاه به يوسف من ذكره عند سيده ، ويكون المعنى : فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف مع خلوصه من السجن ، ورجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقي الملك ، وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء .

وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف ، ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز ، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلاّ فيما يخبرون به عن الله سبحانه ، وقد صح عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" إنما أنا بشر مثلكم ، أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني " ورجح أيضاً بأن النسيان ليس بذنب ، فلو كان الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين ، وأجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك ، وأنه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه ، ويؤيد رجوع الضمير إلى يوسف ما بعده من قوله : ﴿ فَلَبِثَ فِى السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ ويؤيد رجوعه إلى الذي نجا من الغلامين قوله فيما سيأتي : ﴿ وَقَالَ الذى نَجَا مِنْهُمَا وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : 45] سنة .

﴿ فَلَبِثَ ﴾ أي : يوسف ﴿ فِى السجن ﴾ بسبب ذلك القول الذي قاله للذي نجا من الغلامين ، أو بسبب ذلك الإنساء ﴿ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البضع : ما بين الثلاث إلى التسع كما حكاه الهروي عن العرب ، وحكي عن أبي عبيدة أن البضع : ما دون نصف العقد ، يعني : ما بين واحد إلى أربعة .

وقيل : ما بين ثلاث إلى سبع ، حكاه قطرب .

وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس .

وقد اختلف في تعيين قدر المدة التي لبث فيها يوسف في السجن ، فقيل : سبع سنين .

وقيل : اثنتا عشرة سنة .

وقيل : أربع عشرة سنة ، وقيل : خمس سنين .

وقد أخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾ قال : أتاه فقال : رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبلة من عنب فنبتت ، فخرج فيه عناقيد فعصرتهنّ ثم سقيتهنّ الملك ؛ فقال : تمكث في السجن ثلاثة أيام ، ثم تخرج فتسقيه خمراً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : ما رأى صاحبا يوسف شيئاً ، إنما تحالما ليجرّبا علمه .

فلما أوّل رؤياهما قالا : إنما كنا نلعب ، ولم نر شيئاً ، فقال : ﴿ قُضِىَ الأمر الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ يقول : وقعت العبارة فصار الأمر على ما عبر يوسف .

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن أبي مجلز قال : كان أحد اللذين قصا على يوسف الرؤيا كاذباً .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن ابن سا باط ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مّنْهُمَا اذكرنى عِندَ رَبّكَ ﴾ قال : عند ملك الأرض .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ، ما

لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله " وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن عكرمة مرفوعاً نحوه ، وهو مرسل ، وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

وأخرج أحمد في الزهد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن الحسن مرفوعاً نحوه .

وهو مرسل .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن قتادة فذكر نحوه ، وهو مرسل أيضاً .

(54/397)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن أنس قال : أوحي إلى يوسف : من استنقذك من القتل حين همّ إخوتك أن يقتلوك ؟ قال : أنت يا ربّ ، قال : فمن استنقذك من الجبّ إذ ألقوك فيه ؟ قال : أنت يا ربّ ، قال : فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك ؟ قال : أنت يا ربّ ، قال : فما لك نسيتني ، وذكرت آدمياً ؟ قال : جزعاً ، وكلمة تكلم بها لساني ، قال : فوعزتي لأخلدنك في السجن بضع سنين ، فلبث فيه سبع سنين ، وقد اختلف السلف في تقدير مدّة لبثه في السجن على

حسب ما قدّمنا ذكره ، فلم نشتغل ها هنا بذكر من قال بذلك ومن خرّجه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(55/397)

وقال القاسمى :

وبعد تحقيق الحق ، ودعوتهما إليه ، وبيانه لهما مرتبة علمه ، شرع في تفسير ما استفسراه . ولكونه بحثاً مغايراً لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً ﴾

أي : يخرج من السجن ، ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر : ﴿ وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ﴾ أي : فيقتل ويعلق على خشبة ، فتأكل الطير من لحم رأسه ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ أي : قطع وتم ما تستفتيان فيه . يعني : مآله ، وهو نجاة أحدهما ، وهلاك الآخر . والتعبير عنه بـ (الأمر) ، وعن طلب تأويله بـ : (الاستفتاء) تهويلاً لأمره ، وتفخيماً لشأنه ؛ إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلة الحكم ، المبهمة الجواب ، وإيثار صيغة الاستقبال ، مع سبق استفتائهما في ذلك ؛ لما أنهما بصدده ، إلى أن يقضي عليه السلام من الجواب وطره .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي : قال يوسف للذي علم نجاته من الفتيين ، أي : خلوصه من السجن والقتل ، وهو الساقي : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي : اذكر حالي وصفتي ، وعلمي بالرؤيا ، وما جرى عليّ عند الملك سيدك ، عسى يخلصني مما ظلمت به .

و(الظن) بمعنى العلم واليقين ، ورد كثيراً ، والتعبير به إرخاء للعنان ، وتأدب مع الله تعالى . وقيل : الظن بمعناه المعروف ، بناء على أن تأويل يوسف بطريق الاجتهاد ، والحكم بقضاء الأمر اجتهادي أيضاً ، والأول أنسب بالسياق .

تنبيه :

دلت الآية على جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة ، ولو مشركاً . وقد جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : من الآية 2] ، وقوله حكاية عن عيسى : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [آل عِمْرَان : من الآية 52] و [الصف : 14] وفي الحديث : < والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه > . وجلي أن ذلك من نظام الكون ، والعمران البشري ، ولذلك ميز الإنسان بالنطق .

وأما ما رواه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعاً : لو لم يقل - يعني يوسف - الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث ، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله تعالى . فقال الحافظ ابن كثير : حديث ضعيف جداً ، وذكر من رجاله الضعفاء راويين سماهما . ثم قال : وروي أيضاً مرسلاً عن الحسن وقتادة . قال : وهذه المرسلات هاهنا لا تقبل ، لو قُبل المرسل من حيث هو ، في غير هذا الموطن - والله أعلم - انتهى . ولقد أجاد وأفاد عليه الرحمة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ يعني : فشغله الشيطان حتى نسي ذكر يوسف عند الملك ﴿ فَلَبِثَ ﴾ أي : مكث يوسف : ﴿ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ أي : طائفة منها .

ولأهل اللغة أقوال في (البضع) : ما بين الثلاث إلى التسع ، أو إلى الخمس ، أو ما لم يبلغ العقد ولا نصفه ، يعني ما بين الواحد إلى الأربعة . وقيل غير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 183.185 ﴾

(57/397)

وقال صاحب المنار :

وقال صاحب المنار :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

وبَعْدَ أَنْ أَدَّى يُوسُفُ رِسَالَةَ رَبِّهِ عَبَّرَ لِصَاحِبَيْهِ رُؤْيَاهُمَا بِقَوْلِهِ :

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا

(تَأْوِيلُهُ لِمَنَامَيْ صَاحِبَيِ السَّجْنِ ووَصِيَّتُهُ لِلنَّاجِي مِنْهُمَا) :

(58/397)

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا) وَهُوَ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَعْصِرُ خَمْرًا (فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا) يَعْنِي بِرَبِّهِ : مَالِكُ رَقَبَتِهِ وَهُوَ الْمَلِكُ ، لَا رُبُوبِيَّةَ الْعُبُودِيَّةِ ، فَمَلِكُ مِصْرَ فِي عَهْدِ يُوسُفَ لَمْ يَدَّعِ الرُّبُوبِيَّةَ وَالْأُلُوهِيَّةَ كَفِرْعَوْنَ مُوسَى وَغَيْرِهِ ، بَلْ كَانَ مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ الرُّعَاةِ الَّذِينَ مَلَكُوا الْبِلَادَ عِدَّةَ قُرُونٍ (وَأَمَّا الْآخَرُ) وَهُوَ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَحْمِلُ خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ (فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ) أَيِ الطَّيْرُ الَّتِي تَأْكُلُ اللُّحُومَ كَالْحِدَأَةِ . وَهَذَا التَّأْوِيلُ قَرِيبٌ مِنْ أَصْلِ رُؤْيَا كُلٍّ مِنْهُمَا ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ خَوَاطِرِهِمَا النَّوْمِيَّةِ ، وَتَأْوِيلُهُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ مُكَاشَفَاتِ يُوسُفَ وَيُؤَكِّدُهَا قَوْلُهُ : (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) فَهَذَا نَبَأٌ زَائِدٌ عَلَى تَعْبِيرِ رُؤْيَاهُمَا ، وَرَدَ مَوْرِدَ الْجَوَابِ عَنْ سُؤَالٍ كَانَ يَخْطُرُ بِبَالِهِمَا ، أَوْ أَسْئِلَةٍ فِي صِفَةِ ذَلِكَ التَّعْبِيرِ وَهَلْ هُوَ قَطْعِيٌّ أَمْ ظَنِّيٌّ يَجُوزُ غَيْرُهُ وَمَتَى يَكُونُ ؟ فَهُوَ يَقُولُ لَهُمَا : إِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي يُهِمُّكُمَا أَوْ يُشْكِلُ

عَلَيْكُمَا وَتَسْتَفْتِيَانِي فِيهِ قَدْ قُضِيَ وَبُتَّ فِيهِ وَانْتَهَى حُكْمُهُ . وَالِاسْتِفْتَاءُ فِي اللُّغَةِ السُّؤَالُ عَنِ الْمُشْكِلِ الْمَجْهُولِ ، وَالْفَتْوَى جَوَابُهُ سَوَاءٌ أَكَانَ نَبَأً أَمْ حُكْمًا ، وَقَدْ غَلَبَ فِي الِاسْتِعْمَالِ الشَّرْعِيِّ فِي السُّؤَالِ عَنِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَمِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى عُمُومِهِ : أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ 43 وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ

(59/397)

الْفُتُوَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى مَعْنَى الْقُوَّةِ وَالْمَضَاءِ وَالثِّقَةِ .

قُلْتُ : إِنَّ هَذِهِ الْفَتْوَى مِنْ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - زَائِدَةٌ عَلَى مَا عَبَّرَ بِهِ رُؤْيَاهُمَا ، دَاخِلَةٌ فِي قِسْمِ الْمُكَاشَفَةِ وَنَبَأِ الْغَيْبِ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ - تَعَالَى - وَجَعَلَهُ آيَةً لَهُ لِيَثِقُوا بِقَوْلِهِ وَهُمْ أُولُو عِلْمٍ وَفَنٍّ وَسِحْرٍ ، وَمَعْنَاهَا أَنَّهُ عَلِمَ بِوَحْيِ رَبِّهِ أَنَّ الْمَلِكَ قَدْ حَكَمَ فِي أَمْرِهِمَا بِمَا قَالَهُ ، لَا مِنْ بَابِ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِ مَا رَأَيَا مِنَ النَّوْعِ الصَّادِقِ مِنْهَا لَا مِنْ أَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ (وَسَنُبَيِّنُ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي التَّفْسِيرِ الْإِجْمَالِيِّ لِكُلِّيَّاتِ السُّورَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى) .

(وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا) وَهُوَ الَّذِي أَوَّلَ لَهُ رُؤْيَاهُ بِأَنَّهُ يَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ، وَتَأْوِيلُهَا يَدُلُّ عَلَى نَجَاتِهِ دَلَالَةً ظَنِّيَّةً لَا قَطْعِيَّةً ، فَإِنْ كَانَتْ فَتْوَاهُ بَعْدَهُ عَنْ وَحْيٍ نَبَوِيٍّ كَمَا رَجَّحْنَا لَا تَتِمَّةَ

لِتَأْوِيلِهَا ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّعْبِيرُ عَنْ نَجَاتِهِ بِالظَّنِّ ، لِأَنَّ مَا عُلِمَ مِنْ قَضَاءِ الْمَلِكِ بِذَلِكَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَعْرِضَ مَا يَحُولُ دُونَ تَنْفِيذِهِ .

(60/397)

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي الْكَلَامِ عَلَى رُؤْيَا يُوسُفَ وَمَا فَهِمَهُ أَبُوهُ مِنْهَا مِنْ أَمْرِ مُسْتَقْبَلِهِ ، أَنَّ عِلْمَ الْأَنْبِيَاءِ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ إِجْمَالِيٌّ إِلَخْ ، وَقَالَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الظَّنَّ هُنَا بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَفِي هَذِهِ الدَّعْوَى نَظَرٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا تَحْقِيقَ الْحَقِّ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الظَّنِّ وَالْعِلْمِ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَلَا مَحَلَّ لِإِعَادَتِهِ هُنَا : (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) أَيْ عِنْدَ سَيِّدِكَ الْمَلِكِ ، بِمَا رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ وَعَلِمْتَ مِنْ أَمْرِي عَسَى أَنْ يُنْصِفَنِي مِمَّنْ ظَلَمُونِي وَيُخْرِجَنِي مِنَ السِّجْنِ ، وَهَذَا الذِّكْرُ يَشْمَلُ دَعْوَتَهُ إِيَّاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَتَأْوِيلَهُ لِلرُّؤْيَا ، وَإِنْبَاءَهُمْ بِكُلِّ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ طَعَامٍ وَغَيْرِهِ قَبْلَ إِتْيَانِهِ ، وَآخِرُهُ فَتْوَاهُ الصَّرِيحَةُ فَهِيَ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تُذَكِّرَهُ بِهِ كُلَّمَا قَدَّمَ لِلْمَلِكِ شَرَابَهُ (فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) أَيْ أَنْسَى السَّاقِي تَذَكُّرَ رَبِّهِ ، وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ يُوسُفَ عِنْدَهُ عَلَى حَدِّ : (وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) 18 : 63 (فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) مَنْسِيًّا مَظْلُومًا ، وَالْفَاءُ عَلَى هَذَا لِلسَّبَبِيَّةِ وَهُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنَ السِّيَاقِ ، وَالْجَارِي عَلَى نِظَامِ الْأَسْبَابِ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - الْآتِي قَرِيبًا : (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ

أُمَّةٍ) 45 أَيْ تَذَكَّرَ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الِاسْتِعْمَالَ يَحْتَاجُ إِلَى حَذْفٍ وَتَقْدِيرٍ، وَوَجَّهُوهُ بِأَنَّهُ أَضَافَ الْمَصْدَرَ إِلَيْهِ

(61/397)

لِمُلَابَسَتِهِ لَهُ، أَوْ أَنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِ: ذِكْرَ إِخْبَارِ رَبِّهِ، فَحَذَفَ الْمُضَافَ، وَهُوَ كَثِيرٌ كَمَا أَنَّ الْإِضَافَةَ لِأَدْنَى مُلَابَسَةٍ كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى أَنَّ الشَّيْطَانَ أَنْسَى يُوسُفَ ذِكْرَ رَبِّهِ وَهُوَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فَعَاقَبَهُ اللهُ - تَعَالَى - بِإِبْقَائِهِ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ.

وَقَالُوا: إِنَّ ذَنْبَهُ الَّذِي اسْتَحَقَّ عَلَيْهِ هَذَا الْعِقَابَ أَنَّهُ تَوَسَّلَ إِلَى الْمَلِكِ لِإِخْرَاجِهِ وَلَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَجَاءُوا عَلَيْهِ بِرِوَايَاتٍ لَا يُقْبَلُ فِي مِثْلِهَا إِلَّا الصَّحِيحُ الْمَرْفُوعُ أَوِ الْمُتَوَاتِرُ مِنْهُ، لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ الطَّعْنَ فِي نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، وَلَكِنْ قَبِلَهَا عَلَى عِلَّاتِهَا الْجُمْهُورُ كَعَادَتِهِمْ وَهُوَ خِلَافُ الظَّاهِرِ مِنْ وُجُوهٍ:

(الْأَوَّلُ) عَطْفُ الْإِنْسَاءِ عَلَى مَا قَالَهُ لِلسَّاقِي بِالْفَاءِ يَدُلُّ عَلَى وُقُوعِهِ عَقِبَهُ، وَمَفْهُومُهُ أَنَّهُ كَانَ ذَاكِرًا لِلَّهِ - تَعَالَى - قَبْلَهُ إِلَى أَنْ قَالَهُ، فَلَوْ كَانَ قَوْلُهُ ذَنْبًا عُوقِبَ عَلَيْهِ لَوَجَبَ أَنْ يُعْطَفَ عَلَيْهِ

بِجُمْلَةٍ حَالِيَّةٍ بِأَنْ يُقَالَ: وَقَدْ أَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ - أَيْ فِي تِلْكَ الْحَالِ - فَلَمْ يَذْكُرْهُ بِقَلْبِهِ وَلَا بِلِسَانِهِ، فَاسْتَحَقَّ عِقَابَهُ - تَعَالَى - بِإِطَالَةِ مُكْثِهِ عَلَى خِلَافِ مَا أَرَادَهُ مِنْ مَلِكِ مِصْرَ وَحْدَهُ.

(62/397)

(الثَّانِي) أَنَّ اللَّائِقَ بِمَقَامِهِ أَلَّا يَقُولَ ذَلِكَ الْقَوْلَ إِلَّا مِنْ بَابِ مُرَاعَاةِ سُنَّةِ اللهِ - تَعَالَى - فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ كَمَا وَقَعَ بِالْفِعْلِ، فَإِنَّهُ مَا خَرَجَ مِنَ السِّجْنِ إِلَّا بِأَمْرِ الْمَلِكِ، وَمَا أَمَرَ الْمَلِكُ بِإِخْرَاجِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَهُ السَّاقِي خَبَرَهُ، وَمَا آتَاهُ رَبُّهُ مِنَ الْعِلْمِ بِتَأْوِيلِ الرُّؤَى وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا وَصَّاهُ بِهِ يُوسُفُ، فَإِذَا كَانَ قَدْ وَصَّاهُ بِذَلِكَ مُلَاحِظًا أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي عِبَادِهِ مُتَذَكِّرًا ذَلِكَ - وَهُوَ اللَّائِقُ بِهِ - فَلَا يُعْقَلُ أَنْ يُعَاقِبَهُ رَبُّهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِ، وَعَطْفُ الْإِنْسَاءِ بِالْفَاءِ يَدُلُّ عَلَى وُقُوعِهِ بَعْدَ تِلْكَ الْوَصِيَّةِ، فَلَا تَكُونُ هِيَ ذَنْبًا وَلَا مُقْتَرِنَةً بِذَنْبٍ فَيَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْعِقَابَ.

(الثَّالِثُ) إِذَا قِيلَ: سَلَّمْنَا أَنَّهُ كَانَ ذَاكِرًا لِرَبِّهِ عِنْدَمَا أَوْصَى السَّاقِيَ مَا أَوْصَاهُ بِهِ، وَلَكِنَّهُ نَسِيَهُ عَقِبَ الْوَصِيَّةِ وَاتَّكَلَ عَلَيْهَا وَحْدَهَا. (قُلْنَا): إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ نَسِيَ ذَلِكَ فِي الْحَالِ وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ النِّسْيَانُ مُدَّةَ ذَلِكَ الْعِقَابِ وَهُوَ بِضْعُ سِنِينَ أَوْ تَتِمَّتُهَا، كُنْتُمْ قَدِ اتَّهَمْتُمْ هَذَا

النَّبِيِّ الْكَرِيمِ تُهْمَةٌ فَظِيعَةٌ لَا تَلِيقُ بِأَضْعَفِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا ، وَلَا يَدُلُّ عَلَيْهَا دَلِيلٌ ، بَلْ يُبْطِلُهَا وَصْفُ اللَّهِ لَهُ بِأَنَّهُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَمِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ الْمُصْطَفَيْنَ ، وَبِأَنَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَأَنَّهُ صَرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، وَكَيْدَ النِّسَاءِ .

(63/397)

وَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَنْسَاهُ ذِكْرَ رَبِّهِ بُرْهَةً قَلِيلَةً عَقِبَ تِلْكَ الْوَصِيَّةِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ مُرَاقَبَتِهِ لَهُ - عَزَّ وَجَلَّ - وَذِكْرِهِ فَهَذَا النِّسْيَانُ الْقَلِيلُ ، لَا يَسْتَحِقُّ هَذَا الْعِقَابَ الطَّوِيلَ ، وَلَمْ يُعْصَمْ مِنْ مِثْلِهِ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَمَا يُعْلَمُ مِنَ الْوَجْهَيْنِ : الرَّابِعِ ، وَالْخَامِسِ .

(الرَّابِعُ) جَاءَ فِي نُصُوصِ التَّنْزِيلِ فِي خِطَابِ الشَّيْطَانِ : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) 15 : 42 وَقَالَ - تَعَالَى - : (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) 7 : 201 فَالتَّذَكُّرُ بَعْدَ النِّسْيَانِ الْقَلِيلِ مِنْ شَأْنِ أَهْلِ التَّقْوَى .

(الْخَامِسُ) أَنَّ النِّسْيَانَ لَيْسَ ذَنْبًا يُعَاقِبُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ، وَقَدْ قَالَ - تَعَالَى - لِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ : (وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) 6 : 68 يَعْنِي

الَّذِينَ أَمَرَهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ إِذَا رَآهُمْ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ .

(السَّادِسُ) أَنَّهُمْ مَا قَالُوا هَذَا إِلَّا لِأَنَّهُمْ رَوَوْا فِيهَا حَدِيثًا مَرْفُوعًا عَلَى قِلَّةِ جُرْأَةِ الرُّوَاةِ

(64/397)

عَلَى الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ الْمُسْنَدَةِ فِي التَّفْسِيرِ ، وَهُوَ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ وَكِيعٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (لَوْ لَمْ يَقُلْ يُوسُفُ الْكَلِمَةَ الَّتِي قَالَ مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ حَيْثُ يَبْتَغِي الْفَرَجَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ) وَنَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ بَاطِلٌ ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ : وَهَذَا الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ جِدًّا . سُفْيَانُ بْنُ وَكِيعٍ ضَعِيفٌ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ يَزِيدَ هُوَ الْجَوْزِيُّ أَضْعَفُ مِنْهُ أَيْضًا . وَقَدْ رُوِيَ مِنَ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ مُرْسَلًا عَنْ كُلٍّ مِنْهُمَا . وَهَذِهِ الْمُرْسَلَاتُ هَهُنَا لَا تُقْبَلُ لَوْ قُبِلَ الْمُرْسَلُ مِنْ حَيْثُ هُوَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْطِنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ اهـ .

(65/397)

وأقول: أولًا: إنّ ما قاله في هذين الرّاويين للحديث هو أهون ما قيل فيهما، ومنه أنّهما كانا يكذبان. وثانيًا: إنّه يعني بقوله (ههنا) الطّعن في نبيّ مرسل بأنّه كان يبتغي الفرج من عند غير الله، وهو الجدير بألّا تحجبه الأسباب الظّاهرة عن واضعها ومسخّرها وخالقها - عزّ وجلّ - . ويعني بقوله: لو قبل المرسل من حيث هو) ما هو الصّحيح عند علماء الأصول وهو عدم الاحتجاج بالمراسيل، وسنتكلّم على المراسيل في التّفسير في الكلام الإجماليّ عن روايات هذه السّورة وأمثالها في الخلاصة الإجماليّة لتفسيرها إن شاء الله - تعالى - وما رواه الكلبيّ وغيره عن وهب بن منبّه وكعب الأحبار من خطاب الله - تعالى - وخطاب جبريل ليوسف وتوبيخه على الاستشفاع بآدميّ مثله، فهي من موضوعات الرّاوي والمرويّ عنهما جزاهم الله ما يستحقّون، فتبيّن بهذا أنّ التّفسير المأثور في الآية باطل رواية ودراية وعقيدة ولغة وأدبًا .

(66/397)

وقد اختلف المفسّرون في مدّة لبث يوسف في السّجن بناءً على الاختلاف في تفسير (البضع) واختلاف الرّواة. فالتّحقيق أنّ البضع من ثلاث إلى تسع، وأكثر ما يطلق على السّبع، وعليه الأكثرون في مدّة سجن يوسف من أوّلها إلى آخرها . وما قالوه من أنّ

السَّبْعَ كَانَتْ بَعْدَ وَصِيَّتِهِ لِلسَّاقِي وَأَنَّهُ لَبِثَ قَبْلَهَا خَمْسَ سِنِينَ فَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير المنار حـ 12 صـ 257. 260﴾

(67/397)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

افتتح خطابهما بالنداء اهتماماً بما يلقيه إليهما من التعبير ، وخاطبهما بوصف ﴿ صاحبي السجن ﴾ أيضاً .

ثم إذا كان الكلام المحكي عن يوسف عليه السّلام في الآية صدر منه على نحو النظم الذي نظم به في الآية وهو الظاهر كان جمع التأويلَ في عبارة واحدة مجملة ، لأن في تأويل إحدى الرؤيين ما يسوء صاحبَها قصداً لتلقيه ما يسوء بعدَ تأمل قليل كيلا يفجأه من أول الكلام ، فإنه بعد التأمل يعلم أن الذي يسقي ربه خمراً هو رَائي عَصر الخمر ، وأن الذي تأكل الطير من رأسه هو رائي أكل الطير من خبزٍ على رأسه .

وإذا كان نظم الآية على غير ما صدر من يوسف عليه السّلام كان في الآية إيجاز لحكاية كلام يوسف عليه السّلام ، وكان كلاماً معيّناً فيه كل من الفتيين بأن قال : أما أنتَ فكيْت وكيْت

، وأما أنت فكَيْت وكَيْت ، فحُكي في الآية بالمعنى .

وجملة ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ تحقيق لما دلت عليه الرؤيا ، وأن تعبيرها هو ما أخبرهما به فإنهما يستفتيان في دلالة الرؤيا على ما سيكون في شأن سجنهما لأن ذلك أكبر همهما ، فالمراد بالأمر تعبير رؤياهما .

والاستفتاء : مصدر استفتَى إذا طلب الإفتاء .

وهو : الإخبار بإزالة مشكل ، أو إرشاد إلى إزالة حيرة .

وفعله أفتى مُلازم للهمز ولم يسمع له فعل مُجرد ، فدلا ذلك على أن همزه في الأصل مجتلب لمعنًى ، قالوا : أصل اشتقاق أفتى من الفتى وهو الشاب ، فكأنّ الذي يفتيه يقوي نهجه ببيانه فيصير بقوة بيانه فَتِيّا أي قوياً .

واسم الخبر الصادر من المفتي : فتوى بفتح الفاء وبضمها مع الواو مقصوراً ، وبضم الفاء مع الياء مقصوراً .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾

قال يوسف عليه السّلام للذي ظن نجاته من الفتيين وهو الساقي .

والظن هنا مستعمل في القريب من القطع لأنه لا يشك في صحة تعبيره الرؤيا .

وأراد بذكره ذكر قضيته ومظلمته ، أي اذكرني لربك ، أي سيدك .

وأراد بربه ملك مصر .

وضميرا ﴿ فأنساه ﴾ و ﴿ ربه ﴾ يحتملان العود إلى ﴿ الذي ﴾ ، أي أنسى الشيطان الذي نجا أن يَذكره لربه ، فالذكر الثاني هو الذكر الأول .

ويحتمل أن يعود الضميران إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ وقال ﴾ أي يوسف عليه السّلام أنساه الشيطان ذكر الله ، فالذكر الثاني غير الذكر الأول .

ولعل كلا الاحتمالين مراد ، وهو من بديع الإيجاز .

وذلك أن نسيان يوسف عليه السّلام أن يَسأل الله إلهام المَلِك تذكر شأنه كان من إلقاء الشيطان في أمنيته ، وكان ذلك سبباً إلهياً في نسيان الساقي تذكير الملك ، وكان ذلك عتاباً إلهياً ليوسف عليه السّلام على اشتغاله بعَون العباد دون استعانة ربه على خلاصه .

ولعل في إيراد هذا الكلام على هذا التوْجيه تلطفاً في الخبر عن يوسف عليه السّلام ، لأن الكلام الموجه في المعاني الموجهة ألطف من الصريح .

والبضع : من الثلاث إلى التسع .

وفيما حكاه القرآن عن حال سجنهم ما يُنبىء على أن السجن لم يكن مضبوطاً بسجل

يذكر فيه أسماء المساجين ، وأسبابُ سجنهم ، والمدةُ المسجون إليها ، ولا كان من وزعة السجون ولا ممن فوقهم من يتعهّد أسباب السجن ويفتقد أمر المساجين ويرفع إلى الملك في يوم من الأسبوع أو من العام .

وهذا من الإهمال والتهاون بحقوق الناس وقد أبطله الإسلام ، فإن من الشريعة أن ينظر القاضي أول ما ينظر فيه كلّ يوم أمرَ المساجين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(69/397)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى مطلب السجينين ، وفسَّر رؤيا مَنْ يسقي الخمر بأنه سيخرج من السجن ويعود ليسقي سيده ، وأما الآخر فلسوف يُصلَبُ وتأكل الطير من رأسه ، لأن رمزية الرؤيا تقول : إن الطير سيأكل من رأسه ؛ وهذا يعني أن رأسه ستكون طعاماً للطير .

وتأويل الرؤيا علم يقذفه الله في قلوب مَنْ علَّمهم تأويل الأحاديث ، وهي قدرة على فَكِّ

شَفْرة الحُلْم ، ويعطيها الله لمَنْ يشاء من عباده .

وقد قال يوسف لمَنْ قال : ﴿ إني أراني أَعْصِرُ خَمْراً ﴾ [يوسف : 36] .

أنه سوف ينال العفو ما أظهرته الرؤيا التي قالها ، وأما الآخر فسيأكل من رأسه الطير . أي : سيُصلب كما أوحتْ بذلك رموز الرُّؤيا .

ونلحظ أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذي أوضحته الرؤيان عن الاثنين صاحبي الرؤيين .

وهذا دليل على أن القاضي يجب أن يكون ذهنه مُنصبًّا على الحكم ؛ لا على المحكوم عليه ، فقد سمع يوسف منهما ؛ وهو لا يعرف مَنْ سينال البراءة ، ومَنْ الذي سوف يُعاقب .

فنزع يوسف ذاته من الأمر ، ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه ؛ لأن الهوى يُلوِّن الحكم ، ولا أحد بقادر على أن يسيطر على عاطفته ، ولا بد للقاضي لحظة أن يصدر حكماً أن يتجرد تماماً من الهوى والذاتيات .

(70/397)

ويُعلِّمنا الحق سبحانه ذلك حين أنزل لنا في قرآنه قصة سيدنا داود عليه السلام : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب * إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ

خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلَا تُشْطِطْ واهدنا آإلى سَوَآءِ الصراط * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخطاب * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطآء ليبغي بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ إِلَاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فاستغفر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [ص : 21–24] .

وكان من ذكر عدد نِعَاج أخيه أنه إنما أراد أن يستميل داود عليه السلام لصفِّه ؛ وكان يريد أن يُصوِّر الظلم الذي وقع عليه ، وحكم داود بأن مَنْ أخذ النعجة ليضمها لنعاجه هو الذي ظلم ؛ وشعر داود أنه لم يُوفَّق في الحكم ؛ لأنه ذكر في حيثية الحكم نعاج الذي أراد أن يأخذ نعجة أخيه .

فالأخذ وحده كان هو المبرر عند داود لإدانة الذي أراد الاستيلاء على ما ليس من حقه ؛ ولذلك اعتبر أن هذا الأمر كله فتنة لم يُوفَّق فيها ، واستغفر الله بالركوع والتوبة .

وقد كان يوسف عليه السلام حكيماً حين قال تأويل الرُّؤيا متجرداً من الذاتية ، وأنهى التأويل بالقول :

﴿ قُضِيَ الأمر الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف : 41] .

أي : أنه لا مجال للرجوع أو العدول عن حدوث ذلك الذي وصل إليه من تأويل ؛ فقد جاء التأويل وفقاً لما علَّمه الله له .

وهناك الكثير من الروايات عما تحمّله يوسف من صعاب قبل الجُبِّ وقبل السجن ، وقيل : إن عمته ابنة إسحق ، وهي أكبر أولاده ؛ قد استقبلته بعد أن ماتت أمه لترعاه فتعلقت به ؛ ولم تحب أحداً قَدْر محبتها له .

وتاقت نفس يعقوب إلى ولده ؛ فذهب إليها وقال لها : سلّمي إليَّ يوسف . لكنها قالت : والله ما أقدر أن يغيب عني ساعة ، ولن أتركه .

فلما خرج يعقوب عليه السلام من عندها ، عمدتْ إلى شيء من ميراث إبراهيم عليه السلام يتوارثه اكبر الأبناء ، ووضعته تحت ملابس يوسف .

وكان العُرفُ الجاري أنه إذا سرق أحد شيئاً وتَمَّ ضبطه ؛ تحول من حرٍّ إلى عبد ، وحين كاد يعقوب أن يخرج مع ابنه يوسف عائداً إلى بيته ؛ أعلنت العمة فقدان الشيء الذي أعطاه لها والدها إسحق ؛ وفتشوا يوسف فوجدوا الشيء المفقود .

فقالت عمته : والله إنه لَسَلْم أي عبد وكان العرف أن مَنْ يسرق شيئاً يتحول إلى عبد عند صاحب الشيء .

وهكذا بقي يوسف مع عمته محروماً من أبيه لفترة ، ولم يستطع الأب استرداده إلا بعد أن

ماتت العمَّة .

ثم جاءت حادثة الجُبِّ ، ومن بعدها محاولة امرأة العزيزِ لغُوايته ، ورغم تيقُّن العزيز من براءته إلا أنه أُودِع السجن ؛ ويقول الرواة :

"إن يوسف عليه السلام قد عُرف في السجن بالجود ، والأمانة ، وصدق الحديث ، وحُسْن السمت ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير أي تأويل الرؤيا والإحسان إلى أهل السجن .

ولما دخل هذان الفَتيانِ معه السجن ؛ تآلفا به وأحبَّاه حُبّاً شديداً وقالا له : والله لقد أحببناك حباً زائداً . قال : بارك الله فيكما ؛ إنه ما من أحد أحبّني إلا دخل عليّ من محبته ضررٌ ، أحبتني عمّتي فدخل الضرر بسببها ، وأحبّني أبي فأوذيتُ بسببه ، وأحبّتني امرأة العزيز فكذلك .

أي : أنه دخل السجن وصار معهما دون ذنب جنَاه .

قال السجينان : إنا لا نستطيع غير ذلك" .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قاله يوسف لمن ظَنَّ أنه سينجو من السجن : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ . . . ﴾ .

والمقصود هنا هو السجين الذي رأى حُلْماً يعصر فيه العنب ، فهو الذي فسر له يوسف رؤياه بأنه سينجو ؛ ويواصل مهمته في صناعة الخمر لسيده .

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ . . ﴾ [يوسف : 42] .

يعني أن الأمر بالنجاة لم يتيقن بعد ، ولم يصبح علماً .

وقد أوصاه يوسف عليه السلام :

﴿ اذكرني عِندَ رَبِّكَ . . . ﴾ [يوسف : 42] .

والذكر هو حضور شيء بالبال ؛ وكان له بالبال صِلَة استقبال ، مثل أي قضية عرفَتَها من قبل ثم تركتَها ، ونسيتَهَا لفترة ، ثم تذكرتَها من جديد .

وهكذا نعلم أن للإنسان استقبالات للإدراكات ، وهي لا تظل في بُؤْرة الشعور كل الوقت ؛ لأن الذهن لا يستطيع أن يكون مشغولاً إلا بشيء واحد ، فإن جاء شيء آخر فهو يزحزح الأمر الأول إلى حافة الشعور ، ليستقر الأمر الجديد في بؤرة الشعور .

والمثل الذي أضربه دائماً هو إلقاء حجر في الماء ، فيصنع الحجر دوائر تكبر ويتابع اتساع أقطارها ، وهكذا بؤرة الشعور ، حين تستقبل أمراً أو خاطراً جديداً .

فالخاطر الجديد يُبعد كل الخواطر الأخرى من المركز إلى الحاشية ، ثم يأتي ما يُذكِّرك بما في حاشية الشعور ؛ ليعود لك الخاطر أو الأمر الذي كنت قد نسيتَه وتتذكره بكل تفاصيله ؛ لأن ذاكرة الإنسان تعمل على مُسْتويين ؛ فهي تحفظ المعلومات ؛ وتسترجع المعلومات أيضاً .

وقد قال يوسف لمن ظن أنه نَاجٍ :

﴿ اذكرني عِندَ رَبِّكَ . . ﴾ [يوسف : 42] .

أي : اذكر ما وجدته عندي من خير أمام سيدك .

وقال بعض المفسرين : إن يوسف عليه السلام حين نطق هذا القول ؛ شاء له الله أن يمكث في السجن بضع سنين ؛ فما كان ينبغي له كرسول أن يُوسِّط الغير في مسألة ذِكْره بالخير عند سيد ذلك السجين .

(73/397)

فيوسف كرسول إنما يتلقى عن الله بواسطة الوحي ؛ وهو قد قال لذلك السجين وزميله :

﴿ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي ﴾ [يوسف : 37] .

وهذا يعني أنه يستقبل عن الله مباشرة ، وكان عليه أن يظل موصولاً بالمصدر الذي يفيض عليه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ فَأَنسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف : 42] .

ونسيان ذكر الله فيه نوع من العقوبة ، أو يحمل شيئاً من التأديب ليوسف ، وهكذا نرى أن الشيطان نفسه إنما يُعِين الحق على مُرَاداته من خَلْقه .

وهذا ما يشرح لنا بقاء يوسف في السجن بضع سنين ؛ ونعرف أن البِضْع من السنين يعني من ثلاث سنوات إلى عَشْر سنوات ، وبعض العلماء حَدَّده بسبع سنين . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(74/397)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

أخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه قال : أتاه فقال : رأيت فيما يرى النائم أني

غرست حبة من عنب ، فنبتت فخرج فيه عناقيد فعصرتهن ، ثم سقيتهن الملك . فقال : تمكث في السجن ثلاثة أيام ، ثم تخرج فتسقيه خمراً .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ فيسقي ربه خمراً ﴾ قال : سيده .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما رأى صاحبا سجن يوسف عليه السلام شيئاً ، إنما تحاكما إليه ليجرّبا علمه ، فلما أوّل رؤياهما قالا : إنما كنا نلعب ولم نر شيئاً ، فقال ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ يقول : وقعت العبارة ، فصار الأمر على ما عبر يوسف عليه السلام .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن أبي مجلز رضي الله عنه قال : كان أحد اللذين قصا على يوسف الرؤيا كاذباً .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ قال عند قولهما : ما رأينا رؤيا ، إنما كنا نلعب . قال : قد وقعت الرؤيا على ما أوّلت .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال : قال يوسف عليه السلام للخباز : إنك تصلب ، فتأكل الطير من رأسك . وقال لساقيه : أما أنت ، فترد على عملك ، فذكر لنا أنهما قالا حين عبر : لم نر شيئاً . قال ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه، أنه قرأ ﴿ أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾.

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن ابن سابط رضي الله عنه ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ﴾ قال: عند ملك الأرض.

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ يعني بذلك الملك.

وأخرج ابن جرير، عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه قال لما انتهى به إلى باب السجن، قال له: اوصني بحاجتك. قال: حاجتي أن تذكرني عند ربك. ينوي الرب الذي ملك يوسف عليه السلام.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج ﴾ قال إنما عبارة الرؤيا بالظن، فيُحِقُّ الله ما يشاء ويبطل ما يشاء.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات، وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس

رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لو لم يقل يوسف عليه السلام الكلمة التي قال : ما لبث في السجن طول ما لبث . حيث يبتغي الفرج من عند غير الله تعالى " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ ، عن عكرمة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لولا أنه يعني يوسف قال الكلمة التي قال ، ما لبث في السجن طول ما لبث " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله يوسف ، لو لم يقل : اذكرني عند ربك ، ما لبث في السجن طول ما لبث " .

وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن الحسن رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " رحم الله يوسف لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث ، قوله اذكرني عند ربك " ثم بكى الحسن رضي الله عنه وقال : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " لولا أن يوسف استشفع على ربه ، ما لبث في السجن طول ما لبث . ولكن ، إنما عوقب باستشفاعه على ربه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن أنس رضي الله عنه قال : أوحى إلى يوسف : " من استنقذك من القتل حين همَّ اخوتك أن يقتلوك ؟ قال : أنت يا رب . قال : فمن استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه ؟ قال : أنت يا رب .

قال : فمن استنقذك من المرأة إذ هممت بها ؟ قال : أنت يا رب . قال : فما لك نسيتني وذكرت آدمياً ؟ قال : جزعاً ، وكلمة تكلم بها لساني . قال : فوعزتي ، لأخلدنك في السجن بضع سنين . فلبث في السجن بضع سنين " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن الحسن رضي الله عنه قال : لما قال يوسف عليه السلام للساقي : اذكرني عند ربك ، قيل له " يا يوسف ، اتخذت من دوني وكيلاً ؟ لأطيلن حبسك : فبكى يوسف عليه السلام وقال : يا رب ، تشاغل قلبي من كثرة البلوى فقلت كلمة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ﴾ قال يوسف للذي نجا من

صاحبي السجن : اذكرني للملك ، فلم يذكره حتى رأى الملك الرؤيا ، وذلك أن يوسف أنساه الشيطان ذكر ربه وأمره بذكر الملك وابتغاء الفرج من عنده ، فلبث في السجن بضع سنين عقوبة لقوله ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ قال : بلغنا أنه لبث في السجن سبع سنين .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : أصاب أيوب عليه السلام البلاء سبع سنين ، وترك يوسف عليه السلام في السجن سبع سنين ، وعذب بخت نصر خون في السباع سبع سنين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ اثنتي عشرة سنة .

(77/397)

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي بكر بن عياش ، عن الكلبي رضي الله عنه قال : قال يوسف عليه السلام كلمة واحدة ، حبس بها سبع سنين قال أبو بكر : وحبس قبل ذلك خمس سنين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن طاوس والضحاك في قوله ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ قالا أربع عشرة سنة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه قال : البضع ، ما بين الثلاث إلى التسع .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : البضع ، ما بين الثلاث إلى التسع .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : البضع دون العشرة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : عثر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات : قوله اذكرني عند ربك ، وقوله لإخوته إنكم لسارقون ، وقوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب . فقال له جبريل عليه السلام : ولا حين هممت ؟ فقال : وما أبرئ نفسي .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال : ذهب يوسف عليه السلام وهو ابن سبع عشرة ولبث في الجب سبعاً ، وفي السجن سبعاً ، وجمع الطعام في سبع ، فيرون أنه التقى هو وأبوه عند ذلك .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي المليح رضي الله عنه قال : كان دعاء يوسف عليه السلام في السجن اللهم إن كان خلق وجهي عندك ، فإني أتقرب إليك بوجه يعقوب أن تجعل لي فرجاً ومخرجاً ويسراً ، وترزقني من حيث لا أحتسب .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن عبد الله مؤذن الطائف قال : جاء جبريل عليه السلام إلى يوسف عليه السلام فقال : يا يوسف ، اشتد عليك الحبس ؟ قال نعم .

قال : قل اللهم اجعل لي من كل ما أهمني وكربني من أمر دنياي وأمر آخرتي فرجاً ومخرجاً ، وارزقني من حيث لا أحتسب ، واغفر لي ذنبي وثبت رجائي ، واقطعه من سواك حتى لا أرجو أحداً غيرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(78/397)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَيَسْقِي ﴾ : العامَّةُ على فتح الياء ، مِنْ سقاه يَسْقيه . وقرأ عكرمة في رواية " فَيُسْقي " بضم حرف المضارعة مِنْ أسقى وهما لغتان ، يقال : سَقَاه وأَسْقاه ، وسيأتي أنهما قراءتان في السبعة : " نَسْقيكم ونُسْقيكم مما [في] بطونه " . وهل هما بمعنىً أم بينهما فرق ؟ ونقل ابن عطية عن عكرمة والجحدري أنهما قرآ " فَيُسقَى ربُّه " مبنياً للمفعول ورفع " ربُّه " . ونسبه الزمخشري لعكرمة فقط .

قوله : ﴿ قُضِيَ الأمر ﴾ قال الزمخشري : " ما اسْتَفْتَيَا في أمر واحد . بل في أمرين مختلفين ، فما وجه التوحيد ؟ قلت : المراد بالأمر ما اتُّهما به من سَمِّ المَلِك وما سُجِنا من أجله " .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِي ظَنَّ ﴾ : فاعلُ "ظنَّ" يجوز أن يكون يوسف عليه السلام إن كان تأويلُه بطريقة الاجتهاد، وأن يكون الشرَّابيُّ إن كان تأويله بطريق الوحي، أو يكون الظنُّ بمعنى اليقين، قاله الزمخشري.

قلت: يعني أنه إنْ كان الظنُّ على بابه فلا يستقيم إسناده إلى يوسفَ إلا أن يكون تأويلُه بطريق الاجتهاد؛ لأنه متى كان بطريق الوحي كان يقيناً فيُنْسَب الظن حينئذ للشَّرابي لا له عليه السلام، وأمَّا إذا كان الظنُّ بمعنى اليقين فتصِحُّ نسبتُه إلى يوسف وإن كان تأويله بطريق الوحي، وهو حَسَنٌ وإلى كونِ الظنّ على بابه وهو مسندٌ ليوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد ذهب قتادة، فإنه قال: "الظنُّ هنا على بابه لأنَّ عبارة الرؤيا ظنٌّ".

(79/397)

قوله: ﴿ مِّنْهُمَا ﴾ يجوز أن يكونَ صفةً ل "ناج"، وأن يتعلَّقَ بمحذوف على أنه حال من الموصول. قال أبو البقاء: "ولا يكون متعلقاً ب "ناجٍ" لأنه ليس المعنى عليه" قلت: لو تعلَّق ب "ناجٍ" لأَفْهَمَ أنَّ غيرَهما نجا منهما، أي: انفلت منهما، والمعنى: أنَّ أحدهما هو الناجي، وهذا المعنى الذي نبَّه عليه بعيدُ تَوَهُّمُه. والضمير في "فَأَنْساه" يعود على

الشرَّابي . وقيل : على يوسف ، وهو ضعيفٌ .

قوله : ﴿ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ منصوبٌ على الظرف الزماني وفيه خلافٌ : فقال قتادة : " هو بين الثلاث إلى التسع " . وقال أبو عبيد : " البِضْعُ لا يَبْلُغُ العِقْدَ ولا نصفَ العقدِ ، وإنما هو من الواحد إلى العشر " . وقال مجاهد : " هو من الثلاثة إلى السبعة " . وقال الفراء : " لا يُذكر البِضْعُ إلا مع العشرات ولا يُذكر مع مِئَة ولا ألف " . وقال الراغب : / " البِضْع : بالكسر المُقْتَطَعُ من العشرة ، ويقال ذلك لِما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل : بل هو فوق الخمسة ودون العشرة " . قلت : فجَعَلَه مشتقاً مِنْ مادة البَضْع وهي القَطْع ، ومنه : بَضَعْتُ اللحمَ ، أي : قَطَعْتُه ، والبِضاعة : قطعةُ مالٍ للتجارة ، والمِبْضَعُ : ما يُبْضَعُ به ، والبَعْض قد تقدَّم أنه من هذا المعنى عند ذكر " البعوضة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 499 . 500 ﴾

(80/397)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآَخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ

رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41) ﴾

اشتركا في السؤال واشتركا في الحكم وفي دخول السجن، ولكن تباينا في المآل؛ واحدٌ صُلب، وواحِدٌ قُرِّبَ ووُهِبَ... وكذا قضايا التوحيد واختيار الحق؛ فَمِنْ مرفوعٍ: فوق السِّماكِ مَطْلَعُه، ومن مدفون: تحت التراب مضجعُه.

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) ﴾

يتبيّن أنّ تعبير الرؤيا – وإنْ كان حقاً – فهو بطريق غَلَبَةِ الظّنّ دون القطع.

ثم إنه عاتب يوسفَ عليه السلام لأنه نَسِيَ في حديثه مَنْ يستعين به حين قال: ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾.

ويقال إنه طَلَبَ من بَشَرٍ عِوَضاً على ما عَلّمَه، وفي بعض الكتب المنزلة: يا ابن آدم، عَلِّمْ مجانا كما عَلِّمْتَ مجاناً.

ولما استعان بالمخلوقِ طال مُكْثُه في السجن، كذلك يجازي الحقُّ – سبحانه – مَنْ يُعَلِّقُ قلبَه بمخلوق. انتهى انتهى. ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 186﴾

(81/397)

فصل

قال صاحب الميزان فى الآيات السابقة :

﴿ ثم بدا لهم من بعد ما راوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾

(بيان) تتضمن الآيات شطرا من قصته (عليه السلام) وهو دخوله السجن ومكثه فيه بضع سنين وهو مقدمة تقربه التام عند الملك ونيله عزة مصر وفيه دعوته في السجن إلى دين التوحيد وقد جاء ببيان عجيب واظهاره لاول مرة انه من اسرة إبراهيم واسحاق ويعقوب .

قوله تعالى : " ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين " البداء هو ظهور رأى بعد ما لم يكن يقال ؟ بدا لى في أمر كذا اي ظهر لى فيه راى جديد والضمير في قوله لهم إلى العزيز وامراته ومن يتلوهما من اهل الاختصاص واعوان الملك والعزة .

والمراد بالآيات الشواهد والادلة الدالة على براءة يوسف (عليه السلام) وطهارة ذيله مما اتهموه به كشهادة الصبى وقد القميص من خلفه واستباقهما الباب معا ولعل منها تقطيع النسوة ايديهن برؤيته واستعصامه عن مراودتهن اياه عن نفسه واعتراف امراة العزيز لهن انها راودته عن نفسه فاستعصم .

وقوله ليسجننه اللام فيه للقسم أي اقسموا وعزموا ليسجننه البتة وهو تفسير للرأى الذى بدا لهم ويتعلق به قوله حتى حين ولا يخلو من معنى الانتظار بالنظر إلى قطع حين عن

الاضافة والمعنى على هذا ليسجننه حتى ينقطع حديث المراودة الشائع في المدينة وينساه الناس .

ومعنى الآية ثم ظهر للعزيز ومن يتلوه من امرأته وسائر مشاوريه رأي جديد في يوسف من بعد ما راوا هذه الآيات الدالة على براءته وعصمته وهو ان يسجنوه حينا من الزمان حتى ينسى حديث المراودة الذى يجلب لهم العار والشين واقسموا على ذلك .

(82/397)

ويظهر بذلك انهم انما عزموا على ذلك لمصلحة بيت العزيز وصونا لاسرته عن هوان التهمة والعار ولعل من غرضهم ان يتحفظوا على امن المدينة العام ولا يخلوا الناس وخاصة النساء ان يفتتنوا به فان هذا الحسن الذى أوله امراة العزيز والسيدات من شرفاء المدينة وفعل بهم ما فعل من طبعه ان لا يلبث دون ان يقيم في المدينة بلوى .

لكن الذى يظهر من قوله في السجن لرسول الملك " ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن ايديهن " إلى آخر ما قال ثم قول الملك لهن ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه وقولهن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ثم قول امرأة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين كل ذلك يدل على ان المراة البست الأمر بعد على

زوجها وارابته في براءة يوسف (عليه السلام) فاعتقد خلاف ما دلت عليه الآيات أو شك في ذلك ولم يكن ذلك الا عن سلطة تامة منها عليه وتمكن كامل من قلبه ورأيه .

وعلى هذا فقد كان سجنه بتوسل أو بامر منها لتدفع بذلك تهمة الناس عن نفسها وتؤدب يوسف لعله ينقاد لها ويرجع إلى طاعتها فيما كانت تأمره به كما هددته به بمحضر من النسوة بقولها " ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين " .

قوله تعالى : " ودخل معه السجن فتيان " إلى آخر الآية الفتى العبد وسياق الايات يدل على انهما كانا عبدين من عبيد الملك وقد وردت به الروايات كما سيأتي ان شاء الله تعالى .

وقوله : " قال احدهما انى ارانى اعصر خمرا " فصل قوله قال احدهما للدلالة على الفصل بين حكاية الرؤيا وبين الدخول كما يشعر به ما في السياق من قوله ارانى وخطابه له بصاحب السجن .

وقوله ارانى لحكاية الحال الماضية كما قيل وقوله اعصر خمرا أي اعصر عنبا كما يعصر ليتخذ خمرا فقد سمى العنب خمرا باعتبار ما يؤول إليه .

والمعنى اصبح احدهما وقال ليوسف (عليه السلام) انى رايت فيما يرى النائم انى اعصر عنبا للخمر .

وقوله " وقال الاخر انى ارانى احمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه " أي تنهشه وهى رؤيا أخرى ذكرها صاحبه وقوله " نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين " أي قالا نبئنا بتأويله فاكتفى عن ذكر الفعل بقوله قال وقال وهذا من لطائف تفنن القرآن والضمير في قوله بتأويله راجع إلى ما يراه المدلول عليه بالسياق وفي قوله " انا نراك من المحسنين " تعليل لسؤالهما التأويل ونراك أي نعتقدك من المحسنين لما نشاهد فيك من سيماهم وانما اقبلا عليه في تأويل رؤياهما لاحسانه لما يعتقد عامة الناس ان المحسنين الابرار ذووا قلوب طاهرة ونفوس زاكية فهم ينتقلون إلى روابط الأمور وجريان الحوادث انتقالا احسن واقرب إلى الرشد من انتقال غيرهم .

والمعنى قال احدهما ليوسف انى رايت فيما يرى النائم كذا وقال الاخر انى رايت كذا وقالا له اخبرنا بتأويل ما رآه كل منا لانا نعتقد انك من المحسنين ولا يخفى لهم امثال هذه الأمور الخفية لزكاء نفوسهم وصفاء قلوبهم .

قوله تعالى : " قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل ان يا تيكما " لما اقبل صاحبا السجن على يوسف (عليه السلام) في سؤاله عن تأويل رؤيا رأياها عن حسن ظن به من جهة ما كانا يشاهدان منه سيماء المحسنين اغتنم (عليه السلام) الفرصة في بث ما عنده من اسرار التوحيد والدعوة إلى ربه سبحانه الذى علمه ذلك فاخبرهما انه عليم

بذلك بتعليم

من ربه خبير بتأويل الاحاديث وتوسل بذلك إلى الكشف عن سر التوحيد ونفى الشركاء

ثم اول رؤياهما .

فقال اولا لا ياتيكما طعام ترزقانه وانتما في السجن الانبأتكما بتأويله اي بتأويل ذاكما الطعام وحقيقته وما يؤول إليه امره فانا خبير بذلك فليكن آية لصدقي فيما ادعوكما إليه من دين التوحيد .

(84/397)

هذا على تقدير عود الضمير في قوله بتأويله إلى الطعام ويكون عليه اظهارا منه (عليه السلام) لاية نبوته نظير قول المسيح (عليه السلام) لبنى إسرائيل " وانبؤكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لاية لكم ان كنتم مؤمنين " آل عمران : 49 ويؤيد هذا المعنى بعض الروايات الواردة من طرق اهل البيت (عليه السلام) كما سيأتي في بحث روائي ان شاء الله تعالى .

واما على تقدير عود ضمير بتأويله إلى ما رأياه من الرؤيا فقوله لا يأتيكما طعام الخ وعد منه لهما تأويل رؤياهما ووعد بتسريعه غير ان هذا المعنى لا يخلو من بعد بالنظر الى السياق .

قوله تعالى : " ذلكما مما علمني ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالاخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى إبراهيم واسحاق ويعقوب " بين (عليه السلام) ان العلم والتنبؤ بتأويل الاحاديث ليس من العلم العادى الأكتسابى في شئ بل هو مما علمه اياه ربه ثم علل ذلك بتركه ملة المشركين واتباعه ملة آبائه إبراهيم اسحاق ويعقوب أي رفضه دين الشرك واخذه بدين التوحيد .

والمشركون من اهل الاوثان يعتقدون بالله سبحانه ويثبتون يوم الجزاء بالقول بالتناسخ كما تقدم في الجزء السابق من الكتاب لكن دين التوحيد يحكم ان الذى يقدر له شركاء في التأثير أو في استحقاق العبادة ليس هو الله وكذا عود النفوس بعد الموت بأبدان أخرى تتنعم فيها أو تعذب ليس من المعاد في شئ ولذلك نفى (عليه السلام) عنهم الإيمان بالله وبالاخرة واكد كفرهم بالاخرة بتكرار الضمير حيث قال وهم بالاخرة هم كافرون وذلك لأن من لا يؤمن بالله فأحرى به ان لا يؤمن برجوع العباد إليه .

وهذا الذى يقصه الله سبحانه من قول يوسف (عليه السلام) واتبعت ملة آبائى إبراهيم واسحاق ويعقوب هو اول ما انبأ في مصر نسبه وانه من اهل بيت إبراهيم واسحاق ويعقوب (عليه السلام) .

قوله تعالى : " ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون " أي لم يجعل الله سبحانه لنا اهل البيت سبيلا إلى ان نشرك به شيئا ومنعنا من ذلك ذلك المنع من فضل الله ونعمته علينا اهل البيت وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون فضله تعالى بل يكفرون به .

واما انه تعالى جعلهم بحيث لا سبيل لهم إلى ان يشركوا به فليس جعل اجبار والجاء بل جعل تأييد وتسديد حيث أنعم عليهم بالنبوة والرسالة والله اعلم حيث يجعل الرسالة فاعتصموا بالله عن الشرك ودانوا بالتوحيد .

واما ان ذلك من فضل الله عليهم وعلى الناس فلانهم ايدوا بالحق وهو افضل الفضل والناس في وسعهم ان يرجعوا إليهم فيفوزوا باتباعهم ويهتدوا بهداهم .

واما ان اكثر الناس لا يشكرون فلانهم يكفرون بهذه النعمة وهى النبوة والرسالة فلا يعبؤون بها ولا يتبعون اهلها أو لانهم يكفرون بنعمة التوحيد ويتخذون لله سبحانه شركاء من الملائكة والجن والانس يعبدونهم من دون الله .

هذا ما ذكره اكثر المفسرين في معنى الآية .

ويبقى عليه شئ وهو ان التوحيد ونفى الشركاء ليس مما يرجع فيه إلى بيان النبوة فأنه مما يستقل به العقل وتقضى به الفطرة فلا معنى لعده فضلا على الناس من جهة الاتباع بل هم

والانبياء في أمر التوحيد على مستوى واحد وشرع سواء ولو كفروا بالتوحيد فانما كفروا لعدم اجابتهم لنداء الفطرة لا لعدم اتباع الأنبياء .

لكن يجب ان يعلم انه كما ان من الواجب في عناية الله سبحانه ان يجهز نوع الإنسان مضافا إلى الهامه من طريق العقل الخير والشر والتقوى والفجور بما يدرك به احكام دينه وقوانين شرعه وهو سبيل النبوة والوحى وقد تكرر توضيحه في ابحاثنا السابقة كذلك من الواجب في عنايته ان يجهز افرادا منه بنفوس طاهرة وقلوب سليمة مستقيمة على فطرتها الاصلية لازمة لتوحيده ممتنعة عن الشرك به يستبقي به أصل التوحيد عصرا بعد

عصر ويحيى به روح السعادة جيلا بعد جيل والبرهان عليه هو البرهان على النبوة والوحى فان الواحد من الإنسان العادى لا يمتنع عليه الشرك ونسيان التوحيد والجائز على الواحد جائز على الجميع وفي تلبس الجميع بالشرك فساد النوع في غايته وبطلان الغرض الإلهى في خلقته .

فمن الواجب ان يكون في النوع رجال متلبسون باخلاص التوحيد يقومون بأمره ويدافعون عنه وينبهون الناس عن رقدة الغفلة والجهالة بالقاء حججه وبث شواهده وآياته وبينهم

وبين الناس رابطة التعليم والتعلم دون السوق والاتباع .

وهذه النفوس ان كانت فهى نفوس الأنبياء والائمة (عليه السلام) وفى خلقهم وبعثهم فضل من الله سبحانه عليهم بتعليم توحيده لهم وعلى الناس بنصب من يذكرهم الحق الذى تقضى به فطرتهم ويدافع عن الحق تجاه غفلتهم وضلالتهم فان اشتغال الناس بالاعمال المادية ومزاولتهم للامور الحسية تجذبهم إلى اللذات الدنيوية وتحرضهم على الاخلاد إلى الأرض فتبعدهم عن المعنويات وتنسيهم ما في فطرهم من المعارف الإلهية ولولا رجال متألهون متولهون في الله الذين اخلصهم بخالصة ذكرى الدار في كل برهة من الزمان لا حيطت الأرض بالعماء وانقطع السبب الموصول بين الأرض والسماء وبطلت غاية الخلقة وساخت الأرض باهلها .

ومن هنا يظهر ان الحق ان تنزل الآية على هذه الحقيقة فيكون معنى الآية لم يجعل لنا بتأييد من الله سبيل إلى ان نشرك بالله شيئًا ذلك أي كوننا في امن من الشرك من فضل الله علينا لأنه الهدى الذى هو سعادة الإنسان وفوزه العظيم وعلى الناس لأن في ذلك تذكيرهم إذا نسوا وتنبيههم إذا غفلوا وتعليمهم إذا جهلوا وتقويمهم إذا عوجوا ولكن اكثر الناس لا يشكرون الله بل يكفرون بهذا الفضل فلا يعبؤون به ولا يقبلون عليه بل يعرضون عنه هذا .

وذكر بعضهم في معنى الآية ان المشار إليه بقوله ذلك من فضل الله علينا الخ هو العلم بتأويل

الاحاديث وهو كما ترى بعيد من سياق الآية قوله تعالى : " يا صاحبي السجن ءأرباب

متفرقون خيرام الله الواحد القهار لفظة الخير بحسب الوزن صفة من قولهم خار يخار خيره

إذا انتخب واختار احد شيئين يتردد

بينهما من حيث الفعل أو من حيث الاخذ بوجه فالخير منهما هو الذى يفضل على الاخر

في صفة المطلوبية فيتعين الاخذ به فخير الفعلين هو المطلوب منهما الذى يتعين القيام به

وخير الشيئين هو المطلوب منهما من جهة الاخذ به كخير المالين من جهة التمتع به وخير

الدارين من جهة سكناها وخير الانسانين من جهة مصاحبته وخير الرأيين من جهة الاخذ

به وخير الالهين من جهة عبادته ومن هنا ذكر اهل الأدب ان الخير في الأصل اخير افعل

تفضيل والحقيقة انه صفة مشبهة تفيد بحسب المادة ما يفيده افعل التفضيل من الفضل في

القياس .

وبما مر يتبين ان قوله (عليه السلام) ءأرباب متفرقون خيرام الله الواحد القهار الخ مسوق

لبيان الحجة على تعينه تعالى للعبادة إذا فرض تردد الأمر بينه وبين سائر الارباب التى

تدعى من دون الله لا لبيان انه تعالى هو الحق الموجود دون غيره من الارباب أو انه تعالى هو

الاله الذى تنتهى إليه الأشياء بدءا وعودا دونها أو غير ذلك فان الشئ انما يسمى خيرا من

جهة طلبه وتعيينه بالاخذ به بنحو فقوله (عليه السلام) أهو خيرام سائر الارباب يريد به السؤال عن تعين احد الطرفين من جهة الاخذ به والاخذ بالرب هو عبادته .

(88/397)

ثم انه (عليه السلام) سمى آلهتهم اربابا متفرقين لانهم كانوا يعبدون الملائكة وهم عندهم صفات الله سبحانه أو تعينات ذاته المقدسة التى تستند إليها جهات الخير والسعادة في العالم فيفرقون بين الصفات بتنظيمها طولا وعرضا ويعبدون كلا بما يخصه من الشأن فهناك إله العلم واله القدرة واله السماء واله الأرض واله الحسن واله الحب واله الامن والخصب وغير ذلك ويعبدون الجن وهم مبادئ الشر في العالم كالموت والفناء والفقر والقبح والالم والغم وغير ذلك ويعبدون افرادا كالكملين من الاولياء والجبابرة من السلاطين والملوك وغيرهم وهم جميعا متفرقون من حيث اعيانهم ومن حيث اصنامهم والتماثيل المتخذة لهم المنصوبة للتوجه بها إليهم .

وقابل الارباب المتفرقين بذكر الله عز اسمه ووصفه بالواحد القهار حيث قال ام الله الواحد القهار فالكلمة تفيد بحسب المعنى خلاف ما يفيده قوله " ءأرباب متفرقون لضرورة التقابل بين طرفي الترديد .

فالله علم بالغلبة يراد به الذات المقدسة الإلهية التى هي حقيقة لا سبيل للبطلان إليه ووجود لا يتطرق العدم والفناء إليه والوجود الذى هذا شأنه لا يمكن ان يفرض له حد محدود ولا امد ممدود لأن كل محدود فهو معدوم وراء حده والممدود باطل بعد امده فهو تعالى ذات غير محدود ووجود غير متناه بحب وإذا كان كذلك لم يمكن ان يفرض له صفة خارجة عن ذاته مباينة لنفسه كما هو الحال في صفاته لتأدية هذه المغايرة إلى كونه تعالى محدودا غير موجود في ظرف الصفة وفاقرا لا يجد الصفة في ذاته ولم يمكن أيضا فرض المغايرة والبينونة بين صفاته الذاتية كالحياة والعلم والقدرة لأن ذلك يؤدى إلى وجود حدود في داخل الذات لا يوجد ما في داخل حد في خارجه فيتغاير الذات والصفات ويتكثر جميعا ويحد وهذا كله مما اعترفت به الوثنية على ما بايدينا من معارفهم .

(89/397)

فمما لا يتطرق إليه الشك عند المثبتين لوجود الاله سبحانه لو تفطنوا ان الله سبحانه موجود في نفسه ثابت بذاته لا موجود بهذا النعت غيره وان ما له من صفات الكمال فهو عينه غير زائد عليه ولا بعض صفات كما له صفات زائد على بعض فهو علم وقدرة وحياة بعينه .

فهو تعالى احدى الذات والصفات أي انه واحد في وجوده بذاته ليس قباله شئ الا موجودا به لا مستقلا بالوجود وواحد في صفاته أي ليس هناك صفة له حقيقية إلا أن تكون عين الذات فهو الذى يقهر كل شئ لا يقهره شئ .

والاشارة إلى هذا كله هي التى دعته (عليه السلام) ان يصف الله سبحانه بالواحد القهار حيث قال " ام الله الواحد القهار " أي انه تعالى واحد لكن لا واحد عددي إذا اضيف إليه آخر صار اثنين بل واحد لا يمكن ان يفرض قباله ذات الا وهى موجودة به لا بنفسها ولا ان يفرض قباله صفة له الا وهى عينه والا صارت باطلة كل ذلك لأنه بحث غير محدود بحد ولا منته إلى نهاية .

وقد تمت الحجة على الخصم منه (عليه السلام) في هذا السؤال بما وصف الارباب بكونهم متفرقين واياه تعالى بالواحد القهار لأن كون ذاته المتعالية واحدا قهارا يبطل التفرقة أي تفرقة مفروضة بين الذات والصفات فالذات عين الصفات والصفات بعضها عين بعض فمن عبد الذات عبد الذات والصفات ومن عبد علمه فقد عبد ذاته وان عبد علمه ولم يعبد ذاته فلم يعبد لا علمه ولا ذاته وعلى هذا القياس .

فإذا فرض تردد العبادة بين ارباب متفرقين وبين الله الواحد القهار تعالى وتقدس تعينت عبادته دونهم إذ لا يمكن فرض ارباب متفرقين ولا تفرقة في العبادة .

نعم يبقى هناك شئ وهو الذى يعتمد عليه عامة الوثنية من ان الله سبحانه اجل وارفع ذاتا من ان تحيط به عقولنا أو يناله افهامنا فلا يمكننا التوجه إليه بعبادته ولا يسعنا التقرب منه بعبوديته والخضوع له والذى يسعنا هو ان نتقرب بالعبادة إلى بعض مخلوقاته الشريفة التى هي مؤثرات في تدبير النظام العالمي حتى يقربونا منه ويشفعوا لنا عنده فاشار (عليه السلام) في الشطر الثاني من كلامه اعني قوله ما تعبدون من دونه الا اسماء الخ إلى دفعه .

قوله تعالى : " ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ان لا تعبدوا الا اياه " الخ بدء (عليه السلام) بخطاب صاحبيه في السجن اولا ثم عمم الخطاب للجميع لأن الحكم مشترك بينهما وبين غيرهما من عبدة الاوثان .

ونفى العبادة الا عن الأسماء كناية عن انه لا مسميات وراء هذه الأسماء فتقع العبادة في مقابل الأسماء كلفظة اله السماء واله الأرض واله البحر واله البر والاب والام وابن الاله ونظائر ذلك .

وقد اكد كون هذه الأسماء ليس وراءها مسميات بقوله انتم وآباؤكم فانه في معنى الحصر أي لم يضع هذه الاسامي احد غيركم بل انتم وآباؤكم وضعتموها ثم اكده ثانيا بقوله ما انزل الله بها من سلطان والسلطان هو البرهان لتسلطه على العقول اي ما انزل الله بهذه الأسماء

أو بهذه التسمية من برهان يدل على ان لها مسميات وراءها وحينئذ كان يثبت لها الألوهية أي المعبودية فصحت عبادتكم لها .

ومن الجائز ان يكون ضمير بها عائدا إلى العبادة أي ما انزل الله حجة على عبادتها بان يثبت لها شفاعة واستقلالا في التأثير حتى تصح عبادتها والتوجه إليها فان الأمر الى الله على كل حال واليه اشار بقوله بعده " ان الحكم الا لله " .

(91/397)

وهو اعني قوله ان الحكم الا لله مما لا ريب فيه البتة إذ الحكم في أمر ما لا يستقيم الا ممن يملك تمام التصرف ولا مالك للتصرف والتدبير في امور العالم وتربية العباد حقيقة الا الله سبحانه فلا حكم بحقيقة المعنى الا له .

وهو اعني قوله ان الحكم الا لله مفيد فيما قبله وما بعده صالح لتعليلهما معا اما فائدته في قوله قبل ما انزل الله بها من سلطان فقد ظهرت آنفا واما فائدته في قوله بعد أمر الا تعبدوا الا اياه فلانه متضمن لجانب اثبات الحكم كما ان قوله قبل ما انزل الله بها من سلطان متضمن لجانب السلب وحكمه تعالى نافذ في الجانبين معا فكأنه لما قيل ما انزل الله بها من سلطان قيل فماذا حكم به في أمر العبادة فقيل أمر الا تعبدوا الا اياه ولذلك جئ بالفعل .

ومعنى الآية والله اعلم ما تعبدون من دون الله الا اسماء خالية عن المسميات لم يضعها الا انتم وآباؤكم من غير ان ينزل الله سبحانه من عنده برهانا يدل على ان لها شفاعة عند الله أو شيئا من الاستقلال في التأثير حتى يصح لكم دعوى عبادتها لنيل شفاعتها أو طمعا في خيرها أو خوفا من شرها .

واما قوله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون فيشير به إلى ما ذكره من توحيد الله ونفى الشريك عنه والقيم هو القائم بالأمر القوى على تدبيره أو القائم على ساقه غير المتزلزل والمتضعضع والمعنى ان دين التوحيد وحده هو القوى على ادارة المجتمع وسوقه إلى منزل السعادة والدين المحكم غير المتزلزل الذى فيه الرشد من غير غى والحقية من غير بطلان ولكن اكثر الناس لا نسهم بالحس والمحسوس وانهما كهم في زخارف الدنيا الفانية حرموا سلامة القلب واستقامة العقل لا يعلمون ذلك وانما يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الاخرة معرضون .

(92/397)

اما ان التوحيد دين فيه الرشد ومطابقة الواقع فيكفى في بيانه ما اقامه (عليه السلام) من البرهان واما انه هو القوى على ادارة المجتمع الإنساني فلان هذا النوع انما يسعد في مسير

حياته إذا بنى سنن حياته واحكام معاشه على مبنى حق مطابق للواقع فسار عليها لا إذا بناها على مبنى باطل خرافي لا يعتمد على أصل ثابت .

فقد بان من جميع ما تقدم ان الآيتين جميعا اعني قوله يا صاحبي السجن إلى قوله الا تعبدوا الا اياه برهان واحد على توحيد العبادة محصله ان عبادة المعبود ان كانت لالوهيته في نفسه ووجوب وجوده بذاته فالله سبحانه في وجوده واحد قهار لا يتصور له ثان ولا مع تأثيره مؤثر آخر فلا معنى لتعدد الالهة وان كانت لكون آلهة

غير الله شركاء له شفعاء عنده فلا دليل على ثبوت الشفاعة لهم من قبل الله سبحانه بل الدليل على خلافه فان الله حكم من طريق العقل وبلسان انبيائه ان لا يعبد الا هو .

وبذلك يظهر فساد ما اورده البيضاوى في تفسيره تبعا للكشاف ان الآيتين تتضمنان دليلين على التوحيد فما في الأولى وهو قوله " أ أرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار " دليل خطابي وما في الثانية وهو قوله ما تعبدون من دونه الا اسماء الخ برهان تام قال البيضاوى وهذا من التدرج في الدعوة والزام الحجة بين لهم اولا رجحان التوحيد على اتخاذ الالهة على طريق الخطابة ثم برهن على ان ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الإلهية فان استحقاق العبادة اما بالذات واما بالغير وكلا القسمين منتف عنهما ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذى لا يقتضى العقل غيره ولا يرتضى العلم دونه انتهى .

ولعل الذى حداه إلى ذلك ما في الآية الأولى من لفظة الخير فاستظهر منه الرجحان الخطابى

وقد فاته ما فيها من قيد الواحد القهار وقد عرفت تقرير ما تتضمنه الايتان من البرهان وان الذى ذكره من معنى الآية الثانية هو مدلول مجموع الآيتين دون الثانية فحسب .

وربما يقرر مدلول الآيتين برهانين على التوحيد بوجه آخر ملخصه ان الله الواحد الذى يقهر بقدرته الأسباب المتفرقة التى تفعل في الكون ويسوقها على تلائم آثارها المتفرقة المتنوعة بعضها مع بعض حتى ينتظم منها نظام واحد غير متناقض الاطراف كما هو المشهود من وحدة النظام وتوافق الأسباب خير من ارباب متفرقين تترشح منها لتفرقها ومضادتها انظمة مختلفة وتدابير متضادة تؤدى إلى انفصام وحدة النظام الكونى وفساد التدبير الواحد العمومي .

ثم الالهة المعبودة من دون الله اسماء لا دليل على وجود مسمياتها في الخارج بتسميتكم لا من جانب العقل ولا من جانب النقل لأن العقل لا يدل إلا على التوحيد والانبياء لم يؤمروا من جهة الوحى الا بان لا يعبد الا الله وحده انتهى .

وهذا التقرير كما ترى ينزل الآية الأولى على معنى قوله تعالى : " لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا " الأنبياء : 22 ويعمم الآية الثانية على نفى الوهية آلهة الا الله بذاتها ونفى الوهيتها

من جهة اذن الله في شفاعتها .

ويرد عليه اولا ان فيه تقييدا لاطلاق قوله القهار من غير مقيد فان الله سبحانه كما يقهر الأسباب في تأثيرها يقهر كل شئ في ذاته وصفته وآثاره فلا ثانى له في وجوده ولا ثانى له في استقلاله في نفسه وفي تأثيره فلا يتأتى مع وحدته القاهرة على الإطلاق ان يفرض شئ يستقل عنه في وجوده ولا أمر يستقل عنه في امره والاله الذى يفرض دونه اما مستقل عنه في ذاته وآثار ذاته جميعا واما مستقل عنه في آثار ذاته فحسب وكلا الامرين محال كما ظهر .

وثانيا ان فيه تعميما لخصوص الآية الثانية من غير معمم فان الآية كما عرفت تنيط كونها آلهة باذن الله وحكمه كما هو ظاهر قوله " ما انزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله " الخ ومن الواضح ان هذه الألوهية المنوطة باذنه تعالى وحكمه الوهية شفاعة لا الوهية ذاتية أي الوهية بالغير لا ما هو اعم من الألوهية بالذات وبالغير جميعا .

(94/397)

قوله تعالى : " يا صاحبي السجن اما احدكما فيسقي ربه خمرا واما الاخر فيصلب فتأكل الطير من راسه قضي الأمر الذى فيه تستفتيان " معنى الآية ظاهر وقرينة المناسبة قاضية بأن قوله " اما احدكما " الخ تأويل رؤيا من قال منهما انى ارانى اعصر خمرا وقوله واما

الاخر الخ تأويل لرؤيا الاخر .

وقوله قضى الأمر الذى فيه تستفتيان لا يخلو من اشعار بان الصاحبين أو احدهما كذب نفسه في دعواه الرؤيا ولعله الثاني لما سمع تأويل رؤياه بالصلب واكل الطير من رأسه ويتايد بهذا ما ورد من الرواية من طرق ائمة اهل البيت (عليه السلام) ان الثاني من الصاحبين قال له انى كذبت فيما قصصت عليك من الرؤيا فقال (عليه السلام) قضى الأمر الذى فيه تستفتيان أي ان التأويل الذى استفتيتما فيه مقضى مقطوع لا مناص عنه .

قوله تعالى " وقال للذى ظن انه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين " الضمائر في قوله قال وظن ولبث راجعة إلى يوسف أي قال يوسف للذى ظن هو انه سينجو منهما اذكرني عند ربك بما يثير رحمته لعله يخرجني من السجن .

واطلاق الظن على اعتقاده مع تصريحه لهما بانه من المقضى المقطوع به وتصريحه بان ربه علمه تأويل الاحاديث لعله من اطلاق الظن على مطلق الاعتقاد وله نظائر في القرآن كقوله تعالى : " الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم " البقرة – 46 .

واما قول بعضهم ان اطلاق الظن على اعتقاده يدل على انه انما اول ما اول عن اجتهاد منه يفسده ما قدمنا الإشارة إليه انه صرح لهما بعلمه في قوله " قضى الأمر الذى فيه تستفتيان " والله سبحانه ايد ذلك بقوله : " ولنعلمه من تأويل الاحاديث " وهذا ينافى الاجتهاد الظنى .

وقد احتمل ان يكون ضمير ظن راجعا الى الموصول أي قال يوسف لصاحبه الذى ظن ذلك الصاحب انه ناج منهما وهذا المعنى لا باس به ان ساعده السياق .

(95/397)

وقوله : " فأنساه الشيطان ذكر ربه " الخ الضميران راجعان إلى الذى أي فأنسى الشيطان صاحبه الناجى ان يذكره لربه أو عند ربه فلبث يوسف في السجن بضع سنين والبضع ما دون العشرة فاضافة الذكر إلى ربه من قبيل اضافة المصدر إلى معموله المعدى إليه بالحرف أو إلى المظروف بنوع من الملابسة .

واما ارجاع الضميرين إلى يوسف حتى يفيد ان الشيطان انسى يوسف ذكر الله سبحانه فتعلق بذيل غيره في نجاته من السجن فعوقب على ذلك فلبث في السجن بضع سنين كما ذكره بعضهم وربما نسب إلى الرواية .

فمما يخالف نص الكتاب فان الله سبحانه نص على كونه (عليه السلام) من المخلصين ونص على ان المخلصين لا سبيل للشيطان إليهم مضافا إلى ما اثنى الله عليه في هذه السورة .

والاخلاص لله لا يستوجب ترك التوسل بالاسباب فان ذلك من اعظم الجهل لكونه طمعا

فيما لا مطمع فيه بل انما يوجب ترك الثقة بها والاعتماد عليها وليس في قوله : " اذكرني عند ربك " ما يشعر بذلك البتة .

على ان قوله تعالى بعد آيتين : " وقال الذى نجا منهما وادكر بعد امه " الخ قرينة صالحة على ان الناسي هو الساقى دون يوسف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 11 صـ 169 . 181 ﴾

(96/397)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بطل هذا السبب الذي أمر به يوسف عليه الصلاة والسلام ، وهو تذكير الشرابي به ، أثار الله سبحانه سبباً ينفذ به ما أراد من رئاسته وقضى به من سجود من دلت عليه الكواكب فقال دالاً على ذلك : ﴿ وقال الملك ﴾ وهو شخص قادر واسع المقدور إليه

السياسه والتدبير ، لملاه وهم السحرة والكهنة والحزرة والقافة والحكماء ، وأكد ليعلم أنه محق في كلامه غير ممتحن : ﴿ إني أرى ﴾ عبر بالمضارع حكاية للحال لشدة ما هاله من ذلك ﴿ سبع بقرات سمان ﴾ والسمن : زيادة البدن من اللحم والشحم ﴿ يأكلهن سبع ﴾ أي بقرات ﴿ عجاف ﴾ والعجف : يبس الهزال ﴿ و ﴾ إني أرى ﴿ سبع ﴾ .

ولما كان تأويل المنام الجدب والقحط والشدة ، أضاف العدد إلى جمع القلة بخلاف ما كان في سياق المضاعفة في قوله ﴿ أنبتت سبع سنابل ﴾ [البقرة : 261] فقال :

﴿ سنبلات خضر و ﴾ إني أرى سبع سنبلات ﴿ أخر يابسات ﴾ التوت على الخضر فغلبت عليها ، وكأنه حذف هذا لدلالة العجاف عليه ؛ والسنبلة : نبات كالقصبة حملة حبوب منتظمة ، وكأنه قيل : فكان ماذا ؟ فقيل : قال الملك : ﴿ يا أيّها الملأ ﴾ أي الأشراف النبلاء الذين تملأ العيون مناظرهم والقلوب مخابرهم ومآثرهم ﴿ أفتوني ﴾ أي أجيبوني وبينوا لي كرماً منكم بقوة وفهم ثاقب .

(97/397)

ولما كان مراده أن لا يخرجوا بالجواب عن القصد ولا يبعدوا به ، عبر بما يفهم الظرف فقال :

﴿ في رؤياي ﴾ ومنعهم من الكلام بغير علم بقوله : ﴿ إن كنتم للرؤيا ﴾ أي جنسها

﴿ تعبرون ﴾ وعبارة الرؤيا : تأويلها بالعبور من علنها إلى سرها كما تعبر ، من عبر النهر – أي شطه – إلى عبره الآخر ، ومثله أولت الرؤيا – إذا ذكرت مآلها ومرجعها المقصود بضرب المثال .

(98/397)

والمادة – بتراكيبها الستة : عرب ، وعبر ، ورعب ، وربع ، وبعر ، وبرع – تدور على الجواز من محل إلى محل ومن حال إلى حال ، وأكثر ذلك إلى أجود ، فالعرب سموا لأن مبنى أمرهم على الارتحال لاستجادة المنازل ، وأعرب – إذا أفصح ، أي تكلم بكلام العرب فأبان عن مراده ، أي أجازه من العجمة والإبهام إلى البيان ، وأعرب الفرس – إذا خلصت عربيته ، فكأنه جاز مرتبة الهجن إلى العرب ، وكذا الإبل العراب ، والعروبة : يوم الجمعة – لعلو قدرها عن بقية الأيام ، والعروب : المرأة الضاحكة العاشقة لزوجها المتحببه إليه المظهرة له ذلك ، وهي أيضاً العاصية لزوجها – لأن كل ذلك أفعال العرب ، فهم أعشق الناس وأقدرهم على الاستمالة بالكلام العذب ، وهم أعصى الناس وأجفاهم إذا أرادوا ، والعرب – ويحرك : النشاط – لأنه انتقال عن الكسل ، وقد عرب – كفرح – إذا نشط وإذا ورم ، لأن الوارم يتجاوز هيئة غيره ، وعربت البئر : كثر ماءها فارتفع ، وعرب –

كضرب : أكل ، والعربة ، محركة : النهر الشديد الجري ، والنفس – لكثرة انتقالها بالفكر ، والعربون : ما عقد به المبايعة من الثمن ، فنقل السلعة من حال إلى حال ، واستعربت البقر : اشتهت الفحل ، إما من العروب العاشقة لزوجها ، وإما لنقل الشهوة لها من حال إلى أخرى ، وتعرب : أقام بالبادية ، مع الأعراب الذين لا يوطنون مكاناً ، وإنما هم مع الربيع ، وعروباء : اسم السماء السابعة – لارتفاعها عن جميع السماوات ، فكأنها جازت الكل ، ولأن حركتها حركة للكل ، والعرب – بالكسر : يبيس البهمي ، لأنه صار أهلاً للنقل ولو بتطيير الهواء ، والعربي : شعير أبيض سنبله حرفان – كأنه نسب إلى العرب لجودته ، والإعراب : إجراء الفرس ومعرفتك بالفرس العربي من الهجين – لانتقال حال الجهل بذلك إلى حال العلم ، وأن لا يلحن في الكلام – كأنه انتقل بذلك من العجمة إلى العربية ، وعرب الرجل – بالكسر – إذا أتخم ، وكذا الفرس من العلف ، ومعدته :

(99/397)

فسدت ، وجرحه : بقي به أثر بعد البرء ، كل ذلك ناقل من حال إلى غيرها ، والتعريب : تهذيب المنطق من اللحن – كأنه رفع نفسه إلى العرب ، وقطع سعف النخل – لأنه نقلها عن حالها إلى أصلح منه ، وأن تكون الدابة على أشاعرها ثم تبزغ بمبزغ ، والتعريب أيضاً

والإعراب : ما قبح من الكلام ، وتقبيح قول القائل كأنه حكم بزوال عربيته ، وهما أيضاً الرد عن القبيح ، وذلك إدخاله في خصال العرب التي هي معالي الأخلاق ، وهما أيضاً النكاح ، أو التعريض به لأن نقله من حال إلى حال وفعل إلى فعل قولاً وعملاً ، والتعريب : الإكثار من شرب الماء الصافي ، واتخاذ فرس عربي ، وسما بها عريب ، أي أحد يعرب ؛ وعبر الرؤيا - إذا فسرها وأخبر بما يؤول إليه أمرها ، كأنه جاز ظاهرها إلى بطن منها ، وعبرت الكتاب أعبره عبراً : تدبرته ولم ترفع به صوتك ، وعبرت النهر : قطعته من عبره - أي شطه - إلى عبره ، والعبر أيضاً : الجانب ، لأنه يعبر منه وإليه ، والمعبر : سفينة يعبر عليها النهر وشط هيىء للعبور ، وعبر القوم : ماتوا ، والعبرة - بالكسر : العجب ، وبالفتح : الدمعة قبل أن تفيض - كأن لها قوة الجري ، أو هي تردد البكاء في الصدر أو الحزن بلا بكاء ، لأن ذلك مبدأ جري الدمع ؛ وفي مختصر العين : وعبرة الدمع : جريه ، والعبرة : الدمع نفسه .

والعبر - بالضم ويحرك : سخنة العين ، والكثير من كل شيء ، وبالجماعة - لأن ذلك جواز عن حد القلة ، ولأنهم يجيزون ما شاؤوا ، ومجلس عبر - بالكسر والفتح : كثير الأهل - من ذلك ، وأيضاً هو أهل لأن يعبر بجماعته من حال إلى حال ، وبامرأة مستعبرة -

وتفتح الباء : غير محظية ، أي هي أهل لجري العبرة ، وناقة عبر أسفار – مثلثة قوية ، وعبرت عن الرجل فتكلمت عنه – كأنك عبرت من خاطره إلى خاطر المخاطب ، وعبرت الدنانير تعبيراً : وزنتها ولم تبالغ في وزنها – كأنك عبرت من الجهل بمقدارها إلى الظن ، أو عابر سبيل ، أحي مار ؛ والشعري : العبور : نجم خلف الجوزاء ، والعبور : الجذعة من الغنم – لأنها جازت سنة وتأهلت العبور مع الغنم وكانت في عدادها ، والعبور : لأقلف – لأن كمرته عابرة في قلفته ، وغلام معبر : لم يختتن ، ورجل عبر : كاد أن يحتلم ولم يختتن بعد ، أي كاد أن يصير إلى خذ البالغين على هذه الحال ، وهي أن كمرته عابرة في قلفته ، وعبر به الأمر تعبيراً : اشتد عليه – كأنه جاز من حالة الرخاء إلى الشدة وعبرت به أهلكته ، والمعبرة – بالتخفيف : ناقة لم تنتج ثلاث سنين ، فيكون أصلب لها – لأنها صارت أهلاً لأن يعبر عليها في الأسفار ، والعبير ضرب من الطيب – لعبور ريحه ، والزعفران – لعبور لونه وريحه ، والعبرى : السدر النهري – لنباته في عبر النهر ، والمعبر من الجمال : الكثير الوبر ، ومن الشاء : التي لم تجز – كأنه لجواز الصوف عن حد جلدهما ، وسهم معبر وعبير : كثير الريش – كأنه عبر عن حد العادة ، والعبر – بالضم : الثكلى ، لأنها أهل لإرسال العبرة ، والسحاب التي تسير شديداً ، والعقاب – لقوتها على قطع المسافات ، ونبات عبر : الكذب والباطل – لسرعة زواله ؛ ورعبت فلاناً : أفزعته ، فهو

مرعوب – لأنك أجزته من الأمن إلى الخوف ، وسيل راعب : أي يملأ الوادي ، وراعب : أرض ، منها الحمام الراعبية ، والحمام أيضاً لها قوة العبور بالرسائل من مكان

إلى مكان ، ورعبت الحمامة في صوتها ترعيباً : رفعته ، ورعبت السنام : قطعته ، والرعبوبة : قطعة منه – لأنها جازت مكانها ، وجارية رعبوبة ورعبوب : حسنة القوام تامة – كأنها جازت أقرانها حسناً ، والرعب : القصار ، واحدهم رعيب وأرعب ، تشبيه بالقطعة من السنام ؛ والبعر : رجيع الخف والظلف إلا البقر الأهلية ، لأنها تخثى ، والوحشية تبعر بعراً – لأنه يجوز من مكانه من غير أن يلوثه ، فلا يبقى منه به شيء ، والمعبر ، مكانه ، والبعير : الجمل البازل أو الجذع ، وقد يكون الحمار وكل ما يحمل ؛ وفي مختصر العين : وإذا رأت العرب ناقة أو جملاً من بعيد قالوا : هذا بعير ، فإذا عرفوا قالوا للذكر : جمل ، وللأنثى : ناقة ، والبعرة – بالتحريك : الكمرة ، تشبيهاً بها ، والربع : المنزل والدار بعينها ، والمحلة – لأنها يخرج منها ويدخل إليها ، ولذلك سميت متبوأ ، لأنها يتبوأ إليها ، أي يرجع ، وربع يربع : أقام ، وأربع على نفسك : انتظر ، كأنه من الربع ، أي المنزل ، لأنه يقام فيه : وربع – إذا أخصب – للانتقال من حال إلى حال أخرى ، وهم على ربعاتهم

، أي استقامتهم وأمرهم الأول - كأنه من المنزل ، والروبع - كجوهر : الضعيف الدنيء - كأن ذلك يلزم من الإقامة في المنزل ، وبهاء : قصير العرقوب ، والرجل القصير - كأنه تشبيه بالربعة في مطلق القصر عن الطويل ، وربع الحجر : رفعه ، والحمل : رفعه على الدابة ، والمربوع : المنعوش المنفس عنه - لتحول الحال في كل ذلك ، والمربعة : خشبة يرفع بها العدل ، والمرابعة : أن تأخذ يد صاحبك وترفعا الحمل على الدابة - كأنه مع النقل مأخوذ من الأربعة ، وهي أيضاً المعادلة بالربيع ، ومنه تربعت الناقة سناماً طويلاً ، أي حملته ، وربيع الشهور : شهران بعد صفر ، وربيع الفصول اثنان الذي فيه النور والكمأة ، والذي تدرك فيه الثمار - للانتقال في كل منهما ، والربع - كصرد : الفصيل ينتج في الربيع ، وناقة مربع : ذات ربع ،

(102/397)

وأربع القوم : صاروا أربعة ، ودخلوا في الربيع ، وأقاموا في المربع ، وربعت الأرض : أصابها مطر الربيع ، والمرابيع : الأمطار أول الربيع ، وأربع الرجل - إذا ولد له في شبابه ، تشبيهاً للشباب بالربيع ، وناقة مرباع - إذا كانت عادتها أن تنتج في ربعية القيظ ، والربعية : أول الشتاء ، والربيع : الجدول - لجريه وإنبات ما حوله ، وجمعه أربعاء ، والحجر يشيلونه

لتجربة القوى ، والرابع تلو الثالث – لأنه جاز الجمع ، ووتر وحبل مربوع : مفتول على أربع قوى ، وربعتُ القوم أربعهم : صرت رابعهم ، والأربعاء : يوم ، والمرباع : ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس ، والرباعية – كثمانية : السن بين الثنية والناب ، وعدتها أربع ، وكل ما بلغ الأربعة رباع كثمان ، ويقول للغنم في الرابعة وللبقر والحافر في الخامسة وللخف في السابعة : أربعت ، كأنه لا يجوز في كل نوع من حد الصغر إلى الكبر إلا بذلك ، وأربع الفرس : ألقى رباعيته ، وحمى ربع : تأتي في اليوم الرابع ، وقد ربع الرجل وأربع ، وهو معنى ما قال في القاموس : وربعته الحمى : أخذته الحمى يوماً بعد يومين ، لأن يومها الثاني هو رابع يومها الأول ، والربعة – بالفتح : جونة العطار – لتضوع ريحها ، والرجل بين الطويل والقصير – ويحرك – كالمربوع ، لجوازه حد كل منهما ، هذا إلى الطول ، وهذا إلى القصر ، وارتبع : صار ربعة ، والربعة – محركة : أشد عدو الإبل ، والمسافة بين أثافي القدر – لعبور كل منهما عن محل صاحبتها ، وأربع ماء الركية : كثر ، فجاز عن محله الأول ، وعلى فلان : سأله ثم ذهب ثم عاوده ، وعلى المرأة : كر إلى جماعها ، والقوم إبلهم مكان كذا : رعوها وأرسلوها على الماء ترد متى شاءت ، ويجوز أن يكون هذا أيضاً من الربيع ، وأربعت الناقة – إذا استغلقت رحمها فلم تقبل الماء ، كأنها أزالت العبور ، أي الانتقال من حال إلى أخرى ، والربيعة : البيضة من السلاح – لنقلها صاحبها إلى الحصانة ،

والروضة – لجواز النبت فيها عن حد الأرض ، والمربع : شراع السفينة – لأنه آلة السير ، والمربع : الرجل الكثير النكاح – لعبوره عن حالة الأولى ، ولجلوسه بين الشعب الأربع ، وتربع في جلوسه ضد جثا ، إما لأنه صار على شكل المربع ، وإما أخذا من الربع إلى المنزل ، لأنها جلسة المقيم في منزله ، وتربعت النخيل : خرقت وصرمت – لتحول حالها ، واستربع الرمل : تراكم ، إما لجوازه عن حاله الأولى ، وإما من الإقامة في الربع ، واستربع الغبار ، ارتفع ، والبعير للمسير : قوي عليه وصبر ، والرجل بالأمر : استقل وصبر ، وفلان يقيم رباعة قومه ، أي شأنهم وحالهم أي يجيزهم من حال إلى أخرى ، ومضى من بني فلان ربوع بعد ربوع ، أي أحياء بعد أحياء ، إما لأن ذلك جواز من دار إلى دار وحال إلى حال ، وإما على حذف مضاف ، أي أهل ربوع منازل ، واليربوع : دابة كالفأرة ، إما لشدة جريها ، وإما لجعلها نافقاءين تهرب من أيهما شاءت ، فهي عبارة منتقلة بالقوة وإن كانت ساكنة ، واليربوع : لحمة المتن – كأنه مشبه بالدابة ؛ وبرع الرجل – مثلثة : فاق أصحابه في علم أو غيره ، أو تم في كل فضيلة وجمال ، وهذا أبرع منه : أضخم – لأنه جاز مقداره ، والبارع : الأصيل الجيد الرأي ، وتبرع بالعطاء : تفضل بما لا يجب عليه من عند نفسه كأنه جاز رتبة الواجب – والله أعلم .

وفي الآية ما يوجبه حال العلماء من حاجة الملوك إليهم ، فكأنه قيل : فما قالوا ؟ فقيل : ﴿ قالوا ﴾ هذه الرؤيا ﴿ أضغاث ﴾ أي أخلاط ، جمع ضغث - بكسر الضاد وإسكان الغين المعجمة ، وهو قبضه حشيش مختلطة الرطب باليابس ﴿ أحلام ﴾ مختلفة مشتبهة ، جمع حلم - بضم الحاء وإسكان اللام وضمه ، وهو الرؤيا - فقيدوها بالأضغاث ، وهو ما يكون من الرؤيا باطلاً - لكونه من حديث النفس أو وسوسة الشيطان ، لكونها تشبه أخلاط النبات التي لا تناسب بينها ، لأن الرؤيا تارة تكون من الملك وهي الصحيحة ، وتارة تكون من تحريف الشيطان وتخليطاته ، وتارة من حديث النفس ؛ ثم قالوا : ﴿ وما نحن ﴾ أي بأجمعنا ﴿ بتأويل ﴾ أي ترجيع ﴿ الأحلام ﴾ أي مطلق الأضغاث وغيرها ، وأعرقوا في النفي بقولهم : ﴿ بعالمين ﴾ فدلسوا من غير وجه ، جمعوا - وهي حلم واحد - ليجعلوها أضغاثاً لا مدلول لها ، ونفوا عن أنفسهم " العلم المطلق " المستلزم لنفي " العلم بالمقيد " بعد أن أتوا بالكلام على هذه الصورة ، ليوهموا أنهم ما جهلوها إلا لكونها أضغاثاً - والله أعلم ؛ والقول : كلام متضمن بالحكاية في البيان عنه ، فإذا ذكر أنه قال ، اقتضى الحكاية لما قال ، وإذا ذكر أنه تكلم ، لم يقتض حكاية لما تكلم به ، ومادة " حلم " بجميع

تقاليبها تدور على صرف شيء عن وجهه وعادته وما تقتضيه الجبلة - كما يأتي في الرعد في قوله : ﴿ شديد المحال ﴾ [الرعد : 13] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 51.46 ﴾

(105/397)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾

اعلم أنه تعالى إذا أراد شيئاً هيأ له أسباباً ، ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر في النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعاً أخر يابسات ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكمنة وذكرها لهم وهو المراد من قوله : ﴿ يابسات يا أَيُّهَا الملأ أَفْتُونِى فِى رؤياى ﴾ فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة فلا تقدر على تأويلها وتعبيرها ، فهذا ظاهر الكلام وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الليث : العجف ذهاب السمن والفعل عجف يعجف والذكر أعجف والأنثى عجفاء والجمع عجاف في الذكران والإناث .

وليس في كلام العرب أفعل وفعلاء جمعاً على فعال غير أعجف وعجاف وهي شاذة حملوها على لفظ سمان فقالوا : سمان وعجاف لأنهما نقيضان ومن دأبهم حمل النظير على النظير ، والنقيض على النقيض ، واللام في قوله : ﴿لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ على قول البعض زائدة لتقدم المفعول على الفعل ، وقال صاحب "الكشاف" : يجوز أن تكون الرؤيا خبر كان كما تقول : كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه وتعبرون خبراً آخر أو حالاً ، ويقال عبرت الرؤيا أعبرها وعبرتها تعبيراً إذا فسرتها ، وحكى الأزهري أن هذا مأخوذ من العبر ، وهو جانب النهر ومعنى عبرت النهر ، والطريق قطعته إلى الجانب الآخر فقيل لعابر الرؤيا عابر ، لأنه يتأمل جانبي الرؤيا فيتفكر في أطرافها وينتقل من أحد الطرفين إلى الآخر ، والأضغاث جمع الضغث وهو الحزمة من أنواع النبت والحشيش بشرط أن يكون مما قام على ساق واستطال قال تعالى : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ﴾ [ص : 44] .

إذا عرفت هذا فنقول : الرؤيا إن كانت مخلوطة من أشياء غير متناسبة كانت شبيهة بالضغث .

المسألة الثانية :

أنه تعالى جعل تلك الرؤيا سبباً لخلاص يوسف عليه السلام من السجن ، وذلك لأن الملك لما قلق واضطرب بسببه ، لأنه شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل القوي فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد وأنه منذر بنوع من أنواع الشر ، إلا أنه ما عرف كيفية الحال فيه والشيء إذا صار معلوماً من وجه وبقي مجهولاً من وجه آخر عظم تشوف الناس إلى تكميل تلك المعرفة وقويت الرغبة في إتمام الناقص لا سيما إذا كان الإنسان عظيم الشأن واسع المملكة ، وكان ذلك الشيء دالاً على الشر من بعض الوجوه فبهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك في تحصيل العلم بتعبير هذه الرؤيا ، ثم إنه تعالى أعجز المعبرين اللذين حضروا عند ذلك الملك عن جواب هذه المسألة وعماه عليهم ليصير ذلك سبباً لخلاص يوسف من تلك المحنة .

واعلم أن القوم ما نفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير ، بل قالوا : إن علم التعبير على قسمين منه ما تكون الرؤيا فيه منسقة منتظمة فيسهل الانتقال من الأمور المتخيلة إلى الحقائق العقلية الروحانية ومنه ما تكون فيه مختلطة مضطربة ولا يكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمى بالأضغاث والقوم قالوا إن رؤيا الملك من قسم الأضغاث ثم أخبروا أنهم غير عالمين بتعبير هذا القسم وكأنهم قالوا هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة وما كان كذلك فنحن لا نهتدي إليها ولا يحيط عقلنا بها وفيها إيهام أن الكامل في هذا العلم والمتبحر فيه

قد يهتدي إليها ، فعند هذه المقالة تذكر ذلك الشرابي واقعة يوسف فإنه كان يعتقد فيه كونه متبحراً في هذا العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 118 ﴾

(107/397)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقراتٍ سمان . . . ﴾ الآية . وهذه الرؤيا رآها الملك الأكبر الوليد بن الريان وفيها لطف من وجهين :

أحدهما : أنها كانت سبباً لخلاص يوسف من سجنه .

الثاني : أنها كانت نذيراً بجدب أخذوا أهبته وأعدوا له عدته .

﴿ يا أيها الملأ افتوني في رؤياي ﴾ وذلك أن الملك لما لم يعلم تأويل رؤياه نادى بها في قومه ليسمع بها من يكون عنده عِلْمٌ بتأويلها فيعبرها له .

قوله عز وجل : ﴿ قالوا أضغاث أحلام ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني أخلاط أحلام ، قاله معمر وقتادة .

الثاني : ألوان أحلام ، قاله الحسن .

الثالث : أهاويل أحلام قاله مجاهد .

الرابع : أكاذيب أحلام ، قاله الضحاك .

وفيه خامس : شبهة أحلام ، قاله ابن عباس .

قال أبو عبيدة : الأضغاث ما لا تأويل له من الرؤيا ، ومنه قول الشاعر :

كضغث حلم عُزَّ منه حالمُه . . . . وروى هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب " . وفي تقارب الزمان وجهان :

أحدهما : أنه استواء الليل والنهار لأنه وقت اعتدال تنفتق فيه الأنوار وتطلع فيه الثمار فكان أصدق الزمان في تعبير الرؤيا .

الثاني : أنه آخر الزمان وعند انتهاء أمده .

والأضغاث جمع واحده ضغث والضغث الحزمة من الحشيش المجموع بعضه إلى بعض وقيل هو ملء الكف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خذ بيدك ضغثاً ﴾ وقال ابن مقبل .

خَوْذٌ كَأَنَّ فِرَاشَهَا وُضِعَتْ بِهِ . . . أَضْغَاثُ رَيْحَانٍ غَدَاةَ شَمَالِ

والأحلام جمع حُلم ، والحُلم الرؤيا في النوم ، وأصله الأناة ، ومنه الحلم ضد الطيش فقيل لما يرى في النوم حلم لأنها حال أناة وسكون .

﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ فدل ذلك على أنه ليس التأويل الأول مما تؤول به الرؤيا هو الحق المحكوم به لأن يوسف عرفهم تأويلها بالحق ، وإنما قال يوسف للغلامين ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ لأنه منه نذير نبوة . ويجوز أن يكون الله تعالى صرف هؤلاء عن تفسير هذه الرؤيا لطفاً بيوسف ليتذكر الذي نجا منهما حاله فتدعوهم الحاجة إليه فتكون سبباً لخلاصه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(109/397)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ ، فَإِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الرُّؤْيَا كَانَتْ صَحِيحَةً وَلَمْ تَكُنْ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ ؛ لِأَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبَّرَهَا عَلَى سِنِي الْخِصْبِ ، وَالْجَدْبِ وَهُوَ يُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ : إنَّ الرُّؤْيَا عَلَى أَوَّلِ مَا تُعَبَّرُ ؛ لِأَنَّ الْقَوْمَ قَالُوا هِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَلَمْ تَقَعْ كَذَلِكَ وَيَدُلُّ عَلَى فَسَادِ الرُّؤْيَا بِأَنَّ الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِيهَا صِحَّةُ رُؤْيَا الْكَافِرِ ، وَلَا سِيَّمَا إذَا تَعَلَّقَتْ بِمُؤْمِنٍ ، فَكَيْفَ إذَا كَانَتْ آيَةً لِنَبِيٍّ ، وَمُعْجِزَةً لِرَسُولٍ ، وَتَصْدِيقًا لِمُصْطَفًى لِلتَّبْلِيغِ ، وَحُجَّةً لِلْوَاسِطَةِ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْعِبَادِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالُوا : أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ يَعْنِي : أَخْلَاطًا مَجْمُوعَةً ، وَاحِدُهَا ضِغْثٌ : وَهُوَ مَجْمُوعٌ مِنْ حَشِيشٍ أَوْ حَطَبٍ .

وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِك ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ : ﴿ الرُّؤْيَا لِأَوَّلِ عَابِرٍ ﴾ .

وَقَدْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ صَحِيحِ الْكَلَامِ ، وَلَا قَطَعَ تَفْسِيرِ الرُّؤْيَا إذْ لَمْ يَأْتِهَا مِنْ بَابِهَا .

أَلَا تَرَى أَنَّ الصِّدِّيقَ لَمَّا أَخْطَأَ فِي تَفْسِيرِ الرُّؤْيَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ حُكْمًا عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إذَا احْتَمَلَتْ وُجُوهًا مِنْ التَّفْسِيرِ ، فَعَيَّنَ بِتَأْوِيلِهِ أَحَدَهَا جَازَ ، وَمَنْ تَكَلَّمَ بِجَهْلٍ لَا يَكُونُ حُكْمًا عَلَيْهَا ، وَإِنْ أَصَابَ .

وَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ : { الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تَتَحَدَّثْ بِهَا ، فَإِذَا تَحَدَّثْت بِهَا سَقَطَتْ ، وَلَا تُحَدِّثْ بِهَا إلَّا حَبِيبًا أَوْ لَبِيبًا } .

(111/397)

وَهَذَا مَعْنَى الرُّؤْيَا لِأَوَّلِ عَابِرٍ ، فَإِنَّهُ إذَا تَحَدَّثَ بِهَا فَفُسِّرَتْ نَفَذَ حُكْمُهَا إذَا كَانَ بِحَقٍّ عَنْ عِلْمٍ ، لَا كَمَا قَالَ أَصْحَابُ الْمَلِكِ ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَمْ يَقْصِدُوا تَفْسِيرًا ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَمْحُوهَا عَنْ صَدْرِ الْمَلِكِ حَتَّى لَا تَشْغَلَ لَهُ بَالًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى { لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } .

يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ يَعْلَمُونَ بِمَكَانِك ، فَيَظْهَرُ عِنْدَهُمْ فَضْلُك حَتَّى يَكُونَ سَبَبَ خَلَاصِك ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْعِلْمُ عَلَى بَابِهِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا ، وَيُسَمَّى عِلْمًا ، وَإِنْ كَانَ ظَنًّا ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ كُلُّ ظَنٍّ شَرْعِيٍّ يَرْجِعُ إلَى الْعِلْمِ بِالدَّلِيلِ الْقَطْعِيِّ الَّذِي أُسْنِدَ إلَيْهِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْله تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ﴾.

وَهَذَا عَامٌ لَمْ يَقَعْ السُّؤَالُ عَنْهُ، فَقِيلَ، إنَّ اللَّهَ زَادَهُ عِلْمًا عَلَى مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ إظْهَارًا لِفَضْلِهِ وَإِعْلَامًا بِمَكَانِهِ مِنْ الْعِلْمِ، وَمَعْرِفَتِهِ.

وَقِيلَ: أَدْرَكَ ذَلِكَ بِدَقَائِقَ مِنْ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا لَا تَرْتَقِي إلَيْهَا دَرَجَتُنَا.

وَهَذَا صَحِيحٌ مُحْتَمَلٌ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ: قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إلَى رَبِّك ﴾ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿ يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ.

(112/397)

وَلَوْ لَبِثْت فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْت الدَّاعِيَ ﴾ وَفِي رِوَايَةِ الطَّبَرِيِّ: ﴿ يَرْحَمُ اللَّهُ يُوسُفَ، لَوْ كُنْت أَنَا الْمَحْبُوسُ، ثُمَّ أُرْسِلَ إلَيَّ لَخَرَجْت سَرِيعًا، إنْ كَانَ لَحَلِيمًا ذَا أَنَاةٍ ﴾.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لَقَدْ عَجِبْت مِنْ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ، وَاَللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، حِينَ سُئِلَ عَنْ الْبَقَرَاتِ، وَلَوْ كُنْت مَكَانَهُ لَمَا أَخْبَرْتهمْ حَتَّى أَشْتَرِطَ أَنْ يُخْرِجُونِي.

لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْهُ حِينَ أَتَاهُ الرَّسُولُ ، لَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ لَبَادَرْتُهُمُ الْبَابَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّمَا لَمْ يُرِدْ يُوسُفُ الْخُرُوجَ [مِنْ السِّجْنِ] حَتَّى تَظْهَرَ بَرَاءَتُهُ ، لِئَلَّا يَنْظُرَ إلَيْهِ الْمَلِكُ بِعَيْنِ الْخَائِنِ ، فَيَسْقُطَ فِي عَيْنِهِ ، أَوْ يَعْتَقِدَ لَهُ حِقْدًا ، وَلَمْ يَتَبَيَّنْ أَنَّ سِجْنَهُ كَانَ جَوْرًا مَحْضًا ، وَظُلْمًا صَرِيحًا ، وَانْظُرُوا رَحِمَكُمْ اللَّهُ إلَى عَظِيمِ حِلْمِهِ ، وَوُفُورِ أَدَبِهِ ، كَيْفَ قَالَ : مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، فَذَكَرَ النِّسَاءَ جُمْلَةً ، لِيُدْخِلَ فِيهِنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ مَدْخَلَ الْعُمُومِ بِالتَّلْوِيحِ ، وَلَا يَقَعَ عَلَيْهَا تَصْرِيحٌ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(113/397)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾

المعنى : ﴿ وقال الملك ﴾ الأعظم : ﴿ إني أرى ﴾ يريد في منامه ، وقد جاء ذلك مبيناً في قوله تعالى : ﴿ إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ [الصافات : 104] . وحكيت حال ماضية ف ﴿ أرى ﴾ وهو مستقبل من حيث يستقبل النظر في الرؤيا . ﴿ سبع بقرات سمان ﴾ يروى أنه قال : رأيتها خارجة من نهر ، وخرجت وراءها ﴿ سبع عجاف ﴾

، فرأيتها أكلت تلك السمان حتى حصلت في بطونها ورأى " السنابل " أيضاً كما ذكر ، و" العجاف " التي بلغت غاية الهزال ، ومنه قول الشاعر : [الكامل]

ورجال مكة مسنتون عجاف . . . ثم قال لجماعته وحاضريه : ﴿ يا أيها الملأ أفتوني ﴾ .

قرأت فرقة بتحقيق الهمزتين ، وقرأت فرقة بأن لفظت بألف " أفتوني " واواً .

وقوله : ﴿ للرؤيا ﴾ دخلت اللام لمعنى التأكيد والربط ، وذلك أن المفعول إذا تقدم حسن في بعض الأفعال أن تدخل عليه لام ، وإذا تأخر لم يحتج الفعل إلى ذلك . و" عبارة الرؤيا " مأخوذة من عبر النهر ، وهو تجاوزه من شط إلى شط ، فكأن عابر الرؤيا ينتهي إلى آخر تأويلها .

وقوله : ﴿ قالوا : أضغاث أحلام ﴾ الآية ، " الضغث " في كلام العرب أقل من الحزمة وأكثر من القبضة من النبات والعشب ونحوه ، وربما كان ذلك من جنس واحد . وربما كان من أخلاط النبات ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وخذ بيدك ضغثاً ﴾ [ص : 44] وروي أنه أخذ عثكالاً من النخل ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل نحو هذا في حد أقامه على رجل زمن ، ومن ذلك قول ابن مقبل : [الكامل]

خود كأنّ فراشها وضعت به . . . أضغاث ريحان غداة شمال

ومن الأخلاط قول العرب في أمثالها : ضغث على إبالة فيشبه اختلاط الأحلام باختلاط الجملة من النبات ، والمعنى أن هذا الذي رأيت أيها الملك اختلاط من الأحلام بسبب النوم ، ولسنا من أهل العلم بذلك ، أي بما هو مختلط ورديء ؛ فإنما نفوا عن أنفسهم عبر الأحلام لا عبر الرؤيا على الإطلاق ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا من الله والحلم من الشيطان " . وقال للذي كان يرى رأسه يقطع ثم يرده فيرجع : " إذا لعب الشيطان بأحدكم في النوم فلا يحدث بذلك " .

قال القاضي أبو محمد : فالأحلام وحِدثان النفس ملغاة ، والرؤيا هي التي تعبر ويلتمس علمها .

والباء في قولهم ﴿ بعالمين ﴾ للتأكيد ، وفي قولهم : ﴿ بتأويل ﴾ للتعدية وهي متعلقة بقولهم ﴿ بعالمين ﴾ .

و﴿ الأحلام ﴾ جمع حلم ، يقال : حلَم الرجل - بفتح اللام - يحلم : إذا خيل إليه في منامه ، والأحلام مما أثبتته الشريعة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا من الله وهي المبشرة والحلم المحزن من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم ما يكره ، فليتفل على يساره ثلاث مرات وليقل : أعوذ بالله من شر ما رأيت ، فإنها لا تضره "

وما كان عن حديث النفس في اليقظة فإنه لا يلتفت إليه .

ولما سمع الساقي – الذي نجا – هذه المقالة من الملك ومراجعة أصحابه ، تذكر يوسف وعلمه بتأويل الأحلام والرؤى ، فقال مقالته في هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(115/397)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الملك إني أرى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾

لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه ، فنزل جبريل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال : إن الله مخرجك من سجنك ، ومُمكِّن لك في الأرض ، يذل لك ملوكها ، ويطيعك جبابرتها ، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك ، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك ، وهي كيت وكيت ، وتأويلها كذا وكذا ، فما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج ، فجعل الله الرؤيا أولاً ليوسف بلاء وشدّة ، وجعلها آخراً بشرى ورحمة ؛ وذلك أن الملك الأكبر الرّيّان بن الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهر يابس سبع بقراتٍ سِمان ، في أثرهنّ سبع عِجاف أي مهازيل وقد أقبلت العِجَاف على السِّمان فأخذن بآذانهنّ فأكلنهنّ ، إلا القرنين ، ورأى سبع سنبلات خُضْرٍ قد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهنّ حتى أتين

عليهنّ فلم يبق منهنّ شيء وهنّ يابسات ، وكذلك البقر كنّ عِجافاً فلم يزد فيهنّ شيء من أكلهنّ السِّمان ، فهالته الرؤيا ، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكَهَانة والنّجامة والعِرَافة والسِّحر ، وأشراف قومه ، فقال : ﴿ يا أيها الملأ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ فقصّ عليهم ، فقال القوم : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ قال ابن جريج قال لي عطاء : إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا .

وقال جُوَيبر عن الضّحاك عن ابن عباس قال : إن الرؤيا منها حق ، ومنها أضغاث أحلام ، يعني بها الكاذبة .

وقال الهَرَويّ : قوله تعالى : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أي أخلاط أحلام .

والضِّغث في اللغة الحُزْمة من الشيء كالبقل والكلإ وما أشبههما ، أي قالوا : ليست رؤياك ببيّنة ، والأحلام الرؤيا المختلطة .

وقال مجاهد : أضغاث الرؤيا أهاويلها .

وقال أبو عبيدة : الأضغاث ما لا تأويل له من الرؤيا .

قوله تعالى : ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ حذفت الهاء من "سبع" فرقاً بين المذكر والمؤنث "سِمَانٍ" من نعت البقرات ، ويجوز في غير القرآن سبعَ بقراتٍ سِماناً ، نعت للسبع ، وكذا خُضراً ، قال الفراء : ومثله.

﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ﴾ [الملك : 3] .

وقد مضى في سورة "البقرة" اشتقاقها ومعناها .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : المَعِز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سماناً فهي سِنيّ رخاء ، وإن كانت عجافاً كانت شداداً ، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبّان سفر قدمت سفن على عددها وحالها ، وإلا كانت فِتَناً مترادفة ، كأنها وجوه البقر ، كما في الخبر "يشبه بعضها بعضاً" .

وفي خبر آخر في الفتن : "كأنها صياصي البقر" يريد لتشابهها ، إلا أن تكون صُفْراً كلها فإنها أمراض تدخل على الناس ، وإن كانت مختلفة الألوان ، شنيعة القرون وكان الناس ينفرون منها ، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة ، أو عدوّ يضرب عليهم ، وينزل بساحتهم .

وقد تدلّ البقرة على الزوجة والخادم والغلّة والسّنَة ؛ لما يكون فيها من الولد والغلّة والنبات .

﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ من عَجُف يَعجُف ، على وزن عَظُم يَعظُم ، وروي عَجِف

يَعجَف على وزن حَمِد يَحمَد .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الملأ أَفْتُوني فِي رُؤْيَايَ ﴾ جمع الرؤيا رُؤًى : أي أخبروني بحكم هذه الرؤيا .

﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر ، فمعنى عَبَرت النهر ، بلغت شاطئه ، فعابر ، الرؤيا يعبر بما يؤول إليه أمرها .

واللام في "للرؤيا" للتّبيين ، أي إن كنتم تَعبُرون ، ثم بَيّن فقال : للرؤيا ، قاله الزجاج .

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾

فيه مسألتان :

(117/397)

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ قال الفراء : ويجوز "أضغاثَ أحلام" قال النحاس : النصب بعيد ، لأن المعنى : لم تر شيئًا له تأويل ، إنما هي أضغاث أحلام ، أي أخلاط .

وواحد الأضغاث ضِغث ، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضِغث ؛ قال الشاعر :

كضِغث حُلْم غرَّ منه حالِمُه . . .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأحلام بعَالِمِينَ ﴾ قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة ، نَفَوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا أنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل .

وقيل : نفوا عن أنفسهم علم التعبير .

والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التي منها صحيحة ومنها باطلة ، ولهذا قال الساقي : "أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ" فعلم أن القوم عجزوا عن التأويل ، لا أنهم ادعوا ألّا تأويل لها .

وقيل : إنهم لم يقصدوا تفسيراً ، وإنما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله ، وعلى هذا أيضاً فعندهم علم .

و"الأَحْلَامِ" جمع حُلْم ، والحُلْم بالضم ما يراه النائم ، تقول منه : حَلَم بالفتح واحتلم ، وتقول : حَلَمتُ بكذا وحَلَمته ، قال :

فَحَلَمتُهَا وبَنُو رُفَيْدَةَ دُونَهَا . . .

لا يَبْعَدَنَّ خَيَالُهَا المَحْلُومُ

أصله الأناة ، ومنه الحِلم ضد الطَّيش ؛ فقيل لما يُرى في النوم حُلْم لأن النوم حالة أناة وسكون ودَعة .

الثانية : في الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أوّل ما تعبّر ، لأن القوم قالوا : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ ولم تقع كذلك ؛ فإن يوسف فسّرها على سِنِيّ الجدب والخِصب ،

فكان كما عبّر ؛ وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر ، فإذا عبّرت وقعت .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(118/397)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ﴾

يعني يا أيها الأشراف أخبروني بتأويل رؤياي ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ يعني : إن كنتم تحسنون علم العبارة وتفسيرها وعلم التعبير مختص بتفسير الرؤيا وسمي هذا العلم تعبيراً لأن المفسر للرؤيا عابر من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها وهذا أخص من التأويل لأن التأويل يقال فيه وفي غيره .

﴿ قالوا ﴾ يعني قال جماعة الملأ وهم السحرة والكهنة والمعبرون مجيبين للملك ﴿ أضغاث أحلام ﴾ يعني أخلاط مشتبه واحدها ضغث وأصله الحزمة المختلطة من أنواع الحشيش والأحلام جمع حلم وهو الرؤيا التي يراها الإنسان في منامه ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ لما جعل الله هذه الرؤيا سبباً لخلاص يوسف من السجن وذلك أن الملك

لما رآها قلق واضطرب وذلك لأنه قد شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوي الكامل حتى قهره وغلبه فأراد أن يعرف تأويل ذلك فجمع سحرته وكهنته ومعبريه وأخبرهم بما رأى في منامه وسألهم عن تأويلها فأعجز الله بقدرته جماعة الكهنة والمعبرين عن تأويل هذه الرؤيا ومنعهم عن الجواب ليكون ذلك سبباً لخلاص يوسف من السجن فذلك قوله تعالى: ﴿ وقال الذي نجا منهما ﴾. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(119/397)

وقال أبو حيان:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾

السمن: معروف وهو مصدر سمن يسمن، واسم الفاعل سمين، والمصدر واسم الفاعل على غير قياس.

العجفاء: المهذولة جداً قال:

ورجال مكة مستنون عجاف . . .

الضغث أقل من الحزمة وأكثر من القبضة من النبات والعشب من جنس واحد أو، من

أخلاط النبات والعشب فمن جنس واحد ما روي في قوله : ﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ﴾ إنه أخذ عثكالاً من النخل .

وروي أنّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) فعل نحو هذا في إقامة حد على رجل .

وقال ابن مقبل :

خود كأن راشها وضعت به . . .

أضغاث ريحان غداة شمال

ومن الأخلاط قول العرب في أمثالها : ضغث على إمالة .

﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون .

قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ : لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر الرّيان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته ، فرأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس ، وسبع بقرات عجاف ، فابتلعت العجاف السمان .

ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ، فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها .

أرى : يعني في منامه ، ودل على ذلك : أفتوني في رؤياي .

وأرى حكاية حال ، فلذلك جاء بالمضارع دون رأيت .

وسمان صفة لقوله : بقرات ، ميز العدد بنوع من البقرات وهي السمان منهن لا بجنسهن .

ولو نصب صفة لسبع لكان التمييز بالجنس لا بالنوع ، ويلزم من وصف البقرات بالسمن وصف السبع به ، ولا يلزم من وصف السبع به وصف الجنس به ، لأنه يصير المعنى سبعاً من البقرات سماناً .

(120/397)

وفرق بين قولك : عندي ثلاث رجال كرام ، وثلاثة رجال كرام ، لأن المعنى في الأول ثلاثة من الرجال الكرام ، فيلزم كرم الثلاثة لأنهم بعض من الرجال الكرام .

والمعنى في الثاني : ثلاثة من الرجال كرام ، فلا يدل على وصف الرجال بالكرم .

ولم يضف سبع إلى عجاف لأن اسم العدد لا يضاف إلى الصفة إلا في الشعر ، إنما تتبعه الصفة .

وثلاثة فرسان ، وخمسة أصحاب من الصفات التي أجريت مجرى الأسماء .

ودل قوله : سبع بقرات على أن السبع العجاف بقرات ، كأنه قيل : سبع بقرات عجاف ، أو بقرات سبع عجاف .

وجاء جمع عجفاء على عجاف ، وقياسه عجف كخضراء أو خضر ، حملاً على سمان لأنه نقيضه .

وقد يحمل النقيض على النقيض ، كما يحمل النظير على النظير .

والتقسيم في البقرات يقتضي التقسيم في السنبلات ، فيكون قد حذف اسم العدد من قوله : وأخر يابسات ، لدلالة قسميه وما قبله عليه ، فيكون التقدير : وسبعاً أخر يابسات .

ولا يصح أن يكون وأخر مجروراً عطفاً على سنبلات خضر ، لأنه من حيث العطف عليه كان من جملة مميز سبع ، ومن جهة كونه أخر كان مبايناً لسبع ، فتدافعا بخلاف أن لو كان التركيب سبع سنبلات خضر ويابسات ، فإنه كان يصح العطف ، ويكون من توزيع السنبلات إلى خضر ويابسات .

والملأ : أشراف دولته وأعيانهم الذين يحضرون عند الملك .

وقرأ أبو جعفر : بالإدغام في الرؤيا ، وبابه بعد قلب الهمزة واواً ، ثم قلبها ياء ، لاجتماع الواو والياء ، وقد سبقت إحداهما بالسكون .

ونصوا على شذوذه ، لأن الواو هي بدل غير لازم ، واللام في الرؤيا مقوية لوصول الفعل إلى مفعوله إذا تقدم عليه ، فلو تأخر لم يحسن ذلك بخلاف اسم الفاعل فإنه لضعفه قد تقوى بها فتقول : زيد ضارب لعمر وفصيحاً .

والظاهر أن خبر كنتم هو قوله : تعبرون .

وأجاز الزمخشري فيه وجوهاً متكلفة أحدها : أن تكون الرؤيا للبيان قال : كقوله : وكانوا فيه من الزاهدين ، فتتعلق بمحذوف تقديره أعني فيه ، وكذلك تقدير هذا إن كنتم أعني الرؤيا تعبرون ، ويكون مفعول تعبرون محذوفاً تقديره تعبرونها .

والثاني : أن تكون الرؤيا خبر كان قال : كما تقول : كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه ، وتعبرون خبراً آخر أو حالاً .

والثالث : أن يضمن تعبرون معنى فعل يتعدى باللام ، كأنه قيل : إن كنتم تنتدبون لعبارة الرّؤيا ، وعبارة الرّؤيا مأخوذة من عبر النهر إذا جازه من شط إلى شط ، فكان عابر الرّؤيا ينتهي إلى آخر تأويلها .

وعبر الرّؤيا بتخفيف الباء ثلاثياً وهو المشهور ، وأنكر بعضهم التشديد ، وأنشد المبرد في الكامل قول الشاعر :

رأيت رؤياً ثم عبرتها . . .

وكنت للأحلام عباراً

وأضغاث جمع ضغث أي تخاليط أحلام ، وهي ما يكون من حديث النفس ، أو وسوسة

الشيطان ، أو مزاج الإنسان .

وأصله أخلاط النبات ، استعير للأحلام ، وجمعوا الأحلام .

وأن رؤياه واحدة إما باعتبار متعلقاتها إذ هي أشياء ، وإما باعتبار جواز ذلك كما تقول :

فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرساً واحداً ، تعليقاً بالجنس .

وإما بكونه قص عليهم مع هذه الرّؤيا غيرها .

والأحلام جمع حلم ، وأضغاث خبر مبتدأ محذوف أي : هي أضغاث أحلام .

والظاهر أنهم نفوا عن أنفسهم العلم بتأويل الأحلام أي : لسنا من أهل تعبير الرؤيا .

ويجوز أن تكون الأحلام المنفي علمها أرادوا بها الموصوفة بالتخليط والأباطيل أي : وما نحن بتأويل الأحلام التي هي أضغاث بعالمين أي : لا يتعلق علم لنا بتأويل تلك ، لأنه لا تأويل لها إنما التأويل للمنام الصحيح ، فلا يكون في ذلك نفي للعلم بتأويل المنام الصحيح ، ولا تصور علمهم .

والباء في بتأويل متعلقة بقوله بعالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(122/397)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الملك ﴾

أي الرّيّانُ ﴿ إِنّى أرى ﴾ أي رأيت وإيثارُ صيغة المضارعِ لحكاية الحالِ الماضية ﴿ سَبْعَ بقرات سِمَانٍ ﴾ جمعُ سمينٍ وسمينة ككرام في جمع كريم وكريمة ، يقال : رجالٌ كرام ونسوةٌ كِرامٌ ﴿ يَأْكُلُهُنَّ ﴾ أي أكلهن والعدولُ إلى المضارع لاستحضار الصورةِ تعجيباً والجملةُ حالٌ من البقرات أو صفةٌ لها ﴿ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ أي سبعُ بقراتٍ عجافٍ وهي جمعُ عجفاءَ والقياس عُجْفٌ لأن فعلاء وأفعل لا يجمع على فِعال ولكن عُدل به عن القياس حملاً لأحد النقيضين على الآخر وإنما لم يقل سبعُ عجافٍ بالإضافة لأن التمييزَ موضوعٌ لبيان الجنس والصفة ليست بصالحة لذلك فلا يقال ثلاثةُ ضخامٍ وأربعةُ غلاظٍ ، وأما قولُك : ثلاثةُ فرسانٍ وخمسةُ ركبانٍ فلجريَان الفارسِ والراكب مَجرى الأسماءِ . روي أنه رأى سبعَ بقراتٍ سمان خرجن من نهر يابسٍ وخرج عَقيبَهن سبعُ بقراتٍ عجافٍ في غاية الهُزال فابتلعت العجافُ السمانَ ﴿ وَسَبْعَ سنبلات خُضْرٍ ﴾ قد انعقد حبُّها ﴿ وَأُخَرَ يابسات ﴾ أي وسبعاً أُخَرَ يابساتٍ قد أدركت والْتَوَتْ على الخضر حتى غلبتها على ما روي ، ولعل عدمَ التعرضِ لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات ﴿ يا أيها الملأ ﴾ خطابٌ للأشراف من العلماء والحكماء ﴿ أَفْتُونِى فِى رؤياى ﴾ هذه أي عبِّروها وبيِّنوا حكمَها وما تؤول إليه من العاقبة والتعبير عن التعبير بالإفتاء لتشريفهم وتفخيمِ أمر رؤياه

﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أي تعلمون عبارةَ جنسِ الرؤيا علماً مستمراً وهي الانتقالُ من الصور الخيالية المشاهدةِ في المنامِ إلى ما هي صورٌ وأمثلةٌ لها من الأمور الآفاقيةِ أو الأنفسيةِ الواقعةِ في الخارجِ من العبور وهو المجاوزةُ ، تقول : عبَرْتُ النهرَ إذا قطعتُه وجاوزتُه ونحوه أوّلتها أي ذكرتُ مآلَها وعَبَرْتُ الرؤيا عبارةً أثبتُ من عبّرتها تعبيرا ، والجمعُ بين الماضي والمستقبلِ للدلالة على الاستمرار كما أشير إليه ،

واللامُ للبيان أو لتقوية العاملِ المؤخَّرِ لرعاية الفواصِلِ أو لتضمين تعبُرون معنى فعلٍ متعدَ باللام كأنه قيل : إن كنتم تنتدِبون لعبارتها ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما يقال : فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكنا منه وتعبرون خبرٌ آخر .

﴿ قَالُوْا ﴾

استئنافٌ مبني على السؤال كأنه قيل : فماذا قال الملأُ للملك ؟ فقيل : قالوا : هي ﴿ أضغاث أَحْلاَمٍ ﴾ أي تخاليطُها جمع ضِغْث وهو في الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحُزِم ثم استعير لما تجمعه القوةُ المتخيِّلة من أحاديث النفس ووساوسِ الشيطان وتريها في المنام ، والأحلامُ جمع حلُم وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقةَ لها والإضافةُ بمعنى مِنْ أي

هي التي أضغاثٌ من أحلام ، أخرَجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تؤْول إليها ويعتنى بأمرها وجمعوها وهي رؤيا واحدةٌ مبالغةً في وصفها بالبطلان كما في قولهم : فلانٌ يركبُ الخيلَ ويلبَس العمائم لمن لا يملِك إلا فرساً واحداً وعمامة فردةً ، أو لتضمّنها أشياءَ مختلفةً من البقرات السبعِ السمانِ العجاف والسنابل السبعِ الخُضر والأُخَرِ اليابسات فتأمل حسنَ موقعِ الأضغاثِ مع السنابل فللّه درّ شأنِ التنزيل ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الاحلام ﴾ أي المنامات الباطلةِ التي لا أصل لها ﴿ بعالمين ﴾ لا لأن لها تأويلاً ولكن لا نعلمه بل لأنه لا تأويلَ لها وإنما التأويلُ للمنامات الصادقةِ ويجوز أن يكون ذلك اعترافاً منهم بقصور علمِهم وأنهم ليسوا بنحاريرَ في تأويل الأحلامِ مع أن لها تأويلاً كما يُشعر به عدولُهم عما وقع في كلام الملك من العبارة المُعْربة عن مجرد الانتقال من الدالّ إلى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الأحلام أو عبارتها إلى التأويل المنبىءِ عن التصرّف والتكلّف في ذلك لما بين الآئلِ والمآلِ من البُعد ، ويؤيده قولُه عز وجل : ﴿ أَنَاْ أُنَبّئُكُمْ بِتَأْوِيله ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾

وهو الريان وكان كافراً ، ففي إطلاق ذلك عليه دلالة على ما قيل : على جواز تسمية الكافر ملكاً ، ومنعه بعضهم ، وكذا منع أن يقال له أمير احتجاجاً بأنه صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل " عظيم الروم " ولم يكتب ملك الروم أو أميرهم لما فيه من إيهام كونه على الحق ، وجعل هذا حكاية اسم مضى حكمه وتصرم وقته ، ومثله لا يضر أي قال لمن عنده : ﴿ إِنِّي أَرَى ﴾ أي رأيت ، وإيثار صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ ممتلئات لحماً وشحماً

من سمن كسمع سمانة بالفتح وسمناً كعنباً فهو سامن وسمين ، وذكر أن سميناً وسمينة تجمع على سمان ، فهو ككرام جمع كريم وكريمة ، يقال : رجال كرام ونسوة كرام ﴿ يَأْكُلُهُنَّ ﴾ أي أكلهن ، والعدول إلى المضارع لاستحضار الصورة تعجيباً .

والجملة حال من البقرات أو صفة لها ﴿ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ أي سبع بقرات مهزولة جداً من قولهم : نصل أعجف أي دقيق وهو جمع عجفاء على خلاف القياس ، والقياس عجف كحمراء وحمر ، فإن فعلاء وأفعل لا يجمع على فعال لكنهم بنوه على سمان وهم قد يبنون الشيء على ضده كقولهم : عدوة بالهاء لمكان صديقة ، وفعول بمعنى فاعل لا تدخله الهاء ، وأجري (سمان) على المميز فجر على أنه وصف له ، ولم ينصب على أن يكون

صفة للعدد المميز لأن وصف تمييزه وصف له معنى ، وقد ذكروا أنه إذا وصف التمييز كان التمييز بالنوع وإذا وصف المميز كان التمييز بالجنس ، ولا شك أن الأول أولى وأبلغ لاشتمال النوع على الجنس فهو أزيد في رفع الإبهام المقصود من التمييز ، فلهذا رجح ما في النظم الكريم على غيره .

(125/397)

ولم يقل : ﴿ سبع عجاف ﴾ بالإضافة ، وجعله صفة للتمييز المقدر على قياس ما قبله لأن التمييز لبيان الجنس والحقيقة والوصف لا يدل عليه بل على شيء ما له حال وصفة ، فلذا ذكروا أن التمييز يكون باسم الجنس الجامد ولا يكون بالوصف المشتق في فصيح الكلام ، فتقول : عندي ثلاثة قرشيون ولا تقول قرشيين بالإضافة ، وأما قولك : ثلاثة فرسان وخمسة ركبان فلجريان الفارس والراكب مجرى الأسماء لاستعمالها في الأغلب من غير موصوف .

واعترض صاحب " الفرائد " بأن الأصل في العدد التمييز بالإضافة فإذا وصف السبع بالعجاف فلا بد من تقدير المضاف غليه ، وكل واحد من الوصف وتقدير المضاف إليه خلاف الأصل أما إذا أضيف كانت الصفة قائمة مقام الموصوف فقولنا : ﴿ سبع عجاف

﴾ في قوة قولنا : سبع بقرات عجاف ، فالتمييز المطلوب بالإضافة حاصل بالإضافة إلى الصفة لقيامها مقام الموصوف ، فكما يجوز سبع بقرات عجاف يجوز سبع عجاف ، وإنما لم يضف لأنه قائم مقام البقرات وهي موصوفة بعجاف فكانت من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة وهي غير جائزة إلا بتأويل .

وتعقب ذلك القطب بأنه هب أن الأصل في العدد التمييز بالإضافة لكن لما سبق ذكر ﴿ سبع بقرات سمان ﴾ تبين أن السبع العجاف بقرات فهذا السبع مميز بما تقدم فقد حصل التمييز بالإضافة فلو أضيف إلى العجاف لكان العجاف قائماً مقام البقرات في التمييز فيكون التمييز بالوصف وهو خلاف الأصل ، وأما أن السبع قائم مقام البقرات فإنما يكون إذا وصف بالعجاف أما إذا أضيف بكون العجاف قائمة مقام البقرات فلا يلزم إضافة الموصوف إلى الصفة اه وفيه تأمل .

وذكر العلامة الطيبي في هذا المقام أنه يمكن أن يقال : إن المميز إذا وصف ثم رفع به الإبهام والإجمال من العدد آذن بأنهما مقصودان في الذكر بخلافه إذا ميز ثم وصف بل الوصف أدعى لأن المميز إنما استجلب للوصف ، ومن ثمّ ترك التمييز في القرائن الثلاث والمقام

يقتضي ذلك لأن المقصود بيان الابتلاء بالشدة بعد الرخاء ، وبيان الكمية بالعدد والكيفية بالبقرات تابع فليفهم ، ويعلم من ذلك وجه العدول إلى ما في النظم الكريم عن أن يقال : إني أرى سبع بقرات عجاف يأكلن سبعاً سماناً الأخصر منه .

وقيل : إن التعبير بذلك بأنه أول ما رأى السمان ، فقد روي أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس ثم خرج عقيبهنّ سبع بقرات عجاف فابتلعت السمان ولم يتبين عليها منهن شيء .

(127/397)

﴿ وَسَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ ﴾ قد انعقد حبها ﴿ وَأُخَرَ ﴾ أي وسبعاً أخر ﴿ يَابِسَاتٍ ﴾ قد أدركت والتوت على الخضر حتى غلبتها ولم يبق من خضرتها شيء على ما روي ، ولعل عدم التعرض لذكر العدد للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات ، ولا يجوز عطف أخر على سنبلات لأن العطف على المميز يقتضي أن يكون المعطوف والمعطوف عليه بياناً للمعدود سواء قيل : بالانسحاب أو بتكرير العامل لأن المعنى على القولين لا يختلف ؛ وإنما الاختلاف في التقدير اللفظي ؛ وحينئذٍ يلزم التدافع في الآية لأن العطف يقتضي أن تكون السنبلات خضرها ويابسها سبعاً ، ولفظ ﴿ أخر ﴾ يقتضي أن يكون غير السبع وذلك

لأن تباينها في الوصف أعني الخضرة واليبس منطوق ، واشتراكهما في السنبلية فيكون مقتضى لفظ ﴿ أخر ﴾ تغايرهما في العدد ولزم التدافع ، وعلى هذا يصح أن تقول : عندي سبعة رجال قيام وقعود بالجر لأنك ميزت سبعة رجال موصوفين بالقيام والقعود على أن بعضهم كذا وبعضهم كذا ، ولا يصح سبعة رجال قيام وآخرين قعود لما علمت ، فالآية والمثال في هذا المبحث على وزان واحد كما يقتضيه كلام " الكشاف " ، ونظر في ذلك صاحب " الفرائد " فقال : إن الصحيح أن العطف في حكم تكرير العامل لا الانسحاب فلو عطف آخرين على رجال قيام لكان سبعة مكررة في المعطوف أي وسبعة آخرين أي رجال آخرين قعود ، ويفسد المعنى لأن المفروض أن الرجال سبعة ، وأما الآية فلو كرر فيها وقيل : وسبع أخر أي وسبع سنبلات أخر استقام لأن الخضر سبع واليابسات سبع ، نعم لو خرج ذلك على المرجوح وهو الانسحاب أدى إلى أن السبع المذكورة مميزة بسنبلات خضر وسنبلات أخر يابسات ، وفسد إذ المراد أن كلاًّ منهما سبعة لا أنها سبعة ، فالمثال والآية ليسا على وزان إذ هو على تكرير العامل يفسد وعلى الانسحاب يصح ، والآية بالعكس ، ثم بنى على ما زعمه من أن الصحيح قول التكرير جواز العطف .

وادعى أن الأولى أن يكون العطف على ﴿ خضر ﴾ لا على ﴿ يابسات ﴾ ليدل على موصوف آخر ، وهو سنبلات ولا يقدر موصوفها بقرينة السياق ، ولا يخفى أن الكلام إنما هو على تقدير أن يكون مميز السبع ما علمت ، وعلى ذلك يلزم التدافع ، ولا يبنى على فرض أنهم سبعة أو أربعة عشر فيصح في الآية ولا يصح في المثال فإنه وهم .

ومن ذلك يظهر نه لا مدخل للتكرير والانسحاب في هذا الفرض ، ثم إن المختار قول الانسحاب على ما نص عليه الشيخ ابن الحاجب وحققه في غير موضع ، وأما الاستدلال بالآية على الانسحاب لا التقدير وإلا لكان لفظ ﴿ أخر ﴾ تطويلاً يصان كلام الله تعالى المعجز عنه فغير سديد على ما في " الكشف " لأن القائل بالتقدير يدعي الظهور في الاستقلال ، وكذلك القائل بالانسحاب يدعي الظهور في المقابل على ما نص عليه أئمة العربية فلا يكون التأكيد - بأخر - لإرادة النصوص تطويلاً بل إطناباً يكون واقعاً في حاق موقعه هذا .

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ ﴾ خطاب للأشراف ممن يظن به العلم .

يروى أنه جمع السحرة والكهنة والمعبرين فقال لهم يا أيها الملأ ﴿ أَفْتُونِي فِي رُءيَايَ ﴾ هذه أي عبروها وبينوا حكمها وما تؤول إليه من العاقبة .

وقيل : هو خطاب لجلسائه وأهل مشورته ، والتعبير عن التعبير بالإفتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أي تعلمون عبارة جنس الرؤيا علماً مستمراً وهي

الانتقال من الصورة المشاهدة في المنام إلى ما هي صورة ومثال لها من الأمور الآفاقية والأنفسية الواقعة في الخارج من العبور وهو المجاوزة ، تقول : عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته ، ونحوه أولتها أي ذكرت ما تؤول غليه وعبرت الرؤيا بالتخفيف عبارة أقوى وأعرف عند أهل اللغة من عبرت بالتشديد تعبيراً حتى أن بعضهم أنكر التشديد ، ويرد عليه ما أنشده المبرد في " الكامل "

لبعض الأعراب وهو :

رأيت رؤيا ثم عبرتها . . .

وكنت للأحلام عبارا

(129/397)

والجمع بين الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما أشير إليه .

واللام قيل : متعلقة بمحذوف والمقصود بذاك البيان كأنه لما قيل : ﴿ تعبرون ﴾ قيل : لأي شيء ؟ فقيل : للرؤيا فهي للبيان كما في سقيا له إلا أن تقديم البيان على المبين لا يخلو عن شيء .

وقيل – واختاره أبو حيان – إنها لتقوية الفعل المذكور لأنه ضعف بالتأخير ، ويقال لها : لام

التقوية وتدخل في الفصيح على المعمول إذا تقدم على عامله مطلقاً وعلى معمول غير الفعل إذا تأخر كزيد ضارب لعمرو ، وفي كونها زائدة أو لا خلاف ، وقيل : إنه جئ بها لتضمين الفعل المتعدي معنى فعل قاصر يتعدى باللام أي إن كنتم تنتدبون لعبارتها ، وجوز أن يكون ﴿ للرؤيا ﴾ خبر كان كما تقول : كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقبلاً به متمكناً منه ، وجملة ﴿ تعبرون ﴾ خبر آخر أو حال ، ولا يخفى ما في ذلك من التكلف ، وكذا فيما قبله .

وقرأ أبو جعفر بالإدغام في الرؤيا وبابه بعد قلب الهمزة واواً ثم قلب الواو ياءاً لسبقها إياها ساكنة ، ونصوا على شذوذ ذلك لأن الواو بدل غير لازم .

﴿ قَالُوا ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا قال الملأ للملك إذ قال لهم ذلك ؟ فقيل : قالوا : هي ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أي هي أضغاث الخ ، وهي جمع ضغث وهو أقل من الحزمة وأكثر من القبضة من أخلاط النبات ، وقد يطلق على ما كان من جنس واحد كما في قوله :

خود كأن فراشها وضعت به . . .

أضغاث ريحان غداة شمال

وجعل من ذلك ما في قوله تعالى : ﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ﴾ [ص : 44] فقد روي أن أيوب عليه السلام أخذ عثكالاً من النخل فضرب به .

وفي " الكشاف " ((أن أضغاث الأحلام تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان ، وقد استعيرت لذلك ، وأصلها ما جمع من أخلاط النبات وحزم وإضافتها على معنى ثم أي أضغاث من أحلام)) وأورد عليه أن الأضغاث إذا استعيرت للأحلام الباطلة والأحلام مذكورة ، ولفظ هي المقدر عبارة عن رؤيا مخصوصة فقد ذكر المستعار والمستعار له ، وذلك مانع ن الاستعارة على الصحيح عندهم ، وقد أجاب الكثير عن ذلك بما لا يخلو عن بحث .

وذكر بعض المحققين في تقرير ذاك وجهين : الأول : أنه يريد أن حقيقة الأضغاث أخلاط النبات فشبه به التخاليط والأباطيل مطلقاً سواء كانت أحلاماً أم غيرها ، ويشهد له قول " الصحاح " و " الأساس " : ضغث الحديث خلطه ، ثم أريد هنا بواسطة الإضافة أباطيل مخصوصة فطرفا الاستعارة أخلاط النبات والأباطيل الملفقات ، فالأحلام ورؤيا الملك خارجان عنهما فلا يضر ذكرهما كما إذا قلت : رايت أسد قريش فهو قرينة أو تجريد ، وقوله : تخاليطها تفسير له بعد التخصيص ، وقوله : وقد استعيرت لذلك إشارة إلى التخاليط .

الثاني : أن الأضغاث استعيرت للتخاليط الواقعة في الرؤيا الواحدة فهي أجزاؤها لا عينها فالمستعار منه حزم النبات والمستعار له أجزاء الرؤيا ، وهذا كما إذا استعرت الورد للخد ، ثم قلت : شممت ورد هند مثلاً فإنه لا يقال : إنه ذكر فيه الطرفان اه ، ولا يخفى ما فيه من التكلف وارتكاب غير الظاهر .

واستظهر بعضهم كون ﴿ أضغاث أحلام ﴾ من قبيل لجين الماء ، ولا يخفى أنه سالم عما أورد على الزمخشري إلا أن صاحب " الأساس " قد صرح بأن ذلك من المجاز ، والمتبادر منه المجاز المتعارف الذي لا يطلق على ما ذكر ، ولعل الأمر في ذلك سهل .

(131/397)

والأحلام جمع حلم بضمة وبضمتين المنامات الباطلة على ما نص عليه جمع ، وقال بعضهم : الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم مطلقاً لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن ، وغلب الحلم على خلافه ، وفي الحديث " الرؤيا من الله تعالى والحلم من الشيطان " وقال التوربشتي : الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا والتفريق من الاصطلاحات التي سنها الشارع صلى الله عليه وسلم للفصل بين الحق والباطل كأنه كره أن يسمى ما كان من الله وما كان من الشيطان باسم واحد فجعل الرؤيا عبارة عن القسم الصالح لما فيها من

الدلالة على مشاهدة الشيء بالبصر والبصيرة ، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان لأن أصل الكلمة لم تستعمل إلا فيما يخيل للحالم في منامه من قضاء الشهوة بما لا حقيقة له اه وهو كلام حسن .

ومما يشهد له في دعوى كون الحلم يستعمل عند العرب استعمال الرؤيا البيت السابق الذي أنشده المبرد كما لا يخفى .

وإنما قالوا ﴿ أضغاث أحلام ﴾ بالجمع مع أن الرؤيا ما كانت إلا واحدة للمبالغة في وصف ذلك بالبطلان ، وهذا كما يقال : فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخز لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامة فردة .

وفي " الفرائد " لما كانت ﴿ أضغاث أحلام ﴾ مستعارة لما ذكر وهي تخاليطها وأباطيلها وهي متحققة في رؤيا واحدة بحسب أنها متركبة من أشياء كل منها حلم فكانت أحلاماً ، قال الشهاب : وهو واه وإن استحسنه العلامة الطيبي ، نعم ليس هذا من إطلاق الجمع على الواحد لوجود ذلك في هذا الجنس إذ الإضافة على معنى في ، ثم نقل عن الرضي أنه قال في " شرح الشافية " إن جمع القلة ليس بأصل في الجمع لأنه لا يذكر إلا حيث يراد بيان القلة فلا

يستعمل لمجرد الجمعية والجنسية كما يستعمل له جمع الكثرة ، يقال : فلان حسن الثياب في معنى حسن الثوب ولا يحسن حسن الثوب وكم عندك من الثوب أو من الثياب ولا يحسن من الأثواب اه ، ثم قال : وقد ذكره الشريف في " شرح المفتاح " وهو مخالف لما ذكروه هنا فتأمله ، ولعل ما ذكر بعد تسليمه إنما هو في جمع القلة الذي معه جمع كثرة كما ذكره في المثال لا في ذلك وجمع القلة الذي ليس معه جمع كثرة كما هنا ، فإنا لم نجد في " كتب اللغة " جمعاً لمفرد هذا الجمع غير هذا الجمع ، وقد ذكر غير واحد أن جمع القلة إذا لم يوجد معه جمع كثرة يستعمل استعمال جمع الكثرة ، ثم لا يخفى حسن موقع الأضغاث مع السنابل ، فيالله در شأن التنزيل ما أبدع رياض بلاغته .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ ﴾ أي المنامات الباطلة ﴿ بِعَالِمِينَ ﴾ لأنها لا تأويل لها وإنما التأويل للمنامات الصادقة ، وهذا إما لشيوع الأحلام في أباطيلها وإما لكون اللام للعهد والمعهود الأضغاث منها ، والكلام وارد على أسلوب :

على لا حب لا يهتدى بمنارهرضي الله عنR . . .

وهو إشارة إلى كبرى قياس ساقوه للعذر عن جهلهم كأنهم قالوا هذه رؤيا باطلة وكل رؤيا كذلك لا نعلم تأويلها أي لا تأويل لها حتى نعلمه ينتج هذه رؤيا لا تأويل لها .

وجوز أن يكون المراد من الأحلام الرؤى مطلقاً ، وأل فيه للجنس ، والكلام اعتراف منهم بقصور علمهم وأنهم ليسوا بنحارير في تأويل الرؤى مع أن لها تأويلاً ، واختاره ابن المنير وادعى أنه الظاهر ، وأن قول الملك لهم أولاً ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ [يوسف : 43] دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها لأنه أتى بكلمة الشك فجاء اعترافهم بالقصور مطابقاً لشك الملك الذي أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين ، وأن قول الفتى : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ [يوسف : 45] إلى قوله : ﴿ لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ [يوسف : 46] دليل على ذلك أيضاً .

وذكر بعض المحققين أنه يشعر به عدولهم عما وقع في كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من الدال إلى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الأحلام أو عبارتها إلى التأويل المنبئ عن التصرف ، والتكلف في ذلك لما بين الآيل والمآل من البعد .

واعترض بأنه على هذا يبقى قولهم : ﴿ أضغاث أحلام ﴾ ضائعاً إذ لا دخل له في العذر ، وأجيب بأنه يمكن أن يكون المقصود منه إزالة خوف الملك من تلك الرؤيا فلا يبقى ضائعاً .

وقال صاحب " الكشف " : إن وجه ذلك أن يجعل الأول جواباً مستقلاً والثاني كذلك أي ههنا أمران : أحدهما من جانب الرائي والثاني من جانب المعبر ، ووجه تقديم الظرف

على عامله أنا أصحاب الآراء والتدابير وعلمنا بذلك رصين لا بتأويل الرؤى ، ووجهه على الأول ظاهر ، وادعى أن المقام يطابقه ، وورده على ذلك الأسلوب مقوله لا موهن خلافاً لما في "الانتصاف" ويقوى عند اختيار الوجه الثاني إذا كان الخطاب لجلسائه وأهل مشورته من أهل الحل والعقد لأن الأغلب على أمثالهم الجهل بمثل هذا العلم الذي لا يعلمه إلا أفراد من الناس. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(134/397)

وقال القاسمى :

ولما دنا الفرج من يوسف عليه السلام ، برحمته تعالى ، ما هيأه من الأسباب ؛ رأى فرعون مصر هذه الرؤيا التي أشار إليها تعالى بقوله :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾ أي : لملئه : ﴿ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ أي : هالكات من الهزال . جمع عجفاء ، بمعنى المهزولة ، ضد السمينة ﴿ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ ﴾ أي : وأرى رؤيا ثانية : سبع سنبلات : ﴿ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ أي : وسبعاً أخر يابسات دقيقة ، أي : نبتت وراءها ، فابتلعت السنابل الخضر الممتلئة ، وإنما استغنى عن عددها وإعدامها للخضر ؛ للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات ؛ لأنها نظيرتها .

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ خطاب للأشراف من قومه، وكان دعا إثر استيقاظه سحرة مصر وحكماءها، وقص عليهم رؤياه هذه .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي: الملأ للملك: ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ ﴾ أي: تخاليطها . جمع (ضغث) وهو في الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحُزِمَ، ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس، ووساوس الشيطان، وتريها في المنام . و (الأحلام) جمع (حلم)، وهو ما يراه النائم، فهو مرادف للرؤيا، إلا أنها غلبت في رؤيا الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على خلافه . وفي الحديث: < الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان > .

قال التوربشتي: الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا، والتفريق من الاصطلاحات التي سنها الشارع للفصل بين الحق والباطل، كأنه كره أن يسمى ما كان من الله وما كان من الشيطان باسم واحد، فجعل الرؤيا عبارة عن الصالح منها، لما في الرؤيا من الدلالة على المشاهدة بالبصر أو البصيرة، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان؛ لأن أصل الكلمة لم يستعمل إلى فيما يخيل للحالم في منامه من قضاء الشهوة، مما لا حقيقة له . انتهى .

والمراد بالجمع في (الأحلام) ما فوق الواحد ؛ لأنهما حلمان ، رأى كل واحد منهما إثر استيقاظه منه ، كما روي ، وفهم بعضهم أنه حلم واحد ، فالتمس للجمع نكتة فقال : إما المبالغة في وصفه بالبطلان ، أو تضمنه أشياء مختلفة ، ولا حاجة إليه ، كما بينا .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ ﴾ يحتمل أن يريدوا بـ : (الأحلام) المنامات الباطلة خاصة . أي : ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للرؤيا الصادقة . وأن يعترفوا بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا في التعبير بنحارير .

قال الناصر : وهذا هو الظاهر . وحمل الكلام على الأول يصيره من وادي :

~*على لا حب لا يُهتدى بمناره*

كأنهم قالوا : ولا تأويل للأحلام الباطلة ، فنكون به عالمين . وقول الملك لهم أولاً : ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها ، لأنه أتى بكلمة الشك ، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقاً لشك الملك الذي أخرجه مخرج استفهام عن كونهم عالمين بالرؤيا أو لا . وقول الفتى : ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ دليل أيضاً على ذلك – والله أعلم – . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 185.186 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾

هذا عطف جزء من قصة على جزء منها تكملة لوصف خلاص يوسف عليه السّلام من السجن .

والتعريف في ﴿ الملك ﴾ للعهد ، أي ملك مصر .

وسماه القرآن هنا ملكاً ولم يسمه فرعونَ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط ، وإنما كان ملكاً لمصر أيامَ حَكَمَها (الهِكسوس) ، وهم العمالقة ، وهم من الكنعانيين ، أو من العرب ، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة ، أي البَدو .

وقد ملكوا بمصر من عام 1900 إلى عام 1525 قبل ميلاد المسيح عليه السّلام .

وكان عصرهم فيما بين مدة العائلة الثالثة عشرة والعائلة الثامنة عشرة من ملوك القبط ، إذ كانت عائلات ملوك القبط قد بقي لها حكم في مصر العليا في مدينة (طِيبة) كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وقال الذي اشتراه ﴾ [سورة يوسف : 21] .

وكان ملكهم في تلك المدة ضعيفاً لأن السيادة كانت لملوك مصر السفلى .

ويقدّر المؤرخون أن ملك مصر السفلى في زمن يوسف عليه السّلام كان في مدة العائلة السابعة عشرة .

فالتعبير عنه بالملك في القرآن دون التعبير بفرعون مع أنه عبّر عن ملك مصر في زمن موسى عليه السّلام بلقب فرعون هو من دقائق إعجاز القرآن العلمي .

وقد وقع في التوراة إذ عبر فيها عن ملك مصر في زمن يوسف عليه السّلام فرعون وما هو بفرعون لأن أمته ما كانت تتكلم بالقبطية وإنما كانت لغتهم كنعانية قريبَة من الآرامية والعربية ، فيكون زمن يوسف عليه السّلام في آخر أزمان حكم ملوك الرعاة على اختلاف شديد في ذلك .

وقوله : سِمانٍ ﴾ جمع سمينة وسَمين ، مثل كرام ، وهو وصف ل ﴿ بقرات ﴾ .

و﴿ عجاف ﴾ جمع عجفاء .

والقياس في جمع عجفاء عُجف لكنه صيغ هنا بوزن فِعال لأجل المزاوجة لمقارنه وهو ﴿ سمان ﴾ .

كما قال الشاعر :

هتّاك أخبية ولاّج أبوية

والقياس أبواب لكنه حمله على أخبية .

والعجفاء : ذات العَجَف بفتحتين وهو الهزال الشديد .

و ﴿ وسبع سنبلات ﴾ معطوف على ﴿ سبع بقرات ﴾ .

والسنبلة تقدمت في قوله تعالى : ﴿ كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل ﴾ في سورة البقرة (261) .

والملأ : أعيان الناس .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال الملأ من قومه ﴾ في سورة الأعراف (60) .

والإفتاء : الإخبار بالفتوى .

وتقدمت آنفاً عند قوله : ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ [سورة يوسف : 41] .

وفي ﴾ للظرفية المجازية التي هي بمعنى الملابسة ، أي أفتوني إفتاء ملابساً لرؤياي ملابسة البيان للمجمل .

وتقديم ﴿ للرؤيا ﴾ على عامله وهو ﴿ تعبرون ﴾ للرعاية على الفاصلة مع الاهتمام بالرؤيا في التعبير .

والتعريف في ﴿ للرؤيا ﴾ تعريف الجنس .

واللام في ﴿ للرؤيا ﴾ لام التقوية لضعف العامل عن العمل بالتأخير عن معموله .

يقال : عَبَر الرؤيا من باب نَصر .

قال في "الكشاف" : وعبَرت الرؤيا بالتخفيف هو الذي اعتمده الأثبات .

ورأيتهم ينكرون عبّرت بالتشديد والتعبير ، وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب "الكامل" لبعض الأعراب :

رأيت رؤْيَاي ثم عبّرتُها

وكنتُ للأحلام عَبّارا . . .

والمعنى : فسر ما تدل عليه وأوّل إشاراتها ورموزها .

وكان تعبير الرؤيا مما يشتغلون به .

وكان الكهنة منهم يعدونه من علومهم ولهم قواعد في حل رموز ما يراه النائم .

وقد وجدت في آثار القبط أوراق من البردي فيها ضوابط وقواعد لتعبير الرُّؤى ، فإن استفتاء صاحبي السجن يوسف عليه السّلام في رؤييهما ينبىء بأن ذلك شائع فيهم ، وسؤال المَلك أهل ملأه تعبير رؤياه ينبىء عن احتواء ذلك الملأ على من يُظنّ بهم علم تعبير الرؤيا ، ولا يخلو ملأ الملك من حضور كهان من شأنهم تعبير الرؤيا .

وفي التوراة "فأرسل ودعا جميع سَحرة مصر وجميع حكمائها وقص عليهم حلمه فلم يكن من يعبره له" .

وإنما كان مما يقصد فيه إلى الكهنة لأنه من المغيبات .

وقد ورد في أخبار السيرة النبوية أن كسرى أرسل إلى سطيح الكاهن ليعبر له رؤيا أيام ولادة النبي صلى الله عليه وسلم وهي معدودة من الإرهاصات النبوية .

وحصل لكسرى فزع فأوفد إليه عبد المسيح .

فالتعريف في قوله ﴿ للرؤيا ﴾ تعريف العهد ، والمعهود الرؤيا التي كان يقصها عليهم على طريقة إعادة النكرة معرفة باللام أن تكون الثانية عين الأولى .

والمعنى : إن كنتم تعبرون هذه الرؤيا .

والأضغاث : جمع ضغث بكسر الضاد المعجمة وهو : ما جمع في حُزمة واحدة من أخلاط النبات وأعواد الشجر ، وإضافته إلى الأحلام على تقدير اللام ، أي أضغاث للأحلام .

والأحلام : جمع حُلُم بضمتين وهو ما يراه النائم في نومه .

والتقدير : هذه الرؤيا أضغاث أحلام .

شبهت تلك الرؤيا بالأضغاث في اختلاطها وعدم تميز ما تحتويه لمّا أشكل عليهم تأويلها .

والتعريف فيه أيضاً تعريف العهد ، أي ما نحن بتأويل أحلامك هذه بعالمين .

وجمعت ﴿ أحلام ﴾ باعتبار تعدد الأشياء المرئية في ذلك الحُلم ، فهي عدة رُؤَى .

والباء في ﴿ بتأويل الأحلام ﴾ لتأكيد اتصال العامل بالمفعول ، وهي من قبيل باء الإلصاق مثل باء ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [سورة المائدة : 6] ، لأنهم نفوا التمكن من تأويل

هذا الحلم .

وتقديم هذا المعمول على الوصف العامل فيه كتقديم المجرور في قوله : إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴿ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(139/397)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾

والأرض التي وقعتْ عليها ، وجرَتْ فوقها تلك القصة هي مصر ، وسبق أن عرفنا ذلك حين قال الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَ الذي اشتراه مِن مِّصْرَ ﴾ [يوسف : 21] .

وهكذا نعرف أن هناك " ملك " ، وهناك " عزيز " .

ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يُسمَّوْنَ الفراعنة ، وبعد أن اكتُشِفَ " حجر رشيد " ، وتم فَكُّ ألغاز اللغة الهيروغليفية ؛ عرفنا أن حكم الفراعنة قد اختفى لفترة ؛ حين استعمر مصرَ ملوكُ الرُّعاة ، وهم الذين يُسمَّوْنَ الهكسوس .

وكانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها يوسف ، وعمل يوسف وأخوه معهم ، فلما استرجع الفراعنة حكم مصر طردوا الهكسوس ، وقتلوا مَنْ كانوا يُوالونهم .

وحديث القرآن عن وجود مَلِك في مصر أثناء قصة يوسف عليه السلام هو من إعجاز التنبؤ في القرآن .

وساعة تقرأ :

﴿ وَقَالَ الملك إني أرى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ [يوسف : 43] .

ثم يطلب تأويل رؤياه ؛ فهذا يعني أنها رُؤيا منامية .

وكلمة : ﴿ سِمَانٍ ﴾ [يوسف : 43] .

أي : مُمْتلئة اللحم والعافية . وكلمة ﴿ عجاف ﴾ أي : الهزيلة ؛ كما يُقال عند العامة " جلدها على عظمها " ؛ فكيف تأكل العجاف السمان ؛ مع أن العكس قد يكون مقبولاً ؟

وأضاف الملك :

﴿ وَسَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ . . . ﴾ [يوسف : 43] .

ولم يَصِف الملك أيَّ فعل يصدر عن السنابل ، ثم سأل مَنْ حوله من أعيان القوم الذين يتصدرون صُدور المجالس ، ويملأون العيون :

﴿ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] .

وكلمة (تعبرون) مأخوذة من " عبر النهر " أي : انتقل من شاطئ إلى شاطئ ، وكأنه يطلب منهم المراد المَطْوي في الرُّؤيا .

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة " العِبْرة " ، وهي التجربة التي نستفيد منها ، ومنه أيضاً " العبارَة " وهو أن يكون هناك شيء مكتوم في النفس ، ونُؤدِّيه ، ونُظهِره بالعبارة .

ومنه " العَبْرة " ، وهو الدَّمْعة التي تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما ؛ سواء كانت مشاعر حُزْن أو فرح ، والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم .

وهكذا يفعل مُفسِّر الرُّؤْيا حين يَعبُر من خلال رموزها من الخيال إلى الحقيقة .

ولم يعرف الملأ الذين حول المَلِك تفسيراً للرُّؤْيا التي رآها في منامه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم : ﴿ قالوا أَضْغَاثُ . . . ﴾ .

وهكذا أعلن الملأ أن رؤيا الملك ليست سوى أخلاط أحلام بلا معنى . و " الضِّغْث " هو حِزْمة من الحشائش مختلفة الأجناس ؛ فكأن رُؤْيا الملك لا تأويلَ لها عندهم ؛ لأنهم ليسوا من أهل التمييز في التأويل .

وهذا صِدْق من البطانة في ألاَّ يخبر أحدهم بشيء ، إلا إذا كان على علم به ؛ ولا يضير أحدهم أن يعلن جهله بأمر ما لا يعلمه .

والذي يعلن جهله بأمر لسائله ويكون قد علمه يجعله يسأل غيره ، أما إن أجاب بجواب ؛ فربما جعله يَثْبُت على هذا الجواب .

ولذلك قال العلماء ليفسحوا مجال الصِّدْق في الفُتْيا : " مَنْ قال لا أدري فقد أفتى " ؛ لأنه

حين يقول "لا أدري" ؛ سيضطرك إلى أن تسأل غيره. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(141/397)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾

قوله تعالى : ﴿ سِمَانٍ ﴾ : صفة لبقرات وهو جمع سمينة، ويُجْمع سمين أيضاً عليه يقال : رجال سِمان كما يقال نساء كِرام ورجال كِرام. و "السِّمَنُ" مصدر سَمِن يَسْمَن فهو سمين فالمصدر واسم [الفاعل] جاءا على غير قياس، إذ قياسُهما "سَمَن" بفتح الميم، فهو سَمِن بكسرها، نحو فَرِح فَرَحاً فهو فَرِح.

قال الزمخشري : "هل مِنْ فرقٍ بين إيقاع "سمان" صفة للمميِّز وهو "بقراتٍ" دون المُمَيَّز وهو "سبعَ"، وأن يقال : سبعَ بقراتٍ سِماناً؟ قلت : إذا أوقَعْتَها صفةً ل "بقرات" فقد قَصَدْتَ إلى أَنْ تُمَيِّز السبعَ بنوعٍ من البقرات وهو السِّمانُ منهنَّ لا بجنسهنَّ، ولو وَصَفْتَ بها السبعَ لَقَصَدْتَ إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوعٍ منها، ثم رَجَعْتَ فَوَصَفْتَ المميَّز

بالجنس بالسِّمَنِ . فإن قلت : هلاَّ قيل " سبعَ عجافٍ " على الإضافة . قلت : التمييزُ موضوعٌ لبيان الجنس ، والعِجافُ وصفٌ لا يقع البيانُ به وحدَه . فإن قلت فقد يقولون : ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب . قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفاتٌ جرَتْ مَجْرى الأسماء فأخذَتْ حُكْمَها ، وجاز فيها ما لم يَجُزْ في غيرها . ألا تراك لا تقول : عندي ثلاثة ضخامٍ ولا أربعة غلاظٍ . فإن قلت : ذاك مِمَّا يُشْكِلُ وما نحن بسبيله لا إشكال فيه ألا ترى أنه لم يَقُلْ " وبقرات سبعَ عجافٍ " لوقوع العلم بأن المرادَ البقرات . قلت : تَرْكُ الأصلِ لا يجوز مع وقوع الاستغناء عَمَّا ليس بأصلٍ ، وقد وقع الاستغناء عن قولك " سبع عجافٍ " عمَّا تقترحه من التمييز بالوصف " .

(142/397)

قلت : وهي أسئلة وأجوبة حسنة . وتحقيق السؤال الأول وجوابه : أنه يلزم مِنْ وَصْفِ التمييز بشيء وَصْفُ المميِّز به ، ولا يلزم من وصف المُمَيَّز وَصْفُ التمييز بذلك الشيءِ ، بيانُه أنك إذا قلت : " عندي أربعة رجالٍ حسانٍ " بالجرِّ كان معناه : أربعة من الرجال الحسان ، فيلزم حُسْنُ الأربعة ؛ لأنهم بعض الرجال الحسان ، وإذا قلت : " عندي أربعةُ رجالٍ حسانٌ " برفع " حسان " كان معناه : أربعة من الرجال حِسان ، وليس فيه دلالةٌ

على وَصْف الرجال بالحُسْن .

وتحقيقُ الثاني وجوابه : أن أسماءَ العدد لا تُضاف إلى الأوصاف إلا في ضرورة ، وإنما يُجاء بها تابعةً لأسماء العدد فيقال : " عندي ثلاثة قرشيون " ولا يُقال : ثلاثةُ قرشيين بالإِضافة إلا في شعر . ثم اعترض بثلاثة فرسان وأجاب بجريان ذلك مجرى الأسماء .

وتحقيق الثالث : أنه إنما امتنع " ثلاثةُ ضِخام " ونحوه لأنه لا يُعْلَمُ موصوفُه ، بخلاف الآية الكريمة فإنَّ الموصوفَ معلومٌ ولذلك لم يُصرِّحْ به . وأجاب عن ذلك بأن الأصلَ عدمُ إضافةٍ العددِ إلى الصفة كما تقدَّم فلا يُتْرك هذا الأصلُ مع الاستغناءِ بالفرع ، وعلى الجملة ففي هذه العبارة قلق هذا ملخصها ، ولم يذكر الشيخُ نصَّه ولا اعترض عليه ، بل لَخَّصَ بعضَ معانيه وتركه على إشكاله .

وجَمْعُ عَجْفاء على عِجاف . والقياس : عُجُف نحو : حمراء وحُمُر ، حَمْلاً له على " سِمان " لأنه نقيضُه ، ومِنْ دَأْبهم حَمْل النظير على النظير والنقيض على النقيض ، قاله الزمخشري : " والعَجَفُ شِدَّة الهُزالِ الذي ليس بعده قال :

2794 عمرُو الذي هَشَمَ الثريدَ لقومِه . . . ورجالُ مكةَ مُسْنِتون عِجافُ

وقال الراغب : " هو من قولهم نَصْلٌ أعجفُ ، أي : دقيق ، وعَجَفْتُ نفسي عن الطعام ، وعن فلان إذا نَبَتْ عنهما ، وأَعْجف الرجلُ ، أي : صادف ماشِيَتَه عِجافاً " .

قوله : ﴿ وَأُخَرَ ﴾ "أُخَرَ" نسقٌ على "سبعَ" لا على "سنبلات" ، ويكون قد حَذَفَ اسمَ العددِ من قوله "وأُخَرَ يابسات" والتقدير : وسبعاً أُخَرَ ، وإنما حَذَفَ لأنَّ التقسيمَ في البقرات يقتضي التقسيمَ في السنبلات .

قال الزمخشري : "فإنْ قلت : هل في الآية دليل على أنَّ السنبلاتِ اليابسةَ كانت سبعاً كالخضر ؟ قلت : الكلامُ مبنيٌّ على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعِجافِ والنسبلاتِ الخُضْر ، فَوَجَبَ أن يتناول معنى الأُخر السبع ، ويكون قوله "وأُخَرَ يابسات" بمعنى وسبعاً أُخَرَ" انتهى . وإنما لم يَجُزْ عَطْفُ "أُخر" على التمييز وهو "سنبلات" فيكون/ "أُخَر" مجروراً لا منصوباً ؛ لأنه من حيث العطفُ عليه يكونُ مِنْ جملة مُمَيَّز "سبعَ" ، ومِنْ جهةِ كونه آخر يكون مبايناً ل"سبع" فتدافعا ، ولو كان تركيبُ الآيةِ الكريمة : "سبع سنبلاتٍ خضرٍ ويابسات" لصَحَّ العطفُ ، ويكون مِنْ توزيع السنبلات إلى هذين الوصفين أعني الاخضرارَ واليُبْس .

وقد أوضح الزمخشري هذا حيث قال : "فإن قلتَ : هل يجوز أن يُعْطَفَ قولُه "وأُخَرَ يابساتٍ" على "سنبلاتٍ خَضْرٍ" فيكون مجرورَ المحل ؟ قلت : يؤدي إلى تدافُعٍ ، وهو أنَّ عَطْفَهَا على "سنبلات خضر" يقتضي أن يكونَ داخلاً في حكمها ، فتكون معها مميِّزاً للسبع المذكور ، ولفظُ الأُخَر يقتضي أن تكونَ غيرَ السبع . بيانُه أنك تقول : "عنده سبعة

رجالٍ قيامٍ وقعودٍ بالجرِّ ؛ فيصحُّ لأنك ميَّزْتَ السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود ، على أنَّ بعضَهم قيامٌ وبعضَهم قعودٌ ، فلو قلت : " عنده سبعةٌ رجال قيام وآخرين قعود " تدافعَ ففسد " .

(144/397)

قوله ﴿ لِلرُّؤْيا ﴾ : فيه أربعة أوجه ، أحدها : أن اللام فيه مزيدةٌ فلا تَعَلُّق لها بشيء ، وزِيْدت لتقدُّم المعمولِ مقويةً للعامل ، كما زِيْدَتْ فيه إذا كان العامل فرعاً كقوله : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : 107] ، ولا تُزاد فيما عدا ذينك إلا ضرورةً كقوله :

2795 فلَمَّا أَنْ تواقَفْنا قليلاً . . . أَنَخْنا للكلاكلِ فارْتَمَيْنا

يريد : أنخنا الكلاكل ، فزيدت مع فقدان الشرطين ، هكذا عبارة بعضهم يقول إلا في ضرورة ، وبعضُهم يقول : الأكثر ألاَّ تُزادَ ، ويتُحَرَّزَ مِنْ قوله تعالى ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] فإن الأصلَ : رَدِفَكم فزيدت فيه اللام ، ولا تَقَدُّمَ ولا فرعية ، ومَنْ أطلق ذلك جَعَلَ الآية من باب التضمين ، وسيأتي في مكانِه ، وقد تقدَّم لك من هذا طرفٌ جيدٌ في تضاعيف هذا التصنيف .

الثاني : أن يُضَمَّن " تَعْبُرون " معنى ما يتعدى باللام ، تقديره : إن كنتم تَنْتَدِبون لعبارة الرؤيا

.

الثالث : أن يكونَ " للرُّؤْيا " هو خبر "كنتم "كما تقول : "كان فلان لهذا الأمر " إذا كان مستقلاًّ به متمكِّناً منه ، وعلى هذا فيكون في " تعبرُون " وجهان ، أحدهما : أنه خبرٌ ثانٍ ل "كنتم " والثاني : أنه حالٌ مِن الضمير المرتفع بالجار لوقوعه خبراً .

الرابع : أنْ تتعلَّقَ اللامُ بمحذوفٍ على أنها للبيانِ كقوله تعالى : ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين ﴾ [يوسف : 20] تقديرُه : أعني فيه ، وكذلك هذا ، تقديرُه : أعني للرؤيا ، وعلى هذا فيكون مفعول " تعبُرون " محذوفاً تقديره : تعْبُرونها .

وقرأ أبو جعفر " الرُّؤْيا " وبابَها " الرُّيَّا " بالإِدغام ، وذلك أنه قَلَبَ الهمزةَ واواً لسكونِها بعد ضمةٍ فاجتمعت ياءٌ وواو ، وسَبَقَتْ إحداهما بالسكون ، فَقُلِبَتْ الواوُ ياءً وأُدْغِمَتْ الياءُ في الياء . وهذه القراءةُ عندهم ضعيفةٌ ؛ لأنَّ البدلَ غيرُ لازمٍ فكأنه لم تُوْجَدْ واو نظراً إلى الهمزة .

(145/397)

وعَبَرْتُ الرؤيا بالتخفيف قال الزمخشري : " هو الذي اعتمده الأثباتُ ، ورأَيْتُهم يُنْكرون " عَبَّرت " بالتشديد والتعبير والمعبِّر " قال : " وقد عَثَرْتُ على بيت أنشده المبرد في كتاب "

الكامل " لبعض الأعراب :

2796 رَأَيتُ رُؤْيا ثم عَبَّرْتُها . . . وكنتُ للأحلام عَبَّارا

قال : " وحقيقةُ عبرت الرؤيا : ذكرتَ عاقبَتها وآخر أمرها كما تقول : عَبَرْتُ النهر إذا قطعتَه حتى تبلغَ آخرَ عَرْضه " .

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَضْغَاثُ ﴾ : " أَضْغاث " خبر مبتدأ مضمر ، أي : هي أضغاث ، يَعْنُون ما قَصَصْتَه علينا ، والجملةُ منصوبةٌ بالقول . والأضغاث جمع " ضِغْث " بكسر الضاد ، وهو ما جُمِع من النبات سواء كان جنساً واحداً أو أجناساً مختلطة وهو أصغرُ مِن الحُزْمة وأكبر من القَبْضة ، فمِنْ مجيئه من جنسٍ واحد قولُه تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ [ص : 44] رُوِي في التفسير أنه أخذ عِثْكالاً مِنْ نخلة . وفي الحديث : " أنه أُتي بمريض وَجَبَ عليه حَدٌّ ففُعِل به ذلك " . وقال ابن مقبل :

2797 خَوْدٌ كأن فِراشَها وُضِعَتْ به . . . أضغاثُ رَيْحانٍ غَداةَ شَمَالِ

/ ومِنْ مجيئه مِنْ أخلاط النبات قولهم في أمثالهم : " ضِغْثٌ على إبَّالة " ، وقد خَصَّصه الزمخشري بما جُمِع مِنْ أخلاط النبات ، فقال : " وأصلُ الأَضْغاث ما جُمِع مِنْ أخلاط النبات ، وحِزَم الواحِد ضِغْثٌ " . وقال الراغب : " الضِّغْث قَبْضَةُ رَيْحانٍ أو حَشيش أو قُضْبان " . قلت : وقد تقدَّم أنه أكثرُ من القَبْضة ، واستعمالُ الأَضْغاث هنا من باب

الاستعارة . والإِضافة في " أَضْغاث أحلام " إضافةٌ بمعنى " مِنْ " إذ التقديرُ : أضغاثٌ من أحلام .

(146/397)

والأَحْلام جمع حُلُم . والباء في " بتأويل " متعلقةٌ ب " عالمين " ، وفي " بعالمين " لا تعلُّقَ لها لأنها زائدةٌ : إمَّا في خبرِ الحجازِيَّة أو التميمية .

وقولهم ذلك يُحتمل أن يكونَ نفياً للعلم بالرؤيا مطلقاً ، وأن يكونَ نفياً للعلم بتأويل الأضغاث منها خاصةً دونَ المنام الصحيح . وقال أبو البقاء : " بتأويل أضغاث الأحلام لا بد من ذلك [لأنهم لم يَدَّعوا الجهلَ بعبارة الرؤيا " انتهى . وقوله " الأحلام " وإنما كان واحداً ، قال الزمخشري كما تقول : " فلان يركب الخيل ويلبس عَمائم الخَزِّ ، لمَنْ لا يركب إلا فرساً واحداً ولا يتعمَّم إلا بعمامة واحدة] تَزَيُّداً في الوصف " ، ويجوز أن يكونَ قَصَّ عليهم مع هذه الرؤيا غيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 501.507 ﴾

(147/397)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) ﴾

كان ابتداءُ بلاءِ يوسف – عليه السلام– بسبب رؤيا رآها فَنَشَرَها وأظهرها ، وكان سببُ نجاتِه أيضاً رؤيا رآها المِلكُ فأظهرها ، لِيُعْلَم أَنَّ اللَّهَ يفعل ما يريد ؛ فكما جعل بَلاءَه في إظهار رؤيا جعل نجاته في إظهار رؤيا ؛ لِيَعْلَم الكافةُ إن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء .

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) ﴾

حال الرؤيا لا يختلف بالخطأ في التعبير ؛ فإنّ القوم حكموا بأن رؤياه أضغاثُ أحلام فلم يُضِرْه ذلك ، ولم يؤثِّرْ في صحة تأويلها .

قوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ : مَنْ طَلَبَ الشيءَ مِنْ غيرِ موضعه لم يَنَلْ مطلوبه ، ولم يَسْعَد بمقصوده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 187 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا حالاً مذكراً للساقي بيوسف عليع الصلاة والسلام – أخبر سبحانه بأنه ذكره بعد نسيانه ، فقال عادلاً عن الفاء إيذاناً بأنه من الملا : ﴿ وقال الذي نجا ﴾ أي خلص من الهلاك ﴿ منهما ﴾ أي من صاحبي السجن ، وهو الساقي ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ ادكر ﴾ – بالمهملة ، أي طلب الذكر – بالمعجمة ، وزنه افتعل ﴿ بعد أمة ﴾ من الأزمان ، أي أزمان مجتمعة طويلة ﴿ أنا أنبئكم ﴾ أي أخبركم إخباراً عظيماً ﴿ بتأويله ﴾ أي بتفسير ما يؤول إليه معنى هذا الحلم وحده كما هو الحق ، وسبب عن كلامه قوله :

﴿ فأرسلون ﴾ أي إلى يوسف عليه الصلاة والسلام فإنه أعلم الناس ، فأرسلوه إليه ؛ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : ولم يكن السجن في المدينة ، فأتاه فقال الساقي المرسل بعد

وصوله إليه منادياً له بالنداء القرب تحبباً إليه : ﴿ يوسف ﴾ وزاد في التحبب بقوله : ﴿ أيها الصديق ﴾ أي البليغ في الصدق والتصديق لما يحق تصديقه بما جربناه منه ورأيناه لائحاً عليه ﴿ أفتنا ﴾ أي اذكر لنا الحكم ﴿ في سبع ﴾ وميز العدد بجمع السلامة الذي هو للقلة - كما مضى لما مضى - فقال : ﴿ بقرات سمان ﴾ أي رآهن الملك ﴿ يأكلهن سبع ﴾ أي من البقر ﴿ عجاف ﴾ أي مهازيل جداً ﴿ و ﴾ في ﴿ سبع سنبلات ﴾ جمع سنبلة ، وهي مجمع الحب من الزرع ﴿ خضر و ﴾ في سبع ﴿ أخر ﴾ أي من السنابل ﴿ يابسات ﴾ وساق جواب السؤال سياق الترجي إما جرياً على العوائد العقلاء في عدم البتّ في الأمور المستقبلة ، وإما لأنه ندم بعد إرساله خوفاً من أن يكون التأويل شيئاً لا يواجه به الملك ، فعزم على الهرب - على هذا التقدير ، وإما استعجالاً ليوسف عليه الصلاة والسلام بالإفتاء ليسرع في الرجوع ، فإن الناس في غاية التلفت إليه ، فقال : ﴿ لعلي أرجع إلى الناس ﴾ قبل مانع يمنعني .

(149/397)

ولما كان تصديقهم ليوسف عليه الصلاة والسلام وعلمهم بعد ذلك بفضله وعملهم بما أمرهم به مظنوناً ، قال : ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ أي ليكونوا على رجاء من أن يعلموا فضلك أو

ما يدل ذلك عليه من خير أو شر فيعلموا لكل حال ما يمكنهم عمله ، فكأنه قيل : فما قال له؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ : تأويله أنكم ﴿ تزرعون ﴾ أي توجدون الزراعة .

فهو إخبار بمغيب ، فهو أقعد في معنى الكلام ، ويمكن أن يكون خبراً بمعنى الأمر ﴿ سبع سنين دأباً ﴾ أي دائبين مجتهدين - والدأب : استمرار الشيء على عادته - كما أشارت إليه رؤياك بعصر الخمر الذي لا يكون إلا بعد الكفاية ، ودلت عليه رؤيا الملك للبقرات السمان والسنابل الخضر ، والتعبير بذلك يدل على أن هذه السبع تكون - كما تعرفون - من أغلب أحوال الزمان في توسطه بخصب أرض وجدب أخرى ، وعجز الماء عن بقعة وإغراقه لأخرى - كما أشار إليه الدأب : ثم أرشدهم إلى ما يتقوون به على ما يأتي من الشر ، فقال : ﴿ فما حصدتم ﴾ أي من شيء بسبب ذلك الزرع - والحصد : قطع الزرع بعد استوائه - في تلك السبع الخصبة ﴿ فذروه ﴾ أي اتركوه على كل حال ﴿ في سنبله ﴾ لئلا يفسد بالسوس أو غيره ﴿ إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ قال أبو حيان : أشار برأي نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل - انتهى .

ولما أتم المشورة ، رجع إلى بقية عبارة الرؤيا ، فقال : ﴿ ثم يأتي ﴾ ولما كانت مدة الإتيان غير مستغرقة لزمان البعد ، أتى بالجار فقال : ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي الأمر العظيم ، وهي السبع التي تعملون فيها هذا العمل ﴿ سبع ﴾ أي سنون ﴿ شداد ﴾ بالقحط العظيم ، وهن ما أشارت إليه رؤيا صاحبك الذي طار برزقه الطيور ، وسار بروحه غالب المقدور ، ودلت عليه رؤيا الملك من البقرات العجاف والسنابل اليابسات ﴿ يأكلن ﴾ أسند الأكل إليهن مجازاً عن أكل أهلهن تحقيقاً للأكل ﴿ ما قدمتم ﴾ أي بالادخار من الحبوب ﴿ لهن ﴾ والتقديم : التقريب إلى جهة القدام ، وبشرهم بأن الشدة تنقضي ولم يفرغ ما أعدوه ، فقال : ﴿ إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ والإحصان : الإحراز ، وهو إلقاء الشيء فيما هو كالحصن المنيع – هذا تعبير الرؤيا ، ثم زادهم على ذلك قوله : ﴿ ثم يأتي ﴾ وعبر بالجار لمثل ما مضى فقال : ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي الجدب العظيم ﴿ عام ﴾ وهو اثنا عشر شهراً ، ونظيره الحول والسنة ، وهو مأخوذ من العلوم – لما لأهله فيه من السبح الطويل – قاله الرماني .

والتعبير به دون مرادفاته إشارة إلى أنه يكون فيه – من السعة بعموم الريّ وظهور الخصب وغزير البركة – أمر عظيم ، ولذا اتبعه بقوله : ﴿ فيه ﴾ .

ولما كان المتشوف إليه الإغاثة ، على أنه من المعلوم أنه لا يقدر عليها إلا الله ، قال بانياً للمفعول : ﴿ يغاث الناس ﴾ من الغيث وهو المطر ، أو من الغوث وهو الفرج ، ففي الأول

يجوز بناءه من ثلاثي ومن رباعي ، يقال غاث الله الأرض وأغاثها : أمطرها ، وفي الثاني هو رباعي خاصة ، يقال : استغاث به فأغاثه ، من الغوث وهو واوي ، ومعناه النفع الذي يأتي على شدة حاجته بنفي المضرة ، والغيث يائي وهو المطر الذي يأتي في وقت الحاجة ﴿ وفيه ﴾ أي ذلك العام الحسن .

(151/397)

ولما كان العصر للأدهان وغيرها لا يكون إلا عن فضله ، قال : ﴿ يعصرون ﴾ أي يخرجون عصارات الأشياء وخلاصاتها ، وكأنه أخذ من انتهاء القحط ابتداء الخصب الذي دل عليه العصر في رؤيا السائل ، والخضرة والسمن في رؤيا الملك فإنه ضد القحط ، وكل ضدين انتهاء أحدهما ابتداء الآخر لا محالة ، فجاء الرسول فأخبر الملك بذلك ، فأعجبه ووقع في نفسه صدقه ﴿ وقال الملك ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 51 . 53 ﴾

(152/397)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

اعلم أن الملك لما سأل الملأ عن الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب قال الشرابي إن في الحبس رجلاً فاضلاً صالحاً كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق في الكل وما أخطأ في حرف فإن أذنت مضيت إليه وجئتك بالجواب .

فهذا هو قوله : ﴿ بعالمين وَقَالَ الذى نَجَا مِنْهُمَا ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ فنقول : سيجيء اذكر في تفسير قوله تعالى : ﴿ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 51] في سورة القمر قال صاحب "الكشاف" ﴿ وادكر ﴾ بالدال هو الفصيح عن الحسن ﴿ واذكر ﴾ بالذال أي تذكر ، وأما الأمة ففيه وجوه : الأول : ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أي بعد حين ، وذلك لأن الحين إنما يحصل عند اجتماع الأيام الكثيرة كما أن الأمة إنما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم فالحين كان أمة من الأيام والساعات والثاني : قرأ الأشهب العقيلي ﴿ بَعْدَ إِمَّةٍ ﴾ بكسر الهمزة والإمة النعمة قال عدي :

ثم بعد الفلاح والملك والإمة وارتهم هناك القبور . . والمعنى : بعدما أنعم عليه بالنجاة .

الثالث : قرىء ﴿ بَعْدَ أَمَهٍ ﴾ أي بعد نسيان يقال أمه يأمه أمها إذا نسي والصحيح أنها

بفتح الميم وذكره أبو عبيدة بسكون الميم ، وحاصل الكلام أنه إما أن يكون المراد وادكر بعد مضي الأوقات الكثيرة من الوقت الذي أوصاه يوسف عليه السلام بذكره عند الملك ، والمراد وادكر بعد وجدان النعمة عند ذلك الملك أو المراد وادكر بعد النسيان .

فإن قيل : قوله : ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ يدل على أن الناسي هو الشرابي وأنتم تقولون الناسي هو يوسف عليه السلام .

(153/397)

قلنا : قال ابن الأنباري : اذكر بمعنى ذكر وأخبر وهذا لا يدل على سبق النسيان فلعل الساقي إنما لم يذكره للملك خوفاً من أن يكون ذلك اذكاراً لذنبه الذي من أجله حبسه فيزداد الشر ويحتمل أيضاً أن يقال : حصل النسيان ليوسف عليه السلام وحصل أيضاً لذلك الشرابي .

وأما قوله : ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ خطاب إما للملك والجمع أو للملك وحده على سبيل التعظيم ، أما قوله : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق ﴾ ففيه محذوف ، والتقدير : فأرسل وأتاه وقال أيها الصديق ، والصديق هو البالغ في الصدق وصفه بهذه الصفة لأنه لم يجرب عليه كذباً وقيل : لأنه صدق في تعبير رؤياه وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيئاً فإنه يجب عليه

أن يعظمه ، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال ثم إنه أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك ونعم ما فعل ، فإن تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ كما هو مذكور في ذلك العلم .

أما قوله تعالى : ﴿ لَّعَلّى أَرْجعُ إِلَى الناس لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فالمراد لعلي أرجع إلى الناس بفتواك لعلهم يعلمون فضلك وعلمك وإنما قال لعلي أرجع إلى الناس بفتواك لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضاً عنها ، فلهذا السبب قال : ﴿ لَّعَلّى أَرْجعُ إِلَى الناس ﴾ .

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾

(154/397)

اعلم أنه عليه السلام ذكر تعبير تلك الرؤيا فقال : ﴿ تَزْرَعُونَ ﴾ وهو خبر بمعنى الأمر ، كقوله : ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ ﴾ [البقرة : 228] ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ ﴾ [البقرة : 233] وإنما يخرج الخبر بمعنى الأمر ، ويخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في الإيجاب ، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه في معنى الأمر قوله : ﴿ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ ﴾ وقوله : ﴿ دَأَبًا ﴾ قال أهل اللغة : الدأب استمرار الشيء على حالة واحدة

وهو دائب بفعل كذا إذا استمر في فعله ، وقد دأب يدأب دأباً ودأباً أي زراعة متوالية في هذه السنين .

قال أبو علي الفارسي : الأكثرون في دأب الإسكان ولعل الفتحة لغة ، فيكون كشمع وشمع ، ونهر ونهر .

قال الزجاج : وانتصب دأباً على معنى تدأبون دأباً .

وقيل : إنه مصدر وضع في موضع الحال ، وتقديره تزرعون دائبين فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون كل ما أردتم أكله فدوسوه ودعوا الباقي في سنبله حتى لا يفسد ولا يقع السوس فيه ، لأن إبقاء الحبة في سنبله يوجب بقاءها على الصلاح ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ أي سبع سنين مجدبات ، والشداد الصعاب التي تشتد على الناس ، وقوله : ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ هذا مجاز ، فإن السنة لا تأكل فيجعل أكل أهل تلك السنين مسنداً إلى السنين .

وقوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ الإحصان الإحراز ، وهو إلقاء الشيء في الحصن يقال أحصنه إحصاناً إذا جعله في حرز ، والمراد إلا قليلاً مما تحرزون أي تدخرون وكلها ألفاظ

ابن عباس رضي الله عنهما ، وقوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ الناس ﴾ قال المفسرون السبعة المتقدمة سنو الخصب وكثرة النعم والسبعة الثانية سنو القحط والقلة وهي معلومة من الرؤيا ، وأما حال هذه السنة فما حصل في ذلك المنام شيء يدل عليه بل حصل ذلك من الوحي فكأنه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبعة المخصبة والسبعة المجدبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم ، وعن قتادة زاده الله علم سنة .

فإن قيل : لما كانت العجاف سبعاً دل ذلك على أن السنين المجدبة لا تزيد على هذا العدد ، ومن المعلوم أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب وكان هذا أيضاً من مدلولات المنام ، فلم قلتم إنه حصل بالوحي والإلهام ؟

قلنا : هب أن تبدل القحط بالخصب معلوم من المنام ، أما تفصيل الحال فيه ، وهو قوله : ﴿ فِيهِ يُغَاثُ الناس وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ لا يعلم إلا بالوحي ، قال ابن السكيت يقال : غاث الله البلاد يغيثها غيثاً إذا أنزل فيها الغيث وقد غيثت الأرض تغاث ، وقوله : ﴿ يُغَاثُ الناس ﴾ معناه يمطرون ، ويجوز أن يكون من قولهم : أغاثه الله إذا أنقذه من كرب أو غم ، ومعناه ينقذ الناس فيه من كرب الجدب ، وقوله : ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ أي يعصرون السمسم دهناً والعنب خمراً والزيتون زيتاً ، وهذا يدل على ذهاب الجدب وحصول الخصب والخير ، وقيل : يحلبون الضروع ، وقرىء ﴿ يَعْصِرُونَ ﴾ من عصره إذا نجاه ، وقيل : معناه يمطرون من أعصرت السحابة إذا عصرت بالمطر ، ومنه قوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ

المعصرات مَاء ثَجَّاجاً ﴾ [النبأ : 14] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 121.119 ﴾

(156/397)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقال الذي نجا منهما وادّكر بَعْدَ أمة ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني بعد حين ، قاله ابن عباس .

الثاني : بعد نسيان ، قاله عكرمة .

الثالث : بعد أمة من الناس ، قاله الحسن .

قال الحسن : ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة وجمع له شمله فعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة .

وقرىء ﴿ وادّكر بعد أمَةٍ ﴾ بفتح الألف وتخفيف الميم ، والأمه : بالتخفيف النسيان .

﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ أي أخبركم بمن عنده علم بتأويله ثم لم يذكره لهم .

قال ابن عباس : لم يكن السجن بالمدينة فانطلق إلى يوسف حين أذن له وذلك بعد أربع

سنين بعد فراقه .

قوله عز وجل : ﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا ﴾ احتمل تسميته بالصديق وجهين :

أحدهما : لصدقه في تأويل رؤياهما .

الثاني : لعلمه بنبوته . والفرق بين الصادق والصديق أن الصادق في قوله بلسانه ، والصديق من تجاوز صدقه لسانه إلى صدق أفعاله في موافقة حاله لا يختلف سره وجهره ، فصار كل صدّيق صادقاً وليس كل صادق صدّيقاً .

﴿ أفتنا في سبع بقرات سمان ﴾ قال قتادة : هي السنون المخصبات .

﴿ يأكلهن سبع عجافٌ ﴾ قال قتادة : هي السنون المجدبات .

﴿ وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات ﴾ والخضر الخصب لأن الأرض بنباتها خضراء ، واليابسات هي الجدب لأنّ الأرض فيه يابسة ، كما أن ماشية الخصب سمان ، وماشية الجدب عجاف .

﴿ لعلي أرجع إلى الناس ﴾ أي لكي أرجع إلى الناس وهو الملك وقومه ، ويحتمل أن يريد الملك وحده فعبر عنه بالناس تعظيماً له .

﴿ ولعلهم يعلمون ﴾ لأنه طمع أن يعلموا وأشفق أن لا يعلموا ، فلذلك قال ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ يعني تأويلها . ولم يكن ذلك منه شكاً في علم يوسف . لأنه قد وقر في نفسه علمه

وصدقه ، ولكن تخوف أحد أمرين إما أن تكون الرؤيا كاذبةً ، وإما ألاّ يصدقوا تأويلها لكراهتهم له فيتأخر الأمر إلى وقت العيان .

(157/397)

قوله عز وجل : ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني تباعاً متوالية .

الثاني : يعني العادة المألوفة في الزراعة .

﴿ فما حصدتم فذروه في سُنْبُلِهِ إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ يعني فيخرج من سنبله لأن ما في السنبل مدخر لا يؤكل ، وهذا القول منه أمر ، والأول خبر ، ويجوز لكونه نبياً أن يأمر بالمصالح ، ويجوز أن يكون القول الأول أيضاً أمراً وإن كان الأظهر منه أنه خبر .

قوله عز وجل : ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبعٌ شداد ﴾ يعني المجدبات لشدتها على أهلها .

وحكى زيد بن أسلم عن أبيه أن يوسف كان يصنع طعام اثنين فيقربه إلى رجل فيأكل نصفه ويدع نصفه ، حتى إذا كان يوماً قربه له فأكله كله ، فقال يوسف : هذا أول يوم السبع الشداد .

﴿ يأكلن ما قدمتم لهن ﴾ يعني تأكلون فيهن ما ادخرتموه لهن .

﴿ إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مما تدخرون ، قاله قتادة .

الثاني : مما تخزنون في الحصون .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : إلا قليلاً مما تبذرون لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات .

قوله عز وجل : ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغاث الناس ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يغاثون بنزول الغيث ، قاله ابن عباس .

الثاني : يغاثون بالخصب ، حكاه ابن عيسى .

﴿ وفيه يعصرون ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : يعصرون العنب والزيتون من خصب الثمار ، قاله مجاهد وقتادة .

الثاني : أي فيه يحلبون المواشي من خصب المراعي ، قاله ابن عباس .

الثالث : يعصرون السحاب بنزول الغيث وكثرة المطر ، من قوله تعالى ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجَّاجاً ﴾ [النبأ : 14] . قاله عيسى بن عمر الثقفي .

الرابع : تنجون ، مأخوذ من العُصْرة وهي المنجاة ، قاله أبو عبيدة والزجاج ، ومنه قول الشاعر :

صادياً يستغيث غير مغاث . . . ولقد كان عُصْرَة المنجود

الخامس : تحسنون وتفضلون ، ومنه قول الشاعر :

لو كان في أملاكنا ملك . . . يعصر فينا مثل ما تعصر

(158/397)

أي يحسن : وهذا القول من يوسف غير متعلق بتأويل الرؤيا وإنما هو استئناف خبر أطلقه الله تعالى عليه من آيات نبوته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(159/397)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾

و﴿ ادكر ﴾ أصله ادتكر – افتعل – من الذكر ، قلبت التاء دالاً وأدغم الأول في الثاني ، ثم بدلت دالاً غير منقوطة لقوة الدال وجلدها ، وبعض العرب يقول : اذكر ؛ وقرىء ﴿ فهل من مذكر ﴾ [القمر : 15 ، 17 ، 22 ، 32 ، 40 ، 51] بالنقط و﴿ من مدكر ﴾ [القمر : 15 ، 17 ، 22 ، 32 ، 40 ، 51] على اللغتين ؛ وقرأ جمهور الناس : "

بعد أمة " وهي المدة من الدهر ، وقرأ ابن عباس وجماعة " بعد أمة " وهو النسيان ، وقرأ مجاهد وشبل بن عزرة " بعد أمه " بسكون الميم وهو مصدر من أمه إذا نسي ، وقرأ الأشهب العقيلي " بعد إمة " بكسر الهمزة ، والإمة : النعمة والمعنى : بعد نعمة أنعمها الله على يوسف في تقريب إطلاقه وعزته .

وبقوله : ﴿ ادكر ﴾ يقوي قول من يقول : إن الضمير في ﴿ أنسانيه ﴾ [الكهف : 63] عائد على الساقي ، والأمر محتمل .

وقرأ الجمهور : " أنا أنبئكم " وقرأ الحسن بن أبي الحسن : " أنا آتيكم " ، وكذلك في مصحف أبي بن كعب .

وقوله : ﴿ فأرسلون ﴾ استئذان في المضي ، فقيل : كان السجن في غير مدينة الملك - قاله ابن عباس - وقيل : كان فيها .

قال القاضي أبو محمد : ويرسم الناس اليوم سجن يوسف في موضع على النيل بينه وبين الفسطاط ثمانية أميال .

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾

المعنى : فجاء الرسول - وهو الساقي - إلى يوسف فقال له : يا يوسف ﴿ أيها الصديق ﴾ - وسماه صديقاً من حيث كان جرب صدقه في غير شيء - وهو بناء مبالغة من صدق ، وسمي أبو بكر صديقاً من صدق غيره ، إذ مع كل تصديق صدق ، فالمصدق

بالحقائق صادق أيضاً ، وعلى هذا سمي المؤمنون صديقين في قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ [الحديد : 19] .

(160/397)

ثم قال : ﴿ أفتنا في سبع بقرات ﴾ أي فيمن رأى في منام سبع بقرات ، وحكى النقاش حديثاً روى فيه : أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن وبشره بعطف الله تعالى عليه ، وأخرجه من السجن وأنه قد أحدث للملك منامة جعلها سبباً لفرج يوسف . ويروى أن الملك كان يرى ﴿ سبع بقرات سمان ﴾ يخرجن من نهر ، وتخرج وراءها ﴿ سبع عجاف ﴾ ، فتأكل العجاف السمان ، فكان يعجب كيف غلبتها وكيف وسعت السمان في بطون العجاف ، وكان يرى ﴿ سبع سنبلات خضر ﴾ وقد التفت بها سبع يابسات ، حتى كانت تغطي خضرتها فعجب أيضاً لذلك .

وقوله : ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ أي تأويل هذه الرؤيا ، فيزول همّ الملك لذلك وهم الناس .

وقيل : ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ مكانتك من العلم وكنه فضلك فيكون ذلك سبباً لتخلصك .

وقوله تعالى : ﴿ قال تزرعون ﴾ الآية ، تضمن هذا الكلام من يوسف عليه السلام ثلاثة أنواع من القول :

أحدها : تعبير بالمعنى لا باللفظ .

والثاني : عرض رأي وأمر به ، وهو قوله : ﴿ فذروه في سنبله ﴾ .

والثالث : الإعلام بالغيب في أمر العام الثامن ، قاله قتادة .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل هذا ألا يكون غيباً ، بل علم العبارة ، أعطى انقطاع الجدب بعد سبع ، ومعلوم أنه لا يقطعه إلا خصب شاف ، كما أعطى أن النهر مثال للزمان . إذ هو أشبه شيء به فجاءت البقرات مثالاً للسنين .

و﴿ دأبا ﴾ معناه : ملازمة لعادتكم في الزراعة ، ومنه قول امرئ القيس : [الطويل]

كدأبك من أم الحويرث قبلها . . . .

البيت

(161/397)

وقرأ جمهور السبعة " دأْباً " بإسكان الهمزة ، وقرأ عاصم وحده " دأَباً " بفتح الهمزة ، وأبو عمرو يسهل الهمزة عند درج القراءة ، وهما مثل : نهر ونهر . والناصب لقوله : ﴿ دأباً ﴾ ﴿ تزرعون ﴾ ، عند أبي العباس المبرد ، إذ في قوله ﴿ تزرعون ﴾ تدأبون ، وهي عنده مثل قولهم : قعد القرفصاء ، واشتمل الصماء ؛ وسيبويه يرى نصب هذا كله

بفعل مضمر من لفظ المصدر يدل عليه هذا الظاهر ، كأنه قال : تزرعون تدأبون دأباً .

وقوله ﴿ فما حصدتم فذروه ﴾ هي إشارة برأي نبيل نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل ، فإن الحبة إذا بقيت في خبائها انحفظت والمعنى : اتركوا الزرع في السنبل إلا ما لا غنى عنه للأكل ، فيجتمع الطعام هكذا ويتركب ، ويؤكل الأقدم فالأقدم ؛ فإذا جاءت السنون الجدبة تقوت الناس الأقدم فالأقدم من ذلك المدخر ، وادخروا أيضاً الشيء الذي يصاب في أعوام الجدب على قلته ، وحملت الأعوام بعضها على بعض حتى يتخلص الناس ، وإلى هذه السنين أشار النبي عليه السلام في دعائه على قريش :

" اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف " ، فابتدأ ذلك بهم ونزلت سنة حصت كل شيء حتى دعا لهم النبي عليه السلام فارتفع ذلك عنهم ولم يتماد سبع سنين ، وروي أن يوسف عليه السلام لما خرج ووصف هذا الترتيب للملك وأعجبه أمره ، قال له الملك : قد أسندت إليك تولي هذا الأمر في الأطعمة هذه السنين المقبلة ، فكان هذا أول ما ولي يوسف .

وأسند الأكل في قوله : ﴿ يأكلن ﴾ إلى السنين اتساعاً من حيث يؤكل فيها كما قال تعالى : ﴿ والنهار مبصراً ﴾ [النمل : 86 ، يونس : 67 ، غافر : 61] وكما قال : نهارك بطال وليلك قائم ؛ وهذا كثير في كلام العرب . ويحتمل أن يسمى فعل الجدب وإيباس

البلالات أكلاً ، وفي الحديث : " فأصابتهم سنة حصت كل شيء " ؛ وقال الأعرابي في السنة جمشت النجم ، والتحبت اللحم ، وأحجنت العظم .

(162/397)

و ﴿ تحصنون ﴾ معناه تحرزون وتخزنون ، قاله ابن عباس ، وهو مأخوذ من الحصن وهو الحرز والملجأ ، ومنه تحصن النساء لأنه بمعنى التحرز .

وقوله : ﴿ يغاث ﴾ جائز أن يكون من الغيث ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسرين ، أي يمطرون ، وجائز أن يكون من أغاثهم الله ، أذا فرج عنهم ، ومنه الغوث وهو الفرج .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم "يَعصِرون" بفتح الياء وكسر الصاد ، وقرأ حمزة والكسائي ذلك بالتاء على المخاطبة ، وقال جمهور المفسرين : هي من عصر النباتات كالزيتون والعنب والقصب والسمسم والفجل وجميع ما يعصر ، ومصر بلد عصر لأشياء كثيرة ؛ وروي أنهم لم يعصروا شيئاً مدة الجدب ، والحلب منه لأنه عصر للضروع . وقال أبو عبيدة وغيره : ذلك مأخوذ من العصرة والعصر وهو الملجأ ومنه قول أبي زبيد في عثمان رضي الله عنه : [الخفيف]

صادياً يستغيث غير مغاث . . . ولقد كان عصرة المنجود

ومنه قول عدي بن زيد : [الرمل]

لو بغير الماء حلقي شرق . . . كنت كالغصّان بالماء اعتصاري

ومنه قول ابن مقبل " [البسيط]

وصاحبي وهوه مستوهل زعل . . . يحول بين حمار الوحش والعصر

ومنه قول لبيد : [الطويل]

فبات وأسرى القوم آخر ليلهم . . . وما كان وقافاً بغير معصر

أي بغير ملتجأ ، فالآية على معنى ينجون بالعصرة .

وقرأ الأعرج وعيسى وجعفر بن محمد "يُعصَرون" بضم الياء وفتح الصاد ، وهذا مأخوذ من العصرة ، أي يؤتون بعصرة ؛ ويحتمل أن يكون من عصرات السحاب ماءها عليهم ، قال ابن المستنير : معناها يمطرون ، وحكى النقاش أنه قرئ " يعصرون " وجعلها من عصر البلل ونحوه . ورد الطبري على من جعل اللفظة من العصرة رداً كثيراً بغير حجة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا ﴾

يعني ساقي الملك .

"وادكر بَعْدَ أَمَّةٍ" أي بعد حين ، عن ابن عباس وغيره ؛ ومنه ﴿ إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ [هود : 8] وأصله الجملة من الحين .

وقال ابن دُرُسْتَوَيه : والأُمّة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال والله أعلم : وادّكر بعد حين أمّةٍ ، أو بعد زمن أمّة ، وما أشبه ذلك ؛ والأمّة الجماعة الكثيرة من الناس .

قال الأخفش : هو في اللفظ واحد ، وفي المعنى جمع ؛ وكل جنس من الحيوان أمّة ؛ وفي الحديث : " لولا أن الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها " .

قوله تعالى : ﴿ وادكر ﴾ أي تذكر حاجة يوسف ، وهي قوله : "اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ" وقرأ ابن عباس فيما روى عفّان عن همّام عن قَتادة عن عِكرمة عنه "وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ" .

النحاس : والمعروف من قراءة ابن عباس وعِكرمة والضّحاك ﴿ وادكر بعد أُمَةٍ ﴾ ، بفتح الهمزة وتخفيف الميم ؛ أي بعد نسيان ؛ قال الشاعر :

أَمِهْتُ وكنتُ لاَ أَنْسَى حديثاً . . .

كذاكَ الدهرُ يُودِي بالعقولِ

وعن شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعي : "بعد أَمْهٍ" بفتح الألف وإسكان الميم وهاء خالصة ؛ وهو مثل الأَمَه ، وهما لغتان ، ومعناهما النّسيان ؛ ويقال : أَمِهَ يأمَهُ أَمْهاً إذا نَسيَ ، فعلى هذا "وادكر بَعْدَ أَمَه" ؛ ذكره النحاس ؛ ورجل أَمِهٌ ذاهب العقل .

قال الجوهريّ : وأما ما في حديث الزهريّ "أَمِه" بمعنى أقرّ واعترف فهي لغة غير مشهورة .

وقرأ الأَشهب العُقَيْلي "بَعْدَ إِمَّةٍ" أي بعد نعمة ؛ أي بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة .

ثم قيل : نسي الفتى يوسف لقضاء الله تعالى في بقائه في السجن مدة .

وقيل : ما نسي ، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذي بسببه حبس هو والخبّاز ؛ فقوله : "وادكر" أي ذكر وأخبر .

(164/397)

قال النحاس : أصل ادكر اذْتَكَرَ ؛ والذال قريبة المخرج من التاء ؛ ولم يجز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة ، والتاء مهموسة ، فلو أدغموا ذهب الجهر ، فأبدلوا من موضع التاء حرفاً مجهوراً وهو الدال وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة ؛ فصار اذدكر ، فأدغموا الذال في الدال لرخاوة الدال ولينها ؛ ثم قال : ﴿ أَنَاْ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي أنا أخبركم .

وقرأ الحسن "أَنَاَ آتِيكُمْ بِتَأْوِيلِهِ" وقال : كيف ينبئهم العلج ؟! قال النحاس : ومعنى :

"أنَبِّئُكُمْ" صحيح حسن ؛ أي أنا أخبركم إذا سَأَلتُ .

﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم ، أو خاطب الملك وأهل مجلسه .

﴿ يُوسُفُ ﴾ نداء مفرد ، وكذا ﴿ الصديق ﴾ أي الكثير الصدق .

﴿ أَفْتِنَا ﴾ أي فأرسلوه ، فجاء إلى يوسف فقال : أيها الصديق ! وسأله عن رؤيا الملك .

﴿ لعلي أَرْجِعُ إِلَى الناس ﴾ أي إلى الملك وأصحابه .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ التعبير ، أو "لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ" مكانك من الفضل والعلم فتخرج .

ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيماً له .

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ ﴾ لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسّرها له ، فقال : السبع من البقرات السّمان والسّنبلات الخضر سبع سنين مخصِبات ؛ وأما البقرات العِجاف والسّنبلات اليابسات فسبع سنين مجدِبات ؛ فذلك قوله : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ﴾ أي متوالية متتابعة ؛ وهو مصدر على غير المصدر ، لأن معنى "تَزْرَعُونَ" تدأبون كعادتكم في الزراعة سبع سنين .

وقيل : هو حال ؛ أي دائبين .

وقيل : صفة لسبع سنين ، أي دائبة .

وحكى أبو حاتم عن يعقوب "دَأَباً" بتحريك الهمزة، وكذا روى حفص عن عاصم، وهما لغتان، وفيه قولان، قول أبي حاتم: إنه من دَئِب.

(165/397)

قال النحاس: ولا يعرف أهل اللغة إلا دَأَبَ.

والقول الآخر: إنه حُرِّكَ لأن فيه حرفاً من حروف الحلق؛ قاله الفراء، قال: وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز إذا كان ثانيه همزة، أو هاء، أو عيناً، أو غيناً، أو حاء، أو خاء؛ وأصله العادة؛ قال:

كدأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا . . .

وقد مضى في "آل عمران" القول فيه.

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ ﴾ قيل: لئلا يتسوّس، وليكون أبقى؛ وهكذا الأمر في ديار مصر.

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أي استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة؛ وهذا القول منه أمر، والأول خبر.

ويحتمل أن يكون الأول أيضاً أمراً، وإن كان الأظهر منه الخبر؛ فيكون معنى "تَزْرَعُونَ" أي

ازرعوا .

الثانية : هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يُفوّت شيئاً منها فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده ، من غير وجوب عليه ، ولا استحقاق ؛ هذا مذهب كافة المحقّقين من أهل السنّة أجمعين ؛ وبسطه في أصول الفقه .

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ يعني السّنين المجدِبات .

﴿ يَأْكُلْنَ ﴾ مجاز ، والمعنى يأكل أهلهنّ .

﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أي ما ادّخرتم لأجلهن ؛ ونحوه قول القائل :

نهارُكَ يا مغرورُ سَهْوٌ وغَفْلَةٌ . . .

ولَيلُكَ نَوْمٌ والرَّدَى لَكَ لازِمُ

والنهار لا يَسهو ، والليل لا ينام ؛ وإنما يُسهى في النهار ، ويُنام في الليل .

وحكى زيد بن أسلم عن أبيه : أن يوسف كان يضع طعام الاثنين فيقرّبه إلى رجل واحد فيأكل بعضه ، حتى إذا كان يومٌ قرّبه له فأكله كلّه ؛ فقال يوسف : هذا أوّل يوم من السّبع الشداد .

﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ نصب على الاستثناء .

﴿ مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي مما تحبسون لتزرعوا ؛ لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات .

وقال أبو عبيدة : تحرزون .

وقال قتادة : "تُحْصِنُونَ" تدّخرون ، والمعنى واحد ؛ وهو يدلّ على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة .

الثانية : هذه الآية أصل في صحة رؤيا الكافر ، وأنها تُخرّج على حسب ما رأى ، لاسيما إذا تعلقت بمؤمن ، فكيف إذا كانت آية لنبيّ ، ومعجزة لرسول ، وتصديقاً لمصطفى للتبليغ ، وحجة للواسطة بين الله جل جلاله و (بين) عبادِه .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ﴾

هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن في رؤيا الملك ، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله .

قال قَتَادة : زاده الله عِلم سَنَة لم يسألوه عنها إظهاراً لفضله ، وإعلاماً لمكانه من العلم وبمعرفته .

﴿ فِيهِ يُغَاثُ الناس ﴾ من الإغاثة أو الغوث ؛ غَوَّثَ الرجل قال واغوثاه ، والاسم الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث ، واستغاثني فلان فأغثته ، والاسم الغِياث ؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها .

والغيث المطر ؛ وقد غاث الغيث الأرضَ أي أصابها ؛ وغاث الله البلادَ يَغِيثها غَيْثاً ، وغِيثت الأرض تُغاث غَيْثاً ، فهي أرض مَغِيثة ومَغْيوثة ؛ فمعنى "يُغَاث النَّاسُ" يُمطَرون .

﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والدُّهن ؛ ذكره البخاريّ .

وروى حجّاج عن ابن جُرَيج قال : يعصرون العنب خمراً والسّمسم دُهناً ، والزيتون زيتاً .

وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ؛ ويدلّ ذلك على كثرة النبات .

وقيل : "يَعْصِرُونَ" أي يَنجُون ؛ وهو من العُصْرة ، وهي المَنْجَاة .

قال أبو عبيدة : والعَصَر بالتحريك المَلْجأ والمَنْجاة ، وكذلك العُصْرة ؛ قال أبو زُبَيد :

صادِياً يَستغِيثُ غيرَ مُغَاثٍ . . .

وَلقد كَانَ عُصْرَةَ المَنْجُودِ

والمَنجُودِ الفَزِع.

واعتصرتُ بفلان وتَعصرتُ أي التجأت إليه.

قال أبو الغوث: "يَعْصِرُونَ" يَسْتَغِلُّون؛ وهو من عصر العنب.

واعتصرت ماله أي استخرجته من يده.

وقرأ عيسى "تُعْصَرُونَ" بضم التاء وفتح الصاد، ومعناه: تُمطَرون؛ من قول (الله): ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات مَآءً ثَجَّاجاً ﴾ [النبأ: 14] وكذلك معنى "تُعصِرون" بضم التاء وكسر الصاد، فيمن قرأه كذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(168/397)

وقال الخازن:

﴿ وقال الذي نجا منهما ﴾.

(169/397)

يعني وقال الساقي الذي نجا من السجن والقتل بعد هلاك صاحبه الخباز ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ يعني أنه تذكر قول يوسف اذكرني عند ربك بعد أمة يعني بعد حين وهو سبع سنين وسمي الحين من الزمان أمة لأنه جماعة الأيام والأمة والجماعة ﴿ أنا أنبئكم ﴾ يعني أخبركم ﴿ بتأويله ﴾ وقوله أنا أنبئكم بلفظ الجمع إما أنه أراد به الملك مع جماعة السحرة والكهنة والمعبرين أو أراد به الملك وحده وخاطبه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وذلك أن الفتى الساقي جثا بين يدي الملك وقال إن في السجن رجلاً عالماً يعبر الرؤيا ﴿ فأرسلون ﴾ فيه اختصار تقديره فأرسلني أيها الملك فأتى السجن قال ابن عباس ولم يكن السجن في المدينة ﴿ يوسف ﴾ أي يا يوسف ﴿ أيها الصديق ﴾ إنما سماه صديقاً لأنه لم يجرب عليه كذباً قط والصديق الكثير الصدق والذي ل يكذب قط وقيل سماه صديقاً لأنه صدق في تعبيره رؤياه التي رآها في السجن ﴿ أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ فإن الملك رأى هذه الرؤيا ﴿ لعلي أرجع إلى الناس ﴾ يعني أرجع بتأويل هذه الرؤيا إلى الملك وجماعته ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ يعني بتأويل هذه الرؤيا وقيل لعلهم يعلمون منزلتك في العلم ﴿ قال ﴾ يعني يوسف معبراً لتلك الرؤيا أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبة وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله تعالى : ﴿ تزرعون ﴾ وهذا خبر بمعنى الأمر أي ازرعوا ﴿ سبع سنين دأباً ﴾ يعني عادتكم في الزراعة والدأب

العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله ﴾ إنما أمرهم بترك ما حصدوه من الحنطة في سنبله لئلا يفسد ويقع في السوس وذلك ابقى له على طول الزمان ﴿ إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ يعني ادرسوا قليلاً من الحنطة للأكل بقدر الحاجة وأمرهم بحفظ الأكثر لوقت الحاجة أيضاً وهو وقت السنين المجدبة وهو قوله ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ يعني من بعد السنين المخصبة ﴿ سبع

(170/397)

شداد ﴾ يعني سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس ﴿ يأكلن ﴾ يعني يفنين ﴿ ما قدمتم لهن ﴾ يعني يؤكل فيهن كل ما أعددتم وادخرتم لهن من الطعام وإنما أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسع في الكلام ﴿ إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ يعني تحرزون وتدخرون للبذر ، والإحصان الإحراز وهو إبقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع .

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾

يعني من بعد هذه السنين المجدبة ﴿ عام فيه يغاث الناس ﴾ أي يمطرون من الغيث الذي هو المطر ، وقيل : هو من قولهم استغثت بفلان فأغاثني من الغوث ﴿ وفيه يعصرون ﴾ يعني يعصرون العنب خمراً والزيتون زيتاً والسمسم دهناً أراد به كثرة الخير والنعم على

الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار ، وقيل يعصرون معناه ينجون من الكرب والشدة والجدب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(171/397)

وقال أبو حيان :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

أمة يأمه أمها وأمها نسي .

يغاث : يحتمل أن يكون من الغوث وهو الفرج ، يقال : أغاثهم الله فرج عنهم ، ويحتمل أن يكون من الغيث تقول : غيثت البلاد إذا أمطرت ، ومنه قول الأعرابية : غثنا ما شئنا .

﴿ وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .

قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون .

ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون .

ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ : لما استثنى الملك في رؤياه

وأعضل على الملأ تأويلها ، تذكر الناجي من القتل وهو ساقي الملك يوسف ، وتأويل رؤياه ورؤيا صاحبه ، وطلبه إليه ليذكره عند الملك .

وادكر أي تذكر ما سبق له مع يوسف بعد أمة أي : مدة طويلة .

والجملة من قوله وادكر حاليه ، وأصله : واذتكر أبدلت التاء دالاً وأدغمت الذال فيها فصار ادّكر ، وهي قراءة الجمهور .

وقرأ الحسن : واذكر بإبدال التاء ذالاً ، وإدغام الذال فيها .

وقرأ الأشهب العقيلي : بعد إمّة بكسر الهمزة أي : بعد نعمة أنعم عليه بالنجاة من القتل .

وقال ابن عطية : بعد نعمة أنعم الله بها على يوسف في تقريب إطلاقه ، والأمة النعمة قال :

ألا لا أرى ذا إمة أصبحت به . . .

فتتركه الأيام وهي كما هيا

قال الأعلم : الأمة النعمة ، والحال الحسنة .

وقرأ ابن عباس ، وزيد بن علي ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو رجاء ، وشبيل بن عزرة الضبعي ، وربيعة بن عمرو : بعد أمه بفتح الهمزة ، والميم مخففة ، وهاء ، وكذلك قرأ ابن عمر ، ومجاهد ، وعكرمة ، واختلف عنهم .

وقرأ عكرمة وأيضاً مجاهد ، وشبيل بن عزرة : بعد أمه بسكون الميم ، مصدر أمه على غير قياس ، وقال الزمخشري : ومن قرأ بسكون الميم فقد أخطأ انتهى .

وهذا على عادته في نسبته الخطأ إلى القراء .

أنا أنبئكم بتأويله أي أخبركم به عمن عنده علمه لا من جهتي .

وقرأ الحسن أنا أتيكم مضارع أتى من الإتيان ، وكذا في الإمام .

وفي مصحف أبي : فأرسلون ، أي ابعثوني إليه لأسأله ، ومروني باستعباره ، استأذن في المضي إلى يوسف .

فقال ابن عباس : كان في السجن في غير مدينة الملك ، وقيل : كان فيها ، ويرسم الناس اليوم سجن يوسف في موضع على النيل بينه وبين الفسطاط ثمانية أميال .

وفي الكلام حذف التقدير : فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال : والصديق بناء مبالغة كالشريب والسكير ، وكان قد صحبه زماناً وجرب صدقه في غير ما شيء كتأويل رؤياه ورؤيا صاحبه ، وقوله : لعلي أرجع إلى الناس أي : بتفسير هذه الرؤيا .

واحترز بلفظة لعلي ، لأنه ليس على يقين من الرجوع إليهم ، إذ من الجائز أن يخترم دون بلوغه إليهم .

وقوله : لعلهم يعلمون ، كالتعليل لرجوعه إليهم بتأويل الرؤيا .

وقيل : لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبونك ويخلصونك من محنتك ، فتكون لعل كالتعليل لقوله : أفتنا .

قال : تزرعون إلى آخره ، تضمن هذا الكلام من يوسف ثلاثة أنواع من القول : أحدها : تعبير بالمعنى لا باللفظ .

والثاني : عرض رأي وأمر به ، وهو قوله : فذروه في سنبله .

والثالث : الإعلام بالغيب في أمر العام الثامن ، قاله قتادة .

قال ابن عطية : ويحتمل هذا أن لا يكون غيباً ، بل علم العبارة أعطى انقطاع الخوف بعد سبع ، ومعلوم أنه الأخصب انتهى .

والظاهر أن قوله : تزرعون سبع سنين دأباً خبر ، أخبر أنهم تتوالى لهم هذه السنون لا ينقطع فيها زرعهم للري الذي يوجد .

وقال الزمخشري : تزرعون خبر في معنى الأمر كقوله : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون ﴾ وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إنجاز المأمور به ، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه .

والدليل على كونه في معنى الأمن قوله : فذروه في سنبله انتهى .

ولا يدل الأمر بتركه في سنبله على أنّ تزرعون في معنى ازرعوا ، بل تزرعون إخبار غيب بما يكون منهم من توالي الزرع سبع سنين .

وأما قوله : فذروه فهو أمر إشارة بما ينبغي أن يفعلوه .

ومعنى دأباً : ملازمة ، كعادتكم في المزارعة .

وقرأ حفص : دأباً بفتح الهمزة ، والجمهور بإسكانها ، وهما مصدران لدأب ، وانتصابه بفعل محذوف من لفظه أي : تدأبون داباً ، فهو منصوب على المصدر .

وعند المبرد بتزرعون بمعنى تدأبون ، وهي عنده مثل قعد القرفصاء .

وقيل : مصدر في موضع الحال أي : دائبين ، أو ذوي دأب حالاً من ضمير تزرعون .

وما في قوله : فما حصدتم شرطية أو موصولة ، بذروه في سنبله إشارة برأي نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل ، فإذا بقيت فيها انحفظت ، والمعنى : اتركوا الزرع في السنبل إلا ما لا غنى عنه للأكل ، فيجتمع الطعام ويتركب ويؤكل الأقدم فالأقدم ، فإذا جاءت السنون الجدبة تقوت الأقدم فالأقدم من ذلك المدخر .

وقرأ السلمي : مما يأكلون بالياء على الغيبة أي : يأكل الناس ، وحذف المميز في قوله : سبع شداد أي : سبع سنين شداد ، لدلالة قوله : سبع سنين عليه .

وأسند الأكل الذي في قوله : أكلن على سبيل المجاز من حيث أنه يؤكل فيهما كما قال : ﴿ والنهار مبصراً ﴾ ومعنى تحصنون تحرزون وتخبؤون ، مأخوذ من الحصن وهو الحرز والملجأ .

وقال ابن عباس ومجاهد والجمهور : يغاث من الغيث ، وقيل : من الغوث ، وهو الفرج.

ففي الأول بني من ثلاثي ، وفي الثاني من رباعي ، تقول : غاثنا الله من الغيث ، وأغاثنا من الغوث .

وقرأ الأخوان : تعصرون بالتاء على الخطاب ، وباقي السبعة بالياء على الغيبة ، والجمهور على أنه من عصر النبات كالعنب والقصب والزيتون والسمسم والفجل وجميع ما يعصر ، ومصر بلد عصير لأشياء كثيرة والحلب منه ، لأنه عصر للضروع.

وروي أنهم لم يعصروا شيئاً مدة الجدب .

وقال أبو عبيدة وغيره : مأخوذ من العصرة ، والعصر وهو المنجي ، ومنه قول أبي زبيد في عثمان رضي الله عنه :

صادياً يستغيث غير مغاث . . .

ولقد كان عصرة المنجود

فالمعنى : ينجون بالعصرة .

وقرأ جعفر بن محمد ، والأعرج ، وعيسى البصرة يعصرون بضم الياء وفتح الصاد مبنياً للمفعول ، وعن عيسى أيضاً : تعصرون بالتاء على الخطاب مبنياً للمفعول ، ومعناه : ينجون من عصره إذا أنجاه ، وهو مناسب لقوله : يغاث الناس .

وقال ابن المستنير : معناه يمطرون ، من أعصرت السحابة ماءها عليهم فجعلوا معصرين مجازاً بإسناد ذلك إليهم ، وهو للماء الذي يمطرون به .

وحكى النقاش أنه قرئ يعصرون بضم الياء وكسر الصاد وشدّها ، من عصر مشدّداً للتكثير .

وقرأ زيد ابن علي : وفيه تعصرون ، بكسر التاء والعين والصاد وشدها ، وأصله تعتصرون ، فأدغم التاء في الصاد ونقل حركتها إلى العين ، واتبع حركة التاء لحركة العين .

واحتمل أن يكون من اعتصر العنب ونحوه .

ومن اعتصر بمعنى نجا قال الشاعر :

لو بغير الماء حلقي شرق . . .

كنت كالغصان بالماء اعتصاري

أي نجاتي .

تأول يوسف عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بمجيء العام الثامن مباركاً خصيباً كثير الخير غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي .

وعن قتادة : زاده الله علم سنة ، والذي من جهة الوحي هو التفضيل بحال العام بأنه فيه يغاث الناس ، وفيه يعصرون ، وإلا فمعلوم بانتهاء السبع الشداد مجيء الخصب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(175/397)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الذى نَجَا مِنْهُمَا ﴾

أي من صاحبَيْ يوسف وهو الشرابيّ ﴿ وادكر ﴾ بغير المعجمة وهو الفصيحُ ، وعن الحسن بالمعجمة أي تذكر يوسفَ عليه السلام وشؤونَه التي شاهدها ووصيته بتقريب رؤيا الملك وإشكال تأويلها على الملأ ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أي مدة طويلةٍ وقرىء إمةٍ بالكسر وهي النعمة أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة وأمة أي نسيان والجملة حالٌ من الموصول أو من ضميره في الصلة ، وقيل : معطوفةٌ على نجا وليس ذلك لأن حق كلَ من الصفة والصلةِ أن

تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم، ولذلك قيل: إن الصفات قبل العلم بها أخبار والأخبار بعد العلم بها صفات، وأنت تدري أن تذكّره بعد أمة إنما عُلم بهذه الجملة فلا مجال لنظمه مع نجاته المعلومة قبل في سلك الصلة ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي أخبركم به بالتلقي عمن عنده علمه لا من تلقاء نفسي ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها وعقبه بقوله: ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أي إلى يوسف وإنما لم يذكره ثقة بما سبق من التذكر وما لحق من قوله:

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق ﴾

(176/397)

أي أُرسل إليه فأتاه فقال: يا يوسف ووصفه بالمبالغة في الصدق حسبما شاهده وذاق أحواله وجرّبها لكونه بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره فهو من باب براعة الاستهلال ﴿ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بقرات سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سنبلات خُضْرٍ وَأُخَرَ يابسات ﴾ أي في رؤيا ذلك وإنما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ما سبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث لا إمكان لوقوعه في عالم الشهادة، أي بيّنْ لنا مآلها وحكمها، وحيث عاين علوّ رتبته عليه السلام في الفضل عبّر عن ذلك بالإفتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه

أولاً : نبّئنا بتأويله وفي قوله : أفتنا مع أنه المستفتي وحده وإشعارٌ بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسةٌ بأمور العامة وأنه في ذلك مَعْبَرٌ وسفيرٌ كما آذن بذلك حيث قال : ﴿ لَّعَلّى أَرْجِعُ إِلَى الناس ﴾ أي إلى الملك ومن عنده أو إلى أهل البلد إن كان السجنُ في الخارج كما قيل فأُنبّئهم بذلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ويعملون بمقتضاه أو يعلمون فضلَك ومكانك مع ما أنت فيه من الحال فتتخلّصَ منه وإنما لم يُبتَّ القولَ في ذلك مجاراةً معه على نهج الأدب واحترازاً عن المجازفة إذ لم يكن على يقين من الرجوع فربما اختُرِم دونه أو لعل المنايا دون ما تعدّاني ، ولا مِنْ علمهم بذلك فربما لم يعلموه .

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبني على السؤال كأنه قيل : فماذا قال يوسفُ عليه السلام في التأويل ؟ فقيل : قال : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعُ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ قرىء بفتح الهمزة وسكونها وكلاهما مصدرُ دأب في العمل إذ جدّ فيه وتعِب ، وانتصابُه على الحالية من فاعل تزرعون أي دائبين أو تدأبون دأباً على أنه مصدرٌ مؤكدٌ لفعل هو الحال .

أوّلَ عليه السلام البقراتِ السمانَ والسنبلاتِ الخضْرَ بستينَ مخاصيبَ والعجافَ واليابساتِ بسنينَ مُجدبةٍ فأخبرهم بأنهم يواظبون سبعَ سنين على الزراعة ويبالغون فيها

إذ بذلك يتحقق الخِصْبُ الذي هو مصداقُ البقراتِ السمان وتأويلُها ، ودلهم في تضاعيف ذلك على أمر نافعٍ لهم فقال : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ ﴾ أي في كل سنة ﴿ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ ﴾ ولا تَذْروه كيلا يأكلَه السوسُ كما هو شأنُ غلالِ مصرَ ونواحيها ، ولعله عليه السلام استدل على ذلك بالسنبلات الخُضرِ وإنما أمرهم بذلك إذ لم يكن معتاداً فيما بينهم ، وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها وجعلَها أمراً محققَ الوقوع وتأويلاً للرؤيا مصداقاً لما فيها من البقرات السمان ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ في تلك السنسن وفيه إرشادٌ منه عليه السلام لهم إلى التقليل في الأكل والاقتصارِ على استثناء المأكولِ دون البَذْر لكون ذلك معلوماً من قوله : تزرعون سبعَ سنين ، وبعد إتمام ما أمرهم به شرَع في بيان بقيةِ التأويلِ التي يظهر منها حكمةُ الأمر المذكور فقال :

﴿ ثُمَّ يَأْتِى ﴾

وهو عطفٌ على تزرعون فلا وجه لجعله بمعنى الأمر حثاً لهم على الجد والمبالغة في الزراعة ، على أنه يحصل بالإخبار بذلك أيضاً ﴿ مِن بَعْدِ ذلك ﴾ أي من بعد السنين السبعِ المذكوراتِ وإنما لم يقل من بعدهن قصداً إلى الإشارة إلى وصفهن فإن الضمير ساكتٌ

عن أوصاف المرجع بالكلية ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ أي سبعُ سنينَ صعابٌ على الناس ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ من الحبوب المتروكةِ في سنابلها ، وفيه تنبيهٌ على أن أمرَه عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة وإسنادُ الأكل إليهن مع أنه حالُ الناس فيهن مجازيٌّ كما في نهارُه صائمٌ ، وفيه تلويحٌ بأنه تأويلٌ لأكل العجافِ السمانَ واللام في لهن ترشيحٌ لذلك فكأن ما ادُّخر في السنابل من الحبوب شيءٌ قد هُيِّيء وقُدِّم لهن كالذي يقدَّم للنازل وإلا فهو في الحقيقة مقدَّمٌ للناس فيهن ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ تُحرِزون مبذوراً للزراعة .

﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذلك ﴾

(179/397)

أي من بعد السنين الموصوفةِ بما ذكر من الشدة وأكلِ الغلال المدّخرة ﴿ عَامٌ ﴾ لم يعبّر عنه بالسنة تحاشياً عن المدلول الأصليّ لها من عام القحط وتنبيهاً من أول الأمرِ على اختلاف الحالِ بينه وبين السوابق ﴿ فِيهِ يُغَاثُ الناس ﴾ من الغيث أي يُمطَرون يقال : غِيثت البلادُ إذا مُطرت في وقت الحاجة أو من الغوث ، يقال : أغاثنا الله تعالى أي أمدنا برفع المكاره حين أظلّتنا ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ أي ما مِن شأنه أن يُعصر من العنب والقصَب والزيتون والسمسم ونحوِها من الفواكة لكثرتها . والتعرضُ لذكر العصر مع جواز الاكتفاءِ عنه بذكر

الغيث المستلزمِ له عادة كما اكتُفي به عن ذكر تصرِفهم في الحبوب إما لأن استلزامَ الغيثِ له ليس كاستلزامه للحبوب إذ المذكوراتُ يتوقف صلاحُها على مبادٍ أخرى غيرِ المطر ، وإما لمراعاة جانبِ المستفتي باعتبار حالِته الخاصة به بشارةً له وهي التي يدور عليها حسنُ موقع تغليبِه على الناس في القراءة بالفوقانية ، وقيل : معنى يعصرون يحلبون الضروعَ ، وتكريرُ فيه إما للإشعار باختلاف أوقاتِ ما يقع فيه من الغيث والعصر زماناً وهو ظاهرٌ وعنواناً فإن الغيثَ والغوثَ من فضل الله تعالى والعصرُ من فعل الناس ، وإما لأن المقام مقامُ تعداد منافعِ ذلك العام ولأجله قُدّم في الموضعين على الفعلين فإن المقصودَ الأصليَّ بيان أنه يقع في ذلك العام هذا النفعُ وذاك النفعُ لا بيانُ أنهما يقعان في ذلك العام يفيده التأخير ، ويجوز أن يكون التقديمُ للقصر على معنى أن غيثهم وعصرَهم في سائر السنين بمنزلة العدمِ بالنسبة إلى عامهم ذلك وأن يكون ذلك في الأخير لمراعاة الفواصلِ وفي الأول لرعاية حالِه ، وقرىء يُعصَرون على البناء للمفعول من عصره إذا أنجاه وهو المناسبُ للإغاثة ويجوز أن يكون المبنيُّ للفاعل أيضاً منه كأنه قيل : فيه يغاث الناسُ وفيه يُغيثون أي يغيثهم الله ويغيث بعضُهم بعضاً ، وقيل : معنى يُعصَرون

يمطَرون من أعصرت السحابة إما بتضمين أعصرت معنى مطرَت وتعديته وإما بحذف الجارّ وإيصالِ الفعل، على أن الأصلَ أعصرت عليهم، وأحكامُ هذا العام المبارك ليست مستنبَطةً من رؤيا الملكِ وإنما تلقاها عليه السلام من جهة الوحي فبشّرهم بها بعد ما أوّل الرؤيا بما أول وأمرَهم بالتدبير اللائقِ في شأنه إبانةً لعلو كعبِه ورسوخِ قدمِه في الفضل وأنه محيطٌ بما لم يخطُر ببال أحدٍ فضلاً عما يُرى صورتُه في المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائِهما في منامهما :

﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ وإتماماً للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام في العلم بوقوعها أحدٌ ولو برؤية ما يدل عليها في المنام. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(181/397)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾

أي صاحبي يوسف عليه السلام وهو الشرابي ﴿ وَادَّكَرَ ﴾ بالدال غير المعجمة عند الجمهور، وأصله اذتكر أبدلت التاء دالاً وأدغمت الدال فيها .

وقرأ الحسن غ- اذكر - بإبدال التاء ذالاً معجمة وإدغام الذال المعجمة فيها ، والقراءة الأولى أفصح ، والمعنى على كليهما تذكر ما سبق له مع يوسف عليه السلام ﴿ بَعْدَ أُمَّة ﴾ أي طائفة من الزمان ومدة طويلة .

وقرأ الأشهب العقيلي ﴿ إمة ﴾ بكسر الهمزة وتشديد الميم أي نعمة عليه بعد نعمة ، والمراد بذلك خلاصه من القتل والسجن وإنعام ملكه عليه ، وعلى هذا جاء قوله :

ألا لا أرى ذا (إمة) أصبحت به . . .

فتتركه الأيام وهي كما هي

وقال ابن عطية ((المراد بعد نعمة أنعم الله تعالى بها على يوسف عليه السلام وهي تقريب إطلاقه)) ولا يخفى بعده .

وقرأ ابن عباس وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهم - وأمة - وأمه بفتح الهمزة والميم المخففة وهاء منونة من أمه يأمه أمهاً إذا نسي ، وجاء في المصدر - أمه - بسكون الميم أيضاً فقد روي عن مجاهد وعكرمة وشبيل بن عزرة الضبعي أنهم قرأوا بذلك ولا عبرة بمن أنكر .

والجملة اعتراض بين القول والمقول ، وجوز أن تكون حالاً من الموصول أو من ضميره في الصلة ، ويحتاج ذلك إلى تقدير قد على المشهور ، وقيل : معطوفة على (نجا) وليس بشيء - كما قال بعض المحققين - لأن حق كل من الصلة والصفة أن تكون معلومة

الانتساب إلى الموصول والموصوف عند المخاطب كما عند المتكلم ، ومن هنا قيل :
الأوصاف قبل العلم بها أخبار والأخبار بعد العلم بها أوصاف ، وأنت تعلم أن تذكره بعد
أمة إنما علم بهذه الجملة فلا معنى لنظمه مع نجاته المعلومة من قبل في سلك الصلة .

(182/397)

﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي أخبركم بتأويل ذلك الذي خفي أمره بالتلقي ممن عنده علمه لا
من تلقاء نفسي ولذلك لم يقل أفتيكم في ذلك ، وعقبه بقوله : ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ إلى من عنده
علمه ، وأراد به يوسف عليه السلام وإنما لم يصرح به حرصاً على أن يكون هو المرسل إليه
فإنه لو ذكره فلربما أرسلوا غيره وضمير الجمع إما لأنه أراد الملك وحده لكن خاطبه بذلك
على سبيل التعظيم كما هو المعروف في خطاب الملوك ، ويؤيده ما روي أنه لما سمع مقالة
القوم جثى بين يدي الملك وقال : إن في السجن رجلاً عالماً يعبر الرؤيا فابعثوني إليه فبعثوه
وكان السجن - على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما - في غير مدينة الملك
، وقيل : كان فيها ، قال أبو حيان ((ويرسم الناس اليوم سجن يوسف عليه لاسلام في
موضع على النيل بينه وبين الفسطاط ثمانية أميال)) والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .
وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه كان يقرأ - أنا آتيكم - مضارع أتى من

الإتيان فقيل له : إنما هو أنا أنبئكم فقال : أهو كان ينبئهم ؟ ! ، وأخرج ابن المنذر وغيره عن أبيّ أنه قرأ أيضاً كذلك .

وفي " البحر " أنه كذا في الإمام أيضاً .

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾

في الكلام حذف اي فأرسلوه فأتاه فقال : يا يوسف .

ووصفه بالمبالغة في الصدق حسبما علمه وجرب أحواله في مدة إقامته معه في السجن لكونه بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره ، فهو من باب براعة الاستهلال .

وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمستفتي أن يعظم المفتي ، واستدل بذلك على أنهما لم يكذبا على يوسف في منامهما وأنهما كذبا في قولهما : كذبنا إن ثبت .

﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ أي في رؤيا ذلك ، وإنما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ما سبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث إن مثله لا يقع في عالم الشهادة ، والمعنى بين لنا مآل ذلك وحكمه .

وعبر عن ذلك بالإفتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولاً ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ [يوسف : 36] تفخيماً لشأنه عليه السلام حيث عاين رتبته في الفضل ، ولم يقل : أفتني مع أنه المستفتي وحده إشعاراً بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وأنه في ذلك معبر وسفير ، ولذا لم يغير لفظ الملك ، ويؤذن بهذا قوله : ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ﴾ أي غلى الملك ومن عنده أو إلى أهل البلد فأنبئهم بما أفتيت ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ويعملون بمقتضاه أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه من الحال فتتخلص منه .

والجملة عند أبي حيان على الأول كالتعليل للرجوع وعلى الثاني كالتعليل لأفتنا – وإنما لم يبت القول بل قال : ﴿ لعلي ﴾ و﴿ لعلهم ﴾ مجاراة معه عليه السلام على نهج الأدب واحترازاً عن المجازفة إذ لم يكن على يقين من الرجوع :

فبينما المرء في الأحياء مغبط . . .

إذا هو الرمس تعفوه الأعاصير

ولا من علمهم بذلك فربما لم يعلموه إما لعدم فهمهم أو لعدم اعتمادهم .

﴿ قَالَ ﴾ مستأنف على قياس ما مر غير مرة ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ﴾ قرأ حفص بفتح الهمزة والجمهور بإسكانها ، وقرئ – داباً – بألف من غير همز على التخفيف ، وهو في كل ذلك مصدر لدأب وأصل معناه التعب ، ويكنى به عن العادة المستمرة لأنها تنشأ من مداومة العمل اللازم له التعب ، وانتصابه على الحال من ضمير ﴿ تزرعون ﴾ أي دائبين

أو ذوي دأب ، وأفرد لأن المصدر الأصل فيه الإفراد أو على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف أي تدأبون دأباً .

(184/397)

والجملة حالة أيضاً ، وعند المبرد مفعول مطلق – لتزرعون – وذلك عنده نظير قعد القرفصاء وليس بشيء .

وقد أول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، فأخبرهم بأنهم يوظبون على الزراعة سبع سنين ويبالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخصب الذي هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ، وقيل : المراد الأمر بالزراعة كذلك ، فالجملة خبر لفظاً أمر معنى ، وأخرج على صورة الخبر مبالغة في إيجاب إيجاده حتى كأنه وقع وأخبر عنه .

وأيد بأن قوله تعالى : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ ﴾ أي في كل سنة ﴿ فَذَرُوهُ فِي سُنبُله ﴾ ولا تذروه كيلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها إذا مضى عليها نحو عامين ، ولعله استدل على ذلك بالسنبلات الخضر يناسب كونه أمراً مثله ، قيل : لأنه لو لم يؤوّل ذلك بالأمر لزم عطف الإنشاء على الخبر لأن – ما – إما شرطية أو موصولة متضمنة لمعنى

الشرط ، وعلى كل حال فلكون الجزاء إنشاء تكون إنشائية معطوفة على خبرية .

وأجيب بأنا لا نسلم أن الجملة الشرطية التي جوابها إنشائي إنشائية ، ولو سلم فلا نسلم العطف بل الجملة مستأنفة لنصحهم وإرشادهم إلى ما ينبغي أن يفعلوه حيث لم يكن معتاداً لهم كما كان الزرع كذلك ، أو هي جواب شرط مقدر أي إن زرعتم فما حصدتم الخ ، وأيضاً يحتمل الأمر عكس ما ذكروه بأن يكون ذروه بمعنى تذروه ، وأبرز في صورة الأمر لأنه بإرشاده فكأنهم أمرهم به .

والتحقيق ما في " الكشف " من أن الأظهر أن ﴿ تزرعون ﴾ على أصله لأنه تأويل المنام بدليل قوله الآتي : ﴿ ثم يأتي ﴾ [يوسف : 48] وقوله : ﴿ فما حصدتم فذروه ﴾ اعتراض اهتماماً منه عليه السلام بشأنهم قبل تتميم التأويل ، وفيه ما يؤكد أمر السابق واللاحق كأنه قد كان فهو يأمرهم بما فيه صلاحهم وهذا هو النظم المعجز انتهى .

(185/397)

وذكر بعضهم أن – ما حصدتم – الخ على تقدير كون ﴿ تزرعون ﴾ بمعنى ازرعوا داخل في العبارة فإن أكل السبع العجاف السبع السمان وغلبة السنبلات اليابسات الخضر دال على أنهم يأكلون في السنين المجدبة ما حصل في السنين المخصبة ، وطريق بقائه تعلموه من

يوسف عليه السلام فبقي لهم في تلك المدة .

وقيل : إن تزرعون على هذا التقدير وكذا ما بعده خارج عن العبارة ، والكل كما ترى .

﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أي اتركوا ذلك في السنبل إلا ما لا غنى عنه من القليل الذي تأكلونه في تلك السنين ، وفيه إرشاد إلى التقليل في الأكل .

وقرأ السلمي (مما يأكلون) بالياء على الغيبة أي يأكل الناس ، والاقتصار على استثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوماً من قوله عليه السلام : ﴿ تزرعون سبع سنين ﴾ ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي من بعد السنين السبع المذكورات ، وإنما لم يقل من بعدهن قصداً على تفخيم شأنهن ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ اي سبع سنين صعاب على الناس ، وحذف التمييز لدلالة الأول عليه ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أي ما ادخرتم في تلك السنين من الحبوب المتروكة في سنابلها لأجلهن .

وإسناد الأكل إليهن مع أنه حال الناس فيهن مجازي كما في قوله تعالى : ﴿ والنهار مبصراً ﴾ [يونس : 67] واللام في ﴿ لهن ﴾ ترشيح لذلك ، وكان الداعي إليه التطبيق بين المعبر والمعبر به ، ويجوز أن يكون التعبير بذلك للمشاكلة لما وقع في الواقعة .

وفسر بعضهم الأكل بالإفناء كما في قولهم : أكل السير لحم الناقة أي أفناه وذهب به ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي تحرزونه وتخبئونه لبزور الزراعة مأخوذ من الحصن وهو الحرز والملجأ .

﴿ ثُمَّ يَأتي من بَعْد ذَلكَ ﴾ أي السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل المدخر من الحبوب ﴿ عَامٌ ﴾ هو كالسنة لكن كثيراً ما يستعمل فيما فيه الرخاء والخصب ، والسنة فيما فيه الشدة والجدب ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة ، وكأنه تحاشياً عن ذلك وتنبيهاً من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق عبر به دون السنة ﴿ فيه يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ أي يصيبهم غيث أي مطر كما قال ابن عباس ومجاهد والجمهور فهو من غاث الثلاثي اليائي ، ومنه قول الأعرابية : غثنا ما شئنا ؛ وقول بعضهم أذى البراغيث إذا البُرُّ أُغيث ، وقيل : هو من الغوث أي الفرج ، يقال : أغاثنا الله تعالى إذا أمدّنا برفع المكاره حين أظلتنا فهو رباعي واوي ﴿ وَفيه يَعْصرُونَ ﴾ من العصر المعروف أي يعصرون ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه لكثرتها .

والتعرض لذكره كما قال بعض المحققين مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم في الحبوب : إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب إذ المذكورات يتوقف صلاحها على أمور أخرى غير المطر ، وإما لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصة به بشارة له ، وهي التي يدور عليها حسن موقع تغليبه على

الناس في قراءة حمزة والكسائي بالفوقانية .

وعن ابن عباس تفسير ذلك بيحلبون وكأنه مأخوذ من العصر المعروف لأن في الحلب عصر الضرع ليخرج الدر .

وتكرير (فيه) إما كما قيل : للإشعار باختلاف [أوقات] ما يقع فيه زماناً وعنواناً ، وإما لأن المقام مقام تعداد منافع ذلك العام ، ولأجله قدم في الموضعين على العامل فإن المقام بيان أنه يقع في ذلك العام هذا وذاك لا بيان أنهما يقعان في ذلك العام كما يفيده التأخير ، وجوز أن يكون التقديم للقصر على معنى أن غيثهم في تلك السنين كالعدم بالنسبة إلى عامهم ذلك وأن يكون ذلك في الأخير لمراعاة الفواصل ، وفي الأول لرعاية حاله .

وقرأ جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما والأعرج وعيسى البصرة (يعصرون) على البناء للمفعول ، وعن عيسى – تعصرون – بالفوقانية مبنياً للمفعول أيضاً من عصره الله تعالى إذا أنجاه أي ينجيهم الله سبحانه مما هم فيه من الشدة ، وهو مناسب لقوله : ﴿ يغاث الناس ﴾ وعن أبي عبيدة بالضم بالمنجاة وأنشد قول أبي زبيد في عثمان رضي الله تعالى عنه :

صادياً يستغيث غير مغاث . . .

ولقد كان عصرة المنجود

وقال ابن المستنير معناه يمطرون من أعصرت السحابة عليهم أي حان وقت عصر الرياح لها لتمطر فعلي صلة الفعل كما في عصرت الليمون على الطعام فحذفت وأوصل الفعل بنفسه أو تضمن أعصرت معنى مطرت فتعدى تعديته .

وفي " الصحاح " عصر القوم أي أمطروا ، ومنه قراءة بعضهم ﴿ وفيه يعصرون ﴾ وظاهره أن اللفظ موضوع لذلك فلا يحتاج إلى التضمين عليه .

وحكى النقاش أنه قرئ ﴿ يعصرون ﴾ بضم الياء وكسر الصاد وتشديدها من عصر مشدداً للتكثير ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ وفيه تعصرون ﴾ بكسر التاء والعين والصاد وتشديدها ، وأصله تعتصرون فأدغم التاء في الصاد ونقل حركتها إلى العين ، وأتبع حركة التاء لحركة العين ، واحتمل أن يكون من اعتصر العنب ونحوه أو من اعتصر بمعنى نجا ، ومن ذلك قوله :

لو بغير الماء حلقي شرق . . .

كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ثم إن أحكام هذا العام المبارك كما أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة علم آتاه الله تعالى علمه لم يكن فيما سئل عنه ، وروي مثل ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وعنيا أن

ذلك بالوحي وهو الظاهر .

ولقد أتى عليه السلام بما يدل على فضله في آخر فتواه على عكس ما فعل بالوحي وهو الظاهر .

ولقد أتى عليه السلام بما يدل على فضله في آخر فتواه على عكس ما فعل أولاً عند الجواب عن رؤيا صاحبيه حيث أتى بذلك في أولها ووجه ذلك ظاهر .

(188/397)

وقيل : إن هذه البشارة منه عليه السلام لم تكن عن وحي بل لأن العادة جارية بأن انتهاء الجدب الخصب ، أو لأن السنة الإلهية على أن يوسع على عباده سبحانه بعد ما ضيق عليهم ، وفيه أنه لو كان كذلك لأجمل في البشارة ، وإن حصر الجدب يقتضي تغييره بخصب مّا لا على ما ذكره خصوصاً على ما تقتضيه بعض القراءات من إغاثة بعضهم بعضاً فإنها لا تعلم إلا بالوحي .

ثم إنه عليه السلام بعد أن أفتاهم وأرشدهم وبشرهم كان يتوقع وقوع ما أخبر به ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنه عليه السلام كان بعد ذلك يصنع لرجل طعام اثنين فيقربه إلى الرجل فيأكل نصفه ويدع نصفه حتى إذا كان يوم قربه له فأكله كله ، فقال عليه

السلام : هذا أول يوم من الشداد .

واستدل البلخي بتأويله لذلك على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على ما عبرت أولاً فإنهم كانوا قد قالوا :

﴿ أضغاث أحلام ﴾ [يوسف : 44] فلو كان ما قالوه مؤثراً شيئاً لأعرض عليه السلام عن تأويلها وفيه بحث ، فقد روى أبو داود وابن ماجه عن أبي رزين " الرؤيا على جناح طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت ، ولا تقصها إلا على وادّ وذي رأي " ، ولعله إذا صح هذا يلتزم القول بأن الحكم على الرؤيا بأنها أضغاث أحلام وأنها لا ذيل لها ليس من التعبير في شيء ، وإلا فالجمع بين ما هنا وبين الخبر مشكل .

وقال ابن العربي : إنه ينبغي أن يخص ذلك بما يحتمل من الرؤيا وجوهاً فيعبر بأحدها فيقع عليه .

واستدلوا بذلك أيضاً على صحة رؤيا الكافر وهو ظاهر .

وقد ذكروا للاستفتاء عن الرؤيا آداباً : منها أن لا يكون ذلك عند طلوع الشمس أو عند غروبها أو في الليل ، وقالوا : إن تعبيرها مناماً هو تعبيرها في نفس الأمر فلا تحتاج إلى تعبير بعد ، وأكثروا القول فيما يتعلق بها ، وأكثر ما قيل مما لا يظهر لي سره ولا أرى بعض ذلك إلا كأضغاث أحلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾

المراد بالملك هنا : هو الملك الأكبر ، وهو الريان بن الوليد الذي كان العزيز وزيراً له ، رأى في نومه لما دنا فرج يوسف عليه السلام أنه خرج من نهر يابس ﴿ سَبْعَ بقرات سِمَانٍ ﴾ جمع سمين وسمينة ، في إثرهن سبع عجاف : أي : مهازيل ، وقد أقبلت العجاف على السمان فأكلتهنّ .

والمعنى : إني رأيت ، ولكنه عبر بالمضارع لاستحضار الصورة ، وكذلك قوله : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ ﴾ عبر بالمضارع للاستحضار ، والعجاف جمع عجفاء ، وقياس جمعه عجف ؛ لأن فعلاء وأفعل لا تجمع على فعال ، ولكنه عدل عن القياس حملاً على سمان ﴿ وَسَبْعَ سنبلات ﴾ معطوف على سبع بقرات .

والمراد بقوله : ﴿ خُضْرٍ ﴾ أنه قد انعقد حبها ، واليابسات قد أدركت الخضر والتوت عليها حتى غلبتها ، ولعل عدم التعرّض لذكر هذا في النظم القرآني للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات .

﴿ يا أَيُّها الملأ ﴾ خطاب للأشراف من قومه ﴿ أَفْتُونِي فِي رؤياي ﴾ أي : أخبروني

بحكم هذه الرؤيا ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أي : تعلمون عبارة الرؤيا ، وأصل العبارة مشتقة من عبور النهر ، فمعنى عبرت النهر : بلغت شاطئه ، فعابر الرؤيا يخبر بما يئول إليه أمرها .

قال الزجاج : اللام في ﴿ للرؤيا ﴾ للتبيين ، أي : إن كنتم تعبرون .

ثم بين فقال : ﴿ للرؤيا ﴾ وقيل : هو للتقوية ، وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل .

(190/397)

وجملة ﴿ قَالُواْ أَضغاث أَحْلاَمٍ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والأضغاث : جمع ضغث ، وهو كل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ، والمعنى : أخاليط أحلام ، والأحلام : جمع حلم : وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان ، والإضافة بمعنى من ، وجمعوا الأحلام ولم يكن من الملك إلاّ رؤيا واحدة مبالغة منهم في بالبطلان ، ويجوز أن يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الاحلام بعالمين ﴾ قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة ، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا مطلق العلم بالتأويل .

وقيل : إنهم نفوا عن أنفسهم علم التعبير مطلقاً ، ولم يدّعوا أنه لا تأويل لهذه الرؤيا .

وقيل : إنهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها ، ولم يكن ما ذكروه من نفي العلم حقيقة .

﴿ وَقَالَ الذى نَجَا مِنْهُمَا ﴾ أي : من الغلامين ، وهو الساقي الذي قال له يوسف : ﴿ اذكرنى عِندَ رَبّكَ ﴾ ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ بالدال المهملة على قراءة الجمهور ، وهي القراءة الفصيحة ، أي : تذكر الساقي يوسف وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا ، وقرىء بالمعجمة ، ومعنى ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ : بعد حين ، ومنه ﴿ إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ [هود : 8] أي : إلى وقت ، قال ابن درستويه : والأمة لا تكون على الحين إلاّ على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال : والله أعلم : وادكر بعد حين أمة أو بعد زمن أمة ، والأمة : الجماعة الكثيرة من الناس .

قال الأخفش : هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع ، وكل جنس من الحيوان أمة .

وقرأ ابن عباس وعكرمة : " بعد أمة " بفتح الهمزة وتخفيف الميم ، أي : بعد نسيان ، ومنه قول الشاعر :

أمِهتُ وكنت لا أنسى حديثا . . . كذاك الدهر يودي بالعقول

ويقال أمه يأمه أمها : إذا نسي .

وقرأ الأشهب العقيلي ﴿ بعد إِمَّة ﴾ بكسر الهمزة ، أي : بعد نعمة ، وهي نعمة النجاة .

﴿ أَنَاْ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي : أخبركم به بسؤالي عنه من له علم بتأويله ، وهو يوسف .

﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ خاطب الملك بلفظ التعظيم ، أو خاطبه ومن كان عنده من الملأ ، طلب منهم أن يرسلوه إلى يوسف ليقصّ عليه رؤيا الملك حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك إلى الملك .

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق أَفْتِنَا ﴾ أي : يا يوسف ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فأرسلوه إلى يوسف فسار إليه ، فقال له : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق ﴾ إلى آخر الكلام ، والمعنى : أخبرنا في رؤيا من رأى سبع بقرات إلخ ، وترك ذكر ذلك اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف بأن ذلك رؤيا ، وأن المطلوب منه تعبيرها ﴿ لَّعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى الناس ﴾ أي : إلى الملك ومن عنده من الملأ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ما تأتي به من تأويل هذه الرؤيا ، أو يعلمون فضلك ومعرفتك لفنّ التعبير .

وجملة : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ ﴾ إلخ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كغيرها مما يرد هذا المورد ﴿ سَبْعُ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أي : متوالية متتابعة ، وهو مصدر .

وقيل : هو حال ، أي : دائبين ، وقيل : صفة لسبع ، أي : دائبة .

وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه قرأ " دأبا " بتحريك الهمزة ، وكذا روى حفص عن عاصم

وهما لغتان قال الفراء : حرك لأن فيه حرفاً من حروف الحلق ، وكذلك كل حرف فتح أوّله وسكن ثانيه فتثقيله جائز في كلمات معروفة .

(192/397)

فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان بسبع سنين فيها خصب ، والعجاف بسبع سنين فيها جدب ، وهكذا عبر السبع السنبلات الخضر ، والسبع السنبلات اليابسات ، واستدل بالسبع السنبلات الخضر على ما ذكره في التعبير من قوله : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ ﴾ أي : ما حصدتم في كل سنة من السنين المخصبة فذروا ذلك المحصود في سنبله ولا تفصلوه ؛ عنها لئلا يأكله السوس إلاّ قليلاً مما تأكلون في هذه السنين المخصبة ، فإنه لا بدّ لكم من فصله عن سنبله وإخراجه عنها .

واقتصر على استثناء المأكول دون ما يحتاجون إليه من البذر الذي يبذرونه في أموالهم ، لأنه قد علم من قوله : ﴿ تزرعون ﴾ ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذلك ﴾ أي : من بعد السبع السنين المخصبة ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ أي : سبع سنين مجدبة يصعب أمرها على الناس ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ من تلك الحبوب المتروكة في سنابلها ، وإسناد الأكل إلى السنين مجاز ، والمعنى : يأكل الناس فيهنّ ، أو يأكل أهلهنّ ما قدمتم لهنّ : أي : ما ادخرتم لأجلهنّ ، فهو

من باب : نهاره صائم ، ومنه قول الشاعر :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة . . . وليلك نوم والردى لك لازم

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي : مما تحبسون من الحب لتزرعوا به ؛ لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات .

وقال أبو عبيدة : معنى ﴿ تحصنون ﴾ تحرزون .

وقيل : تدّخرون ، والمعنى واحد .

قوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ الناس وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ أي : من بعد السنين المجدبات ، فالإشارة إليها ، والعام : السنة ﴿ فِيهِ يُغَاثُ الناس ﴾ من الإغاثة أو الغوث ، والغيث المطر ، وقد غاث الغيث : بالأرض ، أي : أصابها ، وغاث الله البلاد يغيثها غوثاً : أمطرها ، فمعنى ﴿ يغاث الناس ﴾ : يمطرون ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ أي : يعصرون الأشياء التي تعصر كالعنب والسمسم والزيتون .

وقيل : أراد حلب الألبان .

وقيل: معنى ﴿ يعصرون ﴾ ينجون، مأخوذ من العصرة وهي المنجاة.

قال أبو عبيدة: والعصر بالتحريك: الملجأ والمنجاة، ومنه قول الشاعر:

صاديا يستغيث غير مغاث . . . ولقد كان عصرة المنجود

واعتصرت بفلان: التجأت به.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ تعصرون ﴾ بتاء الخطاب، وقرىء: "يعصرون" بضم حرف المضارعة وفتح الصاد، ومعناه يمطرون، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً ﴾ [النبأ: 14].

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قال يوسف للساقي: أذكرني عند ربك، أي: الملك الأعظم، ومظلمتي وحبسي في غير شيء، فقال: أفعل، فلما خرج الساقي ردّ على ما كان عليه، ورضي عنه صاحبه، وأنساه الشيطان ذكر الملك الذي أمره يوسف أن يذكره له، فلبث يوسف بعد ذلك في السجن بضع سنين، ثم إن الملك ريان بن الوليد رأى رؤياه التي أري فيها فهالته، وعرف أنها رؤيا واقعة، ولم يدر ما تأويلها، فقال للملأ حوله من أهل مملكته ﴿ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ فلما سمع من الملك ما سمع منه ومسألته عن تأويلها، ذكر يوسف ما كان عبّر له ولصاحبه، وما جاء من ذلك على ما قال، فقال: أنا أنبئكم بتأويله.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَضْغاثُ أَحْلامٍ ﴾ يقول : مشتبهة .

وأخرج أبو يعلى ، وابن جرير عنه قال : من الأحلام الكاذبة .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ قال : بعد حين .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد والحسن وعكرمة وعبد الله بن كثير والسدّي مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : بعد سنين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : بعد أمة من الناس .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بقرات ﴾ الآية ، قال : أما السمان فسنون فيها خصب ، وأما العجاف فسنون مجدبة ، وسبع سنبلات خضر هي السنون المخاصيب ، تخرج الأرض نباتها وزرعها وثمارها ، وآخر يابسات : المحول الجُدُوب لا تنبت شيئاً .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن عكرمة قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترطت عليهم أن يخرجوني ، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ يقول : تخزنون ، وفي قوله : ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يقول : الأعناب والدهن .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ يقول : يصيبهم فيه غيث ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يقول : يعصرون فيه العنب ، ويعصرون فيه الزبيب ، ويعصرون من كل الثمرات .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ قال : يحتلبون .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ ﴾ قال : أخبرهم بشيء لم يسألوه عنه كأنّ الله قد علمه إياه فيه يغاث الناس بالمطر ، وفيه يعصرون السمسم دهناً ، والعنب خمراً والزيتون زيتاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾ أي : من صاحبي السجن ، وهو الساقي : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أي : تذكر بعد مدة ، وكان تذكره ، على ما روي ، بعد سنتين : ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي : أخبركم به بالتلقي عمن عنده علمه ، لا من تلقاء نفسي ، ولذلك لم يقل : أنا أفتيكم فيها ، وعقبه بقوله : ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أي : فابعثوني إلى يوسف ، وإنما لم يذكره ؛ ثقة بما سبق من التذكر ، وما لحق من قوله :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ أي : أرسل إليه ، فأتاه فقال : يا يوسف ! ، ووصفه بالمبالغة في الصدق ، حسبما ذاق أحواله ، وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ، ورؤيا صاحبه ، حيث جاء كما أول ؛ لكونه بصدد اغتنام معارفه ، فهو من باب براعة الاستهلال : ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ أي : في تأويل رؤيا ذلك . ولم يغير لفظ الملك ؛ لأن التعبير يكون على وفقه ، كما بينوه . وفي قوله : ﴿ أَفْتِنَا ﴾ مع أنه المستفتي وحده ؛ إشعار بأن الرؤيا ليست له ، بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة ، وأنه في ذلك معبر وسفير ، كما آذن بذلك قوله : ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ﴾ أي : إلى الملك ومن عنده : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : ذلك : فيعملون بمقتضاه ، أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك . وإنما لم يبت الكلام ، بل

قال (لعلي) و (لعلهم) ؛ مجاراة معه على نهج الأدب ، واحترازاً عن المجازفة ؛ إذ لم يكن على يقين من الرجوع ، فربما اخترم دونه .

~لعل المنايا دون ما تعداني

ولا من علمهم بذلك ، فربما لم يعلموه – أشار إليه أبو السعود – .

(196/397)

﴿ قَالَ ﴾ أي : يوسف له في تأويلها : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ﴾ أي : دائبين مواظبين كل عام منها : ﴿ فَمَا حَصَدْتُّمْ ﴾ أي : من الزرع : ﴿ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ ﴾ أي : لا تدرسوه ، فإنه أبقى له : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أي : في تلك السنين ، يعني بقدر ما تأكلون .

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي : السبع المذكورات : ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ أي : سبع سنين صعاب على الناس ؛ لقوة القحط : ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أي : ما رفعتم لهن من الحبوب المتروكة في سنابلها . ولما عبر عن البقرات بالسنين ؛ نسب الأكل إلى السنين ، كما رأى في الواقعة البقرات يأكلن حتى يحصل التطابق بين المعبر وهو المرئي في المنام ، والمعبر به وهو تأويله . ولا يتعين المجاز العقلي – أي : يؤكل فيها – كما في : (نهاره صائم) ؛ لجواز أن

يكون مشاكلة حينئذ ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي: تحرزون وتخبئون للزراعة .

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي: السنين الموصوفة بالشدة، وأكل الغلال المدخرة : ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ أي: يمطرون من الغيث، أي: يغاثون من القحط، أو يرفع عنهم مكروهه من الغوث : ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ أي: ما كانوا يعصرونه على عادتهم من عنب وزيتون ونحوهما .

قال أبو السعود : والتعرض لذكر (العصر) ، مع جواز الاكتفاء عنه بذكر (الغيث) المستلزم له عادة، كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم في الحبوب ؛ إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب ؛ إذ المذكورات يتوقف صلاحها على مبادئ أُخر غير المطر . وإما لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصة به، بشارة له، وهي التي يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس، في القراءة بالفوقانية . وقيل: معنى (يعصرون) يحلبون الضروع . انتهى .

واللفظ بعموم معناه يشمله ؛ لأن الحلب فيه عصر الضرع ليخرج الدر .

قال الزمخشري : تأويل البقرات السمان والسنبلات الخضر : بسنين مخصبة ، والعجاف واليابسات : بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك جهة الوحي .

تنبيه :

قال في " الإكليل " : هذه الآية من أصول التعبير . وفيها أيضاً صحة رؤيا الكفار ، وجواز تسميته ملكاً ، وأن قولنا (الرؤيا لأول عابر) ليس عاماً في كل رؤيا ؛ لأنهم قالوا : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ ، ولم تسقط بقولهم ذلك ، فتخص القاعدة بما يحتمل من الرؤيا وجوهاً ، فيعبر بأحدها ، فيقع عليه . وفي قوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ﴾ الخ ، زيادة على ما وقع السؤال عنه فيستدل به ، على أنه لا بأس بذلك في تعبير الرؤيا والفتوى . انتهى .

انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 187.189 ﴾

(198/397)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ) .

رُؤْيَا مَلِكِ مِصْرَ وَتَأْوِيلِ يُوسُفَ لَهَا بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ :

كَانَ مَلِكُ مِصْرَ فِي عَهْدِ يُوسُفَ مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ الْمَعْرُوفِينَ بِالرُّعَاةِ (الْهِكْسُوس) كَمَا يَأْتِي فِي التَّفْسِيرِ الْإِجْمَالِيِّ، وَقَدْ رَأَى رُؤْيَا عَجَزَ رِجَالُ دَوْلَتِهِ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكَهَنَةِ وَالْعُلَمَاءِ عَنْ تَأْوِيلِهَا، فَكَانَ عَجْزُهُمْ سَبَبًا لِلُّجُوءِ إِلَى يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَاتِّصَالِهِ بِالْمَلِكِ وَتَوَلِّيهِ مَنْصِبَ الْوَزِيرِ الْمُفَوَّضِ عِنْدَهُ، كَمَا بُيِّنَ فِي الْآيَاتِ مَبْدَأً وَغَايَةً. قَالَ - تَعَالَى -: (وَقَالَ الْمَلِكُ) هَذَا السِّيَاقُ عَطْفٌ عَلَى سِيَاقِ (صَاحِبَيِ السِّجْنِ) وَمَا قَالَاهُ فِي قَصِّ رُؤْيَاهُمَا عَلَى يُوسُفَ: (إِنِّي أَرَى) أَيْ رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ رُؤْيَا جَلِيَّةً مَاثِلَةً أَمَامِي كَأَنِّي أَرَاهَا

الْآنَ (سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ) جَمْعُ سَمِينَةٍ وَكَذَا سَمِينٌ كَمَا يُقَالُ: رِجَالٌ وَنِسَاءٌ كِرَامٌ وَحِسَانٌ (يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ) أَيْ سَبْعُ بَقَرَاتٍ مَهَازِيلَ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ وَالْهُزَالِ، وَهُوَ جَمْعُ عَجْفَاءَ سَمَاعًا لَا قِيَاسًا فَإِنَّ جَمْعَ أَفْعَلَ وَفَعْلَاءِ وِزَانُ فُعْلٍ بِالضَّمِّ كَحُمْرٍ وَخُضْرٍ، وَحُسْنُهُ هُنَا مُنَاسَبَتُهُ لِـ (سِمَانٍ). (وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ) عَطْفٌ عَلَى (سَبْعَ بَقَرَاتٍ) وَهِيَ جَمْعُ سُنْبُلَةٍ كَقُنْفُدَةٍ: مَا يُخْرِجُهُ الزَّرْعُ كَالْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ فَيَكُونُ فِيهِ الْحَبُّ (وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) عَطْفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ وَالْيَابِسُ مِنَ السُّنْبُلِ مَا آنَ حَصَادُهُ، وَاسْتَغْنَى عَنْ إِعَادَةِ (سَبْعِ) هُنَا

بِدَلَالَةِ مُقَابِلِهِ فِي الْبَقَرَاتِ عَلَيْهِ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ يُخَاطِبُ رِجَالَ دَوْلَتِهِ وَأَشْرَافَ قَوْمِهِ : (أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ) مَا مَعْنَاهَا وَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ فَيَكُونُ مَآلًا لَهَا (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) أَيْ تَعْبُرُونَهَا بِبَيَانِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ الْمُرَادِ مِنَ الْمَعْنَى الْخَيَالِيِّ ، كَمَنْ يَعْبُرُ النَّهْرَ بِالِانْتِقَالِ مِنْ ضَفَّةٍ إِلَى أُخْرَى ، فَاللَّامُ فِيهَا لِلْبَيَانِ وَالتَّقْوِيَةِ ، فَعَبْرُهَا وَعُبُورُهَا بِمَعْنَى . . . تَأْوِيلُهَا ، وَهُوَ الْإِخْبَارُ بِمَآلِهَا الَّذِي يَقَعُ بَعْدُ .

(200/397)

(قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) أَيْ هِيَ ، أَوْ هَذِهِ الرُّؤْيَا مِنْ جِنْسِ أَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ ، أَيِ الْأَحْلَامِ الْمُخْتَلَطَةِ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالْأَخْيِلَةِ الَّتِي يَتَصَوَّرُهَا الدِّمَاغُ فِي النَّوْمِ فَلَا تَرْمِي إِلَى مَعْنًى مَقْصُودٍ ، وَأَصْلُ الْأَضْغَاثِ جَمْعُ ضِغْثٍ بِالْكَسْرِ وَهُوَ الْحُزْمَةُ مِنَ النَّبَاتِ أَوِ الْعِيدَانِ ، وَالْأَحْلَامُ جَمْعُ حُلُمٍ بِضَمَّتَيْنِ وَيُسَكَّنُ لِلتَّخْفِيفِ وَهُوَ مَا يُرَى فِي النَّوْمِ . يُقَالُ : حَلَمَ كَنَصَرَ وَاحْتَلَمَ ، وَمِنْهُ بُلُوغُ الْحُلُمِ ، وَالْحُلُمُ قَدْ يَكُونُ وَاضِحَ الْمَعْنَى كَالْأَفْكَارِ الَّتِي تَكُونُ فِي الْيَقَظَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ - وَهُوَ الْأَكْثَرُ - مُشَوَّشًا مُضْطَرِبًا لَا يُفْهَمُ لَهُ مَعْنًى وَهُوَ الَّذِي يُشَبَّهُ بِالتَّضَاغِيثِ ، كَأَنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ حُزَمٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْعِيدَانِ وَالْحَشَائِشِ الَّتِي لَا تَنَاسُبَ بَيْنَهَا ، وَهُوَ مَا تَبَادَرَ إِلَى أَفْهَامِهِمْ مِنْ نَوْعَيِ الْبَقَرِ وَالسَّنَابِلِ (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ) يَحْتَمِلُ قَوْلُهُمْ هَذَا أَنَّهُمْ

لَيْسُوا بِأُولِي عِلْمٍ بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الْأَحْلَامِ الْمُخْتَلِطَةِ الْمُضْطَرِبَةِ ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَ غَيْرِهَا مِنَ الْمَنَامَاتِ الْمَعْقُولَةِ الْمَفْهُومَةِ ، وَيُحْتَمَلُ نَفْيُ الْعِلْمِ بِجِنْسِ الْأَحْلَامِ لِأَنَّهَا مِمَّا لَا يُعْلَمُ ، أَوْ مِمَّا لَا يَكُونُ لَهُ مَعْنًى بَعِيدٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ الصُّوَرُ الْمُتَخَيَّلَةُ فِي النَّوْمِ تَنْتَهِي إِلَيْهِ ، كَمَا يُنْكِرُ أَهْلُ الْعِلْمِ الْمَادِّيِّ الْآنَ أَنْ

(201/397)

يَكُونَ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الرُّؤَى وَالْأَحْلَامِ تَأْوِيلٌ صَحِيحٌ ، وَلَكِنَّ قُدَمَاءَ الْمِصْرِيِّينَ كَانُوا يَعْنُونَ بِهَا . وَسَنُبَيِّنُ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ فِي الْخُلَاصَةِ الْكُلِّيَّةِ لِتَفْسِيرِ السُّورَةِ كَمَا تَقَدَّمَ .

(وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا) أَيْ مِنْ صَاحِبَيِ السِّجْنِ ، وَهُوَ السَّاقِي أَحَدُ أَرْكَانِ الْقِصَّةِ (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّهُ تَذَكَّرَ بَعْدَ طَائِفَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الزَّمَنِ وَصِيَّةَ يُوسُفَ إِيَّاهُ بِأَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ سَيِّدِهِ الْمَلِكِ ، فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذَلِكَ (وَأَصْلُ ادَّكَرَ اذْتَكَرَ) افْتِعَالٌ مِنَ الذِّكْرِ أُبْدِلَتْ تَاؤُهُ دَالًا مُهْمَلَةً لِقُرْبِ مَخْرَجِهِمَا وَأُدْغِمَتْ فِيهَا الذَّالُ الْمُعْجَمَةُ ، وَهُوَ الْفَصِيحُ ، وَقُرِئَ فِي الشَّوَاذِّ بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ وَهِيَ لُغَةٌ . (أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ) أَيْ أُخْبِرُكُمْ بِهِ أَوْ بِمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ تَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ إِلَيْهِ أَوْ إِلَى السِّجْنِ فَهُوَ فِيهِ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ السِّجْنَ كَانَ خَارِجَ الْبَلَدِ . وَفِي خُطَطِ الْمَقْرِيزِيِّ : قَالَ الْقُضَاعِيُّ سِجْنُ يُوسُفَ بِبُوصِيرَ مِنْ عَمَلِ الْجِيزَةِ ،

أَجْمعَ أَهْلُ الْمعْرفَةِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ عَلَى صِحَّةِ هذا الْمَكَان ، وَفِيهِ أَثَرُ نَبِيَّيْن : أَحَدُهُمَا يُوسُفُ سُجِنَ فِيهِ الْمُدَّةَ الَّتِي ذُكِرَ أَنَّ مَبْلَغها سَبْعُ سِنِينَ ، وَالْآخِرُ مُوسَى ، وَقَدْ بُنِي عَلَى أَثَرِهِ مَسْجِدٌ يُعْرفُ بِمَسْجِدِ مُوسَى إلخْ . وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ لَا يُوثَقُ بِهَا .

(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ) أَيْ قَالَ فَأَرْسَلُونِي إِلَيْهِ فَأَرْسَلُوهُ إِلَيْهِ ، فَجَاءَهُ فَاسْتَفْتَاهُ فِيمَا عَجَزَ عَنْهُ الْمَلأُ مِنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَا الْمَلِكِ ، مُنَادِيًا لَهُ بِاسْمِهِ وَمَا ثَبَتَ عِنْدَهُ مِنْ لَقَبِهِ الصِّدِّيقُ وَهُوَ الَّذِي بَلَغَ غَايَةَ الْكَمَالِ بِالصِّدْقِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَتَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَتَعْبِيرِ الْأَحْلَامِ ، شَارِحًا لَهُ رُؤْيَا الْمَلِكِ بِنَصِّهَا – وَهُوَ بَسْطٌ فِي مَحَلِّهِ بَعْدَ إِيجَازٍ فِي مَحَلِّهِ – قَائِلًا : (أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) وَعَلَّلَ هَذَا الِاسْتِفْتَاءَ بِمَا يَرْجُو أَنْ يُحَقِّقَ لِيُوسُفَ أَمَلَهُ بِالْخُرُوجِ مِنَ السِّجْنِ وَانْتِفَاعِ الْمَلِكِ وَمَلَئِهِ بِعِلْمِهِ فَقَالَ :

(لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ) أُولِي الْأَمْرِ ، وَأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، بِمَا تُلْقِيهِ إِلَيَّ مِنَ التَّأْوِيلِ وَالرَّأْيِ (لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) مَكَانَتَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ ، أَوْ يَعْلَمُونَ مَا جَهِلُوا مِنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَا الْمَلِكِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يَعْلَمُوا

بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ ، فَلَعَلَّ الْأُولَى تَعْلِيلٌ لِرُجُوعِهِ إِلَيْهِمْ بِإِفْتَائِهِ ، وَلَعَلَّ الثَّانِيَةَ تَعْلِيلٌ لِمَا يَرْجُوهُ مِنْ عِلْمِهِمْ بِهَا ، وَالرَّجَاءُ تَوَقُّعُ خَيْرٍ بِوُقُوعِ أَسْبَابِهِ .

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا) أَيْ قَالَ يُوسُفُ مُبَيِّنًا لِلْمَلَأِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ عَمَلُهُ ، لِتَلَافِي مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الرُّؤْيَا مِنَ الْخَطَرِ عَلَى الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ ، قَبْلَ وُقُوعِ تَأْوِيلِهَا الَّذِي بَيَّنَهُ فِي سِيَاقِ هَذَا التَّدْبِيرِ الْعَمَلِيِّ ، وَهَذَا ضَرْبٌ مِنْ بَلَاغَةِ الْأُسْلُوبِ وَالْإِيجَازِ ، وَلَا تَجِدُ لَهُ ضَرِيبًا فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ ، خَاطَبَ أُولِي الْأَمْرِ بِمَا لَقَّنَهُ لِلسَّاقِي خِطَابَ الْآمِرِ لِلْمَأْمُورِ الْحَاضِرِ ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمُ الشُّرُوعَ فِي زِرَاعَةِ الْقَمْحِ دَائِبِينَ عَلَيْهِ دَأَبًا مُسْتَمِرًّا ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ) 14 : 33 سَبْعَ سِنِينَ بِلَا انْقِطَاعٍ . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : تَزْرَعُونَ خَبَرٌ فِي مَعْنَى الْأَمْرِ ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ) 61 : 11 وَإِنَّمَا يَخْرُجُ الْأَمْرُ فِي صُورَةِ الْخَبَرِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي إِيجَابِ إِيجَادِ الْمَأْمُورِ بِهِ ، فَيُجْعَلُ كَأَنَّهُ يُوجَدُ فَهُوَ يُخْبِرُ عَنْهُ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى كَوْنِهِ فِي مَعْنَى الْأَمْرِ قَوْلُهُ: (فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ) أَيْ فَكُلُّ مَا حَصَدْتُمْ مِنْهُ فِي كُلِّ زَرْعَةٍ فَاتْرُكُوهُ - أَيِ ادَّخِرُوهُ - فِي سُنْبُلِهِ بِطَرِيقَةٍ تَحْفَظُهُ مِنَ السُّوسِ بِعَدَمِ سَرَيَانِ الرُّطُوبَةِ إِلَيْهِ: الْحَبُّ لِغِذَاءِ النَّاسِ وَالتِّبْنُ لِغِذَاءِ الْبَهَائِمِ وَالدَّوَابِّ (إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) فِي كُلِّ سَنَةٍ مِنْ هَذِهِ السِّنِينَ، مَعَ مُرَاعَاةِ الْقَصْدِ وَالِاكْتِفَاءِ بِمَا يَسُدُّ حَاجَةَ الْجُوعِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَقْتَنِعُونَ فِي سِنِيِّ الْخِصْبِ وَالرَّخَاءِ بِالْقَلِيلِ، فَهَذِهِ السِّنِينُ السَّبْعُ تَأْوِيلٌ لِلْبَقَرَاتِ السَّبْعِ السِّمَانِ، وَالسُّنْبُلَاتُ السَّبْعُ الْخُضْرُ عَلَى ظَاهِرِهَا فِي كَوْنِ كُلِّ سُنْبُلَةٍ تَأْوِيلًا لِزَرْعِ سَنَةٍ.

(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ) أَيْ سَبْعُ سِنِينَ شِدَادٍ فِي مَحْلِهِنَّ وَجَدْبِهِنَّ (يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ) أَيْ يَأْكُلُ أَهْلُهُنَّ كُلَّ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ، وَهُوَ مِنْ إِسْنَادِهِمْ إِلَى الزَّمَانِ وَالدَّهْرِ مَا يَقَعُ فِيهِ، وَيَكْثُرُ إِسْنَادُ الْعُسْرِ وَالْجُوعِ إِلَى سِنِيِّ الْجَدْبِ، يُقَالُ: أَكَلَتْ لَنَا هَذِهِ السَّنَةُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَمْ تُبْقِ لَنَا خَفِيًّا وَلَا حَافِرًا، وَلَا سَبَدًا وَلَا لَبَدًا، أَيْ لَا شَعْرًا وَلَا صُوفًا.

وَهَذَا تَأْوِيلٌ لِلْبَقَرَاتِ السَّبْعِ الْعِجَافِ وَأَكْلِهِنَّ لِلسَّبْعِ السِّمَانِ، وَلِلسُّنْبُلَاتِ الْيَابِسَاتِ (إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ) أَيْ تُحْرِزُونَ وَتَدَّخِرُونَ لِلْبَذْرِ.

(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) الَّذِي ذُكِرَ وهُوَ السَّبْعُ الشِّدَادُ (عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ) أَيْ فِيهِ يُغيثُهُمُ اللهُ – تَعَالَى – مِنَ الشِّدَّةِ أَتَمَّ الْإِغَاثَةِ وأَوْسَعَهَا ، وهِيَ تَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْمَعُونَةِ بَعْدَ الشِّدَّةِ ، يُقَالُ : غَاثَهُ يَغُوثُهُ وغَوَاثًا (بِالْفَتْحِ) وأَغَاثَهُ إِغَاثَةً إِذَا أَعَانَهُ وَنَجَّاهُ ، وَغَوَّثَ الرَّجُلُ ، قَالَ : (وَاغَوْثَاهُ) وَاسْتَغَاثَ رَبَّهُ اسْتَنْصَرَهُ وسَأَلَهُ الْغَوْثَ ، ويَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْغَيْثِ وَهُوَ الْمَطَرُ ، إِذْ يُقَالُ : غَاثَ اللهُ الْبِلَادَ غَيْثًا إِذَا أَنْزَلَ فِيهَا الْمَطَرَ ، وَالْأَوَّلُ أَعَمُّ وهُوَ الْمُتَبَادِرُ هُنَا ، وَلَا يُقَالُ إِنَّ الثَّانِيَ لَا يَصِحُّ ، لِأَنَّ خِصْبَ مِصْرَ يَكُونُ بِفَيَضَانِ النِّيلِ لَا بِالْمَطَرِ ، فَإِنَّ فَيَضَانَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ الْمَطَرِ الَّذِي يَمُدُّهُ فِي مَجَارِيهِ مِنْ بِلَادِ السُّودَانِ ، فَاعْتِرَاضُ بَعْضِ الْمُسْتَشْرِقِينَ مِنَ الْإِفْرِنْجِ وزَعْمُهُ أَنَّ الْكَلِمَةَ مِنَ الْغَيْثِ وأَنَّهَا غَيْرُ جَائِزَةٍ ، جَهْلٌ زَيَّنَهُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ تَلَذُّذًا بِالِاعْتِرَاضِ عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ ، (وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) مَا شَأْنُهُ أَنْ يُعْصَرَ مِنَ الْأَدْهَانِ الَّتِي يَأْتَدِمُونَ بِهَا ويَسْتَصْبِحُونَ كَالزَّيْتِ مِنَ الزَّيْتُونِ وَالْقُرْطُمِ وغَيْرِهِ ، وَالشَّيْرَجِ مِنَ السِّمْسِمِ وغَيْرِ ذَلِكَ ، وَالْأَشْرِبَةِ مِنَ الْقَصَبِ وَالنَّخِيلِ وَالْعِنَبِ . وَالْمُرَادُ : أَنَّ هَذَا الْعَامَ عَظِيمُ الْخِصْبِ وَالْإِقْبَالِ ، ويَكُونُ لِلنَّاسِ فِيهِ كُلُّ مَا يَبْغُونَ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْإِتْرَافِ ، وَالْإِنْبَاءُ بِهَذَا زَائِدٌ عَلَى تَأْوِيلِ

الرُّؤْيَا لِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ الْعَامُ الْأَوَّلُ بَعْدَ سِنِيِّ الشِّدَّةِ وَالْجَدْبِ دُونَ ذَلِكَ ، فَهَذَا التَّخْصِيصُ وَالتَّفْصِيلُ لَمْ يَعْرِفْهُ يُوسُفُ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا مُقَابِلَ لَهُ فِي رُؤْيَا الْمَلِكِ وَلَا هُوَ لَازِمٌ مِنْ لَوَازِمِ تَأْوِيلِهَا بِهَذَا التَّفْصِيلِ ، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (تَعْصِرُونَ) بِالْخِطَابِ كَ (تَزْرَعُونَ) وَ (تُحْصِنُونَ) . وَقِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ عَطْفٌ عَلَى (يُغَاثُ النَّاسُ) وَفَائِدَةُ الْقِرَاءَتَيْنِ : بَيَانُ الْمِنَّةِ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ مِنْ غَائِبٍ مَحْكِيٍّ عَنْهُ ، وَحَاضِرٍ مُخَاطَبٍ بِمَا يَكُونُ مِنْهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 261.264 ﴾

(207/397)

وقال ابن عاشور :

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

فلما ظهر عَوَصُ تعبير هذا الحُلم تذكر ساقي الملك ما جرى له مع يوسف عليه السّلام فقال : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ .

وابتداء كلامه بضميره وجعله مسنداً إليه وخبره فعلي لقصد استجلاب تعجب الملك من أن يكون الساقي ينبىء بتأويل رؤيا عَوِصَتْ على علماء بلاط الملك ، مع إفادة تقوّي الحكم ، وهو إنباؤه إياهم بتأويلها ، لأن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في سياق الإثبات يفيد

التقوّي ، وإسناد الإنباء إليه مجاز عقلي لأنه سبب الإنباء ، ولذلك قال : ﴿ فأرْسِلُون ﴾ .

وفي ذلك ما يستفز الملك إلى أن يأذن له بالذهاب إلى حيث يريد ليأتي بنبأ التأويل إذ لا يجوز لمثله أن يغادر مجلس الملك دون إذن .

وقد كان موقناً بأنه يجد يوسف عليه السّلام في السجن لأنه قال : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ دون تردد .

ولعل سبب يقينه ببقاء يوسف عليه السّلام في السجن أنه كان سجنَ الخاصة فكان ما يحدث فيه من إطلاق أو موت يبلغ مسامع الملك وشيعته .

و﴿ ادّكر ﴾ بالدال المهملة أصله : اذتكر ، وهو افتعال من الذكر ، قلبت تاء الافتعال دالاً لثقلها ولتقارب مخرجيهما ثم قلبت الذال ليتأتّى ادغامها في الدال لأن الدال أخف من الذال .

وهذا أفصح الإبدال في ادّكر .

وهو قراءة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ فهل من مدّكر ﴾ [سورة القمر : 15] كما في الصحيح .

ومعنى بعد أمة ﴾ بعد زمن مضى على نسيانه وصاية يوسف عليه السّلام .

والأمة : أطلقت هنا على المدة الطويلة ، وأصل إطلاق الأمة على المدة الطويلة هو أنها

زمن ينقرض في مثله جيل ، والجيل يسمى أمة ، كما في قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس ﴾ [سورة آل عمران : 110] على قول من حمله على الصحابة .

وإطلاقه في هذه الآية مبالغة في زمن نسيان الساقي .

(208/397)

وفي التوراة كانت مدة نسيانه سنتين .

وضمائر جمع المخاطب في أنبئكم ﴾ ﴿ فأرسلون ﴾ مخاطب بها الملك على وجه التعظيم كقوله تعالى : ﴿ قال رب ارجعون ﴾ [سورة المؤمنون : 99] .

ولم يسمّ لهم المرسل إليه لأنه أراد أن يفاجئهم بخبر يوسف عليه السّلام بعد حصول تعبيره ليكون أوقع ، إذ ليس مثله مظنة أن يكون بين المساجين .

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾

الخطاب بالنداء مؤذن بقول محذوف في الكلام ، وأنه من قول الذي نجا وادكر بعد أمة .

وحُذف من الكلام ذكر إرساله ومشيه ووصوله ، إذ لا غرض فيه من القصة .

وهذا من بديع الإيجاز .

و﴿ الصدّيق ﴾ أصله صفة مبالغة مشتقة من الصّدْق ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿

وأمه صدّيقةٌ ﴾ في سورة العقود (75) ، وغلب استعمال وصف الصدّيق استعمال اللقب الجامع لمعاني الكمال واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى ، لأن تلك المعاني لا تجتمع إلا لمن قوي صدقه في الوفاء بعهد الدين .

وأحسنُ ما رأيت في هذا المعنى كلمة الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن قال :

"الصديقون هم دُوَيْن الأنبياء" .

وهذا ما يشهد به استعمال القرآن في آيات كثيرة مثل قوله : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين ﴾ [سورة النساء : 69] الآية ، وقوله : ﴿ وأمه صدّيقة ﴾ [سورة المائدة : 75] .

ومنه ما لَقّب النبيءُ أبا بكر بالصدّيق في قوله في حديث رجف جبل أُحُد أُسْكُنْ أُحُد فإنما عليك نبيء وصدّيق وشهيدان .

من أجل ذلك أجمع أصحاب رسول الله ومنهم علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه على أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل الأمة بعد النبي .

وقد جَمع الله هذا الوصف مع صفة النبوءة في قوله : ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبياً ﴾ في سورة مريم (56) .

وقد يطلق الصدّيق على أصل وصفه، كما في قوله تعالى: ﴿ والذين آمنوا بالله ورُسله أولئك هم الصدّيقون ﴾ [سورة الحديد: 19] على أحد تأويلين فيها.

فهذا الذي استفتَى يوسف عليه السّلام في رؤيا المِلك وَصَفَ في كلامه يوسف عليه السّلام بمعنى يدل عليه وصف الصدّيق في اللسان العربي، وإنما وصفه به عن خبرة وتجربة اكتسبها من مخالطة يوسف عليه السّلام في السجن.

فضمّ ما ذكرناه هنا إلى ما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ وأمه صدّيقةٌ ﴾ في سورة العقود (75)، وإلى قوله: ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين ﴾ في سورة النساء (69).

وإعادة العِبارات المحكية عن الملك بعينها إشارة إلى أنه بلّغ السؤال كما تلقاه، وذلك تمام أمانة الناقل.

و﴿ الناس ﴾ تقدم في قوله: ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾ في سورة البقرة (8).

والمراد بـ﴿ الناس ﴾ بعضهم، كقوله تعالى: ﴿ الذينَ قال لهم النّاس إن النّاس قد جمعوا لكم ﴾ [سورة آل عمران: 173].

والناس هنا هم الملك وأهل مجلسه، لأن تأويل تلك الرؤيا يهمهم جميعاً ليعلم الملك تأويل رؤياه ويعلم أهل مجلسه أن ما عجزوا عن تأويله قد علمه من هو أعلم منهم.

وهذا وجه قوله : لعلهم يعلمون ﴾ مع حذف معمول ﴿ يعلمون ﴾ لأن كل أحد يعلم ما يفيده علمه .

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾

عبر الرؤيا بجميع ما دلّت عليه ، فالبقرات لسنين الزراعة ، لأن البقرة تتخذ للإثمار .

والسِمَن رمز للخصب .

والعجَف رمز للقحط .

والسنبلات رمز للأقوات ؛ فالسنبلات الخضر رمز لطعام ينتفع به ، وكونها سبعاً رمز للانتفاع به في السبع السنين ، فكل سنبلة رمز لطعام سنة ، فذلك يقتاتونه في تلك السنين جديداً .

والسنبلات اليابسات رمز لما يدخر ، وكونُها سبعاً رمز لادخارها في سبع سنين لأن البقرات العجاف أكلت البقرات السمان ، وتأويل ذلك : أن سني الجدب أتت على ما أثمرته سنو الخصب .

وقوله: ﴿ تزرعون ﴾ خبر عما يكون من عملهم، وذلك أن الزرع عادتهم، فذكره إياه تمهيد للكلام الآتي ولذلك قيده بـ ﴿ دأباً ﴾.

والدأب: العادة والاستمرار عليها.

وتقدم في قوله: ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ في سورة آل عمران (11).

وهو منصوب على الحال من ضمير ﴿ يزرعون ﴾، أي كدأبكم.

وقد مزج تعبيره بإرشاد جليل لأحوال التموين والادخار لمصلحة الأمة.

وهو منام حكمته كانت رؤيا الملك لطفاً من الله بالأمة التي آوت يوسف عليه السّلام، ووحيا أوحاه الله إلى يوسف عليه السّلام بواسطة رؤيا الملك، كما أوحى إلى سليمان عليه السّلام بواسطة الطير.

ولعل الملك قد استعد للصلاح والإيمان.

وكان ما أشار به يوسف عليه السّلام على الملك من الادخار تمهيداً لشرع ادخار الأقوات للتموين، كما كان الوفاء في الكيل والميزان ابتداء دعوة شعيب عليه السّلام، وأشار إلى إبقاء ما فضل عن أقواتهم في سنبله ليكون أسلم له من إصابة السوس الذي يصيب الحب إذا تراكم بعضه على بعض فإذا كان في سنبله دفع عنه السوس، وأشار عليهم بتقليل ما يأكلون في سنوات الخصب لادخار ما فضل عن ذلك لزمن الشدة، فقال: ﴿ إلاّ قليلاً مما تأكلون ﴾.

والشداد : وصف لسني الجدب ، لأن الجدب حاصل فيها ، فوصفها بالشدة على طريقة المجاز العقلي .

وأطلق الأكل في قوله : ﴿ يأكلن ﴾ على الإفناء ، كالذي في قوله : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ [سورة النساء : 2] .

وإسناده بهذا الإطلاق إلى السنين إسنادُ مجاز عقلي ، لأنهن زمن وقوع الفناء .

والإحصان : الإحراز والادخار ، أي الوضع في الحصن وهو المطمور .

والمعنى : أن تلك السنين الجدبة يفنى فيها ما ادخر لها إلا قليلاً منه يبقى في الإهراء .

وهذا تحريض على استكثار الادخار .

(211/397)

وأما قوله : ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس ﴾ فهو بشارة وإدخال المسرة والأمل بعد الكلام المؤيس ، وهو من لازم انتهاء مدة الشدة ، ومن سنن الله تعالى في حصول اليسر بعد العسر .

و﴿ يغاث ﴾ معناه يعطون الغيث ، وهو المطر .

والعصر : عصر الأعناب خموراً .

وتقدم آنفاً في قوله : ﴿ أعصر خمراً ﴾ [سورة يوسف : 36] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(212/397)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

وكان الذي نجا من السجينين يسمع مقالة الملك وردّ الملأ ؛ فاسترجع بذاكرته ما مَرَّ عليه في السجن ، وكيف رأى الرُّؤيا ، وكيف قام يوسف بتأويلها .

وقوله : ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ . . ﴾ [يوسف : 45] .

يعني : أنه أجهد عقله وذهنه ؛ وافتعل التذكُّر لأن فترة لا بأس بها من الزمن قد مَرَّتْ ، وكلمة " أمة " تعني فترة من الزمن ؛ كما في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود : 8] .

و" الأمة " قد يُراد بها الجماعة من الناس ، ويُراد بها أيضاً الرجل الجامع لكل صفات الخير ، كما قال الحق سبحانه في وصف إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ

حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ﴾ [النحل : 120] .

أي : أن كل خصال الخير مجموعة في إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام ، وبعد أن افتعل ساقي الملك واجتهد ليتذكر ما حدث له منذ فترة هي بضع سنين ؛ أيام أنْ كان سجيناً ورأى رُؤيا منامية أوَّلها له يوسف ، قال الساقي للملأ وللملك عن تلك الرؤيا :

﴿ أَنَاْ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف : 45] .

وبذلك استأذن ليذهب إلى مَنْ يُؤوِّل له رُؤيا الملك .

وقوله : ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف : 45] .

يعني أن التأويل ليس من عنده ؛ بل هو يعرف مَنْ يستطيع تأويل الرُّؤى .

ونلحظ أن القرآن لم يحمل على لسان هذا الرجل : إلى من سوف يذهب ؛ لأن ذلك معلوم بالنسبة له ولنا ، نحن الذين نقرأ السورة .

(213/397)

وانتقل القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عليه السلام ؛ فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان ساقي الملك :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾

وقوله : ﴿ أَيُّهَا الصديق ﴾ [يوسف : 46] .

يدل على أنه قد جرَّبه في مسائل متعددة ، وثبت صدقه .

و" صِدّيق " لا يقتصر معناها على أنه صادق في كل أقواله ؛ وصادق في كل أفعاله ، وصادق في كل أحواله ، ولكن معناها يتسع ليدلُّنا على أن الصدق ملازم له دائماً في القول وفي الفعل .

أما في الأقوال فصدقه واضح ؛ لأنه يقول القضية الكلامية ولها واقع من الخارج يدلُّ عليها .

وأما صدق الأفعال فهو ألاَّ تُجرِّب عليه كلاماً ، ثم يأتي فعله مخالفاً لهذا الكلام ؛ وهذا هو مَنْ نطلق عليه " صِدّيق " .

ونحن نعلم أن حركات الإنسان في الحياة تنقسم قسمين ؛ إما قول وإما فعل ؛ والقول أداته اللسان ، والفعل أداته كل الجوارح .

إذن : فهناك قول ، وهناك فعل ؛ وكلاهما عمل ؛ فالقول عمل ؛ والرؤية بالعين عمل ؛ والسمع بالأذن عمل ، والمسُّ باليد عمل .

لكن القول اختصَّ باللسان ، وأخذتْ بقية الجوارح الفعل ؛ لأن الفعل هو الوسيلة الإعلامية بين متكلم وبين مخاطب ، وأخذ شق الفعل .

وهكذا نعلم أن الفعل قسمان : إما قول ؛ وإما فعل .

والصِّدِّيق هو الذي يصدُق في قوله ، بأن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، وصادق في فعله

بألاَّ يقول ما لا يفعل .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 3]

.

ونعلم أن ساقي الملك كانت له مع يوسف تجربتان :

التجربة الأولى : تجربة مُعَايشته في السجن هو وزميله الخباز ، وقولهما له : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ [يوسف : 36] .

(214/397)

وكان قولهما هذا هو حيثية سؤالهم له أن يُؤوِّل لهما الرؤيين : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إني أراني أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخر إِنِّي أراني أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطير مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ [يوسف : 36] .

والتجربة الثانية : هي مجيء واقع حركة الحياة بعد ذلك مطابقاً لتأويله للرؤيين . ولذلك يقول له هنا :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لعلي أَرْجِعُ إِلَى الناس لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 46] .

أي : أفتِنَا في رُؤيا سبع بقرات سِمَان ؛ يأكلهن سبعُ بقرات شديد الهُزَال ، وسبع سُنْبلات خُضْر ، وسبع أُخر يابسات ، لَعلّي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .

وقوله : ﴿ أَفْتِنَا ﴾ [يوسف : 46] .

يوضح أنه لا يسأل عن رؤيا تخصُّه ؛ بل هي تخص رائياً لم يُحدده ، وإنْ كنا قد عرفنا أنها رُؤيا الملك .

وقوله : ﴿ لعلي أَرْجِعُ إِلَى الناس ﴾ [يوسف : 46] .

هو تحرُّز واحتياط في قضية لا يجزم بها ؛ وهو احتياط في واقع قدر الله مع الإنسان ، والسائل قد أخذ أسلوب الاحتياط ؛ ليخرجه من أن يكون كاذباً ، فهو يعلم أن أمر عودته ليس في يده ؛ ولذلك يُعلمنا الله :

﴿ وَلاَ تَقْولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً ﴾ [الكهف : 2324] .

وساعة تقول : " إن شاء الله " تكون قد أخرجتَ نفسك من دائرة الكذب ؛ وما دُمْتَ قد ذكرتَ الله فهو سبحانه قادر على أن يَهديك إلى الاختيار المناسب في كل أمر تواجه فيه الاختيار .

فكأن اللهُ يُعلِّم عباده أن يحافظوا على أنفسهم ، بأن يكونوا صادقين في أقوالهم وأفعالهم ؛ لأنك مهما خططتَ فأنت تخطط بعقل موهوب لك من الله ؛ وحين تُقدِم على أيِّ فعل ؛ فأيُّ فعل مهما صَغُر يحتاج إلى عوامل متعددة وكثيرَة ، لا تملك منها شيئاً ؛ لذلك فعليك أنْ تردَّ كلَّ شيء إلى مَنْ يملكه .

وهنا قال الساقي :

﴿ لعلي أَرْجِعُ إِلَى الناس ﴾ [يوسف : 46] .

وبذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه الاحتياط .

وأضاف الحق سبحانه على لسان الرجل :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 46] .

وكأن الرجل قد عرف أنه حين يأخذ التأويل من يوسف عليه السلام ؛ ويعود به إلى الناس ؛ فهو لا يعلم كيف يستقبلون هذا التأويل ؟

أيستقبلونه بالقبول ، أم بالمُحاجَّة فيه ؟ أو يستقبلون التأويل بتصديق ، ويعلمون قَدْرك ومنزلتك يا يوسف ؛ فيُخلِّصوك مما أنت فيه من بلاء السجن .

وقوله تعالى : ﴿ لعلي أَرْجِعُ إِلَى الناس . . . . ﴾ [يوسف : 46] .

قد يدفع سائلاً أن يقول : مَنِ الذي كلَّف الساقي بالذَّهاب إلى يوسف ؛ أهو الملك أم

الحاشية؟

ونقول: لقد نسبها الساقي إلى الكل؛ للاحتياط الأدائي.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ . . . ﴾.

وهذه بداية تأويل رُؤْيا الملك.

والدَّأْب معناه: المُواظبة؛ فكأن يوسف عليه السلام قد طلب أن يزرع أهل مصر بدأبٍ وبدون كسل.

ويتابع: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف: 47].

أي: ما تحصدونه نتيجة الزرع بجدٍ واجتهاد؛ فلكم أنْ تأكلوا القليل منه، وتتركوا بقيته محفوظاً في سنابله.

والحفظ في السنابل يُعلِّمنا قَدْر القرآن، وقدرة مَنْ أنزل القرآن سبحانه، وما آتاه الله جل علاه ليوسف عليه السلام من علم في كل نواحي الحياة، من اقتصاد ومقومات التخزين، وغير ذلك من عطاءات الله، فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خُزِّن في سنابله؛ فتلك حماية ووقاية له من السوس.

وبعض العلماء قال في تفسير هذه الآية ؛ إن المقصود هو تخزين القمح في سنابله وعيدانه .

وأقول : إن المقصود هو تَرْك القمح في سنابله فقط ؛ لأن العيدان هي طعام الحيوانات .

ونحن نعلم أن حبة القمح لها وعاءان ؛ وعاء يحميها ؛ وهو ينفصل عن القمحة أثناء عملية " الدَّرْس " ؛ ثم يطير أثناء عملية " التذرية " مُنفصِلاً عن حبوب القمح .

ولحبة القمح وعاء ملازم لها ، وهو القشرة التي تنفصل عن الحبة حين نطحن القمح ، ونسميها " الردة " وهي نوعان : " ردة خشنة " و " ردة ناعمة " .

ومن عادة البعض أن يَفصِلوا الدقيق النقي عن " الردة " ، وهؤلاء يتجاهلون أو لا يعرفون الحقيقة العلمية التي أكدت أن تناول الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الخالي من " الردة " يصيب المعدة بالتلبُّك .

فهذه القشرة الملازمة لحبة القمح ليست لحماية الحبة فقط ؛ بل تحتوي على قيمة غذائية كبيرة .

وكان أغنياء الريف في مصر يقومون بتنقية الدقيق المطحون من " الردة " ويسمُّونه " الدقيقة العلامة " ؛ الذي إنْ وضعت ملعقة منه في فمك ؛ تشعر بالتلبُّك ؛ أما إذا وضعت ملعقة من الدقيق الطبيعي الممتزج بما تحتويه الحبة من " ردة " ؛ فلن تشعر بهذا التلبُّك .

ويمتنُّ الله على عباده بذلك في قوله الحق : ﴿ والحب ذُو العصف والريحان ﴾ [الرحمن : 12] .

وقد اهتدى علماء هذا العصر إلى القيمة الفاعلة في طَحْن القمح ، مع الحفاظ على ما فيه من قشر القمح ، وثبت لهم أن مَنْ يتناول الخبز المصنوع من الدقيق النقي للغاية ؛ يعاني من ارتباك غذائي يُلجِئه إلى تناول خبز مصنوع من قِشْر القمح فقط ، وهو ما يسمى " الخبز السِّن " ؛ ليعوض في غذائه ما فقده من قيمة غذائية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف : 47] .

وهكذا أخبر يوسف الساقي الذي جاء يطلب منه تأويل رُؤْيا الملك ؛ بما يجب أن يفعلوه تحسُّباً للسنوات السبع العجاف التي تلي السبع سنوات المزدهرة بالخُضْرة والعطاء ، فلا يأكلوا مِلْء البطون ؛ بل يتناولوا من القمح على قَدْر الكفاف :

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف : 47] .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام من بقية التأويل لحُلْم الملك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن . . . ﴾ .

وهكذا أوضح يوسف عليه السلام ما سوف يحدث في مصر من جَدْب يستمر سبع

سنوات عجاف بعد سبع سنوات من الزرع الذي يتطلب هِمَّة لا تفتر .

وقوله سبحانه في وصف السبع " سنوات " بأنها :

﴿ شِدَادٌ . . ﴾ [يوسف : 48] .

يعني : أن الجَدْب فيها سوف يُجهِد الناس ؛ فإنْ لم تكُنْ هناك حصيلة تَمَّ تخزينها من محصول السبع السنوات السابقة ، فقد تحدُث المجاعة ، وليعصم الناسُ بطونهم في السنوات السبع الأولى ، وليأكلوا على قَدْر الضرورة ؛ ليضمنوا مواجهة سنوات الجَدْب .

ونحن نعلم أن الإنسان يستبقي حياته بالتنفس والطعام والشراب ؛ والطعام إنما يَمْري على الإنسان ، ويعطيه قوة يواجه بها الحياة .

ولكن أغلب طعامنا لا نهدف منه القوة فقط ؛ بل نبغي منه المتعة أيضاً ، ولو كان الإنسان يبغي سَدَّ غائلة الجوع فقط ، لاكتفى بالطعام المسلوق ، أو بالخبز والإدام فقط ، لكننا نأكل للاستمتاع .

ويتكلم الحق سبحانه عن ذلك فيقول : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً ﴾ [النساء : 4] .

أي : بدون أن يضرك ، ودون أن يُلجِئك هذا الطعام إلى المُهْضِمات من العقاقير .

وهذا هو المقصود من قول الحق سبحانه : ﴿ هَنِيئًا . . . ﴾ [النساء : 4] ، أما المقصود بقوله : ﴿ مَّرِيئًا ﴾ [النساء : 4] .

فهو الطعام الذي يفيد ويمدُّ الجسم بالطاقة فقط ؛ وقد لا يُستساغ طعمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ [يوسف : 48] .

وبطبيعة الحال نفهم أن السنوات ليست هي التي تأكل ؛ بل البشر الذين يعيشون في تلك السنوات هم الذين يأكلون .

ونحن نفهم ذلك ؛ لأننا نعلم أن أي حدث يحتاج لزمان ولمكان ؛ ومرة يُنسب الحَدث للزمان ؛ ومرة يُنسب الحَدث للمكان .

والمثال على نسبة الحَدث للمكان هو قول الحق سبحانه : ﴿ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا والعير . . . ﴾ [يوسف : 82] .

وطبعاً نفهم أن المقصود هو سؤال أهل القرية التي كانوا فيها ، وأصحاب القوافل التي كانت معهم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ نجد الحدث منسوباً للزمان ؛ وهم سيأكلون مما أحصنوا إلا قليلاً ؛ لأنهم بعد أن يأكلوا لا بد لهم من الاحتفاظ بكمية من الحبوب

والبُذُور لاستخدامها كتقاوي في العام التالي لسبع سنوات موصوفة بالجدب .

وقوله تعالى :

﴿ مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ [يوسف : 48] .

نجده من مادة " حصن " وتفيد الامتناع ؛ ويقال : " أقاموا في داخل الحصن " أي : أنهم إنْ هاجمهم الأعداء ؛ يمتنعون عليهم ؛ ولا يستطيعون الوصول إليهم .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ والمحصنات مِنَ النسآء . . . ﴾ [النساء : 24] .

أي : المُمْتنعات عن عملية الفجور ؛ وهُنَّ الحرائر .

وأيضاً يقول الحق سبحانه : ﴿ والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ [الأنبياء : 91] .

(219/397)

أي : التي أحكمتْ صيانة عِفّتها ، وهي السيدة مريم البتول عليها السلام ، وهكذا نجد مادة " حصَن " تفيد الامتناع .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ . . . ﴾ .

ونلحظ أن هذا الأمر الذي تحدث عنه يوسف عليه السلام خارج عن تأويل الرُّؤيا ؛ لأن ما احتوته رُؤيا الملك هو سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سِمَانٍ ؛ وسبع سُنبلات

خُضْر وأُخَر يابسات .

وأنهى يوسف عليه السلام تأويل الرُّؤيا ، وبعد ذلك جاء بحكم العقل على الأمور ؛ حيث يعود الخِصْب العادي ليعطيهم مثلما كان يعطيهم من قبل ذلك .

وهذا يمكن أن يطلق عليه " غَوْث " ؛ لأننا نقول " أَغِثْ فلاناً " أي : أَعِنْ فلاناً : لأنه في حاجة للعون ، والغيث ينزل من السماء لِيُنهي الجَدْب .

وقوله : ﴿ يُغَاثُ الناس . . . ﴾ [يوسف : 49] .

أي : يُعانون بما يأتيهم من فضل الله بالضروري من قوت يمسك عليهم الحياة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف : 49] .

أي : ما يمكن عَصْره من حبوب أو ثمار ؛ مثل : السمسم ، والزيتون ، والعنب ، والقصب ، أو البلح ، وأنت لن تعصر تلك الحبوب أو الثمار إلا إذا كان عندك ما يفيض عن قوت ذاتك وقوت من تعول .

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه أنهم سوف يُرزَقُونَ بخير يفيض عن الإغاثة ؛ ولهم أن يدخروه ، وما سبق في آيات الرؤيا وتأويلها هو حوار بين يوسف الصديق عليه السلام وبين ساقي الملك .

ولاحظنا كيف انتقل القرآن من لقطة عجز الحاشية عن الإفتاء في أمر الرؤيا ، وتقديم

الساقي طلباً لأن يرسلوه كي يُحضِر لهم تأويل الرؤيا ، ثم جاء مباشرة بالحوار بين يوسف والساقي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(220/397)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾

أخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : قال يوسف عليه الصلاة والسلام للساقي ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ أي الملك الأعظم ، ومظلمتي وحبسي في غير شيء . قال : أفعل . فلما خرج الساقي ، رد على ما كان عليه رضي عنه صاحبه ، وانساه الشيطان ذكر الملك الذي أمره يوسف عليه السلام أن يذكره له ، فلبث يوسف عليه السلام بعد ذلك في السجن بضع سنين ، ثم إن الملك ريان بن الوليد ، رأى رؤياه التي أري فيها فهالته وعرف أنها رؤيا واقعة ، ولم يدر ما تأويلها فقال للملأ حوله من أهل مملكته ﴿ إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات

﴿ فلما سمع نبوا من الملك ما سمع منه ومسألته عن تأويلها ، ذكر يوسف عليه السلام وما كان عبر له ولصاحبه ، وما جاء من ذلك على ما قال من قوله ، فقال ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أضغاث أحلام ﴾ قال : من الأحلام الكاذبة .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه مثله .

وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أضغاث أحلام ﴾ قال : أخلاط أحلام .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طرق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ قال : بعد حين .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد والحسن وعكرمة وعبد الله بن كثير والسدي ﴿ رضي الله تعالى عنهم ﴾ مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ يقول : بعد سنين .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير – رضي الله عنه – في قوله ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ يقول: بعد سنين.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن – رضي الله عنه – أنه قرأ ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ قال: بعد أمة من الناس.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قرأ ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ بالفتح والتخفيف، يقول بعد نسيان.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن وقتادة ومجاهد والضحاك – رضي الله عنهم – أنهم قرأوا ﴿ بعد أمة ﴾ أي بعد نسيان.

وأخرج ابن جرير عن حميد – رضي الله عنه – قال: قرأ مجاهد رضي الله عنه ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ مجزومة مخففة.

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن هرون – رضي الله عنه – قال في قراءة أبي بن كعب ﴿ أنا آتيكم بتأويله ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ – رضي الله عنه – أنه كان يقرأ ﴿ أنا آتيكم بتأويله ﴾ فقيل له: أنا انبئكم. قال: أهو كان ينبئهم؟

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة – رضي

الله عنه - في قوله ﴿ أفتنا في سبع بقرات . . . ﴾ الآية . قال :

أما السمان ، فسنون فيها خصب . وأما السبع العجاف ، فسنون مجدبة . وسبع سنبلات خضر ، هي السنون المخاصيب ، تخرج الأرض نباتها وزرعها وثمارها . وأخر يابسات ، المحول الجدوب لا تنبت شيئاً .

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49) ﴾

(222/397)

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . "لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه - والله يغفر له - حين سئل عن البقرات العجاف والسمان . ولو كنت مكانه - والله يغفر له - حين أتاه الرسول ، لبادرتهم الباب . ولكنه أراد أن يكون له العذر " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد - رضي الله عنه - قال : لم يرض يوسف عليه السلام أن أفتاهم بالتأويل حتى أمرهم بالرفق ، فقال : ﴿ تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم

فذروه في سنبله ﴾ لأن الحب إذا كان في سنبله لا يؤكل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فذروه في سنبله ﴾ قال : أراد يوسف عليه السلام بالبقاء .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج – رضي الله عنه – في قوله ﴿ فذروه في سنبله ﴾ قال في بعض القراءة الأولى : هو أبقى له لا يؤكل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن زيد بن أسلم – رضي الله عنه – أن يوسف عليه السلام في زمانه كان يصنع لرجل طعام اثنين ، فيقربه إلى الرجل فيأكل نصفه ويدع نصفه ، حتى إذ ما كان يوماً قرّبَهُ له فأكله فقال له يوسف عليه السلام : هذا أول يوم من السبع الشداد .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرر وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ﴾ قال : هن السنون المحول الجدوب . وفي قوله ﴿ يأكلن ما قدمتم لهن ﴾ يقول : يأكلن ما كنتم اتخذتم فيهن من القوت ﴿ إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ أي مما تدخرون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ مما تحصنون ﴾ يقول : تخزنون . وفي قوله ﴿ وفيه يعصرون ﴾ يقول : الأعناب والدهن .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ عام فيه يغاث الناس ﴾ يقول: يصيبهم فيه غيث ﴿ وفيه يعصرون ﴾ يقول: يعصرون فيه العنب، ويعصرون فيه الزيت، ويعصرون من كل الثمرات.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من وجه آخر، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ وفيه يعصرون ﴾ يحتلبون.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ وفيه يعصرون ﴾ يحتلبون.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس ﴾ قال: يغاث الناس بالمطر، ﴿ وفيه يعصرون ﴾ الثمار والأعناب والزيتون من الخصب.

وهذا علم آتاه الله علمه لم يكن فيما سئل عنه.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام... ﴾ الآية. قال: زادهم يوسف عليه السلام علم سنة لم يسألوه عنه.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ ثم يأتي من

بعد ذلك عام ﴾ قال : أخبرهم بشيء لم يسألوه عنه وكان الله تعالى قد علمه إياه ﴿ فيه يغاث الناس ﴾ بالمطر ﴿ وفيه يعصرون ﴾ السمسم دهناً ، والعنب خمراً ، والزيتون زيتاً .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد – رضي الله عنه ﴿ فيه يغاث الناس ﴾ قال : بالمطر ﴿ وفيه يعصرون ﴾ قال : يعصرون أعنابهم .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الضحاك – رضي الله عنه ﴿ فيه يغاث الناس ﴾ قال : يغاث الناس بالمطر ﴿ وفيه يعصرون ﴾ قال : الزيت .

وأخرج ابن جرير ، عن علي بن طلحة – رضي الله عنه – قال : كان ابن عباس – رضي الله عنه – يقرأ ﴿ وفيه تعصرون ﴾ بالتاء ، يعني تحتلبون .

(224/397)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق عبدان المروزي – رضي الله عنه – عن عيسى بن عبيد عن عيسى بن عمير الثقفي – رضي الله عنه – قال : سمعته يقرأ ﴿ فيه يغاث الناس وفيه تعصرون ﴾ بالتاء ، يعني الغيات المطر ، ثم قرأ ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وادكر ﴾ : فيه وجهان ، أظهرهما : أنها جملةٌ حاليةٌ : إمَّا مِن الموصول ، وإمَّا مِنْ عائده وهو فاعل " نجا " . والثاني : أنها عطفٌ على " نجا " فلا مَحَلَّ لها لنسَقِها على ما لا محلَّ له .

والعامَّةُ على " ادَّكَرَ " بدالٍ مهملة مشددة وأصلها : اذْتكَرَ افتعل مِنْ الذِّكر ، فوقعت تاءُ الافتعال بعد الذال فأُبدِلت دالاً فاجتمع متقاربان فأُبدِلَ الأول مِنْ جنس الثاني وأُدغم . وقرأ الحسن البصري بذالٍ معجمة . ووجَّهوها بأنه أبدل التاءَ ذالاً مِنْ جنس الأولى وأدغم ، وكذا الحكم في ﴿ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 15] كما سيأتي في سورته إنْ شاء اللَّه تعالى .

والعامَّةُ على " أُمَّة " بضم الهمزة وتشديد الميم وتاء منونة ، وهي المدة الطويلة . وقرأ الأشهب العقيلي بكسر الهمزة ، وفسَّروها بالنعمة ، أي : بعد نعمةٍ أنعم بها عليه وهي خَلاصُه من السجن ونجاتُه من القتل ، وأنشد الزمخشري لعديّ :

2798 ثم بعد الفَلاَحِ والمُلْكِ والإمْ . . . مَةِ وارَتْهُمُ هناك القبورُ

وأنشد غيره :

2799 ألا لا أرى ذا إمَّةٍ أصبحَتْ به . . . فَتَتْرُكه الأيامُ وهي كما هيا

وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وقتادة والضحاك وأبو رجاء " أَمَهٍ " بفتح الهمزة وتخفيف الميم وهاء منونة من الأَمَهِ ، وهو النسيان ، يقال : أَمِهَ يَأْمَهُ أَمَهاً وأَمْهاً بفتح الميم وسكونها ، والسكونُ غيرُ مَقيسٍ .

(226/397)

وقرأ مجاهد وعكرمة وشُبَيْل بن عَزْرَة : " بعد أَمْهٍ " بسكون الميم ، وقد تقدَّم أنه مصدرٌ لأَمِه على غير قياس . قال الزمخشري : " ومَنْ قرأ بسكون الميم فقد خُطِّىء " . قال الشيخ : " وهذا على عادتِه في نسبته الخطأ إلى القراء " قلت : لم يَنْسِبْ هو إليهم خطأً ؛ وإنما حكى أنَّ بعضَهم خطَّأ هذا القارىء فإنه قال : " خُطِّىء " بلفظِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه ، ولم يقل فقد أخطأ ، على أنه إذا صَحَّ أنَّ مَنْ ذكره قرأ بذلك فلا سبيلَ إلى الخطأ إليه البتةَ . و " بعد " منصوب ب " ادَّكر " .

قوله : { أَنَاْ أُنَبِّئُكُمْ } هذه الجملةُ هي المحكية بالقول . وقرأ العامَّة من الإِنباء . والحسن

"أنا آتيكم" مضارع أتى من الإتيان، وهو قريبٌ من معنى الأول .

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾

والصِّدِّيق بناء مبالغة كالشِّرِّيب .

قوله تعالى : ﴿ تَزْرَعُونَ ﴾ : ظاهرُه أن هذا إخبارٌ من يوسف عليه السلام بذلك . وقال الزمخشري : "تَزْرعون" خبر في معنى الأمر كقوله : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ ﴾ [الصف : 11] وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب المأمور المأمورَ به، فيُجعل كأنه وُجِد فهو يُخْبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله : ﴿ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ ﴾ . قال الشيخ : "ولا يدلُّ الأمرُ بتَرْكه في سنبله على أنَّ "تزرعون" في معنى ازرعوا، بل تَزْرعون إخبار غيب، وأمَّا "فَذَرُوه" فهو أمرُ إشارةٍ بما ينبغي أنْ يَفْعلوه" .

قلت : هذا هو الظاهرُ، ولا مَدْخَلَ لأمره لهم بالزِّراعة؛ لأنهم يَزْرعون على عادتهم، أَمَرَهم أو لم يأمرهم، وإنما يحتاج إلى الأمر فيما لم يكن من عادة الإنسان أن يفعلَه كتَرْكه في سُنْبله .

قوله : ﴿ دَأَباً ﴾ قرأ حفص بفتح الهمزة ، والباقون بسكونها ، وهما لغتان في مصدر دَأَب يَدْأَبُ ، أي : داوَمَ على الشيء ولازَمَه . وهذا كما قالوا : ضَأْن وضَأَن ، ومَعْز ومَعَز بفتح العين وسكونها . وفي انتصابه أوجهٌ ، أحدها وهو قول سيبويه : أنه منصوبٌ بفعل مقدر تقديره تَدْأَبون . والثاني وهو قول أبي العباس : أنه منصوب بتزرعون لأنه من معناه ، فهو من باب " قَعَدْتُ القُرْفُصاء " . وفيه نظر لأنه ليس نوعاً خاصاً به بخلاف القرفصاء مع القعود . / والثالث : أنه واقعٌ موقع الحال فيكون فيه الأوجه المعروفة : إمَّا المبالغةُ ، وإمَّا وقوعُه موقعَ الصفة ، وإمَّا على حذف مضاف ، أي : دائِبين أو ذوي دأب ، أو جَعَلهم نفسَ الدأَب مبالغة . وقد تقدَّم الكلامُ على " الدأب " في آل عمران عند قوله : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ [الآية : 11] .

قوله : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ ﴾ " ما " يجوز أن تكونَ شرطيةً أو موصولةً . وقرأ أبو عبد الرحمن " يأكلون " بالغَيْبة ، أي : الناس ، ويجوز أن يكونَ التفاتاً .

وقوله تعالى : ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ : حُذِف المميِّز وهو الموصوف لدلالة ما تقدَّم عليه . ونَسَبَ الأكلَ إليهنَّ مجازاً كقوله : ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ [يونس : 67] لَمَّا كان الأكلُ والإِبصارُ فيهما جُعِلا كأنهما واقعان فيهما .

قوله تعالى : ﴿ يُغَاثُ الناس ﴾ : يجوز أن تكون الألف عن واو ، وأن تكون عن ياء : إمَّا مِن الغَوْث وهو الفَرَج ، وفعلُه رباعيٌّ يُقال : أغاثَنا الله ، مِن الغَوْث ، وإمَّا مِن الغَيْث وهو

المطرُ يُقال : " غِيْثَتِ البلاد " ، أي : مُطِرَتْ ، وفعلُه ثلاثي يقال : غاثَنا اللَّهُ مِن الغَيْث . وقالت أعرابية : " غِثْنا ما شِئْنا " ، أي : مُطِرْنا ما أَرَدْنا " .

قوله : ﴿ يَعْصِرُونَ ﴾ قرأ الأخوان " تَعْصِرون " بالخطاب ، والباقون بياء الغيبة ، وهما واضحتان ، لتقدُّم مخاطبٍ وغائب ، فكلُّ قراءةٍ تَرْجِعُ إلى ما يليق به . و " يَعْصِرون " يحتمل أوجهاً ، أظهرُها : أنه مِنْ عَصَرَ العِنَبَ أو الزيتون أو نحو ذلك . والثاني : أنه مِنْ عَصَر الضَّرْعَ إذا حَلَبَه . والثالث : أنه من العُصْرة وهي النجاة ، والعَصَر : المَنْجى . وقال أبو زبيد في عثمان رضي اللَّه عنه :

2800 صادِياً يَسْتغيث غيرَ مُغاثٍ . . . ولقد كان عُصْرَةَ المَنْجودِ

ويَعْضُد هذا الوجهَ مطابقةُ قولِه ﴿ فِيهِ يُغَاثُ الناس ﴾ يُقال : عَصَرَه يَعْصِرُه ، أي : أنجاه .

وقرأ جعفر بن محمد والأعرج : " يُعْصَرون " بالياء من تحت ، وعيسى البصرة بالتاء من فوق ، وهو في كلتا القراءتين مبنيٌّ للمفعول . وفي هاتين القراءتين تأويلان ، أحدهما : أنها مِنْ عَصَره ، إذا أنجاه ، قال الزمخشري : " وهو مطابِقٌ للإِغاثة " . والثاني : قاله قطرب أنها

من الإِعصار ، وهو إمطار السحابة الماء كقولِه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ المعصرات ﴾ [النبأ : 14] . قال الزمخشري : " وقرئ "يُعْصَرون" : يُمْطَرون مِنْ أَعْصَرَتِ السَّحابة ، وفيه وجهان : إمّا أن يُضمَّنَ أَعْصَرت معنى مُطِرَتْ فيُعَدَّى تعديتَه ، وإمّا أن يقال : الأصل : أُعْصِرَتْ عليهم فحَذَفَ الجارَّ وأوصل الفعلَ [إلى ضميرهم ، أو يُسْنَدُ الإِعصارُ إليهم مجازاً فجُعِلوا مُعْصَرين "] .

وقرأ زيد بن علي : "تِعِصِّرون" بكسر التاء والعين والصادِ مشددَّة ، وأصلها تَعْتصرون فأدغم التاء في الصاد ، وأتبع العينَ للصاد ، ثم أتبع التاء للعين ، وتقدَّم تحريره في ﴿ أَمَّن لاَّ يهدي ﴾ [يونس : 35] .

(229/397)

ونقل النقاش قراءةَ "يُعَصِّرون" بضم الياء وفتح العين وكسر الصادِ مشددةً مِنْ "عَصَّرَ" للتكثير . وهذه القراءةُ وقراءةُ زيدٍ المتقدمة تحتملان أن يكونا مِن العَصْر للنبات أو الضرع ، أو النجاة كقول الآخر :

2801 لو بغيرِ الماءِ حَلْقي شَرِقٌ . . . كنت كالغَصَّانِ بالماءِ اعتصاري

أي : نجاتي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 512.507 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) ﴾

لمَّا كان المعلوم لله والمحكومُ أن يوسفَ عليه السلام يكون في ذلك الوقت هو مَنْ يُعَبِّر الرؤيا قَبَضَ القلوبَ حتى خَفِيَ عليها تعبيرُ تلك الرؤيا ، ولم يحصل للمَلِكِ ثَلَجُ الصَّدْرِ إلا بتعبير يوسف ، ليُعْلَم أنَّ اللَّهَ – سبحانه – إذا أراد أمراً سَهَّل أسبابَه .

ويقال : إن الله تعالى أفْرَد يوسف عليه السلام من بين أشكاله بشيئين : بحُسْن الخِلْقة وبزيادة العلم ؛ فكان جمالُه سببَ بلائه ، وصار علمُه سببَ نجاته ، لتُعْلَمَ مزيَّةُ العلمِ على غيره ، لهذا قيل : العلم يُعْطِي وإن كان يُبْطِي .

ويقال إذا كان العلم بالرؤيا يوجب الدنيا فالعلمُ بالمولى أَوْلَى أن يوجبَ العقبى ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ [الإنسان : 20] .

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ﴾

لم يقدِّم الدعاءَ إلى الله تعالى على تعبير هذه الرؤيا كما فعل في المرة الأولى ، لأن هذا السائل هو الذي دعاه في المرة الأولى . فإمّا أنه قد قَبِلَ في المرة الثانية ، وإمّا أنه لم يقبل فَيَئِسَ منه فأهمله .

وصاحبُ الرؤيا الثانية كانت المَلِكَ وكان غائباً ، والوعظ والدعاء لا يكونا إلا في المشاهدة دون المغايبة .

ويقال يحتمل أن يكون قد تفرّس في الفَتَيَان قبولَ التوحيد فإنّ الشباب أَلينُ قلباً ، أمّا في هذا الموضع فقد كان المَلِكُ أصلبَ قلباً وأفظَّ جانِباً ؛ فلذلك لم يَدْعُه إلى التوحيد لِمَا تفرّسَ فيه من الغِلظة . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 187 . 188﴾

(231/397)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(91) . . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلامما تأكلون

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذه الآية الكريمة جاءت في أواخر النصف الأول من سورة يوسف وهي سورة مكية , وعدد آياتها (111) آية بعد البسملة , وقد تفردت باستعراض قصة هذا النبي الصالح بتفاصيلها , والذي جاء ذكره (عليه السلام) في كل من سورتي الأنعام وغافر , وفي مقابلة ذلك جاءت سير غيره من أنبياء الله ورسله إما مجملة في جزء من سورة , أو مفصلة علي مراحل في عدد من السور , علما بأن سبعا من سور القرآن الكريم تحمل أسماء غيره من أنبياء الله ورسله من أمثال : نوح , هود , إبراهيم , يونس , طه , يس , محمد (صلي الله وسلم وبارك عليهم أجمعين) , أو أسماء جماعة أو فرد من الصالحين من أمثال آل عمران , مريم , ولقمان (رضي الله تعالي عنهم) , أو بعض صفاتهم من أمثال سورتي الأنبياء والمؤمنون .

ويبدو ـ والله تعالي أعلم ـ أن الحكمة من وراء إجمال قصة سيدنا يوسف (عليه السلام) في سورة واحدة هي تثبيت خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) في وقت من أوقات الشدائد التي لقيها من كفار ومشركي العرب , بعد وفاة كل من زوجته الوفية أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) وعمه أبو

طالب , وكانا ـ بعد الله تعالي ـ سندي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في الدنيا أمام

اضطهاد كفار قريش له خاصة , وللمسلمين عامة , في مكة المكرمة , وبعد تخلي أهل الطائف عن مناصرته , وتآمر الكفار والمشركين في مكة علي قتله , أو سجنه , أو نفيه , (صلي الله عليه وسلم) خاصة بعد بيعتي العقبة الأولي والثانية والشعور العام

بتعاظم خطر الإسلام والمسلمين وتكوين قاعدة لهم بالمدينة المنورة , وقد أمر رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بالاستعداد للهجرة , وعز عليه مفارقة مكة المكرمة - أشرف بقاع الأرض وأحبها إلي الله ورسوله - وما خامره (صلي الله عليه وسلم) في ذلك من مشاعر الوحشة , والغربة , والانقطاع عن الكعبة المشرفة , وعن الأهل والأحباب , وكان أغلب أصحابه قد هاجر أغلبهم بالفعل إلي المدينة المنورة .

وسط هذه الشدائد والابتلاءات والمحن أنزلت عليه (صلي الله عليه وسلم) سورة يوسف تروي قصة أخ له من أنبياء الله السابقين , وهو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم (علي نبينا وعليهم جميعا من الله أفضل الصلاة وأزكي التسليم) , وقد عاني من الابتلاءات والمحن ما كان في سرده تثبيت لخاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) , ولصحابته الكرام (عليهم رضوان الله) , ولكل مسلم من بعدهم إلي يوم الدين .

فمنذ نعومة أظفاره مر يوسف (عليه السلام) بقدر من الابتلاءات لا يقوي علي حملها كثير من الناس , ابتداء بكيد إخوته له , وتآمرهم عليه , ومرورا بمحنة إلقائه في غيابة الجب وهو طفل صغير , وما صاحبه في هذا الوضع المخيف من رعب ووحشة وحزن , بعد الرعاية الفائقة التي كان قد تعود عليها في ظل والديه , ثم محنة انتشاله من قاع البئر , وبيعه رقيقا , ينقله مالكوه من يد إلي يد , بغير إرادة منه , ولا مشورة معه , وهو النبي ابن النبي ابن النبي ابن النبي , ثم محنة افتتان زوجة العزيز به , وولهها وهيامها بحبه , ومحاولتها فتنته عن فطرته السوية التي فطره الله (تعالي) عليها , ومحنة ما جمعت له من نسوة تستعين بهن علي فتنته , ومحنة السجن دون ذنب أو خطيئة , ثم الابتلاء بعد ذلك بالجاه والسلطان والسعة في الرزق , والتمكين في الأرض بالقيام علي خزائن مصر , ثم الابتلاء بلقائه مع إخوته الذين سبق لهم أن ظلموه

وجاروا عليه بالكيد له , وانتهاء بالابتلاء الكبير الذي تمثل في تحقق رؤياه وسجود أبويه وإخوته له بعد أن جمع الله شملهم علي أرض مصر .

وقد صبر يوسف (عليه السلام) علي جميع هذه الابتلاءات والمحن صبر المؤمن بالله ,

الموقن بألوهيته , وربوبيته , ووحدانيته وتجلد تجلد الصابر المحتسب . طلبا لمرضاة الله , وتسليما لقضائه , ورضا بقدره (سبحانه) وإيمانا بأنه الخير كل الخير .

ومما يثير الإعجاب حقا أن هذه الابتلاءات والشدائد والمحن التي مر بها سيدنا يوسف (عليه السلام) لم تعقه لحظة عن دعوته إلي الإسلام الخالص القائم علي توحيد الله , وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله حتي في أشد ساعات الابتلاء والامتحان صعوبة , ويذكر لنا القرآن الكريم رده علي زميليه في السجن حيث يقول :

ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار (يوسف :39)

وبهذا الإيمان الراسخ بالله الواحد القهار خرج يوسف (عليه السلام) من كل هذه الابتلاءات والمحن والشدائد وهو أصلب عودا , وأقوي علي مجابهة الحياة , وأكثر إخلاصا وتجردا لعبادة الله (سبحانه وتعالي) وحبا له , وتفانيا في إرضائه , ولذلك كانت أكبر أمنياته في لحظة الانتصار أن يتوفاه الله مسلما وفي ذلك يقول لنا القرآن الكريم في ختام قصة يوسف (عليه السلام) :

فلما دخلوا علي يوسف آوي إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين * ورفع أبويه علي العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن

ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم * رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين * (يوسف :101.99)

وهكذا كان في قصة نبي الله يوسف (عليه

السلام) أجمل مواساة لخاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) في الابتلاءات والمحن والشدائد التي مر بها قبل الهجرة , وأعظم تطمين له بحتمية الانتصار علي أعداء الله وأعدائه , وأجمل بشري بقرب التمكين له في الأرض كما مكن الله (تعالي) لنبيه يوسف (عليه السلام) بعد ما مر به من الابتلاءات , ومثل هذه البشريات لا تدركها إلا القلوب العامرة بالإيمان بالله , والمطمئنة بمعيته (سبحانه وتعالي) , والمسلمة بقدر الله وقضائه , والموقنة بأن فيه الخير كل الخير حتي لو بدا لنا بمقاييسنا البشرية المحدودة أنه ليس في صالحنا , وفي ذلك يقول ربنا (تبارك وتعالي) :

وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون * (يوسف :57,56)

وفي الآية الأخيرة إشارة واضحة إلي ضآلة شأن الدنيا إذا قورنت بالآخرة , وتأكيد علي أن كل محنة وابتلاء وشدة يمر بها المؤمن في هذه الحياة الدنيا هي من أجل تزكية نفسه , وتطهير بدنه , وتكفير سيئاته , ورفع درجاته , وزيادة أجره ولذلك فإن سورة يوسف التي بدأت برؤياه وانتهت بتحقيق تلك الرؤيا ختمت بقول الحق تبارك وتعالي : مخاطبا خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) :

قل هذه سبيلي أدعو إلي الله علي بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين

* وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القري أفلم يسيروا في الأرض

فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون *

حتي إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء

ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين * لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا

يفتري ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدي ورحمة لقوم يؤمنون * (

يوسف :111.108)

الحروف المقطعة في

مطلع سورة يوسف

جاءت قصة يوسف عليه السلام في ثمان وتسعين آية , وقدم لها ربنا (تبارك وتعالي) بثلاث من الآيات كانت أولاها :

الر تلك آيات الكتاب المبين والحروف المقطعة الثلاث (الر) تكررت خمس مرات في مطلع خمس من سور القرآن الكريم , وجاءت مرة سادسة مع إضافة الحرف م (المر) , وهذه الحروف الهجائية المقطعة التي جاءت بأربع عشرة صيغة , في مطلع تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم تعتبر من أسرار هذا الكتاب العزيز التي فوض كثير من المفسرين العلم فيها إلي الله (تعالي) , وحاول بعضهم إيجاد تفسير لها , فمنهم من رأي أنها رموز إلي كلمات أو معان , أو أعداد معينة , ومنهم من رأي أنها أسماء للسور , أو قصدت لإظهار التحدي بالقرآن الكريم , والدلالة علي إعجازه , أو قصد منها تنبيه السامع , أو جعلها فواتح للكلام , ومنهم من يري أن هناك روابط معنوية بين الحروف المقطعة وسورها , أو روابط رياضية بين تلك الحروف المقطعة وعدد مرات ورودها في السورة (بمعني وجود قانون رياضي يربط توزيع الحروف في سور هذا الكتاب العزيز الذي نزل منجما آية آية , أو بضع آيات بضع آيات , وفي حالة قصار السور وفي بعض الحالات النادرة جاءت السورة كاملة) . ومن المفسرين من يري أن الله (تعالي) أراد بتلك الحروف المقطعة شهادة علي صدق خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) لنطقه بأسماء تلك الحروف. وهو

الأمي. والنطق بأسماء الحروف لا يعرف إلا بالتعلم والمران , ومنهم من يري الجمع بين هذه الرؤي كلها . والحروف المقطعة الثلاث (الر) التي استهلت بها سورة يوسف (عليه السلام) كأنها تخاطب العرب. وهم في قمة الفصاحة والبلاغة وحسن البيا ن. فتقول لهم إن

كلامكم يتركب من تلك الحروف الهجائية وأمثالها , وكذلك القرآن الكريم , وقد تحداكم ربكم أن تأتوا بقرآن مثله , أو بعشر سور مفتريات من مثله , أو حتي بسورة

واحدة من مثله ففشلتم وعجزتم عن ذلك مما يجعل هذا الكتاب المبين حجة عليكم أجمعين , ولذلك جاءت الآية الثانية من سورة يوسف بقول الله (تبارك وتعالي) :

إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون *

(يوسف :2)

ووجه الخطاب في الآية الثالثة إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي) :

نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين

*

(يوسف :3)

وذلك لأن قصة نبي الله يوسف (عليه السلام) من أنباء الغيب كما أشار الله (تعالى) إلي ذلك في عشر آيات من هذه السورة المباركة, فلم يكن رسولنا الخاتم (صلي الله عليه وسلم) يعلم شيئًا عنها قبل أن يتنزل الوحي عليه بها , ولم تكن الغالبية الساحقة من أهل الأرض تذكر شيئًا عنها باستثناء قلة نادرة من أحبار أهل الكتاب الذين كانوا مبعثرين في جيوب قليلة من الجزيرة العربية, وعلي أطرافها (الشمالية, والشمالية الغربية, والجنوبية الغربية) . والمقارنة بين قصة سيدنا يوسف (عليه السلام) كما جاءت في القرآن الكريم, وكما جاءت في العهد القديم توضح الفارق الشاسع بين كلام الله وكلام البشر, والتشابه في القصة الكريمة مرده إلي وحدة المصدر السماوي, والاختلاف في الأسلوب والمحتوي والتفاصيل مرده إلي قدر هائل من التحريف الذي تعرضت له رسالة سيدنا موسي (علي نبينا وعليه من الله السلام) .

من القضايا المعنوية في سورة يوسف

تضمنت سورة يوسف العديد من القضايا العقدية والروحية والمعنوية التي نستخلص منها ما يلي :

(1) أن القرآن الكريم هو كلام الله (سبحانه وتعالي) الموحي به إلي خاتم أنبيائه ورسله (

صلي الله عليه وسلم) , بلسان عربي مبين كي يفهمه العرب ويطبقوه أمرا واقعا في حياتهم , ويبلغوا به غيرهم من الأمم أصحاب اللغات الأخري , لأنه أنزل للناس كافة , ولأنه الكتاب

المبين عن الدين الحق , الواضح الدلالة لكل من استرشد بهديه الرباني الخالص , في الوقت الذي تعرضت كل صور الوحي السابقة علي نزوله إما للضياع أو للتحريف .

(2) أن قصة نبي الله يوسف (عليه السلام) لم تكن معروفة لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) قبل الوحي بها إليه , ولم يكن أحد من العرب يعرفها أو يعرف شيئا عنها سوي آحاد من أهل الكتاب الذين وجدوها بصورة محرفة في كتبهم , وشتان بين روايتها في القرآن الكريم وسردها عندهم , والفارق واضح وضوح الشمس بين كلام الله وصياغة البشر , وعلي ذلك فذكرها في القرآن الكريم هو من الشهادات الناطقة بنبوة هذا النبي الخاتم , وبأنه (صلي الله عليه وسلم) كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض , وإن كان المستشرقون وأعداء الإسلام من كل لون قد استغلوا التشابه بين القصص القرآني والقصص عن أهل الكتاب للادعاء الباطل بأن الرسول الخاتم (عليه أفضل الصلاة وأزكي

التسليم) قد اقتبسه من كتبهم , بدلا من التسليم بوحدة المصدر وهو الله الخالق (سبحانه وتعالي) , مع الفارق الواضح بين كلام الله وتحريف البشر , ويكفي في ذلك الإشارة إلي قصة يوسف (عليه السلام) كما جاءت في كل من سفر التكوين والقرآن الكريم وهنا تتضح الحكمة الربانية من جعل خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) لا يعرف القراءة والكتابة , كما ثبت ذلك بقول ربنا (تبارك وتعالي) في سورة العنكبوت مخاطبا هذا الرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) :

وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون * (العنكبوت 48:)

(3) أن رؤي الأنبياء حق , وأن الله (تعالي) يعلم من يشاء من عباده الصالحين تأويل الرؤي .

(4) أن الشيطان للإنسان عدو مبين , وأنه يترصد بوسوسته جميع بني آدم حتي أبناء الأنبياء والمرسلين كما حدث مع إخوة يوسف (عليه السلام) .

(5) أن المساواة بين الأبناء ضرورة فطرية , ولازمة تربوية لأن المبالغة في حب الوالدين أو احدهما لأحد الأبناء يدفع الآخرين من الأبناء إلي كراهيته والكيد له كما حدث من إخوة يوسف .

(6) أن الله (تعالي) قادر علي أن يمكن لمن يشاء من عباده في الأرض , وهو (سبحانه) غالب علي أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون , والإيمان بهذه الحقيقة يجعل الإنسان راضيا بقضاء الله وقدره , ويثبته في حالات النوازل , والمحن والابتلاءات , ويمنعه من ظلم الآخرين لأنه لايفلح الظالمون .

(7) أن جميع أنبياء الله قد آمنوا بالله الواحد القهار , ودعوا أممهم إلي التوحيد الخالص لله الخالق (بغير شريك , ولا شبيه , ولا منازع , ولا صاحبة ولا ولد) , وإلي تنزيهه (سبحانه وتعالي) عن كل وصف لايليق بجلاله , وذلك لأن الله (تعالي) قد أمر بألا يعبد سواه , ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا وهم مشركون , علي الرغم من تسليمهم بأنه سبحانه وتعالي فاطر السماوات والأرض , وذلك من دس الشياطين ووسوساتها إليهم , ولذلك يوجه الحق (تبارك وتعالي) الخطاب إلي خاتم أنبيائه ورسله بقوله :

وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين .

(يوسف :103)

(8) أن الإسلام القائم علي التوحيد الخالص لله , وإسلام الوجه طواعية واختيارا له (

سبحانه) , خضوعا كاملا لأوامره , واجتنابا تاما لنواهيه , واتباعا دقيقا لهديه , ويحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض , وإقامة عدل الله فيها , هذا الإسلام هو الدين القيم , الذي لا يرتضي ربنا (تبارك وتعالي) من عباده دينا سواه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

(9) أن النفس الإنسانية أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي وهو الغفور الرحيم , وعلي كل عاقل ألا يتبع نفسه هواها وأن يعلم أنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

(10) أن العلم قيمة عليا في الإسلام , وعلي

العلماء ألا يغتروا بعلمهم لأن الله (تعالي) قد جعل فوق كل ذي علم عليم , وأنه (تعالي) لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم .

(11) أن الساعة لا تأتي إلا بغتة , وأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

الإشارات الكونية في سورة يوسف (عليه السلام)

جاء في سورة يوسف (عليه السلام) عدد غير قليل من الإشارات الكونية التي نوجز منها ما يلي :

(1) ليس من قبيل المصادفة أن يكون عدد إخوة يوسف (عليه السلام) أحد عشر , ويكون عدد الكواكب في مجموعتنا الشمسية بنفس العدد , وأن يري يوسف في رؤياه أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين , وتتحقق هذه الرؤيا بسجود إخوته وأبويه له يوم جمعهم الله جميعا علي أرض مصر , وفي ذلك يقول ربنا (تبارك وتعالي) :

إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين *

(يوسف :4)

(2) الإشارة إلي واقعة تاريخية وقعت بمصر من قبل بعثة المصطفي (صلي الله عليه وسلم) بأكثر من اثني عشر قرنا مؤداها مرور سبع سنين من الخصب العام , تليها سبع سنين عجاف من القحط والجفاف والجدب , يليها عام زالت فيه تلك الشدة ونزل الغيث وعم الرخاء , وقد أثبتت الدراسات الأثرية صدق ذلك ,

(3) التوصية الإلهية التي ألهمها ربنا (تبارك وتعالي) لعبده يوسف (عليه السلام) بترك القمح المخزون من أعوام الرخاء لأعوام الشدة في سنابله , وقد أثبتت التجارب في خزن المحاصيل الزراعية انها الطريقة المثلي في حفظ المحاصيل ذات السنابل لمدد طويلة دون فساد أو تسوس أو نقص في محتواها الغذائي .

(4) وصف عيني سيدنا يعقوب (عليه السلام) بأنهما ابيضتا من الحزن وهو ما يعرف

اليوم باسم الماء الأبيض أو (الكاتاراكت) وهو عبارة عن عتامة تحدث لعدسة العين تمنع دخول الضوء جزئيا أو كليا حسب درجة العتامة , وقد تحدث بسبب الحزن الشديد المصاحب بالبكاء أو

لكبر السن وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالي :

وتولي عنهم وقال يا أسفا علي يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم *

(يوسف :84)

(5) الإشارة إلي أن عرق الإنسان به من المركبات الكيميائية ما يمكن من شفاء عتامة عدسة العين (الماء الأبيض) , وهو ما توصل إليه الأستاذ الدكتور عبد الباسط سيد محمد الأستاذ بالمركز القومي للبحوث . بالدقي -القاهرة بعد ان قام بنقع عدد من العدسات المعتمة (التي تم استخراجها من عيون عدد من المرضي بعمليات جراحية) في عرق الإنسان فوجد أنها تحدث حالة من الشفافية التدريجية لتلك العدسات , ووجد أن العامل المؤثر في ذلك هو أحد المركبات الكيميائية لعرق الإنسان , واسمه العلمي (الجواندين) , وأمكن تحضير هذا المركب مختبريا , وإنتاج قطرة منه حصل بها علي براءة اختراع أوروبية

وأخري أمريكية في العامين 1991 م و 1993 م علي التوالي , وقد استوحي هذا العالم الجليل فكرة تلك القطرة من قول ربنا (تبارك وتعالي) : علي لسان عبده ونبيه يوسف (عليه السلام) مانصه :

اذهبوا بقميصي هذا فألقوه علي وجه أبي يأت بصيرا واتوني بأهلكم أجمعين *

(يوسف :93)

(6) الإشارة إلي أن بالسماوات والأرض من الآيات الحسية ما يشهد لله الخالق (سبحانه وتعالي) بطلاقة القدرة , وعظيم الصنعة , وإحكام الخلق , وقد أثبتت الدراسات العلمية ذلك , وإن كان أغلب الناس (يمرون عليها وهم عنها معرضون) .

وكل واحدة من هذه الإشارات الكونية تحتاج إلي معالجة خاصة بها , ولذلك فإنني سوف أقصر حديثي هنا علي النقطة الثالثة المتعلقة بخزن المحاصيل ذات السنابل في سنابلها , وقبل الوصول إلي ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالي علي لسان عبده ونبيه يوسف عليه السلام :

قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا

قليلامما تأكلون ❁

(يوسف :47)

ذكر الإمام ابن كثير (رحمه الله) ما مختصره : قال (تزرعون سبع سنين دأبا) أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات (فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلامما تأكلون) : أي مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ليكون أبقي له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذي تأكلونه , وليكن قليلا قليلا لاتسرفوا فيه , لتنتفعوا به في السبع الشداد , وهن السبع سنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات , وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان , لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب , وهن السنبلات اليابسات , وأخبرهم أنهن لاينبتن شيئًا وما بذروه فلا يرجعون منه إلي شئ , ولهذا قال : (يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلامما تحصنون) ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك (عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) أي يأتيهم الغيث وهو المطر , وتغل البلاد , ويعصر الناس ما كانوا يعصرون , علي عادتهم من زيت وعنب ونحوه .

ومن قبل ذكر الإمام الطبري (رحمه الله) كما ذكر بقية المفسرين كلاما مشابها مع تفاوت بسيط في شرح دلالة بعض كلمات الآية الكريمة , ولذلك أري الأكتفاء هنا بكلام الإمام ابن كثير (رحمه الله ورحم جميع المفسرين الذين خدموا القرآن الكريم برحمته الواسعة) .

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

يعتبر القمح أهم أغذية الإنسان , وقد عرف في المشرق العربي قبل بدء التاريخ , ثم انتشر إلي أواسط آسيا , ومن بعد ذلك إلي بقية أجزاء العالم , وكان قدماء المصريين من أوائل الشعوب التي زرعت القمح , وإن كان تاريخ زراعته يرجع إلي العصر الحجري إن لم يكن قبل ذلك .

والقمح يتبع العائلة النجيلية (FamilyGramineae) نسبة إلي نبات النجيل , وتضم هذه العائلة بالإضافة إلي القمح عددا من المحاصيل الأخري مثل الشعير , الذرة , الشوفان

الراي أو الجاردار (Rye) والأرز , السرجوم (Sorghum) , كما تشمل نباتات اقتصادية اخري مثل قصب السكر , والغاب والنجيل وغير ذلك من حشائش المراعي ,

والأعشاب الطبية , وتشمل عائلة النجيليات حوالي 450 جنسا , وسبعة آلاف نوع من أنواع النباتات التي تنتشر علي سطح الأرض لتغطي مساحات هائلة تفوق المساحات التي تغطيها أفراد أية عائلة نباتية أخري , وتمثل العائلة النجيلية بأعشاب حولية أو معمرة , وإن كان بعضها يمثل بنباتات خشبية قد يصل طول الواحدة منها إلي اكثر من ثلاثين مترا كما هو الحال في نباتات الخيزران الهندي .

وأزهار النجيليات عادة ما تكون بسيطة التركيب صغيرة الحجم , خضراء ويتم تلقيحها بواسطة الرياح .

والقمح هو أهم أجناس العائلة النجيلية علي الإطلاق , ويعرف منه في مصر ثلاثة أنواع رئيسية علي الأقل تعرف بالأسماء التالية :

(1) القمح شديد الاحتمال (الدكر) (Triticumdurum) أو (Emmer)

وهذا النوع من القمح يزرع في جنوب صعيد مصر , وفي واحات الصحراء الغربية , وفي شبه جزيرة سيناء .

(2) القمح البلدي (الهرمي) Triticumpyramidale ويزرع في شمال صعيد مصر وفي الفيوم .

(3) القمح الهندي TriticumVulgare ويزرع في الوجه البحري .

وتتميز نباتات العائلة النجيلية بالجذور الليفية التي يحمل الكثير منها ريزومات عقدية

وتتكاثر أغلبها بالأشطاء وهي براعم تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق (فوق التربة) كما هو الحال في نبات القمح , الذي تتكون جذوره من مجموع أساسي خارج من البذرة النابتة , ومجموع عرضي يخرج من البراعم الجانبية , وكذلك الساق يتميز إلي ساق أساسي (يمثل نمو السويقة المنبثقة من داخل البذرة النابتة) وسيقان عرضية علي هيئة أفرع قاعدية تخرج من البراعم الإبطية الموجودة عند العقد القاعدية , المزدوجة , النامية علي قاعدة الساق الأساسية عند منطقة الاتصال بين الجذر

والساق فوق سطح الأرض (التربة) مباشرة , وبذلك ينبت من الحبة الواحدة مجموعة من الأفرع أو السيقان المحيطة بالساق الرئيسي تعرف باسم الأشطاء (مفردها شطء) ويتراوح عددها بين العشرين والثلاثين وقد يصل إلي الخمسين , وعلي ذلك فإن نبتة القمح الواحدة توجد في حزمة مركبة من الأشطاء النامية حول الساق الأساسي وكلها متصلة ببعضها البعض في مجموعة من الجذور الليفية مما يوضح خروجها من أصل واحد , أي من بادرة واحدة خارجة من بذرة واحدة , فالحبة النابتة تخرج منها البادرة , والبادرة تعطي الأشطاء في منطقة الاتصال بين الجذر والساق فوق التربة مباشرة , ولا تلبث تلك أن تنمو

حتي تصل إلي طول الساق الأصلية تقريبا وتعطي سنابل مثلها , بحيث يكون لكل شطء سنبلة خاصة به , وبذلك تنبت الحبة الواحدة نباتات تحمل عدة سنابل , وأوراق شجيرة القمح متبادلة علي ساقها , وكل واحدة منها تحمل زوجا من الأذينات عند قاعدة النصل , وللساق غمد يحيط به , ونورة نبات القمح تتكون من حشد من الأزهار التي تتجمع علي جزء من الساق , وبذلك تتركب النورة من جزء من الساق يسمي محور النورة , وعدد من الأزهار التي تخرج من آباط أوراق صغيرة تسمي القنابات (العصيفات أو العصافات مفردها عصيفة) , وفي بعض الأحيان تظهر الأزهار دون قنابات .

ونورة نبات القمح نورة مركبة يستطيل فيها المحور وتترتب عليه الأزهار الجالسة التي بعد إخصابها تعطي الثمرة وهي بذور القمح , وعند تمام الإخصاب تتحول نورة القمح إلي سنبلة خضراء ثم بعد تمام نضجها تتحول إلي سنبلة صفراء ذهبية .

وسنبلة القمح سنبلة مركبة , يحمل فيها المحور سنابل أصغر تعرف باسم السنيبلات , وهي جانبية الترتيب في تبادل علي صفين متقابلين , وينتهي المحور عادة بسنبلة طرفية . وتحمل السنبلة في المتوسط (20.15) سنيبلة , ويتفاوت عدد الأزهار في السنيبلة الواحدة بين (9.2) ويكون في

النسيبلة الواحدة حبتان إلي ثلاث حبات من القمح . ولبعض سلالات القمح شوكة طرفية دقيقة جدا تعرف باسم (السفا أو الحسكة) . ونبات الشعير يشبه نبات القمح في شكله وفي العديد من صفاته , والشعير من أقدم محاصيل الحبوب التي عرفها الإنسان وقام علي زراعتها , وكان يعتبر المصدر الرئيسي لدقيق الخبز حتي حل القمح محله في ذلك . ولكل من حبتي القمح والشعير غلاف رقيق ولكنه صلب , يلتصق بالحبة بشدة بالغة , ويعتبر حماية لها من الرطوبة , والتغيرات المناخية , ومن مختلف أنواع الكائنات الحية الضارة , والملوثات الكيميائية , ويعرف باسم الغلاف المحيط (Pericarp) , وهو ينفصل عن حبة القمح (البرة) علي هيئة النخالة عند الطحن , وتؤلف النخالة حوالي 8,5% من وزن حبة القمح وهي ثمرة جافة , صغيرة , التحم جدارها بغلاف البذرة التحاما كاملا .

وجنين بذرة القمح صغير جدا ويتكون من مركبات كيميائية ذات قيمة غذائية عالية من مثل البروتينات والفيتامينات والدهون ويشكل ذلك حوالي 2% . 2.5% من وزن حبة القمح وعادة ما تستبعد الدهون من الدقيق عند طحنه لأنها تتحلل وتفسد مع التخزين لمدد طويلة , ويحاط الجنين بمخزون غذائي علي هيئة طبقة بروتينية غنية بمادة الجلوتين (Gluten) وبمركبات الفوسفور والنشا , وجزيئات الجلوتين خيطية الشكل ومتشابكة مع بعضها البعض , ومن فوائدها أنها تجعل العجين لينا سهل التشكيل , وقابلا للتخمر

بإضافة الخميرة إليه , ويمثل المخزون الغذائي في حبة القمح حوالي 87% إلي 88% من كتلتها .

وحبة القمح تغلفها قنابة تسمي العصافة (Glume) هي التي تكون قشر الحنطة .

والحبوب في كل من السنيبلات والسنابل محاطة بأغلفة واقية وأشواك وشعيرات تحميها من الفطريات والبكتريا والجراثيم , والحشرات والرطوبة , ومن تقلبات الطقس وتيارات الهواء الجوي المباشر المحمل بالملوثات , وهذه الأغلفة بالرغم من صلابتها , وشدة

إحكامها فإنها تسمح للجنين الكامن في داخل البذرة ـ وهو في حالة من الركود الحيوي والسكون ـ بقدر من التهوية غير المباشرة والمستمرة , وتحول دون ارتفاع نسبة الرطوبة للحيلولة دون إنبات الجنين في أوقات التخزين , كذلك فإن البذرة الجافة وأغلفتها تحتوي علي آثار طفيفة من مركبات كيميائية حافظة للبذرة , ومثبطة لعملية إنباتها تحت الظروف الجافة , وعلي مركبات أخري مضادة لكل من البكتريا , والفطريات والجراثيم المحتمل وصولها إلي الحبوب أثناء تخزينها .

انطلاقا من ذلك كله جاءت الآية الكريمة التي نحن بصددها إلهاما من الله (سبحانه وتعالي

) لنبيه يوسف (عليه السلام) لكي ينصح بخزن المحاصيل الزراعية كالقمح والشعير, والأرز, والشوفان في سنابلها, وقد أثبتت التجربة أنه أفضل نظام لحفظ تلك المحاصيل طالت مدد ذلك الحفظ أم قصرت, وقد طبقها يوسف (عليه السلام) لمدة وصلت إلي خمس عشرة سنة دون أن تفسد وبقيت طوال هذه المدة محافظة علي قيمتها الغذائية كاملة, وعلي حيويتها, وقدرتها علي الإنبات والنمو والإثمار .

ولقد قام الأستاذ الدكتور عبد المجيد بلعابد (من جامعة وجدة بالمغرب العربي) بتجربة عملية للتأكد من ذلك فترك بذور القمح في سنابلها لمدة عامين تحت ظروف عادية لم يراع فيها أية شروط من شروط تخزين الحبوب, وجرد بعض البذور من سنابلها وتركها أيضا تحت نفس الظروف ولنفس المدة الزمنية, فلاحظ أن الحبوب في السنابل لم يطرأ عليها أي تغيير لا في محتواها من المواد الغذائية ولا في قدرتها علي الإنبات سوي فقدها لجزء من محتواها المائي مما جعلها أكثر جفافا وأصلح للحفظ وللإنبات لأن وجود الماء يسهل من تعفن القمح, خاصة أن نسبة الماء في بذوره تصل إلي 20,3% .

في نفس الوقت لاحظ الباحث أن حبوب القمح التي جردت من سنابلها فقدت 20% من محتواها من المواد البروتينية بعد سنة من خزنها, وفقدت 32% من هذا

المحتوي بعد سنتين , وكذلك فقدت نسبة كبيرة من قدرتها علي الإنبات والنمو والإثمار .

وبذلك ثبت بالتجربة أن افضل طريقة لتخزين المحاصيل النباتية التي تنتج في سنابل كالقمح والشعير والأرز هو حفظها في سنابلها التي خلقها الله (تعالي) فيها .

وهذا هو من الوحي الذي أوحاه الله (تعالي) إلي نبيه يوسف (عليه السلام) , وذكره مع قصته كاملة في القرآن الكريم مما يشهد لهذا الكتاب الخالد أنه لايمكن أن يكون صناعة بشرية , بل هو كلام الخالق العليم الحكيم (سبحانه وتعالي) ويشهد لكل من يوسف بن يعقوب (عليه السلام) ولخاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) بالنبوة وبالرسالة , لأن المصريين القدماء ماكانوا يعرفون طريقة لحفظ الغلال وخزنها إلا معزولة عن سنابلها , والأمر الإلهي بحفظها في سنابلها لم يدرك إلا بعد مشورة هذا النبي سليل بيت النبوة (علي نبينا وعليه من الله تعالي أفضل الصلاة وأزكي التسليم) , ولا يزال القمح يخزن في أيامنا هذه مفروطا من سنابله مما يعرضه لفساد كبير عند خزنه علي الرغم من الاحتياطات الكثيرة التي تتخذ في صوامع ومخازن الغلال .

وإذا أضفنا إلي ذلك مقارنة قصة يوسف (عليه السلام) كما أنزلت في القرآن الكريم علي نبي أمي (صلي الله عليه وسلم) وسط أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين , مع ما ورد عنها في سفر التكوين , اتضحت لنا وحدة رسالة السماء , والأخوة بين الأنبياء ,

وفضل الإسلام العظيم علي الناس أجمعين , وفضل القرآن الكريم علي غيره من الكتب , لأن القصة في سفر التكوين مع تشابهها مع ما جاء في القرآن الكريم قد عابها كثير من النقص البشري , والتحريف عندما رويت شفاهة ودونت بعد ضياع مصادرها الأصلية بقرون متطاولة . وهنا يتضح فضل العهد الإلهي الذي قطعه ربنا (تبارك وتعالي) علي ذاته العلية بحفظه للقرآن الكريم من لحظة نزوله وإلي قيام الساعة فقال

(عز من قائل) :

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون *

(الحجر :9)

فالحمد لله علي نعمة الإسلام , والحمد لله علي نعمة القرآن , والحمد لله أولا وآخرا , وصلي الله وسلم وبارك علي كافة أنبياء الله ورسله أجمعين , وعلي من تبعهم بإحسان إلي يوم الدين , ونسأل الله تعالي أن يخص خاتم الأنبياء والمرسلين وآل بيته الطيبين الطاهرين , وصحابته الغر الميامين , ومن والاهم وسار علي دربهم إلي يوم الدين بأفضل الصلاة وأزكي التسليم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية

في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية.

بقلم الدكتور: زغلول النجار ﴿ .

(248/397)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والتسعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/398)

الجزء الثامن والتسعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 50 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 53 ﴾ من نفس السورة

(4/398)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) ﴾

فصل

قال البقاعى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾

أي الذي العزيز في خدمته ﴿ ائتوني به ﴾ لأسمع ذلك منه وأكرمه ، فأتاه الرسول ليأتي به إلى الملك ﴿ فلما جاءه ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام عن قرب من الزمان ﴿ الرسول ﴾ بذلك وهو الساقي ﴿ قال ﴾ له يوسف : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ أي سيدك الملك ﴿ فاسأله ﴾ بأن تقول له مستفهماً ﴿ ما بال النسوة ﴾ ولوح بمكرهن به ولم يصرح ، ولا ذكر امرأة العزيز كرماً وحياء فقال : ﴿ التي قطعن أيديهن ﴾ أي ما خبرهن في مكرهن الذي خالطني ، فاشتد به بلائي فإنهن يعلمن أن امرأة العزيز ما دعتهن إلا بعد شهادتهن بأنها راودتني ، ثم اعترفت لهن بأنها راودتني ، وأني عصيتها أشد عصيان ، فإذا سألهن بان الحق ، فإن ربك جاهل بأمرهن .

(5/398)

ولما كان هذا موطناً يسأل فيه عن علم ربه سبحانه لذلك ، قال مستأنفاً مؤكداً لأنهم عملوا في ذلك الأمر بالجهل عمل المكذب بالحساب الذي هو نتيجة العلم : ﴿ إن ربي ﴾ أي المدبر لي والمحسن إلي بكل ما أتقلب فيه من شدة ورخاء ﴿ بكيدهن ﴾ لي حين دعونني إلى طاعة امرأة العزيز ﴿ عليم ﴾ وأنا لا أخرج من السجن حتى يعلم ربك ما خفي عنه

أمرهن الذي علمه ربي ، لتظهر براءتي على رؤوس الأشهاد مما وصموني به من السجن الذي من شأنه أن لا يكون إلا عن جرم ، وإن لم تظهر براءتي لم ينقطع عني كلام الحاسدين ، ويوشك أن يسعوا في حط منزلتي عند الملك ، ولئلا يقولوا : ما لبث هذا السجن إلا لذنب عظيم فيكون في ذلك نوع من العار لا يخفى ، وفي هذا دليل على أن السعي في براءة العرض حسن ، بل واجب ، وأخرج الكلام على سؤال الملك عن أمرهن - لا على سؤاله في أن يفحص عن أمرهن - لأن سؤال الإنسان عن علم ما لم يعلم يهيجه ويلهبه إلى البحث عنه ، بخلاف سؤاله في أن يفتش لغيره ، ليعلم ذلك الغير ، فأراد بذلك حثه لأن يجدّ في السؤال حتى يعلم الحق ، ليقبل بعد ذلك جميع ما حدثه به ؛ والكيد : الاحتيال في إيصال الضرر .

(6/398)

وإنما فسرت " بال " بذلك لأن مادته - يائية بتراكيبها الخمسة : بلى ، وبيل ، ولبى ، وليب ، ويلب ، وواوية بتراكيبها الستة : بول ، وبلو ، وولب ، ووبل ، ولوب ، ولبو ، ومهموزة - بتراكيبها الأربعة : لبأ ، وبأل ، وأبل وألب - تدور على الخلطة المحيلة المميلة ، وكأن حقيقتها البلاء بمعنى الاختبار والامتحان والتجربة ، ويكون في الخير والشر ، أي خالطه بشيء يعرف منه خفي أمره ؛ قال القزاز : والفتنة تكون في الشر خاصة ، والبلاء : النعمة

، من قولك : أبليته خيراً – إذا اصطنعته عنده ، وقد تقدم في سورة الأنفال شيء من معاني المادة ، وناقة بلو سفر وبلى سفر – إذا أنضاها السفر ، وإذا كانت قوية عليه ، والبلوى : البلية ، وأبليت فلاناً عذراً ، أي جئت فيما بيني وبينه ما لا لوم فيه ، أي خالطته بشيء أزال اللوم ، والبلية : دابة كانت تشد في الجاهلية عند قبر صاحبها ولا تعلف ولا تسقي حتى تموت ، ويقال : الناس بذي بلى وبذي بليان ، أي متفرقين ، كأن حقيقته أنه حل بهم صاحب خلطة شديدة فرقت بينهم ، وبلى الشيء – بالكسر بلى مقصوراً وبلاء ممدوداً – إذا فنى وعطب ، وبلي فلان بكذا – مبنياً للمفعول ، وابتلى به – إذا أصابه ذلك ؛ والبول : ولد الرجل ، والعدد الكثير ، والانفجار ، وضد الغائط ، ولا ريب أن كلاً من ذلك إذا خالطه الحيوان أحال حاله ؛ والبال : الاكتراث والفكر والهم ، ومن ذلك عندي : ما باليت به : لم أكترث به ، وكذا ما أباليه بالة ، وهي مصدر منه ، ولم أبال به ، ولم أبل ، ولكنهم قلبوه من : باولت به ، لئلا يلتبس بالبول – والله أعلم ، وحقيقتهما : ما استعملتُ بالي الذي هو فكري فيه وإن أعمل هو فكره في أمري ، أي إنه أقل من أن يفكر في أمره ، ومن المعلوم أن الفكر محل الخلطة المميلة ، والبال : المر الذي يعتمل به في أرض الزرع – لمشقة العمل به ، والبال : سمكة غليظة تسمى جمل البحر – لأن من خالطته أحالت أمره ، والبال : رخاء العيش ،

والحال ، والبالة : القارورة – كأنها من البول ، والجراب ، ووعاء الطيب ، والولب : الوصل ، ولبت الشيء : وصلته ، وولب هو : وصل ودخل وأسرع ، والوالب : الذاهب في وجهه – كأنه خالطه من الهم ما حمله على ذلك ، وولب الزرع – إذا صارت له والبة ، وهي أفراخ تولدت من أصوله ، والوالبة : نسل القوم ، ونسل المال ، والوالبة : سريع النبات ؛ ولاب يلوب – إذا عطش ، واللابة : الحرة ، وهي مكان ذو حجارة سود كبيرة متصلة صلبة حسنة ، فمن خالطها أتعبته وأعطشته ، وبها سميت الإبل السود المجتمعة ، والصمان ، واللابة : شقشقة البعير ، وهي شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج – كأنها هي التي أهاجته ، والملاب : ضرب من الطيب ، والزعفران ، والملوب – كمعظم – من الحديد : الملوى ، واللوب – بالضم : البضعة التي تدور في القد – لأنها تغير ما في القدر بدورانها ، واللواب أيضاً : اللعاب ، والأب : عطشت إبله ، واللبوة : أنثى الأسد ؛ والوابل : المطر الكثير الشديد الوقع الضخم القطر ، والوابلة : نسل الإبل والغنم ، ورأس العضد الذي في الحق ، وما التف من لحم الفخذ ، والموابلة : المواظبة ، والميبل : ضفيرة من قد مركبة في عود تضرب به الإبل ، ووبل الصيد : طرد حثيث شديد ، بالنعجة وبلة شديدة – إذا أرادت الفحل ، والوبال : الشدة وسوء العاقبة ، وهو من الشدة والثقل ، وأصابه وبل الجوع ، أي جوع شديد ، والوبيل : المرعى الوخيم ، واستوبلت الأرض – إذا لم توافقك في مطعمك

وإن كنت محباً لها ، وهي من الوبيل – للطعام الذي لا يشتهي ، والوبيل من العقوبة : الشديدة ، وهو أيضاً العصا ، وخشبة القصار التي يدق بها الثياب بعد الغسل ، وخشبة صغيرة يضرب بها الناقوس ، والحزمة من الحطب ؛ وبلى : حرف يجاب بها الاستفهام الداخل على كلام منفي فتحيله إلى الإثبات بخلاف " نعم " فإنه يجاب بها الكلام الموجب ، وتأتي " بلى " في النفي من غير استفهام ، يقال : ما أعطيتني درهماً ،

(8/398)

فتقول : بلى ؛ ولبى من الطعام – كرضى : أكثر منه ، واللباية – بالضم : شجر الأمطىّ ؛ واللياب – بتقديم التحتانية وزن سحاب : أقل من ملء الفم ؛ واليلب – محركة : الترسة ، ويقال : الدرق ، والدروع من الجلود ، أو جلود يخرز بعضها إلى البعض ، تلبس على الرؤوس خاصة ، والعظيم من كل شيء ، والجلد ؛ والأبيل – كأمير : العصا ، والحزين – بالسريانية ، ورئيس النصارى ، أو الراهب ، أو صاحب الناقوس ، صنيع مختصر العين يقتضي أن همزته زائدة ، وصنيع القاموس أنها أصلية ، وعلى كلا التقديرين هو من مدار المادة ، فإن من خالطته العصا غيرته ، وكذا الرئيس ؛ ومن مهموزة اللبأ – كضلع : أول اللبن ، وهو أحق الأشياء بالإحالة ، وألبأ الفصيل : شده إلى رأس الخلف – أي حلمة ضرع

الناقة – ليرضع اللبأ ، ولبأت وهي ملبىء : وقع اللبأ في ضرعها ، ولا يكون ذلك إلا بما يخالطها ، فيحيل ذلك منها ، واللبء – بالفتح : أول السقي ، وهو أشد مما في الأثناء في الخلطة والإحالة ، وبهاء : الأسدة ، وخلطتها محيلة للذكور من نوعها ، ولغيرها بالنفرة منها ، وكذا اللبوة – بالواو ، وعشار ملابي – كملاقح : دنا نتاجها ، وهو واضح في الإحالة : ولبأت الشاة ولدها وألبأته : أرضعته اللبأ ، ولبأت الشاة والتبأتها : حلبت لبأها ؛ والبئيل – كأمير : الصغير الضعيف ، بؤل – ككرم ، ويقال ضئيل بئيل ؛ والإبل – بكسرتين وتسكن الباء – معروف ، واحد يقع على الجمع ، ليس بجمع ولا اسم جمع ، جمعه آبال ، الإحالة في خلطتها بالركوب والحمل وغيرهم واضحة ، والإبل : السحاب الذي يحمل ماء المطر ، وهو ظاهر في ذلك ، وتأبّل عن امرأته : امتنع عن غشيانها – من الإزالة ، ونسك : أي امتنع عن خلطة الدنيا المحيلة ، وبالعصا : ضرب ، ومن خالطته العصا أحالته ، وأبل العشب أبولاً : طال ، فاستمكن منه الإبل ، وهو ظاهر في الإحالة ، والإبالة – كالإجانة : القطعة من الطير والخيل والإبل أو المتتابعة منها ، من نظر شيئاً

من ذلك أحاله عن حاله ، وكأمير : العصا ، ورئيس النصارى ، أو الراهب ، أو صاحب الناقوس ، وكل ذلك واضح في الإحالة ، والأبل - بالضم الباء : الحزمة من الحشيش ، وخلطتها محيلة لما يأكلها ، والإبالة - ككتابة : السياسة ، وهي في غاية الإحالة لمن خولط بها ، والأبلة - كفرحة : الحاجة والطلبة ، وهي معروفة في ذلك ، والمباركة في الإبل ، وإنه لا يأتبل : لا يثبت على رعية الإبل ولا يحسن مهنتها ، أو لا يثبت عليها راكباً ، أي إنه سريع التأثر والإحالة من خلطتها ، وتأبيل الإبل : تسمينها ، أي مخالطتها بما أحالها ، والإبلة - بالكسر : العداوة ، وإحالتها معروفة ، بالضم - العاهة ، وهي كذلك ، وبالفتح أو بالتحريك : الثقل والوخامة والإثم كذلك ، وتأبيل الميت : تأبينه ، أي الثناء عليه بعد موته ، وهو يهيج الحزن عليه ، وجاء في إبالته - بالكسر ، وأبلته - بضمتين مشددة : أصحابه ، ولا شك أن من جاء كذلك أحال من أتاه ، وضغث على إبالة كإجانة ويخفف : بلية على أخرى ، أو خصب على خصب - كأنه ضد ، وهو واضح الإحالة ، وأبلت الإبل تأبُل وتأبل أبولا وأبلا : جزأت - أي اكتفت - بالرطب عن الماء ، والرُطُب بضمتين : الإخضر من البقل والشجر أو جماعة العشب الأخضر ، والأبول : الإقامة في المرعى ، ولا شك في أن من خالطه ذلك أحاله ؛ وألب إليه القوم : أتوه من كل جانب ، وذلك محيل ، وألب الإبل : ساقها ، والإبل : انساقت وانضم بعضها إلى بعض ، والحمار طريدته : طردها شديداً ، وجمع ، واجتمع ، وأسرع ، وعاد ، والإحالة في كل ذلك ظاهرة ، والسماء : دام مطرها ،

أي فأحال الأرض وأهلها ، والتألب كثعلب : المجتمع منا ومن حمر الوحش والوعل ، وهي بهاء ، وما كان كذلك أحال ما خالطه ، والإلب - بالكسر : الفتر ، وشجرة كالأترج سم ، وذلك ظاهر في الإحالة ، وبالفتح : نشاط الساقي ، وميل النفس إلى الهوى ، والعطش ، والتدبير على العدو من حيث لا يعلم ، ومسك السخلة ، والسم ،

(10/398)

والطرد الشديد ، وشدة الحمى والحر ، وابتداء برء الدمل ، وكل ذلك ظاهر الإحالة ، وريح ألوب : باردة تسفي التراب ، ورجل ألوب : سريع إخراج الدلو ، أو نشيط ، فمن خالطه أحاله ، وهم عليه ألب وإلب واحد : مجتمعون عليه بالظلم والعداوة ، وذلك محيل لا شك فيه ، والإلبة بالضم : المجاعة ، وبالتحريك : اليلبة ، والتأليب : التحريض والإفساد ، وكل ذلك ظاهر في الإحالة ، وكذا المئلب - للسريع ، والألب : الصفو ، وهو محيل ، والألب - بالتحريك : اليلب ، وقد مضى أنها الترسة - والله أعلم .

ولما قال يوسف عليه الصلاة والسلام ذلك وأبى أن يخرج من السجن قبل تبين الأمر ، رجع الرسول إلى الملك فأخبره بما قال عليه الصلاة والسلام فكأنه قيل : فما فعل الملك ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ للنسوة بعد أن جمعهن : ﴿ ما خطبكن ﴾ أي شأنكن العظيم ؛ وقوله : ﴿ إذ

راودتن ﴾ أي خادعتن بمكر ودوران ومراوغة ﴿ يوسف عن نفسه ﴾ دليل على أن براءته كانت متحققة عند كل من علم القصة ، فكأن الملك وبعض الناس – وإن علموا مراودتهن وعفته – ما كانوا يعرفون المراودة هل هي لهن كلهن أو لبعضهن ، فكأنه قيل : ما قلن ؟ فقيل : مكرن في جوابهن إذ سألهن عما عملن من السوء معه فأعرضن عنه وأجبن بنفي السوء عنه عليه الصلاة والسلام ، وذلك أنهن ﴿ قلن حاش لله ﴾ أي عياذاً بالملك الأعظم وتنزيهاً له من هذا الأمر ، فأوهمن بذلك براءتهن منه ؛ ثم فسرن هذا العياذ بأن قلن تعجباً من عفته التي لم يرين مثلها ، ولا وقع في أوهامهن أن تكون لآدمي وإن بلغ ما بلغ : ﴿ ما علمنا عليه ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام ، وأعرقن في النفي فقلن : ﴿ من سوء ﴾ فخصصنه بالبراءة ، وهذا كما تقدم عند قول الملأ ﴿ أضغاث أحلام ﴾ هذا وهو جواب للملك الذي تبهر رؤيته وتخشى سطوته ، فكان من طبع البلد عدم الإفصاح في المقال – حتى لا ينفك عن طروق احتمال فيكون للتفصي فيه مجال – وعبادة الملوك إلا من شاء الله منهم .

ولما تم ذلك، كان كأنه قيل: فما قالت التي هي أصل هذا الأمر؟ فقيل: ﴿قالت امرأت العزيز﴾ مصرحة بحقيقة الحال: ﴿الآن حصحص الحق﴾ أي حصل على أمكن وجوهه، وانقطع عن الباطل بظهوره، من: حص شعره.

إذا استأصل قطعه بحيث ظهر ما تحته، ومنه الحصة: القطعة من الشيء، ونظيره: كب وكبكب، وكف وكفكف، فهذه زيادة تضعيف، دل عليه الاشتقاق وهو قول الزجاج - قاله الرماني.

ووافقه الرازي في اللوامع وقال: وقال الأزهري: هو من حصحص البعير: أثرت ثفناته في الأرض إذا برك حتى تستبين آثارها فيه ﴿أنا راودته﴾ أي خادعته وراودته ﴿عن نفسه﴾ وأكدت ما أفصحت به مدحاً ونفياً لكل سوء بقولها مؤكداً لأجل ما تقدم من إنكارها: ﴿وإنه لمن الصادقين﴾ أي العريقين في هذا الوصف في نسبة المراودة إليّ وتبرئة نفسه، فقد شهد النسوة كلهن ببراءته، وإنه لم يقع منه ما ينسب به شيء من السوء إليه، فمن نسب إليه بعد ذلك هماً أو غيره فهو تابع لمجرد الهوى في نبي من المخلصين.

ولما انجلى الأمر ، أمر الملك بإحضاره ، ليستعين به فيما إليه من الملك ، لكن لما كانت براءة الصديق أهم من ذلك – وهي المقصود من رد الرسول – قدم بقية الكلام فيها عليه ، وليكون كلامه في براءته متصلاً بكلام النسوة في ذلك ، والذي دل على أن ذلك كلامه ما فيه من الحكم التي لا يعرفها في ذلك الزمان غيره ، فقال – بناء على ما تقديره : فلما رجع الرسول إلى يوسف عليه الصلاة والسلام فأخبره بشهادتهن ببراءته قال – : ﴿ ذلك ﴾ أي الخلق العظيم في تثبتي في السجن إلى أن تبين الحق ﴿ ليعلم ﴾ العزيز علماً مؤكداً ﴿ أني لم أخنه ﴾ أي في أهله ولا في غيرها ﴿ بالغيب ﴾ أي والحال أن كلاًّ منا غائب عن صاحبه ﴿ و ﴾ ليعلم بإقرارها وهي في الأمن والسعة ، وتثبتي وأنا في محل الضيق والخوف ما من شأنه الخفاء عن كل من لم يؤيده الله بروح منه من ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لا يهدي ﴾ أي يسدد وينجح بوجه من لوجوه ﴿ كيد الخائنين ﴾ أي العريقين في الخيانة ، بل لا بد أن يقيم سبباً لظهور الخيانة وإن اجتهد الخائن في التعمية ؛ والخيانة : مخالفة الحق بنقض العهد العام .

وضدها الأمانة ، والغدر : نقضه خاصاً ، والمعنى أني لما كنت بريئاً سدد الله أمري ، وجعل عاقبتي إلى خير كبير وبراءة تامة ، ولما كان غيري خائناً ، أنطقه الله بالإقرار بها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 53. 58 ﴾

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الفرية على المعصوم صلى الله عليه وسلم :

في قول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ .

ولكي يؤيدوا باطلهم الذي ذكرناه آنفا ، رووا عن الصحابة والتابعين ما لا يليق بمقام الأنبياء ، واختلقوا على النبي صلى الله عليه وسلم زورًا ، وقولوه ما لم يقله ، قال صاحب "الدر" : وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في "شعب الإيمان" عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما جمع الملك النسوة قال لهن : أنتن راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، قال يوسف : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ، فغمزه جبريل عليه السلام فقال : ولا حين هممت بها ؟ فقال : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ .

قال : وأخرج ابن جرير عن مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، والسدي مثله ، وأخرج الحاكم في تاريخه ، وابن مردويه والديلمي عن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ قال : لما قال

يوسف ذلك قال جبريل عليه السلام : ولا يوم هممت بما هممت به ؟ فقال : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ ، قال : وأخرج ابن جرير عن عكرمة مثله ، وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي حاتم : عن حكيم بن جابر في قوله : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ

---

1 تفسير المنار : ج 13 ص 12 .

(14/398)

أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ قال جبريل : ولا حين حللت السراويل ؟ إلى غير ذلك من المرويات المكذوبة ، والإسرائيليات الباطلة ، التي خرجها بعض المفسرين الذين كان منهجهم ذكر المرويات وجمع أكبر قدر منها ، سواء منها ما صح وما لم يصح ، والإخباريون الذين لا تحقيق عندهم للمرويات ، وليس أدل على ذلك من أنها لم يخرجها أحد من أهل الكتاب الصحيحة ، ولا أصحاب الكتب المعتمدة الذين يرجع إليهم في مثل هذا .

القرآن يرد هذه الأكاذيب :

وقد فات هؤلاء الدساسين الكذابين أن قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ . . . الآيتين ليس من مقالة سيدنا يوسف عليه السلام ، وإنما هو من مقالة امرأة العزيز ، وهو ما يتفق وسياق الآية ، ذلك : أن العزيز لما أرسل رسوله إلى يوسف لإحضاره

من السجن قال له : ارجع إلى ربك ، فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن فأحضر النسوة ، وسألهن ، وشهدن ببراءة يوسف ، فلم تجد امرأة العزيز بدا من الاعتراف ، فقالت : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ . . . . الآيتين 1 ليس من مقالة سيدنا يوسف عليه السلام وإنما هو من مقالة امرأة العزيز ، وهو ما يتفق وسياق الآية ، ذلك أن العزيز لما أرسل رسوله إلى يوسف لإحضاره من السجن قال له : ارجع إلى ربك ، فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن فأحضر النسوة ، وسألهن ، وشهدن ببراءة يوسف ، فلم تجد امرأة العزيز بدا من الاعتراف ، فقالت : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ فكل ذلك من قولها : ولم يكن يوسف حاضرا ثَمَّ ؛ بل كان في السجن ، فكيف يعقل أن يصدر منه ذلك في مجلس التحقيق الذي عقده العزيز ؟ .

وقد انتصر لهذا الرأي الذي يوائم السياق والسباق : الإمام ابن تيمية ، وألف في ذلك تصنيفا على حدة .

(15/398)

قال الإمام الحافظ المفسر ابن كثير في تفسيره : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ :

تقول : إنما اعترفت بهذا على نفسي ، ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا

وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة ، فامتنع ، فلهذا اعترفت : ليعلم أني بريئة ، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ، وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ تقول المرأة : ولست أبرئ نفسي ؛ فإن النفس تتحدث ، وتتمنى ، ولهذا راودته لأن

(16/398)

﴿ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ أي : إلا من عصمه الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهذا القول هو الأشهر والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام ، وقد حكاه الماوردي في تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة .

وبعد أن ذكر بعض ما ذكره ابن جرير الذي ذكرناه آنفا عن ابن عباس ، وتلاميذه ، وغيره قال : والقول الأول أقوى ، وأظهر ؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك[1] . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ الإسرائيليات والموضوعات صـ 225 . 227 ﴾

---

1 تفسير ابن كثير : جـ4 ص 449 ط المنار .

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾

اعلم أنه لما رجع الشرابي إلى الملك وعرض عليه التعبير الذي ذكره يوسف عليه السلام استحسنه الملك فقال : ائتوني به ، وهذا يدل على فضيلة العلم ، فإنه سبحانه جعل علمه سبباً لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سبباً للخلاص من المحن الأخروية ، فعاد الشرابي إلى يوسف عليه السلام قال أجب الملك ، فأبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن إلا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة بالكلية عنه .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى اشترطت أن يخرجوا لي ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال : ﴿ ارجع إلى ربّك ﴾ ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة وبادرتهم إلى الباب ؛ ولما ابتغيت العذر أنه

كان حليماً ذا أناة"

واعلم أن الذي فعله يوسف من الصبر والتوقف إلى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل ، وبيانه من وجوه : الأول : أنه لو خرج في الحال فربما كان يبقى في قلب الملك من تلك التهمة أثرها ، فلما التمس من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وأن يتوسل بها إلى الطعن فيه .

الثاني : أن الإنسان الذي بقي في السجن اثنتي عشرة سنة إذا طلبه الملك وأمر بإخراجه الظاهر أنه يبادر بالخروج ، فحيث لم يخرج عرف منه كونه في نهاية العقل والصبر والثبات ، وذلك يصير سبباً لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ، ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذباً وبهتاناً .

(18/398)

الثالث : أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضاً على شدة طهارته إذ لو كان ملوثاً بوجه ما ، لكان خائفاً أن يذكر ما سبق .

الرابع : أنه حين قال للشرابي : ﴿ اذكرنى عِندَ رَبّكَ ﴾ فبقي بسبب هذه الكلمة في

السجن بضع سنين وههنا طلبه الملك فلم يلتفت إليه ولم يقم لطلبه وزناً ، واشتغل بإظهار براءته عن التهمة ، ولعله كان غرضه عليه السلام من ذلك أن لا يبقى في قلبه التفات إلى رد الملك وقبوله ، وكان هذا العمل جارياً مجرى التلافي لما صدر من التوسل إليه في قوله : ﴿ اذكرنى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ليظهر أيضاً هذا المعنى لذلك الشرابي ، فإنه هو الذي كان واسطة في الحالتين معاً .

أما قوله : ﴿ وَقَالَ الملك ائتونى بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرسول ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ ابن كثير والكسائي ﴿ فسله ﴾ بغير همز والباقون ﴿ رَبّكَ فَاسْأَلْهُ ﴾ بالهمز ، وقرأ عاصم برواية أبي بكر عنه ﴿ النسوة ﴾ بضم النون والباقون بكسر النون ، وهما لغتان .

المسألة الثانية :

اعلم أن هذه الآية فيها أنواع من اللطائف : أولها : أن معنى الآية : فسل الملك يأن يسأل ما شأن تلك النسوة وما حالهن ليعلم براتي عن تلك التهمة ، إلا أنه اقتصر على أن يسأل الملك عن تلك الواقعة لئلا يشتمل اللفظ على ما يجري مجرى أمر الملك بعمل أو فعل وثانيها : أنه لم يذكر سيدته مع أنها هي التي سعت في إلقائه في السجن الطويل ، بل اقتصر على ذكر سائر النسوة .

وثالثها : أن الظاهر أن أولئك النسوة نسبنه إلى عمل قبيح وفعل شنيع عند الملك ، فاقتصر

يوسف عليه السلام على مجرد قوله : ﴿ مَا بَالُ النسوة الاتى قَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ ﴾ وما شكا منهن على سبيل التعيين والتفصيل .

ثم قال يوسف بعد ذلك : ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ وفي المراد من قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى ﴾ وجهان : الأول : أنه هو الله تعالى ، لأنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور .

(19/398)

والثاني : أن المراد الملك وجعله رباً لنفسه لكونه مربياً وله وفيه إشارة إلى كون ذلك الملك عالماً بكيدهن ومكرهن .

واعلم أن كيدهن في حقه يحتمل وجوهاً : أحدها : أن كل واحدة منهن ربما طمعت فيه ، فلما لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه وتنسبه إلى القبيح .

وثانيها : لعل كل واحدة منهن بالغت في ترغيب يوسف في موافقة سيدته على مرادها ، ويوسف علم أن مثل هذه الخيانة في حق السيد المنعم لا تجوز ، فأشار بقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ إلى مبالغتهن في الترغيب في تلك الخيانة .

وثالثها : أنه استخرج منهن وجوهاً من المكر والحيل في تقبيح صورة يوسف عليه السلام عند الملك فكان المراد من هذا اللفظ ذاك ، ثم إنه تعالى حكى عن يوسف عليه السلام أنه

لما التمس ذلك، أمر الملك بإحضارهن وقال لهن: ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ وفيه وجهان: الأول: أن قوله: ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ وإن كانت صيغة الجمع، فالمراد منها الواحدة كقوله تعالى: ﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ ﴾ [آل عمران: 173] والثاني: أن المراد منه خطاب الجماعة.

ثم ههنا وجهان: الأول: أن كل واحدة منهن راودت يوسف عن نفسها.

والثاني: أن كل واحدة منهن راودت يوسف لأجل امرأة العزيز فاللفظ محتمل لكل هذه الوجوه، وعند هذا السؤال ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوء ﴾ وهذا كالتأكيد لما ذكرن في أول الأمر في حقه وهو قولهن: ﴿ مَا هذا بَشَرًا إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾.

واعلم أن امرأة العزيز كانت حاضرة، وكانت تعلم أن هذه المناظرات والتفحصات إنما وقعت بسببها ولأجلها فكشفت عن الغطاء وصرحت بالقول الحق وقالت: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل الذنوب مطهراً عن جميع العيوب ، وههنا دقيقة ، وهي أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال : ﴿ مَا بَالُ النسوة الاتى قَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ ﴾ فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة ألبتة فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيماً لجانبها وإخفاء للأمر عليها ، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها وأن يوسف عليه السلام كان مبرأ عن الكل ، ورأيت في بعض الكتب أن امرأة جاءت بزوجها إلى القاضي وادعت عليه المهر ، فأمر القاضي بأن يكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من إقامة الشهادة ، فقال الزوج : لا حاجة إلى ذلك ، فإني مقر بصدقها في دعواها ، فقالت المرأة لما أكرمتني إلى هذا الحد فاشهدوا أني أبرأت ذمتك من كل حق لي عليك .

المسألة الثانية :

قال أهل اللغة : ﴿ حَصْحَصَ الحق ﴾ معناه : وضح وانكشف وتمكن في القلوب والنفوس من قولهم : حصحص البعير في بروكه ، إذا تمكن واستقر في الأرض .

قال الزجاج : اشتقاقه في اللغة من الحصة ، أي بانت حصة الحق من حصة الباطل .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في أن قوله : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ كلام من ؟ وفيه أقوال :

القول الأول : وهو قول الأكثرين أنه قول يوسف عليه السلام .

قال الفراء : ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ [النمل : 34] وهذا كلام بلقيس .

ثم إنه تعالى قال : ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ وأيضاً قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ الناس لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران : 9] كلام الداعي .

ثم قال : ﴿ إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ بقي على هذا القول سؤالات :

(21/398)

السؤال الأول : قوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الغائب ، والمراد ههنا : الإشارة إلى تلك الحادثة الحاضرة .

والجواب : أجبنا عنه في قوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 2] وقيل : ذلك إشارة إلى ما فعله من رد الرسول كأنه يقول ذلك الذي فعلت من ردي الرسول إنما كان ، ليعلم الملك أني لم أخنه بالغيب .

السؤال الثاني : متى قال يوسف عليه السلام هذا القول ؟

الجواب : روى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال ذلك ليعلم وإنما ذكره على لفظ الغيبة تعظيماً للملك عن الخطاب والأولى أنه عليه السلام إنما قال ذلك عند عود الرسول إليه لأن ذكر هذا الكلام في حضرة الملك سوء أدب .

السؤال الثالث : هذه الخيانة وقعت في حق العزيز فكيف يقول : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ .

والجواب : قيل المراد ليعلم الملك أني لم أخن العزيز بالغيبة ، وقيل إنه إذا خان وزيره فقد خانه من بعض الوجوه ، وقيل إن الشرابي لما رجع إلى يوسف عليه السلام وهو في السجن قال ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب ثم ختم الكلام بقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي يُحِبُّ الخائنين ﴾ ولعل المراد منه أني لو كنت خائناً لما خلصني الله تعالى من هذه الورطة ، وحيث خلصني منها ظهر أني كنت مبرأ عما نسبوني إليه .

والقول الثاني : أن قوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ كلام امرأة العزيز والمعنى : أني وإن أحلت الذنب عليه عند حضوره لكني ما أحلت الذنب عليه عند غيبته ، أي لم أقل فيه وهو في السجن خلاف الحق .

ثم إنها بالغت في تأكيد الحق بهذا القول ، وقالت : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الخائنين ﴾ يعني أني لما أقدمت على الكيد والمكر لا جرم افتضحت وأنه لما كان بريئاً عن الذنب لا جرم طهره الله تعالى عنه .

قال صاحب هذا القول : والذي يدل على صحته أن يوسف عليه السلام ما كان حاضراً في ذلك المجلس حتى يقال لما ذكرت المرأة قولها : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ ﴾ ففي تلك الحالة يقول يوسف : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ بل يحتاج فيه إلى أن يرجع الرسول من ذلك المجلس إلى السجن ويذكر له تلك الحكاية ، ثم إن يوسف يقول ابتداء ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ ومثل هذا الوصل بين الكلامين الأجنبيين ما جاء ألبتة في نثر ولا نظم فعلمنا أن هذا من تمام كلام المرأة .

المسألة الرابعة :

هذه الآية دالة على طهارة يوسف عليه السلام من الذنب من وجوه كثيرة : الأول : أن الملك لما أرسل إلى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متهماً بفعل قبيح وقد كان صدر منه ذنب وفحش لاستحال بحسب العرف والعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة ، لأنه لو كان قد أقدم على الذنب ثم إنه يطلبه من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعياً منه في فضيحة نفسه وفي تجديد العيوب التي صارت مندرسة مخفية والعاقل لا يفعل ذلك ، وهب أنه وقع الشك لبعضهم في عصمته أو في نبوته إلا أنه لا شك أنه

كان عاقلاً ، والعاقل يمتنع أن يسعى في فضيحة نفسه وفي حمل الأعداء على أن يبالغوا في إظهار عيوبه .

والثاني : أن النسوة شهدن في المرة الأولى بطهارته ونزاهته حيث قلن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هذا بَشَرًا إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾

[يوسف : 31] وفي المرة الثانية حيث قلن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوء ﴾

والثالث : أن امرأة العزيز أقرت في المرة الأولى بطهارته حيث قالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم ﴾ [يوسف : 32] وفي المرة الثانية في هذه الآية .

(23/398)

واعلم أن هذه الآية دالة على طهارته من وجوه : أولها : قول المرأة : ﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ وثانيها : قولها : ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين ﴾ وهو إشارة إلى أنه صادق في قوله : ﴿ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ [يوسف : 26] وثالثها : قول يوسف عليه السلام : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ والحشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام قال جبريل عليه السلام ، ولا حين هممت ، وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية في كتاب معتمد ، بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعياً منهم في تحريف ظاهر القرآن .

ورابعها : قوله : ﴿ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى كَيْدَ الخائنين ﴾ يعني أن صاحب الخيانة لا بد وأن يفتضح ، فلو كنت خائناً لوجب أن افتضح وحيث لم افتضح وخلصني الله تعالى من هذه الورطة ، فكل ذلك يدل على أني ما كنت من الخائنين ، وههنا وجه آخر وهو أقوى من الكل ، وهو أن في هذا الوقت تلك الواقعة صارت مندرسة ، وتلك المحنة صارت منتهية ، فإقدامه على قوله : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ مع أنه خانه بأعظم وجوه الخيانة إقدام على وقاحة عظيمة ، وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة بوجه ما ، والإقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصلاً لا يليق بأحد من العقلاء ، فكيف يليق إسناده إلى سيد العقلاء ، وقدوة الأصفياء ؟ فثبت أن هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته مما يقوله الجهال والحشوية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 121 ـ 124 ﴾

(24/398)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقال الملك ائتوني به ﴾

يعني يوسف عليه السلام .

﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك ﴾ يعني الملك .

﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ وإنما توقف عن الخروج مع طول حبسه ليظهر للملك عذره قبل حضوره فلا يراه مذنباً ولا خائناً .

فروى أبو الزناد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يرحم الله يوسف إنه كان ذا أناةٍ لو كنت أنا المحبوس ثم أُرسل لخرجت سريعاً " . وفي سؤاله عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز ثلاثة أوجه :

أحدها : أن في سؤاله عنها ظَنّةً ربما صار بها متهماً .

والثاني : صيانة لها لأنها زوج الملك فلم يتبذلها بالذكر .

الثالث : أنه أرادهن دونها لأنهن الشاهدات له عليها .

﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ فيه وجهان : أحدهما : معناه إن الله بكيدهن عليم . الثاني : أن سيدي الذي هو العزيز بكيدهن عليم . قوله عز وجل : ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ فهذا سؤال الملك قد تضمن تنزيه يوسف لما تخيله من صدقه لطفاً من الله تعالى به حتى لا تسرع واحدة منهن إلى التكذب عليه .

وفي قوله : ﴿ راودتن ﴾ وإن كانت المراودة من إحداهن وجهان :

أحدهما : أن المراودة كانت من امرأة العزيز وحدها فجمعهن في الخطاب وإن توجه إليها دونهن احتشاماً لها .

الثاني : أن المراودة كانت من كل واحدة منهن . ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوءٍ ﴾ فشهدن له بالبراءة من السوء على علمهن لأنها شهادة على نفي ، ولو كانت شهادتهن على إثبات لشهدن قطعاً ، وهكذا حكم الله تعالى في الشهادات أن تكون على العلم في النفي ، وعلى القطع في الإثبات .

﴿ قالت امرأة العزيز الآنَ حصحص الحق ﴾ معناه الآن تبين الحق ووضح ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

(25/398)

وأصله مأخوذ من قولهم حَصّ شعره إذا استأصل قطعه فظهرت مواضعه ومنه الحصة من الأرض إذا قطعت منها . فمعنى حصحص الحق أي انقطع عن الباطل بظهوره وبيانه .

وفيه زيادة تضعيف دل عليها الاشتقاق مثل قوله : (كبوا ، وكبكبوا) قاله الزجاج . وقال الشاعر :

ألا مبلغ عني خداشاً فإنه . . . كذوب إذا ما حصحص الحق ظالم

﴿ أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ﴾ وهذا القول منها وإن لم تسأل عنه إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف ونزاهته لأن إقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه ،

فجمع الله تعالى ليوسف في إظهار صدقه الشهادة والإقرار حتى لا يخامر نفساً ظن ولا يخالجها شك.

قوله عز وجل: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه قول امرأة العزيز عطفاً على ما تقدم، ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب، يعني الآن في غيبه بالكذب عليه وإضافة السوء إليه لأن الله لا يهدي كيد الخائنين، حكاه ابن عيسى.

الثاني: أنه قول يوسف بعد أن علم بظهور صدقه، وذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب عنه في زوجته، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي.

﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ معناه وأن الله لا يهدي الخائنين بكيدهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(26/398)

وقال الجصاص:

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ: ارْجِعْ إلَى رَبِّك ﴾ الْآيَةَ

يُقَالُ: إنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إنَّمَا لَمْ يُجِبْهُمْ إلَى الذَّهَابِ إلَى الْمَلِكِ حَتَّى رَدَّ الرَّسُولُ إلَيْهِ بِأَنْ

يَسْأَلَ عَنْ النّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنّ لِتَظْهَرَ بَرَاءَةُ سَاحَتِهِ فَيَكُونَ أَجَلَّ فِي صَدْرِهِ عِنْدَ حُضُورِهِ وَأَقْرَبَ إلَى قَبُولِ مَا يَدْعُوهُ إلَيْهِ مِنْ التَّوْحِيدِ وَقَبُولِ مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَيْهِ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ : هَذَا مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ ، يَقُولُ : إنِّي إنَّمَا رَدَدْت الرَّسُولَ إلَيْهِ فِي سُؤَالِ النّسْوَةِ لِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ .

وَإِنْ كَانَ ابْتِدَاءُ الْحِكَايَةِ عَنْ الْمَرْأَةِ ، فَإِنَّهُ رَدَّ الْكَلَامَ إلَى الْحِكَايَةِ عَنْ قَوْلِ يُوسُفَ لِظُهُورِ الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَى ، وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِ : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ وَقَبْلَهُ حِكَايَةٌ عَنْ الْمَرْأَةِ : ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ وَكَقَوْلِهِ : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ وَقَبْلَهُ حِكَايَةُ قَوْلِ الْمَلَإِ : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(27/398)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾

في تضاعيف هذه الآية محذوفات يعطيها ظاهر الكلام ويدل عليها ، والمعنى هنا : فرجع

الرسول إلى الملأ والملك فقص عليهم مقالة يوسف ، فرأى الملك وحاضروه نبل التعبير وحسن الرأي وتضمن الغيب في أمر العام الثامن ، مع ما وصفه به الرسول من الصدق في المنامة المتقدمة ، فعظم يوسف في نفس الملك ، ﴿ وقال ائتوني به ﴾ ، فلما وصل الرسول في إخراجه إليه ، وقال : إن الملك قد أمر بأن تخرج ، قال له : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ – أي الملك – وقل له : ﴿ ما بال النسوة ﴾ ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان – وقل له : يستقصي عن ذنبي وينظر في أمري ، هل سجنت بحق أو بظلم . فرسم قصته بطرف منها إذا وقع النظر عليه بان الأمر كله . ونكب عن ذكر امرأة العزيز حسن عشرة ورعاية لذمام ملك العزيز له .

وقرأ أبو بكر عن عاصم وأبو حيوة " النُّسوة " بضم النون ، وقرأ الباقون " النِّسوة " بكسر النون . وهما لغتان في تكسير نساء الذي هو اسم جمع لا واحد له من لفظة . وقرأت فرقة " اللايي " بالياء ، وقرأ فرقة " اللاتي " بالتاء وكلاهما جمع التي .

وكان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبراً وطلباً لبراءة الساحة ، وذلك أنه فيما روي خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحاً ، فيراه الناس بتلك العين أبداً ، ويقولون : هذا الذي راود امرأة مولاه ، فأراد يوسف عليه السلام أن تبين براءته وتتحقق منزلته من العفة والخير ، وحينئذ يخرج للإخطاء والمنزلة ؛ وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يرحم الله أخي يوسف ، لقد كان صابراً حليماً ، ولو لبثت

في السجن لبثه لأجبت الداعي ولم ألتمس العذر حينئذ " ، وروي نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك في كتاب التفسير من صحيح البخاري ، وليس لابن القاسم في الديوان غيره .

(28/398)

وهنا اعتراض ينبغي أن ينفصل عنه ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ، إنما ذكر هذا الكلام على جهة المدح ليوسف ، فما باله هو ، يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ، فالوجه في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي له جهة أيضاً من الجودة ، أي لو كنت أنا لبادرت بالخروج ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك ؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل إنما هي معرضة ليقتدي الناس بها يوم القيامة ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الناس على الأحزم من الأمور ، وذلك أن المتعمق في مثل هذه النازلة التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ، ربما تنتج له من ذلك البقاء في سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله فغيره من الناس لا يأمن ذلك ؛ فالحالة التي ذهب النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم ومدح ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد .

وقوله ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ يحتمل أن يريد بالرب الله عز وجل ، وفي الآية وعيد - على هذا - وتهديد ، ويحتمل أن يريد بالرب العزيز مولاه ، ففي ذلك استشهاد به وتقريع له .

والضمير في ﴿ كيدهن ﴾ ل ﴿ النسوة ﴾ المذكورات لا للجنس لأنها حالة توقيف على ذنب .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾

(29/398)

المعنى : فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن ، وقال لهن : ﴿ ما خطبكن . . . ﴾ الآية ، أي : أي شيء كانت قصتكن ؟ فهو استدعاء منه أن يعلمنه القصة فجاوب النساء بجواب جيد ، تظهر منه براءة أنفسهن جملة وأعطين يوسف بعض براءة ، وذلك أن الملك لما قرر لهن أنهن راودنه قلن - جواباً عن ذلك - ﴿ حاش لله ﴾ وقد يحتمل - على بعد - أن يكون قولهن ﴿ حاش لله ﴾ في جهة يوسف عليه السلام ، وقولهن : ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ ليس بإبراء تام ، وإنما كان الإبراء التام وصف القصة على وجهها حتى يتقرر الخطأ في إحدى الجهتين ، ولو قلن : ما علمن عليه إلا خيراً لكان أدخل في التبرية . وقد بوب

البخاري على هذه الألفاظ على أنها تزكية ، وأدخل قول أسامة بن زيد في حديث الإفك : أهلك ولا نعلم إلا خيراً .

قال القاضي أبو محمد : وأما مالك رحمه الله فلا يقنع بهذا في تزكية الشاهد ، لأنه ليس بإثبات العدالة .

قال بعض المفسرين فلما سمعت زوجة العزيز مقالتهن وحيدتهن عن الوقوع في الخزي حضرتها نية وتحقيق ، فقالت : ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ . و﴿ حصحص ﴾ معناه : تبين بعد خفائه ، كذا قال الخليل وغيره وقيل : هو مأخوذ من الحصة ، أي بانت حصته من حصة الباطل . ثم أقرت على نفسها بالمراودة والتزمت الذنب وأبرأت يوسف البراءة التامة .

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾

قالت جماعة من أهل التأويل : هذه المقالة هي من يوسف عليه السلام ، وذلك : ﴿ ليعلم ﴾ العزيز سيدي ﴿ أني لم أخنه ﴾ في أهله وهو غائب ، وليعلم أيضاً أن الله تعالى ﴿ لا يهدي ﴾ كيد خائن ولا يرشد سعيه .

قال القاضي أبو محمد : والهدى للكيد مستعار ، بمعنى لا يكمله ولا يمضيه على طريق إصابة ، ورب كيد مهدي إذا كان من تقي في مصلحة .

واختلفت هذه الجماعة فقال ابن جريج : هذه المقالة من يوسف هي متصلة بقوله للرسول : ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ [يوسف : 50] ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، فالإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ – على هذا التأويل – هي إلى بقائه في السجن والتماسه البراءة أي هذا ليعلم سيدي أني لم أخنه .

وقال بعضهم : إنما قال يوسف هذه المقالة حين قالت امرأة العزيز كلامها ، إلى قولها : ﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ [يوسف : 51] فالإشارة – على هذا – إلى إقرارها ، وصنع الله تعالى فيه ، وهذا يضعف ، لأنه يقتضي حضوره مع النسوة عند الملك ، وبعد هذا يقول الملك : ﴿ ائتوني به ﴾ [يوسف : 54] .

وقالت فرقة من أهل التأويل : هذه الآية من قول امرأة العزيز ، وكلامها متصل ، أي قولي هذا وإقراري ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته بأن أكذب عليه أو أرميه بذنب هو بريء منه ؛ والتقدير – على هذا التأويل توبتي وإقراري ليعلم أني لم أخنه وأن الله لا يهدي . .

وعلى أن الكلام من يوسف يجيء التقدير : وليعلم أن الله لا يهدي كيد الخائنين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ ﴾

أي فذهب الرسول فأخبر الملك ، فقال : ائتوني به ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ الرسول ﴾ أي يأمره بالخروج قال : ﴿ ارجع إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة ﴾ أي حال النسوة .

﴿ اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصحّ براءته (عند) الملك مما قُذِف به ، وأنه حبس بلا جرم .

وروى الترمذيّ عن أبي هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم (ابن الكريم) يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم قال ولو لبثتُ في السجن ما لَبث ثم جاءني الرسول أجبت ثم قرأ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ الرسول قَالَ ارجع إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ قال ورحمةُ الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد (إذ قال ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾) فما بعث الله من بعده نبياً إلا في ذروة من قومه " .

وروى البخاريّ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له : " ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بلى ولكن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة :

260] وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابراً حليماً ولو لبثت في السجن ما لبثه أجبت الداعيَ ولم ألتمس العُذْر " .

وروي نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك ، في كتاب التفسير من صحيح البخاري ، وليس لابن القاسم في الديوان غيره .

وفي رواية الطّبريّ : " يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إليّ لخرجت سريعاً أَنْ كان لحليماً ذا أناة " .

(32/398)

وقال صلى الله عليه وسلم : " لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب " .

قال ابن عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبراً ، وطلباً لبراءة الساحة ؛ وذلك أنه فيما روي خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحاً فيراه الناس بتلك العين أبداً ويقولون : هذا الذي راود امرأة مولاه ؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبيّن براءته ، ويحقّق منزلته من العفّة والخير ؛ وحينئذ يخرج للإحْظَاءِ والمنزلة ؛

فلهذا قال للرسول : ارجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة ، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان : وقل له يستقصي عن ذنبي ، وينظر في أمري هل سجنت بحق أو بظلم ؛ ونَكَب عن امرأة العزيز حُسن عشرة ، ورعاية لذِمام الملك العزيز له .

فإن قيل : كيف مدح النبي صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالوجه في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي ، له جهة أيضاً من الجودة ؛ يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج ، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك ؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معرّضة لأن يقتدي الناس بها إلى يوم القيامة ؛ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الناس على الأحزم من الأمور ؛ وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه النازلة ، التاركَ فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ، ربما نَتَجَ له البقاء في سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمن ذلك ؛ فالحالة التي ذهب النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلَدٌ .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة ﴾ ذكر النّساء جملة ليدخل فيهنّ امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح ؛ وذلك حُسن عشرة وأدب ؛ وفي الكلام محذوف ، أي فاسأله أن يتعرّف ما بال النّسوة .

قال ابن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز وكان قد مات العزيز فدعاهنّ ف ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أي ما شأنكنّ .

﴿ إِذْ رَاوَدتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ وذلك أن كل واحدة منهنّ كلمت يوسف في حق نفسها ، على ما تقدّم ، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت امرأة العزيز ، فكان ذلك مراودة منهنّ .

﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أي معاذ الله .

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سواء ﴾ أي زنًى .

﴿ قَالَتِ امرأة العزيز الآن حَصْحَصَ الحق ﴾ لما رأت إقرارهنّ ببراءة يوسف ، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت أقرّت هي أيضاً ؛ وكان ذلك لطفاً من الله بيوسف .

و "حَصْحَصَ الْحَقُّ" أي تبيّن وظهر ؛ وأصله حَصَصَ ، فقيل : حَصْحَصَ ؛ كما قال : كُبْكِبُوا في كببوا ، وكفكف في كفف ؛ قاله الزجاج وغيره .

وأصل الحَصّ استئصال الشيء ؛ يقال : حصّ شعره إذا استأصله جزًّا ؛ قال أبو القيس بن الأسْلَت :

قد حَصّتِ البيْضَةُ رأسِي فمَا . . .

أطْعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاعِ

وسَنَةٌ حصّاء أي جرداء لا خير فيها ، قال جَرير :

يأوِي إليكم بلاَ مَنٍّ ولا جَحَدٍ . . .

مَن ساقه السَّنةُ الحَصّاءُ والذِّيبُ

كأنه أراد أن يقول : والضّبع ، وهي السنة المجدبة ؛ فوضع الذئب موضعه لأجل القافية ؛

فمعنى "حَصْحَص الْحَقُّ" أي انقطع عن الباطل بظهوره وثباته ؛ قال :

أَلاَ مُبْلِغٌ عنّي خِداَشاً فإنَّهُ . . .

كذوبٌ إذا ما حَصْحَصَ الحقُّ ظالمُ

وقيل : هو مشتق من الحِصّة ؛ فالمعنى بانت حِصّة الحق من حصّة الباطل .

وقال مجاهد وقتَادة : وأصله مأخوذ من قولهم ؛ حَصّ شَعْره إذا استأصل قطعه ؛ ومنه الحصّة من الأرض إذا قطعت منها .

والحِصْحِص بالكسر التراب والحجارة؛ ذكره الجوهري.

﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين ﴾ وهذا القول منها وإن لم يكن سأل عنه إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته؛ لأن إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار، حتى لا يخامر نفساً ظنٌّ، ولا يخالطها شك.

وشدّدت النون في "خَطْبُكُنَّ" و"رَاوَدْتُنَّ" لأنها بمنزلة الميم والواو في المذكر.

قوله تعالى: ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾

اختلف فيمن قاله، فقيل: هو من قول امرأة العزيز، وهو متصل بقولها: ﴿ الآن حَصْحَصَ الحق ﴾ أي أقررتُ بالصدق ليعلم أني لم أخنه بالغيب أي بالكذب عليه، ولم أذكره بسوء وهو غائب، بل صدقت وحدت عن الخيانة؛ ثم قالت: ﴿ وَمَآ أُبَرِّىءُ نفسي ﴾ بل أنا راودته؛ وعلى هذا هي كانت مقرّة بالصانع، ولهذا قالت: ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وقيل: هو من قول يوسف؛ أي قال يوسف: ذلك الأمر الذي فعلته، من رد الرسول "لِيَعْلَمَ" العزيز "أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ" قاله الحسن وقَتَادة وغيرهما.

ومعنى "بالغيب" وهو غائب.

وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك، وقال: "لِيَعْلَمَ" على الغائب توقيراً للملك.

وقيل: قاله إذ عاد إليه الرسول وهو في السجن بعدُ؛ قال ابن عباس: جاء الرسول إلى

يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه ؛ فقال يوسف : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخائنين ﴾ أي لم أَخُنْ سيّدي بالغيب ؛ فقال له جبريل عليه السلام : يا يوسف ! ولا حين حَلَلْت الإزار ، وجلست مجلس الرجل من المرأة ؟! فقال يوسف : ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نفسي ﴾ الآية .

وقال السّديّ : إنما قالت له امرأة العزيز ولا حين حَلَلْتَ سراويلك يا يوسف ؟! فقال يوسف : "وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي" .

(35/398)

وقيل : "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ" من قول العزيز ؛ أي ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب ، وأني لم أغفل عن مجازاته على أمانته .

﴿ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخائنين ﴾ معناه أن الله لا يهدي الخائنين بكيدهم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(36/398)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وقال الملك ائتوني به ﴾

(37/398)

وذلك أن الساقي لما رجع إلى الملك وأخبره بفتيا يوسف وما عبر برؤياه استحسنه الملك وعرف أن الذي قاله كائن لا محالة فقال ائتوني به حتى أبصر هذا الرجل الذي قد عبر رؤياي بهذه العبارة فرجع الساقي إلى يوسف وقال له أجب الملك فذلك قوله تعالى : ﴿ فلما جاءه الرسول ﴾ فأبى أن يخرج معه حتى تظهر براءته للملك ولا يراه بعين النقص ﴿ قال ﴾ يعني قال يوسف للرسول ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ يعني إلى سيدك وهو الملك ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدباً واحتراماً لها (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي " أخرجه الترمذي ، وزاد فيه " ثم قرأ فلما جاء الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن " هذا الحديث فيه بيان فضل يوسف وبيان قوة صبره وثباته والمراد بالداعي رسول الملك الذي جاءه من عنده فلم يخرج معه مبادراً إلى الراحة ومفارقة ما هو فيه من الضيق والسجن

الطويل فلبث في السجن وأرسل الملك في كشف أمره الذي سجن بسببه لتظهر براءته عند الملك وغيره فأثنى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على يوسف وبين فضيلته وحسن صبره على المحنة والبلاء وقوله: ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ يعني أن الله تعالى عالم بصنيعهن وما احتلن في هذه الواقعة من الحيل العظيمة فرجع الرسول من عند يوسف إلى الملك بهذه الرسالة فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن و ﴿ قال ﴾ لهن ﴿ ما خطبكن ﴾ أي شأنكن وأمركن ﴿ إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ إنما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب، والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وحدها وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب ﴿ قلن ﴾ يعني النسوة جميعاً مجيبات للملك ﴿ حاش لله ﴾ يعني معاذ الله ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ يعني من خيانة

في شيء من الأشياء ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾ يعني ظهر وتبين وقيل إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فعزرنها وقيل خافت أن يشهد عليها فأقرت فقالت ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ يعني في قوله هي راودتني عن نفسي.

واختلفوا في قوله ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ على قولين :

أحدهما : أنه من قول المرأة ووجه هذا القول أن هذا كلام متصل بما قبله وهو قول المرأة الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ، ثم قالت : ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب والمعنى ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه في حال غيبته وهو في السجن ولم أكذب عليه بل قلت أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين وإن كنت قد قلت فيه ما قلت في حضرته ، ثم بالغت في تأكيد هذا القول فقالت ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ يعني أني لما أقدمت على هذا الكيد والمكر لا جرم أني افتضحت لأن الله لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين .

(39/398)

والقول الثاني : إنه من قول يوسف وهذا قول الأكثرين من المفسرين والعلماء ووجه هذا القول أنه لا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة عليه فعلى هذا يكون معنى الآية أن لما بلغ يوسف قولا لمرأة أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين قال يوسف ذلك أي الذي فعلت من ردي رسول الملك إليه ليعلم يعني العزيز أني لم أخنه في زوجته بالغيب يعني في حال غيبته ، فيكون هذا من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز أنا راودته

عن نفسه من غير تمييز بين الكلامين لمعرفة السامعين لذلك مع غموض فيه لأنه ذكر كلام إنسان ثم أتبعه بكلام إنسان آخر من غير فصل بين الكلامين ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ هذا من قول الملأ ، فماذا تأمرون من قول فرعون ومثله قوله تعالى : ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ هذا من قول بلقيس ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ من قوله تصديقاً لها وعلى هذا القول اختلفوا أين كان يوسف حين قال هذه المقالة على قولين أحدهما أنه كان في السجن وذلك أنه لما رجع إليه رسول الملك وهو في السجن وأخبره بجواب امرأة العزيز للملك قال حينئذ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وهذه رواية أبي صالح عن ابن عباس وبه قال ابن جريج .

والقول الثاني : إنه قال هذه المقالة عند حضوره عند الملك وهذه رواية عطاء عن ابن عباس فإن قلت فعلى هذا القول كيف خاطبهم بلفظة ذلك وهي إشارة للغائب مع حضوره عندهم .

قلت قال ابن الأنباري قال اللغويون هذا وذلك يصلحان في هذا الموضع لقرب الخبر من أصحابه فصار كالمشاهد الذي يشار إليه بهذا وقيل ذلك إشارة إلى ما فعله يقول ذلك الذي فعلته من ردي الرسول ليعلم أني لم أخنه بالغيب أي لم أخن العزيز في حال غيبته ؛ ثم ختم هذا الكلام بقوله وأن الله لا يهدي كيد الخائنين يعني أني لو كنت خائناً لما خلصني الله

من هذه الورطة التي وقعت فيها لأن الله لا يهدي أي لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(40/398)

وقال أبو حيان :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾

الخطب : الشان والأمر الذي فيه خطر ، ويجمع على خطوب قال :

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه . . .

بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

حصحص تبين بعد الخفاء ، قاله الخليل .

وقيل : مأخود من الحصة حصحص الحق بانت حصته من حصة الباطل .

وقيل : ثبت واستقر ، ويكون متعدياً من حصحص البعير ألقى ثفناته للإناخة قال :

حصحص في صم الصفا ثفناته .

﴿ وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم .

(41/398)

قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ : في الكلام حذف تقديره : فحفظ الرسول ما أول به يوسف الرؤيا ، وجاء إلى الملك ومن أرسله وأخبرهم بذلك ، وقال الملك : وقال ابن عطية : في تضاعيف هذه الآيات محذوفات يعطيها ظاهر الكلام ويدلّ عليها ، والمعنى : فرجع الرسول إلى الملك ومن مع الملك فنص عليهم مقالة يوسف ، فرأى الملك وحاضروه نبل التعبير ، وحسن الرأي ، وتضمن الغيب في أمر العام الثامن مع ما وصفه به الرسول من الصدق في المنام المتقدم ، فعظم يوسف في نفس الملك وقال : ائتوني به ، فلما وصل الرسول في إخراجه إليه وقال : إنّ الملك قد أمر بأن تخرج إليه ، قال له : ارجع إلى ربك أي : إلى الملك وقل له : ما بال النسوة ؟ ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان وقل له يستقصي عن ذنبي ، وينظر في أمري ، هل سجنت بحق أو بظلم ؟ وكان هذا الفعل من يوسف إناءة وصبراً وطلباً لبراءة الساحة ، وذلك أنه فيما

روي خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ، ويسكت عن أمر دينه صفحاً ، فيراه الناس بتلك العين أبداً ويقولون : هذا الذي راود امرأة مولاه ، فأراد يوسف عليه السلام أن يبين براءته ويتحقق منزلته من العفة والخير ، وحينئذ يخرج للإحظاء والمنزلة .

وقال الزمخشري : إنما تأتي وتثبت في إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة لتظهر براءة ساحته عما فرق به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ، ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما خلد في السجن سبع سنين إلا أمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ، ويكشف سره ، وفيه دليل على أنّ الاجتهاد في نفي التهم واجبة وجوب ابقاء الوقوف في مواقفها .

قال عليه السلام : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم " انتهى .

(42/398)

ولأجل هذا كان الزمخشري ، وكان مقطوع الرجل قد أثبت على القضاة أن رجله لم تقطع في خيانة ولا فساد ، وكان يظهر ذلك المكتوب في كل بلد دخله خوفاً من تهمة السوء .

وإنما قال : سل الملك عن شأن النسوة ، ولم يقل سله أن يفتش عنهن ، لأن السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عنما سئل عنه ، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجري التفتيش عن

حقيقة القصة ، وقص الحديث حتى يتبين له براءته بياناً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل .

ومن كرم يوسف عليه السلام أنه لم يذكر زوج العزيز مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب ، واقتصر على ذكر المقطعات الأيدي .

وقرأ أبو حيوة وأبو بكر عن عاصم في رواية النسوة بضم النون ، وقرأت فرقة اللاي بالياء ، وكلاهما جمع التي .

إن ربي أي : إن الله بكيدهنّ عليم .

أراد أن كيدهن عظيم لا يعلمه إلا الله لبعد عوده ، واستشهد بعلم الله على أنهن كدنه ، وأنه بريء مما قذف به .

أو أراد الوعيد لهن ، أو هو عليم بكيدهن فيجازيهن عليه .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يريد بالرب العزيز مولاه ، ففي ذلك استشهاد به وتقريع .

وما ذكره ابن عطية من هذا الاحتمال لا يسوغ ، والضمير في بكيدهن عائد على النسوة المذكورات لا للجنس ، لأنها حالة توقيف على ذنب .

قال : ما خطبكن في الكلام حذف تقديره : فرجع الرسول فأخبره بما قال يوسف ، فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز وقال لهن : ما خطبكن ؟ وهذا استدعاء منه أن يعلمنه بالقصة ، ونزه جانب يوسف بقوله : إذ راودتن يوسف عن نفسه ، ومراودتهن له قولهن ليوسف :

أطع مولاتك .

وقال الزمخشري : هل وجدتن منه ميلاً ؟ لكنْ قلن : حاش لله تعجباً من عفته ، وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ، ومن نزاهته عنها .

وقال ابن عطية : أجاب النساء بجواب جيد تظهر منه براءة أنفسهن جملة ، وأعطين يوسف بعض براءة ، وذلك أن الملك لما قررهن أنهن راودته قلن جواباً عن ذلك : حاش لله .

(43/398)

ويحتمل أن يكون قولهن : حاش لله ، في جهة يوسف عليه السلام .

وقولهن ما علمنا عليه من سوء ليس بإبراء تام ، وإنما كان الإبراء التام وصف القصة على وجهها حتى يتقرر الخطأ في جهتهن ، فلما سمعت امرأة العزيز مقالتهن وحيدتهن عن الوقوع في الخزي قالت : الآن حصحص الحق .

وقرىء حصحص على البناء للمفعول ، أقرت على نفسها بالمراودة ، والتزمت الذنب ، وأبرأت يوسف البراءة التامة .

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾

الظاهر أن هذا من كلام امرأة العزيز وهو داخل تحت قوله : قالت .

والمعنى : ذلك الإقرار والاعتراف بالحق ، ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته والذب عنه ، وأرميه بذنب هو منه بريء .

ثم اعتذرت عما وقعت فيه مما يقع فيه البشر من الشهوات بقولها : وما أبرىء نفسي ، والنفوس مائلة إلى الشهوات أمارة بالسوء .

وقال الزمخشري : وما أبرىء نفسي مع ذلك من الخيانة فإني قد خنته حين قذفته وقلت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن ، وأودعته السجن تريد الاعتذار لما كان منها أن كل نفس لأمارة بالسوء إلا نفساً رحمها الله بالعصمة إن ربي غفور رحيم ، استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت .

ومن ذهب إلى أن قوله : ذلك ليعلم إلى آخره ، من كلام يوسف يحتاج إلى تكلف ربط بينه وبين ما قبله ، ولا دليل يدل على أنه من كلام يوسف .

فقال ابن جريج : في الكلام تقديم وتأخير ، وهذا الكلام متصل بقول يوسف : إن ربي بكيدهن عليم ، وعلى هذا فالإشارة بقوله ذلك إلى إلقائه في السجن والتماسه البراءة أي : هذا ليعلم سيدي أني لم أخنه .

وقال بعضهم : إنما قال يوسف هذه المقالة حين قالت امرأة العزيز كلامها إلى قولها : وإنه لمن

الصادقين ، فالإشارة على هذا إلى قولها وصنع الله فيه ، وهذا يضعف ، لأنه يقتضي حضوره مع النسوة عند الملك .

(44/398)

فكيف يقول الملك بعد ذلك : ائتوني به ؟ وفسر الزمخشري الآية أولاً على أنها من كلام يوسف فقال : أي ذلك التنبت والتشمر لظهور البراءة ، ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب في حرمته ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين لا ينفذه ولا يسدده ، وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها في أمانة زوجها ، وبه في خيانته أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه .

ويجوز أن يكون توكيداً لأمانته ، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله كيده ، ولا سدّده ، ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكياً ، ولحالها في الأمانة معجباً كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده ، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته .

فقال : وما أبرىء نفسي من الزلل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(45/398)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرسول . . . ﴾ الآية : لَمَّا رأى المَلِكُ وحاضروه نُبْلَ التَّعْبِيرِ وحُسْنَ الرأْيِ ، وتضمَّن الغيب في أمْرِ العامِ الثامِنِ ، مع ما وُصِفَ به من الصِّدْق عَظُمَ يوسُفُ في نَفْس الملك ، وقال : ﴿ ائتوني بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرسول قَالَ ارجع إلى رَبِّكَ ﴾ : يعني : المَلِكَ ، ﴿ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ، وقَصْدُهُ عَلَيْه السلام بيانُ براءته ، وتحقُّق منزلته من العِفَّة والخَيْرِ ، فرسَمَ القصَّة بطَرَف منها ، إذا وقع النظَرُ عَلَيْه ، بان الأمْرُ كله ، ونَكَبَ عن ذِكْرِ امرأة العزيز ؛ حُسْنَ عِشْرةٍ ورعايةٍ لذِمَامِ مُلْك العزيز له ، وفي «صحيح البخاري» ، عن عبد الرحمن بن القاسِمِ صاحب مَالِكٍ ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " ولَوْ لَبِثْتُ في السِّجْنِ لُبْثَ يوسُفَ لأَجَبْتُ الدَّاعِي " المعنى : لو كُنْتَ أنا ، لَبَادَرْتُ بالخروج ، ثم حاوَلْتُ بيان عُذْرِي بَعْدَ ذلك ؛ وذلك أَنَّ هذه القصص والنوازل ، إنما هي معرَّضة ليقتدي النَّاسُ بها إلى يوم القيامة ، فأراد صلى الله عليه وسلم حَمْلَ الناسِ على الأحزمِ من الأمورِ ؛ وذلك أن التارِكَ لِمِثْلِ هذه الفُرْصَة ربَّما نَتَجَ له بسَبَبِ التأخير خلافُ مقصوده ، وإن كان يوسف قد أَمِنَ ذلك ؛ بِعِلْمِهِ من اللَّه ، فغيْرُه من الناس لا يأمَنُ ذلك ، فالحالة التي ذَهَبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بنفسه إِلَيْها حالَةُ حَزْمٍ ومدحٍ ؛ ليقتدى به ، وما فعله يوسَفُ عليه السلام حالةُ صَبْرٍ وتجلُّد ، قال ابنُ

العربيّ في «أحكامه» : وانظر إلى عظيمِ حلْمِ يوسُف عليه السلام ووُفُورِ أدبه ، كيف قال : ﴿ مَا بَالُ النسوةِ الاتي قطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ ﴾ ، فذكر النساءَ جملةً ؛ لتدخُلَ فيهنَّ امرأةُ العزيزِ مدْخَلَ العمومِ ؛ بالتلويحِ دون التصريح . انتهى .

(46/398)

وهذه كانَتْ أخلاقُ نبِيّنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يقابل أحداً بمكروهٍ ، وإنما يقول : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا » ، من غيرِ تعيينٍ ، وبالجملة فكلُّ خَصْلةٍ حميدةٍ مذكُورَةٍ في القُرآنَ اتصف بها الأنبياءُ والأصفياءُ ، فقد اتصف بها نبيُّنا محمَّد صلى الله عليه وسلم ، إذ كان خلقه القرآن ، كما روته عائشةُ في الصحيحِ ، وكما ذكر اللّهُ سبحانه : ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] انتهى .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ، فيه وعيدٌ ، وقوله : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ : المعنى : فَجَمَعَ المَلِكُ النِّسوة ، وامرأة العزيز معهُنَّ ، وقال لهنَّ : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ . . . ﴾ الآية : أي : أيُّ شيء كانَتْ قصّتكُن ، فجاوب النساءُ بجوابٍ جيدٍ ، تظهر منه براءةُ أنفسِهنَّ ، وأعطيْن يوسُفَ بعْضَ براءةٍ ، فقلْنَ : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ ، فلما سمعت امرأة العزيزِ مقالَتَهُنَّ وحَيْدَتَهُنَّ ، حضرَتْها نيّةٌ وتحقيقٌ ،

فقالت : ﴿ الآن حَصْحَصَ الحق ﴾ ، أي : تبيَّنَ الحقُّ بعد خفائِه ؛ قاله الخليل وغيره ،

قال البخاريُّ : حَاشَ وحَاشَى : تنزيهٌ واستثناء ، وحَصْحَصَ : وَضَح . انتهى .

ثم أقرَّتْ على نفسها بالمراودةِ ، والتزمت الذنْبَ ، وأبرأَتْ يوسُفَ البراءةَ التامَّة .

وقوله : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ :

اختلف فيه أَهْلُ التأويل ، هل هو مِنْ قولِ يوسُفَ أَو من قول امرأة العَزِيزِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(47/398)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الملك ﴾

بعد ما جاءه السفيرُ بالتعبير وسمع منه ما سمع من نقير وقِطمير ﴿ ائتونى بِهِ ﴾ لِما علم من علمه وفضله ﴿ فَلَمَّا جَاءهُ ﴾ أي يوسفَ ﴿ الرسول ﴾ واستدعاه إلى الملك ﴿ قَالَ ارجع إلى رَبّكَ ﴾ أي سيدك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النّسْوَةِ اللاّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي ففتشه عن شأنهن وإنما لم يقل : فاسأله أن يفتش عن ذلك حثاً للملك على الجد في التفتيش ليتبين براءتُه ويتضح نزاهتُه إذ السؤالُ مما يهيج الإنسانَ على الاهتمام في البحث للتفصّي عما

توجه إليه وأما الطلب فمما قد يتسامح ويُتساهل فيه ولا يبالى به وإنما لم يتعرض لامرأة العزيزِ مع ما لقِيَ من مقاساة الأحزان ومعاناة الأشجانِ محافظةً على مواجب الحقوق واحترازاً عن مكرها حيث اعتقدها مقيمةً في عُدوة العداوة ، وأما النسوةُ فقد كان يطمع في صَدْعهن بالحق وشهادتِهن بإقرارها بأنها راودتْه عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي ولم يصرّح بمراودتهن له وقولِهن : أطع مولاتك واكتفي بالإيماء إلى ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ مجاملةً معهن واحترازاً عن سوء قالتِهن عند الملكِ وانتصابِهن للخصومة مدافعةً عن أنفسهن متى سمعن بنسبته لهن إلى الفساد ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبني على السؤال كأنه قيل : فماذا كان بعد ذلك ؟ فقيل : قال الملكُ إثر ما بلّغه الرسولُ الخبرَ وأحضرهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أي شأنكن وهو الأمرُ الذي يحق لعُظْمه أن يخاطِبَ المرءُ فيه صاحبه ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ ﴾ وخادعتُنّه ﴿ عَن نَّفْسِهِ ﴾ ورغبتُنّه في إطاعة مولاته هل وجدتُن فيه شيئاً من سوء وريبة ؟ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تنزيهاً له وتعجباً من نزاهته وعفته ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ بالغْن في نفي جنس السوءِ عنه بالتنكير وزيادة من ﴿ قَالَتِ امرأت العزيز ﴾ وكانت حاضرةً في المجلس وقيل : أقبلت النسوةُ عليها يقرّرنها ، وقيل : خافت أن

يشهدْن عليها بما قالت لهن : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ فأقرت قائلة : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ أي ثبت واستقرَّ أو تبيّن وظهر بعد خفاء ، قاله الخليل ، وقيل : هو مأخوذ من الحِصة وهي القطعة من الجملة أي تبين حصة الحقِ من حصة الباطل كما تتبين حِصص الأراضي وغيرها ، وقيل : بان وظهر من حصّ شعرَه إذا استأصله بحيث ظهرت بشرةُ رأسه ، وقرئ على البناء للمفعول من حَصحَص البعيرُ مباركَه أي ألقاها في الأرض للإناخة قال :

فحصحَص في صُمّ الصفا ثفِناته . . . وناء بسلمى نوأةً ثم صمّما

والمعنى أُقرَّ الحقُّ في مقرّه ووُضع في موضعه ولم تردْ بذلك مجردَ ظهور ما ظهر بشهادتهن من مطلق نزاهتِه عليه السلام فيما أحاط به علمُهن من غير تعرض لنزاهته في سائر المواطنِ خصوصاً فيما وقع فيه التشاجرُ بمحضر العزيز ، ولا بحثٍ عن حال نفسها وما صنعت في ذلك بل أرادت ظهورَ ما هو متحققٌ في نفس الأمر وثبوته من نزاهته عليه السلام في محل النزاعِ وخيانتِها فقالت : ﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ لا أنه راودني عن نفسي ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي في قوله حين افتريت عليه هي راودتني عن نفسي وأرادت بالآن زمانَ تكلّمها بهذا الكلام لا زمانَ شهادتِهن فتأمل أيها المنصفُ هل ترى فوق هذه المرتبةِ نزاهةً حيث لم تتمالك الخُصماء من الشهادة بها ، والفضلُ ما شهدت بِهِ الخصماءُ وإنما تصدى

عليه السلام لتمهيد هذه المقدمة قبل الخروج ليُظهر براءةَ ساحتِه مما قُذف به لا سيما عند العزيزِ قبل أن يحُلّ ما عقَده كما يُعرب عنه قوله عليه السلام لما رجع إليه الرسولُ وأخبره بكلامهن .

﴿ ذلك ﴾

(49/398)

أي ذلك التثبيتُ المؤدي إلى ظهور حقيقة الحال ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ أي العزيز ﴿ أَنّى لَمْ أَخُنْهُ ﴾ في حرمته كما زعمه لا علماً مطلقاً فإن ذلك لا يستدعي تقديمَ التفتيشِ على الخروج من السجن بل قبل ما ذكر من نقص ما أبرمه ولعله لمراعاة حقوقِ السيادةِ لأن المباشرَة للخروج من حبسه قبل ظهورِ بُطلانِ ما جعله سبباً له وإن كان ذلك بأمر الملك مما يوهم الافتياتَ على رأيه ، وأما أن يكون ذلك لئلا يُتمكن من تقبيح أمرِه عند ذلك تمحلاً لإمضاء ما قضاه فلا يليق بشأنه عليه السلام في الوثوق بأمره والتوكل على ربه جل جلاله ﴿ بالغيب ﴾ أي بظهر الغيبِ وهو حالٌ من الفاعل أو المفعول أي لم أخُنه وأنا غائبٌ عنه أو وهو غائبٌ عني أو ظرف أي بمكان الغيب وراءَ الأستار والأبوابِ المغلقة ، وأياً ما كان فالمقصودُ بيانُ كمالِ نزاهتِه عن الخيانة وغايةِ اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابِها ﴿ وَأَنَّ الله ﴾ أي وليعلم أنه

تعالى ﴿ لَا يَهْدِي كَيْدَ الخائنين ﴾ أي لا يُنفِذه ولا يسدّده بل يُبطله ويُزهِقه أو لا يهديهم في كيدهم إيقاعاً للفعل على الكيد مبالغة كما في قوله تعالى : ﴿ يضاهِئُون قَوْلَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي يضاهئونهم في قولهم ، وفيه تعريضٌ بامرأته في خيانتها أمانتَه وبه في خيانته أمانةَ الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد ما رأوا آياتِ نزاهتِه عليه السلام ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته وأنه لو كان خائناً لما هدى الله عز وجل أمره وأحسن عاقبتَه . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(50/398)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾

بعد ما جاء السفير المعبر بالتعبير وسمع منه ما سمع من نقير وقطمير .

﴿ ائْتُونِي به ﴾ لما رأى من علمه وفضله وإخباره عما لا يعلمه إلا اللطيف الخبير ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿ الرَّسُولُ ﴾ وهو صاحبه الذي استفتاه ، وقال له : إن الملك يريد أن تخرج إليه .

﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أي سيدك وهو الملك ﴿ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ

أيدِيَهُنَّ ﴾ أي فتشه عن شأنهن وحالهن ، وإنما لم يقل فاسأله أن يفتش عن ذلك حثاً للملك على الجد في التفتيش لتتبين براءته وتتضح نزاهته فإن السؤال عن شيء ما يهيج الإنسان ويحركه للبحث لأنه يأنف من الجهل ، ولو قال : سله أن يفتش لكان تهييجاً له عن الفحص عن ذلك ، وفيه جراءة عليه فربما امتنع منه ولم يلتفت إليه .

وإنما لم يتعرض عليه السلام لامرأة العزيز مع أنها الأصل الأصيل لما لاقاه تأدباً وتكرماً ، ولذا حملها ذلك على الاعتراف بنزاهته وبراءة ساحته ، وقيل : احترازاً عن مكرها حيث اعتقدها باقية في ضلالها القديم ، وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ، ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي ولم يصرح بمراودتهن له واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله : ﴿ إنَّ رَبِّي بكَيْدهنَّ عَلِيمٌ ﴾ مجاملة معهن واحترازاً عن سوء مقالتهن وانتصابهن عند رفعهن إلى الملك للخصومة عن أنفسهن متى سمعن بنسبته لهن إلى الفساد .

وفي " الكشاف " أنه عليه السلام أراد بهذا أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله تعالى ، أو استشهد بعلم الله تعالى على أنهن كدنه وأنه بريء مما قرف به ، أو أراد الوعيد لهن أي عليم بكيدهن فمجازيهن عليه انتهى .

وكان الحصر على الأول من قربه من زيد يعلم وصلوحه لإفادته عنده أو من اقتضاء المقام لأنه إذا حمله على السؤال ثم أضاف علمه إلى الله تعالى دل به على عظمته ، وأن الكنه غير مأمول الوصول لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، وهذا هو الوجه ، وفيه زيادة تشويق وبعث إلى تعرف الأمر ، فالجملة عليه تتميم لقوله : ﴿ فاسأله ﴾ الخ والكيد اسم لما كدنه به ، وعلى الوجه الثاني تكون تذييلاً كأنه قيل : احمله على التعرف يتبين له براءة ساحتي فإن الله سبحانه يعلم أن ذلك كان كيداً منهن وإذا كان كيداً يكون لا محالة بريئاً ، والكيد هو الحدث ؛ وعلى الثالث تحتملهما ؛ والمعنى بعث الملك على الغضب له والانتقام منهن ، وإلا لم يتلاءم الكلام ولا يطابق كرم يوسف عليه السلام الذي عجب منه نبينا عليه الصلاة والسلام ؛ فقد أخرج غير واحد عن ابن عباس وابن مسعود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله تعالى يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترطت أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر أن كان حليماً ذا أناة " ودعاؤه له صلى الله عليه وسلم قيل : إشارة إلى ترك العزيمة بالرخصة وهي تقديم حق الله تعالى

بتبليغ التوحيد والرسالة على براءة نفسه ، وجعله العلامة الطيبي من قبيل قولك لمن تعظمه : رضي الله تعالى عنك ما جوابك عن كلامي .

وقيل : يمكن أن يقال : إن في براءته النفس من حق الله تعالى ما فيها فإنها إذا تحققت عندهم وقع ما تلاها موقع القبول .

(52/398)

وقد ذكر أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : " من كان يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم " وأخرج مسلم من رواية أنس " أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان مع إحدى نسائه فمرّ به رجل فدعاه ، وقال : هذه زوجتي ، فقال : يا رسول الله من كنت أظن به فلم أكن أظن بك ؟ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم " وكأنه لهذا كان الزمخشري وكان ساقط الرجل قد أثبت على القضاة أن رجله لم تقطع في جناية ولا فساد بل سقطت من ثلج أصابها في بعض الأسفار ، وكان يظهر مكتوب القضاة في كل بلد دخله خوفاً من تهمة السوء ، فلعله عليه السلام خشي أن يخرج ساكتاً عن أمر ذنبه غير متضحة براءة ساحته عما سجن فيه وقرف به من أن يتسلق بها الحاشدون إلى تقبيح

أمره ويجعلوه سلماً إلى حط قدره ونظر الناس إليه بعين الاحتقار فلا يعلق كلامه في قلوبهم ولا يترتب على دعوته قبولهم ، وفي ذلك من تعري التبليغ عن الثمرة ما فيه ، وما ذكره صلى الله عليه وسلم " ولو كنت مكانه " الخ كان تواضعاً منه عليه الصلاة والسلام لا أنه لو كان مكانه بادر وعجل وإلا فحلمه صلى الله عليه وسلم وتحمله واهتمامه بما يترتب عليه قبول الخلق أوامر الحق سبحانه وتعالى أمر معلوم لدى الخواص والعموم .

وزعم ابن عطية أنه يحتمل أن يكون عليه السلام أراد بالرب العزيز كما قيل في قوله : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ [يوسف : 23] ففي ذلك استشهاد به وتقريع له وليس بشيء ، ومثله ما قيل : إن ضمير (كيدهن) ليس عائداً على النسوة المذكورات بل عائد على الجنس فافهم .

وقرأ أبو حيوة وأبو بكر عن عاصم في رواية ﴿ النسوة ﴾ بضم النون ، وقرأت فرقة اللائي - بالياء وهو كاللاء جمع التي .

(53/398)

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على السؤال كما سبق كأنه قيل : فما كان بعد ذلك ؟ فقيل : قال الملك إثر ما بلغه الرسول الخبر وأحضرهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أي شأنكن ، وأصله

الأمر العظيم الذي يحق لعظمته أن يكثر فيه التخاطب ويخطب له ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ ﴾ وخادعتنه ﴿ عَن نَّفْسِهِ ﴾ ورغبتنه في طاعة مولاته هل وجدتن فيه ميلاً إليكن ؟ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تنزيهاً له وتعجيباً من نزاهته عليه السلام وعفته ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ بالغن في نفي جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة ﴿ من ﴾ .

وفي " الكشف " في توجيه كون السؤال المقدر في نظم الكلام عن وجدانهن فيه الميل ، وذلك لأنه سؤال عن شأنهن معه عند المراودة ، وأوله الميل ثم ما يترتب عليه ، وحمله على السؤال يدعي النزاهة الكلية فيكون سؤال الملك منزلاً عليه إذ لا يمكن ما بعده إلا إذا سلم الميل ، وجوابهن عليه ينطبق لتعدبهن عن نزاهته بسبب التعجب من قدرة الله تعالى على خلق عفيف مثله ليكون التعجب منها على سبيل الكناية فيكون أبلغ وأبلغ ، ثم نفيهن العلم مطلقاً وطرفاً أي طرف دهم من سوء أن سوء فضلاً عن شهود الميل معهن اه ، وهو من الحسن بمكان .

وما ذكره ابن عطية – من أن النسوة قد أجبن بجواب جيد يظهر منه براءة أنفسهن جملة وأعطين يوسف عليه السلام بعض براءة وذلك أن الملك لما قررهن أنهن راودنه قلن جواباً عن ذلك وتنزيهاً لأنفسهن : ﴿ حاش لله ﴾ ويحتمل أن يكون في جهته عليه السلام ، وقولهن : ﴿ ما علمنا ﴾ الخ ليس بإبرام تام ، وإنما هو شرح القصة على وجهها حتى يتقرر الخطأ في جهتهن – ناشئ عن الغفلة عما قرره المولى صاحب " الكشف " .

﴿ قَالَت امْرَأَتُ الْعَزِيز ﴾ وكانت حاضرة المجلس ، قيل : أقبلت النسوة عليها يقررنها ، وقيل : خافت أن يشهدن عليها بما قالت يوم قطعن أيديهن فاقرت قائلة : ﴿ الآن حَصْحَصَ الْحَقّ ﴾ أي ظهر وتبين بعد خفاء قاله الخليل ، وهو مأخوذ من الحصة وهي القطعة من الجملة أي تبينت حصة الحق من حصة الباطل ، والمراد تميز هذا عن هذا ، وإلى ذلك ذهب الزجاج أيضاً ، وقيل : هو من حص شعره إذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه ، وعلى ذلك قوله :

قد حصت البيضة راسي فما . . .

أطعم نوماً غير تهجاع

ويرجع هذا إلى الظهور أيضاً ، وقيل : هو من حصحص البعير إذا ألقى مباركه ليناخ ، قال حميد بن ثور الهلالي يصف بعيراً :

فحصحص في صم الصفا ثفناته . . .

وناء بسلمى نوءة ثم صمما

والمعنى الآن ثبت الحق واستقر .

وذكر الراغب وغيره أن حص وحصحص ككف وكفكف وكب وكبكب .

وقرئ بالبناء للمفعول على معنى أقر الحق في مقره ووضع في موضعه .

و ﴿ الآن ﴾ من الظروف المبنية في المشهور وهو اسم للوقت الحاضر جميعه كوقت فعل الإنشاء حال النطق به والحاضر بعضه كما في هذه الآية وقوله سبحانه : ﴿ الآن خفف الله عنكم ﴾ [الأنفال : 66] وقد يخرج عند ابن مالك عن الظرفية كخبر " فهو يهوي في النار الآن حين انتهى إلى مقرها " فإن الآن فيه في موضع رفع على الابتداء ، و" حين " خبره وهو مبني لإضافته إلى جملة صدرها ماض وألفه منقلبة عن واو لقولهم في معناه : الأوان ، وقيل : عن ياء لأنه من آن يئين إذا قرب ، وقيل : أصله أوان قلبت الواو ألفاً ثم حذفت لالتقاء الساكنين ، ورد بأن الواو قبل الألف لا تقلب كالجواد والسواد ، وقيل : حذفت الألف وغيرت الواو إليها كما في راح وراح استعملوه مرة على فعل وأخرى على فعال كزمن وزمان .

(55/398)

واختلفوا في علة بنائه فقال الزجاج : بني لتضمنه معنى الإشارة لأن معناه هذا الوقت ، وردّ بأن المتضمن معنى الإشارة بمنزلة اسم الإشارة وهو لا تدخله أل ، وقال أبو علي : لتضمنه

معنى لام التعريف لأنه استعمل معرفة وليس علماً وأل فيه زائدة ، وضعف بأن تضمن اسم معنى حرف اختصاراً ينافي زيادة ما لا يعتد به هذا مع كون المزيد غير المضمن معناه فكيف إذا كان إياه ، وقال المبرد وابن السراج : لأنه خالف نظائره إذ هو نكرة في الأصل استعمل من أول وضعه باللام ، وبابها أن تدخل على النكرة وإليه ذهب الزمخشري ، ورده ابن مالك بلزوم بناء الجماء الغفير ونحوه مما وقع في أول وضعه باللام ، وبأنه لو كانت مخالفة الاسم لسائر الأسماء موجبة لشبه الحرف واستحقاق البناء لوجب بناء كل اسم خالف الأسماء بوزن أو غيره وهو باطل بإجماع ، واختار أنه بني لشبه الحرف في ملازمة لفظ واحد لأنه لا يثنى ولا يجمع ولا يصغر بخلاف حين ووقت وزمان ومدة ، وردّه أبو حيان بما ردّ هو به على من تقدم ، وقال الفراء : إنما بني لأنه نقل من فعل ماض وهو آن بمعنى حان فبقي على بنائه استصحاباً على حد "أنهاكم عن قيل وقال" وردّ بأنه لو كان كذلك لم تدخل عليه أل كما لا تدخل على ما ذكر ، وجاز فيه الإعراب كما جاز فيه .

وذهب بعضهم على أنه معرب منصوب على الظرفية ، واستدل بقوله :

كأنهما ملآن لم يتغيرا . . .

بكسر النون أي من الآن فحذفت النون والهمزة وجر فدل على أنه معرب وضعف باحتمال أن تكون الكسرة كسرة بناء ويكون في بناء الآن لغتان : الفتح والكسر كما في

شتان إلا أن الفتح أكثر وأشهر ، وفي " شرح الألفية " لابن الصائغ أن الذي قال : إن أصله أوان يقول بإعرابه كما أن وأنا معرب .

(56/398)

واختار الجلال السيوطي القول بإعرابه لأنه لم يثبت لبنائه علة معتبرة فهو عنده منصوب على الظرفية ، وإن دخلت من جرّ وخروجه عن الظرفية غير ثابت ، وفي الاستدلال بالحديث السابق مقال ، وأياً مّا كان فهو هنا متعلق - بحصحص - أي حصحص الحق في هذا الوقت .

{ أَنَا راودتُّهُ عَن نَّفْسه } لا أنه راودني عن نفسي ، وإنما قالت ذلك بعد اعترافها تأكيداً لنزاهته

عليه السلام ، وكذا قولها : { وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } أي في قوله حين افتريت عليه { هي راودتني عن نفسي } [يوسف : 26] .

قيل : إن الذي دعاها لذلكك كله التوخي لمقابلة الاعتراف حيث لا يجدي الإنكار بالعفو ، وقيل : إنها لما تناهت في حبه لم تبال بانتهاك سترها وظهور سرها .

وفي " إرشاد العقل السليم " أنها لم ترد بقولها : { الآن } الخ مجرد ظهور ما ظهر بشهادة

النسوة من مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته في سائر المواطن خصوصاً فيما وقع فيه التشاجر بمحضر العزيز ولا بحث عن حال نفسها وما صنعت في ذلك بل أرادت

ظهور ما هو متحقق في نفس الأمر وثبوته من نزاهته عليه السلام في محل النزاع وخيانتها ، ولهذا قالت : ﴿ أنا راودته ﴾ الخ ، وأرادت – بالآن – زمان تكلمها بهذا الكلام لا زمان شهادتهن اه فافهم وتأمل هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة حيث لم يتمالك الخصماء من الشهادة بها على أتم وجه .

والفضل ما شهدت به الخصماء . . .

وليت من نسب إليه السوء – وحاشاه – كان عنده عشر معشار ما كان عند أولئك النسوة الشاهدات من الإنصاف .

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ﴾ الذي ذهب إليه غير واحد أن (ذلك) إشارة إلى التثبت مع ما تلاه من القصة أجمع فهو من كلام يوسف عليه السلام جعله فذلكة منه لما نهض له أولاً من التشمر لطهارة ذيله وبراءة ساحته ، وقد حكى الله تعالى ما وقع من ذلك طبق الوجود مع رعاية ما

عليه دأب القرآن من الإيجاز كحذف فرجع إلى ربه فأنهاه مقالة يوسف فأحضرهن سائلاً قال : ما خطبكن الخ ؛ وكذلك كما قيل في ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ [يوسف : 51] الخ ، وكذلك هذا أيضاً لأن المعنى فرجع إليه الرسول قائلاً فتش الملك عن كنه الأمر وبان له جلية الحق من عصمتك وأنك لم ترجع في ذلك المقام الدحض بمس ملام فعند ذلك قال عليه السلام : ذلك ليعلم العزيز ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ في حرمته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ أي بظهر الغيب ، وقيل : ضمير ﴿ يعلم ﴾ للملك ، وضمير ﴿ أخنه ﴾ للعزيز ، وقيل : للملك أيضاً لأن خيانة وزيره خيانة له ، والباء إما للملابسة أو للظرفية ، وعلى الأول هو حال من فاعل ﴿ أخنه ﴾ أي تركت خيانته وأنا غائب عنه ، أو من مفعوله أي وهو غائب عني وهما متلازمان ، وجوز أن يكون حالاً منهما وليس بشيء ، وعلى الثاني فهو ظرف لغو لما عنده أي لم أخنه بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة ، ويحتمل الحالية أيضاً .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ اي وليعلم أن الله تعالى ﴿ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ أي لا ينفذه ولا يسدّده بل يبطله ويزهقه فهداية الكيد مجاز عن تنفيذه ، ويجوز أن يكون المراد لا يهدي الخائنين بسبب كيدهم فأوقع الهداية المنفية على لاكيد وهي واقعة عليهم تجوزاً للمبالغة لأنه إذا لم يهد السبب علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى .

وفيه تعريض بامرأة العزيز في خيانتها أمانته وبه في خيانته أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعدما رأوا الآيات الدالة على نزاهته عليه السلام ، ويجوز أن يكون مع ذلك تأكيداً لأمانته عليه السلام على معنى لو كنت خائناً لما هدى الله تعالى كيدي ولا سدّده ، وتوهم عبارة بعضهم عدم اجتماع التأكيد والتعريض ، والحق أنه لا مانع من ذلك ؛ وأراد بكيده تشمره وثباته ذلك ، وتسميته كيداً على فرض الخيانة على بابها حقيقة كما لا يخفى ، فما في " الكشف " من أنه سماه كيداً استعارة أو مشاكلة ليس بشيء .

وقيل : إن ضمير ﴿ يعلم ﴾ و﴿ لم أخنه ﴾ لله تعالى أي ذلك ليعلم الله تعالى أني لم أعصه أي ليظهر أني غير عاص ويكرمني به ويصير سبب رفع منزلتي وليظهر أن كيد الخائن لا ينفذ وأن العاقبة للمطيع لا للعاصي فهو نظير قوله تعالى : ﴿ لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب ﴾ [البقرة : 143] وله نظائر أخر في القرآن كثيرة إلا أن الله تعالى أخبر عن نفسه بذلك وأما غيره فلم يرد في الكتاب العزيز ، وفيه نوع إيهام التحاشي عنه أحسن على أن المقام لما تقدم أدعى . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ أي : أخرجوه من السجن وأحضروه ؛ لما علم من علمه وفضله ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ أي : يستدعيه إلى الملك : ﴿ قَالَ ﴾ أي : يوسف له : ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أي : سيدك الملك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي : ما شأنهن وخبرهن ؟ أمره بأن يسأله ويستفهمه عن ذلك ، ولم يكشف له عن القصة ، ولا أوضحها له ؛ لأن السؤال مجملاً ، مما يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام ، فتحصل البراءة . وإنما كان السؤال المجمل يهيج الإنسان ، ويحركه للبحث عنه ؛ لأنه يأنف من جهله وعدم علمه به ، ولو قال : سله أن يفتش عن ذلك ، لكان طلباً للفحص عنه ، وهو مما يتسامح ويتساهل به ، وفيه جرأة عليه ، فربما امتنع منه ، ولم يلتفت إليه .

قال الزمخشري : إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ؛ ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه ؛ لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ، ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما خلد في السجن إلا لأمر عظيم وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ، ويستكف شره . وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها . قال عليه السلام : < من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم > . ومنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمارين به في معتكفه ،

وعنده بعض نسائه : < هي فلانة > ؛ اتقاء للتهمة .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : < لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له ، حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني . ولقد عجبت منه حيث أتاه الرسول فقال : ﴿ ارجِعْ إِلى رَبِّكَ ﴾ ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت ؛ لأسرعت الإجابة ، وبادرتهم الباب ، ولما ابتغيت العذر ، إن كان لحليماً ذا أناة > . انتهى .

(60/398)

رواه عبد الرزاق في مصنفه مرسلاً عن عِكْرِمَة .

وقد روي في المسند والصحيحين مختصراً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي > . مدحه النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الأناة ، كان في طي هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم أنه همّ بامرأة العزيز همّاً يؤاخذ به ؛ لأنه إذا صبر وتثبت فيما له ألا يصبر فيه ، وهو الخروج من السجن ، مع أن الدواعي متوافرة على الخروج منه ؛ فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم أولى وأجدر أفاده الناصر .

قال أبو السعود : وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز ، مع ما لقي منها ما لقي ، من مقاساة الأحزان ؛ محافظة على مواجب الحقوق ، واحترازاً عن مكرها ، حيث اعتقدها مقيمة في عدوة العداوة . وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ، ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي ، ولم يصرح بمراودتهن له ، وقولهن (أطع مولاتك) واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ يعني ما كدنه به ، وفي إضافة علمه إلى الله إشارة إلى عظمه ، وأن كنهه غير مأمول الوصول إليه ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . وفيه تشويق وبعث على معرفته ، فهو تتميم لقوله : (اسأل) ، ودلالة على أنه بريء مما قرف به ؛ للاستشهاد بعلمه تعالى عليه . وفيه الوعيد لهن على كيدهن ، وأنه تعالى مجازٍ عليه ، وقوله :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ استئناف مبني على السؤال ، كأنه قيل : فماذا كان بعد ذلك ؟ فقيل : قال الملك : ما خطبكن – أي : شأنكن – إذ راودتن يوسف يوم الضيافة ؟ يعني : هل وجدتن منه ميلاً إليكن ؟ .

﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ أي : قبيح ، بالغ في نفي جنسه عنه بالتنكير ، وزيادة (من) : ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ أي : ثبت واستقر وظهر بعد خفائه ﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي : في قوله : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ .

قال الزمخشري : ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة ، واعترافهن على أنفسهن ، بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به ؛ لأنهن خصومه . وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق ، وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال . انتهى .

~والفضل ما شهدت به الأعداء

﴿ ذَلِكَ ﴾ تقول امرأة العزيز : ذلك الذي اعترفت به على نفسي : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي : ليعلم يوسف أني لم أكذب عليه في حال الغيبة ، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه ، أو ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فاعترفت ليعلم أني بريئة ﴿ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ أي : لا يرضاه ولا يسدده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 189 . 191 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾

قال الملك : ائتوني به لما أبلغه الساقي صورة التعبير .

والخطاب للملأ ليرسلوا مَن يعينونه لجلبه .

ولذلك فرع عليه ﴿ فلما جاءه الرسول ﴾ .

فالتقدير : فأرسلوا رسولاً منهم .

وضميرا الغائب في قوله : ﴿ به ﴾ وقوله : ﴿ جاءه ﴾ عائدان إلى يوسف عليه السّلام .

وضمير ﴿ قال ﴾ المستتر كذلك .

وقد أبى يوسف عليه السّلام الخروج من السجن قبل أن تثبت براءته مما رمي به في بيت العزيز ، لأن ذلك قد بلغ الملك لا محالة لئلا يكون تبريزه في التعبير الموجب لإطلاقه من السجن كالشفيع فيه فيبقى حديث قرفه بما قرف به فاشياً في الناس فيتسلق به الحاسدون إلى انتقاص شأنه عند الملك يوماً ما ، فإن تبرئة العرض من التهم الباطلة مقصد شرعي ، وليكون حضوره لدى الملك مرموقاً بعين لا تنظر إليه بشائبة نقص .

وجعل طريق تقرير براءته مفتتحةً بالسؤال عن الخبر لإعادة ذكره من أوله ، فمعنى ﴿

فاسأله ﴾ بلَغ إليه سؤالاً من قِبلي .

وهذه حكمة عظيمة تحق بأن يؤتسى بها .

وهي تطلب المسجون باطلاً أن يَبقى في السجن حتى تتبين براءته من السبب الذي سجن لأجله ، وهي راجعة إلى التحلي بالصبر حتى يظهر النصر .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم " لو لبثت ما لبث يوسف في السجن لأجبت الداعي " أي داعيَ الملك وهو الرسول الذي في قوله تعالى : ﴿ فلما جاءه الرسول ﴾ ، أي لما راجعت الملك .

فهذه إحدى الآيات والعبر التي أشار إليها قوله تعالى : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ [سورة يوسف : 7] .

والسؤال : مستعمل في التنبيه دون طلب الفهم ، لأن السائل عالم بالأمر المسؤول عنه وإنما يريد السائل حث المسؤول عن علم الخبر .

وقريب منه قوله تعالى : ﴿ عم يتساءلون ﴾ [سورة النبأ : 1] .

وجعل السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز تسهيلاً للكشف عن أمرها ، لأن ذكرها مع مكانة زوجها من الملك ربما يصرف الملك عن الكشف رعياً للعزيز ، ولأن حديث المُتّكأ شاع بين الناس ، وأصبحت قضية يوسف عليه السّلام مشهورة بذلك اليوم ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه ﴾ [سورة يوسف : 35] ، ولأن النسوة كن شواهد على إقرار امرأة العزيم بأنها راودت يوسف عليه السّلام عن نفسه .

فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك النسوة منتهى الحكمة في البحث وغاية الإيجاز في الخطاب .

وجملة إن ربي بكيدهن عليم ﴾ من كلام يوسف عليه السّلام .

وهي تذييل وتعريض بأن الكشف المطلوب سينجلي عن براءته وظهور كيد الكائدات له ثقة بالله ربه أنه ناصره .

وإضافة كيد إلى ضمير النسوة لأدنى ملابسة لأن الكيد واقع من بعضهن ، وهي امرأة العزيز في غرضها من جمع النسوة فأضيف إلى ضمير جماعتهن قصداً للإبهام المعين على التبيان .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾

جملة ﴿ قال ما خطبكن ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن الجمل التي سبقتها تثير سؤالاً في

نفس السامع عما حصل من المَلِك لَمّا أُبلغ إليه اقتراح يوسف عليه السّلام مع شدة تشوقه إلى حضوره بين يديه ، أي قال الملك للنسوة .

ووقوع هذا بعد جملة ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ [سورة يوسف : 50] إلى آخرها مؤذن بكلام محذوف ، تقديره : فرجع فأخبر الملك فأحضر الملكُ النسوة اللائي كانت جمعتْهن امرأةُ العزيز لَمّا أعتدت لهنّ مُتّكَأً فقال لهن : ما خطبكن ﴾ إلى آخره .

واسندت المراودة إلى ضمير النسوة لوقوعها من بعضهن غير معين ، أو لأن القالة التي شاعت في المدينة كانت مخلوطة ظنَا أن المراودة وقعت في مجلس المتّكأ .

والخطب : الشأن المهم من حالة أو حادثة .

قيل : سمي خطباً لأنه يقتضي أن يخاطِب المرء صاحبه بالتساؤل عنه .

(64/398)

وقيل : هو مأخوذ من الخُطبة ، أي يُخطب فيه ، وإنما تكون الخطبة في أمر عظيم ، فأصله مصدر بمعنى المفعول ، أي مخطوب فيه .

وجملة ﴿ قلن ﴾ مفصولة لأجل كونها حكاية جواب عن كلام الملك أي قالت النسوة عدا امرأة العزيز ، بقرينة قوله بعد : ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ .

و﴿ حاش لله ﴾ مبالغة في النفي والتنزيه .

والمقصود : التبرؤ مما نسب إليهن من المراودة .

وقد تقدم تفسيرها آنفاً واختلاف القراء فيها .

وجملة ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ مبينة لإجمال النفي الذي في ﴿ حاش لله ﴾ .

وهي جامعة لنفي مراودتهن إياه ومراودته إياهن لأن الحالتين من أحوال السوء .

ونفي علمهن ذلك كناية عن نفي دعوتهن إياه إلى السوء ونفي دعوته إياهن إليه لأن ذلك لو وقع لكان معلوماً عندهن ، ثم إنهن لم يزدن في الشهادة على ما يتعلق بسؤال الملك فلم يتعرضن لإقرار امرأة العزيز في مجلسهن بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ، خشيةً منها ، أو مودّةً لها ، فاقتصرن على جواب ما سُئلن عنه .

وهذا يدل على كلام محذوف وهو أن امرأة العزيز كانت من جملة النسوة اللاتي أحضرهن الملك .

ولم يشملها قول يوسف عليه السّلام : ﴿ ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ [سورة يوسف : 5] لأنها لم تقطّعْ يدها معهن ، ولكن شملها كلام الملك إذ قال : إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ فإن المراودة إنما وقعت من امرأة العزيز دون النسوة اللاتي أعدّت لهن متكئاً ، ففي الكلام إيجاز حذف .

وجملة ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ مفصولة لأنها حكاية جواب عن سؤال الملك .

والآن : ظرف للزمان الحاضر ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ الآن خفف الله عنكم ﴾ في سورة الأنفال (66) .

و ﴿ حصحص ﴾ : ثبت واستقر .

و ﴿ الحق ﴾ : هو براءة يوسف عليه السّلام مما رمته به امرأة العزيز ، وإنما ثبت حينئذٍ لأنه كان محل قيل وقال وشك ، فزال ذلك باعترافها بما وقع .

(65/398)

والتعبير بالماضي مع أنه لم يثبت إلا من إقرارها الذي لم يسبق لأنه قريب الوقوع فهو لتقريب زمن الحال من المضي .

ويجوز أن يكون المراد ثبوت الحق بقول النسوة ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ فيكون الماضي على حقيقته .

وتقديم اسم الزمان للدلالة على الاختصاص ، أي الآن لا قبله للدلالة على أن ما قبل ذلك الزمان كان زمنَ باطل وهو زمن تهمة يوسف عليه السّلام بالمراودة ، فالقصر قصر تعيين إذ كان الملك لا يدري أي الوقتين وقتُ الصدق أهو وقت اعتراف النسوة بنزاهة يوسف عليه السّلام أم هو وقت رمي امرأة العزيز إياه بالمراودة .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في جملة ﴿ أنا راودته ﴾ للقصر ، لإبطال أن يكون النسوة راودنه .

فهذا إقرار منها على نفسها ، وشهادة لغيرها بالبراءة ، وزادت فأكدت صدقه بـ (إن) واللام .

وصيغة ﴿ من الصادقين ﴾ كما تقدم في نظائرها ، منها قوله تعالى : ﴿ قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ﴾ في سورة الأنعام (56) .

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾

ظاهر نظم الكلام أن الجملة من قول امرأة العزيز ، وعلى ذلك حمله الأقل من المفسرين ، وعزاه ابن عطية إلى فرقة من أهل التأويل ، ونُسب إلى الجبائي ، واختاره الماوردي ، وهو في موقع العلة لما تضمنته جملة ﴿ أنا راودته عن نفسه ﴾ [سورة يوسف : 51] وما عطف عليها من إقرار ببراءة يوسف عليه السّلام بما كانت رمتْه به .

فالإشارة بذلك إلى الإقرار المستفاد من جملة أنا راودته ﴾ أي ذلك الإقرار ليعلم يوسف عليه السّلام أني لم أخنه .

واللام في ﴿ ليعلم ﴾ لام كي ، والفعل بعدها منصوب بـ (أنْ) مضمرة ، فهو في تأويل المصدر ، وهو خبر عن اسم الإشارة .

والباء في ﴿ بالغيب ﴾ للملابسة أو الظرفية ، أي في غيبته ، أي لم أرمه بما يقدح فيه في

مغيبه.

ومحل المجرور في محل الحال من الضمير المنصوب.

والخيانة: هي تهمتهُ بمحاولة السوء معها كذباً، لأن الكذب ضد أمانة القول بالحق.

والتعريف في ﴿ الغيب ﴾ تعريف الجنس.

تمدحت بعدم الخيانة على أبلغ وجه إذ نفَت الخيانة في المغيب وهو حَائلٌ بينه وبين دفاعه عن نفسه، وحالة المغيب أمكن لمريد الخيانة أن يخون فيها من حالة الحضرة، لأن الحاضر قد يتفطن لقصد الخائن فيدفع خيانته بالحجة.

و﴿ أنّ الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ عطف على ﴿ ليعلم ﴾ وهو علة ثانية لإصداعها بالحق، أي ولأن الله لا يهدي كيد الخائنين.

والخبر مستعمل في لازم الفائدة وهو كون المتكلم عالماً بمضمون الكلام، لأن علة إقرارها هو علمها بأن الله لا يهدي كيد الخائنين.

ومعنى ﴿ لا يهدي كيد الخائنين ﴾ لا ينفذه ولا يسدده.

فأطلقت الهداية التي هي الإرشاد إلى الطريق الموصلة على تيسير الوصول، وأطلق نفيها

على نفي ذلك التيسير، أي أن سنة الله في الكون جرت على أن فنون الباطل وإن راجت أوائلها لا تلبث أن تنقشع ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهقٌ ﴾ [سورة الأنبياء : 18].

والكيد : تقدم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(67/398)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾

ومعنى ذلك أن الساقي ذهب إلى مجلس الملك مباشرة، ونقل له تأويل الرُّؤيا، وأصرَّ الملك أنْ يأتوا له بهذا الرجل؛ فقد اقتنع بأنه يجب الاستفادة منه؛ وعاد الساقي لِيُخرِج يوسف من السجن الذي هو فيه.

لكنه فُوجِيء برفض يوسف للخروج من السجن، وقوله لمن جاء يصحبه إلى مجلس الملك :

﴿ ارجع إلى رِبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 50].

وهكذا حرص يوسف على ألاَّ يستجيب لِمَنْ جاء يُخلِّصه من عذاب السجن الذي هو

فيه ؛ إلا إذا برئتْ ساحته براءةً يعرفها الملك ؛ فقد يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك .

وأراد يوسف عليه السلام بذلك أن يُحقق المَلِك في ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أيديهن ؛ ودَعَوْنَهُ إلى الفحشاء .

واكتفى يوسف بالإشارة إلى ذلك بقوله :

﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 50] .

ويُخفي هذا القول في طيَّاته ما قالته النسوة من قبل ليوسف بضرورة طاعة امرأة العزيز في طلبها للفحشاء .

وهكذا نجد القصص القرآني وهو يعطينا العِبْرة التي تخدمنا في واقع الحياة ؛ فليست تلك القصص للتسلية ، بل هي للعبرة التي تخدمنا في قضايا الحياة .

وبراءة ساحة أي إنسان هو أمر مُهِمٌّ ؛ كي تزول أيُّ ريبة من الإنسان قبل أن يُسند إليه أي عمل .

وهكذا طلب يوسف عليه السلام إبراء ساحته ، حتى لا يَقُولَنَّ قائل في وشاية أو إشاعة " همزاً أو لَمْزاً " : أليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز ، وهو مَنْ راودته عن نفسه ؟

وها هو رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول : " عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه والله يغفر له حيث أُرْسِل إليه ليُستفتى في الرؤيا ، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت من صبره وكرمه والله يغفر له أُتِي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولكنه أحب أن يكون له العذر " .

وشاء نبينا صلى الله عليه وسلم أن يُوضِّح لنا مكانة يوسف من الصبر وعزة النفس والنزاهة والكرامة فقال صلى الله عليه وسلم : " إن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . قال لو لبثتُ في السجن ما لبثَ ، ثم جاءني الرسول أجبتُ ثم قرأ صلى الله عليه وسلم - : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ الرسول قَالَ ارجع إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ . . ﴾ [يوسف : 50] " .

وهكذا بيَّنَ لنا الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة يوسف من الصبر والنزاهة ، وخشيته أن يخرج من السجن فَيُشَار إليه : هذا مَنْ راود امرأة سيده .

وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم إشارة إلى مبالغة يوسف في ذلك الأمر ، وكان من الأحوط أن يخرج من السجن ، ثم يعمل على كشف براءته .

ومعنى ذلك أن الكريم لا يستغل المواقف استغلالاً أحمق ، بل يأخذ كل موقف بقدْره ويُرتِّب له ؛ وكان يوسف واثقاً من براءته ، ولكنه أراد ألاَّ يكون الملك آخر مَنْ يعلم .

وصدق رسولنا صلى الله عليه وسلم حين قال : " دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبك ، فإن الصدقَ طُمأنينة ، وإن الكذبَ ريبة " .

وكان صلى الله عليه وسلم يرى أن الإيمان بالله يقتضي ألّاَ يقف المؤمن موقفَ الرِّيبة ؛ لأن بعض الناس حين يَرَوْنَ نابها ً، قد تثير الغيرةُ من نباهته البعضَ ؛ فيتقوّلون عليه .

لذلك فعليك أن تحتاطَ لنفسك ؛ بألّاَ تقف موقف الرِّيبة ، والأمر الذي تأتيك منه الرِّيبة ؛ عليك أن تبتعد عنه .

(69/398)

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، " فقد جاءته زَوْجه صفية بن حُيي تزوره وهو معتكف في العشر الأواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة من العشاء ، ثم قامتْ تنقلب أي : تعود إلى حجرتها فقام معها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا بلغت باب المسجد الذي عند مسكن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مرّ بهما رجلان من الأنصار فسلّما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نفذا ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : " على رِسْلكما ، إنما هي صفية بنت حُيي .

قالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما ما قال . قال : إن الشيطان يجري من ابن آدم

مبلغ الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما " .

وهنا في الموقف الذي نتناوله بالخواطر ، نجد الملك وهو يستدعي النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن ، وراوَدْنَ يوسف عن نفسه ، وهو ما يذكره الحق سبحانه : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ . . ﴾ .

ونعلم أن المُرَاودة الأولى ليوسف كانت من امرأة العزيز ؛ واستعصم يوسف ، ثم دَعَتْ هي النسوة إلى مجلسها ؛ وقطَّعْنَ أيديهن حين فُوجِئْنَ بجمال يوسف عليه السلام ، وصدرت منهن إشارات ، ودعوات إثارة وانفعال .

قال عنها يوسف ما أورد الحق سبحانه : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين ﴾ [يوسف : 33] .

واستدعاهن الملك ، وسألهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ [يوسف : 51] .

والخَطْب : هو الحَدَثْ الجَلَل ، فهو حدث غير عادي يتكلم به الناس ؛ فهو ليس حديثاً بينهم وبين أنفسهم ؛ بل يتكلمون عنه بحديث يصل إلى درجة تهتز لها المدينة ؛ لأن مثل هذا الحادث قد وقع .

ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام ، وقد قال لجماعة من الملائكة : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون * قالوا إِنَّآ أُرْسِلْنَا إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الذاريات : 31-32] .

أي : أن الملائكة طمأنتْ إبراهيم عليه السلام ؛ فهي في مهمة لعقاب قوم مجرمين .

وموسى عليه السلام حين عاد إلى قومه ، ووجد السامري قد صنع لهم عِجْلاً من الذهب الذي أخذوه من قوم فرعون نجده يقول للسامري : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يا سامري ﴾ [طه : 95] .

وقَوْل الملك هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ [يوسف : 51] .

يدلُّ على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتزَّ لها ؛ واعتبرها خَطْباً ؛ مما يوضح لنا أن القيم هي القيم في كل زمان أو مكان .

وبدأ النسوة الكلام ، فقُلْنَ :

﴿ حَاشَ للَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سوء ﴾ [يوسف : 51] .

ولم يذكُرْنَ مسألة مُرَاودتهِنَّ له ، وكان الأمر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند المَلِك .

وقولهن : ﴿ حَاشَ للَّهِ . . . ﴾ [يوسف : 51] أي : نُنزِّه يوسف عن هذا ، وتنزيهُنَا ليوسف أمْرٌ من الله .

وهنا تدخلتْ امرأة العزيز :

﴿ قَالَتِ امرأت العزيز الآن حَصْحَصَ الحق . . . ﴾ [يوسف : 51] .

أي : أنها أقرَّتْ بأنه لم يَعُدْ هناك مجال للستر ، ووضح الحقُّ بعد خفاء ، وظهرتْ حِصَّة الحق من حِصَّة الباطل ، ولا بُدَّ من الاعتراف بما حدث :

﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين ﴾ [يوسف : 51] .

وواصلت امرأة العزيز الاعتراف في الآية التالية : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ . . . ﴾ .

قالت ذلك حتى تُعلِنَ براءة يوسف عليه السلام ، وأنها لم تنتهز فرصة غيابه في السجن وتنتقم منه ؛ لأنه لم يستجِبْ لمُراودتها له ، ولم تنسج له أثناء غيابه المؤامرات ، والدسائس ، والمكائد .

(71/398)

وهذا يدلُّنا على أن شِرَّةَ الإنسان قد تتوهج لغرض خاص ، وحين يهدأ الغرض ويذهب ، يعود الإنسان إلى توازنه الكمالي في نفسه ، وقد يجعل من الزَّلة الأولى في خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس له فيه ضعف ، كي تستر الحسنةُ السيئة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود : 114] .

ولو أن إنساناً عمل سيئة وفضحه آخر عليها ؛ فالفاضح لتلك السيئة إنما يحرم المجتمع من حسنات صاحب السيئة .

ولذلك أقول : استروا سيئات المسيء ؛ لأنها قد تلهمه أن يقدم من الخير ما يمحو به سيئاته .

ولذلك قالوا : إذا استقرأتَ تاريخ الناس ، أصحاب الأنفس القوية في الأخلاق والقيم ؛ قد تجد لهم من الضعف هنات وسَقَطات ؛ ويحاولون أن يعملوا الحسنات كي تُذهِب عنهم السيئات ؛ لأن بالَ الواحد منهم مشغولٌ بضعفه الذي يُلهبه ؛ فيندفع لفعل الخيرات .

وبعد أن اعترفتْ امرأة العزيز بما فعلت ؛ قالت :

﴿ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخائنين ﴾ [يوسف : 52] .

أي : أنها أقرّتْ بأنه سبحانه وتعالى لا يُنفِذ كيد الخائنين ، ولا يُوصِلِّه إلى غايته . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(72/398)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾

قوله تعالى: ﴿ مَا بَالُ النسوة ﴾ : العامَّةُ على كسر نون النسوة، وضَمَّها عاصم في روايةِ أبي بكرٍ عنه، وليست بالمشهورة، وكذلك قرأها أبو حيوة. وقُرِىء "اللائي" وكلاهما جمعٌ ل "التي".

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾

والخَطْبُ: الأمر والشأن الذي فيه خطرٌ. قال امرؤ القيس:

2802 وما المَرْءُ ما دامَتْ حُشاشَةُ نفسِه ... بمُدْرِكِ أَطْرافِ الخُطوبِ ولا آلِ

وهو في الأصلِ مصدرُ خَطَب يَخْطُبُ، وإنما يُخْطب في الأمور العظام.

قوله: ﴿ إِذْ رَاوَدتُنَّ ﴾ هذا الظرفُ منصوبٌ بقوله "خَطْبُكُنَّ" لأنه في معنى الفعل؛ إذ المعنى: ما فعلتنَّ وما أَرَدْتُنَّ به في ذلك الوقتِ؟

قوله: ﴿ الآنَ حَصْحَصَ ﴾ "الآن" منصوبٌ بما بعدَه، وحَصْحَصَ معناه تَبَيَّنَ وظهر بعدَ خفَاءٍ، قاله الخليل. قال بعضهم: هو مأخوذٌ مِن الحِصَّة والمعنى: بانَتْ حِصَّةُ الحَقِّ مِنْ حِصَّةِ الباطل كما تتميَّز حِصَصُ الأراضي وغيرِها. وقيل: بمعنى ثبت واستقرَّ. وقال الراغب: "حَصْحَصَ الحقُّ، وذلك بانكشافِ ما يَغْمُره، وحَصَّ وحَصْحَصَ نحو: كَفَّ وكَفْكَفَ وكَبَّ وكَبْكَبَ، وحَصَّه: قَطَعه: إمَّا بالمباشرة وإمَّا بالحكم، فمِنَ الأول قول/ الشاعر:

2803 قد حَصَّتِ البيضة رأسي ....

. . . . . .

ومنه رَجُلٌ أَحَصُّ : انقطع بعضُ شَعْرِه ، وامرأة حَصَّاءُ ، والحِصَّةُ القطعة من الجملة

ويُسْتعمل استعمالَ النصيب . وقيل : هو مِنْ " حَصْحَصَ البعير " إذا أَلْقَى ثِفناتِه للإِناخِةِ ،

قال الشاعر :

(73/398)

2804 فَحَصْحَصَ في صُمِّ الصَّفَا ثَفِناتِه . . . وناءَ بسلمى نَوْءَةً ثم صَمَّما

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ : خبر مبتدأ مضمر ، أي : الأمر ذلك . و " ليعلم " متعلقٌ بمضمرٍ ، أي : أظهر اللَّه ذلك ليعلم ، أو مبتدأ وخبره محذوفٌ ، أي : ذلك الذي صَرَّحْتُ به عن براءته أمرٌ من اللَّه لا بدَّ منه ، و " لِيَعْلَمَ " متعلقٌ بذلك الخبرِ ، أو يكون " ذلك " مفعولاً لفعلٍ مقدر يتعلَّقُ به هذا الجارُّ أيضاً ، أي : فَعَلَ اللَّه ذلك ، أو فَعَلْتُه أنا بتيسير اللَّه ليعلمَ .

قوله : ﴿ بالغيب ﴾ يجوز أن تكونَ الباءُ ظرفيةً . قال الزمخشري : " أي " : بمكان الغَيْب وهو الخَفَاءُ والاستتار وراءَ الأبوابِ السبعة المُغَلَّقة " . ويجوز أن تكون الباء للحال : إمَّا مِنَ الفاعل على معنى : وأنا غائب عنه خفيٌّ عن عينه ، وإمَّا من المفعول على معنى : وهو

غائب عني خفيٌّ عن عيني ، وهذا مِنْ كلامِ يوسُفَ ، وبه بدأ الزمخشري كالمختار له .

وقال غيرُه : إنه مِنْ كلامِ امرأة العزيز وهو الظاهر . وقوله : " وأنَّ الله " نَسَقٌ على " أني " أي ليَعلمَ الأمرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 512.514 ﴾

(74/398)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) ﴾

أراد عليه السلام ألا يلاحظه المِلكُ بعين الخيانة فيُسْقِطه عيبُه من قلبه ؛ فلا يؤثِّر فيه قوله ، فلذلك توقَّفَ حتى يظْهَرَ أمرُه للمَلِكِ وتنكشفَ براءةُ ساحته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ .

الحقائق لا تنكتِم أصلاً ولا بُدَّ من أن تبِين . . . ولو بعد حين .

نَسِبَ يوسفُ إلى ما كان منه بريئاً ، وأُنِّبَ على ذلك مدةً ، وكان أمرهُ في ذلك خَفِيّاً . ثم إن

اللهُ تعالى دَفَعَ عنه التهمة ورفع عنه المَظَنّة، وأنطق عِذَالَه، وأظهر حالَه، عما فرق به سرباله؛ فقُلْنَ: ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ .

قوله جلّ ذكره: ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

لّما كانت امرأةُ العزيز غيرَ تامّةٍ في محبة يوسف تركَتْ ذنبَها عليه وقالت لزوجها: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ولم يكن ليوسف عليه السلام ذنب. ثمّ لّما تناهَتُ في محبته أقرّت بالذنب على نفسها فقالت: ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ. . . . ﴾ فالتناهي في الحبّ يوجب هتكَ الستر، وقلة المبالاة بظهور الأمر والسرّ، وقيل:

لِيُقل مَنْ شاءَ ما . . . شاء فإني لا أُبالي

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) ﴾

(75/398)

إنما أراد اللَّهُ أن يُظْهِرَ براءةَ ساحةِ يوسف، لأنه علم أنهم يستحقون العقوبة على ما يبسطون فيه من لسان الملامة وذكر القبيح، ولم يُرِدْ يوسف أن يصيبَهم بسببه – من قِبل اللَّهِ

- عذابٌ شَفَقَةً منه عليهم ، وهذه صفة الأولياء : أن يكونوا خَصْمَ أَنفسِهم ، ولهذا قيل : الصوفي دمه هَدرٌ ومِلْكُه مُبَاحُ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 188 . 190 ﴾

(76/398)

قوله تعالى ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ذلك ربما جر إلى الإعجاب ، قال : ﴿ وما أبرىء ﴾ أي تبرئة عظيمة ﴿ نفسي ﴾ عن مطلق الزلل وإن غلبه التوفيق والعصمة ، أي لم أقصد بالبراءة عما تقدم مجرد التزكية للنفس ، وعلل عدم التبرئة بقوله - مؤكداً لما لأكثر الناس من الإنكار ، أو لأن اتباعهم لأهويتهم فعل من ينكر فعل الأمارة - : ﴿ إن النفس ﴾ أي هذا النوع ﴿ لأمارة ﴾ أي شديدة الأمر ﴿ بالسوء ﴾ أي هذا الجنس دائماً لطبعها على ذلك في كل وقت ﴿ إلا ما ﴾ أي وقت أن ﴿ رحم ربي ﴾ بكفها عن الأمر به أو بستره بكفها عن فعله بعد

إطلاقها على الأمر به ، أو إلا ما رحمه ربي من النفوس فلا يأمر بسوء ؛ ثم علل ذلك بقوله مؤكداً دفعاً لظن من يظن أنه لا توبة له : ﴿ إن ربي ﴾ أي المحسن إليّ ﴿ غفور ﴾ أي بليغ الستر للذنوب ﴿ رحيم ﴾ أي بليغ الإكرام لمن يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 59 ﴾

(77/398)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن تفسير هذه الآية يختلف بحسب اختلاف ما قبلها لأنا إن قلنا إن قوله : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ [يوسف : 52] كلام يوسف كان هذا أيضاً من كلام يوسف ، وإن قلنا إن ذلك من تمام كلام المرأة كان هذا أيضاً كذلك ونحن نفسر هذه الآية على كلا

التقديرين ، أما إذا قلنا إن هذا كلام يوسف عليه السلام فالحشوية تمسكوا به وقالوا : إنه عليه السلام لما قال : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ قال جبريل عليه السلام ولا حين هممت بفك سراويلك فعند ذلك قال يوسف : ﴿ وَمَا أُبَرِّىء نَفْسِى إِنَّ النفس لأمَّارَةٌ بالسوء ﴾ أي بالزنا ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ أي عصم ربي ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ ﴾ للهم الذي هممت به ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ أي لو فعلته لتاب علي .

واعلم أن هذا الكلام ضعيف فإنا بينا أن الآية المتقدمة برهان قاطع على براءته عن الذنب بقي أن يقال : فما جوابكم عن هذه الآية فنقول فيه وجهان :

الوجه الأول : أنه عليه السلام لما قال : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ كان ذلك جارياً مجرى مدح النفس وتزكيتها ، وقال تعالى : ﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم : 32] فاستدرك ذلك على نفسه بقوله : ﴿ وَمَا أُبَرِّىء نَفْسِى ﴾ والمعنى : وما أزكي نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ميالة إلى القبائح راغبة في المعصية .

(78/398)

والوجه الثاني : في الجواب أن الآية لا تدل ألبتة على شيء مما ذكروه وذلك لأن يوسف عليه السلام لما قال : ﴿ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ بين أن ترك الخيانة ما كان لعدم الرغبة ولعدم ميل

النفس والطبيعة ، لأن النفس أمارة بالسوء والطبيعة تواقة إلى الذات فبين بهذا الكلام أن الترك ما كان لعدم الرغبة ، بل لقيام الخوف من الله تعالى .

أما إذا قلنا : إن هذا الكلام من بقية كلام المرأة ففيه وجهان : الأول : وما أبرىء نفسي عن مراودته ومقصودها تصديق يوسف عليه السلام في قوله : ﴿ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ الثاني : أنها لما قالت : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ [يوسف : 52] قالت وما أبرىء نفسي عن الخيانة مطلقاً فإني قد خنته حين قد أحلت الذنب عليه وقلت : ﴿ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءا إِلا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 25] وأودعته السجن كأنها أرادت الاعتذار مما كان .

فإن قيل جعل هذا الكلام كلاماً ليوسف أولى أم جعله كلاماً للمرأة ؟

قلنا : جعله كلاماً ليوسف مشكل ، لأن قوله : ﴿ قَالَتِ امرأت العزيز الئن حَصْحَصَ الحق ﴾ [يوسف : 51] كلام موصول بعضه ببعض إلى آخره ، فالقول بأن بعضه كلام المرأة والبعض كلام يوسف مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجلسين بعيد ، وأيضاً جعله كلاماً للمرأة مشكل أيضاً ، لأن قوله : ﴿ وَمَا أُبَرّىء نَفْسِى إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبّى ﴾ كلام لا يحسن صدوره إلا ممن احترز عن المعاصي ، ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس ، وذلك لا يليق بالمرأة التي استفرغت جهدها في المعصية .

المسألة الثانية :

قالوا : ﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ بمعنى "من" والتقدير : إلا من رحم ربي ، وما ومن كل واحد منهما يقوم مقام الآخر كقوله تعالى : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النساء ﴾ [النساء : 3] وقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِى على أَرْبَعٍ ﴾ [النور : 45] وقوله : ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ استثناء متصل أو منقطع ، فيه وجهان : الأول : أنه متصل ، وفي تقريره وجهان : الأول : أن يكون قوله : ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ أي إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة .

الثاني : إلا ما رحم ربي أي إلا وقت رحمة ربي يعني أنها أمارة بالسوء في كل وقت إلا في وقت العصمة .

والقول الثاني : أنه استثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة كقوله : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : 48] ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [يس : 44] .

المسألة الثالثة :

اختلف الحكماء في أن النفس الإمارة بالسوء ما هي ؟ والمحققون قالوا إن النفس الإنسانية شيء واحد ، ولها صفات كثيرة فإذا مالت إلى العالم الإلهي كانت نفساً مطمئنة ، وإذا

مالت إلى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء ، وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات والتذت بها وعشقتها ، فأما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه ، فذلك لا يحصل إلا نادراً في حق الواحد ، فالواحد وذلك الواحد فإنما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره في الأوقات النادرة فلما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسداني وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادراً لا جرم حكم عليها بكونها أمارة بالسوء ، ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة هي النفس العقلية النطقية ، وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية ، والكلام في تحقيق الحق في هذا الباب مذكور في المعقولات .

المسألة الرابعة :

تمسك أصحابنا في أن الطاعة والإيمان لا يحصلان إلا من الله بقوله : ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ قالوا دلت الآية على أن انصراف النفس من الشر لا يكون إلا برحمته ؛ ولفظ الآية مشعر بأنه متى حصلت تلك الرحمة حصل ذلك الانصراف .

فنقول : لا يمكن تفسير هذه الرحمة بإعطاء العقل والقدرة والألطاف كما قاله القاضي لأن

كل ذلك مشترك بين الكافر والمؤمن فوجب تفسيرها بشيء آخر ، وهو ترجيح داعية الطاعة على داعية المعصية وقد أثبتنا ذلك أيضاً بالبرهان القاطع وحينئذ يحصل منه المطلوب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 125.126 ﴾

(81/398)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وما أبرىء نفسي ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه قول العزيز أي وما أبرىء نفسي من سوء الظن بيوسف .

﴿ إنَّ النفس لأمارة بالسوء ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : الأمارة بسوء الظن .

الثاني : بالاتهام عند الارتياب .

﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : إلاَّ ما رحم ربي إن كفاه سوء الظن .

الثاني : أن يثنيه حتى لا يعمل . فهذا تأويل من زعم أنه قول العزيز .

الوجه الثاني : أنه قول امرأة العزيز وما أبرىء نفسي إن كنت راودت يوسف عن نفسه لأن النفس باعثة على السوء إذا غلبت الشهوة عليها .

﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : إلا ما رحم ربي من نزع شهوته منه .

الثاني : إلا ما رحم ربي في قهره لشهوة نفسه ، فهذا تأويل من زعم أنه من قول امرأة العزيز .

الوجه الثاني : أنه من قول يوسف ، واختلف قائلو هذا في سببه على أربعة أقاويل :

أحدها : أن يوسف لما قال ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قالت امرأة العزيز : ولا حين حللت السراويل ؟ فقال : وما أبريء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء ، قاله السدي .

الثاني : أن يوسف لما قال ذلك غمزه جبريل عليه السلام فقال : ولا حين هممت ؟ فقال ﴿ وما أُبريء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء ﴾ قاله ابن عباس .

الثالث : أن الملك الذي مع يوسف قال له : اذكر ما هممت به ، فقال : ﴿ وما أبرىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء ﴾ قاله قتادة .

الرابع : أن يوسف لما قال ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ كره نبي الله أن يكون قد زكى نفسه فقال ﴿ وما أبريء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ قاله الحسن .

ويحتمل قوله ﴿ لأمارة بالسوء ﴾ وجهين :

أحدهما : يعني أنها مائلة إلى الهوى بالأمر بالسوء .

الثاني : أنها تستثقل من عزائم الأمور ما إن لم يصادف حزماً أفضت إلى السوء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(82/398)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾

يَعْنِي أَنَّ النَّفْسَ كَثِيرَةُ النِّزَاعِ إلَى السُّوءِ ، فَلَا يُبَرِّئُ نَفْسَهُ ، وَإِنْ كَانَ لَا يُطَاوِعُهَا ، وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي قَائِلِ هَذَا الْقَوْلِ ، فَقَالَ قَائِلُونَ : هُوَ مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ " وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ مِنْ قَوْلِ الْمَرْأَةِ " .

الْأَمَّارَةُ : الْكَثِيرَةُ الْأَمْرِ بِالشَّيْءِ ، وَالنَّفْسُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لِكَثْرَةِ مَا تَشْتَهِيهِ وَتُنَازِعُ إلَيْهِ مِمَّا يَقَعُ الْفِعْلُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَقَدْ كَانَتْ إضَافَةُ الْأَمْرِ بِالسُّوءِ إلَى النَّفْسِ مَجَازًا فِي أَوَّلِ اسْتِعْمَالِهِ ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى سَقَطَ عَنْهُ اسْمُ الْمَجَازِ وَصَارَ حَقِيقَةً ، فَيُقَالُ : نَفْسِي تَأْمُرُنِي بِكَذَا وَتَدْعُونِي إلَى كَذَا مِنْ جِهَةِ شَهْوَتِي لَهُ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَصِحَّ أَنْ يَأْمُرَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي الْحَقِيقَةِ ؛ لِأَنَّ فِي الْأَمْرِ تَرْغِيبًا لِلْمَأْمُورِ بِتَمْلِيكِ مَا لَا يَمْلِكُ ، وَمُحَالٌ أَنْ يُمَلِّكَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ مَا لَا يَمْلِكُهُ ؛ لِأَنَّ مَنْ

مَلَكَ شَيْئًا ، فَإِنَّمَا يَمْلِكُ مَا هُوَ مَالِكُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(83/398)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وما أبرىء نفسي ﴾ الآية

هذه أيضاً مختلف فيها هل هي من كلام يوسف أم من كلام المرأة ، حسب التي قبلها :

فمن قال من كلام يوسف روى في ذلك : عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما قال يوسف : ﴿ أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال له جبريل : ولا حين هممت وحللت سراويلك ، وقال نحوه ابن عباس وابن جبير وعكرمة والضحاك . وروي أن المرأة قالت له ذلك ، قاله السدي ، وروي أن يوسف تذكر من تلقائه ما كان هم به فقال : ﴿ وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ ، قاله ابن عباس أيضاً .

ومن قال : إن المرأة قالت ﴿ وما أبرىء نفسي ﴾ فوجه كلامها الاعتذار عن وقوعها فيما يقع فيه البشر من الشهوات ، كأنها قالت : وما هذا ببدع ولا ذلك نكير على البشر فأبرىء أنا منه نفسي ، والنفوس أمارات بالسوء مائلة إليه .

و﴿ أمارة ﴾ بناء مبالغة، و﴿ ما ﴾ في قوله: ﴿ إلا ما رحم ﴾ مصدرية، هذا قول الجمهور فيها، وهو على هذا. استثناء منقطع، أي إلا رحمة ربي، ويجوز أن تكون بمعنى "من"، هذا على أن تكون النفس يراد بها النفوس إذ النفس تجري صفة لمن يعقل كالعين والسمع، كذا قال أبو علي، فتقدير الآية: إلا النفوس التي يرحمها الله.

قال القاضي أبو محمد: وإذن النفس اسم جنس، فصح أن تقع ﴿ ما ﴾ مكان "من" إذ هي كذلك في صفات من يعقل وفي أجناسه، وهو نص في كلام المبرد، وهو -عندي- معنى كلام سيبويه، وهو مذهب أبي علي - ذكره في البغداديات.

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ ظرفية، المعنى: أن النفس لأمارة بالسوء إلا مدة رحمة الله العبد وذهابه عن اشتهاء المعاصي.

ثم ترجى في آخر الآية بقوله: ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّىءُ نفسي ﴾

قيل : هو من قول المرأة .

وقال القُشَيْرِيّ : فالظاهر أن قوله : "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ" وقوله : "وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي" من قول يوسف .

قلت : إذا احتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرّىء يوسف من حَلّ الإزار والسّراويل ؛ وإذا قدرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه ، على ما قدّمناه من القول المختار في قوله : "وَهَمَّ بِهَا" .

قال أبو بكر الأنباريّ : من الناس من يقول : "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ" إلى قوله : "إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ" من كلام امرأة العزيز ؛ لأنه متصل بقولها : "أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ" وهذا مذهب الذين ينفون الهمّ عن يوسف عليه السلام ؛ فمن بنى على قولهم قال : من قوله : "قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ" إلى قوله : "إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ" كلام متصل بعضه ببعض ، ولا يكون فيه وقف تام على حقيقة ؛ ولسنا نختار هذا القول ولا نذهب إليه .

وقال الحسن : لما قال يوسف : "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ" كره نبيّ الله أن يكون قد زكّى نفسه فقال : "وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي" لأنّ تزكية النفس مذمومة ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النجم : 32] وقد بيّناه في "النساء" .

وقيل : هو من قول العزيز ؛ أي وما أبرىء نفسي من سوء الظن بيوسف .

﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ أي مشتهية له .

(85/398)

﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ ربي ﴾ في موضع نصب بالاستثناء ؛ و"ما" بمعنى مَنْ ؛ أي إلا مَن رحم ربي فعصمه ؛ و"ما" بمعنى من كثير ؛ قال الله تعالى : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ﴾ [النساء : 3] وهو استثناء منقطع ، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء ؛ وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شرّ غاية وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية قالوا : يا رسول الله ! هذا شرّ صاحب في الأرض . قال : "فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم" " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(86/398)

وقال الخازن :

واختلفوا في قوله ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ من قول من ؟ على قولين أيضاً :

أحدهما : أنه من قول المرأة وهذا التفسير على قول من قال إن قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب من قول المرأة فعلى هذا يكون المعنى وما أبريء نفس من مراودتي يوسف عن نفسه وكذبي عليه .

والقول الثاني : وهو الأصح وعليه أكثر المفسرين أنه من قول يوسف وذلك أنه لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين هممت بها فقال يوسف عند ذلك وما أبرئ نفسي وهذه رواية عن ابن عباس أيضاً وهو قول الأكثرين وقال الحسن إن يوسف لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب خاف أن يكون قد زكى نفسه فقال وما أبرئ نفسي لأن الله تعالى قال فلا تزكوا أنفسكم ، ففي قوله وما أبرئ نفسي هضم للنفس وانكسار وتواضع لله فإن رؤية النفس في مقام العصمة والتزكية ذنب عظيم فراد إزالة ذلك عن نفسه فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ والسوء لفظ جامع لكل ما يهم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية والسيئة الفعلة القبيحة .

واختلفوا في النفس الأمارة بالسوء ما هي فالذي عليه أكثر المحققين من المتكلمين وغيرهم أن النفس الإنسانية واحدة ولها صفات : منها الأمارة بالسوء ، ومنها اللوامة ، ومنها المطمئنة فهذه الثلاث المراتب هي صفات لنفس واحدة فإذا دعت النفس إلى شهواها مالت إليها فهي النفس الأمارة بالسوء فإذا فعلتها أتت النفس اللوامة فلامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات ويحصل عند ذلك الندامة على ذلك الفعل القبيح وهذا

من صفات النفس المطمئنة ، وقيل : إن النفس أمارة بالسوء بطبعها فإذا تزكت وصفت من أخلاقها الذميمة صارت مطمئنة .

(87/398)

وقوله ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ قال ابن عباس : معناه إلا من عصم ربي فتكون ما بمعنى من فهو كقوله " ما طاب لكم من النساء " يعني من طاب لكم وقيل هذا استثناء منقطع معناه لكم من رحم ربي فعصمه من متابعة النفس الأمارة بالسوء ﴿ إن ربي غفور ﴾ يعني غفور لذوب عباده ﴿ رحيم ﴾ بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(88/398)

وقال أبو حيان :

﴿ وما أبرىء نفسي ﴾

من الزلل . ، وما أشهد لها بالبراءة الكلية ، ولا أزكيها ، إن النفس لأمارة بالسوء .

أراد الجنس أي : هذا الجنس يأمر بالسوء ، ويحمل على ما فيه من الشهوات انتهى .

وفيه تكثير وتحميل للفظ ما ليس فيه ، ويزيد على عادته في خطابته .

ولما أحسّ الزمخشري بأشكال قول من قال : إنه من كلام يوسف قال : (فإن قلت) : كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك ؟ (قلت) : كفى بالمعنى دليلاً قائداً إلى أن يجعل من كلامه ، ونحوه قوله : قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ؟ وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم انتهى .

وهذا ليس كما ذكر ، إذ لا يتعين في هذا التركيب أن يكون من كلام فرعون ، بل هو من كلام الملأ تقدمهم فرعون إلى هذه المقالة ، فقالوا ذلك بعض لبعض ، فيكون في قول فرعون : يريد أن يخرجكم خطاباً للملأ من فرعون ، ويكون في هذا التركيب خطاباً من بعضهم لبعض ، ولا يتنافى اجتماع المقالتين .

وبالغيب يحتمل أن يكون حالاً من الفاعل أي : غائباً عنه ، أو من المفعول أي : غائباً عني ، أو ظرفاً أي بمكان الغيب .

والظاهر أنّ إلا ما رحم ربي استثناء متصل من قوله : لأمارة بالسوء ، لأنه أراد الجنس بقوله : إن النفس ، فكأنه قال : إلا النفس التي رحمها ربي فلا تأمر بالسوء ، فيكون استثناء من الضمير المستكن في أمارة .

ويجوز أن يكون مستثنى من مفعول أمارة المحذوف إذ التقدير : لأمارة بالسوء صاحبها ، إلا

الذي رحمه ربي فلا تأمره بالسوء .

وجوزوا أن يكون مستثنى من ظرف الزمان المفهوم عمومه من ما قبل الاستثناء ، وما ظرفية إذ التقدير : لأمارة بالسوء مدة بقائها إلا وقت رحمة الله العبد وذهابه بها عن اشتهاء المعاصي .

وجوزوا أن يكون استثناء منقطعاً ، وما مصدرية .

وذكر ابن عطية أنه قول الجمهور أي : ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(89/398)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أُبَرّىء نَفْسِى ﴾

أي لا أنزّهها عن السوء قاله عليه السلام هضماً لنفسه الكريمة البريئةِ عن كل سوء ورباً بمكانها عن التزكية والإعجاب بحالها عند ظهورِ كمالِ نزاهتِها على أسلوب قوله عليه السلام : "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" أو تحديثاً بنعمة الله عز وجل عليه وإبرازاً لسره المكنونِ في شأن أفعال العبادِ أي لا أنزهها عن السوء من حيث هي هي ، ولا أُسند هذه

الفضيلةَ إليها بمقتضى طبعِها من غير توفيقٍ من الله عز وعلا ﴿ أَنَّ النفس ﴾ البشريةَ التي من جملتها نفسي في حد ذاتِها ﴿ لأمَّارَةٌ بالسوء ﴾ مائلةٌ إلى الشهوات مستعمِلةٌ للقوى والآلاتِ في تحصيلها بل إنما ذلك بتوفيق الله وعصمته ورحمتِه كما يفيده قوله : ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المهالك ومن جملتها نفسي أو هي أمارةٌ بالسوء في كل وقت إلا وقتَ رحمةِ ربي وعصمتِه لها ، وقيل : الاستثناءُ منقطعٌ أي لكنْ رحمةُ ربي هي التي تصرِف عنها السوء كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً ﴾ ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ عظيمُ المغفرة لما يعتري النفوسَ بموجب طباعِها ومبالِغٌ في الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك ، وإيثارُ الإظهارِ في مقام الإضمارِ مع التعرض لعنوان الربوبيةِ لتربية مبادىءِ المغفرةِ والرحمة ، وقيل : إلى هنا من كلام امرأةِ العزيز ، والمعنى ذلك الذي قلتُ ليعلم يوسفُ عليه السلام أني لم أخُنه ولم أكذِب عليه في حال الغَيبة وجئت بما هو الحقُّ الواقعُ وما أبرىء نفسي مع ذلك من الخيانة حيث قلت في حقه ما قلت وفعلتُ به ما فعلت ، إن كل نفس لأمارةٌ بالسوء إلا ما رحم ربي أي إلا نفساً رحِمها الله بالعصمة كنفس يوسفَ إن ربي غفورٌ لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيمٌ له ، فعلى هذا يكون تأنّيه عليه السلام في الخروج من السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملكِ وأمرُه بَيْنَ بينَ ففعل ما فعل حتى يتبين نزاهتُه وأنه

إنما سجن بظلم عظيم مع ما له من الفضل ونباهةِ الشأن ليتلقاه الملك بما يليق به من الإعظام والإجلال وقد وقع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(91/398)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أُبَرّىء نَفْسِى ﴾

أي لا أنزهها عن السوء قال ذلك عليه السلام : هضما لنفسه البرية عن كل سوء وتواضعاً لله تعالى وتحاشياً عن التزكية والإعجاب بحالها على أسلوب قوله صلى الله عليه وسلم : "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" أو تحديثاً بنعمة الله تعالى وإبرازاً لسره المكنون في شأن أفعال العباد أي لا أنزهها من حيث هي هي ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله سبحانه بل إنما ذلك بتوفيقه جل شأنه ورحمته ، وقيل : إنه أشار بذلك إلى أن عدم التعرض لم يكن لعدم الميل الطبيعي بل لخوف الله تعالى : ﴿ أَنَّ النفس ﴾ البشرية التي من جملتها نفسي في حد ذاتها ﴿ لأمَّارَةٌ ﴾ لكثيرة الأمر ﴿ بالسوء ﴾ أي بجنسه ، والمراد أنها كثيرة الميل إلى الشهوات مستعملة في تحصيلها القوى والآلات .

وفي كثير من التفاسير أنه عليه السلام حين قال : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالغيب ﴾ [يوسف : 52] قال له جبريل عليه السلام : ولا حين هممت ؟ فقال : ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى ﴾ الخ ، وقد أخرجه الحاكم في تاريخه .

وابن مردويه بلفظ قريب من هذا عن أنس مرفوعاً ، وروي ذلك عن ابن عباس .

وحكيم بن جابر .

والحسن .

وغيرهم ، وهو إن صح يحمل الهم فيه على الميل الصادر عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق العزم والقصد ، وقيل : لا مانع من أن يحمل على الثاني ويقال : إنه صغيرة وهي تجوز على الأنبياء عليهم السلام قبل النبوة ، ويلتزم أنه عليه السلام لم يكن إذا ذاك نبياً .

(92/398)

والزمخشري جعل ذلك وما أشبهه من تلفيق المبطلة وبهتهم على الله تعالى ورسوله ، وارتضاه وهو الحرى بذلك ابن المنير وعرض بالمعتزلة بقوله : وذلك شأن المبطلة من كل طائفة ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ قال ابن عطية : الجمهور على أن الاستثناء منقطع و ﴿ مَا ﴾ مصدرية أي لكن رحمة ربي هي التي تصرف عنها السوء على حد ما جوز في قوله

سبحانه : ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [يس : 43 ، 44] وجوز أن يكون استثناء من أعم الأوقات و﴿ مَا ﴾ مصدرية ظرفية زمانية أي هي أمارة بالسوء في كل وقت إلا في وقت رحمة ربي وعصمته ، والنصب على الظرفية لا على الاستثناء كما توهم ، لكن فيه التفريغ في الإثبات والجمهور على أنه لا يجوز إلا بعد النفي أو شبهه .

نعم أجازه بعضهم في الإثبات إن استقام المعنى كقرأت إلا يوم الجمعة .

وأورد على هذا بأنه يلزم عليه كون نفس يوسف وغيره من الأنبياء عليهم السلام مائلة إلى الشهوات في أكثر الأوقات إلا أن يحمل ذلك على ما قبل النبوة بناءاً على جواز ما ذكر قبلها أو يراد جنس النفس لا كل واحدة .

(93/398)

وتعقب بأن الأخير غير ظاهر لأن الاستثناء معيار العموم ولا يرد ما ذكر رأساً لأن المراد هضم النوع البشري اعترافاً بالعجز لولا العصمة على أن وقت الرحمة قد يعم العمر كله لبعضهم اه ، ولعل الأولى الاقتصار على ما في حيز العلاوة فتأمل ، وأن يكون استثناءً من النفس أو من الضمير المستتر في أمارة الراجع إليها أي كل نفس أمارة بالسوء إلا التي رحمها الله تعالى وعصمها عن ذلك كنفسي أو من مفعول أمارة المحذوف أي أمارة صاحبها إلا ما

رحمه الله تعالى ، وفيه وقوع ﴿ مَا ﴾ على من يعقل وهو خلاف الظاهر ، ولينظر الفرق في ذلك بينه وبين انقطاع الاستثناء ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ عظيم المغفرة فيغفر ما يعتري النفس بمقتضى طباعها ومبالغ في الرحمة فيعصمها من الجريان على موجب ذلك ، والإظهار في مقام الإضمار مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية مبادىء المغفرة والرحمة ، ولعل تقديم ما يفيد الأولى على ما يفيد الثانية لأن التخلية مقدمة على التحلية ، وذهب الجبائي واستظهره أبو حيان إلى أن ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ ﴾ [يوسف : 52] إلى هنا من كلام امرأة العزيز ، والمعنى ذلك الإقرار والاعتراف بالحق ليعلم يوسف إني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال غيبته وما أبرىء نفسي مع ذلك من الخيانة حيث قلت ما قلت وفعلت به ما فعلت إن كل نفس أمارة بالسوء إلا نفساً رحمها الله تعالى بالعصمة كنفس يوسف عليه السلام إن ربي غفور لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيم له .

وتعقب ذلك صاحب الكشف بأنه ليس موجبه إلا ما توهم من الاتصال الصوري وليس بذاك ، ومن أين لها أن تقول : ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى ﴾ بعد ما وضح ولا كشية الأبلق أنها أمها يرجع إليها طمها ورمها .

ومن الناس من انتصر له بأن أمر التعليل ظاهر عليه ، وهو على تقدير جعله من كلامه عليه السلام غير ظاهر لأن علم العزيز بأنه لم يكن منه ما قرف به إنما يستدعي التفتيش مطلقاً لا خصوص تقديمه على الخروج حين طلبه الملك والظاهر على ذلك التقدير جعله له .

وأجيب بأن المراد ليظهر علمه على أتم وجه وهو يستدعي الخصوص ، ويساعد على إرادة ظهور العلم أن أصل العلم كان حاصلاً للعزيز قبل حين شهد شاهد من أهلها وفيه نظر ، ويمكن أن يقال : إن في التثبت وتقديم التفتيش على الخروج من مراعاة حقوق العزيز ما فيه حيث لم يخرج من جنسه قبل ظهور بطلان ما جعله سبباً له مع أن الملك دعاه إليه ، ويترتب على ذلك علمه بأنه لم يخنه في شيء من الأشياء أصلاً فضلاً عن خيانته في أهله لظهور أنه عليه السلام إذا لم يقدم على ما عسى أن يتوهم أنه نقض لما أبرمه مع قوة الداعي وتوفر الدواعي فهو بعدم الإقدام على غيره أجدر وأحرى ، فالعلة للتثبت مع ما تلاه من القصة هي قصد حصول العلم بأنه عليه السلام لم يكن منه ما يخون به كائناً ما كان مع ما عطف عليه ، وذلك العلم إنما يترتب على ما ذكر لا على التفتيش ولو بعد الخروج كما لا يخفى ، أو يقال : إن المراد ليجري على موجب العلم بما ذكر بناءً على التزام أنه كان قبل ذلك عالماً به لكنه لم يجر على موجب علمه وإلا لما حبسه عليه السلام فيتلافى تقصيره بالإعراض عن تقبيح أمره أو بالثناء عليه ليحظى عند الملك ويعظمه الناس فتينع من دعوته أشجارها وتجري في أودية القلوب أنهارها ، ولا شك أن هذا مما يترتب على تقديم

التفتيش كما فعل ، وليس ذلك مما لا يليق بشأنه عليه السلام بل الأنبياء عليهم السلام كثيراً ما يفعلون مثل ذلك في مبادىء أمرهم ؛ وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم يعطي الكافر إذا كان سيد قومه ما يعطيه ترويجاً لأمره ، وإذا حمل قوله عليه السلام لصاحبه الناجي

(95/398)

﴿ اذكرنى عِندَ رَبّكَ ﴾ [يوسف : 42] على مثل هذا كما فعل أبو حيان تناسب طرفا الكلام أشد تناسب ، وكذا لو حمل ذاك على ما اقتضاه ظاهر الكلام وتظافرت عليه الأخبار .

وقيل : هنا : إن ذلك لئلا يقبح العزيز أمره عند الملك تمحلاً لإمضاء ما قضاه ، ويكون ذلك من قبيل السعي في تحقيق المقتضى لخلاصه وهذا من قبيل التشمير لرفع المانع لكنه مما لا يليق بجلالة شأنه عليه السلام .

ولعل الدعاء بالمغفرة في الخبر السالف على هذا إشارة إلى ما ذكر ، ويقال : إنه عليه السلام إنما لم يعاتب عليه كما عوتب على الأول لكونه دونه مع أنه قد بلغ السيل الزبى ، ولا يخفى أن عوده عليه السلام لما يستدعي أدنى عتاب بالنسبة إلى منصبه بعد أن جرى ما جرى في غاية البعد ، ومن هنا قيل : الأولى أن يجعل ما تقدم كما تقدم ويحمل هذا على أنه عليه

السلام أراد به تمهيد أمر الدعوة إلى الله تعالى جبراً لما فعل قبل واتباعاً لخلاف الأولى بالنظر إلى مقامه بالأولى ، وقيل : في وجه التعليل غير ذلك ، وأخرج ابن جرير عن ابن جريج أن هذا من تقديم القرآن وتأخيره وذهب إلى أنه متصل بقوله : ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة الاتى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : 50] الخ ويرد على ظاهره ما لا يخفى فتأمل جميع ما ذكرناه لتكون على بصيرة من أمرك .

وفي رواية البزي عن ابن كثير .

وقالون عن نافع أنهما قرآ ﴿ بالسو ﴾ على قلب الهمزة واواً والإدغام . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(96/398)

وقال القاسمي :

﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيم ﴾

تريد : وما أبرئ نفسي مع ذلك ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته . أو تعني : أني ما أبرئ نفسي من الخيانة ، فإني قد خنته حين قرفته وقلت : ﴿ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ

بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ ﴾ ؟ وأودعته السجن ، تريد الاعتذار مما كان منها أن كل نفس لأمارة بالسوء ، إلا نفساً رحمها الله بالعصمة ، كنفس يوسف .

(97/398)

ثم إن تأويل قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ﴾ الآية – على أنه حكاية قول امرأة العزيز – قال ابن كثير : هو القول الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ، ومعاني الكلام . وقد حكاه الماوردي في تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، فأفرده بتصنيف على حدة . وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف ، ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سواه . والمعنى : ذلك التثبت والتأني والتشمر لظهور البراءة ؛ ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب في أهله ، أو ليعلم الله أني لم أخنه ؛ لأن المعصية خيانة . ثم أكد أمانته بقوله : ﴿ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ وأنه لو كان خائناً لما هدى الله عز وجل أمره ، أي : سدده وأحسن عاقبته ، وفيه تعريض بامرأة العزيز في خيانتها أمانته ، وبالعزيز في خيانة أمانة الله تعالى ، حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه ، ثم أراد أن يتواضع لله ، ويهضم نفسه ؛ لئلا يكون لها مزكياً ، وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً ، وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده ، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته ، فقال : ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ

نَفْسِي ﴾ أي : لا أنزهها من الزلل ، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية ، ولا أزكيها ، فإن النفس البشرية تأمر بالسوء ، وتحمل عليه بما فيها من الشهوات ، إلا ما رحم الله من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المساوئ .

هذا خلاصة ما قرروه على أنه كلام يوسف . قال ابن كثير : والقول الأول أقوى وأظهر ؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك – والله أعلم – .

لطائف :

الأولى : محل قوله : (بالغيب) الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى : وأنا غائب أو غائبة عنه ، أو وهو غائب عني خفي عن عيني ، أو هو ظرف ، أي : بمكان الغيب ، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب .

(98/398)

الثانية : قيل معنى : ﴿ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ أي : لا يهديهم بسبب كيدهم ، أوقعت الهداية المنفية على الكيد ، وهي واقعة عليهم تجوزاً للمبالغة ؛ لأنه إذا لم يهد السبب ، علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى .

وقيل : المعنى لا يهديهم في كيدهم ، كقوله تعالى : ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [التوبة : من الآية 30] ، أي : في قولهم .

وقيل : هداية الكيد مجاز عن تنفيذه وتسديده .

الثالثة : قال في " الإكليل " : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ أصل في التواضع ، وكسر النفس وهضمها .

الرابعة : قال الزمخشري : لقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة – ثم ساقها – وقال : وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله .

قال الناصر : ولقد صدق في التوريك على نقلة هذه الزيادات بالبهت ، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة . ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل .

الخامسة : رأيت لابن القيم في " الجواب الكافي " في عجيب صبر يوسف وعفته ، مع الدواعي من وجوه . قال عليه الرحمة ، بعد أن مهد مقدمة في مفاسد عشق الصور العاجلة والآجلة : إنها أضعاف ما يذكره ذاكر ، فإنه يفسد القلب بالذات ، وإذا فسد فسدت الإرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثغر التوحيد . والله تعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس : وهم اللوطية والنساء ، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف ، وما راودته ، وكادته به ، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف لصبره وعفته وتقواه ، ومع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه . فإن موافقة الفعل ،

بحسب قوة الداعي ، وزوال المانع ، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة وذلك لوجوه :

أحدها : ما ركب الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى عن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ، ولا يصبر عن النساء ، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً ، بل يحمد .

(99/398)

الثاني : أن يوسف عليه السلام كان شاباً ، وشهوة الشباب وحدّته أقوى .

الثالث : أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة .

الرابع : أنه كان في غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى لغيره في وطنه ، وبين أهله ومعارفه .

الخامس : أن المرأة كانت ذات منصب وجمال ، بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها .

السادس : أنها غير آبية ولا ممتنعة ، فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها ؛ لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع زيادة حب ، كما قال الشاعر :

~وزادني كلفاً في الحب أن مُنعت أحب شيء إلى الإنسان ما مُنعا

فطباع الناس مختلفة في ذلك ، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ، وتضمحل عند إبائها وامتناعها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ، ويشتد شوقه بكل ما منع ، ويحصل له من اللذة بالظفر بالضد نظير ما يحصل من لذة الظفر بعد امتناعه ونفاره . واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها .

السابع : أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد ، فكفته مؤنة الطلب ، وذل الرغبة إليها ، بل كانت هي الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن : أنه في دارها ، وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى ، إن لم يطاوعها ، من أذاها له ، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة .

التاسع : أنه لا يخشى أن تنمي عليه هي ، ولا أحد من جهتها ، فإنها هي الطالبة والراغبة ، وقد غلقت الأبواب ، وغيبت الرقباء .

العاشر : أنه كان مملوكاً لها في الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه ، وكان الأنس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعي ، كما قيل لامرأة من العرب : ما حملك على كذا ؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السواد . تعني : قرب وساد الرجل من وسادتي ، وطول السواد بيننا .

الحادي عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن ، وشكت حالها إليهن ؛ لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن ، فقال : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف : من الآية 33] .

الثاني عشر : أنها توعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ؛ إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة ، وداعي السلامة ، من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر : إن الزوج لم يُظهر من الغيرة والقوة ما يفرق به بينهما ، ويبعد كلاً منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف : ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ [يوسف : من الآية 29] ، وللمرأة : ﴿ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : من الآية 29] ، وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهنا لم يظهر منه غيرة .

ومع هذه الدواعي فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ، فقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : من الآية 33] ، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين ، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه ، وفي

هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة . انتهى كلام ابن القيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 192.195 ﴾

(101/398)

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ) .

(طَلَبُ الْمَلِكِ لِيُوسُفَ وَتَمَكُّنُهُ فِي الْإِجَابَةِ لِأَجْلِ التَّحْقِيقِ فِي مَسْأَلَةِ النِّسْوَةِ) :

مِنَ الْمَعْلُومِ بِالْبَدَاهَةِ أَنَّ الرَّسُولَ بَلَّغَ الْمَلِكَ وَمَلَأَهُ مَا قَالَهُ لَهُ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَنَّهُمْ فَهِمُوا مِنْهُ أَنَّ الْخَطْبَ جَلَلٌ ، وَأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ ذُو عِلْمٍ وَاسِعٍ ، وَتَدْبِيرٍ لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ فِيمَا يَصِفُهُ مِنْ حَالَيِ : السَّعَةِ وَالشِّدَّةِ ، وَقَدْ طُوِيَ ذَلِكَ إِيجَازًا لِأَنَّهُ يُعْلَمُ مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ) لِأَسْمَعَ كَلَامَهُ بِأُذُنِي ، وَأَخْتَبِرَ تَفْصِيلَ رَأْيِهِ وَدَرَجَةَ عَقْلِهِ بِنَفْسِي فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ وَبَلَّغَهُ أَمْرَ الْمَلِكِ (قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ) قَبْلَ شُخُوصِي إِلَيْهِ وَوُقُوفِي بَيْنَ يَدَيْهِ : (مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) أَيْ مَا حَقِيقَةُ أَمْرِهِنَّ مَعِي ، فَالْبَالُ : الْأَمْرُ الَّذِي يُهْتَمُّ بِهِ وَيُبْحَثُ عَنْهُ ، فَهُوَ يَقُولُ : سَلْهُ عَنْ حَالِهِنَّ لِيَبْحَثَ عَنْهُ وَيَعْرِفَ حَقِيقَتَهُ ، فَلَا أُحِبُّ أَنْ آتِيَهُ وَأَنَا مُتَّهَمٌ بِقَضِيَّةٍ عُوقِبْتُ عَلَيْهَا أَوْ عَقِبَهَا بِالسِّجْنِ ، وَطَالَ مُكْثِي فِيهِ وَأَنَا غَيْرُ

مُذنب فأَقبَل مِنهُ العفوَ (إنَّ ربِّي بكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) وقَدْ صرَفهُ عَنِّي فلَمْ يَمسَّني مِنهُ سُوءٌ مَعهُنَّ ، وربُّكَ لا يَعلمُ ما عَلِمَ ربِّي مِنهُ .

(102/398)

وفِي هَذا التَّرَيُّثِ والسُّؤالِ فَوائِدُ جَلِيلَةٌ فِي أَخْلاقِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلامُ - وعَقْلِهِ وأَدَبِهِ فِي سُؤالِهِ (مِنْها) دَلالَتُهُ عَلى صَبْرِهِ وأَناتِهِ ، وجَدِيرٌ بِمَنْ لَقِيَ مَا لَقِيَ مِنَ الشَّدائِدِ أَنْ يَكُونَ صَبُورًا حَلِيمًا ، فكَيْفَ إذا كانَ نَبِيًّا وارِثًا لِإبْراهِيمَ الَّذِي وصَفَهُ اللَّهُ (بالأَوّاهِ الحَلِيمِ) ؟

وفِي حَدِيثِ

أَبِي هُرَيْرَةَ فِي المُسْنَدِ والصَّحِيحَيْنِ مَرْفُوعًا : (ولَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدّاعِيَ) وفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ : (لَوْ كُنْتُ أَنا لأَسْرَعْتُ الإجابَةَ ومَا ابْتَغَيْتُ العُذْرَ)

وأَمّا مَا رَواهُ عَبْدُ الرَّزّاقِ عَنْ عِكْرِمَةَ فِي تَعَجُّبِ النَّبِيِّ مِنْ صَبْرِهِ وكَرَمِهِ ، وكَوْنِهِ لَوْ كانَ مَكانَهُ لَما أَوَّلَ لَهُمُ الرُّؤْيا حَتّى يَشْتَرِطَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُخْرِجُوهُ مِنَ السِّجْنِ ، ولَوْ أَتاهُ الرَّسُولُ لَبادَرَهُمُ البابَ . فَهُوَ مُرْسَلٌ لا يُحْتَجُّ بِهِ .

(103/398)

(وَمِنْهَا) عِزَّةُ نَفْسِهِ وَحِفْظُ كَرَامَتِهَا ؛ إِذْ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَكُونَ مُتَّهَمًا بِالْبَاطِلِ حَتَّى يُظْهِرَ بَرَاءَتَهُ وَنَزَاهَتَهُ . (وَمِنْهَا) وُجُوبُ الدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ وَإِبْطَالُ التُّهَمِ الَّتِي تُخِلُّ بِالشَّرَفِ كَوُجُوبِ اجْتِنَابِ مُوَافَقَتِهَا . (وَمِنْهَا) مُرَاعَاتُهُ النَّزَاهَةَ بَعْدَ التَّصْرِيحِ بِشَيْءٍ مِنَ الطَّعْنِ عَلَى النِّسْوَةِ ، وَتَرْكُ أَمْرِ التَّحْقِيقِ إِلَى الْمَلِكِ يَسْأَلُهُنَّ مَا بَالُهُنَّ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَيَنْظُرُ مَا يُجِبْنَ بِهِ . (وَمِنْهَا) أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ سَيِّدَتَهُ مَعَهُنَّ وَهِيَ أَصْلُ الْفِتْنَةِ وَفَاءً لِزَوْجِهَا وَرَحْمَةً بِهَا ؛ لِأَنَّ أَمْرَ شَغَفِهَا بِهِ كَانَ وِجْدَانًا قَاهِرًا لَهَا ، وَإِنَّمَا اتَّهَمَهَا أَوَّلًا عِنْدَ وُقُوفِهِ مَوْقِفَ التُّهْمَةِ لَدَى سَيِّدِهَا وَطَعْنِهَا فِيهِ دِفَاعًا عَنْ نَفْسِهِ ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ بِهِ بُدٌّ مِنْهُ .

(104/398)

(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ) الْخَطْبُ : الشَّأْنُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ التَّخَاطُبُ وَالْبَحْثُ لِغَرَابَتِهِ أَوْ إِنْكَارِهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ لِلْمَلَائِكَةِ (فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) 15 : 57 وَقَوْلُ مُوسَى فِي قِصَّةِ الْعِجْلِ : (فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ) 20 : 95 ؟ وَقَوْلُهُ لِلْمَرْأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ كَانَتَا تَذُودَانِ مَاشِيَتَهُمَا عَنْ مَوْرِدِ السُّقْيَا : (مَا خَطْبُكُمَا) 28 : 23 وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ بَيَانٌ لِجَوَابِ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ كَأَمْثَالِهِ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ

الرَّسُولَ بَلَّغَ الْمَلِكَ قَوْلَ يُوسُفَ ، وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنَ السِّجْنِ اسْتِجَابَةً لِدَعْوَتِهِ حَتَّى يُحَقِّقَ مَسْأَلَةَ النِّسْوَةِ ، فَجَمَعَهُنَّ وَسَأَلَهُنَّ : مَا خَطْبُكُنَّ الَّذِي حَمَلَكُنَّ عَلَى مُرَاوَدَتِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، هَلْ كَانَ عَنْ مَيْلٍ مِنْهُ إِلَيْكُنَّ ، وَمُغَازَلَةٍ لَكُنَّ قَبْلَهَا ؟ . هَلْ رَأَيْتُنَّ مِنْهُ مُوَاتَاةً وَاسْتِجَابَةً بَعْدَهَا ؟ أَمْ مَاذَا كَانَ سَبَبُ إِلْقَائِهِ فِي السِّجْنِ مَعَ الْمُجْرِمِينَ ؟ (قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) أَيْ مَعَاذَ اللهِ ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ أَدْنَى شَيْءٍ يُشِينُهُ وَيَسُوءُهُ لَا كَبِيرَ وَلَا صَغِيرَ ، وَلَا كَثِيرَ وَلَا قَلِيلَ ، هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ نَفْيُ الْعِلْمِ مَعَ تَنْكِيرِ سُوءٍ وَدُخُولِ مِنْ عَلَيْهَا وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ رُؤْيَةِ السُّوءِ عَنْهُ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ) أَيْ ظَهَرَ بَعْدَ خَفَائِهِ وَانْحَسَرَتْ رَغْوَةُ الْبَاطِلِ عَنْ مَحْضِهِ ، وَهُوَ تَكْرَارٌ مِنْ حِصَّةٍ إِذَا قُطِعَ مِنْهُ

حِصَّةٌ بَعْدَ حِصَّةٍ (بِالْكَسْرِ) وَهِيَ النَّصِيبُ لِكُلِّ شَرِيكٍ فِي شَيْءٍ ، مِثْلُ كَبْكَبَ وَكَفْكَفَ الشَّيْءَ إِذَا كَبَّهُ وَكَفَّهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، فَهِيَ تَقُولُ : إِنَّ الْحَقَّ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ كَانَ فِي رَأْيِ الَّذِينَ بَلَغَهُمْ مُوَزَّعُ التَّبِعَةِ بَيْنَنَا مَعْشَرَ النِّسْوَةِ وَبَيْنَ يُوسُفَ ؛ لِكُلٍّ مِنَّا حِصَّةٌ ، بِقَدْرِ مَا عَرَضَ فِيهَا مِنْ شُبْهَةٍ ، وَالْآنَ قَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فِي جَانِبٍ وَاحِدٍ لَا خَفَاءَ فِيهِ وَلَا شُبْهَةَ عَلَيْهِ ، فَإِنْ كَانَ

عوَاذِلي شهِدْنَ بنَفْيِ السُّوءِ عَنْهُ وهِيَ شهَادَةُ نَفْيٍ ، فَشهَادتِي لَهُ عَلَى نَفْسِي شهَادَةُ إثْبَاتٍ ؟

(أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ) وهُوَ لَمْ يُرَاوِدْنِي ، بَلِ اسْتَعْصَمَ وأَعْرَضَ عَنِّي (وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) فِيمَا اتَّهَمَنِي بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَحملَهُ أَدَبُهُ الْأَعْلَى ووَفَاؤُهُ الْأَسْمَى لِمَنْ أَكْرَمَ مَثْوَاهُ وأَحْسَنَ إلَيْهِ – عَلَى السُّكُوتِ عَنْهُ إِلَى الْآنِ ، وَنَحْنُ جَزَيْنَاهُ بالسَّيِّئَةِ عَلَى الْإِحْسَانِ ، وَقَدْ أَقَرَّ الْخَصْمُ وارْتَفَعَ النِّزَاعُ .

(106/398)

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالْغَيْبِ) أَيْ ذَلِكَ الْإِقْرَارُ بِالْحَقِّ لَهُ ، وَالشَّهَادَةُ بالصِّدْقِ الَّذِي عَلِمْتُهُ مِنْهُ ، لِيَعْلَمَ الْآنَ – إذْ يَبْلُغُهُ عَنِّي – أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالْغَيْبِ عَنْهُ مُنْذُ سُجِنَ إِلَى الْآنِ بِالنَّيْلِ مِنْ أَمَانَتِهِ ، أَوِ الطَّعْنِ فِي شَرَفِهِ وعِفَّتِهِ ، بَلْ صَرَّحْتُ لِجَمَاعَةِ النِّسْوَةِ بِأَنِّي رَاوَدْتُهُ فَاسْتَعْصَمَ وهُوَ شَاهِدٌ ، وهَأَنَذَا أُقِرُّ بِهَذَا أَمَامَ الْمَلِكِ وَمَلَئِهِ وَهُوَ غَائِبٌ ، (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ بَلْ تَكُونُ عَاقِبَةُ كَيْدِهِنَّ الْفَضِيحَةَ وَالنَّكَالَ ، وَلَقَدْ كِدْنَا لَهُ فَصَرَفَ رَبُّهُ عَنْهُ كَيْدَنَا وَسَجَنَّاهُ فَبَرَّأَهُ وَفَضَحَ مَكْرَنَا ، حَتَّى شَهِدْنَا لَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ السَّامِي عَلَى أَنْفُسِنَا .

وَهَذَا تَعْلِيلٌ آخَرُ لِإِقْرَارِهَا عَلَى تَبْرِئَةِ نَفْسِهَا مِنْ خِيَانَتِهِ بِالْغَيْبِ، اعْتَرَفَتْ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ بِأَنَّهَا لَا تُبَرِّئُ نَفْسَهَا مِنَ الْكَيْدِ لَهُ بِالسِّجْنِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ هَوَى النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ تَذْلِيلُهُ لَهَا، وَحَمْلُهُ عَلَى طَاعَتِهَا، وَفِيهِمَا وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّهَا تَقُولُ: ذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ أَقْرَرْتُ بِهِ لِيَعْلَمَ زَوْجِي أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْفِعْلِ فِيمَا كَانَ مِنْ خَلَوَاتِي بِيُوسُفَ فِي غَيْبَتِهِ عَنَّا، وَأَنَّ كُلَّ مَا وَقَعَ أَنِّي رَاوَدْتُ هَذَا الشَّابَّ الْفَاتِنَ الَّذِي وَضَعَهُ فِي بَيْتِي، وَخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنِي، فَاسْتَعْصَمَ وَامْتَنَعَ، فَبَقِيَ عِرْضُهُ - أَيِ الزَّوْجِ - مَصُونًا، وَشَرَفُهُ مَحْفُوظًا، وَلَئِنْ بَرَّأْتُ يُوسُفَ مِنَ الْإِثْمِ فَمَا أُبَرِّئُ مِنْهُ نَفْسِي فَـ (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) 53 وَسَيَأْتِي أَنَّ مِنْ رَحْمَتِهِ - تَعَالَى - بِبَعْضِ الْأَنْفُسِ صَرْفَهَا عَنِ الْأَمْرِ السُّوءِ وَهُوَ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ، وَمِنْهَا حِفْظُهُ إِيَّاهَا مِنْ طَاعَةِ الْأَمْرِ بِوَازِعٍ مِنْهَا، وَهِيَ دُونَ مَا قَبْلَهَا، وَمِنْهَا عَدَمُ تَيَسُّرِ عَمَلِ السُّوءِ، لَهَا بِامْتِنَاعِ مَنْ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْعَمَلُ عَلَى حَدِّ (أَنَّ مِنَ الْعِصْمَةِ أَلَّا تَجِدَ).

هَذَا هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنْ نَظْمِ الْآيَتَيْنِ الْمُنَاسِبُ لِلْمَقَامِ بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ، وَلَكِنْ ذَهَبَ الْجُمْهُورُ

اتِّبَاعًا لِلرِّوَايَاتِ الْخَادِعَةِ إِلَى أَنَّهُمَا حِكَايَةٌ عَنْ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَقُولُ : ذَلِكَ الَّذِي كَانَ مِنِّي إِذِ امْتَنَعْتُ مِنْ إِجَابَةِ الْمَلِكِ وَاقْتَرَحْتُ عَلَيْهِ التَّحْقِيقَ فِي قَضِيَّةِ النِّسْوَةِ لِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ مِنَ التَّحْقِيقِ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ فِي زَوْجِهِ بِالْغَيْبِ إِلَخْ ، وَأَنَّهُ صَرَّحَ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَا يُبَرِّئُ نَفْسَهُ مِنْ بَابِ التَّوَاضُعِ وَهَضْمِ النَّفْسِ ! وَهَذَا الْمَعْنَى يَتَبَرَّأُ مِنْهُ السِّيَاقُ وَالنَّظْمُ وَمَرْجِعُ الضَّمِيرِ . وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ ابْنَ جَرِيرٍ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ قَالَ الْعِمَادُ ابْنُ كَثِيرٍ عَلَى كَثْرَةِ اعْتِمَادِهِ عَلَيْهِ مُرَجِّحًا لِلْقَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ الْأَشْهَرُ وَالْأَلْيَقُ وَالْأَنْسَبُ بِسِيَاقِ الْقِصَّةِ وَمَعَانِي الْكَلَامِ وَقَدْ حَكَاهُ الْمَاوَرْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَانْتَدَبَ لِنَصْرِهِ الْإِمَامُ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ - فَأَفْرَدَهُ بِتَصْنِيفٍ عَلَى حِدَةٍ . انْتَهَى ، وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ مِنْ أَعْلَمِ الْمُحَدِّثِينَ بِنَقْدِ الرِّوَايَاتِ فَهُوَ مَا نَصَرَ هَذَا الْقَوْلَ إِلَّا وَقَدْ فَنَّدَ رِوَايَاتِ الْقَوْلِ الْآخَرِ .

وَقَدْ عُلِمَ مِنْ جُمْلَةِ الْكَلَامِ أَنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ مَثَلَ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ الْأَعْلَى لِلِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي الْعِفَّةِ وَالصِّيَانَةِ ، لَمْ يَمَسَّهُ أَدْنَى سُوءٍ مِنْ فِتْنَةِ النِّسْوَةِ ، وَأَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ الَّتِي

اشْتَهَرَتْ فِي نِسَاءِ مِصْرَ بَلْ نِسَاءِ الْعَالَمِ بِسُوءِ الْقُدْوَةِ فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ كَانَ أَكْبَرُ إِثْمِهَا عَلَى زَوْجِهَا ، وَكَانَتْ هِيَ ذَاتَ مَزَايَا فِي عِشْقِهَا الَّذِي كَانَ اضْطِرَارِيًّا لَا عِلَاجَ لَهُ إِلَّا الْحَيْلُولَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ هَذَا الشَّابِّ الَّذِي بَلَغَ مُنْتَهَى الْكَمَالِ فِي الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ ، فَمِنْ مَزَايَاهَا أَنَّهَا لَمْ تَتَطَلَّعْ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الرِّجَالِ إِجَابَةً لِدَاعِيَةِ الْجِنْسِيَّةِ لِلتَّسَلِّي عَنْهُ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْهُ ، وَأَنَّهَا لَمْ تَتَّهِمْهُ بِالْجُنُوحِ لِلْفَاحِشَةِ قَطُّ ، وَكُلُّ مَا قَالَتْهُ لِزَوْجِهَا إِذْ فَاجَأَهُمَا لَدَى الْبَابِ (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) 25 تَعْنِي بِهِ هَمَّهُ بِضَرْبِهَا ، وَأَنَّهَا فِي خَاتِمَةِ الْأَمْرِ أَقَرَّتْ بِذَنْبِهَا فِي مَجْلِسِ الْمَلِكِ الرَّسْمِيِّ إِيثَارًا لِلْحَقِّ وَإِثْبَاتًا لِبَرَاءَةِ الْمُحِقِّ ، فَأَيَّةُ مَزَايَا أَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ لِمَنِ ابْتُلِيَتْ بِمِثْلِ هَذَا الْعِشْقِ ؟ وَفِي تَارِيخِ الْفِرْدَوْسِيِّ أَدِيبِ الْفُرْسِ أَنَّهُ صَنَّفَ قِصَّةً غَرَامِيَّةً فِي زَلِيخَا وَيُوسُفَ صَوَّرَ فِيهَا الْعِفَّةَ بِأَجْمَلِ صُوَرِهَا ، وَزَلِيخَا (بِالْفَتْحِ) اسْمُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ فِي أَشْهَرِ تَوَارِيخِنَا ، وَقِيلَ : إِنَّ اسْمَهَا رَاعِيلُ ، وَسَنُفَصِّلُ الْعِبَرَ فِي الْقِصَّةِ ، فِي التَّفْسِيرِ

(110/398)

الْإِجْمَالِيِّ لِلسُّورَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى . (1)

تَمَّ تَفْسِيرُ الْجُزْءِ الثَّانِي عَشَرَ فِي الْعُشْرِ الْأَخِيرِ مِنَ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ 1354 هـ ، وَكَانَ الْبَدْءُ بِهِ فِي صَفَرٍ 1353 هـ وَاللهَ نَسْأَلُ تَوْفِيقَنَا لِإِتْمَامِ سَائِرِ هَذَا التَّفْسِيرِ بِمَا يَرْضَاهُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ

وَالْمِنَّةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 265.268 ﴾

---

(1) كانت هذه آخر آية فسرها صاحب المنار قبل وفاته ، رحمه الله تعالى وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

(111/398)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾

ظاهر ترتيب الكلام أن هذا من كلام امرأة العزيز ، مضت في بقية إقرارها فقالت : ﴿ وما أبرىء نفسي ﴾ .

وذلك كالاحتراس مما يقتضيه قولها : ﴿ ذلك لِيَعْلَم أني لم أخنْه بالغيب ﴾ [سورة يوسف : 52] من أن تبرئة نفسها من هذا الذنب العظيم ادعاءٌ بأن نفسها بريئة براءة عامة فقالت : وما أبرىء نفسي ﴾ ، أي ما أبرىء نفسي من محاولة هذا الإثم لأن النفس أمّارة بالسوء وقد أمرتني بالسوء ولكنه لم يقع .

فالواو التي في الجملة استئنافية ، والجملة ابتدائية .

وجلمة ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ تعليل لجملة ﴿ وما أبرىء نفسي ﴾ ، أي لا

أدعي براءة نفسي من ارتكاب الذنب ، لأن النفوس كثيرة الأمر بالسوء .

والاستثناء في ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ استثناء من عموم الأزمان ، أي أزمان وقوع السوء ، بناءً على أن أمر النفس به يبعث على ارتكابه في كلّ الأوقات إلاّ وقت رحمة الله عبده ، أي رحمته بأن يقيّض له ما يصرفه عن فعل السوء ، أو يقيض حائلاً بينه وبين فعل السوء ، كما جعل إباية يوسف عليه السلام من إجابتها إلى ما دعتْه إليه حائلاً بينها وبين التورط في هذا الإثم ، وذلك لطف من الله بهما .

ولذلك ذيلته بجملة ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ ثناءً على الله بأنه شديد المغفرة لمن أذنب ، وشديد الرحمة لعبده إذا أراد صرفه عن الذنب .

وهذا يقتضي أن قومها يؤمنون بالله ويحرمون الحرام ، وذلك لا ينافي أنهم كانوا مشركين فإن المشركين من العرب كانوا يؤمنون بالله أيضاً ، قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولُن الله ﴾ [سورة العنكبوت : 61] وكانوا يعرفون البر والذنب .

وفي اعتراف امرأة العزيز بحضرة الملك عبرة بفضيلة الاعتراف بالحق ، وتبرئة البريء مما ألصق به ، ومن خشية عقاب الله الخائنين .

وقيل : هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام متصل بقوله : ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ الآية [سورة يوسف : 50] .

وقوله : ﴿ قال ما خَطْبُكُنّ إذ رَاوَدْتُنّ يوسف ﴾ إلى قوله ﴿ وأن الله لا يهدي كَيْد الخائنين ﴾ [سورة يوسف : 51 52] اعتراض في خلال كلام يوسف عليه السلام .

وبذلك فسّرها مجاهد وقتادة وأبو صالح وابن جريج والحسن والضحّاك والسدّي وابن جبير ، واقتصر عليه الطبري .

قال في الكشاف ﴾ : (وكفى بالمعنى دليلاً قائداً إلى أن يجعل من كلام يوسف عليه السلام ، ونحوُه قوله : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم ثم قال فماذا تأمرون ﴾ [سورة الأعراف : 109 110] وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم) اه .

يريد أن معنى هذه الجملة أليق بأن يكون من كلام يوسف عليه السلام لأن من شأنه أن يصدر عن قلب مليء بالمعرفة .

وعلى هذا الوجه يكون ضمير الغيبة في قوله : ﴿ لم أخنه ﴾ [سورة يوسف : 52] عائداً إلى معلوم من مقام القضية وهو العزيز ، أي لم أخن سيدي في حرمته حال مغيبه .

ويكون معنى وما أبرىء نفسي ﴾ الخ . .

مثل ما تقدم قصد به التواضع ، أي لست أقول هذا ادعاء بأن نفسي بريئة من ارتكاب

الذنوب إلا مدة رحمة الله النفس بتوفيقها لأكف عن السوء ، أي أني لم أفعل ما اتهمت به وأنا لست بمعصوم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(113/398)

وقال الشيخ الشعراوى :

وتواصل امرأة العزيز فتقول : ﴿ وَمَآ أُبَرِّىءُ نفسي . . . ﴾ .

هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز ؛ وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس ؛ فهي لم تحضر لتبرىء نفسها :

﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ . . . ﴾ [يوسف : 53] .

ومجيء قول الحق سبحانه المؤكِّد أن النفس على إطلاقها أمَّارة بالسوء ؛ يجعلنا نقول : إن يوسف أيضاً نفس بشرية .

وقد قال بعض العلماء : إن هذا القول من كلام يوسف ، كردٍّ عليها حين قالت : ﴿ أَنَاْ رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين * ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخائنين ﴾ [يوسف : 51-52] .

وكان من المناسب أن يرد يوسف عليه السلام بالقول :

﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نفسي إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء إِلاَّ مَا رَحِمَ ربي ﴾ [يوسف : 53] .

ويمكن أن يُنسب هذا القول إلى يوسف كلَوْنٍ من الحرص على ألاَّ يلمسه غرور الإيمان ، فهو كرسول من الله يعلم أن الله سبحانه هو الذي صرف كيدهُنَّ عنه .

وهذا لَوْن من رحمة الله به ؛ فهو كبشر مُجرّد عن العصمة والمنهج من الممكن أن تحدث له الغواية ؛ لكن الحق سبحانه عصمه من الزَّلَل .

ومن لُطْف الله أن قال عن النفس : إنها أَمَّارة بالسوء ؛ وفي هذا توضيح كافٍ لطبيعة عمل النفس ؛ فهي ليستْ آمرةً بالسوء ، بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهي الأمر .

لا ، بل انتبه أيها الإنسان إلى حقيقة عمل النفس ، فهي دائماً أَمَّارة بالسوء ، وأنت تعلم أن التكليفات الإلهية كلها إمَّا أوامر أو نَوَاهٍ ، وقد تستقبل الأوامر كتكليف يشقُّ على نفسك ، وأنت تعلم أن النواهي تمنعك من أفعال قد تكون مرغوبة لك ، لأنها في ظاهرها ممتعة ، وتلبي نداء غرائز الإنسان .

ولذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : " حُفَّتْ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتْ النار بالشهوات " .

أي : أن المعاصي قد تُغريك ، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه ، ويُقدِّر العواقب البعيدة ، ولا ينظر إلى اللذة العارضة الوقتية ؛ إلا إذا نظر معها إلى الغاية التي توصله إليها تلك اللذة ؛ لأن شيئاً قد تستلِذُّ به لحظة قد تَشْقى به زمناً طويلاً .

ولذلك قلنا : إن الذي يُسرف على نفسه غافل عن ثواب الطاعة وعن عذاب العقوبة ، ولو استحضر الثواب على الطاعة ، والعذاب على المعصية ؛ لامتنع عن الإسراف على نفسه .

ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن " .

إذن : فلحظة ارتكاب المعصية نجد الإنسان وهو يستر إيمانه ؛ ولا يضع في باله أنه قد يموت قبل أن يتوبَ عن معصيته ، أو قبل أن يُكفِّر عنها .

ويخطيء الإنسان في حساب عمره ؛ لأن أحداً لا يعلم ميعاد أجله ؛ أو الوقت الذي يفصل بينه وبين حساب المَوْلَى عَزَّ وجَلَّ له على المعاصي .

وكل مِنّا مُطَالب بأن يضع في حُسْبانه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " الموت القيامة ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته " .

ولنا أسوة طيبة في عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو الخليفة الثالث لرسول الله صلى الله

عليه وسلم ، الذي كان إذا وقف على قبر بكى حتى تبتلّ لحيته ، فسُئِل عن ذلك ؛ وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتبكي إذا وقفتَ على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن القبر أول منازل الآخرة ، فإنْ نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم يَنْجُ منه ، فما بعده أشد " .

لذلك فلا يستبعد أحد ميعاد لقائه بالموت .

وتستمر الآية : ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ ربي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : 53] .

(115/398)

ونعلم أن هناك ما يشفي من الداء ، وهناك ما يُحصِّن الإنسان ، ويعطيه مناعة أن يصيبه الداء ، والحق سبحانه غفور ، بمعنى أنه يغفر الذنوب ، ويمحوها ، والحق سبحانه رحيم ، بمعنى أنه يمنح الإنسان مناعة ، فلا يصيبه الداء ، فلا يقع في زلة أخرى .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : 82] .

فساعةَ تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذي تعاني منه نفسياً ويُقويّ قدرتك على مقاومة الداء ؛ ويُفجِّر طاقات الشفاء الكامنة في أعماقك . وهو رحمة لك حين تتخذه

منهجاً ، وتُطبِّقه في حياتك ؛ فيمنحك مناعة تحميك من المرض ، فهو طِبّ علاجيّ وطبّ وقائيّ في آنٍ واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(116/398)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُبَرِّىءُ نفسي إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ [53] قال : إن النفس الأمارة هي الشهوة ، وهي موضع الطبع ، ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ ربي ﴾ [53] موضع العصمة ، والنفس المطمئنة هي نفس المعرفة ، وأن الله تعالى خلق النفس وجعل طبعها الجهل ، وجعل الهوى أقرب الأشياء إليها ، وجعل الهوى الباب الذي منه تدخل هلاك الخلق .

فسئل سهل عن معنى الطبع ، وعما يوجب العصمة عنه .

فقال : طبع الخلق على أربع طبائع : أولها طبع البهائم البطن والفرج والثاني طبع الشياطين اللعب واللهو ، والثالث طبع السحرة المكر والخداع ، والرابع طبع الأبالسة الإباء والاستكبار .

فالعصمة من طبع البهائم الإيمان ، والسلامة من طبع الشياطين التسبيح والتقديس وهو

طبع الملائكة ، والسلامة من طبع السحرة الصدق والنصيحة والإنصاف والتفضل ، والسلامة من طبع الأبالسة الالتجاء إلى الله تعالى بالتضرع والصراخ ، وطبع العقل العلم ، وطبع النفس الجهل ، وطبع الطبع الدعوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 81. 82 ﴾

(117/398)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) ﴾

أخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ فقال : " لو كنت أنا لأسرعت الاجابة وما ابتغيت العذر " " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال : " يرحم الله يوسف إن كان لذا أناة حليماً ، لو كنت أنا المحبوس ، ثم أرسل إليّ لخرجت سريعاً " .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه – والله يغفر له – حيث أرسل إليه ليستفتى في الرؤيا ، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت من صبره وكرمه – والله يغفر له – أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولكنه أحب أن يكون له العذر " .

وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر ، عن الحسن – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رحم الله أخي يوسف ، لو أنا أتاني الرسول بعد طول الحبس لأسرعت الإجابة ، حين قال ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة ﴾ " .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ قال : أراد يوسف عليه السلام العذر قبل أن يخرج من السجن .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : لما جمع الملك النسوة قال لهن : انتن راودتن يوسف عن نفسه ؟ ﴿ قلن : حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ قال يوسف : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ فغمزه جبريل عليه السلام فقال : ولا حين هممت بها ؟ فقال ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ قال : تبين .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد والسدي مثله .

وأخرج الحاكم في تاريخه ، وابن مردويه والديلمي ، عن أنس رضي الله عنه . " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال " لما قالها يوسف عليه السلام ، قال له جبريل عليه السلام : يا يوسف ، اذكر همك . قال : ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن أبي الهذيل قال : لما قال يوسف عليه السلام ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال له جبريل عليه السلام : ولا يوم هممت بما هممت به ؟ فقال ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، عن عكرمة قال : لما قال يوسف عليه السلام ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال الملك - وطعن في جنبه - يا يوسف ، ولا حين هممت ؟ قال ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم ، عن حكيم بن جابر في قوله ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال : قال له جبريل : ولا حين حللت السراويل ؟ فقال عند ذلك ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال : هو قول يوسف لمليكه حين أراه الله عذره .

(119/398)

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج قال : أراد يوسف عليه السلام العذر قبل أن يخرج من السجن ، فقال ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم . . . ﴾ و ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال ابن جريج : وبين هذا وبين ذلك ما بينه ، قال : وهذا من تقديم القرآن وتأخيره .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه

بالغيب ﴾ قال يوسف - يقول - لم أخن سيدي .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال هذا قول يوسف عليه السلام ، لم يخن العزيز في امرأته . قال : فقال له جبريل عليه السلام : ولا حين حللت السراويل ؟ فقال يوسف عليه السلام ﴿ وما أبرئ نفسي . . . ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال : قال له جبريل عليه السلام : اذكر همك . قال ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ فقال له الملك أو جبريل : ولا حين هممت بها ؟ فقال يوسف عليه السلام ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال : فقال له الملك : ولا حين هممت ؟ فقال ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة - رضي الله عنه - قال : ذكر لنا أن الملك الذي كان مع يوسف عليه السلام قال له : اذكر ما هممت به . قال ﴿ وما أبرئ نفسي

﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال : خشي نبي الله صلى الله عليه وسلم أن يكون زكى نفسه فقال ﴿ وما أبرئ نفسي . . . ﴾ الآية .

(120/398)

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر ، عن الحسن - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ قال : يعني همته التي هم بها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عبد العزيز بن عمير - رضي الله عنه - قال : النفس أمارة بالسوء ، فإذا جاء العزم من الله ، كانت هي التي تدعو إلى الخير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(121/398)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ ﴾ : فيه أوجه ، أحدُها : أنه مستثنى من الضمير المستكنِّ في " أمَّارَةٌ " كأنه قيل : إن النفس لأمَّارة بالسوءِ إلا نَفْساً رحمها ربِّي ، فيكون أراد بالنفس الجنسَ ، فلذلك ساغ الاستثناء منها كقولِه تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ [العصر : 2-3] ، وإلى هذا نحا الزمخشري فإنه قال : " إلا البعضَ الذي رحمه ربي بالعِصْمة كالملائكة " وفيه نظرٌ مِنْ حيث إيقاعُ " ما " على مَنْ يَعْقِل والمشهورُ خِلافُه .

والثاني : أنَّ " ما " في معنى الزمان فيكون مستثنى من الزمن العام المقدَّر . والمعنى : إنَّ النفس لأمَّارَةٌ بالسوء في كلِّ وقتٍ وأوانٍ إلا وقتَ رحمةِ ربي إياها بالعِصْمة . ونظَّرَه أبو البقاء بقوله تعالى : ﴿ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إلى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ ﴾ [النساء : 92] . وقد تقدَّم أن الجمهورَ لا يُجيزون أن تكون " أنْ " واقعةً موقعَ ظرفِ الزمان .

والثالث : أنه مستثنى من مفعول " أمَّارة " ، أي : لأمَّارةٌ صاحبَها بالسوءِ إلا الذي رَحِمه اللَّه . وفيه إيقاعُ " ما " على العاقل .

والرابع : أنه استثناءٌ منقطعٌ . قال ابن عطية : " وهو قولُ الجمهور " . وقال الزمخشري : "

ويجوز أن يكونَ استثناءً منقطعاً ، أي : ولكنْ رحمةُ ربي هي التي تَصْرِف الإِساءةَ كقوله : ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [يس : 23] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 515.514 ﴾

(122/398)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) ﴾

لَمَّا تمدَّح بقوله : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ كأنه نودي في سِرِّه : ولا حين هَمَمْتَ؟ فقال : : ﴿ وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِى ﴾ . (1)

ويقال : قوله : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ بيانُ الشكر على ما عصمه الله ، وقوله : ﴿ وَمَا أُبَرِّى نَفْسِى ﴾ بيانُ العُذْرِ لما قصَّرَ في أمر الله ، فاستوجب شكرُه زيادةَ الإحسان ، واستحقَّ بعذره العفوَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 190 ﴾

---

(1) الراجح أن قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ من كلام امرأة العزيز ، وقد توضيح المراد من قوله تعالى ﴿ وهم بها لولا . . . ﴾ . والله أعلم .

(123/398)

فصل

قال السمرقندي في الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى المدينة ﴾

قال الكلبي : (هنّ) أربع نسوة امرأة ساقيه يعني : ساقي الملك ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة صاحب الدوابّ .

ويقال هن خمس ، خامستهن امرأة صاحب الملك .

ويقال : أربعون امرأة .

ويقال : جماعة كثيرة من النساء اجتمعت في موضع ، وقلن فيما بينهنّ ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى المدينة امرأت العزيز ﴾ يعني : تطلب عبدها وتدعوه إلى نفسها .

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ قال : الحسن أي شق شغاف قلبها حبه .

وقال عامر الشعبي : الشغوف المحب ، والمشغوف المحبوب .

وقال القتبي : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ﴾ بلغ الحب شغافها ، وهو غلاف القلب ، قال : ومن قرأ شغفها أي فتنها من قولك فلان شغوف بفلانة .

ويقال : شغف الشيء إذا علاه ﴿ قَدْ شَغَفَهَا ﴾ أي علاها .

ويقال : أهلكها ، فلا تعقل غيره ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني : في خطأ بيّن .

ويقال : في عشق بيّن .

أي : لا تعقل غيره .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ يعني : سمعت زليخا بمقالتهن .

وإنما سمّي قولهنّ مكراً والله أعلم ، لأن قولهن لم يكن على وجع النصيحة ، والنهي عن المنكر .

ولكن كان على وجه الشماتة والتعيير .

﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ فدعتهن ﴿ وَأَعَدَّتْ لَهُنَّ مُتكأً ﴾ أي : اتخذت لهن وسائد يتكين عليها .

وذلك أنها اتخذت ضيافة ، ودعت النساء ، ووضعت الوسائد لجلوسهن .

وقال الفراء : من قرأ متكاً غير مهموز فإنه الأترج .

وكذلك قال ابن عباس .

روى منصور عن مجاهد أنه قال : من قرأ مثقلة قال : يعني : الطعام ، ومن قرأ : مخففة قال

الأترج.

ويقال: الزُّمَّاوَرْد وهو نوع من التمر.

(124/398)

وقال عكرمة كل شيء يقطع بالسكين ﴿ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ يعني: أعطت زليخا كل واحدة من النسوة سكيناً، وأمرت يوسف بأن يلبس أحسن ثيابه، وزيّنته أحسن الزينة ﴿ وَقَالَتِ ﴾ له ﴿ اخرج عَلَيْهِنَّ ﴾ يعني: اخرج على النساء فخرج عليهن.

روى أبو الأحوص عن ابن مسعود قال: أوتي يوسف وأمه ثلث حسن الناس، في الوجه، والبياض، وغير ذلك.

وكانت المرأة إذا رأت يوسف، غطّى وجهه مخافة أن تفتتن به.

فلما خرج يوسف إلى النسوة غطى نفسه فنظرن إليه ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ يقول: أعظمنه.

أي: أعظمن شأنه، وتحيرن، وبقين مدهوشات، طائرة عقولهن، ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ يقول: حززن، وخدشن أيديهن بالسكين، ولم يشعرن بذلك ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ يعني:

معاذ الله ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ قرأ بعضهم : بالرفع .

وقرأ بعضهم ﴿ مَا هذا ﴾ يعني : مثل هذا لا يكون بشراً .

وقراءة العامة ما هذا بشراً بنصب الراء والتنوين ، لأنه خبر "ما" .

ولأنه صار نصباً لنزع الخافض .

ومعناه : ﴿ للَّهِ مَا هذا بَشَرًا ﴾ يعني : مثل هذا لا يكون آدمياً ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني : على ربه .

فإن قيل : إنهن لم يرين الملك فكيف شبّهنه بشيء لم يرينه ؟ قيل له : لأن المعروف عند الناس ، أنهم إذا وصفوا أحداً بالحسن ، يقولون : هذا يشبه الملك ، وإن لم يروا الملائكة ، كما أنهم إذا وصفوا أحداً بالقبح ، يقولون : هو كالشيطان ، وإن لم يروا الشيطان .

قرأ أبو عمرو ﴿ يَوْمَئِذٍ للَّهِ ﴾ بالألف .

وقرأ الباقون : بغير ألف .

وكذلك الذي بعده ﴿ قَالَتْ ﴾ زليخا للنسوة ﴿ فذلكن الذى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ يقول : عذلتنني فيه وعبتنني فيه فهل عذرتنني ؟ فقلن لها : أنت معذورة .

قالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ يعني : طلبت إليه أن يمكنني من نفسه ﴿ فاستعصم ﴾ أي فامتنع بنفسه مني ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ يعني : احبسنه في السجن ﴿ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصاغرين ﴾ يعني : من المهانين بالسجن .

ويقال : مذللين .

وقرأ بعضهم ﴿ لَّيَكُونُنَّ ﴾ بتشديد النون وهذا خلاف مصحف الإمام .

وقراءة العامة : ﴿ وَلَيَكُونًا ﴾ لأن النون الخفيفة تبدل منها في الوقف بالألف .

﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ يقول : يا سيدي ﴿ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى ﴾ النسوة ﴿ إِلَيْهِ ﴾ من العمل القبيح .

قرأ بعضهم ﴿ قَالَ رَبِّ السجن ﴾ بنصب السين على معنى المصدر .

يقال : سجنته سَجْناً وهي قراءة شاذة .

وقراءة العامة بالكسر يعني : نزول بيت السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، يعني به : امرأة العزيز خاصة .

ويقال : أراد به النسوة اللاتي حضرن هناك ، لأنهن قلن له : أطع مولاتك ، ولا تخالفها ، فإن لها عليك حقاً .

وقد اشترتك بمالها وهي تحسن إليك ، وتحبك ، وتطلب هواك .

فقال : ﴿ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ وقال بعض الحكماء : لو أنه قال : رب العافية أَحَبُّ

إليّ، لعافاه الله تعالى.

ولكن لما نجا بدينه، لم يبال بما أصابه في الله.

ثم قال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ ﴾ يعني: إذا لم تصرف عني عملهن وشرهن ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي: أمل إليهن ﴿ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ يعني: من المذنبين.

قوله تعالى: ﴿ فاستجاب لَهُ رَبُّهُ ﴾ فيما دعاه ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ يعني: فعلهن، وشرهن.

﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ يسمع لمن دعاه.

يعني: ﴿ السميع ﴾ للدعاء فيما دعاه يوسف ﴿ العليم ﴾ به.

ثم إن المرأة قالت لزوجها: إن هذا الغلام العبراني لا ينقطع عني، وقد فضحني في الناس، يعتذر إليهم ويخبرهم، أني راودته عن نفسه، ولست أطيق أن أعتذر بعذري.

فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر إلى الناس، وأخبرهم بحالي.

وإما أن تحبسه حتى ينقطع حديثه فذلك قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات ﴾ يعني: ثم بدا للزوج من بعد ما رأى شق القميص، وقضاء ابن عمها بينهما

لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حِينٍ ﴾ قال الكلبي : سجنه خمس سنين .

ويقال : ﴿ حتى حِينٍ ﴾ يعني : إلى يوم من الأيام وإلى وقت من الأوقات .

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانَ ﴾ يعني : حبس معه في السجن الخباز ، والساقي .

عبدان للملك غضب عليهما .

يعني : صاحب شرابه ، وصاحب مطعمه ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا ﴾ ليوسف ﴿ إِنِّى أَرَانِى ﴾ في المنام ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ يعني : عنباً بلغة عمان .

قال الضحاك : إن ناساً من العرب يسمون العنب خمراً .

ويقال : معناه أعصر العنب الذي يكون عصيره خمراً ، وذلك أنه قال : رأيت في المنام ، كأني دخلت كرماً فيه حبلة حسنة ، فيها ثلاث من القضبان ، وفي القضبان ثلاثة عناقيد ، عنب قد أينع ، وبلغ ، فأخذته وعصرته في الكأس ، ثم أتيت به الملك فسقيته .

﴿ وَقَالَ الآخر إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا ﴾ يقول : رأيت في المنام ، كأني أحمل فوق رأسي ثلاث سلال خبزاً ﴿ تَأْكُلُ الطير مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ يقول : أخبرنا بتفسير هذه الرؤيا ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ أي : من الموحدين .

وذلك أنه ينصر المظلوم ، ويعين الضعيف ، وكان يداوي مرضاهم ، ويعزي مكروبهم .

فإذا احتاج واحد منهم ، قام وجمع له شيئاً .

ويقال : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ يعني : من الصادقين في القول .

ويقال : كان متعبداً لربه .

ويقال : كان أهل السجن يجتمعون عنده ، ويسألونه أشياء ، فيخبرهم .

(127/398)

فقالا : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ يعني : نراك عالماً ، وقد أحسنت العلم ﴿ قَالَ ﴾ لهما يوسف عليه السلام ﴿ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ يعني : تطعمانه ﴿ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ يقول : أخبرتكما بتفسيره ، وألوانه ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ الطعام .

وإنما أراد بذلك ، أن يبيّن لهما علامة نبوته .

وهذا مثل قول عيسى عليه السلام لقومه : ﴿ وَرَسُولاً إلى بنى إسراءيل أَنّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مّن رَّبّكُمْ أنى أَخْلُقُ لَكُمْ مّنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ الله وَأُبْرِىءُ الأكمه والابرص وَأُحْيِ الموتى بِإِذْنِ الله وَأُنَبّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 49] فلما أخبر يوسف بذلك ، قالا وكيف تعلم ولست بساحر ، ولا عرّاف ، ولا كاهن ؟ قال يوسف : ﴿ ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِى رَبّى ﴾ أراد أن يبيّن لهما علامة نبّوته لكي يسلما .

ثم قال : ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ ﴾ يعني : تبرأت من ﴿ مِلَّةَ قَوْمٍ ﴾ يعني : دين قوم ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بالله ﴾ أي : لا يصدّقون بوحدانيته ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ يعني : بالبعث جاحدون .

ثم :

قال تعالى : ﴿ واتبعت مِلَّةَ ءابَاءي إبراهيم وإسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ يعني : دينهم ﴿ مَا كَانَ لَنَا ﴾ أي : ما جاز لنا ﴿ أَن نُّشْرِكَ بالله مِن شَىْءٍ ﴾ من الآلهة ﴿ ذلك مِن فَضْلِ الله ﴾ يعني : ويقال ذلك الإرسال ، الذي أرسل إليه بالنبوة من فضل الله ﴿ وَعَلَيْنَا وَعَلَى الناس ﴾ يعني : المؤمنين ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس ﴾ يعني : أهل مصر ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ النعمة .

(128/398)

ثم دعاهما إلى الإسلام فقال : ﴿ يَشْكُرُونَ يا صاحبى السجن ﴾ يعني : الخباز والساقي ﴿ مُّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ ﴾ أي : الآلهة وعبادتها ﴿ خَيْرٌ أَمِ ﴾ عبادة ﴿ الله الواحد القهار ﴾ .

ثم قال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أي : من الآلهة ﴿ لَا يَعْلَمُونَ يا صاحبى السجن أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخر ﴾ يعني : لا عذر ، ولا حجة لعبادتكم إياها ، ﴿

إنِ الحكم إلاَّ للّهِ ﴾ ما القضاء في الدنيا والآخرة إلا لله ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ يعني : أمر في الكتاب أن لا تطيعوا في التوحيد إلا إياه ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ يعني : التوحيد الدين المستقيم وهو دين الإسلام الذي لا عوج فيه ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس ﴾ يعني : أهل مصر ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ أن دين الله هو الإسلام .

ثم أخبرهما بتأويل الرؤيا ، بعد ما نصحهما ودعاهما إلى الإسلام ، وأخذ عليهما الحجة ، فقال : ﴿ يَعْلَمُونَ يا صاحبى السجن أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ وهو الساقي .

قال له يوسف : تكون في السجن ثلاثة أيام ، ثم تخرج ، فتكون على عملك ، وتسقي سيدك خمراً .

قراءة العامة ﴿ فَيَسْقِى ﴾ بنصب الياء .

يقال : سَقَيْتُهُ إذا ناولته .

وقرأ بعضهم ﴿ فيُسْقِى ﴾ من أسقيته إذا جعلت له ساقياً .

يعني : تتخذ الشراب الذي يسقي الملك .

ثم بيّن تأويل رؤيا الآخر فقال : ﴿ وَأَمَّا الآخر ﴾ وهو الخباز ﴿ فَيُصْلَبُ ﴾ يعني : يخرج من السجن بعد ثلاثة أيام ويصلب ﴿ فَتَأْكُلُ الطير مِن رَّأْسِهِ ﴾ .

فلما أخبرهما يوسف بتأويل الرؤيا ، قالا : ما رأينا شيئاً فقال لهما يوسف عليه السلام : ﴿ قُضِىَ الأمر الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ يعني : تسألان .

رأيتماها أو لم ترياها ، قلتما لي ، وقلت لكما ، فكذلك يكون .

وروى إبراهيم النخعي عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : إنهما كانا تحالما ليجرّباه .

فلما أوّل رؤياهما ، قالا : إنما كنا نلعب ، قال يوسف : ﴿ قُضِىَ الأمر الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ يعني : قال يوسف عليه السلام للذي علم أنه ينجو من السجن والقتل ، وهو الساقي ﴿ اذكرنى عِندَ رَبّكَ ﴾ قال يوسف للساقي : إذا دعاك الملك ، وسقيته ، فاذكرني عنده إني مظلوم قد عدا عليّ إخوتي فباعوني .

﴿ فَأَنسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبّهِ ﴾ يعني : أنسى الشيطان يوسف أن يستغيث بالله ، فاستغاث بالملك ، وقال الفراء : أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فَأَنسَاهُ الشيطان ﴾ قال : هو يوسف . أنساه الشيطان ذكر ربه ، وأمره بذكر الملك ، وابتغى الفرج من عنده ﴿ فَلَبِثَ فِى السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ بقوله : ﴿ اذكرنى عِندَ رَبّكَ ﴾ .

وروى معمر عن قتادة أنه قال : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لَوْلَمْ يَسْتَعِنْ يُوسُفُ عَلَى رَبِّهِ ، لَمَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ " .

وروي عن أبي عبيدة أنه قال : البضع ما دون نصف العقد .

يعني : من واحد إلى أربعة .

وقال الأصمعي : ما بين الثلاث إلى التسع .

هكذا قال قطرب ، والسدي .

وروى منصور عن مجاهد قال : البضع ما بين الثلاث إلى التسع .

وذكر عبد العزيز بن عمير الكندي ، أن يوسف رأى جبريل في السجن .

فقال له : يا أبا المنذرين ، ما لي أراك بين الخاطئين ؟ فقال له جبريل : يا طاهر الطاهرين ، رب العزة يُقْرِئُكَ السلام ، ويقول : أما استحيت مني إذ استغثت بالآدميين ، فبعزتي لألبثنك في السجن بضع سنين .

قال بعضهم : يعني سبع سنين ، سوى الخمس الذي مكث فيه .

وذلك اثنتا عشرة سنة .

وقال بعضهم : جميع ما أقام فيه سبع سنين .

وقال بعضهم : ثماني عشرة سنة .

وقال بعضهم : إن الملك رأى في المنام ، واسم الملك ريان بن الوليد فذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الملك إِنّى أرى ﴾ يعني : رأيت في المنام ﴿ سَبْعَ بقرات سِمَانٍ ﴾ خرجن من نهر مصر ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ ﴾ بقرات ﴿ عِجَافٌ ﴾ هزلى ، فابتلع العجاف السمان ، فدخلن في بطونهن ، فلم يرَ منهنّ شيء ، ورأيت ﴿ وَسَبْعَ سنبلات خُضْرٍ وَأُخَرَ يابسات يا أَيُّهَا أَيُّها الملأ ﴾ يعني : العرافين ، والسحرة ، والكهنة ، ﴿ أَفْتُونِى فِى رؤياى ﴾ يعني : عبروا رؤياي ، وبيّنوا تفسيرها ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أي : تفسرون ﴿ قَالُواْ أَضْغَاث أَحْلاَمٍ ﴾ يعني : أباطيل الأحلام مختلطة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الاحلام بعالمين ﴾ يعني : ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل .

وقال أهل اللغة كل رؤيا لا تأويل لها ، فهي ﴿ أضغاث أَحْلاَمٍ ﴾ أي : أباطيل الأحلام واحدها ضغث .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذى نَجَا مِنْهُمَا ﴾ وهو الساقي ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ يعني : تذكر بعد حين .

يعني : بعد سبع سنين .

وقال الزجاج : أصل ادكر اذكر .

ولكن التاء أبدلت بالدال وأدغم الذال في الدال .

وقال القتبي : الأمة الصنف من الناس ، والجماعة كقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأرض وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أمثالكم مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : 38] ثم تستعمل الأمة في الأشياء المختلفة .

يقال للإمام : أمة كقوله : ﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ﴾ [النحل : 120] لأنه سبب للاجتماع .

ويسمى الدين أمة كقوله : ﴿ بَلْ قالوا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على ءاثارهم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 22] أي : على دين ، لأن القوم يجتمعون على دين واحد ، فيقام ذلك اللفظ مقامه .

(131/398)

ويسمى الحين أمة كقوله : ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وكقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود : 8] وإنما سمي الحين أمة أيضاً ، لأن الأمة من الناس ينقرضون في حين ، فيقام الأمة مقام الحين وقرأ بعضهم ﴿ وادكر بَعْدَ أَمَّةٍ ﴾ يعني : بَعْدَ بَعْدَ نسيانٍ يقال : أمهْتُ أي : نسيت .

وقال الفراء : يقال رجل مأموه ، كأنه ليس معه عقل فلما تذكر الساقي حال يوسف ، جاء وجثا بين يدي الملك ، وقال : ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ ﴾ يعني : بتأويل ما رأيت من الرؤيا .

وروي عن الحسن : أنه كان يقرأ : ﴿ أَنَا۠ ءاتِيكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ ، وقراءة العامة ﴿ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ فقال : وما يدريك يا غلام ، ولست بمعبّر ، ولا كاهن ؟ فقصّ عليه أمره الذي كان وقت كونه في السجن برؤيته ، وتعبير يوسف لها ، وصدق تعبيره على نحو ما وصفه له .

وأخبره بحال يوسف وحكمته ، وعلمه ، وفهمه ، ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ يعني : أرسلوني أيها الملك إلى يوسف .

خاطبه بلفظ الجماعة ، كما يخاطب الملوك .

فأرسله الملك .

فلما جاء إلى يوسف في السجن ، ودخل عليه ، واعتذر إليه بما أنساه الشيطان ذكر ربه ، وقال : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق ﴾ والصديق كثير الصدق : يعني : أيها الصادق فيما عبرت لنا ﴿ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بقرات سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ هزلى ﴿ وَسَبْعِ سنبلات خُضْرٍ وَأُخَرَ يابسات لَّعَلّى أَرْجِعُ إِلَى الناس ﴾ يعني : إلى أهل مصر ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قَدْرك ، ومنزلتك .

ويقال : إلى الناس ، يعني إلى الملك ، لكي يعلم مكانك ، فيكون ذلك سبباً لخلاصك إذا

علم تعبير رؤياه .

فعبر يوسف ورؤياه وهو في السجن ، فقال : أما السبع البقرات السمان ، فهي سبع سنين خصب .

(132/398)

أما السبع العجاف ، فهي سبع سنين شدة وقحط ، ولا يكون في أرض مصر البر .

وأما السبع السنبلات الخضر ، فهي الخصب ، واليابسات هي القحط .

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعُ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ يعني : ازرعوا لسبع سنين ﴿ دَأَبًا ﴾ يعني : دائماً ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ ﴾ من الزرع ﴿ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ ﴾ يعني : في كعبره .

فهو أبقى لكم ، لكي لا يأكله السوس إذا كانت في الكعبرة ، ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ يعني : تدرسون بقدر ما تحتاجون إليه ، فتأكلون .

﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذلك ﴾ الخصب ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ يعني : مجدبات ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ يعني : للسنين .

ويقال : ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ ﴾ يعني : ما جمعتم ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ يعني : تدّخرون ، وتحرزون .

﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذلك ﴾ القحط ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ الناس ﴾ يعني : يمطر الناس .

والغيث : المطر .

ويقال : هو من الإغاثة يعني : يغاثون بسعة الرزق ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يعني : ينجون من الشدة ويقال يعصرون العنب ، والزيتون .

قرأ حمزة والكسائي : ﴿ تَعْصِرُونَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة .

وقرأ الباقون بالياء على معنى المغايبة .

يعني : الناس وقرأ بعضهم ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ بضم الياء ، ونصب الصاد ، يعني : يمطرون من قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ المعصرات مَآءً ثَجَّاجاً ﴾ [النبأ : 14] فرجع الساقي إلى الملك ، وأخبره بذلك ، ﴿ وَقَالَ الملك ائتونى بِهِ ﴾ قال بعضهم : كان الملك رأى الرؤيا ، ونسيها ، فأتاه يوسف ، فأخبره بما رأى ، وأخبره بتفسيره .

ولكن في ظاهر الآية ، أن الملك كان ذاكراً لرؤياه ، وأن يوسف عبّر رؤياه وهو في السجن .

قبل أن ينتهي إلى الملك ﴿ وَقَالَ الملك ائتونى بِهِ ﴾ يعني : بيوسف ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرسول ﴾ برسالة الملك ، أنَّ الملك يدعوك ﴿ قَالَ ﴾ يوسف للرسول ﴿ ارجع إلى رَبِّكَ ﴾

يعني : إلى سيدك وهو الملك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة التى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ يعني : سله حتى يتبيّن أني مظلوم في حبسي أو ظالم ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ يعني : إن سيدي وخالقي ، عالم بما كان منهن .

قال : حدّثنا الخليل بن أحمد .

قال : حدّثنا إبراهيم الدبيلي .

قال : حدّثنا أبو عبيد الله ، عن سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَوْلا الكَلِمَةُ الَّتِي قَالَ يُوسُفُ ﴿ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذكرنى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ما لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَكَرَمِهِ ، وصَبْرِهِ ، وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ أَنَا الَّذِي دُعِيتُ إلى الخُرُوجِ لَبَادَرْتُهُمْ إلى البَابِ ، ولَكِنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ العُذْرُ بِقَوْلِهِ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرسول قَالَ ارجع إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة التى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ " قال ابن عباس لو خرج يوسف حين دعي ، لم يزل في قلب الملك منه شيء .

فلذلك ﴿ قَالَ ارجع إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ وذلك أن الملك أرسل إلى النسوة ، وجمعهن ، ثم سألهنّ فقال : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ يعني : ما حالكن ، وشأنكن ، وأمركن ، ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ يعني : طلبت امرأة العزيز إلى يوسف المراودة عن نفسه ، هل ليوسف

في ذلك ذنب ؟ فأخبرن الملك ببراءة يوسف ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ يعني : معاذ الله ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ يعني : ما رأينا منه شيئاً من الفاحشة ، ولم يكن له ذنب .

(134/398)

فلما رأت امرأة العزيز ، أن النسوة شهدن عليها ، اعترفت على نفسها ، وأقرت بذلك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ امرأت العزيز الئن حَصْحَصَ الحق ﴾ يعني : ظهر الحق ، ووضح .

ويقال : استبان .

قال زجاج : هو في اللغة من الحصة أي : بانت حصة الحق ، وجهته من حصة الباطل ، ومن جهته ﴿ أَنَاْ راودته عَن نَّفْسِهِ ﴾ يعني : طلبت إليه أن يمكنني من نفسه ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين ﴾ أي : إنه لم يراودني وهو صادق فيما قال ذلك اليوم .

قال يوسف عند ذلك إنما فَعَلَت ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ ﴾ العزيز ﴿ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ لم أخن في امرأته ، إذا غاب عني ، فذلك قوله : ﴿ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِى كَيْدَ الخائنين ﴾ يعني : لا يرضى عمل الزانين .

وروى إسماعيل بن سالم ، عن أبي صالح قال : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ قال :

هو يوسف لم يخن العزيز في امرأته .

وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما قال يوسف ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ قال له جبريل عند ذلك : ولا يوم هممت بما هممت به .

قال يوسف عليه السلام : ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى ﴾ يعني : من الهم الذي هممت به ﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ يعني : بالمعصية .

ويقال : القلب آمر للجسد بالسوء ، والإثم .

يقال في اللغة : إذا أمرت النفس بشيء ، هي آمرة .

وإذا أكثرت الأمر ، يقال : هي أمارة .

فقال : ﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ يعني : مائلة إلى الشهوات ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ إلا من عصم الله تعالى من المعصية ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ ﴾ للهم الذي هممت به ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ حين تاب عليّ وعصمني وغفر لي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 190 .

198 ﴾

وقال الثعلبي

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المدينة ﴾

يقول : شاع أمر يوسف والمرأة في مدينة مصر وتحدّثت النساء بذلك ، وقلن يعني امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب ، قاله مقاتل ﴿ امرأة العزيز ﴾ وهو في كلام العرب الملك ، قال أبو داود :

درّةٌ غاصَ عليها تاجرٌ . . . جُليت عند عزيز يومَ طلّ

أيّ ملك .

﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا ﴾ عدّها الكنعاني عن نفسه .

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ﴾ أي أحبّها حتى دخل حبّه شغاف قلبها ، وهو حجابه وغلافه .

قال السدّي : الشغاف جلدة رقيقة على القلب يُقال لها : لسان القلب ، تقول : دخل الحُبّ الجلد حتى أصاب القلب ، قال النابغة الذبياني :

وقَدْ حال هَمّ دون ذلك داخلٌ . . . دخولَ الشّغافِ تبتغيه الأصابعُ

وقال ابن عباس : علقها حُبّاً ، الحسن : بطنها حُباً ، قتادة : استبطنها حبّها إيّاه ، أبو رجاء : صدقها حُبّاً ، الكلبي : حجب حبّه قلبها حتى لا يعقل سواه .

وقرأ أبو رجاء العطاردي والشعبي والأعرج ، شعفها بالعين غير معجمة واختلفوا في معناها فقال الفرّاء : ذهب بها كلّ مذهب ، وأصله من شعف الجبال وهي رؤوسها ،

والنخعي والضحّاك : فتنها ، وذهب بها ، وأصله من شعف الدابة حين تمرّغ بذُعر ، قال امرؤ القيس :

أتقتلني وقد شعفتُ فؤادها . . . كما شعف المهنوءة الرجل الطالي

ومراده : ذهب قلب امرأته كما ذهب الطالي بالإبل بالقطران يتلوبها ، والإبل تخاف من ذلك ثمّ تستروح إليه ، وقال الأخفش : من حبُّها ، وقال محمد بن جرير : عمّها الحُب .

﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ : خطأً بيّن ، ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ ﴾ راحيل ، ﴿ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ بقولهنّ وحديثهنّ ، قال قتادة والسدّي وقال ابن إسحاق : وإنّما قلنّ ذلك مكراً بها ليَرين يهمّن يوسف وكان قد وصِف لهنّ حُسنه وجماله ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ قال وهب : اتخذّت مأدبة ودعت أربعين امرأة فيهنّ هؤلاء اللائي عيّرنها ، ﴿ وَأَعْتَدَتْ ﴾ وأعدّت وهو أفعلت العَتاد وهو العِدّة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً ﴾ [الكهف : 29] .

﴿ لَهُنَّ مُتَّكَئاً ﴾ مجلساً للطعام وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد ، يُقال : ألقى له مُتّكأً أيّ ما يُتكأ عليه ، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة . وقال

سعيد بن جُبير والحسن وقتادة وأبي إسحاق وابن زيد : طعاماً ، قال القتبيّ : والأصل فيه أنّ من دعوته إلى مطعم عندك أعددت له وسادة أو متّكأ ، فسُمّي الطعام مُتّكأ على الاستعارة ، يُقال : اتّكأنا عند فلان أي أكلنا ، قال عدي بن زيد :

فظللنا بنعمة واتّكأنا . . . وشَربنا الحلال من قُلَلِه

وروي عن الحسن أنّه قال : متّكاء بالتشديد والمدّ وهي غير فصيحة ، وعن الحسن : فما أظنّ بصحيحة ، وقرأ مجاهد مُتّكاً خفيفة غير مهموزة ، وروي ذلك عن ابن عباس .

واختلفوا في معناه ، فقال ابن عباس : هو الأترج ، عكرمة : هو الطعام ، وأبو روق عن الضحّاك : الزماوَرد ، علي بن الحكم وعبيد بن حكيم ، عنه : كلّ شيء يُحزّ بالسكّين فهو عند العرب المتّكأ ، والمتك والبتك : القطع والعرب تُعاقب بين الباء والميم تقول سمد رأسه وسبده ، وأغبطت عليه وأغمطته [لازب] ولازم قال الله تعالى :

﴿ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنعام ﴾ [النساء : 119] .

(137/398)

﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَت ﴾ ليوسف ﴿ اخرج عَلَيْهِنَّ ﴾ وذلك أنّها قد كانت أجلسته في مجلس غير المجلس الذي هُنّ فيه جلوس ، فخرج عليهنّ يوسف (عليه

السلام) ، قال عِكْرمة : وكان فضل يوسف على الناس في الحسن والجمال كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " مررتُ ليلة أُسري بي إلى السماء فرأيتُ يوسف ، فقلت : يا جبرئيل من هذا ؟ قال : هذا يوسف " قالوا : وكيف رأيته يا رسول الله ، قال : "كالقمر ليلة البدر " .

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " هبط جبرئيل فقال : يا محمد إنّ الله تعالى يقول : كسوتُ حُسنَ يوسف من نور الكُرسي ، وكسوتُ نورُ حُسن وجهك من نور عرشي " .

وروى الوليد بن مسلم عن إسحاق عن عبد الله بن أبي فروة قال : كان يوسف إذا سارَ في أزقّة مصر يُرى تلألؤ وجهه على الجُدران كما يُرى نور الشمس والماء على الجدران .

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي أعظمنه وأجللنه ، قال أبو العالية : هالَهنّ أمره وبُهتن ، وروى عبد الصمد بن علي عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ قال حضن من الفرح ، ثم قال :

نأتي النساء على أطهارهنّ ولا . . . نأتي النساء إذا أكبرنَ إكباراً

وعلى هذا التأويل يكون أكبرنه بمعنى أكبرن له أي حِضن لأجله من جماله ، ووجدن ما تجد النساء في مثل تلك الحال وهذا كقول عنترة :

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلّه . . . حتى أنال به كريم المطعم

أي وأظلّ عليه .

قال الأصمعي : أُنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا البيت ، فقال :

ما من شاعر جاهلي أحببت أن أراه . . . دون (. . . . .) البيت

﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ، يعني وحَزَزْنَ أيديهنّ بالسكاكين التي معهنّ وكُنّ يحسبن أنّهنّ يقطّعن الأترج ، عن قتادة : قطّعن أيديهنّ حتى ألقينها ، وقال مجاهد : فما أَحسسنَ إلاّ بالدم ومنهنّ لم يجدن من ألم إلاّ يُرى الدم لشغل قلوبهنّ بيوسف ، قال وهب : وبلغني أنّ تسعاً من الأربعين مِتنَ في ذلك المجلس وُجْداً بيوسف .

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أي معاذ الله ، قال أبو عبيدة : لهذه الكلمة معنيان : التنزيه الاستثناء ، واختلف القُرّاء فيها فقرأت العامّة : حاشَ لله ، [. . .] حذفوا الألف لكثرة دورها على الألسن كما حذفت العرب الألف من قولهم : لأب لغيرك ولأب لشانِئكَ ، وهم يعنون لا أبَ ، واختار أبو عُبيدة هذه القراءة وقال : اتّباعاً للكتاب وهو الذي عليه الجمهور الأعظم ، مع إنّي قرأتها في الإمام مصحف عثمان (عليه السلام) : حاشَ لله

والأخرى مثلها . وقرأ أبو عمرو : حاشي لله بإثبات الياء على الأصل ، وقرأ ابن مسعود

حاشى الله ، كقول الشاعر :

حاشا أبي ثوبان إن به . . . ضنَّا عن الملحاة والشتم

﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ نصب بنزع حرف الصفة وعلى خبر ما الجحد كما تقول : ما زيدٌ

قائماً ، وقرأ الأعمش : ما هذا بشرٌ بالرفع وهي لغة أهل نجد ، وأنشد الفرّاء :

ويزعم حسل أنه فرعُ قومه . . . وما أنتَ فرعٌ يا حُسيل ولا أصلُ

وأنشد آخر :

لشتّان ما أنوي وينوي بنو أبي . . . جميعاً فما هذان مستويان

تمنّوا ليَّ الموت الذي يشعب الفتى . . . وكلُّ فتىً والموت يلتقيانِ

وروى الفرّاء عن دعامة بن رجاء التيمي عن أبي الحويرث الحنفي أنّه قرأ : ما هذا بِشَرِيّ ،

قال الفرّاء : يعني بمُشتري ، ﴿ إِنْ هذآ ﴾ ما هذا ﴿ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ من الملائكة .

قال الثعلبي : سمعت ابن فورك يقول : إنّما قلن له مَلَكٌ كريم لأنّه خالف ميوله وأعرض عن

الدنيا وزينتها وشهوتها حين عُرِضْنَ عليه ، وذلك خلاف طبائع البشر .

قالت: راحيل للنسوة: ﴿ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ أي في حُبّه وشغفي فيه، ثمّ أقرّت لهنّ فقالت: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم ﴾ أي امتنع واستعصى، فقلن له أطع مولاتك، فقالت رحيل: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ ﴾ ولئن لم يُطاوعني فيما دعوته إليه، ﴿ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ أحبسنّه، ﴿ وَلَيَكُوناً مِّن الصاغرين ﴾ أي الأذلاّء ونون التوكيد تثّقل وتخفّف والوقف على قوله: ﴿ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ بالنون لكنّها مُشدّدة. وعلى قوله: وليكوناً بالألف لأنّها مخفّفة وهي تشبه نون الإعراب في الأسماء كقولك: رأيتُ رجلا، فإذا وقفت قلت: رجلا ومثله قوله تعالى: ﴿ لَنَسْفَعاً بالناصية ﴾ [العلق: 15]، ونحوه الوقف عليها بالألف كقول الأعشى:

وصلّ على حين العشيّات والضُحى ... ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

أي أراد فاعبدنْ، فلمّا وقف عليه كان الوقف بالألف.

واختار يوسف حين عاودته المرأة في المراودة وتوعّدته، السجن على المعصية، ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾: يا ربّ، منادى مضاف، ﴿ السجن ﴾ المحبس، قراءة العامّة بكسر السين على الاسم وقرأ يعقوب برفع السين على المصدرية يعني الحبس، ﴿ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدعونني إِلَيْهِ ﴾، ثمّ علم أنّه لا يستعصم إلاّ بعصمة الله فقال: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ ﴾ أمِلْ ﴿ إِلَيْهِنَّ ﴾ وأُبايعهن، فقال صبا فلان إلى كذا، وصبا يصبو، صبواً وصبوة، إذا مال واشتاق إليه، قال يزيد بن ضُبّة:

إلى هند صبا قلبي . . . وهندٌ مثلها يُصبي

﴿ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين * فاستجاب لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لدعائه وشكايته، ﴿ العليم ﴾ بمكرهنّ.

(140/398)

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ أي العزيز وأصحابه، في الرأي ﴿ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات ﴾ الدّالة على براءة يوسف، وهي قدّ القميص من دُبر وخمش في الوجه وتقطيع النسوة أيديهنّ ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ قال الفرّاء: هذه اللام في اليمين وفي كلّ مضارع القول كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشتراه ﴾ [البقرة: 102] ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ [فصلت: 48] دخلتهما (اللام وما) لأنّهما في معنى القول واليمين.

﴿ حتى حِينٍ ﴾ يعني إلى الوقت الذي يرون فيه رأيهم.

قال عِكْرِمة: تسع سنين، الكلبي: خمس سنين، و(حتى) بمعنى (إلى) كقوله تعالى: ﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ [القدر: 5]، وقال السدّي: وذلك أنّ المرأة قالت لزوجها: إنّ هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس، يعتذر إليهم ويخبرهم أنّي راودته عن نفسه، ولستُ أُطيق أن أعتذر بعُذري، فإمّا أن تأذن لي فأخرج فأعتذر، وأمّا أن تحبسوه كما

حبستني ، فحبسه بعد علمه ببراءته ، وذكر أنّ الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيراً ليوسف من همّته بالمرأة وتكفيراً لزلّته .

قال ابن عباس : عثر يوسف ثلاث عثرات : حين همّ بها فسجن ، وحين قال : ﴿ اذكرني عِندَ رَبِّكَ فَأَنساهُ الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ ، وحين قال لهم : ﴿ إنّكُمْ لسارِقُونَ ﴾ فَقَالوا ﴿ إنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ ﴾ .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانِ ﴾ وهما غلامان كانا للملك الأكبر الوليد بن الريان ، أحدهما خبّازه صاحب طعامه واسمه مجلث ، والآخر ساقيه صاحب شرابه واسمه بنو غضب عليهما الملك فحبسهما ، وذلك أنّه بلغه أنّ خبازه يريد أن يسمّه وأنّ ساقيه مالا على ذلك ، وكان السبب أن جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله فدسّوا إلى هذين ، وضمنوا لهما مالا ليسُمّا طعام الملك وشرابه فأجاباهم إلى ذلك ، ثمّ إنّ الساقي نكل عنه وقبل الخباز الرشوة فسمّ الطعام .

فلمّا حضر وقته وأحضر الطعام ، قال الساقي : أيها الملك لا تأكل فإنّ الطعام مسموم ، فقال الخباز : لا تشرب أيها الملك فإنّ الشراب مسموم ، فقال الملك للساقي : اشرب فشربه فلم

يضرّه ، وقال للخباز : كل من طعامك ، فأبى ، فجرّب ذلك الطعام على دابّة من الدواب فأكلته فهلكت ، فأمر الملك بحبسهما .

وكان يوسف لمّا دخل السجن قال لأهله : إنّي أعبر الأحلام ، فقال أحد الفتيان لصاحبه : هلمّ فلنجرّب هذا العبد العبراني ، فتقرّبا له وسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً ، قال عبدالله بن مسعود : ما رأى صاحبا يوسف شيئاً ، إنّما كانا تحالفا أن يُجرّبا علمه .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أرى عينيه في المنام ما لم تَريا كُلِّف أن يعقد بين شعرتين يوم القيامة ، ومن استمع لحديث قوم وهم له كارهون صُبَّ في أُذنه الانك " .

وقال قومٌ : كانا رأيا على صحّة وحقيقة ، قال مجاهد : لمّا رأى الفتيان يوسف قالا له : والله لقد أحببناك حين رأيناك فقال لهما يوسف : أنشدكما الله أن لا تحباني ؛ فإنّه ما أحبّني أحد قط إلاّ دخل عليَّ من حبّه بلاء .

لقد أحبتني عمّتي فدخل عليّ في حبّها بلاء ، ثمّ أحبّني أبي فدخل عليَّ بحبه بلاء ثمّ أحبتني زوجة الملك هذا ، فدخل عليّ بحبّها إيّاي بلاء ، فلا تحبّاني بارك الله فيكما ، قال : فأبيا إلاّ حبّه وأُلفته حيث كان ، وجعلا يُعجبهما ما يريان من فهمه وعقله ، وقد كانا رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف فقال له الساقي : أيّها العالم إنّي رأيتُ كأنّي غرستُ

حبّة من عنب عليها ثلاث عناقيد من عنب فحبستها ، وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه .

(142/398)

وقال الخبّاز : إنّي رأيتُ كأنّ فوق رأسي ثلاث سِلال فيها الخبز وألوان الأطعمة فإذا سباع الطير تنهش منه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ ﴾ يعني بنو ﴿ إني أراني ﴾ أي رأيتني ، ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ يعني عنباً بلغة عمان ، ويدلّ عليه قراءة ابن مسعود أعصرُ عنباً .

قال الأصمعي : أخبرني المعتمر أنّه لقي أعرابياً معه عنب ، فقال : ما معك ؟ قال : خمر ، ومنه يُقال للخلّ العنبي خلّ خمرة ، وهذا على قرب الجوار ، قال القتيبي : وقد تكون هي الخمر بعينها كما يُقال : عصرتُ زيتاً وإنّما عصر زيتوناً .

وقال الآخر : وهو مجلث : ﴿ إِنِّي أراني أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطير مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أخبرنا تفسيره وتعبيره وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا .

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ أي العالِمين الذين أحسنوا ، قال الفرّاء وقال ابن اسحاق : إنّا نراك من المُحسنين إلينا إن فعلت ذلك وفسّرت رؤيانا ، كما يُقال : افعل كذا وأنت مُحسن .

وروى سلمة بن نبط عن الضحّاك بن مزاحم في قوله : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ ما كان إحسانه ؟ قال كان إذا مرض رجل في السجن قام إليه ، وإذا ضاق وسع له ، وإن احتاج جمع له ، وسأل له .

قتادة : بلغنا أنّ إحسانه كان يُداوي مريضهم ، ويُعزّي حزينهم ، ويجتهد لربّه .

قيل : لمّا انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوماً قد انقطع رجاؤهم واشتدّ بلاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول : أبشروا واصبروا تؤجروا ، وإنّ لهذا لأجراً وثواباً ، فقالوا له : يا فتى بارك الله فيك ، ما أحسن وجهك وأحسن خلقك وأحسن حديثك لقد بورك لنا في جوارك بالحبس ، إنّا كُنا في غير هذا منذ حبسنا لما تخبرنا به من الأجر والكفارة والطهارة ، فمن أنت يا فتى ؟

قال : أنا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق بن إبراهيم خليل الله ، فقال له عامل السجن : يا فتى والله لو استطعت لخلّيت سبيلك ، ولكن ما أحسن جوارك وأحسن أخبارك فكنْ في أي بيوت السجن شئت .

فكره يوسف (عليه السلام) أن يعبر لهما ما سألاه لما عَلِمَ في ذلك من المكروه على

أحدهما ، فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره ، قال لهما : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ في نومكما ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ في اليقظة .

هذا قول أكثر المفسّرين ، وقال بعضهم : أراد به في اليقظة فقال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ تطعمانه وتأكلانه ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ بتفسيرة قال : إنه أيّ طعام أكلتم ومتى أكلتُم وكم أكلتم ، فقالا له : هذا من فعل العَرّافين والكَهنة ، فقال لهما (عليه السلام) : ما أنا بكاهن وإنّما ﴿ ذلكما ﴾ العلم ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ﴾ كرّرهم على التأكيد . وقيل : هم الأوّل جماد كقوله تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون : 35]

فصارت الأولى المُلغاة والثانية ابتداء ، وكافرون خبره .

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي ﴾ فتح ياءه قومٌ وسكّنها آخرون ، [فما وفي] أمثالها فالجزم على الأصل والفتح على موافقة الألف استقلّته لأنّها أُخت الفتحة وقرأها الأعمش آبَاي إبْرَاهِيْمَ دُعَاي إلاّ فِرَارا مقصوراً غير مهموز وفتحَ ياءهما مثل [. . .] .

﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ ﴾ ما ينبغي ﴿ أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ من صلة ، تقديره : أن نشرك بالله شيئاً .

﴿ ذلك ﴾ التوحيد والعلم ﴿ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ فأراهما يوسف فطنته وعلمه ثمّ دعاهما إلى الإسلام، فأقبل عليهما وعلى أهل السجن وكان بين أيديهم أصناماً يعبودنها فقال إلزاماً للحُجّة ﴿ ياصاحبي السجن ﴾ جعلهما صاحبي السجن لكونهما فيه كقوله تعالى لسكّان الجنّة ﴿ أَصْحَابُ الجنة ﴾ [الأعراف: 44] ولسكّان النار: ﴿ أَصْحَابَ النار ﴾ [الأعراف: 44].

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ ﴾ آلهة شتى لا تنفع ولا تضرّ ﴿ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الواحد ﴾ الذي لا ثاني له ﴿ القهار ﴾ قد قهر كلّ شيء، نظيرها، قوله: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: 59] ثمّ بين الحجر والأصنام وضعفها فقال: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أي ممّن دون الله، وإنّما قال ما تعبدون وقد ابتدأ الكلام بخطاب الإثنين لأنّه قصد به جميع من هو على مثل حالهما من الشرك، ﴿ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ وذلك تسميتهم أوثانهم آلهةً وأرباباً من غير أن تكون تلك التسمية حقيقة، ﴿ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ حجّة وبرهان ﴿ إِنِ الحكم ﴾ القضاء والأمر والنهي، ﴿ إِلاَّ للَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ نظيره ﴿ وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة: 5]، ﴿ ذلك ﴾ الذي دعوتكم إليه من التوحيد وترك الشرك، ﴿ الدين القيم ﴾ المُستقيم، ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾.

ثمّ فسّر رؤياهما فقال : ﴿ ياصاحبي السجن أَمَّآ أَحَدُكُمَا ﴾ وهو الساقي ، ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ ﴾ سيّده يعني الملك ﴿ خَمْراً ﴾ وأمّا العناقيد الثلاثة التي رآها فإنّها ثلاثة أيّام ، يبقى في السجن ثمّ يُخرجه الملك ويكون على ما كان عليه ، ﴿ وَأَمَّا الآخر فَيُصْلَبُ ﴾ وأمّا السلال الثلاث التي رآها فإنّها ثلاثة أيّام ، يبقى في السجن ثمّ يخرجه الملك [في] اليوم الرابع فيصلبه ، فتأكل الطير من رأسه .

قال ابن مسعود : لمّا سمعا قول يوسف قالا : ما رأينا شيئاً إنّما كنا نلعب ، فقال يوسف (عليه السلام) : ﴿ قُضِيَ الأمر الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ أي فُرغ من الأمر الذي عنه تسألان ، ووجب حكم الله عليكما بالذي أخبرتكما به .

معلّى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه " أبي رزين العقيلي قال : سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إنّ الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر فإذا عُبّرت وقعت ، وإنّ الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءً من النبوة ، فأحسبه قال : لا تقصّه إلاّ على ذي رأي " .

وأخبرنا عبدالله بن حامد عن إسماعيل بن محمد عن الحسن بن علي بن عفان عن ابن نمير

عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا لأول عابرة " .

﴿ وَقَالَ ﴾ يوسف عند ذلك ، ﴿ لِلَّذِي ظَنَّ ﴾ علم ، ﴿ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ وهو الساقي ، هذا قول أكثر المفسّرين ، وفسّره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين ، وقال : إنّما عبارة الرؤيا بالظنّ ويخلق الله ما يشاء ، والقول الأوّل أولى وأشبه بحال الأنبياء ، ﴿ اذكرني عِندَ رَبّكَ ﴾ سيّدك يعني الملك ، وقيل له : إنّ في السجن غلاماً محبوساً ظلماً ﴿ فَأَنسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ يعني أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه عزّ وجل حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بالمخلوق ، وتلك غفلة عرضت ليوسف من قبل الشيطان ، ونسي لهذا ربّه عزّ وجلّ الذي لو به استغاث لأسرع خلاصه ولكنّه [غفل] وطال من أجلها حبسه .

وقال محمد بن إسحاق : الهاء راجعة في قوله ﴿ فَأَنسَاهُ الشيطان ﴾ إلى الساقي فنقول : أنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف للملك وعلى هذا القول يكون معنى الآية : فأنساه الشيطانُ ذكره لربه كقوله : خوف ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ [آل عمران : 175] أي

يخوّفكم بأوليائه.

﴿ فَلَبِثَ ﴾ مكث، ﴿ فِي السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ اختلف العُلماء في معنى بضع فقال أبو عُبيدة: هو ما بين الثلاثة إلى الخسمة، ومجاهد: ما بين الثلاث إلى التسع، الأصمعي: ما بين الثلاث إلى التسع، وابن عباس: ما دون العشرة، وزعم الفرّاء أنّ البضع لا يذكر إلاّ مع العشرة والعشرين إلى التسعين، وهو نيف ما بين الثلاثة إلى التسعة، وقال: كذلك رأيتُ العرب تعمل ولا يقولون: بضع ومائة ولا بضع وألف، وإذا كانت للذكران قيل: بضعة، وأكثر المفسّرين على أنّ البضع في هذه الآية سبع سنين، قال وهب: أصاب أيوب (عليه السلام) البلاء سبع سنين، وتُرك يوسف في السجن سبع سنين، وعذّب بخت نصّر فحُوِّل في السباع سبع سنين.

(147/398)

روى يونس عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رحم الله يوسف، لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث"، يعني قوله: ﴿ اذكرني عِندَ رَبّكَ ﴾ قال: ثمّ بكى الحسن وقال: نحن إذا نزل بنا أمر نزعنا إلى الناس، وقال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقي: اذكرني عند ربّك، قيل له: يا يوسف اتّخذتَ من دوني وكيلا لأطيلنّ

حبسك ، فبكى يوسف (عليه السلام) قال : يا ربّ إنّني رابني كثرة الطوى فقلت كلمة ، فويلٌ لأخوتي .

وحُكي أنّ جبرئيل دخل على يوسف (عليهما السلام) ، فلمّا رآه يوسف عرفه وقال : يا أخا المنذرين ما لي أراك بين الخاطئين ؟ ، ثمّ قال له جبرئيل : يا طاهر الطاهرين ، يقرأ عليك السلام ربّ العالمين ويقول : مالَكَ ؟ أما استحييت منّي إذ استغثت بالآدميين ؟ ، فوعزّتي لألبثنّك في السجن بضع سنين ، قال يوسف : وهو في ذلك عليّ راض ؟ قال : نعم ، قال إذاً لا أُبالي .

وقال كعب : قال جبرئيل ليوسف : إنّ الله تعالى يقول : من خلقك ؟ قال : الله ، قال : فمن حبّبكَ إلى أبيك ؟ قال : الله ، قال فمن أنيسك في البئر إذ دخلته عريان ؟ قال : الله ، قال : فمن نجّاك من كُرب البئر ؟ قال : الله ، قال : فمن علّمك تأويل الرؤيا ؟ قال : الله ، قال فكيف استشفعت بآدمي مثلك ؟

فلمّا انقضت سبع سنين ، قال الكلبي وهذه السبعة سوى الخمسة التي كانت قبل ذلك ولمّا دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الأكبر رؤياً عجيبة هائلة وذلك أنّه رأى ، ﴿ إني أرى سَبْعَ

بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ خرجن من نهر يابس وَسَبْعُ بَقَرَات عِجَاف أيّ مهازيل فابتلعت العجاف السمان ، أكلنهنّ حتى أتين عليهنّ فلم يُرَ منهنّ شيئًا ، وَأَرَى سَبْعَ سُنْبُلات خُضْر قد انعقد حبّها وسبعاً أُخَرَ يَابِسَات قد استحصدت وأفركت والتّفت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ، فجمع السحرة والكهنة والحازة والقافة وقصّها عليهم وقال : ﴿ يا أيها الملأ ﴾ أي الأشراف ﴿ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ فاعبروها ، ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ تفسّرون ، والرؤيا : الحلم وجمعها رؤى .

﴿ قالوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ ﴾ أي أحلام مختلطة مُشتبهة ، أهاويل بأباطيل ، واحدها ضغث ، وأصله الحزمة من الزرع والحشيش ، قال الله تعالى ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ [ص : 44] قال ابن مقبل :

خُود كأنّ فراشها وضعت . . . أضغاث ريحان غداه شمال

وقال آخر :

بحُمى ذمار حين قلّ مانعه . . . طاو كضغث الخلا في البطن مُكتمنِ

والأحلام جمع الحُلم وهو الرؤيا والفعل منه حُلمتُ وأحلمُ ، بفتح العين في الماضي ، وحلمتها في الغابرة لها وحُلماً فعاد فحذف يا من حالم .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأحلام بِعَالِمِينَ ﴾ ، ﴿ وَقَالَ الذي نَجَا ﴾ من القتل ، منهما : من الفتيين وهو الساقي ، ﴿ وادكر ﴾ : أي وتذكر حاجة يوسف قوله : ﴿ اذكرني عِندَ

رَبِّكَ ﴾ ، ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ : بعد حين ، قراء ابن عباس وعكرمة والضحّاك [بعد أَمَة] أي بعد نسيان ويُقال أَمَة ، يأمَهُ ، أمهاً ، إذا نسي ، ورجل [ماهو] أي ذاهب العقل .

وأنشد أبو عبيدة :

أَمِهتُ وكنت لا أنسى حديثاً . . . كذاك الدّهر يودي بالعقول

(149/398)

وقرأ مجاهد : أمْه ، بسكون الميم وفتح الألف وهاء لخالصة ، وهو مثل الأمه أيضاً وهما لغتان ومعناهما النسيان ، ﴿ أَنَاْ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ : أخبركم بتفسيره وما ترون ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ : فأطلقوني ، وأذنوا لي أمضي وأتكم بتأويله وفي الآية أختصار تقديرها فأرسلون ، فأتي السجن ، قال ابن عباس لم يكن السجن في المدينة فقال ﴿ يُوسُفُ ﴾ يعني يا يوسف ، ﴿ أَيُّهَا الصديق ﴾ : فيما عبّرت لنا من الرؤيا والصدّيق الكثير الصديق ولذلك سُمّي أبو بكر صدّيقاً ، وفعيّل للمبالغة والكثرة مثل الفسيّق الضليل والشريب والخمير ونحوها .

﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ : الآية فإنّ الملك رأى هذه الرؤيا .

﴿ لعلي أَرْجِعُ إِلَى الناس ﴾ أهل مصر ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، تأويلها ، وقيل : لعلّهم

يعلمون فضلك وعلمك ، فقال لهم يوسف مُعلّماً ومعبّراً : أمّا البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبات ، والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات السنون المهولة المجدبة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ﴾ أي كعادتكم ، وقال : بعضهم أراد بجدَ واجتهاد وقرأ بعضهم دأباً بفتح الهمزة وهما لغتان ، يقال دبت في الأمر أدأب دأباً ودأَبَاً إذا اجتهد ، قال الفرّاء : وكذلك كل حرف فُتح أوّله وسكن ثانية فتثقيله جائز إذ كان ثانيه همزة أو عيناً أو حاء أو خاء أو هاء .

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ ﴾ في [بذره] ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ وإنّما أشار عليهم بذلك بذلك ليبقى ولا يفسد ، ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ يعني سبع سنين جدد بالقحط ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ يعني يُؤكل ، فيهنّ ما أعددتم لهنّ من الطعام في السنين الخصبة ، وهذا كقول القائل :

نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلة . . . وليلك نومٌ والردى لك لازمُ

والنهار لا يسهو والليل لا ينام ، وإنّما يُسهى في النهار ويُنام في الليل . ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي : تحزنون وخزنون وتدّخرون .

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك عَامٌ ﴾ وهذا خبر من يوسف (عليه السلام) عمّا لم يكن في رؤيا الملك، ولكنّه من علم الغيب الذي آتاه الله عزّ وجلّ، كما قال قتادة: زاده الله علم سنة لم يسألوه عنها، فقال: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ الناس ﴾ أي يمطرون بالغيث وهو المطر، وقيل: يُغاثون، من قول العرب استغثتُ بفلان وأغاثني، ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ قرأ أهل الكوفة إلاّ عاصماً تعصرون، بالتاء لأنّ الكلام كلّه بالخطاب، وقرأ الباقون بالياء ردّاً إلى الناس، قال أكثر المفسّرين يعصرون العنب خمراً، الزيتون زيتاً، والسمسم دُهناً، وإنّما أراد بعض الأعناب والثمار والحبوب كثرة النعم والخير، وروى الفرج بن فضالة عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: تعصرون تحلبون، وقال أبو عبيدة: ينجون من الجدب والكرب، والعصر: المنجى والملجأ، وقال أبو زبيد الطائي:

صاديا يستغيثُ غير مُغاث . . . ولقد كان عصرة المنجود

وأخبرني أبو عبد الله بن فنجويه الدينوري، أبو علي بن حبش المقرئ، أبو القاسم بن الفضل المقرئ، حدّثني أبو زرعة، حدّثني حفص بن عمر، حدّثني أبو جميلة عن عيسى بن عُبيد قال: سمعتُ عيسى بن الأعرج يقرأها فيه يُغاثُ الناسُ وفيه يُعْصِرُون، برفع الياء قال: قلت: ما يُعصرون؟ قال: المطر أي تمطرون وقرأ ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ المعصرات مَآءً ثَجَّاجاً ﴾ [النبأ: 14].

﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ ﴾ الآية ، وذلك أن بنو لمّا رجع إلى الملك وأخبره بما أفتاه به يوسف من تأويل رؤياه كالنهار ، وعرف الملك أنّ الذي قال كائن ، قال : ائتوني بالذي عبر رؤياي هذه ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ الرسول ﴾ يوسف ، وقال له : أخبر الملك أبى أن يخرج مع الرسول حتى يُظهر عذره وبراءته ويعرف صحة أمره من قبل النسوة فَـ ﴿ قَالَ ﴾ للرسول ﴿ ارجع إلى رَبِّكَ ﴾ أيّ سيّدك يعني الملك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ ﴾ والمرأة التي سجنت بسوء فعلها وروى عبد الحميد بن صباح البرجمي ومحمد بن حبيب الشموني عن أبي بكر بن عباس عن عاصم قرأ النسوة بضمّ النون .

﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ إنّ الله تعالى بصنيعهنّ عالم ، وقيل : معناه : إنّ سيدي قطفير العزيز عالم ببراءتي ممّا ترميني به المرأة .

قال ابن عباس : فأخرج يوسف يومئذ قبل أن يسلّم الملك لشأنه ، فما زالت في نفس العزيز منه شيء يقول : هذا الذي راود امرأتي ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَقَد عَجبتُ من يوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له حين سُئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط أن يخرجوني ، ولقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حتى أتاه الرسول فقال ارجع إلى ربّك ، ولو كنتُ مكانه ولبث في

السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة ولبادرتهم الباب ، وما ابتغيت الغفران كان حليماً ذا أناة " .

(152/398)

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ : الآية ، في الكلام متروك قد استُغني عنه (يدلّ) الكلام عليه ، وهو : فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالة ، فدعا الملك النسوة اللاتي قطّعنَ أيديهنّ وامرأة العزيز فقال لهنّ : ما خطبكنّ : ما شأنكنّ وأمركنّ ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ ، فأجبنه ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ معاذ الله ، ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سوء قَالَتِ امرأت العزيز الآن حَصْحَصَ الحق ﴾ أيّ ظهر وتبيّن والأصل فيه : حصّ وقيل : حصّص ، كما قيل : كبكبوا في كبوا ، وكفكف في كفّ ، وردد في ردّ ، وأصل الحَص استئصال الشيء ، يقال حصّ شعره إذا استأصله جزّاً ، وقال أبو قيس ابن الأصلت :

قد حصّت البَيضة رأسي فما . . . أطعم نوماً غير تهجاع

وتعني بالآن حصحص الحقّ : ذهب الباطل والكذب وانقطع وتين الحق فظهر وبهر ﴿ أَنَاْ رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ فتنته عن نفسه ، ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين ﴾ في قوله : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي ﴾ .

فلمّا سمع ﴿ ذلك ﴾ يوسف ، قال : ليعلم ذلك الذي [مضى] من ردّي رسول الملك في شأن النسوة ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ العزيز .

﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ في زوجته ﴿ بالغيب ﴾ في حال غيبتي عنه ﴿ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائنين ﴾ واتّصل قول يوسف : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ بقول المرأة : ﴿ أَنَاْ رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ من غير تبيين ، وفرّق بينهما لمعرفة السامعين معناه ، كاتّصال قول الله تعالى :

﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : 34] بقول بلقيس : ﴿ وجعلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ [النمل : 34] وكذلك قول فرعون لأصحابه : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء : 35] وهو متّصل بقول الملأ : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ [الشعراء : 35] .

(153/398)

روى أبو عُبيدة عن الفراء أنّه قال هذا من أغمض ما يأتي في الكلام أنّه حكى عن رجل شيئاً ثمّ يقول في شيء آخر من قول رجل آخر لم يجر له ذكر .

وحدّثنا الحسين بن محمد بن الجهمين ، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن علي قال : حدّثنا علي بن الحسين بن مجلز ، قال الحسن بن علي البغدادي ، خلف بن تيم عن عطاء بن مسلم

عن الخفاف عن جعفر بن نوفان عن ميمون بن مهران عن عبد الله بن عمر أنّ علي بن أبي طالب أتى عثمان وهو محصور فأرسل إليه السلام وقال إنّي قد جئتُ لأنصرك فأرسل إليه بالسلام وقال : جزاك الله خيراً ، لا حاجة في قتال القوم ، فأخذ عليّ عمامته عن رأسه ، فنزعها فألقاها في الدار ثمّ ولّى وهو يقول ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخائنين ﴾ .

قال أهل التفسير : لما قال يوسف هذه المقالة قال له جبرئيل : ولا حين هممت بها ؟ فقال عند ذلك يوسف ﴿ وَمَآ أُبَرِّىءُ نفسي ﴾ من الخطأ والزلل فاركبها ، ﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ بالمعصية ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ ربي ﴾ يعني إلاّ من رحمه ربي فعصم ، و ﴿ مَآ ﴾ بمعنى مَن كقوله تعالى ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ﴾ [النساء : 3] أي مَن طاب ، وقوله إلاّ استثناء منقطع عمّا قبله كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ * إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [يس : 43-44] يعني إلاّ أن يُرحموا ، فإنّ إذا كانت في معنى المصدر تضارع ما .

﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 216. 230 ﴾

وقال الزمخشري :

﴿ وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا ﴾

وَقالَ نِسْوَةٌ وقال جماعة من النساء وكنّ خمسا : امرأة الساقي ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب . والنسوة : اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى كتأنيث اللمة ، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث . وفيه لغتان : كسر النون وضمها فِي الْمَدِينَةِ في مصر امْرَأَتُ الْعَزِيزِ يردن قطفير ، والعزيز : الملك بلسان العرب فَتاها غلامها . يقال : فتاي وفتاتي ، أى غلامى وجاريتي شَغَفَها خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد ، والشغاف حجاب القلب ، وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب .

قال النابغة :

وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ وَالِجٌ مَكَانَ الشّغَافِ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ «1»

---

(1) وقد حال هم دون ذلك والج مكان الشغاف تبتغيه الأصابع

وعيد أبى قابوس في غير كنهه أتانى ودوني راكش فالضواجع

النابغة ، يعتذر إلى النعمان ملك العرب عما قذفه به الواشون ، أى وقد حال هم دون

التغزل في المحبوبة وغيره من اللذات «والج» داخل مكان الشغاف. ويروى «ولوج الشغاف» أي كولوجه، والشغاف: داء في القلب جهة اليمين تخرجه الأطباء بأصابعهم، فتبتغيه الأصابع: من صفته على أنه حال منه. وقيل: حجاب القلب، أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب، فتبتغيه: صفة للهم، وشبه الأصابع بمن يصح منه الطلب على طريق المكنية والابتغاء تخييل، ثم إنه شبه الهم المعقول بمحسوس وبالغ في ذلك حتى ادعى أن الأصابع تفتش عليه فلا تجده لشدة ولوجه وكمونه في القلب، أو تلمسه وتريد إخراجه. وبين الهم بقوله: وعيد النعمان أبي قابوس وتهديده حال كونه في غير كنه وحقيقته، أي: لم يبلغني بكماله. أو لأنه بلا سبب حصل مني، بل افترى الوشاة على كذباً جاءني. ودوني:

؟؟؟

أمامي هذين الموضعين وهما مسافة بعيدة، ومع ذلك أدركني الخوف أو بعد المسافة، دلالة على غضب الملك عليه غضباً شديداً.

وقرئ: شعفها، بالعين، من شعف البعير إذا هنأه «1» فأحرقه بالقطران، قال:

كَمَا شَعَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِى «2»

وحُبًّا نصب على التمييز فِي ضَلالٍ مُبِينٍ في خطإ وبُعدٍ عن طريق الصواب بِمَكْرِهِنَّ باغتيابهنّ وسوء قالتهنّ، وقولهنّ: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى ومقتها، وسمى الاغتياب مكراً لأنه في خفية وحالى غيبة، كما يخفى الماكر مكره. وقيل: كانت استكتمتهنّ سرّها فأفشينه عليها أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ دعتهنّ. قيل: دعت أربعين امرأة منهنّ الخمس المذكورات وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ما يتكئن عليه من نمارق، قصدت بتلك الهيئة وهي فعودهنّ متكئات والسكاكين في أيديهنّ: أن يدهشن «3» ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهنّ فتقع أيديهنّ على أيديهنّ فيقطعنها، لأن المتكئ إذا بهت لشيء وقعت يده على يده، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهنّ، فتضع الخناجر في أيديهنّ ليقطعن أيديهنّ، فتبكتهنّ بالحجة، ولتهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهنّ الخناجر، وتوهمه أنهنّ يثبن عليه. وقيل: متكأ:

مجلس طعام لأنهم كانوا يتكون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين، ولذلك «نهى أن يأكل الرجل متكئا» «4» وآتتهنّ السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن. وقيل مُتَّكَأً طعاما، من قولك اتكأنا عند فلان: طعمنا «5»، على سبيل الكناية، لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له

---

(1) . قوله «إذا هنأه» في الصحاح «هنأت البعير» إذا طليته بالهناء . وهو القطران . (ع)

(2) أتقتلني وقد شعفت فؤادها كما شعف المهنوءة الرجل الطالى

لامرئ القيس ، والاستفهام للإنكار والاستبعاد ، أو للتعجب . وشعف الجمل : إذا أحرقه بالقطران المغلي على النار ، وهنأه : دهنه بذلك القطران ، فأطلق الشعف وأريد منه مطلق الإحراق ، ثم أريد منه الإحراق بالعشق مجازاً مرسلا ليصح التشبيه في قوله : كما أحرق الإبل المدهونة الداهن لها . وإن كان شغفت بالغين المعجمة فالمعنى : أصبت شغاف قلبها بالحب ، وهو حجاب القلب أو لسانه أو حبة سوداء في وسطه ، كما شغف : أى أخاف الإبل المدهونة وراع قلبها الرجل الداهن لها . لأنها تخافه في الأول . وقيل : شبه حبها باستلذاذ الإبل لذلك الطلى بعد دهنها به .

(3) . قوله «يدهشن» أى يتحيرن . أفاده الصحاح . (ع)

(4) . من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن ابن الزبير عن جابر قال «نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يأكل أحدنا بشماله وبأن يأكل متكئاً» وفي الطبري من حديث ابن مسعود «نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن صومين وصلاتين ولباسين ومطعمين وبيعتين» ومنكحين - إلى أن قال : وأما المطعمان فأن يأكل الرجل بشماله ويمينه صحيح . وأن يأكل متكئا ، إسناده جيد . وله في الأوسط وفي مسند الشاميين من حديث أبى الدرداء رضى اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «لا تأكل متكئاً . ولا

تتخط رقاب الناس يوم الجمعة» وأعله ابن حبان في الضعفاء بزريق بن عبد اللّه رواية عن عمرو بن الأسود عن أبى الدرداء . وفي الباب عن ابن أبى إهاب.

أخرجه البزار بلفظ «نهى أن نأكل متكئين» .

(5) . قوله «طعمنا» لعله «أى طعمناه» . (ع)

تكأة يتكئ عليها . قال جميل :

فَظَلَلْنَا بِنِعْمَةٍ وَاتَّكَأْنَا وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَلِهْ «1»

وعن مجاهد مُتَّكَأً طعاما يحزّ حزّا ، كأن المعنى يعتمد بالسكين ، لأنّ القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين . وقرئ متكا بغير همز . وعن الحسن : متكاء بالمدّ ، كأنه مفتعال ، وذلك لإشباع فتحة الكاف ، كقوله «بِمُنْتَزَاحِ» «2» بمعنى بمنتزح . ونحوه «يَنْبَاعُ» «3» بمعنى ينبع . وقرئ :

متكا وهو الأترج ، وأنشد :

فَأَهْدَتْ مَتْكَةً لِبَنِى أَبِيهَا تَخُبُّ بِهَا الْعَثَمْثَمَةُ الْوِقَاحُ «4»

وكانت أهدت أترجة على ناقة ، وكأنها الأترجة التي ذكرها أبو داود في سننه أنها شقت

بنصفين ، وحملا كالعدلين على جمل . وقيل : الزماورد «5» وعن وهب : أترجا وموزاً وبطيخا .

وقيل : أعتدت لهنَّ ما يقطع ، من متك الشيء بمعنى بتكه إذا قطعه . وقرأ الأعرج : مُتَّكَأً مفعلا ، من تكئ يتكأ ، إذا اتكأ أَكْبَرْنَهُ أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق .

قيل : كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء .

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «مررت بيوسف الليلة التي عرج بى إلى السماء ، فقلت لجبريل : من هذا ؟

فقال يوسف» فقيل : يا رسول اللّه ، كيف رأيته ؟ قال «كالقمر ليلة البدر «6»» وقيل كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران ، كما يرى نور الشمس من الماء عليها .

---

(1) . لحميد بن ثور . وقيل لجميل بن معمر . وظل يظل من باب علم . يقول : فظللنا في نعمة أو ملتبسين بنعمة .

واتكأنا : أصله اوتكأنا فتاؤه الأولى واو : أى اتخذنا متكأ اضطجعنا عليه ، وشربنا الشراب الحلال يمنى النبيذ ، من قلله : جمع قلة ، وهي الجرة العظيمة . ففي ذكر القلل دلالة على التوسع في الشرب وعدم التحجر فيه .

(2) . قوله «بمنتزاح» هو من قول الشاعر :

وأنت من الغوائل حين ترمى وعن ذم الرجال بمنتزاح

والبيت لابن هرمة يرثى ابنه. والغوائل: الحوادث التي تغتال النفوس وتهلكها. ونزح: إذا بعد، والمنتزح: اسم لمكان البعد، وأشبعت فتحته فتولدت منها الألف كقولهم: ينباع في ينبع، وعقراب في عقرب. [.....]

(3). قوله «ينباع» هو من قول الشاعر:

ينباع من ذفرى أسيل حرة زيافة مثل الفنيق المكدم

وقد مر شرح هذا البيت في سورة الأعراف بهذا الجزء صفحة 122 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(4). المتكة: الأترجة، وكأنه التي ذكر أبو داود في سننه أنها شقت نصفين وحملت على ناقة. والخبب: نوع من السير. والعثمثمة: الصلبة: والوقاح - بالفتح -: شديدة وقع الخف على الأرض.

(5). قوله «الزماورد» هو الرقاق المحشو باللحم. (ع)

(6). أخرجه الثعلبي من رواية أبى هارون العبدى عن أبى سعيد. وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل وابن مردويه من هذا الوجه مطولا.

وقيل : ما كان أحد يستطيع وصف يوسف . وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه . وقيل : ورث الجمال من جدّته سارة . وقيل : أكبرن بمعنى حضن ، والهاء للسكت . يقال : أكبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته : دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حدّ الصغر إلى حدّ الكبر ، وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله :

خَفِ اللَّهَ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ فَإِنْ لُحْتَ حَاضَتْ فِى الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ «1»

قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، تريد : جرحتها

حاشَ كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء . تقول : أساء القوم حاشا زيد . قال :

حَاشَا أَبِى ثَوْبَانَ إنَّ بِهِ ضَنًّا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالشَّتْمِ «2»

وهي حرف من حروف الجر ، فوضعت موضع التنزيه والبراءة ، فمعنى «حاشا اللّه» براءة اللّه وتنزيه اللّه ، وهي قراءة ابن مسعود ، على إضافة حاشا إلى اللّه إضافة البراءة . ومن قرأ :

حاشا للّه ، فنحو قولك : سقيا لك ، كأنه قال : براءة ، ثم قال : للّه ، لبيان من يبرأ وينزه .

والدليل على تنزيل «حاشا» منزلة المصدر : قراءة أبى السمال : حاشَ لِلَّهِ ، بالتنوين .

وقراءة أبي عمرو حاشَ لِلَّهِ بحذف الألف الآخرة . وقراءة الأعمش حاشَ لِلَّهِ بحذف الألف الأولى .

وقرئ حاشْ لِلَّهِ بسكون الشين ، على أن الفتحة تبعت الألف في الإسقاط ، وهي ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حدّه . وقرئ : حاشا الإله . فإن قلت : فلم جاز في حاشا للّه أن لا ينوّن بعد إجرائه مجرى : براءة للّه ؟ قلت : مراعاة لأصله الذي هو الحرفية . ألا ترى إلى

---

(1) . لأبى الطيب ، يقول : اتق اللّه واستر هذا الجمال الذي في وجهك ببرقع ، لأنك إن ظهرت حاضت العواتق ، أى خيار النساء وهن في خدورهن ، لما ينظرن من جمالك .

ولاح يلوح : ظهر يظهر .

(2) حاشا أبى ثوبان إن أبا ثوبان ليس ببكمة فدم

عمرو بن عبد اللّه إن به ضنا عن الملحاة والشتم

للمنقذ بن الطماح وهو الجميح الأسدى . وحاشا : كلمة تبرئة وتنزيه واقعة موقع المصدر مضافة لما بعدها ، كسبحان اللّه . ويجوز أنها حاشا الاستثنائية ، وهي حرف جر عند الأكثر . ورواه الضبي : حاشا أبا ثوبان بالنصب ، فهو فعل ، واحتمال لغة القصر ضعيف لشهرة لغة الإعراب بالحروف . وعلى الأول فبناؤها لمشابهتها للحرفية لفظا ومعنى . وبكم الرجل - كتعب - : إذا عجز عن الكلام . وقدم كسهل وظرف ، إذا عجز عن

الحجة كأن فمه مسدود .

والضن – بالكسر – : البخل . والملحاة : مفعلة ، من لحاه إذا لامه . واللحاء – كالرداء – مفاعلة من اللحن والعذل ، من لحوت العود إذا قشرته . وتكرير أبى ثوبان لتعظيمه والتنويه باسمه ، ليس ببكمة بالضم ، أى ذى بكمة ، أى :

ليس بأبكم ، ولا قدم : أى عاجز عن الكلام . وعمرو : قيل إنه بدل من أبى ثوبان ، فقوله :

إن أبا ثوبان الخ :

جملة اعتراضية مبينة لوجه التنزيه . وفي قوله : إن به ضنا ، بيان لوجه سكوته عن مؤاخذة اللئام . والمعنى : إن به امتناعا وتنزها عن اللؤم والشتم .

(158/398)

قولهم : جلست من عن يمينه ، كيف تركوا «عن» غير معرب على أصله ؟ وعلى «1» في قوله «غدت من عليه» منقلب الألف إلى الياء مع الضمير ؟ والمعنى : تنزيه اللّه تعالى من صفات العجز ، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله . وأما قوله حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ما هذا بَشَراً نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه «2» ، لما عليه محاسن الصور ، وأثبتن له الملكية وبتتن بها

الحكم ، وذلك لأن اللّه عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما ، وما ركز ذلك فيها إلا لأنّ الحقيقة كذلك ، كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين ، ولا أجمع للخير من الملائكة ، إلا ما عليه الفئة الخاسئة «3» المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك ، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق ، وجحودهم للعلوم الضرورية ، ومكابرتهم في كل باب ، وإعمال «ما» عمل «ليس» هي اللغة القدمى الحجازية «4» وبها ورد القرآن . ومنها قوله تعالى ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ ومن قرأ على سليقته من بنى تميم ، قرأ «بشر» بالرفع . وهي في قراءة ابن مسعود . وقرئ : ما هذا بشرى ، أى ما هو بعبد مملوك لئيم إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ تقول هذا بشرى ، أى حاصل بشرى ، بمعنى : هذا مشرى . وتقول : هذا لك بشرى أم بكرى ؟ والقراءة هي الأولى ، لموافقتها المصحف ، ومطابقة بشر لملك قالَتْ فَذلِكُنَّ ولم تقل فهذا وهو حاضر «5» ، رفعاً لمنزلته في الحسن ، واستحقاق أن يحب ويفتتن به ، وربئاً بحاله واستبعاداً

---

(1) . قوله «على أصله وعلى في قوله» عطفه يحتاج إلى تكلف ، أى : وإلى قوله غدت من عليه بعد ماتم ظمؤها كيف ترك على في قوله . ويمكن أن التقدير : ألا ترى إلى قولهم الخ وعلى في قوله أى : وألا ترى على . . . الخ . (ع)

(2) . قال محمود : «نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه . . . الخ» قال أحمد :

تقدم القول في مسألة التفضيل شافياً ، والزمخشري لا يدعه التعصب للمعتقد الفاسد أن يحمله على مثل هذه المشافهات ، يرمى بها أهل الحق فينسب إليهم الإجبار والخسار والمكابرة في الضروريات وجحد الحقائق تعكيساً ، وهذا كله هم برآء منه ، وحسبه من المقابلة بذلك خطؤه في اعتقاد أن تفضيل الملك عند قائله ليس ضروريا ولا عقلياً نظريا ، ولكن سمعياً ، وقد قنع في الاستدلال على هذه العقيدة بالضرورة التي ادعى أنها مركوزة في الطباع ، ثم حكم بأن كل مركوز في الطباع حق ، وخصوصاً والكلام في طباع النساء القائلات : ما هذا بشرا . وإذا كان كل مركوز في الطباع حقاً ، فما ركز فيها حب الشهوات وإيثار العاجلة وجميع أمهات . الذنوب مركوز في الطباع ، أفيكون ذلك حقاً إلا عند ناظر بعين الهوى ، أعشى في سبيل الهدى ، والله ولى التوفيق .

(3) . قوله «إلا ما عليه الفئة الخاسئة» يريد أهل السنة ، وقد أساء في تعصبه للمعتزلة فعفا الله عنه . (ع)

(4) . قوله «ليس هي اللغة القدمى الحجازية» بمعنى القديمة ، لكن لم يذكرها في الصحاح . (ع)

(5) . قال محمود : «لم لم تقل فهذا وهو حاضر . . . الخ» قال أحمد : وبهذا أجبت عما أورده من السؤال في قوله تعالى أول البقرة الم ذِلكَ الْكِتابُ لما جعل الاشارة إلى الحروف المذكورة فقال : إن قلت كيف أشار إليها وهي قريبة كما يشار إلى البعيد ، وأجاب هو بأن

كل متقض بعيد ، وأجبت أنا بأن الاشارة بذلك إلى بعيد منزلة هذا الكتاب بالنسبة إلى كتب اللّه تعالى .

(159/398)

لمحله . ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنىّ بقولهنّ : عشقت عبدها الكنعانى . تقول : هو ذلك العبد الكنعانى الذي صوّرتن في أنفسكنّ ، ثم لمتنني فيه . تعنى : أنكن لم تصوّرنه بحق صورته ، ولو صوّرتنه بما عاينتن لعذرتننى في الافتنان به . الاستعصام : بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها . ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأى واستفحل الخطب . وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شيء أنور منه ، على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهمّ والبرهان . فإن قلت : الضمير في آمُرُهُ راجع إلى الموصول ، أم إلى يوسف ؟ قلت : بل إلى الموصول . والمعنى : ما آمر به ، فحذف الجار كما في قولك : أمرتك الخير ، ويجوز أن تجعل «ما» مصدرية ، فيرجع إلى يوسف . ومعناه : ولئن لم يفعل أمرى إياه ، أى موجب أمرى ومقتضاه . قرئ وَلَيَكُوناً بالتشديد والتخفيف . والتخفيف أولى ، لأنّ النون كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف ، وذلك لا يكون إلا في الخفيفة .

[سورة يوسف (12) : الآيات 33 إلى 34]

قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ (33) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34)

وقرئ السِّجْنُ بالفتح، على المصدر. وقال يَدْعُونَنِي على إسناد الدعوة إليهنّ جميعاً، لأنهنّ تنصحن له وزيّن له مطاوعتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال: ربّ نزول السجن أحبّ إلى من ركوب المعصية. فإن قلت: نزول السجن مشقة على النفس شديدة، وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة؟ قلت: كانت أحبّ إليه وآثر عنده نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية، وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروهها وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإجبار على التعفف والإلجاء إليه أَصْبُ إِلَيْهِنَّ أمل إليهنّ. والصبوة: الميل إلى الهوى. ومنها: الصبا، لأنّ النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها. وقرئ: أصب إليهنّ، من الصبابة مِنَ الْجاهِلِينَ من الذين لا يعملون بما يعلمون. لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء. أو من السفهاء، لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح. وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدّم الدعاء، لأنّ قوله وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي

فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف السَّمِيعُ لدعوات الملتجئين إليه الْعَلِيمُ بأحوالهم وما يصلحهم.

[سورة يوسف (12) : آية 35]

ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35)

بَدا لَهُمْ فاعله مضمر، لدلالة ما يفسره عليه وهو: ليسجننه، والمعنى: بدا لهم بداء، أى: ظهر لهم رأى ليسجننه، والضمير في لَهُمْ للعزيز وأهله مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ وهي الشواهد على براءته، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وفتلها منه في الذروة والغارب «1» وكان مطواعة لها وجميلا ذلولا زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه وإلحاق الصغار به كما أوعدته به، وذلك لما أيست من طاعته لها، أو لطمعها في أن يذلله السجن ويسخره لها. وفي قراءة الحسن: لتسجننه، بالتاء على الخطاب: خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم حَتَّى حِينٍ إلى زمان، كأنها اقترحت أن يسجن زمانا حتى تبصر ما يكون منه. وفي قراءة ابن مسعود: عتى حين، وهي لغة هذيل. وعن عمر رضى اللّه عنه أنه سمع

رجلا يقرأ «عتى حين» فقال : من أقرأك ؟ قال :

ابن مسعود . فكتب إليه : إن اللّه أنزل هذا القرآن فجعله عربيا وأنزله بلغة قريش ، فأقرئ

الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام .

[سورة يوسف (12) : آية 36]

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36)

«مع» يدل على معنى الصحبة واستحداثها . تقول : خرجت مع الأمير ، تريد مصاحبا له ، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له فَتَيانِ عبدان للملك : خبازه وشرابيه : رقى إليه أنهما يسمانه ، «2» فأمر بهما إلى السجن ، فأدخلا ساعة أدخل يوسف عليه السلام إِنِّي أَرانِي يعنى في المنام ، وهي حكاية حال ماضية أَعْصِرُ خَمْراً يعنى عنبا ، تسمية للعنب بما يؤول إليه . وقيل : الخمر - بلغة عمان - : اسم للعنب . وفي قراءة ابن مسعود : أعصر عنبا مِنَ الْمُحْسِنِينَ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أى : يجيدونها ، رأياه يقصّ عليه بعض أهل السجن

---

(1) . قوله «وفتلها منه في الذروة» أى دورانها من وراء خديعته . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قوله «رقى إليه أنهما يسمانه» في الصحاح : رقى إليه الكلام ترقية ، أى : رفع إليه . (ع)

رؤياه فيؤوّلها له ، فقالا له ذلك . أو من العلماء ، لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم .

أو من المحسنين إلى أهل السجن . فأحسن إلينا بأن تفرّج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا . روى أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه ، وإذا أضاق وسع له ، وإذا احتاج جمع له . وعن قتادة : كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم ، فجعل يقول : أبشروا . اصبروا تؤجروا ، إنّ لهذا لأجرا ، فقالوا : بارك اللّه عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك ! لقد بورك لنا في جوارك ، فمن أنت يا فتى ؟ قال ، أنا يوسف ابن صفىّ اللّه يعقوب ابن ذبيح اللّه إسحاق ابن خليل اللّه إبراهيم ، فقال له عامل السجن : لو استطعت خليت سبيلك ، ولكنى أحسن جوارك ، فكن في أى بيوت السجن شئت . وروى أن الفتيين قالا له إنا لنحبك من حين رأيناك ، فقال : أنشد كما باللّه أن لا تحبانى ، فو اللّه ما أحبنى أحد قط إلا دخل علىّ من حبه بلاء ، لقد أحبتنى عمتي فدخل علىّ من حبها بلاء ، ثم أحبنى أبى فدخل علىّ من حبه بلاء ، ثم أحبتنى زوجة صاحبي فدخل علىّ من حبها بلاء ، فلا تحبانى - بارك اللّه فيكما - وعن الشعبي أنهما تحالما له

ليمتحناه فقال الشرابي ، إنى أرانى في بستان ، فإذا بأصل حبلة «1» عليها ثلاثة عناقيد من عنب ، فقطفتها وعصرتها في كأس الملك ، وسقيته . وقال الخباز : إنى أرانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة ، وإذا سباع الطير تنهش منها . فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ ؟ قلت : إلى ما قصا عليه . والضمير يجرى مجرى اسم الإشارة في نحوه كأنه قيل : نبئنا بتأويل ذلك .

[سورة يوسف (12) : الآيات 37 إلى 38]

قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (38)

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، افترص ذلك «2» فوصل به وصف نفسه بما هو فوق

---

(1) . قوله «فإذا بأصل حبلة» في الصحاح «الحبلة» بالضم : ثمر العضاه . وفيه «العضاه» كل شجر يعظم وله شوك والحبلة - بالتحريك - : القضيب من الكرم . وفيه أيضا : سلة الخبز معروفة . (ع) [. . . . .]

(2) . قوله «افترص ذلك» أى اتخذه فرصة ، أى نوبة وحظا ونصيبا ، أفاده الصحاح . (ع)

علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ، ويقول : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت ، فيجدانه كما أخبرهما ، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما ، ويقبح إليهما الشرك بالله ، وهذه طريقة على كل ذى علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة ، إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولا ، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه بعد ذلك ، فيه أنّ العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده - وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين - لم يكن من باب التزكية بِتَأْوِيلِهِ ببيان ماهيته وكيفيته ، لأنّ ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ذِلِكُمَا إشارة لهما إلى التأويل ، أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي وأوحى به إلىّ ولم أقله عن تكهن وتنجم إِنِّي تَرَكْتُ يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ ، وأن يكون تعليلا لما قبله . أى علمني ذلك وأوحى إلىّ ، لأنى رفضت ملة أولئك واتبعت ملة الأنبياء المذكورين وهي الملة الحنيفية ، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون : أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم ، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة

، وأنّ غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها ، وهم الذين على ملة إبراهيم ، ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهاً على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء .

ويجوز أن يكون فيه تعريض بما منى به من جهتهم حين أودعوه السجن ، بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته ، وأنّ ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوّة بعد أن عرّفهما أنه نبىّ يوحى إليه ، بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوى رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله ما كانَ لَنا ما صحّ لنا معشر الأنبياء أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ أى شيء كان من ملك أو جنىّ أو إنسىّ ، فضلا أن نشرك به صنما لا يسمع ولا يبصر ، ثم قال ذلِكَ التوحيد مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ أى على الرسل وعلى المرسل إليهم ، لأنهم نبهوهم عليه وأرشدوهم إليه وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ المبعوث إليهم لا يَشْكُرُونَ فضل اللّه فيشركون ولا يتنبهون . وقيل : إنَّ ذلك من فضل اللّه علينا لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدلّ بها . وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت ، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعا لأهوائهم ، فيبقون كافرين غير شاكرين .

[سورة يوسف (12) : الآيات 39 إلى 40]

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (39) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (40)

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ يريد يا صاحبيَّ في السجن ، فأضافهما إلى السجن كما تقول : يا سارق الليلة ، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام ، ونحوه قولك لصاحبيك : يا صاحبي الصدق فتضيفهما إلى الصدق ، ولا تريد أنهما صحبا الصدق ، ولكن كما تقول رجلا صدق ، وسميتهما صاحبين لأنهما صحباك . ويجوز أن يريد : يا ساكني السجن ، كقوله أَصْحابُ النّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ يريد التفرّق في العدد والتكاثر . يقول أأن تكون لكما أرباب شتى ، يستعبد كما هذا ويستعبد كما هذا خَيْرٌ لكما أَمِ أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية ، بل هو الْقَهّارُ الغالب ، وهذا مثل ضربه لعبادة اللّه وحده ولعبادة الأصنام ما تَعْبُدُونَ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر إِلَّا أَسْماءً يعنى أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها . ومعنى سَمَّيْتُمُوها سميتم بها . يقال : سميته بزيد ، وسميته زيدا ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها أى بتسميتها مِنْ سُلْطانٍ من حجة إِنِ الْحُكْمُ في أمر العبادة والدين إِلَّا لِلَّهِ ثم بين ما حكم به فقال أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ

الْقَيِّمُ الثابت الذي دلت عليه البراهين.

[سورة يوسف (12) : آية 41]

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (41)

أَمَّا أَحَدُكُما يريد الشرابي فَيَسْقِي رَبَّهُ سيده. وقرأ عكرمة: فيسقى ربه، أى يسقى ما يروى به على البناء للمفعول. روى أنه قال للأوّل: ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده، وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضى في السجن، ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل قُضِيَ الْأَمْرُ قطع وتم ما تَسْتَفْتِيانِ فيه من أمركما وشأنكما. فإن قلت: ما استفتيا في أمر واحد، بل في أمرين مختلفين، فما وجه التوحيد؟ قلت: المراد بالأمر ما اتهما به من سمّ الملك وما سجنا من أجله، وظنا أنّ ما رأياه في معنى ما نزل بهما، فكأنهما كانا يستفتيانه في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك، فقال لهما: قضى الأمر الذي فيه تستفتيان، أى: ما يجرّ إليه من العاقبة، وهي هلاك أحدهما ونجاة الآخر. وقيل: جحدا وقالا: ما رأينا شيئاً، على ما روى

أنهما تحالما له ، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتما أو كذبتما .

[سورة يوسف (12) : آية 42]

وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42)

ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ الظانّ هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد ، وإن كان بطريق الوحى فالظان هو الشرابي ، ويكون الظنّ بمعنى اليقين اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ صفني عند الملك بصفتي ، وقص عليه قصتي لعله يرحمني وينتاشنى من هذه الورطة فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ فأنسى الشرابي ذِكْرَ رَبِّهِ أن يذكره لربه . وقيل فأنسى يوسف ذكر اللّه حين وكل أمره إلى غيره بِضْعَ سِنِينَ البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين . فإن قلت : كيف يقدر الشيطان على الإنسان؟ قلت : يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان ، حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه ذكره . وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا اللّه عز وجل ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها . فإن قلت : ما وجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك؟ وما هي بإضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول؟ قلت : قد لابسه في قولك : فأنساه الشيطان ذكر ربه ، أو عند ربه فجازت إضافته إليه ، لأنّ الإضافة تكون بأدنى ملابسة . أو على تقدير : فأنساه الشيطان ذكر أخبار ربه ، فحذف المضاف الذي

هو الإخبار . فإن قلت : لم أنكر على يوسف الاستغاثة بغير اللّه في كشف ما كان فيه ، وقد قال اللّه تعالى وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى وقال حكاية عن عيسى عليه السلام مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ وفي الحديث «اللّه في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم» «1» «من فرّج عن مؤمن كربة فرّج اللّه عنه كربة من كربات الآخرة» وعن عائشة رضى اللّه عنها : أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يأخذه النوم ليلة من الليالي ، وكان يطلب من يحرسه حتى جاء سعد فسمعت غطيطه «2» . وهل ذلك إلا مثل التداوى بالأدوية والتقوّى بالأشربة والأطعمة . وإن كان ذلك لأنّ الملك كان كافرا ، فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم والغرق والحرق ونحو ذلك من المضارّ ؟

قلت : كما اصطفى اللّه تعالى الأنبياء على خليقته فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاها

---

(1) . متفق عليه من حديث أبى هريرة في أثناء حديث .

(2) . متفق عليه من طريق عبد اللّه بن عامر بن ربيعة عنها بلفظ «أرق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذات ليلة . فقال : ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة . قال : وسمعت صوت السلاح فقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . فقال سعد بن أبى وقاص : يا رسول اللّه جئت أحرسك . فقالت عائشة فنام حتى سمعت غطيطه» وغفل الحاكم فاستدركه .

والأحسن والأولى بالنبي أن لا يكل أمره إذا ابتلى ببلاء إلا إلى ربه، ولا يعتضد إلا به، خصوصاً إذا كان المعتضد به كافراً، لئلا يشمت به الكفار ويقولوا لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا. وعن الحسن أنه كان يبكى إذا قرأها ويقول: نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس.

[سورة يوسف (12) : آية 43]

وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ (43)

لما دنا فرج يوسف، رأى ملك مصر «الريان بن الوليد» رؤيا عجيبة هالته: رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس. وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان. ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها سِمانٍ جمع سمين وسمينة، وكذلك رجال ونسوة كرام. فإن قلت: هل من فرق بين إيقاع سِمانٍ صفة للميز وهو بَقَراتٍ دون المميز وهو سَبْعَ وأن يقال: سبع بقرات

سمانا ؟ قلت :

إذا أوقعتها صفة لبقرات . فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهنّ لا بجنسهنّ . ولو وصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها ، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن . فإن قلت : هلا قيل : سبع عجاف على الإضافة ؟

قلت ، التمييز موضوع لبيان الجنس ، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده . فإن قلت : فقد يقولون : ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب . قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها :

صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجر في غيرها . ألا تراك لا تقول :

عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ . فإن قلت : ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه .

ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف ، لوقوع العلم بأنّ المراد البقرات ؟ قلت : ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل ، وقد وقع الاستغناء بقولك سَبْعٌ عِجافٌ عما تقترحه من التمييز بالوصف . والعجف : الهزال الذي ليس بعده ، والسبب في وقوع «عجاف» جمعا «لعجفاء» وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال : حمله على سمان ، لأنه

نقيضه ، ومن دأبهم حمل النظير على النظير ، والنقيض على النقيض . فإن قلت : هل في الآية دليل على أنّ السنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر ؟ قلت : الكلام مبنى على انصبابه إلى هذا العدد

(166/398)

في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر ، فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ، ويكون قوله وَأُخَرَ يابِساتٍ بمعنى وسبعاً أخر . فإن قلت : هل يجوز أن يعطف قوله وَأُخَرَ يابِساتٍ على سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ فيكون مجرور المحل ؟ قلت : يؤدى إلى تدافع ، وهو أن عطفها على سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ يقتضى أن تدخل في حكمها فتكون معها مميزاً للسبع المذكورة ، ولفظ الأخر يقتضى أن تكون غير السبع ، بيانه : أنك تقول : عندي سبعة رجال قيام وقعود ، بالجرّ ، فيصح ، لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود ، على أنّ بعضهم قيام وبعضهم قعود ، فلو قلت : عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود ، تدافع ففسد يا أَيُّهَا الْمَلَأُ كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء . واللام في قوله لِلرُّءْيا إما أن تكون للبيان ، كقوله وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ وإما أن تدخل ، لأنّ العامل إذا تقدّم عليه معموله لم يكن في قوّته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه ، فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل ، إذا قلت :

هو عابر للرؤيا ، لانحطاطه عن الفعل في القوة. ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان ، كما تقول : كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلا به متمكنا منه. وتَعْبُرُونَ خبر آخر. أو حال ، وأن يضمن تَعْبُرُونَ معنى فعل يتعدى باللام ، كأنه قيل : إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا. وحقيقة «عبرت الرؤيا» ذكرت عاقبتها وآخر أمرها ، كما تقول : عبرت النهر ، إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره «1». ونحوه : أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها. وعبرت الرؤيا - بالتخفيف ، هو الذي اعتمده الأثبات ، ورأيتهم ينكرون «عبرت» بالتشديد والتعبير والمعبر. وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب الكامل لبعض الأعراب :

رَأَيتُ رُؤْيا ثُمَّ عَبَّرْتُهَا وكُنْتُ لِلْأَحْلَامِ عَبَّارَا «2»

[سورة يوسف (12) : آية 44]

قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (44)

أَضْغاثُ أَحْلامٍ تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان. وأصل الأضغاث : ما جمع من أخلاط النبات وحزم ، الواحد : ضغث ، فاستعيرت لذلك ،

---

(1). قوله «آخر عرضه وهو عبره» في الصحاح : «عبر النهر ، وعبر شطره وجانبه. (ع)

(2). أنشده المبرد في كتابه. والرؤيا - بالألف : مصدر رأى المنامية ، ويقل مجيئه بالتاء.

ومصدر البصرية بالعكس ، وعبرت الرؤيا - بالتخفيف وبالتضعيف كما هنا - : ذكرت عاقبتها وأدركت غايتها كأولتها ، إذا ذكرت مآلها ومرجعها . والأحلام : جمع حلم بالضم ، وهو ما يراه النائم . والعبار : مبالغة في المعبر أو في العابر ، واللام تزاد في المعمول لتقوية العامل إذا ضعف بالتأخر ، أو بكونه فرعا عن الفعل ، وقد اجتمع الأمران هاهنا فزيدت اللام .

(167/398)

والإضافة بمعنى «من» أي أضغاث من أحلام . والمعنى : هي أضغاث أحلام . فإن قلت : ما هو إلا حلم واحد ، فلم قالوا : أضغاث أحلام فجمعوا ؟ قلت : هو كما تقول : فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخز ، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامة فردة ، تزيدا في الوصف ، فهؤلاء أيضاً تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان ، فجعلوه أضغاث أحلام . ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة «1» خاصة ، فيقولوا : ليس لها عندنا تأويل ، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة ، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير «2» .

[سورة يوسف (12) : آية 45]

وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45)

قرئ وَادَّكَرَ بالدال وهو الفصيح. وعن الحسن: واذكر، بالذال المعجمة. والأصل: تذكر، أى تذكر الذي نجا من الفتيين من القتل يوسف وما شاهد منه بَعْدَ أُمَّةٍ بعد مدّة طويلة، وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملأ تأويلها، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك. وقرأ الأشهب العقيلي بَعْدَ أُمَّةٍ بكسر الهمزة، والإمّة النعمة. قال عدى:

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِمَّةِ وَارَتْهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ «3»

---

(1). قال محمود: «يحتمل أن يكون مرادهم بالأحلام المنامات... الخ» قال أحمد: وهذا هو الظاهر، وحمل الكلام على الأول يصيره من وادى:

على لاحب لا يهتدى بمناره

كأنهم قالوا: ولا تأويل للأحلام الباطلة فنكون به عالمين. وقول الملك لهم أولا إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها، لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقا لشك الملك الذي أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا أولا. وقول الفتى: أنا أنبئكم بتأويله - إلى قوله - لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون: دليل أيضاً على ذلك، والله أعلم.

(2) . قوله «بنحارير» جمع نحرير وهو العالم المتقن ، كما في الصحاح . (ع)

(3) أين كسرى كسرى الملوك أبو سا سان بل أين قبله سا بور

ثم بعد الفلاح والملك والامة وارتهم هناك القبور

ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

لعدي بن زيد . وكسرى وساسان وسابور : أسماء ملوك وساسان : هو أبو الأكاسرة . ويروى : أنو شروان ، بدل أبو ساسان ، فهو كلمة واحدة . وكسرى الثاني بدل من الأول ، مضاف لما بعده ، كما يقال : ملك الملوك ، وهو فارسي معرب ، وأصله خسرو ، فغيرته العربية . وإن كان عربيا مأخوذا من الكسر ، فالمعنى أنه كان يكسر شوكة الملوك ، وما بعد عطف بيان له وقبله متعلق بمحذوف حال من سابور وفي «بل» دلالة على أن سابور أعظم منهما . وثم - بالفتح - ظرف خبر لمحذوف أى هم ثم . وإن ضمت فهي عاطفة على محذوف ، أى أفلحوا ثم بعد الفلاح ، أى البقاء أو الفوز والملك . وروى بدله «الرشد» . والامة - بالكسر - : النعمة ، وبالضم : الجيش العظيم . وارتهم : أى سترتهم قبورهم في ذلك المكان ، كناية عن موتهم ، فيدفنون في باطن الأرض بعد عظمتهم على وجهها ، ثم شبههم بالورق الذي جف فاختلفت به الصبا والدبور ، فهذه نظيرة كذا وهذه نظيرة كذا ، فألوت بمعنى التوت ، أو بمعنى : أوقعت به إلى ، يعنى تطاول بهم الزمان حتى تفتت عظامهم وصارت كذلك .

أى بعد ما أنعم عليه بالنجاة. وقرئ بَعْدَ أُمَّةٍ بعد نسيان «1». يقال: أمه يأمه أمها ، إذا نسى. ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ «2» أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ أنا أخبركم به عمن عنده علمه.

وفي قراءة الحسن: أنا آتيكم بتأويله فَأَرْسِلُونِ فابعثونى إليه لأسأله ، ومرونى باستعباره.

وعن ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة.

[سورة يوسف (12) : آية 46]

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)

المعنى فأرسلوه إلى يوسف ، فأتاه فقال يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أيها البليغ في الصدق ، وإنما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل ، ولذلك كلمه كلام محترز فقال لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ لأنه ليس على يقين من الرجوع ، فربما اخترم دونه ولا من علمهم فربما لم يعلموا. أو معنى لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك.

قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)

تَزْرَعُونَ خبر في معنى الأمر، كقوله: تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاب المأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه.

والدليل على كونه في معنى الأمر قوله فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ. دَأَباً بسكون الهمزة وتحريكها، وهما مصدرا: دأب في العمل، وهو حال من المأمورين، أى دائبين: إمّا على تدأبون دأبا، وإمّا على إيقاع المصدر حالا، بمعنى: ذوى دأب فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ لئلا يتسوس. ويَأْكُلْنَ

---

(1) . قوله «قرئ بعد أمه بعد نسيان» لعله أى بعد. (ع)

(2) . قوله «ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ» بمعنى أثم من الخطأ بالكسر، وهو الإثم. أفاده الصحاح. (ع)

من الإسناد المجازى : جعل أكل أهلهنّ مسنداً إليهنّ تُحْصِنُونَ تحرزون وتخبؤن يُغاثُ النَّاسُ من الغوث أو من الغيث . يقال : غيثت البلاد ، إذا مطرت . ومنه قول الأعرابية : غثنا ما شئنا .

يَعْصِرُونَ بالياء والتاء : يعصرون العنب والزيتون والسمسم . وقيل : يحلبون الضروع . وقرئ : يعصرون ، على البناء للمفعول ، من عصره إذا أنجاه ، وهو مطابق للإغاثة . ويجوز أن يكون المبنى للفاعل بمعنى ينجون ، كأنه قيل : فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم ، أى يغيثهم اللّه ويغيث بعضهم بعضاً وقيل يَعْصِرُونَ يمطرون ، من أعصرت السحابة . وفيه وجهان : إمّا أن يضمن أعصرت معنى مطرت ، فيعدّى تعديته . وإمّا أن يقال : الأصل أعصرت عليهم فحذف الجار وأوصل الفعل . تأوّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأنّ العام الثامن يجيء مباركا خصيباً كثير الخير غزير النعم ، وذلك من جهة الوحى . وعن قتادة : زاده اللّه علم سنة .

فإن قلت : معلوم أنّ السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب ، وإلا لم توصف بالانتهاء ، فلم قلت إنّ علم ذلك من جهة الوحى ؟ قلت : ذلك معلوم علماً مطلقاً لا مفصلا . وقوله فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ تفصيل لحال العام ، وذلك لا يعلم إلا بالوحي .

[سورة يوسف (12) : الآيات 50 إلى 51]

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51)

إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك، وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف «1» به وسجن فيه، لئلا يتسلق به الحاسدون «2» إلى تقبيح أمره عنده، ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه، ولئلا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شرّه.

وفيه دليل على أنّ الاجتهاد في نفى التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها، قال عليه السلام:

---

(1) . قال محمود: «إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك لتظهر براءة ساحته عما قرف به ... الخ» قال أحمد: ولقد مدحه النبي صلى اللّه عليه وسلم على هذه الأناة بقوله: ولو لبثت في السجن بعض ما لبث يوسف لأجبت الداعي، وكان في طيّ هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم من أنه هم بزليخا هما يؤاخذ به، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له أن لا يصير فيه وهو الخروج من السجن، مع أن الدواعي متوفرة على

الخروج منه، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم أولى وأجدر، واللّه أعلم.

(2). قوله «عما قرف به الخ» أى اتهم به. والتسلق: التوسل. (ع)

(170/398)

«من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التهم «1»» ومنه قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - للمارّين به في معتكفه وعنده بعض نسائه - «هي فلانة» «2» اتقاء للتهمة، وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره - واللّه يغفر له - حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى. ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك. ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث، لأسرعت الإجابة «3» وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر، إن كان لحليما ذا أناة». وإنما قال: سل الملك عن حال النسوة ولم يقل سله أن يفتش عن شأنهن، لأنّ السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجدّ في التفتيش عن حقيقة القصة وفصّ الحديث «4» حتى يتبين له براءته بيانا مكشوفا يتميز فيه الحق من الباطل. وقرئ النّسْوَةِ

بضم النون ومن كرمه وحسن أدبه: أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من

السجن والعذاب ، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن إِنَّ رَبِّي إنّ الله تعالى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله ، لبعد غوره . أو استشهد بعلم الله على أنهنّ كدنه ، وأنه بريء مما قرف به . أو أراد الوعيد لهنّ ، أى : هو عليم بكيدهنّ فمجازيهنّ عليه ما خَطْبُكُنَّ ما شأنكنّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ هل وجدتنّ منه ميلا إليكنّ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ تعجبا من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أى ثبت واستقرّ وقرئ حَصْحَصَ على البناء للمفعول ، وهو من حصحص البعير إذا ألقى ثفناته «5» للإناخة . قال

---

(1) . يأتى في الأحزاب .

(2) . متفق عليه من حديث على بن الحسين عن صفية بنت حيي قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف فأتيته أزوره ليلا فحدثته ثم قمت فانقلبت فقام معى ليقلبنى . وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الأنصار . فلما رأياه أسرعا . فقال : على رسلكما ، إنما صفية - الحديث» [. . . . .]

(3) . أخرجه عبد الرزاق والطبري من طريقه عن ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة بهذا بدون قوله «إن كان لحليما ذا أناة» وصله إسحاق من رواية إبراهيم بن يزيد الجوزي عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس بمعناه وزاد : ولولا الكلمة التي قالها ما لبث في السجن حتى يبتغى الفرج من عند غير الله - يعنى قوله اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ وأخرجه

الطبراني وابن مردويه من طريق إسحاق. وأما قوله «إن كان لحليما ذا أناة» فأخرج الطبري من رواية أبى إسحاق عن رجل لم يسم عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «يرحم اللّه يوسف، لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلى لخرجت سريعا، إن كان لحليما ذا أناة» ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق عن عبد اللّه ابن أبى بكر عن الزهري وعن الأعرج عن أبى هريرة.

(4). قوله «وفص الحديث» في الصحاح «فص الأمر» مفصله. (ع)

(5). قوله «ألقى ثفناته للاناخة» هي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ كالركبتين وغيرهما، كذا في الصحاح. (ع)

(171/398)

فَحَصْحَصَ فِى صُمِّ الصّفَا ثَفَنَاتِهِ وَنَاءَ بِسَلْمَى نَوْءَةً ثُمَّ صَمَّمَا «1»

ولا مزيد على شهادتهنّ له بالبراءة والنزاهة «2» واعترافهنّ على أنفسهنّ بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به، لأنهنّ خصومه. وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحق وهو على الباطل، لم يبق لأحد مقال. وقالت المجبرة والحشوية «3» نحن قد بقي لنا مقال، ولا بدّ لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته.

[سورة يوسف (12) : آية 52]

ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (52)

ذلِكَ لِيَعْلَمَ من كلام يوسف، «4» أى ذلك التثبت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بظهر الغيب في حرمته. ومحل بِالْغَيْبِ الحال «5» من الفاعل أو المفعول، على معنى : وأنا غائب عنه خفى عن عينه أو وهو غائب عنى خفى عن عينى. ويجوز أن يكون ظرفا، أى بمكان الغيب، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة وليعلم أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ لا ينفذه ولا يسدّده، وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها، وبه في خيانته أمانة اللّه حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه. ويجوز أن يكون تأكيداً لأمانته، وأنه لو كان خائناً لما هدى اللّه كيده ولا سدّده.

---

(1) . لحميد بن ثور يصف بعيرا بأنه ألقى في الحجارة الصلبة أعضاءه التي يبرك عليها عند الاناخة، والصم جمع صماء أو أصم أى صلب. وناء : أى قام متثاقلا بسلمى محبوبتى نوأة ونهضة واحدة لم يتردد، ثم صمم وعزم على السير. وروى أن سمرة بن جندب أتى برجل عنين، فاشترى له جارية من بيت المال وأدخلها معه ليلة، فلما أصبح قال له : ما صنعت؟ قال : فعلت حتى حصحصت فيه، فسألها فقالت : لم يصنع شيئا. فقال : دخل سبيلها.

(2) . قال محمود : «لا مزيد على شهادتهن له بالبراءة واعترافهن على أنفسهن . . . الخ»

قال أحمد : الصحيح من مذاهب أهل السنة تنزيه الأنبياء عن الكبائر والصغائر جميعا ، وتتبع الآي المشعرة بوقوع الصغائر بالتأويل . وذهب منهم طائفة مع القدرية إلى تجويز الصغائر عليهم ، بشرط أن لا تكون منفرة . والصحيح عندنا في قصة يوسف عليه السلام أنه مبرأ عن الوقوع فيما يؤاخذ به ، وإن الوقف عند قوله هَمَّتْ بِهِ ثم يبتدأ وَهَمَّ بِها . لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كما تقول . قتلت زيداً لولا أنني أخاف الله ، فلا يكون الهم واقعا لوجود المانع منه ، وهو رؤية البرهان . فان كان الزمخشري يعرض بأهل السنة فقد بينا معتقدهم ، وإن كان يعرض بالمجبرة والحشوية حقيقة ، فشأنه وإياهم .

(3) . قوله و«قالت المجبرة والحشوية نحن قد بقي لنا مقال ولا بد لنا من أن ندق في فروة» يريد أهل السنة وقوله نحن قد بقي لنا الخ يعنى أن حالهم في تفسير الهم والبرهان يمثل بذلك . والفروة : جلدة الرأس . (ع)

(4) . عاد كلامه . قال : «و قوله ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ الخ : من كلام يوسف عليه السلام والمعنى أن ذلك الجد في ظهور البراءة ليعلم . . . الخ» قال أحمد : وإرادته لعموم الأحوال أدخل في تنزيهه ، وأدل على أن الغرض بهذا الكلام التواضع منه والتبري من تزكية النفس ، فهو أدل على هذا المعنى من حمله على الحادثة الخاصة والله أعلم .

(5) . قوله «و محل بالغيب الحال من الفاعل» لعله محل الحال أو النصب على الحال . (ع)

[سورة يوسف (12) : آية 53]

وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)

ثم أراد أن يتواضع للّه ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزكيا وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً، كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» «1» وليبين أنّ ما فيه من الأمانة ليس به وحده، وإنما هو بتوفيق اللّه ولطفه وعصمته فقال وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي من الزلل، وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها. ولا يخلو، إمّا أن يريد في هذه الحادثة، لما ذكرنا من الهمّ الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق القصد والعزم. وإمّا أن يريد به عموم الأحوال إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ أراد الجنس، أى إنّ هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إلا البعض الذي رحمه ربى بالعصمة كالملائكة. ويجوز أن يكون ما رَحِمَ في معنى الزمن، أى: إلا وقت رحمة ربى، يعنى أنها أمّارة بالسوء في كل وقت وأوان، إلا وقت العصمة. ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً، أى:

ولكن رحمة ربى هي التي تصرف الإساءة، كقوله وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً وقيل معناه: ذلك ليعلم أنى لم أخنه لأنّ المعصية خيانة. وقيل: هو من كلام امرأة العزيز، «2» أى ذلك الذي قلت ليعلم

(1) . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، دون قوله «ولا فخر» وذكره بإثباتها أبو نعيم في الدلائل ، من رواية سهيل عن أبيه عنه في أثناء حديث . ورواه ابن أبي عاصم في الآداب له من حديث عائشة بإثباتها . وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وواثلة وأبي بكر الصديق . ورواه الترمذي من رواية أبي نضرة عن أبي سعيد بلفظ «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» الحديث وقال : حسن . ورواه بعضهم عن أبي نضرة ابن عامر . وهو عند أحمد وأبي يعلى وأبي نعيم والبيهقي في الدلائل . وهما من طريق أبي نضرة قال : خطبنا ابن عباس على منبر البصرة فذكره . ولحديث ابن عباس طريق آخر أخرجها الدارقطني في الأفراد من رواية خارجة بن مصعب . وهو ضعيف عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وأخرى عن ابن مردويه في أثناء حديث الاسراء بإسناد واه . وفي الباب عن عبادة بن الصامت عند الحاكم وإسناده منقطع وعن أنس عن البزار . وفيه مبارك بن سحيمة . وهو متروك ، وعند أبي يعلى وفيه زيادة بن ميمون البختري وعن عبد الله بن سلام أخرجه أبو يعلى والطبراني من رواية بشر بن شغاف عنه . وهو معلول . والمحفوظ عن بشر بن شغاف عن عبد الله بن عمرو . وعن جابر أخرجه الحاكم . وفيه القاسم بن محمد بن عبد الله بن عقيل . وهو متروك .

(2) . عاد كلامه . قال : «وقيل ذلك كله كلام امرأة العزيز أى ذلك الذي قلت . . . الخ» قال أحمد : وإنما يجرى الكلام على هذا الوجه إذا ألجأ إليه محوج ، كقوله فَما ذا تَأْمُرُونَ إذ لا

يمكن جعله من قول الملأ بوجه ، فتعين أنّ يصرف الضمير عنه إلى فرعون . وأما هذه الآية فهي تتلو قوله وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ إلى ما قبل ذلك من الضمائر العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً ، ولا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير في لِيَعْلَمَ على العزيز وجعله من كلام يوسف ، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا ، وذلك قوله قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ وفي سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها ويوسف عليه السلام بعد في السجن لم يحضر إلى الملك ، وأنه لما تحتمت براءته بقولها بعث يخرجه من السجن ، فذلك قوله وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي .

(173/398)

يوسف أنى لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة ، فإنى قد خنته حين قرفته «1» وقلت «جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن وأودعته السجن - تريد الاعتذار مما كان منها - إنّ كل نفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربى : إلا نفساً رحمها اللّه بالعصمة كنفس يوسف إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت . فإن قلت : كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك ؟

قلت : كفى بالمعنى دليلا قائدا «2» إلى أن يجعل من كلامه . ونحوه قوله قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ثم قال فَما ذا تَأْمُرُونَ وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم . وعن ابن جريج : هذا من تقديم القرآن وتأخيره ، ذهب إلى أن ذلِكَ لِيَعْلَمَ متصل بقوله فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ولقد لفقت المبطلة «3» روايات مصنوعة ، «4» فزعموا أن يوسف حين قال أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ قال له جبريل : ولا حين هممت بها ، وقالت له امرأة العزيز : ولا حين حللت تكة سراويلك يا يوسف ، وذلك لتهالكهم على بهت اللّه ورسله «5» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 462 . 481 ﴾

---

(1) . قوله «حين قرفته» أى اتهمته . (ع)

(2) . قوله «دليلا قائداً» أى مؤديا . (ع)

(3) . قوله «ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة» يريد أهل السنة الذين سماهم المجبرة فيما مر . (ع)

(4) . عاد كلامه . قال : «ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة . . . الخ» قال أحمد : ولقد صدق في التوريك على نقله هذه الزيادات بالبهت ، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة ، كما لفقت القدرية على قصة موسى حين طلب الرؤية وخر صعقاً أن الملائكة جعلت تلكزه بأرجلها وتقول : يا ابن النساء الحيض طمعت في رؤية رب العزة ، كل ذلك ليتم لهم

غرضهم في أنه طلب محالا في العقول على اللّه تعالى ، ويحق اللّه الحق بكلماته ويبطل الباطل ، واللّه الموفق . [. . . . .]

(5) . قوله «و ذلك لتهالكهم على بهت اللّه ورسله» أى اتهامهم بما لم يفعله . أفاده الصحاح . (ع)

(174/398)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾

وقال جماعة من النساء وكنّ خمساً : امرأة الساقي ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب .

والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث اللمة ، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث .

وفيه لغتان : كسر النون وضمها ﴿ فِى المدينة ﴾ في مصر ﴿ امرأت العزيز ﴾ يردن قطفير ، والعزيز : الملك بلسان العرب ﴿ فتاها ﴾ غلامها .

يقال : فتاي وفتاتي ، أي غلامي وجاريتي ﴿ شَغَفَهَا ﴾ خرق حبه شغاف قلبها حتى

وصل إلى الفؤاد ، والشغاف حجاب القلب ، وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب .

قال النابغة :

وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ وَالِجٌ . . .

مَكَانَ الشِّغَافِ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ

وقرىء : "شعفها" بالعين ، من شعف البعير إذا هنأه فأحرقه بالقطران ، قال :

كَمَا شَعَفَ المَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِي . . .

و ﴿ حَبّاً ﴾ نصب على التمييز ﴿ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ في خطأ وبُعدٍ عن طريق الصواب ﴿ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ باغتيابهنّ وسوء قالتهن ، وقولهنّ : امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها ، وسمي الاغتياب مكراً لأنه في خفية وحال غيبة ، كما يخفي الماكر مكره .

وقيل : كانت استكتمتهنّ سرّها فأفشينه عليها ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ دعتهنّ .

قيل : دعت أربعين امرأة منهنّ الخمس المذكورات ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً ﴾ ما يتكئن عليه من نمارق ، قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهنّ متكئات والسكاكين في أيديهنّ : أن يدهشن ويبهتن عند رؤيته ، ويشغلن عن نفوسهنّ فتقع أيديهنّ على أيديهنّ فيقطعنها ، لأن المتكىء إذا بهت لشيء وقعت يده على يده ، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهنّ ، فتضع الخناجر في أيديهنّ ليقطعن أيديهنّ ، فتبكتهنّ بالحجة ، ولتهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهنّ الخناجر ، وتوهمه أنهنّ يثبن عليه .

وقيل : متكأ : مجلس طعام لأنهم كانوا يتكون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ،

ولذلك .

(542) " نهى أن يأكل الرجل متكئاً " وأتهنّ السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن .

وقيل : ﴿ مُتَّكَئاً ﴾ طعاماً ، من قولك اتكأنا عند فلان : طعمنا ، على سبيل الكناية ؛

لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له تكأة يتكىء عليها .

قال جميل :

فَظَلَلْنَا بِنِعْمَةٍ واتَّكَأْنَا . . .

وَشَرِبْنَا الحَلاَلَ مِنْ قُلَلِهْ

وعن مجاهد ﴿ مُتَّكَئاً ﴾ طعاماً يحزّ حزّا ، كأن المعنى يعتمد بالسكين ؛ لأنّ القاطع

يتكىء على المقطوع بالسكين .

وقرىء : "متكا" بغير همز .

وعن الحسن : "متكاء" بالمدّ ، كأنه مفتعال ، وذلك لإشباع فتحة الكاف ، كقوله "بمُنْتزاحِ"

بمعنى بمنتزح .

ونحوه "ينْبَاعُ" بمعنى ينبع .

وقرىء : "متكأ" وهو الأترج ، وأنشد :

فَأَهْدَتْ مَتْكَةً لِبَنِي أَبِيهَا . . .

تَخُبُّ بِهَا العَثْمَثَةُ الْوِقَاحُ

وكانت أهدت أترجة على ناقة ، وكأنها الأترجة التي ذكرها أبو داود في سننه أنها شقت

بنصفين ، وحملا كالعدلين على جمل .

وقيل : الزماورد وعن وهب : أترجا وموزاً وبطيخاً .

وقيل : أعتدت لهنّ ما يقطع ، من متك الشيء بمعنى بتكه إذا قطعه .

وقرأ الأعرج : ﴿ مُتَّكَأَ ﴾ مفعلاً ، من تكىء يتكأ ، إذا اتكأ ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أعظمنه

وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق .

قيل : كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم :

(543) "مررت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء ، فقلت لجبريل : من هذا ؟

فقال يوسف ، فقيل : يا رسول الله كيف رأيته ؟

قال "كالقمر ليلة البدر"

وقيل : كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران ، كما يرى نور

الشمس من الماء عليها .

وقيل : ما كان أحد يستطيع وصف يوسف .

وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه .

وقيل : ورث الجمال من جدّته سارة .

وقيل : أكبرن بمعنى حضن ، والهاء للسكت ، يقال : أكبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته : دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حدّ الصغر إلى حدّ الكبر ، وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله :

خَفِ اللّهَ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالَ بِبُرْقَعٍ . . .

فَإِنْ لُحْتَ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ

﴿ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، تريد : جرحتها ﴿ حاشا ﴾ كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء .

تقول : أساء القوم حاشا زيد .

قال :

حَاشَا أَبِي ثَوْبَانَ إِنَّ بِهِ . . .

ضَنًّا عَنِ المَلْحَاةِ وَالشَّتْمِ

وهي حرف من حروف الجر ، فوضعت موضع التنزيه والبراءة ، فمعنى "حاشا الله" براءة الله وتنزيه الله ، وهي قراءة ابن مسعود ، على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة .

ومن قرأ : حاشا لله ، فنحو قولك : سقيا لك ؛ كأنه قال : براءة ، ثم قال : لله ، لبيان من يبرأ وينزه .

والدليل على تنزيل "حاشا" منزلة المصدر : قراءة أبي السمال : ﴿ حاشا لله ﴾ بالتنوين .

وقراءة أبي عمرو " ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ " بحذف الألف الآخرة .

وقراءة الأعمش " ﴿ حشا لله ﴾ " بحذف الألف الأولى .

وقرئ : "حاش لله" بسكون الشين ، على أن الفتحة تبعت الألف في الإسقاط ، وهي ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حدّه .

وقرئ : "حاشا الإله" .

فإن قلت : فلم جاز في حاشا لله أن لا ينوّن بعد إجرائه مجرى : براءة لله ؟

قلت : مراعاة لأصله الذي هو الحرفية .

ألا ترى إلى قولهم : جلست من عن يمينه ، كيف تركوا "عن" غير معرب على أصله ؟

وعلى قوله "غدت من عليه" منقلب الألف إلى الياء مع الضمير؟

والمعنى: تنزيه الله تعالى من صفات العجز، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله.

(177/398)

وأما قوله: ﴿ حَاشا للَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوء ﴾ [يوسف: 51] فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه، لما عليه محاسن الصور، وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك، كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين، ولا أجمع للخير من الملائكة، إلا ما عليه الفئة الخاسئة المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق، وجحودهم للعلوم الضرورية، ومكابرتهم في كل باب، وإعمال "ما" عمل "ليس" هي اللغة القدمى الحجازية وبها ورد القرآن.

ومنها قوله تعالى: ﴿ مَّا هُنَّ أمهاتهم ﴾ [المجادلة: 2] ومن قرأ على سليقته من بني تميم، قرأ: "بشر" بالرفع.

وهي في قراءة ابن مسعود .

وقرىء : "ما هذا بشرى" أي ما هو بعبد مملوك لئيم ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ تقول هذا بشرى ، أي حاصل بشرى ، بمعنى : هذا بشرى .

وتقول : هذا لك بشري أم بكري ؟

والقراءة هي الأولى ، لموافقتها المصحف ؛ ومطابقة بشر لملك ﴿ قَاَلَتْ فذلكن ﴾ ولم يقل فهذا وهو حاضر ، رفعاً لمنزلته في الحسن ، واستحقاق أن يحب ويفتتن به ، وربئاً بحاله واستبعاداً لمحله ، ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهنّ : عشقت عبدها الكنعاني .

تقول : هو ذلك العبد الكنعاني الذي صوّرتن في أنفسكنّ ، ثم لمتنني فيه .

تعني : أنكن لم تصوّرنه بحق صورته ، ولو صوّرتنه بما عاينتن لعذرتني في الافتنان به .

الاستعصام : بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها .

ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطب .

وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شيء أنور منه ، على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهمّ والبرهان .

فإن قلت : الضمير في ﴿ ءَامُرُهُ ﴾ راجع إلى الموصول ، أم إلى يوسف ؟

قلت : بل إلى الموصول .

والمعنى : ما آمر به ، فحذف الجار كما في قولك : أمرتك الخير ، ويجوز أن تجعل "ما" مصدرية ، فيرجع إلى يوسف ومعناه : ولئن لم يفعل أمري إياه ، أي موجب أمري ومقتضاه .

قرئ : "وليكونا" بالتشديد والتخفيف .

والتخفيف أولى ، لأنّ النون كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف ، وذلك لا يكون إلا في الخفيفة .

وقرئ : " ﴿ السجن ﴾ " بالفتح على المصدر .

وقال ﴿ يَدْعُونَنِى ﴾ على إسناد الدعوة إليهنّ جميعاً ، لأنهنّ تنصحن له وزينّ له مطاوعتها ، وقلن له : إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار ، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال : ربِّ نزولُ السجن أحبّ إلي من ركوب المعصية .

فإن قلت : نزول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه إليه لذة عظيمة ، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة ؟

قلت : كانت أحبّ إليه وآثر عنده نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله ، وفي قبح

المعصية، وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروهها ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ ﴾ فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإجبار على التعفف والإلجاء إليه ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أمل إليهنّ.

والصبوة: الميل إلى الهوى.

ومنها: الصبا؛ لأنّ النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها وقرىء: "أصب إليهنّ" من الصبابة ﴿ مِنَ الجاهلين ﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون.

لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء.

أو من السفهاء، لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح.

(179/398)

وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدّم الدعاء، لأنّ قوله ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى ﴾ فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف ﴿ السميع ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

﴿ بَدَا لَهُمْ ﴾ فاعله مضمر، لدلالة ما يفسره عليه وهو: ليسجننه، والمعنى: بدا لهم

بداء ، أي : ظهر لهم رأي ليسجننه ، والضمير في ﴿ لَهُمْ ﴾ للعزيز وأهله ﴿ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات ﴾ وهي الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها ، وفتلها منه في الذروة والغارب وكان مطواعة لها وجميلاً ذلولا زمامه في يدها ، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه وإلحاق الصغار به كما أوعدته به ، وذلك لما أيست من طاعته لها ، أو لطمعها في أن يذلله السجن ويسخره لها .

وفي قراءة الحسن : "لتسجننه" بالتاء على الخطاب : خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه ، أو العزيز وحده على وجه التعظيم ﴿ حتى حِينٍ ﴾ إلى زمان ، كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه .

وفي قراءة ابن مسعود "عتى حين" وهي لغة هذيل ، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ : "عتى حين" فقال : من أقرأك ؟

قال : ابن مسعود فكتب إليه : إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربياً وأنزله بلغة قريش ، فأقرىء الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام .

﴿ مَّعَ ﴾ يدل على معنى الصحبة واستحداثها ، تقول : خرجت مع الأمير ، تريد مصاحباً له ، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿ فَتَيَانَ ﴾ عبدان للملك : خبازه وشرابيه : رقي إليه أنهما يسمانه ، فأمر بهما إلى السجن ، فأدخلا ساعة أدخل يوسف عليه السلام ﴿ إِنِّى أَرَانِى ﴾ يعني في المنام ، وهي حكاية حال ماضية ﴿ أَعْصِرُ

خَمْرًا ﴾ يعني عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول إليه .

وقيل : الخمر – بلغة عمان – : اسم للعنب .

وفي قراءة ابن مسعود "أعصر عنباً" ﴿ مّنَ المحسنين ﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أي : يجيدونها ، رأياه يقصّ عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤوّلها له ، فقالا له ذلك .

أو من العلماء ، لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم .

أو من المحسنين إلى أهل السجن .

فأحسن إلينا بأن تفرّج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا .

روي أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه ، وإذا أضاق وسع له ، وإذا احتاج جمع له .

وعن قتادة : كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم ، فجعل يقول : أبشروا اصبروا تؤجروا ، إنّ لهذا لأجراً ، فقالوا : بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك ! لقد بورك لنا في جوارك ، فمن أنت يا فتى ؟

قال : أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم ، فقال له عامل السجن : لو استطعت خليت سبيلك ، ولكني أحسن جوارك ، فكن في أي بيوت

السجن شئت .

وروي أن الفتيين قالا له إنا لنحبك من حين رأيناك ، فقال : أنشدكما بالله أن لا تحباني ، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء ، لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ من حبها بلاء ، ثم أحبني أبي فدخل عليّ من حبه بلاء ، ثم أحبتني زوجة صاحبي فدخل عليّ من حبها بلاء ، فلا تحباني – بارك الله فيكما – وعن الشعبي أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابي ؛ إني أراني في بستان ، فإذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب ، فقطفتها وعصرتها في كأس الملك ، وسقيته .

وقال الخباز : إني أراني وفوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة ، وإذا سباع الطير تنهش منها .

فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ ؟

قلت : إلى ما قصا عليه .

والضمير يجري مجرى اسم الإشارة في نحوه كأنه قيل : نبئنا بتأويل ذلك .

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، افترض ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ، ويقول : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت ، فيجدانه كما أخبرهما ، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما ، ويقبح إليهما الشرك بالله ، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة ، إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً ، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه بعد ذلك ، وفيه أنّ العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده – وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين – لم يكن من باب التزكية ﴿ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ ببيان ماهيته وكيفيته ؛ لأنّ ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ﴿ ذلكما ﴾ إشارة لهما إلى التأويل ، أي ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ﴾ وأوحي به إليّ ولم أقله عن تكهن وتنجم ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ ﴾ يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ ، وأن يكون تعليلاً لما قبله .

أي علمني ذلك وأوحي إليّ ؛ لأني رفضت ملة أولئك واتبعت ملة الأنبياء المذكورين وهي الملة الحنيفية ، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون : أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم ، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة ، وأنّ غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها ، وهم الذين على ملة إبراهيم ، ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهاً على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء ، ويجوز أن يكون فيه تعريض بما مني به من جهتهم حين أودعوه السجن ، بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته ، وأنّ ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوّة بعد أن عرّفهما أنه نبيّ يوحى إليه ، بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله : ﴿ مَا كَانَ لَنَا ﴾ ما صحّ لنا معشر الأنبياء ﴿ أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ ﴾ أي شيء كان من ملك أو جنيّ أو إنسيّ ، فضلاً [عن] أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر ، ثم قال ﴿ ذلك ﴾ التوحيد ﴿ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى الناس ﴾ أي على الرسل وعلى المرسل إليهم ؛ لأنهم نبهوهم عليه وأرشدوهم إليه ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس ﴾ المبعوث إليهم ﴿ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ فضل الله فيشركون ولا ينتبهون وقيل : إنّ ذلك من فضل الله علينا لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدلّ بها .

وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت ، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعاً لأهوائهم ، فيبقون كافرين غير شاكرين .

﴿ ياصاحبى السجن ﴾ يريد يا صاحبيَّ في السجن ، فأضافهما إلى السجن كما تقول : يا سارق الليلة ، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام ، ونحوه قولك لصاحبيك : يا صاحبي الصدق فتضيفهما إلى الصدق ، ولا تريد أنهما صحبا الصدق ، ولكن كما تقول رجلا صدق ، وسميتهما صاحبين لأنهما صحباك .

ويجوز أن يريد : يا ساكني السجن ، كقوله : ﴿ أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ [الحشر : 20] ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرّقُونَ ﴾ يريد التفرّق في العدد والتكاثر .

يقول أأن تكون لكما أرباب شتى ، يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا ﴿ خَيْرٌ ﴾ لكما ﴿ أَمِ ﴾ أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية ، بل هو ﴿ القهار ﴾ الغالب ، وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر ﴿ إِلاَّ أَسْمَاء ﴾ يعني أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها .

ومعنى ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ سميتم بها .

يقال : سميته بزيد ، وسميته زيداً ﴿ مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا ﴾ أي بتسميتها ﴿ مِّن سلطان ﴾ من حجة ﴿ إِنِ الحكم ﴾ في أمر العبادة والدين ﴿ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ ثم بين ما حكم به فقال ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذلك الدين القيم ﴾ الثابت الذي دلت عليه البراهين .

﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾ يريد الشرابي ﴿ فَيَسْقِى رَبَّهُ ﴾ سيده .

وقرأ عكرمة "فيسقي ربه" أي يسقي ما يروي به على البناء للمفعول .

روي أنه قال للأوّل : ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده ؛ وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ، ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه ، وقال للثاني : ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل ﴿ قُضِىَ الأمر ﴾ قطع وتم ما ﴿ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ فيه من أمركما وشأنكما .

فإن قلت : ما استفتيا في أمر واحد ، بل في أمرين مختلفين ، فما وجه التوحيد ؟

قلت : المراد بالأمر ما اتهما به من سمّ الملك وما سجنا من أجله ، وظنا أنّ ما رأياه في معنى ما نزل بهما ، فكأنهما كانا يستفتيانه في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك ،

فقال لهما : قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان ، أي : ما يجرّ إليه من العاقبة ، وهي هلاك أحدهما ونجاة الآخر .

وقيل : جحدا وقالا : ما رأينا شيئاً ، على ما روي أنهما تحالما له ، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتما أو كذبتما .

﴿ ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ ﴾ الظانّ هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد ، وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشرابي ، ويكون الظنّ بمعنى اليقين ﴿ اذكرنى عِندَ رَبِّكَ ﴾ صفني عند الملك بصفتي ، وقص عليه قصتي لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة ﴿ فَأَنسَاهُ الشيطان ﴾ فأنسى الشرابي ﴿ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ أن يذكره لربه .

وقيل فأنسي يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره ﴿ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين .

فإن قلت : كيف يقدر الشيطان على الإنسان ؟

قلت : يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان ، حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه ذكره ، وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجل ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة : 106] .

فإن قلت : ما وجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك ؟

وما هي بإضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول ؟

قلت : قد لابسه في قولك : فأنساه الشيطان ذكر ربه ، أو عند ربه فجازت إضافته إليه ، لأنّ الإضافة تكون بأدنى ملابسة .

أو على تقدير : فأنساه الشيطان ذكر أخبار ربه ، فحذف المضاف الذي هو الإخبار .

فإن قلت : لم أنكر على يوسف الاستعانة بغير الله في كشف ما كان فيه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى البر والتقوى ﴾ [المائدة : 2] وقال حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿ مَنْ أَنصَارِى إِلَى الله ﴾ [آل عمران : 52] وفي الحديث :

(544) " الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم " .

(545) " من فرّج عن مؤمن كربة فرّج الله عنه كربة من كربات الآخرة " وعن عائشة رضي الله عنها :

(546) " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأخذه النوم ليلة من الليالي ، وكان يطلب من يحرسه حتى جاء سعد فسمعت غطيطه " وهل ذلك إلا مثل التداوي بالأدوية والتقوّى بالأشربة والأطعمة .

وإن كان ذلك لأنّ الملك كان كافراً ، فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم

والغرق والحرق ونحو ذلك من المضارّ ؟

قلت : كما اصطفى الله تعالى الأنبياء على خليقته فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاها والأحسن والأولى بالنبي أن لا يكل أمره إذا ابتلي ببلاء إلا إلى ربه ، ولا يعتضد إلا به ، خصوصاً إذا كان المعتضد به كافراً ؛ لئلا يشمت به الكفار ويقولوا لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا .

وعن الحسن أنه كان يبكي إذا قرأها ويقول : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس .

لما دنا فرج يوسف ، رأى ملك مصر "الريان بن الوليد" رؤيا عجيبة هالته : رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس .

وسبع بقرات عجاف ، فابتلعت العجاف السمان .

ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها ﴿ سِمَانٍ ﴾ جمع سمين وسمينة ، وكذلك رجال ونسوة كرام .

فإن قلت : هل من فرق بين إيقاع ﴿ سِمَانٍ ﴾ صفة للمميز وهو ﴿ بقرات ﴾ دون المميز

وهو ﴿ سَبْعَ ﴾ وأن يقال : سبع بقرات سمانا ؟

قلت : إذا أوقعتها صفة لبقرات .

فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهنّ لا بجنسهنّ .

ولو وصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها ، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن .

فإن قلت : هلا قيل : سبع عجاف على الإضافة ؟

قلت ، التمييز موضوع لبيان الجنس ، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده .

فإن قلت : فقد يقولون : ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب ؟

قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها : صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجز في غيرها .

ألا تراك لا تقول : عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ .

فإن قلت : ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه .

ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف ، لوقوع العلم بأنّ المراد البقرات ؟

قلت : ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل ، وقد وقع الاستغناء بقولك ﴿ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ عما تقترحه من التمييز بالوصف .

والعجف : الهزال الذي ليس بعده ، والسبب في وقوع "عجاف" جمعا "لعجفاء" وأفعل

وفعلاء لا يجمعان على فعال : حمله على سمان ، لأنه نقيضه ، ومن دأبهم حمل النظير على النظير ، والنقيض على النقيض .

فإن قلت : هل في الآية دليل على أنّ السنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر ؟

قلت : الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر ، فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ، ويكون قوله : ﴿ وَأُخَرَ يابسات ﴾ بمعنى وسبعاً أخر .

(187/398)

فإن قلت : هل يجوز أن يعطف قوله ﴿ وَأُخَرَ يابسات ﴾ على ﴿ سنبلات خُضْرٍ ﴾ فيكون مجرور المحل ؟

قلت : يؤدي إلى تدافع ، وهو أن عطفها على ﴿ سنبلات خُضْرٍ ﴾ يقتضي أن تدخل في حكمها فتكون معها مميزاً للسبع المذكورة ، ولفظ الأخر يقتضي أن تكون غير السبع ، بيانه : أنك تقول : عندي سبعة رجال قيام وقعود ، بالجرّ ، فيصح ؛ لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود ، على أنّ بعضهم قيام وبعضهم قعود ؛ فلو قلت : عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود ، تدافع ففسد ﴿ يا أَيُّهَا الملا ﴾ كأنه أراد الأعيان من العلماء

والحكماء .

واللام في قوله ﴿ لِلرُّؤْيَا ﴾ إما أن تكون للبيان ، كقوله ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهِدِينَ ﴾ [يوسف : 20] وإما أن تدخل ؛ لأنّ العامل إذا تقدّم عليه معموله لم يكن في قوّته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه ، فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل ، إذا قلت : هو عابر للرؤيا ؛ لانحطاطه عن الفعل في القوة .

ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان ، كما تقول : كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلا به متمكنا منه .

و ﴿ تَعْبُرُونَ ﴾ خبر آخر ، أو حال ، وأن يضمن ﴿ تَعْبُرُونَ ﴾ معنى فعل يتعدى باللام ، كأنه قيل : إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا .

وحقيقة "عبرت الرؤيا" ذكرت عاقبتها وآخر أمرها ، كما تقول : عبرت النهر ، إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره .

ونحوه : أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها .

وعبرت الرؤيا - بالتخفيف ، هو الذي اعتمده الأثبات ، ورأيتهم ينكرون "عبرت" بالتشديد والتعبير والمعبر .

وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب الكامل لبعض الأعراب :

رَأَيتُ رُؤْيا ثُمَّ عَبَّرْتُهَا . . .

وَكُنْتُ للأَحْلاَمِ عَبَّارَا

﴿ أَضغاث أَحْلَامٍ ﴾ تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان .

(188/398)

وأصل الأضغاث : ما جمع من أخلاط النبات وحزم ، الواحد : ضغث ، فاستعيرت لذلك ، والإضافة بمعنى "من" أي أضغاث من أحلام والمعنى : هي أضغاث أحلام .

فإن قلت : ما هو إلا حلم واحد ، فلم قالوا : أضغاث أحلام فجمعوا ؟

قلت : هو كما تقول : فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخز ، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامة فردة ، تزيدا في الوصف ، فهؤلاء أيضاً تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان ، فجعلوه أضغاث أحلام .

ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأحلام بعالمين ﴾ إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة خاصة ، فيقولوا : ليس لها عندنا تأويل ، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة ، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير .

قرىء : "وادكر" بالدال وهو الفصيح .

وعن الحسن : "واذكر" ، بالذال المعجمة .

والأصل تذكر ، أي تذكر الذي نجا من الفتيين من القتل يوسف وما شاهد منه ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ بعد مدّة طويلة ، وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملأ تأويلها ، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه ، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك .

وقرأ الأشهب العقيلي "بعد إمّة" بكسر الهمزة ، والإمّة النعمة .

قال عدي :

ثُمَّ بَعْدَ الفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالإِمَّ . . .

ةِ وَارَتْهُمُ هُنَاكَ القُبُورُ

أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة .

وقرىء : "بعد أمه" بعد نسيان .

يقال : أمه يأمه أمها ، إذا نسي .

ومن قرأ بسكون الميم فقد خطىء ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أنا أخبركم به عمن عنده علمه .

وفي قراءة الحسن : "أنا آتيكم بتأويله" ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ فابعثوني إليه لأسأله ، ومروني باستعباره وعن ابن عباس : لم يكن السجن في المدينة .

المعنى فأرسلوه إلى يوسف ، فأتاه فقال ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق ﴾ أيها البليغ في الصدق ، وإنما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل ، ولذلك كلمه كلام محترز فقال ﴿ لَّعَلّى أَرْجِعُ إِلَى الناس لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ لأنه ليس على يقين من الرجوع ، فربما اخترم دونه ولا من علمهم فربما لم يعلموا ، أو معنى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك .

﴿ تَزْرَعُونَ ﴾ خبر في معنى الأمر ، كقوله : ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وتجاهدون ﴾ [الصف : 11] وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به ، فيجعل كأنه يوجد ، فهو يخبر عنه .

والدليل على كونه في معنى الأمر قوله : ﴿ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ ﴾ .

﴿ دَأَبًا ﴾ بسكون الهمزة وتحريكها ، وهما مصدرا : دأب في العمل ، وهو حال من المأمورين ، أي دائبين : إمّا على تدأبون دأباً ، وإمّا على إيقاع المصدر حالاً ، بمعنى : ذوي دأب ﴿ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ ﴾ لئلا يتسوس .

و ﴿ يَأْكُلْنَ ﴾ من الإسناد المجازي : جعل أكل أهلهنّ مسنداً إليهنّ ﴿ تحصنون ﴾

تحرزون وتخبؤن ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاس ﴾ من الغوث أو من الغيث .

يقال : غيثت البلاد ، إذا مطرت .

ومنه قول الأعرابية : غثنا ماشئنا .

﴿ يَعْصِرُونَ ﴾ بالياء والتاء : يعصرون العنب والزيتون والسمسم .

وقيل : يحلبون الضروع .

وقرىء : "يعصرون" ، على البناء للمفعول ، من عصره إذا أنجاه ، وهو مطابق للإغاثة

ويجوز أن يكون المبني للفاعل بمعنى ينجون ، كأنه قيل : فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم

، أي يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضاً وقيل ﴿ يَعْصِرُونَ ﴾ يمطرون ، من أعصرت

السحابة .

وفيه وجهان : إمّا أن يضمن أعصرت معنى مطرت ، فيعدّى تعديته .

وإمّا أن يقال : الأصل أعصرت عليهم فحذف الجار وأوصل الفعل .

تأوّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف واليابسات بسنين

مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأنّ العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً كثير

الخير غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي .

وعن قتادة : زاده الله علم سنة .

فإن قلت : معلوم أنّ السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب ، وإلا لم توصف بالانتهاء ، فلم قلت إنّ علم ذلك من جهة الوحي ؟

قلت : ذلك معلوم علماً مطلقاً لا مفصلاً .

وقوله ﴿ فِيهِ يُغَاثُ الناس وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ تفصيل لحال العام ، وذلك لا يعلم إلا بالوحي . إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك ، وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ، ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شرّه .

وفيه دليل على أنّ الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها ، قال عليه [الصلاة و] السلام :

(547) " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التهم " ومنه .

(548) " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمارّين به في معتكفه وعنده بعض نسائه - "هي فلانة" اتقاء للتهمة " ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم :

(549) " لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره - والله يغفر له - حين سئل عن

البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني .

ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال : ارجع إلى ربك .

(191/398)

ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث ، لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر ، إن كان لحليماً ذا أناة" وإنما قال : سل الملك عن حال النسوة ولم يقل سله أن يفتش عن شأنهن ، لأنّ السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه ، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجدّ في التفتيش عن حقيقة القصة وفصّ الحديث حتى يتبين له براءته بياناً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل .

وقرىء : "النُسوة" بضم النون ومن كرمه وحسن أدبه : أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب ، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهنّ ﴿ إِنَّ رَبِّى ﴾ إنّ الله تعالى : ﴿ بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله ، لبعد غوره .

أو استشهد بعلم الله على أنهنّ كدنه ، وأنه بريء مما قرف به ، أو أراد الوعيد لهنّ ، أي : هو عليم بكيدهنّ فمجازيهنّ عليه ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ ما شأنكنّ ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ ﴾ هل وجدتنّ منه ميلا إليكنّ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيء

من الريبة ومن نزاهته عنها ﴿ قَالَتِ امرأت العزيز الأن حصحص الحق ﴾ أي ثبت واستقرّ وقرىء : "حُصْحِص" على البناء للمفعول ، وهو من حصحص البعير إذا ألقى ثفناته للإناخة .

قال :

فَحَصْحَصَ في صُمِّ الصَّفَا ثَفَنَاته . . .

وَنَاءَ بِسَلْمَى نَوْءَةً ثُمَّ صَمَّمَا

ولا مزيد على شهادتهنّ له بالبراءة والنزاهة واعترافهنّ على أنفسهنّ بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به ، لأنهنّ خصومه .

وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحق وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال .

وقالت المجبرة والحشوية نحن قد بقي لنا مقال ، ولا بدّ لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته .

﴿ ذلك لِيَعْلَمَ ﴾ من كلام يوسف ، أي ذلك التثبت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز ﴿ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ ﴾ بظهر الغيب في حرمته .

ومحل ﴿ بالغيب ﴾ الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى : وأنا غائب عنه خفي عن عينه أو وهو غائب عني خفي عن عيني .

ويجوز أن يكون ظرفاً ، أي بمكان الغيب ، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة ﴿ و ﴾ ليعلم ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى كَيْدَ الخائنين ﴾ لا ينفذه ولا يسدّده ، وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها ، وبه في خيانته أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه ، ويجوز أن يكون تأكيداً لأمانته ، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله كيده ولا سدّده .

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكياً وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(550) " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " وليبين أنّ ما فيه من الأمانة ليس به وحده ، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته فقال ﴿ وَمَا أُبَرّىء نَفْسِى ﴾ من الزلل ، وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها .

ولا يخلو ، إمّا أن يريد في هذه الحادثة ، لما ذكرنا من الهمّ الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق القصد والعزم .

وإمّا أن يريد به عموم الأحوال ﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ أراد الجنس ، أي إنّ هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبّى ﴾ إلا البعض

الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة .

ويجوز أن يكون ﴿ مَا رَحِمَ ﴾ في معنى الزمن ، أي : إلا وقت رحمة ربي ، يعني أنها أمّارة بالسوء في كل وقت وأوان ، إلا وقت العصمة .

ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً ، أي : ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة ، كقوله : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ إِلاَّ رَحْمَةً ﴾ [يس : 43] وقيل معناه : ذلك ليعلم أني لم أخنه لأنّ المعصية خيانة .

(193/398)

وقيل : هو من كلام امرأة العزيز ، أي ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه وما أبريء نفسي مع ذلك من الخيانة ، فإني قد خنته حين قرفته وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن وأودعته السجن – تريد الاعتذار مما كان منها – إنّ كل نفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي : إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت .

فإن قلت : كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك ؟

قلت : كفى بالمعنى دليلاً قائداً إلى أن يجعل من كلامه ونحوه قوله : ﴿ قَالَ المَلاُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ [الشعراء : 35] ثم قال : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء : 35] وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم .

وعن ابن جريج : هذا من تقديم القرآن وتأخيره ، ذهب إلى أن ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ ﴾ [يوسف : 52] متصل بقوله : ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ [يوسف : 50] ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة ، فزعموا أن يوسف حين قال : ﴿ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ [يوسف : 52] قال له جبريل : ولا حين هممت بها ، وقالت له امرأة العزيز : ولا حين حللت تكة سراويلك يا يوسف ، وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ ﴾

(194/398)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) ﴾

قال المفسرون : ثم شاع ذلك الحديث في مصر حتى تحدّث بذلك النساء ، وهو قوله : ﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾ ، وفي عددهن قولان :

أحدهما : أنهن كن أربعاً : امرأة ساقي الملك ، وامرأة صاحب دواته ، وامرأة خبّازه ، وامرأة صاحب سجنه ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهن خمس ، امرأة الخبّاز ، وامرأة الساقي ، وامرأة السجّان ، وامرأة صاحب الدواة ، وامرأة الآذن ، قاله مقاتل .

فأما العزيز ، فهو بلغتهم الملك ، والفتى بمعنى العبد .

قال الزجاج : كانوا يسمون المملوك فتى .

وإنما تكلم النسوة في حقها ، طعناً فيها ، وتحقيقاً لبراءة يوسف .

قوله تعالى : ﴿ قد شغفها حباً ﴾ أي : بلغ حبُّه شَغاف قلبها .

وفي الشّغاف أربعة أقوال :

أحدها : أنه جلدةٌ بين القلب الفؤاد ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : أنه غلاف القلب ، قاله أبو عبيدة .

قال ابن قتيبة : ولم يُرِدِ الغلاف ، إنما أراد القلب ، يقال : شغفت فلاناً : إذا أصبت شغافه ، كما يقال : كبدته : إذا أصبت كبده ، وبطنته : إذا أصبت بطنه .

والثالث : أنه حَبّة القلب وسويداؤه .

والرابع : أنه داءٌ يكون في الجوف في الشراسيف ، وأنشدوا :

وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُوْنَ ذَلِكَ دَاخِلٌ . . .

دُخُوْلَ الشَّغَافِ تَبْتَغِيْهِ الأَصَابِعُ

ذكر القولين الزجاج.

وقال الأصمعي : الشّغاف عند العرب : داءٌ يكون تحت الشراسيف في الجانب الأيمن من البطن ، والشّرَاسيف : مقاطّ رؤوس الأضلاع ، واحدها : شُرسوف .

وقرأ عبد الله بن عمرو ، وعلي بن الحسين ، والحسن البصري ، ومجاهد ، وابن محيصن ، وابن أبي عبلة "قد شعفها" بالعين .

قال الفراء : كأنه ذهب بها كل مذهب ، والشّعَف : رؤوس الجبال .

(195/398)

قوله تعالى : ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ أي : عن طريق الرشد ، لحبها إِياه .

والمبين : الظاهر .

قوله تعالى : ﴿ فلما سمعت ﴾ يعني : امرأة العزيز ، ﴿ بمكرهن ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنه قولهن وعيبهن لها ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدي ، وابن قتيبة قال

الزجاج: وإنما سمي هذا القول مكراً، لأنها كانت أطلعتهن على أمرها، واستكتمتهن، فمكرن وأفشين سرها.

والثاني: أنه مكر حقيقة، وإنما قلن ذلك مكراً بها لتريَهنّ يوسف، قاله ابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿ وأعتدت ﴾ قال الزجاج: أفعلت من العتاد، وكل ما اتخذته عُدَّةً لشيء فهو عتاد، والعتاد: الشيء الثابت اللازم.

وقال ابن قتيبة: أعتدت بمعنى أعدَّت.

فأما المتكأ، ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه المجلس، فالمعنى: هيأت لهن مجلساً، قاله الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: أنه الوسائد اللائي يتكئن عليها، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

وقال الزجاج: المتكأ: ما يُتَّكأ عليه لطعام أو شراب أو حديث.

والثالث: أنه الطعام، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة.

قال ابن قتيبة: يقال: اتكأنا عند فلان: إذا طعمنا، قال جميل بن معمر:

فَظَلِلْنَا في نَعْمةٍ واتَّكأْنا . . .

وَشَرِبْنَا الحَلاَلَ مِنْ قُلَلِهْ

والأصل في هذا أن من دَعَوْتَه ليطعم، أعددت له التُّكأة للمقام والطمأنينة، فسمي الطعام متَّكأً على الاستعارة.

قال الأزهري : إِنما قيل للطعام : متكأ ، لأن القوم إِذا قعدوا على الطعام اتكؤوا ، ونُهيت هذه الأمة عن ذلك .

وقرأ مجاهد "مُتْكاً" بإسكان التاء خفيفة ، وفيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه الأُتْرُجّ ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، ويحيى بن يعمر في آخرين ، ومنه قول الشاعر :

نَشْرَبُ الإِثْمَ بالصُّواعِ جِهَاراً . . .

وترى المُتْكَ بَيْنَنَا مُسْتَعَارا

يريد : الأُتْرُجّ.

والثاني : أنه الطعام أيضاً ، قاله عكرمة .

الثالث : أنه كل شيء يُحزُّ بالسكاكين ، قاله الضحاك .

والرابع : أنه الزُّماورد ، روي عن الضحاك أيضاً .

وقد روي عن جماعة أنهم فسروا المتَّكأ بما فسروا به المُتك ، فروي عن ابن جريج أنه قال : المتَّكأُ : الأترج ، وكل ما يُحزُّ بالسكاكين .

وعن الضحاك قال: المتَّكأُ: كل ما يُحَزُّ بالسكاكين.

وفرق آخرون بين القراءتين، فقال مجاهد: من قرأ "متَّكَأً" بالتثقيل، فهو الطعام، ومن قرأ بالتخفيف، فهو الأُتْرُجُّ.

قال ابن قتيبة: من قرأ "مُتْكاً" فإنه يريد الأترج، ويقال: الزُّماورد.

وأياً ما كان، فإني لا أحسبه سمي مُتْكاً إلا بالقطع، كأنه مأخوذ من البَتْك، فأبدلت الميم منه باءً، كما يقال: سَمَد رأسه وسَبَده: إذا استأصله، وشر لازم، ولازب، والميم تبدل من الباء كثيراً، لقرب مخرجيهما.

قوله تعالى: ﴿ وآتت كلَّ واحدة منهن سكيناً ﴾ إنما فعلت ذلك، لأن الطعام الذي قدمتْ لهن يحتاج إلى السكاكين.

وقيل: كان مقصودها افتضاحهن بتقطيع أيديهن كما فضحنها.

قال وهب بن منبه: ناولت كل واحدة منهن أُتْرُجَّةً وسكيناً، وقالت لهن: لا تقطعن ولا تأكلن حتى أُعلمكن، ثم قالت ليوسف: اخرج عليهن.

قال الزجاج: إن شئت ضممت التاء من قوله: "وقالت".

وإن شئت كسرت، والكسر الأصل لسكون التاء والخاء، ومن ضم التاء، فلثقل الضمة بعد الكسرة.

ولم يمكنه أن لا يخرج، لأنه بمنزلة العبد لها.

وذكر بعض أهل العلم أنها إنما قالت: "اخرج" وأضمرت في نفسها "عليهن"، فأخبر الحق عما في النفس كأن اللسان قد نطق به، ومثله ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله . . . ﴾ الآية [الانسان 9]، لم يقولوا ذلك، إنما أضمروه، ويدل على صحة هذا أنها لو قالت له وهو شاب مستحسَن: اخرج على نسوة من طبعهن الفتنة، ما فعل.

وفي قوله: ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ قولان:

أحدهما: أَعْظَمْنَهُ، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وابن أبي نجيح عن مجاهد، وبه قال قتادة، وابن زيد.

والثاني: حِضْنَ، رواه الضحاك عن ابن عباس.

وروى علي بن عبد الله ابن عباس عن أبيه قال: حضن من الفَرَح، قال: وفي ذلك يقول الشاعر:

نَأْتي النساءَ لدى أطهارِهِنَّ ولا . . .

نأتي النساءَ إذا أكبرنَ إكبارا

وقد روى هذا المعنى ليث عن مجاهد، واختاره ابن الأنباري، وردّه بعض اللغويين، فروي

عن أبي عبيدة أنه قال : ليس في كلام العرب "أكبرن" بمعنى "حِضن" ، ولكن عسى أن يكنّ من شدة ما أعظمنه حضن ، وكذلك روي عن الزجاج أنه أنكره .

قوله تعالى : ﴿ وقطّعن أيديَهن ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : حَزَزْنَ أيديَهن ، وكن يحسبن أنهن يقطّعن طعاماً ، قاله ابن عباس ، وابن زيد .

والثاني : قطّعن أيديَهن حتى ألقينها ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثالث : كلَمن الأكُفَّ وأبنَّ الأنامل ، قاله وهب بن منبه .

قوله تعالى : ﴿ وقلن حاشا لله ﴾ قرأ أبو عمرو "حاشا" بألف في الوصل في الموضعين ، واتفقوا على حذف الألف في الوقف ، وأبو عمرو جاء به على التمام والأصل ، والباقون حذفوا .

وهذه الكلمة تستعمل في موضعين .

أحدهما : الاستثناء ، والثاني : التبرئة من الشر .

والأصل "حاشا" وهي مشتقة من قولك : كنت في حشا فلان ، أي : في ناحيته .

والحشا : الناحية ، وأنشدوا :

بأيِّ الحَشَا أَمْسَى . . .

الخَلِيْطُ المُبَايِنُ

أي : بأي النواحي ، والمعنى : صار يوسف في حشاً من أن يكون بشراً ، لفرط جماله .

وقيل: صار في حشاً مما قرفته به امرأة العزيز.

وقال ابن عباس، ومجاهد: "حاش لله" بمعنى: معاذ الله.

قال الفراء: و"بشراً" منصوب، لأن الباء قد استعملت فيه، فلا يكاد أهل الحجاز ينطقون إلا بالباء، فلما حذفوها أحبوا أن يكون لها أثر فيما خرجت منه، فنصبوا على ذلك، وكذلك قوله: ﴿ ما هن أمهاتِهم ﴾ [المجادلة: 2]، وأما أهل نجد فيتكلمون بالباء وبغير الباء، فإذا أسقطوها، رفعوا، وهو أقوى الوجهين في العربية.

قال الزجاج: قوله: الرفع أقوى الوجيهن، غلط، لأن كتاب الله أقوى اللغات، ولم يقرأ بالرفع أحد.

وزعم الخليل، وسيبويه، وجميع النحويين القدماء أن "بشراً" منصوب، لأنه خبر "ما" و "ما" بمنزلة "ليس".

قلت: وقد قرأ أبو المتوكل، وأبو نهيك، وعكرمة، ومعاذ القارئ في آخرين: "ما هذا بشر" بالرفع.

وقرأ أُبَيّ بن كعبٍ، وأبو الجوزاء، وأبو السَّوَّار: "ما هذا بِشِرىً" بكسر الباء والشين

مقصوراً منوّناً .

قال الفراء : أي : ما هذا بمشترى .

وقرأ ابن مسعود : "بشراءٍ" بالمد والهمز مخفوضاً منوّناً .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هذا إلا مَلَكٌ ﴾ قرأ أُبَيٌّ ، وأبو رزين ، وعكرمة ، وأبو حيوة ، والجحدري : "مِلك" بكسر اللام .

قوله تعالى : ﴿ فذلكن الذي لمتنّني فيه ﴾ قال المفسرون : لما ذهلت عقولهن فقطّعن أيديَهن ، قالت لهن ذلك .

فإن قيل : كيف أشارت إليه وهو حاضر بقولها : "فذلكن" ؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري :

أحدهما : أنها أشارت ب "ذلكن" إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس .

والثاني : أن في الكلام إضمار "هذا" تقديره : فهذا ذلكن .

ومعنى "لمتنّني فيه" أي : في حبه .

ثم أقرت عندهن ، فقالت : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي : امتنع .

قوله تعالى : ﴿ وليكونن من الصاغرين ﴾ قال الزجاج : القراءة الجيدة تخفيف "وليكونْنْ" والوقف عليها بالألف ، لأن النون الخفيفة تبدل منها في الوقف الألف ، تقول : اضربنْ زيداً ، وإذا وقفت قلت : اضربا .

وقد قرئت "وليكونَنَّ" بتشديد النون، وأكرهُها، لخلاف المصحف، لأن الشديدة لا يبدل منها شيء.

والصاغرون: المذَلُّون.

قوله تعالى: ﴿ قال رب السجن أحب إِلي ﴾ قال وهب بن منبه: لما قالت: "فذلكن الذي لمتّنني فيه" قلن: لا لوم عليكِ، قالت: فاطلبن إِلى يوسف أن يسعفني بحاجتي، فقلن: يا يوسف افعل، فقالت: لئن لم يفعل لأخلدنَّه السجن، فعند ذلك قال.

﴿ رب السجن أحب إِلي ﴾.

وقرأ يعقوب: "السَّجن" بفتح السين هاهنا فحسب.

قال الزجاج: من كسر سين "السجن" فعلى اسم المكان، فيكون المعنى: نزول السجن أحب إِليَّ من ركوب المعصية، ومن فتح، فعلى المصدر، المعنى: أن أُسجن أحب إِلي.

﴿ وإِلاَّ تصرفْ عني كيدهن ﴾ أي: إِلاَّ تعصمني ﴿ أصب إِليهن ﴾ أي: أمِل إِليهن.

يقال: صبا إِلى اللهو يصبو صَبْواً وصُبُوّاً وصَباءً: إِذا مال.

وقال ابن الأنباري: ومعنى هذا الكلام: اللهم اصرف عني كيدهن، ولذلك قال: ﴿

فاستجاب له ربُّه ﴾ .

قال : فإن قيل : إِنما كادته امرأة العزيز وحدها ، فكيف قال "كيدهن" ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن العرب توقع الجمع على الواحد ، فيقول قائلهم : خرجت إِلى البصرة في السفن ، وهو لم يخرج إِلا في سفينة واحدة .

والثاني : أن المكنيَّ عنه امرأة العزيز والنسوة اللاتي عاضدنها على أمرها .

والثالث : أنه عنى امرأة العزيز وغيرها من نساء العالَمين اللاتي لهن مثل كيدها .

قوله تعالى : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ﴾ في المراد بالآيات ثلاثة أقوال : أحدها : أنها شق القميص ، وقضاء ابن عمها عليها ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها قدّ القميص ، وشهادة الشاهد ، وقطع الأيدي ، وإِعظام النساء إِياه ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والثالث : جَمَاله وعِفَّتُه ، ذكره الماوردي .

قال وهب بن منبه : فأشار النسوة عليها بسجنه رجاء أن يستهوينه حين يخلو لهن في السجن ، وقلن : متى سجنتيه قطع ذلك عنكِ قَالَةَ الناس التي قد شاعت ، ورأوا أنكِ تبغضينه ، ويذلُّه السجن لك ، فلما انصرفن عادت إِلى مراودته فلم يزدد إِلا بُعداً عنها ، فلما يئست ، قالت لسيدها : إِن هذا العبد قد فضحني ، وقد أبغضتُ رؤيته ، فائذن لي

في سجنه ، فأذن لها ، فسجنْته وأضرَّتْ به .

وقال السدي : قالت : إما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر بعذري ، وإما أن تحبسه كما حبستني ، فظهر للعزيز وأصحابه من الرأي حبس يوسف .

قال الزجاج : كان العزيز أمر بالإعراض فقط ، ثم تغيَّر رأيه عن ذلك .

قال ابن الأنباري : وفي معنى الآية قولان :

أحدهما : "ثم بدا لهم" أي : ظهر لهم بالقول والرأي والفكر سجنه .

والثاني : ثم بدا لهم في يوسف بَدءٌ ، فقالوا : والله لنسجننَّه ، فاللام جواب يمين مضمرة .

فأما الحين ، فهو يقع على قصير الزمان وطويله .

وفي المراد به هاهنا للمفسرين خمسة أقوال :

أحدها : خمس سنين ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : سنة ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : سبع سنين ، قاله عكرمة .

والرابع : إلى انقطاع القالَة ، قاله عطاء .

والخامس : أنه زمان غير محدود ، ذكره الماوردي ، وهذا هو الصحيح ، لأنهم لم يعزموا على حبسه مدة معلومة ، وإنما ذكر المفسرون قدر مالبث .

قوله تعالى : ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ قال الزجاج : فيه دليل على أنه حبس ، وإن لم يُذكر ذلك .

و"فتيان" جائز أن يكونا حدَثين أو شيخين ، لأنهم يسمون المملوك فتى .

قال ابن الأنباري : إنما قال : "فتيان" لأنهما كانا مملوكين ، والعرب تسمي المملوك فتى ، شاباً كان أو شيخاً .

قال المفسرون : عُمِّر ملك مصر فملّوه : فدسُّوا إلى خبّازه وصاحب شرابه أن يسمّاه ، فبلغه ذلك فحبسهما ، فكان يوسف قال لأهل السجن : إني أعبِّر الأحلام ، فقال أحد الفتيين : هلم فلنجرب هذا العبد العبراني .

واختلفوا هل كانت رؤياهما صادقة ، أم لا ؟ على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها كانت كذباً ، وإنما سألاه تجريباً ، قاله ابن مسعود ، والسدي .

والثاني : أنها كانت صدقاً ، قاله مجاهد ، وابن إسحاق .

والثالث : أن الذي صُلب منهما كان كاذباً ، وكان الآخر صادقاً ، قاله أبو مجلز .

قوله تعالى : ﴿ قال أحدهما ﴾ يعني الساقي ﴿ إني أراني ﴾ أي : في النوم ﴿ أعصر خمراً ﴾ أي : عنباً .

وفي تسمية العنب خمراً ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه سماه باسم ما يؤول إليه ، لأن المعنى لا يلتبس .

(201/398)

كما يقال : فلان يطبخ الآجُرَّ ويعمل الدبس ، وإِنما يطبخ اللبِن ويصنع التمر ، وهذا قول أكثر المفسرين .

قال ابن الأنباري : وإِنما كان كذلك ، لأن العرب توقع بالفرع ما هو واقع بالأصل ، كقولهم : فلان يطبخ آجُرّاً .

والثاني : أن الخمر في لغة أهل عُمان اسم للعنب ، قاله الضحاك ، والزجاج.

قال ابن القاسم : وقد نطقت قريش بهذه اللغة وعرفتها .

والثالث : أن المعنى : أعصر عنب خمر ، وأصل خمر ، وسبب خمر ، فحذف المضاف ، وخلفه المضاف إِليه ، كقوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف 82] .

قال أبو صالح عن ابن عباس : رأى يوسف ذات يوم الخباز والساقي مهمومَين ، فقال : ما شأنكما ؟ قالا : رأينا رؤيا ، قال : قُصّاها عليّ ، قال الساقي : إِني رأيت كأني دخلت كرماً فجنيت ثلاثة عناقيد عنب ، فعصرتهن في الكأس ، ثم أتيت به الملك فشربه ، وقال

الخباز : رأيت أني خرجت من مطبخ الملك أحمل فوق رأسي ثلاث سلال من خبز ، فوقع طير على أعلاهن فأكل منها ، ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ أي : أخبرنا بتفسيره .

وفي قوله : ﴿ إِنا نراك من المحسنين ﴾ خمسة أقوال :

أحدها : أنه كان يعود المرضى ويداويهم ويعزّي الحزين ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والثاني : إِنا نراك محسناً إِن أنبأتنا بتأويله ، قاله ابن إِسحاق .

والثالث : إِنا نراك من العالِمين قد أحسنت العلم ، قاله الفراء .

قال ابن الأنباري : فعلى هذا يكون مفعول الإِحسان محذوفاً ، كما حُذف في قوله : ﴿ وفيه يَعصرون ﴾ [يوسف 49] يعني العنب والسمسم .

وإِنما علموا أنه عالم ، لنشره العلم بينهم .

والرابع : إِنا نراك ممن يحسن التأويل ، ذكره الزجاج .

والخامس : إِنا نراك محسناً إِلى نفسك بلزومك طاعة الله ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ قال لا يأتيكما طعام تُرْزَقانه ﴾ في معنى : الكلام قولان :

أحدهما : لا يأتيكما طعام تُرْزَقانه في اليقظة إلا أخبرتكما به قبل أن يصل إليكما ، لأنه كان يخبر بما غاب كعيسى عليه السلام ، وهو قول الحسن .

والثاني : لا يأتيكما طعام تُرْزَقانه في المنام إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما في اليقظة ، هذا قول السدي .

قال ابن عباس : فقالا له : وكيف تعلم ذلك ، ولست بساحر ، ولا عرّاف ، ولا صاحب نجوم ؛ فقال : ﴿ ذلكما مما علّمني ربي ﴾ .

فإن قيل : هذا كله ليس بجواب سؤالهما ، فأين جواب سؤالهما ؟ فعنه أربعة أجوبة :

أحدها : أنه لما علم أن أحدهما مقتول ، دعاهما إلى نصيبهما من الآخرة ، قاله قتادة .

والثاني : أنه عدل عن الجواب لما فيه من المكروه لأحدهما ، قاله ابن جريج .

والثالث : أنه ابتدأ بدعائهما إلى الإيمان قبل جواب السؤال ، قاله الزجاج .

والرابع : أنه ظنهما كاذبَين في رؤياهما ، فعدل عن جوابهما ليُعرضا عن مطالبته بالجواب فلما ألحّا أجابهما ، ذكره ابن الأنباري .

فأما الملّة فهي الدين .

وتكرير قوله : ﴿ هم ﴾ للتوكيد .

قوله تعالى : ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ قال ابن عباس : يريد : أن الله عصمنا من الشرك ﴿ ذلك من فضل الله علينا ﴾ أي : اتّباعنا الإيمان بتوفيق الله .

﴿ وعلى الناس ﴾ يعني المؤمنين بأن دلهم على دينه .

وقال ابن عباس : "ذلك من فضل الله علينا" أن جعلنا أنبياء "وعلى الناس" أن بعثنا إِليهم ، ﴿ ولكنَّ أكثر الناس ﴾ من أهل مصر ﴿ لا يشكرون ﴾ نعم الله فيوحّدِونه .

(203/398)

قوله تعالى : ﴿ أأرباب متفرقون ﴾ يعني : الأصنام من صغير وكبير ﴿ خيرٌ ﴾ أي : أعظم صفة في المدح ﴿ أم الله الواحد القهار ﴾ يعني أنه أحق بالإِلهية من الأصنام ؟ فأما الواحد ، فقال الخطابي : هو الفرد الذي لم يزل وحده ، وقيل : هو المنقطع القرين ، المعدوم الشريك والنظير ، وليس كسائر الآحاد من الأجسام المؤلَّفة ، فإن كل شيء سواه يُدعى واحداً من جهة ، غير واحد من جهات ، والواحد لا يثنَّى من لفظه ، لا يقال : واحدان .

والقهار : الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة ، وقهر الخلق كلَّهم بالموت .

وقال غيره : القهار : الذي قهر كل شيء فذلَّله ، فاستسلم وذلَّ له .

قوله تعالى : ﴿ ما تعبدون من دونه ﴾ إِنما جمع في الخطاب لهما ، لأنه أراد جميع من شاركهما في شركهما .

وقوله : "من دونه" أي من دون الله ﴿ إِلا أسماءً ﴾ يعني : الأرباب والآلهة ، ولا يصح

معاني تلك الأسماء للأصنام ، فكأنها أسماء فارغة ، فكأنهم يعبدون الأسماء ، لأنها لا تصح معانيها .

﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي : من حجة بعبادتها .

﴿ إِن الحكم إِلا لله ﴾ أي : ما القضاء والأمر والنهي إِلا له .

﴿ ذلك الدّين القيِم ﴾ أي : المستقيم يشير إِلى التوحيد .

﴿ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لا يعلمون أنه لا يجوز عبادة غيره .

والثاني : لا يعلمون ما للمطيعين من الثواب وللعاصين من العقاب .

قوله تعالى : ﴿ أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمراً ﴾ الرب هاهنا : السيد .

قال ابن السائب : لما قص الساقي رؤياه على يوسف ، قال له : ما أحسن ما رأيت ! أما الأغصان الثلاثة ، فثلاثة أيام ، يبعث إِليك الملك عند انقضائها ، فيردك إِلى عملك ، فتعود كأحسن ما كنت فيه ، وقال للخبّاز : بئس ما رأيت ، السلال الثلاث ، ثلاثة أيام ، ثم يبعث إِليك الملك عند انقضائهن ، فيقتلك ويصلبك ويأكل الطير من رأسك ، فقالا : ما رأينا

شيئاً ، فقال : ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ أي : فُرغ منه ، وسيقع بكما ، صدقتما أو كذبتما .

فإن قيل : لم حتّم على وقوع التأويل ، وربما صدق تأويل الرؤيا وكذب ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنه حتم ذلك لوحي أتاه من الله ، وسبيل المنام المكذوب فيه أن لا يقع تأويله ، فلما قال : "قضي الأمر" دل على أنه بوحي .

والثاني : أنه لم يحتم ، بدليل قوله : "وقال للذي ظنَّ أنه ناجٍ منهما" ، قال أصحاب هذا الجواب : معنى "قضي الأمر" : قُطع الجواب الذي التمستماه من جهتي ، ولم يعنِ أن الأمر واقع بكما .

وقال أصحاب الجواب الأول : الظن هاهنا بمعنى العلم .

قوله تعالى : ﴿ وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما ﴾ يعني الساقي .

وفي هذا الظن قولان :

أحدهما : أنه بمعنى العلم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الظن الذي يخالف اليقين ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ أي : عند صاحبك ، وهو الملك ، وقل له : إن في السجن غلاماً حُبس ظلماً .

واسم الملك : الوليد بن الريّان .

قوله تعالى : ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ فيه قولان :

أحدهما : فأنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف لربه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال ابن إِسحاق .

والثاني : فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه ، وأمره بذكر الملك ابتغاءَ الفرج من عنده ، قاله مجاهد ، ومقاتل ، والزجاج ، وهذا نسيان عمد ، لا نسيان سهو ، وعكسه القول الذي قبله .

قوله تعالى : ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ أي : غير ما كان قد لبث قبل ذلك . عقوبة له على تعلُّقه بمخلوق .

(205/398)

وفي البضع تسعة أقوال :

أحدها : ما بين السبع والتسع ، روى ابن عباس أن أبا بكر لما ناحب قريشاً عند نزول ﴿ آلم غلبت الروم ﴾ [الروم : 1 ، 2] ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا احتطت ، فإن البضع ما بين السبع إِلى التسع " والثاني : اثنتا عشرة سنة ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : سبع سنين ، قاله عكرمة .

والرابع : أنه ما بين الخمس إِلى السبع ، قاله الحسن .

والخامس : أنه ما بين الأربع إِلى التسع ، قاله مجاهد .

والسادس : ما بين الثلاث إِلى التسع ، قاله الأصمعي ، والزجاج .

والسابع : أن البضع يكون بين الثلاث والتسع العشر ، قاله قتادة .

والثامن : أنه ما دون العشرة ، قاله الفراء ، وقال الأخفش : البضع : من واحد إِلى عشرة .

والتاسع : أنه ما لم يبلغ العقد ولا نصفه ، قاله أبو عبيدة : قال ابن قتيبة : يعني ما بين الواحد إِلى الأربعة .

وروى الأثرم عن أبي عبيدة : البضع : ما بين ثلاث وخمس .

وفي جملة ما لبث في السجن ثلاثة أقوال :

أحدها : اثنتا عشرة سنة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أربع عشرة ، قاله الضحاك .

والثالث : سبع سنين ، قاله قتادة .

قال مالك بن دينار : لما قال يوسف للساقي "اذكرني عند ربك" قيل له : يا يوسف ، أتخذت من دوني وكيلاً ؟ لأطيلنَّ حبسك ، فبكى ، وقال : يا رب ، أنسى قلبي كَثرةُ البلوى ، فقلت كلمة ، فويل لإِخوتي .

قوله تعالى : ﴿ وقال الملك ﴾ يعني ملك مصر الأكبر ﴿ إِني أرى ﴾ يعني في المنام ، ولم يقل : رأيت ، وهذا جائز في اللغة أن يقول القائل : أرى ، بمعنى رأيت .

(206/398)

قال وهب بن منبه : لما انقضت المدة التي وقّتها الله تعالى ليوسف في حبسه ، دخل عليه جبريل إِلى السجن ، فبشَّره بالخروج وملكِ مصر ولقاءِ أبيه ، فلما أمسى الملك من ليلتئذ ، رأى سبع بقرات سمان خرجن من البحر ، في آثارهن سبع عجاف ، فأقبلت العجاف على السمان ، فأخذن بأذنابهن فأكلنهن إِلى القرنين ، ولم يزد في العجاف شيء ، ورأى سبع سنبلات خضر وقد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن حتى أتين عليهن ، ولم يزدد في اليابسات شيء ، فدعا أشراف قومه فقصها عليهم ، فقالوا : ﴿ أضغاث أحلام ﴾ .

قال الزجاج : والعجاف التي قد بلغت في الهزال الغاية .

والملأ : الذين يُرجع إِليهم في الأمور ويقتدى برأيهم ، واللام في قوله : ﴿ للرؤيا ﴾ دخلت على المفعول للتبيين ، المعنى : إِن كنتم تعبرون .

ثم بيّن باللام فقال .

"للرؤيا" ومعنى عبرتُ الرؤيا وعبَّرتها : أخبرت بآخر ما يؤول إِليه أمرها ، واشتقاقه من

عبر النهر، وهو شاطئ النهر، فتأويل عبرت النهر: بلغت إلى عِبْره، أي: إلى شطه وهو آخر عرضه.

وذكر ابن الأنباري في اللام قولين:

أحدهما: أنها للتوكيد.

والثاني: أنها أفادت معنى "إلى" والمعنى: إن كنتم توجّهون العبارة إلى الرؤيا.

قوله تعالى: ﴿ قالوا أضغاث أحلام ﴾ قال أبو عبيدة: واحدها ضِغث، مكسورة، وهي ما لا تأويل له من الرؤيا تراه جماعات، تُجمع من الرؤيا كما يُجمع الحشيش، فيقال: ضغث، أي: ملء كف منه.

وقال الكسائي: الأضغاث: الرؤيا المختلطة.

وقال ابن قتيبة: "أضغاث أحلام" أي: أخلاط مثل أضغاث النبات يجمعها الرجل، فيكون فيها ضروب مختلفة.

وقال الزجاج: الضغث في اللغة: الحزمة والباقة من الشيء، كالبقل وما أشبهه، فقالوا له: رؤياك أخلاط أضغاث، أي: حزم أخلاط، ليست برؤيا بيّنه، ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ أي: ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل.

وقال غيره: وما نحن بتأويل الأحلام الذي هذا وصفها بعالمين.

والأحلام: جمع حُلُم، وهو ما يراه الإِنسان في نومه مما يصح ومما يبطل.

قوله تعالى: ﴿ وقال الذي نجا منهما ﴾ يعني الذي تخلص من القتل من الفتيين، وهو الساقي، ﴿ وادّكر ﴾ اي: تذكر شأن يوسف وما وصّاه به.

قال الزجاج: وأصل ادّكر: اذتكر، ولكن التاء ابدلت منها الدال، وأدغمت الذال في الدال.

وقرأ الحسن: "واذَّكر" بالذال المشددة.

وقوله: ﴿ بعد أمة ﴾ أي: بعد حين، وهو الزمان الذي لبثه يوسف بعده في السجن، وقد سبق بيانه.

وقرأ ابن عابس، والحسن "بعد أَمَةً" أراد: بعد نسيان.

فإن قيل: هذا يدل على أن الناسي في قوله: "فأنساه الشيطان ذكر ربه" هو الساقي، ولا شك أن من قال: إِن الناسي يوسف يقول: لم ينس الساقي.

فالجواب: أن من قال: إِن يوسف نسي، يقول: معنى قوله: "وادّكر" ذكر، كما تقول العرب: احتلب بمعنى حلب، واغتدى بمعنى غدا، فلا يدل إِذاً على نسيان سبقه.

وقد روى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال: إِنما لم يذكر الساقي خبر يوسف للملك حتى احتاج الملك إِلى تأويل رؤياه، خوفاً من أن يكون ذكره ليوسف سبباً لذكره الذنب الذي من

أجله حبس، ذكر هذا الجواب ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ أي: من جهة يوسف ﴿ فأرسلون ﴾ أثبت الياء فيها وفي ﴿ ولا تقربون ﴾ [يوسف: 60] ﴿ أن تفنّدون ﴾ [يوسف: 94] يعقوب في الحالين، فخاطب الملك وحده بخطاب الجميع، تعظيماً، وقيل: خاطبه وخاطب أتباعه.

وفي الكلام اختصار، المعنى: فأرسلوه فأتى يوسف فقال: يا يوسف يا أيها الصدّيق.

والصدّيق: الكثير الصدق، كما يقال: فسّيق، وسكّير، وقد سبق بيانه [النساء: 69].

قوله تعالى: ﴿ لعلّي أرجع إلى الناس ﴾ يعني الملك وأصحابه والعلماء الذين جمعهم لتعبير رؤياه.

وفي قوله: ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ قولان:

أحدهما: يعلمون تأويل رؤيا الملك.

والثاني: يعلمون بمكانك فيكون سبب خلاصك.

وذكر ابن الأنباري في تكرير "لعلّي" قولين: أحدهما: أن "لعل" الأولى متعلقة بالإِفتاء.

والثانية مبنية على الرجوع، وكلتاهما بمعنى "كي".

والثاني: أن الأولى بمعنى "عسى" والثانية بمعنى "كي" فأعيدت لاختلاف المعنيين، وهذا هو الجواب عن قوله: ﴿ لعلهم يعرفونها إِذا انقلبوا إِلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ [يوسف: 63] قال المفسرون: كان سيِّده العزيز قد مات، واشتغلت عنه امرأته.

وقال بعضهم: لم يكن العزيز قد مات، فقال يوسف للساقي: قل للملك: هذه سبع سنين مُخصِبات، ومن بعدهن سبع سنين شداد، إِلا أن يُحتال لهن، فانطلق الرسول إِلى الملك فأخبره، فقال له الملك: ارجع إِليه فقل له: كيف يُصنع؟ فقال: ﴿ تزرعون سبع سنين دَأَباً ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم "دأْباً" ساكنة الهمزة، إِلا أن أبا عمرو كان إِذا أدرج القراءة لم يهمزها.

وروى حفص عن عاصم "دأَباً" بفتح الهمزة.

قال أبو علي: الأكثر في "دأب" الإِسكان، ولعل الفتح لغة، ومعنى "دأَباً" أي: زراعة متوالية على عادتكم، والمعنى: تزرعون دائبين.

فناب "دأب" عن "دائبين".

وقال الزجاج: المعنى: تدأبون دأباً، ودل على تدأبون "تزرعون" والدأب: الملازمة للشيء والعادة.

فإن قيل : كيف حكم بعلم الغيب ، فقال : "تزرعون" ولم يقل : إِن شاء الله ؟ فعنه أربعة أجوبة :

أحدها : أنه كان بوحي من الله عز وجل .

والثاني : أنه بنى على علم ما علّمه الله من التأويل الحق ، فلم يشك .

والثالث : أنه أضمر "إِن شاء الله" كما أضمر إِخوته في قولهم : ﴿ ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ﴾ [يوسف : 65] ، فاضمروا الاستثناء في نياتهم ، لأنهم على غير ثقة مما وعدوا ، ذكره ابن الأنباري .

والرابع : أنه كالآمر لهم ، فكأنه قال : ازرعوا .

قوله تعالى : ﴿ فذروه في سنبله ﴾ فإنه أبقى له ، وأبعد من الفساد .

والشِّداد : المجدبات التي تشتد على الناس .

﴿ يأكلن ﴾ أي : يُذهبن ما قدمتم لهن في السنين المخصبات ، فوصف السنين بالأكل ، وإِنما يؤكل فيها ، كما يقال : ليل نائم .

قوله تعالى : ﴿ إِلا قليلاً مما تحصنون ﴾ أي : تحرزون وتدَّخرون .

قوله تعالى : ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام ﴾ إِن قيل : لِمَ أشار إِلى السنين وهي مؤنثة ب "ذلك" ؟

فعنه جوابان ذكرهما ابن القاسم :

أحدهما : أن السبع مؤنثه ، ولا علامة للتأنيث في لفظها ، فأشبهت المذكّر ، كقوله : ﴿ السماءُ منفطرٌ به ﴾ [المزمل : 18] فذكّر منفطراً لمّا لم يكن في السماء علم التأنيث ، قال الشاعر :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها . . .

وَلاَ أَرْضٌ أَبْقَلَ إِبْقَالَهَا

فذكرّ "أبقل" لِما وصفنا .

والثاني : أن "ذلك" إِشارة إِلى الجدب ، وهذا قول مقاتل ، والأول قول الكلبي .

قال قتادة : زاده الله علم عام لم يسألوه عنه .

قوله تعالى : ﴿ فيه يغاث الناس ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يصيبهم الغيث ، قاله ابن عباس .

والثاني : يغاثون بالخصب .

ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وفيه يعصرون ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم

: "يعصرون" بالياء .

وقرأ حمزة ، والكسائي بالتاء ، فوجّها الخطاب إلى المستفتين .

وفي قوله "يعصرون" خمسة أقوال :

أحدها : يعصرون العنب والزيت والثمرات ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والجمهور .

والثاني : "يعصرون" بمعنى يحتلبون ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وروى ابن الأنباري عن أبيه عن أحمد بن عبيد قال : تفسير "يعصرون" يحتلبون الألبان لِسعَةِ خيرهم واتّساع خصبهم ، واحتج بقول الشاعر :

فما عِصْمَةُ الأَعْرَابِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُم . . .

طَعَامٌ وَلاَ دَرٌّ مِنَ المَالِ يُعْصَرُ

أي : يُحلب .

والثالث : ينجون ، وهو من العَصَر ، والعَصَر : النجاء ، والعُصْرة : المنجاة .

ويقال : فلان في عُصْرة : إذا كان في حصن لا يُقدرَ عليه ، قال الشاعر :

صَادِياً يَسْتَغيث غَيْرَ مُغَاثٍ . . .

وَلَقَدْ كان عُصْرَةَ المَنْجُودِ

أي : غياثاً للمغلوب المقهور ، وقال عدي :

لَوْ بغَيْرِ المَاءِ حَلْقِي شَرِقٌ . . .

كُنْتُ كالغصَّانِ بالماءِ اعْتِصَارِي

هذا قول أبي عبيده .

والرابع : يصيبون ما يحبون ، روي عن أبي عبيدة أيضاً أنه قال : المعتصر : الذي يصيب الشيء ويأخذه ، ومنه هذه الآية .

ومنه قول ابن أحمر :

فإنَّما العَيْشُ بِرّيَانِه . . .

وأَنْتَ من أفْنَانِه مُعْتَصَر

والخامس : يعطون ويفضِلون لِسَعَةِ عيشهم ، رواه ابن الأنباري عن بعض أهل اللغة .

وقرأ سعيد بن جبير : "يُعصَرون" بضم الياء وفتح الصاد .

وقال الزجاج : أراد : يُمطرون من قوله : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً ﴾ [النبأ : 14] .

قوله تعالى : ﴿ وقال الملك ائتوني به ﴾ قال المفسرون : لما رجع الساقي إلى الملك وأخبره

بتأويل رؤياه ، وقع في نفسه صحة ما قال ، فقال : ائتوني بالذي عبّر رؤياي ، فجاءه الرسول ، فقال : أجب الملك ، فأبى أن يخرج حتى تبين براءته مما قُرف به ، فقال : ﴿ ارجع إِلى ربك ﴾ يعني الملك ﴿ فاسأله ما بال النسوة ﴾ وقرأ ابن أبي عبلة : "النُّسوة" بضم النون ، والمعنى : فاسأل الملك أن يتعرف ما شأن تلك النسوة وحالهن ليعلم صحة براءتي ، وإِنما أشفق أن يراه الملك بعين مشكوك في أمره أو متّهم بفاحشة ، وأحب أن يراه بعد استقرار براءته عنده .

وظاهر قوله : ﴿ إِن ربي بكيدكن عليم ﴾ أنه يعني الله تعالى ، وحكى ابن جرير الطبري أنه أراد به سيده العزيز ، والمعنى : أنه يعلم براءتي .

وقد روي عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه استحسن حزم يوسف وصبره عن التسرع إِلى الخروج ، فقال صلى الله عليه وسلم " إن الكريم بن الكريم بن الكريم [ابن الكريم] يوسف بن يعقوب بن إِسحاق بن إِبراهيم ، لو لبثت في السجن ما لبث يوسف ، ثم جاءني الداعي لأجبت " .

وفي ذكره للنسوة دون امرأة العزيز أربعة أقوال :

أحدها : أنه خلطها بالنسوة ، لحسن عِشرةٍ فيه وأدبٍ ، قاله الزجاج .

والثاني : لأنها زوجة ملك ، فصانها .

والثالث : لأن النسوة شاهدات عليها له .

والرابع : لأن في ذكره لها نوع تهمة ، ذكر الأقوال الثلاثة الماوردي .

قال المفسرون : فرجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف ، فدعا الملك النسوة وفيهن امرأة العزيز ، فقال : ﴿ ما خطبكن ﴾ أي : ما شأنكن وقصتكن ﴿ إِذْ راودتُّنَّ يوسف ﴾ .

فإن قيل : إنما راودته واحدة ، فلم جمعن ؟ فعنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه جمعهن في السؤال ليُعلم عينُ المراوِدة .

والثاني : أن أزليخا راودته على نفسه ، وراوده باقي النسوة على القبول منها .

والثالث : أنه جمعهنَّ في الخطاب ، والمعنى لواحدة منهن ، لأنه قد يوقع على النوع وصف الجنس إذا أُمن من اللبس ، يدل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم للنساء : " إِنكن أكثر أهل النار " ، فجمعهن في الخطاب والمعنى لبعضهن ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ قلن حاش لله ﴾ قال الزجاج : قرأ الحسن بتسكين الشين ، ولا اختلاف بين النحويين أن الإِسكان غير جائز ، لأن الجمع بين ساكنين لا يجوز ، ولا هو من كلام العرب .

فأعلم النسوةُ الملكَ براءة يوسف من السوء ، فقالت امرأة العزيز : ﴿ الآن حصحص الحق

﴾ أي: برز وتبين، واشتقاقه في اللغة من الحِصَّة، أي: بانت حصة الحق وجهته من حصة جهة الباطل.

وقال ابن القاسم: "حصحص" بمعنى وضح وانكشف، تقول العرب: حصحص البعير في بروكه: إذا تمكن، وأثَّر في الأرض، وفرّق الحصى.

وللمفسرين في ابتداء أزليخا بالإقرار قولان:

أحدهما: أنها لما رأت النسوة قد برّأنه، قالت: لم يبق إلا أن يُقبِلن علي بالتقرير، فأقرت، قاله الفراء.

والثاني: أنها أظهرت التوبة وحققت صدق يوسف، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال مقاتل: "ذلك" بمعنى هذا.

(212/398)

وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: هذا وذلك يصلحان في هذا الموضع وأشباهه، لقرب الخبر من أصحابه، فصار كالمشاهد الذي يشار إليه بهذا، ولمّا كان متقضياً، أمكن أن يشار إليه بذلك، لأن المتقضّي كالغائب.

واختلفوا في القائل لهذا على ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه يوسف ، وهو من أغمض ما يأتي من الكلام أن تحكي عن شخص شيئاً ثم تصله بالحكاية عن آخر .

ونظير هذا قوله : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ [الأعراف : 110] هذا قول الملأ ﴿ فماذا تأمرون ﴾ قول فرعون .

ومثله ﴿ وجعلوا أعزَّة أهلها أذلَّة ﴾ [النمل : 34] هذا قول بلقيس ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ قول الله تعالى .

ومثله ﴿ مَنْ بَعَثَنَا من مرقدنا ﴾ [يس : 52] هذا قول الكفار ، فقالت الملائكة : ﴿ هذا ما وعد الرحمن ﴾ وإنما يجوز مثل هذا في الكلام ، لظهور الدلالة على المعنى .

واختلفوا ، أين قال يوسف هذا ؟ على قولين :

أحدهما : أنه لما رجع الساقي إِلى يوسف فأخبره وهو في السجن بجواب امرأة العزيز والنسوة للملك ، قال : حينئذ "ذلك ليعلم" ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال ابن جريج .

والثاني : أنه قاله بعد حضوره مجلس الملك ، رواه عطاء عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ليعلم ﴾ أي : ذلك الذي فعلت من ردِّي رسول الملك ، ليعلم .

واختلفوا في المشار إِليه بقوله : "ليعلم" وقوله : ﴿ لم أخنه ﴾ على أربعة أقوال :

أحدها : أنه العزيز ، والمعنى : ليعلم العزيز أني لم أخنه في امرأته ﴿ بالغيب ﴾ أي : إِذا

غاب عني ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور .

والثاني : أن المشار إليه بقوله : "ليعلم" الملك ، والمشار إليه بقوله : "لم أخنه" العزيز ، والمعنى : ليعلم الملك أني لم أخن العزيز في أهله بالغيب ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أن المشار إليه بالشيئين ، الملك ، فالمعنى : ليعلم الملك أني لم أخنه ، يعني الملك أيضاً ، بالغيب .

(213/398)

وفي وجه خيانة الملك في ذلك قولان :

أحدهما : لكون العزيز وزيره ، فالمعنى : لم أخنه في امرأة وزيره ، قاله ابن الأنباري .

والثاني : لم أخنه في بنت أخته ، وكانت أزليخا بنت أخت الملك ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والرابع : أن المشار إليه بقوله : "ليعلم" الله ، فالمعنى : ليعلم الله أني لم أخنه ، روي عن مجاهد ، قال ابن الأنباري : نسب العلم إلى الله في الظاهر ، وهو في المعنى للمخلوقين ، كقوله : ﴿ حتى نعلم المجاهدين منكم ﴾ [محمد : 31] .

فإن قيل : إن كان يوسف قال هذا في مجلس الملك ، فكيف قال : "ليعلم" ولم يقل : لتعلم ،

وهو يخاطبه؟

فالجواب: أنا إن قلنا: إنه كان حاضراً عند الملك، فإنما آثر الخطاب بالياء توقيراً للملك، كما يقول الرجل للوزير: إن رأى الوزير أن يوقّع في قصتي.

وإن قلنا: إنه كان غائباً، فلا وجه لدخول التاء، وكذلك إن قلنا: إنه عنى العزيز، والعزيز غائب عن مجلس الملك حينئذ.

والقول الثاني: أنه قول امرأة العزيز، فعلى هذا يتصل بما قبله، والمعنى: ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته الآن بالكذب عليه.

والثالث: أنه قول العزيز، والمعنى: ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب، فلم أغفل عن مجازاته على أمانته، حكى القولين الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ قال ابن عباس: لا يصوِّب عمل الزناة، وقال غيره: لا يرشد من خان أمانته ويفضحه في عاقبته.

قوله تعالى: ﴿ وما أبرِّىء ﴾ في القائل لهذا ثلاثة أقوال، وهي التي تقدمت في الآية قبلها.

فالذين قالوا: هو يوسف، اختلفوا في سبب قوله لذلك على خمسة أقوال:

أحدها: أنه لما قال: "ليعلم أني لم أخُنه بالغيب" غمزه جبريل، فقال: ولا حين هممتَ؟ فقال: "وما أبرىء نفسي"، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الأكثرون.

والثاني : أن يوسف لما قال : "لم أخنه" ، ذكر أنه قد همّ بها فقال : "وما أبرىء نفسي" ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أنه لما قال ذلك ، خاف أن يكون قد زكّى نفسه ، فقال : "وما أبرىء نفسي" ، قاله الحسن .

والرابع : أنه لما قاله ، قال له الملك الذي معه : اذكر ما هممتَ به ، فقال : "وما أبرىء نفسي" ، قاله قتادة .

والخامس : أنه لما قاله ، قالت امرأة العزيز : ولا يوم حللتَ سراويلك ؟ فقال : "وما أبرىء نفسي" ، قاله السدي .

والذين قالوا : هذا قول امرأة العزيز ، فالمعنى : وما أبرىء نفسي أني كنت راودته .

والذين قالوا : هو العزيز ، فالمعنى : وما أبرىء نفسي من سوء الظن بيوسف ، لأنه قد خطر لي .

قوله تعالى : ﴿ لأمّارة بالسوء ﴾ قرأ ابن عامر ، وأهل الكوفة ، ويعقوب إلا رويساً : "بالسوء إلا" بتحقيق الهمزتين .

وقرأ أبو عمرو ، وابن شنبوذ عن قنبل بتحقيق الثانية وحذف الأولى ، وروى نظيف عن قنبل بتحقيق الأولى وقلب الثانية ياءً .

وقرأ أبو جعفر، وورش، ورويس بتحقيق الأولى وتليين الثانية بين بين، مثل: "السُّوء عِلاَّ" وروى ابن فليح بتحقيق الثانية وقلب الأولى واواً، وأدغمها في الواو التي قبلها، فتصير واواً مكسورة مشددة قبل همزة "إلا".

قوله تعالى: ﴿ إِلا ما رحم ربي ﴾ قال ابن الأنباري: قال اللغويون: هذا استثناء منقطع، والمعنى: إِلا أن رحمة ربي عليها المعتمَد.

قال أبو صالح عن ابن عباس: المعنى: إِلا من عصم ربي.

وقيل: "ما" بمعنى "من".

قال الماوردي: ومن قال: هو قول امرأة العزيز، فالمعنى: إِلا من رحم ربي في قهره لشهوته، أو في نزعها عنه.

ومن قال: هو قول العزيز، فالمعنى: إِلا من رحم ربي بأن يكفيَه سوء الظن، أو يثبِّته، فلا يعجل.

قال ابن الأنباري: والقول بأن هذا قول يوسف، أصح، لوجهين:

أحدهما: لأن العلماء عليه.

والثاني: لأن المرأة كانت عابدة وثن، وما تضمنته الآية، أليق أن يكون قول يوسف من قول من لا يعرف الله عز وجل. انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال النسفى :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾

جماعة من النساء وكن خمساً : امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب .

والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثها غير حقيقي ولذا لم يقل قالت وفيه لغتان كسر النون وضمها ﴿ فِى الْمَدِينَةِ ﴾ في مصر ﴿ امرأت العزيز ﴾ يردن قطفير ، والعزيز الملك بلسان العرب ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا ﴾ غلامها يقال فتاي وفتاتي أي غلامي وجاريتي ﴿ عَن نَّفْسِهِ ﴾ لتنال شهوتها منه ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ تمييز أي قد شغفها حبه يعني خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد ، والشغاف حجاب القلب أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ في خطأ وبعد عن طريق الصواب ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ ﴾ راعيل ﴿ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ باغتيابهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها .

وسمي الاغتياب مكراً لأنه في خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره .

وقيل كانت استكتمتهن سرها فأفشينه عليها ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ دعتهن .

قيل : دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات ﴿ وَأَعْتَدَتْ ﴾ وهيأت افتعلت من

العتاد ﴿ لَهُنَّ مُتَّكَئًا ﴾ ما يتكئن عليه من نمارق قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهن متكئات والسكاكين في أيديهن أن يدهشن عند رؤيته ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها .

لأن المتكىء إذا بهت لشيء وقعت يده على يده ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ وكانوا لا يأكلون في ذلك الزمان إلا بالسكاكين كفعل الأعاجم ﴿ وَقَالَتِ اخرج عَلَيْهِنَّ ﴾ بكسر التاء : بصري وعاصم وحمزة ، وبضمها غيرهم .

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق ، وكان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء ، وكان إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران ، وكان يشبه آدم يوم خلقه ربه .

وقيل : ورث الجمال من جدته سارة .

وقيل ﴿ أكبرن ﴾ بمعنى حضن والهاء للسكت ، إذ لا يقال النساء قد حضنه لأنه لا يتعدى إلى مفعول ، يقال : أكبرت المرأة حاضت ، وحقيقته دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع . . .

فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ وجرحنها كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي تريد جرحتها أي أردن أن يقطعن الطعام الذي في أيديهن فدهشن لما رأينه فخدشن أيديهن ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ "حاشا" كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء تقول : أساء القوم حاشا زيد .

وهي حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة ، فمعنى حاشا لله براءة الله وتنزيه الله .

وقراءة أبي عمرو "حاشا لله" نحو قولك سقيا لك ، كأنه قال براءة ، ثم قال : الله ، لبيان من يبرأ وينزه ، وغيره ﴿ حاش لله ﴾ بحذف الألف الأخيرة والمعنى تنزيه الله من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله ﴿ مَا هذا بَشَرًا إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ نفين عنه البشرية لغرابة جماله وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم لما ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان .

﴿ قَالَتْ فذلكن الذى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ تقول هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه ، تعني إنكن لم تصوّرنه حتى صورته وإلا لتعذرنني في الافتتان به ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم ﴾ والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ

والتحفظ الشديد كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها ، وهذا بيان جلي على أن يوسف عليه السلام بريء مما فسر به أولئك الفريق الهم والبرهان .

ثم قلن له : أطع مولاتك ، فقالت راعيل : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ ﴾ الضمير راجع إلى "ما" هي موصولة ، والمعنى ما آمره به .

فحذف الجار كما في قوله "أمرتك الخير" أو "ما" مصدرية والضمير يرجع إلى يوسف أي ولئن لم يفعل أمري إياه أي موجب أمري ومقتضاه ﴿ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ ليحبسن والألف في ﴿ وَلَيَكُونًا ﴾ بدل من النون التأكيد الخفيفة ﴿ مِنَ الصاغرين ﴾ مع السراق والسفاك والأباق كما سرق قلبي وأبق مني وسفك دمي بالفراق ، فلا يهنأ ليوسف الطعام والشراب والنوم هنالك كما منعني هنا كل ذلك ، ومن لم يرض بمثلي في الحرير على السرير أميراً حصل في الحصير على الحصير حسيراً .

فلما سمع يوسف تهديدها .

﴿ قَالَ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أسند الدعوة إليهن لأنهن قلن له ما عليك لو أجبت مولاتك ، أو افتتنت كل واحدة به فدعته إلى نفسها سراً فالتجأ إلى ربه ،

قال رب السجن أحب إلي من ركوب المعصية ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنّي كَيْدَهُنَّ ﴾ فزع منه إلى الله في طلب العصمة ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أمل إليهن .

والصبوة الميل إلى الهوى ومنه الصبا لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها ﴿ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين ﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لم يعلم سواء ، أو من السفهاء ، فلما كان في قوله ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن ﴾ معنى طلب الصرف والدعاء قال .

(218/398)

﴿ فاستجاب لَهُ رَبُّهُ ﴾ أي أجاب الله دعاءه ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿ العليم ﴾ بحاله وحالهن ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ فاعله مضمر لدلالة ما يفسر عليه وهو ﴿ ليسجننه ﴾ والمعنى بدا لهم بداء أي ظهر لهم رأي ، والضمير في ﴿ لهم ﴾ للعزيز وأهله ﴿ مِنْ بَعْدِمَا رَأَوُاْ الآيات ﴾ وهي الشواهد على براءته كقد القميص وقطع الأيدي وشهادة الصبي وغير ذلك ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ لإبداء عذر الحال وإرخاء الستر على القيل والقال ، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها وكان مطواعاً لها وجميلاً ذلولاً ، زمامه في يديها وقد طمعت أن يذلله السجن ويسخره لها ، أو خافت

عليه العيون وظنت فيه الظنون فألجأها الخجل من الناس ، والوجل من اليأس ، إلى أن رضيت بالحجاب ، مكان خوف الذهاب ، لتشتفي بخبره ، إذا منعت من نظره ﴿ حتى حِينٍ ﴾ إلى زمان كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانَ ﴾ عبدان للملك خبازه وشرابيه بتهمة السم ، فأدخلا السجن ساعة أدخل يوسف لأن "مع" يدل على معنى الصحبة تقول : خرجت مع الأمير تريد مصاحباً له فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا ﴾ أي شرابيه ﴿ إِنّى أَرَانِى ﴾ أي في المنام وهي حكاية حال ماضية ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أي عنباً تسمية للعنب بما يؤول إليه أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب ﴿ وَقَالَ الآخر ﴾ أي خبازه ﴿ إِنّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطير مِنْهُ نَبّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ بتأويل ما رأيناه ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا أو من المحسنين إلى أهل السجن فإنك تداوي المريض وتعزي الحزين وتوسع على الفقير ، فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا .

وقيل : إنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابي : إني رأيت كأني في بستان فإذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته ، وقال الخباز : إني

رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة ، فإذا سباع الطير تنهش منها .

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي لبيان ماهيته وكيفيته لأن ذلك يشبه تفسير المشكل ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ ولما استعبراه ووصفاه بالإحسان افترض ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ويقول : يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيكون كذلك وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما ويقبح إليهما الشرك .

وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ، وغرضه أن يقتبس منه ، لم يكن من باب التزكية ﴿ ذلكما ﴾ إشارة لهما إلى التأويل أي ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ﴾ وأوحى به إلي ولم أقله عن تكهن وتنجم ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْأخرة هُمْ كافرون ﴾ يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ وأن يكون تعليلاً لما قبله أي علمني ذلك وأوحى به إلي لأني رفضت ملة أولئك وهم أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم ﴿ واتبعت مِلَّةَ ءابَاءِي إبراهيم وإسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ وهي الملة الحنيفية .

وتكرير "هم" للتوكيد وذكر الآباء ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوي رغبتهما في اتباع قوله ، والمراد به ترك الابتداء لا أنه كان

فيه ثم تركه ﴿ مَا كَانَ لَنَا ﴾ ما صح لنا معشر الأنبياء ﴿ أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أي شيء كان صنماً أو غيره.

ثم قال : ﴿ ذلك ﴾ التوحيد ﴿ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ فضل الله فيشركون به ولا ينتهون.

﴿ ياصاحبى السجن ﴾ يا ساكني السجن كقوله ﴿ أصحاب النار ﴾ [البقرة : 39] و ﴿ أصحاب الجنة ﴾ [البقرة : 82] ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار ﴾ يريد التفرق في العدد والتكاثر أي أن تكون أرباب شتى يستعبد كما هذا ويستعبد كما هذا خير لكما أم يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية؟ وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ خطاب لهما ولمن كان على دينهما من أهل مصر ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ من دون الله ﴿ إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي سميتم ما لا يستحق الإلهية آلهة ثم طفقتم تعبدونها فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء لا مسميات لها ، ومعنى ﴿ سميتموها ﴾ سميتم بها يقال : سميته زيداً وسميته بزيد ﴿ مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا ﴾ بتسميتها ﴿ مّن سلطان ﴾ حجة ﴿ إِنِ الحكم ﴾ في أمر العبادة والدين

﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ ثم بين ما حكم به فقال ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلك الدين القيم ﴾ الثابت الذي دلت عليه البراهين ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا يدل على أن العقوبة تلزم العبد وإن جهل إذا أمكن له العلم بطريقه .

ثم عبر الرؤيا فقال ﴿ ياصاحبى السجن أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾ يريد الشرابي ﴿ فَيَسْقِى رَبَّهُ ﴾ سيده ﴿ خَمْرًا ﴾ أي يعود إلى عمله ﴿ وَأَمَّا الآخر ﴾ أي الخباز ﴿ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطير مِن رَّأْسِهِ ﴾ روي أنه قال للأول : ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده ، وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه .

وقال للثاني : ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل .

(221/398)

ولما سمع الخباز صلبه قال : ما رأيت شيئاً فقال يوسف ﴿ قُضِىَ الأمر الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ أي قطع وتم ما تستفتيان فيه من أمركما وشأنكما أي ما يجر إليه من العاقبة وهي هلاك أحدهما ونجاة الآخر .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ الظان هو يوسف عليه السلام إن كان تأويله بطريق

الاجتهاد ، وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشرابي أو يكون الظن بمعنى اليقين ﴿ اذكرنى عِندَ رَبّكَ ﴾ صفني عند الملك بصفتي وقص عليه قصتي لعله يرحمني ويخلصني من هذه الورطة ﴿ فَأَنسَاهُ الشيطان ﴾ فأنسى الشرابي ﴿ ذِكْرَ رَبّهِ ﴾ أن يذكره لربه أو عند ربه ، أو فأنسى يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره ، وفي الحديث " رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعاً " ﴿ فَلَبِثَ فِى السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ أي سبعاً عند الجمهور والبضع ما بين الثلاث إلى التسع .

﴿ وَقَالَ الملك إِنّى أرى سَبْعَ بقرات سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سنبلات خُضْرٍ وَأُخَرَ يابسات ﴾ لما دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته ، رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها .

فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها .

وقيل : كان ابتداء بلاء يوسف في الرؤيا ثم كان سبب نجاته أيضاً الرؤيا .

سمان جمع سمين وسمينة ، والعجاف : المهازيل والعجف الهزال الذي ليس بعده سمانة ، والسبب في وقوع عجاف جمعاً لعجفاء وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال حمله على نقيضه وهو سمان ، ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض .

وفي الآية دلالة على أن السنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر لأن الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع ويكون قوله ﴿ وآخر يابسات ﴾ بمعنى وسبعاً أخر ﴿ يا أيها الملأ ﴾ كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء

﴿ أَفْتُونِى فِى رؤياى إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ اللام في ﴿ للرؤيا ﴾ للبيان ، كقوله ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين ﴾ أو لأن المفعول به إذا تقدم على الفعل لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه فعضد بها ، تقول : عبرت الرؤيا وللرؤيا عبرت ، أو يكون ﴿ للرؤيا ﴾ خبر "كان" كقولك "كان فلان لهذا الأمر" إذا كان مستقلاً به متمكناً منه ، و ﴿ تعبرون ﴾ خبر آخر أو حال .

وحقيقة عبرت الرؤيا ذكرت عاقبتها وآخر أمرها كما تقول "عبرت النهر" إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره ونحوه "أولت الرؤيا" إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها .

وعبرت الرؤيا بالتخفيف هو الذي اعتمده الأثبات ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر .

﴿ قَالُوا۟ أضغاث أَحْلاَمٍ ﴾ أي هي أضغاث أحلام أي تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان .

وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحزم من أنواع الحشيش ، الواحد ضغث فاستعيرت لذلك ، والإضافة بمعنى من أي أضغاث من أحلام .

وإنما جمع وهو حلم واحد تزايداً في وصف الحلم بالبطلان ، وجاز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأحلام بعالمين ﴾ أرادوا بالأحلام المنامات الباطلة ، فقالوا : ليس لها عندنا تأويل إنما التأويل للمنامات الصحيحة أو اعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بخابرين .

(223/398)

﴿ وَقَالَ الذى نَجَا ﴾ من القتل ﴿ مِنْهُمَا ﴾ من صاحبي السجن ﴿ وادكر ﴾ بالدال هو الفصيح وأصله "اذتكر" فأبدلت الذال دالاً والتاء دالاً وأدغمت الأولى في الثانية ليتقارب الحرفين .

وعن الحسن : "واذكر" ووجهه أنه قلب التاء ذالاً وأدغم أي تذكر يوسف وما شاهد منه ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ بعد مدة طويلة وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملك

تأويلها تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلبه إليه أن يذكره عند الملك ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أنا أخبركم به عمن عنده علمه ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ وبالياء يعقوب أي فابعثوني إليه لأسأله فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق ﴾ أيها البليغ في الصدق وإنما قال له ذلك لأنه ذاق وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل ﴿ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بقرات سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سنبلات خُضْرٍ وَأُخَرَ يابسات لَّعَلّى أَرْجِعُ إِلَى الناس ﴾ إلى الملك وأتباعه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك ويخلصوك من محنتك ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعُ سِنِينَ ﴾ هو خبر في معنى الأمر كقوله : ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر وتجاهدون ﴾ الصف : 11) دليله قوله ﴿ فذروه في سنبله ﴾ وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في وجود المأمور به فيجعل كأنه موجود فهو يخبر عنه ﴿ دَأَبًا ﴾ بسكون الهمزة وحفص بحركه وهما مصدرا دأب في العمل ، وهو حال من المأمورين أي دائبين ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ ﴾ كي لا يأكله السوس ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ في تلك السنين ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ ﴾ هو من إسناد المجاز جعل كل أهلهن مسنداً إليهن ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أي في السنين المخصبة ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ تحرزون وتخبئون .

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ﴾ أي من بعد أربع عشرة سنة عام ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ من الغوث أي يجاب مستغيثهم ، أو من الغيث أي يمطرون يقال : غيثت البلاد إذا مطرت ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ العنب والزيتون والسمسم فيتخذون الأشربة والأدهان .

﴿ تعصرون ﴾ حمزة فأول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب .

والعجاف واليابسات بسنين مجدبة .

ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركاً كثير الخير غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ ليخرجه من السجن ﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أي الملك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ أي حال النسوة ﴿ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ إنما تثبت يوسف وتأنى في إجابة الملك وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما رمي به وسجن فيه لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ولئلا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها ، وقال عليه السلام " لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ، ولقد عجبت منه حين أتاه

الرسول فقال ارجع إلى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرت الباب ولما ابتغيت العذر إن كان لحليماً ذا أناة" ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ أي إن كيدهن عظيم لا يعلمه إلا الله وهو مجازيهن عليه.

فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته فدعا الملك النسوة المقطعات أيديهن ودعا امرأة العزيز ثم.

﴿ قَالَ ﴾ لهن ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ ما شأنكن ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ هل وجدتن منه ميلاً إليكن ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ من ذنب ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْئَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ ظهر واستقر ﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في قوله ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ ولا مزيد على شهادتهم له للبراءة والنزاهة واعترافهن على أنفسهن إنه لم يتعلق بشيء مما قذف به.

ثم رجع الرسول إلى يوسف وأخبره بكلام النسوة وإقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها فقال يوسف ﴿ ذلك ﴾ أي امتناعي من الخروج والتثبت لظهور البراءة ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ العزيز ﴿ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ بظهر الغيب في حرمته ، و ﴿ بالغيب ﴾ حال من الفاعل أو المفعول على معنى وأنا غائب عنه أو وهو غائب عني ، أو ليعلم الملك أني لم أخن العزيز ﴿ وَأَنَّ الله ﴾ أي وليعلم أن الله ﴿ لاَ يَهْدِى كَيْدَ الخائنين ﴾ لا يسدده وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها .

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكياً وليبين أن ما فيه من الأمانة بتوفيق الله وعصمته فقال ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى ﴾ من الزلل وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها في عموم الأحوال ، أو في هذه الحادثة لما ذكرنا من الهم الذي هو الخطرة البشرية لا عن طريق القصد والعزم ﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ أراد الجنس أي إن هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه لما فيه من الشهوات ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة ويجوز أن يكون ما رحم في معنى الزمان أي إلا وقت رحمة ربي يعني أنها أمارة بالسوء في كل وقت العصمة ، أو هو استثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي يعني أنها أمارة

بالسوء في كل وقت إلا وقت العصمة أو هو استثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة ، وقيل : هو من كلام امرأة العزيز أي ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصدق فيما سئلت عنه ، وما أبرىء نفسي مع ذلك من الخيانة فإني قد خنته حين قذفته وقلت ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن ﴾ وأودعته السجن ، تريد الاعتذار مما كان منها إن كل نفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إلا نفسها رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت وإنما جعل من كلام يوسف ولا دليل عليه ظاهر لأن المعنى يقود إليه .

وقيل : هذا من تقديم القرآن وتأخيره أي قوله ﴿ ذلك ليعلم ﴾ متصل بقوله ﴿ فاسئله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 219 227. ﴾

(227/398)

قال ابن جزى :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المدينة ﴾

أي في مصر ، روى أنهن خمس نسوة : امرأة الساقي ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب ﴿ فتاها ﴾ أي خادمها ، والفتى يقال بمعنى : الشاب ، وبمعنى الخادم ﴿ شَغَفَهَا ﴾ بلغ شغاف قلبها وهو غلافه ، وقيل : السويداء منه ، وقيل : الشغاف داء يصل إلى القلب ﴿ سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أي بقولهم وسماه مكراً لأنه كان في خفية ، وقيل : كانت قد استكتمتهن سرها فأفشينه عليها ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ أي أعتدت لهن ما يتكأ عليه من الفرش ونحوها ، وقيل : المتكأ طعام ، وقرئ في الشاذ متكأ بسكون التاء وتنوين الكاف ، وهو الأترج ، وإعطائها السكاكين لهن يدل على أن الطعام كان مما يقطع بالسكاكين كالأترج ، وقيل : كان لحماً ﴿ وَقَالَتِ اخرج عَلَيْهِنَّ ﴾ أمر ليوسف ، وإنما أطاعها لأنه كان مملوك زوجها ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي عظمن شأنه وجماله . ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي اشتغلن بالنظر إليه وبهتن من جماله حتى قطعن أيديهن وهنّ لا يشعرن كما يقطع الطعام ﴿ حاش لِلَّهِ ﴾ معناه براءة وتنزيه : أي تنزيه الله وتعجب من قدرته على خلقة مثله ، وحاش في باب الاستثناء تخفض على أنها حرف ، وأجاز المبرد النصب بها على أن تكون فعلاً وأما هنا فقال أبو علي الفارسي

: إنها فعل ، والدليل على ذلك من وجهين : أحدهما أنها دخلت على لام الخبر وهو اللام في قوله لله ، ولا يدخل الحرف على حرف ، والآخر أنها حذفت منها الألف على قراءة الجماعة ، والحروف لا يحذف منها شيء وقرأها أبو عمرو بالألف على الأصل وإنما تحذف من الأفعال كقولك : لم يك ولا أدري ، والفاعل بحاش ضمير يعود على يوسف تقديره : بَعُدَ يوسف عن الفاحشة لخوف الله وقال الزمخشري : إن حاش وضع موضع المصدر ، كأنه قال : تنزيهاً ، ثم قال : لله ليبين من ينزه قال : وإنما حذف منه التنوين مراعاة لأصله من الحرفية ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ أخرجنه من البشر وجعلنه من

(229/398)

الملائكة ؛ مبالغة في وصف الحسن ﴿ إِنْ هاذآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ توبيخ لهن على اللوم ﴿ فاستعصم ﴾ أي طلب العصمة وامتنع مما أرادت منه ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي أميل وكلامه هذا تضرع إلى الله ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ أي ظهر والفاعل محذوف تقديره : رأى والضمير في لهم لزوجها وأهلها ، أو من تشاور معه في ذلك ﴿ رَأَوُا۟ الآيات ﴾ أي الأدلة على براءته .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانِ ﴾ أي شابان ، وقيل : هنا محذوف لا بد منه وهو فسجنوه

، وكان يوسف قد قال لأهل السجن : إني أعبر الرؤيا ، وكذلك سأله الفتيان عن منامهما ، وقيل : إنهما استعملاها ليجرباه ، وقيل رأيا ذلك حقاً ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ قيل فيه : سمى العنب خمراً بما يؤول إليه وقيل : هي لغة ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قيل : معناه في تأويل الرؤيا ، وقيل : إحسانه إلى أهل السجن ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ الآية : تقتضي أنه وصف لهما نفسه بكثرة العلم ، ليجعل ذلك وصلة إلى دعائهما لتوحيد الله ، وفيه وجهان : أحدهما أنه قال يخبرهما بكل ما يأتيهما في الدنيا من طعام قبل أن يأتيهما ، وذلك من الإخبار بالغيوب الذي هو معجزة الأنبياء ، والآخر أنه قال : لا يأتيكما طعام في المنام إلا أخبرتكما بتأويله قبل أن يظهر تأويله في الدنيا ﴿ ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي ﴾ رُوي أنهما قالا له : من أين لك هذا العلم وأنت لست بكاهن ولا منجم ؟ فقال : ذلكما مما علمني ربي ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ يحتمل أن يكون هذا الكلام تعليلاً لما قبله من قوله : علمني ربي أو يكون استئنافاً .

﴿ يا صاحبي السجن ﴾ نسبهما إلى السجن إما لأنهما سكناه أو لأنهما صاحباه فيه ، كأنه قال يا صاحبيَّ في السجن ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ الآية : دعاهما إلى توحيد الله ،

وأقام عليهما الحجة رغبة في إيمانهما ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً ﴾ أوقع الأسماء هنا موقع المسميات والمعنى سميتم ما لا يستحق الألوهية آلهة ثم عبدتموها ﴿ مِن سلطان ﴾ أي حجة وبرهان ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ يعني الملك ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ الظن هنا يحتمل أن يكون بمعنى اليقين ، لأن قوله : قضي الأمر يقتضي ذلك ، أو يكون على بابه ، لأنه عبارة الرؤيا ظن ﴿ اذكرني عِندَ رَبِّكَ ﴾ يعني الملك ﴿ فأنساه الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ قيل : الضمير ليوسف ، أي نسي في ذلك الوقت أن يذكر الله ، ورجا غيره فعاقبه الله على ذلك بأن لبث في السجن ، وقيل : الضمير للذي نجا منهما ، وهو الساقي . أي نسي ذكر يوسف عند ربه ، فأضاف الذكر إلى ربه إذ هو عنده ، والرب على هذا التأويل الملك ﴿ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البضع من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : إلى التسعة ، وروي أن يوسف عليه السلام سجن خمس سنين أولاً ، ثم سجن بعد قوله ذلك سبع سنين .

﴿ وَقَالَ الملك ﴾ هو ملك مصر الذي كان العزيز خادماً له واسمه ريّان بن الوليد ، وقيل : مصعب بن الريان ، وكان من الفراعنة ، وقيل : إنه فرعون موسى عمّر أربعمائة سنة حتى

أدركه موسى وهذا بعيد ﴿ إني أرى ﴾ في المنام ﴿ سَبْعَ بقرات سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ أي ضِعاف في غاية الهزال ﴿ يا أَيُّهَا الملأ ﴾ خطاب لجلسائه وأهل دولته ﴿ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أي : تعرفون تأويلها ، يقال : عبرت الرؤيا بتخفيف الباء وأنكر بعضهم التشديد ، وهو مسموع من العرب ، وأدخلت اللام على المفعول به لما تقدم عن الفعل ﴿ قالوا أضغاث أحلام ﴾ أي تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس ووسوسة شيطان بحيث لا يعبر ، وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات ، واحدة ضغث ، فإن قيل : لم قال أضغاث أحلام بالجمع ، وإنما كانت الرؤيا واحدة ؟ فالجواب أن هذا كقولك فلان يركب الخيل وإن ركب فرساً واحداً ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأحلام بعالمين ﴾ إما أن يريدوا تأويل الأحلام الباطلة ، أو تأويل الأحلام على الإطلاق وهو الأظهر .

﴿ وَقَالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا ﴾ هو ساقي الملك ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أي بعد حين ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق ﴾ يقدر قبله محذوف لا بد منه وهو فأرسلوه فقال : يا يوسف ، وسماه صديقاً لأنه كان قد جرب صدقه في تعبير الرؤيا وغيرها ، والصديق مبالغة من الصدق ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بقرات ﴾ أي فيمن رأى سبع بقرات وكان الملك قد رأى سبع

بقرات سمان أكلتهن سبع عجاف فعجب كيف علتهن وكيف وسعت في بطونهنّ ، ورأى سبع سنبلات خضر ، وقد التفت بها سبع يابسات حتى غطت خضرته ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعُ سِنِينَ ﴾ هذا تعبير للرؤيا ، وذلك أنه عبر البقرات السمان بسبع سنين مخصبة وعبر البقرات العجاف بسبع سنين مجدبة فكذلك السنبلات الخضر واليابسة ﴿ دَأَباً ﴾ بسكون الهمزة وفتحها مصدر دأب على العمل إذا داوم عليه ، وهو مصدر في موضع الحال ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ ﴾ هذا بأيٍ أرشدهم يوسف إليه ، وذلك أن أرض مصر لا يبقى فيها الطعام عامين ، فعلمهم حيلة يبقى بها من السنين المخصبة إلى السنين المجدبة ، وهي أن يتركوه في سنبله غير مدروس ، فإن الحبة إذا بقيت في غشائها انحفظت ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أي لا تدرسوا منه إلا ما يحتاج إلى الأكل خاصة ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ يعني سبع سنين ذات شدّة وجوع ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أي تأكلون فيهنّ ما اخترتم من الطعام في سنبله ، وأسند الأكل إلى السنين مجازاً ﴿ مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي تخزنون وتخبئون ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك عَامٌ ﴾ هذا زيادة على ما تقتضيه الرؤيا ، وهو الإخبار بالعام الثامن ﴿ يُغَاثُ النَاس ﴾ يحتمل أن يكون من الغيث يمطرون ، أو من الغوث : أي يفرج الله عنهم ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ أي يعصرون الزيتون والعنب والسمسم وغير ذلك مما يعصر ﴿ وَقَالَ المَلك ائتوني بِهِ ﴾ قيل : هنا محذوف ، وهو فرجع الرسول إلى الملك فقص عليه مقالة يوسف ، فرأى علمه

(233/398)

وعقله ، فقال : ائتوني به ﴿ قَالَ ارجع إلى رَبّكَ فَاسْأَلْهُ ﴾ لما أمر الملك بإخراج يوسف من السجن ، وإتيانه إليه أراد يوسف أن يبرئ نفسه مما نسب إليه ، من مراودة امرأة العزيز عن نفسها ، وأن يعلم الملك وغيره أنه سجن ظلماً ، فذكر طرفاً من قصته لينظر الملك فيها فيتبين له الأمر ، وكان هذا الفعل من يوسف صبراً وحلماً ، إذا لم يُجبْ إلى الخروج من السجن ساعة دُعِيَ إلى ذلك بعد طول المدّة ، ومع ذلك فإنه لم يذكر امرأة العزيز رعياً لذمام زوجها وستراً لها ، بل ذكر النسوة التي قطعن أيديهنّ ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ الآية جمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن ، فسألهنّ عن قصة يوسف ، وأسند المراودة إلى جميعهن ، لأنه لم يكن عنده علم بأنّ امرأة العزيز هي التي راودته وحدها ﴿ قُلْنَ حَاشَ للَّهِ ﴾ تبرئة ليوسف أو تبرئة لأنفسهن من مراودته وتكون تبرئة ليوسف بقولهن : ما علمنا عليه من سوء ﴿ الآن حَصْحَصَ الحق ﴾ اي تبين وظهر ، ثم اعترفت على نفسها بالحق .

(234/398)

﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ قيل : إنه من كلام امرأة العزيز متصلاً بما قبله ، والضمير في يعلم وأخنه على هذا ليوسف عليه السلام أي : ليعلم يوسف أني لم أكذب عليه في حال غيبته ، والإشارة بذلك إلى توقفه عن الخروج من السجن حتى تظهر براءته ﴿ وَمَآ أُبَرِّىءُ نفسي ﴾ اختلف أيضاً هل هو من كلام امرأة العزيز ، أو من كلام يوسف ، فإن كان من كلامها فهو اعتراف بعد الاعتراف ، وإن كان من كلامه فهو اعتراف بما همَّ به على وجه خطورة على قلبه ، لا على وجه العزم والقصد ، وقاله في عموم الأحوال على وجه التواضع ﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ النفس هنا للجنس والنفوس ثلاثة أنواع : أمارة بالسوء ، ولوّامة وهي التي تلوم صاحبها ، ومطمئنة ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ ربي ﴾ استثناء من النفس إذ هي بمعنى النفوس ، أي الأنفس المرحومة وهي المطمئنة ، فما على هذا بمعنى الذي ، ويحتمل أن تكون ظرفية أي إلا حين رحمة الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 122.118﴾

(235/398)

وقال البيضاوى :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾

هي اسم لجمع امرأة وتأنيثه بهذا الاعتبار غير حقيقي ولذلك جرد فعله وضم النون لغة فيها . ﴿ فِى المدينة ﴾ ظرف لقال أي أشعن الحكاية في مصر ، أو صفة نسوة وكن خمساً وزوجة الحاجب والساقي والخباز والسجان وصاحب الدواب . ﴿ امرأت العزيز تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَّفْسِهِ ﴾ تطلب مواقعة غلامها إياها . و﴿ العزيز ﴾ بلسان العرب الملك وأصل فتى فتي لقولهم فتيان والفتوة شاذة . ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ﴾ شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل إلى فؤادها حباً ، ونصبه على التمييز لصرف الفعل عنه .

وقرىء "شعفها" من شعف البعير إذا هنأه بالقطران فأحرقه . ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ في ضلال عن الرشد وبعد عن الصواب .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ باغتيابهن ، وإنما سماه مكراً لأنهن أخفينه كما يخفي الماكر مكره ، أو قلن ذلك لتريهن يوسف أو لأنها استكتمتهن سرها فأفشينه عليها . ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ تدعوهن قيل دعت أربعين امرأة فيهن الخمس المذكورات . ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ ﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد . ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ حتى يتكئن والسكاكين بأيديهن فإذا خرج عليهن يبهتن ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها فيبكتن بالحجة ، أو يهاب يوسف مكرها إذا خرج وحده على أربعين امرأة في أيديهن الخناجر . وقيل متكأ طعاماً أو مجلس طعام فإنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب

ترفاً ولذلك نهى عنه . قال جميل :

فَظَلَلنا بِنعْمَةٍ وَاتَكَأْنا . . . وَشَرِبْنَا الحَلاَلَ مِنْ قُلِلهْ

(236/398)

وقيل المتكأ طعام يحز حزاً كأن القاطع يتكىء عليه بالسكين . وقرىء "متكأ" بحذف الهمزة و"متكاء" بإشباع الفتحة كمنتزاح و"متكا" وهو الأترج أو ما يقطع من متك الشيء إذا بتكه و﴿ متكاً ﴾ من تكىء يتكأ إذا اتكأ . ﴿ وَقَالَتِ اخرج عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ عظمنه وهبن حسنه الفائق . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر " وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران . وقيل أكبرن بمعنى حضن من أكبرت المرأة إذا حاضت لأنها تدخل الكبر بالحيض ، والهاء ضمير للمصدر أو ليوسف عليه الصلاة والسلام على حذف اللام أي حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبي :

خَفِ اللّهَ وَاسْتُرْ ذَا الجَمَالَ بِبرقع . . . فَإِنْ لَحتَ حَاضَتْ فِي الخُدُورِ العَوَاتِقُ

﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ جرحنها بالسكاكين من فرط الدهشة . ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تنزيهاً له من صفات العجز وتعجباً من قدرته على خلق مثله ، وأصله "حاشا" كما قرأ أبو

عمرو في الدرج فحذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً وهو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء ، فوضع موضع التنزيه واللام للبيان كما في قولك سقيا لك . وقرىء "حاش الله" بغير لام بمعنى براءة الله ، و"حاشا لله" بالتنوين على تنزيله منزلة المصدر . وقيل "حاشا" فاعل من الحشا الذي هو الناحية وفاعله ضمير يوسف أي صار في ناحية الله مما يتوهم فيه . ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ لأن هذا الجمال غير معهود للبشر ، وهو على لغة الحجاز في إعمال ما عمل ليس لمشاركتها في نفي الحال . وقرىء بَشَرٌ بالرفع على لغة تميم وبشرى أي بعبد مشترى لئيم . ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة ، أو لأن جماله فوق جمال البشر ولا يفوقه فيه إلا الملك .

﴿ قَالَتْ فذلكن الذى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ أي فهو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني في الافتنان به قبل أن تتصورنه حق تصوره ، ولو تصورتنه بما عاينتن لعذرتنني أو فهذا هو الذي لمتني فيه فوضع ذلك موضع هذا رفعاً لمنزلة المشار إليه . ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم ﴾ فامتنع طلباً للعصمة ، أقرت لهن حين عرفت أنهن يعذرنها كي يعاونها على إلانة عريكته .

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءامُرُهُ ﴾ أي ما آمر به ، فحذف الجار أو أمري إياه بمعنى موجب أمري فيكون الضمير ليوسف . ﴿ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّن الصاغرين ﴾ من الإذلاء وهو من صغر بالكسر يصغر صغراً وصغارا والصغير من صغر بالضم صغراً . وقرىء "لَّيَكُونُنَّ" وهو يخالف خط المصحف لأن النون كتبت فيه بالألف "نسفعاً" على حكم الوقف وذلك في الخفيفة لشبهها بالتنوين .

﴿ قَالَ رَبِّ السجن ﴾ وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر . ﴿ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾ أي آثر عندي من مؤاتاتها زناً نظراً إلى العاقبة وإن كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه ، وإسناد الدعوة إليهن جميعاً لأنهن خوفنه من مخالفتها وزين له مطاوعتها . أو دعونه إلى أنفسهن ، وقيل إنما ابتلي بالسجن لقوله هذا وإنما كان الأولى به أن يسأل الله العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر . ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى ﴾ وإن لم تصرف عني . ﴿ كَيْدَهُنَّ ﴾ في تحبيب ذلك إلي وتحسينه عندي بالتثبيت على العصمة . ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أمل إلى جانبهن أو إلى أنفسهن بطبعي ومقتضى شهوتي ، والصبوة الميل إلى الهوى ومنه الصبا لأن النفوس تستطيبها وتميل إليها . وقرىء ﴿ أَصْبُ ﴾ من الصبابة وهي الشوق . ﴿ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين ﴾ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه فإن الحكيم لا يفعل القبيح ، أو من الذين لا يعملون بما يعلمون فإنهم والجهال سواء .

﴿ فاستجاب لَهُ رَبُّهُ ﴾ فأجاب الله دعاءه الذي تضمنه قوله : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ ﴾ ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ فثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان . ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لدعاء الملتجئين إليه . ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم .

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات ﴾ ثم ظهر للعزيز وأهله من بعد ما رأوا الشواهد الدالة على براءة يوسف كشهادة الصبي وقد القميص وقطع النساء أيديهن واستعصامه عنهن وفاعل ﴿ بَدَا ﴾ مضمر يفسره . ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حِينٍ ﴾ وذلك لأنها خدعت زوجها وحملته على سجنه زماناً حتى تبصر ما يكون منه ، أو يحسب الناس أنه المجرم فلبث في السجن سبع سنين . وقرىء بالتاء على أن بعضهم خاطب به العزيز على التعظيم أو العزيز ومن يليه ، وعتى بلغة هذيل .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانَ ﴾ أي أدخل يوسف السجن واتفق أنه أدخل حينئذ آخران من عبيد الملك شرابيه وخبازه للاتهام بأنهما يريدان أن يسماه . ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا ﴾ يعني الشرابي . ﴿ إِنِّى أَرَانِى ﴾ أي في المنام وهي حكاية حال ماضية . ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾

أي عنباً وسماه خمراً باعتبار ما يؤول إليه. ﴿ وَقَالَ الآخر ﴾ أي الخباز. ﴿ إِنّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطيرُ مِنْهُ ﴾ تنهش منه. ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين وإنما قالا ذلك لأنهما رأياه في السجن يذكر الناس ويعبر رؤياهم، أو من المحسنين إلى أهل السجن فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

(239/398)

﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي بتأويل ما قصصتما علي، أو بتأويل الطعام يعني بيان ماهيته وكيفيته فإنه يشبه تفسير المشكل، كأنه أراد أن يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الطريق القويم قبل أن يسعف إلى ما سألاه منه كما هو طريقة الأنبياء والنازلين منازلهم من العلماء في الهداية والإرشاد، فقدم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير. ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذلكما ﴾ أي ذلك التأويل. ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِى رَبّى ﴾ بالإلهام والوحي وليس من قبيل التكهن أو التنجيم. ﴿ إِنّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله وَهُمْ بالاخرة هُمْ كافرون ﴾ تعليل لما قبله أي علمني ذلك لأني تركت ملة أولئك.

﴿ واتبعت مِلَّةَ ءابَاءِي إبراهيم وإسحاق ويَعْقُوبَ ﴾ أو كلام مبتدأ لتمهيد الدعوة وإظهار أنه من بيت النبوة لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق عليه ، ولذلك جوز للخامل أن يصف نفسه حتى يعرف فيقتبس منه ، وتكرير الضمير للدلالة على اختصاصهم وتأكيد كفرهم بالآخرة . ﴿ مَا كَانَ لَنَا ﴾ ما صح لنا معشر الأنبياء . ﴿ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي شيء كان . ﴿ ذلك ﴾ أي التوحيد . ﴿ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ بالوحي . ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ وعلى سائر الناس ببعثنا لإرشادهم وتثبيتهم عليه . ﴿ ولكن أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ المبعوث إليهم . ﴿ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ هذا الفضل فيعرضون عنه ولا يتنبهون ، أو من فضل الله علينا وعليهم بنصب الدلائل وإنزال الآيات ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها ولا يستدلون بها فيلغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها .

﴿ ياصاحبى السجن ﴾ أي يا ساكنيه ، أو يا صاحبي فيه فأضافهما إليه على الاتساع كقوله :

يَا سَارِقَ اللَّيْلَةَ أَهْلَ الدَّارِ . . . ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ شتى متعددة متساوية الأقدام .

﴿ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الواحد ﴾ المتوحد بالألوهية . ﴿ القهار ﴾ الغالب الذي لا يعادله ولا

يقاومه غيره.

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر. ﴿ إِلَّآ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أي إلا أشياء باعتبار أسام أطلقتم عليها من غير حجة تدل على تحقق مسمياتها فيها فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة. والمعنى أنكم سميتم ما لم يدل على استحقاقه الألوهية عقل ولا نقل آلهة، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها. ﴿ إِنِ الحكم ﴾ ما الحكم في أمر العبادة. ﴿ إلا لِلَّهِ ﴾ لأنه المستحق لها بالذات من حيث إنه الواجب لذاته الموجد للكل والمالك لأمره. ﴿ أَمَرَ ﴾ على لسان أنبيائه. ﴿ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الذي دلت عليه الحجج. ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ الحق وأنتم لا تميزون المعوج عن القويم، وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة، بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الالهية فإن استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير وكلا القسمين منتف عنها، ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضي العلم دونه. ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيخبطون في جهالاتهم.

﴿ ياصاحبى السجن أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾ يعني الشرابي . ﴿ فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ كما كان يسقيه قبل ويعود إلى ما كان عليه . ﴿ وَأَمَّا الآخر ﴾ يريد به الخباز . ﴿ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطير مِن رَّأْسِهِ ﴾ فقالا كذبنا فقال ﴿ قُضِىَ الأمر الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ أي قطع الأمر الذي تستفتيان فيه ، وهو ما يؤول إليه أمركما ولذلك وحده ، فإنهما وإن استفتيا في أمرين لكنهما أرادا استبانة عاقبة ما نزل بهما .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ الظان يوسف إن ذكر ذلك عن اجتهاد وإن ذكره عن وحي فهو الناجي إلا أن يؤول الظن باليقين . ﴿ اذكرنى عِندَ رَبِّكَ ﴾ اذكر حالي عند الملك كي يخلصني . ﴿ فَأَنْسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ فأنسى الشرابي أن يذكره لربه ، فأضاف إليه المصدر لملابسته له أو على تقدير ذكر أخبار ربه ، أو أنسي يوسف ذكر الله حتى استعان بغيره ، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام " رحم الله أخي يوسف لو لم يقل ﴿ اذكرنى عِندَ رَبِّكَ ﴾ لما لبث في السجن سبعاً بعد الخمس " والاستعانة بالعباد في كشف الشدائد وإن كانت محمودة في الجملة لكنها لا تليق بمنصب الأنبياء . ﴿ فَلَبِثَ فِى السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع من البضع وهو القطع .

﴿ وَقَالَ الملك إِنِّى أَرى سَبْعَ بقرات سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ لما دنا فَرَجه رأى الملك سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات مهازيل فابتلعت المهازيل السمان.

﴿ وَسَبْعَ سنبلات خُضْرٍ ﴾ قد انعقد حبها. ﴿ وَأُخَرَ يابسات ﴾ وسبعاً أخر يابسات قد أدركت فالْتَوَتِ اليابسات على الخضر حتى غلبت عليها، وإنما استغنى عن بيان حالها بما قص من حال البقرات، وأجرى السمان على المميز دون المميز لأن التمييز بها ووصف السبع الثاني بالعجاف لتعذر التمييز بها مجرداً عن الموصوف فإنه لبيان الجنس، وقياسه عجف لأنه جمع عجفاء لكنه حمل على ﴿ سِمَانٍ ﴾ لأنه نقيضه. ﴿ يأَيُّهَا الملأ أَفْتُونِى فِى رؤياى ﴾ عبروها. ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية إلى المعاني النفسانية التي هي مثالها من العبور وهي المجاوزة، وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيراً واللام للبيان أو لتقوية العامل فإن الفعل لما أخر عن مفعوله ضعف فقوي باللام كاسم الفاعل، أو لتضمن ﴿ تَعْبُرُونَ ﴾ معنى فعل يعدى باللام كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا.

﴿ قَالُواْ أضغاث أَحْلاَمٍ ﴾ أي هذه أضغاث أحلام وهي تخاليطها جمع ضغث وأصله ما جمع من أخلاط النبات وحزم فاستعير للرؤيا الكاذبة، وإنما جمعوا للمبالغة في وصف الحلم بالبطلان كقولهم: فلان يركب الخيل، أو لتضمنه أشياء مختلفة. ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ

الأحلام بعالمين ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة أي ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للمنامات الصادقة فهو كأنه مقدمة ثانية للعذر في جهلهم بتأويله .

(243/398)

﴿ وَقَالَ الذى نَجَا مِنْهُمَا ﴾ من صاحبي السجن وهو الشرابي . ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أي مدة طويلة . وقرىء "إمة" بكسر الهمزة وهي النعمة أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة ، وأمه أي نسيان يقال أمه يأمه أمها إذا نسي ، والجملة اعتراض ومقول القول . ﴿ أَنَاْ أُنَبّئُكُمْ بتأويله فَأَرْسِلُونِ ﴾ أي إلى من عنده علمه أو إلى السجن .

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق ﴾ أي فأرسل إلى يوسف فجاءه فقال يا يوسف ، وإنما وصفه بالصديق وهو المبالغ في الصدق لأنه جرب أحواله وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه . ﴿ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بقرات سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سنبلات خُضْرٍ وَأُخَرَ يابسات ﴾ أي في رؤيا ذلك . ﴿ لَّعَلّى أَرْجِعُ إِلَى الناس ﴾ أعود إلى الملك ومن عنده ، أو إلى أهل البلد إذا قيل إن السجن لم يكن فيه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ تأويلها أو فضلك ومكانك ، وإنما لم يبت الكلام فيهما لأنه لم يكن جازماً بالرجوع فربما اخترم دونه ولا

يعلمهم .

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعُ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أي على عادتكم المستمرة وانتصابه على الحال بمعنى دائبين ، أو المصدر بإضمار فعله أي تدأبون دأباً وتكون الجملة حالاً . وقرأ حفص ﴿ دَأَبًا ﴾ بفتح الهمزة وكلاهما مصدر دأب في العمل . وقيل ﴿ تَزْرَعُونَ ﴾ أمر أخرجه في صورة الخبر مبالغة لقوله : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ ﴾ لئلا يأكله السوس ، وهو على الأول نصيحة خارجة عن العبارة . ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ في تلك السنين .

﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أي يأكل أهلهن ما ادخرتم لأجلهن فأسند إليهن على المجاز تطبيقاً بين المعبر والمعبر به . ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ تحرزون لبذور الزراعة .

﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ يمطرون من الغيث أو يغاثون من القحط من الغوث . ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ ما يعصر كالعنب والزيتون لكثرة الثمار . وقيل يحلبون الضروع . وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على تغليب المستفتي ، وقرىء على بناء المفعول من عصره إذا أنجاه ويحتمل أن يكون المبني للفاعل منه أي يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضاً ، أو

من أعصرت السحابة عليهم فعدي بنزع الخافض أو بتضمينه معنى المطر . وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة ، ولعله علم ذلك بالوحي أو بأن انتهاء الجدب بالخصب ، أو بأن السنة الإلهية على أن يوسع على عباده بعدما ضيق عليهم : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ بعد ما جاءه الرسول بالتعبير ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ ليخرجه . ﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ إنما تأنى في الخروج وقدم سؤال النسوة وفحص حالهن لتظهر براءة ساحته ويعلم أنه سجن ظلماً فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره . وفيه دليل على أنه ينبغي أن يجتهد في نفي التهم ويتقي مواقعها . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " لو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة " وإنما قال فاسأله ما بال النسوة ولم يقل فاسأله أن يفتش عن حالهن تهييجاً له على البحث وتحقيق الحال ، وإنما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعت به كرماً ومراعاة للأدب وقرىء ﴿ النسوة ﴾ بضم النون . ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ حين قلن لي أطع مولاتك ، وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله عليه وعلى أنه بريء مما قذف به والوعيد لهن على كيدهن .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ قال الملك لهن ما شأنكن والخطب أمر يحق أن يخاطب فيه صاحبه. ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تنزيه له وتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله. ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ من ذنب. ﴿ قَالَتِ امرأة العزيز الئن حَصْحَصَ الحق ﴾ ثبت واستقر من حصحص البعير إذا ألقى مباركه ليناخ قال:

فَحَصْحَصَ فِي صُمِّ الصفا ثَفِنَاتِه . . . ونَاءَ بِسَلْمَى نوأَةً ثُمَّ صَمَّمَا

أو ظهر من حص شعره إذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه. وقرىء على البناء للمفعول.

﴿ أَنَاْ راودته عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين ﴾ في قوله: ﴿ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ ﴾ قاله يوسف لما عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهن أي ذلك التثبت ليعلم العزيز. ﴿ أَنّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول أي لم أخنه وأنا غائب عنه، أو وهو غائب عني أو ظرف أي بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة. ﴿ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِى كَيْدَ الخائنين ﴾ لا ينفذه ولا يسدده، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم فأوقع الفعل على الكيد مبالغة. وفيه تعريض براعيل في خيانتها زوجها وتوكيد لأمانته ولذلك عقبه بقوله:

﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى ﴾ أي لا أنزهها تنبيهاً على أنه لم يرد بذلك تزكية نفسه والعجب بحاله ، بل إظهار ما أنعم الله عليه من العصمة والتوفيق . وعن ابن عباس أنه لما قال : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ قال له جبريل ولا حين هممت فقال : ذلك . ﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات فتهم بها ، وتستعمل القوى والجوارح في أثرها كل الأوقات . ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ إلا وقت رحمة ربي ، أو إلا ما رحمه الله من النفوس فعصمه من ذلك . وقيل الاستثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة . وقيل الآية حكاية قول راعيل والمستثنى نفس يوسف وأضرابه . وعن ابن كثير ونافع ﴿ بالسّو ﴾ على قلب الهمزة واواً ثم الادغام . ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر هَمَّ النفس ويرحم من يشاء بالعصمة أو يغفر للمستغفر لذنبه المعترف على نفسه ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 295 ﴾

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) ﴾

التفسير : تقدير الكلام فحبسوه ﴿ ودخل معه ﴾ أي مصاحباً له في الدخول ﴿ السجن فتيان ﴾ غلامان للملك الأكبر خبازه وشاربيه نقلاً عن أئمة التفسير أو استدلالاً برؤياهما المناسبة لحرفتهما . رفع إلى الملك أنهما أرادا سمه في الطعام والشراب فأمر بإدخالهما السجن ساعة إذ دخل يوسف ﴿ قال أحدهما إني أراني ﴾ أي في المنام لقولهما : ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ وهو حكاية حال ماضية ﴿ أعصر خمراً ﴾ أي عنباً تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه . وقيل : الخمر بلغة عمان اسم العنب . والضمير في قوله : ﴿ بتأويله ﴾ يعود إلى ما قصا عليه وقد يوضع الضمير موضع اسم الإشارة كأنه قيل : نبئنا بتأويل ذلك ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ عبارة الرؤيا .

وكان أهل السجن يقصون عليه رؤياهم فيؤوّلها لهم ، أو نراك من العلماء عرفا ذلك بالقرائن أو من المحسنين إلى أهل السجن كان يعود مرضاهم ويوسع عليهم ويراعي دقائق مكارم الأخلاق معهم ، أو من المحسنين في طاعة الله وطلب مرضاته ففرج عنا الغمة بتأويل ما رأينا وإن كانت لك يد في تأويل الرؤيا . وعن قتادة : كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول : أبشروا اصبروا تؤجروا . فقالوا : ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك فمن أنت يا فتى ؟ فقال : أنا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحق بن خليل إبراهيم . فقال له عامل السجن : لو استطعت خليت سبيلك ولكني أحسن جوارك فكن في أي بيوت السجن شئت . وعن الشعبي ومجاهد أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابي : أراني في بستان فإذا بأصل كرم عليه ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته . وقال الخباز : إني أراني وفوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة ، وإذا سباع الطير تنهش منها ﴿ قال لا يأتيكما طعام ﴾ إلى آخره هذا ليس بجواب لهما ظاهراً وإنما قدم هذا الكلام لوجوه منها : أن أحد التعبيرين لما كان هو الصلب وكان في إسماعه كراهة ونفرة أراد أن يقدم قبل ذلك ما يؤثق بقوله ويخرجه عن معرض التهمة والعداوة . أو أراد أن يبين علوّ مرتبته في العلم وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون عن ظن وتخمين ، ولهذا قال السدي : أراد لا يأتيكما طعام ترزقانه في النوم . بين بذلك أن علمه بتأويل الرؤيا ليس مقصوراً على شيء دون غيره وقيل : إنه محمول على اليقظة وإنه ادعى

معرفة الغيب كقول عيسى عليه السلام ﴿ وأنبئكم بما تأكلون ﴾ [آل عمران : 49] أي أخبركما ﴿ قبل أن يأتيكما ﴾ أنه أي طعام هو وأيّ لون هو وكيف تكون عاقبته أهو ضار أم نافع وأن فيه سماً أم لا . فقد روي أن الملك كان إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً مسموماً فأرسله إليه . ثم قال : ﴿ ذلكما ﴾ أي هذا التأويل والإخبار بالمغيبات من قبيل

الوحي والإلهام لا من التكهن والتنجيم الذي يكثر فيهما وقوع الخطأ . ثم بيّن سيرته وملته مشيراً فيه إلى أنه رسول من عند الله ومنبهاً على أن الاشتغال بمصالح الدين أهم من الاشتغال بمصالح الدنيا حتى إن الرجل الذي سيصلب لعله يسلم فلا يموت على الكفر فقال : ﴿ إني تركت ﴾ أي رفضت بل ما كنت قط ، ويجوز أن يكون قبل ذلك غير مظهر للتوحيد خوفاً منهم لأنه كان تحت أيديهم . وإنما كررت لفظة " هم " تنبيهاً على أنهم مختصون في ذلك الزمان بإنكار المعاد وتعريضاً بأن إيداعه السجن بعد معاينة الآيات الشاهدة على براءته لا يصدر إلا عمن ينكر الجزاء أشد الإنكار .

والمراد باتباع ملة آبائه الاتباع في الأصول التي لا تتبدل بتبدل الشرائع ، ومعنى التنكير في قوله : ﴿ من شيء ﴾ الرد على كل طائفة خالفت الملة الحنيفية من عبدة الأصنام والكواكب وغيرهم ﴿ ذلك ﴾ التوحيد ﴿ من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ نعمة الإيمان أو نعمة إعطاء القدرة والاختيار على الإيمان فلا ينظرون في الدلائل ، وهذا يناسب أصول المعتزلة . وعن بعضهم إنا لا نشكر الله على الإيمان بل الله يشكرنا عليه كما قال : ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ [الإسراء : 19] ﴿ يا صاحبي السجن ﴾ أراد يا صاحبي السجن كقوله "يا سارق الليلة" خصمهما بهذا النداء لأنهما دخلا السجن معه أو أراد يا ساكني السجن كقوله : ﴿ أصحاب النار ﴾ [الأعراف : 44] فسبب التعيين أنهما استفتياه في بين الساكنين . ثم أنكر عليهم عبارة الأصنام فقال : ﴿ أأرباب متفرقون ﴾ في العدد وفي الحجمية وفيما يتبعها من اختلاف الأعراض والأبعاض ﴿ خير ﴾ إن فرض فيهم خير ﴿ أم الله الواحد القهار ﴾ لأن وحدة المعبود تستدعي توحيد المطلب وتفريد المقصد ، وكونه قهاراً غالباً غير مغلوب من وجه يوجب حصول كل ما يرجى منه من ثواب وصلاح إذا تعلقت إرادته بذلك فلا يصلح للمعبودية إلا هو ولا تصلح حقيقة الإلهية في غيره فلذلك قال : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها ﴾ أي سميتم الآلهة بتلك الأسماء ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ والخطاب لهما

ولمن على دينهما من أهل مصر فكأنهم لا يعبدون إلا أسماء فارغة عن المسميات ﴿ ما أنزل الله بها ﴾ بتسميتها ﴿ من سلطان ﴾ أي حجة. ثم لما نفى معبودية الغير بين أن لا حكم في أمر الدين والعبادة إلا له فقال: ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ ثم ذكر ما حكم به فقال: ﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ﴾ الثابت بالبراهين ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أنه مبدأ المبادئ والمعاد الحقيقي فيتخذون غيره معبوداً ويجعلون لغيره من الأصنام والأجرام

بالاستقلال فعلاً وتأثيراً. ثم شرع في إجابة مقترحهما وهو تأويل رؤياهما فقال: ﴿ أما أحدكما ﴾ يعني الشرابي ﴿ فيسقي ربه ﴾ سيده ﴿ خمرا ﴾ يروى أنه قال له: ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده، وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه. وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتصلب فتأكل الطير من رأسك. قوله: ﴿ قضي الأمر ﴾ قال في الكشاف: إنما وحد الأمر وهما أمران مختلفان استفتيا فيهما، لأن المراد بالأمر ما اتهما به من سم الملك وما سجنا لأجله فكأنهما استفتياه في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم

هلاك استدلالاً برؤياهما فقال : إن ذلك الذي ذكرت من أمر التأويل كائن لا محالة صدقتما أو كذبتما .

وقيل : جحدا رؤياهما . وقيل : عكسا رؤياهما ، فلما علم الخباز أن تأويل رؤياه شر أنكر كونه صاحب تلك الرؤيا فقال يوسف : إن الذي حكمت به لكل منكما واقع لا بد منه ومن هنا قالت الحكماء : ينبغي أن لا يتصرف في الرؤيا ولا تغير عن وجهها فإن الفأل على ما جرى .

﴿ وقال ﴾ يوسف ﴿ للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ﴾ أي اذكر عند الملك أني مظلوم من جهة إخوتي أخرجوني وباعوني ، ثم إني مظلوم من جهة النسوة اللاتي حسبتني . والضمير في ﴿ ظن ﴾ إن كان للرجل الناجي فلا إشكال لأنهما ما كانا مؤمنين بنبوة يوسف بل كانا حسني الاعتقاد فيه وكأن قوله لم يفد في حقهما إلا مجرد الظن ، وإن عاد إلى يوسف فيرد عليه أنه كان قاطعاً بنجاته فما المعنى للظن ؟ وأجيب بأنه إنما ذكر ذلك التعبير بناء على الأصول المقررة في ذلك العلم فكان كالمسائل الاجتهادية . والأصح أنه قضي بذلك على سبيل ألبت والقطع لقوله : ﴿ لا يأتيكما طعام ﴾ إلى قوله : ﴿

ذلكما مما علمني ربي ﴾ فالظن على هذا بمعنى اليقين كقوله : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ﴾ [البقرة : 46] أما الضمير في قوله : ﴿ فأنساه الشيطان ﴾ فمن الناس من قال : إنه يعود إلى الرجل الناجي أي أنساه الشيطان ذكر يوسف لسيده أو عند سيده فإضافة الذكر إلى الرب للملابسة لا لأجل أنه فاعل أو مفعول ، أو المضاف محذوف تقديره فأنساه ذكر إخبار ربه وإسناد الإنساء إلى الشيطان مجاز لأن الإنساء عبارة عن إزالة العلم عن القلب والشيطان قدرة له على ذلك وإلا لأزال معرفة الله من قلوب بني آدم ، وإنما فعله إلقاء الوسوسة وأخطار الهواجس التي هي من أسباب النسيان . ومنهم من قال : الضمير راجع إلى يوسف ، والمراد بالرب هو الله تعالى أي الشيطان أنسى يوسف أن يذكر الله تعالى ، وعلى القولين عوتب باللبث في السجن بضع سنين . والبضع ما بين الثلاثة إلى العشرة لأنه القطعة من العدد والبضع القطع ومثله العضب . والأكثرون على أن المراد في الآية سبع سنين . وعن ابن عباس : كان قد لبث خمس سنين وقد اقترب خروجه ، فلما تضرع إلى ذلك الرجل لبث بعد ذلك سبع سنين . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " رحم الله يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك ما لبث في السجن " وعن مالك أنه لما قال له اذكرني عند ربك قيل له

: يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً، لأطيلن حبسك. فبكى يوسف وقال: طول البلاء أنساني ذكر المولى فويل لإخوتي. قال المحققون: الاستعانة بغير الله في دفع الظلم جائزة. فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأخذه النوم ليلة من الليالي وكان يطلب من يحرسه على جاء سعد بن أبي وقاص فنام.

(254/398)

وقال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ [الصف: 14] ولا خلاف في جواز الاستعانة بالكفار في دفع الظلم والغرق والحرق إلا أن يوسف عليه السلام عوتب على قوله: ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ لوجوه منها: أنه لم يقتد بالخليل جده حين وضع في المنجنيق فلقيه جبرائيل في الهواء وقال: هل من حاجة؟ فقال: أما إليك فلا مع أنه زعم أنه اتبع ملة آبائه. ومنها أنه قال: ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ وهذا يقتضي نفي الشرك على الإطلاق وتفويض الأمر بالكلية إلى الله سبحانه. فقوله: ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ كالمناقض لهذا الكلام. ومنها أنه قال: ﴿ عند ربك ﴾ ومعاذ الله أنه زعم أنه الرب بمعنى الإله إلا أن إطلاق هذا اللفظ على الله لا يليق بمثله وإن كان رب

الدار ورب الغلام متسعملاً في كلامهم . ومنها أنه لم يقرن بكلامه إن شاء الله ، ولما دنا فرج يوسف أرى الله الملك في المنام سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ، فاضطرب الملك بسببه لأن فطرته قد شهدت بأن استيلاء الضعيف على القوي ينذر بنوع من أنواع الشر إلا أنه لم يعرف تفصيله ، والشيء إذا علم من بعض الوجوه عظم الشوق إلى تكميل تلك المعرفة ولا سيما إذا كان صاحبه ذا قدرة وتمكين ، فبهذا الطريق أمر الملك بجمع الكهنة والمعبرين وقال : ﴿ يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ﴾ ثم إنه تعالى إذا أراد أمراً هيأ أسبابه فأعجز الله أولئك الملأ عن جواب المسألة وعماه عليهم حتى ﴿ قالوا ﴾ إنها ﴿ أضغاث أحلام ﴾ ونفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بتأويلها . واعلم أن الله سبحانه خلق جوهر النفس الناطقة بحيث يمكنها الصعود إلى عالم الأفلاك ومطالعة اللوح المحفوظ إلا أن المانع لها عن ذلك في اليقظة هو اشتغالها بتدبير البدن وبما يرد عليها من طريق

الحواس ، وفي وقت النوم تقل تلك الشواغل فتقوى النفس على تلك المطالعة ، فإذا وقفت الروح على حالة من تلك الأحوال فإن بقيت في الخيال كما شوهدت لم يحتج إلى التأويل ، وإن نزلت آثار مخصوصة مناسبة لذلك الإدراك الروحاني إل عالم الخيال فهناك يفتقر إلى المعبر . ثم منها ما هي منتسقة منتظمة يسهل على المعبر الانتقال من تلك المتخيلات إلى الحقائق الروحانيات ، ومنها ما تكون مختلطة مضطربة لا يضبط تحليلها وتركيبها لتشويش وقع في ترتيبها وتأليفها فهي المسماة بالأضغاث . وبالحقيقة ، الأضغاث ما يكون مبدؤها تشويش القوة المتخيلة لفساد وقع في القوى البدنية ، أو لورود أمر غريب عليه من خارج ، لكن القسم المذكور قد يعد من الأضغاث من حيث إنها أعيت المعبرين عن تأويلها .

ولنشتغل بتفسير الألفاظ ، أما الملك فريان بن الوليد ملك مصر ، وقوله : ﴿ إني أرى ﴾ حكاية حال ماضية . وسمان جمع سمينة وسمين وسمينة يجمع على سمان كما يقال : رجال كرام ونسوة كرام قال النحويون : إذا وصف المميز فالأولى أن يوقع الوصف وصفاً للمميز كما في الآية دون العدد ، لأنه ليس بمقصود بالذات فلهذا قيل سمان بالجر ليكون وصفاً لبقرات ، ويحصل التمييز لسبع بنوع من البقرات وهي السماء منهن ، ولو نصب جعل تمييز

السبع بجنس البقرات أولاً ثم يعلم من الوصف أن المميز بالجنس موصوف بالسمن .

والعجف هو الهزال الذل الذي ليس بعده هزال ، والنعت أعجف وعجفاء وهما لا يجمعان على فعال ولكنه حمل على سمان لأنه نقيضه . وقوله سبع عجاف تقديره بقرات سبع عجاف فحذف للعلم به كما في قوله : ﴿ وأخر يابسات ﴾ التقدير وسبعاً أخر لانصباب المعنى إلى هذا العدد . وإنما لم يقال سبع عجاف على الإضافة لأن البيان لا يقع بالوصف وحده . وقولهم " ثلاثة فرسان " و " خمسة أصحاب " لأنه وصف جرى مجرى الاسم ، ولا يجوز أن يكون قوله ﴿ وأخر ﴾ مجروراً عطفاً على ﴿ سنبلات ﴾ لأن لفظ الأخر يأباه ويبطل مقابلة السبع بالسبع ، وأراد بالملأ الأعيان من العلماء والحكماء ، واللام في ﴿ للرؤيا ﴾ للبيان كما قلنا في ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ [يوسف : 20] أو لأن عمل العامل فيما تقدم عليه يضعف فيعضد باللام كما يعضد اسم الفاعل بها وإن تأخر معموله ، أو لأن قوله : ﴿ للرؤيا ﴾ خبر " كان " كقوله هو لهذا الأمر أي متمكن من مستقل به و ﴿ تعبرون ﴾ خبر آخر أو حال أو لتضمن ﴿ تعبرون ﴾ معنى تنتدبون لعبارة الرؤيا والفصيح عبرت الرؤيا بالتخفيف ، وقد يشدد واشتقاقه من العبر بالكسر فالسكون وهو جانب النهر فيقال : عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه ، وعبرت الرؤيا إذا تأملت ناحيتها فانتقلت من أحد الطرفين إلى الآخر . والأضغاث جمع ضغث وهو الحزمة من أنواع النبت والحشيش مما طال ولم يقم

على ساق ، والإضافة بمعنى من أي أضغاث من أحلام والصيغة للجمع ولكن الواحد قد يوصف به كما قال : رمح أقصاد وبرمة أعشار . فالمراد هي حلم أضغاث أحلام .

وقد يطلق الجمع ويراد به الواحد كقولهم " فلان يركب الخيل ويلبس العمائم " وإن لم يركب إلا فرساً واحداً ولم يلبس إلا عمامة واحدة . ويجوز أن يكون قد قص عليهم أحلاماً أخر .

واللام في ﴿ الأحلام ﴾ اما للعهد كأنهم أرادوا المنامات الباطلة ، أو للجنس وأرادوا أنهم غير متبحرين في علم تأويل الرؤيا . ولما أعضل على الملأ تأويل رؤيا الملك تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه المصلوب ، وتذكر قوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ وذلك قوله سبحانه : ﴿ واذكر ﴾ وأصله " اذتكر " قلبت التاء والذال كلاهما دالاً مهملة وأدغمت .

﴿ بعد أمة ﴾ أي بعد حين كأنها حصلت من اجتماع أيام كثيرة. وقرىء بكسر الهمزة وهي النعمة أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة. وقرىء ﴿ بعد أمه ﴾ بوزن عمه. ومعنى ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ أخبركم به عمن عنده علمه ﴿ فأرسلون ﴾ إليه لأسائله والخطاب للملك والجمع للتعظيم أو له وللملأ حوله. والمعنى مروني باستعباره. وعن ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة. وههنا إضمار والمراد فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال ﴿ يوسف ﴾ أي يا يوسف ﴿ أيها الصديق ﴾ البليغ الكامل في الصدق وصفه بهذه الصفة لأنه تعرف أحواله من قبل. وفيه أنه يجب على المتعلم تقديم ما يفيد المدح لمعلمه. وإنما أعاد عبارة الملك بعينها لأن التعبير يختلف باختلاف العبارات. وقوله: ﴿ لعلي أرجع ﴾ فيه نوع من حسن الأدب لأنه لم يقطع بأنه يعيش إلى أن يعود إليهم، وعلى تقدير أن يعيش فربما عرض له ما يمنعه عن الوصول إليهم من الموانع التي لا تحصى كثرة. وكذا في قوله: ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ فضلك ومكانك من العلم فيخلصوك أو يعلمون فتواك فيكون فيه نوع شك لأنه رأى عجز سائر المعبرين وقيل: كرر لعل مراعاة لفواصل الآي وإلا كان مقتضى النسق لعلي أرجع إلى الناس فيعلموا، ومثله في هذه السورة ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ [يوسف: 62].

﴿ قال ﴾ يوسف في جواب الفتوى ﴿ تزرعون سبع سنين ﴾ وهو خبر في معنى الأمر يفيد المبالغة في إيجاب أيجاد المأمور به. قال في الكشاف: والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: ﴿ فذروه في سنبله ﴾ وأقول: يمكن أن يكون قوله: ﴿ تزرعون ﴾ إخباراً عما سيوجد منهم في زمن الغيث والمطر، لأن الزرع يلزم بنزول الأمطار عادة، وقوله: ﴿ فما حصدتم ﴾ إرشاد لهم إلى الأصلح لهم في ذلك الوقت. و ﴿ دأباً ﴾ بتسكين الهمزة وتحريكها مصدر دأب في العمل إذا استمر عليه. وانتصابه على الحال أي تزرعون ذوي دأب، أو على المصدر والعامل فعله أي تدأبون دأباً. وإنما أمرهم بأن يتركوه في السنابل إلا القدر الذي يأكلونه في الحال لئلا يقع فيه السوس ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ فيه دليل على أن ﴿ تزرعون ﴾ إخبار لا أمر ﴿ سبع ﴾ سنين ﴿ شداد ﴾ على الناس ﴿ يأكلن ما قدمتم لهن ﴾ من الإسناد المجازي لأن الآكلين أهل تلك السنين لا السنون ﴿ إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ تحرزون وتخبؤن. والإحصان جعل الشيء في الحصن كالإحراز جعل الشيء في الحرز أخبر أنه يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس من الغوث، أو من الغيث يقال: غيثت البلاد إذا مطرت ﴿ وفيه يعصرون ﴾ العنب والزيتون والسمسم. وقيل: يحلبون الضروع، تأويل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بالسنين. ثم بشرهم بالبركة في العام الثامن.

فقال المفسرون : إنه قد عرف ذلك بالوحي . عن قتادة : زاده الله علم سنة . وقيل : عرف استدلالاً فليس بعد انتهاء الجدب ، إلا الخصب . والجواب أنه لا يلزم من انتهاء الجدب الخصب والخير الكثير فقد يكون توسط الحال . وأيضاً في قوله : ﴿ وفيه يعصرون ﴾ نوع تفصيل لا يعرف إلا بالوحي . ولما رجع الشرابي إلى الملك وعرض عليه التعبير استحسنه وقال : ﴿ ائتوني به ﴾ فجعل الله سبحانه علمه مبدأ لخلاصه من المحنة الدنيوية فيعلم منه أن العلم سبب للخلاص في المحن الأخروية أيضاً . ﴿ فلما جاءه الرسول ﴾ وهو الشرابي فقال : أجب الملك ﴿ قال ﴾ يوسف ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ ما شأنهن وما حالهن ﴿ إن ربي ﴾ أي الله العالم بخفيات الأمور أو العزيز الذي رباه ﴿ بكيدهن عليم ﴾ وعلى الأول أراد إنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله لعبد غوره ، أو استشهد بعلم الله على أنهن كذبة ، أو أراد الوعيد أي هو عليم بكيدهن فيجازيهن عليه . وكيدهن ترغيبهن إياه في مواقعة سيدته أو تقبيح صورته عند العزيز حتى يرضى بسجنه . ومن لطائف الآية أنه أراد فسأل الملك أن يسأل ما بالهن إلا أنه راعى الأدب فاقتصر على سؤال الملك عن كيفية الواقعة فإن ذلك مما يهيجه على البحث

والتفتيش . ومنها أنه لم يذكر سيدته بسوء بل ذكر النسوة على التعميم ومع ذلك راعى جانبهن أيضاً فوصفهن بتقطيع الأيدي فقط لا بالترغيب في الخيانة . عن النبي صلى الله عليه وسلم : "لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني . ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ارجع إلى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر إن كان لحليماً ذا أناة" قال العلماء : الذي عمله يوسف هو اللائق بالحزم والعقل ، لأنه لو خرج في الحال فربما بقي في قلب الملك من تلك التهمة أثر ، ولعل

الحساد يتسلقون بذلك إلى تقبيح أمره عنده ، وفي هذا التأني والتثبت تلاف لما صدر منه في قوله للشرابي : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ . ﴿ قال ﴾ الملك بعد إحضار النسوة ﴿ ما خطبكن ﴾ ما شأنكن العظيم ﴿ إذ راودتن يوسف ﴾ هل وجدتن منه ميلاً إليكن أو إلى زليخا ؟ قيل : الخطاب لزليخا والجمع للتعظيم . وقيل : خاطبهن جميعاً لأن كل واحدة منهن راودت يوسف لنفسها أو لأجل امرأة العزيز . ﴿ قلن حاش لله ﴾ تعجباً من عفته

ونزاهته ﴿ قالت امرأت العزيز ﴾ حين عرفت أن لا بد من الاعتراف ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ وضح وانكشف وتمكن في القلوب من قولهم حصحص البعير إذا ألقى ثفناته للإناخة والاستقرار على الأرض. وقال الزجاج: اشتقاقه من الحصة أي بانت حصة الحق من حصة الباطل.

أما قوله سبحانه: ﴿ ذلك ليعلم ﴾ إلى تمام الآيتين ففيه قولان: الأول - وعليه الأكثرون - أنه حكاية قول يوسف. قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة الصارفة لكل منهما إلى ما يليق به. والإشارة إلى الحداثة الحاضرة بقوله: ﴿ ذلك ﴾ لأجل التعظيم والمراد ما ذكر من رد الرسول والتثبت وإظهار البراءة. وعن ابن عباس: أنه لما دخل على الملك قال ذلك، والأظهر أنه قال ذلك في السجن عند عود الرسول إليه. ومحل ﴿ بالغيب ﴾ نصب على الحال من الفاعل أي وأنا غائب عنه، أو من المفعول أي وهو غائب عني، أو على الظرف أي بمكان الغيب وهو الاستتار وراء الأبواب المغلقة. وقيل: هذه الخيانة قد وقعت في حق العزيز فكيف قال ذلك ليعلم الملك؟ وأجيب بأنه إذا خان وزيره فقد خان الملك من بعض الوجوه، أو أراد ليعلم الله لأن

المعصية خيانة ، أو المراد ليعلم الملك أني لم أخن العزيز ، أو ليعلم العزيز أني لم أخنه وليعلم أن الله لا يهدي كيد الخائنين لا ينفذه ولا يسدده ، وفي تعريض بامرأته الخائنة وبالعزيز حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه فكأنه خان حكم الله ، وفيه تأكيد لأمانته وأنه لو كان خائناً لم يهد الله كيده . ولا يخفى أن هذه الكلمات من يوسف مع الشهادة الجازمة والاعتراف الصريح من المرأة دليل على نزاهة يوسف عليه السلام من كل سوء . قال أهل التحقيق : إنه لما راعى حرمة سيدته في قوله : ﴿ ما بال النسوة اللاتي ﴾ دون أن يقول " ما بال زليخا " أرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء واعترفت بأن الذنب كله منها ، فنظيره ما يحكى أن امرأة جاءت بزوجها إلى القاضي وادعت عليه المهر فأمر القاضي بأن يكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود من أداء الشهادة . فقال الزوج : لا حاجة إلى ذلك فإني مقر بصدقها في دعواها . فقالت المرأة : لما أكرمني إلى هذا الحد فاشهدوا أني أبرأت ذمته من كل حق لي عليه . ولما كان قول يوسف

عليه السلام ذلك ليعلم جارياً مجرى تزكية النفس على الإطلاق أو في هذه الواقعة وقد قال تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ [النجم : 32] أتبع ذلك قوله : ﴿ وما أبرىء نفسي إن

النفس ﴾ أي هذا الجنس ﴿ لأمارة بالسوء ﴾ ميالة إلى القبائح راغبة في المعاصي.

وفيه أن ترك تلك الخيانة ما كان حظ النفس وشربها ولكن كان بتوفيق الله تعالى وتسهيله وصرفه ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة، أو المراد أنها أمارة بالسوء في كل وقت وأوان إلا وقت رحمة ربي، أو الاستثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة: القول الثاني أنه حكاية قول المرأة لأن يوسف عليه السلام ما كان حاضراً في ذلك المجلس والمعنى، وإن كنت أحلت عليه الذنب عند حضوره ولكني ما أحلته عليه في غيبته حين كان في السجن ﴿ وأن الله لا يهدي ﴾ فيه تعريض فأنها لما أقدمت على المكر فلا جرم افتضحت، وأنه لما كان بريئاً من الذنب لا جرم طهره الله منه ﴿ وما أبرىء نفسي ﴾ من الخيانة مطلقاً فإني قد خنته حين قلت ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ أو حين أودعته السجن.

ثم إنها اعتذرت عما كان منها فقالت: ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ كنفس يوسف ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ أو استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت.

قال المحققون. النفس الإنسانية شيء واحد فإذا مالت إلى العالم العلوي كانت مطمئنة،

وإذا مالت إلى العالم السفلي وإلى الشهوة والغضب سميت أمارة وهذا في أغلب أحوالها لإلفها إلى العالم الحسي وقرارها فيه فلا جرم إذا خليت وطباعها انجذبت إلى هذه الحالة فلهذا قيل : إنها من حيث هي أمارة بالسوء . وإذا كانت منجذبة مرة إلى العالم العلوي ومرة إلى العالم السفلي سميت لوامة . ومنهم من زعم أن النفس المطمئنة هي الناطقة العلوية ، والنفس الأمارة منطبعة في البدن تحمله على الشهوة والغضب وسائر الأخلاق الرذيلة . وتمسكت الأشاعرة بقوله : ﴿ إلا ما رحم ﴾ ظاهراً لأنه دل على أن صرف النفس عن السوء بخلق الله وتكوينه . وحملته المعتزلة على منح الألطاف والله أعلم بالحقائق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 88. 96 ﴾

(265/398)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ وقال نسوة ﴾

أي : وقال جماعة من النساء وكنّ خمساً : امرأة الساقي ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب ، والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي ، ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث وقوله : ﴿ في المدينة ﴾ ، أي :

مدينة مصر ظرف ، أي : أشعن الحكاية في مصر أو صفة نسوة ، وقيل : مدينة عين شمس . ﴿ امرأت العزيز ﴾ وإنما أضفنها إلى زوجها إرادة لإشاعة الخبر ، لأنّ النفس إلى سماع أخبار أولي الأخطار أميل ويردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب ورسم امرأة بالتاء المجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء والباقون بالتاء ، وأما الوصل فهو بالتاء للجميع ﴿ تراود فتاها ﴾ ، أي : عبدها الكنعاني ، يقال : فتاي وفتاتي ، أي : عبدي وجاريتي ﴿ عن نفسه ﴾ ، أي : تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها ﴿ قد شغفها حباً ﴾ ، أي : شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل إلى فؤادها ، وحباً نصب على التمييز ، وقيل : جلدة رقيقة يقال لها : لسان القلب قال النابغة:

*وقد حال همّ دون ذلك والج ** مكان انشغاف تبتغيه الأصابع

وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار دال قد عند الشين ، والباقون بالإدغام ﴿ إنا لنراها ﴾ ، أي : نعلم أمرها علماً هو كالرؤية ﴿ في ضلال ﴾ ، أي : خطأ ﴿ مبين ﴾ ، أي : بين ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر بسبب حبها إياه .

﴿ فلما سمعت ﴾ زليخا ﴿ بمكرهنّ ﴾ ، أي : قولهن وإنما سمي ذلك مكراً لوجوه: الأوّل أنّ النسوة إنما ذكرن ذلك الكلام استدعاءً لرؤية يوسف عليه السلام ، والنظر إلى وجهه ؛ لأنهنّ عرفن أنهنّ إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهنّ ليتمهد عذرها عندهنّ .

الثاني : أنّ زليخا أسرّت إليهنّ حبها ليوسف عليه السلام وطلبت منهنّ كتمان هذا السرّ فلما أظهرن السرّ كان ذلك مكراً .

(266/398)

الثالث : أنهنّ وقعنّ في غيبتها والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر ﴿ أرسلت إليهنّ ﴾ تدعوهنّ لتقيم عذرها عندهنّ . قال وهب : اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهنّ الخمس ﴿ وأعتدت ﴾ ، أي : أعددت ﴿ لهنَّ متكأً ﴾ ، أي : طعاماً يقطع بالسكين ، وهو الأترج وإنما سمي الطعام متكأً ؛ لأنه يتكأ عنده . قال جميل:

*فظللنا بنعمة واتكأنا ** وشربنا الحلال من قلله

والمتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث ؛ لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ، ولذلك جاء النهي عنه في الحديث أن يأكل الرجل متكئاً . وقال صلى الله عليه وسلم "لا آكل متكئاً" وقيل : إنها زينت البيت بألوان الفواكه والأطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتي عيرنها بحب يوسف عليه السلام ﴿ وآتت ﴾ ، أي : أعطت ﴿ كل واحدة منهنَّ سكيناً ﴾ ، أي : لتأكل بها ، وكانت عادتهنّ أن يأكلن

اللحم والفواكه بالسكين ﴿ وقالت ﴾ زليخا ليوسف عليه السلام ﴿ اخرج عليهنّ ﴾ ، أي : النسوة ، وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهنّ يوسف وكانت قد زينته واختبأته في مكان .

وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي بكسر التاء في الوصل ، والباقون بالضم ، وأمّا الابتداء فجميع القراء يبتدؤون الهمزة بالضم ﴿ فلما رأينه ﴾ ، أي : النسوة ﴿ أكبرنه ﴾ ، أي : أعظمنه ودهشن عند رؤيته ، واتفق الأكثرون على أنهنّ إنما أكبرنه بمحبتهنّ الجمال الفائق ، والحسن الكامل وكان يوسف قد أعطي شطر الحسن ، وقال عكرمة : كان فضل يوسف في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "رأيت يوسف ليلة أسري بي إلى السماء كالقمر ليلة البدر" ذكره البغويّ بغير سند ، وقال ابن إسحاق : كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يتلألأ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء عليها ويقال : إنه ورث حسن آدم عليه السلام يوم خلقه الله تعالى قبل أن يخرج من الجنة ، وقيل : ورث الجمال من جدّته سارة ، وقيل : أكبرنه يعني حضن ، والهاء للسكت يقال : أكبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته

دخلت في الكبر ؛ لأنها بالحيض تخرج من حدّ الصغر إلى حدّ الكبر ، وكأنّ أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

*خف الله واستر ذا الجمال ببرقع ** فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

وقيل : أمنين قال الكميت:

*ولما رأته الخيل من رأس شاهق ** صهلن وأمنين المنيّ المدفقا

وقال الرازي : إنما أكبرنه ؛ لأنهنّ رأين عليه نور النبوّة وسيما الرسالة ، وآثار الخضوع والإخبات وشاهدن فيه شهادة الهيبة ، وهيبة ملكية وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهنّ ، وكان الجمال العظيم مقروناً بتلك الهيبة ، فوقع الرعب والمهابة منه في قلوبهنّ ﴿ وقطعنّ أيديهنّ ﴾ ، أي : جرحنها بالسكاكين التي معهنّ ، وهنّ يحسبن أنهنّ يقطعنّ الأترج ، ولم يجدن الألم من فرط الدهشة بيوسف ، وقال وهب : مات جماعة منهنّ ﴿ وقلن حاش لله ﴾ ، أي : تنزيهاً ، له الرسم بغير ألف بعد الشين .

وقرأ أبو عمرو في الوصل دون الوقف بألف بعد الشين والباقون بغير ألف وقفاً ووصلاً ﴿ ما هذا ﴾ ، أي : يوسف عليه السلام ﴿ بشراً ﴾ وإعمال ما عمل ليس هي اللغة القدمى الحجازية ويدل عليها هذه الآية وقوله تعالى ﴿ ما هنّ أمّهاتهم ﴾ (المجادلة ،) ﴿ إن ﴾ ، أي : ما ﴿ هذا إلا ملك كريم ﴾ ، أي : على الله لما حواه من الحسن الذي لا

يكون عادة في النسمة البشرية ، فإنّ الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة .

(268/398)

﴿ قالت ﴾ ، أي : زليخا للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته ﴿ فذلكن ﴾ ، أي : فهذا هو ﴿ الذي لمتنني فيه ﴾ ، أي : في محبته قبل أن تتصوّرنه حق تصوره ولو تصورتنه بما عاينتن لعذرتنني ، ثم أنها صرحت بما فعلت فقالت : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ ، أي : فامتنع من ذلك الفعل الذي طلبت ، وإنما صرحت بذلك ؛ لأنها علمت أنها لا ملامة عليها منهنّ ، وأنهنّ قد أصابهنّ ما أصابها عند رؤيته ، ثم قالت : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ﴾ ، أي : وإن لم يطاوعني فيما دعوته إليه ﴿ ليسجنن ﴾ ، أي : ليعاقبن بالحبس ﴿ وليكونا من الصاغرين ﴾ ، أي : الذليلين المهانين ، فقال النسوة ليوسف : أطع مولاتك فيما دعتك إليه ، فاختار يوسف عليه السلام السجن على ما دعت إليه فلذلك .

﴿ قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه ﴾ وإن كان هذا مما تشتهيه النفس ، وذلك مما تكرهه نظراً إلى العاقبة ، فإنّ الأوّل فيه الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة ، والثاني فيه

المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة. فإن قيل: إنّ الدعاء كان منها فلم أضافه إليهنّ جميعاً؟

أجيب: بأنهنّ خوّفنه من مخالفتها وزين له مطاوعتها، وقيل: إنهنّ دعونه إلى أنفسهنّ. قال بعض العلماء لو لم يقل السجن، أحب إليّ لم يبتل بالسجن والأولى بالعبد أن يسأل الله تعالى العافية، ولذلك ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الله الصبر بقوله له: "سألت الله البلاء فاسأله العافية" رواه الترمذي ﴿وإلا﴾، أي: وإن لم ﴿تصرف عني كيدهنّ﴾، أي: فيما أردن مني بالتثبيت على العصمة ﴿أصب﴾، أي: أمل ﴿إليهنّ﴾ يقال: صبا فلان إلى كذا إذا مال إليه واشتاقه ﴿وأكن﴾، أي: أصر ﴿من الجاهلين﴾، أي: من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه، فإن الحكيم لا يفعل القبيح وفي ذلك دليل على أن من ارتكب ذنباً إنما يرتكبه عن جهالة، والقصد بذلك الدعاء ولذلك قال تعالى:

﴿فاستجاب له ربه﴾، أي: فأجاب الله تعالى دعاءه الذي تضمنه هذا الثناء؛ لأنّ الكريم يغنيه التلويح عن التصريح كما قيل:

*إذا أثنى عليك المرء يوماً ** كفاك من تعرّضه الثناء

﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ ، أي : فثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان ﴿ إنه هو السميع ﴾ ، أي : لدعاء الملتجئين إليه ﴿ العليم ﴾ ، أي : للضمائر والنيات فيجيب ما صح فيه القصد وطاب منه العزم .

﴿ ثم بدا ﴾ ، أي : ظهر ﴿ لهم ﴾ ، أي : العزيز وأصحابه ﴿ من بعد ما رأوا الآيات ﴾ ، أي : الدالة على براءة يوسف عليه السلام كشهادة الصبيّ وقدّ القميص وقطع النساء أيديهنّ واستعصامه عنهنّ ﴿ ليسجننه حتى ﴾ ، أي : إلى ﴿ حين ﴾ ينقطع فيه كلام الناس ، وذلك أنّ المرأة قالت لزوجها : إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يقول لهم : إني راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على إظهار عذري فإمّا أن تأذن لي فأخرج وأعتذر وإمّا أن تحبسه كما حبستني ، فعند ذلك وقع في قلب العزيز أنّ الأصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة فسجنه .

تنبيه : في فاعل بدا أربعة أوجه : أحسنها أنه ضمير يعود على السجن بفتح السين ، أي : ظهر لهم حبسه . والثاني : أنّ الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل وهو بدا ، أي : بدا لهم بداء . والثالث : أنه مضمر يدل عليه السياق ، أي : بدا لهم رأي . والرابع : أنه محذوف وليسجننه قائم مقامه ، أي : بدا لهم السجن ، فحذف وأقيمت الجملة مقامه ،

وليست الجملة فاعلاً ؛ لأن الجمل لا تكون كذلك ، وقيل : الحبس هنا خمس سنين ، وقيل : سبع سنين .

(270/398)

وقال مقاتل بن سليمان : حبس يوسف اثنتي عشرة سنة ، وقال الرازي : والصحيح أنّ هذه المقادير غير معلومة ، وإنما القدر المعلوم أنه بقي مسجوناً مدّة طويلة لقوله تعالى : ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ (يوسف ،) وعن عكرمة قال : قال رجل ذو رأي للعزيز : متى تركت هذا العبد يعتذر إلى الناس ، ويقص عليهم أمره فاتركه في بيتها لا يخرج إلى الناس فإن خرج للناس عذروه وفضحوا أهلك فأمر به فسجن .

﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ وهما غلامان كانا للوليد بن نزوان العمليقي ملك مصر الأكبر أحدهما خبازه صاحب طعامه ، والآخر ساقيه صاحب شرابه غضب الملك عليهما فحبسهما وكان السبب فيه أنّ جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله ، فضمنوا لهذين الغلامين مالاً على أن يسما الملك في طعامه وشرابه فأجابا إلى ذلك ثم أنّ الساقي ندم ورجع عن ذلك ، وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي : لا تأكل أيها الملك فإنّ الطعام مسموم فقال الخباز : لا

تشرب فإنّ الشراب مسموم. فقال الملك للساقي اشرب فشرب فلم يضره، وقال للخباز: كل من طعامك فأبى فأطعم من ذلك الطعام: دابة فهلكت، فأمر بحبسهما، وكان يوسف عليه السلام حين دخل السجن قال لأهله: إني أعبر الأحلام، فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلم فلنجرّب هذا العبد العبراني فنتراءى له رؤيا قال ابن مسعود: وما رأيا شيئاً وإنما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم: بل كانا رأيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكر أنهما صاحبا الملك حبسهما وقد رأيا رؤيا غمتهما، فقال يوسف: قصا عليّ ما رأيتما ﴿قال أحدهما﴾ وهو صاحب شراب الملك ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾.

فإني قيل: كيف يعقل عصر الخمر؟

أجيب: عن ذلك بثلاثة أقوال:

أحدها: أن يكون المعنى أعصر عنب خمر، أي: العنب الذي يكون عصيره خمراً فحذف المضاف.

الثاني: إن العرب تسمي الشيء باسم ما يؤول إليه تقول: فلان يطبخ دبساً وهو يطبخ عصيراً.

الثالث : قال أبو صالح : أزد وعمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة إلى أهل مكة فنطقوا بها . قال الضحاك : نزل القرآن بألسنة جميع العرب وذلك أنه قال : إني رأيت في المنام كأني في بستان وإذا فيه شجرة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه ، وسقيت الملك فشربه ﴿ وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ﴾ وذلك أنه قال : رأيت في المنام كأنّ فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الطعام وسباع الطير تنهش منه ﴿ نبئنا ﴾ ، أي : أخبرنا ﴿ بتأويله ﴾ ، أي : بتفسيره ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ ، أي : في علم التفسير ؛ لأنه متى عبر لم يخطئ كما قال : وعلمتني من تأويل الأحاديث ، وقيل : في أمر الدين ؛ لأنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة ، فإنه كان يصوم النهار ويقوم الليل كله ، ومن كان كذلك فإنه يوثق بما يقوله في تعبير الرؤيا وفي سائر الأمور ، وقيل : في حق الشركاء والأصحاب ؛ لأنه كان يعود مرضاهم ويؤنس حزينهم ، وإذا ضاق على أحدهم وسع عليه وإذا احتاج أحدهم جمع له شيئاً ، قيل : إنه لما دخل السجن وجد قوماً اشتدّ بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسكنهم ويقول : اصبروا وأبشروا تؤجروا فيقولون : بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف بن صفيّ الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق بن

خليل الله إبراهيم ، فقال له عامل السجن : والله يا فتى لو استطعت لخليت سبيلك ، ولكن سأحسن جوارك فكن في أي بيوت السجن شئت .

(272/398)

وروي أنّ الفتيين لما رأيا يوسف قالا : لقد أحببناك حين رأيناك ، فقال لهما يوسف : أنشدكما الله أن لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء ، لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ بلاء ثم أحبني أبي فألقيت في الجب ، وأحبتني امرأة العزيز فحبست ، فلما قصا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبر لهما ما سألاه لما علم في ذلك من المكروه على أحدهما .

﴿ قال ﴾ معرضاً عن سؤالهما أخذاً في غيره من إظهار المعجزة في الدعاء إلى التوحيد ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ ، أي : في منامكما ﴿ إلا نبأتكما بتأويله ﴾ ، أي : في اليقظة ﴿ قبل أن يأتيكما ﴾ تأويله ، وقيل : أراد به في اليقظة ، يقول : لا يأتيكما طعام ترزقانه من منازلكما تطعمانه إلا نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذي يصل إليكما قبل أن يصل وأي طعام أكلتم ، ومتى أكلتم وهذه كمعجزة عيسى عليه السلام حيث قال : ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴾ (آل عمران ،) فقالا : هذا فعل العرافين

والكهنة. فمن أين لك هذا العلم؟ فقال: ما أنا بكاهن ﴿ذلكما﴾، أي: هذا التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿مما علمني ربي﴾ وفي ذلك حث على إيمانهم ثم قواه بقوله ﴿إني تركت ملة﴾، أي: دين ﴿قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾ وكرر لفظة هم للتأكيد لشدّة إنكارهم للمعاد. ولما ادعى يوسف عليه السلام النبوّة وأظهر المعجزة أظهر أنه من أهل بيت النبوّة بقوله:

﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ ليسمعوا قوله ويطيعوا أمره فيما يدعوهم إليه من التوحيد، فإنّ الإنسان متى ادّعى حرفة أبيه وجدّه لم يستبعد ذلك منه، وأيضاً فكمال درجة إبراهيم وإسحاق ويعقوب أمر مشهور في الدنيا، فإذا أظهر أنهم آباؤه عظموه ونظروا إليه بعين الإجلال فكان انقيادهم له أتم وتأثير قلوبهم بكلامه أكمل.

فإن قيل: إنه كان نبياً فكيف قال: اتبعت ملة آبائي، والنبيّ لا بدّ وأن يكون مختصاً بشريعة نفسه؟

أجيب: بأنّ مراده التوحيد الذي لا يتغير، أو لعله كان رسولاً من عند الله تعالى إلا أنه كان نبي على شريعة إبراهيم عليه السلام، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بسكون ياء آبائي،

والباقون بالفتح ﴿ ما كان ﴾ ، أي : ما صح ﴿ لنا ﴾ معشر الأنبياء ﴿ أن نشرك بالله من شيء ﴾ لأنّ الله تعالى طهره وطهر آباءه عن الكفر ونظيره قوله تعالى : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ (مريم ،) وإنما قال : من شيء لأنّ ؛ أصناف الشرك كثيرة ، فمنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد النار ، ومنهم من يعبد الكواكب ، ومنهم من يعبد الملائكة ، فقوله : من شيء ردّ على هؤلاء الطوائف وإرشاد إلى الدين الحق ، وهو أنه لا موجد ولا خالق ولا رازق إلا الله ﴿ ذلك ﴾ ، أي : التوحيد ﴿ من فضل الله علينا ﴾ بالوحي ﴿ وعلى الناس ﴾ ، أي : سائرهم ببعثنا لارشادهم وتثبيتهم عليه ﴿ ولكنّ أكثر الناس ﴾ ، أي : المبعوث إليهم ﴿ لا يشكرون ﴾ هذه النعمة التي أنعم الله تعالى بها عليهم ؛ لأنهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهم إلى الإيمان فقال:

﴿ يا صاحبي السجن ﴾ ، أي : يا صاحبيّ في السجن فأضافهما إلى السجن كما تقول : يا سارق الليلة ، فكما أنّ الليلة مسروق فيها غير مسروقة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب وإنما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام ، أو يا ساكني السجن كما قيل لسكان الجنة : أصحاب الجنة ، ولسكان النار : أصحاب النار ﴿ أأرباب ﴾ ، أي : آلهة ﴿ متفرقون ﴾ ، أي : متباينون من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وصغير وكبير ومتوسط وغير ذلك ﴿ خير ﴾ ، أي : أعظم في صفة المدح وأولى بالطاعة ﴿ أم الله الواحد القهار ﴾ ، أي : المتوحد بالألوهية الذي لا يغالب ولا يشارك في الربوبية

غيره خير، والاستفهام للتقرير، وفي الهمزتين في ﴿ أأرباب ﴾ من القراءات ما في ﴿ أأنذرتهم ﴾ وقد مرّ.

فإن قيل: هل يجوز التفاضل بين الأصنام وبين الله تعالى حتى يقال: إنها خير أم الله ؟

أجيب: بأنّ ذلك خرج على سبيل الفرض، والمعنى: لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير فهي خير أم الله الواحد القهار. ثم بين عجز الأصنام فقال:

﴿ ما تعبدون ﴾ وإنما خاطبهم بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية في المخاطبة؛ لأنه أراد جميع من في السجن من المشركين. والعبادة خضوع القلب في أعلى مراتب الخضوع، وبيّن حقارة معبوداتهم وسفالتها بقوله: ﴿ من دونه ﴾ ، أي: الله الذي قام البرهان على إلهيته وعلى اختصاصه بذلك ﴿ إلا أسماء ﴾ وبيّن ما يريد وأوضحه بقوله ﴿ سميتموها ﴾ ، أي: ذوات أوجدتم لها أسماء ﴿ أنتم ﴾ سميتموها آلهة وأرباباً، وهي حجارة جماد خالية عن المعنى لا حقيقة لها ﴿ وآباؤكم ﴾ من قبلكم سموها كذلك ﴿ ما أنزل الله بها ﴾ ، أي: بعبادتها ﴿ من سلطان ﴾ ، أي: حجة وبرهان ﴿ إن الحكم ﴾ ، أي: ما الحكم ﴿ إلا لله ﴾ ، أي: المختص بصفات الكمال والحكم فصل الأمر بما تدعو إليه الحكمة ﴿ أمر ﴾

وهو النافذ الأمر المطاع الحكم ﴿ أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ ؛ لأنه المستحق للعبادة لا هذه الأسماء التي سميتموها آلهة. ولما أقام الدليل على هذا الوجه الذي كان جديراً بالإشارة إلى فضله أشار إليه بأداة البعد تنبيهاً على علوّ مقامه وعظيم شأنه فقال : ﴿ ذلك ﴾ ، أي : الشأن الأعظم وهو توحيده وإفراده عن خلقه ﴿ الدين القيم ﴾ ، أي : المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿ ولكنّ أكثر الناس ﴾ وهم الكفار ﴿ لا يعلمون ﴾ ما يسيرون إليه من العذاب فيشركون. ولما قرر يوسف عليه السلام أمر التوحيد والنبوّة إلى الجواب عن السؤال الذي ذكراه فقال:

﴿ يا صاحبي السجن ﴾ ، أي : الذي يحصل فيه الانكسار للنفس والرقة في القلب ، فتخلص فيه المودّة ، ولما كان في الجواب ما يسوء الخباز أبهم ليجوّز كل منهما أنه الفائز ، فإن ألجأه إلى التعيين كان ذلك عذراً له في الخروج عن الأليق فقال : ﴿ أمّا أحدكما ﴾ وهو صاحب شراب الملك ﴿ فيسقي ربه ﴾ ، أي : سيده ﴿ خمراً ﴾ على عادته ، والعناقيد الثلاثة هي ثلاثة أيام يبقى في السجن ، ثم يدعو به الملك فيردّه إلى رتبته التي كان عليها هذا تأويل رؤياه ﴿ وأمّا الآخر ﴾ وهو صاحب طعام الملك ﴿ فيصلب ﴾

والسلال الثلاثة ثلاثة أيام ، ويدعو به الملك فيصلبه ﴿ فتأكل الطير من رأسه ﴾ هذا تأويل رؤياه ، قال ابن مسعود : فلما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا : ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب ، فقال لهما يوسف عليه السلام ﴿ قضي ﴾ ، أي : تم ﴿ الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ ، أي : تطلبان الإفتاء فيه عملاً بالفتوة ، فسألتما عن تأويله وهو تعبير رؤيا كما كذبتما أو صدقتما لم أقله عن جهل ولا غلط .

﴿ وقال ﴾ يوسف عليه السلام ﴿ للذي ظنّ ﴾ ، أي : علم وتحقق ، فالظنّ بمعنى العلم ؛ لأنه قاله عن وحي لقوله ﴿ قضي الأمر ﴾ ويجوز أن يكون ضمير ظنّ للساقي ، فهو حينئذ على بابه ﴿ أنه ناجٍ منهما ﴾ وهو الساقي ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ، أي : سيدك ملك مصر بما رأيت مني من معالي الأخلاق وطهارة الشيم الدالة على بعدي مما رميت به ، والمراد بالرب هنا غير المراد به في قوله : ﴿ أأرباب متفرقون ﴾ فنجا الساقي وصلب صاحبه وفق ما قاله لهما يوسف عليه السلام ، واختلف في ضمير ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ على قولين:

أحدهما : أنه يعود إلى الساقي ، وهو قول جماعة من المفسرين ، أي : فأنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك قالوا : لأنّ صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل الساقي حتى أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها إلى يوسف .

والقول الثاني وعليه أكثر المفسرين : أنه يرجع إلى يوسف عليه السلام . وقال الرازي : إنه الحق ، أي : أنّ الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه تعالى حتى استعان بمخلوق مثله ، وتلك غفلة عرضت له عليه السلام ، فإنّ الاستعانة بالمخلوق في رفع الظلم جائزة في الشريعة إلا أنّ حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ، فهذا وإن كان جائزاً لعامّة الخلق إلا أنّ الأولى بالصدّيقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب ، فلهذا صار يوسف عليه السلام مؤاخذاً بهذا القول ولم يؤاخذه تعالى في تلك القصة البتة بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء فعلم بذلك أنه عليه السلام كان مبرأً مما نسبه الجهال والحشوية إليه .

فإن قيل : كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه ؟

أجيب : بأنّ ذلك إنما كان شغل خاطر ، وأمّا النسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر وإزالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه ، واختلف في قدر البضع في قوله تعالى : ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ فقال مجاهد : ما بين الثلاث إلى التسع . وقال ابن عباس : ما دون

العشرة. وقال البغوي: وأكثر المفسرين أنّ البضع في هذه الآية سبع سنين، وكان قد لبث قبله خمس سنين، فجملته اثنتا عشرة سنة، وقال وهب: أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف في السجن سبع سنين. وقال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقي: اذكرني عند ربك، قيل له: يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلنّ حبسك، فبكى يوسف وقال: يا رب أنسى قلبي كثرة البلوى، فقلت كلمة، قال الحسن: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم "رحم الله يوسف لولا كلمته التي قالها ما لبث في السجن ما لبث" ثم بكى الحسن وقال: نحن إذا نزل بنا بلاء فزعنا إلى الناس، ذكره الثعلبي مرسلاً وبغير سند.

وقال الحسن أيضاً: دخل جبريل على يوسف عليهما السلام في السجن، فلما رآه يوسف عرفه فقال له: يا أخا المنذرين ما لي أراك بين الخاطئين. فقال له جبريل: يا طاهر يا ابن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك: أما استحييت مني واستشفعت للآدميين فوعزتي لألبثنك في السجن بضع سنين. قال يوسف: وهو في ذلك عني راض؟ قال: نعم. قال: إذاً لا أبالي. وقال كعب: قال جبريل ليوسف: إنّ الله تعالى يقول لك: من خلقك؟ قال: الله. قال: فمن علمك تأويل الرؤيا؟ قال: الله. قال: فمن حببك إلى أبيك؟ قال: الله. قال: فمن أنجاك من كرب البئر؟ قال: الله تعالى. قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء؟ قال: الله. قال: فكيف استشفعت بآدمي مثلك؟.

قال محمد بن عمر الرازيّ في تفسيره : والذي جربته من أوّل عمري إلى آخره أنّ الإنسان كلما عوّل في أمر من الأمور على غير الله تعالى صار ذلك سبباً للبلاء والمحنة والشدّة والرزية ، وإذا عول على الله تعالى ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه ، فهذه التجربة قد استمرّت لي من أوّل عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت إلى السابع والخمسين ، فعند ذلك استقرّ قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى وإحسانه . ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر الأكبر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هائلة ، كما قال تعالى:

﴿ وقال الملك إني أرى ﴾ ، أي : رأيت عبر بالمضارع حكاية للحال لشدّة ما هاله من ذلك ﴿ سبع بقرات سمان ﴾ ، أي : خرجن من نهر يابس ، والسمن زيادة البدن من الشحم واللحم وسمان جمع سمينة ، ويجمع سمين أيضاً عليه يقال : رجال سمان ونساء سمان كما يقال : رجال كرام ونساء كرام ﴿ يأكلهنّ ﴾ ، أي : يبتلعهنّ ﴿ سبع ﴾ ، أي : من البقر ﴿ عجاف ﴾ جمع عجفاء ، أي : مهازيل خرجن من ذلك النهر .

تنبيه : جمع عجفاء على عجاف ، والقياس عجف نحو حمراء وحمر حملاً له على سمان ؛ لأنه نقيضه ، ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض ﴿ و ﴾ إني أرى ﴿ سبع سنبلات خضر ﴾ ، أي : قد انعقد حبها ﴿ و ﴾ إني أرى سبع سنبلات ﴿ أخر

يابسات ﴾ ، أي : قد أدركت ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها وإنما استغنى عن بيان حالها بما نص من حال البقرات ، والسنبلة نبات كالقصبة فيها جملة حبوب منتظمة ، فكأنه قيل : فكان ماذا ؟ فقيل : قال الملك بعد أن جمع السحرة والكهنة والمعبرين ﴿ يا أيها الملأ ﴾ ، أي : الأشراف النبلاء الذين تملأ العيون مناظرهم والقلوب مآثرهم ﴿ أفتوني في رؤياي ﴾ ، أي : أخبروني بتأويلها ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ ، أي : إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا فاعبروها .

تنبيه : اللام في للرؤيا مزيدة فلا تعلق لها بشيء ، وزيدت لتقدّم المعمول تقويةً للعامل كما زيدت إذا كان العامل فرعاً كقوله تعالى : ﴿ فعال لما يريد ﴾ (البروج ،) ولا تزاد فيما عدا ذينك إلا ضرورة ، وقيل : ضمن تعبرون معنى ما يتعدّى باللام تقديره : إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا ، وقيل : متعلقة بمحذوف على أنها للبيان كقوله تعالى : ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ (يوسف ،) تقديره : أعني فيه ، وكذلك هذا تقديره : أعني للرؤيا ، وعلى هذا يكون مفعول تعبرون محذوفاً تقديره تعبرونها ، وفي الآية ما يوجبه حال العلماء من حاجة الملوك إليهم فكأنه قيل : فما قالوا ؟ فقيل:

﴿ قالوا ﴾ هذه الرؤيا ﴿ أضغاث ﴾ ، أي : أخلاط ﴿ أحلام ﴾ مختلطة مختلفة مشتبهة جمع ضغث بكسر الضاد وإسكان الغين المعجمة ، وهي قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس ، والأحلام جمع حلم بضم الحاء وإسكان اللام وضمها ، وهو الرؤيا فقيدوها بالأضغاث ، وهو ما يكون من الرؤيا باطلاً لكونه من حديث النفس ووسوسة الشيطان لكونها تشبه أخلاط النبات التي لا تناسب بينها ؛ لأنّ الرؤيا تارة تكون من الملك وهي الصحيحة ، وتارة تكون من تحزين الشيطان وتخليطاته ، وتارة من حديث النفس ، ثم قالوا : ﴿ وما نحن ﴾ ، أي : بأجمعنا ﴿ بتأويل الأحلام ﴾ ، أي : المنامات الباطلة ﴿ بعالمين ﴾ ، أي : ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للمنامات الصادقة كأنه مقدّمة ثانية للعذر ولما سأل الملك عن هذه الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب تذكر ذلك الشرابي واقعة يوسف عليه السلام ؛ لأنه كان يعتقد فيه كونه متبحراً في هذا العلم كما قال تعالى:

﴿ وقال الذي نجا ﴾ ، أي : خلص ﴿ منهما ﴾ ، أي : من صاحبي السجن وهو الشرابي إنّ في الحبس رجلاً فاضلاً صالحاً كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين

فذكر تأويلهما فصدق في كل ما ذكر وما أخطأ في حرف ، فكانت هذه الرؤيا سبباً لخلاص يوسف عليه السلام ، ولم يتذكر الشرابي إلا بعد طول المدّة كما قال تعالى : ﴿ وادّكر ﴾ بالدال المهملة ، أي : طلب الذكر بالذال المعجمة وزنه افتعل ﴿ بعد أمّة ﴾ ، أي : وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة ، أي : مدّة طويلة ، والجملة اعتراض ومقول القول ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ ، أي : إلى يوسف عليه السلام فإنه أعلم الناس فأرسلوه إليه ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ولم يكن السجن بالمدينة فأتاه ، فقال الساقي المرسل إليه مناديا ًله نداء القرب تحبباً إليه:

﴿ يوسف ﴾ وزاد في التحبب بقوله ﴿ أيها الصدّيق ﴾ ، أي : البليغ في الصدق والتصديق ؛ لأنه جرّب أحواله وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه ، وهذا يدل على أنّ من أراد أن يتعلم من رجل شيئاً فإنه يجب عليه أن يعظمه وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال ، ثم إنه أعاد السؤال يعني اللفظ الذي ذكره الملك فقال : ﴿ أفتنا ﴾ ، أي : اذكر لنا الحكم ﴿ في سبع بقرات سمان ﴾ ، أي : رآهنّ الملك ﴿ يأكلهنّ سبع ﴾ من البقر ﴿ عجاف و ﴾ في ﴿ سبع سنبلات ﴾ جمع سنبلة وهي مجمع الحب من الزرع ﴿ خضر و ﴾ في سبع ﴿ أخر ﴾ من السنابل ﴿ يابسات ﴾ ، أي : في رؤيا ذلك ، ونعم ما فعل من ذكر السؤال بعين اللفظ ، فإنّ نفس الرؤيا قد تختلف بحسب اختلاف الألفاظ كما هو مذكور في ذلك العلم ثم قال : ﴿ لعلي أرجع إلى الناس ﴾ ، أي : إلى الملك وجماعته بفتواك

قبل مانع يمنعني ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ ، أي : بتأويل هذه الرؤيا ، وقيل : بمنزلتك في العلم . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بفتح الياء ، والباقون بالسكون .

﴿ قال ﴾ يوسف عليه السلام معبراً لتلك الرؤيا : أمّا البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبات ، وأمّا البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله ﴿ تزرعون سبع سنين ﴾ وهو خبر بمعنى الأمر كقوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن ﴾ (البقرة ،) ﴿ والوالدات يرضعن ﴾ (البقرة ،) وإنما خرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في الإيجاب فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله : ﴿ فذروه في سنبله ﴾ وقوله : ﴿ دأباً ﴾ نصب على الحال ، أي : دائبين ، أي : سبع سنين متتابعة على عادتكم في الزراعة ، والدأب العادة ، وقيل : ازرعوا بجد واجتهاد ، وهذا تأويل السبع السمان والسنبلات الخضر . وقرأ حفص بفتح الهمزة ، وسكنها الباقون ، وأبدلها السوسي ألفاً وقفاً ووصلاً ، وحمزة وقفاً فقط . ﴿ فما حصدتم فذروه ﴾ ، أي : اتركوه ﴿ في سنبله ﴾ لئلا يفسد ولا يقع فيه السوس ، وذلك أبقى له على طول الزمان ﴿ إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ ، أي : ادرسوا قليلاً من الحنطة للأكل بقدر الحاجة ، أمرهم

بجفظ الأكثر لوقت الحاجة أيضاً ، وهو وقت السنين المجدبة كما قال:

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ ، أي : السبع المخصبات ﴿ سبع شداد ﴾ ، أي : مجدبات صعاب وهي تأويل السبع العجاف والسنبلات اليابسات ﴿ يأكلن ما قدّمتم لهنّ ﴾ ، أي : يأكل أهلهنّ ما ادّخرتم لأجلهنّ ، فأسند إليهنّ على المجاز تطبيقاً بين المعبر وهو يأكلهنّ سبع عجاف والمعبر به وهو يأكلن ما قدّمتم لهنّ ﴿ إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ ، أي : تحرزون وتدّخرون للبذر ، والإحصان الإحراز وهو إبقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع .

(282/398)

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ ، أي : السبع المجدبات ﴿ عام فيه يغاث الناس ﴾ ، أي : يمطرون من الغيث وهو المطر ، وقيل : ينقذون من قول العرب استغثت فأغاثني ﴿ وفيه يعصرون ﴾ من العنب خمراً ، ومن الزيتون زيتاً ، ومن السمسم دهناً ، وأراد بذلك كثرة النعم والخير . وقال أبو عبيدة : ينجون من الكرب والشدّة والجدب . وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب ؛ لأنّ الكلام كله مع الخطاب ، والباقون بالياء على الغيبة ردّاً إلى الناس . ولما رجع الشرابي إلى الملك وعرض عليه التعبير الذي ذكره يوسف عليه السلام

استحسنه .

﴿ وقال الملك ﴾ ، أي : الذي العزيز في خدمته ﴿ ائتوني به ﴾ لأسمع ذلك منه وأكرمه وهذا يدلّ على فضيلة العلم فإنه سبحانه وتعالى جعل علمه سبباً لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سبباً للخلاص من المحن الأخروية ؟ فأتاه الرسول ليأتي به إلى الملك ﴿ فلما جاءه ﴾ ، أي : يوسف عليه السلام عن قرب من الزمان ﴿ الرسول ﴾ بذلك وهو الساقي وقال له : أجب الملك ﴿ قال ﴾ له يوسف عليه السلام ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ ، أي : سيدك الملك ، ولم يخرج معه حتى يظهر برهانه للملك ولا يراه بعين النقص ولذلك قال : ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ ﴾ وإنما قال يوسف عليه السلام : فاسأله ما بال النسوة ، ولم يقل : فاسأله أن يفتش عن حالهنّ ؛ لأنّ قوله : فاسأله يحتمل أن يكون بمعنى المسألة ، أي : اسأله عن شأنهنّ وأن يكون بمعنى الطلب ، وهو أن يفتش عن شأنهنّ فحسن تقييده بلفظ ما التي يسأل بها عن حقيقة الشيء ليهيجه أن يتحرك للتفتيش عن حالهنّ ؛ لأنّ الإنسان حريص على تحقيق الشيء ويستنكف أن ينسب إلى الجهل به بخلاف ما لو قال : سله أن يفتش ، أي : اطلب منه فإنه لا يبالي بهذا الطلب ولا يلتفت إليه لا سيما الملوك .

وإنما لم يتعرّض لسيدته مع ما صنعته به كرماً ومراعاة للأدب ، وقدّم سؤال النسوة وفحص حالهنّ لتظهر براءة ساحته ؛ لأنه لو خرج في الحال لربما كان يبقى في قلب الملك من تلك التهمة أثر ، فلما التمس من الملك أن يفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة ، فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وأن يتوصل بها إلى الطعن فيه ، وفي ذلك دليل على أنه ينبغي للشخص أن يجتهد في نفي التهم ويتقي مواقعها وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "لقد عجبت من يوسف وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترطت أن يخرجوني ، ولقد عجبت منه حيث أتاه الرسول فقال : ارجع إلى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر ، إن كان لحليماً ذا أناة" . وأصل الحديث في الصحيحين مختصراً ، وإنما قال صلى الله عليه وسلم ذلك على سبيل التواضع لا أنه صلى الله عليه وسلم كان في الأمر منه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف ، والتواضع لا يصغر كبيراً ولا يضع رفيعاً ولا يبطل لذي حق حقه ، لكنه يوجب لصاحبه فضلاً ويلبسه جلالة وقدراً ، وقوله : "والله يغفر له" مثل هذه المقدمة مشعرة بتعظيم المخاطب من توقيره وتوقير حرمته كما تقول لمن تعظمه : عفا الله عنك ما صنعت في أمري ، ورضي الله تعالى عنك ما جوابك عن كلامي ، وقوله : "إن كان لحليماً" إن هي المخففة

من الثقيلة ، والأناة الوقار ، وقيل : هو اسم من التأني في الأمور . وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها ، والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ﴿ إنّ ربي ﴾ ، أي : الله ﴿ بكيدهنّ عليم ﴾ حين قلن أطع مولاتك ، وفيه تعظيم كيدهنّ والاستشهاد بعلم الله تعالى عليه وأنه بريء مما عيب به ، والوعيد لهنّ على كيدهنّ ، وقيل : المراد بربي الملك ، وجعله رباً لنفسه لكونه مربياً له ، وفيه إشارة إلى كون ذلك الملك عالماً بكيدهنّ

ومكرهنّ ،

ولما قال يوسف عليه السلام ذلك وأبى أن يخرج من السجن قبل تبين الأمر رجع الرسول إلى الملك فأخبره بما قال عليه السلام فكأنه قيل : فما فعل الملك ؟ فقيل :

﴿ قال ﴾ للنسوة بعد أن جمعهنّ وامرأة العزيز معهنّ ﴿ ما خطبكنّ ﴾ ، أي : ما شأنكنّ العظيم وقوله : ﴿ إذ راودتنّ ﴾ ، أي : خادعتنّ ﴿ يوسف عن نفسه ﴾ دليل على أنّ براءته كانت متحققة عند كل من علم القصة ، وإنما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب ، والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها ، وقيل : إنّ امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهنّ فكأنه قيل فما قلن ؟ قيل :

﴿ قلن حاش لله ﴾ ، أي : عياذاً بالملك الأعظم وتنزيهاً له من هذا الأمر ﴿ ما علمنا عليه ﴾ ، أي : يوسف عليه السلام وأغرقن في النفي فقلن ﴿ من سوء ﴾ ، أي : من خيانة في شيء من الأشياء ، ولما أنّ يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال : ﴿ ما بال النسوة اللاتي قطعنّ أيديهنّ ﴾ (يوسف ،) فذكرهنّ ولم يذكر تلك المرأة البتة وعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيماً لجانبها وإخفاء للأمر عنها أرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن ، فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء فلذلك ﴿ قالت امرأت العزيز ﴾ مصرحة بحقيقة الحال ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ ، أي : ظهر وتبين ﴿ أنا راودته ﴾ ، أي : خادعته ﴿ عن نفسه ﴾ وأكدت ما أفصحت به مدحاً ونفياً لكل سوء بقولها مؤكداً لأجل ما تقدّم ﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ ، أي : العريقين في هذا الوصف في نسبة المراودة إليّ ، وتبرئة نفسه ، فقد شهد النسوة كلهنّ ببراءته ، وإنه لم يقع منه ما ينسب به إلى شيء من السوء البتة ، فمن نسب بعد ذلك هما أو غيره فهو تابع لمجرّد الهوى في نبيّ من المخلصين .

قال الرازي : رأيت في بعض الكتب أنّ امرأة جاءت بزوجها إلى القاضي وادّعت عليه المهر ، فأمر القاضي بأن تكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود من إقامة الشهادة . فقال الزوج : لا حاجة إلى ذلك فإني مقرّ بصداقها في دعواها . فقالت المرأة : لما أكرمتني إلى هذا الحدّ فاشهدوا أني أبرأت ذمّتك من كل حق لي عليك . ولما رجع الرسول إلى يوسف عليه السلام وأخبره بشهادتهنّ ببراءته قال:

﴿ ذلك ﴾ ، أي : الخلق العظيم في تثبتي في السجن إلى أن تبين الحق ﴿ ليعلم ﴾ العزيز بإقرارها وهي في الأمن وأنا في محل الضيق والخوف علماً مؤكداً ﴿ أني لم أخنه ﴾ ، أي : في أهله ولا في غيرها ﴿ بالغيب ﴾ ، أي : والحال أنّ كلاًّ منا غائب عن صاحبه هذا قول الأكثرين أنه قول يوسف عليه السلام ، قال الفراء : ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام آخر إذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى : ﴿ إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ (النمل ،) هذا كلام بلقيس ، ثم قال الله تعالى : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ (النمل ،) وقوله تعالى : ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ (آل عمران ،) كلام الداعي ثم قال الله تعالى : ﴿ إنّ الله لا يخلف الميعاد ﴾ ثم ختم الكلام بقوله : ﴿ وأنّ الله لا يهدي ﴾ ، أي : يسدّد وينجح بوجه من الوجوه ﴿ كيد الخائنين ﴾ ، أي : ولو كنت خائناً لما خلصني الله من هذه الورطة العظيمة ، وحيث خلصني منها ظهر أني بريء عما نسبوني إليه .

وقيل : إنه كلام امرأة العزيز ، والمعنى : أني وإن كنت أحلت عليه الذنب في حضوره لكني ما أحلت الذنب عليه في غيبته ، أي : لم تقل فيه وهو في السجن خلاف الحق ، ثم إنها بالغت في تأكيد هذا القول وقالت : ﴿ وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ يعني إني لما أقدمت على الكيد والمكر لا جرم افتضحت ، وإنه لما كان بريئاً من الذنب لا جرم طهره الله تعالى منه . واعلم أنّ هذه الآية على القول الأوّل دالة على طهارة يوسف عليه السلام من وجوه كثيرة :

الأوّل : قولها : ﴿ أنا راودته عن نفسه ﴾ .

والثاني : قولها : ﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ وهو إشارة إلى أنه صادق في قوله : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ .

والثالث : قول يوسف عليه السلام : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ والحشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام قال له جبريل عليه السلام : ولا حين هممت . قال الرازي : وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية في كتاب معتمد ، أي : وإنما أسندها بعضهم لابن عباس بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعياً منهم في تحريف ظاهر

القرآن .

ورابعها : أنّ إقدامه على قوله ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ مع أنه خانه بأعظم وجوه الخيانة إقدام على وقاحة عظيمة وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة بوجه ما ، والإقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصلاً لا يليق بأحد من العقلاء ، فكيف يليق إسناده إلى نبي مرسل من سلالة الأنبياء الأصفياء ؟ فثبت أنّ هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته مما يقول الجهال والحشوية ، واختلفوا في تفسير قوله:

﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ لأنّ ذلك يختلف باختلاف ما قبله ؛ لأنّ قوله : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ إن كان من كلام يوسف عليه السلام ، وقد مرّ أنه قول الأكثرين فهو أيضاً كلامه ، وإن كان من كلام المرأة ، فهذا أيضاً كلامها ، فعلى الأوّل قد تمسك به الحشوية ، وقالوا : إنه عليه السلام لما قال : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قال له جبريل : ولا حين حللت تكة سراويلك فعند ذلك قال يوسف عليه السلام ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ .

﴿ إنّ النفس لأمّارة بالسوء ﴾ ، أي : بالزنا ﴿ إلا ما رحم ﴾ ، أي : عصم منه ﴿ ربي إنّ ربي غفور ﴾ ، أي : للهم الذي هممته ﴿ رحيم ﴾ ، أي : لو فعلته لتاب عليّ ، وهذا

ضعيف كما قاله الرازي لما تقدّم أنّ الآية المتقدّمة برهان قاطع على براءته من الذنب ، وإنما قال ذلك عليه السلام ؛ لأنه لما قال : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ كان ذلك جارياً مجرى مدح النفس وتزكيتها وقد قال تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ (النجم ،) فاستدرك ذلك على نفسه بقوله : ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ والمعنى وما أزكي نفسي ﴿ إنّ النفس لأمارة بالسوء ﴾ ميالة إلى القبائح راغبة في المعصية .

وعلى الثاني أنها لما قالت : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ قالت : ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ من الخيانة مطلقاً ، فإني قد خنته حين أحلت الذنب عليه وقلت : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن ﴾ وأودعته في الحبس ، كأنها أرادت الاعتذار مما كان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 151.168 ﴾

(288/398)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) ﴾

وهذه هي الحلقة الثالثة والمحنة الثالثة والأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف ؛ فكل ما بعدها رخاء ، وابتلاء لصبره على الرخاء ، بعد ابتلاء صبره على الشدة . والمحنة في هذه

الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور البراءة. والسجن للبريء المظلوم أقسى، وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوى.

وفي فترة المحنة هذه تتجلى نعمة الله على يوسف، بما وهبه من علم لدني بتعبير الرؤيا وبعض الغيب القريب الذي تبدو أوائله فيعرف تأويله. ثم تتجلى نعمة الله عليه أخيراً بإعلان براءته الكاملة إعلاناً رسمياً بحضرة الملك، وظهور مواهبه التي تؤهله لما هو مكنون له في عالم الغيب من مكانة مرموقة وثقة مطلقة، وسلطان عظيم.

﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ ..

وهكذا جو القصور، وجو الحكم المطلق، وجو الأوساط الأرستقراطية، وجو الجاهلية! فبعد أن رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف. وبعد أن بلغ التبجح بامرأة العزيز أن تقيم للنسوة حفل استقبال تعرض عليهن فتاها الذي شغفها حباً، ثم تعلن لهم أنها به مفتونة حقاً، ويفتتن هن به ويغرينه بما يلجأ إلى ربه ليغيثه منه وينقذه، والمرأة تعلن في مجتمع النساء دون حياء أنه إما أن يفعل ما يؤمر به، وإما أن يلقى السجن والصغار، فيختار السجن على ما يؤمر به!.

بعد هذا كله، بدا لهم أن يسجنوه إلى حين!

ولعل المرأة كانت قد يئست من محاولاتها بعد التهديد؛ ولعل الأمر كذلك قد زاد انتشاراً في طبقات الشعب الأخرى.. وهنا لا بد أن تحفظ سمعة "البيوتات"! وإذا عجز رجال

البيوتات عن صيانة بيوتهن ونسائهن، فإنهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتى بريء كل جريمته أنه لم يستجب، وأن امرأة من "الوسط الراقي!" قد فتنت به، وشهرت بحبه، ولاكت الألسن حديثها في الأوساط الشعبية!

(289/398)

﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ . .

سنعرف من بعد أنهما من خدم الملك الخواص . .

ويختصر السياق ما كان من أمر يوسف في السجن، وما ظهر من صلاحه وإحسانه، فوجه إليه الأنظار، وجعله موضع ثقة المساجين، وفيهم الكثيرون ممن ساقهم سوء الطالع مثله للعمل في القصر أو الحاشية، فغضب عليهم في نزوة عارضة، فألقي بهم في السجن . . يختصر السياق هذا كله ليعرض مشهد يوسف في السجن وإلى جواره فتيان أنسا إليه، فهما يقصان عليه رؤيا رأياها . ويطلبان إليه تعبيرها، لما يتوسمانه فيه من الطيبة والصلاح وإحسان العبادة والذكر والسلوك :

﴿ قال أحدهما : إني أراني أعصر خمراً ؛ وقال الآخر : إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله، إنا نراك من المحسنين ﴾ . .

وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة ؛ فكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة ، القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين ، وجعلهم بالخضوع لهم أرباباً يزاولون خصائص الربوبية ، ويصبحون فراعين !

ويبدأ يوسف مع صاحبي السجن من موضوعهما الذي يشغل بالهما ، فيطمئنهما ابتداء إلى أنه سيؤول لهم الرؤى ، لأن ربه علمه علماً لدنياً خاصاً ، جزاء على تجرده لعبادته وحده ، وتخلصه من عبادة الشركاء .

هو وآباؤه من قبله . . وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما ، كما يكسب ثقتهما كذلك لدينه :

﴿ قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي . إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ . .

ويبدو في طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس ، وكياسته وتنقله في الحديث في رفق لطيف . . وهي سمة هذه الشخصية البارزة في القصة بطولها . .

﴿ قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه ، إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي ﴾ . .

بهذا التوكيد الموحي بالثقة بأن الرجل على علم لدني ، يرى به مقبل الرزق وينبئ بما يرى . وهذا فوق دلالته على هبة الله لعبده الصالح يوسف وهي كذلك بطبيعة الفترة وشيوع النبوءات فيها والرؤى وقوله : ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ تجيء في اللحظة المناسبة من الناحية النفسية ليدخل بها إلى قلبيهما بدعوته إلى ربه ؛ وليعلل بها هذا العلم اللدني الذي سيؤول لهما رؤياهما عن طريقه .

﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ . .

مشيراً بهذا إلى القوم الذي ربي فيهم ، وهم بيت العزيز وحاشية الملك والملأ من القوم والشعب الذي يتبعهم . والفتيان على دين القوم ، ولكنه لا يواجههما بشخصيتهما ، إنما يواجه القوم عامة كي لا يحرجهما ولا ينفرهما وهي كياسة وحكمة ولطافة حس وحسن مدخل .

وذكر الآخرة هنا في قول يوسف يقرر كما قلنا من قبل أن الإيمان بالآخرة كان عنصراً من عناصر العقيدة على لسان الرسل جميعاً ؛ منذ فجر البشرية الأول ؛ ولم يكن الأمر كما يزعم علماء الأديان المقارنة أن تصور الآخرة جاء إلى العقيدة بجملتها متأخراً . . لقد جاء

إلى العقائد الوثنية الجاهلية متأخراً فعلاً ، ولكنه كان دائماً عنصراً أصيلاً في الرسالات السماوية الصحيحة . .

ثم يمضي يوسف بعد بيان معالم ملة الكفر ليبين معالم ملة الإيمان التي يتبعها هو وآباؤه :

﴿ واتبعت ملة آبائي : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ . .

فهي ملة التوحيد الخالص الذي لا يشرك بالله شيئاً قط .

. والهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين ، وهو فضل في متناول الناس جميعاً لو اتجهوا إليه وأرادوه . ففي فطرتهم أصوله وهواتفه ، وفي الوجود من حولهم موحياته ودلائله ، وفي رسالات الرسل بيانه وتقريره . ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه :

﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ . .

مدخل لطيف . . وخطوة خطوة في حذر ولين . . ثم يتوغل في قلبيهما أكثر وأكثر ، ويفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحاً كاملاً ، ويكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما ،

وفساد ذلك الواقع النكد الذي يعيشون فيه . . بعد ذلك التمهيد الطويل :

﴿ يا صاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير ؟ أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . .

لقد رسم يوسف عليه السلام بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة ، كل معالم هذا الدين ، وكل مقومات هذه العقيدة . كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً عنيفاً . .

﴿ يا صاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ﴾ . .

إنه يتخذ منهما صاحبين ، ويتحبب إليهما هذه الصفة المؤنسة ، ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجسم العقيدة . وهو لا يدعوهما إليها دعوة مباشرة ، إنما يعرضها قضية موضوعية :

﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ﴾ . .

وهو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها ويهزها هزاً شديداً . . إن الفطرة تعرف لها إلهاً واحداً ففيم إذن تعدد الأرباب ؟ . . إن الذي يستحق أن يكون رباً يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار . ومتى توحد الإله وتقرر سلطانه القاهر في الوجود فيجب تبعاً لذلك أن يتوحد الرب وسلطانه القاهر في حياة الناس . وما يجوز لحظة واحدة أن

يعرف الناس أن الله واحد ، وأنه هو القاهر ، ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره ، ويتخذوا بذلك من دون الله ربا . . إن الرب لا بد أن يكون إلهاً يملك أمر هذا الكون ويسيره . ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله رباً للناس يقهرهم بحكمه ، وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره !

والله الواحد القهار خير أن يدين العباد لربوبيته من أن يدينوا للأرباب المتفرقة الأهواء الجاهلة القاصرة العمياء عن رؤية ما وراء المنظور القريب كالشأن في كل الأرباب إلا الله وما شقيت البشرية قط شقاءها بتعدد الأرباب وتفرقهم ، وتوزع العباد بين أهوائهم وتنازعهم . . فهذه الأرباب الأرضية التي تغتصب سلطان الله وربوبيته ؛ أو يعطيها الجاهليون هذا السلطان تحت تأثير الوهم والخرافة والأسطورة ، أو تحت تأثير القهر أو الخداع أو الدعاية ! هذه الأرباب الأرضية لا تملك لحظة أن تتخلص من أهوائها ، ومن حرصها على ذواتها وبقائها ، ومن الرغبة الملحة في استبقاء سلطانها وتقويته ، وفي تدمير كل القوى والطاقات التي تهدد ذلك السلطان من قريب أو من بعيد ؛ وفي تسخير تلك القوى والطاقات في تمجيدها والطبل حولها والزمر والنفخ فيها كي لا تذبل ولا تنفثىء نفختها

الخادعة !

والله الواحد القهار في غنى عن العالمين ؛ فهو سبحانه لا يريد منهم إلا التقوى والصلاح والعمل والعمارة وفق منهجه فيعدّ لهم هذا كله عبادة .

وحتى الشعائر التي يفرضها عليهم إنما يريد بها إصلاح قلوبهم ومشاعرهم ، لإصلاح حياتهم وواقعهم . . وإلا فما أغناه سبحانه عن عباده أجمعين ! ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد ﴾ ففرق بين الدينونة لله الواحد القهار والدينونة للأرباب المتفرقة بعيد !

ثم يخطو يوسف عليه السلام خطوة أخرى في تفنيد عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية :

﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ . .

(293/398)

إن هذه الأرباب سواء كانت من البشر أم من غير البشر من الأرواح والشياطين والملائكة والقوى الكونية المسخرة بأمر الله ليست من الربوبية في شيء ، وليس لها من حقيقة الربوبية شيء . فالربوبية لا تكون إلا لله الواحد القهار ؛ الذي يخلق ويقهر كل العباد . . ولكن البشر في الجاهليات المتعددة الأشكال والأوضاع يسمون من عند أنفسهم أسماء ،

ويخلعون عليها صفات، ويعطونها خصائص؛ وفي أول هذه الخصائص خاصية الحكم والسلطان.. والله لم يجعل لها سطاناً ولم ينزل بها من سلطان..

وهنا يضرب يوسف عليه السلام ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين: لمن ينبغي أن يكون السلطان! لمن ينبغي أن يكون الحكم! لمن ينبغي أن تكون الطاعة.. أو بمعنى آخر لمن ينبغي أن تكون "العبادة"!

﴿ إن الحكم إلا لله. أمر ألا تعبدوا إلا إياه. ذلك الدين القيم. ولكن أكثر الناس لا يعلمون.. ﴾

إن الحكم لا يكون إلا لله. فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته. إذ الحاكمية من خصائص الألوهية. من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته؛ سواء ادعى هذا الحق فرد، أو طبقة، أو حزب. أو هيئة، أو أمة، أو الناس جميعاً في صورة منظمة عالمية. ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفراً بواحاً، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة، حتى بحكم هذا النص وحده!

وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم، وتجعله منازعاً لله في أولى خصائص ألوهيته سبحانه فليس من الضروري أن يقول: ما علمت لكم من إله غيري؛ أو يقول: أنا ربكم الأعلى، كما قالها فرعون جهرة.

ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية ؛ ويستمد القوانين من مصدر آخر . وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية ، أي التي تكون هي مصدر السلطات ، جهة أخرى غير الله سبحانه . . ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية . والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله ؛ ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته . إنما مصدر الحاكمية هو الله . وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة . فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده . والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه ، أما ما لم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية ، وما أنزل الله به من سلطان . .

ويوسف عليه السلام يعلل القول بأن الحكم لله وحده . فيقول :

﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ .

ولا نفهم هذا التعليل كما كان يفهمه الرجل العربي إلا حين ندرك معنى ﴿ العبادة ﴾ التي يخص بها الله وحده . .

إن معنى عبد في اللغة : دان ، وخضع ، وذل . . ولم يكن معناه في الإصطلاح الإسلامي في أول الأمر أداء الشعائر . . إنما كان هو معناه اللغوي نفسه . . فعندما نزل هذا النص أول مرة لم يكن شيء من الشعائر قد فرض حتى ينطلق اللفظ إليه . إنما كان المقصود هو معناه اللغوي الذي صار هو معناه الاصطلاحي . كان المقصود به هو الدينونة لله وحده ، والخضوع له وحده ، واتباع أمره وحده . سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقي ، أو تعلق بشريعة قانونية . فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خص الله سبحانه بها نفسه ؛ ولم يجعلها لأحد من خلقه . .

(295/398)

وحين نفهم معنى العبادة على هذا النحو نفهم لماذا جعل يوسف عليه السلام اختصاص الله بالعبادة تعليلاً لاختصاصه بالحكم . فالعبادة أي الدينونة لا تقوم إذا كان الحكم لغيره . . وسواء في هذا حكمه القدري القهري في حياة الناس وفي نظام الوجود ، وحكمه الشرعي الإرادي في حياة الناس خاصة . فكله حكم تتحقق به الدينونة .

ومرة أخرى نجد أن منازعة الله الحكم تخرج المنازع من دين الله حكماً معلوماً من الدين بالضرورة لأنها تخرجه من عبادة الله وحده . . وهذا هو الشرك الذي يخرج أصحابه من

دين الله قطعاً . وكذلك الذين يقرون المنازع على ادعائه ، ويدينون له بالطاعة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله وخصائصه . . فكلهم سواء في ميزان الله .

ويقرر يوسف عليه السلام أن اختصاص الله سبحانه بالحكم تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة هو وحده الدين القيم :

﴿ ذلك الدين القيم ﴾ . .

وهو تعبير يفيد القصر .

فلا دين قيماً سوى هذا الدين ، الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم ، تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . .

وكونهم ﴿ لا يعلمون ﴾ لا يجعلهم على دين الله القيم . فالذي لا يعلم شيئاً لا يملك الاعتقاد فيه ولا تحقيقه . . فإذا وجد ناس لا يعلمون حقيقة الدين ، لم يعد من الممكن عقلاً وواقعاً وصفهم بأنهم على هذا الدين ! ولم يقم جهلهم عذراً لهم يسبغ عليهم صفة الإسلام . ذلك أن الجهل مانع للصفة ابتداء . فاعتقاد شيء فرع عن العلم به . . وهذا منطق العقل والواقع . . بل منطق البداهة الواضح .

لقد رسم يوسف عليه السلام بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا

الدين ، وكل مقومات هذه العقيدة ؛ كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً . .

(296/398)

إن الطاغوت لا يقوم في الأرض إلا مدعياً أخص خصائص الألوهية ، وهو الربوبية . أي حق تعبيد الناس لأمره وشرعه ، ودينونتهم لفكره وقانونه . وهو إذ يزاول هذا في عالم الواقع يدعيه – ولو لم يقله بلسانه – فالعمل دليل أقوى من القول .

إن الطاغوت لا يقوم إلا في غيبة الدين القيم والعقيدة الخالصة عن قلوب الناس . فما يمكن أن يقوم وقد استقر في اعتقاد الناس فعلاً أن الحكم لله وحده ، لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده ، والخضوع للحكم عبادة . بل هي مدلول العبادة .

وإلى هنا يبلغ يوسف أقصى الغاية من الدرس الذي ألقاه ، مرتبطاً في مطلعه بالأمر الذي يشغل بال صاحبيه في السجن . ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا في نهاية الدرس ، ليزيدهما ثقة في قوله كله وتعلقاً به :

﴿ يا صاحبي السجن ، أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ . .

ولم يعين من هو صاحب البشرى ومن هو صاحب المصير السيئ تلطفاً وتحرجاً من المواجهة بالشر والسوء . ولكنه أكد لهما الأمر واثقاً من العلم الذي وهبه الله له :

﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ . .

وانتهى فهو كائن كما قضاه الله .

وأحب يوسف السجين البريء ، الذي أمر الملك بسجنه دون تحر ودون بحث ، إلا ما نقله إليه بعض حاشية من وشاية لعلهم صوروا له فيها حادث امرأة العزيز وحادث النسوة تصويراً مقلوباً ، كما يقع عادة في مثل هذه الأوساط . . أحب يوسف أن يبلغ أمره إلى الملك ليفحص عن الأمر :

﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما : اذكرني عند ربك ﴾ . .

اذكر حالي ووضعي وحقيقتي عند سيدك وحاكمك الذي تدين وتخضع لحكمه ، فهو بهذا ربك . فالرب هو السيد والحاكم والقاهر والمشرع . . وفي هذا توكيد لمعنى الربوبية في المصطلح الإسلامي . ومما يلاحظ أن ملوك الرعاة لم يكونوا يدعون الربوبية قولاً كالفراعنة ، ولم يكونوا ينتسبون إلى الإله أو الآلهة كالفراعنة . ولم يكن لهم من مظاهر الربوبية إلا الحاكمية وهي نص في معنى الربوبية .

.

وهنا يسقط السياق أن التأويل قد تحقق ، وأن الأمر قد قضي على ما أوله يوسف . ويترك هنا فجوة ، نعرف منها أن هذا كله قد كان . ولكن الذي ظن يوسف أنه ناج فنجا فعلاً لم ينفذ الوصية ، ذلك أنه نسي الدرس الذي لقنه له يوسف ، ونسي ذكر ربه في زحمة حياة القصر وملهياتها وقد عاد إليها ، فنسي يوسف وأمره كله . .

﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ . .

﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ . .

والضمير الأخير في لبث عائد على يوسف . وقد شاء ربه أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه وحده ، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ولا سبب يرتبط بعبد . وكان هذا من اصطفائه وإكرامه .

إن عباد الله المخلصين ينبغي أن يخلصوا له سبحانه ، وأن يدعوا له وحده قيادهم ، ويدعوا له سبحانه تنقيل خطاهم . وحين يعجزون بضعفهم البشري في أول الأمر عن اختيار هذا السلوك ، يتفضل الله سبحانه فيقهرهم عليه حتى يعرفوه ويتذوقوه ويلتزموه بعد ذلك طاعة ورضى وحباً وشوقاً . . فيتم عليهم فضله بهذا كله . .

والآن نحن في مجلس الملك ، وقد رأى رؤيا أهمته ، فهو يطلب تأويلها من رجال الحاشية ومن الكهنة والمتصلين بالغيبيات :

﴿ وقال الملك : إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ، إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ . .

طلب الملك تأويل رؤياه . فعجز الملأ من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها ، أو أحسوا أنها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا به الملك على طريقة رجال الحاشية في إظهار كل ما يسر الحكام وإخفاء ما يزعجهم . وصرف الحديث عنه ! فقالوا : إنها ﴿ أضغاث أحلام ﴾ أي أخلاط أحلام مضطربة وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل . ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ . . إذا كانت أضغاثاً مختلطة لا تشير إلى شيء !

والآن لقد مرت بنا رؤى ثلاث : رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبي السجن ، ورؤيا الملك .

وطلب تأويلها في كل مرة ، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله في مصر وخارج مصر كما أسلفنا وأن الهبة اللدنية التي وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه ، على ما نعهد في معجزات الأنبياء ، فهل كانت هذه هي معجزة يوسف ؟ ولكن هذا بحث ليس مكانه هذه الظلال . فنكمل حديث رؤيا الملك الآن !

هنا تذكر أحد صاحبيه في السجن ، الذي نجا منهما وأنساه الشيطان ذكر ربه ، وذكر يوسف في دوامة القصر والحاشية والعصر والخمر والشراب . . هنا تذكر الرجل الذي أوّلَ له رؤياه ورؤيا صاحبه ، فتحقق التأويل :

﴿ وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة : أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ !

أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . . ويسدل الستار هنا ، ليرفع في السجن على يوسف وصاحبه هذا يستفتيه :

﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ .

.

والساقي يلقب يوسف بالصدّيق ، أي الصادق الكثير الصدق . وهذا ما جربه في شأنه من قبل . .

﴿ أفتنا في سبع بقرات سمان . . . ﴾ . .

ونقل ألفاظ الملك التي قالها كاملة ، لأنه يطلب تأويلها ، فكان دقيقاً في نقلها ، وأثبتها السياق مرة أخرى ليبين هذه الدقة أولاً ، وليجيء تأويلها ملاصقاً في السياق لذكرها . ولكن كلام يوسف هنا ليس هو التأويل المباشر المجرد ، إنما هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه . وهذا أكمل :

﴿ قال : تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ . .

أي : متوالية متتابعة . وهي السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان .

﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله ﴾ . .

أي فاتركوه في سنابله لأن هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية .

﴿ إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ . .

فجردوه من سنابله ، واحتفظوا بالبقية للسنوات الأخرى المجدبة المرموز لها بالبقرات العجاف .

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ﴾ . .

لا زرع فيهن .

﴿ يأكلن ما قدمتم لهن ﴾ . .

وكأن هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها !

﴿ إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ . .

أي إلا قليلاً مما تحفظونه وتصونونه من التهامها !

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ . .

أي ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المجدبة، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب. تنقضي ويعقبها عام رخاء، يغاث الناس فيه بالزرع والماء، وتنمو كرومهم فيعصرونها خمراً، وسمسمهم وخسهم وزيتونهم فيعصرونه زيتاً . .

وهنا نلحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك؛ فهو إذن من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف. فبشر به الساقي ليبشر الملك والناس، بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخيّ رغيد.

وهنا كذلك ينتقل السياق إلى المشهد التالي. تاركاً فجوة بين المشهدين يكمل التصور ما تم فيها من حركة. ويرفع الستار مرة أخرى على مجلس الملك. ويحذف السياق ما نقله الساقي من تأويل الرؤيا، وما تحدث به عن يوسف الذي أولها. وعن سجنه وأسبابه والحال التي هو فيها . . كل أولئك يحذفه السياق من المشهد، لنسمع نتيجته من رغبة الملك في رؤية يوسف، وأمره أن يأتوه به:

﴿ وقال الملك: ائتوني به ﴾ . .

ومرة ثالثة في المشهد يحذف السياق جزئيات تفصيلية في تنفيذ الأمر. ولكنا نجد يوسف يرد على رسول الملك الذي لا نعرف: إن كان هو الساقي الذي جاءه أول مرة. أو رسولاً تنفيذياً مكلفاً بمثل هذا الشأن. نجد يوسف السجين الذي طال عليه السجن لا يستعجل

الخروج حتى تحقق قضيته ، ويتبين الحق واضحاً في موقفه ، وتعلن براءته على الأشهاد من الوشايات والدسائس والغمز في الظلام .

. لقد رباه ربه وأدبه . ولقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب في قلبه السكينة والثقة والطمأنينة . فلم يعد معجلاً ولا عجولاً !

(300/398)

إن أثر التربية الربانية شديد الوضوح في الفارق بين الموقفين : الموقف الذي يقول يوسف فيه للفتى : اذكرني عند ربك ، والموقف الذي يقول له فيه : ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، والفارق بين الموقفين بعيد . .

﴿ قال : ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم ﴾

لقد رد يوسف أمر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أمره ، وحتى يتحقق من شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن . . بهذا القيد . . تذكيراً بالواقعة وملابساتها وكيد بعضهن لبعض فيها وكيدهن له بعدها . . وحتى يكون هذا التحقق في غيبته لتظهر الحقيقة خالصة ، دون أن يتدخل هو في مناقشتها . . كل أولئك لأنه واثق من نفسه ، واثق من

براءته، مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلاً، ولا يخذل طويلاً.

ولقد حكى القرآن عن يوسف استعمال كلمة ﴿ رب ﴾ بمدلوها الكامل، بالقياس إليه وبالقياس إلى رسول الملك إليه. فالملك رب هذا الرسول لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه. والله رب يوسف لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه..

ورجع الرسول فأخبر الملك وأحضر الملك النسوة يستجوبهن والسياق يحذف هذا لنعلمه مما يليه:

﴿ قال: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴾..

والخطب: الأمر الجلل والمصاب. فكأن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن، وهو المعتاد في مثل هذه الأحوال، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه. فهو يواجههن مقرراً الاتهام، ومشيراً إلى أمر لهن جلل أو شأن لهن خطير:

﴿ ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴾.

ومن هذا نعلم شيئاً مما دار في حفل الاستقبال في بيت الوزير؛ ما قالته النسوة ليوسف وما لَمّحن به وأشرن إليه، من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة. ومن هذا نتخيل صورة لهذه

الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ . فالجاهلية دائماً هي الجاهلية .

إنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التخلل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية !

وفي مثل هذه المواجهة بالاتهام في حضرة الملك ، يبدو أنه لم يكن هنالك مجال للإنكار :

﴿ قلن : حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء ﴾ !

وهي الحقيقة التي يصعب إنكارها . ولو من مثل هؤلاء النسوة . فقد كان أمر يوسف إذن من النصاعة والوضوح بحيث لا يقوم فيه جدال .

وهنا تتقدم المرأة المحبة ليوسف ، التي يئست منه ، ولكنها لا تستطيع أن تخلص من تعلقها به . . تتقدم لتقول كل شيء في صراحة :

﴿ قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه . وإنه لمن الصادقين ﴾ . .

الآن حصحص الحق وظهر ظهوراً واضحاً لا يحتمل الخفاء :

﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ .

.

وزادت ما يكشف عن أن قلبها لم يخل من إيثاره ورجاء تقديره والتفاته بعد كل هذا الأمد ؛ وما يشي كذلك بأن عقيدة يوسف قد أخذت طريقها إلى قلبها فآمن :

﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ . .

وهذا الاعتراف وما بعده يصوره السياق هنا بألفاظ موحية ، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر . كما يشي الستار الرقيق بما وراءه في ترفع وتجمل في التعبير :

﴿ أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ﴾ .

شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصدقه . لا تبالي المرأة ما وراءها مما يلم بها هي ويلحق بأردانها . . فهل هو الحق وحده الذي يدفعها لهذا الإقرار الصريح في حضرة الملك والملأ ؟

يشي السياق بحافز آخر ، هو حرصها على أن يحترمها الرجل المؤمن الذي لم يعبأ بفتنتها الجسدية . أن يحترمها تقديراً لإيمانها ولصدقها وأمانتها في حقه عند غيبته :

﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ . .

ثم تمضي في هذه المحاولة والعودة إلى الفضيلة التي يحبها يوسف ويقدرها :

﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ . .

وتمضي خطوة أخرى في هذه المشاعر الطيبة :

﴿ وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم

﴿ . .

إنها امرأة أحبت . امرأة تكبر الرجل الذي تعلقت به في جاهليتها وإسلامها ، فهي لا تملك إلا أن تظل معلقة بكلمة منه ، أو خاطرة ارتياح تحس أنها صدرت عنه !

وهكذا يتجلى العنصر الإنساني في القصة ، التي لم تسق لمجرد الفن ، إنما سيقت للعبرة والعظة . وسيقت لتعالج قضية العقيدة والدعوة . ويرسم التعبير الفني فيها خفقات المشاعر وانتفاضات الوجدان رسماً رشيقاً رفيقاً شفيفاً . في واقعة كاملة تتناسق فيها جميع المؤثرات وجميع الواقعيات في مثل هذه النفوس ، في ظل بيئتها ومؤثرات هذه البيئة كذلك .

وإلى هنا تنتهي محنة السجن ومحنة الاتهام ، وتسير الحياة بيوسف رخاء ، الاختبار فيه بالنعمة لا بالشدة . وإلى هنا نقف في هذا الجزء من الظلال ، وتتابع القصة سيرها في الجزء التالي إن شاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 1987 . 1996 ﴾

(303/398)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : لما أدخل يوسف القلب سجن الشريعة دخل معه غلامان لملك الروح هما النفس والبدن ، فإن الروح العلوي لا يعمل عملاً في السفل الدنيوي إلا من مشرب النفس فهي صاحب شرابه . والبدن يهيء من الأعمال الصالحة ما يصلح لغذاء الروح ، فإن الروح لا يبقى إلا بغذاء روحاني كما أن الجسم لا يبقى إلا بغذاء جسماني . وإنما حبسا في سجن الشريعة لأنهما متهمان بجعل سم الهوى والمعصية في شراب ملك الروح وطعامه ، وفي رؤياهما دلالة على أنهما من الدنيا ، وأهل الدنيا نيام فإذا ماتوا انتبهوا ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ الذين يعبدون الله عياناً وشهوداً ﴿ إني تركت ملة قوم ﴾ فيه إشارة إلى أن القلب مهما ترك ملة النفس والهوى والطبيعة علمه الله علم الحقيقة ﴿ أما أحدكما فيسقي ربه ﴾ أي سيده بأقداح المعاملات والمجاهدات شراب الكشوف والمشاهدات وهي باقية في خدمة ملك الروح أبداً ﴿ وأما الآخر ﴾ وهو البدن ﴿ فيصلب ﴾ بنخيل الموت ﴿ فيأكل ﴾ طير أعوان ملك الموت من رأسه الخيالات الفاسدة ﴿ قضي ﴾ في الأزل هذا ﴿ الأمر ﴾ ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ يعني أن القلب المسجون في بدء أمره يلهم النفس بأن تذكره المعاملات المستحسنة الشرعية عند الروح ليتقوى بها الروح وينتبه عن نوم الغفلة الناشئة من الحواس الخمس ويسعى في استخلاص القلب عن أثر الصفات البشرية بالمعاملات الروحانية مستمداً من الألطاف الربانية .

ثم إن الشيطان بوساوسه محا عن النفس أثر إلهامات القلب ، أو الشيطان أنسى القلب ذكر الله حين استغاث النفس لتذكره عند الروح ، ولو استغاث بالله لخلصه في الحال ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ إشارة إلى الصفات البشرية السبع التي بها القلب محبوس وهي : الحرص والبخل والشهوة والحسد والعداوة والغضب والكبر ﴿ إني أرى سبع بقرات سمان ﴾ هن الصفات المذكورة ﴿ يأكلهن سبع عجاف ﴾ هن أضدادها وهي : القناعة والسخاوة والعفة والغبطة والشفقة والحلم والتواضع ﴿ يا أيها الملأ ﴾ يعني الأعضاء والجوارح والحواس والقوى ﴿ أفتوني ﴾ فيما رأيت في غيب الملكوت ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام ﴾ أي ليس التصرف في الملكوت وشواهدها من شأننا ﴿ فأرسلون ﴾ فيه أن النفس إذا أرادت أن تعلم شيئاً مما يجري في الملكوت ترجع بقوة التفكر إلى القلب فتستخبر عنه ، فالقلب ترجمان بين الروحانيات ولانفس فيما يفهم من لسان الغيب ﴿ أيها الصديق ﴾ لأنه مصدق فيما يرى من شواهد الحق ، ويصدق فيما يروي للخلق ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ [النجم : 11] " حدثني قلبي عن ربي " قال في الكشاف : أرجع إلى الناس أي إلى الأجزاء الإنسانية ﴿ تزرعون سبع سنين ﴾ إشارة إلى تربية الصفات البشرية السبع بالعادة والطبيعة في أوان الطفولية ﴿ فذروه في سنبله ﴾ أي ما حصلتم من هذه الصفات فذروه في أماكنه ولا تستعملوه ﴿ إلا قليلاً ﴾ مما تعيشون به إلى أوان البلوغ

وظهور نور العقل في مصباح السر في زجاجة القلب كأنه كوكب دري . ثم إذا أيد نور العقل بأنوار تكاليف الشرع وشرف بإلهام الحق في إظهار فجور النفس وتقواها فيزكيها عن هذه الصفات ويحليها بالصفات الروحانية السبع ، فكأن السبع العجاف أكلن السبع السمان . وإنما سمى ما هو من عالم الأرواح عجافاً للطافتها ، وما هو من عالم الأجسام سماناً لكثافتها كثيراً إلا قليلاً مما يحسن به الإنسان حياة قالبه ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام ﴾ أي بعد غلبات الصفات الروحانية

واضمحلال الصفات البشرية يظهر مقام فيه يتدارك السالك جذبات العناية ، وفي يبرأ العبد من معاملاته وينجو من حبس وجوده وحجب أنانيته . ولما أخبر القلب بنور الله رآه الروح في عالم الملكوت وتأوله استحق قرب الروح وصحبته فاستدعى حضوره على لسان رسول النفس فرده إليه وقال سله ﴿ ما بال النسوة ﴾ لأن الأوصاف الإنسانية لما رأين جمال القلب المنور بنور الله ﴿ قطعن أيديهن ﴾ من ملاذ الدنيا وشهواتها وآثرن السعادة الأخروية على الشهوات الفانية ﴿ ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ أي القلب المنظور بنظر العناية لما غاب عن حضرة الروح لاشتغاله بتربية النفس والقالب ما خانه بالالتفات إلى

الدنيا ونعيمها ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ الذين يبيعون الدين بالدنيا . ثم قال إظهارا للعجز عن نفسه وللفضل من ربه ﴿ وما أبرىء نفسي إن النفس ﴾ جبلت على الأمارية ، ولكن إذا رحمها ربها يقلبها ويغيرها فإذا تنفس صبح الهداية صارت لوامة نادمة على فعلها ، والندم توبة وإذا طلعت شمس العناية وصارت ملهمة ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ [الشمس : 8] وإذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية أشرقت الأرض بنور ربها وصارت النفس مطمئنة مستعدة لجذبة ﴿ ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ [الفجر : 28] ﴿ إن ربي غفور ﴾ لنفس تابت ورجعت إليه ﴿ رحيم ﴾ لمن أحسن طاعته وعبادته والله حسبنا ونعم الوكيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 98.96﴾

(306/398)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1)

الإعراب :

(الر) حرف مقطّعة لا محلّ لها من الإعراب " 1 " ، (تلك) اسم إشارة مبنيّ على السكون الظاهر على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ رفع مبتدأ ، والإشارة إلى آيات السورة . . و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (آيات) خبر المبتدأ مرفوع (الكتاب) مضاف إليه مجرور (المبين) نعت للكتاب مجرور .

جملة : " تلك آيات . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

البلاغة

براعة التخلص : في السورة الكريمة :

وهو فن مشهور ذائع في كلام البلغاء ، وهو امتزاج ما يقدمه الكاتب أو الشاعر في البسط بأول ما استهل به كلامه - كالبيت الأول من القصيدة والفقرة الأولى من المقالة - على أن يختلس ذلك اختلاسا رشيقا دقيق المعنى ، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني ، لشدة الممازجة والالتئام ، كأنهما أفرغا في قالب واحد ، أو يوطئ الكاتب فيه بفصل لفصل

---

(1) انظر الآية الأولى من سورة البقرة (الم) .

يريد أن يأتي بعده ، وإما بنكتة تشير إلى معنى الفصل المستقبل كقوله تعالى " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " فإنه سبحانه وطأ بهذا الفصل إلى ما يأتي بعده من سرد قصة يوسف عليه السلام ، فتخلص به إلى ذكر القصة تخلصا بارعا ، فإن النكتة التي أشارت إلى وصف هذه القصة بنهاية الحسن دون سائر قصص الأنبياء المذكورة في القرآن ، وهي قوله : " أَحْسَنَ الْقَصَصِ " فإن المخاطب إذا قرع سمعه هذا الوصف للقصة تنبه إلى تأملها ، فيجد كل قضية فيها ختمت بخير ، وكل ضيق انتهى إلى سعة ، وكل شدة آلت إلى رخاء .

الفوائد

أسباب نزول السورة :

1 - في سبب نزولها قولان :

آ -

روي عن سعيد بن أبي العاص رضي اللّه عنه قال : لما أنزل القرآن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم تلاه عليهم زمانا ، فقالوا : يا رسول اللّه حدثنا ، فأنزل اللّه عز وجل اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ فقالوا : يا رسول اللّه ، لو قصصت علينا ، فأنزل اللّه تعالى الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ إلى قوله تعالى نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .

ب -

روى الضحاك عن ابن عباس قال : سألت اليهود النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم فقالوا : حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف ، فأنزل اللّه عز وجل الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ

[سورة يوسف (12) : آية 2]

إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد - ناسخ - و (نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (أنزلنا) فعل ماض . . و (نا) ضمير في محلّ رفع فاعل و (الهاء) ضمير مفعول به (قرآنا) حال موطّئة منصوبة " 1 " ، (عربيّا) نعت ل

---

(1) جاز مجيء الحال لفظا جامدا لأنه وصف . . ويجوز إعرابه بدلا من الهاء في (أنزلناه) .

(قرآنا) منصوب (لعلّكم) حرف مشبّه بالفعل للترجّي - ناسخ - و (كم) ضمير اسم لعل

في محلّ نصب (تعقلون) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل .

جملة : "إنّا أنزلناه . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "أنزلناه . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "لعلّكم تعقلون "لا محلّ لها استئناف بيانيّ، أو تعليليّة .

وجملة : "تعقلون "في محلّ رفع خبر لعلّ .

الفوائد

1 - ورود الحال جامدة :

من المعلوم أن الحال تأتي اسما مشتقا تبين حال اسم سابق لها يسمى صاحب الحال ، والحالة العامة أن تأتي الحال مشتقة لشبهها بالصفة ، والصفة شيء مشتق ، لكننا كما نعلم بأنه لكل قاعدة شواذ ، وقد أجاز النحويون مجيء الحال جامدة إذا أمكن تأويلها بمشتق ، وقد ورد هذا في الآية الكريمة في قوله تعالى إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا فقرآنا اسم جامد وقد جاء حالا ، وهذا كثير في لغة العرب وأساليبهم ، ومثله قولنا : (كرّ علي أسدا) يمكن تأويلها بـ

(كر علي شجاعا) .

2 - هل يمكن أن يقال : في القرآن شيء بغير العربية ؟

قال أبو عبيدة من زعم أن في القرآن لسانا غير العربية فقد قال بغير الحق ، وأعظم على اللّه القول . واحتج بهذه الآية إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا . وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، أن فيه من لسان غير العربية مثل : سجيل - المشكاة - اليمّ - إستبرق . وهذا هو الصحيح المختار . وكلا القولين صواب إن شاء اللّه تعالى ووجه الجمع بينهما ، أن هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ، ودارت على ألسنتهم ، صارت عربية فصيحة ، وإن كانت غير عربية في الأصل وبهذا نجمع بين القولين ، وفي علم أصول النحو قرر العلماء قاعدة مفادها بأنه إذا دخل كلمة أو أكثر إلى لغة قوم

وتداولوها وصارت شائعة بينهم ومستعملة ، فإنها تصبح من صميم لغتهم ، ولا ضير في ذلك ، فأمم الأرض يتأثر بعضها ببعض ويكتسب بعضها من بعض ، وهذه ظاهرة عالمية ، بل في جميع لغات الدنيا

[سورة يوسف (12) : الآيات 3 إلى 4]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (3) إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (4)

الإعراب:

(نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (نقصّ) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم (على) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نقصّ)، (أحسن) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه أضيف إلى المصدر "1"، (القصص) مضاف إليه مجرور (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (أوحينا) مثل أنزلنا "2"، (إليك) مثل عليك متعلّق بـ (أوحينا)، (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به "3"، (القرآن) بدل من ذا - أو عطف بيان له - منصوب (الواو) واو الحال (إن) مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف (كنت) فعل ماض ناقص - ناسخ - و(التاء) اسم كان (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بالغافلين، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (اللام) هي الفارقة لا عمل لها (من الغافلين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر كنت، وعلامة الجرّ الياء.

---

(1) هذا إذا كان لفظ (القصص) مصدرا صرفا، ومفعول نقصّ محذوف أي القصص.. أما إذا كان مصدرا واقعا موقع المفعول - أي المقصوص - كان لفظ (أحسن) مفعولا به،

والمعنى نقصّ عليك أحسن الأشياء المقصوصة.

(2) في الآية (2) السابقة.

(3) الظاهر أن في الكلام تنازعا، ففعل (نقصّ)، وفعل (أوحينا) كلاهما متسلّط على (هذا القرآن) يطلبه مفعولا به له، ولكن أعمل الثاني وأضمر الأول ثمّ حذف لأنه فضلة، والتقدير: نقصّه عليك...

(311/398)

والمصدر المؤوّل (ما أوحينا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (نقصّ).

جملة: "نحن نقصّ..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "نقصّ..." في محلّ رفع خبر نحن.

وجملة: "أوحينا..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: "إنّه كنت..." في محلّ نصب حال.

وجملة: "كنت.. من الغافلين" في محلّ رفع خبر (إن) المخفّفة.

(إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالغافلين "1"، (قال) فعل ماض (يوسف) فاعل مرفوع، وامتنع من التنوين للعلميّة والعجمة (لأبيه) جارّ ومجرور متعلّق بـ

(قال) وعلامة الجرّ الياء فهو من الأسماء الخمسة ، و (الهاء) مضاف إليه (يا) حرف نداء (أبت) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم ، ونقلت الكسرة - كسرة المناسبة - إلى التاء المبدلة من ياء المتكلّم . . و (الياء) المحذوفة مضاف إليه (إنّي) مثل إنّا " 2 " (رأيت) فعل ماض وفاعله (أحد عشر) جزءان عدديان مبنيّان على الفتح في محلّ نصب مفعول به (كوكبا) تمييز منصوب (الواو) عاطفة في الموضعين (الشمس ، القمر) اسمان معطوفان على أحد عشر منصوبان (رأيت) مثل الأول و (هم) ضمير مفعول به (اللام) حرف جرّ و (الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ساجدين) ، وهو حال من مفعول رأيت لأن الرؤية بصريّة وإن كانت في النوم .

وجملة : " قال يوسف . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) يجوز أن يتعلّق بفعل قال يا بنيّ في الآية الآتية . . وهو اسم ظرفيّ - عند غير أبي حيّان - مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر . . .

(2) في الآية (2) من هذه السورة .

وجملة : " يا أبت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّي رأيت . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " رأيت أحد عشر . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " رأيتهم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(يوسف) اسم أعجمي عبرانيّ . .

(أبت) ، يجوز كتابة التاء المبدلة من ياء المتكلّم مبسوطة (أبت) ، أو مربوطة (أبة) ، وقد كسرت التاء في قراءة حفص " 1 " .

(أحد عشر) ، لفظ (أحد) لا يكون إلّا مع العشرة ، أمّا مع ألفاظ العقود فيستعمل (واحد) زنة فاعل وانظر الآية (102) من سورة البقرة في تصريف (أحد) .

البلاغة

1 - في قوله سبحانه وتعالى " رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ " فذكر كلمة رأيتهم ليس بتكرار ، وإنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابا له ، كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله "إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً " : كيف رأيتها سائلا عن حال رؤيتها ؟ فقال : " رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ " .

2 - الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ " حيث شبه المذكورات بقوم عقلاء ساجدين ، والضمير والسجود قرينة ، أو أحدهما قرينة تخيلية والآخر ترشيح .

الفوائد

- الرؤيا :

ورد في هذه الآية ما يثبت أن الرؤيا حق ، وأنّ وراءها ما وراءها . وقد جاءت

---

(1) ويجوز فتحها على تقدير إبدال الياء ألفا ثمّ حذفت الألف ، والأصل يا أبتا .

أحداث القصة لتثبت رؤيا يوسف عليه الصلاة والسلام .

وقد ورد في الحديث الصحيح عن أبي قتادة قال : كنت أرى الرؤيا تمرضني ، حتى سمعت

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم يقول : الرؤيا الصالحة من اللّه ، والرؤيا السوء من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم ما يحب ، فلا يحدث بها إلا من يحب ، وإذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ باللّه من الشيطان الرجيم ، فإنها لا تضره .

وهناك ما يسمّى بأضغاث الأحلام ، وهو عبارة عن أوهام يراها النائم ، نتيجة لوضعه النفسي ، ولا شيء وراءها .

[سورة يوسف (12) : الآيات 5 إلى 6]

قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)

الإعراب :

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي يعقوب (يا) حرف نداء (بنيّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (لا) ناهية جازمة (تقصص) مضارع مجزوم ، والفاعل أنت (رؤياك) مفعول به منصوب . . و

(الكاف) ضمير مضاف إليه (على إخوة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تقصص) . . و (الكاف) مضاف إليه (الفاء) فاء السببيّة (يكيدوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء ، وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (اللام) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يكيدوا) بمعنى يحتالوا " 1 " ، (كيدا) مفعول به منصوب " 2 " ، (إنّ) حرف توكيد ونصب ، (الشيطان) اسم إنّ منصوب

---

(1) أي يحتالون لك أمرا يكيدونك به . . ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا واللام في (لك) زائدة لأن كاد يتعدّى بنفسه .

(2) أو مفعول مطلق منصوب .

(للإنسان) جارّ ومجرور متعلّق بحال من (عدو) " 1 " ، وهو خبر إنّ مرفوع (مبين) نعت لعدوّ .

والمصدر المؤوّل (أن يكيدوا) معطوف على مصدر مقدّر مستخرج من الكلام المتقدّم أي لا يكن منك قصّ للرؤيا فكيد منهم لك .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا بنيّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا تقصص . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " يكيدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " إنّ الشيطان . . عدوّ " لا محلّ تعليليّة .

(الواو) عاطفة (الكاف) حرف جرّ وتشبيه " 2 " ، (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يجتبيك . . و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (يجتبي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء . . و (الكاف) مفعول به (ربّك) فاعل مرفوع . . و (الكاف) مضاف إليه (الواو) استئنافيّة " 3 " ، (يعلّمك) مثل يجتبيك (من تأويل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعلّم) ، (الأحاديث) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (يتمّ) مثل يجتبي (نعمته) مفعول به منصوب . . و (الهاء) مضاف إليه (عليك) مثل لك متعلّق بـ (يتمّ) " 4 " ، (الواو) عاطفة (على آل) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به (عليك) فهو معطوف عليه (يعقوب) مضاف

---

(1) أو متعلّق بعدوّ .

(2) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته .

[. . . . .]

(3) وليست للعطف لأن التعليم غير داخل في حيّز التشبيه.

(4) أو بنعمة فهو مصدر.

إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف (الكاف) حرف جرّ وتشبيه (ما) حرف مصدريّ (أتمّ) فعل ماض، والفاعل هو و (ها) ضمير مفعول به (على أبويك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أتمّها) وعلامة الجرّ الياء .. و (الكاف) مضاف إليه (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أتمّها).

والمصدر المؤوّل (ما أتمّها) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يتمّ .. أي يتمّ نعمته إتماما كإتمامها على أبويك.

(إبراهيم) بدل من أبويك مجرور وعلامة الجرّ الفتحة - أو عطف بيان - (إسحاق) معطوف على إبراهيم بالواو مجرور (إنّ ربك عليم) مثل إنّ الشيطان عدوّ .. و (الكاف) في ربّك مضاف إليه (حكيم) خبر ثان مرفوع.

وجملة: "يجتبيك ربّك" لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء " 1 ".

وجملة: "يعلّمك ..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " يتمّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعلّمك .

وجملة : " أتمّها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " إنّ ربّك عليم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حكم التعليل .

الصرف :

(بنيّ) ، صيغة التصغير لابن ، والتصغير يعيد الأشياء إلى أصولها ، فالألف في ابن عوض من واو ، أصله بنو ، فلمّا أريد التصغير أعيدت الواو إلى أصلها وهي حرف علّة فقلبت ياء وأدغمت مع ياء التصغير فأصبح بنيّ زنة فعيل ، ولمّا أضيف إلى ياء المتكلّم اجتمعت

---

(1) أو هي استئناف في حيّز القول .

الياءات الثلاث فحذفت واحدة لتوالي الأمثال ، فظلّ لفظه (بنيّ) مع الإضافة .

(رؤيا) ، اسم لما يراه الإنسان في نومه ، فعله رأى ، وزنه فعلى بضمّ الفاء ، والألف رسمت طويلة - وإن كانت رابعة - لأن ما قبلها ياء ، جمعه رؤي زنة فعل بفتح العين وضمّ الفاء .

(إخوة) ، جمع أخ ، اسم محذوف اللام أصله أخو لأن مثنّاه أخوان ، وزنه فع ، ووزن إخوة فعلة .

(كيدا) ، مصدر كاد ، واستعمل في موضع الاسم ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة يوسف (12) : آية 7]

لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (7)

الإعراب :

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - (في يوسف) جارّ ومجرور متعلّق بخبر كان مقدّم ، وعلامة الجرّ الفتحة (الواو) عاطفة (إخوته معطوف على يوسف مجرور . . و (الهاء) مضاف إليه (آيات) اسم كان مؤخّر مرفوع (للسائلين) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لآيات " 1 " .

جملة : "كان في يوسف . . آيات " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . .

وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة يوسف (12) : آية 8]

إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (8)

الإعراب :

(إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (قالوا) فعل ماض وفاعله (اللام) لام الابتداء (يوسف) مبتدأ

---

(1) أو متعلّق بآيات فهو بمعنى العبر .

مرفوع وامتنع من التنوين للعلميّة والعجمة (الواو) عاطفة (أخوه) معطوف على يوسف مرفوع وعلامة الرفع الواو . . و (الهاء) مضاف إليه (أحبّ) خبر مرفوع (إلى أبينا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أحبّ) ، وعلامة الجرّ الياء . .

و(نا) مضاف إليه " 1 " ، (من) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب .

(أحبّ) ، (الواو) واو الحال (نحن) ضمير مبتدأ (عصبة) خبر مرفوع (إنّ) حرف توكيد ونصب (أبانا) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الألف . . و (نا) ضمير مضاف إليه (أبانا) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الألف . . و (نا) ضمير مضاف إليه (اللام) المزحلقة (في ضلال) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ (مبين) نعت لضلال مجرور .

جملة : " قالوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ليوسف . . . أحبّ " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نحن عصبة " في محلّ نصب حال ، والرابط الواو .

وجملة : " إنّ أبانا لفي ضلال . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(أحبّ) ، اسم تفصيل من حبّ الثلاثيّ وزنه أفعل ، وقد أدغمت عين الكلمة مع لأمها .

(عصبة) ، لفظ يدلّ على ما زاد على عشرة ، وقيل : الثلاثة نفر ، فإذا زادوا إلى تسعة كانوا رهطا ، فإذا بلغوا العشرة فما فوق فهم عصبة ، وقيل غير ذلك ، فهو من نوع اسم الجمع ، والمادّة تدلّ على الإحاطة من العصابة لإحاطتها بالرأس .

---

(1) في استعمال أحبّ شيء من التفريق إذا تعدّى بـ (إلى) أو باللام فإذا قلت خالد أحبّ إليّ من زيد كان خالد محبوبا منك أكثر من زيد - أي كان حبّك لخالد أكثر من زيد - وإذا قلت خالد أحبّ لي من زيد كان حبّ خالد لك أكثر من حبّ زيد . . وفي الآية حبّ الأب ليوسف وأخيه أكثر من حبّه لإخوتهما .

(320/398)

[سورة يوسف (12) : آية 9]

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (9)

الإعراب :

(اقتلوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (يوسف) مفعول به منصوب (أو) حرف عطف (اطرحوا) مثل اقتلوا و (الهاء) ضمير مفعول به (أرضا) منصوب على نزع

الخافض أي في أرض " 1 " ، (يخل) مضارع مجزوم جواب الطلب (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يخل) ، (وجه) فاعل مرفوع (أبيكم) مضاف إليه مجرور و (كم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (تكونوا) مضارع ناقص مجزوم معطوف على (يخل) ، وعلامة الجزم حذف النون . . والواو اسم تكون ، (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بصالحين ، و (الهاء) مضاف إليه (قوما) خبر الناقص منصوب (صالحين) نعت لـ (قوما) منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " اقتلوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اطرحوه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اقتلوا . .

وجملة : " يخل لكم وجه . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي إن تطرحوه يخل . . .

وجملة : " تكونوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يخل لكم وجه . .

الصرف :

(يخل) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، أصله يخلو ، وزنه يفع .

---

(1) والزمخشريّ يجعله ظرفا كالظروف المبهمة وقد ردّ ذلك ابن عطيّة وتبعه في ذلك أبو حيّان . . ولكن إذا ضمّن فعل (اطرحوه) معنى أنزلوه فـ (أرضا) مفعول به ثان .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى "يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ" وفي الكلام كناية تلويحية عن خلوص المحبة . والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها .

[سورة يوسف (12) : آية 10]

قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (10)

الإعراب :

(قال) فعل ماض (قائل) فاعل مرفوع (من) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لقائل (لا) ناهية جازمة (تقتلوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (يوسف) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (ألقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . .

والواو فاعل و (الهاء) ضمير مفعول به (في غيابه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ألقوه) ، (الجبّ) مضاف إليه مجرور (يلتقطه) مضارع مجزوم و (الهاء) مفعول به (بعض) فاعل مرفوع

(السيّارة) مضاف إليه مجرور (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و (نا) اسم كان (فاعلين) خبر كنتم منصوب وعلامة النصب الباء .

جملة : " قال قائل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تقتلوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ألقوه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " يلتقطه بعض . . . " لا محل لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي : إنّ تلقوه يلتقطه بعض السيّارة .

وجملة : " كنتم فاعلين " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : إن كنتم فاعلين فافعلوا هذا القدر من التفريق .

الصرف :

(قائل) ، اسم فاعل من قال الثلاثيّ وزنه فاعل ، وقد قلبت عينه إلى همزة لأنها جاءت بعد ألف فاعل وهذا القلب مطّرد في اسم الفاعل للفعل الأجوف .

(ألقوا) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله ألقيوا - بكسر القاف وضمّ الياء - استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى القاف - وهذا إعلال بالتسكين - ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة - إعلال بالحذف - (غيابة) ، اسم لسدّ أو طاق في البئر قريب من الماء يغيب ما فيه عن العيون . . أو هو قعر الجبّ ، وزنه فعالة بفتح الفاء .

(الجبّ) ، اسم للبئر ، وسمّي بذلك لأنه قطع في الأرض ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

(السيّارة) ، جمع السيّار من صيغ المبالغة ، وزنه فعّال .

(فاعلين) ، جمع فاعل ، اسم فاعل من الثلاثيّ ، ووزنه هو لفظه .

[سورة يوسف (12) : الآيات 11 إلى 12]

قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (12)

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض وفاعله (يا) أداة نداء (أبانا) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الألف . . و (نا) مضاف إليه (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر ما (لا) نافية (تأمنّا) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على النون لمناسبة الإدغام . . و (نا) ضمير مفعول به ،

والفاعل أنت (على يوسف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تأمنّا) ، وعلامة الجرّ الفتحة (الواو)

واو الحال (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و (نا) ضمير في محلّ اسم إنّ (له) مثل لك متعلّق بـ (ناصحون) وهو خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو و (اللام) المزحلقة .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا أبانا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما لك . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لا تأمنّا " في محلّ نصب حال من ضمير الخطاب .

وجملة : " إنّا له لناصحون " في محلّ نصب حال من (يوسف) أو من ضمير المفعول في (تأمنّا) .

(323/398)

(أرسله) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل أنت ، و (الهاء) مفعول به (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (أرسله) ، و (نا) ضمير مضاف إليه (غدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (أرسله) ، (يرتع) مضارع مجزوم جواب الطلب ، والفاعل هو (يلعب) مجزوم معطوف على (يرتع) بالواو (الواو) واو الحال (إنّا له لحافظون) مثل إنّا له لناصحون .

وجملة : " أرسله . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " يرتع . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يلعب . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يرتع .

وجملة : " إنّا له لحافظون " في محلّ نصب حال من ضمير المتكلم في (معنا) ، أو من ضمير الغائب في (أرسله) .

[سورة يوسف (12) : آية 13]

قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (13)

الإعراب :

(قال) فعل ماض والفاعل هو (إنّي) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - والياء ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) للتوكيد (يحزن) مضارع مرفوع و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به (أن) حرف مصدريّ (تذهبوا) مضارع منصوب ، وعلامة النصب حذف النون . .

والواو فاعل (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تذهبوا) .

والمصدر المؤوّل (أن تذهبوا . .) في محلّ رفع فاعل يحزن .

(الواو) عاطفة (أخاف) مضارع مرفوع ، والفاعل أنا (أن) مثل الأول (يأكله) مضارع منصوب . . و (الهاء) مفعول به (الذئب) فاعل مرفوع .

والمصدر المؤوّل (أن يأكله . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أخاف .

(الواو) واو الحال (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (عنه) مثل به متعلّق بـ

(غافلون) وهو خبر المبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو.

جملة: "قال... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "إنّي ليحزنني... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "يحزنني... " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "أخاف... " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: "يأكله، ومثلها تذهبوا ... " لا محل لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "أنتم عنه غافلون... " في محلّ نصب حال.

الصرف:

(الذئب)، اسم جامد للحيوان المفترس المعروف، وزنه فعل بكسر فسكون.

الفوائد

- لام الابتداء:

1 - تفيد توكيد مضمون الجملة، ولهذا زحلقوها في باب إن عن صدر الجملة كراهية

ابتداء الكلام بمؤكدين ، لأن (إنّ) كذلك تفيد التوكيد . وتفيد أيضا تخليص المضارع للحال ، أي دلالته على الزمن الحاضر . ومثال ذلك قوله تعالى في هذه الآية إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ .

2 – وتدخل باتفاق في موضعين :

1 – المبتدأ : كقوله تعالى لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً .

2 – بعد إن (وتسمى المزحلقة) لزحلقتها من المبتدأ إلى الخبر . وتدخل بعد إن على ثلاثة أشياء :

آ – الاسم : كقوله تعالى إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ ب – والمضارع : إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ .

ج – والجار والمجرور أو الظرف كقوله تعالى وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ

[سورة يوسف (12) : آية 14]

قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (14)

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض وفاعله (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (أكل) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط و (الهاء) مفعول به (الذئب) فاعل مرفوع (الواو) واو الحال (نحن عصبة) مرّ

إعرابها " 1 " ، (إنّا . . لخاسرون) مثل إنّا لناصحون " 2 " ، (إذا) – بالتنوين – حرف

جواب لا عمل له.

جملة: "قالوا... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إن أكله الذئب... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "نحن عصبة... "في محلّ نصب حال والرابط الواو.

وجملة: "إنّا إذا لخاسرون... "لا محلّ لها جواب القسم.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

البلاغة

المجاز: في قوله تعالى "إنا إذا لخاسرون... "مجاز عن الضعف والعجز والعلاقة هي السببية.

[سورة يوسف (12): آية 15]

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (15)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب، (ذهبوا) فعل ماض وفاعله (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ذهبوا)، (الواو) عاطفة "3 "، (أجمعوا) مثل ذهبوا (أن) حرف مصدريّ (يجعلوا)

مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل و (الهاء) ضمير مفعول به

(في غيابة الجبّ) جارّ ومجرور ومضاف إليه، متعلّق بـ (يجعلوه) .

---

(1) في الآية (8) من هذه السورة.

(2) في الآية (11) من هذه السورة.

(3) يجوز أن تكون حاليّة، والجملة بعدها حال بتقدير قد .

والمصدر المؤوّل (أن يجعلوه . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي على أن يجعلوه،

متعلّق بـ (أجمعوا) بتضمينه معنى عزموا " 1 " .

(الواو) استئنافيّة (أوحينا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) فاعل (إليه) مثل به

متعلّق بـ (أوحينا)، (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (تنبّئنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ

رفع . . و (النون) نون التوكيد و (هم) ضمير مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت

(بأمر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تنبّئنّ)، و (هم) ضمير مضاف إليه (ها) حرف تنبيه (ذا)

اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ بدل من أمر - أو عطف بيان - (الواو) واو الحال (هم) ضمير

منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (لا) نافية (يشعرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة: " ذهبوا به . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجواب لمّا محذوف تقديره جعلوه فيها " 2 " .

وجملة: " أجمعوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ذهبوا " 3 " .

وجملة: " يجعلوه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة: " أوحينا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " .

وجملة: " تنبّئنّهم . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم

---

(1) يجوز أن يكون المصدر المؤوّل في محلّ نصب مفعول به لفعل أجمعوا ، لأنه يقال: أجمع الأمر وأزمعه .

(2) يجوز أن يكون الجواب جملة قالوا يا أبانا . . الآتية . .

(3) يجوز أن تكون حاليّة بتقدير قد .

(4) هذه الجملة هي جواب لمّا عند الكوفيّين بزيادة الواو ، ونظيره كثير في القرآن على قولهم . . كقوله تعالى: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أي ناديناه .

وقوله: حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها أي فتحت . . وهو رأي صائب .

وجوابها لا محلّ لها تفسيريّة " 1 " .

وجملة : " هم لا يشعرون . . . " في محلّ نصب حال من ضمير الغائب في (تنبّئنّهم) .

وجملة : " لا يشعرون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

[سورة يوسف (12) : آية 16]

وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (16)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (جاؤوا) فعل ماض وفاعله (أباهم) مفعول به منصوب . . و (هم) مضاف إليه (عشاء) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (جاؤوا) ، (يبكون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " جاؤوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يبكون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل جاؤوا .

الصرف :

(عشاء) ، اسم للوقت بين المغرب والعتمة ، وقيل أوّل الظلام ، وقيل آخر النهار ، وزنه فعال بكسر الفاء ومثله العشيّ .

[سورة يوسف (12) : آية 17]

قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ

كُنَّا صادِقِينَ (17)

الإعراب:

(قالوا يا أبانا) مرّ إعرابها "2"، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و (نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (ذهبنا) مثل أوحينا "3"، (نستبق) مضارع مرفوع، والفاعل نحن (الواو) عاطفة (تركنا) مثل أوحينا "4"، (يوسف) مفعول به منصوب (عند) ظرف منصوب متعلّق ب

---

(1) لأن أوحينا فيه معنى القول دون حروفه. [.....]

(2) في الآية (11) من هذه السورة.

(3، 4) في الآية (15) من هذه السورة.

(تركنا)، (متاعنا) مضاف إليه مجرور.. و (نا) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (أكل) فعل ماض و (الهاء) ضمير مفعول به (الذئب) فاعل مرفوع (الواو) استئنافيّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (أنت) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما (الباء) حرف جرّ زائد (مؤمن) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (الواو) اعتراضيّة (لو) حرف شرط غير جازم (كنّا)

فعل ماض ناقص – ناسخ – و (نا) ضمير في محلّ رفع اسم كان (صادقين) خبر كنّا منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يا أبانا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " إنّا ذهبنا . . . " في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " ذهبنا نستبق . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " نستبق . . . " في محلّ نصب حال من فاعل ذهبنا .

وجملة : " تركنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة ذهبنا .

وجملة : " أكله الذئب . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّا ذهبنا .

وجملة : " ما أنت بمؤمن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كنّا صادقين . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة " 2 " . . وجواب لو محذوف تقديره فما أنت بمؤمن لنا لأنك محبّ ليوسف .

---

(1) يجوز أن تكون جوابا للنداء لا محلّ لها ، وجملة النداء في محلّ نصب مقول القول .

(2) أو حاليّة . . وبعض النحويين يجعل (لو) بمعنى إنّ الشرطيّة أي تعليق معناها بالمستقبل فلا يصحّ كونها حالا .

[سورة يوسف (12) : آية 18]

وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (18)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (جاؤوا) مرّ إعرابه " 1 "، (على قميصه) جارّ ومجرور ومضاف إليه، متعلّق بمحذوف حال من دم " 2 "، (بدم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاؤوا) ، (كذب) نعت لدم مجرور وهو على حذف مضاف أي ذي كذب (قال) فعل ماض، والفاعل هو (بل) حرف إضراب (سوّلت) فعل ماض.. و (التاء) للتأنيث (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (سوّلت) ، (أنفسكم) فاعل مرفوع، و (كم) ضمير مضاف إليه (أمرا) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (صبر) خبر لمبتدأ محذوف وجوبا تقديره صبري أو أمري أو شأني (جميل) نعت لصبر مرفوع (الواو) عاطفة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (المستعان) خبر المبتدأ مرفوع (على) حرف جرّ (ما) اسم موصول " 3 " مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بالمستعان (تصفون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل.

جملة: "جاؤوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة ما أنت بمؤمن "4" .

وجملة: "قال . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "سوّلت لكم أنفسكم . . . "لا محلّ لها استئنافيّة تعليل لكلام

---

(1) في الآية (16) من هذه السورة.

(2) هذا رأي العكبريّ وقد أيّده أبو حيّان على الرغم من أن الحال المتقدّمة على المجرور بحرف جرّ أصليّ فيها خلاف بين النحويين، والظاهر صحة مجيئها كذلك.

(3) أو هو حرف مصدريّ . . والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ . . أي على وصفكم الكاذب.

(4) في الآية السابقة (17) .

مقدّر هو مقول القول والتقدير: لم تصدقوا في كلامكم بل سوّلت لكم . . .

وجملة: "(صبري) صبر جميل . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة سوّلت لكم أنفسكم.

وجملة: "اللَّه المستعان . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة (صبري) صبر جميل.

وجملة: " تصفون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد محذوف أي تصفونه .

الصرف :

(قميص) ، اسم لما يلبس على الجلد ، يذكّر ويؤنّث جمعه أقمصة وقمص بضمّتين وقمصان بضمّ القاف ، وزنه فعيل .

(المستعان) ، اسم مفعول من فعل استعان السداسيّ ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وفتح العين وفي الفعل إعلال بالقلب ، مجردة عان أصله عون من العون تحركت الواو بعد فتح قلبت ألفا وبقي الإعلال في المزيد والمشتق .

البلاغة

المبالغة : في قوله تعالى " بِدَمٍ كَذِبٍ . . . " وصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب : هو الكذب بعينه ، والزور بذاته .

ونحوه :

- فهنّ به جود وأنتم به بخل -

[سورة يوسف (12) : آية 19]

وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (19)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (جاءت) مثل سوّلت " 1 " ، (سيارة) فاعل مرفوع (الفاء) عاطفة (أرسلوا) مثل جاؤوا " 2 " (واردهم) مفعول به منصوب . . و (هم) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (أدلى) ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل هو (دلوه) مثل واردهم (قال) مرّ إعرابه " 3 " ، (يا) أداة نداء وتعجّب (بشرى) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (غلام) خبر مرفوع (الواو) استئنافيّة (أسرّوا) مثل جاؤوا " 4 " ، و (الهاء) ضمير مفعول به وهو على حذف مضاف أي أمره " 5 " ، (بضاعة) حال من فاعل أسرّوا " 6 " ، (الواو) استئنافيّة (اللَّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (عليم) خبر مرفوع (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 7 " ، (يعملون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما يعملون . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بعليم .

جملة : " جاءت سيّارة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرسلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أدلى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسلوا .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ متعلّق بالكلام المقدّر في مجرى القصّة أي : فتعلّق يوسف بالدلو فأخرجه الوارد فلمّا رآه قال يا بشرى .

(1، 2، 3، 4) في الآية السابقة (18) .

(5) والضمير في أسرّوا عائد على إخوة يوسف ، وقيل يعود على السيّارة .

(6) هو في حقيقة المعنى مفعول به لعامل مقدّر هو حال من فاعل أسروا أي جاعليه بضاعة . . وقد جاز جعله حالا وهو جامد لأن الكلام بتأويل مشتقّ أي مكسبا .

(7) أو اسم موصول ، والعائد محذوف أي يعملونه .

وجملة : " التعجّب يا بشرى . . . " لا محلّ لها اعتراض تعجّبي .

وجملة : " هذا غلام . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أسرّوه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اللَّه عليم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ .

الصرف :

(وارد) ، اسم فاعل من ورد الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(أدلى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله أدلي ، مضارعه يدلي ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه أفعل .

(دلو) ، اسم جامد لما يستقى به ، يذكّر ويؤنّث غالبا ، جمعه دلاء بكسر الدال وأدل بتنوين اللام وحذف الواو من آخره ، ودليّ بضمّ الدال وكسرها وتشديد الياء ، ودلى بفتح الدال مع ألف مقصورة بعد اللام ، ووزن دلو فعل بفتح فسكون .

(بضاعة) ، اسم لما أعدّ للتجارة ، جمعه بضائع ، وزنه فعائل ، ووزن بضاعة فعالة بكسر الفاء .

[سورة يوسف (12) : آية 20]

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (شروا) مثل جاؤوا " 1 " ، و (الهاء) ضمير مفعول به (بثمن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (شروا) (بخس) نعت لثمن مجرور (دراهم) بدل من ثمن مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من

---

(1) في الآية (18) من هذه السورة . . وإذا فسّر (شروه) بمعنى باعوه كان الضمير عائدا

على إخوة يوسف ، وإن فسّر بمعنى اشتروه فالضمير يعود على السيّارة ، وقد أخذه هؤلاء بثمن بخس لظنّهم أن به عيبا .

الصرف (معدودة) نعت لدراهم مجرور (الواو) عاطفة " 1 " ، (كانوا) فعل ماض ناقص - ناسخ - والواو اسم كان (في) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بالزاهدين ، هذا التعليق صحيح - خلافا لرأي البصريين الذين يمنعون تقدم الصلة على الموصول - ذلك لعدم وجود اللبس وللبعد عن التكلف والتأويل . انظر النحو الوافي ج 1 ص 273 هامش " 2 " .

والضمير يعود على يوسف أو على الثمن على اختلاف في التفسير (من) الزاهدين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر كانوا ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " شروه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أسرّوه " 3 " .

وجملة : "كانوا فيه من الزاهدين " لا محلّ لها معطوفة على جملة شروه .

الصرف :

(بخس) ، صفة مشبّهة بلفظ المصدر من بخس يبخس باب فتح ، بمعنى نقصه أو عابه ،

وزنه فعل بفتح فسكون.

(دراهم)، جمع درهم، اسم جامد أعجميّ من اليونانية للقطعة المضروبة للمعاملة (دراخمة)، وهي كلمة تطلق اليوم على النقد بعامّة، وزنه فعلل بكسر الفاء وفتح اللام أو كسرها. ويجوز أن يكون دراهم جمعا لدرهام بكسر الدال.. ووزن دراهم فعالل.

(الزاهدين)، جمع الزاهد، اسم فاعل لفعل زهد الثلاثيّ، وزنه فاعل.

الفوائد

البدل: ورد في هذه الآية قوله تعالى وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ فدراهم

---

(1) أو حاليّة، وجملة كانوا.. في محلّ نصب حال بتقدير (قد). [.....]

(2) في الآية (18) من هذه السورة.

(3) في الآية (19) السابقة.

(333/398)

بدل من ثمن، مجرورة مثلها بالفتحة عوضا عن الكسرة، لأنها ممنوعة من الصرف، وإتماما للفائدة سنوضح أهم ما يتعلق بهذا البحث:

البدل : هو تابع (أي يتبع المبدل منه في الإعراب) يمهّد له بذكر اسم قبله (وهو المبدل منه) غير مقصود لذاته (وإنما يذكر تمهيدا للبدل) . والبدل أربعة أنواع :

1 – بدل مطابق ، كقوله تعالى اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

فصراط الثانية بدل من الصراط .

2 – بدل بعض من كل ، نحو (انقضى النهار ربعه) ربعه بدل من النهار .

3 – بدل اشتمال ، نحو (يسعك الأمير عفوه) 4 – بدل الخطأ : أعط السائل ثلاثة أربعة .

يريد أربعة ولكنه أخطأ فقال : ثلاثة .

فأربعة بدل من ثلاثة . ويجب في بدل البعض والاشتمال أن يتصلا بضمير يعود على المبدل منه ، كما مر في الأمثلة . فالهاء بـ (ربعه) تعود إلى النهار وب (عفوه) تعود للأمير .

(334/398)

كما يبدل الفعل من الفعل ، كقوله تعالى وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فالفعل (يضاعف) أبدل من الفعل (يلق) .

[سورة يوسف (12) : آية 21]

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ

مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (21)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (قال) فعل ماض (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (اشتراه) فعل ماض و (الهاء) مفعول به، والفاعل هو وهو العائد (من مصر) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل اشترى، وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف (لامرأته) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قال)، و (الهاء) مضاف إليه (أكرمي) فعل أمر مبنيّ على حذف النون.. و (الياء) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (مثواه) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف.. و (الهاء) مضاف إليه (عسى) فعل ماض تام مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (أن ينفع) مضارع منصوب بأن الناصب و (نا) ضمير مفعول به، والفاعل هو.

والمصدر المؤوّل (أن ينفعنا..) في محلّ رفع فاعل عسى.

(أو) حرف عطف (نتّخذ) مضارع منصوب معطوف على ينفع، و (الهاء) ضمير مفعول به أوّل، والفاعل نحن (ولدا) مفعول به ثان منصوب (الواو) استئنافيّة (الكاف) حرف جرّ وتشبيه "1" (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله مكّنا، والإشارة إلى التمكين من قلب العزيز.. و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب (مكّنّا) مثل أوحينا "2"، (ليوسف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مكّنّا)، وعلامة الجرّ الفتحة (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مكّنّا)، (الواو) عاطفة، (اللام) لام التعليل (نعلّمه) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام.. و (الهاء) مفعول به، والفاعل نحن للتعظيم (من تأويل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نعلّمه)، (الأحاديث) مضاف إليه مجرور. والمصدر المؤوّل (أن نعلّمه) في محلّ جرّ باللام معطوف على مصدر مؤوّل محذوف متعلّق بـ (مكّنّا) أي مكّنّا ليوسف لنملّكه ولنعلّمه "3".

---

(1) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي مثل ذلك التمكين...

(2) في الآية (15) من هذه السورة.

(3) أو متعلّق بمحذوف يأتي تاليا، والواو قبله حينئذ استئنافيّة أي ولنعلّمه من تأويل الأحاديث كان ذلك الإنجاء.. هذا ويجوز أن تكون الواو زائدة فيتعلّق الجارّ بـ (مكّنّا).

(الواو) استئنافيّة (اللَّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (غالب) خبر مرفوع (على أمره) جارّ ومجرور متعلّق بغالب، و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف استدراك ونصب - ناسخ - (أكثر) اسم لكنّ منصوب (الناس) مضاف إليه مجرور (لا) نافية (يعلمون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل.

جملة: " قال الذي اشتراه... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " اشتراه... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: " أكرمي... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " عسى أن ينفعنا ... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: " ينفعنا ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: " نتّخذه... " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينفعنا.

وجملة: " مكّنّا ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " نعلمه ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: " اللَّه غالب ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لكنّ أكثر الناس . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة.

وجملة: " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر لكنّ.

[سورة يوسف (12) : آية 22]

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بـ

(آتيناه) ، (بلغ) فعل ماض، والفاعل هو

أشدّه مفعول به منصوب، و (الهاء) مضاف إليه (آتيناه) فعل ماض مبنيّ على السكون و

(نا) ضمير فاعل، و (الهاء) ضمير مفعول به أوّل (حكما) مفعول به ثان منصوب (علما)

معطوف على المفعول الثاني بالواو منصوب (وكذلك) مرّ إعرابه " 1 " ، (نجزي) مضارع

مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، والفاعل نحن للتعظيم (المحسنين) مفعول به

منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: " بلغ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " آتيناه . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: " نجزي . . . " لا محلّ استئنافيّة.

الصرف:

(أشدّ) ، جمع شدّة - على رأي سيبويه - مثل نعمة وأنعم . . وقال آخرون هو جمع لا واحد له ، أو مفرد جاء على بناء الجمع ، وزنه أفعل بفتح الهمزة وضمّ العين . وقد أدغمت العين واللام معا .

[سورة يوسف (12) : الآيات 23 إلى 29]

وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (25) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (26) وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27)

فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (29)

(1) في الآية السابقة (21) .

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (راودت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث و (الهاء) ضمير مفعول به (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (في بيتها) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ و (ها) مضاف إليه (عن نفسه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (راودت) ، و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (غلّقت) مثل راودت والفاعل هي (الأبواب) مفعول به (الواو) عاطفة (قالت) مثل راودت ، والفاعل هي (هيت) اسم فعل ماض بمعنى تهيّأت " 1 " ، (اللام) حرف جرّ - وهي لام التبيين " 2 " - ، و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف تقديره أقول (قال) فعل ماض ، والفاعل هو (معاذ) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره أعوذ (اللَّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و (الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ " 3 " ، (ربيّ) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة

(1) أو اسم فعل أمر بمعنى أقبل أو أسرع، والفاعل أنت.

(2) "أي تبيين المفعول أي المخاطب... فكأنها تقول: أقول لك أو الخطاب لك كما في سقيا لك ورعيا لك" 1 ه ملخّصا من الجمل.

(3) وهو يعود على سيّده، أو يعود على الباري تعالى وهو أحسن.. وقال بعضهم: الضمير هو ضمير الشأن و (ربي أحسن مثواي) مبتدأ وخبر، وهذه الجملة خبر إنّ.

المقدّرة على ما قبل الياء.. و (الياء) ضمير مضاف إليه (أحسن) فعل ماض، والفاعل هو (مثواي) مفعول به منصوب، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف.. و (الياء) مضاف إليه (إنّ) مثل الأول و (الهاء) ضمير الشأن في محلّ نصب اسم إنّ (لا) نافية (يفلح) مضارع مرفوع (الظالمون) فاعل مرفوع، وعلامة الرفع الواو.

جملة: "راودته التي... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "هو في بيتها... "لا محلّ لها صلة الموصول (التي).

وجملة: "غلّقت... "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "قالت... "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة : " هيت لك " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " (أعوذ) معاذ اللَّه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّه ربيّ . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " أحسن مثواي " في محلّ رفع خبر إنّ ثان " 1 " .

وجملة : " إنّه لا يفلح الظالمون " لا محلّ لها بدل من التعليليّة .

وجملة : " لا يفلح الظالمون " في محلّ رفع خبر إنّ .

(الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (همت) مثل راودت

(الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (همت) ، (الواو) عاطفة (همّ)

فعل ماض ، والفاعل هي (بها) مثل به ، متعلّق بـ (همّ) ، (لولا) حرف شرط غير جازم

(أن) حرف مصدريّ (رأى)

---

(1) أو في محلّ نصب حال من (ربّ) ، والعامل فيها ما في إنّ من معنى التوكيد .

فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل هو (برهان) مفعول به منصوب (ربّه) مضاف إليه مجرور و (الهاء) مضاف إليه (كذلك) مرّ إعرابه " 1 " ، والجارّ متعلّق بمحذوف يقدّر بحسب التفسير : أريناه ، أو عصمناه ، أو فعلنا به . . . إلخ (اللام) للتعليل (نصرف) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل نحن للتعظيم (عن) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نصرف) ، (السوء) مفعول به منصوب (الفحشاء) معطوف على السوء بالواو منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن رأى) في محلّ رفع مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره موجودة . . وجواب لولا محذوف يفسره الكلام قبله أي : لولا أن رأى . . .

لهمّ بها " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أن نصرف . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بالفعل المحذوف الذي تعلّق به كذلك .

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (الهاء) ضمير اسم إنّ (من عبادنا) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر إنّ . . و (نا) ضمير مضاف إليه (المخلصين) نعت لعباد مجرور ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " همت به . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " همّ بها " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم " 3 " .

---

(1) في الآية (21) من هذه السورة.

(2) قال أبو حيان في كتاب البحر: "طوّل المفسّرون في تفسير هذين الهمّين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفسّاق، والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ بها البتّة بل هو منفي لرؤية البرهان كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله ... نقول: إن جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه.. فهنا التقدير لولا أن رأى برهان ربّه لهم بها، وجدت رؤية البرهان فانتفى الهمّ ... " ه ملخّصا.

(3) يجوز أن تكون الجملة استئنافيّة إذا جاء الوقف على (همت به).

والجملة الاسميّة: "لولا رؤية البرهان" لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "رأى ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن).

وجملة: "نصرف ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر.

وجملة: "إنّه من عبادنا ... " لا محلّ لها تعليليّة.

(الواو) عاطفة (استبقا) فعل ماض . . و (الألف) ضمير في محلّ رفع فاعل (الباب) منصوب على نزع الخافض أي إلى الباب " 1 " ، (الواو) عاطفة (قدّت) مثل راودت (قميصه) مفعول به منصوب . و (الهاء) مضاف إليه (من دبر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قدّت) ، (الواو) عاطفة (ألفيا) مثل استبقا (سيدها) مفعول به منصوب . . و (ها) مضاف إليه (لدى) ظرف مبنيّ على السكون في محلّ نصب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان أي موجودا لدى الباب (الباب) مضاف إليه مجرور (قالت) مثل راودت (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، (جزاء) خبر مرفوع (من) اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (أراد) فعل ماض ، والفاعل هو وهو العائد (بأهلك) جارّ ومجرور متعلّق بحال من (سوءا) . . و (الكاف) مضاف إليه (سوءا) مفعول به منصوب (إلّا) أداة حصر (أن) حرف مصدريّ (يسجن) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو.

والمصدر المؤوّل (أن يسجن . .) في محلّ رفع بدل من جزاء .

(أو) حرف عطف (عذاب) معطوف على محلّ المصدر المؤوّل مرفوع مثله (أليم) نعت لعذاب مرفوع.

وجملة : " استبقا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم المقدّر .

وجملة : " قدّت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استبقا الباب .

---

(1) أو هو مفعول به إذا ضمّن استبق معنى بادر . [. . . . .]

وجملة : " ألفيا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استبقا الباب .

وجملة : " قالت . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ما جزاء . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أراد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يسجن " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (راودت) مثل الأول و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به ، والفاعل هي (عن نفسي) جارّ ومجرور متعلّق بـ (راودت) ، و (الياء) مضاف إليه ، (الواو) عاطفة (شهد) فعل ماض (شاهد)

فاعل مرفوع (من أهلها) جارّ ومجرور نعت لشاهد . . و (ها) مضاف إليه (إن) حرف شرط جازم (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - في محلّ جزم فعل الشرط (قميصه) اسم كان مرفوع . . و (الهاء) مضاف إليه (قدّ) فعل ماضي مبني للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قدّ) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (صدقت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث " 1 " ، (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (من الكاذبين) جارّ ومجرور خبر ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " هي راودتني . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " راودتني . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ هي .

وجملة : " شهد شاهد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال . .

---

(1) اقترن الماضي بالفاء لأنه ماض لفظا ومعنى ، ولهذا تقدّر (قد) معه ليقترب الماضي من الحاضر .

وجملة : " كان قميصه قدّ . . . " لا محلّ لها تفسر الشهادة " 1 " .

وجملة : " قدّ من قبل " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " (قد) صدقت . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " هو من الكاذبين " في محلّ جزم معطوفة على جملة جواب الشرط .

(الواو) عاطفة (إن كان . . . وهو من الصادقين) مثل نظيرها مفردات وجملا .

(الفاء) عاطفة (لما رأى قميصه) مثل لما بلغ أشدّه " 2 " ، (قدّ من دبر) مثل قدّ من قبل (قال) كالسابق (إنّه من كيد كنّ) مثل إنّه من عبادنا (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (كيد كنّ) اسم منصوب . . و (كنّ) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه . . و (النون) المشدّدة علامة جمع الإناث (عظيم) خبر مفوع .

وجملة : " رأى قميصه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قدّ من دبر . . . " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إنّه من كيد كنّ " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ كيد كنّ عظيم " لا محلّ لها في حكم التعليليّة .

(يوسف) منادى مفرد علم محذوف منه أداة النداء ، مبنيّ على الضم في محلّ نصب (أعرض) فعل أمر ، والفاعل أنت (عن) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة

مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعرض) ، (الواو) عاطفة

---

(1) لأن شهد بمعنى القول دون حروفه . . ويجوز أن تكون الجملة مقول القول لقول مقدّر أي شهد يقول .

(2) في الآية (22) من هذه السورة .

(استغفري) مثل أكرمي " 1 " ، (لذنبك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استغفري) " 2 " . . و (الكاف) مضاف إليه (إنّك) حرف مشبه بالفعل . .

و(الكاف) اسم إنّ (كنت) فعل ماض ناقص . . و (التاء) ضمير اسم كان (من الخاطئين) جارّ ومجرور خبر كان وجملة النداء : " يوسف . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول " 3 " .

وجملة : " أعرض . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " استغفري . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " إنّك كنت . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كنت من الخاطئين " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(هيت) ، اختلف في تخريج هذا اللفظ ، فبعضهم جعل التاء أصليّة ، واللفظ هو اسم فعل ماض أو أمر ، وبعضهم جعل التاء ضمير الرفع دخل على فعل هاء يهيء مثل جاء يجيء ، أو هاء يهاء مثل شاء يشاء ، وخفّفت الهمزة ياء ساكنة على لغة أهل الحجاز . . . إلخ.

(معاذ) ، مصدر ميميّ من عاذ يعوذ ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين . .

وفيه إعلال بالقلب لأن الألف أصلها واو ، والأصل فيه معوذ بفتح الميم والواو ، فلما جاءت الواو متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

(المخلصين) ، جمع المخلص ، اسم مفعول من الرباعي أخلصهم اللّه أي اجتباهم واختارهم ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

(لدى) اسم ظرفي فيه إعلال قلبت الياء ألفا لمجيئها بعد فتح ، وتعود

---

(1) في الآية (21) من هذه السورة .

(2) أي اطلبي الغفران من أجل هذا الذنب ، فاللام سببيّة .

(3) يجوز أن تكون في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

الياء بإضافة الظرف إلى ضمير.

(قبل) ، اسم ضد الدبر مأخوذ من قبل قبلا أي قدم وقرب ، وزنه فعل بضمّتين ، وقد يلفظ بسكون الباء .

(الخاطئين) ، جمع الخاطئ ، اسم فاعل من خطئ يخطأ باب فرح ، وزنه فاعل ، مؤنّثه خاطئة .

البلاغة

1 - تقرير الغرض المسوق له الكلام : وذلك في قوله تعالى " وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ " فإيراد الموصول ، دون امرأة العزيز ، مع أنه أخصر وأظهر لتقرير المراودة ، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك ، قيل لواحدة : ما حملك على ما أنت عليه مما لا خير فيه ؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السواد ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام ، فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها ، واستعصاءه عليها مع كونه تحت يدها ، ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة .

2 - قوله تعالى " هِيَ راوَدَتْنِي " فإن " هي " ضمير باتفاق ، وليس هو للغائب بل لمن بالحضرة ، وكذا (يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ) وهذا في المتصل وذاك في المنفصل .

وقال السراج البلقيني في رسالته المسماة " نشر العبير لطي الضمير " :

الضمير المفسر لضمير الغائب ، إما مصرح به ، أو مستغنى بحضور مدلوله حسا أو علما .

فالحسن نحو قوله تعالى " هِيَ راوَدَتْنِي " و " يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ "كما ذكر ابن مالك ، وتعقبه بأنه ليس كما مثل به ، لأن هذين الضميرين عائدان على ما قبلهما ، فضمير " هِيَ راوَدَتْنِي " عائد على الأهل في قولها : (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا) ولما كنت عن نفسها بذلك ولم تقل بي بدل (بأهلك) كنى هو عليه السلام عنها بضمير الغيبة فقال : (هِيَ راوَدَتْنِي) ولم يخاطبها بأنت

راودتني ، ولا أشار إليها بهذه راودتني ، وكل هذا على سبيل الأدب في الألفاظ والاستحياء في الخطاب الذي يليق بالأنبياء عليهم السلام ، فأبرز الاسم في صورة ضمير الغائب تأدبا مع العزيز وحياء منه ، وضمير (استأجره) عائد على موسى فمفسره مصرح بلفظه ، وكأن ابن مالك تخيل أن هذا موضع إشارة لكون صاحب الضمير حاضرا عند المخاطب ، فاعتقد أن المفسر يستغني عنه بحضور مدلوله حسا ، فجرى الضمير مجرى اسم الإشارة .

الفوائد

1 – عصمة الأنبياء :

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ لقد كثرت أقوال المفسرين بصدد هذه الآية. وسنورد أقربها إلى الصواب إن شاء اللّه تعالى، ولكونها مثار تساؤل الكثيرين.

---

1 – ولقد همّت به وهمّ بها : قال بعض المحققين الهمّ همّان همّ ثابت، وهو ما كان معه العزم والقصد والعقيدة والرضا، مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به ومحاسب عليه، بدليل قوله تعالى وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ والهم الثاني، هو الهم العارض، وهو الخطرة في القلب، وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم ، مثل هم يوسف عليه الصلاة والسلام فالعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل به.

والدليل على أن يوسف عليه الصلاة والسلام لم يكن عازما ولا راضيا بالفاحشة قوله تعالى قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.

2 – لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ للمفسرين أقوال كثيرة بهذا الصدد وسننقل أهمها :

1 – قال جعفر بن محمد الصادق : البرهان هو النبوة التي جعلها اللّه عز وجل في قلبه،

حالت بينه وبين ما يسخط اللّه عز وجل .

2 – البرهان حجة اللّه عز وجل على العبد في تحريم الزّنا ، والعلم بما على الزاني من العقاب .

3 – إن اللّه عز وجل طهر نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الأخلاق الذميمة والأفعال الرذيلة ، وجبلهم على الأخلاق الشريفة الطاهرة ، التي تحجزهم عن فعل ما لا يليق فعله ، وتكرّه إليهم الفسوق والعصيان ، وتزين الإيمان والطاعة في قلوبهم بدليل قوله تعالى كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ .

2 – حذف أداة النداء :

(350/398)

قال النحويون : إنه يجوز حذف أداة النداء وتقديرها ، وقد ورد ذلك في الآية الكريمة بقوله تعالى يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وفي آيات أخرى كقوله تعالى رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا أي يا ربنا ، وهذا كثير وشائع في أساليب العرب ، وأداة النداء المحذوفة المقدرة هي (يا) لكونها أشهر أدوات النداء ، ولا ينادى اسم اللّه عز وجل إلا بها .

وإذا ولي (يا) ما ليس بمنادى كالفعل (ألا يا اسجدوا) والحرف كقوله تعالى (يا لَيْتَنِي كُنْتُ

مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً وقولهم يا ربّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة والجملة الاسمية:

كقول الشاعر

يا لعنة اللّه والأقوام كلهم والصالحين على سمعان من جار

فقيل بأن (يا) فيما سبق للنداء والمنادي محذوف، وقيل هي لمجرد التنبيه، لئلا يلزم الإجحاف بحذف الجملة كلها. وهذا هو الصواب واللّه تعالى أعلم. وقال ابن مالك إن وليها دعاء كالبيت السابق أو أمر كما في قولنا (ألا يا اسجدوا) فهي للنداء، لكثرة وقوع النداء قبل الدعاء والأمر كقوله تعالى يا آدَمُ اسْكُنْ يا نُوحُ اهْبِطْ وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ وإلا فهي للتنبيه.

[سورة يوسف (12): الآيات 30 إلى 31]

وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (31)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (قال) فعل ماض (نسوة) فاعل مرفوع (في المدينة) جارّ ومجرور نعت لنسوة (امرأة) مبتدأ مرفوع (العزيز) مضاف إليه مجرور (تراود) مضارع مرفوع (فتاها) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف.. و (ها) مضاف إليه (عن نفسه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تراود).. و (الهاء) مضاف إليه (قد) حرف تحقيق (شغفها) فعل ماض.. و (الهاء) ضمير مفعول به، والفاعل هو (حبّا) تمييز منصوب منقول عن الفاعل (إنّا) مرّ إعرابه " 1 "، (اللام) للتوكيد (نراها) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف.. و (ها) مفعول به، والفاعل نحن (في ضلال) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (مبين) نعت لضلال مجرور.

جملة: " قال نسوة... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " امرأة العزيز تراود... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " تراود فتاها... " في محلّ رفع خبر المبتدأ.

وجملة: " قد شغفها... " لا محلّ لها تعليليّة " 2 ".

وجملة: " إنّا لنراها... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " نراها... " في محلّ رفع خبر إنّ.

---

(1) في الآية (17) من هذه السورة.

(2) أو هي في محلّ نصب حال إمّا من فاعل تراود أو من مفعوله.

(352/398)

(الفاء) عاطفة (لما) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بـ (أرسلت) ، (سمعت) فعل ماض.. و (التاء) للتأنيث، والفاعل هي (بمكر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سمعت) ، (هنّ) ضمير متّصل مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (أرسلت) مثل سمعت (إلى) حرف جرّ و (هن) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أرسلت) ، (الواو) عاطفة (أعتدت) مثل سمعت (لهنّ) مثل إليهنّ متعلّق بـ (أعتدت) ، (متّكأ) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (آتت) مثل سمعت (كلّ) مفعول به أوّل منصوب (واحدة) مضاف إليه مجرور (منهنّ) مثل إليهنّ متعلّق بنعت لكلّ واحدة (سكّينا) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (قالت) مثل سمعت (اخرج) فعل أمر، والفاعل أنت (عليهنّ) مثل إليهنّ متعلّق بحال من فاعل اخرج " 1 " ، (فلما) مثل الأول (رأين) فعل ماض مبني على السكون.. و (النون) ضمير فاعل و (الهاء) مفعول به (أكبرنه) مثل رأينه (الواو) عاطفة (قطّعن) مثل رأين (أيدي) مفعول به منصوب و (هنّ) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (قلن) مثل

رأين (حاش) فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة للتخفيف " ، والفاعل هو أي يوسف (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل حاش أي مطيعا للّه " 3 " ، (ما) نافية عاملة عمل ليس (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع اسم ما (بشرا)

---

(1) أو متعلّق بفعل اخرج ، ومعنى : اخرج عليهنّ . . ابرز لهنّ .

(2) أي جانب يوسف المعصية . . ويجوز أن يكون اسما منصوبا على المصدر أي تنزيها للّه . قال الغلاييني في جامع الدروس : " متى استعملت (حاشا) للتنزيه المجرّد كانت اسما مرادفا للتنزيه منصوبا على المفعولية المطلقة . . وإن لم تضف ولم تنوّن كانت مبنيّة . . . " .

(3) أو اللام للتعليل ، وهو متعلّق بالفعل ، وذلك على حذف مضاف أي جانب يوسف المعصية لأجل طاعة اللّه .

خبر ما منصوب (إنّ) حرف نفي (هذا) مبتدأ (إلّا) أداة حصر (ملك) خبر مرفوع (كريم) نعت لملك مرفوع .

وجملة : " سمعت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أرسلت . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أعتدت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب .

وجملة : " آتت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب .

وجملة : " قالت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب .

وجملة : " اخرج عليهنّ " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " رأينه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أكبرنه . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قطّعن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أكبرنه .

وجملة : " قلن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أكبرنه .

وجملة : " حاش للّه " في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " ما هذا بشرا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إن هذا إلّا ملك . . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ للاستئناف السابق .

الصرف :

(نسوة) ، اسم جمع لا واحد له من لفظه ، مفرده امرأة ، وهو بكسر النون - قالوا وقد تضمّ - وهو حينئذ اسم جمع بلا خلاف .

(العزيز) ، لقب للوزير الذي كان على خزائن مصر واسمه (قطفير) كما جاء في التفاسير .

---

(1) أو هي اعتراضيّة دعائية ، ومقول القول جملة ما هذا بشرا .

(354/398)

(فتاها) ، الألف فيه منقلبة عن ياء ، جمعه فتية ، ومثنّاه فتيان ، أصله فتي ، فلمّا تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(مكرهنّ) ، مصدر سماعيّ لفعل مكر يمكر باب نصر وزنه فعل بفتح فسكون .

(متّكأ) ، اسم مكان من اتكأ الخماسيّ ، استعمل في الآية اسما بمعنى الوسادة أو الطعام الذي يحتاج إلى اتّكاء ، وسكين لقطعه . . . فهو على وزن اسم المفعول . . وفي الكلمة إبدال فاء الكلمة تاء لمجيئها بعد تاء الافتعال ، وأصله موتكأ . . ثمّ أدغمت التاءان معا .

(سكّينا) ، اسم جامد للآلة القاطعة ، وزنه فعّيل بكسر الفاء مع تشديد العين .

(حاشى) ، هو فعل رباعيّ مضارعه يحاشي ، ورسم الألف فيه قصيرة جاء لكونها رابعة ، فإذا كان حرف جرّ رسمت الألف طويلة (حاشا) ، وهو عند آخرين اسم بمعنى تنزيها حيث ينوّن آخره ، وقد يخفّف التنوين ضرورة أي حاشا - بالتنوين - وحاشا - من غير تنوين - (كريم) ، صفة مشبّهة باسم الفاعل من كرم يكرم وزنه فعيل .

1 - التشبيه البليغ : في قوله تعالى " ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ " فقد شبهن يوسف بالملك من دون ذكر الأداة ، والمقصود منه إثبات الحسن لأنه تعالى ركب في الطبائع أن لا شيء أحسن من الملك ، وقد عاين ذلك قوم لوط في ضيف إبراهيم في الملائكة ، كما ركب في الطباع أن لا شيء أقبح من الشيطان ، وكذلك قوله تعالى في صفة جهنم " طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ " فكذلك قد تقرر أن لا شيء أحسن من الملك ، فلما أرادت النسوة وصف يوسف بالحسن

شبهنه بالملك . ولكن الأسلوب القرآني شاء أن يتجاوز المألوف من تشبيهات العرب لكل ما راعهم حسنه من البشر بالجن فأدخل فيه فنا آخر لا يبدو للناظر للوهلة الأولى ، وهو فن عرفوه بأنه سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلا منه .

ليخرج كلامه مخرج المدح ، أو ليدل - كما هنا - على شدة الوله في الحب وقد يقصد به الذم أو التعجب أو التوبيخ أو التقرير ، ويسمى هذا الفن تجاهل العارف .

2 - المجاز : في قوله تعالى " وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً " أي ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد ، فقد نهى النبي صلّى اللّه عليه وسلم أن يأكل الرجل بشماله وأن يأكل متكئا

، وقيل أريد به نفس الطعام . قال العتبي : يقال : اتكأنا عند فلان أي أكلنا ، ومن ذلك قول

جميل :

فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله

(355/398)

وعبّر بالهيئة التي يكون الآكل المترف عن ذلك مجازا ، وقيل : هو باب الكناية .

الفوائد

- حاشا :

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً يقول أبو البقاء العكبري بصدد (حاشى) في هذه الاية الكريمة : يقرأ بألفين (حاشا) . والجمهور على أنه هنا فعل . وقد صرف منه أحاشي . ويؤيد ذلك دخول اللام على اسم اللّه تعالى . ولو كان حرف جر لما جاء بعده حرف جر وفاعله مضمر تقديره (حاشا يوسف) : أي بعد من المعصية بجرف اللّه . وأصل الكلمة من حاشيت الشيء ، ويقرأ بحذف الألف للتخفيف .

هذا ما أورده أبو البقاء العكبري . وإتماما للفائدة ، فإننا سنوضح ما يتعلق بـ (حاشا) لأنها تبهم على الكثير فحاشا ترد على ثلاثة أوجه :

1 - أن تكون فعلا متعديا متصرفا ، تقول : حاشيته بمعنى استثنيته ، والدليل قول النابغة

الذبياني :

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحد

2 - أن تكون تنزيهيه ، كما مر في الآية الكريمة (حاشى للّه) وهي اسم للتنزيه كقوله تعالى

مَعاذَ اللَّهِ ونعربها نائب مفعول مطلق .

3 - وتكون للاستثناء ، وغالب أحوالها أنها حرف جر يفيد الاستثناء ، والاسم بعدها

مجرور ، كقولنا : كلكم مخطئ حاشا زيد وذهب بعض النحاة إلى جواز وجه آخر وهو أن

نعتبرها فعلا جامدا يفيد الاستثناء والاسم بعدها مفعول به منصوب كقولهم : (اللهم اغفر

لي ولمن يسمع حاشا الشيطان) .

[سورة يوسف (12) : آية 32]

قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ

لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (32)

الإعراب :

(قالت) فعل ماض، و (التاء) للتأنيث، والفاعل هي (الفاء رابطة لجواب شرط مقدّر (ذلكنّ) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ، و (اللام) للبعد و (كنّ) حرف خطاب جمع الإناث (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر المبتدأ (لمتنّ) فعل ماض مبنيّ على السكون.. و (تنّ) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (النون) نون الوقاية (الياء) ضمير مفعول به (في) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (لمتنّ) على حذف مضاف أي في حبّه " 1 "، (الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (راودت) فعل ماض مبنيّ على السكون.. و (التاء) فاعل و (الهاء) ضمير مفعول به (عن نفسه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (راودته).. و (الهاء) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (استعصم) فعل ماض والفاعل هو (الواو) استئنافيّة (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (لم) حرف نفي (يفعل) مضارع مجزوم فعل الشرط، والفاعل هو (ما) اسم موصول مبنيّ في

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من مفعول لمتنّ، أي لمتنّني مغرمة في حبّه.

محلّ نصب مفعول به (آمره) مضارع مرفوع، و (الهاء) مفعول به، والفاعل أنا (اللام) لام القسم (يسجننّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . .

و(النون) نون التوكيد وهو مبنيّ للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الواو) عاطفة (ليكوننّ) لام القسم ومضارع ناقص مثل يسجننّ في البناء، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (من الصاغرين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر يكونن.

جملة: "قالت" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ذلكنّ الذي" في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كنتنّ قد لمتنني فذلك الذي لمتنني فيه . . وجملة الشرط والجواب في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "لمتنّني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: "راودته" لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم استئنافيّة لا محلّ لها.

(358/398)

وجملة: "استعصم" لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم.

وجملة: "إن لم يفعل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "آمره" لا محلّ لها صلة الموصول (ما)، والعائد محذوف.

وجملة: "يسجننّ" لا محلّ لها جواب القسم.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

وجملة: "يكونن من الصاغرين" لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم.

الصرف:

(لمتنّ)، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون فهو فعل معتل أجوف حذفت عينه لذلك، وزنه فلتنّ.

البلاغة

الحذف: في قوله تعالى "فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ" والتقدير في حبه، لأن الذوات لا يتعلق بها لوم. ودليل تقدير في حبه قوله "قَدْ شَغَفَها حُبًّا" في مراودته، ولعلها أولى بدليل قوله: "تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ". وإنما قلنا أولى لأنه فعلها، بخلاف الحب، فإنه أمر قهري لا يلام عليه إلا من حيث تعاطي أسبابه، أما المراودة فهي حاصلة باكتسابها، فهي قادرة على دفعها، فيتأتى اللوم عليها، بخلاف الحب، فإنه ليس فعلا لها، ولا تقدر على دفعه، لأن الحب المفرط قد يقهر صاحبه ولا يطيق أن يدفعه، وحينئذ فلا يلام عليه. وعلى كل حال فهو من أسبابه.

[سورة يوسف (12): الآيات 33 إلى 35]

قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ (33) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35)

الإعراب:

(359/398)

(قال) فعل ماض، والفاعل هو أي يوسف (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف.. و (الياء) المحذوفة مضاف إليه (السجن) مبتدأ مرفوع (أحبّ) خبر مرفوع (إلى) حرف جرّ و (الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بأحبّ (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بأحبّ، (يدعون) مضارع مبنيّ على السكون.. و (النون) نون النسوة فاعل و (النون) الثانية للوقاية و (الياء) مفعول به (إليه) مثل إليّ متعلّق بـ (يدعون)، (الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (لا) حرف نفي (تصرف) مضارع مجزوم فعل الشرط (عنّي) مثل إليّ متعلّق بـ (تصرف)،

(كيدهنّ) مفعول به منصوب.. و (هنّ) ضمير مضاف إليه (أصب) مضارع مجزوم

جواب الشرط ، وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل أنا (إليهنّ) مثل إليّ متعلّق بـ (أصب) ، (الواو) عاطفة (أكن) مضارع ناقص مجزوم معطوف على (أصب) ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنا (من الجاهلين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر أكن .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء : " ربّ . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " السجن أحبّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يدعونني إليه " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إلّا تصرف عنّي . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول .

وجملة : " أصب إليهنّ . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " أكن من الجاهلين " لا محلّ لها جواب معطوفة على جملة أصب .

(الفاء) عاطفة (استجاب) فعل ماض (اللام) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق به (استجاب) ، (ربّه) فاعل مرفوع . . و (الهاء) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (صرف) مثل استجاب ، والفاعل هو (عنه) مثل له متعلّق بـ (صرف) ، (كيدهنّ) مثل

الأول (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (هو) ضمير فصل " 1 " ، (السميع) خبر إنّ مرفوع (العليم) خبر ثان مرفوع.

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره (السميع)، والجملة الاسميّة خبر إنّ. [. . . . .]

وجملة: "استجاب له ربّه . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة قال.

وجملة: "صرف عنه . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة استجاب . .

وجملة: "إنّه . . السميع . . . "لا محلّ لها تعليليّة.

(ثمّ) حرف عطف (بدا) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف، والفاعل محذوف دلّ عليه الكلام المتقدّم في قوله (السجن أحبّ)، والتقدير: بدا لهم أن يسجنوه " 1 " . . ، (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (بدا)، (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بدا)، (ما) حرف مصدريّ (رأوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . والواو فاعل (الآيات) مفعول به منصوب، وعلامة النصب الكسرة.

والمصدر المؤوّل (ما رأوا . .) في محلّ جرّ مضاف إليه.

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (يسجننّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون وقد حذفت لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين – الواو والنون من الأولى المشدّدة – فاعل . . و (النون) المشدّدة نون التوكيد ، و (الهاء) ضمير مفعول به (حتّى) حرف جرّ (حين) مجرور بحرف الجرّ متعلّق بـ (يسجننّه) .

وجملة : " بدا لهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صرف . .

وجملة : " رأوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يسجننّه " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم وجوابها في محلّ نصب معمولة لقول مقدّر هو حال من ضمير الغائب في

---

(1) يجوز أن يكون الفاعل هو مصدر الفعل بدا أي : بدا لهم بداء ، كما يقال : بدا لي رأي .

(362/398)

لهم أي : بدا لهم أن يسجنوه قائلين والله ليسجننّه حتّى حين " 1 " .

الصرف :

(السجن) ، اسم جامد للمكان المخصّص لحجر الحرّيّة ، وزنه فعل بكسر فسكون . .

وبفتح السين هو مصدر .

(أصب) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، أصله أصبو ، وزنه أفع .

الفوائد

هل تقع الجملة فاعلا أو نائب فاعل أو مبتدأ ؟ هذا مثار خلاف بين النحاة . وسنورد ما ذكره ابن هشام في المغني بهذا الصدد .

قوله تعالى ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ فجملة ليسجننه ، قيل : هي مفسرة للضمير في بدا الراجع إلى البداء المفهوم منه ، والتقدير ثم بداء لهم البداء سجنه . والتحقيق أنها جواب لقسم مقدر ، وأن القسم المقدر مع جوابه هو الجملة المفسرة . وقال الكوفيون الجملة (ليسجننه) فاعل ، ثم قال هشام وثعلب وجماعة : يجوز ذلك في كل جملة ، وقال الفراء وجماعة : جوازه مشروط بكون الجملة السابقة فعلها قلبي ، وأن تقترن الجملة الواقعة فاعلا بأداة معلقة ، نحو : ظهر لي أقام زيد ، وعلم هل قعد عمرو ، ويقول ابن هشام تعليقا على ذلك : وبعد فعندي أن المسألة صحيحة ، ولكن مع الاستفهام خاصة دون سائر المعلقات . وفي قوله تعالى وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ زعم ابن عصفور أن البصريين يقدرون نائب الفاعل في قيل ضمير المصدر ، أي وإذا قيل لهم قول وجملة لا تفسدوا مفسرة لذلك الضمير ، والصواب أن النائب عن الفاعل هي الجملة (لا تفسدوا) لأنها كانت قبل حذف الفاعل منصوبة بالقول ، فكيف انقلبت مفسرة ؟

والمفعول به هو الذي ينوب عن الفاعل ؟ وقولهم " الجملة لا تكون فاعلا ولا نائبا عنه "

جوابه أن التي يراد بها لفظها يحكم لها بحكم المفردات ، ولهذا تقع في محل رفع مبتدأ أيضا

---

(1) يجوز أن تكون جملة القسم وجوابه تفسيرا لما قبلها ، لا محلّ لها .

في قوله عليه الصلاة والسلام : " لا حول ولا قوة إلا باللّه كنز من كنوز الجنة " وفي المثل "

زعموا مطية الكذب " فجملة (لا حول ولا قوة إلا با للّه) في محل رفع مبتدأ .

ومن هنا لم يحتج الخبر إلى رابط في نحو " قولي لا إله إلا اللّه " .

[سورة يوسف (12) : آية 36]

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ

فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (دخل) فعل ماض (معه) ظرف منصوب متعلّق بـ (دخل) . . و (الهاء) ضمير مضاف إليه (السجن) مفعول به منصوب (فتيان) فاعل مرفوع، وعلامة الرفع الألف (قال) مثل دخل (أحدهما) فاعل مرفوع، و (هما) ضمير متّصل في محل جرّ مضاف إليه (إنّي أراني) مثل إنّا لنراها " 1 "، و (النون) للوقاية، والفاعل أنا (أعصر) مضارع مرفوع، والفاعل أنا (خمرا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (قال الآخر . . .

أحمل) مثل المتقدّمة (فوق) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (أحمل) " 2 "، (رأسي) مضاف إليه مجرور، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء، و (الياء) مضاف إليه (خبزا) مفعول به منصوب (تأكل) مضارع مرفوع (الطير) فاعل مرفوع (من) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (تأكل)، (نبّئنا) فعل أمر . . و (نا) ضمير مفعول به، والفاعل أنت (بتأويله) جارّ ومجرور ومضاف إليه متعلّق بـ (نبّئ)، (إنّا نراك من المحسنين) مثل إنّا لنراها في ضلال " 3 "، وعلامة الجرّ الياء.

(1، 3) في الآية (30) من هذه السورة.

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من (خبزا).

وجملة: " دخل . . فتيان " لا محلّ لها معطوفة على محذوف مستأنف أي فسجن يوسف ومعه دخل السجن فتيان . .

جملة: " قال أحدهما . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " إنّي أراني . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أراني أعصر . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " أعصر خمرا " في محلّ نصب حال " 1 " .

وجملة: " قال الآخر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال أحدهما.

(366/398)

وجملة: " إنّي أراني . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أراني أحمل . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " أحمل . . خبزا " في محلّ نصب حال - أو مفعول به ثان - وجملة: " تأكل الطير منه " في محلّ نصب نعت لـ (خبزا) .

وجملة: " نبّئنا بتأويله " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول.

وجملة: " إنّا نراك . . . " لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف بيانيّ - وجملة: " نراك من

المحسنين " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(خبزا) ، اسم جامد ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً " أي عنبا . والعلاقة ما يؤول إليه ، فقد سمى العنب خمرا لأنه يؤول إلى الخمر لكونه المقصود من العصر . وقيل الخمر هو العنب حقيقة بلغة عمان . وفي قراءة ابن مسعود أعصر عنبا .

---

(1) أجاز بعضهم أن تكون الجملة مفعولا ثانيا لأن الرؤية هي من نوع الرؤية القلبيّة .

[سورة يوسف (12) : الآيات 37 إلى 38]

قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (38)

الإعراب :

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي يوسف (لا) حرف نفي (يأتيكما) مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و (كما) ضمير مفعول به (طعام) فاعل مرفوع (ترزقانه) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون و (الألف) ضمير نائب الفاعل ، و (الهاء) مفعول به (إلّا) أداة حصر (نبأت) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (التاء) فاعل و (كما) ضمير مثل الأول (بتأويله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نبّأت) . . و(الهاء) مضاف إليه (قبل) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (نبّأت) ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (يأتيكما) مضارع منصوب . . و (كما) مثل الأول ، والفاعل هو أي طعام . والمصدر المؤوّل (أن يأتيكما) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب و (ما) حرف للتثنية (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بخبر المبتدأ ، والعائد محذوف أي علّمني إيّاه ربّي (علّمني) فعل ماض و (النون) للوقاية ، و (الياء) مفعول به (ربّي) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (إنّ)

حرف مشبه بالفعل ـ ناسخ . و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (تركت) مثل نبّأت (ملّة) مفعول به منصوب (قوم) مضاف إليه مجرور (لا) مثل الأول (يؤمنون) مضارع مرفوع

.. والواو فاعل (بالّله) جارّ ومجرور متعلّق بفعل يؤمنون (الواو) عاطفة (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (بالآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كافرون) ، (هم) مثل الأول وتأكيد له (كافرون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : "قال ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة : "لا يأتيكما طعام ... " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ترزقانه ... " في محلّ رفع نعت لطعام .

وجملة : " نبّأتكما " في محلّ رفع نعت ثان لطعام " 1 " .

وجملة : " يأتيكما " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ذلكما ممّا علّمني ... " لا محلّ لها استئناف بياني - أو تعليليّة - وجملة : " علّمني ربّي " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّي تركت ... " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تركت ملّة ... " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لا يؤمنون بالّله " في محلّ جرّ نعت لقوم .

وجملة : " هم .. كافرون " في محلّ جرّ معطوفة على جملة لا يؤمنون .

(الواو) عاطفة (اتّبعت ملّة آبائي) مثل تركت ملّة قوم ، وعلامة نصب

---

(1) أو في محلّ نصب حال من طعام لأنه موصوف بالجملة .

آباء الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (إبراهيم) بدل من آباء مجرور وعلامة الجرّ الفتحة ، ومثله (إسحاق ، يعقوب) معطوفين عليه بجر في العطف (ما) حرف نفي (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – (اللام) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر كان (أن نشرك) مثل أن يأتي ، والفاعل نحن (بالله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نشرك) ، (من) حرف جرّ زائد (شيء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به .

والمصدر المؤوّل (أن نشرك . .) في محلّ رفع اسم كان مؤخّر .

(ذلك من فضل . .) مثل ذلكما ممّا علّمني (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (على) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بفضل (الواو) عاطفة (على الناس) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به (علينا) لأنه معطوف عليه ، (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف مشبّه بالفعل للاستدراك (أكثر) اسم لكنّ منصوب (الناس) مضاف إليه مجرور (لا يشكرون) مثل لا يؤمنون .

وجملة : " اتّبعت . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة تركت .

وجملة : " ما كان لنا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة: "نشرك... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "ذلك من فضل اللّه.. "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: "لكنّ أكثر... "لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلك من فضل اللّه.

وجملة: "لا يشكرون" في محلّ رفع خبر لكنّ.

[سورة يوسف (12): آية 39]

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (39)

الإعراب:

(يا) أداة نداء (صاحبي) منادى مضاف منصوب، وعلامة النصب الياء (السجن) مضاف إليه مجرور (الهمزة) للاستفهام (أرباب) مبتدأ مرفوع (متفرّقون) نعت لأرباب مرفوع، وعلامة الرفع الواو (خير) خبر مرفوع (أم) حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام (اللّه) معطوف على أرباب مرفوع (الواحد) نعت للفظ الجلالة (القهّار) نعت ثان مرفوع.

جملة النداء: "يا صاحبي... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أأرباب.. خير" لا محلّ لها جواب النداء.

الصرف :

(متفرّقون) ، جمع متفرّق اسم فاعل من تفرّق الخماسيّ ، وزنه متفعّل بضمّ الميم وكسر العين.

(القهّار) ، من صيغ المبالغة ، وزنه فعّال من قهر الثلاثيّ .

[سورة يوسف (12) : آية 40]

ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (40)

الإعراب :

(ما) نافية (تعبدون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل (من دونه) جارّ ومجرور متعلّق بحال من أسماء .

و(الهاء) مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (أسماء) مفعول به منصوب (سمّيتموها) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (تم) ضمير فاعل و (الواو) زائدة بتباع حركة الميم و (ها) ضمير مفعول به (أنتم) ضمير منفصل تأكيد للمتّصل فاعل الفعل في محلّ رفع (الواو) عاطفة (آباؤكم) معطوف على ضمير

تعبدوا .

والمصدر المؤوّل (ألّا تعبدوا . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أمر وهو المفعول الثاني ، أمّا

الأول محذوف أي: أمر الناس عدم عبادة إله غير اللّه . . أو عبادة الله .

(ذلك) اسم إشارة مبتدأ ، والإشارة إلى التوحيد (الدين) خبر مرفوع (القيّم) نعت للدين

مرفوع (الواو) عاطفة (لكنّ . . . لا يعلمون) مثل لكنّ . . . يشكرون " 2 " .

جملة : " ما تعبدون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سمّيتموها " في محلّ نصب نعت لأسماء .

وجملة : " ما أنزل اللّه بها من سلطان " في محلّ نصب نعت ثان لأسماء " 3 " .

وجملة : " إن الحكم إلّا للّه " لا محلّ لها استئنافيّة تعليل لما سبق .

وجملة : " أمر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة تعليل آخر .

(1 ، 2) في الآية (38) من هذه السورة .

(3) أو في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في (سمّيتموها) .

الفاعل مرفوع . . و (كم) مضاف إليه (ما) كالأول (أنزل) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة

فاعل مرفوع (الباء) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل) على حذف

مضاف أي بعبادتها (من سلطان) مثل من شيء " 1 " (إن) حرف نفي (الحكم) مبتدأ

مرفوع (إلّا) مثل الأول (للّه) جارّ ومجرور خبر المبتدأ (أمر) فعل ماض، والفاعل هو (أن) حرف مصدريّ ونصب (لا) نافية (تعبدوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون.. والواو فاعل (إلّا) مثل الأول (إيّاه) ضمير منفصل في محلّ نصب مفعول به عامله

وجملة: " ذلك الدين... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لكنّ أكثر... " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلك الدين.

وجملة: " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر لكنّ.

[سورة يوسف (12) : آية 41]

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (41)

الإعراب:

(يا صاحبي السجن) مرّ إعرابها " 1 "، (أمّا) حرف شرط وتفصيل (أحدكما) مبتدأ مرفوع.. و (كما) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط " 2 "، (يسقي) مضارع مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، والفاعل هو (ربّه) مفعول

به منصوب ، و (الهاء) مضاف إليه (خمرا) مفعول به ثان " 3 " منصوب (الواو) عاطفة (أمّا الآخر) مثل أما أحدكما (الفاء) رابطة (يصلب) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الفاء) عاطفة (تأكل) مضارع مرفوع (الطير) فاعل مرفوع (من رأسه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تأكل) ، و (الهاء) مضاف إليه (قضي) فعل ماض مبنيّ للمجهول (الأمر) نائب الفاعل مرفوع (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نعت للأمر (في) حرف جرّ

---

(1) في الآية (39) من هذه السورة.

(2) هذه الفاء تأخّرت من تقديم والأصل: مهما يكن من أمر فأحدكما يسقي.

(3) جاء في لسان العرب: سقاه اللّه الغيث وأسقاه.. ويقال: سقيته لشفته وأسقيته لدابّته وأرضه.. سيبويه: سقاه وأسقاه جعل له ماء أو سقيا - بكسر السين - فسقاه ككساه، وأسقى كألبس. أبو الحسن يذهب إلى التسوية بين فعلت وأفعلت، وأن (أفعلت) غير منقولة من فعلت بضرب من المعاني كنقل أدخلت " ه فالفعل متعدّ لاثنين كما ترى.

و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تستفتيان) وهو مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون. . و (الألف) فاعل.

جملة النداء: "يا صاحبي. . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أحدكما فيسقي. . . "لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "يسقي. . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (أحدكما).

وجملة: "الآخر فيصلب. . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء.

وجملة: "يصلب. . "في محل رفع خبر المبتدأ (الآخر).

وجملة: "تأكل الطير. . . "في محلّ رفع معطوفة على جملة يصلب.

(373/398)

وجملة: "قضي الأمر. . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "تستفتيان "لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

[سورة يوسف (12) : آية 42]

وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ

بِضْعَ سِنِينَ (42)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي يوسف (اللام) حرف جرّ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (قال) ، (ظنّ) فعل ماض ، والفاعل هو أي يوسف (أنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و (الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (ناج) خبر أنّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة للتنوين ، فهو اسم منقوص (من) حرف جرّ و (هما) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من الضمير في ناج (اذكرني) فعل أمر ، و (النون) للوقاية و (الياء) مفعول به ،

والفاعل أنت (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (اذكر) ، (ربّك) مضاف إليه مجرور . . و (الكاف) مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أنّه ناج . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّ .

(الفاء) عاطفة (أنساه) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف . . و (الهاء) مفعول به (الشيطان) فاعل مرفوع (ذكر) مفعول به ثان منصوب (ربّه) مثل ربّك (الفاء) عاطفة (لبث) مثل قال (في السجن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (لبث) ، (بضع) ظرف زمان منصوب نائب عن الظرف الصريح متعلّق بـ (لبث) ، (سنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكر .

جملة: "قال ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ظنّ ... "لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: "اذكرني ... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "أنساه الشيطان "لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي فخرج فأنساه" 1 " ...

وجملة: "لبث ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة أنساه الشيطان.

الصرف:

(ناج)، اسم فاعل من نجا الثلاثيّ، وزنه فاعل، وفيه إعلال بالحذف فهو اسم منقوص حذف حرف العلّة لمناسبة التنوين، وحرف العلّة قبل الحذف ياء منقلبة عن واو، وأصله الناجو - بكسر الجيم - قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها.. ثمّ حذفت الياء للتنوين.

---

(1) وإذا كان الضمير الغائب في (أنساه) يعود على يوسف، فإنّ الجملة استئنافيّة لا محلّ لها.

(بضع)، كناية عن عدد يتراوح بين الثلاثة والتسعة، ويكون مذكّرا مع المؤنّث وبالعكس، مفردا ومركّبا ومعطوفا عليه، وزنه فعل بكسر فسكون.

الفوائد

التعليق والإلغاء في أفعال القلوب :

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا فنقول الفعل ظن يتعدى إلى مفعولين ، وقد علق عن العمل ولم يظهر مفعولاه . ولكن المصدر المؤوّل من أن واسمها وخبرها (أنه ناج) سد مسد المفعولين . وسنوضح هذه القاعدة لأهميتها ودقتها :

التعليق إبطال عمل أفعال القلوب لفظا لا محلا ، وذلك لقيام مانع يمنعها من عملها ، فتكون الجملة في محل نصب تسد مسد مفعول أو أكثر ، وهذه مواضع التعليق :

1 - أن يلي الفعل ما له الصدارة ، وهو هنا الاستفهام ، أو لام الابتداء ، أو لام القسم .

مثل : علمت أين أخوك ، قلت لعليّ أحبّ إليّ ، ولقد علمت لتأتينّ منيتي .

2 - أن يليه إحدى الأدوات النافية مثل : وجدت لا المدّعي صادق ولا المدّعى عليه .

فالجمل في جميع الأمثلة السابقة سدت مسد المفعولات .

وأما الإلغاء فإبطال العمل لفظا ومحلا . وذلك جائز حين يتوسط الفعل بين مفعولين أو يتأخر عنهما . مثل : خالدا ظننت مسافرا أو خالد ظننت مسافر ، خالدا مسافرا ظننت أو خالد مسافر ظننت ، فإذا توسط الفعل فالإلغاء والإعمال سواء ، أما إذا تأخر الفعل فالإلغاء أحسن .

[سورة يوسف (12) : آية 43]

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قال الملك إنيّ أرى) مثل قال أحدهما إنّي أراني " 1 " ، (سبع) مفعول به منصوب (بقرات) مضاف إليه مجرور (سمان) نعت لبقرات مجرور (يأكلهنّ) مضارع مرفوع . . و (هنّ) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به (سبع) فاعل مرفوع (عجاف) نعت لسبع مرفوع (الواو) عاطفة (سبع سنبلات) مثل سبع بقرات فهو معطوف عليه (خضر) نعت لسنبلات مجرور (الواو) عاطفة (أخر) معطوف على سبع سنبلات منصوب ، ومنع من التنوين لأنه نعت معدول عن لفظ آخر " 2 " ، (يابسات) نعت لأخر " 3 " ، (يا) أداة نداء (أيّ) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب و (ها) حرف تنبيه (الملأ) بدل من أي - أو عطف بيان - تبعه في الرفع لفظا (أفتوني) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل ، و (النون) للوقاية ، والياء مفعول به (في رؤياي) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أفتوا) على حذف مضاف أي في تفسير رؤياي . .

علامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف ، و (الياء) مضاف إليه (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و (تم) ضمير اسم كان (اللام) زائدة للتقوية (الرؤيا) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به مقدّم ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة (تعبرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " قال الملك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) في الآية (36) من هذه السورة .

(2) عدل عن (آخر) بفتح الخاء وهو مفرد مذكّر إلى الجمع (أخر) - أي جمع أخرى - خلافا للقياس لأن اسم التفضيل إذا لم يكن مضافا ولا محلّى بـ (ال) وجب أن يبقى مفردا مذكّرا . [. . . . . .]

(3) وهو صفة نابت عن موصوف أي : سنبلات أخر يابسات .

وجملة : " إنّي أرى . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أرى . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يأكلهنّ " في محلّ جرّ نعت لبقرات " 1 " وجملة النداء : " يأيّها الملأ " لا محلّ لها

استئنافيّة.

وجملة: "أفتوني... "لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "كنتم.. تعبرون" لا محلّ لها استئنافيّة.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي إن كنتم.. فأفتوني.

وجملة: "تعبرون" في محلّ نصب خبر كنتم.

الصرف:

(سمان)، جمع سمينة مؤنّث سمين، صفة مشبّهة من فعل سمن يسمن باب فرح، وزنه فعيل، ووزن سمان فعال بكسر الفاء.

(عجاف)، جمع عجفاء مؤنّث أعجف، صفة مشبّهة من عجف يعجف باب فرح وباب كرم، وزنه أفعل والمؤنّث فعلاء، والجمع فعال بكسر الفاء. وقد يكون عجاف جمعا لعجفة مؤنّث عجف زنة فعل بفتح الفاء وكسر العين، أي ضعيف هزيل.

(خضر)، جمع خضراء مؤنّث أخضر، صفة مشبّهة من خضر يخضر باب فرح وزنه أفعل والمؤنّث فعلاء والجمع فعل بضم الفاء وسكون العين.

(أفتوني)، فيه إعلال بالحذف، أصله أفتيوني بضمّ الياء قبل الواو، ثمّ سكّنت ونقلت الضمّة إلى التاء قبلها، ثمّ حذفت الياء لالتقاء

---

(1) أو في محلّ نصب نعت لسبع . . ويجوز أن تكون الجملة في محلّ نصب حال من سبع أو من بقرات لأنها وصفت وبعضهم يجعل الرؤيا في المنام قلبيّة ، فالجملة مفعول به ثان .

(377/398)

الساكنين ، وزنه أفعوني .

الفوائد

- عقد بعض النحاة فصلا ضمنه خصائص كان من بين سائر أخواتها فوجدها ستة أشياء :

أ- أنها قد تأتي زائدة وتكون زيادتها بشرطين :

أولا : أن تكون بلفظ الماضي وشذت زيادتها بلفظ المضارع .

ثانيا : أن تكون بين شيئين متلازمين .

وأكثر ما تزاد بين " ما " وفعل التعجب نحو : ما " كان " أعدل عمر ! " .

ب- انها تحذف هي واسمها ويبقى خبرها . وكثر ذلك بعد إن ولو الشرطيتين . نحو :

سر مسرعا إن راكبا وإن ماشيا .

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا فما اعتذارك من قول إذا قيلا

ج - قد تحذف وحدها ويبقى اسمها وخبرها كقول الشاعر :

أبا خراشة أمّا أنت ذا نفر

د - قد تحذف هي واسمها وخبرها جميعا ويعوض عن الجميع " ما " الزائدة وذلك بعد إن الشرطية ، نحو " افعل هذا إمّا لا . . ! " .

ه - قد تحذف هي واسمها وخبرها بلا عوض ، نحو :

قالت بنات الحي يا سلمى وإن كان فقيرا معدما قالت وإن

و - انه يجوز حذف نون المضارعة منها ، بشرط أن يكون مجزوما بالسكون ، وأن لا يكون بعده ساكن ولا ضمير متصل ، نحو قوله تعالى : " لَمْ أَكُ بَغِيًّا " وقول الشاعر :

فإن لم تك المرآة أبدت وسامة فقد أبدت المرأة جبهة ضيغم

[سورة يوسف (12) : الآيات 44 إلى 45]

قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (44) وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45)

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض وفاعله (أضغاث) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي أو هذه أو تلك (أحلام) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما (بتأويل) جارّ ومجرور متعلّق بعالمين (الأحلام) مضاف

إليه مجرور (الباء) حرف جرّ زائد (عالمين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (هي) أضغاث . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما نحن . . بعالمين " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

(378/398)

(الواو) عاطفة (قال) فعل ماض (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (نجا) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل هو وهو العائد (من) حرف جرّ و (هما) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من فاعل نجا (الواو) عاطفة (ادّكر) مثال قال (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (ادّكر) ، (أمّة) مضاف إليه مجرور (أنا) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أنبّئكم) مضارع مرفوع . . و (كم) ضمير مفعول به ، والفاعل أنا ضمير مستتر (بتأويله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنبّئكم) . .

و (الهاء) مضاف إليه (الفاء) عاطفة لربط المسبب بالسبب " 1 " ، (أرسلون) فعل أمر مبنيّ على حذف النون والواو فاعل ، و (النون) للوقاية و (الياء) المحذوفة للتخفيف وفاصلة الآية ضمير مفعول به .

وجملة: " قال الذي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا . . .

وجملة: " نجا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة: " ادّكر . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: " أنا أنبّئكم . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أنبّئكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنا) .

وجملة: " أرسلون " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي:

تهيّؤوا فأرسلون.

الصرف:

(أضغاث) ، جمع ضغث، اسم لما اختلط من النبات - أصلا - كالحزمة من الحشيش فاستعير للرؤيا الكاذبة، وزنه فعل بكسر فسكون، ووزن أضغاث أفعال.

(أحلام) ، جمع حلم اسم للرؤيا ، وزنه فعل بضمّ فسكون، ووزن أحلام أفعال.

(عالمين) ، جمع عالم، اسم فاعل من علم الثلاثيّ، وزنه فاعل.

(نجا) ، فيه إعلال بالقلب، أصله نجو، مضارعه ينجو، فلمّا تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا .

(ادّكر) ، فيه إبدالان، الأول إبدال التاء دالا ، أصله اذتكر على وزن افتعل - مجرّدة ذكر - تقلب تاء الافتعال دالا بعد الذال، ثمّ قلبت الذال

(1) أو رابطة لجواب شرط مقدّر أي: إن أردتم تفسير الرؤيا فأرسلون.

(379/398)

دالا لاقتراب المخرجين، ثمّ أدغمت الدالان فأصبح ادّكر.

(أمّة)، بضمّ الهمزة وتشديد الميم وتاء منونة، ومعناها المدة أو الحين، وسمّي الحين أمّة لأنه جماعة أيام لأن الأمة في الأصل الجماعة.

البلاغة

1 - المبالغة: في قوله تعالى "أَضْغاثُ أَحْلامٍ" فقد جمعوا الضغث، فقالوا أضغاث أحلام. وجعلوه خيرا للرؤيا، مع أنها واحدة، للمبالغة في وصف الحلم بالبطلان، وهو كما تقول: فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخز، لمن لا يركب إلا فرسا واحدا وماله إلا عمامة فردة.

2 - نفي الشيء بإيجابه: في قوله تعالى "قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ".

فقد أراد البارئ جل وعلا نفي الأحلام الباطلة خاصة، كأنهم قالوا:

ولا تأويل للأحلام الباطلة فنكون به عالمين. وقول الملك لهم أولا (إن كنتم للرؤيا تعبرون) للتدليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها، لأنه أتى بكلمة "إن" التي تفيد التشكيك

رجاء اعترافهم بالقصور مطابقا لشك الملك الذي أخرجه مخرج الاستفهام عن كونهم عالمين بالرؤيا أولا ، وقول الفتى أنا أنبئكم بتأويله إلى قوله لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون دليل على ذلك أيضا والله أعلم .

[سورة يوسف (12) : آية 46]

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)

الإعراب :

(يوسف) منادى مفرد علم حذف منه أداة النداء ، مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (أيّ) بدل من يوسف مبنيّ على الضمّ في

محلّ نصب " 1 " ، (ها) حرف تنبيه (الصدّيق) نعت لأي - أو عطف بيان - تبعه في الرفع لفظا (أفتنا) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة . . و (نا) ضمير مفعول به ، والفاعل أنت (في سبع) جارّ ومجرور متعلّق ب (أفت) على حذف مضاف أي في رؤيا سبع . . (بقرات) مضاف إليه مجرور (سمان) نعت لبقرات مجرور - أو لسبع - (يأكلهنّ سبع

عجاف) مرّ إعرابها " 2 " ، (الواو) عاطفة (سبع سنبلات . . . يابسات) مرّ إعرابها " 3 " ، (لعلّي) حرف مشبّه بالفعل للترجي - ناسخ - و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (أرجع) مضارع مرفوع ، والفاعل أنا (إلى الناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أرجع) ، (لعلّهم) مثل لعلّي (يعلمون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة النداء : " يوسف . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أفتنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " يأكلهنّ سبع . . . " في محلّ جرّ نعت لبقرات أو لسبع " 4 " .

وجملة : " لعلّي أرجع . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أرجع . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

وجملة : " لعلّهم يعلمون " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يعلمون " في محلّ رفع خبر لعلّهم .

الصرف :

(الصدّيق) ، انظر الآية (75) من سورة المائدة .

(أفتنا) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء . . مضارعه يفتي بضمّ الياء الأولى ، وزنه أفعنا .

---

(1) أو هي منادى لأداة نداء ثانية محذوفة .

(2، 3) في الآية (43) من هذه السورة.

(4) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال، لأن النكرة وصفت.

(381/398)

[سورة يوسف (12) : الآيات 47 إلى 49]

قال تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)

الإعراب:

(قال) فعل ماض، والفاعل هو أي يوسف (تزرعون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون.. والواو فاعل (سبع) ظرف زمان منصوب ناب عن الظرف الأصليّ متعلّق بـ (تزرعون)، (سنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (دأبا) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب " 1 "، (الفاء) عاطفة (ما) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (حصدتم) فعل ماض مبنيّ على السكون.. و (تم) ضمير فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ذروة) فعل أمر مبنيّ على حذف النون..

والواو فاعل ، و (الهاء) ضمير مفعول به (في سنبلة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ذروة) ، و (الهاء) مضاف إليه (إلّا) أداة استثناء (قليلا) منصوب على الاستثناء من الهاء في (ذروة) ، (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بنعت لـ (قليلا) ، (تأكلون) مثل تزرعون .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تزرعون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " حصدتم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تزرعون .

وجملة : " ذروة . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

---

(1) أو مصدر في موضع الحال أي دائبين ، أو ذوي دأب .

وجملة : " تأكلون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد محذوف .

(ثمّ) حرف عطف (يأتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدّرة على الياء (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأتي) ، (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه . . و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (سبع) فاعل يأتي مرفوع (شداد) نعت لسبع مرفوع

(يأكلن) مضارع مبنيّ على السكون . . و (النون) ضمير في محلّ رفع فاعل (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (قدّمتم) فعل ماض مثل حصدتم (اللام) حرف جرّ و (هنّ) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بفعل قدّمتم " 1 " ، (إلّا قليلاممّا تحصنون) مثل إلّا قليلاممّا تأكلون .

وجملة : " يأتي . . سبع " في محلّ نصب معطوفة على جملة تزرعون .

وجملة : " يأكلن . . . " في محلّ رفع نعت لسبع " 2 " .

وجملة : " قدّمتم لهنّ " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تحصنون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

(ثم يأتي . . عام) مثل ثمّ يأتي . . . سبع (في) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يغاث) وهو مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع (الناس) نائب الفاعل مرفوع (الواو) عاطفة (فيه) مثل الأول متعلّق بـ (يعصرون) وهو مثل تزرعون .

وجملة : " يأتي . . عام " في محلّ نصب معطوفة على جملة يأتي سبع .

وجملة : " يغاث الناس " في محلّ رفع نعت لعام .

---

(1) أي ما قدم للناس فيهنّ ، فالتعبير على هذا مجازيّ .

(2) أو في محلّ نصب حال من سبع لأنه وصف .

وجملة : " يعصرون " في محلّ رفع معطوفة على جملة يغاث .

الصرف :

(دأبا) ، مصدر سماعي للثلاثي دأب ، وزنه فعل بفتحتين وثمة مصدر آخر بفتح فسكون .

(شداد) ، جمع شديد ، صفة مشبّهة ، وزنه فعيل ، ووزن شداد فعال . . وثمة جمع آخر هو أشدّاء وكذلك شدود بضمّ الشين .

(يغاث) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله يغيث بضمّ الياء الأولى وفتح الثانية ، إذ المضارع المعلوم يغيث " 1 " فلمّا أصبح مجهولا وتحرّكت الياء ثقلت الحركة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى الغين ، ثمّ قلبت الياء ألفا لانفتاح ما قبلها فأصبح يغاث .

الفوائد

- القرآن كلام اللّه عز وجل :

ورد في هذه الآية قوله تعالى فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ في هذه الآية لفتة علمية ، وهي أن الحصيد إذا بقي في سنبله فإنه يبقى مصونا من السوس والتلف وقد ثبت ذلك بالخبرة والعلم ، ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم لم يكن مزارعا وليست لديه خبرة كهذه

الخبرة، مما يثبت قطعا بأن هذا القرآن ليس من عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم بل هو من عند اللّه عز وجل. وفي القرآن الكريم لفتات كثيرة من هذا القبيل، سنوردها في مواضعها إن شاء اللّه تعالى.

[سورة يوسف (12) : آية 50]

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50)

الإعراب

- (الواو) استئنافيّة (قال الملك) فعل وفاعل (ائتوا) فعل

---

(1) وقد يكون اللفظ من الغوث أي يغوث.

أمر مبنيّ على حذف النون... والواو فاعل و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب (ائتوني)، (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب قال (جاءه) فعل ماض.. و (الهاء) مفعول به (الرسول) فاعل مرفوع (قال) مثل جاء، والفاعل هو أي يوسف (ارجع)

فعل أمر ، والفاعل أنت (إلى ربّك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ارجع) . . و (الكاف) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (اسأله) فعل أمر ومفعول به . . والفاعل أنت (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (بال) خبر مرفوع (النسوة) مضاف إليه مجرور (اللاتي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت للنسوة (قطّعن) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (النون) فاعل (أيديهنّ) مفعول به منصوب . . و (هنّ) ضمير مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (ربّي) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . .

و(الياء) مضاف إليه (بكيد) جارّ ومجرور متعلّق بعليم و (هنّ) مثل الأول (عليم) خبر إنّ مرفوع.

وجملة : " قال الملك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " ائتوني به . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " لمّا جاءه . . . قال " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال الملك.

وجملة : " جاءه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة : " ارجع . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " اسأله . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول الثاني.

وجملة : " ما بال . . . " لا محلّ لها تفسير للسؤال " 1 " .

وجملة: "قطّعن... "لا محلّ لها صلة الموصول (اللاتي).

وجملة: "إن ربّي... عليم" لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(بال) اسم بمعنى الحال والعيش والشأن، وقد يأتي بمعنى القلب، والألف منقلبة عن واو.

انتهى المجلد السادس

---

(1) لأن سأل بمعنى القول دون حروفه.. أو هي استئناف بيانيّ.. أو هي مفعول به لفعل السؤال المعلّق بالاستفهام (ما).

الجزء الثالث عشر

بقية سورة يوسف

من الآية 51 - إلى الآية 111

[سورة يوسف (12): آية 51]

قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ

امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51)

الإعراب

- (قال) فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الملك (ما خطبكنّ) مثل ما بال النسوة " 1 " (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بخطب (راودتنّ) فعل ماض مبنيّ على السكون.

و(تنّ) ضمير في محلّ رفع فاعل (يوسف) مفعول به منصوب، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (عن نفسه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (راود) و (الهاء) مضاف إليه (قلن) مثل قطّعن " 2 "، (حاش للّه) مرّ إعرابها " 3 "، (ما) نافية

(1، 2) في الآية السابقة (50).

(3) في الآية (31) من هذه السورة.. ووجه إعراب (حاش) مفعولا مطلقا بمعنى تنزيها للّه هنا هو أولى من كونه فعلا.

(علمنا) فعل ماض وفاعله (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ

(علمنا) بتضمينه معنى أخذنا (من) حرف جرّ زائد (سوء) مجرور لفظا منصوب محلّا

مفعول به (قالت) فعل ماض . . و (التاء) تاء التأنيث (امرأة) فاعل مرفوع (العزيز) مضاف إليه مجرور (الآن) ظرف زمان مبنيّ على الفتح في محلّ منصب متعلّق بـ (حصحص) وهو فعل ماض (الحقّ) فاعل مرفوع (أنا) ضمير منفصل مبتدأ (راودته عن نفسه) مثل راودتنّ يوسف عن نفسه (الواو) عاطفة (إنّه) حرف مشبّه بالفعل واسمه ، (اللام) المزحلقة (من الصادقين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر (إنّ) ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما خطبكنّ . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " راودتنّ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قلن . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " حاش للّه " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائية .

وجملة : " ما علمنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قالت امرأة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " حصحص الحقّ " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنا راودته . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليل لما سبق .

وجملة : " راودته . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنا) .

وجملة : " إنّه لمن الصادقين " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنا راودته . . .

الصرف :

(خطب) ، اسم بمعنى الشأن ، وفيه معنى الفعل في الآية أي : ما فعلتنّ وما أردتنّ به . .

ولهذا صح تعليق الظرف (الآن) به ، وزنه فعل بفتح فسكون .

الفوائد

1 - الآن حصحص الحق :

في الرباعي المضعّف مذهبان :

أ - الكوفيون يرون أن العرب يبدلون إذا توالت الأمثال في مثل : وسّس ، وحثّث ولبّب

الحرف الثاني من الأحرف المتماثلة بالحرف الأول من الفعل فيصبح وسوس ، وحثحث ،

ولبلب ، وهكذا .

ب - البصريون يرون أنهما لغتان : حصّص لغة ، وحصحص لغة أخرى وينكرون تبادل

الحروف إذا تباعدت مخارجها .

2 - الآن ظرف يدل على الزمن الحاضر . وهو مبني على الفتح . ولبنائه على الفتح

تعليلان :

أ- ذهب أبو العباس المبرد والزمخشري وغيرهما ، أن سبب بنائه على الفتح أنه جاء من أصله معرفا بالألف واللام فشبّه بالحرف وبني بناء الحروف .

ب - أما الفراء فقال : إن أصله من آن أو أنى ، وهما فعلان ماضيان ، فلما أدخلنا عليه الألف واللام بقي على بنائه على الفتح . فتدبّر واختر ألهمك الله الصواب .

[سورة يوسف (12) : آية 52]

ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (52)

الإعراب

- (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره قلت ، والمتكلّم هي امرأة العزيز و (اللام) للبعد ، و (الكاف)

للخطاب "

، (اللام) لام التعليل (يعلم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، والفاعل هو أي يوسف " 2 " والمصدر المؤوّل (أن يعلم) في محلّ جرّ متعلّق بالفعل المقدّر .

(أنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد - ناسخ - و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (لم) حرف نفي وجزم وقلب (أخنه) مضارع مجزوم و (الهاء) مفعول به ، والفاعل أنا (بالغيب) جارّ ومجرور حال من فاعل أخنه أو من مفعوله " 3 " .

والمصدر المؤوّل (أنى لم أخنه) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلم .

(الواو) حرف عطف (أنّ) مثل الأول (اللّه) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (لا) نافية (يهدي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، والفاعل هو (كيد) مفعول به منصوب (الخائنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء.

والمصدر المؤوّل (أنّ الله لا يهدي.. "في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأول.

جملة: " (قلت) ذلك... "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول السابق لامرأة العزيز " 4 "

.

---

(1) هذا اختيار أبي حيّان، وقد ردّ توجيهات المفسّرين الأخرى قال: ".. ومن ذهب إلى أن قوله (ذلك ليعلم..) من كلام يوسف يحتاج إلى تكلّف ربط بينه وبين ما قبله، ولا دليل يدلّ على أنه من كلام يوسف.. "أه. [......]

(2) أو هو عزيز مصر إن كان الكلام قد قاله يوسف على الرأي الآخر.

(3) أو هو ظرف محض متعلّق بـ (أخنه).

(4) أو هي في محلّ نصب مقول القول لفعل محذوف على التأويل الآخر، أي فقال يوسف: (طلبت) ذلك ليعلم... وجملة الفعل المحذوف معطوفة على جملة مستأنفة أي: فأخبر يوسف فقال....

وجملة : " يعلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " لم أخنه . . . " في محلّ رفع خبر أنّ (الأوّل) .

وجملة : " لا يهدي . . . " في محلّ رفع خبر أنّ (الثاني) .

الصرف :

(أخنه) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، أصله أخونه ، حذفت الواو لالتقائها ساكنة مع النون في حال الجزم ، وزنه أفله بضمّ الفاء وذلك للدلالة على نوع الحرف المحذوف .

الفوائد

1 - رجح البلاغيون أن يكون الكلام " ذِلكَ لِيَعْلَمَ . . . " من قول زليخا ، لأنه أقرب إلى المقام ، وأليق بمقام الغزل ، حيث يفدي المحب من يحب بنفسه ألا ترى أنه عند ما استحكمت المحنة ، وبلغت النهاية ، فدته بنفسها فقالت :

(الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) وتقربت إلى قلبه بقولها (ذِلكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) . ويثبت ذلك أيضا قولها للنسوة اللواتي سمعت بمكرهن : فَذِلكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ غير مكترثة لما فضحها به .

2 - قال صاحب (الانتصاف) : " الصحيح من مذاهب أهل السنة تنزيه الأنبياء عن الكبائر والصغائر جميعا ، وتتبع الآي المشعرة بوقوع الصغائر بالتأويل .

وذهب منهم طائفة مع القدرية إلى تجويز الصغائر عليهم، بشرط أن لا تكون منفرة، والصحيح عندنا في قصة يوسف عليه السلام أنه مبرأ عن الوقوع فيما يؤاخذ به، وإن الوقف عند قوله هَمَّتْ بِهِ ثم يبدأ وَهَمَّ بِها . لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كما تقول: قتلت زيدا لولا أنني أخاف الله، فلا يكون الهم واقعا لوجود المانع منه، وهو رؤية البرهان.

3 - إن وأخواتها حروف مشبّهة بالفعل، لوجود معنى الفعل في كل واحدة منها. فإن التأكيد والتّشبيه والاستدراك والتّمني والتّرجي من معاني الأفعال، والحروف هي: إنّ وأنّ للتّوكيد، لكنّ للاستدراك كأنّ للتّشبيه، ليت للتّمني لعلّ للتّرجي.

عملها: يدخل الحرف من هذه الحروف على المبتدأ والخبر فينصب الأول ويسمّى اسمها ويرفع الثاني ويسمّى خبرها.

[سورة يوسف (12) : آية 53]

وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (أبرّئ) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا

(نفسي) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء، و (الياء) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (النّفس) اسم إنّ منصوب (اللام) المزحلقة للتوكيد (أمّارة) خبر إنّ مرفوع (بالسوء) جارّ ومجرور متعلّق بأمّارة (إلّا) أداة استثناء (ما) اسم موصول في محلّ نصب على الاستثناء المتّصل " 1 "، (رحم) فعل ماض (ربّي) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء، و (الياء) مثل الأول (إنّ ربّي) مثل إنّ النفس (غفور) خبر إنّ مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: " ما أبرّئ . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 2 " .

---

(1) لأنّ (ما) بمعنى (من) تعبّر عن نفس من النفوس، و (ال) في النفس دالّة على استغراق الجنس.

(2) في الآية السابقة أي جملة: (قلت) ذلك ليعلم أنّي لم أخنه . .

وجملة: " إنّ النفس لأمّارة . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: " رحم ربّي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: "إنّ ربّي غفور . . . "لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة.

الصرف:

(أمّارة)، صيغة مبالغة من فعل أمر الثلاثيّ، وزنه فعّالة، والتاء إمّا للتأنيث فمذكّره أمّار، وإمّا للمبالغة مثل فهّامة. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 12 صـ 375 : حـ 13 صـ 11﴾

(391/398)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(12) سورة يوسف

مكية وآياتها إحدى عشرة ومائة

[سورة يوسف (12) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (3) إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (4)

قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)

اللغة :

(

الْقَصَصِ) : على وجهين : أحدهما يكون مصدرا بمعنى الاقتصاص تقول قصّ الحديث يقصّه قصصا وثانيهما يكون فعلا بمعنى مفعول كالنفض بمعنى المنفوض واشتقاقه من قصّ أثره إذا تبعه لأن الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئا فشيئا .

الاعراب :

(الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ) الر : تقدم اعرابها والقول فيها وتلك مبتدأ وآيات خبر والكتاب مضاف اليه والمبين صفة للكتاب .

(إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ان واسمها وجملة أنزلناه خبرها وقرآنا حال من ضمير أنزلناه أي الهاء وقيل انتصب على البدلية من الضمير ، وعربيا صفة ولعلكم تعقلون : لعل

واسمها وجملة تعقلون خبرها . (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) نحن مبتدأ وجملة نقص خبر والفاعل مستتر تقديره نحن وعليك متعلقان بنقص وأحسن مفعول به إذا كان القصص مصدرا بمعنى المفعول ومفعول مطلق إذا كان القصص مصدرا غير مراد به المفعول والقصص مضاف اليه والباء للسببية وما مصدرية وهي مع ما في حيزها مجرورة بالباء والجار والمجرور متعلقان بنقص أيضا أي بسبب ايحائنا وإليك متعلقان بأوحينا وهذا مفعول به والقرآن بدل من اسم الاشارة . (وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) الواو للحال وان مخففة من الثقيلة وكان واسمها ومن قبله حال واللام الفارقة ومن الغافلين خبر كنت . (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا)

(393/398)

يجوز لك أن تعلق إذ الظرفية بفعل مضمر أي اذكر ولك أن تجعله بدل اشتمال من أحسن القصص ويجوز أن يتعلق بنقص ولكن في هذا إخراجا لاذ عن المضي ، وجملة قال يوسف مضاف إليها الظرف ولأبيه متعلقان بقال ويا حرف نداء وأبت منادى مضاف إلى ياء المتكلم التي حذفت وعوضت عنها التاء المكسورة أو المفتوحة وسيرد المزيد عنها في باب

الفوائد وكسرت همزة إن بعد القول والياء اسم ان وجملة رأيت خبرها وأحد عشر جزءان عدديان مبنيان على الفتح في محل نصب مفعول به لرأيت وكوكبا تمييز ورأيت من الرؤيا أي المنام وهي تنصب مفعولين. (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ) الواو حرف عطف والشمس والقمر معطوفان على أحد عشر كوكبا ورأيتهم فعل وفاعل ومفعول به وليست تأكيدا لرأيتهم الأولى ولي متعلقان بساجدين وساجدين مفعول به ثان لرأيتهم وأعربها أبو البقاء حالا وقال ان الرؤية عينية وسيأتي تحقيق هذا في باب البلاغة. (قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ) يا بني تقدم أعربها في هود ولا ناهية وتقصص فعل مضارع مجزوم بلا ورؤياك مفعول به وعلى إخوتك جار ومجرور متعلقان بتقصص. (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) الفاء سببية ويكيدوا منصوب بأن مضمرة لأنه وقع جوابا للنهي والواو فاعل ولك متعلقان بيكيدوا وكيدا يحتمل أن يكون مفعولا مطلقا مؤكدا ويحتمل أن يكون مفعولا به أي يصنعوا لك كيدا وإن الشيطان إن واسمها وللانسان حال وعدو خبر إن ومبين صفة.

(وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ) كذلك نعت لمصدر محذوف أي كما اجتباك واختارك لهذه الرؤيا العظيمة يجتبيك لأمور عظام، والكاف مفعول يجتبيك وربك فاعل ويعلمك ليس عطفا على يجتبيك ولكنه كلام مستأنف كأنه قيل وهو يعلمك ويتم

نعمته ، ومن تأويل جار ومجرور متعلقان بيعلمك والأحاديث مضاف اليه . (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ) عطف على يعلمك ونعمته مفعول به وعليك جار ومجرور متعلقان بنعمته أو بيتم وعلى آل يعقوب عطف عليه . (كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) كما أنها نعت لمصدر محذوف أي إتماما مثل إتمامها على أبويك وعلى أبويك متعلقان بأتمها ومن قبل حال وابراهيم بدل من أبويك أو عطف بيان واسحق عطف على ابراهيم وان واسمها وخبرها .

البلاغة :

1- في قوله تعالى " رأيتهم " تكرار يظنّه الناظر أنه تأكيد لأول وهلة وليس هو بالتأكيد وانما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابا له ويجوز أن تكون للتوكيد باعتبار أن طول الفصل بالمفاعيل استدعى ذلك فجيء برأيتهم تطرية وتنويعا للحديث .

2- في قوله تعالى " ساجدين " أجرى الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر مجرى العقلاء وهو الذي يسميه النحاة تغليبا وهذا الوصف صناعي ، أما السر البياني فأمر كامن وراء هذا الوصف ذلك لأنه لما وصف الكواكب والشمس والقمر بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة وهذا كثير شائع في كلامهم وسيأتي الكثير منه في القرآن .

3- براعة التخلص :

وهو فن مشهور ذائع في كلام البلغاء ، وهو امتزاج ما يقدمه الكاتب أو للشاعر من البسط بأول ما استهل به كلامه كالبيت

الاول من القصيدة والفقرة الاولى من المقالة على أن يختلس ذلك اختلاسا رشيقا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والالتئام كأنهما أفرغا في قالب واحد ، أو يوطىء الكاتب فيه بفصل لفصل يريد أن يأتي به بعده وإما بنكتة تشير إلى معنى الفصل المستقبل كقوله تعالى : " نحن نقص عليك أحسن القصص " فإنه سبحانه وطأ بهذا الفصل إلى ما يأتي بعده من سرد قصة يوسف عليه السلام فتخلص به إلى ذكر القصة تخلصا بارعا فإن النكتة التي أشارت إلى وصف هذه القصة بنهاية الحسن دون سائر قصص الأنبياء المذكورة في القرآن وهي قوله :

" أحسن القصص " فإن المخاطب إذا قرع سمعه هذا الوصف للقصة تنبه إلى تأملها فيجد كل قضية فيها ختمت بخير وكل ضيق انتهى إلى سعة ، وكل شدة آلت إلى رخاء وذلك أمر عجيب يستحيل أن يأتي على القصة الحديثة " العقدة " تختم بالخير أو ما يسمّى في عرف

القصة الحديثة بالحل :

1- رمي يوسف في الجب واستحكمت عقدته فنجا .

2- بيع بالثمن البخس الذي يشير في مدلوله إلى الضعة والمهانة واستحكمت العقدة ثانية فإذا الذي اشتراه يستصفيه وينزله منه بمنزلة الولد .

3- راودته التي هو في بيتها عن نفسه ووثبت الشهوة ، وصرخت اللذة ، وكاد العقل يقصف والرشد يغزب واستحكمت العقدة ثالثة فإذا هو يكبح جماح نفسه ويستعصم .

4- ودخل السجن ، ورانت عليه ظلمته واقتمت معالمه واستحكمت العقدة رابعة فخرج منه ملكا .

5- وظفر بإخوته بعد أن عرف غدرهم به ومحاولتهم إهلاكه فلم يذهب مع هوى النفس التي تثأر وتنتقم وطأمن من غلوائه .

6- وسره اللّه بلقاء شقيقه بعد اليأس فأتنس به .

7- فارقه أبوه وحزن من أجله حتى عمي واستحكمت العقدة مرة أخرى ثم اجتمع به وسر بلقائه وارتد الوالد بصيرا .

8- جاء اللّه به من البدو وأحله بمصر على سرير الملك .

9- غضب هو وأبوه على بقية الأولاد ثم رضيا عنهم .

10- ثم وأخيرا سجد له أبواه واخوته تحقيقا لرؤياه فناسب الختام البدء وكانت براعة التخلص من أجمل ما عرف في الكتابة .

حسن التخلص في الشعر :

على أنه لا يفوتنا أن نورد بعض ما ورد من حسن التخلص في شعرنا العربي ومن المؤسف أن ينتهي غالبا بالمديح ونحن لا نقر هذا المديح ولا نعترف به إلا من حيث انه تقليد بحث أو تسجيل لما جرى على يد الممدوح من نفع عام ، قال أبو تمام يمدح أبا دلف وهو بطل عربي اشتهر بجهاده :

ودع فؤادك توديع الفراق فما أراه من سفر التوديع منصرفا

يجاذب الشوق طورا ثم يجذبه جهاده للقوافي في أبي دلفا

ومن ألطف المخالص قول أبي العلاء المعري :

ولو أن المطيّ لها عقول وجدك لم تشد لها عقالا

مواصلة لها رحلي كأني من الدنيا أريد بها ان

فصالا سألن فقلت مقصدنا سعيد فكان اسم الأمير لهن فالا

الفوائد :

1- " رأى " من الرؤيا :

اختلف النحاة واللغويون في " رأى " الحلمية ، والمحققون على أنها ملحقة برأى العلمية في التعدي لاثنين بجامع ادراك الحس في الباطن كقوله تعالى : " إني أراني أعصر خمرا " فأرى عملت في ضميرين متصلين لمسمى واحد وأحدهما فاعل والثاني مفعول أول وجملة أعصر خمرا المفعول الثاني وكقول عمرو بن أحمر الباهلي يذكر جماعة من قومه لحقوا بالشام فرآهم في منامه :

أراهم رفقتي حتى إذا ما تجافى الليل وانخزل انخزالا

فالهاء مفعول أول ورفقتي بضم الراي وكسرها مفعول ثان والرؤيا هنا حليمة بدليل قوله : حتى إذا ما تجافى الليل وانخزل انخزالا أي انطوى وانقطع ، والى هذا أشار في الخلاصة :

ولرأى الرؤيا انم ما لعلما طالب مفعولين من قبل انتمى

و ذهب بعضهم إلى أن رأى الحلمية لا تنصب مفعولين من قبل انتمى وذهب بعضهم إلى أن الحلمية لا تنصب مفعولين وان ثاني المنصوبين حال ورد بوقوعه معرفة هنا كما هنا واعترض بأن الرفقة وهم المخالطون والمرافقون فهو بمعنى اسم الفاعل فالاضافة فيه غير

محضة.

2- حديث اليهودي وكواكب يوسف:

ونرى من المفيد التنبيه إلى ما يرويه المفسرون من أحاديث عن كواكب يوسف فقد أخرج الحاكم في مستدركه أن يهوديا جاء إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال أخبرني بأسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام فقال: إن أخبرتك بأسمائها أتسلم؟ قال: نعم. قال صلى اللّه عليه وسلم: الذيال والوثاب والطارق والفيلق والصبح والقابس والضروح والخرثان والكتفان والعمودان وذو الفرع. قال:

صدقت يا محمد ولم يسلم" والوضع ظاهر على هذا الحديث وفي سنده جماعة متكلم فيهم. وقال ابن الجوزي هو موضوع.

[سورة يوسف (12): الآيات 7 إلى 14]

لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (9) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (10) قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (11)

أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (12) قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (13) قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (14)

اللغة :

(غَيابَتِ الْجُبِّ) : الغيابة : سدّ أو طاق في البئر قريب الماء يغيب ما فيه عن العيون وقال الزمخشري : هي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله قال المنخل :

إذا أنا يوما غيبتني غيابتي فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

أراد غيابة حفرته التي يدفن فيها ، والجب : البئر التي لم تطو وسمي بذلك إما لكونه محفورا في جيوب الأرض أي ما غلظ منها وإما لأنه قطع في الأرض ويجمع على أجباب وجباب وجببة .

(السَّيَّارَةِ) : جمع سيار أي المبالغ في السير وفي المختار والسيارة القافلة ، فتسميتهم السيارة المعروفة اليوم صحيح لا غبار عليه لأنه مؤنث سيار .

الاعراب :

(لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ) اللام جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق وكان فعل ماض ناقص وفي يوسف خبر

مقدم واخوته عطف على يوسف وآيات اسم كان المؤخر وللسائلين صفة لآيات . (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بمحذوف تقديره اذكر وقيل الظرف متعلق بكان وجملة قالوا مضاف إليها الظرف واللام للابتداء وفيها تأكيد لتحقيق مضمون الجملة وأخوه عطف على يوسف وهو بنيامين شقيقه وأحب خبر والى أبينا جار ومجرور متعلقان بأحب وقد تقدم أن الحب والبغض إذا بني منهما أفعل التفضيل أو فعلا التعجب تعدى الفعل منهما إلى الفاعل المعنوي بإلى والى المفعول المعنوي باللام فاذا قلت زيد أحب إلي من بكر كان معناها أنك تحب زيدا أكثر من بكر ، ومنا متعلقان بأحب كذلك ولم يطابق أحب في الاثنين لأن أفعل التفضيل يلزم الافراد والتذكير إذا كان معه من ولا بد من الفرق مع ال وإذا أضيف جاز الأمران . (وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) الواو للحال ونحن مبتدأ عصبة خبر وان واسمها واللام المزحلقة وفي ضلال خبرها ومبين صفة . والعصبة : الجماعة ، قيل : هي ما بين الواحد إلى العشرة . (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ) اقتلوا فعل أمر والواو فاعل ويوسف مفعول به أو اطرحوه عطف على اقتلوا وأرضا نصبت نصب الظروف المبهمة أي أرضا

منكرة مجهولة بعيدة عن العمران. قال الزمخشري وقال ابن عطية: " وذلك خطأ لأن الظرف ينبغي أن يكون مبهما وهذه ليست كذلك بل هي أرض مقيدة بأنها بعيدة أو قاصية ونحو ذلك فزال بذلك ابهامها ومعلوم أن يوسف لم يخل من الكون في أرض فتبين أنهم أرادوا أرضا بعيدة غير التي هو فيها قريب من أبيه" وصحح أبو حيان هذا الرد.

ويجوز أن تنصب بنزع الخافض أي في أرض وهو بمعنى الظرف، وقيل مفعول ثان لاطرحوه المتضمنة معنى أنزلوه ويخل جواب الأمر ولكم متعلقان بيخل ووجه فاعل وأبيكم مضاف اليه وسيأتي معنى يخل

(400/398)

لكم وجه أبيكم في باب البلاغة، (وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ) وتكونوا عطف على يخل والواو اسم كان ومن بعده حال وقوما خبر وصالحين صفة. (قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ) قال قائل فعل وفاعل ومنهم صفة ولا ناهية وتقتلوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل ويوسف مفعول به وألقوه فعل أمر وفاعل ومفعول به وفي غيابة الجب متعلقان بألقوه. (يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ) يلتقطه جزم لوقوعه جوابا للأمر وبعض السيارة فاعل وإن شرطية وكنتم فاعلين كان واسمها وخبرها وجواب

ان محذوف أي ان كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به الغرض فهذا هو الرأي الصواب (قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ) قالوا فعل وفاعل ويا أبانا منادى مضاف وما اسم استفهام مبتدأ ولك خبر ما ولا نافية وتأمنا فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنت ونا مفعول به وقد أدغمت نون تأمن بنا وقد قرئ على أشكال مختلفة وعلى يوسف متعلقان بتأمنا وجملة لا تأمنا حال وجملة مالك لا تأمنا مقول القول والتقدير أي شيء ثبت لك منا . (وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ) الواو للحال وان واسمها وله متعلقان بناصحون واللام المزحلقة وناصحون خبر إنا والجملة حال من نا فيكون حالا من حال . (

أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) أرسله فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به ومعنا ظرف مكان متعلق بأرسله ونا مضاف اليه وغدا ظرف متعلق بأرسله أيضا ويرتع مجزوم لأنه جواب الأمر ويلعب عطف عليه وجملة إنا له لحافظون حالية وقد تقدم إعرابها . (قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ) إن واسمها واللام المزحلقة وجملة يحزنني خبر إن والياء مفعول به وأن وما في حيزها في تأويل مصدر فاعل يحزنني وبه جار ومجرور متعلقان بتذهبوا .

(وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) أن وما في حيزها مفعول أخاف والذئب فاعل يأكله ولا يغرب عنك أنه لقّنهم العلة التي يعتلون بها على حد قول المثل " إن البلاء موكل بالمنطق " . (وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ) الواو للحال وأنتم مبتدأ وغافلون خبره وعنه متعلقان بغافلون (قالُوا : لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ) اللام موطئة للقسم وان شرطية وأكله الذئب فعل ومفعول به وفاعل والواو حالية ونحن مبتدأ وعصبة خبر والجملة حالية وان واسمها وإذن حرف جواب وجزاء مهمل وخاسرون خبر إنا والجملة جواب القسم وجملة جواب الشرط محذوفة لأن الجواب يعطى للمتقدم كما قررنا سابقا .

البلاغة :

1- المجاز في قوله تعالى " يخل لكم وجه أبيكم " وانما ذكر الوجه لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل عليه بوجهه لأن أول ما يستقبل الإنسان الوجه فعبر به عن إقباله عليهم وعدم الالتفات إلى غيرهم وانتفاء المشارك لهم في حب والدهم .

2- وفي قوله " لخاسرون " مجاز عن الضعف والعجز والعلاقة هي السببية .

[سورة يوسف (12) : الآيات 15 إلى 20]

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (15) وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (16) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ (17) وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (18) وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (19)
وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)

اللغة:

(أَجْمَعُوا) : يقال أجمعوا الأمر وأجمعوا عليه يتعدى بنفسه وبالباء أي عزموا عليه عزما مصمما.

(سَوَّلَتْ) : أصل التسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه وقال الزمخشري سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء وفي القاموس: سولت له نفسه كذا: زينته له وسهلته له وهوّنته وقيل هو من السول بفتحتين أي استرخاء العصب ونحوه فكأن المسول بذله فيما حرص عليه.

(دَلْوَهُ) : في المختار الدلو التي يستقى بها ودلا الدلو نزعها وبابه عدا وأدلاها أرسلها في البئر وفي القاموس ودلوت الدلو ودليتها أرسلتها في البئر ودلّاها جذبها ليخرجها والدلو مؤنث

وقد يذكر .

الاعراب :

)

(403/398)

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ) الفاء عاطفة والجملة معطوفة على محذوف يفهم من سياق القصة تقديره فأرسله معهم ، ولما حينية أو رابطة وذهبوا فعل وفاعل وبه جار ومجرور متعلقان بذهبوا وأجمعوا عطف على ذهبوا ، أو الواو للحال والجملة حالية بتقدير : قد ، وان وما في حيزها مفعول أجمعوا أو منصوب بنزع الخافض وفي غيابة الجب متعلقان بيجعلوه وجواب لما محذوف تقديره فعلوا به ما فعلوه من الأذى .

(وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) اختلف في هذه الواو فقيل عاطفة وان الإيحاء إلى يوسف كان في الجب وله سبع عشرة سنة أو دونها تطمينا لقلبه ولم يكن ايحاء نبوة وقيل زائدة وانها جواب لو أي جملة أوحينا وهو قول جيد لو ساعدت اللغة على زيادة الواو واليه متعلقان بأوحينا ، اللام موطئة للقسم وتنبئنهم فعل مضارع مبني على الفتح والهاء مفعول به وبأمرهم متعلقان بتنبئنهم وهذا صفة لأمرهم والواو للحال وهم مبتدأ

وجملة لا يشعرون خبر والجملة حالية . ﴿وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ﴾ الواو عاطفة وجاءوا فعل وفاعل وأباهم مفعول به وعشاء ظرف زمان متعلق بجاء وجملة يبكون حال من الواو أي وقت العشاء باكين. قيل : وانما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة .

﴿قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ﴾ جملة إنا ذهبنا مقول القول وان واسمها وجملة ذهبنا خبر إن وجملة نستبق حال والاستباق يكون بالعدو والترامي والتناضل ﴿وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وتركنا يوسف عطف على ذهبنا والظرف متعلق بتركنا فأكله عطف والهاء مفعول به والذئب فاعل . قال ثعلب " والذئب مأخوذ من تذأبت الريح إذا هاجت

من كل وجه " قال " والذئب مهموز لأنه يجيء من كل وجه " .

)

(404/398)

﴿وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ﴾ الواو عاطفة وما نافية حجازية وأنت اسمها والباء حرف جر زائد ومؤمن مجرور لفظا خبر ما محلا ولنا متعلقان بمؤمن ولو الواو عاطفة ولو شرطية وهي في هذا الموضع لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو

المنفي على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره من الأحوال بطريق الأولوية ولا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها ، وكنا كان واسمها وصادقين خبرها . (وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) الواو عاطفة وجاءوا فعل وفاعل وعلى قميصه محله النصب على الظرفية كأنه قيل : وجاءوا فوق قميصه بدم وهذا الظرف معمول لحال محذوفة من دم والتقدير وجاءوا بدم كذب حال كونه كائنا فوق قميصه وقد منع ذلك الزمخشري وسترى في باب الفوائد بحثا مفيدا ممتعا بهذا الصدد . وبدم متعلقان بجاءوا وكذب صفة وسيرد في باب البلاغة معنى وصف الدم بالكذب . (قالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) بل حرف إضراب وسولت لكم أنفسكم فعل وفاعل وأمرا مفعول به فصبر جميل خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف وساغ الابتداء بالنكرة لوصفه . (وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ) الواو عاطفة والله مبتدأ والمستعان خبر وعلى ما متعلقان بالمستعان وجملة تصفون صلة والعائد محذوف أي تصفونه . (وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ) الواو استئنافية وجاءت سيارة فعل وفاعل فأرسلوا عطف على جاءت والواو فاعل وواردهم مفعول به وهو رجل يقال له

مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء لأن الوارد هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم فأدلى عطف ودلوه مفعول به . (قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ) يا حرف نداء وبشرى منادى نكرة مقصودة نادى البشرى حيث كانت كأنه يقول لها تعالي فهذا وقتك وهذا مبتدأ وغلام خبر قيل عبر بالغلام للجمال الذي بهره لما رآه وانما سمي الغلام غلاما لاشتقاقه من الغلمة لأنه بريد الشهوة يقال اغتلم الشراب اشتدت سورته واغتلمت الأمواج اشتدت والغلامة أنثى الغلام وأبو نواس كان يتظرف ويقول عن الفتاة الجميلة غلامية . (وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ) وأسروه فعل وفاعل ومفعول أي أخفوه والضمير يعود للوارد وأصحابه وقيل لأخوة يوسف الذين عادوا وكانوا يظنون أن يوسف مات فقالوا هذا عبد أبق منا فإن أردتم بعناه لكم فاشتراه مالك بن ذعر الخزاعي .

وبضاعة نصب على الحال أي أخفوه متاعا للتجارة ، والبضاعة ما بضع من المال للتجارة .

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ) الواو عاطفة وشروه فعل وفاعل ومفعول أي باعوه وبثمن متعلقان بشروه وبخس صفة ودراهم بدل من ثمن ومعدودة صفة ووصفها بامكان عدها كناية عن قلتها لأن الكثيرة يتعذر عدها . (وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) كان واسمها وفيه متعلقان بمحذوف حال وقال أبو حيان : " متعلقان بأعني مضمرة أو بمحذوف يدل عليه من الزاهدين أو بالزاهدين لأنه يتسامح في الجار والمجرور والظرف " ومن الزاهدين

خبر كانوا . وقال ابن هشام : وقول آخر " وكانوا فيه من الزاهدين " إن في متعلقة بزاهدين المذكور وهذا ممتنع إذا قدرت ال موصولة وهو الظاهر لأن معمول الصلة لا يتقدم على الموصول فيجب حينئذ تعلقها بأعني محذوفة أو بزاهدين محذوفا مدلولا عليه بالمذكور أو بالكون المذكور الذي تعلق به من الزاهدين وأما إن قدرت أل للتعريف فواضح .

البلاغة :

وصف الدم بالكذب مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه والزور بذاته والفاعل والمفعول يسميان بالمصدر كما يقال ماء سكب أي مسكوب والفاعل كقوله " إن أصبح ماؤكم غورا " أي غائرا كما سموا المصدر بهما قالوا للعقل المعقول وللجلد المجلود ومنه قوله تعالى " بأيكم المفتون " .

الفوائد :

هل تتقدم الحال على الجار والمجرور :

منع النحاة تقديم الحال على صاحبها إذا كان مجرورا كمررت بهند جالسة فجالسة حال من هند ولا يجوز تقديمها عليها . لا تقول مررت جالسة بهند وهذا تقريبا مذهب الجمهور

وعللوا ذلك بأن تعلق العامل بالحال ثان لتعلقه بصاحبه فحقه إذا تعدى لصاحبه بواسطة أن يتعدى إليه بتلك الواسطة لكن منع من ذلك أن الفعل لا يتعدى بحرف واحد إلى شيئين فجعلوا عوضا عن الاشتراك في الواسطة التزام التأخير وخالف في هذه الفارسي وابن جني وابن كيسان وابن برهان وغيرهم فأجازوا التقديم مستدلين بقوله تعالى " وجاءوا على قميصه بدم كذب " قالوا في الرد على الزمخشري القائل : إنه ليس بحال لأن حال المجرور لا يتقدم قالوا : فيه ان المعنى لا يساعد على نصبه على الظرف بمعنى لأن العامل فيه إذ ذاك جاءوا وليس الفوق ظرفا بل يستحيل أن يكون ظرفا وبقوله تعالى " وما أرسلناك إلا كافة للناس " فكافة حال من المجرور وهو الناس وقد تقدم على صاحبه المجرور باللام وبنحو قول الشاعر :

تسليت طرا عنكم بعد بينكم بذكراكم حتى كأنكم عندي

فطرا بمعنى جميعا حال من الكاف والميم وقد تقدم على صاحبه المجرور بعن ورد الزمخشري والمانعون بقولهم ان هذا البيت ضرورة أو طرا حال من عنكم محذوفة مدلولا عليها بعنكم المذكورة وإن كافة في الآية حال من الكاف في أرسلناك وان التاء للمبالغة لا للتأنيث ، هذا ولا يحتمل هذا الباب ما استفاض فيه هؤلاء العلماء من ردود ومناقشات فحسبنا ما تقدم .

]

سورة يوسف (12) : الآيات 21 إلى 24]

(407/398)

وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (21) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)

اللغة :

(مَثْواهُ) : مقامه يقال ثوى بالمكان وأثوى أقام وفلان أكرم مثواي وطال بي الثواء وهو أبو مثواي وهي أم مثواي لمن أنت نازل به قال :

أفي كل يوم أم مثوى تسوسني تنفض أثوابي وتسألني ما اسسي

(أَشُدَّهُ) : في الأشد ثلاثة أقوال أحدها قول سيبويه : انه جمع مفرده شدة نحو نغمة وأنعم ،

والثاني قول الكسائي : ان مفرده شد بوزن قفل ، والثالث انه جمع لا واحد له من لفظه وهو قول أبي عبيدة وهو من الشد وهو الربط على الشيء والعقد عليه . وقال الراغب : وفيه تنبيه على أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوّى خلقه الذي هو عليه فلا يكاد يزايله ، وقيل في الأشد ثماني عشرة سنة وعشرون وثلاث ، وثلاث وأربعون وقيل أقصاه ثنتان وستون .

)

(408/398)

راوَدَتْهُ) المراودة مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب كأن المعنى خادعته عن نفسه أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهي عبارة عن التحيل لمواقعته إياها ومنه الرائد لطالب الماء والكلأ وهي مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المدين ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فإن هذه الأفعال وإن كانت صادرة عن الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة

عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشيء يقوم مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم "كما تدين تدان "

أي كما تجزي تجرى فإن فعل البادي وان لم يكن جزاء لكونه سببا للجزاء أطلق عليه اسمها وكذلك إرادة القيام إلى الصلاة وارادة القرآن حيث كانتا سببا للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فقيل إذا قمتم إلى الصلاة ، فإذا قرأت القرآن وهذه قاعدة مطردة مستمرة . ويجوز أن يراد بصيغة المفاعلة مجرد المبالغة ، وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو طلب منها الترك ، ويجوز أن تكون من الرويد وهو الرفق والتجمل وتعديتها بعن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعه عن نفسه أي فعلت ما يفعل المخادع بصاحبه عن شيء لا يريد إخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه .

(هَيْتَ لَكَ) : اسم للفعل وفيه ضمير المخاطب كصه ومه ومسماه أسرع يقال هيت إذا دعاه ، قال الشاعر :

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا

أن العراق وأهله سلم عليك فهيت هيتا

يريد أمير المؤمنين على بن أبي طالب وهو لازم لا يتعدى إلى مفعول كما أن مسماه كذلك وفيه ثلاث لغات هيت بالفتح وهيت بالضم وهيت بالكسر ، و" لك " من قولك هيت لك

تبيين للمخاطب جيء به بعد استغناء الكلام عنه كما كان كذلك في سقيا لك ، ألا ترى أن سقيا غير محتاجة إلى لك لأن معناه سقاك اللّه سقيا وإنما جيء بلك تأكيدا وزيادة فهي في هيت لك كذلك . وقيل هيت اسم فعل ماض بمعنى تهيأت ، وفي القاموس : وهيت لك مثلثة الآخر وقد يكسر أوله

أي هلم ، وقال العلامة الغنيمي : يحتمل أن يكون الضمير المستتر في تهيأت تقديره هي وقرىء تهيأت بسكون التاء وهذه حكاية لكلامها كما تقول : قال زيد واللّه ليفعلن ، أي قال واللّه لأفعلن .

(مَعاذَ اللَّهِ) : هذا أحد مصادر عاذ يعوذ عوذا ومعاذا وعوذة وعياذة وعياذا ومعنى أعوذ باللّه أعتصم وأمتنع للّه من الشيطان الرجيم وينشد للراجز زيد بن عمرو بن نفيل أو لعبد المطلب :

أنفي لك اللهم عان راغم مهما تجشّمني فإني جاشم

عذت بما عاذ به ابراهم يريد به ابراهيم عليه السلام ومن العرب من يقول : ابراهام وكذلك قرأ ابن عامر وذلك أن ابراهيم اسم أعجمي فإذا عربته العرب فانها تخالف بين ألفاظه ومنهم من يقول إبراهم بغير ألف قال الشاعر :

نحن آل اللّه في كعبته لم يزل ذاك على عهد إبرهم

وعن الفراء قال : " العرب تقول نعوذ باللّه من طئة الذليل أي أعوذ باللّه من أن يطأني ذليل "

وفي لسان العرب " وطأة الذليل من استعاذته بالّله " .

الاعراب :

(وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ) عطف على محذوف أي دخلوا مصر وعرضوه للبيع فاشتراه عزيز مصر الذي كان على خزائن مصر واسمه قطفير . وقال فعل ماض والذي فاعل وجملة

اشتراه صلة ومن مصر حال ولامرأته جار ومجرور متعلقان بقال وجملة أكرمي مثواه مقول القول وهي فعل وفاعل ومفعول وقد تقدم شرحها (عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً) عسى من أفعال الرجاء واسمها مستتر وان وما في حيزها خبرها وقد تقدم القول فيها وأو حرف عطف ونتخذه فعل مضارع معطوف على ينفعنا والهاء مفعول به أول وولدا مفعول به ثان . (وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) وكذلك نعت لمصدر أي مثل ذلك التمكين ومكنا فعل ماض وفاعل وليوسف متعلقان به فإن فعل مكن يتعدى بنفسه وباللام كما هنا وفي الأرض حال . (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ) الواو عاطفة واللام للتعليل ونعلمه فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والهاء مفعول به والجار والمجرور متعلقان بمحذوف

أي ولنعلمه مكناه وقد سبق مثيله في " ولتكملوا العدة " ومن تأويل الأحاديث متعلقان بنعلمه وأعرابها الجلال على زيادة الواو فهي متعلقة بمكنا المذكورة. (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) والله مبتدأ وغالب خبر وعلى أمره جار ومجرور متعلقان بغالب والواو حالية ولكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها . (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) لما حينية أو رابطة وبلغ أشده فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وآتيناه فعل وفاعل ومفعول به وحكما مفعول به ثان وعلما عطف عليه وكذلك نعت لمصدر محذوف ونجزي المحسنين فعل مضارع وفاعل ومفعول به . (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ) الواو عاطفة وراودته فعل ومفعول به مقدم والتي فاعل وهو مبتدأ وفي بيتها خبر والجملة الاسمية صلة وعن نفسه جار ومجرور متعلقان براودته . (

(411/398)

وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) جمل معطوفة وتقدم اعراب هيت لك في باب اللغة واسم المرأة التي راودته زليخاء بفتح الزاي وكسر اللام . ولم يقل : وراودته زليخا أو امرأة العزيز إما لاستهجان التصريح بالاسم في حكم المراودة والاحتيال في طلب المواقعة وإما للإخفاء عن الآخرين لئلا يتهموها وإما لزيادة تقرير ثبوت المسند للمسند اليه فإن كونه في

بيتها وتمكنها من مشاهدة جماله حينا فحينا مما يحقق مراودتها أو لزيادة تقرير المقصود لأن امتناعه منها مع كمال قدرتها عليه يدل على نزاهته وطهارة ذيله ، وقيل اختار في الآية إذ يجوز الاشتراك في علمها وإرادة الجنس في امرأة العزيز بخلاف الموصول . (قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ) معاذ اللّه نصب على المصدر أي أعوذ باللّه معاذا وانه ربي ان واسمها وخبرها ، والضمير يجوز أن يعود لطقفير الذي اشتراه ومعناه سيدي ومالكي يريد قطفير ، وجملة أحسن مثواي حال ويجوز أن يعود الضمير إلى الشأن والحديث ، وربي مبتدأ وجملة أحسن مثواي خبر والجملة خبر إن ويجوز أن تكون الهاء ضمير اللّه تعالى وقد استبعد بعضهم الأول وقالوا يبعد جدا أن يطلق نبي كريم على مخلوق انه ربه ولو بمعنى السيد لأنه ليس مملوكا في الحقيقة (إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) إن واسمها وجملة لا يفلح الظالمون خبرها والضمير يعود للشأن هنا .

)

(412/398)

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ) اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وهمت فعل ماض وهي فاعله وبه متعلقان بهمت ، وهمّ فعل ماض وهو فاعله وبها

متعلقان بهم ولو لا حرف امتناع لوجود وأن وما في حيزها مبتدأ محذوف الخبر أي لو لا رؤيته برهان ربه ماثل أمامه وجواب لو لا محذوف أي لواقعها واختلف في البرهان الذي رآه ، وللمفسرين فيه كلام طويل يرجع اليه في المطولات وحسبنا أن ننقل عبارة أبي حيان . قال : " والذي اختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها البتة بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول : لقد قارفت لو لا أن عصمك اللّه ولا تقول

إن جواب لو لا متقدم عليها وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد بل نقول إن جواب لو لا محذوف لدلالة ما قبله عليه كما يقول جمهور البصريين في قول العرب أنت ظالم إن فعلت فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم ولا يدل قوله أنت ظالم على ثبوت الظلم بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل وكذلك هنا التقدير : لو لا أن رأى برهان ربه لهمّ بها فكان يوجد الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم ، وهذا كلام جيد يؤيد ما ذهبنا إليه في الاعراب فتدبره .

هذا ولا خلاف في أن يوسف عليه السلام لم يأت بالفاحشة وإنما الخلاف في وقوع الهم منه فمن المفسرين من ذهب إلى أنه همّ وقصد الفاحشة وأتى ببعض مقدماتها ولقد أفرط صاحب الكشاف في التشنيع على هؤلاء فارجع اليه . ومنهم من نزهه عن الهمّ أيضا وهو الصحيح كما تقدم في عبارة أبي حيان وللامام الرازي في تفسيره الكبير نكتة لا بأس بإيرادها قال : " إن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة هم يوسف عليه السلام والمرأة وزوجها والنسوة والشهود ورب العالمين وإبليس وكلهم قالوا ببراءة يوسف عليه السلام عن الذنب فلم يبق لمسلم توقف في هذا الباب : أما يوسف فلقوله : هي راودتني عن نفسي وقوله رب السجن أحب إلي مما يدعونني اليه ، وإما المرأة فلقولها ولقد راودته عن نفسه وأما زوجها فلقوله : انه من كيدكن ان كيدكن عظيم ، وأما النسوة فلقولهن : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين ، وقولهن حاشا للّه ما علمنا عليه من سوء وأما

الشهود فلقوله تعالى وشهد شاهد من أهلها إلى آخره وأما شهادة اللّه تعالى فقوله عز من قائل : "كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين " وأما إقرار إبليس بذلك فلقوله فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين فأقر إبليس بأنه لا يمكن إغواء العباد المخلصين وقد قال تعالى انه من عبادنا المخلصين فقد أقر إبليس أنه لم يغوه وعند هذا نقول : هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام الفضيحة إن كانوا من

أتباع دين اللّه فليقبلوا شهادة اللّه بطهارته وان كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا إقرار إبليس لطهارته .

)

(414/398)

كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ) كذلك نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه واللام متعلقة بذلك المحذوف ويصح أن تكون في محل رفع والتقدير الأمر مثل ذلك والنصب أجود وقد تقدمت نظائر لذلك والسوء مفعول به والفحشاء عطف على السوء .

(إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ) ان واسمها ومن عبادنا خبر والمخلصين صفة لعبادنا .

البلاغة :

من مرجحات كون الاسم المسند إليه اسما موصولا تقرير الغرض المسوق له الكلام وذلك في قوله تعالى : " وراودته التي هي في بيتها عن نفسه " فإن الغرض المسوق له الكلام هو براءة يوسف عليه السلام فلو قيل راودته امرأة العزيز أو زليخا لم يفد ما أفاده الموصول باعتبار صلته فهو أدل على الغرض المسوق له وهو النزاهة لأنه إذا كان في بيتها وتمكن من نيل المراد

منها أي مرادها لا مراده ومع ذلك عف عنها ولم يفعل كان ذلك غاية في النزاهة عن الفحشاء فكان في الموصول زيادة تقرير للغرض الذي هو النزاهة .

قول آخر :

وقيل : معناه زيادة تقرير المسند أي المراودة لما فيه من فرط الاختلاط والإلفة فلو قال زليخا أو امرأة العزيز لم يفد ما أفاده الموصول من ذكر السبب الذي هو قرينه في تقرير المراودة باعتبار كونه في بيتها .

قول آخر :

وقيل : هو تقرير للمسند اليه لإمكان وقوع الإبهام والاشتراك في امرأة العزيز أو زليخا ولو ذكر إحداهما ولا يتأتى ذلك في التي هو في بيتها لأنها واحدة معنية مشخصة .

[سورة يوسف (12) : الآيات 25 إلى 29]

(415/398)

وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (25) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (26) وَإِنْ كانَ

قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29)

الاعراب :

(وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ) الواو عاطفة والجملة متصلة بقوله تعالى ولقد همت به وهمّ بها وقوله كذلك لنصرف إلخ اعتراض جيء به بين المتعاطفين تقريرا لنزاهته وبراءته والمعنى ولقد همّت به وأبى هو واستبقا إلى الباب الخارجي الذي هو المخلص ولذلك وحده بعد الجمع وحذف حرف الجر وأوصل الفعل إلى المجرور نحو وإذا كالوهم ، واستبقا فعل ماض والألف فاعل والباب منصوب بنزع الخافض ، وقدّت قميصه : قدّ فعل ماض وفاعله هي وقميصه مفعول به ومن دبر حال ويحتمل أن يكون " قدت " معطوفا على واستبقا ، ويحتمل أن يكون حالا أي وقد قدت جذبته من خلفه بأعلى القميص من طوقه فانخرق إلى أسفله ، والقد القطع والشق وأكثر استعماله فيما كان طولا . قال النابغة :

تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب

والقطّ يستعمل فيما كان عرضا . (وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ) وألفيا عطف على ما تقدم والألف فاعل وسيدها أي بعلها كانت تقول المرأة لبعلها يا سيدي لملكة التصرف فيها ، وهي مفعول به ولدي ظرف في محل نصب مفعول به ثان . (قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ) ما اسم استفهام مبتدأ ويحتمل أن تكون ما نافية أي ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم ، وجزاء خبر ومن

مضاف إليه وجملة أراد صلة وبأهلك جار ومجرور متعلقان بأراد وسوءا مفعول به وإلا أداة حصر وان وما في حيزها بدل من جزاء أي إلا السجن ويجوز أن تكون ما نافية وجزاء مبتدأ وأن يسجن خبره وأو حرف عطف وعذاب عطف على المصدر المؤول وأليم صفة ومن يجوز فيها أن تكون موصولا أو نكرة موصوفة . (قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي) قال فعل ماض وفاعله هو أي يوسف مدافعه عن نفسه معلنا براءته وهي مبتدأ وجملة راودتني خبر وعن نفسي متعلقان براودتني . (وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها) الواو عاطفة وشهد شاهد فعل وفاعل ومن أهلها صفة شاهد وهو ابن عمها وكان بصحبة زوجها . (إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ) الشرط مقول قول محذوف أي فقال ، وإن شرطية وكان قميصه كان واسمها وجملة قدّ أي شق بالبناء للمجهول خبر ومن قبل متعلقان بقدّ ، فصدقت الفاء رابطة وصدقت فعل ماض والجملة جواب الشرط أي فقد ظهر صدقها ، وهو الواو حالية وهو مبتدأ ومن الكاذبين خبر ولا بد من تقدير قد

ليصح دخول الفاء الرابطة وإلا فلو لم تقدر لم يصح دخول الفاء لأنه فعل ماض متصرف .

(وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) عطف على الجملة الاولى وهي مماثلة لها في اعرابها .

)

(417/398)

(فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ) الفاء عاطفة ولما حينية أو رابطة ورأى قميصه فعل وفاعل مستتر ومفعول وجملة قدّ من دبر حالية ، قال جواب لما وان واسمها وخبرها . (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) ان واسمها وخبرها . (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ) يوسف منادى محذوف منه حرف النداء وأعرض فعل أمر

وفاعله أنت وعن هذا متعلقان بأعرض واستغفري فعل أمر والياء فاعله ولذنبك متعلقان باستغفري . (إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ) ان واسمها وجملة كنت خبرها ومن الخاطئين خبر كنت والجملة تعليل للاستغفار .

البلاغة :

(418/398)

لقائل أن يقول إن الضمير وهو " هي " ليس غير مضمر باتفاق وليس هو للغائب بل لمن بالحضرة والجواب ما قاله السراج البلقيني في رسالته المسماة " نشر العبير ، لطي الضمير " : الضمير المفسر لضمير الغائب إما مصرح به أو مستغنى بحضور مدلوله حسا أو علما فالحس نحو قوله " هي راودتني عن نفسي " و " يا أبت استأجره " كذا ذكر الشيخ ابن مالك وتعقبه أبو حيان بأن قال ليس كما مثل به لأن هذين الضميرين عائدان على ما قبلهما فالضمير في قال عائد على يوسف والضمير في هي عائد على قوله " بأهلك سوءا " ولما كنت عن نفسها بقولها " بأهلك " ولم تقل بي كنى هو عنها بضمير الغيبة بقوله " هي راودتني " ولم يخاطبها بقوله أنت راودتني ولا أشار إليها بقوله هذه راودتني وكل هذا على سبيل الأدب في الألفاظ والاستحياء في الخطاب فأبرز الاسم في ضمير الغائب تأدبا مع الملك وحياء منه وعندي أن الذي قاله ابن مالك أرجح مما قاله أبو حيان وذلك أن الاثنين إذا وقعت منهما خصومة عند حاكم فيقول المدعي للحاكم لي على هذا كذا فيقول المدعى عليه هو يعلم أنه لا حق له علي فالضمير في هو انما لحضور مدلوله حسا وسيأتي مزيد من هذا البحث الممتع عند الكلام على قصة ابنه شعيب في سورة القصص .

الفوائد :

لدى :

ليست لدى من لفظ لدن وإن كانت من معناها لأن لدى معتلة اللام ولدن صحيح اللام وقالوا فيها لدن بفتح اللام وسكون الدال وكسر النون كأنهم استثقلوا ضم الدال فسكنوا تخفيفا كما قالوا في عضد عضد ولما سكنت الدال والنون ساكنة كسروا النون لالتقاء الساكنين وقالوا لدن بضم الدال وسكون اللام وكسر النون وقد حذفوا النون من لدن تخفيفا فقالوا من لد الصلاة ولد الحائط وليس حذف النون لالتقاء الساكنين واعلم أن حكم لدن أن يخفض ما بعدها بالإضافة كسائر الظروف لأن نونها من أصل الكلمة بمنزلة الدال من عند كما قال تعالى " من لدن حكيم عليم " غير أن من العرب من ينصب بها غدوة خاصة قال :

لدن غدوة حتى ألاذ بخفها بقية منقوص من الظل قالص

وقال ذو الرمة :

لدن غدوة حتى إذا امتدت الضحى وحثّ القطين الشّحشحان المكلّف

يعني الحادي والقطين جمع قاطن ، قال سيبويه في هذا الصدد :

وقد نصبوا غدوة تشبيها بالمميز في نحو عندي راقود خلا وجبة صوفا

والمفعول في نحو هذا ضارب زيدا وقاتل بكرا وقال بعضهم تنصب غدوة بعد لدن على أنها خبر لكان المقدرة مع اسمها والتقدير لدن كان الوقت غدوة وجاز رفعها على أنها فاعل لفعل محذوف والتقدير لدن كانت غدوة أي وجدت فكان هنا تامة والغالب في لدن أن تجر بمن نحو " وعلمناه من لدنا علما " وإذا أضيفت إلى ياء المتكلم لزمتها نون الوقاية نحو " لدني " وهي تضاف إلى المفرد كما رأيت والى الجملة نحو انتظرتك من لدن طلعت الشمس إلى أن غربت .

[سورة يوسف (12) : الآيات 30 إلى 33]

(420/398)

وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (32) قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ

الْجاهِلِينَ (33)

اللغة :

(نِسْوَةٌ) : جماعة من النساء وكن خمسا والنسوة اسم جمع لا واحد له من لفظه بل من معناه وهو امرأة وتأنيثها غير حقيقي بل باعتبار الجماعة ولذلك لم يلحق فعلها تاء التأنيث والمشهور كسر نونها ويجوز ضمها في لغة ، وقد قرىء بها وفي القاموس وشرحه ما يفهم منه أن النسوة والنسوة والنساء والنسوان والنّسون والنسنين جموع للمرأة من غير لفظها وقال الزمخشري : " النسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث " .

(شَغَفَها) : دخل حبها شغاف قلبه وفي المصباح : " شغف الهوى قلبه شغفا من باب نفع والاسم الشغف بفتحتين ، بلغ شغافه بالفتح وهو غشاؤه وشغفه المال زين له فأحبه فهو مشغوف به " . والشغاف حجاب القلب وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب قال النابغة :

وقد حال هم دون ذلك والجح مكان الشغاف تبتغيه الأصابع

)

(أَعْتَدَتْ) : هيأت وأحضرت ، واعتده له هيأه وهو عتيد : معد حاضر ومنه العتيدة التي فيها الطيب والأدهان .

(مُتَّكَأً) : ما يتكئ عليه من نمارق يستندن عليها على عادة المتكبرين في أكل الفواكه حيث يتكىء آكلها على الوسائد ويأكلها بالسكاكين وقيل سمي الطعام كالاترج والموز متكأ لحصول الاتكاء على الوسائد عند أكله فهو مجاز مرسل علاقته المجاورة أو استعارة تصريحية .

(أَكْبَرْنَهُ) : أعظمنه وهبن حسنه الرائع وجماله الأخاذ الفاتن واستولى عليهن الدهش وقيل : أكبرن بمعنى حضن والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة إذا حاضت وحقيقته دخلت في الكبر لأنها إذا حاضت تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر وكأن أبا الطيب رمق هذا التفسير فقال متملحا متغزلا :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

في إحدى روايات البيت التي نقلها أبو الفتح بن جني ويقال إن المرأة إذا اشتدت شهوتها سال دم حيضها فمعنى البيت : استر جمالك عنهن وإلا حضن ، على أن الرواية التي اختارها أبو البقاء " ذابت " .

(حاشَ لِلَّهِ) : أي حاشا وسيأتي الحديث عنها في باب الفوائد .

الاعراب:

(وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ) الواو عاطفة لتتساوق مجريات القصة، وقال نسوة فعل وفاعل وفي المدينة صفة لنسوة. (امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا) امرأة العزيز مبتدأ وجملة تراود خبر وفتاها مفعول به وعن نفسه جار ومجرور متعلقان بتراود وقد حرف تحقيق وشغفها فعل وفاعل مستتر ومفعول به وحبا تمييز محول عن الفاعل وجملة قد شغفها حال من فاعل تراود أو من مفعوله ويجوز أن تكون خبرا ثانيا لامرأة. (إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) إن واسمها واللام المزحلقة وجملة نراها خبر إن وفي ضلال متعلقان بنراها ومبين صفة

(422/398)

لضلال. (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً) الفاء عاطفة ولما حينية أو رابطة وسمعت فعل وفاعل مستتر وبمكرهن متعلقان بسمعت وجملة أرسلت لا محل لها وإليهن متعلقان بأرسلت وأعتدت عطف على أرسلت ولهن متعلقان بأعتدت ومتكأ مفعول به وآتت عطف أيضا وكل واحدة مفعول آتت الأول ومنهن صفة لواحدة وسكينا مفعول آتت الثاني والسكين تذكر وتؤنث قاله

الكسائي والفراء وقال الجوهري : والغالب عليها التذكير .

(وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ) الواو عاطفة وجملة اخرج مقول القول وعليهن متعلقان بمحذوف حال أي مطلا عليهن مستعليا بدلّك الفاتن وجمالك الآخذ . (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) الفاء عاطفة ولما ظرفية حينية أو رابطة حرفية ورأينه فعل وفاعل ومفعول به وقطعن فعل وفاعل وأيديهن مفعول به ، ولا نرى رأي القائلين بأن أكبرنه بمعنى حضن والهاء للسكت إذ هو تظرف مصنوع لا يليق بالقرآن . (وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً) وقلن فعل وفاعل وحاش اسم للتنزيه في محل نصب مفعول مطلق ولله متعلقان بمحذوف حال وسيأتي مزيد بحث عن حاشا في باب الفوائد وما نافية حجازية وهذا اسمها وبشرا خبرها وعبارة أبي حيان : " وقال الزمخشري وقرىء ما هذا بشرى أي حاصل بشرى بمعنى هذا مشترى وتقول هذا لك بشرى أي بكرا وقال :

واعمال ما عمل ليس هي اللغة القدمى الحجازية وبها ورد القرآن انتهى . وانما قال القدمى لأن الكثير في لغة الحجاز انما هو جر الخبر بالباء فتقول ما زيد بقائم وعليه أكثر ما جاء في القرآن وأما نصب الخبر فمن لغة الحجاز القديمة حتى أن النحويين لم يجدوا شاهدا على نصب الخبر في أشعار الحجازيين غير قول الشاعر :

وأنا النذير بحرة مسودة يصل الجيوش إليكم قوادها

أبناؤها متكنفون أباهم حنقوا الصدور وما هم أولادها

وقال الفراء وهو سامع لغة حافظ ثقة : لا يكاد أهل الحجاز ينطقون إلا بالباء فلما غلب على أهل الحجاز النطق بالباء قال الزمخشري :

اللغة القدمى الحجازية فالقرآن جاء باللغتين القدمى وغيرها " .

(إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) إن نافية وهذا مبتدأ وإلا أداة حصر وملك خبر وكريم صفة .

(قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ) فذلك الفاء الفصيحة أي إن شئتم معرفته فذلكن واسم الاشارة مبتدأ ولم تقل فهذا وهو حاضر وسياق الكلام يتطلب ذلك رفعا لمنزلته في الحسن والذي خبر لمبتدأ محذوف أي هو الذي ولم يجعل الذي خبر لاسم الاشارة لأن لام البعد التي اقترن بها اقتضت بعده عنه لما تقدم من تعظيم رتبته في الحسن والجمال ، وفيه متعلقان بلمتنني أي في حبه أو مراودته وسيأتي تحقيق في المحذوف في باب البلاغة . (وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) الواو عاطفة واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وراودته فعل وفاعل ومفعول به وعن نفسه متعلقان براودته ، فاستعصم الفاء عاطفة واستعصم فعل ماض زيدت فيه السين للمبالغة في الامتناع . (وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ) اللام موطئة للقسم وان شرطية ولم حرف نفي وقلب وجزم ويفعل مضارع مجزوم وهو فعل الشرط وما مفعول به وجملة آمره صلة أي الذي آمره به ويصح

كونها مصدرية أي أمري والضمير في آمره عائد على الموصول أي ما آمر به فحذف الجار كما حذف في أمرتك الخير ومفعول آمر الأول محذوف وكان التقدير ما آمره به وإن جعلت ما مصدرية جاز فيعود الضمير على يوسف أي أمري إياه

(424/398)

و معناه موجب أمري ، واللام واقعة في جواب القسم وجواب الشرط محذوف على القاعدة في اجتماعهما دل عليه جواب القسم المذكور والتقدير ليسجنن وليكونن ، وفي يسجنن نون التوكيد الثقيلة وفي يكون نون التوكيد الخفيفة واسم يكون مستتر تقديره هو ومن الصاغرين خبرها . (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا وهو ما كان جوابا لمقدر فقد قالت النسوة له بعد أن أسمعن تقرير زليخاء ألا تطيع مولاتك ؟ قال إلخ ، ورب منادى محذوف منه حرف النداء والسجن مبتدأ وأحب خبر وإلي للتبيين وهي المبينة لفاعلية مجرورها بعد ما يفيد حبا أو بغضا من فعل تعجب أو اسم تفضيل ومما متعلقان بأحب وجملة يدعونني صلة وهو فعل مضارع مبني على سكون الواو والنون الاولى نون النسوة والثانية نون الوقاية فالواو ليست ضميرا بل هي لام الكلمة وليس هو من الأفعال الخمسة التي ترفع بثبوت النون وتنصب وتجزم بحذفها وأضاف العمل

إليهن لأنهن جميعا دعونه إلى أنفسهن وقيل لأنهن لما قلن له ألا تطيع مولاتك صح إضافة الدعاء إليهن جميعا ، واليه متعلقان بيدعونني .

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ) الواو عاطفة وان شرطية ولا نافية وتصرف فعل الشرط والفاعل مستتر تقديره أنت وعني متعلقان بتصرف وكيدهن مفعول به وأصب جواب الشرط والفاعل مستتر تقديره أنا وإليهن جار ومجرور متعلقان بأصب وأكن عطف على أصب واسم أكن مستتر تقديره أنا ومن الجاهلين خبر أكن .

البلاغة :

1- في قوله تعالى " ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم "

فنان متداخلان الأول ظاهر وهو التشبيه البليغ فقد شبهن يوسف بالملك

من دون ذكر الأداة وهذا واضح كما قلنا يجري على غرار التشبيهات المألوفة المقصود منه إثبات الحسن لأنه تعالى ركب في الطبائع أن لا شيء أحسن من الملك وقد عاين ذلك قوم لوط في ضيف ابراهيم من الملائكة ، كما ركب في الطباع أن لا شيء أقبح من الشيطان ، وكذلك قوله تعالى في صفة جهنم " طلعها كأنه رؤوس الشيطان " فكذلك قد تقرر أن لا

شيء أحسن من الملك ، فلما أرادت النسوة وصف يوسف بالحسن شبهنه بالملك . ولكن الأسلوب القرآني شاء أن يتجاوز المألوف من تشبيهات العرب لكل ما راعهم حسنه من البشر بالجن فأدخل فيه فنا آخر لا يبدو للناظر للوهلة الأولى وهو فن عرفوه بأنه سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلا منه ليخرج كلامه مخرج المدح أو ليدل - كما هنا - على شدة الوله في الحب وقد يقصد به الذم أو التعجب أو التوبيخ أو التقرير ويسمى هذا الفن تجاهل العارف وهو على قسمين : موجب ومنفي .

أ- الموجب :

وهو ما يكون فيه الاستفهام عن شيئين أحدهما واقع والآخر غير واقع وللمتكلم أن ينطق بأحدهما ويسكت عن الآخر لدلالة الحال عليه ومن هذا الباب قوله تعالى " أبشرا منا واحدا نتبعه " وهذا خارج مخرج التعجب وسيأتي بحثه عند الكلام على هذه الآية في سورة " القمر " وقوله تعالى " قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء " وهذا خارج مخرج التوبيخ وقد مر ذكره في سورة هود وقوله تعالى : " أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم " وهذا خارج مخرج التقرير وجميعه موجب كما رأيت .

ب- المنفي :

وأما الآية التي نحن بصددها فهي من القسم المنفي فقد تجاوز التشبيه، كما قلنا، تشبيه العرب كل من راعهم حسنه من البشر بالجن إلى تشبيه يوسف حين كان حسنه بادي الروعة متجاوزا في ائتلاقه ووسامته المألوف المعهود من روائع الحسن وله مع روعته البادية نور ورأوة، وطلاقة وتهلل، وعليه مسحة من سكينة تؤمن ناظره من تلك الرعوة وتثبت قلبه بما يسري إليه من سكينة وايماءة بالخير واستهواء لما فيه راحة النفس ولذتها فكان كذلك تشبيهه بالملك الكريم.

التشبيه المصون عن الابتذال:

وما دام الكلام انجر معنا إلى هذه النواحي التي تدق فيها الصنعة وتعزب أسرارها إلا عن الملهمين الذين تذوقوا أسرار القوم فلا ندحة لنا عن الاشارة إلى أن هذا الفن انما يلجأ اليه في التشبيه بنوع خاص للخروج من التقليد والارتفاع بالتشبيه إلى أبعد الآفاق وصيانته من الابتذال فلو لم تعرض الآية تشبيه يوسف بالملك بهذا الأسلوب المسبوق بالنفي الموجب للغرابة لم يكن للتشبيه ذلك الوقع الحسن ومن ذلك قول شاعر الخلود المتنبي:

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا إلا بوجه ليس فيه حياء

فقد أراد تشبيه الوجه بالشمس ولكن هذا التشبيه شائع يكاد لشيوعه يسف إلى حضيض الابتذال فأراد صيانته بأن قدم له النفي متجاهلا فقال لا حاجة إلى الشمس مع

ضيائك ونورك ولكنها لوقاحتها تطلع عليك .

تجاهل العارف في الشعر :

هذا ولتجاهل العارف وقع في النفوس كأخذة السحر ونشوة الخمر ولهذا قال السكاكي رحمة اللّه : " لا أحب تسميته بالتجاهل لوروده كثيرا في كلام اللّه تعالى " ثم أطلق عليه تسمية أخرى وهي " سوق المعلوم مساق غيره لنكتة " وقد طفحت أشعارنا به ولم تقتصر على المديح أو الغزل ، كما قلنا ، بل تجاوزتهما إلى أية مبالغة في أي موضوع من الموضوعات التي تعن للخواطر فاستمع إلى قول زهير ابن أبي سلمى تر العجب العجاب : قال يهجو حصن بن حذيفة الفزاري :

و ما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

فانظر كيف خطر بباله أن ينفي الدراية بحال الآل ، ثم قبل أن يكمل ذلك خطر بباله الجزم بأنه سوف يدري ، ثم قبل أن يكمل ذلك قال إن حصول الدراية في المستقبل على سبيل التخيل والظن فحكى حال النفس عند ترددها في شأنه .

ويطربني قول أبي العباس النامي :

أحقا أن قاتلتي زرود وأن عهودها تلك العهود

وقفت وقد فقدت الصبر حتى تبين موقفي أني الفقيد

وشكك فيّ عذالي فقالوا لرسم الدار أيكما العميد ؟

وصيحة ابن الرومي صيحة الوهل حين يرى الوجنة الحمراء إلى جانب الصدع الأدعج :

يا وجنتيه اللتين من بهج فيّ صدغييه اللذين من دعج

ما حمرة فيكما ؟ أمن خجل أم صبغة اللّه أم دم المهج

وقد أطرفت ليلى بنت طريف الخارجية في رثاء أخيها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

وأراد مهيار أن يشبه المحبوبة بالظبي وبالبدر وبغصن البان فتجاوز المألوف المعتاد وسما إلى سماء ما طاولتها سماء إذ قال :

سلا ظبية الوادي وما الظبي مثلها وإن كان مصقول الترائب أكحلا

أأنت أمرت البدر أن يصدع الدجى وعلمت غصن البان أن يتميّلا

ونختم هذا الباب المستطاب بقول البهاء زهير :

رعى الله ليلة وصل خلت وما خالط الصفو فيها الكدر

أتت بغتة ومضت سرعة وما قصرت بعد ذاك القصر

بغير احتيال ولا كلفة ولا موعد بيننا ينتظر

فقلت وقد كاد عقلي يطير سرورا بنيل المنى والوطر

أيا قلب تعرف من قد أتاك ويا عين تدرين من قد حضر

ويا قمر الأفق عد راجعا فقد حل في الدار عندي القمر

ويا ليلتي هكذا وبالّله قف يا سحر

فكانت كما أشتهي ليلة وطاب الحديث وطاب ا

لسهر خلونا وما بيننا ثالث فأصبح عند النسيم الخبر

ويقول الشريف الرضي وهو غاية الغايات :

بين الاظاعن حاجة خلفتها أودعتها يوم الفراق مودعي

وأظنها لا بل يقيني انها قلبي لأني لم أجد قلبي معي

(428/398)

2- الحذف :

وفي قوله " فذلكن الذي لمتنني فيه " والتقدير في حبه لأن الذوات لا يتعلق بها لوم ودليل تقدير في حبه قوله " قد شغفها حبا " في مراودته ، ولعلها أولى بدليل قوله : " تراود فتاها عن نفسه " وإنما قلنا أولى لأنه فعلها بخلاف الحب فإنه أمر قهري لا يلام عليه إلا من حيث

تعاطي أسبابه أما المراودة فهي حاصلة باكتسابها فهي قادرة على دفعها فيتأتى اللوم عليها بخلاف الحب فانه ليس فعلا لها ولا تقدر على دفعه لأن الحب المفرط قد يقهر صاحبه ولا يطيق أن يدفعه وحينئذ فلا يلام عليه وعلى كل حال فهو من أسبابه .

3- وفي قوله " متكأ " تصوير لنوع من الطعام الذي انما يقدم تفكها وتبسطا وتجميلا للمجلس وتوفيرا لأسباب المتعة فيه حتى إن الشأن فيه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والاتكاء ، والكلمة بعد هذا من الألفاظ الكثيرة التي أبدع القرآن صياغتها فتعلق بها العرب فيما بعد ولولا ذلك لما اهتدوا إليها ولخانتهم اللغة في هذا الباب عن تصوير ما يريدون انظر حينما يصف القرآن دعوة امرأة العزيز

للنسوة اللائي تحدثن منتقدات عن مراودتها ليوسف عن نفسه إلى جلسة لطيفة رائعة في بيتها لتطلعهن فيها على يوسف وجماله فيعذرنها فيما أقدمت عليه ، لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعاما ولا شك ولقد أوضح القرآن هذا ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام فهذه الكلمة إنما تصور شهوة الجوع وتنتقل بالفكر إلى " المطبخ " بكل ما فيه من ألوان الطعام وروائحه وأسبابه .

الفوائد :

1- (حاشا) تكون على ثلاثة أوجه :

1- فعلا متعديا متصرفا ، تقول : حاشيته بمعنى استثنيته وان سبقتها ما تكون نافية .

2- تنزيهية نحو حاشا لله فتكون اسما مرادفا للتنزيه منصوبا على المفعولية المطلقة وقيل هي فعل وتثبت الألف وتحذف .

3- أن تكون للاستثناء فتكون حرفا بمنزلة إلا لكنها تجر المستثنى وهناك تفاصيل أخرى يرجع إليها في المطولات .

(429/398)

2- المخالفة في نوني التوكيد :

جمهور البصريين يرى أن نوني التوكيد الثقيلة والخفيفة أصلان لتخالفهما في بعض أحكامهما كإبدال الخفيفة ألفا في نحو وليكونا وحذفها في نحو قوله :

ولا تهين الفقير علك أن تركع يوما والدهر قد رفعه

وكلاهما ممتنع في الثقيلة ، هذا ما قاله سيبويه وعورض بأن الفرع قد يختص بما ليس للأصل أحيانا وقد قال سيبويه نفسه في أن المفتوحة انها فرع المكسورة ولها إذا خففت أحكام تخصها أما الكوفيون فيرون أن الخفيفة فرع الثقيلة .

وذكر الخليل بن أحمد : ان التوكيد بالثقيلة أشد من التوكيد بالخفيفة يدل له " ليسجنن وليكونن " فإن امرأة العزيز كانت أشدّ حرصا على سجنه من كينونته صاغرا .

3- لا يخلو اسم التفضيل المجرد من أل والاضافة غالبا من مشاركة المفضل عليه في المعنى لفظا أو تقديرا والمراد بقولنا تقديرا مشاركته بوجه ما كقولهم في البغيضين : هذا أحب إلي من هذا وفي الشرين هذا خير من هذا وفي التنزيل : " قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه " وتأويل ذلك هذا أقل بغضا وأقل شرا ومن غير الغالب العسل أحلى من الخل والصيف آخر من الشتاء .

[سورة يوسف (12) : الآيات 34 إلى 41]

(430/398)

فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (38)

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (39) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (40) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (41)

اللغة:

(كَيْدَهُنَّ): الكيد: يطلق على معان شتى منها المكر والخبث

(431/398)

كالمكيدة والحيلة وهو المراد هنا ويطلق على الحرب وإخراج الزند النار والقيء واجتهاد الغراب في صياحه وكاد قاء وبنفسه جاد والمرأة حاضت، وكاد يفعل كذا قارب وهمّ.

الاعراب:

(فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) الفاء عاطفة واستجاب فعل ماض وله متعلقان به وربه فاعل، فصرف عطف على فاستجاب وعنه متعلقان بصرف وكيدهن مفعول به. (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) ان واسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ ثان والسميع العليم خبر

ان لإن أو لهو والجملة خبر ان . ﴿ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ ثم حرف عطف وبدا فعل ماض وفاعله مضمر يفسره ليسجننه أي بدا لهم أن يسجنوه قال سيبويه : " وفاعل بدا لهم هو ليسجننه أي ظهر لهم أن يسجنوه " وقال المبرد : هذا غلط لأن الفاعل لا يكون جملة ولكن الفاعل ما دل عليه بدا وهو المصدر ، قال الشاعر :

وحق لمن أبو موسى أبوه يوفقه الذي نصب الجبالا

أي وحق الحق ، فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه ، وعلى مذهب سيبويه فاعل حق هو يوفقه أي حق التوفيق ، ولهم متعلقان ببدا ومن بعد حال وما مصدرية وهي مع ما في حيزها مضافة لبعد ورأوا فعل وفاعل والآيات مفعول به ، ليسجننه اللام جواب قسم محذوف على تقدير القول المنصوب على الحال : أي ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين والله لنسجننه فجملة القسم وما بعده مقول القول ويسجننه فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال ، والواو

المحذوفة فاعل والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة ولكنها لم تباشر الفعل فأعرب ، والهاء مفعول به منصوب وحتى حرف جر وحين مجرور بحتى والجار والمجرور متعلقان بيسجننه

أي إلى أن ينقطع كلام الناس وتسكن الاشاعات والأراجيف . (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ) الواو عاطفة على محذوف ودخل فعل ماض ومعه ظرف مكان متعلق بدخل والسجن مفعول به على السعة وفتيان فاعل أي غلامان للملك أحدهما ساقيه والآخر صاحب طعامه وكانا قد اتهما بأنهما حاولا أن يسما الملك فأمر بهما إلى السجن فأدخلا السجن ساعة دخول يوسف . (قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً) قال فعل وأحدهما فاعل والجملة استئناف بياني وقد تقدم ، وان واسمها وجملة أراني خبرها والياء مفعول أراني الأول وجملة أعصر خمرا في محل المفعول الثاني ، وعبارة أبي حيان : " ورأى الحلمية جرت مجرى أفعال القلوب في جواز كون فاعلها ومفعولها ضميرين متحدي المعنى فأراني فيه ضمير الفاعل المستكن وقد تعدى الفعل إلى الضمير المتصل وهو رافع للضمير المتصل وكلاهما لمدلول واحد ولا يجوز أن تقول ضربني ولا أكرمني " .

(

وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ) وقال الآخر فعل وفاعل وان واسمها وجملة أراني خبرها وجملة أحمل مفعول أراني الثاني وفوق رأسي ظرف متعلق بأحمل أو بمحذوف حال من خبزا لأنه كان في الأصل صفة له فلما تقدم أعرب حالا ، وخبزا مفعول به وجملة تأكل الطير منه صفة لخبزا . (نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) فعل أمر ونا مفعوله والفاعل مستتر تقديره أنت وبتأويله متعلقان بنبئنا وان واسمها وجملة

نراك خبرها ومن المحسنين متعلقان بنراك. (قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما) لا نافية ويأتيكما طعام فعل مضارع ومفعول به وفاعل وجملة ترزقانه

(433/398)

صفة لطعام وإلا أداة حصر ونبأتكما فعل وفاعل ومفعول به والميم والألف حرفان دالان على التثنية وقيل ظرف متعلق بنبأتكما وان وما في حيزها مضافة للظرف وجملة إلا نبأتكما نعت لطعام أو حال منه لأنه وصف. (ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) اسم الاشارة مبتدأ ومما خبر وجملة علمني صلة وعلمني ربي فعل ومفعول به وفاعل. (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ) ان واسمها وجملة تركت خبرها، وملة قوم مفعول به وجملة لا يؤمنون صفة لقوم وبالله متعلق بيؤمنون وهم مبتدأ وبالآخرة متعلقان بكافرون وهم تأكيد لهم وكافرون خبر هم وجملة إني تركت ابتدائية أو تعليلية وفي كلا الحالين لا محل لها من الاعراب. (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ) واتبعت عطف على تركت والتاء فاعله وملة آبائي مفعول به وإبراهيم بدل من آبائي واسحق ويعقوب عطف على ابراهيم. (ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) ما نافية وكان فعل ماض ناقص ولنا خبرها المقدم وان وما في حيزها اسمها المقدم وبالله متعلقان بنشرك ومن حرف جر زائد

وشيء مجرور لفظا مفعول به منصوب محلا . (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النّاسِ) ذلك مبتدأ ومن فضل اللّه خبر وعلينا متعلقان بفضل وعلى الناس معطوف على علينا . (وَلكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَشْكُرُونَ) الواو عاطفة ولكن واسمها وجملة لا يشكرون خبرها . (

(434/398)

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ) يا حرف نداء وصاحبي السجن منادى مضاف وعلامة نصبه الياء والسجن مضاف اليه ويجوز أن تكون هذه الاضافة من باب الاضافة للظرف إذ الأصل يا صاحبي في السجن ويجوز أن تكون من باب الاضافة إلى الشبيه بالمفعول به والمعنى يا ساكني السجن وسيأتي مزيد بحث عن معنى الاضافة في باب الفوائد ، أأرباب : الهمزة للاستفهام التقريري وأرباب مبتدأ ومتفرقون صفة وخير خبر وأم حرف عطف وهي هنا متصلة واللّه عطف على أرباب والواحد صفة والقهار صفة ثانية . (ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ) ما نافية وتعبدون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل ومن دونه حال وإلا أداة حصر وأسماء مفعول به وجملة سميتموها صفة والتاء فاعل وأنتم تأكيد للتاء وآباؤكم عطف على التاء قال صاحب الخلاصة :

وإن على ضمير رفع متصل عطفت فافصل بالضمير المنفصل

)

(435/398)

ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ) ما نافية وأنزل اللّه فعل وفاعل وبها متعلقان بأنزل ومن حرف جر زائد وسلطان مجرور لفظا مفعول به منصوب محلا والجملة نعت أو حال لأن اسماء وصفت . (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) إن نافية والحكم مبتدأ وإلا أداة حصر وللّه خبر الحكم وجملة أمر مستأنفة أو حالية والأول أضبط وأن مصدرية ولا نافية وتعبدوا فعل مضارع منصوب بأن وأن وما بعدها منصوب بنزع الخافض وهو متعلق بأمر أي أمركم بأن لا تعبدوا ويجوز أن تكون مفسرة ، ولا ناهية وتعبدوا مجزوم بلا وإلا أداة حصر وإياه مفعول تعبدوا . (ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) ذلك مبتدأ والدين خبر والقيم صفة ولكن الواو استئنافية أو حالية ولكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها . (يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً) يا صاحبي السجن تقدم اعرابها وأما حرف شرط وتفصيل وأحدكما مبتدأ والفاء رابطة وجملة يسقي خبر أحدكما وربه مفعول به أول وخمرا مفعول به ثان وانما أبهم الساقي لكونه مفهوما أو لكراهة

التصريح للخباز بأنه الذي سيصلب. (وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ) وأما الآخر عطف على أما الأولى والآخر مبتدأ

والفاء رابطة وجملة يصلب خبر، فتأكل الطير: الفاء عاطفة وتأكل عطف على يصلب والطير فاعل وتأكل ومن رأسه متعلقان بتأكل.

(قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ) قضي الأمر فعل ماض مبني للمجهول والأمر نائب فاعل والذي صفة للأمر وفيه متعلقان بتستفتيان.

البلاغة:

في قوله تعالى (إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً) مجاز مرسل علاقته ما يكون وما يئول اليه فقد سمى العنب خمرا لأنه يئول إلى الخمر ويقال فلان يطبخ الآجر أي يطبخ اللبن حتى يصير آجرا وقيل: الخمر هو العنب حقيقة في لغة غسان وأزد وعمان، وعن المعتمر: لقيت أعرابيا حاملا عنبا في وعاء فقلت ما تحمل؟ فقال خمرا وعلى هذا يكون الكلام حقيقيا لا مجازيا والأول أرجح.

الفوائد:

معنى الاضافة :

تكون الاضافة على معنى اللام بأكثرية لأنها الأصل وعلى معنى من بكثرة ومن ذلك اضافة العدد إلى المعدودات والمقادير إلى المقدورات كثلاثة الأثواب ومائة درهم ومن ذلك اضافة عدد إلى آخر نحو ثلاثمائة وعلى معنى " في " بقلّة ، وضابط الاضافة التي تكون بمعنى في أن يكون الثاني ظرفا للأول وهو المضاف سواء أكان زمانا أم مكانا فالزمان نحو مكر الليل وتربص أربعة أشهر والمكان نحو " يا صاحبي السجن " فالليل ظرف للمكر والسجن ظرف للصاحبين والتقدير مكر

في الليل وصاحبين في السجن وضابط الاضافة التي تكون بمعنى من ان يكون الاول وهو المضاف بعض الثاني وهو المضاف اليه كخاتم فضة ألا ترى أن الخاتم بعض جنس الفضة المضاف إليها وان يصح الاخبار بالمضاف اليه عن المضاف فانه يقال هذا الخاتم فضة .

هذا وذهب الجمهور إلى أن الاضافة قسمان فقط : بمعنى اللام وبمعنى من ولا ثالث لهما ، وما أوهم معنى " في " فهو على معنى اللام مجازا ، وجعل الليل ماكرا والسجن صاحبا ، لوقوع المكر والصحبة فيهما .

[سورة يوسف (12) : الآيات 42 إلى 49]

وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ (43) قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (44) وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)

قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)

اللغة :

(بِضْعَ سِنِينَ) : البضع : ما بين الثلاث إلى التسع وأكثر الأقاويل على انه لبث فيه سبع سنين قال أحد علماء اللغة : والبضع بالكسر والفتح ما بين واحد إلى خمسة في قول أبي عبيدة وقال غيره ما بين واحد إلى عشرة والبضع بالفتح الشق والبضع بالضم النكاح قال بعضهم : شقّ وري وجماع بضع ما بين واحد وعشر بضع

وفي الأساس : " وعندي بضعة عشر من الرجال وبضع عشرة من النساء ، الذكور بالتاء والإناث بطرحها ، على سنن حكم العدد .

(438/398)

وأقمت عنده بضع سنين وهو ما بين الثلاث إلى العشر " وفي القاموس والتاج : " البضع والبضع الطائفة من الليل وما بين الثلاث إلى التسع يقال بضع سنين وبضع عشرة من النساء وبضع وعشرون امرأة ومع المذكر بضعة عشر من الرجال وبضعة وعشرون رجلا ويجب تقديم بضع فلا يقال عشرون وبضع " وقال الحريري في درة الغواص :

" البضع أكثر ما يستعمل فيما بين الثلاث إلى العشر وأسند ذلك إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم في تفسير قوله تعالى : " وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين " وذلك أن المسلمين كانوا يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب ، والمشركون يميلون إلى أهل فارس لأنهم أهل أوثان فلما بشر اللّه المسلمين بأن الروم سيغلبون سر المسلمون ثم ان أبا بكر رضي اللّه عنه أخبر مشركي قريش بما نزل عليهم فقال أمية بن خلف خاطراني على ذلك فخاطره على خمس قلائص في مدة ثلاث سنين ثم أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فسأله عن البضع فقال ما بين الثلاثة إلى العشرة فأخبره بخطاره مع ابن خلف فقال له : ما

حملك على تقريب المدة؟ قال الثقة بالله ورسوله فقال له: عد إليهم فزدهم في الخطر وازدد في الأجل فزادهم قلوصين وزادوه سنتين فظفرت الروم بفارس قبل انقضاء الأجل الثاني تصديقا لتقدير أبي بكر رضي الله عنه.

(سِمانٍ): جمع سمينة ويجمع سمين أيضا عليه يقال رجال سمان كما يقال نساء سمان والسمن مصدر سمن يسمن فهو سمين فالمصدر والاسم جاءا على غير قياس إذ قياسهما سمنا بالفتح فهو سمن نحو فرح فرحا فهو فرح وفي المصباح: "سمن يسمن من باب تعب وفي لغة من باب قرب إذا كثر لحمه وشحمه ويتعدى بالهمزة وبالتضعيف" ومن المجاز كلام غثّ وسمين، وقد أسمنت القدر، ودار سمينة: كثيرة الأهل، وسمّنوا لفلان: أعطوه عطاء كثيرا، وسمّنت في الحمد أعطيت فيه الكثير، قال ابن مقبل:

تركت الخنا لست من أهله وسمّنت في الحمد حتى سمن

وسمع أعرابي يقول لآخر: جعلت لك الدار بغير ثمن ليكون أسمن لحظي عندك، وانقلب بلدهم سمنة وعسلة إذا كثرتا فيه وفي مثل "سمنكم هريق في أديمكم" أي ما لكم ينفق عليكم.

(عِجافٌ) : جمع عجفاء على غير قياس والعجف الهزال الذي ليس بعده والسبب في وقوع عجاف جمعا لعجفاء وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال حمله على سمان لأنه نقيضه ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض والقياس عجف نحو حمراء وحمر .

(رُءْيايَ) : فرق أرباب العربية بين الرؤيا والرؤية فقالوا : الرؤيا مصدر رأى الحلمية والرؤية مصدر رأى العينية وغلطوا أبا الطيب في قوله :

مضى الليل والفضل الذي لك لم يمض ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

وقال أبو البقاء في شرحه لديوان المتنبي : " والرؤيا تستعمل في المنام خاصة ومنه قوله تعالى " لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق " و " لا تقصص رؤياك على إخوتك " و " إن كنتم للرؤيا تعبرون " و " قد صدقت الرؤيا " وهذا كله في المنام ولو قال " لقياك " لكان أحسن إلا أنه ذهب بالرؤيا إلى الرؤية كقوله تعالى " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك " فإنه لم يرد بها رؤيا المنام وانما أريد اليقظة وكان ذلك ليلا في ليلة الاسراء " .

وقال أبو الفتح بن جني : " الرؤيا في المنام وأما في العين فلا أعرفها وإن جاءت فهي شاذة " .

وقال ابن هشام في أوضح المسالك : " ولا تختص الرؤيا بمصدر الحلمية بل قد تقع مصدرا للبصرية خلافا للحريري وابن مالك بدليل :

" وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس " قال ابن عباس : هي رؤيا عين ولكن المشهور

استعمالها في الحلمية .

واقتصر صاحب القاموس على أن الرؤيا في الحلم قال : " والرؤيا ما رأيته في منامك "

وجمعه رؤى كهدى .

)

(440/398)

تَعْبُرُونَ) : من باب نصر ينصر ويستعمل أيضا بالتشديد كعلّم تعليما وحقيقة عبرت الرؤيا ذكرت عاقبتها وآخر أمرها كما تقول عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره أو نحوه أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها وعبرت الرؤيا بالتخفيف هو الذي اعتمده الإثبات ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب الكامل لبعض الاعراب :

رأيت رؤيا ثم عبرتها وكنت للأحلام عبارا

وفي القاموس : العبار مبالغة العابر ومفسر الأحلام وجمل عبار قوي على السير وشاع العبر اليوم بالفتح والكسر وهو من الوادي شاطئه وناحيته أما العبر بالضم فهو الكثير من كل شيء والعبارة بالكسر مصدر والاسم من عبّر والألفاظ الدالة على معنى ويقال فلان

حسن العبارة أي البيان وهذا عبارة عن كذا أي بمعناه ومساوله في الدلالة .

(أَضْغاثُ أَحْلامٍ) تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحزم الواحد ضغث فاستعيرت لذلك والاضافة بمعنى من أي أضغاث

من أحلام وفي المثل "ضغث على إبالة" الإبّالة بكسر الهمزة وتشديد الباء الحزمة من الحشيش والحطب والضغث قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس ومعنى المثل بلية على أخرى ويضرب أيضا مثلا للرجل يحمّل صاحبه المكروه ثم يريده منه .

(ادَّكَرَ) : بالدال وهو الفصيح ويجوز واذّكر بالذال المعجمة وأصلها اذتكر افتعل من الذكر فوقعت تاء الافتعال بعد الذال فأبدلت دالا فاجتمع متقاربان فأبدل الاول من جنس الثاني وادغم .

(أُمَّةٍ) : بضم الهمزة وتشديد الميم وتاء منونة وهي المدة الطويلة والأمة معروفة والإمة بكسر الهمزة النعمة وقرىء بها أيضا قال عدي :

ثم بعد الفلاح والملك والإمة ووارتهم هناك القبور

الاعراب :

)

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) وقال عطف على ما قبله وفاعله يوسف وللذي متعلقان به وجملة ظن صلة وفاعل ظن يوسف أيضا وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي ظن وان واسمها وناج خبرها ومنهما حال أي حال كون الناجي من جملة الاثنين وهو الساقي وجملة اذكرني مقول القول وعند ربك ظرف متعلق بمحذوف حال.

(فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) فأنساه الشيطان الفاء عاطفة وأنساه فعل ومفعول به والضمير يعود إلى الساقي والشيطان فاعل والمعنى فأنساه الشيطان أن يذكر يوسف عند الملك وقيل فأنسي يوسف ذكر ربه حين وكل أمره إلى غيرة. ذهب كثير من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو الذي نجا

من الغلامين وهو الشرابي وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله سبحانه وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فاذا نسيت فذكروني" ورجح أيضا بأن النسيان ليس بذنب فلو كان الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين وأجيب بأن النسيان هو الترك وانه عوقب بسبب استعانته بغير

اللّه سبحانه ويؤيد رجوع الضمير إلى يوسف ما بعده من قوله : فلبث في السجن بضع سنين ويؤيد رجوعه إلى الذي نجا من الغلامين قوله فيما سيأتي : وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة . وذكر مفعول به ثان ، فلبث الفاء عاطفة ولبث فعل وفاعل مستتر وفي السجن جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وبضع سنين نصب على الظرفية متعلق بلبث .

)

(442/398)

وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ) إن واسمها وجملة أرى خبرها وسبع بقرات مفعول به وسمان صفة لبقرات وسيأتي في باب الفوائد لما ذا وصفت البقرات دون سبع ويأكلهن سبع فعل مضارع ومفعول به وفاعل وعجاف صفة لسبع وجملة يأكلهن في محل نصب مفعول ثان لأرى ، وعبر بالمضارع لاستحضار الصورة . (وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ) وسبع عطف على سبع الأولى وسنبلات مضاف اليه وخضر صفة لسنبلات وأخر عطف على سبع وسيأتي القول في منعها من الصرف في باب الفوائد ويابسات صفة لأخر . (يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ) أفتوني

فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والياء مفعول به وفي رؤياي متعلقان بأفتوني وإن شرطية وكنتم كان واسمها وهي في

(443/398)

محل جزم فعل الشرط وجملة تعبرون خبر كنتم والجواب محذوف دل عليه ما قبله أي فأفتوني في رؤيا وقوله للرؤيا الجار والمجرور فيه أوجه أحدها ان اللام للبيان كقوله وكانوا فيه من الزاهدين فهي ومجرورها في محل نصب حال وإما أن تكون للتقوية لأن العامل إذا تقدم عليه معموله لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل إذا قلت عابر للرؤيا لانحطاطه عن الفعل في القوة فهي في حكم المزيدة فلا تعلق بشيء وانما زيدت لمجرد التقوية ويجوز أن تكون خبر كنتم كما تقول كان فلان لهذا الأمر إذا كان مضطلعا به متمكنا منه وعندئذ تكون جملة تعبرون خبرا ثانيا لكنتم . قال المبرد في الكامل : وهذه اللام تزاد في المفعول على معنى زيادتها في الاضافة ، تقول هذا ضارب زيدا وهذا ضارب لزيد ، لأنها لا تغير معنى الاضافة إذا قلت هذا ضارب زيد وضارب له ، وفي القرآن " وأمرت لأن أكون أول المسلمين " وكذلك " إن كنتم للرؤيا تعبرون " (قَالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ) قالوا فعل وفاعل وأضغاث أحلام خبر

لمبتدأ محذوف أي هذه أضغاث أحلام وتخاليط أوهام والجملة مقول القول وسيأتي سر جمعها في باب البلاغة وما الواو عاطفة وما نافية حجازية ونحن اسمها وبتأويل متعلقان بعالمين والباء حرف جر زائد وعالمين مجرور بالباء لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس.

(وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) الواو عاطفة وقال الذي فعل وفاعل وجملة نجا صلة ومنهما حال وادكر عطف على نجا وبعد أمة متعلقان بادكر ويجوز أن تكون الواو حالية وجملة نجا حالية من الموصول أو من عائده أي فاعل نجا. (

أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) أنا مبتدأ وجملة أنبئكم خبر والكاف مفعوله وبتأويله متعلقان بأنبئكم فأرسلون الفاء الفصيحة وأرسلوني فعل أمر وفاعل ومفعول به أي ان

(444/398)

شئتم تعبير الرؤيا فأرسلوني. (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ) لا بد من تقدير محذوف أي فأرسلوه فأتى يوسف في السجن فقال، ويوسف منادى محذوف منه حرف النداء وأيها منصوب محلا على الاختصاص لأنه مبني على الضم والصديق بدل منه أو عطف بيان له تابع له على اللفظ وسيأتي بحث الاختصاص في باب الفوائد وأفتنا فعل أمر مبني على حذف حرف

العلة وفاعله مستتر تقديره أنت ونا مفعول به وفي سبع جار ومجرور متعلقان بأفتنا وبقرات مضاف اليه وجملة يأكلهن سبع عجاف صفة لبقرات وما بعده عطف عليه . (لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) لعل واسمها وجملة أرجع خبرها والى الناس متعلقان بأرجع ولعلهم يعلمون مثلها . (قال : تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً) جملة تزرعون مقول القول وسبع سنين ظرف متعلق بتزرعون ودأبا حال من المأمورين أي دائبين أو مصدر لفعل محذوف أي تدأبون دأبا .

)

(445/398)

فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) الفاء عاطفة وما يجوز أن تكون شرطية أو موصولة وهي في محل نصب مفعول مقدم لحصدتم على الحالين ، وحصدتم فعل وفاعل فذروه الفاء واقعه في جواب الشرط أو الموصول لما فيه من رائحة الشرط وذروه فعل وفاعل ومفعول به وفي سنبله متعلقان فذروه وإلا أداة استثناء وقليلا مستثنى واجب النصب ومما صفة لقليلا وجملة تأكلون صلة . (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ) ثم حرف عطف وتراخ ويأتي فعل مضارع ومن بعد ذلك حال وسبع فاعل يأتي وشداد صفة

لسبع . (يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ) جملة يأكلن صفة ثانية لسبع والنون فاعل وما مفعول به وجملة قدمتم صلة ما ولهن متعلقان بقدمتم وإلا أداة استثناء وقليلا مستثنى ومما صفة لقليلا وجملة تحصنون صلة . (ثُمَّ يَأْتِي

مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)

عطف أيضا وجملة فيه يغاث الناس صفة لعام ويعصرون عطف على يغاث أي يعصرون الأعناب وغيرها .

البلاغة :

1- المبالغة :

فقد جمعوا لفظ الضغث فقالوا أضغاث أحلام وجعلوه خبرا للرؤيا مع ايها واحدة للمبالغة في وصف الحلم بالبطلان أو لانطوائه على أشياء متباينة ولفظ الجمع كما يدل على كثرة الذوات يدل أيضا على المبالغة في الاتصاف كما في قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك إلا فرسا واحدة وعمامة فردة .

2- نفي الشيء بإيجابه :

وقد تقدمت الاشارة اليه ونزيده هنا بسطا لأنه من محاسن الكلام فإذا تأملته وجدت باطنه نفيا وظاهره إيجابا قال امرؤ القيس :

على لا حب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود النباطي جرجرا

فقوله لا يهتدى بمناره لم يرد أن له منارا لا يهتدى به ولكن أراد أنه لا منار له على الإطلاق فضلا عن الاهتداء به وكذلك قول زهير ابن أبي سلمى :

(446/398)

بأرض خلاء لا يسدّ وصيدها علي ومعروفي بها غير منكر

فأثبت لها في اللفظ وصيدا وإنما أراد ليس لها وصيد فيسدّ علي ، ويتصل بهذا قول الزبير بن عبد المطلب يذكر عميلة بن السباق بن عبد الدار وكان نديما له وصاحبا :

صبحت بهم طلقا يراح إلى الندى إذا ما انتشى لم تحتضره صاقره

ضعيفا يحث الكأس قبض بنانه كليلا على وجه النديم أظافره

فظاهر كلامه أنه يخمش وجه النديم إلا أن أظفاره كليلة وانما أراد في الحقيقة انه لا يظفّر وجه النديم ولا يفعل شيئا من ذلك وكذلك قوله لم تحتضره مفاقره أي ليس له مفاقر فتحتضره وسيأتي ما هو أبلغ من ذلك في حينه وهو قوله تعالى : "لا يسألون الناس إلحافا " أي لا يسألون البتة وفي الآية التي نحن بصددها أراد البارئ تعالى نفي الأحلام الباطلة خاصة كأنهم قالوا : ولا تأويل للأحلام الباطلة فنكون به عالمين ويزداد الحسن اكتمالا بالمواءمة فقد قال الملك لهم أولا "إن كنتم للرؤيا تعبرون" للتدليل على أنهم لم يكونوا في

علمه عالمين بها لأنه أتى بكلمة " إن " التي تفيد التشكيك رجاء اعترافهم بالقصور مطابقا لشك الملك الذي أخرجه مخرج الاستفهام عن كونهم عالمين بالرؤيا أولا وقول الفتى أنا أنبئكم بتأويله إلى قوله لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون دليل على ذلك أيضا فسبحان قائل هذا الكلام .

الفوائد :

1- أوقع سبحانه قوله " سمان " صفة للميّز وهو بقرات دون

المميّز وهو سبع والفرق بين الأمرين وكلاهما جائز في قواعد النحو أنك لو أوقعتها صفة لبقرات فقد أردت أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهن خاصة لا بجنسهن ولو أوقعتها صفة لسبع فقد أردت أن تميز السبع بجنس البقرات لا بنوع خاص منها ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن .

2- دلت كلمة أخر على أن السنبلات اليابسات كانت سبعا كالخضر دون التصريح بالعدد ذلك لأن الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ويكون قوله وأخر يابسات بمعنى

وسبعا أخر .

3- أخر :

صفة معدولة عن وزن آخر ولعدل الصفة موضعان :

آ- الاعداد على وزن " فعال ومفعل " كأحاد وموحد وثناء ومثنى وثلاث ومثلث ورباع ومربع وهي معدولة عن واحد واحد واثنين اثنين إلخ فإذا قلت جاء القوم مثنى فالمعنى أنهم جاءوا اثنين اثنين وقد قالوا أن العدل في الأعداد مسموع عن العرب إلى الأربعة غير أن النحويين قاسوا ذلك إلى العشرة والحق انه مسموع في الواحد والعشرة وما بينهما قال أبو الطيب :

أحاد أم سداس في أحاد لييلتنا المنوطة بالتناد

ب- أخر في قولك مررت بنساء أخر وقال تعالى " فعدة من أيام أخر " وهي جمع أخرى مؤنث آخر ، وآخر بفتح الخاء اسم

تفضيل على وزن أفعل بمعنى مغاير وكان القياس أن يقال مررت بنساء آخر كما يقال مررت بنساء أفضل لأن اسم التفضيل إذا كان مجردا من من أل والاضافة لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع .

4- الاختصاص :

هو نصب الاسم بفعل محذوف وجوبا تقديره أخص أو أعني ولا يكون هذا الاسم إلا بعد

ضمير لبيان المراد منه نحو: نحن العرب نكرم الضيف، فنحن مبتدأ وجملة نكرم الضيف خبر والعرب منصوب على الاختصاص بفعل محذوف تقديره أخص وجملة الفعل المحذوف معترضة بين المبتدأ وخبره وليس المراد الاخبار عن نحن بالعرب بل المراد أن إكرام الضيف مختص بالعرب ومقصور عليهم ومنه قول أبي عبادة البحتري:

نحن أبناء يعرب، أعرب النا س لسانا وأنضر الناس عودا

(448/398)

و قد يكون الاختصاص بلفظ أيها وأيتها فيستعملان كما يستعملان في النداء فيبنيان على الضمّ ويكونان في محل نصب بأخص محذوفا وجوبا ويكون ما بعدهما اسما محلى بأل لازم الرفع على أنه صفة أو بدل للفظهما ولا يجوز نصبه على أنه تابع لمحلهما كما في الآية الكريمة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 50 إلى 53]

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ

الْخائِنِينَ (52) وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)

اللغة:

(خَطْبُكُنَّ): شأنكن وهو في الأصل مصدر خطب يخطب وإنما يخطب في الأمور العظام

وفي المختار: "الخطب الأمر تقول:

ما خطبك قال الأزهري أي ما أمرك وتقول هذا خطب جليل وخطب يسير وجمعه خطوب" وفي القاموس والتاج: الخطب مصدر وهو الشأن يقال: ما خطبك؟ أي ما شأنك وما الذي حملك عليه، وغلب استعماله للأمر المكروه العظيم.

(حَصْحَصَ): أي ثبت واستقر وقال الخليل: حصحص معناه تبين وظهر بعد خفاء وقال بعضهم هو مأخوذ من الحصة والمعنى بانت

حصة الحق من حصة الباطل كما تتميز حصص الأراضي وغيرها، وقال الراغب:

حصحص الحق وذلك بانكشاف ما يغمره وحص وحصحص نحو كفّ وكفكف وحصه قطعه إما بالمباشرة وإما بالحكم والحصة القطعة من الجملة وتستعمل استعمال النصيب

وفي الصحاح :

هو من حصحص البعير إذا ألقى ثفناته للاناخة قال :

فحصحص في صم الصفا ثفناته وناء بسلمى نوءة ثم صمما

والثفنات هي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ كالركبتين وغيرهما .

وقيل هو من الحص وهو ذهاب الشعر فتبين ما تحته والحاء الثانية مبدلة من صاد ثالثة وإذا اجتمع الأمثال في مثل هذا أبدلت العرب من الحرف الأوسط حرفا من الجنس السابق ومثله حثحثت ورقرقت أصلهما حثثت ورققت هذا قول الكوفيين وقال البصريون هما لغتان تقاربتا إذ لا يبدل الحرف إلا من مثله أو من مقاربه في المخرج وهذه الحروف متباعدة لا يصح إبدالها .

الاعراب :

(

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ) معطوف على محذوف أي لما جاءه الرسول وأخبره بتأويلها فقال الملك ، وجملة ائتوني به مقول القول ، فلما : الفاء عاطفة ولما حينية ظرفية أو رابطة وجاءه الرسول فعل ومفعول به مقدم وفاعل . (قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) مهّد لتأويل الحلم بسؤال النسوة ليظهر براءة ساحته مما

قرف به وسجن من أجله وفي الحديث عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : " لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره واللّه يغفر

(450/398)

له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني " وارجع فعل أمر وفاعله أنت والى ربك جار ومجرور متعلقان بارجع ، فاسأله معطوف على ارجع والهاء مفعول به وما اسم استفهام مبتدأ وبال خبر والجملة في محل نصب مفعول اسأله المعلقة عن العمل بالاستفهام والنسوة مضاف لبال واللاتي موصول صفة وجملة قطعن أيديهن صلة . (إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) ان واسمها وبكيدهن متعلقان بعليم وعليم خبران . (قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ) ما اسم استفهام مبتدأ وخطبكن خبر وإذ ظرف متعلق بخطبكن لأنه في معنى الفعل والمعنى ما فعلتن وما أردتن به في ذلك الوقت وجملة راودتن في محل جر باضافة الظرف إليها وراودتن فعل وفاعل ويوسف مفعول به وعن نفسه متعلقان براودتن . (قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) حاش تقدم القول فيها أي تنزيها له عن أن يتصف بالعجز عن خلق بشر عفيف مثل هذا وللّه بيان وما نافية وعلمنا فعل وفاعل وعليه متعلقان بعلمنا ومن حرف جر زائد

وسوء مجرور لفظا بمن منصوب محلا على انه مفعول علمنا (قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ) قالت امرأة العزيز فعل وفاعل والآن ظرف زمان متعلق بحصحص والحق فاعل حصحص. (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) أنا مبتدأ وجملة راودته خبر وهي فعل وفاعل ومفعول به وعن نفسه متعلقان براودته والواو حرف عطف وان واسمها واللام المزحلقة ومن الصادقين خبر انه. (

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) اختلف المفسرون في قائل هذا الكلام ومن الصعب البت في الأمر أو الترجيح فلنقل القولين قال بعضهم: من كلام يوسف أي ذلك التشمر والتثبت لظهور البراءة ليعلم

(451/398)

العزيز اني لم أخنه، قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام انسان آخر إذا دلت القرينة الصارفة لكل منهما إلى ما يليق به والاشارة إلى الحادثة الواقعة منه وهي تثبته وتأنيه. وقال آخرون هو من كلام زنيخاء والمعنى ذلك الذي قلت ليعلم يوسف اني لم أخنه ومهما يكن من أمر فذلك مبتدأ، وليعلم اللام للتعليل ويعلم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور خبر ويجوز أن يراد هذا الكلام لعموم الأحوال فذلك عندئذ

خبر لمبتدأ محذوف أي فالأمر ذلك وان وما بعدها في تأويل مصدر سد مسد مفعولي يعلم وجملة لم أخنه خبر اني وبالغيب في محل نصب حال من الفاعل أو المفعول ويجوز أن يكون ظرفا أي بمكان الغيب فيعلق بأخنه وأن الله عطف على أني وجملة لا يهدي خبر ان وكيد الخائنين مفعول به . (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) الواو حالية وما نافية وأبرىء نفسي فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وإن النفس ان واسمها واللام المزحلقة وأمارة بالسوء خبرها وإلا أداة استثناء ، وما يجوز أن تكون مصدرية وموضعها النصب والتقدير إن النفس لأمارة بالسوء إلا لمن رحم ربي ، وانتصابه على الظرف ، ويجوز أن تكون ما بمعنى من والتقدير ان النفس لتأمر بالسوء إلا لمن رحم ربي أو إلا نفسا رحمها ربي فانها لا تأمر بالسوء . وعبارة أبي حيان : " والظاهر ان إلا ما رحم ربي استثناء متصل من قوله لأمارة بالسوء لأنه أراد الجنس بقوله : إن النفس فكأنه قال : إلا النفس التي رحمها ربي فلا تأمر بالسوء فيكون استثناء من الضمير المستكن في أمارة ويجوز أن يكون مستثنى من مفعول أمارة المحذوف إذ التقدير لأمارة بالسوء صاحبها إلا الذي

رحمه ربي فلا تأمره بالسوء وجوزوا أن يكون مستثنى من ظرف الزمان المفهوم عمومه من ما قبل الاستثناء وما ظرفية إذ التقدير لأمارة بالسوء مدة بقائها إلا وقت رحمة اللّه العبد وذها به بها عن اشتهاء المعاصي وجوزوا أن يكون استثناء منقطعا وما مصدرية ، وذكر ابن عطية أنه قول الجمهور أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الاساءة. (إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) ان واسمها وخبراها .

البلاغة :

رجح البلاغيون أن يكون الكلام " ذلك ليعلم . . . " من قول زليخا ، لأنه أقرب إلى المقام وأليق بمقام الغزل حيث يفدي المحب من يحب بنفسه ، ألا ترى انه عند ما استحكمت المحنة وبلغت النهاية فدته بنفسها فقالت : (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ " وتقربت إلى قلبه بقولها " ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب " وما أحسن قول كثير وقد رمق سماء هذا المعنى في التقرب إلى المحبوب وخلب قلبه بهذا التلطف :

يود بأن يمسي عليلا لعلها إذا سمعت شكواه يوما تراسله

ويهتز للمعروف في طلب العلا لتحمد يوما عند ليلى شمائله

ويثبت ذلك أيضا قولها للنسوة اللواتي سمعت بمكرهن :

" فذلكن الذي لمتنني فيه " غير مكترثة لما فضحنها به . وقد رمق هذه السماء العالية أيضا جميل بن معمر الخزاعي فقال :

وما ذا عسى الواشون أن يتحدثوا سوى أن يقولوا : إنني لك عاشق

أجل صدق الواشون أنت حبيبة إليّ وإن لم تصف منك الخلائق

وقد رواهما صاحب الأغاني لمجنون بني عامر .

وقال عمرو بن ضبيعة الرقاشي أحد بني رقاش وهم منسوبون إلى أمهم :

ألا ليقل من شاء ما شاء إنما يلام الفتى فيما استطاع من الأمر

قضى اللّه حب المالكية فاصطبر عليه فقد تجري الأمور على قدر

وقد رمق أبو العتاهية بيتي جميل فقال :

قال لي أحمد ولم يدر ما بي أتحب الغداة عتبة حقا

فتنفست ثم قلت نعم حبا جرى في العروق عرقا فعرقا

(453/398)

ولقد أربى عليه بهذا التنفس الذي تتبعه كل نفس لطيفة .

الفوائد :

الآن :

الآن ظرف من ظروف الزمان معناه الزمن الحاضر وهو مبني على الفتح وفي علة بنائه

اشكال فذهب قوم إلى أنه بني لأنه وقع في أول أحواله معرفة بالألف واللام وحكم الاسماء أن تكون منكورة شائعة في الجنس ثم يدخل عليها ما يعرفها من إضافة وألف ولام فلما خالفت أخواتها من الاسماء بأن وقعت معرفة بأول أحوالها ولزمت موضعا واحدا بنيت لذلك لأن لزومها بهذا الموضع ألحقها بشبه الحروف وهذا رأي أبي العباس المبرد وشايعه الزمخشري وغيره وقال الفراأ أصله آن من آن الشيء يئين إذا أنى وقته يقال آن لك أن تفعل كذا وأنى لك قال عمرو بن حسان :

تمخضت المنون له بيوم أنى ولكل حاملة تمام

وآن فعل ماض فلما أدخل عليه الألف واللام ترك على ما كان عليه من الفتح كما جاء في الحديث أنه صلى اللّه عليه وسلم " نهى عن قيل وقال " وقيل وقال فعلان ماضيان فأدخل الخافض عليهما وتركهما على ما كانا عليه وهناك تعليلات أخرى ضربنا عنها صفحا لأنه لا طائل تحتها . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 4 صـ 488 : حـ 5 صـ 11﴾

(454/398)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والتسعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والتسعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 54 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 68 ﴾ من نفس السورة

(4/399)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتم ما قدمه مما هو الأهم - من نزاهة الصديق ، وعلم الملك ببراءته وما يتبعها - على ما كان قلبه من أمر الملك بإحضاره إليه ، أتبعه إياه عاطفاً له على ما كان في نسقه من قوله ﴿ قال ما خطبكن ﴾ فقال : ﴿ وقال الملك ﴾ صرح به ولم يستغن بضميره كراهية الإلباس لما تخلل بينه وبين جواب امرأة العزيز من كلام يوسف عليه الصلاة والسلام ، ولو كان

الكل من كلامها لاستغنى بالضمير ولم يحتج إلى إبرازه ﴿ ائتوني به أستخلصه ﴾ أي أطلب وأوجد خلوصه ﴿ لنفسي ﴾ أي فلا يكون لي فيه شريك ، قطعاً لطمع العزيز عنه ، ودفعاً لتوهم أنه يرده إليه ، ولعل هذا هو مراد يوسف عليه الصلاة والسلام بالتلبث في السجن إلى إنكشاف الحال ، خوفاً من أن يرجع إلى العزيز فتعود المرأة إلى حالها الأولى فيزداد البلاء .

ولما كان التقدير : فرجع رسول الملك إليه فأخبره أن الملك سأل النسوة فقلن ما مضى ، وأمر بإحضاره ليستخلصه لنفسه ، فقال يوسف عليه الصلاة والسلام ما تقدم من تلك الحكم البالغة ، وأجاب أمر الملك فأتى إليه بعد أن دعا لأهل السجن فقال : اللهم ! عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار ، وكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى ، وقبور الأحياء ، وبيوت الأحزان ، وتجربة الأصدقاء ، وشماتة الأعداء .

(5/399)

ثم اغتسل وتنظف ولبس ثياباً جدداً وقصد إليه ، عطف عليه بالفاء - دليلاً على إسراعه في ذلك - قوله : ﴿ فلما كلمه ﴾ وشاهد الملك فيه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الوزارة وخلال السيادة ومخايل السعادة ﴿ قال ﴾ مؤكداً تمكيناً لقوله دفعاً لمن يظن

أنه بعد السجن وما قاربه لا يرفعه هذه الرفعة : ﴿ إنك اليوم ﴾ وعبر بما هو لشدة الغرابة تمكيناً للكلام أيضاً فقال : ﴿ لدينا مكين ﴾ أي شديد المكنة ، من المكانة ، وهي حالة يتمكن بها صاحبها من مراده ﴿ أمين ﴾ من الأمانة ، وهي حال يؤمن معها نقض العهد ، وذلك أنه قيل : إن الملك كان يتكلم بسبعين لساناً فكلمه بها ، فعرفها كلها ، ثم دعا للملك بالعبراني ، فلم يعرفه الملك فقال له : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان آبائي ، فعظم عنده جداً ، فكأنه قيل : فما قال الصديق ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ ما يجب عليه من السعي في صلاح الدين والدنيا ﴿ اجعلني ﴾ قيماً ﴿ على خزائن الأرض ﴾ أي أرض مصر التي هي لكثرة خيرها كأنها الأرض ؛ ثم علله بما هو مقصود الملوك الذي لا يكادون يقفون عليه فقال : ﴿ إني حفيظ ﴾ أي قادر عل ضبط ما إليّ أمين فيه ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم بوجوه صلاحه واستنمائه فأخبر بما جمع الله له من أداتي الحفظ والفهم ، مع ما يلزم الحفظ من القوة والأمانة ، لنجاة العباد مما يستقبلهم من السوء ، فيكون ذلك سبباً لردهم عن الدين الباطل إلى الدين الحق .

ولما سأل ما تقدم ، قال معلماً بأنه أجيب بتسخير الله له : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ما مكنا ليوسف في قلب الملك من المودة والاعتقاد الصالح وفي قلوب جميع الناس ، ومثل ما سأل من التمكين ﴿ مكنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ ليوسف في الأرض ﴾ أي مطلقاً لا سيما

أرض مصر بتولية ملكها إياه عليها ﴿ يتبوأ ﴾ أي يتخذ منزلاً يرجع إليه ، من باء – إذا رجع ﴿ منها حيث يشاء ﴾ بإنجاح جميع مقاصده ، لدخولها كلها تحت سلطانه .

(6/399)

لتبقى أنفس أهل المملكة وما ولاها على يده ، فيجوز الأجر وجميل الذكر مع ما يزيد به من علو الشأن وفخامة القدر ، فكأنه قيل : لم كان هذا ؟ فقال : لأمرين : أحدهما أن لنا الأمر كله ﴿ نصيب ﴾ على وجه الاختصاص ﴿ برحمتنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ من نشاء ﴾ من مستحق فيما ترون وغيره ، لا نسأل عما نفعل ، وقد شئنا إصابة يوسف بهذا ، والثاني أنه محسن يعبد الله فانياً عن جميع الأغيار ﴿ و ﴾ نحن ﴿ لا نضيع ﴾ بوجه ﴿ أجر المحسنين ﴾ أي العريقين في تلك الصفة وإن كان لنا أن نفعل غير ذلك ؛ روى أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم في أول فتوح مصر من طريق الكلبي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : فأتاه الرسول فقال : ألق عنك ثياب السجن ، والبس ثياباً جدداً ، وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رأى غلاماً حدثاً فقال : أيعلم هذا رؤياي ولا يعلمها السحرة والكهنة ! وأقعده قدامه ثم قال : قال عثمان – يعني ابن صالح – وغيره في حديثهما : فلما استنطقه وسايله عظُم في عينه ، وجل أمره في قلبه ، فدفع إليه خاتمة وولاه

ما خلف بابه – ورجع إلى ابن عباس قال : وضرب بالطبل بمصر أن يوسف خليفة الملك ؛ وعن عكرمة أن فرعون قال ليوسف : قد سلطتك على مصر غير أني أريد أن أجعل كرسيّ أطول من كرسيك بأربع أصابع ! قال يوسف : نعم .

ولما كان هذا مما يستعظمه الناس في الدنيا ، وكان عزها لا يعد في الحقيقة إلا إن كان موصولاً بنعيم الآخرة ، نبه على ما له في الآخرة مما لا يعد هذا في جنبه شيئاً ، فقال مؤكداً لتكذيب الكفرة بذلك : ﴿ ولأجر الآخرة خير ﴾ ولما كان سياق الأحكام على وجه عام لتعليقها بأوصاف يكون السياق مرغوباً فيها أو مرهباً منها أحسن وأبلغ ، قال : ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف ﴿ وكانوا ﴾ أي بجبلاتهم ﴿ يتقون ﴾ أي يوجدون الخوف من الله واتخاذ الوقايات منه إيجاداً مستمراً ، وهو من أجلهم حظاً وأعلاهم كعباً – كما تقدم بيانه مما يدل على كمال إيمانه وتقواه .

(7/399)

ولما كان من المعلوم أن من هذه صفاته يقوم بما وليه أتم قيام وينظر فيه أحسن نظر ، كان كأنه قيل : فجعله الملك على خزائن الأرض فدبرها بما أمره الله به وعلمه حتى صلح الأمر وجاء الخير وذهب الشر ، وإنما طوى هذا للدلالة عليه بلوازمه من قصة إخوته التي هي

المقصودة بالذات - كما سيأتي ، وقد فهم من هذه القصة أن الغالب على طبع مصر الرداءة : بغض الغريب ، واستذلال الضعيف ، والخضوع للقوي ، فإنهم أساؤوا إليه بالسجن بعد تحقق البراءة ، ثم عفا عنهم وأحسن إليهم بما استبقى به مهجهم ، ثم أعتقهم بعد أن استرقهم ، ورد إليهم أموالهم بعد أن استأصلها بما عنده من الغلال ، فجزوره على ذلك بأن استعبدوا أولاده وأولاد إخوته بعده وساموهم سوء العذاب ، وأدل دليل على أن هذا طبع البلد أن بني إسرائيل لما خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام وخلصهم من جميع ذلك الذل وشرفهم بما شرفهم الله به من الآيات العظام والكتاب المبين ، كانوا كل قليل ينكثون مجترئين على ما لا يطاق الاجتراء عليه ، وإذا أمرهم عن الله بأمر جنبوا عنه - كما مضى ذلك عن التوراة في الأعراف والبقرة وغيرهما ، فعاقبهم الله بالتيه ، وكان يسميهم الجيل المعوج - لما علم من سوء طباعهم ، حتى مات كل من نشأ بأرض مصر ، ثم صار أولادهم يمتثلون الأوامر حتى ملكوا ما وعد الله به آباءهم من البلاد ، وقد ذكر ذلك في زبور داود عليه الصلاة والسلام في غير موضع ، منها في المزمور الرابع والتسعين : هلموا نسجد ونركع ونخضع أمام الرب خالقنا ، لأنه إلهنا ونحن شعب رعيته ، وضأن ماشيته ، اليوم إذا سمعتم صوته فلا تقسو قلوبكم وتسخطوه كمثل السخط يوم التجربة في البرية حيث جربني آباؤكم ، فأحصوا أعمالي ونظروها ، أربعين سنة مقتُّ ذلك الجيل وقلت :

هو شعب في كل حين يطغون بقلوبهم ، فلم يعتدوا لسلبي كما أقسمت برجزي أنهم لا يدخلون راحتي .

(8/399)

آباؤنا بمصر لم يفهموا عجائبك ، ولم يذكروا كثرة رحمتك حين أغضوك وهم صاعدون من البحر الأحمر ، فنجيتهم باسمك لتظهر عجائبك ، زجر البحر الأحمر فجف ، أجازهم في اللجج كأنهم في البر ، خلصهم من أيدي الأعداء ، وأنقذهم من أيدي المبغضين ، وأطلق الماء على مبغضيهم فلم يبق منهم واحد ، فآمنوا بكلامه ، ومجدوا بسبحته .

(9/399)

ثم أسرعوا فنسوا أعماله ، ولم ينتظروا إرادته ، اشتهوا شهوة في البرية ، جربوا الله حيث لا ماء ، فأعطاهم سؤلهم ، وأرسل شبعاً لنفوسهم ، أغضبوا موسى في المعسكر وهارون قديس الرب ، انفتحت الأرض ، وابتلعت داثان ، وانطبقت على جماعة يبرون ، واشتعلت النار في محافلهم ، وأحرق اللهيب الخطأة ، صنعوا عجلاً في حوريب ،

وسجدوا للمنحوت ، وبدلوا مجدهم بشبه عجل يأكل عشباً ، ونسوا الله الذي نجاهم ، وصنع العظائم بمصر والعجائب في أرض حام ، والمهولات في البحر الأحمر ، قال : إنه يهلكهم لولا موسى صفيه قام بين يديه ليصرف سخطه ، لئلا يستأصلهم ، ورذلوا الأرض الشهيه ، ولم يؤمنوا بكلمته ، وتقمقموا في مضاربهم ، ولم يسمعوا قول الرب ، فرفع يده عليهم ليهلكهم في البرية ، ويفرق ذريتهم في الأمم ، ويبددهم في البلدان ، لأنهم قربوا لباعل فاغور ، وأكلوا ضحايا ميتة ، وأسخطوه بأعمالهم ، وكثر الموت فيهم بغتة ، فقام فنحاس واستغفر لهم ، فارتفع الموت عنهم ، فحسب ذلك برّاً لجيل بعد جيل إلى الأبد ، ثم أسخطوه على ماء الخصام ، وتألم موسى لأجلهم ، وأغضبوا روحه ، وخالفوا كلام شفتيه ، ولم يستأصلوا الأمم الذين أمرهم الرب ، واختلطوا بالشعوب وتعلموا أعمالهم ، فكانت عِشرة لهم ، ذبحوا بنيهم وبناتهم للشياطين ، وضحوا لأصنام كنعان ، ودنسوا الأرض بالدماء ، وتنجسوا بأعمالهم ، وزنوا بأفعالهم ، فاشتد غضب الرب على شعبه ، ورذل ميراثه ، فأسلمهم في أيدي الشعوب ، وسلط عليهم شناتهم ، واستعبدهم أعداؤهم وخضعوا تحت أيديهم ، مراراً كثيرة بجاهم ، وهم يسخطونه بأفكارهم ، وذلوا بسيئاتهم - انتهى ؛ على أنك إذا تأملت وجدت أن الله تعالى يعلي كعب الغريب الذي يستذلونه ويحل سعده ويؤثل مجده - كما فعل بيوسف عليه الصلاة والسلام بعد السجن وبني إسرائيل بعد

الاستعباد ، وهو نعم المولى ونعم النصير ! فليحذر الساكن بها من أن يغلب عليه طبعها فيتصف بكل ذلك من قلة الغيرة

(10/399)

وبغض الغريب ، والجرأة في الباطل استصناعاً ومداهنة ، والجبن في الحق ، وكمال الذل للجبارين ، والمجمجة في الكلام ، بأن لا يزال يتعهد نفسه بأوامر الله ويحملها على طاعته ، واتباع رسوله ومحبته ، والنظر في سيرته وسير أتباعه ، والتعشق لذلك كله ، حتى يصير له طبعاً يسلخه من طبع البلد ، كما فعل عُبادها ، وأهل الورع منها وزهادها - أعاذنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ونسأله أن يختم لنا بالصالحات ، وأن يجعلنا من الذين لا خوف عليهم أبداً .

ذكر ما مضى بعدما تقدم من هذه القصة من التوراة : قال : فلما كان بعد سنتين رأى فرعون رؤيا كأنه واقف على شاطىء البحر ، وكأن سبع بقرات صعدن من بحر النيل حسنات المنظر سمينات اللحوم ، يرعين في المرج ، وكأن سبع بقرات صعدن خلفهن من النيل قبيحات المنظر وحشيات مهزولات اللحوم ، فوقفن إلى جانب البقرات السمان على شاطىء النهر ، فابتلع البقرات القبيحات الحسنات المنظر السمينات ، فهب فرعون من

سنته ، ورقد أيضاً فرأى ثاني مرة كأن سبع سنبلات طلعن في قصبة واحدة ممتلئة سماناً ، وكأن سبع سنبلات مهزولات ضربهن ريح السموم – وفي نسخة : القبول – نبتن بعدهن ، فبلغ السنبل المهزول السبع سنبلات الممتلئات ، فاستيقظ فرعون فآذته رؤياه ، فلما كان بالغداة كربت نفس فرعون ، فأرسل فدعا جميع السحرة وكل حكماء مصر ، فقص عليهم رؤياه ، فلم يوجد إنسان يفسرها لفرعون .

فتكلم رئيس أصحاب الشراب بين يدي فرعون وقال : إني ذكرت يومي هذا ذنبي عند غضب فرعون على عبده ، فقذفني في محبس صاحب الشرطة ، فحبست أنا ورئيس الخبازين – وفي نسخة : الطباخين – فرأينا جميعاً رؤيا في ليلة واحدة ، رأى كل امرىء منا كتفسير رؤياه ، وكان معنا هناك في الحبس فتى عبراني عند صاحب الشرطة فقصصنا عليه ففسر أحلامنا ، وعبر لكل منا على قدر رؤياه ، وكل الذي فسر لنا كذلك أصابنا ، أما أنا فردني الملك إلى موضعي ، وأما ذلك فأمر بصلبه .

(11/399)

فأرسل فرعون فدعا يوسف عليه الصلاة والسلام ، فأحضروه من السجن ، فحلق شعره وغير ثيابه ، ودخل فوقف بين يدي فرعون ، فقال فرعون ليوسف عليه الصلاة والسلام :

إني رأيت رؤيا وليس لي من يفسرها ، وقد بلغني عنك أنك تسمع الرؤيا فتفسرها بأحسن تأويل ! فأجاب يوسف عليه الصلاة والسلام فقال لفرعون : ألعلك تخال أني أجيب فرعون بسلام عن غير أمر الله تعالى .

فقال فرعون ليوسف : إني رأيت في الرؤيا كأني واقف على شاطىء النهر ، وكأن سبع بقرات طلعن من النهر حسنات المنظر سمينات اللحم ، يرعين في المرج ، وكأن سبع بقرات طلعن من النهر بعدهن سمجات قبيحات المنظر مهزولات اللحم جداً ، لم أر على هزالها في جميع أرض مصر ، فابتلعت البقرات المهزولات الضعيفات القبيحات أولئك السبع بقرات السمان ، فدخلن أجوافهن ، فلم يتبين دخولهن ، وكأن منظرهن قبيحاً كالذي كان من قبل ، فانتبهت فاضطجعت فرأيت أيضاً في الرؤيا كأن سبع سنبلات حسنات في قصبة واحدة ممتلئة سماناً حساناً ، وكأن سبع سنبلات مهزولات ضربهن ريح السموم نبتن خلفهن ، فابتلع السنبل المهزول الضعيف السبع سنبلات الممتلئات الحسان ، فقصصت ذلك على السحرة ، فلم أجد من يبين .

فقال يوسف عليه الصلاة والسلام لفرعون : الرؤيا يا فرعون واحدة ، أطلع الله فرعون على ما هو مزيع أن يفعله ، السبع بقرات الحسان والسبع سنبلات الحسان هي سبع سنين : خير ، الرؤيا واحدة ، والسبع بقرات الضعيفات المهزولات اللاتي صعدان بعدهن والسبع

سنبلات المهزولات اللاتي ضربها ريح السموم تكون سبع سنين : جوع ، وهذا القول الذي قلت لفرعون .

(12/399)

إن الله أظهر ما هو مزمع عتيد أن يفعله ، وها هذه سبع سنين يأتي الشبع والخصب العظيم جميع أرض مصر ، ويأتي بعدها سبع سنين أخر يكون فيها الجوع ، وينسى جميع الشبع ، والخصب الذي كان في جميع أرض مصر ، فيبيد أهل الأرض من الجوع من أجل الغم الذي يأتي من بعد لكثرته وشدته ، وإنما أعيدت الرؤيا لفرعون ثاني مرة ، لأن الأمر معد بين يدي الرب ، والله معجل فعله .

والآن فلينظر فرعون رجلاً حكيماً فهماً .

فيوليه أرض مصر ، فيقاسم أهل مصر على الخمس في السبع السنين ، فيجمعوا جميع أفقال هذه السنين الخصبة الآتية ، ويخزنوا الأفقال تحت يدي فرعون ، ويحفظ القمح في القرى ، وليكن الفقل معداً محفوظاً لأهل مصر لسبع سني الجوع المزمع أن يكون في جميع أرض مصر ، ولا يبيد أهل الأرض بالجوع .

فحسن هذا القول عند فرعون وعند عبيده ، فقال فرعون لقواده : هل يوجد مثل هذا

الرجل الذي روح الله حالّ فيه؟ ثم قال فرعون ليوسف عليه الصلاة والسلام: إذا أطلعك الله على هذا كله، ليس أحد فهما مثلك، أنت المسلط على بيتي، وعن أمرك وقولي فيك يقبل جميع الشعب، وإنما أنا أعظم منك بالمنبر فقط، وقال فرعون ليوسف: انظر فقد وليتك جميع أرض مصر، وخلع فرعون خاتمه من خنصره، فوضعه في خنصر يوسف عليه الصلاة والسلام، وألبسه ثياب كتان، وطوقه بطوق من ذهب، وحمله على بعض مراكبه، ونادى بين يديه: هذا أب ومسلط، وسلطانه على جميع أرض مصر، ثم قال فرعون ليوسف عليه الصلاة والسلام: إني قد أمرت أن لا يكون أحد يشير بيديه أو يخطو بقدميه دون أمرك في جميع أرض مصر.

ودعا فرعون اسم يوسف: موضح الخفايا، وزوجه بأسنة - وفي نسخة: بأسنات - بنت قوطفيرع إمام إسكندرية - وفي نسخة: حبروان - فخرج يوسف عليه السلام والياً على جميع أرض مصر، وكان قد أتى على يوسف ثلاثون سنة إذ وقف بين يدي فرعون، فطاف في جميع أرض مصر.

وأغلّت الأرض في جميع السبع سني الخصب ، ملأ الخزائن وجمع الأقفال في القرى ، جمع قمح حقول كل قرية وما أحاط بها فخزنة فيها ، وخزن يوسف عليه الصلاة والسلام من الأقفال مثل كثيب – وفي نسخة : رمل البحر – كثيراً جداً حتى أعيى إحصاء ذلك فصار غير محصى .

فولد ليوسف عليه الصلاة والسلام ابنان قبل دخول سنة الجوع ، ولدت له أسنة – وفي نسخة : أسنات – نبت قوطيفرع حبر وان – وفي نسخة : إمام إسكندرية – فدعا يوسف عليه الصلاة والسلام اسم ابنه بكر منشا ، لأنه قال : إن الله أنساني جميع تعبي – وفي نسخة : شقائي – وما كان منه في بيت أبي ، وسمى الآخر أفراثيم ، وقال : لأن الله كثرني في أرض تعبدي ، فنفدت سنو الشبع الذي كان في أرض مصر ، وبدأت سنو الجوع ليأتي كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام ، فكان الجوع في جميع أرض مصر ، ولم يوجد الخبز في جميع أرض مصر ، فجاع جميع أهل مصر ، فضج الشعب على فرعون من أجل الخبز ، فقال فرعون لجميع المصريين : انطلقوا إلى يوسف عليه السلام فافعلوا جميع ما يأمركم به . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 65.59﴾

(14/399)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ حيث نشاء ﴾ بالنون : ابن كثير . الآخرون بياء الغيبة ﴿ أني أوف ﴾ بفتح ياء المتكلم : نافع غير إسماعيل : ﴿ لفتيانه ﴾ ﴿ خير حافظاً ﴾ حمزة وعلي وخلف غير أبي بكر وحماد . الباقون ﴿ لفتيته ﴾ ﴿ خير حافظاً ﴾ ﴿ يكتل ﴾ بيان الغيبة : حمزة علي وخلف . الباقون بالنون . ﴿ تؤتوني ﴾ بالياء في الحالين : ابن كثير وسهل ويعقوب وافق أبو عمرو يزيد وإسماعيل في الوصل .

الوقوف : ﴿ لنفسي ﴾ ج ﴿ أمين ﴾ 5 ﴿ الأرض ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتصال المعنى ﴿ عليم ﴾ 5 ﴿ في الأرض ﴾ ج لاحتمال ما بعده الاستئناف أو الحال ﴿ حيث نشاء ﴾ ط ﴿ المحسنين ﴾ 5 ﴿ يتقون ﴾ 5 ﴿ منكرون ﴾ 5 ﴿ من أبيكم ﴾ ج لحق الاستفهام مع اتحاد القائل ﴿ المنزلين ﴾ 5 ﴿ ولا تقربون ﴾ 5 ﴿ لفاعلون ﴾ 5 ﴿ يرجعون ﴾ 5 ﴿ لحافظون ﴾ 5 ﴿ من قبل ﴾ ط لانتهاء الاستفهام إلى الأخبار ﴿ حافظاً ﴾ ص ﴿ الراحمين ﴾ 5 ﴿ إليهم ﴾ ط لتمام جواب " لما " ﴿ ما نبغي ﴾ ط لأن ما بعده جملة مستأنفة موضحة للاستفهامية أو المنفية قبلها ﴿ إلينا ﴾ ج لاحتمال الاستئناف والعطف على ونحن نمير ﴿ كيل بعير ﴾ 5 ط ﴿ يسير ﴾ 5 ﴿ بكم ﴾ ط ﴿ قال الله ﴾ قيل : يسكت بين الفعل والاسم لأن القائل يعقوب لا الله

سبحانه ، والأحسن أن يفرق بينهما بقوة النغمة فقط لئلا يلزم الفصل بين القائل والمقول ﴿ وكيل ﴾ 5 ﴿ متفرقة ﴾ ط ﴿ من شيء ﴾ ط ﴿ الله ﴾ ط ﴿ توكلت ﴾ ط ﴿ المتوكلون ﴾ 5 ﴿ أبوهم ﴾ ط لأن جواب " لما " محذوف أي سلموا بإذن الله ﴿ قضاها ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 99. 100 ﴾

(15/399)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في هذا الملك فمنهم من قال : هو العزيز ، ومنهم من قال : بل هو الريان الذي هو الملك الأكبر ، وهذا هو الأظهر لوجهين : الأول : أن قول يوسف : ﴿ اجعلنى على خَزَائِنِ الأرض ﴾ يدل عليه .

الثاني : أن قوله : ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصاً له ، وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصاً للعزيز ، فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الأكبر.

المسألة الثانية :

ذكروا أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام وهو في الحبس وقال : "قل اللهم اجعل لي من عندك فرجاً ومخرجاً وارزقني من حيث لا أحتسب" فقبل الله دعاءه وأظهر هذا السبب في تخليصه من السجن ، وتقرير الكلام : أن الملك عظم اعتقاده في يوسف لوجوه : أحدها : أنه عظم اعتقاده في علمه ، وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب وقدر هو على الجواب الموافق الذي يشهد العقل بصحته مال الطبع إليه ، وثانيها : أنه عظم اعتقاده في صبره وثباته ، وذلك لأنه بعد أن بقي في السجن بضع سنين لما أذن له في الخروج ما أسرع إلى الخروج بل صبر وتوقف وطلب أولاً ما يدل على براءة حاله عن جميع لتهم ، وثالثها : أنه عظم اعتقاده في حسن أدبه ، وذلك لأنه اقتصر على قوله : ﴿ مَا بَالُ النسوة الاتى قَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : 50] وإن كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها ، وتعرض لأمر سائر النسوة مع أنه وصل إليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء وهذا من الأدب العجيب .

ورابعها : براءة حاله عن جميع أنواع التهم فإن الخصم أقر له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن

الجرم .

وخامسها : أن الشرابي وصف له جده في الطاعات واجتهاده في الإحسان إلى الذين كانوا في السجن .

(16/399)

وسادسها : أنه بقي في السجن بضع سنين ، وهذه الأمور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد في الإنسان ، فكيف مجموعها ، فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله شيئاً جمع أسبابه وقواها .

إذا عرفت هذا فنقول : لما ظهر للملك هذه الأحوال من يوسف عليه السلام رغب أن يتخذه لنفسه فقال : ﴿ ائتونى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ روي أن الرسول قال ليوسف عليه السلام ثم إلى الملك متنظفاً من درن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة فكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ، ولما دخل عليه قال اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم دخل عليه وسلم ودعا له بالعبرانية والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شوائب الاشتراك وهذا الملك طلب أن يكون يوسف له وحده وأنه لا يشاركه فيه غيره لأن عادة الملوك أن

ينفردوا بالأشياء النفيسة الرفيعة فلما علم الملك أنه وحيد زمانه وفريد أقرانه أراد أن ينفرد به .

(17/399)

روي أن الملك قال ليوسف عليه السلام ما من شيء إلا وأحب أن تشركني فيه إلا في أهلي وفي أن لا تأكل معي فقال يوسف عليه السلام ، أما ترى أن آكل معك ، وأنا يوسف بن يعقوب بن إسحق الذبيح بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثم قال : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ وفيه قولان : أحدهما : أن المراد فلما كلم الملك يوسف عليه السلام قالوا لأن في مجالس الملوك لا يحسن لأحد أن يبتدىء بالكلام وإنما الذي يبتدىء به هو الملك ، والثاني : أن المراد : فلما كلم يوسف الملك قيل : لما صار يوسف إلى الملك وكان ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة ، فلما رآه الملك حدثاً شاباً قال للشرابي : هذا هو الذي علم تأويل رؤياي مع أن السحرة والكهنة ماعلموها قال نعم ، فأقبل على يوسف وقال : إني أحب أن أسمع تأويل الرؤيا منك شفاهاً ، فأجاب بذلك الجواب شفاهاً وشهد قلبه بصحته ، فعند ذلك قال له : ﴿ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ يقال : فلان مكين عند فلان بين المكانة أي المنزلة ، وهي حالة يتمكن بها صاحبها مما يريد .

وقوله : ﴿ أَمِينٌ ﴾ أي قد عرفنا أمانتك وبراءتك مما نسبت إليه .

واعلم أن قوله : ﴿ مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب ، وذلك لأنه لا بد في كونه مكيناً من القدرة والعلم .

أما القدرة فلأن بها يحصل المكنة .

وأما العلم فلأن كونه متمكناً من أفعال الخير لا يحصل إلا به إذ لو لم يكن عالماً بما ينبغي وبما لا ينبغي لا يمكنه تخصيص ما ينبغي بالفعل ، وتخصيص ما لا ينبغي بالترك ، فثبت أن كونه مكيناً لا يحصل إلا بالقدرة والعلم .

(18/399)

أما كونه أميناً فهو عبارة عن كونه حكيماً لا يفعل الفعل لداعي الشهوة بل إنما يفعله لداعي الحكمة ، فثبت أن كونه مكيناً أميناً يدل على كونه قادراً ، وعلى كونه عالماً بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد ، وعلى كونه بحيث يفعل لداعي الحكمة لا لداعية الشهوة ، وكل من كان كذلك فإنه لا يصدر عنه فعل الشر والسفه فلهذا المعنى لما حاولت المعتزلة إثبات أنه تعالى لا يفعل القبيح قالوا إنه تعالى لا يفعل القبيح لأنه تعالى عالم بقبح القبيح عالم بكونه غنياً عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح قالوا : وإنما يكون غنياً عن القبيح إذا كان قادراً

، وإذا كان منزهاً عن داعية السفه فثبت أن وصفه بكونه مكيناً أميناً نهاية ما يمكن ذكره في هذا الباب ثم حكى تعالى أن يوسف عليه السلام قال في هذا المقام ﴿ اجعلنى على خَزَائِنِ الأَرضِ إِنّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال المفسرون : لما عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك بين يديه قال له الملك : فما ترى أيها الصديق قال : أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعاً كثيراً وتبني الخزائن وتجمع فيها الطعام فإذا جاءت السنون المجدبة بعنا الغلات فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لي بهذا الشغل فقال يوسف : ﴿ اجعلنى على خَزَائِنِ الارض ﴾ أي على خزائن أرض مصر وأدخل الألف واللام على الأرض ، والمراد منه المعهود السابق .

روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أنه قال : " رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لأستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك أخره عنه سنة " وأقول هذا من العجائب لأنه لما تأبى عن الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك على أحسن الوجوه ولما تسارع في ذكر الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف والتفويض بالكلية إلى الله تعالى أولى .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول : لم طلب يوسف الإمارة والنبي عليه الصلاة والسلام قال لعبد الرحمن بن سمرة : "لا تسأل الإمارة" وأيضاً فكيف طلب الإمارة من سلطان كافر ، وأيضاً لم لم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة في طلب الأمارة في الحالة ، وأيضاً لم طلب أمر الخزائن في أول الأمر ، مع أن هذا يورث نوع تهمة وأيضاً كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله : ﴿ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ مع أنه تعالى يقول : ﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم : 32] وأيضاً فما الفائدة في قوله : ﴿ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ وأيضاً لم ترك الاستثناء في هذا فإن الأحسن أن يقول : إني حفيظ عليم إن شاء الله بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : 23 ، 24] فهذه أسئلة سبعة لا بد من جوابها فنقول : الأصل في جواب هذه المسائل أن التصرف في أمور الخلق كان واجباً عليه ، فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان ، إنما قلنا : إن ذلك التصرف كان واجباً عليه لوجوه : الأول : أنه كان رسولاً حقاً من الله تعالى إلى الخلق ، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان ، والثاني : وهو أنه عليه السلام علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذي ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم ، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك ويأتي بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق ، والثالث : أن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول .

وإذا ثبت هذا فنقول : إنه عليه السلام كان مكلفاً برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه ، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق ، وما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب ، فكان هذا الطريق واجباً عليه ولما كان واجباً سقطت الأسئلة بالكلية ، وأما ترك الاستثناء فقال الواحدي : كان ذلك من خطيئة أوجبت عقوبة وهي أنه تعالى أخر عنه حصول ذلك المقصود سنة ، وأقول : لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك أنه إنما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلأجل هذا المعنى ترك الاستثناء ، وأما قوله لم مدح نفسه فجوابه من وجوه : الأول : لا نسلم أنه مدح نفسه لكنه بين كونه موصوفاً بهاتين الصفتين النافعتين في حصول هذا المطلوب ، وبين البابين فرق وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين لكنه ما كان عالماً بأنه يفي بهذا الأمر ، ثم نقول هب أنه مدح نفسه إلا أن مدح النفس إنما يكون مذموماً إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل ، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم فقوله تعالى :

﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم : 32] المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير

متزكية ، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى ﴾ أما إذا كان الإنسان عالماً بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه والله أعلم .

قوله ما الفائدة في وصفه نفسه بأنه حفيظ عليم ؟

قلنا : إنه جار مجرى أن يقول حفيظ بجميع الوجوه التي منها يمكن تحصيل الدخل والمال ، عليم بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال إليها ، ويقال : حفيظ بجميع مصالح الناس ، عليم بجهات حاجاتهم أو يقال : حفيظ لوجوه أياديك وكرمك ، عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع وهذا باب واسع يمكن تكثيره لمن أراده .

(21/399)

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن يوسف عليه السلام لما التمس من الملك أن يجعله على خزائن الأرض لم يحك الله عن الملك أنه قال : قد فعلت ، بل الله سبحانه قال : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الارض ﴾ فههنا المفسرون قالوا في الكلام محذوف وتقديره : قال الملك قد فعلت ، إلا أن

تمكين الله له في الأرض يدل على أن الملك الملك قد أجابه إلى ما سأل.

وأقول: ما قالوه حسن، إلا أن ههنا ما هو أحسن منه وهو أن إجابة الملك له سبب في عالم الظاهر وأما المؤثر الحقيقي: فليس إلا أنه تعالى مكنه في الأرض، وذلك لأن ذلك الملك كان متمكناً من القبول ومن الرد، فنسبة قدرته إلى القبول وإلى الرد على التساوي، وما دام يبقى هذ التساوي امتنع حصول القبول، فلابد وأن يترجح القبول على الرد في خاطر ذلك الملك، وذلك الترجح لا يكون إلا بمرجح يخلقه الله تعالى، إذا خلق الله تعالى ذلك المرجح حصل القبول لا محالة، فالتمكن ليوسف في الأرض ليس إلا من خلق الله تعالى في قلب ذلك الملك بمجموع القدرة والداعية الجازمة اللتين عند حصولهما يجب الأثر، فلهذا السبب ترك الله تعالى ذكر إجابة الملك واقتصر على ذكر التمكين الإلهي، لأن المؤثر الحقيقي ليس إلا هو.

المسألة الثانية:

روي أن الملك توجه وأخرج خاتم الملك وجعله في أصبعه وقلد بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت، فقال يوسف عليه السلام: أما السرير فأشد به ملكك وأما

الخاتم فأدبر به أمرك ، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي ، وجلس على السرير ودانت له القوم ، وعزل الملك قطفير زوج المرأة المعلومة ومات بعد ذلك وزوجه الملك امرأته ، فلما دخل عليها قال أليس هذا خيراً مما طلبت ، فوجدها عذراء فولدت له ولدين أفرايم وميشا وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء ، وأسلم على يده الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الأولى ثم بالحلي والجواهر في السنة الثانية ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم سنين فقالوا والله ما رأينا ملكاً أعظم شأناً من هذا الملك حتى صار كل الخلق عبيداً له فلما سمع ذلك قال إني أشهد الله أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم ، وكان لا يبيع لأحد ممن يطلب الطعام أكثر من حمل البعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هكذا رواه صاحب "الكشاف" والله أعلم .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ وكذلك ﴾ الكاف منصوبة بالتمكين ، وذلك إشارة إلى ما تقدم يعني به ومثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبنا إياه من قلب الملك وإنجائنا إياه من غم الحبس ، وقوله : ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرض ﴾ أي أقدرناه على ما يريد برفع الموانع وقوله : ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء ﴾ يتبوأ في موضع نصب على الحال تقديره مكناه متبوأ وقرأ ابن كثير : ﴿ نَشَاء ﴾ بالنون مضافاً إلى الله تعالى والباقون بالياء مضافاً إلى يوسف .

واعلم أن قوله : ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء ﴾ يدل على أنه صار في الملك بحيث لا يدافعه أحد ، ولا ينازعه منازع بل صار مستقلاً بكل ما شاء وأراد ثم بين تعالى ما يؤكد أن ذلك من قبله فقال : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء ﴾ .

(23/399)

واعلم أنه تعالى ذكر أولاً أن ذلك التمكين كان من الله لا من أحد سواه وهو قوله : ﴿ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الارض ﴾ ثم أكد ذلك ثانياً بقوله : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء ﴾

وفيه فائدتان :

الفائدة الأولى : أن هذا يدل على أن الكل من الله تعالى .

قال القاضي : تلك المملكة لما لم تتم إلا بالأمور فعلها الله تعالى صارت كأنها حصلت من قبله تعالى .

وجوابه : أنا ندعي أن نفس تلك المملكة إنما حصلت من قبل الله تعالى ، لأن لفظ القرآن يدل على قولنا ، والبرهان القاطع الذي ذكرناه يقوي قولنا ، فصرف هذا اللفظ إلى المجاز لا سبيل إليه .

الفائدة الثانية : أنه أتاه ذلك بمحض المشيئة الإلهية والقدرة النافذة .

قال القاضي : هذه الآية تدل على أنه تعالى يجري أمر نعمه على ما يقتضيه الصلاح.

قلنا : الآية تدل على أن الأمور معلقة بالمشيئة الإلهية والقدرة المحضة فأما رعاية قيد الصلاح ، فأمر اعتبرته أنت من نفسك مع أن اللفظ لا يدل عليه.

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ وذلك لأن إضاعة الأجر إما أن يكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع في حق الله تعالى ، فكانت الإضاعة ممتنعة.

واعلم أن هذا شهادة من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان من المحسنين ولو صدق القول بأنه جلس بين شعبها الأربع لامتنع أن يقال : إنه كان من المحسنين ، فههنا لزم إما تكذيب الله في حكمه على يوسف بأنه كان من المحسنين وهو عين الكفر أو لزم تكذيب الحشوي فيما رواه وهو عين الإيمان والحق.

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَأَجْرُ الآخرة خَيْرٌ لّلَّذِينَ ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى : في تفسير هذه الآية قولان :

القول الأول : المراد منه أن يوسف عليه السلام وإن كان قد وصل إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الدنيا إلا أن الثواب الذي أعده الله له في الآخرة خير وأفضل وأكمل

وجهات الترجيح قد ذكرناها في هذا الكتاب مراراً وأطواراً ، وحاصل تلك الوجوه أن الخير المطلق هو الذي يكون نفعاً خالصاً دائماً مقروناً بالتعظيم ، وكل هذه القيود الأربعة حاصلة في خيرات الآخرة ومفقودة في خيرات الدنيا .

القول الثاني : أن لفظ الخير قد يستعمل لكون أحد الخيرين أفضل من الآخر كما يقال : الجلاب خير من الماء وقد يستعمل لبيان كونه في نفسه خيراً من غير أن يكون المراد منه بيان التفضيل كما يقال : الثريد خير من الله يعني الثريد خير من الخيرات حصل بإحسان من الله .

إذا ثبت هذا فقوله : ﴿ وَلَأَجْرُ الاخرة خَيْرٌ ﴾ إن حملناه على الوجه الأول لزم أن تكون ملاذ الدنيا موصوفة بالخيرية أيضاً ، وأما إن حملناه على الوجه الثاني لزم أن لا يقال إن منافع الدنيا أيضاً خيرات بل لعله يفيد أن خير الآخرة هو الخير ، وأما ما سواه فعبث .

المسألة الثانية :

لا شك أن المراد من قوله : ﴿ وَلَأَجْرُ الآخرة خَيْرٌ لّلَّذِينَ ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ شرح حال يوسف عليه السلام فوجب أن يصدق في حقه أنه من الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهذا تنصيص من الله عز وجل .

على أنه كان في الزمان السابق من المتقين ، وليس ههنا زمان سابق ليوسف عليه السلام يحتاج إلى بيان أنه كان فيه من المتقين إلا ذلك الوقت الذي قال الله فيه : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف : 24] فكان هذا شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان في ذلك الوقت من المتقين ، وأيضاً قوله : ﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان من المحسنين ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ شهادة من الله تعالى على أنه من المخلصين فثبت أن الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين ، والجاهل الحشوي يقول : إنه كان من الأخسرين المذنبين ، ولا شك أن من لم يقل بقول الله سبحانه وتعالى مع هذه التأكيدات كان من الأخسرين .

المسألة الثالثة :

قال القاضي : قوله تعالى : ﴿ وَلأَجْرُ الآخرة خَيْرٌ لّلَّذِينَ ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ يدل على بطلان قول المرجئة : الذين يزعمون أن الثواب يحصل في الآخرة لمن لم يتق الكبائر .

قلنا : هذا ضعيف ، لأنا إن حملنا لفظ خير على أفعل التفضيل لزم أن يكون الثواب الحاصل للمتقين أفضل ولا يلزم أن لا يحصل لغيرهم أصلاً ، وإن حملناه على أصل معنى

الخيرية ، فهذا يدل على حصول هذا الخير للمتقين ولا يدل على أن غيرهم لا يحصل لهم هذا الخير. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 126. 132 ﴾

(26/399)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقال الملك ائتوني به اسْتخلصه لنفسي ﴾

وهذا قول الملك الأكبر لما علم أمانة يوسف اختاره ليستخلصه لنفسه في خاص خدمته .

﴿ فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ لأنه استدل بكلامه على عقله ، وبعصمته على أمانته فقال : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ وهذه منزلة العاقل العفيف .

وفي قوله ﴿ مكين ﴾ وجهان : أحدهما : وجيه ، قاله مقاتل .

الثاني : متمكن في المنزلة الرفيعة . وفي قوله ﴿ أمين ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه بمعنى آمن لا تخاف العواقب ، قاله ابن شجرة .

الثاني : أنه بمعنى مأمون ثقة ، قاله ابن عيسى .

الثالث : حافظ ، قاله مقاتل . قوله عز وجل : ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض ﴾ أي على خزائن أرضك ، وفيها قولان :

أحدهما : هو قول بعض المتعمقة أن الخزائن ها هنا الرجال ، لأن الأفعال والأقوال مخزونة فيهم فصاروا خزائن لها .

الثاني : وهو قول أصحاب الظاهر أنها خزائن الأموال ، وفيها قولان : أحدهما : أنه سأله جميع الخزائن ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنه سأله خزائن الطعام ، قاله شيبة بن نعامة الضبي .

وفي هذا دليل على جواز أن يخطب الإنسان عملاً يكون له أهلاً وهو بحقوقه وشروطه قائم .

فيما حكى ابن سيرين عن أبي هريرة قال : نزعني عمر بن الخطاب عن عمل البحرين ثم دعاني إليها فأبيت ، فقال : لم؟ وقد سأل يوسف العمل .

فإن كان المولي ظالماً فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين :

أحدهما : جوازها إن عمل بالحق فيما تقلده ، لأن يوسف عليه السلام ولي من قبل فرعون ، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره .

الثاني : لا يجوز ذلك له لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم وتزكيتهم بتنفيذ أعمالهم .

وأجاب من ذهب إلى هذا القول عن ولايته من قبل فرعون بجوابين :

أحدهما : أن فرعون يوسف كان صالحاً ، وإنما الطاغي فرعون موسى .

الثاني : أنه نظر له في أملاكه دون أعماله فزالت عنه التبعة فيه .

والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات فيجوز توليته من جهة الظالمين لأن النص على مستحقيه قد أغنى عن الاجتهاد فيه ، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التنفيذ .

والقسم الثاني : ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الإجتهاد في مصرفه كأموال الفيء فلا يجوز توليته من جهة الظالم لأنه يتصرف بغير حقٍ ويجتهد فيما لا يستحق .

والقسم الثالث : ما يجوز أن يتولاه أهله وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام ، فعقد التقليد فيه محلول ، فإن كان النظر تنفيذاً لحكم بين متراضيين أو توسطاً بين مجبورين جاز ، وإن كان إلزام إجبار لم يجز .

﴿ إني حفيظ عليم ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : حفيظ لما استودعتني عليم بما وليتني ، قاله ابن زيد .

الثاني : حفيظ بالكتاب ، عليم بالحساب ، حكاه ابن سراقة ، وأنه أول من كتب في القراطيس .

الثالث : حفيظ بالحساب ، عليم بالألسن ، قاله الأشجع عن سفيان .

الرابع : حفيظ لما وليتني ، قاله قتادة ، عليم بسني المجاعة ، قاله شيبة الضبي . وفي هذا دليل على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل ، وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ولكن مخصوص فيما اقترن بوصلة أو تعلق بظاهر من مكسب وممنوع منه فيما سواه لما فيه من تزكية ومراءاة ، ولو تنزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ، فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله ولما يرجوه من الظفر بأهله .

قوله عز وجل : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾

قال ابن جرير الطبري : استخلصه الملك الأكبر الوليد بن الريان على عمل إظفير وعزله .

قال مجاهد : وأسلم على يده . قال ابن عباس : ملك بعد سنة ونصف . فروى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن يوسف قال : إني حفيظ عليم إن شاء الله لملك في وقته ذلك

(28/399)

" . ثم مات إظفير فزوّجه الملك بامرأة إظفير راعيل ، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء وولدت له ولدين أفرائيم ومنشا ابني يوسف .

ومن زعم أنها زليخا قال لم يتزوجها يوسف وأنها لما رأته في موكبه بكت ، ثم قالت : الحمد لله الذي جعل الملوك عبيداً بالمعصية ، وجعل العبيد بالطاعة ملوكاً ، فضمها إليه فكانت في عياله حتى ماتت عنده ولم يتزوجها . ﴿ يتبوّأ منها حيث يشاء ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يتخذ من أرض مصر منزلاً حيث يشاء ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : يصنع في الدنيا ما يشاء لتفويض الأمر إليه ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ يعني في الدنيا بالرحمة والنعمة .

﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ يعني في الآخرة بالجزاء . ومنهم من حملها على الدنيا ، ومنهم من حملها على الآخرة ، والأصح ما قدمناه .

واختلف فيما أوتيه من هذا الحال على قولين :

أحدهما : ثواب من الله تعالى على ما ابتلاه .

الثاني : أنه أنعم بذلك عليه تفضلاً منه ، وثوابه باقٍ على حاله في الآخرة .

قوله عز وجل ﴿ ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا من أجر الدنيا ، لأن أجر الآخرة دائم ، وأجر الدنيا منقطع .

الثاني : ولأجر الآخرة خير ليوسف من التشاغل بملك الدنيا ونعيمها لما فيه من التبعة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّك الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾

هَذَا الْمَلِكُ لَمَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالدِّرَايَةِ لَمْ يَرُعْهُ مِنْ يُوسُفَ مَنْظَرُهُ الرَّائِعُ الْبَهِجُ كَمَا رَاعَ النِّسَاءَ لِقِلَّةِ عُقُولِهِنَّ وَضَعْفِ أَحْلَامِهِنَّ ، وَأَنَّهُنَّ إنَّمَا نَظَرْنَ إلَى ظَاهِرِ حُسْنِهِ وَجَمَالِهِ دُونَ عِلْمِهِ وَعَقْلِهِ وَأَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَعْبَأْ بِذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَلَّمَهُ وَوَقَفَ عَلَى كَمَالِهِ بِبَيَانِهِ وَعِلْمِهِ قَالَ : ﴿ إنَّك الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ فَقَالَ يُوسُفُ : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ ، وَالْحِفْظِ .

وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ جَائِزٌ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَصِفَ نَفْسَهُ بِالْفَضْلِ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْمَحْظُورِ مِنْ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ . انتهى ا . هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ الْمَلِكُ لِيُوسُفَ : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أَيْ مُتَمَكِّنٌ مِمَّا أَرَدْت ، أَمِينٌ عَلَى مَا ائْتُمِنْت عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ ، أَمَّا أَمَانَتُهُ فَلِمَا ظَهَرَ مِنْ بَرَاءَتِهِ ، وَأَمَّا مَكَانَتُهُ فَلِأَنَّهُ ثَبَتَتْ عِفَّتُهُ وَنَزَاهَتُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ كَيْفَ سَأَلَ الْإِمَارَةَ وَطَلَبَ الْوِلَايَةَ ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسَمُرَةَ : ﴿ لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ ، وَإِنَّك إنْ سَأَلْتهَا وُكِلْت إلَيْهَا ، وَإِنْ لَمْ تَسْأَلْهَا أُعِنْت عَلَيْهَا ﴾ .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّا لَا نُوَلِّي عَلَى عَمَلِنَا مَنْ أَرَادَهُ ؟ ﴾ .

وَعَنْ ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَجْوِبَةٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ : إنِّي حَسِيبٌ كَرِيمٌ ، وَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

وَلَا قَالَ : إنِّي مَلِيحٌ جَمِيلٌ ، إنَّمَا قَالَ : إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ، سَأَلَهَا بِالْحِفْظِ وَالْعِلْمِ لَا بِالْحَسَبِ

وَالْجمَال .

الثَّانِي : سَأَلَ ذَلِكَ لِيُوصِّلَ إِلَى الْفُقَرَاءِ حُظُوظَهُمْ لَا لِحَظِّ نَفْسِهِ .

(31/399)

الثَّالِثُ : إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، فَأَرَادَ التَّعْرِيفَ بِنَفْسِهِ ، وَصَارَ ذَلِكَ مُسْتَثْنًى مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ الرَّابِعُ : أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ فَرْضًا مُتَعَيِّنًا عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ غَيْرُهُ .

فَإِنْ قِيلَ : وَهِيَ :

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : كَيْفَ اسْتَجَازَ أَنْ يَقْبَلَهَا بِتَوْلِيَةِ كَافِرٍ ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ نَبِيٌّ ؟ قُلْنَا : لَمْ يَكُنْ سُؤَالَ وِلَايَةٍ ؛ إِنَّمَا كَانَ سُؤَالَ تَخَلٍّ وَتَرْكٍ ، لِيَنْتَقِلَ إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ لَمَكَّنَهُ مِنْهَا بِالْقَتْلِ وَالْمَوْتِ وَالْغَلَبَةِ وَالظُّهُورِ وَالسُّلْطَانِ وَالْقَهْرِ ، لَكِنَّ اللَّهَ أَجْرَى سُنَّتَهُ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ ، فَبَعْضُهُمْ عَامَلَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ بِالْقَهْرِ [وَالسُّلْطَانِ] وَالِاسْتِعْلَاءِ ، وَبَعْضُهُمْ عَامَلَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ بِالسِّيَاسَةِ وَالِابْتِلَاءِ ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ فِي

سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، وَهِيَ الْآيَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(32/399)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾

المعنى أن الملك لما تبينت له براءة يوسف مما نسب إليه ، وتحقق في القصة أمانته ، وفهم أيضاً صبره وجلده ، عظمت منزلته عنده وتيقن حسن خلاله فقال : ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وهذا الذي أمّ يوسف عليه السلام بتثبته في السجن أن يرتقي إلى أعلى المنازل ، فتأمل أن الملك قال أولاً - حين تحقق علمه - ﴿ ائتوني به ﴾ [يوسف : 50] فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ، فظهرت أمانته وصبره وعلو همته وجودة نظره قال : ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ ، فلما جاءه وكلمه قال : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ فدل ذلك على أنه رأى من كلامه وحسن منطقه ما صدق به الخبر أو أربى عليه ، إذ المرء مخبوء تحت لسانه ؛ ثم لما زاول الأعمال مشى القدمية حتى ولاه خطة العزيز .

و ﴿ أمين ﴾ من الأمانة ، وقالت فرقة هو بمعنى آمن .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، لأنه يخرج من نمط الكلام وينحط إكرام يوسف كثيراً ويروى أن الملك لما أدنى يوسف قال له : إني أشاركك في كل شيء إلا أني أحب أن لا تشركني في أهلي وأن لا يأكل معي عبدي ، فقال له يوسف : أتأنف أن آكل معك ؟ أنا أحق أن آنف ، أنا ابن إبراهيم الخليل ، وابن إسحاق الذبيح ، وابن يعقوب الصديق .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا الحديث بعد وضعف ، وقد قال ابن ميسرة : إنما جرى هذا في أول أمره ، كان يأكل مع العزيز ، فلما جرت قصة المرأة قالت للعزيز : أتدع هذا يواكلك ؟ فقال له : اذهب فكل مع العبيد ؛ فأنف وقال ما تقدم .

اما ان الظاهر من قصته وقت محاورة الملك أنه كان على عبودية ، وإلا كان اللائق به أن ينتحي بنفسه عن عمل الكافر ، لأن القوم كانوا أهل أوثان ومحاورة يوسف لصاحبي السجن تقضي بذلك .

وسمى الله تعالى فرعون مصر ملكاً إذ هي حكاية اسم مضى حكمه وتصرم زمنه ، ولو كان حياً لكان حكماً له إذا قيل لكافر : ملك أو أمير ، ولهذا كتب النبي صلى الله عليه

وسلم إلى هرقل فقال : " عظيم الروم " ، ولم يقل : ملكاً ولا أميراً ، لأن ذلك حكم ، والحق أن يسلم ويسلموا . وأما كونه عظيمهم فتلك صفة لا تفارقه كيفما تقلب ، ولو كتب له النبي عليه السلام : أمير الروم ، لتمسك بتلك الحجة على نحو تمسك زياد في قوله : شهد - والله - لي أبو الحسن .

وقوله تعالى : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ الآية ، فهم يوسف عليه السلام من الملك أنه عزم على تصريفه والاستعانة بنظره في الملك ، فألقى يده في الفصل الذي تمكنه فيه المعدلة ويترتب له الإحسان إلى من يجب ووضع الحق على أهله وعند أهله .

قال بعض أهل التأويل : في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فصل ما لا يعارض فيه ، فيصلح منه ما شاء ؛ وأما إن كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره ، فلا يجوز له ذلك .

قال القاضي أبو محمد : وطلبة يوسف للعمل إنما هي حسبة منه عليه السلام لرغبته في أن يقع العدل ، ونحو هذا هو دخول أبي بكر الصديق في الخلافة مع نهيه المستشير من الأنصار عن أن يتأمر على اثنين . . . الحديث بكماله فجائز للفاضل أن يعمل وأن يطلب العمل إذا رأى ألا عوض منه ، وجائز أيضاً للمرء أن يثني على نفسه بالحق إذا جهل أمره .

و ﴿ خزائن ﴾ لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره . و ﴿ حفيظ عليم ﴾ صفتان تعم وجوه التثقيف والحيطة لا خلل معهما لعامل . وقد خصص الناس بهاتين الصفتين أشياء ، مثل قولهم : " حفيظ " بالحساب " عليم " بالألسن ، وقول بعضهم : " حفيظ " لما استودعتني ، " عليم " بسني الجوع ، وهذا كله تخصيص لا وجه له ، وإنما أراد باتصافه أن يعرف الملك بالوجه الذي به يستحق الكون على خزائن الأرض فاتصف بأنه يحفظ المجبي من كل جهة تحتاج إلى الحفظ . ويعلم التناول أجمع . وروي عن مالك بن أنس أنه قال : مصر خزانة الأرض ، واحتج بهذه الآية .

وقوله ﴿ خزائن الأرض ﴾ يريد أرض مصر إذ لم تكن مملكة فرعون إلا بها فقط ، ويؤكد أن تسمى خزانة الأرض نصبتها في بلاد الأرض وتوسطها ، فمنها ينقل الناس إلى أقطار الأرض وهي محل كل جالب .

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف ﴾ الآية ، الإشارة بذلك إلى ما تقدم من جميل صنع الله به كهذه الفعال المنصوصة ، درجناه في الرتب ونقلناه فمكنا له في الأرض .

قال القاضي أبو محمد : فروي أن العزيز مات في تلك الليالي ، وقال ابن إسحاق : بل عزله الملك ثم مات أطفير ، فولاه الملك مكانه وزوجه زوجته ، فلما دخلت عليه عروساً قال لها : أليس هذا خيراً مما كنت أردت ؟ فقالت له : أيها الصديق كنت في غاية الجمال ،

وكنت شابة عذراء ، وكان زوجي لا يطأ ، فغلبتني نفسي في حبك ، فدخل يوسف بها فوجدها بكراً ، وولدت له ولدين . وروي أن الملك عزل العزيز ، وولاه موضعه ، ثم عظم ملك يوسف وتغلب على حال الملك أجمع ، قال مجاهد : وأسلم الملك آخر أمره ، ودرس أمر العزيز وذهبت دنياه ، ومات وافتقرت زوجته ، وزمنت وشاخت ، فلما كان في بعض الأيام . لقيت يوسف في طريق ، والجنود حوله ووراءه ، وعلى رأسه بنود عليها مكتوب ﴿ هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين ﴾

(35/399)

[يوسف : 108] فصاحت به وقالت : سبحان من أعز العبيد بالطاعة ، وأذل الأرباب بالمعصية ، فعرفها ، وقالت له : تعطف عليَّ وارزقني شيئاً فدعاها وكلمها ، وأشفق لحالها ، ودعا الله تعالى ، فرد عليها جمالها وتزوجها .

قال القاضي أبو محمد : وروي في نحو هذا من القصص ما لا يوقف على صحته ، ويطول الكلام بسوقه . وقرأ الجمهور : " حيث يشاء " على الإخبار عن يوسف ؛ وقرأ ابن كثير وحده " حيث نشاء " بالنون على ضمير المتكلم . أي حيث يشاء الله من تصرف يوسف

على اختلاف تصرفه ، وحكى أبو حاتم هذه القراءة عن الحسن وشيبة ونافع وأبي جعفر بخلاف عن الثلاثة المدنيين ؛ وقال أبو علي : إما أن يكون تقدير هذه القراءة : حيث يشاء من المحاريب والمتعبدات وأحوال الطاعات ، فهي قرب يريدها الله ويشاؤها ؛ وإما أن يكون معناها : حيث يشاء يوسف ، لكن أضاف الله عز وجل المشيئة التي ليوسف إليه من حيث هو عبد من عبيده ، وكانت مشيئته بقدرة الله تعالى وقوته كما قال : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال : 17] .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله من أبي على نزغة اعتزالية ، وتحفظ من أن أفعال العباد من فاعلين ، فتأمله .

واللام في قوله : ﴿ مكنا ليوسف ﴾ يجوز أن تكون على حد التي في قوله ﴿ ردف لكم ﴾ [النمل : 72] و ﴿ للرؤيا تعبرون ﴾ [يوسف : 43] . وقوله : ﴿ يتبوأ ﴾ في موضع نصب على الحال ، و ﴿ حيث يشاء ﴾ نصب على الظرف أو على المفعول به ، كما قال الشماخ : حيث تكوى النواحز . وباقي الآية بين .

ولما تقدم في هذه الآية الإحسان من العبد ، والجري على طريق الحق لا يضيع عند الله ولا بد من حسن عاقبته في الدنيا ، عقب ذلك بأن حال الآخرة أحمد وأحرى أن تجعل غرضاً ومقصداً ، وهذا هو الذي ينتزع من الآية بحسب المقيدين بالإيمان والتقوى من الناس وفيها

مع ذلك إشارة إلى أن حاله من الآخرة خير من حاله العظيمة في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(36/399)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾

لما ثبت للملك براءته مما نُسب إليه؛ وتحقّق في القصة أمانته ، وفهم أيضاً صبره وجَلَده عظمت منزلته عنده ، وتيقّن حسن خلاله قال : "ائتوني بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي" فانظر إلى قول الملك أولاً حين تحقق علمه "ائتوني بِهِ" فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ثانياً قال : ﴿ ائتوني بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ ورُوي عن وهب بن منبّه قال : لما دُعي يوسف وقف بالباب فقال : حسبي ربّي من خلقه ، عزّ جاره وجل ثناؤه ولا إله غيره .

ثم دخل فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره فخرّ له ساجداً ؛ ثم أقعده الملك معه على سريره فقال : "إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ" .

"قَالَ" له يوسف : "اجعلني على خَزَائِنِ الأرض إِنِّي حَفِيظٌ" للخزائن "عَلِيمٌ" بوجوه تصرفاتها .

وقيل : حافظ للحساب ، عليم بالألسن .

وفي الخبر : " يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخَّر ذلك سنة " وقيل : إنما تأخر تمليكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله .

(37/399)

وقد قيل في هذه القصة : إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره ؛ ثم سلّم على الملك بالعربية فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : هذا لسان عَمِّي إسمعيل ، ثم دعا (له) بالعبرانية فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً ، فكلما (تكلم الملك) بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان ، فأعجب الملك أمره ، وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة ؛ ثم أجلسه على سريره وقال : أحب أن أسمع منك رؤياي ، قال يوسف : نعم أيها الملك ! رأيت سبع بقرات سِمان شُهْباً غرًّا حساناً ، كشف لك عنهن النِّيل فطلعن عليك من شاطئه تَشخُب أخلافها لبناً ؛ فبينا أنت تنظر إليهنّ وتتعجب من حسنهنّ إذ نَضَب النِّيل فغار ماؤه ، وبدا أُسُّه ، فخرج من حَمَئِه ووَحَله سبع بقرات عِجاف شُعْث غُبْر مُقَلَّصات البطون ، ليس لهنّ ضروع ولا أخلاف ، لهنّ أنياب وأضراس

، وأكفّ كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السّباع ، فاختلطن بالسِّمان فافترسنهنّ افتراس السّباع ، فأكلن لحومهنّ ، ومزّقن جلودهنّ ، وحطّمن عظامهنّ ، ومشمشن مخّهنّ ؛ فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهنّ وهنّ مهازيل ! ثم لم يظهر منهنّ سِمَن ولا زيادة بعد أكلهن إذا بسبع سنابل خضر طريات ناعمات ممتلئات حباً وماء ، وإلى جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء ولا خضرة في منبت واحد ، عروقهنّ في الثرى والماء ، فبينا أنت تقول في نفسك : أي شيء هذا ؟ هؤلاء خضر مثمرات ، وهؤلاء سود يابسات ، والمنبت واحد ، وأصولهن في الماء ، إذ هبّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات ، فأشعلت فيهن النار فأحرقتهنّ ؛ فصرن سوداً مغبرات ؛ فانتبهتَ مذعوراً أيها الملك ؛ فقال الملك : والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجباً بأعجب مما سمعتُ منك ! فما ترى في رؤياي أيها الصدّيق ؟ فقال يوسف : أرى أن تجمع الطعام ،

(38/399)

وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة ؛ فإنك لو زرعت على حجر أو مَدَر لنبت ، وأظهر الله فيه النّماء والبركة ، ثم ترفع الزرع في قصبه وسنبله تبني له المخازن العظام ؛ فيكون القصب والسّنبل عَلَفاً للدواب ، وحبه للناس ، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم

إلى أهْرَائك الخُمْس ؛ فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها ، ويأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك ، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك ؛ فقال الملك : ومن لي بتدبير هذه الأمور ؟ ولو جمعت أهل مصر جميعاً ما أطاقوا ، ولم يكونوا فيه أمناء ؛ فقال يوسف عليه السلام (عند ذلك) : "اجعلني عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ" أي على خزائن أرضك ؛ وهي جمع خِزانة ؛ ودخلت الألف واللام عوضاً من الإضافة ، كقول النابغة :

لَهُمْ شِيمَةٌ لَمْ يُعْطِهَا اللهُ غَيْرَهُمْ . . .

مِنَ الجُودِ والأَحْلامِ غَيْرُ كَوَاذِبِ

قوله تعالى : ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ جزم لأنه جواب الأمر ؛ وهذا يدلّ على أن قوله : "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ" جرَى في السّجن .

ويحتمل أنه جرى عند الملك ، ثم قال في مجلس آخر : "ائتوني بِهِ" تأكيداً "أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي" أي أجعله خالصاً لنفسي ، أفوّض إليه أمر مملكتي ؛ فذهبوا فجاؤوا به ؛ ودلّ على هذا ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أي كلّم الملك يوسف ، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف ؛ ف ﴿ قَالَ ﴾ الملك : ﴿ إِنَّكَ اليومَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي متمكن نافذ القول ، "أَمِينٌ" لا تخاف غدراً .

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قَالَ اجعلني على خزَآئِنِ الأرض ﴾ قال سعيد بن منصور : سمعت مالك بن أنس يقول : مصر خِزَانة الأرض ؛ أما سمعت إلى قوله : "اجعلني عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ" أي على حفظها ، فحذف المضاف .

(39/399)

﴿ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ لما وُلِّيت ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأمره .

وفي التفسير : إني حاسب كاتب ؛ وأنه أوّل من كتب في القراطيس .

وقيل : "حَفِيظٌ" لتقدير الأقوات "عَلِيمٌ" بسنيّ المجاعات .

قال جُويبر عن الضّحّاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أَخَّر ذلك عنه سنة " قال ابن عباس : لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوَجَّه وردّاه بسيفه ، ووضع له سريراً من ذهب ، مكلّلاً بالدرّ والياقوت ، وضرب عليه حُلّة من إِسْتَبرق ؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعاً وعرضه عشرة أذرع ، عليه ثلاثون فراشاً وستون مِرْفَقة ، ثم أمره أن يخرج ، فخرج متوّجاً ، لونه كالثلج ، ووجهه كالقمر ؛ يرى الناظر

وجهه من صفاء لون وجهه ، فجلس على السرير ودانت له الملوك ، ودخل الملك بيته مع نسائه ، وفوّض إليه أمر مصر ، وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه .

قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام ، فسلّم سلطانه كلّه إليه ، وهلك قطفير تلك الليالي ، فزوّج الملك يوسف راعيل امرأة العزيز ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيراً مما كنت تريدين ؟! فقالت : أيها الصدّيق لا تلمني ؛ فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنتَ كما جعلك الله من الحسن فغلبتني نفسي .

فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين : إفراثيم بن يوسف ، ومنشا بن يوسف .

وقال وهب بن منَبّه : إنما كان تزويجه زليخاء امرأة العزيز بين دخلتي الإخوة ، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسف في السجن ، وذهب مالها وعمي بصرها بكاء على يوسف ، فصارت تَتَكفّف الناس ؛ فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها ، وكان يوسف يركب في كل أسبوع مرة في موكب زُهَاء مائة ألف من عظماء قومه ، فقيل لها : لو تعرّضت له لعله

يسعفك بشيء ؛ ثم قيل لها : لا تفعلي ، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك ، فقالت : أنا أعلم بخُلُق حبيبي منكم ، ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه ، (قامت) فنادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم ، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم ، فقال يوسف : ما هذه ؟ فأتوا بها ؛ فقالت : أنا التي كنت أخدمك على صدور قدميّ ، وأُرَجِّل جُمَّتك بيديّ ، وتربيت في بيتي ، وأكرمت مثواك ، لكن فرط ما فرط من جهلي وعُتوّي فذقت وبال أمري ، فذهب مالي ، وتضعضع ركني ، وطال ذلّي ، وعَمِي بصري ، وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم ، أتكفّف الناس ، فمنهم من يرحمني ، ومنهم من لا يرحمني ، وهذا جزاء المفسدين ؛ فبكى يوسف بكاء شديداً ، ثم قال لها : هل بقيت تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئاً ؟ فقالت : والله لنظرة إلى وجهك أحب إليّ من الدنيا بحذافيرها ، لكن ناولني صدر سوطك ، فناولها فوضعته على صدرها ، فوجد للسوط في يده اضطرابا وارتعاشاً من خفقان قلبها ، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولاً : إن كنتِ أَيِّماً تزوّجناك ، وإن كنتِ ذات بعل أغنيناك ، فقالت للرّسول : أعوذ بالله أن يستهزىء بي الملك ! لم يُردْني أيام شبابي وغناي ومالي وعزّي أفيريدني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟! فأعلمه الرسول بمقالتها ، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرّضت له ، فقال لها : ألم يبلّغك الرسول ؟ فقالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها ؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهُيِّئت ، ثم

زُفّت إليه ، فقام يوسف يصلّي ويدعو الله ، وقامت وراءه ، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها ، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته ، إكراماً ليوسف عليه السلام لمّا عَفَّ عن محارم الله ، فأصابها فإذا هي عذراء ، فسألها ؛ فقالت : يا نبيّ الله إن زوجي كان عِنّيناً لا يأتي النساء ، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف ؛ قال : فعاشا في خَفْض عيش ، في كل يوم يجدّد الله لهما خيراً ، وولدت له ولدين ، إفراثيم ومنشا .

وفيما روي أن الله تعالى ألقى في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها ، فقال لها : ما شأنك لا تحبينني كما كنت في أوّل مرة ؟ فقالت (له) : لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء .

الثانية : قال بعض أهل العلم : في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر ، والسلطان الكافر ، بشرط أن يعلم أنه يفوّض إليه في فعل لا يعارضه فيه ، فيصلح منه ما شاء ؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك .

وقال قوم : إن هذا كان ليوسف خاصة ، وهذا اليومَ غيرُ جائز ؛ والأوّل أولى إذا كان على

الشرط الذي ذكرناه.

والله أعلم.

قال الماورديّ: فإن كان المولِّي ظالماً فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين: أحدهما: جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف وُلِّي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره.

الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم، وتزكيتهم بتقلّد أعمالهم؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين: أحدهما: أن فرعون يوسف كان صالحاً، وإنما الطاغي فرعون موسى.

الثاني: أنه نظر في أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبعة فيه.

(42/399)

قال الماورديّ: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصّل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام: أحدها: ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات، فيجوز توليه من جهة الظالم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرّد أربابه به قد أغنى عن التقليد.

والقسم الثاني : ما لا يجوز أن يتفرّدوا به ويلزم الاجتهاد في مَصْرِفه كأموال الفيء ، فلا يجوز تولّيه من جهة الظالم ؛ لأنه يتصرف بغير حق ، ويجتهد فيما لا يستحق .

والقسم الثالث : ما يجوز أن يتولاه لأهله ، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام ، فعقد التقليد محلول ، فإن كان النظر تنفيذاً للحكم بين متراضيين ، وتوسطاً بين مجبورين جاز ، وإن كان إلزام إجبار لم يجز .

(43/399)

الثالثة : ودلّت الآية أيضاً على جواز أن يخطب الإنسان عملاً يكون له أهلاً ؛ فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكِلْت إليها وإن أُعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها " وعن أبي بُرْدة قال : قال أبو موسى : أقبلت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعي رجلان من الأشعريّين ، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري ، فكلاهما سأل العمل ، والنبي صلى الله عليه وسلم يستاك ، فقال : " ما تقول يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس " قال : قلت : والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأني أنظر إلى سِواكه تحت شفته وقد قلصت ، فقال :

"لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده" وذكر الحديث؛ خرجه مسلم أيضاً وغيره؛

فالجواب: أوّلاً: أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعيّن ذلك عليه، ووجب أن يتولاّها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألاّ يطلب؛ لقوله عليه السلام لعبد الرحمن: "لا تسأل الإمارة" (وأيضاً) فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله عليه السلام:

(44/399)

"وكِل إليها" ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فرّ منها، ثم إن ابتلى بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: "أعِينَ عليها" الثاني: أنه لم يَقل: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الكريم ابن الكريم ابن

الكريم (ابن الكريم) يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم " ولا قال : إني جميل مليح ،

إنما قال : "إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ" فسألها بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال .

الثالث : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله

تعالى : "فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ" .

الرابع : أنه رأى ذلك فرضاً متعيناً عليه ؛ لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر ، والله

أعلم .

(الرابعة) ودلّت الآية أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل ؛

قال الماورديّ : وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن

بوصله ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تزكية ومراءاة ، ولو

ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله ،

ولما يرجو من الظَّفر بأهله .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾

أي ومثل هذا الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبه إلى قلب الملك ، وإنجائه من السجن مكنا

له في الأرض ؛ (أي) أقدرناه على ما يريد .

وقال الكِيَا الطَّبَري قوله تعالى : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض ﴾ دليل على إجازة

الحيلة في التوصّل إلى المباح ، وما فيه الغبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق ، ومثله قوله

تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص : 44] وحديث أبي سعيد الخُدْرِيّ في عامل خَيْبَر ، والذي أدّاه من التَّمْر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قاله .

قلت : وهذا مردود على ما يأتي .

(45/399)

يقال : مَكّناه ومكّنا له ، قال الله تعالى : ﴿ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ [الأنعام : 6] .

قال الطَّبريّ : استخلف الملك الأكبر الوليد بن الرّيّان يوسف على عمل إطفير وعَزَله ؛ قال مجاهد : وأسلم على يديه .

قال ابن عباس : ملّكه بعد سنة ونصف .

وروى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن يوسف قال إني حفيظ عليم إن شاء الله لَمُلّك في وقته " ثم مات إطفير فزوّجه الوليد بزوجة إطفير راعيل ، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء ، وولدت له ولدين : إفراثيم ومنشا ، ابني يوسف ، ومن زعم أنها زَلِيخَاء قال : لم يتزوّجها يوسف ، وأنها لما رأته في موكبه بكت ، ثم قالت : الحمد لله الذي

جعل الملوك عبيداً بالمعصية ، والحمد لله الذي جعل العبيد بالطاعة ملوكاً ، فضمّها إليه ، فكانت من عياله حتى ماتت عنده ، ولم يتزوّجها ؛ ذكره الماورديّ ؛ وهو خلاف ما تقدّم عن وهب ، وذكره الثعلبيّ ؛ فالله أعلم .

ولما فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطّف بالناس ، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به ، وأقام فيهم العدل ، فأحبّه الرجال والنساء ، قال وهب والسُّديّ وابن عباس وغيرهم : ثم دخلت السنون المخصبة ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع ، وأمرهم أن يتوسعوا في الزراعة ، فلما أدركت الغَلّة أمر بها فجمعت ، ثم بنى لها الأَهْرَاءَ ، فجمعت فيها في تلك السنة غَلّة ضاقت عنها المخازن لكثرتها ، ثم جمع عليه غلّة كل سنة كذلك ، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجدبة نزل جبريل وقال : يا أهل مصر جوعوا ؛ فإن الله سلّط عليكم الجوع سبع سنين .

وقال بعض أهل الحكمة : للجوع والقحط علامتان : إحداهما : أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة ، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك ، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية .

والثانية : أن يفقد الطعام فلا يوجد رأساً ويعزّ إلى الغاية ، فاجتمعت هاتان العلامتان في عهد يوسف ، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع ويأكلون ولا يشبعون ، وانتبه الملك ، ينادي الجوع الجوع قال : فدعا له يوسف فأبرأه الله من ذلك ، ثم أصبح فنادى يوسف في أرض مصر كلها ؛ معاشر الناس ! لا يزرع أحد زرعاً فيضيع البذر ولا يطلع شيء .

(47/399)

وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف ؛ قال ابن عباس : لما كان ابتداء القحط بينا الملك في جوف الليل أصابه الجوع في نصف الليل ، فهتف الملك يا يوسف ! الجوع الجوع فقال يوسف : هذا أوان القحط ؛ فلما دخلت أوّل سنة من سنيّ القحط هلك فيها كل شيء أعدّوه في السنين المخصِبة ، فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف ؛ فباعهم أوّل سنة بالنقود ، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه ؛ وباعهم في السنة الثانية بالحليّ والجواهر ، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء ؛ وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب ، حتى احتوى عليها أجمع ، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء ، حتى احتوى على الكل ؛ وباعهم في السنة الخامسة بالعقار والضيّاع ، حتى ملكها كلها ؛ وباعهم

في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقهم جميعاً وباعهم في السنة السابعة برقابهم ، حتى لم يبق (في السنة السابعة) بمصر حر ولا عبد إلا صار عبداً له ؛ فقال الناس : والله ما رأينا ملكاً أجلّ ولا أعظم من هذا ؛ فقال يوسف لملك مصر : كيف رأيت صنع ربي فيما خوّلني ! والآن كل هذا لك ، فما ترى فيه ؟ فقال : فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت ، وإنما نحن لك تبع ؛ وما أنا بالذي يستنكف عن عبادتك وطاعتك ، ولا أنا إلا من بعض مماليكك ، وخوَل من خوَلك ؛ فقال يوسف عليه السلام : إني لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم ، ولم أُجرهم من البلاء لأكون عليهم بلاء ؛ وإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم ، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم ، ورددت عليك ملكك بشرط أن تستنّ بسنّتي .

ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين ، فقيل له : أتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟ فقال : إني أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ؛ وأمر يوسف طباخ الملك أن يجعل غداءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع ، فلا ينسى الجائعين ؛ فمن ثَمَّ جعل الملوك غداءهم نصف النهار .

قوله تعالى : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَآءُ ﴾ أي بإحساننا ؛ والرحمة النعمة والإحسان .

﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ أي ثوابهم .

وقال ابن عباس ووهب : يعني الصابرين ؛ لصبره في الجبّ ، وفي الرقّ ، وفي السِّجن ، وصبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة .

وقال الماورديّ : واختلف فيما أوتيه يوسف من هذه الحال على قولين : أحدهما : أنه ثواب من الله تعالى على ما ابتلاه .

الثاني : أنه أنعم الله عليه بذلك تفضلاً منه عليه ، وثوابه باق على حاله في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَأَجْرُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ أي ما نعطيه في الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه في الدنيا ؛ لأن أجر الآخرة دائم ، وأجر الدنيا ينقطع ؛ وظاهر الآية العموم في كل مؤمن متّق ؛ وأنشدوا :

أَمَا في رسول الله يوسف أُسْوَةٌ . . .

لمثلك محبوساً على الظُّلم والإِفْكِ

أقامَ جَميلَ الصّبر في الحبس بُرهة . . .

فآل به الصّبرُ الجميل إلى المُلْك

وكتب بعضهم إلى صديق له :

وراء مَضيقِ الخوف مُتَّسعُ الأَمْنِ . . .

وأوّل مفروحٍ به آخرُ الحزنِ

فلا تَيْأَسَنْ فالله مَلَّكَ يوسفَا . . .

خزائنَه بعد الخلاصِ من السِّجنِ

وأنشد بعضهم :

إذا الحادثاتُ بَلَغْنَ النُّهَى . . .

وكادت تَذُوبُ لَهُنَّ المُهَجْ

وحَلَّ البلاءُ وَقَلَّ العَزَاء . . .

فعند التَّنَاهِي يكونُ الفَرَجْ

والشعر في هذا المعنى كثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(49/399)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾

وذلك أنه لما تبين للملك عذر يوسف وعرف أمانته وعلمه طلب حضوره إليه فقال أئتوني

به يعني بيوسف أستخلصه لنفسي أي أجعله خالصاً لنفسي والاستخلاص طلب خلوص

الشيء من جميع شوائب الاشتراك وإنما طلب الملك أن يستخلص يوسف لنفسه ، لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة العزيزة ولا يشاركهم فيها أحد من الناس وإنما قال الملك ذلك لما عظم اعتقاده في يوسف لما علم من غزارة علم يوسف وحسن صبره وإحسانه إلى أهل السجن وحسن أدبه وثباته على المحن كلها لهذا حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله تعالى أمراً هيأ أسبابه فألهم الملك ذلك فقال ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴿ فلما كلمه ﴾ فيه اختصار تقديره فلما جاء الرسول إلى يوسف فقال له أجب الملك الآن بلا معاودة فأجابه .

روي أن يوسف لما قام ليخرج من السجن دعا لأهله فقال اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار في كل بلد ، فلما خرج من السجن كتب على بابه هذا بيت البلواء وقبر الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً حسنة ثم قصد باب الملك .

قال وهب : فلما وقف بباب الملك قال : حسبي ربي من دنياي وحسبي ربي من خلقه عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك ثم دخل الدار فلما أبصر الملك قال : اللهم إني أسألك

بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره فلما نظر إليه الملك سلم يوسف عليه بالعربية فقال له الملك ما هذا اللسان ؟ قال لسان عمي إسماعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال له وما هذا اللسان أيضاً قال يوسف هذا لسان آبائي قال وهب وكان الملك يتكلم بسبعين لغة فلم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجاباه يوسف وزاد عليه بالعربية والعبرانية فلما رأى الملك منه ذلك أعجبه ما رأى مع حداثة سن يوسف عليه السلام وكان له من العمر يومئذ ثلاثون سنة فأجلسه إلى جنبه فذلك قوله تعالى فلما كلمه يعني فلما كلم الملك يوسف لأن مجالس الملوك لا يحسن لأحد أن يبدأ بالكلام فيها وإنما يبدأ فيها بالكلام وقيل معناه فلما كلم يوسف الملك قال الساقي أيها الملك هذا الذي علم تأويل الملك رؤياك مع عجز السحرة والكهنة عنها فأقبل عليه الملك و ﴿ قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ يقال : اتخذ فلان عند فلان مكانة أي منزلة وهي الحالة التي يتمكن بها صاحبها مما يريد ، وقيل : المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفت أمانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت إليه وقوله مكين أمين كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا .

روي أن الملك قال ليوسف أحب أن أسمع تأويل رؤياي منك شفاهاً فقال : نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب غر حسان غير عجاف كشف لك عنهن النيل فطلعن من شاطئه تشخب أخلافهن لبناً فبينما أنت تنظر إليهن وقد أعجبك حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا يبسه فخرج من حمأته سبع بقرات عجاف شعث غبر ملصقات البطون ليس لهما ضروع ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلام وخراطيم كخراطيم السباع فاختلطن بالسمان فافترسن السمان فافترس السبع فأكلن لحومهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن ومشمسن مخهن فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهو مهازيل ثم لم يظهر منهن سمن ولا زيادة بعد أكلهن إذ سبع سنبلات خضر طريات ناعمات ممتلئات حباً وماء وإلى جانبهن سبع أخر سود يابسات في منبت واحد عروقهن في الثرى والماء فبينا أنت تقول في نفسك أي شيء هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن في الثرى والماء .

إذ هبت الريح فذرت أوراق اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار فأحرقتهن فصرن سوداً فهذا ما رأيت أيها الملك ثم انتبهت مذعوراً فقال الملك والله ما أخطأت منها شيئاً فما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجباً فما هو بأعجب مما سمعت منك وما ترى في تأويل رؤياي أيها الصديق ؟ قال يوسف : أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة وتجعل ما يتحصل من ذلك الطعام في الخزائن بقصبه وسنبله فإنه

أبقى له فيكون ذلك القصب والسنبل علفاً للدواب وتأمر الناس فليرفعوا الخمس من زروعهم أيضاً فيكفيك ذلك الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها وتأتيك الخلق من سائر النواحي للميرة ويجتمع عندك من الكنز والأموال ما لا يجتمع لأحد قبلك فقال الملك : ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبيعه لي ويكفيني العميل فيه فعند ذلك .

(52/399)

﴿ قال ﴾ يعني يوسف ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ يعني على خزائن الطعام والأموال ، وأراد بالأرض أرض مصر أي اجعلني على خزائن أرضك التي تحت يدك ، وقال الربيع بن أنس اجعلني على خزائن خراج مصر ودخلها ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ أي حفيظ الخزائن عليم بوجوه مصالحها وقيل معناه إني حاسب كاتب وقيل حفيظ لما استودعتني عليم بما وليتني وقيل حفيظ للحساب عليم أعلم لغة من يأتيني ، وقال الكلبي : حفيظ بتقديره في السنين المخصبة للسنين المجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع فقال الملك عند ذلك ومن أحق بذلك منك وولاّه ذلك ، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة "

فإن قلت كيف طلب يوسف علي الصلاة والسلام الإمارة والولاية مع ما ورد من النهي عنها مع كراهية طلبها لما صح من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أتيتها من غير مسألة أعنت عليها " أخرجاه في الصحيحين .

قلت إنما يكره طلب الإمارة إذا لم يتعين عليه طلبها فإذا تعين عليها طلبها وجب ذلك عليه ولا كراهية فيه فأما يوسف فكان عليه طلب الإمارة لأنه مرسل من الله تعالى والرسول أعلم بمصالح الأمة من غيره وإذا كان مكلفاً برعاية المصالح ولا يمكنه ذلك إلا بطلب الإمارة وجب عليه طلبها ، وقيل إنه علم انه سيحصل قحط وشدة إما بطريق الوحي من الله أو بغيره وربما أفضى ذلك إلى هلاك معظم الخلق ، وكان في طلب الإمارة إيصال الخير والراحة إلى المستحقين وجب عليه طلب الأمارة لهذا السبب .

فإن قلت كيف مدح يوسف نفسه بقوله إني حفيظ عليم والله تعالى يقول فلا تزكوا أنفسكم .

قلت إنما يكره تزكية النفس إذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوسل به إلى غير ما يحل فهذا القدر المذموم في تزكية النفس.

أما إذا قصد بتزكية النفس ومدحها إيصال الخير والنفع إلى الغير فلا يكره ذلك ولا يحرم بل يجب عليه ذلك مثاله أن يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به فإنه يجب عليه أن يقول أنا عالم، ولما كان الملك قد علم من يوسف أنه عالم بمصالح الدين ولم يعلم أنه عالم بمصالح الدنيا نبهه يوسف بقوله إني حفيظ عليم على أنه عالم بما يحتاج إليه في مصالح الدنيا أيضاً مع كمال علمه بمصالح الدين.

قوله: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾

وكذلك إشارة إلى ما تقدم، يعني وكما أنعمنا على يوسف بأن أنجيناه من الجب وخلصناه من السجن وزيناه في عين الملك حتى قربه وأدنى منزلته كذلك مكنا له في الأرض يعني أرض مصر؛ ومعنى التمكين هو أن لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وإليه الإشارة بقوله ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ لأنه تفسير للتمكين.

قال ابن عباس وغيره لما انقضت السنة من يوم سأل يوسف الإمارة دعاه الملك فتوجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع ووضع له عليه ثلاثون فراشاً وستون مارياً وضرب له عليه كلة من إستبرق وأمره أن يخرج فخرج متوجاً لونه كالثلج ووجه كالقمر يرى الناظر وجهه فيه من

صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت ليوسف الملوك وفوض الملك الأكبر إليه ملكه وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه .

قال ابن إسحاق قال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلمها إلى يوسف وسلم له سلطانه كله وجعل أمره وقضاءه نافذاً في مملكته قالوا ثم هلك قطفير عزيز مصر في تلك الليالي فزوج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه فلما دخل يوسف عليها قال لها أليس هذا خيراً مما كنت تريدين قال له أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي وعصمك الله قالوا فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له ولدين ذكرين إفراثيم وميشا وهما ابنا يوسف منها واستوثق ليوسف ملك مصر وأقام فيه العدل وأحبه الرجال والنساء فلما اطمأن يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام أحسن التدبير وأقام فيه العدل وأحبه الرجال والنساء اطمأن يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام أحسن التدبير فبنى الحصون والبيوت الكثيرة وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة وأنفق المال بالمعروف حتى خلت السنين المخصبة ودخلت السنين المجدبة بهول وشدة لم ير الناس مثله ، وقيل : إنه دبر

في طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار فلما دخلت سنين القحط كان أول من أصابه الجوع الملك فجاع نصف النهار فنادى يا يوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول أوان القحط فهلك في السنة الأولى من أول سنين القحط كل ما أعدوه في السنين المخصبة فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف فباعهم في السنة الأولى بالنقود حتى لم يبق بمصر درهم ولا دينار إلا أخذه منهم وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق بمصر في أيدي الناس منها شيء وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي والأنعام حتى لم تبق دابة ولا ماشية إلا احتوى عليها كلها وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والجواري حتى لم يبق بأيدي الناس عبد ولا أمة وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى أتى عليها كلها وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ، حتى استرقهم وباعهم في

السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة إلا ملكه فصاروا جميعهم عبيداً ليوسف فقال أهل مصر ما رأينا كاليوم ملكاً أجمل ولا أعظم من يوسف فقال يوسف للملك كيف رأيت صنع الله بي فيما خولني فما ترى في هؤلاء قال الملك الرأي رأيك ونحن لك تبع قال فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم

وقيل إن يوسف كان لا يشبع من الطعام في تلك الأيام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض فقال أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع وأمر يوسف طباخي الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار .

قال مجاهد : ولم يزل يوسف يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله سبحانه وتعالى : وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ يعني نختص بنعمتنا وهي النبوة من نشاء يعني من عبادنا ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ قال ابن عباس يعني الصابرين ﴿ ولأجر الآخرة ﴾ يعني ولثواب الآخرة ﴿ خير ﴾ يعني أفضل من أجر الدنيا ﴿ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ يعني يتقون ما نهى الله عنه وفيه دليل على أن الذي أعد الله ليوسف في الآخرة من الأجر والثواب الجزيل أفضل مما أعطاه الله في الدنيا من الملك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾

روي أن الرسول جاءه فقال : أجب الملك ، فخرج من السجن ودعا لأهله اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ، ولا تعم عليهم الأخبار ، فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات .

وكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى ، وقبور الأحياء ، وشماتة الأعداء ، وتجربة الأصدقاء ، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ، ولبس ثياباً جدداً ، فلما دخل على الملك قال : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال : ما هذا اللسان ؟ فقال : لسان آبائي ، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً فكلمه بها ، فأجابه بجميعها ، فتعجب منه وقال : أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك قال : رأيت بقرات سمان فوصف لونهن وأحوالهن ، وما كان خروجهن ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفاً ، وقال له : من حفظك أن تجعل الطعام في الاهراء فيأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك ، ويجتمع لك من المكنون ما لم يجتمع لأحد قبلك .

وكان يوسف قصد أولاً بتثبته في السجن أن يرتقي إلى أعلى المنازل ، فكان استدعاء الملك إياه أولاً بسبب علم الرؤيا ، فلذلك قال : ائتوني به فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل فظهرت أمانته وصبره وهمته وجودة نظره وتأنيه في عدم التسرع إليه بأول طلب عظمت

منزلته عنده ، فطلبه ثانياً ومقصوده : استخلاصه لنفسه .

ومعنى أستخلصه : أجعله خالصاً لنفسي وخاصاً بي ، وسمى الله فرعون مصر ملكاً إذ هي حكاية اسم مضى حكمه وتصرم زمنه ، فلو كان حياً لكان حكماً له إذا قيل لكافر ملك أو أمير ، ولهذا كتب النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى هرقل عظيم الروم ولم يقل ملكاً ولا أميراً ، لأن ذلك حكم .

والجواب مسلم وتسلموا .

وأما كونه عظيمهم فتلك صفة لا تفارقه كيف ما تقلب .

وفي الكلام حذف التقدير : فسمع الملك كلام النسوة وبراءة يوسف مما رمى به ، فأراد رؤيته وقال : ائتوني به فأتاه ، فلما كلمه .

والظاهر أن الفاعل بكلمه هو ضمير الملك أي : فلما كلمه الملك ورأى حسن جوابه ومحاورته .

ويحتمل أن يكون الفاعل ضمير يوسف أي : فلما كلم يوسف الملك ، ورأى الملك حسن منطقه بما صدق به الخبر ، والمرء مخبوء تحت لسانه ، قال : إنك اليوم لدينا مكين أي : ذو

مكانة ومنزلة ، أمين مؤتمن على كل شيء .

وقيل : أمين آمين ، والوصف بالأمانة هو الأبلغ في الإكرام ، وبالأمن يحط من إكرام يوسف .

ولما وصفه الملك بالتمكن عنده ، والأمانة ، طلب من الأعمال ما يناسب هذين الوصفين فقال : اجعلني على خزائن الأرض أي : ولني خزائن أرضك إني حفيظ أحفظ ما تستحفظه ، عليم بوجوه التصرف .

وصف نفسه بالأمانة والكفاءة وهما مقصود الملوك ممن يولونه ، إذ هما يعمان وجوه التثقيف والحياطة ، ولا خلل معهما لقائل .

وقيل : حفيظ للحساب ، عليم بالألسن .

وقيل : حفيظ لما استودعتني ، عليم بسني الجوع .

وهذا التخصيص لا وجه له ، ودلّ إثناء يوسف على نفسه أنه يجوز للإنسان أن يثني على نفسه بالحق إذا جهل أمره ، ولا يكون ذلك التزكية المنهي عنها .

وعلى جواز عمل الرجل الصالح للرجل التاجر بما يقتضيه الشرع والعدل ، لا بما يختاره ويشتهيه مما لا يسيغه الشرع ، وإنما طلب يوسف هذه الولاية ليتوصل إلى إمضاء حكم الله ، وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن غيره لا يقوم مقامه في ذلك .

فإنْ كان الملك قد أسلم كما روى مجاهد فلا كلام ، وإن كان كافراً ولا سبيل إلى الحكم بأمر

الله ودفع الظلم إلا بتمكينه ، فللمتولي أن يستظهر به .

وقيل : كان الملك يصدر عن رأي يوسف ولا يعترض عليه في كل ما رأى ، فكان في حكم التابع .

وما زال قضاة الإسلام يتولون القضاء من جهة من ليس بصالح ، ولولا ذلك لبطلت أحكام الشرع ، فهم مثابون على ذلك إذا عدلوا .

وكذلك أي : مثل ذلك التمكين في نفس الملك مكناً ليوسف في أرض مصر ، يتبوأ منها حيث يشاء أي : يتخذ منها مباءة ومنزلاً كل مكان أراد ، فاستولى على جميعها ، ودخلت تحت سلطانه .

روي أن الملك توجه بتاجه ، وختمه بخاتمه ، ورداه بسيفه ، ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت ، فجلس على السرير ، ودانت له الملوك ، وفوض الملك إليه أمره وعزل قطفير ، ثم مات بعد ، فزوجه الملك امرأته ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيراً مما طلبت ؟ فوجدها عذراء ، لأنّ العزيز كان لا يطأ ، فولدت له ولدين : افراثيم ، ومنشا . وأقام العدل بمصر ، وأحبه الرجال والنساء ، وأسلم على يده الملك وكثير من الناس ، وباع

من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها ، ثم بالحلي والجواهر ، ثم بالدواب ، ثم بالضياع والعقار ، ثم برقابهم ، ثم استرقهم جميعاً فقالوا : والله ما رأينا كاليوم ملكاً أجل ولا أعظم منه فقال للملك : كيف رأيت صنع الله بي فيما خولني ، فما ترى ؟ قال : الرأي رأيك قال : فإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم ، ورددت عليهم أملاكهم .

وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس ، وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب مصر ، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا ، واحتبس بنيامين .

وقرأ الحسن وابن كثير : بخلاف عنهم أبو جعفر وشيبه ونافع : حيث نشاء بالنون ، والجمهور بالياء .

والظاهر أنّ قراءة الياء يكون فاعل نشاء ضميراً يعود على يوسف ، ومشيئته معذوقة بمشيئة الله ، إذ هو نبيه ورسوله .

وإما أن يكون الضمير عائداً على الله أي : حيث يشاء الله ، فيكون التفاتاً .

نصيب برحمتنا أي : بنعمتنا من الملك والغنى وغيرهما ، ولا نضيع في الدنيا أجر من أحسن .

ثم ذكر أن أجر الآخرة خير ، لأنه الدائم الذي لا يفنى .

وقال سفيان بن عيينة : المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة ، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا ، وما له في الآخرة من خلاق ، وتلا هذه الآية .

وفي الحديث ما يوافق ما قال سفيان ، وفي الآية إشارة إلى أن حال يوسف في الآخرة خير من حالته العظيمة في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(60/399)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الملك ائتونى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ ﴾

أجعله خالصاً ﴿ لِنَفْسِى ﴾ وخاصاً بي ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أي فأتَوا به ، فحُذف للإيذان بسرعة الإتيان به فكأنه لم يكن بين الأمر بإحضاره والخطاب معه زمانٌ أصلاً ، والضميرُ المستكنُّ في (كلّمه) ليوسف ، والبارزُ للملك أي فلما كلّمه يوسفُ إثرَ ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد ﴿ قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مِكِينٌ ﴾ ذو مكانةٍ ومنزلةٍ رفيعة ﴿ أَمِينٌ ﴾ مؤتمنٌ على كل شيء ، (واليومَ) ليس بمعيار لمدة المكانةِ والأمانةِ بل هو آنُ التكلم

والمرادُ تحديد مبدئهما احترازاً عن احتمال كونِهما بعد حين . روي أنه عليه السلام لما جاءه الرسول خُرج من السجن ودعا لأهله واغتسل ولبس ثياباً جُدُداً فلما دخل على الملك قال : "اللهم إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شرّه وشرّ غيره" ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال : ما هذا اللسانُ ؟ قال : لسانُ آبائي ، وكان الملك يعرف سبعين لساناً فكلّمه بها فأجابه بجميعها فتعجّب منه فقال : أحب أن أسمعَ منك رؤياي فحكاها ونعت له البقراتِ والسنابلَ وأماكنَها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوّض إليه أمرَه ، وقيل : توفي قطفيرُ في تلك الليالي فنصّبه منصِبه وزوجه راعيل فوجدها عذراءَ وولدت له إفراييم وميشا ولعل ذلك إنما كان بعد تعيينِه عليه السلامِ لما عُيّن له من أمر الخزائنِ كما يعرب عنه قوله عز وجل : ﴿ قَالَ اجعلنى على خَزَائِنِ الأرض ﴾ أي أرض مصرَ أي ولّني أمرَها من الإيراد والصرف ﴿ إِنّى حَفِيظٌ ﴾ لها ممن لا يستحقها ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بوجوه التصرّفِ فيها ، وفيه دليل على جواز طلبِ الولايةِ إذا كان الطالبُ ممن يقدر على إقامة العدلِ وإجراءِ أحكامِ الشريعة وإن كان من يد الجائرِ أو الكافر .

وعن مجاهد أنه أسلم الملكُ على يده عليه السلام ، ولعل إيثارَه عليه السلام لتلك الولايةِ خاصة إنما كان للقيام بما هو أهمُّ أمورِ السلطنة إن ذاك من تدبير أمرِ السنين حسبما فُصل في التأويل لكونه من فروع تلك الولايةِ لا لمجرد عمومِ الفائدة كما قيل ، وإنما لم يُذكر إجابة الملكِ إلى ما سأله عليه السلام من جعله على خزائن الأرضِ إيذاناً بأن ذلك أمرٌ لا مردَّ له غنيٌّ عن التصريح به لا سيما بعد تقديمِ ما يندرج تحته من أحكام السلطنةِ بحذافيرها من قوله : إنك اليوم لدينا مكين أمين للتنبه على أن كلَّ ذلك من الله عز وجل وإنما الملكُ آلة في ذلك كما قيل .

(62/399)

﴿ وكذلك ﴾ أي مثلَ ذلك التمكينِ البليغ ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ أي جعلنا له مكاناً ﴿ فِى الأرض ﴾ أي أرض مصرَ . روي أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين وفي التعبير عن الجعل المذكورِ بالتمكين في الأرض مسنداً إلى ضميره عزّ سلطانُه من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته ، والإشارةِ إلى حصول ذلك من أول الأمرِ لا أنه حصل بعد السؤال ما لا يخفى ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا ﴾ ينزل من بلادها ﴿ حَيْثُ يَشَاء ﴾ ويتخذه مباءةً وهو عبارةٌ عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكتِه وسلطانه فكأنها منزلُه يتصرف

فيها كما يتصرف الرجل في منزله . وقرأ ابن كثير بالنون . روي أن الملك توّجهُ وختمه بخاتمه وردّاه بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت فقال عليه السلام : أما السريرُ فأشدُّ به مُلكك ، وأما الخاتمُ فأدبّر به أمرك ، وأما التاجُ فليس من لباسي ولا لباس آبائي ، فقال : قد وضعتُه إجلالاً لك وإقراراً بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوكُ وفوّض إليه الملكُ أمرَه وأقام العدلَ بمصر وأحبتْه الرجالُ والنساء وباع من أهل مصر في سِني القحطِ الطعامَ في السنة الأولى بالدنانير والدراهم ، وفي الثانية بالحِليّ والجواهر ، وفي الثالثة بالدوابّ ثم بالضِّياع والعَقار ثم برقابهم حتى استرقّهم جميعاً فقالوا : ما رأينا كاليوم ملكاً أجلَّ وأعظمَ منه ثم أعتقهم وردّ إليهم أموالَهم وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثرَ من حمل بعير تقسيطاً بين الناس ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا ﴾ بعطائنا في الدنيا من المُلك والغِنى وغيرهما من النعم ﴿ مَّن نَّشَاء ﴾ بمقتضى الحكمةِ الداعية إلى المشيئة ﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بل نوفيه بكماله ، وفيه إشعارٌ بأن مدارَ المشيئةِ المذكورةِ إحسانُ مَنْ تصيبه الرحمة المرموقةُ وأنها أجرٌ له ولدفع توهم انحصارِ ثمرات الإحسانِ فيما ذكر من الأجر ، قيل على سبيل التوكيد : ﴿

وَلَأَجْرُ الآخرة ﴾ أي أجرهم في الآخرة فالإضافة للملابسة وهو النعيمُ المقيم الذي لا نفاد له ﴿ خَيْرٌ ﴾ لهم أي للمحسنين المذكورين وإنما وضع موضعَه الموصول فقيل : ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ تنبيهاً على أن المراد بالإحسان إنما هو الإيمانُ والثباتُ على التقوى المستفادُ من جمع صيغتي الماضي والمستقبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(64/399)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ ﴾

أجعله خالصاً ﴿ لِنَفْسِى ﴾ وخاصاً بي ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ في الكلام إيجاز أي فأتوا به فلما الخ ، وحذف ذلك للإيذان بسرعة الإتيان فكأنه لم يكن بينه وبين الأمر بإحضاره عليه السلام والخطاب معه زمان أصلاً ، ولم يكن حاضراً مع النسوة في المجلس كما زعمه بعض وجعل المراد من هذا الأمر قربوه إلى ، والضمير المستكن في ﴿ كَلَّمَهُ ﴾ ليوسف عليه السلام والبارز للملك أي فلما كلم يوسف عليه السلام الملك أثر ما أتاه فاستنطقه ورأى حسن منطقه بما صدق الخبر الخبر ، واستظهر في البحر كون الضمير الأول للملك والثاني

ليوسف أي فلما كلمه الملك ورأى حسن جوابه ومحاورته ﴿ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ ﴾ ذو مكانة ومنزلة رفيعة ﴿ أَمِينٌ ﴾ مؤتمن على كل شيء ، وقيل : آمن من كل مكروه ، والوصف بالأمانة هو الأبلغ في الإكرام ، و﴿ اليوم ﴾ ليس بمعيار للمكانة والأمانة بل هو آن التكلم ، والمراد تحديد مبدئهما احترازاً عن كونهما بعد حين ، وفي اختيار لدى على عند ما لا يخفى من الاعتناء بشأنه عليه السلام ، وكذا في اسمية الجملة وتأكيدها .

روى أن الرسول جاءه فقال له : أجب الملك الآن بلا معاودة وألق عنك ثياب السجن واغتسل والبس ثياباً جدداً ففعل فلما قام ليخرج دعا لأهل السجن اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الإخبار فهم أعلم الناس بالإخبار في كل بلد ثم خرج فكتب على الباب هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ، فلما وصف إلى باب الملك قال : حسبي ربي من دنياي وحسبي ربي من خلقه عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك ، فلما دخل على الملك قال : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره ثم سلم عليه بالعربية فقال له الملك : ما هذا اللسان ؟ فقال : لسان عمي إسماعيل ، ثم دعا له بالعبرانية فقال له : وما هذا اللسان أيضاً ؟ فقال : هذا لسان

آبائي ، وكان الملك يعرف سبعين لساناً فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه وقال : أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك فحكاها عليه السلام له طبق ما رأى لم يخرم منها حرفاً ، فقال الملك : أعجب من تأويلك إياها معرفتك لها فأجلسه معه على السرير وفوض إليه أمره ؛ وقيل : إنه أجلسه قبل أن يقص الرؤيا .

وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق قال : ذكروا أن قطفير هلك في تلك الليالي وأن الملك زوج يوسف امرأته راعيل فقال لها حين أدخلت عليه : أليس هذا خيراً مما كنت تريدين ؟ فقالت : أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة كما ترى حسناء جملاء ناعمة في ملك ودنيا وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله تعالى في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي على ما رأيت فيزعمون أنه وجدها عذراء فأصابها فولدت له رجلين أفراثيم وميشا .

أخرج الحكيم الترمذي عن وهب قال : أصابت امرأة العزيز حاجة فقيل لها : لو أتيت يوسف بن يعقوب فسألتيه فاستشارت الناس في ذلك فقالوا : لا تفعلي فإنا نخافه عليك قالت : كلا إني لا أخاف ممن يخاف الله تعالى فأدخلت عليه فرأته في ملكه فقالت : الحمد

لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته ثم نظرت إلى نفسها فقالت : الحمد لله الذي جعل الملوك عبيداً بمعصيته فقضى لها جميع حوائجها ثم تزوجها فوجدها بكراً الخبر .

وفي رواية أنها تعرضت له في الطريق فقالت ما قالت فعرفها فتزوجها فوجدها بكراً وكان زوجها عنيناً ، وشاع عند القصاص أنها عادت شابة بكراً إكراماً له عليه السلام بعدما كانت ثيباً غير شابة ، وهذا مما لا أصل له ، وخبر تزوجها أيضاً مما لا يعول عليه عند المحدثين ؛ وعلى فرض ثبوت التزوج فظاهر خبر الحكيم أنه إنما كان بعد تعيينه عليه السلام لما عين له من أمر الخزائن ، قيل : ويعرب عنه قوله تعالى :

﴿ قَالَ اجعلنى على خَزَائِنِ الأرض ﴾

أي أرض مصر ، وفي معناه قول بعضهم أي أرضك التي تحت تصرفك ، وقيل : أراد بالأرض الجنس وبخزائنها الطعام الذي يخرج منها ، و﴿ على ﴾ متعلقة على ما قيل بمستول مقدر ، والمعنى ولني على أمرها من الإيراد والصرف ﴿ إِنّى حَفِيظٌ ﴾ لها ممن لا يستحقها ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بوجوه التصرف فيها ، وقيل : بوقت الجوع ، وقيل : حفيظ للحساب عليم بالألسن ، وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه بالحق إذا جهل أمره ، وجواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة وإن كان من يد الجائر أو الكافر ، وربما يجب عليه الطلب إذا توقف على ولايته إقامة واجب مثلاً وكان متعيناً لذلك ، وما في "الصحيحين" من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال : " قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الأمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها " وارد في غير ما ذكر .

(67/399)

وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده عليه السلام ، ولعل إيثاره عليه السلام لتلك الولاية خاصة إنما كان للقيام بما هو أهم أمور السلطنة إذ ذاك من تدبير أمر السنين لكونه من فروع تلك الولاية لا لمجرد عموم الفائدة كما قيل .

وجاء في رواية أن الملك لما كلمه عليه السلام وقص رؤياه وعبرها له قال : ما ترى أيها الصديق ؟ قال : تزرع في سنى الخصب زرعاً كثيراً فإنك لو زرعت فيها على حجر نبت وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام بقصبه وسنبله فإنه أبقى له ويكون القصب علفاً للدواب فإذا جاءت السنون بعت ذلك فيحصل لك مال عظيم ، فقال الملك : ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبيعه لي ويكفيني العمل فيه ؟ فقال : ﴿ اجعلنى على خَزَائِنِ الأرض ﴾ الخ ، والظاهر أنه أجابه لذلك حين سأله ، وإنما لم يذكر إجابته له عليه السلام إيذاناً بأن ذلك أمر لا رمد له غني عن التصريح به لا سيما بعد تقديم ما تندرج تحته أحكام السلطنة جميعها .

وأخرج الثعلبي عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله تعالى

أخي يوسف لو لم يقل : ﴿ اجعلني على خَزَائِنِ الأَرض ﴾ لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة " ثم أنه كما روي عن ابن عباس .

(68/399)

وغيره توجه وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع ووضع عليه الفرش وضرب عليه حلة من استبرق فقال عليه السلام : أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي فقال : قد وضعته إجلالاً لك وإقراراً بفضلك ، فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض إليه الملك أمره وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء ، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام في السنة الأولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق منها شيء ، وفي الثانية بالحلي والجواهر ، وفي الثالثة بالدواب والمواشي ، وفي الرابعة بالعبيد والجواري ، وفي الخامسة بالضياع والعقار ، وفي السادسة بالأولاد ، وفي السابعة بالرقاب حتى استرقهم جميعاً وكان ذلك مما يصح في شرعهم .

فقالوا : ما رأينا كاليوم ملكاً أجل وأعظم منه .

فقال للملك : كيف رأيت صنع الله تعالى فيما خولني فما ترى في هؤلاء ؟ فقال الملك :

الرأي رأيك ونحن لك تبع فقال : إني أشهد الله تعالى وأشهدك إني قد أعتقتهم ورددت إليهم أملاكهم .

ولعل الحكمة في ذلك إظهار قدرته وكرمه وانقيادهم بعد ذلك لأمره حتى يخلص إيمانهم ويتبعوه فيما يأمرهم به فلا يقال : ما الفائدة في تحصيل ذلك المال العظيم ثم إضاعته ؟ وكان عليه السلام في تلك المدة فيما يروى لا يشبع من الطعام فقيل له : أتجوع وخزائن الأرض بيدك ؟ فقال : أخاف إن شبعت أنسي الجائع وأمر عليه السلام طباخي الملك أن يجعلوا غذاءه نصف النهار وأراد بذلك أن يذوق طعم الجوع فلا ينسى الجياع ، قيل : ومن ثم جعل الملوك غذاءهم نصف النهار ، وقد أشار سبحانه إلى ما آتاه من الملك العظيم بقوله جل وعلا :

﴿ وكذلك ﴾ أي مثل التمكين البديع ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ أي جعلنا له مكاناً ﴿ فِى الأرض ﴾ أي أرض مصر ، روى أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين ، وفي التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين في الأرض مسنداً إلى ضميره تعالى من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته والإشارة إلى حصول ذلك من أول الأمر لا أنه حصل بعد السؤال ما لا يخفى

، واللام في ﴿ لِيُوسُفَ ﴾ على ما زعم أبو البقاء يجوز أن تكون زائدة أي مكنا يوسف وأن لا تكون كذلك والمفعول محذوف أي مكنا له الأمور ، وقد مر لك ما يتضح منه الحق ﴿ تَّركْنَا مِنْهَا ﴾ ينزل من قطعها وبلادها ﴿ حَيْثُ يَشَاء ﴾ ظرف ليتبوأ ، وجوز أن يكون مفعولاً به كما في قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124] و ﴿ مِنْهَا ﴾ متعلق بما عنده ، وقيل : بمحذوف وقع حالاً من حيث .

وتعقب بأن ﴿ حَيْثُ ﴾ لا يتم إلا بالمضاف إليه وتقديم الحال على المضاف إليه لا يجوز ، والجملة في موضع الحال من يوسف وضمير ﴿ يَشَاء ﴾ له ، وجوز أن يكون لله تعالى ففيه التفات ، ويؤيده أنه قرأ ابن كثير .

والحسن .

وبخلاف عنهم أبو جعفر .

وشيبة .

ونافع ﴿ نَشَاء ﴾ بالنون فإن الضمير على ذلك لله تعالى قطعاً ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا ﴾ بنعمتنا وعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ، وقيل : المراد بالرحمة النبوة وليس بذاك ﴿ مَّن نَّشَاء ﴾ بمقتضى الحكمة الداعية للمشيئة ﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ بل نوفي لهم أجورهم في الدنيا لإحسانهم ، والمراد به على ما قيل : الإيمان والثبات على

التقوى فإن قوله سبحانه :

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

(70/399)

قد وضع فيه الموصول موضع ضمير ﴿ المحسنين ﴾ [يؤسف : 56] وجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل تنبيهاً على ذلك ، والمعنى ولأجرهم في الآخرة خير ، والإضافة فيه للملابسة ، وجعل في تعقيب الجملة المثبتة بالجملة المنفية إشعار بأن مدار المشيئة المذكورة إحسان من تصيبه الرحمة المذكورة ، وفي ذكر الجملة الثالثة المؤكدة بعد دفع توهم انحصار ثمرات الإحسان فيما ذكر من الأجر العاجل ، ويفهم من ذلك أن المراد ممن نشاء من نشاء أن نصيبه بالرحمة من عبادنا الذين آمنوا واستمروا على التقوى .

وتعقب بأنه خلاف الظاهر ، ولعل الظاهر حمل ﴿ مِنْ ﴾ [يوسف : 56] على ما هو أعم مما ذكر وحينئذٍ لا يبعد أن يراد بالرحمة النعمة التي لا تكون في مقابلة شيء من الأعمال وبالأجر ما كان في مقابلة شيء من ذلك ، ويبقى أمر وضع الموصول موضع الضمير على حاله كأنه قيل : نتفضل على من نشاء من عبادنا كيف كانوا ونعم عليهم بالملك والغنى وغيرهما لا في مقابلة شيء من الأعمال وبالأجر ما كان في مقابلة شيء من ذلك ، ويبقى

أمر وضع الموصول موضع الضمير على حاله كأنه قيل : نتفضل على من نشاء من عبادنا كيف كانوا وننعم عليهم بالملك والغنى وغيرهما لا في مقابلة شيء ونوفي أجور المؤمنين المستمرين على التقي منهم ونعطيهم في الدنيا ما نعطيهم في مقابلة إيمانهم واستمرارهم على التقوى وما نعطيهم في مقابلة ذلك في الآخرة من النعيم العظيم المقيم خير لهم مما نعطيهم في الدنيا لعظمه ودوامه .

واعترض بأن فيه إطلاق الرحمة على ما يصيب الكافر من نحو الملك والغنى مع أنه ليس برحمة كما يشعر به كثير من الآيات ويقتضيه قولهم : ليس لله تعالى نعمة على كافر .

(71/399)

وأجيب بأن قولهم : في ﴿ الرحمن ﴾ أنه الذي يرحم المؤمن والكافر في الدنيا ظاهر في صحة ءطلاق الرحمة على ما يصيب الكافر من ذلك ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] ظاهر في صحة القول بكون الكافر مرحوماً في الجملة وأمر الإشعار سهل ، وقولهم : ليس لله تعالى نعمة على كافر إنما قاله البعض بناءاً على أخذ يحمد عاقبتها في تعريفها .

وإن أبيت ولا أظن فلم لا يجوز أن يقال : إنه عبر عما ذكر بالرحمة رعاية لجانب من اندرج في

عموم ﴿ مِنْ ﴾ من المؤمنين .

نعم يرد على تفسير الرحمة هنا بالنعمة التي لا تكون في مقابلة شيء من الأعمال والأجر بما كان ما روي عن سفيان بن عيينة أنه قال : المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة والفاجر يعجل له الخير في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق وتلا الآية فإنه ظاهر في أن ما يصيب الكافر مما تقدم في مقابلة عمل له وأن في الآية ما يدل على ذلك وليس هو إلا ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء ﴾ [يوسف : 56] وقد يجاب بأنه لعله حمل ﴿ المحسنين ﴾ [يوسف : 56] على ما يشمل الكفار الفاعلين لما يحسن كصلة الرحم ونصرة المظلوم وإطعام الفقير ونحو ذلك ، فحصر الدلالة فيما ذكر ممنوع نعم إن هذا الأثر يعكر على التفسير السابق عكراً بيناً إذ الآية عليه لا تعرض فيها للكافر أصلاً فلا معنى لتلاوتها إثر ذلك الكلام .

وعمم بعضهم الأوقات في ﴿ نَّصِيبِ وَلاَ نُضِيعُ ﴾ فقال نصيب في الدنيا والآخرة ولا نضيع أجر المحسنين بل نوفي أجورهم عاجلاً وآجلاً ، وأيد بأنه لا موجب للتخصيص وأن خبر سفيان يدل على العموم وتعقب بأن من خص ذلك بالدنيا فإنما خصه ليكون ما بده تأسيساً وبأنه لا دلالة للخبر على ذلك لأنه مأخوذ من مجموع الآية وفيه ما فيه .

وعن ابن عباس تفسير ﴿ المحسنين ﴾ بالصابرين ، ولعله رضي الله تعالى عنه على تقدير صحة الرواية رأى ذلك أوفق بالمقام .

(72/399)

وأياً ما كان في الآية إشارة إلى أن ما أعد الله تعالى ليوسف عليه السلام من الأجر والثواب في الآخرة أفضل مما أعطاه في الدنيا من الملك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(73/399)

وقال القاسمى :

ثم أشار تعالى إلى ما امتن به على يوسف من رفع قدره بصبره ، وإعلاء منزلته برحمته بقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ أي : أخصه بها ، دون العزيز ، جرياً على عادة الملوك من الاستئثار بالنفيس العزيز . قال ذلك لما تحقق براءته مما نسب إليه ، وكرم نفسه ، وسعة علمه : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أي : فلما أتوا به وكلمه ، أي : خاطبه الملك وعرفه ، وشاهد فضله وحكمته وبراءته – وجوز أن يكون فاعل (كَلَّمَهُ) يوسف عليه

السلام - : ﴿ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ ﴾ أي : ذو مكانة ومنزل : ﴿ أَمِينٌ ﴾ أي : مؤتمن على كل شيء .

روي أن يوسف عليه السلام لما حضر الملك ، وعبر له رؤياه ابتهج بحديثه هو وخاصته ، وقال لهم : هل نجد مثله رجلاً مهبطاً للإمداد الرباني ؟ وقال ليوسف : بعد أن عرفك الله هذا فلا يكون حكيم مثلك ، وأنت على بيتي ، وإلى كلمتك تنقاد رعيتي ، ولا أكون أعظم منك إلا بعرشي ، وقد أقمتك على جميع أرض مصر . ونزع خاتمه من يده ، ووضعه في إصبعه ، وألبسه ثياب بز ، وجعل طوقاً من ذهب في عنقه وأركبه مركبته ، وأمر أن يطاف به في شوارع مصر ، وينادى أمامه بالخضوع له ، وقال له الملك : لا يمضي أمر ، ولا ينفذ شأن في مصر إلا برأيك ومشورتك ، وسماه : مخلص العالم ، وزوجه بنت أحد العظماء لديه . وكان يوسف وقتئذ ابن ثلاثين سنة - والله أعلم - .

(74/399)

قال بعضهم : إن من أمعن النظر في قصة يوسف عليه السلام ، علم يقيناً أن التقي الأمين لا يضيع الله سعيه ، بل يحسن عاقبته ، ويعلي منزلته في الدنيا والآخرة ، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ، فإن الله يعضده ويُنجح

مسعاه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار . فإن يوسف عليه السلام لما لم يخش للنوائب وعيداً ولا للتجارب تهديداً . ولم يخف للسجن ظلماً وشراً ولا للتنكيل به ألماً وضراً ، بل ألقى توكله على الرب ، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب ؛ نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ولسان الصدق طول أيام الدهر . وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام ، ولم يعبث بنضارتها كرور الأعوام ، بل ادخرت لنا مثالاً نقتفي أثره عند طروء التجارب ، وملاذاً نعوذ به في المحن والمصائب ، ومقتدى نتدرب به على التثبت في مواقف العثار ، وننهج منهاجه في التقوى وطيب الإزار . فننال في الدنيا سمة المجد ، ونفوز في الآخرة بدار الخلد .

وقوله تعالى :

﴿ قَالَ ﴾ أي : يوسف للملك : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ ﴾ أي : ولني خزائن أرضك . يعني جميع الغلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح ، ثم بين اقتداره في ذلك فقال : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : أمين أحفظ ما تستحفظنيه ، عالم بوجوه التصرف فيه .

قال الزمخشري : وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هم طلبة الملوك ممن يولونه .

وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى ، وإقامة الحق ، وبسط العدل .

والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك ،

فطلب التولية ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك والدنيا .

فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ، ويكون تبعاً له ، وتحت أمره وطاعته ؟

.

(75/399)

قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم ، وعن قتادة هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر . وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه . وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به .

وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ، ولا يعترض عليه في كل ما رأى ، فكان في حكم التابع له والمطيع . انتهى .

وهذه الآية أصل في طلب الولاية كالقضاء ونحوه ، لمن وثق من نفسه بالقيام بحقوقه ، وجواز التولية عن الكافر والظالم . وأصل في جواز مدح الإنسان نفسه لمصلحته ، وفي أن المتولي أمراً ؛ شرطه أن يكون عالماً به ، خبيراً ، ذكي الفطنة . كذا في " الإكليل " .

قال أبو السعود : وإنما لم يذكر إجابة الملك إلى ما سأله ، عليه السلام ، من جعله على خزائن

الأرض ، إيذاناً بأن ذلك أمر لا مرد له ، غني عن التصريح ، ولا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بجذافيرها ، من قوله : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ ، وللتنبيه على أن كل ذلك من الله عز وجل ، وإنما الملك آلة في ذلك .

تنبيه :

قال ابن كثير : خزائن الأرض هي الأهرام التي يجمع فيها الغلات . . . . . الخ .

ولم أر الآن مستنده في كون الأهرام كانت مجمع الغلات ، ولم أقف عليه في كلام غيره .

و(الأهرام) بفتح الهمزة ، جمع هرم بفتحتين ، وهي مبان مربعة الدوائر ، مخروطية الشكل ، بقي منها الآن ثلاثة في الجيزة ، بعيدة أميالاً عن القاهرة ، معدودة من غرائب الدنيا ، دعيت لرؤياها أيام رحلتي للديار المصرية عام 1321 هـ . وقد استقر رأي المتأخرين في تحقيق شأنها على أنها كانت مدافن لملوكهم .

ففي كتاب " الأثر الجليل لقدماء وادي النيل " : جميع الأهرام ليست إلا مقابر ملوكية آثر أصحابها أن يتميزوا بها بعد موتهم عن سائر الناس ، كما تميزوا عنهم مدة حياتهم ، وتوخّوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور ، وتراخي العصور ، وقد أجمع مؤرخو

هذا العصر على أن الهرم الأكبر قبر للملك (خوفو) والثاني (خفرع) والثالث للملك (منقرع) وجميعهم من العائلة المنفيسية . ولا عبرة بقول من زعم أنها معابد أو مراصد للكواكب ، أو مدرسة للمعارف الكهنوتية ، أو غير ذلك . انتهى .

وقوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : أرض مصر : ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا ﴾ أي : ينزل من بلادها : ﴿ حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ وذلك أنه عليه السلام لما ولاه النظر على خزائن مصر ، تجول في قطرها ، وطاف قراها ، والأمر أمره ، والإشارة إشارته ، عناية منه تعالى ورحمة ، كما قال : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : الذين أحسنوا عملاً .

﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين . إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن ما يدخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يخولون به في الدنيا من التمكين في الأرض والجاه والثروة والمُلك . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 195.198 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾

السين والتاء في ﴿ أستخلصه ﴾ للمبالغة ، مثلها في استجاب واستأجر .

والمعنى أجْعَلْه خالصاً لنفسي ، أي خاصّاً بي لا يشاركني فيه أحد .

وهذا كناية عن شدة اتصاله به والعمل معه .

وقد دلّ الملكَ على استحقاق يوسف عليه السلام تقريبَهُ منه ما ظهر من حكمته وعلمه ، وصبره على تحمّل المشاق ، وحسن خلقه ، ونزاهته ، فكل ذلك أوجب اصطفاءه .

وجملة ﴿ فلما كلمه ﴾ مفرّعة على جملة محذوفة دل عليها ﴿ وقال الملك ائتوني به ﴾ .

والتقدير : فأتوه به ، أي بيوسف عليه السلام فحضر لديه وكلّمه ﴿ فلما كلمه ﴾ .

والضمير المنصوب في ﴿ كلمه ﴾ عائد إلى الملك ، فالمكلّم هو يوسف عليه السلام .

والمقصود من جملة ﴿ فلما كلمه ﴾ إفادة أن يوسف عليه السلام كلم الملك كلاماً أعجب الملك بما فيه من حكمة وأدب .

ولذلك فجملة ﴿ قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ جواب (لَمّا) .

والقائل هو الملك لا محالة .

والمكين : صفة مشبهة من مكُن بضم الكاف إذا صار ذا مكانة ، وهي المرتبة العظيمة ، وهي مشتقة من المكان .

والأمين : فعيل بمعنى مفعول ، أي مأمون على شيء ، أي موثوق به في حفظه .

وترّتب هذا القول على تكليمه إياه دالّ على أن يوسف عليه السلام كلّم الملك كلام حكيم أديب فلما رأى حسن منطقه وبلاغة قوله وأصالة رأيه رآه أهلاً لثقته وتقريبه منه .

وهذه صيغة تولية جامعة لكل ما يحتاج إليه ولي الأمر من الخصال ، لأن المكانة تقتضي العلم والقدرة ؛ إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد إليه ، وبالقدرة يستطيع فعل ما يبدو له من الخير ؛ والأمانة تستدعي الحكمة والعدالة ، إذ بالحكمة يوثر الأفعال الصالحة ويترك الشهوات الباطلة ، وبالعدالة يوصل الحقوق إلى أهلها .

وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه تعريض بأنه يريد الاستعانة به في أمور مملكته وبأن يقترح عليه ما يرجو من خير ، فلذلك أجابه بقوله : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ .

وجملة ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض ﴾ حكاية جوابه لكلام الملك ولذلك فصلت على طريقة المحاورات .

و﴿ على ﴾ هنا للاستعلاء المجازي ، وهو التصرف والتمكن ، أي اجعلني متصرّفاً في خزائن الأرض .

و ﴿ خزائن ﴾ جمع خِزانة بكسر الخاء ، أي البيت الذي يختزن فيه الحبوب والأموال .

والتعريف في ﴿ الأرض ﴾ تعريف العهد ، وهي الأرض المعهودة لهم ، أي أرض مصر .

والمراد من ﴿ خزائن الأرض ﴾ خزائن كانت موجودة ، وهي خزائن الأموال ؛ إذ لا يخلو سلطان من خزائن معدودة لنوائب بلاده لا الخزائن التي زيدت من بعد لخزن الأقوات استعداداً للسنوات المعبر عنها بقوله : ﴿ مما تحصنون ﴾ [سورة يوسف : 48] .

واقتراح يوسف عليه السلام ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعلم في المصالح ، ولذلك لم يسأل مالاً لنفسه ولا عَرَضاً من متاع الدنيا ، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالّها .

وعلّل طلبه ذلك بقوله : إني حفيظ عليم ﴾ المفيد تعليل ما قبلها لوقوع (إنّ) في صدر الجملة فإنه علم أنه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بله كلتيهما ، وهما : الحفظ لما يليه ، والعلم بتدبير ما يتولاه ، ليعلم الملك أن مكانته لديه وائتمانه إياه قد صادفا محلهما وأهلهما ، وأنه حقيق بهما لأنه متصف بما يفي بواجبهما ، وذلك صفة الحفظ المحقّق للائتمان ، وصفة العلم المحقق للمكانة .

وفي هذا تعريف بفضله ليهتدي الناس إلى اتباعه وهذا من قبيل الحِسبَة .

وشبه ابن عطية بمقام يوسفَ عليه السلام هذا مقام أبي بكر رضي الله عنه في دخوله في الخلافة مع نهيه المستشير له من الأنصار من أن يتأمر على اثنين .

قلت : وهو تشبيه رشيق ، إذ كلاهما صدّيق .

وهذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة إذا علم أنه لا يصلح له غيره لأن ذلك من النصح للأمة ، وخاصة إذا لم يكن ممّن يتهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمة .

وقد علم يوسف عليه السلام أنه أفضل الناس هنالك لأنه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر ، فهو لإيمانه بالله يبث أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام .

فلا يعارض هذا ما جاء في "صحيح مسلم" عن عبد الرحمان بن سمرة قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا عبد الرحمان لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتَها عن مسألة وُكلتَ إليها وإن أعطيتَها عن غير مسألة أُعنت عليها "لأن عبد الرحمان بن سمرة لم يكن منفرداً بالفضل من بين أمثاله ولا راجحاً على جميعهم .

ومن هذه الآية أخذ فقهاء المذهب جواز طلب القضاء لمن يعلم أنه أهل وأنه إن لم يُوَلّ ضاعت الحقوق .

قال المازري : "يجب على من هو أهل الاجتهاد والعدالة السعي في طلب القضاء إن عَلم أنه إن لم يلِه ضاعت الحقوق أو وليه مَن لا يحل أن يولى .

وكذلك إن كان ولِيَه من لا تحلّ توليته ولا سبيل لعزله إلا بطلب أهله" .

وقال ابن مرزوق : لم أقف على هذا لأحد من قدماء أهل المذهب غير المازري .

وقال عياض في كتاب الإمارة ، أي من "شرح صحيح مسلم" ، ما ظاهره الاتفاق على جواز الطلب في هذه الحالة ، وظاهر كلام ابن رشد في "المقدمات" حِرمة الطلب مطلقاً .

قال ابن مرزوق : وإنما رأيت مثل ما نقل المازري أو قريباً منه للغزالي في "الوجيز" .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾

تقدم تفسير آية ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ آنفاً .

والتبوؤ : اتخاذ مكان للبوء ، أي الرجوع ، فمعنى التبوؤ النزول والإقامة .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ﴾ في [سورة يونس : 87] .

وقوله : يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ كناية عن تصرفه في جميع مملكة مصر فهو عند حلوله بمكان من المملكة لو شاء أن يحل بغيره لفعل ، فجملة ﴿ يتبوأ ﴾ يجوز أن تكون حالاً من ﴿ يوسف ، ويجوز أن تكون بياناً لجملة مكنا ليوسف في الأرض ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ حيث يشاء ﴾ بياء الغيبة وقرأ ابن كثير ﴿ حيث نشاء ﴾ بنون العظمة ، أي حيث يشاء الله ، أي حيث نأمره أو نلهمه .

والمعنى متحد لأنه لا يشاء إلا ما شاءه الله .

وجملة ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ إلى آخرها تذييل لمناسبة عمومه لخصوص ما أصاب يوسف عليه السلام من الرحمة في أحواله في الدنيا وما كان له من مواقف الإحسان التي كان ما أعطيه من النعم وشرف المنزلة جزاء لها في الدنيا ، لأن الله لا يضيع أجر المحسنين .

ولأجره في الآخرة خير من ذلك له ولكل من آمن واتقى .

والتعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي وفي جانب التقوى بصيغة المضارع ، لأن الإيمان عقد القلب الجازم فهو حاصل دفعة واحدة وأما التقوى فهي متجددة بتجدّد أسباب الأمر والنهي واختلاف الأعمال والأزمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ

﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾

ونلحظ أن الملك قد قال : ﴿ ائتوني بِهِ ﴾ [يوسف : 54] .

مرتين ، مرة : بعد أن سمع تأويل الرؤيا ؛ لكن يوسف رفض الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته ؛ أو : أنه خرج وحضر المواجهة مع النسوة بما فيهنّ امرأة العزيز .

ورأى الملك في يوسف أخلاقاً رفيعة ؛ وسِعَة عِلْم .

وانتهى اللقاء الأول ليتدبر الملك ، ويُفكر في صفات هذا الرجل ؛ والراحة النفسية التي ملأتْ نفس الملك ؛ وكيف دخل هذا الرجل قلبه .

والمرة الثانية عندما أراد الملك أن يستخلصه لنفسه ويجعله مستشاراً له .

ويورد الحق سبحانه هذا المعنى في قوله :

﴿ ائتوني بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : 54] .

وهذا الاستخلاص قد جاء بعد أن تكلم الملك مع يوسف ، وبعد أن استشفّ خفَّة يوسف على نفسه ؛ وتيقَّن الملك من بعد الحوار مع يوسف أنه رجل قد حفظ نفسه من أعنف الغرائز ؛ غريزة الجنس .

وتيقن من أن يوسف تقبّل السجن ، وعاش فيه لفترة طالتْ ؛ وهو صاحب عِلْم ، وقد ثبت ذلك بتأويل الرُّؤيا ؛ وقد فعل ذلك وهو سجين ، ولم يقبل الخروج من السجن إلا لإثبات براءته ، أو بعد إثبات البراءة .

ولكلّ ذلك صار من أهل الثقة عند الملك ، الذي أعلن الأمر بقوله :

﴿ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : 54] .

وذلك ليسُدّ باب الوشَاية به ، أو التآمر عليه . ومكانة " المكين " هي المكانة التي لا ينال منها أيّ أحد .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن الوحي من جبريل عليه السلام قال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ ﴾ [التكوير : 19-20] .

(82/399)

فالمعنى : أن يوسف عليه السلام أَهْلٌ للثقة عند الحاكم ؛ وهو الذي سيُنفذ الأمور ، وله صِلَة بالمحكومين ، وإذا كان هو المُمَكَّن من عند الحاكم ؛ فهو أيضاً أمين مع المحكومين .

والمشكلة في مجتمعاتنا المعاصرة إنما تحدث عندما يُرجِّح الحاكمُ من يراهم أهلَ الثقة على أهل الخبرة والأمانة ، فتختل موازين العدل .

وعلى الحاكم الذكيّ أن يختار الذين يتمتعون بالأمرين معاً : أمانة على المحكوم ؛ وثقة عند الحاكم . وبهذا تعتدل الحياة على منهج الله .

وحين سمع يوسف عليه السلام هذا الكلام من الحاكم :

﴿ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : 54] .

قرر أن يطلب منه شيئاً يتعلق بتعبيره لرُؤْياه ، التي سبق أن أوّلها يوسف : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعُ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ الناس وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف : 47-49] .

وهذه عملية اقتصادية تحتاج إلى تخطيط وتطبيق ومتابعة وحُسْن تدبير وحزم وعِلْم .

لذلك كان مطلب يوسف عليه السلام فيه تأكيد على أن الواقع القادم سيأتي وفقاً لتأويله للرؤيا ، فتقول الآيات : ﴿ قَالَ اجعلني . . . ﴾ .

وهذا القول تأكيد لثقة يوسف أن القادم في هذا البلد يحتاج لحكمة إدارة ، لا تبعثر ما سوف يأتي في سنين الخصب ؛ لتضمن الاطمئنان في سنين الشدة ، وتلك مهمة تتطلب الحفظ والعلم .

وقد تقدم ما يثبت أن هاتين الصفتين يتحلَّى بهما يوسف عليه السلام .

وقد يقول قائل : أليس في قول يوسف شبهة طلب الولاية ؟ والقاعدة تقول : إن طالب الولاية لا يولَّى .

(83/399)

فيوسف عليه السلام لم يطلب ولاية ، وإنما طلب الإصلاح ليتخذ من إصلاحه سبيلاً لدعوته وتحقيقاً لرسالته ، حيث أنه كان آمراً فيستجاب ، ولم يكن مأموراً للإيجاب حيث أنه كان واثقاً بالإيمان ومؤمناً بوثوق .

وقد تأتي ظروف لا تحتمل التجربة مع الناس ، فمن يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه .

ومثال ذلك : لنفترض أن قوماً قد ركبوا سفينة ؛ ثم هاجتْ الرياح وهبَّتْ العاصفة ؛ وتعقَّدت الأمور ؛ وارتبك القبطان ، وجاءه مَنْ يخبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر ، ويُحسن إدارة قيادة المركب ، وسبق للقبطان أن علم عنه ذلك .

هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة ؛ وبعد أن ينتهي الموقف ؛ على القبطان أن يُوجِّه الشكر لهذا الخبير ؛ ويعود لقيادة السفينة .

إذن : فمن حقِّ الإنسان أن يطلب الولاية إذا تعيَّن عليه ذلك ، بأن يرى أمراً يتعرض له غير

ذي خبرة يُفسد هذا الأمر ، وهو يعلم وَجْه الصلاح فيه . وهنا يكون التدخل فرض عين من أجل إنقاذ المجتمع .

وفي مثل هذه الحالة نجد مَنْ طلب الولاية وهو يملك شجاعتين :

الشجاعة الأولى : أنه طلب الولاية لنفسه ؛ لثقته في إنجاح المهمة .

والشجاعة الثانية : إنه حجب من ليس له خبرة أن يتولى منصباً لا يعلم إدارته ، وبهذا يصير الباطل متصرفاً .

وبذلك يُظهر وَجْه الحق ؛ ويُزيل سيطرة الباطل .

ولذلك نجد يوسف عليه السلام يقول للملك :

﴿ اجعلني على خَزَآئِنِ الأرض إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 55] .

والخزائن يوجد فيها ما يُمكِّن المسيطر عليها من قيادة الاقتصاد .

وقالوا : إن يوسف طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، لوضع سياسة اقتصادية يواجهون بها سبع سنين من الجَدْب ، وتلك مسألة تتطلب حكمة وحِفْظاً وعِلْماً .

وكان يوسف عليه السلام يأخذ من كل راغبٍ في المَيْرة الأثمان من ذهب وفضة ، ومَنْ لا يملك ذهباً وفضة كان يُحضر الجواهر من الأحجار الكريمة ؛ أو يأتي بالدواب ليأخذ مقابلها طعاماً .

ومَنْ لا يملك كان يُحضر بعضاً من أبنائه للاسترقاق ، أي : يقول رَبُّ الأسرة الفقيرة : خُذْ هذا الولد ليكون عبداً لقاء أن آخذ طعاماً لبقية أفراد الأسرة .

وكان يوسف عليه السلام يُحسِن إدارة الأمر في سنوات الجَدْب ليشُد كل إنسان الحزام على البطن ، فلا يأكل الواحد في سبعة أمعاء بل يأكل في مِعىً واحد ، كما يقول رسولنا صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف :

" المؤمن يأكلَ في مِعيٍّ واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء " .

وكان التموين في سنوات الجَدْب يقتضي دِقَّة التخطيط ، ولا يحتمل أيَّ إسراف .

وما دام لكل شيء ثمن يجب أن يُدفع ، فكل إنسان سيأخذ على قَدْر ما معه ، وبعد أن انتهت سنوات الجَدْب ، وجاءت سنوات الرخاء ؛ أعاد يوسف لكل إنسان ما أخذه منه .

وحين سُئِل : ولماذا أخذتَ منهم ما دُمْتَ قد قررت أن تردَّ لهم ما أخذته ؟

أجاب : كي يأخذ كل إنسان في أقلَّ الحدود التي تكفيه في سنوات الجدب .

ومثل هذا يحدث عندنا حين نجد البعض ، وهو يشتري الخبز المُدعَّم ليُطعِم به الماشية ،

وحين يرتفع ثمن الخبز نجد كل إنسان يشتري في حدود ما معه من نقود ، ويحرص على ألاَّ يُلقِي مما اشترى شيئاً .

وكانت قدرة الدولة أيام الجفاف محدودة ؛ لذلك وجب على كل فرد أن يعمل لنفسه .

ونحن نرى ذلك الأمر ، وهو يتكرر في حياتنا ؛ فحين لا يجد أحد ثمن اللحم فقد لا تهفو نفسه إلى اللحم ، وقد يعلن في كبرياء : " إن معدتي لم تَعُدْ تتحمل اللحم " .

وقد يعلن الفقير حُبَّه للسمك الصغير ؛ لأن لحمه طيِّب ، عكس السمك الكبير الذي يكون لحمه " مِتفلّاً " ، أو يعلن إعجابه بالفجل الطازج ، لأنه لذيذ الطعم .

(85/399)

وقديماً في بدايات العمر كنا حين ندخل إلى المنزل ، ونحن نعيش بعيداً عن بيوت الأهل في سنوات الدراسة ، ولا نجد إلا قرصاً واحداً من " الطعمية " ، كنا نقسم هذا القرص ليكفي آخر لقمة في الرغيف ، أما إذا دخلنا ووجدنا خمسة أقراص من الطعمية ، فكان الواحد منا يأكل نصف قرص من الطعمية مع لقمة واحدة .

وهكذا يتحمل كل واحد على قَدْر حركته وقدرته .

والشاعر يقول :

والنفسُ راغبةٌ إذَا رغَّبتَها . . . وإذَا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا . . . ﴾ .

وهكذا كان تمكين الله ليوسف عليه السلام في الأرض ، بحيث أدار شئون مصر بصورة حازمة ؛ عادلة ؛ فلما جاء الجدب ؛ لم يأتها وحدها ؛ بل عَمَّ البلاد التي حولها .

بدليل أن هناك أُناساً من بلاد أخرى لجئوا يطلبون رزقهم منها ؛ والمثل : إخوة يوسف الذين جاءوا من الشام يطلبون طعاماً لهم ولمن ينتظرهم في بلادهم ، فهذا دليل على أن رُقْعة الشدة كانت شاسعة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ [يوسف : 56] .

نفهم منه أنه جعل لنفسه بيتاً في أكثر من مكان ؛ ولا يَظُنَّن ظَانٌّ أن هذا لَوْنٌ من اتساع أماكن التَّرَف .

لكن : لماذا لا ننظر إليها بعيون تكشف حقيقة رجال الإدارة في بعض البلاد ؛ فما أنْ يعلموا بوجود بيت للحاكم في منطقة ما ؛ وقد يزوره ؛ فهم يعتنون بكل المنطقة التي يقع فيها هذا البيت .

وهذا ما نراه في حياتنا المعاصرة ، فحين يزور الحاكم منطقة ما فَهُمْ يُعيدون رَصْف الشوارع ؛ ويصلحون المرافق ؛ وقد يُحضِرون أُصص الزرع ليُجمِّلوا المكان .

فما بَالُك إنْ عَلِموا بوجود بيت للحاكم في مكان ما ؟ لا بُدَّ أنهم سَيُوالون العناية بكل التفاصيل المتعلقة بالمرافق في هذا الموقع .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا عن يوسف عليه السلام :

﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ . . ﴾ [يوسف : 56] .

(86/399)

يعني : شُيوع العناية بالخدمات لكل الذين يسكنون في هذا البلد ؛ فلا تأخذ الأمر على أنه تَرَف وشَرَف ، بل خُذْ هذا القول على أنه تكليف سينتفع به المُحيطون ، سواء كانوا مقصودين به أو غير مقصودين .

وتلك لقطة توضح أن التبوُّء حيث يشاء ليس رحمةً به فقط ؛ ولكنه رحمةٌ بالناس أيضاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَآءُ ﴾ [يوسف : 56] .

فَمَنْ كان يحيا بلا مياه صالحة للشرب ستصله المياه النقية ؛ ومَنْ كان يشقى من أجل أن يعيش في مكان مُريح ستتحول المنطقة التي يسكن فيها إلى مكان مُريح به كل مُستلزمات العصر الذي يحيا فيه .

فيوسف المُمكّن في الأرض له مسكن مجاور له ؛ وسيجد العناية من قِبَل الجهاز الإداري حيثما ذهب ، وتغمر العناية الجميع ، رحمة من الله له ، وللناس من حوله .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 56] .

والمُحْسِن هو الذي يصنع شيئاً فوق ما طُلب منه .

وهنا سنجد الإحسان يُنسب ليوسف ؛ لأنه حين أقام لنفسه بيتاً في أكثر من مكان ؛ فقد أحسن إلى أهل الأمكنة التي له فيها بيوت ؛ بارتفاع مستوى الخدمة في المرافق وغيرها .

وسبحانه يجازي المحسنين بكمال وتمام الأجر ، وقد كافأ يوسف عليه السلام بالتمكين مع محبة من تولَّى أمرهم .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ . . . ﴾ .

ويوضح هنا سبحانه أنه لا يجزي المحسنين في الدنيا فقط ؛ ولكن يجازيهم بخير أبقى في الآخرة . وكلمة " خير " تستعمل استعمالين :

الأول : هو أن شيئاً خير من شيء آخر ؛ أي : أنهما شركاء في الخير ، وهو المعنى المقصود هنا ، والمثال : هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " المؤمن القويُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كُلٍّ خير . احرص على ما ينفعك ، واستعِنْ بالله ولا تعجز ، وإنْ أصابك شيء فلا تَقُلْ : لو أنِّي فعلتُ كذا وكذا ، ولكن قُلْ : قدَّر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان " .

والاستعمال الثاني لكلمة " خير " : هو خير مقابله شرّ ، والمثال : هو قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7-8] ، والحق سبحانه يريد أن يعتدل ميزان حركة الحياة ، لن يعتدل ميزان حركة الحياة بأن تقول للإنسان على إطلاقه : سوف تأخذ أجر عملك الطيب في الآخرة ؛ لأن المؤمن وحده هو الذي سيصدق ذلك .

أما الكافر فقد يظلم ويسفك الدماء ، ويسرق ويستشري الفساد في الأرض .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الجزاءَ نوعين : جزاء في الدنيا لَمنْ يُحسِن ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً ؛ وجزاءً في الآخر يختصّ به الحقُّ سبحانه المؤمنين به .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلأَجْرُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف : 57] .

أي : أنه أكثر خيراً من جزاء الدنيا ؛ لأن جزاء الآخرة يدوم أبداً ، على عكس خير الدنيا

الذي قد تفوته أو يفوتُك ، بُحكْم أن الدنيا موقوتة بالنسبة لك بعمرك فيها ؛ ولكن الآخرة لها الدَّيمومة التي شاءها الله سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(88/399)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) ﴾

أخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : فأتاه الرسول فقال له : ألق عنك ثياب السجن ، والبس ثياباً جدداً وقم إلى الملك ، فدعا له أهل السجن – وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة – فلما أتاه ، رأى غلاماً حدثاً . فقال : أيعلم هذا رؤياي ولا يعلمها السحرة والكهنة ؟ ! . . . وأقعده قدامه وقال له : لا تخف ، وألبسه طوقاً من ذهب وثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك ، وضرب الطبل بمصر أن يوسف عليه السلام خليفة الملك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿

أستخلصه لنفسي ﴾ قال : أتخذه لنفسي .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن زيد العمي - رضي الله عنه - قال : لما رأى يوسف عليه السلام عزيز مصر قال : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بعزتك من شره .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن أبي ميسرة - رضي الله عنه - قال : لما رأى العزيز لبق يوسف وكيسه وظرفه ، دعاه . فكان يتغدى معه ويتعشى دون غلمانه ، فلما كان بينه وبين المرأة ما كان ، قالت : لم تدني هذا من بين غلمانك ؟ . . . مره فليتغد مع الغلمان . قال له : اذهب فتغد مع الغلمان . فقال له يوسف : أترغب أن تأكل معي . . . أنا والله يوسف بن يعقوب ، نبي الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال الملك ليوسف : إني أحب أن تخالطني في كل شيء ، إلا في أهلي ، وأنا آنف أن تأكل معي . فغضب يوسف عليه السلام فقال : أنا أحق أن آنف ، أنا ابن إبراهيم خليل الله ، وأنا ابن إسحاق ذبيح الله ، وأنا ابن يعقوب نبي الله .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه قال: أسلم الملك الذي كان معه يوسف عليه السلام.

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: استعملني عمر - رضي الله عنه - على البحرين، ثم نزعني وغرمني اثني عشر ألفاً، ثم دعاني بعد إلى العمل فأبيت، فقال: لم؟ وقد سأل يوسف عليه السلام العمل، وكان خيراً منك. فقلت: إن يوسف عليه السلام نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي، وأنا ابن أميمة، وأنا أخاف أن أقول بغير حلم، وأن أفتي بغير علم، وأن يضرب ظهري ويشتم عرضي ويؤخذ مالي.

وأخرج الخطيب في رواية مالك، عن جابر رضي الله عنه قال: كان يوسف عليه السلام لا يشبع، فقيل له: ما لك لا تشبع وبيدك خزائن الأرض؟ ! . . . . قال: إني إذا شبعت، نسيت الجائع.

وأخرج وكيع في الغرر وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان، عن الحسن - رضي الله عنه - قال: قيل ليوسف عليه السلام: تجوع وخزائن الأرض بيدك؟ قال: إني أخاف أن أشبع فأنسى الجيعان.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن شيبة بن نعامة الضبي - رضي الله عنه - في قوله ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ يقول: على جميع الطعام إني حفيظ لما

استودعتني عليهم بسنين المجاعة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ قال : كان لفرعون خزائن كثيرة غير الطعام ، فأسلم سلطانه كله له ، وجعل القضاء إليه أمره ، وقضاؤه نافذ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إني حفيظ ﴾ قال : لما وليت ، ﴿ عليم ﴾ بأمره .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سفيان رضي الله عنه في قوله ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ قال : حفيظ للحساب ، عليم بالألسن .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن الأشجعي - رضي الله عنه - مثله .

(90/399)

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ قال : ملكناه فيما يكون فيها ﴿ حيث يشاء ﴾ من تلك الدنيا ،

يصنع – فيها ما يشاء ، فوّضت إليه . قال : لو شاء أن يجعل فرعون من تحت يده ، ويجعله من فوق لفعل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الفضيل بن عياض – رضي الله عنه – قال : وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف عليه السلام فقالت : الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته ، وجعل الملوك عبيداً بمعصيته .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن إسحق – رضي الله عنه – قال : ذكروا أن أطيفر هلك في تلك الليالي ، وإن الملك الريان زوّج يوسف عليه السلام امرأته راعيل ، فقال لها حين أدخلت عليه : أليس هذا خيراً مما كنت تريدين ؟ فقالت : أيها الصديق ، لا تلمني . فإني كنت امرأة كما ترى حسناء جملاء ، ناعمة في ملك ودنيا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك ، فغلبتني نفسي على ما رأيت ، فيزعمون أنه وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له رجلين .

وأخرج أبو الشيخ عن عبد العزيز بن منبه ، عن أبيه قال : تعرضت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام في الطريق حتى مر بها ، فقالت : الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيته عبيداً ، وجعل العبيد بطاعته ملوكاً ، فعرفها فتزوجها فوجدها بكراً ، وكان صاحبها من قبل لا يأتي النساء .

وأخرج الحكيم الترمذي ، عن وهب بن منبه – رضي الله عنه – قال : أصابت امرأة العزيز حاجة فقيل لها : لو أتيت يوسف بن يعقوب فسألته ، فاستشارت الناس في ذلك فقالوا : لا تفعلي ، فإنا نخاف عليك . قالت : كلا ، إني لا أخاف ممن يخاف الله . فدخلت عليه فرأته في ملكه ، فقالت : الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته ، ثم نظرت إلى نفسها فقالت : الحمد لله الذي جعل الملوك عبيداً بمعصيته ، فقضى لها جميع حوائجها ، ثم تزوجها فوجدها بكراً فقال لها : أليس هذا أجمل مما أردت ؟ قالت : يا نبي الله ، إني ابتليت فيك بأربع : كنت أجمل الناس كلهم ، وكنت أنا أجمل أهل زماني ، وكنت بكراً ، وكان زوجي عنيناً .

وأخرج أبو الشيخ ، عن زيد بن أسلم – رضي الله عنه – أن يوسف عليه السلام ، تزوج امرأة العزيز فوجدها بكراً ، وكان زوجها عنيناً .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا في الفرج ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات رحمة الله ، فإن لله عز وجل نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم " .

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57)

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مالك بن دينار - رضي الله عنه - قال : سألت الحسن - رضي الله عنه - فقلت : يا أبا سعيد ، قوله ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ ما هي ؟ قال : يا مالك ، اتقوا المحارم ، خمصت بطونهم . تركوا المحارم وهم يشتهونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(92/399)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ : يجوز أن يكونَ الفاعلُ ضميرَ المَلِك ، والمفعول ضميرَ يوسفَ عليه السلام وهو الظاهر ، ويجوز العكس .

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيُوسُفَ ﴾ : يجوز في هذه اللامِ أَنْ تكونَ متعلقةً ب " مَكَّنَّا " على أن يكون مفعولُ " مَكَّنَّا " محذوفاً تقديره : مَكَّنَّا لِيوسفَ الأمورَ ، أو على أن يكونَ المفعولَ به "

حيث "كما سيأتي . ويجوز أن تكونَ زائدةً عند مَنْ يرى ذلك ، وقد تقدم أنَّ الجمهورَ يَأْبَوْن ذلك إلا في موضعين .

قوله : ﴿ يَتَبَوَّأُ ﴾ جملةٌ حاليةٌ من "يوسف" . و "منها" يجوز أنْ تتعلَّق ب "يتبوَّأ" .

وأجاز أبو البقاء أَنْ تتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنها حالٌ مِنْ "حيث" .

و "حيث" يجوز أن يكونَ ظرفاً ل "يَتَبَوَّأُ" ، ويجوز أنْ يكونَ مفعولاً به وقد تقدَّم تحقيقُه في الأنعام .

وقرأ ابن كثير "نَشَاء" بالنون على أنها نونُ العظمةِ للَّه تعالى . وجوَّز أبو البقاء أن يكونَ الفاعلُ ضميرَ يوسف قال : "لأنَّ مشيئَته مِنْ مشيئةِ اللَّه" وفيه نظرٌ لأنَّ نَظْم الكلامِ يَأْباه .

والباقون بالياء على أنه ضمير يوسف . ولا خلاف في قول ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَآءُ ﴾ أنها بالنون . وجوَّز الشيخ أن يكونَ الفاعلُ في قراءة الياء ضميرَ اللَّهِ تعالى ، ويكون التفاتاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 516.515 ﴾

(93/399)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) ﴾

لما اتضحت للملك طهارة فِعْله ونزاهة حاله استحضره لاستصفائه لنفسه، فلمّا كلّمه وسمع بيانه رفع محلّه ومكانه، وضمنه برّه وإحسانه، فقال: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾.

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) ﴾

إنما سأل ذلك ليضع الحقَّ موْضعه، ليصل نصيبُ الفقراءِ إليهم، فطَلَب حقَّ الله تعالى في ذلك، ولم يطلب نصيباً لنفسه.

ويقال لم يقل إني حسنٌ جميلٌ بل قال: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أي كاتبٌ حاسِبٌ، ليُعْلَم أنَّ الفضلَ في المعاني لا في الصورة.

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) ﴾

لَمَّا لم تكن له دواعي الشهوات من نَفْسِه مكّنه اللَّهُ من مُلْكِه - قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا ﴾ [الشورى: 63] - فقال: ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 56].

ثم أخبر عن حقيقة التوحيد، وبيّن أنه إنما يوفّي عبيادَه من ألطافه بفضله لا بفعلهم،

وبرحمته لا بِخدْمتهم؛ فقال: ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ . ثم يرقى هممهم عما أولاهم من النّعم.

﴿ وَلَأَجْرُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57) ﴾

لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لا بُدّ من التقوى ومخالفة الهوى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 191.190 ﴾

(94/399)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾

قوله: ﴿ وَقَالَ الملك ائتونى بِهِ ﴾ في الكلام حذف قبل هذا، والتقدير: فذهب الرسول إلى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا، وقال الملك لمن بحضرته: ﴿ ائتوني به ﴾ أي: بيوسف، رغب إلى رؤيته ومعرفة حاله، بعد أن علم من فضله ما علمه، من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ ﴾ أي : جاء إلى يوسف ﴿ الرسول ﴾ واستدعاه إلى حضرة الملك ، وأمره بالخروج من السجن ﴿ قَالَ ﴾ يوسف للرسول ﴿ ارجع إلى رَبّكَ ﴾ أي : سيدك ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ أمره بأن يسأل الملك عن ذلك ، وتوقف عن الخروج من السجن ، ولم يسارع إلى إجابة الملك ، ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه ، وأنه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلماً بيناً ، ولقد أعطى عليه السلام من الحلم والصبر والأناة ما تضيق الأذهان عن تصوّره ، ولهذا ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : " ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي " يعني : الرسول الذي جاء يدعوه إلى الملك .

قال ابن عطية : هذا الفعل من يوسف أناة وصبراً ، وطلباً لبراءة ساحته ، وذلك أنه خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ، ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون : هذا الذي راود امرأة العزيز ، وإنما قال : ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة ﴾ وسكت عن امرأة العزيز رعاية لذمام الملك العزيز ، أو خوفاً منه من كيدها وعظيم شرّها ، وذكر السؤال عن تقطيع الأيدي ولم يذكر مراودتهنّ له ، تنزهاً منه عن نسبة ذلك إليهنّ ، ولذلك لم ينسب المراودة فيما تقدّم إلى امرأة العزيز إلاّ بعد أن رمته بدائها وانسلت .

وقد اكتفى هنا بالإشارة الإجمالية بقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى بكيدهن عَلِيمٌ ﴾ فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهنّ مغنياً عن التصريح .

وجملة ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال الملك بعد أن أبلغه الرسول ما قال يوسف ؟ والخطب : الشأن العظيم الذي يحق له أن يخاطب فيه صاحبه خاصة ، والمعنى : ما شأنكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه .

وقد تقدّم معنى المراودة ، وإنما نسب إليهنّ المراودة ، لأن كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدم ، ومن جملة ما شمله خطاب الملك امرأة العزيز ، أو أراد بنسبة ذلك إليهنّ وقوعه منهنّ في الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشياً عن التصريح منه بنسبة ذلك إليها لكونها امرأة وزيره وهو العزيز ، فأجبن عليه بقولهنّ : ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أي : معاذ الله ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوء ﴾ أي : من أمر سيء ينسب إليه ، فعند ذلك ﴿ قَالَتِ امرأت العزيز ﴾ منزهة لجانبه مقرّة على نفسها بالمراودة له ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ أي : تبين وظهر .

وأصله : حصّ ، فقيل : حصحص كما قيل في كبوا : ﴿ فكبكبوا ﴾ [الشعراء : 94] قاله الزجاج ، وأصل الحصّ : استئصال الشيء ، يقال : حصَّ شعره ، إذا استأصله ، ومنه

قول أبي قيس بن الأسلت :

قد حَصت البيضة رأسي فما . . . أطعمُ نوما غيرَ تهجاعِ

والمعنى : أنه انقطع الحق عن الباطل بظهوره وبيانه ، ومنه :

فمن مبلغ عني خِداشا فإنه . . . كَذوبٌ إذا ما حَصحَص الحق ظالِمُ

وقيل : هو مشتق من الحصة ، والمعنى : بانت حصّة الباطل .

قال الخليل : معناه ظهر الحق بعد خفائه ، ثم أوضحت ذلك بقولها : ﴿ أَنَاْ راودته عَن نَّفْسِهِ ﴾ ولم تقع منه المراودة لي أصلاً ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين ﴾ فيما قاله من تبرئة نفسه ، ونسبة المراودة إليها ، وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام .

(96/399)

قوله : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ : ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف عليه السلام .

قال الفراء : ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر ، إذا دلت القرينة الصارفة إلى كل منهما إلى ما يليق به ، والإشارة إلى الحادثة الواقعة منه ، وهي تثبته وتأنيه ، أي : فعلت ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه في أهله بالغيب ، والمعنى : بظهر الغيب ، والجار والمجرور في

محل نصب على الحال أي : وهو غائب عني ، أو وأنا غائب عنه ، قيل : إنه قال ذلك وهو في السجن بعد أن أخبره الرسول بما قالته النسوة ، وما قالته امرأة العزيز .

وقيل : إنه قال ذلك وقد صار عند الملك ، والأوّل أولى ، وذهب الأقلون من المفسرين إلى أن هذا من كلام امرأة العزيز ، والمعنى : ذلك القول الذي قلته في تنزيهه ، والإقرار على نفسي بالمراودة ليعلم يوسف أني لم أخنه ، فأنسب إليه ما لم يكن منه ، وهو غائب عني ، أو وأنا غائبة عنه ، والإقرار على نفسي به .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ أي : لا يثبته ويسدّده ، أو لا يهديهم في كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم ، وإذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منها الكيد له والخيانة لزوجها .

وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد أن علم براءته ونزاهته .

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ إن كان من كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس ، وعدم التزكية بها مع أنه قد علم هو وغيره من الناس أنه بريء ، وظهر ذلك ظهور الشمس ، وأقرّت به المرأة التي ادّعت عليه الباطل ، ونزهته النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ ، وإن كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة ؛ لأنها قد أقرت بالذنب ، واعترفت بالمراودة وبالافتراء على يوسف .

وقد قيل : إن هذا من قول العزيز وهو بعيد جداً ، ومعناه : وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف ، والمساعدة على حبسه بعد أن علمت ببراءته ﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ أي : إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات ، وتأثيرها بالطبع ، وصعوبة قهرها ، وكفها عن ذلك ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبّى ﴾ أي : إلاّ من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء ، أو إلاّ وقت رحمة ربي وعصمته لها ، وقيل : الاستثناء منقطع ، والمعنى : لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن أن تكون أمارة بالسوء ، وجملة ﴿ إِنَّ رَبّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تعليل لما قبلها ، أي : إن من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم .

قوله : ﴿ وَقَالَ الملك ائتونى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدّم .

ومعنى ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ : أجعله خالصاً لي دون غيري ، وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز ، والاستخلاص : طلب خلوص الشيء من شوائب الشركة ، قال ذلك لما كان يوسف نفيساً ، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ في الكلام حذف ، وتقديره فأتوه به ، فلما كلمه ، أي : فلما كلم الملك يوسف ، ويحتمل أن يكون المعنى : فلما كلم يوسف الملك ، قيل : والأوّل أولى ؛ لأن مجالس الملوك لا

يتكلم فيها ابتداء إلّا هم دون من يدخل عليهم .

وقيل : الثاني أولى ؛ لقول الملك : ﴿ قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ فإن هذا يفيد أنه لما تكلم يوسف في مقام الملك جاء بما حببه إلى الملك ، وقربه من قلبه ، فقال هذه المقالة ،

ومعنى ﴿ مكين ﴾ : ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك ويأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره ، أو على ما يكله إليه من ذلك .

قيل : إنه لما وصل إلى الملك أجلسه على سريره ، وقال له : إني أحبّ أن أسمع منك تعبير رؤياي ، فعبرها له بأكمل بيان ، وأتمّ عبارة ، فلما سمع الملك منه ذلك قال له : ﴿ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

فلما سمع يوسف منه ذلك قال ﴿ اجعلنى على خَزَائِنِ الأرض ﴾ أي : ولني أمر الأرض التي أمرها إليك وهي أرض مصر ، أو اجعلني على حفظ خزائن الأرض ، وهي الأمكنة التي تخزن فيها الأموال .

طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ، ورفع الظلم ، ويتوسل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان بالله ، وترك عبادة الأوثان .

وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق ، ويهدم ما أمكنه من الباطل ، وطلب ذلك لنفسه ، ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التي لها ، ترغيباً فيما يرومه ، وتنشيطاً لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور إليه ، وجعلها منوطة به ، ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا صلى الله عليه وسلم من النهي عن طلب الولاية والمنع من تولية من طلبها ، أو حرص عليها .

والخزائن جمع خزانة ، وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء ، والحفيظ : الذي يحفظ الشيء ، أي : ﴿ إِنِّى حَفِيظٌ ﴾ لما جعلته إليّ من حفظ الأموال لا أخرجها في غير مخارجها ، ولا أصرفها في غير مصارفها ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بوجوه جمعها وتفريقها ومدخلها ومخرجها .

﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ أي : ومثل ذلك التمكين العجيب مكنا ليوسف في الأرض أي : جعلنا له مكاناً ، وهو عبارة عن كمال قدرته ، ونفوذ أمره ونهيه ، حتى صار الملك يصدر عن رأيه ، وصار الناس يعملون على أمره ونهيه ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء ﴾ أي : ينزل منها حيث أراد ويتخذه مباءة ، وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدّم ، وكأنه يتصرف في الأرض التي أمرها إلى سلطان مصر ، كما يتصرف الرجل في منزله .

وقرأ ابن كثير بالنون ، وقد استدلّ بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر ، بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق .

وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفياً في قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [هود : 113] ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء ﴾ من العباد فنرحمه في الدنيا بالإحسان إليه ، والإنعام عليه ، وفي الآخرة بإدخاله الجنة وإنجائه من النار ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ في أعمالهم الحسنة التي هي مطلوب الله منهم ، أي : لا نضيع ثوابهم فيها ، ومجازاتهم عليها ﴿ وَلأَجْرُ الأخرة ﴾ أي : أجرهم في الآخرة ، وأضيف الأجر إلى الآخرة للملابسة ، وأجرهم هو الجزاء الذي يجازيهم الله به فيها ، وهو الجنة التي لا ينفد نعيمها ولا تنقضي مدّتها ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ بالله ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ الوقوع فيما حرّمه عليهم .

والمراد بهم : المحسنون المتقدم ذكرهم ، وفيه تنبيه على أن الإحسان المعتدّ به ، هو الإيمان والتقوى .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَا بَالُ النسوة ﴾ قال : أراد يوسف العذر قبل أن يخرج من السجن .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في الشعب عنه قال : لما قالت امرأة العزيز : أنا راودته ، قال يوسف : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنّى لَمْ

أَخُنْهُ بالغيب ﴾ فغمزه جبريل فقال: ولا حين هممت بها؟ فقال: ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿ حَصْحَصَ الحق ﴾ قال: تبين.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، والسدّي مثله.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، عن حكيم بن حزام في قوله: ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ فقال له جبريل: ولا حين حللت السراويل؟ فقال عند ذلك ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾.

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَقَالَ الملك ائتونى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ قال: فأتاه الرسول فقال: ألقِ عنك ثياب السجن والبس ثياباً جدداً وقم إلى الملك، فدعا له أهل السجن وهو يومئذٍ ابن ثلاثين سنة، فلما أتاه رأى غلاماً حدثاً، فقال: أيعلم هذا رؤياي ولا يعلمها السحرة والكهنة؟ وأقعده قدّامه وقال: لا تخف، وألبسه طوقاً من ذهب وثياب حرير، وأعطاه دابة

مسروجة مزينة كدابة الملك ، وضرب الطبل بمصر : إن يوسف خليفة الملك .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قال الملك ليوسف : إني أحبّ أن تخالطني في كل شيء إلاّ في أهلي .

وأنا آنف أن تأكل معي ، فغضب يوسف ، وقال : أنا أحق أن آنف ، أنا ابن إبراهيم خليل الله ، وأنا ابن إسحاق ذبيح الله ، وأنا ابن يعقوب نبيّ الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن شيبة بن نعامة الضبي في قوله : ﴿ اجعلنى على خَزَائِنِ الأَرض ﴾ يقول : على جميع الطعام ﴿ إِنّى حَفِيظٌ ﴾ لما استودعتني ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بسني المجاعة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض ﴾ قال : ملكناه فيها يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا يصنع فيها ما يشاء .

وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم ، أن يوسف تزوج امرأة العزيز فوجدها بكراً ، وكان زوجها عنينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

فصل

قال صاحب الميزان فى الآيات السابقة :

﴿ وقال الملك انى ارى سبع بقرات سمان يا كلهن سبع عجاف ﴾

(بيان) تتضمن الآيات قصة خروجه (عليه السلام) من السجن ونيله عزة مصر والأسباب المؤدية إلى ذلك وفيها تحقيق الملك ثانيا في اتهامه وظهور براءته التام .

قوله تعالى : " وقال الملك انى ارى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف " إلى آخر الآية رؤيا للملك يخبر بها الملا والدليل عليه قوله : " يا ايها الملا أفتوني في رؤياي " وقوله انى ارى حكاية حال ماضية ومن المحتمل انها كانت رؤيا متكررة كما يحتمل مثله في قوله سابقا : " انى اراني اعصر خمرا " " انى اراني احمل " الخ .

والسمان جمع سمينة والعجاف جمع عجفاء بمعنى المهزولة قال في المجمع ولا يجمع فعلاء على فعال غير العجفاء على عجاف والقياس في جمعه العجف بضم العين وسكون الجيم كالحمراء والخضراء والبيضاء على حمر وخضر وبيض وقال غيره ان ذلك من قبيل الاتباع والجمع القياسي عجف .

والافتاء افعال من الفتوى والفتيا قال في المجمع الفتيا الجواب عن حكم المعنى وقد يكون الجواب عن نفس المعنى فلا يكون فتيا انتهى .

وقوله تعبرون من العبر وهو بيان تأويل الرؤيا وقد يسمى تعبيرا وهو على

أي حال مأخوذ من عبور النهر ونحوه كأن العابر يعبر من الرؤيا إلى ما وراءها من التأويل وهو حقيقة الأمر التى تمثلت لصاحب الرؤيا في صورة خاصة مألوفة له .

قال في الكشاف في قوله " سبع بقرات سمان " الخ فان قلت هل من فرق بين ايقاع سمان صفه للمميز وهو بقرات دون المميز وهو سبع وان يقال سبع بقرات سمانا ؟ قلت إذا أوقعتها صفة لبقرات فقد قصدت إلى ان تميز السبع بنوع من البقرات وهى السمان منهن لا بجنسهن ولو وصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن .

(102/399)

فان قلت هلا قيل سبع عجاف على الاضافة ؟ قلت التمييز موضوع لبيان الجنس والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده فان قلت فقد يقال ثلاثة فرسان وخمسة اصحاب قلت الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت مجرى الأسماء فاخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجز في غيرها الا تراك لا تقول عندي ثلاثة ضخام واربعة غلاظ انتهى .

وقال أيضا فان قلت هل في الآية دليل على ان السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر ؟ قلت الكلام مبنى على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل

الخضر فوجب ان يتناول معنى الاخر السبع ويكون قوله واخر يا بسات بمعنى وسبعا اخر

فان قلت هل يجوز ان يعطف قوله واخر يا بسات على سنبلات خضر فيكون مجرور المحل ؟ قلت يؤدى إلى تدافع وهو ان عطفها على سنبلات خضر يقتضى ان يدخل في حكمها فيكون معها مميزا للسبع المذكورة ولفظ الاخر يقتضى ان يكون غير السبع بيانه انك تقول عندي سبعة رجال قيام وقعود بالجر فيصح لانك ميزت السبعة برجال موصوفين بقيام وقعود على ان بعضهم قيا وبعضهم قعود فلو قلت عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود تدافع ففسد انتهى وكلامه على اشتماله على نكتة لطيفة لا ينتج ازيد من الظن بكون السنبلات اليا بسات سبعا كغيرها اما وجوب الدلالة من الكلام فلا البتة .

ومعنى الآية : " وقال ملك مصر لملائه انى ارى في منامي سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات مهازيل وارى سبع سنبلات خضر وسنبلات اخر يا بسات يا ايها الملا بينوا لى ما عندكم من حكم رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون .

قوله تعالى : " قالوا اضغاث احلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين " الاحلام جمع حلم بضمتين وقد يسكن وسطه هو ما يراه النائم في منامه وكأن الأصل في معناه ما يتصور

للإنسان من داخل نفسه من غير توصله إليه بالحس ومنه تسمية العقل حلما لأنه استقامة التفكر ومنه أيضا الحلم لزمان البلوغ قال تعالى : " وإذا بلغ الاطفال منكم الحلم " النور : 59 أي زمان البلوغ بلوغ العقل ومنه الحلم بكسر الحاء بمعنى الاناءة ضد الطيش وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وعدم المعاجلة في العقوبة فانه انما يكون عن استقامة التفكر وذكر الراغب ان الأصل في معناه الحلم بكسر الحاء ولا يخلو من تكلف .

وقال الراغب الضغث قبضة ريحان أو حشيش أو قضبان وجمعه اضغاث قال تعالى : " وخذ بيدك ضغثا وبه شبه الاحلام المختلفة التى لا تتبين حقائقها قالوا اضغاث احلام حزم اخلاط من الاحلام انتهى .

وتسمية الرؤيا الواحدة باضغاث الاحلام كأنه بعناية دعوى كونها صورا متفرقة مختلطة مجتمعة من رؤى مختلفة لكل واحد منها تأويل على حدة فإذا اجتمعت واختلطت عسر للمعبر الوقوف على تأويلها والإنسان كثيرا ما ينتقل في نومة واحدة من رؤيا إلى أخرى ومنهما إلى ثالثة وهكذا فإذا اختلطت ابعاضها كانت اضغاث احلام وامتنع الوقوف على حقيقتها ويدل على ما ذكرنا من العناية التعبير باضغاث احلام بتنكير المضاف والمضاف إليه معا كما لا يخفى .

على ان الآية اعني قوله " وقال الملك انى ارى " الخ غير صريحة في كونه رؤيا واحدة وفي

التوراة انه رأى البقرات السمان والعجاف في رؤيا والسنبلات الخضر واليا بسات في رؤيا أخرى .

(104/399)

وقوله " وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين " ان كان الالف واللام للعهد فالمعنى وما نحن بتأويل هذه المنامات التى هي اضغاث احلام بعالمين وان كان لغير العهد والجمع المحلى باللام يفيد العموم فالمعنى وما نحن بتأويل جميع المنامات بعالمين وانما نعبر غير اضغاث الاحلام منها وعلى أي حال لا تدافع بين عدهم رؤياه اضغاث احلام وبين نفيهم

العلم بتأويل الاحلام عن انفسهم ولو كان المراد بالاحلام الاحلام الصحيحة فحسب كان كل من شطرى كلامهم يغنى عن الاخر .

ومعنى الآية قالوا أي قال الملا للملك ما رايته اضغاث احلام واخلاط من منامات مختلفة وما نحن بتأويل هذا النوع من المنامات بعالمين أو وما نحن بتأويل جميع المنامات بعالمين وانما نعلم تأويل الرؤى الصالحة قوله تعالى : " وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة انا انبئكم بتأويله فأرسلون " الأمة الجماعة التى تقصد لشأن ويغلب استعمالها في الإنسان والمراد بها ههنا الجماعة من السنين وهى المدة التى نسى فيها هذا القائل وهو ساقى الملك ان

يذكر يوسف عند ربه وقد سأله يوسف ذلك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث يوسف في السجن بضع سنين .

والمعنى وقال الذى نجا من السجن من صاحبي يوسف فيه وادكر بعد جماعة من السنين ما سأله يوسف في السجن حين اول رؤياه انا انبئكم بتأويل ما رآه الملك في منامه فأرسلوني إلى يوسف في السجن حتى اخبركم بتأويل ذلك .

وخطاب الجمع في قوله : " انبئكم " وقوله فارسلون تشريك لمن حضر مع الملك وهم الملا من اركان الدولة واعضاد المملكة الذين يلون امور الناس والدليل عليه قوله الاتى لعلى ارجع إلى الناس كما سيأتي .

(105/399)

قوله تعالى : " يوسف ايها الصديق افتنا في سبع بقرات سمان " إلى آخر الآية في الكلام حذف وتقدير ايجازا والتقدير فأرسلوه فجاء إلى يوسف في السجن فقال : يا يوسف ايها الصديق افتنا في رؤيا الملك وذكر الرؤيا وذكر ان الناس في انتظار تأويله وهذا الأسلوب من لطائف اساليب القرآن الكريم .

وسمى يوسف صديقا وهو كثير الصدق المبالغ فيه لما كان رأى من صدقه فيما عبر به

منامه ومنام صاحبه في السجن وامور أخرى شاهدها من فعله وقوله في السجن وقد امضى الله سبحانه كونه صديقا بنقله ذلك من غير رد .

وقد ذكر متن الرؤيا من غير ان يصرح انه رؤيا فقال " افتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات " لأن قوله افتنا

وهو سؤال الحكم الذى يؤدى إليه نظره وكون المعهود فيما بينه وبين يوسف تأويل الرؤيا وكذا ذيل الكلام يدل على ذلك ويكشف عنه .

وقوله " لعلى ارجع إلى الناس لعلهم يعلمون " لعل الأول تعليل لقوله افتنا ولعل الثاني تعليل لقوله ارجع والمراد افتنا في أمر هذه الرؤيا ففى افتائك رجاء ان ارجع به إلى الناس واخبرهم بها وفي رجوعي إليهم رجاء ان يعلموا به فيخرجوا به من الحيرة والجهاله .

ومن هنا يظهر ان قوله ارجع في معنى ارجع بذلك فمن المعلوم انه لو افتى فيه فرجع المستفتى إلى الناس كان رجوعه رجوع عالم بتأويله خبير بحكمه فرجوعه عندئذ إليهم رجوع بمصاحبة ما القى إليه من التأويل فافهم ذلك .

وفى قوله اولا افتنا وثانيا " لعلى ارجع إلى الناس " دلالة على انه كان يستفتيه بالرسالة عن الملك والملا ولم يكن يسأله لنفسه حتى يعلمه ثم يخبرهم به بل ليحمله إليهم ولذلك لم يخصه يوسف بالخطاب بل عم الخطاب له ولغيره فقال تزرعون الخ .

وفى قوله إلى الناس اشعار أو دلالة على ان الناس كانوا في انتظار ان يرتفع بتأويله حيرتهم وليس إلا أن الملا كانوا هم اولياء امور الناس وخيرتهم في الأمر خيرة الناس أو ان الناس انفسهم كانوا على هذا الحال لتعلقهم بالملك واهتمامهم برؤياه لأن الرؤيا ناظرة غالبا إلى ما يهتم به الإنسان من شؤن الحياة والملوك انما يهتمون بشؤون المملكة وامور الرعية .

قوله تعالى : " قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون "

قال الراغب الدأب ادامة السير دأب في السير دأبا قال تعالى : " وسخر لكم الشمس والقمر دائبين والدأب العادة المستمرة دائما على حاله قال تعالى : "كدأب آل فرعون أي كعادتهم التى يستمرون عليها انتهى وعليه فالمعنى تزرعون سبع سنين زراعة متوالية مستمرة وقيل هو من دأب بمعنى التعب أي تزرعون بجد واجتهاد ويمكن ان يكون حالا أي تزرعون دائبين مستمرين أو مجدين مجتهدين فيه .

ذكروا ان تزرعون خبر في معنى الانشاء وكثيرا ما يؤتى بالأمر في صورة الخبر مبالغة في وجوب الامتثال كأنه واقع يخبر عنه كقوله تعالى : " تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله " الصف : 11 والدليل عليه قوله بعد " فما حصدتم فذروه في سنبله " قيل وانما أمر بوضعه وتركه في سنبله لأن السنبل لا يقع فيه سوس ولا يهلك وان بقى مدة من الزمان وإذا ديس وصفى اسرع إليه الهلاك .

والمعنى ازرعوا سبع سنين متواليات فما حصدتم فذروه في سنبله لئلايهلك وحفظوه كذلك الا قليلا وهو ما تأكلون في هذه السنين .

قوله تعالى : " ثم ياتي من بعد ذلك سبع شداد ياكلن ما قدمتم لهن الا قليلامما تحصنون " الشداد جمع شديد من الشدة بمعنى الصعوبة لما في سني الجدب والمجاعة من الصعوبة والحرج على الناس أو هو من شد عليه إذا كر وهذا انسب لما بعده من توصيفها بقوله : " يأكلن ما قدمتم لهن .

(107/399)

وعليه فالكلام يشتمل على تمثيل لطيف كأن هذه السنين سباع ضارية تكر على الناس لافتراسهم واكلهم فيقدمون إليها ما ادخروه عندهم من الطعام فتأكله وتنصرف عنهم .

والاحصان الاحراز والادخار والمعنى ثم ياتي من بعد ذلك أي ما ذكر من السنين الخصبة سبع سنين شداد يشددن عليكم ياكلن ما قدمتم لهن الا قليلامما تحرزون وتدخرون .

قوله تعالى : " ثم ياتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون " يقال غاثه الله واغاثه أي نصره ويغيثه بفتح الياء وضمها أي ينصره وهو من الغوث بمعنى النصرة وغاثهم الله يغيثهم من الغيث وهو المطر فقوله " فيه يغاث الناس " ان كان من الغوث كان معناه

ينصرون فيه من قبل الله سبحانه بكشف الكربة ورفع الجدب والمجاعة وانزال النعمة والبركة وان كان من الغيث كان معناه يمطرون فيرتفع الجدب من بينهم .

وهذا المعنى الثاني انسب بالنظر إلى قوله بعده وفيه يعصرون ولا يصغى إلى قول من يدعى ان المعنى الأول هو المتبادر من سياق الآية إلا على قراءة يعصرون بالبناء للمجهول ومعناه يمطرون .

وما اورده بعض المستشرقين على المعنى الثاني انه لا ينطبق على مورد الآية فان خصب مصر انما يكون بفيضان النيل لا بالمطر فالامطار لا تؤثر فيها اثرا .

رد عليه بان الفيضان نفسه لا يكون الا بالمطر الذى يمده في مجاريه من بلاد السودان .

على ان من الجائز ان يكون يغاث ماخوذا من الغيث بمعنى النبات قال في لسان العرب والغيث الكلاء ينبت من ماء السماء انتهى وهذا انسب من المعنيين السابقين بالنظر إلى قوله وفيه يعصرون .

وقوله وفيه يعصرون من العصر وهو اخراج ما في الشئ من ماء أو دهن بالضغط كاخراج ماء العنب والتمر للدبس وغيره واخراج دهن الزيت والسمسم للائتدام والاستصباح وغيرهما ويمكن ان يراد بالعصر الحلب أي يحلبون ضروع انعامهم كما فسره بعضهم به .

والمعنى ثم ياتي من بعد ذلك أي ما ذكر من السبع الشداد عام فيه تنبت اراضيهم أو يمطرون أو ينصرون وفيه يتخذون الاشربة والادهنة من الفواكه والبقول أو يحلبون ضروع انعامهم وفيه كناية عن توفر النعمة عليهم وعلى انعامهم ومواشيهم .

قال البيضاوى في تفسيره وهذه بشارة بشرهم بها بعد ان اول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة والعجاف واليابسات بسنين مجدبة وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة ولعله علم ذلك بالوحى أو بأن انتهاء الجدب بالخصب أو بان السنة الإلهية ان يوسع على عباده بعد ما ضيق عليهم انتهى وذكر غيره نحوامما ذكره .

وقال صاحب المنار في تفسيره في الآية والمراد ان هذا العام عظيم الخصب والاقبال يكون للناس فيه كل ما يبغون من النعمة والاتراف والانباء بهذا زائد على تأويل الرؤيا لجواز ان يكون العام الأول بعد سني الشدة والجدب دون ذلك فهذا التخصيص والتفصيل لم يعرفه يوسف الا بوحى من الله عزوجل لا مقابل له في رؤيا الملك ولا هو لازم من لوزام تأويلها بهذا التفصيل انتهى .

والذى ارى انهم سلكوا تفسير آيات الرؤيا وتاويلها سبيل المساهلة والمسامحة وذلك انا إذا تدبرنا في كلامه (عليه السلام) في التأويل اعني قوله " تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم

فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يا تي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون " وجدناه (عليه السلام) لم يبن كلامه على اساس اخبارهم بما سيستقبلهم من السنين السبع المخصبة ثم السنين السبع المجدبة ولو انه اراد ذلك لكان من حق الكلام ان يقول مثلا يأتي عليكم سبع مخصبات ثم يا تي من بعدها سبع شداد يذهبن بما عندكم من الذخائر ثم إذا سئل عن دفع هذه المخمصة وطريق النجاة من هذه المهلكة العامة قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلى آخر ما قال .

بل بنى كلامه على ذكر ما يجب عليهم من العمل وبين ان امره بذلك توطئة وتقدمة للتخلص عما يهددهم من المجاعة والمخمصة وهو ظاهر وهذا دليل على ان الذى رآه الملك من الرؤيا انما كان مثال ما يجب عليه من اتخاذ التدبير لانجاء الناس من مصيبة الجدب واشارة إلى ما هو وظيفته قبال مسؤليته في أمر رعيته وهو ان يسمن بقرات سبعا لتأكلهن بقرات مهازيل ستشد عليهم ويحفظ السنابل الخضر السبع بعد ما يبست على حالها من غير دوس وتصفية لذلك .

فكأن نفس الملك شاهدت في المنام ما يجب عليه من العمل قبال ما يهدد الأرض من سنة

الجدب فحكت السنين المخصبة والمجدبة أي الرزق الذى يرتزقون به فيها في صورة البقرة ثم حكت ما في السبع الأول من تكثير المحصول بزرعها دأبا في صورة السمن وما في السبع الاخر في صورة الهزال وحكت نفاد ما ادخروه في السبع الأولى في السبع الثانية بأكل العجاف للسمان وحكت ما يجب عليهم في حفظ ذخائر الرزق بالسنبلات اليابسة قبال السنبلات الخضر .

ولم يزد يوسف (عليه السلام) في تأويله على ذلك شيئا الا امورا ثلاثة احدها ما استثناه بقوله : " الا قليلا مما تأكلون " وليس جزء من التأويل وانما هو اباحة وبيان لمقدار التصرف الجائز فيما يجب ان يذروه في سنبله .

وثانيها قوله " الا قليلا مما تحصنون " وهو الذى يجب ان يدخروه للعام الذى فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ليتخذ بذرا ومددا احتياطيا وكأنه (عليه السلام) اخذه من قوله في حكاية الرؤيا يأكلهن سبع عجاف حيث لم يقل اكلتهن بل عبر عن اشتغالهن باكلهن ولما يفنيهن بأكل كلهن ولو كانت ذخائرهم تنفد في السنين السبع الشداد

لرأى انهن اكلتهن عن آخرهن وثالثها قوله ثم ياتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون والظاهر انه (عليه السلام) استفاده من عدد السبع الذى تكرر في البقرات السمان والعجاف والسنبلات الخضر وقوله : " ثم ياتي من بعد ذلك عام " وان كان اخبارا صورة عن المستقبل لكنه كناية عن ان هذا العام الذى سيستقبلهم بعد مضى السبع الشداد في غنى عن اجتهادهم في أمر الزرع والادخار ولا تكليف فيه يتوجه إليهم بالنسبة إلى ارزاق الناس .

ولعله لهذه الثلاثة غير السياق فقال فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ولم يقل فيه تغاثون وفيه تعصرون بالجرى على نحو الخطاب في الآيتين السابقتين ففيه اشارة إلى ان الناس في هذا العام في غنى عن اجتهادكم في أمر معاشهم وتصديكم لادارة ارزاقهم بل يغاثون ويعصرون لنزول النعمة والبركة في سنة مخصبة .

ومن هنا يظهر اندفاع ما ذكره صاحب المنار في كلامه المتقدم ان هذا التخصيص لم يعرفه يوسف (عليه السلام) الا بوحى من الله لا مقابل له في رؤيا الملك ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل انتهى .

فان تبدل سنى الجدب بسنة الخصب مما يستفاد من الرؤيا بلا ريب فيه واما ما ذكره من كون هذه السنة ذات مزية بالنسبة إلى سائر سني الخصب تزيد عليها في وفور الرزق فلا دليل عليها من جهة اللفظ البتة .

ومما ذكرنا أيضا تظهر النكتة في ترك توصيف السنبلات اليا بسات في الآية بالسبع حيث قيل وسبع سنبلات خضر واخر يا بسات حيث عرفت ان الرؤيا لا تجلى نفس حادثة الخصب والجدب وانما تجلى ما هو التكليف العملي قبال الحادثة فيكون توصيف السنابل اليا بسة بالسبع مستدركا مستغنى عنه بخلاف ما لو كان ذلك اشارة إلى نفس السنين المجدبة فافهم ذلك .

ومما تقدم يظهر أيضا ان الانسب ان يكون المراد بقوله يغاث وقوله يعصرون الامطار أو اعشاب الكلاء وحلب المواشي لأن ذلك هو المناسب لما رآه في

(111/399)

منامه من البقرات السبع سمانا وعجافا فإن هذا هو المعهود ومنه يظهر وجه تخصيص الغيث والعصر بالذكر في هذه الآية والله اعلم .

قوله تعالى : " وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن ان ربي بكيدهن عليم " في الكلام حذف واضمار ايجازا والتقدير على ما يدل عليه السياق والاعتبار بطبيعة الأحوال وجاء الرسول وهو الساقي فنبأهم بما ذكره يوسف من تأويل الرؤيا وقال الملك بعد ما سمعه : ائتوني به .

وظاهر ان الذي انبأه من جدب سبع سنين متوالية كان امرا عظيما والذي اشار إليه من الرأي البين الصواب اعظم منه واغرب عند الملك المهتم بأمر امته المعتني بشؤون مملكته وقد افزعه ما سمع وادهشه ولذلك أمر باحضاره ليكلمه ويتبصر بما يقوله مزيد تبصر ويشهد بهذا ما حكاه الله من تكليمه اياه بقوله : " فلما جاءه وكلمه " الخ .

ولم يكن امره باتيانه به اشخاصا له بل اطلاقا من السجن واشخاصا للتكليم ولو كان اشخاصا واحضارا لمسجون يعود إلى السجن بعد التكليم لم يكن ليوسف (عليه السلام) ان يستنكف عن الحضور بل اجبر عليه اجبارا بل كان احضارا عن عفو واطلاق فوسعه ان ياتي الحضور ويسأله ان يقضي فيه بالحق وكانت نتيجة هذا الاباء والسؤال ان يقول الملك ثانيا : ائتوني به استخلصه لنفسي بعد ما قال اولا ائتوني به وقد راعى (عليه السلام) ادبا بارعا في قوله للرسول : " ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن ايديهن " فلم يذكر امراة العزيز بما يسوؤه وليس يريد إلا أن يقضى بينه وبينها وانما اشار إلى النسوة اللاتى راودنه ولم يذكرهن أيضا بسوء الا بأمر يظهر بالتحقيق فيه براءته ولا براءته من مراودة امرأة العزيز بل نزاهته من أي مراودة وفحشاء تنسب إليه فقد كان بلاؤه عظيما .

ولم يذكرهن بشئ من المكروه الا ما في قوله " ان ربى بكيدهن عليم وليس الا نوعا من بث الشكوى لربه .

وما الطف قوله في صدر الآية وذيلها حيث يقول للرسول : " ارجع إلى ربك فاسأله " ثم يقول ان ربي بكيدهن عليم وفيه نوع من تبليغ الحق وليكن فيه

تنبه لمن يزعم ان مراده من ربي فيما قال لامرأة العزيز انه ربي احسن مثواى هو زوجها وانه يسميه ربا لنفسه .

وما الطف قوله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن والبال هو الأمر الذي يهتم به يقول ما هو الأمر العظيم والشأن الخطير الذي اوقعهن فيما وقعن فيه وليس الا هواهن فيه وولههن في حبه حتى انساهن انفسهن فقطعن الايدي مكان الفاكهة تقطيعا فليفكر الملك في نفسه ان الابتلاء بمثل هذه العاشقات الوالهات عظيم جدا والكف عن معاشقتهن والامتناع من اجابتهن بما يردنه وهن يفدينه بالانفس والاموال اعظم ولم يكن المراودة بالمرة والمرتين ولا الالحاح والاصرار يوما أو يومين ولن تتيسر المقاومة والاستقامة تجاه ذلك الا لمن صرف الله عنه السوء والفحشاء ببرهان من عنده .

قوله تعالى : " قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء الآية قال الراغب الخطب الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب قال تعالى : " فما خطبك يا سامرى " " فما خطبكم ايها المرسلون " انتهى .

وقال أيضا حصحص الحق أي وضح وذلك بانكشاف ما يظهره وحص وحصحص نحو

كف وكفكف وكب وكبكب وحصه قطع منه اما بالمباشرة واما بالحكم إلى ان قال والحصة القطعة من الجملة ويستعمل استعمال النصيب انتهى .

(113/399)

وقوله قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ جواب عن سؤال مقدر على ما في الكلام من حذف واضمار ايجازا كل ذلك يدل عليه السياق والتقدير كان سائلا يسأل فيقول فما الذى كان بعد ذلك ؟ وما فعل الملك ؟ فقيل رجع الرسول إلى الملك وبلغه ما قاله يوسف وسأله من القضاء فاحضر النسوة وسألهن عما يهم من شأنهن في مراودتهن ليوسف ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء فنزهنه عن كل سوء وشهدن انهن لم يظهر لهن منه ما يسوء فيما راودنه عن نفسه .

وذكرهن كلمة التنزيه حاش لله نظير تنزيههن حينما راينه لاول مرة حاش لله ما هذا بشرا يدل على بلوغه (عليه السلام) النهاية في النزاهة والعفة فيما علمنه كما انه كان بالغا في الحسن .

والكلام في فصل قوله قالت امرأة العزيز نظير الكلام في قوله قال ما خطبكن وقوله قلن حاش لله فعند ذلك تكلمت امرأة العزيز وهى الأصل في هذه الفتنة واعترفت بذنبها وصدقت

يوسف (عليه السلام) فيما كان يدعيه من البراءة قالت الآن حصحص ووضح الحق وهو انه انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين فنسبت المراودة إلى نفسها وكذبت نفسها في اتهامه بالمراودة ولم تقنع بذلك بل برأته تبرئة كاملة انه لم يراود ولا اجابها في مراودتها بالطاعة .

واتضحت بذلك براءته (عليه السلام) من كل وجه وفي قول النسوة وقول امرأة العزيز جهات من التأكيد بالغة في ذلك كنفى السوء عنه بالنكرة في سياق النفى مع زيادة من ما علمنا عليه من سوء مع كلمة التنزيه حاش لله في قولهن واعترافها بالذنب في سياق الحصر انا راودته عن نفسه وشهادتها بصدقه مؤكدة بان واللام والجملة الاسمية وانه لمن الصادقين وغير ذلك في قولها وهذا ينفى عنه (عليه السلام) كل سوء اعم من الفحشاء والمراودة لها واى ميل ونزعة إليها وكذب وافتراء بنزاهة من حسن اختياره .

(114/399)

قوله تعالى : " ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب وان الله لا يهدى كيد الخائنين " من كلام يوسف (عليه السلام) على ما يدل عليه السياق وكأنه قاله عن شهادة النسوة على براءة ساحته من كل سوء واعتراف امرأة العزيز بالذنب وشهادتها بصدقه وقضاء الملك ببراءته .

وحكاية القول كثير النظير في القرآن كقوله : " آمن الرسول بما انزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله " البقرة : 285 أي قالوا لا نفرق الخ وقوله وانا لنحن الصافون وانا لنحن المسبحون " الصافات : 166 .

وعلى هذا فالاشارة بقوله ذلك إلى ارجاع الرسول إلى الملك وسؤاله القضاء والضمير في ليعلم ولم اخنه عائد إلى العزيز والمعنى انما ارجعت الرسول إلى الملك وسألته ان يحقق الأمر ويقضى بالحق ليعلم العزيز انى لم اخنه بالغيب بمراودة امرأته وليعلم ان الله لا يهدى كيد الخائنين .

يذكر (عليه السلام) لما فعله من الا رجاع والسؤال غايتين احدهما ان يعلم العزيز انه لم يخنه وتطيب نفسه منه ويزول عنها وعن امره أي

شبهة وريبة .

والثانى ان يعلم ان الخائن مطلقا لا ينال بخياناته غايته وانه سيفتضح لا محالة سنة الله التى قد خلت في عباده ولن تجد لسنه الله تبديلا فان الخيانة من الباطل والباطل لا يدوم وسيظهر الحق عليه ظهورا ولو اهتدى الخائن إلى بغيته لم تفتضح النسوة اللاتى قطعن ايديهن واخذن بالمراودة ولا امرأة العزيز فيما فعلت واصرت عليه فالله لا يهدى كيد الخائنين .

وكان الغرض من الغاية الثانية وان الله لا يهدى كيد الخائنين وتذكيره وتعليمه للملك الحصول على لازم فائدة الخبر وهو ان يعلم الملك انه (عليه السلام) عالم بذلك مذعن بحقيقته فإذا

كان لم يخنه في عرضه بالغيب ولا يخون في شئ البتة كان جديرا بان يؤتمن على كل شئ نفسا كان أو عرضا أو مالا .

(115/399)

وبهذا الامتياز البين يتهيأ ليوسف ما كان بباله ان يسأل الملك اياه وهو قوله بعد ان اشخص عند الملك اجعلني على خزائن الأرض انى حفيظ عليم .

والآية ظاهرة في ان هذا الملك هو غير عزيز مصر زوج المرأة الذى اشير إليه بقوله : " وألفيا سيدها لدى الباب " وقوله وقال الذى اشتراه من مصر لامراته اكرمي مثواه .

وقد ذكر بعض المفسرين ان هذه الآية والتى بعدها تتمة قول امرأة العزيز " الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين " وسياتى الكلام عليه .

قوله تعالى : " وما ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم " تتمة كلام يوسف (عليه السلام) وذلك ان قوله : " انى لم اخنه بالغيب كان لا يخلو من شائبة دعوى الحول والقوة وهو (عليه السلام) من المخلصين المتوغلين في التوحيد الذين لا يرون لغيره تعالى حولا ولا قوة فبادر (عليه السلام) إلى نفى الحول والقوة عن نفسه ونسبة ما ظهر منه من عمل صالح أو صفة جميلة إلى رحمة ربه وتسوية نفسه بسائر النفوس التى

هي بحسب الطبع مائلة إلى الاهواء امارة بالسوء فقال : " وما ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى " فقوله هذا كقول شعيب (عليه السلام) : " ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله " هود : 88 .

فقوله : " وما ابرئ نفسي " اشارة إلى قوله انى لم اخنه بالغيب وانه لم يقل هذا القول بداعي تنزيه نفسه وتزكيتها بل بداعي حكاية رحمة من ربه وعلل ذلك بقوله " ان النفس لامارة بالسوء " أي ان النفس بطبعها تدعو إلى مشتهياتها من السيئات على كثرتها ووفورها فمن الجهل ان تبرء من الميل إلى السوء وانما تكف عن امرها بالسوء ودعوتها إلى الشر برحمة من الله سبحانه تصرفها عن السوء وتوفقها لصالح العمل .

ومن هنا يظهر ان قوله " الا ما رحم ربى " يفيد فائدتين .

؟ .

احداهما تقييد اطلاق قوله " ان النفس لامارة بالسوء " فيفيد ان اقتراف الحسنات الذى هو برحمة من الله سبحانه من أمر النفس وليس يقع عن الجاء واجبار من جانبه تعالى .

وثانيتهما الإشارة إلى ان تجنبه الخيانة كان برحمة من ربه .

وقد علل الحكم بقوله : " ان ربى غفور رحيم " فأضاف مغفرته تعالى إلى رحمته لأن المغفرة تستر النقيصة اللازمة للطبع والرحمة يظهر بها الأمر الجميل ومغفرته تعالى كما تمحو الذنوب وآثارها كذلك تستر النقائص وتبعاتها وتتعلق بسائر النقائص كما تتعلق بالذنوب قال تعالى : " فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم " الأنعام : 145 وقد تقدم الكلام فيها في آخر الجزء السادس من الكتاب .

ومن لطائف ما في كلامه من الإشارة تعبيره (عليه السلام) عن الله عز اسمه بلفظ ربى فقد كرره ثلاثا حيث قال " ان ربى بكيدهن عليم " الا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم " لأن هذه الجمل تتضمن نوع انعام من ربه بالنسبة إليه فأثنى على الرب تعالى باضافته إلى نفسه لتبليغ مذهبه وهو التوحيد باتخاذ الله سبحانه ربا لنفسه معبودا خلافا للوثنيين واما قوله " وان الله لا يهدى كيد الخائنين " فهو خال عن هذه النسبة ولذلك عبر بلفظ الجلالة .

وقد ذكر جمع من المفسرين ان الآيتين اعني قوله ذلك " ليعلم انى لم اخنه بالغيب " الخ من تمام كلام امرأة العزيز والمعنى على هذا ان امرأة العزيز لما اعترفت بذنبها وشهدت بصدقه قالت ذلك أي اعترافي بأني راودته عن نفسه وشهادتى بانه من الصادقين

ليعلم إذا بلغه عنى هذا الكلام انى لم اخنه بالغيب بل اعترفت بأن المراودة كانت من قبلى انا وانه كان صادقا وان الله لا يهدى كيد الخائنين كما انه لم يهد كيدى انا إذ كدته بأنواع المراودة وبالسجن بضع سنين حتى اظهر صدقه في قوله وطهارة ذيله وبراءة نفسه وفضحنى امام الملك والملا ولم يهد كيد سائر النسوة في مراودتهن وما ابرئ نفسي من السوء مطلقا فانى كدت له بالسجن ليلجأ به إلى ان يفعل ما آمره ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم .

وهذا وجه ردئ جدا اما اولا فلان قوله " ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب " لو كان من كلام امرأة العزيز لكان من حق الكلام أن يقال وليعلم انى لم اخنه بالغيب بصيغة الأمر فان قوله ذلك على هذا الوجه اشارة إلى اعترافها بالذنب وشهادتها بصدقه فقوله لم اخنه بالغيب ان كان عنوانا لاعترافها وشهادتها مشارا به إلى ذلك خلى الكلام عن الفائدة فان محصل معناه حينئذ انما اعترفت وشهدت ليعلم انى اعترفت وشهدت له بالغيب مضافا إلى ان ذلك يبطل معنى الاعتراف والشهادة لدلالته على انها انما اعترفت وشهدت ليسمع يوسف ذلك ويعلم به لا لاظهار الحق وبيان حقيقة الأمر .

وان كان عنوانا لاعمالها طول غيبته إذ لبث بضع سنين في السجن أي انما اعترفت وشهدت له ليعلم انى لم اخنه طول غيبته فقد خانته إذ كادت به فسجن ولبث في السجن بضع سنين مضافا إلى ان اعترافها وشهادتها لا يدل على عدم خيانتها له بوجه من الوجوه

وهو ظاهر .

واما ثانيا فلانه لا معنى حينئذ لتعليمها يوسف ان الله لا يهدى كيد الخائنين وقد ذكرها يوسف به اول حين إذ راودته عن نفسه فقال انه لا يفلح الظالمون .

(118/399)

واما ثالثا فلان قولها وما ابرئ نفسي فقد خنته بالكيد له بالسجن يناقض قولها لم اخنه بالغيب كما لا يخفى مضافا إلى ان قوله " ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم " على ما فيه من المعارف الجليلة التوحيدية ليس بالحرى ان يصدر من امرأة احاطت بها الاهواء وهى تعبد الأصنام .

وذكر بعضهم وجها آخر في معنى الآيتين بارجاع ضمير ليعلم ولم اخنه إلى العزيز وهو زوجها فهى كأنها تقول ذاك الذى حصل اقررت به ليعلم زوجي انى لم اخنه

بالفعل فيما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا وان كل ما وقع انى راودته عن نفسه فاستعصم وامتنع فبقى عرض زوجي مصونا وشرفه محفوظا ولئن برأت يوسف من الاثم فما ابرئ منه نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى .

وفيه ان الكلام لو كان من كلامها وهى تريد ان تطيب به نفس زوجها وتزيل أي ريبة عن

قلبه انتج خلاف المطلوب فان قولها " الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين " انما يفيد العلم بانها راودته عن نفسه واما شهادتها انه امتنع ولم يطعها فيما امرته به فهى شهادة لنفسها لا عليها وكان من الممكن انها انما شهدت له لتطيب نفس زوجها وتزيل ما عنده من الشك والريب فاعترافها وشهادتها لا توجب في نفسها علم العزيز انها لم تخنه بالغيب .

مضافا إلى ان قوله " وما ابرئ نفسي " الخ يكون حينئذ تكرارا لمعنى قولها انا راودته عن نفسه وظاهر السياق خلافه على ان بعض الاعتراضات الواردة على الوجه السابق وارد عليه .

(119/399)

قوله تعالى : " وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين " يقال استخلصه أي جعله خالصا والمكين صاحب المكانة والمنزلة وفي قوله فلما كلمه حذف للايجاز والتقدير فلما اتى به إليه وكلمه قال انك اليوم الخ وفي تقييد الحكم باليوم اشارة إلى التعليل والمعنى انك اليوم وقد ظهر من مكارم اخلاقك في التجنب عن السوء والفحشاء والخيانة والظلم والصبر على كل مكروه وصغار في سبيل طهارة نفسك

واختصاصك بتأييد من ربك غيبي وعلم بالاحاديث والرأى والحزم والحكمة والعقل لدينا ذو مكانة وامانة وقد اطلق قوله مكين امين فأفاد بذلك عموم الحكم .

والمعنى وقال الملك ائتونى بيوسف اجعله خالصا لنفسي وخاصة لى فلما اتى به إليه وكلمه قال له انك اليوم وقد ظهر من كمالك ما ظهر لدينا ذو مكانة مطلقة وامانة مطلقة يمكنك من كل ما تريد ويأتمنك على جميع شؤن الملك وفي ذلك حكم صدارته .

قوله تعالى : " قال اجعلني على خزائن الأرض انى حفيظ عليم " لما عهد الملك ليوسف انك اليوم لدينا مكين امين واطلق القول سأله يوسف (عليه السلام) ان ينصبه على خزائن الأرض ويفوض إليه امرها والمراد بالارض ارض مصر .

ولم يسأله ما سأل الا ليتقلد بنفسه ادارة أمر الميرة وارزاق الناس فيجمعها ويدخرها للسنين السبع الشداد التى سيستقبل الناس وتنزل عليهم جدبها ومجاعتها ويقوم بنفسه لقسمة الارزاق بين الناس واعطاء كل منهم ما يستحقه من الميرة من غير حيف .

وقد علل سؤاله ذلك بقوله " انى حفيظ عليم " فان هاتين الصفتين هما اللازم وجودهما فيمن يتصدى مقاما هو سائله ولا غنى عنهما له وقد اجيب إلى ما سأل واشتغل بما كان يريده كل ذلك معلوم من سياق الآيات وما يتلوها .

قوله تعالى : " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوء منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع اجر المحسنين " التمكين هو الاقدار والتبوء اخذ المكان .

والاشارة بقوله كذلك إلى ما ساقه من القصة بما انتهى إلى نيله (عليه السلام) عزة مصر وهو حديث السجن وقد كانت امرأة العزيز هددته بالصغار بالسجن فجعله الله سببا للعزة وعلى هذا النمط كان يجرى امره (عليه السلام) اكرمه ابوه فحسده اخوته فكادوا به بالقائه في غيابة الجب وبيعه من السيارة ليذلوه فأكرم الله مثواه في بيت العزيز وكادت به امرأة العزيز ونسوة مصر ليوردنه مورد الفجور فأبان الله عصمته ثم كادت به بالسجن لصغاره فتسبب الله بذلك لعزته .

وللاشارة إلى أمر السجن وحبسه وسلبه حرية الاختلاط والعشرة قال تعالى : " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوء منها حيث يشاء " أي رفعنا عنه حرج السجن الذى سلب منه اطلاق الإرادة فصار مطلق المشية له ان يتبوء في أي بقعة يشاء فهذا الكلام بوجه يحاذي قوله تعالى السابق فيه حين دخل بيت العزيز ووصاه امراته : " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الاحاديث والله غالب على امره .

" وبهذه المقايسة يظهر ان قوله ههنا " نصيب برحمتنا من نشاء " في معنى قوله هناك والله غالب على امره وان المراد ان الله سبحانه إذا شاء ان يصيب برحمته احدا لم يغلب في

مشيته ولا يسع لاى مانع مفروض ان يمنع من اصابته ولو وسع لسبب ان يبطل مشية الله في احد لوسع في يوسف الذى تعاضدت الأسباب القاطعة وتظاهرت لخفضه فرفعه الله ولا ذلاله فأعزه الله ان الحكم الا لله .

وقوله : " ولا نضيع اجر المحسنين " اشارة إلى ان هذا التمكين اجر اوتيه يوسف (عليه السلام) ووعد جميل للمحسنين جميعا ان الله لا يضيع اجرهم .

قوله تعالى : " ولاجر الاخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون " أي لاولياء الله من عباده فهو وعد جميل اخروى لاوليائه تعالى خاصة وكان يوسف (عليه السلام) منهم .

والدليل على انه لا يعم عامة المؤمنين الجملة الحالية وكانوا يتقون الدالة على ان هذا الإيمان وهو حقيقة الإيمان لا محالة كان منهم مسبوقا بتقوى مستمر حقيقي وهذا التقوى لا يتحقق من غير ايمان فهو ايمان بعد ايمان وتقوى وهو المساوق لولاية الله سبحانه قال تعالى " إلا أن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفى الاخرة " يونس : 64 (بحث روائي) في تفسير القمى : ثم ان الملك رأى رؤيا فقال لوزرائه انى رايت في نومى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف أي مهازيل ورايت

سبع سنبلات خضر واخر يابسات وقال (1) أبو عبد الله (عليه السلام) سبع سنا بل ثم

قال " يا ايها الملا افتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون " فلم يعرفوا تأويل ذلك .

فذكر الذى كان على راس الملك رؤياه التى رآها وذكر يوسف بعد سبع سنين وهو قوله : "

وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة " أي بعد حين انا انبئكم بتأويله فأرسلون فجاء إلى

يوسف فقال " ايها الصديق افتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات

خضر واخر يابسات " .

قال يوسف تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون أي لا

تدوسوه فانه يفسد في طول سبع سنين وإذا كان في سنبله لا يفسد ثم يأتي من بعد

(122/399)

ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن في السبع سنين الماضية قال الصادق (عليه السلام)

انما نزل ما قربتم لهن ثم ياتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون أي يمطرون .

وقال أبو عبد الله (عليه السلام) قرء رجل على امير المؤمنين (عليه السلام) ثم ياتي من

بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون على البناء للفاعل فقال ويحك أي شئ

يعصرون يعصرون الخمر ؟ قال الرجل يا امير المؤمنين كيف اقرؤها ؟ فقال انما نزلت وفيه

يعصرون أي يمطرون بعد سني المجاعة والدليل على ذلك قوله : " وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا " .

فرجع الرجل إلى الملك فأخبره بما قال يوسف فقال الملك ائتونى به فلما جائه الرسول قال ارجع إلى ربك يعنى إلى الملك فأساله ما بال النسوة اللاتى قطعن ايديهن ؟ ان ربى بكيدهن عليم .

فجمع الملك النسوة فقال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امراة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب وان الله لا يهدى كيد الخائنين أي لا اكذب عليه الان كما كذبت عليه من قبل ثم قالت وما ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى .

فقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسي فلما نظر إلى يوسف قال انك اليوم لدينا مكين امين فاسأل حاجتك قال اجعلني على خزائن الأرض انى حفيظ عليم يعنى الكناديج والانايير فجعله عليها وهو قوله : " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوء منها حيث يشاء " .

اقول قوله وقرء الصادق (عليه السلام) سبع سنابل في رواية العياشي عن ابن أبى يعفور عنه (عليه السلام) انه قرء سبع سنبلات وقوله (عليه السلام) انما نزل ما قربتم لهن أي ان التقديم بحسب التنزيل بمعنى التقريب وقوله (عليه السلام) انما نزلت وفيه يعصرون أي يمطرون أي بالبناء للمفعول ومنه يعلم انه (عليه السلام) يأخذ قوله يغاث من الغيث دون

الغوث وروى هذا المعنى أيضا العياشي في تفسيره عن على بن معمر عن ابيه عن أبى عبد الله (عليه السلام) .

وقوله أي لا اكذب عليه الان كما كذبت عليه من قبل ظاهر في اخذ قوله " ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب " إلى آخر الآيتين من كلام امراة العزيز وقد عرفت الكلام عليه في البيان المتقدم .

وفي الدر المنثور اخرج الفاريابى وابن جرير وابن أبى حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : عجبت لصبر اخى يوسف وكرمه والله يغفر له حيث ارسل إليه ليستفتى في الرؤيا وان كنت انا لم افعل حتى اخرج وعجبت من صبره وكرمه والله يغفر له اتى ليخرج فلم يخرج حتى اخبرهم بعذره ولو كنت انا لبادرت الباب ولكنه احب ان يكون له العذر .

اقول وقد روى هذا المعنى بطرق أخرى ومن طرق اهل البيت (عليه السلام) ما في تفسير العياشي عن ابان عن محمد بن مسلم عن احدهما (عليه السلام) قال : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لو كنت بمنزلة يوسف حين ارسل إليه الملك يسأله عنه

رؤياه ما حدثته حتى اشترط عليه ان يخرجني من السجن وعجبت لصبره عن شان امرأة الملك (1) حتى اظهر الله عذره .

اقول وهذا النبوى لا يخلو من شئ فان فيه احد المحذورين اما الطعن في حسن تدبير يوسف (عليه السلام) وتوصله إلى الخروج من السجن وقد احسن التدبير في ذلك فلم يكن يريد مجرد الخروج منه ولا هم لامرأة العزيز ونسوة مصر الا في مراودته عن نفسه والجائه إلى موافقة هواهن وهو القائل " رب السجن احب الي مما يدعونني إليه " وانما كان يريد الخروج في جو يظهر فيه براءته وتيأس منه امراة العزيز والنسوة ويوضع في موضع يليق به من المكانة والمنزلة .

ولذا انبأ وهو في السجن اولا بما هو وظيفة الملك الواجبة اثر رؤياه من جمع الارزاق العامة وادخارها فتوصل به إلى قول الملك ائتونى به ثم لما أمر باخراجه أبى إلى ان

---

(1) هي امرأة العزيز دون الملك ولعل اطلاق الملك على بعلها من تسامح بعض رواة الحديث منه .

يحكم بينه وبين النسوة حكما بالقسط فتوصل به إلى قوله ائتونى به استخلصه لنفسي وهذا احسن تدبير يتصور لما كان يبتغيه من العزة في مصر وبسط العدل والاحسان في الأرض مضافا إلى ما ظهر للملك وملائه في خلال هذه الأحوال من عظيم صبره وعزمه في الأمور وتحمله الاذى في جنب الحق وعلمه الغزير وحكمه القويم .

واما الطعن في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحاشاه ان يقول انه لو كان مكان يوسف طاش ولم يصبر مع الاعتراف بان الحق كان معه في صبره وهو اعتراف بان من شانه ان لا يصبر فيما يجب الصبر فيه وحاشاه (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يامر الناس بشئ وينسى نفسه وقد صبر وتحمل الاذى في جنب الله قبل الهجرة وبعدها من الناس حتى اثنى الله عليه بمثل قوله : " وانك لعلى خلق عظيم " .

وفى الدر المنثور أيضا اخرج الحاكم في تاريخه وابن مردويه والديلمي عن انس قال : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قرء هذه الآية : " ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب " قال لما قالها يوسف قال له جبريل يا يوسف اذكر همك قال وما ابرئ نفسي .

اقول وهذا المعنى مروى في عدة روايات بالفاظ متقاربة ففى رواية ابن عباس لما قالها يوسف فغمزه جبريل فقال ولا حين هممت بها ؟ وفى رواية عن حكيم بن جابر فقال له جبريل ولا حين حللت السراويل ؟ ونحو من ذلك في روايات اخر عن مجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك وابن زيد والسدى والحسن وابن جريح وأبى صالح وغيرهم .

وقد تقدم في البيان السابق ان هذه وامثالها من موضوعات الاخبار مخالفة لنص الكتاب وحاشا مقام يوسف الصديق (عليه السلام) ان يكذب بقوله لم اخنه بالغيب ثم يصلح ما افسده بغمز من جبريل قال في الكشاف ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة فزعموا ان يوسف حين قال انى لم اخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين هممت بها ؟ وقالت له امرأة العزيز ولا حين حللت تكة سراويلك يا يوسف ؟ وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسوله انتهى .

وفي تفسير العياشي عن سماعة قال : سألته عن قول الله " ارجع إلى ربك " الآية يعنى العزيز .

اقول وفى تفسير البرهان عن الطبرسي في كتاب النبوة بالاسناد عن احمد بن محمد ابن عيسى عن الحسن بن على بن الياس قال سمعت الرضا (عليه السلام) يقول : واقبل يوسف على جمع الطعام في السبع السنين المخصبة فكبسه في الخزائن فلما مضت تلك السنون واقبلت السنون المجدبة اقبل يوسف على بيع الطعام فباعهم في السنة الأولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم الا صار في ملك يوسف .

وباعهم في السنة الثانية بالحلى والجواهر حتى لم يبق بمصر وما حولها حلى ولا جواهر الا صار في ملكه وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشى حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية الا صار في ملكه وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والاماء حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا أمة الا صار في ملكه وباعهم في السنة الخامسة بالدور والفناء حتى لم يبق في مصر وما حولها دار ولا فناء الا صار في ملكه وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والانهار حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة الا صار في ملكه وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حر الا صار عبدا ليوسف .

(126/399)

فملك احرارهم وعبيدهم واموالهم وقال الناس ما رأينا ولا سمعنا بملك اعطاه (الله ط) من الملك ما اعطى هذا الملك حكما وعلما وتدبيرا ثم قال يوسف للملك ما ترى فيما خولنى ربى من ملك مصر وما حولها ؟ اشر علينا برايك فانى لم اصلحهم لافسدهم ولم انجهم من البلاء ليكون بلاء عليهم ولكن الله انجاهم بيدى قال الملك الرأى رأيك .
قال يوسف انى اشهد الله واشهدك ايها الملك انى قد اعتقت اهل مصر كلهم ورددت عليهم اموالهم وعبيدهم ورددت عليك الملك وخاتمك وسريرك وتاجك على ان لا تسير

الا بسيرتي ولا تحكم الا بحكمى .

قال له الملك ان ذلك توبتي وفخري ان لا اسير الا بسيرتك ولا احكم الا بحكمك ولولاك ما توليت عليك ولا اهتديت له وقد جعلت سلطاني عزيزا ما يرام وانا اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وانك رسوله فأقم على (ما ظ) وليتك فانك لدينا مكين امين .

اقول والروايات في هذا المقام كثيرة اغلبها غير مرتبطة بغرض تفسير الآيات ولذلك تركنا نقلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 11 صـ 184. 207 ﴾

(127/399)

قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان المعنى - كما تقدم : فجعل إليه خزائن الأرض ، فجاءت السنون المخصبة ،

فدبرها بما علمه الله ، ثم جاءت السنون المجدبة فأجدبت جميع أرض مصر وما والاها من بلاد الشام وغيرها ، فأخرج ما كان ادخره من غلال سبع سنين بالتدريج أولاً فأولاً - كما حد له ﴿ العليم الحكيم ﴾ فتسامع به الناس فجاؤوا للامتيار منه من كل أوب ﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ العشرة لذلك ، وحلف أبوهم بنيامين أخا يوسف عليه السلام لأمه عنده ، ودل على تسهيله إذنهم بالفاء فقال : ﴿ فدخلوا عليه ﴾ أي لأنه كان يباشر الأمور بنفسه كما هو فعل الكفاة الحزمة ، لا يثق فيه بغيره ﴿ فعرفهم ﴾ لأنه كان مرتقباً لحضورهم لعلمه بجدب بلادهم وعقد همته بهم .

مع كونه يعرف هيئاتهم في لباسهم وغيره ، ولم يتغير عليه كبير من حالهم .

لمفارقته إياهم رجالاً ﴿ وهم له منكرون ﴾ ثابت إنكارهم عريق فيهم وصفهم به ، لعدم خطوره ببالهم لطول العهد ، مع ما تغير عليهم من هيئته بالسن وانضاف إليه من الحشم والخدم واللباس وهيئة البلد وهيبة الملك وعز السلطان ، وغير ذلك مما ينكر معه المعروف ، ويستوحش لأجله من المألوف ، وفق ما قال تعالى ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ [يوسف : 15] والدخول : الانتقال إلى محيط ، والمعرفة : تبين الشيء بالقلب بما لو شوهد لفرق بينه وبين غيره مما ليس على خاص صفته .

ولما كان المعنى في قوة أن يقال : فطلبوا منه الميرة فباعهم بعد أن استخبرهم عن أمرهم ، وقال لهم : لعلكم جواسيس ؟ وسألهم عن جميع حالهم .

(128/399)

فأخبروه بأبيهم وأخيهم منه ، ليعلم صلاحهم ولا يظن أنهم جواسيس ، عطف عليه قوله : ﴿ ولما جهزهم ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ بجهازهم ﴾ الذي جاؤوا له وقد أحسن إليهم ؛ والجهاز : فاخر المتاع الذي يحمل من بلد إلى بلد ﴿ قال ﴾ أي لهم ﴿ ائتوني ﴾ أيها العصابة ﴿ بأخ لكم ﴾ كائن ﴿ من أبيكم ﴾ يأتي برسالة من أبيكم الرجل الصالح حتى أصدقكم ، أو أنهم طلبوا منه لأخيهم حملاً ، فأظهر أنه لم يصدقهم ، وطلب إحضاره ليعطيه ، فإنه كان يوزع الطعام على قدر الكفاية ؛ ثم رغبهم بإطماعهم في مثل ما فعل بهم من الإحسان ، وكان قد أحسن نزلهم ، فقال مقرراً لهم بما رأوا منه : ﴿ ألا ترون ﴾ أي تعلمون علماً هو كالرؤية ﴿ أني أوفي الكيل ﴾ أي أتمه دائماً على ما يوجبه الحق ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ أضع الشيء في أولى منازله .

(129/399)

ولما رغبهم ، رهبهم فقال : ﴿ فإن لم تأتوني به ﴾ أي بأخيكم أول قدمة تقدمونها ﴿ فلا كيل لكم ﴾ وعرفهم أنه لا يمنعهم من غيره فقال : ﴿ عندي ولا تقربون ﴾ ومع ذلك فلم يخطر ببالهم أنه يوسف ، فكأنه قيل : فما قالوا ؟ فقيل : ﴿ قالوا سنراود ﴾ أي بوعد لا خلف فيه حين نصل ﴿ عن أباه ﴾ أي نكلمه فيه وننازعه الكلام ونحتال عليه فيه ، ونتلطف في ذلك ، ولا ندع جهداً ؛ ثم أكدوا ذلك - بعد الجملة الفعلية المصدرة بالسين - بالجملة الاسمية المؤكدة بجرفي التأكيد ، فقالوا : ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ أي ما أمرتنا به والتزامناه ، وقد مضى عند ﴿ وراودته ﴾ أن المادة - يائية وواوية بهمز وبغير همز - تدور على الدوران ، ومن لوازمه القصد والإقبال والإدبار والرفق والمهلة ، وقد مضى بيان غير المهموز ، وأما المهموز فمنه درأه ، أي دفعه - لأن المدفوع يرد إلى الموضع الذي أتى منه ، والمدارأة : المدافعة والمنازعة مطلقاً ، أي سواء كانت برفق أو بعنف ، ثم كثرت فقصرت على الملاينة ، ويلزم من الدفع حلول المدفوع في موضع لا يريده بغتة ، ومنه : درأ علينا ، أي خرج مفاجأة ، قال القزاز : وأصله من قولهم : جاء السيل دراً ، أي يدرأ بعضه بعضاً ، وهو الذي يأتي من مكان لا يعلم به ، واندرأ فلان علينا بالشر - إذا أتى به من حيث لم ندر ، والدرء : النشوز ، وهو من الدفع ، وكوكب دريء : متوقد متلألىء - كان نوره يدفع بعضه بعضاً ، ومنه درأت النار : أضاءت ، واندرأ الحريق : انتشر ، ودرأ الشيء : بسطه - لأن المبسوط لا يخلو عن دفع ، وتدارؤوا : تدافعوا في الخصومة .

ودرأ البعير : أغد ، ومع الغدة ورم في ظهره ، وناقة دارىء : مغدة ، وذلك لأن الغدة ملزومة للدفع ، لا تنفك عنه بالقتب والركب وغيرهما ، وكل ناتىء في الجسد هذا شأنه ، ومنه الدرء : لقطعة من الجبل مشرقة ، وناقة مدرىء : أنزلت اللبن وأرخت ضرعها عند النتاج - كأنها دفعتهما ، وادرأت الصيد - على " افتعلت " : اتخذت له دريئة ، وقد تقدمت " الدرية " في الواوي ، ومنه : ادرأت فلاناً - ذا اعتمدته ، والدرء : الميل والعوج - لأنه أهل لأن يدفع ليقوم ، وطريق ذو دروء ، أي كور وأخاقيق أي شقوق - فكأنها تدفع صاحبها عن القصد ، وتدرؤوا عليهم : تطاولوا - لأن ذلك لا يخلو عن مدافعة كالنشوز ، ويلزم الدفع القوة ، ومنه رجل ذو تدرا ، أي منعه وقوة ، ورادته بكذا - بتقديم الراء : جعلته قوة له وعماداً يدافع عنه ، والرده : العون والمادة والعدل الثقيل - لأنه يدافع ليعتدل ، وردأ الحائط : دعمه ، ورداه بحجر : رماه به ، لأنه إذا أصابه دفعه ، والإبل : أحسن القيام عليها ، لأن ذلك لا يكون إلا بمدافعة ، وأردأ الستر : أرخاه ، بدفعه له من المكان الذي كان به ، وأردأ الولد : سكنه وأنسه ، فدفع الهم عنه ، وأردأ الشيء : أقره - كأنه لسلب الدفع ، وكذا أرداه أي أفسده ، إما بأنه لم يدافعه بإحسان القيام عليه فأفسده ، أو أنه زاد في الدفع

حتى فسد ، ومن ذلك أردأ – إذا فعل رديئاً ، أي فعلا فاسداً ليس بجيد ، وكأن من ذلك الأدرة – بالضم ساكنة وتحرك – وهي عظم الخصيتين في الناس والخيل ؛ ومن التدافع : ترأدت الحية : اهتزت في انسيابها ورفعت رأسها ، والريح : اضطربت – فكأن بعضها يدفع بعضاً ، ومنه رأد الضحى : ارتفاعه ، وترأد الضحى : ارتفع ، وكذلك الجارية الرأدة والرؤد – بالضم ، أي الناعمة ، وقال القزاز : السريعة الشباب مع حسن غذاء ، وقال ابن دريد : جارية رأدة – غير مهموز : كثيرة المجيء والذهاب ، فإذا قلت : جارية رؤدة فهي الناعمة .

فإذا فسرت بالذهاب والمجيء فهو من الدوران الذي هو المدار ، وإذا فسرت بالناعمة فهو من الاضطراب اللازم له ، وغصن رؤد – بالضم : رطب – من ذلك ، قال القزاز : وأحسب الجارية الناعمة إنما سميت رؤداً من هذا ، وترأد : اهتز نعمة ، وزيد : قام فأخذته رعدة ، والغصن : تفيأ ، والعنق : التوى – كله من الدوران وما يلزمه من الاضطراب ، ورئد الإنسان : صديقه ، لأنه يراوده ويداوره ، والرأدة : أصل اللحى ، وهو أصول منبت الأسنان ، وهو العظم الذي يدور فيه طرفا اللحيين مما يلي الصدغين ؛ ومن

الرفق والمهلة : الرؤدة – بالضم ، وهي التؤدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 68.65﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾

اعلم أنه لما عم القحط في البلاد ، ووصل أيضاً إلى البلدة التي كان يسكنها يعقوب عليه السلام وصعب الزمان عليهم فقال لبنيه إن بمصر رجلاً صالحاً يمير الناس فاذهبوا إليه بدراهمكم وخذوا الطعام فخرجوا إليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف عليه السلام وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف عليه السلام مع إخوته وظهور صدق ما أخبر الله تعالى عنه في قوله ليوسف عليه السلام حال ما ألقوه في الجب ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف : 15] وأخبر تعالى أن يوسف عرفهم وهم ما عرفوه ألبتة ، أما أنه عرفهم فلأنه تعالى كان قد أخبره في قوله : ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ﴾ بأنهم يصلون إليه ويدخلون عليه ، وأيضاً الرؤيا التي رآها كانت دليلاً على أنهم يصلون إليه ، فلهذا

السبب كان يوسف عليه السلام مترصداً لذلك الأمر ، وكان كل من وصل إلى بابه من البلاد البعيدة يتفحص عنهم ويتعرف أحوالهم ليعرف أن هؤلاء الواصلين هل هم إخوته أم لا فلما وصل إخوة يوسف إلى باب داره تفحص عن أحوالهم تفحصاً ظهر له أنهم إخوته ، وأما أنهم ما عرفوه فلوجوه : الأول : أنه عليه السلام أمر حجابه بأن يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم إلا بالواسطة ومتى كان الأمر كذلك لا جرم أنهم لم يعرفوه لا سيما مهابة الملك وشدة الحاجة يوجبان كثرة الخوف ، وكل ذلك مما يمنع من التأمل التام الذي عنده يحصل العرفان .

والثاني : هو أنهم حين ألقوه في الجب كان صغيراً .

ثم إنهم رأوه بعد وفور اللحية ، وتغير الزي والهيئة فإنهم رأوه جالساً على سريره ، وعليه ثياب الحرير ، وفي عنقه طوق من ذهب ، وعلى رأسه تاج من ذهب ، والقوم أيضاً نسوا واقعة يوسف عليه السلام لطول المدة .

فيقال : إن من وقت ما ألقوه في الجب إلى هذا الوقت كان قد مضى أربعون سنة ، وكل واحد من هذه الأسباب يمنع من حصول المعرفة ، لا سيما عند اجتماعها ، والثالث : أن

حصول العرفان والتذكير بخلق الله تعالى ، فلعله تعالى ما خلق ذلك العرفان والتذكير في قلوبهم تحقيقاً لما أخبره عنه بقوله : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ وكان ذلك من معجزات يوسف عليه السلام .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ قال الليث : جهزت القوم تجهيزاً إذا تكلفت لهم جهازهم للسفر ، وكذلك جهاز العروس والميت وهو ما يحتاج إليه في وجهه .

قال : وسمعت أهل البصرة يقولون : الجهاز بالكسر .

قال الأزهري : القراء كلهم على فتح الجيم ، والكسر لغة ليست بجيدة ، قال المفسرون : حمل لكل رجل منهم بعيراً وأكرمهم أيضاً بالنزول وأعطاهم ما احتاجوا إليه في السفر ، فذلك قوله : ﴿ جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ ثم بين تعالى أنه لما جهزهم بجهازهم قال : ﴿ ائتونى بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ .

واعلم أنه لا بد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سبباً لسؤال يوسف عن حال أخيهم ، وذكروا فيه وجوهاً :

الوجه الأول : وهو أحسنها إن عادة يوسف عليه السلام مع الكل أن يعطيه حمل بعير لا أزيد عليه ولا أنقص ، وإخوة يوسف الذين ذهبوا إليه كانوا عشرة ، فأعطاهم عشرة أحمال ، فقالوا : إن لنا أباً شيخاً كبيراً وأخاً آخر بقي معه ، وذكروا أن أباهم لأجل سنه وشدة حزنه لم يحضر ، وأن أخاهم بقي في خدمة أبيه ولا بد لهما أيضاً من شيء من الطعام فجهز

لهما أيضاً بعيرين آخرين من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف فهذا يدل على أن أحب أبيكم له أزيد من حبه لكم ، وهذا شيء عجيب لأنكم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم إذا كانت محبة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبته لكم دل هذا على أن ذلك أعجوبة في العقل ، وفي الفضل والأدب فجيئوني به حتى أراه فهذا السبب محتمل مناسب .

والوجه الثاني : أنهم لما دخلوا عليه ، عليه السلام وأعطاهم الطعام قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال : لعلكم جئتم عيوناً فقالوا معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد شيخ صديق نبي اسمه يعقوب قال : كم أنتم قالوا : كنا اثني عشر فهلك منا واحد وبقي واحد مع الأب يتسلى به عن ذلك الذي هلك ، ونحن عشرة وقد جئناك قال : فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخ لكم من أبيكم ليبلغ إلي رسالة أبيكم فعند هذا أقرعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون ، وكان أحسنهم رأيا في يوسف فخلفوه عنده .

والوجه الثالث : لعلهم لما ذكروا أباهم قال يوسف : فلم تركتموه وحيداً فريداً ؟ قالوا : ما تركناه وحيداً ، بل بقي عنده واحد .

فقال لهم : لم استخلصه لنفسه ولم خصه بهذا المعنى لأجل نقص في جسده ؟ فقالوا : لا . بل لأجل أنه يحبه أكثر من محبته لسائر الأولاد فعند هذا قال يوسف لما ذكرتم أن أباكم رجل عالم حكيم بعيد عن المجازفة ، ثم إنه خصه بمزيد المحبة وجب أن يكون زائداً عليكم في الفضل ، وصفات الكمال مع أني أراكم فضلاء علماء حكماء فاشتاقت نفسي إلى رؤية ذلك الأخ فائتوني به ، والسبب الثاني : ذكره المفسرون ، والأول والثالث محتمل والله أعلم .

ثم إنه تعالى حكى عنه أنه قال : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الكيل ﴾ أي أتمه ولا أبخسه ، وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم ، وأنا خير المنزلين ، أي خير المضيفين لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم .

(135/399)

وأقول : هذا الكلام يضعف الوجه الثاني وهو الذي نقلناه عن المفسرين ، لأن مدار ذلك الوجه على أنه اتهمهم ونسبهم إلى أنهم جواسيس ، ولو شافههم بذلك الكلام فلا يليق به أن يقوم لهم : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الكيل وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين ﴾ وأيضاً يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقاً أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون ، مع أنه يعرف براءتهم عن هذه

التهمة ، لأن البهتان لا يليق بحال الصديق .

ثم قال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾ .

واعلم أنه عليه السلام لما طلب منهم إحضار ذلك الأخ جمع بين الترغيب والترهيب .

أما الترغيب : فهو قوله : ﴿ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الكيل وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين ﴾ وأما الترهيب : فهو قوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾ وذلك لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام ، وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ، فإذا منعهم من الحضور عنده كان ذلك نهاية الترهيب والتخويف ، ثم إنهم لما سمعوا هذا الكلام من يوسف قالوا : ﴿ سنراود عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لفاعلون ﴾ أي سنجتهد ونحتال على أن ننزعه من يده ، وإنا لفاعلون هذه المراودة ، والغرض من التكرير التأكيد ، ويحتمل أن يكون ﴿ وَإِنَّا لفاعلون ﴾ أن نجيئك به ، ويحتمل ﴿ وَإِنَّا لفاعلون ﴾ كل ما في وسعنا من هذا الباب . انتهى ا . هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 132 . 134 ﴾

(136/399)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه ﴾ الآية .

قال ابن إسحاق والسدي : وإنما جاءُوا ليمتاروا من مصر في سني القحط التي ذكرها يوسف في تفسير الرؤيا ، ودخلوا على يوسف لأنه كان هو الذي يتولى بيع الطعام لعزته .

﴿ فعرفهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه عرفهم حين دخلوا عليه من غير تعريف ، قاله ابن عباس .

الثاني : ما عرفهم حتى تعرفوا إليه فعرفهم ، قاله الحسن .

وقيل بل عرفهم بلسانهم العبراني حين تكلموا به .

قال ابن عباس : إنما سميت عبرانية لأن إبراهيم عليه السلام عبر بهم فلسطين فنزل من وراء نهر الأردن فسمّوا العبرانية .

﴿ وهم له منكرون ﴾ لأنه فارقوه صغيراً فكبر ، وفقيراً فاستغنى ، وباعوه عبداً فصار ملكاً ، فلذلك أنكروه ، ولم يتعرف إليهم ليعرفوه . قوله عز وجل :

﴿ ولمّا جهزهم بجهازهم ﴾ وذلك أنه كال لهم الطعام ، قال ابن إسحاق : وحمل لكل رجل منهم بعيراً بعدّتهم .

﴿ قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم ﴾ قال قتادة : يعني بنيامين وكان أخا يوسف لأبيه وأمه .

قال السدي : أدخلهم الدار وقال : قد استربت بكم تنكر عليهم فأخبروني من أنتم فإني أخاف أن تكونوا عيوناً ، فذكروا حال أبيهم وحالهم وحال يوسف وحال أخيه وتخلفه مع أبيه ، فقال : إن كنتم صادقين فائتوني بهذا الأخ الذي لكم من أبيكم ، وأظهر لهم أنه يريد أن

يستبرىء به أحوالهم . وقيل : بل وصفوا له أنه أحَبُّ إلى أبيهم منهم ، فأظهر لهم محبة رؤيته .

﴿ ألا ترَوْن أني أوفي الكيلَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه أرخص لهم في السعر فصار زيادة في الكيل .

الثاني : أنه كال لهم بمكيال واف .

﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني خير المضيفين ، قاله مجاهد .

الثاني : وهو محتمل ، خير من نزلتم عليه من المأمونين . فهو على التأويل الأول مأخوذ من النزل وهو الطعام ، وعلى التأويل الثاني مأخوذ من المنزل وهو الدار .

(137/399)

قوله عز وجل : ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيْل لكم عندي ﴾ يعني فيما بعد لأنه قد وفاهم كيلهم في هذه الحال .

﴿ ولا تقربون ﴾ أي لا أنزلكم عندي منزلة القريب . ولم يُرد أن يبعدوا منه ولا يعودوا إليه لأنه على العود حثهم .

قال السدي : وطلب منهم رهينة حتى يرجعوا ، فارتهن شمعون عنده . قال الكلبي : إنما اختار شمعون منهم لأنه يوم الجُبّ كان أجملهم قولاً وأحسنهم رأياً .

قوله عز وجل : ﴿ قالوا سَنُرَاوِدُ عنه أباه ﴾ والمراودة الاجتهاد في الطلب ، مأخوذ من الإرادة. ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وإنا لفاعلون مراودة أبيه وطلبه منه .

الثاني : وإنا لفاعلون للعود إليه بأخيهم ، قاله ابن إسحاق .

فإن قيل : كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ؟

قيل عن هذا أربعة أجوبة :

أحدها : يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ابتلاء ليعقوب ليُعظم له الثواب فاتّبع أمره فيه .

الثاني : يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف .

الثالث : لتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه .

والرابع : ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته لميله إليه . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ﴾

يُقَالُ إنَّ الَّذِي اقْتَضَى طَلَبَهُ لِلْأَخِ مِنْ أَبِيهِمْ مُفَاوَضَتُهُ لَهُمْ بِالسُّؤَالِ عَنْ أَخْبَارِهِمْ ، فَلَمَّا ذَكَرُوا إيثَارَ أَبِيهِمْ لَهُ عَلَيْهِمْ بِمَحَبَّتِهِ إيَّاهُ مَعَ حِكْمَتِهِ أَظْهَرَ أَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرَاهُ وَأَنَّ نَفْسَهُ مُتَطَلِّعَةٌ إلَى عِلْمِ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ ، وَكَانَ غَرَضُهُ فِي ذَلِ التَّوَصُّلِ إلَى حُصُولِهِ عِنْدَهُ وَكَانَ قَدْ خَافَ أَنْ يَكْتُمُوا أَبَاهُ أَمْرَهُ إنْ ظَهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ يُوسُفُ وَأَنْ يَتَوَصَّلُوا إلَى أَنْ يَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الِاجْتِمَاعِ مَعَهُ وَمَعَ أَخِيهِ ، فَأَجْرَى تَدْبِيرَهُ عَلَى تَدْرِيجٍ لِئَلَّا يَهْجُمَ عَلَيْهِمْ مَا يَشْتَدُّ اضْطِرَابُهُمْ مَعَهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(139/399)

وقال ابن عطية :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾

قال السدي وغيره : سبب مجيئهم أن الجماعة التي أنذر بها يوسف أصابت البلاد التي كان

بها يعقوب ، وروي أنه كان في الغربات من أرض فلسطين بغور الشام . وقيل : كان بالأولاج من ناحية الشعب ، وكان صاحب بادية له إبل وشاء ، فأصابهم الجوع ، وكان أهل مصر قد استعدوا وادخروا من السنين الخصيبة ، فكان الناس يمتارون من عند يوسف ، وهو في رتبة العزيز المتقدم ، وكان لا يعطي الوارد أكثر من حمل بعير ، يسوي بين الناس ، فلما ورد إخوته عرفهم يوسف ولم يعرفوه هم ، لبعد العهد وتغير سنه ، ولم يقع لهم – بسبب ملكه ولسانه القبطي – ظن عليه ؛ وروي في بعض القصص : أنه لما عرفهم أراد أن يخبروه بجميع أمرهم ، فباحثهم بأن قال لهم – بترجمان – أظنكم جواسيس ، فاحتاجوا – حينئذ – إلى التعريف بأنفسهم فقالوا : نحن أبناء رجل صديق ، وكنا اثني عشر ، ذهب واحد منا في البرية ، وبقي أصغرنا عند أبينا ، وجئنا نحن للميرة ، وسقنا بعير الباقي منا ، وكانوا عشرة ، ولهم أحد عشرة بعيراً ؛ فقال لهم يوسف : ولم تخلف أخوكم ؟ قالوا : لمحبة أبينا فيه ، قال : فأتوني بهذا الأخ حتى أعلم حقيقة قولكم وأرى لِمَ أحبه أبوكم أكثر منكم إن كنتم صادقين ؟ وروي في القصص أنهم وردوا مصر ، واستأذنوا على العزيز وانتسبوا في الاستئذان ، فعرفهم ، وأمر بإنزالهم ، وأدخلهم في ثاني يوم على هيئة عظيمة لملكه وأهبة شنيعة ؛ وروي أنه كان متلثماً أبداً ستراً لجماله ، وأنه كان يأخذ الصواع فينقره ، ويفهم من طنينه صدق ما يحدث به أو كذبه ؛ فسئلوا عن أخبارهم ، فكلما صدقوا قال لهم يوسف : صدقتم ، فلما قالوا : وكان لنا أخ أكله الذئب ، طن يوسف الصاع وقال : كذبتم ، ثم تغير

لهم ، وقال : أراكم جواسيس ، وكلفهم سوق الأخ الباقي ليظهر صدقهم في ذلك ، في قصص طويل جاءت الإشارة إليه في القرآن وجيزة .

و " الجهاز " ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع وكل ما يحمل ، وكذلك جهاز العروس وجهاز الميت .

وقول يوسف عليه السلام : ﴿ ألا ترون أني أوفى الكيل ﴾ الآية ، يرغبهم في نفسهم آخراً ، ويؤنسهم ويستميلهم . و ﴿ المنزلين ﴾ يعني المضيفين في قطره ووقته ، و" الجهاز " – المشار إليه – الطعام الذي كان حمله لهم ، ثم توعدهم إن لم يجيئوا بالأخ بأنه لا كيل لهم عنده في المستأنف ، وأمرهم ألا يقربوا له بلداً ولا طاعة ، و ﴿ لا تقربون ﴾ نهي لفظاً ومعنى ، ويجوز أن يكون لفظه الخبر ومعناه النهي ، وتحذف إحدى النونين كما قرىء ﴿ فبم تبشرونِ ﴾ [الحجر : 54] – بكسر النون – وهذا خبر لا غير . وخلط النحاس في هذا الموضع ؛ وقال مالك رحمه الله : هذه الآية وما يليها تقتضي أن كيل الطعام على البائع ، وكذلك هي الرواية في التولية والشركة : أنها بمنزلة البيع ، والرواية في القرض : أن الكيل على المستقرض .

وروي أنه حبس منهم شمعون رهينة حتى يجيئوه ببنيامين ، - قاله السدي - وروي : أنه لم يحبس منهم أحداً . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كان يوسف يلقي حصاة في إناء فضة مخوص بالذهب فيطن فيقول لهم : إن هذا الإناء يخبرني أن لكم أباً شيخاً " .

قال القاضي أبو محمد : كأنها حيلة وإيهام لهم ، وروي : أن ذلك الإناء به كان يكيل الطعام إظهاراً لعزته بحسب غلائه في تلك المدة ، وروي : أن يوسف استوفى في تلك السنين أموال الناس ، ثم أملاكهم ، فمن هناك ليس لأحد في أرض مصر ومزارعها ملك . وظاهر كل ما فعله يوسف معهم أنه بوحي وأمر وإلا فكان بر يعقوب يقتضي أن يبادر إليه ويستدعيه ، لكن الله تعالى أعلمه بما يصنع ليكمل أجر يعقوب ومحنته وتتفسر الرؤيا الأولى .

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾

تقدم معنى " المراودة " أي سنفائل أباه في أن يتركه يأتي معنا إليك ، ثم شددوا هذه المقالة بأن التزموها له في قولهم : ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾

أي جاؤوا إلى مصر لما أصابهم القحط ليمتاروا ؛ وهذا من اختصار القرآن المعجز .

قال ابن عباس وغيره : لما أصاب الناس القحط والشدّة ، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده لِلْميرة ، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق ، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته ؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدّة بالناس يجلس (للناس) عند البيع بنفسه ، فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم ، لكل رأس وَسْقاً .

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾ يوسف ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ لأنهم خلّفوه صبياً ، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة ، مع طول المدّة ؛ وهي أربعون سنة .

وقيل : أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر : وقيل : رأوه لابس حرير ، وفي عنقه طوق ذهب ، وعلى رأسه تاج ، وقد تزيّا بزيّ فرعون مصر ؛ ويوسف رآهم على ما كان عهدهم في الملبس والحلية .

ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه.

وقيل: أنكروه لأمر خارق امتحانا امتحن الله به يعقوب.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾

يقال جَهَّزتُ القوم تجهيزاً أي تكلّفت لهم بجهازهم للسفر؛ وجهاز العروس ما يحتاج إليه عند الإهداء إلى الزّوج؛ وجوّز بعض الكوفيين الجهاز بكسر الجيم؛ والجهاز في هذه الآية الطعام الذي امتاروه من عنده.

قال السّديّ: وكان مع إخوة يوسف أحد عشر بعيراً، وهم عشرة، فقالوا ليوسف: إنّ لنا أخاً تخلّف عنا، وبعيره معنا؛ فسألهم لِمَ تخلف؟ فقالوا: لحبّ أبيه إياه، وذكروا له أنه كان له أخ أكبر منه فخرج إلى البريّة فهلَكَ؛ فقال لهم: أردت أن أرى أخاكم هذا الذي ذكرتم، لأعلم وجه محبة أبيكم إيّاه، وأعلم صدقكم؛ ويروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينة، حتى يأتوا بأخيه بنيامين.

وقال ابن عباس قال (يوسف) للترجمان قل لهم: لغتكم مخالفة للغتنا، وزيّكم مخالف لزيّنا، فلعلكم جواسيس؛ فقالوا: والله! ما نحن بجواسيس، بل نحن بَنُو أبٍ واحد، فهو شيخ

صدّيق ؛ قال : فكم عِدّتكم ؟ قالوا : كنا اثني عشر فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك فيها ؛ قال : فأين الآخر ؟ قالوا : عند أبينا ؛ قال : فمن يعلم صدقكم ؟ قالوا : لا يعرفنا هاهنا أحد ، وقد عرفناك أنسابنا ، فبأي شيء تسكن نفسك إلينا ؟ فقال يوسف : ﴿ ائتوني بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ إن كنتم صادقين ؛ فأنا أرضى بذلك ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكيل ﴾ أي أتمّه ولا أبخسه ، وأزيدكم حمل بعير لأخيكم ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ توعدهم ألاّ يبيعهم الطعام إن لم يأتوا به .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكيل ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أنه رخّص لهم في السعر فصار زيادة في الكيل .

والثاني : أنه كال لهم بمكيال واف .

﴿ وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنه خير المضيفين ، لأنه أحسن ضيافتهم ؛ قاله مجاهد .

الثاني : وهو محتمل ؛ أي خير من نزلتم عليه من المأمونين ؛ وهو على التأويل الأوّل مأخوذ من النُّزْل وهو الطعام ، وعلى الثاني من المنزل وهو الدار .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ أي فلا أبيعكم شيئاً فيما بعد ، لأنه قد وفّاهم كيلهم في هذه الحال .

﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي لا أنزلكم عندي منزلة القريب ، ولم يرد أنهم يبعدون منه ولا يعودون

إليه ؛ لأنه على العَود حَثّهم .

قال السُّديّ : وطلب منهم رهينة حتى يرجعوا ؛ فارتهن شمعون عنده ؛ قال الكَلْبيّ : إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم الجبّ أجملهم قولاً ، وأحسنهم رأياً .

و"تَقْرُبونِ" في موضع جزم بالنهي ، فلذلك حذفت منه (النون وحذفت) الياء ؛ لأنه رأس آية ؛ ولو كان خبراً لكان "تقربون" بفتح النون .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنطلبه منه ، ونسأله أن يرسله معنا .

﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي لضامنون المجيء به ، ومحتالون في ذلك .

مسألة : إن قيل : كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ؟ قيل له : عن هذا أربعة أجوبة : أحدها : يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ابتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب ؛ فاتبع أمره فيه .

الثاني : يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام .

الثالث : لتتضاعف المسرّة ليعقوب برجوع ولديه عليه .

الرابع : ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته ؛ لميل كان منه إليه ؛ والأوّل أظهر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(145/399)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾

قال العلماء : لما اشتد القحط وعظم البلاء وعم ذلك جميع البلاد حتى وصل إلى بلاد الشام قصد الناس مصر من كل مكان للميرة وكان يوسف لا يعطي أحداً أكثر من حمل بعير وإن كان عظيماً تقسيطاً ومساواة بين الناس ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه إلى مصر للميرة وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لأمه وأبيه وأرسل عشرة فذلك قوله تعالى وجاء إخوة يوسف وكانوا عشرة وكان مسكنهم بالعربات من أرض فلسطين والعربات ثغور الشام وكانوا أهل بادية وإبل وشياه فدعاهم يعقوب وقال بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام فتجهزوا له واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون إليه من الطعام فخرجوا حتى قدموا مصر فدخلوا على يوسف فعرفهم .

قال ابن عباس ومجاهد : بأول نظرة نظر إليهم عرفهم ، وقال الحسن : لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه وهم له منكرون يعني لم يعرفوه .

قال ابن عباس : كان بين أن قذفوه في الجب وبين دخولهم عليه مدة أربعين سنة فلذلك أنكروه وقال عطاء : إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وكان على رأسه تاج الملك وقيل لأنه كان قد لبس زي ملوك مصر عليه ثياب حرير وفي عنقه طوق من ذهب وكل واحد من هذه الأسباب مانع من حصول المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه ، وقيل إن العرفان إنما يقع في القلب بخلق الله تعالى له فيه وإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق ذلك العرفان في تلك الساعة في قلوبهم تحقيقاً لما أخبر أنه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون فكان ذلك معجزة ليوسف فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية كلمهم بلسانهم فقال لهم أخبروني من أنتم وما أمركم فإني قد أنكرت حالكم قالوا : نحن قوم من أرض الشام رعاة قد أصابنا من الجهد ما أصاب الناس فجئنا نمتار ؟ قال يوسف لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادي قالوا : لا والله ما نحن بجواسيس إنما نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق يقال له يعقوب نبي من أنبياء الله تعالى قال وكم أنتم ؟ قالوا كنا اثني عشر فذهب أخ لنا

معنا إلى البرية فهلك فيها وكان أحبنا إلى أبينا قال : فكم أنتم الآن ، قالوا : عشرة قال : وأين الآخر قالوا هو عند أبينا لأنه أخو الذي هلك لأمه فأبونا يتسلى به قال فمن يعلم أن الذي تقولون حق قالوا أيها الملك إننا ببلاد غربة لا يعرفنا فيها أحد قال فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين فأنا راض بذلك منكم قالوا إن أبانا يحزن لفراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني به فاقترعوا فيما بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف فخلفوه عنده .

قوله تعالى : ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾

يقال : جهزت القوم تجهيزاً إذا تكلفت لهم جهاز سفرهم وهو ما يحتاجون إليه في وجوههم والجهاز بفتح الجيم هي اللغة الفصيحة الجيدة وعليها الأكثرون من أهل اللغة وكسر الجيم لغة ليست بجيده .

قال ابن عباس : حمل لكل واحد منهم بعيراً من الطعام وأكرمهم في النزول وأحسن ضيافتهم وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم ﴿ قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ يعني الذي خلفتموه عنده وهو بنيامين ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل ﴾ يعني أني أتمّه ولا أبخس منه

شيئاً وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم أكرمكم بذلك ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ يعني خير المضيفين لأنه كان قد أحسن ضيافتهم مدة إقامتهم عنده قال الإمام فخر الدين الرازي : هذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين إنه اتهمهم ونسبهم إلى أنهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ، وأيضاً يبعد من يوسف مع كونه صديقاً أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون مع أنه يعرف براءتهم من هذه التهمة لأن البهتان لا يليق بالصديق ثم قال يوسف ﴿ فإن لم تأتوني به ﴾ يعني بأخيكم الذي من أبيكم ﴿ فلا كيل لكم عندي ﴾ يعني لست أكيل لكم طعاماً ﴿ ولا تقربون ﴾ يعني ولا ترجعوا ولا تقربوا بلادي وهذا هو نهاية التخويف والترهيب لأنهم كانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام ولا يمكنهم تحصيله إلا من عنده فإذا منعهم من العود كان قد ضيق عليهم فعند ذلك ﴿ قالوا ﴾ يعني إخوة يوسف ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ يعني سنجتهد ونحتال حتى ننزعه من عنده ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ يعني ما أمرتنا به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾

الجهاز : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ، وكل ما يحمل ، وجهاز العروس ما يكون معها من الأثاث والشورة ، وجهاز الميت ما يحتاج إليه في دفنه .

الرحل : ما على ظهر المركوب من متاع الراكب أو غيره ، وجمعه رحال في الكثرة ، وأرحل في القلة .

﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون .

ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين .

فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون .

قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون .

وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ : أي جاؤوا من القريات من أرض فلسطين بأرض الشام .

وقيل : من الأولاج من ناحية الشعب إلى مصر ليمتاروا منها ، فتوصلوا إلى يوسف للميرة ، فعرفهم لأنه فارقهم وهم رجال ، ورأى زيهم قريباً من زيهم إذ ذاك ، ولأنّ همته كانت معمورة بهم وبمعرفتهم ، فكان يتأمل ويتفطن .

وروي أنهم انتسبوا في الاستئذان عليه فعرفهم ، وأمر بإنزالهم .

ولذلك قال الحسن : ما عرفهم حتى تعرفوا له ، وإنكارهم إياه كان .

قال الزمخشري : لطول العهد ومفارقته إياهم في سن الحداثة ، ولاعتقادهم أنه قد هلك ، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه ، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حالته التي فارقوه عليها طريحاً في البئر مشرّياً بدراهم معدودة ، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم .

ولأن الملك مما يبدل الزي ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر منه المعروف .

وقيل : رأوه على زي فرعون عليه ثياب الحرير جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب ، وعلى رأسه تاج ، فما خطر لهم أنه هو .

وقيل : ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب ، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج .

ولما جهزهم بجهازهم ، وكان الجهاز الذي لهم هو الطعام الذي امتاروه .

وفي الكلام حذف تقديره : وقد كان استوضح منهم أنهم لهم أخ قعد عند أبيهم .

روي أنه لما عرفهم أراد أن يخبروه بجميع أمرهم ، فباحثهم بأن قال لهم ترجمانه : أظنكم جواسيس ، فاحتاجوا إلى التعريف بأنفسهم فقالوا : نحن أبناء رجل صديق ، وكنا اثنى عشر ، ذهب منا واحد في البرية ، وبقي أصغرنا عند أبينا ، وجئنا نحن للميرة ، وسقنا بعير الباقي منا وكانوا عشرة ولهم أحد عشر بعيراً .

فقال لهم يوسف : ولم تخلف أحدكم ؟ قالوا : لمحبة أبينا فيه قال : فأتوني بهذا الأخ حتى أعلم حقيقة قولكم ، وأرى لم أحبه أبوكم أكثر منكم إن كنتم صادقين ؟ وأورد الزمخشري هذا القصص بألفاظ أخر تقارب هذه في المعنى ، وفي آخره قال : فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون ، وإن الذي تقولون حق ؟ قالوا : إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد يشهد لنا .

قال : فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم ، فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون ، وكان أحسنهم رأياً في يوسف ، فخلفوه عنده ، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم .

وقيل : لم يرتهن أحداً ، وروي غير هذا في طلب الأخ من أبيهم .

قيل : كان يوسف ملثماً أبداً ستراً لجماله ، وكان ينقر في الصواع فيفهم من طنينه صدق الحديث أو كذبه ، فسئلوا عن أخبارهم ، فكلما صدقوا قال لهم : صدقتم ، فلما قالوا : وكان لنا أخ أكله الذئب أطن يوسف الصواع وقال : كذبتم ، ثم تغير لهم وقال : أراكم جواسيس ، وكلفهم سوق الأخ الباقي ليظهر صدقهم .

وقرىء : بجهازهم بكسر الجيم ، وتنكر أخ ، ولم يقل بأخيكم وإن كان قد عرفه وعرفهم مبالغة في كونه لا يريد أن يتعرف لهم ، ولا أنه يدري من هو .

ألا ترى فرقاً بين مررت بغلامك ، ومررت بغلام لك ؟ إنك في التعريف تكون عارفاً بالغلام ، وفي التنكير أنت جاهل به .

فالتعريف يفيد فرع عهد في الغلام بينك وبين المخاطب ، والتنكير لا عهد فيه البتة .

وجائز أن تخبر عمن تعرفه إخبار النكرة فتقول : قال رجل لنا وأنت تعرفه لصدق إطلاق النكرة على المعرفة ، ثم ذكر ما يحرضهم به على الإتيان بأخيهم بقوله : ألا ترون إني أوف الكيل وأنا خير المنزلين أي المضيفين ؟ يعني في قطره وفي زمانه يؤنسهم بذلك ويستميلهم ، ثم توعدهم إن لم يأتوا به إليه بحرمانهم من الميرة في المستقبل .

واحتمل قوله : ولا تقربون ، أن يكون نهياً ، وأن يكون نفياً مستقلاً ومعناه النهي .

وحذفت النون وهو مرفوع ، كما حذفت في فبم تبشرون أن يكون نفياً داخلاً في الجزاء معطوفاً على محل فلا كيل لكم عندي ، فيكون مجزوماً والمعنى : أنهم لا يقربون له بكذا ولا طاعة .

وظاهر كل ما فعله يوسف عليه السلام معهم أنه بوحي ، وإلا فإنه كان مقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه ، لكن الله تعالى أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته : ولتفسر الرؤيا الأولى قالوا : سنراود عنه أباه أي : سنخادعه ونستميله في رفق إلى أن يتركه يأتي معنا إليك ، ثم أكدوا ذلك الوعد بأنهم فاعلو ذلك لا محالة ، لا نفرط فيه ولا نتوانى . انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(151/399)

وقال أبو السعود :

﴿ وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾

ممتارين لما أصاب أرضَ كنعانَ وبلادَ الشام ما أصاب أرضَ مصر وقد كان أرسلهم يعقوبُ عليه السلام جميعاً غيرَ بنيامين ﴿ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ أي على يوسف وهو في مجلس ولايته ﴿ فَعَرَفَهُمْ ﴾ لقوة فهمِه وعدم مباينةِ أحوالِهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته إياهم وهم رجالٌ وتشابُه هيئاتهم وزِيِّهم في الحالين ولكون هِمّتِه معقودةً بهم وبمعرفة أحوالهم لا سيما في زمن القحط ، وعن الحسن ما عرفهم حتى تعرّفوا له ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ أي والحالُ أنهم منكرون له لطول العهدِ وتباُينِ ما بين حاليه عليه السلام في نفسه ومنزلته وزِيِّه

ولاعتقادهم أنه هلك وحيث كان إنكارُهم له أمراً مستمراً في حالتي المحضَر والمَغيب أُخبر عنه بالجملة الاسميةِ بخلاف عرفانِه عليه السلام إياهم .

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾

(152/399)

أي أصلحهم بعدّتهم من الزاد وما يحتاج إليه المسافر وأوْقَر ركائبَهم بما جاءوا له من المِيرة وقرىء بكسر الجيم ﴿ قَالَ ائتونى بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ لم يقل بأخيكم مبالغةً في إظهار عدم معرفتِه لهم ولعله عليه السلام إنما قاله لِما قيل من أنهم سألوه عليه السلام جَملاً زائداً على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لا لما قيل من أنه لما رأَوْه وكلموه بالعبرية قال لهم : من أنتم فإني أنكركم ؟ فقالوا له : نحن قومٌ من أهل الشام رعاةٌ أصابنا الجَهدُ فجئنا نمتار ، فقال لهم : لعلكم جئتم عُيوناً ؟ فقالوا : معاذ الله نحن إخوةٌ بنو أبٍ واحد وهو شيخٌ كبيرٌ صدّيق نبيٌّ من الأنبياء اسمُه يعقوبُ ، قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنا اثني عشر فهلك منا واحدٌ ، فقال : كم أنتم هاهنا ؟ قالوا : عشرة ، قال : فأين الحادي عشر ؟ قالوا : هو عند أبيه يتسلّى به عن الهالك ، قال : فمن يشهدُ لكم أنكم لستم عيوناً وأن ما تقولون حقٌّ ؟ قالوا : نحن ببلاد لا يعرِفنا فيها أحد فيشهدَ لنا ، قال : فدعُوا بعضَكم

عندي رهينةً وائتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالةً من أبيكم حتى أصدِّقَكم ، فاقترعوا فأصاب القرعةُ شمعونَ فخلّفوه عنده . . . إذ لا يساعده ورودُ الأمر بالإتيان به عند التجهيزِ ولا الحثُّ عليه بإيفاء الكيل ولا الإحسانُ في الإنزال ولا الاقتصارُ على منع الكيل على تقدير عدمِ الإتيان به ولا جعل بُضاعتهم في رحالهم لأجل رجوعِهم ولا عِدَتُهم بالإتيان به بطريق المراودة ولا تعليلُهم عند أبيهم إرسالَ أخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالةِ على أن استبقاء شمعونَ لو وقع لكان ذلك طامةً ينسى عندها كل قيل وقال .

(153/399)

﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ أُتمُّه لكم ، وإيثارُ صيغة الاستقبالِ مع كون هذا الكلامِ بعد التجهيز للدِلالة على أن ذلك عادةٌ له مستمرّة ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ جملة حالية أي ألا ترون أني أوفي الكيلَ لكم إيفاءً مستمراً والحالُ أني في غاية الإحسانِ في إنزالكم وضيافتِكم وقد كان الأمرَ كذلك ، وتخصيصُ الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطابِ في أثنائه ، وأما الإحسانُ في الإنزال فقد كان مستمراً فيما سبق ولحِق ولذلك أُخبر عنه بالجملة الاسميةِ ولم يقل عليه السلام بطريق الامتنانِ بل لحثّهم على تحقيق ما أمرهم به ، والاقتصارُ في الكيل على ذكر الإيفاءِ لأن معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجبِ العدل

، وأما الضيافةُ فليس للناس فيها حقٌّ فخصهم في ذلك بما شاء .

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى ﴾

(من بعدُ) فضلاً عن إيفائه ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ بدخول بلادي فضلاً عن الإحسان في الإنزال والضيافةِ وهو إما نهيٌ أو نفيٌ معطوفٌ على محل الجزاءِ ، وفيه دليلٌ على أنهم كانوا على نية الامتيازِ مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوماً له عليه السلام ﴿ قَالُواْ سنراود عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنخادعه عنه ونحتال في انتزاعه من يده ونجتهد في ذلك ، وفيه تنبيهٌ على عزة المطلبِ وصعوبةِ مناله ﴿ وَإِنَّا لفاعلون ﴾ ذلك غيرَ مفرِّطين فيه ولا متوانين أو لقادرون عليه لا نتعانى به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(154/399)

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾

ممتارين لما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب مصر ، وقد كان حل بآل يعقوب عليه السلام ما حل بأهلها فدعا أبناءه ما عدا بنيامين فقال لهم : يا بني بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام فتجهزوا إليه واقصدوه تشتروا منه ما تحتاجون إليه فخرجوا حتى

قدموا مصر ﴿ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ عليه السلام وهو في مجلس ولايته ﴿ فَعَرَفَهُمْ ﴾ لقوة فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة أحوالهم يوم المفارقة لمفارقته إياهم وهم رجال وتشابه هيآتهم وزيهم في الحالين ، ولكون همته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم لا سيما في زمن القحط ، ولعله عليه السلام كان مترقباً مجيئهم إليه لما يعلم من تأويل رؤياه .

وروى أنهم انتسبوا في الاستئذان عليه فعرفهم وأمر بإنزالهم ، ولذلك قال الحسن : ما عرفهم حتى تعرفوا إليه .

وتعقب ذلك في الانتصاف بأن توسيط الفاء بين دخولهم عليه ومعرفته لهم يأبى كلام الحسن ويدل على أن مجرد دخولهم عليه استعقبه المعرفة بلا مهلة وفيه تأمل .

﴿ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ أي والحال أنهم منكرون له لنسيانهم له بطول العهد وتباين ما بين حاليه في نفسه ومنزلته وزيه ولاعتقادهم أنه هلك ، وقيل : إنما لم يعرفوه لأنه عليه السلام أوقفهم موقف ذوي الحاجات بعيداً منه وكلمهم بالواسطة ؛ وقيل : إن ذلك لمحض أنه سبحانه لم يخلق العرفان في قلوبهم تحقيقاً لما أخبر أنه سينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون فكان ذلك معجزة له عليه السلام ، وقابل المعرفة بالإنكار على ما هو الاستعمال الشائع ، فعن الراغب المعرفة والعرفان معرفة الشيء بتفكر في أثره فهو أخص من العلم ، وأصله من عرفت أي أصبت عرفه أي رائحته ويضاد المعرفة الإنكار والعلم والجهل ، وحيث كان إنكارهم له عليه السلام أمراً مستمراً في حالتي المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية

بخلاف عرفانه عليه السلام إيا هم .

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾

(155/399)

أصلحهم بعدتهم وأوقر ركائبهم بما جاؤوا لأجله ، ولعله عليه السلام إنما باع كل واحد منهم حمل بعير لما روى أنه عليه السلام كان لا يبيع أحداً من الممتارين أكثر من ذلك تقسيطاً بين الناس وفيما يأتي إن شاء الله تعالى من قولهم : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ [يوسف : 65] ما يؤيده ، وأصل الجهاز ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ، وجهاز العروس ما تزف به إلى زوجها ، والميت ما يحتاج إليه في دفنه .

وقرىء بكسر الجيم ﴿ قَالَ ائتونى بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ولم يقل بأخيكم مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم كأنه لا يدري من هو ولو أضافه اقتضى معرفته لإشعار الإضافة به ، ومن هنا قالوا في أرسل غلاماً لك : الغلام غير معروف وفي أرسل غلامك معروف بينك وبين مخاطبك عهد فيه ، ولعله عليه السلام إنما قال ذلك لما قيل : من أنهم سألوه حملاً زائداً على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرط عليهم أن يأتوه به مظهراً لهم أنه يريد أن يعلم صدقهم ، وقيل : إنهم لما رأوه فكلموه بالعبرية قال لهم : من أنتم فإني أنكركم ؟ فقالوا : نحن قوم من

أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال : لعلكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادي قالوا : معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنا اثني عشر فهلك منا واحد ، فقال : كم أنتم ههنا ؟ قالوا : عشرة.

قال : فأين الحادي عشر ؟ ، قالوا : هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك.

قال : فمن يشهد لكم أنكم لستم عيوناً وإن ما تقولون حق ؟ قالوا : نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا قال : فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون ، وقيل : إنه عليه السلام هو الذي اختاره لأنه كان أحسنهم رأياً فيه ، والمشهور أن الأحسن يهوذا فخلفوه عنده ، ومن هذا يعلم سبب هذا القول.

(156/399)

وتعقب بأنه لا يساعده ورود الأمر بالإتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بإيفاء الكيل ولا الإحسان في الإنزال ولا الاقتصار على منع الكيل من غير ذكر الرسالة على أن استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل ، وقال بعضهم : إنه يضعف الخبر اشتماله على بهت إخوته بجعلهم جواسيس إلا أن يقال : إن ذلك كان عن وحي.

وقال ابن المنير : إن ذلك غير صحيح لأنه إذا ظنهم جواسيس كيف يطلب منهم واحداً من إخوتهم وما في النظم الكريم يخالفه وأطال في ذلك .

وتعقب بأنه ليس بشيء لأنهم لما قالوا له : إنهم أولاد يعقوب عليه السلام طلب أخاهم وبه يتضح الحال .

وأخرج ابن جرير .

وغيره عن ابن عباس أنهم لما دخلوا عليه عليه السلام فعرفهم وهم له منكرون جاء بصواع الملك الذي كان يشرب فيه فوضعه على يده فجعل ينقره ويطن وينقره ويطن فقال : إن هذه الجام ليخبرني خبراً هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وكان أبوه يحبه دونكم وإنكم انطلقتم به فالقيتموه في الجب وأخبرتم أباكم أن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب ؟ قال : فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويعجبون أن الجام يخبر بذلك ، وفيه مخالفة للخبر السابق ، وفي الباب أخبار أخرْ وكلها مضطربة فليقتصر على ما حكاه الله تعالى مما قالوا ليوسف عليه السلام وقال : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيلَ ﴾ أتمه لكم ، وإيثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أن ذلك عادة مستمرة ﴿ وَأَنَاْ خَيْرُ

المنزلين ﴾ جملة حالية أي ألا ترون أني أوف الكيل لكم إيفاء مستمراً والحال أني في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم وكان الأمر كذلك ، ويفهم من كلام بعضهم التعميم في الجملتين بحيث يندرج حينئذ في ذلك المخاطبون ، وتخصيص الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب في أثنائه ، وأما الإحسان في الإنزال فقد كان مستمراً فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الإسمية ، ولم يقل ذلك عليه السلام بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به ، والاقتصار في الكيل على ذكر الإيفاء لأن معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجب العدل ، وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم في ذلك بما يشاء قاله شيخ الإسلام .

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى ﴾

(158/399)

إيعاد لهم على عدم الإتيان به ، والمراد لا كيل لكم في المرة الأخرى فضلاً عن إيفائه ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي لا تقربوني بدخول بلادي فضلاً عن الإحسان في الإنزال والضيافة ، وهو إما نهى أو نفي معطوف على التقديرين على الجزاء ، وقيل : هو على الأول استئناف لئلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر .

وأجيب بأن العطف مغتفر فيه لأن النهي يقع جزاء ، وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتياز مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوماً له عليه السلام ، والظاهر أن ما فعله معهم كان بوحي وإلا فالبر يقتضي أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكن الله سبحانه أراد تكميل أجر يعقوب في محنته وهو الفعال لما يريد في خليقته .

﴿ قَالُواْ سنراود عَنْهُ أَبَاهُ ﴾

أي سنخادعه ونستميله برفق ونجتهد في ذلك ، وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله ﴿ وَإِنَّا لفاعلون ﴾ أي إنا لقادرون على ذلك لا نتعايا به أو إنا لفاعلون ذلك لا محالة ولا نفرط فيه ولا نتوانى ، والجملة على الأول تذييل يؤكد مضمون الجملة الأولى ويحقق حصول الموعود من إطلاق المسبب أعني الفعل على السبب أعني القدرة ، وعلى الثاني هي تحقيق للوفاء بالوعد وليس فيه ما يدل على أن الموعود يحصل أولاً . انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(159/399)

وقال القاسمى :

﴿ وجَاء إِخْوَةُ يوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فعَرَفَهُمْ وهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ إشارة إلى ما وقع من

مصداق رؤيا يوسف . وذلك أن الأرض أخصبت سبع سنين ، وأخرجت من بركاتها ما يعادل رمل البحر كثرة ، فجمع يوسف غلالها ، وجعل في كل مدينة غلال ما حولها من الحقول ، ولما مضت هذه السبع ، دخلت السنون المجدبة ، فعم القحط مصر والشام ونواحيهما ، فأخذ الناس ، من سائر البلاد ، في المسير إلى مصر ليمتاروا منها ، لأنفسهم وعيالهم ؛ لما علموا من وجود القوت فيها . وكان من جملة من سار للميرة إخوة يوسف ، عن أمر أبيهم يعقوب ؛ لتناول القحط بلادهم – فلسطين – فركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عنده ابنه بنيامين ، شقيق يوسف ، خشية أن يلحقه سوء ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف . فلما هبطوا مصر ، دخلوا على يوسف ، ولم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقته إياهم في سن الحداثة ، وعدم استشعارهم في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ، وأما هو فعرفهم . روي أنهم لما دخلوا عليه سجدوا له بوجوههم إلى الأرض ، تحية له ، فشرع يخاطبهم متنكراً لهم ، وقال : من أين قدمتم ؟ قالوا : من أرض كنعان ، لنبتاع طعاماً . فقال لهم : أنتم جواسيس ، إنما جئتم لتجسوا ثغور الأرض . قالوا : معاذ الله ! ما جاء عبيدك إلا للميرة ؛ لأن الجهد أصابنا ، ونحن إخوة ، بنو أب واحد . قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنا اثني عشر ، هلك منا واحد . قال : فكم أنتم هاهنا ؟ قالوا : عشرة . قال : فأين الأخ الحادي عشر ؟ قالوا : هو عند أبيه يتسلى به من الهالك . قال : لا بد من امتحان صدق كلامكم ، فليبق واحد منكم عندي رهينة ، ولتذهب بقيتكم فتأخذ ميرة لمجاعة أهلكم

، وأتوا بأخيكم الصغير إليّ ، ليتحقق صدقكم . ثم أخذ شمعون ، واحتبسه عنده ، وأذن للبقية ، وأمر أن يعطوا زاداً للطريق ، وهذا ما أشير إليه في قوله تعالى :

(160/399)

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ بفتح الجيم ، وقرئ بكسرها ، أي : أوقر ركائبهم بالطعام والميرة ﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ أي : أتمه : ﴿ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ أي : المضيفين ، وقوله ذلك تحريض لهم على الإتيان به ، لا امتنان .

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ أي : فيما تستقبلون : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾ أي : ولا تقربوني بدخول بلادي مرة ثانية . فالياء محذوفة ، والنون نون الوقاية .

﴿ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي : سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده ، ونجتهد في ذلك . وفيه تنبيه على عزة المطلب ، وصعوبة مناله – قاله أبو السعود – : ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي : ذلك . يعنون المراودة ، أو الإتيان به ، فيكون ترقياً إلى الوعد بتحصيله بعد المراودة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 198 . 200 ﴾

(161/399)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾

طوى القرآن أخبَرة أمر امرأةِ العزيز وحلولَ سني الخصب والادّخار ثم اعتراء سني القحط لقلة جدوى ذلك كله في الغرض الذي نزلت السورة لأجله ، وهو إظهار ما يلقاه الأنبياء من ذويهم وكيف تكون لهم عاقبة النصر والحسنى ، ولأنه معلوم حصوله ، ولذلك انتقلت القصة إلى ما فيها من مصير إخوة يوسف عليه السلام في حاجة إلى نعمته ، ومن جمع الله بينه وبين أخيه الذي يحبه ، ثم بينه وبين أبويه ، ثم مظاهر عفوه عن إخوته وصلته رحمهُ ، لأن لذلك كله أثراً في معرفة فضائله .

وكان مجيء إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر للمِيرة عند حلول القحط بأرض مصر وما جاورها من بلاد فلسطين منازل آل يوسف عليه السلام ، وكان مجيئُهم في السنة الثانية من سني القحط .

وإنما جاء إخوته عدا بنيامين لصغره ، وإنما رحلوا للميرة كلهم لعل ذلك لأن التزويد من الطعام كان بتقدير يراعى فيه عدد الممتارين ، وأيضاً ليكونوا جماعة لا يَطمع فيهم قطاع الطريق ، وكان الذين جاءوا عشرة .

وقد عُرف أنهم جاءوا ممتارين من تقدم قوله : ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض ﴾ [

يوسف : 55] وقوله الآتي : ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل ﴾ [سورة يوسف : 59] .

ودخولهم عليه يدل على أنه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات لأن بها حياة الأمة .

وعرف يوسف عليه السلام إخوته بعد مضي سنين على فراقهم لقوة فراسته وزكانة عقله دونهم .

وجملة وهم له منكرون ﴾ عطف على جملة ﴿ فعرفهم ﴾ .

ووقع الإخبار عنهم بالجملة الإسمية للدلالة على أن عدم معرفتهم به أمر ثابت متمكن منهم ، وكان الإخبار عن معرفته إياهم بالجملة الفعلية المفيدة للتجدد للدلالة على أن معرفته إياهم حصلت بحدثان رؤيته إياهم دون توسم وتأمل .

(162/399)

وقُرن مفعول ﴿ منكرون ﴾ الذي هو ضمير يوسف عليه السلام بلام التقوية ولم يقل وهم منكرونه لزيادة تقوية جهلهم بمعرفته .

وتقديم المَجرور بلام التقوية في ﴿ له منكرون ﴾ للرعاية على الفاصلة ، وللاهتمام بتعلق نكرتهم إياه للتنبيه على أن ذلك من صنع الله تعالى وإلا فإن شمائل يوسف عليه السلام

ليست مما شأنه أن يجهل وينسَى .

والجهاز بفتح الجيم وكسرها ما يحتاج إليه المسافر ، وأوله ما سافر لأجله من الأحمال .

والتجهيز : إعطاء الجهاز .

وقوله : ﴿ ائتوني بأخ لكم ﴾ يقتضي وقوع حديث منهم عن أن لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم وإلا لكان إنبَاء يوسف عليه السلام لهم بهذا يشعرهم أنه يكلمهم عارفاً بهم وهو لا يريد أن يكتشف ذلك لهم .

وفي التوراة أن يوسف عليه السلام احتال لذلك بأن أوهمهم أنه اتهمهم أن يكونوا جواسيس للعدو وأنهم تبرأوا من ذلك فعرفوه بمكانهم من قومهم وبأبيهم وعدد عائلتهم ، فما ذكروا ذلك له أظهر أنه يأخذ أحدهم رهينة عنده إلى أن يرجعوا ويأتوا بأخيهم الأصغر ليصدّقوا قولهم فيما أخبروه ، ولذلك قال : ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴾ .

و﴿ من أبيكم ﴾ حال من (أخ لكم) أي أُخُوّته من جهة أبيكم ، وهذا من مفهوم الاقتصار الدال على عدم إرادة غيره ، أي من أبيكم وليس من أمكم ، أي ليس بشقيق .

والعدول عن أن يقال : ائتوني بأخيكم من أبيكم ، لأن المراد حكاية ما اشتمل عليه كلام يوسف عليه السلام من إظهار عدم معرفته بأخيهم إلا من ذِكرهم إياه عنده ، فعدل عن الإضافة المقتضية المعرفة إلى التنكير تنابهاً في التظاهر بجهله به .

﴿ ولا تقربون ﴾ أي لا تعودوا إلى مصر ، وقد علم أنهم لا يتركون أخاهم رهينة .

وقوله : ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ ترغيب لهم في العود إليه ؛ وقد عَلم أنهم مضطرون إلى العود إليه لعدم كفاية الميرة التي امتاروها لعائلة ذات عدد من النّاس مثلهم ، كما دل عليه قولهم بعد ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ [سورة يوسف : 65] .

ودل قوله : خير المنزلين ﴾ على أنه كان ينزل الممتارين في ضيافته لكثرة الوافدين على مصر للميرة .

والمُنْزل : المُضيف .

وهذه الجملة كناية عن الوعد بأن يوفي لهم الكيل ويكرم ضيافتهم إن أتوا بأخيهم .

والكيل في الموضعين مرادٌ منه المصدر .

فمعنى ﴿ فلا كيل لكم عندي ﴾ أي لا يكال لكم ، كناية عن منعهم من ابتياع الطعام .

﴿ قَالُواْ سنراود عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لفاعلون ﴾

وعْد بأن يبذلوا قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم وإشعار بصعُوبة ذلك .

فمعنى ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ سنحاول أن لا يشح به ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ [سورة يوسف : 24] .

وجملة وإنا لفاعلون ﴾ عطف على الوعد بتحقيق الموعود به ، فهو فعل ما أمرهم به ، وأكدوا ذلك بالجملة الإسمية وحرف التأكيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(164/399)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾

وقد عرفهم يوسف ؛ لكنهم لم يعرفوه ، فقد ألقوه في الجُبِّ صغيراً ؛ ومرَّتْ رحلته في الحياة بعد أن عثر عليه بعض السيَّارة ؛ وباعوه لعزيز مصر ، لتمر به الأحداث المتابعة بما فيها من نُضْج جسدي وحُسْن فائق ، ومُراودة من امرأة العزيز ، ثم سنوات السجن السبع .

ولكل حدث من تلك الأحداث أثر على ملامح الإنسان ؛ فضلاً عن أنهم جاءوه وهو في منصبه العالي ، بما يفرضه عليه من وجاهة في الهيئة والملبس .

أما هو فقد عرفهم ؛ لأنه قد تركهم وهم كبار ، وقد تحددت ملامحهم ، ونعلم أن الإنسان حين يمر عليه عِقْد من الزمان ؛ فهذا الزمن قد يزيد من تحديد ملامحه ، إذا ما كانَ كبيراً ناضجاً ، لكنه لا يغيرها مثلما يُغيِّر الزمنُ ملامح الطفل حين يكبر ويصل إلى النضج .

والذي دفعهم إلى المجيء هو القحط الذي لم يُؤّثِر على مصر وحدها ؛ بل أثّر أيضاً على المناطق المجاورة لها .

وذاع أمر يوسف عليه السلام الذي اختزن الأقوات تحسُّباً لذلك القحط ؛ وقد أرسلهم أبوهم ليطلبوا منه المَيْرة والطعام ، ولم يتخيّلوا بأي حال أن يكون مَنْ أمامهم هو أخوهم الذي ألقوْه في الجُبِّ .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم . . . . ﴾ .

ولا بُدَّ أنه قد تكلم معهم عن أحوالهم ، وتركهم يَحْكُونَ له عن أبيهم وأخيهم ، وأنهم قد طلبوا المَيْرة ؛ وأمر بتجهيزها لهم .

وكلمة " الجهاز " تُطلق هنا على ما تسبَّب في انتقالهم من موطنهم إلى لقاء يوسف طلباً للميرة .

وطلب منهم من بعد ذلك أن يأتوا بأخيهم " بنيامين " معهم ، وقال لهم :

﴿ أَلا تَرَوْنَ أني أُوفِي الكيل وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين ﴾ [يوسف : 59] .

وفي هذا تذكير لهم بأنه يُوفِي الكيل تماماً ، وفيما يبدو أنهم طلبوا منه زيادة في المَيْرة ؛ بدَعوى أن لهم أخاً تركوه مع أبيهم الشيخ العجوز ، فطلب منهم يوسف أن يُحضِروا أخاهم كي يزيد لهم كيلاً إضافياً ؛ لأنه لا يحب أن يعطي أحداً دون دليل واضح ؛ التزاماً منه بالعدل .

وكان كل منهم قد أتى على بعير ، عليه بضائع يدفعونها كأثمان لِمَا يأخذونه ، وحين يحضرون ومعهم أخوهم سيأخذون كَيْل بعير فَوق ما أخذوه هذه المرَّة .

وهم قد قالوا لأبيهم هذا القول ، حينما سألوه عن إرسال أخيهم معهم لمصاحبتهم في الرحلة حسب طلب يوسف عليه السلام ؛ لذلك تقول الآية : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ [يوسف : 65] .

وقوله :

﴿ وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين ﴾ [يوسف : 59] .

يعني : أنه يرحب بالضيوف ؛ وقد لمسوا ذلك بحُسْن المكان الذي نزلوا فيه . بما فيه من راحة وطيب الاستقبال ، ووجود كل ما يحتاجه الضيف في إقامته .

وكلمة " مُنْزِل " في ظاهر الأمر أنها ضدّ مُعْلِي ، وحقيقة المعنى هو : مُنزِل مِنَ الذي ينزل بالمكان الموجود به كل مطلوبات حياته .

والحق سبحانه يقول عن الجنة : ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : 32] .

أي : أنه سبحانه قد أعدَّ الجنة بما يفوق خيال البشر ؛ وبمُطْلق صفات المغفرة والرحمة ، وإذا كان المَوْلى عَزَّ وجَلَّ هو الذي يعدّ ؛ فلا بُدَّ أن يكون ما أعدَّه فوق خيال البشر .

وقلت لإخواني الذين بُهروا بفندق رَاقٍ في سان فرانسيسكو : إن الإنسان حين يرى أمراً طيباً ، أو شيئاً رَاقِياً ، أو جميلاً عند إنسان آخر سيستقبلها بواحد من استقبالين : تظهر نَفسه فيه ؛ فإن كان حَقُوداً فسينظر للأشياء بكراهية وبحقد ، وإنْ كان مؤمنا يفرح ويقول :

هذه النعمة التي أراها تزيد من عِشْقي في الجنة ؛ لأن تلك النعمة التي أراها قد صنعها بشر لبشر ؛ فماذا عن صُنْع الله للجنة ؟ وهو مَنْ خلق الكون كله بما فيه من بشر ؟

ودائماً أقول : ما رأيتُ نعيماً عند أحد إلا ازداد إيماني ، بأن الذي أراه من نعمة قد أعدَّه البشر للبشر ؛ فما بالنا بما أعدَّه خالق البشر للمؤمنين من البشر ؟

أما مَنْ ينظر نظرةَ حِقْد إلى النعمة عند الغير ؛ فهو يحرم نفسه من صَبابة النعمة عند الغير ؛ لأن النعمة لها صَبابة عند صاحبها ، وتتعلق به ، وإن فرحتَ بالنعمة عند إنسان ؛ فثِقْ أن النعمة ستطرق بابك ، وإن كرهتها عند غيرك ؛ كرهتْ النعمة أن تأتي إليك .

فإنْ أردتَ الخير الذي عند غيرك ؛ عليك أن تحب النعمة التي عند هذا الغير ؛ لتسعى النعمة إليك ؛ دون أن تتكلف عبء إدارة هذه النعمة أو صيانتها ؛ لأنها ستأتي إليك بقدرة الحق سبحانه .

وقَوْل يوسف عليه السلام في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين ﴾ [يوسف : 59] .

هو إخبار منه يؤكد ما استقبلهم به من عدل ، وتوفية للكيل ، وحُسْن الضيافة ، ولا شك أنهم حين يُحضِرون أخاهم سيجدون نفس الاستقبال .

ويواصل الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي . . . ﴾ .

ويوسف يعلم مُقدَّماً صعوبة أن يأمنهم أبوهم على أخيهم ؛ لذلك وجَّه إليهم هذا الإنذار :

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي . . ﴾ [يوسف : 60] .

قال لهم ذلك ، وهو يعلم أن المَعَاد مَعَادُ قَحْط وجَدْب ومجاعة .

وأضاف يوسف :

﴿ وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾ [يوسف : 60] .

أي : لا تأتوا ناحية هذا البلد الذي أحكمه ؛ ولذلك سنجدهم يقولون لأبيهم من بعد ذلك :

﴿ اأبانا مُنِعَ مِنَّا الكيل فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف : 63] .

وتلقَّوْا الإنذار من يوسف ، وقالوا ما أورده القرآن هنا : ﴿ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ . . . . ﴾ .

وقولهم :

﴿ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ . . . ﴾ [يوسف : 61] .

(167/399)

يعني : أن الأمر ليس سهلاً ؛ وهم يعرفون ماذا فعلوا من قبل مع يوسف ، والمُرَاودة تعني أخْذ وردّ ، وتحتاج إلى احتيال ؛ وسبق المعنى في قوله الحق سبحانه : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ . . . ﴾ [يوسف : 23] .

وأكدوا قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [يوسف : 61] .

أي : أنهم سيبذلون كُلَّ جهودهم ؛ كي يقبل والدهم إرسال أخيهم معهم ، وهم يعلمون أن هذا مطلبٌ صَعْب المَنَال ، عسير التحقيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(168/399)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِجَهَازِهِمْ ﴾ : العامَّةُ على فتح الجيم ، وقُرِىء بكسرِها ، وهما لغتان فيما يحتاجه الإِنسانُ مِنْ زاد ومتاعٍ ومنه " جهاز العروس " و " جهاز البيت " .

وقوله : ﴿ بِأَخٍ لَّكُمْ ﴾ ولم يَقُلْ بأخيكم بالإِضافة ؛ مبالغةً في عَدَم تَعَرُّفه بهم ؛ ولذلك فَرَّقوا بين " مررت بغلامك " و " بغلامٍ لك " فإنَّ الأول يَقْتَضي عِرْفانك بالغلام ، وأن بينك وبين مخاطِبك نوعَ عَهْدٍ ، والثاني لا يَقْتَضي ذلك ، وقد تُخْبِر عن المعرفة إخبارَ النكرة فتقول : " قال رجل كذا " وأنت تعرفه لصِدْق إطلاقِ النكرة على المعرفة .

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾ : يُحْتمل أَنْ تكونَ " لا " ناهيةً فيكونَ " تَقْربون " مجزوماً ، ويُحْتمل أن تكونَ " لا " نافيةً وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكونَ داخلاً في حيِّز الجزاء معطوفاً عليه ، فيكونَ أيضاً مجزوماً على ما تقدم . والثاني : أنه نفيٌّ مستقلٌّ غيرُ معطوف على جزاءِ الشرط ، وهو خبر في معنى النهي كقوله : ﴿ فَلاَ رَفَثَ ﴾ [البقرة : 197] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 516.517 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) ﴾

عَرَفَ يوسفُ – عليه السلام – إخوتَه وأنكروه ، لأنهم اعتقدوا أنّه في رِقِّ العبودية لمّا باعوه ، بينما يوسف – في ذلك الوقت – كان قاعداً بمكانِ المَلِكِ . فَمَنْ طلب المِلكَ في صفة العبيد متى يعرفه ؟

وكذلك مَنْ يعتقد في صفات المعبودِ ما هو مِنْ صفات الخَلْق . . . متى يكون عارفاً ؟

هيهات هيهات لما يحسبون !

ويقال لمَّا أَخْفَوْه صار خفاؤه حجاباً بينهم وبين معرفتهم إياه ، كذلك العاصي . . بخطاياه وزلاتِه تقع غَبَرَةٌ على وجه معرفته .

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) ﴾

المحِبُّ غيورٌ ؛ فلمّا كان يعقوبُ عليه السلام قد تَسَلَّى عن يوسف برؤية ابنه بنيامين غار يوسف أن ينظر إليه يعقوب .

ويقال تَلَطَّفَ يوسف في استحضار بنيامين بالترغيب والترهيب ، وأما الترغيب ففي مالِه

الذي أوصله إليهم وهو يقول : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ وفي إقباله عليهم وفي إكرامه لهم وهو يقول : ﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ .

وأمّا الترهيب فبمنع المال .

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60) ﴾

أي فإن لم تؤامنوني عليه فلا كيل لكم عندي ، وأمنع الإكرام والإقبال عنكم .

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61) ﴾

لما عَلِمَ يوسفُ من حالهم أنهم باعوه بثمن بَخْسٍ عَلِمَ أنهم يأتونه بأخيهم طمعاً في إيفاء الكيل ، فلن يَصْعُبَ عليهم الإتيان به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 192.191 ﴾

(170/399)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أعلمنا سبحانه أنه رغبهم في شأن أخيه ، ورهبهم بالقول ، أعلمنا بأنه رغبهم فيه بالفعل ، فقال عاطفاً على قوله الماضي لهم : ﴿ وقال ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام شفقة على إخوته وإرادة لنصحهم فيما سألهم فيه : ﴿ لفتيانه ﴾ أي غلمانه ، وأصل الفتى : الشاب القوي ، وسيأتي شرحه عند قوله تعالى : ﴿ تفتؤا تذكر يوسف ﴾ ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ أي ما بضعوه أي قطعوه من مالهم للتجارة وأخذناه منهم ثمناً لطعامهم الذي دفعناه لهم ﴿ في رحالهم ﴾ أي عدولهم ؛ والرحل : ما أعد للرحيل من وعاء أو مركب ﴿ لعلهم يعرفونها ﴾ أي بضاعتهم ؛ وعبر بأداة التحقق تفاؤلاً لهم بالسلامة ، أو ظناً ، أو علماً بالوحي ، فقال : ﴿ إذا انقلبوا ﴾ راجعين ﴿ إلى أهلهم ﴾ أي يعرفون أنها هي بعينها ، رددتها عليهم إحساناً إليهم ، ويجزمون بذلك ، ولا يظنون أن الله أخلف عليهم مثلها نظراً إلى حالهم وكرامة لأبيهم ، ويعرفون هذه النعمة لي ﴿ ولعلهم يرجعون ﴾ أي ليكون حالهم وحال من يرجع إلينا إذا عرفوها ، لردها تورعاً ، أو للميرة بها إن لم يكن عندهم غيرها ، أو طمعاً في مثل هذا ، وإنما لم يبادر إلى تعريفهم بنفسه والتعجيل بإدخال السرور على أبيه ، لأن ذلك غير ممكن عادة - لما يأتي من الحكم البالغة والتدبير المتين ، ودل على إسراعهم في الرجوع بالفاء فقال : ﴿ فلما رجعوا ﴾ أي إخوة يوسف

عليه الصلاة والسلام ﴿ إلى أبيهم ﴾ حملهم ما رأوا – من إحسان الصديق وحاجتهم إليه وتبرئتهم لأنفسهم عن أن يكونوا جواسيس – على أن ﴿ قالوا يا أبانا ﴾ .

ولما كان المضار لهم مطلق المنع ، بنوا للمفعول قولهم : ﴿ منع منا الكيل ﴾ لأخينا بنيامين على بعيره لغيبته ، ولنا كلنا بعد هذه المرة إن لم نذهب به معنا ليظهر صدقنا ؛ والمنع : إيجاد ما يتعذر به على القادر الفعل .

(171/399)

وضده : التسليط ، وأما العجز فضده القدرة ﴿ فأرسل ﴾ أي بسبب إزالة هذا المنع ﴿ معنا أخانا ﴾ إنك إن ترسله معنا ﴿ نكتل ﴾ أي لنفسه كما يكتال كل واحد منا لنفسه – هذا على قراءة حمزة والكسائي بالتحانية ، ولنؤوله على قراءة الجماعة بالنون – من الميرة ما وظفه العزيز ، وهو لكل واحد حمل ، وأكدوا لما تقدم من فعلهم بيوسف عليه الصلاة والسلام مما يوجب الارتياب بهم ، فقالوا : ﴿ وإنا له ﴾ أي خاصة ﴿ لحافظون ﴾ أي عن أن يناله مكروه حتى نرده إليك ، عريقون في هذا الوصف ، فكأنه قيل : ما فعل في هذا بعد ما فعلوا إذ أرسل معهم يوسف عليه الصلاة والسلام ؟ قيل : عزم على إرساله معهم ، ولكنه أظهر اللجاء إلى الله تعالى في أمره غير قانع بوعدهم المؤكد في حفظه ، لما

سبق منهم من مثله في يوسف عليه الصلاة والسلام بأن ﴿ قال هل آمنكم ﴾ أي أقبل منكم الآن وفي مستقبل الزمان تأمينكم لي فيه مما يسوءني تأميناً مستعلياً ﴿ عليه ﴾ أي بنيامين ﴿ إلا كما آمنتكم ﴾ أي في الماضي ﴿ على أخيه ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام.

ولما كان لم يطلع يوسف عليه الصلاة والسلام على خيانة قبل ما فعلوا به، وكان ائتمانه لهم عليه إنما هو زمان يسير، أثبت الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ فإنكم أكدتم غاية التأكيد فلم تحفظوه لي ولم تردوه إليّ - والأمن : اطمئنان القلب إلى سلامة النفس - فأنا في هذا لا آمن عليه إلا الله ﴿ فالله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ خير حافظاً ﴾ منكم ومن كل أحد ﴿ وهو ﴾ أي باطناً وظاهراً ﴿ أرحم الراحمين ﴾ فهو أرحم بي من أن يفجعني به بعد مصيبتي بأخيه. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 68 . 69 ﴾

(172/399)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

في الآية مسائل :

المسائل الأولى : قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم لفتيانه بالألف والنون والباقون ﴿ لفتيته ﴾ بالتاء من غير ألف ، وهما لغتان كالصبيان والصبية ، والإخوان والإخوة قال أبو علي الفارسي الفتية جمع فتى في العدد القليل والفتيان للكثير ، فوجه البناء الذي للعدد القليل أن الذين يحيطون بما يجعلون بضاعتهم فيه من رحالهم يكونون قليلين لأن هذا من باب الأسرار فوجب صونه إلا عن العدد القليل ووجه الجمع الكثير أنه قال : ﴿ لِفِتْيَانِهِ اجعلوا بضاعتهم فِى رِحَالِهِمْ ﴾ والرحال تفيد العدد الكثير فوجب أن يكون الذين يباشرون ذلك العمل كثيرين .

المسألة الثانية :

اتفق الأكثرون على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم ومنهم من قال إنهم كانوا عارفين به ، وهو ضعيف لأن قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ يبطل ذلك ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم على وجوه : الأول : أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه ، علموا أن ذلك كان كرماً من يوسف وسخاء محضاً فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته .

الثاني : خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى الثالث : أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط .

الرابع : رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم .

الخامس : قال الفراء : إنهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد الأنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه ، أو رجعوا ليردوا المال إلى مالكه .

السادس : أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة .

السابع : مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا لطلب زيادة في الثمن .

الثامن : أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه له لمزيد الإكرام فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه .

التاسع : أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان ، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق ، فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم .

العاشر : أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم .

ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم قالوا : ﴿ قَالُواْ يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الكيل ﴾ وفيه

قولان : الأول : أنهم لما طلبوا الطعام لأبيهم وللأخ الباقي عنده منعوا منه ، فقولهم : ﴿ منع منا الكيل ﴾ إشارة إليه .

والثاني : أنه منع الكيل في المستقبل وهو إشارة إلى قول يوسف : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِى ﴾ [يوسف : 60] والدليل على أن المراد ذلك قولهم : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ قرأ حمزة والكسائي : ﴿ يكتل ﴾ بالياء ، والباقون بالنون ، والقراءة الأولى تقوى القول الأول ، والقراءة الثانية تقوي القول الثاني .

ثم قالوا : ﴿ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافظون ﴾ ضمنوا كونهم حافظين له ، فلما قالوا ذلك قال يعقوب عليه السلام : ﴿ هَلْ امَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ والمعنى أنكم ذكرتم قبل هذا الكلام في يوسف وضمنتم لي حفظه حيث قلتم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [يوسف : 12] ثم ههنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه فهل يكون ههنا أماني إلا ما كان هناك يعني لما لم يحصل الأمان هناك فكذلك لا يحصل ههنا .

ثم قال : ﴿ فالله خَيْرٌ حافظا وَهُوَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ حافظا ﴾ بالألف على التمييز والتفسير على تقدير هو خير لكم حافظاً كقولهم : هو خيرهم رجلاً

ولله دره فارساً ، وقيل : على الحال والباقون : ﴿ حافظا ﴾ بغير ألف على المصدر يعني خيركم حفظاً يعني حفظ الله لبنيامين خير من حفظكم ، وقرأ الأعمش ﴿ فالله خَيْرُ حافظا ﴾ وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه ﴿ خَيْرُ حافظا وَهُوَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ وقيل : معناه وثقت بكم في حفظ يوسف عليه السلام فكان ما كان فالآن أتوكل على الله في حفظ بنيامين .

فإن قيل : لم بعثه معهم وقد شاهد ما شاهد .

قلنا : لوجوه : أحدها : أنهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح ، وثانيها : أنه كان يشاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام ، وثالثها : أن ضرورة القحط أحوجته إلى ذلك ، ورابعها : لعله تعالى أوحى إليه وضمن حفظه وإيصاله إليه .

فإن قيل : هل يدل قوله : ﴿ فالله خَيْرُ حافظا ﴾ على أنه أذن في ذهاب ابنه بنيامين في ذلك الوقت .

قلنا : الأكثرون قالوا : يدل عليه .

وقال آخرون : لا يدل عليه ، وفيه وجهان : الأول : التقدير أنه لو أذن في خروجه معهم لكان في حفظ الله لا في حفظهم .

الثاني : أنه لما ذكر يوسف قال : ﴿ فالله خَيْرٌ حافظا ﴾ أي ليوسف لأنه كان يعلم أنه حي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 134.135 ﴾

(175/399)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ﴾

قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ لفتيانه ﴾ وفيهم قولان :

أحدهما : أنهم غلمانه ، قاله قتادة .

الثاني : أنهم الذين كالوا لهم الطعام ، قاله السدي .

وفي بضاعتهم قولان :

أحدهما : أنها ورِقهم التي ابتاعوا الطعام بها .

الثاني : أنها كانت ثمانية جُرُب فيها سويق المقل ، قاله الضحاك .

وقال بعض العلماء : نبه الله تعالى برد بضاعتهم إليهم على أن أعمال العباد تعود إليهم فيما يثابون إليه من الطاعات ويعاقبون عليه من المعاصي .

﴿ لعلهم يعرفونها ﴾ أي ليعرفوها .

﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾ يعني رجعوا إلى أهلهم ، ومنه قوله تعالى ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله ﴾ [آل عمران : 174] .

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي ليرجعوا .

فإن قيل : فلم فعل ذلك يوسف ؟

قيل : يحتمل أوجهاً خمسة :

أحدها : ترغيباً لهم ليرجعوا ، على ما صرّح به .

الثاني : أنه علم منهم لا يستحلّون إمساكها ، وأنهم يرجعون لتعريفها .

الثالث : ليعلموا أنه لم يكن طلبه لعودهم طمعاً في أموالهم .

الرابع : أنه خشي أن لا يكون عند أبيه غيرها للقحط الذي نزل به .

الخامس : أنه تحرج أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن قوتهم مع شدة حاجتهم .

قوله عز وجل : ﴿ فلمّا رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنِعَ مِنّا الكيل ﴾

واختلفوا في نزلهم الذي رجعوا إليه إلى أبيهم على قولين :

أحدهما : بالعربات من أرض فلسطين .

الثاني : بالأولاج من ناحية الشعب أسفل من حمس ، وكان صاحب بادية له شاءٌ وإبل .

﴿ قالوا يا أبانا منع منا الكيل ﴾ أي سيمنع منا الكيل إن عدنا بغير أخينا لأن ملك مصر ألزمنا به وطلبه منا إما ليراه أو ليعرف صدقنا منه .

﴿ فأرسل معنا أخانا نكتَل ﴾ أي إن أرسلته معنا أمكننا أن نعود إليه ونكتال منه .

﴿ وإنا له لحافظون ﴾ ترغيباً له في إرساله معهم . فلم يثق بذلك منهم لما كان منهم في يوسف .

(176/399)

﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ لأنهم ضمنوا له حفظ يوسف فأضاعوه ، فلم يثق بهم فيما ضمنوه .

﴿ فالله خير حافظاً ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ حافظاً ﴾ يعني منكم لأخيكم .

﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أرحم الراحمين في حفظ ما استودع .

والثاني : أرحم الراحمين فيما يرى من حزني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(177/399)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾

وأراد يوسف عليه السلام المبالغة في استمالتهم بأن رد مال كل واحد منهم في رحله بين طعامه ، وأمر بذلك فتيانه .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر : " لفتيته " وقرأ حمزة والكسائي : " لفتيانه " ، واختلف عن عاصم ، ففتيان للكثرة – على مراعاة المأمورين – وفتية للقلة – على مراعاة المتناولين وهم الخدمة – ويكون هذا الوصف للحر والعبد . وفي مصحف ابن مسعود : " وقال لفتيانه " وهو يكايلهم .

وقوله ﴿ لعلهم يعرفونها ﴾ يريد : لعلهم يعرفون لها يداً ، أو تكرمة يرون حقها ، فيرغبون فينا ، فلعلهم يرجعون حينئذ وأما ميز البضاعة فلا يقال فيه : لعل ، وقيل : قصد يوسف برد البضاعة أن يتحرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن فيرجعوا لدفع الثمن ، وهذا ضعيف من وجوه ، وسرورهم بالبضاعة وقولهم : ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ [يوسف : 65] يكشف أن يوسف لم يقصد هذا وإنما قصد أن يستميلهم ويصلهم ، فيرغبهم في نفسه كالذي كان ؛ وخص البضاعة بعينها – دون أن يعطيهم غيرها من الأموال – لأنها أوقع في نفوسهم ، إذ يعرفون حلها ، وماله هو إنما كان عندهم مالاً مجهول الحال ، غايته أن يستجاز

على نحو استجازتهم قبول الميرة ؛ ويظهر أن ما فعل يوسف من صلتهم ، وجبرهم في تلك الشدة كان واجباً عليه ، إذ هو ملك عدل وهم أهل إيمان ونبوة ؛ وقيل : علم عدم البضاعة والدراهم عند أبيه ، فرد البضاعة إليهم لئلا يمنعهم العدم من الانصراف إليه ؛ وقيل : جعلها توطئة لجعل السقاية في رحل أخيه بعد ذلك ، ليبين أنه لم يسرق لمن يتأمل القصة .

قال القاضي أبو محمد : والظاهر من القصة أنه إنما أراد الاستئلاف وصلة الرحم .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر : " نكتل " بالنون على مراعاة ﴿ منع منا ﴾ ويقويه : ﴿ ونمير أهلنا ونزداد ﴾ [يوسف : 65] وقرأ حمزة والكسائي : " يكتل " بالياء ، أي يكتل يامين كما اكتلنا نحن .

وأصل ﴿ نكتل ﴾ ، وزنه نفتعل . وقوله ﴿ منع منا ﴾ ظاهره أنهم أشاروا إلى قوله : ﴿ فلا كيل لكم عندي ﴾ [يوسف : 60] فهو خوف في المستأنف ؛ وقيل : أشاروا إلى بعير بنيامين - الذي لم يمتر - والأول أرجح . ثم تضمنوا له حفظه وحيطته .

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾

قوله ﴿ هل ﴾ توقيف وتقرير ، وتألم يعقوب عليه السلام من فرقة بنيامين ، ولم يصرح بمنعهم

من حمله لما رأى في ذلك من المصلحة ، لكنه أعلمهم بقلة طمأنينته إليهم . وأنه يخاف عليه من كيدهم ، ولكن ظاهر أمرهم أنهم كانوا نبئوا وانتقلت حالهم ، فلم يخف كمثل ما خاف على يوسف من قبل ، لكن أعلم بأن في نفسه شيئاً ، ثم استسلم لله تعالى ، بخلاف عبارته في قصة يوسف .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم - في رواية أبي بكر - " خير حفظاً " وقرأ حمزة والكسائي وحفص - عن عاصم - " خير حافظاً " ونصب ذلك - في القراءتين - على التمييز . وقال الزجاج : يجوز أن ينصب " حافظاً " على الحال ، وضعف ذلك أبو علي الفارسي ، لأنها حال لا بد للكلام والمعنى منها ، وذلك بخلاف شرط الحال ، وإنما المعنى أن حافظ الله خير حافظكم . ومن قرأ " حفظاً " فهو مع قولهم : ﴿ ونحفظ أخانا ﴾ . ومن قرأ " حافظاً " فهو مع قولهم ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ [يوسف : 63] فاستسلم يعقوب عليه السلام لله وتوكل عليه . قال أبو عمرو الداني : قرأ ابن مسعود : " فالله خير حافظ وهو خير الحافظين " .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا بعد . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ ﴾

هذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم ؛ وهي اختيار أبي حاتم والنحاس وغيرهما .

وقرأ سائر الكوفيين "لِفِتْيَانِهِ" وهو اختيار أبي عبيد ؛ وقال : هو في مصحف عبد الله كذلك .

قال الثعلبي : وهما لغتان جيدتان ؛ مثل الصبيان والصبية قال النحاس : "لِفِتْيَانِهِ" مخالف للسواد الأعظم ؛ لأنه في السواد لا ألف فيه ولا نون ، ولا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع ؛ وأيضاً فإن فتية أشبه من فتيان ؛ لأن فتية عند العرب لأقل العدد ، والقليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبه .

وكان هؤلاء الفتية يسوّون جهازهم ، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم في رحالهم .

ويجوز أن يكونوا أحراراً ، وكانوا أعواناً له ، وبضاعتهم أثمان ما اشتروه من الطعام .

وقيل : كانت دراهم ودنانير .

وقال ابن عباس : النعال والأدم ومتاع المسافر ، ويسمى رَحْلاً ؛ قال ابن الأنباريّ : يقال للوعاء رَحْل ، وللبيت رَحْل .

وقال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ ﴾ لجواز ألاّ تسلم في الطريق .

وقيل : إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك ؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه .

قيل : ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام .

وقيل : استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام .

وقيل : ليروا فضله ، ويرغبوا في الرجوع إليه .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إلى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أبانا مُنِعَ مِنَّا الكيل ﴾

لأنه قال لهم : "فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي" وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم إياه ، وأن شمعون مرتهن حتى يعلم صدق قولهم .

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ أي قالوا عند ذلك : "فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ" والأصل نكتال ؛ فحذفت الضمة من اللام للجزم ، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين .

(180/399)

وقراءة أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم "نَكْتَلْ" بالنون وقرأ سائر الكوفيين "يكتل" بالياء ؛ والأوّل اختيار أبي عبيد ، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال ؛ وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده .

قال النحاس : وهذا لا يلزم ؛ لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين ؛ أن يكون المعنى : فأرسل أخانا يكتل معنا ؛ فيكون للجميع ، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير ؛ فيكون في

الكلام دليل على الجميع ، لقوله : "فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي" .

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يناله سوء .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي قد فرطتم في يوسف فكيف آمنكم على أخيه ! .

﴿ فالله خَيْرٌ حافظا ﴾ نصب على البيان ، وهذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم .

وقرأ سائر الكوفيين "حَافِظاً" على الحال .

وقال الزّجاج : على البيان ؛ وفي هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم ؛ ومعنى الآية : حفظ الله له خير من حفظكم إياه .

قال كعب الأحبار : لما قال يعقوب : "فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً" قال الله تعالى : وعزتي وجلالي لأردّنّ عليك ابنيك كليهما بعدما توكّلت عليّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وقال لفتيانه ﴾

يعني : وقال يوسف لفتيانه وهم غلمانه وأتباعه ﴿ اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ﴾ أراد بالبضاعة ثمن الطعام الذي أعطوه ليوسف وكانت دراهم وحكى الضحاك عن ابن عباس أنها كانت النعال والأدم والرحال جمع رحل وهي الأوعية التي يحمل فيها الطعام وغيره ﴿ لعلهم يعرفونها ﴾ يعني يعرفون بضاعتهم ﴿ إذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾ يعني إذا رجعوا إلى أهلهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ إلينا واختلفوا في السبب الذي من أجله رد يوسف عليهم بضاعتهم فقيل إنه إذا فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم علموا أن ذلك من كرم يوسف وسخائه فيبعثهم ذلك على الرجوع إليه سريعاً وقيل إنه خاف أن لا يكون عند أبيه شيء آخر من المال لأن الزمان كان زمان قحط وشدة ، وقيل : إنه رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته لؤم لشدة حاجتهم إليه وقيل أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم فيه لوم ولا عيب ، وقيل أراد أن يريهم بره وكرمه وإحسانه إليهم في رد بضاعتهم ليكون ذلك أدعى إلى العود إليه ، وقيل : إنما فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم وأمانتهم تحملهم على رد البضاعة إليه إذا وجدوها في رحالهم لأنهم أنبياء وأولاد أنبياء وقيل أراد برد البضاعة إليهم أن يكون ذلك عوناً لأبيه ولإخوته على شدة الزمان .

﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا ﴾

إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلاً من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته فقال لهم يعقوب إذا رجعتم إلى ملك مصر فاقرؤوا عليه مني السلام وقولوا له إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر عنده وأخبروه بالقصة ثم قالوا يا أبانا ﴿ منع منا الكيل ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : أنهم لما أخبروا يوسف بأخيهم من أبيهم طلبوا منه الطعام لأبيهم وأخيهم المتخلف عند أبيهم فمنعهم من ذلك حتى يحضر فقولهم منع منا الكيل إشارة إليه وأراد بالكيل الطعام لأنه يكال .

(182/399)

والقول الثاني : إنه سيمنع منا الكيل في المستقبل وهو إشارة إلى قول يوسف فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون وقال الحسن يمنع منا الكيل إن لم نحمل معنا أخانا وهو قوله تعالى إخباراً عنهم ﴿ فأرسل معنا أخانا ﴾ يعني بنيامين ﴿ نكتل ﴾ قرئ بالياء يكتل لنفسه وقرئ بالنون يعني نكتل نحن جميعاً وإياه معنا ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ يعني نرده إليك فلما قالوا ليعقوب هذه المقالة ﴿ قال ﴾ يعني يعقوب ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ يعني كيف آمنكم على ولدي بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما

فعلتم وإنكم ذكرتم مثل هذا فكيف يحصل هاهنا ثم قال ﴿ فالله خير حافظاً ﴾ يعني أن حفظ الله خير من حفظكم له ففيه التفويض إلى الله تعالى والاعتماد عليه في جميع الأمور ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ وظاهر هذا الكلام يدل على أنه أرسله معهم ، وإنما أرسله معهم وقد شاهد ما فعلوا بيوسف لأنه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف أو أن يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح ولما كبروا فأرسله معهم أو أن شدة القحط وضيق الوقت أحوجه إلى ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(183/399)

وقال أبو حيان :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾

وقرأ الأخوان وحفص : لفتيانه ، وباقي السبعة لفتيته ، فالكثرة على مراعاة المأمورين ، والقلة على مراعاة المتأوّلين .

فهم الخدمة الكائلون أمرهم بجعل المال الذي اشتروا به الطعام في رحالهم مبالغة في استمالتهم لعلهم يعرفونها أي : يعرفون حق ردها ، وحق التكرم بإعطاء البدلين فيرغبون

فينا إذا انقلبوا إلى أهلهم ، وفرغوا ظروفهم .

ولعلهم يعرفونها تعليق بالجعل ، ولعلهم يرجعون تعليق بترجي معرفة البضاعة للرجوع إلى يوسف .

قيل : وكانت بضاعتهم النعال والأدم .

وقيل : يرجعون متعد ، فالمعنى لعلهم يردون البضاعة .

وقيل : تخوف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به .

وقيل : علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة ، لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها .

وقيل : جعلها توطئة لجعل السقاية في رحل أخيه بعد ذلك ، ليتبين أنه لم يسرق لمن يتأمل القصة .

قال ابن عطية : ويظهر أن ما فعله يوسف من صلتهم وجبرهم في تلك الشدة كان واجباً عليه ، إذ هو ملك عادل وهم أهل إيمان ونبوة .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

مار يمير ، وأمار يمير ، إذا جلب الخير وهي الميرة قال :

بعثتك مائراً فمكثت حولاً . . .

متى يأتي غياثك من تغيث

﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون.

قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ : أي : رجعوا من مصر ممتارين ، بادروا بما كان أهم الأشياء عندهم من التوطئة لإرسال أخيهم معهم ، وذلك قبل فتح متاعهم وعلمهم بإحسان العزيز إليهم من رد بضاعتهم.

وأخبروا بما جرى لهم مع العزيز الذي على إهراء مصر ، وأنهم استدعى منهم العزيز أن يأتوا بأخيهم حتى يتبين صدقهم أنهم ليسوا جواسيس ، وقولهم : منع منا الكيل ، إشارة إلى قول يوسف : فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي.

ويكون منع يراد به في المستأنف ، وإلا فقد كيل لهم.

وجاؤوا أباهم بالميرة ، لكنْ لما أنذروا بمنع الكيل قالوا : منع.

وقيل : أشاروا إلى بعير بنيامين الذي منع من الميرة ، وهذا أولى بحمل منع على الماضي حقيقة ، ولقولهم : فأرسل معنا أخانا نكتل ، ويقويه قراءة يكتل بالياء أي : يكتل أخونا ،

فإنما منع كيل بعيره لغيبته ، أو يكن سبباً للاكتيال .

فإن امتناعه في المستقبل تشبيه ، وهي قراءة الأخوين .

وقرأ باقي السبعة بالنون أي : نرفع المانع من الكيل ، أو نكتل من الطعام ما نحتاج إليه ، وضمنوا له حفظه وحياطته .

قال : هل آمنكم ، هذا توقيف وتقرير .

وتألم من فراقه بنيامين ، ولم يصرح بمنعه من حمله لما رأى في ذلك من المصلحة .

وشبه هذا الائتمان في ابنه هذا بائتمانه إياهم في حق يوسف .

قلتم فيه : وإنا له لحافظون ، كما قلتم في هذا ، فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لذلك ، لكن يعقوب لم يخف عليه كما خاف على يوسف ، واستسلم لله وقال : فالله خير حفظاً ، وقرأ الأخوان وحفص : حافظاً اسم فاعل ، وانتصب حفظاً وحافظاً على التمييز ، والمنسوب له الخير هو حفظ الله ، والحافظ الذي من جهة الله .

وأجاز الزمخشري أن يكون حافظاً حالاً ، وليس بجيد ، لأن فيه تقييد خير بهذه الحال .

وقرأ الأعمش : خير حافظ على الإضافة ، فالله تعالى متصف بالحفظ وزيادته على كل حافظ .

وقرأ أبو هريرة : خير الحافظين ، كذا نقل الزمخشري .

وقال ابن عطية : وقرأ ابن مسعود ، فالله خير حافظاً وهو خير الحافظين .

وينبغي أن تجعل هذه الجملة تفسيراً لقوله : فالله خير حافظاً ، لا أنها قرآن .

(185/399)

وهو أرحم الراحمين اعتراف بأن الله هو ذو الرحمة الواسعة ، فأرجو منه حفظه ، وأن لا يجمع على مصيبته ومصيبة أخيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(186/399)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ ﴾ يوسف ﴿ لِفِتْيَانِهِ ﴾ غلمانه الكيالين جمع فتى وقرىء لِفتيته وهي جمعُ قلةٍ له ﴿ اجعلوا بضاعتهم فِى رِحَالِهِمْ ﴾ فإنه وكّل بكل رجل رجلاً يعبّىء فيه بضاعتَهم التي شرَوا بها الطعامَ وكانت نعالاً وأدَماً وإنما فعله عليه السلام تفضّلاً عليهم وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه كما يُؤذن به قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ أي يعرِفون حقّ ردِّها والتكرم في ذلك أو لكي

يعرفوها وهو ظاهرُ التعلق بقوله : ﴿ إِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمْ ﴾ فإن معرفتَهم لها مقيّدةٌ بالرجوع وتفريغِ الأوعية قطعاً ، وأما معرفةُ حقِّ التكرم في ردها فهي وإن كانت في ذاتها غيرَ مقيدةٍ بذلك لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قُيِّدت به ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ حسبما أمرتهم به فإن التفضلَ عليهم بإعطاء البدلين ولا سيما عند إعوازِ البضاعةِ من أقوى الدواعي إلى الرجوع ، وما قيل إنما فعله عليه السلام لما لم يرَ من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً فكلامٌ حقٌّ في نفسه ولكن يأباه التعليلُ المذكور ، وأما أن عِلّية الجعل المذكورِ للرجوع من حيث أن دياناتِهم تحمِلُهم على رد البضاعةِ لأنهم لا يستحِلّون إمساكها فمدارُه حُسبانُهم أنها بقِيت في رحالهم نسياناً وظاهرٌ أن ذلك مما لا يخطر ببال أحد أصلاً فإن هيئةَ التعبيةِ تنادي بأن ذلك بطريق التفضّل ، ألا يرى أنهم كيف جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلاً على التفضلات السابقة كما ستحيط به خبراً

﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ ﴾ قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع ﴿ قَالُواْ يَأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الكيل ﴾ أي فيما بعد ، وفيه ما لا يخفى من الدلالة على كون الامتيار مرةً بعد مرة معهوداً فيما بينهم وبينه عليه السلام ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا ﴾ بنيامين إلى مصر وفيه إيذانٌ بأن مدارَ

المنع عدمُ كونِه معهم ﴿ نَكْتَلْ ﴾ بسببه من الطعام ما نشاء . وقرأ حمزةُ والكسائي بالياء على إسناده إلى الأخ لكونه سبباً للاكتيال أو يكتلْ لنفسه مع اكتيالنا ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ من أن يصيبَه مكروهٌ .

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ ﴾

يوسف ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ وقد قلتم في حقه أيضاً ما قلتم ثم فعلتم به ما فعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وإنما أفوّض الأمر إلى الله ﴿ فالله خَيْرٌ حافظا ﴾ وقرىء حِفظاً ، وانتصابُهما على التمييز ، والحالية على القراءة الأولى توهم تقيّد الخيريةِ بتلك الحالة ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمعَ عليّ مصيبتين ، وهذا كما ترى ميلٌ منه عليه السلام إلى الإذن والإرسالِ لما رأى فيه من المصلحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(188/399)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾

﴿ وَقَالَ ﴾ يوسف عليه السلام ﴿ لِفِتْيَانِهِ ﴾ لغلمانه الكيالين كما قال قتادة .

وغيره أو لأعوانه الموظفين لخدمته كما قيل ، وهو جمع فتى أو اسم جمع له على قول وليس بشيء ، وقرأ أكثر السبعة (لفتيته) وهو جمع قلة له ، ورجحت القراءة الأولى بأنها أوفق بقوله : ﴿ اجعلوا بضاعتهم فِى رِحَالِهِمْ ﴾ فإن الرحال فيه جمع كثرة ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي انقسام الآحاد على الآحاد فينبغي أن يكون في مقابلة صيغة جمع الكثرة ، وعلى القراءة الأخرى يستعار أحد الجمعين للآخر .

روى أنه عليه السلام وكل بكل رحل رجلاً يعبى فيه بضاعتهم التي اشتروا بها الطعام وكانت نعالاً وادماً ؛ وأصل البضاعة قطعة وافرة من المال تقتني للتجارة والمراد بها هنا ثمن ما اشتروه .

والرحل ما على ظهر المركوب من متاع الراكب وغيره كما في البحر ، وقال الراغب : هو ما يوضع على البعير للركوب ثم يعبر به تارة عن البعير وأخرى عما يجلس عليه في المنزل ويجمع في القلة على أرحلة ، والظاهر أن هذا الأمر كان بعد تجهيزهم ، وقيل : قبله ففيه تقديم وتأخير ولا حاجة إليه ، وإنما فعل عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم وخوفاً أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيهم كما يؤذن به

قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ أي يعرفون حق ردها والتكرم بذلك فلعل على ظاهرها وفي الكلام مضاف مقدر ، ويحتمل أن يكون المعنى لكي يعرفوها فلا يحتاج إلى تقدير وهو ظاهر التعلق بقوله : ﴿ إِذَا انقلبوا ﴾ أي رجعوا ﴿ إلى أَهْلِهِمْ ﴾ فإن معرفتهم لها مقيدة بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعاً ، وأما معرفة حق التكرم في ردها وإن كانت في ذاتها غير مقيدة بذلك لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قيدت به ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ حسبما طلبت منهم ، فإن التفضل بإعطاء البدلين ولا سيما عند إعواز البضاعة من أقوى الدواعي إلى الرجوع ، وقيل : إنما فعله عليه السلام لما أنه لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً وهو الكريم ابن الكريم وهو كلام حق في نفسه ولكن يأباه التعليل المذكور ، ومثل في هذا ما زعمه ابن عطية من وجوب صلتهم وجبرهم عليه عليه السلام في تلك الشدة إذ هو ملك عادل وهم أهل إيمان ونبوة ، وأغرب منه ما قيل : إنه عليه السلام فعل ذلك توطئة لجعل السقاية في رحل أخيه بعد ذلك ليتبين أنه لم يسرق لمن يتأمل القصة ، ووجه بعضهم علية الجعل المذكور للرجوع بأن دياتنهم تحملهم على رد البضاعة لاحتمال أنه لم يقع ذلك قصداً أو قصداً للتجربة فيرجعون على هذا إما لازم وإما متعد ، والمعنى يرجعونها أي يردونها ، وفيه أن هيئة التعبية تنادي بأن ذلك بطريق التفضل فاحتمال غيره في غاية البعد ، أنهم كيف جزموا بذلك حين

رأوها وجعلوا ذلك دليلاً على التفضلات السابقة كما ستحيط به خبراً إن شاء الله تعالى.

﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾

أي حكم بمنعه بعد اليوم إن لم نذهب بأخينا بنيامين حيث قال لنا الملك ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ [يوسف : 60] والتعبير بذلك عما ذكر مجاز والداعي لارتكابه أنه لم يقع منع ماض ، وفيه دليل على كون الامتيار مرة بعد أخرى كان معهوداً بينهم وبينه عليه السلام ، وقيل : إن الفعل على حقيقته والمراد منع أن يكال لأخيهم الغائب حملاً آخر ورد بغيره غير محمل بناء على رواية أنه عليه السلام لم يعط له وسقاً ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا ﴾ بنيامين إلى مصر ، وفيه إيذان بأن مدار المنع على عدم كونه معهم ﴿ نَكْتَلْ ﴾ أي من الطعام ما نحتاج إليه ، وهو جواب الطلب ، قيل : والأصل يرفع المانع ونكتل فالجواب هو يرفع إلا أنه رفع ووضع موضع يكتل لأنه لما علق المنع من الكيل بعدم إتيان أخيهم كان أرساله رفعاً لذلك المانع ، ووضع موضعه ذلك لأنه المقصود ، وقيل : إنه جيء بآخر الجزأين ترتباً دلالة على أولهما مبالغة ، وأصل هذا الفعل نكتيل على وزن نفعيل قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ثم حذفت لالتقاء الساكنين.

ومن الغريب أنه نقل السجاوندي أنه سأل المازني ابن السكيت عند الواثق عن وزن نكتل

فقال: نفعل فقال المازني: فإذاً ماضيه كتل فخطأه على أبلغ وجه.

وقرأ حمزة.

(191/399)

والكسائي ﴿ يكتل ﴾ بياء الغيبة على إسناده للأخ مجازاً لأنه سبب للاكتيال أو يكتل أخونا فينضم اكتياله إلى اكتيالنا، وقوي أبو حيان بهذه القراءة القول ببقاء منع على حقيقته ومثله الإمام ﴿ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ من أن يصيبه مكروه، وهذا سد لباب الاعتذار وقد بالغوا في ذلك كما لا يخفى، وفي بعض الأخبار ولا يخفى حاله أنهم لما دخلوا على أبيهم عليه السلام سلموا عليه سلاماً ضعيفاً فقال لهم: يا بني ما لكم تسلمون علي سلاماً ضعيفاً وما لي لا أسمع فيكم صوت شمعون فقالوا: يا أبانا جئناك من عند أعظم الناس ملكاً ولم ير مثله علماً وحكماً وخشوعاً وسكينة ووقاراً ولئن كان لك شبه فإنه يشبهك ولكنا أهل بيت خلقنا للبلاء إنه اتهمنا وزعم أنه لا يصدقنا حتى ترسل معنا بنيامين برسالة منك تخبره عن حزنك وما الذي أحزنك وعن سرعة الشيب إليك وذهاب بصرك وقد منع منا الكيل فيما يستقبل إن لم نأته بأخينا فأرسله معنا نكتل وإنا له لحافظون حتى نأتيك به.

﴿ قَالَ هَلۡ آمَنُكُمۡ عَلَيۡهِ ﴾

استفهام إنكاري و ﴿ آمَنُكُمۡ ﴾ بالمد وفتح الميم ورفع النون مضارع من باب علم وأمنه وائتمنه بمعنى أي ما ائتمنكم عليه ﴿ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمۡ ﴾ أي إلا ائتمانا مثل ائتماني إياكم ﴿ مِنۡ أَخِيهِ ﴾ يوسف ﴿ مِن قَبۡلُ ﴾ وقد قلتم أيضاً في حقه ما قلتم ثم فعلتم به ما فعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وإنما أفوض أمري إلى الله تعالى ﴿ فَاللَّهُ خَيۡرٌ حافظا وَهُوَ أَرۡحَمُ الرحمين ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع على مصيبتين، وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام إلى الإذن والإرسال لما رأى فيه من المصلحة، وفيه أيضاً من التوكل على الله تعالى ما لا يخفى، ولذا روى أن الله تعالى قال: وعزتي وجلالي لأردهما عليك إذ توكلت علي، ونصب ﴿ حافظا ﴾ على التمييز نحو لله دره فارساً، وجوز غير واحد أن يكون على الحالية.

(192/399)

وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بجيد لما فيه من تقييد الخيرية بهذه الحالة.

ورد بأنها حال لازمة مؤكدة لا مبينة ومثلها كثير مع أنه قول بالمفهوم وهو غير معتبر ولو اعتبر ورد على التمييز وفيه نظر، وقرأ أكثر السبعة ﴿ حافظا ﴾ ونصبه على ما قال أبو البقاء

على التمييز لا غير .

وقرأ الأعمش ﴿ خَيْرُ حافظا ﴾ على الإضافة وإفراد ﴿ حَافِظٌ ﴾ وقرأ أبو هريرة ﴿ خَيْرُ ﴾ على الإضافة والجمع ، ونقل ابن عطية عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قرأ ﴿ فالله خَيْرُ حافظا وَهُوَ خَيْرُ ﴾ قال أبو حيان : وينبغي أن تجعل جملة ﴿ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ﴾ الخ تفسيراً للجملة التي قبلها لا أنها قرآن وقد مر تعليل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(193/399)

وقال القاسمى :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ أي : لخدامه الكيالين : ﴿ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ يعني ببضاعتهم ، ما شروا به الطعام . روي أنها كانت فضة . أي : اجعلوها في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ أي : لكي يعرفونها ﴿ إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ ﴾ أي : وفتحوا أوعيتهم : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : حسبما أمرتهم به ، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين من أقوى الدواعي إلى الرجوع .

﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ أي : أنذرنا بمنعه بعد هذا ، إن لم

نأت بأخينا ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ أي : نرفع المانع من الكيل ، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه ، وقرئ (يكتل) بالتحتية أي : أخونا لنفسه مع اكتيالنا ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أي : من أن يناله مكروه .

﴿ قَالَ ﴾ أي : يعقوب لهم : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبله ، يوسف . يعني : هل أقدر أن آخذ عليكم العهد والميثاق ، أكثر مما أخذت عليكم في يوسف ، وقد قلتم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف : من الآية 12] ، ثم خنتم بضمانكم ؟ فما يؤمنني من مثل ذلك ؟ فلا أثق بكم ، ولا بحفظكم ، وإنما أفوض الأمر إلى الله : ﴿ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً ﴾ أي : منكم ومن كل أحد : ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أي : أرحم من والديه وإخوته ، فأرجو أن يرحمني بحفظه . وهذا ميل منه إلى الإذن في إرساله معهم لما رأى فيه من المصلحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 200 . 201 ﴾

(194/399)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجعلوا بضاعتهم فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴾

قرأ الجمهور ﴿ لفتيته ﴾ بوزن فعلة جمع تكسير فتى مثل أخ وإخوة .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف ﴿ لفتيانه ﴾ بوزن إخوان .

والأول صيغة قلة والثاني صيغة كثرة وكلاهما يستعمل في الآخر .

وعدد الفتيان لا يختلف .

والفتى : من كان في مبدإ الشباب ، ومؤنثه فتاة ، ويطلق على الخادم تلطفاً ، لأنهم كانوا يستخفون بالشباب في الخدمة ، وكانوا أكثر ما يستخدمون العبيد .

والبضاعة : المال أو المتاع المعدّ للتجارة .

والمراد بها هنا الدراهم التي ابتاعوا بها الطعام كما في التوراة .

وقوله : ﴿ لعلهم يعرفونها ﴾ رجاء أن يعرفوا أنها عين بضاعتهم إما بكونها مسكوك سكة بلادهم وإما بمعرفة الصّرر التي كانت مصرورة فيها كما في التوراة ، أي يعرفون أنها وضعت هنالك قصداً عطية من عزيز مصر .

والرحال : جمع رحْل ، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب ، ولذا سمي البعير راحلة .

والانقلاب : الرجوع ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ انقلبتم على أعقابكم ﴾ في [سورة آل عمران : 144] .

وجملة لعلهم يرجعون ﴾ جواب للأمر في قوله : ﴿ اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ﴾ لأنه لمّا أمرهم بالرجوع استشعر بنفاذ رأيه أنهم قد يكونون غير واجدين بضاعة ليبتاعوا بها الميرة لأنه رأى مخايل الضيق عليهم .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾

معنى ﴿ منع منا الكيل ﴾ حِيل بيننا وبين الكيل في المستقبل ، لأن رجوعهم بالطعام المعبر عنه بالجَهاز قرينة أن المنع من الكيل يقع في المستقبل ، ولأن تركيب ﴿ منع منا ﴾ يؤذن بذلك ، إذ جعلوا الكيل ممنوع الابتداء منهم لأن ﴿ من ﴾ حرف ابتداء .

(195/399)

والكيل مصدر صالح لمعنى الفاعلية والمفعولية ، وهو هنا بمعنى الإسناد إلى الفاعل ، أي لن نكيل ، فالممنوع هو ابتداء الكيل منهم .

ولمّا لم يكن بيدهم ما يكال تعيّن تأويل الكيل بطلبه ، أي منع منّا ذلك لعدم الفائدة لأننا لا نُمنحه إلاّ إذا وفينا بما وعَدْنا من إحضار أخينا .

ولذلك صح تفريع ﴿ فأرسل معنا أخانا ﴾ عليه ، فصار تقدير الكلام : منعنا من أن نطلب الكيل إلا إذا حضر معنا أخونا .

فتعين أنه حكَوْا القصة لأبيهم مفصلة واختصرها القرآن لظهور المرد .

والمعنى : إن أرسلته معنا نَرحَل للاكتيال ونطلبه .

وإطلاق المنع على هذا المعنى مجاز ، لأنهم أنذروا بالحرمان فصار طلبهم ممنوعاً منهم لأن طلبه عبث .

وقرأ الجمهور ﴿ نكتل ﴾ بنون المتكلم المشارك .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وخلف بتحتية عوض النون على أنه عائد إلى ﴿ أخانا ﴾ أي يكتل معنا .

وجملة ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ عطف على جملة ﴿ فأرسل ﴾ .

وأكدوا حفظه بالجملة الإسمية الدالة على الثبات وبحرف التوكيد .

وجواب أبيهم كلام موجه يحتمل أن يكون معناه : ﴿ إني آمنكم عليه كما أمنتكم على أخيه ﴾ ، وأن يكون معناه ماذا أفاد ائتمانكم على أخيه من قَبْل حتى آمنكم عليه .

والاستفهام إنكاري فيه معنى النفي ، فهو يستفهم عن وجه التأكيد في قولهم : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ .

والمقصود من الجملة على احتماليها هو التفريع الذي في قوله : ﴿ فالله خير حفظاً ﴾ [سورة يوسف : 64] ، أي خير حفظاً منكم ، فإنْ حفظه الله سلم وإن لم يحفظه لم يسلم كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمنتكم عليه .

وهم قد اقتنعوا بجوابه وعلموا منه أنه مُرسِل معهم أخاهم ، ولذلك لم يراجعوه في شأنه .

وحفظاً ﴾ مصدر منصوب على التمييز في قراءة الجمهور .

وقرأه حمزة والكسائي ، وحفص ﴿ حافظاً ﴾ على أنه حال من اسم الجلالة وهي حال لازمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(196/399)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾

أي : أن يوسف عليه السلام أمر مساعديه أنْ يُعيدوا البضائع التي أحضرها هؤلاء معهم ليقايضوا بها ما أخذوه من قمح وطعام ، وكان على مساعدي يوسف عليه السلام أن يُنفِّذوا أمره بوضع هذه البضائع بشكل مُسْتتر في الرِّحال التي أَتَوْا عليها ، وفي هذا تشجيع لهم كي يعودوا مرة أخرى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا . . . ﴾ .

وكان قولهم هذا هو أول خبر قالوه لأبيهم ، فور عودتهم ومعهم المَيْرة ، وكأنهم أرادوا أن يُوضِّحوا للأب أنهم مُنِعوا مستقبلاً من أنْ يذهبوا إلى مصر ، ما لم يكن معهم أخوهم .

وحَكَوْا لأبيهم قصتهم مع عزيز مصر ، وإن وافق الأب على إرسال أخيهم " بنيامين " معهم ؛ فلسوف يكتالون ، ولسوف يحفظون أخاهم الصغير .

وهم في قولهم هذا يحاولون أن يُبعِدوا رِيبَةَ الأب عَمَّا حدث ليوسف من قبل .

وهنا يأتي الحق سبحانه بما قاله أبوهم يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ . . . . ﴾ .

وهنا يُذَكِّرهم أبوهم بأنهم لم يُقدِّموا من قبل ما يُطمئِنه على ذلك ؛ فقد أضاعوا أخاهم يوسف وقالوا : إن الذئب قد أكله .

وأضاف : ﴿ فاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [يوسف : 64] .

وهو قَوْل نتنسَّم فيه أنه قد وافق على ذهاب بنيامين معهم ، وأنه يدعو الحق ليحفظ ابنه .

وبدأ أبناء يعقوب في فتح متاعهم بعد الرحلة ، وبعد الحوار مع أبيهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِفِتْيَانِهِ ﴾ : قرأ الأخوان وحفص : "لفتيانه" ، والباقون : "لِفِتْيَتِه" ، والفِتْيان جمع كثرة ، والفِتْية جمعُ قِلَّة ، فالتكثير بالنسبة إلى المأمورين ، والقِلَّة بالنسبة إلى المتناولين . و "فتى" يُجْمع على فِتْيان وفِتْيَة وقد تقدَّم : هل فِعْلَة في الجموع اسمُ جمعٍ أو جمعُ تكسير ، ومثله "أخ" فإنه جُمِع على إخْوَة وإخوان .

و "يَرْجِعون" يحتمل أن يكونَ متعدِّياً وحُذِف مفعوله ، أي : يَرْجعون البضاعةَ لأنه عَرَف من دينهم ذلك ، وأن يكونَ قاصراً بمعنى يرجعون إلينا .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63) ﴾

وقرأ الأخوان "يَكْتَلْ" بالياء من تحت ، أي : يكتل أخونا ، والباقون بالنون ، أي : نكتل نحن ، وهو مجزومٌ على جواب الأمر .

ويُحكى أنه جرى بحضرةِ المتوكلِ أو وزيره ابن الزياتِ بين المازني وابن السكيت مسألةٌ : وهي ما وزنُ "نَكْتَلْ" ؟ فقال يعقوب : نَفْتَل ، فسَخِر به المازني وقال : إنما وزنُها نَفْتَعِل ،

هكذا رأيتُ في بعض الكتب ، وهذا ليس بخطأ ؛ لأنَّ التصريفيين نَصُّوا على أنه إذا كان في الكلمة حَذْفٌ أو قَلْبٌ حُذِفَتْ في الزِّنَة وقُلِبَتْ فنقول : وزن بِعْتُ وقُمْتُ : فِعْتُ وفُعْتُ ، ووزنُ عِد ، عِل ، ووزنُ ناءَ : فَلَعَ ، وإن شِئْتَ أَتَيْتَ بالأصل ، فعلى هذا لا خطأَ في قوله : وزن نَكْتَل نَفْتَلْ ، لأنه اعتبرُ اللفظ لا الأصلُ . ورأيت في بعض الكتب أنه قال : نَفْعَل بالعين وهذا خطأٌ مَحْضٌ ، على أن الظاهر من أمرِ يعقوب أنه لم يُتْقِنْ هذا ، ولو أَتْقَنَه لقال : وزنُه على الأصل كذا ، وعلى اللفظ كذا ، ولذلك أنحى عليه المازني فلم يَرُدَّ عليه بشيء .

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ ﴾ : منصوبٌ على نعتِ مصدرٍ محذوف أو على الحال منه ، أي : ائتماناً كائتماني لكم على أخيه ، شبَّه ائتمانَه لهم على هذا بائتمانِه على ذلك . و " من قبلُ " متعلق ب " أَمِنْتُكم " .

قوله : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً ﴾ قرأ الأخوان وحفص " حافظاً " وفيه وجهان ، أظهرهما : أنه تمييز ، قال أبو البقاء : " ومثل هذا يجوز إضافته " . قلت : قد قرأ بذلك الأعمش : ﴿ فاللَّه خيرُ حافظٍ ﴾ ، واللَّه تعالى متَّصِفٌ بأنَّ حِفْظَه يزيد على حِفْظِ غيرِه كقولك : هو أفضل عالم . والثاني : أنه حال ، ذكر ذلك الزمخشري وأبو البقاء وغيرُهما . قال الشيخ وقد نقله عن الزمخشري وحده : " وليس بجيد ؛ لأنَّ فيه تقييدَ " خير " بهذه الحال " .

قلت : ولا محذورَ فإن هذه الحالَ لازمةٌ لأنها مؤكدةٌ لا مبيِّنَة ، وليس هذا بأولِ حالٍ وَرَدَتْ لازمةً .

(199/399)

وقرأ الباقون " حِفْظاً " ، ولم يُجيزوا فيها غير التمييز ؛ لأنهم لو جعلوها حالاً لكانت مِنْ صفةِ ما يَصْدُق عليه " خير " ، ولا يَصْدُق ذلك على ما يَصْدُق عليه " خير " ؛ لأن الحِفْظ معنى من المعاني ، ومَنْ يَتَأَوَّل " زيدٌ عَدْلٌ " على المبالغة ، أو على حذف المضاف ، أو على وقوعِ المصدرِ موقعَ الوصفِ يُجِزْ في " حِفْظاً " أيضاً الحالية بالتأويلات المذكورة ، وفيه تَعَسُّف . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 517. 519﴾

(200/399)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الحفظ)

حفظت الشئ حِفظاً بالكسر أى حرسته ، وقوله تعالى : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً ﴾ أى حفظُ الله خير حفظ .

ومن قرأ (حافظا) وهى قراءَة الكوفيّين غير أَبى بكر فالمراد خير الحافظين .

وقوله تعالى ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أَى ذلك الحفظ بأَمر الله .

والحِفظ يقال تارة لهيئة النّفس الّتى بها يثبت ما يؤدِّى إِليه الفهم ، وتارة لضبط الشئ فى النّفس .

ويُضادّه النّسيان ، وتارة لاستعمال تلك القوّة ، فيقال : حفظت كذا حفظاً ، ثمّ يستعمل فى كلّ تفقُّد وتعهُّد ورعاية .

قوله تعالى : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ كناية عن العِفَّة و ﴿ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ أَى يحفظن عهد الأَزواج عند غيبتهم بسبب أَنَّ الله يحفظهنّ أَن يطلع عليهنّ .

وقرئ بنصب الجلالة أَى بسبب رعايتهنّ حقّ الله لا (لرياءٍ وتصنُّع) منهنّ .

وقوله ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ أَى حافظاً ؛ كقوله ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ أى حافظ لأَعمالهم ، أَو بمعنى مفعول أَى محفوظ لا يَضِيع ، كقوله تعالى : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ .

والحَفَظَة ، الملائكة الَّذين يكتبون أَعمال بنى آدم ، وجمع الرّجل الحافظ الحافظون والحُفَّاظ

والحَفَظَة .

والحفيظ : الموكّل بالشئ يحفظه .

والحفيظ فى صفات الله تعالى : الّذى لا يَعْزُب عنه مثقال ذُرَّة فى الأَرض ولا فى السّماءِ ، وقد حفظ على عباده ما يعملون من خير وشرّ ، وقد حفظ السماوات والأَرض ﴿ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ .

والحِفاظ المحافظة على العهد ، والوفاء بالعقْد ، والتّمسّك بالودّ .

والحِفاظ أَيضاً أَن يحفظ كلّ واحد الآخر .

(201/399)

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ فيه تنبيه أَنّهم يحفظون الصّلاة بمراعاة أَوقاتها ، ومراعاة أَركانها ، والقيام بها فى غاية ما يكون من الطّوق ، وأَنَّ تحفظهم الحفظ الّذى نبّه عليه فى قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ .

وأَهل الحِفيظة والحفائظ هم المحامون من وراءِ إِخوانهم ، المتعاهدون لعوْراتهم ، الذابّون عنها .

والتحفُّظ هو قلَّة الغفْلة .

وحقيقته إِنَّما هو تكلُّف الحفظ لضعف القوّة الحافظة.

والحفيظة: الغَضَب الَّذى يَحمل على المحافظة ثمّ استعمل فى الغضب المجرّد.

والمُحْفِظات: الأُمور الَّتى تُحفِظ الرّجل أَى تغضبه إِذا وُتِر فى حَمِيمه وجارِه.

قال القطامىّ:

*أَخولك الذى لا تملك الحِسّ نفسُه * وترفَضُّ عند المحفِظات الكتائفُ*

يقول: إِذا استوحش الرّجُل من ذى قرابته فاضطغَن عليه لإِساءَة بدت منه فأَوحشه ثمّ رآه يضام زال عن قلبه ما أَلَمَّ به من الحِقد وغضِب له ونصره وانتقم له من ظالمه.

قال قُرَيط بن أُنَيف:

*إِذن لقام بنصرى معشر خُشُنٌ * عند الحَفِيظة إِن ذو لُوثة لانا*

وقال:

*وما العفو إِلاَّ لامرئ ذى حفيظة * متى يُعْفَ عن ذنب امرئ السَّوءِ يَلْجَج* . انتهى

انتهى. ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 480.482﴾

(202/399)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62) ﴾

جَعْلُ بضاعتهم في رحالهم - في باب الكَرَم - أتمُّ مِنْ أنْ وَهَبَها لهم جَهْرَاً ؛ لأنه يكون حينئذٍ فيه تقليد منه بالمواجَهَة ، وفي تمليكها لهم بإشارةٍ تجَرُّدٌ مِنْ تكلُّفِ تقليد منه بالمحاضرة .

ويقال عَلِمَ أنهم لا يَسْتحلُّون مالَ الغَيْر فَدَسَّ بضاعتَهم في رحالِهم ، لكن إذا رأَوْها قالوا : هذا وقع في رحالنا منهم بِغَلَطٍ ، فالواجبُ علينا ردُّها عليهم . وكانوا يرجعون بسبب ذلك شاءوا أم أَبَوْا .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63) ﴾

لم يمنع يوسفُ منهم الكيْلَ ، وكيف منَعَ وقد قال : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ ؟ ولكنهم تجوزوا في ذلك تفخيماً للأمر حتى تسمح نَفْسُ يعقوب عليه السلام بإرسال بنيامين معهم .

ويقال أرادوا بقولهم : ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ وفي المستقبل إذا لم تَجْمِلْه إليه .

ويقال إنهم تَلَطَّفُوا في القول ليعقوبَ - عليه السلام - حيث قالوا : ﴿ أَخَانَا ﴾ إظهاراً

لشفقتهم عليه ، ثم أكَّدوا ذلك بقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ .

مَنْ عَرَفَ الخيانة لا يلاحظ الأمانة ، ولذا لم تَسْكُنْ نَفْسُ يعقوب بضمانهم لِمَاَ سَبَقَ إليه شأنهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فاللَّهُ خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ .

﴿ فاللّهُ خيرُ حافظاً ﴾ : يحفظ بنيامين فلا يصيبه شيءٌ من قِبلِهم .

ولم يقل يعقوب فاللّه خيرٌ مَنْ يَرُدُّه إليّ ، ولو قال ذلك لعلَّه كان يرده إليه سريعاً . انتهى . ا . هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 192 . 193 ﴾

(203/399)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66) ﴾

فصل

قال البقاعى :

فأرادوا تفريغ ما قدموا به من الميرة ﴿ ولما فتحوا ﴾ أي أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ متاعهم ﴾ أي أوعيتهم التي حملوها من مصر ﴿ وجدوا بضاعتهم ﴾ أي ما كان معهم من كنعان بشراء القوت .

ولما كان المفرح مطلق الرد .

بنى للمفعول قوله : ﴿ ردت إليهم ﴾ والوجدان : ظهور الشيء للنفس بحاسة أو ما يغني عنها ، فكأنه قيل : ما قالوا ؟ فقيل : ﴿ قالوا ﴾ أي لأبيهم ﴿ ياأبانا ما ﴾ أي أي شيء ﴿ نبغي ﴾ أي نريد ، فكأنه قال لهم : ما الخبر ؟ فقالوا بيانا لذلك وتأكيداً للسؤال في استصحاب أخيهم : ﴿ هذه بضاعتنا ﴾ ثم بينوا مضمون الإشارة بقولهم : ﴿ ردت إليبنا ﴾ هل فوق هذا من إكرام .

ولما كان التقدير : فنرجع بها إليه بأخينا ، فيظهر له نصحنا وصدقنا ، بنى عليه قوله : ﴿ ونمير أهلنا ﴾ أي نجلب إليهم الميرة برجوعنا إليه ؛ والميرة : الأطعمة التي تحمل من بلد إلى بلد ﴿ ونحفظ أخانا ﴾ فلا يصيبه شيء مما يخشى عليه ، تأكيداً للوعد بحفظه وبياناً

لعدم ضرر في سفره، ويدل على ما في التوراة - من أنه كان سجن أحدهم ليأتوا بأخيهم الأصغر - قوله: ﴿ونزداد كيل بعير﴾ أي فيكون جملة ما نأتي به بعد الرجوع إليه اثني عشر حملاً، لكل منا حمل، وللمسجون حملان - لكرّته الأولى والثانية، وذلك أنه كان لا يعطي إلا حملاً لكل رأس، فكأنه ما أعطاهم لما جهزهم غير تسعة أحمال، فكأنه قيل: وهل يجيبكم إلى ذلك في هذه الأزمة؟ فقالوا: نعم، لأن ﴿ذلك كيل يسير﴾ بالنسبة إلى ما رأينا من كرم شمائله وضخامه ملكه وفخامة همته، فكأنه قيل: فما قال لهم؟ فقيل: ﴿قال﴾ أي يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿لن أرسله﴾ أي بنيامين كائناً ﴿معكم﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿حتى تؤتون﴾ من الإيتاء وهو الإعطاء، أي إيصال الشيء إلى الأخذ ﴿موثقاً﴾ وهو العقد المؤكد.

(205/399)

ولما كان مراده موثقاً ربانياً، وكان الموثق الرباني - وهو ما كان بأسمائه تعالى لكونه أذن سبحانه فيه وأمر بالوثوق به - كأنه منه، قال: ﴿من الله﴾ أي الملك الأعظم بأيمان عظيمة: والله ﴿لتأتنّني﴾ كلكم ﴿به﴾ من الإيتان، وهو المجيء في كل حال ﴿إلا﴾ في حال ﴿أي يحاط﴾ أي تحصل الإحاطة بمصيبة من المصائب، لا طاقة لكم بها

﴿ بكم ﴾ فتهلكوا من عند آخركم ، كل ذلك زيادة في التوثيق ، لما حصل له من المصيبة بيوسف عليه الصلاة والسلام وإن كان الاعتماد في حفظه إنما هو على الله ، وهذا من باب " اعقلها وتوكل " فأجابوه إلى جميع ما سأل ﴿ فلما آتوه ﴾ أي أعطاه بنوه ﴿ موثقهم قال الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ على ما نقول وكيل ﴾ هو القادر على الوفاء به المرجو للتصرف فيه بالغبطة ، لا أنتم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 69. 70 ﴾

(206/399)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾

اعلم أن المتاع ما يصلح لأن يستمتع به وهو عام في كل شيء ، ويجوز أن يراد به ههنا الطعام الذي حملوه ، ويجوز أن يراد به أوعية الطعام .

ثم قال : ﴿ وَجَدُوا بضاعتهم رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ واختلف القراء في ﴿ رُدَّتْ ﴾ فالأكثرون بضم الراء ، وقرأ علقمة بكسر الراء .

قال صاحب "الكشاف" : كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء كما في قيل وبيع .

وحكى قطرب أنهم قالوا في قولنا : ضرب زيد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد .

وأما قوله : ﴿ مَا نَبْغِى ﴾ ففي كلمة ﴿ مَا ﴾ قولان :

القول الأول : أنها للنفي ، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه : الأول : أنهم كانوا قد وصفوا يوسف بالكرم واللطف وقالوا : إنا قدمنا على رجل في غاية الكرم أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب لما فعل ذلك ، فقولهم : ﴿ مَا نَبْغِى ﴾ أي بهذا الوصف الذي ذكرناه كذباً ولا ذكر شيء لم يكن .

الثاني : أنه بلغ في الإكرام إلى غاية ما وراءها شيء آخر ، فإنه بعد أن بالغ في إكرامنا أمر ببضاعتنا فردت إلينا .

الثالث : المعنى أنه رد بضاعتنا إلينا ، فنحن لا نبغي منك عند رجوعنا إليه بضاعة أخرى ، فإن هذه التي معنا كافية لنا .

والقول الثاني : أن كلمة "ما" ههنا للاستفهام ، والمعنى : لما رأوا أنه رد إليهم بضاعتهم قالوا : ما نبغي بعد هذا ، أي أعطانا الطعام ، ثم رد علينا ثمن الطعام على أحسن الوجوه ، فأي شيء نبغي وراء ذلك ؟

واعلم أنا إذا حملنا "ما" على الاستفهام صار التقدير أي شيء نبغي فوق هذا الإكرام إن

الرجل رد دراهمنا إلينا فإذا ذهبنا إليه نمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير بسبب حضور أخينا .

(207/399)

قال الأصمعي : يقال ماره يميره ميراً إذا أتاه بميرة أي بطعام ومنه يقال : ما عنده خير ولا مير

وقوله : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ معناه : أن يوسف عليه السلام كان يكيل لكل رجل حمل بعير فإذا حضر أخوه فلا بد وأن يزداد ذلك الحمل ، وأما إذا حملنا كلمة "ما" على النفي كان المعنى لا نبغي شيئاً آخر هذه بضاعتنا ردت إلينا فهي كافية لثمن الطعام في الذهاب الثاني ، ثم نفعل كذا وكذا .

وأما قوله : ﴿ ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ ففيه وجوه : الأول : قال مقاتل : ذلك كيل يسير على هذا الرجل المحسن لسخائه وحرصه على البذل وهو اختيار الزجاج.

والثاني : ذلك كيل يسير ، أي قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير .

والثالث : أن يكون المراد ذلك الذي يدفع إلينا دون أخينا شيء يسير قليل فابعث أخانا معنا حتى نتبدل تلك القلة بالكثرة .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾

اعلم أن الموثق مصدر بمعنى الثقة ومعناه : العهد الذي يوثق به فهو مصدر بمعنى المفعول يقول : لن أرسله معكم حتى تعطوني عهداً موثوقاً به وقوله : ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ أي عهداً موثوقاً به بسبب تأكده بإشهاد الله وبسبب القسم بالله عليه ، وقوله : ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ ﴾ دخلت اللام ههنا لأجل أنا بينا أن المراد بالموثق من الله اليمين فتقديره : حتى تحلفوا بالله لتأتنني به .

وقوله : ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ فيه بحثان :

البحث الأول : قال صاحب "الكشاف" : هذا الاستثناء متصل .

فقوله : ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ مفعوله له ، والكلام المثبت الذي هو قوله : ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ ﴾ في تأويل المنفي ، فكان المعنى : لا تمتنعون من الإتيان به لعلة من العلل إلا لعلة واحدة .

البحث الثاني : قال الواحدي للمفسرين فيه قولان :

(208/399)

القول الأول : أن قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ معناه الهلاك قال مجاهد : إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذراً عندي ، والعرب تقول أحيط بفلان إذا قرب هلاكه قال تعالى :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ [الكهف : 42] أي أصابه ما أهلكه .

وقال تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ [يونس : 22] وأصله أن من أحاط به العدو وانسدت عليه مسالك النجاة دنا هلاكه ، فقيل : لكل من هلك قد أحيط به .

والقول الثاني : ما ذكره قتادة ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تصيروا مغلوبين مقهورين ، فلا تقدرون على الرجوع .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ءاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ الله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ يريد شهيد ، لأن الشهيد وكيل بمعنى أنه موكول إليه هذا العهد فإن وفيتم به جازاكم بأحسن الجزاء ، وإن غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 136 . 137 ﴾

(209/399)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّتْ إليهم ﴾

أي وجدوا التي كانت بضاعتهم وهو ما دفعوه في ثمن الطعام الذي امتاروه .

﴿ قالوا يا أبانا ما نبغي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه على وجه الاستفهام بمعنى ما نبغي بعد هذا الذي قد عاملنا به ، قاله

قتادة .

الثاني : معناه ما نبغي بالكذب فيما أخبرناك به عن الملك ، حكاه ابن عيسى .

﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ احتمل أن يكون قولهم ذلك له تعريفاً واحتمل أن يكون ترغيباً ، وهو أظهر الاحتمالين .

﴿ ونمير أهلنا ﴾ أي نأتيهم بالميرة ، وهي الطعام المقتات ، ومنه قول الشاعر :

بعثتك مائراً فمكثت حولاً . . . متى يأتي غياثك من تغيث .

﴿ ونمير أهلنا ﴾ هذا ترغيب محض ليعقوب .

﴿ ونحفظ أخانا ﴾ وهذا استنزال .

﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ وهو ترغيب وفيه وجهان :

أحدهما : كيل البعير نحمل عليه أخانا .

والثاني : كيل بعير هو نصيب أخينا لأن يوسف قسّط الطعام بين الناس فلا يعطى الواحد أكثر من حمل بعير .

﴿ ذلك كَيْلٌ يسير ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الذي جئناك به كيل يسير لا ينفعنا .

والثاني : أن ما نريده يسير على من يكيل لنا ، قاله الحسن . فيكون على الوجه الأول استعطافاً ، وعلى الثاني تسهيلاً .

وفي هذا القول منهم وفاءٌ ، ليوسف فيما بذلوه من مراودة في اجتذاب أخيهم لأنهم قد راودوه من سائر جهات المراودة ترغيباً واستنزالاً واستعطافاً وتسهيلاً .

قوله تعالى : ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله ﴾ في هذا الموثق ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه إشهادهم الله على أنفسهم .

الثاني : أنه حلفهم بالله ، قاله السدي .

الثالث : أنه كفيل يتكفل بهم

﴿ لتأتنني به إلاَّ أن يحاط بكم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني إلا أن يهلك جميعكم ، قاله مجاهد .

الثاني : إلا أن تُغلَبوا على أمركم ، قاله قتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(210/399)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ متاعهم ﴾

قوله : ﴿ فتحوا متاعهم ﴾ سمى المشدود المربوط بجملته متاعاً ، فلذلك حسن الفتح فيه ، قرأ جمهور الناس : " رُدت " بضم الراء ، على اللغة الفاشية عن العرب ، وتليها لغة من يشم ، وتليها لغة من يكسر . وقرأ علقمة ويحيى بن وثاب " رِدت " بكسر الراء على لغة من يكسر – وهي في بني ضبة – ، قال أبو الفتح : وأما المعتل – نحو قيل وبيع – فالفاشي فيه الكسر ، ثم الإشمام ، ثم الضم ، فيقولون : قول وبوع ، وأنشد ثعلب : [الرجز]

. . . . وقول لا أهل له ولا مال . . . قال الزجاج : من قرأ : " رِدت " بكسر الراء – جعلها منقولة من الدال – كما فعل في قيل وبيع – لتدل على أن أصل الدال الكسرة .

وقوله ﴿ ما نبغي ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ استفهاماً ، قاله قتادة . و﴿ نبغي ﴾ من البغية ، أي ما نطلب بعد هذه التكرمة ؟ هذا مالنا رد إلينا مع ميرتنا . قال الزجّاج : ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ، أي ما بقي لنا ما نطلب ، ويحتمل أيضاً أن تكون نافية ، و﴿ نبغي ﴾ من البغي ، أي ما تعدينا فكذبنا على هذا الملك ولا في وصف إجماله وإكرامه هذه البضاعة مردودة .

وقرأ أبو حيوة " ما تبغي " – بالتاء ، على مخاطبة يعقوب ، وهي بمعنى : ما تريد وما تطلب ؟ قال المهدوي : ورونها عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأت فرقة : " ونَمير " بفتح النون – من مار يمير : إذا جلب الخير ، ومن ذلك قول الشاعر : [الوافر]

بعثتك مائراً فمكثت حولاً . . . متى يأتي غياثك من تغيث

وقرأت عائشة رضي الله عنها : " ونُمير " بضم النون – وهي من قراءة أبي عبد الرحمن السلمي – وعلى هذا يقال : مار وأمار بمعنى . . . . ؟

وقولهم : ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ يريدون بعير أخيهم إذ كان يوسف إنما حمل لهم عشرة أبعرة ولم يحمل الحادي عشر لغيب صاحبه : وقال مجاهد : ﴿ كيل بعير ﴾ أراد كيل حمار . قال : وبعض العرب يقول للحمار بعير .

قال القاضي أبو محمد : وهذا شاذ .

وقولهم : ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ تقرير بغير ألف ، أي أذلك كيل يسير في مثل هذا العام فيهمل أمره؟ وقيل : معناه : ﴿ يسير ﴾ على يوسف أن يعطيه . وقال الحسن البصري : وقد كان يوسف وعدهم أن يزيدهم حمل بعير بغير ثمن ؛ وقال السدي : معنى ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أي سريع لا نحبس فيه ولا نمطل .

قال القاضي أبو محمد : فكأنهم أنسوه على هذا بقرب الأوبة .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾

أراد يعقوب عليه السلام أن يتوثق منهم . و" الموثق " – مفعل – من الوثاقة . فلما عاهدوه

أشهد الله بينه وبينهم بقوله : ﴿ الله على ما نقول وكيل ﴾ و" الوكيل " القيم الحافظ الضامن .

وقرأ ابن كثير " تؤتوني " بياء في الوصل والوقف ، وروي عن نافع أنه وصل بياء ووقف دونها . والباقون تركوا الياء في الوجهين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(212/399)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ ﴾

الآية ليس فيها معنى يشكل .

﴿ مَا نَبْغِي ﴾ "ما" استفهام في موضع نصب ؛ والمعنى : أي شيء نطلب وراء هذا ؟! وفّى لنا الكيل ، وردّ علينا الثمن ؛ أرادوا بذلك أن يُطيّبوا نفس أبيهم .

وقيل : هي نافية ؛ أي لا نبغي منك دراهم ولا بضاعة ، بل تكفينا بضاعتنا هذه التي ردّت إلينا .

ورُوي عن عَلْقَمة "رِدّتْ إِلَيْنَا" بكسر الراء ؛ لأن الأصل رددِت ؛ فلما أدغم قلبت حركة الدال على الراء .

وقوله: ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي نجلب لهم الطعام؛ قال الشاعر:

بَعَثْتُكَ مائِرًا فمكَثْتَ حَوْلاً . . .

مَتَى يأتِي غِيَاثُكَ مَن تُغِيثُ

وقرأ السُّلَميّ بضم النون، أي نعينهم على المِيرة.

﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي حِمْل بعير لبنيامين.

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ تُؤْتُونِ ﴾ أي تعطوني.

﴿ مَوْثِقاً مِّنَ اللهِ ﴾ أي عهداً يوثق به قال السدّي: حلفوا بالله ليردّنه إليه ولا يُسلمونه؛ واللام في ﴿ لَتَأْتُنَّنِي ﴾ لام القسم.

﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ قال مجاهد: إلا أن تَهْلِكوا أو تموتوا.

وقال قتادة: إلا أن تُغلبوا عليه.

قال الزجاج: وهو في موضع نصب.

﴿ فَلَمَّآ آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أي حافظ للحلف.

وقيل: حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل.

الثانية: هذه الآية أصل في جواز الحَمَالة بالعين والوثيقة بالنفس؛ وقد اختلف العلماء في

ذلك ؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هي جائزة إذا كان المتحمَّل به مالاً .

وقد ضعّف الشافعي الحَمَالة بالوجه في المال ؛ وله قول كقول مالك .

(213/399)

وقال عثمان البَتّي : إذا تكفّل بنفس في قصاص أو جراح فإنه إن لم يجىء به لزمه الدية وأَرْش الجراح ، وكانت له في مال الجاني ، إذ لا قصاص على الكفيل ؛ فهذه ثلاثة أقوال في الحمالة بالوجه .

والصواب تفرقة مالك في ذلك ، وأنها تكون في المال ، ولا تكون في حدّ أو تعزير ، على ما يأتي بيانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(214/399)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولما فتحوا متاعهم ﴾

يعني الذي حملوه من مصر فيحتمل أن يكون المراد به الطعام أو أوعية الطعام ﴿ وجدوا

بضاعتهم ردت إليهم ﴾ يعني أنهم وجدوا في متاعهم ثمن الطعام الذي كانوا قد أعطوه ليوسف قد رد عليهم ودس في متاعهم ﴿ قالوا يا أبانا ما نبغي ﴾ يعني ماذا نبغي وأي شيء نطلب وذلك أنهم كانوا قد ذكروا ليعقوب إحسان ملك مصر إليهم وحثوا يعقوب على إرسال بنيامين معهم فلما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم قالوا أي شيء نطلب من الكلام بعد هذا العيان من الإحسان والإكرام أوفى لنا الكيل ورد علينا الثمن، وأرادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ﴾ يقال مار أهله يميرهم ميراً إذا حمل لهم الطعام وجلبه من بلد آخر إليهم والمعنى إنا نشتري لأهلنا الطعام ونحمله إليهم ﴿ ونحفظ أخانا ﴾ يعني بنيامين مما تخاف عليه حتى نرده إليك ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ يعني ونزداد لأجل أخينا على أحمالنا حمل بعي من الطعام ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ يعني إن ذلك الحمل الذي نزداد من الطعام هين على الملك لأنه قد أحسن إلينا وأكرمنا بأكثر من ذلك وقيل معناه أن الذي حملناه معنا كيل يسير قليل لا يكفينا وأهلنا.

﴿ قال ﴾ يعني قال لهم يعقوب ﴿ لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله ﴾ يعني لن أرسل معكم بنيامين حتى تؤتون عهد الله وميثاقه والموثق العهد المؤكد باليمين، وقيل هو المؤكد بإشهاد الله عليه ﴿ لتأتنني به ﴾ دخلت اللام هنا لأجل اليمين وتقديره حتى تحلفوا بالله لتأتنني به ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ قال مجاهد: إلا أن تهلكوا جميعاً فيكون عذراً لكم عندي، لأن العرب تقول أحيط بفلان إن هلك أو قارب هلاكه.

وقال قتادة : إلا أن تغلبوا جميع فلا تقدروا على الرجوع ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ يعني فلما أعطوه عهدهم وحلفوا له ﴿ قال الله على ما نقول وكيل ﴾ يعني قال يعقوب الله شاهد على ما نقول كأن الشاهد وكيل بمعنى أنه موكول إليه هذا العهد ، وقيل وكيل بمعنى حافظ .

قال كعب الأحبار : لما قال يعقوب ﴿ فالله خير حافظاً ﴾ قال الله تعالى : " وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما بعد ما توكلت علي وفوضت أمرك إليّ " وذلك أنه لما اشتد بهم الأمر وضاق عليهم الوقت وجهدوا أشد الجهد لم يجد يعقوب بداً من إرسال بنيامين معهم فأرسله معهم متوكلاً على الله ومفوضاً أمره إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾

أي تفضّلاً وقد علموا ذلك بما مر من دَلالة الحال وقرىء بنقل حركةِ الدالِ المدغمة إلى الراء كما قيل في قيل وكيل ﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ مبني على السؤال كأنه قيل : ماذا قالوا حينئذ ؟ فقيل : قالوا لأبيهم ولعله كان حاضراً عند الفتح : ﴿ يَاأَبَانَا مَا نَبْغِى ﴾ إذا فُسّر البغيُ بالطلب فما إما استفهاميةٌ منصوبةٌ به فالمعنى ماذا نبتغي وراء ما وصفنا لك من إحسان الملِك إلينا وكرمِه الداعي إلى امتثالِ أمرِه والمراجعةِ إليه في الحوايج وقد كانوا أخبروه بذلك وقالوا له : إنا قدِمنا على خيرِ رجلٍ أنزلنا وأكرَمنا كرامةً لو كان رجلاً من آل يعقوبَ ما أكرمْنا كرامتَه ، وقوله تعالى : ﴿ هذه بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ موضّحةٌ لما دل عليه الإنكارُ من بلوغِ اللطفِ غايتَه كأنهم قالوا : كيف لا وهذه بضاعتُنا ردّها إلينا تفضلاً من حيث لا ندري بعد ما منّ علينا من المنن العظامِ هل من مزيد على هذا فنطلبَه ؟ ولم يريدوا به الاكتفاءَ بذلك مطلقاً أو التقاعدَ عن طلب نظائرِه بل أرادوا الاكتفاءَ به في استيجاب الامتثالِ لأمره والالتجاءِ إليه في استجلاب المزيدِ كما أشرنا إليه وقوله تعالى : ﴿ رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ حالٌ من بضاعتُنا والعامل معنى الإشارةِ وإيثار صيغةِ البناءِ للمفعول للإيذان بكمالِ الإحسانِ الناشىءِ عن كمال الإخفاءِ المفهومِ من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعُروا به ولا بفاعله ، وقوله عز وجل : ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي نجلُب إليهم الطعامَ من عند

الملكِ ، معطوفٌ على مقدَّرٍ ينسحب عليه ردُّ البضاعة أي فنستظهر بها ونمير أهلنا ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ من المكاره حسبما وعدْنا فما يصيبه من مكروه ﴿ وَنَزْدَادُ ﴾ أي بواسطته ، ولذلك وُسّط الإخبارُ بحفظه بين الأصلِ والمزيد ﴿ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أي وُسْقَ بعيرٍ زائداً على أوساق أباعِرِنا على قضية التقسيط .

(217/399)

﴿ ذلك ﴾ أي ما يحمِله أباعرُنا ﴿ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي مكيلٌ قليلٌ لا يقوم بأَوْدنا فهو استئنافٌ ، وقيل : تعليل لما سبق ، كأنه قيل : أيُّ حاجة إلى الازدياد ؟ فقيل ما قيل ، أو ذلك الكيلُ الزائد شيءٌ قليلٌ لا يضايقنا فيه الملِكُ أو سهلٌ عليه لا يتعاظمه أو أيُّ مطلب نطلُب من مهماتنا ، والجملةُ الواقعة بعده توضيحٌ وبيانٌ لما يُشعِرُ به الإنكارُ من كونهم فائزين ببعض المطالبِ أو متمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا : بضاعتُنا حاضرةٌ فنستظهر بها ونمير أهلَنا ونحفظ أخانا فما يصيبه شيءٌ من المكاره ونزداد بسببه غيرَ ما نكتاله لأنفسنا كيلَ بعير فأيَّ شيء نبتغي وراءَ هذه المباغي ، وقرىء ما تبغي على خطاب يعقوبَ عليه السلام أي أيَّ شيء تبغي وراء هذه المباغي المشتملةِ على سلامة أخينا وسَعة ذاتِ أيدينا أو وراءَ ما فعل بنا الملكُ من الإحسان داعياً إلى التوجّه إليه ، والجملةُ الاستئنافية

موضحةٌ لذلك أو أيَّ شيء تبغي شاهداً على صدقنا فيما وصفنا لك من إحسانه ، والجملةُ المذكورةُ عبارةٌ عن الشاهد المدلولِ عليه بفحوى الإنكارِ .

(218/399)

وإما نافية فالمعنى ما نبغي شيئاً غيرَما رأينا من إحسان الملِك في وجوب المراجعةِ إليه ، أو ما نبغي غيرَهذه المباغي ، وقيل : ما نطلب منك بضاعةً أخرى والجملةُ المستأنفة تعليلٌ له . وأما إذا فُسِر البغيُ بمجاوزة الحدِّ فما نافيةٌ فقط والمعنى ما نبغي في القول وما نتزّيد فيما وصفْنا من إحسان الملك إلينا وكرمِه الموجبِ لما ذكر ، والجملةُ المستأنفة لبيان ما ادّعَوْا من عدم البغي ، وقوله : ونمير أهلَنا عطفٌ على ما نبغي أي ما نبغي فيما ذكرنا من إحسانه وتحصيلِ أمثالِه من مَيْر أهلِنا وحفظِ أخينا فإن ذلك أهونُ شيء بواسطة إحسانِه ، وقد جوز أن يكون كلاما مبتدأً أي جملةً اعتراضيةً تذييليةً على معنى وينبغي أن نميرَ أهلَنا ، وشبّه ذلك بقولك : سعَيْتُ في حاجة فلان ويجب أن أسعى . وأنت خبيرٌ بأن شأن الجملِ التذييلية أن تكون مؤكّدةً لمضمون مصدرٍ ومقرّرةً له كما في المثال المذكورِ ، وقولِك : فلانٌ ينطِق بالحق فالحقُّ أبلجُ ، وأن قوله : ونمير الخ ، وإن ساعدَنا في حمله على معنى ينبغي أن نمير أهلَنا بمعزل من ذلك أو ما نبغي في الرأي وما نعدل عن الصواب فيما

نشير به عليك من إرسال أخينا معنا ، والجمل إلى آخرها تفصيلٌ وبيانٌ لعدم بغيهم وإصابةِ رأيهم ، أي بضاعتُنا حاضرةٌ نستظهر بها ونمير أهلنا ونصنع كيت وذيت فتأمل .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾

(219/399)

بعد ما عاينْتُ منكم ما عاينت ﴿ حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي ما أتوثق به من جهة الله عز وجل ، وإنما جعله مَوثِقاً منه تعالى لأن تأكيدَ العهود به مأذونٌ فيه من جهته تعالى فهو إذن منه عز وجل ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ جوابُ القسم إذ المعنى حتى تحلِفوا بالله لتأتنني به ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا به أو إلا أن تهلِكوا وأصلُه من إحاطة العدوِّ فإن مَنْ أحاط به العدوُّ فقد هلك غالباً وهو استثناءٌ من أعم الأحوال أو أعمِّ العلل على تأويل الكلام بالنفي الذي ينساق إليه أي لتأتُنني به ولا تمتنِعُنَّ منه في حال من الأحوال أو لعلة من العلل إلا حالَ الإحاطة بكم ، ونظيرُه قولُهم : أقسمت عليك لَما فعلْتَ وإلا فعلتَ أي ما أريد منك إلا فعلَك ، وقد جُوز الأولُ بلا تأويل أيضاً أي لتأتُنني به على كل حالٍ إلا حال الإحاطةِ بكم . وأنت تدري أنه حيث لم يكن الإتيانُ به من الأفعال الممتدة الشاملةِ للأحوال على سبيل المعيةِ كما في قولك : لألزمَنّك إلا أن تعطِيني حقي ، ولم يكن

عليه السلام يريد مقارنته على سبيل البدلِ لما عدا الحالِ المستثناة كما إذا قلت : صَلِّ إلا أن تكون محدِثاً بل مجرد تحققِه ووقوعِه من غير إخلال به كما في قولك : لأحُجنَّ العامَ إلا أن أُحصر فإن مرادَك إنما هو الإخبار بعدم منعِ ما سوى حالِ الإحصار عن الحج لا الإخبارُ بمقارنته لتلك الأحوالِ على سبيل البدلِ كما هو مرادُك في مثال الصلاة كأن اعتبارَ الأحوالِ معه من حيث عدمُ منعها منه ، فآل المعنى إلى التأويل المذكور ﴿ فَلَمَّا ءاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ عهدهم من الله حسبما أراد يعقوبُ عليه السلام ﴿ قَالَ الله على مَا نَقُولُ ﴾ أي على ما قلنا في أثناء طلب الموْثق وإيتائه من الجانبين . وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ لاستحضار صورتِه المؤدّي أي تثبتهم ومحافظتِهم على تذكّره ومراقبتِه ﴿ وَكِيلٌ ﴾ مطلعٌ رقيبٌ يريد به عرضَ ثقتِه بالله تعالى وحثّهم على مراعاة ميثاقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(220/399)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ متاعهم ﴾

قال الراغب : المتاع كل ما ينتفع به على وجه ، وهو في الآية الطعام ، وقيل : الوعاء وكلاهما

متاع وهما متلازمان فإن الطعام كان في الوعاء ، والمعنى على أنهم لما فتحوا أوعية طعامهم ﴿ وَجَدُواْ بضاعتهم ﴾ التي كانوا أعطوها ثمناً للطعام ﴿ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تفضلاً وقد علموا ذلك بما مر من دلالة الحال ، وقرأ علقمة .

ويحيى بن وثاب .

والأعمش ﴿ رُدَّتْ ﴾ بكسر الراء ، وذلك أنه نقلت حركة الدال المدغمة إلى الراء بعد توهم خلوها من الضمة وهي لغة لبني ضبة كما نقلت العرب في قيل وبيع ، وحكى قطرب النقل في الحرف الصحيح غير المدغم نحو ضرب زيد .

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : ماذا قالوا حينئذ ؟ فقيل : قالوا لأبيهم ولعله كان حاضراً عند الفتح ﴿ قَالُواْ يٰأَبَانَا مَا نَبْغِى ﴾ إذا فسر البغي بمعنى الطلب كما ذهب إليه جماعة فما يحتمل أن تكون استفهامية منصوبة المحل على أنها مفعول مقدم لنبغي فالمعنى ماذا نطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الداعي إلى امتثال أمره والمراجعة إليه في الحوائج وقد كانوا أخبروه بذلك على ما روى أنهم قالوا له عليه السلام : إنا قدمنا على خير رجل وأنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته ، وقوله تعالى : ﴿ هذه بضاعتنا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا : كيف لا وهذه بضاعتنا ردها إلينا تفضلاً من حيث لا ندري بعدما من علينا بما يثقل الكواهل من الممنن العظام وهل من مزيد على هذا

فنطلبه ، ومرادهم به أن ذلك كاف في استيجاب الامتثال لأمره والالتجاء إليه في استجلاب المزيد ، ولم يريدوا أنه كاف مطلقاً فينبغي التقاعد عن طلب نظائره وهو ظاهر .

(221/399)

وجملة ﴿ رُدَّتْ ﴾ في موضع الحال من ﴿ بضاعتنا ﴾ بتقدير قد عند من يرى وجوبها في أمثال ذلك والعامل معنى الإشارة ، وجعلها خبر ﴿ هذه ﴾ وبضاعتنا بياناً له ليس بشيء ، وإيثار صيغة البناء للمفعول قيل : للإيذان بكمال الإحسان الناشيء عن كمال الإخفاء المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله ، وقيل : للإيذان بتعين الفاعل وفيه من مدحه أيضاً ما فيه ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي نجلب لهم الميرة ، وهي بسكر الميم وسكون الياء طعام يمتاره الإنسان أي يجلبه من بلد إلى بلد ، وحاصله نجلب لهم الطعام من عند الملك معطوف على مقدر ينسحب عليه رد البضاعة أي فنستظهر بها ونمير أهلنا ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ من المكاره حسبما وعدنا ، وتفرعه على ما تقدم باعتباره دلالته على إحسان الملك فإنه مما يعين على الحفظ ﴿ وَنَزْدَادُ ﴾ أي بواسطته ولذلك وسط الإخبار به بين الأصل والمزيد ﴿ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أي وسق بعير زائداً

على أوساق أباعرنا على قضية التقسيط المعهود من الملك ، والبعير في المشهور مقابل الناقة ، وقد يطلق عليها وتكسر في لغة باؤه ويجمع على أبعرة وبعران وأباعر ، وعن مجاهد تفسيره هنا بالحمار وذكر أن بعض العرب يقول للحمار بعير وهو شاذ .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك كَيْلٌ ﴾ أي مكيل ﴿ يَسِيرٌ ﴾ أي قليل لا يقوم بأودنا يحتمل أن يكون إشارة إلى ما كيل لهم أولاً ، والجملة استئناف جيء بها للجواب عما عسى أن يقال لهم : قد صدقتم فيما قلتم ولكن ما الحاجة إلى التزام ذلك وقد جئتم بالطعام ؟ فكأنهم قالوا : إن ما جئنا به غير كاف لنا فلا بد من الرجوع مرة أخرى وأخذ مثل ذلك مع زيادة ولا يكون ذلك بدون استصحاب أخينا ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ما تحمله أباعرهم ، والجملة استئناف وقع تعليلاً لما سبق من الازدياد كأنه قيل : أي حاجة إلى الازدياد ؟ فقيل : إن ما تحمله أباعرنا قليل لا يكفينا ، وقيل : المعنى أن ذلك الكيل الزائد قليل لا يضايقنا فيه الملك أو سهل عليه لا يتعاظمه ، وكأن الجملة على هذا استئناف جيء به لدفع ما يقال : لعل الملك لا يعطيكم فوق العشرة شيئاً ويرى ذلك كثيراً أو صعباً عليه وهو كما ترى ، وجوز أن يكون ذلك إشارة إلى الكيل الذي هم بصدده وتضمنه كلامهم وهو المنضم إليه كيل البعير

الحاصل بسبب أخيهم المتعهد بحفظه كأنهم لما ذكروا ما ذكروا صرحوا بما يفهم منه مبالغة في استنزال أبيهم فقالوا : ذلك الذي نحن بصدده كيل سهل لا مشقة فيه ولا محنة تتبعه ، وقد يبقى الكيل على معناه المصدري والكلام على هذا الطرز إلا يسيراً .

وجوز بعضهم كون ذلك من كلام يعقوب عليه السلام والإشارة إلى كيل البعير أي كيل بعير واحد شيء قليل لا يخاطر لمثله بالولد ، وكان الظاهر على هذا ذكره مع كلامه السابق أو اللاحق ، وقيل : معنى ﴿ مَا نَبْغِى ﴾ أي مطلب نطلب من مهماتنا ، والجمل الواقعة بعده توضيح وبيان لما يشعر به الإنكار من كونهم فائزين ببعض المطالب أو متمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا : هذه بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها ونمير أهلنا ونحفظ أخانا من المكروه ونزداد بسببه غير ما نكتاله لأنفسنا كيل بعير فأي شيء نبغي وراء هذه المباغي ، وما ذكرنا من العطف على المقدر هو المشهور .

وفي "الكشف" لك أن تقول : إن ﴿ نمير ﴾ وما تلاه معطوف على مجموع ﴿ يأَبَانَا مَا نَبْغِى ﴾ والمعنى اجتماع هذين القولين منهم في الوجود ولا يحتاج إلى جامع وراء ذلك لكونهما محكيين قولاً لهم على أنه حاصل لاشتراك الكل في كونه لاستنزال يعقوب عليه السلام عن

رأيه وأن الملك إذا كان محسناً كان الحفظ أهون شيء ، والاستفهام لرجوعه إلى المنفي لا يمنع العطف ووافقه في ذلك بعضهم .

وقرأ ابن مسعود .

وأبو حيوة ﴿ مَا تَبْغِى ﴾ بتاء الخطاب ؛ وروت عائشة رضي الله تعالى عنها ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والخطاب ليعقوب عليه السلام ، والمعنى أي شيء وراء هذه المباغي المشتملة على سلامة أخينا وسعة ذات أيدينا أو وراء ما فعل معنا الملك من الإحسان داعياً إلى التوجه إليه ، والجملة المستأنفة موضحة أيضاً لذلك أو أي شيء تبغي شاهداً على صدقنا فيما وصفنا لك من إحسانه ، والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الإنكار ، ويحتمل أن تكون ﴿ مَا ﴾ نافية ومفعول ﴿ نَبْغِى ﴾ محذوف أن ما نبغي شيئاً غير ما رأيناه من إحسان الملك في وجوب المراجعة إليه أو ما نبغي غير هذه المباغي ، والقول بأن المعنى ما نبغي منك بضاعة أخرى نشتري بها ضعيف ، والجملة المستأنفة على كل تقدير تعليل للنفي ، وإما إذا فسر البغي بمجاوزة الحد فما نافية فقط ، والمعنى ما نبغي في القول ولا نكذب فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الموجب لما ذكر ، والجملة المستأنفة لبيان ما ادعوا من عدم البغي ، وقوله : ﴿ وَنَمِيرُ ﴾ الخ عطف على ﴿ مَا نَبْغِى ﴾ أي لا نبغي فيما نقول ونمير ونفعل كيف وكيت فاجتمع أسباب الإذن في الإرسال ، والأول كالتمهيد والمقدمة للبواهي والتناسب من هذا الوجه

لأن الكل متشاركة في أن المطلوب يتوقف عليها بوجه ما ، على أنه لو لم يكن غير الاجتماع في المقولية لكفى على ما مر آنفاً عن الكشف .

(224/399)

وجوز كونه كلاماً مبتدأ أي جملة تذييلية اعتراضية كقولك : فلان ينطق بالحق والحق أبلج كأنه قيل : وينبغي أن نمير ، ووجه التأكيد الذي يقتضيه التذييل أن المعنى أن الملك محسن ونحن محتاجون ففيم التوقف في الإرسال وقد تأكد موجباه ؟ ، وقال العلامة الطيبي : إنما صح التأكيد والتذييل لأن الكلام في الامتيار وكل من الجمل بمعناه أو المعنى ﴿ مَا نَبْغِى ﴾ في الرأي وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليه من إرسال أخينا معنا ، والجمل كلها للبيان أيضاً إلا أن ثم محذوفاً ينساق إليه الكلام أي بضاعتنا حاضرة نستظهر بها ونمير أهلنا ونصنع كيت وذيت وهو على ما قيل : وجه واضح حسن يلائم ما كانوا فيه مع أبيهم فتأمل هذا .

وقرأت عائشة .

وأبو عبد الرحمن ﴿ وَنِميرُ ﴾ بضم النون ، وقد جاء مار عياله وأمارهم بمعنى كما في القاموس .

[66 ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾ بعد أن عاينت منكم ما أجرى المدامع ﴿ حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ ﴾ أي حتى تعطوني ما أوتوق به من جهته ، فالموثق مصدر ميمي بمعنى المفعول ، وأراد عليه السلام أن يحلفوا له بالله تعالى وإنما جعل الحلف به سبحانه موثقاً منه لأنه مما تؤكد العهود به وتشدد وقد أذن الله تعالى بذلك فهو إذن منه تعالى بذلك فهوإذن منه تعالى شأنه ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ جواب قسم مضمر إذ المعنى حتى تحلفوا بالله وتقولوا والله لنأتينك به .

وفي مجمع البيان نقلاً عن ابن عباس أنه عليه السلام طلب منهم أن يحلفوا بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وسيد المرسلين ، والظاهر عدم صحة الخبر .

(225/399)

وذكر العمادي أنه عليه السلام قال لهم : قولوا بالله رب محمد صلى الله عليه وسلم لنأتينك به ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا ذلك أو إلا أن تهلكوا جميعاً وكلاهما مروي عن مجاهد ، وأصله من إحاطة العدو واستعماله في الهلاك لأن من أحاط به العدو

فقد هلك غالباً ، والاستثناء قيل مفرغ من أعم الأحوال والتقدير لتأتنني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم .

ورد بأن المصدر من ﴿ إن ﴾ والفعل لا يقع موقع الحال كالمصدر الصريح فيجوز جئتك ركضاً أي راضاً دون جئتك أن تركض وإن كان في تأويله لما أن الحال عندهم نكرة و ﴿ إن ﴾ مع ما في حيزها معرفة في رتبة الضمير .

وأجيب بأنه ليس المراد بالحال الحال المصطلح عليها بل الحال اللغوية ، ويؤل ذلك إلى نصب المصدر المؤول على الظرفية وفيه نظر .

وفي "البحر" أنه لو قدر كون ﴿ إن ﴾ والفعل في موقع المصدر الواقع ظرف زمان أي لتأتنني به في كل وقت إلا إحاطة بكم أي إلا وقت إحاطة بكم لم يجز عند ابن الأنباري لأنه يمنع وقوع المصدر المؤول ظرفاً ويشترط المصدر الصريح فيجوز خرجنا صياح الديك دون خرجنا أن يصيح الديك أو ما يصيح الديك ، وجاز عند ابن جني المجوز لذاك كما في قول أبي ذؤيب الهذلي :

وتالله ما إن شهلة أم واحد . . .

بأوجد مني أن يهان صغيرها

وقيل : من أعم العلل على تأويل الكلام بالنفي الذي ينساق إليه أي لتأتنني ولا تمتنعن من الإتيان به إلا للإحاطة بكم كقولهم : أقسمت عليك إلا فعلت أي ما أطلب إلا فعلك ، والظاهر اعتبار التأويل على الوجه الأول أيضاً فإن الاستثناء فيه مفرغ كما علمت ، وهو لا يكون في الإثبات إلا إذا صح وظهر إرادة العموم فيه نحو قرأت إلا يوم الجمعة لإمكان القراءة في كل يوم غير الجمعة وهنا غير صحيح لأن لا يمكن لإخوة يوسف عليه السلام أن يأتوا بأخيهم في كل وقت وعلى كل حال سوى وقت الإحاطة بهم لظهور أنهم لا يأتون به له وهو في الطريق أو في مصر اللهم إلا أن يقال : إنه من ذلك القبيل وأن العموم والاستغراق فيه عرفي أي في كل حال يتصور الإتيان فيها ، وتعقب المولى أبو السعود تجويز الأول بلا تأويل بقوله : وأنت تدري أنه حيث لم يكن الإتيان من الأفعال الممتدة الشاملة للأحوال على سبيل المعية كما في قولك : لألزمنك إلا أن تقضيني حقي ولم يكن مراده عليه السلام مقارنته على سبيل البدل لما عدا الحال المستثناة كما إذا قلت : صل إلا أن تكون محدثاً بل مجرد تحققه ووقوعه من غير إخلال به كما في قولك : لأحجن العام إلا أن أحصر فإن مرادك إنما هو الإخبار بعدم منع ما سوى حال الإحصار عن الحج لا الإخبار بمقارنته لتلك الأحوال على سبيل البدل كما هو مرادك في مثال الصلاة كان اعتبار الأحوال معه من حيث عدم منعها منه ، فآل المعنى إلى التويل المذكور اه .

وبحث فيه واحد من الفضلاء بثلاثة أوجه .

الأول : أنه لو كان المراد من قوله : ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ الإخبار بمجرد تحقق الإتيان ووقوعه من غير إخلال به لم يحتج إلى التأويل المذكور أعني التأويل بالنفي كما لا يخفى على المتأمل فكلامه يفيد خلاف مراده .

(227/399)

الثاني : أنا سلمنا أن ليس مراد القائل من قوله : لأحجن الخ الإخبار بمقارنة الحج لما عدا حال الإحصار على سبيل البدل لكن لا نسلم أن ليس مراده منه إلا الإخبار بعدم منع ما سوى حال الإحصار عنه غايته أن بينهما ملازمة وذاك لا يستلزم الاحتياج إلى التأويل بالنفي .

الثالث : أنه إن أراد من قوله : كان اعتبار الأحوال الخ أن الإتيان به لم يكن معه اعتبار الأحوال كما هو الظاهر فممنوع ، وإن أراد أن اعتبار الأحوال معه يستلزم حيثية عدم منعها منه فمسلم لكن لا يلزم منه الاحتياج إلى التأويل المذكور أيضاً وليس المدعي إلا ذاك اه وهو كما ترى فتبصر ، ثم إنهم أجابوه عليه السلام إلى ما أراد ﴿ فَلَمَّا ءاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ عهدهم من الله تعالى حسبما أراد عليه السلام ﴿ قَالَ ﴾ عرضاً لثقته بالله تعالى وحثاً

لهم على مراعاة حلفهم به عز وجل ﴿ اللهُ على مَا نَقُولُ ﴾ في أثناء طلب الموثق وإيتائه من الجانبين ، وإيثار صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة المؤدى إلى تثبتهم ومحافظتهم على تذكره ومراقبته ﴿ وَكِيلٌ ﴾ أي مطلع رقيب ، فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه ، قيل : والمراد أنه سبحانه مجاز على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(228/399)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾

قوله : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ أي : جاءوا إلى مصر من أرض كنعان ليمتاروا لما أصابهم القحط ﴿ فَدَخَلُوا ﴾ على يوسف ﴿ فَعَرَفَهُمْ ﴾ لأنه فارقهم رجالاً ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ لأنهم فارقوه صبياً يباع بالدراهم في أيدي السيارة بعد أن أخرجوه من الجبّ ، ودخلوا عليه الآن وهو رجل عليه أبهة الملك ، ورونق الرئاسة ، وعنده الخدم والحشم .

وقيل : إنهم أنكروه لكونه كان في تلك الحال على هيئة ملك مصر ، ولبس تاجه وتطوّق بطوقه .

وقيل : كانوا بعيداً منه فلم يعرفوه ، وقيل غير ذلك .

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ المراد به هنا أنه أعطاهم ما طلبوه من الميرة ، وما يصلحون به سفرهم من العدّة التي يحتاجها المسافر .

يقال : جهزت القوم تجهيزاً إذا تكلفت لهم جهازاً للسفر .

قال الأزهري : القراء كلهم على فتح الجيم ، والكسر لغة جيدة .

﴿ قَالَ ائتونى بِأَخٍ لَّكُمْ مّنْ أَبِيكُمْ ﴾ قيل : لا بدّ من كلام ينشأ عنه طلبه لهم بأن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، فروي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم : ما أنتم وما شأنكم فإني أنكركم ؟ فقالوا : نحن قوم من أهل الشام جئنا نمتار ولنا أب شيخ صديق نبيّ من الأنبياء اسمه يعقوب .

قال : كم أنتم ؟ قالوا : عشرة ، وقد كنا اثني عشر ، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك ، وكان أحبنا إلى أبينا ، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه هو باقٍ لديه ، يتسلى به ، فقال لهم حينئذٍ : ﴿ ائتونى بِأَخٍ لَّكُمْ مّنْ أَبِيكُمْ ﴾ يعني : أخاه " بنيامين " الذي تقدّم ذكره ، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه ، فوعدوه بذلك ، فطلب منهم أن يتركوا أحدهم رهينة عنده حتى

يأتوه بالأخ الذي طلبه ، فاقترعوا فأصابت القرعة " شمعون " فخلفوه عنده ، ثم قال لهم : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكيل ﴾ أي : أتمه ، وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على أن ذلك عادته المستمرّة ، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقاً به وتصديقاً لقوله ، فقال : ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ المنزلين ﴾ أي : والحال أني خير المنزلين لمن نزل بي كما فعلته بكم من حسن الضيافة ، وحسن الإنزال .

قال الزجاج : قال يوسف : ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ المنزلين ﴾ لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم .

ثم توعدهم إذا لم يأتوه به فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾ أي : فلا أبيعكم شيئاً فيما بعد ، وأما في الحال فقد أوفاهم كيلهم ، ومعنى لا تقربون : لا تدخلون بلادي فضلاً عن أن أحسن إليكم وقيل : معناه : لا أنزلكم عندي كما أنزلتكم هذه المرّة ، ولم يرد أنهم لا يقربون بلاده ، و ﴿ تقربون ﴾ مجزوم إما على أن " لا " ناهية أو على أنها نافية ، وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كأنه قال : فإن لم تأتوني تحرموا ولا تقربوا .

فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم ، قالوا ﴿ سنراود عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي : سنطلبه منه ، ونجتهد في ذلك بما نقدر عليه .

وقيل : معنى المراودة هنا : المخادعة منهم لأبيهم والاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه ﴿ وَإِنَّا لفاعلون ﴾ هذه المراودة غير مقصرين فيها .

وقيل : معناه وإنا لقادرون على ذلك ، لا نتعانى به ولا نتعاظمه .

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجعلوا بضاعتهم فِى رِحَالِهِمْ ﴾ .

قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن عامر " لفتيته " ، واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس وغيرهما .

وقرأ سائر الكوفيين .

﴿ لفتيانه ﴾ ، وأختار هذه القراءة أبو عبيد ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود كالقراءة الآخرة .

قال النحاس : لفتيانه مخالف للسواد الأعظم ، ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الإسناد المنقطع وأيضاً فإن فتية أشبه من " فتيان " ، لأن فتية عند العرب لأقل العدد ، وأمر القليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبه ، والجملة مستأنفة جواب سؤال ، كأنه قيل : فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك ، فأجيب بأنه قال لفتيته .

قال الزجاج : الفتية والفتيان في هذا الموضع : المماليك .

وقال الثعلبي : هما لغتان جيدتان ، مثل الصبيان والصبية .

والمراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام ، وكانت نعالاً وأدماً ، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم .

وقيل : فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن .

قاله الفراء .

وقيل : فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام .

وقيل : إنه استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام .

ثم علل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة في رحالهم بقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمْ ﴾ فجعل علة جعل البضاعة في الرحال هي معرفتهم لها إذا انقلبوا إلى أهلهم ، وذلك لأنهم لا يعلمون بردّ البضاعة إليهم إلاّ عند تفريغ الأوعية التي جعلوا فيها الطعام ، وهم لا يفرغونها إلاّ عند الوصول إلى أهلهم ، ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم ، المجعولة في رحالهم بقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فإنهم إذا عرفوا ذلك وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن ، وأن ما دفعوه عوضاً عنه قد رجع إليهم ، وتفضل به من وصلوا إليه عليهم ، نشطوا إلى العود إليه ، ولا سيما مع ما هم فيه من الجدب الشديد ،

والحاجة إلى الطعام وعدم وجوده لديهم ، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع ، وبهذا يظهر أن يوسف عليه السلام لم يردّ البضاعة إليهم إلاّ لهذا المقصد ، وهو رجوعهم إليه ، فلا يتمّ تعليل ردّها بغير ذلك ، والرحال : جمع رحل ، والمراد به هنا : ما يستصحبه الرجل معه من الأثاث .

قال الواحدي : الرحل كل شيء معدّ للرحيل من وعاء للمتاع ، ومركب للبعير ، ومجلس ورسن انتهى .

والمراد هنا : الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام .

قال ابن الأنباري : يقال للوعاء : رحل ، وللبيت : رحل .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ أرادوا بهذا ما تقدّم من قول يوسف لهم : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ أي : منع منا الكيل في المستقبل ، وفيه دلالة على أن الامتيار مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه ، ولعلهم قالوا له بهذه المقالة قبل أن يفتحوا متاعهم ويعلموا بردّ بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ إلى آخره ، ثم ذكروا له ما أمرهم به يوسف ، فقالوا : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا ﴾

يعنون بنيامين ، و ﴿ نَكْتَلْ ﴾ جواب الأمر ، أي : نكتل بسبب إرساله معنا ما نريده من الطعام .

قرأ أهل الحرمين ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : ﴿ نكتل ﴾ بالنون ، وقرأ سائر الكوفيون بالياء التحتية ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى .

قال : ليكونون كلهم داخلين فيمن يكتال ، وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده ، أي : يكتال أخونا بنيامين ، واعترضه النحاس مما حاصله : أن إسناد الكيل إلى الأخ لا ينافي كونه للجميع ، والمعنى : يكتال بنيامين لنا جميعاً .

قال الزجاج : أي إن أرسلته اكتلنا وإلاّ منعنا الكيل ﴿ وَإِنَّا لَهُ ﴾ أي : لأخيهم بنيامين ﴿ لحافظون ﴾ من أن يصيبه سوء أو مكروه .

وجملة : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كما تقدّم في نظائر ذلك في مواضع كثيرة ، والمعنى : أنه لا يأمنهم على بنيامين إلاّ كما أمنهم على أخيه يوسف ، وقد قالوا له في يوسف : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ كما قالوا هنا : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ ثم خانوه في يوسف فهو إن أمنهم في بنيامين خاف أن يخونوه فيه كما خانوه في يوسف ﴿ فالله خَيْرٌ حافظا وَهُوَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ لعل هنا إضمار والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه إليهم ، وقال : ﴿ فالله خير حفظاً ﴾ .

قرأ أهل المدينة " حفظاً " وهو منتصب على التمييز .

وهي قراءة أبي عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وقرأ سائر الكوفيين : ﴿ حافظاً ﴾ وهو منتصب على الحال .

وقال الزجاج : على البيان يعني : التمييز ، ومعنى الآية : أن حفظ الله إياه خير من حفظهم له ، لما وكل يعقوب حفظه إلى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه ، ولما قال في يوسف : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب ﴾ وقع له من الامتحان ما وقع .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ متاعهم ﴾ أي : أوعية الطعام أو ما هو أعمّ من ذلك مما يطلق عليه لفظ المتاع سواء كان الذي فيه طعاماً أو غير طعام ﴿ وَجَدُواْ بضاعتهم رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : البضاعة التي حملوها إلى مصر ليمتاروا بها ، وقد تقدّم بيانها .

وجملة : ﴿ قَالُواْ يا أَبَانَا ﴾ مستأنفة كما تقدّم ﴿ مَا نَبْغِى ﴾ " ما " استفهامية والمعنى : أي شيء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا ما صنع من الإحسان بردّ البضاعة والإكرام عند القدوم إليه ، وتوفير ما أردناه من الميرة؟ ويكون الاستفهام للإنكار ، وجملة : ﴿ هذه بضاعتنا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ مقرّرة لما دلّ عليه الاستفهام من الإنكار لطلب شيء مع كونها قد ردّت إليهم .

وقيل : إن " ما " في ﴿ ما نبغي ﴾ نافية ، أي : ما نبغي في القول ، وما نتزيد فيما وصفنا

لك من إحسان الملك إلينا وإكرامه لنا ، ثم برهنوا على ما لقوه من التزيد في وصف الملك بقولهم : ﴿ هذه بضاعتنا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ فإن من تفضل عليهم بردّ ذلك حقيق بالثناء عليه منهم ، مستحق لما وصفوه به .

ومعنى ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ .

نجلب إليهم الميرة وهي الطعام ، والمائر الذي يأتي بالطعام .

وقرأ السلمي بضم النون ، وهو معطوف على مقدر يدلّ عليه السياق ، والتقدير : هذه بضاعتنا ردّت إلينا فنحن نستعين بها على الرجوع ونمير أهلنا .

(234/399)

﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ بنيامين مما نخافه عليه ﴿ وَنَزْدَادُ ﴾ بسبب إرساله معنا ﴿ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أي : حمل بعير زائد على ما جئنا به هذه المرة ، لأنه كان يكال لكل رجل وقر بعير ، ومعنى ﴿ ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أن زيادة كيل بعير لأخينا يسهل على الملك ، ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيراً لا يتعاظمه ولا يضايقنا فيه .

وقيل إن المعنى : ذلك المكيل لأجلنا قليل نريد أن ينضاف إليه حمل بعير لأخينا .

واختار الزجاج الأوّل .

وقيل: إن هذا من كلام يعقوب جواباً على ما قاله أولاده، ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ يعني: إن حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لأجله بالولد، وهو ضعيف؛ لأن جواب يعقوب هو ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ ﴾ أي: حتى تعطوني ما أثق به، وأركن إليه من جهة الله سبحانه، وهو الحلف به، واللام في ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ ﴾ جواب القسم؛ لأن معنى ﴿ حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ ﴾: حتى تحلفوا بالله لتأتنني به أي: لتردنّ بنيامين إليّ. والاستثناء بقوله: ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ هو من أعمّ العام؛ لأن ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ ﴾ وإن كان كلاماً مثبتاً فهو في معنى النفي، فكأنه قال: لا تمنعون من إتياني به في حال من الأحوال لعلة من العلل إلاّ لعلة الإحاطة بكم، والإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو، ومن أحاط به العدوّ فقد غلب أو هلك.

فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين إلاّ أن تغلبوا عليه أو تهلكوا دونه، فيكون ذلك عذراً لكم عندي ﴿ فَلَمَّا ءاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أي: أعطوه ما طلبه منهم من اليمين ﴿ قَالَ اللهُ على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أي: قال يعقوب: الله على ما قلناه من طلبي الموثق منكم وإعطائكم لي ما طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية، فهو المعاقب لمن خاس في عهده، وفجر في الحلف به، أو موكول إليه القيام بما شهد عليه منا.

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن إخوة يوسف لما دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ، جاء بصواع الملك الذي كان يشرب فيه ، فوضعه على يده فجعل ينقره ويطنّ ، وينقره ويطنّ ، فقال : إن هذا الجام ليخبرني عنكم خبراً ، هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له : يوسف ؟ وكان أبوه يحبه دونكم ، وإنكم انطلقتم به فألقيتموه في الجبّ ، وأخبرتم أباكم أن الذئب أكله ، وجئتم على قميصه بدم كذب ؟ قال : فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويعجبون .

وأخرج أبو الشيخ عن وهيب قال : لما جعل يوسف ينقر الصواع ويخبرهم ، قام إليه بعض إخوته فقال : أنشدك بالله أن لا تكشف لنا عورة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ ائتونى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ قال : يعني بنيامين ، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين ﴾ قال : خير من يضيف بمصر .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ لفتيانه ﴾ أي : لغلمانه ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ أي : أوراقهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ مَا نَبْغِى هذه

بضاعتنا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ يقولون: ما نبغي وراء هذا ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أي: حمل بعير.

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ قال: حمل حمار، قال: وهي لغة.

قال أبو عبيد: يعني هذا أن الحمار يقال له: في بعض اللغات بعير.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ قال: تهلكوا جميعاً.

وفي قوله: ﴿ فَلَمَّا ءاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ قال: عهدهم.

(236/399)

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ قال إلاّ أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(237/399)

وقال القاسمي :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : وجدوا دراهمهم ، ثمن طعامهم في متاعهم .

روي أن أحدهم فتح متاعه ليأخذ علفاً لدابته ، فرأى فضته في فم متاعه ، فقال لإخوته : قد ردت دراهمي وها هي في متاعي ، ثم لما وصلوا كنعان ، وأخذوا يفرغون أوعيتهم ، وجد كل واحد منهم صرة دراهمه في وعائه ، فاستطارت قلوبهم ، ودهشوا ، وحمدوا عناية الله بهم .

﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ أي : ماذا نبتغي وراء ذلك ؟ هل من زيادة ؟ أي : لا مزيد على ما فعل ؛ لأنه أكرمنا ، وأحسن مثوانا ، بإنزالنا عنده ، ورد الثمن علينا . والقصد إلى استنزاله عن رأيه . أو : لا نبغي في القول ولا نكذب فيما حكينا لك ، من إحسانه الداعي إلى امتثال أمره . أو : ما نبغي وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا ، وقرئ على الخطاب . أي : أي : شيء تطلب وراء هذا من الدليل على صدقنا ؟ .

﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته ، كأنهم قالوا : كيف لا ، وهذه بضعتنا ردت إلينا تفضلاً من حيث لا ندري

؟ .

﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ معطوف على مقدر مفهوم . أي : فنستظهر بها ، ونمير أهلنا إذا رجعنا إلى الملك ، أي : نأتيهم بميرة ، أي : بطعام . يقال : (ماره) أتاه بطعام ، ومنه : (ما عنده خير ولا مير) .

﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ أي : فلا يصيبه شيء مما تخافه : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أي : باستصحابه : ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي : سهل على هذا الملك المحسن لسخائه ، فلا يضايقنا فيه . أو المعنى قصير المدة ، ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير . أو المعنى : ذلك الذي يكال لنا دون أخينا شيء يسير قليل ، فابعث أخانا معنا حتى نتسع ونتكثر بمكيله . . .

(238/399)

وقال ابن كثير : هذا من تمام الكلام وتحسينه . أي : إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم لا يعدل هذا ، فلا يكون من كلامهم ، والجملة محتملة للكل .

﴿ قَالَ ﴾ أي : لهم أبوهم : ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾ أي : بهذه المقالة : ﴿ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ أي : عهداً منه ، ويميناً به ، لتردنه عليّ : ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ

﴾ أي : تغلبوا كلكم ، فلا تقدرون على تخليصه . وأصله من : (أحاط به العدو) سد عليه مسالك النجاة ودنا هلاكه .

﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أي : شهيد رقيب . والقصد حثهم على ميثاقهم بتخويفهم من نقضه بمجازاته تعالى .

قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك ؛ لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى بهم عنها .

لطيفة :

قال الناصر : ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر ، وهو قولهم : (البلاء موكل بالمنطق) فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً في حق يوسف : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ [يوسف : من الآية 13] ، فابتلي من ناحية هذا القول . وقال ها هنا ثانياً : ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي : تغلبوا عليه . فابتلي أيضاً بذلك ، وأحيط بهم وغلبوا عليه . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 201 . 203 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾

أصل المتاع ما يتمتع به من العروض والثياب .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ﴾ في سورة النساء (102) .

وأطلق هنا على إعدال المتاع وإحماله من تسمية الشيء باسم الحالّ فيه .

وجملة قالوا يا أبانا ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لترقب السامع أن يعلم ماذا صدر منهم حين فجأهم وجدان بضاعتهم في ضمن متاعهم لأنه مفاجأة غريبة ، ولهذه النكتة لم يعطف بالفاء .

و﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما نبغي ﴾ يجوز أن يكون للاستفهام الإنكاري بتنزيل المخاطب منزلة من يتطلب منهم تحصيل بغية فينكرون أن تكون لهم بغية أخرى ، أي ماذا نطلب بعد هذا .

ويجوز كون ﴿ ما ﴾ نافية ، والمعنى واحد لأن الاستفهام الإنكاري في معنى النفي .

وجملة ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ مبينة لجملة ﴿ ما نبغي ﴾ على الاحتمالين .

وإنما علموا أنها رُدّت إليهم بقرينة وَضْعها في العِدل بعد وضع الطعام وهم قد كانوا دفعوها إلى الكيالين ، أو بقرينة ما شاهدوا في يوسف عليه السلام من العطف عليهم ، والوعد

بالخير إن هم أتوا بأخيهم إذ قال لهم ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ [سورة يوسف : 59] .

وجملة ونمير أهلنا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ ، لأنها في قوة هذا ثمن ما نحتاجه من الميرة صَار إلينا ونمير به أهلنا ، أي نأتيهم بالميرة.

والميرة بكسر الميم بعدها ياء ساكنة : هي الطعام المجلوب .

وجملة ﴿ ونحفظ أخانا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ ونمير أهلنا ﴾ ، لأن المير يقتضي ارتحالاً للجلب ، وكانوا سألوا أباهم أن يكون أخوهم رفيقاً لهم في الارتحال الذكور ، فكانت المناسب بين جملة ﴿ ونمير أهلنا ﴾ وجملة ﴿ ونحفظ أخانا ﴾ بهذا الاعتبار ، فذكروا ذلك تطميناً لخاطر فيهم .

(240/399)

وجملة ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ زيادةٌ في إظهار حرصهم على سلامة أخيهم لأن في سلامته فائدة لهم بازدياد كيل بعير ، لأن يوسف عليه السلام لا يعطي الممتارَ أكثر من حمل بعير من الطعام ، فإذا كان أخوهم معهم أعطاه حِمل بعير في عداد الإخوة .

وبه تظهر المناسبة بين هذه الجملة والتي قبلها .

وهذه الجمل مرتبة ترتيباً بديعاً لأن بعضها متولد عن بعض .

والإشارة في ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ إلى الطعام الذي في متاعهم .

وإطلاق الكيل عليه من إطلاق المصدر على المفعول بقرينة الإشارة .

قيل : إن يعقوب عليه السلام قال لهم : لعلهم نسوا البضاعة فإذا قدمتم عليهم فأخبروهم بأنكم وجدتموها في رحالكم .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾

اشتهر الإيتاء والإعطاء وما يراد بهما في إنشاء الحلف ليطمئن بصدق الحالف غيره وهو المحلوف له .

وفي حديث الحشر " فيعطي الله من عُهود ومواثيق أن لا يسأله غيره " كما أطلق فعل الأخذ على تلقي المحلوف له للحلف ، قال تعالى : ﴿ وأخذنا منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ [سورة النساء : 21] و ﴿ قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ [سورة يوسف : 80] .

ولعل سبب إطلاق فعل الإعطاء أن الحالف كان في العصور القديمة يعطي المحلوف له شيئاً تذكرة لليمين مثل سوطه أو خاتمه ، أو أنهم كانوا يضعون عند صاحب الحق ضماناً يكون رهينة عنده .

وكانت الحمالة طريقة للتوثق فشبه اليمين بالحمالة .

وأثبت له الإعطاء والأخذ على طريقة المكنيّة ، وقد اشتهر ضد ذلك في إبطال التوثق

يقال : رَدّ عليه حِلفه .

والمَوْثق : أصله مصدر ميمي للتوثّق ، أطلق هنا على المفعول وهو ما به التوثق ، يعني اليمين .

ومن الله ﴿ صفة ل ﴿ موثقاً ﴾ ، و ﴿ من ﴾ للابتداء ، أي موثقاً صادراً من الله تعالى .

(241/399)

ومعنى ذلك أن يجعلوا الله شاهداً عليهم فيما وَعدوا به بأن يحلفوا بالله فتصير شهادة الله عليهم كتوثق صادر من الله تعالى بهذا الاعتبار .

وذلك أن يقولوا : لك ميثاق الله أو عهد الله أو نحو ذلك ، وبهذا يضاف الميثاق والعهد إلى اسم الجلالة كأنّ الحالف استودع الله ما به التوثق للمحلوف له .

وجملة ﴿ لتأتنني به ﴾ جواب لقسم محذوف دلّ عليه ﴿ موثقاً ﴾ .

وهو حكاية لقول يقوله أبناؤه المطلوب منهم إيقاعه حكاية بالمعنى على طريقة حكاية الأقوال لأنهم لو نطقوا بالقسم لقالوا : لنأتينك به ، فلما حكاه هو ركب الحكاية بالجملة التي

هي كلامهم وبالضمائر المناسبة لكلامه بخطابه إياهم .

ومن هذا النوع قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿ ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ [سورة المائدة : 117] ، وإن ما أمره الله : قل لهم أن يعبدوا ربك وربهم .

ومعنى يحاط بكم ﴿ يُحيط بكم مُحيط والإحاطة : الأخذ بأسْرُ أو هلاك مما هو خارج عن قدرتهم ، وأصله إحاطة الجيش في الحرب ، فاستعمل مجازاً في الحالة التي لا يستطاع التغلب عليها ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ [سورة يونس : 22] .

والاستثناء في إلا أن يحاط بكم ﴾ استثناء من عموم أحوال ، فالمصدر المنسبك من ﴿ أن ﴾ مع الفعل في موضع الحال ، وهو كالإخبار بالمَصدر فتأويله : إلاّ محاطاً بكم .

وقوله : ﴿ الله على ما نقول وكيل ﴾ تذكير لهم بأن الله رقيب على ما وقع بينهم .

وهذا توكيد للحَلِف .

والوَكيل : فعيل بمعنى مفعول ، أي موكول إليه ، وتقدم في ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ في سورة آل عمران (173) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾

وهكذا اكتشفوا أن بضائعهم التي حملوها معم في رحلتهم إلى مصر ليقايضوا بها ويدفعوها ثمناً لِمَا أرادوا الحصول عليه من طعام ومَيْرة قد رُدَّتْ إليهم ؛ وأعلنوا لأبيهم أنهم لا يرغبون أكثر من ذلك ؛ فهم قد حصلوا على المَيْرة التي يتغذَّوْنَ بها هم وأهاليهم .

ولا بُدَّ أن يصحبوا أخاهم في المرة القادمة ، ولسوف يحفظونه ، ولسوف يعودون ومعهم كيْل زائد فوق بعير ، وهذا أمر هَيِّن على عزيز مصر .

ولكن والدهم يعقوب عليه السلام قال ما أورده الحق سبحانه هنا : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ . . . ﴾ .

ونلحظ هنا رِقَّة قلب يعقوب وقُرْب موافقته على إرسال ابنه " بنيامين " معهم إلى مصر ، هذه الرِّقَّة التي بَدَتْ من قبل في قوله : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : 64] .

وطلب منهم أن يحلفوا بيمين مُوثقة أن يعودوا من رحلتهم إلى مصر ، ومعهم أخوهم " بنيامين " إذا ما ذهب معهم ؛ ما لم يُحِطْ بهم أمر خارج عن الإرادة البشرية ، كأن يحاصرهم أعداء يُضيِّعونهم ويُضيِّعون بنيامين معهم ؛ وهذا من احتياط النبوة ؛ لذلك قال :

﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ . . . ﴾ [يوسف : 66] .

وأقسم أبناء يعقوب على ذلك ، وأعطَوْا أباهم اليمين والعهد على رَدِّ بنيامين ، وليكون الله شهيداً عليهم .

قال يعقوب :

﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف : 66] .

أي : أنه سبحانه مُطلع ورقيب ، فإن خُنْتم فسبحانه المنتقم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(243/399)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : إن إخوة يوسف لما دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ، جاء بصواع الملك الذي كان يشرب فيه فوضعه على يده ، فجعل ينقره ويطن ، وينقره ويطن ، فقال : إن هذا الجام ليخبرني

عنكم خبراً . هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ، وكان أبوه يحبه دونكم ، وإنكم انطلقتم به فألقيتموه في الجب ، وأخبرتم أباكم أن الذئب أكله ، وجئتم على قميصه بدم كذب ؟ ؟ ؟ . . . . قال : فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ، ويعجبون أن هذا الجام ليخبر خبرهم ، فمن أين يعلم هذا ؟ !

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي الجلد – رضي الله عنه – قال : قال يوسف عليه السلام لإخوته : إن أمركم ليريبني ، كأنكم جواسيس قالوا : يا أيها العزيز إن أبانا شيخ صديق ، وأنا قوم صديقون ، وإن الله ليحيي بكلام الأنبياء القلوب ، كما يحيي وابل السماء والأرض ، ويقول لهم – وفي يده الإناء وهو يقرعه القرعة – كأن هذا يخبر عنكم بأنكم جواسيس .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عون قال : قلت للحسن – رضي الله عنه – ترى يوسف عرف اخوته ؟ قال : لا والله ما عرفهم حتى تعرفوا إليه .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ فعرفهم وهم له منكرون ﴾ قال : لا يعرفونه .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب – رضي الله عنه – قال : لما جعل يوسف عليه السلام ينقر الصاع ويخبرهم ، قام إليه بعض اخوته فقال : أنشدك الله أن لا تكشف لنا عورة .

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ قال: يعني بنيامين، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ قال: خير من يضيف بمصر.

وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ قال: خير المضيفين.

وأخرج ابن جرير، عن مجاهد - رضي الله عنه - ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ قال يوسف عليه السلام: أنا خير من يضيف بمصر.

وأخرج سعيد بن منصور، عن إبراهيم أنه كان يقرأ ﴿ وقال لفتيته ﴾ أي لغلمانه ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ أي أوراقهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن إسحق قال: كان منزل يعقوب وبنيه فيما ذكر لي، بعض أهل العلم بالعربات، من أرض فلسطين بغور الشام. وبعض كان يقول بالأدلاج، من ناحية شعب أسفل من جسمي، وما كان صاحب بادية له بها شاء وإبل.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن المغيرة ، عن أصحاب عبد الله ﴿ فأرسل معنا أخانا نكتل ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج ، رضي الله عنه - ﴿ فأرسل معنا أخانا ﴾ يكتل له بعيراً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن مغيرة ، عن أصحاب عبد الله - رضي الله عنه - ﴿ فالله خير حافظاً ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وأبو عبيد وابن المنذر ، عن علقمة أنه كان يقرأ ﴿ ردت إلينا ﴾ بكسر الراء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ يقول : ما نبغي هذه أوراقنا ردت إلينا ، وقد أوفي لنا الكيل ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ أي حمل بعير .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ قال : حمل حمار . قال : وهي لغة . قال أبو عبيد يعني مجاهد أن الحمار ، يقال له في بعض اللغات ، بعير .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ الا أن يحاط بكم ﴾ قال : إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(246/399)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ : قرأ علقمة ويحيى والأعمش " رِدَّتْ " بكسر الراء على نَقْلِ حركةِ الدالِ المدغمةِ إلى الراء بعد تَوَهُّم خُلُوِّها مِنْ حركتها ، وهي لغةُ بني ضَبَّة ، على أن قطرباً حكى عن العرب نَقْلَ حركةِ العين إلى الفاء في الصحيح فيقولون : " ضِرْبَ زيدٌ " بمعنى ضُرِب زيد ، وقد تقدَّم ذلك في قوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا ﴾ [الآية : 28] في الأنعام .

قوله : ﴿ مَا نَبْغِي ﴾ في " ما " هذه وجهان ، أظهرهما : أنها استفهاميةٌ فهي مفعولٌ مقدمٌ

واجبُ التقديم؛ لأن لها صدرَ الكلام، أي: أيَّ شيءٍ نبغي . والثاني: أَنْ تكونَ نافيةً

ولها معنيان، أحدهما : ما بقي لنا ما نطلب، قاله الزجاج . والثاني: ما نبغي، من البغي

، أي: ما افْتَرَيْناه ولا كَذَبْنا على هذا المَلِكِ في إكرامه وإحسانه . قال الزمخشري: " ما

نبغي في القول وما نتزَّيد فيما وَصَفْنا لك من إحسان المَلِك " .

وأَثْبَتَ القرَّاءُ هذه الياءَ في " نبغي " وَصْلاً ووقفاً ولم يَجْعلوها من الزوائد بخلاف التي في

الكهف كما سيأتي: ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ [الكهف: 64] . والفرق أنَّ " ما "

هناك موصولةٌ فحُذِفَ عائدُها، والحذفُ يُؤْنِسُ بالحذف، وهذه عبارة مستفيضة عند

أهل هذه الصناعةِ يقولون: التغيير يُؤْنس بالتغيير بخلافها هنا فإنها: إمَّا استفهاميةٌ، وإمَّا

نافيةٌ، ولا حَذْفَ على القولين حتى يُؤْنَسَ بالحذف .

وقرأ عبد اللَّه وأبو حيوة وروَتْها عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم " ما تبغي "

بالخطاب . و" ما " تحتمل الوجهين أيضاً في هذه القراءة .

والجملةُ مِنْ قوله: ﴿ هذه بِضَاعَتُنَا ﴾ تحتمل أنْ تكونَ مفسِّرةً لقولهم " ما نبغي " ، وأن

تكونَ مستأنفةً .

قوله : ﴿ وَنَمِيرُ ﴾ معطوفٌ على الجملة الاسمية قبلها ، وإذا كانت " ما " نافيةً جاز أن تُعْطَفَ على " نَبْغي " ، فيكون عَطْفَ جملةٍ فعلية على مثلِها . وقرأت عائشة وأبو عبد الرحمن : " ونُمير " مِنْ " أماره " إذا جَعَلَ له المِيرة يُقال : ماره يَميره ، وأماره يُمِيْره . والمِيرة : جَلْبُ الخير قال :

2805 بَعَثْتُكَ مائِرًا فمكَثْتَ حَوْلاً . . . متى يأتي غِياثُكَ مَنْ تَغِيْثُ

والبعيرُ لغةً يقع على الذَّكَر خاصةً ، وأطلقه بعضُهم على الناقة أيضاً ، وجعله نظيرَ " إنسان " ، ويجوز كَسْرُ بائه إتباعاً لعينه ، ويُجمع في القلة على أَبْعِرَة ، وفي الكثرة على بُعْران .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ : هذا جوابٌ للقسم المضمرِ في قوله : " مَوْثِقاً " لأنه في معنى : حتى تحلفوا لي لتأتُنَّني به .

قوله : ﴿ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ في هذا الاستثناء أوجه أحدُها : أنه منقطع ، قاله أبو البقاء ، يعني فيكون/ تقديرُ الكلام : لكن إذا أُحيط بكم خَرَجْتُمْ مِنْ عَتَبي وغضبي عليكم إن لم تأتوني به لوضوح عُذْرِكم .

الثاني: أنه متصل وهو استثناء مِن المفعول له العامّ. قال الزمخشري: "فإن قلت أخبرْني عن حقيقة هذا الاستثناء ففيه إشكال. قلت: ﴿أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ مفعولٌ له، والكلامُ المثبت الذي هو قولُه "لَتأْتُنَّني به" في معنى النفي معناه: لا تَمْتنعون من الإتيان به إلا للإِحاطة بكم، أو لا تمتنعون منه لعلةٍ من العلل إلا لعلة واحدة وهي أنْ يُحاط بكم، فهو استثناءٌ مِنْ أَعَمِّ العامِّ في المفعول له، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده، فلا بد مِنْ تأويله بالنفي، ونظيرُه في الإِثبات المتأوَّل بمعنى النفي قولهم: "أقسمتُ باللَّهِ لمَّا فعلتَ وإلا فعلت"، تريد: ما أطلبُ منك إلا الفعلَ" ولوضوحِ هذا الوجهِ لم يذكر غيره.

والثالث: أن مستثنى مِنْ أعمِّ العامِّ في الأحوال. قال أبو البقاء: "تقديره: لَتَأْتُنَّني به على كل حال إلا في حال الإِحاطة بكم". قلت: قد نَصُّوا على أنَّ "أنْ" الناصبة للفعل لا تقع موقعَ الحال، وإن كانَتْ مؤولةً بمصدر يجوز أن تقع موقع الحال، لأنهم لم يَغْتفروا في المُؤَول ما يَغْتفرونه في الصريح فيجيزون: جئتُك رَكْضاً، ولا يُجيزون: جئتك أن أركضَ، وإن كان في تأويله.

الرابع: أنه مستثنى من أعم العام في الأزمان والتقدير: لَتَأْتُنَّني به في كلِّ وقتٍ إلا في وقت الإِحاطة بكم. وهذه المسألة تَقدَّم فيها خلافٌ، وأن أبا الفتح أجاز ذلك، كما يُجوِّزه في المصدر الصريح، فكما تقول: "أتيتُكَ صِياحَ الدِّيك" يُجيز "أنْ يَصيح الديك" وجعل من ذلك قول تأبط شراً:

2806 وقالوا لا تَنْكِحيهِ فإنَّه . . . لأَوَّلِ نَصْلٍ أن يُلاقِي مَجْمعا

وقول أبي ذؤيب الهذلي :

2807 وتاللَّهِ ما إنْ شَهْلَةٌ أُمُّ واجدٍ . . . بأوجدَ مني أن يُهان صغيرُها

قال : " تقديره : وقتَ ملاقاتِه الجمعَ ، ووقت إهانةِ صغيرها " . قال الشيخ : " فعلى ما قاله يجوز تخريجُ الآية ، ويبقى " لتأْتُنَّني به " على ظاهره من الإِثبات " . قلت : الظاهر من هذا أنه استثناءٌ مفرغ ، ومتى كان مفرَّغاً وَجَبَ تأويلُه بالنفي .

ومنع ابن الأنباري مِنْ ذلك في " أنْ " وفي " ما " أيضاً قال : " فيجوز أن تقولَ : خروجُنا صياحَ الديك ، ولا يجوز خروجُنا أن يصيحَ ، أو : ما يصيح الديك : فاغتُفِر في الصريح ما لم يُغْتفر في المؤول " . وهذا قياس ما قدَّمْتُه في مَنْع وقوع " أنْ " وما في حَيِّزها موقعَ الحال ، ولك أَنْ تُفَرِّق ما بينهما بأن الحال تلزمُ التنكيرَ ، وأنْ وما في حَيِّزها نَصُّوا على أنها في رتبة المضمر في التعريف ، فيُنافي وقوعَها موقعَ الحال بخلاف الظرف ، فإنه لا يُشْترط تنكيرُه ، فلا يَمْتنع وقوعُ " أنْ " وما في حيزها موقعَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 523.519 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) ﴾

بيّن يوسفُ – عليه السلام – أنه حين عاملهم لم يَحْتَجْ إلى عِوَضٍ يأخذه منهم ، فلمَّا باعهم وجمَعَ لهم الكيلَ ما أخذ منهم ثمناً ، والإشارة من هذا إلى قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء : 7] .

وكلُّ مَنْ خطا للدِّين خطوةً كافأه اللَّهُ تعالى وجازاه ، فَجَمَعَ به بين رَوْحِ الطاعةِ ولذَّةِ العيش من حيث الخدمة .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66) ﴾

إنَّ الحَذَرَ لا يُغنى من القَدَر . وقد عَمِل يعقوب – عليه السلام – معهم في باب بنيامين ما

أمكنه من الاحتياط ، وأخذ الميثاق ولكن لم يُغنِ عنه اجتهاده ، وحصَل ما حكم به الله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 193 . 194﴾

(251/399)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما سمح لهم بخروجه معهم ، أتبع تعالى ذلك الخبر عن أمره لهم بالاحتياط من المصائب لأنهم أحد عشر رجلاً إخوة أهل جمال وبسطة ، وكانوا قد شهروا عند المصريين بعض الشهرة ، بسبب ما دار بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام من الكلام في المرة الأولى ، فكانوا مظنة لأن ترمقهم الأبصار ويشار إليهم بالأصابع ، فيصابوا بالعين ، ولم يوصهم في المرة الأولى ، لأنهم كانوا مجهولين ، مع شغل الناس بما هم فيه من القحط ، فقال حكاية عنه :

﴿ وقال ﴾ أي يعقوب عليه الصلاة والسلام لبنيه عندما أرادوا السفر : ﴿ يا بني ﴾ محذراً لهم من شر الحسد والعين – ﴿ لا تدخلوا ﴾ إذا قدمتم إلى مصر ﴿ من باب واحد ﴾ من أبوابها ؛ والواحد على الإطلاق : الذي لا ينقسم ، وأما المقيد بإجرائه على موصوف كباب واحد ، فهو ما لا ينقسم في معنى ذلك الموصوف ﴿ وادخلوا من أبواب ﴾ واحترز من أن تكون متلاصقة أو متقاربة جداً ، فقال : ﴿ متفرقة ﴾ أي تفرقاً كبيراً ، وهذا حكم التكليف لئلا يصابوا بالعين – كما نقله الرماني عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ والحسن وقتادة والضحاك والسدي ، فإن العين حق ، وهي من قدر الله ، وقد ورد شرعنا بذلك ، ففي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال " العين حق " وفي رواية عند أحمد وابن ماجه : " يحضرها الشيطان وحسد بن آدم " ولمسلم والترمذي والنسائي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " العين حق ، ولو شيء سابق القدر لسبقته العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا " ولأبي نعيم في الحلية عن جابر ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي قال : " إن العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر " ولأبي داود عن أسماء بنت يزيد ـ رضى الله عنهم ـ ا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " وإنما لتدرك الفارس فتدعثره " ولأحمد والترمذي عن أسماء بنت عميس ـ رضى الله عنهم ـ ا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال

ومنشأ إصابة العين توهم النفس الخبيثة هلاك من تصيبه . قال الإمام الرازي : " لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين " :

وقد تقدم معنى ذلك في رواية أحمد وابن ماجه من حديث أبي هريرة مع انضمام حضور الشيطان ، وهذا الاحتياط من باب الأخذ بالأسباب المأمور بها ، لأنها من القدر ، لا من من باب التحرز من القدر ، كما روى مسلم وأحمد وابن ماجه عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من الضعيف ، وفي كل خير احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن " لو " تفتح عمل الشيطان "

معناه – والله أعلم : افعل فعل الأقوياء ، ولا تفعل فعل العجزة ، وذلك بأن تنعم النظر ، تمعن في التأمل وتتأنى ، حتى تعلم المصادر والموارد ، فلا تدع شيئاً يحتمل أن ينفعك في الأمر الذي أنت مقبل عليه ولا يضرك إلا فعلته ، ولا تدع أمراً يمكن أن يضرك إلا تركته واحترزت منه جهدك ، فإنك إذا فعلت ذلك وأتى أمر من عند الله بخلاف مرادك كنت جديراً بأن لا تقول في نفسك : لو أني فعلت كذا ، فإنك لم تترك شيئاً ، وأما إذا فعلت فعل العجزة ،

وتركت الجزم فما أوشك أن تؤتى من قبل ترك الأسباب ، فما أقربك إلى أن تقول ما يفتح عمل الشيطان من " لو " .

(253/399)

ولما خاف أن يسبق من أمره هذا إلى بعض الأوهام أن الحذر يغني من القدر ، نفى ذلك مبيناً أنه لم يقصد غير تعاطي الأسباب على ما أمر الله وأن الأمر بعد ذلك إليه : إن شاء سبب عن الأسباب مسبباتها ، وإن شاء أبطل تلك الأسباب وأقام أسباباً تضادها ويتأثر عنها المحذور ، فقال : ﴿ وما أغني ﴾ أي أجزي وأسد وأنوب ﴿ عنكم من الله ﴾ أي بعض أمر الملك الأعظم ، وعمم النفي فقال : ﴿ من شيء ﴾ أي إن أراد بكم ، سواء كنتم مفترقين أو مجتمعين ، وهذا حكم التقدير ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ الحكم ﴾ وهو فصل الأمر بما تدعو إليه الحكمة ﴿ إلا الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ، لا يقدر أحد سواه على التفصي عن شيء من مراده والفرار من شيء من قدره ، ولهذا المعنى – وهو أنه لا ينفع أصلاً سبب إلا بالله – أنزل الله التسمية مقرونة بهاء السبب أول كتابه ، وأمر بها أول كل شيء ؛ وروى أبو نعيم في الحلية في ترجمة إمامنا الشافعي بسنده إليه ثم إلى علي ابن أبي طالب ـ رضى الله عنهم ـ أنه خطب الناس يوماً فقال في خطبته :

وأعجب ما في الإنسان قلبه ، ولو مواد من الحكمة وأضداد من خلافها ، فإن سنح له الرجاء أولهه الطمع .

وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعد بالرضى نسي التحفظ وإن ناله الخوف شغله الحزن ، وإن أصابته مصيبة قصمه الجزع ، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة شغله البلاء ، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف ، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف ، وإن أفرط به الشبع كظته البطنة ، فكل تقصير به مضر .

وكل إفراط له مفسد .

قال : فقام إليه رجل ممن كان شهد معه الجمل ، فقال : يا أمير المؤمنين ؟ أخبرنا عن القدر ، فقال : بحر عميق فلا تلجه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أخبرنا عن القدر ، فقال بيت مظلم فلا تدخله ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أخبرنا عن القدر ، فقال : سر الله فلا تتكلفه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أخبرنا عن القدر ، فقال : أما إذا أبيت فإنه أمر بين أمرين ، لا جبر ولا تفويض ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إن فلاناً يقول بالاستطاعة وهو حاضرك ، فقال : عليّ

به ! فأقاموه ، فلما رآه سل من سيفه قدر أربع أصابع فقال : الاستطاعة تملكها مع الله أو من دون الله ؟ وإياك أن تقول أحدهما فترتد فأضرب عنقك ! فقال : فما أقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : قل : أملكها بالله الذي إن شاء ملكنيها .

وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة الحج عند ﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾ [الحج : 18] ما يتصل بهذا .

(255/399)

ولما قصر الأمر كله عليه سبحانه ، وجب رد كل أمر إليه ، وقصر النظر عليه ، فقال منبهاً على ذلك : ﴿ عليه ﴾ أي على الله وحده الذي ليس الحكم إلا له ﴿ توكلت ﴾ أي جعلته وكيلي فرضيت بكل ما يفعله ﴿ وعليه ﴾ أي وحده ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ أي الثابتون في باب التوكل ، فإن ذلك من أعظم الواجبات ، من فعله فاز ، ومن أغفله خاب ، ثم إنه سبحانه صدق يعقوب فيما قال ، مؤكداً لما أشار إلى اعتقاده ، فقال : ﴿ ولما ﴾ وعطفه بالواو يدل على أنهم ما أسرعوا الكرة في هذه المرة خوفاً من أن يقول لهم : لم يفرغ ما عندكم حتى تضطروا إلى الاستبدال به ، والزمان زمان رفق ، لا زمان تبسط

﴿ دخلوا ﴾ أي أخوة يوسف عليه الصلاة والسلام عند وصولهم إلى مصر ﴿ من حيث

أمرهم ﴾ أي به ﴿ أبوهم ﴾ من أبواب متفرقة ، قالوا : وكان لمصر أربعة أبواب ﴿ ما كان ﴾ ذلك الدخول ﴿ يغني ﴾ أي يدفع ويجزي ﴿ عنهم من الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لاراد لأمره ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ من شيء ﴾ كما تقدم من قول يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ إلا حاجة ﴾ أي شيئاً غير أتم حاجة ﴿ في نفس يعقوب ﴾ وهو الدخول على ما أمر به شفقة عليهم ﴿ قضاها ﴾ يعقوب ، وأبرزها من نفسه إلى أولاده ، فعملوا فيها بمراده فأغنى عنهم ذلك الإخلاص من عقوق أبيهم فقط ، فإنهم ابتلوا في هذه السفرة بأمر عظيم لم يجدوا منه خلاصاً ، وهو نسبهم إلى السرقة ، وأسر أخيهم منهم ، قال أبو حيان : وفيه حجة لمن زعم أن " لما " حرف وجوب لوجوب ، لا ظرف زمان بمعنى " حين " ، إذا لو كان ظرف زمان ما جاز أن يكون معمولاً لما " بعد " ما النافية - انتهى .

ولما كان ذلك ربما أوهم أنه لا فائدة في الاحتياط ، أشار تعالى إلى رده بمدح يعقوب عليه الصلاة والسلام ، حثاً على الاقتداء به في التسبب مع اعتقاده أن الأمر بيد الله فقال : ﴿ وإنه ﴾ أي يعقوب عليه الصلاة والسلام مع أمره لبنيه بذلك ﴿ لذو علم ﴾ أي معرفة بالحكمين : حكم التكليف ، وحكم التقدير ، واطلاع على الكونين عظيم ﴿ لما ﴾ أي

للذي ﴿ علمناه ﴾ إياه من أصول الدين وفروعه ، ويجوز أن يكون المعنى : لذو علم لأجل تعليمنا أياه .

فاقتدوا به في الاحتياط في تعاطي الأسباب ، مع اعتقاد أنه لا أثر لها إلا أن أمضاها الواحد القهار ، فبهذا التقدير يتبين أن الاستثناء متصل ، وفائدة إبرازه - في صورة الأستثناء عند من جعله منقطعاً - الإشارة إلى تعظيم يعقوب عليه الصلاة والسلام ، وأنه جدير بأن يكون ما يأمر به مغنياً ، لأنه من أمر الله ، فلو كان كل شيء يغني من قدر الله لأغنى ما أشار به ، وإنما فسرت " يغنى " ب " يدفع " لأن مادة " غنى " - بأي ترتيب كان - تدور على الإقامة ، فيكون أغنى للسلب ، وهو معنى للدفع ، بيانه أن غنى بمعنى أقام ، وعاش ، ولقي ، ومغنى الدار : موضع الحلول ، ويلزم من الإقامة الكفاية والتمول ، لأن الفقير منزعج مضطرب ، والغني - كإلى : التزوج ، وإذا فتح مد ، والاسم الغنية - بالضم ، وذلك لأن التزوج لازم الإقامة ، والغانية : المرأة تُطلَب ولا تَطلُب ، أو الغنية بحسنها عن الزينة ، أو الشابة المتزوجة ، أو الشابة العفيفة ذات زوج كانت أم لا ، ومثلها يلزم المنزل ويقصر في الخيام ، وأغنى عنه غناء فلان : ناب عنه منابه وأجزأ مجزاه ، وحقيقته جعل إقامة كذا

متجاوزة عنه ، فالمفعول محذوف ، فإذا قال مثلاً : فلان أغنى عني في الحرب ، كان المعنى : أغنى عني ضرب الأبطال أو شدة الحرب ، أي أزال إقامة ذلك عني فجعله متجاوزاً ، ولا شك أن معنى ذلك : دفعه عني ، وكذا كل ما كان من ذلك ، وما فيه غناء ذاك ، أي إقامته والاضطلاع به ، ويلزم أيضاً - من الإقامة التي هي المدار والكفاية التي هي سببها - الغناءُ - بالكسر والمد ، وهو التطريب بالصوت ، والغناء أيضاً : الرمل - لإقامته ، وغنى بالمرأة : تغزل ، أي نظم فيها الغزل ، وغنى بزيد : مدحه أو هجاه - من لوازم الإقامة والكفاية ، ومنه غنى الحمام : صوت ؛ ونغى - كرمى : تكلم بكلام يفهم - لأن ذلك يسكن الخاطر عن القلق ، ومنه المناغاة - وهي تكليم الصبي بما يهوى ، ونغيت إليه نغية ، أي ألقيت إليه كلمة ،

والنغية - كالنغمة : أول الخبر قبل أن تستثبته ، من تسمية الجزء باسم الكل ، وناغاه : داناه ، ومنه الموج يناغي السماء - إذا ارتفع ، وناغاه : باراه أي عارضه ، والمرأة : غازلها ، أي حادثها - كل ذلك من لوازم الإقامة ؛ والغين : حرف هجاء مجهور مستعل - كأنها لقوتها مقيمة في مخرجها غير متزعزعة عنه كالراء والحروف الهوائية وغيرها ، والغين : العطش -

لأنه الأصل لاقتضاء الحرارة له والريّ حادث ، والغين : الغيم – لإقامته في الهواء ، والغينة : أرض – لأنها موضع الإقامة ، والأشجار الملتفة بلا ماء ، هي أيضاً موضع لذلك ، لأنها ظليلة ولا ماء بأرضها يمنع من الانتفاع بشيء من ظلها ، والغيناء : الخضراء من الشجر ، وبئر ، وبالقصر : قنة ثبير من الأثبرة السبعة – لأن ذلك كله موضع للإقامة ، ولعل قنة هذا الجبل كثيرة الشجر فترجع إلى الشجرة ، والأغين : الطويل – إما تشبيه بقنة الجبل ، أو بالشجرة ، والغانة : حلقة رأس الوتر في القوس ، وغين على قلبه : غطى عليه أي أقام عليه ساتراً له فصار كالسماء بالنسبة إلى الغيم ، ومنه غين عليه – إذا تغشته الشهوة وألبس أو غشي عليه ، أو أحاط به الرين وهو الطبع والدنس ، والغينة – بالكسر : الصديد وما سل من الميت – كأنه من سلب الإقامة ، وكذا الغين بالكسر – لموضع كثير الحمى ، وغانت نفسي تغين : غثت ، والإبل : غامت ، أي حصل لها داء كالقلاب غير أنه لا يقتل – انتهى .

ولما كان قد يظن أن كل أحد يكون كذلك ، أي يعلم ما علمه ، نفى ذلك سبحانه بقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي لأجل ما لهم من الاضطراب ﴿ لا يعلمون ﴾ أي ليسوا بذوي علم لما علمناهم لإعراضهم عنه واستفرغ قواهم في الاهتمام بما وقع التكفل لهم به من أحوال الدنيا ، ومغالبة فطرهم القويمة السليمة بردها إلى ما تدعو إليه الحظوظ والشهوات حتى لا يكون فيها طب مخلوق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 70 . 75 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾

اعلم أن أبناء يعقوب لما عزموا على الخروج إلى مصر .

وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد قال لهم : ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ وفيه قولان : الأول : وهو قول جمهور المفسرين أنه خاف من العين عليهم ولنا ههنا مقامان .

المقام الأول : إثبات أن العين حق والذي يدل عليه وجوه : الأول : إطباق المتقدمين من المفسرين على أن المراد من هذه الآية ذلك .

والثاني : ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول : " أعيذ كما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة " ويقول هكذا كان يعوذ إبراهيم إسمعيل وإسحق صلوات الله عليهم .

والثالث : ما روى عبادة بن الصامت قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول النهار فرأيته شديد الوجع ثم عدت إليه آخر النهار فرأيته معافى فقال : " إن جبريل عليه السلام أتاني فرقاني فقال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ومن كل عين وحاسد

الله يشفيك " قال فأفقت ، والرابع : روي أن بني جعفر ابن أبي طالب كانوا غلمناً بيضاً فقالت أسماء : يا رسول الله إن العين إليهم سريعة أفأسترقي لهم من العين فقال لها نعم .

والخامس : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبي يشتكي فقالوا : يا رسول الله أصابته العين فقال أفلا تسترقون له من العين .

والسادس : قوله عليه السلام : "العين حق ولو كان شيء يسبق القدر لسبقت العين القدر"

والسابع : قالت عائشة رضي الله عنها : كن يأمر العائن أن يتوضأ ثم يغسل منه المعين الذي أصيب بالعين .

المقام الثاني : في الكشف عن ماهيته فنقول : إن أبا علي الجبائي أنكر هذا المعنى إنكاراً بليغاً ولم يذكر في إنكاره شبهة فضلاً عن حجة ، وأما الذين اعترفوا به وأقروا بوجوده فقد ذكروا فيه وجوهاً : الأول : قال الحافظ : إنه يمتد من العين أجزاء فتصل بالشخص المستحسن فتؤثر فيه وتسري فيه كتأثير اللسع والسم والنار ، وإن كان مخالفاً في جهة التأثير لهذه الأشياء قال القاضي : وهذا ضعيف لأنه لو كان الأمر كما قال ، لوجب أن يؤثر في الشخص الذي لا يستحسن كتأثيره في المستحسن واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف

وذلك لأنه إذا استحسن شيئاً فقد يحب بقاءه كما إذا استحسن ولد نفسه وبستان نفسه ، وقد يكره بقاءه أيضاً كما إذا أحس الحاسد بشيء حصل لعدوه ، فإن كان الأول فإنه يحصل له عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله والخوف الشديد يوجب انحصار الروح في داخل القلب فحينئذ يسخن القلب والروح جداً ، ويحصل في الروح الباصرة كيفية قوية مسخنة وإن كان الثاني : فإنه يحصل عند ذلك الاستحسان حسد شديد وحزن عظيم بسبب حصول تلك النعمة لعدوه .

والحزن أيضاً يوجب انحصار الروح في داخل القلب ويحصل فيه سخونة شديدة ، فثبت أن عند الاستحسان القوي تسخن الروح جداً فيسخن شعاع العين بخلاف ما إذا لم يستحسن فإنه لا تحصل هذه السخونة فظهر الفرق بين الصورتين ، ولهذا السبب أمر الرسول صلى الله عليه وسلم العائن بالوضوء ومن أصابته العين بالاغتسال .

الوجه الثاني : قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخي إنه لا يمتنع أن تكون العين حقاً ، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحساناً كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص وذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقاً به ، فهذا المعنى غير ممتنع ، ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة وعدل عن الإعجاب وسأل ربه تقية ذلك ، فعنده تتعين المصلحة ولما كانت هذه العادة مطردة لا جرم قيل العين حق .

الوجه الثالث : وهو قول الحكماء قالوا هذا الكلام مبني على مقدمة وهي أنه ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسانياً محضاً ، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق والذي يدل عليه أن اللوح الذي يكون قليل العرض إذا كان موضوعاً على الأرض ، قدر الإنسان على المشي عليه ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عاليين لعجز الإنسان على المشي عليه ، وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة ، وأيضاً أن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له حصل في قلبه غضب ، ويسخن مزاجه جداً فمبدأ تلك السخونة ليس إلا ذلك التصور النفساني ، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية ، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان .

فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الأبدان وأيضاً جواهر النفوس المختلفة بالماهية فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ويتعجب منه ، فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه

والنفوس النبوية نطقت به فعنده لا يبقى في وقوعه شك .

وإذا ثبت هذا ثبت أن الذي أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية بإصابة العين كلام حق لا يمكن رده .

القول الثاني : وهو قول أبي علي الجبائي : أن أبناء يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسبهم وكمالهم .

فقال : ﴿ لَا تَدْخُلُوا ﴾ تلك المدينة ﴿ مِن بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ على ما أنتم عليه من العدد والهيئة فلم يأمن عليهم حسد الناس أو يقال : لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم ، واعلم أن هذا الوجه محتمل لا إنكار فيه إلا أن القول الأول قد بينا أنه لا امتناع فيه بحسب العقل والمفسرون أطبقوا عليه فوجب المصير إليه ، ونقل عن الحسن أنه قال : خاف عليهم العين ، فقال : ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ ثم رجع إلى علمه وقال : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ وعرف أن العين ليست بشيء وكان قتادة يفسر الآية بإصابة العين ويقول : ليس في قوله : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ إبطال له لأن العين وإن صح فالله قادر على دفع أثره .

القول الثالث : أنه عليه السلام كان عالماً بأن ملك مصر هو ولده يوسف إلا أن الله تعالى ما أذن له في إظهار ذلك فلما بعث أبناءه إليه قال : ﴿ لَا * تَدْخُلُوا۟ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى يوسف في وقت الخلوة ، وهذا قول إبراهيم النخعي ، فأما قوله : ﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ مِّنَ اللهِ مِن شَىْءٍ ﴾ فاعلم أن الإنسان مأمور بأن يراعي الأسباب المعتبرة في هذا العالم ومأمور أيضاً بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى وأن الحذر لا ينجي من القدر ، فإن الإنسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة ، والأغذية الضارة ، ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الإمكان ثم إنه مع ذلك ينبغي أن يكون جازماً بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله ولا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله فقوله عليه السلام : ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ فهو إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم ، وقوله : ﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ مِّنَ اللهِ مِن شَىْءٍ ﴾ إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى التوحيد المحض والبراءة عن كل شيء سوء الله تعالى وقول القائل : كيف السبيل إلى الجمع بين هذين القولين ، فهذا السؤال غير مختص به ، وذلك لأنه لا نزاع في أنه لا بد من إقامة الطاعات ، والاحتراز عن المعاصي

والسيئات مع أنا نعتقد أن السعيد من سعد في بطن أمه ، وأن الشقي من شقي في بطن أمه فكذا ههنا نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول في النار مع أن الموت والحياة لا يحصلان إلا بتقدير الله تعالى ، فكذا ههنا ، فظهر أن هذا السؤال غير مختص بهذا المقام ، بل هو بحث عن سر مسألة الجبر والقدر ، بل الحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة ، وبعد ذلك السعي البليغ والجد الجهيد فإنه يعلم أن كل ما يدخل في الوجود فلا بد وأن يكون بقضاء الله

تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته ثم إنه تعالى أكد هذا المعنى ، فقال : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ .

واعلم أن هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا في القضاء والقدر ، وذلك لأن الحكم عبارة عن الإلزام والمنع من النقيض وسميت حكمة الدابة بهذا الاسم ، لأنها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة والحكم إنما سمي حكماً لأنه يقتضي ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر بحيث يصير الطرف الآخر ممتنع الحصول ، فبين تعالى أن الحكم بهذا التفسير ليس إلا لله سبحانه وتعالى ، وذلك يدل على أن جميع الممكنات مستندة إلى قضائه وقدره

ومشيئته وحكمه ، إما بغير واسطة وإما بواسطة ثم قال : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ومعناه أنه لما ثبت أن الكل من الله ثبت أنه لا توكل إلا على الله وأن الرغبة ليست إلا في رجحان وجود الممكنات على عدمها وذلك الرجحان المانع عن النقيض هو الحكم ، وثبت بالبرهان أنه لا حكم إلا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله ، ويوجب أنه لا توكل إلا على الله فهذا مقام شريف عال ونحن قد أشرنا إلى ما هو البرهان الحق فيه والشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله أطنب في تقرير هذا المعنى في كتاب التوكل من كتاب "إحياء علوم الدين" فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾

قال المفسرون : لما قال يعقوب : ﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَىْءٍ ﴾ [يوسف : 67] صدقه الله في ذلك فقال : وما كان ذلك التفرق يغني من الله من شيء وفيه بحثان :

البحث الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : ذلك التفرق ما كان يرد قضاء الله ولا أمراً قدره الله .

وقال الزجاج : إن العين لو قدر أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون .

وقال ابن الأنباري : لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم عند الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم ، وهذه الكلمات متقاربة ، وحاصلها أن الحذر لا يدفع القدر .

البحث الثاني : قوله : ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ يحتمل النصب بالمفعولية والرفع بالفاعلية .

أما الأول : فهو كقوله : ما رأيت من أحد ، والتقدير : ما رأيت أحداً ، فكذا ههنا تقدير الآية : أن تفرقهم ما كان يغني من قضاء الله شيئاً ، أي ذلك التفرق ما كان يخرج شيئاً من تحت قضاء الله تعالى .

وأما الثاني : فكقولك : ما جاءني من أحد ، وتقديره ما جاءني أحد فكذا ههنا التقدير : ما كان يغني عنهم من الله شيء مع قضائه .

أما قوله : ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ فقال الزجاج : إنه استثناء منقطع ، والمعنى : لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها ، يعني أن الدخول على صفة التفرق قضاء حاجة في نفس يعقوب قضاها ، ثم ذكروا في تفسير تلك الحاجة وجوهاً : أحدها : خوفه عليهم من إصابة العين ، وثانيها : خوفه عليهم من حسد أهل مصر ، وثالثها : خوفه عليهم من أن يقصدهم ملك مصر بشر ، ورابعها : خوفه عليهم من أن لا يرجعوا إليه ، وكل هذه

الوجوه متقاربة .

وأما قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ فقال الواحدي : يحتمل أن يكون ﴿ مَا ﴾ مصدرية والهاء عائدة إلى يعقوب ، والتقدير : وإنه لذو علم من أجل تعليمنا إياه ، ويمكن أن تكون ﴿ مَا ﴾ بمعنى الذي والهاء عائدة إليها ، والتأويل وإنه لذو علم للشيء الذي علمناه ، يعني أنا لما علمناه شيئاً حصل له العلم بذلك الشيء وفي الآية قولان آخران : الأول : أن المراد بالعلم الحفظ ، أي أنه لذو حفظ لما علمناه ومراقبة له والثاني : لذو علم لفوائد ما علمناه وحسن آثاره وهو إشارة إلى كونه عاملاً بما علمه ، ثم قال : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وفيه وجهان : الأول : ولكن أكثر الناس لا يعلمون مثل ما علم يعقوب .

(266/399)

والثاني : لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة والعلم ، والمراد بأكثر الناس المشركون ، فإنهم لا يعلمون بأن الله كيف أرشد أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة . انتهى ا . هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 137.141 ﴾

(267/399)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد . . . ﴾

يعني لا تدخلوا مصر من باب واحد ، وفيه وجهان :

أحدها : يعني من باب واحد من أبوابها .

﴿ وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ ، قاله الجمهور .

الثاني : من طريق واحد من طرقها ﴿ وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ أي طرق ، قاله السدي .

وفيما خاف عليهم أن يدخلوا من باب واحد قولان :

أحدهما : أنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوي صور وجمال ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : أنه خاف عليهم الملك أن يرى عددهم وقوتهم فيبطش بهم حسداً أو حذراً ، قاله بعض المتأخرين .

﴿ وما أغني عنكم من الله من شيءٍ ﴾ أي من أي شيء أحذره عليكم فأشار عليهم في الأول ، وفوض إلى الله في الآخر .

قوله عز وجل : ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيءٍ ﴾ أي لا يرد حذر المخلوق قضاءَ الخالق .

﴿ إِلاَّ حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾ وهو حذر المشفق وسكون نفس بالوصية أن يتفرقوا خشية العين.

﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ فيه ثلاثة أوجه.

أحدها: إنه لعامل بما علم، قاله قتادة.

الثاني: لمتيقن بوعدنا، وهو معنى قول الضحاك.

الثالث: إنه لحافظ لوصيتنا، وهو معنى قول الكلبي. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(268/399)

وقال الجصاص:

قَوْله تَعَالَى: ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: "كَانُوا ذَوِي صُورَةٍ وَجَمَالٍ فَخَافَ عَلَيْهِمْ الْعَيْنَ".

وَقَالَ غَيْرُهُمْ: "خَافَ عَلَيْهِمْ حَسَدَ النَّاسِ لَهُمْ وَأَنْ يَبْلُغَ الْمَلِكَ قُوَّتُهُمْ وَبَطْشُهُمْ فَيَقْتُلَهُمْ خَوْفًا عَلَى مُلْكِهِ".

وَمَا قَالَتْهُ الْجَمَاعَةُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ : الْعَيْنُ حَقٌّ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(269/399)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي أَمْرِهِ لَهُمْ بِالتَّفَرُّقِ : وَفِي ذَلِكَ أَقْوَالٌ ؛ أَظْهَرُهَا أَنَّهُ تُقَاةُ الْعَيْنِ ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُوَحِّدِينَ أَنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ ، وَهُوَ مِنْ أَفْعَالِ اللَّهِ مَوْجُودٌ ، وَعِنْدَ جَمِيعِ الْمُتَشَرِّعِينَ مَعْلُومٌ ، وَالْبَارِئُ تَعَالَى هُوَ الْفَاعِلُ الْخَالِقُ ، لَا فَاعِلَ بِالْحَقِيقَةِ وَلَا خَالِقَ إلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

فَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ مِنْ الْفَلَكِ إلَى الذَّرَّةِ ، وَلَا مِنْ دَوَرَانِهِ إلَى حَرَكَةٍ وَاحِدَةٍ إلَّا وَهِيَ

مَوْجُودَةٌ بِقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ ، وَمُصَرَّفَةٌ بِقَضَائِهِ وَحُكْمِهِ ، فَكُلُّ مَا تَرَى بِعَيْنِك أَوْ تَتَوَهَّمُهُ بِقَلْبِك فَهُوَ صُنْعُ اللَّهِ وَخَلْقُهُ ، إذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ .

(270/399)

وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَ الْكُلَّ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ، وَلَكِنَّهُ سَبَّبَ الْأَسْبَابَ ، وَرَكَّبَ الْمَخْلُوقَاتِ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ ؛ فَالْجَاهِلُ إذَا رَأَى مَوْجُودًا بَعْدَ مَوْجُودٍ ، أَوْ مَوْجُودًا مُرْتَبِطًا فِي الْعِيَانِ بِمَوْجُودٍ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ إلَى الرَّابِطَةِ مَنْسُوبٌ ، وَعَلَيْهَا فِي الْفِعْلِ مَحْسُوبٌ ، وَحَاشَ لِلَّهِ ، بَلْ الْكُلُّ لَهُ ، وَالتَّدْبِيرُ تَدْبِيرُهُ ، وَالِارْتِبَاطُ تَقْدِيرُهُ ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ .

وَمِنْ أَبْدَعِ مَا خَلَقَ النَّفْسُ ؛ رَكَّبَهَا فِي الْجِسْمِ ، وَجَعَلَهَا مَعْلُومَةً لِلْعَبْدِ ضَرُورَةً ، مَجْهُولَةَ الْكَيْفِيَّةِ ، إنْ جَاءَ يُنْكِرُهَا لَمْ يَقْدِرْ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ تَأْثِيرِهَا عَلَى الْبَدَنِ وُجُودًا وَعَدَمًا ، وَإِنْ أَرَادَ الْمَعْرِفَةَ بِهَا لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِنَّهُ

لَا يَعْلَمُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَنْسُبُهَا ، وَلَا عَلَى أَيِّ مَعْنًى يَقِيسُهَا ، وَضَعَهَا اللَّهُ الْمُدَبِّرُ فِي الْبَدَنِ عَلَى هَذَا الْوَضْعِ لِيُمَيِّزَ الْإِيمَانَ بِهِ ؛ إذْ يُعْلَمُ بِأَفْعَالِهِ ضَرُورَةً ، وَلَا يُوصَلُ إلَى كَيْفِيَّتِهِ لِعَدَمِهَا فِيهِ ، وَاسْتِحَالَتِهَا عَلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ عَلَى أَحَدِ التَّأْوِيلَاتِ .

وَلَهَا آثَارٌ يَخْلُقُهَا الْبَارِي فِي الشَّيْءِ عِنْدَ تَعَلُّقِهَا بِهِ ، مِنْهَا الْعَيْنُ وَهُوَ مَعْنًى يَحْدُثُ بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى جَرْيِ الْعَادَةِ فِي الْمُعَيَّنِ ، إذَا أَعْجَبَتْ مَنْظَرَتُهُ الْعَائِنَ فَيَلْفِظُ بِهِ ، إمَّا إلَى عُرُوِّ أَلَمٍ فِي الْمُعَيَّنِ ، وَإِمَّا إلَى الْفَنَاءِ ، بِحَسَبِ مَا يُقَدِّرُهُ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَلِهَذَا الْمَعْنَى نُهِيَ الْعَائِنُ عَنْ التَّلَفُّظِ بِالْإِعْجَابِ ؛ لِأَنَّهُ إنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ لَمْ يَضُرَّ اعْتِقَادُهُ عَادَةً ، وَكَمَا أَنْفَذَ الْبَارِي مِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يَخْلُقَ فِي بَدَنِ الْمُعَيَّنِ أَلَمًا أَوْ فَنَاءً ، فَكَذَلِكَ سَبَقَ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّ الْعَائِنَ إذَا بَرَّكَ أَسْقَطَ قَوْلُهُ بِالْبَرَكَةِ قَوْلَهُ بِالْإِعْجَابِ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ سَقَطَ حُكْمُهُ بِالِاغْتِسَالِ .

وَقَدْ اعْتَرَضَ عَلَى ذَلِكَ الْأَطِبَّاءُ ، وَاعْتَقَدُوهُ مِنْ أَكَاذِيبِ النَّقَلَةِ ، وَهُمْ مَحْجُوجُونَ بِمَا سَطَّرُوا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ أَنَّ الْكَوْنَ وَالْفَسَادَ يَجْرِي عَلَى حُكْمِ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ ، فَإِذَا شَذَّ شَيْءٌ قَالُوا : هَذِهِ خَاصَّةٌ خَرَجَتْ مِنْ مَجْرَى الطَّبِيعَةِ لَا يُعْرَفُ لَهَا سَبَبٌ ، وَجَمَعُوا مِنْ ذَلِكَ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً ؛ فَهَذَا الَّذِي نَقَلَهُ الرُّوَاةُ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ خَوَاصُّ شَرْعِيَّةٌ بِحِكَمٍ إلَهِيَّةٍ ، يَشْهَدُ لِصِدْقِهَا وُجُودُهَا كَمَا وُصِفَتْ ؛ فَإِنَّا نَرَى الْعَائِنَ إذَا بَرَّكَ امْتَنَعَ ضَرَرُهُ ، وَإِنْ اغْتَسَلَ شُفِيَ مَعِينُهُ ، وَهَذَا بَالِغٌ فِي فَنِّهِ ، فَلْيُنْظَرْ عَلَى التَّمَامِ فِي مَوَاضِعِهِ مِنْ كُتُبِ الْأُصُولِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ ؛ وَهَذِهِ النُّبْذَةُ تَكْفِي فِي هَذِهِ الْعَارِضَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ قَالُوا: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ حَمَلَهُمْ عَلَى التَّفَرُّقِ مَخَافَةَ الْعَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ، إنَّمَا هُوَ أَمْرٌ تَأْنَسُ بِهِ النُّفُوسُ، وَتَتَعَلَّقُ بِهِ الْقُلُوبُ؛ إذْ خُلِقَتْ مُلَاحِظَةً لِلْأَسْبَابِ.

وَيَفْتَرِقُ اعْتِقَادُ الْخَلْقِ؛ فَمَنْ لَحَظَ الْأَسْبَابَ مِنْ حَيْثُ إنَّهَا أَسْبَابٌ فِي الْعَادَةِ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا، وَإِنَّمَا هِيَ عَلَامَاتٌ؛ فَهُوَ الْمُوَحِّدُ، وَمَنْ نَسَبَهُ إلَيْهَا فِعْلًا وَاعْتَقَدَهَا مُدَبِّرَةً فَهُوَ الْجَاهِلُ أَوْ الْمُلْحِدُ. انتهى انتهى. اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية:

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾

وقوله: ﴿ لا تدخلوا من باب واحد ﴾

قيل : خشي عليهم العين لكونهم أحد عشر لرجل واحد ، وكانوا أهل جمال وبسطة . قال ابن عباس والضحاك وقتادة وغيره : والعين حق ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر " ، وفي تعوذه عليه السلام : " أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة وكل عين لامة " وقيل : خشي أن يستراب بهم لقول يوسف قبل : أنتم جواسيس ويضعف هذا ظهورهم قبل بمصر . وقيل : طمع بافتراقهم أن يستمعوا أو يتطلعوا خبر يوسف – وهذا ضعيف يرده : ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ فإن ذلك لا يتركب على هذا المقصد .

وقوله : ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ لفظ عام لجميع وجوه الغلبة والقسر والمعنى تعمكم الغلبة من جميع الجهات حتى لا تكون لكم حيلة ولا وجه تخلص . وقال مجاهد : المعنى : إلا أن تهلكوا جميعاً . وقال قتادة : إلا ألا تطيقوا ذلك .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يرجحه لفظ الآية . وانظر أن يعقوب عليه السلام قد توثق في هذه القصة ، وأشهد الله تعالى ، ووصى بنيه ، وأخبر بعد ذلك بتوكله ، فهذا توكل مع تسبب ، وهو توكل جميع المؤمنين إلا من شط في رفض السعي وقنع بماء وبقل البرية ونحوه ، فتلك غاية التوكل وعليها بعض الأنبياء عليهم السلام ، والشارعون منهم مثبتون سنن التسبب الجائز ، وما تجاوز ذلك من الإلقاء باليد مختلف في جوازه ، وقد فضله بعض المجيزين له ، ولا أقول بذلك ، وباقي الآية بين .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾

روي أنه لما ودعوا أباهم قال لهم: بلغوا ملك مصر سلامي وقولوا له: إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك ويشكر صنيعك معنا. وفي كتاب أبي منصور المهراني: أنه خاطبه بكتاب قرىء على يوسف فبكى.

وقوله: ﴿ ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾ بمثابة قولهم: لم يكن في ذلك دفع قدر الله بل كان أرباً ليعقوب قضاه. وطيباً لنفسه تمسك به وأمر بجبسه. فجواب ﴿ لما ﴾ في معنى قوله: ﴿ ما كان يغني عنهم من الله من شيء ﴾ و﴿ إلا حاجة ﴾ استثناء ليس من الأول. وال ﴿ حاجة ﴾ هي أن يكون طيب النفس بدخولهم من أبواب متفرقة خوف العين. قال مجاهد: "الحاجة": خيفة العين، وقاله ابن إسحاق، وفي عبارتهما تجوز: ونظير هذا الفعل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سد كوة في قبر بحجر وقال: "إن هذا لا يغني شيئاً ولكنه تطيب لنفس الحي".

قال القاضي أبو محمد: وقوله - عندي - ﴿ ما كان يغني عنهم من الله من شيء ﴾ معناه

: ما رد عنهم قدراً ، لأنه لو قضي أن تصيبهم عين لأصابتهم مفترقين أو مجتمعين ، وإنما طمع

يعقوب أن تصادف وصيته قدر السلامة فوصى وقضى بذلك حاجته في نفسه في أن يتنعم

برجائه ، أن تصادف القدر في سلامتهم .

ثم أثنى الله عز وجل على يعقوب بأنه لقن ما علمه الله من هذا المعنى ، واندرج غير ذلك

في العموم وقال إن أكثر الناس ليس كذلك ، وقيل : معناه : إنه لعامل بما علمناه – قاله قتادة

– وقال سفيان : من لا يعمل لا يكون عالماً .

قال القاضي أبو محمد : وهذا لا يعطيه اللفظ ، اما انه صحيح في نفسه يرجحه المعنى ،

ومات تقتضيه منزلة يعقوب عليه السلام .

قال أبو حاتم : قرأ الأعمش ﴿ لذو علم لما علمناه ﴾ . ويحتمل أن يكون جواب ﴿ لما

﴾ في هذه الآية محذوفاً مقدراً ، ثم يخبر عن دخولهم أنه ﴿ ما كان يغني . . . ﴾ الآية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(275/399)

وقال القرطبى :

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى : لما عزموا على الخروج خشي عليهم العين ؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد ، وكانت مصر لها أربعة أبواب ؛ وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً لرَجُل واحد ؛ وكانوا أهل جَمال وكمال وبَسْطة ؛ قاله ابن عباس والضّحاك وقَتَادة وغيرهم .

الثانية : إذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرّز من العين ، والعين حق ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن العين لتدخِل الرجل القبر والجمل القِدر " .

وفي تعوّذه عليه السلام : " أعوذ بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة " ما يدلّ على ذلك .

وروى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبي سهل بن حُنيف بالخرّار فنزع جُبّة كانت عليه ، وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجلاً أبيض حسن الجلد قال فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ولا جلد عَذْراء ! فوُعك سهل مكانه واشتدّ وَعْكه ، فأُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر أن سهلاً وُعِك ، وأنه غير رائح معك يا رسول الله ؛ فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عَلاَمَ يقتل أحدكم أخاه أَلاَ بَرَّكْت إنّ العين حق تَوضأْ له " فتوضأ عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس ؛ في رواية "اغتسل" فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه

وأطراف رجليه وداخل إزاره في قدح ثم صبّ عليه ؛ فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس .

(276/399)

وركب سعد بن أبي وَقّاص يوماً فنظرت إليه امرأة فقالت : إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكَشْحين ؛ فرجع إلى منزله فسقط ، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فغسلت له ؛ ففي هذين الحديثين أن العين حق ، وأنها تقتل كما قال (النبيّ) صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا قول علماء الأمّة ، ومذهب أهل السنة ؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة ، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمّة ، وبما يشاهد من ذلك في الوجود ؛ فكم من رجل أدخلته العين القبر ، وكم من جمل ظهير أدخلته القِدر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [البقرة : 102] .

قال الأصمعي : رأيت رجلاً عَيُونا سمع بقرة تحلب فأعجبه شَخْبها فقال : أيتهنّ هذه ؟ فقالوا : الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكتا جميعاً ، المورَى بها والمورَي عنها .

قال الأصمعيّ .

وسمعته يقول : إذا رأيتُ الشيء يعجبني وجدتُ حرارة تخرج من عينيّ .

الثالثة : واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبَرِّك ؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة ؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر : " ألا برّكت " فدلّ على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا بَرّك العائن ، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك .

والتبريك أن يقول : تبارك الله أحسن الخالقين ! اللهم بارك فيه .

الرابعة : العائن إذا أصاب بعينه ولم يُبَرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال ، ويُجبر على ذلك إنْ أباه ؛ لأن الأمر على الوجوب ، لا سيما هذا ؛ فإنه قد يخاف على المعين الهلاك ، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو ، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه .

الخامسة : من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعاً لضرره ؛ وقد قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيته ؛ وإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به ، ويكفّ أذاه عن الناس .

وقد قيل : إنه يُنفى ؛ وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال ؛ فإنه عليه السلام لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفي ، بل قد يكون الرجل الصالح عائناً ، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسّق به ؛ ومن قال : يحبس ويؤمر بلزوم بيته .

فذلك احتياط ودفع ضرر ، والله أعلم .

السادسة : روى مالك عن حميد بن قيس المكّي أنه قال : " دُخِل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بابني جعفر بن أبي طالب فقال لحاضنتهما : "ما لي أراهما ضَارِعَين" فقالت حاضنتهما : يا رسول الله ! إنه تسرع إليهما العين ، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقي لهما إلا أنا لا ندري ما يوافقك من ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استرقوا لهما فإنه لو سبق شيء القدرَ سبقته العين " وهذا الحديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عُمَيس الْخَثْعَمية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة متصلة صحاح ؛ وفيه أن الرُّقَى مما يُستَدفع به البلاء ، وأن العين تؤثر في الإنسان وتَضْرَعه ، أي تضعفه وتنحله ؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره .

ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار ، والله أعلم .

السابعة : أمر صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أُمامة العائن بالاغتسال للمَعِين ، وأمر هنا بالاسترقاء ؛ قال علماؤنا : إنما يسترقي من العين إذا لم يعرف العائن ؛ وأما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُمْ مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي من شيء أحذره عليكم ؛ أي لا ينفع الحذر مع القدر .

﴿ إنِ الحكم ﴾ أي الأمر والقضاء .

﴿ إلاَّ للَّهِ عَلَيْهِ توَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت ووثقت .

﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾

أي من أبواب شتى .

﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم .

﴿ إِلاَّ حَاجَةً ﴾ استثناء ليس من الأوّل .

﴿ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أي خاطر خطر بقلبه ؛ وهو وصيته أن يتفرّقوا ؛ قال مجاهد : خشية العين ، وقد تقدّم القول فيه .

وقيل : لئلا يرى الملك عددهم وقوّتهم فيبطش بهم حسداً أو حذراً ؛ قاله بعض المتأخرين ، واختاره النحاس ، وقال : ولا معنى للعين ها هنا .

ودلّت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه مما يخاف عليه ، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة ؛ فإن الدين النصيحة ، والمسلم أخو المسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني يعقوب .

﴿ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي بأمر دينه .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه .

وقيل : "لَذُو عِلْمٍ" أي عمل ؛ فإن العلم أوّل أسباب العمل ، فسمي بما هو بسببه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(279/399)

وقال الخازن :

قوله إخباراً عن يعقوب ﴿ وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾

وذلك أنهم لما خرجوا من عند يعقوب قاصدين مصر قال لهم يا بني لا تدخلوا يعني مدينة مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب ، وقال السدي : أراد الطرق لا الأبواب يعني من طرق متفرقة وإنما أمرهم بذلك لأنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا قد أعطوا جمالاً وقوة وامتداد قامة وكانوا أولاد رجل واحد فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم المدينة لئلا يصابوا بالعين فإن العين حق ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين (ق) .

عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن العين حق " زاد البخاري "

ونهى عن الوشم " (م) عن ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغتسلوا " عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت " كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين " أخرجه أبو داود .

قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى : قال المازري : أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقال العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد عقولهم ان كل معنى يكون مخالفاً في نفسه ولا يؤدي إلى قلب حقيقة ولا إفساد دليل فإنه من مجوزات العقول وإذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وإنكاره وقيل لا بد من فرق بين تكذيبهم بهذا وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة قال وقد زعم بعض الطبائعيين مثبتين للعين تأثيراً أن العين تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد قالوا ولا يمتنع هذا كما لا يمتنع انبعاث قوة سمية من الأفعى والعقب تتصل بالملدوغ فيهلك وإن كان غير محسوس لنا فكذا العين ، قال المازري : وهذا غير مسلم لأنا بينا في كتب علم الكلام أنه لا فاعل إلا الله تعالى وبينا فساد القول بالطبائع وبينا أن المحدث لا يفعل في غيره شيئاً ،

فإذا تقرر هذا بطل ما قالوه ثم تقول هذا المنبعث من العين إما جوهر وإما عرض فباطل أن يكون عرضاً لأنه لا يقبل الانتقال وباطل ان يكون جوهراً لأن الجواهر متجانسة فليس بعضها بأن يكون مفسداً لبعض بأولى من عكسه فبطل ما قالوه وأقرب طريقة قالها من ينتحل الإسلام منهم إن قالوا لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من عين العائن للتصل بالمعين فتتخلل مسام جسمه فيخلق الله الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السموم عادة أجراها الله وليست ضرورة ولا طبيعية ألجأ الفعل إليها قال ومذهب أهل السنة أن المعين إنما يفسد ويهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالى أجرى الله تعالى العادة بأن يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص شخصاً آخر ، وهل ثم جواهر أم لا فهذا من مجوزات العقول لا يقطع فيه بواحد من الأمرين وإنما يقطع بنفي الفعل عنها وإضافته إلى الله تعالى فمن قطع من أطباء الإسلام بانبعاث الجواهر فقد أخطأ في قطعه وإنما هو من الجائزات هذا ما يتعلق بعلم الأصول وأما

ما يتعلق بعلم الفقه فإن الشرع قد ورد بالوضوء لهذا الأمر في حديث سهل بن حنيف لما أصيب بالعين عند اغتساله رواه مالك في الموطأ .

وأما صفة وضوء العائن فمذكور في كتب شرح الحديث ومعروف عند العلماء فيطلب من هناك فليس هذا موضعه والله أعلم .

(282/399)

وقال وهب بن منبه : في قوله ﴿ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ أنه خاف أن يغتالوا لما ظهر لهم في أرض مصر من التهمة حكاه ابن الجوزي عنه وقيل إن يعقوب كان قد علم أن ملك مصر هو ولده يوسف إلا أن الله تعالى لم يأذن له في إظهاره ذلك فلما بعث أبناءه إليه قال لهم : لا تدخلوا من بابا واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى أخيه يوسف في وقت الخلوة قبل إخوته والقول الأول أصح أنه خاف عليهم من العين ثم رجع إلى علمه وفوض أمره إلى الله تعالى بقوله : ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ يعني إن كان الله قد قضى عليكم بقضاء فهو يصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين فإن المقدور كائن ولا ينفع حذر من قدر ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ يعني وما الحكم إلا لله وحده لا شريك له فيه وهذا تفويض من يعقوب في أموره كلها إلى الله تعالى : ﴿ عليه توكلت ﴾ يعني عليه اعتمدت في أموري كلها لا على غيره ﴿ وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ يعني من الأبواب المتفرقة وكان لمدينة مصر

وقيل مدينة الفرماء أربعة أبواب فدخلوا من أبوابها كلها ﴿ ما كان يغني عنهم من الله من شيء ﴾ وهذا تصديق من الله سبحانه وتعالى ليعقوب فيما قال وما أغني عنكم من الله من شيء ﴿ إلا حاجة في نفس يعقوب قضاه ﴾ هذا استثناء منقطع ليس من الأول في شيء ومعناه لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها وهو أنه أشفق عليهم إشفاق الآباء على الأبناء وذلك أنه خاف عليهم من العين أو خاف عليهم حسد أهل مصر أو خاف أن لا يردوا عليه فأشفق من هذا كله أو بعضه ﴿ وأنه ﴾ يعني يعقوب ﴿ لذو علم ﴾ يعني صاحب علم ﴿ لما علمناه ﴾ يعني لتعليمنا إياه ذلك العلم ، وقيل : معناه وإنه لذو علم للشيء الذي والمعنى أنا لما علمناه هذه الأشياء حصل له العلم بتلك الأشياء ، وقيل : إنه لذو حفظ لما علمناه وقيل إنه كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل ، وقيل : إنه لعامل بما علمناه

قال سفيان من لا يعمل بما يعلم لا يكون عالماً ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ يعني لا يعلمون ما كان يعلم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم وقال ابن عباس : لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾

البعير في الأشهر الجمل مقابل الناقة ، وقد يطلق على الناقة ، كما يطلق على الجمل فيقول : على هذا نعم البعير ، الجمل لعمومه ، ويمتنع على الأشهر لترادفه .

وفي لغة تكسر باؤه ، ويجمع في القلة على أبعرة ، وفي الكثرة على بعران .

﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

قرأ علقمة ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش ، ردت بكسر الراء ، نقل حركة الدال المدغمة

إلى الراء بعد توهم خلوها من الضمة ، وهي لغة لبني ضبة ، كما نقلت العرب في قيل وبيع .

وحكى قطرب : النقل في الحرف الصحيح غير المدغم نحو : ضرب زيد ، سموا المشدود المربوط بجملته متاعاً ، فلذلك حسن الفتح فيه وما نبغي ، ما فيه استفهامية أي : أي شيء نبغي ونطلب من الكرامة هذه أموالنا ردت إلينا قاله قتادة .

وكانوا قالوا لأبيهم : قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة ، لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته .

وقال الزجاج : يحتمل أن تكون ما نافية أي : ما بقي لنا ما نطلب .

ويحتمل أيضاً أن تكون نافية من البغي أي : ما افترينا فكذبنا على هذا الملك ، ولا في وصف إجماله وإكرامه هذه البضاعة مردودة ، وهذا معنى قول الزمخشري ما نبغي في القول ما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك والكرامة .

وقيل : معناه ما نريد منك بضاعة أخرى .

وقرأ عبد الله وأبو حيوة : ما تبغي بالتاء على خطاب يعقوب ، وروتها عائشة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ويحتمل ما في هذه القراءة الاستفهام والنفي كقراءة النون .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : ونميز بضم النون ، والجملة من قولهم هذه بضاعتنا ردت إلينا موضحة لقولهم : ما نبغي ، والجمل بعدها معطوفة عليها على تقدير : فنستظهر بها ونستعين بها ونمير أهلنا في رجوعنا إلى الملك ، ونحفظ أخانا فلا يصيبه شيء مما تخافه .

وإذا كان ما نبغي ما نتزيد وما نكذب ، جاز أن يكون ونمير معطوفاً على ما نبغي أي : لا نبغي فيما نقول ، ونمير أهلنا ونفعل كيت وكيت .

وجاز أن يكون كلاماً مبتدأ ، وكرروا حفظ الأخ مبالغة في الحض على إرساله ، ونزداد باستصحاب أخينا وسق بعير على أوساق بعيرنا ، لأنه إنما كان حمل لهم عشرة أبعرة ، ولم يحمل الحادي عشر لغيبة صاحبه .

والظاهر أنّ البعير هو من الإبل .

وقال مجاهد : كيل حمار ، قال : وبعض العرب تقول للحمار : بعير ، وهذا شاذ .

والظاهر أنّ قوله : ذلك كيل يسير ، من كلامهم لا من كلام يعقوب ، والإشارة بذلك الظاهر أنها إلى كيل بعير أي : يسير ، بمعنى قليل ، يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه ، أو يسير بمعنى سهل متيسر لا يتعاظمه .

وقيل : يسير عليه أن يعطيه .

وقال الحسن : وقد كان يوسف عليه السلام وعدهم أن يزيدهم حمل بعير بغير ثمن .

قال الزمخشري : أي ذلك مكيل قليل لا يكفينا يعني : ما يكال لهم ، فازدادوا إليه ما يكال

لأخيه .

ويجوز أن يكون من كلام يعقوب أي : حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد ،

كقوله : ذلك ليعلم انتهى .

(286/399)

ويعني أن ظاهر الكلام أنه من كلامهم ، وهو من كلام يعقوب ، كما أن قوله : ذلك ليعلم ،

ظاهره أنه من كلام امرأة العزيز ، وهو من كلام يوسف .

وهذا كله تحميل للفظ القرآن ما يبعد تحميله ، وفيه مخالفة الظاهر لغير دليل .

ولما كان يعقوب غير مختار لإرسال ابنه ، وألحوا عليه في ذلك ، علق إرساله بأخذ الموثق

عليهم وهو الحلف بالله ، إذ به تؤكد العهود وتشدد ، ولتأتنني به جواب للحلف ، لأن معنى

حتى تؤتون موثقاً : حتى تحلفوا لي لتأتنني به .

وقوله : إلا أن يحاط بكم ، لفظ عام لجميع وجوه الغلبة ، والمعنى : تعمكم الغلبة من جميع

الجهات حتى لا يكون لكم حيلة ولا وجه تخلص .

وقال مجاهد : إلا أن تهلكوا .

وعنه أيضاً : إلا أن لا تطيقوا ذلك .

وهذا الاستثناء من المفعول من أجله مراعى في قوله : لتأتنني ، وإن كان مثبتاً معنى النفي ، لأن المعنى : لا تمتنعون من الإتيان به لشيء من الأشياء إلا لأن يحاط بكم .

ومثاله من المثبت في اللفظ ومعناه النفي قولهم : أنشدك الله إلا فعلت أي : ما أنشدك إلا الفعل .

ولا يجوز أن يكون مستثنى من الأحوال مقدراً بالمصدر الواقع حالاً ، وإن كان صريح المصدر قد يقع حالاً ، فيكون التقدير : لتأتنني به على كل حال إلا إحاط بكم أي : محاطاً بكم ، لأنهم نصوا على أنّ أنْ الناصبة للفعل لا تقع حالاً وإن كانت مقدرة بالمصدر الذي قد يقع بنفسه حالاً .

فإن جعلت أنْ والفعل واقعة موقع المصدر الواقع ظرف زمان ، ويكون التقدير : لتأتنني به في كل وقت إلا إحاطة بكم أي : إلا وقت إحاطة بكم .

قلت : منع ذلك ابن الأنباري فقال : ما معناه : يجوز خروجنا صياح الديك أي : وقت صياح الديك ، ولا يجوز خروجنا أن يصيح الديك ، ولا ما يصيح الديك .

وإن كانت أنْ وما مصدريتين ، وإنما يقع ظرفا المصدر المصرح بلفظه .

وأجاز ابن جني أن تقع أنْ ظرفاً ، كما يقع صريح المصدر ، فأجاز في قول تأبط شراً :

وقالوا لها لا تنكحيه فإنه . . .

لأول فصل أن يلاقي مجمعا

وقول أبي ذؤيب الهذلي :

وتالله ما أن شهلة أم واحد . . .

بأوجد مني أن يهان صغيرها

أنْ يكون أنْ يلاقي تقديره : وقت لقائه الجمع ، وأن يكون أنْ يهان تقديره : وقت إهانة صغيرها .

فعلى ما أجازه ابن جني يجوز أن تخرج الآية ويبقى لتأتنني به على ظاهره من الإثبات ، ولا يقدر فيه معنى النفي .

وفي الكلام حذف تقديره : فأجابوه إلى ما طلبه ، فلما آتوه موثقهم قال يعقوب : الله على ما نقول من طلب الموثق وإعطائه وكيل رقيب مطلع .

ونهيه إياهم أن يدخلوا من باب واحد هو خشية العين ، وكانوا أحد عشر لرجل واحد أهل جمال وبسطة قاله : ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم ، والعين حق .

وفي الحديث : " إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر وفي التعوذ ومن كل عين لامة "

وخطب الزمخشري فقال : لأنهم كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة ، وقد أشهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والكرامة الخاصة التي لم تكن لغيرهم ، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم

من الوفود ، وأن يشار إليهم بالأصابع ، ويقال : هؤلاء أضياف الملك انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان ، وما أحقهم بالإكرام ، لأمر ما أكرمهم الملك وقربهم وفضلهم على الوافدين عليه .

فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور ، ويصيبهم ما يسوءهم ، ولذلك لم يوصهم بالتفرق في المرة الأولى ، لأنهم كانوا مجهولين معمورين بين الناس انتهى .

ويظهر أنّ خوفه عليهم من العين في هذه الكرة بحسب أنّ محبوبه فيهم وهو بنيامين الذي كان يتسلى به عن شقيقه يوسف ، ولم يكن فيهم في الكرة الأولى ، فأهمل أمرهم ولم يحتفل بهم لسوء صنيعهم في يوسف .

وقيل : نهاهم خشية أن يستراب بهم لقول يوسف : أنتم جواسيس .

وقيل : طمع فافتراقهم أن يتسمعوا خبر يوسف ، ثم نفى عن نفسه أنْ يغني عنهم شيئاً يعني : بوصاته ، إنْ الحكم إلا لله أي : هو الذي يحكم وحده وينفذ ما يريد ، فعليه وحده توكلت .

ومن حيث أمرهم أبوهم أي : من أبواب متفرقة .

روي أنهم لما ودعوا أباهم قال لهم : بلغوا ملك مصر سلامي وقولوا له : إن أبانا يصلي عليك ، ويدعو لك ، ويشكر صنيعك معنا .

وفي كتاب أبي منصور المهراني : أنه خاطبة بكتاب قرىء على يوسف فبكى .

وجواب لما قوله : ما كان يغني عنهم من الله من شيء ، وفيه حجة لمن زعم أن لما حرف وجوب لوجوب لا ، ظرف زمان بمعنى حين ، إذ لو كانت ظرف زمان ما جاز أن تكون معمولة لما بعد ما النافية .

لا يجوز حين قام زيد ما قام عمرو ، ويجوز لما قام زيد ما قام عمرو ، فدل ذلك على أنّ لما حرف يترتب جوابه على ما بعده .

وقال ابن عطية : ويجوز أنْ يكون جواب لما محذوفاً مقدراً ، ثم يخبر عن دخولهم أنه ما كان يغني .

ومعنى الجملة : لم يكن في دخولهم متفرقين دفع قدر الله الذي قضاه عليهم من تشريفهم وافتضاحهم بذلك ، وأخذ أخيهم بوجدان الصاع في رحله ، وتزايد مصيبته على أبيهم ، بل كان إرباً ليعقوب قضاه وتطييباً لنفسه .

وقيل : معنى ما كان يغني عنهم من الله من شيء ، ما يرد عنهم قدراً لأنه لو قضى أنْ يصيبهم عين لإصابتهم متفرقين أو مجتمعين ، وإنما طمع يعقوب أن تصادف وصيته قدر

السلامة ، فوصى وقضى بذلك حاجة نفسه في أن بقي يتنعم برجائه أن يصادف وصيته القدر في سلامتهم .

وإنه لذو علم يعني لقوله : إن الحكم إلا لله ، وما بعده وعلمه بأنّ القدر لا يدفعه الحذر .

وهذا ثناء من الله على يعقوب عليه السلام .

وقال قتادة : لعامل بما علمناه .

وقال سفيان : من لا يعمل لا يكون عالماً ، ولفظة ذو علم لا تساعده على هذا التفسير وإن كان صحيحاً في نفسه .

وقرأ الأعمش : مما علمناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(289/399)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾

﴿ وَقَالَ ﴾ ناصحاً لهم لمّا أزمع على إرسالهم جميعاً ﴿ الذين ءامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ ﴾ مصر ﴿ مِن بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ نهاهم عن ذلك حِذاراً من إصابة العين ، فإنهم كانوا ذوي جمالٍ وشارةٍ حسنة وقد كانوا تجمّلوا في هذه الكرّة أكثرَ مما في المرة الأولى وقد اشتهروا في

مصر بالكرامة والزلفى لدى المَلِك بخلاف النَّوْبة الأولى فكانوا مَئِنَّةً لدنوّ كل ناظر وطُموح كل طامح ، وإصابة مُعْيِن بتقدير العزيز الحكيم ليست مما يُنكر وقد ورد عنه عليه السلام : " إن العينَ حق " وعنه عليه السلام : " إنَّ العينَ لتُدخِلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القِدْرَ " وقد كان عليه السلام يعوّذ الحسنين رضي الله عنهما بقوله : " أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطانٍ وهامّة ومن كل عين لامّة " وكان عليه السلام يقول : "كان أبوكما يعوّذ بها إسماعيلَ وإسحاقَ عليهم السلام " رواه البخاري في صحيحه وقد شهدت بذلك التجاربُ .

(290/399)

ولمّا لم يكن عدمُ الدخول من باب واحد مستلزماً للدخول من أبواب متفرّقة وكان في دخولهم من بابين أو ثلاثةٍ بعضُ ما في الدخول من باب واحد من نوع اجتماعٍ مصحّحٍ لوقوع المحذور قال : ﴿ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ بياناً لِما المرادُ بالنهي وإنما لم يكتف بهذا الأمر مع كونه مستلزماً له إظهاراً لكمال العنايةِ وإيذاناً بأنه المرادُ بالأمر المذكور لا تحقيقاً لشيء آخر ﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ ﴾ أي لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿ مّنَ الله مِن شَىْء ﴾ أي شيئاً مما قضى عليكم فإن الحذرَ لا يمنع القدَر ولم يرد به عليه السلام إلغاءَ الحذر بالمرة كيف لا وقد قال عز قائلاً : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ وقال : ﴿

خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ بل أراد بيانَ أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المرادَ لا محالة بل هو تدبيرٌ في الجملة وإنما التأثيرُ وترتُّبُ المنفعةِ عليه من العزيز القدير وأن ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانةٌ بالله تعالى وهربٌ منه إليه .

﴿ إِنِ الحكم ﴾ مطلقاً ﴿ أَلاَ لِلَّهِ ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء ﴿ عَلَيْهِ ﴾ لا على أحد سواه ﴿ تَوَكَّلْتُ ﴾ في كل ما آتي وأذر ، وفيه دلالةٌ على أن ترتيبَ الأسباب غيرُ مُخلَ بالتوكل ﴿ وَعَلَيْهِ ﴾ دون غيره ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ جُمع بين الحرْفين في عطف الجملةِ على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مقيّداً بالواو عطف فعلٍ غيرِه من تخصيص التوكل بالله عز وجل على فعل نفسه وبإلقاء سببية فعلِه لكونه نبياً لفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنوه دخولاً أولياً وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتِهم وإرشادِهم إلى التوكل فيما هم بصدده على الله عز وجل غيرَ مغترّين بما وصاهم من التدبير .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾

من الأبواب المتفرقة من البلد ، قيل : كانت له أربعة أبوابٍ فدخلوا منها وإنما اكتُفي بذكره لاستلزامه الانتهاءَ عما نُهوا عنه ﴿ مَا كَانَ ﴾ ذلك الدخولُ ﴿ يُغْنِى ﴾ فيما سيأتي

عند وقوعِ ما وقع ﴿ عَنْهُمْ ﴾ عن الداخلين لأن المقصودَ به استدفاعُ الضرر عنهم ، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل لتحقيق المقارنةِ الواجبةِ بين جوابِ لمّا ومدخولِه فإن عدمَ الإغناءِ بالفعل إنما يتحقق عند نزولِ المحذورِ لا وقت الدخول ، وإنما المتحققُ حينئذ ما أفاده الجمعُ المذكور من عدم كونِ الدخولِ المذكورِ مغْنياً فيما سيأتي فتأمل ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ من جهته ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ أي شيئاً مما قضاه مع كونه مَظِنةً لذلك في بادي الرأي حيث وصّاهم به يعقوبُ عليه السلام وعمِلوا بموجبه واثقين بجدواه من فضل الله تعالى ، فليس المرادُ بيانَ سببيةِ الدخولِ المذكورِ لعدم الإغناءِ كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ فإن مجيءَ النذير هناك سببٌ لزيادة نفورِهم بل بيانُ عدم سببيته للإغناء مع كونها متوقعةً في بادي الرأي كما في قولك : حلف أن يُعطيَني حقي عند حلولِ الأجلِ فلما حل لم يُعطني شيئاً ، فإن المرادَ بيانُ عدمِ سببيةِ حلولِ الأجلِ للإعطاء مع كونها مرجُوّةً بموجب الحِلف لا بيانُ سببيته لعدم الإعطاءِ فالمآلُ بيانُ عدمِ ترتبِ الغرضِ المقصود على التدبيرِ المعهودِ مع كونه مرجوّ الوجود لا بيانُ ترتبِ عدمِه عليه ، ويجوز أن يراد ذلك أيضاً بناءً على ما ذكره عليه السلام في تضاعيف وصيّته من أنه لا يُغني عنهم من الله شيئاً فكأنه قيل : ولمّا فعلوا ما وصاهم به لم يُفِدْ ذلك شيئاً ووقع الأمر حسبما قال عليه السلام فلقُوا ما لقُوا فيكون من باب وقوعِ المتوقع فتأمل .

﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أي ولكنْ حاجةً وحرازةً كائنة ﴿ فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أي أظهرها ووصّاهم بها دفعاً للخاطرة غيرَ معتقدٍ أن للتدبير تأثيراً في تغيير التقديرِ ، وقد جعل ضميرُ الفاعلِ في قضاها للدخول على معنى أن ذلك الدخولَ قضى حاجةً في نفس يعقوبَ وهي إرادته أن يكون دخولُهم من أبواب متفرقةٍ ، فالمعنى ما كان ذلك الدخولُ يغني عنهم من جهة الله تعالى شيئاً ولكن قضى حاجةً حاصلةً في نفس يعقوبَ بوقوعه حسب إرادتِه فالاستثناءُ منقطعٌ أيضاً وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدةٌ سوى دفعِ الخاطرة ، وأما إصابةُ العين فإنما لم تقع لكونها غيرَ مقدّرةٍ عليهم لا لأنها اندفعت بذلك مع كونها مقضيّةً عليهم ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ ﴾ جليلٍ ﴿ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ لتعليمنا إياه بالوحي ونصْبِ الأدلةِ لم يعتقِدْ أن الحذرَ يدفع القَدر وأن التدبيرَ له حظٌّ من التأثير حتى يتبينَ الخللُ في رأيه عند تخلفِ الأثر أو حيث بتّ القولَ بأنه لا يغني عنهم من الله شيئاً فكان الحالُ كما قال . وفي تأكيد الجملةِ بإن واللامِ وتنكيرِ العلْم وتعليلِه بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأنِ يعقوبَ عليه السلام وعلوِّ مرتبة علمِه وفخامته ما لا يخفى ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أسرارَ القدر ويزعمون أنه يغني عنه الحذرُ ، وأما ما يقال من أن المعنى لا يعلمون إيجابَ الحذر مع أنه لا يغني شيئاً من القدر فيأباه مقام بيان تخلّفِ المطلوب عن المبادىء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾

﴿ وَقَالَ ﴾ ناصحاً لهم لما عزم على إرسالهم جميعاً ﴿ الذين ءامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ ﴾ مصر ﴿ مِن بَابٍ وٰحِدٍ ﴾ نهاهم عليه السلام عن ذلك حذراً من إصابة العين فإنهم كانوا ذوي جمال وشارة حسنة وقد اشتهروا بين أهل مصر بالزلفى والكرامة التي لم تكن لغيرهم عند الملك فكانوا مظنة لأن يعانوا إذا دخلوا كوكبة واحدة ، وحيث كانوا مجهولين مغمورين بين الناس لم يوصهم بالتفرق في المرة الأولى ، وجوز أن يكون خوفه عليه السلام عليهم من العين في هذه الكرة بسبب أن فيهم محبوبه وهو بنيامين الذي يتسلى به عن شقيقه يوسف عليه السلام ولم يكن فيهم في المرة الأولى فأهمل أمرهم ولم يحتفل بهم لسوء صنيعهم في يوسف ، والقول أنه عليه السلام نهاهم عن ذلك أن يستراب بهم لتقدم قول أنتم جواسيس ليس بشيء أصلاً ، ومثله ما قيل : إن ذلك كان طمعاً أن يتسمعوا خبر يوسف عليه السلام ؛ والعين حق كما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصح أيضاً بزيادة " ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين " و" إذا استغسلتم فاغتسلوا " وقد ورد أيضاً : "إن العين

لتدخل الرجل القبر والجمل القدر" وقد كان صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسنين رضي الله عنهما بقوله : " أعوذ بكلمات الله تعالى التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة " وكان يقول : "كان أبوكما يعوذ بهما إسماعيل وإسحق عليهم السلام "

ولبعضهم في هذا المقام كلام مفصل مبسوط لا بأس بإطلاعك عليه ، وهو أن تأثير شيء في آخر إما نفساني أو جسماني وكل منهما إما في نفساني أو جسماني ، فالأنواع أربعة يندرج تحتها ضروب الوحي والمعجزات والكرامات والإلهامات والمنامات وأنواع السحر والأعين والنيرنجات ونحو ذلك .

أما النوع الأول : أعني تأثير النفساني في مثله فكتأثير المبادى العالية في النفوس الإسلامية بإفاضة العلوم والمعارف ، ويندرج في ذلك صنفان :

(294/399)

أحدهما : ما يتعلق بالعلم الحقيقي بأن يلقى إلى النفس المستعدة لذلك كمال العلم من غير واسطة تعليم وتعلم حتى تحيط بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية كما ألقى إلى نبينا صلى الله عليه وسلم علوم الأولين والآخرين مع أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يتلوه من قبل كتاباً ولا يخطه بيمينه .

وثانيهما : ما يتعلق بالتخيل القوي بأن يلقى إلى من يكون مستعداً له ما يقوى به على تخيلات الأمور الماضية والإطلاع على المغيبات المستقبلة ، والمنامات الإلهامات داخلة أيضاً تحت هذا النوع ، وقد يدخل تحته نوع من السحر وهو تأثير النفوس البشرية القوية فيها قوتا التخيل والوهم في نفوس بشرية أخرى ضعيفة فيها ها تان القوتان كنفوس البله والصبيان والعوام الذين لم تقوقوتهم العقلية فتتخيل ما ليس بموجود في الخارج موجوداً فيه وما هو موجود فيه على ضد الحال الذي هو عليها ؛ وقد يستعان في هذا القسم من السحر بأفعال وحركات يعرض منها للحس حيرة وللخيال دهشة ومن ذلك الاستهتار في الكلام والتخليط فيه .

وأما النوع الثاني : أعني تأثير النفساني في الجسماني فكتأثير النفوس الإنسانية في الأبدان من تغذيتها وإنمائها وقيامها وقعودها إلى غير ذلك ومن هذا القبيل صنف من المعجزات وهو ما يتعلق بالقوة المحركة للنفس بأن تبلغ قوتها إلى حيث تتمكن من التصرف في العالم تمكنها من التصرف في بدنها كتدمير قوم بريح عاصفة أو صاعقة أو زلزلة أو طوفان وربما يستعان فيه بالتضرع والابتهال إلى المبادي العالية كأن يستسقى للناس فيسقون ويدعو

عليهم فيهلكون ولهم فينجون ، ويندرج في هذا صنف من السحر أيضاً كما في بعض النفوس الخبيثة التي تقوى فيها القوة الوهمية بسبب من الأسباب كالرياضة والمجاهدة مثلاً فيسلطها صاحبها على التأثير فيمن أراده بتوجه تام وعزيمة صادقة إلى أن يحصل المطلوب الذي هو تأثره بنحو مرض وذبول جسم ويصل ذلك إلى الهلاك ، وأما النوع الثالث : وهو تأثير الجسماني في الجسماني فكتأثير الأدوية والسموم في الأبدان ويدخل فيه أنواع النيرنجات والطلسمات فإنهما بتأثير بعض المركبات الطبيعية في بعض بسبب خواص فيها كجذب المغناطيس للحديد واختطاف الكهرباء التبن ، وقد يستعان في ذلك بتحصين المناسبات بالأجرام العلوية المؤثرة في عالم الكون والفساد كما يشاهد في أشكال موضوعة في أوقات مخصوصة على أوضاع معلومة في مقابلة بعض الجهات ومسامتة بعض الكواكب يستدفع بها كثير من أذية الحيوانات .

وأما النوع الرابع : وهو تأثير الجسماني في النفساني فكتأثير الصور المستحسنة أو المستقبحة في النفوس الإنسانية من استمالتها إليها وتنفيرها عنها وعد من ذلك تأثير أصناف الأغاني والرقص والملاهي في بعض النفوس وتأثير البيان فيمن له ذوق كما يشير إليه قوله عليه الصلاة السلام : "إن من البيان لسحراً" إذا تمهد هذا فاعلم أنهم اختلفوا في إصابة العين فأبو علي الجبائي أنكرها إنكاراً بليغاً ولم يذكر لذلك شبهة فضلاً عن حجة

وأثبتها غيره من أهل السنة.

والمعتزلة.

(296/399)

وغيرهم إلا أنهم اختلفوا في كيفية ذلك فقال الجاحظ: إنه يمتد من العين أجزاء فتصل بالشخص المستحسن فتؤثر فيه تأثير السم في الأبدان فالتأثير عنده من تأثير الجسماني في الجساني.

وضعف ذلك القاضي بأنه لو كان الأمر كما قال لوجب أن تؤثر العين في الشخص الذي لا يستحسن كتأثيرها فيما يستحسن.

وتعقبه الإمام بأنه تضعيف ضعيف، وذلك لأنه إذا استحسن العائن شيئًا فأما أن يحب بقاءه كما استحسن ولده مثلاً وإما أن يكره ذلك كما إذا أحس بذلك المستحسن عند عدوه الحاسد هوله، فإن كان الأول فإنه يحصل عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله وهو يوجب انحصار الروح في داخل القلب، فحينئذ يسخن القلب والروح جداً ويحصل في الروح الباصر كيفية قوية مسخنة، وإن كان الثاني فإنه يحصل عند ذلك الاستحسان هم شديد وحزن عظيم بسبب حصول ذلك المستحسن لعدوه، وذلك

أيضاً يوجب انحصار الروح وحصول الكيفية القوية المسخنة ، وفي الصورتين يسخن شعاع العين فيؤثر ولا كذلك في عدم الاستحسان فبان الفرق ، ولذلك السبب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العائن بالوضوء ومن أصيب بالاغتسال اه .

وما أشار إليه من أن العائن قد يصيب ولده مثلاً مما شهدت له التجربة ، لكن أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ، وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : " العين حق يضرها الشيطان وحسد ابن آدم " وظاهره يقتضي خلاف ذلك ، وأما ما ذكره من الأمر بالوضوء والاغتسال فقد جاء في بعض الروايات ، وكيفية ذلك أن يغسل العائن وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره أي ما يلي جسده من الإزار ، وقيل وركيه : وقيل : مذاكيره ويصب الغسالة على رأس المعين وقد مر "إذا استغسلتم فاغسلوا" وهو خطاب للعائنين أي إذا طلب منكم ما اعتيد من الغسل فافعلوا والأمر للندب عند بعض ، وقال الماوردي تبعاً لجماعة : للوجوب فيجب على العائن أن يغسل ثم يعطي الغسالة للمعين لأنه الذي يقتضيه ظاهر الأمر ولأنه قد جرب ذلك وعلم البرء به ففيه تخليص من الهلاك كاطعام المضطر ، وذكر أن ذلك أمر تعبدي وهو

مخالف لما أشار إليه الإمام من كون الحكمة فيه تبريد تلك السخونة، وهو مأخوذ من كلام ابن القيم حيث قال في تعليل ذلك: لأنه كما يؤخذ درياق لسم الحية من لحمها يؤخذ علاج هذا الأمر من أثر الشخص العائن، وأثر تلك العين كشعلة نار أصابت الجسد ففي الاغتسال إطفاء لتلك الشعلة، وهو على علاته أوفى من كلام الإمام.

ويرد على ما قرره في الانتصار للجاحظ أنه لا يسد عنه باب الاعتراض على ما ذكره في كيفية إصابة العين، إذ يرد عليه ما ثبت من أن بعض العائنين قد يصيب ما يوصف له ويمثل ولو كان بينه وبينه فراسخ، والتزام امتداد تلك الأجزاء إلى حيث المصاب مما لا يكاد يقبل كما لا يخفى على ذلك عين.

وقال الحكماء واختاره بعض المحققين من أهل السنة: إن ذلك من تأثير النفساني بالجسماني وبنوه على أنه ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسياً محضاً كما يدل عليه أن اللوح الذي يكون قليل عرض إذا كان موضوعاً على الأرض يقدر كل إنسان على المشي عليه ولو كان موضوعاً بين جدارين مرتفعين لم يقدر كل أحد على المشي عليه

وما ذاك إلا لأن الخوف من السقوط منه يوجب السقوط وأيضاً إن الإنسان إذا تصور أن فلاناً مؤذياً له حصل في قلبه غضب وتسخن مزاجه ، فمبدأ ذلك ليس إلا التصور النفساني بل مبدأ الحركات البدنية مطلقاً ليس إلا التصورات النفسانية ، ومتى ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان ، وأيضاً جواهر النفوس مختلفة فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث تؤثر في تغير بدن حيوان آخر بشرط أن تراه أو ترى مثاله على ما نقل وتتعجب منه ، ومتى ثبت أن ذلك غير ممتنع وكانت التجارب شاهدة بوقوعه وجب القول به من غير تلعثم ، ولأن وقوع ذلك أكثرى عند أعمال العين والنظر بها إلى الشيء نسب التأثير إلى العين وإلا فالمؤثر إنما هو النفس ، ونسبة التأثير إليها كنسبة الإحراق إلى النار والري إلى الماء ونحو ذلك ، والفاعل للآثار في الحقيقة هو الله عز سلطانه بالإجماع ، لكن جرت عادته تعالى على خلقها بالأسباب من غير توقف عقلي عليها كما يظن جهلة الفلاسفة على ما نقل عن السلف أو عند الأسباب من غير مدخلية لها بوجه من الوجوه على ما شاع عن الأشعري .

فمعنى قوله عليه الصلاة والسلام : "العين حق" أن اصابة النفس بواسطتها أمر كائن مقضى به في الوضع الالهي لا شبهة في تحققه وهو كسائر الآثار المشاهدة لنحو النار والماء والأدوية مثلاً .

وأنت تعلم أن مدار كل شيء المشيئة الإلهية فما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ يكن ، وحكمة خلق الله تعالى التأثير في مسألة العين أمر مجهول لنا .

وزعم أبو هاشم .

وأبو القاسم البلخي أن ذلك مما يرجع إلى مصلحة التكليف قالا : لا يمتنع أن تكون العين حقاً على معنى أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحساناً كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله تعالى ذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقاً به ، ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة وعدل عن الإعجاب وسأل ربه سبحانه بقاء ذلك مما تغير المصلحة فيبقيه الله تعالى ولا يفنيه وهو كما ترى ، ثم ان ما أشار إليه من نفع ذكر الله تعالى والالتجاء إليه سبحانه حق ، فقد صرحوا بأن الأدعية والرقي من جملة الأسباب لدفع أذى العين بل إن من ذلك ما يكون سبباً لرد سهم العائن إليه .

فقد أخرج ابن عساكر أن سعيد الساحي قيل له : احفظ ناقتك من فلان العائن فقال : لا سبيل له إليها فعانها فسقطت تضطرب فأخبر الساحي فوقف عليها فقال : حبس حابس وشهاب قابس رددت عين العائن عليه وعلى أحب الناس إليه وعلى كبده وكليتيه

رشيق وفي ماله يليق

﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : 3] الآية فخرجت حدقتا العائن وسلمت الناقة .

ويدل على نفع الرقية من العين مشروعيتها كما تدل عليه الآثار ، وقد جاء في بعضها أنه صلى الله عليه وسلم قال : " لا رقية إلا من عين أو حمة " والمراد منه أنه لا رقية أولى وأنفع من رقية العين والحمة وإلا فقد رقى صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه من غيرهما .

وينبغي لمن علم من نفسه أنه ذو عين أن لا ينظر إلى شيء نظر إعجاب وأن يذكر الله تعالى عند رؤية ما يستحسن .

فقد ذكر غير واحد من المجربين أنه إذا فعل ذلك لا يؤثر ، ونقل الأجهوري أنه يندب أنه يعوذ المعين فيقول اللهم بارك فيه ولا تضره ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، وفي تحفة المحتاج أن من أدويتها أي العين المجربة التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بها أن يتوضأ العائن إلى آخر ما ذكرناه آنفاً وأن يدعو للمعين وأن يقول المعين ما شاء الله لا قوة إلا بالله حصنت نفسي بالحي القيوم الذي لا يموت أبداً ودفعت عنها السوء بألف لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويسن عند

القاضي لمن رأى نفسه سليمة وأحواله معتدلة أن يقول ذلك .

وفي شرح مسلم عن العلماء أنه على السلطان منع من عرف بذلك من مخالطة الناس ويرزقه من بيت المال إن كان فقيراً فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذي منعه عمر رضي الله تعالى عنه من مخالطة الناس .

ورأيت لبعض أصحابنا أيضاً القول بندب ذلك ، وأنه لا كفارة على عائن قيل : لأن العين لا تعد مهلكاً عادة على أن التأثير يقع عندها لا بها حتى بالنظر للظاهر ، وهذا بخلاف الساحر فإنهم صرحوا بأنه يقتل إذا أقر أن سحره يقتل غالباً .

ونقل عن المالكية أنه لا فرق بين الساحر والعائن فيقتلان إذا قتلا ؛ ثم إن العين على ما نقل عن الرازي لا تؤثر ممن له نفس شريفة لما في ذلك من الاستعظام للشيء .

(301/399)

وفيما أخرجه الإمام أحمد في مسنده ما يؤيد المدعى ، واعترض بما رواه القاضي أن نبياً استكثر قومه فمات منهم في ليلة مائة ألف فشكا ذلك إلى الله تعالى فقال له سبحانه وتعالى : "إنك ستكثرتهم فعنتهم هلا حصنتهم إذا استكثرتهم فقال : يا رب كيف أحصنهم ؟ قال : تقول حصنتكم بالحي القيوم إلى آخر ما تقدم" وقد يجاب بأن ما ذكر الرازي هو

الأغلب بل يتعين تأويل هذا إن صح بأن ذلك النبي عليه السلام لما غفل عن الذكر عند الاستكثار عوتب فيهم ليسأل فيعلم فهو كالإصابة بالعين لا أنه عان حقيقة هذا والله تعالى أعلم ، ثم إنه عليه السلام لم يكتف بالنهي عن الدخول من باب واحد بل ضم إليه قوله : ﴿ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ بيانا للمراد به وذلك لأن عدم الدخول من باب واحد غير مستلزم للدخول من أبواب متفرقة وفي دخولهم من بابين أو ثلاثة بعض ما في الدخول من باب واحد من نوع اجتماع مصحح لوقوع المحذور ، وإنما لم يكتف بهذا الأمر مع كونه مستلزماً للنهي السابق إظهاراً لكمال العناية وبه وإيذاناً بأنه المراد بالأمر المذكور لا تحقيق شيء آخر ﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ ﴾ أي لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿ مّنَ الله مِن شَىْء ﴾ أي من قضائه تعالى عليكم شيئاً فإنه لا يغني حذر من قدر ، ولم يرد بهذا عليه السلام كما قيل الغاء الحذر بالمرة كيف وقد قال سبحانه :

﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : 71] وقال عز قائلاً : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير وتشبث بالأسباب العادية التي لا تؤثر إلا بإذنه تعالى وإن ذلك ليس بمدافعة للمقدر بل

هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه ﴿ إِنِ الحكم ﴾ أي ما الحكم مطلقاً ﴿ أَلَا لِلَّهِ ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء ﴿ عَلَيْهِ ﴾ سبحانه دون غيره ﴿ تَوَكَّلْتُ ﴾ في كل ما آتى به وأذر ، وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير مخل بالتوكل ، وفي الخبر "اعقلها وتوكل" .

﴿ وَعَلَيْهِ ﴾ عز سلطانه دون غيره ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ أي المريدون للتوكل ، قيل : جمع بين الواو والفاء في عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص ليفيد بالواو عطف فعل غيره من تخصيص التوكل بالله تعالى شأنه على فعل نفسه وبالفاء سببية فعله لكونه نبياً لفعل غيره من المقتدين به ، وهي على ما صرح به بعضهم زائدة حيث قال : ولا بد من القول بزيادة الفاء وإفادتها السببية ، ويلتزم أن الزائد قد يدل على معنى غير التوكيد ، وذكر أنه لو اكتفى بالفاء وحدها وقيل : فعليه فليتوكل الخ أفاد تسبب الاختصاص لا أصل التوكل وهو المقصود ، وكل ذلك لا يخلو عن بحث .

واختار بعضهم أنه جيىء بالفاء إفادة للتأكيد فقط كما هو الأمر الشائع في الحروف الزائدة فتدبر ، وأياً ما كان فيدخل بنوه عليه السلام في عموم الأمر دخولاً أولياً ، وفي هذا الأسلوب ما لا يخفى من حسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكل فيما هم بصدده على الله تعالى شأنه غير معتمدين على ما وصاهم به من التدبير .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾

من الأبواب المتفرقة من البلد ، قيل : كانت له أربعة أبواب فدخلوا منها ، وإنما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه ، وحاصله لما دخلوا متفرقين ﴿ مَا كَانَ ﴾ ذلك الدخول ﴿ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللهِ ﴾ من جهته سبحانه ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ أي شيئاً مما قضاه عليهم جل شأنه ، والجمل قيل : جواب ﴿ لَمَّا ﴾ والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لتحقق المقارنة الواجبة بين جواب ﴿ لَمَّا ﴾ ومدخولها ، فإن عدم الاغناء بالفعل إنما يتحقق عند نزول المحذور لا وقت الدخول وإنما المتحقق حينئذ ما أفاده الجمع المذكورة من عدم كون الدخول مغنياً فيما سيأتي ، وليس المراد بيان سببية الدخول المذكور لعدم الإغناء كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إلا نفورا ﴾ [فاطر : 42] فإن مجيء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل بيان عدم سببيته للاغناء مع كونها متوقعة في بادىء الرأي حيث أنه وقع حسبما وصاهم به عليه السلام ، وهو نظير قولك : حلف أن يعطيني حقي عند حلول الأجل فلما حل لم يعطيني شيئاً ، فإن المراد بيان عدم سببية حلول الأجل للإعطاء مع كونها مرجوة بموجب الحلف لا بيان سببيته لعدم الإعطاء ، فالمآل بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجو الوجود لا بيان ترتب عدمه عليه

، ويجوز أن يراد ذلك أيضاً بناء على ما ذكره عليه السلام في تضاعيف وصيته من أنه لا يغني عنهم تدبيره من الله تعالى شيئاً فكأنه قيل: ولما فعلوا ما وصاهم به لم يفدهم ذلك شيئاً ووقع الأمر حسبما قال عليه السلام فلقوا ما لقوا فيكون من باب وقوع المتوقع اه، وإلى كون الجواب ما ذكر ذهب أبو حيان وقال: إن فيه حجة لمن زعم أن لما حرف وجوب لوجوب لا ظرف زمان بمعنى حين إذ لو كان كذلك ما جاز أن يكون معمولاً لما بعد ﴿ فِى مَا ﴾ النافية، ولعل من يذهب إلى ظرفيتها يجوز ذلك بناء على أن الظرف يتوسع فيه ما لا يتوسع في غيره،

(304/399)

وقال أبو البقاء: في جواب (لما) وجهان.

أحدهما أنه ﴿ آوى ﴾ [يوسف: 69] وهو جواب (لما) الأولى والثانية كقولك: لما جئتك وكلمتك أجبتني وحسن ذلك أن دخولهم على يوسف عليه السلام تعقب دخولهم من الأبواب.

والثاني أنه محذوف أي امتثلوا أو قضوا حاجة أبيهم وإلى الوجه الأخير ذهب ابن عطية أيضاً ولا يخفى أنه عليه وعلى ما قبله ترتفع غائلة توجيه أمر الترتب، وما أشار إليه

صاحب القيل في ثاني وجهيه هو الذي يقتضيه ظاهر كلام كثير من المفسرين حيث ذكروا أن هذا منه تعالى تصديق لما أشار إليه يعقوب عليه السلام في قوله :

﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [يوسف : 67] .

واعترض القول بعدم ترتب الغرض على التدبير بأن الغرض ليس إلا دفع إصابة العين لهم وقد تحقق بدخولهم متفرقين وهو وارد أيضاً على ما ذكر في الوجه الأخير كما لا يخفى .

وأجيب بأن المراد بدفع العين أن لا يمسهم سوء ما ، وإنما خصت إصابة العين لظهورها ، وقيل : إن ما أصابهم من العين أيضاً فلم يترتب الغرض على التدبير بل تخلف ما أراده عليه السلام عن تدبيره ، وتعقب بأنه تكلف ، واستظهر أن المراد أنه عليه السلام خشى عليهم شر العين فأصابهم شر أخر لم يخظر بباله فلم يفد دفع ما خافه شيئاً ، وحينئذ يدعي أن دخولهم من حيث أمرهم أبوهم كان مفيداً لهم من حيث أنه دفع العين عنهم إلا أنه لما أصابهم ما أصابهم من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك مع أخيهم بوجدان الصواع في رحله وتضاعف المصيبة على أبيهم لم يعد ذلك فائدة فكأن دخولهم لم يفدهم شيئاً .

واعترض أيضاً ما ذكر في توجيه الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل بأن المشهور أن الغرض منه إفادة الاستمرار كما مرت الإشارة إليه غير مرة وظاهر ذلك لا يدل عليه ، قيل : وإذا كان الغرض هنا ذاك احتمل الكلام وجهين نفى استمرار الاغناء واستمرار نفيه وفيه تأمل متأمل جدا .

هذا وما أشرنا إليه من زيادة ﴿ مِنْ ﴾ في المنصوب هو أحد وجهين ذكرهما الرازي في الآية .

ثانيهما جواز كونها زائدة في المرفوع وحينئذ ليس في الكلام ضمير الدخول كما لا يخفى ، قيل : ولو اعتبر على هذا الوجه كون مرفوع ﴿ كَانَ ﴾ ضمير الشأن لم يبعد أي ما كان الشأن يغني عنهم من الله تعالى شيء ﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناء منقطع أي ولكن حاجة ﴿ فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أي أظهرها ووصاهم بها دفعا للخطرة غير معتقد أن للتدبير تأثيراً في تغيير التقدير ، والمراد بالحاجة شفقته عليه السلام وحرازته من أن يعانوا . وذكر الراغب أن الحاجة إلى الشيء الفقر إليه مع محبته وجمعه حاج وحاجات وحوائج ، وحاج يحوج احتاج ثم ذكر الآية .

وأنكر بعضهم مجيء الحوائج جمعاً لها وهو محجوج بوروده في الفصيح ، وفي التصريح باسمه عليه السلام إشعار بالتعطف والشفقة والترحم لأنه عليه السلام قد اشتهر بالحزن والرقة ، وجوز أن يكون ضمير ﴿ قَضَاهَا ﴾ للدخول على معنى أن ذلك الدخول قضى حاجة في نفس يعقوب عليه السلام وهي إرادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرقة ، فالمعنى ما

كان ذلك الدخول يغني عنهم من جهة الله تعالى شيئاً لكن قضى حاجة حاصلة في نفس يعقوب لوقوعه حسب إرادته ، والاستثناء منقطع أيضاً ، وجملة ﴿ قَضَاهَا ﴾ صفة ﴿ حَاجَةً ﴾ وجوز أن يكون خبر ﴿ إِلا ﴾ لأنها بمعنى لكن وهي يكون لها اسم وخبر فإذا أولت بها فقد يقدر خبرها وقد يصرح به كما نقله القطب.

وغيره عن ابن الحاجب ، وفيه أن عمل إلا بمعنى لكن عملها مما لم يقل به أحد من أهل العربية.

وجوز الطيبي كون الاستثناء متصلاً على أنه من باب.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

فالمعنى ما أغنى عنهم ما وصاهم به أبوهم شيئاً إلا شفقته التي في نفسه ، ومن الضرورة أن شفقة الأب مع قدر الله تعالى كالهباء فاذن ما أغنى عنهم شيئاً أصلاً ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ ﴾ جليل ﴿ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي لتعليمنا إياه بالوحي ونصب الأدلة حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر حتى يتبين الخلل في رأيه عند تخلف الأثر أو حيث بت القول بأنه لا يغنى عنهم من الله تعالى شيئاً فكانت الحال كما قال ، فاللام للتعليل و ﴿ مَا ﴾ مصدرية والضمير

المنصوب ليعقوب عليه السلام ، وجوز كون ﴿ مَا ﴾ موصولاً اسمياً والضمير لها واللام صلة علم والمراد به الحفظ أي إنه لذو حفظ ومراقبة للذي علمناه إياه ، وقيل : المعنى إنه لذو علم لفوائد الذي علمناه وحسن إثارة ، وهو إشارة إلى كونه عليه السلام عاملاً بما علمه وما أشير إليه أولا هو الأولى ، ويؤيد التعليل قراءة الأعمش ﴿ مّمَّا علمناه ﴾ وفي تأكيد الجملة بان واللام وتنكير ﴿ عِلْمٍ ﴾ وتعليله بالتعليم المسند إلى ضمير العظة من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ شر القدر ويزعمون أنه يغني عنه الحذر ، وقيل : المراد ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ إيجاب الحذر مع أنه لا يغني شيئاً من القدر .

وتعقب بأنه يأباه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادىء .

وقيل : المراد ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ أن يعقوب عليه السلام بهذه المثابة من العلم ، ويراد بأكثر الناس حينئذ المشركون فانهم لا يعلمون أن الله تعالى كيف ارشد أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة ، وفيه أنه بمعزل عما نحن فيه .

وجعل المفعول سر القدر هو الذي ذهب إليه غير واحد من المحققين وقد سعى في بيان المراد منه وتحقيق إلغاء الحذر بعض أفاضل المتأخرين المتشبثين بأذيال الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم فقال : إن لنا قضاء وقدراً وسر قدر وصر سره ، وبيانه أن الممكنات الموجودة ، وإن كانت حادثة باعتبار وجودها العيني لكنها قديمة باعتبار وجودها العلمي وتسمى بهذا الاعتبار مهيئات الأشياء والحروف العالية والأعيان الثابتة ، ثم أن تلك الأعيان الثابتة صور نسبية وظلال شؤنات ذاتية لحضرة الواجب تعالى ، فكما أن الواجب تعالى والشؤون الذاتية له سبحانه مقدسة عن قبول التغير أزلا وأبداً كذلك الأعيان الثابتة التي هي ظلالها وصورها يمتنع عليها أن تتغير عن الأحكام التي هي عليها في حدّ نفسها ، فالقضاء هو الحكم الكلي على أعين الموجودات بأحوال جارية وأحكام طارئة عليها من الأزل إلى الأبد ، والقدر تفصيل هذا الحكم الكلي بتخصيص إيجاد الأعيان وإظهارها بأوقات وأزامن يقتضي استعدادها الوقوع فيها وتعليق كل حال من أحوالها بزمان معين وسبب مخصوص ، وسر القدر هو أن يمتنع أن يظهر عين من الأعيان إلا على حسب ما يقتضيه استعداده ، وسر القدر هو أن تلك الاستعدادات أزلية غير مجعولة بجعل الجاعل لكون تلك الأعيان ظلال شؤنات ذاتية مقدسة عن الجعل والانفعال ، ولا شك أن الحكم الكلي على الموجودات تابع لعلمه تعالى بأعيانها الثابتة ، وعلمه سبحانه بتلك الأعيان تابع لنفس تلك الأعيان إذ لا أثر للعلم الأزلي في المعلوم بإثبات أمر له لا يكون ثابتاً أو بنفي أمر

عنه يكون ثابتاً بل علمه تعالى بأمر ما إنما يكون على وجه يكون هو في حدّ ذاته على ذلك الوجه ، وأما الأعيان فقد عرفت أنها ظلال لأمور أزلية مقدسة عن شوائب التغير فكانت أزلا ، فالله تعالى علم بها كما كانت وقضى وحكم كما علم وقدّر وأوجد كما قضى وحكم ، فالقدر تابع للقضاء التابع للمعلوم التابع لما هو ظل له فاليه سبحانه

يرجع الأمر كله فيمتنع أن يظهر خلاف ما علم فلذا يلغو الحذر ، لكن أمر به رعاية للأسباب فإن تعطيلها مما يفوت انتظام أمر هذه النشأة ، ولذا ورد أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام ترك تعاطي أسباب تحصيل الغذاء وقال : لا أسعي في طلب شيء بعد أن كان الله تعالى هو المتكفل برزقي ولا آكل ولا أشرب ما لم يكن سبحانه وهو الذي يطعمني ويسقيني فبقي أياماً على ذلك حتى كادت تغيظ نفسه مما كابده فأوحى إليه سبحانه يا فلان لو بقيت كذلك إلى يوم القيامة ولم تعاط سبباً ما رزقتك أتريد أن تعطل أسبابي ؟

وقال بعض المحققين : إن سبب إيجاب الحذر أن كثيراً من الأمور قضى معلقاً ونيط تحصيله بالأفعال الاختيارية للبشر بترتيب أسبابه ودفع موانعه فيمكن أن يكون الحفظ عن المكروه من جملة ما نيط بفعل اختياري وهو الحذر وهو لا يأتي ما قلناه كما لا يخفى ﴿ هذا ﴾

وذكر الشيخ الأكبر قدّس سره أن القدر مرتبة بين الذات والمظاهر ومن علم الله تعالى علمه ومن جهله سبحانه جهله والله تعالى شأنه لا يعلم فالقدر أيضاً لا يعلم ، وإنما طوى علمه حتى لا يشارك الحق في علم حقائق الأشياء من طريق الإحاطة بها إذ لو علم أن معلوم كان بطريق الإحاطة من جميع وجوهه كما يعلمه الحق لما تميز علم الحق عن علم العبد بذلك الشيء ولا يلزمنا على هذا الاستواء فيما علم منه ، فإن الكلام فيما علم كذلك ، فإن العبد جاهل بكيفية تعلق العلم مطلقاً بمعلومه فلا يصح أن يقع الاشتراك مع الحق في العلم بمعلوم ما ، ومن المعلومات العلم بالعلم ، وما من وجه من المعلومات إلا وللقدر فيه حكم لا يعلمه إلا هو سبحانه فلو علم القدر علمت أحكامه ولو علمت أحكامه لاستقل العبد في العلم بكل شيء وما احتاج إليه سبحانه في شيء وكان له الغنى على الإطلاق ، وسر القدر عين تحكمه في الخلائق ، وأنه لا ينكشف لهم هذا السر حتى يكون الحق بصرهم .

وقد ورد النهي عن طلب علم القدر وفي بعض الآثار أن عزيراً عليه السلام كان كثير السؤال عنه إلى أن قال الحق سبحانه له : يا عزير لئن سألت عنه لأمحون اسمك من ديوان النبوة ، ويقرب من ذلك السؤال عن علل الأشياء في مكنوناتها ، فإن أفعال الحق لا ينبغي أن تعلل ؛

فإن ما ثم علة موجبة لتكوين شيء إلا عين وجود الذات وقبول عين الممكن لظهور الوجود ، والأزل لا يقبل السؤال عن العلل ، والسؤال عن ذلك لا يصدر إلا عن جاهل بالله تعالى فافهم ذاك والله سبحانه يتولى هداك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(310/399)

وقال القاسمى :

﴿ وَقَالَ ﴾ أي : أبوهم : ﴿ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ أي : لئلا يستلفت دخولهم من باب واحد أنظار من يقف عليه من الجند ، ومن يعسّ للحاكم ، فيريب بهم ؛ لأن دخول قوم على شكل واحد ، وزيّ متحد ، على بلد هم غرباء عنه ، مما يلفت نظر كل راصد . وكانت المدن وقتئذ مبوبة لا ينفذ إليها إلا من أبوابها ، وعلى كل باب حرسه ، وليس دخول الفرد كدخول الجمع في التنبه ، وإتباع البصر . وقيل : نهاهم لئلا تصيبهم العين إذا دخلوا كوكبة واحدة - وسيأتي بيانه - .

﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : لا أدفع عنكم بتدبيري شيئاً مما قضي عليكم ، فإن الحذر لا يمنع القدر .

قال أبو السعود : ولم يرد به عليه السلام إلغاء الحذر بالمرة ، كيف لا وقد قال عز قائلاً : ﴿

وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : من الآية 195] ، وقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : من الآية 71 و 102] . بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة ، بل هو تدبير في الجملة . وإنما التأثير وترتيب المنفعة عليه من العزيز القدير ، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر ، بل هو استعانة بالله تعالى ، وهرب منه إليه : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أي : لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه شيء : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

(311/399)

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ أي : من الأبواب المتفرقة : ﴿ مَّا كَانَ ﴾ أي : ذلك الدخول : ﴿ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أي : أبداها ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي : علم جليل ، لتعليمنا إياه بالوحي ، ونصب الأدلة ، حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر ، وأن التدبير له حظ من التأثير . وفي تأكيد الجملة بـ (إن) و (اللام) وتنكير العلم ، وتعليله بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه ؛ من الدلالة على شأن يعقوب عليه السلام ، وعلو مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى - أفاده أبو السعود - .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : فيظنون الأسباب مؤثرات .

قال ابن حزم في " الملل " : كان أمر يعقوب عليه السلام بدخولهم من أبواب متفرقة ، إشفاقاً عليهم ، إما من إصابة العين ، وإما من تعرض عدو ، أو مستريب بإجماعهم ، أو ببعض ما يخوفه عليهم . وهو عليه السلام معترف أن فعله ذلك ، وأمره إياهم بما أمرهم به من ذلك ؛ لا يغني عنهم من الله شيئاً يريده عز وجل بهم . ولكن لما كانت طبيعة البشر جارية في يعقوب عليه السلام ، وفي سائر الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى حاكياً عن الرسل أنهم قالوا : ﴿ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [إبراهيم : من الآية 11] ، حملهم ذلك على بعض النظر المخفف لحاجة النفس ونزعها وتوقها إلى سلامة من تحب ، وإن كان ذلك لا يغني شيئاً ، كما كان عليه السلام يحب الفأل الحسن .

تنبيه :

قال السيوطي في " الإكليل " : في هذه الآية – على ما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما – أن العين حق ، وأن الحذر لا يرد القدر . ومع ذلك لا بد من ملاحظة الأسباب . انتهى .

وقال بعض اليمانين : لهذه الجملة ثمرات وهي : استحباب البعد عن مضار العباد ، والحذر عنها . فأما فعل الله تعالى فلا يغني الحذر عنه . ثم قال : وفي " التهذيب " أن أبا علي أنكر الضرر بالعين ، وهو مروي عن جماعة من المتكلمين .

وصحح الحاكم والأمير الحسين وغيرهما جواز ذلك ؛ لأخبار وردت فيها .

ثم قال : واختلف من أين أتت المضرة الحاصلة بالعين ، فمن قائل : بأنه يخرج من عين العائن شعاع يتصل بمن يراه ، فيؤثر فيه تأثير السم . وضعفه الحاكم بأنه لو كان كذلك لما اختص ببعض الأشياء دون بعض ، ولأن الجواهر متماثلة ، فلا يؤثر بعضها في بعض . ومن قائل : بأنه فعل العائن . قال : وهذا لا يصح ؛ لأن الجسم لا يفعل في جسم آخر شيئاً إلا بمماسته ، أو ما في حكمها من الاعتمادات ، ولأنه لو كان فعله وقف على اختياره . ومن قائل : بأنه فعل الله ، أجرى الله العادة بذلك لضرب من الإصلاح . وصحح هذا الحاكم ، وهو الذي ذكره الزمخشري والأمير الحسين ، وهو قول أبي هاشم . ذكره عنهما في " التهذيب " .

انتهى .

وقد أوضحه الرازي بقوله : قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخي : إنه لا يمتنع أن تكون العين حقاً ، ويكون معناه : أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحساناً كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص ، وذلك الشيء ، حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقاً به ، فهذا المعنى غير ممتنع . ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة ،

وعدل عن الإعجاب، وسأل ربه أن يقيه ذلك، فعنده تتعين المصلحة. ولما كانت هذه العادة مطردة، لا جرم قيل: العين حق. انتهى.

أقول: وقد بسط الإمام ابن القيم في "زاد المعاد" هذا البحث بما يشفي ويكفي، في "بحث هديه صلى الله عليه وسلم في علاج العين" بعد إيراده ما روي في الصحيحين وغيرهما من حقية العين، وشهرة تأثيرها عند العرب، قال:

فأبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل، أمر العين، وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل، ومن أغلظهم حجاباً، وأكثفهم طباعاً، وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها. وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا يدفع أمر العين ولا ينكره، وإن اختلفوا في سببه، وجهة تأثير العين. فقالت طائفة: إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الردية، انبعثت من عينه قوة سمية تتصل بالمعين فيتضرر. قالوا: ولا يستنكر هذا، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعي أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك، فكذلك العائن.

وقالت فرقة أخرى : لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة ، غير مرئية ، فتتصل بالمعين ، وتتخلل مسام جسمه ، فيحصل له الضرر .

(314/399)

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه ، من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً . وهذا مذهب منكري الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم . وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب ، وخالفوا العقلاء أجمعين . ولا ريب أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن للعاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس . وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحيي منه ، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه . وقد شاهد الناس من يسقم من النظر ، وتضعف قواه ، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح ، ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها ، وليست هي الفاعلة ، وإنما التأثير للروح ، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بيناً ، ولهذا أمر الله سبحانه رسوله أن يستعيذ به من شره . وتأثير

الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعين ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة تقابل المحسود فتؤثر فيه بتلك الخاصية . وأشبه الأشياء بهذا الأفعى ، فإن السم كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوها انبعث منها قوة غضبية ، وتكيفت نفسها بكيفية خبيثة مؤذية ، فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين ، ومنها ما يؤثر في طمس البصر . كما قال صلى الله عليه وسلم في الأبتر وذي الطفيتين من الحيات : < إنهما يلتمسان البصر ، ويسقطان الحبل > . ومنها ما يؤثر في الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة . والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية ، كما يظنه من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة ، بل التأثير يكون

تارة بالاتصال ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية والرقي والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل . ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى فيوصف له الشيء ، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره . وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية ، وقد قال الله تعالى لنبيه : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ

كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ [القلم : من الآية 51] ، وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : 1 – 5] ، فكل عائن حاسد ، وليس كل حاسد عائناً . فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن ، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعين نحو المحسود والمعين ، تصيبه العين تارة ، وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه ، ولا بد ، وإن صادفته حذراً ، شاكي السلاح ، لا منفذ فيه للسهام لم تؤثر فيه ، وربما ردت السهام على صاحبها . وهذا بمثابة الرمي الحسي سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وهذا من الأجسام والأشباح . وأصله من إعجاب العائن بالشيء ، ثم يتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين . وقد يعين الرجل نفسه ، وقد يعين بغير إرادته ، بل بطبعه . وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني . وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : إن من عُرف بذلك ، حبسه الإمام ، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت . وهذا هو الصواب قطعاً ، انتهى كلام ابن القيم ، عليه الرحمة .

وقال الرازي : ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثره بحسب الكيفيات المحسوسة ، أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، بل قد يكون التأثير نفسانياً محضاً ، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق ، والذي يدل عليه أن اللوح الذي يكون قليل العرض ، إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشي عليه ، ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عاليين لعجز الإنسان عن المشي عليه . وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فعلمنا أن التأثرات النفسانية موجودة .

وأيضاً إن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له ، حصل في قلبه غضب ، ويسخن مزاجه جداً ، فمبدأ تلك السخونة ليس إلا لذلك التصور النفساني ، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية ، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص ، لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان ، فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الأبدان . وأيضاً جواهر النفوس مختلفة بالماهية ، فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ، ويتعجب منه . فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل ، والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه ، والنفوس النبوية نطقت به ، فعنده لا يبقى في وقوعه شك . وإذا ثبت هذا ، ثبت أن الذي أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية بإصابة العين ، كلام حق ، لا يمكن رده .

انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 203 . 207 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾

﴿ وقال يا بني ﴾ عطف على جملة ﴿ قال الله على ما نقول وكيل ﴾ [يوسف : 66].

وإعادة فعل ﴿ قال ﴾ للإشارة إلى اختلاف زمن القولين وإن كانا معاً مسبّبَيْن على إيتاء موثقهم ، لأنه اطمأن لرعايتهم ابنَه وظهرت له المصلحة في سفرهم للإمتار ، فقوله : ﴿ يا بني لا تدخلوا من باب واحد ﴾ صادر في وقت إزمَاعهم الرحيل .

والمقصود من حكاية قوله هذا العبرة بقوله : ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ الخ .

والأبواب : أبواب المدينة .

وتقدم ذكر الباب آنفاً .

وكانت مدينة (منفيس) من أعظم مدن العالم فهي ذات أبواب .

وإنما نهاهم أن يدخلوها من باب واحد خشية أن يسترعي عددهم أبصارَ أهل المدينة وحُراسها وأزياؤهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة أن يُوجسوا منهم خيفة من تجسس أو

سرقة فربما سجنوهم أو رصدوا الأعين إليهم ، فيكون ذلك ضرّاً لهم وحائلاً دون سرعة وصولهم إلى يوسف عليه السلام ودون قضاء حاجتهم .

وقد قيل في الحكمة : "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان" .

ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة اقتصر على تحذيرهم من الدخول من باب واحد دون أن يحذرهم من المشي في سكة واحدة من سكك المدينة ، ووثق بأنهم عارفون بسكك المدينة فلم يخش ضلالهم فيها ، وعلم أن (بنيامِين) يكون في صحبة أحد إخوته لئلا يضل في المدينة .

والمتفرقة أراد بها المتعددة لأنه جعلها في مقابلة الواحد .

ووجه العدول عن المتعددة إلى المتفرقة الإيماء إلى علة الأمر وهي إخفاء كونهم جماعة واحدة .

وجملة ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ معترضة في آخر الكلام ، أي وما أغني عنكم بوصيتي هذه شيئاً .

و ﴿ من الله ﴾ متعلق بـ ﴿ أغني ﴾ ، أي لا يكون ما أمرتكم به مُغنياً غَنَاء مبتدِئاً من عند الله بل هو الأدب والوقوف عند ما أمر الله ، فإنْ صادف ما قدره فقد حصل فائدتان ، وإن خالف ما قَدّره حصلت فائدة امتثال أوامره واقتناع النفس بعدم التفريط .

وتقدم وجه تركيب ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾ في سورة العقود (41) .

وأراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدباً مع واضع الأسباب ومقدّر الألطاف في رعاية الحالين ، لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها .

وهذا سرّ مسألة القدر كما أشار إليه قول النبي اعمَلوا فكلٌ ميسّر لما خلق له ، وفي الأثر إذا أراد الله أمراً يَسّر أسبابه قال الله تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾

[سورة الإسراء : 19] .

ذلك أن شأن الأسباب أن تحصُل عندها مسبباتها .

وقد يتخلف ذلك بمعارضة أسباب أخرى مضادة لتلك الأسباب حاصلة في وقت واحد ، أو لكون السبب الواحد قد يكون سبباً لأشياء متضادة باعتبارات فيخطىء تعَاطي

السبب في مصادفة المسبّب المقصود ، ولولا نظام الأسباب ومراعاتها لصار المجتمع البشري هملاً وهمجاً .

والإغناء : هنا مشتق من الغَناء بفتح الغين وبالمدّ ، وهو الإجزاء والاضطلاع وكفاية المهم ، وأصله مرادف الغِنى بكسر الغين والقصر وهما معاً ضد الفقر ، وكثر استعمال الغناء المفتوح الممدود في الإجزاء والكفاية على سبيل المجاز المرسل لأن من أجزأ وكفى فقد أذهب عن نفسه الحَاجة إلى المغنين وأذهب عمن أجزأ عنه الاحتياج أيضاً ، وشاع هذا الاستعمال المجازي حتى غلب على هذا الفعل ، فلذلك كثر في الكلام تخصيص الغَناء بالفتح والمد بهذا المعنى ، وتخصيص الغِنى بالكسر والقصر في معنى ضد الفقر ونحوه حتى صار الغَناء الممدود لا يكاد يسمع في معنى ضد الفقر .

وهي تفرقة حسنة من دقائق استعمالهم في تصاريف المترادفات .

فما يوجد في كلام ابن بري من قوله : إن الغناء مصدر ناشىء عن فعل أغنى المهموز بحذف الزائد الموهم أنه لا فِعل له مجرّد فإنما عَنى به أن استعمال فِعل غَنِيَ في هذا المعنى المجازي متروك مُمات لا أنه ليس له فعل مجرد .

ولذلك فمعنى فعل (أغنى) بهذا الاستعمال معنى الأفعال القاصرة ، ولم يفده الهمز تعديةً ، فلعل همزته دالة على الصيرورة ذا غنى ، فلذلك كان حقه أن لا ينصب المفعول به بل يكون في الغالب مرادفاً لمفعول مطلق كقول عمرو بن معديكرب :

أُغْني غَناء الذاهب

ين أُعَدُّ للحدثان عَدّا . . .

ويقولون : أغنى فلان عن فلان ، أي في أجزاه عوضه وقام مقامه ، ويأتون بمنصوب فهو تركيب غريب ، فإن حرف (عن) فيه للبدلية وهي المجاورة المجازية .

جعل الشيء البدل عن الشيء مجاوزاً له لأنه حلّ محلّه في حال غيبته فكأنه جاوزه فسموا هذه المجاوزة بدلية وقالوا : إنّ (عن) تجيء للبدلية كما تجيء لها الباء .

فمعنى ما أغني عنكم ﴾ لا أجزي عنكم ، أي لا أكفي بدلاً عن إجزائكم لأنفسكم .

و﴿ من شيء ﴾ نائب مناب شيئًا ، وزيدت ﴿ من ﴾ لتوكيد عموم شيء في سياق النفي ، فهو كقوله تعالى : ﴿ لا تغني عني شفاعتهم شيئاً ﴾ [سورة يس : 23] أي من الضرّ .

وجوز صاحب الكشاف في مثله أن يكون شيئاً ﴾ مفعولاً مطلقاً ، أي شيئاً من الغناء وهو الظاهر ، فقال في قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ [سورة البقرة : 48] ، قال : أي قليلاً من الجزاء ، كقوله تعالى : ﴿ ولا يظلمون شيئاً ﴾ لكنه جوز أن يكون ﴿ شيئاً ﴾ مفعولاً به وهو لا يستقيم إلا على معنى التوسع بالحذف والإيصال ، أي بنزع الخافض .

وجملة ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ في موضع التعليل لمضمون ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ .

والحكم : هنا بمعنى التصرف والتقدير ، ومعنى الحصر أنه لا يتم إلا ما أراده الله ، كما قال تعالى : ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ [سورة الطلاق : 3] .

وليس للعبد أن ينازع مراد الله في نفس الأمر ولكن واجبه أن يتطلب الأمور من أسبابها لأن الله أمر بذلك ، وقد جمع هذين المعنيين قوله : وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ .

وجملة ﴿ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ في موضع البيان لجملة ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ ليبين لهم أن وصيته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله هو معنى التوكّل الذي يَضل في فهمه كثير من الناس اقتصاراً وإنكاراً ، ولذلك أتى بجملة ﴿ وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ أمراً لهم ولغيرهم على معنى أنه واجب الحاضرين

والغائبين ، وأن مقامه لا يختص بالصدّيقين بل هو واجب كل مؤمن كامل الإيمان لا يخلط إيمانه بأخطاء الجاهليات .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾

جملة معترضة ، والواو اعتراضية .

ودلت ﴿ حيث ﴾ على الجهة ، أي لمّا دخلوا من الجهات التي أمرهم أبوهم بالدخول منها .

فالجملة التي تضاف إليها ﴿ حيثُ ﴾ هي التي تُبين المراد من الجهة .

(321/399)

وقد أغنت جملة ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ عن جمل كثيرة ، وهي أنهم ارتحلوا ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ولما دخلوا من حيث أمرهم سلموا مما كان يخافه عليهم .

وما كان دخولهم من حيث أمرهم يُغني عنهم من الله من شيء لوْ قدّر الله أن يحاط بهم ، فالكلام إيجاز .

ومعنى ﴿ ما كان يغني عنهم من الله من شيء ﴾ أنه ما كان يرد عنهم قضاء الله لولا أن الله قدر سلامتهم .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلاّ حاجةً ﴾ منقطع لأن الحاجة التي في نفس يعقوب عليه السلام ليست بعضاً من الشيء المنفي إغناؤه عنهم من الله ، فالتقدير : لكن حاجة في نفس يعقوب عليه السلام قضاها .

والقضاء : الإنفاذ ، ومعنى قضاها أنفذها .

يقال : قضى حاجة لنفسه ، إذا أنفذ ما أضمره في نفسه ، أي نصيحة لأبنائه أداها لهم ولم يدخرها عنهم ليطمئن قلبه بأنه لم يترك شيئاً يظنه نافعاً لهم إلاّ أبلغه إليهم .

والحاجة : الأمر المرغوب فيه .

سمي حاجة لأنه محتاج إليه ، فهي من التسمية باسم المصدر .

والحاجة التي في نفس يعقوب عليه السلام هي حرصه على تنبيههم للأخطار التي تعرض لأمثالهم في مثل هذه الرحلة إذا دخلوا من باب واحد ، وتعليمُهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله .

وجملة ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ معترضة بين جملة ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ الخ وبين جملة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وهو ثناء على يعقوب عليه السلام بالعلم والتدبير ، وأنّ ما أسْداه من النصح لهم هو من

العلم الذي آتاه الله وهو من علم النبوءة .

وقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ استدراك نشأ عن جملة ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ الخ .

والمعنى أن الله أمر يعقوب عليه السلام بأخذ أسباب الاحتياط والنصيحة مع علمه بأن ذلك لا يغني عنهم من الله من شيء قدره لهم ، فإن مراد الله تعالى خفيّ عن الناس ، وقد أمر بسلوك الأسباب المعتادة ، وعَلِم يعقوب عليه السلام ذلك ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون تطلب الأمرين فيهملون أحدهما ، فمنهم من يهمل معرفة أن الأسباب الظاهرية لا تدفع أمراً قَدّره الله وَعَلِم أنه واقع ، ومنهم من يهمل الأسباب وهو لا يعلم أن الله أراد في بعض الأحوال عدم تأثيرها .

وقد دلّ ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ بصريحه على أن يعقوب عليه السلام عمل بما علّمه الله ، ودلّ قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ بتعريضه على أن يعقوب عليه السلام من القليل من الناس الذين علموا مراعاة الأمرين ليتقرر الثناء على يعقوب عليه السلام باستفادته من الكلام مرتين : مرة بالصراحة ومرة بالاستدراك .

والمعنى : أن أكثر الناس في جهالة عن وضع هاته الحقائق موضعها ولا يخلون عن مُضيع لإحداهما ، ويفسر هذا المعنى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا أمر المسلمين بالقفول عن عَمواس لَمّا بلغه ظهور الطاعون بها وقال له أبو عبيدة : أفراراً من قدر الله فقال عمر رضي الله عنه : لو غَيْرُك قالها يا أَبَا عبيدة ألسنا نفرّ من قدر الله إلى قدر الله . . . إلى آخر الخبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(323/399)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾

وقد قال يعقوب عليه السلام ذلك الكلام في المرة الثانية لذهابهم إلى مصر ، بعد أن عَلِم بحُسْن استقبال يوسف لهم ، وأن بضاعتهم رُدَّتْ إليهم ، وعلم بذلك أنهم صاروا أصحاب حَظْوة عند عزيز مصر .

وساعةَ ترى إنساناً له شأن ؛ فترقب أن يُعادى ، لذلك توجّس يعقوب خِيفة أن يُدبِّر لهم أحد مكيدة ؛ لأنهم أغراب .

ومن هنا أمرهم أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، وكانت المدن قديماً لها أبواب ؛ تُفتح

وتقفل في مواعيد محددة ، وحين يدخلون فُرادى فلن ينتبه أحد أنهم جماعة .

وقد خاف يعقوب على أبنائه من الحسد ، ونعلم أن الحسد موجود .

وقد علَّمنا سبحانه أن نستعيذ به سبحانه من الحسد ؛ لأنه سبحانه قد عَلِم أزلاً أن الحسد أمر فوق طاقة دَفْع البشر له ، وهو القائل : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : 1-5] .

وفي أمر الحسد أنت لا تستطيع أن تستعيذ بواحد مُسَاوٍ لك ؛ لأن الحسد يأتي من مجهول غير مُدْرَك ، فالشعاع الخارج من العين قد يتأجج بالحقد على كل ذي نعمة ، وإذا كان عصرنا ، وهو عصر الارتقاءات المادية قد توصَّل إلى استخدام الإشعاع في تفتيت الأشياء .

إذن : فمن الممكن أن يكون الحسدُ مثل تلك الإشعاعات ؛ والتي قد يجعلها الله في عيون بعض خلقه ، وتكون النظرة مثل السهم النافذ ، أو الرصاصة الفتاكة .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر : 31] .

وإنْ قال قائل : ولماذا يُعطي الحق سبحانه بعضاً من خلقه تلك الخواص ؟

أقول : إنه سبحانه يعطي من الإمكانات لبعض من خلقه ، فيستخدمونها في غير موضعها ، وكلُّ إنسان بشكل ما عنده إمكانية النظرة ، ولكن الحقد هو الذي يولد الشرارة المُؤْذية ، ويمكنك أن تنظر دون حسد إنْ قُلتَ : ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم بارك .

بذلك لا تتحقق الإثارة اللازمة لتأَجُّج الشرارة المؤذية ، ويمكنك أن تستعيذ بالله خالق البشر وخالق الأسرار ، وتقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : 1-5] .

وأن تقول كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان يُعوِّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما ، ويقول : " أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامَّة "

.

وقال صلى الله عليه وسلم : "كان أبوكما إبراهيم يُعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق عليهم السلام " .

كما " أنه صلى الله عليه وسلم : "كان إذا حَزَبَهُ أمر قام وصلى "

، لأن معنى حَزْب أمر للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لواحد من اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم أن هذا الأمر يخرج عن قدرة البشر .

وهنا على الإنسان أن يأوي إلى المُسبِّب ، فهو الركن الشديد ، بعد أن أخذتَ أنت بالأسباب الممدودة لك من يد الله ، وبذلك يكون ذهابك إلى الحق هو ذهاب المُضطر ؛ لا ذهاب الكسول عن الأخذ بالأسباب .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السوء ﴾ [النمل : 62] .

والمضطر هو من استنفد كل أسبابه ، ولم يَدْعُ ربه إلا بعد أن أخذ بكل الأسباب الممدودة ، فلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخذ ما قدمه لك بيده سبحانه من أسباب .

(325/399)

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ نجد يعقوب عليه السلام وقد أوصى أبناءه ألاَّ يدخلوا مصر من باب واحد ؛ بل من أبواب متفرقة خشية الحسد ، وتنبهت قضية الإيمان بما يقتضيه من تسلم لمشيئة الله ، فقال :

﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ . . ﴾ [يوسف : 67] .

أي : لست أُغْني عنكم بحذري هذا من قدر الله ، فهو مجرد حرص ، أما النفع من ذلك الحرص والتدبير فهو من أمر الله ، ولذلك قال :

﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ [يوسف : 67] .

فكل الخَلْق أمرهم راجع إلى الله ، وعليه يعتمد يعقوب ، وعليه يعتمد كل مؤمن .

ونفَّذ أبناءُ يعقوب ما أمرهم به أبوهم ، يقول سبحانه : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ . . . ﴾ .

أي : ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يردُّ عنهم أمراً أراده سبحانه ، فلا شيء يردُّ قضاء الله ، ولعل أباهم قد أراد أنْ يردَّ عنهم حسد الحاسدين ، أو : أن يُدسَّ لهم أو يتشككوا فيهم ، ولكن أي شيء لن يمنع قضاء الله .

ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا . . . ﴾ [يوسف : 68] ويعقوب يعلم أن أيَّ شيء لن يردَّ قدر الله ، وسبحانه لم يُعْطِ الاحتياطات الولائية ليمنع الناس بها قدرَ الله .

ويقول سبحانه هنا عن يعقوب :

﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ . . . ﴾ [يوسف : 68] .

أي : أنه يعرف موقع المُسبِّب وموقع الأسباب ، ويعلم أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله ؛ لأنه سبحانه قد خلق الأسباب رحمةً بعباده :

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 68] .

أي : يعزلون الأسباب عن المُسبِّب ، وهذا ما يُتعِب الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(326/399)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [67] فسئل ما حقيقة التوكل ؟ قال : الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد .

فقيل : ما حق التوكل ؟ فقال : أوله العلم وحقيقته العمل ، ثم قال : إن المتوكل إذا كان على الحقيقة لا يأكل طعاماً ، وهو يعلم أن غيره أحق منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 82 ﴾

(327/399)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد . . . ﴾ قال : رهب يعقوب عليهم العين .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن محمد بن كعب - رضي الله عنه - في قوله ﴿ لا تدخلوا من باب واحد ﴾ قال : خشي عليهم العين .

وأخرج ابن جرير ، عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ لا تدخلوا من باب واحد ﴾ قال : خشي يعقوب على ولده العين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ لا تدخلوا من باب واحد ﴾ قال : خاف عليهم العين .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ لا تدخلوا من باب واحد ﴾ قال : كانوا قد أوتوا صوراً وجمالاً ، فخشي عليهم أنفس الناس .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن إبراهيم النخعي - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ قال : أحب يعقوب أن يلقى يوسف أخاه في خلوة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد في قوله ﴿ إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾ قال : خيفة العين على بنيه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ قال: إنه لعامل بما علم، ومن لا يعمل لا يكون عالماً. انتهى. ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(328/399)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ ﴾: في جواب " لَمَّا " هذه ثلاثة أوجه، أحدها: وهو الظاهر أنه الجملة المنفيةُ من قوله: ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي ﴾. وفيه حجةٌ لمَنْ يَدَّعي كونَ " لَمَّا " حرفاً لا ظرفاً، إذ لو كانت ظرفاً لعمل فيها جوابُها، إذ لا يَصْلح للعملِ سواه، لكن ما بعد " ما " النافية لا يَعْمل فيما قبلها، لا يجوز: " حين قام أخوك ما قام أبوك "، مع جواز " لَمَّا قام أخوك ما قام أبوك ".

والثاني: أنَّ جوابَها محذوفٌ، فقدَّره أبو البقاء: " امتثلوا وقَضَوا حاجةَ أبيهم "، وإليه نحا

ابن عطية أيضاً ، وهو تَعَسُّفٌ لأنَّ في الكلامِ ما هو جوابٌ صريحٌ كما قَدَّمْتُه .

والثالث : أنَّ الجوابَ هو قولُه : " آوى " قال أبو البقاء : " وهو جوابُ " لمَّا " الأولى والثانية كقولك : " لمَّا جِئْتني ، ولمَّا كلَّمْتك أَجَبْتَني " ، وحَسَّن ذلك أنَّ دخولَهم على يوسف عليه السلام يَعْقُبُ دخولهم من الأبواب " يعني أنَّ " آوى " جوابُ الأولى والثانية ، وهو واضح .

قوله : ﴿ إِلاَّ حَاجَةً ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه استثناءٌ منقطع تقديرُه : ولكنَّ حاجةً في نفس يعقوب قضاها ، ولم يذكر الزمخشري غيره . والثاني : أنه مفعولٌ مِنْ أجله ، ولم يذكر أبو البقاء غيره ، ويكون التقدير : ما كان يُغْني عنهم لشي من الأشياء إلا لأجلِ حاجةٍ كانت في نفس يعقوب . وفاعل "يُغْني" ضميرُ التفرقِ المدلولِ عليه من الكلام المتقدم . وفيما أجازه أبو البقاء نظرٌ من حيث المعنى لا يَخْفَى على متأمِّله . و" قضاها " صفةٌ ل" حاجةً" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 523.524 ﴾

(329/399)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾

يحتمل أن يكون أراد تفريقهم في لدخول لعلَّ واحداً منهم يقع بَصَرُه على يوسف ، فإن لم يره

أحدهم قد يراه الآخر .

ويقال ظنَّ يعقوب أنهم في أمر يوسف كانوا في شدة العناية بشأنِه ، ولم يعلم أنهم كارهون

لمكانه .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي

نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾

إن لم يحصل مقصودُ يعقوب عليه السلام في المآل حصل مراده في الحال ، وفي ذلك القَدْرِ

لأرباب القلوب استقلال .

ويقال على الأصاغر حفظُ إشاراتِ الأكابر ، والقولُ فيما يأمرون به هل فيه فائدةٌ أم لا –

تَرْكٌ للأدب .

ويقال إذا كان مثل يعقوب عليه السلام يشير على أولاده ويتمنَّى به حصولَ مرادِه . .

ثم لا يحصل مرادُه عُلِمَ أنه لا ينبغي أن يُعْتَقَدَ في الشيوخ أنَّ جميع ما يريدون يتَّفِقُ كونُه على ما

أرادوا ؛ لأَنَّ الذي لا يكونُ إلا ما يريده واجباً وما أراده فهو كائن . . هو اللَّهُ الواحدُ القهارُ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات جـ 2 صـ 194 . 195 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68) ﴾

التفسير : الأظهر أن هذا الملك هو الريان لا العزيز لأن قوله ﴿ أستخلصه لنفسي ﴾ يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصاً له وقد كان يوسف قبل ذلك خالصاً للعزيز . وفي قول يوسف : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ دلالة أيضاً على ما قلنا . والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شوائب الاشتراك ، ومن عادة الملوك أن يتفردوا بالأشياء النفسية . روي أن جبريل دخل على يوسف في السجن وقال : قل اللَّهم اجعل لي من عندك فرجاً ومخرجاً وارزقني من حيث لا أحتسب . فقبل الله دعاءه وأظهر هذا السبب في تخليصه فجاءه الرسول وقال : أجب الملك فخرج من السجن ودعا لأهله وكتب على باب السجن : " هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء " ثم

اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً جدداً ، فما دخل على الملك قال : اللَّهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه . ﴿ فلما كلمه ﴾ احتمل أن يكون ضمير الفاعل ليوسف وللملك . وهذا أولى لأن مجالس الملوك لا يحسن ابتداء الكلام فيها لغيرهم . يروى أن الملك قال له : أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك . قال : رأيت بقرات فوصف لونهن وأحوالهن .

ومكان خروجهن ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك بعينها ، فتعجب من وفور علمه وحدسه – وكان قد علم من حاله ما علم من نزاهة ساحته وعدم مسارعته في الخروج من السجن – وقد وصف له الشرابي من جده في الطاعة والإحسان إلى سكان السجن ما وصف فعظم اعتقاده فيه فعند ذلك ﴿ قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ ويندرج في المكان كمال القدرة والعلم . أما القدرة فظاهرة ، وأما العلم فلأن كونه متمكناً من أفعال الخير يتوقف على العلم بأفعال الخير وبأضدادها ، وكونه أميناً متفرع عن كونه حكيماً لأن لا يفعل لداعي الشهوة وإنما يفعله لداعي الحكمة . قال المفسرون : لما حكى يوسف رؤيا الملك وعبرها بين يديه قال له الملك : فما ترى أيها الصديق ؟ قال : أرى

أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعاً كثيراً وتبني الخزائن والأهراء وتجمع الطعام فيها فيأتيك الخلق من النواحي ويمتارون منك ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد من قبلك ، فقال الملك : ومن لي بهذا الشغل ؟ فقال يوسف : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ اللام للعهد أي ولني خزائن أرض مصر . والخزائن جمع الخزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء أي يحفظ ﴿ إني حفيظ ﴾ للأمانات وأموال الخزائن ﴿ عليم ﴾ بوجوه التصرف فيها على وجه الغبطة والمصلحة . وقيل : حفيظ لوجوه أياديكم عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والشفقة . قال الواحدي : هذا الطلب خطيئة منه فكانت عقوبته أن أخر عنه المقصود سنة . عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته لكن لما قال ذلك أخره الله تعالى عنه سنة " وقال آخرون : إن التصرف في أمور الخلق كان واجباً عليه لأن النبي يجب عليه رعاية الأصلح لأمته بقدر الإمكان ، وقد علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضنك فأراد السعي في إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم ، وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى

دفع الظلم والضر عن الناس إلا بالاستعانة من كافر أو فاسق فله أن يستظهر به ، على أن مجاهداً قد زعم أن الملك كان قد أسلم . وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه فكان في حكم التابع لا المتبوع . ووصف نفسه عليه السلام بالحفظ والعلم على سبيل المبالغة لم يكن لأجل التمدح ولكن للتوصل إلى الغرض المذكور . ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك التقريب والإنجاء من السجن ﴿ مكنا ليوسف في الأرض ﴾ أرض مصر وهي أربعون فرسخاً في أربعين .

﴿ يتبوّأ منها حيث يشاء ﴾ هو أو نشاء نحن على القراءتين والمراد بيان استقلاله بالتقلب والتصرف فيها بحيث لا ينازعه أحد . ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ فيه أن الكل من الله وبتيسيره .

(333/399)

وقالت المعتزلة : تلك المملكة لما لم تتم إلا بأمور فعلها الله صارت كأنها من قبل الله تعالى ، وعلقوا أيضاً المشيئة بالحكمة ورعاية الأصلح . والأشاعرة ناقشوا في هذا القيد . ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ لأن إضاعة الأجر تكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع في حقه تعالى . ﴿ ولأجر الآخرة خير ﴾ من أجر الدنيا أو خير في نفسه . وفي قوله المحسنين وقوله : ﴿ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ إشارة إلى أن يوسف كان في الزمان السابق من

المحسنين ومن المتقين ففيه دلالة على نزاهة يوسف عن كل سوء . قال سفيان بن عيينة : المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة ، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق . يروى . أن الملك توجه وختمه بخاتمه وردّاه بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت فقال له : أما السرير فأشدّ به ملكك ، وأما الخاتم فأدبر به أمرك ، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي . فقال : قد وضعته إجلالاً لك وإقراراً بفضلك . فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوّض الملك إليه أمره وعزل قطفير ، ثم مات بعد فزوّجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيراً مما طلبت فوجدها عذراء فولدت له ولدين : افراثيم وميشا . وأقام العدل بمصر وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها ، ثم بالحلي والجواهر ثم بالدواب ، ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً فقالوا : والله ما رأينا كاليوم ملكاً أجل ولا أعظم منه فقال للملك : كيف رأيت صنع الله بي فيما خولني مما ترى ؟ قال : الرأي رأيك . قال : فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم . وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس . وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب مصر فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا فذلك

قوله سبحانه : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ لم يعرفوه لأن طول العهد ينسي ولاعتقادهم أنه قد هلك أو لذهابه عن أوهامهم حين فارقوه مبيعاً بدراهم معدودة ثم رأوه ملكاً مهيباً جالساً على السرير في زي الفراعنة ، ويحتمل أن يكون بينه وبينهم مسافة وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج . وإنما عرفهم لأن أثر تغيير الهيئات عليهم كان أقل لأنه فارقهم وهم رجال ولم يغيروا زيهم عما هو عادتهم ، ولأن همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم ، ويحتمل أن يكون عرفهم بالوحي . وعن الحسن ما عرفهم حتى تعرفوا له . ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ هو ما يحتاج إليه في كل باب ومنه جهاز العروس والميت . قال الليث : جهزت القوم تجهيزاً إذا تكلفت لهم جهازاً للسفر .

قال : وسمعت أهل البصرة يحكون الجهاز بالكسر . وقال الأزهري : القراء كلهم على فتح الجيم والكسر لغة جيدة ﴿ قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ قال العلماء : لا بد من كلام يجر هذا الكلام فروي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم : ما أنتم ؟ وما شأنكم فإني أنكركم . قالوا : نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد وجئنا نمتار . فقال : لعلكم

جئتم عيوناً ؟ قالوا : معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب . قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنا اثني عشر فهلك منا واحد . فقال : فكم أنتم ههنا ؟ قالوا : عشرة قال : فأين الأخ الحادي عشر ؟ قالوا : هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك . قال : فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون ؟ قالوا : إنا ببلاد لا يعرفنا أحد . قال : فدعوا بعضكم عندي رهيناً وأتوني بأخيكم من أبيكم يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم . فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف فخلفوه عنده . وقيل : كانوا عشرة فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا : إن لنا شيخاً كبيراً وأخاً آخر فبقي معه ولا بد لهما من حملين آخرين . فاستدل الملك ببقائه عند أبيه على زيادة محبته إياه وكونه فائقاً في الجمال والأدب فاستدعى منهم إحضاره . وقيل : لعلهم لما ذكروا أباهم قال يوسف : فلم تركتموه وحيداً فريداً ؟ فقالوا : بل بقي عنده واحد . فقال لهم : لم خصه بهذا المعنى لأجل نقص في جسده ؟ قالوا : لا بل لزيادة محبته . فقال : إن أباكم رجل عالم حكيم . ثم إنه خصه بمزيد المحبة مع أنكم فضلاء أدباء فلا بد أن يكون هو زائداً عليكم في الكمال والجمال فائتوني به لأشاهده . والأوّل قول المفسرين ، والآخران محتملان . ولما طلب منهم إحضار الأخ جمع لهم بين الترغيب والترهيب فالأوّل قوله : ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ المضيفين وكان قد أحسن ضيافتهم أو زاد لكل من الأب والأخ الغائب حملاً ، والثاني ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم

عندي ولا تقربون ﴾ مجزوم على النهي أو لأنه داخل في حكم الجزاء كأنه قيل : فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا ﴿ قالوا سنراود عنه أباه ﴾ سنخادعه عنه ونجتهد حتى ننتزعه من يده ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ كل ما في وسعنا في هذا الباب أو لقادرون على ذلك .

﴿ وقال لفتيانه ﴾ أو ﴿ لفتيته ﴾ قراءتان وهما جمع فتى كالأخوان والإخوة في أخ ففعلة للقلة ووجهه أن هذا العمل من الأسرار فوجب كتمانه عن العدد الكثير ، وفعلان للكثرة ووجهه أنه قال : ﴿ اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ﴾ والرحال عدد كثير ويناسبه الجم الغفير من الغلمان الكيالين ، والبضاعة ما قطع من المال للتجارة ، والرحال جمع رحل والمراد به ههنا ما يستصحبه الرجل معه من الأثاث .

والأكثرون على أنه أمر بوضع بضاعتهم في رحالهم على وجه لا يعرفون بدليل قوله : ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾ وفرغوا ظروفهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ لعل معرفتهم

بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا وكانت بضاعتهم النعل والأدم . وقيل : أمر بوصفها على وجه عرفوها ، والمعنى لعلهم يعرفون حق ردّها . أما السبب الذي لأجله أمر يوسف بذلك فقيل : ليعلموا كرم يوسف فيبعثهم ذلك على المعاودة . وقيل : خاف أن لا يكون عند أبيه من البضاعة ما يدعوهم إلى الرجوع ، أو أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان قحط ، أو لأن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته لؤم ، أو أراد أن يرجعوا ليعرفوا سبب الرد لأنهم أولاد الأنبياء فيحترزوا أن يكون ذلك على سبيل السهو ، أو أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم عيب ولا منة فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه . وقيل : ﴿ يرجعون ﴾ متعدٍ أي لعلهم يردونها . ﴿ قالوا : يا أبانا منع منا الكيل ﴾ أرادوا قول يوسف ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم ﴾ لأن إنذار المنع بمنزلة المنع يؤيده قراءة من قرأ ﴿ نكتل ﴾ بالنون أي نرفع المانع ونأخذ من الطعام ما نحتاج إليه ، ويحتمل أن يراد بالمنع أنهم إذا طلبوا الطعام لأبيهم والأخ المخلف فلعله منع من ذلك ، ويقوّي هذا الاحتمال قراءة الغيبة أي ﴿ يكتل ﴾ أخونا فينضم اكتياله إلى اكتيالنا . ﴿ قال هل آمنكم عليه ﴾ ضمنوا كونهم حافظين له فقال يعقوب : إنك ذكرتم مثل هذا الكلام في يوسف فهل يكون أماني الآن إلا كأماني فيما قبل يعني كما لم يحصل الأمان وقتئذ فكذا الآن . والظاهر أن ههنا إضماراً والتقدير فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم وقال : ﴿ فالله خير حافظاً ﴾ و ﴿ حافظاً ﴾ نصب على التمييز واحتمل الثاني الحال نحو " لله درّه فارساً " وهو أرحم الراحمين ﴾

أرجوا أن لا يجمع عليّ مصيبتين. وقيل: إنه تذكر يوسف فقال: فالله خير حافظاً أي ليوسف لأنه كان يعلم أنه حي ﴿ ولما فتحوا متاعهم ﴾ هو عام في

(338/399)

كل ما يستمتع به ويجوز أن يراد به ههنا الطعام أو الأوعية. أما قوله ﴿ ما نبغي ﴾ فالبغي بمعنى الطلب و "ما" نافية أو استفهامية. المعنى ما نطلب شيئًا وراء ما فعل بنا من الإحسان أو ما نريد منك بضاعة أخرى أو أيّ شيء نطلب وراء هذا نستظهر بالبضاعة المردودة إلينا. ﴿ ونمير أهلنا ﴾ في رجوعنا إلى الملك ﴿ ونحفظ أخانا ﴾ فما يصيبه شيء مما يخافه ﴿ ونزداد ﴾ باستصحاب أخينا وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا فأيّ شيء نبغي وراء هذه المباغي؟! . ويجوز أن يكون البغي بمعنى الكذب والتزيد في القول على أن "ما" نافية أي ما نكذب فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا تلك الكرامة.

(339/399)

قال في الكشاف : فعلى هذا التفسير لا يكون قوله : ﴿ ونمير ﴾ معطوفاً على معنى قوله : ﴿ هذه بضاعتنا ﴾ وإنما يكون قوله : ﴿ هذه بضاعتنا ﴾ بياناً لصدقهم ، وقوله : ﴿ ونمير ﴾ معطوفاً على ﴿ ما نبغي ﴾ أو يكون كلاماً مبتدأ أي ونبغي أن نمير كما تقول : سعيت في حاجة فلان ويجب أو ينبغي أن أسعى ويجوز أن يراد ما نبغي ما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من إرسال أخينا معنا . ثم بينوا كونهم مصيبين في رأيهم بقولهم : ﴿ هذه بضاعتنا ﴾ نستظهر بها ونمير أهلنا إلى آخره . يقال : ماره يميره إذا أتاه بميرة أي بطعام ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أي ذلك المكيل لأجلنا قليل نريد أن ينضاف إليه ما يكال لأجل أخينا . وقال مقاتل . ذلك إشارة إلى كيل بعير أي ذلك القدر سهل على الملك لا يضايقنا فيه ولا يطول مقامنا بسببه . واختاره الزجاج . وجوز في الكشاف أن يكون هذا من كلام يعقوب يعني أن حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد . ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً ﴾ تعطوني ما أثق به من عند الله وهو الحلف ﴿ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ استثناء من أعم العام في المفعول وقد يقع مثل هذا الاستثناء في الإثبات إذا استقام المعنى نحو " قرأت إلا يوم كذا " وإن شئت فأوّله بالنفي أي لا تمتنعون من الإتيان به لعلة من العلل إلا بعلة واحدة هي أن يحاط بكم أي تهلكوا جميعاً قاله مجاهد ، أو تغلبوا فلم تطيقوا

الإتيان به قاله قتادة : ﴿ على ما نقول ﴾ من طلب الموثق وإعطائه ﴿ وكيل ﴾ مطلع رقيب .

قال جمهور المفسرين : إنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد خوفاً عليهم من إصابة العين .

وههنا مقامان : الأوّل أن الإصابة بالعين حق لإطباق كثير من الأمة ولما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوّذ الحسن والحسين فيقول : " أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة . " أي جامعة لشر من لمه إذا جمعه أو المراد ملمة والتغيير للمزاوجة . وعن عبادة بن الصامت قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول النهار فرأيته شديد الوجع ، ثم عدت إليه آخر النهار فرءَته معافى . فقال : إن جبرائيل عليه السلام أتاني فرقاني وقال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من كل عين وحاسد الله يشفيك . قال : فأفقت . " وروي أنه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبي يشتكي فقالوا : يا رسول الله أصابته العين . قال : أفلا تسترقون له من العين ؟ وعنه صلى الله عليه وسلم : " العين حق ولو كان شيء يسبق القدر لسبقت العين القدر "

وقالت عائشة : كان يأمر العائن أن يتوضأ ثم يغتسل منه المعين . المقام الثاني في الكشف عن حقيقته . قال الجاحظ : يمتد من العين أجزاء فتتصل بالشخص المستحسن فتوثر وتسري فيه كتأثير اللسع والسم . واعترض الجبائي وغيره بأنه لو كان كذلك لأثر في غير المستحسن كتأثيره في المستحسن . وأجيب بأن المستحسن إن كان صديقاً للعائن عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله ، وإن كان عدواً حصل له خوف شديد من حصوله ، وعلى التقديرين يسخن الروح وينحصر في داخل القلب ويحصل في الروح الباصرة كيفية مسخنة مؤثرة ، فلهذا السبب أمر النبي صلى الله عليه وسلم العائن بالوضوء من أصابته العين بالاغتسال منه . وقال أبو هاشم وأبو القاسم البلخي : لا يمتنع أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به كانت المصلحة له في تكليفه أن غير الله ذلك الشخص حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف معلقاً به . وقال الحكماء : ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة بل قد يكون التأثير نفسانياً محضاً أو وهمياً كما للماشي على الجذع ، أو تصوّرياً كما في الحركات البدنية ، وقد يكون للنفوس خواص عجيبة تتصرف غير أبدانها بحسبها فمنها المعجز ومنها السحر ومنها الإصابة بالعين . أما

الجبائي وغيره ممن أنكر العين فقد قالوا : إن أولاد يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بكمالهم وجمالهم وهيئتهم فلم يأمن يعقوب أن يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم . وقيل : إنه كان عالماً بأن الملك ولده إلا أن الله تعالى لم يأمره بإظهاره وكان غرضه أن يصل بنيامين إليه في غيبتهم قاله إبراهيم النخعي . واعلم أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة ولكنه بعد السعي البليغ يجب أن يعلم أن كل ما يدخل في الوجود فهو بقضاء الله وقدره وأن الحذر لا يغني عن القدر فلهذا قال يعقوب : ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ فقوله الأوّل مبني على رعاية الأسباب والوسائط ، وقوله الثاني إلى آخر الآية إشارة إلى

(342/399)

الحقيقة وتفويض الأمر بالكلية إلى مسبب الأسباب . وقد صدقه الله تعالى في ذلك بقوله : ﴿ ما كان يغني عنهم من الله من شيء ﴾ قال ابن عباس : ما كان ذلك التفرق يردّ قضاء الله تعالى . وقال الزجاج وابن الأنباري : لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم عند الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم . وقال آخرون : ما كان يغني عنهم رأي يعقوب شيئاً قط حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم وأخذ الأخ وتضاعف المصيبة على

الأب ﴿ إلا حاجة ﴾ استثناء منقطع أي ولكن حاجة ﴿ في نفس يعقوب قضاها ﴾ وهي إظهار الشفقة والنصيحة ، أو الخوف من إصابة العين ، أو من حسد أهل مصر ، أو من قصد الملك .

ثم مدحه الله تعالى بقوله : ﴿ وإنه لذو علم ﴾ يعنى علمه بأن الحذر لا يدفع القدر ﴿ لما علمناه ﴾ "ما " مصدرية أو موصولة أي لتعليمنا إياه ، أو للذي علمناه . وقيل : العلم الحفظ والمراقبة . وقيل : المضاف محذوف أي لفوائد ما علمناه وحسن آثاره وإشارة إلى كونه عاملاً بعلمه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ مثل علم يعقوب أو لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة في العلم . وقيل : المراد بأكثر الناس المشركون لا يعلمون أن الله تعالى كيف أرشد أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 100. 106 ﴾

(343/399)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

(344/399)

التأويل : لما تبين لملك الروح قدر يوسف القلب وأمانته وصدقه وحسن استعداده سعى في خلاصه من سجن صفات البشرية ليكون خالصاً له في كشف حقائق الأشياء ، ولم يعلم أنه خلق لصلاح جميع رعايا مملكة روحانية وجسمانية . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن في جسد بني آدم مضغة ، إن صلحت صلح بها سائر الجسد وإن فسدت فسد بها سائر الجسد ألا وهي القلب " وللقلب اختصاص آخر بالله دون سائر المخلوقات قال سبحانه : " لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن " ﴿ اجعلني على خزائن ﴾ أرض الجسد فإن الله تعالى في كل عضو من الأعضاء خزانة من اللطف إن استعمله الإنسان فيما خلق ذلك العضو لأجله ، وخزانة من القهر إن استعمله في ضده ﴿ إني حفيظ ﴾ للخزائن ﴿ عليم ﴾ باستعمالها فيما ينفعها دون ما يضرها ﴿ نصيب برحمتنا ﴾ فيه أن إصابة اللطف من تلك الخزائن دون القهر موكولة إلى مشيئة الله تعالى .

﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ وهم الأوصاف البشرية ﴿ فعرفهم ﴾ يوسف القلب لأنه ينظر بنور الله ﴿ وهم له منكرون ﴾ لبقائهم في الظلمة حرمانهم عن النور . ﴿ ولما جهزهم ﴾ يشير إلى أن يوسف القلب لما التجأت إليه الأوصاف البشرية بدل صفاتها الذميمة النفسانية بالصفات الحميدة الروحانية ، فاستدعى منهم إحضار بنيامين السر لأن السر لا يحضر مع القلب إلا بعد التبديل المذكور ، وإذا حضر معه يوفى بأوفى الكيل ما

لم يوف إلى الأوصاف البشرية ﴿ اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ﴾ فيه أن البضاعة كل عمل من الأعمال البدنية التي تحيا بها الأوصاف البشرية إلى حضرة يوسف مردودة إليها ، لأن القلب مستغن عنها . وإنما الأوصاف البشرية محتاجة إليها لأن النفس تتأدب وتتزكى بها كما قال تعالى ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ [الإسراء : 7] وأن تربية القلب بالأعمال القلبية كالنيات الصالحة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : " نية المؤمن خير من عمله " وكالعزائم الخالصة والأخلاق الحميدة والتوكل

والإخلاص . ثم قال : كمال تربية القلب بالتخلية وتجلي صفات الحق وصفات ذاته ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ من صفة الأمارية إلا المأمورية والاطمئنان فيستحق بجذبة ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ [الفجر : 28] ﴿ ردّت إلينا ﴾ فوائده ما ترجع إلى يوسف القلب ﴿ ونمير أهلنا ﴾ الأعضاء والجوارح نحصل لهم قوّة زائدة على الطاعة بواسطة رسوخ الملكة له ﴿ ونحفظ أخانا ﴾ من الحوادث النفسانية والوساوس الشيطانية ﴿ ونزداد ﴾ بواسطة حضور السر عند القلب ﴿ كيل بعير ﴾ من الفوائد الربانية ﴿ وذلك كيل يسير ﴾ لمن يسره الله ﴿ لتأتنني به ﴾ مع الفوائد الربانية ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ إلا أن يغالب

عليكم الأحكام الأزلية ﴿ لا تدخلوا من باب واحد ﴾ لا تتقربوا إلى القلب بنوع واحد من المعاملات فللأسباب مدخل في التقريب إلا أن الكل موكل إلى مسبب الأسباب . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 107. 108﴾

(346/399)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى.رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/400)

الجزء الأربعمائة

من الآية ﴿ 69 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 76 ﴾ من نفس السورة

(4/400)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ

وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر تعالى عن دخولهم إلى البلد ، أخبر عن دخولهم لحاجتهم إلى يوسف عليه الصلاة والسلام فقا تل : ﴿ ولما دخلوا ﴾ أي بنوه عليه الصلاة والسلام ﴿ على يوسف ﴾ في هذه القدمة الثانية ﴿ آوى إليه أخاه ﴾ شقيقه بنيامين بعد أن قالوا له : هذا أخونا الذي أمرتنا به قد أحضرناه ، فقال : أصبتم ، وستجدون ذلك عندي ؛ والإيواء : ضم النفس بالتصيير إلى موضع الراحة ، وسبب إيوائه إليه أنه أمر كل اثنين منهم أن يأكلوا على حدة ، فبقي بنيامين بلا ثان ، فقال : هذا يأكل معي ، ثم قال ليا : وكل اثنين منكم في بيت من خمسة أبيات أفردها لهم ، وهذا الوحيد يكون معي في بيتي ، وهذا التفريق موافق لما أمرهم به أبوهم في تفريق الدخول ، فكأنه قيل : ماذا قال له ، هل أعلمه بنفسه أو كتم ذلك عنه كما فعل بسائر إخوته ؟ فقيل : بل ﴿ قال ﴾ معلماً له ، لأنه لا سبب يقتضي الكتم عنه - كما سيأتي بيانه ، مؤكداً لما للأخ من إنكاره لطول غيبته وتغير أحواله وقطع الرجاء منه : ﴿ إني أنا أخوك ﴾ يوسف : ثم سبب عن ذلك قوله : ﴿ فلا تبتئس ﴾ أي تجتلب البؤس .

وهو الكراهة والحزن ﴿ بما كانوا ﴾ أي سائر الإخوة ، كوناً هم راسخون فيه ﴿ يعملون ﴾ مما يسوءنا وإن زعموا أنهم بنوا ذلك العمل على علم ، وقد جمعنا له خير ما يكون عليه الاجتماع ، ولا تعلمهم بشيء من ذلك ، ثم إنه ملأ لهم أوعيتهم كما أرادوا .

وكأنه في المرة الأولى أيضاً في تجهيزهم ليتعرف أخبارهم في طول المدة من حيث لا يشعرون ، ولذلك لم يعطف بالفاء ، وأسرع في تجهيزهم في هذه المرة قصداً إلى انفراده بأخيه من غير رقيب بالحيلة التي دبرها .

فلذلك أتت الفاء في قوله : ﴿ فلما جهزهم ﴾ أي أعجل جهاز وأحسنه ﴿ بجهازهم ﴾ ويؤيده ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ [هود : 66 و 82] في قصتي صالح ولوط عليهما الصلاة والسلام – كما مضى في سورة هود عليه الصلاة والسلام ﴿ جعل ﴾ أي بنفسه أو بمن أمره ﴿ السقاية ﴾ التي له .

وهي إناء يسقي به ﴿ في رحل أخيه ﴾ شقيقه ، ليحتال بذلك على إبقائه عنده مع علمه بأن البصير لا يقضي بسرقته بذلك ، مع احتمال أن يكون الصواع دس في رحله بغير علمه

كما فعل ببضاعتهم في المرة الأولى ، وأما غير البصير فضرر ثبوت ذلك في ذهنه مغتفر لأنه يسير بالنسبة إلى ما يترتب عليه من النفع من ألف إخوته بيوسف عليه الصلاة والسلام وزوال وحشتهم منه بإقامته عنده - كما سيأتي مع مزيد بيان - هذا مع تحقق البراءة عن قرب ، فهو من باب ارتكاب أخف الضررين ، ثم أمهلهم حتى انطلقوا ، ثم أرسل إليهم فحبسوا ﴿ ثم ﴾ أي بعد انطلاقهم وإمعانهم في السير ﴿ أذن ﴾ أي أعلم فيهم بالنداء ﴿ مؤذن ﴾ قائلاً برفيع صوته وإن كانوا في غاية القرب منه - بما يدل عليه إسقاط الأداة : ﴿ أيتها العير ﴾ أي أهلها ، وأكد لما لهم من الإنكار ﴿ إنكم لسارقون ﴾ أي ثابت لكم ذلك لا محالة حقيقة بما فعلتم في حق يوسف عليه الصلاة والسلام ، أو مجازاً بأنكم فاعلون فعل السارق - كما سيأتي بيانه آنفاً ، مع أن هذا النداء ليس من قول يوسف عليه الصلاة والسلام ، ويحتمل أن لا يكون بأمره حتى يحتاج إلى تصحيحه ، بل يكون قائله فهم ذلك من قوله عليه السلام : صواعي مع الركب ، أو كأنهم أخذوا صواعي فاذهب فأتني به أو بهم - ونحو ذلك مما هو حق في نفسه ؛ والعير : القافلة التي فيها الأحمال ، والأصل فيها الحمير ، ثم كثر حتى أطلق على كل قافلة تشبيهاً بها ، وقد تضمنت الآية البيان عما يوجبه التلطف في بلوغ المراد من إيقاع الأسباب التي تؤدي إليه وتبعث عليه بظاهر جميل وباطن حق مما يخفى على كثير من الناس موقعه ، ويشكل عليه وجهه ، لأنه أنفذ له وأنجح للمطلوب منه ، فكأنه قيل : إن هذه لتهمة عظيمة ، فما قالوا في جوابها ؟ فقيل : ﴿ قالوا ﴾ في جواب

الذين لحقوهم ﴿ و ﴾ الحال أن آل إسرائيل ﴿ أقبلوا ﴾ ودل - على أن الذين لحقوهم كانوا جماعة المؤذن أحدهم ، كما كما هو شأن ذوي الرئاسة إذا أرسلوا في مهم - بالجمع

(7/400)

في قوله : ﴿ عليهم ﴾ أي على جماعة الملك : المنادي وغيره ﴿ ماذا تفقدون ﴾ مما يمكننا أخذه ﴿ قالوا نفقد ﴾ وكأن السقاية كان لها اسمان ، فعبروا هنا بقولهم : ﴿ صواع الملك ﴾ والصواع : الجام يشرب فيه ﴿ ولمن جاء به ﴾ أي أظهره ورده من غير تفتيش ولا عناء ﴿ حمل بعير ﴾ وهو بالكسر : قدر من المتاع مهيأ لأن يحمل على الظهر ، وأما الحمل في البطن فبالفتح ﴿ وأنا به زعيم ﴾ أي ضامن وكفيل أوديه إليه ، وإفراد الضمير تارة وجمعه أخرى دليل على أن القائل واحد ، وأنه نسب إلى الكل لرضاهم به ، وفي الآية البيان عما يوجبه حال بهت الإنسان للتثبت في الأمر وترك الإسراع إلى ما لا يجوز من القول ، فكأنه قيل : فما قال إخوة يوسف ؟ قيل : ﴿ قالوا ﴾ قول البريء ﴿ تالله ﴾ أي الملك اوعظم فأقسموا قسماً مقروناً بالتاء ، لأنها يكون فيها التعجب غالباً ، قال الرماني : لأنها لما كانت نادرة في أدوات القسم جعلت للنادر من المعاني ، والنادر من المعاني يتعجب منه ، وقال : إنها بدل من الواو ، والواو بدل من الباء ، فهي بدل من بدل ، فلذلك ضعفت عن

التصريف في سائر الأسماء ، ثم أكدوا براءتهم بقولهم : ﴿ لقد علمتم ﴾ أي بما جربتم من أمانتنا قبل هذا في كرتي مجيئنا ﴿ ما جئنا ﴾ وأكدوا النفي باللام فقالوا : ﴿ لنفسد ﴾ أي نوقع الفساد ﴿ في الأرض و ﴾ لقد علمتم ﴿ ما كنا ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ سارقين ﴾ أي موصوفين بهذا الوصف قط ، بما رأيتم من أحوالنا : من ردنا بضاعتنا التي وجدناها في رحالنا وغير ذلك مما عاينتم من شرف فعالنا مع علمنا بأنها خَلق لنا لا تصنّع يظهر لبعض الأذكياء بأدنى تأمل ، فكأنه قيل : فما قال الذين من جهة العزيز ؟ قيل : ﴿ قالوا ﴾ قول واثق بأنه في رحالهم : ﴿ فما جزاؤه ﴾ أي الصواع ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ في تبرئكم من السرقة ؛ والجزاء : مقابلة العمل بما يستحق عليه من خير أو شر ﴿ قالوا ﴾ وثوقاً منهم بالبراءة وإخباراً بالحكم عندهم ﴿ جزاؤه ﴾ أي الصواع ﴿ من ﴾ .

(8/400)

ولما كان العبرة بنفس الوجدان ، بنوا للمفعول قولهم : ﴿ وجد في رحله ﴾ ولتحققهم البراءة علقوا الحكم على مجرد الوجدان لا السرقة ؛ ثم أكدوا ذلك بقولهم : ﴿ فهو جزاءه ﴾ أي ليس غير ، فكأنه قيل : هل هذا أمر أحدثتموه الآن أو هو مشروع لكم ؟ فقالوا : ﴿ كذلك ﴾ أي بل هو سنة لنا ، مثل ذلك الجزاء الشديد ﴿ نجزي الظالمين ﴾ أي

بالظلم دائماً ، نرقّه في سرقته ؛ فحينئذ فتش أوعيتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 76ـ78 ﴾

(9/400)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ أني أنا أخوك ﴾ بفتح الياء : أبو عمرو وأبو جعفر ونافع . ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ بالإضافة وبياء الغيبة في الفعلين : سهل ويعقوب . بالنون وبالتنوين : عاصم وحمزة وعلي وخلف . الباقون : بالنون وعلى الإضافة . ﴿ فلما استيأسوا ﴾ وبابه بالألف ثم الياء : أبو ربيعة عن البزي وحمزة في الوقف وإن شاء لين الهمزة الباقون : بياء ثم همزة على الأصل ﴿ لي أبي ﴾ بفتح الياء فيهما : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وافق ابن كثير في أبي .

الوقوف : ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ لسارقون ﴾ 5 ﴿ تفقدون ﴾ 5 ﴿ زعيم ﴾ 5 ﴿ سارقين ﴾ 5 ﴿ كاذبين ﴾ 5 ﴿ فهو جزاؤه ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ 5 ﴿ من وعاء أخيه ﴾ ط ﴿ ليوسف ﴾ ط ﴿ يشاء الله ﴾ ط لأن ما بعده مستأنف ﴿ نشاء ﴾

ط ﴿ عليم ﴾ 5 ﴿ من قبل ﴾ ط ﴿ مكاناً ﴾ ج ﴿ تصفون ﴾ 5 ﴿ مكانه ﴾ ج الثلاثة لانقطاع النظم مع اتصال المعنى المحسنين ﴾ 5 عنده لا لتعلق " إذا " بما قبلها ﴿ لظالمون ﴾ 5 ﴿ نجيا ﴾ ط ﴿ يوسف ﴾ ط للابتداء بالنفي مع فاء التعقيب ﴿ يحكم الله لي ﴾ ج لاحتمال ما بعده الابتداء أو الحال ﴿ الحاكمين ﴾ 5 ﴿ سرق ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتحاد القائل ﴿ حافظين ﴾ 5 ﴿ أقبلنا فيها ﴾ ط لاختلاف الجملتين والابتداء بأنّ : ﴿ لصادقون ﴾ 5 ﴿ أمراً ﴾ ط ﴿ جميل ﴾ ط ﴿ جميعاً ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 108.109 ﴾

(10/400)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

اعلم أنهم لما أتوه بأخيه بنيامين أكرمهم وأضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه فقال يوسف بقي أخوكم وحيداً فأجلسه معه على مائدة ثم أمر أن ينزل منهم كل اثنين بيتاً وقال : هذا لا ثاني له

فاتركوه معي فآواه إليه ، ولما رأى يوسف تأسفه على أخ له هلك قال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال : من يجد أخاً مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه وعانقه وقال : إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ اوىَ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أي أنزله في الموضع الذي كان يأوي إليه .

وقوله : ﴿ إِنّى أَنَاْ أَخُوكَ ﴾ فيه قولان : قال وهب : لم يرد أنه أخوه من النسب ، ولكن أراد به إني أقوم لك مقام أخيك في الإيناس لئلا تستوحش بالتفرد .

والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أنه أراد تعريف النسب ، لأن ذلك أقوى في إزالة الوحشة وحصول الأنس ، ولأن الأصل في الكلام الحقيقة ، فلا وجه لصرفه عنها إلى المجاز من غير ضرورة .

وأما قوله : ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ فقال أهل اللغة : تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس .

وقوله : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فيه وجوه : الأول : المراد بما كانوا يعملون من إقامتهم على حسدنا والحرص على انصراف وجه أبينا عنا ، الثاني : أن يوسف عليه السلام ما بقي في قلبه شيء من العداوة وصار صافياً مع إخوته ، فأراد أن يجعل قلب أخيه صافياً معه

أيضاً ، فقال : ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا تلتفت إلى ما صنعوه فيما تقدم ، ولا تلتفت إلى أعمالهم المنكرة التي أقدموا عليها .

(11/400)

الثالث : أنهم إنما فعلوا بيوسف ما فعلوه ، لأنهم حسدوه على إقبال الأب عليه وتخصيصه بمزيد الإكرام ، فخاف بنيامين أن يحسدوه بسبب أن الملك خصه بمزيد الإكرام ، فأمنه منه وقال : لا تلتفت إلى ذلك فإن الله قد جمع بيني وبينك .

الرابع : روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا يعيرون يوسف وأخاه بسبب أن جدهما أبا أمهما كان يعبد الأصنام ، وأن أم يوسف امرأت يوسف فسرق جونة كانت لأبيها فيها أصنام رجاء أن يترك عبادتها إذا فقدها .

فقال له : ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من التعيير لنا بما كان عليه جدنا .

والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السقاية فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ وقد مضى الكلام في الجهاز والرحل ، أما السقاية فقال صاحب "الكشاف" : مشربة يسقي بها وهو الصواع قيل : كان يسقي بها الملك ثم جعلت صاعاً يكال به ، وهو بعيد لأن الإناء الذي

يشرب الملك الكبير منه لا يصلح أن يجعل صاعاً ، وقيل : كانت الدواب تسقى بها ويكال بها أيضاً وهذا أقرب ، ثم قال وقيل كانت من فضة مموهة بالذهب ، وقيل : كانت من ذهب ، وقيل : كانت مرصعة بالجواهر وهذا أيضاً بعيد لأن الآنية التي يسقى الدواب فيها لا تكون كذلك ، والأولى أن يقال : كان ذلك الإناء شيئاً له قيمة ، أما إلى هذا الحد الذي ذكروه فلا .

ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العيرِ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ يقال : أذنه أي أعلمه وفي الفرق بين أذن وبين أذن وجهان : قال ابن الأنباري : أذن معناه أعلم إعلاماً بعد إعلام لأن فعل يوجب تكرير الفعل قال ويجوز أن يكون إعلاماً واحداً من قبيل أن العرب تجعل فعل بمعنى أفعل في كثير من المواضع ، وقال سيبويه : أذنت وأذنت معناه أعلمت لا فرق بينهما ، والتأذين معناه : النداء والتصويت بالإعلام .

(12/400)

وأما قوله تعالى : ﴿ أَيَّتُهَا العيرِ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ قال أبو الهيثم : كل ما سير عليه من الإبل والحمير والبغال فهو عير وقول من قال العير الإبل خاصة باطل ، وقيل : العير الإبل التي عليها الأحمال لأنها تعير أي تذهب وتجيء ، وقيل : هي قافلة الحمير ، ثم كثر ذلك حتى قيل لكل

قافلة عير كأنها جمع عير وجمعها فعل كسقف وسقف .

إذا عرفت هذا فنقول : ﴿ أَيَّتُهَا العير ﴾ المراد أصحاب العير كقوله : يا خيل الله اركبي

وقرأ ابن مسعود : ﴿ وَجَعَلَ السقاية ﴾ على حذف جواب لما كأنه قيل فلما جهزهم

بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العير إِنَّكُمْ

لَسَارِقُونَ ﴾ .

فإن قيل : هل كان ذلك النداء بأمر يوسف أو ما كان بأمره ؟ فإن كان بأمره فكيف يليق

بالرسول الحق من عند الله أن يتهم أقواماً وينسبهم إلى السرقة كذباً وبهتاناً ، وإن كان الثاني

وهو أنه ما كان ذلك بأمره فهلا أنكره وهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة .

قلنا : العلماء ذكروا في الجواب عنه وجوهاً : الأول : أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه

يوسف قال له : إني أريد أن أحبسك ههنا ، ولا سبيل إليه إلا بهذه الحيلة فإن رضيت بها

فالأمر لك فرضي بأن يقال في حقه ذلك ، وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام

فخرج عن كونه ذنباً .

والثاني : أن المراد إنكم لسارقون يوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام والمعاريض

لا تكون إلا كذلك .

والثالث : أن ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام ، وعلى هذا التقدير

يخرج عن أن يكون كذباً .

الرابع : ليس في القرآن أنهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف عليه السلام والأقرب إلى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم لأنهم لما طلبوا السقاية وما وجدوها وما كان هناك أحد إلا هم غلب على ظنونهم أنهم هم الذين أخذوها ثم إن إخوة يوسف ﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ﴿ تُفْقِدُونَ ﴾ من أفقدته إذا وجدته فقيداً قالوا تفقد صواع الملك .

قال صاحب "الكشاف" : قرىء صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها ، والعين معجمة وغير معجمة .

قال بعضهم جمع صواع صيعان ، كغراب وغربان ، وجمع صاع أصواع ، كباب وأبواب .

وقال آخرون : لا فرق بين الصاع والصواع ، والدليل عليه قراءة أبي هريرة : ﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صاعَ الملك ﴾ وقال بعضهم : الصواع اسم ، والسقاية وصف ، كقولهم : كوز وسقاء ، فالكوز اسم والسقاء وصف .

ثم قال : ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أي من الطعام ﴿ أَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ قال مجاهد : الزعيم هو المؤذن الذي أذن .

وتفسير زعيم كفيل.

قال الكلبي: الزعيم الكفيل بلسان أهل اليمن.

وروى أبو عبيدة عن الكسائي: زعمت به تزعم زعماً وزعامة.

أي كفلت به، وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم، وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: "الزعيم غارم"

فإن قيل: هذه كفالة بشيء مجهول؟

قلنا: حمل بعير من الطعام كان معلوماً عندهم، فصحت الكفالة به إلا أن هذه الكفالة مال لرد سرقة، وهو كفالة بما لم يجب لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئاً على رد السرقة، ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾

قال البصريون: الواو في ﴿ والله ﴾ بدل من التاء والتاء بدل من الواو فضعفت عن التصرف في سائر الأسماء وجعلت فيما هو أحق بالقسم وهو اسم الله عز وجل.

قال المفسرون : حلفوا على أمرين : أحدهما : على أنهم ما جاؤا لأجل الفساد في الأرض لأنه ظهر من أحواله امتناعهم من التصرف في أموال الناس بالكلية لا بالأكل ولا بإرسال الدواب في مزارع الناس ، حتى روي أنهم كانوا قد سدوا أفواه دوابهم لئلا تعبث في زرع ، وكانوا مواظبين على أنواع الطاعات ، ومن كانت هذه صفته فالفساد في الأرض لا يليق به .

والثاني : أنهم ما كانوا سارقين ، وقد حصل لهم فيه شاهداً قاطع ، وهو أنهم لما وجدوا بضاعتهم في رحالهم حملوها من بلادهم إلى مصر ولم يستحلوا أخذها ، والسارق لا يفعل ذلك ألبتة ثم لما بينوا براءتهم عن تلك التهمة قال أصحاب يوسف عليه السلام : ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ فأجابوا و ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَاؤُهُۥ ﴾ قال ابن عباس كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته وكان استعباد السارق في شرعهم يجري مجرى وجوب القطع في شرعنا ، والمعنى جزاء هذا الجرم من وجد المسروق في رحله ، أي ذلك الشخص هو جزاء ذلك الجرم ، والمعنى : أن استعباده هو جزاء ذلك الجرم ، قال الزجاج : وفيه وجهان : أحدهما : أن يقال جزاؤه مبتدأ ومن وجد في رحله خبره .

والمعنى : جزاء السرقة هو الإنسان الذي وجد في رحله السرقة ، ويكون قوله : ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُۥ ﴾ زيادة في البيان كما تقول جزاء السارق القطع فهو جزاؤه .

الثاني : أن يقال : ﴿ جَزَاؤُهُۥ ﴾ مبتدأ وقوله : ﴿ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَاؤُهُۥ ﴾ جملة

وهي في موضع خبر المبتدأ .

والتقدير : كأنه قيل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو ، إلا أنه أقام المضمر للتأكيد والمبالغة في البيان وأنشد النحويون :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء . . نغص الموت الغني والفقيرا

وأما قوله : ﴿ كذلك نَجْزِى الظالمين ﴾ أي مثل هذا الجزاء جزاء الظالمين يريد إذا سرق استرق ثم قيل : هذا من بقية كلام أخوة يوسف .

وقيل : إنهم لما قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، فقال أصحاب يوسف :

﴿ كذلك نَجْزِى الظالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 141.

144 ﴾

(15/400)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولما دخلوا على يوسف أوى إليه أخاه ﴾

قال قتادة : ضمّهُ إليه وأنزله معه .

﴿ قال إني أنا أخوك ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه أخبره أنه يوسف أخوه ، قاله ابن إسحاق .

الثاني : أنه قال له : أنا أخوك مكان أخيك الهالك ، قاله وهب .

﴿ فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فلا تأسف ، قاله ابن بحر .

الثاني : فلا تحزن بما كانوا يعملون .

وفيه وجهان :

أحدهما : بما فعلوه في الماضي بك وبأخيك .

الثاني : باستبدادهم دونك بمال أبيك .

قوله عز وجل : ﴿ فلما جهزهم بجهازهم ﴾

وهو كيل الطعام لهم بعد إكرامهم وإعطائه بعيراً لأخيهم مثل ما أعطاهم .

﴿ جعل السقاية في رحل أخيه ﴾ والسقاية والصواع واحد . قال ابن عباس . وكل شيء يشرب فيه فهو صواع ، قال الشاعر :

نشرب الخمر بالصواع جهاراً . . . وترى المتك بيننا مستعارا

قال قتادة : وكان إناء المتك الذي يشرب فيه .

واختلف في جنسه ، فقال عكرمة كان من فضة ، وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب ، وبه كال طعامهم مبالغة في إكرامهم .

وقال السدي : هو المكوك العادي الذي يلتقي طرفاه .

﴿ ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ أي نادى مناد فسمى النداء أذاناً لأنه إعلام كالأذان .

وفي ﴿ العير ﴾ وجهان :

أحدهما : أنها الرفقة .

الثاني : أنها الإبل المرحولة المركوبة ، قاله أبو عبيدة .

فإن قيل : كيف استجاز يوسف أن يجعل السقاية في رحل أخيه لسرقهم وهم برآء ، وهذه معصية ؟

قيل عن هذه أربعة أجوبة :

أحدها : أنها معصية فعلها الكيال ولم يأمر بها يوسف .

الثاني : أن المنادي الذي كال حين فقد السقاية ظن أنهم سرقوها ولم يعلم بما فعله يوسف ، فلم يكن عاصياً .

الثالث : أن النداء كان بأمر يوسف ، وعنى بذلك سرقتهم ليوسف من أبيه ، وذلك صدق .

الرابع : أنها كانت خطيئة من قبل يوسف فعاقبه الله عليها بأن قال القوم ﴿ إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل ﴾ يعنون يوسف . وذهب بعض من يقول بغوامض المعاني إلى أن معنى قوله ﴿ إنكم لسارقون ﴾ أي لعاقون لأبيكم في أمر أخيكم حيث أخذتموه منه وخنتموه فيه .

قوله عز وجل : ﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ﴾ لأنهم استنكروا ما قذفوا به مع ثقتهم بأنفسهم فاستفهموا استفهام المبهوت .

﴿ قالوا نفقد صواع الملك ﴾ والصواع واحد وحكى غالب الليثي عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأ صوغ الملك بالغين معجمة ، مأخوذ من الصياغة لأنه مصوغ من فضة أو ذهب وقيل من نحاس .

﴿ ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴾ وهذه جعالة بذلت للواجد .

وفي حمل البعير وجهان :

أحدهما : حمل جمل ، وهو قول الجمهور .

الثاني : حمل حمار ، وهو لغة ، قاله مجاهد .

واختلف في هذا البذل على قولين :

أحدهما : أن المنادي بذله عن نفسه لأنه قال ﴿ وأنا به زعيم ﴾ أي كفيل ضامن .

فإن قيل : فكيف ضمن حمل بعير وهو مجهول ، وضمان المجهول لا يصح ؟ قيل عنه جوابان :

أحدهما : أن حمل البعير قد كان عندهم معلوماً كالسوق فصح ضمانه .

الثاني : أنها جعالة وقد أجاز بعض الفقهاء فيها في الجهالة ، ما لم يُجزْه في غيرها كما أجاز فيها ضمان ما لم يلزم ، وإن منع منه في غيرها .

قوله عز وجل : ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ﴾

أي لنسرق ، لأن السرقة من الفساد في الأرض . وإنما قالوا ذلك لهم لأنهم قد كانوا عرفوهم بالصلاح والعفاف . وقيل لأنهم ردّوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم ، ومن يؤد الأمانة في غائب لا يقدم على سرقة مال حاضر .

﴿ وما كنا سارقين ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ما كنا سارقين من غيركم فنسرق منكم .

والثاني : ما كنا سارقين لأماتنكم فنسرق غير أماتنكم . وهذا أشبه لأنهم أضافوا بذلك إلى عملهم .

قوله عز وجل : ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ أي ما عقوبة من سرق منكم إن كنتم كاذبين في أنكم لم تسرقوا منا .

﴿ قالوا جزاؤه مَن وُجِدَ في رحلِه فهو جزاؤه ﴾ أي جزاء من سرق إن يُسْترق .

﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ أي كذلك نفعل بالظالمين إذا سرقوا وكان هذا من دين يعقوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(18/400)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولما دخلوا على يوسف ﴾ الآية .

المعنى أنه لما دخل إخوة يوسف عليه ورأى أخاه شكر ذلك لهم – على ما روي – وضم إليه أخاه وآواه إلى نفسه . ومن هذه الكلمة المأوى . وكان بنيامين شقيق يوسف فآواه . وصورة ذلك – على ما روي عن ابن إسحاق وغيره – أن يوسف عليه السلام أمر صاحب ضيافته أن ينزلهم رجلين رجلين ، فبقي يامين وحده ، فقال يوسف : أنا أنزل هذا مع نفسي ، ففعل وبات عنده ؛ وقال له : ﴿ إني أنا أخوك ﴾ واختلف المتأولون في هذا اللفظ فقال ابن إسحاق وغيره : أخبره بأنه أخوه حقيقة واستكتمه ، وقال له : لا تبال بكل

ما تراه من المكروه في تحيلي في أخذك منهم . وعلى هذا التأويل يحتمل أن يشير بقوله : ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ إلى ما يعمله فتيان يوسف ، من أمر السقاية ونحو ذلك ؛ ويحتمل أن يشير إلى ما عمله الإخوة قديماً . وقال وهب بن منبه : إنما أخبره أنه أخوه في الود مقام أخيه الذاهب ، ولم يكشف إليه الأمر بل تركه تجوز عليه الحيلة كسائر إخوته . و﴿ تبتئس ﴾ - تفتعل - من البؤس ، أي لا تحزن ولا تهتم ، وهكذا عبر المفسرون .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾

(19/400)

هذا من الكيد الذي يسره الله ليوسف عليه السلام ، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يستعبد السارق ، وكان في دين مصر أن يضرب ويضعف عليه الغرم ، فعلم يوسف أن إخوته - لثقتهم ببراءة ساحتهم - سيدعون في السرقة إلى حكمهم ؛ فتحيل لذلك ، واستسهل الأمر - على ما فيه من رمي أبرياء بالسرقة وإدخال الهم على يعقوب عليه السلام ، وعليهم - لما علم في ذلك من الصلاح في الأجل ، وبوحي لا محالة وإرادة من الله محنتهم بذلك ، - هذا تأويل قوم ، ويقويه . قوله تعالى : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ [يوسف : 76] وقيل : إنما أوحي إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط ، ثم إن حافظها

فقدها ، فنادى على ما ظهر إليه – ورجحه الطبري ؛ وتفتيش الأوعية يرد عليه . وقيل : إنهم لما كانوا قد باعوا يوسف استجاز أن يقال لهم هذا ، وإنه عوقب على ذلك بأن قالوا : " فقد سرق أخ له من قبل " وقوله : ﴿ جعل ﴾ أي بأمره خدمته وفتيانه .

وقرأ ابن مسعود " وجعل " بزيادة واو . ﴿ السقاية ﴾ : الإناء الذي به يشرب الملك وبه كان يكيل الطعام للناس ، هكذا نص جمهور المفسرين ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك وابن زيد .

قال القاضي أبو محمد : وفي كتب من حرر أمرها أنها شكل له رأسان ويصل بينهما مقبض تمسك الأيدي فيه فيكال الطعام بالرأس الواحد ويشرب بالرأس الثاني أو بهما . فيشبه أن تكون لشرب أضياف الملك وفي أطعمته الجميلة التي يحتاج فيها إلى عظيم الأواني . وقال سعيد بن جبير : ال ﴿ الصواع ﴾ مثل المكوك الفارسي ، وكان إناء يوسف الذي يشرب فيه ، وكان إلى الطول ما هو ، قال : وحدثني ابن عباس أنه كان للعباس مثله يشرب به في الجاهلية .

قال القاضي أبو محمد : وقال ابن جبير – أيضاً – " الصواع " : المكوك الفارسي الذي تلتقي طرفاه ، كانت تشرب فيه الأعاجم . وروي أنها كانت من فضة – وهذا قول الجمهور – وروي أنها كانت من ذهب قال الزجاج : وقال : كان من مسك .

قال القاضي أبو محمد : وقد روي هذا بفتح الميم ، وقيل : كان يشبه الطاس ، وقيل : من نحاس – قاله ابن عباس أيضاً – ولعزة الطعام في تلك الأعوام قصر كيلها على ذلك الإناء .

وكان هذا الجعل بغير علم من يامين – قاله السدي ، وهو الظاهر .

فلما فصلت العير بأوفارها وخرجت من مصر – فيما روي وقالت فرقة بل قبل الخروج من مصر – أمر بهم فحبسوا . و ﴿ أذن مؤذن ﴾ و " مخاطبة العير " تجوز ، والمراد أربابها ، وإنما المراد : أيتها القافلة أو الرفقة ، وقال مجاهد : كانت دوابهم حميراً ، ووصفهم بالسرقة من حيث سرق في الظاهر أحدهم ، وهذا كما تقول : بنو فلان قتلوا فلاناً ، وإنما قتله أحدهم .

فلما سمع إخوة يوسف هذه المقالة أقبلوا عليهم وساءهم أن يرموا بهذه المنقبة ، وقالوا : ﴿ ماذا تفقدون ﴾ ليقع التفتيش فتظهر براءتهم ، ولم يلوذوا بالإنكار من أول ، بل سألوا إكمال الدعوى عسى أن يكون فيها ما تبطل به ، فلا يحتاج إلى خصام .

وقرأ أبو عبد الرحمن : " تُفقدون " بضم التاء ، وضعفها أبو حاتم .

﴿ قالوا نفقد صواع الملك ﴾ : وهو المكيال وهو السقاية رسمه أولاً بإحدى جهتيه وآخراً بالثانية .

وقرأ جمهور الناس " صُواع " بضم الصاد وبألف ، وقرأ أبو حيوة : " صِواع " بكسر الصاد

وبألف ، وقرأ أبو هريرة ومجاهد " صاع الملك " بفتح الصاد دون واو ، وقرأ عبد الله بن عوف : " صُواع " بضم الصاد ، وقرأ أبو رجاء " صوْع " وهذه لغة في المكيال - قاله أبو الفتح وغيره - وتؤنث هذه الأسماء وتذكر . وقال أبو عبيد يؤنث الصاع من حيث سمي سقاية ، ويذكر من حيث هو صاع . وقرأ يحيى بن يعمر : " صوغ " بالغين منقوطة - وهذا على أنه الشيء المصوغ للملك على ما روي أنه كان من ذهب أو من فضة ، فهو مصدر سمي به ، ورويت هذه القراءة عن أبي رجاء . قال أبو حاتم : وقرأ سعيد بن جبير والحسن " صُواغ " بضم الصاد وألف وغين معجمة .

وقوله : ﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ ، أي لمن دل على سارقه وفضحه وجبر الصواع - وهذا جعل - وقوله : ﴿ وأنا به زعيم ﴾ حمالة ، وذلك أنه لما كان الطعام لا يوجد إلا عند الملك فهم من المؤذن أنه إنما جعل عن غيره ، فلخوفه ألا يوثق بهذه الجعالة - إذ هي عن الغير - تحمل هو بذلك . قال مجاهد : ال ﴿ زعيم ﴾ هو المؤذن الذي قال : ﴿ أيتها العير ﴾ و " الزعيم " : الضامن - في كلام العرب - ويسمى الرئيس زعيماً ، لأنه يتضمن حوائج الناس .

وقوله : ﴿ قالوا : تالله ﴾ الآية ، روي : أن إخوة يوسف كانوا ردوا البضاعة الموجودة في الرحال وتحرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن فلذلك قالوا : ﴿ لقد علمتم ﴾ أي لقد علمتم منا التحري ؛ وروي أنهم كانوا قد اشتهروا في مصر بصلاح وتعفف ، وكانوا يجعلون الأكمة في أفواه إبلهم لئلا تنال زرع الناس ، فلذلك قالوا : لقد علمتم ما جئنا لفساد وما نحن أهل سرقة .

والتاء في ﴿ تالله ﴾ بدل من واو - كما أبدلت في تراث وفي التورية وفي التخمة - ولا تدخل التاء في القسم إلا في المكتوبة من بين أسماء الله تعالى ، لا في غير ذلك - لا تقول : تالرحمن ولا تالرحيم - .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا : فما جزاؤه ﴾ الآية ، قال فتيان يوسف : فما جزاء السارق ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ في قولكم : ﴿ وما كنا سارقين ﴾ فقال إخوة يوسف : جزاء السارق والحكم الذي تتضمنه هذه الألفاظ ﴿ من وجد في رحله فهو جزاؤه ﴾ ف ﴿ جزاؤه ﴾ الأول مبتدأ و﴿ من ﴾ والجملة خبر قوله : ﴿ جزاؤه ﴾ الأول ، والضمير في ﴿ قالوا جزاؤه ﴾ للسارق ، ويصح أن تكون ﴿ من ﴾ خبراً عائد على ﴿ من ﴾ ويكون قوله : ﴿ فهو جزاؤه ﴾ زياد بيان وتأكيد .

وليس هذا الموضع – عندي – من مواضع إبراز الضمير على ما ذهب إليه بعض المفسرين ، ويحتمل أن يكون التقدير : جزاؤه استرقاق من وجد في رحله ، ثم يؤكد بقوله ﴿ فهو جزاؤه ﴾ وقولهم هذا قول من لم يسترب بنفسه ، لأنهم التزموا إرغام من وجد في رحله ، وهذا أكثر من موجب شرعهم إذ حق شرعهم أن لا يؤخذ إلا من صحت سرقته ، وأمر بنيامين في السقاية كان محتملاً . لكنهم التزموا أن من وجد في رحله فهو مأخوذ على أنه سارق . وقولهم ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ ، أي هذه سنتنا وديننا في أهل السرقة : أن يتملك السارق كما تملك هو الشيء المسروق .

قال القاضي أبو محمد : وحكى بعض الناس : أن هذا الحكم كان في أول الإسلام ثم نسخ بالقطع ، وهذا ضعيف ، ما كان قط فيما علمت ، وحكى الزهراوي عن السدي : أن حكمهم إنما كان أن يستخدم السارق على قدر سرقته وهذا يضعفه رجوع الصواع فكان ينبغي ألا يؤخذ بنيامين إذ لم يبق فيما يخدم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا على يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾

قال قتادة : ضمّه إليه ، وأنزله معه .

وقيل : أمر أن ينزل كل اثنين في منزل ، فبقي أخوه منفرداً فضمّه إليه وقال : أشفقت عليه من الوحدة ، وقال له سِرًّا من إخوته : ﴿ إني أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ أي لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السقاية فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له : لا تردّني إليهم ، فقال : قد علمت اغتمام يعقوب بي فيزداد غمّه ، فأبى بنيامين الخروج ؛ فقال يوسف : لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك : فقال : لا أبالي ! فدس الصاع في رحله ؛ إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد ، أو أَمَر بعض خواصّه بذلك .

والتّجهيز التسريح وتنجيز الأمر ؛ ومنه جهّز على الجريح أي قتله ، ونجّز أمره .

والسقاية والصواع شيء واحد ؛ إناء له رأسان في وسطه مَقْبِض ، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد ، ويكال الطعام بالرأس الآخر ؛ قاله النقاش عن ابن عباس ، وكل شيء يشرب به فهو صواع ؛ وأنشد :

نَشربُ الخمرَ بالصّواع جِهَارًا . . .

واختلف في جنسه ؛ فروى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس قال : كان صواع الملك شيء من فضة يشبه المَكُّوك ، من فضة مرصع بالجوهر ، يجعل على الرأس ؛ وكان للعباس واحد في الجاهلية ، وسأله نافع بن الأزرق ما الصواع ؟ قال : الإناء ؛ قال فيه الأعشى :

له دَرْمَكٌ في رأسه ومَشارِبٌ . . .

وقِدْرٌ وطَبَّاخٌ وصاعٌ ودَيسَقُ

وقال عِكرمة : كان من فضة .

وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب ؛ وبه كال طعامهم مبالغة في إكرامهم .

وقيل : إنما كان يكال به لعزّة الطعام .

والصاع يذكّر ويؤنّث ؛ فمن أنّثه قال : أَصْوُع ؛ مثل أَدْوُر ، ومن ذكّره قال أَصْوَاع ؛ مثل أثواب .

وقال مجاهد وأبو صالح : الصاع الطِّرْجِهَالة بلغة حِمْير .

وفيه قراءات : "صُوَاع" قراءة العامة ؛ و "صُوْغ" بالغين المعجمة ، وهي قراءة يحيى بن يَعْمُر

؛ قال : وكان إناء أصِيغ من ذهب .

"وصُوع" بالعين غير المعجمة قراءة أبي رجا .

"وصُوْع" بصاد مضمومة وواو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أبيّ .

"وصُيَاع" بياء بين الصاد والألف ؛ قراءة سعيد بن جُبير .

"وصاع" بألف بين الصاد والعين ؛ وهي قراءة أبي هريرة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العيرِ إنكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أي نادى منادٍ وأعلم .

"وَأَذَّنَ" للتكثير ؛ فكأنه نادى مرارا ً "أَيَّتُهَا الْعِيرُ" .

والعير ما امتير عليه من الحمير والإبل والبغال .

قال مجاهد : كان عِيرهم حميراً .

قال أبو عبيدة : العِير الإبل المرحولة المركوبة ؛ والمعنى : يا أصحاب العير ، كقوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] ويا خيل الله اركبي : أي يا أصحاب خيل الله ، وسيأتي .

وهنا اعتراضان : الأوّل إن قيل : كيف رضي بنيامين بالقعود طوعاً وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن ، ووافقه على ذلك يوسف ؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم بَرَاء وهو الثاني فالجواب عن الأوّل : أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثر فيه فقد بنيامين كل التأثير ، أو لا تراه لما فقده قال : ﴿ يا أسفى عَلَى يُوسُفَ ﴾ ولم يعرّج على

بنيامين ؛ ولعل يوسف إنما وافقه على القعود بوحي ؛ فلا اعتراض .

وأما نسبة يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب : أن القوم كانوا قد سَرَقوه من أبيه فألقوه في الجبّ ، ثم باعوه ؛ فاستحقّوا هذا الاسم بذلك الفعل ، فصدق إطلاق ذلك عليهم .

جواب آخر وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السُّرّاق ؛ والمعنى : إنّ شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه .

(25/400)

جواب آخر وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه ، وفصله عنهم إليه ، وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدسّ الصاع في رحله ، ولا أخبره بنفسه .

وقد قيل : إن معنى الكلام الاستفهام ؛ أي أو إنكم لسارقون ؟ كقوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ ﴾ [الشعراء : 22] أي أو تلك نعمة تمنها عليّ ؟ والغرض ألاّ يعزى إلى يوسف صلى الله عليه وسلم الكذب .

﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71) ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ .

البعير هنا الجمل في قول أكثر المفسرين .

وقيل : إنه الحمار ، وهي لغة لبعض العرب ؛ قاله مجاهد واختاره .

وقال مجاهد : الزعيم هو المؤذن الذي قال : "أَيَّتُهَا الْعِيرُ" .

والزعيم والكَفيل والحَمِيل والضّمين والقَبِيل سواء والزعيم الرئيس .

قال :

وإنّي زَعيمٌ إنْ رَجعتُ مُمَلَّكا . . .

بسَيْرٍ تَرَى مِنهُ الفُرَانِق أَزْوَرَا

وقالت ليلى الأخيلية تَرثي أخاها :

ومُخرَّقٍ عنهُ القميصُ تَخَالُهُ . . .

يومَ اللّقاءِ من الحياءِ سَقِيمَا

حتَّى إذا رَفَعَ اللّوَاءَ رأيتَهُ . . .

(تحتَ اللّواءِ) على الخَمِيس زَعِيما

الثانية : إن قيل : كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول ، وضمان المجهول لا يصح ؟ قيل له : حمل البعير كان معيناً معلوماً عندهم كالوَسْق ؛ فصح ضمانه ، غير أنه (كان) بدل مالٍ للسارق ، ولا يحل للسارق ذلك ، فلعله كان يصحّ في شرعهم أو كان هذا جعالة ، وبذل مال لمن (كان) يفتّش ويطلب .

الثالثة : قال بعض العلماء : في هذه الآية دليلان : أحدهما جواز الجُعْل وقد أجيز للضرورة ؛ فإنه يجوز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره ؛ فإذا قال الرجل : من فعل كذا فله كذا صح .

وشأن الجُعْل أن يكون أحد الطرفين معلوماً والآخر مجهولاً للضرورة إليه ؛ بخلاف الإجارة ؛ فإنه يتقدّر فيها العوض والمعوض من الجهتين ؛ وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فسخه ؛ إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده ، إذا رضِي بإسقاط حقه ، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له في العمل .

ولا يشترط في عقد الجُعْل حضور المتعاقدين ، كسائر العقود ؛ لقوله : ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ وبهذا كله قال الشافعي .

الرابعة : متى قال الإنسان ، من جاء بعبدي الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به ؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من جاء بآبق فله أربعون درهماً " ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد .

قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد ولهذا قال أصحابنا : إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله

بنفسه من مصالحه لزمه ذلك ، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر .

قلت : وخالفنا في هذا كله الشافعي .

الخامسة : الدليل الثاني جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام ، قال علماؤنا : إذا قال الرجل تحمّلت أو تكفّلت أو ضمنت أو وأنا حَميل لك أو زعيم أو كَفيل أو ضامن أو قَبيل ، أو هو لك عندي أو عليّ أو إليّ أو قِبَلي فذلك كله حَمَالة لازمة ، وقد اختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه ، هل يلزمه ضمان المال أم لا ؟ فقال الكوفيون : من تكفّل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذي على المطلوب إن مات ؛ وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه .

(27/400)

وقال مالك والليث والأوزاعي : إذا تكفّل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال ، ويرجع به على المطلوب ؛ فإن اشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا أضمن المال فلا شيء عليه من المال ؛ والحجة لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم ، وإنما يطلب بمال ؛ فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوّته عليه ، وعزه منه ؛ فلذلك لزمه المال .

واحتج الطحاوي للكوفيين فقال : أما ضمان المال بموت المكفول (به) فلا معنى له ؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال ، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادسة : واختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال ؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما ؟ فقال الثوري والكوفيون والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحق : يأخذ من شاء حتى يستوفي حقه ؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب ؛ لأن التبدية بالذي عليه الحق أولى ، إلا أن يكون معدماً فإنه يؤخذ من الحميل ، لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة ؛ وهذا قول حسن .

والقياس أن للرجل مطالبة أي الرجلين شاء .

وقال ابن أبي ليلى : إذا ضمن الرجل عن صاحبه مالاً تحول على الكفيل وبرىء صاحب الأصل ، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء ؛ واحتج ببراءة الميت من الدين بضمان أبي قتادة ، وبنحوه قال أبو ثور .

السابعة : الزعامة لا تكون إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها ، مما يتعلق بالذمة من الأموال ، وكان ثابتاً مستقراً ؛ فلا تصح الحمالة بالكتابة لأنها ليست بدين ثابت مستقر ؛ لأن العبد إن عجز رَقَّ وانفسخت الكتابة ؛ وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيه ، ويسجن المدعى عليه الحد ، حتى ينظر في أمره .

وشذّ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة في الحدود والقصاص ، وقالا : إذا قال المقذوف أو المدعي القصاص بينتي حاضرة كفله ثلاثة أيام ؛ واحتج لهم الطحاويّ بما رواه حمزة بن عمرو عن عمر وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهم حكموا بالكفالة بالنفس بمحضر الصحابة .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ ﴾

يروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلماً ، ولا يرعون زرع أحد ، وأنهم جمعوا على أفواه إبلهم الأكِمّة لئلا تعيث في زروع الناس .

ثم قال : ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يروى أنهم ردّوا البضاعة التي كانت في رِحالهم ؛ أي فمن ردّ ما وجد فكيف يكون سارقا ؟!

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ المعنى : فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم ؟ فأجاب إخوة يوسف : ﴿ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أي يُسْتعبد ويُسْتَرقّ .

"فَجزَاؤُهُ" مبتدأ ، و "مَنْ وُجِدَ في رَحْلِهِ" خبره ؛ والتقدير : جزاؤه استعباد من وُجِد في رحله ؛ فهو كناية عن الاستعباد ؛ وفي الجملة معنى التوكيد ، كما تقول : جزاء من سرق القطع فهذا جزاؤه .

﴿ كذلك نَجْزِي الظالمين ﴾ أي كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يُستَرَقُّوا ، وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه .

وقولهم هذا قول من لم يَستَرِب نفسه ؛ لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفي ما أخذ ؛ قاله الحسن والسدّي وغيرهما .

مسألة : قد تقدّم في سورة "المائدة" أن القطع في السرقة ناسخ لما تقدّم من الشرائع ، أو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق ، والله أعلم . انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9صـ ﴾

(29/400)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ﴾

(30/400)

قال المفسرون : لما دخل إخوة يوسف على يوسف قالوا أيها الملك هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي ثم أنزلهم وأكرم نزلهم ثم إنه أضافهم وأجلس كل اثنين على مائدة فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه فقال يوسف لقد بقي هذا وحده فقالوا كان له أخ فهلك قال لهم أجلسه معي فأخذه فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك وقال كل اثنين منكم ينامان على فراش واحد فبقي بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام عندي على فراشي فنام بنيامين مع يوسف على فراشه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح فلما أصبح قال لهم إني أرى هذا الرجل وحيداً ليس معه ثان وسأضمه إليّ فيكون معي في منزلي ثم إنه أنزلهم وأجرى عليهم الطعام فقال روبيل ما رأينا مثل هذا فذلك قوله آوى إليه أخاه يعني ضمه وأنزل معه في منزله فلما خلا به قال له يوسف ما اسمك قال بنيامين قال وما بنيامين قال ابن المشكل وذلك أنه لما ولدته أمه هلكت قال وما اسم أمك قال راحيل قال فهل لك من ولد قال عشر بنين قال فهل لك من أخ لأمك قال كان لي أخ فهلك قال يوسف أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال بنيامين ومن فهل لك من يجد أخاً مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام إليه وعانقه و ﴿ قال ﴾ له ﴿ إني أنا أخوك ﴾ يعني يوسف ﴿ فلا تبتئس ﴾ يعني لا تحزن وقال أهل اللغة تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب

الحزن والبؤس ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ يعني فلا تحزن بشيء فعلوه بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا ونجانا من الهلاك وجمع بيننا ، وقيل : إن يوسف صفح عن إخوته وصفا لهم فأراد أن يجعل قلب أخيه بنيامين مثل قبله صافياً عليهم ثم قال يوسف لأخيه بنيامين لا تعلم إخوتك بشيء مما أعلمتك به ثم إنه أوفى لإخوته الكيل وزاد لكل واحد حمل بعير ولبنيامين حمل بعير

(31/400)

باسمه ثم أمر بساقية الملك فجعلت في رحل أخيه بنيامين ، قال السدي : وهو لا يشعر وقال كعب : لما قال له يوسف إني أنا أخوك قال بنيامين أنا لا أفارقك فقال يوسف قد علمت اغتمام والدي عليّ فإذا حبستك عندي ازداد غمه ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى ما لا يحمد قال لا أبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقك قال فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليكم بالسرقة ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك قال فافعل ما شئت .

﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ﴾

وهي المشربة التي كان الملك يشرب فيها ، قال ابن عباس : كانت من زبرجد ، وقال ابن

إسحاق كانت من فضة وقيل من ذهب ، وقال عكرمة : كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر جعلها يوسف مكيالاً لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها والسقاية والصواع اسم لإناء واحد وجعلت في وعاء طعام أخيه بنيامين ثم ارتحلوا راجعين إلى بلادهم فأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلاً وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم أرسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم ﴿ ثم أذن مؤذن ﴾ يعني نادى مناد وأعلم معلم .

والأذان في اللغة الإعلام ﴿ أيتها العير ﴾ وهي القافلة التي في الأحمال ، وقال مجاهد : العير الحمير والبغال ، وقال أبو الهيثم : كل ما سير عليه من الإبل والحمير والبغال فهي عير وقول من قال إنها الإبل خاصة باطل وقيل العير الإبل التي تحمل عليها الأحمال سميت بذلك لأنها تعير أي تذهب وتجيء وقيل هي قافلة الحمير ثم كثر ذلك في الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير وقوله أيتها العير أراد أصحاب العير ﴿ إنكم لسارقون ﴾ فقفوا والسرقة أخذ ما ليس له أخذه في خفاء .

فإن قلت هل كان هذا النداء بأمر يوسف أم لا فإن كان بأمره فكيف يليق بيوسف مع علو منصبه وشريف رتبته من النبوة والرسالة أن يتهم أقواماً وينسبهم إلى السرقة كذباً مع علمه ببراءتهم من ذلك وإن كان ذلك النداء بغير أمره فهلا أظهر براءته عن تلك التهمة التي نسبوا إليها .

قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة :

أحدها : أن يوسف لما أظهر لأخيه أنه أخوه قال لست أفارقك قال لا سبيل إلى ذلك إلا بتدبير حيلة أنسبك فيها إلى ما يليق قال رضيت بذلك فعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام بل قد رضي به فلا يكون ذنباً .

الثاني : أن يكون المعنى إنكم لسارقون ليوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفي المعاريض مندوحة عن الكذب .

الثالث : يحتمل أن يكون المنادي ربما قال ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير لا يكون كذباً .

الرابع : ليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف وهو الأقرب إلى ظاهر الحال لأنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم وغلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم ﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ﴾ قال أصحاب الأخبار لما وصل الرسل إلى إخوة يوسف قالوا لهم ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ونوف إليكم الكيل ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك قالوا فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى قالوا وأقبلوا عليهم أي عطفوا على المؤذن وأصحابه ماذا أي ما الذي تفقدون والفقدان ضد الوجود ﴿ قالوا ﴾ يعني المؤذن

وأصحابه ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ الصاع الإناء الذي يكال به وجمعه أصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان ﴿ ولمن جاء به ﴾ يعني بالصواع ﴿ حمل بعير ﴾ يعني من الطعام ﴿ وأنا به زعيم ﴾ أي كفيل قال الكلبي الزعيم هو الكفيل بلسان أهل اليمن وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم وقد حكم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بها في قوله

" الحميل غارم " والحميل الكفيل .

فإن قلت كيف تصح هذه الكفالة مع أن السارق لا يستحق شيئاً .

قلت لم يكونوا سراقاً في الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون جعالة أو لعل مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم في ذلك الزمان فيحمل عليه ﴿ قالوا ﴾ يعني إخوة يوسف ﴿ تالله ﴾ التاء بدل من الواو ولا تدخل إلا على اسم الله في اليمين خاصة تقديره والله ﴿ لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا مسرفين ﴾ قال المفسرون : إن أخوة يوسف حلفوا على أمرين :

أحدهما : أنهم ما جاؤوا لأجل الفساد في الأرض والثاني أنهم ما جاؤوا سارقين وإنما قالوا

هذه المقالة لأنه كان قد ظهر من أحوالهم ما يدل على صدقهم وهو أنهم كانوا مواظبين على أنواع الخير والطاعة والبر حتى بلغ من أمرهم أنهم شدوا أفواه دوابهم لئلا تؤذي زرع الناس ومن كانت هذه صفته فالفساد في حقه ممتنع .

وأما الثاني : وهو أنهم ما كانوا سارقين فلأنهم قد كانوا ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم ولم يستحلوا أخذها ومن كانت هذه صفته فليس بسارق فلأجل ذلك قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين فلما تبينت براءتهم من هذه التهمة ﴿ قالوا ﴾ يعني أصحاب يوسف وهو المنادي وأصحابه ﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ يعني فما جزاء السارق إن كنتم كاذبين في قولكم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين .

(34/400)

﴿ قالوا ﴾ يعني إخوة يوسف ﴿ جزاؤه من وجد في رحله ﴾ يعني جزاء السارق الذي وجد في رحله أن يسلم برقبته إلى المسروق منه فيسترقه سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق وكان في حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق وكان هذا في شرعهم في ذلك الزمان يجري مجرى القطع في شرعنا فأراد يوسف أن يأخذ

بحكم أبيه في السارق فلذلك رد الحكم إليهم ، والمعنى أن جزاء السارق أن يستعبد سنة جزاء له على جرمه وسرقته ﴿ فهو جزاؤه ﴾ يعني هذا الجزاء جزاؤه ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ يعني مثل هذا الجزاء وهو أن يسترقّ السارق سنة نجزي الظالمين ثم قيل إن هذا الكلام من بقية كلام إخوة يوسف وقيل هو من كلام أصحاب يوسف فعلى هذا إن أخوة يوسف لما قالوا جزاء السارق أن يسترق سنة قال أصحاب يوسف كذلك نجزي الظالمين يعني السارقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(35/400)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

العير الإبل التي عليها الأحمال ، سميت بذلك لأنها تعير أي تذهب وتجيء .

وقيل : هي قافلة الحمير ، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير ، كأنها جمع عير .

وأصلها فعل كسقف ، وسقف فعل به ما فعل ببيض وعيد ، والعير مؤنث .

وقالوا في الجمع : عيرات ، فشذوا في جمعه بالألف والتاء ، وفي فتح يائه وقال الشاعر :

غشيت ديار الحي بالبكرات . . .

فعارمة فبرقة العيرات

قال الأعلم : هنا مواضع الأعيار ، وهي الحمير .

الصواع الصاع ، وفيه لغات تأتي في القرآن ، ويؤنث ويذكر .

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون .

فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون .

قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون .

قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم .

قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين .

قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين .

قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾ : روي أنهم قالوا له : هذا أخونا قد جئناك به ، فقال : أحسنتم وأصبتم ، وستجدون ذلك عندي ، فأنزلهم وأكرمهم ، ثم أضافهم ، وأجلس كل اثنين منهم على مائدة ، فبقي بنيامين وحده فبكى وقال : لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه .

فقال يوسف : بقي أخوكم وحيداً ، فأجلسه معه على مائدته ، وجعل يؤاكلهم وقال : أنتم عشرة ، فلينزل كل اثنين منكم بيتاً ، وهذا لا ثاني له فيكون معي ، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح ، وسأله عن ولده فقال : لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك ، فقال له : أتحب أنْ أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أخا مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له : أنا أخوك يوسف فلا تبتئس ، فلا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى ، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ، ولا تعلمهم بما أعلمتك .

وعن ابن عباس : تعرف إليه أنه أخوه ، وهو الظاهر .

وهو قول ابن إسحاق وغيره ، أعلمه أنه أخوه حقيقة واستكتمه ، وقال له : لا تبالي بكل ما تراه من المكروه في تحيلي في أخذك منهم .

قال ابن عطية : وعلى هذا التأويل يحتمل أن يشير بقوله : بما كانوا يعملون إلى ما يعمله فتيان يوسف من أمر السقاية ونحو ذلك انتهى .

ولا يحتمل ذلك لأنه لو كان التركيب بما يعملون بغير كانوا ، لأمكن على بعده ، لأن الكلام إنما هو مع أخوة يوسف .

وأما ذكر فتيانه فبعيد جداً ، لأنهم لم يتقدم لهم ذكر إلا في قوله : وقال لفتيانه ، وقد حال بينهما قصص .

واتسق الكلام مع الأخوة اتساقاً لا ينبغي أن يعدل عن الضمير عائد إليهم ، وأن ذلك إشارة إلى ما كان يلقى منهم قديماً من الأذى ، إذ قد أمن من ذلك باجتماعه بأخيه يوسف .

وقال وهب : إنما أخبر أنه أخوه في الود مقام أخيه الذاهب ، ولم يكشف إليه الأمر ، بل تركه تجوز عليه الحيلة كسائر إخوته .

والظاهر أنّ الذي جعل السقاية في رحل أخيه هو يوسف ، ويظهر من حيث كونه ملكاً أنه لم يباشر ذلك بنفسه ، بل جعل غيره من فتيانه ، أو غيرهم أن يجعلها .

وتقدم قول وهب : إنه لم يكشف له أنه أخوه ، وأنه تركه تجوز عليه الحيلة .

(37/400)

وروي أنه قال ليوسف : أنا لا أفارقك قال : قد علمت اغتمام والدي ، فإذا حبستك ازداد غمه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يحمل .

قال : لا أبالي ، فافعل ما بدا لك .

قال : فإني أدس صاعي في رحلك ، ثم أنادي عليك بأنك سرقته ليتهيأ لي ردّك بعد تسريحك معهم ، قال : فافعل .

وقرأ عبد الله فيما نقل الزمخشري : وجعل السقاية في رحل أخيه ، أمهلهم حتى انطلقوا ،

ثم أذن .

وفي نقل ابن عطية وجعل السقاية بزيادة واو في جعل دون الزيادة التي زادها الزمخشري بعد قوله : في رحل أخيه ، فاحتمل أن تكون الواو زائدة على مذهب الكوفيين ، واحتمل أن يكون جواب لما محذوفاً تقديره : فقدها حافظها كما قيل : إنما أوحى إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط ، ثم إن حافظها فقدها ، فنادى برأيه على ما ظهر له ، ورجحه الطبري .

وتفتيش الأوعية يرد هذا القول ، والذي يظهر أنّ تأذين المؤذن كان عن أمر يوسف .

وقال السدي : كان هذا الجعل من غير علم من بنيامين ، وما تقدم يدل على أنه كان بعلم منه .

وقال الجمهور : وابن عمر ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد : السقاية إناء يشرب به الملك ، وبه كان يكال الطعام للناس .

وقيل : كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعاً يكال به ، وقيل : كانت الدواب تسقى بها ويكال بها .

وقال ابن جبير : الصواع هو مثل المكوك الفارسي ، وكان إناء يوسف الذي يشرب فيه ، وكان إلى الطول ماهر .

قال : وحدثني ابن عباس أنه كان للعباس مثله يشرب به في الجاهلية .

وقال ابن جبير أيضاً : الصواع المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه .

كانت تشرب به الأعاجم .

والسقاية من فضة أو ذهب أو فضة مموهة بالذهب ، أو نحاس ، أو مسك ، أو كانت مرصعة بالجواهر أقوال أولها للجمهور ، ولعزة الطعام في تلك الأعوام قصر كيله على ذلك الإناء .

ثم أذن مؤذن أي : نادى مناد ، أذن : أعلم .

وآذن أكثر الإعلام ، ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه .

(38/400)

وثم تقتضي مهلة بين جعل السقاية والتأذين ، فروي أنه لما فصلت العير بأوقارها وخرجوا من مصر أدركوا وقيل لهم ذلك .

وقيل : قبل الخروج من مصر أمر بهم فحبسوا ، وأذن مؤذن .

والظاهر وقول الجمهور : إن العير الإبل .

وقال مجاهد : كانت دوابهم حميراً ، ومناداة العير والمراد أصحابها كقوله : يا خيل الله اركبي ، ولذلك جاء الخطاب : إنكم لسارقون ، فروعي المحذوف ، ولم يراع العير كما روعي في اركبي .

وفي قوله : والعير التي أقبلنا فيها .

ويجوز أن تطلق العير على القافلة ، أو الرفقة ، فلا يكون من مجاز الحذف : والذي يظهر أن هذا التحيل ، ورمى أبرياء السرقة ، وإدخال الهم على يعقوب ، بوحي من الله .

لما علم تعالى في ذلك من الصلاح ، ولما أراد من محنتهم بذلك .

ويقويه قوله : كذلك كدنا ليوسف .

وقيل : لما كانوا باعوا يوسف استجيز أن يقال لهم هذا ، ونسبة السرقة إليهم جميعاً : وإن كان الصواع إنما وجد في رحل واحد منهم كما تقول : بنو فلان قتلوا فلاناً ، والقاتل واحد منهم .

قالوا : أي إخوة يوسف ، وأقبلوا جملة حالية أي : وقد أقبلوا عليهم ، أي : على طالبي السقاية ، أو على المؤذن إنْ كان أريد به جمع .

كأنه جعل مؤذنين ينادون ، وساءهم أن يرموا بهذه المثلبة وقالوا : ماذا تفقدون ؟ ليقع التفتيش فتظهر براءتهم ، ولم يلوذوا بالإنكار من أول ، بل سألوا كمال الدعوى رجاء أن يكون فيها ما تبطل به فلا يحتاج إلى خصام .

واحتمل أن يكون ماذا استفهاماً في موضع نصب بتفقدون ، ويحتمل أن يكون ما وحدها استفهاماً مبتدأ ، وذا موصولة بمعنى الذي خبر عن ما ، وتفقدون صلة لذا ، والعائد محذوف أي : تفقدونه .

وقرأ السلمي تفقدون بضم التاء من أفقدته إذا وجدته فقيداً نحو : أحمدته إذا أصبته محموداً .

وضعف هذه القراءة أبو حاتم ، وجهها ما ذكرناه .

وصواع الملك هو المكيال ، وهو السقاية سماه أولاً بإحدى جهتيه ، وآخراً بالثانية .

وقرأ الجمهور صواع بضم الصاد ، بعدها واو مفتوحة ، بعدها ألف ، بعدها عين مهملة .

وقرأ أبو حيوة ، والحسن ، وابن جبير فيما نقل ابن عطية كذلك ، إلا أنه كسر الصاد .

وقرأ أبو هريرة ، ومجاهد : صاع بغير واو على وزن فعل ، فالألف فيها بدل من الواو المفتوحة .

وقرأ أبو رجاء : صوع على وزن قوس .

وقرأ عبد الله بن عون بن أبي أرطيان : صوع بضم الصاد ، وكلها لغات في الصاع .

وقرأ الحسن ، وابن جبير فيما نقل عنهما صاحب اللوامح : صواغ بالغين المعجمة على وزن غراب .

وقرأ يحيى بن يعمر كذلك ، إلا أنه يحذف الألف ويسكن الواو .

وقرأ زيد بن علي : صوغ مصدر صاغ ، وصواغ صوغ مشتقان من الصوغ مصدر صاغ يصوغ ، أقيما مقام المفعول بمعنى مصوغ الملك .

ولمن جاء به أي : ولمن دل على سارقه وفضحه ، وهذا جعل وأنا به زعيم من كلام المؤذن .

وأنا بحمل البعير كفيل أؤديه إلى ما جاء به ، وأراد به وسق بعير من طعام جعلاً لمن حصله .

قالوا : تالله أقسموا بالتاء من حروف القسم ، لأنها تكون فيها التعجب غالباً كأنهم عجبوا من رميهم بهذا الأمر .

وروي أنهم ردوا البضاعة التي وجدوها في الطعام وتحرجوا من أكل الطعام بلا ثمن ، وكانوا قد اشتهروا بمصر بصلاح ، وكانوا يجعلون الأكمة في أفواه إبلهم لئلا تنال زروع الناس ، فأقسموا على إثبات شيء قد علموه منهم ، وهو أنكم قد علمتم أن مجيئنا لم يكن لفساد ، ثم استأنفوا الإخبار عن نفي صفة السرقة عنهم ، وأن ذلك لم يوجد منهم قط .

ويحتمل أن يكون في حيز جواب القسم ، فيكون معطوفاً على قوله : لقد علمتم .

قال ابن عطية : والتاء في تالله بدل من واو ، كما أبدلت في تراث ، وفي التوراة ، والتخمة ، ولا تدخل التاء في القسم إلا في المكتوبة من بين أسماء الله تعالى وغير ذلك لا تقول : تالرحمن ، ولا تالرحيم انتهى .

أما قوله : والتاء في تالله بدل من واو ، فهو قول أكثر النحويين .

وخالفهم السهيلي فزعم أنها أصل بنفسها وليست بدلاً من واو ، وهو الصحيح على ما قررناه في النحو .

وأما قوله : وفي التوراة فعلى مذهب البصريين إذ زعموا أنّ الأصل ورواة من ورى الزند .

ومن النحويين من زعم أن التاء زائدة ، وذلك مذكور في النحو .

وأما قوله : ولا تدخل إلى آخره فقد حكي عن العرب دخولها على الرب ، وعلى الرحمن ، وعلى حياتك ، قالوا : ترب الكعبة ، وتالرحمن ، وتحياتك .

والخطاب في لقد علمتم لطالبي الصواع ، والضمير في جزاؤه عائد على السارق .

فما جزاء السارق إن كنتم كاذبين في قولكم : وما كنا سارقين له ؟ قاله ابن عطية .

وقال الزمخشري : فما جزاؤه الضمير للصواع أي : فما جزاء سرقته إن كنتم كاذبين في جحودكم وادعائكم البراءة منه انتهى .

وقوله : هو الظاهر لاتحاد الضمائر في قوله : قالوا جزاؤه من وجد في رحله ، إذ التقدير إذ ذاك قال : جزاء الصاع ، أي : سرقته من وجد الصاع في رحله .

وقولهم : جزاؤه من وجد في رحله ، كلام من لم يشك أنهم برآء مما رموا به ، ولاعتقادهم

البراءة علقوا الحكم على وجدان الصاع لا على سرقته ، فكأنهم يقولون : لا يمكن أن نسرق ، ألا يمكن أن يوجد الصاع في رحالنا .

وكان في دين يعقوب استعباد السارق .

قال الزمخشري : سنة ، وكان في دين مصر أن يضرب ويضعف عليه الغرم ، ولذلك أجابوا على شريعتهم ، وجوزوا في إعراب هذا الكلام وجوهاً : أحدها : أن يكون جزاؤه مبتدأ ، ومن شرطية أو موصولة مبتدأ ثان ، فهو جزاؤه جواب الشرط ، أو خبر ما الموصولة ، والجملة من قوله : من وجد إلى آخره خبر المبتدأ الأول ، والضمير في قالوا : جزاؤه للسارق قاله ابن عطية : وهذا لا يصح لخلو الجملة الواقعة خبر جزاؤه من رابط .

الثاني : أنّ المعنى قالوا : جزاء سرقته ، ويكون جزاؤه مبتدأ ، والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر .

والأصل جزاؤه من وجد في رحله ، فهو هو .

فموضع الجزاء موضع هو ، كما تقول لصاحبك : من أخو زيد ؟ فتقول : أخوه من يقعد إلى جنبه ، فهو هو يرجع الضمير الأول إلى من ، والثاني إلى الأخ .

ثم تقول : فهو أخوه مقيماً للمظهر مقام المضمر قاله الزمخشري .

ووضع الظاهر موضع المضمر للربط إنما هو فصيح في مواضع التفخيم والتهويل ، وغير فصيح فيما سوى ذلك نحو : زيد قام زيد .

وينزه القرآن عنه .

قال سيبويه : لو قلت كان زيد منطلقاً زيد ، لم يكن ضد الكلام ، وكان ههنا ضعيفاً ، ولم يكن كقولك : ما زيد منطلقاً هو ، لأنك قد استغنيت عن إظهاره ، وإنما ينبغي لك أن تضمره .

الثالث : أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف أي المسؤول عنه جزاؤه ثم أفتوا بقولهم من وجد في رحله فهو جزاؤه كما تقول : من يستفتي في جزاء صيد الحرم جزاء صيد الحرم ، ثم تقول : ﴿ ومن قتله منكم متعمداً فجزآء مثل ما قتل من النعم ﴾ قاله الزمخشري .

وهو متكلف ، إذ تصير الجملة من قوله : المسؤول عنه جزاؤه ، على هذا التقدير ليس فيه كثير فائدة ، إذ قد علم من قوله : فما جزاؤه أنّ الشيء المسؤول عنه جزاء سرقته ، فأي فائدة في نطقهم بذلك ؟ وكذلك القول في المثال الذي مثل به من قول المستفتي .

الرابع : أن يكون جزاؤه مبتدأ أي : جزاء سرقة الصاع ، والخبر من وجد في رحله أي : أخذ من وجد في رحله .

وقولهم : فهو جزاؤه ، تقرير لحكم أي : فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير كقولك : حق

زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه فذلك جزاؤه ، أو فهو حقه ، لتقرر ما ذكرته من استحقاقه قاله الزمخشري ، وقال معناه ابن عطية إلا أنه جعل القول الواحد قولين قال : ويصح أن يكون من خبراً على أنّ على أنّ المعنى جزاء السارق من وجد في رحله عائد على من ، ويكون قوله : فهو جزاؤه ، زيادة بيان وتأكيد .

ثم قال : ويحتمل أن يكون التقدير جزاؤه استرقاق من وجد في رحله ، ثم يؤكد بقوله : فهو جزاؤه .

(42/400)

وهذا القول هذا الذي قبله ، غير أنه أبرز المضاف المحذوف في قوله : استرقاق من وجد في رحله ، وفيما قبله لا بد من تقديره ، لأنّ الذات لا تكون خبراً عن المصدر ، فالتقدير في القول قبله جزاؤه أخذ من وجد في رحله ، أو استرقاق هذا لا بد منه على هذا الإعراب .

وهذا الوجه هو أحسن الوجوه ، وأبعدها من التكلف .

كذلك أي : مثل الجزاء ، وهو الاسترقاق .

نجزي الظالمين أي بالسرقة وهو ديننا وسنتنا في أهل السرقة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا على يُوسُفَ آوىَ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾

بنيامينَ أي ضمه إليه في الطعام أو في المنزل أو فيهما . روي أنهم لما دخلوا عليه قالوا له : هذا أخونا قد جئناك به ، فقال لهم : أحسنتم وستجدون ذلك عندي فأكرمهم ثم أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال : لو كان أخي يوسفُ حياً لأجلسني معه ، فقال يوسف : بقيَ أخوكم فريداً وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ثم أنزل كلَّ اثنين منهم بيتاً فقال : هذا لا ثانيَ معه فيكون معي فبات يوسف يضمه إليه ويَشمُّ رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده فقال : لي عشرةُ بنينَ اشتققْتُ أسماءهم من اسم أخٍ لي هلك ، فقال له : أتُحِب أن أكون أخاك بدلَ أخيك الهالِك ؟ قال : من يجدُ أخاً مثلك ولكن لم يلدْك يعقوبُ ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وتعرف إليه وعند ذلك ﴿ قَالَ إِنِّى أَنَاْ أَخُوكَ ﴾ يوسف ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ أي فلا تحزن ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بنا فيما مضى فإن الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا بخير ولا تُعلِمْهم بما أعلمتك ، قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وعن وهْبٍ أنه لم يتعرّف إليه بل قال له : أنا أخوك بدل أخيك

المفقودِ ومعنى فلا تبتئس لا تحزنْ بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمِنْتَهم .

وروي أنه قال له : فأنا لا أفارقك ، قال : قد علمتُ باغتمام والدي بي فإذا حبستُك يزاد غمُّه ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسُبَك إلى ما لا يجمُل ، قال : لا أبالي فافعل ما بدا لك ، قال : أدُسّ صاعي في رَحْلك ثم أنادي عليك بأنك سرقتَه ليتهيّأ لي ردُّك بعد تسريحِك معهم ، قال : افعلْ .

(44/400)

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السقاية ﴾ أي المشرَبَة ، قيل : كانت مشربة جعلت صاعاً يكال به ، وقيل : كانت تسقى بها الدوابُّ ويكال بها الحبوب وكانت من فضة ، وقيل : من ذهب ، وقيل : من فضة مموّهة بالذهب ، وقيل : كانت إناءً مستطيلاً تشبه المكّوكَ الفارسيَّ الذي يلتقي طرفاه يستعمله الأعاجم ، وقيل : كانت مرصّعة بالجواهر ﴿ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ بنيامين وقرىء وجعل على حذف جواب لما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذّنٌ ﴾ نادى منادٍ ﴿ أَيَّتُهَا العير ﴾ وهي الإبلُ التي عليها الأحمالُ لأنها تعير أي تذهب وتجيءُ ، وقيل : هي قافلة الحمير ثم كثُر حتى قيل لكل قافلة عِيرٌ كأنها جمع عَيْر وأصلها فعل مثل سَقْف وسُقُف ففعل به ما فعل ببِيض وغِيد ، والمراد

أصحابُها كما في قوله عليه السلام : "يا خيلَ الله اركبي" ، روي أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسفُ حتى انطلقوا منزلاً ، وقيل : خرجوا من العمارة ثم أمر بهم فأُدركوا ونودوا ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ هذا الخطابُ إن كان بأمر يوسف فلعله أريد بالسرقة أخذُهم له من أبيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب وإلا فهو من قبل المؤّذن بناء على زعمه والأولُ هو الأظهرُ الأوفق للسياق ، وقرأ اليماني سارقون بلا لام ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الإخوة ﴿ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ جملةٌ حالية من ضمير قالوا جيء بها للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ أي تعدَمون ، تقول : فقَدت الشيء إذا عدِمته بأن ضل عنك لا بفعلك والمآل ماذا ضاع عنكم ، وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة وقرىء تُفقِدون من أفقدته إذا وجدته فقيداً وعلى التقديرين فالعدولُ عما يقتضيه الظاهرُ من قولهم : ماذا سُرق منكم لبيان كمال نزاهتِهم بإظهار أنه لم يُسْرق منهم شيء فضلاً أن يكونوا هم السارقين له وإنما الممكنُ أن يضيع منهم شيء فيسألوهم أنه ماذا ، وفيه إرشادٌ لهم إلى مراعاة

حسنِ الأدب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البُرَآء إلى ما لا خير فيه لا سيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث

(46/400)

﴿ قَالُواْ ﴾ فى جوابهم ﴿ نَفْقِدُ صُوَاعَ الملك ﴾ ولم يقولوا سرقتموه أو سرق وقرئ صاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها وبإهمال العين وإعجامها من الصياغة ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم وإراءة لاعتقاد أنه إنما بقى فى رحلهم اتفاقا ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِ ﴾ من عند نفسه مظهراً له قبل التفتيش ﴿ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ من الطعام جعلا له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من أخذ من وجد فى رحله ﴿ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ كفيل أؤديه إليه وهو قول المؤذن ﴿ قَالُواْ تالله ﴾ الجمهور على أن التاء بدل من الواو ولذلك لا تدخل إلا على الجلالة المعظمة أو الرب المضاف إلى الكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأياً ما كان ففيه تعجب ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ علماً جازماً مطابقاً للواقع ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأرض ﴾ أى لنسرق فإنه من أعظم أنواع الإفساد أو لنفسد فيها أى إفساد كان مما عز أو هان فضلا عما نسبتمونا إليه من السرقة ونفى المجئ للإفساد وإن لم يكن مستلزماً لما هو

مقتضى المقام من نفى الإفساد مطلقاً لكنهم جعلوا المجئ الذى يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق مجيئاً لغرض الإفساد مفعولا لأجله ادعاء إظهار لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم كما قيل فى قوله تعالى ﴿ ما يبدل القول لدى وما أنا بظلاّمٍ للعبيد ﴾ الدال بظاهره على نفى المبالغة فى الظلم دون نفى الظلم فى الجملة الذى هو مقتضى المقام من أن المعنى إذا عذبت من لا يستحق التعذيب كنت ظلاما مفرطاً فى الظلم فكأنهم قالوا إن صدر عنا إفساد كان مجيئنا لذلك مريدين به تقبيح حاله وإظهار كمال نزاهتهم عنه يعنون أنه قد شاع بينكم فى كرتى مجيئنا ما نحن عليه وقد كانوا على غاية ما يكون من الديانة والصيانة فيما يأتون ويذرون حتى روى أنهم دخلوا مصر وأفواه رواحلهم مكمومة لئلا تتناول زرعا أو

طعاماً لأحد وكانوا مثابرين على فنون الطاعات وعلمتم بذلك أنه لا يصدر عنا إفساد ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أى ما كنا نوصف بالسرقة قط وإنما حكموا بعلمهم ذلك لأن العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة وإنما لم يكتفوا بنفى الأمرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزاماً للحجة عليهم وتحقيقاً للتعجب المفهوم من تاء القسم .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي أصحاب يوسف عليه السلام ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ الضمير للصُّواع على حذف المضاف أي فما جزاء سرقتِه عندكم وفي شريعتكم ﴿ إِن كُنتُمْ كاذبين ﴾ لا في دعوى البراءةِ عن السرقة فإنهم صادقون فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفي كون الصواعِ فيهم كما يؤذِن به قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ جَزَؤُهُ مَن وُجِدَ ﴾ أي أخْذُ مَنْ وُجد الصواع ﴿ فِى رَحْلِهِ ﴾ حيث ذكر بعنوان الوُجدان في الرحل دون عنوان السرقةِ وإن كان مستلزِماً لها في اعتقادهم المبنيِّ على قواعد العادة ، ولذلك أجابوا بما أجابوا فإن الأخذَ والاسترقاقَ سنةً إنما هو جزاءُ السارقِ دون من وُجد في يده مالُ غيره كيفما كان فتأمل واحمِلْ كلام كل فريقٍ على ما لا يزاحِم رأيه فإنه أقربُ إلى معنى الكيد وأبعدُ من الافتراء ، وقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ تقريرٌ لذلك الحكمِ أي فأخذُه جزاؤه كقولك : حقُّ الضيف أن يكرم فهو حقه ، ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأً والجملة الشرطية كما هي خبرُه على إقامة الظاهر مُقامَ المضمر ، والأصل جزاؤُه من وجد في رحله ، فهو على أن الأول لمن والثاني للظاهر الذي وضع موضعه ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاءِ الأوفى ﴿ نَجْزِى الظالمين ﴾ بالسرقة ، تأكيدٌ للحكم المذكور غِبَّ تأكيدٍ وبيانٌ لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك ثقةً بكمال براءتِهم عنها وهم عما فُعل غافلون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ ءاوى ﴾

أي ضم ﴿ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ بنيامين ، قال المفسرون : إنهم لما دخلوا عليه عليه السلام قالوا : أيها الملك هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به فقال لهم : أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي ، وبلغوه رسالة أبيهم ، فإنه عليه السلام لما ودعوه قال لهم : بلغوا ملك مصر سلامي وقولوا له : إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك ويشكر صنيعك معنا ، وقال أبو منصور المهراني : إنه عليه السلام خاطبه بذلك في كتاب فلما قرأه يوسف عليه السلام بكى ثم أنه أكرمهم وأنزلهم وأحسن نزلهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال : لو كان أخي يوسف حيا لأجلسني معه فقال يوسف عليه السلام : بقي أخوكم وحده فقالوا له : كان له أخ فهلك قال : فأنا أجلسه معي فأخذه وأجلسه معه على مائدة وجعل يؤاكله ، فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك وقال : ينام كل اثنين منكم على فراش فبقي بنيامين وحده فقال : هذا ينام عندي على فراشي فنام مع يوسف عليه السلام على فراشه فجعل يوسف عليه السلام يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح وسأله عن ولده فقال : لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أخا مثلك أيها الملك ؟ ولكن لم

يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه وعانقه وتعرف إليه عند ذلك ﴿ قَالَ إِنِّى أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾ يوسف ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ أي فلا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ بنا فيما مضى فإن الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما أعلمتك، والقول بأنه عليه السلام تعرف إليه وأعلمه بأنه أخوه حقيقة هو الظاهر.

وروي عن ابن عباس.

وابن إسحاق.

وغيرهما إلا أن ابن اسحق قال: إنه عليه السلام قال له بعد أن تعرف إليه: لا تبال بكل ما تراه من المكروه في تحيلي في أخذك منهم، قال ابن عطية: وعلى هذا التأويل يحتمل أن يشير ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ إلى ما يعمله فتيانه عليه السلام من أمر السقايه ونحو ذلك، وهو لعمري مما لا يكاد يقول به من له أدنى معرفة بأساليب الكلام، وقال وهب: إنما أخبر عليه السلام أنه قائم مقام أخيه الذاهب في الود ولم يكشف إليه الأمر، ومعنى ﴿ لَا تَبْتَئِسْ ﴾ الخ لا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم، وروي أنه قال ليوسف عليه السلام: أنا لا أفارقك قال: قد علمت اغتمام والدي فإذا حبستك ازداد غمه ولا

سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل قال : لا أبالي فافعل ما بدا لك قال : فاني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بأنك سرقته ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك معهم قال : افعل .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾

ووفى لهم الكيل وزاد كلا منهم على ما روي حمل بعير ﴿ جَعَلَ السقاية ﴾ هي إناء يشرب به الملك وبه كان يكال الطعام للناس ، وقيل : كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحبوب ، وكانت من فضة مرصعة بالجواهر على ما روي عن عكرمة أو بدون ذلك كما روى عن ابن عباس .

والحسن وعن ابن زيد أنها من ذهب ، وقيل : من فضة مموهة بالذهب ، وقيل : كانت إناء مستطيلة تشبه المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه يستعمله الأعاجم ، يروى أنه كان للعباس مثله يشرب به في الجاهلية ولعزة الطعام في تلك الأعوام قصر كيله على ذلك ، والظاهر أن الجاعل هو يوسف عليه السلام نفسه ، ويظهر من حيث كونه ملكاً أنه عليه السلام لم يباشر الجعل بنفسه بل أمر أحداً فجعلها ﴿ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ بنيامين من حيث يشعر أو لا يشعر .

وقرىء ﴿ وَجَعَلَ ﴾ بواو ، وفي ذلك احتمالان .

الأول أن تكون الواو زائدة على مذهب الكوفيين وما بعدها هو جواب ﴿ لَمَّا ﴾ والثاني أن تكون عاطفة على محذوف وهو الجواب أي فلما جهزهم أمهلهم حتى انطلقوا وجعل ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ نادى مسمع كما في مجمع البيان ، وفي الكشاف وغيره نادى مناد .

وأورد عليه أن النحاة قالوا : لا يقال قام قائم لأنه لا فائدة فيه .

وأجيب بأنهم أرادوا أن ذلك المنادي من شأنه الأعلام بما نادى به بمعنى أنه موصوف بصفة مقدرة تتم بها الفائدة أي أذن رجل معين للأذان ﴿ أَيَّتُهَا العير إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ وقد يقال : قياس ما في النظم الجليل على المثال المذكور ليس تتم في محله وكثيراً ما تتم الفائدة بما ليس من أجزاء الجملة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يزن الزاني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر وهو مؤمن " والعير الإبل التي عليها الأحمال سميت بذلك لأنها تعير أي تذهب وتجيء ، وهو اسم جمع لذلك لا واحد له ، والمراد هنا أصحاب العير كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " يا خيل الله اركبي " وذلك اما من باب المجاز أو الإضمار إلا أنه نظر إلى المعنى في الآية ولم ينظر إليه في الحدبث وقيل : العير قافلة الحمير ثم توسع فيها حتى قيلت لكل قافلة كأنها جمع عير بفتح العين وسكون الياء وهو الحمار ، وأصلها عير بضم العين والياء استثقلت الضمة على الياء فحذفت ثم كسرت العين لثقل الياء بعد الضمة كما فعل في بيض جمع أبيض وغيد جمع أغيد ، وحمل العير هنا على قافلة الإبل هو المروى عن الأكثرين

، وعن مجاهد أنها كانت قافلة حمير ، والخطاب ﴿ بِأَنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ ان كان بأمر يوسف عليه السلام فلعله أريد بالسرقة أخذهم له من أبيه على وجه الخيانة كالسراق ؛ ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب أو أريد سرقة السقاية ، ولا يضر لزوم الكذب لأنه إذا اتضمن مصلحة رخص فيه .

وإما كونه برضا أخيه فلا يدفع ارتكاب الكذب وإنما يدفع تأذى الأخ منه ، أو يكون المعنى على الاستفهام أي أئنكم لسارقون ولا يخفى ما فيه من البعد وإلا فهو من قبل المؤذن بناء على زعمه قيل والأول هو الأظهر الأوفق للسياق .

وفي البحر الذي يظهر أن هذا التحيل ورمي البرآء بالسرقة وإدخال الهم على يعقوب عليه السلام بوحي من الله تعالى لما علم سبحانه في ذلك من الصلاح ولما أراد من محنتهم بذلك ، ويؤيده قوله سبحانه : ﴿ وكذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف : 76] وقرأ اليماني ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بلا لام .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي الإخوة ﴿ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على طالبي السقاية المفهوم من الكلام أو على المؤذن إن كان أريد منه جمع كأنه عليه السلام جعل مؤذنين ينادون بذلك على ما في

"البحر" ، والجملة في موضع الحال من ضمير ﴿ قَالُواْ ﴾ جىء بها للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم أي قالوا مقبلين عليهم ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ أي أي شيء تفقدون أو ما الذي تفقدونه ؟ والفقد كما قال الراغب : عدم الشيء بعد وجوده فهو أخص من العدم فإنه يقال له ولما لم يوجد أصلاً ، وقيل : هو عدم الشيء بأن يضل عنك لا بفعلك ، وحاصل المعنى ما ضاع منكم ؟ وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة .

وقرأ السلمي ﴿ تُفْقِدُونَ ﴾ بضم التاء من أفقدته إذا وجدته فقيداً نحو أحمدته إذا وجدته محمودا .

وضعف أبو حاتم هذه القراءة ووجهها ما ذكر ، وعلى القراءتين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم : ماذا سرق منكم على ما قيل لبيان كمال نزاهتهم بإظهار أنه لم يسرق منهم شيء فضلاً عن أن يكونوا هم السارقين له ، وإنما الممكن أن يضيع منهم شيء فيسألونهم ماذا ؟ ، وفيه إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البراء إلى ما لا خير فيه لا سيما بطريق التأكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث قالوا في جوابهم :

﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الملك ﴾

ولم يقولوا سرقتموه أو سرق ، وقيل : كان الظاهر أن يبادروا بالإنكار ونفى أن يكونوا سارقين ولكنهم قالوا ذلك طلباً لإكمال الدعوى إذ يجوز أن يكون فيها ما تبطل به فلا تحتاج إلى خصام ، وعدلوا عن ماذا سرق منكم ؟ إلى ما في "النظم الجليل" لما ذكر آنفاً ، والصواع بوزن غراب المكيال وهو السقاية ولم يعبر بها مبالغة في الإفهام والإفصاح ؛ ولذا أعاد الفعل ، وصيغة المستقبل لما تقدم أو للمشاكلة .

وقرأ الحسن .

وأبو حيوة .

وابن جبير فيما نقل ابن عطية كما قرأ الجمهور إلا أنهم كسروا الصاد ، وقرأ أبو هريرة .

ومجاهد ﴿ صاع ﴾ بغير واو على وزن فعل فالألف فيه بدل من الواو المفتوحة .

وقرأ أبو رجاء ﴿ صوع ﴾ بوزن قوس .

وقرأ عبد الله بن عون بن أبي أرطبان ﴿ صوع ﴾ بضم الصاد وكلها لغات في الصاع ، وهو مما يذكر ويؤنث وأبو عبيدة لم يحفظ التأنيث ، وقرأ الحسن .

وابن جبير فيما نقل عنهما صاحب اللوامح ، ﴿ صواغ ﴾ بالغين المعجمة على وزن غراب أيضاً ، وقرأ يحيى بن يعمر كذلك إلا أنه حذف الألف وسكن الواو ، وقرأ زيد بن علي ﴿ صوغ ﴾ على أنه مصدر من صاغ يصوغ أريد به المفعول ، وكذا يراد من صواغ

وصوع في القراءتين أي نفقد مصوغ الملك ﴿ الملك وَلِمَن جَاءَ بِهِ ﴾ أي أتى به مطلقاً ولو من عند نفسه ، وقيل : من دل على سارقه وفضحه ﴿ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أي من الطعام جعلا له ، والحمل على ما في "مجمع البيان" بالكسر لما انفصل وبالفتح لما اتصل ، وكأنه أشار إلى ما ذكره الراغب من أن الحمل بالفتح يقال في الأثقال المحمولة في الباطن كالولد في البطن والماء في السحاب والثمرة في الشجرة ﴿ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أي كفيل أؤديه إليه وهو قول المؤذن .

(53/400)

واستدل بذلك كما في الهداية وشروحها على جواز تعليق الكفالة بالشروط لأنه مناديه علق الالتزام بالكفالة بسبب وجوب المال وهو المجىء بصواع الملك وندائه بأمر يوسف عليه السلام ، وشرع من قبلنا شرع لنا إذا مضى من غير إنكار ، وأورد عليه أمران .

الأول : ما قاله بعض الشافعية من أن هذه الآية محمولة على الجعالة لما يأتي به لا لبيان الكفالة فهي كقول من أبق عبده من جاء به فله عشرة دراهم وهو ليس بكفالة لأنها إنما تكون إذا التزم عن غيره وهنا قد التزم عن نفسه .

الثاني : أن الآية متروكة الظاهر لأن فيها جهالة المكفول له وهي تبطل الكفالة .

وأجيب عن الأول بأن الزعم حقيقة في الكفالة والعمل بها مهما أمكن واجب فكأن معناه

قول المنادي للغير : إن الملك قال : لمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم فيكون ضامناً عن الملك لا عن نفسه فتتحقق حقيقة الكفالة .

وعن الثاني بأن في الآية ذكر أمرين الكفالة مع الحمالة للمكفول له ، وإضافتها إلى سبب الوجوب ، وعدم جواز أحدهما بدليل لا يستلزم عدم جواز الآخر .

وفي كتاب الأحكام أنه روي عن عطاء الخراساني ﴿ زَعِيمٌ ﴾ بمعنى كفيل فظن بعض الناس أن ذلك كفالة إنسان وليس كذلك لأن قائله جعل حمل بعير أجرة لمن جاء بالصاع وأكده بقوله : ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ أي ضامن فألزم نفسه ضمان الأجرة لرد الصاع ، وهذا أصل في جواز قول القائل : من حمل هذا المتاع لموضع كذا فله درهم وأنه إجارة جائزة وإن لم يشارط رجلاً بعينه وكذا قال محمد بن الحسن في السير الكبير : ولعل حمل البعير كان قدراً معلوماً ، فلا يقال : إن الإجارة لا تصح إلا بأجر معلوم كذا ذكره بعض المحققين .

وقال الإمام : إن الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم ، وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : " الزعيم غارم " وليست كفالة بشيء مجهول لأن حمل بعير من الطعام كان معلوماً عندهم فصحت الكفالة به إلا أن هذه كفالة مال لرد

السرقة وهي كفالة لما لم يجب لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئاً على رد السرقة .

ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم ، وتعقب بأنه لا دليل على أن الراد هو من علم أنه الذي سرق ليحتاج إلى التزام القول بصحة ذلك في دينهم وتمام البحث في محله .

﴿ قَالُواْ تاللّه ﴾

أكثر النحويين على أن التاء بدل من الواو كما أبدلت في تراث وتوراة عند البصريين ، وقيل هي بدل من الباء ، وقال السهيلي : إنها أصل برأسها ، وقال الزجاج : إنها لا يقسم بها إلا في الله خاصة .

وتعقب بالمنع لدخولها على الرب مطلقاً أو مضافاً للكعبة وعلى الرحمن وقالوا تحياتك أيضاً .

وأياً ما كان ففي القسم بها معنى التعجب كأنهم تعجبوا من رميهم بما ذكر مع ما شاهدوه من حالهم ، فقد روى أنهم كانوا يعكمون أفواه إبلهم لئلا تنال من زروع الناس وطعامهم شيئاً واشتهر أمرهم في مصر بالعفة والصلاح والمثابرة على فنون الطاعات ، ولذا قالوا :

﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ علماً جازماً مطلقاً للواقع ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الأرض ﴾ أي لنسرق فإن السرقة من أعظم أنواع الإفساد أو لنفسد فيها أي إفساد كان فضلاً عما نسبتمونا إليه من السرقة ، ونفى المجىء للإفساد وإن لم يكن مستلزماً لما هو مقتضى المقام من نفي الإفساد مطلقاً لكنهم جعلوا المجىء الذي يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق مجيئاً لغرض

الإفساد مفعولاً لأجله ادعاء إظهاراً لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم فكأنهم قالوا : إن صدر عنا إفساد كان مجيئنا لذلك مريدين به تقبيح حاله وإظهار كمال نزاهتهم عنه كذا قيل .

وقيل : إنهم أرادوا نفي لازم المجيء للإفساد في الجملة وهو تصور الإفساد مبالغة في نزاهتهم عن ذلك فكأنهم قالوا : ما مر لنا الإفساد ببال ولا تعلق بخيال فضلاً عن وقوعه منا ولا يخفى بعده ﴿ وَمَا كُنَّا سارقين ﴾ أي ما كنا نوصف بالسرقة قط ، والظاهر دخول هذا في حيز العلم كالأول ، ووجهه أن العلم بأحوالهم المشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الفائتة ، والحلف في الحقيقة على الأمرين اللذين في حيز العلم لا على علم المخاطبين بذلك إلا أنهم ذكروه للاستشهاد وتأكيد الكلام ، ولذا أجرت العرب العلم مجرى القسم كما في قوله :

ولقد علمت لتأتين منيتي . . .

إن المنايا لا تطيش سهامها

وفي ذلك من إلزام الحجة عليهم وتحقيق أمر التعجب المفهوم من تاء القسم من كلامهم كما فيه ، وذكر بعضهم أنه يجوز أن يكون كما جئنا الخ متعلق العلم وأن يكون جواب القسم أو

جواب العلم لتضمنه معناه وهو لا يأبى ما تقدم.

﴿ قَالُواْ ﴾ أي أصحاب يوسف عليه السلام ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ أي الصواع، والكلام على حذف مضاف أي ما جزاء سرقته، وقيل: الضمير لسرق أو للسارق والجزاء يضاف إلى الجناية حقيقة وإلى صاحبها مجازاً، وقد يقال: يحذف المضاف فافهم والمراد فما جزاء ذلك عندكم وفي شريعتكم ﴿ إِن كُنتُمْ كاذبين ﴾ أي في ادعاء البراءة كما هو الظاهر، وفي التعبير بإن مراعاة لجانبهم.

(56/400)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي الإخوة ﴿ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ ﴾ أي أخذ من وجد الصواع ﴿ فِى رَحْلِهِ ﴾ واسترقاقه، وقدر المضاف لأن المصدر لا يكون خبراً عن الذات ولأن نفس ذات من وجد في رحله ليست جزاء في الحقيقة، واختاروا عنوان الوجدان في الرحل دون السرقة مع أنه المراد لأن كون الأخذ والاسترقاق سنة عندهم ومن شريعة أبيهم عليه السلام إنما هو بالنسبة إلى السارق دون من وجد عنده مال غيره كيفما كان إشارة إلى كمال نزاهتهم حتى كأن أنفسهم لا تطاوعهم وألسنتهم لا تساعدهم على التلفظ به مثبتاً لأحدهم بأي وجه كان وكأنهم تأكيداً لتلك الإشارة عدلوا عمن وجد عنده إلى من وجد في رحله ﴿ فَهُوَ

جَزَاؤُهُ ﴾ أي فأخذه جزاؤه وهو تقدير للحكم السابق بإعادته كما في قولك : حق الضيف أن يكرم فهو حقه وليس مجرد تأكيد ، فالغرض من الأول إفادة الحكم ومن الثاني إفادة حقيته والاحتفاظ بشأنه كأنه قيل : فهذا ما تلخص وتحقق للناظر في المسألة لا مرية فيه ، قيل : وذكر الفاء في ذلك لتفرغه على ما قبله ادعاء وإلا فكان الظاهر تركها لمكان التأكيد ، ومنه يعلم أن الجملة المؤكدة قد تعطف لنكتة وإن لم يذكره أهل المعاني ، وجوز كون ﴿ مَنْ ﴾ موصولة مبتدأة وهذه الجملة خبره والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط وجملة المبتدأ وخبره خبر ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ .

وأن تكون ﴿ مَنْ ﴾ شرطية مبتدأ ﴿ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ ﴾ فعل الشرط وجزاؤه فهو جزاؤه والفاء رابطة والشرط وجزاؤه خبر أيضاً كما في احتمال الموصولة .

واعترض على ذلك بأنه يلزم خلو الجملة الواقعة خبراً للمبتدأ عن عائد إليه لأن الضمير المذكور لمن لا له .

وأجيب بأنه جعل الاسم الظاهر وهو الجزاء الثاني قائماً مقام الضمير والربط كما يكون بالضمير يكون بالظاهر والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو أي فهو الجزاء ، وفي

العدول ما علم من التقرير السابق وإزالة اللبس والتفخيم لا سيما في مثل هذا الموضع فهو كاللازم ، وقد صرح الزجاج بأن الإظهار هنا أحسن من الإضمار وعلله ببعض ما ذكر وأنشد :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء . . .

نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

وبذلك يندفع ما في "البحر" اعتراضاً على هذا الجعل من أن وضع الظاهر موضع الضمير للربط إنما يفصح إذا كان المقام مقام تعظيم كما قال سيبويه فلا ينبغي حمل النظم الجليل على ذلك ، وأن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف تقديره المسؤول عنه جزاؤه فهو حكاية قول السائل ويكون ﴿ مَن وُجِدَ ﴾ الخ بياناً وشروعاً في الفتوى ، وهذا على ما قيل كما يقول من يستفتي في جزاء صيد المحرم : جزاء صيد المحرم ، ثم يقول :

﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ [المائدة : 95] فإن قول المفتي : جزاء صيد الحرم بتقدير ما استفتيت فيه أو سألت عنه ذلك وما بعده بيان للحكم وشرح للجواب ، وليس التقدير ما أذكره جزاء صيد الحرم لأن مقام الجواب والسؤال ناب عنه .

نعم إذا ابتدأ العالم بإلقاء مسألة فهنالك يناسب هذا التقدير .

وتعقب ذلك أبو حيان بأنه ليس في الإخبار عن المسؤول عنه بذلك كثير فائدة إذ قد علم أن

المسؤول عنه ذلك من قولهم : ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ وكذا يقال في المثل ، وأجيب بأنه يمكن أن يقال : إن فائدة ذلك إعلام المفتي المستفتي أنه قد أحاط خبره بسؤاله ليأخذ فتواه بالقبول ولا يتوقف في ذلك لظن الغفلة فيها عن تحقيق المسؤول وهي فائدة جليلة .

(58/400)

وزعم بعضهم أن الجملة من الخبر والمبتدأ المحذوف على معنى الاستفهام الإنكاري كأن المسؤول ينكر أن يكون المسؤول عنه ذلك لظهور جوابه ثم يعود فيجيب وهو كما ترى ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿ نَجْزِى الظالمين ﴾ بالسرقة ، والظاهر أن هذا من تتمة كلام الإخوة فهو تأكيد للحكم المذكور غب تأكيد وبيان لقبح السرقة وقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون ، وقيل : هو من كلام أصحاب يوسف عليه السلام ، وقيل : كلامه نفسه أي مثل الجزاء الذي ذكرتموه نجزي السارقين .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(59/400)

وقال القاسمي :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر سبحانه بأن إخوة يوسف لما قدموا عليه ، ضم إليه أخاه بنيامين ، إما على الطعام ، أو في المنزل ، وأعلمه بأنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس . أي : لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى ، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ، وجمعنا بخير .

وقد روي أنهم لما قدموا عليه ، ووقفوا بين يديه ، رأى أخاه بنيامين معهم ، فأمر بإنزالهم في بيته ، وحلولهم في كرامته وضيافته ، وحضورهم معه في غدائه . ثم دخل عليهم فقاموا وسجدوا له ، وسألهم عن سلامة أبيهم ، ورفع طرفه إلى أخيه ، فأدناه وآواه إليه ، وآنسه بحديثه – كما ذكر في الآية – ثم أراد يوسف أن يحتال على بقاء أخيه عنده ، فتواطأ مع فتيانه ، إذا جهز إخوته ، أن يضعوا سقايته في رحل أخيه ، كما بينه تعالى بقوله :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي : من الطعام : ﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾

وهي جام فضة يشرب به يوسف ، وضعه في ميرة أخيه .

وقد روي أن يوسف لما جهزهم وارتحلوا ، أمهلهم حتى انطلقوا وبعدوا قليلاً عن المدينة ، ثم أمر أن يسعى في إثرهم ، ويؤذنوا بما فقد ، كما أشار إليه تعالى بقوله :

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ .

﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ

زَعِيمٌ ﴾ معنى (أذن) نادى . يقال : آذنه : أعلمه ، وأذن أكثر الإعلام ، ومنه (المؤذن) لكثرة ذلك منه .

(60/400)

و (العير) : الإبل التي عليها الأحمال ، لأنها تعير ، أي : تذهب وتجيء ، وهو اسم جمع للإبل ، لا واحد له ، فأطلق على أصحابها . وقيل : هي قافلة الحمير ، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة (عير) . و (الصواع) هو السقاية المتقدمة ، إناء فضة .

تنبيه :

قال في " الإكليل " : في الآية دليل على جواز الحيلة في التوصل إلى المباح ، وما فيه الغبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق .

قال ابن العربي : وفي إطلاق السرقة عليهم وليسوا بسارقين جواز دفع الضرر بضرر أقل منه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أصل في الجعالة .

وقوله : ﴿ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أصل في الضمان والكفالة . انتهى .

ولما اتهمهم المؤذن ومن معه من الفتيان :

﴿ قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أي : ما جئنا للسرقة ، أو لمطلق فساد ، وإنما جئنا للميرة ، وما كنا نوصف بالسرقة . وإنما استشهدوا بعلمهم على براءتهم ، لما تيقنوه من حالهم ، في كرّتي مجيئهم .

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ ﴾ أي : السارق : ﴿ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي : لثقتهم ببراءتهم : ﴿ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أي : جزاء سرقته ، أخذ من وجد في رحله رقيقاً ، وهو قولهم : ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ تقريراً لذلك الحكم وإلزامه ، أي : فأخذه جزاؤه لا غيره . ويجوز أن يكون : ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره ، على إقامة الظاهر مقام المضمر ، والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي : بالسرقة ، تأكيد إثر تأكيد ، وبيان لقبح السرقة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 207 . 209 ﴾

(61/400)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾

موقع جملة ﴿ ولما دخلوا على يوسف ﴾ كموقع جملة ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ [سورة يوسف : 68] في إيجاز الحذف .

والإيواء : الإرجاع .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ أولئك مأواهم النار ﴾ في سورة يونس (8) .

وأطلق الإيواء هنا مجازاً على الإدناء والتقريب كأنه إرجاع إلى مأوى ، وإنما أدناه ليتمكن من الإسرار إليه بقوله : إني أنا أخوك ﴾ .

وجملة ﴿ قال إني أنا أخوك ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ آوى إليه أخاه ﴾ .

وكلمه بكلمة مختصرة بليغة إذ أفاده أنه هو أخوه الذي ظنه أكَلَه الذئب .

فأكد الخبر بـ (إنّ) وبالجملة الإسمية وبالقصر الذي أفاده ضمير الفصل ، أي أنَا مقصور على الكون أخاك لا أجنبي عنك ، فهو قصر قلب لاعتقاده أن الذي كلّمه لا قرابة بينه وبينه .

وفرّع على هذا الخبر ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ .

والابتئاس : مطاوعة الإبئاس ، أي جَعْل أحد بائساً ، أي صاحب بؤس .

والبؤس : هو الحزن والكدر .

وتقدم نظير هذا التركيب في قصة نوح عليه السلام من سورة هود .

والضميران في ﴿ كانوا ﴾ و ﴿ يعملون ﴾ راجعان إلى إخوتهما بقرينة المقام ، وأراد

بذلك ما كان يجده أخوه (بنيامين) من الحزن لهلاك أخيه الشقيق وفظاظة إخوته وغيرتهم منه .

والنهي عن الابتئاس مقتضٍ الكفّ عنه ، أي أزلْ عنك الحزن واعتْضْ عنه بالسرور .

وأفاد فعل الكون في المضي أن المراد ما عَملوه فيما مضى .

وأفاد صوغ ﴿ يعملون ﴾ بصيغة المضارع أنه أعمال متكررة من الأذى .

وفي هذا تهيئة لنفس أخيه لتلقي حادث الصُّوَاع باطمئنان حتى لا يخشى أن يكون بمحل الريبة من يوسف عليه السلام .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾

تقدم الكلام على نظير قوله : ﴿ فلما جهزهم بجهازهم ﴾ في الآيات قبل هذه .

وإسناد جعل السقاية إلى ضمير يوسف مجاز عقليّ ، وإنما هو آمر بالجعل والذين جعلوا السقاية هم العبيد الموكّلون بالكيل .

والسقاية : إناء كبير يُسقى به الماء والخمر .

والصُّوَاع : لغة في الصاع ، وهو وعاء للكيل يقَدّر بوزن رطل وربع أو وثلث .

وكانوا يشربون الخمر بالمقدار ، يقدّر كل شارب لنفسه ما اعتاد أنه لا يصرعه ، ويجعلون آنية الخمر مقدّرة بمقادير مختلفة ، فيقول الشارب للساقي : رطلاً أو صاعاً أو نحو ذلك .

فتسمية هذا الإناء سقاية وتسميته صُوَاعاً جارية على ذلك .

وفي التوراة سمي طاسا ، ووصف بأنه من فضة .

وتعريف ﴿ السقاية ﴾ تعريف العهد الذهني ، أي سقاية معروفة لا يخلو عن مثلها مجلس العظيم .

وإضافة الصُّواع إلى الملك لتشريفه ، وتهويل سرقته على وجه الحقيقة ، لأن شؤون الدولة كلها للمَلك .

ويجوز أن يكون أطلق الملك على يوسف عليه السلام تعظيماً له .

والتأذين : النداء المكرر .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فأذن مؤذن بينهم ﴾ في سورة الأعراف (44) .

والعِير : اسم للحمولة من إبل وحَمير وما عليها من أحمال وما معها من ركابها ، فهو اسم لمجموع هذه الثلاثة .

وأسندت السرقة إلى جميعهم جريا على المعتاد من مؤاخذة الجماعة بجرم الواحد منهم .

وتأنيث اسم الإشارة وهو أيتها ﴾ لتأويل العير بمعنى الجماعة لأن الركاب هم الأهم .

وجملة ﴿ قالوا ﴾ جواب لنداء المنادي إياهم ﴿ إنكم لسارقون ﴾ ، ففصلت الجملة

لأنها في طريقة المحاورة كما تكرر غير مرة.

وضمير ﴿ قالوا ﴾ عائد إلى العير.

وجملة ﴿ وأقبلوا عليهم ﴾ حال من ضمير ﴿ قالوا ﴾ .

ومرجع ضمير ﴿ أقبلوا ﴾ عائد إلى فتيان يوسف عليه السلام.

وضمير ﴿ عليهم ﴾ راجع إلى ما رجع إليه ضمير ﴿ قالوا ﴾ ، أي وقد أقبل عليهم فتيان يوسف عليه السلام.

وجعلوا جعلا لمن يأتي بالصواع.

والذي قال : ﴿ وأنا به زعيم ﴾ واحد من المقبلين وهو كبيرهم.

والزعيم : الكفيل.

وهذه الآية قد جعلها الفقهاء أصلاً لمشروعية الجعل والكفالة.

وفيه نظر ، لأن يوسف عليه السلام لم يكن يومئذٍ ذا شَرْع حتى يستأنس للأخذ بـ (أنّ شَرْعَ من قَبْلنا شَرْع لنا) : إذا حكاه كلام الله أو رسوله.

ولو قدّر أن يوسف عليه السلام كان يومئذٍ نبيئاً فلا يثبت أنه رسول بشرع ، إذ لم يثبت أنه

بعث إلى قوم فرعون ، ولم يكن ليوسف عليه السلام أتباع في مصر قبْل ورود أبيه وإخوتِهِ وأهلِيهم .

فهذا مأخذ ضعيف .

والتاء في ﴿ تالَّله ﴾ حرف قَسم على المختار ، ويختص بالدخول على اسم الله تعالى وعلى لفظ رَب ، ويختص أيضاً بالمُقسم عليه العجيب .

وسيجيء عند قوله تعالى : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ في [سورة الأنبياء : 57] .

وقولهم : لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ .

أكدوا ذلك بالقسم لأنهم كانوا وَفدوا على مصر مرة سابقة واتهموا بالجوسسة فتبينت براءتهم بما صدقوا يوسف عليه السلام فيما وصفوه من حال أبيهم وأخيهم .

فالمراد بـ ﴿ الأرض ﴾ المعهودة ، وهي مصر .

وأما براءتهم من السرقة فبما أخبروا به عند قدومهم من وجدان بضاعتهم في رحالهم ، ولعلّها وقعت في رحالهم غلطاً .

على أنهم نفوا عن أنفسهم الاتّصاف بالسرقة بأبلغ مما نفوا به الإفساد عنهم ، وذلك بنفي الكون سارقين دون أن يقولوا : وما جئنا لنسرق ، لأن السرقة وصف يُتعيّر به ، وأما الإفساد الذي نفوه ، أي التجسس فهو مما يقصده العدوّ على عَدوّه فلا يكون عاراً ، ولكنه اعتداء في نظر العدوّ .

وقول الفتيان ﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ تحكيم ، لأنهم لا يسعهم إلا أن يعيّنوا جزاء يؤخذون به ، فهذا تحكيم المَرء في ذنبه .

ومعنى ﴿ ما جزاؤه ﴾ : ما عقابه .

وضمير ﴿ جزاؤه ﴾ عائد إلى الصُّوّاع بتقدير مضاف دل عليه المقام ، أي ما جزاء سَارقه أو سرقته .

ومعنى ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ إن تبين كذبكم بوجود الصُّوَاع في رحالكم .

وقوله : ﴿ جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ﴾ .

﴿ جزاؤه ﴾ الأول مبتدأ ، و ﴿ مَن ﴾ يجوز أن تكون شرطية وهي مبتدأ ثان وأن جملة ﴿ وجد في رحله ﴾ جملة الشرط وجملة ﴿ فهو جزاؤه ﴾ جواب الشرط ، والفاء رابطة للجواب ، والجملة المركبة من الشرط وجوابه خبر عن المبتدإ الأول .

ويجوز أن تكون ﴿ من ﴾ موصولة مبتدأ ثانياً ، وجملة ﴿ وجد في رحله ﴾ صلة الموصول .

والمعنى أن من وجد في رحله الصواع هو جزاء السرقة ، أي ذاته هي جزاء السرقة ،

فالمعنى أن ذاته تكون عِوضاً عن هذه الجريمة ، أي أن يصير رفيقاً لصاحب الصواع ليتمّ معنى الجزاء بذات أخرى .

وهذا معلوم من السياق إذ ليس المراد إتلاف ذات السارق لأن السرقة لا تبلغ عقوبتها حدّ القتل .

فتكون جملة ﴿ فهو جزاؤه ﴾ توكيداً لفظياً لجملة ﴿ جزاؤه من وجد في رحله ﴾ ، لتقرير الحكم وعدم الانفلات منه ، وتكون الفاء للتفريع تفريع التأكيد على المؤكّد .

وقد حَكَم إخوة يوسف عليه السلام على أنفسهم بذلك وتراضوا عليه فلزمهم ما التزموه .

ويظهر أن ذلك كان حُكماً مشهوراً بين الأمم أن يسترقّ السارق .

وهو قريب من استرقاق المغلوب في القتال .

ولعله كان حكماً معروفاً في مصر لما سيأتي قريباً عند قوله تعالى : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دِين الملك ﴾ [سورة يوسف : 76] .

وجملة كذلك نجزي الظالمين ﴾ بقيمة كلام إخوة يوسف عليه السلام ، أي كذلك حُكْم قومنا في جزاء السارق الظالم بسرقته ؛ أو أرادوا أنه حكم الإخوة على من يقدّر منهم أن يظهر الصواع في رحله ، أي فهو حقيق لأن نجزيه بذلك .

والإشارة بـ ﴿ كذلك ﴾ إلى الجزاء المأخوذ من ﴿ نجزي ﴾ ، أي نجزي الظالمين جزاءً

كذلك الجزاء ، وهو من وُجد في رحله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(65/400)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾

أي : أنهم حين دخلوا على يوسف أحسن استقبالهم ؛ وأكرم وفادتهم ؛ بعد أن وَفَّوْا بوعدهم معه ، وأحضروا أخاهم وشقيقه بنيامين معهم ، وكان يوسف عليه السلام مُشْتاقاً لشقيقه بنيامين .

وقد عرفنا من قبل أنه الشقيق الوحيد ليوسف ؛ فهما من أم واحدة ؛ أما بقية الإخوة فهم من أمهات أخريات .

وقول الحق سبحانه عن يوسف :

﴿ آوى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ [يوسف : 69] .

يدلُّ على أن يوسف كان مُتشوِّقاً لرؤية شقيقه .

وقوله :

﴿ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف : 69] .

يوضح لنا أن إخوة يوسف قد استفردوا لفترة ببنيامين ، ولم يُحْسِنوا معاملته ، وحاول يوسف أن يُسرِّي عن أخيه ، وأن يُزيل عنه الكَدَر بسبب ما كان إخوته يفعلونه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ . . . ﴾ .

أي : أن يوسف عليه السلام قد قام بصرف المِيْرة لهم ، كما سبق أن وعدهم ، وكما سبق أن جهَّزهم في المرَّة السابقة ؛ وأراد أن يُبقِي أخاه معه في مصر ؛ ولكن كيف يأخذه من إخوته لِيُبقِيه معه ؛ وقد أخذ أبوهم ميثاقاً عليهم ألاَّ يضيعوه ، وألاَّ يُفرِّطوا فيه ، كما فعلوا مع أخيه من قبل ؟

إذن : لاَبُدَّ من حيلة يستطيع بها أن يستبقي بها أخاه معه ، وقد جنَّد الله له فيها إخوته الذين كانوا يُعَادونه ، وكانوا يحقدون عليه وعلى أخيه .

وجاءت هنا حكاية صُوَاع الملك ، التي يشرب فيها الملك ، وتُستخدم كمكيال ، وجعلها في رَحْل أخيه .

وكلمة " السقاية " تُطلق إطلاقات متعددة من مادة " سقى " أي : " السين " و " القاف " و " الياء " ، فتُطلق على إسقاء الناس والحجيج الماء .

والقرآن الكريم يقول : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج وَعِمَارَةَ المسجد الحرام كَمَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 19] .

فكان معنى السقاية أيضاً هو المكان الذي يُوضَع فيه الماء ليشرب منه الناس .

أو : تُطلق " السقاية " على الآلة التي يُخرِج بها الماء للشاربين .

وهنا تُطلق كلمة " السقاية " على الإناء الذي كان يشرب به الملك ، ويُستخدم كمكيال ، وهذا دليلٌ على نَفَاسة المَكِيل .

وتُطلق أيضاً كلمة " صواع " على مثل هذه الأداة التي يُشرب منها ، أو يُرفع بها الماء من المكان إلى فَم الشارب ؛ وأيضاً يُكَال بها ؛ ومفردها " صاع " .

ويقول الحق سبحانه هنا عن حيلة يوسف لاستبقاء أخيه معه :

﴿ جَعَلَ السقاية فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف : 70] .

أي : أمر بعضاً من أعوانه أن يَضَعوا " السقاية " في رَحْل أخيه ، و " الرَّحْل " : هو ما يوضع على البعير ، وفيه متاع المسافر كله . وبعد أن ركب إخوة يوسف جِمالهم استعداداً للعودة إلى الشام ؛ وقعت المفاجأة لهم ؛ والتي يقول عنها الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العير إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف : 70] .

أي : يا أصحاب تلك العير أنتم سارقون . والسرقة فعل قبيح حينما يترتَّبُ عليها جزاء

يُوقَّع على السارق، والمسروق هو شيء ثمين .

وفيما يبدو أن هذه الحيلة تمَّتْ بموافقة من " بنيامين " ليمكث مع أخيه يوسف حتى يحضر أبواه إلى مصر .

ولسائل أن يقول : وكيف رَضِي بنيامين بذلك، وهو أمر يُزِيد من حُزْن يعقوب ؟ وكيف يتهم يوسف إخوته بسرقة لم يرتكبوها ؟

أقول : انظروا إلى دِقَّة القرآن، ولنُحْسِنَ الفهم عنه ؛ لنرى أن حزن يعقوب على فَقْد يوسف قد غلبه ؛ فلَن يُؤثِّر فيه كثيراً فَقْد بنيامين .

ودليل ذلك أن يعقوب عليه السلام حين عاد أبناؤه وأخبروه بحكاية السرقة ؛ واستبقاء بنيامين في مصر قال : ﴿ ياأسفى عَلَى يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 84] .

ولم يذكر يعقوب بنيامين .

وأما عن اتهامهم بالسرقة ؛ فالآية هنا لا تُحدِّد ماذا سرقوا بالضبط، وهم في نظر يوسف قد سرقوه من أبيه، وألقوه في الجُبِّ .

وهنا يأتي الحق سبحانه بموقف إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ . . ﴾ .

أي : أن إخوة يوسف أقبلوا على مَنْ يتهمونهم بالسرقة مُتسائِلين : ماذا فقدتم ؟ ولماذا تتهموننا ؟

وهنا يقول الحق سبحانه ما قاله من اتهموهم : ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ . . . ﴾ .

أي : أن الذين أعلنوهم بالسرقة قالوا لهم : لقد ضاعت سقاية الملك ؛ ويُقَال لها " صواع " ، ومَنْ سيُخرجها من المكان المختفية به سوف ينال مكافأة قدرها وَزْن حِمْل بعير ؛ فلعل صُواع الملك قد خُبِئَت في حِمْل أحدكم دون قصد .

وأكد رئيس المنادين أنه الضامن لمن يُخرج صواع الملك ، ويحضرها دون تفتيش أن ينال جائزته ، وهي حِمْل بعير من المَيْرة والغذاء .

وهنا قال إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ قَالُواْ تَاللهِ . . . ﴾ .

وقولهم ﴿ تاللهِ ﴾ هو قسم ، وعادةً تدخل " التاء " على لفظ الجلالة عند القَسَم المقصود به التعجُّب ، أي : أن إخوة يوسف أقسموا مُندهشين لاتهامهم بأنهم لم يسرقوا ؛ وأن الكُلَّ قد علم عنهم أنهم لم يأتوا بغرض الإفساد بسرقة أو غير ذلك ، لم يسبق أن اتهمهم أحد بمثل هذا الاتهام .

وهنا يأتي الحق سبحانه بما جاء على ألسنة مَنْ أعلنوا عن وجود سرقة ، وأن المسروق هو

صُوَاعِ الملك .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم : ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ . . . . ﴾ .

وهذا سؤال من مُسَاعدي يوسف لإخوة يوسف عن العقوبة المقررة في شريعتهم لمن يسرق ؟ وماذا نفعل بمن نجد في رَحْله صُواع الملك ؛ وثبت كذبكم بأنكم لم تسرقوه ؟

وكان المعروف أن مَنْ يُضبط بسرقة في شريعة آل يعقوب أن يُسترقّ أو يظل في خدمة مَنْ سرقهم ، كما فعلت عمة يوسف التي أحبته وعاش معها بعد وفاة أمه ؛ وحين أراد والده أن يسترده أخفَتْ في ثياب يوسف شيئاً عزيزاً ورثته عن أبيها إسحاق ، وبذلك استبقتْ يوسف معها ، ولم يأخذه أبوه إلا بعد أن ماتت عمّته .

(68/400)

وكان هدف يوسف عليه السلام إذن أن يستبقي أخاه معه ؛ وهو قد علم من قبل هذا الحكم ، وهكذا تركهم يوسف عليه السلام يحكمون بأنفسهم الحكم الذي يَصْبُو إليه ، وهو بقاء أخيه معه .

ويُورِد الحق سبحانه قولهم : ﴿ قَالُواْ جَزَآؤُهُ . . . ﴾ .

وهكذا نطقوا بالحُكْم هم أنفسهم ، وأكّدوه بقولهم :

﴿ كذلك نَجْزِي الظالمين ﴾ [يوسف : 75] .

وهكذا أعانوا هم يوسف لتحقيق مأْربه ببقاء شقيقه معه ، وأمر يوسفُ بتفتيش العير .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(69/400)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) ﴾

قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ السقاية ﴾ : العامَّة على " جَعَلَ " دون زيادة واو قبلها . وقرأ عبد الَّله " وجَعَلَ " ، وهي تحتمل وجهين ، أحدُهما : أنَّ الجوابَ محذوفٌ . والثاني : أن الواوَ مزيدةٌ في الجواب على رأيِ مَنْ يَرى ذلك ، وهم الكوفيون والأخفش . / وقال الشيخ : " وقرأ عبد الَّله فيما نقل الزمخشري " وجعل السِّقاية في رَحْل أخيه : أمهلهم حتى انطلقوا ثم أذَّن مؤذّن " ، وفي نَقْل ابن عطية " وجعل " بزيادة واوٍ في " جَعَلَ " ، دون الزيادة التي زادها الزمخشري بعد قوله : ﴿ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ ، فاحتمل أن تكونَ الواوُ زائدةً على مذهب

الكوفيين ، واحتمل أن يكونَ جوابُ " لمَّا " محذوفاً تقديره : فَقَدَها حافظُها ، كما قيل : إنما أوحي َإلى يوسفَ أن يَجْعل السقاية فقط ، ثم إنَّ حافِظَها فَقَدَها فنادى برأيه فيما ظهر له ، ورجَّحه الطبري . وتفتيشُ الأوعيةِ يَرُدُّ هذا القول " .

قلت : لم ينقلِ الزمخشري هذه الزيادةَ كلَّها قراءةً عن عبد اللَّه ، إنما جعل الزيادةَ المذكورةَ بعد قوله : " رَحْلِ أخيه " تقديرَ جوابٍ مِنْ عنده ، وهذا نصُّه : قال الزمخشري : " وقرأ ابن مسعود " وجَعَلَ السِّقاية " على حَذْفِ جواب " لمَّا " كأنه قيل : فلمَّا جَهَّزهم بجهَازهم وجعل السِّقاية في رَحْلِ أخيه أمهلهم حتى انطلقوا ثم أَذَّن مؤذِّن " فهذا من الزمخشري إنما هو تقديرٌ لا تلاوةٌ منقولة عن عبد اللَّه ، ولعله وقع للشيخِ نسخةٌ سقيمة .

والسِّقاية : إناءٌ مستطيل يسقى به وهو الصُّواع ، وللمفسرين فيه خلافٌ طويل .

(70/400)

قوله : { أَيَّتُهَا العير } منادى حُذِفَ منه حرفُ النداء والعِيْر مؤنث ، ولذلك أَتَتْ " أيّ " المُتَوَصَّلُ بها إلى ندائه . والعِيْر فيها قولان ، أحدهما : أنها في الأصلِ جماعةُ الإِبل سُمِّيَتْ بذلك لأنها تَعِيْر ، أي : تَذْهَبُ وتجيء به . والثاني : أنها في الأصل قافلة الحمير كأنها جمع عَيْر ، والعَيْر : والعَيْر : الحمار . قال :

2808 ولا يُقيم على ضَيْمٍ يُرادُ به . . . إلا الأَذلّان عَيْرُ الحَيّ والوَتِدُ

والأصل : عَيْر وعُيْر بضم العين ثم فَعِل به ما فُعِل ب " بيض " ، والأصل : بُيْض بضم الأول ، ثم أُطْلِقَ العِير على كل قافلة حميراً كنّ أو غيرها ، وعلى كل تقدير فنسبةُ النداء إليها على سبيل المجاز ، لأنَّ المنادى في الحقيقة أهلُها . ونَظَّره الزمخشري بقوله : " يا خيلَ اللَّهِ اركبي " ، إلا أنه في هذه الآية التفت إلى المضاف المحذوف في قوله : " إنكم لسارقون " ولم يَلْتفت إليه في " يا خيل اللَّه اركبي " ، ولو التفت لقال : اركبوا . ويجوز أن يُعَبَّر عن أهلها للمجاورة فلا يكونُ مِنْ مجازِ الحَذْف ، بل من مجازِ العَلاقة .

وتجمعه العرب قاطبةً ، على عَيَرات بفتح الياء ، وهذا ممَّا اتُّفِقَ على شذوذه ؛ لأن فِعْلَة المعتلةَ بالعين حقُّها في جمعها بالألف والتاء أن تُسَكَّن عينُها نحو : قِيمة وقِيْمات ودِيْمة ودِيْمات ، وكذلك فَعْل دون ياء إذا جُمِعَ حَقُّه أن تُسَكَّن عينُه . وقال امرؤ القيس :

2809 غَشِيْتُ ديارَ الحي بالبَكَرَاتِ . . . فعارمةٍ فبُرْقَةِ العِيَراتِ

وقال الأعلم الشنتمري : " العِيَرات هنا : مواضع الأَعْيار وهي الحُمُر " قلت : وفي عِيَرات شذوذ آخرُ وهو جَمْعُها بالألف والتاء مع جَمْعِها على " أَعْيار " أيضاً جمعَ تكسير ، وقد نَصُّوا على ذلك . قيل : ولذلك لُحِّنَ المتنبي في قوله :

2810 إذا كان بعضُ الناسِ سَيْفاً لدولةٍ . . . ففي الناسِ بُوْقاتٌ لهم وطبولُ

قالوا : فجمع بوقاً على بوقات مع تكسيرهم له على أبواق .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ : هذه الجملة حالية من فاعل " قالوا " ، أي : قالوا وقد أقبلوا ، يعني في حال إقبالهم عليهم .

قوله : ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ تقدَّمَ الكلامُ على هذه المسألةِ أولَ هذا الموضوع . وقرأ العامَّةُ " تَفْقِدون " بفتح حرف المضارعة ؛ لأنَّ المستعملَ منه " فَقَد " ثلاثياً . وقرأ السُّلَمي بضمِّه مِنْ أَفْقَدْتُه إذا وجدتَه مفقوداً كأَحْمَدْته وأَبْخَلْتُه ، أي : وَجَدْتُه محموداً بخيلاً . وضعَّف أبو حاتم هذه القراءةَ ، ووَجْهُها ما ذَكَرْتُه .

﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) ﴾

قوله تعالى : ﴿ صُوَاعَ ﴾ : هو المِكْيال وهو السِّقاية المتقدمة سَمَّاه تارةً كذا وتارةً كذا ، وإنما اتُّخِذ هذا الإِناء مكيالاً لعِزَّة ما يُكال به في ذلك الوقت . وفيه قراءاتٌ كثيرةٌ كلُّها لغاتٌ في هذا الحرفِ ، ويذكَّر ويؤنَّث :

فالعامَّةُ " صُواع " بزنة غُراب ، والعين مهملة . وقرأ ابن جبير والحسن كذلك إلا أنه بالغين معجمةً . وقرأ يحيى بن يعمر كذلك ، إلا أنه حَذَفَ الألف وسكَّن الواو ، وقرأ زيد / بن علي " صَوْغ " كذلك ، إلا أنه فتح الصاد جعله مصدراً لصاغ يَصُوغ ، والقراءتان قبله مشتقتان منه ، وهو واقع موقعَ مفعولٍ ، أي : مَصُوغ المَلِك . وقرأ أبو حيوة وابن جبير

والحسن في روايةٍ عنهما " صِواع " كالعامّة لا أنهم كسروا الفاء .

وقرأ أبو هريرة ومجاهد " صَاعَ " بزنة باب ، وألفه كألفه في كونِها منقلبةً عن واو مفتوحة .

وقرأ أبو رجاء " صَوْعَ " بزنة " قَوْسٍ " . وقرأ عبد اللَّه بن عون كذلك إلا أنه ضمَّ الفاءَ فهذه ثمان قراءات متواتِرُها واحدةٌ .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) ﴾

(72/400)

قوله تعالى : ﴿ تالله ﴾ : التاءُ حرفُ قسمٍ ، وهي عند الجمهور بدلٌ من واو القسم ، ولذلك لا تدخُل إلا على الجلالةِ المقدسة أو الرب مضافاً للكعبة أو الرحمن في قولٍ ضعيف . ولو قلت : تالرحيم لم يَجُزْ . وهي فرع الفرع . هذا مذهبُ الجمهور ، وزعم السهيلي أنها أصل بنفسها ويلازِمُها التعجبُ غالباً كقوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَؤُا ﴾ [يوسف : 85] .

وقال ابن عطية : " والتاء في " تاللَّه " بدلٌ من واو ، كما أُبْدِلت في " تُراث " وفي " التوراة " وفي " التُّخَمَة " ، ولا تدخل التاء في القسم ، إلا في المكتوبة من أسماء اللَّه تعالى وغيره ذلك ، لا تقول : تالرحمن ، وتالرحيم " . وقد عرفْتَ أنَّ السهيلي خالَفَ في كونها بدلاً من واو .

وأمّا قولُه : " وفي التوراة " يريد عند البصريين . وزَعَمَ بعضُهم أنّ التاء فيها زائدة . وأمّا قوله : " إلا في المكتوبة " هذا هو المشهور . وقد تقدَّم دخولُها على غير ذلك .

قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يُحْتمل أن يكونَ جواباً للقسم ، فيكونون قد أَقْسموا على شيئين : نَفْيِ الفساد ونَفْيِ السَّرِقة .

وقوله : ﴿ مَّا جِئْنَا ﴾ يجوز أَنْ يكونَ مُعَلِّقاً للعلم ، ويجوز أن يُضَمَّنَ العلمُ نفسُه معنى القسم فيجاب بما يُجاب القسم . وقيل : هذان الوجهان في قولِ الشاعر :

2811 ولقد عَلِمْتُ لَتَأْتِيَنَّ مَنِيَّتي . . . إنَّ المَنَايا لا تَطِيشُ سِهامُها

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا جَزَآؤُهُ ﴾ : الهاء تعودُ على الصُّواع ، ولا بد من حَذْفِ مضاف أي : فما جزاءُ سَرِقته . و " إنْ كنتم " يجوز أن يكونَ جوابُه محذوفاً أو متقدِّماً .

(73/400)

قوله تعالى : ﴿ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ ﴾ : أربعةُ أوجه ، أحدها : أن يكونَ " جزاؤه " مبتدأً والضميرُ للسارق ، و " مَنْ " شرطية أو موصولة مبتدأٌ ثانٍ ، والفاءُ جوابُ الشرط أو مزيدةٌ في خبر الموصول لشبهه بالشرط ، و " مَنْ " وما في حَيِّزها على وَجْهَيْها خبر المبتدأ الأول ،

قاله ابن عطية ، وهو مردودٌ بعدم رابطٍ بين المبتدأ وبين الجملةِ الواقعةِ خبراً عنه ، هكذا رَدَّه الشيخُ عليه . وليس بظاهر ؛ لأنه يُجاب عنه بأنَّ هذه المسألةَ من باب إقامة الظاهرِ مُقامَ المضمرِ ، ويَتَّضِحُ هذا بتقرير الزمخشري قال رحمه اللَّه : " ويجوز أن يكونَ " جزاؤه " مبتدأً ، والجملةُ الشرطية كما هي خبره ، على إقامة الظاهر فيها مُقَامَ المضمر . والأصل : جزاؤه مَنْ وُجِدَ في رحله فهو هو ، فوضع الجزاء موضِعَ " هو " كما تقول لصاحبك : مَنْ أخو زيد ؟ فيقول لك : " أخوه مَنْ يقعد إلى جنبه ، فهو هو " يرجع الضمير الأول إلى " مَنْ " والثاني [إلى] الأخ ، ثم تقول : فهو أخوه ، مقيماً للمظهر مقام المضمر " .

والشيخ جعل هذا الذي حكيته عن الزمخشري وجهاً ثانياً بعد الأول ولم يَعْتقدْ أنه هو بعينه ، ولا أنَّه جوابٌ عَمَّا رَدَّ به على ابن عطية . ثم قال : " ووَضْعُ الظاهرِ موضعَ المضمر للربط إنما هو فصيح في مواضع التفخيم والتأويل ، وغير فصيحٍ فيما سوى ذلك نحو : زيدٌ قام زيد ، ويُنَزَّه عنه القرآنُ ، قال سيبويه : " لو قلت : " كان زيدٌ منطلقاً زيد " لم يكن حَدَّ الكلام ، وكان ههنا ضعيفاً ولم يكنْ كقولِك : ما زيدٌ منطلقاً هو لأنك قد اسْتَغْنَيْتَ عن إظهاره ، وإنما ينبغي لك أن تُضْمِرَه " . قلت : ومذهب الأخفش أنه جائزٌ مطلقاً وعليه بنى الزمخشري .

وقد جوَّزَ أبو البقاء ما تَوَهَّمَ أنه جواب عن ذلك فقال: " والوجه الثالث: أن يكونَ " جزاؤه " مبتدأً، و " مَنْ وُجِد " مبتدأ ثانٍ، و " فهو " مبتدأٌ ثالث، و " جزاؤه " خبر الثالث، والعائد على المبتدأ الأول الهاء الأخيرة، وعلى الثاني " هو " انتهى. وهذا الذي ذكره أبو البقاء لا يَصِحُّ، إذ يصير التقديرُ: فالذي وُجِدَ في رَحْله جزاء الجزاء؛ لأنه جَعَلَ " هو " عبارةً عن المبتدأ الثاني، وهو ﴿ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ﴾، وجعل الهاءَ الأخيرةَ وهي التي في " جزاؤه " الأخير عائدةً على " جزاؤه " الأولِ، وصار التقديرُ كما ذكَرْتُه لك.

الوجه الثاني من الأوجه المتقدمة: أن يكون " جزاؤه " مبتدأً، والهاءُ تعود على المسروق، و ﴿ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ﴾ خبره، و " مَنْ " بمعنى الذي، والتقدير: جزاء الصُّواع الذي وُجِد في رَحْله، كذلك كانت شريعتُهم: يُسْتَرَقُّ السارق، فلذلك اسْتُفْتُوا في جزائه.

وقوله " فهو جزاؤه " تقرير للحكم أي: فأَخْذُ السارقِ نفسِه هو جزاؤه لا غير كقولك: حَقُّ زيدٍ أن يكسى ويُطْعَمَ ويُنْعَمَ عليه، فذلك حَقُّه " أي فهو حَقُّه لِتُقَرِّر/ ما ذكَرْتَه من استحقاق وتلْزِمَه، قاله الزمخشري. ولمَّا ذكر أبو البقاء هذا الوجهَ قال: " والتقدير استعبادُ مَنْ وُجِد في رَحْله، وقوله: " فهو جزاؤه " مبتدأ وخبر، مؤكِّد لمعنى الأول ".

ولمَّا ذَكَرَ الشيخُ هذا الوجهَ ناقلاً له عن الزمخشري قال : " وقال معناه ابن عطية ، إلا أنه جعل القولِ الواحد قولين ، قال : " ويَصِحُّ أن يكونَ " مَنْ " خبراً على أن المعنى : جزاءُ السارق مَنْ وُجِد في رَحْله ، عائد على " مَنْ " ويكون قوله : " فهو جزاؤه " زيادةَ بيانٍ وتأكيدٍ " ، ثم قال : " ويُحتمل أن يكونَ التقدير : جزاؤُه استرقاقُ مَنْ وجد في رَحْلِه ، وفيما قبله لا بد مِنْ تقديره ؛ لأنَّ الذاتَ لا تكونُ خبراً عن المصدر ، فالتقدير في القول قبله : جزاؤه أَخْذُ مَنْ وُجِد في رَحْله أو استرقاقه ، هذا لا بد منه على هذا الإِعراب " قلت : وهذا كما قال الشيخُ ظاهره أنه جَعَل القول الواحد قولين .

الوجه الثالث مِن الأوجه المتقدّمة : أن يكون " جزاؤه " خبرَ مبتدأ محذوفٍ أي : المسؤول عنه جزاؤه ، ثم أَفْتَوا بقولهم : " مَنْ وُجِد في رَحْله فهو جزاؤه " كما يقول مَنْ يَسْتفتي في جزاء صيد المُحْرِم : جزاءُ صيد المُحْرِم ، ثم يقول : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ [المائدة : 95] ، قاله الزمخشري . قال الشيخ : " وهو متكلف إذ تصير الجملة من قوله : " المسؤول عنه جزاؤه " على هذا التقدير ليس فيه كبيرُ فائدة ؛ إذ قد عُلِمَ مِنْ قوله : " فما جزاؤه " أن الشيء المسؤولَ عنه جزاءُ سَرِقته ، فأيُّ فائدةٍ في نُطْقهم بذلك ؛ وكذلك القول في المثال الذي مَثَّل به مِنْ قول المستفتي " .

قلت : قوله : " ليس فيه كبيرُ فائدة " ممنوعٌ بل فيه فائدةُ الإِضمار المذكور في علم البيان ، وفي القرآن أمثالُ ذلك .

(76/400)

الوجه الرابع : أن يكونَ " جزاؤه " مبتدأ ، وخبرُه محذوف تقديره : جزاؤه عندنا كجزائِه عندكم ، والهاءُ تعودُ على السارق أو على المسروق ، وفي الكلام المتقدم دليلٌ عليهما ، ويكون قولُه : " مَنْ وُجد في رَحْلِه فهو جزاؤه على ما تقدَّم في الوجه الذي قبله ، وبهذا الوجه بدأ أبو البقاء ، ولم يذكرْه الشيخ ، فقد جعَلَ في الآية الكريمة أربعةَ أوجهٍ ، وتقدَّم أن الأولَ والثاني وَجْهٌ كما بيَّنْتُه ، فإذا ضَمَمْنا هذا الوجهَ الأخيرَ الذي بدأ به أبو البقاء إلى الأربعةِ التي ذكرها الشيخُ صارت خمسةً ، ولكن لا تحقيقَ لذلك ، وكذلك إذا التفَتْنا إلى قول ابن عطية في جَعْلِه القولَ الواحدَ قولين تصيرُ ستةً في اللفظ ، فإذا حَقَّقْتَها لم تَجِىءْ إلا أربعةً كما ذكرتها لك .

قوله : { كذلك نَجْزِي الظالمين } محل الكاف نصب : إمَّا على أنها نعتٌ لمصدر محذوف ، وإمَّا حالٌ من ضميره ، أي : مثلَ ذلك الجزاءِ الفظيع نجزي الظالمين . انتهى انتهى . اهـ {الدر المصون حـ 6 صـ 524.532}

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) ﴾

حديثُ المحبةِ وأَحكامها أقسام : اشْتَاقَ يعقوبُ إلى لقاء يوسف عليهما السلام فَبَقِي سنين كثيرة ، واشتاقَ يوسف إلى بنيامين فَرُزِقَ رؤيته في أَوْجز مدةٍ .

وهكذا الأمر ؛ فمنهم موقوفٌ به ، ومنهم صاحب بلاء .

ويقال لئن سَخِنَت عين يعقوب عليه السلام بمفارقة بنيامين فلقد قَرَّتْ عيْنُ يوسفَ بلقائه .

كذا الأمر : لا تَغْرُبُ الشمس على قوم إلا وتطلع على آخرين .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) ﴾

احتمل بنيامينُ ما قيل فيه من السرقة بعد ما التقى مع يوسف .

ويقال : ما نُسِبَ إليه من سوء الفعال هان عليه من جَنْبِ ما وجد من الوصال .

ويقال لئن نُسَبَ أخاه للسرقة تعرّف إليه بقوله : ﴿ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ ﴾ - سِرّاً ، فكان مُتَحَمِّلاً لأعباء الملامة في ظاهره ، محمولاً بوجدان الكرامة في سِرِّه ، وفي معناه أنشدوا :

أَجِدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً . . . حُبّاً لذكركِ فَلْيَلُمْني اللُّومُ

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) ﴾

يعني حُسْنُ سيرتنا في سير المعاملة يدلكم على حسن سريرتنا في الحالة . ويقال لو كُنَّا نسرق متاعكم لما رددناه عليكم ولَمَا وجدتموه في رحالنا بعد أَن غِبْنَا عنكم .

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) ﴾

(78/400)

تَجَاسَرَ إخوةُ يوسف بجريان جزاءِ السَّرِقةِ عليهم ثقةً بأنفسهم أنهم لم يُباشِروا الزَّلَّة ، وكان بنيامينُ شريكَهم في براءة السَّاحةِ ، فلما استُخْرِجَ الصَّاعُ مِنْ وعائه بَسَطَ الإخوةُ فيه لسانَ الملامةِ ، وبقي بنيامين فلم يكن له جوابٌ كأنَّه أقرَّ بالسرقة ، ولم يكن ذلك صدقاً إذ أنه لم يَسْرِق ، ولو قال : لم أَفْعَلْ لأفشى سِرَّ يوسف عليه السلام الذي احتال معهم ذلك لأَجْلِه حتى يُبْقِيه معه ، فَسَكَتَ لسان بينامين ، وتحقَّق بالحال قَلْبُه .

ويقال لم يستصعب الملامة - وإنْ كان بريئاً - مما قُرِنَ به ، ولا يَضُرُّ سوءُ المقالةِ بالمكاشفين

بعد حَسْنِ الحالةِ مع الأحباب .

ويقال سيىء بما أَظْهَرَتْ عليه المقالة ، ولكن حَصَلَ له بذلك صفاءُ الحالة . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 196.195 ﴾

(79/400)

قوله تعالى ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76) ﴾

فصل

قال البقاعى :

﴿ فبدأ ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه بدأ المؤذن أو غيره ممن أمر بذلك ﴿ بأوعيتهم ﴾ .

ولما لم يكن - بين فتح أوعيتهم وفتح وعاء أخيه - فاصل يعد فاصلاً ، فكانت بداءته بأوعيتهم مستغرقة لما بينهما من الزمان ، لم يأت بجار ، فقال ﴿ قبل وعاء أخيه ﴾ أي أخي يوسف عليه الصلاة والسلام شقيقه ، إبعاداً عن التهمة ﴿ ثم ﴾ أي بعد تفتيش أوعيتهم والتأني في ذلك ﴿ استخرجها ﴾ أي أوجد إخراج السقاية التي تقدم أنه جعلها في

وعاء أخيه ﴿ من وعاء أخيه ﴾ .

ولما كان هذا كيداً عظيماً في أخذ أخيه بحكمهم ، مع ما توثق منهم أبوهم ، عظمه تعالى بالإشارة إليه بأداة البعد والإسناد إليه قال : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الكيد العظيم ﴿ كدنا ليوسف ﴾ خاصة بأن علمناه إياه جزاء لهم على كيدهم بيوسف عليه الصلاة والسلام ، ولذلك صنعنا جميع الصنائع التي أعلت يوسف عليه الصلاة والسلام وألجأت إخوته الذين كادوه بما ظنوا أنه أبطل أمره إلى المجيء إليه إلى أن كان آخرها حكمهم على أنفسهم بما حكموا ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ ما كان ﴾ أو هو استئناف تفسير للكيد ، وأكد النفي باللام فقال : ﴿ ليأخذ أخاه ﴾ .

(80/400)

ولما كان الأخذ على جهات مختلفة ، قيده بقوله : ﴿ في دين الملك ﴾ يعني ملك مصر ، على حالة من الحالات ، لأن جزاء السارق عندهم غير هذا ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ، ذلك بسبب يقيمه كهذا السبب الذي هو حكم السارق وأهله على أنفسهم ، فلا يكون حينئذ من الملك إلا تخليتهم وما حكموا به على نفوسهم .

(81/400)

ومادة " سرق " بتراكيبها الأربعة : سرق ، وسقر ، وقسر ، وقرس – تدور على الغلبة المحرقة والموجعة ، وتارة تكون بحر ، وتارة ببرد ، وتارة بغير ذلك ، وتلازمها القوة والضعف والكثرة والقلة والمخادعة ، فيأتي الخفاء والليل ، فمن مطلق الغلبة : القسر ، وهو الغلبة والقهر ، وقال ابن دريد : القسر : الأخذ بالغلبة والاضطهاد ، والقسورة : الأسد ، والعزيز كالقسور ، والرماة من الصيادين ، واحده قسور ، ونبات سهلي – كأنه يكثر فيه الصيد ، فتنتابه القساورة ، وقسور النبت : كثر ، وركز الناس ، أي صوتهم الخفي وحسهم – لأن الصيادين يتخافتون ؛ والسقر لغة في الصقر – لطير يصيد ؛ وقسر : جبل السراة – كأنه موضع الصيد والقسر والغلبة ، والقيسري : الكثير – لأنه ملزوم للغلبة ، وضرب من الجعلان – كأنه سمي لمطلق الكثرة ولأذاه بما يعانيه من النجاسات ، والقيسري – أيضاً من الإبل : العظيم أو الصلب أو الضخم الشديد : وجمل قراسية – بالضم وتخفيف الياء : ضخم ، والقرس – بالكسر : صغار البعوض ؛ والقسورة أيضاً من الغلمان : الشاب القوي ، والرامي – لأنه أهل لأن يغلب ، ولقسور أيضاً : الصياد مطلقاً ؛ ويلزمه المخادعة والاستخفاء ، ومنه القسورة : نصف الليل أو أوله أو معظمه – لأنه محل الاستخفاء والمقاهرة ؛ ومنه السرق ، وهو الأخذ في خفية ، وعبارة القزاز : في ختل وغفلة ، وسرق – كفرح : خفي ، والسوارق : الزوائد في فراش القفل – لغرابتها وخفاء أمرها ، أو لسلبها

السرقة بمنعها السارق من فتح القفل ، والمسترق : المستمع مختفياً ، وانسرق عنهم : خنس ليذهب ، ويلزم المخادعة والاختفاء نوع ضعف ، ومنه : سرقت مفاصله - كفرح : ضعفت ، والمسترق : الناقص الضعيف الخلق ؛ وانسرق : فتر وضعف - إما منه وإما من السلب ، لأن من فتر أو ضعف يكف عن السرقة والأذى ؛ وقسور الرجل : أسن ، وكان منه القارس والقريس أي القديم ، ومسترق العنق : قصيرها - كأنه سرق منها شيء ، وهو يسارق النظر

إليه ، أي يطلب غفلته لينظر إليه ، وتسرق : سرق شيئاً فشيئاً ، وسُرَّق - كسكر - كان اسمه الحباب فابتاع من بدوي راحلتين ، ثم أجلسه على باب دار ليخرج إليه بثمنهما فخرج من الباب الآخر فهرب بهما ، فسماه النبي -صلى الله عليه وسلم- سرقاً ، وكان لا يحب أن يسمى بغيره ، والسرق - محركاً : أجود الحرير أو الحرير الأبيض ، أو الحرير عامة ، فارسي معرب أصله سره ، قال القزاز : ومعناه : جيد ، لأنه أهل لأن يقصد بالسرقة لخفة محمله وكثرة ثمنه ، والسرقين معرب سركين يمكن أن يكون من الضعف ، ولعل المعرب يكون خارجاً عن أصل المادة ، لأنه لا أصل له في العربية ؛ ومن الأذى بالحر السفر : حر الشمس

وأذاه ، يقال : سقرته الشمس – بالسين والصاد – إذا آلمت دماغه ، ومنه اشتقاق سقر ، وهو اسم إحدى طبقات النار ، والسقر : القيادة على الحرم ، والسقر : ما يسيل من الرطب – من التسمية باسم السبب ، لأن الحر سببه ، والقوسرة : القوصرة – ويخففان – لأنه يوضع فيه التمر الذي قد يكون منه السقر ، والساقر : الكافر واللعان لغير المستحقين – لكثرة الأذى ، أو لاستحقاق الكون في سقر ، والساقور : الحر والحديدة يكوى بها الحمار ؛ ومن الأذى بالبرد : القرس – وهو البرد الشديد والبارد ، والقرس – ويحرك : أبرد الصقيع وأكثفه ، والقرس – بالتحريك : الجامد ، وأقرس العود جمد ماءه ، ومنه القريس – لسمك طبخ وترك حتى جمد ، وقرس الماء : جمد ، والبرد : اشتد كقرس كفرح ، وآل قرايس ويقال : نبات قراس – كسحاب : أجبل باردة أو هضاب بناحية السراة ، وقرسنا الماء : بردناه .

(83/400)

إذا تقرر ذلك فتصحيح قول المؤذن "إنكم لسارقون" إن نظر إلى الغلبة في خفاء فلا شك أنهم متصفون بذلك لأخذهم يوسف من أبيه عليهما السلام على هذه الحالة ، وإن نظر إلى مطلق الأخذ في خفاء فيكون إطلاق ذلك عليهم مجازاً ، لأن معهم – في حال ندائه لهم وهم

سائرون – شيئاً ليس هو لهم هم ذاهبون به في خفاء ، أي أنتم في هذه الحالة فاعلون فعل السارق ، ويقوي إرادة الأول قوله تعالى ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ من وجدنا متاعنا عنده ﴾ كما سيأتي .

ولما كان يوسف عليه الصلاة والسلام إنما تمكن من ذلك بعلو درجته وتمكنه ورفعته ، بعد ما كان فيه عندهم من الصغار ، كان ذلك محل عجب ، فقال تعالى – التفاتاً إلى مقام التكلم تقوية للكلام بمقام الغيبة والتكلم ، وزاده إشعاراً بعظمة ، هذا الفعل بصوغه في مظهر العظمة منبهاً لمن قد يغفل : ﴿ نرفع ﴾ أي لنا من العظمة ، وكان الأصل : درجاته ، ولكنه عمم لأنه أدل على العظمة ، فكان أليق بمظهرها ، فقال منبهاً على أنه كان حصل ليوسف عليه الصلاة والسلام من الهضم ما ظن كما ظن أنه لا يرتفع بعده : ﴿ درجات من نشاء ﴾ أي بالعلم .

ولما كان سبب الرفعة هو الأعلمية بالأسباب ، وذلك أن الخلق لو اجتهدوا في خفض أحد فنصبوا له كل سبب علموه وقدروا عليه ، وأراد الله ضد ذلك ، لقيّض بعلمه سبباً واحداً إن شاء فأبطل جميع تلك الأسباب وقضى برفعته ، نبه تعالى على ذلك بقوله : ﴿ وفوق كل ذي علم ﴾ أي من الخلق ﴿ عليم ﴾ عظيم العلم ، لا تكتنه عظمة علمه العقول ، ولا تتخيلها الفهوم ، فهو يسبب من الأسباب ما تطيح له أسباب العلماء وتحير له ألباب العقلاء البصراء ، وهو الله تعالى – كما نقله الرماني عن ابن عباس. رضى الله عنهما . والحسن

وسعيد بن جبير ، فالتنوين للتعظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 78 . 80 ﴾

(84/400)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾

اعلم أن إخوة يوسف لما أقروا بأن من وجد المسروق في رحله فجزاؤه أن يسترق قال لهم المؤذن : إنه لا بد من تفتيش أمتعتكم ، فانصرف بهم إلى يوسف ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ لإزالة التهمة والأوعية جمع الوعاء وهو كل ما إذا وضع فيه شيء أحاط به استخرجها من وعاء أخيه ، وقرأ الحسن ﴿ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ بضم الواو وهي لغة ، وقرأ سعيد بن جبير ﴿ مِنْ أَخِيهِ ﴾ فقلب الواو همزة .

فإن قيل : لم ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنثه ؟

قلنا : قالوا رجع ضمير المؤنث إلى السقاية وضمير المذكر إلى الصواع أو يقال : الصواع يؤنث ويذكر ، فكان كل واحد منهما جائزاً أو يقال : لعل يوسف كان يسميه سقاية وعبيده

صواعاً فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل بهم صواعاً ، عن قتادة أنه قال : كان لا ينظر في وعاء إلا استغفر الله تائباً مما قذفهم به ، حتى إنه لما لم يبق إلا أخوه قال ما أرى هذا قد أخذ شيئاً ، فقالوا : لا نذهب حتى تتفحص عن حاله أيضاً ، فلما نظروا في متاعه استخرجوا الصواع من وعائه والقوم كانوا قد حكموا بأن من سرق يسترق ، فأخذوا برقبته وجروا به إلى دار يوسف .

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ ﴾ وفيه بحثان :

الأول : المعنى ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف ، وذلك إشارة إلى الحكم باسترقاق السارق ، أي مثل هذا الحكم الذي ذكره إخوة يوسف حكمنا ليوسف .

الثاني : لفظ الكيد مشعر بالحيلة والخديعة ، وذلك في حق الله تعالى محال إلا أنا ذكرنا قانوناً معتبراً في هذا الباب ، وهو أن أمثال هذه الألفاظ تحمل على نهايات الأغراض لا على بدايات الأغراض ، وقررنا هذا الأصل في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْىِ ﴾ [البقرة : 26] فالكيد السعي في الحيلة والخديعة ، ونهايته إلقاء الإنسان من حيث لا يشعر في أمر مكروه ولا سبيل له إلى دفعه ، فالكيد في حق الله تعالى محمول على هذا المعنى .

ثم اختلفوا في المراد بالكيد ههنا فقال بعضهم : المراد أن إخوة يوسف سعوا في إبطال أمر يوسف ، والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره .

وقال آخرون : المراد من هذا الكيد هو أنه تعالى ألقى في قلوب إخوته أن حكموا بأن جزاء السارق هو أن يسترق ، لا جرم لما ظهر الصواع في رحله حكموا عليه بالاسترقاق ، وصار ذلك سبباً لتمكن يوسف عليه السلام من إمساك أخيه عند نفسه .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الملك ﴾ والمعنى : أنه كان حكم الملك في السارق أن يضرب ويغرم ضعفي ما سرق ، فما كان يوسف قادراً على حبس أخيه عند نفسه بناء على دين الملك وحكمه ، إلا أنه تعالى كاد له ما جرى على لسان إخوته أن جزاء السارق هو الاسترقاق فقد بينا أن هذا الكلام توسل به إلى أخذ أخيه وحبسه عند نفسه وهو معنى قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ ثم قال : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة وعاصم والكسائي ﴿ درجات ﴾ بالتنوين غير مضاف ، والباقون بالإضافة .

المسألة الثانية :

المراد من قوله : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ هو أنه تعالى يريه وجوه الصواب في بلوغ المراد

، ويخصه بأنواع العلوم ، وأقسام الفضائل ، والمراد ههنا هو أنه تعالى رفع درجات يوسف على إخوته في كل شيء .

(86/400)

واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات ، لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الحيلة والفكرة مدحه لأجل ذلك فقال : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ وأيضاً وصف إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ [الأنعام : 83] عند إيراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن إلهية الشمس والقمر والكواكب ووصف ههنا يوسف أيضاً بقوله : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ لما هداه إلى هذه الحيلة وكم بين المرتبتين من التفاوت .

ثم قال تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ والمعنى أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء فضلاء ، إلا أن يوسف كان زائداً عليهم في العلم .

واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى عالم بذاته لا بالعلم فقالوا : لو كان عالماً بالعلم لكان ذا علم ولو كان كذلك ، لحصل فوقه عليم تمسكاً بعموم هذه الآية وهذا باطل .

واعلم أن أصحابنا قالوا دلت سائر الآيات على إثبات العلم لله تعالى وهي قوله : ﴿ إِنَّ الله

عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ [لقمان : 34] ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء : 166] ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ [البقرة : 255] ﴿ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ [فاطر : 11] وإذا وقع التعارض فنحن نحمل الآية التي تمسك الخصم بها على واقعة يوسف وإخوته خاصة غاية ما في الباب أنه يوجب تخصيص العموم ، إلا أنه لا بد من المصير إليه لأن العالم مشتق من العلم ، والمشتق مركب والمشتق منه مفرد ، وحصول المركب بدون حصول المفرد محال في بديهة العقل فكان الترجيح من جانبنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 145.146 ﴾

(87/400)

وقال الماوردى :

﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاءِ أخيه ﴾

لتزول الريبة من قلوبهم لو بدىء بوعاء أخيه .

﴿ ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ قيل عنى السقاية فلذلك أنّث ، وقيل عنى الصاع ، وهو يذكر ويؤنث في قول الزجاج . ﴿ كذلك كدنا ليوسُف ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : صنعنا ليوسف قاله الضحاك .

والثاني : دبّرنا ليوسف ، قاله ابن عيسى .

﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : في سلطان الملك ، قاله ابن عباس .

والثاني : في قضاء الملك ، قاله قتادة .

والثالث : في عادة الملك ، قال ابن عيسى : ولم يكن في دين الملك استرقاق من سرق . قال الضحاك : وإنما كان يضاعف عليه الغرم .

﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلا أن يشاء الله أن يُستَرق من سرق .

والثاني : إلا أن يشاء الله أن يجعل ليوسف عذراً فيما فعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(88/400)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾

قِيلَ : أَمَرَ يُوسُفُ بَعْضَ أَصْحَابِهِ بِأَنْ يَجْعَلَ الصَّاعَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ، ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ مِنْ الْمُوَكَّلِينَ

بِالصِّيعَانِ ، وَقَدْ فَقَدُوهُ وَلَمْ يَدْرُوا مَنْ أَخَذَهُ : ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ ، عَلَى ظَنٍّ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ كَذَلِكَ ، وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ يُوسُفُ بِذَلِكَ ، فَلَمْ يَكُنْ قَوْلُ هَذَا الْقَائِلِ كَذِبًا ؛ إِذْ كَانَ مَرْجِعُهُ إِلَى غَالِبِ ظَنِّهِ وَمَا هُوَ عِنْدَهُ .

وَفِيمَا تَوَصَّلَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِ إِلَى أَخْذِ أَخِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ جَائِزٌ لِلْإِنْسَانِ التَّوَصُّلُ إِلَى أَخْذِ حَقِّهِ مِنْ غَيْرِهِ بِمَا يُمْكِنُهُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ بِغَيْرِ رِضَا مَنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ رُوِيَ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَمَانٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ زُرَيْعٍ عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ : ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ قَالَ : "كَفِيلٌ" .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ كَفَالَةٌ عَنْ إِنْسَانٍ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ قَائِلَ ذَلِكَ جَعَلَ حِمْلَ بَعِيرٍ أُجْرَةً لِمَنْ جَاءَ بِالصَّاعِ وَأَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ يَعْنِي ضَامِنٌ ، قَالَ الشَّاعِرُ : وَإِنِّي زَعِيمٌ إِنْ رَجَعْتُ مُسْلِمًا بِسَيْرٍ يَرَى مِنْهُ الْفَرَانِقُ أَزْوَرَا أَيْ ضَامِنٌ لِذَلِكَ .

فَهَذَا الْقَائِلُ لَمْ يَضْمَنْ عَنْ إِنْسَانٍ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ ضَمَانَ الْأُجْرَةِ لِرَدِّ الصَّاعِ .

وَهَذَا أَصْلٌ فِي جَوَازِ قَوْلِ الْقَائِلِ : "مَنْ حَمَلَ هَذَا الْمَتَاعَ إِلَى مَوْضِعِ كَذَا فَلَهُ دِرْهَمٌ" وَأَنَّ هَذِهِ إِجَارَةٌ جَائِزَةٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يُشَارِطُ عَلَى ذَلِكَ رَجُلًا بِعَيْنِهِ وَكَذَلِكَ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ

فِي السِّيَرِ الْكَبِيرِ إذَا قَالَ أَمِيرُ الْجَيْشِ : " مَنْ سَاقَ هَذِهِ الدَّوَابَّ إلَى مَوْضِعِ كَذَا " أَوْ قَالَ : " مَنْ حَمَلَ هَذَا الْمَتَاعَ إلَى مَوْضِعِ كَذَا فَلَهُ كَذَا " أَنَّ هَذَا جَائِزٌ وَمَنْ حَمَلَهُ اسْتَحَقَّ الْأَجْرَ وَهَذَا مَعْنَى مَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

وَقَدْ ذَكَرَ هِشَامٌ عَنْ مُحَمَّدٍ أَيْضًا فِيمَنْ كَانَتْ فِي يَدِهِ دَارٌ لِرَجُلٍ يَسْكُنُهَا فَقَالَ : " إنْ أَقَمْت فِيهَا بَعْدَ يَوْمِك هَذَا فَأُجْرَةُ كُلِّ يَوْمٍ عَشَرَةُ دَرَاهِمَ عَلَيْك " أَنَّ هَذَا جَائِزٌ ، وَإِنْ أَقَامَ فِيهَا بَعْدَ هَذَا الْقَوْلِ لَزِمَهُ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا سَمَّى ، فَجَعَلَ سُكْنَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ رِضًا ، وَكَانَ ذَلِكَ إجَارَةً وَإِنْ لَمْ يُقَاوِلْهُ بِاللِّسَانِ .

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ رَدَّ الصَّاعَ

اسْتَحَقَّ الْأَجْرَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا عَقْدُ إجَارَةٍ ، بَلْ فِعْلُهُ لِذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ قَبُولِ الْإِجَارَةِ .

وَعَلَى هَذَا قَالُوا فِيمَنْ قَالَ لِآخَرَ : " قَدْ اسْتَأْجَرْتُك عَلَى حَمْلِ هَذَا الْمَتَاعِ إلَى مَوْضِعِ كَذَا بِدِرْهَمٍ " أَنَّهُ إنْ حَمَلَهُ اسْتَحَقَّ الدِّرْهَمَ وَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِقَبُولِهَا .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّ هَذَا لَمْ يَكُنْ إجَارَةً لِأَنَّ الْإِجَارَةَ لَا تَصِحُّ عَلَى حِمْلِ بَعِيرٍ ، وَإِنْ كَانَتْ إجَارَةً فَهِيَ مَنْسُوخَةٌ لِأَنَّ الْإِجَارَةَ لَا تَجُوزُ فِي شَرِيعَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا بِأَجْرٍ مَعْلُومٍ .

قِيلَ لَهُ: هُوَ أَجْرٌ مَعْلُومٌ لِأَنَّ حِمْلَ بَعِيرٍ اسْمٌ لِمِقْدَارٍ مَا مِنْ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ، كَقَوْلِهِمْ كَارَّةٌ وَوِقْرٌ وَوَسْقٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَلَمَّا لَمْ يُنْكِرْ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى صِحَّتِهِ، وَشَرَائِعُ مَنْ قَبْلَنَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ حُكْمُهَا ثَابِتٌ عِنْدَنَا مَا لَمْ تُنْسَخْ.

قَوْله تَعَالَى: ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو إسْحَاقَ وَمَعْمَرٌ وَالسُّدِّيُّ: كَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ أَنْ يَسْتَرِقُّوا السَّارِقَ، فَكَانَ تَقْدِيرُهُ: جَزَاؤُهُ أَخْذُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ رَقِيقًا فَهُوَ جَزَاؤُهُ عِنْدَنَا كَجَزَائِهِ عِنْدَكُمْ، فَلَمَّا وُجِدَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ أَخَذَهُ عَلَى مَا شَرَطَ أَنَّهُ جَزَاءُ سَرِقَتِهِ، فَقَالُوا: خُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ عَبْدًا رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ الْحَسَنِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ يَجُوزُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ اسْتِرْقَاقُ الْحُرِّ بِالسَّرِقَةِ، وَكَانَ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُرِقَّ نَفْسَهُ لِغَيْرِهِ لِأَنَّ إخْوَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَذَلُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ لِيَكُونَ عَبْدًا بَدَلَ أَخِي يُوسُفَ.

وَقَدْ رُوِيَ ﴿ عَنْ عَبْدٍ سَرَقَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَاعَهُ فِي دَيْنٍ عَلَيْهِ وَكَانَ حُرًّا ﴾، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْحُكْمُ قَدْ كَانَ ثَابِتًا إلَى أَنْ نُسِخَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يَجِبُ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذَا خَافَ هَلَاكَ النَّاسِ مِنْ الْقَحْطِ .

وَفِيمَا قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ وَحِفْظِهِ لِلْأَطْعِمَةِ فِي سِنِي الْجَدْبِ وَقِسْمَتِهِ عَلَى النَّاسِ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ عَلَى الْأَئِمَّةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ إذَا خَافُوا هَلَاكَ النَّاسِ مِنْ الْقَحْطِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(92/400)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ الْآيَةُ

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : إنَّمَا جَعَلَ السِّقَايَةَ حِيلَةً فِي الظَّاهِرِ لِأَخْذِ الْأَخِ مِنْهُمْ ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُمْكِنًا لَهُ ظَاهِرًا مِنْ غَيْرِ إذْنٍ مِنْ اللَّهِ [وَلَمْ يَمْنَعْ الْحِيلَةَ] ، وَاَللَّهُ قَادِرٌ عَلَى الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، حَكِيمٌ فِي تَفْصِيلِ الْحَالَيْنِ .

فَإِنْ قِيلَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : كَيْفَ رَضِيَ يُوسُفُ أَنْ يَنْسِبَ إِلَيْهِمْ السَّرِقَةَ وَلَمْ يَفْعَلُوهَا ؟ قِيلَ : عَنْهُ ثَلَاثَةُ أَجْوِبَةٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا سَرَقُوهُ مِنْ أَبِيهِ وَبَاعُوهُ ، فَاسْتَحَقُّوا هَذَا الِاسْمَ بِذَلِكَ الْفِعْلِ .

الثَّانِي : أَنَّهُ أَرَادَ أَيَّتُهَا الْعِيرُ حَالُكُمْ حَالُ السُّرَّاقِ .

الْمَعْنَى : إنَّ شَيْئًا لِغَيْرِكُمْ صَارَ عِنْدَكُمْ مِنْ غَيْرِ رِضَا الْمَلِكِ وَلَا عِلْمِهِ .

الثَّالِثُ : وَهُوَ التَّحْقِيقُ أَنَّ هَذَا كَانَ حِيلَةً لِاجْتِمَاعِ شَمْلِهِ بِأَخِيهِ وَفَصْلِهِ عَنْهُ إلَيْهِ ، وَهُوَ ضَرَرٌ دَفَعَهُ بِأَقَلَّ مِنْهُ .

فَإِنْ قِيلَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فَكَيْفَ اسْتَجَازَ يُوسُفُ الْحَيْلُولَةَ بَيْنَ أَخِيهِ وَأَبِيهِ فَيَزِيدُهُ حُزْنًا عَلَى حُزْنٍ وَكَرْبًا عَلَى كَرْبٍ .

قُلْنَا : إذَا اسْتَوَى الْكَرْبُ جَاءَ الْفَرَجُ .

جَوَابٌ آخَرُ : وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِإِذْنٍ مِنْ اللَّهِ فَلَا اعْتِرَاضَ فِيهِ .

جَوَابٌ ثَالِثٌ : وَذَلِكَ أَنَّ الْحُزْنَ كَانَ قَدْ غَلَبَ عَلَى يَعْقُوبَ غَلَبَةً لَا يُؤَثِّرُ فِيهَا فَقْدُ أَخِيهِ كُلَّ التَّأْثِيرِ ، أَوَلَا تَرَاهُ لَمَّا فَقَدَ أَخَاهُ قَالَ : يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ .

قَوْله تَعَالَى: ﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾

فِيهَا سِتُّ مَسَائِل:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: قَالَ عُلَمَاؤُنَا: هَذَا نَصٌّ فِي جَوَازِ الْكَفَالَةِ.

وَقَدْ قَالَ الْقَاضِي أَبُو إِسْحَاق: لَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْكَفَالَةِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ فِيهَا كَفَالَةُ إِنْسَانٍ عَنْ إِنْسَانٍ، وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ الْتَزَمَ عَنْ نَفْسِهِ، وَضَمِنَ عَنْهَا، وَذَلِكَ جَائِزٌ لُغَةً لَازِمٌ شَرْعًا، قَالَ الشَّاعِرُ: فَلَسْت بِآمِرٍ فِيهَا بِسِلْمٍ وَلَكِنِّي عَلَى نَفْسِي زَعِيمُ وَقَالَ الْآخَرُ: وَإِنِّي زَعِيمٌ إنْ رَجَعْت مُمَلَّكًا بِسَيْرٍ تَرَى مِنْهُ الْغُرَانِقَ أَزْوَرَا قَالَ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ: هَذَا الَّذِي قَالَهُ الْقَاضِي أَبُو إسْحَاق صَحِيحُ [بَيْدَ أَنَّ الزَّعَامَة] فِيهِ نَصٌّ، فَإِذَا قَالَ: أَنَا زَعِيمٌ فَمَعْنَاهُ أَنِّي مُلْتَزِمٌ، وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ أَنْ يَقُولَ: أَلْتَزِمُهُ عَنْ نَفْسِي أَوْ الْتَزَمْت عَنْ غَيْرِي؟

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ إنَّمَا يَكُونُ فِي الْحُقُوقِ الَّتِي تَجُوزُ النِّيَابَةُ فِيهَا؛ وَأَمَّا كُلُّ حَقٍّ لَا يَقُومُ فِيهِ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ كَالْحُدُودِ فَلَا كَفَالَةَ فِيهَا.

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَتَرَكَّبُ عَلَى هَذِهِ مَسْأَلَةٌ.

وَهِيَ: الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: إذَا قَالَ: أَنَا زَعِيمٌ لَك بِوَجْهِ فُلَانٍ.

قَالَ مَالِكٌ: يَلْزَمُهُ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا يَلْزَمُهُ لِأَنَّهُ غَرَرٌ ؛ إذْ لَا يَدْرِي هَلْ يَجِدُهُ أَمْ لَا ؟ وَالدَّلِيلُ عَلَى جَوَازِهِ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالزَّعَامَةِ تَنْزِيلُ الزَّعِيمِ مَقَامَ الْأَصْلِ ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ حُضُورِ الْأَصْلِ أَدَاءُ الْمَالِ ، فَكَذَلِكَ الزَّعِيمُ .

وَمَسَائِلُ الضَّمَانِ كَثِيرَةٌ ذَكَرْنَاهَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَالْفُرُوعِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : كَمَا أَنَّ لَفْظَ الْآيَةِ نَصٌّ فِي الزَّعَامَةِ فَمَعْنَاهَا نَصٌّ فِي الْجَعَالَةِ ، وَهِيَ نَوْعٌ مِنْ الْإِجَارَةِ ، لَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْجَعَالَةِ وَالْإِجَارَةِ أَنَّ الْإِجَارَةَ يَتَقَدَّرُ فِيهَا الْعِوَضُ وَالْمُعَوَّضُ مِنْ الْجِهَتَيْنِ ، وَالْجَعَالَةَ يَتَقَدَّرُ فِيهَا الْجُعْلُ وَالْعَمَلُ غَيْرُ مُقَدَّرٍ .

وَدَلِيلُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ شَرَعَ الْبَيْعَ وَالِابْتِيَاعَ فِي الْأَمْوَالِ لِاخْتِلَافِ الْأَغْرَاضِ وَتَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ ، فَلَمَّا دَعَتْ الْحَاجَةُ إلَى انْتِقَالِ الْأَمْلَاكِ شَرَعَ لَهَا سَبِيلَ الْبَيْعِ وَبَيَّنَ أَحْكَامَهُ ، وَلَمَّا كَانَتْ الْمَنَافِعُ كَالْأَمْوَالِ فِي حَاجَةٍ إلَى اسْتِيفَائِهَا ؛ إذْ لَا يَقْدِرُ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ يَتَصَرَّفَ لِنَفْسِهِ فِي جَمِيعِ أَغْرَاضِهِ نَصَبَ اللَّهُ الْإِجَارَةَ فِي اسْتِيفَاءِ الْمَنَافِعِ بِالْأَعْوَاضِ ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حُصُولِ الْأَغْرَاضِ ، وَأَنْكَرَهَا الْأَصَمُّ ، وَهُوَ عَنْ الشَّرِيعَةِ أَصَمُّ ؛ فَقَدْ فَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِجَارَةَ ، وَفَعَلَهَا الصَّحَابَةُ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهَا فِي كُتُبِ الْخِلَافِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَقَدْ يُمْكِنُ تَقْدِيرُ الْعَمَلِ بِالزَّمَانِ ، كَقَوْلِهِ : تَخْدُمُنِي الْيَوْمَ .

وَقَدْ يَقُولُ : تَخِيطُ لِي هَذَا الثَّوْبَ ؛ فَيُقَدَّرُ الْعَمَلُ بِالْوَجْهَيْنِ ، وَقَدْ يَتَعَذَّرُ تَقْدِيرُ الْعَمَلِ ، كَقَوْلِهِ : مَنْ جَاءَنِي بِضَالَّتِي أَوْ جَلَبَ عَبْدِي الْآبِقَ فَلَهُ كَذَا ، فَأَحَدُ الْعِوَضَيْنِ لَا يَصِحُّ تَقْدِيرُهُ ، وَالْعِوَضُ الْآخَرُ لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِهِ ، فَإِنَّ مَا يَسْقُطُ بِالضَّرُورَةِ لَا يَتَعَدَّى سُقُوطُهُ إلَى مَا لَا ضَرُورَةَ فِيهِ .

وَالْأَصْلُ فِيهِ الْحَدِيثُ الَّذِي قَدَّمْنَا مِنْ أَخْذِ الْأُجْرَةِ عَلَى الرُّقْيَةِ ، وَهُوَ عَمَلٌ لَا يَتَقَدَّرُ ، وَقَدْ كَانَتْ الْإِجَارَةُ وَالْجَعَالَةُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ فَأَقَرَّتْهُمَا الشَّرِيعَةُ ، وَنَفَتْ عَنْهُمَا الْغَرَرَ وَالْجَهَالَةَ . وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : فِي حَقِيقَةِ الْقَوْلِ فِي الْآيَةِ : إنَّ الْمُنَادِيَ لَمْ يَكُنْ مَالِكًا ، إنَّمَا كَانَ نَائِبًا عَنْ يُوسُفَ وَرَسُولًا لَهُ ، فَشَرَطَ حِمْلَ الْبَعِيرِ عَلَى يُوسُفَ لِمَنْ جَاءَ بِالصُّوَاعِ وَتَحَمَّلَ هُوَ بِهِ عَنْ يُوسُفَ ، فَصَارَتْ فِيهِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ : الْأَوَّلُ : الْجَعَالَةُ ، وَهُوَ عَقْدٌ يَتَقَدَّرُ فِيهِ الثَّمَنُ وَلَا يَتَقَدَّرُ فِيهِ الثَّمَنُ .

الثَّانِيَةُ : الْكَفَالَةُ ، وَهِيَ هَاهُنَا مُضَافَةٌ إلَى سَبَبٍ مُوجِبٍ عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيقِ بِالشَّرْطِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهَا اخْتِلَافًا مُتَبَايِنًا تَقْرِيرُهُ فِي الْمَسَائِلِ ؛ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِهِ ، فَإِنَّهُ فِعْلُ نَبِيٍّ ، وَلَا يَكُونُ إلَّا شَرْعًا .

(96/400)

وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْكَفَالَةِ ؛ فَجَوَّزَهَا أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ مُحَالَةً عَلَى سَبَبِ وُجُوبٍ ؛ كَقَوْلِهِ : مَا كَانَ لَك عَلَى فُلَانٍ فَهُوَ عَلَيَّ ، أَوْ إذَا أَهَلَّ الْهِلَالُ فَلَكَ عَلَيَّ عَنْهُ كَذَا ، بِخِلَافِ أَنْ تَكُونَ مُعَلَّقَةً بِشَرْطٍ مَحْضٍ ، كَقَوْلِهِ : إنْ قَدِمَ فُلَانٌ أَوْ إنْ كَلَّمْت زَيْدًا .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا يَجُوزُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ عَلَى جَوَازِهَا ، مُحَالَةً عَلَى سَبَبِ الْوُجُوبِ .

الثَّالِثَةُ : جَهَالَةُ الْمَضْمُونِ لَهُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : هِيَ جَائِزَةٌ ، وَتَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَيْضًا مَعَ جَهَالَةِ الشَّيْءِ الْمَضْمُونِ أَوْ كِلَيْهِمَا .

وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيَّ اتَّفَقَا عَلَى أَنَّهُ لَا تَجُوزُ الْكَفَالَةُ مَعَ جَهَالَةِ الْمَكْفُولِ لَهُ ، وَادَّعَى أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ مَنْسُوخٌ مِنْ الْآيَةِ خَاصَّةً .

وَقَالَ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ : هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْجُعْلِ ، وَهِيَ شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا ، وَلَيْسَ لَهُمْ فِيهِ تَعَلُّقٌ فِي مَذْهَبٍ .

وَقَالَ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ : إنَّ مَعْرِفَةَ الْمَضْمُونِ عَنْهُ وَالْمَضْمُونِ لَهُ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهِمَا ؛ أَمَّا مَعْرِفَةُ الْمَضْمُونِ عَنْهُ فَلِيُعْلَمَ هَلْ هُوَ أَهْلٌ لِلْإِحْسَانِ أَمْ لَا ؟ وَأَمَّا مَعْرِفَةُ الْمَضْمُونِ لَهُ فَلِيُعْلَمَ هَلْ يَصْلُحُ لِلْمُعَامَلَةِ أَمْ لَا ؟ الثَّانِي : أَنَّهُ افْتَقَرَ إلَى مَعْرِفَةِ الْمَضْمُونِ خَاصَّةً ؛ لِأَنَّ الْمُعَامَلَةَ مَعَهُ خَاصَّةً .

(97/400)

الثَّالِثُ : أَنَّهُ لَا يَفْتَقِرُ إلَى مَعْرِفَةِ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وَهُوَ الصَّحِيحُ ، لِمَا ثَبَتَ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّهُ ضَمِنَ عَنْ الْمَيِّتِ وَلَمْ يَسْأَلْهُ النَّبِيُّ عَنْ الْمَضْمُونِ لَهُ وَلَا عَنْ الْمَضْمُونِ عَنْهُ ﴾ .

وَالْآيَةُ نَصٌّ فِي جَهَالَةِ الْمَضْمُونِ لَهُ ، وَحُمِلَ جَهَالَةُ الْمَضْمُونِ عَنْهُ عَلَيْهِ أَخَفُّ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: لَمَّا قَالَ إخْوَةُ يُوسُفَ: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾.

قَالَ أَصْحَابُ يُوسُفَ: ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ إنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾؟ فَقَالَ إخْوَةُ يُوسُفَ: ﴿ جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ﴾ قَالَ الطَّبَرِيُّ: الْمَعْنَى جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ، عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَةِ الْمُضَافِ إلَيْهِ مَقَامَهُ، التَّقْدِيرُ جَزَاؤُهُ اسْتِعْبَادُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ، أَوْ أَخْذُهُ وَاسْتِرْقَاقُهُ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

(98/400)

وَقَالَ غَيْرُهُ: التَّقْدِيرُ جَزَاءُ السَّارِقِ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ، وَيَكُونُ جَزَاؤُهُ الْأَوَّلُ الِابْتِدَاءَ، وَالْجُمْلَةُ بَعْدَهُ الْخَبَرَ، الْمَعْنَى مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ هُوَ، وَكَرَّرَهُ تَأْكِيدًا لِلْبَيَانِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ نَغَّصَ الْمَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْكَلَامِ بِالتَّفْسِيرِ: وَذَلِكَ أَنَّ دِينَ الْمَلِكِ كَانَ أَنْ يَأْخُذَ الْمَجْنِيُّ عَلَيْهِ مِنْ السَّارِقِ مِثْلَيْ السَّرِقَةِ، وَكَانَ دِينُ يَعْقُوبَ أَنْ يُسْتَرَقَّ السَّارِقُ، فَأَخَذَ يُوسُفُ إخْوَتَهُ بِمَا فِي دِينِ يَعْقُوبَ بِإِقْرَارِهِمْ بِذَلِكَ وَتَسْلِيمِهِمْ فِيهِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ عَمَّةَ يُوسُفَ بِنْتَ إِسْحَاقَ، وَكَانَتْ أَكْبَرَ مِنْ يَعْقُوبَ، صَارَتْ

إِلَيْهَا مِنْطَقَةُ إِسْحَاقَ لِسِنِّهَا ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَارَثُونَهَا بِالسِّنِّ ، وَكَانَ مَنْ سَرَقَهَا اسْتُمْلِكَ ، وَكَانَتْ عَمَّةُ يُوسُفَ قَدْ حَضَنَتْهُ وَأَحَبَّتْهُ حُبًّا شَدِيدًا ، فَلَمَّا تَرَعْرَعَ قَالَ لَهَا يَعْقُوبُ : سَلِّمِي يُوسُفَ إِلَيَّ ؛ فَلَسْتُ أَقْدِرُ أَنْ يَغِيبَ عَنْ عَيْنِي سَاعَةً .

قَالَتْ لَهُ : دَعْهُ عِنْدِي أَيَّامًا أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَلَعَلِّي أَتَسَلَّى عَنْهُ .

فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا يَعْقُوبُ عَمَدَتْ إِلَى مِنْطَقَةِ إِسْحَاقَ فَحَزَّمَتْهَا عَلَى يُوسُفَ مِنْ تَحْتِ ثِيَابِهِ ، ثُمَّ قَالَتْ : لَقَدْ فَقَدْتُ مِنْطَقَةَ إِسْحَاقَ ، فَانْظُرُوا مَنْ أَخَذَهَا ، وَمَنْ أَصَابَهَا .

(99/400)

فَالْتَمَسَتْ ، ثُمَّ قَالَتْ : اكْشِفُوا أَهْلَ الْبَيْتِ ، فَكَشَفُوا فَوُجِدَتْ مَعَ يُوسُفَ فَقَالَتْ : وَاَللَّهِ إِنَّهُ لِي سَلَمٌ أَصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْت .

ثُمَّ أَتَاهَا يَعْقُوبُ ، فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ لَهَا : أَنْتِ وَذَاكَ ، إنْ كَانَ فَعَلَ فَهُوَ سَلَمٌ لَك ، فَأَمْسَكَتْهُ حَتَّى مَاتَتْ ، فَبِذَلِكَ عَيَّرَهُ إخْوَتُهُ فِي قَوْلِهِمْ ﴿ إنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّ الْقَرَابَةَ شِجْنَةٌ وَالصَّحَابَةَ شِجْنَةٌ .

وَمِنْ هَاهُنَا تَعَلَّمَ يُوسُفُ وَضْعَ السِّقَايَةِ فِي رَحْلِ أَخِيهِ كَمَا عَمِلَتْ عَمَّتُهُ بِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ

﴿ إِذْ كَانَ لَا يَرَى اسْتِرْقَاقَ السَّارِقِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، فَكَيْفَ الْتِزَامُ الْإِخْوَةِ لِدِينِ يَعْقُوبَ بِالِاسْتِرْقَاقِ ، فَقَضَى عَلَيْهِمْ بِهِ .

وَالْكَيْدُ وَالْمَكْرُ هُوَ الْفِعْلُ الَّذِي يُخَالِفُ فِيهِ الْبَاطِنُ الظَّاهِرَ ، وَالْقَوْلُ الَّذِي يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ ؛ فَيَتَأَوَّلُهُ أَحَدُ الْمُتَخَاطِبَيْنِ عَلَى وَجْهٍ وَالْآخَرُ عَلَى وَجْهٍ آخَرَ .

(100/400)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَدْ ذَكَرْنَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ أَنَّ الْقَطْعَ فِي السَّرِقَةِ نَاسِخٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ الشَّرَائِعِ ؛ إذْ كَانَ فِي شَرْعِ يَعْقُوبَ اسْتِرْقَاقُ السَّارِقِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَلَا نَعْلَمُ مَا نَفَذَ بِهِ الْحُكْمُ فِي شَرْعِ يَعْقُوبَ هَلْ كَانَ مَخْصُوصًا بِعَيْنٍ مَسْرُوقَةٍ دُونَ عَيْنٍ أَمْ عَامًّا فِي كُلِّ عَيْنٍ ؟ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ؛ لِأَنَّهُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَاَلَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ﴾ .

وَهَذَا نَصٌّ فِي الْغَرَضِ ، مُوَضِّحٌ لِلْمَقْصُودِ ، فَافْهَمُوهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ فِيهِ جَوَازُ التَّوَصُّلِ إلَى الْأَغْرَاضِ بِالْحِيَلِ ؛ إذَا لَمْ تُخَالِفْ شَرِيعَةً وَلَا هَدَمَتْ أَصْلًا ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي تَجْوِيزِهِ الْحِيَلَ ،

وَإِنْ خَالَفَتْ الْأُصُولَ ، وَخَرَمَتْ التَّحْلِيلَ ؛ سَمِعْت أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ الْوَلِيدِ الْفِهْرِيَّ وَغَيْرَهُ يَقُولُ : كَانَ شَيْخُنَا قَاضِي الْقُضَاةِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الدَّامَغَانِيُّ صَاحِبَ عَشَرَاتِ آلَافٍ مِنْ الْمَالِ ، فَإِذَا جَاءَ رَأْسُ الْحَوْلِ دَعَا بَنِيهِ فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ كَبِرَتْ سِنِّي ، وَضَعُفَتْ قُوَّتِي ، وَهَذَا مَالٌ لَا أَحْتَاجُهُ ، فَهُوَ لَكُمْ .

(101/400)

ثُمَّ يُخْرِجُهُ ، وَيَحْتَمِلُهُ الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ إلَى دُورِ بَنِيهِ ، فَإِذَا جَاءَ رَأْسُ الْحَوْلِ ، وَدَعَا بَنِيهِ لِأَمْرٍ قَالُوا : يَا أَبَانَا ؛ إنَّمَا أَمَلُنَا حَيَاتُك ، وَأَمَّا الْمَالُ فَأَيُّ رَغْبَةٍ لَنَا فِيهِ مَا دُمْت حَيًّا ، أَنْتَ وَمَالُك لَنَا ، فَخُذْهُ إلَيْك .

وَيَسِيرُ الرِّجَالُ بِهِ حَتَّى يَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَيَرُدُّهُ إلَى مَوْضِعِهِ يُرِيدُ بِتَبْدِيلِ الْمِلْكِ إسْقَاطَ الزَّكَاةِ عَلَى رَأْيِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُجْتَمِعِ ، وَالْجَمْعِ بَيْنَ الْمُفْتَرِقِ ، وَهَذَا خَطْبٌ عَظِيمٌ بَيَّنَّاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ ، وَقَدْ صَنَّفَ الْبُخَارِيُّ عَلَيْهِ فِي جَامِعِهِ كِتَابًا مَقْصُودًا .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الشَّافِعِيَّةِ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْحِيلَةِ فِي التَّوَصُّلِ إلَى الْمُبَاحِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ .

قَالَ الْقَاضِي الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : هَذَا وَهْمٌ عَظِيمٌ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قِيلَ فِيهِ: كَمَا مَكَّنَّا لِيُوسُفَ مِلْكَ نَفْسِهِ عَنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ مَكَّنَّا لَهُ مِلْكَ الْأَرْضِ عَنْ الْعَزِيزِ أَوْ مِثْلَهُ مِمَّا لَا يُشْبِهُ مَا ذَكَرَهُ.

قَالَ الشَّفْعَوِيُّ: وَمِثْلُهُ: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾.

قَالَ الْإِمَامُ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَيْسَ هَذَا حِيلَةً؛ إنَّمَا هُوَ حَمْلٌ لِلْيَمِينِ عَلَى الْأَلْفَاظِ أَوْ عَلَى الْمَقَاصِدِ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ.

(102/400)

قَالَ الشَّفْعَوِيُّ: وَحَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ فِي عَامِلِ خَيْبَرَ [قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: نَصُّ هَذَا الْحَدِيثِ] ﴿ أَنَّ عَامِلَ خَيْبَرَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَمْرٍ جَنِيبٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا؟ قَالَ: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَكِنَّا نَبِيعُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ مِنْ تَمْرِ الْجَمْعِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَفْعَلْ، بِعْ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ، ثُمَّ ابْتَعْ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيبًا، وَكَذَلِكَ الْبُسْرُ ﴾ خَرَّجَهُ الْأَئِمَّةُ.

وَمَقْصُودُ الشَّافِعِيَّةِ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُ أَنْ يَبِيعَ جَمْعًا وَيَبْتَاعَ جَنِيبًا مِنْ الَّذِي بَاعَ مِنْهُ الْجَمْعَ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ.

قَالَ الْمَالِكِيَّةُ : مَعْنَاهُ مِنْ غَيْرِهِ ، لِئَلَّا يَكُونَ جَنِيبًا بِجَمْعٍ وَالدَّرَاهِمُ رِبًا ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : جَرِيرَةٌ بِجَرِيرَةٍ وَالدَّرَاهِمُ رِبًا .

قَالَ الشَّفْعَوِيُّ : وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِهِنْدَ : ﴿ خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي : ﴿ قَالَتْ هِنْدُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مَسِيكٌ لَا يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي .

قَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ .

وَهَذَا مِنْ بَابِ الْفَتْوَى وَتَسْلِيطِ الْمُفْتِي لِلْمُسْتَفْتِي عَلَى حُكْمِ الدَّعْوَى ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ ، وَرَبُّهُ أَعْلَمُ مِنْ الْكُلِّ بِكَذِبِهِ أَوْ صِدْقِهِ ، وَلَا حِيلَةَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا .

وَعَجَبًا لِمَنْ يَتَصَدَّى لِلْإِمَامَةِ ، وَيَتَمَيَّزُ فِي الْفِرَقِ بِالزَّعَامَةِ ، وَيَأْتِي بِهَذَا السَّفْسَافِ مِنْ الْمَقَالِ .

قَالَ الْقَاضِي : وَزَادَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَعَارِيضِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَرْبِ مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ هَذَا الْغَرَضِ عَلَى خَطٍّ لَا يَجْتَمِعُ مَعَ هَذَا الْمَقْصِدِ فِي دَائِرَةِ الْأُفُقِ ، فَكَيْفَ فِي

مِقْدَارٍ مِنْ التَّقَابُلِ أَصْغَرَ مِنْ نَفَقٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(104/400)

وقال ابن عطية :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾

بدؤه – أيضاً – من أوعيتهم تمكين للحيلة وإبعاد لظهور أنها حيلة .

وقرأ جمهور الناس " وِعاء " بكسر الواو ، وقرأ الحسن " وُعاء " بضمها ، وقرأ ابن جبير " أعاء " بهمزة بدل الواو ، وذلك شائع في الواو المكسورة ، وهو أكثر في المضمومة ، وقد جاء من المفتوحة : أحد في وحد .

وأضاف الله تعالى إلى ضميره لما أخرج القدر الذي أباح به ليوسف أخذ أخيه مخرج ما هو في اعتياد الناس كيد ، وقال السدي والضحاك : ﴿ كدنا ﴾ معناه : صنعنا .

و ﴿ دين الملك ﴾ فسره ابن عباس بسلطانه ، وفسره قتادة بالقضاء والحكم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا متقارب ، والاستثناء في هذه الآية حكاية حال ، التقدير : إلا ان شاء الله ما وقع من هذه الحيلة ؛ ويحتمل أن يقدر أنه تسنن لما قرر النفي .

وقرأ الجمهور "نرفع" على ضمير المعظم و"نشاء "كذلك، وقرأ الحسن وعيسى ويعقوب بالياء، أي الله تعالى: وقرأ عمرو ونافع وأهل المدينة "درجاتِ من" بإضافة الدرجات إلى ﴿ من ﴾، وقرأ عاصم وابن محيصن "درجاتٍ من" بتنوين الدرجات، وقرأ الجمهور، "وفوق كل ذي علم". وقرأ ابن مسعود "وفوق كل ذي عالم" والمعنى أن البشر في العلم درجات، فكل عالم فلا بد من أعلم منه، فإما من البشر وإما الله عز وجل. وأما على قراءة ابن مسعود فقيل: ﴿ ذي ﴾ زائدة، وقيل: "عالم" مصدر كالباطل.

وروي أن المفتش كان إذا فرغ من رحل رجل فلم يجد فيه شيئاً استغفر الله عز وجل تائباً من فعله ذلك، وظاهر كلام قتادة وغيره، أن المستغفر كان يوسف لأنه كان يفتشهم يعلم أين الصواع، حتى فرغ منهم وانتهى إلى رحل بنيامين فقال: ما أظن هذا الفتى رضي بهذا، ولا أخذ شيئاً، فقال له إخوته، والله لا تبرح حتى تفتشه فهو أطيب لنفسك ونفوسنا، ففتش فأخرج السقاية - وهذا التفتيش من يوسف يقتضي أن المؤذن إنما سرقه برأيه، فإنما يقال جميع ذلك كان بأمر الله تعالى، ويقوي ذلك قوله: ﴿ كدنا ﴾، وكيف لا يكون برأي يوسف وهو مضطر في محاولته إلى أن يلزمهم حكم السرقة له أخذ أخيه.

والضمير في قوله : ﴿ استخرجها ﴾ عائد على ﴿ السقاية ﴾ [يوسف : 70] ، ويحتمل أن يعود على السرقة .

وروي أن إخوة يوسف لما رأوا ذلك قالوا : يا بنيامين بن راحيل قبحك الله ولدت أمك أخوين لصّين ، كيف سرقت هذه السقاية ؟ فرفع يديه إلى السماء وقال : والله ما فعلت ، فقالوا له : فمن وضعها في رحلك قال : الذي وضع البضاعة في رحالكم .

وما ذكرناه من المعنى في قوله : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ هو قول الحسن وقتادة ، وقد روي عن ابن عباس ، وروي أيضاً عنه رضي الله عنه : أنه حدث يوماً بحديث عجيب فتعجب منه رجل ممن حضر ، وقال : الحمد لله ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ، وقال ابن عباس : بئس ما قلت ، إنما العليم لله وهو فوق كل ذي علم .

قال القاضي أبو محمد : فبين هذا وبين قول الحسن فرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(106/400)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾

إنما بدأ يوسف برحالهم لنفي التهمة والرّيبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه.

والوِعاء يقال بضم الواو وكسرها، لغتان؛ وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه.

﴿ ثُمَّ استخرجها مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ يعني بنيامين؛ أي استخرج السِّقاية أو الصّواع عند من يؤنث، وقال: "وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ" فذكّر؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رؤوسهم، وظنّوا الظنون كلها، وأقبلوا عليه وقالوا ويلك يا بنيامين! ما رأينا كاليوم قطُّ، ولدت أمك "راحيل" أخوين لِصّين! قال لهم أخوهم: والله ما سرقته، ولا علم لي بمن وضعه في متاعي.

ويروى أنهم قالوا له: يا بنيامين! أسرقت؟ قال: لا والله؛ قالوا: فمن جعل الصُّوَاع في رحلك؟ قال: الذي جعل البضاعة في رحالكم.

ويقال: إن المفتش كان إذا فرغ من رحل رجل استغفر الله عزّ وجلّ تائباً من فعله ذلك؛ وظاهر كلام قَتَادة وغيره أن المستغفر كان يوسف؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصّواع حتى فرغ منهم، وانتهى إلى رحل بنيامين فقال: ما أظن هذا الفتى رضي بهذا ولا أخذ شيئاً، فقال له إخوته: والله لا نبرح حتى تفتشه؛ فهو أطيب لنفسك ونفوسنا؛ ففتش فأخرج السّقاية؛ وهذا التفتيش من يوسف يقتضي أن المؤذّن سرّقهم برأيه؛ فيقال: إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى؛ ويقوّي ذلك قوله تعالى: ﴿ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾.

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ كِدْنَا ﴾ معناه صنعنا ؛ عن ابن عباس .

القُتَبِيّ : دبّرنا .

ابن الأنباري : أردنا ؛ قال الشاعر :

كادتْ وكِدتُّ وتلك خيرُ إرادةٍ . . .

لو عاد مِن عهد الصِّبَا ما قد مَضَى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحِيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلاً ، خلافاً لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول ، وخرَمت التحليل .

(107/400)

الثانية : أجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة ؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظل الساعي أنه لا يحل له التحيل ولا النقصان ، ولا أن يفرّق بين مجتمع ، ولا أن يجمع بين متفرّق .

وقال مالك : إذا فوّت من ماله شيئاً ينوي به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عند الحول ، أخذاً منه بقوله عليه السلام : " خشية الصدقة " وقال أبو حنيفة : إن

نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضرّه؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول، ولا يتوجه إليه معنى قوله: "خَشْيَةَ الصَّدَقَة" إلا حينئذ.

قال ابن العربي: سمعت أبا بكر محمد بن الوليد الفِهْري وغيره يقول: كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي الدّامَغَانِي صاحب عشرات الآلاف (دينار) من المال، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لهم: كبِرَت سِنّي، وضعفت قوّتي، وهذا مال لا أحتاجه فهو لكم، ثم يخرجه فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دورِ بنيه؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا: يا أبانا إنما أملنا حياتك، وأما المال فأيّ رغبة لنا فيه ما دمت حيا؛ أنت ومالك لنا، فخذه إليك، وسير الرجال به حتى يضعوه بين يديه، فيرده إلى موضعه؛ يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأي أبي حنيفة في التفريق بين المجتمع، والجمع بين المتفرّق؛ وهذا خطب عظيم وقد صنف البخاريّ رضي الله عنه في جامعه كتاباً مقصوداً فقال: "كتاب الحِيَل".

قلت: وترجم فيه أبواباً منها: "باب الزكاة وألاّ يفرّق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرّق خشية الصدقة".

وأدخل فيه حديث أنس بن مالك، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة؛ وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس.

الحديث ؛ وفي آخره : " أفلح إن صدق " أو " دخل الجنة إن صَدَقَ " وقال بعض الناس : في عشرين ومائة بعير حِقّتان ؛ فإن أهلكها متعمداً أو وهبها أو احتال فيها فِراراً من الزكاة فلا شيء عليه ؛ ثم أردف بحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون كنز أحدِكم يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبِيبتان ويقول أنا كنزك " الحديث ، قال المهلب : إنما قصد البخاري في هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يتحيل بها أحد في إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما منع من جمع الغنم وتفريقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى ، وفهم من قوله : "أفلح إن صدق" أن من رام أن ينقض شيئاً من فرائض الله بحيلة يحتالها أنه لا يفلح ، ولا يقوم بذلك عذرُه عند الله ؛ وما أجازه الفقهاء من تصرف صاحب المال في ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الهرب من الزكاة ؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط ، والله حسيبه ؛ وهو كمن فرّ من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم ، واستعمل سفراً لا يحتاج إليه ، رغبةً عن فرض الله الذي كتبه الله على المؤمنين ؛ فالوعيد متوجّه عليه ؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأيّ وجه متعمداً كيف تطؤه الإبل ، ويمثل له ماله شجاعاً أقرعا ؟ وهذا يدلّ على أن الفرار من الزكاة لا يحلّ ، وهو مطالب بذلك في الآخرة .

الثالثة : قال ابن العربي : قال بعض علماء الشافعية في قوله تعالى : ﴿ كذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ

مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ ﴾ .

دليل على وجه الحيلة إلى المباح ، واستخراج الحقوق ؛ وهذا وَهَم عظيم ؛ وقوله تعالى :

﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض ﴾ قيل فيه : كما مكّنا ليوسف مِلك نفسه عن امرأة

العزيز مكّنّا له مِلْك الأرض عن العزيز ، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره .

(109/400)

قال الشفعوي : ومثله قوله عز وجل : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [

ص : 44] وهذا ليس حيلة ، إنما هو حمل لليمين على الألفاظ أو على المقاصد .

قال الشفعويّ : ومثله حديث أبي سعيد الخدريّ في عامل خيبر أنه أتى النبي صلى الله

عليه وسلم بتمرٍ جَنِيب ، الحديثَ ؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه عليه السلام

أمره أن يبيع جمعاً ويبتاع جَنِيباً من الذي باع منه الجمع أو من غيره .

وقالت المالكية : معناه من غيره ؛ لئلا يكون جَنِيبا بجمع ، والدراهم ربا ؛ كما قال ابن

عباس : جريرة بجريرة والدراهم ربا .

قوله تعالى : ﴿ فِي دِينِ الملك ﴾ أي سلطانه ، عن ابن عباس .

ابن عيسى : عاداته ، أي يظلم بلا حجة .

مجاهد : في حكمه ؛ وهو استرقاق السراق .

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي إلا بأن يشاء الله أن يجعل السّقاية في رحله تَعِلَّة وعذرا له .

وقال قتادة : بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين ، ولكن شاء الله أن يجري على ألسنتهم حكم بني إسرائيل ، على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ أي بالعلم والإيمان .

وقرىء "نرفع درجاتِ من نشاء" بمعنى : نرفع من نشاء درجات ؛ وقد مضى في "الأنعام"

وقوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ روى إسرائيل عن سِمَاك عن عِكْرمة عن ابن عباس قال : يكون ذا أعلم من ذا وذا أعلم من ذا ، والله فوق كل عالم .

وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جُبير قال : كنا عند ابن عباس رحمه الله فتحدّث بحديث فتعجب منه رجل فقال : سبحان الله ! وفوق كل ذي علم عليم ؛ فقال ابن عباس : بئس ما قلت ؛ الله العليم وهو فوق كل عالم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ﴾

قال أهل التفسير إن إخوة يوسف لما أقروا أن جزاء السارق أن يسترق سنة قال أصحاب يوسف لا بد من تفتيش رحالكم فردوهم إلى يوسف فأمر بتفتيشها بين يديه فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه لإزالة التهمة فجعل يفتش أوعيتهم واحداً واحداً .

قال قتادة : ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر وعاء إلا استغفر تأثماً مما قذفهم به حتى لا يبق إلا رحل بنيامين قال ما أظن هذا أخذ شيئاً قال إخوته والله لا نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى : ﴿ ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ إنما أنّث الكناية لأنه ردها إلى السقاية ، وقيل : إن الصواع يذكر ويؤنث فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوة يوسف رؤوسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ما صنعت بنا فضحتنا وسودت وجوهنا يا بني راحيل ما زال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصواع ، فقال بنيامين : بل بنو راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية إن الذي وضع هذا الصواع في رحلي

الذي وضع البضاعة في رحالكم قالوا فأخذ بنيامين رقيقاً ، وقيل : إن المنادي وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين فأخذه برقبته وردوه إلى يوسف ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ يعني ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف وهو إشارة إلى الحكم الذي ذكره إخوه يوسف باسترقاق السارق أي مثل ذلك الحكم الذي ذكره إخوة يوسف حكمنا ليوسف ولفظ الكيد مستعار للحيلة والخديعة وهذا في حق الله محال فيجب تأويل هذه اللفظة بما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى فنقول الكيد هنا جزاء الكيد يعني كما فعلوا بيوسف بأن حكموا أن جزاء السارق أن يسترق كذلك ألهمنا يوسف حتى دس الصواع في رحل أخيه ليضمه إليه على ما حكم به إخوته ، وقال ابن الأعرابي : الكيد التدبير بالباطل وبحق فعلى هذا يكون المعنى كذلك دبرنا ليوسف ، وقيل : صنعنا ليوسف ، وقال ابن الأنباري : كدنا وقع خبراً من الله عليّ خلاف معناه في أوصاف المخلوقين فإنه إذا أخبر به عن مخلوق كان تحته احتيال وهو في موضع فعل الله معرى من المعاني المذمومة ويخلص بأنه وقع بمن يكيده تدبير ما يريده به من حيث لا يشعر ولا

يقدر على دفعه فهو من الله مشيئة بالذي يكون من أجل أن المخلوق إذا كاد المخلوق في ستر عنه ما ينويه ويضمره له من الذي يقع به من الكيد فهو من الله تعالى أستر إذ هو ما ختم به عاقبته والذي وقع بإخوة يوسف من كيد الله هو ما انتهى إليه شأن يوسف من ارتفاع المنزلة وتمام النعمة وحيث جرى الأمر على غير ما قدر من إهلاكه وخلوص أبيهم له بعده وكل ذا جرى بتدبير الله تعالى وخفي لطفه سماه كيداً لأنه أشبه كيد المخلوقين فعلى هذا يكون كيد الله ليوسف عائداً إلى جميع ما أعطاه الله وأنعم به عليه على خلاف تدبيره وإخوته من غير أن يشعروا بذلك وقوله تعالى: ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ يعني في حكم الملك وقضائه لانه كان في حكم الملك أن السارق يضرب ويغرم ضعفي قيمة المسروق يعني في حكم الملك وقضائه فلم يتمكن يوسف من حبس أخيه عنده في حكم الملك فالله تعالى ألهم يوسف ما دبره حتى وجد السبيل إلى ذلك ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ يعني أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته حتى جرى الأمر على وفق المراد ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ يعني بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته وفي هذه الآية دلالة على أن العلم الشريف أشرف المقامات وأعلى الدرجات لأن الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته على إخوته بالعلم وبما ألهمه على وجه الهداية والصواب في الأمور كلها ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ قال ابن عباس: فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى فوق كل عالم لأنه هو الغني بعلمه عن التعليم

وفي الآية دليل على أن إخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم ، قال ابن الأنباري : يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه تعالى ولا يطمع نفسه في الغلبة لأنه لا يخلو عالم من عالم فوقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(113/400)

وقال أبو حيان :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾

الوعاء : الظرف الذي يحفظ فيه الشيء ، وتضم واوه ، ويجوز أن تبدل واوه همزة .

﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعآء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم .

قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ قيل : قال لهم من وكل بهم : لا بد من تفتيش أوعيتكم ، فانصرف بهم إلى يوسف ، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة ، وتمكين الحيلة ، وإبقاء ظهورها حتى بلغ وعاءه ، فقال : ما أظن هذا أخذ شيئاً فقالوا : والله ما

تتركه حتى تنظر في رحله ، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ، فاستخرجوه منه .

وقرأ الحسن من وعاء بضم الواو ، وجاء كذلك عن نافع .

وقرأ ابن جبير : من إعاء بإبدال الواو المكسورة همزة كما قالوا : إشاح وإسادة في وشاح ووسادة ، وذلك مطرد في لغة هذيل ، يبدلون من الواو المكسورة الواقعة أولاً همزة ، وأنث في قوله ثم استخرجها على معنى السقاية ، أو لكون الصواع يذكر ويؤنث .

وقال أبو عبيد : يؤنث الصواع من حيث سمى سقاية ، ويذكر من حيث هو صاع ، وكان أبا عبيد لم يحفظ تأنيث الصواع .

وقيل : الضمير في قوله : ثم استخرجها عائد على السرقة ، كذلك أي مثل ذلك الكيد العظيم كدنا ليوسف يعني : علمناه إياه ، وأوحينا به إليه .

وقال الضحاك ، والسدي : كدنا صنعنا .

قال ابن عطية : وأضاف الله تعالى الكيد إلى ضميره ، لما أخرج القدر الذي أباح ليوسف أخذ أخيه مخرج ما هو في اعتياد الناس كيد .

وفسر ابن عباس في دين الملك بسلطانه ، وفسره قتادة بالقضاء والحكم انتهى .

وقال الزمخشري : ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك تفسير للكيد وبيان له ، لأنه كان في دين ملك مصر ، وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ إلا أن يلزم ويستعبد ، إلا أن يشاء الله ، إلا بمشيئته وإذنه .

وقال ابن عطية : والاستثناء حكاية حال التقدير : إلا أن يشاء الله ما وقع من هذه الحيلة انتهى .

والذي يظهر أنه استثناء منقطع أي : لكن بمشيئة الله أخذه في دين غير الملك ، وهو دين آل يعقوب : أنّ الاسترقاق جزاء السارق .

وقرأ الكوفيون ، وابن محيصن : نرفع بنون درجات منوناً من نشاء بالنون ، وباقي السبعة كذلك ، إلا أنهم أضافوا درجات .

وقرأ يعقوب بالياء في يرفع ، ويشاء أي : يرفع الله درجات من يشاء رفع درجاته .

وقرأ عيسى البصرة : نرفع بالنون درجات منوناً من يشاء بالياء .

قال صاحب اللوامح : وهذه قراءة مرغوب عنها تلاوة وجملة ، وإن لم يمكن إنكارها .

وقال ابن عطية : وقرأ الجمهور نرفع على ضمير المعظم وكذلك نشاء .

وقرأ الحسن وعيسى ويعقوب : بالياء أي : الله تعالى انتهى .

ومعناه في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه .

وعليم صفة مبالغة .

وقوله : ذي علم أي : عالم .

فالمعنى أن فوقه أرفع منه درجة في علمه ، وهذا معنى قول الحسن وقتادة وابن عباس .

وعن أن العليم هو الله عز وجل .

قيل : روى عنه أنه حدث بحديث عجيب ، فتعجب منه رجل ممن حضر فقال : الحمد لله ، وفوق كل ذي علم عليم ، فقال له ابن عباس : بئس ما قلت ، إنما العليم الله ، وهو فوق كل ذي علم .

وقرأ عبد الله : وفوق كل ذي عالم ، فخرجت على زيادة ذي ، أو على أن قوله عالم مصدر بمعنى علم كالباطل ، أو على أن التقدير : وفوق كل ذي شخص عالم .

روي أن أخوة يوسف عليه السلام لما رأوا إخراج الصواع من رحل أخيهم بنيامين قالوا : يا بنيامين ابن راحيل قبحك الله ، ولدت أمك أخوين لصين ، كيف سرقت هذه السقاية ؟ فرفع يديه إلى السماء وقال : والله ما فعلت ، فقالوا : فمن وضعها في رحلك ؟ قال : الذي وضع البضاعة في رحالكم .

وقال الزمخشري ما معناه : رموا بالسرقة تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم

بيوسف .

وإن كنتم كاذبين ، فرض لانتفاء براءتهم ، وفرض التكذيب لا يكون تكذيباً على أنه لو صرح به كما صرح بالتسريق لكان له وجه ، لأنهم قالوا : ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ﴾ والكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية كقوله : وخذ بيدك ضغثاً فيتخلص من جلدها ولا يحنث .

وقول ابراهيم عليه السلام : هي أختي لتسلم من يد الكافر .

وعلم الله في هذه الحيلة التي لقنها ليوسف مصالح عظيمة ، فجعلها سلماً وذريعة إليها ، فكانت حسنة جميلة انتهى . انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(116/400)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ . . . ﴾ الآية : بدؤه أيضاً من أوعيتهم تمكينٌ للحِيلَةِ ، وإبعادٌ لظُهُور أنها حيلةٌ ، وأضافَ اللَّه سبحانَهُ الكَيْدَ إلى ضميره ؛ لَمَّا خَرَجَ القَدْرُ الذي أباح به لِيُوسُفَ أَخْذَ أَخِيهِ مَخْرَجَ ما هو في اعتقاد النَّاس كَيْدٌ ، وقال السُّدِّيُّ والضَّحَّاك : ﴿ كِدْنَا ﴾ : معناه : صَنَعْنَا ، و ﴿ دِينِ الملك ﴾ : فسَّرَه ابن عباس بسُلْطَانِهِ ، وفسَّره

قتادة بالقضاءِ والحُكم ، وهذا متقاربٌ ، قال ابن العربيِّ في «أحكامه» : قوله تعالى : ﴿ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الملك ﴾ ، إذ كان المَلكُ لا يَرى استرقاق السَّارق ، وإنما كان دِينُهُ أنْ يأخذ المجنيُّ عليه من السارق مِثْلَي السَّرقَةِ . ﴿ إِلَّآ أَن يَشَاءَ اللّه ﴾ : التزام الإِخوة لدين يعقوبَ بالاسترقاق ، فقَضَى عليهم به ، انتهى .

قال ٭ع٭ : والاستثناء في هذه الآيَةِ حكايةُ حال التقديرِ ، إلا أنْ يشاء اللَّه مَا وقَع من هذه الحيلةِ ، وروَى أبو عمر بْنُ عَبْدِ البَرِّ بسنده ، عن مالك ، عن زيد بن أسلم ؛ أنه قال في قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاءُ ﴾ : قال : بالعلْمِ ، انتهى من «كتاب العلم» .

وقوله سبحانه : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، المعنى : أنَّ البَشَرَ في العلْمِ درجاتٌ ، فكلُّ عالمٍ فلابُدَّ مِنْ أعْلَمَ منه ، فإما من البَشَرِ ، وإما اللَّه عزَّ وجلَّ ، فهذا تأويلُ الحَسَن وقتادة وابن عباس وروي أيضاً عن ابن عبَّاس : إنما العليمُ اللَّهُ ، وهو فوقَ كل ذي علم .

قال ابن عطاء في «التنوير» : اعلم أنَّ العلْمَ حيثُ ما تكرَّرَ في الكتاب العزيز ، أو في السُّنَّة ، فإنما المراد به العِلْمُ النافِعُ الذي تقارنهُ الخشية ، وتكتنفه المَخَافَة . انتهى .

قال الشيخ العارف أبو القاسم عبدُ الرحمن بنُ يوسُفَ اللَّجَائيُّ رحمه اللَّه : إذا كَمُلَتْ للعبدِ ثلاثُ خِصَالٍ ، وصدَقَ فيها ، تفجَّرَ العِلْمُ مِنْ قَلْبِهِ على لسانه ، وهي الزُّهْد ، والإخلاص ، والتقوى ، قال : ولا مَطْمَعَ في هذا العلمِ المذكورِ إلا بَعْدَ معالجة القَلْبِ مِنْ علله التي تشينه ، كالكِبْر ، والحَسَد ، والغَضَب ، والرياء ، والسُّمْعة ، والمَحْمَدَة والجاه ، والشَّرَف ، وعُلُوّ المنزلة ، والطمَع ، والحِرْص ، والقَسْوة ، والمُدَاهَنة ، والحِقْد ، والعَدَاوة ، وكلِّ ما عَدَدْنَاه من العلل ، وما لم نَعُدَّه راجعٌ إلى أصل واحدٍ ، وهو حبُّ الدنيا ، لأنَّ حبها عنه يتفرَّعُ كلُّ شر ، وعنه يتشعَّب كلُّ قبيح ، فإذا زالَتْ هذه العِلَلُ ظهر الصِّدْق ، والإخلاص ، والتواضعُ ، والحِلْم ، والورَع ، والقَنَاعة ، والزُّهْد ، والصَّبْر ، والرِّضا ، والأُنسُ ، والمَحَبَّة ، والشَّوْق ، والتوكُّل ، والخَشْية ، والحُزْن ، وقِصَر الأَمَل ، ومِزَاجُ النية بالعمل ، فينبعُ العِلْمُ ، وينتفي الجَهْل ، ويضيءُ القَلْب بنور إلاهيٍّ ، ويتلألأ الإيمان ، وتوضح المعرفةُ ، ويتَّسعُ اليقينُ ، ويتقوَّى الإلهام ، وتبدو الفراسَاتُ ، ويصفى السرُّ ، وتتجلَّى الأسرار ، وتوجد الفوائدُ .

(118/400)

قال رحمه اللَّه : وليس بَيْنَ العبدِ والترقِّي مِنْ سُفْلٍ إلى عُلْوٍ إلاَّ حُبُّ الدنيا ؛ فإن الترقِّي يتعذَّر مِنْ أجل حبِّها ؛ لأنها جاذبة إلى العالَمِ الظلمانيِّ ، وطباعُ النفوس لذلك مائلةٌ ، فإنْ

أردتَّ أنْ تقتفي أثَرَ الذاهِبينَ إلى اللهِ تعالى ، فاستخف بدنياك ، وانظرها بعَيْن الزّوال ، وأَنْزِل نَفْسَكَ عندَ أخْذِ القُوتِ منها منزلَةَ المُضطَرّ إلى الميتة ، والسَّلام . انتهى .

وروي أن المفتّش كان إذا فرَغ من رَحْلِ رجُلٍ ، فلم يجدْ فيه شيئاً ، استغفر اللَّهَ عزَّ وَجلَّ مِنْ فعله ذلك ، وظاهر كلام قتادة وغيره ؛ أنَّ المستغفِرَ هو يُوسُفُ حتى انْتَهى إلى رَحْلِ بنْيَامِينَ ، فقال : ما أظُنُّ هذا الفتى رضي بهذا ، ولا أخذ شيئاً ، فقال له إخوته : واللهِ ، لاَ نَبْرَحْ حَتَّى تُفَتّشَهُ ، فهو أطْيَبُ لنفسك ونفوسِنَا ، فَفَتَّشَ حينئذٍ ، فأَخْرَجَ السّقاية ، وروي أنَّ أُخوة يوسُفَ لما رأَوْا ذلك ، عَنَّفُوا بنْيَامِينَ ، وقالوا له : كَيْفَ سَرَقْتَ هذه السّقَايَةَ ؟ فقال لهم : واللهِ ، ما فَعَلْتُ ، فَقَالُوا له : فَمَنْ وَضَعَهَا في رَحْلِكَ ؟ قال : الذي وَضَعَ البِضَاعَةَ في رِحَالِكُمْ ، والضمير في قوله : ﴿ استخرجها ﴾ : عائدٌ على السّقاية ، ويحتمل على السَّرقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(119/400)

وقال أبو السعود :

﴿ فَبَدَأَ ﴾

يوسف بعد ما رجعوا إليه للتفتيش ﴿ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ بأوعية الإخوةِ العشرةِ أي بتفتيشها

﴿ قَبْلَ ﴾ تفتيش ﴿ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ بنيامين لنفي التهمة . روي أنه لما بلغت النوبةُ إلى وعائه قال : ما أظن هذا أخذ شيئاً ، فقالوا : والله لا نتركه حتى تنظرَ في رحله فإن أطيبُ لنفسك وأنفسنا ﴿ ثُمَّ استخرجها ﴾ أي السقاية أو الصُّواعَ فإنه يذكر ويؤنث ﴿ مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ لم يقل منه على رجع الضميرِ إلى الوعاء أو من وعائه على رجعه إلى أخيه قصداً إلى زيادة كشفٍ وبيان ، وقرىء بضم الواو بقلبها همزة كما في أشاح في وشاح ﴿ كذلك ﴾ نُصب على المصدرية والكافُ مقحمةٌ للدلالة على فخامة المشارِ إليه وكذا ما في ذلك من معنى البُعد أي مثلَ ذلك الكيدِ العجيبِ وهو عبارةٌ عن إرشاد الإخوةِ إلى الإفتاء المذكورِ بإجرائه على ألسنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا فمعنى قوله عز وجل : ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ صنعنا له ودبّرنا لأجل تحصيل غرضِه من المقدمات التي رتبها من دس الصُّواعِ وما يتلوه ، فاللام ليست كما في قوله : ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ فإنها داخلة على المتضرِّر على ما هو الاستعمالُ الشائع وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الملك ﴾ استئنافٌ وتعليلٌ لذلك الكيدِ وصُنعه لا تفسيرٌ وبيانٌ له كما قيل ، كأنه قيل : لماذا فعل ذلك ؟ فقيل : لأنه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعله في دين المَلِكِ في أمر السارق أي في سلطانه ، قاله ابن عباس ، أو في حكمه وقضائه ، قاله قتادة ، إلا به لأن جزاءَ السارقِ في دينه إنما كان ضربَه وتغريمَه ضعفَ ما أخذ دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعةُ يعقوبَ عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من أخذ أخيه بالسرقة التي

نسبها إليه حال من الأحوال ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ أي إلا حالَ مشيئته التي هي عبارةٌ عن إرادته لذلك الكيدِ أو إلا حالَ مشيئته للأخذ بذلك الوجهِ ،

(120/400)

ويجوز أن يكون الكيدُ عبارةً عنه وعن مباديه المؤدّية إليه جميعاً من إرشاد يوسفَ وقومِه إلى ما صدر عنهم من الأفعال والأقوالِ حسبما شرح مرتباً لكن لا على أن يكون القصرُ المستفادُ من تقديم المجرورِ مأخوذاً بالنسبة إلى غيره مطلقاً على معنى مثلَ ذلك الكيدِ كدنا لا كيداً آخرَ إذ لا معنى لتعليله بعجز يوسفَ عن أخذ أخيه في دين الملكِ في شأن السارقِ قطعاً إذ لا علاقة بين مطلقِ الكيد ودينِ الملك في أمر السارق أصلاً بالنسبة إلى بعضه على معنى مثلَ ذلك الكيدِ البالغ إلى هذا الحد كدنا له ولم نكتف ببعض من ذلك لأنه لم يكن يأخذ أخاه في دين الملك به إلا حالَ مشيئتنا له بإيجاد ما يجري مجرى الجزءِ الصّوري من العلة التامة وهو إرشادُ إخوته إلى الإفتاء المذكور ، وعلى هذا ينبغي أن يحمل القصرُ في تفسير من فسر قوله تعالى : ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ بقوله : علّمناه إياه وأوحينا به إليه أي مثلَ ذلك التعليم المستتبعِ لما شرح مرتباً علّمناه دون بعض من ذلك فقط الخ ، وعلى كل حال فالاستثناءُ من أعم الأحوال كما أشير إليه ، ويجوز أن يكون من أعم العلل والأسبابِ

أي لم يكن يأخذ أخاه لعلة من العلل أو بسبب من الأسباب إلا لعلة مشيئَتِه تعالى أو إلا بسبب مشيئَتِه تعالى ، وأياً ما كان فهو متصل لأنَّ أخذَ السارق إذا كان ممن يرى ذلك ويعتقده ديناً لا سيما عند رضاه وإفتائِه به ليس مخالفاً لدين المِلك ، وقد قيل : معنى الاستثناءِ إلا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكمَ حكمَ الملكِ .

(121/400)

وأنت تدري أن المرادَ بدينه ما عليه حينئذ فتغييرُه مُخِلٌّ بالاتصال وإرادةُ مطلقِ ما يتدين به أعمّ منه ومما يحدث تفضي إلى كون الاستثناءِ من قبيل التطبيقِ بالمحال إذ المقصودُ بيانُ عجزِ يوسفَ عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ ولم تتعلق المشيئةُ بالجعل المذكورِ إذ ذاك وإرادةُ عجزِه مطلقاً تؤدي إلى خلاف المراد فإن استثناءَ حالِ المشيئةِ المذكورة من أحوال عجزه عليه السلام مما يُشعر بعدم الحاجةِ إلى الكيد المذكور فتدبر . وقد جُوّزَ الانقطاعُ أي لكنْ أخذُه بمشيئةِ الله تعالى وإذنِه في دين غيرِ دينِ الملك .

(122/400)

﴿ نَرْفَعُ درجات ﴾ أي رتباً كثيرةً عاليةً من العلم وانتصابُها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافضِ أي إلى درجات والمفعول قوله تعالى: ﴿ مَّن نَّشَاءُ ﴾ أي نشاء رفعَه حسبما تقتضيه الحكمةُ وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف، وإيثارُ صيغة الاستقبالِ للإشعار بأن ذلك سنةٌ مستمرةٌ غيرُ مختصةٍ بهذه المادة والجملةُ مستأنفةٌ لا محل لها من الإعراب ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ﴾ من أولئك المرفوعين ﴿ عَلِيمٌ ﴾ لا ينالون شأوَه واعلم أنه إن جعل الكيدُ عبارةً عن المعنيَيْن الأولين فالمرادُ برفع يوسفَ عليه السلام ما اعتُبر فيه بالشرطية أو الشطرية من إرشاده عليه السلام إلى دس الصّواع في رحل أخيه وما يتفرع عليه من المقدمات المرتبة لاستبقاء أخيه مما يتم من قِبَله، والمعنى أرشدنا إخوته إلى الإفتاء المذكور لأنه لم يكن متمكناً من أخذ أخيه بدونه، أو أرشدنا كلاًّ منهم ومِنْ يوسف وأصحابه إلى ما صدر عنهم ولم نكتف بما تم من قِبل يوسف فقط لأنه لم يكن متمكناً من أخذ أخيه بذلك فقوله تعالى: ﴿ نَرْفَعُ درجات ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ عَلِيمٌ ﴾ توضيحٌ لذلك على معنى أن الرفع المذكورَ لا يوجب تمامَ مرامِه إذ ليس ذلك بحيث لا يعزُب عن علمه شيءٌ بل إنما نرفع كلَّ من نرفع حسب استعدادِه، وفوق كلِّ واحدٍ منهم عليمٌ لا يقادر علمُه ولا يكتنه كنهُه يَرفع كلاًّ منهم إلى ما يليق به من معارج العلمِ ومدارجه وقد رَفع يوسفَ إلى ما يليق به من الدرجات العاليةِ وعلم أن ما حواه دائرةُ علمِه لا يفي بمرامه فأرشد إخوتَه إلى الإفتاء المذكورِ فكان ما كان، وكأنه عليه السلام لم يكن على يقين من صدوره الإفتاء

المذكورِ عن إخوته وإن كان على طمع منه فإن ذلك إلى الله عز وجل وجوداً وعلماً ، والتعرضُ لوصف العلم لتعيين جهةِ الفوقية ، وفي صيغة المبالغةِ مع التنكير والالتفاتِ إلى الغَيبة من الدلالة على فخامة شأنِه عز وعلا وجلالةِ مقدارِ

(123/400)

علمِه المحيطِ ما لا يخفى . وأما إن جعل عبارةً عن التعليم المستتبعِ للإفتاء المذكور فالرفعُ عبارةٌ عن ذلك التعليم والإفتاءِ وإن لم يكن داخلاً تحت قدرتِه عليه السلام لكنه كان داخلاً تحت علمِه بواسطة الوحي والتعليم ، والمعنى مثلَ ذلك التعليم البالغِ إلى هذا الحد علّمناه ولم نقتصر على تعليمِ ما عدا الإفتاءَ الذي سيصدر عن إخوته إذ لم يكن متمكناً من أخذ أخيه إلا بذلك فقوله : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ توضيحُ لقوله : كدنا وبيانٌ لأن ذلك من باب الرفعِ إلى الدرجات العاليةِ من العلم ومدحٌ ليوسف برفعه إليها ، وقوله وفوقَ كل ذي علم عليمٌ تذييلٌ له أي نرفع درجاتٍ عاليةً من العلم من نشاء رفعَه وفوق كل منهم عليمٌ هو أعلى درجةً . قال ابن عباس رضي الله عنهما : فوق كلِّ عالمٍ عالمٌ إلى أن ينتهيَ العلم إلى الله تعالى ، والمعنى إن إخوة يوسف عليه السلام كانوا علماءَ إلا أن يوسفَ عليه السلام أفضلُ منهم ، وقرىء درجاتِ مَنْ نشاء بالإضافة ، والأول أنسبُ بالتذييل حيث

نُسب فيه الرفعُ إلى من نسب إليه الفوقية لا إلى درجتِه ويجوز أن يكون العليمُ في هذا التفسير أيضاً عبارةً عن الله عز وجل أي وفوق كلَ من أولئك المرفوعين عليمٌ يرفع كلاًّ منهم إلى درجته اللائقةِ به والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود جـ 4 ص ﴾

(124/400)

وقال الآلوسى :

﴿ فَبَدَأَ ﴾

قيل المؤذن ورجح بقرب سبق ذكره ، وقيل : يوسف عليه السلام فقد روى أن إخوته لما قالوا ما قالوا قال لهم أصحابه : لا بد من تفتيش رحالكم فردوهم بعد أن ساروا منزلاً أو بعد أن خرجوا من العبارة إليه عليه السلام فبدأ ﴿ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ أي بتفتيش أوعية الإخوة العشرة ورجح ذلك بمقاولة يوسف عليه السلام فإنها تقتضي ظاهراً وقوع ما ذكر بعد ردهم إليه ولا يخفى أن الظاهر أن إسناد التفتيش إليه عليه السلام مجازي والمفتش حقيقة أصحابه بأمره بذلك ﴿ قَبْلُ ﴾ تفتيش ﴿ وِعَاء أَخِيهِ ﴾ بنيامين لنفي التهمة .

روى أنه لما بلغت النوبة إلى وعائه قال : ما أظن هذا أخذ شيئاً فقالوا : والله لا تتركه حتى

تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ففعل ﴿ ثُمَّ استخرجها ﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه كما علمت مما يؤنث ويذكر عند الحفاظ، وقيل: الضمير للسرقة المفهومة من الكلام أي ثم استخرج السرقة ﴿ مِن وِعَاء أَخِيهِ ﴾ لم يقل منه على رجع الضمير إلى الوعاء أو من وعائه على رجعه إلى أخيه قصداً إلى زيادة كشف وبيان، والوعاء الظرف الذي يحفظ فيه الشيء وكأن المراد به هنا ما يشمل الرحل وغيره لأنه الأنسب بمقام التفتيش ولذا لم يعبر بالرحال على ما قيل، وعليه يكون عليه السلام قد فتش كل ما يمكن أن يحفظ الصواع فيه مما كان معهم من رحل وغيره.

وقولهم: مقابلة الجمع بالجمع تقتضي انقسام الآحاد على الآحاد كما قال المدقق أبو القاسم السمرقندي لا يقتضي أن يلزم في كل مقابلة مقارنة الواحد للواحد لأن انقسام الآحاد على الآحاد كما يجوز أن يكون على السواء كما في ركب القوم دوابهم يجوز أن يكون على التفاوت كما في باع القوم دوابهم فإنه يفهم معه أن كلاً منهم باع ما له من دابة وقد مر التنبيه على هذا فيما سبق وحينئذٍ يحتمل أن يراد من وعاء أخيه الواحد والمتعدد.

وقرأ الحسن ﴿ وِعَاء ﴾ بضم الواو وجاء كذلك عن نافع.

وقرأ ابن جبير ﴿ إعاء ﴾ بإبدال الواو المكسورة همزة كما قالوا في وشاح إشاح وفي وسادة إسادة وقلب الواو المكسورة في أول الكلمة همزة مطرد في لغة هذيل ﴿ قَالَ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الكيد العجيب وهو إرشاد الأخوة إلى الإفتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم وحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي صنعنا ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها من دس السقاية وما يتلوه فالكيد مجاز لغوي في ذلك وإلا فحقيقته وهي أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه وتريده على ما قالوا محال عليه تعالى ، وقيل : إن ذلك محمول على التمثيل ، وقيل : إن في الكيد إسنادين بالفحوى إلى يوسف عليه السلام وبالتصريح إليه سبحانه والأول حقيقي والثاني مجازي ، والمعنى فعلنا كيد يوسف وليس بذاك ، وفي "درر المرتضى" إن كدنا بمعنى أردنا وأنشد :

كادت وكدت وتلك خير إرادة . . .

لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

واللام للنفع لا كاللام في قوله تعالى : ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف : 5] فإنها للضرر على ما هو الاستعمال الشائع .

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الملك ﴾ أي في سلطانه على ما روي عن ابن عباس أو في حكمه وقضائه كما روي عن قتادة ، والكلام استئناف وتعليل لذلك الميد كأنه قيل : لماذا

فعل ذلك ؟ فقيل : لأنه لم يكن ليأخذ أخاه جزاء وجود الصواع عنده في دين الملك في أمر السارق إلا بذلك الكيد لأن جزاء السارق في دينه على ما روي عن الكلبي .

وغيره أن يضاعف عليه الغرم .

وفي رواية ويضرب دون أن يؤخذ ويسترق كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من أخذ أخيه بما نسب إليه من السرقة بحال من الأحوال .

(126/400)

﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ أي إلا حال مشيئته تعالى التي هي عبارة عن ذلك الكيد أو إلا حال مشيئته تعالى للأخذ بذلك الوجه ، وجوز أن يكون المراد من ذلك الكيد الإرشاد المذكور ومباديه المؤديه إليه جميعاً من إرشاد يوسف عليه السلام وقومه إلى ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال حسبما شرح مرتباً ، وأمر التعليل كما هو بيد أن المعنى على هذا الاحتمال مثل ذلك الكيد البالغ إلى هذا الحد كدنا ليوسف عليه السلام ولم نكتف ببعض من ذلك لأنه لم يكن يأخذ أخاه في دين الملك به إلا حال مشيئتنا له بإيجاد ما يرجي مجرى الجزاء الصوري من العلة التامة وهو إرشاد إخوته إلى الإفتاء المذكور فالقصر المستفاد من تقديم المجرور مأخوذ بالنسبة إلى البعض ، وكذا يقال في تفسير من فسر ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ

﴾ بقوله علمنا إياه وأوحينا به إليه أي مثل ذلك التعليم المستتبع لما شرح علمناه دون بعض من ذلك فقط الخ ، والاستثناء على كل حال من أعم الأحوال وجوز أن يكون من أعم العلل والأسباب أي لم يكن ليأخذ أخاه في دين الملك لعلة من العلل وسبب من الأسباب إلا لعلة مشيئته تعالى ، وأياً ما كان فهو متصل لأن أخذ السارق إذا كان ممن يرى ذلك ويعتقده ديناً لا سيما عند رضاه وإفتائه به ليس مخالفاً لدين الملك فلذلك لم ينازعه الملك وأصحابه في مخالفة دينهم بل لم يعدوه مخالفة .

(127/400)

وقيل : إن جملة ما كان الخ في موضع البيان والتفسير للكيد وأن معنى الاستثناء إلا أن يشاء الله تعالى أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك وفيه بحث ، وجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً أي لكن أخذه بمشيئة الله سبحانه وإذنه في دين غير دين الملك ﴿ نَرْفَعُ درجات ﴾ أي رتباً كثيراً عالية من العلم ، وانتصابها على ما نقل عن أبي البقاء على الظرفية أو على نزع الخافض أي إلى درجات ، وجوز غير واحد النصب على المصدرية ، وأياً ما كان فالمفعول به قوله تعالى : ﴿ مَّن نَّشَاء ﴾ أي نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف عليه السلام ، وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بأن ذلك سنة

مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ ﴾ من أولئك المرفوعين ﴿ عَلِيمٌ ﴾ لا ينالون شأوه .

قال المولى المحقق شيخ الإسلام قدس سره في بيان ربط الآية بما قبل : إنه إن جعل الكيد عبارة عن إرشاد الإخوة إلى الإفتاء وحملهم عليه أو عبارة عن ذلك مع مباديه المؤديه إليه فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتبر فيه بالشرطية أو الشطرية من إرشاده عليه السلام إلى ما يتم من قبله من المبادىء المفضية إلى استبقاء أخيه ، والمعنى أرشدنا إخوته إلى الإفتاء لأنه لم يكن متمكناً من غرضه بدونه أو أرشدنا كلاًّ منهم ومن يوسف وأصحابه إلى ما صدر عنهم ولم نكتف بما تم من قبل يوسف لأنه لم يكن متمكناً من غرضه بمجرد ذلك .

(128/400)

وحينئذٍ يكون قوله تعالى : ﴿ نَرْفَعُ ﴾ إلى ﴿ عَلِيمٌ ﴾ توضيحاً لذلك على معنى أن الرفع المذكور لا يوجب تمام مرامه إذ ليس ذلك بحيث لا يغيب عن علمه شيء بل إنما نرفع كل من نرفع حسب استعداد وفوق كل واحد منهم عليم لا يقادر قدره يرفع كلاًّ منهم إلى ما يليق به من معارج العلم وقد رفع يوسف إلى ذلك وعلم أن ما حواه دائرة علمه لا يفي بمرامه

فأرشد إخوته إلى الإفتاء المذكور فكان ما كان وكأنه عليه السلام لم يكن على يقين من صدوره ذلك منهم وإن كان على طمع منه فإن ذلك إلى الله تعالى شأنه وجوداً وعدماً ، والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية ، وفي صيغة المبالغة مع التنكير والالتفات إلى الغيبة من الدلالة على فخامة شأنه عز شأنه وجلالة مقدار علمه المحيط جل جلاله ما لا يخفى .

(129/400)

وإن جعل عبارة عن التعليم المستتبع للإفتاء فالرفع عبارة عن ذلك التعليم ، والإفتاء وإن كان لم يكن داخلاً تحت قدرته عليه السلام لكنه كان داخلاً تحت علمه بواسطة الوحي والتعليم ، والمعنى مثل ذلك التعليم البالغ إلى هذا الحد علمناه ولم نقتصر على تعليم ما عدا الإفتاء الذي سيصدر عن إخوته إذ لم يكن متمكناً من غرضه في أخيه إلا بذلك ، وحينئذٍ يكون قوله تعالى : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ توضيحاً لقوله سبحانه : ﴿ كِدْنَا ﴾ وبياناً لأن ذلك من باب الرفع إلى الدرجات العالية من العلم ومدحاً ليوسف عليه السلام برفعه إليها ﴿ وَفَوْقَ ﴾ الخ تذييلاً له أي نرفع درجات عالية من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو أعلى درجة ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : فوق كل عالم عالم إلى أن

ينتهي العلم إلى الله تعالى ، والمعنى أن إخوة يوسف كانوا علماء إلا أن يوسف أفضل منهم اه والذي اختاره الزمخشري على ما قيل حديث التذييل إلا أنه أوجز في كلامه حتى خفي مغزاه وعد ذلك من المداحض حيث قال : وفوق كل ذي علم عليم فوقه أرفع درجة منه في علمه أو فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم وهو الله عز وعلا ، وبيان ذلك على ما في "الكشف" أن غرضه أن يبين وجه التذييل بهذه الجملة فأفاد أنه إما على وجه التأكيد لرفع درجة يوسف عليه السلام على إخوته في العلم أي فاقهم علماً لأن فوق كل ذي علم عليم أرفع درجة منه ، وفيه مدح له بأن الذين فاقهم علماء أيضاً وإما على تحقيق أن الله تعالى رفعه درجات وهو إليه لا منازع له فيه فقال : وفوق العلماء كلهم عليم هم دونه يرفع من يشاء يقربه إليه بالعلم كما رفع يوسف عليه السلام ، وذكر أن ما يقال : من أن الكل على الثاني مجموعي وعلى الأول بمعنى كل واحد كلام غير محصل لأن الداخل على النكرة لا يكون مجموعياً ، وأصل النكتة في الترديد أنه لو نظر إلى العلم ولا تناهيه كان الأول فيرتقي إلى ما لا نهاية لعلمه بل جل

عن النهاية من كل الوجوه، ولا بد من تخصيص في لفظ ﴿كُلِّ﴾ والمعنى وفوق كل واحد من العلماء عالم وهكذا إلى أن ينتهي، ولو نظر إلى العالم وإفادته إياه كان الثاني، والمعنى وفوق كل واحد واحد عالم واحد فأولى أن يكون فوق كلهم لأن الثاني معلول الأول، ولظهور المعنى عليه قدر وفوق العلماء كلهم وكلا الوجهين يناسب المقام اه.

ولعل اعتبار كون الجملة الأولى مدحاً ليوسف عليه السلام وتعظيماً لشأن الكيد وكون الثانية تذييلاً هو الأظهر فتأمل.

وقد استدل بالآية من ذهب إلى أنه تعالى شأنه عالم بذاته لا بصفة علم زائدة على ذلك، وحاصل استدلالهم أنه لو كان له سبحانه صفة علم زائدة على ذاته كان ذا علم لاتصافه به وكل ذي علم فوق عليم للآية فيلزم أن يكون فوقه وأعلم منه جل وعلا عليم آخر وهو من البطلان بمكان.

وأجيب بأن المراد بكل ذي علم المخلوقات ذوو العلم لأن الكلام في الخلق ولأن العليم صيغة مبالغة معناه أعلم من كل ذي علم فيتعين أن يكون المراد به الله تعالى فما يقابله يلزم كونه من الخلائق لئلا يدخل فيما يقابله، وكون المراد من العليم ذلك هو إحدى روايتين عن الحبر، فقد أخرج عبد الرزاق.

وجماعة عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فحدث بحديث فقال رجل عنده: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فقال ابن عباس: بئسما قلت

الله العليم وهو فوق كل عالم ، وإلى ذلك ذهب الضحاك ، فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنه قال بعد أن تلا الآية يعني الله تعالى بذلك نفسه ، على أنه لو صح ما ذكره المستدل لم يكن الله تعالى عالماً بناءاً على أن الظاهر اتفاقه معنا في صحة قولنا فوق كل العلماء عليم ، وذلك أنه يلزم على تسليم دليله إذا كان الله تعالى عالماً أن يكون فوقه من هو أعلم منه ، فإن أجاب بالتخصيص في المثال فالآية مثله .

وقرأ غير واحد من السبعة ﴿ درجاتِ مَّن نَّشَاء ﴾ بالإضافة ، قيل : والقراءة الأولى أنسب بالتذييل حيث نسب فيها الرفع إلى من نسب إليه الفوقية لا إلى درجته والأمر في ذلك هين .

وقرأ يعقوب بالياء في ﴿ يَرْفَعُ ﴾ و ﴿ يَشَاء ﴾ .

وقرأ عيسى البصرة ﴿ نَرْفَعُ ﴾ بالنون و ﴿ درجات ﴾ منوناً و ﴿ مَن يَشَآء ﴾ بالياء ، قال صاحب اللوامح : وهذه قراءة مرغوب عنها ولا يمكن إنكارها .

وقرأ عبد الله الحبر ﴿ وَفَوْقَ كُلّ ذِى عالم عَلِيمٌ ﴾ فخرجت كما في "البحر" على زيادة ذي أو على أن ﴿ عالم ﴾ مصدر بمعنى علم كالباطل أو على أن التقدير كل ذي شخص

عالم ، والذي في "الدر المنثور" أنه رضي الله تعالى عنه قرأ ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ عالم عَلِيمٌ ﴾ بدون ﴿ ذِي ﴾ ولعله إلا ثبت والله تعالى العليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(132/400)

وقال القاسمى :

﴿ فَبَدَأَ ﴾ أي : فتي يوسف : ﴿ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ أي : ففتشها : ﴿ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ أي : بنيامين ، نفياً للتهمة : ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا ﴾ أي : السقاية : ﴿ مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي : دبرنا لتحصيل غرضه : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أي : شرعه وقانونه . والجملة استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه . أي : ما صح له أن يأخذ أخاه في قضاء الملك ، فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق ، لإيصال يوسف إلى أربه ، رحمة منه وفضلاً . وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك ، وإلا لاستبد بما شاء ، وهذا من وفور فطنته وكمال حكمته . ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر (ديناً) لها والآيات في ذلك كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ يعني : أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره ؛ لأن

ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته ، حتى جرى الأمر وفق المراد .

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاءُ ﴾ أي : بالعلم ، كما رفعنا يوسف . وفي إيثار صيغة الاستقبال إشعار بأن ذلك سنة إلهية مستمرة ، غير مختصة بهذه المادة .

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ﴾ أي : من أولئك المرفوعين : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي : فوقه أرفع درجة منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 210 ﴾

(133/400)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾

﴿ بدأ ﴾ أي أمر يوسف عليه السلام بالبداءة بأوعية بقية إخوته قبل وعاء أخيه الشقيق .

وأوعية : جمع وعاء ، وهو الظرف ، .

مشتق من الوعي وهو الحفظ .

والابتداء بأوعية غير أخيه لإبعاد أن يكون الذي يُوجد في وعائه هو المقصود من أول الأمر .

وتأنيث ضمير ﴿ استخرجها ﴾ للسقاية .

وهذا التأنيث في تمام الرشاقة إذ كانت الحقيقة أنها سقاية جعلت صواعاً .

فهو كردّ العجز على الصدر .

والقول في ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ كالقول في ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ [سورة يوسف : 75] .

والكَيْد : فعل يتوصل بظاهره إلى مقصد خفي .

والكيد : هنا هو إلهام يوسف عليه السلام لهذه الحيلة المحكمة في وضع الصواع وتفتيشه وإلهام إخوته إلى ذلك الحكم المُصْمَت .

وأسند الكيد إلى الله لأنه ملهمه فهو مسبّبه .

وجعل الكيد لأجل يوسف عليه السلام لأنه لفائدته .

وجملة ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ﴾ بيان للكيد باعتبار جميع ما فيه من وضع السقاية ومن حكم إخوته على أنفسهم بما يلائم مَرغوب يوسف عليه السلام من إبقاء أخيه عنده ، ولولا ذلك لَما كانت شريعة القبط تخوله ذلك ، فقد قيل : إن شرعهم في جزاء السارق أن يؤخذ منه الشيء ويضرب ويغرم ضعفي المسروق أو ضعفي قيمته .

وعن مجاهد ﴿ في دين الملك ﴾ أي حكمه وهو استرقاق السراق .

وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية لقوله : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ أي لولا حيلة

وضع الصُّواع في متاع أخيه .

ولعل ذلك كان حكماً شائعاً في كثير من الأمم ، ألا ترى إلى قولهم : ﴿ من وجد في رحله فهو جزاؤه ﴾ [سورة يوسف : 75] كما تقدم ، أي أن ملك مصر كان عادلاً فلا يؤخذ أحد في بلاده بغير حق .

ومثله ما كان في شرع الرومان من استرقاق المدين ، فتعين أن المراد بالدّين الشريعة لا مطلق السلطان .

ومعنى لام الجحود هنا نفي أن يكون في نفس الأمر سبب يخول يوسف عليه السلام أخذ أخيه عنده .

والاستثناء من عموم أسباب أخذ أخيه المنفية .

وفي الكلام حرف جر محذوف قبل أن ﴾ المصدرية ، وهو باء السببية التي يدل عليها نفي الأخذ ، أي أسبابه .

فالتقدير : إلا بأن يشاء الله ، أي يُلهم تصوير حالته ويأذن ليوسف عليه السلام في عَمله باعتبار ما فيه من المصالح الجمة ليوسف وإخوته في الحال والاستقبال لهم ولذريتهم .

وجملة ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ تذييل لقصة أخذ يوسف عليه السلام أخاه لأن فيها رفع درجة يوسف عليه السلام في الحال بالتدبير الحكيم من وقت مناجاته أخاه إلى وقت استخراج السقاية من رحله .

ورفع درجة أخيه في الحال بإلحاقه ليوسف عليه السلام في العيش الرفيه والكمال بتلقي الحكمة من فيه .

ورفع درجات إخوته وأبيه في الاستقبال بسبب رفع درجة يوسف عليه السلام وحنوه عليهم .

فالدرجات مستعارة لقوة الشرف من استعارة المحسوس للمعقول .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ في سورة البقرة (228) ، وقوله : ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ في سورة الأنفال (4) .

وجملة وفوق كل ذي علم عليم ﴾ تذييل ثان لجملة ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ الآية .

وفيها شاهد لتفاوت الناس في العلم المؤذن بأن علم الذي خلق لهم العلم لا ينحصر مداه ، وأنه فوق كل نهاية من علم الناس .

والفوقية مجاز في شرف الحال ، لأن الشرف يشبّه بالارتفاع .

وعبر عن جنس المتفوق في العلم بوصف ﴿ عليم ﴾ باعتبار نسبته إلى من هو فوقه إلى أن يبلغ إلى العليم المطلق سبحانه .

وظاهر تنكير ﴿ عليم ﴾ أن يراد به الجنس فيعم كلّ موصوف بقوة العلم إلى أن ينتهي إلى علم الله تعالى .

فعموم هذا الحكم بالنسبة إلى المخلوقات لا إشكال فيه .

ويتعين تخصيص هذا العموم بالنسبة إلى الله تعالى بدليل العقل إذ ليس فوق الله عليم .

(135/400)

وقد يحمل التنكير على الوحدة ويكون المراد عليم واحد فيكون التنكير للوحدة والتعظيم ، وهو الله تعالى فلا يحتاج إلى التخصيص .

وقرأ الجمهور ﴿ درجات من نشاء ﴾ بإضافة ﴿ درجات ﴾ إلى ﴿ من نشاء ﴾ .

وقرأه حمزة ، وعاصم ، والكسائي ، وخلف بتنوين ﴿ درجاتٍ ﴾ على أنه تمييز لتعلق فعل ﴿ نرفع ﴾ بمفعوله وهو ﴿ من نشاء ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(136/400)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾

وكان الهدف من البَدْء بتفتيش أوعيتهم ؛ وهم عشرة ؛ قبل وعاء شقيقه ، كي ينفي احتمال ظنّهم بأنه طلب منهم أن يأتوا بأخيهم معهم ليدبر هو هذا الأمر ، وفتش وعاء شقيقه من بعد ذلك ؛ ليستخرج منه صُوَاع الملك ؛ وليُطبِّق عليه قانون شريعة آل يعقوب ؛ فيستبقي شقيقه معه . وهذا دليل على الذكاء الحكيم .

وهكذا جعل الحق سبحانه الكيد مُحْكماً لصالح يوسف ، وهو الحق القائل :

﴿ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف : 76] .

أي : كان الكيد لصالحه .

ويتابع سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الملك إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [يوسف : 76] .

أي : ما كان يوسف ليأخذ أخاه في دين الملك الذي يحكم مصر ؛ لولا فتوى الإخوة بأن شريعتهم تحكم بذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 76] .

وهكذا رفع الله من شأن يوسف ، وكَادَ له ، وحقّق له أمله ، وهو يستحق كل ذلك ؛ ورفعه

سبحانه درجاتٍ عالية من العلم والحكمة .

ولم يكُنْ الكيد بسبب أن يُنزِل بشقيقه عذاباً أو ضياعاً ، بل نريد ليوسف ولأخيه الرِّفْعة ، فكأن كثيراً من المصائب تحدث للناس ، وهم لا يَدْرون ما في المحنة من المِنَح .

وعلى المؤمن أن يعلم أن أيَّ أمر صعب يقع عليه من غير رأي منه ؛ لا بُدَّ وأن يشعر أن فيه من الله نفعاً للإنسان .

وإخوة يوسف سبق أنْ كَادوا له ، فماذا كانت نتيجة كَيْدهم ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يجعل الكيد كله لصالح يوسف ، وجعله سبحانه ذا علم ، فقال :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 76] .

و(ذي علم) أي : صاحب علم . وكلاهما مُنْفِصل ، أي : هناك " صاحب " ، وهناك " علم " ، والصاحب يوجد أولاً ؛ وبعد ذلك يطرأ عليه العلم ؛ فيصير صاحبَ عِلْم ، ولكن فوقه :

﴿ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 76] .

أي : أن العلم ذاتيّ فيه ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فماذا كان موقف أخوة يوسف ؟

بطبيعة الحال لابد أنهم قد بُهِتوا ، أول تصرف منهم كان لا بُدَّ أن ينصرف إلى الأخ الذي وُجدت السقاية في رَحْله ؛ وأخذوا يُوبِّخونه ؛ لأنه أحرجهم وفضحهم ، وبحثوا عن أسباب عندهم للحفيظة عليه ؛ لا للرفق به .

وموقفهم المُسْبق منه معروف في قولهم : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف : 8] .

وهم يعلمون أن يوسف وأخاه من امرأة أخرى هي " راحيل " ، ولو كان شقيقاً لهم لَتَلَطَّفوا به . وأوضح لهم : إن مَنْ جعل البضاعة في رِحَالي هو مَنْ جعل البضاعة في رِحالكم .

وهنا قال أحد الأخوة : تالله ، يا أبناء راحيل ، ما أكثر ما نزل علينا من البلاء منكم ، فَرَدَّ بنيامين : بنو راحيل نزل عليهم من البلاء منكم فوق ما نزل عليكم من البلاء منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ آوى إليه أخاه ﴾ قال : ضمه إليه وأنزله معه . وفي قوله ﴿ فلا تبتئس ﴾ قال : لا تحزن ولا تيأس . وفي قوله ﴿ فلما جهزهم بجهازهم ﴾ قال : لما قضى حاجتهم وكال لهم طعامهم . وفي قوله ﴿ جعل السقاية ﴾ قال : هو إناء الملك الذي يشرب منه ﴿ في رحل أخيه ﴾ قال : في متاع أخيه .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ جعل السقاية ﴾ قال : هو الصواع ، وكل شيء يشرب منه فهو صواع .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري ، عن مجاهد - رضي الله عنه - قال : السقاية والصواع شيء واحد ، يشرب منه يوسف .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة - رضي الله عنه - قال : السقاية ، هو الصواع . وكان كأساً من ذهب على ما يذكرون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿

أيتها العير ﴾ قال : كانت العير حميراً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري وأبو الشيخ وابن منده في غرائب شعبة ، وابن مردويه والضياء ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ صواع الملك ﴾ قال : شيء يشبه المكوك من فضة ، كانوا يشربون فيه .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء والطستي ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن نافع بن الأزرق قال لهك أخبرني عن قوله ﴿ صواع الملك ﴾ قال : الصواع ، الكأس الذي يشرب فيه . قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم . أما سمعت الأعشى وهو يقول :

له درمك في رأسه ومشارب . . . وقدر وطباخ وصاع وديسق

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ صواع الملك ﴾ قال : هو المكوك الذي يلتقي طرفاه ، كانت تشرب فيه الأعاجم .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ صواع الملك ﴾ قال : كان من فضة .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ صواع الملك ﴾ قال: كان من نحاس.

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر، عن سعيد بن جبير – رضي الله عنه – أنه كان يقرأ ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ بضم الصاد مع الألف.

وأخرج سعيد بن منصور وابن الأنباري، عن أبي هريرة. رضي الله عنه – أنه كان يقرأ " صاع الملك ".

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرؤها " صوغ الملك " بالغين المعجمة.

قال: كان صيغ من ذهب أو فضة، سقايته التي كان يشرب فيها.

وأخرج ابن الأنباري، عن أبي رجاء – رضي الله عنه – أنه قرأ ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ بعين غير معجمة، وصاد مفتوحة.

وأخرج عن عبد الله بن عون – رضي الله عنه – أنه كان يقرأ " صوع الملك " بصاد مضمومة.

وأخرج عن سعيد بن جبير – رضي الله عنه – أنه كان يقرأ " صياع الملك ".

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ قال: حمل حمار طعام، وهي لغة.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ حمل بعير ﴾ وقر بعير .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ وأنا به زعيم ﴾ قال كفيل .

وأخرج ابن جرير ، عن سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وأنا به زعيم ﴾ قال : الزعيم ، هو المؤذن الذي قال ﴿ أيتها العير ﴾ .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ وأنا به زعيم ﴾ ما الزعيم ؟ . . . . قال : الكفيل .

قال فيه فروة بن مسيك :

اكون زعيمكم في كل عام . . . بجيش جحفل لجب لهام

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن الربيع بن أنس - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ما جئنا لنفسد في الأرض ﴾ يقول : ما جئنا لنعصي في الأرض .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ قالوا فما جزاؤه ﴾ قال : عرفوا الحكم في حكمهم فقالوا ﴿ جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ﴾ وكان الحكم عند الأنبياء ! يعقوب وبنيه عليهم السلام ، أن يؤخذ السارق بسرقته عبداً يسترق .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن الكلبي - رضي الله عنه - قال : أخبروه بما يحكم في بلادهم ، أنه من سرق أخذ عبداً . فقالوا ﴿ جزاؤه من وجد في رحله ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ فبدأ بأوعيتهم ﴾ الآية . قال : ذكر لنا أنه كان كلما فتح متاع رجل ، استغفر تأثماً مما صنع ، حتى بقي متاع الغلام ، قال : ما أظن أن هذا أخذ شيئاً . قالوا : بلى ، فاستبره .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ قال : كذلك صنعنا ليوسف ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ يقول : في سلطان الملك .

قال : كان في دين ملكهم أنه من سرق أخذت منه السرقة ومثلها معها من ماله ، فيعطيه المسروق .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ يقول : في سلطان الملك .

وأخرج ابن جرير ، عن محمد بن كعب القرظي – رضي الله عنه – في الآية . قال : دين الملك لا يؤخذ به من سرق أصلاً ، ولكن الله تعالى كاد لأخيه ، حتى تكلموا بما تكلموا به فآخذهم بقولهم ، وليس في قضاء الملك .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ قال : لم يكن ذلك في دين الملك أن يأخذ من سرق عبداً .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن الكلبي – رضي الله عنه – قال : كان حكم الملك ، أن من سرق ضاعف عليه الغرم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ قال : إلا بعلة ، كادها الله ليوسف عليه السلام ، فاعتل بها .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق مالك بن أنس - رضي الله عنه - قال: سمعت زيد بن أسلم - رضي الله عنه - يقول في هذه الآية ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ قال: بالعلم. يرفع الله به من يشاء في الدنيا.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ، عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ قال: يوسف واخوته، اوتوا علماً. فرفعنا يوسف فوقهم في العلم درجة.

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم.

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات، عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - قال: كنا عند ابن عباس - رضي الله عنهما - فحدث بحديث، فقال رجل عنده ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - بئس ما قلت؛ الله العليم الخبير هو فوق كل عالم.

وأخرج ابن جرير ، عن محمد بن كعب – رضي الله عنه – قال : سأل رجل علياً – رضي الله عنه – عن مسألة ، فقال فيها .

فقال الرجل : ليس هكذا ، ولكن كذا وكذا ، قال علي – رضي الله عنه – : أحسنت وأخطأت ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن عكرمة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ قال : علم الله فوق كل عالم .

وأخرج ابن جرير ، عن سعيد بن جبير – رضي الله عنه – ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ قال الله أعلم من كل أحد .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن الحسن في الآية قال : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله . منه بدأ وإليه يعود . وفي قراءة عبد الله " وفوق كل عالم عليم " .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد وأبو الشيخ ، عن ابن جريج في قوله ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ قالا : هو ذلك أيضاً ، يوسف واخوته هو فوقهم في العلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾

وقرأ العامَّة : " وِعاء " بكسر الواو ، وقرأ الحسن بضمها ، وهي لغة نُقِلَتْ عن نافع أيضاً .

وقرأ سعيد بن جبير " مِنْ إعاء " بإبدالِ الواوِ همزةً ، وهي لغة هُذَيْلية : يُبْدِلون من الواو المكسورة أولَ الكلمة همزة فيقولون : إشاح وإسادة وإعاء في : وِشاحٍ ووِسادة ووِعاء .

وقد تقدَّم ذلك في الجلالةِ المعظمة أولَ هذا الموضع .

قوله : ﴿ ثُمَّ استخرجها ﴾ في الضمير المنصوب قولان ، أحدهما : أنه عائدٌ على الصُّواع ، لأنَّ فيه التذكيرَ والتأنيثَ كما تقدم . وقيل : بل لأنه حُمِل على معنى السقاية . وقال أبو عبيد : " يؤنَّث الصُّواع من حيث يُسَمَّى " سقاية " ، ويُذَكَّر من حيث هو صُواع " . قالوا : وكأنَّ أبا عبيد لم يَحْفظْ في الصُّواع التأنيثَ . وقال الزمخشري : " قالوا : رَجَع بالتأنيث على السِّقاية " ثم قال : " ولعل يوسف كان يُسَمِّيه " سِقاية " وعبيدُهُ " صُواعاً " فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية ، وفيما يتصل بهم صواع " . قلت : هذا الأخيرُ حَسَنٌ .

الثاني : أن الضميرَ عائدٌ على السَّرِقة . وفيه نظر ؛ لأن السِّرقة لا تُسْتخرج ، إلا بمجازٍ .

قوله : ﴿ كذلك كِدْنَا ﴾ الكلامُ في الكاف كالكلام فيما قبلها أي : مثلَ ذلك الكَيْدِ العظيم كِدْنا ليوسُفَ أي : عَلَّمْناه إياه . وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ ﴾ تفسيرٌ للكيد وبيان له ، وذلك أنه كان في دِينِ مَلِك مِصْرَ أن يُغَرَّمَ السارقُ مِثْلَيْ ما أَخَذَ ، لا أنه يُلْزَمُ ويُسْتَعْبَدُ .

(144/400)

قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ فيه وجهان أحدهما : أنه استثناءٌ منقطعٌ تقديرُه : ولكن بمشيئة اللَّه أَخَذَه في دين غيرِ الملك ، وهو دينُ آلِ/ يعقوب : أن الاسترقاقَ جزاءُ السارق .

الثاني : أنه مفرغٌ من الأحوال العامة ، والتقدير : ما كان ليأخذَه في كل حال إلا في حال التباسِه بمشيئة اللَّه أي إذنه في ذلك . وكلامُ ابنِ عطية مُحْتَمِلٌ فإنه قال : " والاستثناء حكاية حال ، التقدير : إلا أن يَشاء اللَّه ما وقع من هذه الحيلة " .

وتقدَّم القراءتان في ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [الآية : 83] في الأنعام . وقرأ يعقوب بالياء مِنْ تحت في " يرفع " و " يشاء " ، والفاعل اللَّه تعالى : وقرأ عيسى البصرة " نَرْفَع " بالنون " درجات " منونة ، " يشاء " بالياء . قال صاحب " اللوامح " : " وهذه قراءةٌ مرغوبٌ عنها تلاوةً وجملة ، وإن لم يمكنْ إنكارُها " قلت : وتوجيهُها : أنه التفتَ في قولِه "

يشاء " من التكلم إلى الغَيْبة ، والمرادُ واحد .

قوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قرأ عبد اللَّه بن مسعود " وفوق كل ذي عالم " وفيها ثلاثةُ أُوجه ، أحدها : أن يكون " عالم " هنا مصدراً ، قالوا : مثل " الباطل " فإنه مصدرٌ فهي كالقراءة المشهورة . الثاني : أنَّ ثَمَّ مضافاً محذوفاً تقديرُه : وفوق كلِّ ذي مُسَمَّى عالم ، كقول لبيد :

2812 إلى الحَوْلِ ثم اسمِ السَّلامِ عليكما . . . .

أي : مُسَمَّى السلام . الثالث : أنَّ " ذو " زائدة ، كقول الكميت :

2813 إليكم ذوي آلِ النبيِّ . . . .

البيت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 532 . 535 ﴾

(145/400)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الملك ائتونى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾

يعني : أجعله في خاصة نفسي .

فلما خرج يوسف من السجن ، ودّع أهل السجن ، ودعا لهم ، وقال : اللهم اعطف قلوب الصالحين عليهم ، ولا تستر الأخبار عنهم .

فمن ثمة تقع الأخبار عند أهل السجن ، قبل أن تقع عند عامة الناس .

ولما دخل يوسف على الملك وكان الملك ، يتكلم سبعين لساناً ، فأجابه يوسف بذلك كله .

ثم تكلم يوسف بالعبرانية ، فلم يحسنها الملك ، فقال : ما هذا اللسان يا يوسف ؟ قال : هذا لسان آبائي إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب عليهم السلام .

ثم كلمه بالعربية ، فلم يحسنها الملك .

فقال : ما هذا اللسان ؟ فقال : لسان عمي إسماعيل ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي : قال له الملك ﴿ مَكِينٍ ﴾ في المنزلة ﴿ أَمِينٌ ﴾ على ما وكلتك .

قَالَ له يوسف عليه السلام : ﴿ اجعلنى على خَزَائِنِ الأرض ﴾ يعني : على خراج مصر ﴿ إِنّى حَفِيظٌ ﴾ للتدبير .

ويقال : ﴿ حَفِيظٌ ﴾ بما وكلت به ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بجميع الألسن .

ويقال : عليم بأخذها ، ووضعها مواضعها .

وإنما سأل ذلك صلاحاً للخلق ، لأنه علم أنه ليس أحد يقوم بإصلاح ذلك الأمر مثله .

ويقال: ﴿ حَفِيظٌ ﴾ يعني: عليماً بساعة الجوع.

وكان الملك يأكل في كل يوم نصف النهار.

فلما كانت الليلة التي قضى الله بالقحط، أمر يوسف بأن يتخذ طعام الملك بالليل.

فلما أصبح الملك، قال: الجوع الجوع.

فأتي بطعام مهيىء.

قال: وما يدريكم بذلك؟ قالوا: أمرنا بذلك يوسف.

ففوض الملك أموره كلها إلى يوسف، وهو قوله تعالى: ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ يعني: صنعنا ليوسف ﴿ فِى الأرض ﴾ يعني: أرض مصر ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا ﴾ يعني: ينزل منها ﴿ حَيْثُ يَشَاء ﴾.

قرأ ابن كثير ﴿ حَيْثُ نَشَاء ﴾ بالنون يعني: حيث يشاء الله.

وقرأ الباقون: بالياء ﴿ حَيْثُ يَشَاء ﴾ يوسف ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء ﴾ نختص بنعمتنا، النبوة، والإسلام، والنجاة من نشاء ﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ يعني: لا نبطل ثواب الموحدين، حتى نوفيه جزاءه في الدنيا، ومع ذلك له ثواب في الآخرة، فذلك

قوله تعالى : ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ يعني : ثواب الآخرة أفضل مما أعطي في الدنيا ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي : صدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الشرك .

وروي في الخبر ، أن زوج زليخا مات .

وبقيت امرأته زليخا .

فجلست يوماً على الطريق ، فمر عليها يوسف في حشمه .

فقالت زليخا : الحمد لله الذي جعل العبد ملكاً بطاعته ، وجعل الملك مملوكاً بشهوته ، وتزوجها يوسف فوجدها عذراء ، وأخبرت أن زوجها كان عنيناً ، لم يصل إليها .

ثم وقع القحط بالناس حتى أكلوا جميع ما في أيديهم ، واحتاجوا إلى ما عند يوسف .

وقد كان يوسف جمع في وقت الخصب ، مقدار ما يكفي السنين المجدبة للأكل والبيع ، فجعل الناس يعطونه أموالهم ، العروض ، والرقيق ، والعقار ، وغير ذلك .

ويأخذون منه الطعام .

ووقع القحط بأرض كنعان ، حتى أصاب آل يعقوب الحاجة إلى الطعام .

فقال يعقوب لبنيه : إنهم يزعمون أن بمصر ملكاً يبيع الطعام ، فخرج بنو يعقوب وهم عشرة نحو مصر ، حتى أتوا يوسف فدخلوا عليه ، وعليه زي الملك فلم يعرفوه ، وعرفهم يوسف وكلموه بالعبرانية ، فأرسل يوسف إلى الترجمان ، وهو يعلم لسانهم .

ولكنه أراد أن يشتبه عليهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ

فَعَرَفَهُمْ ﴾ يعني : عرف يوسف أنهم إخوته ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ يعني : لم يعرفوا أنه يوسف .

لأنهم رأوه في حال الصغر ، وكان يوسف على زي الملوك ، بخلاف ما كانوا رأوه في الصغر .

روى أسباط عن السدي وغيره ، قال : استعمله الملك على مصر ، وكان صاحب أمره الذي يلي البيع والتجارة .

فبعث يعقوب بنيه إلى مصر فلما دخلوا على يوسف ، عرفهم .

فلما نظر إليهم ، قال : أخبروني ما أمركم ؟ فإني أنكر شأنكم .

قالوا : نحن قوم من أرض الشام .

قال : فما جاءكم ؟ قالوا : جئنا نمتار طعاماً .

قال : كأنكم عيون .

كم أنتم ؟ قالوا : عشرة .

قال : أنتم عشرة آلاف .

كل رجل منكم أمير ألف .

فأخبروني خبركم .

قالوا : إنا إخوة بنو رجل ، صديق ، وإنا كنا اثني عشر ، فكان أبونا يحب أخاً لنا ، وهو هلك في الغنم ، ووجدنا قميصه ملطخاً بالدم ، فأتينا به أبانا ، فكان أحبنا إلى أبينا منا .

قال : فإلى من سكن منكم أبوكم بعده ؟ قالوا : إلى أخ له أصغر منه .

قال : فكيف تخبروني أنه صديق ، وهو يختار الصغير منكم دون الكبير ؟ وكيف تخبروني أنه هلك ، وبقي قميصه ؟ فلو : كان اللصوص قتلوه ، لأخذوا قميصه ، ولو كان الذئب أكله ، لمزق قميصه .

فأرى كلامكم متناقضاً .

احبسوهم .

ثم قال : إن كنتم صادقين في مقالتكم ، فخلفوا عندي بعضكم ، واتوني بأخيكم هذا حتى أنظر إليه ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ قالوا : اختر أينا شئت ، فارتهن شمعون ، ثم أمر بوفاء كيلهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ يعني : كال لهم كيلهم ، وأعطى كل واحد منهم حمل بعير ، ثم ﴿ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الكيل وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين ﴾ يعني : أفضل من يضيف ، ويكرم الذي نزل به ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ ﴾ أي : بالأخ ﴿ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى ﴾ فيما تستقبلون ﴿

وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ يعني : ولا تستقبلوا إليّ مرة أخرى ، فإني لا أعطي لكم الطعام .

قال الزجاج : القراءة بالكسر يعني : بكسر النون وهو الوجه .

(148/400)

ويجوز ﴿ وَلَا تَقْرَبُونَ ﴾ بفتح النون ، لأنها نون الجماعة كما قال : ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى على أَن مَّسَّنِىَ الكبر فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر : 54] بفتح النون .

قال : ويكون ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ لفظه لفظ الخبر ، ومعناه : النهي .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سنراود عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ يعني : سنطلب من أبيه أن يبعثه معنا ﴿ وَإِنَّا لفاعلون ﴾ يعني : لصانعون ذلك فنطلبه من أبيه ليبعثه ويقال : وإنا لضامنون ذلك ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، في رواية حفص ﴿ لِفِتْيَانِهِ ﴾ بالألف والنون وقرأ الباقون ﴿ لِفِتْيَتِهِ ﴾ .

فقال أهل اللغة : الفتيان والفتية بمعنى واحد ، وهم الغلمان والخدم .

يعني : قال يوسف لغلمانه وقومه الذين يكيلون يعني الطعام ﴿ واجعلوا بضاعتهم فِى رِحَالِهِمْ ﴾ يعني : دسوا دراهمهم في رحالهم .

يعني : في جواليقهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ يعني : يعرفون كرامتي عليهم ﴿ إِذَا انقلبوا ﴾

يعني : إذا رجعوا ﴿ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الثانية .

قال الفراء : فيها قولان .

أحدهما أن يوسف خاف ألا يكون عند أبيهم دراهم ، فجعل البضاعة في رحالهم ، لعلهم يرجعون ، ولا يتأخرون عن الرجوع بسبب الدراهم .

والقول الآخر : أنهم إذا عرفوا بضاعتهم ، وقد اكتالوا الطعام ، ردوها عليه ، ولا يستحلون إمساكها ، لأنهم أنبياء الله تعالى ، لا يستحلون إمساك مال الغير ﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ فيما نستقبل يعني : الحنطة ، وأخبروه بالقصة .

قالوا : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا ﴾ بنيامين ﴿ نَكْتَلْ ﴾ يعني : يشتري هو ، ويكيلون لنا ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من الضيعة حتى نرده إليك .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ يَكْتَلْ ﴾ بالياء .

وقرأ الباقون بالنون .

(149/400)

فمن قرأ بالياء ، يعني : هو يكتال لنفسه ، لأنهم كانوا لا يبيعون من كل رجل إلا وقراً واحداً .

ومن قرأ بالنون ، فمعناه : أن الملك قد أخبر أنه لا كيل لنا في المستقبل .

فلو أرسلته معنا ، فإنا نكتال منه ، فلما أخبروه بذلك ﴿ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿ هَلْ امَنُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ يعني : هل أئتمنكم عليه ﴿ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ ﴾ يوسف ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ومعناه : هكذا قلتم لي في أمر يوسف ، ولا أقدر أن آخذ عليكم من العهد أكثر ما أخذت عليكم في يوسف من قبل .

قرأ ابن مسعود : هل تحفظونه إلا كما حفظتم أخاه يوسف من قبل ﴿ فاللهُ خَيْرٌ حافظا ﴾ منكم إن أرسله معكم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ حين أطعته ولا بد أن أرسله قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ حافظا ﴾ بالألف .

وقرأ الباقون ﴿ حافظا ﴾ بغير ألف ، والحافظ الاسم ، والحفظ : المصدر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ متاعهم ﴾ يعني : أوعيتهم وجواليقهم ﴿ وَجَدُواْ بضاعتهم ﴾ يعني : دراهمهم ﴿ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ ﴾ لأبيهم ﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى ﴾ يعني : ما نكذب .

إنه ألطف علينا وأكرمنا ﴿ هذه بضاعتنا ﴾ أي : دراهمنا ﴿ رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ يعني : نمتار لأهلنا .

يقال : مار أهله ، وأمار لأهله ، إذا حمل إليهم قوتهم من غير بلده .

يعني : ابعثه معنا ، لكي نحمل الطعام لأهلنا ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ من الضيعة ﴿ وَنَزْدَادُ

﴿ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أي : حمل بعير من أجله .

روى الأعمش عن إبراهيم ، عن علقمة ، أنه كان يقرأ ﴿ رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ بكسر الراء ، لأن أصله رددت .

فأدغمت إحدى الدالين بالأخرى ، ونقل الكسر إلى الراء وهي قراءة شاذة .

ثم قال : ﴿ ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ يعني : سريع ، لا حبس فيه إن أرسلته معناه ويقال : ذلك أمر هين الذي نسأل منك .

﴿ وَقَالَ ﴾ لهم يعقوب ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ ﴾ يعني : تعطوني عهداً وثيقاً من الله ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ قال الكلبي : إلا أن ينزل بكم أمر من السماء ، أو من الأرض .

وروى معمر عن قتادة أنه قال : إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك .

وقال مجاهد : ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ يعني : تهلكوا جميعاً .

وقال الفراء : إلا أن يأتيكم من أمر الله تعالى ما يعذركم .

﴿ فَلَمَّا ءاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ يعني : أعطوه عهودهم ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب ﴿ اللهُ على مَا نَقُولُ

وَكِيلٌ ﴾ يعني : كفيلاً .

ويقال : شهيداً .

ثم : ﴿ قَالَ يَا ءادَمُ بَنِى لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ قال يعقوب لبنيه ، حين أرادوا الخروج : يا بني لا تدخلوا من باب واحد .

يعني : إذا دخلتم مصر ، فلا تدخلوا من سكة واحدة ، ومن طريق واحد ؛ ويقال : من درب واحد ﴿ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ يعني : من سكك متفرقة ، ومن طرق شتى .

لكي لا يظن بكم أحد ، أنكم جواسيس .

ويقال : خاف يعقوب عليهم العين لجمالهم ، وقوتهم ، وهم كلهم بنو رجل واحد .

فإن قيل : أليس هذا بمنزلة الطيرة ، وقد نهي عن الطيرة قيل له : لا .

ولكن أمر العين حق .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرقي من العين ، ويتعوذ منها للحسن والحسين .

ثم قال : ﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ مّنَ الله ﴾ يعني : من قضاء الله ﴿ مِن شَىْء إِنِ الحكم ﴾ يعني : ما القضاء ﴿ أَلاَ لِلَّهِ ﴾ إن شاء أصابكم العين ، وإن شاء لم يصبكم .

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ يعني : فوضت أمري ، وأمركم إليه ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾

يعني : فليثق الواثقون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ من السكك المتفرقة ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُمْ مِّنَ اللهِ مِن شَىْءٍ ﴾ يعني : حذرهم لا يغني من قضاء الله من شيء .

يعني : إن العين لو قدرت أن تصيبهم ، لأصابتهم وهم متفرقون ، كما تصيبهم وهم مجتمعون ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ ﴾ يعني : حزازة في قلبه ، وهي الحزن ﴿ قَضَاهَا ﴾ يعني : أبداها ، وتكلم بها .

ويقال : معناه لكن لحاجة في نفس يعقوب قضاها ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ يعني : علم يعقوب أنه لا يصيبهم إلا ما أراد الله تعالى ، وقدر عليهم .

وعلم أن دخولهم في سكك متفرقة ، لا ينفعهم من قضاء الله تعالى من شيء .

ويقال : معناه أنه عالم بما علمناه .

ويقال : ﴿ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي : لتعليمنا إياه .

ويقال : لذو حظ لما علمناه .

ثم قال : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا يصيبهم إلا ما قدر الله تعالى عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ علىٰ يُوسُفَ ﴾ يعني : إخوته ﴿ اوىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ يعني : ضمّ إليه أخاه بنيامين ﴿ قَالَ إِنِّى أَنَاْ أَخُوكَ ﴾ قال بعضهم : أخبره في السر أنه أخوه .

وقال بعضهم : لم يخبره .

ولكن معناها : إني لك كأخيك الهالك .

فأنزلهم يوسف منزلاً ، وأجرى عليهم الطعام والشراب ، فلما كان الليل أتاهم بالفرش ،

وقال : لينام كل أخوين منكم على فراش واحد .

ففعلوا .

وبقي الغلام وحده فقال يوسف : هذا ينام معي على فراشي .

فبات معه يوسف ، يشم ريحه .

ويقال : لما كان عند الطعام ، أمر كل اثنين ليأكلا في قصعة واحدة ، وبقي بنيامين وحده ، فبكى وقال : لو كان أخي في الأحياء ، لأكلت معه .

فقال له يوسف : إني أنا أخوك ، يعني : بمنزلة أخيك ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يقول : لا تحزن بما يعيرون يوسف ، وأخاه بشيء .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ يعني : كال لهم كيلهم ﴿ جَعَلَ السقاية ﴾ يعني : وضع ودس الإناء ﴿ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ بنيامين ، فخرجوا ، وحملوا الطعام ، وذهبوا .

فخرج يوسف على أثرهم، حتى أدركهم ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ يعني: نادى منادٍ بينهم، واسم المنادي أفرايم من فتيان يوسف.

قال: ﴿ أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ إناء الملك، فانقطعت ظهورهم، وساء ظنهم.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني: وأقبلوا إليهم ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ يعني: ماذا تطلبون ﴿ قَالُواْ ﴾ يعني: قال النادي والغلمان ﴿ نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ ﴾ قال قتادة: إناء الملك الذي يشرب فيه.

وقال عكرمة: هو إناء من فضة.

وقال سعيد بن جبير: هو المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه، وكانت الأعاجم تشرب فيه.

وروى سعيد بن حبير، عن ابن عباس أنه قال: كان إناء من فضة مثل المكوك، وكان للعباس واحد منها في الجاهلية.

وروي عن أبي هريرة أنه قرأ: ﴿ وَقَالَ المَلِك ﴾ يعني: الصاع الذي يكال به الحنطة.

وقرأ بعضهم: ﴿ وَقَالَ المَلِك ﴾.

وقرأ يحيى بن عمرو ﴿ وَقَالَ المَلِك ﴾ بالغين.

يعني: إناء مصوغاً.

وقراءة العامة ﴿ صُوَاعَ الملك ﴾ يعني : الإناء وهي المشربة من فضة .

وكان الشرب في إناء الفضة مباحاً في الشريعة الأولى .

وأما في شريعتنا ، فالشراب في إناء الفضة حرام .

ثم قال : ﴿ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ يعني : قال المنادي : من جاء بالصوع ، فله حمل بعير من بر ، ﴿ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ يعني : أنا كفيل بتسليمها إليه ، لأن الملك يتهمني في ذلك .

﴿ قَالُواْ تَاللهِ ﴾ يعني : قال إخوة يوسف والله ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الأرض ﴾ يعني : ما جئنا لنعمل بالمعاصي في أرض مصر ، ونخون أحداً .

(153/400)

﴿ وَمَا كُنَّا سارقين ﴾ وكان الحكم في أرض مصر للسارق الضرب والتضمين ، وكان الحكم بأرض كنعان ، أنهم يأخذون السارق ، ويسترقونه ، ففوضوا الحكم إلى بني يعقوب ، ليحكموا بحكم بلادهم ﴿ قَالُواْ ﴾ يعني : المؤذن وأصحابه لأولاد يعقوب ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ يعني : فما جزاء السارق ﴿ إِن كُنتُمْ كاذبين قَالُواْ ﴾ يعني : إخوة يوسف ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ يعني : عقابه ﴿ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ ﴾ يعني : في وعائه ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ يعني : الاستعباد جزاء سرقته ﴿ كذلك نَجْزِى الظالمين ﴾ يعني : هكذا نعاقب السارق في

سنة آل يعقوب .

﴿ فَبَدَأَ ﴾ يعني : المنادي ، ويقال : يوسف ﴿ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ يعني : أوعية إخوته ، وطلب في أوعيتهم ﴿ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ فلم يجد فيها .

وروى معمر عن قتادة أنه قال : كلما فتح متاع رجل ، استغفر الله تائباً مما صنع ، حتى بقي متاع الغلام ، فقال : ما أظن هذا أخذ شيئاً ، قالوا : بلى ، فاستبرأه ، فطلب ، فوجد فيه ، فاستخرجها من وعاء أخيه ، فلما استخرجت من رحله ، انقطعت ظهور القوم ، وتحيروا ، وقالوا : يا بنيامين لا يزال لنا منكم بلاءً ما لقينا من ابني راحيل .

فقال بنيامين : بل ما لقي ابنا راحيل منكم ، فأما يوسف فقد فعلتم به ما فعلتم ، وأما أنا فسرقتموني .

قالوا : فمن جعل الإناء في متاعك ؟ قال : الذي جعل الدراهم في متاعكم .

فسكتوا .

فذلك قوله ﴿ ثُمَّ استخرجها مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ يعني : كذلك صنعنا ليوسف ، والكيد : الحيلة .

يعني : كذلك احتلنا له وألهمناه الحيلة .

ثم قال : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الملك ﴾ يعني : في قضاء ملك مصر ، لأنه لم يكن في قضائه أن يستعبد الرجل في سرقته .

ثم قال : ﴿ إِلَّآ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ يعني : وقد شاء الله أن يأخذه بقضاء أبيه .

ويقال : ما كان يقدر أن يأخذ في ولاية الملك بغير حكم ، إلا بمشيئة الله تعالى .

ويقال : إلا أن يشاء الله ذلك ليوسف .

ثم قال : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ يعني : من نشاء بالفضائل .

وقرأ أهل الكوفة ﴿ نَرْفَعُ درجات ﴾ بتنوين التاء .

وقرأ الباقون : ﴿ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ بغير تنوين ، على معنى الإضافة ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ يعني : ليس من عالم إلا وفوقه أعلم منه ، حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى .

وروى وكيع ، عن أبي معشر ، عن محمد بن كعب ، أن رجلاً سأل علياً عن مسألة .

فقال فيها قولاً .

فقال الرجل : ليس هو كذا ، ولكنه كذا .

فقال : عليّ أصبتَ وأخطأت ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وروي عن سعيد بن جبير ، أن ابن عباس حدث بحديث ، فقال : رجل عنده : الحمد لله

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فقال ابن عباس : إن الله هو العالم وهو فوق كل عالم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 198. 203 ﴾

(155/400)

وقال الثعلبى

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) ﴾

فلمّا تبيّن للملك [حق] يوسف وعرف أمانته وعلمه ، قال : ﴿ ائتوني بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ أجعله خالصاً لي دون غيره ، فلمّا جاء الرسول يوسف قال له : أجب الملك ، الآن ، فخرج يوسف ودعا لأهل السجن بدعوة تعرف إلى اليوم وذلك أنّه قال : اللهمّ اعطف عليهم بقلوب الأخيار وأنعم عليهم الأخبار ، فهم أعلم الناس بالأخبار في كلّ بلدة ، فلمّا خرج من السجن كتب على باب السجن : (هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وحرقة الأصدقاء وشماتة الأعداء) ، ثمّ اغتسل يوسف (عليه السلام) وتنظّف من قذر السجن ، ولبس ثياباً جدداً حساناً ، وقصد الملك .

قال وهب : فلمّا وقف بباب الملك قال (عليه السلام) : حسبي ربي من دُنياي ، وحسبي

ربّي من خلقه، عزّ جاره، وجلّ ثناؤه ولا إله غيره.

ثمّ دخل الدار، فلمّا دخل على الملك قال: اللهمّ إنّي أسألك عزّك من خيره، وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره، فلمّا نظر إليه الملك سلّم عليه يوسف بالعربية، فقال له: الملك، ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمّي اسماعيل، ثمّ دعا له بالعبرانية، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي.

قال وهب: وكان الملك يتكلّم بسبعين لساناً، فكلّما كلّم يوسف بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأجابه الملك، فأعجب الملك ما رأى منه، وكان يوسف يومئذ ابن الاثنين سنة، فلمّا رأى الملك حداثة سنة، قال لمن عنده: إنّ هذا علم تأويل رؤياي ولم يعلمه السحرة والكهنة، ثمّ أجلسه على سريره، وقال له: إنّي أحبّ أن أسمع رؤياي منك شفاهاً، فقال له يوسف: نعم، أيّها الملك، رأيت سبع بقرات سمان هب غرّ حسان، كشف لك عنهنّ النيل وطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهنّ لبناً، فبينا أنت تنظر إليهنّ وتتعجّب من حسنهنّ إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا يبساً، فخرج من حمأته ووحله سبع بقرات عجاف شُعث غُبر مقلّصات البطون، ليس لهنّ ضروع ولا أخلاف، ولهنّ

أنياب وأضراس وأكفّ كأكف الكلاب خراطيم كخراطيم السباع ، فاختلطن بالسمان فافترسنهنّ افتراس السبع ، فأكلن لحومهنّ ومزّقنَ جلودهنّ وحطّمن عظامهنّ وتشمشن مخّهنّ .

فبينا أنت تنظر وتتعجّب وإذا بسبع سنابل خضر وسبع أُخر سود في منبت واحد عروقهنّ في الثرى والماء ، فبينا أنتَ تقول في نفسك : أنّى هذا ؟ هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد ، وأصولهنّ في الماء إذ هبّت ريح ذرّت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهنّ النار فاحرقتهنّ وصرنَ سوداً متغيّرات .

(157/400)

فهذا آخر ما رأيت من الدنيا ثمّ انتبهت من نومك مذعوراً ، فقال الملك : والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجباً بأعجب ممّا سمعته منك ، فما ترى في رؤياي أيها الصدّيق ؟ فقال يوسف : أرى أن تجمع الطعام ، وتزرع الزرع الكثير في هذه السنين المخصبة وتبني [الأهواء] والخزائن ، فتجعل الطعام فيها بقصبه وسنبله ليكون قصبه وسنبله علفاً للدواب ، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها

، وتأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك ، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك ، فقال الملك : ومن لي بهذا ومن يجمعه و [يبيعه] ويكفي الشغل فيه ؟ فقال : يوسف ﴿ اجعلني على خَزَآئِنِ الأرض ﴾ مجاز الآية : على خزائنّ أرضك وهي جمع الخزانة فدخلت الألف واللام خلفاً من الإضافة ، كقول النابغة : والأحلام غيرُ كواذب .

﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ : كاتب حاسب ، قتادة : حفيظ لما وليت ، علهم بأمره ، ابن اسحاق : حفيظ لما استودعتني ، عليمٌ بما وليّتني ، شيبة الضبي : حفيظ لما استودعتني وعليمٌ بسنيّ المجاعة ، الأعشى : حافظ للحساب عليم بالألسن أعلم لغة من سألني ، الكلبي : حفيظ التقدير في هذه السنين الجدبة ، عليمٌ بوقت الجوع متى يقع ، وقيل : حفيظ لما وصل إليّ عليم بحسابة المال ، فقال له الملك : ومَن أحقّ به منك ؟ فولاّه ذلك ، وَقَالَ لَهُ : ﴿ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ ذو مكانة ومنزلة ، أمين على الخزائن ، روى جويبر عن الضحّاك عن ابن عباس أنّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" رحم الله أخي يوسف لو لم يقل : اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنّه أخّر ذلك سنة فأقام عنده في بيته سنة مع الملك . "

روى سفيان عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذيل ، قال : قال الملك ليوسف : إنّي أُريد أن تخالطني في كلّ شيء غير أنّي آنف أن تأكل معي ، فقال يوسف (عليه السلام) : أنا أحقّ أن آنف ، أنا ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ، فكان يأكل بعدئذ معه .

روى حمزة الزيّان عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة ، قال : لما رأى العزيز رأي يوسف وظرفه دعاه وكان يتغدّى ويتعشى معه دون غلمانه ، فلمّا كان بينه وبين المرأة ما كان ، قالت له مرّة : فليتغدّ مع الغلمان ، فقال : اذهب فتغدّ مع الغلمان فقال له يوسف في وجهه استنكفتَ أن تأكل معي ، أنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله .

روى مقاتل عن يحيى بن أبي كثير أنّ عمر بن الخطاب عرض على أبي هريرة الإمارة فقال : لا أفعل ولا أريدها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من طلب الإمارة لم يعدل " فقال عمر : لقد طلب الإمارة من هو خير منك ، يوسف (عليه السلام) ، قال : اجعلني على خزائن الأرض .

روى بن اسحاق عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوّجَهُ وردَّأهُ سيفه ، ووضع له سريراً من ذهب ، مكلّلا بالدرّ والياقوت ، وضرب عليه حلّة من استبرق ، وكان طول السرير ثلاثين ذراعاً وعرضه عشرة أذرع ،

عليه ثلاثون فراشاً وتسعون مرفقة ، ثمّ أمره أن يخرج فخرج متوّجاً ، لونه كالثلج ووجهه كالقمر ، يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه ، فانطلق حتى جلس على السرير ودانت له الملوك ، ودخل الملك بيته مع نسائه ، وفوّض إليه أمر مصر ، وعزل قطفير عمّا كان عليه وجعل يوسف مكانه .

قال ابن اسحاق : قال ابن زيد : وكان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام ، فسلّم سلطانه كلّه إليه ، وجعل أمره وقضاءه نافذاً ، ثمّ أنّ قطفير هلك في تلك الليالي فزوّج الملك يوسف راحيل إمرأة قطفير ، فلمّا دخل عليها قال : أليس هذا خيراً مما كنتِ تريدين ؟ فقالت : أيّها الصدّيق لا تلمني فإنّي كنتُ امرأة حسناء ناعمة كما ترى ، في ملك ودنيا وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنتَ كما جعلك الله في حُسنك وهيئتك فغلبتني نفسي ، فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين : أفرائيم بن يوسف ومنشا بن يوسف .

واستوسق ليوسف ملك مصر وأقام فيهم العدل فأحبّه الرجال والنساء فذلك قوله تعالى :

﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض ﴾ يعني أرض مصر : أي مكّناه ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا ﴾ أين

نزل ﴿ حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ : ويصنع فيها ما يشاء ، والبواء المنزل يقال : بوّأته فتبوّأ ، وقرأ أهل مكّة : حيث نشاء بالنون ردّاً على قوله مكّنا وبعده ، ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَآءُ ﴾ أي بنعمتنا .

﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ قال ابن عباس ووهب : يعني الصابرين كصبره في البئر ، وصبره في السجن وصبره في الرق ، وصبره عما دعته اليه المرأة ، قال مجاهد وغيره : فلم يزل يدعو ويتلطف له حتى أسلم الملك وكثير من الناس فهذا في الدنيا ﴿ وَلأَجْرُ الآخرة ﴾ [نعيم] الآخرة ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ قال البحتري :

أما في رسول الله يوسف أسوة . . . لمثلك محبوساً [. . . .]

أقام جميل الصبر في الحبس برهة . . . فآلَ به الصبرُ الجميل إلى المُلك

وكتب بعضهم إلى صديق له :

وراء مضيق الخوف مُتّسعُ الأمنِ . . . وأوّل مفروح به آخر الحُزن

فلا تيأسَنْ فالله مَلّك يوسفاً . . . خزائنه بعد الخلاص من السجن

قالوا : فلمّا أطمأنّ بيوسف ملكه دخلت السنون المخصبة ، ودخلت السنون المجدبة أصاب الناس الجوع وجاءت تلك السنون [. . . . . . .] وكان ابتداء القحط ، بينا الملك ذات ليلة أصابه الجوع نصف الليل ، وهتف الملك : يا يوسف الجوع الجوع فقال : هذا أوّل القحط ، فلمّا دخلت السنة الأُولى من سنيّ الجدب هلك فيها كلّ شيء أعدّوه في السنين المخصبة ، فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف ، فباعهم أوّل سنة بالنقود حتى لم يبق في مصر دينار ولا درهم إلاّ قبضه ، وباعهم في السنة الثانية بالحُليّ والجواهر حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء ، وباعهم بالسنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى عليها أجمع ، وباعهم بالسنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق عبد ولا أَمَة في يد أحد منهم ، ثمّ باعهم السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها ، وباعهم السنة السادسة بأولادهم حتى استرقّهم ، وباعهم السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حُرّة إلاّ صار عبداً له ، حتى قال الناس : تالله ما رأينا كاليوم ملكاً أجلّ ولا أعظم من هذا ، ثمّ قال يوسف لفرعون كيف رأيت صنيع ربّي فيما خوّلني ، فما ترى لي ؟ قال الملك : الرأي رأيك ، وإنّما نحن لك تبع ، قال : فإنّي أشهد وأشهدك أنّي أعتقتُ أهل مصر عن آخرهم ورددتُ عليهم أموالهم أملاكهم .

وروي أنّ يوسف (عليه السلام) كان لا يشبع من طعام في تلك الأيام ، فقيل له : تجوع وبيدك خزائن الأرض ، فقال : أخاف أن شبعتُ أن أنسى الجائع ، وأمر يوسف أيضاً

طباخي الملك أن جعلوا الغداة نصف النهار ، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين ، ويُحسن إلى المُحتاجين ، ففعل الطهاة ذلك ، ومن ثمّ جعلت الملوك غداءهم نصف النهار .

قالوا : وقصد الناس مصر من كلّ حدب يمتارون ، فجعل يوسف لا يمكّن أحداً منهم وإن كان عظيماً بأكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس وتوسّعاً عليهم ، وتزاحم الناس عليه ، قالوا : وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام من القحط والشدّة ما أصاب سائر البلاد ، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس فأرسل بنيه إلى مصر للميرة ، فأمسك بنيامين أخا يوسف لأُمّه فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ وكانوا عشرة ، وكان منزلهم بالقربات من أرض فلسطين ثغور الشام ، وكانوا أهل بادية وإبل وشاة ﴿ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾ يوسف وأنكروه لما أراد الله أن يبلغ يوسف فيما أراد .

قال ابن عباس : وكان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا مصر أربعين سنة فلذلك أنكروه وقيل : إنّه كان مُتّزيا بزيّ فرعون مصر ، عليه ثياب حرير ، جالس على سريره ، وفي عنقه طوق من ذهب ، وعلى رأسه تاج ، فلذلك لم يعرفوه ، وكان بينه وبينهم ستر ولذلك لم

يعرفوه .

قال بعض الحكماء : المعصية تورث الكبرة ، قال الله تعالى : ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ فلمّا نظر إليهم يوسف وكلّموه بالعبرانية ، قال لهم : أخبروني من أنتم ؟ وما أمركم ؟ فإنّي أنظر شأنكم ، قالوا : نحنُ قومٌ من أهل الشام رُعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار ، قال : لعلّكم عيون تنظرون عورة بلادي ، قالوا : والله ما نحن جواسيس وإنّما نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صدّيق يُقال له : يعقوب ، نبي من أنبياء الله ، قال : وكم أنتم ؟

قالوا : كُنّا إثني عشر فذهب أخٌ لنا إلى البرّية فهلك فيها ، وكان أحبّنا إلى أبينا ، فقال : فكم أنتم ها هنا ، قالوا : عشره ، قال : فأين الآخر ؟ قالوا : عند أبينا لأنّه أخ الذي هلك من أُمّه ، وأبونا يتسلّى به ، قال : فمن يعلم أنّ الذي تقولون حقّ ؟ قالوا : أيّها الملك إنّا ببلاد لا يعرفنا أحد ، قال يوسف : فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين ، فأنا أرضى بذلك . قالوا : إنّ أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه وإنّا لفاعلون ، قال : فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف وأبرّهم به فخلّفوه عنده ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾

يعني حمل لكل رجل منهم بعيراً بعدّتهم ، ﴿ قَالَ ائتوني بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ يعني بنيامين ، ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أني أُوفِي الكيل ﴾ أي لا أبخس الناس شيئاً وأُتمّ لهم كيلهم فأزيد لكم حمل بعير في خراجكم ، وأكرم ثواكم ، وأُحسن إليكم ، ﴿ وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين ﴾ المُضيّفين .

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ ليس لكم عندي طعام أكيله لكم ﴿ وَلاَ تَقْرُبُونِ ﴾ ولا تقربوا بلادي بعد ذلك ، وهو جزم يدلّ على النهي .

﴿ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ نطلبه ونسأله أن يُرسله معنا ، قال ابن عباس : سنخدعه حتى نخرجه معنا ، ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ ما أمرتُ به .

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ أي لغلمانه الذين يعملون بالطعام ، قرأ الحسن وحميد ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وحفص ، لفتيانه بالألف والنون وهو اختيار أبي عبيدة ، وقال : هي في مصحف عبد الله كذلك ، وقرأ الباقون لفتيته بالتاء من غير ألف وهما لغتان مثل الصبيان والصبية .

﴿ اجعلوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ أي طعامهم ، قال قتادة : أوراقهم ، الضحّاك عن ابن عباس قال : كانت النعل والأدم ، ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ في أوعيتهم وهي جمع رحل ، والجمع القليل منه

الرحيل، قال ابن الأنباري: يقال للوعاء: رَحل وللمسكن رحل.

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقلبوا ﴾ انصرفوا، ﴿ إلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إليّ واختلف العُلماء في السبب الذي فعل يوسف من أجله، فقال الكلبي: تخوّف يوسف أن لا يكون عند أبيه من الورق فلا يرجعون مرّة أخرى، وقيل: خشي أن يضرّ أخذه ذلك منهم بأبيه؛ إذ كانت السنة سنة جدب وقحط، فأحبّ أن يرجع إليه، وإنّما أراد أن يتّسع به أبوه، وقيل: رأى لو أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع حاجتهم إليه فردّه عليهم من حيث لا يعلمون تكرّماً وتفضّلا.

وقيل: فعل لأنّه علم أنّ ديانتهم وأمانتهم تحملهم على ردّ البضاعة ولا يستحلّون إمساكها فيرجعون لأجلها، وقيل: أبدا لهم كرمه في ردّ البضاعة وتقديم الضمان في البِرّ والإحسان ليكون أدعى لهم إلى العود إليه طمعاً في برّه.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إلى أَبِيهِمْ قَالُواْ يا أبانا ﴾ قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة، لو كان رجلا من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته، قال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك بمصر فاقرؤوه منّي السلام وقولوا له: إنّ أبانا يُصلّي عليك ويدعو لك بما أوليتنا، ثمّ قال: أين شمعون؟ قالوا: إنّه عند ملك مصر وأخبروه بالقصّة، فقال: ولم أخبرتموه؟ قالوا: إنّه أخذنا وقال: إنّكم جواسيس عندما كلّمناه بلسان العبرانيين، وقصّوا عليه القصّة.

﴿ مُنِعَ مِنَّا الكيل فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا ﴾ بنيامين ﴿ نَكْتَلْ ﴾ قرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائي يكتل بالياء يعني يكتل لنفسه هو كما كنّا نكتل نحن ، وقرأ الآخرون بالنون بمعنى نكتل نحن ، واختاره أبو عبيد ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ يعقوب ، ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ ﴾ يوسف ﴿ مِن قَبْلُ فالله خَيْرٌ حَافِظاً ﴾ قرأ ابن محصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي : حافظاً بالألف على التمييز والتفسير ، كما يُقال : هو خيرٌ رجلا ، ومجاز الآية خيركم حافظاً فحذف الكاف والميم ، ويدلّ عليه أنّها مكتوبة في مصحف عبد الله : والله خيرُ الحافظين .

وقرأ الآخرون حفظاً بغير الألف على المصدر بمعنى خيركم حفظاً واختلفَ فيه عن عاصم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ ﴾ الذي حملوه من مصر ﴿ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ ﴾ ثمن الطعام ﴿ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ ياأبانا مَا نَبْغِي ﴾ أي ماذا نبغي ؟ وأي شيء نطلب وراء هذا ؟ أوفى لنا الكيل وردّ علينا الثمن ، أرادوا بذلك أن يُطيّبوا نفس أبيهم ، و ﴿ مَا ﴾ استفهام في موضع نصب ويكون معناه جحداً كأنّهم قالوا : لسنا نُريد منك دراهم .

﴿ هذه بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ ونشتري لهم الطعام فنحمله إليهم ، يقال مار أهله يَمير مَيراً فهو ماير ، إذا حمل إليهم أقواتهم من غير بلده في مثله امتار يمتار امتياراً ، قال

الشاعر :

بعثتك مائراً فمكثت حولا . . . متى يأتي غياثك من تغيثُ

وقال آخر :

أتى قريةً كانت كثيراً طعامها . . . كعفر التُراب كل شيء يميرها

(165/400)

﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ بنيامين ﴿ وَنَزْدَادُ ﴾ على أحمالنا ﴿ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ لنا من أجله ﴿ ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ : لا مؤونة فيه ولا مشقّة ، وقال مجاهد : كيل بعير يعني : حمل حمار ، قال : وهي لغة يُقال للحمار بعير ، ﴿ قَالَ ﴾ لهم يعقوب : ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حتى تُؤْتُونِ ﴾ تعطوني ﴿ مَوْثِقاً مِّنَ الله ﴾ يعني تحلفوا لي بحقّ محمّد خاتم النبيين وسيد المُرسلين أن لا تغدروا بأخيكم ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ وإنّما دخلت فيه اللام لأنّ معنى الكلام اليمين ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلاّ أن تهلكوا جميعاً ، قاله مجاهد ، وقال قتادة : إلاّ أن يُغلبوا حتى لا يطيقوا ذلك .

﴿ فَلَمَّآ آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أعطوه عهودهم ، وقال جويبر عن الضحّاك عن ابن عباس : حلفوا له بحقّ محمد صلى الله عليه وسلم ومنزلته من ربّه ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب ﴿ الله على مَا نَقُولُ

وَكِيلٌ ﴾ أي شاهد وحافظ بالوفاء ، وقال القتيبي : كفيل ، وقال كعب : لمّا قال يعقوب :

فالله خيرٌ حافظاً ، قال الله جل ذكره : وعزّتي لأردّن عليك كليهما بعدما توكّلت عليّ ،

وقال لهم يعقوب لما أرادوا الخروج [هذا] ، ﴿ وَقَالَ يَا بني لاَ تَدْخُلُواْ ﴾ مصر ﴿ مِن

بَابٍ وَاحِدٍ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ وذلك أنّه خاف عليهم العين لأنّهم كانوا ذوي

جمال وهيئة وصور حسان وقامات ممتدّة ، وكانوا ولد رجل واحد ، وأمرهم أن يفترقوا في

دخولها ثمّ ، قال : ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُمْ مِّنَ الله مِن شَيْءٍ ﴾ علم (عليه السلام) أنّ

المقدور كائن ، وأنّ الحذر لا ينفع من القدر ، وما أغني عنكم من الله من شيء ﴿ إِنِ

الحكم إِلاَّ للَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ وإلى الله فليفوّض أمورهم

المفوّضون .

(166/400)

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ وكان لمصر أربعة أبواب فدخلوها من أبوابها

كلّها ، ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ الله مِن شَيْءٍ ﴾ صدّق الله تعالى يعقوب فيما قال ﴿ إِلاَّ

حَاجَةً ﴾ حزازة وهمّة في نفس يعقوب ﴿ قَضَاهَا ﴾ أشفق عليهم إشفاق الآباء على

أبنائهم ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعقوب ﴿ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا ﴾ : أي مما ﴿ عَلَّمْنَاهُ ﴾ يعني لتعليمنا إيّاه ،

قاله قتادة ، وروى سفيان عن (ابن) أبي عروة قال : إنّه العامل بما علم ، قال سفيان : من لا يعمل لا يكون عالماً ، وقيل : إنّه لذو حظ لما علّمناه .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يعلم يعقوب ، أي لا يعرفون مرتبته في العلم .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ ﴾ قالوا : هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به ، قد جئناك به فقال لهم : أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي ، ثمّ أنزلهم فأكرم منزلهم ثمّ أضافهم وأجلس كلّ اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحيداً ، فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيّاً لأجلسني معه ، فقال لهم يوسف (عليه السلام) : لقد بقي هذا أخوكم وحيداً ، فأجلسه على مائدته فجعل يُؤاكِله .

فلمّا كان الليل أمرَ لهم بمثل أي فرش ، فقال : لينم كلّ أخوين منكم على مثال ، فلمّا بقي بنيامين وحده ، قال يوسف (عليه السلام) : هذا ينام معي على فراشي فبات معه فجعل يوسف يضمّه إليه ويشمّ خدّه حتى أصبح فجعل روبيل يقول : ما رأينا مثل هذا ، فلمّا أصبح قال لهم : إنّي أرى هذا الرجل الذي جئتم به ليس معه ثان فسأضمّه إليّ فيكون منزله معي ، ثمّ أنزلهم [معه] ، وأجرى عليهم الطعام والشراب وأنزل أخاه لأمّه معه فذلك ، قوله تعالى : ﴿ آوى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ فلمّا خلا به قال له : ما اسمك ؟ قال : بنيامين .

قال ابن من يا بنيامين ؟ قال : ابن المثكل ، وذلك أنّه لما ولد هلكت أُمّه ، قال : وما اسمها ؟ قال : راحيل بنت لاوي بن ناحور ، قال : فهل لك بنون ؟ قال : نعم ، عشر بنين وقد اشتققتُ أسماءهم من اسم أخ لي من أُمّي هلك ، قال : لقد اضطرّك إلى ذاك حزن شديد ، قال : فما سمّيتهم ؟ قال : بالعا وأخيرا وأثكل وأحيا وكثر ونعمان وادر وأرس وحيتم وميثم ، قال فما هذه ؟ قال : إما بالعاً فإنّ أخي قد ابتلعته الأرض ، وأما أخيرا فإنّه بكر أبي لأُمّي ، وأمّا أثكل فإنه كان أخي لأبي وأُمي وسنّي ، وأما كثير فإنّه خير حبيب كان ، وأمّا نعمان فانه ناعمٌ بين أبويه وأمّا أدّر فإنّه كان بمنزلة الورد في الحُسن ، قال : وأما أرس فإنّه كان بمنزلة الرأس من الجسد ، وأما حيتم فأعلمني أنه حيّ ، وأمّا ميثم فلو رأيته قرّت عيني .

فقال يوسف : أتُحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ فقال بنيامين : ومن يجد أخاً مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف (عليه السلام) وقام إليه وعانقه و ﴿ قَالَ ﴾ له : ﴿ إني أَنَاْ أَخُوكَ ﴾ يوسف ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ فلا تحزن ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ لشيء فعلوه بنا فيما مضى ؛ فإنّ الله قد أحسن إلينا ولا تُعلمهم شيئاً ممّا علمت .

وقال عبد الصمد بن معقل : سمعت وهب بن منبه وسئل عن قول يوسف لأخيه : ﴿ إني

﴿ أَنَاْ أَخُوكَ ﴾ ، فقيل له كيف آخاه حين أخذ بالصواع وقد كان أخبره أنّه أخوه ، وأنتم تزعمون أنّه لم يزل متنكراً لهم يكابرهم حتى رجعوا ؟ فقال : إنّه لم يعترف له بالنسبة ولكنّه قال : أنا أخوك مكان أخيك الهالك ، ومثله قال الشعبي ، قال : لم يقل له : أنا يوسف ، ولكن أراد أن يُطيّب نفسه .

(168/400)

ومجاز الآية أي : أنا أخوك بدل أخيك المفقود فلا تبتئس بما كانوا يعملون فلا تشتكِ ولا تحزن لشيء سلف من أخوتك إليك في نفسك وفي أخيك من أُمّك ، وما كانوا يفعلون قبل اليوم بك ، ثمّ أوفى يوسف لإخوته الكيل وحمل لهم بعيراً ، وحمل لبنيامين بعيراً باسمه كما حَمل لهم ، ثمّ أمر بسقاية الملك فجعل في رحل بنيامين ، قال السدّي : جعل السقاية في رحل أخيه ، والأخ لا يشعر .

قال كعب : لما قال له : إني أنا أخوك قال بنيامين : فأنا لا أفارقك ، قال يوسف (عليه السلام) : قد علمتُ [عنهم] والدي بي ، فإذا حبستك ازداد غمه ، فلا يمكنني هذا إلاّ أن أُشهرك بأمر وأنسبك إلى ما لا يجمل بك ، قال : لا أُبالي فافعل ما بدا لك فإنّي لا أُفارقك .

قال : فإنّي أدسّ صاعي هذا في رحلك ثمّ أُنادي عليك بالسرقة لجهازي ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك ، قال : فافعل ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي لما قضى لهم حاجتهم ، ﴿ جَعَلَ السقاية ﴾ : وهي المشربة التي كان يشرب بها الملك ، قال ابن زيد : وكان كأساً من ذهب فيما يذكرون ، وقال ابن إسحاق : هو شيء من فضّة ، عكرمة : مشربة من فضّة مُرصّعة بالجواهر ، جعلها يوسف مكيلا لئلاّ يكال بغيرها وكان يشرب بها ، سعيد بن جُبير : هو [المقياس] الذي يلتقي طرفاه وكان يشرب بها الأعاجم وكان للعباس منها واحدة في الجاهلية ، والسقاية والصواع واحد ، ﴿ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ في متاع بنيامين ، ثمّ ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ومضوا ثمّ أمر بهم فأُدركوا وحُبسوا .

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ نادى مناد ، ﴿ أَيَّتُهَا العير ﴾ هي القافلة التي فيها الأحمال ، قال الفرّاء : لا يُقال عِير إلاّ لأصحاب الإبل ، وقال مجاهد كانت العِير حميراً .

﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ قفوا ، فوقفوا ، فلمّا انتهى إليهم الرسول قال لهم : ألم نكرم ضيافتكم ونُحسن منزلكم ونُوفكم كيلكم ونفعل بكم ما لم نفعله بغيركم ؟ قالوا : بلى ، وما ذاك ؟ قال

: سقاية الملك ، فقال : إنّه لا يُتّهم عليها غيركم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ عطفوا على المؤذّن وأصحابه : ماذا تفقدون؟ ما الذي ضلّ منكم؟ فالفقدان ضدّ الوجود ، والمفقد : الطلب .

﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الملك ﴾ واختلف القُرّاء في قراءة ذلك ، فروى قثم عن داود بن أبي هند عن مولى بني هاشم عن أبي هُريرة أنّه قرأ صاع الملك ، وقرأ أبو رجاء صوع ، وقرأ يحيى بن معمر صوغ بالغين ، [فإنه] وجهنا إلى مصر ، صاغ يصوغ صوغاً ، وجمع الصواع صيعاً ، وجمع صاع أصواع .

﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ من الطعام ﴿ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ كفيل يقوله المؤذّن ، وأصل الزعيم : القائم بأمر القوم ، ويُقال للرئيس زعيم ، يُقال : زعم ، زعامة وزعاماً ، قالت ليلى الأخيلية :

حتى إذا رفع اللواء رأيتُه . . . تحت اللواء على الخميس زعيماً

و﴿ قَالُواْ ﴾ يعني اخوة يوسف ، ﴿ تالله ﴾ أي والله ، أصلها الواو قلبت تاء كما فعل القراء في التقوى والتكلان والتراب والتخمة ، وأصلها الواو ، والواو في هذه الحروف كلّها حرف من الأسماء ، وليست كذلك في تالله لأنّها إنّما هي واو القسم وإنّما جعلت بالكثرة ما جرى على ألسن العرب ، هم زعموا أنّ الواو من نفس الحرف فقلبوها تاء ، ووضعت في هذه الكلمة الواحدة دون غيرها من أسماء الله تعالى .

﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأرض وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ فإن قيل : من أين علموا ذلك ؟ الجواب عنه : قال الكلبي قال : إن فتى يوسف وهو المؤذّن قال لهم : إنّ الملك ائتمنني بالصاع وأخاف عقوبة الملك ، فلي اليوم عنده مقولة حسنة ، فإن لم أجده تخوّفت أن تسقط منزلتي وأفتضح في مصر ، قالوا : لقد علمتم ما جئنا لنفس في الأرض إنا منذ قطعنا هذا الطريق لم ننزل عند أحد ولا أفسدنا شيئًا وسلوا عنا من مررنا به ، هل ضررنا أحداً ؟ أو هل أفسدنا شيئًا ؟ وإنّا قد رددنا الدراهم كما وجدنا في رحلنا ، فلو كنّا سارقين ما رددناها .

قال فتى يوسف : إنّه صواع الملك الأكبر الذي يكتال فيه ، وقال بعضهم : إنّما قالوا ذلك لأنّهم كانوا معروفين أنّهم لا يتناولون ما ليس لهم ، وقيل : إنّهم كانوا حين دخلوا مصر كمّوا أفواه دوابهم لكي لا تتناول من حروث الناس .

فإن قيل : كيف استجاز يوسف تسميتهم سارقين ؟

قيل : فيه جوابان : أحدهما أنّه أضمر في نفسه أنّهم سرقوه من أبيه ، والآخر أنّه من قول المنادي لا من أمر يوسف والله أعلم .

﴿ قَالُواْ ﴾ يعني المنادي وأصحابه ، ﴿ فَمَا جَزَآؤُهُ ﴾ ثوابه قال الأخفش : إن شئت رددت الكناية إلى السارقين ، وإن شئت رددتها إلى السَّرَق ﴿ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ في قولكم : (ما كنّا سارقين) .

(171/400)

قالوا : ﴿ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ﴾ أن يسلّم سرقته إلى المسروق منه ، ويسترقّ سنة ، وكان ذلك سنّة آل يعقوب في حكم السارق ﴿ كذلك نَجْزِي الظالمين ﴾ الفاعلين ما ليس لهم فعله من أخذ مال غيره سرقاً ، وأما وجه الكلام فقال الفرّاء من في معنى جزاؤه ، ومن معناها الرفع بالهاء التي جاءت وجواب الجزاء الفاء في قوله ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ ويكون قوله : ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ الثانية مرتفع بالمعنى المجمل في الجزاء وجوابه ، ومثله في الكلام أن يقول : ماذا لي عندك ؟ فيقول : لك عندي أن بشّرتني فلك ألف درهم كأنّه قال : لك عندي هذا ، وإن شئت الجزاء مرفوعاً بمن خاصّة وصلتها كأنّك قلت : جزاؤه الموجود في رحله ، كأنّك قلت : ثوابه أن يسترق [في المستأنف] أيضاً فقال : فهو جزاؤه ، وتلخيص هذه الأقاويل : جزاؤه جزاء الموجود في رحله ، أو جزاؤه الموجود في رحله .

تمّ الكلام .

وقال مبتدئاً فهو جزاؤه فقال الرسول عند ذلك : إنّه لابدّ من تفتيش أمتعتكم ولستم سارقين حتى أفتّشها فانصرف بهم إلى يوسف ، ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ لإزالة التهمة ﴿ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ وكان فتّش أمتعتهم واحداً واحداً ، قال قتادة : ذكر لنا أنّه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر في وعاء إلاّ استغفر الله تأثّماً ممّا قذفهم به ، حتى إذا لم يبق إلاّ الغلام ، قال : ما أظنّ هذا أخذ شيئاً ، فقال أخوته : والله لا نتحرّك حتى تنظر في رحله ، فإنّه أطيب من نفسك وأنفسنا ، فلمّا فتحوا متاعه استخرجوه منه فذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ وإنّما أنث الكناية في قوله استخرجها والصواع مذكر ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ لأنّ ردّه إلى السقاية كقوله : ﴿ الذين يَرِثُونَ الفردوس ﴾ [المؤمنون : 11] ، ثمّ قال : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 11] ردّها إلى الجنّة وقوله : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القسمة أُوْلُوا القربى واليتامى والمساكين ﴾ [النساء : 8] ، ثمّ قال : ﴿ فارزقوهم مِّنْهُ ﴾ [النساء : 8] ، أي من الميراث .

وقيل : ردّ الكناية إلى السرقة .

وقيل : إنّما أنّثها لأنّ الصواع يُذكر ويُؤنّث فمن أنّثه قال : ثلاث أصوع مثل أدود ومن ذكّره

قال : ثلاثة أصواع مثل ثلاثة أثواب .

﴿ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ يعني كما فعلوا في الابتداء بيوسف فعلنا بهم لأنّ الله تعالى حكى عن يعقوب أنّه قال ليوسف ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً ﴾ فالكيد جزاء الكيد ، قال ابن عباس : كذلك كِدنا أي صنعنا ، ربيع : ألهمنا ، ابن الأنباري : أردنا .

ومعنى الآية : كذلك صنعنا ليوسف حتى ضمّ أخاه إلى نفسه وفصل بينه وبين إخوته بعلّة كادها الله له فاعتلّ بها يوسف ، ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ ﴾ إليه ويضمّه إلى نفسه ﴿ فِي دِينِ الملك ﴾ في حكمه وقضائه ، قاله قتادة .

(173/400)

وقال ابن عباس : في سلطان الملك ، وأصل الدين : الطاعة ، وكان حكم الملك في السارق أن يسترقّ ويُغرّم ضعف ما سرق للمسروق منه ، وقال الضحّاك : كان الملك إذا أُتي بسارق كشف عن فرجتيه وسمل عينيه ، إلاّ أن يشاء الله ، يعني أنّ يوسف لم يكن ليتمكّن من أخذ أخيه بنيامين من أخوته وحبسه عنده في حكم الملك لولا ما كِدنا له بلطفنا حتى وجد السبيل إلى ذلك وهو ما أجراه على ألسنة إخوته أنّ جزاء السارق الاسترقاق فأقرّوا به وأبدوا من تسليم الأخ إليه ، وكان ذلك مُراد يوسف (عليه السلام) .

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ بالحكم كما رفعنا يوسف على إخوته .

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : يكون هذا أعلم من هذا ، وهذا أعلم من هذا ، والله فوق كلّ عالم ، قال قتادة والحسن : والله ما من عالم على ظهر الأرض إلاّ فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله الذي علّمه ومنه بدأ وإليه يعود ، وفي قراءة عبد الله : وفوق كلّ عالم عليم .

وعن محمّد بن كعب القرضي أنّ علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قضى بقضية فقال رجل من ناحية المسجد : يا أمير المؤمنين ليس القضاء كما قضيت ، قال فكيف هو ؟ قال : كذا وكذا قال : صدقت وأخطأت ، وفوق كلّ ذي علم عليم .

قالوا : فلمّا أخرج الصواع من رحل بنيامين نكّس إخوته رؤوسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين وقالوا : يا بنيامين أي شيء الذي صنعت ، فضحتنا وسوّدت وجوهنا ، يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء ، متى أخذت الصواع ؟ .

فقال بنيامين : بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء ، ذهبتم بأخي فأهلكتموه بالبرّية ، وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 230 . 242 ﴾

وقال الزمخشرى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾

يقال استخلصه واستخصه ، إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به فَلَمَّا كَلَّمَهُ وشاهد منه ما لم يحتسب قال أيها الصديق إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ ذو مكانة ومنزلة أَمِينٌ مؤتمن على كل شيء . روى أنّ الرسول جاءه فقال : أحب الملك ، فخرج من السجن ودعا لأهله : اللهم أعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعمّ عليهم الأخبار ، فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات .

وكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى «6» وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة

---

(6) . قوله «البلوى» عبارة النسفي البلواء . (ع)

الأصدقاء ، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ، ولبس ثيابا جدداً»

فلما دخل على الملك قال :

اللهمّ إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية ، فقال : ما هذا اللسان؟ قال : لسان آبائي ، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً ، فكلمه بها فأجابه بجميعها ، فتعجب منه وقال : أيها الصدّيق ، إني أحب أن أسمع رؤياى منك . فقال :

رأيت بقرات فوصف لونهنّ وأحوالهنّ ومكان خروجهنّ ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفا ، وقال له : من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء «2» ، فيأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك ، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك .

[سورة يوسف (12) : آية 55]

قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55)

اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ ولنى خزائن أرضك إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ أمين أحفظ ما تستحفظنيه ، عالم بوجوه التصرف ، وصفا لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه ، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام اللّه تعالى وإقامة الحق وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أنّ أحدا غيره لا يقوم مقامه في ذلك ،

فطلب التولية ابتغاء وجه اللّه لا لحب الملك والدنيا . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «رحم اللّه أخى يوسف ، لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض ، لاستعمله من ساعته ، ولكنه أخر ذلك ، سنة «3» فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملا من يد كافر ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاعته ؟

قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم : وعن قتادة . هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملا من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه . وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر اللّه ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق . فله أن يستظهر به . وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى ، فكان في حكم التابع له والمطيع .

[سورة يوسف (12) : آية 56]

وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56)

---

(1) . قوله «ولبس ثيابا جددا» في الصحاح : جديد وجدد ، كسرير وسرر . (ع)

(2) . قوله «أن تجمع الطعام في الأهراء» كذا عبارة النسفي أيضا ولكنه ليس في الصحاح بل الذي فيه هرأه البرد بهرأه هرأ أى أشتد عليه حتى كاد بقتله وهرئ المال وهرئ القوم فهم مهرؤون اه فأصل الاهراء مواضع يشتد فيها البرد . (ع)

(3) . أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عنه ، وهذا إسناد ساقط

(176/400)

وَكَذلِكَ ومثل ذلك التمكين الظاهر مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي أرض مصر . روى أنها كانت أربعين فرسخا في أربعين يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ قرئ بالنون والياء ، أى : كل مكان أراد أن يتخذه منزلا ومتبوّأ له ، لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخوله تحت ملكته وسلطانه . روى أنّ الملك توّجه ، وختمه بخاتمه ، ورداه بسيفه . ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدرّ والياقوت . روى أنه قال له : أمّا السرير فأشدّ به ملكك . وأمّا الخاتم فأدبر به أمرك ، وأمّا التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائي . فقال : قد وضعته إجلالا لك وإقرارا بفضلك . فجلس على السرير ودانت له الملوك ، وفوّض الملك إليه أمره وعزل قطفير ، ثم مات بعده ، فزوّجه الملك امرأته زليخا ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما طلبت ؟ فوجدها عذراء ، فولدت له ولدين : إفراثيم وميشا ، وأقام العدل بمصر ، وأحبته الرجال والنساء ، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس ، وباع من أهل مصر في سنى القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها ، ثم بالحلى والجواهر ، ثم

بالدواب ، ثم بالضياع والعقار ، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً ، فقالوا : واللّه ما رأينا كاليوم ملكا أجلّ ولا أعظم منه ، فقال للملك : كيف رأيت صنع اللّه بى فيما خوّلنى فما ترى؟ قال : الرأى رأيك :

قال : فإنى أشهد اللّه وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم . ورددت عليهم أملاكهم ، وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير ، تقسيطاً بين الناس . وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر ، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين بِرَحْمَتِنا بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم مَنْ نَشاءُ من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ أن نأجرهم في الدنيا .

[سورة يوسف (12) : آية 57]

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (57)

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لهم . قال سفيان بن عيينة : المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة ، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا ، وما له في الاخرة من خلاق ، وتلا هذه الآية .

[سورة يوسف (12) : آية 58]

وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58)

لم يعرفوه لطول العهد «1» ومفارقته إياهم في سنّ الحداثة ، ولاعتقادهم أنه قد هلك ، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه ، ولبعد حاله التي بلغها من الملك

والسلطان

---

(1) . قال محمود : «إنما أنكروه لبعد العهد وتغيير الصورة . . . الخ» قال أحمد : وتوارد القادمين في دخولهم عليه ومعرفته لهم عند ذلك ، تدل على أن مجرد دخولهم عليه استعقبته المعرفة بلا مهلة ، واللّه أعلم .

(177/400)

عن حاله التي فارقوه عليها طريحاً في البئر ، مشرياً بدراهم معدودة ، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم ، ولأنّ الملك مما يبدّل الزىّ ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف . وقيل : رأوه على زىّ فرعون «1» عليه ثياب الحرير جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج ، فما خطر ببالهم أنه هو . وقيل : ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب ، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج ، وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال ورأى زيهم قريبا من زيهم إذ ذلك ، ولأنّ همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم ، فكان يتأمّل ويتفطن . وعن الحسن : ما عرفهم حتى تعرّفوا له .

[سورة يوسف (12) : الآيات 59 إلى 60]

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ (60)

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ أى أصلحهم بعدّتهم وهي عدّة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون وأوقر ركائبهم بما جاءوا من الميرة. وقرئ بِجَهازِهِمْ بكسر الجيم قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ لا بد من مقدمة سبقت له معهم، حتى اجترّ القول هذه المسألة. روى أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبرونى من أنتم وما شأنكم؟ فإنى أنكركم. قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال، لعلكم جئتم عيونا تنظرون عورة بلادي؟ قالوا: معاذ الله، نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صدّيق نبى من الأنبياء، اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا كنا اثنى عشر، فهلك منا واحد. قال: فكم أنتم هاهنا؟

قالوا: عشرة. قال: فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون وأنّ الذي تقولون حق؟ قالوا: إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا. قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم، وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون - وكان أحسنهم رأيا في يوسف - فخلفوه عنده، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم وَلا تَقْرَبُونِ فيه وجهان، أحدهما: أن يكون داخلا في حكم الجزاء مجزوما، عطفا على محل

قوله فَلا كَيْلَ لَكُمْ كأنه قيل: فإن لم تأتونى به تحرموا ولا تقربوا، وأن يكون بمعنى النهى.

---

(1). قوله «وقيل رأوه على زى فرعون» إن أريد فرعون موسى، فلم يكن قد وجد.

وعبارة الخازن: زى ملوك مصر عليه ثياب الخ. (ع)

(178/400)

[سورة يوسف (12): آية 61]

قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ (61)

سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ سنخادعه عنه، وسنجتهد ونحتال حتى تنتزعه من يده وَإِنَّا لَفاعِلُونَ

وإنا لقادرون على ذلك لا نتعايى به. أو وإنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى.

[سورة يوسف (12): آية 62]

وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62)

لِفِتْيانِهِ وقرئ «لفتيانه» وهما جمع فتى، كإخوة وإخوان في أخ، و«فعلة» للقلة.

و«فعلان» للكثرة، أى لغلمانه الكيالين لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها لعلهم يعرفون حق ردّها وحق التكرّم

بإعطاء البدلين إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ وفرغوا ظروفهم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لعل معرفتهم بذلك

تدعوهم إلى الرجوع إلينا ، وكانت بضاعتهم النعال والأدم. وقيل : تخوّف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به. وقيل : لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً. وقيل : علم أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها.

وقيل : معنى لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لعلهم يردّونها.

[سورة يوسف (12) : آية 63]

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (63)

مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ يريدون قول يوسف فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندي ، لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل نَكْتَلْ نرفع المانع من الكيل ، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه. وقرئ «يكتل» بمعنى يكتل. أخونا ، فينضم اكتياله إلى اكتيالنا. أو يكن سبباً للاكتيال فإن امتناعه بسببه.

[سورة يوسف (12) : آية 64]

قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64)

هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ يريد أنكم قلتم في يوسف وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ كما تقولونه في أخيه ، ثم خنتم بضمانكم ، فما يؤمنني من مثل ذلك. ثم قال فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً فتوكل على الله فيه ودفعه

إليهم. وحافِظاً تمييز، كقولك: هو خيرهم رجلا، ولله درّه فارساً. ويجوز أن يكون حالا.

(179/400)

وقرئ «حفظا» وقرأ الأعمش: فالله خير حافظ. وقرأ أبو هريرة: خير الحافظين وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فأرجوا أن ينعم علىّ بحفظه ولا يجمع علىّ مصيبتين.

[سورة يوسف (12): آية 65]

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65)

وقرئ رُدَّتْ إِلَيْنا بالكسر، على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء، كما في: قيل وبيع، وحكى قطرب ضرب زيد. على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد ما نَبْغِي للنفي، أى: ما نبغى في القول، وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته. أو ما نبتغى شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان. أو على الاستفهام، بمعنى أى شيء نطلب وراء هذا؟ وفي قراءة ابن مسعود. ما تبغى، بالتاء على مخاطبة يعقوب،

معناه : أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان ، أو من الشاهد على صدقنا ؟ وقيل : معناه ما نريد منك بضاعة أخرى . وقوله هٰذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا جملة مستأنفة موضحة لقوله ما نَبْغِي والجمل بعدها معطوفة عليها ، على معنى : إن بضاعتنا ردّت إلينا ، فنستظهر بها وَنَمِيرُ أَهْلَنا في رجوعنا إلى الملك وَنَحْفَظُ أَخانا فما يصيبه شيء مما تخافه ، ونزداد باستصحاب أخينا وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا ، فأي شيء نبتغي وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا : وإنما قالوا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ لما ذكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقسيط . فإن قلت : هذا إذا فسرت البغي بالطلب ، فأما إذا فسرته بالكذب والتزيد في القول ، كانت الجملة الأولى وهي قوله هٰذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا بياناً لصدقهم وانتفاء التزيد عن قيلهم ، فما تصنع بالجمل البواقي ؟ قلت : أعطفها على قوله ما نَبْغِي على معنى : لا نبغى فيما نقول وَنَمِيرُ أَهْلَنا ونفعل كيت وكيت . ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ ، كقولك : وينبغي أن نمير أهلنا ، كما تقول : سعيت في حاجة فلان ، واجتهدت في تحصيل غرضه . ويجب أن أسعى ، وينبغي لي أن لا أقصر .

ويجوز أن يراد : ما نبغى وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا ، ثم قالوا : هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع ، بياناً لأنهم لا يبغون في رأيهم وأنهم مصيبون فيه ، وهو وجه حسن واضح ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ أى ذلك مكيل قليل لا يكفينا

، يعنون: ما يكال لهم، فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم. أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير، أى ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه

(180/400)

متيسر لا يتعاظمه. ويجوز أن يكون من كلام يعقوب، وأن حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد، كقوله ذلِكَ لِيَعْلَمَ «1»

[سورة يوسف (12) : آية 66]

قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (66)

لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ مناف حالى «2» - وقد رأيت منكم ما رأيت - إرساله معكم حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند اللّه، أراد أن يحلفوا له باللّه: وإنما جعل الحلف باللّه موثقاً منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدّد. وقد أذن اللّه في ذلك فهو إذن منه لَتَأْتُنَّنِي بِهِ جواب اليمين، لأن المعنى: حتى تحلفوا لتأتننى به إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ إلا أن تغلبوا «3» فلم تطيقوا الإتيان به. أو إلا أن تهلكوا. فإن قلت: أخبرنى عن حقيقة هذا الاستثناء ففيه إشكال؟ قلت: أَنْ يُحاطَ بِكُمْ مفعول له، والكلام المثبت الذي هو

قوله لَتَأْتُنَّنِي بِهِ في تأويل النفي . معناه : لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم ، أى : لا تمتنعون منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة : وهي أن يحاط بكم ، فهو استثناء من أعم العام في المفعول له ، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده ، فلا بد من تأويله بالنفي . ونظيره من الإثبات المتأوّل بمعنى النفي قولهم : أقسمت باللّه لما فعلت وإلا فعلت ، تريد : ما أطلب منك إلا الفعل عَلى ما نَقُولُ من طلب الموثق وإعطائه وَكِيلٌ رقيب مطلع .

---

(1) . قوله «كقوله ذلك ليعلم» هل المراد أن جواز كونه من كلام يعقوب ، لأن المعنى يؤدى إليه ، كما جاز في قوله تعالى ذِلكَ لِيَعْلَمَ كونه من كلام يوسف ، لأن المعنى يقود إليه ، فتدبر . (ع)

(2) . قال محمود : «معناه أن إرساله معكم مناف . . . الخ» قال أحمد : لن للنفي المؤكد . وأما قول الزمخشري في المنافاة له ، فله وراء ذلك غرض إنما يطلع عليه من قتل كلامه علما ، وذلك أنه اعتمد في إحالة الرؤية على اللّه تعالى ، على أن قوله تعالى لَنْ تَرانِي معناه أن الرؤية منافية لحالي ، وجعل هذه المنافاة من مقتضى لَنْ ثم التزم ذلك في هذه اللفظة حيثما وقعت ، كل ذلك لتمرن الأذهان على أن هذا مقتضى لَنْ وقد سبق وجه الرد عليه في ذلك .

(3) . عاد كلامه . قال : «وقوله لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ معناه إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا الإتيان . . . الخ» قال أحمد : وإنما اختص هذا النوع من الاستثناء بالنفي ، لأن المستثنى

منه مسكوت عنه ، والنفي عام ، إذ يلزم من نفى الإتيان مثلا نفى جميع العوارض اللاحقة به ضرورة ، فكأنه لعمومه مقرون بذكر المستثنى منه ، ولا كذلك الإتيان ، فانه لا إشعار له بعموم الأحوال ، لأنه لا يتوقف إلا على أحدها ، واللّه أعلم . ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر ، وهو قولهم «البلاء موكل بالمنطق» فان يعقوب عليه السلام قال أولا في حق يوسف : وأخاف أن يأكله الذئب ، فابتلى من ناحية هذا القول . وقال هاهنا ثانيا : إلا أن يحاط بكم ، أى تغلبوا عليه ، فابتلى أيضا بذلك ، وأحيط بهم ، وغلبوا عليه .

[سورة يوسف (12) : الآيات 67 إلى 68]

وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (68)

وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد ، لأنهم كانوا ذوى بهاء وشارة حسنة ، «1»

اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم ، فكانوا مظنة

لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود، وأن يشار إليهم بالأصابع. ويقال هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر مّا أكرمهم الملك وقرّبهم وفضلهم على الوافدين عليه، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة، فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور، فيصيبهم ما يسوؤهم، ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكرّة الأولى، لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس. فإن قلت: هل للإصابة بالعين وجه تصحّ عليه؟ قلت: يجوز أن يحدث اللّه عز وجل عند النظر إلى الشيء والإعجاب به، نقصاناً فيه وخللا من بعض الوجوه، ويكون ذلك ابتلاء من اللّه وامتحاناً لعباده، ليتميز المحققون من أهل الحشو «2» فيقول المحقق:

هذا فعل اللّه، ويقول الحشوى: هو أثر العين، كما قال تعالى: وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا الآية. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «أنه كان يعوّذ الحسن والحسين فيقول: أعيذ كما بكلمات اللّه التامّة، من كل عين لامّة، ومن كل شيطان وهامّة» «3» وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ يعنى إن أراد اللّه بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق، وهو مصيبكم لا محالة إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ثم قال وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ أى متفرقين ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ رأى يعقوب ودخولهم متفرّقين شيئاً قط، حيث أصابهم ما ساءهم مع

---

(1). قوله «كانوا ذوى بهاء وشارة حسنة اشتهرهم» في الصحاح: الشارة: اللباس

والهيئة. وفيه. اشتهر الأمر، أي وضح. ولفلان فضيلة اشتهرها الناس. (ع)

(2) . قوله «ليتميز المحققون من أهل الحشو» إن كان مراده أهل السنة، فهم يقولون: تأثير العين من قبيل ربط الأسباب بالمسببات، كربط النار بالإحراق، فالسبب مؤثر في الظاهر، والله هو الفاعل في الحقيقة. قال النسفي:

وأنكر الجبائي العين اه وهو من مشايخ المعتزلة. (ع)

(3) . أخرجه البخاري وأصحاب السنن من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس هذا وأتم منه.

(182/400)

تفرّقهم، من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم إِلَّا حاجَةً استثناء منقطع، على معنى: ولكن حاجة فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وهي شفقته عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ يعنى قوله وَما أُغْنِي عَنْكُمْ وعلمه بأن القدر لا يغنى عنه الحذر.

[سورة يوسف (12) : آية 69]

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (69)

آوى إِلَيْهِ أَخاهُ ضم إليه بنيامين . وروى أنهم قالوا له : هذا أخونا قد جئناك به ، فقال لهم : أحسنتم وأصبتم ، وستجدون ذلك عندي ، فأنزلهم وأكرمهم ، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة . فبقى بنيامين وحده فبكى وقال : لو كان أخى يوسف حياً لأجلسنى معه ، فقال يوسف : بقي أخوكم وحيداً ، فأجلسه مع على مائدته وجعل يؤاكله ، قال : أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتاً ، وهذا لا ثانى له فيكون معى ، فبات يوسف يضمه إليه ويشم .

رائحته حتى أصبح ، وسأله عن ولده فقال : لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك ، فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أخا مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له إِنِّي أَنَا أَخُوكَ يوسف فَلا تَبْتَئِسْ فلا تحزن بِما كانُوا يَعْمَلُونَ بنا فيما مضى ، فإن اللّه قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ، ولا تعلمهم بما أعلمتك . وعن ابن عباس : تعرّف إليه . وعن وهب : إنما قال له :

أنا أخوك بدل أخيك المفقود ، فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم .

وروى أنه قال له : أنا لا أفارقك . قال : قد علمت اغتمام والدي بى ، فإذا حبستك ازداد غمه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى مالا يجمل . قال : لا أبالى فافعل ما بدا لك . قال

: فإني أدس صاعي في رحلك ، ثم أنادي عليك بأنك قد سرقته ، ليتهيأ لي ردّك بعد تسريحك معهم .

قال : افعل .

[سورة يوسف (12) : الآيات 70 إلى 72]

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (70) قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (71) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72)

السِّقايَةَ مشربة يسقى بها وهي الصواع . قيل : كان يسقى بها الملك ، ثم جعلت صاعا يكال

به . وقيل : كانت الدواب تسقى بها ويكال بها . وقيل : كانت إناء مستطيلا يشبه المكوك .

وقيل : هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم . وقيل : كانت من فضة مموّهة بالذهب ، وقيل كانت من ذهب . وقيل : كانت مرصعة بالجواهر ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ

ثم نادى مناد. يقال: آذنه أعلمه. وأذن: أكثر الإعلام. ومنه المؤذن، لكثرة ذلك منه.

روى:

أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا، ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا، ثم قيل لهم ذلك.

والعير: الإبل التي عليها الأحمال، لأنها تعير: أى تذهب وتجيء. وقيل: هي قافلة الحمير، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير، كأنها جمع عير، وأصلها فعل كسقف وسقف، فعل به ما فعل ببيض وعيد «1»، والمراد أصحاب العير كقوله: يا خيل الله اركبي. وقرأ ابن مسعود: وجعل السقاية، على حذف جواب لما، كأنه قيل: فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه، أمهلهم حتى انطلقوا، ثم أذن مؤذن. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى: تفقدون، من أفقدته إذا وجدته فقيداً. وقرئ: صواع، وصاع، وصوع. بفتح الصاد وضمها، والعين معجمة وغير معجمة وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ يقوله المؤذن، يريد: وأنا بحمل البعير كفيل، أؤدّيه إلى من جاء به، وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله.

[سورة يوسف (12): آية 73]

قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ (73)

تَاللَّهِ قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم. وإنما قالوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ فاستشهدوا بعلمهم. لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرّتى مجيئهم ومداخلتهم للملك، ولأنهم دخلوا

وأفواه رواحلهم مكعومة «2» ، لئلا تتناول زرعا أو طعاما لأحد من أهل السوق .

ولأنهم ردّوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم وَما كُنَّا سارِقِينَ وما كنا قط نوصف بالسرقة وهي منافية لحالنا .

[سورة يوسف (12) : الآيات 74 إلى 75]

قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (74) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75)

فَما جَزاؤُهُ الضمير للصواع ، أى ، فما جزاء سرقته إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ في جحودكم

---

(1) . قوله «ما فعل ببيض وعيد» لعله : وغيد ، بإعجام الغين ، وهو جمع غيداء أى ناعمة . أو أغيد ، بمعنى وسنان مائل العنق ، كذا في الصحاح ، فليحرر لفظ المصنف . (ع) [.....]

(2) . قوله «و أفواه رواحلهم مكعومة» يقال : كعمت البعير ، إذا شددت فمه بالكعام ، وهو شيء يجعل في فم البعير عند هياجه ، كذا في الصحاح . (ع)

وادّعائكم البراءة منه قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ أى جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترقّ سنة، فلذلك استفتوا في جزائه.

وقولهم فَهُوَ جَزاؤُهُ تقرير للحكم، أى: فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير، كقولك: حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه، فذلك حقه، أى: فهو حقه لتقرّر ما ذكرته من استحقاقه وتلزمه «1» ويجوز أن يكون جَزاؤُهُ مبتدأ، والجملة الشرطية كما هي خبره، على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر. والأصل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو، فوضع الجزاء موضع هو، كما تقول لصاحبك: من أخو زيد؟ فيقول لك: أخوه من يقعد إلى جنبه، فهو هو، يرجع الضمير الأوّل إلى من، والثاني إلى الأخ، ثم تقول «فهو أخوه» مقيما للمظهر مقام المضمر. ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدإ محذوف، أى: المسئول عنه جزاؤه، ثم أفتوا بقولهم: من وجد في رحله فهو جزاؤه، كما يقول: من يستفتى في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم، ثم يقول: وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ.

[سورة يوسف (12): آية 76]

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76)

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قيل: قال لهم من وكل بهم: لا بدّ من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفى التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظنّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: واللّه لا تتركه حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه. وقرأ الحسن: وعاء أخيه، بضم الواو، وهي لغة. وقرأ سعيد ابن جبير: إعاء أخيه، بقلب الواو همزة. فإن قلت: لم ذكر ضمير الصواع مرّات ثم أنثه؟ قلت:

قالوا رجع بالتأنيث على السقاية، أو أنث الصواع لأنه يذكر ويؤنث، ولعلّ يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعا، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية، وفيما يتصل بهم منه صواعا كَذلِكَ كِدْنا مثل ذلك الكيد العظيم كدنا لِيُوسُفَ يعنى علمناه إياه وأوحينا به إليه ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ تفسير للكيد وبيان له، لأنه كان في دين ملك مصر، وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يلزم ويستعبد إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ

---

(1). قوله «من استحقاقه وتلزمه. ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ» سيذكر أن حكم السارق في دين ملك مصر:

أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يلزم ويستعبد. (ع)

أي ما كان يأخذه إلا بمشيئة اللّه وإذنه فيه نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه. وقرئ: يرفع بالياء. ودرجات بالتنوين وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ فوقه أرفع درجة منه في علمه، أو فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم، وهو اللّه عز وعلا. فإن قلت:

ما أذن اللّه فيه يجب أن يكون حسناً، فمن أى وجه حسن هذا الكيد؟ وما هو إلا بهتان، وتسريق لمن لم يسرق، وتكذيب لمن لم يكذب، وهو قوله إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ، فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ؟ قلت: هو في صورة البهتان وليس ببهتان في الحقيقة، لأنّ قوله إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف. وقيل: كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف، وقوله إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ فرض لانتفاء براءتهم. وفرض التكذيب لا يكون تكذيباً، على أنه لو صرّح لهم بالتكذيب كما صرّح لهم بالتسريق. لكان له وجه، لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ليتخلص من جلدها ولا يحنث، وكقول إبراهيم عليه السلام: هي أختى، لتسلم من يد الكافر. وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد علم اللّه تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلماً

وذريعة إليها ، فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا . انتهى ا .

هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 481. 492 ﴾

(186/400)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) ﴾

يقال استخلصه واستخصه ، إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ وشاهد منه ما لم يحتسب ﴿ قَالَ ﴾ أيها الصديق ﴿ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مِكِينٌ ﴾ ذو مكانة ومنزلة ﴿ أَمِينٌ ﴾ مؤتمن على كل شيء .

روي أنّ الرسول جاءه فقال : أجب الملك ، فخرج من السجن ودعا لأهله : اللهم أعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار ، فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات .

وكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ، ولبس ثياباً جدداً فلما دخل على الملك قال : اللهمّ إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ، ثم سلم عليه

ودعا له بالعبرانية ، فقال : ما هذا اللسان ؟

قال لسان آبائي ، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً ، فكلمه بها فأجابه بجميعها ، فتعجب منه وقال : أيها الصدّيق ، إني أحب أن أسمع رؤياي منك .

فقال : رأيت بقرات فوصف لونهنّ وأحوالهنّ ومكان خروجهنّ ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفاً ، وقال له : من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء ، فيأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك ، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك .

﴿ اجعلنى على خَزَائِنِ الأرض ﴾ ولني خزائن أرضك ﴿ إِنّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه ، عالم بوجوه التصرف ، وصفا لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه ، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أنّ أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم :

(551) " رحم الله أخي يوسف ، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض ، لاستعمله من ساعته ، ولكنه أخر ذلك سنة " فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملا من يد كافر ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاعته ؟

قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم : وعن قتادة .

هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه .

وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق .

فله أن يستظهر به .

وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى ، فكان في حكم التابع له والمطيع .

﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ في أرض مصر .

روي أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء ﴾ قرىء بالنون والياء ، أي : كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً ومتبوّأ له ، لم يمنع منه لا ستيلائه على جميعها ودخوله تحت ملكته وسلطانه .

روي : أنّ الملك توّجه ، وختمه بخاتمه ، ورداه بسيفه .

ووضع له سريراً من ذهب مكللا بالدرّ والياقوت .

روي أنه قال له : أمّا السرير فأشدّ به ملكك .

وأمّا الخاتم فأدبر به أمرك ، وأمّا التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي .

فقال : قد وضعته إجلالا لك وإقراراً بفضلك .

فجلس على السرير ودانت له الملوك ، وفوّض الملك إليه أمره وعزل قطفير ، ثم مات بعده ، فزوّجه الملك امرأته زليخا ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيراً مما طلبت ؟

(188/400)

فوجدها عذراء ، فولدت له ولدين : إفراثيم وميشا ، وأقام العدل بمصر ، وأحبته الرجال والنساء ، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس ، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها ، ثم بالحلي والجواهر ، ثم بالدواب ، ثم بالضياع والعقار ، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً ، فقالوا : والله ما رأينا كاليوم ملكاً أجل ولا أعظم منه فقال الملك كيف رأيت صنع الله بي فيما خوّلني فما ترى قال الرأي رأيك : قال : فإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم ،

وردت عليهم أملاكهم ، وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير ، تقسيطاً بين الناس .

وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر ، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين ﴿ بِرَحْمَتِنَا ﴾ بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ﴿ مَّن نَّشَاءُ ﴾ من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ أن نأجرهم في الدنيا .

﴿ ولأَجْرُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ لهم .

قال سفيان بن عيينة : المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة ، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا ، وما له في الآخرة من خلاق ، وتلا هذه الآية .

لم يعرفوه لطول العهد ومفارقته إياهم في سنّ الحداثة ، ولاعتقادهم أنه قد هلك ، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه ، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقوه عليها طريحاً في البئر ، مشرياً بدراهم معدودة ، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم ، ولأنّ الملك مما يبدّل الزيّ ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف .

وقيل : رأوه على زيّ فرعون عليه ثياب الحرير جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج ، فما خطر ببالهم أنه هو .

وقيل : ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب ، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج ، وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال ورأى زيهم قريباً من زيهم إذ ذاك ، ولأنّ همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم ، فكان يتأمّل ويتفطن .

وعن الحسن : ما عرفهم حتى تعرّفوا له .

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي أصلحهم بعدّتهم وهي عدّة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون وأوقر ركائبهم بما جاؤا له من الميرة .

وقرىء : "بجهازهم" بكسر الجيم ﴿ قَالَ ائتونى بِأَخٍ لَّكُمْ مّنْ أَبِيكُمْ ﴾ لا بد من مقدمة سبقت له معهم ، حتى اجترّ القول هذه المسئلة .

روي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم : أخبروني من أنتم وما شأنكم ؟ فإني أنكركم .

قالوا : نحن قوم من أهل الشام رعاة ، أصابنا الجهد فجئنا نمتار ، فقال ؛ لعلكم جئتم عيونا تنظرون عورة بلادي ؟

قالوا : معاذ الله ، نحن إخوة بنو أب واحد ، وهو شيخ صدّيق نبي من الأنبياء ، اسمه

يعقوب .

قال : كم أنتم ؟

قالوا : كنا اثني عشر ، فهلك منا واحد .

قال : فكم أنتم ههنا ؟

قالوا : عشرة .

قال : فأين الأخ الحادي عشر ؟

قالوا : هو عند أبيه يتسلى به من الهالك .

قال : فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون وأنّ الذي تقولون حق ؟

قالوا : إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا .

قال : فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم ، وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم ، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون - وكان أحسنهم رأيا في يوسف - فخلفوه عنده ، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون داخلاً في حكم الجزاء مجزوماً ، عطفاً على محل قوله : ﴿ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ ﴾ كأنه قيل : فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا ، وأن يكون بمعنى النهي .

﴿ سنراود عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ سنخادعه عنه ، وسنجتهد ونحتال حتى ننتزعه من يده ﴿ وَإِنَّا لفاعلون ﴾ وإنا لقادرون على ذلك لا نتعانى به ، أو وإنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى .

﴿ لِفِتْيَانِهِ ﴾ وقرىء : "لفتيانه" وهما جمع فتى ، كإخوة وإخوان في أخ ، و "فعلة" للقلة . و"فعلان" للكثرة ، أي لغلمانه الكيالين ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ لعلهم يعرفون حق ردّها وحق التكرم بإعطاء البدلين ﴿ إِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمْ ﴾ وفرغوا ظروفهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا ، وكانت بضاعتهم النعال والأدم .

وقيل : تخوّف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به .

وقيل : لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً ، وقيل : علم أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها .

وقيل : معنى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم يردّونها .

﴿ مُنِعَ مِنَّا الكيل ﴾ يريدون قول يوسف فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ، لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل ﴿ نَكْتَلْ ﴾ نرفع المانع من الكيل ، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه .

وقرىء : "يكتل" بمعنى يكتل أخونا ، فينضم اكتياله إلى اكتيالنا .

أو يكن سبباً للاكتيال فإن امتناعه بسببه .

﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ يريد أنكم قلتم في يوسف ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [يوسف : 12 : 63] كما تقولونه في أخيه ، ثم خنتم بضمانكم ، فما يؤمنني من مثل ذلك .

ثم قال ﴿ فالله خَيْرٌ حافظا ﴾ فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم .

و﴿ حافظا ﴾ تمييز ، كقولك : هو خيرهم رجلاً ، ولله درّه فارساً .

ويجوز أن يكون حالاً وقرىء : "حفظاً" وقرأ الأعمش : "فالله خير حافظ" .

وقرأ أبو هريرة : "خير الحافظين" ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ فأرجو أن ينعم عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين .

(191/400)

وقرىء : "ردت إلينا" بالكسر ، على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء ، كما في : قيل وبيع ، وحكى قطرب ضرب زيد .

على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد ﴿ مَا نَبْغِى ﴾ للنفي ، أي : ما نبغي في القول ، وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه ، وكانوا قالوا له : إنا قدمنا على خير رجل ، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته .

أو ما نبتغي شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان .

أو على الاستفهام ، بمعنى أي شيء نطلب وراء هذا ؟

وفي قراءة ابن مسعود "ما تبغي" ، بالتاء على مخاطبة يعقوب ، معناه : أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان ، أو من الشاهد على صدقنا ؟

وقيل : معناه ما نريد منك بضاعة أخرى .

وقوله ﴿ هذه بضاعتنا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ جملة مستأنفة موضحة لقوله : ﴿ مَا نَبْغِى ﴾ والجمل بعدها معطوفة عليها ، على معنى : إن بضاعتنا ردّت إلينا ، فنستظهر بها ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ في رجوعنا إلى الملك ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ فما يصيبه شيء مما تخافه ، ونزداد باستصحاب أخينا وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا ، فأي شيء نبتغي وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا : وإنما قالوا : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ لما ذكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقسيط فإن قلت : هذا إذا فسرت البغي بالطلب ، فأما إذا فسرته بالكذب والتزيد في القول ، كانت الجملة الأولى وهي قوله : ﴿ هذه بضاعتنا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ بياناً لصدقهم وانتفاء التزيد عن قيلهم ، فما تصنع بالجمل البواقي ؟

قلت : أعطفها على قوله : ﴿ مَا نَبْغِى ﴾ على معنى : لا نبغي فيما نقول ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ ونفعل كيت وكيت .

ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ ، كقولك : وينبغي أن نمير أهلنا ، كما تقول : سعيت في حاجة فلان ، واجتهدت في تحصيل غرضه .

ويجب أن أسعى ، وينبغي لي أن لا أقصر .

(192/400)

ويجوز أن يراد : ما نبغي وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا ، ثم قالوا : هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع .

بياناً لأنهم لا يبغون في رأيهم وأنهم مصيبون فيه ، وهو وجه حسن واضح ﴿ ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي ذلك مكيل قليل لا يكفينا ، يعنون : ما يكال لهم .

فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم .

أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير ، أي ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه ، أو سهل عليه متيسر لا يتعاظمه .

ويجوز أن يكون من كلام يعقوب ، وأن حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد ، كقوله ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ ﴾ [يوسف : 52] .

﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾ مناف لحالي وقد رأيت منكم ما رأيت - إرساله معكم ﴿ حتى

تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله ، أراد أن يحلفوله بالله : وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدّد .

وقد أذن الله في ذلك فهو إذن منه ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ ﴾ جواب اليمين ؛ لأن المعنى : حتى تحلفوا لتأتنني به ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا فلم تطيقوا الإتيان به .

أو إلا أن تهلكوا .

فإن قلت : أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء ففيه إشكال ؟

قلت : ﴿ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ مفعول له ، والكلام المثبت الذي هو قوله ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ ﴾ في تأويل النفي .

معناه : لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم ، أي : لا تمتنعون منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة : وهي أن يحاط بكم ، فهو استثناء من أعم العام في المفعول له ، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده ، فلا بد من تأويله بالنفي .

ونظيره من الإثبات المتأوّل بمعنى النفي قولهم : أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت ، تريد : ما أطلب منك إلا الفعل ﴿ عَلَىٰ مَا نَقُولُ ﴾ من طلب الموثق وإعطائه ﴿ وَكِيلٌ ﴾ رقيب مطلع .

وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد ، لأنهم كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة ، اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم ، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود ، وأن يشار إليهم بالأصابع .

ويقال : هؤلاء أضياف الملك ، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان ، وما أحقهم بالإكرام ، لأمر مّا أكرمهم الملك وقرّبهم وفضلهم على الوافدين عليه ، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة ، فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور ، فيصيبهم ما يسوؤهم ؛ ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكرّة الأولى ، لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس .

فإن قلت : هل للإصابة بالعين وجه تصحّ عليه ؟

قلت : يجوز أن يحدث الله عز وجل عند النظر إلى الشيء والإعجاب به ، نقصاناً فيه وخللا من بعض الوجوه ، ويكون ذلك ابتلاء من الله وامتحاناً لعباده ، ليتميز المحققون من أهل الحشو فيقول المحقق : هذا فعل الله ، ويقول الحشوي : هو أثر العين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر : 31] الآية .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم :

(552) " أنه كان يعوّذ الحسن والحسين فيقول : أعيذكما بكلمات الله التامّة ، من كل عين لامّة ، ومن كل شيطان وهّامة " ﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ يعني إن أراد

الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق ، وهو مصيبكم لا محالة ﴿ إِنِ الحكم إِلَّا لِلَّهِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ أي متفرقين ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُمْ ﴾ رأي يعقوب ودخولهم متفرّقين شيئاً قط ، حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرّقهم ، من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك ، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله ، وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناء منقطع .

على معنى : ولكن حاجة ﴿ فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ وهي شفقته عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ ﴾ يعني قوله : ﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ ﴾ وعلمه بأن القدر لا يغني عنه الحذر .

﴿ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ ضم إليه بنيامين .

وروي أنهم قالوا له : هذا أخونا قد جئناك به ، فقال لهم : أحسنتم وأصبتم ، وستجدون ذلك عندي ، فأنزلهم وأكرمهم ، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال : لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه ، فقال يوسف : بقي أخوكم

وحيداً ، فأجلسه معه على مائدته وجعل يواكله ، قال : أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتاً ، وهذا لا ثاني له فيكون معي ، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح ، وسأله عن ولده فقال : لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك ، فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟

قال : من يجد أخا مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له ﴿ إِنِّى أَنَاْ أَخُوكَ ﴾ يوسف ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ فلا تحزن ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بنا فيما مضى ، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ، ولا تعلمهم بما أعلمتك .

وعن ابن عباس : تعرّف إليه وعن وهب : إنما قال له : أنا أخوك بدل أخيك المفقود ، فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم .

وروي أنه قال له : أنا لا أفارقك .

قال : قد علمت اغتمام والدي بي ، فإذا حبستك ازداد غمه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل .

قال : لا أبالي فافعل ما بدا لك .

قال : فإني أدس صاعي في رحلك ، ثم أنادي عليك بأنك قد سرقته ، ليتهيأ لي ردّك بعد تسريحك معهم .

قال : افعل .

﴿ السقاية ﴾ مشربة يسقى بها وهي الصواع .

قيل : كان يسقى بها الملك ، ثم جعلت صاعاً يكال به .

وقيل : كانت الدواب تسقي بها ويكال بها .

(195/400)

وقيل : كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك وقيل : هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم .

وقيل : كانت من فضة مموّهة بالذهب ، وقيل كانت من ذهب .

وقيل : كانت مرصعة بالجواهر ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ ثم نادى مناد .

يقال : آذنه أعلمه .

وأذن : أكثر الإعلام .

ومنه المؤذن ، لكثرة ذلك منه .

روي : أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ، ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا ، ثم قيل لهم ذلك .

والعير : الإبل التي عليها الأحمال ، لأنها تعير : أي تذهب وتجيء .

وقيل : هي قافلة الحمير ، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير ، كأنها جمع عير ، وأصلها فعل كسقف وسقف ، فعل به ما فعل ببيض وعيد ، والمراد أصحاب العير كقوله :

(553) "يا خيل الله اركبي" .

وقرأ ابن مسعود : "وجعل السقاية" ، على حذف جواب لما ، كأنه قيل : فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه ، أمهلهم حتى انطلقوا ، ثم أذن مؤذن .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : "تفقدون" من أفقدته إذا وجدته فقيداً .

وقرىء : "صواع" ، "وصاع" ، "وصوع" ، "وصُوع" بفتح الصاد وضمها ، والعين معجمة وغير معجمة ﴿ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ يقوله المؤذن ، يريد : وأنا بحمل البعير كفيل ، أُؤدّيه إلى من جاء به ؛ وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله .

﴿ تالله ﴾ قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم ، وإنما قالوا ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ فاستشهدوا بعلمهم .

لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرّتي مجيئهم ومداخلتهم للملك ، ولأنهم دخلوا وأفواه رواحلهم مكعومة لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق .

ولأنهم ردّوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم ﴿ وَمَا كُنَّا سارقين ﴾ وما كنا قط نوصف بالسرقة وهي منافية لحالنا .

﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ الضمير للصواع ، أي فما جزاء سرقته ﴿ إِن كُنتُمْ كاذبين ﴾ في جحودكم وادّعائكم البراءة منه ﴿ قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ ﴾ أي جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله ، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترقّ سنة ، فلذلك استفتوا في جزائه .

وقولهم ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ تقرير للحكم ، أي : فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير ، كقولك : حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه ، فذلك حقه ، أي : فهو حقه لتقرّر ما ذكرته من استحقاقه وتلزمه ويجوز أن يكون ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ مبتدأ ، والجملة الشرطية كما هي خبره ، على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر .

والأصل : جزاؤه من وجد في رحله فهو هو فوضع الجزاء موضع هو ، كما تقول لصاحبك : من أخو زيد فيقول لك أخوه من يقعد إلى جنبه فهو هو يرجع الضمير الأول إلى من والثاني إلى الأخ ، ثم تقول "فهو أخوه" مقيماً للمظهر مقام المضمر .

ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف ، أي : المسؤل عنه جزاؤه ، ثم أفتوا بقولهم : من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كما يقول : من يستفتى في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم ، ثم يقول : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ [المائدة : 95] .

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ قيل : قال لهم من وكل بهم : لا بدّ من تفتيش أوعيتكم ، فانصرف بهم إلى يوسف ، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال : ما أظنّ هذا أخذ شيئًا ، فقالوا : والله لا نتركه حتى تنظر في رحله ، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ، فاستخرجوه منه وقرأ الحسن : "وُعاء أخيه" ، بضم الواو ، وهي لغة .

وقرأ سعيد ابن جبير : "إعاء أخيه" ، بقلب الواو همزة .

فإن قلت : لم ذكر ضمير الصواع مرّات ثم أنثه ؟

قلت : قالوا رجع بالتأنيث على السقاية ، أو أنث الصواع لأنه يذكر ويؤنث ، ولعلّ يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعاً ، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية ، وفيما يتصل بهم منه صواعاً ﴿ كذلك كِدْنَا ﴾ مثل ذلك الكيد العظيم كدنا ﴿ لِيُوسُفَ ﴾ يعني علمناه إياه وأوحينا به إليه ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الملك ﴾ تفسير للكيد وبيان له ، لأنه كان في دين ملك مصر ، وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ ، لا أن يلزم ويستعبد ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ أي ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإذنه فيه ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه .

وقرىء : "يرفع" بالياء .

ودرجات بالتنوين ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فوقه أرفع درجة منه في علمه ، أو [و]

فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم ، وهو الله عز وعلا .

فإن قلت : ما أذن الله فيه يجب أن يكون حسناً ، فمن أي وجه حسن هذا الكيد ؟

وما هو إلا بهتان ، وتسريق لمن لم يسرق ، وتكذيب لمن لم يكذب ، وهو قوله ﴿ إِنَّكُمْ

لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف : 70] ، ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [يوسف : 74] ؟

قلت : هو في صورة البهتان وليس ببهتان في الحقيقة ؛ لأنّ قوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [

يوسف : 70] تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف .

وقيل : كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف ، وقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [يوسف :

74] فرض لانتفاء براءتهم .

وفرض التكذيب لا يكون تكذيباً ، على أنه لو صرّح لهم بالتكذيب ، كما صرّح لهم

بالتسريق .

لكان له وجه ؛ لأنهم كانوا كاذبين في قولهم : ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذئب ﴾ [يوسف : 17] هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية ، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ [ص : 44] ليتخلص من جلدها ولا يحنث ، وكقول إبراهيم عليه السلام : هي أختي ، لتسلم من يد الكافر .

وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد ، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلماً وذريعة إليها ، فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ ﴾

(199/400)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) ﴾

وقال المفسرون : فلما تبين الملك عذر يوسف وعَلِم أمانته ، قال : ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ أي : أجعله خالصاً لي ، لا يشركني فيه أحد .

فإن قيل : فقد رويتم في بعض ما مضى أن يوسف قال في مجلس الملك : "ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب" فكيف قال الملك : "ائتوني به" وهو حاضر عنده ؟ !

فالجواب : أن أرباب هذا القول يقولون : أمر الملك باحضاره ليقلّده الأعمال في غير المجلس الذي استحضره فيه لتعبير الرؤيا .

قال وهب : لما دخل يوسف على الملك ، وكان الملك يتكلّم بسبعين لساناً ، كان كلما كلَّمه بلسان ، أجابه يوسف بذلك اللسان ، فعجب الملك ، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فقال : إني أحب أن أسمع رؤياي منك شِفاهاً ، فذكرها له ، قال : فما ترى أيها الصِّدِّيق ؟ قال : أرى أن تزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة ، وتجمع الطعام ، فيأتيك الناس فيمتارون ، وتجمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد ، فقال الملك : ومن لي بهذا ؟ فقال يوسف : "اجعلني على خزائن الأرض" .

قال ابن عباس : ويريد بقوله : ﴿ مكين أمين ﴾ أي : قد مكَّنتكَ في ملكي وائتمنتكَ فيه .

وقال مقاتل : المكين : الوجيه ، والأمين : الحافظ .

قوله تعالى : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ أي : خزائن أرضك .

وفي المراد بالخزائن قولان :

أحدهما : خزائن الأموال ، قاله الضحاك ، والزجاج .

والثاني : خزائن الطعام فحسب ، قاله ابن السائب .

قال الزجاج : وإنما سأل ذلك ، لأن الأنبياء ، بُعثوا بالعدل ، فعلم أنه لا أحد أقوَم بذلك منه .

وفي قوله : ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : حفيظ لما وليتني ، عليم بالمجاعة متى تكون ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

(200/400)

والثاني : حفيظ لما استودعتني ، عليم بهذه السنين ، قاله الحسن .

والثالث : حفيظ للحساب ، عليم بالألسن ، قاله السدي ، وذلك أن الناس كانوا يَرِدُون على الملك من كل ناحية فيتكلمون بلغات مختلفة .

واختلفوا ، هل ولّاه الملك يومئذ ، أم لا ؟ على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه ولّاه بعد سنة ، روى الضحاك عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " رحم الله أخي يوسف ، لو لم يقل : اجعلني على خزائن الأرض ، لاستعمله من ساعته ، ولكنه أَخَّر ذلك سنة " .

وذكر مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن يوسف قال إني حفيظ عليم إن شاء الله ، لملك من وقته " قال مجاهد : أسلم الملك على يد يوسف .

وقال أهل السِّيَر : أقام في بيت الملك سنة ، فلما انصرمت ، دعاه الملك ، فتوّجه ، وردّاه

بسيفه ، وأمر له بسرير من ذهب ، وضرب عليه كِلّةً من إستبرق ، فجلس على السرير كالقمر ، ودانت له الملوك ، ولزم الملك بيته ، وفوّض أمره إليه ، وعزل قُطَفِير عما كان عليه ، وجعل يوسف مكانه ، ثم إن قطفير هلك في تلك الليالي ، فزوّج الملكُ يوسفَ بامرأة قطفير ، فلما دخل عليها ، قال : أليس هذا خيراً مما تريدين ؟ فقالت : أيها الصّدّيق لا تلمني ، فاني كنت امرأة حسناء في مُلك ودنيا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، فغلبتني نفسي ، فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء ، فولدت له ابنين ، إفرايم ومِيشا ، واستوسق له ملك مصر .

والقول الثاني : أنه ملّكه بعد سنة ونصف ، حكاه مقاتل عن ابن عباس .

والثالث : أنه سلّم إليه الأمر من وقته ، قاله وهب ، وابن السائب .

فإن قيل : كيف قال يوسف : "إني حفيظ عليم" ولم يقل : إن شاء الله ؟ فعنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أن ترك الاستثناء أوجب عقوبة بأن أخّر تمليكه ، على ما ذكرنا عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنه أضمر الاستثناء ، كما أضمروه في قولهم : ﴿ ونمير أهلها ﴾ .

والثالث : أنه أراد أن حفظي وعِلمي يزيدان على حفظ غيري وعِلمه ، فلم يحتج هذا إِلى الاستثناء ، لعدم الشك فيه ، ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري .

فإن قيل : كيف مدح نفسه بهذا القول ، ومن شأن الأنبياء والصالحين التواضع ؟

فالجواب : أنه لما خلا مدحُه لنفسه من بغي وتكبر ، وكان مراده به الوصول إِلى حق يقيمه وعدل يحييه وجور يبطله ، كان ذلك جميلاً جائزاً ، وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم : " أنا أكرم ولد آدم على ربه " ، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : والله ما من آية إِلا وأنا أعلم أبليل نزلت ، أم بنهار .

وقال ابن مسعود : لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإِبل لأتيته .

فهذه الأشياء ، خرجت مخرج الشكر لله ، وتعريف المستفيد ما عند المفيد ، ذكر هذا محمد بن القاسم .

قال القاضي أبو يعلى : في قصة يوسف دلالة على أنه يجوز للانسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه ، وأنه ليس من المحظور في قوله : ﴿ فلا تزكُّوا أنفسكم ﴾ [النجم : 32] .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكَّنّا ليوسف ﴾ في الكلام محذوف ، تقديره : اجعلني على خزائن الأرض ، قال : قد فعلت ، فحُذف ذلك ، لأن قوله : "وكذلك مكنا ليوسف" يدل عليه ، والمعنى : ومثل ذلك الإِنعام الذي أنعما عليه في دفع المكروه عنه ، وتخليصه من

السجن، وتقريبه من قلب الملك، أقدرناه على ما يريد في أرض مصر ﴿ يتبوّأ منها حيث يشاء ﴾ قال ابن عباس: ينزل حيث أراد.

وقرأ ابن كثير، والمفضل: "حيث نشاء" بالنون.

قوله تعالى: ﴿ نصيب برحمتنا ﴾ أي: نختصُّ بنعمتنا من النبوَّة والنجاة ﴿ مَن نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ يعني المؤمنين.

يقال: إِن يوسف باع أهل مصر الطعام بأموالهم، وحِلِيّهم، ومواشيهم، وعقارهم، وعبيدهم، ثم بأولادهم، ثم برقابهم، ثم قال للملك: كيف ترى صُنع ربي؟ فقال الملك: إِنما نحن لك تبع، قال: فإني أُشهد الله وأُشهدك أني قد أعتقت أهل مصر ورددت عليهم أملاكهم.

وكان يوسف لا يَشبع في تلك الأيام، ويقول: إِني أخاف أن أنسى الجائع.

قوله تعالى: ﴿ ولأجر الآخرة خير ﴾ المعنى: ما نُعطي يوسف في الآخرة، خير مما أعطيناه في الدنيا، وكذلك غيره من المؤمنين ممن سلك طريقه في الصبر.

قوله تعالى: ﴿ وجاء إِخوة يوسف ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس قال: لما فوّض الملك

إلى يوسف أمْر مصر ، تلطَّف يوسف للناس ، ولم يزل يدعوهم إلى الإسلام ، فآمنوا به وأحبُّوه ، فلما أصاب الناسَ القحطُ ، نزل ذلك بأرض كنعان ، فأرسل يعقوبُ ولده للميرة ، وذاع أمر يوسف في الآفاق ، وانتشر عدله ورحمته ورأفته ، فقال يعقوب : يا بَني ، إنه قد بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً ، فانطلقوا إليه وأقرئوه مني السلام ، وانتسبوا له لعله يعرفكم ، فانطلقوا فدخلوا عليه ، فعرفهم وأنكروه ، فقال : من أين أقبلتم ؟ قالوا : من أرض كنعان ، ولنا شيخ يقال له : يعقوب ، وهو يقرئك السلام ، فبكى وعصر عينيه وقال : لعلكم جواسيس جئتم تنظرون عورة بلدي ، فقالوا : لا والله ، ولكنَّا من كنعان ، أصابنا الجَهد ، فأمرَنا أبونا أن نأتيَك ، فقد بلغه عنك خير ، قال : فكم أنتم ؟ قالوا : أحد عشر أخاً ، وكنا اثني عشر فأكل أحدَنا الذئبُ ، قال : فمن يعلم صدقكم ؟ ائتوني بأخيكم الذي من أبيكم .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : لما دخلوا عليه كلَّموه بالعبرانية ، فأمر الترجمان فكلَّمهم ليشبِّه عليهم ، فقال للترجمان : قل لهم : أنتم عيون ، بعثكم ملككم لتنظروا إلى أهل مصر فتخبرونه فيأتينا بالجنود ، فقالوا : لا ، ولكنا قوم لنا أب شيخ كبير ، وكنا اثني

عشر ، فهلك منا واحد في الغنم ، وقد خلّفنا عند أبينا أخاً له من أمه ، فقال : إِن كنتم صادقين ، فخلِّفوا عندي بعضكم رهنا ، وائتوني بأخيكم ، فحبس عنده شمعون .

واختلفوا بماذا عرفهم يوسف على قولين .

أحدهما : أنه عرفهم برؤيتهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه ما عرفهم حتى تعرَّفوا إِليه ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وهم له منكرون ﴾ قال مقاتل : لا يعرفونه .

وفي علَّة كونهم لم يعرفوه قولان :

أحدهما : أنهم جاؤوه مقدِّرين أنه ملك كافر ، فلم يتأملوا منه ما يزول به عنهم الشك .

والثاني : أنهم عاينوا من زِيِّه وحليته ما كان سبباً لإِنكارهم .

وقد روى أبو صالح عن ابن عباس أنه كان لابساً ثياب حرير ، وفي عنقه طوق من ذهب .

فإن قيل : كيف يخفى من قد أُعطي نصف الحسن ، وكيف يشتبه بغيره ؟

فالجواب : أنهم فارقوه طفلاً ورأوه كبيراً ، والأحوال تتغير ، وما توهموا أنه ينال هذه المرتبة .

وقال ابن قتيبة : معنى كونه أُعطي نصف الحسن ، أن الله جعل للحسن غاية وحدّاً ، وجعله لمن شاء من خَلقه ، إِما للملائكة ، أو للحور ، فجعل ليوسف نصف ذلك الحسن ، فكأنه كان حُسناً مقارباً لتلك الوجوه الحسنة ، وليس كما يزعم الناس من أنه أُعطي هذا

الحسن ، وأُعطي الناس كلُّهم نصف الحسن .

قوله تعالى : ﴿ ولما جهَّزَهم بِجَهَازِهم ﴾ يقال : جهَّزت القوم تجهيزاً : إِذا هيأت لهم ما يصلحهم ، وجهاز البيت : متاعه .

قال المفسرون : حمل لكل رجل منهم بعيراً ، وقال : ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل ﴾ أي : أُتمه ولا أَبْخَسُه ، ﴿ وأنا خير المنزِلين ﴾ يعني : المضِيفين ، وذلك أنه أحسنَ ضيافتهم .

ثم أوعدهم على ترك الإِتيان بأخيهم ، فقال : ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : أنه يعني به : فيما بعد ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : أنه منعهم الكيل في الحال ، قاله وهب بن منبه .

قوله تعالى : ﴿ قالوا سنراود عنه أباه ﴾ أي : نطلبه منه ، والمراودة : الاجتهاد في الطلب .

وفي قوله : ﴿ وإِنا لفاعلون ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المعنى : وإِنا لجاؤوك به .

وضامنون لك المجيء به ، هذا مذهب الكلبي .

والثاني : أنه توكيد ، قاله الزجاج ، فعلى هذا ، يكون الفعل الذي ضمِنوه عائداً إِلى المراودة ، فيصح معنى التوكيد .

والثالث : وإِنما لمديمون المطالبة به لأبينا ، ومتابعون المشورة عليه بتوجيهه ، وهذا غير المراودة ، ذكره ابن الأنباري .

فإن قيل : كيف جاز ليوسف أن يطلب أخاه ، وهو يعلم ما في ذلك من إِدخال الحزن على أبيه ؟ فعنه خمسة أجوبة :

أحدها : أنه يجوز أن يكون ذلك بأمر عن الله تعالى زيادة لبلاء يعقوب ليعظم ثوابه ، وهذا الأظهر .

والثاني : أنه طلبه لا ليحبسه ، فلما عرفه قال : لا أفارقك يا يوسف ، قال : لا يمكنني حبسك إِلا أن أنسبك إِلى أمر فظيع ، قال : أفعل ما بدا لك ، قاله كعب .

والثالث : أن يكون قصد تنبيه يعقوب بذلك على حال يوسف .

والرابع : ليتضاعف سرور يعقوب برجوع ولديه .

والخامس : ليعجِّل سرور أخيه باجتماعه به قبل إِخوته .

وكل هذه الأجوبة مدخوله ، إِلا الأول ، فانه الصحيح .

ويدل عليه ما روينا عن وهب بن منبه ، قال : لما جمع الله بين يوسف ويعقوب ، قال له

يعقوب : بيني وبينك هذه المسافة القريبة ، ولم تكتب إِليّ تعرِّفني ؟ ! فقال : إِن جبريل أمرني أن لا أعرِّفك ، فقال له : سل جبريل ، فسأله ، فقال : إِن الله أمرني بذلك ، فقال : سل ربك ، فسأله ، فقال : قل ليعقوب : خفتَ عليه الذئب ، ولم تُؤَمِّنِّي ؟

(205/400)

قوله تعالى : ﴿ وقال لفتيته ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : "لفتيته" وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "لفتيانه" قال أبو علي : الفتية جمع فتى في العدد القليل ، والفتيان في الكثير .

والمعنى : قال لغلمانه : ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ وهي التي اشتَرَوا بها الطعام ﴿ في رحالهم ﴾ ، والرحل : كل شيء يُعَدُّ للرحيل .

﴿ لعلهم يعرفونها ﴾ أي : ليعرفوها ﴿ إِذا انقلبوا ﴾ أي : رجعوا ﴿ إِلى أهلهم ، لعلهم يرجعون ﴾ أي : لكي يرجعوا .

وفي مقصوده بذلك خمسة أقوال :

أحدها : أنه تخوف أن لا يكون عند أبيه من الورِق ما يرجعون به مرة أخرى ، فجعل دراهمهم في رحالهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنه أراد أنهم إذا عرفوها ، لم يستحلُّوا إمساكها حتى يردُّوها ، قاله الضحاك .

والثالث : أنه استقبح أخذ الثمن من والده وإخوته مع حاجتهم إليه ، فردَّه عليهم من حيث لا يعلمون سبب رده تكرماً وتفضلاً ، ذكره ابن جرير الطبري ، وأبو سليمان الدمشقي .

والرابع : ليعلموا أنّ طلبه لعَوْدهم لم يكن طمعاً في أموالهم ، ذكره الماوردي .

والخامس : أنه أراهم كرمه وبرَّه ليكون أدعى إلى عَوْدهم .

قوله تعالى : ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم ﴾ قال المفسرون : لما عادوا إلى يعقوب ، قالوا : يا أبانا ، قَدِمنا على خير رجل ، أنزلنا ، وأكرمنا كرامة ، لو كان رجلاً من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته .

وفي قوله : ﴿ مُنع منا الكيل ﴾ قولان قد تقدما في قوله : ﴿ فلا كيل لكم عندي ﴾ [يوسف 61] .

فإن قلنا : إنه لم يكل لهم ، فلفظ "مُنع" بيّن .

وإن قلنا : إنه خوّفهم منع الكيل ، ففي المعنى قولان :

أحدهما : حُكم علينا بمنع الكيل بعد هذا الوقت ، كما تقول للرجل : دخلت والله النار بما فعلت .

والثاني : أن المعنى : يا أبانا يُمنع منا الكيل إن لم ترسله معنا ، فناب "مُنع" عن "يُمنع" كقوله : ﴿ يَحْسَبُ أنَّ ماله أخلده ﴾ [الهمزة 3] أي : يخلده ، وقوله : ﴿ ونادى أصحابُ النار ﴾ [الأعراف 50] ، ﴿ وإِذ قال الله يا عيسى ﴾ [المائدة 116] أي : وإِذ يقول ، ذكرهما ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ فأرسل معنا أخانا نكتَل ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : "نكتل" بالنون .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "يكتل" بالياء .

والمعنى : إِن أرسلته معنا اكتلنا ، وإِلا فقد مُنعنا الكيل .

قوله تعالى : ﴿ هل آمنكم عليه ﴾ أي : لا آمنكم إِلا كأمني على يوسف ، يريد أنه لم ينفعه ذلك الأمن إِذ خانوه .

﴿ فالله خير حفظاً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "حفظاً" ، والمعنى : خير حفظاً من حفظكم .

وقرأ حمزة والكسائي ، وحفص عن عاصم : "خير حافظاً" بألف .

قال أبو علي : ونصبُه على التمييز دون الحال .

قوله تعالى : ﴿ ولما فتحوا متاعهم ﴾ يعني أوعية الطعام ﴿ وجدوا بضاعتهم ﴾ التي

حملوها ثمناً للطعام ﴿ رُدَّت ﴾ قال الزجاج: الأصل "رُدِدَتْ" ، فأدغمت الدال الأولى في الثانية ، وبقيت الراء مضمومة .

ومن قرأ بكسر الراء جعل كسرتها منقولة من الدال ، كما فُعل ذلك في : قيل ، وبيع ، ليدل على أن أصل الدال الكسر .

قوله تعالى : ﴿ ما نبغي ﴾ في "ما" قولان :

أحدهما : أنها استفهام ، المعنى : أي شيء نبغي وقد رُدَّت بضاعتنا إلينا .

والثاني : أنها نافية ، المعنى : ما نبغي شيئاً ، أي : لسنا نطلب منك دراهم نرجع بها إليه ، بل تكفينا هذه في الرجوع إليه ، وأرادوا بذلك تطييب قلبه ليأذن لهم بالعَود .

وقرأ ابن مسعود ، وابن يعمر ، والجحدري ، وأبو حيوة "ما تبغي" بالتاء ، على الخطاب ليعقوب .

قوله تعالى : ﴿ ونمير أهلنا ﴾ أي : نجلب لهم الطعام .

قال ابن قتيبة : يقال : مار أهله يميرهم مَيْراً ، وهو مائر لأهله : إذا حمل إليهم أقواتهم من غير بلده .

قوله تعالى : ﴿ ونحفظ أخانا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : نحفظ أخانا بنيامين الذي ترسله معنا ، قاله الأكثرون .

والثاني : ونحفظ أخانا شمعون الذي أخذه رهينة عنده ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ أي : وِقْر بعير ، يعنون بذلك نصيب أخيهم ، لأن يوسف كان لا يعطي الواحد أكثر من حِمل بعير .

قوله تعالى : ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ذلك كيل سريع ، لا حبس فيه ، يعنون : إِذا جاء معنا ، عجَّل الملك لنا الكيل ، قاله مقاتل .

والثاني : ذلك كيل سهل على الذي نمضي إِليه ، قاله الزجاج .

والثالث : ذلك الذي جئناك به كيل يسير لا يُقنعُنا ، قاله الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ حتى تؤتون موثقاً من الله ﴾ أي : تعطوني عهداً أثق به ، والمعنى : حتى تحلفوا لي بالله ﴿ لتأْتُنَّني به ﴾ أي : لتَرُدُّنَّه إِلي .

قال ابن الأنباري : وهذه اللام جواب لمضمَر ، تلخيصه : وتقولوا : والله لتأْتُنَّني به .

قوله تعالى : ﴿ إِلا أن يحاط بكم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن يهلك جميعكم ، قاله مجاهد .

والثاني : أن يُحال بينكم وبينه فلا تقدرون على الإِتيان به ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ فلما آتَوْه موثقهم ﴾ أي : أعطَوْه العهد وفيه قولان :

أحدهما : أنهم حلفوا له بحق محمد صلى الله عليه وسلم ومنزلته من ربه ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنهم حلفوا بالله تعالى ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ قال الله على ما نقول وكيل ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه الشهيد .

والثاني : كفيل بالوفاء ، رُويا عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ لا تدخلوا من باب واحد ﴾ قال المفسرون : لما تجهزوا للرحيل ، قال لهم يعقوب : "لا تدخلوا" يعني مصر "من باب واحد" .

وفي المراد بهذا الباب قولان :

أحدهما : أنه أراد باباً من أبواب مصر ، وكان لمصر أربعة أبواب ، قاله الجمهور .

والثاني : أنه أراد الطرق لا الأبواب ، قاله السدي ، وروى نحوه أبو صالح عن ابن عباس .

وفي ما أراد بذلك ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه خاف عليهم العين ، وكانوا أُولي جمال وقوة ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه خاف أن يُغتَالوا لِما ظهر لهم في أرض مصر من التهمة ، قاله وهب بن منبه .

والثالث : أنه أحب أن يلقَوا يوسف في خَلوة ، قاله إبراهيم النخعي .

قوله تعالى : ﴿ وما أُغني عنكم من الله من شيء ﴾ أي : لن أدفع عنكم شيئاً قضاه الله ، فإنه إن شاء أهلككم متفرقين ، ومصداقه في الآية التي بعدها ﴿ ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجةً في نفس يعقوب قضاها ﴾ وهي إرادته أن يكون دخولهم كذلك شفقة عليهم .

قال الزجاج : "إلا حاجة" استثناء ليس من الأول ، والمعنى : لكنْ حاجةٌ في نفس يعقوب قضاها .

قال ابن عباس : "قضاها" أي : أبداها وتكلم بها .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لذو عِلْم لما علَّمناه ﴾ فيه سبعة أقوال :

أحدها : إنه حافظ لما علَّمناه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : وإنه لذو علم أن دخلوهم من أبواب متفرقة لا يغني عنهم من الله شيئاً ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : وإنه لعامل بما عُلِّم ، قاله قتادة .

وقال ابن الأنباري : سمي العمل علماً ، لأنه العلم أول أسباب العمل .

والرابع : وإنه لمتيقن لوعدنا ، قاله الضحاك .

والخامس : وإنه لحافظ لوصيّتنا ، قاله ابن السائب .

والسادس : وإنه لعالم بما علَّمناه أنه لا يصيب بنيه إلا ما قضاه الله ، قاله مقاتل .

والسابع : وإنه لذو علم لتعليمنا إياه ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ ولما دخلوا على يوسف ﴾ يعني إخوته ﴿ آوى إليه أخاه ﴾ يعني بنيامين .

وكان أخاه لأبيه وأمه ، قاله قتادة ، وضمه إليه وأنزله معه ، قال ابن قتيبة : يقال آويتُ فلاناً إليَّ .

(209/400)

بمد الألف : إذا ضممتَه إليك ، وأويت إلى بني فلان ، بقصر الألف : إذا لجأت إليهم .

وفي قوله : ﴿ قال إني أنا أخوك ﴾ قولان :

أحدهما : أنهم لما دخلوا عليه حبسهم بالباب ، وأدخل أخاه ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : بنيامين ، قال : فما اسم أمك ؟ قال : راحيل بنت لاوَي ، فوثب إليه فاعتنقه ، فقال :

"إِني أنا أخوك" ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وكذلك قال ابن إِسحاق : أخبره أنه يوسف .

والثاني : أنه لم يعترف له بذلك ، وإِنما قال : أنا أخوك مكان أخيك الهالك ، قاله وهب بن منبه .

وقيل : إِنه أجلسهم كل اثنين على مائدة ، فبقي بنيامين وحيداً يبكي ، وقال : لو كان أخي حياً لأجلسني معه ، فضمَّه يوسف إِليه ، وقال : إِني أرى هذا وحيداً ، فأجسله معه على مائدته .

فلما جاء الليل ، نام كل اثنين على منام ، فبقي وحيداً ، فقال يوسف : هذا ينام معي .

فلما خلا به ، قال هل لك أخ من أمك ؟ قال كان لي أخ من أمي فهلك ، فقال : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ فقال : أيها الملك ، ومن يجد أخاً مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف ، وقام إِليه فاعتنقه ، وقال : ﴿ إِني أنا أخوك ﴾ يوسف ﴿ فلا تبتئس ﴾ قال قتادة : لا تأس ولا تحزن ، وقال الزجاج : لا تحزن ولا تستكِنْ .

قال ابن الأنباري : "تبتئس" : تفتعل ، من البؤس ، وهو الضُرُّ والشدة ، أي : لا يلحقنَّك بؤس بالذي فعلوا .

قوله تعالى : ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم كانوا يعيِّرون يوسف وأخاه بعبادة جدِّهما أبي أُمهما للأصنام ، فقال : لا

تبتئس بما كانوا يعملون من التعيير لنا ، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : لا تحزن بما سيعملون بعد هذا الوقت حين يسرِّقونك ، فتكون "كانوا" بمعنى "يكونون" قال الشاعر :

فَأَدْرَكْتُ مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلِي وَلَمْ أَدَعْ . . .

لِمَنْ كَانَ بَعْدِي فِي القَصَائِد مَصْنَعَا

وقال آخر :

(210/400)

وانْضَحْ جَوَانِبَ قَبْرِهِ بِدِمَائِهَا . . .

فَلَقَدْ يَكُونُ أَخَا دَمٍ وَذَبَائِحِ

أراد : فقد كان ، وهذا مذهب مقاتل .

والثالث : لا تحزن بما عملوا من حسدنا ، وحرصوا على صرف وجه أبينا عنّا ، وإلى هذا المعنى ذهب ابن إسحاق .

قوله تعالى : ﴿ فلما جهزهم بجهازهم ﴾ قال المفسرون : أوفى لهم الكيل ، وحمَّل ل "بنيامين" بعيراً باسمه كما حمَّل لهم ، وجعل السقاية في رحل أخيه ، وهي الصواع ، فهما

اسمان واقعان على شيء واحد ، كالبُرِّ والحنطة ، والمائدة والخُوان .

وقال بعضهم : الاسم الحقيقي : الصواع ، والسقاية وصف ، كما يقال : كوز ، وإِناء ، فالاسم الخاص : الكوز .

قال المفسرون : جعل يوسف ذلك الصاع مكيالاً لئلا يُكال بغيره .

وقيل : كال لإِخوته بذلك ، إِكراماً لهم .

قالوا : ولما ارتحل إِخوة يوسف وأمعنوا ، أرسل الطلب في أثرهم ، فأُدركوا وحبسوا ، ﴿ ثم أذَّن مؤذِّن ﴾ قال الزجاج : أعلم مُعْلم ، يقال : آذنته بالشيء ، فهو مؤذن به ، أي : أعلمته ، وآذنت : أكثرت الإِعلام بالشيء ، يعني : أنه إِعلام بعد إِعلام .

﴿ أيتها العير ﴾ يريد : أهل العير ، فأنث لأنه جعلها للعير .

قال الفراء : لا يقال : عير ، إِلا لأصحاب الإِبل .

وقال أبو عبيدة : العير : الإِبل المرحولة المركوبة .

وقال ابن قتيبة : العير : القوم على الإِبل .

فإن قيل : كيف جاز ليوسف أن يُسرِّق من لم يسرق ؟ فعنه أربعة أجوبة :

أحدها : أن المعنى : إِنكم لسارقون يوسف حين قطعتموه عن أبيه وطرحتموه في الجب ، قاله الزجاج .

والثاني : أن المنادي نادى وهو لا يعلم أن يوسف أمر بوضع السقاية في رحل أخيه ، فكان

غير كاذب في قوله، قاله ابن جرير.

والثالث: أن المنادي نادى بالتسريق لهم بغير أمر يوسف.

(211/400)

والرابع: أن المعنى: إنكم لسارقون فيما يظهر لمن لم يعلم حقيقة أخباركم، كقوله: ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان 49] أي: عند نفسك، لا عندنا، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "كذب إبراهيم ثلاث كَذَبَات" أي: قال قولاً يشبه الكذب، وليس به.

قوله تعالى: ﴿ قالوا ﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿ وأقبوا عليهم ﴾ فيه قولان.

أحدهما: على المؤذن وأصحابه.

والثاني: أقبل المنادي ومن معه على إخوة يوسف بالدعوى.

﴿ ماذا تفقدون ﴾ مالذي ضلَّ عنكم؟ ﴿ قالوا نفقد صواع الملك ﴾ قال الزجاج: الصواع هو الصاع بعينه، وهو يذكّر ويؤنّث، وكذلك الصاع يذكّر ويؤنّث.

وقد قرىء: "صياع" بياء، وقرىء: "صَوْغ" بغين معجمة، وقرىء: "صَوع" بعين غير معجمة مع فتح الصاد، وضمها، وقرأ أبو هريرة: "صاع الملك" وكل هذه لغات ترجع إلى معنى واحد، إلا أن الصوغ، بالغين المعجمة، مصدر صغت، وُصف الإناء به، لأنه كان

مصوغاً من ذهب.

واختلفوا في جنسه على خمسة أقوال:

أحدها: أنه كان قدحاً من زبرجد.

والثاني: أنه كان من نحاس، رويا عن ابن عباس.

والثالث: أنه كان شربة من فضة مرصَّعة بالجوهر، قاله عكرمة.

والرابع: كان كأساً من ذهب، قاله ابن زيد.

والخامس: كان من مِسٍّ، حكاه الزجاج.

وفي صفته قولان:

أحدهما: أنه كان مستطيلاً يشبه المكوك.

والثاني: أنه كان يشبه الطاس.

قوله تعالى: ﴿ ولمن جاء به ﴾ يعني الصواع ﴿ حمل بعير ﴾ من الطعام ﴿ وأنا به زعيم ﴾ أي: كفيل لمن ردَّه بالحِمل، يقوله المؤذِّن.

قوله تعالى: ﴿ قالوا تالله ﴾ قال الزجاج: "تالله" بمعنى: والله، إلا أن التاء لا يقسم بها إلا في الله عز وجل.

ولا يجوز: تالرحمن لأفعلن، ولا: تربي لأفعلن.

والتاء تُبدل من الواو ، كما قالوا في وُراث : تراث ، وقالوا : يتَّزن ، وأصله : يوتزن ، من الوزن .

(212/400)

قال ابن الأنباري : أبدلت التاء من الواو ، كما أبدلت في التخمة والتراث والتُجاه ، وأصلهن من الوخمة والوراث والوجاه ، لأنهن من الوِخامة والوِراثة والوَجه .

ولا تقول العرب : تالرحمن ، كما قالوا : تالله ، لأن الاستعمال في الإِقسام كثر بالله ، ولم يكن بالرحمن ، فجاءت التاء بدلاً من الواو في الموضع الذي يكثر استعماله .

قوله تعالى : ﴿ لقد علمتم ﴾ يعنون يوسف ﴿ ما جئنا لنفسد في الأرض ﴾ أي : لنظلم أحداً أو نسرق .

فإن قيل : كيف حلفوا على عِلم قوم لا يعرفونهم ؟

فالجواب من ثلاثة أوجه .

أحدها : أنهم قالوا ذلك ، لأنهم ردّوا الدراهم ولا يستحلُّوها ، فالمعنى : لقد علمتم أنا رددنا عليكم دراهمكم وهي أكثر من ثمن الصاع ، فكيف نستحل صاعكم ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل .

والثاني : لأنهم لما دخلوا مصر كعموا أفواه إبلهم وحميرهم حتى لا تتناول شيئاً ، وكان غيرهم لا يفعل ذلك ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أن أهل مصر كانوا قد عرفوهم أنهم لا يظلمون أحداً .

قوله تعالى : ﴿ فما جزاؤه ﴾ المعنى : قال المنادي وأصحابه : فما جزاؤه .

قال الأخفش : إن شئت رددت الكناية إلى السارق ، وإن شئت رددتها إلى السرق .

قوله تعالى : ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ أي : في قولكم ، ﴿ وما كنا سارقين ﴾ .

﴿ قالوا ﴾ : يعني إخوة يوسف ﴿ جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ﴾ أي : يُستعبَد بذلك .

قال ابن عباس : وهذه كانت سُنَّة آل يعقوب .

قوله تعالى : ﴿ فبدأ بأوعيتهم ﴾ قال المفسرون : انصرف بهم المؤذن إلى يوسف ، وقال : لا بد من تفتيش أمتعتكم ، ﴿ فبدأ ﴾ يوسف ﴿ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ﴾ لإزالة التهمة ، فلما وصل إلى وعاء أخيه ، قال : ما أظن هذا أخذ شيئاً ، فقالوا : والله لا نبرح حتى تنظر في رحله ، فهو أطيب لنفسك .

فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع ، فذلك قوله : ﴿ ثم استخرجها ﴾ .

وفي هاء الكناية ثلاثة أقوال .

أحدها: أنها ترجع إلى السرقة، قاله الفراء.

والثاني: إلى السقاية، قاله الزجاج.

والثالث: إلى الصواع على لغة من أنَّثه، ذكره ابن الأنباري.

قال المفسرون: فأقبلوا على بنيامين، وقالوا: أي شيء صنعت؟! فضحتنا وأزريت بأبيك الصدِّيق، فقال: وضع هذا في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم، وقد كان يوسف أخبر أخاه بما يريد أن يصنع به.

قوله تعالى: ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ فيه أربعة أقوال:

أحدها: كذلك صنعنا له، قاله الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: احتلنا له، والكيد: الحيلة، قاله ابن قتيبة.

والثالث: أردنا ليوسف، ذكره ابن القاسم.

والرابع: دبَّرنا له بأن ألهمناه ما فعل بأخيه ليتوصل إلى حبسه.

قال ابن الأنباري: لما دبَّر الله ليوسف ما دبَّر من ارتفاع المنزلة وكمال النعمة على غير ما ظن إخوتُه، شُبِّه بالكيد من المخلوقين، لأنهم يسترون ما يكيدون به عمن يكيدونه.

قوله تعالى: ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ في المراد بالدين هاهنا قولان:

أحدهما: أنه السلطان، فالمعنى: في سلطان الملك، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثاني : أنه القضاء ، فالمعنى : في قضاء الملك ، لأن قضاء الملك ، أن من سرق إنما يُضرب ويُغرَّم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وبيانه أنه لو أجرى أخاه على حكم الملك ما أمكنه حبسه ، لأن حكم الملك الغرم والضرب فحسب ، فأجرى الله على ألسنة إخوته أن جزاء السارق الاسترقاق ، فكان ذلك مما كاد الله ليوسف لطفاً حتى أظفره بمراده بمشيئة الله ، فذلك معنى قوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ .

وقيل : إلا أن يشاء الله إظهار علَّة يستحق بها أخاه .

قوله تعالى : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ وقرأ يعقوب "يرفع درجاتِ من يشاء" بالياء فيهما .

وقرأ أهل الكوفة "درجاتٍ" بالتنوين ، والمعنى : نرفع الدرجات بصنوف العطاء ، وأنواع الكرامات ، وابواب العلوم ، وقهر الهوى ، والتوفيق للهدى ، كما رفعنا يوسف .

﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ أي : فوق كل ذي علم رفعه الله بالعلم مَن هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى ، والكمال في العلم معدوم من غيره .

وفي مقصود هذا الكلام ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المعنى : يوسف أعلم من إخوته ، وفوقه من هو أعلم منه .

والثاني : أنه نبَّه على تعظيم العِلم ، وبيَّن أنه أكثر من أن يُحاط به .

والثالث : أنه تعليم للعالم التواضع لئلا يُعجب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ

﴾

(215/400)

وقال النسفى :

﴿ وَقَالَ الملك ائتونى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾

أجعله خالصاً لنفسي ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ وشاهد منه ما لم يحتسب ﴿ قَالَ ﴾ الملك ليوسف ﴿ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ ذو مكانة ومنزلة ، أمين مؤتمن على كل شيء . روي أن الرسول جاءه ومعه سبعون حاجباً وسبعون مركباً وبعث إليه لباس الملوك فقال : أجب الملك ، فخرج من السجن ودعا لأهله : اللهم عطّف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات .

وكتب على باب السجن : هذه منازل البلواء وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة

الأصدقاء .

ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً جدداً ، فلما دخل على الملك قال : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال : ما هذا اللسان قال : لسان آبائي ، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه وقال : أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك .

قال : رأيت بقرات فوصف لونهن وأحوالهن ومكان خروجهن ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك وقال له : من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء فيأتيك الخلق من النواحي ويمتارون منك ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك .

قال الملك : ومن لي بهذا ومن يجمعه ؟

﴿ قَالَ ﴾ يوسف ﴿ اجعلنى على خَزَائِنِ الأرض ﴾ ولني على خزائن أرضك يعني مصر ﴿ إِنّى حَفِيظٌ ﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ عالم بوجوه التصرف .

وصف نفسه بالأمانة والكفاية وهما طلبة الملوك ممن يولونه .

وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله وإقامة الحق وبسط العدل والتمكن مما لأجله بعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك فطلبه ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا ، وفي الحديث " رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة " قالوا : وفيه دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عمالة من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة .

وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق فله أن يستظهر به .

وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ولا يتعرض عليه في كل ما رأى وكان في حكم التابع له .

﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرض ﴾ أرض مصر وكان أربعين فرسخاً في أربعين ، والتمكين الإقدار وإعطاء المكنة ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء ﴾ أي كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخولها تحت سلطانه .

﴿ نشاء ﴾ مكي ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا ﴾ بعطائنا في الدنيا من الملك والغني وغيرهما من النعم ﴿ مَّن نَّشَاء ﴾ من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك ﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ في الدنيا ﴿ وَلأَجْرُ الأخرة خَيْرٌ لّلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ يريد يوسف وغيره من المؤمنين إلى يوم

القيامة ﴿ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ الشرك والفواحش .

قال سفيان بن عيينة : المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة ، والفاجر يعجل له الخير في ا لدنيا وماله في الآخرة من خلاق ، وتلا الآية .

(217/400)

روي أن الملك توج يوسف وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر الياقوت ، فقال : أما السرير فأشد به ملكك ، وأما الخاتم فأدبر به أمرك ، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي فجلس على السرير ، ودانت له الملوك وفوض الملك إليه أمره وعزل قطفير ثم مات بعد فزوجه الملك امرأته ، فلما دخل عليها قال أليس هذا خيراً مما طلبت ! فوجدها عذراء فولدت له ولدين أفراثيم وميشا وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء ، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدارهم والدنانير في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها ، ثم بالحلي والجواهر في الثانية ، ثم بالدواب في الثالثة ، ثم بالعبيد والإماء في الرابعة ، ثم بالدور والعقار في الخامسة ، ثم بأولادهم في السادسة ، ثم برقابهم في السابعة ، حتى استرقهم جميعاً ، ثم أعتق أهل مصر عن آخرهم ، ورد عليهم أملاكهم ، وكان لايبيع لأحد من الممتارين أكثر من

حمل بعير، وأصاب أرض كنعان نحو ما أصاب مصر فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا وذلك قوله.

﴿ وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾ بلا تعريف ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ لتبدل الزي ولأنه كان من وراء الحجاب ولطول المدة وهو أربعون سنة، وروي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبروني من أنتم وما شأنكم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: لعلكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادي.

فقالوا: معاذ الله نحن بنو نبي حزين لفقد ابن كان أحبنا إليه وقد أمسك أخاً له من أمه يستأنس به فقال: ائتوني به إن صدقتم.

(218/400)

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ﴾ أعطى كل واحد منهم حمل بعير، وقرىء بكسر الجيم شاذاً ﴿ ائتونى بِأَخٍ لَّكُمْ مّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنّى أُوفِى الكيل ﴾ أتمه ﴿ وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين ﴾ كان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم رغبهم بهذا الكلام على الرجوع إليه.

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِى ﴾ فلا أبيعكم طعاماً ﴿ وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾ أي فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا فهو داخل في حكم الجزاء مجزوم معطوف على محل قوله ﴿ فلا

كيل لكم ﴾ أو هو بمعنى النهي ﴿ قَالُواْ سنراود عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ سنخادعه عنه ونحتال حتى ننزعه من يده ﴿ وَإِنَّا لفاعلون ﴾ ذلك لا محالة لانفرط فيه ولا نتوانى .

قال : فدعوا بعضكم رهناً ، فتركوا عنده شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ كوفي غير أبي بكر ﴿ لفتيته ﴾ غيرهم ، وهما جمع فتى كإخوة وإخوان في أخ ، وفعلة للقلة ، وفعلان للكثرة أي لغلمانه الكيالين ﴿ اجعلوا بضاعتهم فِى رِحَالِهِمْ ﴾ أوعيتهم وكانت نعالاً أو أدماً أو ورقاً وهو أليق بالدس في الرحال ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ يعرفون حق ردها وحق التكرم بإعطاء البدلين ﴿ إِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمْ ﴾ وفرغوا ظروفهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا ، أو ربما لا يجدون بضاعة بها يرجعون أو ما فيهم من الديانة يعيدهم لرد الأمانة ، أو لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً ﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إلى أَبِيهِمْ ﴾ بالطعام وأخبروه بما فعل ﴿ قَالُواْ يأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الكيل ﴾ يريدون قول يوسف ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴾ لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ نرفع المانع من الكيل ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه .

﴿ يكتل ﴾ حمزة وعلي أي يكتل أخونا فينضم اكتياله إلى اكتيالنا ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ عن أن يناله مكروه

﴿ قَالَ هَلْ ءامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ يعني أنكم قلتم في يوسف أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإناله لحافظون ﴾ كما تقولونه في أخيه ثم خنتم بضمانكم فما يأمنني من مثل ذلك ؟ ثم قال ﴿ فالله خَيْرٌ حافظا ﴾ كوفي غير أبي بكر .

فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم وهو حال أو تمييز ، ومن قرأ ﴿ حِفظاً ﴾ فهو تمييز لا غير .

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ فأرجو أن ينعم عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين قال كعب : لما قال ﴿ فالله خير حفظاً ﴾ قال الله تعالى وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ متاعهم وَجَدُواْ بضاعتهم رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ ياأبانا مَا نَبْغِى ﴾ "ما" للنفي أي ما نبغي في القول ولا تتجاوز الحق أو ما نبغي شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان ، أو ما نريد منك بضاعة أخرى ، أو للاستفهام أي أيّ شيء نطلب وراء هذا ؟ ﴿ هذه بضاعتنا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ جملة مستأنفة موضحة لقوله ﴿ ما نبغي ﴾ والجمل بعدها معطوفة عليها أي أن بضاعتنا ردت إلينا فنستظهر بها ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ في رجوعنا إلى الملك أي نجلب لهم ميرة وهي طعام يحمل من غير بلدك ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ في ذهابنا ومجيئنا فما يصيبه شيء مما تخافه ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ نزداد وسق بعير باستصحاب

أخينا ﴿ ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ سهل عليه متيسر لا يتعاظمه ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حتى تُؤْتُونِ ﴾ وبالياء : مكي ﴿ مَوْثِقًا ﴾ عهداً ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ والمعنى حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله أي أراد أن يحلفوا له بالله .

(220/400)

وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما يؤكد به العهود وقد أذن الله في ذلك فهو إذن منه ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ جواب اليمين لأن المعنى حتى تحلفوا لتأتنني به ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا فلم تطيقوا الإتيان به فهو مفعول له ، والكلام المثبت وهو قوله ﴿ لتأتنني به ﴾ في تأويل النفي أي لا تمتنعوا من الإتيان به إلا للإحاطة بكم يعني لا تمتنعوا منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة وهي أن يحاط بكم ، فهو استثناء من أعم العام في المفعول له ، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي فلا بد من تأويله بالنفي ﴿ فَلَمَّا ءاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ قيل : حلفوا بالله رب محمد عليه السلام ﴿ قَالَ ﴾ بعضهم يسكت عليه لأن المعنى قال يعقوب ﴿ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ ﴾ من طلب الموثق وإعطائه ﴿ وَكِيلٌ ﴾ رقيب مطلع غير أن السكتة تفصل بين القول والمقول وذا لا يجوز ، فالأولى بأن يفرق بينهما بالصوت فيقصد بقوة النغمة اسم الله .

﴿ وَقَالَ يَا بَنِىَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ الجمهور على أنه خاف عليهم العين لجمالهم وجلالة أمرهم ولم يأمرهم بالتفرق في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين في الكرة الأولى ، فالعين حق عندنا وجه بأن يحدث الله تعالى عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصاناً فيه وخللاه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعوّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما فيقول : " أعيذكما بكلمات الله التامة من كل هامة ومن كل عين لامة " وأنكر الجبائي العين وهو مردود بما ذكرنا .

وقيل : إنه أحب أن لا يفطن بهم أعداؤهم فيحتالوا لإهلاكهم ﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ مِّنَ اللهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أي إن كان الله أراد بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أسرت به عليكم من التفرق وهو مصيبكم لا محالة ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ التوكل تفويض الأمر إلى الله تعالى والاعتماد عليه ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ أي متفرقين ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُمْ ﴾ دخولهم من أبواب متفرقة ﴿ مِّنَ اللهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أي شيئاً قط حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله وتضاعف المصيبة على أبيهم

﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناء منقطع أي ولكن حاجة ﴿ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ وهي شفقته عليهم ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ ﴾ يعني قوله وما أغنى عنكم وعلمه بأن القدر لا يغني عنه الحذر ﴿ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ لتعليمنا إياه ﴿ ولكن أَكْثَرَ النَاس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ اوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ ضم إليه بنيامين .

وروي أنهم قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم : أحسنتم فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال : لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه فقال يوسف : بقي أخوكم وحيداً فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله وقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : ومن يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وعانقه ثم ﴿ قَالَ ﴾ له ﴿ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ ﴾ يُوسُف ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ فلا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما أعلمتك وروي أنه قال له فأنا لا أفارقك .

قال لقد علمت اغتمام والدي بي فإن حبستك ازداد غمه ولا سبيل إلى ذلك ألا أن أنسبك إلا ما لا يحمد .

قال : لا أبالي فافعل ما بدا لك .

قال : فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بأنك سرقته ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك معهم فقال : افعل ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ هيأ أسبابهم وأوفى الكيل لهم ﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ السقاية هي مشربة يُسقى بها وهي الصواع .

قيل : كان يسقي بها الملك ثم جعلت صاعاً يكال به لعزة الطعام وكان يشبه الطاس من فضة أو ذهب ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ ثم نادى مناد آذنه أي أعلمه ، وأذن أكثر الأعلام ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه .

روي أنهم ارتلحوا وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا ثم قيل لهم ﴿ أَيَّتُهَا العير ﴾ هي الإبل التي عليها الأحمال لأنها تعير أي تذهب وتجيء والمراد أصحاب العير ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ كناية عن سرقتهم إياه من أبيه .

﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الملك ﴾ هو الصاع ﴿ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ يقوله المؤذن يريد وأنا بحمل البعير كفيل أؤديه إلى من جاء به وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله ﴿ قَالُواْ تالله ﴾ قسم فيه معنى التعجب مما

أضيف إليهم ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الأرض ﴾ استشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم حيث دخلوا وأفواه رواحلهم مشدودة لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق، ولأنهم ردوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم ﴿ وَمَا كُنَّا سارقين ﴾ وما كنا نوصف قط بالسرقة ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ الضمير للصواع أي فما جزاء سرقته ﴿ إِن كُنتُمْ كاذبين ﴾ في جحودكم وادعائكم البراءة منه ﴿ قَالُواْ جَزاؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ ﴾ أي جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة فلذلك استفتوا في جزائه.

وقولهم ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ تقرير للحكم أي فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير، أو ﴿ جزاؤه ﴾ مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره ﴿ كذلك نَجْزِى الظالمين ﴾ أي السراق بالاسترقاق ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ﴾ فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظن هذا أخذ شيئاً فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ﴿ ثُمَّ استخرجها ﴾ أي الصواع ﴿ مِن وِعَاء أَخِيهِ ﴾ ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنثه لأن التأنيث يرجع إلى السقاية، أو لأن الصواع يذكر ويؤنث.

الكاف في ﴿ كذلك ﴾ في محل النصب أي مثل ذلك الكيد العظيم ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ يعني علمناه إياه ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الملك ﴾ تفسير للكيد وبيان له لأن الحكم في دين الملك أي في سيرته للسارق أن يغرم مثلي ما أخذ لا أن يستعبد ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ أي ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله وإرادته فيه ﴿ نَرْفَعُ درجات ﴾ بالتنوين : كوفي ﴿ مَّن نَّشَاءُ ﴾ أي في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فوقه أرفع درجة منه في علمه أو فوق العلماء كلهم عليهم هم دونه في العلم وهو الله عز وجل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 227.232 ﴾

(225/400)

قال ابن جزى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) ﴾

﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾

أي : أجعله خاصتي وخلاصتي قال أولاً ائتوني به ، فلما تبين له حاله قال : أستخلصه

لنفسي ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي فلما رأى حُسن كلامه وعرف وفور عقله وعلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين ، والمكين من التمكين ، والأمين من الأمانة ﴿ قَالَ اجعلني على خزَآئِنِ الأرض ﴾ لما فهم يوسف من الملك أنه يريد تصريفه والاستعانة به قال له ذلك ، وإنما طلب منه الولاية رغبة منه في العدل وإقامة الحق والإحسان ، وكان هذا الملك كافراً ، ويستدل بذلك على أنه يجوز للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر إذا علم أنه يصلح بعض الأحوال ، وقيل : إن الملك أسلم ، وأراد بقوله خزائن الأرض : أرض مصر إذ لم يكن للملك غيرها ، والخزائن كل ما يخزن من طعام ومال وغير ذلك ﴿ إِنّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ صفتان تعمان وجوه المعرفة والضبط للخزائن وقيل : حفيظ للحساب عليم بالألسن ، واللفظ أعم من ذلك ، ويستدل بذلك أنه يجوز للرجل أن يعرف بنفسه ويمدح نفسه بالحق إذا جعل أمره وإذا كان في ذلك فائدة .

﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض ﴾ الإشارة بذلك إلى ما تقدم من جميل صنع الله به ، ورُوي أن الملك ولاه في موضع العزيز ، وأسند إليه جميع الأمور حتى تغلب على أمره أنه باع من أهل مصر في أعوام القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق لهم

شيء منها ، ثم بالحلي ، ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى تملكهم جميعاً ثم أعتقهم وردّ عليهم أملاكهم ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَاءُ ﴾ الرحمة هنا يراد بها الدنيا وكذلك الأجر في قوله : ولا نضيع أجر المحسنين بدليل قوله بعد ذلك : ولأجر الآخرة خير ، فأخبر تعالى أن رحمته في الدنيا يصيب بها من يشاء من مؤمن وكافر ومطيع وعاص ، وأن المحسن لا بدّ له من أجره في الدنيا ، فالأول : في المشيئة ، والثاني : واقع لا محالة ، ثم أخبر أن أجر الآخرة خير من ذلك كله : للذين آمنوا ، وكانوا يتقون ، وفي الآية إشارة إلى أن يوسف عليه السلام جمع الله له بين خيري الدنيا والآخرة .

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ كان سبب مجيئهم أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم ، فخرجوا إلى مصر ليشتروا بها من الطعام الذي ادخره يوسف ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ إنما أنكروه لبعد العهد به وتغيير سنة أو لأنه كان متلثماً ، روى أنهم دخلوا عليه وهو على هيئة عظيمة من الملك وأنه سألهم عن أحوالهم ، وأخبروه أنهم تركوا أخاً لهم ، فحينئذ قال لهم : ائتوني بأخ لكم من أبيكم وهو بنيامين شقيق يوسف ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ الجهاز ما يحتاج إليه المسافر من زاد وغيره ، والمراد به هنا الطعام الذي باع منهم ﴿ خَيْرُ المنزلين ﴾ أي المضيفين ﴿ وَإِنَّا لفاعلون ﴾ أي نفعل ذلك لا محالة .

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ جمع فتى وهو الخادم سواء كان حراً أو عبداً ﴿ اجعلوا بضاعتهم فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أمر أن يجعلوا البضاعة التي اشتروا منه بها الطعام في أوعيتهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ ﴾ أي لعلهم يعرفون اليد والكرامة في ردّ البضاعة إليهم ، وليس الضمير للبضاعة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي لعل معرفتهم بها تدعوهم إلى الرجوع وقصد برد البضاعة إليه مع الطعام استئلافهم بالإحسان إليهم ﴿ مُنِعَ مِنَّا الكيل ﴾ إشارة إلى قوله : (وإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي) فهو خوف من المنع في المستقبل ﴿ نَكْتَلْ ﴾ وزنه نفتعل من الكيل ﴿ مَا نَبْغِي ﴾ ما استفهامية ونبغي بمعنى نطلب ، والمعنى أي شيء نطلبه بعد هذه الكرامة وهي ردّ البضاعة مع الطعام ويحتمل أن تكون ما نافية ونبغي من البغي : أي لا نتعدى على أخينا ولا نكذب على الملك ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي نسوق لهم الطعام ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ يريدون بعير أخيهم إذ كان يوسف لا يعطى إلا كيل بعير من الطعام لكل إنسان فأعطاهم عشرة أبعرة ومنعهم الحادي عشر لغيبة صاحبه حتى يأتي . والبعير الجمل ﴿ ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ إن كانت الإشارة إلى الأحمال فالمعنى أنها قليلة لا تكفيهم حتى يضاف إليها كيل بعير ، وإن كانت الإشارة إلى كيل بعير ، فالمعنى أنه يسير على يوسف أي قليل عنده أو سهل عليه ، فلا يمنعهم منه ﴿ حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ الله ﴾ أراد أن يحلفوا له ولتأتنني به جواب اليمين ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي إلا تغلبوا فلا تطيقون الإتيان به .

﴿ يا بني لَا تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ واحد ﴾ خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين إذ كانوا أهل جمال وهيبة ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ ﴾ جواب لما والمعنى أن ذلك لا يدفع ما قضاه الله ﴿ إِلاَّ حَاجَةً ﴾ استثناء منقطع ، والحاجة هنا هي شفقته عليهم ووصيته لهم ﴿ آوى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أي ضمه ﴿ قَالَ إِنِي أَنَاْ أَخُوكَ ﴾ أخبره بأنه أخوه ، واستكتمه ذلك ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ أي لا تحزن فهو من البؤس ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ الضمير لإخوة يوسف ، ويعني ما فعلوا بيوسف وأخيه ، ويحتمل أن يكون لفتيانه : أي لا تبالي بما تراه من تحيلي في أخذك ﴿ جعَلَ السقاية فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ السقاية هي الصواع ، وهي إناء يشرب فيه الملك ويأكل فيه الطعام ، وكان من فضة ، وقيل من ذهب ، وقصد بجعله في رحل أخيه أن يحتال على إمساكه معه إذ كان شرع يعقوب أن من سرق استعبده المسروق له .

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ أي نادى مناد ﴿ أَيَّتُهَا العير ﴾ أي أيتها الرفقة ﴿ إِنَّكُمْ لسارقون ﴾ خطاب لأخوة يوسف ، وإنما استحل أن يرميهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه ، وقيل : إن حافظ السقاية نادى : إنكم لسارقون ، بغير أمر يوسف وهذا بعيد لتفتيش الأوعية ﴿ وِلَمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أي لمن وجده ورده حِمل بعير من طعام

على وجه الجعل ﴿ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أي ضامن لحمل البعير لمن ردّ الصواع ، وهذا من كلام المنادي .

(229/400)

﴿ قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي استشهدوا بعلمهم لما ظهر لهم من ديانتهم في دخولهم أرضهم ؛ حتى كانوا يجعلون الأكِمّة في أفواه إبلهم لئلا تنال زروع الناس ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ أي قال فتيان يوسف : ما جزاء آخذ الصواع إن كنتم كاذبين في قولكم : وما كنا سارقين ، فالضمير في قوله جزاؤه يعود على الأخذ المفهوم من الكلام ﴿ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ المعنى أن إخوة يوسف أفتو فيما سئلوا عنه فقالوا : جزاء السارق أن يستعبد ، ويؤخذ في السرقة ، وأما الإعراب فيحتمل وجهين : الأول : أن يكون جزاؤه الأول مبتدأ ومن مبتدأ ثان وهي شرطية أو موصولة ، وخبرها فهو جزاؤه ، والجملة خبر جزاؤه الأول ، والوجه الثاني : أن يكون من خبر المبتدأ الأول على حذف مضاف ، وتقديره جزاؤه أخذ من وجد في رحله وتم الكلام . ثم قال فهو جزاؤه أي هذا الحكم جزاؤه ﴿ وكذلك نَجْزِي الظالمين ﴾ [الأعراف : 41] من كلام إخوة يوسف أي هذا حكمنا في السارق ، وقد كان هذا الحكم في أول

الإسلام ، ثم نسخ بقطع الأيدي ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ هذا تمكين للحيلة ورفع للتهمة ﴿ ثُمَّ استخرجها مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ ليصح له بذلك إمساكه معه ، وإنما أنث الصواع في هذا الموضع لأنه سقاية ، أو لأن الصواع يذكر ويؤنث .

﴿ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي صنعنا له هذا الصنع ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الملك ﴾ أي في شرعة أو عادته ، لأنه إنما كان جزاء السارق عنده أن يضرب ويضاعف عليه الغرم ، ولكن حكم في هذه القضية آل يعقوب ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ يعني الرفعة بالعلم بدليل ما بعده ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ أي فوق كل عالم من هو أعلم منه من البشر ، أو الله عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 122. 125 ﴾

(230/400)

وقال البيضاوى :

﴿ وَقَالَ الملك ائتونى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾

أجعله خالصاً لنفسي . ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أي فلما أتوا به فكلمه وشاهد منه الرشد والدهاء . ﴿ قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مِكِينٌ ﴾ ذو مكانة ومنزلة . ﴿ أَمِينٌ ﴾ مؤتمن على كل شيء . روي أنه لما خرج من السجن اغتسل وتنظف ولبس ثيابا جدداً ، فلما دخل على

الملك قال : اللهم إني أسألك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرية فقال الملك : ما هذا اللسان قال : لسان آبائي ، وكان الملك يعرف سبعين لساناً فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه فقال : أحب أن أسمع رؤياي منك ، فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوض إليه أمره . وقيل توفي قطفير في تلك الليالي فنصبه منصبه وزوج منه راعيل فوجدها عذراء وولد له منها أفرائيم وميشا .

﴿ قَالَ اجعلني على خَزَائِنِ الأرض ﴾ ولني أمرها والأرض أرض مصر . ﴿ إِنّي حَفِيظٌ ﴾ لها ممن لا يستحقها . ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بوجوه التصرف فيه ، ولعله عليه السلام لما رأى أنه يستعمله في أمره لا محالة آثر ما تعم فوائده وتجل عوائده ، وفيه دليل على جواز طلب التولية وإظهار أنه مستعد لها والتولي من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به . وعن مجاهد أن الملك أسلم على يده .

﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرض ﴾ في أرض مصر . ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء ﴾ ينزل من بلادها حيث يهوى وقرأ ابن كثير "نشاء" بالنون . ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء ﴾ في الدنيا والآخرة . ﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ بل نوفي أجورهم عاجلاً وآجلاً .

﴿ وَلأَجْرُ الآخرة خَيْرٌ لّلَّذِينَ ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ الشرك والفواحش لعظمه ودوامه .

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ روي : أنه لما استوزره الملك أقام العدل واجتهد في تكثير الزراعات وضبط الغلات ، حتى دخلت السنون المجدبة وعم القحط مصر والشأم ونواحيهما ، وتوجه إليه الناس فباعها أولاً بالدراهم والدنانير حتى لم يبق معهم شيء منها ، ثم بالحلي والجواهر ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار ، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً ثم عرض الأمر على الملك فقال : الرأي رأيك فأعتقهم ورد عليهم أموالهم ، وكان قد أصاب كنعان ما أصاب سائر البلاد فأرسل يعقوب بنيه غير بنيامين إليه للميرة . ﴿ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ أي عرفهم يوسف ولم يعرفوه لطول العهد ومفارقتهم إياه في سن الحداثة ونسيانهم إياه ، وتوهمهم أنه هلك وبعد حاله التي رأوه عليها من حاله حين فارقوه وقلة تأملهم في حلاه من التهيب والاستعظام .

(232/400)

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أصلحهم بعدتهم وأوقر ركائبهم بما جاؤوا لأجله ، والجهاز ما يعد من الأمتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة إلى أخرى وما تزف به المرأة إلى زوجها وقرئ ﴿ بِجِهَازِهِمْ ﴾ بالكسر . ﴿ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ روي :

أنهم لما دخلوا عليه قال : من أنتم وما أمركم لعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله إنما نحن بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب ، قال كم أنتم ؟ قالوا كنا اثني عشر فذهب أحدنا إلى البرية فهلك ، قال : فكم أنتم ها هنا قالوا عشرة ، قال : فأين الحادي عشر ؟ قالوا : عند أبينا يتسلى به عن الهالك ، قال : فمن يشهد لكم . قالوا : لا يعرفنا أحد ها هنا فيشهد لنا قال : فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم حتى أصدقكم ، فاقترعوا فأصابت شمعون . وقيل كان يوسف يعطي لكل نفر حملاً فسألوه حملاً زائداً لأخ لهم من أبيهم فأعطاهم وشرط عليهم أن يأتوه به ليعلم صدقهم . ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيلَ ﴾ أتمه . ﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ للضيف والمضيفين لهم وكان أحسن إنزالهم وضيافتهم .

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي ولا تقربوني ولا تدخلوا دياري ، وهو إما نهي أو نفي معطوف على الجزاء .

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه . ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ ذلك لا نتوانى فيه .

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ لغلمانه الكيالين جمع فتى . وقرأ حمزة والكسائي وحفص "لِفِتْيَانِهِ" على أنه جمع الكثرة ليوافق قوله : ﴿ اجعلوا بضاعتهم فِى رِحَالِهِمْ ﴾ فإنه وكل بكل رحل واحداً يعني فيه بضاعتهم التي شروا بها الطعام ، وكانت نعالاً وأدماً وإنما فعل ذلك توسيعاً وتفضلاً عليهم وترفعاً من أن يأخذ ثمن الطعام منهم ، وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ لعلهم يعرفون حق ردها . أو لكي يعرفوها . ﴿ إِذَا انقلبوا ﴾ انصرفوا ورجعوا . ﴿ إلى أَهْلِهِمْ ﴾ وفتحوا أوعيتهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرجوع .

﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إلى أَبِيهِمْ قَالُواْ يا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الكيل ﴾ حكم بمنعه بعد هذا إن لم نذهب ببنيامين . ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ نرفع المانع من الكيل ونكتل ما نحتاج إليه . وقرأ حمزة والكسائي بالياء على إسناده إلى الأخ أي يكتل لنفسه فينضم اكتياله إلى اكتيالنا .

﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ من أن يناله مكروه .

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ وقد قلتم في يوسف : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ . ﴿ فالله خَيْرٌ حافظا ﴾ فأتوكل عليه وأفوض أمري إليه ، وانتصاب "حفظاً" على التمييز و ﴿ حافظا ﴾ على قراءة حمزة والكسائي وحفص يحتمله والحال كقوله : لله دره فارساً ، وقرىء ﴿ خَيْرُ حافظا ﴾ و "خير الحافظين" . ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ فارجوا أن يرحمني بحفظه ولا يجمع على مصيبتين .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ وقرىء ﴿ رِدَّتْ ﴾ بنقل كسرة الدال المدغمة إلى الراء نقلها في بيع وقيل . ﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ ماذا نطلب هل من مزيد على ذلك أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا . أو لا نطلب وراء ذلك إحساناً أو لا نبغي في القول ولا نزيد فيما حكينا لك من إحسانه . وقرىء "ما تبغي" على الخطاب أي : أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان ، أو من الدليل على صدقنا ؟ ﴿ هذه بضاعتنا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ استئناف موضح لقوله ﴿ مَا نَبْغِى ﴾ . ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ معطوف على محذوف أي ردت إلينا فنستظهر بها ونمير أهلنا بالرجوع إلى الملك . ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ عن المخاوف في ذهابنا وإيابنا . ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ وسق بعير باستصحاب أخينا ، هذا إذا كانت ﴿ مَا ﴾ استفهامية فأما إذا كانت نافية احتمل ذلك واحتمل أن تكون الجمل معطوفة على ﴿ مَا نَبْغِى ﴾ ، أي لا نبغي فيما نقول ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ . ﴿ ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي مكيل قليل لا يكفينا ، استقلوا ما كيل لهم فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك ويزدادوا إليه ما يكال لأخيهم ، ويجوز أن تكون

الإشارة إلى كيل بعير أي ذلك شيء قليل لا يضايقنا فيه الملك ولا يتعاظمه ، وقيل إنه من كلام يعقوب ومعناه ، إن حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد .

(235/400)

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾ إذ رأيت منكم ما رأيت . ﴿ حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله أي عهداً مؤكداً بذكر الله . ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به . ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا ذلك أو إلا أن تهلكوا جميعاً وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال والتقدير : لتأتنني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم ، أو من أعم العلل على أن قوله لتأتنني به ، في تأويل النفي أي لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم كقولهم : أقسمت بالله إلا فعلت ، أي ما أطلب إلا فعلك . ﴿ فَلَمَّا ءاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ عهدهم . ﴿ قَالَ اللَّهُ على مَا نَقُولُ ﴾ من طلب الموثق وإتيانه . ﴿ وَكِيلٌ ﴾ رقيب مطلع .

﴿ وَقَالَ يَا بَنِى لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ لأنهم كانوا ذوي جمال وأبهة مشتهرين في مصر بالقربة والكرامة عند الملك ، فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانوا ، ولعله لم يوصهم بذلك في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذ ، أو كان

الداعي إليها خوفه على بنيامين . وللنفس آثار منها العين والذي يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في عوذته " اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة " ﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ مِّنَ اللهِ مِن شَىْءٍ ﴾ مما قضى عليكم بما أشرت به إليكم فإن الحذر لا يمنع القدر . ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ يصيبكم لا محالة إن قضي عليكم سوء ولا ينفعكم ذلك . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ جمع بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة لتقدم الصلة للاختصاص كأن الواو للعطف والفاء لإفادة التسبب ، فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم .

(236/400)

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ أي من أبواب متفرقة في البلد . ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُمْ ﴾ رأي يعقوب واتباعهم له . ﴿ مِّنَ اللهِ مِن شَىْءٍ ﴾ مما قضاه عليهم كما قال يعقوب عليه السلام . فسُرِقوا وَأخذ بنيامين بوجدان الصواع في رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب . ﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ ﴾ استثناء منقطع أي ولكن حاجة في نفسه ، يعني شفقته عليهم وحرازته من أن يعانوا . ﴿ قَضَاهَا ﴾ أظهرها ووصى بها . ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ بالوحي ونصب الحجج ، ولذلك قال ﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ مِّنَ اللهِ

مِن شَىْءٍ ﴾ ولم يغتر بتدبيره . ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ سر القدر وأنه لا يغني عنه الحذر .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ ضم إليه بنيامين على الطعام أو في المنزل روي : (أنه أضافهم فأجلسهم مثنى مثنى فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال : لو كان أخي يوسف حياً لجلس معي ، فأجلسه معه على مائدته ثم قال : لينزل كل اثنين منكم بيتاً وهذا لا ثاني له فيكون معي فبات عنده وقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ، قال : من يجد أخاً مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه و ﴿ قَالَ إِنّى أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ فلا تحزن افتعال من البؤس .

﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ في حقنا فيما مضى .

(237/400)

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السقاية ﴾ المشربة . ﴿ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ قيل كانت مشربة جعلت صاعاً يكال به وقيل : كانت تسقى الدواب بها ويكال بها وكانت من فضة . وقيل من ذهب وقرىء و"جعل" على حذف جواب فلما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا . ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذّنٌ ﴾ نادى مناد . ﴿ أَيَّتُهَا العير إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ لعله لم يقله بأمر

يوسف عليه الصلاة والسلام أو كان تعبية السقاية والنداء عليها برضا بنيامين . وقيل معناه إنكم لسارقون يوسف من أبيه أو أئنكم لسارقون ، والعير القافلة وهو اسم الإبل التي عليها الأحمال لأنها تعير أي تتردد ، فقيل لأصحابها كقوله عليه الصلاة والسلام " يا خيل الله اركبي " وقيل جمع عير وأصله فعل كسقف فعل به ما فعل ببيض تجوز به لقافلة الحمير ، ثم استعير لكل قافلة .

﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ أي شيء ضاع منكم ، والفقد غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه ، وقرىء ﴿ تُفْقِدُونَ ﴾ من أفقدته إذا وجدته فقيداً .

﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الملك ﴾ وقرىء "صاع" و"صوع" بالفتح والضم والعين والغين و"صواغ" من الصياغة . ﴿ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ من الطعام جعلاً له . ﴿ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ كفيل أؤديه إلى من رده . وفيه دليل على جواز الجعالة وضمان الجعل قبل تمام العمل .

﴿ قَالُواْ تالله ﴾ قسم فيه معنى التعجب ، التاء بدل من الباء مختصة باسم الله تعالى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الأرض وَمَا كُنَّا سارقين ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم في كرتي مجيئهم ومداخلتهم للملك مما يدل على فرط أمانتهم كرد البضاعة التي جعلت في رحالهم وكعم الدواب لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد .

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ فما جزاء السارق أو السرق أو ال ﴿ صُوَاعَ ﴾ على حذف المضاف. ﴿ إِن كُنتُمْ كاذبين ﴾ في ادعاء البراءة.

﴿ قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أي جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله واسترقاقه، هكذا كان شرع يعقوب عليه الصلاة والسلام. وقوله ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ تقرير للحكم وإلزام له، أو خبر ﴿ مِنْ ﴾ والفاء لتضمنها معنى الشرط أو جواب لها على أنها شرطية. والجملة كما هي خبر ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ على إقامة الظاهر فيها مقام الضمير كأنه قيل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو. ﴿ كذلك نَجْزِى الظالمين ﴾ بالسرقة.

﴿ فبدأ بأوعيتهم ﴾ فبدأ المؤذن وقيل يوسف لأنهم ردوا إلى مصر ﴿ قبل وعاء أخيه ﴾ بنيامين نفيا للتهمة ﴿ ثم استخرجها ﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه يذكر ويؤنث ﴿ من وعاء أخيه ﴾ وقرئ بضم الواو وبقلبها همزة ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الكيد ﴿ كدنا ليوسف ﴾ بأن علمناه إياه وأوحينا به إليه ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ ملك مصر لأن دينه الضرب وتغريم ضعف ما أخذ دون الاسترقاق وهو بيان للكيد ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أن جعل ذلك الحكم حكم الملك فالاستثناء من أعم الأحوال ويجوز أن يكون منقطعا أي لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ بالعلم كما

رفعنا درجته ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ أرفع درجة منه واحتج به من زعم أنه تعالى عالم بذاته إذ لو كان ذا علم لكان فوقه من هو أعلم منه والجواب أن المراد كل ذي علم من الخلق لأن الكلام فيهم ولأن العليم هو الله سبحانه وتعالى ومعناه الذي له العلم البالغ لغة ولأنه لا فرق بينه وبين قولنا فوق كل العلماء عليم وهو مخصوص . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 295.302 ﴾

(239/400)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) ﴾

واختلف في قوله :

﴿ وقال الملك ﴾ فمنهم من قال : هو العزيز ، ومنهم من قال : هو الريان الذي هو الملك الأكبر . قال الرازي : وهذا هو الأظهر لوجهين:

الأوّل : أنّ قول يوسف ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ يدل عليه .

(240/400)

الثاني : قوله ﴿ أستخلصه لنفسي ﴾ يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصاً وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصاً للعزيز فدل هذا على أنّ هذا الملك هو الملك الأكبر انتهى . وإنما صرّح به ولم يستغن بضميره كراهية الالتباس لما تخلل بينه وبين جواب امرأة العزيز من كلام يوسف عليه السلام ، ولو كان الكل من كلامها لاستغني بالضمير ، ولم يحتج إلى إبرازه ﴿ ائتوني به استخلصه لنفسي ﴾ ، أي : أجعله خالصاً لي دون شريك . قال ابن عباس : فأتاه الرسول فقال له : ألق عنه ثياب السجن وألبسه ثياباً جدداً ، وقم إلى الملك فدعا له أهل السجن وهو يومئذٍ ابن ثلاثين سنة ، واغتسل وتنظف ولبس ثياباً جدداً بعد أن دعا لأهل السجن فقال : اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعمّ عنهم الأخبار ، وكتب على باب السجن هذه منازل البلوى ، وقبور الأحياء ، وبيوت الأحزان ، وتجربة الأصدقاء ، وشماتة الأعداء . ثم أتى الملك فلما رآه غلاماً حدثاً فقال : أيعلم هذا رؤياي ولا يعلمها السحرة والكهنة ؟ ثم أقعده قدّامه وقال له : لا تخف وألبسه طوقاً من ذهب وثياباً من حرير ، وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك ، وروي أنّ جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو في الحبس وقال : قل : اللهم اجعل لي من عندك فرجاً ومخرجاً ، وارزقني من حيث لا أحتسب ، فقبل الله تعالى دعاءه وأظهر هذا السبب في تخليصه من السجن ، وروي أنّ يوسف لما دخل عليه قال : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ

بعزتك وقدرتك من شره ، ثم سلم عليه بالعربية فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : هذا لسان عمي إسماعيل ، ثم دعا له بالعبرانية فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : هذا لسان آبائي ، قال وهب : كان الملك يتكلم بسبعين لغة ولم يعرف هذين اللسانين ، وكان الملك كلما كلمه بلسان أجابه يوسف عليه السلام وزاد بالعربية والعبرانية ﴿ فلما كلمه ﴾ ، أي : كلم الملك يوسف عليه السلام وشاهد منه ما شاهد من جلال النبوّة وجميل الوزارة وخلال السيادة ومخايل السعادة

(241/400)

أقبل عليه وقال:

إني أحبّ أن أسمع منك تأويل رؤياي شفاهاً ، فأجابه بذلك الجواب شفاهاً وشهد قلبه بصحته فعند ذلك .

﴿ قال ﴾ له ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ ، أي : ذو مكانة وأمانة على أمرنا فما ترى أيها الصديق ؟ ﴿ قال ﴾ أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعاً كثيراً وتبني الخزائن ، وتجمع فيها الطعام فإذا جاءت السنين المجدبة بعنا الغلال فيحصل بهذا الطريق مال عظيم ، فقال الملك : ومن لي بهذا الشغل ؟ فقال يوسف : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ جمع

خزانة وأراد خزائن الطعام والأموال ، والأرض أرض مصر ، أي : خزائن أرضك مصر ، وقال الربيع بن أنس : ، أي : خرج مصر ودخله .

وروى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال : "رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك أخره الله تعالى سنة فأقام في بيته سنة مع الملك" . قال الرازي : وهذا من العجائب ؛ لأنه لما تثاقل عند الخروج من السجن سهل الله تعالى عليه ذلك على أحسن الوجوه . ولما سارع في ذكر هذا الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه ، وهذا يدل على أنّ ترك التصرف أتم ، والتفويض بالكلية إلى الله تعالى أولى ، ثم قال : ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ ، أي : ذو حفظ وعلم بأمرها ، وقيل : كاتب وحاسب . فإن قيل : لم طلب يوسف عليه السلام الإمارة والنبيّ صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة : "لا تسأل الإمارة" . ولم طلب الإمارة من سلطان كافر ، ولم لم يصبر مدّة ، ولم أظهر الرغبة في طلبها في الحال ، ولم طلب أمر الخزائن في أوّل الأمر مع أن هذا يورث نوع تهمة ، ولم مدح نفسه وقد قال تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ (النجم ،) ولم ترك الاستثناء في هذا وقد قال تعالى : ﴿ ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ (الكهف : ،) فهذه سبعة أسئلة ؟ .

أجيب عنها : بأنّ الأصل في جواب هذه الأسئلة أنّ التصرف في أمور الخلق كان واجباً عليه فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان وإنما كان ذلك واجباً عليه لوجوه:

الأوّل : أنه كان رسولاً حقاً من الله تعالى إلى الخلق والرسول يجب عليه مراعاة الأمة بقدر الإمكان .

والثاني : أنه علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد ، فلعله تعالى أمره أن يدبر في ذلك ويأتي بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق .

والثالث : أن السعي أيضاً في إيصال النفع إلى المستحقين ورفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول ، فكان مكلفاً عليه السلام برعاية المصالح من هذه الوجوه ، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وإنما مدح نفسه ؛ لأنّ الملك وإن علم كماله في علوم الدين لكن ما كان عالماً بأنه يفي بهذا الأمر ، وأيضاً مدح النفس إنما يكون مذموماً إذا قصد به الشخص التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل ، وأمّا هذا الوجه فليس بمذموم وقوله تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ (النجم ،) المراد به تزكية حال من لا يعلم كونها مزكاة والدليل قوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿ هو أعلم بمن اتقى ﴾ (النجم ،) أمّا إذا كان الإنسان عالماً بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه ، وإنما ترك الاستثناء ؛ لأنه لو ذكره بما اعتقد الملك فيه إنه إنما ذكره لعلمه أنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما

ينبغي ، فلهذا المعنى ترك الاستثناء ، ولما سأل يوسف عليه السلام ما تقدم قال معلماً بأنه قد أجيب بتنجيز الله تعالى له:

﴿ وكذلك ﴾ ، أي : كإنعامنا عليه بالخلاص من السجن ﴿ مكنا ليوسف في الأرض ﴾ ، أي : أرض مصر ﴿ يتبوّأ ﴾ ، أي : ينزل ﴿ منها حيث يشاء ﴾ بعد الضيق والحبس قال ابن عباس وغيره : ولما انقضت السنة من يوم سأل الأمارة دعاه الملك فتوجه وجعل خاتم الملك في إصبعه وقلده سيفه وجعل له سريراً من ذهب مكللاً بالدرّ والياقوت طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع عليه ستون فراشاً ، فقال يوسف عليه السلام : أما السرير فأشدّ به ملكك ، وأمّا الخاتم فأدبر به أمرك ، وأمّا التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي ، وأمره أن يخرج فخرج لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه في صفاء لونه ، فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوّض إليه أمر مصر ، وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه .

قال ابن إسحاق : قال ابن زيد : وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلم سلطانه كله إليه وجعل أمره وقضاءه نافذاً في مملكته ، ثم مات قطفير بعد ذلك فزوّجه الملك امرأته ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيراً مما كنت تريدين ؟ قالت : أيها الصديق لا تلمني ، فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي ، فوجدها يوسف عليه السلام عذراء فأصابها فولدت له ذكرين افراثيم وميشا ، فأقام العدل بمصر وأحبه الرجال والنساء ، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الأولى ، ثم بالحلي والجواهر في السنة الثانية ، ثم بالدواب في السنة الثالثة ، ثم بالعبيد والإماء في السنة الرابعة ، ثم بالضياع والعقار في السنة الخامسة ، ثم بأولادهم في السنة السادسة ، ثم برقابهم في السنة السابعة حتى لم يبق بمصر حرّ ولا حرّة إلا صار عبداً له ، فقال الناس : ما رأينا كاليوم ملكاً أجل ولا أعظم من هذا صار كل الخلق عبيداً له ، فلما سمع ذلك قال : إني أشهد الله أني اعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم ، وكان لا يبيع أحداً ممن يطلب الطعام أكثر من حمل بعير ؛ لئلا يضيق الطعام على الباقين هذا ملخص ما قاله البغوي والزمخشري وغيرهما .

قال الرازي : والله أعلم بحقيقة الحال وروي أنّ يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك الأيام ، فقيل له : تجوع وبيدك خزائن الأرض ؟ فقال : إن شبعت نسيت الجائع ، وأمر يوسف طباخ الملك أن يجعل غداءه نصف النهار أراد بذلك أن يذيق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين قال البغوي : فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار قال الله تعالى :

﴿ نصيب ﴾ ، أي : نخص ﴿ برحمتنا من نشاء ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ بل نؤتيهم أجورهم عاجلاً ؛ وآجلاً لأنّ إضاعة الأجر إما أن تكون للعجز أو للجهل أو للبخل ، والكل ممتنع في حق الله تعالى فالإضاعة ممتنعة .

﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ الشرك والفواحش ، قال الرازي : وهذا تنصيص من الله تعالى على أنّ يوسف عليه السلام كان في الزمان السابق من المتقين وليس هاهنا زمان سابق يحتاج إلى بيان أنه كان فيه من المتقين إلا ذلك الوقت الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ ولقد همت به وهمّ بها ﴾ فكان هذا من الله تعالى شهادة بأنه عليه السلام كان في ذلك الوقت من المتقين وأيضاً قوله : ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ شهادة من الله تعالى على أنه كان من المخلصين فثبت أن الله تعالى شهد بأنّ يوسف كان من المتقين ومن المحسنين ومن

المخلصين ، والجاهل الحشوي يقول : إنه كان من المذنبين ولا شك أن من لم يقبل قول الله تعالى مع هذه التأكيدات كان من الأخسرين . ولما اشتدّ القحط وعظم البلاء عم ذلك جميع البلاد حتى وصل إلى بلاد الشام وأرض كنعان ، وقصد الناس مصر من كل مكان للميرة ، فجعل يوسف عليه السلام لا يعطي أحداً أكثر من حمل بعير وإن كان عظيماً تقسيطاً بين الناس . وتزاحم الناس عليه ، ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدّة ، فبعث بنيه إلى مصر للميرة وأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه وأبيه فذلك قوله تعالى :

﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ وكانوا عشرة وكان منزلهم بالعربات من أرض فلسطين ثغور الشام وكانوا أهل إبل وشياه ، فدعاهم أبوهم يعقوب عليه السلام ، وقال : بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام فتجهزوا إليه واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون من الطعام . وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين ، فقرأ نافع وابن كثير ، وأبو عمرو بتسهيل الثانية ، والباقون بالتحقيق . ولما أمرهم أبوهم بذلك خرجوا حتى قدموا مصر ﴿ فدخلوا عليه فعرفهم ﴾ قال ابن عباس : بأوّل نظرة إليهم عرفهم . وقال الحسن : لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه . ﴿ وهم له منكرون ﴾ ، أي : لم يعرفوه وذلك لوجوه : الأوّل : أنه عليه السلام أمر

حجا به بأن يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم إلا بواسطة ، الثاني : أنهم حين ألقوه في الجب كان صغيراً ، ثم أنهم رأوه بعد وفور اللحية وكبر الجثة ، قال ابن عباس : وكان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة ، فلذلك أنكروه ، وقال عطاء : إنما لم يعرفوه ؛ لأنه كان على سرير الملك ، وكان بزيّ ملوك مصر عليه ثياب حرير ، وفي عنقه طوق ذهب ، ثم أنّ يوسف عليه السلام أمر بإنزالهم وإكرامهم وكانت عادته أن لا يزيد أحداً على حمل بعير ، وكانوا عشرة فأعطاهم عشرة أحمال كما قال تعالى:

﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ ، أي : وفاهم كيلهم والجهاز ما يعدّ من الأمتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة إلى أخرى وما تزف به المرأة إلى زوجها ، فقالوا : إن لنا شيخاً كبيراً وأخاً آخر بقي معه وذكروا أنّ أباهم لأجل سنه وشدّة حزنه لم يحضر ، وأن أخاهم في خدمة أبيه ولا بدّ لهما أيضاً من حملين آخرين من الطعام ، فلما ذكروا ذلك قال يوسف عليه السلام : فهذا يدل على أنّ حب أبيكم له أزيد من حبه لكم ، وهذا شيء عجيب ؛ لأنكم أنتم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم إذا كانت محبة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبته لكم

دل ذلك على أنه أعجوبة في العقل والأدب فجيئوني به حتى أراه كما قال تعالى حكاية عنه : ﴿ قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ ، أي : الذي خلفتموه عنده . r

---

وقيل : إنه لما نظر إليهم وكلموه بالعبرانية قال لهم : اخبروني من أنتم وما أمركم ؟ فإني أنكرت شأنكم قالوا : قوم من أرض الشام أصابنا ما أصاب الناس ، فجئنا نمتار فقال : لعلكم جئتم لتنظروا إلى عورة بلادنا ؟ قالوا : لا والله لسنا بجواسيس إنما نحن إخوة بنو أب واحد ، وهو شيخ صديق ، يقال له يعقوب نبيّ من أنبياء الله تعالى ، قال : وكم كنتم ؟ قالوا : كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك فيها ، وكان من أحبنا إلى أبينا قال : فكم أنتم ههنا ؟ قالوا : عشرة . قال : وأين الابن الآخر ؟ قالوا : عند أبينا ؛ لأنه أخو الذي هلك وأبوه مبتلى به . قال : فمن يعلم أن الذي تقولون حق ؟ قالوا : أيها الملك إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد . فقال يوسف عليه السلام : فائتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين ، فأنا أرضى بذلك . فقالوا : إنّ أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه . قال : فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم ، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون ، وكان أحسنهم رأياً في يوسف فخلفوه عنده ، ثم إنه قال لهم : ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل ﴾ ، أي

: أتمه ولا أبخس منه شيئاً ، وقرأ نافع بفتح الياء من أني ، والباقون بالسكون ، وأما الياء من ﴿ أوفي ﴾ فجميع القراء يثبتونها في الوقف لثباتها في الرسم ، وحذفوها في الوصل لالتقاء الساكنين ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ ، أي : المضيفين فإنه كان قد أحسن ضيافتهم مدّة إقامتهم عنده . قال الرازي : وهذا يضعف قول من يقول من المفسرين أنه اتهمهم ونسبهم إلى أنهم عيون وجواسيس ، ولو شافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم : ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ وأيضاً يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقاً أن يقول لهم : أنتم عيون وجواسيس مع أنه يعرف براءتهم عن هذه التهمة ؛ لأنّ البهتان لا يليق بحال الصديق ثم قال عليه السلام:

﴿ فإن لم تأتوني به ﴾ ، أي : بأخيكم ﴿ فلا كيل ﴾ ، أي : فلا ميرة ﴿ لكم عندي ﴾ ولم يمنعهم من غيره ﴿ ولا تقربون ﴾ نهي أو عطف على محل فلا كيل لكم ، أي : تحرموا ولا تقربوا مني ولا تدخلوا دياري ، فجمع لهم عليه السلام بين الترغيب والترهيب فالترغيب في قوله الأوّل ، والترهيب في قوله الثاني ؛ لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى الطعام وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ، ومع ذلك لم يخطر ببالهم أنه يوسف ، فكأنه قيل : فما قالوا ؟ فقيل:

﴿ قالوا سنراود ﴾ ، أي : بوعد لا خلف فيه حين نصل ﴿ عنه أباه ﴾ ، أي : سنكمله فيه وننازعه الكلام ونحتال فيه ونتلطف في ذلك ولاندع جهداً ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ ما أمرتنا به والتزمناه .

﴿ و ﴾ لما أرغبهم وأرهبهم في شأن أخيه ﴿ قال لفتيته ﴾ ، أي : غلمانه الكيالين جمع فتى ، وقرأ حفص وحمزة والكسائي بألف بعد الياء المثناة تحت وبعد الألف نون مكسورة ، والباقون بالياء المثناة تحت ثم بتاء مثناة فوق مكسورة . ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ ، أي : التي أتوا بها ثمن الميرة وكانت دراهم ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها كانت النعال والأدم ﴿ في رحالهم ﴾ جمع رحل أوعيتهم التي يحملون فيها الطعام ﴿ لعلهم يعرفونها ﴾ ، أي : بضاعتهم ﴿ إذا انقلبوا ﴾ ، أي : رجعوا ﴿ إلى أهلهم ﴾ وفتحوا أوعيتهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ إلينا .

واختلف في السبب الذي من أجله رد يوسف عليه السلام بضاعتهم في رحالهم على أوجه:

الأوّل : أنه أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدّة الزمان ، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق ، فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم .

الثاني : أراد أن يعرّف أباه انه أكرمهم وطلبهم لمزيد الإكرام فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه .

الثالث : مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا يطلب زيادة

الثمن .

والرابع : أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم فيه عيب ولا منة .

الخامس : قال الفراء : إنهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد أنبياء فيرجعون ليعرفوا السبب فيه ، ويردوا الملك إلى مالكه .

السادس : أراد به التوسعة على أبيه ؛ لأنّ الزمان كان زمان القحط .

السابع : رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه ومن إخوته على شدّة حاجتهم إلى الطعام لؤم .

الثامن : خاف أن لا يكون عند أبيه من المال ما يرجعون به مرّة أخرى .

التاسع : أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا أنّ ذلك كرم من يوسف عليه السلام وسخاء ، فيبعثهم ذلك إلى العود إليه والحرص على معاملته عليه السلام .

﴿ فلما رجعوا ﴾ ، أي : أخوة يوسف عليه السلام ﴿ إلى أبيهم قالوا يا أبانا ﴾ إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا إكرامه ، فقال يعقوب عليه السلام : إذا رجعتم إلى ملك مصر فأقرؤوه مني السلام وقولوا له : إنّ أبانا

يدعو لك بما أوليتنا ، ثم قال لهم : أين شمعون ؟ قالوا : ارتهنه ملك مصر ، وأخبروه بالقصة

وقولهم : ﴿ منع منا الكيل ﴾ فيه قولان:

أحدهما : أنهم لما طلبوا الطعام لأخيهم الغائب عند أبيهم منعوا منه .

والثاني : أنهم منعوا الكيل في المستقبل ، وهو قول يوسف عليه السلام : ﴿ فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ ويدل لهما قولهم : ﴿ فأرسل معنا أخانا ﴾ بنيامين ﴿ نكتل ﴾ فإنّ حمزة والكسائي قرآه بالياء ، أي : يكتل لنفسه ، وهذا يدل للقول الأوّل ، والباقون بالنون ، أي : نكتل نحن وإياه ، وهذا يدل للقول الثاني ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ عن أن يناله مكروه حتى نردّه إليك ، فلما قالوا ليعقوب عليه السلام هذه المقالة .

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ هل آمنكم ﴾ ، أي : أقبل منكم الآن وفي مستقبل الزمان تأمينكم لي فيه بما يسوءني تأميناً مستقبلاً ﴿ عليه ﴾ ، أي : بنيامين ﴿ إلا كما أمنتكم ﴾ ، أي : في الماضي ﴿ على أخيه ﴾ يوسف عليه السلام ﴿ من قبل ﴾ فإنكم أكدتم غاية التأكيد فلم تحفظوه لي ولم تردّوه إليّ ، والأمن اطمئنان القلب إلى سلامة النفس ، فأنا في هذا لا آمن عليه إلا الله تعالى ﴿ فالله ﴾ المحيط علماً وقدرة ﴿ خيرٌ حافظاً ﴾ منكم ومن كل أحد ،

ففيه التفويض إلى الله تعالى والاعتماد عليه في جميع الأمور . وقرأ حفص وحمزة والكسائي بفتح الحاء وألف بعدها وكسر الفاء ، والباقون بكسر الحاء وسكون الفاء ، وهو منصوب على التمييز في القراءتين ، وتحتمل الأولى النصب على الحال اللازمة ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ ، أي : أرحم بي من أن يفجعني به بعد مصيبتي بأخيه فلا يجمع عليّ مصيبتين .

﴿ ولما ﴾ أرادوا تفريغ ما قدموا به من الميرة ﴿ فتحوا متاعهم ﴾ ، أي : أوعيتهم التي حملوها من مصر ﴿ وجدوا بضاعتهم ﴾ ، أي : ما كان معهم من كنعان لشراء القوت ﴿ ردّت إليهم ﴾ والوجدان ظهور الشيء للنفس بحاسة أو ما يغني عنها ، فكأنه قيل : ما قالوا ؟ فقيل : ﴿ قالوا ﴾ ، أي : لأبيهم عليه السلام ﴿ يا أبانا ما ﴾ استفهامية ، أي : أي شيء ﴿ نبغي ﴾ ، أي : نريد ، جميع القراء أثبتوا الياء وقفاً ووصلاً لثباتها في الرسم ، فكأنه قال لهم : ما الخبر ؟ فقالوا بياناً لذلك ؟ وتأكيداً للسؤال في استصحاب أخيهم : ﴿ هذه بضاعتنا ردّت إلينا ﴾ هل من مزيد على ذلك أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا وردّ علينا متاعنا .

ولما كان التقدير ونرجع بها إليه بأخينا ، فيظهر له نصحنا وصدقنا ﴿ ونمير أهلنا ﴾ ، أي : نجلب إليهم الميرة برجوعنا إليه ، والميرة الأطعمة التي تحمل من بلد إلى بلد ﴿ ونحفظ أخانا ﴾ فلا يصيبه شيء مما تخشى عليه تأكيداً للوعد بحفظه ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ لأخينا ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ ، أي : سهل على الملك لسخائه وحرصه على البذل ، وقيل : قصير المدّة ليس سبيل مثله أن تطول مدّته بحسب الحبس والتأخير ، وقيل قليل فابعث أخانا حتى نبدل تلك القلة بالكثرة ، فكأنه قيل : ما قال لهم ؟ فقيل:

﴿ قال ﴾ يعقوب عليه السلام : ﴿ لن أرسله ﴾ ، أي : بنيامين كائناً ﴿ معكم ﴾ ، أي : في وقت من الأوقات ﴿ حتى تؤتوني موثقاً ﴾ ، أي : عهد مؤكداً ﴿ من الله ﴾ قرأ ابن كثير بإثبات الياء بعد النون وقفاً ووصلاً ، وأبو عمرو بإثبات الياء وقفاً لا وصلاً ، وحذفها الباقون وقفاً ووصلاً ، وقوله ﴿ لتأتنني ﴾ ، أي : كلكم ﴿ به ﴾ أي : تحلفوا بالله لتأتنني به من الإتيان ، وهو المجيء في كل حال جواب القسم ، أو المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به ﴿ إلا ﴾ ، أي : في حال ﴿ أن يحاط ﴾ ، أي : تحصل الإحاطة بمصيبة من المصائب لا طاقة لكم بها ﴿ بكم ﴾ فتهلكوا من عند آخركم كل ذلك زيادة في التوثيق بما حصل له من المصيبة بيوسف عليه السلام ، وإن كان الاعتماد في حفظه إنما هو على الله تعالى ، وهذا من باب اعقلها وتوكل ، فأجابوه إلى ذلك كما قال تعالى ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ بذلك ﴿ قال الله على ما نقول ﴾ نحن وأنتم ﴿ وكيل ﴾ ، أي : شهيد ، وأرسله معهم بعد

ذلك .

فإن قيل : لم أرسله معهم وقد شاهد منهم ما شاهد في يوسف عليه السلام ؟

أجيب : بأن ذلك لوجوه : أحدها : أنهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح ، الثاني : أنه كان شاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام ، الثالث : لعل الله أوحى إليه وضمن حفظه وإيصاله إليه .

﴿ و ﴾ لما عزموا على الخروج إلى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ يا بني لا تدخلوا ﴾ إذا قدمتم إلى مصر ﴿ من باب واحد ﴾ من أبوابها ﴿ وادخلوا من أبواب ﴾ واحترز من أن تكون متلاصقة أو متقاربة جداً بقوله : ﴿ متفرّقة ﴾ ، أي : تفرّقا كثيراً ، وهذا حكم التكليف لئلا يصابوا بالعين ، وهي من قدر الله تعالى .

وقد ورد شرعنا بذلك ففي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "العين حق" . وفي رواية عن أحمد "يحضرها الشيطان وحسد ابن آدم" . وفي رواية لمسلم : "العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين" . وفي رواية عن جابر :

"إنّ العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر" ، وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم كان يعوّذ الحسن والحسين فيقول : "أعيذكما بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة" . ويقول : "هكذا كان يعوّذ إبراهيم إسماعيل وإسحاق" صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر النبيين ، وعن عبادة بن الصامت قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوّل النهار فوجدته شديد الوجع ، ثم عدت إليه في آخر النهار فرأيته معافى فقال : "إنّ جبريل عليه السلام أتاني فرقاني فقال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من كل عين وحاسد الله يشفيك ، قال فأفقت" وفي رواية أنّ بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلماناً بيضاً فقالت أسماء : يا رسول الله ، إنّ العين إليهم سريعة فاسترق لهم من العين ؟ فقال لها : "نعم" . وفي رواية دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أمّ سلمة وعندها صبي يشتكي فقالوا : يا رسول الله أصابته العين . فقال : "أما تسترقون له من العين" . وعن عائشة رضي الله تعالى عنها "كان يؤمر العائن أن يتوضأ ثم يغتسل منه المعين الذي أصيب بالعين" .

ولما خاف يعقوب عليه السلام أن يسبق من أمره هذا إلى بعض الأوهام أنّ الحذر يغني عن القدر نفى ذلك بقوله عليه السلام ﴿ وما أغني ﴾ ، أي : أدفع ﴿ عنكم ﴾ بقولي ذلك ﴿ من الله من شيء ﴾ قدره عليكم ، وإنما ذلك شفقة ، ومن مزيدة للتأكيد ، واعلم أنّ الإنسان مأمور بأن يراعي الأسباب المعتبرة في هذا العالم بأن يجزم بأنه لا يحصل الا ما قدره الله تعالى وإن الحذر لايدفع القدر ، فالإنسان مأمور بأن يحذر الأشياء المهلكة والأغذية الضارة ، ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضارّ بقدر الإمكان ، ومع ذلك يكون جازماً بأنه لا يصل إليه إلا ما قدّره الله تعالى ، ولا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله تعالى ، فقوله عليه السلام : ﴿ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم ، وقوله : ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب بل إلى التوحيد المحض ، والبراءة من كل شيء سوى الله تعالى .

ولما قصر الأمر كله إليه تعالى وجب رد كل أمر إليه ، وقصر النظر عليه ، فقال منبهاً على ذلك ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ وحده الذي ليس الحكم إلا له ﴿ عليه ﴾ ، أي : على الله وحده ﴿ توكلت ﴾ ، أي : جعلته وكيلي فرضيت بكل ما يفعل ﴿ وعليه ﴾ وحده ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ ، أي : الثابتون في باب التوكل ، فإنّ ذلك من أعظم الواجبات من فعله فاز ومن أغفله خاب ، وقد ثبت بالبرهان أن لا حكم إلا لله ، فلزم القطع بأنّ حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى ، وذلك يوجب أن لا توكل إلا على الله تعالى ،

فهذا مقام شريف عال.

والشيخ أبو حامد الغزالي أكثر في تقرير هذا المعنى في كتاب التوكل من كتب "إحياء علوم الدين" فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب. ولما قال يعقوب عليه السلام: ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ صدّقه الله تعالى في ذلك فقال:

(255/400)

﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ ، أي: متفرّقين ﴿ ما كان ﴾ ذلك التفرّق ﴿ يغني عنهم من الله ﴾ ، أي: من قضائه وأغرق في النفي فقال: ﴿ من شيء ﴾ ، أي: مما قضاه عليهم كما تقدّم من قول يعقوب عليه السلام فسرّقوا وأخذ بنيامين بوجدان الصواع في رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب عليه السلام وقوله تعالى: ﴿ إلا حاجة ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن حاجة ﴿ في نفس يعقوب ﴾ وهي الوصول إلى ما أمر به شفقة عليهم ﴿ قضاها ﴾ يعقوب عليه السلام وأبرزها من نفسه إلى أولاده فعملوا فيها بمراده فاغني عنهم الخلاص من عقوق أبيهم فقط ﴿ وإنه ﴾ ، أي: يعقوب عليه السلام مع أمره لبنيه بذلك ﴿ لذو علم ﴾ ، أي: معرفة بالحكمين حكم التكليف وحكم التقدير واطلاع على الكونين عظيم ﴿ لما علمناه ﴾ بالوحي ونصب الحجج، ولذلك قال: ﴿ وما أغني

عنكم من الله من شيء ﴾ ولم يغتر بتدبيره . ولما كان قد يظنّ أنّ كل أحد يكون كذلك ، أي : يعلم ما علمه نفى ذلك سبحانه وتعالى بقوله جل شأنه ﴿ ولكنّ أكثر الناس ﴾ ، أي : لأجل ما نالهم من الاضطراب ﴿ لا يعلمون ﴾ ، أي : ليسوا بذوي علم لما علمناهم لإعراضهم عنه واستفراغ قواهم في الاهتمام بما وقع التكليف لهم به ومن أحوال الدنيا ومقابلة فطرهم القويمة السليمة بردّها إلى ما تدعوهم إليه الحظوظ والشهوات حتى لا يكون طب لمخلوق . ولما أخبر تعالى عن دخولهم إلى البلد أخبر عن دخولهم لحاجتهم إلى يوسف عليه السلام .

فقال : ﴿ ولما دخلوا ﴾ ، أي : أخوة يوسف عليه السلام ﴿ على يوسف ﴾ في المقدمة الثانية بأخيهم بنيامين قالوا : هذا أخونا فقال : أحسنتم واحتسبتم وستجدون خير ذلك عندي ، ثم أنزلهم وأكرم منزلهم ، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة ، فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال : لو كان أخي يوسف حياً أجلسني معه ، فقال يوسف : لقد صار أخوكم هذا وحيداً فأجلسه معه على مائدته ، وصار يؤاكله فلما كان الليل أمر أن ينزل كل اثنين منهم بيتاً ، فبقي بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام معي على فراشي كما

قال تعالى ﴿ آوى ﴾ أي : ضم ﴿ إليه أخاه ﴾ فبات معه وجعل يوسف يضمه إليه ويشمه ثم قال له : ما اسمك ؟ فقال : بنيامين ، قال : وما بنيامين ؟ قال : المثكل وذلك أنه لما ولد هلكت أمّه . قال : وما اسم أمّك ؟ قال : راحيل بنت لاوي . قال : فهل لك من ولد ؟ قال : نعم عشرة بنين . ولما رأى تأسفه لأخ له هلك ، قال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك ؟ فقال : ومن يجد أخاً مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ﴿ وقال إني أنا أخوك فلا تبتئس ﴾ ، أي : لا تحزن ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ ، أي : بشيء فعلوه بنا فيما مضى ، فإنّ الله قد أحسن إلينا فلا تلتفت إلى أعمالهم المنكرة التي قد أقدموا عليها ، وقد جمعنا الله تعالى على خير ولا تعلمهم بشيء من ذلك .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء ، والباقون بالسكون ، ومدّ بعد النون من أنا قبل الهمزة المفتوحة نافع ، والباقون بالقصر ، ثم أنه ملأ لهم أوعيتهم كما أرادوا ، وكان في المرّة الأولى أبطأ في تجهيزهم في طول المدّة ليتعرّف أخبارهم من حيث لا يشعرون ، ولذلك لم يعطف بالفاء ، وأسرع في تجهيزهم في هذه المرّة قصداً إلى انفراده بأخيه من غير رقيب بالحيلة التي دبّرها فلذلك أتت الفاء في قوله:

﴿ فلما جهزهم ﴾ ، أي : اعجل جهازهم وأحسنه ﴿ بجهازهم جعل ﴾ بنفسه أو بمأذونه ﴿ السقاية ﴾ ، أي : المشربة التي كان يشرب بها ﴿ في رحل أخيه ﴾ ، أي : وعاء طعام أخيه بنيامين كما فعل ببضاعتهم في المرّة الأولى . قال ابن عباس : كانت من زبرجد . وقال ابن إسحاق : كانت من فضة وقيل : من ذهب . وقال عكرمة : كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر ، وجعلها يوسف عليه السلام مكيالاً لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها .

قال الرازي : هذا بعيد ؛ لأنّ الإناء الذي يشرب فيه الملك لا يصلح أن يجعل صاعاً ، وقيل : كانت الدواب تسقى بها ، قال : وهذا أيضاً بعيد ؛ لأنّ الآنية التي تسقى الدواب فيها لا تكون كذلك ، وقال : والأصوب أن يقال : كان ذلك الإناء شيئاً له قيمة أمّا إلى هذا الحد الذي ذكروه فلا ، والسقاية والصواع واحد ، ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا وذهبوا منزلاً ، وقيل : حتى خرجوا من العمارة ثم بعث خلفهم من استوقفهم وحبسهم ﴿ ثم أذن ﴾ ، أي : أعلن فيهم بالنداء ﴿ مؤذن ﴾ قائلاً برفع صوته وإن كانوا في غاية القرب منه بما دل عليه إسقاط الأداة ﴿ أيتها العير ﴾ ، أي : القافلة ، قال أبو الهيثم : كل ما سير عليه من الإبل والحمير والبغال فهو عير . قال : وقول من قال العير الإبل خاصة باطل ، فقوله : ﴿ أيتها العير ﴾ ، أي : أصحاب العير كقوله : يا خيل الله اركبي . قال الفراء : كانوا أصحاب إبل . وقال مجاهد : كانت العير حميراً .

وقرأ ورش بإبدال همزة مؤذن واواً وقفاً ووصلاً ، وحمزة في الوقف فقط ، والباقون بالقصر . ﴿ إنكم لسارقون ﴾ فقفوا حتى ننظر الذي فقد لنا ، والسرقة أخذ ما ليس له أخذه في خفاء من حرز مثله . فإن قيل : هل كان هذا النداء بأمر يوسف عليه السلام أو ما كان بأمره ؟ فإن كان بأمره فكيف يليق بيوسف عليه السلام مع علو منصبه أن يبهت أقواماً وينسبهم إلى السرقة كذباً وبهتاناً ؟ وإن كان بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة ؟

أجيب : بأجوبة:

الأوّل : أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه يوسف قال لست أفارقك قال : لا سبيل إلى ذلك إلا بتدبير حيلة أنسبك فيها إلى ما لا يليق بك . قال : رضيت بذلك ، وعلى هذا لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام ؛ لأنه قد رضي به فلا يكون ذلك ذنباً .

الثاني : ﴿ إنكم لسارقون ﴾ يوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض ، وفي المعاريض مندوحة من الكذب .

الثالث : أنّ المنادي إنما ذكر النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا يخرج أن يكون كذباً .

الرابع : ليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا هذا بأمر يوسف عليه السلام . قال الرازي : والأقرب إلى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم ؛ لأنهم لما طلبوا السقاية فلم يجدوها ، ولم يكن هناك أحد غيرهم غلب على ظنهم أنهم الذين أخذوها . ولما وصل إليهم الرسول قال لهم : ألم نحسن ضيافتكم ونكرم مثواكم ونفيكم كيلكم وفعلنا بكم ما لم نفعل بغيركم ؟ قالوا : بلى ، وما ذاك ؟ قالوا : سقاية الملك فقدناها ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى:

﴿ قالوا و ﴾ الحال أنهم قد ﴿ أقبلوا عليهم ﴾ ، أي : على جماعة الملك المنادي وغيره ﴿ ماذا ﴾ ، أي : ما الذي ﴿ تفقدون ﴾ مما يمكننا أخذه والفقدان ضدّ الوجود ﴿ قالوا نفقد ﴾ وكان للسقاية اسمان فعبروا بقولهم ﴿ صواع الملك ﴾ والصواع هو المكيال وهو السقاية المتقدّمة سموه تارة كذا وتارة كذا ، وإنما اتخذوا هذا الإناء مكيالاً لعزة ما يكال به في ذلك الوقت . ﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ ، أي : من الطعام ، والبعير يطلق لغة على الذكر خاصة وأطلقه بعضهم على الناقة أيضاً ، وجعله نظير إنسان وهو ما جرى عليه الفقهاء في باب الوصية ، والجمع في القلة على أبعرة ، وفي الكثرة على بعران ﴿ وأنا به زعيم ﴾ قال مجاهد : هذا الزعيم هو الذي أذن ، والزعيم الكفيل ، وهذه الآية تدل على أنّ الكفالة كانت صحيحة في شرعهم ، وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : "الزعيم غارم" .

وإذا ورد في شرعنا ما يقرّر شرع غيرنا ، هل يكون شرعاً لنا ؟ في ذلك خلاف والراجح أنه ليس بشرع لنا . فإن قيل : كيف تصح هذه الكفالة مع أنّ السارق لا يستحق شيئاً ؟

أجيب : بأنهم لم يكونوا سراقاً في الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع ، فيكون ذلك جعالة أو أنّ مثل هذه الكفالة ، كانت جائزة عندهم في ذلك الزمان .

﴿ قالوا ﴾ ، أي : أخوة يوسف عليه السلام ﴿ تالله ﴾ التاء حرف قسم ، وهي عند الجمهور بدل من واو القسم ، والواو بدل من الباء ، فهي فرع الفرع ، فلذلك ضعفت عن التصريف في الأسماء ، فلا تدخل إلا على الجلالة الكريمة أو الرب مضافاً للكعبة أو الرحمن في قول ضعيف ، ولو قلت : تالرحمن لم يجز ، أي : والله ﴿ لقد علمتم ﴾ أي : بما جرّبتم من أمانتنا قبل هذا في كون مجيئنا ﴿ ما جئنا ﴾ وأكدوا النفي باللام فقالوا ﴿ لنفسد ﴾ ، أي : نوقع الفساد ﴿ في الأرض ﴾ ، أي : أرض مصر ﴿ و ﴾ لقد علمتم ﴿ ما كنا ﴾ ، أي : بوجه من الوجوه ﴿ سارقين ﴾ ، أي : موصوفين بهذا الوصف قطعاً . فإن قيل : من أين علموا ذلك ؟

أجيب : بأنّ ذلك يعلم مما رأوا من أحوالهم ، وقيل : لأنهم ردّوا البضاعة التي جعلت في رحالهم ، قالوا : فلوا كنا سارقين ما رددناها ، وقيل : قالوا ذلك ؛ لأنهم كانوا معروفين بأنهم لا يتناولون ما ليس لهم ، وكانوا إذا دخلوا مصر كمموا أفواه دوابهم كي لا تتناول شيئاً

من حروث الناس .

﴿ قالوا ﴾ ، أي : أصحاب يوسف عليه السلام المنادي ومن معه ﴿ فما جزاؤه ﴾ ، أي : السارق ، وقيل : الصواع ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ في قولكم : ما كنا سارقين ووجد فيكم ، والجزاء مقابلة العمل بما يستحق من خير وشر .

(260/400)

﴿ قالوا ﴾ وثوقاً منهم بالبراءة وإخباراً بالحكم عندهم ﴿ جزاؤه من وجد في رحله ﴾ ولتحققهم البراءة علقوا الحكم على مجرد الوجدان لا السرقة ، ثم أكدوا ذلك بقولهم : ﴿ فهو جزاؤه ﴾ قال ابن عباس : كان ذلك الزمان كل سارق بسرقته فلذلك قالوا ذلك ، أي : فالسارق جزاؤه أن يسلم بسرقته إلى المسروق منه فيسترق سنّة ، وكان ذلك سنّة آل يعقوب في حكم السارق وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق ، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده فرد الحكم إليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم ﴿ كذلك ﴾ ، أي : الجزاء ﴿ نجزي الظالمين ﴾ بالسرقة ، قال أصحاب يوسف : فلابد من تفتيش رحالكم ، فردوهم إلى يوسف عليه السلام فأمر بتفتيشها بين يديه .

﴿ فبدأ بأوعيتهم ﴾ ففتشها ﴿ قبل وعاء أخيه ﴾ لئلا يتهم فلم يجد فيها شيئاً ﴿ ثم ﴾ ، أي : بعد تفتيش أوعيتهم والتأني في ذلك ﴿ استخرجها ﴾ ، أي : السقاية أو الصاع ؛ لأنه يذكر ويؤنث ﴿ من وعاء أخيه ﴾ فلما خرج الصاع من وعاء بنيامين نكس أخوته رؤوسهم من الحياء ، وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون : له إيش الذي صنعت فضحتنا وسوّدت وجوهنا يا ابن راحيل ما زال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصاع . فقال بنيامين : بل بنوا راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فاهلكتموه في البرية إنّ الذي وضع هذا الصاع في رحلي هو الذي وضع البضاعة في رحالكم ، فأخذ بنيامين رقيقاً .

وقيل : إنّ المنادي وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصاع من رحله فأخذوه برقبته وردّوه إلى يوسف عليه السلام . تنبيه : هاهنا همزتان مختلفتان من كلمتين قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بإبدال الثانية ياء ، والباقون بالتحقيق .

﴿ كذلك ﴾ ، أي : مثل ذلك الكيد ﴿ كدنا ليوسف ﴾ خاصة بأنّ علمناه إياه جزاء لهم على كيدهم بيوسف عليه السلام في الابتداء ، وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام : ﴿ فيكيدوا لك كيداً ﴾ (يوسف ،) والكيد من الخلق الحيلة ، ومن الله تعالى التدبير

بالحق ، فالمراد من هذا الكيد هو أنّ الله تعالى ألقى في قلب إخوته بأن حكموا أنّ جزاء السارق هو أن يسترق لا جرم لما ظهر الصاع في رحله حكموا عليه بالاسترقاق ، وصار ذلك سبباً لتمكن يوسف عليه السلام من إمساك أخيه عند نفسه . ولما كان الكيد يشعر بالحيلة والخديعة ، وهو في حق الله تعالى محال حمل على الغاية ، ونهايته هنا إلقاء الإنسان من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل له إلى دفعه ، فالكيد في حق الله تعالى محال على هذا المعنى ، وقيل : المراد بالكيد هاهنا إنّ أخوة يوسف سعوا في إبطال أمره ، والله تعالى نصره وقوّاه وأعلى أمره وقوله تعالى : ﴿ ما كان ﴾ ، أي : يوسف ﴿ ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ ، أي : حكمه بيان للكيد ؛ لأنّ جزاءه كان عنده الضرب وتغريم مثلي ما أخذ لا أنه يستبعد ، وقوله تعالى : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ فيه وجهان:

أحدهما : أنه استثناء منقطع تقديره : ولكن بمشيئة الله أخذه في دين الملك ، وهو دين آل يعقوب عليه السلام إنّ الاسترقاق جزاء السارق .

والثاني : أنه مفرغ من الأحوال العامّة والتقدير ما كان ليأخذه في كل حال إلا في حال التباسه بمشيئة الله ، أي إذنه في ذلك . ولما كان يوسف عليه السلام إنما تمكن من ذلك بعلو درجته

وتمكنه ورفعته بعدما كان فيه عندهم من الصغار كان ذلك محل عجب فقال تعالى التفاتاً إلى مقام التكلم : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ ، أي : بالعلم كما رفعنا درجته ، وكان الأصل درجاته ولكنه عمم ؛ لأنه أدل على العظمة ، فكان أليق بمظهرها ، وفي هذه الآية دليل على أنّ العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات ؛ لأنّ الله تعالى لما هدى يوسف عليه السلام إلى هذه الحيلة مدحه لأجل ذلك ورفع درجته على إخوته ، ووصف إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ عندما حكى عنه دلائل التوحيد والبراءة عن إلهية الشمس والقمر والكواكب .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتنوين التاء ، والباقون بغير تنوين ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ قال ابن عباس : فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى فوق كل عالم ؛ لأنه هو الغني بعلمه عن التعلم ، وفي الآية دليل على أنّ إخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء ، وكان يوسف أعلم منهم . قال ابن الأنباري : يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لربه تعالى ، ولا يطمع نفسه في العلية في العلوم ؛ لأنه لا يخلو عالم من عالم فوقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 168.185 ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

لما تجهز أولاد يعقوب للمسير إلى مصر خاف عليهم أبوهم أن تصيبهم العين ؛ لكونهم كانوا ذوي جمال ظاهر ، وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد ، فنهاهم أن يدخلوا مجتمعين من باب واحد ، لأن في ذلك مظنة لإصابة الأعين لهم ، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ، ولم يكتف بقوله : ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ عن قوله : ﴿ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ لأنهم لو دخلوا من بابين مثلاً كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول من باب واحد ، ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين ، أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرّقة ، قيل : وكانت أبواب مصر أربعة .

وقد أنكر بعض المعتزلة كأبي هاشم ، والبلخي ، أن للعين تأثيراً ، وقالا : لا يمتنع أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به كانت المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف معلقاً به .

وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما ، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنّة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم ، وأيّ مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك ؟

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حقّ ، وأصيب بها جماعة في عصر النبوّة ، ومنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلي والتنطع في العبارات كالزمخشري في تفسيره ، فإنه في كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذي يدّعيه على العقل حتى يضمّ إلى ذلك الوقاحة في العبارة على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة ، والمذاهب الزائفة ، وبالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة وإجماع من يعتدّ به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً ، وبما هو مشاهد في الوجود ، فكم من شخص من هذا النوع الإنساني وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب .

وقد اختلف العلماء فيمن عرف بالإصابة بالعين ، فقال قوم : يمنع من الاتصال بالناس دفعاً لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته .

وقيل : ينفي ، وأبعد من قال إنه يقتل ، إلاّ إذا كان يتعمد ذلك ، وتتوقف إصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك ، فإنه إذا قتل كان له حكم القاتل .

ثم قال يعقوب لأولاده ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : لا أدفع عنكم ضرراً ولا أجلب إليكم نفعاً بتدبيري هذا ، بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة .

قال الزجاج وابن الأنباري : لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرّقهم كاجتماعهم .

وقال آخرون : ما كان يغني عنهم يعقوب شيئاً قط ، حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم ، ثم صرح يعقوب بأنه لا حكم إلا لله سبحانه فقال : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للهِ ﴾ لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك في ذلك ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في كل إيراد وإصدار لا على غيره أي : اعتمدت ووثقت ﴿ وَعَلَيْهِ ﴾ لا على غيره ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ على العموم ، ويدخل فيه أولاده دخولاً أوّلياً .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ أي : من الأبواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد .

وجواب لما ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُمْ ﴾ ذلك الدخول ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ أي : من جهته ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ من الأشياء مما قدّره الله عليهم لأن الحذر لا يدفع القدر ، والاستثناء بقوله : ﴿

﴿ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ منقطع ، والمعنى : ولكن حاجة كانت في نفس يعقوب ، وهي شفقته عليهم ، ومحبته لسلامتهم ، قضاها يعقوب ، أي : أظهرها لهم ، ووصاهم بها غير معتقد أن للتدبير الذي دبره لهم تأثيراً في دفع ما قضاه الله عليهم .

وقيل : إنه خطر ببال يعقوب أن الملك إذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة ، وسيما الشجاعة أوقع بهم حسداً وحقداً أو خوفاً منهم ، فأمرهم بالتفرّق لهذه العلة .

وقد اختار هذا النحاس وقال : لا معنى للعين ها هنا .

وفيه أن هذا لو كان هو السبب لأمرهم بالتفرّق ، ولم يخصّ النهي عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من باب واحد ؛ لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة ، كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد .

وقيل : إن الفاعل في ﴿ قضاها ﴾ ضمير يعود إلى الدخول لا إلى يعقوب .

والمعنى : ما كان الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئاً ، ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة في نفس يعقوب لوقوعه حسب إرادته ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي : وإن يعقوب لصاحب علم لأجل تعليم الله إياه بما أوحاه الله من أن الحذر لا يدفع القدر ، وأن ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بذلك كما ينبغي .

وقيل : لا يعلمون أن الحذر مندوب إليه ، وإن كان لا يغني من القدر شيئاً ، والسياق

يدفعه .

وقيل : المراد بأكثر الناس المشركون .

(266/400)

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أي : ضمّ إليه أخاه بنيامين ، قيل : إنه أمر بإنزال كل اثنين في منزل فبقي أخوه منفرداً فضمه إليه و ﴿ قَالَ إِنِّى أَنَاْ أَخُوكَ ﴾ يوسف ، قال له ذلك سرّاً ، من دون أن يطلع عليه إخوته ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ أي : فلا تحزن ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : إخوتك من الأعمال الماضية التي عملوها ؛ وقيل : إنه لم يخبره بأنه يوسف ، بل قال له : إني أخوك مكان أخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسداً وبغياً .

وقيل : إنه أخبره بما سيدبره معهم من جعل السقاية في رحله .

فقال : لا أبالي ، وقيل : إنه لما أخبر يوسف أخاه بنيامين بأنه أخوه قال : لا تردّني إليهم ، فقال قد علمت اغتمام أبينا يعقوب ، فإذا حبستك عندي ازداد غمه ، فأتى بنيامين فقال له يوسف : لا يمكن حبسك عندي إلاّ بأن أنسبك إلى ما لا يجمل بك ، فقال : لا أبالي ، فدس الصاع في رحله ، وهو المراد بالسقاية وأصلها المشربة التي يشرب بها جعلت صاعاً

يكال به .

وقيل : كان تسقى بها الدوابّ ويكال بها الحبّ ، وقيل : كانت من فضة .

وقيل : كانت من ذهب ، وقيل غير ذلك .

وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل ، والمعنى : أنه جعل السقاية التي هو الصواع في رحل أخيه الذي هو الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من مصر ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد ذلك ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ أي : نادى منادٍ قائلاً ﴿ أَيَّتُهَا العير ﴾ قال الزجاج : معناه يا أصحاب العير ، وكل ما امتير عليه من الإبل والحمير والبغال فهو عير .

وقيل : هي قافلة الحمير .

وقال أبو عبيدة : العير الإبل المرحولة المركوبة ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ نسبة السرق إليهم على حقيقتها ؛ لأن المنادي غير عالم بما دبره يوسف .

وقيل : إن المعنى إن حالكم حال السارقين كون الصواع صار لديكم من غير رضا من الملك .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي: إخوة يوسف ﴿ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادي من أصحاب الملك ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ أي: ما الذي فقدتموه؟ يقال: فقدت الشيء: إذا عدمته بضياع أو نحوه، فكأنهم قالوا ماذا ضاع عليكم؟ وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة ﴿ قَالُواْ ﴾ في جوابهم ﴿ نَفْقِدُ صُوَاعَ الملك ﴾ .

قرأ يحيى بن يعمر "صواغ" بالغين المعجمة، وقرأ أبو رجاء "صُوع" بضم الصاد المهملة وسكون الواو بعدها عين مهملة.

وقرأ أبيّ "صياع".

وقرأ أبو جعفر: "صاع"، وبها قرأ أبو هريرة، وقرأ الجمهور: ﴿ صواع ﴾ بالصاد والعين المهملتين، قال الزجاج: الصواع: هو الصاع بعينه، وهو يذكر ويؤنث، وهو السقاية، ومنه قول الشاعر:

نشرب الخمر بالصواع جهارا . . . ﴿ وِلَمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أي قالوا: ولمن جاء بالصواع من جهة نفسه حمل بعير.

والبعير: الجمل، وفي لغة بعض العرب أنه الحمار، والمراد بالحمل ها هنا: ما يحمله البعير من الطعام، ثم قال المنادي ﴿ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أي: بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية، والزعيم هو الكفيل، ولعل القائل: ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ هو المنادي، وإنما نسب القول إلى الجماعة لكونه واحداً منهم، ثم رجع الكلام إلى نسبة

القول إلى المنادي وحده ، لأنه القائل بالحقيقة .

﴿ قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الأَرْضِ ﴾ التاء بدل من واو القسم عند الجمهور .

وقيل : من الباء ، وقيل : أصل بنفسها ، ولا تدخل إلاّ على هذا الاسم الشريف دون سائر أسمائه سبحانه ، وقد دخلت نادراً على الرب ، وعلى الرحمن ، والكلام على هذا مستوفي في علم الإعراب ، وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف وأصحابه بنزاهة جانبهم ، وطهارة ذيلهم ، عن التلوّث بقذر الفساد في الأرض ، الذي من أعظم أنواعه السرقة .

(268/400)

لأنهم قد شاهدوا منهم في قدومهم عليه المرّة الأولى ، وهذه المرّة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة ، بمراحل ما يستفاد منه العلم الجازم بأنهم ليسوا بمن يتجارأ على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد ، ولو لم يكن من ذلك إلاّ ردّهم لبضاعتهم التي وجدوها في رحالهم ، والمراد بالأرض هنا : أرض مصر .

ثم أكدوا هذه الجملة التي أقسموا بالله عليها بقولهم : ﴿ وَمَا كُنَّا سارقين ﴾ لزيادة التبرّي مما قذفوهم به والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة والرذيلة الشنعاء .

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ هذه الجملة مستأنفة كما تقدّم غير مرّة في نظائرها .

والقائلون : هم أصحاب يوسف ، أو المنادي منهم وحده كما مرّ ، والضمير في ﴿ جزاؤه ﴾ للصواع على حذف مضاف أي : فما جزاء سرقة الصواع عندكم ، أو الضمير للسارق ، أي : فما جزاء سارق الصواع عندكم ﴿ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ فيما تدّعونه لأنفسكم من البراءة عن السرقة ، وذلك بأن يوجد الصواع معكم ، فأجاب أخوة يوسف وقالوا : ﴿ جَزَآؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥ ﴾ أي : جزاء سرقة الصواع ، أو جزاء سارق الصواع.

وجزاؤه مبتدأ ، والجملة الشرطية : وهي ﴿ من وجد في رحله فهو جزاؤه ﴾ خبر المبتدأ ، على إقامة الظاهر مقام المضمر فيها ، والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو ، فيكون الضمير الثاني عائداً إلى المبتدأ ، والأوّل إلى " من " ، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ : و ﴿ من وجد في رحله ﴾ والتقدير : جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد في رحله ، وتكون جملة ﴿ فهو جزاؤه ﴾ لتأكيد الجملة الأولى ، وتقريرها .

قال الزجاج : وقوله : ﴿ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥ ﴾ زيادة في البيان أي : جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير.

قال المفسرون : وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترقّ سنة ، فلذلك استفتوهم في جزائه ﴿ كذلك نَجْزِى الظالمين ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الظالمين لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم ، وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام إخوة يوسف ، ويجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف ، أي : كذلك نحن نجزي الظالمين بالرق .

ثم لما ذكروا جزاء السارق أرادوا أن يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر ، فأقبل يوسف على ذلك ، فبدأ بتفتيش ﴿ أوعيتهم ﴾ أي : أوعية الإخوة العشرة ﴿ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ﴾ أي : قبل تفتيشه لوعاء أخيه بنيامين دفعاً للتهمة ورفعاً لما دبره من الحيلة ﴿ ثُمَّ استخرجها ﴾ أي : السقاية أو الصواع ؛ لأنه يذكر ويؤنث ﴿ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي : مثل ذلك الكيد العجيب كدنا ليوسف يعني : علمناه إياه أوحيناه إليه ، والكيد مبدؤه السعي في الحيلة والخديعة ، ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه ، وهو محمول في حق الله سبحانه على النهاية لا على البداية ، قال القتيبي : معنى ﴿ كدنا ﴾ دبرنا ، وقال ابن الأنباري : أردنا .

وفي الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً .

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الملك ﴾ أي : ما كان يوسف ليأخذ أخاه بنيامين في دين الملك ، أي : ملك مصر ، وفي شريعته التي كان عليها ، بل كان دينه وقضاؤه أن يضرب السارق ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة ، كما هو دين يعقوب وشريعته ، وحاصله أن يوسف ما كان يتمكن من إجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفاً لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له ودبره وأراده حتى وجد السبيل إليه ، وهو ما أجراه على ألسن إخوته من قولهم : إن جزاء السارق الاسترقاق ، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتدبيره ، وهو معنى قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ أي : إلا حال مشيئته وإذنه بذلك وإرادته له ، وهذه الجملة : أعني ﴿ ما كان ليأخذ أخاه ﴾ إلخ ، تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف ، أو تفسير له ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك ﴿ وَفَوْقَ كُلّ ذِى عِلْمٍ ﴾ ممن رفعه الله بالعلم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أرفع رتبة منهم وأعلى درجة لا يبلغون مداه ، ولا يرتقون شأوه .

وقيل : معنى ذلك أن فوق كل أهل العلم عليم وهو الله سبحانه .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَقَالَ يا بَنِى لاَ تَدْخُلُواْ مِن

بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ قال: رهب يعقوب عليهم العين.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن محمد بن كعب قال: خشي عليهم العين.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن النخعي في قوله: ﴿ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ قال: أحب يعقوب أن يلقى يوسف أخاه في خلوة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ قال: خيفة العين على بنيه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ قال: إنه لعامل بما علم، ومن لا يعمل لا يكون عالماً.

وأخرج هؤلاء عنه في قوله: ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ قال: ضمه إليه، وفي قوله: ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ قال: لا تحزن ولا تيأس، وفي قوله: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ قال: قضى حاجتهم، وكال لهم طعامهم، وفي قوله: ﴿ جَعَلَ السقاية ﴾ قال: هو إناء الملك الذي يشرب منه ﴿ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ قال: في متاع أخيه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس في قوله: ﴿ جَعَلَ السقاية ﴾ قال: هو الصواع، وكل شيء يشرب منه فهو صواع.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه.

وأخرج ابن جرير، ابن أبي حاتم عن ابن زيد نحوه أيضاً.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿ أَيَّتُهَا العير ﴾ قال: كانت العير حميراً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ قال: حمل حمار طعام، وهي لغة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ يقول: كفيل.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك مثله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الأرض ﴾ يقول: ما جئنا لنعصي في الأرض.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ قال: عرفوا الحكم في حكمهم فقالوا: من وجد في رحله فهو جزاؤه.

وكان الحكم عند الأنبياء يعقوب وبنيه أن يؤخذ السارق بسرقته عبداً يسترقّ.

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ قال : ذكر لنا أنه كان كلما فتح متاع رجل استغفر تأثماً مما صنع حتى بقي متاع الغلام قال : ما أظن أن هذا أخذ شيئاً .

قالوا : بلى فاستبره .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ قال : كذلك صنعنا ليوسف ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الملك ﴾ يقول : في سلطان الملك .

قال : كان في دين ملكهم أنه من سرق أخذت منه السرقة ومثلها معها من ماله فيعطيه المسروق .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الملك ﴾ يقول : في سلطان الملك .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله ﴾ قال : إلا بعلة كادها الله ليوسف فاعتلّ بها .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عنه في قوله : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ قال : يوسف وإخوته أوتوا علماً فرفعنا يوسف في العلم فوقهم درجة .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس فحدث بحديث ، فقال رجل عنده : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فقال ابن عباس : بئس ما قلت .

الله العليم الخبير ، وهو فوق كل عالم .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال : سأل رجل علياً عن مسألة ، فقال فيها ، فقال الرجل ليس هكذا ولكن كذا وكذا ، قال عليّ : أصبت وأخطأت ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عكرمة في قوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قال : علم الله فوق كل عالم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(273/400)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الأول بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الأول بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 77 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 87 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم ذلك ، كان كأنه قيل : إن انتزاع أخيهم منهم – بعد تلك المواثيق التي أكدوها لأبيهم – لداهية تطيش لها الحلوم ، فماذا كان فعلهم عندها ؟ فقيل : ﴿ قالوا ﴾ تسلية لأنفسهم ودفعاً للعار عن خاصتهم ﴿ إن يسرق ﴾ فلم يجزموا بسرقته ، لعلمهم بأمانته ، وظنهم هذا الصواع دس في رحله وهو لا يشعر ، كما دست بضاعتهم في رحالهم وإنما أوهى ظنهم هذا سكوت أخيهم عن الاعتذار به ، على أنه قد ورد أنهم لاموه فقال لهم : وضعه في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالهم ﴿ فقد سرق أخ ﴾ أي شقيق ﴿ له ﴾ ولما كان ما ظنوه كذلك في زمن يسير ، أدخلوا الجار فقالوا : ﴿ من قبل ﴾ يعنون يوسف عليه الصلاة والسلام ، وذلك أنه قيل : إن عمته كانت لا تصبر عنه ، وكان أبوه لا يسمح بمكثه عندها ، لأنه لا يصبر عنه ، فحزمته من تحت ثيابه بمنطقة أبيها إسحاق عليه السلام وكانت عندها

، ثم قالت : فقدت منطقة أبي ، فاكشفوا أهل البيت ، فوجدوها مع يوسف عليه الصلاة والسلام ، فسمح يعقوب عليه الصلاة والسلام حينئذ لها ببقائه عندها ﴿ فأسرها ﴾ أي إجابتهم عن هذه القولة القبيحة ﴿ يوسف في نفسه ﴾ على تمكنه مما يريد بهم من الانتقام .

(5/401)

ولما كان ربما ظن ظان أنه بكتهم بها بعد ذلك ، نفى هذا الظن بقوله تعالى : ﴿ ولم يبدها ﴾ أي أصلاً ﴿ لهم ﴾ فكأنه قيل : فما قولته التي أسرها في نفسه ؟ فقيل : ﴿ قال أنتم شر مكاناً ﴾ أي من يوسف وأخيه ، لأن ما نسب إليهما من الشر إنما هو ظاهراً لأمر خير اقتضاه ، وأما أنتم ففعلتكم بيوسف شر مقصود منكم ظاهراً وباطناً ، ونسبة الشر إلى مكانهم أعظم من نسبته إليهم ، وإنما قدم الإخبار بالإسرار مع اقترانه بالإضمار قبل الذكر ، لئلا يظن بادىء بدء أنهم سمعوا ما وصفهم به من الشر ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ أعلم بما تصفون ﴾ منكم ، وأنه ليس كما قلتم ؛ والوصف : كلمة مشتقة من أصل من الأصول لتجري على مذكور فتفرق بينه وبين غيره بطريق النقيض كالفرق بين العالم والجاهل ونحوهما ، فكأنه قيل : إن ذلك القول على فحشه ليس مغنياً عنهم ولا عن أبيهم شيئاً ، فهل اقتصروا عليه ؟ فقيل : لا ، بل ﴿ قالوا ﴾ التماساً لما يغنيهم : ﴿ يا أيُّها

العزيز ﴾ فخاطبوه بما يليق بالأكابر ليرق لهم ﴿ إن له ﴾ أي هذا الذي وجد الصواع في رحله ﴿ أباً شيخاً كبيراً ﴾ أي في سنه وقدره وهو مغرم به ، لا يقدر على فراقه ولا يصبر عنه ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ وأحسن إلى أبيه بإرساله إليه ﴿ إنا نراك ﴾ أي نعلمك علماً هو كالرؤية أو بحسب ما رأيناه ﴿ من المحسنين ﴾ أي العريقين في صفة الإحسان ، فأجر في أمرنا على عادة إحسانك ، فكأنه قيل : فما أجابهم ؟ قيل : ﴿ قال معاذ الله ﴾ أي نعوذ بالذي لا مثل معاذاً عظيماً ﴿ أن نأخذ ﴾ أي لأجل هذا الأمر ﴿ إلا من ﴾ أي الشخص الذي ﴿ وجدنا متاعنا عنده ﴾ ولم يقل : سرق متاعنا ، لأنه - كما أنه لم يفعل في الصواع فعل السارق - لم يقع منه قبل ذلك ما يصحح إطلاق الوصف عليه ؛ علل ذلك بقوله : ﴿ إنا إذاً ﴾ أي إذا أخذنا أحداً مكانه ﴿ لظالمون ﴾ أي عريقون في الظلم في دينكم ، فلم تطلبون ما هو ظلم عندكم .

ذكر ما بعد ما سلف من هذه القصة من التوراة

(6/401)

قال : وكان القهم - وفي نسخة : الجوع - والإرجاف على جميع وجه الأرض ، ففتح يوسف الأهراء ، وأقبل يبيع المصريين ، واشتد الجوع بأرض مصر ، وأقبل جميع أهل الأرض

يأتون للامتيار من يوسف .

فبلغ يعقوب عليه الصلاة والسلام أن بمصر طعام ميرة ، فقال يعقوب عليه السلام لبنيه : لا خوف عليكم ، لأنه قد بلغني أن بمصر ميرة فاهبطوا إلى هناك ، فامتاروا لنا فنحيى ولا نموت .

فهبط بنو يعقوب عليه الصلاة والسلام العشرة ليمتاروا ميرة من مصر ، فأما بنيامين أخو يوسف فلم يرسله يعقوب مع إخوته ، لأنه قال : لعله أن يعرض له عارض ، فأتى بنو إسرائيل ليمتاروا مع الذين كانوا ينطلقون ، لأن الجوع اشتد في أرض كنعان ، وكان يوسف هو المسلط على الأرض ، وكان يميز جميع شعب الأرض ، فأتى إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام فخروا له سجداً على الأرض ، فرأى يوسف إخوته فأثبتهم وتناكر عليهم وكلمهم بفظاظة وقساوة ، وقال لهم : من أين أنتم ؟ فقالوا : أتينا من أرض كنعان لنمتار ميرة ، فذكر يوسف عليه الصلاة والسلام الرؤيا التي قصها عليهم وقال لهم : إنكم جواسيس ، وإنما أتيتم لتفحصوا وتطلعوا الأرض .

فقالوا : كلا يا سيدنا ! إن عبيدك إنما أتوا ليمتاروا ، نحن أجمعون بنو رجل واحد ، ونحن أبرياء ، وليس عبيدك بطلائع ، فقال لهم يوسف : ليس الأمر كما تقولون ، بل إنما أتيتم لتجسسوا أرضنا .

فقالوا له : نحن اثنا عشر رجلاً إخوة عبيدك بنو رجل واحد بأرض كنعان ، والآخر هو

عند أبينا يومنا هذا ، والآخر فقدناه ، فقال لهم يوسف : إني إنما قلت لكم : إنكم جواسيس ، من أجل هذا بهذه تمتحنون ، وحق فرعون ! لا أخرجنكم من ها هنا حتى يأتي أخوكم الأصغر إلى ها هنا .

(7/401)

فنفحص عن أقاويلكم إن كنتم نطقتم بالحق والقسط ، وإلا وحق فرعون ! إنكم طلائع ، فقذفهم في الحبس ثلاثة أيام ، ودعا بهم يوسف عليه الصلاة والسلام في اليوم الثالث ، وقال لهم : افعلوا ما آمركم به فتحيوا ، فإني أراقب الله فيكم ، إن كنتم أبرياء فليحبس أحدكم في محبسكم وانطلقوا أنتم بالميرة للجوع الذي في بيوتكم ، فأتوني بأخيكم الأصغر فأصدق قولكم ولا تموتوا ، ففعلوا كما أمرهم ، فقال كل امرىء منهم لصاحبه : حقاً إنا قد استوجبنا السجن على أخينا إذ رأينا كرب نفسه إذا كان يتضرع إلينا فلم نرحمه ولم نتراءف عليه ، فمن أجل ذلك نزلت بنا هذه البلية والشر ، فأجاب روبيل وقال لهم : ألم أقل لكم : لا تأثموا بالغلام ، فلم تقبلوا ، وهو ذا الآن نحن مطالبون بدمه .

ولم يعلموا أن يوسف يفهم كلامهم ، لأنه أوقف ترجماناً بينه وبينهم ، فتنحى عنهم فبكى ، ثم رجع إليهم يكلمهم ، ثم أخذ منهم شمعون فأوثقه تجاههم .

وأمر يوسف بملء أوعيتهم ميرة ، وأمر برد ورق كل امرئ منهم في وعائه ، وأن يزودوا زاداً للطريق ، ففعل ذلك بهم كما أمر يوسف عليه السلام ، فحملوا ميرتهم على حميرهم وانطلقوا ، ففتح بعضهم وعاءه ليلقي قضيماً لحماره في مبيتهم .

فرأى ورقه موضوعاً على طرف حمولته .

فقال لإخوته : ورقي رد إليّ وهو ذا على طرف حمولتي ، فارتجفت قلوبهم وفزعت نفوسهم ، وتعجب كل امرئ منهم ، فقالوا : يا ليت شعري ما هذا الذي صنعه الله بنا ! فأتوا يعقوب أباهم إلى أرض كنعان ، فأخبروه بجميع ما عرض لهم وقالوا : إن الرجل سيد الأرض كلمنا بفظاظة وقساوة .

وحسبنا بمنزلة الجواسيس أتينا لنطالع الأرض ، فقلنا : إنا أبرياء عدول ، فلسنا بطلائع ، فنحن اثنا عشر أخاً بنو أب واحد ، فقد واحد منا والآخر عند أبينا يومنا هذا بأرض كنعان ، فقال لنا الرجل سيد الأرض ورئيسها : بهذا أعلم بأنكم أبرار عدول ، خلفوا عندي أحد إخوتكم ، واحملوا ميرة للجوع الذي في بيوتكم .

وانصرفوا فأتوني بأخيكم الأصغر معكم ، فأعلم حينئذ أنكم لستم بطلائع ، بل أنتم أبرياء عدول ، وآمر بدفع أخيكم إليكم ، وتتجرون في الأرض ، فبينما هم يفرغون أوعيتهم فإذا هم بصرة كل امرئ منهم على طرف وعائه فرأوا ورقهم مصروراً ففزعوا هم وأبوهم .

فقال لهم أبوهم : إنكم قد أثكلتموني ولدي وأفقدتموني إياهما ، لأن يوسف فقدته .

وشمعان محبوس ، وتنطلقون ببنيامين أيضاً وقد كملت علي المصائب كلها ، فقال روبيل لأبيه : ثكلتُ ابني جميعاً إن لم آتك به ! ادفعه إليّ وأنا أرده إليك ، فقال : لا يهبط ابني معكم ، لأن أخاه يوسف توفي وهو وحده الباقي لأمه ، فتعرض له آفة في الطريق الذي تسلكونه فتنزلون شيبتي إلى الجدث بالشقاء والشحب .

فاشتد الجوع على الأرض ، فلما أكلوا الذي أتوا به من مصر وأفنوه قال لهم يعقوب أبوهم عليه السلام : اهبطوا فامتاروا لنا شيئاً من قمح ، فقال له يهوذا : إن الرجل أنذرنا وتقدم إلينا وقال : لا تعاينوا وجهي إلا وأخوكم معكم ، فإن أنت أرسلت أخانا معنا فإنا نهبط فنمتار ، وإن لم تبعثه لم ننطلق ، فقال لهم أبوهم : ولم أسأتم إلي فأخبرتم الرجل أن لكم أخاً ؟ فقالوا : الرجل سأل عنا وعن رهطنا وقال : إن أباكم في الحياة بعد ؟ وهل لكم أخ؟ فأخبرناه من أجل هذا الكلام ، أكنا نعلم أنه يقول : اهبطوا معكم بأخيكم ؟ وقال يهوذا لإسرائيل أبيه : سرح الغلام فننطلق فنحيى ولا نموت نحن وأنت أيضاً وحشمنا ، أنا أكفل

به .

فإن لم آتك به فأقيمه بين يديك فأنا مخطىء بين يدي أبي جميع الأيام .

(9/401)

فقال أبوهم إسرائيل : إذا كان الأمر هكذا فافعلوا ما آمركم به : احملوا في أوعيتكم من ثمار هذه الأرض شيئاً من صنوبر وعسل وعلك البطم وخروب وحب السرو وبطم ولوز ، وخذوا من الورق ضعف الذي في أوعيتكم ، لعل ذلك أن يكون وهماً منهم ، وانطلقوا بأخيكم إلى الرجل ، وارجعوا إليّ كلكم ، وإله المواعيد يظفركم من الرجل برحمة ورأفة ، فيرسل بأخيكم الآخر معكم وبنيامين أيضاً ، فأخذ القوم هذه الهدية وضعفاً من الفضة ، وانطلقوا معهم ببنيامين وأتوا يوسف فوقفوا بين يديه .

فرأى يوسف بنيامين معهم فقال لحاجبه : أدخل القوم إلى المنزل ، واذبح ذبيحاً ، وهيىء الغداء ، لأن القوم يتغدون معي ظهراً ، ففعل العبد كما أمره يوسف عليه السلام ، وأدخل القوم إلى منزل يوسف عليه السلام وقالوا : إنهم إنما يدخلوننا لسبب الورق الذي وجدنا في أعدالنا من قبل ، فيريدون أن يتطاولوا علينا ويمكروا بنا ، فيجعلونا عبيداً ودوابنا ملكاً ، فدنوا من الرجل حاجب – وفي نسخة : خازن – يوسف عليه السلام .

فكلموه على باب المنزل ، وقالوا له : إنا نطلب إليك يا سيدنا أنا هبطنا أولاً إلى هاهنا فامترنا قمحاً ، فلما طلعنا وصرنا في البيت إذا نحن بورق كل واحد منا في عدله ، فقد رددنا أوراقنا بوزنها معنا وأتينا معها بأوراق أخر لنمتار بها ، ولا نعلم من الذي صيّر أوراقنا في أوعيتنا ؟ فقال لهم : السلام لكم ، لا تخافوا ولا تستوفضوا ، إلهكم إله المواعيد إله أبيكم ذخر لكم هذه الذخيرة في أوعيتكم ، لأن ورقكم قد صار في قبضتي ، وأخرج إليهم شمعون ، فأدخل العبد القوم إلى منزل يوسف عليه السلام ، وأتاهم بماء فغسلوا أيديهم وأقدامهم ، وألقى قضمياً لدوابهم ، فأعد القوم هديتهم قبل دخول يوسف عليه السلام وقت القائلة لأنه بلغهم أن غداءهم يكون هناك ، فدخل يوسف إلى منزله ، فأدخلوا هديتهم فوضعوها بين يديه في منزله ، وخروا له سجداً على الأرض ، فسألهم عن سلامتهم وقال : أسالم هو ؟ أبوكم الذي أخبرتموني عنه أنه الحياة هو بعد ؟ فقالوا : إن أبانا عبدك سالم ، ثم جثوا فسجدوا فرفع بصره فأبصر بنيامين أخاه ابن أمه فقال لهم : هذا أخوكم الذي أخبرتموني عنه ؟ فقالوا : نعم ؟ فقال له : الله يترأف عليكم يا بني ، فاستعجل يوسف عليه السلام لأنه رق له وتحنن عليه فأراد البكاء ، فدخل إلى مكانه فبكى هناك ، ثم غسل

وجهه وخرج فصبر نفسه ، فأمر أن يأتوهم بالغداء ، فوضعوا بين يديه وحده ، وقربوا إليهم وحدهم ، لأنه لا يستطيع أهل مصر أن يأكلوا مع العبرانيين ، لأن هذه نجاسة عند المصريين ، فأمر فاتكأ الأكبر على قدر سنه والأصغر على قدر سنه ، فتعجب القوم ومكثوا محيرين مشدوهين ، فأعطى كل واحد منهم من بين يديه جزءاً ، وأعطى بنيامين أكثر منهم : خمسة أنصبة ، فشربوا .

(11/401)

فأمر خازنه وقال له : أوقر أوعية القوم من البر ما أمكنهم حمله ، وصير ورق كل امرىء منهم على طرف وعائه ، وخذ طاسي طاس الفضة وصيره في وعاء الأصغر مع ورق ميرته ، ففعل العبد كما أمر يوسف عليه السلام ، فلما كان من الغد سرح القوم لينطلقوا هم وحميرهم ، فخرجوا من القرية ، وقبل أن يخرجوا منها قال يوسف لخازنه : قم فامض في طلب القوم وألحقهم وقل لهم : لم كافيتم الشر بدل الخير ، فأخذتم الطاس الذي يشرب فيه سيدي ويعتاف فيه اعتيافاً ، فأسأتم فيما جاء منكم ، فلحقهم وقال لهم هذه الأقاويل ، فقالوا له : لا تقولن يا سيدنا هذه الأقاويل ، معاذ الله أن يفعل عبيدك هذه الفعال ! نحن رددنا أوراقنا التي وجدنا في أوعيتنا من أرض كنعان ، فكيف نسرق من بيت سيدك ذهباً

أو فضة ، من وجد عنده من عبيدك فليمت ونكن نحن عبيداً لسيدنا ! قال لهم : هو على ما تقولون ، من وجد عنده فهو يكون لي عبداً ، وأنتم تكونون فلحين طاهين ، فاستعجل كل منهم وعاءه ، ففتشوا ابتداء بالأكبر وانتهاء إلى الأصغر ، فوجدوا الطاس في وعاء بنيامين ، فمزقوا ثيابهم وخرقوها .

وحمل كل امرىء منهم وعاءه على حماره ، ورجعوا إلى القرية ، فدخل يهوذا وإخوته على يوسف وكان في منزله بعد ، فخرجوا بين يديه على الأرض ، فقال لهم يوسف : ما هذا الفعل الذي جاء منكم ؟ أما تعلمون أن رجلاً مثلي يعتاف – وفي نسخة : يمتحن – بكأس اعتيافاً ؟ لم تعدون عليه وتأخذونه ؟ فقال يهوذا : بماذا نكلم سيدنا ! وبماذا ننطق ! وبماذا نفلح – وفي نسخة : نحتج – من عند الله نزلت هذه الخطيئة بعبيدك ، هوذا نحن عبيد لسيدنا نحن ومن أصيب الكأس عنده ، فقال : معاذ الله أن أفعل هذا ! بل الرجل الذي وجد الكأس عنده يكون لي عبداً ، وأنتم فاصعدوا بسلام إلى أبيكم .

فدنا منه يهوذا فقال : أنا أطلب إليك يا سيدي أن تأذن لعبدك بالكلام بين يديك ، يا سيد ! ولا تشعل غضبك على عبيدك ، لأنك مثل فرعون ، سأل سيدي عبيده فقال لهم : هل

لكم أب أو أخ؟ فقلنا لسيدنا : إن لنا أباً شيخاً وابناً له صغيراً ولد على كبر سنه ، وإن أخاه مات ، وهو الباقي وحده لأمه ، وأبوه يحبه ، وأمرت عبيدك وقلت : اهبطوا به إليّ حتى أعرفه وأعاينه ، فقلنا لسيدنا : لا يقدر الغلام على مفارقة أبيه ، لأنه إن فارقه أبوه توفي ، فقلت لعبيدك : إنه لم يهبط أخوكم الأصغر معكم فلا تعودوا أن تعاينوا وجهي ، فلما صعدنا إلى عبدك أبينا أخبرناه بقول سيدنا فقال لنا عبدك أبونا : ارجعوا فامتاروا شيئاً من بر ، فقلنا لأبينا : لا نقدر على الهبوط إلى أن نهبط بأخينا الأصغر معنا ، لأنا لا نقدر على معاينة وجه الرجل إن لم يكن أخونا معنا ، فقال لنا عبدك أبونا : أنتم تعلمون أن امرأتي ولدت لي ابنين ، فخرج واحد من عندي فقلتم : إنه قتل قتلاً ، فلم أعاينه إلى يوم الناس هذا ، فتحملون أيضاً هذا من عندي فيعرض له صيد فتهبطون بشيخوختي بحزن وشر القبر ، والآن إذا نحن انطلقنا إلى عبدك أبينا وليس الغلام معنا ونفسه حبيبة إليه ، فإذا علم أن الغلام ليس هو معنا يموت فيهبط عبدك شيبة أبينا بالشقاء والتشحيب ، لأن عبدك ضمن الغلام لأبينا ، وقلت : إني إذا لم آتك به أخطىء باقي جميع الأيام ، والآن فليبق عبدك بدل الغلام عبداً لسيدي ، وليصعد الغلام مع إخوته ، لأني أفكر كيف أصعد إلى أبي وليس الغلام معي كيلا أعاين الشر الذي ينزل بأبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 86.81﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾

اعلم أنه لما خرج الصواع من رحل أخي يوسف نكس إخوته رؤسهم وقالوا : هذه الواقعة عجيبة أن راحيل ولدت ولدين لصين ، ثم قالوا : يا بني راحيل ما أكثر البلاء علينا منكم ، فقال بنيامين ما أكثر البلاء علينا منكم ذهبتم بأخي وضيعتموه في المفازة ، ثم تقولون لي هذا الكلام ، قالوا له : فكيف خرج الصواع من رحلك ، فقال : وضعه في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم .

واعلم أن ظاهر الآية يقتضي أنهم قالوا للملك : إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان أيضاً سارقاً ، وكان غرضهم من هذا الكلام أنا لسنا على طريقته ولا على سيرته ، وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لأنهما من أم أخرى ، واختلفوا في السرقة التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام على أقوال : الأول : قال سعيد بن جبير : كان جده أبو أمه كافراً يعبد الأوثان فأمرته أمه بأن يسرق تلك الأوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الأوثان ففعل ذلك ، فهذا هو السرقة ، والثاني : أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه ويدفعه إلى الفقراء ، وقيل سرق عناقاً من أبيه ودفعه إلى المسكين وقيل دجاجة .

والثالث : أن عمته كانت تحبه حباً شديداً فأرادت أن تمسكه عند نفسها ، وكان قد بقي عندها منطقة لاسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف ثم قالت بأنه سرقها وكان من حكمهم بأن من سرق يسترق ، فتوسلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عند نفسها .

والرابع : أنهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف بعد تلك الوقائع ، وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة ، وهذه الواقعة تدل على أن قلب الحاسد لا يطهر عن الغل ألبتة .

(14/401)

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ واختلفوا في أن الضمير في قوله : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ ﴾ إلى أي شيء يعود على قولين قال الزجاج : فأسرها إضمار على شريطة التفسير ، تفسيره أنتم شر مكاناً وإنما أنث لأن قوله : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ جملة أو كلمة لأنهم يسمون الطائفة من الكلام كلمة كأنه قال : فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ وفي قراءة ابن مسعود ﴿ فَأَسَرَّ ﴾ بالتذكير يريد القول أو الكلام وطعن أبو علي الفارسي في هذا الوجه فيما استدركه على الزجاج من وجهين :

الوجه الأول : قال الإضمار على شريطة التفسير يكون على ضربين : أحدهما : أن يفسر بمفرد كقولنا : نعم رجلاً زيد ففي نعم ضمير فاعلها ، ورجلاً تفسير لذلك الفاعل المضمر والآخر أن يفسر بجملة وأصل هذا يقع في الابتداء كقوله : ﴿ فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الأنبياء : 97] ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الصمد : 1] والمعنى القصة شاخصة أبصار الذين كفروا والأمر الله أحد .

ثم إن العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر تدخل عليه أيضاً نحو إن كقوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ [طه : 74] ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ﴾ [الحج : 46] .

إذا عرفت هذا فنقول : نفس المضمر على شريطة التفسير في كلا القسمين متصل بالجملة التي حصل منها الإضمار ، ولا يكون خارجاً عن تلك الجملة ولا مبايناً لها .

وههنا التفسير منفصل عن الجملة التي حصل منها الإضمار فوجب أن لا يحسن .

والثاني : أنه تعالى قال : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ وذلك يدل على أنه ذكر هذا الكلام ، ولو قلنا : إنه عليه السلام أضمر هذا الكلام لكان قوله أنه قال ذلك كذباً .

واعلم أن هذا الطعن ضعيف لوجوه :

أما الأول : فلأنه لا يلزم من حسن القسمين الأولين قبح قسم ثالث .

وأما الثاني : فلأنا نحمل ذلك على أنه عليه السلام قال ذلك على سبيل الخفية وبهذا التفسير يسقط هذا السؤال .

والوجه الثاني : وهو أن الضمير في قوله : ﴿ فَأَسَرَّهَا ﴾ عائد إلى الإجابة كأنهم قالوا : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ فأسر يوسف إجابتهم في نفسه في ذلك الوقت ولم يبدها لهم في تلك الحالة إلى وقت ثان ويجوز أيضاً أن يكون إضماراً للمقالة .

والمعنى : أسر يوسف مقالتهم ، والمراد من المقالة متعلق تلك المقالة كما يراد بالخلق المخلوق وبالعلم المعلوم يعني أسر يوسف في نفسه كيفية تلك السرقة ، ولم يبين لهم أنها كيف وقعت وأنه ليس فيها ما يوجب الذم والطعن .

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال عوقب يوسف عليه السلام ثلاث مرات لأجل همه بها ، عوقب بالحبس وبقوله : ﴿ اذكرني عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف : 42] عوقب بالحبس الطويل وبقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف : 7] عوقب بقولهم : ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ ثم حكى تعالى عن يوسف أنه قال : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ أي أنتم شر منزلة عند الله تعالى لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم فأخذتم أخاكم وطرحتموه في الجب ، ثم قلتم لأبيكم إن الذئب أكله وأنتم كاذبون ، ثم بعتموه بعشرين درهماً ، ثم بعد المدة الطويلة والزمان الممتد ما زال الحقد والغضب عن قلوبكم فرميتموه

بالسرقة .

ثم قال تعالى : ﴿ والله أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ يريد أن سرقة يوسف كانت رضا لله ، وبالجملة فهذه الوجوه المذكورة في سرقته لا يوجب شيء منها عود الذم واللوم إليه ، والمعنى : والله أعلم بأن هذا الذي وصفتموه به هل يوجب عود مذمة إليه أم لا .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(16/401)

اعلم أنه تعالى بين أنهم بعد الذي ذكروه من قولهم : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : 77] أحبوا موافقته والعدول إلى طريقة الشفاعة فإنهم وإن كانوا قد اعترفوا أن حكم الله تعالى في السارق أن يستعبد ، إلا أن العفو وأخذ الفداء كان أيضاً جائزا ، فقالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً أي في السن ، ويجوز أن يكون في القدر والدين ، وإنما ذكروا ذلك لأن كونه ابناً لرجل كبير القدر / يوجب العفو والصفح .

ثم قالوا : ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ يحتمل أن يكون المراد على طريق الاستبعاد ويحتمل أن يكون المراد على طريق الرهن حتى نوصل الفداء إليك .

ثم قالوا : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ وفيه وجوه : أحدها : إنا نراك من المحسنين لو فعلت

ذلك .

وثانيها : إنا نراك من المحسنين إلينا حيث أكرمتنا وأعطيتنا البذل الكثير وحصلت لنا مطلوبنا على أحسن الوجوه ووردت إلينا ثمن الطعام .

وثالثها : نقل أنه عليه السلام لما اشتد القحط على القوم ولم يجدوا شيئاً يشترون به الطعام ، وكانوا يبيعون أنفسهم منه فصار ذلك سبباً لصيرورة أكثر أهل مصر عبيداً له ثم إنه أعتق الكل ، فلعلهم قالوا : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ إلى عامة الناس بالإعتاق فكن محسناً أيضاً إلى هذا الإنسان بإعتاقه من هذه المحنة ، فقال يوسف : ﴿ مَعَاذَ الله ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، أي أعوذ بالله أن آخذ بريئاً بمذنب قال الزجاج : موضع "أن" نصب والمعنى : أعوذ بالله من أخذ أحد بغيره فلما سقطت كلمة "من" انتصب الفعل عليه وقوله : ﴿ إِنَّا إِذاً لظالمون ﴾ أي لقد تعديت وظلمت إن آذيت إنساناً بجرم صدر عن غيره .

(17/401)

فإن قيل : هذه الواقعة من أولها إلى آخرها تزوير وكذب ، فكيف يجوز من يوسف عليه السلام مع رسالته الإقدام على هذا التزوير والترويج وإيذاء الناس من غير سبب لا سيما

ويعلم أنه إذا حبس أخاه عند نفسه بهذه التهمة فإنه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه ، فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة في التزوير إلى هذا الحد .

والجواب : لعله تعالى أمره بذلك تشديداً للمحنة على يعقوب ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل كما أمر تعالى صاحب موسى بقتل من لو بقي لطغى وكفر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 146.149 ﴾

(18/401)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قالوا إن يسرق فقد سَرَق أخ له من قبلُ ﴾

يعنون يوسف . وفي هذا القول منهم وجهان :

أحدهما : أنه عقوبة ليوسف أجراها الله تعالى على ألسنتهم ، قاله عكرمة .

والثاني : ليتبرأوا بذلك من فعله لأنه ليس من أمهم وأنه إن سرق فقد جذبه عِرق أخيه السارق لأن في الاشتراك في الأنساب تشاكلاً في الأخلاق .

وفي السرقة التي نسبوا يوسف إليها خمسة أقاويل :

أحدها : أنه سرق صنماً كان لجده إلى أمه من فضة وذهب ، وكسره وألقاه في الطريق

فعيّروه بذلك ، قاله سعيد بن جبير وقتادة .

الثاني : كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق فخبأه ، فعيّروه بذلك ، قاله عطية العوفي .

الثالث : أنه كان يسرق من طعام المائدة للمساكين ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : أن عمته وكانت أكبر ولد إسحاق وإليها صارت منطقة إسحاق لأنها كانت في الكبير من ولده ، وكانت تكفل يوسف ، فلما أراد يعقوب أخذه منها جعلت المنطقة ، واتهمته فأخذتها منه ، فصارت في حكمهم أحق به ، فكان ذلك منها لشدة ميلها وحبها له ، قاله مجاهد .

الخامس : أنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه ، قاله الحسن .

﴿ فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه أسر في نفسه قولهم ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ قاله ابن شجرة وعلي بن عيسى .

الثاني : أسر في نفسه ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مكاناً . . . ﴾ الآية ، قاله ابن عباس وابن إسحاق .

وفي قوله : ﴿ قال أنتم شر مكاناً ﴾ وجهان :

أحدهما : أنتم شر منزلة عند الله ممن نسبتموه إلى هذه السرقة .

الثاني : أنتم شر صنعاً لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم .

وفي قوله تعالى : ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ تأويلان :

أحدهما : بما تقولون ، قاله مجاهد .

الثاني : بما تكذبون ، قاله قتادة .

(19/401)

وحكى بعض المفسرين أنهم لما دخلوا عليه دعا بالصواع فنقره ثم أدناه من أذنه ثم قال : إن صواعي هذا ليخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً وأنكم انطلقتم بأخٍ لكم فبعْتموه ، فلما سمعها بنيامين قام وسجد ليوسف وقال أيها الملك سلْ صواعك هذا عن أخي أحيّ هو أم هالك ؟ فنقره ، ثم قال : هو حي وسوف تراه . قال : فاصنع بي ما شئت ، فإنه إن علم بي سينقذني . قال : فدخل يوسف فبكى ثم توضأ وخرج ، فقال بنيامين : افقر صواعك ليخبرك بالذي سرقه فجعله في رحلي ، فنقره ، فقال : صواعي هذا غضبان وهو يقول : كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت .

قوله عز وجل : ﴿ . . . يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ﴾

لكن قالوا ذلك ترقيقاً واستعطافاً وفي قولهم ﴿ كبيراً ﴾ وجهان :

أحدهما : كبير السن .

الثاني : كبير القدر لأن كبر السن معروف من حال الشيخ .

﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ أي عبْداً بدله .

﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نراك من المحسنين في هذا إن فعلت ، قاله ابن إسحاق .

الثاني : نراك من المحسنين فيما كنت تفعله بنا من إكرامنا وتوفية كيلنا وبضاعتنا .

ويحتمل ثالثاً : إنا نراك من العادلين ، لأن العادل محسن .

فأجابهم يوسف عن هذا ﴿ قال معاذَ اللهِ أن نأخذ إلا من وجَدْنا متاعنا عنده إنَّا إذاً لظالمون ﴾ إن أخذنا بريئاً بسقيم ، وفيه وجه ثان : إنا إذاً لظالمون عندكم إذا حكمنا عليكم بغير حكم أبيكم أن من سرق استُرِقّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(20/401)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

الضمير في ﴿ قالوا ﴾ لإخوة يوسف ، والأخ الذي أشاروا إليه هو يوسف ، ونكروه تحقيراً للأمر ، إذ كان مما لا علم للحاضرين به ، ثم ألصقوه ببنيامين ، إذ كان شقيقه ، ويحتمل قولهم

: ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ تأويلين .

أحدهما : أنهم حققوا السرقة في جانب بنيامين ويوسف عليهما السلام ، بحسب ظاهر الحكم ، فكأنهم قالوا : إن كان قد سرق فغير بدع من ابني راحيل ، لأن أخاه يوسف كان قد سرق . فهذا من الإخوة إنحاء على ابني راحيل : يوسف وبنيامين .

والوجه الآخر الذي يحتمله لفظهم يتضمن أن السرقة في جانب يوسف وبنيامين - مظنونة - كأنهم قالوا : إن كان هذا الذي رمى به بنيامين حقاً في نفسه فالذي رمى به يوسف قبل حق إذاً ، وكأن قصة يوسف والظن به قوي عندهم بما ظهر في جهة وبنيامين .

وقال بعض المفسرين : التقدير : فقد قيل عن يوسف إنه سرق ، ونحو هذا من الأقوال التي لا ينطبق معناها على لفظ الآية .

وهذه الأقوال منهم عليهم السلام إنما كانت بحسب الظاهر وموجب الحكم في النازلتين ، فلم يقعوا في غيبة ليوسف ، وإنما قصدوا الإخبار بأمر جرى ليزول بعض المعرة عنهم ، ويختص بها هذان الشقيقان .

وأما ما روي في سرقة يوسف فثلاثة وجوه : الجمهور منها على أن عمته كانت ربته ، فلما شب أراد يعقوب أخذه منها ، فولعت به وأشفقت من فراقه ، فأخذت منطقة إسحاق - وكانت متوارثة عندهم - فنطقته بها من تحت ثيابه ، ثم صاحت وقالت : إني قد فقدت

المنطقة ويوسف قد خرج بها ، ففتشت فوجدت عنده ، فاسترقّته – حسبما كان في شرعهم – وبقي عندها حتى ماتت فصار عند أبيه .

(21/401)

وقال إدريس عن أبيه : إنما أكل بنو يعقوب طعاماً فأخذ يوسف عرقاً فخبأه فرموه لذلك بالسرقة ، وقال سعيد بن جبير وقتادة : إنما أمرته أمه أن يسرق صنماً لأبيها ، فسرقه وكسره ، وكان ذلك – منها ومنه – تغييراً للمنكر ، فرموه لذلك بالسرقة ، وفي كتاب الزجاج : أنه كان صنم ذهب .

والضمير في قوله : ﴿ فأسرها ﴾ عائد يراد به الحزة التي حدثت في نفس يعقوب من قوله ، والكلام يتضمنها ، وهذا كما تضمن الكلام الضمير الذي في قول حاتم :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى . . . إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وهذا كقوله تعالى : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعدما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ [النحل : 110] فهي مراد بها الحالة المتحصلة من هذه الأفعال .

وقال قوم : أسر المجازاة ، وقال قوم : أسر الحجة . وما قدمناه أليق . وقرأ ابن أبي عبلة : "

فأسره يوسف " بضمير تذكير .

وقوله : ﴿ أنتم شر مكاناً ﴾ الآية ، الظاهر منه أنه قالها إفصاحاً فكأنه أسر لهم كراهية مقالتهم ثم تجههم بقوله : ﴿ أنتم شر مكاناً ﴾ أي لسوء أفعالكم ، والله يعلم إن كان ما وصفتموه حقاً ، وفي اللفظ إشارة إلى تكذيبهم ، ومما يقوي هذا عندي أنهم تركوا الشفاعة بأنفسهم وعدلوا إلى الشفاعة بالشيخ صلى الله عليه وسلم .

وقالت فرقة – وهو ظاهر كلام ابن عباس – لم يقل يوسف هذا الكلام إلا في نفسه – وإنما هو تفسير للذي أسر في نفسه ، أي هذه المقالة هي التي أسر ، فكأن المراد في نفسه : أنتم . . .

وذكر الطبري هنا قصصاً اختصاره : أنه لما استخرجت السقاية من رحل بنيامين قال إخوته : يا بني راحيل ألا يزال البلاء ينالنا من جهتكم ؟ فقال بنيامين : بل بنو راحيل ينالهم البلاء منكم : ذهبتم بأخي فأهلكتموه ، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم . فقالوا : لا تذكر الدراهم لئلا نؤخذ بها . ثم دخلوا على يوسف فأخذ الصواع فنقره فطن ، فقال : إنه يخبر أنكم ذهبتم بأخ لكم فبعتموه ، فسجد بنيامين وقال : أيها العزيز

سل صواعك هذا يخبرك بالحق .

قال القاضي أبو محمد : ونحو هذا من القصص الذي آثرنا اختصاره . وروي أن روبيل غضب ووقف شعره حتى خرج من ثيابه ، فأمر بنياً له ، فمسه ، فسكن غضبه ، فقال روبيل : لقد مسني أحد من ولد يعقوب ، ثم إنهم تشاوروا في محاربة يوسف – وكانوا أهل قوة لا يدانون في ذلك – فلما أحس يوسف بذلك قام إلى روبيل فلببه وصرعه ، فرأوا من قوته ما استعظموه عند ذلك وقالوا : ﴿ يا أيها العزيز . . . ﴾ [يوسف : 88] .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾

(23/401)

خاطبوه باسم ﴿ العزيز ﴾ إذ كان في تلك الخطة بعزل الأول أو موته – على ما روي في ذلك – وقولهم : ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ يحتمل أن يكون مجازاً وهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر ليسترقّ بدل من أحكمت السنة رقه ، وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله : اقتلني ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكنك تبالغ في استنزاله ، وعلى هذا يتجه قول يوسف ﴿ معاذ الله ﴾ لأنه تعوذ من غير جائز ، ويحتمل أن يكون قولهم ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ حقيقة ، وبعيد عليهم – وهم أنبياء – أن يريدوا استرقاق حر ، فلم يبق

إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة ، أي خذ أحدنا حتى ينصرف إليك صاحبك ، ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه ، ويعرف يعقوب جلية الأمر ، فمنع يوسف عليه السلام من ذلك ، إذ الحمالة في الحدود ونحوها لمعنى إحضار المضمون فقط جائزة مع التراضي غير لازمة إذا أبى الطالب ، وأما الحمالة في مثل ذلك – على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة – فلا يجوز ذلك إجماعاً . وفي الواضحة : إن الحمالة بالوجه فقط في جميع الحدود جائزة إلا في النفس .

وقولهم : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ ، يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوه من إحسانه في جميع أفعاله – معهم ومع غيرهم – ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا – وهذا تأويل ابن إسحاق .

و﴿ معاذ ﴾ نصب على المصدر ، ولا يجوز إظهار الفعل معه ، والظلم في قوله : ﴿ الظالمون ﴾ على حقيقته ، إذ هو وضع الشيء في غير موضعه ، وذكر الطبري أنه روي أن يوسف أيأسهم بلفظه هذا ، قال لهم : إذا أتيتم أباكم فاقرأوا عليه السلام ، وقولوا له : إن ملك مصر يدعو لك ألا تموت حتى ترى ولدك يوسف ، ليعلم أن في أرض مصر صديقين مثله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾

المعنى : أي اقتدى بأخيه ، ولو اقتدى بنا ما سرق ؛ وإنما قالوا ذلك ليبرؤوا من فعله ، لأنه ليس من أمهم ؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عِرْق أخيه السّارق ؛ لأن الاشتراك في الأنساب يشاكل في الأخلاق .

وقد اختلفوا في السرقة التي نسبوا إلى يوسف ؛ فروي عن مجاهد وغيره أن عمة يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب ، وكانت صارت إليها مِنْطقة إسحق لسنّها ؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالسنّ ، وهذا مما نسخ حكمه بشرعنا ، وكان من سَرَق استعبد .

وكانت عمة يوسف حَضَنَتْه وأحبّته حبًّا شديداً ؛ فلما ترعرع وشَبَّ قال لها يعقوب : سلّمي يوسف إليّ ، فلست أقدر أن يغيب عني ساعة ؛ فولعتْ به ، وأشفقت من فراقه ؛ فقالت له : دعه عندي أياماً أنظر إليه فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى مِنطَقة إسحق ، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدت مُنْطقة إسحق ، فانظروا مَن أخذها ومَن أصابها ؛ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوا ؛ فوجدت مع يوسف .

فقالت : إنه والله لي سلم أصنع فيه ما شئت ؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها :

أنت وذلك ، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ؛ فأمسكته حتى ماتت ؛ فبذلك عيّره إخوته في قولهم : "إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ" .

ومن هاهنا تعلّم يوسف وضع السقاية في رَحْلِ أخيه كما عملت به عمته .

وقال سعيد بن جُبير : إنما أمرته أن يسرِق صنماً كان لجدّه أبي أمه ، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق ، وكان ذلك منهما تغييراً للمنكر ؛ فرموه بالسرقة وعيّروه بها ؛ وقاله قتادة .

وفي كتاب الزجّاج : أنه كان صنم ذهب .

وقال عطية العَوْفي : إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق فخبأه فعيّروه بذلك .

وقيل : إنه كان يسرِق من طعام المائدة للمساكين ؛ حكاه ابن عيسى .

وقيل : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه ؛ قاله الحسن .

(25/401)

قوله تعالى : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أي أسرّ في نفسه قولهم : "إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ" قاله ابن شجرة وابن عيسى .

وقيل : إنه أسرّ في نفسه قوله : ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ ثم جهر فقال : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

(قاله ابن عباس ، أي أنتم شر مكاناً ممن نسبتموه إلى هذه السرقة .

ومعنى قوله "والله أعلم بما تصفون") أي الله أعلم أنّ ما قلتم كذب ، وإن كانت لله رضا .

وقد قيل : إن إخوة يوسف في ذلك الوقت ما كانوا أنبياء .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يا أيها العزيز إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ خاطبوه باسم العزيز إذ كان في تلك اللحظة بعزل الأول أو موته .

وقولهم : "إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً" أي كبير القدر ، ولم يريدوا كبر السنّ ؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ .

"فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ" أي عبداً بَدلَه ؛ وقد قيل : إن هذا مجاز ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقّه ؛ وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله : اقتلني ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكنك مبالغ في استنزاله .

ويحتمل أن يكون قولهم : "فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ" حقيقة ؛ وبعيد عليهم وهم أنبياء أن يروا استرقاق حر ، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة ؛ أي خذ أحدنا مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك ؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه ؛ ويعرف يعقوب جليّة الأمر ؛ فمنع يوسف عليه السلام من ذلك ، إذِ الحمالة في الحدود ونحوها بمعنى إحضار المضمون فقط جائزة مع التراضي ، غير لازمة إذا أَبى الطالب ؛ وأما الحمالة في مثل هذا

على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة ، فلا يجوز إجماعاً .

وفي "الواضحة" : إن الحمالة في الوجه فقط في (جميع) الحدود جائزة ، إلا في النفس .

(26/401)

وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة في النفس .

واختلف فيها عن الشافعي ؛ فمرّة ضعّفها ، ومرّة أجازها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم ، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا ؛ وهذا تأويل ابن إسحق .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللهِ ﴾ مصدر .

﴿ أَنْ نَأْخُذَ ﴾ في موضع نصب ؛ أي من أن نأخذ .

﴿ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا ﴾ في موضع نصب ب "نأخذ" .

﴿ مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ أي معاذ الله أن نأخذ البريء بالمجرم ، ونخالف ما تعاقدنا عليه .

﴿ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾ أي أن نأخذ غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قالوا ﴾ يعني إخوة يوسف ﴿ إن يسرق ﴾ يعني بنيامين الصواع ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ يعني يوسف ظاهر الآية يقتضي أن إخوة يوسف قالوا للملك إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان سارقاً أيضاً وكان غرضهم من هذا الكلام أنّ لسنا على طريقته ولا على سيرته بل هذا وأخوه كان على هذه الطريقة وهذه السيرة لأنهما من أم أخرى غير أمنا .

واختلفوا في السرقة التي ينسبوها إلى يوسف فقال سعيد بن جبير وقتادة : وكان لجده أبي أمه صنم وكان يعبده فأخذه يوسف وكسره وألقاه في الطريق لئلا يعبده ، وقال مجاهد : إن يوسف جاءه سائل يوماً فأخذ بيضة من البيت فناولها له ، وقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير الذي كان في بيت يعقوب فأعطاها سائلاً ، وقال وهب : كان يخبئ الطعام من المائدة للفقراء .

وذكر محمد بن إسحاق : إن يوسف كان عند عمته ابنة إسحاق بعد موت أمه راحيل فحضنته عمته وأحبته حباً شديداً فلما ترعرع وكبر وقعت محبة يعقوب عليه فأحبه فقال لأخته يا أختاه سلمي إلي يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة واحدة فقالت لا أعطيكه فقال لها والله ما أنا بتاركه عندك فقالت دعه عندي أياماً أنظر إليه لعل ذلك يسليني عنه ففعل ذلك فعمدت إلى منطقة كانت لإسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكانت أكبر أولاد إسحاق فكانت عندها فشدت المنطقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت لقد فقدت منطقة إسحاق ففتشوا أهل البيت فوجودها مع يوسف فقالت إنه لسلم لي يعني يوسف فقال يعقوب إن كان قد فعل فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت فلذلك قال إخوة يوسف إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل يعنون هذه السرقة قال الأنباري : وليس في هذه الأفعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها تشبه السرقة فعيروه بها عند الغضب ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ﴾ في هاء الكناية ثلاثة أقوال : أحدها : أن الضمير يرجع إلى الكلمة التي بعدها وهي قوله تعالى ﴿ قال ﴾ يعني يوسف ﴿ أنتم شر مكاناً ﴾ روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس والثاني أن الضمير يرجع إلى الكلمة التي قالوها في حقه وهي قولهم فقد سرق أخ له من قبل وهذا معنى قول أبي صالح عن ابن عباس ، فعلى هذا القول يكون المعنى فأسر يوسف جواب الكلمة

التي قالوها في حقه ولم يجبهم عليها والثالث أن الضمير يرجع إلى الحجة فيكون المعنى على هذا القول فأسر يوسف الاحتجاج عليهم في ادعائهم عليه السرقة ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً يعني منزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة لأنه لم يكن من يوسف سرقة في الحقيقة وخيانتكم حقيقة ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ يعني بحقيقة ما تقولون.

(29/401)

قوله: ﴿ قالوا ﴾ يعني إخوة يوسف ﴿ يا أيها العزيز ﴾ يخاطبون بذلك الملك ﴿ إن له أباً شيخاً كبيراً ﴾ قال أصحاب الأخبار والسير إن يوسف لما استخرج الصواع من رحل أخيه بنيامين نقره وأدناه إلى أذنه ثم قال إن صواعي هذا يخبرني أنكم اثنا عشر رجلاً لأب واحد وإنكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه قال بنيامين أيها الملك سل صواعك هذا من جعله في رحلي فنقره ثم قال إن صواعي غضبان وهو يقول كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت قالوا فغضب روبيل لذلك وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء وكان إذا صاح ألقت كل حامل حملها إذا سمعت صوته وكان من هذا إذا مسه أحد من ولد يعقوب يسكن غضبه وكان أقوى الإخوة وأشدهم، وقيل: كانت هذه صفة شمعون بن يعقوب، وقيل: إنه قال لإخوته كم عدد

الأسواق بمصر قالوا عشرة قال اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق فدخلوا على يوسف فقال روبيل أيها الملك لتردن علينا أخانا أو لأصيحن صيحة لا يبقى بمصر امرأة حامل إلا وضعت ولدها وقامت كل شعرة في جسد روبيل حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم إلى جنب هذا فمسه أو خذ بيده فأتى له فلما مسه سكن غضبه فقال لإخوته : من مسني منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال روبيل إن هذا بذر من بذر يعقوب وقيل إنه غضب ثانياً فقام إليه يوسف فوكزه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الأرض وقال أنتم يا معشر العبرانيين تزعمون أن لا أحد أشد منكم فلما رأوا ما نزل بهم ورأوا أن لا سبيل إلى تخليصه خضفوا وذلوا وقالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً يعني في السن ويحتمل أن يكون كبيراً في القدر لأنه نبي من أولاد الأنبياء ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ يعني بدلاً عنه لأنه يحبه ويتسلى به عن أخيه الهالك ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ يعني في أفعالك كلها وقيل من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحسن الضيافة ورد

البضاعة إلينا وقيل إن رددت بنيامين إلينا وأخذت أحدنا مكانه كنت من المحسنين .

﴿ قال معاذ الله ﴾

يعني : قال يوسف أعوذ بالله معاذاً ﴿ أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ لم يقل سرق تحرزاً عن الكذب لأنه يعلم أخاه ليس بسارق ﴿ إنا إذاً لظالمون ﴾ يعني إن أخذنا بريئاً بذنب غيره فإن قلت كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذه الأعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضاً عنده مع علمه بشدة وجد أبيه عليه ففيه ما فيه من العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة وكيف يجوز ليوسف مع علو منصبه من النبوة والرسالة أن يزور على إخوته ويروج عليهم مثل هذا مع ما فيه من الإيذاء لهم فكيف يليق به هذا كله قلت قد ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة كثيرة وأحسنها وأصحها أنه إنما فعل ذلك بأمر الله تعالى له لا عن أمره وإنما أمره الله بذلك ليزيد بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه الماضين لله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه فهو المتصرف في خلقه بما يشاء وهو الذي أخفى خبر يوسف عن يعقوب في طول هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد أن يدبره فيهم والله أعلم بأحوال عباده . انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(31/401)

وقال أبو حيان :

وقولهم : ﴿ إنْ يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾

لا يدل على الجزم بأنه سرق ، بل أخرجوا ذلك مخرج الشرط أي : إن كان وقعت منه سرقة فهو يتأسى بمن سرق قبله ، فقد سرق أخ له من قبل .

والتعليق على الشرط على أنّ السرقة في حق بنيامين وأخيه ليس مجزوماً بها ، كأنهم قالوا : إنْ كان هذا الذي رمى به بنيامين حقاً فالذي رمى به يوسف من قبل حق ، لكنه قوي الظن عندهم في حق يوسف بما ظهر لهم أنه جرى من بنيامين ، ولذلك قالوا : إن ابنك سرق .

وقيل : حققوا السرقة في جانب بنيامين وأخيه بحسب ظاهر الأمر ، فكأنهم قالوا : إن كان قد سرق فغير بدع من ابني راحيل ، لأن أخاه يوسف قد كان سرق ، فعلى هذا القول يكون قولهم إنحاء على يوسف وبنيامين .

وقيل : التقدير فقد قيل عن يوسف إنه سرق ، وقولهم هذا هو بحسب الظاهر والإخبار بأمر جرى لتزول المعرة عنهم ، وتختص بالشقيقين .

وتنكير أخ في قوله : فقد سرق أخ له من قبل ، لأنّ الحاضرين لا علم لهم به وقالوا له : لأنه كان شقيقه .

والجمهور على أن السرقة التي نسبت هي أن عمته ربته وشب ، وأراد يعقوب أخذه ،

فأشفقت من فراقه فأخذت منطقة إسحاق ، وكانت متوارثة عندهم ، فنطقته بها من تحت ثيابه ثم صاحت وقالت : فقدت المنطقة ففتشت فوجدت عند يوسف ، فاسترقته حسبما كان في شرعهم وبقي عندها حتى ماتت ، فصار عند أبيه .

وقال قتادة وابن جبير : أمرت أمه أن يسرق صنماً .

وفي كتاب الزجاج : من ذهب لأبيها فسرقه وكسره ، وكان ذلك منها تغييراً للمنكر .

وقال ابن إدريس عن أبيه : إنما أكل بنو يعقوب طعاماً ، فأخذ يوسف عرقاً فنحاه .

وقيل : كان في البيت عناق أو دجاجة ، فأعطاها السائل .

وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي ، وابن أبي شريح عن الكسائي ، والوليد بن حسان عن يعقوب وغيرهم : فقد سرق بالتشديد مبنياً للفعول بمعنى نسب إلى السرقة ، بمعنى جعل سارقاً ولم يكن كذلك حقيقة .

(32/401)

والضمير في قوله : فأسرها يفسره سياق الكلام أي : الحزازة التي حدثت في نفسه من قولهم كما فسره في قول حاتم :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى . . .

إذا حشرجت نفس وضاق بها الصدر

وقيل : أسر المجازاة ، وقيل : الحجة .

وقال الزمخشري : اختار على شريطة التفسير تفسيره أنتم شر مكاناً ، وإنما أنث لأن قوله : أنتم شر مكاناً جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة ، كأنه قيل : فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله .

وقرأ عبد الله ، وابن أبي عبلة : فأسره بضمير تذكير .

قال الزمخشري : يريد القول أو الكلام انتهى .

والظاهر من قوله : أنتم شر مكاناً ، خطابهم بهذا القول في الوجه ، فكأنه أسر كراهية مقالتهم ، ثم وبخهم بقوله : أنتم شر مكاناً ، وفيه إشارة إلى تكذيبهم وتقوية أنهم تركوا أن يشفعوا بأنفسهم ، وعدلوا إلى الشفاعة بأبيه الشيخ يعقوب عليه السلام .

وقال قوم : لم يقل يوسف هذا الكلام لهم مواجهة ، إنما قاله في نفسه ، وهو تفسير قوله : الذي أسر في نفسه ، وهو قول الزمخشري المتقدم .

ومعنى شر مكاناً أي منزلة في السرق ، لأنكم سارقون بالصحة لسرقتكم أخاكم من أبيكم .

ومعنى أعلم بما تصفون يعني : هو أعلم بما تصفون منكم ، لأنه عالم بحقائق الأمور ، وكيف كانت سرقة أخيه التي أحلتم سرقته عليه .

وروي أن روبيل غضب ووقف شعره حتى خرج من ثيابه ، فأمر يوسف ابناً له يمسه فسكن غضبه فقال روبيل : لقد مسني أحد من ولد يعقوب ، ثم أنهم تشاوروا في محاربة يوسف وكانوا أهل قوة لا يدانون في ذلك ، فلما أحس يوسف بذلك قام إلى روبيل فلببه وصرعه ، فرأوا من قوته ما استعظموه وعند ذلك .

﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين .

قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون ﴾ : استعطفوا يوسف إذ كان قد أخذ عليهم الميثاق .

ومعنى كبيراً في السن ، أو القدر .

وكانوا قد أعلموا يوسف بأنه كان له ابن قد هلك ، وهذا شقيقه يستأنس به ، وخاطبوه بالعزيز إذ كان في تلك الخطة بعزل قطفير ، أو موته على ما سبق .

ومعنى مكانه أي : بدله على جهة الاسترهان أو الاستعباد ، قاله الزمخشري .

وقال ابن عطية : يحتمل قولهم أن يكون مجازاً ، وهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حرّ بسارق بدل من قد أحكمت السنة رقه ، وإنما هذا كمن يقول لمن يكره فعله : اقتلني ولا تفعل كذا

وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ولكنك تبالغ في استنزاله ، وعلى هذا يتجه قول يوسف :

معاذ الله لأنه تعوذ من غير جائز .

ويحتمل أن يكون قولهم حقيقة ، وبعيد عليهم وهم أنبياء أن يريدوا استرقاق حر ، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الجمالة ، أي : خذ أحدنا حتى ينصرف إليك صاحبك .

ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه ويعرف يعقوب جلية الأمر .

وقوله : من المحسنين ، وصفوه بما شاهدوه من إحسانه لهم ولغيرهم ، أو من المحسنين إلينا في هذه اليد إنْ أسديتها إلينا ، وهذا تأويل ابن إسحاق ومعاذ الله تقدم الكلام فيه في قوله : معاذ الله إنه ربي ، والمعنى : وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع في رحله واستعباده .

فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم ، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ، وباطنه أن الله أمرني وأوحى إلي بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة ، أو مصالح جمة علمها في ذلك .

فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالماً وعاملاً على خلاف الوحي .

وأن نأخذ تقديره : من أن نأخذ ، وإذن جواب وجزاء أي : إن أخذنا بدله ظلمنا .

وروي أنه قال لما أيأسهم من حمله معهم : إذا أتيتم أباكم فاقرؤوا عليه السلام وقولوا له : إن ملك مصر يدعو لك أن لا تموت حتى ترى ولدك يوسف ، ليعلم أنّ في أرض مصر صديقين مثله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ ﴾

يعنون بنيامين ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ يريدون به يوسفَ عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمّتِه على ما قيل من أنه كانت تحضِنه فلما شب أراد يعقوبُ عليه السلام انتزاعَه منها وكانت لا تصبِر عنه ساعةً وكانت لها منطقةٌ ورثتها من أبيها إسحاقَ عليه السلام فاحتالت لاستبقاء يوسفَ عليه السلام فعمَدت إلى المنطقة فحزمَتْها عليه من تحت ثيابه ثم قالت : فقدتُ منطقةَ إسحاقَ عليه السلام فانظروا مَنْ أخذها فوجدوها محزومةً على يوسف فقالت : إنه لي سَلَم أفعل به ما أشاء فخلاّه يعقوبُ عليه السلام عندها حتى ماتت ، وقيل : كان أخذ في صِباه صنماً لأبي أمِّه فكسره وألقاه في الجيف ، وقيل : دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبُدونه فدفنه ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ ﴾ أي أكنّ الحزازةَ الحاصلة مما قالوا ﴿ فِى نَفْسِهِۦ ﴾ لا أنه أسرّها لبعض أصحابه كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ ﴿ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ لا قولاً ولا فعلاً صفحاً عنهم وحِلماً وهو تأكيد لما سبق .

﴿ قَالَ ﴾ أي في نفسه وهو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من الإخبار بالإسرار المذكور كأنه قيل : فماذا قال في نفسه في تضاعيف ذلك الإسرار ؟ فقيل : قال : ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ أي منزلةً حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفِقتم تفترون على البريء ، وقيل : بدل من أسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله : ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي عالمٌ علماً بالغاً إلى أقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقةِ منا بل إنما هو افتراءٌ علينا فالصيغةُ لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمِه عز وجل على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم .

(35/401)

﴿ قَالُوا ﴾ عندما شاهدوا مخايل أَخْذِ بنيامين مستعطِفين ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا ﴾ لم يريدوا بذلك الإخبارَ بأن له أباً ذلك معلومٌ مما سبق وإنما أرادوا الإخبار بأن له أباً ﴿ شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ في السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو عَلاقةٌ به يتعلل عن شقيقه الهالك ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إلينا فأتمم إحسانَك بهذه التتمة أو المتعوِّدين بالإحسان فلا تغيِّر عادتك .

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أي نعوذ بالله معاذاً من ﴿ أَنْ نَأْخُذَ ﴾ فحُذف الفعل وأُقيم مُقامه

المصدرُ مضافاً إلى المفعول به بعد حذفِ الجارّ ﴿ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ لأن أَخْذنا له إنما هو بقضية فتواكم فليس لنا الإخلالُ بموجبها ، وإيثارُ صيغة التكلم مع الغير كون الخطابِ من جانب إخوته على التوحيد من باب السلوكِ إلى سنن الملوك ، أو للإشعار بأن الأخذَ والإعطاءَ ليس مما يُستبدّ به بل هو منوطٌ بآراء أولي الحلِ والعقد ، وإيثارُ (مَنْ وجدنا متاعنا عنده) دون مَنْ سرق متاعنا لتحقيق الحقِ والاحتراز عن الكذب في الكلام مع تمام المرام فإنهم لا يحمِلون وُجدان الصُّواعِ في الرحل على محمل غيرِ السرقة ﴿ إِنَّا إِذاً ﴾ أي إذا أخذنا غيرَ من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه ﴿ لظالمون ﴾ في مذهبكم وما لنا ذلك ، وهذا المعنى هو الذي أريد بالكلام في أثناء الحوارِ ، وله معنى باطنٌ هو أن الله عز وجل إنما أمرني بالوحي أن آخذَ بنيامينَ لمصالحَ علمها الله في ذلك فلو أخذتُ غيرَه كنت ظالماً وعاملاً بخلاف الوحي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(36/401)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

﴿ قَالُواْ ﴾ أي الإخوة ﴿ إِن يَسْرِقْ ﴾ يعنون بنيامين ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾

يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمته ، فقد أخرج ابن إسحق .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني أن عمته كانت تحضنه وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام وكانت إليها منطقة أبيها وكانوا يتوارثونها بالكبر فكانت لا تحب أحداً كحبها إياه حتى إذا ترعرع وقعت نفس يعقوب إليه فأتاها فقال : يا أختاه سلمي إلى يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة فقالت ، والله ما أنا بتاركته فدعه عندي أياماً أنظر إليه لعل ذلك يسليني ، فلما خرج يعقوب عليه السلام من عندها عمدت إلى تلك المنطقة فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه ثم قالت : فقدت منطقة أبي إسحاق فانظروا من أخذها فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام فقالت : والله إنه لسلم لي أصنع فيه ما شئت فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنت وذاك إن كان فعل فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الآية : "سرق يوسف عليه السلام صنماً لجده أبي أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه على الطريق فعيره إخوته بذلك ، وأخرج غير واحد عن زيد بن أسلم قال : كان يوسف عليه السلام غلاماً صغيراً مع أمه عند خال له وهو يلعب مع الغلمان فدخل كنيسة لهم فوجد تمثالاً صغيراً من

ذهب فأخذه وذلك الذي عنوه بسرقته .

وقال مجاهد : إن سائلاً جاءه يوماً فأخذ بيضة فناولها إياه : وقال سفيان بن عيينة : أخذ دجاجة فأعطاها السائل .

وقال وهب : كان عليه السلام يخبىء الطعام من المائدة للفقراء وقيل وقيل .

(37/401)

وعن ابن المنير أن ذلك تصلف لا يسوغ نسبة مثله إلى بيت النبوة بل ولا إلى أحد من الأشراف فالواجب تركه وإليه ذهب مكي .

وقال بعضهم : المعنى إن يسرق فقد سرق مثله من بني آدم وذكر له نظائر في الحديث ، قيل : وهو كلام حقيق بالقبول .

وأنت تعلم أن في عد كل ما قيل في بيان المراد من سرقة الأخ تصلفاً تصلف فإن فيه ما لا بأس في نسبته إلى بيت النبوة ، وإن ادعى أن دعوى نسبتهم السرقة إلى يوسف عليه السلام مما لا يليق نسبة مثله إليهم لأن ذلك كذب إذ لا سرقة في الحقيقة وهم أهل بيت النبوة الذين لا يكذبون جاء حديث أكله الذئب وهم غير معصومين أولاً وآخراً وما قاله البعض .

وقيل : إنه كلام حقيق بالقبول مما يأباه ما بعد كما لا يخفى على من له ذوق ، على أن ذلك في

نفسه بعيد ذوقاً وأتوا بكلمة ﴿ إن ﴾ لعدم جزمهم بسرقته بمجرد خروج السقاية من رحله ، فقد وجدوا من قبل بضاعتهم في رحالهم ولم يكونوا سارقين .

وفي بعض الروايات أنهم لما رأوا إخراج السقاية من رحله خجلوا فقالوا : يا ابن راحيل كيف سرقت هذه السقاية ؟ فرفع يده إلى السماء فقال : والله ما فعلت فقالوا : فمن وضعها في رحلك ؟ قال : الذي وضع البضاعة في رحالكم ، فإن كان قولهم : ﴿ إِن يَسْرِقْ ﴾ الخ بعد هذه المقاولة فالظاهر أنها هي التي دعتهم ﴿ لِإِنْ ﴾ وأما قولهم : ﴿ إِنَّ ابنك سَرَقَ ﴾ [يوسف : 81] فبناءً على الظاهر ومدعي القوم وكذا علمهم مبني على ذلك ؛ وقيل : إنهم جزموا بذلك ﴿ وَأَنْ ﴾ لمجرد الشرط ولعله الأولى لظاهر ما يأتي إن شاء الله تعالى تحقيقه ﴿ ويسرق ﴾ لحكاية الحال الماضية ، والمعنى إن كان سرق فليس يبدع لسبق مثله من أخيه وكأنهم أرادوا بذلك دفع المعرة عنهم واختصاصها بالشقيقين ، وتنكير ﴿ وَلَهُ أَخٌ ﴾ لأن الحاضرين لا علم لهم به .

وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي .

وابن أبي سريج عن الكسائي .

والوليد بن حسان .

وغيرهم ﴿ فَقَدْ سَرَقَ ﴾ بالتشديد مبنياً للمفعول أي نسب إلى السرقة ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ ﴾ الضمير لما يفهم من الكلام والمقام أي أضمر الحزازة التي حصلت له عليه السلام مما قالوا ، وقيل : أضمر مقالتهم أو نسبة السرقة إليه فلم يجبهم عنها ﴿ فِى نَفْسِهِ ﴾ لا أنه أسرها لبعض أصحابه كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ [نوح : 9] ﴿ وَلَمْ يُبْدِهَا ﴾ أي يظهرها ﴿ لَهُمْ ﴾ لا قولاً ولا فعلاً صفحاً لهم وحلماً وهو تأكيد لما سبق ﴿ قَالَ ﴾ أي في نفسه ، وهو استئناف مبني على سؤال نشأ من الأخبار بالأسرار المذكور كأنه قيل : فماذا قال في نفسه في تضاعيف ذلك ؟ فقيل : قال : ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ أي منزلة في السرق ، وحاصله أنكم أثبت في الاتصاف بهذا الوصف وأقوى فيه حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء ، وقال الزجاج : إن الإضمار هنا على شريطة التفسير لأن : ﴿ قَالَ أَنْتُمْ ﴾ الخ بدل من الضمير ، والمعنى فأسر يوسف في نفسه قوله : ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ والتأنيث باعتبار أنه جملة أو كلمة .

وتعقب ذلك أبو علي بأن الإضمار على شريطة التفسير على ضربين .

أحدهما : أن يفسر بمفرد نحو نعم رجلاً زيد وربه رجلاً .

وثانيهما : أن يفسر بجملة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الصمد : 1] وأصل هذا أن يقع في الإبتداء ثم يدخل عليه النواسخ نحو : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ [طه : 74

] ﴿ فَإِنَّهَا لَا لأُوْلِى الأبصار ﴾ [الحج : 46] وليس منها شفاء النفس مبذول وغير ذلك ، وتفسير المضمر في كلا الموضعين متصل بالجملة التي قبلها المتضمنة لذلك المضمر ومتعلق بها ولا يكون منقطعاً عنها والذي ذكره الزجاج منقطع فلا يكون من الإضمار على شريطة التفسير .

وفي "أنوار التنزيل" أن المفسر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن ، واعترض عليه بالمنع .

(39/401)

وفي "الكشف" أن هذا ليس من التفسير بالجمل في شيء حتى يعترض بأنه من خواص ضمير الشأن الواجب التصدير وإنما هو نظير ﴿ ووصى بِهَا إبراهيم بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بنى ﴾ [البقرة : 132] الخ .

وتعقب بأن في تلك الآية تفسير جملة وهذه فيها تفسير ضمير بجملة .

وفي "الكشاف" جعل ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ هو المفسر وفيه خفاء لأن ذلك مقول القول .

واستدل بعضهم بالآية على إثبات الكلام النفسي بجعل ﴿ قَالَ ﴾ بدلاً من أسر ولعل الأمر لا يتوقف على ذلك لما أشرنا إليه من أن المراد قال في نفسه ، نعم قال أبو حيان : إن الظاهر أنه عليه السلام خاطبهم وواجههم به بعد أن أسر كراهية مقالتهم في نفسه وغرضه

توبيخهم وتكذيبهم ، ويقويه أنهم تركوا أن يشفعوا بأنفسهم وعدلوا إلى الشفاعة له بأبيه وفيه نظر .

وقرأ عبد الله .

وابن أبي عبلة ﴿ فأسره ﴾ بتذكير الضمير ﴿ مَّكَاناً واللهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي عالم علماً بالغاً إلى أقصى المراتب بإن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا ، فصيغة أفعل لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه تعالى على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم قاله غير واحد .

وقال أبو حيان : إن المعنى أعلم بما تصفون به منكم لأنه سبحانه عالم بحقائق الأمور وكيف كانت سرقة أخيه الذي أحلتم سرقته عليه فأفعل حينئذ على ظاهره .

واعترض بأنه لم يكن فيهم علم والتفضيل يقتضي الشركة ، وأجيب بأنه تكفي الشركة بحسب زعمهم فإنهم كانوا يدعون العلم لأنفسهم ، ألا ترى قولهم : ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ جزماً .

﴿ قَالُواْ ﴾ عندما شاهدوا مخايل أخذ بنيامين مستعطفين ﴿ تَصِفُونَ قَالُواْ يا أَيُّهَا العزيز إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ طاعناً في السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالة به يتعلل عن شقيقه الهالك ، وقيل : أراد مسناً كبيراً في القدر ، والوصف على القولين محط الفائدة وإلا فالإخبار بأن له أبا معلوم مما سبق ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ بدله فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ إلينا فأتم إحسانك فما الإنعام إلا بالإتمام أو من عادتك الإحسان مطلقاً فاجر على عادتك ولا تغيرها معنا فنحن أحق الناس بذلك ، فالإحسان على الأول خاص وعلى الثاني عام ، والجملة على الوجهين اعتراض تذييلي على ما ذهب إليه بعض المدققين ، وذهب بعض آخر إلى أنه إذا أريد بالإحسان الإحسان إليهم تكون مستأنفة لبيان ما قبل إذ أخذ البدل إحسان إليهم وإذا أريد أن عموم ذلك من دأبك وعادتك تكون مؤكدة لما قبل وذكر أمر عام على سبيل التذييل أنسب بذلك .

(41/401)

﴿ قَالَ مَعَاذَ الله ﴾ أي نعوذ بالله تعالى معاذاً من ﴿ أَن نَّأْخُذَ ﴾ فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه مضافاً إلى المفعول به وحذف حرف الجر كما في أمثاله ﴿ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا متاعنا عِندَهُ ﴾ لأن أخذنا له إنما هو بقضية فتواكم فليس لنا الإخلال بموجبها ﴿ إِنَّا إِذَا

﴿ أي إذا أخذنا غير من وجندا متاعنا عنده ولو برضاه ﴿ لظالمون ﴾ في مذهبكم وشرعكم وما لنا ذلك ، وإيثار صيغة المتكلم مع الغير مع كون الخطاب من جهة اخوته على التوحيد من باب السلوك إلى سنن الملوك وللإشعار بأن الأخذ والإعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بآراء أهل الحل والعقد ، وإيثار ﴿ مَن وَجَدْنَا متاعنا عِندَهُ ﴾ على من سرق متاعنا الأخصر لأنه أوفق بما وقع في الاستفتاء والفتوى أو لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب في الكلام مع تمام المرام فإنهم لا يحملون وجدان الصواع عنده على محمل غير السرقة ، والمتاع اسم لما ينتفع به وأريد به الصواع ، وما ألطف استعماله مع الأخذ المراد به الاسترقاق والاستخدام وكأنه لهذا أوثر على الصواع ، والظاهر أن الأخذ في كلامهم محمول على هذا المعنى أيضاً حقيقة .

(42/401)

وجوز ابن عطية أن يكون ذلك مجازاً لأنهم يعلمون أنه لا يجوز استرقاق حر غير سارق بدل من قد أحكمت السنة رقه فقولهم ذلك كما تقول لمن تكره فعله : اقتلني ولا تفعل كذا وأنت لا تريد أن يقتلك ولكنك تبالغ في استنزاله ، ثم قال : وعلى هذا يتجه قول يوسف عليه السلام : ﴿ مَعَاذَ اللهِ ﴾ لأنه تعوذ من غير جائز ، ويحتمل أن لا يريدوا هذا المعنى ، وبعيد

عليهم وهم أنبياء أن يريدوا استرقاق حر فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك الحمالة أي خذ أحدنا وأبقه عندك حتى ينصرف إليك صاحبك ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه فيعرفه جلية الحال اه وهو كلام لا يعول عليه أصلاً كما لا يخفى ؛ ولجواب يوسف عليه السلام معنى باطن هو أن الله عز وجل إنما أمرني بالوحي أن آخذ بنيامين لمصالح علمها سبحانه في ذلك فلو أخذت غيره كنت ظالماً لنفسي وعاملاً بخلاف الوحي . انتهى انتهى .

اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(43/401)

وقال القاسمى :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

هذا تنصل منهم إلى العزيز بالتشبيه به أي : إن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف .

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ أي : منزلة ، حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ، ثم طفقتم تفترون على البريء .

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي : من أمر يوسف .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لما تعين أخذ بنيامين وإبقاؤه عند يوسف بمقتضى فتواهم ، طفقوا يعطفونه عليهم ، بأن له أباً شيخاً كبيراً يحبه حباً شديداً يتسلى به عن أخيه المفقود ، فخذ أحدنا بدله رقيقاً عندك .

قال بعضهم : الفقه من هذه الجملة أن للكبير حقاً يتوسل به ، كما توسلوا بكبر يعقوب .

وقد ورد في الاستسقاء إخراج الشيوخ . انتهى .

وفي ما عزموا عليه لإنقاذ أخيهم من شرك العبودية ، المقضي عليه بها ، ما يشفّ عن حسن طوية ، ووفاء بالوعد ، ويعرب عن أمانة ، وصدق بر ، وشدة تمسك بموثق أبيهم ، محافظة على رضاه وإكرامه ، وهكذا فليتمسك البار بمراضاة أبويه .

وقولهم : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : إلينا ، فأتمم إحسانك بهذه التتمة . أو من المتعودين بالإحسان ، فليكن هذا منه .

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ أي : إن أخذنا بريئاً بمتهم ؛ لأنه لا يؤخذ أحد بجرم غيره . قال بعضهم : إلا ما ورد في العقل . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 210 ـ 211 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

لما بُهتوا بوجود الصُّوَاع في رحل أخيهم اعتراهم ما يعتري المبهوت فاعتذروا عن دعواهم تنزههم عن السرقة ، إذ قالوا : ﴿ وما كنا سارقين ﴾ [سورة يوسف : 73] ، عذراً بأن أخاهم قد تسرّبت إليه خصلة السرقة من غير جانب أبيهم فزعموا أن أخاه الذي أشيع فقده كان سرق من قبلُ ، وقد علم فتيان يوسف عليه السلام أن المتهم أخ من أمّ أخرى ، فهذا اعتذار بتعريض بجانب أمّ أخويهم وهي زوجة أبيهم وهي (راحيل) ابنة (لابان) خالِ يعقوب عليه السلام .

وكان ليعقوب عليه السلام أربع زوجات : (راحيل) هذه أم يوسف عليه السلام وبنيامين ؛ و (لِيئة) بنت لابان أخت راحيل وهي أم رُوبين ، وشمعون ، ولاوي ، ويهوذا ، وبساكر ، وزبولون ؛ و (بُلْهَة) جارية راحيل وهي أم دانا ، ونفتالي ؛ و (زُلْفة) جارية راحيل أيضاً وهي أم جاد ، وأشير .

وإنما قالوا : قد سرق أخ له من قبل ﴾ بهتاناً ونفياً للمعرة عن أنفسهم .

وليس ليوسف عليه السلام سرقة من قبل ، ولم يكن إخوة يوسف عليه السلام يومئذٍ أنبياء .

وشتان بين السرقة وبين الكذب إذا لم تترتب عليه مضرة.

وكان هذا الكلام بمسمع من يوسف عليه السلام في مجلس حكمه.

وقوله: ﴿ فأسرها يوسف ﴾ يجوز أن يعود الضمير البارز إلى جملة ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ على تأويل ذلك القول بمعنى المقالة على نحو قوله تعالى: ﴿ إنها كلمة هو قائلها بعد قوله: ﴿ رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ﴾ [سورة المؤمنون: 99].

ويكون معنى أسرها في نفسه أنه تحملها ولم يظهر غضباً منها، وأعرض عن زجرهم وعقابهم مع أنها طعن فيه وكذب عليه.

وإلى هذا التفسير ينحو أبو علي الفارسي وأبو حيان.

(45/401)

ويكون قوله: قال أنتم شر مكانا ﴾ كلاماً مستأنفاً حكايةً لما أجابهم به يوسف عليه السلام صراحة على طريقة حكاية المحاورة، وهو كلام موجه لا يقتضي تقرير ما نسبوه إلى أخي أخيهم، أي أنتم أشدّ شرّاً في حالتكم هذه لأنّ سرقتكم مشاهدة وأما سرقة أخي أخيكم فمجرد دعوى، وفعل ﴿ قال ﴾ يرجح هذا الوجه.

ويجوز أن يكون ضمير الغيبة في ﴿ فأسرها ﴾ عائد إلى ما بعده وهو قوله : ﴿ قال أنتم شر مكانا ﴾ .

وبهذا فسر الزجاج والزمخشري ، أي قال في نفسه ، وهو يشبه ضمير الشأن والقصة ، لكن تأنيثه بتأويل المقولة أو الكلمة ، وتكون جملة ﴿ قال أنتم شر مكانا ﴾ تفسيراً للضمير في ﴿ أسرها ﴾ .

والإسرار ، على هذا الوجه ، مستعمل في حقيقته ، وهو إخفاء الكلام عن أن يسمعه سامع .

وجملة ﴿ ولم يبدها لهم ﴾ قيل هي توكيد لجملة ﴿ فأسرها يوسف ﴾ .

وشأن التوكيد أن لا يعطف .

ووجه عطفها ما فيها من المغايرة للتي قبلها بزيادة قيد لهم المشعر بأنه أبدى لأخيه أنهم كاذبون .

ويجوز أن يكون المراد لهم يُبدِ لهم غَضَباً ولا عقاباً كما تقدم مبالغة في كظم غيظه ، فيكون في الكلام تقدير مضاف مناسب ، أي لم يُبْد أثرها .

و﴿ شرّ ﴾ اسم تفضيل ، وأصله أشرّ ، و ﴿ مكانا ﴾ تمييز لنسبة الأَشَرّ .

وأطلق المكان على الحالة على وجه الاستعارة ، والحالة هي السرقة ، وإطلاق المكان والمكانة على الحالة شائع .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ في آخر سورة الأنعام (135) ، وهو تشبيه الاتّصاف بوصف مّا بالحلول في مكان .

والمعنى أنهم لما علّلوا سرقة أخيهم بأن أخاه من قبل قد سرق فإذا كانت سرقة سابقة من أخ أعدّت أخاه الآخر للسرقة ، فهم وقد سبقهم أخوَانَ بالسرقة أجدر بأن يكونوا سَارقين من الذي سبَقه أخ واحد .

(46/401)

والكلام قابل للحمل على معنى أنتم شر حالة من أخيكم هذا والذي قبله لأنهما بريئان مما رميتموهما به وأنتم مجرمون عليهما إذ قذفتم أولهما في الجب ، وأيدتم تهمة ثانيهما بالسرقة .

ثم ذيله بجملة والله أعلم بما تصفون ﴾ ، وهو كلام جامع أي الله أعلم بصدقكم فيما وصفتم أو بكذبكم .

والمراد : أنه يعلم كذبهم ، فالمراد : أعلم لحال ما تصفون .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾

نَادَوْا بوصف العزيز إمّا لأنّ كلّ رئيس ولاية مهمة يدعى بما يرادف العزيز فيكون يوسف

عليه السلام عزيزاً ، كما أن رئيس الشرطة يدعى العزيز كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ امرأة العزيز ﴾ [سورة يوسف : 30] ؛ وإما لأن يوسف ضمت إليه ولاية العزيز الذي اشتراه فجمع التصرفات وراجعوه في أخذ أخيهم .

ووصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه ، وهي : حنان الأبوة ، وصفة الشيخوخة ، واستحقاقه جبر خاطره لأنه كبير قومه أو لأنه انتهى في الكِبر إلى أقصاه ؛ فالأوصاف مسوقة للحث على سراح الابن لا لأصل الفائدة لأنهم قد كانوا أخبروا يوسف عليه السلام بخبر أبيهم .

والمراد بالكبير : إما كبير عشيرته فإساءته تسوءهم جميعاً ومن عادة الولاة استجلاب القبائل ، وإما أن يكون كبيراً ﴾ تأكيداً ل ﴿ شيخا ﴾ أي بلغ الغاية في الكبر من السن ، ولذلك فرّعوا على ذلك ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ ، إذ كان هو أصغر الإخوة ، والأصغر أقرب إلى رقة الأب عليه .

وجملة ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ تعليل لإجابة المطلوب لا للطلب .

والتقدير : فلا تردّ سوءالنا لأنّا نراك من المحسنين فمثلك لا يصدر منه ما يسوء أباً شيخاً كبيراً .

والمكان : أصله محل الكون أي ما يستقر فيه الجسم ، وهو هنا مجاز في العوض لأن العوض

يضعه آخذه في مكان الشيء المعوّض عنه كما في الحديث " هذه مَكانُ حجتك " .

و﴿ معاذ ﴾ مصدر ميمي اسم للعوْذ ، وهو اللجَأ إلى مكان للتحصن .

(47/401)

وتقدم قريباً عند قوله : ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ [سورة يوسف : 23] .

وانتصب هذا المصدر على المفعولية المطلقة نائباً عن فعله المحذوف .

والتقدير : أعوذ بالله مَعاذاً ، فلما حُذف الفعل جعل الاسم المجرور بباء التعدية متصلاً بالمصدر بطريق الإضافة فقيل : معاذَ اللّهِ ، كما قالوا : سبحان الله ، عوضاً عن أسبح الله .

والمستعاذ منه هو المصدر المنسبك من أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ .

والمعنى : الامتناع من ذلك ، أي نلجأ إلى الله أن يعصمنا من أخذ من لا حق لنا في أخذه ، أي أن يعصمنا من الظلم لأن أخذ من وُجِد المتاع عنده صار حقاً عليه بحكمه على نفسه ، لأن التحكيم له قوة الشريعة .

وأما أخذ غيره فلا يسوغ إذ ليس لأحد أن يسترقّ نفسه بغير حكم ، ولذلك علل الامتناع

من ذلك بأنه لو فعله لكان ذلك ظلماً .

ودليل التعليل شيأان : وقوع ﴿ إنّ ﴾ في صدر الجملة ، والإتيانُ بحرف الجزاء وهو ﴿ إذن ﴾ .

وضمائر ﴿ نأخذ ﴾ و ﴿ وجدنا ﴾ و ﴿ متاعنا ﴾ و ﴿ إنا ﴾ و ﴿ لظالمون ﴾ مراد بها المتكلم وحده دون مشارك ، فيجوز أن يكون من استعمال ضمير الجمع في التعظيم حكاية لعبارته في اللغة التي تكلم بها فإنه كان عظيم المدينة .

ويجوز أن يكون استعمل ضمير المتكلم المشارك تواضعاً منه تشبيهاً لنفسه بمن له مشارك في الفعل وهو استعمال موجود في الكلام .

ومنه قوله تعالى حكاية عن الخضر عليه السلام ﴿ فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما ﴾ الآية من سورة الكهف (80) .

(48/401)

وإنما لم يكاشفهم يوسف عليه السلام بحاله ويأمرهم بجلب أبيهم يومئذٍ : إمّا لأنه خشي إن هو تركهم إلى اختيارهم أن يكيدوا لبنيامين فيزعموا أنهم يرجعون جميعاً إلى أبيهم فإذا انفردوا ببنيامين أهلكوه في الطريق ، وإما لأنه قد كان بين القبط وبين الكنعانيين في تلك المدة

عداوة فخاف إن هو جلَب عَشيرته إلى مصر أن تتطرق إليه وإليهم ظنون السوء من ملك مصر فتريّث إلى أن يجد فرصة لذلك ، وكان الملك قد أحسن إليه فلم يكن من الوفاء له أن يفعل ما يكرهه أو يسيء ُظنه ، فترقب وفاة الملك أو السعي في أرضائه بذلك ، أو أراد أن يستعلم من أخيه في مدة الانفراد به أحوال أبيه وأهِلهم لينظر كيف يأتي بهم أو ببعضهم ، وسنذكره عند قوله : ﴿ قال هل عَلمتم ما فعلتم بيوسف ﴾ [سورة يوسف : 89] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(49/401)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

وهكذا ادَّعَوْا أن داء السرقة في بنيامين قد سبقه إليه شقيق له من قبل ، وقالوا ذلك في مجال تبرئة أنفسهم ، وهكذا وَضُحَتْ ملامح العداوة منهم تجاه يوسف وأخيه .

وقولهم :

﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ . . ﴾ [يوسف : 77] .

يُسمَّى في اللغة قضية شرطية . ومعنى القضية الشرطية ؛ أن حدثاً يقع بسبب حَدَث وقع

قبله ، فهناك حَدَث يحدث وحده ، وهناك حَدَث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر .

مثال هذا هو قولك لتلميذ : إنْ تذاكر دروسك تنجحْ ، وهنا حَدَثان ، المذاكرة والنجاح ، فكأن حدوثَ النجاح الشرط فيه حدوث المذاكرة ، ولا بُدَّ أن يحدث الشرط أولاً ؛ ثم يحدث الحدث الثاني ، وهو هنا قولهم :

﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : 77] . كتعليل لسرقة بنيامين .

والمثل من القرآن أيضاً : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [آل عمران : 184] .

فكأن الله يوضح للرسول صلى الله عليه وسلم : إنْ كذَّبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السماء ؛ فلا تحزن ولا تبتئس ؛ فهذا التكذيب ظاهرة عَانَى منها كل الرسل السابقين لك ؛ لأنهم يجيئون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً ، فلا بد أن يكذبوا ، وهكذا يستقيم الشرط ، لأن الحق سبحانه هنا قد عدل بالشيء عن سببه ، فكان جواب الشرط بعد الزمان الذي حدث فيه الشرط .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ . . ﴾ [يوسف : 77] .

أي : لا تعجب يا عزيز مصر ؛ لأن هذه خصلة في أولاد راحيل ، قالوا ذلك وهم يجهلون أنهم يتحدثون إلى يوسف ابن راحيل ! !

(50/401)

وكل حدث يحدث للمَلَكات المستقيمة ؛ لا بُدَّ أن يُخرج تلك المَلَكات عن وضعها ، ونرى ذلك لحظة أن يتفوّه واحد بكلمة تُخرج إنساناً مستقيماً عن حاله وتُنغّصه ، ويدرك بها الإنسان المستقيم ما يؤلمه ؛ وينفعل انفعالاً يجعله ينزع للردّ .

ولذلك يوصينا صلى الله عليه وسلم : " إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه الغضب ؛ وإلا فليضطجع " .

كي يساعد نفسه على كَظْم ضيقه وغضبه ، ولِيُسرِّب جزءاً من الطاقة التي تشحنه بالانفعال .

ولكن يوسف عليه السلام لم ينزع إلى الرد ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ . . . ﴾ [يوسف : 77] .

وكان يستطيع أن يقول لهم ما حدث له من عمّته التي اتهمته بالباطل أنه سرق ؛ لتحتفظ به في حضانتها من فَرْط حُبِّها له ، لكن يوسف عليه السلام أراد أن يظل مجهولاً بالنسبة لهم ،

لتأخذ الأمور مجراها :

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ . . ﴾ [يوسف : 77] .

حدث ذلك رغم أن قولهم قد أثَّر فيه ، ولكن قال رأيه فيهم لنفسه :

﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً واللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : 77] .

لأنكم أنتم مَنْ أخذتموني طفلاً لألعب ؛ ثم ألقيتموني في الجب ؛ وتركتم أبي بلا موانسة .

. وأنا لم أسرق بل سُرِقت ، وهكذا سرقتم ابناً من أبيه .

وهو إنْ قال هذا في نفسه فلا بُدَّ أن انفعاله بهذا القول قد ظهر على ملامحه ، وقد يظهر المعنى على الملامح ، ليصِلَ إليهم المعنى ، والقول ليس إلا ألفاظاً يصل به مدلول الكلام إلى مُسْتمع .

وقد وصل المعنى من خلال انفعال يوسف .

وقوله : ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : 77] .

أي : أنه سبحانه أعلم بما تنعتون ، وتظهرون العلامات والسِّمات ، وغلبت كلمة " تصفون " على الكلام .

ومثال هذا هو قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حَلَالٌ وهذا حَرَامٌ ﴾ [النحل : 116] .

أي : أن ما تقولونه يُوحي من تلقاء نفسه أنه كَذِب ، وهكذا نعرف أن كلمة " تَصِف " وكلمة " تصفون " غلب في استعمالهما للكلام الذي يحمل معه دليل كَذِبه .

ويأتي الحق سبحانه بما جاء على ألسنتهم بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾

وهكذا دخلوا مع يوسف في نقاش ، وبدأوا في الاستعطاف ؛ بقولهم :

﴿ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً . . . ﴾ [يوسف : 78] .

ونلحظ أن كلمة " كبير " تُطلق إطلاقات متعددة ، إنْ أردتَ الكِبَر في السنِ تكون من " كَبَر يَكْبَر " ، وإنْ أردتَ الكِبَرَ في المقام تقول : " كَبُرَ يَكبُر " .

والحق سبحانه يقول : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ [الكهف : 5] .

والكِبَر واحد من معاني العظمة ، أما الكِبَرُ في السِّنِ فهو مختلف ؛ وهنا قالوا :

﴿ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً . . . ﴾ [يوسف : 78] .

قد تكون ترقيقاً بالعزة ، أو ترقيقاً بالضعف .

أي : إن له أباً شيخاً كبيراً عظيماً في قومه ؛ وحين يُبلغه أن ابنه قد احتُجز من أجل سرقة ،

فهذا أمر مؤلم ؛ ولك أن تُقدِّر ذلك وأنت عزيز مصر ؛ ونرجو أن تحفظ للأب شرفه ومَجْده وعظمته ، واسْتُرْ ذلك الأمر من أجل خاطر ومكانة والده .

أو : أن يكون قولهم مقصوداً به ، أن الأب شيخ مُهدَّم ، لا يحتمل الصدمة ، وخصوصاً أن له ابناً قد فُقِد .

ثم يعرضون عَرْضاً آخر ، فيقولون :

﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ [يوسف : 78] .

أي : أنهم سألوه أن يُتمِّمَ إحسانه عليهم ، فقد أحسن استقبالهم ؛ وسبق أن أنزلهم منزلاً كريماً ، وأعطاهم المَيْرة ، ولم يأخذ بضائعهم ثمناً لها .

(52/401)

ومَنْ يفعل ذلك ؛ لا يضِنُّ عليهم بأن يستجيب لرجائهم ، بأن يأخذ واحداً منهم بدلاً من أخيهم الصغير .

كل هذه ترقيقات منهم لقلبه ، ولكن القاعدة هي ألاَّ يُؤاخذ بالذنب إلا صاحبه ؛ ولذلك لم يَفُتْ هذا الأمر على يوسف ، فجاء الحق سبحانه بما يوضح ذلك : ﴿ قَالَ مَعَاذَ الله . .

. ﴾ .

ويستعيذ يوسف عليه السلام بالله أن يأخذ أحداً بدلاً ممَّنْ وُجِد في متاعه صُوَاع الملك ، فما ذنبه في هذا الأمر ؟ ولا أحد يمكن أن ينال عقاباً على ذنب ارتكبه غيره .

وساعةَ تقرأ " إذا " مُنوَّنة ؛ فاعرف أن هناك جملةً محذوفةً ، أي : أن يوسف قال : إنْ أخذنا غير مَنْ وجدنا متاعنا عنده نكون من الظالمين .

وجاء " التنوين " بدلاً من الجملة المحذوفة التي ذكرناها .

ومثال آخر من القرآن هو قول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة : 84] .

ويحدث ذلك حين تبلغ الرُّوح الحلقوم ، وجاء " التنوين " عِوَضاً عن الجملة كلها .

وهكذا أراد يوسف أن يُذكِّرهم أنه لا يحِقُّ له أن يأخذ أخاً منهم بدلاً من بنيامين ؛ لأنه هو مَنْ وُجِد في متاعه صُوَاع الملك ؛ ولا يصح له أن يظلم أحداً ، أو يأخذ أحداً بجريرة أحد آخر .

وهنا علم أبناء يعقوب أن المسألة لا يُبَتُّ فيها بسهولة ؛ لأنها تتعلق بأمر خطير . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ قال : يعنون يوسف .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن مجاهد – رضي الله عنه – قال : كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني ، أن عمته ، وكانت أكبر ولد إسحق عليه السلام ، وكانت إليها منطقة إسحق . فكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام ، قد حضنته عمته ، فكان معها وإليها . فلم يحب أحد شيئاً من الأشياء كحبها إياه ، حتى إذا ترعرع وقعت نفس يعقوب عليه السلام عليه ، فأتاها فقال : يا أخية ، سلمي إلي يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة . قالت : فوالله ما أنا بتاركته ، فدعه عندي أياماً أنظر إليه ، لعل ذلك يسليني عنه . فلما خرج يعقوب من عندها ، عمدت إلى منطقة إسحق عليه السلام فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحق ، فانظروا من أخذها ومن أصابها . فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت . فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام ، فقالت : والله إنه لسلم لي أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب عليه السلام

فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذاك إن كان فعل ذلك ، فهو سلم لك ؛ ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت عليها السلام . فهو الذي يقول إخوة يوسف عليهم السلام ، حين صنع بأخيه ما صنع : ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : سرق مكحلة لخالته .

وأخرج ابو الشيخ ، عن عطية – رضي الله عنه – قال : سرق في صباه ميلين من ذهب .

(54/401)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ قال : " سرق يوسف عليه السلام صنماً لجده أبي أمه من ذهب وفضة ، فكسره وألقاه في الطريق ، فعيره بذلك إخوته " " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن جريج – رضي الله عنه – في الآية ، قال : كانت أم يوسف عليه السلام أمرت يوسف عليه السلام أن يسرق صنماً لخاله كان يعبده ، وكانت مسلمة .

وأخرج ابن جرير ، عن قتادة – رضي الله عنه – قال : سرقته التي عابوه بها : أخذ صنماً كان لأبي أمه ، وإنما أراد بذلك الخير .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن زيد بن أسلم – رضي الله عنه – قال : كان يوسف عليه السلام غلاماً صغيراً مع أمه عند خال له ، وهو يلعب مع الغلمان ، فدخل كنيسة لهم فوجد تمثالاً لهم صغيراً من ذهب ، فأخذه .

قال : وهو الذي عيره إخوته به ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن عطية – رضي الله عنه – في الآية قال : كان يوسف عليه السلام معهم على الخوان ، فأخذ شيئاً من الطعام فتصدق به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابو الشيخ ، عن وهب بن منبه – رضي الله عنه – أنه سئل : كيف أخاف يوسف أخاه بأخذ الصواع وقد كان أخبره أنه أخوه ، وأنتم تزعمون أنه لم يزل متنكراً لهم ؟ ! . . . مكايدهم حتى رجعوا فقال : إنه لم يعترف له بالنسب ، ولكنه قال : أنا أخوك مكان أخيك الهالك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ﴾ قال : أسر في نفسه . قوله ﴿ أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ شر مكاناً ﴾ قال يوسف : يقول ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ قال : تقولون .

(55/401)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، عن شيبة – رضي الله عنه – قال : لما لقي يوسف أخاه قال : هل تزوجت بعدي ؟ قال : نعم . وما شغلك الحزن علي ؟ قال : إن أباك يعقوب عليه السلام قال لي : تزوج لعل الله أن يذرأ منك ذرية يثقلون ، أو قال يسكنون الأرض بتسبيحة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(56/401)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ سَرَقَ ﴾ : الجمهور على " سَرَق " مخففاً مبيناً للفاعل . وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي وابن أبي شريح عن الكسائي والوليد بن حسان عن يعقوب في آخرين " سُرِّق " مشدداً مبنياً للمفعول أي : نُسِب إلى السَّرِقة . وفي التفسير : أنَّ عَمَّته ربَّته فأخذه

أبوه منها ، فَشَدَّت في وَسَطِه مِنْطَقَة كانوا يتوارثونها من إبراهيم عليه السلام ففتَّشوا فوجدوها تحت ثيابه . فقال : هو لي فأَخَذَتْه كما في شريعتهم ، وهذه القراءةُ منطبقة على هذا .

قوله : ﴿ فَأَسَرَّهَا ﴾ الضميرُ المنصوبُ مفسَّر بسياق الكلام أي : فَأَسَرَّ الحزازة التي حَصَلَتْ له مِنْ قولهم ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ ﴾ كقول الشاعر :

2814 أما وِيَّ ما يُغْني الثَّراء عن الفتى . . . إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصدرُ

والضمير في " حَشْرَجَتْ " يعود على النفس ، كذا ذكره الشيخ ، وقد جعل البيتَ مِمَّا فُسِّر فيه الضميرُ بذِكْر ما هو كلٌّ لصاحب الضمير ، فلا يكون مما فُسِّر فيه بالسياق . ولتحقيق هذا موضعٌ آخرُ .

وقال الزمخشري : " إضمارٌ على شريطة التفسير ، تفسيره ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ ، وإنما أَنَّث لأنَّ قولَه " شَرٌ مكانا " جملة أو كلمةٌ على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة ، كأنه قيل : فَأَسَرَّ الجملةَ أو الكلمةَ التي هي قولُه : ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ ، لأنَّ قولَه : ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ بدلٌ مِنْ أَسَرَّها " . قلت : وهذا عند مَنْ يُبْدل الظاهرَ من المضمر في غير المرفوع نحو : ضربته زيداً ، والصحيح وقوعه ، كقوله :

2815 فلا تَلُمْهُ أن يَخافَ البائسا . . . وقرأ عبد اللَّه وابن أبي عبلة : " فَأَسَرَّه " بالتذكير . قال الزمخشري : " يريد القول أو الكلام " . وقال أبو البقاء : " المضمر يعود إلى نِسْبتهم إياه إلى السَّرقة ، وقد دَلَّ عليه الكلامُ ، وقيل : في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ تقديرُه : قال في نفسه : أنتم شرٌّ مكاناً ، وأَسَرَّها أيْ هذه الكلمةَ " . قلت : ومِثْلُ هذا يَنْبغي أن لا يُقال : فإنَّ القرآنَ يُنَزَّهُ عنه .

قوله : ﴿ مَّكَاناً ﴾ تمييزٌ أي : منزلةً من غيركم .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَكَانَهُ ﴾ : فيه وجهان أحدهما : وهو الظاهر أنَّ " مكانَه " نصب على الظرفِ ، والعامل فيه " خُذْ " . والثاني : أنه ضَمَّن " خُذْ " معنى " اجْعَلْ " فيكونُ " مكانَه " في محل المفعول الثاني . وقال الزمخشري : " فَخُذْه بدَلَه على جهةِ الاسترهان أو الاستبعاد " .

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ إِذاً ﴾ : هذه حرفُ جواب وجزاء ، وتقدم الكلامُ على أحكامِها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 535 . 537 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77) ﴾

كان بنيامينُ بريئاً مما رُمِيَ به من السرقة ، فأنطقهم الله تعالى حتى رَمَوْا يوسف عليه السلام بالسرقة ، واحدٌ بواحد ليَعْلم العالمون أَنَّ الجزاءَ واجبٌ.

ويقال كان القُرْحُ بالقَدح أوجعَ ما سَمِعَه يوسف منهم حيث قالوا :

﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ فقد كان ذلك أشدَّ تأثيرا في قلبه من الجفاءِ الأول .

ويقال إذا حَنِقَ عليك المِلكُ فلا تأمَنْ غِبَّه - وإنْ طالت المدة - فإن يوسف عليه السلام حَنِقَ عليهم فلقوا في المستأنف منه ما ساءَهم مِنْ حَبْسِ أخيه ، وما صاحبهَم من الخَجل من أبيهم .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78)

﴾

لم تنفعهم كثرةُ التَّنصُّل ، وما راموا بهمن ذكر أبيهم ابتغاءَ التوسُّل ، ولم ينفعهم ما قيل منهم حين عرَضوا عليه أن يأخذ أحدَهم في البَدَل . . كذلك فكلُّ مُطَالَبٌ بفعل نفسه : ﴿ لا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى ﴾ [الأنعام : 64] ؛ فلا الأبُ يُؤْخَذ بَدلَ الولد ، ولا القريب يُرضَى به عوضاً عن أحد .

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79) ﴾

توهموا أن الحديث معهم من حيث معاملة الأموال ، فعَرَضُوا أنفسهم كي يؤخذ واحدٌ منهم بَدَلَ أخيهم ، ولم يعلموا أن يوسف عليه السلام كادَهم في ذلك ، وأنّ مقصودَه من ذلك ما استكَنّ في قلبه مِنْ حُبّ لأخيه ، وكلاَّ . . أَنْ يكونَ عن المحبوب بَدَلٌ أو لقوم مقامُ أحدٍ . . .

وفي معناه أنشدوا :

(59/401)

إذا أَوْصَلْتَنا الخُلْدَ كيما تُذِيقنا . . . أَبَيْنا وقُلْنا : أنتَ أَوْلَى إلى القلب

وقيل :

أُحِبُّ لُيَيْلَى وبُغِّضَتْ إليَّ . . . نساءٌ ما لَهُنَّ ذُنُوبُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 198.197 ﴾

(60/401)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) ﴾

نمضي في هذا الدرس مع قصة يوسف ، في حلقة جديدة من حلقاتها الحلقة الرابعة وقد وقفنا في نهاية الجزء الثاني عشر عند نهاية الحلقة الثالثة . وقد أخرج من السجن ، واستدعاه الملك ليكون له شأن معه ، هو الذي سنعرفه في هذه الحلقة الجديدة .

هذا الدرس يبدأ بآخر فقرة في المشهد السابق . مشهد الملك يستجوب النسوة اللاتي قطعن أيديهن كما رغب إليه يوسف أن يفعل تمحيصاً لتلك المكايد التي أدخلته السجن ، وإعلاناً لبراءته على الملأ ، قبل أن يبدأ مرحلة جديدة في حياته ؛ وهو يبدؤها واثقاً مطمئناً ، في نفسه سكينة وفي قلبه طمأنينة وقد أحس أنها ستكون مرحلة ظهور في حياة الدولة ، وفي حياة الدعوة كذلك . فيحسن أن يبدأها وكل ما حوله واضح ، ولا شيء من

غبار الماضي يلاحقه وهو بريء .

ومع أنه قد تجمل فلم يذكر عن امرأة العزيز شيئاً ، ولم يشر إليها على وجه التخصيص ، إنما رغب إلى الملك أن يفحص عن أمر النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، فإن امرأة العزيز تقدمت لتعلن الحقيقة كاملة :

﴿ الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرىء نفسي ؛ إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾ . .

وفي هذه الفقرة الأخيرة تبدو المرأة مؤمنة متحرجة ، تبرئ نفسها من خيانة يوسف في غيبته ، ولكنها تتحفظ فلا تدعي البراءة المطلقة ، لأن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ثم تعلن ما يدل على إيمانها بالله ولعل ذلك كان اتباعاً ليوسف ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ . .

وبذلك يسدل الستار على ماضي الآلام في حياة يوسف الصديق . وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين . .

﴿ وقال الملك : ائتوني به أستخلصه لنفسي . . فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال : اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم . . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ . .

لقد تبينت للملك براءة يوسف ، وتبين له معها علمه في تفسير الرؤيا ، وحكمته في طلب تمحيص أمر النسوة ، كذلك تبينت له كرامته وإباؤه ، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ، ولا يتهافت على لقاء الملك . وأي ملك ؟ ملك مصر ! ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته ، المسجون ظلماً ، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ؛ ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك . .

كل أولئك أوقع في نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه فقال :

﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ .

.

فهو لا يأتي به من السجن ليطلق سراحه ؛ ولا ليرى هذا الذي يفسر الرؤى ؛ ولا ليسمعه كلمة "الرضاء الملكي السامي ! " فيطير بها فرحاً . . كلا ! إنما يطلبه ليستخلصه لنفسه ، ويجعله بمكان المستشار والنجيّ والصديق . .

فيا ليت رجالاً يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام وهم أبرياء مطلقو السراح فيضعوا النير في أعناقهم بأيديهم ؛ ويتهافتوا على نظرة رضى وكلمة ثناء ، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء . . يا ليت رجالاً من هؤلاء يقرأون هذا القرآن ، ويقرأون قصة يوسف ، ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز تدر من الربح - حتى المادي أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء !

﴿ وقال الملك : ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ . .

ويحذف السياق جزئية تنفيذ الأمر لنجد يوسف مع الملك . .

﴿ فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ . .

(62/401)

فلما كلمه تحقق له صدق ما توسمه . فإذا هو يطمئنه على أنه عند الملك ذو مكانة وفي أمان . فليس هو الفتى العبراني الموسوم بالعبودية . إنما هو مكين . وليس هو المتهم المهدد بالسجن . إنما هو أمين . وتلك المكانة وهذا الأمان لدى الملك وفي حماه . فماذا قال يوسف ؟

إنه لم يسجد شكراً كما يسجد رجال الحاشية المتملقون للطواغيت . ولم يقل له : عشت يا

مولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين، كما يقول المتملقون للطواغيت! كلا إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أوّل بها رؤيا الملك، خيراً مما ينهض بها أحد في البلاد؛ وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحاً من الموت وبلاداً من الخراب، ومجتمعاً من الفتنة فتنة الجوع فكان قوياً في إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفايته وأمانته، قوته في الاحتفاظ بكرامته وإبائه:

﴿ قال: اجعلني على خزائن الأرض. إني حفيظ عليم ﴾ . .

والأزمة القادمة وسنو الرخاء التي تسبقها في حاجة إلى الحفظ والصيانة والقدرة على إدارة الأمور بالدقة وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها. وفي حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلم بكافة فروعه الضرورية لتلك المهمة في سنوات الخصب وفي سني الجدب على السواء. ومن ثم ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه المهمة التي يرى أنه أقدر عليها، وأن وراءها خيراً كبيراً لشعب مصر وللشعوب المجاورة:

﴿ إني حفيظ عليم ﴾ . .

ولم يكن يوسف يطلب لشخصه وهو يرى إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض.. إنما كان حصيفاً في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة؛ وليكون مسؤولاً عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات، لا زرع فيها ولا ضرع. فليس

هذا غنماً يطلبه يوسف لنفسه . فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنه غنيمة .

(63/401)

إنما هي تبعة يهرب منها الرجال ، لأنها قد تكلفهم رؤوسهم ، والجوع كافر ، وقد تمزق الجماهير الجائعة أجسادهم في لحظات الكفر والجنون .

وهنا تعرض شبهة . . أليس في قول يوسف عليه السلام : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم ﴾ . . أمران محظوران في النظام الإسلامي :

أولهما : طلب التولية ، وهو محظور بنص قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله (أو حرص عليه) " . (متفق عليه) .

وثانيهما : تزكية النفس ، وهي محظورة بقوله تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ ولا نريد أن نجيب بأن هذه القواعد إنما تقررت في النظام الإسلامي الذي تقرر على عهد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها لم تكن مقررة على أيام يوسف عليه السلام والمسائل التنظيمية في هذا الدين ليست موحدة كأصول العقيدة ، الثابتة في كل رسالة وعلى يد كل رسول . .

لا نريد أن نجيب بهذا ، وإن كان له وجه ، لأننا نرى أن الأمر في هذه المسألة أبعد أعماقاً ، وأوسع آفاقاً من أن يرتكن إلى هذا الوجه ؛ وأنه إنما يرتكن إلى اعتبارات أخرى لا بد من إدراكها ، لإدراك منهج الاستدلال من الأصول والنصوص ، ولإعطاء أصول الفقه وأحكامه تلك الطبيعة الحركية الأصيلة في كيانها ، والتي خمدت وجمدت في عقول الفقهاء وفي عقلية الفقه كلها في قرون الخمود والركود !

إن الفقه الإسلامي لم ينشأ في فراغ ، كما أنه لا يعيش ولا يفهم في فراغ ! . . لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم ، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية . كذلك لم يكن الفقه الإسلامي هو الذي أنشأ المجتمع المسلم ؛ إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي . .

وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعيتان عظيمتان الدلالة ؛ كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامي ؛ وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية .

والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة ، دون إدراك لهاتين الحقيقتين ؛ ودون مراجعة للظروف والملابسات التي نزلت فيها تلك النصوص ونشأت فيها تلك الأحكام ، ودون استحضار لطبيعة الجو والبيئة والحالة التي كانت تلك النصوص تلبيها وتوجهها ؛ وكانت تلك الأحكام تصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها . . . الذين يفعلون ذلك ؛ ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت في فراغ ؛ وكأنها اليوم يمكن أن تعيش في فراغ . . هؤلاء ليسوا " فقهاء " ! وليس لهم " فقه " بطبيعة الفقه ! وبطبيعة هذا الدين أصلاً !

إن " فقه الحركة " يختلف اختلافاً أساسياً عن " فقه الأوراق " مع استمداده أصلاً وقيامه على النصوص التي يقوم عليها ويستمد منها " فقه الأوراق " !

إن فقه الحركة يأخذ في اعتباره " الواقع " الذي نزلت فيه النصوص ، وصيغت فيه الأحكام .

ويرى أن ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركباً لا تنفصل عناصره . فإذا انفصلت عناصر هذا المركب فقد طبيعته ، واختل تركيبه !

ومن ثم فليس هنالك حكم فقهي واحد مستقل بذاته ، يعيش في فراغ ، لا تتمثل فيه عناصر الموقف والجو والبيئة والملابسات التي نشأ نشأته الأولى فيها . . إنه لم ينشأ في فراغ ومن ثم لا يستطيع أن يعيش في فراغ !

ونأخذ مثالاً لهذا التقرير العام هذا الحكم الفقهي الإسلامي بعدم تزكية النفس وعدم ترشيحها للمناصب ، وهو المأخوذ من قوله تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ ومن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله " .

(65/401)

لقد نشأ هذا الحكم كما نزلت تلك النصوص في مجتمع مسلم ؛ ليطبق في هذا المجتمع ؛ وليعيش في هذا الوسط ؛ وليلبي حاجة ذلك المجتمع . وفق نشأته التاريخية ، ووفق تركيبه العضوي ، ووفق واقعه الذاتي . فهو من ثم حكم إسلامي جاء ليطبق في مجتمع إسلامي . . وقد نشأ في وسط واقعي ولم ينشأ في فراغ مثالي . وهو من ثم لا يطبق ولا يصلح ولا ينشئ آثاره الصحيحة إلا إذا طبق في مجتمع إسلامي . . إسلامي في نشأته ، وفي تركيبه العضوي ، وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة . . وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقوّمات كلها يعتبر " فراغاً " بالقياس إلى ذلك الحكم ، لا يملك أن يعيش فيه ، ولا يصلح له ، ولا يصلحه كذلك !

ومثل هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامي . وإن كنا في هذا المقام لا نفصل إلا هذا الحكم بمناسبة ذلك السياق القرآني . .

ونريد أن نفهم لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم ، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف ، ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورى أو للإمامة أو للإمارة . . . إن الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا الإبراز أفضليتهم وأحقيتهم . كما أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحداً بالتزاحم عليه اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالى ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم . وهؤلاء يجب أن يُمنعوها ! ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم ، وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضاً . .

إن الحركة هي العنصر المكوّن لذلك المجتمع . فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية . .

أولاً : تجيء العقيدة من مصدرها الإلهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله على عهد النبوات أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلغه رسوله على مدار الزمان بعد ذلك فيستجيب للدعوة ناس ؛ يتعرضون للأذى والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض

الدعوة.

فمنهم من يفتن ويرتد ، ومنهم من يصدق ما عاهد الله عليه فيقضي نحبه شهيداً ومنهم من ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق . .

هؤلاء يفتح الله عليهم ، ويجعل منهم ستاراً لقدره ، ويمكن لهم في الأرض تحقيقاً لوعده بنصر من ينصره ، والتمكين في الأرض له ، ليقيم مملكة الله في الأرض – أي لينفذ حكم الله في الأرض – ليس له من هذا النصر والتمكين شيء ؛ إنما هو نصر لدين الله ، وتمكين الله في العباد .

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة ؛ ولا عند حدود جنس معين ؛ ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوّم واحد من تلك المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة ! إنما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا " الإنسان " . . كل الإنسان : في " الأرض " . . كل الأرض . . من العبودية لغير الله ؛ وليرفعوه عن العبودية للطواغيت أياً كانت هذه الطواغيت .

وفي أثناء الحركة بهذا الدين وقد لاحظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض ، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم تتميز أقدار الناس ، وتتحدد مقاماتهم في المجتمع ، ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية ، الجميع يتعارفون عليها ، من البلاء في الجهاد ، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة

والكفاءة . . وكلها قيم يحكم عليها الواقع ، وتبرزها الحركة ، ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها . . ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم ، ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية . .

(67/401)

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة ، وقام تركيبه العضوي على أساس التميز في أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية كما حدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين ثم الأنصار ، وأهل بدر ، وأهل بيعة الرضوان ، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام . . في هذا المجتمع لا يبخس الناس بعضهم بعضاً ، ولا ينكر الناس فضائل المتميزين مهما غلب الضعف البشري أصحابه أحياناً فغلبتهم الأطماع وعندئذ تنتفي الحاجة من جانب آخر إلى أن يزكي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية . .

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية ! ولكنهم ينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة . . لن يوجد اليوم أو غداً ، إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد ، وإخراجهم من

الجاهلية التي صاروا إليها . . وهذه نقطة البدء . . ثم تعقبها الفتنة والابتلاء كما حدث أول مرة فأما ناس فيفتنون ويرتدون ! وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء .

وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الإسلام ، ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يلقى في النار ؛ حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق ، ويمكّن لهم في الأرض كما مكن للمسلمين أول مرة فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي . . ويومئذ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية ، وفق الموازين والقيم الإيمانية . . ويومئذ لن يحتاج إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها ، لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم !

(68/401)

ولقد يقال بعد هذا : ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى . فإذا استقر المجتمع بعد ذلك ؟ وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين ! إن هذا الدين يتحرك دائماً ولا يكف عن الحركة . . يتحرك لتحرير " الإنسان " . كل الإنسان . . في " الأرض " . . كل الأرض . . من العبودية لغير الله ؛ وليرفعه عن العبودية للطواغيت ؛ بلا حدود من الأرض أو الجنس أو

القوم أو أي مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة !

وإذن فستظل الحركة التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب ؛ ولا تقف أبداً ليركد هذا المجتمع ويأسن إلا أن ينحرف عن الإسلام وسيظل الحكم الفقهي الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية قائماً وعاملاً في محيطه الملائم . . ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه .

ثم يقال : ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضاً ؛ ويصبح الأكفاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية !

وهذا القول كذلك وهم ناشئ من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة . . إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه ، والالتزام في المجتمع المسلم ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم ؛ موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين و قيم إيمانية ؛ فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية . . سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية . أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد أو أهل الشورى له . . يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة . والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة .

إن الذين يفكرون في النظام الإسلامي اليوم وتشكيلاته أو يكتبون يدخلون في متاهة ! ذلك أنهم يحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية المدونة في فراغ ! يحاولون تطبيقها في هذا المجتمع الجاهلي القائم ، بتركيبه العضوي الحاضر ! وهذا المجتمع الجاهلي الحاضر يعتبر بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغاً لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام ولا أن تطبق فيه هذه الأحكام .

. إن تركيبه العضوي مناقض تماماً للتركيب العضوي للمجتمع المسلم . فالمجتمع المسلم – كما قلنا – يقوم تركيبه العضوي على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع ، ولمجاهدة الجاهلية لإخراج الناس منها إلى الإسلام . مع تحمل ضغوط الجاهلية وما توجهه من فتنة وإيذاء وحرب على هذه الحركة ، والصبر على الابتلاء وحسن البلاء من نقطة البدء إلى نقطة الفصل في نهاية المطاف . أما المجتمع الجاهلي الحاضر فهو مجتمع راكد ، قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام ، ولا بالقيم الإيمانية . . وهو من ثم يعد بالقياس إلى النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغاً لا يعيش فيه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام !

هؤلاء الكاتبون الباحثون عن حل لتطبيق قواعد النظام وتشكيلاته وأحكامه الفقهية يحيرهم أول ما يحيرهم طريقة اختيار أهل الحل والعقد أو أهل الشورى من غير ترشيح من أنفسهم ولا تزكية! كيف يمكن هذا في مثل هذه المجتمعات التي نعيش فيها والناس لا يعرف بعضهم بعضاً ولا يزنون كذلك بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة! كذلك تحيرهم طريقة اختيار الإمام؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحل والعقد متابعة لعدم تزكيتهم لأنفسهم أو ترشيحها فكيف يعودون هم فيختارون الإمام؟ ألا يؤثر هذا في ميزانهم؟ ثم إذا كانوا هم الذين سيعودون فيرشحون الإمام؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم؟ ثم ألا يجعله هذا يختار أشخاصاً يضمن ولاءهم له، ويكون هذا هو العنصر الأول في اعتباره؟ . . . وأسئلة أخرى كثيرة لا يجدون لها جواباً في هذه المتاهة!

أنا أعرف نقطة البدء في هذه المتاهة. . إنها هي افتراض أن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه مجتمع مسلم؛ وأن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية سيجاء بها لتطبق على هذا المجتمع الجاهلي بتركيبه العضوي الحاضر، وبقيمه وأخلاقه الحاضرة!

هذه نقطة البدء في المتاهة. . ومتى بدأ منها الباحث فإنه يبدأ في فراغ، ويوغل في هذا الفراغ، حتى يبعد في التيه، وحتى يأخذه الدوار!

إن هذا المجتمع الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم، ومن ثم لن يطبق فيه النظام الإسلامي ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام.. لن تطبق لاستحالة هذا التطبيق الناشئة من أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية لا يمكن أن تتحرك في فراغ؛ لأنها بطبيعتها لم تنشأ في فراغ، ولم تتحرك في فراغ كذلك!

إن المجتمع الإسلامي ينشأ بتركيب عضوي آخر غير التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي.

(71/401)

. ينشأ من أشخاص ومجموعات وفئات جاهدت في وجه الجاهلية لإنشائه؛ وتحددت أقدارها وتميزت مقاماتها في ثنايا تلك الحركة.

إنه مجتمع جديد.. ومجتمع وليد.. ومجتمع متحرك دائماً في طريقه لتحرير "الإنسان".. كل الإنسان.. في "الأرض".. كل الأرض.. من العبودية لغير الله، ولرفع هذا الإنسان عن ذلة العبودية للطواغيت.. أياً كانت هذه الطواغيت..

ومثل قضية التزكية وطلب الإمارة، واختيار الإمام، واختيار أهل الشورى.. وما إليها... قضايا كثيرة تثار، ويطرقها الباحثون في الإسلام.. في الفراغ.. في هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه.. بتركيبه العضوي المختلف تماماً عن التركيب العضوي

للمجتمع المسلم . . وبقيمه وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته المختلفة تماماً عن قيم المجتمع المسلم وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته . . أعمال البنوك وأساسها الربوي . . شركات التأمين وقاعدتها الربوية . . تحديد النسل وما أدري ماذا ؟ ! إلى آخر هذه " المشكلات " التي يشغل " الباحثون " بها أنفسهم أو يجيبون فيها عن استفتاءات توجه إليهم . .

إنهم جميعاً مع الأسف يبدأون من نقطة البدء في المتاهة ! يبدأون من افتراض أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه سيجاء بها لتطبق على هذه المجتمعات الجاهلية الحاضرة بتركيبها العضوي الحاضر ؛ فتنتقل هذه المجتمعات إذن متى طبقت عليها أحكام الإسلام إلى الإسلام !

وهي تصورات مضحكة لولا أنها محزنة !

إن الفقه الإسلامي بكل أحكامه ليس هو الذي أنشأ المجتمع المسلم . إنما المجتمع بحركته في مواجهة الجاهلية ابتداء ثم بحركته في مواجهة حاجة الحياة الحقيقية ثانياً ، هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي مستمداً من أصول الشريعة الكلية . . والعكس لا يمكن أن يكون أصلاً !

إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ، ولا يعيش في فراغ كذلك.. لا ينشأ في الأدمغة والأوراق؛ إنما ينشأ في واقع الحياة. وليست أية حياة. إنما هي حياة المجتمع المسلم على وجه التحديد.. ومن ثم لا بد أن يوجد المجتمع المسلم أولاً بتركيبه العضوي الطبيعي؛ فيكون هو الوسط الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي ويطبق.. وعندئذ تختلف الأمور جداً..

وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الخاص بعد نشأته في مواجهة الجاهلية وتحركه في مواجهة الحياة إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل.. الخ وقد لا يحتاج! ذلك أننا لا نملك سلفاً أن نقدر أصل حاجته، ولا حجمها، ولا شكلها، حتى نشرع لها سلفاً! كما أن ما لدينا من أحكام هذا الدين لا يطابق حاجات المجتمعات الجاهلية ولا يلبيها.. ذلك أن هذا الدين لا يعترف ابتداء بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية ولا يرضى ببقائها. ومن ثم فهو لا يعني نفسه بالاعتراف بحاجاتها الناشئة من جاهليتها ولا بتلبيتها كذلك! إن المحنة الحقيقية لهؤلاء الباحثين أنهم يتصورون أن هذا الواقع الجاهلي هو الأصل، الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه! ولكن الأمر غير ذلك تماماً.

. إن دين الله هو الأصل الذي يجب على البشرية أن تطابق نفسها عليه ؛ وأن تحور من واقعها الجاهلي وتغير حتى تتم هذه المطابقة . . ولكن هذا التحور وهذا التغير لا يتمان عادة إلا عن طريق واحد . . هو التحرك في وجه الجاهلية لتحقيق ألوهية الله في الأرض وربوبيته وحده للعباد ، وتحرير الناس من العبودية للطاغوت ، بتحكيم شريعة الله وحدها في حياتهم . . وهذه الحركة لا بد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء . فيفتن من يفتن ويرتد من يرتد ، ويصدق الله من يصدقه فيقضي نحبه ويستشهد ، ويصبر من يصبر ويمضي في حركته حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق ، وحتى يمكن الله له في الأرض ، وعندئذ فقط يقوم النظام الإسلامي ، وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه ، وتميزوا بقيمه . . .

وعندئذ تكون لحياتهم مطالب وحاجات تختلف في طبيعتها وفي طرق تلبيتها عن حاجات المجتمعات الجاهلية ومطالبها وطرق تلبيتها . . وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومذاك تستنبط الأحكام ؛ وينشأ فقه إسلامي حي متحرك لا في فراغ ولكن في وسط واقعي محدد المطالب والحاجات والمشكلات . .

ومن ذا الذي يدرينا اليوم مثلاً أن يكون الناس في مجتمع مسلم تجبى فيه الزكاة وتنفق في مصارفها ، ويقوم فيه التراحم والتكافل بين أهل كل محلة ، ثم بين كل أفراد الأمة ، وتقوم حياة الناس فيه على غير السرف والترف والمخيلة والتكاثر . . إلى آخر مقومات الحياة الإسلامية . . من يدرينا أن مجتمعاً كهذا سيكون في حاجة إلى شركات تأمين أصلاً ؟ !

وعنده كل تلك التأمينات والضمانات مع تلك الملابسات والقيم والتصورات ؟ ! وإذا احتاج إلى نوع من التأمين فمن يدرينا أنه سيكون هو هذا النوع المعروف في المجتمع الجاهلي ، المنبثق من حاجات هذا المجتمع الجاهلي وملابساته وقيمه وتصوراته ؟ !

وكذلك من يدرينا أن المجتمع المسلم المتحرك المجاهد سيكون في حاجة إلى تحديد النسل مثلاً ؟ . . وهكذا . .

(74/401)

وإذا كنا لا نملك افتراض أصل حاجات المجتمع حين يكون مسلماً ولا حجم هذه الحاجات أو شكلها ، بسبب اختلاف تركيبه العضوي عن تركيب المجتمع الجاهلي ، واختلاف تصوراته ومشاعره وقيمه وموازينه . . فما هذا الضنى في محاولة تحوير وتطوير وتغيير الأحكام المدونة لكي تطابق حاجات هي في ضمير الغيب ، شأنها شأن وجود المجتمع المسلم ذاته !

إن نقطة البدء في المتاهة كما قلنا – هي افتراض أن هذه المجتمعات القائمة هي المجتمعات الإسلامية ؛ وانه سيجاء بأحكام الفقه الإسلامي من الأوراق لتطبق عليها ، وهي بهذا التركيب العضوي ذاته ، وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين ذاتها .

كما أن أصل المحنة هو الشعور بأن واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه.

وأن يحور ويطور ويغير في أحكامه ليلاحق حاجات هذه المجتمعات ومشكلاتها.. حاجاتها ومشكلاتها المنبثقة أصلاً من مخالفتها للإسلام ومن خروج حياتها جملة من إطاره!

ونحسب أنه قد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاته، فلا يجعلوه مجرد خادم للأوضاع الجاهلية، والمجتمعات الجاهلية، والحاجات الجاهلية. وأن يقولوا للناس وللذين يستفتونهم بوجه خاص تعالوا أنتم أولاً إلى الإسلام، وأعلنوا خضوعكم سلفاً لأحكامه.. أو بعبارة أخرى.. تعالوا أنتم أولاً فادخلوا في دين الله، وأعلنوا عبوديتكم لله وحده، واشهدوا أن لا إله إلا الله بمدلولها الذي لا يقوم الإيمان والإسلام إلا به. وهو إفراد الله بألوهيته في الأرض كإفراده بالألوهية في السماء؛ وتقرير ربوبيته أي حاكميته وسلطانه وحده في حياة الناس بجملتها. وتنحية ربوبية العباد للعباد، بتنحية حاكمية العباد للعباد، وتشريع العباد للعباد.

وحين يستجيب الناس أو الجماعة منهم لهذا القول ، فإن المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولى خطواته في الوجود . وهذا المجتمع يكون حينئذ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي الحي وينمو ، لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة الله فعلاً . .

فأما قبل قيام هذا المجتمع فالعمل في حقل الفقه والأحكام التنظيمية هو مجرد خداع للنفس ، باستنبات البذور في الهواء ، ولن ينبت الفقه الإسلامي في الفراغ ، كما أنه لن تنبت البذور في الهواء !

إن العمل في الحقل " الفكري " للفقه الإسلامي عمل مريح ! لأنه لا خطر فيه ! ولكنه ليس عملاً للإسلام ؛ ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعه ! وخير للذين ينشدون الراحة والسلامة أن يشتغلوا بالأدب وبالفن أو بالتجارة ! أما الاشتغال بالفقه الآن على ذلك النحو بوصفه عملاً للإسلام في هذه الفترة فأحسب والله أعلم أنه مضيعة للعمر وللأجر أيضاً !

إن دين الله يأبى أن يكون مجرد مطية ذلول ، ومجرد خادم مطيع ، لتلبية هذا المجتمع الجاهلي الآبق منه ، المتنكر له ، الشارد عنه . . الذي يسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه في مشكلاته وحاجاته ؛ وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه . .

إن فقه هذا الدين وأحكامه لا تنشأ في فراغ ، ولا تعمل في فراغ . . وإن المجتمع المسلم الخاضع لسلطان الله ابتداء هو الذي صنع هذا الفقه وليس الفقه هو الذي صنع ذلك المجتمع . . ولن تنعكس الآية أبداً .

إن خطوات النشأة الإسلامية ومراحلها هي دائماً واحدة ؛ والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام لن يكون يوماً ما سهلاً ولا يسيراً . ولن يبدأ أبداً من صياغة الأحكام الفقهية في الفراغ ، لتكون معدة جاهزة يوم يقوم المجتمع الإسلامي والنظام الإسلامي . ولن يكون وجود هذه الأحكام المفصلة على " الجاهز " والناشئة في الفراغ هي نقطة البدء في التحول من الجاهلية إلى الإسلام .

(76/401)

وليس الذي ينقص هذه المجتمعات الجاهلية لكي تتحول إلى الإسلام هو الأحكام الفقهية " الجاهزة " ! وليست الصعوبة في ذلك التحول ناشئة عن قصور أحكام الفقه الإسلامي الحاضرة عن ملاحقة حاجات المجتمعات المتطورة . . إلى آخر ما يخادع به بعضهم ، وينخدع به بعضهم الآخر !

كلا ! إن الذي يحول دون تحول هذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الإسلامي هو وجود الطواغيت التي تأبى أن تكون الحاكمية لله ؛ فتأبى أن تكون الربوبية في حياة البشر والألوهية في الأرض لله وحده . وتخرج بذلك من الإسلام خروجاً كاملاً . يعد الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة . . ثم هو بعد ذلك وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من

دون الله أي تدين لها وتخضع وتتبع فتجعلها بذلك أرباباً متفرقة معبوده مطاعة. وتخرج هذه الجماهير بهذه العبادة من التوحيد إلى الشرك.. فهذا هو أخص مدلولات الشرك في نظر الإسلام..

وبهذا وذلك تقوم الجاهلية نظاماً في الأرض؛ وتعتمد على ركائز من ضلال التصور بقدر ما تعتمد على ركائز من القوة المادية.

وصياغة أحكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية إذن بوسائل مكافئة. إنما الذي يواجهها دعوة إلى الدخول في الإسلام مرة أخرى؛ وحركة تواجه الجاهلية بكل ركائزها؛ ثم يكون ما يكون من شأن كل دعوة للإسلام في وجه الجاهلية. ثم يحكم الله بين من يسلمون لله وبين قومهم بالحق.. وعندئذ فقط يجيء دور أحكام الفقه، التي تنشأ نشأة طبيعية في هذا الوسط الواقعي الحي، وتواجه حاجات الحياة الواقعية المتجددة في هذا المجتمع الوليد، وفق حجم هذه الحاجات يومئذ وشكلها وملابساتها، وهي أمور كلها في ضمير الغيب كما أسلفنا ولا يمكن التكهن بها سلفاً، ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على سبيل الجد المناسب لطبيعة هذا الدين!

إن هذا لا يعني بحال أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلاً من الوجهة الشرعية. ولكنه يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له، والذي لا تطبق هذه الأحكام إلا فيه بل الذي لا تعيش إلا به ليس قائماً الآن فعلاً. ومن ثم يصبح وجودها الفعلي معلقاً بقيام ذلك المجتمع.. ويبقى الالتزام بها قائماً في عنق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلي ويتحرك في وجه الجاهلية لإقامة النظام الإسلامي؛ ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين في وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك في الربوبية..

إن إدراك طبيعة النشأة الإسلامية على هذا النحو الذي لا يتغير، كلما قامت الجاهلية وقامت في وجهها محاولة إسلامية.. هو نقطة البدء في العمل الحقيقي البناء لإعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي، بعد أن انقطع هذا الوجود منذ أن حلت شرائع البشر محل شريعة الله في خلال القرنين الأخيرين، وخلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام؛ وإن بقيت المآذن والمساجد، والأدعية والشعائر؛ تخدر مشاعر الباقين على الولاء العاطفي الغامض لهذا الدين؛ وتوهمهم أنه لا يزال بخير؛ وهو يمحى من الوجود محواً!

إن المجتمع المسلم وجد قبل أن توجد الشعائر، وقبل أن توجد المساجد.

وجد من يوم أن قيل للناس: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فعبدوه. ولم تكن عبادتهم له ممثلة في الشعائر، فالشعائر لم تكن بعد قد فرضت. إنما كانت عبادتهم له ممثلة في الدينونة

له وحده من ناحية المبدأ فلم تكن بعد قد نزّلت شرائع! وحين أصبح لهؤلاء الذين قرروا الدينونة لله وحده سلطان مادي في الأرض تنزلت الشرائع؛ وحين واجهوا الحاجات الحقيقية لحياتهم هم استنبطت بقية أحكام الفقه، إلى جانب ما ورد بنصه في الكتاب والسنة..

وهذا هو الطريق وحده؛ وليس هنالك طريق آخر..

(78/401)

وليت هنالك طريقاً سهلاً عن طريق تحول الجماهير بجملتها إلى الإسلام منذ أول وهلة في الدعوة باللسان، وببيان أحكام الإسلام! ولكن هذه إنما هي "الأمانيّ"! فالجماهير لا تتحول أبداً من الجاهلية وعبادة الطواغيت، إلى الإسلام وعبادة الله وحده إلا عن ذلك الطريق الطويل البطيء الذي سارت فيه دعوة الإسلام في كل مرة.. والذي يبدؤه فرد، ثم تتبعه طليعة، ثم تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية لتعاني ما تعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكّن لها في الأرض.. ثم.. يدخل الناس في دين الله أفواجاً.. ودين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذي لا يرضى من الناس ديناً غيره ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ ولعل هذا البيان أن يكشف لنا عن حقيقة الحكم في موقف

يوسف عليه السلام .

إنه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية . كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكماً مطاعاً لا خادماً في وضع جاهلي . وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه . وقد توارى العزيز وتوارى الملك تماماً . .

ثم نعود بعد هذا الاستطراد إلى صلب القصة وإلى صلب السياق . إن السياق لا يثبت أن الملك وافق . فكأنما يقول : إن الطلب تضمن الموافقة ! زيادة في تكريم يوسف ، وإظهار مكانته عند الملك . فيكفي أن يقول ليجاب ، بل ليكون قوله هو الجواب . . ومن ثم يحذف رد الملك ، ويدع القارئ يفهم أنه أصبح في المكان الذي طلبه .

ويؤيد هذا الذي نقوله تعقيب السياق :

﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ . .

فعلى هذا النحو من إظهار براءة يوسف ، ومن إعجاب الملك به ، ومن الاستجابة له فيما طلب . . على هذا النحو مكنا ليوسف في الأرض ، وثبتنا قدميه ، وجعلنا له فيها مكاناً ملحوظاً . والأرض هي مصر . أو هي هذه الأرض كلها باعتبار أن مصر يومذاك أعظم ممالكها .

﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ . .

يتخذ منها المنزل الذي يريد ، والمكان الذي يريد ، والمكانة التي يريد . في مقابل الجب وما فيه من مخاوف ، والسجن وما فيه من قيود .

﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ . .

فنبدله من العسر يسراً ، ومن الضيق فرجاً . ومن الخوف أمناً ، ومن القيد حرية ، ومن الهوان على الناس عزاً ومقاماً علياً .

﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ . .

الذين يحسنون الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، والاتجاه إليه ، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس . . هذا في الدنيا . .

﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ . .

فلا ينقص منه المتاع في الدنيا وإن كان خيراً من متاع الدنيا ، متى آمن الإنسان واتقى . فاطمأن بإيمانه إلى ربه ، وراقبه بتقواه في سره وجهره .

وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة ، تلك المكانة في الأرض ، وهذه البشرى في الآخرة جزاء وفاقاً على الإيمان والصبر والإحسان .

ودارت عجلة الزمن . وطوى السياق دوراتها بما كان فيها طوال سنوات الرخاء . فلم يذكر كيف كان الخصب ، وكيف زرع الناس . وكيف أدار يوسف جهاز الدولة . وكيف نظم ودبر وادخر . كأن هذه كلها أمور مقررة بقوله :

﴿ إني حفيظ عليم ﴾ . .

وكذلك لم يذكر مقدم سني الجدب ، وكيف تلقاها الناس ، وكيف ضاعت الأرزاق . . لأن هذا كله ملحوظ في رؤيا الملك وتأويلها :

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ﴾ . .

(80/401)

كذلك لم يبرز السياق الملك ولا أحداً من رجاله بعد ذلك في السورة كلها . كأن الأمر كله قد صار ليوسف . الذي اضطلع بالعبء في الأزمة الخانقة الرهيبة . وأبرز يوسف وحده على مسرح الحوادث ، وسلط عليه كل الأضواء . وهذه حقيقة واقعية استخدمها السياق استخداماً فنياً كاملاً في الأداء .

أما فعل الجدب فقد أبرزه السياق في مشهد إخوة يوسف ، يجيئون من البدو من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام في مصر . ومن ذلك ندرك اتساع دائرة المجاعة ، كما ندرك كيف وقفت مصر بتدبير يوسف منها ، وكيف صارت محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام في المنطقة كلها . وفي الوقت ذاته تمضي قصة يوسف في مجراها الأكبر بين يوسف وإخوته وهي سمة فنية تحقق هدفاً دينياً في السياق :

﴿ وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال : ائتوني بأخ لكم من أبيكم .

ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون .

قالوا : سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ . .

لقد اجتاح الجدب والمجاعة أرض كنعان وما حولها . فاتجه إخوة يوسف فيمن يتجهون إلى مصر . وقد تسامع الناس بما فيها من فائض الغلة منذ السنوات السمان . وها نحن أولاء نشهدهم يدخلون على يوسف ، وهم لا يعلمون . إنه يعرفهم فهم هم لم يتغيروا كثيراً . أما يوسف فإن خيالهم لا يتصور قط أنه هو ذاك ! وأين الغلام العبراني الصغير الذي ألقوه في الجب منذ عشرين عاماً أو تزيد من عزيز مصر شبه المتوج في سنه وزيه وحرسه ومهابته وخدمه وحشمه وهيله وهيلمانه ؟

ولم يكشف لهم يوسف عن نفسه . فلا بد من دروس يتلقونها :

﴿ فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ . .

ولكنا ندرك من السياق أنه أنزلهم منزلاً طيباً ، ثم أخذ في إعداد الدرس الأول :

﴿ ولما جهزهم بجهازهم قال : ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ . .

فنفهم من هذا أنه تركهم يأنسون إليه ، واستدرجهم حتى ذكروا له من هم على وجه التفصيل ، وأن لهم أخاً أصغر من أبيهم لم يحضر معهم لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه . فلما جهزهم بحاجات الرحلة قال لهم : إنه يريد أن يرى أخاهم هذا .

﴿ قال : ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ . .

وقد رأيتم أنني أوفي الكيل للمشترين . فسأوفيكم نصيبكم حين يجيء معكم ؛ ورأيتم أنني أكرم النزلاء فلا خوف عليه بل سيلقى مني الإكرام المعهود :

﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ؟ ﴾ . .

ولما كانوا يعلمون كيف يضن أبوهم بأخيهم الأصغر وبخاصة بعد ذهاب يوسف فقد أظهروا أن الأمر ليس ميسوراً ، وإنما في طريقه عقبات من ممانعة أبيهم ، وأنهم سيحاولون

إقناعه، مع توكيد عزمهم على الرغم من هذه العقبات على إحضاره معهم حين يعودون:

﴿ قالوا: سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾..

ولفظ ﴿ نراود ﴾ يصور الجهد الذي يعلمون أنهم باذلوه..

أما يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسوا البضاعة التي حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف. وقد تكون خليطاً من نقد ومن غلات صحراوية أخرى من غلات الشجر الصحراوي، ومن الجلود والشعر وسواها مما كان يستخدم في التبادل في الأسواق.. أمر غلمانه بدسها في رحالهم والرحل متاع المسافر لعلهم يعرفون حين يرجعون أنها بضاعتهم التي جاءوا بها:

﴿ وقال لفتيانه: اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾..

وندع يوسف في مصر. لنشهد يعقوب وبنيه في أرض كنعان. دون كلمة واحدة عن الطريق وما فيه:

﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا منع منا الكيل، فأرسل معنا أخانا نكتل، وإنّا له لحافظون.

قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا : يا أبانا ما نبغي . هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ، ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير . ذلك كيل يسير . قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله : لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل ﴾ . .

ويبدو أنهم في دخلتهم على أبيهم ، وقبل أن يفكوا متاعهم ، عاجلوه بأن الكيل قد تقرر منعه عنهم ما لم يأتوا عزيز مصر بأخيهم الصغير معهم . فهم يطلبون إليه أن يرسل معهم أخاهم الصغير ليكتالوا له ولهم . وهم يعدون بحفظه :

﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل ، وإنّا له لحافظون ﴾ . .

ولا بد أن هذا الوعد قد أثار كوامن يعقوب . فهو ذاته وعدهم له في يوسف ! فإذا هو يجهر بما أثاره الوعد من شجونه :

﴿ قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ! ﴾ . .

فخلوني من وعودكم وخلوني من حفظكم ، فإذا أنا طلبت الحفظ لولدي والرحمة بي . .

﴿ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ !

وبعد الاستقرار من المشوار ، والراحة من السفر فتحوا أوعيتهم ليخرجوا ما فيها من غلال فإذا هم يجدون فيها بضاعتهم التي ذهبوا يشترون بها ، ولم يجدوا في رحالهم غلالاً ! إن يوسف لم يعطهم قمحاً ، إنما وضع لهم بضاعتهم في رحالهم . فلما عادوا قالوا : يا أبانا منع منا الكيل ، وفتحوا رحالهم فوجدوا بضاعتهم . وكان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم ، وكان هذا بعض الدرس الذي عليهم أن يأخذوه .

على أية حال لقد اتخذوا من رد بضاعتهم إليهم دليلاً على أنهم غير باغين فيما يطلبون من استصحاب أخيهم ولا ظالمين :

﴿ قالوا : يا أبانا ما نبغي . هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ . .

ثم أخذوا يحرجونه بالتلويح له بمصلحة أهلهم الحيوية في الحصول على الطعام :

﴿ ونمير أهلنا ﴾ . .

والميرة الزاد ، ويؤكدون له عزمهم على حفظ أخيهم . .

﴿ ونحفظ أخانا ﴾ . .

ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم :

﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ . .

وهو ميسور لهم حين يرافقهم :

﴿ ذلك كيل يسير ﴾ . .

ويبدو من قولهم : ﴿ نزداد كيل بعير ﴾ أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل واحد وسق بعير وهو قدر معروف ولم يكن يبيع كل مشترٍ ما يريد . وكان ذلك من الحكمة في سنوات الجدب ، كي يظل هناك قوت للجميع :

واستسلم الرجل على كره ؛ ولكنه جعل لتسليم ابنه الباقي شرطاً :

﴿ قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله : لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ . .

أي لتقسمن لي بالله قسماً يربطكم ، أن تردوا عليّ ولدي ، إلا إذا غلبتم على أمركم غلباً لا حيلة لكم فيه ، ولا تجدي مدافعتكم عنه :

﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ .

.

وهو كناية عن أخذ المسالك كلها عليهم . فأقسموا :

﴿ فما آتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل ﴾ . .

زيادة في التوكيد والتذكير .

وبعد هذا الموثق جعل الرجل يوصيهم بما خطر له في رحلتهم القادمة ومعهم الصغير العزيز :

﴿ وقال: يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة. وما أغني عنكم من الله من شيء. إن الحكم إلا لله، عليه توكلت، وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ . . .

ونقف هنا أمام قول يعقوب عليه السلام:

﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ . .

وواضح من سياق القول أنه يعني هنا حكم الله القدري القهري الذي لا مفر منه ولا فكاك. وقضاءه الإلهي الذي يجري به قدره فلا يملك الناس فيه لأنفسهم شيئاً.

وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره.

(84/401)

وحكم الله القدري يمضي في الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار. . وإلى جانبه حكم الله الذي ينفذه الناس عن رضى منهم واختيار. وهو الحكم الشرعي المتمثل في الأوامر والنواهي. . وهذا كذلك لا يكون إلا لله. شأنه شأن حكمه القدري، باختلاف واحد: هو أن الناس ينفذونه مختارين أو لا ينفذونه. فيترتب على هذا او ذاك نتائجه وعواقبه في حياتهم في الدنيا وفي جزائهم في الآخرة. ولكن الناس لا يكونون مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذوه فعلاً راضين. .

وسار الركب، ونفذوا وصية أبيهم :

﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم، ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . .

فيم كانت هذه الوصية؟ لم قال لهم أبوهم : لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة؟

تضرب الروايات والتفاسير في هذا وتبدي وتعيد ، بلا ضرورة، بل ضد ما يقتضيه السياق القرآني الحكيم. فلو كان السياق يحب أن يكشف عن السبب لقال. ولكنه قال فقط إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها فينبغي أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق، احتفاظاً بالجو الذي أراده. والجو يوحي بأنه كان يخشى شيئاً عليهم، ويرى في دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهذا الشيء مع تسليمه بأنه لا يغني عنهم من الله من شيء. فالحكم كله إليه، والاعتماد كله عليه. إنما هو خاطر شعر به، وحاجة في نفسه قضاها بالوصية، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة. فقد علمه الله هذا فتعلم.

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . .

ثم ليكن هذا الشيء الذي كان يخشاه هو العين الحاسدة، أو هي غيرة الملك من كثرتهم وفتوتهم. أو هو تتبع قطاع الطريق لهم. أو كائناً ما كان فهو لا يزيد شيئاً في الموضوع.

سوى أن يجد الرواة والمفسرون باباً للخروج عن الجو القرآني المؤثر إلى قال وقيل ، مما يذهب بالجو القرآني كله في كثرة الأحايين !

(85/401)

فلنطو نحن الوصية والرحلة كما طواها السياق ، لنلتقي بإخوة يوسف في المشهد التالي بعد الوصول :

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه . قال : إني أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ . .

ونجد السياق هنا يعجل بضم يوسف لأخيه في المأوى ، وإطلاعه على أنه أخوه ؛ ودعوته لأن يترك من خاطره ذكرى ما فعله إخوته به من قبل ، وهي ذكرى لا بد كان يبتئس لها الصغير كلما علمها من البيت الذي كان يعيش فيه . فما كان يمكن أن تكون مكتومة عنه في وسطه في أرض كنعان .

يعجل السياق بهذا ، بينما الطبيعي والمفهوم أن هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف . ولكن بعد أن اختلى يوسف بأخيه . ولكن هذا ولا شك كان أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه ، وعند رؤيته لأخيه ، بعد الفراق الطويل .

ومن ثم جعله السياق أول عمل لأنه كان أول خاطر . وهذه من دقائق التعبير في هذا الكتاب العجيب !

ويطوي السياق كذلك فترة الضيافة ، وما دار فيها بين يوسف وإخوته ، ليعرض مشهد الرحيل الأخير . فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه ، ريثما يتلقى إخوته درساً أو دروساً ضرورية لهم ، وضرورية للناس في كل زمان ومكان :

(86/401)

﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا : نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم . قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ، وما كنا سارقين . قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا : جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم . قال : أنتم شر مكاناً . والله أعلم بما تصفون . قالوا : يا أيها العزيز إن له أبا

شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذاً لظالمون ﴾ . .

وهو مشهد مثير ، حافل بالحركات والانفعالات والمفاجآت ، كأشد ما تكون المشاهد حيوية وحركة وانفعالاً ، غير أن هذا صورة من الواقع يعرضها التعبير القرآني هذا العرض الحي الأخاذ .

فمن وراء الستار يدس يوسف كأس الملك وهي عادة من الذهب وقيل : إنها كانت تستخدم للشراب ، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الأخرى في كيل القمح ، لندرته وعزته في تلك المجاعة .

يدسها في الرحل المخصص لأخيه ، تنفيذاً لتدبير خاص ألهمه الله له وسنعلمه بعد قليل .

ثم ينادي مناد بصوت مرتفع ، في صيغة إعلان عام ، وهم منصرفون :

﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ . .

ويرتاع إخوة يوسف لهذا النداء الذي يتهمهم بالسرقة وهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فيعودون أدراجهم يتبينون الأمر المريب :

﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ ﴾ .

قال الغلمان الذين يتولون تجهيز الرحال ، أو الحراس ومنهم هذا الذي أذاع بالإعلان :

﴿ قالوا : نفقد صواع الملك ﴾ . .

وأعلن المؤذن أن هناك مكافأة لمن يحضره متطوعاً . وهي مكافأة ثمينة في هذه الظروف :

﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ من القمح العزيز ﴿ وأنا به زعيم ﴾ . . أي كفيل .

ولكن القوم مستيقنون من براءتهم ، فهم لم يسرقوا ، وما جاءوا ليسرقوا وليجترحوا هذا الفساد الذي يخلخل الثقة والعلاقات في المجتمعات ، فهم يقسمون واثقين :

﴿ قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ﴾ . .

فقد علمتم من حالنا ومظهرنا ونسبنا أننا لا نجترح هذا . .

﴿ وما كنا سارقين ﴾ . . أصلاً فما يقع منا مثل هذا الفعل الشنيع .

قال الغلمان أو الحراس :

﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ ﴾ . .

وهنا ينكشف طرف التدبير الذي ألهمه الله يوسف . فقد كان المتبع في دين يعقوب : أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيراً أو رقيقاً في مقابل ما يسرق . ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة ، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق . ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه :

﴿ قالوا : جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه . كذلك نجزي الظالمين ﴾ . .

وهذه هي شريعتنا نحكمها في السارق . والسارق من الظالمين .

كل هذا الحوار كان على منظر ومسمع من يوسف . فأمر بالتفتيش . وأرشدته حصافته إلى أن يبدأ برحالهم قبل رحل أخيه ، كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش :

﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ . .

ويدعنا السياق نتصور الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب الموقنين ببراءتهم ، الحالفين ، المتحدين . . فلا يذكر شيئاً عن هذا ، بل يتركه يتملاه الخيال على الصورة التي تكمل رسم المشهد بانفعالاته . . بينما يأخذ في التعقيب ببعض مرامي القصة ، ريثما يفيق النظارة وأبناء يعقوب مما هم فيه :

﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ . .

أي كذلك دبرنا له هذا التدبير الدقيق .

﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ . .

فلو حكّم شريعة الملك ما تمكن من أخذ أخيه ، إنما كان يعاقب السارق على سرقته ، دون أن يستولي على أخيه كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم هم . وهذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف أسبابه . وهو كيد الله له . والكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو للشر سواء . وإن كان الشر قد غلب عليه . وظاهر الأمر هنا أنه شر يحل بأخيه وهو شر يحل بإخوته لأحراجهم أمام أبيه .

وهو سوء ولو مؤقتاً لأبيه . فلهذا اختار تسميته كيداً على إجمال اللفظ وبالإلماع إلى ظاهره . وهو من دقائق التعبير .

﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ . . ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ . .

فيدبر مثل هذا التدبير الذي رأيناه .

ويتضمن التعقيب الإشارة إلى ما ناله يوسف من رفعة :

﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ . .

وإلى ما ناله من علم ، مع التنبيه إلى أن علم الله هو الأعلى :

﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ . .

وهو احتراس لطيف دقيق .

ولا بد أن نقف أمام التعبير القرآني الدقيق العميق :

﴿ كذلك كدنا ليوسف . . ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك . . ﴾ . .

إن هذا النص يحدد مدلول كلمة " الدين " في هذا الموضع تحديداً دقيقاً . . إنه يعني : نظام الملك وشرعة . . فإن نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه في جزاء سرقته . إنما هذا كان نظام يعقوب وشريعة دينه . وقد ارتضى إخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعتهم ؛ فطبقها يوسف عليهم عندما وجد صواع الملك في رحل أخيه . . وعبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنها " الدين " . .

هذا المدلول القرآني الواضح هو الذي يغيب في جاهلية القرن العشرين عن الناس جميعاً . سواء منهم من يدعون أنفسهم مسلمين وغيرهم من الجاهلين !

إنهم يقصرون مدلول " الدين " على الاعتقاد والشعائر . . ويعدون كل من يعتقد في وحدانية الله وصدق رسوله ويؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ؛ ويؤدي الشعائر المكتوبة . . داخلاً في " دين الله " مهما تكن دينونته بالطاعة والخضوع وإقراره بالحاكمية لغير الله من الأرباب المتفرقة في الأرض . . بينما النص القرآني هنا يحدد مدلول ﴿ دين الملك ﴾ بأنه نظام الملك وشريعته . وكذلك " دين الله " فهو نظامه وشريعته . .

إن مدلول " دين الله " قد هزل وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجماهير الجاهلية إلا الاعتقاد والشعائر . ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

لقد كان يعني دائماً : الدينونة لله وحده ؛ بالتزام ما شرعه ، ورفض ما يشرعه غيره .

وإفراده سبحانه بالألوهية في الأرض مثل إفراده بالألوهية في السماء ؛ وتقرير ربوبيته وحده للناس : أي حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره . وكان مفرق الطريق دائماً بين من هم في دين " الله " ومن هم في ﴿ دين الملك ﴾ أن الأولين يدينون لنظام الله وشرعه وحده ، وأن الآخرين يدينون لنظام الملك وشرعه . أو يشركون فيدينون لله في الاعتقاد والشعائر ، ويدينون لغير الله في النظام والشرائع !

وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة ، ومن بديهيات العقيدة الإسلامية تماماً .

وبعض المترفقين بالناس اليوم يتلمسون لهم عذراً في أنهم يجهلون مدلول كلمة " دين الله " وهم من ثم لا يصرون ولا يحاولون تحكيم شريعة الله وحدها بوصفها هي " الدين " . وأن جهلهم هذا بمدلول الدين يعفيهم من أن يكونوا جاهليين مشركين !

وأنا لا أتصور كيف أن جهل الناس ابتداء بحقيقة هذا الدين يجعلهم في دائرة هذا الدين !

إن الاعتقاد بحقيقة فرع عن معرفتها . فإذا جهل الناس حقيقة عقيدة فكيف يكونون معتنقين لها ؟ وكيف يحسبون من أهلها وهم لا يعرفون ابتداء مدلولها ؟

إن هذا الجهل قد يعفيهم من حساب الآخرة ، أو يخفف عنهم العذاب فيها ؛ ويلقي بتبعاتهم وأوزارهم على كاهل من لا يعلمونهم حقيقة هذا الدين وهم يعرفونها . . ولكن هذه مسألة غيبية متروك أمرها لله ، والجدل في الجزاء الأخروي لأهل الجاهلية عامة ليس وراءه كبير طائل . وليس هو الذي يعنينا نحن البشر الذين ندعو إلى الإسلام في الأرض !

إن الذي يعنينا هو تقرير حقيقة الدين الذي فيه الناس اليوم . . أنه ليس دين الله قطعاً . فدين الله هو نظامه وشرعه وفق النصوص القرآنية الصريحة . فمن كان في نظام الله وشرعه فهو في " دين لله " . ومن كان في نظام الملك وشرعه فهو في " دين الملك " . ولا جدال في هذا .

والذين يجهلون مدلول الدين لا يمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين . لأن الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية . والجاهل بحقيقة هذا الدين الأساسية لا يمكن عقلاً وواقعاً أن يكون معتقداً به . إذ الاعتقاد فرع عن الإدراك والمعرفة . . وهذه بديهية . . وخير لنا من أن ندافع عن الناس وهم في غير دين الله وتتلمس لهم المعاذير ، ونحاول أن نكون أرحم بهم من الله الذي يقرر مدلول دينه وحدوده ! . .

خير لنا من هذا كله أن نشرع في تعريف الناس حقيقة مدلول " دين الله " ليدخلوا فيه . . أو يرفضوه . .

هذا خير لنا وللناس أيضاً . . خير لنا لأنه يعفينا من تبعة ضلال هؤلاء الجاهلين بهذا الدين ، الذين ينشأ عن جهلهم به عدم اعتناقه في الحقيقة . . وخير للناس لأن مواجهتهم بحقيقة ما هم عليه وأنهم في دين الملك لا في دين الله قد تهزهم هزة تخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن دين الملك إلى دين الله !

كذلك فعل الرسل عليهم صلوات الله وسلامه وكذلك ينبغي أن يفعل الدعاة إلى الله في مواجهة الجاهلية في كل زمان ومكان . .

(91/401)

ثم نعود إلى إخوة يوسف بعد هذا التعقيب القصير . نعود إليهم وقد حرك الحرج الذي يلاقونه كوامن حقدهم على أخي يوسف ، وعلى يوسف من قبله ، فإذا هم يتنصلون من نقيصة السرقة ، وينفونها عنهم ، ويلقونها على هذا الفرع من أبناء يعقوب :

﴿ قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ !

إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .

. وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في تعلات وحكايات وأساطير. كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف؛ وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعاً للتهمة التي تحرجهم، وتبرؤاً من يوسف وأخيه السارق، وإرواء لحقدهم القديم على يوسف وأخيه!

لقد قذفوا بها يوسف وأخاه!

﴿ فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ﴾ . .

أسر هذه الفعلة وحفظها في نفسه، ولم يبد تأثره منها. وهو يعلم براءته وبراءة أخيه. إنما قال لهم:

﴿ أنتم شر مكاناً ﴾ . .

يعني أنكم بهذا القذف شر مكاناً عند الله من المقذوف وهي حقيقة لا شتمة.

﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ . . وبحقيقة ما تقولون. وأراد بذلك قطع الجدل في الاتهام الذي أطلقوه، ولا دخل له بالموضوع! . .

وعندئذ عادوا إلى الموقف المحرج الذي وقعوا فيه. عادوا إلى الموثق الذي أخذه عليهم أبوهم: ﴿ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ . . فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى، الشيخ الكبير، ويعرضون أن يأخذ بدله واحداً منهم إن لم يكن مطلقه لخاطر أبيه؛ ويستعينون في رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين:

﴿ قالوا : يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين ﴾

:

ولكن يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درساً . وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التي يعدها لهم ولوالده وللجميع ! ليكون وقعها أعمق وأشد أثراً في النفوس :

﴿ قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذاً لظالمون ﴾ . .

(92/401)

ولم يقل معاذ الله أن نأخذ بريئاً بجريرة سارق . لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق . فعبر أدق تعبير يحكيه السياق هنا باللغة العربية بدقة :

﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ وهي الحقيقة الواقعة دون زيادة في اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه . .

﴿ إنا إذاً لظالمون ﴾ . .

وما نريد أن نكون ظالمين . .

وكانت هي الكلمة الأخيرة في الموقف . وعرفوا أن لا جدوى بعدها من الرجاء ،

فانسحبوا يفكرون في موقفهم المحرج، أمام أبيهم حين يرجعون. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ الظلال جـ 4 صـ 2001. 2023 ﴾

(93/401)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أياسهم بما قال عن إطلاق بنيامين، حكى الله تعالى ما أثمر لهم ذلك من الرأي فقال :

﴿ فلما ﴾ دالاً بالفاء على قرب زمن تلك المراجعات ﴿ استيئسوا منه ﴾ أي تحول رجاءهم لتخلية سبيله لما رأوا من إحسانه ولطفه ورحمته يأساً شديداً بما رأوا من ثباته

على أخذه بعينه وعدم استبداله ﴿ خلصوا ﴾ أي انفردوا من غيرهم حال كونهم ﴿ نجياً ﴾ أي ذوي نجوى يناجي بعضهم بعضاً ، من المناجاة وهي رفع المعنى من كل واحد إلى صاحبه في خفاء ، من النجو وهو الارتفاع عن الأرض - قاله الرماني ، أو تمحضوا تناجياً لإفاضتهم فيه بجد كأنهم صورة التناجي ، فكأنه قيل : فما قالوا ؟ فقيل : ﴿ قال كبيرهم ﴾ في السن وهو روبيل : ﴿ ألم تعلموا ﴾ مقرراً لهم بما يعرفونه مع قرب الزمان ليشتد توجههم في بذل الجهد في الخلاص من غضب أبيهم ﴿ أن أباكم ﴾ أي الشيخ الكبير الذي فجعتموه في أحب ولده إليه .

(94/401)

ولما كان المقام بالتقرير ومعرفة صورة الحال لتوقع ما يأتي من الكلام ، قال : ﴿ قد أخذ عليكم ﴾ أي قبل أن يعطيكم هذا الولد الآخر ﴿ موثقاً ﴾ ولما كان الله تعالى هو الذي شرعه - كما مضى - كان كأنه منه ، فقال : ﴿ من الله ﴾ أي أيمان الملك الأعظم : لتأتنه به إلا أن يحاط بكم ﴿ ومن قبل ﴾ أي قبل هذا ﴿ ما فرطتم ﴾ أي قصرتم بترك التقدم بما يحق لكم في ظن أبيكم أو فيما ادعيتم لأبيكم تفريطاً عظيماً ، فإن زيادة " ما " تدل على إرادته لذلك ﴿ في ﴾ ضياع ﴿ يوسف ﴾ فلا يصدقكم أبوكم أصلاً ، بل يضم هذه إلى

تلك فيعلم بها خيانتكم قطعاً ، وأصل معنى التفريط ، : التقدم ، من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "أنا فرطكم على الحوض" .

ولما كان الموضع موضع التأسف والتفجع والتلهف ، أكده ب "ما" النافية لنقيض المثبت كما سلف غير مرة ، أي أن فعلكم في يوسف ما كان إلا تفريطاً لا شك فيه ﴿ فلن أبرح ﴾ أي أفارق هذه ﴿ الأرض ﴾ بسبب هذا ، وإيصاله الفعل بدون حرف دليل على أنه صار شديد الالتصاق بها ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ في الذهاب منها ﴿ أو يحكم الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ووثقنا به ﴿ لي ﴾ بخلاص أخي أو بالذهاب منها بوجه من الوجوه التي يعلمها ويقدر على التسبب لها ﴿ وهو ﴾ أي ظاهراً وباطناً ﴿ خير الحاكمين ﴾ إذا أراد أمراً بلغه بإحاطة علمه وشمول قدرته ، وجعله على أحسن الوجود وأتقنها ، فكأنه قيل : هذا ما رأى أن يفعل في نفسه ، فماذا رأى لإخوته ؟ فقيل : أمرهم بالرجوع ليعلموا أباهم لإمكان أن يريد القدوم إلى مصر ليرى ابنه أو يكون عنده رأي فيه فرج ، فقال : ﴿ ارجعوا إلى أبيكم ﴾ أي دوني ﴿ فقولوا ﴾ أي له متلطفين في خطابكم ﴿ يا أبانا ﴾ وأكدوا مقالتكم فإنه ينكرها لكم فقولوا : ﴿ إن ابنك ﴾ أي شقيق يوسف عليه الصلاة والسلام الذي هو أكملنا في البنوة عندك ﴿ سرق ﴾ .

ولما كانوا في غاية الثقة من أن أحداً منهم لا يلم بمثل ذلك ، أشاروا إليه بقولهم : ﴿ وما شهدنا ﴾ أي في ذلك ﴿ إلا بما علمنا ﴾ ظاهراً من رؤيتنا الصواع يخرج من وعائه ؛ والشهادة : الخبر عن إحساس قول أو فعل ، وتجوز الشهادة بما أدى إليه الدليل القطعي ﴿ وما كنا للغيب ﴾ أي الأمر الذي غاب عنا ﴿ حافظين ﴾ فلعل حيلة دبرت في ذلك غاب عنا علمها كما صنع في رد بضاعتنا ﴿ واسأل القرية ﴾ أي أهلها وجدرانها إن كانت تنطق ﴿ التي كنا فيها ﴾ وهي مصر ، عما أخبرناك به يخبروك بصدقنا ، فإن الأمر قد اشتهر عندهم ﴿ و ﴾ اسأل ﴿ العير ﴾ أي أصحابها وهم قوم من كنعان جيران يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ التي أقبلنا فيها ﴾ والسؤال : طلب الإخبار بأداته من الهمزة وهل ونحوهما ، والقرية : الأرض الجامعة لحدود فاصلة ، وأصلها من قريت الماء ، أي جمعته ، وسيأتي شرح لفظها آخر السورة ، والعير : قافلة الحمير ، من العير - بالفتح ، وهو الحمار ، هذا الأصل - كما تقدم ثم كثر حتى استعمل في غير الحمير .

ولما كان ذلك جديراً بالإنكار لما يتحقق من كرم أخيهم، أكدوه بقولهم: ﴿وإنا﴾ أي والله ﴿لصادقون﴾ فكأنه قيل: فرجعوا إلى أبيهم وقالوا ما قال لهم كبيرهم، فكأنه قيل: فما قال لهم؟ فقيل: ﴿قال بل﴾ أي ليس الأمر كذلك، لم تصح نسبة ابني إلى السرقة ظاهراً ولا باطناً، أي لم يأخذ شيئاً من صاحبه في خفاء بل ﴿سولت﴾ أي زينت تزييناً فيه غي ﴿لكم أنفسكم أمراً﴾ أي حدثتكم بأمر ترتب عليه ذلك، والأمر: الشيء الذي من شأنه أن تأمر النفس به، وكلا الأمرين صحيح، أما النفي فواضح، لأن بنيامين لم يسرق الصواع ولا همّ بذلك، ولذلك لم ينسبه يوسف عليه الصلاة والسلام ولا مناديه إلى ذلك بمفرده، وأما الإثبات فأوضح، لأنه لولا فعلهم بيوسف عليه الصلاة والسلام لما سولت لهم فيه أنفسهم لم يقع هذا الأمر لبنيامين عليه السلام ﴿فصبر جميل﴾ مني، لأن ظني في الله جميل، وفي قوله: ﴿عسى الله﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿أن يأتيني بهم﴾ أي بيوسف وشقيقه بنيامين وروبيل ﴿جميعاً﴾ ما يدل الفطن على أنه تفرس أن هذه الأفعال نشأت عن يوسف عليه الصلاة والسلام، وأن الأمر إلى سلامة واجتماع؛ ثم علل ذلك بقوله: ﴿إنه هو﴾ أي وحده ﴿العليم﴾ أي البليغ العلم بما خفي علينا من ذلك، فيعلم أسبابه الموصلة إلى المقاصد ﴿الحكيم﴾ أي البليغ في إحكام الأمور في ترتيب الأسباب بحيث لا يقدر أحد على نقض ما أبرمه منها، وترتيب الوصفين على غاية الإحكام - كما ترى - لأن الحال داع إلى العلم بما غاب من الأسباب أكثر من دعائه إلى

معرفة حكمتها ؛ قال هذه المقالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 86 .

89 ﴾

(97/401)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنهم لما قالوا : ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ [يوسف : 78] وهو نهاية ما يمكنهم بذله فقال يوسف في جوابه : ﴿ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا متاعنا عِندَهُ ﴾ [يوسف : 79] فانقطع طمعهم من يوسف عليه السلام في رده ، فعند هذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّا ﴾ وهو مبالغة في يأسهم من رده ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ أي تفردوا عن سائر الناس يتناجون ولا شبهة أن المراد يتشاورون ويتحيلون الرأي فيما وقعوا فيه ، لأنهم إنما أخذوا بنيامين من أبيهم بعد المواثيق المؤكدة وبعد أن كانوا متهمين في حق يوسف

فلو لم يعيدوه إلى أبيهم لحصلت محن كثيرة : أحدها : أنه لو لم يعودوا إلى أبيهم وكان شيخاً كبيراً فبقاؤه وحده من غير أحد من أولاده محنة عظيمة.

وثانيها : أن أهل بيتهم كانوا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة.

وثالثها : أن يعقوب عليه السلام ربما كان يظن أن أولاده هلكوا بالكلية وذلك غم شديد ولو عادوا إلى أبيهم بدون بنيامين لعظم حياؤهم فإن ظاهر الأمر يوهم أنهم خانوه في هذا الابن كما أنهم خانوه في الابن الأول ، ولكان يوهم أيضاً أنهم ما أقاموا لتلك المواثيق المؤكدة وزنا ولا شك أن هذا الموضع موضع فكرة وحيرة ، وذلك يوجب التفاوض والتشاور طلباً للأصلح الأصوب فهذا هو المراد من قوله : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ .

المسألة الثانية :

قال الواحدي روي عن ابن كثير استيأسوا ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرسل ﴾ [يوسف : 110] بغير همز وفي ييئس لغتان يئس وييأس مثل حسب ويحسب ومن قال استيأس قلب العين إلى موضع الفاء فصار استعفل وأصله استيأس ثم خففت الهمزة.

قال صاحب "الكشاف" : استيأسوا يئسوا ، وزيادة السين والتاء للمبالغة كما في قوله : ﴿ استعصم ﴾ [يوسف : 32] وقوله : ﴿ مِنْهُ خَلَصُواْ ﴾ قال الواحدي : يقال خلص الشيء يخلص خلوصاً إذا ذهب عنه الشائب من غيره ، ثم فيه وجهان : الأول : قال الزجاج خلصوا أي انفردوا ، وليس معهم أخوهم ، والثاني : قال الباقون تميزوا عن الأجانب ، وهذا هو الأظهر .

وأما قوله : ﴿ نَجِيّاً ﴾ فقال صاحب "الكشاف" : النجي على معنيين يكون بمعنى المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [مريم : 52] وبمعنى المصدر الذي هو التناجي كما قيل : النجوى بمعنى المتناجين ، فعلى هذا معنى ﴿ خَلَصُواْ نَجِيّاً ﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم ﴿ نَجِيّاً ﴾ أي مناجياً .

روي ﴿ نجوى ﴾ أي فوجاً ﴿ نَجِيّاً ﴾ أي مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً ، وأحسن الوجوه أن يقال : إنهم تمحضوا تناجياً ، لأن من كمل حصول أمر من الأمور فيه وصف بأنه صار غير ذلك الشيء ، فلما أخذوا في التناجي على غاية الجد صاروا كأنهم في أنفسهم ، صاروا نفس التناجي حقيقة .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ فقيل المراد كبيرهم في السن وهو روبيل ، وقيل كبيرهم في العقل وهو يهودا ، وهو الذي نهاهم عن قتل يوسف ، ثم حكى تعالى عن هذا الكبير أنه

قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(99/401)

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما قال يوسف عليه السلام : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ [يوسف : 79] غضب يهودا ، وكان إذا غضب وصاح فلا تسمع صوته حامل إلا وضعت ويقوم شعره على جسده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه فقال لبعض إخوته اكفوني أسواق أهل مصر وأنا أكفيكم الملك فقال يوسف عليه السلام لابن صغير له مسه فمسه فذهب غضبه وهم أن يصيح فركض يوسف عليه السلام رجله على الأرض وأخذ بملابسه وجذبه فسقط فعنده قال يا أيها العزيز ، فلما أيسوا من قبول الشفاعة تذاكروا وقالوا : إن أبانا قد أخذ علينا موثقاً عظيما من الله .

وأيضاً نحن متهمون بواقعة يوسف فكيف المخلص من هذه الورطة .

المسألة الثانية :

لفظ ما في قوله: ﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾ فيها وجوه: الأول: أن يكون أصله من قبل هذا فرطتم في شأن يوسف عليه السلام، ولم تحفظوا عهد أبيكم.

الثاني: أن تكون مصدرية ومحله الرفع على الابتداء وخبره الظرف، وهو من قبل.

ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف، الثالث: النصب عطفاً على مفعول ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ والتقدير: ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقكم وتفريطكم من قبل في يوسف.

الرابع: أن تكون موصولة بمعنى ومن قبل هذا ما فرطتموه أي قدمتموه في حق يوسف من الخيانة العظيمة، ومحله الرفع والنصب على الوجهين المذكورين، ثم قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الارض﴾ أي فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لي أبي في الانصراف إليه أو يحكم الله لي بالخروج منها أو بالانتصاف ممن أخذ أخي أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب وهو خير الحاكمين، لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق، وبالجملة فالمراد ظهور عذر يزول معه حياؤه وخجله من أبيه أو غيره قاله انقطاعاً إلى الله تعالى في إظهار عذره بوجه من الوجوه.

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾

واعلم أنهم لما تفكروا في الأصوب ما هو ظهر لهم أن الأصوب هو الرجوع ، وأن يذكروا لأبيهم كيفية الواقعة على الوجه من غير تفاوت ، والظاهر أن هذا القول قاله ذلك الكبير الذي قال : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرض حتى يَأْذَنَ لِى أَبِى ﴾ قيل إنه روبيل ، وبقي هو في مصر وبعث سائر إخوته إلى الأب .

فإن قيل : كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة ، لا سيما وهو قد أجاب بالجواب الشافي ، فقال الذي جعل الصواع في رحلي هو الذي جعل البضاعة في رحلكم .

والجواب عنه من وجوه :

الوجه الأول : أنهم شاهدوا أن الصواع كان موضوعاً في موضع ما كان يدخله أحد إلا هم ، فلما شاهدوا أنهم أخرجوا الصواع من رحله غلب على ظنونهم أنه هو الذي أخذ الصواع ، وأما قوله : وضع الصواع في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم فالفرق ظاهر ، لأن هناك لما رجعوا بالبضاعة إليهم اعترفوا بأنهم هم الذين وضعوها في رحالهم ، وأما هذا الصواع فإن أحداً لم يعترف بأنه هو الذي وضع الصواع في رحله فظهر الفرق فلهذا السبب غلب على ظنونهم أنه سرق ، فشهدوا بناء على هذا الظن ، ثم بينهم غير قاطعين بهذا الأمر بقولهم : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافظين ﴾ .

والوجه الثاني : في الجواب أن تقدير الكلام ﴿ إِنَّ ابنك سَرَقَ ﴾ في قول الملك وأصحابه ومثله كثير في القرآن .

قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ [هود : 87] أي عند نفسك ، وقال تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] أي عند نفسك وأما عندنا فلا فكذا هھنا .

الوجه الثالث : في الجواب أن ابنك ظهر عليه ما يشبه السرقة ومثل هذا الشيء يسمى سرقة فإن إطلاق اسم أحد الشبيهين على الشبيه الآخر جائز في القرآن قال تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

(101/401)

الوجه الرابع : أن القوم ما كانوا أنبياء في ذلك الوقت فلا يبعد أن يقال : إنهم ذكروا هذا الكلام على سبيل المجازفة لا سيما وقد شاهدوا شيئاً يوهم ذلك .

الوجه الخامس : أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقرأ ﴿ إِنَّ ابنك سُرِّقَ ﴾ بالتشديد ، أي نسب إلى السرقة فهذه القراءة لا حاجة بها إلى التأويل لأن القوم نسبوه إلى السرقة ، إلا أنا ذكرنا في هذا الكتاب أن أمثال هذه القراآت لا تدفع السؤال ، لأن الإشكال إنما يدفع إذا قلنا القراءة الأولى باطلة ، والقراءة الحقة هي هذه .

أما إذا سلمنا أن القراءة الأولى حقة كان الإشكال باقياً سواء صحت هذه القراءة الثانية

أو لم تصح ، فثبت أنه لا بد من الرجوع إلى أحد الوجوه المذكورة أما قوله : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ فمعناه ظاهر لأنه يدل على أن الشهادة غير العلم بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ وذلك يقتضي كون الشهادة مغايرة للعلم ولأنه عليه السلام قال : إذا علمت مثل الشمس فاشهد ، وذلك أيضاً يقتضي ما ذكرنا وليست الشهادة أيضاً عبارة عن قوله أشهد لأن قوله أشهد إخبار عن الشهادة والإخبار عن الشهادة غير الشهادة .

إذا ثبت هذا فنقول : الشهادة عبارة عن الحكم الذهني وهو الذي يسميه المتكلمون بكلام النفس ، وأما قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافظين ﴾ ففيه وجوه : الأول : أنا قد رأينا أنهم أخرجوا الصواع من رحله ، وأما حقيقة الحال فغير معلومة لنا فإن الغيب لا يعلمه إلا الله .

والثاني : قال عكرمة معناه : لعل الصواع دس في متاعه بالليل ، فإن الغيب اسم لليل على بعض اللغات .

والثالث : قال مجاهد والحسن وقتادة : وما كنا نعلم أن ابنك يسرق ، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به إلى الملك وما أعطيناك موثقاً من الله في رده إليك .

والرابع : نقل أن يعقوب عليه السلام قال لهم : فهب أنه سرق ولكن كيف عرف الملك أن شرع بني إسرائيل أن من سرق يسترق ، بل أنتم ذكرتموه له لغرض لكم فقالوا عند هذا الكلام : أنا قد ذكرنا له هذا الحكم قبل وقوعنا في هذه الواقعة وما كنا نعلم أن هذه الواقعة تقع فيها فقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافظين ﴾ إشارة إلى هذا المعنى .

فإن قيل : فهل يجوز من يعقوب عليه السلام أن يسعى في إخفاء حكم الله تعالى على هذا القول .

قلنا : لعله كان ذلك الحكم مخصوصاً بما إذا كان المسروق منه مسلماً فلهذا أنكر ذكر هذا الحكم عند الملك الذي ظنه كافراً .

ثم حكى تعالى عنهم أنهم قالوا : ﴿ واسئل القرية التى كُنَّا فِيهَا والعير التى أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ .

واعلم أنهم لما كانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام بالغوا في إزالة التهمة عن أنفسهم فقالوا : ﴿ واسئل القرية التى كُنَّا فِيهَا ﴾ والأكثرون اتفقوا على أن المراد من هذه القرية مصر وقال قوم ، بل المراد منه قرية على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش ، ثم فيه قولان : الأول : المراد واسأل أهل القرية إلا أنه حذف المضاف للإيجاز والاختصار ، وهذا النوع من المجاز مشهور في لغة العرب قال أبو علي الفارسي ودافع جواز هذا في اللغة كدافع الضروريات وجاحد المحسوسات .

والثاني : قال أبو بكر الأنباري المعنى : اسأل القرية والعير والجدار والحيطان فإنها تجيبك

وتذكر لك صحة ما ذكرناه لأنك من أكابر أنبياء الله فلا يبعد أن ينطق الله هذه الجمادات معجزة لك حتى تخبر بصحة ما ذكرناه ، وفيه وجه ثالث ، وهو أن الشيء إذا ظهر ظهوراً تاماً كاملاً فقد يقال فيه ، سل السماء والأرض وجميع الأشياء عنه ، والمراد أنه بلغ في الظهور إلى الغاية التي ما بقي للشك فيه مجال .

أما قوله : ﴿ والعير التى أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ فقال المفسرون كان قد صحبهم قوم من الكنعانيين فقالوا : سلهم عن هذه الواقعة .

(103/401)

ثم إنهم لما بالغوا في التأكيد والتقرير قالوا : ﴿ وِإِنَّا لصادقون ﴾ يعني سواء نسبتنا إلى التهمة أو لم تنسبنا إليها فنحن صادقون ، وليس غرضهم أن يثبتوا صدق أنفسهم بأنفسهم لأن هذا يجري مجرى إثبات الشيء بنفسه ، بل الإنسان إذا قدم ذكر الدليل القاطع على صحة الشيء فقد يقول بعده وأنا صادق في ذلك يعني فتأمل فيما ذكرته من الدلائل والبينات لتزول عنك الشبهة .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾

اعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع من أبنائه ذلك الكلام لم يصدقهم فيما ذكروا كما في

واقعة يوسف فقال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ فذكر هذا الكلام بعينه في هذه الواقعة إلا أنه قال في واقعة يوسف عليه السلام : ﴿ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : 18] وقال ههنا : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال بعضهم إن قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ ليس المراد منه ههنا الكذب والاحتيال كما في قوله في واقعة يوسف عليه السلام حين قال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ لكنه عنى سولت لكم أنفسكم إخراج بنيامين عني والمصير به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد من ذلك شر وضرر وألححتم علي في إرساله معكم ولم تعلموا أن قضاء الله إنما جاء على خلاف تقديركم وقيل : بل المعنى سولت لكم أنفسكم أمراً خيلت لكم أنفسكم أنه سرق وما سرق .

المسألة الثانية :

قيل إن روبيل لما عزم على الإقامة بمصر أمره الملك أن يذهب مع إخوته فقال أتركوني وإلا صحت صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل إلا وتضع حملها فقال يوسف دعوه ولما رجع القوم إلى يعقوب عليه السلام وأخبروه بالواقعة بكى وقال : يا بني لا تخرجوا من عندي مرة إلا ونقص بعضكم ، ذهبتم مرة فنقص يوسف ، وفي الثانية نقص شمعون ، وفي هذه الثالثة نقص روبيل وبنيامين ، ثم بكى وقال : عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً وإنما حكم بهذا الحكم لوجوه : الأول : أنه لما طال حزنه وبلاؤه ومحنته علم أنه تعالى سيجعل له فرجاً ومخرجاً عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن برحمة الله .

والثاني : لعله تعالى قد أخبره من بعد محنة يوسف أنه حي أو ظهرت له علامات ذلك وإنما قال : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ لأنهم حين ذهبوا بيوسف كانوا إثني عشر فضاع يوسف وبقي أحد عشر ، ولما أرسلهم إلى مصر عادوا تسعة لأن بنيامين حبسه يوسف واحتبس ذلك الكبير الذي قال : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرض حتى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي ﴾ [يوسف : 80] فلما كان الغائبون ثلاثة لا جرم ﴿ قَالَ عسى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم الحكيم ﴾ يعني هو العالم بحقائق الأمور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والإحسان والرحمة والمصلحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 149 . 153 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فلما استيأسوا منه ﴾

أي يئسوا من رد أخيهم عليهم .

الثاني : استيقنوا أنه لا يرد عليهم ، قاله أبو عبيدة وأنشد قول الشاعر :

أقول لها بالشعب إذ ياسرونني . . . ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

﴿ خلصوا نجيّاً ﴾ أي خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يختلط بهم غيرهم .

﴿ قال كبيرهم ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه عنى كبيرهم في العقل والعلم وهو شمعون الذي كان قد ارتهن يوسف عنده حين رجع إخوته إلى أبيهم ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه عنى كبيرهم في السن وهو روبيل ابن خالة يوسف ، قاله قتادة .

الثالث : أنه عنى كبيرهم في الرأي والتمييز وهو يهوذا ، قاله مجاهد .

﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ يعني عند إيفاد ابنه هذا معكم .

﴿ ومن قبل ما فرّطتم في يوسف ﴾ أي ضيعتموه .

﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ يعني أرض مصر .

﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ يعني بالرجوع . ﴿ أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني أو يقضي الله لي بالخروج منها ، وهو قول الجمهور .

الثاني : أو يحكم الله لي بالسيف والمحاربة لأنهم هموا بذلك ، قاله أبو صالح .

قوله عز وجل : ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ﴾ وقرأ ابن عباس ﴿ سُرِق ﴾ بضم السين وكسر الراء وتشديدها .

﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : وما شهدنا عندك بأن ابنك سرق إلا بما علمنا من وجود السرقة في رحله ، قاله ابن إسحاق .

الثاني : وما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسترقّ إلا بما علمنا من دينك ، قاله ابن زيد .

﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق ، قاله قتادة .

الثاني : ما كنا نعلم أن ابنك يسترقّ ، وهو قول مجاهد .

قوله عز وجل : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ وهي مصر ، والمعنى واسأل أهل القرية

فحذف ذكر الأهل إيجازاً ، لأن الحال تشهد به .

﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ وفي ﴿ العير ﴾ وجهان :

(106/401)

أحدهما : أنها القافلة ، وقافلة الإبل تسمى عيراً على التشبيه .

الثاني : الحمير ، قاله مجاهد ، والمعنى أهل العير .

وقيل فيه وجه ثالث : أنهم أرادوا من أبيهم يعقوب أن يسأل القرية وإن كانت جماداً ، أو نفس العير وإن كانت حيواناً بهيماً لأنه نبي ، والأنبياء قد سخر لهم الجماد والحيوان بما يحدث فيهم من المعرفة إعجازاً لأنبيائه ، فأحالوه على سؤال القرية والعير ليكون أوضح برهاناً .

﴿ وإنا لصادقون ﴾ أي يستشهدون بصدْقنا أن ابنك سرق .

قوله عز وجل : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : بل سهلت .

الثاني : بل زينت لكم أنفسكم أمراً في قولكم إن ابني سرق وهو لا يسرق ، وإنما ذاك لأمر

يريده الله تعالى .

﴿ فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ﴾ يعني يوسف وأخيه المأخوذ في السرقة وأخيه المتخلف معه فهم ثلاثة .

﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ يعني العليم بأمركم ، الحكيم في قضائه بما ذكرتم . انتهى .

اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(107/401)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ارْجِعُوا إلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الشَّهَادَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِالْعِلْمِ عَقْلًا وَشَرْعًا ، فَلَا تُسْمَعُ إلَّا مِمَّنْ عَلِمَ ، وَلَا تُقْبَلُ إلَّا مِنْهُ .

وَمَرَاتِبُ الْعِلْمِ فِي طُرُقِهِ مُخْتَلِفَةٌ ، وَلَكِنَّهُ يَعُودُ إلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ تَعَلُّقُهُ بِالْمَعْلُومِ عَلَى مَا هُوَ بِهِ ، فَإِذَا نَسِيَ الشَّهَادَةَ فَذُكِّرَ بِهَا وَتَذَكَّرَهَا أَدَّاهَا ، وَذَلِكَ لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ أَنْ

تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْهَا لَمْ يُؤَدِّهَا عَلَى أَحَدِ التَّأْوِيلَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنْ عَرَفَ خَطَّهُ وَلَمْ يَذْكُرْ الشَّهَادَةَ قَالُوا : يُؤَدِّيهَا وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُؤَدِّيَ مِنْهَا مَا عَلِمَ وَهُوَ خَطُّهُ ، وَيَتْرُكُ مَا لَمْ يَعْلَمْ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَلْيُنْظَرْ فِيهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : إذَا ادَّعَى الرَّجُلُ شَهَادَةً لَا يَحْتَمِلُهَا عُمْرُهُ وَلَا حَالُهُ رُدَّتْ ؛ لِأَنَّهُ ادَّعَى بَاطِنًا مَا كَذَّبَهُ الْعِيَانُ ظَاهِرًا .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : شَهَادَةُ الْمُرُورِ : وَهُوَ أَنْ يَقُولَ : مَرَرْت بِفُلَانٍ فَسَمِعْته ، فَإِنْ اسْتَوْعَبَ الْقَوْلَ شَهِدَ فِي أَحَدِ قَوْلَيْ مَالِكٍ .

وَفِي الْقَوْلِ الْآخَرِ لَا يَشْهَدُ حَتَّى يُشْهِدَاهُ .

وَالَّذِي نَخْتَارُهُ الشَّهَادَةُ عِنْدَ الِاسْتِيعَابِ ، وَبِهِ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ .

وَهُوَ الْحَقُّ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ الْمَطْلُوبُ ، وَتَعَيَّنَ عَلَيْهِ أَدَاءُ الْعِلْمِ ، وَكَانَ خَيْرَ الشُّهَدَاءِ إذَا أَعْلَمَ الْمَشْهُودَ لَهُ ، وَشَرَّ الشُّهَدَاءِ إذَا كَتَمَهَا .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : وَكَذَلِكَ اخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا إذَا جَلَسَ رَجُلَانِ لِلْمُحَاسَبَةِ ، فَأَبْرَزَ

الْحِسَابُ بَيْنَهُمَا ذِكْرًا هَلْ يَشْهَدُ بِهِ مَنْ حَضَرَهُ ، وَقَدْ كُلِّفَ ذَلِكَ وَأُجْلِسَ لَهُ ؟ وَالصَّحِيحُ وُجُوبُ الْأَدَاءِ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ عِلْمُهُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : إذَا أَجْلَسَ رَجُلٌ شَاهِدَيْنِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَكَلَّمَهُ وَقَرَّرَهُ فَاسْتَوْعَبَا كَلَامَهُ ، فَقَالَ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ : لَا يَثْبُتُ ذَلِكَ ، وَيَحْلِفُ أَنَّهُ مَا أَقَرَّ إلَّا بِأَمْرِ كَذَا يَذْكُرُهُ ؛ فَإِنْ نَكَلَ لَزِمَهُ مَا يَشْهَدُ بِهِ .

وَالْأَصْلُ فِي الْبَابِ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 ص ﴾

(109/401)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ فلما استيأسوا منه ﴾ الآية

يقال : يئس واستيأس بمعنى واحد ، كما يقال : سخر واستسخر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يستسخرون ﴾ [الصافات : 14] وكما يقال : عجب واستعجب ، ومنه قول أوس بن حجر : [الطويل]

ومستعجب مما يرى من أناتنا . . . ولو زبنته الحرب لم يترمرم

ومنه نوك واستنوك – وعلى هذا يجيء قول الشاعر في بعض التأويلات : واستنوكت وللشباب نوك . وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ ابن كثير : " استأيسوا " و" لا تأيسوا " و" لا يأيس " و" حتى استأيس الرسل " أصله استأيسوا – استفعلوا – ومن أيس – على قلب الفعل من يئس إلى أيس ، وليس هذا كجذب وجبذ بل هذان أصلان والأول قلب ، دل على ذلك أن المصدر من يئس وأيس واحد ، وهو اليأس ، ولجذب وجبذ مصدران .

وقوله : ﴿ خلصوا نجياً ﴾ معناه انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضاً ، والنجي لفظ يوصف به من له نجوى واحداً أو جماعة أو مؤنثاً أو مذكراً ، فهو مثل عدو وعدل ، وجمعه أنجية ، قال لبيد :

وشهدت أنجية الأفاقة عالياً . . . كعبي وأرداف الملوك شهود

و﴿ كبيرهم ﴾ قال مجاهد : هو شمعون لأنه كان كبيرهم رأياً وتدبيراً وعلماً – وإن كان روبيل أسنهم – وقال قتادة : هو روبيل لأنه أسنهم ، وهذا أظهر ورجحه الطبري . وقال السدي : معنى الآية : وقال كبيرهم في العلم ، وذكرهم أخوهم الميثاق في قوله يعقوب ﴿ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ [يوسف : 66] .

وقوله : ﴿ ما فرطتم ﴾ يصح أن تكون ﴿ ما ﴾ صلة في الكلام لا موضع لها من الإعراب . ويصح أن تكون في موضع رفع بالابتداء والخبر قوله : ﴿ في يوسف ﴾ – كذا قال أبو علي – ولا يجوز أن يكون قوله : ﴿ من قبل ﴾ متعلقاً ب ﴿ فرطتم ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وإنما تكون – على هذا – مصدرية ، التقدير : من قبل تفريطكم في يوسف واقع أو مستقر ، وبهذا المقدر يتعلق قوله : ﴿ من قبل ﴾ . ويصح أن يكون في موضع نصب عطفاً ، على أن التقدير : وتعلموا تفريطكم أو تعلموا الذي فرطتم ، فيصح – على هذا الوجه – أن يكون بمعنى الذي ويصح أن تكون مصدرية .

وقوله تعالى : ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ أراد أرض القطر والموضع الذي ناله فيه المكروه المؤدي إلى سخط أبيه ، والمقصد بهذا اللفظ التحريج على نفسه والتزام التضييق ، كأنه سجن نفسه في ذلك القطر ليبلي عذراً .

وقوله : ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ لفظ عام بجميع ما يمكن أن يرده من القدر كالموت أو النصرة وبلوغ الأمل وغير ذلك ، وقال أبو صالح : أو يحكم الله لي بالسيف . ونصب ﴿ يحكم ﴾ بالعطف على ﴿ يأذن ﴾ ، ويجوز أن تكون ﴿ أو ﴾ في هذا الموضع بمعنى إلا أن ، كما تقول : لألزمنك أو تقضيني حقي ، فتنصب على هذا ﴿ يحكم ﴾ ب ﴿ أو ﴾ .

وروي أنهم لما وصلوا إلى يعقوب بكى وقال : يا بني ما تذهبون عني مرة إلا نقصتم : ذهبتم فنقصتم يوسف ، ثم ذهبتم فنقصتم شمعون حيث ارتهن ، ثم ذهبتم فنقصتم بنيامين

وروبيل .

﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾

الأمر بالرجوع قيل : هو من قول كبيرهم ، وقيل : بل هو من قول يوسف لهم ، والأول أظهر .

(111/401)

وقرأ الجمهور "سرقَ" على تحقيق السرقة على بنيامين ، بحسب ظاهر الأمر . وقرأ ابن عباس وأبو رزين "سُرِّق" بضم السين وكسر الراء وتشديدها ، وكأن هذه القراءة فيها لهم تحر ، ولم يقطعوا عليه بسرقة ، وإنما أرادوا جعل سارقاً بما ظهر من الحال - ورويت هذه القراءة عن الكسائي - وقرأ الضحاك : "إن ابنك سارقٌ" بالألف وتنوين القاف ، ثم تحروا بعد - على القراءتين - في قولهم ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ أي وقولنا لك : ﴿ إن ابنك سرق ﴾ إنما هي شهادة عندك بما علمناه من ظاهر ما جرى ، والعلم في الغيب إلى الله ، ليس في ذلك حفظنا ، هذا قول ابن إسحاق ، وقال ابن زيد : قولهم : ﴿ ما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ أرادوا به : وما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترقّ في شرعك إلا بما علمنا من ذلك ، ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ أن السرقة تخرج من رحل أحدنا ، بل حسبنا أن ذلك لا يكون البتة ، فشهدنا عنده حين سألنا بعلمنا .

وقرأ الحسن " وما شهدنا عليه إلا بما علمنا " بزيادة " عليه " .

ويحتمل قوله : ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ أي حين واثقناك ، إنما قصدنا ألا يقع منا نحن في جهته شيء يكرهه ، ولم نعلم الغيب في أنه سيأتي هو بما يوجب رقه .

وروي أن معنى قولهم : ﴿ للغيب ﴾ أي الليل ، الغيب : الليل - بلغة حمير - فكأنهم قالوا : وما شهدنا عندك إلا بما علمناه من ظاهر حاله ، وما كنا بالليل حافظين لما يقع من سرقته هو أو التدليس عليه . ثم استشهدوا بأهل القرية التي كانوا فيها - وهي مصر ، قاله ابن عباس وغيره ، وهذا مجاز ، والمراد أهلها ، وكذلك قوله : ﴿ والعير ﴾ ، هذا قول الجمهور ، وهو الصحيح ، وحكى أبو المعالي في التلخيص عن بعض المتكلمين أنه قال : هذا من الحذف وليس من المجاز ، قال : وإنما المجاز لفظة تستعار لغير ما هي له .

قال القاضي أبو محمد : وحذف المضاف هو عين المجاز وعظمه - هذا مذهب سيبويه وغيره من أهل النظر - وليس كل حذف مجازاً ، ورجح أبو المعالي - في هذه الآية - أنه مجاز ، وحكى أنه قول الجمهور أو نحو هذا .

وقالت فرقة : بل أحالوه على سؤال الجمادات والبهائم حقيقة ، ومن حيث هو نبي فلا يبعد

أن تخبره بالحقيقة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا وإن جوز فبعيد ، والأول أقوى ، وهنا كلام مقدر يقتضيه الظاهر ، تقديره : فلما قالوا هذه المقالة لأبيهم قال : ﴿ بل سولت ﴾ ، وهذا على أن يتصل كلام كبيرهم إلى هنا ، ومن يرى أن كلام كبيرهم تم في قوله : ﴿ إن ابنك سرق ﴾ ، فإنه يجعل الكلام هنالك تقديره : فلما رجعوا قالوا : ﴿ إن ابنك سرق ﴾ الآية .

والظاهر أن قوله : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ . إنما هو ظن سيء بهم ، كما كان في قصة يوسف قبل ، فاتفق أن صدق ظنه هناك ، ولم يتحقق هنا ، و﴿ سولت ﴾ معناه : زينت وخيلت وجعلت سولاً ، والسول ما يتمناه الإنسان ويحرص عليه .

وقوله : ﴿ فصبر جميل ﴾ إما ابتداء وخبره أمثل أو أولى ، وحسن الابتداء بالنكرة من حيث وصفت . وإما خبر ابتداء تقديره ، فأمري أو شأني ، أو صبري صبر جميل ؛ وهذا أليق بالنكرة أن تكون خبراً ، ومعنى وصفه بالجمال : أنه ليس فيه شكوى إلى بشر ولا ضجر بقضاء الله تعالى . ثم ترجى عليه السلام من الله أن يجبرهم عليه وهم يوسف وبنيامين وروبيل الذي لم يبرح الأرض ، ورجاؤه هذا من جهات : إحداها : الرؤيا التي رأى يوسف فكان يعقوب ينتظرها .

والثانية : حسن ظنه بالله تعالى في كل حال .

والثالثة : ما أخبروه به عن ملك مصر أنه يدعو له برؤية ابنه فوقع له – من هنا – تحسس

ورجاء .

والوصف " بالعلم والإحكام " لائق بما يرجوه من لقاء بنيه ، وفيها تسليم لحكمة الله تعالى في جميع ما جرى عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(113/401)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ ﴾

أي يَئِسوا ؛ مثل عَجِب واستعجب ، وسَخِر واستسخر .

﴿ خَلَصُواْ ﴾ أي انفردوا وليس هو معهم .

﴿ نَجِيّاً ﴾ نصب على الحال من المضمر في "خَلَصُوا" وهو واحد يؤدّي عن جمع ، كما في هذه الآية ؛ ويقع على الواحد كقوله تعالى : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [مريم : 52] وجمعه أَنْجِيَة ؛ قال الشاعر :

إنِّي إذا ما القومُ كانوا أَنْجِيَهْ . . .

واضطرب القومُ اضطراب الأَرْشِيَهْ

هُنَاكَ أَوْصِينِي ولَا تُوصِي بِيَهْ . . .

وقرأ ابن كثير: "استايسوا" "ولا تايسوا" "إنه لا يايس" "أفلم يايس" بألف من غير همز على القلب؛ قدّمت الهمزة وأخّرت الياء، ثم قلبت الهمزة ألفاً لأنها ساكنة قبلها فتحة؛ والأصل قراءة الجماعة؛ لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء يأساً والإياس ليس بمصدر أَيِسَ؛ بل هو مصدر أُسْتُهُ أَوْساً وإياساً أي أعطيته.

وقال قوم: أَيِس ويَئِس لغتان؛ أي فلما يئسوا من ردّ أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس، يتناجون فيما عَرَض لهم.

والنَّجيّ فعيل بمعنى المناجي.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ قال قتادة: هو روبيل، كان أكبرهم في السِّن.

مجاهد: هو شمعون، كان أكبرهم في الرأي.

وقال الكلبي: يهوذا؛ وكان أعقلهم.

وقال محمد بن كعب وابن إسحق: هو لاوَى، وهو أبو الأنبياء.

﴿ أَلَمْ تعلموا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقاً مِّنَ اللهِ ﴾ أي عهداً من الله في حفظ ابنه، وردّه إليه.

﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ "ما" في محل نصب عطفاً على "أن" والمعنى: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، وتعلموا تفريطكم في يوسف؛ ذكره النحاس

وغيره .

و"من" في قوله : "وَمِنْ قَبْلُ" متعلقة ب "تعلموا" .

(114/401)

ويجوز أن تكون "ما" زائدة ؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما "مِنْ قَبْلُ" و "فِي يُوسُفَ" بالفعل وهو "فَرَّطْتُمْ" .

ويجوز أن تكون "ما" والفعل مصدراً ، و "مِنْ قَبْلُ" متعلقاً بفعل مضمر ؛ التقدير : تفريطكم في يوسف واقع من قبل ؛ فما والفعل في موضع رفع بالابتداء ، والخبر هو الفعل المضمر الذي يتعلق به "مِنْ قَبْلُ" .

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرض ﴾ أي ألزمها ، ولا أبرح مقيماً فيها ؛ يقال : بَرِحَ بَرَاحاً وبُرُوحاً أي زال ، فإذا دخل النفي صار مثبتاً .

﴿ حتى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ بالرجوع فإنّي أستحي منه .

﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بالمرّ مع أخي فأمضي معه إلى أبي .

وقيل : المعنى أو يحكم الله لي بالسيف فأحارب وآخذ أخي ، أو أعجز فأنصرف بعذر ، وذلك أن يعقوب قال : ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ ومن حارب وعَجَز فقد أحيط

به ؛ وقال ابن عباس : وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يردّ وجهه مائة ألف ؛ يقوم شعره في صدره مثل المَسَالّ فتنفذ من ثيابه .

(115/401)

وجاء في الخبر أن يهوذا قال لإخوته وكان أشدّهم غضباً : إما أن تكفوني المِلك ومن معه أكفكم أهل مصر ؛ وإما أن تكفوني أهل مصر أكفكم المِلك ومن معه ؛ قالوا : بل اكفنا الملك ومن معه نكفِك أهل مصر ؛ فبعث واحداً من إخوته فعدّوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق ، فأخذ كل واحد منهم سوقاً ؛ ثم إنّ يهوذا دخل على يوسف وقال : أيها الملك ! لئن لم تخلِّ معنا أخانا لأصيحن صيحة لا تبقي في مدينتك حاملاً إلا أسقطت ما في بطنها ؛ وكان ذلك خاصة فيهم عند الغضب ؛ فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة ، فغضب يهوذا واشتد غضبه ، وانتفجت شعراته ؛ وكذا كان كل واحد من بني يعقوب ؛ كان إذا غضب ، اقشعر جلده ، وانتفخ جسده ، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب ، حتى تقطر من كل شعرة قطرة دم ؛ وإذا ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهدّم البنيان ، وإن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم والطير إلا وضعت ما في بطنها ، تماماً أو غير تمام ؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دماً ، أو تمسكه يدٌ من نسل يعقوب ؛ فلما علم يوسف أن

غضب أخيه يهوذا قد تمّ وكمل كَلَّم ولداً له صغيراً بالقبطية ، وأمره أن يضع يده بين كتفي يهوذا من حيث لا يراه ؛ ففعل فسكن غضبه وألقى السيف فالتفت يميناً وشمالاً لعله يرى أحداً من إخوته فلم يره ؛ فخرج مسرعاً إلى إخوته وقال : هل حضرني منكم أحد ؟ قالوا : لا قال : فأين ذهب شمعون ؟ قالوا : ذهب إلى الجبل ؛ فخرج فلقيه ، وقد احتمل صخرة عظيمة ؛ قال : ما تصنع بهذه ؟ قال أذهب إلى السوق الذي وقع في نصيبي أشدخ بها رؤوس كل من فيه ؛ قال : فارجع فردّها ، أو ألقها في البحر ، ولا تحدثن حَدَثاً ؛ فوالذي اتخذ إبراهيم خليلا لقد مَسّني كَفٌّ من نَسْل يعقوب .

(116/401)

ثم دخلوا على يوسف ، وكان يوسف أشدّهم بطشاً ، فقال : يا معشر العبرانيين ! أتظنون أنه ليس أحد أشدّ منكم قوة ، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحونة فرَكَله برجله فدَحا به من خلف الجدار الرّكْلُ الضرب بالرجل الواحدة ؛ وقد رَكَله يَركُله ؛ قاله الجوهري ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه (لجنبه) ، وقال : هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم ، ثم صعد على سريره ، وجلس على فراشه ، وأمر بصُواعِه فوضع بين يديه ، ثم نقره نقرة فخرج طنينه ، فالتفت إليهم وقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا

قال : فإنه يقول : إنه ليس على قلب أبي هؤلاء همّ ولا غمّ ولا كرب إلا بسببهم ، ثم نقر نقرة ثانية وقال : إنه يخبرني أن هؤلاء أخذوا أخاً لهم صغيراً فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلفوه ؛ فقالوا : أيها العزيز ! استر علينا ستر الله عليك ، وامنن علينا منّ الله عليك ؛ فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول : إن هؤلاء طرحوا صغيرهم في الجُبّ ، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس ، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله ؛ ثم نقره رابعة وقال : إنه يخبرني أنكم أذنبتم ذنباً منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه ؛ ولم تتوبوا إليه ، ثم نقره خامسة وقال إنه يقول : إن أخاهم الذي زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا ؛ ثم نقره سادسة وقال إنه يقول : لو كنتم أنبياء أو بني أنبياء ما كذبتم ولا عققتم والدكم ؛ لأجعلنّكم نكالاً للعالمين . إيتوني بالحدّادين أقطع أيديهم وأرجلهم ، فتضرعوا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا : لو قد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حيّ لنكونن طوع يده ، وتراباً يطأ علينا برجله ؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم : اخرجوا عني ! قد خلّيت سبيلكم إكراماً لأبيكم ، ولولا هو لجعلتكم نكالاً .

قوله تعالى : ﴿ ارجعوا إلى أَبِيكُمْ ﴾

قاله الذي قال : "فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ" .

﴿ فَقُولُواْ يا أبانا إِنَّ ابنك سَرَقَ ﴾ وقرأ ابن عباس والضّحاك وأبو رزين "إِنَّ ابنك سُرِّقَ" .

النحاس : وحدثني محمد بن أحمد بن عمر قال حدّثنا ابن شَاذَان قال حدّثنا أحمد بن أبي سُرَيج البغداديّ قال : سمعت الكسائيّ يقرأ : "يَا أَبَانَا إِنَّ ابنك سُرِّقَ" بضم السين وتشديد الرّاء مكسورة ؛ على ما لم يُسمّ فاعله ؛ أي نُسب إلى السرقة ورُمي بها ؛ مثل خوّنته وفسّقته وفجرّته إذا نسبته إلى هذه الخلال .

وقال الزجاج : "سُرِّقَ" يحتمل معنيين : أحدهما علم منه السَّرَق ، والآخر اتهم بالسَّرَق .

قال الجوهري : والسَّرِق والسَّرِقة بكسر الراء فيهما هو اسم الشيء المسروق ، والمصدر سَرَق يَسْرِق سَرَقاً بالفتح .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ يريدون ما شهدنا قطّ إلا بما علمنا ، وأما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما نعلم الغيب ؛ كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين : دَسَّ هذا في رحلي مَن دَسَّ بضاعتكم في رحالكم ؛ قال معناه ابن إسحق .

وقيل المعنى : ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسْتَرَقُّ إلا بما علمنا من دينك ؛ قاله ابن زيد .

﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ أي لم نعلم وقت أخذْناه منك أنه يَسْرِق فلا نأخذه .

وقال مجاهد وقتادة : ما كنا نعلم أن ابنك يُسترقّ ويصير أمرنا إلى هذا ، وإنما قلنا : نحفظ أخانا فيما نطيق .

وقال ابن عباس : يعنون أنه سَرَق ليلاً وهم نيام ، والغيب هو الليل بلغة حِمْير ؛ وعنه : ما كنا نعلم ما يصنع في ليله ونهاره وذهابه وإيابه .

وقيل : ما دام بمرأى منا لم يجر خَلَل ، فلما غاب عنا خفيت عنا حالاته .

وقيل معناه : قد أخِذت السّرِقة من رَحْله ، ونحن أخرجناها ونظر إليها ، ولا علم لنا بالغيب ، فلعلهم سَرّقوه ولم يَسرِق .

(118/401)

الثانية : تضمّنت هذه الآية جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها ؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلاً وشرعاً ، فلا تسمع إلا ممن عَلِم ، ولا تقبل إلا منهم ، وهذا هو الأصل في الشهادات ؛ ولهذا قال أصحابنا : شهادة الأعمى جائزة ، وشهادة المستمع جائزة ، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة ؛ وكذلك الشهادة على الخطّ إذا تيقّن أنه خطّه أو خطّ فلان صحيحة فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به وإن لم يُشهِده

المشهود عليه ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : 86]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَلَا أَخبركم بخير الشهداء خيرُ الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها " وقد مضى في "البقرة" .

الثالثة : اختلف قول مالك في شهادة المرور ؛ وهو أن يقول : مررت بفلان فسمعته يقول كذا فإن استوعب القول شهِد في أحد قوليه ، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يُشهداه .

والصحيح أداء الشهادة عند الاستيعاب ؛ وبه قال جماعة العلماء ، وهو الحق ؛ لأنه (قد) حصل المطلوب ، وتعيّن عليه أداء العلم ؛ فكان خير الشهداء إذا أعلم المشهود له ، وشر الشهداء إذا كتمها (والله أعلم) .

الرابعة : إذا ادعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردّت ؛ لأنه ادعى باطلاً فأكذبه العِيَان ظاهراً .

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية التي كُنَّا فِيهَا والعير ﴾ حَقَّقوا بها شهادتهم عنده ، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم .

فقولهم : "واسأل الْقَرْيَةَ" أي أهلها ؛ فحُذِف ؛ ويريدون بالقرية مصر .

وقيل : قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها .

وقيل المعنى : "واسأل الْقَرْيَةَ" وإن كانت جماداً ، فأنت نبيّ الله ، وهو يُنطق الجماد لك ؛ وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار ؛ قال سيبويه : ولا يجوز كَلّم هِنداً وأنت تريد غلام هند ؛ لأن هذا يُشكل .

والقول في العِير كالقول في القرية سواء .

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في قولنا .

الثانية : في هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق ، وعلِم أنه قد يُظنّ به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهّم أن يرفع التهمة وكلّ ريبة عن نفسه ، ويصرّح بالحق الذي هو عليه ، حتى لا يبقى لأحد مُتكلَّم ؛ وقد فعل هذا نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم " بقوله للرجلين اللذين مرّاً وهو قد خرج مع صفِية يَقْلِبُها من المسجد : "على رسلِكما إنما هي صفية بنت حُيَيّ" فقالا : سبحان الله ! وكَبُر عليهما ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدّم وإني خَشِيت أن يَقذِف في قلوبكما شيئاً " رواه البخاري ومسلم .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أي زَيَّنَتْ.

﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ أن ابني سَرَق وما سَرَق، وإنما ذلك لأمر يريده الله.

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي فشأني صبر جميل؛ أو صبر جميل أولى بي، على ما تقدّم أوّل السورة.

الثانية: الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم لمجرِيه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدي (بنبي الله) يعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم أجمعين.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة عن قَتَادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرّعهما العبد أحبّ إلى الله من جرعة مصيبة يتجرّعها العبد بحسن صبر وحسن عَزَاء، وجرعة غيظ يتجرّعها العبد بحلم وعفو.

وقال ابن جُريج عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي لا أشكو ذلك إلى أحد .

وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبي رَبَاح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ بَثَّ لم يَصْبِر " .

وقد تقدّم في "البقرة" أن الصبر عند أوّل الصَّدمة ، وثواب من ذكر مصيبته واسترجع وإن تقادم عهدها .

وقال جُوَيبر عن الضحّاك عن ابن عباس قال : إن يعقوب أُعطي على يوسف أجر مائة شهيد ، وكذلك من احتسب من هذه الأمة في مصيبته فله (مثل) أجر يعقوب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ لأنه كان عنده أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يمت ، وإنما غاب عنه خبره ؛ لأن يوسف حِمل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئاً ، ثم اشتراه الملك فكان في داره لا يظهر للناس ، ثم حُبس ، فلما تمكن احتال في أن يعلم أبوه خبره ؛ ولم يُوجّه برسول لأنه كرِه من إخوته أن يعرفوا ذلك : فلا يَدعوا الرسول يَصلُ إليه .

وقال : "بهم" لأنهم ثلاثة ؛ يوسف وأخوه ، والمتخلّف من أجل أخيه ، وهو القائل : "فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ" .

﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم ﴾ بحالي.

﴿ الحكيم ﴾ فيما يقضي. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(121/401)

وقال الخازن:

قوله: ﴿ فلما استيأسوا منه ﴾

يعني أيسوا من يوسف أن يجيبهم لما سألوه، وقيل: أيسوا من أخيهم أن يرد عليهم، وقال أبو عبيدة: استيأسوا أي استيقنوا أن الأخ لا يرد إليهم ﴿ خلصوا نجياً ﴾ يعني خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون ليس فيهم غيرهم ﴿ قال كبيرهم ﴾ يعني في العقل والعلم لا في السن، قال ابن عباس: الكبير يهوذا وكان أعقلهم وقال مجاهد هو شمعون وكانت له الرئاسة على إخوته، وقال قتادة والسدي والضحاك: هو روبيل وكان أكبرهم سناً وأحسنهم رأياً في يوسف لأنه نهاهم عن قتله ﴿ ألم تعلموا أن أباكم ﴾ يعني يعقوب ﴿ قد أخذ عليكم موثوقاً ﴾ يعني عهداً ﴿ من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ يعني قصرتم في أمر يوسف حتى ضيعتموه ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ يعني الأرض التي أنا فيها وهي أرض مصر والمعنى فلن أخرج من أرض مصر ولا أفارقها على هذه الصورة ﴿ حتى يأذن لي أبي

﴿ يعني في الخروج من أرض مصر فيدعوني إليه ﴾ أو يحكم الله لي ﴿ برد أخي عليّ أو بخروجي معكم وترك أخي أو يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم حتى أسترد أخي ﴾ وهو خير الحاكمين ﴿ لأنه يحكم بالحق والعدل والإنصاف ، والمراد من هذا الكلام الالتجاء إلى الله تعالى في إقامة عذره عند والده يعقوب .

﴿ ارجعوا إلى أبيكم ﴾

يعني يقول الأخ الكبير الذي عز على الإقامة بمصر لإخوته الباقين ارجعوا إلى أبيكم يعقوب ﴿ فقولوا ﴾ له ﴿ يا أبانا إن ابنك سرق ﴾ إنما قالوا هذه المقالة ونسبوه إلى السرقة لأنهم شاهدوا الصواع وقد أخرج من متاع بنيامين فغلب على ظنهم أنه سرق فلذلك نسبوه إلى السرقة في ظاهر الأمر لا في حقيقة الحال ويدل على أنهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ يعني ولم نقل ذلك إلا بعد ان رأينا إخراج الصواع وقد أخرج من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء إلا بما علمناه وهذه ليست بشهادة إنما هو خبر عن صنيع ابنك أنه سرق بزعمهم فيكون المعنى ان ابنك في زعم الملك وأصحابه لا أنّا نشهد عليه بالسرقة : وقرأ ابن عباس والضحاك : سرق بضم السين وكسر

الراء وتشديدها أي نسب إلى السرقة واتهم بها وهذه القراءة لا تحتاج إلى تأويل ومعناها أن القوم نسبوه إلى السرقة إلا أن هذه القراءة ليست مشهورة فلا تقوم بها حجة والقراءة الصحيحة المشهورة وهي الأولى وقوله وما شهدنا إلا بما علمنا يعني وما قلنا هذا إلا بما علمنا فيما رأينا إخراج الصواع من متاعه ، وقيل : معناه ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء إلا بما علمناه وليست هذه شهادة وإنما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم .

وقيل : قال لهم يعقوب هب أنه سرق فما يدري هذا الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته إلا بقولكم قالوا ما شهدنا عنده أن السارق يسترق إلا بما علمنا من الحكم وكان الحكم كذلك عند الأنبياء قبله ويعقوب وبنيه .

وأورد على هذا القول كيف جاز ليعقوب إخفاء هذا الحكم حتى ينكر على بنيه ذلك .

(123/401)

وأجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون ذلك الحكم كان مخصوصاً بما إذا كان المسروق منه مسلماً فلهذا أنكر عليهم إعلام الملك بهذا الحكم لظنه أنه كافر ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ قال مجاهد وقتادة : يعني ما كنا نعلم أن ابنك سرق ويصير أمرنا إلى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا وإنما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه منه سبيل ، وقال ابن عباس : ما

كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين وقيل معناه إن حقيقة الحال غير معلومة لنا فإن الغيب لا يعلمه إلا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لا نعلم بذلك ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ يعني واسأل أهل القرية إلا أن حذف المضاف للإيجاز ومثل هذا النوع من المجاز مشهور في كلام العرب والمراد بالقرية مصر ، وقال ابن عباس : هي قرية من قرى مصر كان قد جرى فيها حديث السرقة والتفتيش ﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ يعني واسأل القافلة التي كنا فيها وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب ﴿ وإنا لصادقون ﴾ يعني فيما قلناه وإنما أمرهم أخوهم الذي أقام بمصر بهذه المقالة مبالغة في إزالة التهمة عن أنفسهم عند أبيهم لأنهم كانوا متهمين عنده بسبب واقعة يوسف ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ فيه اختصار تقديره فرجعوا إلى أبيهم فأخبروه بما جرى لهم في سفرهم ذلك وبما قال لهم كبيرهم وأمرهم أن يقولوه لأبيهم فعند ذلك قال لهم يعقوب بل سولت يعني بل زينت لكم أنفسكم أمراً وهو حمل أخيكم معكم إلى مصر لطلب نفع عاجل فآل أمركم إلى ما آل ، وقيل : معناه بل خيلت لكم أنفسكم أنه سرق ما سرق ﴿ فصبر جميل ﴾ تقدم تفسيره في أول السورة .

وقوله ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ﴾ يعني بيوسف وبنيامين والأخ الثالث الذي أقام بمصر وإنما قال يعقوب هذه المقالة لأنه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله لأنه إذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع إلى الفرج، وقيل : إن يعقوب علم بما يجري عليه وعلى بنيه من أول الأمر وهو رؤيا يوسف وقوله ﴿ يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ فلما تناهى الأمر قال عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ﴿ إنه هو العليم ﴾ يعني بحزني ووجدي عليهم ﴿ الحكيم ﴾ فيما يدبره ويقضيه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾

استفعل هنا بمعنى المجرد، يئس واستيأس بمعنى واحد نحو : سخر واستسخر، وعجب واستعجب.

وزعم الزمخشري أن زيادة السين والتاء في المبالغة قال : نحو ما مر في استعصم انتهى.

وقرأ ابن كثير : استيأسوا استفعلوا ، من أيس مقلوباً من يئس ، ودليل القلب كون ياء أيس لم تنقلب ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها .

ومعنى خلصوا نجياً : انفردوا من غيرهم يناجي بعضهم بعضاً .

والنجي فعيل بمعنى مفاعل ، كالخليط والعشير .

ومعنى المصدر الذي هو التناجي كما قيل : النجوى بمعنى التناجي ، وهو لفظ يوصف به من له نجوى واحداً كان أو جماعة ، مؤنثاً أو مذكراً ، فهو كعدل ، ويجمع على أنجية قال لبيد :

وشهدت أنجية الأفاقة عالياً . . .

كعبي وأرداف الملوك شهود

وقال آخر :

إني إذا ما القوم كانوا أنجيه . . .

ويقول : قوم نجى وهم نجوى تنزيلاً للمصدر منزلة الأوصاف .

ويجوز أن يكون هم نجى من باب هم صديق ، لأنه بزنة المصادر محصواً للتناجي ، ينظرون ماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم لهذا الذي دهمهم من الخطب فيه ، فاحتاجوا إلى التشاور .

وكبيرهم أي : رأياً وتديبراً وعلماً ، وهو شمعون قاله : مجاهد .

أو كبيرهم في السن وهو روبيل قاله : قتادة .

وقيل : في العقل والرأي ، وهو يهوذا .

ذكرهم الميثاق في قول يعقوب : لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ، وما زائدة أي : ومن قبل هذا فرطتم في يوسف .

ومن قبل متعلق بفرطتم ، وقد جوزوا في إعرابه وجوهاً : أحدها : أن تكون ما مصدرية أي : ومن قبل تفريطكم .

قال الزمخشري : على أن محل المصدر الرفع على الابتداء ، وخبره الظرف ، وهو ومن قبل ومعناه : ووقع من قبل تفريطكم في يوسف .

وقال ابن عطية : ولا يجوز أن يكون قوله : من قبل ، متعلقاً بما فرطتم ، وإنما تكون على هذا مصدرية ، التقدير : من قبل تفريطكم في يوسف واقع ومستقر .

وبهذا القدر يتعلق قوله من قبل انتهى .

وهذا وقول الزمخشري راجع إلى معنى واحد وهو : إن ما فرطتم يقدر بمصدر مرفوع بالابتداء ، ومن قبل في موضع الخبر ، وذهلا عن قاعدة عربية ، وحق لهما أن يذهلا وهو

أنّ هذه الظروف التي هي غايات إذا ثبتت لا تقع أخباراً للمبتدأ جرت أو لم تجر ، تقول : يوم السبت مبارك والسفر بعده ، ولا يجوز والسفر بعد وعمرو زيد خلفه .

ولا يقال : عمرو زيد خلف .

وعلى ما ذكراه يكون تفريطكم مبتدأ ، ومن قبل خبر ، وهو مبني ، وذلك لا يجوز وهذا مقرر في علم العربية .

ولهذا ذهب أبو علي إلى أنّ المصدر مرفوع بالابتداء ، وفي يوسف هو الخبر أي : كائن أو مستقر في يوسف .

والظاهر أنّ في يوسف معمول لقوله : فرطتم ، لا أنه في موضع خبر .

وأجاز الزمخشري وابن عطية : أن تكون ما مصدرية ، والمصدر المسبوك في موضع نصب ، والتقدير : ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً من قبل وتفريطكم في يوسف .

وقدره الزمخشري : وتفريطكم من قبل في يوسف ، وهذا الذي ذهبا إليه ليس بجيد ، لأنّ فيه الفصل بالجار والمجرور بين حرف العطف الذي هو على حرف واحد ، وبين المعطوف ، فصار نظير : ضربت زيداً وبسيف عمراً .

وقد زعم أبو علي الفارسي أنه لا يجوز ذلك إلا في ضرورة الشعر .

وأما تقدير الزمخشري : وتفريطكم من قبل في يوسف ، فلا يجوز لأن فيه تقديم معمول المصدر المنحل لحرف مصدري والفعل عليه ، وهو لا يجوز .

وأجاز أيضاً أن تكون موصولة بمعنى الذي .

قال الزمخشري : ومحله الرفع أو النصب على الوجهين انتهى .

يعني بالرفع أن يرتفع على الابتداء ومن قبل الخبر ، وقد ذكرنا أن ذلك لا يجوز .

ويعني بالنصب أن يكون عطفاً على المصدر .

المنسبك من قوله : إن أباكم قد أخذ ، وفيه الفصل بين حرف العطف الذي هو الواو ، وبين المعطوف .

وأحسن هذه الأوجه ما بدأنا به من كون ما زائدة ، وبرح التامة تكون بمعنى ذهب وبمعنى ظهر ، ومنه برح الخفاء أي ظهر .

(127/401)

وذهب لا ينتصب الظرف المكاني المختص بها ، إنما يصل إليه بوساطة في فاحتيج إلى اعتقاد تضمين برح بمعنى فارق ، فانتصب الأرض على أنه مفعول به .

ولا يجوز أن تكون ناقصة لأنه لا ينعقد من اسمها ، والأرض المنصوب على الظرف مبتدأ وخبر ، لأنه لا يصل إلا بحرف في .

لو قلت : زيد الأرض لم يجز ، وعني بالأرض أرض مصر التي فيها الواقعة ، ثم غيا ذلك

بغايتين : إحداهما : خاصة وهي قوله : حتى يأذن لي أبي ، يعني في الانصراف إليه .

والثانية : عامة وهي قوله : أو يحكم الله لي ، لأنّ إذن الله له هو من حكم الله له في مفارقة أرض مصر ، وكأنه لما علق الأمر بالغاية الخاصة رجع إلى نفسه فأتى بغاية عامة تفويضاً لحكم الله تعالى ، ورجوعاً إلى من له الحكم حقيقة ، ومقصوده التضييق على نفسه ، كأنه سجنها في القطر الذي أداه إلى سخط أبيه إبلاء لعذره .

وحكم الله تعالى له بجميع أنواع العذر كالموت ، وخلاص أخيه ، أو انتصافه من أخذ أخيه .

وقال أبو صالح : أو يحكم الله لي بالسيف ، أو غير ذلك .

والظاهر أن أو يحكم معطوف على يأذن .

وجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن بعد أو في جواب النفي ، وهو : فلن أبرح الأرض أي : إلا أن يحكم الله لي ، كقولك : لألزمنك أو تقضيني حقي ، أي : إلا أن تقضيني ، ومعناها ومعنى الغاية متقاربان .

روي أنهم لما وصلوا إلى يعقوب أخبروه بالقصة فبكى وقال : يا بني ما تذهبون عني مرة إلا نقصتم ، ذهبتم فنقصت شمعون حيث ارتهن ، ثم ذهبتم فنقصتم بنيامين وروبيل .

والظاهر أنّ الأمر بالرجوع هو من قول كبيرهم .

وقيل : من قول يوسف لهم .

وقرأ الجمهور : سرق ثلاثياً مبنياً للفاعل ، إخباراً بظاهر الحال .

وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، والكسائي في رواية سرق بتشديد الراء مبنياً للمفعول ، لم يقطعوا عليه بالسرقة بل ذكروا أنه نسب إلى السرقة .

ويكون معنى : وما شهدنا إلا بما علمنا من التسريق .

(128/401)

وما كنا للغيب أي : للأمر الخفي حافظين ، أسرق بالصحة أم دس الصاع في رحله ولم يشعر ؟ وقرأ الضحاك : سارق اسم فاعل ، وعلى قراءة سرق وسارق اختلف التأويل في قوله : إلا بما علمنا .

قال الزمخشري : بما علمنا من سرقته ، وتيقناً لأنّ الصواع أخرج من وعائه ، ولا شيء أبين من هذا .

وقال ابن عطية : أي ، وقولنا لك إن ابنك سرق إنما هي شهادة عندك بما علمناه من ظاهر ما جرى ، والعلم في الغيب إلى الله تعالى ليس ذلك في حفظنا ، هذا قول ابن إسحاق :

وقال ابن زيد : أرادوا وما شهدنا به عند يوسف أن السارق يسترق في شرعك ، إلا بما علمنا من ذلك ، وما كنا للغيب حافظين أنّ السرقة تخرج من رحل أحدنا ، بل حسبنا أن

ذلك لا يكون البتة ، فشهدنا عنده حين سألنا بعلمنا .

ويحتمل قوله : وما كنا للغيب حافظين أي : حين واثقناك ، إنما قصدنا أن لا يقع منا نحن في جهته شيء يكرهه ، ولم نعلم الغيب في أنه سيأتي هو بما يوجب رقه .

وقال الزمخشري : وما كنا للغيب حافظين ، وما علمنا أنه يسترق حين أعطيناك الموثق ، أو ربما علمنا أنك تصاب كما أصبت بيوسف .

ومن غريب التفسير أن المعنى قولهم : للغيب ، لليل والغيب الليل بلغة حمير ، وكأنهم قالوا : وما شهدنا إلا بما علمنا من ظاهر حاله ، وما كنا بالليل حافظين لما يقع من سرقته هو ، أو التدليس عليه .

وفي الكلام حذف تقديره : رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بالقصة .

وقول من قال : ارجعوا ثم استشهدوا بأهل القرية التي كانوا فيها وهي مصر قاله : ابن عباس أي : أرسل إلى القرية واسأل عن كنه القصة .

والعير كانوا قوماً من كنعان من جران يعقوب .

وقيل : من أهل صنعاء .

فالظاهر أن ذلك على إضمار أهل كأنه قيل : وسل أهل القرية وأهل العير ، إلا إن أريد بالعير القافلة ، فلا إضمار في قوله والعير .

وأحالوا في توضيح القصة على ناس حاضرين الحال فيشهدون بما سمعوا ، وعلى ناس غيب يرسل إليهم فيسألون .

(129/401)

وقالت فرقة : بل أحالوه على سؤال الجمادات والبهائم حقيقة ، ومن حيث هو نبي ، ولا يبعد أن يخبره بالحقيقة ، وحذف المضاف هو قول الجمهور .

قال ابن عطية : وهذا مجاز .

وحكى أبو المعالي عن بعض المتكلمين أنه قال : هذا من الحذف وليس من المجاز قال : وإنما المجاز لفظة استعيرت لغير ما هي له قال : وحذف المضاف هو عين المجاز ، وعظمه هذا مذهب سيبويه وغيره .

وحكى أنه قول الجمهور أو نحو هذا انتهى .

وفي المحصول لأبي عبد الله محمد الرازي ، وفي مختصراته أنّ الإضمار والمجاز متباينان ليس أحدهما قسماً من الآخر .

وبل للإضراب ، فيقتضي كلاماً محذوفاً قبلها حتى يصح الإضراب فيها وتقديره : ليس الأمر حقيقة كما أخبرتم ، بل سولت .

قال ابن عطية : والظاهر أنّ قوله بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، إنما هو ظن سوء بهم كما كان في قصة يوسف قبل ، فاتفق أنّ صدق ظنه هناك ، ولم يتحقق هنا .

وقال الزمخشري : بل سولت لكم أنفسكم أمراً أردتموه ، وإلا فما أدري ذلك الرجل أنّ السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم .

وتقدم شرح سولت ، وإعراب فصبر جميل .

ثم ترجى أن الله يجمعهم عليه وهم : يوسف ، وبنيامين ، وكبيرهم على الخلاف الذي فيه .

وترجى يعقوب للرؤيا التي رآها يوسف ، فكان ينتظرها ويحسن ظنه بالله في كل حال .

ولما أخبر به عن ملك مصر أنه يدعو له برؤية ابنه ، ووصفه الله بهاتين الصفتين لائق بما يؤخره تعالى من لقاء بنيه ، وتسليم لحكمة الله فيما جرى عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(130/401)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ ﴾

أي يئسوا من يوسف وإجابتِه لهم أشدَّ يأس بدِلالة صيغة الاستفعال ، وإنما حصَلت لهم

هذه المرتبةُ من اليأس لما شاهدوه من عَوْذه بالله مما طلبوه الدالّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهةِ وأنه مما يجب أن يُحترز عنه ويُعاذ منه بالله عز وجل ومن تسميته ظلماً بقوله : ﴿ إِنَّا إِذاً لظالمون ﴾ ﴿ خَلَصُواْ ﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس ﴿ نَجِيّاً ﴾ أي ذوي نجوى على أن يكون بمعنى النجوى والتناجي أو فوجاً نجياً على أن يكون بمعنى المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ ويجوز أن يقال : هم نَجِيٌّ ، كما يقال : هم صديق لأنه بزنة المصادر من الزفير والزئير ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ في السن وهو روبيل أو في العقل وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ كأنهم أجمعوا عند التناجي على الانقلاب جملةً ولم يرضَ به فقال منكِراً عليهم : ألم تعلموا ﴿ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ ﴾ عهداً يوثق به وهو حِلفُهم بالله تعالى ، وكونُه من الله لإذنه فيه وكونِ الحلف باسمه الكريم ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ أي ومن قبل هذا ﴿ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهدَ أبيكم وقد قلتم : وإنا له لناصحون ، وإنا له لحافظون ، وما مزيدةٌ أو مصدرية ، ومحلُّ المصدر النصبُ عطفاً على مفعول تعلموا أي ألم تعلموا أخذَ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطَكم السابقَ في شأن يوسف عليه السلام ، ولا ضير في الفصل بين العاطفِ والمعطوفِ بالظرف وقد جوّز النصبُ عطفاً على اسم أن والخبر في يوسف أو من قبل على معنى ألم تعلموا أن تفريطَكم السابق وقع في شأن يوسف عليه السلام أو أن تفريطَكم الكائنَ أو كائناً في شأن يوسف

عليه السلام وقع من قبل ، وفيه أن مقتضى المقام إنما هو الإخبارُ بوقوع ذلك التفريطِ لا بكون تفريطِهم السابقِ واقعاً في شأن يوسف كما هو مفادُ

(131/401)

الأول ، ولا بكون تفريطِهم الكائنِ في شأنه واقعاً من قبل كما هو مفادُ الثاني على أن الظرفَ المقطوعَ عن الإضافة لا يقع خبراً ولا صفة ولا صلة ولا حالاً عند البعض كما تقرر في موضعه ، وقيل : محلُّه الرفعُ على الابتداء والخبرُ من قبلُ وفيه ما فيه ، وقيل : ما موصولةٌ أو موصوفة ومحلها النصبُ أو الرفعُ والحقُّ هو النصبُ عطفاً على مفعول تعلموا أي ما فرطتموه بمعنى قد متموه في حقه من الخيانة ، وأما النصبُ عطفاً على اسم أن أو الرفعُ على الابتداء فقد عرفتَ حاله ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض ﴾ متفرِّعٌ على ما ذكره وذكَره إياهم من ميثاق أبيه وقوله :

﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي فلن أفارق أرضَ مصرَ جارياً على قضية الميثاق ﴿ حتى يَأْذَنَ لِى أَبِى ﴾ في البَراح بالانصراف إليه وكأن أيمانَهم كانت معقودةً على عدم الرجوعِ بغير إذن يعقوبَ عليه السلام ﴿ أَوْ يَحْكُمَ الله لِى ﴾ بالخروج منها على وجه لا يؤدّي إلى نقض الميثاقِ أو بخلاص أخي بسبب من الأسباب . روي أنهم كلموا العزيز في

إطلاقه فقال روبيل : أيها الملك لتردّن إلينا أخانا أو لأصِيحن صَيْحة لا تبقى بمصرَ حاملٌ إلا ألقت ولدها ووقعت كل شعرة في جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب إذا غضِبوا لا يطاقون خلا أنه إذا مس مَنْ غضب واحدٌ منهم سكن غضبُه ، فقال يوسف لابنه : قم إلى جنبه فَمُسّه فَمَسّه فقال روبيل : مَنْ هذا ؟ إن في هذا البلد بَذْراً من بَذر يعقوب ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ إذ لا يحكم إلا بالحق والعدل .

(132/401)

﴿ ارجعوا ﴾ أنتم ﴿ إلى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يأَبَانَا إِنَّ ابنك سَرَقَ ﴾ على ظاهر الحالِ وقرىء سُرِق أي نسب إلى السرقة ﴿ وَمَا شَهِدْنَا ﴾ عليه ﴿ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ وشاهدنا أن الصُواعَ استُخرجت من وعائه ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ ﴾ أي باطن الحال ﴿ حافظين ﴾ فما ندري أن حقيقةَ الأمرِ كما شاهدنا أم بخلافه ، أو وما كنا عالمين حين أعطيناك المَوْثقَ أنه سيسرِق أو أن نلاقيَ هذا الأمر أو أنك تصاب به كما أُصبت بيوسف .

﴿ واسئل القرية التى كُنَّا فِيهَا ﴾

أي مصرَ أو قريةً بقربها لحِقهم المنادي عندها أي أرسلْ إلى أهلها واسألهم عن القصة ﴿ والعير التى أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي أصحابَها فإن القصة معروفةٌ فيما بينهم وكانوا قوماً من كنعان

من جيران يعقوبَ عليه السلام ، وقيل : من صنعاء ﴿ وَإِنَّا لصادقون ﴾ تأكيدٌ في محل القسم ﴿ قَالَ ﴾ أي يعقوبُ عليه السلام وهو استئنافٌ مبني على سؤال نشأ مما سبق فكأنه قيل : فماذا كان عند قول المتوقّف لإخوته ما قال ؟ فقيل : قال يعقوبُ عندما رجَعوا إليه فقالوا له ما قالوا وإنما حُذف للإيذان بأن مسارعَتهم إلى قبوله ورجوعَهم به إلى أبيهم أمرٌ مسلَّم غنيٌّ عن البيان ، وإنما المحتاجُ إليه جوابُ أبيهم ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أي زيّنت وسهّلت وهو إضرابٌ لا عن صريح كلامهم فإنهم صادقون في ذلك عما يتضمنه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وأنه لم يصدرُ عنهم ما يؤدي إلى ذلك من قول أو فعل كأنه قيل : لم يكن الأمرُ كذلك بل زينت ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ من الأمور فأتيتموه يريد بذلك فُتياهم بأخذ السارق بسرقته ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي فأمري صبرٌ جميل أو فصبرٌ جميل أجملُ ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ بيوسف وأخيه والمتوقّف بمصر ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم ﴾ بحالي وحالهم ﴿ الحكيم ﴾ الذي لم يبتلِني إلا لحكمة بالغة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ ﴾

أي يئسوا من يوسف عليه السلام وإجابته لهم إلى مرادهم ، فاستفعل بمعنى فعل نحو سخر واستسخر وعجب واستعجب على ما في "البحر" ، وقال غير واحد : إن السين والتاء زائدتان للمبالغة أي يئسوا يأساً كاملاً لأن المطلوب المرغوب مبالغ في تحصيله ، ولعل حصول هذه المرتبة من اليأس لهم لما شاهدوه من عوذه بالله تعالى مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة وأنه مما يجب أن يحترز عنه ويعاذ بالله تعالى منه ، ومن تسميته ذلك ظلماً بقوله : ﴿ إِنَّا إِذاً لظالمون ﴾ [يوسف : 79] .

وفي بعض الآثار أنهم لما رأوا خروج الصواع من رحله وكانوا قد أفتوا بما أفتوا تذكروا عهدهم مع أبيهم استشاط من بينهم روبيل غضباً وكان لا يقوم لغضبه شيء ووقف شعره حتى خرج من ثيابه فقال : أيها الملك لتتركن أخانا أو لأصيحن صيحة لا يبقين بها في مصر حامل إلا وضعت فقال يوسف عليه السلام لولد له صغير : قم إلى هذا فمسه أو خذ بيده ، وكان إذا مسه أحد من ولد يعقوب عليه السلام يسكن غضبه ، فلما فعل الولد سكن غضبه فقال لإخوته : من مسني منكم ؟ فقالوا : ما مسك أحد منا فقال : لقد مسني ولد من آل يعقوب عليه السلام ، ثم قال لإخوته كم عدد الأسواق بمصر ؟ قالوا : عشرة قال : اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق فلما

أحس يوسف عليه السلام بذلك قام إليه وأخذ بتلابيبه وصرعه وقال : أنتم يا معشر العبرانيين تزعمون أن لا أحد أشد منكم قوة فعند ذلك خضعوا وقالوا : ﴿ يا أيها العزيز ﴾ [يوسف : 78] الخ ، ويمكن على هذا أن يكون حصول اليأس الكامل لهم من مجموع الأمرين .

(134/401)

وجوز بعضهم كون ضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ لبنيامين ، وتعقب بأنهم لم ييأسوا منه بدليل تخلف كبيرهم لأجله وروى أبو ربيعة عن البزي عن ابن كثير أنه قرأ ﴿ استأيسوا ﴾ من أيس مقلوب يئس ، ودليل القلب على ما في "البحر" عدم انقلاب ياء أيس ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، وحاصل المعنى لما انقطع طمعهم بالكلية ﴿ مِنْهُ خَلَصُواْ ﴾ انفردوا عن غيرهم واعتزلوا الناس .

وقول الزجاج : انفرد بعضهم عن بعض فيه نظر ﴿ نَجِيّاً ﴾ أي متناجين متشاورين فيما يقولون لأبيهم عليه الصلاة والسلام ، وإنما وحده وكان الظاهر جمعه لأنه حال من ضمير الجمع لأنه مصدر بحسب الأصل كالتناجي أطلق على المتناجين مبالغة أو لتأويله بالمشتق والمصدر ولو بحسب الأصل يشمل القليل والكثير أو لكونه على زنة المصدر لأن فعيلاً من

أبنية المصادر هو فعيل بمعنى مفاعل كجليس بمعنى مجالس وكشعير بمعنى معاشر ، أي

مناج بعضهم بعضاً فيكونون متناجين وجمعه أنجية قال لبيد :

وشهدت أنجية الخلافة عاليا . . .

كعبي وارادف الملوك شهود

وأنشد الجوهري :

إني إذاً ما القول كانوا أنجيه . . .

واضطربوا مثل اضطراب الأرشيههناك أوصيني ولا توصي بيه

وهو على خلاف القياس إذ قياسه في الوصف افعلاء كغني وأغنياء ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾

أي رئيسهم وهو شمعون قاله مجاهد ، أو كبيرهم في السن وهو روبيل قاله قتادة ، أو كبيرهم

في العقل وهو يهوذا قاله وهب .

والكلبي ، وعن محمد بن إسحاق أنه لاوى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا ﴾ كأنهم أجمعوا عند التناجي

على الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكراً عليهم : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا ﴾ .

﴿ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ عهداً يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه منه تعالى لأنه بإذنه فكأنه صدر منه تعالى أو هو من جهته سبحانه فمن ابتدائية ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا ، والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ أي قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه وقد قلتم ما قلتم .

و ﴿ مَا ﴾ مزيدة والجملة حالية ، وهذا على ما قيل أحسن الوجوه في الآية وأسلمها ، وجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ مصدرية ومحل المصدر النصب عطفاً على مفعول ﴿ تَعْلَمُوا ﴾ أي ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقاً عليكم وتفريطكم السابق في شأن يوسف عليه السلام ، وأورد عليه أمران .

الفصل بين حرف العطف والمعطوف بالظرف ، وتقديم معمول صلة الموصول الحرفي عليه وفي جوازهما خلاف للنحاة والصحيح الجواز خصوصاً بالظرف المتوسع فيه ، وقيل : بجواز العطف على اسم ﴿ إن ﴾ ويحتاج حينئذ إلى خبر لأن الخبر الأول لا يصح أن يكون خبر إله فهو ﴿ فِي يُوسُفَ ﴾ أو ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ على معنى ألم تعلموا أن تفريطكم السابق وقع في شأن يوسف عليه السلام أو أن تفريطكم الكائن أو كائناً في شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل .

واعترض بأن مقتضى المقام إنما هو الأخبار بوقوع ذلك التفريط لا يكون تفريطهم السابق

واقعاً في شأن يوسف عليه السلام كما هو مفاد الأول ، ولا يكون تفريطهم الكائن في شأنه واقعاً من قبل كما هو مفاد الثاني .

(136/401)

وفيه أيضاً ما ذكره أبو البقاء وتبعه أبو حيان من أن الغايات لا تقع خبراً ولا صلة ولا صفة ولا حالاً وقد صرح بذلك سيبويه سواء جرت أم لم تجر فتقول : يوم السبت يوم مبارك والسفر بعده ولا تقول والسفر بعد ، وأجاب عنه في "الدر المصون" بأنه إنما امتنع ذلك لعدم الفائدة لعدم العلم بالمضاف إليه المحذوف فينبغي الجواز إذا كان المضاف إليه معلوماً مدلولاً عليه كما في الآية الكريمة ، ورد بأن جواز حذف المضاف إليه في الغايات مشروط بقيام القرينة على تعيين ذلك المحذوف على ما صرح به الرضى فدل على أن الامتناع ليس معللاً بما ذكر .

وقال الشهاب : أن ما ذكروه ليس متفقاً عليه فقد قام الإمام المرزوقي في شرح الحماسة : إنها تقع صفات وأخباراً وصلات وأحوالاً ونقل هذا الاعراب المذكور هنا عن الرماني وغيره واستشهد له بما يثبته من كلام العرب ، ثم إن في تعرفها بالإضافة باعتبار تقدير المضاف إليه معرفة بعينه الكلام السابق عليها اختلافاً والمشهور أنها معارف ، وقال

بعضهم: نكرات وإن التقدير من قبل شيء كما في "شرح التسهيل".

والفاضل صاحب الدر سلك مسلكاً حسناً وهو أن المضاف إليه إذا كان معلوماً مدلولاً عليه بأن يكون مخصوصاً معيناً صح الاخبار لحصول الفائدة فإن لم يتعين بأن قامت قرينة العموم دون الخصوص وقدر من قبل شيء لم يصح الأخبار ونحوه إذ ما شيى إلا وهو قبل شيء ما فلا فائدة في الأخبار فحينئذ يكون معرفة ونكرة، ولا مخالفة بني كلامه وكلام الرضى مع أن كلام الرضى غير متفق عليه انتهى، وهو كما قال تحقيق نفيس، وقيل: محل المصدر الرفع على الإبتداء والخبر ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ وفيه البحث السابق، وقيل: ﴿ مَا ﴾ موصولة ومحلها من الإعراب ما تقدم من الرفع أو النصب وجملة ﴿ فَرَّطتُمْ ﴾ صلتها والعائد محذوف، والتفريط بمعنى التقديم من الفرط لا بمعنى التقصير أي ما قدمتموه من الجناية.

وأورد عليه أنه يكون قوله تعالى: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ تكراراً فإن جعل خبراً يكون الكلام غير مفيد وإن جعل متعلقاً بالصلة يلزم مع التكرار تقديم متعلق الصلة على الموصول وهو غير جائز، وقيل: ﴿ مَا ﴾ نكرة موصوفة ومحلها ما تقدم وفيه ما فيه ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرض

﴾ مفرع على ما ذكره وذكر به ، و﴿ برح ﴾ تامة وتستعمل إذا كان كذلك بمعنى ذهب وبمعنى ظهر كما في قولهم : برح الخفاء ، وقد ضمنت هنا معنى فارق فنصبت ﴿ وَفِى الأرض ﴾ على المفعولية ولا يجوز أن تكون ناقصة لأن الأرض لا يصح أن تكون خبراً عن المتكلم هنا وليست منصوبة على الظرفية ولا بنزع الخافض ؛ وعنى بها أرض مصر أي فلن أفارق أرض مصر جرياً على قضية الميثاق ﴿ حتى يَأْذَنَ لِى أَبِى ﴾ في البراح بالانصراف إليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ الله لِى ﴾ بالخروج منها على وجه لا يؤدي إلى نقض الميثاق أو بخلاص أخي بسبب من الأسباب ، قال في "البحر" إنه غيا ذلك بغايتين خاصة وهي إذن أبيه وعامة وهي حكم الله تعالى له وكأنه بعد أن غيا بالأولى رجع وفوض الأمر إلى من له الحكم حقيقة جل شأنه ، وأراد حكمه سبحانه بما يكون عذراً له ولو الموت ، والظاهر أن أحب الغايتين إليه الأولى فلذا قدم ﴿ لِى ﴾ فيها وأخره في الثانية فليفهم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ إذ لا يحكم سبحانه إلا بالحق والعدل .

﴿ ارجعوا إلى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ ﴾ له ﴿ فَقُولُواْ ياأَبَانَا إِنَّ ابنك سَرَقَ ﴾ الظاهر أن هذا القول من تتمة كلام كبيرهم وقيل : هو من كلام يوسف عليه السلام وفيه بعد كما أن الظاهر أنهم أرادوا أنه سرق في نفس الأمر .

﴿ وَمَا شَهِدْنَا ﴾ عليه ﴿ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ من سرقته وتبقيناه حيث استخرج صواع الملك من رحله .

﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافظين ﴾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق أو ما علمنا أنك ستصاب به كما أصبت بيوسف .

وقرأ الضحاك ﴿ سارق ﴾ باسم الفاعل .

وقرأ ابن عباس .

وأبو رزين .

(138/401)

والكسائي في رواية ﴿ فَقَدْ سَرَقَ ﴾ بتشديد الراء مبنياً للمفعول أي نسب إلى السرقة فمعنى ﴿ وَمَا شَهِدْنَا ﴾ الخ وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التسريق وما كنا للأمر الخفي بحافظين أسرق بالصحة أم دس الصواع في رحله ولم يشعر .

واستحسنت هذه القراءة لما فيها من التنزيه كذا قالوا ، والظاهر أن القول باستفادة اليقين من استخراج الصواع من رحله مما لا يصح فكيف يوجب اليقين ، واحتمال أنه دس فيه من غير شعور قائم جعل مجرد وجود الشيء في يد المدعى عليه بعد إنكاره موجباً للسرق في شرعهم أولاً ، قيل : فالوجه أن الظن البين قائم مقام العلم ، ألا ترى أن الشهادة تجوز بناء على الاستصحاب ويسمى علماً كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمنات ﴾ [الممتحنة

: 10] وإنما جزموا بذلك لبعد الاحتمالات المعارضة عندهم ، وإذا جعل الحكم بالسرقة وكذا علمهم أيضاً مبنياً على ما شاهدوا من ظاهر الأمر اتحدت القراءتان ويفسر ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ الخ بما فسر به على القراءة الأخيرة ، وقيل : معنى ﴿ مَا شَهِدْنَا ﴾ الخ ما كانت شهادتنا في عمرنا على شيء إلا بما علمنا وليست هذه شهادة منا إنما هي خبر عن صنيع ابنك بزعمهم ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ الخ كما هو وهو ذهاب أيضاً إلى أنهم غير جازمين .

(139/401)

وفي "الكشف" الذي يشهد له الذوق أنهم كانوا جازمين وقولهم : ﴿ إن يسرق فقد سرق ﴾ [يوسف : 77] تمهيد بين ، وادعاء العلم لا يلزم العلم فإن كان لبعد الاحتمالات المعارضة فلا يكون كذباً محرماً وإلا فغايته الكذب في دعوى العلم وليس بأول كذباتهم ، وكان قبل أن تنبؤا ولهذا خونهم الأب في هذه أيضاً ، على أن قولهم : ﴿ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ ﴾ [يوسف : 75] مؤكداً ذلك التأكيد يدل على أنهم جعلوا الوجدان في الرحل قاطعاً وإلا كان عليهم أن يقولوا : جزاؤه من وجد في رحله متعدياً أو سارقاً ونحوه ، فإن يحتمل عنهم الجزم هنالك فلم لا يحتمل ههنا اه وفيه مخالفة لبعض ما نحن عليه ، وكذا لما ذكرناه في تفسير ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ [يوسف : 75] الخ ، ولعل الأمر في هذا هين .

ومن غريب التفسير أن معنى قولهم : ﴿ لِلْغَيْبِ ﴾ لليل وهو بهذا المعنى في لغة حمير وكأنهم قالوا : (وما شهدنا إلا بما علمنا من ظاهر حاله وما كنا لليل حافظين) أي لا ندري ما يقع فيه فلعله سرق فيه أو دلس عليه ، وأنا لا أدري ما الداعي إلى هذا التفسير مع تبلج صبح المعنى المشهور ؛ وأياً ما كان فلام ﴿ لِلْغَيْبِ ﴾ للتقوية والمراد حافظين الغيب .

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾

يعنون كما روى عن ابن عباس .

وقتادة .

والحسن مصر ، وقيل : قرية بقربها لحقهم المنادى بها ، والأول : ظاهر على القول بأن المفتش لهم يوسف عليه السلام والثاني : الظاهر على القول بأنه المؤذن ، وسؤال القرية عبارة عن سؤال أهلها إما مجازاً في القرية لإطلاقها عليها بعلاقة الحالية والمحلية أو في النسبة أو يقدر فيه مضاف وهو مجاز أيضاً عند سيبويه وجماعة .

وفي المحصول وغيره أن الإضمار والمجاز متباينان ليس أحدهما قسماً من الآخر والأكثرون على المقابلة ، وأياً ما كان فالمسؤول عنه محذوف للعلم به ، وحاصل المعنى أرسل من تثق

به إلى أهل القرية واسؤلهم عن القصة ﴿ والعير التى أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي أصحابها الذين توجهنا فيهم وكنا معهم فإن القصة معروفة فيما بينهم وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام ، وقيل : من أهل صنعاء ، والكلام هنا في التجوز والإضمار كالكلام سابقاً .

وقيل : لا تجوز ولا إضمار في الموضعين والمقصود إحالة تحقيق الحال والإطلاع على كنه القصة على السؤال من الجمادات والبهائم أنفسها بناء على أنه عليه السلام نبي فلا يبعد أن تنطق وتخبره بذلك على خرق العادة .

وتعقب بأنه مما لا ينبغي أن يكون مراداً ولا يقتضيه المقام لأنه ليس بصدد إظهار المعجزة ، وقال بعض الأجلة : الأول إبقاء ﴿ القرية والعير ﴾ على ظاهرهما وعدم إضمار مضاف إليهما ويكون الكلام مبنياً على دعوى ظهور الأمر بحيث أن الجمادات والبهائم قد علمت به وقد شاع مثل ذلك في الكلام قديماً وحديثاً ومنه قول ابن الدمينة :

سل القاعة الوعسا من الأجرع الذي . . .

به البان هل حييت إطلال دارك

وقوله :

سلوا مضجعي عني وعنها فإننا . . .

رضينا بما يخبرن عنا المضاجع

وقوله :

واسأل نجوم الليل هل زار الكرى . . .

جفني وكيف يزور من لم يعرف

ولا يخفى أن مثل هذا لا يخلو عن ارتكاب مجاز .

نعم هو معنى لطيف بيد أن الجمهور على خلافه وأكثرهم على اعتبار مجاز الحذف ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ فيما أخبرناك به ، وليس المراد إثبات صدقهم بما ذكره حتى يكون مصادرة بل تأكيد صدقهم بما يفيد ذلك من الاسمية وإن واللام وهو مراد من قال : إنه تأكيد في محل القسم ، ويحتمل على ما قيل أن يريد أن هنا قسماً مقدراً ، وقيل : المراد الإثبات ولا مصادرة على معنى أنا قوم عادتنا الصدق فلا يكون ما أخبرناك به كذباً ولا نظنك في مرية من عدم قبوله .

﴿ قَالَ ﴾ أي أبوهم عليه السلام وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ مما سبق فكأنه قيل : فماذا كان عند قول ذلك القائل للإخوة ما قال ؟ فقيل : قال أبوهم عندما رجعوا إليه فقالوا له ما قالوا : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ وإنما حذف للإيذان بأن مسارعتهم

إلى قبول كلام ذلك القائل ورجوعهم به إلى أبيهم أمر مسلم غني عن البيان وإنما المحتاج إليه جوابه .

يروى أنهم لما عزموا على الرجوع إلى أبيهم قال لهم يوسف عليه السلام : إذا أتيتم أباكم فاقرؤا عليه السلام وقولوا له : إن ملك مصر يدعو لك أن لا تموت حتى ترى ولدك يوسف ليعلم أن في أرض مصر صديقين مثله ، فساروا حتى وصلوا إليه فأخبروه بجميع ما كان فبكى وقال ما قال ، ﴿ وبل ﴾ للإضراب وهو على ما قيل إضراب لا عن صريح كلامهم فإنهم صادقون فيه بل عما يتضمنه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وأنه لم يصدر عنهم ما أدى إلى ذلك من قول أو فعل كأنه لم يكن الأمر كذلك بل زينت وسهلت لكم أنفسكم أمراً من الأمور فأتيتموه يريد بذلك فتياهم بأخذ السارق بسرقته وليس ذلك من دين الملك .

وقال أبو حيان إن هنا كلاماً محذوفاً وقع الإضراب عنه والتقدير ليس حقيقة كما أخبرتم بل سولت الخ وهو عند ابن عطية وادعى أنه الظاهر على حد ما قال في قصة يوسف عليه السلام ظن سوء بهم خلا أنه عليه السلام صدق ظنه هناك ولم يتحقق هنا .

وذكر ابن المنير في توجيه هذا القول ههنا مع أنهم لم يتعمدوا في حق بنيامين سوءا ولا أخبروا اباهم إلا بالواقع على جليته وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه أنهم كانوا عند أبيهم عليه السلام حينئذ متهمين وهم قمن باتهامه لما أسلفوه في حق يوسف عليه السلام وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها وهو أخذ الملك له في السرقة ولم يكن ذلك إلا من دينه لا من دينه ولا من دين غيره من الناس فظن أنهم الذين أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة التي ذكروها تعمداً ليتخلف دونهم ، واتهام من هو بحيث يتطرق إليه التهمة لا جرح فيه لا سيما فيما يرجع إلى الوالد مع الولد ، ثم قال : ويحتمل أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله سرقة من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم ، وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة على من ادعيت عليه فإن كان في شرعهم أيضاً كذلك ففي عدم تحرير الفتوى إشعار بأنهم كانوا حراصاً على أخذه وهو من التسويل وإن اقتضى ذلك في شرعهم فالعمدة على الجواب الأول هذا ، والتنوين في ﴿ لَكَ أَمْراً ﴾ للتعظيم أي أمراً عظيماً ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي فأمري ذلك أو فصبر جميل أجمل وقد تقدم تمام الكلام فيه فتذكر .

﴿ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ بيوسف وأخيه بنيامين والمتوقف بمصر ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم ﴾ بحالي وحالهم ﴿ الحكيم ﴾ الذي يبتلي ويرفع البلاء حسب الحكمة البالغة ، قيل : إنما ترجى عليه السلام للرؤية التي رآها يوسف عليه السلام فكان ينتظرها ويحسن

ظنه بالله تعالى لا سيما بعد أن بلغ الشظاظ الوركين وجاوز الحزام الطبيين فإنه قد جرت سنته تعالى أن الشدة إذا تناهت يجعل وراءها فرجاً عظيماً ، وانضم إلى ذلك ما أخبر به عن ملك مصر أنه يدعو له أن لا يموت حتى يرى ولده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(143/401)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

قوله : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ ﴾ أي بنيامين ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنون يوسف .

وقد اختلف المفسرون في هذه السرقة التي نسبوها إلى يوسف ما هي ؟ فقيل : إنه كان ليوسف عمة هي أكبر من يعقوب ، وكانت عندها منطقة إسحاق لكونها أسنّ أولاده وكانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سناً ، من ذكر أو أنثى ، وكانت قد حضنت يوسف وأحبته حباً شديداً ، فلما ترعرع قال لها يعقوب : سلِّمي يوسف إليّ فأشفقت من فراقه ، واحتالت في بقائه لديها ، فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمته بها ، ثم قالت : قد سرقت

منطقة إسحاق فانظروا من سرقها ، فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف فأخذته عندها كما هو شرع الأنبياء في ذلك الوقت من آل إبراهيم .

وقد سبق بيان شريعتهم في السرقة ، وقيل : إن يوسف أخذ صنماً كان لجدّه - أبي أمه - فكسره وألقاه على الطريق تغييراً للمنكر .

وحكي عن الزجاج أنه كان صنماً من ذهب .

وحكى الواحدي عن الزجاج أنه قال : الله أعلم ، أسرق أخ له أم لا ؟ وحكى القرطبي في تفسيره عن الزجاج أنه قال : كذبوا عليه فيما نسبوه إليه ، قلت : وهذا أولى ، فما هذه الكذبة بأوّل كذباتهم ، وقد قدّمنا ما يدفع قول من قال : إنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم .

قوله : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ قال الزجاج وغيره : الضمير في أسرّها يعود إلى الكلمة أو الجملة ، كأنه قيل : فأسرّ الجملة في نفسه ﴿ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ ثم فسرها بقوله : ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ وقد ردّ أبو عليّ الفارسي هذا فقال : إن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل .

وقيل : الضمير عائد إلى الإجابة ، أي : أسرّ يوسف إجابتهم في ذلك الوقت إلى وقت آخر ، وقيل : أسرّ في نفسه قولهم : ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ .

وهذا هو الأولى ، ويكون معنى ﴿ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أنه لم يبد لهم هذه المقالة التي أسرّها في نفسه بأن يذكر لهم صحتها ، أو بطلانها ، وجملة ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ مفسرة على القول الأوّل ، ومستأنفة على القولين الآخرين ، كأنه قيل : فماذا قال يوسف لما قالوا هذه المقالة؟ أي : ﴿ أنتم شرّ مكانا ﴾ أي : موضعاً ومنزلاً ممن نسبتموه إلى السرقة وهو بريء ، فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف إلى الجبّ ، والكذب على أبيكم وغير ذلك من أفاعيلكم ، ثم قال : ﴿ والله أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ من الباطل بنسبة السرقة إلى يوسف ، وأنه لا حقيقة لذلك .

(145/401)

ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق له أخاهم بنيامين يكون معهم يرجعون به إلى أبيهم لما تقدّم من أخذه الميثاق عليهم بأن يردّوه إليه ، فقالوا : ﴿ ياأيها العزيز إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ أي : إن لبنيامين هذا أباً متصفاً بهذه الصفة ، وهي كونه شيخاً كبيراً لا يستطيع فراقه ولا يصبر عنه ، ولا يقدر على الوصول إليه ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ يبقى لديك ، فإن له منزلة في

قلب أبيه ليست لواحد منا فلا يتضرّر بفراق أحدنا كما لا يتضرّر بفراق بنيامين ، ثم عللوا ذلك بقوله : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إلى الناس كافة ، وإلينا خاصة ، فنعم إحسانك إلنيا بإجابتنا إلى هذا المطلب ، فأجاب يوسف عليهم بقوله : ﴿ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنا عِندَهُ ﴾ أي : نعوذ بالله معاذاً ، فهو مصدر منصوب بفعل محذوف ، والمستعيذ بالله هو المعتصم به ، وأن نأخذ منصوب بنزع الخافض ، والأصل من أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده ، وهو بنيامين لأنه الذي وجد الصواع في رحله فقد حلّ لنا استعباده بفتواكم التي أفتيتموها بقولكم : ﴿ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ .

﴿ إِنَّا إِذاً لظالمون ﴾ أي : إنا إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لظالمون في دينكم وما تقتضيه فتواكم .

﴿ فَلَمَّا استيأسوا منه ﴾ أي : يئسوا من يوسف وإسعافهم منه إلى مطلبهم الذي طلبوه ، والسين والتاء للمبالغة ﴿ خَلَصُوا نَجِيّا ﴾ أي : انفردوا حال كونهم متناجين فيما بينهم ، وهو مصدر يقع على الواحد والجمع كما في قوله : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [مريم : 52] .

قال الزجاج : معناه انفردوا وليس معهم أخوهم متناجين فيما يعملون به في ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهم ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ ، قيل : هو " روبيل " لأنه الأسنّ ، وقيل : " يهوذا " لأنه الأوفر عقلاً ، وقيل : " شمعون " لأنه رئيسهم ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ ﴾ أي : عهداً من الله في حفظ ابنه وردّه إليه ، ومعنى كونه من الله أنه بإذنه ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾ معطوف على ما قبله .

والتقدير : ألم تعلموا أن أباكم وتعلموا تفريطكم في يوسف ، ذكر هذا النحاس وغيره ، و ﴿ من قبل ﴾ متعلقة ب ﴿ تعلموا ﴾ أي : وتعلموا تفريطكم في يوسف من قبل ، على أن " ما " مصدرية ، ويجوز أن تكون زائدة ، وقيل : ﴿ ما فرّطتم ﴾ مرفوع المحل على الابتداء ، وخبره ﴿ من قبل ﴾ وقيل : إن " ما " موصولة ، أو موصوفة ، وكلاهما في محل النصب أو الرفع ، وما ذكرناه هو الأولى ، ومعنى ﴿ فرطتم ﴾ : قصرتم في شأنه ، ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض ﴾ .

يقال : برح براحاً وبروحاً ، أي زال ، فإذا دخله النفي صار مثبتاً أي : لن أبرح من الأرض ، بل ألزمها ولا أزال مقيماً فيها ﴿ حتى يَأْذَنَ لِى أَبِى ﴾ في مفارقتها والخروج منها ، وإنما قال ذلك لأنه يستحي من أبيه أن يأتي إليه بغير ولده الذي أخذ عليهم الموثق بإرجاعه إليه إلاّ أن يحاط بهم كما تقدّم ، ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِى ﴾ بمفارقتها والخروج منها ، وقيل : المعنى : أو يحكم الله لي بخلاص أخي من الأسر حتى يعود إلى أبي وأعود معه ، وقيل : المعنى : أو

يحكم الله لي بالنصر على من أخذ أخي فأحاربه وآخذ أخي منه ، أو أعجز فأنصرف بعد ذلك ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ﴾ لأن أحكامه لا تجري إلاّ على ما يوافق الحق ، ويطابق الصواب .

(147/401)

ثم قال كبيرهم مخاطباً لهم ﴿ ارجعوا إلى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يا أَبَانَا إِنَّ ابنك سَرَقَ ﴾ : قرأ الجمهور ﴿ سرق ﴾ على البناء للفاعل ، وذلك لأنهم قد شاهدوا استخراج الصواع من وعائه .

وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو رزين على البناء للمفعول ، وروى ذلك النحاس عن الكسائي .

قال الزجاج : إنّ سرق يحتمل معنيين : أحدهما علم منه السرق ، والآخر اتهم بالسرق ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ من استخراج الصواع من وعائه ، وقيل المعنى : ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافظين ﴾ حتى يتضح لنا هل الأمر على ما شاهدناه أو على خلافه ؟ وقيل : المعنى ما كنا وقت أخذنا له منك ليخرجا معنا إلى مصر للغيب حافظين بأنه سيقع منه

السرق الذي افتضحنا به .

وقيل : الغيب هو الليل ، ومرادهم أنه سرق وهم نيام ، وقيل : مرادهم أنه فعل ذلك وهو غائب عنهم ، فخفي عليهم فعله .

﴿ واسئل القرية التى كُنَّا فِيهَا ﴾ هذا من تمام قول كبيرهم لهم أي : قولوا لأبيكم : أسأل القرية التي كنا فيها أي : مصر ، والمراد أهلها أي : أسأل أهل القرية ؛ وقيل : هي قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها .

وقيل : المعنى : واسأل القرية نفسها وإن كانت جماداً فإنك نبيّ الله ، والله سبحانه سينطقها فتجيبك .

ومما يؤيد هذا أنه قال سيبويه : لا يجوز كلم هنداً وأنت تريد غلام هند ﴿ والعير التى أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي : وقولوا لأبيكم اسأل العير التي أقبلنا فيها أي : أصحابها وكانوا قوماً معروفين من جيران يعقوب ﴿ وِإِنَّا لصادقون ﴾ فيما قلنا .

جاءوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد ، لأن ما قد تقدّم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة في خبرهم هذا عند السامع .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ قال : يعنون يوسف .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : سرق مكحلة لخالته ، يعني : يوسف .

وأخرج أبو الشيخ عن عطية قال : سرق في صباه ميلين من ذهب .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سرق يوسف صنماً لجدّه - أبى أمه - من ذهب وفضة فكسره وألقاه على الطريق فعيره بذلك إخوته "

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير مثله غير مرفوع ، وقد روى نحوه عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ ﴾ قال : أسرّ في نفسه قوله : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن قتادة مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق في قوله : ﴿ فلما استيأسوا منه ﴾ قال : أيسوا منه ، ورأوا شدّته في أمره .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ قال : وحدهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ قال " شمعون " الذي تخلف ، أكبرهم عقلاً ، وأكبر منه في الميلاد " روبيل " .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة قال : كبيرهم هو " روبيل " ، وهو الذي كان نهاهم عن قتله ، وكان أكبر القوم .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي ﴾ قال : أقاتل بسيفي حتى أقتل .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن أبي صالح نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عكرمة : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافظين ﴾ قال : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ واسئل القرية ﴾ قال : يعنون مصر .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً ﴾

أي : يئسوا من يوسف وإجابته لهم أشد يأس ، كما دل عليه (السين والتاء) فإنهما يزادان في المبالغة .

قال أبو السعود : وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس ، لما شاهدوه من عوذه بالله لما طلبوه ، الدال على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة ، وأنه مما يجب أن يحترز عنه ، ويعاذ بالله عز وجل ، ومن تسميته (ظلماً) بقوله : ﴿ إِنَّآ إِذاً لَّظَالِمُونَ ﴾ ، و (خلصوا) بمعنى اعتزلوا وانفردوا عن الناس ، خالصين ، لا يخالطهم سواهم ، و (نجياً) حال من فاعل (خلصوا) أي : اعتزلوا في هذه الحالة مناجين . وإنما أفردت الحال وصاحبها جمع ؛ إما لأن النجي (فعيل) بمعنى (مفاعل) كالعشير والخليط ، بمعنى المعاشر والمخالط ، كقوله : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [مريم : من الآية 52] ، أي : مناجياً ، وهذا في الاستعمال يفرد مطلقاً . يقال : هم خليطك وعشيرك أي : مخالطوك ومعاشروك . وإما لأنه صفة على (فعيل) بمنزلة صديق ، وبابه . فوحد لأنه بزنة المصادر ، كالصهيل والوحيد والذميل . وإما لأنه مصدر بمعنى التناجي ، أطلق على المتناجين مبالغة ، أو لتأويله بالمشتق والمصدر ، ولو بحسب الأصل ، يشمل القليل والكثير ، وتنزيل المصدر منزلة الأوصاف أبلغ في المعنى ، ولذا قال الزمخشري : وأحسن منه – أي : من تأويل : ﴿ نَجِيّاً

﴿ بذوي نجوى ، أو فوجاً نجياً أي : مناجياً - إنهم تمحضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك ، وإفاضتهم فيه ، بجد واهتمام ، كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته ، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أي : صفة يذهبون ، وما يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ؟ كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب ، فاحتاجوا إلى التشاور . انتهى .

لطيفة :

ذكر القاضي عياض في " الشفا " في (بحث إعجاز القرآن) : أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً ﴾ فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وقال الثعالبي في كتاب " الإيجاز والإعجاز " في الباب الأول : من أراد أن يعرف جوامع الكلم ، ويتنبه لفضل الاختصار ، ويحيط ببلاغة الإيماء ، ويفطن لكفاية الإيجاز فليتدبر القرآن ، وليتأمل علوه على سائر الكلام .

ثم قال : فمن ذلك قوله عز ذكره ، في إخوة يوسف : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً ﴾ وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم في تزوير ما

يلقون به أباهم عند عودتهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ أي : في السن ، كما هو المتبادر ، وهو فيما يروى ، (رؤبين) : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي : عهداً وثيقاً في رد أخيكم . وإنما جعل منه تعالى لكون الحلف كان باسمه الكريم ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ أي : قبل هذا : ﴿ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ أي : قصرتم في شأنه و (ما) إما مزيدة ، و (من) متعلق بالفعل بعده ، والجملة حالية ، وإما مصدرية في موضع رفع بالابتداء ، و (من قبل) خبره ، أو في موضع نصب عطفاً على معمول (تعلموا) . وإما موصولة بالوجهين ، أي : قدمتموه في حقه من الخيانة ، ولم تحفظوا عهد أبيكم بعد ما قلتم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف : من الآية 11] ، و : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف : من الآية 63] .

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾ أي : فلن أفارق أرض مصر : ﴿ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ أي : في الرجوع : ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ أي : بالخروج من مصر ، أو بخلاص أخي بسببٍ ما : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

ثم أمر كبيرهم أن يخبروا أباهم بما جرى ، فقال :

﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ أي : نُسب إلى سرقة صواع الملك :

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ أي : ما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما تيقناه من إخراج الصواع من رحله .

تنبيه :

استنبط بعضهم من هذا عدم جواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر . وكذا من سمع كلمة من وراء حجاب ؛ لعدم العلم به - كذا في " الإكليل " - ولا يخفى أن مثل هذا مما يستأنس به في مواقع الخلاف .

﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ أي : وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق .

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ يعنون مصر . أي : أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة : ﴿ وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي : جئنا معها . وكان صحبهم قوم من كنعان :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أي : فيما أخبرناك .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ معناه : فرجعوا إلى أبيهم ، فقالوا له ما قال لهم أخوهم . فقال : بل سولت ، أي : زينت وسهلت أنفسكم أمراً ، ففعلتموه .

لطيفة :

قال الزمخشري : أمراً أردتموه ، وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته ، لولا فتواكم وتعليمكم ؟ ! .

(152/401)

قال الناصر : هذا من الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال ، كأن قائلاً يقول : هم في الوقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا امراء ، وأما في هذه الوقعة الثانية ، فلم يتعمدوا في حق بنيامين سوءاً ، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته ، وما تركوه بمصر إلا بمغلوبين عن استصحابه ، فما وجه قوله ثانياً : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ كما قال لهم أولاً ؟ وإذا ورد السؤال على هذا التقرير ؛ فلا بد من زيد بسط في الجواب ، فنقول : كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين ، وهم قمن باتهامه لما أسلفوه في حق يوسف عليه السلام ، وقامت عنده قرينة تؤكد نفي التهمة وتقويها ، وهي أخذ الملك له في السرقة ، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده ، لا من دين غيره من الناس ، ولا من عادتهم . وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ [يوسف : من الآية 76] ، تنبيهاً من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم ، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به ، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمداً ؛ ليتخلف أخوهم ، وكان

الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعي عليهم السرقة ، فذكروا ما عندهم ، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا . واتهام من هو بحيث تتطرق التهمة إليه لا حرج فيه ، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد . ويحتمل – والله أعلم – أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم ، أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله ، سرقة ، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم ، وهذا في شرعنا لا يثبت لا سرقة عليه – والله أعلم – .

وقوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ واقع بمكانه من حالهم ، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا ، فالعمدة على الجواب الأول .

(153/401)

وقوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي : لا جزع : ﴿ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ أي : بيوسف وأخيه المتوقف بمصر ، فتذهب أحزانه بمرة واحدة : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ أي : العليم بحالي وحالهم ، الحكيم في تشديد الأمر لينظر مقدار الصبر فيفيض بقدره الأجر ، ومن الأجر المعجل تعجيل الفرج . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 211 . 215 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾

﴿ استيأسوا ﴾ بمعنى يئسوا فالسين والتاء للتأكيد ، ومثلها ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ [سورة يوسف : 34] واستعصم ﴾ .

واليأس منه : اليأس من إطلاقه أخاهم ، فهو من تعليق الحكم بالذات .

والمراد بعض أحوالها بقرينة المقام للمبالغة .

وقرأ الجمهور ﴿ استيأسوا ﴾ بتحتية بعد الفوقية وهمزة بعد التحتية على أصل التصريف .

وقرأه البزي عن ابن كثير بخلف عنه بألف بعد الفوقية ثم تحتية على اعتبار القلب في المكان ثم إبدال الهمزة .

و﴿ خلصوا ﴾ بمعنى اعتزلوا وانفردوا .

وأصله من الخلوص وهو الصفاء من الأخلاط .

ومنه قول عبد الرحمان بن عوف لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما في آخر حجة حجّها

حيث عزم عمر رضي الله عنه على أن يخطب في الناس فيحذرهم من قوم يريدون المزاحمة في الخلافة بغير حق ، قال عبد الرحمان بن عوف رضي الله عنه : "يا أمير المؤمنين إن المَوسم يجمع رَعاع الناس فأمهل حتى تقدم المدينة فتخلص بأهل الفقه . . . إلخ."

والنجيّ : اسم من المناجاة ، وانتصابه على الحال .

ولما كان الوصف بالمصدر يلازم الإفراد والتذكير كقوله تعالى : ﴿ وإذْ هم نجوى ﴾ .

والمعنى : انفردوا تناجيا .

والتناجي : المحادثة سراً ، أي متناجين .

وجملة ﴿ قال كبيرهم ﴾ بدل من جملة ﴿ خلصوا نجيا ﴾ وهو بدل اشتمال ، لأن المناجاة تشتمل على أقوال كثيرة منها قَول كبيرهم هذا ، وكبيرهم هو أكبرهم سناً وهو رُوبين بِكرُ يعقوب عليه السلام .

والاستفهام في ﴿ ألم تعلموا ﴾ تقريري مستعمل في التذكير بعدم اطمئنان أبيهم بحفظهم لابنه .

وجملة ﴿ ومن قبل ما فرطتم ﴾ جملة معترضة .

و﴿ ما ﴾ مصدرية ، أي تفريطكم في يوسف عليه السلام كان من قبل المَوثق ، أي فهو غير مصدقكم فيما تخبرون به من أخذ بنيامين في سرقة الصُّوَاع .

وفرع عليه كبيرهم أنه يبقى في مصر ليكون بقاؤه علامة عند يعقوب عليه السلام يعرف بها صدقهم في سبب تخلف بنيامين ، إذ لا يرضى لنفسه أن يبقى غريباً لولا خوفه من أبيه ، ولا يرضى بقية أشقائه أن يكيدوا له كما يكيدون لغير الشقيق .

وقوله : ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ ترديد بين ما رسمه هو لنفسه وبين ما عسى أن يكون الله قد قدره له مما لا قبل له بدفعه ، فحذف متعلّق ﴿ يحكم ﴾ المجرور بالباء لتنزيل فعل ﴿ يحكم ﴾ منزلة ما لا يطلب متعلقاً .

واللام للأجل ، أي يحكم الله بما فيه نفعي .

والمراد بالحكم التقدير .

وجملة ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ تذييل .

و ﴿ خير الحاكمين ﴾ إن كان على التعميم فهو الذي حكمه لا جور فيه أو الذي حكمه لا يستطيع أحد نقضه ، وإن كان على إرادة وهو خير الحاكمين لي فالخبر مستعمل في الثناء للتعريض بالسؤال أن يقدر له ما فيه رأفة في رد غربته .

وعدم التعرّض لقول صدَر من بنيامين يدافع به عن نفسه يدل على أنه لازم السكوت لأنه

كان مطلعاً على مراد يوسف عليه السلام من استبقائه عنده، كما تقدم في قوله: ﴿ آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك ﴾ [يوسف: 69].

ثم لقّنهم كبيرهم ما يقولون لأبيهم.

ومعنى وما كنا للغيب حافظين ﴾ احتراس من تحقق كونه سرق، وهو إما لقصد التلطف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة وإما لأنهم علموا من أمانة أخيهم ما خالجهم به الشك في وقوع السرقة منه.

والغيب: الأحوال الغائبة عن المرء.

والحفظ: بمعنى العلم.

وسؤال القرية مجاز عن سؤال أهلها.

والمراد بها مدينة مصر.

والمدينة والقرية مترادفتان.

وقد خصت المدينة في العرف بالقرية الكبيرة.

والمراد بالعير التي كانوا فيها رفاقهم في عيرهم القادمين إلى مصر من أرض كنعان، فأما سؤال العير فسهل وأما سؤال القرية فيكون بالإرسال أو المراسلة أو الذهاب بنفسه إن أراد الاستثبات.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

جعلت جملة ﴿ قال بل سولت ﴾ في صورة الجواب عن الكلام الذي لقّنه أخوهم على طريقة الإيجاز .

والتقدير : فرجعوا إلى أبيهم فقالوا ذلك الكلام الذي لَقّنه إيّاهم (روبين) قال أبوهم : ﴿ بل سولت . . .

﴾ الخ .

وقوله هنا كقوله لهم حين زعموا أن يوسف عليه السلام أكله الذئب ، فهو تهمة لهم بالتغرير بأخيهم .

قال ابن عطية : ظنّ بهم سوءاً فصدق ظنّه في زعمم في يوسف عليه السلام ولم يتحقق ما ظنّه في أمر بنيامين ، أي أخطأ في ظنه بهم في قضية (بنيامين) ، ومستنده في هذا الظن علمه أن ابنه لا يسرق ، فعلم أن في دعوى السرقة مكيدة .

فظنه صادق على الجملة لا على التفصيل .

وأما تهمته أبناءه بأن يكونوا تمالؤوا على أخيهم بنيامين فهو ظن مستند إلى القياس على ما سبق من أمرهم في قضية يوسف عليه السلام فإنه كان قال لهم : ﴿ هل آمنكم عليه إلا

كما أَمِنتكم على أخيه من قبل ﴾ سورة يوسف (64) .

ويجوز على النبي الخطأ في الظنّ في أمور العادات كما جاء في حديث ترك إبّار النخل .

ولعله اتّهم روبين أن يكون قد اختفى لترويج دعوى إخوته .

وضمير بهم ﴾ ليوسف عليه السلام وبنيامين وروبين .

وهذا كشف منه إذ لم ييأس من حياة يوسف عليه السلام .

وجملة ﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ تعليل لرجائه من الله بأن الله عليم فلا تخفى عليه مواقعهم المتفرقة .

حكيم فهو قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(157/401)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾

ويقال : "يئس" أي : قطع الأمل من الشيء ، وهم لم يقطعوا الأمل فقط ، بل استيأسوا ، وهو أمر فوق اليأس .

فهم قد أخذوا يُرقِّقون كل ألوان المُرقِّقات ؛ ولا فائدة ؛ وكلما أوردوا مُرقِّقاً ؛ يجدون الباب أمامهم مُوصَداً .

وكأنهم بذلك يُلِحُّون على اليأس أن يأتيهم ؛ لأن الظروف المحيطة والجو المحيط لا يحمل أي بارقة أملٍ ، وكلما تبدو بارقة أُملٍ ويطلبونها يجدون الطريق مُوصَداً ؛ فكأنهم يطلبون اليأس من أن يأذن يوسف بسفر أخيهم بنيامين معهم في رحلة العودة إلى أبيهم .

وهنا : ﴿ خَلَصُواْ نَجِيّاً . . ﴾ [يوسف : 80] .

أي : أنهم انفردوا عنه ، وعن أعين الحاضرين ؛ العزيز يوسف ، ومَنْ حوله من المُعَاوِنين له ، وأخيهم موضع الخلاف ، وانفردوا بأنفسهم .

والانفراد هو المناجاة ؛ والمناجاة مَسرَّة ؛ والمَسرَّة لا تكون إلا في أمر لا تحب لغيرك أن يطلع عليه .

ونلحظ أن : ﴿ خَلَصُواْ . . . ﴾ [يوسف : 80] هي جمع ، و : ﴿ نَجِيّاً ﴾ [يوسف : 80] مفرد ، وهذا من ضمن المواقع التي يتساءل فيها مَنْ لا يملكون مَلَكةً عربية : كيف يأتي القرآن بمفرد بعد الجمع ؟

ونقول دائماً : لو أنهم امتلكوا اللغة كمَلَكَة لَعرفوا أن ذلك جائز جداً . ومثال هذا هو قول الحق سبحانه : ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] .

وهم لا يفهمون أن اللغة فيها ألفاظ يستوي فيها المفرد والجمع ، كأن الملائكة يجمعون قوة كل

واحد منهم لتكون قوة واحدة .

ومثال آخر : هو قول إبراهيم خليل الرحمن : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأقدمون * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ [الشعراء : 75-77] .

أي : أن إبراهيم عليه السلام جمع الآلهة المتعددة التي يعبدونها وجعلها عدواً واحداً له .

(158/401)

وكذلك يمكن أن نفعل مع كلمة " صديق " ، وكذلك كلمة " عَدْل " فحين ينظر القضاء في أمر قضية ما ؛ فالقاضي لا يُصدِر الحكم وحده ؛ بل يُصدِره بعد التشاور مع المُستَشارين ؛ ويصدر الحكم من الثلاثة : رئيس المحكمة ، وعضو اليمين ، وعضو اليسار وكلاهما بدرجة مستشار .

ويُقَال : " حكم القضاة عَدْلاً " . ولا يقال : إن كل مستشار أو قاض له عدل .

وكذلك : ﴿ نَجِيّاً ﴾ [يوسف : 80] في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فهم حين استيأسوا من يوسف انفردوا بأنفسهم ليتناجوا .

وعادة يكون الرأي الأول للأخ الأكبر ، الذي عادة ما يكون له من الخبرة والحكمة ما يتيح له أن يُبدِي الرأي الصواب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تعلموا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقاً مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرض حتى يَأْذَنَ لِي أَبي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ [يوسف : 80] .

وقد يكون كبيرهم هو أكبرهم عمراً ؛ أو هو رئيس الرحلة ، وحين رآهم قد قَبِلوا فكرة العودة دون أخيهم الذي احتجزه عزيز مصر ؛ قال لهم رأيه الذي حذرهم فيه أنْ يغفلوا عن أن أباهم قد أخذ منهم موثقاً من الله إلا أنْ يُحاط بهم ؛ كما يجب ألا ينسوا أن لهم سابقة حين أخذوا يوسف وضيّعوه .

وبناءً على ذلك استقر قراره ألاّ يبرحَ المكان ، ولن يعود إلى أبيه إلا إنْ أذِنَ له بذلك ؛ أو أن يحكمَ الله له بأن يُسلِّمه عزيزُ مصر أخاه ، أو أن يموت هنا في نفس البلد .

وهذا القول في ظاهره دفاع عن النفس ؛ وخجل من أن يعود إلى أبيه بدون بنيامين ؛ ولذلك ترك أخوته يتحمَّلون تلك المواجهة مع الأب .

وتبدو هذه المسألة أكثر قسوة على الأب ؛ لأنه فقد في الرحلة الأولى يوسف ، وفي الرحلة الثانية يفقد ابنه بنيامين ، وكذلك الابن الكبير الذي يرأس الرحلة .

وفي هذا تصعيد للقسوة على الأب ، وكان المفروض أن تدور مُدَاوَلَة بين الأخوة في تلك المُنَاجاة ، ولكن الأخ الكبير أو رئيس الرحلة حسم الأمر .

وحين سألوه : ماذا نفعل يا كبيرنا ؟ جاء قوله الذي أوردته الآية التالية : ﴿ ارجعوا إلى أَبِيكُمْ . . . ﴾ .

وهكذا أمر الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ، ويقولوا له ما حدث بالضبط ، فقد اتُّهم ابنه بالسرقة ، ونحن لا نقول هذا الكلام إلا بعد أن وجد فِتيان العزيز صُوَاع الملك في رَحْلِه ، ولا نعلم هل دَسَّها أحد له ؟ وهل هي حِيلة ومكيدة ؟

ونحن لا نقول لك يا أبانا إلا ما وصل إلينا من معلومات ، وقد أخذه العزيز طبقاً لشريعتنا ، ونحن بخبرتنا بأخينا لا نشهد عليه بالسرقة ، إلا أن ثبوتَ وجود صُواع الملك في رَحْله هو السبب في كل ذلك .

ويعلم الأخ الأكبر أن يعقوب عليه السلام قد يُكذِّب أولاده ؛ لأن هناك سوابقَ لهم ؛ لذلك أوصاهم الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة أن يقولوا لأبيهم إنْ كَذَّبهم ما جاء به الحق على ألسنتهم : ﴿ وَسْئَلِ القرية . . . ﴾ .

أي : أنك يا أبانا إنْ كنتَ تشك في أقوالنا ؛ يمكنك أن تطلب أدلة أخرى من المكان الذي كنا فيه ؛ لأن هذا الموضوع قد أحدث ضجّة وحدث أمام جمع كبير من الناس ، والقوافل التي

كانت معنا شهدتْ الواقعة ؛ فقد أذَّن مُؤذّن بالحادث ، وتَمّ تفتيش العِير علناً .

فإذا أردتَ أن تتأكد من صدق أقوالنا ، فاسأل العِير التي كانت تسير معنا في الطريق ، وهم يعرفون هذه القضية كما نعرفها ، أو اسأل أهل القرية التي جئنا منها .

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه أورد كلام أخوة يوسف لأبيهم يعقوب :

﴿ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا . . ﴾ [يوسف : 82] .

ونحن نعلم أن كل حَدَثٍ من الأحداث لا بُدَّ له من فاعل ، ومن مفعول يقع عليه ، ومن مكان يقع فيه ، ومن زمان يقع فيه ؛ ومن سبب يُوجِبه ، ومن قوة تنهض به .

(160/401)

وفي بعض الحالات نجد أن المكان هو الأمر الظاهر والقوي في الحدث ، فننسبه إليه ، فيُقال :

﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] .

والمراد بطبيعة الحال أن يَسأل أهل القرية ، أو : أن المسألة كانت واضحة تماماً لدرجة أن الجماد يعرف تفاصيلها ، أو : أنك نبيٌّ ويوحي لك الله فَسَلْهُ أن يجعل الأرض تخبرك بما وقع عليها .

وكذلك قولهم :

﴿ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا والعير ﴾ [يوسف : 82] .

ونعلم أن العير هي المَطايا ؛ سواء أكانت نِياقاً أو كانت من الجمال أو الحمير أو البِغَال التي تحمل البضائع .

وحين يُقَال :

﴿ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا والعير . . . ﴾ [يوسف : 82] .

أي : أن العير كان لها في الأمر شيء فوق المُلاَبسات كلها .

ومثال هذا ما كان في موقعة بدر ؛ فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلقَى العير القادمة من الشام وهي مُحمَّلة بالبضائع ؛ ليصادرها إيفاء ما استولى عليه الكافرون من أموال المهاجرين التي كانت بمكة ، ولم يكن مع هذه العير إلا قليل من الحرس والرعاة .

ولكن حين تكلم عن المقاتلين الذين قَدِموا من مكة ؛ وصفهم بالنفير ، أي : الجماعة الذين نفروا لمواجهة معسكر الإيمان .

إذن : فكل حَدَث يأخذ الأمر البارز فيه .

وهنا يورد الحق سبحانه ما جاء على ألسنة إخوة يوسف حينما عادوا ليلقَوْا أباهم ، وليس معهم أخوهم بنيامين ؛ وكذلك تَخلَّفُ أخيهم الكبير أو رئيس الرحلة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا . . . ﴾ [يوسف : 82] .

ويجوز أن تفتيشهم قد تَمَّ في مكان بعيد قليلاً عن العُمْران ؛ وفحص جنود أو مساعدو يوسف أمتعتهم التي عثروا فيها على صواع الملك .

وسُمى المكان " قرية " ، مثلما نفعل نحن حالياً حين نخصص مكاناً للجمارك ؛ نفحص فيه البضائع الخارجة أو الداخلة إلى البلد ، فقولهم :

﴿ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا . . . ﴾ [يوسف : 82] .

(161/401)

أي : اسأل أهل الموقع الذي حدث فيه التفتيش .

وكذلك قولهم : ﴿ والعير التي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف : 82] .

أي : اسأل مَنْ كانوا معنا ، وجِئْنا بصحبتهم من أصحاب القوافل الأخرى .

وكرر قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف : 82] .

لأنهم علموا سابق كذبهم من قبل ذلك ؛ لذلك أرادوا هنا أن يُثبتوا صدقهم ؛ وحين يسأل أبوهم يعقوب ؛ سيجد أنهم صادقون فعلاً ، وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقهم هذه المرة .

وجاء الحق سبحانه بهذه الجملة الاسمية :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف : 82] .

لأنهم قد فهموا أن والدهم قد شَكَّ فيهم من قبل ، حين جاءوا بدم كذبٍ ، وادَّعوا أنه قميص يوسف ، وأن الذئب قد أكله .

ويأتي الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ . . . ﴾ .

الأمور التي تخالف الضمير ؛ ويُستحى منها ؛ ويُخشى مَغَبَّتها ؛ هي أمور تستعصي على النفس ؛ وتحتاج النفس إلى علاج حتى تبرزها ، وتحتاج إلى مَنْ يُيسّر لها ، ما أن تُقدِم على فعل الأمر المستهجن ، وهذا ما يُقال له : " سَوَّل " .

وقول الحق سبحانه على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً . . . ﴾ [يوسف : 83] .

أي : يسَّرتْ لكم أنفسكم أمراً يصعب أن تقبله النفوس المستقيمة ، وسبق أن قال يعقوب لحظة أنْ جاءوا له بقميص يوسف وعليه الدم الكاذب : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : 18] .

وهنا طلب يعقوب عليه السلام العون مما يدل على أن ما قالوه ، وكذلك أحداث القصة لن تقف عند هذا الحدِّ ، بل ستأتي من بعد ما قالوه أحداث تتطلب تجنيد قوى الصبر في النفس ، وتتطلب معونة الله .

ويختلف الأمر هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ما جاء بعد الحديث عن تسويل النفس ، واستلهام الصبر من الله ، فَهبَات الفرج قد اقتربتْ ، فقال :

﴿ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً . . . ﴾ [يوسف : 83] .

في هذه الآية طلب الأمل الذي يوحي بالفرج ، وقد كان .

وبعض من الذين تأخذهم الغفلة يتساءلون :

لماذا قال يعقوب :

﴿ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً . . ﴾ [يوسف : 83] .

والغائب عنه هما يوسف وأخوه ؟

ونقول : ولماذا تنسوْنَ كبير الأخوة الذي رفض أن يبرحَ مصر ، إلا بعد أن يأذن له يعقوب ، أو يفرج عنه الله ؟

لقد غاب عن يعقوب ثلاثة من أولاده : يوسف وبنيامين وشمعون ؛ لذلك قال :

﴿ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً . . ﴾ [يوسف : 83] .

ولم يَقُلْ : يأتيني بهما .

وُيذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم الحكيم ﴾ [يوسف : 83] .

فالله سبحانه يعلم أين هم ؛ لأنه العليم بكل شيء ، وهو سبحانه حكيم فيما يُجريه علينا من تصرّفات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(163/401)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾

أخرج ابن جرير ، عن ابن إسحق - رضي الله عنه - ﴿ فلما استيأسوا منه ﴾ قال : أيسوا ورأوا شدته في الأمر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ خلصوا نجياً ﴾ قال : وحدهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ قال كبيرهم ﴾ قال : شمعون الذي تخلف أكبرهم عقلاً ،

وأكبر منه في الميلاد ، روبيل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ قال كبيرهم ﴾ هو روبيل ، وهو الذي كان نهاهم عن قتله ، وكان أكبر القوم .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ قال : أقاتل بالسيف حتى أقتل .

وأخرج أبو الشيخ ، عن وهب – رضي الله عنه – قال : إن شمعون كان أشد بني يعقوب بأساً ، وإنه كان إذا غضب ، قام شعره وانتفخ ، فلا يطفئ غضبه شيء إلا أن يمسه أحد من آل يعقوب . وإنه كان قد أغار مرة على أهل قرية فدمرهم . وإنه غضب يوم أخذ بنو يعقوب بالصواع غضباً شديداً . حتى انتفخ ، فأمر يوسف عليه السلام ابنه أن يمسه ، فسكن غضبه وبرد ، وقال : قد مسني يد من آل يعقوب .

﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾

أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قرأ ﴿ إن ابنك سرق ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن زيد – رضي الله عنه – قال : قال يعقوب عليه السلام لبنيه : ما يدري هذا الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته إلا بقولكم . قالوا : ما شهدنا إلا بما علمنا ، لم نشهد أن السارق يؤخذ بسرقته إلا وذاك الذي علمنا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم - رضي الله عنه - أنه كره أن يكتب الرجل شهادته ، فإذا استشهد شهد ، ويقرأ ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ قال : لم نعلم أنه سيسرق .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن عكرمة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ قال : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ قال : يقولون ما كنا نظن أن ابنك يسرق .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وسأل القرية ﴾ قال : مصر . وفي قوله ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ﴾ قال : بيوسف وأخيه وروبيل .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج - رضي الله عنه - في قوله ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ﴾ قال : بيوسف وأخيه وكبيرهم الذي تخلف .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي روق – رضي الله عنه – قال : لما حبس يوسف عليه السلام أخاه بسبب السرقة ، كتب إليه يعقوب عليه السلام : من يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله إلى يوسف عزيز فرعون ، أما بعد فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، إن أبي إبراهيم عليه السلام ألقي في النار في الله فصبر ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وإن أبي إسحق عليه السلام قرب للذبح في الله فصبر ، ففداه الله بذبح عظيم . وإن الله كان وهب لي قرة عين فسلبنيه ، فأذهب حزنه بصري ، وأيبس لحمي على عظمي ، فلا ليلي ليل ، ولا نهاري نهار ، والأسير الذي في يديك بما ادعي عليه من السرق أخوه لأمه ، فكنت إذا ذكرت أسفي عليه قربته مني ، فيسلي عني بعض ما كنت أجد . وقد بلغني أنك حبسته بسبب سرقة ، فخل سبيله ، فإني لم ألد سارقاً وليس بسارق ، والسلام .

(165/401)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي الجلد – رضي الله عنه – قال : قال له أخوه : يا أيها العزيز ، لقد ذهب لي أخ ما رأيت أحداً أشبه به منك ، لكأنه الشمس . فقال له يوسف عليه السلام : اسأل إله يعقوب أن يرحم صباك ، وإن يرد إليك أخاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

فصل

قال الإمام ابن قتيبة:

باب الحذف والاختصار

من ذلك: أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه وتجعل الفعل له.

كقوله تعالى: وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها [يوسف: 82] أي سل أهلها.

وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ [البقرة: 93] أي حبّه.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ [البقرة: 197] أي وقت الحج.

وكقوله: إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ - [الإسراء: 75] أي ضعف

عذاب الحياة وضعف عذاب الممات.

وقوله سبحانه: لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ [الحج: 40] فالصلوات لا تهدّم

، وإنما أراد بيوت الصلوات.

قال المفسرون: الصوامع للصّابئين، والبيع للنّصارى، والصلوات: كنائس اليهود،

والمساجد للمسلمين.

وقوله: مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ [محمد: 13] أي أخرجك أهلها.

وقوله: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ [سبأ: 33] أي مكركم في الليل والنهار.

وقوله: أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ [التوبة: 19]؟ أي: أجعلتم صاحب سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كمن آمن؟! ويكون يريد: أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن بالله وجهاده؟ كما قال: وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ [البقرة: 177].

قال الهذلي "1":

---

(1) البيت من الوافر، وهو للمتنخل الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 1268، ولسان العرب (حنت)، وتاج العروس (حنت)، (غطط)، (قطط)، وللهذلي في تهذيب اللغة 7/ 133، ولسان العرب (خرص)، (قطط)، وبلا نسبة في لسان العرب (نجد)، وكتاب الصناعتين ص 136، والمخصص 1/ 66، 10/ 90.

(167/401)

يمشّي بيننا حانوت خمر من الخرس الصّراصرة القطاط

أراد صاحب حانوت خمر، فأقام الحانوت مقامه.

وكذلك قول أبي ذؤيب في صفة الخمر"

:

توصّل بالرّكبان حينا وتولف ال جوار ويغشيها الأمان ربابها

اللفظ للخمر والمعنى للخمّار ، أي يتوصّل الخمار بالركب ليسير معهم ويأمن بهم . وكذلك

قوله "2" :

أتوها بربح حاولته فأصبحت تكفّت قد حلّت وساغ شرابها

يريد : أتوا صاحبها بربح ، فأقامها مقامه .

وقال كثير يذكر الأظعان "3" :

حزيت لي بحزم فيدة تحدى كاليهوديّ من نطاة الرّقال

أراد كنخل اليهوديّ من خيبر ، فأقامه مقامها .

ومثله قوله تعالى : فَلْيَدْعُ نادِيَهُ (17) [العلق : 17] أي : أهله .

وقال الشاعر "4" :

لهم مجلس صهب السبال أذلّة سواسية أحرارها وعبيدها

ومن ذلك أن توقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ، وتضمر للآخر فعله .

كقوله سبحانه : يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ

(18) [الواقعة : 18] .

)

1) البيت من الطويل ، وهو لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 46 ، ولسان العرب (ربب) ، (وصل) ، ومقاييس اللغة 2/ 383 ، والتنبيه والإيضاح 1/ 80 ، وتاج العروس (ربب) ، (ألف) ، (وصل) ، وتهذيب اللغة 15/ 180 ، وبلا نسبة في المخصص 3/ 78 .

(2) البيت من الطويل ، وهو لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 48 ، ولسان العرب (كفت) ، وتاج العروس (كفت) .

(3) البيت من الخفيف ، وهو لكثير عزة في ديوانه ص 396 ، وشرح المفصل 3/ 25 ، ولسان العرب (رضب) ، و (رقل) ، (نطا) ، وتاج العروس (رقل) ، (نطا) ، ومعجم البلدان (فيد) ، وصفة جزيرة العرب للهمداني 1/ 226 .

(4) البيت من الطويل ، وهو لذي الرمة في ديوانه ص 1235 ، ولسان العرب (سوا) ، وأساس البلاغة (جلس) ، وبلا نسبة في لسان العرب (جلس) ، وتاج العروس (جلس) ، (سوا) .

ثم قال : وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22)

[الواقعة :

20 ، 21] والفاكهة واللحم والحور العين لا يطاف بها ، وإنما أراد : ويؤتون بلحم طير .

ومثله قوله : فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ [يونس : 71] أي : وادعوا شركاءكم ، وكذلك

هو في مصحف عبد اللّه .

قال الشاعر "1" :

تراه كأنّ اللّه يجدع أنفه وعينيه إن مولاه ثاب له وفر

أي يجدع أنفه ، ويفقأ عينيه .

وأنشد الفراء "2" :

علفتها تبنا وماء باردا حتى شتت همّالة عيناها

أي علفتها تبنا ، وسقيتها ماء باردا .

وقال آخر "3" :

إذا ما الغانيات برزن يوما وزجّجن الحواجب والعيونا

(

1) البيت من الطويل ، وهو لخالد بن الطيفان في الحيوان 6/ 40 ، والمؤتلف والمختلف

ص 149 ، وله أو للزبرقان بن بدر في الأشباه والنظائر 2/ 108 ، والدرر 6/ 81 ،

والمقاصد النحوية 4/ 171 ، وبلا نسبة في أمالي المرتضى 2/ 259 ، 375 ، والإنصاف 2/ 515 ، والخصائص 2/ 431 ، وكتاب الصناعتين ص 181 ، ولسان العرب (جدع) ، ومجالس ثعلب 2/ 464 ، وهمع الهوامع 2/ 130 .

(2) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (زجج) ، (قلد) ، (علف) ، والأشباه والنظائر 2/ 108 ، 7/ 233 ، وأمالي المرتضى 2/ 259 ، والإنصاف 2/ 612 ، وأوضح المسالك 2/ 245 ، والخصائص 2/ 431 ، والدرر 6/ 79 ، وشرح الأشموني 1/ 226 ، وشرح التصريح 1/ 346 ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص 1147 ، وشرح شذور الذهب ص 312 ، وشرح شواهد المغني 1/ 58 ، 2/ 929 ، وشرح ابن عقيل ص 305 ، ومغني اللبيب 2/ 632 ، والمقاصد النحوية 3/ 101 ، وهمع الهوامع 2/ 130 ، وتاج العروس (علف) . [. . . . . .]

(3) البيت من الوافر ، وهو للراعي النميري في ديوانه ص 269 ، والدرر 3/ 158 ، وشرح شواهد المغني 2/ 775 ، ولسان العرب (زجج) ، والمقاصد النحوية 3/ 91 ، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر/ 212 ، 7/ 233 ، والإنصاف 2/ 610 ، وأوضح المسالك 2/ 432 ، وتذكرة النحاة ص 617 ، وحاشية يس 1/ 432 ، والخصائص 2/ 432 ، والدرر 6/ 80 ، وشرح الأشموني 1/ 226 ، وشرح التصريح 1/ 346 ، وشرح شذور الذهب ص 313 ، وشرح ابن عقيل ص 504 ، وشرح عمدة الحافظ

ص 635 ، وكتاب الصناعتين ص 182 ، ولسان العرب (رغب) ، ومغني اللبيب 1/ 357 ، وهمع الهوامع 1/ 222 ، 2/ 130 .

والعيون لا تزجّج ، وإنما أراد : وزجّجن الحواجب ، وكحّلن العيون . وقال الآخر "1" :

ورأيت زوجك في الوغى متقلّدا سيفا ورمحا

أي متقلدا سيفا ، وحاملا رمحا .

ومن ذلك : أن يأتي بالكلام مبنيّا على أنّ له جوابا ، فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب به .

كقوله سبحانه : وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً [الرعد : 31] أراد : لكان هذا القرآن ، فحذف .

وكذلك قوله : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (20) [النور : 20] أراد : لعذّبكم فحذف .

قال الشاعر "2" :

فأقسم لو شيء أتانا رسوله سواك ، ولكن لم نجد لك مدفعا

أي لرددناه .

وقال الله عز وجل : لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) [آل عمران : 113] . فذكر أمّة واحدة ولم يذكر بعدها أخرى .

وسواء تأتي للمعادلة بين اثنين فما زاد .

وقال : أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً [الزمر : 9] ولم يذكر ضدّ هذا ، لأن

---

(1) يروى صدر البيت بلفظ :

يا ليت زوجك قد غدا والبيت من مجزوء الكامل ، وهو بلا نسبة في الأشباه والنظائر 2/ 108 ، 6/ 238 ، وأمالي المرتضى 1/ 54 ، والإنصاف 2/ 612 ، وخزانة الأدب 2/ 231 ، 3/ 142 ، 9/ 142 ، والخصائص 2/ 431 ، وشرح شواهد الإيضاح ص 182 ، وشرح المفصل 2/ 50 ، ولسان العرب (رغب) ، (زجج) ، (مسح) ، (قلد) ، (جدع) ، (جمع) ، (هدى) ، والمقتضب 2/ 51 ، ومعاني القرآن للفراء 1/ 121 ، ومجاز القرآن 2/ 68 ، ومجمع البيان 1/ 111 ، وتفسير البحر المحيط 2/ 464 ، 6/ 485 ، وتفسير الطبري 1/ 47 ، والكامل 1/ 218 ، 402 .

(2) البيت من الطويل ، وهو لامرئ القيس في ديوانه ص 424 ، وخزانة الأدب 10/ 84 ، 85 ، وبلا نسبة في خزانة الأدب 4/ 144 ، 10/ 117 ، وشرح المفصل 9/ 7 ، 94 ، وكتاب الصناعتين ص 182 ، ولسان العرب (وحد) .

في قوله : قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ [الزمر : 9] دليلا على ما أراد .

وقال الشاعر "1" :

أراك فما أدري أهمّ هممته وذو الهمّ قدما خاشع متضائل

ولم يأت بالأمر الآخر .

وقال أبو ذؤيب "2" :

عصيت إليها القلب إنّي لأمره سميع ، فما أدري أرشد طلابها ؟

أراد : أرشد هو أم غيّ ؟ فحذف .

ومن ذلك : حذف الكلمة والكلمتين .

كقوله : فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ . [آل عمران : 106] والمعنى فيقال لهم : أكفرتم ؟ وقوله : وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا [السجدة : 12] والمعنى يقولون : ربنا أبصرنا .

وقوله : وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا [البقرة : 127] .

والمعنى يقولان : ربنا تقبل منا .

وقال ذو الرّمة يصف حميرا "3" :

فلمّا لبسن اللّيل أو حين نصّبت له من خذا آذانها وهو جانح

أراد أو حين أقبل الليل نصّبت . وقال "4" :

---

(1) البيت من الطويل ، وهو بلا نسبة في كتاب الصناعتين ص 137 .

(2) يروى صدر البيت بلفظ :

دعاني إليها القلب لأني لأمره والبيت من الطويل ، وهو لأبي ذؤيب الهذلي في تخليص الشواهد ص 140 ، وخزانة الأدب 11/ 251 ، والدرر 6/ 102 ، وشرح أشعار الهذليين 1/ 43 ، وشرح عمدة الحافظ ص 655 ، وشرح شواهد المغني ص 26 ، 142 ، 2/ 672 ، ومغني اللبيب ص 13 ، وبلا نسبة في شرح الأشموني 2/ 371 ، وهمع الهوامع 2/ 132 .

(3) البيت من الطويل ، وهو لذي الرمة في ديوانه ص 897 ، وأدب الكاتب ص 214 ، والخصائص 2/ 365 ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 582 .

(4) البيت بتمامه :

لعرفانها والعهد ناء وقد بدا لذي نهية أن لا إلى أم سالم

والبيت من الطويل ، وهو لذي الرمة في ديوانه ص 767 ، وكتاب الصناعتين ص 137 .

وقد بدا لذي نهية أن لا إلى أمّ سالم أراد : أن لا سبيل إلى أم سالم .

وقال اللّه عز وجل : وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً [الإسراء : 23] . أي ووصّى بالوالدين .

وقال النّمر بن تولب "1" :

فإنّ المنبّه من يخشها فسوف تصادفه أينما

أراد أينما ذهب .

وقال اللّه عز وجل : كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ [إبراهيم : 18] أراد : في يوم عاصف الرّيح ، فحذف ، لأنّ ذكر الرّيح قد تقدّم ، فكان فيه دليل .

وقال تعالى : وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ [العنكبوت : 22] . أراد : ولا من في السماء بمعجز .

وقال تعالى : وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ [النمل : 12] . أراد في تسع آيات إلى هذه الآية ، أي معها . ثم قال : إِلَى فِرْعَوْنَ ولم يقل مرسلا ولا مبعوثا ، لأن ذلك معروف .

ومثله : وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا [الأعراف : 73] . أي : أرسلنا .

قال الشاعر "2" :

(172/401)

رأتني بحبليها فصدّت مخافة وفي الحبل روعاء الفؤاد فروق

أراد مقبلا بحبليها .

وقال عز وجل : فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ [الإسراء : 7] . أراد :

---

(1) البيت من المتقارب ، وهو للنمر بن تولب في ديوانه ص 378 ، وأدب الكاتب ص 214 ، وشرح التصريح 2/ 252 ، والمعاني الكبير ص 1264 ، والمقاصد النحوية 1/ 575 ، ومختارات ابن الشجري 1/ 16 ، والاقتضاب ص 363 ، وبلا نسبة في رصف المباني ص 72 ، 125 .

(2) يروى البيت بلفظ :

رأتني بنسعيها فردّت مخافتي إلى الصدر روعاء الفؤاد فروق

والبيت من الطويل ، وهو لحميد بن ثور في ديوانه ص 35 ، ولسان العرب (نسع) ، (فرق) ،

(با) ، وتهذيب اللغة 15/ 614 ، وتاج العروس (نسع) ، (فرق) ، وبلا نسبة في لسان العرب (نطح) ، (حبل) ، وتهذيب اللغة 5/ 80 ، وأساس البلاغة (روع) .

(173/401)

بعثناهم ليسوءوا وجوهكم ، فحذفها ، لأنه قال قبل : فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا [الإسراء : 5] . فاكتفى بالأول من الثاني ، إذ كان يدل عليه.

وكذلك قوله : عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ [ق : 17] . فاكتفى بذكر الثاني من الأول.

وقد يشكل الكلام ويغمض بالاختصار والإضمار.

كقوله : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (8) [فاطر : 8] . والمعنى : أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسنا ، ذهبت نفسك حسرة عليه ؟ ! فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

وكقوله سبحانه : إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) [النمل : 10 ، 11] لم يقع الاستثناء من المرسلين ، وإنما وقع من معنى مضمر في الكلام ، كأنه قال : لا يخاف لديّ المرسلون ، بل غيرهم الخائف ، إلا من

ظلم ثم تاب فإنه لا يخاف .

وهذا قول الفراء ، وهو يبعد : لأن العرب إنما تحذف من الكلام ما يدل عليه ما يظهر ، وليس في ظاهر هذا الكلام – على هذا التأويل – دليل على باطنه .

قال أبو محمد : والذي عندي فيه ، والله أعلم ، أنّ موسى عليه السلام ، لما خاف الثعبان وولّى ولم يعقّب ، قال الله عز وجل : يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ [النمل : 10] وعلم أن موسى مستشعر خيفة أخرى من ذنبه في الرّجل الّذي وكزه فقضى عليه ، فقال : إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ [النمل : 11] أي توبة وندما ، فإنه يخاف ، وإني غفور رحيم .

وبعض النحويين يجعل (إلّا من ظلم) بمعنى : ولا من ظلم ، كقوله : لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ [البقرة : 150] . على مذهب من تأول هذا في (إلّا) : كقوله في سورة الأنفال ، بعد وصف المؤمنين : كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ [الأنفال : 5] . ولم يشبّه قصة المؤمنين بإخراج الله إيّاه ، ولكن الكلام مردود إلى معنى في أول السورة ومحمول عليه ، وذلك : أن النبي صلّى الله عليه وسلم ، رأى يوم بدر قلّة المسلمين وكراهة كثير منهم للقتال ، فنفّل كلّ امرئ منهم ما أصاب ، وجعل لكل من قتل قتيلا كذا ، ولمن أتى بأسير كذا ، فكره ذلك قوم فتنازعوا واختلفوا وحاجّوا النبي ، صلّى الله عليه وسلم ، وجادلوه ، فأنزل الله سبحانه : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ : يجعلها لمن

يشاء فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ . أي فرّقوها بينكم على السواء وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فيما بعد إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [الأنفال : 1] ، ووصف المؤمنين ثم قال : كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (5) [الأنفال : 5] يزيد : أن كراهتهم لما فعلته في الغنائم ككراهتهم للخروج معك ، كأنه قال : هذا من كراهيتهم كما أخرجك وإيّاهم ربّك وهم كارهون .

ومن تتبع هذا من كلام العرب وأشعارها وجده كثيرا .

قال الشاعر "1" :

فلا تدفنوني إنّ دفني محرّم عليكم ، ولكن خامري أمّ عامر

يريد : لا تدفنوني ولكن دعوني للتي يقال لها إذا صيدت : خامري أمّ عامر ، يعني الضّبع ، لتأكلني .

وقال عنترة "2" :

هل تبلغنّي دارها شدنيّة لعنت بمحروم الشّراب مصرّم

يريد : دعي عليها بأن يحرم ضرعها أن يدرّ فيه لبن ، فاستجيب للداعي ، فلم تحمل ولم

ترضع .

ومثله قول الآخر "3" :

---

(1) يروى البيت بلفظ :

لا تقبروني إن قبري محرم عليكم ولكن أبشري أم عامر

والبيت من الطويل ، وهو للشنفرى في ديوانه ص 48 ، ولسان العرب (عمر) ، ومقاييس اللغة 2/ 217 ، وتاج العروس (عمر) ، والأغاني 21/ 205 ، وأمالي المرتضى 2/ 73 ، والبرصان والعرجان ص 166 ، 311 ، وتمثال الأمثال 1/ 340 ، وجمهرة الأمثال 2/ 305 ، والحماسة البصرية 1/ 94 ، وخزانة الأدب 3/ 347 ، وديوان المفضليات ص 197 ، وذيل الأمالي ص 36 ، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي 2/ 24 ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي 2/ 487 ، والشعر والشعراء 1/ 86 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 234 ، وكتاب الصناعتين ص 183 ، وتفسير البحر المحيط 2/ 377 ، ومجمع البيان 1/ 74 ، والحيوان 6/ 450 ، والطرائف الأدبية ص 36 .

(2) البيت من الكامل ، وهو في ديوان عنترة ص 199 ، وخزانة الأدب 5/ 369 ، ولسان العرب (صرم) ، (لعن) ، وكتاب الجيم 3/ 216 ، وأساس البلاغة (صرم) ، وشرح القصائد العشر ص 183 ، وأمالي المرتضى 3/ 158 .

(3) قبله :

تخدي بها كل خنوف فاسج والرجز بلا نسبة في لسان العرب (فسج) ، وتهذيب اللغة 10/596 .

(175/401)

ملعونة بعقر أو خادج أي : دعي عليها أن لا تحمل ، وإن حملت : أن تلقي ولدها لغير تمام ، فإذا لم تحمل الناقة ولم ترضع كان أقوى لها .

ومن أمثال العرب : (عسى الغوير أبؤسا) "1" أي : أن يأتينا من قبل الغوير بأس ومكروه .

والغوير : ماء ، ويقال : هو تصغير غار .

ومثله قوله سبحانه : قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ [الأعراف : 32] .

أي هي للذين آمنوا – يعني في الدنيا – مشتركة ، وفي الآخرة خالصة .

ومنه قوله : إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ [آل عمران : 175] . أي يخوّفكم بأوليائه ، كما قال سبحانه : لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ [الكهف : 2] أي لينذركم ببأس شديد .

وقوله : يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ [طه : 108] أي لا عوج لهم عنه .

وقوله : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً [فاطر : 10] . أي يعلم أنّ العزّة لمن هي .

وقوله : ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ [الذاريات : 57] أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم . وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ [الذاريات : 57] أي ما أريد أن يطعموا أحدا من خلقي .

وأصل هذا : أن البشر عباد اللّه وعياله فمن أطعم عيال رجل ورزقهم ، فقد رزقه وأطعمه ، إذ كان رزقهم عليه .

ومنه قوله سبحانه : أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ [النمل : 25] أراد : ألا يا هؤلاء اسجدوا للّه .

وقال الشاعر "2" :

يا دار سلمى يا اسلمي ثم اسلمي

---

(1) انظر المثل في جمهرة أمثال العرب ص 143 ، ومجمع الأمثال 1/ 477 ، ولسان العرب (غور) .

(2) يليه :

بسمسم وعن يمين سمسم والرجز للعجاج في ديوانه 1/ 442 ، والأشباه والنظائر 2/ 145 ، والإنصاف 1/ 102 ، وجمهرة اللغة ص 204 ، 649 ، والخصائص 2/ 196 ، ولسان العرب (سمسم) ، وتاج العروس (سمم) ، ولرؤبة في ملحق ديوانه ص 183 ، وبلا نسبة في الخصائص 2/ 279 ، ولسان العرب (علم) . [.....]

ومن الاختصار: القسم بلا جواب إذا كان في الكلام بعده ما يدلّ على الجواب.

كقوله: ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَإِذا مِتْنا [ق: 1، 3] نبعث. ثم قالوا: ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ [ق: 3] أي: لا يكون.

وكذا قوله عز وجل: وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً (1) وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً (2) وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً (3) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (4) فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (5) [النازعات: 1، 5]. ثم قال: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) [النازعات: 6]. ولم يأت الجواب لعلم السامع به، إذ كان فيما تأخّر من قوله دليل عليه، كأنّه قال: والنّازعات وكذا وكذا، لتبعثنّ، فقالوا: أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (11) [النازعات: 11] نبعث؟!.

ومن الاختصار قوله: إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ [الرعد: 14] أراد: كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فيبلّغه فاه.

قال ضابىء "1":

فإنّي وإياكم وشوقا إليكم كقابض ماء لم تسقه أنامله

و(العرب) تقول لمن تعاطى ما لا يجد منه شيئًا : هو كالقابض على الماء .

ومنه : أن تحذف (لا) من الكلام والمعنى إثباتها .

كقوله سبحانه : تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ [يوسف : 85] أي لا تزال تذكر يوسف .

وهي تحذف مع اليمين كثيرا .

قال الشاعر "2" :

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لضابىء بن الحارث البرجمي في لسان العرب (وسق) ، ومقاييس اللغة 6/ 109 ، وتاج العروس (وسق) ، وبلا نسبة في تهذيب اللغة 9/ 236 ، وأساس البلاغة (وسق) .

(2) البيت من الطويل ، وهو لامرىء القيس في ديوانه ص 32 ، وخزانة الأدب 9/ 238 ، 239 ، 10/ 43 ، 44 ، 45 ، والخصائص 2/ 284 ، والدرر 4/ 212 ، وشرح أبيات سيبويه 1/ 220 ، وشرح التصريح 1/ 185 ، وشرح شواهد المغني 1/ 341 ، وشرح المفصل 7/ 110 ، 8/ 37 ، 9/ 104 والكتاب 3/ 504 ، ولسان العرب (يمن) ، واللمع ص 259 ، والمقاصد النحوية 2/ 13 ، وبلا نسبة في أوضح المسالك 1/ 232 ، وخزانة الأدب 10/ 93 ، 94 ، وشرح الأشموني 1/ 110 ، ومغني اللبيب 2/ 637 ، والمقتضب 2/ 362 ، وهمع الهوامع 2/ 38 .

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو ضربوا رأسي لديك وأوصالي

وقال آخر "1" :

فلا وأبي دهماء زالت عزيزة على قومها ما فتّل الزّند قادح

ومنه قوله : يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا [النساء : 176] ، أي : لئلا تضلوا . وإِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا [فاطر : 41] ، أي : لئلا تزولا .

وقوله : كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ [الحجرات : 2] ، أي : لا تحبط أعمالكم .

ومن الاختصار أن تضمر لغير مذكور .

كقوله جل وعز : حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ [ص : 32] يعني : الشمس ، ولم يذكرها قبل ذلك .

وقوله : وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ [فاطر : 45] ، يريد : على الأرض .

وقال : فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (4) [العاديات : 4] ، يعني : بالوادي .

وقال : إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ [القصص : 10] ، أي بموسى : أنه ابنها .

وقال : وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) [الشمس : 3] ، يعني : الدنيا أو الأرض .

وكذلك قوله : وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15) [الشمس : 15] ، أي : عقبى هذه الفعلة .

وقال : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) [القدر : 1] ، يعني : القرآن . فكنى في أوّل السّورة .

قال حميد بن ثور في أوّل قصيدة "2" :

---

(1) روى البيت بلفظ :

لعمر أبي الدهماء زالت عزيزة على أهلها ما فتل الزند قادح

والبيت من الطويل ، وهو لتميم بن مقبل في ملحق ديوانه ص 358 ، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص 287 ، وخزانة الأدب 9/ 237 ، 239 ، 243 ، 10/ 100 ، 101 ، والدرر 6/ 217 ، وشرح شواهد المغني ص 820 ، ومغني اللبيب ص 393 ، والمقرب 1/ 94 ، وهمع الهوامع 2/ 156 .

)

2) البيت من الطويل ، وهو لحميد بن ثور في ديوانه ص 73 ، ولسان العرب (نضج) ، ومجمل اللغة (نضج) ، وديوان الأدب 2/ 344 ، وللحطيئة في ملحق ديوانه ص 252 ، ولسان العرب (نضج) ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 3/ 330 ، ومجمل اللغة 3/ 234 .

وصهباء منها كالسّفينة نضّجت به الحمل حتّى زاد شهرا عديدها

أراد : وصهباء من الإبل .

وقال حاتم "1" :

أماويّ ما يغني الثّراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصّدر

يعني النفس .

وقال لبيد "2" :

حتى إذا ألقت يدا في كافر وأجنّ عورات الثّغور ظلامها

يعني الشمس بدأت في المغيب .

وقال طرفة "3" :

ألا ليتني أفديك منها وأفتدي يعني : من الفلاة .

وأنشد الفرّاء "4" :

إذا نهي السّفيه جرى إليه وخالف ، والسّفيه إلى خلاف

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لحاتم الطائي في ديوانه ص 199 ، والأغاني 17/ 295 ،

وجمهرة اللغة ص 1034 ، 1133 ، وخزانة الأدب 4/ 212 ، والدرر 1/ 215 ، والشعر والشعراء 1/ 252 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 261 ، ولسان العرب (قرن) ، وأساس البلاغة (حشر) ، وبلا نسبة في لسان العرب (حشرج) ، وهمع الهوامع 1/ 65 .

(2) البيت من الكامل ، وهو للبيد في ديوانه ص 316 ، ولسان العرب (كفر) ، (يدي) ، وتاج العروس (كفر) ، وكتاب الجيم 3/ 168 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 5/ 191 ، ومجمل اللغة 4/ 236 .

(3) صدر البيت :

على مثلها أمضي إذا قال صاحبي والبيت من الطويل ، وهو لطرفة بن العبد في ديوانه ص 29 ، والدرر 2/ 269 ، وبلا نسبة في الإنصاف 1/ 96 .

(

4) البيت من الوافر ، وهو لأبي قيس بن الأسلت الأنصاري في إعراب القرآن ص 902 ، والأشباه والنظائر 5/ 179 ، وأمالي المرتضى 1/ 203 ، والإنصاف 1/ 140 ، وخزانة الأدب 3/ 364 ، 4/ 226 ، 227 ، 228 ، والخصائص 3/ 49 ، والدرر 1/ 216 ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص 244 ، ومجالس ثعلب ص 75 ، والمحتسب 1/ 170 ، 2/ 370 ، وهمع الهوامع 1/ 65 ، ومعاني القرآن للفراء

1/ 104 ، وأمالي ابن الشجري 1/ 273 ، والعمدة 2/ 263 ، ومجمع البيان 1
100 ، وتفسير الطبري 2/ 323 ، 3/ 128 ، 4/ 152 .

(179/401)

أراد : جرى إلى السّفه .

وقال اللّه عز وجل في أول سورة الرحمن : فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (13) [الرحمن : 13] ، ولم يذكر قبل ذلك إلا الإنسان ، ثم خاطب الجانّ معه لأنّه ذكرهم بعد ، وقال : وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (15) [الرحمن : 15] .

قال الفراء : ومثله قول المثقّب العبدي "1" :

فما أدري إذا يمّمت أرضا أريد الخير : أيّهما يليني ؟

أالخير الّذي أنا أبتغيه ؟ أم الشرّ الّذي هو يبتغيني ؟

فكنى عن الشر وقرنه في الكتابة بالخير قبل أن يذكره ، ثم أتى به بعد ذلك .

ومن ذلك حذف الصفات .

كقول اللّه سبحانه : وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) [المطففين : 3] أي : كالوا لهم أو وزنوا لهم .

وقوله: وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا [الأعراف: 155]. أي اختار منهم.

وقال العجّاج "2":

تحت الذي اختار له اللّه الشّجر أي اختار له من الشجر:

(180/401)

وكقوله: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ [الحج: 41] أي: مكنّا لهم. والعرب تقول:

عددتك مائة، أي عددت لك، وأستغفر اللّه ذنبي.

قال الشاعر "3":

)

1) البيتان من الوافر، وهما للمثقب العبدي في ديوانه ص 212، 213، وخزانة الأدب 6/ 37، 11/ 80، وشرح اختيارات المفضل ص 1267، وشرح شواهد الشافية ص 188 (البيت الثاني فقط)، وشرح شواهد المغني 1/ 191، 192، والشعر والشعراء 1/ 403، ولسان العرب (أنم)، والبيت الثاني للمثقب العبدي أو لسحيم بن وثيل أو لأبي زبيد الطائي في المقاصد النحوية 1/ 192، والبيت الأول بلا نسبة في تخليص الشواهد 145، وخزانة الأدب 6/ 37.

(2) الرجز للعجاج في ديوانه 1/ 8 – 10 ، ولسان العرب (ثبت) (شبر) ، وكتاب العين 8/ 402 ، وبلا نسبة في لسان العرب (خير) ، وتاج العروس (خير) ، وتهذيب اللغة 7/ 547 .

(3) البيت من البسيط ، وهو بلا نسبة في أدب الكاتب ص 524 ، والأشباه والنظائر 4/ 16 ، وأوضح المسالك 2/ 283 ، وتخليص الشواهد ص 405 ، وخزانة الأدب 3/ 111 ، 9/ 124 ، والدرر 5/

(181/401)

أستغفر اللّه ذنبا لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل

وشبعت خبزا ولحما ، وشربت ورويت ماء ولبنا وتعرّضت معروفك ، ونزلتك ونأيتك ، وبتّ القوم ، وغاليت السلعة ، وثويت البصرة وسرقتك مالا ، وسعيت القوم ، واستجبتك .

قال الشاعر "1" :

وداع دعا يا من يجيب إلي النّدى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقوله جل وعزّ : إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا [الإسراء : 34] . أي : مسؤولا عنه .

قال أبو عبيدة : يقال : (لتسألنّ عهدي) أي عن عهدي .

ومن الاختصار قوله : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44) [النساء : 44] . أراد : يشترون الضلالة بالهدى ، فحذف (الهدى) أي يستبدلون هذا بهذا .

ومثله : أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدى [البقرة : 16] .

ومن الاختصار قوله : وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) [البقرة : 108] . أي : أبقينا له ذكرا حسنا في الآخرين ، كأنه قال : تركنا عليه ثناء حسنا ، فحذف الثناء الحسن لعلم المخاطب بما أراد .

ومن الاختصار قوله : لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ [النساء : 166] . لأنه لما أنزل عليه : إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ [النساء : 163] قال المشركون : ما نشهد لك بهذا ، فمن يشهد لك به ؟ فترك ذكر قولهم

---

186 ، وشرح أبيات سيبويه 1/ 420 ، وشرح التصريح 1/ 394 ، وشرح شذور الذهب ص 479 ، وشرح المفصل 7/ 63 ، 8/ 51 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 181 ، والكتاب 1/ 37 ، ولسان العرب (غفر) ، والمقاصد النحوية 3/ 226 ، والمقتضب 2/ 321 ، وهمع الهوامع 2/ 82 ، وأمالي المرتضى 3/ 47 ، ومعاني القرآن للفراء 1/ 233 ، وتفسير الطبري 1/ 56 ، 2/ 82 ، وتفسير البحر المحيط 1/

. 361

(1) البيت من الطويل ، وهو لكعب بن سعد الغنوي في الأصمعيات ص 96 ، ولسان العرب (جوب) ، والتنبيه والإيضاح 1/ 55 ، وجمهرة أشعار العرب ص 705 ، وتاج العروس (جوب) ، وأمالي القالي 2/ 151 ، ومجاز القرآن 1/ 27 ، 2/ 107 ، والاقتضاب ص 459 ، وشرح شواهد المغني ص 239 ، وبلا نسبة في تهذيب اللغة 11/ 219 ، وأمالي المرتضى 3/ 60 ، وتفسير الطبري 1/ 109 ، وتفسير البحر المحيط 2/ 47 ، ومجمع البيان 1/ 278 .

(182/401)

وأنزل : لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ [النساء : 166] . يدلك على هذا أن (لكن) إنما تجيء بعد نفي لشيء فيوجب ذلك الشيء بها .

ومن الاختصار قوله : فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ [المائدة : 31] . أراد : فبعث اللّه غرابا يبحث التراب على غراب ميّت ليواريه ، لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ [المائدة : 31] .

ومنه قوله : فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ [المائدة : 52] أي في مرضاتهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 133 . 147 ﴾

(183/401)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾

قوله تعالى : ﴿ استيأسوا ﴾ : استفعل هنا بمعنى فَعِل المجرد يقال : يَئِس واستيئس بمعنىً ، نحو عَجِب واستعجب ، وسَخِر واستخسر . وقال الزمخشري : " وزيادة السين والتاء في المبالغة نحو ما مَرَّ في " استعصم " .

وقرأ البزي عن ابن كثير بخلافٍ عنه " اسْتَاْيَسوا " بألفٍ بعد التاء ثم ياء ، وكذلك في هذه السورة : " لا تايَسوا " ، إنه لا يايس (إذا اسْتايَسَ الرسل) ، وفي الرعد : (أفلم ياَيسِ الذين) الخلافُ واحد . فأمَّا قراءةُ العامة فهي الأصل إذ يُقال : يَئِس ، فالفاء ياء ، والعين همزة ، وفيه لغةٌ أخرى وهي القلبُ بتقديم العين على الفاء فيقال : أَيِس ، ويدلُّ على ذلك شيئان ، أحدُهما : المصدرُ الذي هو اليَأْس . والثاني : أنه لو لم يكنْ مقلوبًا لَلَزِم قَلْبُ الياء ألفاً

لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ولكنْ مَنَعَ من ذلك كونُ الياء في موضعٍ لا تُعَلُّ فيه ما وقعَتْ موقعَه ، وقراءةُ ابن كثير من هذا ، ولمَّا قَلَبَ الكلمةَ أَبْدَلَ مِن الهمزة ألفاً لسكونها بعد فتحة إذ صارَتْ كهمزة رَأْس وكأس ، / وإنْ لم يكنْ مِنْ أصله قَلْبُ الهمزة الساكنة حرفَ علة ، وهذا كما تقدم أنه يقرأ " القرآن " بالألف ، وأنه يُحْتمل أنْ يكون نَقَلَ حركة الهمزة وإن لم يكنْ من أصلِه النقلُ .

وقال أبو شامة بعد أن ذكر هذه الكلماتِ الخمسَ التي وقع فيها الخلافُ : " وكذلك رُسِمَتْ في المصحف " يعني كما قرأها البزي ، يعني بألفٍ مكان الياء وبياء مكان الهمزة . وقال أبو عبد اللَّه : " واختلفَتْ هذه الكلمات في الرسم فرُسِمَ " يابَس " " ولا تايَسُوا " بالألف ، ورُسِم الباقي بغير ألف " قلت : وهذا هو الصوابُ ، وكأنها غَفْلَةٌ حَصَلَتْ من أبي شامة رحمه اللَّه .

(184/401)

قوله : { نَجِيّاً } حال مِنْ فاعل " خَلَصوا " أي : اعتزلوا في هذه الحال ، وإنما أُفْرِدَت الحالُ وصاحبُها جَمْعٌ : إمَّا لأنَّ النَّجيَّ فَعِيل بمعنى مُفاعِل كالعشير والخليط بمعنى المُخالِطِ والمُعاشِر ، كقوله : { وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً } [مريم : 52] أي : مُناجِياً ، وهذا في الاستعمال

يُفْرَدُ مطلقاً ، يقال : هم خليطُكَ وعَشيرُكَ أي : مُخالِطوك ومُعاشِروك ، وإمَّا لأنَّه صفةٌ على فَعِيل بمنزلة صَدِيق ، وصديق وبابُه يُوحَّدُ لأنه بزنة المصادر كالصَّهيل والوَجيب والذَّميل ، وإمَّا لأنه مصدر بمعنى التناجي كما قيل : النجوى بمعناه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ [الإسراء : 47] ، وحينئذ يكون فيه التأويلاتُ المذكورةُ في " رجل عَدْل " وبابه ، ويُجمع على " أَنْجِيَة " ، وكان مِنْ حَقّه إذا جُعِل وصفاً أن يُجْمع على أَفْعِلاء كغَنِيّ وأَغْنِياء وشَقِيّ وأَشْقِياء . ومِنْ مجيئه على أَنْجِية قولُ الشاعر :

2816 إنِّي إذا ما القومُ كانوا أَنْجِيَهْ . . . وقول الآخر وهو لبيد :

2817 وشَهِدْتُ أَنْجِيَةَ الأَفَاقةِ عالياً . . . كَعْبي وأَرْدَافُ المُلوكِ شُهودُ

وجَمْعُه كذلك يُقَوِّي كونَه جامداً ، إذ يصير كرغيف وأَرْغِفَة .

قوله : ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ ﴾ في هذه الآيةِ وجوهٌ ستة ، أحدها : وهو الأظهر أنَّ " ما " مزيدةٌ ، فيتعلَّقُ الظرفُ بالفعل بعدها ، والتقدير : ومِنْ قبلِ هذا فَرَّطْتم ، أي : قَصَّرْتُمْ في حَقِّ يوسف وشأنِه ، وزيادةُ " ما " كثيرةٌ ، وبه بدأ الزمخشري وغيرُه .

الثاني : أن تكونَ " ما " مصدريةً في محلِّ رفع بالابتداء ، والخبرُ الظرف المتقدم . قال الزمخشري : " على أنَّ محلَّ المصدرِ الرفعُ بالابتداء ، والخبرُ الظرفُ ، وهو " مِنْ قبل " ، والمعنى : وقع مِنْ قَبْل تفريطكم في يوسف ، وإلى هذا نحا ابنُ عطية أيضاً فإنه قال : " ولا يجوز أن يكونَ قوله " مِنْ قَبلُ " متعلقاً ب " ما فَرَّطْتُمْ " ، وإنما تكونُ على هذا مصدريةً ، والتقدير : مِنْ قبلُ تفريطُكم في يوسف واقعٌ أو مستقرٌ ، وبهذا المقدرِ يتعلَّقُ قولُه " مِنْ قبل " . قال الشيخ : " وهذا وقولُ الزمخشري راجعان إلى معنى واحد وهو أنَّ " ما فَرَّطْتُمْ " يُقَدَّرُ بمصدرٍ مرفوعٍ بالابتداء ، و " مِنْ قبل " في موضعِ الخبرِ ، وذَهِلا عن قاعدةٍ عربية وحُقَّ لهما أن يَذْهَلا وهو أن هذه الظروفَ التي هي غاياتُ إذا بُنِيَتْ لا تقع أخباراً للمبتدأ جَرَّتْ أو لم تجرَّ تقول : " يومُ السبت مباركٌ ، والسفر بعده " ، ولا تقول : " والسفر بعدُ ، وعمرو وزيد خلفَه " ، ولا يجوز : " زيد وعمرو خلفُ " وعلى ما ذكراه يكون " تفريطكم " مبتدأً ، و " من قبل " خبر [وهو مبني] وذلك لا يجوز ، وهو مقرر في علم العربية " .

(186/401)

قلت : قوله " وحُقَّ لهما أن يَذْهلا " تحاملٌ على هذين الرجلين المعروفِ موضعُهما من العلم . وأمّا قولُه " إنَّ الظرف المقطوعَ لا يقع خبراً فمُسَلَّمٌ ، قالوا لأنه لا يفيد ، وما لا يفيد فلا يقع

خبراً ، ولذا لا يقع صلةً ولا صفةً ولا حالاً ، لو قلت : " جاء الذي قبلُ " ، أو " مررت برجل قبلُ " لم يجزِ لما ذكرت . ولقائلٍ أن يقولَ : إنما امتنع ذلك لعدمِ الفائدة ، وعدمُ الفائدة لعدمِ العلمِ بالمضاف إليه المحذوف ، فينبغي إذا كان المضاف إليه معلوماً مَدْلولاً عليه أن يقع ذلك الظرفُ المضافُ إلى ذلك المحذوفِ خبراً وصفةً وصلةً وحالاً ، والآيةُ الكريمة من هذا القبيل ، أعني ممَّا عُلِم فيه المضافُ إليه كما مرَّ تقريره . ثم هذا الردُّ الذي ردَّ به الشيخ سبقه إليه أبو البقاء فقال : " وهذا ضعيفٌ ؛ لأنَّ " قبل " إذا وقعت خبراً أو صلة لا تُقْطع عن الإِضافة لئلا تبقى ناقصة " .

الثالث : أنَّها مصدريةٌ أيضاً في محلِّ رفع بالابتداء ، والخبر هو قولُه : " في يوسف " ، أي : وتفريطكم كائن أو مستقر في يوسف ، وإلى هذا ذهب الفارسي ، كأنه اسْتَشْعر أن الظرفَ المقطوعَ/ لا يقع خبراً فعدل إلى هذا ، وفيه نظر ؛ لأنَّ السياقَ والمعنى يجريان إلى تعلُّق " في يوسف " ب " فَرَّطْتُم " فالقول بما قاله الفارسي يؤدي إلى تهيئة العامل للعمل وقَطْعِه عنه .

الرابع : أنها مصدريةٌ أيضاً ، ولكن محلَّها النصبُ على أنها منسوقةٌ على ﴿ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ ﴾ ، أي : ألم تعلموا أَخْذَ أبيكم الميثاقَ وتفريطَكم في يوسف . قال الزمخشري : " كأنه قيل : ألم تعلموا أَخْذَ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطَكم مِنْ قبلُ في يوسف " . وإلى هذا ذهب ابن عطية أيضاً .

قال الشيخ : " وهذا الذي ذهبا إليه ليس بجيد ، لأنَّ فيه الفصلَ بالجارِّ والمجرور بين حرف العطف الذي هو على حرفٍ واحد وبين المعطوف ، فصار نظير : " ضربتُ زيداً وبسيفٍ عمراً " ، وقد زعم أبو علي الفارسي أنه لا يجوز ذلك إلا في ضرورة الشعر " . قلت : " هذا الردُّ أيضاً سبقه إليه أبو البقاء ولم يَرْتَضِه وقال : " وقيل : هو ضعيف لأنَّ فيه الفصلَ بين حرف العطف والمعطوف ، وقد بَيَّنَّا في سورة النساء أنَّ هذا ليس بشيء " . قلت : يعني أنَّ مَنْعَ الفصل بين حرف العطف والمعطوف ليس بشيء ، وقد تقدَّم إيضاح ذلك وتقريرُه في سورة النساء كما أشار إليه أبو البقاء .

ثم قال الشيخ : " وأمَّا تقديرُ الزمخشري " وتفريطكم من قبل في يوسف " فلا يجوز لأنَّ فيه تقديمَ معمولِ المصدر المنحلِّ لحرفٍ مصدري والفعل عليه ، وهو لا يجوز " . قلت : ليس في تقدير الزمخشري شيءٌ من ذلك ؛ لأنه لَمَّا صَرَّح بالمقدَّر أخَّر الجارَّين والمجرورَيْن عن لفظِ المصدر المقدر كما ترى ، وكذا هو في سائر النسخ ، وكذا ما نقله الشيخ عنه بخطه ، فأين تقديم المعمول على المصدر ؟ ولو رَدَّ عليه وعلى ابن عطية بأنه يلزم مِنْ ذلك تقديمُ معمولِ الصلة على الموصول لكان رَدّاً واضحاً ، فإنَّ " من قبلُ " متعلقٌ بفَرَّطْتُم ، وقد تقدم على "

ما " المصدرية ، وفيه خلافٌ مشهور .

الخامس : أن تكونَ مصدريةً أيضاً ، ومحلُّها نصبٌ عطفاً على اسم " أنَّ " ، أي : ألم تعلموا أنَّ أباكم وأنَّ تفريطكم من قبل في يوسف ، وحينئذٍ يكون في خبر " أنَّ " هذه المقدرة وجهان ، أحدهما وهو " من قبلُ " ، والثاني هو " في يوسف " ، واختاره أبو البقاء ، وقد تقدَّما في كلٍ منهما . ويُرَدُّ على هذا الوجه الخامسِ بما رُدَّ به على ما قبله من الفصل بين حرف العطف والمعطوف وقد عُرِف ما فيه .

(188/401)

السادس : أن تكونَ موصولةً اسميةً ، ومحلُّها الرفع أو النَصبُ على ما تقدَّم في المصدرية ، قال الزمخشري : " بمعنى : ومِنْ قبل هذا ما فرَّطتموه ، أي : قدَّمتموه في حَقِّ يوسف من الجناية ، ومحلُّها الرفع أو النصب على الوجهين " .

قلت : يعني بالوجهين رفعَها بالابتداء وخبرها " من قبل " ، ونصبَها عطفاً على مفعول " ألم تعلموا " ، فإنه لم يَذْكر في المصدرية غيرَهما . وقد عرفْتَ ما اعتُرِض به عليهما وما قيل في جوابه . فتحصَّل في " ما " ثلاثة أوجه : الزيادةُ ، وكونُها مصدريةً ، أو بمعنى الذي ، وأنَّ في محلِّها وجهين : الرفعَ أو النصبَ ، وقد تقدم تفصيلُ ذلك كلِّه .

قوله : ﴿ فَلَنْ أَبرَحَ الأرض ﴾ " برِحَ " هنا تامة ضُمِّنت معنى " أفارق " ف " الأرض " مفعولٌ به ، ولا يجوز أن تكون تامةً من غيرِ تضمين ، لأنها إذا كانت كذلك كان معناها ظهر أو ذهب ، ومنه " بَرِح الخَفاء " ، أي : ظهر أو ذهب ومعنى الظهور لا يليق ، والذهابُ لا يَصِلُ إلى الظرف المخصوص إلا بواسطة " في " تقول : ذهبت في الأرض ، ولا يجوز : ذهبت الأرض ، وقد جاء شيءٌ لا يُقاس عليه . وقال أبو البقاء : " ويجوز أن يكونَ ظرفاً " . قلت : ويحتمل أن يكونَ سقط من النسخ لفظةُ " لا " ، وكان : " ولا يجوز أن تكون ظرفاً " .

واعلمْ أنه لا يجوز في " أبرح " هنا أن تكونَ ناقصة لأنه لا يَنْتَظِم من الضمير الذي فيها ومن " الأرض " مبتدأ أو خبر ، ألا ترى أنك لو قلت : " أنا الأرض " لم يَجُزْ من غير " في " ؛ بخلاف " أنا في الأرض " و " زيد في الأرض " .

(189/401)

قوله : ﴿ أَوْ يَحْكُمَ الله ﴾ في نصبه وجهان ، أحدهما : وهو/ الظاهر عَطْفُه على " يَأْذَن " . والثاني : أنه منصوبٌ بإضمار " أنْ " في جواب النفي وهو قوله " فلن أبرح " ، أي : لن أبرحَ الأرضَ إلا أنْ يَحْكم كقولهم : " لألزَمَنَّكَ أو تقضيني حقي " ، أي : إلا أن تقضيني .

قال الشيخ : " ومعناه ومعنى الغاية متقاربان " . قلت : وليس المعنى على الثاني ، بل سياقُ المعنى على عطفِه على "يَأْذن" فإنه غيى الأمرَ بغايتين ، أحدهما خاصة ، وهي إِذْن اللَّه ، والثانية عامة ؛ لأن إذْنَ اللِّه له في الانصراف هو مِنْ حكم اللَّه .

﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) ﴾

وقرأ العامَّةُ " سَرَقَ " مبنياً للفاعل مخففاً ، وابن عباس وأبو رزين والكسائي في ورايةٍ " سُرِّق " مبنياً للمفعول مشدداً ، وقد تقدَّم توجيههُما .

وقرأ الضحاك " سارِق " جعله اسم فاعل .

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ : يحتمل ثلاثة أوجه ، أحدها : وهو المشهور أنه على حَذْفِ مضاف تقديره : واسأل أهلَ القرية وأهلَ العير ، وهو مجازٌ شائع . قاله ابن عطية وغيره . قلت : وهذا على خلافٍ في المسألة : هل الإِضمارُ من باب المجاز أو غيرِه؟ المشهورُ أنه قسم منه وعليه أكثر الناس . قال أبو المعالي : " قال بعض المتكلمين : " هذا من الحذفِ وليس من المجاز ، [وإنما المجاز] : لفظةٌ استُعِيرَتْ لغير ما هي له " قال : " وحَذْفُ المضاف هو عينُ المجازِ وعُظْمُه ، هذا مذهب سيبويه وغيره " ، وحكى أنه قولُ الجمهور .

وقال فخر الدين الرازي : " إنَّ المجازَ والإِضمارَ قسمان لا قسيمان ، فهما متباينان " .

(190/401)

الثاني : أنه مجازٌ ، ولكنه من باب إطلاق اسمِ المحلِّ على الحالِّ للمجاورة كالزاوية .

الثالث : أنه حقيقةٌ لا مجاز فيه ، وذلك أنه يجوز أن يسأل القريةَ نفسَها والإِبل فتجيبه ، لأنه نبيٌّ يجوز أن ينطق له الجماد والبهائم .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ : هذا الإِضراب لا بد له من كلامٍ قبلَه متقدِّمٍ عليه يُضْرِب هذا عليه ، والتقدير : ليس الأمر كما ذكرتُمْ حقيقةً بل سَوَّلَتْ . وتقدَّم تفسيرُ مثلِ هذا وما بعده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 537 . 545 ﴾

(191/401)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾)

لما عَلِموا أن يوسف عليه السلام ليس يبرح عن أخيه خلا بعضُهم ببعضٍ فعملت فيهم الخَجْلة، وعلموا أن يعقوب في هذه الكرَّة يتجدد له مثلما أسلفوه من تلك الفَعْلة، فلم يرجع أكبرهم إلى أبيهم، وتناهى إلى يعقوبَ خَبَرُهم، فاتهمهم وما صدّقهم، واستخونهم وما استوثقهم.

﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) ﴾

كان لهم في هذه الكَرَّة حجة على ما قالوه، ولكن لم يسكن قلبُ يعقوب عليه السلام إليها، فإنّ تعيُّنَ الجُرْمِ في المرة الأولى أوْجَبَ التُّهمةَ في الكرّة الأخرى.

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82) ﴾

ما ازدادوا إقامةَ حُجَّةٍ إلا ازداد يعقوبُ - عليه السلام - في قولهم شُبْهةً.

ويقال: في مُساءلة الأطلال أَخْذٌ لقلوب الأحباب، وسَلْوةٌ لأسرارهم. . وهذا البابُ مما للشرح فيه مجال.

قوله جلّ ذكره: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً ﴾.

لجأ إلى قُرْبِ خلاصه من الضرِّ بالصبر.

ويقال لما وعد من نفسه الصبر فلم يُمْسِ حتى قال : ﴿ ياأسفى عَلَى يُوسُفَ ﴾ ليُعْلَمَ أنَّ عَزْمَ الأحبابِ على الصبر منقوضٌ غيرُ محفوظ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 198. 199﴾

(192/401)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) ﴾

(193/401)

التفسير : روي أنهم لما أتوه بأخيهم بنيامين أنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة ، فبقي بنيامين وحده فبكى وقال : لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه . فقال يوسف : بقي أخوكم وحيداً فأجلسه معه على مائدته . ثم أمر أن ينزل كل اثنين منهم بيتاً وقال : هذا لا ثاني له فاتركوه معي فآواه إليه أي أنزله في المنزل الذي كان يأوي إليه : فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح . ولما رأى تأسفه لأخ هلك قال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أخاً مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل : فبكى يوسف وقام إليه وعانقه و ﴿ قال إني أنا أخوك ﴾ قال وهب : أراد إني أقوم لك مقام أخيك في الإيناس وعدم التوحش . وقال ابن عباس وسائر المفسرين : أراد تعريف النسب لأن ذلك أقوى في إزالة الوحشة ولا وجه لصرف اللفظ عن ظاهره من غير ضرورة ﴿ فلا تبتئس ﴾ افتعال من البؤس الشدّة والضر أراد نهيه عن اجتلاب الحزن ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ من دواعي الحسد والأعمال المنكرة التي أقدموا عليها . يروى أن بنيامين قال ليوسف : أنا لا أفارقك . فقال له يوسف : قد علمت اغتمام والدي بي فإذا حبستك ازداد غمه ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن أنسبك إلى ما ليس يحسن . قال : أنا راض بما رضيت . قال : فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليك أنك قد سرقته فذلك قوله سبحانه ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ﴾ والسقاية مشربة يسقى بها وهي الصواع كان يسقى بها الملك أو الدواب ثم جعلت صاعاً يكال به .

وكان مستطيلاً من ذهب أو فضة مموهة بالذهب أو مرصعاً بالجواهر أقوال ﴿ ثم أذن مؤذن ﴾ نادى منادٍ ومعناه راجع إلى الإيذان والإعلام إلا أن التشديد يفيد التكثير أو التصويب بالنداء ﴿ أيتها العير ﴾ أراد أصحاب العير كقوله صلى الله عليه وسلم : " يا خيل الله اركبي " والعير الإبل التي عليها الأحمال لأنها تعير أي تذهب وتجيء . وقيل : هي قافلة الحمير كأنها جمع عير وأصلها " فعل " بالضم كسقف فأبدلت الضمة كسرة لأجل الياء كما في " بيض " ثم كثر في الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير وههنا سؤال وهو أنه كيف جاز لنبي الله أن يرضى بنسبة قومه إلى السرقة وهم برآء ؟ وأجاب العلماء بأنهم فعلوا ذلك من عند أنفسهم لأنهم لما لم يجدوا السقاية غلب على ظنونهم أنهم أخذوها ، أو المؤذن ذكر ما ذكر على سبيل الاستفهام ، أو المراد أنهم سرقوا يوسف عليه السلام من أبيهم ، أو المراد أن فيكم سارقاً وهو الأخ الذي رضي بذلك البهتان فلا ذنب لأن الخصم رضي بأن يقال في حقه ذلك . ثم إن إخوة يوسف ﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ﴾ قيل : صواع اسم للصاع والسقاية وصف ﴿ ولمن جاء به ﴾ أي بالصواع ﴿ حمل بعير ﴾ من طعام جعلاً لمن حصله ﴿ وأنا به زعيم ﴾ كفيل هو من قول

المؤذن وفيه أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم أيضاً إذا كان معلوماً فكأن حمل بعير كان عندهم شيئاً معلوماً كوسق مثلاً إلا أن هذه كفالة مال لرد السرقة وهو كفالة ما لم يجب لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئاً على رد السرقة ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم ﴿ قالوا تالله ﴾ التاء مبدلة من الواو فضعفت عن التصرف في سائر الأسماء وجعلت فيما هو أحق بالقسم وهو اسم الله عز وجل. حلفوا على أمرين معجبين: أحدهما أنهم علموا أن إخوة يوسف ما جاءوا لأجل الفساد في الأرض بالنهب والغصب ونحو ذلك حتى روي أنهم دخلوا وأفواه دوابهم مشدودة خوفاً من أن تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد في الطرق

والأسواق، وكانوا مواظبين على أنواع الطاعات ورد المظالم حتى حكي أنهم ردوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم. وثانيهما أنهم ما وصفوا قط بالسرقة. ﴿ قالوا ﴾ أي أصحاب يوسف: ﴿ فما جزاؤه ﴾ قال في الكشاف: الضمير للصواع والمضاف محذوف أي فما جزاء سرقته إن كنتم من الكاذبين في جحودكم وادعائكم البراءة؟ قلت: ويحتمل أن يعود إلى السارق، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة فلذلك

استفتوا في الجزاء حتى ﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله ﴾ أي جزاؤه الرق .

قال الزجاج : وقوله ﴿ فهو جزاؤه ﴾ زيادة في البيان أي فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير كما يقال حق السارق القطع جزاؤه لتقرر ما ذكر من استحقاقه ، ويجوز أن يكون مبتدأ وباقي الكلام جملة شرطية مرفوعة المحل بالخبرية على أن الأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو ليكون الضمير الثاني عائد إلى المبتدأ والأول إلى " من " ولكنه وضع المظهر مقام المضمر للتأكيد والمبالغة . وجوز في الكشاف أن يكون ﴿ جزاؤه ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي المسؤول عنه جزاؤه ، ثم أفتوا بقولهم من وجد في رحله فهو جزاؤه . أما قوله : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نجزي الظالمين ﴾ فيحتمل أن يكون من بقية كلام إخوة يوسف وأن يكون من كلام أصحاب يوسف والله أعلم .

(196/401)

ثم قال لهم المؤذن ومن معه : لا بد من تفتيش أوعيتكم فانصرف بهم إلى يوسف ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ﴾ لنفي التهمة والوعاء كل ما إذا وضع فيه شيء أحاط به .

قال قتادة : كان لا ينظر في وعاء إلا استغفر الله تأثماً مما قذفهم به حتى إذا لم يبق إلا أخوه قال : ما أظن هذا أخذ شيئاً . فقالوا : والله لا نتركه حتى تنظر في رحله فنظر . ﴿ ثم

استخرجها ﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه يذكر ويؤنث . ﴿ من وعاء أخيه ﴾ فأخذوا برقبته وحكموا برقيته . ثم قال سبحانه ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الكيد العظيم ﴿ كدنا ليوسف ﴾ يعني علمناه إياه وأوحينا به إليه . والكيد مبدؤه السعي في الحيلة والخديعة ونهايته إلقاء الإنسان من حيث لا يشعر به في أمر مكروه ولا سبيل إلى دفعه ، وقد سبق فيما تقدم أن أمثال هذه الألفاظ في حقه تعالى محمولة على النهايات لا على البدايات . وما هذا الكيد ؟ قيل : هو أن إخوة يوسف سعوا في إبطال أمره والله تعالى نصره وقواه . وقيل : الكيد يستعمل في الخير أيضاً والمعنى كفعلنا بيوسف من الإحسان إليه ابتداء فعلنا به انتهاء وقيل : تفسير هذا الكيد هو قوله : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ لأن حكم الملك في السارق أن يضرب ويغرم مثلي ما سرق فما كان يوسف قادراً على حبس أخيه بناء على دين الملك وحكمه . ومعنى ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ هو أن الله كاد له فأجرى على لسان إخوته أن جزاء السارق هو الاسترقاق حتى توصل بذلك إلى أخذ أخيه ، وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى بعض الأغراض الدينية والدنيوية . ثم مدحه على الهداية إلى هذه الحيلة كما مدح إبراهيم على ما حكى عنه من دلائل التوحيد والبراءة من إلهية الكوكب ثم القمر ثم الشمس فقال : ﴿ نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴾ فوقه أرفع درجة منه في علمه .

ثم إن أطلق على الله تعالى أنه ذو علم كان هذا العام مخصوصاً لأنه لا عليم فوقه ، وإن قيل : إنه عالم بلا علم كما يقوله بعض المعتزلة كان النص باقياً على عمومه ، وإن قلنا إن الكل بمعنى المجموع كان المعنى وفوق جميع العلماء عليم هم دونه في العلم وهو الله تعالى والميل إلى هذا التفسير لأن قوله : ﴿ ذو علم ﴾ مشعر بكون علمه زائداً على حقيقته ووصفه تعالى عين ذاته ، وفي هذا البحث طول وفي الرمز كفاية . يروى أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء وأقبلوا عليه وقالوا له : ما الذي صنعت ففضحتنا وسودت وجوهنا يا بني راحيل ، ما يزال لنا منكم بلاء متى أخذت هذا الصاع؟ فقال : بنو راحيل هم الذين لا يزال منكم عليهم البلاء ، ذهبتم بأخي فأهلكتموه ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم فعند ذلك ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ عنوا به يوسف . واختلف في تلك السرقة فعن سعيد بن جبير أن جده أبا أمه كان يعبد الوثن فأمرته أمه بأن يسرق تلك الأوثان ويكسرها فلعله يترك عبادتها . وقيل : سرق عناقاً من أبيه أو دجاجة ودفعها إلى مسكين . وقيل : كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكابر ولده فورثها إسحاق ثم وقعت إلى ابنته عمة يوسف فحضنت يوسف إلى أن شب فأراد يعقوب أن ينتزعه منها وكانت تحبه حباً شديداً فشدت المنطقة على يوسف تحت ثيابه ثم زعمت أنه قد سرقها ، وكان في

شرعهم استرقاق السارق فتوسلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عند نفسها . وقيل إنهم كذبوا عليه وبهتوه حسداً وغيظاً . ﴿ فأسرّها يوسف ﴾ قال الزجاج وغيره : الضمير يعود إلى الكلمة أو الجملة كأنه قيل : فأسر الجملة في نفسه ولم يبدها لهم ، ثم فسرها بقوله : ﴿ قال أنتم شر مكاناً ﴾ والمعنى أنه قال هذه الجملة على سبيل الخفية . وطعن الفارسي في هذا الوجه فقال : إن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل ، والحق أن القرآن حجة على غيره .

(198/401)

وقيل : الضمير : عائد على الإجابة أي أسر يوسف إجابتهم في ذلك الوقت إلى وقت آخر . وقيل : يعود إلى المقالة أو السرقة أي لم يبين يوسف أن تلك السرقة كيف وقعت وأنه ليس فيها ما يوجب الذم والعار . وعن ابن عباس أنه قال : عوقب يوسف ثلاث مرات : عوقب بالحبس لأجل همه بها ، وبالحبس الطويل لقوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ وبقولهم : ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ لقوله : ﴿ إنكم لسارقون ﴾ ومعنى ﴿ شر مكاناً ﴾ شر منزلة لأنكم سرقتم أخاكم من أبيكم على التحقيق وقلتم أكله الذئب ﴿ والله أعلم بما

تصفون ﴾ المراد أنه يعلم أني لست بسارق في التحقيق ولا أخي ، أو الله أعلم بأن الذي وصفتموه هل يوجب ذماً أم لا .

(199/401)

قال ابن عباس : لما قال يوسف هذا القول غضب يهوذا وكان إذا غضب وصاح لم تسمع صوته حامل إلا وضعت وقام شعره على جلده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه . فقال لبعض إخوته : اكفوني أسواق أهل مصر وأنا أكفيكم الملك فقال يوسف لابن صغير له : مسه فمسه فذهب غضبه وهم أن يصيح فركض يوسف رجله على الأرض ليريه أن شديد وجذبه فسقط فعند ذلك ﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ﴾ في السن أو في القدر وهو أحب إليه منا ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ استعباداً أو رهناً حتى نبعث الفداء إليك فلعل العفو أو الفداء كان جائزاً أيضاً عندهم ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ لو فعلت ذلك أو من المحسنين إلينا بأنواع الكرامة ورد البضاعة إلى رحالنا أو أرادوا الإحسان إلى أهل مصر حيث أعتقهم بعدما اشترى رقابهم بالطعام ﴿ قال ﴾ يوسف ﴿ معاذ الله ﴾ من ﴿ أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً ﴾ أي إذا أخذنا غيره ﴿ لظالمون ﴾ في مذهبكم لأن استعباد غير من وجد الصواع في رحله ظلم عندكم ، أو

أراد إن الله أمرني وأوحى إليّ بأخذ بنيامين فلو أخذت غيره كنت عاملاً بخلاف الوحي ﴿ فلما استيأسوا منه ﴾ حيث لم يقبل الشفاعة أي يئسوا والزيادة للبالغة . ﴿ خلصوا ﴾ اعتزلوا عن الناس خالصين لا يخالطهم غيرهم ﴿ نجياً ﴾ مصدر والمضاف محذوف أي ذوي نجوى ، أو المراد أنهم التناجي في أنفسهم لاستجماعهم بذلك واندفاعهم فيه بجد واهتمام كما يقال : رجل جور ورجال عدل ، أو صفة لموصوف محذوف أي فوجاً نجياً بمعنى مناجياً بعضهم لبعض كالعشير بمعنى المعاشر . وفيم كان تناجيهم ؟ الجواب في تدبير أمرهم على أيّ وجه يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم فعند ذلك ﴿ قال كبيرهم ﴾ في السن وهو روبيل ، أو في القدر وهو شمعون لأنه كان رئيسهم ، أو في العقل والرأي وهو يهوذا . وقوله : ﴿ ما فرطتم ﴾ إما أن تكون " ما " صلة أي ومن قبل هذا قصرتم ﴿ في ﴾ شأن ﴿ يوسف ﴾ ولم توفوا بعهدكم أباكم ، وإما

أن تكون مصدرية محله الرفع على الابتداء وخبره بالظرف تقديره ومن قبل تفريطكم أي وقع من قبل تقصيركم في حقه ، أو النصب عطفاً على مفعول ألم تعلموا كأنه ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطكم من قبل ، وإما أن تكون موصولة بمعنى ومن قبل هذا ما

فرطتموه أي قدمتموه في شأن يوسف من الجناية والخيانة ومحل الموصول الرفع أو النصب على الوجهين . ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ في الانصراف ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ بالخروج منها أو بالانتصاف من أخذ أخي أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب .

(201/401)

ثم إنه بقي ذلك الكبير في مصر وقال لغيره من الإخوة . ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ﴾ قاله بناء على ما شاهد من استخراج الصواع من وعائه ، أو أراد أنه سرق في قول الملك وأصحابه كقول قوم شعيب ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ [هود : 87] أي في زعمك واعتقادك ، أو المراد إن ابنك ظهر عليه ما يشبه السرقة . وإطلاق اسم أحد الشبيهين على الآخر جائز أو القوم ما كانوا حينئذ أنبياء فلا يبعد منهم الذنب . وعن ابن عباس أنه قرأ ﴿ سرق ﴾ مشدداً مبنياً للمفعول أي نسب إلى السرقة . وعلى هذا فلا إشكال ، ومما يدل على أنهم بنوا الأمر على الظاهر قوله ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ أي إلا بقدر ما تيقناه من رؤية الصواع في وعائه ﴿ وما كنا للغيب ﴾ للأمر الخفي ﴿ حافظين ﴾ فإن الغيب لا يعلمه إلا الله . وعن عكرمة أن الغيب الليل معناه لعل الصواع

دس في رحله بالليل من حيث لا يشعر ، أو ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق قاله مجاهد والحسن وقتادة ، أو ما علمنا أنا إذا قلنا إن شرع بني إسرائيل هو استرقاق السارق أخذ أخونا بتلك الحيلة . ثم بالغوا في إزالة التهمة فقالوا : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ الأكثرون على أنها مصر . وقيل : قرية على باب مصر وقع فيها التفتيش أي أرسل إلى أهلها فاسألهم عن كنه القصة ﴿ و ﴾ اسأل أصحاب ﴿ العير التي أقبلنا فيها ﴾ وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب . وقيل : قوماً من أهل صنعاء . وقال ابن الأنباري : إن يعقوب كان من أكابر الأنبياء فلا يبعد أن يحمل سؤال القرية على الحقيقة بأن ينطق الله الجمادات لأجله معجزة ، فالمراد اسأل القرية والعير والجدران والحيطان فإنها تجيبك بصحة ما ذكرنا . وقيل : إن الشيء إذا ظهر ظهوراً تاماً فقد يقال سل عنه السماء والأرض وجميع الأشياء ويراد إنه ليس للشك فيه مجال . ثم زادوا في تأكيد نفي التهمة قائلين ﴿ وإنا لصادقون ﴾ وليس غرضهم إثبات صدقهم فإن ذلك يجري مجرى إثبات

الشيء بنفسه ولكن الإنسان إذا ذكر الدليل القاطع على صحة الشيء فقد يقول بعده أنا صادق فتأمل فيما ذكرته ليزول عنك الشك . وههنا إضمار التقدير فرجعوا إلى أبيهم

فقالوا له ما قال لهم أخوهم فعند ذلك : ﴿ قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ وقد مر تفسيره في أول السورة . ولكن المفسرين زادوا شيئاً آخر فقيل : المراد أنه خيل إليكم أنه سرق وما سرق . وقيل : أراد سوّلت لكم أنفسكم إخراج بنيامين والمصير به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد من ذلك شر وضرر وألححتم عليّ في إرساله معكم ولم تعلموا أن قضاء الله ربما جاء على خلاف تقديركم .

وقيل : أراد فتواهم وتعليمهم وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته .

واعترض على هذا القول بأنه كيف يجوز على يعقوب السعي في إخفاء حكم الله تعالى ؟

وأجيب بأن ذلك الحكم لعله كان مخصوصاً بما إذا كان المسروق له مسلماً وكان الملك في ظن يعقوب كافراً ، ولما طال بلاؤه ومحنته علم بحسن الظن والرجاء أنه سبحانه سيجعل له فرجاً ومخرجاً عما قريب ، أو لعله علم بالوحي أن يوسف حي وكان بنيامين والكبير الذي قال : ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ قد بقيا في مصر فلذلك قال : ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم ﴾ أي بالثلاثة الغائبين ﴿ جميعاً إنه هو العليم ﴾ بحالي ﴿ الحكيم ﴾ في كل ما يفعله من الابتلاء والإبلاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 109 . 114﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

(204/401)

التأويل : لما دخل الأوصاف البشرية ومعهم السر ﴿ على يوسف ﴾ القلب ﴿ آوى ﴾ القلب السر ﴿ إليه ﴾ لأنه أخوه الحقيقي بالمناسبة الروحانية ﴿ فلا تبتئس ﴾ إذا وصلت بي ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ معك في مفارقتي لأن السر مهما كان مفارقاً من قلب مقارناً للأوصاف كان محروماً عن كمالات هو مستعد لها ﴿ فلما جهزهم ﴾ جهز القلب الأوصاف بما يلائم أحوالها ﴿ جعل السقاية ﴾ وهي مشربة كان منها شربه ﴿ في رحل أخيه ﴾ لأنهما رضيعا لبان واحد ﴿ إنكم لسارقون ﴾ سرقتم في الأول يوسف القلب وشريتموه بثمن بخس من متاع الدنيا وشهواتها ، وسرقتم في الآخر مشربة ليست من مشاربكم ، وفيه أن من ادعى الشرب من مشارب الرجال وهو طفل بعد أخذ بالسرقة واستردت منه ﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ من علف الدواب ومراتع الحيوانات لأنه ليس مستحقاً للشرب من مشارب الملوك ﴿ لقد علمتم ﴾ أن المقبولين المقبلين على يوسف القلب لا نريد الإفساد في أرض الدنيا كما قالت الملائكة ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾

[البقرة : 30] ﴿ وما كنا سارقين ﴾ إذ أخذنا يوسف القلب وألقيناه في غيابة الجب البشرية بل سعينا في أن ينال مملكة مصر العبودية ليكون عزيزاً فيها ونحن أذلاء له ﴿ جزاؤه من وجد في رحله ﴾ أي لكل شارب مشرب ولكل شرب فدية . ففدية الشارب من مشرب الدنيا صنعته وحرفته وكسبه ، وفدية الشارب من مشرب الآخرة الدنيا وشهواتها ، وفدية الشارب من شرب المحبة بذل الوجود ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ الذين وضعوا صواع الملك في غير موضعه طمعاً في أن يكونوا حريف الملك وشريبه ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ أي كما كاد الأوصاف البشرية في الابتداء بيوسف القلب إذ ألقوه في جب البشرية كدنا بهم عند قسمة الأقوات من خزانة الملك فجعلنا قسمتهم من مراتع الحيوانات يأكلون كما تأكل الأنعام ، وقسمة بنيامين السر من مشربة الملك . ﴿ وفوق كل ذي علم ﴾ آتيناه علم الصعود ﴿ عليم ﴾ يجذبه من المصعد الذي يصعد إليه بالعلم المخلوق إلى

مصعد لا يصعد إليه إلا بالعلم القديم وهو السير في الله بالله إلى الله ، وهذا صواع لا تسعه أوعية الإنسانية ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ فيه إشارة إلى السر والقلب مع أنهما مخصوصان بالحظوظ الأخروية والروحانية فإنهم قابلان للاسترقاق من الشهوات

الدنياوية والنفسانية ولما رأت الأوصاف البشرية عزة القلب وعرفت اختصاص البشرية أرادت أن تفدي نفسها وسيلة إلى يعقوب الروح فقالت : ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ ﴿ قال معاذ الله ﴾ أن نقبل بالصحبة والمخالطة ﴿ إلا من وجدنا متاعنا ﴾ من الصدق والمحبة والإخلاص عنده أي لا تكون صحبتنا بالكراهية والنفاق وإنما تكون بعلة الجنسية ﴿ فلما استيأسوا ﴾ من صحبة القلب ﴿ خلصوا ﴾ عن الأوصاف الذميمة للتناجي ﴿ قال كبيرهم ﴾ هو العقل ألم تعلموا أن أباكم وهو الروح ﴿ قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ يوم الميثاق أن لا تعبدوا إلا الله ﴿ فلن أبرح ﴾ أرض فناء القلب وهي الصدر .

(206/401)

والحاصل أن صفة العقل لما تخلصت عن الأوصاف البشرية خرجت عن أوامر النفس وتصرفاتها وصارت محكومة لأوامر الروح مستسلمة لأحكام الحق . ﴿ ارجعوا إلى أبيكم ﴾ الروح على أقدام العبودية وتبديل الأخلاق ﴿ إن ابنك سرق ﴾ لأنه وجد في رحله مشربة المحبة التي بها يكال الحب على وفده . ﴿ وما كنا للغيب ﴾ عند ارتحالنا من الغيب إلى الشهادة ﴿ حافظين ﴾ لأنه جعل السقاية في رحله في غيبتنا . ﴿ واسأل ﴾ أهل مصر الملكوت وأرواح الأنبياء والأولياء ﴿ قال بل سولت ﴾ فيه أن للنفس

تزيينات وللأوصاف البشرية خيالات يتأذى بها يعقوب الروح لكن عليه أن يصبر على إمضاء أحكام الله وتنفيذ قضائه ﴿ عسى الله أن يأتيني ﴾ فيه أن متولدات الروح من القلب والأوصاف وغيرها وإن تفرقوا وتباعدوا عن الروح في الجسد للاستكمال فإن الله بجذبات العناية يجمعهم في مقعد صدق عنده مليك مقتدر ﴿ إنه هو العليم ﴾ بافتراقهم ﴿ الحكيم ﴾ بما في التفريق والجمع من الفوائد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 115.114 ﴾

(207/401)

قوله تعالى ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فصل

قال البقاعي :

﴿ وتولى ﴾ أي انصرف بوجهه ﴿ عنهم ﴾ لما تفاقم عليه من الحزن ، وبلغ به من الجهد ، وهاج به باجتماع حزن إلى حزن من الحرق كراهية لما جاؤوا به وإقبالاً على من إليه الأمر ﴿ وقال ﴾ مشتكياً إلى الله لا غيره ، فهو تعريض بأشد التصريح والدعاء :

﴿ ياأسفي ﴾ أي يا أشد حزني ، والألف بدل عن ياء الإضافة لتدل على بلوغ الأسف إلى ما لا حد له ، وجناس " الأسف " مع " يوسف "مما لم يتعمد ، فيكون مطبوعاً ، فيصل إلى نهاية الإبداع ، وأمثاله في القرآن كثير ﴿ على يوسف ﴾ هذا أوانك الذي ملأني بك فنادمني كما أنادمك ، وخصه لأنه قاعدة إخوانه ، انبنى عليها وتفرع منها ما بعدها ﴿ وابيضت عينه ﴾ أي انقلب سوادهما إلى حال البياض كثرة الاستعبار ، فعمى البصر ﴿ من الحزن ﴾ الذي هو سبب البكاء الدائم الذي هو سبب البياض ، فذكر السبب الأول ، يقال : بلغ حزنه عليه السلام حزن سبعين ثكلى وما ساء ظنه قط .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ فهو ﴾ أي بسبب الحزن ﴿ كظيم ﴾ أي شديد الكظم لامتلائه من الكرب ، مانع نفسه من عمل ما يقتضيه ذلك من الرعونات بما آتاه الله من العلم والحكمة ، وذلك أشد ما يكون على النفس وأقوى ما يكون للحزن ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، وهو أبلغ منه ، من كظم السقاء – إذا شده على ملئه .

ومادة "كظم" تدور على المنع من الإظهار ، يلزمه الكرب – لأنه من شأن الممنوع مما قد امتلأ منه ، ويلزمه الامتلاء ، لأن ما دونه ليس فيه قوة الظهور ، كظم غيظه –إذا سكت بعد امتلائه منه ، وكظمت السقاء – إذا ملأته وسددته ، وكظم البعير جرته – إذا ردها وكف ، والكظم : مخرج النفس ، لأنه به يمنع من الجري في هواه ؛ والكظامة : حبل يشد به خرطوم البعير ، لمنعه مما يريد ، وأيضاً يوصل بوتر القوس العربية ثم يدار بطرف السية العليا ، منعاً له من الانحلال وأيضاً قناة في باطن الأرض يجري فيهما الماء ، لأنه يمنع الماء من أن يأخذ في هواه فيرتفع في موضع النبع فيظهر على وجه الأرض ، وخرق يجري فيه الماء من بئر إلى بئر ، لأنه لا يصنع إلا عند ضعف إحدى البئرين ، فلولاه لفاضت القوية ، فهو تصريف لمائها في غير وجهه ، وكظامة الميزان : المسمار الذي يدور فيه اللسان ، لأنه يربطه فيمنعه من الانفكاك ، ويقال : ما زلت كاظماً يومي كله ، أي ممسكاً عن الأكل وقد امتلأت جوعاً ، وقد يطلق على مطلق النبع ، ومنه كاظمة – لقرية على شاطىء البحر ، لأن البحر قد كظمها عن الانفساح وكذا هي منعته عن الانسياح.

فلما رأوا أنه قد فاتهم ما ظنوا أنه يكون بعد ذهاب يوسف من صلاح الحال مع أبيهم بقصر

الإقبال عليهم ، ووقع لأبيهم هذا الفادح العظيم ، تشوف السامع إلى قولهم له ، فاستأنف الإخبار عنه بقوله : ﴿ قالوا ﴾ أي حنقاً من ذلك ﴿ تالله ﴾ أي الملك الأعظم ، يميناً فيها تعجب ﴿ تفتؤا ﴾ أي ما تزال ﴿ تذكر يوسف ﴾ حريصاً على ذكره قوياً عليه حرص الفتى الشاب الجلد الصبور على مراده ﴿ حتى ﴾ أي إلى أن ﴿ تكون حرضاً ﴾ أي حاضر الهلاك مشرفاً عليه متهيئاً له بدنف الجسم وخبل العقل - كما مضى بيانه في الأنفال عند ﴿ حرض المؤمنين على القتال ﴾ ﴿ أو تكون ﴾ أي كوناً لازماً هو كالجبلة ﴿ من الهالكين ﴾ .

(209/401)

ولما تشوفت النفس إلى ما كان عنه بعد ما رأى من غلظة بنيه ، شفى عيّها بقوله : ﴿ قال إنما ﴾ أي نعم لا أزال كذلك لأنه من صفات الكمال للإنسان ، لدلالته على الرقة والوفاء ، وإنما يكون مذموماً إذا كان على وجه الشكاية إلى الخلق وأنا لا أشكو إلى مخلوق ، إنما ﴿ أشكوا بثي ﴾ والبث أشد الحزن ، سمي بذلك لأنه من صعوبته لا يطاق حمله فيباح به وينشر ﴿ وحزني ﴾ مطلقاً وإن كان سببه خفيفاً يقدر الخلق على إزالته ﴿ إلى الله ﴾

أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة تعرضاً لنفحات كرمه ، لا إلى أحد غيره ، وهذا – الذي سمعتوه مني فقلقتم له – قليل من كثير .

(210/401)

ولما كان يجوز أن يكونوا صادقين في أنهم لم يجدوا إلا قميص يوسف ملطخاً دماً ، وأن يكون قطعهم بأكل الذئب له مستنداً إلى ذلك ، وكان يعقوب عليه السلام يغلب على ظنه أن يوسف عليه السلام حي ويظن في الله أن يجمع شمله به ، قال : ﴿ وأعلم من الله ﴾ أي الملك الأعلى من اللطف بنا أهل هذا البيت ومن التفريج عن المكروبين والتفريح للمغمومين ﴿ ما لا تعلمون ﴾ ومادة " فتا " يائية وواوية مهموزة وغير ومهموزة بكل ترتيب وهي فتأ ، وفأت وتفأ وأفت ، وفتى وفوت وتوف وتفو تدور على الشباب ، وتلزمه القوة وشدة العزيمة وسلامة الانقياد : ما فتأ يفعل كذا – مثلثة العين : ما زال كما أفتا ، أي إنه ما زال فاعلاً في ذلك فعل الشاب الجلد الماضي العزم ، وما فتىء أن فعل ، ما برح أي أنه بادر إلى ذلك بسهولة انقياد وشدة عزيمة ، وحقيقته : ما فتىء عن فعل كذا ، أي ما تجاوزه إلى غيره وما نسيه بل قصر فتاءه وهمته وجلده عليه ، وعن ابن مالك في جمع اللغات المشكلة وعزاه للفراء – وصححه في القاموس : فتأ – كمنع : كسر وأطفأ ، وهو واضح في القوة ، وفتىء

عنه – كسمع : نسيه وانقذع عنه ، أي انكف أو خاص بالجحد ، أي بأن يكون قبله حرف نفي ، ومعناه أن قوته تجاوزته فلم تخالطه ؛ ومن يائيه : الفتاء – كسماء : الشباب ، وكأنه أصل المادة ، والفتي – بالقصر ؛ السخي والكريم ، أي الجواد الشريف النفس ، والفتى : السيد الشجاع – لأن ذلك يلزم الشباب ، والفتى : المملوك وإن كان بخيلاً أو شيخاً – لأنه غالباً لا يشتري إلا الشباب ، والفتى : التلميذ ، والتابع كذلك ، والفتى – كغنى : الشاب أيضاً ، والفتوة : الكرم ، وقد تفتى وتفاتى ، وفتوتهم : غلبتهم فيها ، وأفتاه في الأمر : أبانه له ، والفتيا – بالضم والفتوى – ويفتح : ما أفتى به الفقيه ، وهو يرجع إلى الجود وحسن الخلق ، والفتيان : الليل والنهار ، ولذلك يسميان الجديدين ، وفتيت البنت تفتية : منعت اللعب مع الصبيان ، فهو من سلب

الشباب ، أي فعله ومن مقلوبه مهموزاً : افتأت عليّ الباطل : اختلقه ، وبرأيه : استبد ، وكلاهما يدل على جرأة وطيش ، وهو بالشاب الذي لم يحنكه الدهر أجدر ، وافتئت – على البناء للمفعول : مات فجأة – كأن ذلك أشد الموت ؛ ومن واوية : فات الشيء فوتاً وفواتاً : ذهب فسبق فلم يدرك ، وفاته وافتاته : ذهب عنه فسبقه ، وذلك يدل على قوة

السابق ، وبينهما فوت ، أي بون – كأن كلاً منهما سابق للآخر ، وتفاوت الشيئان وتفوتا : تباعد ما بينهما ، ويلزم ذلك الاختلاف والاضطراب ، ويلزمه العيب ﴿ فما ترى في خلق الرحمن من تفوت ﴾ : من عيب ، يقول الناظر : لو كان كذا كان أحسن ، وموت الفوات : الفجأة ، وهو فوت رمحه ويده ، أي حيث يراه ولا يصل إليه ، والفوت : الفرجة بين إصبعين ، وافتأت عليه برأيه : سبقه به ، وفاته به وعليه : غلبه ، ولا يفتات عليه أي لا يعمل دون أمره ، أي لا أحد أشد منه فيسبقه ، وافتات الكلام : ابتدعه – كما تقدم في المهموز ، وافتات عليه : حكم – لقوته ، والفويت – كزبير : المنفرد برأيه – للمذكر والمؤنث ، وذلك لعدة نفسه شديداً ، وتفوت عليه في ماله : فاته به ؛ ومن مقلوبه مهموزاً : تفىء كفرح : احتد وغضب – وذلك لشدته ، وتفيئة الشيء : حينه وزمانه ، وذلك أحسن أحواله ، ودخل على تفيئته أي أثره أي لم يسبقه بكثير ، وذلك أشد له ؛ ومن واوية : التفة كفقة : عناق الأرض وهي تصيد ، وفيها خلاف يبين إن شاء الله تعالى في قوله : ﴿ جزاء موفوراً ﴾ من سورة سبحان ؛ ومن مقلوبه واوياً : تاف بصره يتوف : تاه – كأنه لسلب الشدة أو المعنى أنه وقع في توفة ، أي شدة ، وما فيه توفة – بالضم – ولا تافة : عيب أو مزيد أو حاجة وأبطأ وكل ذلك يدل على شدته ، وطلب علي توفة بالفتح ، : عثرة وذنباً – من ذلك لأن العثرة والذنب لا يصيبان شيئاً إلا عن شدتهما وضعفه ؛ ومن مقلوبه مهموزاً : الأفت – بالفتح : النافة التي عندها من الصبر والبقاء ما ليس عند غيرها ،

والسريع الذي يغلب الإبل على السير ، والكريم من الإبل – ويكسر – والداهية والعجب ، وكل ذلك واضح في القوة ، والإفت – بالكسر : الأول – لأنه أصل كل معدود ، وأفته عن كذا : صرفه .

ولما أخبرهم عليه السلام أن علمه فوق علمهم ، أتبعه استئنافاً ما يدل عليه فقال : ﴿ يا بني اذهبوا ﴾ ثم سبب عن هذا الذهاب وعقب به قوله : ﴿ فتحسسوا ﴾ أي بجميع جهدكم ﴿ من يوسف وأخيه ﴾ أي اطلبوا من أخبارهما بحواسكم لعلكم تظفرون بهما ، وهذا يؤكد ما تقدم من احتمال ظنه أن فاعل ذلك يوسف – عليهم الصلاة والسلام .

ولما لم يكن عندهم من العلم ما عنده ، قال : ﴿ ولا تيأسوا ﴾ أي تقنطوا ﴿ من روح الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ؛ والروح – قال الرماني – يقع بريح تلذ ، وكأن هذا أصله فالمراد : من رحمته وفرجه وتيسيره ولطفه في جمع الشتات وتيسير المراد ؛ ثم علل هذا النهي بقوله : ﴿ إنه لا ييأس ﴾ أي لا يقنط ﴿ من روح الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الجلال والإكرام ﴿ إلا القوم ﴾ أي الذين لهم قوة المحاولة ﴿ الكافرون ﴾ أي العريقون في الكفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 89.92 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ مزجاة ﴾ بالإمالة : حمزة وعلي وخلف ﴿ حزني ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن عامر وأبو عمرو . ﴿ قالوا إنك ﴾ على الخبر أو على حذف حرف الاستفهام : ابن كثير ويزيد . ﴿ أئنك ﴾ بهمزتين : عاصم وحمزة وعلي وخلف وهشام يدخل بينهما مدة . ﴿ أينك ﴾ بهمز ثم ياء : نافع غير قالون وسهل ويعقوب غير زيد ﴿ آينك ﴾ بهمزة ممدودة ثم ياء : أبو عمرو وزيد وقالون . ﴿ من يتقي ﴾ بالياء في الحالين : ابن مجاهد وأبو عون عن قنبل . الباقون بغير ياء ﴿ إني أعلم ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ ربي إنه ﴾ بالفتح أيضاً : أبو جعفر وأبو عمرو ﴿ أبي إذ ﴾ بالفتح أيضاً عندهم ﴿ إخوتي ﴾ ﴿ ربي ﴾ بفتح الياء أيضاً : يزيد والنجاري عن ورش وقالون غير الحلواني والله أعلم .

الوقوف : ﴿ كظيم ﴾ 5 ﴿ الهالكين ﴾ 5 ﴿ لا تعلمون ﴾ 5 ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ ط ﴿ الكافرون ﴾ 5 ﴿ وتصدق علينا ﴾ ط ﴿ المتصدقين ﴾ 5 ﴿ جاهلون ﴾ 5 ﴿ لأنت يوسف ﴾ ط ﴿ أخي ﴾ ز لتعجيل الشكر مع اختلاف الجملتين . ﴿ علينا ﴾ ط لاحتمال أنه ابتداء إخبار من الله ، وإن كان من قول يوسف جاز الوقوف أيضاً لاتحاد القائل مع الابتداء بأن ﴿ المحسنين ﴾ 5 ﴿ الخاطئين ﴾ 5 ﴿ اليوم ﴾ ط لاختلاف الجملتين نفيا وإثباتاً أو خبراً ودعاء ﴿ لكم ﴾ ط لاحتمال الاستئناف والحال أوضح ﴿ الراحمين ﴾ 5 ﴿ يأتي بصيراً ﴾ ج لطول الكلام واعتراض الجواب مع اتفاق الجملتين ﴿ أجمعين ﴾ 5 ﴿ تفندون ﴾ 5 ﴿ القديم ﴾ 5 ﴿ بصيراً ﴾ ج لاحتمال أن يكون ما بعده جواب " لما " وقوله ﴿ ألقاه ﴾ حالاً بإضمار " قد " ﴿ ما لا تعلمون ﴾ 5 ﴿ خاطئين ﴾ 5 ﴿ ربي ﴾ ط ﴿ الرحيم ﴾ 5 ﴿ آمنين ﴾ 5 ﴿ سجداً ﴾ ج ﴿ من قبل ﴾ ز لتمام الجملة لفظاً دون المعنى . ﴿ حقاً ﴾ ط لتمام بيان الجملة الأولى وابتداء جملة عظمى ﴿ إخوتي ﴾ ط ﴿ لما يشاء ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ 5 ﴿ الأحاديث ﴾ ج لحق حذف حرف النداء مع اتصال الكلام ﴿ والآخرة ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتصال الثناء بالدعاء ﴿ الصالحين ﴾ 5 . انتهى انتهى .

اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 116.115 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

واعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جداً وأعرض عنهم وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد إليهم .

أما المقام الأول : وهو أنه أعرض عنهم ، وفر منهم فهو قوله : ﴿ وتولى عَنْهُمْ وَقَالَ يا أسفى على يُوسُفَ ﴾ .

واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَالَ يا أَبَتِ دَخَلُواْ على يُوسُفَ ﴾ وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه :

الوجه الأول : أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن والقدح إذا وقع على القدح كان أوجع وقال متمم بن نويرة :

وقد لامني عند القبور على البكا . . رفيقي لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيته . . لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى . . فدعني فهذا كله قبر مالك

وذلك لأنه إذا رأى قبراً فتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه ، فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى .

وقال آخر :

فلم تنسني أوفي المصيبات بعده . . ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

والوجه الثاني : أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل ، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام ، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد .

الوجه الثالث : أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا ، وكان الأسف عليه أسفاً على الكل .

الرابع : أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها .

وأما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم في السبب الذي ذكروه ، وأما السبب الحقيقي فما كان معلوماً له ، وأيضاً أنه عليه السلام كان يعلم أن هؤلاء في الحياة وأما يوسف

فما كان يعلم أنه حي أو ميت ، فلهذه الأسباب عظم وجده على مفارقته وقويت مصيبته على الجهل بحاله .

المسألة الثانية :

من الجهال من عاب يعقوب عليه السلام على قوله : ﴿ ياأسفى على يُوسُفَ ﴾ قال : لأن هذا إظهار للجزع وجار مجرى الشكاية من الله وأنه لا يجوز ، والعلماء بينوا أنه ليس الأمر كما ظنه هذا الجاهل ، وتقريره أنه عليه السلام لم يذكر هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه ، وهو المراد من قوله : ﴿ وابيضت عَيْنَاهُ مِنَ الحزن ﴾ ثم أمسك لسانه عن النياحة ، وذكر ما لا ينبغي ، وهو المراد من قوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ثم إنه ما أظهر الشكاية مع أحد من الخلق بدليل قوله : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثّى وَحُزْنِى إِلَى الله ﴾ وكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته فإنه صبر وتجرع الغصة وما أظهر الشكاية فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء العظيم .

روي أن يوسف عليه السلام سأل جبريل هل لك علم بيعقوب ؟ قال نعم قال : وكيف حزنه ؟ قال : حزن سبعين ثكلى وهي التي لها ولد واحد ثم يموت .

قال : فهل له فيه أجر ؟ قال : نعم أجر مائة شهيد .

فإن قيل : روي عن محمد بن علي الباقر قال : مر بيعقوب شيخ كبير فقال له أنت إبراهيم فقال : أنا ابن ابنه والهموم غيرتني وذهبت بحسني وقوتي ، فأوحى الله تعالى إليه : "حتى متى تشكوني إلى عبادي وعزتي وجلالي لو لم تشكني لأبدلنك لحماً خيراً من لحمك ودماً خيراً من دمك" فكان من بعد يقول : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كان ليعقوب أخ مواخ" فقال له : ما الذي أذهب بصرك وقوس ظهرك فقال الذي أذهب بصري البكاء على يوسف وقوس ظهري الحزن على بنيامين ، فأوحى الله تعالى إليه "أما تستحي تشكوني إلى غيري" فقال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، فقال يا رب أما ترحم الشيخ الكبير قوست ظهري ، وأذهبت بصري ، فاردد عليَّ ريحانتي يوسف وبنيامين فأتاه جبريل عليه السلام بالبشرى وقال : لو كانا ميتين لنشرتهما لك فاصنع طعاماً للمساكين ، فإن أحب عبادي إلي الأنبياء والمساكين ، وكان يعقوب عليه السلام إذا أراد الغداء نادى مناديه من أراد الغداء فليتغد مع يعقوب ، وإذا كان صائماً نادى مثله عند الإفطار .

وروي أنه كان يرفع حاجبيه بخرقة من الكبر ، فقال له رجل : ما هذا الذي أراه بك ، قال طول الزمان وكثرة الأحزان ، فأوحى الله إليه "أتشكوني يا يعقوب" فقال : يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي .

قلنا : إنا قد دللنا على أنه لم يأت إلا بالصبر والثبات وترك النياحة .

وروي أن ملك الموت دخل على يعقوب عليه السلام فقال له : جئت لتقبضني قبل أن أرى حبيبي فقال : لا ، ولكن جئت لأحزن لحزنك وأشجو لشجوك ، وأما البكاء فليس من المعاصي .

(218/401)

وروي أن النبي عليه الصلاة والسلام : بكى على ولده إبراهيم عليه السلام وقال : " إن القلب ليحزن والعين تدمع ، ولا نقول : ما يسخط الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون "

وأيضاً فاستيلاء الحزن على الإنسان ليس باختياره ، فلا يكون ذلك داخلاً تحت التكليف وأما التأوه وإرسال البكاء فقد يصير بحيث لا يقدر على دفعه ، وأما ما ورد في الروايات التي ذكرتم فالمعاتبة فيها إنما كانت لأجل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وأيضاً ففيه دقيقة أخرى وهي أن الإنسان إذا كان في موضع التحير والتردد لا بد وأن يرجع إلى الله تعالى ، فيعقوب عليه السلام ما كان يعلم أن يوسف بقي حياً أم صار ميتاً ، فكان متوقفاً فيه وبسبب توقفه كان يكثر الرجوع إلى الله تعالى وينقطع قلبه عن الالتفات عن كل ما سوى الله تعالى إلا في هذه الواقعة ، وكان أحواله في هذه الواقعة مختلفة ، فربما صار في

بعض الأوقات مستغرق الهم بذكر الله تعالى ، فإن عن تذكر هذا الواقعة ، فكان ذكرها كلا سواها ، فلهذا السبب صارت هذا الواقعة بالنسبة إليه ، جارية مجرى الإلقاء في النار للخليل عليه السلام ومجرى الذبح لابنه الذبيح .

فإن قيل : أليس أن الأولى عند نزول المصيبة الشديدة أن يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون ﴾ [البقرة : 156] حتى يستوجب الثواب العظيم المذكور في قوله : ﴿ أولئك عَلَيْهِمْ صلوات مّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأولئك هُمُ المهتدون ﴾ [البقرة : 157] .

قلنا : قال بعض المفسرين إنه لم يعط الاسترجاع أمة إلا هذه الأمة فأكرمهم الله تعالى إذا أصابتهم مصيبة وهذا عندي ضعيف لأن قوله : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ إشارة إلى أنا مملوكون لله وهو الذي خلقنا وأوجدنا ، وقوله : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون ﴾ إشارة إلى أنه لا بد من الحشر والقيامة ، ومن المحال أن أمة من الأمم لا يعرفون ذلك فمن عرف عند نزول بعض المصائب به أنه لا بد في العاقبة من رجوعه إلى الله تعالى ، فهناك تحصل السلوة التامة عند تلك المصيبة ، ومن المحال أن يكون لمؤمن بالله غير عارف بذلك .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ ﴾ نداء الأسف وهو كقوله : "يا عجباً" والتقدير كأنه ينادي الأسف ويقول : هذا وقت حصولك وأوان مجيئك وقد قررنا هذا المعنى في مواضع كثيرة منها في تفسير قوله : ﴿ حَاشَ للَّهِ ﴾ [يوسف : 31] والأسف الحزن على ما فات .

قال الليث : إذا جاءك أمر فحزنت له ولم تطقه فأنت أسيف أي حزني ومتأسف أيضاً .

قال الزجاج : الأصل ﴿ يا أسفى ﴾ إلا أن ياء الإضافة يجوز إبدالها بالألف لخفة الألف والفتحة .

ثم قال تعالى : ﴿ عَلَى يُوسُفَ وابيضت عَيْنَاهُ مِنَ الحزن ﴾ وفيه وجهان :

الوجه الأول : أنه لما قال يا أسفى على يوسف غلبه البكاء ، وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء وقوله : ﴿ وابيضت عَيْنَاهُ مِنَ الحزن ﴾ كناية عن غلبة البكاء ، والدليل على صحة هذا القول أن تأثير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول العمى فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسناً ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل ، فكان ما ذكرناه أولى وهذا للتفسير مع الدليل رواه الواحدي في "البسيط" عن ابن عباس رضي الله عنهما .

والوجه الثاني : أن المراد هو العمى قال مقاتل : لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السلام وهو قوله : ﴿ فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ [يوسف : 93] قيل إن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام حينما كان في السجن فقال إن بصر أبيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال : ليت أمي لم تلدني ولم أك حزناً على أبي ، والقائلون بهذا التأويل قالوا : الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم وهو يوجب العمى ، فالحزن كان سبباً للعمى بهذه الواسطة ، وإنما كان البكاء الدائم يوجب العمى ، لأنه يورث كدورة في سوداء العين ، ومنهم من قال : ما عمي لكنه صار بحيث يدرك إدراكاً ضعيفاً .

قيل : ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف عليه السلام إلى حين لقائه ، وتلك المدة ثمانون عاماً ، وما كان على وجه الأرض عبداً أكرم على الله تعالى من يعقوب عليه السلام .

أما قوله تعالى : ﴿ مِنَ الحزن ﴾ فاعلم أنه قرىء ﴿ مِنَ الحزن ﴾ بضم الحاء وسكون الزاي ، وقرأ الحسن بفتح الحاء والزاي .

قال الواحدي : واختلفوا في الحزن والحزن فقال قوم : الحزن البكاء والحزن ضد الفرح ، وقال قوم : هما لغتان يقال أصابه حزن شديد ، وحزن شديد ، وهو مذهب أكثر أهل اللغة ، وروى يونس عن أبي عمرو قال : إذا كان في موضع النصب فتحوا الحاء والزاي كقوله :

﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَناً ﴾ [التوبة : 92] وإذا كان في موضع الخفض أو الرفع ضموا الحاء كقوله : ﴿ مِنَ الحزن ﴾ وقوله : ﴿ أَشْكُو بَثّى وَحُزْنِى إِلَى الله ﴾ قال هو في موضع رفع الابتداء .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ فيجوز أن يكون بمعنى الكاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره قال ابن قتيبة : ويجوز أن يكون بمعنى المكظوم ، ومعناه المملوء من الحزن مع سد طريق نفسه المصدور من كظم السقاء إذا اشتد على ملئه ، ويجوز أيضاً أن يكون بمعنى مملوء من الغيظ على أولاده .

واعلم أن أشرف أعضاء الإنسان هذه الثلاثة ، فبين تعالى أنها كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولاً بقوله : ﴿ يا أسفى ﴾ والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شد ولا يمكن خروج الماء منه وهذه مبالغة في وصف ذلك الغم .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حتى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن السكيت يقال : ما زلت أفعله وما فتئت أفعله وما برحت أفعله ولا يتكلم بهن إلا مع الجحد .

قال ابن قتيبة يقال : ما فتيت وما فتئت لغتان فتيا وفتوأ إذا نسيته وانقطعت عنه قال النحويون وحرف النفي ههنا مضمر على معنى قالوا : ما تفتؤا ولا تفتؤ وجاز حذفه لأنه لو أريد الإثبات لكان باللام والنون نحو والله لتفعلن فلما كان بغير اللام والنون عرف أن كلمة لا مضمرة وأنشدوا قول امرىء القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً . . والمعنى : لا أبرح قاعداً ومثله كثير .

وأما المفسرون فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة لا تزال تذكره ، وعن مجاهد لا تفتر من حبه كأنه جعل الفتور والفتوء أخوين .

المسألة الثانية :

حكى الواحدي عن أهل المعاني أن أصل الحرض فساد الجسم والعقل للحزن والحب ، وقوله : حرضت فلاناً على فلان تأويله أفسدته وأحميته عليه ، وقال تعالى : ﴿ حَرّضِ المؤمنين عَلَى القتال ﴾ [الأنفال : 65] .

إذا عرفت هذا فنقول : وصف الرجل بأنه حرض إما أن يكون لإرادة أنه ذو حرض فحذف المضاف أو لإرادة أنه لما تناهى في الفساد والضعف فكأنه صار عين الحرض

ونفس الفساد .

وأما الحرض بكسر الراء فهو الصفة وجاءت القراءة بهما معاً .

إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه عبارات : أحدها : الحرض والحارض هو الفاسد في جسمه وعقله .

وثانيهما : سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن الحرض فقال : الفاسد الدنف .

(222/401)

وثالثها : أنه الذي يكون لا كالأحياء ولا كالأموات ، وذكر أبو روق أن أنس بن مالك قرأ : ﴿ حتى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ بضم الحاء وتسكين الراء قال يعني مثل عود الأشنان ، وقوله : ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ﴾ أي من الأموات ، ومعنى الآية أنهم قالوا لأبيهم إنك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه أو تموت من الغم كأنهم قالوا : أنت الآن في بلاء شديد ونخاف أن يحصل ما هو أزيد منه وأقوى وأرادوا بهذا القول منعه عن كثرة البكاء والأسف .

فإن قيل : لم حلفوا على ذلك مع أنهم لم يعلموا ذلك قطعاً ؟

قلنا : إنهم بنوا هذا الأمر على الظاهر .

فإن قيل : القائلون بهذا الكلام وهو قوله : ﴿ تالله ﴾ من هم ؟

قلنا : الأظهر أن هؤلاء ليسوا هم الإخوة الذين قد تولى عنهم ، بل الجماعة الذين كانوا في الدار من أولاد أولاده وخدمه .

(223/401)

ثم حكى تعالى عن يعقوب عليه السلام أنه قال : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ ﴾ يعني أن هذا الذي أذكره لا أذكره معكم وإنما أذكره في حضرة الله تعالى ، والإنسان إذا بث شكواه إلى الله تعالى كان في زمرة المحققين كما قال عليه الصلاة والسلام : "أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من غضبك وأعوذ بك منك" والله هو الموفق ، والبث هو التفريق قال الله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ [البقرة : 164] فالحزن إذا ستره الإنسان كان هماً وإذا ذكره لغيره كان بثاً وقالوا : البث أشد الحزن والحزن أشد الهم ، وذلك لأنه متى أمكنه أن يمسك لسانه عن ذكره لم يكن ذلك الحزن مستولياً عليه وأما إذا عظم وعجز الإنسان عن ضبطه وانطلق اللسان بذكره شاء أم أبى كان ذلك بثاً وذلك يدل على أن الإنسان صار عاجزاً عنه وهو قد استولى على الإنسان ، فقوله : ﴿ بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ ﴾ أي لا أذكر الحزن العظيم ولا الحزن القليل إلا مع الله ، وقرأ الحسن : ﴿ وَحُزْنِى ﴾

بفتحتين وحزني بضمتين ، قيل : دخل على يعقوب رجل وقال : يا يعقوب ضعف جسمك ونحف بدنك وما بلغت سناً عالياً فقال الذي بي لكثرة غمومي ، فأوحى الله إليه يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي ، فقال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي فغفرها له ، وكان بعد ذلك إذا سئل قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ ﴾ وروي أنه أوحى الله إليه إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه ، وإن أحب خلقي إليَّ الأنبياء والمساكين فاصنع طعاماً وادع إليه المساكين ، وقيل : اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت .

ثم قال يعقوب عليه السلام : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون ، وهو أنه تعالى يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب ، فهو إشارة إلى أنه كان يتوقع وصول يوسف إليه .

وذكروا لسبب هذا التوقع أموراً : أحدها : أن ملك الموت أتاه فقال له : يا ملك الموت هل قبضت روح ابني يوسف ؟ قال لا يا نبي الله ثم أشار إلى جانب مصر وقال : أطلبه ههنا ، وثانيها : أنه علم أن رؤيا يوسف صادقة ، لأن أمارات الرشد والكمال كانت ظاهرة في

حق يوسف ورؤيا مثله عليه السلام لا تخطىء ، وثالثها : لعله تعالى أوحى إليه أنه سيوصله إليه ، ولكنه تعالى ما عين الوقت فلهذا بقي في القلق ، ورابعها : قال السدي : لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله في أقواله وأفعاله طمع أن يكون هو يوسف وقال : يبعد أن يظهر في الكفار مثله ، وخامسها : علم قطعاً أن بنيامين لا يسرق وسمع أن الملك ما آذاه وما ضربه فغلب على ظنه أن ذلك الملك هو يوسف فهذا جملة الكلام في المقام الأول .

والمقام الثاني : أنه رجع إلى أولاده وتكلم معهم على سبيل اللطف وهو قوله : ﴿ تَعْلَمُونَ يَٰبَنِيَّ اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ .

واعلم أنه عليه السلام لما طمع في وجدان يوسف بناء على الأمارات المذكورة قال لبنيه : تحسسوا من يوسف ، والتحسس طلب الشيء بالحاسة وهو شبيه بالسمع والبصر ، قال أبو بكر الأنباري يقال : تحسست عن فلان ولا يقال من فلان ، وقيل : ههنا من يوسف لأنه أقام من مقام عن ، قال : ويجوز أن يقال : من للتبعيض ، والمعنى تحسسوا خبراً من أخبار يوسف ، واستعلموا بعض أخبار يوسف فذكرت كلمة ﴿ مِنْ ﴾ لما فيها من الدلالة على التجيض ، وقرىء ﴿ تَجَسَّسُواْ ﴾ بالجيم كما قرىء بهما في الحجرات .

ثم قال : ﴿ وَلاَ تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ ﴾ قال الأصمعي : الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه وتركيب الراء والواو والحاء يفيد الحركة والاهتزاز ، فكلما يهتز انسان له ويلتذ بوجوده فهو روح .

وقال ابن عباس : لا تيئسوا من روح الله يريد من رحمة الله ، وعن قتادة : من فضل الله ، وقال ابن زيد : من فرج الله ، وهذه الألفاظ متقاربة ، وقرأ الحسن وقتادة : من روح الله بالضم أي من رحمته .

ثم قال : ﴿ يَبَنِيَّ اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيْئَسُواْ مِن ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء .

واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة ، وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً والله أعلم ، وقد بقي من مباحث هذه الآية سؤالات :

السؤال الأول : أن بلوغ يعقوب في حب يوسف إلى هذا الحد العظيم لا يليق إلا بمن كان غافلاً عن الله ، فإن من عرف الله أحبه ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شيء سوى الله تعالى ، وأيضاً القلب الواحد لا يتسع للحب المستغرق لشيئين ، فلما كان قلبه مستغرقاً في

حب ولده امتنع أن يقال : إنه كان مستغرقاً في حب الله تعالى .

والسؤال الثاني : أن عند استيلاء الحزن الشديد عليه كان من الواجب أن يشتغل بذكر الله تعالى ، وبالتفويض إليه والتسليم لقضائه .

وأما قوله : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ ﴾ فذلك لا يليق بأهل الدين والعلم فضلاً عن أكابر الأنبياء .

(226/401)

والسؤال الثالث : لا شك أن يعقوب كان من أكابر الأنبياء ، وكان أبوه وجده وعمه كلهم من أكابر الأنبياء المشهورين في جميع الدنيا ، ومن كذلك ثم وقعت له واقعة هائلة صعبة في أعز أولاده عليه لم تبق تلك الواقعة خفية ، بل لا بد وأن يبلغ في الشهرة إلى حيث يعرفها كل أحد لا سيما وقد انقضت المدة الطويلة فيها وبقي يعقوب على حزنه الشديد وأسفه العظيم ، وكان يوسف في مصر وكان يعقوب في بعض بلاد الشام قريباً من مصر ، فمع قرب المسافة يمتنع بقاء هذه الواقعة مخفية .

السؤال الرابع : لم لم يبعث يوسف عليه السلام أحداً إلى يعقوب ويعلمه أنه في الحياة وفي السلامة ولا يقال : إنه كان يخاف إخوته لأنه بعد أن صار ملكاً قاهراً كان يمكنه إرسال

الرسول إليه وإخوته ما كانوا يقدرون على دفع الرسول .

والسؤال الخامس : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يضع الصاع في وعاء أخيه ثم يستخرجه منه ويلصق به تهمة السرقة مع أنه كان بريئاً عنها .

السؤال السادس : كيف رغب في إلصاق هذه التهمة به وفي حبسه عند نفسه مع أنه كان يعلم أنه يزداد حزن أبيه ويقوى .

والجواب عن الأول : أن مثل هذه المحنة الشديدة تزيل عن القلب كل ما سواه من الخواطر . ثم إن صاحب هذه المحنة الشديدة يكون كثير الرجوع إلى الله تعالى كثير الاشتغال بالدعاء والتضرع فيصير ذلك سبباً لكمال الاستغراق .

(227/401)

والجواب عن الثاني : أن الداعي الإنسانية لا تزول في الحياة العاجلة فتارة كان يقول : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 84] وتارة كان يقول : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : 18] وأما بقية الأسئلة فالقاضي أجاب عنها بجواب كلي حسن ، فقال هذه الوقائع التي نقلت إلينا إما يمكن تخريجها على الأحوال المعتادة أو لا يمكن فإن كان الأول فلا إشكال ، وإن كان الثاني فنقول : كان ذلك الزمان

زمان الأنبياء عليهم السلام وخرق العادة في هذا الزمان غير مستبعد ، فلم يمتنع أن يقال : إن بلدة يعقوب عليه السلام مع أنها كانت قريبة من بلدة يوسف عليه السلام ، ولكن لم يصل خبر أحدهما إلى الآخر على سبيل نقض العادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 154.160 ﴾

(228/401)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وتولَّى عنهم وقال يا أسفَى على يوسف ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : معناه واجزعاه قاله مجاهد ، ومنه قول كثير :

فيا أسفا للقلب كيف انصرافهُ . . . وللنفس لما سليت فتسلّتِ

الثاني : معناه يا جزعاه ، قاله ابن عباس . قال حسان بن ثابت يرثي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فيا أسفا ما وارت الأرض واستوت . . . عليه وما تحت السلام المنضد

وفي هذا القول وجهان :

أحدهما : أنه أراد به الشكوى إلى الله تعالى ولم يرد به الشكوى منه رغباً إلى الله تعالى في كشف بلائه .

الثاني : أنه أراد به الدعاء ، وفيه قولان :

أحدهما : مضمر وتقديره يا رب ارحم أسفي على يوسف .

﴿ وابيضت عَيْنَاه من الحزن ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه ضعف بصره لبياض حصل فيه من كثرة بكائه .

الثاني : أنه ذهب بصره ، قاله مجاهد .

﴿ فهو كظيم ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه الكمد ، قاله الضحاك .

الثاني : أنه الذي لا يتكلم ، قاله ابن زيد .

الثالث : أنه المقهور ، قاله ابن عباس ، قال الشاعر :

فإن أكُ كاظماً لمصاب شاسٍ . . . فإني اليوم منطلق لساني

والرابع : أنه المخفي لحزنه ، قاله مجاهد وقتادة ، مأخوذ من كظم الغيظ وهو إخفاؤه ، قال الشاعر :

فحضضت قومي واحتسبت قتالهم . . . والقوم من خوفِ المنايا كظم

قوله عز وجل : ﴿ قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة معناه لا

تزال تذكر يوسف، قال أوس بن حجر:

فما فتئت خيل تثوبُ وتدّعي . . . ويلحق منها لاحق وتقطّعُ

أي فما زالت. وقال مجاهد: تفتأ بمعنى تفتر.

﴿ حتى تكون حرضاً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات.

أحدها: يعني هرماً، قاله الحسن.

والثاني: دنفاً من المرض، وهو ما دون الموت، قاله ابن عباس ومجاهد.

والثالث: أنه الفاسد العقل، قاله محمد بن إسحاق. وأصل الحرض فساد الجسم والعقل من مرض أو عشق، قال العرجي.

إني امرؤلجّ بي حُبٌّ فأحرضني . . . حتى بَليتُ وحتى شفّني السقم

(229/401)

﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ يعني ميتاً من الميتين، قاله الجميع.

فإن قيل: فكيف صبر يوسف عن أبيه بعد أن صار ملكاً متمكناً بمصر، وأبوه بحرّان من أرض الجزيرة؟ وهلاّ عجّل استدعاءه ولم يتعلل بشيء بعد شيء؟

قيل يحتمل أربعة أوجه:

أحدها : أن يكون فعل ذلك عن أمر الله تعالى ، ابتلاء له لمصلحة علمها فيه لأنه نبيّ مأمور .

الثاني : أنه بلي بالسجن ، فأحب بعد فراقه أن يبلو نفسه بالصبر .

الثالث : أن في مفاجأة السرور خطراً وأحب أن يروض نفسه بالتدريج .

الرابع : لئلا يتصور الملك الأكبر فاقة أهله بتعجيل استدعائهم حين ملك .

قوله عز وجل : ﴿ قال إنما أشكو بَثِّي وحزني إلى الله ﴾ في بثي وجهان :

أحدهما : همّي ، قاله ابن عباس .

الثاني : حاجتي ، حكاه ابن جرير . والبث تفريق الهم بإظهار ما في النفس . وإنما شكا ما في نفسه فجعله بثاً وهو مبثوث .

﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأني ساجد له ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه أحست نفسه حين أخبروه فدعا الملك وقال : لعله يوسف ، وقال لا يكون في الأرض صدّيق إلا نبي ، قاله السدّي .

وسبب قول يعقوب ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ ما حكي أن رجلاً دخل عليه فقال : ما بلغ بك ما أرى ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحزان . فأوحى الله إليه : يا يعقوب تشكوني ؟ فقال : خطيئة أخطأتها فاغفرها لي . وكان بعد ذلك يقول ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ . . . اذهبوا فتحسَّسُوا مِن يوسُفَ وأخيه ﴾

أي استعملوا وتعرّفوا ، ومنه قول عديّ بن زيد :

فإنْ حَيِيتَ فلا أحسسك في بلدي . . . وإن مرضت فلا تحسِسْك عُوّادِي

وأصله طلب الشيء بالحس .

﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : من فرج الله ، قاله محمد بن إسحاق .

(230/401)

والثاني : من رحمة الله ، قاله قتادة . وهو مأخوذ من الريح التي بالنفع . وإنما قال يعقوب ذلك لأنه تنبه على يوسف برد البضاعة واحتباس أخيه وإظهار الكرامة ولما حكي أن يعقوب سأل ملك الموت هل قبضت روح يوسف ؟ فقال : لا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(231/401)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : حَدَّثَ مَالِكٌ عَنْ حُزْنِ يَعْقُوبَ أَنَّهُ حُزْنُ سَبْعِينَ ثَكْلَى .

قِيلَ : فَمَا أُعْطِيَ ؟ قَالَ : أَجْرَ سَبْعِينَ شَهِيدًا .

قَالَ مَالِكٌ : قَالَ يُوسُفُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ : مَا انْتَقَمْت لِنَفْسِي مِنْ شَيْءٍ أَتَى إلَيَّ ، فَذَلِكَ زَادِي الْيَوْمَ مِنْ الدُّنْيَا ، وَإِنَّ عَمَلِي لَاحِقٌ بِعَمَلِ آبَائِي ، فَأَلْحِقُوا قَبْرِي بِقُبُورِهِمْ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : يُرِيدُ مَالِكٌ بِالْكَلَامِ الثَّانِي قَوْلَ يُوسُفَ لِإِخْوَتِهِ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أَيْ : لَا تَبْكِيتَ وَلَا مُؤَاخَذَةَ لَكُمْ بِمَا فَعَلْتُمْ ؛ لِأَنَّ شِفَاءَ الْغَيْظِ وَالْجَزَاءَ بِالذَّنْبِ فِي الدُّنْيَا مِنْ عَمَلِ الدُّنْيَا لَا حَظَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَذَلِكَ قَوْلُ يُوسُفَ : مَا انْتَقَمْت لِنَفْسِي مِنْ شَيْءٍ أَتَى إلَيَّ ، فَذَلِكَ زَادِي الْيَوْمَ مِنْ الدُّنْيَا ، وَإِنَّ عَمَلِي لَاحِقٌ بِعَمَلِ آبَائِي أَيْ فِي الصَّفْحِ وَالْإِحْسَانِ ، وَهُوَ فِعْلُ أَهْلِ النُّبُوَّةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: "أَلْحِقُوا قَبْرِي بِقُبُورِ آبَائِي" شَاهَدْنَاهُ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ، وَجَاوَرْنَا فِيهِ [أَعْوَامًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ فِي نِعَمٍ فَاكِهِينَ، وَعَلَى الدَّرْسِ وَالْمُنَاظَرَةِ مُتَقَابِلِينَ، وَهُوَ فِي قَرْيَةِ جَيْرُونَ الَّتِي كَانَتْ لِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى سِتَّةُ فَرَاسِخَ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ الَّذِي كَانَ فِيهِ بَيْتُ رَامَةَ مُتَعَبَّدُ [إبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ]، الْمُشْرِقِ عَلَى مَدَائِنِ لُوطٍ، وَفِي وَسَطِ الْقَرْيَةِ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ مِنْ حِجَارَةٍ عِظَامٍ سُورًا عَظِيمًا، فِي دَاخِلِهِ مَسْجِدٌ، فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ مِمَّا يَلِي الْقِبْلَةَ إسْحَاقُ، وَيَلِيهِ فِي الْجَانِبِ الْمَذْكُورِ إبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ، وَيَلِيهِ فِي الطَّرَفِ الْجَوَّانِيِّ مِنْ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ يَعْقُوبُ عَلَى نِسْبَةٍ مُتَمَاثِلَةٍ.

وَفِيمَا يُقَابِلُهَا مِنْ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ قُبُورُ أَزْوَاجِهِمْ عَلَى الِاعْتِدَالِ، عَلَى كُلِّ قَبْرٍ حَجَرٌ عَظِيمٌ وَاحِدٌ لَهُ الطُّولُ وَالْعَرْضُ وَالْعُمْقُ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ تَرْتِيبِ الرِّحْلَةِ.

وَفِي الْجَانِبِ الْقِبْلِيِّ مِنْهُ خَارِجَ هَذَا الْحَرَمِ قَبْرُ يُوسُفَ مُنْتَبَذًا، كَانَ لَهُ قَيِّمٌ طُرْطُوشِيٌّ زَمَنٌ، وَلَهُ أُمٌّ تَنُوبُ عَنْهُ، وَهَيْئَةُ قَبْرِ يُوسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَهَيْئَةِ قُبُورِهِمْ.

وَهَذَا أَصَحُّ الْأَقَاوِيلِ فِي مَوْضِعِ قَبْرِهِ لِأَجْلِ ذِكْرِ مَالِكٍ لَهُ، فَلَمْ يَذْكُرْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلَّا أَشْبَهَ مَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : كَانَ يَعْقُوبُ حَزِينًا فِي الدَّرَجَةِ الَّتِي قَدْ بَيَّنَّاهَا ، وَلَكِنَّ حُزْنَهُ كَانَ فِي قَلْبِهِ جِبِلَّةً ، وَلَمْ يَكْتَسِبْ لِسَانُهُ قَوْلًا قَلِقًا يُخَالِفُ الشَّرِيعَةَ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ابْنِهِ فِي صَحِيحِ الْخَبَرِ : ﴿ تَدْمَعُ الْعَيْنُ ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ ، وَلَا نَقُولُ إلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا ، وَإِنَّا بِك يَا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ ﴾ .

وَقَالَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ وَإِنَّمَا يُعَذِّبُ بِهَذَا وَأَشَارَ إلَى لِسَانِهِ ، أَوْ يَرْحَمُ ﴾ .

وَهُوَ تَفَضُّلٌ مِنْهُ ، سُبْحَانَهُ ، حِينَ عَلِمَ عَجْزَ الْخَلْقِ عَنْ الصَّبْرِ ؛ فَأَذِنَ لَهُمْ فِي الدَّمْعِ وَالْحُزْنِ ، وَلَمْ يُؤَاخِذْهُمْ بِهِ ، وَخَطَمَ الْفَمَ بِالزِّمَامِ عَنْ سُوءِ الْكَلَامِ ، فَنَهَى عَمَّا نَهَى ، وَأَمَرَ بِالتَّسْلِيمِ وَالرِّضَا لِنَافِذِ الْقَضَاءِ ، وَخَاصَّةً عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى .

وَأَحْسَنُ الْكَلَامِ فِي الشَّكْوَى سُؤَالُ الْمَوْلَى زَوَالَ الْبَلْوَى ، وَذَلِكَ قَوْلُ يَعْقُوبَ : ﴿ إنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ مِنْ جَمِيلِ صُنْعِهِ وَغَرِيبِ لُطْفِهِ وَعَائِدَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

المعنى : أنه لما ساء ظنه بهم ولم يصدق قولهم بل استراب به ، ﴿ تولى عنهم ﴾ أي زال بوجهه عنهم وجعل يتفجع ويتأسف ، قال الحسن : خصت هذه الأمة بالاسترجاع ألا ترى إلى قول يعقوب : ﴿ يا أسفي ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : والمراد : " يا أسفي " . لكن هذه لغة من يرد ياء الإضافة ألفاً نحو : يا غلاماً ويا أبتا ، ونادى الأسف على معنى احضر فهذا من أوقاتك . وقيل : قوله : ﴿ يا أسفى ﴾ على جهة الندبة ، وحذف الهاء التي هي في الندبة علامة المبالغة في الحزن تجلداً منه عليه السلام ، إذ كان قد ارتبط إلى الصبر الجميل ، وقيل : قوله : ﴿ يا أسفى ﴾ نداء فيه استغاثة .

قال القاضي أبو محمد : ولا يبعد أن يجتمع الاسترجاع و ﴿ يا أسفى ﴾ لهذه الأمة وليعقوب عليه السلام .

﴿ وابيضت عيناه ﴾ أي من ملازمة البكاء الذي هو ثمرة الحزن ، وروي " أن يعقوب عليه السلام حزن حزن سبعين ثكلى وأعطي أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله قط " ، رواه الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقرأ ابن عباس ومجاهد " من الحَزَن " بفتح الحاء والزاي ، وقرأ قتادة بضمهما وقرأ الجمهور

بضم الحاء وسكون الزاي .

﴿ وهو كظيم ﴾ بمعنى كاظم ، كما قال ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : 134] ، ووصف يعقوب بذلك لأنه لم يشك إلى أحد ، وإنما كان يكمد في نفسه ويمسك همه في صدره ، وكان يكظمه أي يرده إلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب والفجر . وقال ناس : ﴿ كظيم ﴾ بمعنى : مكظوم .

(235/401)

قال القاضي أبو محمد : وقد وصف الله تعالى يونس عليه السلام بمكظوم في قوله ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ [القلم : 48] وهذا إنما يتجه على تقدير أنه مليء بحزنه ، فكأنه كظم بثه في صدره ، وجري كظيم على باب كاظم أبين . وفسر ناس " الكظيم " بالمكروب وبالمكمود - وذلك كله متقارب - وقال منذر بن سعيد : الأسف إذا كان من جهة من هو أقل من الإنسان فهو غضب ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ [الزخرف : 55] ومنه قول الرجل الذي ذهبت لخادمه الشاة من الغنم : فأسفت فلطمتها ؛ وإذا كان من جهة لا يطيقها فهو حزن وهم .

قال القاضي أبو محمد : وتحرير هذا المنزع : أن الأسف يقال في الغضب ويقال في الحزن ،

وكل واحد من هذين يحزر حاله التي يقال عليها ، وقوله تعالى : ﴿ قالوا تالله تفتأ ﴾ الآية ، المعنى تالله لا تفتأ فتحذف لا في هذه الموضع من القسم لدلالة الكلام عليها فمن ذلك قول امرىء القيس : [الطويل]

فقلت يمين الله أبرح قاعداً . . . ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

ومنه قول الاخر :

تالله يبقى على الأيام ذو حيد . . . بمشمخر به الظيان والآس

أراد لا يبرح ولا يبقى ، وقال الزجاجي : وقد تحذف أيضاً ما في هذا الموضع .

قال القاضي أبو محمد : وخطأه بعض النحويين ، ومن المواضع التي حذفت فيها لا ويدل عليها الكلام قول الشاعر : [الطويل]

فلا وأبي دهماء زالت عزيزة . . . على قومها ما قبل الزَّنْدَ قادِحُ

وقوله ما قبل الزند قادح يوجب أن المحذوف " لا " ، وليست " ما " ، وفتىء بمنزلة زال وبرح في المعنى والعمل ، تقول : والله لا فتئت قاعداً كما تقول : لا زلت ولا برحت ، ومنه قول أوس بن حجر : [الطويل]

فما فتئت حتى كأن غبارها . . . سرادق يوم ذي رياح يرفَّع

و " الحرض " : الذي قد نهكه الهرم أو الحب أو الحزن إلى حال فساد الأعضاء والبدن والحس ، وعلى هذا المعنى قراءة الجمهور " حَرَضاً " بفتح الراء والحاء . . . وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضمهما ، وقرأت فرقة " حُرْضاً " بضم الحاء وسكون الراء . وهذا كله المصدر يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع بلفظ واحد ، كعدل وعدو ، وقيل في قراءة الحسن : انه يراد : فتات الشنان أي بالياً متعتتاً ، ويقال من هذا المعنى الذي هو شن الهم والهرم : رجل حارض ، ويثنى هذا البناء ويجمع ويؤنث ويذكر ، ومن هذا المعنى قول الشاعر : [البسيط]

إني امرؤلجَّ بي حبٌّ فأحرضني . . . حتى بليت وحتى شفني السقم

وقد سمع من العرب : رجل محرض ، قال الشاعر - وهو امرؤ القيس : [الطويل]

أرى المرء ذا الأذواد يصبح محرضاً . . . كأحراضِ بكرٍ في الديار مريض

و" الحرض " - بالجملة - الذي فسد ودنا موته ، قال مجاهد : " الحرض " : ما دون الموت ، قال قتادة : " الحرض " : البالي الهرم ، وقال نحو الضحاك والحسن ، وقال ابن إسحاق : ﴿ حرضاً ﴾ معناه فاسد لا عقل له ؛ فكأنهم قالوا على جهة التعنيف له : أنت لا تزال تذكر يوسف إلى حال القرب من الهلاك أو إلى الهلاك . فأجابهم يعقوب عليه السلام رادّاً عليهم : أي أني لست ممن يجزع ويضجر فيستحق التعنيف ، وإنما أشكو إلى الله ، ولا تعنيف في

ذلك. و" البث " ما في صدر الإنسان مما هو معتزم أنه يبثه وينشره، وأكثر ما يستعمل " البث " في المكروه، وقال أبو عبيدة وغيره: " البث " أشد الحزن، وقد يستعمل " البث " في المخفي على الجملة ومنه قول المرأة في حديث أم زرع: ولا يولج الكف ليعلم " البث "، ومنه قولهم: أبثك حديثي.

وقرأ عيسى: " وحَزَني " بفتح الحاء والزاي.

(237/401)

وحكى الطبري بسند: أن يعقوب دخل على فرعون وقد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، فقال له فرعون: ما بلغ بك هذا يا إبراهيم؟ فقالوا: إنه يعقوب، فقال: ما بلغ بك هذا يا يعقوب؟ قال له: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يا رب خطيئة فاغفرها لي، وأسند الطبري إلى الحسن قال: كان بين خروج يوسف عن يعقوب إلى دخول يعقوب على يوسف ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ولم يزل يبكي حتى كف بصره، وما في الأرض يومئذ أكرم على الله من يعقوب. وقوله: ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ يحتمل أنه أشار إلى حسن ظنه بالله وجميل عادة الله عنده، ويحتمل أنه أشار إلى الرؤيا المنتظرة أو إلى ما وقع في نفسه عن قول ملك مصر: إني أدعو له

برؤية ابنه قبل الموت ، وهذا هو حسن الظن الذي قدمناه .

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾

المعنى : ﴿ اذهبوا ﴾ إلى الأرض التي جئتم منها وتركتم أخويكم بنيامين وروبيل ، ﴿ فتحسسوا ﴾ ، أي استقصوا ونقروا ، والتحسس : طلب الشيء بالحواس من البصر والسمع ، ويستعمل في الخير والشر ، فمن استعماله في الخير هذه الآية ، وفي الشر نهي النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ولا تحسسوا .

وقوله : ﴿ من يوسف ﴾ يتعلق بمحذوف يعمل فيه ﴿ تحسسوا ﴾ التقدير : فتحسسوا نبأ أو حقيقة من أمر يوسف . لكن يحذف ما يدل ظاهر القول عليه إيجازاً .

وقرأت فرقة : " تيأسوا " وقرأت فرقة " تأيسوا " على ما تقدم ، وقرأ الأعرج " تِئسوا " بكسر التاء .

وخص يوسف وبنيامين بالذكر لأن روبيل إنما بقي مختاراً . وهذان قد منعا الأوبة .

و" الروح " : الرحمة . ثم جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين . إذ فيه إما التكذيب بالربوبية ، وإما الجهل بصفات الله تعالى .

وقرأ الحسن وقتادة وعمر بن عبد العزيز " من رُوح الله " بضم الراء . وكأن معنى هذه القراءة لا تأيسوا من حي معه روح الله الذي وهبه ، فإن من بقي بوحه فيرجى ، ومن هذا قول الشاعر : [الطويل]

وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع . . . ومن هذا قول عبيد :

وكل ذي غيبة يؤوب . . . وغائب الموت لا يؤوب

ويظهر من حديث الذي قال : إذا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في البحر والبر في يوم راح. فلئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من الناس ، إنه يئس من روح الله ، وليس الأمر كذلك ، لأن قول النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث فغفر الله له يقتضي أنه مات مؤمناً إذ لا يغفر الله لكافر ، فبقي أن يتأول الحديث ، إما على أن قدر بمعنى ضيق وناقش الحساب ، فذلك معنى بين ، وإما أن تكون من القدرة ، ويقع خطأ في أن ظن في أن الاجتماع بعد السحق والتذرية محال لا يوصف الله تعالى بالقدرة عليه فغلط في أن جعل الجائز محالاً ، ولا يلزمه بهذا كفر . قال النقاش : وقرأ ابن مسعود " من فضل " وقرأ أبي بن كعب : " من رحمة الله " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وتولى عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم ؛ وذلك أن يعقوب لما بلغه خبر بنيامين تَتَامَّ حزنه ، وبلغ جهده ، وجدّد الله مصيبته له في يوسف فقال : ﴿ يا أسفى عَلَى يُوسُفَ ﴾ ونَسيَ ابنه بنيامين فلم يذكره ؛ عن ابن عباس .

وقال سعيد بن جُبير : لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من الاسترجاع ، ولو كان عنده لما قال : "يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ" .

قال قَتَادة والحسن : والمعنى يا حزناه ! وقال مجاهد والضحّاك : يا جزعاه ! ؛ قال كُثَيِّر :

فيا أَسفا للقلب كيف انصرافه . . .

وللنَّفْسِ لمّا سلّيت فَتَسَلَّتِ

والأسف شدّة الحزن على ما فات .

والنداء على معنى : تعالَ يا أسف فإنه مَن أوقاتك .

وقال الزجاج : الأصل يا أسفِي ؛ فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة .

﴿ وابيضت عَيْنَاهُ مِنَ الحزن ﴾ قيل : لم يبصر بهما ست سنين ، وأنه عَمِيَ ؛ قاله مقاتل .

وقيل : قد تبيضّ العين ويبقى شيء من الرؤية ، والله أعلم بحال يعقوب ؛ وإنما ابيضت عيناه من البكاء ، ولكن سبب البكاء الحزن ، فلهذا قال : ﴿ مِنَ الحزن ﴾ .

وقيل : إن يعقوب كان يصلّي ، ويوسف نائماً معترضاً بين يديه ، فَغَطَّ في نومه ، فالتفت يعقوب إليه ، ثم غَطّ ثانية فالتفت إليه ، ثم غَطَّ ثالثة فالتفت إليه سروراً به وبغطيطه ؛ فأوحى الله تعالى إلى ملائكته : "انظروا إلى صفييّ وابن خليلي قائماً في مناجاتي يلتفت إلى غيري ، وعِزّتي وجَلاَلي ! لأنزعنّ الحدقتين اللتين التفت بهما ، ولأفرقنّ بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنة ؛ ليعلم العاملون أن من قام بين يديّ يجب عليه مراقبة نظري" .

(240/401)

الثانية : هذا يدلّ على أن الالتفات في الصلاة وإن لم يُبطل يدل على العقوبة عليها ، والنقص فيها ، وقد رَوى البخاري " عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : "هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد " وسيأتي ما للعلماء في هذا في أوّل سورة "المؤمنون" موعباً إن شاء الله تعالى .

الثالثة : قال النحاس : فإن سأل قوم عن معنى شدّة حزن يعقوب صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة : منها أن يعقوب صلى الله عليه وسلم لما علم أن

يوسف صلى الله عليه وسلم حَيٌّ خاف على دِينه ، فاشتدّ حزنه لذلك .

وقيل : إنما حزن لأنه سلّمه إليهم صغيراً ، فندم على ذلك .

والجواب الثالث وهو أبْيَنُها هو أن الحزن ليس بمحظور ، وإنما المحظور الوَلْولة وشقّ الثياب ، والكلام بما لا ينبغي .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " تَدمع العين ويَحزن القلب ولا نقول ما يُسخط الربّ "

وقد بيّن الله جلّ وعزّ ذلك بقوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثّه ؛ ومنه كَظْم الغيظ وهو إخفاؤه ؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه ؛ قال الله تعالى :

﴿ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم : 48] أي مملوء كرباً .

ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم ؛ وهو المشتمل على حزنه .

وعن ابن عباس : كظيم مغموم ؛ قال الشاعر :

فإنْ أكُ كاظِماً لِمُصابِ شاسٍ . . .

فإني اليومَ مُنطلقٌ لساني

وقال ابن جُريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : ذهبت عيناه من الحزن "فَهُوَ كَظِيمٌ" قال : فهو مكروب .

وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ قال : فهو كَمِد

؛ يقول : يعلم أن يوسف حيّ ، وأنه لا يدري أين هو ؛ فهو كَمِد من ذلك .

قال الجوهري : الكَمَد الحزن المكتوم ؛ تقول منه كَمِد الرجل فهو كَمِدٌ وكَمِيدٌ .

النحاس .

(241/401)

يقال فلان كظِيم وكاظِم ؛ أي حزين لا يشكو حزنه ؛ قال الشاعر :

فَحَضضْتُ قَوْمي واحتسبت قِتالَهم . . .

والقومُ من خوف المَنَايا كُظَّم

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾

أي قال له ولده : "تاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ" قال الكسائي : فَتَأْتُ وفَتِئْتُ أفعل ذلك أي ما زلتُ .

وزعم الفراء أن "لا" مضمرة ؛ أي لا تفتأ ، وأنشد :

فقلتُ يمينُ الله أبرحُ قاعِداً . . .

ولو قَطعوا رأسِي لديكِ وأَوصالِي

أي لا أبرح ؛ قال النحاس : والذي قال حسن صحيح .

وزعم الخليل وسيبويه أن "لا" تضمر في القسم ، لأنه ليس فيه إشكال ؛ ولو كان واجباً لكان باللام والنون ؛ وإنما قالوا له ذلك لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك ؛ يقال : ما زال يفعل كذا ، وما فتىء وَفَتَأَ فهما لغتان ، ولا يستعملان إلا مع الجحد قال الشاعر :

فما فَتِئَتْ حتّى كأنّ غُبَارَهَا . . .

سُرَادِقُ يومٍ ذي رياحٍ تُرَفَّعُ

أي ما برحت فتفتأ تبرح.

وقال ابن عباس : تزال .

﴿ حتى تكُونَ حَرَضاً ﴾ أي تالفاً .

وقال ابن عباس ومجاهد : دَنَفا من المرض ، وهو ما دون الموت ؛ قال الشاعر :

سَرَى هَمّي فأمرضَني . . .

وقِدْماً زادني مَرَضَاً

كذاكَ الحبُّ قبلَ اليو . . .

مِ ممَّا يُورِث الحَرَضَا

وقال قَتَادة : هرماً .

الضحّاك : بالِياً داثِراً .

محمد بن إسحق : فاسداً لا عقل لك .

الفراء : الحارض الفاسد الجسم والعقل ؛ وكذا الحَرَض .

ابن زيد : الحَرَض الذي قد رُدّ إلى أرذل العمر .

الربيع بن أنس : يابس الجلد على العظم .

المؤرِّج : ذائباً من الهم .

وقال الأخفش : ذاهباً .

ابن الأنباريّ : هالكاً ، وكلها متقاربة .

وأصل الحَرَض الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم ، عن أبي عُبيدة وغيره ؛ وقال العَرْجيّ :

إني امرؤ لَجّ بي حُبٌّ فأحْرَضَني . . .

حتّى بَليتُ وحتّى شَفّني السّقَمُ

قال النحاس : يقال حَرِض حَرَضاً وحَرُض حُرُوضاً وحُرُوضة إذا بلِي وسقم ، ورجل حارِض وحَرَض ، إلا أن حَرَضاً لا يثنّى ولا يجمع ، ومثله قَمِن وحَرِيّ لا يثنيان ولا يجمعان .

الثّعلبيّ : ومن العرب من يقول حارِض للمذكر ، والمؤنثة حارِضة ، فإذا وصف بهذا اللفظ ثَنّي وجمع وأُنّث .

ويقال : حَرِض يحَرَض حَرَاضةً فهو حَرِيض وحَرِضٌ .

ويقال : رجل مُحْرَض ، ويُنْشَد :

طَلَبَتْهُ الخيلُ يوماً كاملاً . . .

ولَوْ الفته لأَضْحَى مُحْرَضَا

وقال امرؤ القيس :

أَرَى المرءَ ذا الأَذْوَاد يُصبِحُ مُحْرَضاً . . .

كإحْرَاض بِكْرٍ في الدّيار مَرِيض

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه الهمّ إذا أسقمه ، ورجل حارض أي أحمق .

وقرأ أنس : "حُرْضاً" بضم الحاء وسكون الراء ، أي مثل عود الأشْنان .

وقرأ الحسن بضم الحاء والراء .

قال الجوهري : الحَرَض والحُرُض الأَشْنَان .

﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ﴾ أي الميّتين ، وهو قول الجميع ؛ وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقةً عليه ، وإن كانوا السبب في ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي ﴾ حقيقة البثّ في اللغة ما يرد على الإنسان من

الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها ؛ وهو من بثثه أي فرّقته ، فسميت المصيبة بَثّاً مجازاً ، قال ذو الرُّمّة :

وَقَفْتُ على رَبْعٍ لميّةَ ناقتي . . .

فما زِلْتُ أَبْكي عِنده وأُخَاطِبهْ

وأَسْقِيه حتى كاد مما أُبِثُّهُ . . .

تُكَلّمُني أَحْجارُهُ ومَلاَعِبُهْ

وقال ابن عباس : "بَثّي" هَمّي .

الحسن : حاجتي .

وقيل : أشد الحزن ، وحقيقته ما ذكرناه .

﴿ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ معطوف عليه ، أعاده بغير لفظه .

﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأني سأسجد له . قاله ابن عباس .

قتادة : إني أعلم من إحسان الله تعالى إليّ ما يوجب حسن ظنّي به .

وقيل : قال يعقوب لملَك الموت هل قبضت رُوح يوسف ؟ قال : لا ، فأكّد هذا رجاءه .

وقال السدّي : أعلم أن يوسف حيّ ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعدله وخُلُقه وقوله أحسّت نَفْس يعقوب أنه ولده فطمع ، وقال : لعله يوسف .

(وقال : لا يكون في الأرض صديق إلا نبىء .

وقيل : أعلم من إجابة دعاء المضطرين ما لا تعلمون .

قوله تعالى : ﴿ يا بني اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾

هذا يدلّ على أنه تيقن حياته ؛ إما بالرؤيا ، وإما بإنطاق الله تعالى الذئب كما في أوّل القصة ، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض رُوحه ؛ وهو أظهر .

والتَّحسُّس طلب الشيء بالحواسّ ؛ فهو تفعّل من الحِس ، أي اذهبوا إلى هذا الذي طلب منكم أخاكم ، واحتال عليكم في أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه .

ويروى أن ملَك الموت قال له : اطلبه من ها هنا وأشار إلى ناحية مصر .

وقيل : إن يعقوب تنبه على يوسف بردّ البضاعة ، واحتباس أخيه ، وإظهار الكرامة ؛ فلذلك وجّههم إلى جهة مصر دون غيرها .

﴿ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّه ﴾ أي لا تقنطوا من فرج الله ؛ قاله ابن زيد ؛ يريد : أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقنط في الشدّة .

وقال قَتَادة والضحاك : من رحمة الله .

﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القوم الكافرون ﴾ دليل على أن القنوط من الكبائر ، وهو اليأس ، وسيأتي في "الزُّمَر" بيانه إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(244/401)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وتولى عنهم ﴾

يعني وأعرض يعقوب عن بنيه حين بلغوه خبر بنيامين فحينئذ تناهى حزنه واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فعند ذلك أعرض عنهم ﴿ وقال يا أسفى على يوسف ﴾ الأسف أشد الحزن وإنما جدد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة لأن الحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الأول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبراً جيداً جدد حزنه على أخيه مالك :

يقول أتبكي كل قبر رأيته . . .

لقد ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى . . .

فدعني فهذا كله قبر مالك

فأجاب بأن الحزن يجدد الحزن ، وقيل : إن يوسف وبنيامين لما كانا من أم واحدة كان يعقوب يتسلى عن يوسف ببنيامين فلما حصل فراق بنيامين زاد حزنه عليه ووجده وجدد حزنه على يوسف لأن يوسف كان أصل المصيبة ، وقد اعترض بعض الجهال على يعقوب عليه السلام في قوله يا أسفا على يوسف فقال هذه شكاية وإظهار جزع فلا يليق بعلو منصبه ذلك وليس الأمر كما قال هذا الجاهل المعترض لأن يعقوب شكا إلى الله لا منه فقوله يا أسفا على يوسف معناه يا رب ارحم أسفي على يوسف وقد ذكر ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال : نداء يعقوب بالأسف في اللفظ من المجاز يعني به غير المظهر في اللفظ وتلخيصه يا إلهي ارحم أسفي أو أنت رائي أسفي أو هذا أسفي فنادى الأسف في اللفظ والمنادى سواه في المعنى ولا مأثم إذ لم ينطلق اللسان بكلام مؤثم لأنه لم يشك إلا إلى ربه فلما كان قوله يا أسفاً على يوسف شكوى إلى ربه كان غير ملوم في شكواه وقيل إن يعقوب لما عظمت مصيبته واشتد بلاؤه وقويت محنته قال يا أسفا على يوسف أي أشكوا إلى الله

شدة أسفي على يوسف ولم يشكه إلى أحد من الخلق بدليل قوله إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ أي عمي من شدة الحزن على يوسف قال مقاتل لم يبصر شيئاً ست سنين ، وقيل : إنه ضعف بصره من كثرة البكاء وذلك أن الدمع يكثر عند غلبة البكاء فتصير العين كأنها بيضاء من ذلك الماء الخارج من العين ﴿ فهو كظيم ﴾ أي مكظوم وهو الممتلئ من الحزن الممسك عليه لا يبثه ، قال قتادة : وهو الذي يردد حزنه في جوفه ولم يقل إلا خيراً ، وقال الحسن : كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقيا ثمانون سنة لم تجف عينا يعقوب وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله منه .

وقال ثابت البناني ووهب بن منبه والسدي : إن جبريل دخل على يوسف وهو في السجن فقال له تعرفني أيها الصديق قال يوسف أرى صورة طاهرة قال إني رسول رب العالمين وأنا الروح الأمين فقال يوسف فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين وأمين رب العالمين قال ألم تعلم يا يوسف أن الله يطهر الأرض بطهر النبيين وأن الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأرضين وأن الله قد طهر بك الأرض والسجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين قال يوسف كيف لي بإسم الصديقين وتعدني من

الصالحين المخلصين الطاهرين وقد أدخلت مدخل المذنبين قال له إنه لم يفتتن قلبك ولم تطع سيدتك في معصية ربك فلذلك سماك الله من الصديقين وعدك من المخلصين وألحقك بآبائك الصالحين قال يوسف فهل لك علم من يعقوب أيها الروح الأمين قال نعم قد ذهب بصره وابتلاه الله بالحزن عليك فهو كظيم ووهب له الصبر الجميل قال فما قدر حزنه قال حزن سبعين ثكلاء قال فما له من الأجر يا جبريل قال أجر مائة شهيد قال أفتراني لاقيه قال نعم فطابت نفس يوسف وقال ما أبالي مما لقيت إن رأيته .

قوله : ﴿ قالوا ﴾ يعني إخوة يوسف لأبيهم ﴿ تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ يعني لا تزال تذكر يوسف ولا تفتر عن حبه يقال ما فتئ يفعل كذا أي ما زال ولا محذوفة في جواب القسم لأن موضعها معلوم فحذفت للتخفيف كقول امرئ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً . . .

ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعداً وقوله ﴿ حتى تكون حرضاً ﴾ قال ابن عباس يعني دنفاً وقال مجاهد الحرض ما دون الموت يعني قريباً من الموت ، وقال ابن إسحاق : يعني فاسداً لا عقل له والحرض الذي فسد جسمه وعقله وقيل ذائباً من الهم وأصل الحرض الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو الهم ومعنى الآية حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل يعني لا تنتفع بنفسك من شدة الحزن والهم والأسف ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ يعني من الأموات .

فإن قلت كيف حلفوا على شيء لم يعلموا حقيقته قطعياً ؟ .

قلت : إنهم بنوا الأمر على الأغلب الظاهر أي نقوله ظناً منا أن الأمر يصير إلى ذلك ﴿ قال ﴾ يعني يعقوب عند ما رأى قولهم له وغلظتهم عليه ﴿ إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله ﴾ أصل البث إثارة الشيء وتفريقه وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والشر ، قال ابن قتيبة : البث أشد الحزن وذلك لأن الإنسان إذا ستر الحزن وكتمه كان هماً فإذا ذكره لغيره كان بثاً فالبث أشد الحزن والحزن الهم فعلى هذا يكون المعنى إنما أشكوا حزني العظيم وحزني القليل إلى الله لا إليكم .

قال ابن الجوزي : روى الحاكم أبو عبد الله في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال "كان ليعقوب أخ مؤاخ فقال له ذات يوم يا يعقوب ما الذي أذهب بصرك وما الذي قوس ظهرك قال أما الذي أذهب بصري فالبكاء على

يوسف وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين فأتاه جبريل فقال يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك أما تستحي أن تشكو إلى غيري فقال إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله فقال جبريل الله أعلم بما تشكو " وقيل : إنه دخل على يعقوب جار له فقال له يا عقوب مالي أراك قد تهشمت بالضعف وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك فقال هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف أفوحى الله إليه يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي فقال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي قال قد غفرتها لك فكان بعد ذلك إذا سئل يقول إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله تعالى وقيل إن الله أوحى إليه وعزتي وجلالي لا أكشف ما بك حتى تدعوني فعند ذلك قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله تعالى ثم قال أي رب أما ترحم الشيخ الكبير أذهبت بصري وقوست ظهري فاردد على ريحانتي أشمها شمة قبل أن أموت ثم اصنع ما شئت فأتاه جبريل فقال يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك أبشر فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك أتدري لم وجدت عليك لأنكم ذبحتم شاة فقام على بابكم فلان المسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئاً وإن أحب عبادي إلي الأنبياء ثم المساكين إصنع طعاماً وادع إليه المساكين فصنع طعاماً ثم قال من كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب وكان بعد ذلك إذا تغدى أمر منادياً ينادي من أراد أن يتغدى فليأت آل يعقوب وإذا أفطر أمر أن ينادي من أراد أن يفطر فليأت آل يعقوب فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين ، وقال وهب بن منبه أوحى الله تعالى إلى يعقوب أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين

سنة قال يا رب لا قال لأنك شويت عناقاً وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه وقيل إن سبب

ابتلاء يعقوب أنه ذبح عجلاً بين يدي أمه وهي تخور فلم يرحمها .

فإن قلت هل في هذه الروايات ما يقدح في عصمة الأنبياء ؟

قلت : لا وإنما عوقبت يعقوب بهذا لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وإنما يطلب من الأنبياء من الأعمال على قدر منصبهم وشريف رتبتهم ويعقوب من أهل بيت النبوة والرسالة ومع ذلك فقد ابتلى الله كل واحد من أنبيائه بمحنة فصبر وفوض أمره إلى الله فإبراهيم ألقي في النار فصبر ولم يشك إلى أحد وإسماعيل ابتلي بالذبح فصبر وفوض أمره إلى الله وإسحاق ابتلي بالعمى فصبر ولم يشك إلى أحد ويعقوب ابتلي بفقده ولده يوسف وبعده بنيامين ثم عمي بعد ذلك أو ضعف بصره من كثرة البكاء على فقدهما وهو مع ذلك صابر لم يشك إلى أحد شيئاً مما نزل به وإنما كانت شكايته إلى الله بدليل قوله إنما أشكو بثي وحزني إلى الله فاستوجب بذلك المدح العظيم والثناء الجميل في الدنيا والدرجات العلى في الآخرة مع من سلف من أبويه إبراهيم وإسحاق عليهما الصلاة والسلام .

وأما دمع العين وحزن القلب فلا يستوجب به ذماً ولا عقوبة لأن ذلك ليس إلى اختيار الإنسان فلا يدخل تحت التكليف بدليل أن النبي (صلى الله عليه وسلم) بكى على ولده إبراهيم عند موته وقال "إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وما نقول إلا ما يرضي ربنا" فهذا القدر لا يقدر الإنسان على دفعه عن نفسه فصار مباحاً لا حرج فيه على أحد من الناس وقوله ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ يعني أنه تعالى من رحمته وإحسانه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب وفيه إشارة إلى أنه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه إليه وروى أن ملك الموت زار يعقوب فقال له يعقوب أيها الملك الطيب ريحه الحسن صورته الكريم على ربه هل قبضت روح ابني يوسف في الأرواح فقال لا فطابت نفس يعقوب وطمع في رؤيته فلذلك قال وأعلم من الله ما لا تعملون وقيل معناه وأعلم أن رؤيا يوسف حق وصدق وإني وأنتم سنسجد له وقال السدي لما أخبره بنوه بسيرة ملك مصر وكمال حاله في جميع أقواله وأفعاله أحسست نفس يعقوب وطمع أن يكون هو يوسف فعند ذلك قال يعني يعقوب.

﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾

التحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل إن التحسس بالحاء يكون في الخير وبالجيم يكون في الشر ومنه الجاسوس وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس قال ابن عباس التمسوا قال ابن الأنباري يقال تحسست عن فلان ولا يقال من فلان وقال هنا من يوسف وأخيه لأنه أقيم من مقام عن قال ويجوز أن يقال من للتبعيض ويكون المعنى تحسسوا خبراً من أخبار يوسف وأخيه ، روي عن عبد الله بن يزيد عن أبي فروة أن يعقوب كتب كتاباً إلى يوسف عليهما الصلاة والسلام حين حبس عنده بنيامين : من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر أما بعد فإنا أهل بيت وكل بنا البلاء أما جدي إبراهيم فشدت يداه ورجلاه وألقي في النار فجعلها الله برداً وسلاماً وأما أبي فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إليّ فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي ثم كان لي ابن آخر وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به وإنك حبسته وزعمت أنه سرق وأنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً فإن رددته إليّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلما قرأ يوسف كتاب أبيه اشتد

بكاؤه وعيل صبره وأظهر نفسه لأخوته على ما سنذكره إن شاء الله تعالى فذلك قوله تعالى يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴿ ولا تيأسوا ﴾ أي ولا تقنطوا ﴿ من روح الله ﴾ يعني من رحمة الله وقيل من فضل الله وقيل من فرج الله ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرين ﴾ يعني أن المؤمن على خير يرجوه من الله فيصبر عند البلاء فينال به خيراً ويحمد عند الرخاء فينال به خيراً والكافر بضد ذلك. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(252/401)

وقال أبو حيان :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

فتىء من أخوات كان الناقصة قال أوس بن حجر :

فما فتئت حي كان غبارها . . .

سرادق يوم ذي رياح يرفع

وقال أيضاً :

فما فتئت خيل تثوب وتدعي . . .

ويلحق منها لاحق وتقطع

ويقال فيها : فتأ على وزن ضرب ، وأفتأ على وزن أكرم .

وزعم ابن مالك أنها تكون بمعنى سكن وأطفأ ، فتكون تامة .

ورددنا عليه ذلك في شرح التسهيل ، وبينا أن ذلك تصحيف منه .

صحف الثاء بثلاث ، بالتاء بثنتين من فوق ، وشرحها بسكن وأطفأ .

الحرض : المشفي على الهلاك يقال : حرض فهو حرض بكسر الراء ، حرضاً بفتحها وهو المصدر ، ولذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع .

وأحرضه المرض فهو محرض قال :

أرى المرء كالأزواد يصبح محرضا . . .

كاحراض بكر في الديار مريض

وقال الآخر :

إني امرؤلج بي حب فأحرضني . . .

حتى بليت وحتى شفني السقم

وقال : رجل حرض بضمتين كجنب وشلل .

﴿ وتولى عنهم وقال يأسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم .

قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين .

قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون .

يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ : وتولى عنهم أي أعرض عنهم كراهة لما جاؤوا به ، وأنه ساء ظنه بهم ، ولم يصدق قولهم ، وجعل يتفجع ويتأسف .

قال الحسن : خصت هذه الأمة بالاسترجاع .

ألا ترى إلى قول يعقوب : يا أسفي ، ونادى الأسف على سبيل المجاز على معنى : هذا زمانك فاحضر .

والظاهر أنه يضاف إلى ياء المتكلم قلبت ألفاً ، كما قالوا : في يا غلامي يا غلاما .

وقيل : هو على الندبة ، وحذف الهاء التي للسكت .

قال الزمخشري : والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير مستعمل فيملح ويبدع ، ونحوه : اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم ، وهم ينهون عنه وينأون عنه يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، من سبأ بنبإ انتهى .

ويسمى هذا تجنيس التصريف ، وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف .

وذكر يعقوب ما دهاه من أمر بنيامين ، والقائل لن أبرح الأرض فقدانه يوسف ، فتأسف عليه وحده ، ولم يتأسف عليهما ، لأنه هو الذي لا يعلم أحيّ هو أم ميت ؟ بخلاف أخوته . ولأنه كان أصل الرزايا عنده ، إذ ترتبت عليه ، وكان أحب أولاده إليه ، وكان دائماً يذكره ولا ينساه .

وابيضاض عينيه من توالي العبرة ، فينقلب سواد العين إلى بياض كدر .

والظاهر أنه كان عمي لقوله : فارتد بصيراً .

وقال : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ فقابل البصير بالأعمى .

وقيل : كان يدرك ادراكاً ضعيفاً ، وعلل الابيضاض بالحزن ، وإنما هو من البكاء المتوالي ، وهو ثمرة الحزن ، فعلل بالأصل الذي نشأ منه البكاء وهو الحزن .

وقرأ ابن عباس ومجاهد : من الحزن بفتح الحاء والزاي ، وقتادة : بضمها ، والجمهور : بضم الحاء وإسكان الزاي .

والكظيم إما للمبالغة وهو الظاهر اللائق بحال يعقوب أي : شديد الكظم كما قال : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ ولم يشك يعقوب إلى أحد ، وإنما كان يكتمه في نفسه ، ويمسك همه في صدره ، فكان يكظمه أي : يرده إلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب والضجر .

وإما أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول ، وهو لا ينقاس ، وقاله قوم كما قال في يونس : ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ قال ابن عطية : وإنما يتجه على تقدير أنه مليء بحزنه ، فكأنه كظم حزنه

في صدره .

وفسر ناس الكظيم بالمكروب وبالمكمود .

وروي : أنه ما جفت عيناه من فراق يوسف إلى لقائه ثمانين عاماً ، وأنّ وجده عليه وجد سبعين ثكلى ، وأجره أجر مائة شهيد .

وقال الزمخشري : فهو كظيم ، فهو مملوء من الغيظ على أولاده ، ولا يظهر ما يسوؤهم انتهى .

(254/401)

وقد ذكرنا أنّ فعيلاً بمعنى مفعول لا ينقاس ، وجواب القسم تفتؤ حذفت منه ، لا لأنّ حذفها جائز ، والمعنى : لا تزال .

وقال مجاهد : لا تفتر من حبه ، كأنه جعل الفتوء والفتور أخوين ، والحرض الذي قدرنا موته .

قال مجاهد : ما دون الموت .

وقال قتادة : البالي الهرم ، وقال نحوه : الضحاك والحسن .

وقال ابن إسحاق : الفاسد الذي لا عقل له .

وكأنهم قالوا له ذلك على جهة تفنيد الرأي أي : لا تزال تذكر يوسف إلى حال القرب من

الهلاك ، أو إلى أنْ تهلك فقال هو : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله أي : لا أشكو إلى أحد منكم ، ولا غيركم .

وقال أبو عبيدة وغيره : البث أشدّ الحزن ، سمي بذلك لأنه من صعوبته لا يطيق حمله ، فيبثه أي ينشره .

وقرأ الحسن وعيسى : وحزني بفتحتين .

وقرأ قتادة : بضمتين .

وأعلم من الله ما لا تعلمون أي : أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب ، قاله الزمخشري .

وقال ابن عطية : ويحتمل أنه أشار إلى الرؤيا المنتظرة ، أو إلى ما وقع في نفسه من قول ملك مصر إني أدعو له برؤيته ابنه قبل الموت .

وقيل : رأى ملك الموت في منامه فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟ فقال : لا ، هو حي فاطلبه .

اذهبوا : أمر بالذهاب إلى الأرض التي جاؤوا منها وتركوا بها أخويهم بنيامين والمقيم بها ، وأمرهم بالتحسس وهو الاستقصاء ، والطلب بالحواس ، ويستعمل في الخير والشر .

وقرىء : بالجيم ، كالذي في الحجرات : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ والمعنى : فتحسسوا نبأ من أمر يوسف وأخيه ، وإنما خصهما لأن الذي أقام وقال : فلن أبرح الأرض ، إنما أقام مختاراً .

وقرأ الجمهور : تيأسوا ، وفرقة : تأيسوا .

وقرأ الأعرج : تئسوا بكسر التاء .

وروح الله رحمته ، وفرجه ، وتنفيسه .

وقرأ عمر بن عبد العزيز ، والحسن ، وقتادة : من روح الله بضم الراء .

قال ابن عطية : وكان معنى هذه القراءة لا تيأسوا من حي معه روح الله الذي وهبه ، فإنّ من بقي روحه يرجى .

ومن هذا قول الشاعر :

وفي غير من قدورات الأرض فاطمع . . .

ومن هذا قول عبيد بن الأبرص :

وكل ذي غيبة يؤوب . . .

وغائب الموت لا يؤوب

وقال الزمخشري : من روح الله بالضم أي من رحمته التي تحيا بها العباد انتهى .

وقرأ أبيّ من رحمة الله من صفات الكافر ، إذ فيه التكذيب بالربوبية ، أو الجهل بصفات الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(256/401)

وقال أبو السعود :

﴿ وتولى ﴾ أي أعرض ﴿ عَنْهُمْ ﴾ كراهةً لما سمع منهم ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفاً على يُوسُفَ ﴾ الأسفُ أشدُّ الحزن والحسرةُ ، أضافه إلى نفسه والألفُ بدلٌ من الياء فناداه أي يا أسفي تعالَ فهذا أوانُك وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادثَ مصيبةُ أخويه لأن رُزْأَه كان قاعدةَ الأرزاءِ غضاً عنده وإن تقادم عهده آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه ولأنه كان واثقاً بحياتهما عالماً بمكانهما طامعاً في إيابهما ، وأما يوسفُ فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلةَ رجائِه سوى رحمةِ الله وفضلِه .

وفي الخبر : (لم تُعطَ أمةٌ من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون إلا أمةُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام ألا يُرى إلى يعقوبَ حين أصابه ما أصابه لم يسترجعْ بل قال ما قال) والتجانسُ بين لفظي الأسَف ويوسف مما يزيد النظمَ الكريم بهجةً كما في قوله عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ وقوله : ﴿ اثاقلتم إِلَى الأرض أَرَضِيتُم ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلّ

الثمرات ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ ونظائرها ﴿ وابيضت عَيْنَاهُ مِنَ الحزن ﴾ الموجبِ للبكاء فإن العَبْرة إذا كثُرت محقت سوادَ العين وقلبتْه إلى بياض كدِر . قيل : قد عميَ بصرُه ، وقيل : كان يدرك إدراكاً ضعيفاً . روي أنه ما جفّت عينا يعقوبَ من يوم فراقِ يوسفَ إلى حين لقائه ثمانين عاماً وما على وجه الأرض أكرمُ على الله عز وجل من يعقوب عليه السلام ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنه سألَ جبريل عليه السلام :

" ما بلغ من وجد يعقوبَ عليه السلام على يوسف ؟" قال : وجْدَ سبعين ثكلى ، قال : "فما كان له من الأجر ؟" قال : أجرُ مائةِ شهيد وما ساء ظنُّه بالله ساعةً قط " وفيه دليل على جواز التأسف والبكاءِ عند النوائبِ فإن الكفَّ عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد ، ولقد بكى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على ولده آبراهيمَ وقال : " القلبُ يحزن والعين تدمَع ولا نقول ما يُسخِط الربَّ وإنا عليك يا إبراهيمُ لمحزونون " وإنما الذي لا يجوز ما يفعله الجهلةُ من الصياح والنياحة ولطْمِ الخدودِ والصدور وشقِّ الجيوبِ وتمزيقِ الثياب ، وعن النبي عليه السلام أنه بكى على ولد بعضِ بناتِه وهو يجود بنفسه ، فقيل : يا رسول الله تبكي وقد نَهَيتنا عن البكاء ؟ فقال : " ما

نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين صوتٍ عند الفرَح وصوت عند الترَح "

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مملوءٌ من الغيظ على أولاده مُمسِكٌ له في قلبه لا يُظهره ، فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ من كظمَ السِّقاءَ إذا شده على ملئه أو بمعنى فاعل كقوله : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ من كظم الغيظَ إذا اجترعه وأصله كظم البعيرُ جِرَّتَه إذا ردها في جوفه .

﴿ قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ ﴾

أي لا تفتأ ولا تزال ﴿ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ تفجّعاً عليه فحُذف النفي كما في قوله :

(258/401)

فقلْتُ يمينُ اللهِ أَبرَحُ قَاعِداً . . . لعدم الالتباس بالإثبات فإن القسمَ إذا لم يكن معه علامةُ الإثبات يكون على النفي ألبتةَ ﴿ حتى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ مريضاً مُشْفياً على الهلاك ، وقيل : الحَرضُ مَنْ أذابه هم أو مرض وهو في الأصل مصدرٌ ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع والنعت منه بالكسر كدِنف وقد قرىء به وبضمتين كجُنُب وغُرب ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ﴾ أي الميتين ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثّى ﴾ البثّ أصعبُ الهم الذي لا يصبر عليه صاحبُه فيبثّه إلى الناس أي ينشره فكأنهم قالوا له ما قالوا بطريق التسلية والإشكاءِ ، فقال

لهم : إني لا أشكو ما بي إليكم أو إلى غيركم حتى تتصدّوا لتسليتي وإنما أشكو همي ﴿ وَحُزْنِى إِلَى اللهِ ﴾ تعالى ملتجئاً إلى جنابه متضرّعاً لدى بابه في دفعه وقرىء بفتحتين وضمتين ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من لطفه ورحمته فأرجو أن يرحمني ويلطُفَ بي ولا يُخيِّب رجائي أو أعلمَ وحياً أو إلهاماً من جهته ما لا تعلمون من حياة يوسف . قيل : رأى ملكَ الموتِ في المنام فسأله عنه فقال : هو حي ، وقيل : علم من رؤيا يوسف عليه السلام أنه سيخرّ له أبواه وإخوته سجّداً .

(259/401)

﴿ يبَنِىَّ اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ ﴾ أي تعرّفوا وهو تفعُّل من الحَس وقرىء بالجيم من الجسّ وهو الطلب أي تطلبوا ﴿ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أي من خبرهما ولم يذكر الثالثِ لأن غَيبته اختيارية لا يعسرُ إزالتها ﴿ وَلاَ تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ ﴾ لا تقنَطوا من فرجه وتنفيسه وقرىء بضم الراء أي من رحمته التي يُحيي بها العبادَ وهذا إرشادٌ لهم إلى بعض ما أُبهم في قوله : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله : ﴿ يبَنِىَّ اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَاْيْئَسُواْ مِن ﴾ لعدم علمِهم بالله تعالى

وصفاتِه فإن العارفَ لا يقنط في حال من الأحوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(260/401)

وقال الآلوسى :

﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أي أعرض ﴿ عَنْهُمْ ﴾ كراهة لما جاؤا به ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ الأسف أشد الحزن على ما فات ، والظاهر أنه عليه السلام أضافه إلى نفسه ، والألف بدل من ياء المتكلم للتخفيف ، والمعنى يا أسفى تعال فهذا أوانك ، وقيل : الألف ألف الندبة والهاء محذوفة والمعول عليه الأول ، وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخوية لأن رزأه كان قاعدة الإرزاء عنده وإن تقادم عهده أخذاً بمجامع قلبه لا ينساه ولا يزول عن فكره أبداً :

ولم تنسني أوفي المصيبات بعده . . .

ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

ولا يرد أن هذا مناف لمنصب النبوة إذ يقتضي ذلك معرفة الله تعالى ومن عرفه سبحانه أحبه ومن أحبه لم يتفرغ قلبه لحب ما سواه لما قيل : إن هذه محبة طبيعية ولا تأبى الاجتماع

مع حبه تعالى ، وقال الإمام : إن مثل هذه المحبة الشديدة تزيل عن القلب الخواطر ويكون صاحبها كثير الرجوع إليه تعالى كثير الدعاء والتضرع فيصير ذلك سبباً لكمال الاستغراق ، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما للصوفية قدس الله تعالى أسرارهم في هذا المقام في باب الإشارة ، وقيل : لأنه عليه السلام كان واثقاً بحياتها عالماً بمكانهما طامعاً بإيابهما وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله وفيه بحث .

وأخرج الطبراني وابن مردوية والبيهقي في " شعب الإيمان " عن سعيد بن جبير [لم تعط أمة من الأمم ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ [البقرة : 156] إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم] أي لم يعلموه ولم يوفقوا له عند نزول المصيبة بهم ، ألا يرى إلى يعقوب عليه السلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال ما قال ، وفي ﴿ أسفا ﴾ و ﴿ يوسف ﴾ تجنيس نفيس من غير تكلف وخوما يزيد الكلام الجليل بهجة .

(261/401)

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أي بسببه وهو في الحقيقة سبب للبكاء والبكاء سبب لابيضاض عينه فإن العبرة إذا كثرت محقت سواد العين وقلبته إلى بياض كدر فأقيم سبب السبب مقامه لظهوره ، والابيضاض قيل إنه كناية عن العمى فيكون قد ذهب بصره عليه

السلام بالكلية واستظهره أبو حيان لقوله تعالى : ﴿ فارتد بصيراً ﴾ [يوسف : 96] وهو يقابل بالأعمى ، وقيل : ليس كناية عن ذلك والمراد من الآية أنه عليه السلام صارت في عينيه غشاوة بيضتهما وكان عليه السلام يدرك إدراكاً ضعيفاً ، وقد تقدم الكلام في حكم العمى بالنسبة إلى الأنبياء عليهم السلام ، وكان الحسن ممن يرى جوازه .

فقد اخرج عبالله بن أحمد في " زوائده " وابن جرير وأبو الشيخ عنه قال : كان منذ خرج يوسف من عند يعقوب عليهما السلام إلى يوم رجع ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجري على خديه ولم يزل يبكي حتى ذهب بصره وما على الأرض يومئذ والله أكرم على الله تعالى منه ، والظاهر أنه عليه السلام لم يحدث له هذا الأمر عند الحادث الأخير ، ويدل عليه ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ليث بن أبي سليم أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فعرفه فقال له أيها الملك الكريم على ربه هل لك علم بيعقوب ؟ قال : نعم .

قال : ما فعل ؟ قال : ابيضت عيناه من الحزن عليك قال : فما بلغ من الحزن ؟ قال : حزن سبعين مشكلة قال : هل له على ذلك من أجر ؟ قال : نعم أجر مائة شهيد وقرأ ابن عباس ومجاهد ﴿ من الحزن ﴾ بفتح الحاء والزاي وقرأ قتادة بضمهما .

واستدل بالآية على جواز التأسف والكاء عند النوائب ، ولعل الكف عن أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد .

وقد روى الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم بكى على ولده إبراهيم وقال : " إن العين تدمع والقلب يخشع ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون " وإنما المنهي عنه ما يفعله الجهلة من النياحة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق الثياب .

ورويا أيضاً من حديث أسامة أنه صلى الله عليه وسلم رفع إليه صبي لبعض بناته يجود بنفسه فأقعده في حجره ونفسه تتقعقع كأنها في شن ففاضت عيناه عليه الصلاة والسلام فقال سعد : يا رسول الله ما هذا ؟ فقال : هذه رحمة جعلها الله تعالى فيمن شاء من عباده وإنما يرحم الله تعالى من عباده الرحماء .

وفي " الكشاف " أنه قيل له عليه الصلاة والسلام : تبكي وقد نهيتنا عن البكاء ؟ قال . ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين صوت عند الفرح وصوت عند الترح.

وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره فقيل له في ذلك فقال : ما رأيت الله تعالى جعل الحزن عاراً على يعقوب عليه السلام .

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا يظهره ، وقيل : مملوء من الحزن ممسك له لا يبديه ، وهو من كظم السقاء إذا شده بعده ملئه ، ففعيل بمعنى مفعول أي مكظوم فهو كما جاء في يونس عليه السلام ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ [القلم : 48] ويجوز أن يكون بمعنى فاعل كقوله تعالى : ﴿ والكاظمين ﴾ [آل عمران : 134] من كظم الغيظ إذا تجرعه أي شديد التجرع للغيظ أو الحزن لأنه لم يشكه إلى أحد قط ، وأصله من كظم البعير جرته إذا ردها في جوفه فكأنه عليه السلام يرد ذلك في جوفه مرة بعد أخرى من غير أن يطلع أحداً عليه .

وفي الكلام من الاستعارة على الوجهين ما لا يخفى ، ورجح الأخير منهما بأن فعيلاً بمعنى فاعل مطرد ولا كذلك فعيلاً بمعنى مفعول .

(263/401)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي الاخوة وقيل غيرهم من أتباعه عليهم السلام ﴿ تالله ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال ﴿ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ تفجعاً عليه فحذف حرف النفي كما في قوله :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا . . .

ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

لأن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات كان على النفي وعلامة الإثبات هي اللام ونون التأكيد وهما يلزمان جواب القسم المثبت فإذا لم يذكرا دل على أنه منفي لأن المنفى لا يقارنهما ولو كان المقصود ههنا الإثبات لقيل لتفتأن ، ولزوم اللام والنون مذهب البصريين ، وقال الكوفيون .

والفارسي : يجوز الاقتصار على أحدهما وجاء الحذف فيما إذا كان الفعل حالا كقراءة ابن كثير ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ [القيامة : 1] وقوله :

لأبغض كل أمرىء . . .

يزخرف قولاً ولا يفعل

(264/401)

ويتفرع على هذا مسألة فقهية وهي أنه إذا قال : والله أقوم يحنث إذا قام وإن لم يقم لا ، ولا فرق بين كون القائل عالماً بالعربية أولا على ما أفتي به خير الدين الرملي ، وذكر أن الحلف بالطلاق كذلك فلو قال : علي الطلاق بالثلاث تقومين الآن تطلق إن قامت ولا تطلق إن لم تقم ، وهذه المسألة مهمة لا بأس بتحقيق الحق فيها وإن أدى إلى الخروج عما نحن بصدده فنقول : قال غير واحد : إن العوام لو أسقطوا اللام والنون في جواب القسم المثبت المستقبل

فقال أحدهم : والله أقوم مثلاً لا يحنث بعدم القيام فلا كفارة عليه ، وتعقبه المقدسي بأنه ينبغي أن تلزمهم الكفارة لتعارفهم الحلف كذلك ، ويؤيده ما في الظهيرية أنه لو سكن الهاء أو نصب في بالله يكون يميناً مع أن العرب ما نطقت بغير الجر ، وقال أيضاً : أنه ينبغي أن يكون ذلك يميناً وإن خلا من اللام والنون ، ويدل عليه قوله في الولوالجية : سبحان الله أفعل لا إله إلا الله أفعل كذا ليس بيمين إلا أن ينويه ، واعترضه الخير الرملي بأن ما نقله لا يدل لمدعاه ، أما الأول فلأنه تغيير إعراب لا يمنع المعنى الموضوع فلا يضر التسكين والرفع والنصب لما تقرر من أن اللحن لا يمنع الانعقاد ، وأما الثاني فلأنه ليس من المتنازع فيه إذ هو الإثبات والنفي لا أنه يمين ، وقد نقل ما ذكرناه عن المذهب والنقل يجب اتباعه ، ونظر فيه .

أما أولا فبأن اللحن كما في المصباح وغيره الخطأ في العربية ، وأما ثانياً فبأن ما في الولوالجية من المتنازع فيه فإنه أتى بالفعل المضارع مجرداً من اللام والنون وجعله يميناً مع النية ولو كان على النفي لوجب أن يقال : إنه مع النية يمين على عدم الفعل كما لا يخفى ، وإنما اشترط في ذلك النية لكونه غير متعارف .

وقال الفاضل الحلبي : إن بحث المقدسي وجيه ، والقول بأنه يصادم المنقول يجاب عنه بأن المنقول في المذهب كان على عرف صدر الإسلام قبل أن تتغير اللغة ، وأما الآن فلا يأتون باللام والنون في مثبت القسم أصلاً ويفرقون بين الإثبات والنفي بوجود لا ولا وجودها ، وما اصطلاحهم على هذا إلا كاصطلاح الفرس ونحوهم في أيمانهم وغيرها اه ، ويؤيد هذا ما ذكره العلامة قاسم وغيره من أنه يحمل كلام كل عاقد وحالف وواقف على عرفه وعادته سواء وافق كلام العرب أم لا ، ومثله في الفتح ، وقد فرق النحاة بين بلى ونعم في الجواب أن بلى لا يجاب ما بعد النفي ونعم للتصديق فإذا قيل : ما قام زيد فإن قلت : بلى كان المعنى قد قام وإن نعم كان ما قام ، ونقل في شرح المنار عن التحقيق أن المعتبر في أحكام الشرع العرف حتى يقام كل واحد منهما مقام الآخر ، ومثله في التلويح ، وقول الحيط والحلف بالعربية أن يقول في الإثبات والله لأفعلن إلى آخر ما قال بيان للحكم على قواعد العربية ، وعرف العرب وعادتهم الخالية عن اللحن وكلام الناس اليوم إلا ما ندر خارج عن هاتيك القواعد فهو لغة اصطلاحية لهم كسائر اللغات الأعجمية التي تصرف فيها أهلها بما تصرفوا فلا يعاملون بغير لغاتهم وقصدهم إلا من التزم منهم الإعراب أو قصد المعنى فينبغي أن يدين ، ومن هنا قال السائحاني : إن أيماننا الآن لا تتوقف على تأكيد فق ، د وضعناها نحن وضعاً جديداً واصطلحنا عليها اصطلاحاً حادثاً وتعارفناها تعارفاً مشهوراً فيجب معاملتنا على قدر عقولنا ونياتنا كما أوقع المتأخرون الطلاق بعلى الطلاق ومن لم يدر

بعرف أهل زمانه فهو جاهل اه ، ونظير هذا ما قالوه : من أنه لو أسقطت الفاء الرابطة لجواب الشرط فهو تنجيز لا تعليق حتى لو قال : إن دخلت الدار أنت طالق تطلق في الحال وهو مبني على قواعد العربية أيضاً وهو خلاف المتعارف الآن فينبغي بناؤه على العرف فيكون تعليقاً وهو المروى عن أبي يوسف :

وفي البحر أن الخلاف مبني على جواز حذفها اختياراً وعدمه فأجازه أهل الكوفة وعليه فرع أبو يوسف ومنعه أهل البصرة وعليه تفرع المذهب .

وفي سرح نظم الكنز للمقدسي أنه ينبغي ترجيح قول أبي يوسف لكثرة حذف الفاء في الفصيح ولقولهم : العوام لا يعتبر منهم اللحن في قولهم : أنت واحدة بالنصب الذي لم يقل به أحد اه هذا ثم ان ما ذكر انما هو في القسم بخلاف التعليق وهو وان سمى عند الفقهاء حلفاً ويميناً لكنه لا يسمى قسماً فإن القسم خاص باليمين بالله تعالى كما صرح به القهستاني فلا يجري فيه اشتراط اللام والنون في المثبت منه لا عند الفقهاء ولا عند اللغويين ، ومنه الحرام يلزمني وعلى الطلاق لا أفعل كذا فإنه يراد به في العرف ان فعلت كذا فهي طالق فيجب امضائه عليهم كما صرح به في الفتح وغيره قال الحلبي : وبهذا يندفع ما توهمه

بعض الأفاضل من أن في قول القائل : على الطلاق أجيء اليوم ان جاء في اليوم وقع الطلاق وإلا فلا لعدم اللام والنون .

(267/401)

وأنت خبير بأن النحاة إنما اشترطوا ذلك في جواب القسم المثبت لا في جواب الشرط ؛ وكيف يسوغ لعاقل فاضل أن يقول ان إن قام زيد أقم على أن أجيء ليس جواب الشرط بل هو فعل الشرط لأن المعنى ان لم أجيء اليوم فانت طالق ، وقد وقع هذا الوهم لكثير من المفتين كالخير الرملي وغيره ، وقال السيد أحمد الحموي في تذكرته الكبرى : رفع إلى سؤال صورته رجل اغتاظ من ولد زوجته فقال : على الطلاق بالثلاث إني أصبح أشتكيك من النقيب فلما أصبح تركه ولم يشتكه ومكث مدة فهل والحالة هذه يقع عليه الطلاق أم لا ؟ الجواب إذا ترك شكايته ومضت مدة بعد حلفه لا يقع عليه الطلاق لأن الفعل المذكور وقع في جواب اليمين وهو مثبت فيقدر النفي حيت لم يؤكد ثم قال : فأجبت أنا بعد الحمد لله تعالى ما أفتي به هذا المجيب من عدم وقوع الطلاق معللا بما ذكر فمنبىء عن فرط جهله وحمقه وكثرة مجازفته في الدين وخرقه إذ ذاك في الفعل إذا وقع جواباً للقسم بالله تعالى نحو تفتأ لا في جواب اليمين بمعنى التعليق بما يشق من طلاق وعتاق ونحوهما وحينئذ إذا أصبح

الحالف ولم يشتكه وقع عليه الطلاق الثلاث وبانت زوجته منه بينونة كبرى اه .

ولنعم ما قال .

ولله تعالى در القائل

من الدين كشف الستر عن كل كاذب . . .

وعن كل بدعى أتى بالعجائب

فلولا رجال مؤمنون لهدمت . . .

صوامع دين الله من كل جانب

﴿ وفتىء ﴾ هذه من أخوات كان الناقصة كما أشرنا إليه ويقال فيها : فتأ كضرب وأفتأ كأكرم ، وزعم ابن مالك أنه تكون بمعنى سكن وفتر فتكون تامة وعلى ذلك جاء تفسير مجاهد للا تفتأ بلا تفتر عن حبه ، وأوله الزمخشري بأنه عليه الرحمة جعل الفتوء والفتور أخوين أي متلازمين لا أنه بمعناه فإن الذي بمعنى فتر وسكن هو فثأ بالمثلثة كما في الصحاح من فثأت القدر إذا سكن غليانها والرجل إذا سكن غضبه ، ومن هنا خطأ أبو حيان ابن مالك فيما زعمه وادعى أنه من التصحيف .

وتعقب بأن الأمر ليس كما قاله فإن ابن مالك نقله عن الفراء وقد صرح به السر قسطي ولا يمتنع اتفاق مادتين في معنى وهو كثير ، وقد جمع ذلك ابن مالك في كتابل سماه ما اختلف اعجامه واتفق افهامه ونقله عنه صاحب القاموس .

واستدل بالآية على جواز الحلف بغلبة الظن ، وقيل : إنهم علموا ذلك منه ولكنهم نزلوه منزلة المنكر فلذا أكدوه بالقسم أي نقسم بالله تعالى لا تزال ذاكر يوسف متفجعاً عليه ﴿ يُوسُفَ حتى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ مريضاً مسفياً على الهلاك ، وقيل : الحرض من اذابه هم أو مرض وجعله مهزولاً نحيفاً ، وهو في الأصل مصدر حرض فهو حرض بكسر الراء ، وجاء أحرضني كما في قوله :

إني أمرؤلج بي حب فأحرضني . . .

حتى بليت وحتى شفني السقم

ولكونه كذلك في الأصل لا يؤنث ولا يثني ولا يجمع لأن المصدر يطلق على القليل والكثير ، وقال ابن إسحاق : الحرض الفاسد الذي لا عقل له .

وقرىء ﴿ حَرَضاً ﴾ بفتح الحاء وكسر الراء .

وقرأ الحسن البصري ﴿ حَرَضاً ﴾ بضمتين ونحوه من الصفات رجل جنب وغرب ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ﴾ قيل : يحتمل أن تكون بمعنى بل أو بمعنى إلى ، فلا يرد عليه أن حق هذا التقديم على ﴿ حتى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ فإن كانت للترديد فهي لمنع

الخلو والتقديم على ترتيب الوجود كما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : 255] أو لأنه أكثر وقوعاً

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي ﴾ البث في الأصل إثارة الشيء وتفريقه كبث الريح التراب واستعمل في الغم الذي لا يطيق صاحبه الصبر عليه كأنه ثقل عليه فلا يطيق حمله وحده فيفرقه على من يعينه ، فهو رمصد بمعنى المفعول وفيه استعارة تصريحية .

(269/401)

وجوز أن يكون بمعنى الفاعل أي الغم الذي بث الفكر وفرقه ، وأياماً كان فالظاهر أن القوم قالوا ما قالوا بطريق التسلية والاشكاء فقال في جوابهم : إني لا أشكو ما بي إليكم أو إلى غيركم حتى تتصدوا لتسليتي وإنما أشكو غمي ﴿ وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ﴾ تعالى متلجئاً إلى جنابه متضرعاً في دفعه لدى بابه فإنه القادر على ذلك .

وفي الخبر عن ابن عمر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كنوز البر اخفاء الصدقة وكتمان المصائب والأمراض ومن بث لم يصبر " وقرأ الحسن .

وعيسى ﴿ حزني ﴾ بفتحتين وقرأ قتادة بضمتين .

﴿ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ﴾ من لطفه ورحمته ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فأرجو أن يرحمني ويلطف

بي ولا يخيب رجائي ، فالكلام على حذف مضاف و ﴿ مِنْ ﴾ بيانية قدمت على المبين وقد جوزه النحاة .

وجوز أن تكون ابتدائية أي أعلم وحيا أو الهاما ً أو بسبب من أسباب العلم من جهته تعالى ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام .

قيل : إنه عليه السلام علم ذلك من الرؤيا حسبما تقدم ، وقيل إنه رأى ملك الموت في المنام فأخبره أن يوسف حي ذكره غيره واحد ولم يذكروا له سنداً والمروى عن ابن أبي حاتم عن النضر أنه قال : بلغني أن يعقوب عليه السلام مكث أربعة وعشرين عاماً لا يدري أيوسف عليه السلام حي أم ميت حتى تمثل له ملك الموت عليه السلام فقال له : من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت فقال : أنشدك بالله يعقوب هل قبضت روح يوسف ؟ قال : لا فعند ذلك قال عليه السلام :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا ﴾

أي فتعرفوا ، وهو تفعل من الحس وهو في الأصل الإدراك بالحاسة ، وكذا أصل التحسس طلب الإحساس ، واستعماله في التعرف استعمال له في لازم معناه وقريب منه التجسس

بالجيم ، وقيل : إنه به في الشر وبالحاء في الخير ورد بأنه ، قرىء هنا ﴿ فتجسسوا ﴾ بالجيم أيضاً ، وقال الراغب : أصل الجس مس العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والمرض وهو أخص من الحس فإنه تعرف ما يدركه الحس والجس تعرف حال ما من ذلك ﴿ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أي من خبرهما ، ولم يذكر الثالث لأن غيبته اختيارية لا يعسر إزالتها ، وعلى فرض ذلك الداعية فيهم للتحسس منه لكونه أخاهم قوية فلا حاجة لأمرهم بذلك ، والجار متعلق بما عنده وهو بمعنى عن بناء على ما نقل عن ابن الأنباري أنه لا يقال : تحسست من فلان ، وإنما يقال : تحسست عنه ، وجوز أن تكون للتبعيض على معنى تحسوا خبراً من أخبار من أخبار يوسف وأخيه .

﴿ وَلاَ تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ أي لا تقنطوا من فرجه سبحانه وتنفيسه ، وأصل معنى الروح بالفتح كما قال الراغب التنفس يقال : أراح الإنسان إذا تنفس ثم استعير للفرج كما قيل : له تنفيس من النفس .

وقرأ عمر بن عبد العزيز .

والحسن .

وقتادة ﴿ رُوحُ ﴾ بالضم ، وفسر بالرحمة على أنه استعارة من معناها المعروف لأن الرحمن سبب الحياة كالروح وإضافتها إلى الله تعالى لأنها منه سبحانه ، وقال ابن عطية كأن معنى هذه القراءة لا تيأسوا من حي معه روح الله الذي وهبه فإن كل من بقيت روحه

يرجى ، ومن هذا قوله :

وفي غير من قدورات الأرض فاطمع . . .

وقول عبيد بن الأبرص :

وكل ذي غيبة يؤب . . .

وغائب الموت لا يؤب

وقرأ أبي ﴿ مِن رَّحْمَةِ اللهِ ﴾ وعبد الله ﴿ مِن فَضْلِ اللهِ ﴾ وكلاهما عند أبي حيان

تفسير لا قراءة.

وقرىء ﴿ تأيسوا ﴾ .

(271/401)

وقرأ الأعرج ﴿ تيئسوا ﴾ بكسر التاء والأمر والنهي على ما قيل إرشاد لهم إلى بعض ما

أبهم في قوله : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 86] ثم إنه عليه السلام

حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله : ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي الشأن ﴿ لاَ يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ

إِلاَّ القوم الكافرون ﴾ لعدم علمه بالله تعالى وصفاته فإن العارف لا يقنط في حال من

الأحوال أو تأكيداً لما يعلمونه من ذلك ، قال ابن عباس : إن المؤمن من الله تعالى على خير

يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء .

وذكر الإمام أن اليأس لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم ، واعتقاد كل من هذه الثلاث يوجب الكفر فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحدها وكل منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً ، واستدل بعض أصحابنا بالآية على أن اليأس من رحمة الله تعالى كفر ، وادعى أنها ظاهرة في ذلك .

وقال الشهاب : ليس فيها دليل على ذلك بل هو ثابت بدليل آخر ، وجمهور الفقهاء على أن اليأس كبيرة ومفادة الآية أنه من صفات الكفار لا أن من ارتكبه كان كافراً بارتكابه ، وكونه لا يحصل إلا عند حصول أحد المكفرات التي ذكرها الإمام مع كونه في حيز المنع لجواز أن ييأس من رحمه الله تعالى إياه مع إيمانه بعموم قدرته تعالى وشمول علمه وعظم كرمه جل وعلا لمجرد استعظام ذنبه مثلاً واعتقاده عدم أهليته لرحمة الله تعالى من غير أن يخطر له أدنى ذرة من تلك الاعتقادات السيئة الموجبة للكفر لا يستدعي أكث من اقتضائه سابقية الكفر دون كون ارتكابه نفسه كفراً كذا قيل ، وقيل : الأولى التزام القول بأن اليأس قد يجامع الايمان وأن القول بأنه لا يحصل إلا بأحد الاعتقادات المذكورة غير بين ولا مبين .

نعم كونه كبيرة مما لا شك فيه بل جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه تعالى عنه أنه أكبر الكبائر ، وكذا القنوط وسوء الظن ، وفرقوا بينها بأن اليأس عدم أمل وقوع شيء من أنواع الرحمة له ، والقنوط هو ذاك مع انضمام حالة هي أشد منه في التصميم على عدم الوقوع ، وسوء الظن هو ذاك مع انضمام أنه مع عدم رحمته له يشدد له العذاب كالكفار .

وذكر ابن نجيم في بعض رسائله ما به يرجع الخلاف بين من قال : إن اليأس كر ومن قال : إنه كبيرة لفظياً فقال : قد ذكر الفقهاء من الكبائر الأمن من مكر الله تعالى واليأس من رحمته وفي العقائد واليأس من رحمة الله تعالى كفر فيحتاج إلى التوفيق .

والجواب أن المراد باليأس إنكار سعة الرحمة للذنوب ، ومن الأمن الاعتقاد أن لا مكر ، ومراد الفقهاء من اليأس اليأس لاستعظام ذنوبه واستبعاد العفو عنها ، ومن الأمن الأمن لغلبة الرجاء عليه بحيث دخل في حد الأمن ثم قال .

والأوفق بالسنة طريق الفقهاء لحديث الدارقطني عن ابن عباس مرفوعاً حيث عدها من الكبائر وعطفها على الإشراك بالله تعالى اه وهو تحقيق نفيس فليفهم . انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أي : أعرض : ﴿ عَنْهُمْ ﴾ أي : عن بنيه كراهة لما جاؤوا به : ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ أي : يا حزني الشديد ، و (الألف) بدل من ياء المتكلم للتخفيف . وقيل : هي ألف الندبة ، والهاء محذوفة . و (الأسف) أشد الحزن والحسرة على ما فات ، وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ، والحادث رزأهما . والرزء الأحدث أشد على النفس ، وأظهر أثراً ؛ لأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به ، ولأنه لم يُزل عن فكره ، فكان غضاً طرياً عنده ، كما قيل :

~ولم تُنسني أوفى المصيبات بعده وكل جديد يُذكر بالقديم

ولأنه كان واثقاً بحياتهما – دون حياته .

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ وذلك لكثرة بكائه .

قال الزمخشري : إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين ، وقلبته إلى بياض كدر : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي : مملوء من الغيظ على أولاده ، ولا يظهر ما يسوؤهم . (فعليل) بمعنى (مفعول) كقوله : ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم : من الآية 48] ، أو بمعنى شديد التجرع للغيظ أو الحزن ؛ لأنه لم يشكه إلى أحد قط . فهو بمعنى (فاعل) .

تنبيه :

دلت الآية على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟ .

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره ، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن .

ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم وقال : < إن العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون > .

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب .

وقوله تعالى :

﴿ قَالُوا ﴾ أي : أولاد يعقوب لأبيهم على سبيل الرفق به ، والشفقة عليه : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ

تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ أي : مريضاً مشفياً على الهلاك : ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ أي : بالموت . يقولون : إن استمر بك هذا الحال ، خشينا عليك الهلاك والتلف ، واستدل به على جواز الحلف بغلبة الظن . وقيل : إنهم علموه ، لكنهم نزّلوه منزلة المنكر ، فلذا أكدوه . و : ﴿ تَفْتَأُ ﴾ مضارع فتئ ، مثلثة التاء . يستعمل مع النفي ملفوظاً أو منوياً ؛ لأن موضعه معلوم ، فيحذف للتخفيف كقوله :

~فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي : لا أبرح . ومعنى (تفتأ) : لا تزال ولا تبرح .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي ﴾ أي : غمي وحالي : ﴿ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أشكو إلى ربي داعياً له ، وملتجئاً إليه ، فخلوني وشكايتي .

﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي : لمن شكا إليه من إزالة الشكوى ، ومزيد الرحمة : ﴿ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما يوجب حسن الظن به ، وهو مع ظن عبده به .

ولما علم من شدة البلاء مع الصبر ، قرب الفرج ، قوى رجاءهم ، وأمرهم أن يرحلوا لمصر ، ويتطلبوا خبر يوسف وأخيه بقوله :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أي : تعرّفوا من نبأهما ، وتخبروا خبرهما : ﴿ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ ﴾ أي : فرجه ورحمته المريحة من الشدة : ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ ﴾ لم يُقل (منه) إشارة إلى ظهور حصوله لمن لم ييأس : ﴿ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي : بالله ورحمته ، وقدرته على إفاضة الروح ، بعد مضي المدة في الشدة وسنته في إفاضة اليسر مع العسر ، لا سيما في حق من أحسن الظن به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 215.218 ﴾

(276/401)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

انتقال إلى حكاية حال يعقوب عليه السلام في انفراده عن أبنائه ومناجاته نفسه ، فالتولي حاصل عقب المحاورة .

و﴿ تولى ﴾ : انصرف ، وهو انصراف غضب .

ولمّا كان التولّي يقتضي الاختلاء بنفسه ذكر من أخواله تجدد أسفه على يوسف عليه السلام فقال : ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾ والأسف : أشد الحزن ، أسِف كحزن .

ونداء الأسف مجاز .

نزّل الأسف منزلة من يعقل فيقول له : احضر فهذا أوان حضورك ، وأضاف الأسف إلى ضمير نفسه لأن هذا الأسف جزئي مختص به من بين جزئيات جنس الأسف .

والألف عوض عن ياء المتكلم فإنها في النداء تبدل ألفاً .

وإنما ذكر القرآن تحسّره على يوسف عليه السلام ولم يذكر تحسره على ابنيه الآخرين لأن ذلك التحسّر هو الذي يتعلق بهذه القصة فلا يقتضي ذكرُه أن يعقوب عليه السلام لم يتحسّر قط إلاّ على يوسف ، مع أن الواو لا تفيد ترتيب الجمل المعطوفة بها .

وكذلك عطف جملة ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ إذ لم يكن ابيضاض عينيه إلا في مدة طويلة .

فكل من التولّي والتحسر وابيضاض العينين من أحواله إلاّ أنها مختلفة الأزمان .

وابيضاض العينين : ضعُف البصر .

وظاهره أنه تبدّل لون سوادهما من الهزال .

ولذلك عبّر بـ ﴿ وابيضت عيناه ﴾ دون عميت عيناه .

و﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من الحزن ﴾ سببية .

والحزن سبب البكاء الكثير الذي هو سبب ابيضاض العينين .

وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار كما قال الحارث بن حلزة :

قبل ما اليوم بيّضَتْ بعيون الن

اس فيها تغيض وإباء . . .

وأن الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر .

(277/401)

فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد أفضى إلى تعطيل عمل عصب الإبصار ؛ على أن البكاء من الحزن أمر جبليّ فلا يستغرب صدوره من نبيء ، أو أن التصبّر عند المصائب لم يكن من سنة الشريعة الإسرائيلية بل كان من سننهم إظهار الحَزن والجزع عند المصائب .

وقد حكت التوراة بكاء بني إسرائيل على موسى عليه السلام أربعين يوماً ، وحَكت تمزيق بعض الأنبياء ثيابهم من الجزع .

وإنما التصبر في المصيبة كمال بلغت إليه الشريعة الإسلامية .

والكظيم : مبالغة للكاظم .

والكَظم : الإمساك النفساني ، أي كاظم للحزن لا يظهره بين الناس ، ويبكي في خلوته ، أو هو فعيل بمعنى مفعول ، أي محزون كقوله : ﴿ وهو مكظوم .

وجملة قالوا تالله ﴾ محاورة بنيه إياه عندما سمعوا قوله : ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾

وقد قالها في خلوته فسمعوها .

والتاء حرف قسم ، وهي عوض عن واو القسم .

قال في "الكشاف" في سورة الأنبياء : "التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب" .

وسلمه في "مغني اللبيب" ، وفسره الطيبي بأن المقسم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع لأن الشيء المتعجب منه لا يكثر وقوعه ومن ثم قل استعمال التاء إلا مع اسم الجلالة لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم .

وجواب القسم هو ﴿ تفتأ تذكر يوسف ﴾ باعتبار ما بعده من الغاية ، لأن المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف عليه السلام وليس المقصود تحقيق أنه لا ينقطع عن تذكر يوسف .

وجواب القسم هنا فيه حرف النفي مقدر بقرينة عدم قرنه بنون التوكيد لأنه لو كان مثبتاً لوجب قرنه بنون التوكيد فحذف حرف النفي هنا .

ومعنى ﴿ تفتأ ﴾ تفتر .

يقال : فتىء من باب علم ، إذا فتر عن الشيء .

والمعنى : لا تفتر في حال كونك تذكر يوسف .

ولملازمة النفي لهذا الفعل ولزوم حال يعقب فاعله صار شبيهاً بالأفعال الناقصة .

و ﴿ حرضاً ﴾ مصدر هو شِدة المرض المشفي على الهلاك ، وهو وصف بالمصدر ، أي حتى تكون حرضاً ، أي بالِياً لا شعور لك .

(278/401)

ومقصودهم الإنكار عليه صداً له عن مداومة ذكر يوسف عليه السلام على لسانه لأن ذكره باللسان يفضي إلى دوام حضوره في ذهنه .

وفي جعلهم الغاية الحرض أو الهلاك تعريض بأنه يذكر أمراً لا طمع في تداركه ، فأجابهم بأن ذكره يوسف عليه السلام موجه إلى الله دُعاءً بأن يردّه عليه .

فقوله : ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾ تعريض بدعاء الله أن يزيل أسفه بردّ يوسف عليه السلام إليه لأنه كان يعلم أن يوسف لم يهلك ولكنه بأرض غربة مجهولة ، وعلم ذلك بوحي أو بفراسة صادقة وهي المسماة بالإلهام عند الصوفية .

فجملة ﴿ إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله ﴾ مفيدة قصر شكواه على التعلّق باسم الله ، أي يشكو إلى الله لا إلى نفسه ليجدد الحزن ، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة وهي عبادة لأن الدعاء عبادة ، وصار ابييضاض عينيه الناشىء عن التذكر الناشىء عن الشكوى أثراً جسدياً ناشئاً عن عبادة مثل تفطّر أقدام النبي صلى الله عليه وسلم من قيام

الليل .

والبَثّ : الهمّ الشديد ، وهو التفكير في الشيء المُسيء .

والحزن : الأسف على فائت .

فبينَ الهمّ والحزنِ العمومُ والخصوص الوجهي ، وقد اجتمعا ليعقوب عليه السلام لأنه كان مهتماً بالتفكير في مصير يوسف عليه السلام وما يعترضه من الكرب في غربته وكان آسفاً على فراقه .

وقد أعقب كلامه بقوله : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ لينبّههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العَالية ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلّموه أو يلوموه ، أي أنا أعلم علماً من عند الله علّمنيه لا تعلمونه وهو علم النبوءة .

وقد تقدم نظير هذه الجملة في قصة نوح عليه السلام من سورة الأعراف فهي من كلام النبوءة الأولى .

وحكي مثلها عن شعيب عليه السلام في سورة الشعراء .

وفي هذا تعريض برد تعرضهم بأنه يطمع في المحال بأن ما يحسبونه محالاً سيقع .

ثم صرح لهم بشيء ممّا يعلمه وكاشفهم بما يحقق كذبهم ادعاء ائتكال الذئب يوسف عليه السلام حين أذنه الله بذلك عند تقدير انتهاء البلوى فقال : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ .

فجملة ﴿ يا بني اذهبوا ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأن في قوله : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ ما يثير في أنفسهم ترقب مكاشفته على كذبهم فإن صاحب الكيد كثير الظنون ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ [المنافقون : 4] .

والتحسّس بالحاء المهملة : شدة التطّلب والتعرّف ، وهو أعم من التجسس بالجيم فهو التطّلب مع اختفاء وتستر .

والرّوْح بفتح الراء : النفَس بفتح الفاء استعير لكشف الكرب لأن الكرب والهمّ يطلق عليهما الغَمّ وضيق النفَس وضيق الصدر ، كذلك يطلق التنفس والتروح على ضد ذلك ، ومنه استعارة قولهم : تنفس الصبح إذا زالت ظلمة الليل .

وفي خطابهم بوصف البُنوّة منه ترقيق لهم وتلطف ليكون أبعث على الامتثال .

وجملة إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ تعليل للنهي عن اليأس ، فموقع ﴿ إنّ ﴾ التعليل .

والمعنى : لا تيأسوا من الظفر بيوسف عليه السلام معتلين بطول مدة البعد التي يبعد معها اللقاء عادة .

فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيّأ لها أسبابها ، ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يُحيل مثل ذلك فحقّه أن يأخذ في سببه ويعتمد على الله في تيسيره ، وأما القوم الكافرون بالله فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها .

وقرأ البزي بخُلف عنه ﴿ ولا تأْيَسُوا ﴾ و ﴿ إنه لا يأْيَس ﴾ بتقديم الهمزة على الياء الثانية ، وتقدم في قوله : ﴿ فلمّا استيأسوا منه ﴾ [سورة يوسف : 80] . انتهى انتهى .

اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(280/401)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

وأعرض يعقوب عليه السلام عنهم ؛ فما جاءوا به هو خبر أحزنه ، وخَلاَ بنفسه ؛ لأنه ببشريته تحسَّر على يوسف ، فقد كانت قاعدة المصائب هي افتقاده يوسفَ .

وساعةَ تسمع نداءً لشيء محزن ، مثل : " وا حُزْناه " أو " وا أسفاه " أو " وا مُصيبتاه " ؛ فهذا يعني أن النفس تضيق بالأحداث وتقول " يا همّ ، هذا أوانك ، فاحضر " . أو أنه قال

:

﴿ ياأسفى عَلَى يُوسُفَ . . . ﴾ [يوسف : 84] .

لأن أخاه بنيامين كان أشبهَ الناس به ؛ فكان حُزْنه على يوسف طاقة من الهَمّ نزلتْ به ، وتبعتها طاقة هَمٍّ أخرى ، وهي افتقاد بنيامين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وابيضت عَيْنَاهُ ﴾ [يوسف : 84] .

أي : أن دموع يعقوب كثُرتْ حتى بَدا الجزء الأسود في العين وكأنه أبيض . أو : ابيضتْ عيناه من فَرْط حُزنه ، الذي لا يبثُّه لأحد ويكظمه .

وهو قد يكظم غيظه من كل ما حدث ، أما الانفعالات فلا أحد بقادر على أن يتحكم فيها . " ونجد رسولنا صلى الله عليه وسلم يبكي ؛ وتذرف عيناه حُزْناً على موت ابنه إبراهيم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : أتبكي ؟ أو لم تكن نهيْتَ عن البكاء ؟ قال : " لا ، ولكن نهيتُ عن صوتين أحْمقيْنِ فاجرين : صوت عند مصيبة ، خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنة شيطان " .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا ، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون " .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه لا يريد من الإنسان أن يكون جلموداً أو يكون صخراً لا ينفعل

للأحداث ، بل يريده مُنفعلاً للأحداث ؛ لأن هذا لَوْنٌ يجب أن يكون في إنسانيته ، وهذه عاطفة يريد الله أن يُبقيها ، وعلى المؤمن أن يُعلِيها .

(281/401)

فسبحانه هو الذي خلق العاطفة ، والغريزة في الإنسان ، ولو أراد الله الإنسانَ بلا عاطفة أو غريزة لَفعلَ ما شاء ، لكنه أراد العاطفة والغريزة في الإنسان لمهمة .

ولحظة أن تخرج العاطفة أو الغريزة عن مُهمتها ، يقول لك المنهج : لا . لأن مهمة المنهج أن يُهذّب لك الانفعال .

والمثل الذي أضربه هنا هو حُبُّ الإنسان للاستمتاع بالطعام ، يقول له المنهج : كُلْ ما يفيدك ولا تَكُنْ شَرِهاً .

والمثل الآخر : غريزة حب الاستطلاع ، يقول لك المنهج : اعرف ما يفيدك ؛ ولا تستخدم هذه الغريزة في التجسُّس على الناس .

وغريزة الجنس أرادها الله لإبقاء النوع ، ولتأتي بالأولاد والذرية ، لكن لا تستعملها كانطلاقات وحشية . وهكذا يحرس المنهجُ الغرائزَ والعواطفَ لتبقى في إطار مهمتها .

والعاطفة على سبيل المثال هي التي تجعل الأب يَحنُو على ابنه الصغير ويرعاه ، وعلى ذلك

فالمؤمن عليه أن يُعْلِي غرائزه وعواطفه .

وقول الحق سبحانه عن يعقوب :

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 84] .

أي : أنه أخذ النزوع على قَدْره . وكلمة " كظيم " مأخوذة من " كظمت القربة " أي : أحكمنا غَلْق فوهة القِرْبة ، بما يمنع تسرُّب الماء منها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ قَالُواْ تَاللهِ . . . ﴾ .

ولقائل أن يسأل : ومَنِ الذين قالوا ليعقوب ذلك ، وقد ذكرت الآية السابقة أنه تولَّى عنهم ؟ نقول : لقد عاش يعقوب مع أبنائه وأحفاده ، ويُقَال في الأثر : إن يعقوب دخل عليه بعض الناس ، فقالوا له " تالله انهشمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سِنَّ أبيك إسحاق " .

والمعنى : أنك صِرْت عجوزاً عاجزاً ، مهشماً . قال : إنما هشَّمني يوسف . فعتب عليه الله في هذه القَوْلة ، وأوضح له : أتشكو ربك لخلقه ؟ فرفع يده وقال : خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لي . قال : غفرتُها لك .

وقد نبَّهه بعض أبنائه أو أحفاده فقالوا :

﴿ تَاللهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ﴾ [يوسف : 85]

.

أي : لا تزال تذكر يوسف وما حدث له ، حتى تُشرف على الهلاك . و " الحَرَض " كما نعلم هو المُشْرِف على الهلاك ، أو يهلك بالفعل .

وجاء الرد من يعقوب عليه السلام ، وأورده الحق سبحانه : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ . . . ﴾

.

وشكاية الأمر إلى الله لَوْن من العبادة لله ، والبَثُّ : هي المصيبة التي لا قُدرة لأحد على كتمانها ؛ فينشرها ، وإذا أصاب الأعلى الأدنى بما يراه الأدنى سوءً ، يتفرع الأدنى إلى نوعين : نوع يتودد إلى الأقوى ، ويتعطفه ويلين له ، ويستغفره ويستميحه ، ونوع آخر يتأبى على المُبْتَلى . ويتمرد ، ولسان حاله يقول : " فليفعل ما يريد " .

والحق تبارك وتعالى يقول في كتابه : ﴿ فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ [الأنعام : 43] .

فساعة يأتي البأْسُ وتتضرع إلى الله ؛ يكون البأس قد غسلنا من الذنوب ونسيان الذِّكْر ؛ وأعادنا إلى الله الذي لن يزيل البأس إلا هو .

أما الذي يتمرد ويستعلي على الأحداث ، فويل له من ذلك التمرد . والحق سبحانه حين يصيب إنساناً بمصيبة ، فهو يلطف بِمَنْ يدعوه .

وتساءل بعضهم : ولماذا لم يَقُل يعقوب ما علَّمنا إياه رسولنا صلى الله عليه وسلم : ﴿ الذين إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قالوا إِنَّا للَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة : 156] .

ونقول : إن هذا من النعم التي اختصَّ بها الحق سبحانه أمةَ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وحين دخل بعضهم على عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه وأرضاه وكان يعاني من وَعْكة ، وكان يتأوه ، فقالوا له : يا أبا الحسن أتتوجَّع ؟ قال : أنا لا أشجع على الله .

(283/401)

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يعلن يعقوب عليه السلام أنه لا يشكو حُزْنه وهَمَّه إلا إلى الله ، فهو القادر على كشف الضُّرِّ ؛ لأن يعقوب عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه أو أحفاده .

فقد كان يشعر بوجدانه ، وبما كان لديه من شكوك لحظة إبلاغهم له بحكاية الذئب المكذوبة أن يوسف ما زال حياً ، وأن الرُّؤيا التي حكى يوسف عنها لأبيه ، سوف يأذن الحق بتحقيقها .

ويذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان يعقوب فيقول : ﴿ يا بنى اذهبوا . . . ﴾ .

ونلحظ أن الذين غابوا هم ثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، والأخ الأكبر الذي أصرَّ على ألاَّ يبرح

مصر إلا بعد أن يأذنَ أبوه ، أو يأتي فرج من الله .

وهنا في هذه الآية جاء ذِكْر يوسف وأخيه ، ولم يَأْتِ ذِكْر الأخ الكبير أو رئيس الرحلة .

ونقول : إن يوسف وأخاه هما المعسكر الضعيف الذي عانى من مناهضة بقية الأخوة ، وهما قد فارقا الأب صغاراً ، أما الأخ الأكبر فيستطيع أن يحتال ، وأن يعود في الوقت الذي يريد .

وقول يعقوب :

﴿ اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ . . ﴾ [يوسف : 87] .

نجد فيه كلمة (تحسسوا) ، وهي من الحسِّ ، والحسُّ يُجمع على " حواس " ، والحواس هي منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية ، فالمعلومات تنشأ عندنا من الأمور المُحسَّة ، وتدركها حواسنا لتصير قضايا عقلية .

وهكذا نعلم أن الحواس هي قنواتُ المعرفة ، وهي غير مقصورة على الحواس الخمس الظاهرة ؛ بل اكتشف العلماء أن هناك حواسَّ أخرى غير ظاهرة ، وسبق أن تعرضنا لهذا الأمر في مراتٍ كثيرة سابقة .

وقوله :

﴿ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ . . ﴾ [يوسف : 87] .

يعني أعملوا حواسكم ، بكل ما فيها من طاقة ، كي تصلوا إلى الحقيقة .

ونعلم أن كلمة " الجاسوس " قد أُطلِقَتْ على مَنْ يتنصَّتْ ويرى ويشُمُّ رائحة الأخبار والتحرُّكات عند معسكر الأعداء ؛ ويقال له " عين " أيضاً .

(284/401)

وفي عُرْفنا العام نقول لمن يحترف التقاط الأخبار " شَمْ شِمْ لنا على حكاية الأمر الفلاني " .

وتابع يعقوب القول :

﴿ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ الله إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ الله إِلاَّ القوم الكافرون ﴾ [يوسف : 87]

.

أي : إياكم أن تقولوا أننا ذهبنا وتعبنا وتحايلنا ؛ ولم نجد حلاً ، لأن الله موجود ، ولا يزال لله رحمة .

والأثر يقول : " لا كَرْبَ وأنت ربُّ " .

وما يَعِزُّ عليك بقانونك الجأ فيه إلى الله .

وقد علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنه كلما حَزَبه أمر قام وصلى " .

وبهذا الجأ إلى ربِّ الأسباب ، وسبحانه فوق كل الأسباب ، وجرِّبوا ذلك في أيِّ أمر يُعضِلكم ، ولن ينتهي الواحد منكم إلى نهاية الصلاة إلا ويجد حلاًّ لِمَا أعضلَه .

وكلمة " رَوْح " نجدها تُنطَق على طريقتين " رَوْح " و " رُوح " ، و " الرَّوْح " هي الرائحة التي تهبُّ على الإنسان فيستروح بها ، مثلما يجلس إنسان في يوم قَيْظ ؛ ثم تهبُّ نسمة رقيقة ينتعش بها .

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : 89] .

ونأخذ لهذه الروح مثلاً من المُحسَّات حين يشتد القيظ ، ونجلس في بستان ، وتهبُّ نسمة هواء ؛ فيتعطر الجو بما في البستان من زهور .

والرُّوح هي التي ينفخها الحقُّ سبحانه في الجماد فيتحرك .

ويأتي هنا يعقوب عليه السلام بالقضية والمبدأ الذي يسير عليه كل مؤمن ، فيقول :

﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القوم الكافرون ﴾ [يوسف : 87] .

لأن الذي ليس له ربٌّ هو مَنْ ييأس ، ولذلك نجد نسبة المنتحرين بين الملاحدة كبيرة ، لكن المؤمن لا يفعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن له رباً يساعد عباده .

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب ؛ فسبحانه يَهبُه ممَّا فوق الأسباب .

وسبحانه يقول: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ [الطلاق: 2-3].

وهذه مسألة تحدث لمن يتقي الله. أتحدى أن يوجد مؤمن ليس في حياته مثل هذه الأمور، ما دام يأخذ بالأسباب ويتقي الله، وسوف يجد في لحظة من لحظات الكرب أن الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب؛ لأن الله هو الرصيد النهائي للمؤمن.

وهَبْ أنك سائر في الطريق، وفي جيبك جنيه واحد، وليس عندك غيره وضاع منك؛ هل تحزن؟ نعم سوف تحزن، ولكن إن كان في بيتك عشرة جنيهات فحزنك يكون خفيفاً لضياع الجنيه، ولو كان رصيدك في البنك ألف من الجنيهات، فلن تحزن على الجنيه الذي ضاع.

ومَنْ له ربٌّ، يبذل الجَهْد في الأخذ بالأسباب؛ سيجد الحل والفرج من أيِّ كرب مِمَّا هو فوق الأسباب.

ولماذا ييأس الإنسان؟

إن المُلحِد هو الذي ييأس؛ لأنه لا يؤمن بإله، ولو كان يؤمن بإله، وهذا الإله لا يعلم بما فيه هذا الكافر من كَرْب، أو هو إله يعلم ولا يساعد مَنْ يعبده؛ إما عجزاً أو بُخْلاً، فهو في كل هذه الحالات ليس إلهاً، ولا يستحق أن يُؤمَن به.

أما المؤمن الحق فهو يعلم أنه يعبد إلهاً قادراً ، يعطي بالأسباب ، وبما فوق الأسباب ؛ وهو حين يمنع ؛ فهذا المَنْع هو عَيْنُ العطاء ؛ لأنه قد يأخذ ما يضره ولا ينفعه . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(286/401)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ ﴾ [87]

قال سهل : أفضل الخدمة وأعلاها انتظار الفرج من الله تعالى ، كما حكي عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « انتظار الفرج بالصبر عبادة » وانتظار الفرج على وجهين : أحدهما قريب ، والآخر بعيد ؛ فالقريب في السر فيما بين العبد وربه ، والبعيد في الخلق ؛ فينظر إلى البعيد فيحجب عن القريب . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير التسترى صـ 83 ﴾

(287/401)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق ، عن ابن عباس – رضي الله عنه – في قوله ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾ قال : يا حزناً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾ قال : يا حزناً على يوسف .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾ قال : يا جزعاً .

وأخرج أبو عبيد وابن سعيد وابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن يونس – رضي الله عنه – قال : لما مات سعيد بن الحسن حزن عليه الحسن حزناً شديداً ، فكلم الحسن في ذلك فقال : ما سمعت الله عاب على يعقوب عليه السلام الحزن .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وأبو الشيخ ، عن الحسن – رضي الله عنه – قال : كان منذ خرج يوسف عليه السلام من عند يعقوب عليه السلام إلى يوم رجع ،

ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ، ودموعه تجري على خديه . ولم يزل يبكي حتى ذهب بصره . والله ما على وجه الأرض يومئذ خليقة أكرم على الله من يعقوب .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - قال : لم يعط أحد الاسترجاع غير هذه الأمة ، ولو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب عليه السلام . ألا تستمعون إلى قوله ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الأحنف بن قيس - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن داود قال : يا رب ، إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحق ويعقوب ، فاجعلني لهم رابعاً . فأوحى الله إليه أن إبراهيم ألقي في النار بسببي فصبر ، وتلك بلية لم تنلك . وأن إسحق بذل مهجة دمه في سببي فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وأن يعقوب أخذت منه حبيبه حتى ابيضت عيناه من الحزن فصبر ، وتلك بلية لم تنلك " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ فهو كظيم ﴾ قال : حزين .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - إن نافع بن الأزرق

قال له : أخبرني عن قوله ﴿ فهو كظيم ﴾ ما الكظيم ؟ قال : المغموم . قال فيه قيس بن زهير :

فإن أك كاظماً لمصاب شاس . . . فإني اليوم منطلق لساني

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ فهو كظيم ﴾ قال : كظم الحزن .

وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ فهو كظيم ﴾ قال : كظم على الحزن ، فلم يقل إلا خيراً ، أو في لفظ : يردد حزنه في جوفه ولم يتكلم بسوء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن عطاء الخراساني – رضي الله عنه – في قوله ﴿ فهو كظيم ﴾ قال : فهو مكروب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ كظيم ﴾ قال : مكروب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن الضحاك رضي الله عنه قال : الكظيم الكمد .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد – رضي الله عنه – ﴿ فهو كظيم ﴾ قال : مكمود .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن زيد رضي الله عنه قال : الكظيم الذي لا يتكلم ، بلغ به الحزن حتى كان لا يكلمهم .

(289/401)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ليث بن أبي سليم - رضي الله عنه - أن جبريل عليه السلام ، دخل على يوسف عليه السلام في السجن فعرفه ، فقال له : أيها الملك الكريم على ربه ، هل لك علم بيعقوب ؟ قال نعم . قال : ما فعل ؟ قال : ابيضت عيناه من الحزن عليك . قال : فماذا بلغ من حزنه ؟ قال : حزن سبعين مثكلة . قال : هل له على ذلك من أجر ؟ قال : نعم . أجر مائة شهيد .

وأخرج ابن جرير من طريق ليث ، عن ثابت البناني - رضي الله عنه - مثله سواء .

وأخرج ابن جرير من طريق ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد - رضي الله عنه - قال : حدثت أن جبريل عليه السلام ، دخل على يوسف عليه السلام وهو بمصر في صورة رجل ، فلما رآه يوسف عليه السلام عرفه ، فقام إليه فقال : أيها الملك الطيب ريحه ، الطاهر ثيابه ، الكريم على ربه ، هل لك بيعقوب من علم ؟ قال : نعم . قال : فكيف هو ؟ . . . فقال : ذهب بصره . قال : وما الذي أذهب بصره ؟ قال : الحزن عليك . قال : فما أعطي

على ذلك ؟ قال : أجر سبعين شهيداً .

وأخرج ابن جرير ، عن عبد الله بن أبي جعفر – رضي الله عنه – قال : دخل جبريل عليه السلام على يوسف عليه السلام في السجن فقال له يوسف : يا جبريل ، ما بلغ من حزن أبي ؟ قال : حزن سبعين ثكلى . قال : فما بلغ أجره من الله ؟ قال : أجر مائة شهيد .

وأخرج ابن أبي شيبة عن خلف بن حوشب مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن وهب بن منبه – رضي الله عنه – قال : لما أتى جبريل عليه السلام يوسف عليه السلام بالبشرى وهو في السجن قال : هل تعرفني أيها الصديق ؟ قال : أرى صورة طاهرة ، وريحاً طيبة لا تشبه أرواح الخاطئين .

قال : فإني رسول رب العالمين ، وأنا الروح الأمين . قال : فما الذي أدخلك إلى مدخل المذنبين ، وأنت أطيب الطيبين ، ورأس المقربين ، وأمين رب العالمين ؟ ؟ ؟ . . . قال : ألم تعلم يا يوسف ، أن الله يطهر البيوت بمطهر النبيين ؟ وأن الأرض التي تدخلونها هي أطيب الأرضين ؟ وأن الله قد طهر بك السجن وما حوله بأطهر الطاهرين وابن المطهرين ؟ إنما

يتطهر بفضل طهرك وطهر آبائك الصالحين المخلصين . قال : كيف تسميني بأسماء الصديقين وتعدني من المخلصين ، وقد دخلت مدخل المذنبين ، وسميت بالضالين المفسدين ؟ . . . قال : لم يفتتن قلبك الحزن ، ولم يدنس حريتك الرق ، ولم تطع سيدتك في معصية ربك ، فلذلك سماك الله بأسماء الصديقين ، وعدّك مع المخلصين ، وألحقك بآبائك الصالحين . قال : هل لك علم بيعقوب ؟ قال : نعم ، وهب الله له الصبر الجميل ، وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم . قال : فما قدر حزنه ؟ قال : سبعين ثكلى . قال : فماذا له من الأجر ؟ قال : قدر مائة شهيد .

وأخرج ابن جرير ، عن عكرمة – رضي الله عنه – قال : أتى جبريل عليه السلام ، يوسف عليه السلام وهو في السجن ، فسلم عليه ، فقال له يوسف : أيها الملك الكريم على ربه ، الطيب ريحه ، الطاهر ثيابه ، هل لك علم بيعقوب ؟ قال : نعم ، ما أشد حزنه ! . . قال : ماذا له من الأجر ؟ قال : أجر سبعين ثكلى . قال : أفتراني لاقيه ؟ قال : نعم . فطابت نفس يوسف .

وأخرج ابن جرير ، عن الحسن – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه سئل " ما بلغ وجد يعقوب على ابنه ؟ قال : وجد سبعين ثكلى . قيل فما كان له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله ساعة من ليل أو نهار " .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن عمرو بن دينار أنه ألقي على يعقوب عليه السلام حزن سبعين مثكل ، ومكث في ذلك الحزن ثمانين عاماً .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ قال : لا تزال تذكر يوسف ﴿ حتى تكون حرضاً ﴾ قال : دنفاً من المرض ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ قال الميتين .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ قال : لا تزال تذكر يوسف ، لا تفتر عن حبه ﴿ حتى تكون حرضاً ﴾ قال : هرماً ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ قال : أو تموت .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك - رضي الله عنه - ﴿ حتى تكون حرضاً ﴾ قال : الحرض الشيء البالي ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ قال الميتين .

وأخرج ابن الأنباري والطستي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله ﴿ تفتأ تذكر يوسف ﴾ قال: لا تزال تذكر يوسف. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت الشاعر وهو يقول:

لعمرك لا تفتأ تذكر خالدا . . . وقد غاله ما غال تبع من قبل

قال: أخبرني عن قوله ﴿ حتى تكون حرضاً ﴾ قال: الحرض، المدنف الهالك من شدة الوجع. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت الشاعر وهو يقول:

أمن ذكر ليلى أن نأت قرية بها . . . كأنك حم للأطباء محرض

(292/401)

وأخرج ابن جرير عن طلحة بن مصرف الأيامي قال: ثلاثة لا تذكرهن واجتنب ذكرهن: لا تَشْكُ مرضك، ولا تَشْكُ مصيبتك، ولا تُزَكِّ نفسكَ. قال: وأنبئت أن يعقوب عليه السلام دخل عليه جار له فقال: يا يعقوب، ما لي أراك قد انهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ قال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف، وذكره. فأوحى الله إليه "يا يعقوب، اتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يا رب، خطيئة أخطأتها فاغفرها لي. قال: فإني قد غفرت لك". فكان بعد ذلك إذا سئل قال ﴿ إنما أشكو بثي

وحزني إلى الله ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير ، عن مسلم بن يسار – رضي الله عنه – يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال " من بث لم يصبر " ثم قرأ ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ .

وأخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كنوز البر ، إخفاء الصدقة ، وكتمان المصائب والأمراض ، ومن بث لم يصبر " .

وأخرج البيهقي من وجه آخر ، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب – رضي الله عنه – قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ثلاث من كنوز البر : كتمان الصدقة ، وكتمان المصيبة ، وكتمان المرض " .

وأخرج البيهقي في الشعب وضعفه ، عن أنس – رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصبح حزيناً على الدنيا ، أصبح ساخطاً على ربه . ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به ، فإنما يشكو الله . ومن تضعضع لغني لينال من دنياه ، أحبط الله ثلثي عمله . ومن أعطي القرآن فدخل النار ، فأبعده الله " .

وأخرج البيهقي وضعفه ، عن ابن مسعود – رضي الله عنه – مرفوعاً مثله .

وأخرج أحمد في الزهد والبيهقي عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – قال : ثلاث من ملاك أمرك : أن لا تشكو مصيبتك ، وأن لا تحدث بوجعك ، وإن لا تزكي نفسك ، بلسانك .

وأخرج أحمد في الزهد والبيهقي ، عن وهب بن منبه – رضي الله عنه – قال : وجدت في التوراة أربعة أسطر متوالية : من شكا مصيبته فإنما يشكو ربه ، ومن تضعضع لغني ذهب ثلثا دينه ، ومن حزن على ما في يد غيره فقد سخط قضاء ربه ، ومن قرأ كتاب الله فظن أن لا يغفر له ، فهو من المستهزئين بآيات الله .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي ، عن الحسن – رضي الله عنه – قال : من ابتلى ببلاء فكتمه ثلاثاً ، لا يشكو إلى أحد ، أتاه الله برحمته .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن حبيب بن أبي ثابت : أن يعقوب عليه السلام ، كان قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر ، فكان يرفعهما بخرقة . فقيل له : ما بلغ بك هذا ؟ قال طول الزمان ، وكثرة الأحزان . فأوحى الله إليه " يا يعقوب ، أتشكوني ؟ قال : يا رب ، خطيئة أخطأتها ، فاغفر لي " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن نصر بن عربي قال : بلغني أن يعقوب عليه السلام ، لما طال حزنه على يوسف ، ذهبت عيناه من الحزن . فجعل العوّاد يدخلون عليه فيقولون : السلام

عليك يا نبي الله ، كيف تجدك ؟ فيقول : شيخ كبير قد ذهب بصري . فاوحى الله إليه " يا يعقوب ، شكوتني إلى عوادك ؟ قال : أي رب ، هذا ذنب عملته لا أعود إليه " فلم يزل بعد يقول ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إنما أشكو بثي ﴾ . قال : همي .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن الحسن - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أشكو بثي ﴾ قال : حاجتي .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ يقول : أعلم أن رؤيا يوسف عليه السلام صادقة ، وإني سأسجد له .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عبد الله بن شداد رضي الله عنه قال : سمعت نشيج عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وإني لفي آخر الصفوف في صلاة الصبح ، وهو يقرأ ﴿ إنما أشكو بثي

وحزني إلى الله ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي ، عن علقمة بن أبي وقاص – رضي الله عنه – قال : صليت خلف عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – العشاء ، فقرأ سورة يوسف عليه السلام ، فلما أتى على ذكر يوسف عليه السلام ، نشج حتى سمعت نشيجه وأنا في مؤخر الصفوف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – قال : ذكر لنا أن يعقوب عليه السلام ، لم تنزل به شدة بلاء قط إلا أتاه حسن ظنه بالله من وراء بلائه .

وأخرج ابن المنذر عن عبد الرزاق – رضي الله عنه – قال : بلغنا أن يعقوب عليه السلام قال : " يا رب ، أذهبت ولدي ، وأذهبت بصري ! . . . قال : بلى ، وعزتي وجلالي وإني لأرحمك ، ولأردنّ عليك بصرك وولدك . وإنما ابتليتك بهذه البلية ، لأنك ذبحت جملاً فشويته ، فوجد جارك ريحه فلم تنله " .

وأخرج إسحق بن راهويه في تفسيره ، وابن أبي الدنيا في كتاب الفرج بعد الشدة ، وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط ، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ،

عن أنس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان ليعقوب عليه السلام أخ مؤاخ ، فقال له ذات يوم : يا يعقوب ، ما الذي أذهب بصرك ؟ وما الذي قوس ظهرك ؟ قال : أما الذي أذهب بصري ، فالبكاء على يوسف . وأما الذي قوس ظهري ، فالحزن على بنيامين . فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا يعقوب ، إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك : ما تستحي تشكوني إلى غيري ؟ فقال يعقوب عليه السلام ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ فقال جبريل عليه السلام : الله أعلم بما تشكو يا يعقوب . ثم قال يعقوب : أما ترحم الشيخ الكبير ؟ أذهبت بصري وقوست ظهري ، فاردد علي ريحانتي أشمه شمة قبل الموت ، ثم اصنع بي ما أردت . فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا يعقوب ، إن الله يقرئك السلام ويقول لك : أبشر وليفرح قلبك ، فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك . فاصنع طعاماً للمساكين ، فإن أحب عبادي إلي : الأنبياء والمساكين . وتدري لم أذهبت بصرك وقوست ظهرك ، وصنع إخوة يوسف به ما صنعوا ؟ إنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئاً . فكان يعقوب عليه السلام إذا أراد الغداء أمر منادياً ينادي ، ألا من أراد الغداء من المساكين فليتغد مع يعقوب ، وإذا كان صائماً ، أمر منادياً ألا من كان صائماً ، من المساكين فليفطر مع يعقوب" .

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن النصر بن عربي – رضي الله عنه – قال : بلغني أن يعقوب عليه السلام مكث أربعة وعشرين عاماً لا يدري أحي يوسف عليه السلام أم ميت ، حتى تخلل له ملك الموت فقال له : من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت . قال : فأنشدك بإله يعقوب ، هل قبضت روح يوسف عليه السلام ؟ قال : لا فعند ذلك قال ﴿ يا بني ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ﴾ فخرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا عليه لم يجدوا كلاماً أرق من كلام استقبلوه به . ﴿ قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ قال : من رحمة الله .

وأخرج ابن جرير ، عن الضحاك – رضي الله عنه – مثله .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن زيد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ قال : من فرج الله ، يفرج عنكم الغم الذي أنتم فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يا أسفى ﴾ : الألف منقلبة عن ياء المتكلم وإنما قُلِبَتْ ألفاً ؛ لأن الصوتَ معها أَتَمُّ ، ونداؤه على سبيل المجاز ، كأنه قال : هذا أوانك فاحضر نحو ﴿ يا حسرتى ﴾ [الزمر : 56] : وقيل : هذه ألفُ الندبة ، وحُذِفَتْ هاءُ السكت وصلاً . قال الزمخشري : " والتجانسُ بين لفظَتَي الأسف ويوسف مِمَّا يقع مطبوعاً غيرَ مُتَعَمَّل فَيَمْلُح وَيَبْدُع ، ونحوه : ﴿ اثاقلتم إِلَى الأرض أَرَضِيتُمْ ﴾ [التوبة : 38] ﴿ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 26] ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ ﴾ [الكهف : 104] ﴿ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾ [النمل : 22] . قلت : وُيسَمَّى هذا النوع " تجنيس التصريف ، وهو أن تشترك الكلمتان في لفظٍ ويُفَرِّق بينهما بحرفٍ ليس في الأخرى ، وقد تقدَّم .

وقرأ ابن عباس ومجاهد " مِن الحَزَن " بفتحتين ، وقتادة بضمتين ، والعامَّةُ بضمة وسكون ، فالحُزْن والحَزَن كالعُدْم والعَدَم ، والبُخْل والبَخَل ، وأمَّا الضمتان فالثانية إتباعٌ .

و" كظيم " : يجوز أن يكون مبالغةً بمعنى فاعِل ، وأن يكونَ بمعنى مفعول كقوله : ﴿ وَهُوَ

مَكْظُومٌ ﴾ [القلم : 48] وبه فسَّره الزمخشري .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) ﴾

(298/401)

قوله تعالى : ﴿ تَفْتَؤُا ﴾ : هذا جوابُ القسم في قوله : " تاللَّهِ " وهو على حذفِ " لا " ، أي : لا تَفْتَأ ، ويدلُّ على حَذْفِها أنه لو كان مثبتاً لاقترن بلامِ الابتداء ونون التوكيد معاً عند البصريين ، أو إحداهما عند الكوفيين وتقول : " واللَّهِ أحبُّك " تريد : لا أحبك ، وهو من التورية فإن كثيراً من الناس مبادِرٌ ذهنَه إلى إثبات المحبة . و " تَفْتأ " هنا ناقصة بمعنى لا تزال فترفع الاسمِ وهو الضمير ، وتنصِبُ الخبر وهو الجملة من قوله " تَذْكُرُ " ، أي : لا تزال ذاكراً له ، يقال : ما فتىء زيدٌ ذاهباً . قال أوس بن حجر :

2818 فما فَتِئَتْ حتى كأنَّ غبارَها . . . سُرادِق يومٍ ذي رياحٍ تُرَفَّعُ

وقال أيضاً :

2819 فما فَتِئَتْ خيل تَثُوبُ وتَدَّعي . . . ويَلْحَقُ منها لاحِقٌ وتُقَطَّعُ

وعن مجاهد : " لا تَفْتُر " ، قال الزمخشري : " كأنه جعل الفُتوء والفُتور أخوين " .

وفيها لغتان : فَتَأَ على وزن ضَرَب ، وأَفْتَأَ على وزن أكرم ، وتكون تامةً بمعنى سَكَّن وأطفأ

كذا قاله ابن مالك ، وزعم الشيخ أنه تصحيف منه ، وإنما هي هي " فَتَأ " بالثاء المثلثة .

ورُسِمَتْ هذه اللفظةُ " تفتؤ " / بالواو والقياس " تفتأ " بالألف ، ولذلك يُوْقَفُ لحمزة بالوجهين اعتباراً بالخط الكريم أو القياس .

قوله : ﴿ حَرَضاً ﴾ الحَرَضُ : الإِشفاء على الموت يُقال منه : حَرَضَ الرجل يَحْرُض حَرَضاً بفتح الراء ، فهو حَرِض بكسرها ، فالحَرَضُ مصدر ، فيجيء في الآية الأوجهُ في " رجل عَدْل " وقد تقدَّم مرارا ، ويُطْلَق المصدر من هذه المادة على الجُثَث إطلاقاً شائعا ، ولذلك يَسْتوي فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث تقول : هو حَرَضٌ ، وهما حَرَض ، وهم حَرَض ، وهنَّ حَرَض ، وهي حَرَض ، ويقال : رجل حُرُض بضمتين نحو : جُنُب وشُلُل ويقال : أَحْرضه كذا ، أي : أهلكه . قال الشاعر :

(299/401)

2820 إني امرؤٌ لَجَّ بي حُبٌّ فأَحْرَضَني . . . حتى بَلِيْتُ وحتى شَفَّني السَّقَمُ

فهو مُحْرَض قال :

2821 أرى المَرْءَ كالأذْوادِ يُصبح مُحْرَضاً . . . كإحراض بِكْرٍ في الديار مريضِ

وقرأ بعضهم : " حَرِضاً " بكسر الراء . قال الزمخشري : " وجاءَتِ القراءةُ بهما جميعاً " .

يعني بفتح الراء وكَسْرِها " وقرأ الحسن بضمتين ، وقد تقدم أنه كجُنُب وشُلُل ، وزاد الزمخشري " وغُرُب " قال الراغب : " الحَرَض : ما لا يُعْتَدُّ به ولا خيرَ فيه ، ولذلك يقال لِما أشرف على الهلاك حَرِض ، قال تعالى : ﴿ حتى تكُونَ حَرَضاً ﴾ وقد أحرضه كذا ، قال الشاعر : " أني امرؤلجَّ " البيت . والحُرْضَةُ : مَنْ لا يأكل إلا لحمَ المَيْسِر لنذالته ، والتحريض : الحَثُّ على الشيء بكثرةِ التنزيين وتسهيل الخَطْب فيه كأنه إزالة الحَرَض نحو : " قَدَّيْتُه " ، أي : أَزَلْتُ عنه القذى ، وأَحْرَضْتُه : أفسَدْتُه نحو : أَقْذَيْتُه ، أي : جعَلْتَ فيه القذى " انتهى .

والحُرُض : الأُشْنان لإزالته الفسادَ ، والمِحْرَضَةُ وعاؤُه ، وشُذُوذها كشذوذ مُنْخُل ومُسْعُط ومُكْحُلَة .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86) ﴾

والبَثُّ أشدُّ الحزن كأنه لقوته لا يُطاق حَمْلُه فيبثُّه الإنسان ، أي : يُفَرِّقُه ويُذيعه ، وقد تقدم أنَّ أصلَ هذه المادةِ الدلالةُ على الانتشار . وجوَّز فيه الراغب هنا وجهين ، أحدهما : أنه مصدرٌ في معنى المفعول ، قال : " أي غَمِّي الذي بَثَثْته عن كتمان ، فهو مصدر في تقدير مفعول أو يعني غَمِّي الذي بثَّ فكري فيكون في معنى الفاعل .

وقرأ الحسن وعيسى " وحَزَني " بفتحتين ، وقتادة بضمتين وقد تقدم .

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَحَسَّسُواْ ﴾ : أي : استقصوا خبره بحواسّكم ، ويكون في الخير والشر .

وقيل : بالحاء في الخير ، وبالجيم في الشر ، ولذلك قال هنا " فتحسَّسُوا " ، وفي الحجرات : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ [الآية : 12] ، وليس كذلك ، فإنه قد قرىء بالجيم هنا . وتقدَّم الخلاف في قوله " وَلاَ تَيْأَسُواْ " . وقرأ الأعرج : " تِيْئَسوا " .

والعامَّةُ على " رَوْحِ اللَّه " بالفتح وهو رحمتُه وتنفيسُه وقرأ الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة بضم الراء . قال الزمخشري ، " أي : مِنْ رحمتِه التي يحيا بها العباد " . وقال ابن عطية : " وكأن معنى هذه القراءة : لا تَيْئَسوا مِنْ حَيٍّ معه رُوح اللَّه الذي وهبه ، فإنَّ مَنْ بقي روحُه يُرْجَى ، ومِنْ هذا قول الشاعر :

2822 وفي غيرِ مَنْ قدوارتِ الأرضُ فاطْمَعِ . . . .

ومن هذا قول عبيد بن الأبرص :

2823 وكلُّ ذي غَيْبَةٍ يؤُوبُ . . . وغائبُ الموتِ لا يؤُوبُ

وقراءة أُبيّ رحمه اللَّه : ﴿ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ و ﴿ عِنْدِ الله ﴾ ﴿ مِن فَضْلِ الله ﴾

تفسيرُ لا تلاوة .

وقال أبو البقاء : " الجمهورُ على فتح الراء ، وهو مصدر في معنى الرحمة ، إلا أنَّ استعمالَ الفعل منه قليل ، وإنما يُسْتَعمل بالزيادة مثل أراح وروَّح ، ويُقرأ بضم الراء وهي لغةٌ فيه .

وقيل : هو اسمُ مصدرٍ مثل الشِّرْب والشُّرْب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 545.550 ﴾

(301/401)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) ﴾

تولَّى عن الجميع - وإن كانوا أولاده - ليُعْلَمَ أنَّ المحبةَ لا تُبْقي ولا تَذَر .

ويقال أراد إخوةُ يوسفَ أن يكونَ إقبال يعقوب عليهم بالكليَّة فأعْرَضَ ، وتولَّى عنهم ، وفاتَهم ما كان لهم ، ولهذا قيل : مَنْ طَلَبَ الكلُّ فاته الكلُّ .

ويقال لم يَجِدْ يعقوبُ مُساعِداً لنفسه على تأسفه على يوسف فتولَّى عن الجميع ، وانفرد

بإظهار ، أسفه ، وفي معناه أنشدوا :

فريدٌ عن الخِلاّنِ في كل بلدةٍ . . . إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المُساعِدُ

ويقال كان بكاءُ داود عليه السلام أكثرَ من بكاء يعقوب عليه السلام ، فلم يذهب بَصَرُ داود وذهْب بَصَرُ يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام بكى لأَجْلِ يوسف ولم يكن في قدْرةِ يوسف أن يحفظَ بصره من البكاء لأجله ، وأمّا داود فقد كان يبكي لله ، وفي قدرة الله – سبحانه – ما يحفظ بَصَرَ الباكي لأَجْله .

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق – رحمه الله – يقول ذلك ، وقال رحمه الله : إن يعقوبَ بكى لأجل مخلوقٍ فذهب بَصَرُهُ ، وداود بكى لأَجْل الله فبقي بَصَرُه .

وسمعته – رحمه الله – يقول : لم يقل الله : " عَمِيَ يعقوب " ولكن قال : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾ ، لأنه لم يكن في الحقيقة عَمَىً ، وإنما كان حجاباً عن رؤية غير يوسف .

ويقال كان ذهابُ بصرِ يعقوب حتى لا يحتاج إلى أن يرى غير يوسف ، لأنه لا شيءَ أشدُّ على الأحباب من رؤية غير المحبوب في حال فراقه ، وفي معناه أنشدوا :

لما تَيَقَّنْتُ أني لَسْتُ أُبْصِرُكم . . . أغمضتُ عيني فلم أنظر إلى أحد

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : كان يعقوب عليه السلام يتسلَّى برؤية بنيامين في حال غيبة يوسف ، فلما بقي عن رؤيته قال : ﴿ يا أسفى عَلَى يُوسُفَ ﴾ أي أنه لما مُنِعَ من النظر كان يتسلى بالأثر ، فلمَّا بقي عن النظر قال : يا أسفا على يوسف .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) ﴾

هددوه بأن يصير حرضاً - أي مريضاً مشفياً على الهلاك - وقد كان ، وخوَّفوه مما لم يبالِ أن يصيبه حيث قالوا ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ .

ويقال أطيب الأشياء في الهلاك ما كان في حكم الهوى - فكيف يُخوِّف بالهلاكِ من كان أحبُّ الأشياءِ إليه الهلاك ؟ .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86) ﴾

شكا إلى الله ولم يَشْكُ مِنَ اللَّهِ ، ومَنْ شكا إلى الله وَصَلَ ، ومن شكا من الله انفصل .

ويقال لمَّا شكا إلى الله وَجَدَ الخَلَفَ من الله .

ويقال كان يعقوبُ - عليه السلام - مُتَحَمِّلاً بنفسه وقلبه ، ومستريحاً محمولاً بسِرِّه وروحه ؛ لأنه عَلِمَ من الله - سبحانه - صِدقَ حالِه فقال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وفي معناه أنشدوا :

إذا ما تمنَّى الناسُ روْحاً وراحةً . . . تمنَّيْتُ أن أشكو إليك فَتَسْمَعَا

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ

اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87) ﴾

كان يعقوب عليه السلام يبعث بنيه في طلب يوسف ، وكان الإخوة يخرجون بطلب المسيرة وفي اعتقادهم هلاكُ يوسف . . . وكلٌّ إنسانٍ وهمُّه .

(303/401)

ويقال قوله : ﴿ فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أمرٌ بطلب يوسف بجميع حواسِّهم ؛ بالبَصرِ لعلَّهم تقع عليه أعينهم ، وبالسَّمْع لعلَّهم يسمعون ذِكْرَه ، وبالشمِّ لعلهم يجدون رِيحَه ؛ وقد توهَّم يعقوبُ أنهم مثله في إرادةِ الوقوفِ على شأنه . ثم أحالهم على فضل الله حيث قال : ﴿ لاَ يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾ .

ويقال لم يكن ليعقوب أحدٌ من الأولاد بمكان يوسف ، فَظَهَر من قِلَّةِ الصبر عليه ما ظهر ، وآثَرَ غَيْبَةَ الباقين من الأولاد في طلب يوسف على حضورهم عنده . . فشتَّان بين حاله معهم وبين حاله مع يوسف ! واحدٌ لم يَرَهْ فابْيَضَّتْ عيناه من الحزن بفرقته ، وآخرون أَمرَهُم - باختياره - بِغَيْبَتِهم عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 199 . 201 ﴾

(304/401)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربيّة المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 88 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 100 ﴾ من نفس السورة

(4/402)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فأجابوه إلى ما أراد ، فتوجهوا إلى مصر لذلك ولقصد الميرة لما كان اشتد بهم من القحط ، وقصدوا العزيز ؛ وقوله : ﴿ فلما دخلوا عليه ﴾ بالفاء يدل على أنهم أسرعوا الكرة في

هذه المرة ﴿ قالوا ﴾ منادين بالأداة التي تنبه على أن ما بعدها له وقع عظيم ﴿ يا أيها العزيز ﴾ .

ولما تلطفوا بتعظيمه ، ترققوا بقولهم : ﴿ مسنا ﴾ أي أيتها العصابة التي تراها ﴿ وأهلنا ﴾ أي الذين تركناهم في بلادنا ﴿ الضر ﴾ أي لابسنا ملابسة نحسها ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ أي تافهة غير مرغوب فيها بوجه ، ثم سببوا عن هذا الاعتراف - لأنه أقرب إلى رحمة أهل الكرم - قولهم : ﴿ فأوف لنا ﴾ أي شفقة علينا بسبب ضعفنا ﴿ الكيل وتصدق ﴾ أي تفضيل ﴿ علينا ﴾ زيادة على الوفاء كما عودتنا بفضل ترجو ثوابه .

ولما رأوا أفعاله تدل على تمسكه بدين الله ، عللوا ذلك بقولهم : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ يجزي المتصدقين ﴾ أي مطلقاً وإن أظهرت - بما أفاد الإظهار - وإن كانت على غني قوي ، فكيف إذا كانت على أهل الحاجة والضعف .

(5/402)

فلما رأى أن الأمر بلغ الغاية ولم يبق شيء يتخوفه ، عرفهم بنفسه فاستأنف تعالى الإخبار عن ذلك بقوله حكاية : ﴿ قال هل علمتم ﴾ مقرراً لهم بعد أن اجترؤوا عليه واستأنسوا

به ، والظاهر أن هذا كان بغير ترجمان ﴿ ما ﴾ أي قبح الذي ﴿ فعلتم بيوسف ﴾ أي أخيكم الذي حلتم بينه وبين أبيه ﴿ وأخيه ﴾ في جعلكم إياه فريداً منه ذليلاً بينكم ، ثم في قولكم له لما وجدوا الصواع في رحله : لا يزال يأتينا البلاء من قبلكم يا بني راحيل !

وأعلمهم بأن ظنه فيهم الآن جميل تسكيناً لهم فقال : ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ أنتم جاهلون ﴾ أي فاعلون فعلهم - تلويحاً لهم إلى معرفته وتذكيراً بالذنب ليتوبوا ، وتلطفاً معهم في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب ، وينفث فيه المصدور ، ويشتفي فيه المغيظ المحنق ، ويدرك ثأره الموتور ، بتخصيص جهلهم - بمقتضى "إذا" - بذلك الزمان إفهاماً لهم أنهم الآن على خلاف ذلك ، فكأنه قيل : إنه قد قرب لهم الكشف عن أمره ، لأنه لا يستفهم ملك مثله - لم ينشأ بينهم ولا تتبع أحوالهم وليس منهم - هذا الاستفهام ولا سيما وقد روى أنه لما قال هذا تبسم ، وكان في تبسمه أمر من الحسن لا يجهله معه من رآه ولو مرة واحدة ، فهل عرفوه ؟ فقيل : ظنوه ظناً غالباً ، ولذلك ﴿ قالوا ﴾ مستفهمين ﴿ أإنك ﴾ وأكدوا بقولهم : ﴿ لأنت يوسف ﴾ .

ولما كان المتوقع من مثله فيما هو فيه من العظمة أن يجازيهم على سوء صنيعهم إليه ، استأنف بيان كرمه فقال : ﴿ قال أنا يوسف ﴾ وزادهم قوله : ﴿ وهذا أخي ﴾ أي بنيامين شقيقي لذكره لهم في قوله ﴿ وأخيه ﴾ وليزيدهم ذلك معرفة له ، وثبتها في أمره بتصديقه له مع مكثه عنده مدة ذهابهم وإيابهم ، وليبني عليه قوله : ﴿ قد منّ الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ﴿ علينا ﴾ بأن جمع بيننا على خير حال تكون ؛ ثم تعليله بقوله : ﴿ إنه من يتق ﴾ وهو مجزوم لأنه فعل الشرط ، وأثبت قنبل - بخلافه عنه - ياءه في الحالين معاملاً له معاملة الصحيح إشارة إلى وصف التقوى بالصحة الكاملة والمكنة الزائدة والملازمة لها في كل حال ﴿ ويصبر ﴾ أي يوفه الله أجره لإحسانه ﴿ فإن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لا يضيع ﴾ أي أدنى إضاعة - أجره ، هكذا كان الأصل ، ولكنه عبر بما يعرف أن التقوى والصبر من الإحسان ، فقال : ﴿ أجر المحسنين ﴾ والتقوى : دفع البلاء بسلوك طريق الهدى ؛ والصبر : حبس النفس بتجرع مرارة المنع عما يشتهي ، ولعله إنما ستر أمره عنهم إلى هذا الحد لأنه لو أرسل إلى أبيه يخبره قبل الملك لم يأمن كيد إخوته ، ولو تعرف إليهم بعده أو أول ما رآهم لم يأمن من أن تقطع أفئدتهم عند مفاجأتهم بانكشاف الأمر وهو فيما هو فيه من العز ، فإنهم فعلوا به فعل القاتل من غير ذنب قدمه إليهم ، فهم لا يشكون في أنه إذا قدر عليهم يهلكهم لما تقدم لهم إليه من سوء الصنيعة ، وعلى تقدير سلامتهم لا يأمنونه وإن بالغ في إكرامهم ، فإن الأمور العظام - إن لم

تكن بالتدريج – عظم خطرها ، وتعدى ضررها ، فإن أرسلهم ليأتوا بأبيهم خيف أن يختلوا أباهما من ملك مصر ويحسنوا له الإبعاد عن بلاده ، فيذهبوا إلى حيث لا يعلمه ، وإن أرسل معهم ثقات من عنده لم يؤمن أن يكون بينهم شر ، وإن سجنهم وأرسل إلى أبيه من يأتي به لم يحسن موقع ذلك من أبيه ، ويحصل له وحشة بحبس أولاده ، وتعظم القاله بين الناس

(7/402)

من أهل مصر وغيرهم في ذلك ، ففعل معهم ما تقدم ليظهر لهم إحسانه وعدله ودينه وخيره ، وكفه عنهم وعفوه عن فعلهم بالتدريج ، ويقفوا على ذلك منه قولاً وفعلاً من أخيه الذي ربى معهم وهم به آنسون وله ألفون ، فتسكن روعتهم ، وتهون زلتهم ، ومما يدل على ذلك أنه لما انتفى عن أخيه بنيامين ما اتصفوا به مما ذكر ، تعرف إليه حين قدم عليه ونهاه أن يخبرهم بحقيقة الأمر ، وشرع يمد في ذلك لتستحكم الأسباب التي أرادها ، فلما ظن أن الأمر قد بلغ مداه ، لوح لهم فعرفوه وقد أنسهم حسن عقله وبديع جماله وشكله ورائع قوله وفعله ، فكان موضع الوجل والخجل ، وموضع اليأس الرجاء ، فحصل المراد على وفق السداد – والله الموفق ؛ وذلك تنبيه لمن قيل لهم أول السورة

﴿ لعلكم تعقلون ﴾ [يوسف : 2] على الاقتداء بأفعال الهداة المهديين في التأني والاتئاد وتفويض الأمور إلى الحكيم ، وأن لا يستعجلوه في أمر ، وأن يعلموا أن سنته الإلهية جرت بأن الأمور الصعاب لا تنفذ إلا بالمطاولة لترتب الأسباب شيئاً فشيئاً على وجه الإحكام ، وفي ذلك فوائد من أجلها امتحان أولى الطاعة والعصيان - كما ستأتي الإشارة إليه آخر السورة بقوله : ﴿ حتى إذا استيئس الرسل ﴾ [يوسف : 110] الآية والله أعلم .

ولما كان ما ذكر ، كان كأنه قيل : لقد أتاهم ما لم يكونوا يحتسبون فما قالوا ؟ فقيل :

﴿ قالوا ﴾ متعجبين غاية التعجب .

(8/402)

ولذلك أقسموا بما يدل على ذلك : ﴿ تالله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ لقد آثرك الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ علينا ﴾ أي جعل لك أثراً يغطي آثارنا بعلوه فالمعنى : فضلك علينا أي بالعلم والعقل والحكم والحسن والملك والتقوى وغير ذلك ﴿ وإن ﴾ خففوها من الثقيلة تأكيداً بالإيجاز للدلالة على الاهتمام بالإبلاغ في الاعتذار في أسرع وقت ﴿ كنا ﴾ أي كوناً هو جبلة لنا ﴿ لخاطئين ﴾ أي عريقين في الخطأ ، وهو تعمد الإثم ، فكأنه قيل : ما قال لهم على قدرته وتمكنه مع ما سلف من إساءتهم ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ قول الكرام

اقتداء بإخوانه من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ لا تثريب ﴾ أي لا لوم ولا تعنيف ولا هلاك ﴿ عليكم اليوم ﴾ وإن كان هذا الوقت مظنة اللوم والتأنيب ، فإذا انتفى ذلك فيه فما الظن بما بعده !

ومادة " ثرب " تدور على البرث - بتقديم الموحدة ، وهو أسهل الأرض وأحسنها ؛ ولثبرة - بتقديم المثلثة : أرض ذات حجارة بيض ، فإنه يلزمه الإخلاد ، والدعة ، ومنه : ثابر على الأمر : دوام ، والمثبر - كمنزل : لمسقط الولد أي موضع ولادته ، والمقطع والمفصل ، فيأتي الكسل واللين فيأتي الفساد ، ومنه الثبور للهلاك ، والبثر بتقديم الموحدة : خراج معروف : والماء البثر : الذي بقى منه على الأرض شيء قليل ؛ والربث - بتقديم الموحدة أيضاً : حبس الإنسان ، وهو يرجع إلى الإقامة والدوام أيضاً ؛ والتثريب : التقرير بالذنب ، فهو إزالة ما على الإنسان من ساتر العفو ، من الثرب وهو شحم يغشى الكرش والأمعاء ويسترهما ، وهو من لوازم الأرض السهلة لما يلزم من خصبها ، فالتثريب إزالته ، وذلك للقحط الناشىء عنه الهلاك ، فأغلب مدار المادة الهلاك .

(9/402)

ولما أعفاهم من الترثيب ، كانوا في مظنة السؤال عن كمال العفو المزيل للعقاب من الله ، فأتبعه الجواب عن ذلك بالدعاء لهم بقوله : ﴿ يغفر الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ لكم ﴾ أي ما فرط منكم وما لعله يكون بعد هذا ؛ ولعله عبر في هذا الدعاء بالمضارع إرشاداً لهم إلى إخلاص التوبه ، ورغبهم في ذلك ورجاهم بالصفة التي هي سبب الغفران ، فقال : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ أرحم الراحمين ﴾ أي لجميع العباد ولا سيما التائب ، فهو جدير بإدرار النعم بعد الإعاذة من النقم ، وروى أنهم أرسلوا إليه أنك لتدعونا إلى طعامك وكرامتك بكرة وعشياً ونحن نستحي لما فرط منا ، فقال : إن أهل مصر ينظروني - وإن ملكت فيهم - بعين العبودية فيقولون : سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم إخوتي ، وأني من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 92.95 ﴾

(10/402)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾

اعلم أن المفسرين اتفقوا على أن ههنا محذوفاً والتقدير : أن يعقوب لما قال لبنيه : ﴿ اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ قبلوا من أبيهم هذه الوصية فعادوا إلى مصر ودخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا له : ﴿ هُوَ القوى العزيز ﴾ .

فإن قيل : إذا كان يعقوب أمرهم أن يتحسسوا أمر يوسف وأخيه فلماذا عدلوا إلى الشكوى وطلبوا إيفاء الكيل ؟

قلنا : لأن المتحسسين يتوسلون إلى مطلوبهم بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة مما يرقق القلب فقالوا : نجربه في ذكر هذه الأمور فإن رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا .

فلهذا السبب قدموا ذكر هذه الواقعة وقالوا ﴿ هُوَ القوى العزيز ﴾ والعزيز هو الملك القادر المنيع ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ وهوا الفقر والحاجة وكثرة العيال وقلة الطعام وعنوا بأهلهم من خلفهم ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : معنى الإزجاء في اللغة ، الدفع قليلاً قليلاً ومثله التزجية يقال الريح تزجي السحاب .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِى سَحَاباً ﴾ [النور : 43] وزجيت فلاناً بالقول دافعته ، وفلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالحيلة .

والبحث الثاني : إنما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة إما لنقصانها أو لرداءتها أو لهما

جميعاً والمفسرون ذكروا كل هذه الأقسام قال الحسن : البضاعة المزجاة القليلة ، وقال آخرون إنها كانت رديئة واختلفوا في تلك الرداءة ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام ، وقيل : خلق الغرارة والحبل وأمتعة رثة ، وقيل : متاع الأعراب الصوف والسمن .

(11/402)

وقيل : الحبة الخضراء ، وقيل : الأقط ، وقيل : النعال والأدم ، وقيل : سويق المقل ، وقيل : صوف المعز ، وقيل : إن دراهم مصر كانت تنقش فيها صورة يوسف والدراهم التي جاؤا بها ما كان فيها صورة يوسف فما كانت مقبولة عند الناس .

البحث الثالث : في بيان أنه لم سميت البضاعة القليلة الرديئة مزجاة ؟ وفيه وجوه : الأول : قال الزجاج : هي من قولهم فلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالقليل ، والمعنى أنا جئنا ببضاعة مزجاة ندافع بها الزمان ، وليست مما ينتفع به وعلى هذا الوجه فالتقدير ببضاعة مزجاة بها الأيام ، الثاني : قال أبو عبيد : إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة ، لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها قال وهي من الأزجاء ، والأزجاء عند العرب السوق والدفع .

الثالث : ببضاعة مزجاة أي مؤخرة مدفوعة عن الإنفاق لا ينفق مثلها إلا من اضطر واحتاج إليها لفقد غيرها مما هو أجود منها .

الرابع : قال الكلبي : مزجاة لغة العجم ، وقيل هي من لغة القبط قال أبو بكر الأنباري : لا ينبغي أن يجعل لفظ عربي معروف الاشتقاق والتصريف منسوباً إلى القبط .

البحث الرابع : قرأ حمزة والكسائي مزجاة بالإمالة ، لأن أصله الياء ، والباقون بالنصب والتفخيم .

(12/402)

واعلم أن حاصل الكلام في كون البضاعة مزجاة إما لقلتها أو لنقصانها أو لمجموعها ولما وصفوا شدة حالهم ووصفوا بضاعتهم بأنها مزجاة قالوا له : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الكيل ﴾ والمراد أن يساهلهم إما بإن يقيم الناقص مقام الزائد أو يقيم الرديء مقام الجيد ، ثم قالوا : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ والمراد المسامحة بما بين الثمنين وأن يسعر لهم بالرديء كما يسع بالجيد ، واختلف الناس في أنه هل كان ذلك طلباً منهم للصدقة فقال سفيان بن عيينة : إن الصدقة كانت حلالاً للأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآية وعلى هذا التقدير ، كأنهم طلبوا القدر الزائد على سبيل الصدقة ، وأنكر الباقون ذلك وقالوا حال الأنبياء

وحال أولاد الأنبياء ينافي طلب الصدقة لأنهم يأنفون من الخضوع للمخلوقين ويغلب عليهم الانقطاع إلى الله تعالى والاستغاثة به عمن سواه ، وروي عن الحسن ومجاهد : أنهما كرها أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علي ، قالوا : لأن الله لا يتصدق إنما يتصدق الذي يبتغي الثواب ، وإنما يقول : اللهم أعطني أو تفضل ، فعلى هذا التصدق هو إعطاء الصدقة والمتصدق المعطي ، وأجاز الليث أن يقال للسائل : متصدق وأباه الأكثرون .

وروي أنهم لما قالوا : ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ وتضرعوا إليه اغرورقت عيناه فعند ذلك ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ وقيل : دفعوا إليه كتاب يعقوب فيه من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر .

(13/402)

أما بعد : فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي في النار ليحرق فنجاه الله وجعلها برداً وسلاماً عليه ، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله ، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي من البكاء عليه ، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به إليك ثم رجعوا وقالوا : إنه قد سرق

وإنك حبسته عندك وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً ، فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك .

فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتمالك وعيل صبره وعرفهم أنه يوسف .

ثم حكى تعالى عن يوسف عليه السلام في هذا المقام أنه قال : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ قيل إنه لما قرأ كتاب أبيه يعقوب ارتعدت مفاصله واقشعر جلده ولان قلبه وكثر بكاؤه وصرح بأنه يوسف .

وقيل : إنه لما رأى إخوته تضرعوا إليه ووصفوا ما هم عليه من شدة الزمان وقلة الحيلة أدركته الرقة فصرح حينئذ بأنه يوسف ، وقوله : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ ﴾ استفهام يفيد تعظيم الواقعة ، ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه ، وهو كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وعل تعرف من خالفت ؟

(14/402)

واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف : 15] وأما قوله : ﴿ وَأَخِيهِ ﴾ فالمراد ما فعلوا به من تعريضه للغم بسبب إفراده عن أخيه لأبيه وأمه ، وأيضاً كانوا يؤذونه ومن جملة أقسام ذلك الإيذاء قالوا

في حقه : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : 77] وأما قوله : ﴿ إِذْ أَنتُمْ جاهلون ﴾ فهو يجري مجرى العذر كأنه قال : أنتم إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في جهالة الصبا أو في جهالة الغرور ، يعني والآن لستم كذلك ، ونظيره ما يقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ [الأنفطار : 6] قيل إنما ذكر تعالى هذا الوصف المعين ليكون ذلك جارياً مجرى الجواب وهو أن يقول العبد يا رب غرني كرمك فكذا ههنا إنما ذكر ذلك الكلام إزالة للخجالة عنهم وتخفيفاً للأمر عليهم .

ثم إن إخوته قالوا : ﴿ أَءِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ ﴾ قرأ ابن كثير ﴿ إِنَّكَ ﴾ على لفظ الخبر ، وقرأ نافع ﴿ أَءِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ ﴾ بفتح الألف غير ممدودة وبالياء وأبو عمرو ﴿ آينك ﴾ بمد الألف وهو رواية قالون عن نافع ، والباقون ﴿ أئنك ﴾ بهمزتين وكل ذلك على الاستفهام ، وقرأ أبي ﴿ أَوْ أَنتَ يُوسُفَ ﴾ فحصل من هذه القراءات أن من القراء من قرأ بالاستفهام ومنهم من قرأ بالخبر .

أما الأولون فقالوا : إن يوسف لما قال لهم : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ ﴾ وتبسم فأبصروا ثناياه ، وكانت كاللؤلؤ المنظوم شبهوه بيوسف ، فقالوا له استفهاماً ﴿ أَءِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ ﴾ ويدل على صحة الاستفهام أنه ﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ ﴾ وإنما أجابهم عما استفهموا عنه .

وأما من قرأ على الخبر فحجته ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه ، وكان في فرقه علامة وكان ليعقوب وإسحق مثلها شبه الشامة ، فلما رفع التاج عرفوه بتلك العلامة ، فقالوا : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفَ ﴾ ويجوز أن يكون ابن كثير أراد الاستفهام ثم حذف حرف الاستفهام وقوله : ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ ﴾ فيه بحثان :

البحث الأول : اللام لام الابتداء ، وأنت مبتدأ ويوسف خبره ، والجملة خبر إن .

البحث الثاني : أنه إنما صرح بالاسم تعظيماً لما نزل به من ظلم إخوته وما عوضه الله من الظفر والنصر ؛ فكأنه قال : أنا الذي ظلمتموني على أعظم الوجوه والله تعالى أوصلني إلى أعظم المناصب ، أنا ذلك العاجز الذي قصدتم قتله وإلقاءه في البئر ثم صرت كما ترون ، ولهذا قال : ﴿ وهذا أَخِى ﴾ مع أنهم كانوا يعرفونه لأن مقصوده أن يقول : وهذا أيضاً كان مظلوماً كما كنت ثم إنه صار منعماً عليه من قبل الله تعالى كما ترون وقوله : ﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما بكل عز في الدنيا والآخرة وقال آخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة وقوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ معناه : من يتق معاصي الله ويصبر على أذى الناس ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ والمعنى : إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين .

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اعلم أن يوسف عليه السلام وصف نفسه في هذا المقام الشريف بكونه متقياً ولو أنه قدم على ما يقوله الحشوية في حق زليخا لكان هذا القول كذباً منه وذكر الكذب في مثل هذا المقام الذي يؤمن فيه الكافر ويتوب فيه العاصي لا يليق بالعقلاء .

المسألة الثانية :

(16/402)

قال الواحدي روي عن ابن كثير في طريق قنبل : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِى ﴾ بإثبات الياء في الحالين ووجهه أن يجعل "من" بمنزلة الذي فلا يوجب الجزم ويجوز على هذا الوجه أن يكون قوله : ﴿ وَيِصْبِرْ ﴾ في موضع الرفع إلا أنه حذف الرفع طلباً للتخفيف كما يخفف في عضد وشمع والباقون بحذف الياء في الحالين .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾

اعلم أن يوسف عليه السلام لما ذكر لإخوته أن الله تعالى منّ عليه وأن من يتق المعاصي ويصبر على أذى الناس فإنه لا يضيعه الله صدقوه فيه ، واعترفوا له بالفضل والمزية ﴿ قَالُوا

تالله لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ قال الأصمعي : يقال : آثرك إيثاراً ، أي فضلك الله ، وفلان آثر عبد فلان ، إذا كان يؤثره بفضله وصلته ، والمعنى : لقد فضلك الله علينا بالعلم والحلم والعقل والفضل والحسن والملك ، واحتج بعضهم بهذه الآية على أن إخوته ما كانوا أنبياء ، لأن جميع المناصب التي تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة إليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا : ﴿ تالله لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ وبهذا التقدير يذهب سؤال من يقول لعل المراد كونه زائداً عليهم في الملك وأحوال الدنيا وإن شاركوه في النبوة لأنا بينا أن أحوال الدنيا لا يعبأ بها في جنب منصب النبوة .

(17/402)

وأما قوله : ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ قيل الخاطىء هو الذي أتى بالخطيئة عمداً وفرق بين الخاطىء والمخطىء ، فلهذا الفرق يقال لمن يجتهد في الأحكام فلا يصيب إنه مخطىء ، ولا يقال إنه خاطىء وأكثر المفسرين على أن الذي اعتذروا منه هو إقدامهم على إلقائه في الجب وبيعه وتبعيده عن البيت والأب ، وقال أبو علي الجبائي : إنهم لم يعتذروا إليه من ذلك ، لأن ذلك وقع منهم قبل البلوغ فلا يكون ذنباً فلا يعتذر منه ، وإنما اعتذروا من حيث إنهم أخطؤا بعد ذلك بأن لم يظهروا لأبيهم ما فعلوه ، ليعلم أنه حي وأن الذئب لم يأكله وهذا

الكلام ضعيف من وجوه :

الوجه الأول : أنا بينا أنه لا يجوز أن يقال إنهم أقدموا على تلك الأعمال في زمن الصبا لأنه من البعيد في مثل يعقوب أن يبعث جمعاً من الصبيان غير البالغين من غير أن يبعث معهم رجلاً عاقلاً يمنعهم عما لا ينبغي ويحملهم على ما ينبغي .

الوجه الثاني : هب أن الأمر على ما ذكره الجبائي إلا أنا نقول غاية ما في الباب أنه لا يجب الاعتذار عن ذلك إلا أنه يمكن أن يقال إنه يحسن الاعتذار عنه ، والدليل عليه أن المذنب إذا تاب زال عقابه ثم قد يعيد التوبة والاعتذار مرة أخرى ، فعلمنا أن الإنسان أيضاً قد يتوب عند ما لا تكون التوبة واجبة عليه .

واعلم أنهم لما اعترفوا بفضله عليهم وبكونهم مجرمين خاطئين قال يوسف : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم يَغْفِرُ الله لَكُمْ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : التثريب التوبيخ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " إذا زنت أمة أحدكم فليضربها الحد ولا يثربها " أي ولا يعيرها بالزنا ، فقوله : ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ أي لا توبيخ ولا عيب وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش .

ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد إزالة الجلد قال عطاء الخراساني طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها إلى الشيوخ ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام لإخوته ﴿ لَا تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ وقوله يعقوب : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى ﴾ [يوسف : 98] .

البحث الثاني : إن قوله : ﴿ اليوم ﴾ متعلق بماذا وفيه قولان :

القول الأول : إنه متعلق بقوله : ﴿ لَا تَثْرَيبَ ﴾ أي لا أثر بكم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بسائر الأيام ، وفيه احتمال آخر وهو أني حكمت في هذا اليوم بأن لا تثريب مطلقاً لأن قوله : ﴿ لَا تَثْرَيبَ ﴾ نفي للماهية ونفي الماهية يقتضي انتفاء جميع أفراد الماهية ، فكان ذلك مفيداً للنفي المتناول لكل الأوقات والأحوال فتقدير الكلام اليوم حكمت بهذا الحكم العام المتناول لكل الأوقات والأحوال ثم إنه لما بين لهم أنه أزال عنهم ملامة الدنيا طلب من الله أن يزيل عنهم عقاب الآخرة فقال : ﴿ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ والمراد منه الدعاء .

(19/402)

والقول الثاني : أن قوله : ﴿ اليوم ﴾ متعلق بقوله : ﴿ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ كأنه لما نفى التثريب مطلقاً بشرهم بأن الله غفر ذنبهم في هذا اليوم ، وذلك لأنهم لما انكسروا وخجلوا واعترفوا

وتابوا فالله قبل توبتهم وغفر ذنبهم ، فلذلك قال : ﴿ اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ﴾ روي أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح ، وقال لقريش : " ما تروني فاعلاً بكم " فقالوا نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ، فقال : " أقول ما قال أخي يوسف لا تقريب عليكم اليوم " وروي أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس : إذا أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتل عليه : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم ﴾ ففعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " غفر الله لك ولمن علمك " وروي أن إخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا إليه إنك تحضرنا في مائدتك بكرة وعشيا ونحن نستحي منك لما صدر منا من الإساءة إليك ، فقال يوسف عليه السلام إن أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنهم ينظروني بالعين الأولى ويقولون : سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ ، ولقد شرفت الآن بإتيانكم وعظمت في العيون لما جئتم وعلم الناس أنكم إخوتي وإني من حفدة إبراهيم عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 160.165 ﴾

(20/402)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فلمّا دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مَسّنا وأهلنا الضر ﴾

وهذا مِن ألطف ترفيق وأبلغ استعطاف. وفي قصدهم بذلك قولان:

أحدهما: بأن يرد أخاهم عليهم، قاله ابن جرير.

والثاني: توفية كيلهم والمحاباة لهم، قاله علي بن عيسى.

﴿ وجئنا ببضاعةٍ مزجاةٍ ﴾ وأصل الإزجاء السَوْق بالدفع، وفيه قول الشاعر عدي بن الرقاع.

تزجي أغَنّ كأن إبرَة روقِهِ... قلمٌ أصاب من الدواة مدادها

وفي بضاعتهم هذه خمسة أقاويل:

أحدها: أنها كانت دراهم، قاله ابن عباس.

الثاني: متاع الأعراب، صوف وسمن، قاله عبدالله بن الحارث.

الثالث: الحبة الخضراء وصنوبر، قاله أبو صالح.

الرابع: سويق المقل. قاله الضحاك.

الخامس: خلق الحبْل والغرارة، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً.

وفي المزجاة ثلاثة تأويلات:

أحدها: أنها الرديئة، قاله ابن عباس.

والثاني: الكاسدة، قاله الضحاك.

الثالث: القليلة، قاله مجاهد. قال ابن إسحاق: وهي التي لا تبلغ قدر الحاجة ومنه قول

الراعي :

ومرسل برسول غير متّهم . . . وحاجة غير مزجاة من الحاج

وقال الكلبي : هي كلمة من لغة العجم ، وقال الهيثمي : من لغة القبط .

﴿ فأوف لنا الكيل ﴾ فيه قولان :

أحدهما : الكيل الذي كان قد كاله لأخيهم ، وهو قول ابن جريج .

الثاني : مثل كيلهم الأول لأن بضاعتهم الثانية أقل ، قاله السدي .

﴿ وتصدق علينا ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدهما : معناه تفضل علينا بما بين الجياد والرديئة ، قاله سعيد بن جبير والسدي والحسن ، وذلك لأن الصدقة تحرم على جميع الأنبياء .

الثاني : تصدق علينا بالزيادة على حقنا ، قاله سفيان بن عيينة . قال مجاهد : ولم تحرم الصدقة إلا على محمد صلى الله عليه وسلم وحده .

الثالث : تصدق علينا برد أخينا إلينا ، قاله ابن جريج ، وكره للرجل أن يقول في دعائه : اللهم تصدّق عَلَيّ ، لأن الصدقة لمن يبتغي الثواب .

الرابع : معناه تجوّز عنا ، قاله ابن شجرة وابن زيد واستشهد بقول الشاعر :

تصدّق علينا يا ابن عفان واحتسب . . . وأمر علينا الأشعري لياليا

قوله عز وجل : ﴿ قال هَلْ علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾

معنى قوله ﴿ هل علمتم ما فعلتم ﴾ أي قد علمتم ، كقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ أي قد أتى .

قال ابن إسحاق : ذكر لنا أنهم لما قالوا ﴿ مسّنا وأهلنا الضر ﴾ رحمهم ورقّ لهم ، فقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ وعَدَّدَ عليهم ما صنعوا بهما .

﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني جهل الصغر .

الثاني : جهل المعاصي .

الثالث : الجهل بعواقب أفعالهم . فحينئذ عرفوه .

﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي ﴾ وحكى الضحاك في قراءة عبد الله : وهذا أخي وبيني وبينه قربى

﴿ قد مَنّ الله علينا ﴾ يعني بالسلامة ثم بالكرامة ، ويحتمل بالإجتماع بعد طول الفرقة .

﴿ إنه مَنْ يتّق ويصبرْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يتقي الزنى ويصبر على العزوبة ، قاله إبراهيم .

الثاني : يتقي الله تعالى ويصبر على بلواه . وهو محتمل .

﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : في الدنيا .

الثاني : في الآخرة .

قوله عز وجل : ﴿ قالوا تالله آثرك اللهُ علينا ﴾ مأخوذ من الإيثار ، وهو إرادة تفضيل

أحد النفسين على الآخر ، قال الشاعر :

والله أسماك سُمًّا مباركاً . . . آثرك الله به إيثارَكاً

﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ أي فيما صنعوا بيوسف ، وفيه قولان :

أحدهما : آثمين .

الثاني : مخطئين . والفرق بين الخاطئ والمخطئ أن الخاطئ آثم .

فإن قيل : فقد كانوا عند فعلهم ذلك به صغاراً ترفع عنهم الخطايا .

قيل لما كبروا واستداموا إخفاء ما صنعوا صاروا حينئذ خاطئين .

قوله عز وجل : ﴿ قال لا تثريب عليكم ﴾ فيه قولان أربعة تأويلات :

أحدها : لا تغيير عليكم ، وهو قول سفيان ابن عيينة .

الثاني : لا تأنيب فيما صنعتم ، قاله ابن إسحاق .

الثالث : لا إباء عليكم في قولكم ، قاله مجاهد .

الرابع : لا عقاب عليكم وقال الشاعر :

فعفوت عنهم عفو غير مثربٍ . . . وتركتهم لعقاب يومٍ سرمد

﴿ اليوم يغفر الله لكم ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لتوبتهم بالاعتراف والندم .

الثاني : لإحلاله لهم بالعفو عنهم .

﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : في صنعه بي حين جعلني ملكاً .

الثاني : في عفوه عنكم عما تقدم من ذنبكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3

صـ ﴾

(23/402)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِل :

الْمَسْأَلَة الْأُولَى : الْقَوْل فِي الْبِضَاعَة : قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ مَعْنَى الْبِضَاعَة فِي الْبِضْعِ آنِفًا .

الْمَسْأَلَة الثَّانِيَة : قَوْلُهُ : ﴿ مُزْجَاةٍ ﴾ : فِيهَا قَوْلَان : أَحَدُهُمَا : يَعْنِي قَلِيلَة ، إمَّا لِأَنَّهُ مَتَاعُ الْبَادِيَة الَّذِي لَا يَصْلُحُ لِلْمُلُوكِ ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ لَا سَعَة فِيهِ ، إنَّمَا يُدَافَعُ بِهِ الْمَعِيشَةُ ، مِنْ قَوْلِك : فُلَانٌ يُزْجِي كَذَا ، أَيْ : يَدْفَعُ قَالَ الشَّاعِرُ : الْوَاهِبُ الْمِائَة الْهِجَانَ وَعَبْدَهَا عُوذًا تُزَجِّي خَلْفَهَا أَطْفَالَهَا يَعْنِي تَدْفَعُ .

الثَّانِي : قَالَ مَالِكٌ : مُزْجَاةٌ تَجُوزُ فِي كُلِّ مَكَان ، فَهِيَ الْمُزْجَاةُ رَوَاهُ الْحَارِثُ بْنُ مِسْكِينٍ عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ .

وَلَا أَدْرِي مَا هَذَا ، إلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ جَبَذَ وَجَذَبَ ، وَإِلَّا فَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ الرِّوَايَة فِيهِ .

وَقَدْ فَسَّرَهَا بَعْضُهُمْ بِأَنَّهَا الْبُطْمُ وَالصَّنَوْبَرُ ، وَالْبُطْمُ هُوَ الْحَبَّة الْخَضْرَاءُ .

الْمَسْأَلَة الثَّالِثَة : قَوْله تَعَالَى ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ الْمَعْنَى جِئْنَا بِقَدْرِنَا ، فَأَعْطِنَا بِقَدْرِك ، تَضَاءَلُوا بِالْحَاجَة ، وَتَمَسْكَنُوا بِفَادِحَة الْمُصِيبَة فِي الْأَخَوَيْنِ ، وَمَا صَارَ إلَيْهِ أَمْرُ الْأَبِ بَعْدَهُمَا .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ، وَابْنُ نَافِعٍ عَنْ مَالِكٍ: قَالُوا لِيُوسُفَ: فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ، فَكَانَ يُوسُفُ هُوَ الَّذِي يَكِيلُ، إشَارَةً إلَى أَنَّ الْكَيْلَ وَالْوَزْنَ عَلَى الْبَائِعِ؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ تَمْيِيزُ حَقِّ الْمُشْتَرِي مِنْ حَقِّهِ، إلَّا أَنْ يَبِيعَ مِنْهُ مُعَيَّنًا صُبْرَةً أَوْ مَا لَا حَقَّ تَوْفِيَةٍ فِيهِ، فَقَبْلَ أَنْ يُوَفِّيَ فَمَا جَرَى عَلَى الْمَبِيعِ فَهُوَ مِنْهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ عُلَمَاؤُنَا: أُجْرَةُ الْكَيْلِ عَلَى الْبَائِعِ، وَأُجْرَةُ النَّقْدِ عَلَى الْمُبْتَاعِ؛ لِأَنَّ الدَّافِعَ لِدَرَاهِمِهِ يَقُولُ: إنَّهَا طَيِّبَةٌ فَأَنْتَ الَّذِي تَدَّعِي الرَّدَاءَةَ فَانْظُرْ لِنَفْسِك، فَإِنْ خَرَجَ فِيهَا رَدِيءٌ كَانَتْ الْأُجْرَةُ عَلَى الدَّافِعِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ قَالَ عُلَمَاؤُنَا: لَمَّا عَلِمُوا أَنَّ بِضَاعَتَهُمْ غَيْرُ مَرْضِيَّةٍ قَالُوا: اجْعَلْهَا حِبَاءً إنْ لَمْ تَكُنْ شِرَاءً.

وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: طَلَبُوا مِنْهُ وَفَاءَ الْكَيْلِ وَالصَّدَقَةَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكُلُّ مَا كَانَ صَدَقَةً أَوْ هِبَةً يَتْبَعُ الْبَيْعَ فَإِنَّهُ يُلْحَقُ بِهِ فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ، وَكَذَلِكَ النِّكَاحُ، وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ.

وَلَا يُلْحَقُ بِهِ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ.

وَهِيَ مَسْأَلَةٌ طَوِيلَةٌ قَدْ بَيَّنَّاهَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ.

فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ جَازَ لَهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا الصَّدَقَةَ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ ؟ قُلْنَا : عَنْهُ خَمْسَةُ أَجْوِبَةٍ :

أَحَدُهَا : لَا يَعْلَمُ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُمْ أَنْبِيَاءُ ، وَآمَنَّا بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ .

الثَّانِي : أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعْدُ أَنْبِيَاءَ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ لَا يُعْلَمُ حَالُهُمْ مَعَ الصَّدَقَةِ فِي شَرْعِهِمْ ، فَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ مُبَاحًا لَهُمْ .

الرَّابِعُ : مَعْنَى تَصَدَّقْ سَامِحْ ، لَا أَصْلُ الصَّدَقَةِ .

الْخَامِسُ : قِيلَ : تَصَدَّقْ عَلَيْنَا بِأَخِينَا .

وَبِالْقَوْلَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ أَقُولُ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(26/402)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فلما دخلوا عليه ﴾ الآية

في هذا الموضع اختصار محذوفات يعطيها الظاهر ، وهي : أنهم نفذوا من الشام إلى مصر ووصلوها والضمير في ﴿ عليه ﴾ عائد على يوسف ، و﴿ الضر ﴾ أرادوا به المسغبة التي كانوا بسبيلها وأمر أخيهم الذي أهم أباهم وغم جميعهم ، و" البضاعة " القطعة من

المال يقصد بها شراء شيء ، ولزمها عرف الفقه فيما لا حظ لحاملها من الربح ، وال ﴿ مزجاة ﴾ معناها المدفوعة المتحيل لها ، ومنه إزجاء السحاب ، ومنه إزجاء الإبل كما قال الشاعر :

على زواحف تزجى مخها رير . . . وكما قال النابغة : [البسيط]

وهبت الريح من تلقاء ذي أزل . . . تزجى مع الليل من صرّادها صرما

وقال الأعشى : [الكامل]

الواهب المائة الهجان وعبدها . . . عوذاً تزجي خلفها أطفالها

وقال الآخر :

بحاجة غير مزجاة من الحاج . . . وقال حاتم :

ليبكِ على ملحان ضيف مدفع . . . وأرملة تزجي مع الليل أرملا

فجملة هذا أن من يسوق شيئاً ويتلطف في تسييره فقد أزجاه فإذا كانت الدراهم مدفوعة نازلة القدر تحتاج أن يعتذر معها ويشفع لها فهي مزجاة ، فقيل : كان ذلك لأنها كانت زيوفاً - قاله ابن عباس - وقال الحسن : كانت قليلة ، وقيل : كانت ناقصة - قاله ابن جبير - وقيل : كانت بضاعتهم عروضاً ، فلذلك قالوا هذا .

واختلف في تلك العروض : ما كانت ؟ فقيل : كانت السمن والصوف - قاله عبد الله بن الحارث - وقال علي بن أبي طالب : كانت قديد وحش - ذكره النقاش - وقال أبو صالح

وزيد بن أسلم : كانت الصنوبر والحبة الخضراء .

قال القاضي أبو محمد : وهي الفستق .

وقيل : كانت المقل ، وقيل : كانت القطن ، وقيل : كانت الحبال والأعدال والأقتاب .

وحكى مكي أن مالكاً رحمه الله قال : المزجاة : الجائزة .

(27/402)

قال القاضي أبو محمد : ولا أعرف لهذا وجهاً ، والمعنى يأباه . ويحتمل أن صحف على مالك وأن لفظه بالحاء غير منقوطة وبالراء . واستند مالك رحمه الله في أن الكيل على البائع إلى هذه الآية ، وذلك ظاهر منها وليس بنص .

وقولهم : ﴿ وتصدق علينا ﴾ معناه بما بين الدراهم الجياد وهذه المزجاة ، قاله السدي وغيره . وقيل : كانت الصدقة غير محرمة على أولئك الأنبياء وإنما حرمت على محمد ، قاله سفيان بن عيينة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، يرده حديث النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : " نحن معاشر الأنبياء لا تحل لنا الصدقة " .

وقالت فرقة : كانت الصدقة عليهم محرمة ولكن قالوا هذا تجوزاً واستعطافاً منهم في

المبايعة، كما تقول لمن تساومه في سلعة: هبني من ثمنها كذا وخذ كذا، فلم تقصد أن يهبك، وإنما حسنت له الانفعال حتى يرجع معك إلى سومك، وقال ابن جريج: إنما خصوا بقولهم ﴿ وتصدق علينا ﴾ أمر أخيهم بنيامين، أي أوف لنا الكيل في المبايعة وتصدق علينا بصرف أخينا إلى أبيه.

وقولهم: ﴿ إن الله يجزي المتصدقين ﴾ قال النقاش: يقال: هو من المعاريض التي هي مندوحة عن الكذب، وذلك أنهم كانوا يعتقدونه ملكاً كافراً على غير دينهم، ولو قالوا: إن الله يجزيك بصدقتك في الآخرة، كذبوا، فقالوا له لفظاً يوهمه أنهم أرادوه وهم يصح لهم إخراجه منه بالتأويل.

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

روي أن يوسف عليه السلام لما قال إخوته ﴿ مسنا وأهلنا الضر ﴾ [يوسف: 88] واستعطفوه – رق ورحمهم، قال ابن إسحاق: وارفض دمعه باكياً فشرع في كشف أمره إليهم، فيروى أنه حسر قناعه وقال لهم: ﴿ هل علمتم ﴾ الآية.

وقوله : ﴿ فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ يريد من التفريق بينهما في الصغر والتمرس بهما وإذاية بنيامين . بعد مغيب يوسف . فإنهم كانوا يذلونه ويشتمونه ، ولم يشر إلى قصة بنيامين الآخرة لأنهم لم يفعلوا هم فيها شيئاً ، ونسبهم إما إلى جهل المعصية ، وإما إلى جهل الشباب وقلة الحنكة ، فلما خاطبهم هذه المخاطبة - ويشبه أن يكون قد اقترن بها من هيئته وبشره وتبسمه ما دلهم - تنبهوا ووقع لهم من الظن القوي أنه يوسف ، فخاطبوه مستفهمين استفهام مقرر .

وقرأت فرقة " أأنك يوسف " بتحقيق الهمزتين ، وقرأت فرقة بإدخال ألف بين همزتين وتحقيقهما " أإنك " ، وقرأت فرقة بتسهيل الثانية " إنك " ، وقرأ ابن محيصن وقتادة وابن كثير " إنك " على الخبر وتأكيده وقرأ أبي بن كعب " أأنك أو أنت يوسف " قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون هذا على حذف خبر " إن " كأنه قال : أئنك لغير يوسف أو أنت يوسف ؟ وحكى أبو عمرو الداني : أن في قراءة أبي بن كعب : " أو أنت يوسف " وتأولت فرقة ممن قرأ " إنك " إنها استفهام بإسقاط حرف الاستفهام ، فأجابهم يوسف كاشفاً أمره قال : ﴿ أنا يوسف وهذا أخي ﴾ وقال مجاهد : أراد ﴿ من يتق ﴾ في ترك المعصية ويصبر في السجن . وقال إبراهيم النخعي : المعنى : ﴿ من يتق ﴾ الزنى ويصبر على العزوبة .

قال القاضي أبو محمد : ومقصد اللفظ إنما هو العموم في العظائم ، وإنما قال هذان ما خصصا ، لأنها كانت من نوازله ، ولو فرضنا نزول غيرها به لاتقى وصبر .

وقرأ الجمهور " من يتق ويصبر " وقرأ ابن كثير وحده : " ومن يتق ويصبر " بإثبات الياء ، واختلف في وجه ذلك ، فقيل : قدر الياء متحركة وجعل الجزم في حذف الحركة ، وهذا كما قال الشاعر : [الوافر]

ألم يأتيك والأنباء تنمي . . . بما لاقت لبون بني زياد

(29/402)

قال أبو علي : وهذا مما لا نحمله عليه ، لأنه يجيء في الشعر لا في الكلام ، وقيل : " من " بمعنى الذي و" يتقي " فعل مرفوع ، و" يصبر " عطف على المعنى لأن " من " وإن كانت بمعنى الذي ففيها معنى الشرط ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ فأصدق وأكن ﴾ [المنافقون : 10] وقيل : أراد " يصبر " بالرفع لكنه سكن الراء تخفيفاً ، كما قرأ أبو عمرو : ﴿ ويأمركم ﴾ [البقرة : 67] بإسكان الراء .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ الآية ، هذا منهم استنزال ليوسف وإقرار بالذنب في ضمنه استغفار منه .

و﴿ آثرك ﴾ لفظ يعم جميع التفضيل وأنواع العطايا ، والأصل فيها همزتان وخففت الثانية ، ولا يجوز تحقيقها ، والمصدر إيثار ، و﴿ خاطئين ﴾ من خطىء يخطأ ، وهو المتعمد

للخطأ ، والمخطىء من أخطأ ، وهو الذي قصد الصواب فلم يوفق إليه ، ومن ذلك قول الشاعر – وهو أمية بن الأسكر – [الوافر]

وإن مهاجرين تكنفاه . . . غداة إذ لقد خطئا وخابا

وقوله : ﴿ لا تثريب عليكم ﴾ عفو جميل ، وقال عكرمة : أوحى الله إلى يوسف : بعفوك على إخوتك رفعت لك ذكرك ؛ وفي الحديث : أن أبا سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية لما وردا مهاجرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرض عنهما لقبح فعلهما معه قبل ، فشق ذلك عليهما وأتيا أبا بكر فكلفاه الشفاعة ، فأبى ، وأتيا عمر فكذلك ، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى ابن عمه علي ، وذهب عبد الله إلى أخته أم سلمة ، فقال علي رضي الله عنه : الرأي أن تلقيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحفل فتصيحان به : ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ فإنه لا يرضى أن يكون دون أحد من الأنبياء فلا بد لذلك أن يقول : لا تثريب عليكما ، ففعلا ذلك ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لا تثريب عليكم ﴾ الآية .

والتثريب : اللوم والعقوبة وما جرى معهما من سوء معتقد ونحوه ، وقد عبر بعض الناس عن التثريب بالتعيير ، ومنه قول النبي عليه السلام : " إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يثرب " ، أي لا يعير ، أخرجه الشيخان في الحدود .

ووقف بعض القرأة ﴿ عليكم ﴾ وابتدأ ﴿ اليوم يغفر الله لكم ﴾ ووقف أكثرهم : ﴿ اليوم ﴾ وابتدأ ﴿ يغفر الله لكم ﴾ على جهة الدعاء - وهو تأويل ابن إسحاق والطبري ، وهو الصحيح - و ﴿ اليوم ﴾ ظرف ، فعلى هذا فالعامل فيه ما يتعلق به ﴿ عليكم ﴾ تقديره : لا تثريب ثابت أو مستقر عليكم اليوم . وهذا الوقف أرجح في المعنى ، لأن الآخر فيه حكم على مغفرة الله ، اللهم إلا أن يكون ذلك بوحي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(31/402)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يا أيها العزيز ﴾

أي الممتنع .

﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر ؛ وفي الكلام حذف ، أي

فخرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف قالوا : "مَسَّنَا" أي أصابنا "وَأَهْلَنَا الضُّرُّ" أي الجوع والحاجة ؛ وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضُّر ، أي الجوع ؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضّر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع ؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه ؛ ولا يكون ذلك قدحاً في التوكل ، وهذا ما لم يكن التشكّي على سبيل التّسخط ؛ والصبر والتّجلد في النّوائب أحسن ، والتّعفف عن المسألة أفضل ؛ وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى ؛ وذلك قول يعقوب : "إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ" أي من جميل صنعه ، وغريب لطفه ، وعائدته على عباده ؛ فأما الشكوى على غير مُشْكٍ فهو السّفه ، إلا أن يكون على وجه البثّ والتّسلّي ؛ كما قال ابن دُرَيْد :

لا تَحْسَبَنْ يا دهرُ أنّي ضارِعٌ . . .
لِنَكبةٍ تَعْرِقُنِي عَرْقَ الْمُدَى
مَارَسْتَ مَنْ لَوْ هوتِ الأفلاكُ مِنْ . . .
جوَانِب الجوّ عليه ما شَكَا
لكنّها نَفْثَةُ مَصْدورٍ إذا . . .
جاشَ لُغَامٌ مِن نَوَاحِيهَا غَمَا

قوله تعالى : ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ ﴾ البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شيء ؛ تقول

: أبضعت الشيء واستبضعته أي جعلته بضاعة ؛ وفي المثل : كمستبضع التمر إلى هَجَر .

قوله تعالى : ﴿ مُّزْجَاةٍ ﴾ صفة لبضاعة ؛ والإزجاء السَّوْق بدفع ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ﴾ [النور : 43] والمعنى أنها بضاعة تدفع ؛ ولا يقبلها كل أحد .

قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة .

(32/402)

اختلف في تعيينها هنا ؛ فقيل : كانت قدِيداً وحيساً ؛ ذكره الواقديّ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

وقيل : خَلَقُ الغرَائر والحبال ؛ روي عن ابن عباس .

وقيل : متاع الأعراب صوف وسمن ؛ قاله عبد الله بن الحارث .

وقيل : الحبة الخضراء والصَّنَوبر وهو البُطْم ، حبّ شجرٍ بالشام ، يؤكل ويعصر الزيت منه لعمل الصابون ، قاله أبو صالح ؛ فباعوها بدراهم لا تَنفُق في الطعام ، وتَنْفق فيما بين الناس ؛ فقالوا : خذها منا بحساب جيادٍ تَنفُق في الطعام .

وقيل : دراهم رديئة ؛ قاله ابن عباس أيضاً .

وقيل : ليس عليها صورة يوسف ، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف .

وقال الضحاك : النعال والأدم ؛ وعنه : كانت سوِيقا منخلاً .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الكيل وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الكيل وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ يريدون كما تبيع بالدراهم الجياد لا تنقصنا بمكان دراهمنا ؛ هذا قول أكثر المفسرين .

وقال ابن جريج : "فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ" يريدون الكيل الذي كان قد كاله لأخيهم .

﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ أي تفضل علينا بما بين سعر الجياد والرديئة .

قاله سعيد بن جُبير والسدي والحسن : لأن الصدقة تحرم على الأنبياء .

وقيل المعنى : "تَصَدَّقْ عَلَيْنَا" بالزيادة على حقّنا ؛ قاله سفيان بن عُيَيْنة .

قال مجاهد : ولم تحرم الصدقة إلا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن جُريج : المعنى "تَصَدَّقْ عَلَيْنَا" بردّ أخينا إلينا .

وقال ابن شجرة : "تَصَدَّقْ عَلَيْنَا" تجوّز عنا ؛ واستشهد بقول الشاعر :

تَصدّقْ علينا يا ابن عَفَّان واحتسب . . .

وأَمِّرْ علينا الأشعريّ لَيَالِيَا

﴿ إِنَّ اللهَ يَجْزِي المتصدقين ﴾ يعني في الآخرة ؛ يقال : هذا من مَعَاريض الكلام ؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فلذلك لم يقولوا : إن الله يجزيك بصدقتك ، فقالوا لفظاً يوهمه أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجه بالتأويل ؛ قاله النقاش وفي الحديث : " إن في المَعَاريض لمندوحةً عن الكذب " .

الثانية : استدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع ؛ قال ابن القاسم وابن نافع قال مالك : قالوا ليوسف "فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ" فكان يوسف هو الذي يكيل ، وكذلك الوزّان والعدّاد وغيرهم ، لأن الرجل إذا باع عِدّة معلومة من طعامه ، وأوجب العقد عليه ، وجب عليه أن يبرزها ويميّز حق المشتري من حقه ، إلا أن يبيع منه مُعيَّناً صُبْرة أو ما لا حقّ توفية فيه فخلّى (ما) بينه وبينه ، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع ؛ وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن ، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية ، وإن تلف فهو منه قبل التوفية .

الثالثة : وأما أجرة النقد فعلى البائع أيضاً ؛ لأن المبتاع الدافع لدراهمه يقول : إنها طَيِّبة ، فأنت الذي تدّعي الرداءة فانظر لنفسك ؛ وأيضاً فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه ،

وكذلك لا يجب على الذي (يجب) عليه القصاص؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه، إلا أن يمكن من ذلك طائعاً؛ ألا ترى أن فرضاً عليه أن يفدي يده، ويصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه؛ فأجر القطاع على المقتص.

وقال الشافعي في المشهور عنه: إنها على المقتص منه كالبائع.

(34/402)

الرابعة: يكره للرجل أن يقول في دعائه: اللهم تصدّق عليّ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغي الثواب، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا ربّ غيره؛ وسمع الحسن رجلاً يقول: اللهم تصدّق عليّ؛ فقال الحسن: يا هذا! إن الله لا يتصدّق إنما يتصدّق من يبتغي الثواب؛ أما سمعت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ قل: اللهم أعطني وتفضّل عليّ.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾

استفهام بمعنى التذكير والتوبيخ، وهو الذي قال الله: ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ [يوسف: 15] الآية.

﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ دليل على أنهم كانوا صغاراً في وقت أخذهم ليوسف، غير أنبياء

؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته ؛ ويدلّ على أنه حسنت حالهم الآن ؛ أي فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال ؛ قال معناه ابن عباس والحسن ؛ ويكون قولهم : "وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ" على هذا ، لأنهم كبروا ولم يخبروا أباهم بما فعلوا حياء وخوفاً منه .

وقيل : جاهلون بما تؤول إليه العاقبة .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قالوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ لما دخلوا عليهِ فقالوا : "مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ" فخضعوا له وتواضعوا رق لهم ، وعرفهم بنفسه ، فقال : "هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ" فتنبهوا فقالوا : "أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ" قاله ابن إسحق .

وقيل : إن يوسف تبسّم فشبهوه بيوسف واستفهموا .

قال ابن عباس لما قال لهم : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ ﴾ الآية ، ثم تبسم يوسف وكان إذا تبسم كأنّ ثناياه اللؤلؤ المنظوم فشبهوه بيوسف ، فقالوا له على جهة الاستفهام : "أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ" .

وعن ابن عباس أيضاً : أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه ، وكان في قرنه علامة ، وكان ليعقوب مثلها شِبْه الشامة ، فلما قال لهم : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ ﴾ رفع التاج عنه فعرفوه ، فقالوا : "أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ" .

وقال ابن عباس : كتب يعقوب إليه يطلب ردّ ابنه ، وفي الكتاب : من يعقوب صفيّ الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فإنّا أهل بيت بلاء ومِحَن ، ابتلى الله جدّي إبراهيم بنمروذ وناره ، ثم ابتلى أبي إسحق بالذبح ، ثم ابتلاني بولد كان لي أحبّ أولادي إليّ حتى كُفَّ بصري من البكاء ، وإني لم أسرق ولم أَلِدْ سارقاً والسلام . فلما قرأ يوسف الكتاب ارتعدت مفاصله ، واقشعرّ جلده ، وأرخى عينيه بالبكاء ، وعِيلَ صبره فباح بالسرّ .

وقرأ ابن كَثِير "إِنَّكَ" على الخبر ، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاماً كقوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ ﴾ [الشعراء : 26] .

﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ ﴾ أي أنا المظلوم والمراد قتله ، ولم يقل أنا هو تعظيماً للقصة .

﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَآ ﴾ أي بالنجاة والملك .

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ ﴾ أي يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصي .

﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ أي الصابرين في بلائه ، القائمين بطاعته .

وقرأ ابن كَثِير : "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي" بإثبات الياء ؛ والقراءة بها جائزة على أن تجعل "مَنْ" بمعنى

الذي ، وتدخل "يَتَّقيِ" في الصلة ، فتثبت الياء لا غير ، وترفع "ويصبر" .

وقد يجوز أن تجزم "ويصبر" على أن تجعل "يتقي" في موضع جزم و "من" للشرط ، وتثبت الياء ، وتجعل علامة الجزم حذف الضمة التي كانت في الياء على الأصل ؛ كما قال :

ثم نادِي إذا دَخلتَ دِمَشْقاً . . .

يا يزيدُ بنَ خالدِ بنِ يزيد

وقال آخر :

ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِي . . .

بما لاَقَتْ لَبُونُ بني زيادِ

(36/402)

وقراءة الجماعة ظاهرة ، والهاء في "إنَّهُ" كناية عن الحديث ، والجملة الخبر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ الأصل همزتان خفّفت الثانية ، ولا يجوز تحقيقها ، واسم الفاعل مُؤْثِر ، والمصدر إيثار .

ويقال : أَثَرْتُ التراب إثارةً فأنا مُثِير ؛ وهو أيضاً على أَفْعَل ثم أُعِلَّ ، والأصل أَثْيَر نقلت حركة الياء على الثاء ، فانقلبت الياء ألفاً ، ثم حذفت لالتقاء الساكنين .

وأَثَرْتُ الحديث على فَعَلْتُ فأنا آثِرٌ ؛ والمعنى : لقد فضّلك الله علينا ، واختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك .

﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أي مذنبين من خَطِيء يَخْطَأ إذا أتى الخطيئة ، وفي ضمن هذا سؤال العفو .

وقيل لابن عباس : كيف قالوا "وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ" وقد تعمدوا لذلك ؟ قال : وإن تعمّدوا لذلك ، فما تعمدوا حتى أخطؤوا الحق ، وكذلك كل من أتى ذنباً تَخطّى المنهاج الذي عليه من الحق ، حتى يقع في الشبهة والمعصية .

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم ﴾ أي قال يوسف وكان حليماً موفّقاً : "لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ" وتمّ الكلام .

ومعنى "اليوم" : الوقت .

والتثريب التّعيير والتوبيخ ، أي لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم ؛ قاله سفيان الثوري وغيره ؛ ومنه قوله عليه السلام : " إذا زنت أمة أحدكم فليجلِدها الحدّ ولا يُثَرِّب عليها " أي لا يعيرها ؛ وقال بشر :

فعَفَوتُ عنهم عَفْوَ غَيرِ مُثَرّبٍ . . .

وتركتهم لعقاب يومٍ سَرْمَدِ

وقال الأَصمعي : ثَرَّبْتُ عليه وعَرَّبْتُ عليه بمعنى إذا قبحتَ عليه فعله .

وقال الزجاج: المعنى لا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة، وحقّ الإخوة، ولكم عندي العفو والصفح؛ وأصل التثريب الإفساد، وهي لغة أهل الحجاز.

(37/402)

وعن ابن عباس "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بُعضادَتَي الباب يوم فتح مكة، وقد لاَذَ الناسُ بالبيت فقال: "الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده" ثم قال: "ماذا تظنون يا معشر قريش" قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم وقد قَدَرت؛ قال: "وأنا أقول كما قال أخي يوسف "لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ" فقال عمر رضي الله عنه: فِفضتُ عَرَقاً من الحياء من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ذلك أني قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة: اليوم ننتقم منكم ونفعل، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال استحييت من قولي.

﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ مستقبل فيه معنى الدعاء؛ سأل الله أن يستر عليهم ويرحمهم.

وأجاز الأخفش الوقف على "عَلَيْكُمُ" والأوّل هو المستعمل؛ فإن في الوقف على "عليكم" والابتداء ب "الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ" جَزْم بالمغفرة في اليوم، وذلك لا يكون إلا عن وحي، وهذا بيّن.

وقال عطاء الخراساني : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ؛ ألم تر قول يوسف : "لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ" وقال يعقوب : "سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي" .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(38/402)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فلما دخلوا عليه ﴾

فيه حذف واختصار تقديره فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر فلما دخلوا عليه يعني على يوسف ﴿ قالوا يا أيها العزيز ﴾ يعنون يا أيها الملك والعزيز القادر الممتنع وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ ﴿ مسنا وأهلنا الضر ﴾ أي الشدة والفقر والجوع وأرادوا بأهلهم من خلفهم ومن وراءهم من العيال ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ أي ببضاعة رديئة كاسدة لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجوز من البائع .

وأصل الإزجاء في اللغة : الدفع قليلاً قليلاً والتزجية دفع الشيء لينساق كتزجية الريح السحاب ومنه قول الشاعر :

وحاجة غير مزجاة من الحاج . . .

يعني هي قليلة يسيرة يمكن دفعها وسوقها لقلة الاعناء بها وإنما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة إما لنقصانها أو لرداءتها أو لمجموعهما فلذلك اختلفت عبارات المفسرين في معنى هذه البضاعة المزجاة ، فقال ابن عباس : كانت دراهم رديئة زيوفاً وقيل كانت خلق الغرائر والحبال ، وقيل : كانت من متاع الأعراب من الصوف والأقط ، وقال الكلبي ومقاتل : كانت حبة الخضراء وقيل كانت سويق المقل وقيل كانت الأدم والنعال ، وقال الزجاج : سميت هذه البضاعة القليلة الرديئة مزجاة من قولهم : فلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالقليل من العيش والمعنى جئنا ببضاعة مزجاة لندافع بها الزمان وليست مما يتسع بها ، وقيل : إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن يدفعها ﴿ فأوف لنا الكيل ﴾ يعني أعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافي والمعنى إنا نريد أن تقيم لنا الزائد مقام الناقص والجيد مقام الرديء ﴿ وتصدق علينا ﴾ يعني وتفضل علينا بما بين الثمين الجيد والرديء ولا تنقصنا ، هذا قول أكثر المفسرين قال ابن الأنباري : وكان الذي يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة وليس به واختلف العلماء هل كانت الصدقة حلالاً للأنبياء قبل نبينا أم لا فقال سفيان بن عيينة : إن الصدقة كانت حلالاً

للأنبياء قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) واستدل بهذه الآية وأنكر جمهور العلماء ذلك وقالوا إن حال الأنبياء كلهم واحد في تحريم الصدقة عليهم لإنهم ممنوعون من الخضوع للمخلوقين والأخذ منهم، والصدقة أوساخ الناس فلا تحل لهم لأنهم مستغنون بالله عمن سواه.

وأجيب عن قوله وتصدق علينا أنهم طلبوا منه أن يجريهم على عادتهم من المسامحة وإيفاء الكيل ونحو ذلك مما كان يفعل بهم من الكرامة وحسن الضيافة لا نفس الصدقة وكره الحسن ومجاهد ان يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علينا لأن الصدقة لا تكون إلا ممن يبتغي الثواب وروي أن الحسن سمع رجلاً يقول اللهم تصدق عليّ فقال إن الله لا يتصدق إنما يتصدق من يبغي الثواب قل اللهم أعطني وتفضل عليّ، وقال ابن جريج والضحاك وتصدق علينا يعني برد أخينا علينا ﴿ إن الله يجزي المتصدقين ﴾ يعني بالثواب الجزيل وقال الضحاك لم يقولوا إن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن ﴿ قال ﴾ يعني قال يوسف لإخوته ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ وقد اختلفوا في السبب الذي من أجله حمل يوسف وهيجه على هذا القول، فقال ابن إسحاق: ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام

أدركته رقة على إخوته فباح بالذي كان يكتم ، وقيل : إنه أخرج لهم نسخة الكتاب الذي كتبوه ببيعه من مالك وفي آخره وكتبه يهوذا فلما قرؤوا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا يا أيها الملك إنه كان لنا عبد فبعناه منه فغاظ ذلك يوسف وقال : إنكم تستحقون العقوبة وأمر بقتلهم فلما ذهبوا بهم ليقتلوهم قال يهوذا كان يعقوب يبكي ويحزن لفقد واحد منا فكيف إذا أتاه الخبر بقتل بنيه كلهم ثم قالوا إن كنت فاعلاً ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وكذا فذلك حين أدركته الرقة عليهم والرحمة فبكى ، وقال هذا القول ، وقيل : إن يوسف لما قرأ كتاب أبيه لم يتمالك أن بكى وقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وهذا استفهام يفيد تعظيم أمر هذه الواقعة ومعناه ما أعظم ما ارتكبتم من أمر يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه من قطيعة الرحم وتفريقه من أبيه وهذا كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت ولم يرد بهذا نفس الاستفهام ولكنه أراد تفظيع الأمر وتعظيمه ويجوز أن يكون المعنى هل علمتم عقبى ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم

(41/402)

الله إياهما من المكروه .

واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى : ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا

يشعرون ﴾ فإن قلت الذي فعلوه بيوسف معلوم ظاهر فما الذي فعلوه بأخيه من المكروه حتى يقول لهم هذه المقالة فإنهم لم يسعوا في حبسه ولا أرادوا ذلك.

قلت: إنهم لما فرقوا بينه وبين أخيه يوسف نغصوا عليه عيشه وكانوا يؤذونه كلما ذكر يوسف، وقيل: إنهم قالوا له لما اتهم بأخذ الصواع ما رأينا منكم يا بني راحيل خيراً ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ هذا يجري مجرى العذر لهم يعني أنكم أقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر حال كونكم جاهلين وهو وقت الصبا وحالة الجهل وقيل جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف.

قوله: ﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف ﴾

(42/402)

قرئ على سبيل الاستفهام وحجة هذه القراءة قال ابن عباس لما قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه تبسم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ تشبه ثنايا يوسف فشبهوه بيوسف فقالوا استفهاماً أئنك لأنت يوسف؟، وقرئ على الخبر وحجته ما قال ابن عباس أيضاً في رواية أخرى عنه: إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج على رأسه وكان له في قرنه علامة تشبه الشامة وكان ليعقوب مثلها ولإسحاق مثلها ولسارة مثلها فعرفوه بها وقالوا أنت

يوسف ، وقيل : قالوه على سبيل التوهم ولم يعرفوه حتى ﴿ قال أنا يوسف ﴾ قال بعض العلماء إنما أظهر الاسم في قوله أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيماً لما نزل به من ظلم إخوته له وما عوضه الله من النصر والظفر والملك فكأنه قال أنا يوسف المظلوم الذي ظلمتموني وقصدتم قتلي بأن ألقيتموني في الجب ثم بعتموني بأبخس الأثمان ثم صرت إلى ما ترون فكانت تحت ظهور الاسم هذه المعاني كلها ولهذا قال ﴿ وهذا أخي ﴾ وهم يعرفونه لأنه قصد به أيضاً وهذا أخي المظلوم كما ظلمتموني ثم صرت أنا وهو إلى ما ترون وهو قوله : ﴿ قد منَّ الله علينا ﴾ بأن جمع بيننا وقيل منَّ علينا بكل عز وخير في الدنيا والآخرة ، وقيل : منَّ علينا بالسلامة في ديننا ودنيانا ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ يعني يتقي الزنا ويصبر على العزوبة قاله ابن عباس ، وقال مجاهد : يتقي المعصية ويصبر على السجن ، وقيل : يتقي الله بأداء فرائضه ويصبر عما حرم الله ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ يعني أجر من كان هذا حاله ﴿ قالوا ﴾ يعني قال إخوة يوسف معتذرين إليه مما صدر منهم في حقه ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ أي اختارك وفضلك علينا يقال آثرك الله إيثاراً أي اختارك ويستعار الأثر للفضل والإيثار للتفضيل والمعنى لقد فضلك الله علينا بالعلم والعقل وقال الضحاك عن ابن عباس بالملك وقال أبو صالح عنه بالصبر وقيل بالحلم والصفح علينا وقيل بالحسن وسائر الفضائل التي أعطاها الله له دون إخوته وقيل

فضله عليهم بالنبوة وأورد على هذا القول أن إخوته كانوا أنبياء أيضاً فليس له عليهم فضل في ذلك وأجيب عنه بأن يوسف فضل عليهم بالرسالة مع النبوة فكان أفضل منهم بهذا الاعتبار لأن من جمعت له النوبة والرسالة كان أفضل ممن خص بالنبوة فقط ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ يعني وما كنا في صنعنا بك إلا خاطيئن ولهذا اختير لفظ الخاطئ على المخطئ والفرق بينهما أن يقال خطئ خطأ إذا تعمد وأخطأ إذا كان غير متعمد وقيل يجوز أني كون آثر لفظ خاطئين على مخطيئن لموافقة رؤوس الآي لأن خاطيئن أشبه بما قبلها ﴿ قال ﴾ يعني يوسف ﴿ لا تثريب عليكم ﴾ يعني لا تعيير ولا توبيخ عليكم ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم)

" إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يوبخها ولا يثرب " أي لا يعيرها بالزنا بعد إقامة الحد عليها وفي محل قوله ﴿ اليوم ﴾ قولان أحدهما أنه يرجع إلى ما قبله فيكون التقدير لا تثريب عليكم اليوم والمعنى أن هذا اليوم هو يوم التثريب والتقريع والتوبيخ وأنا لا أقرعكم اليوم ولا أوبخكم ولا أثرب عليكم ، فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم اليوم ويبتدئ بقوله ﴿ يغفر الله لكم ﴾ .

والقول الثاني : أن اليوم متعلق بقوله يغفر الله لكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم ويبتدئ باليوم يغفر الله لكم كأنه لما نفى عنهم التوبيخ والتقريع بقوله لا تثريب

عليكم بشرهم بقوله اليوم يغفر الله لكم ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ ولما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن حال أبيه فقال ما حال أبي بعدي؟ قالوا ذهب بصره من كثرة البكاء عليك فأعطاهم قميصه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(44/402)

وقال أبو حيان:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾

المزجاة: المدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً من أزجيته إذا دفعته وطردته، والريح تزجي السحاب.

وقال حاتم الطائي:

لبيك على ملحان ضيف مدفع . . .

وأرملة تزجي مع الليل أرملا

﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين.

قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾: في الكلام حذف تقديره:

فذهبوا من الشام إلى مصر ودخلوها ، فلما دخلوا عليه ، والضمير في عليه عائد على يوسف ، وكان آكد ما حدثوه فيه شكوى ما أصابهم من الجهد قبل ما وصاهم به من تحسس نبأ يوسف وأخيه .

والضر : الهزال من الشدة والجوع ، والبضاعة كانت زيوفاً قاله ابن عباس .

وقال الحسن : قليلة .

وقال ابن جبير : ناقصة .

وقيل : كانت عروضاً .

قيل : كانت ضوفاً وسمناً .

وقيل : صنوبراً وحبة الخضراء وهي الفستق قاله : أبو صالح ، وزيد بن أسلم ، وقيل : سويق المقل والأقط ، وقيل : قديد وحش .

وقيل : حبالاً وأعدالاً وأقتاباً ، ثم التمسوا منه إيفاء الكيل .

وقد استدل بهذا على أن الكيل على البائع ولا دليل فيه .

وتصدق علينا أي : بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة ، أو زدنا على حقنا ، فسموا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة .

قيل : لأن الصدقات محرمة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقيل : كانت تحل لغير نبينا (صلى الله عليه وسلم) .

وسئل ابن عيينة عن ذلك فقال : ألم تسمع وتصدق علينا ، أراد أنها كانت حلالاً لهم .

وقال الزمخشري : والظاهر أنهم تمسكنوا له وطلبوا أن يتصدق عليهم ، ومن ثم رق لهم وملكته الرحمة عليهم ، فلم يتمالك أن عرفهم نفسه .

وقوله إنّ الله يجزي المتصدقين شاهد ، لذلك لذكر الله وجزائه انتهى .

(45/402)

وقيل : كانت الصدقة محرمة ، ولكن قالوها تجوز استعطافاً منهم له في المبايعة كما تقول لمن ساومته في سلعة : هبني من ثمنها كذا ، فلم يقصد أن يهبك ، وإنما حسنت معه الأفعال حتى يرجع منك إلى سومك .

وقال ابن جريج : إنما خصوا بقولهم : وتصدق علينا أمر أخيهم بنيامين أي : أوف لنا الكيل في المبايعة ، وتصدق علينا برد أخينا على أبيه .

وقال النقاش في قوله : إن الله يجزي المتصدقين ، هي من المعاريض التي هي مندوحة عن الكذب ، وذلك أنهم كانوا يعتقدونه ملكاً كافراً على غير دينهم .

ولو قالوا : إن الله يجزيك بصدقتك في الآخرة كذبوا ، فقالوا له لفظاً يوهم أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجه منه بالتأويل .

وروي أنهم لما قالوا له : مسنا وأهلنا الضر واستعطفوه ، رق لهم ورحمهم .

قال ابن إسحاق : وارفض دمعه باكياً ، فشرع في كشف أمره إليهم .

فيروي أنه حسر قناعة وقال لهم : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه أي : من التفريق بينهما في الصغر ، وإذاية بنيامين بعد مغيب يوسف ؟ وكانوا يذلونه ويشتمونه .

قال ابن عطية : ونسبهم إما إلى جهل المعصية ، وإما إلى جهل السيآت وقلة الحنكة .

وقال الزمخشري : أتاهم من جهة الدين وكان حليماً موفقاً ، فكلمهم مستفهماً عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب فقال : هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون لا تعلمون قبحه ، فلذلك أقدمتم عليه يعني : هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه ؟ لأنّ علم القبح يدعو إلى الاستقباح ، والاستقباح يجر التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحاً لهم في الدين ، وإيثاراً لحق الله على حق نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب وينفث المصدور ويشتفي المغيظ المحنق ويدرك ثأره الموتور ، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطاها وأسمحها ، ولله حصى عقولهم ما أرزنها وأرجحها انتهى ! وقيل : لم يرد نفي العلم عنهم لأنهم كانوا علماء ، ولكنهم لما فعلوا ما لا يقتضيه العلم ، وتقدم عليه إلا

جاهل سماهم جاهلين .

وفي التحرير ما لخص منه وهو أن قول الجمهور : هل علمتم استفهام معناه التقريع والتوبيخ ، ومراده تعظيم الواقعة أي : ما أعظم ما ارتكبتم من يوسف .

كما يقال : هل تدري من عصيت ؟ وقيل : هل بمعنى قد ، لأنهم كانوا عالمين ، وفعلتم بيوسف إفراده من أبيهم ، وقولهم : بأن الذئب أكله ، وإلقاؤه في الجب وبيعه بثمن بخس إن كانوا هم الذين باعوه ، وقولهم : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، والذي فعلوا بأخيه أذاهم له وجفاؤهم له ، واتهامه بسرقة الصاع ، وتصريحهم بأنه سرق ، ولم يذكر لهم ما إذ واجه أباهم تعظيماً لقدره وتفخيماً لشأنه أن يذكره مع نفسه وأخيه .

قال ابن عباس ، والحسن : جاهلون صبيان .

وقال مقاتل : مذنبون .

وقيل : جاهلون بما يجب من بر الأب ، وصلة الرحم ، وترك الهوى .

وقيل : جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف .

وقيل : جاهلون بالفكر في العاقبة ، وعدم النظر إلى المصلحة .

وقال المفسرون : وغرض يوسف توبيخ إخوته وتأنيبهم على ما فعلوا في حق أبيهم وفي حق أخويهم ، قال : والصحيح أنه قال ذلك تأنيساً لقلوبهم ، وبسط عذر كأنه قال : إنما أقدمكم على ذلك الفعل القبيح جهالة الصبا أو الغرور ، وكأنه لقنهم الحجة كقوله : ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾ وما حكاه ابن الهيصم في قصة من أنه صلبهم ، والثعلبي في حكايته أنه غضب عليهم فأمر بقتلهم فبكوا وجزعوا ، فرق لهم وقال : هل علمتم الآية : لا يصح البتة ، وكان يوسف من أرق خلق الله وأشفقهم على الأجانب ، فكيف مع إخوته ولما اعترفوا بالخطأ قال : لا تثريب عليكم الآية .

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) ﴾

الإيثار : لفظ يعم جميع التفضل وأنواع العطايا .

التثريب : التأنيب والعتب ، وعبر بعضهم عنه بالتعبير .

ومنه "إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يثرب" أي لا يعبر .

وأصله من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ، ومعناه : إزالة الثرب ، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع ، لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال ، فضرب مثلاً للتقريع الذي يمزق الأعراض ، ويذهب بهاء الوجه .

﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر

فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين .

قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .

(48/402)

اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ : لما خاطبهم بقوله : هل علمتم ؟ أدركوا أنه لا يستفهم ملك لم ينشأ عندهم ، ولا تتبع أحوالهم ، وليس منهم فيما يظهر إلا وعنده علم بحالهم فيقال : إنه كان يكلمهم من وراء حجاب ، فرفعه ووضع التاج وتبسم ، وكان يضيء ما حوله من نور تبسمه أو رأوا لمعة بيضاء كالشامة في فرقه حين وضع التاج وكان مثلها لأبيه وجده وسارة ، فتوسموا أنه يوسف ، واستفهموه استفهام استخبار .

وقيل : استفهام تقرير ، لأنهم كانوا عرفوه بتلك العلامات التي سبق ذكرها .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف عرفوه ؟ (قلت) : رأوا في روائه وشمائله حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو ، مع علمهم بأن ما خاطبهم به لا يصدر إلا عن حنيف مسلم من نسل إبراهيم عليه السلام ، لا عن بعض أعزاء مصر .

وقرأ الجمهور : أئنك على الاستفهام ، والخلاف في تحقيق الهمزتين ، أو تليين الثانية وإدخال ألف في التلين ، أو التحقيق مذكور في القراآت السبع .

وقرأ قتادة ، وابن محيصن ، وابن كثير : إنك بغير همزة استفهام ، والظاهر أنها مرادة .

ويبعد حمله على الخبر المحض ، وقد قاله بعضهم لتعارض الاستفهام والخبر إن اتحد القائلون في القول وهو الظاهر ، فإن قدر أنّ بعضاً استفهم وبعضاً أخبر ، ونسب في كل من القراءتين إلى المجموع قول بعضهم : أمكن ، وهو مع ذلك بعيد .

وقرأ أبي : أئنك أو أنت يوسف .

وخرجه ابن جني على حذف خبر إن وقدره : أئنك لأنت يوسف ، أو أنت يوسف .

وقدره الزمخشري : أئنك يوسف ، أو أنت يوسف ، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه قال : وهذا كلام مستعجب مستغرب لما يسمع ، فهو يكرر الاستثبات انتهى .

وحكى أبو عمرو الداني في قراءة أبي بن كعب قالوا : أو أنت يوسف ؟ وفي قراءة الجمهور : أئنك لأنت ، يجوز أن تكون اللام دخلت على أنت ، وهو فصل : وخبر إنّ يوسف كما تقول : إنْ كان زيد لهو الفاضل .

ويجوز أن تكون دخلت على أنت وهو مبتدأ ، ويوسف خبره ، والجملة في موضع خبر إن ، ولا يجوز أن يكون أنت توكيداً للضمير الذي هو اسم إن لحيلولة اللام بينهما .

ولما استفهموه أجابهم فقال : أنا يوسف كاشفاً لهم أمره ، وزادهم في الجواب قوله : وهذا أخي ، لأنه سبق قوله : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ وكان في ذكر أخيه بيان لما سألوا عنه ، وإن كان معلوماً عندهم وتوطئة لما ذكر بعد من قوله : قد منّ الله علينا أي : بالاجتماع بعد الفرقة والأنس بعد الوحشة .

ثم ذكر أنّ سبب منّ الله عليه هو بالتقوى والصبر ، والأحسن أن لا تخص التقوى بحالة ولا الصبر .

وقال مجاهد : من يتقي في تركه المعصية ويصبر في السجن .

وقال النخعي : من يتقي الزنا ويصبر على العزوبة .

وقيل : ومن يتق الله ويصبر على المصائب .

وقال الزمخشري : من يتق ، من يخف الله .

وعقابه ، ويصبر عن المعاصي ، وعلى الطاعات .

وقيل : من يتقي معاصي الله ، ويصبر على أذى الناس ، وهذه كلها تخصيصات بحسب حالة يوسف ونوازله .

وقرأ قنبل : من يتقي ، فقيل : هو مجزوم بحذف الياء التي هي لام الكلمة ، وهذه الياء

إشباع .

وقيل : جزمه بحذف الحركة على لغة من يقول : لم يرمي زيد ، وقد حكوا ذلك لغة .

وقيل : هو مرفوع ، ومن موصول بمعنى الذي ، وعطف عليه مجزوم وهو : ويصبر ، وذلك على التوهم .

كأنه توهم أن من شرطية ، ويتقي مجزوم .

وقيل : ويصبر مرفوع عطفاً على مرفوع ، وسكنت الراء لا للجزم ، بل لتوالي الحركات ، وإن كان ذلك من كلمتين ، كما سكنت في يأمركم ، ويشعركم ، وبعولتهن ، أو مسكناً للوقف ، وأجرى الوصل مجرى الوقف .

والأحسن من هذه الأقوال أن يكون يتقي مجزوماً على لغة ، وإن كانت قليلة ، ولا يرجع إلى قول أبي علي قال : وهذا مما لا يحمل عليه ، لأنه إنما يجيء في الشعر لا في الكلام ، لأن غيره من رؤساء النحويين قد نقلوا أنه لغة .

والمحسنين : عام يندرج فيه من تقدم ، أو وضع موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين كأنه قيل : لا يضيع أجرهم .

وآثرك : فضلك بالملك ، أو بالصبر ، والعلم قالهما ابن عباس ، أو بالحلم والصفح ذكره أبو سليمان الدمشقي ، أو بحسن الخلق والخلق ، والعلم ، والحلم ، والإحسان ، والملك ، والسلطان ، وبصبرك على أذانا قاله : صاحب الغنيان .

أو بالتقوى ، والصبر وسيرة المحسنين قاله : الزمخشري ، وهو مناسب لقوله : ﴿ إنه من يتق ﴾ الآية وخطابهم إياه بذلك استنزال لإحسانه ، واعتراف بما صدر منهم في حقه .

وخاطئين : من خطىء إذا تعمد .

وأما أخطأ فقصد الصواب ولم يوفق له .

ولا تثريب : لا لوم ولا عقوبة .

وتثريب اسم لا ، وعليكم الخبر ، واليوم منصوب بالعامل في الخبر أي : لا تثريب مستقر عليكم اليوم .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : بم تعلق اليوم ؟ (قلت) : بالتثريب ، أو بالمقدر في عليكم من معنى الاستقرار ، أو بيغفر .

والمعنى : لا أثربكم اليوم ، وهذا اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بغيره من الأيام ! ثم ابتدأ فقال : يغفر الله لكم ، فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم .

يقال : غفر الله لك ، ويغفر الله لك على لفظ الماضي والمضارع جميعاً ، ومنه قول المشمت : يهديكم الله ويصلح بالكم .

أو اليوم يغفر الله لكم بشارة بعاجل الغفران ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم انتهى .

أما قوله : إن اليوم يتعلق بالتثريب ، فهذا لا يجوز ، لأنّ التثريب مصدر ، وقد فصل بينه وبين معموله بقوله : وعليكم .

إما أن يكون خبراً ، أو صفة لتثريب ، ولا يجوز الفصل بينهما ، لأنّ معمول المصدر من تمامه .

وأيضاً لو كان اليوم متعلقاً بتثريب لم يجز بناؤه ، وكان يكون من قبيل المشبه بالمضاف ، وهو الذي يسمى المطول ، ويسمى الممطول ، فكان يكون معرباً منوناً .

وأما تقديره الثاني فتقدير حسن ، ولذلك وقف على قوله اليوم أكثر القراء .

(51/402)

وابتدأوا بيغفر الله لكم على جهة الدعاء ، وهو تأويل ابن إسحاق والطبري .

وأما تقديره الثالث وهو أن يكون اليوم متعلقاً بيغفر فمقول ، وقد وقف بعض القراء على عليكم ، وابتدأ اليوم يغفر الله لكم .

قال ابن عطية : والوقف على اليوم أرجح في المعنى ، لأنّ الآخر فيه حكم على مغفرة الله ،

اللهم إلا أن يكون ذلك بوحي .

وأما قوله : فبشارة إلى آخره ، فعلى طريقة المعتزلة ، فإنّ الغفران لا يكون إلا لمن تاب .

قال ابن الأنباري : إنما أشار إلى ذلك اليوم لأنه أول أوقات العفو ، وسبيل العافي في مثله أن لا يراجع عقوبة .

وأجاز الحوفي أن يكون عليكم في موضع الصفة لتثريب ، ويكون الخبر اليوم ، وهو وجه حسن .

وقيل : عليكم بيان كلك في قولهم : سقياً لك ، فيتعلق بمحذوف .

ونصوا على أنه لا يجوز أن يتعلق عليكم بتثريب ، لأنه كان يعرب ، فيكون منوناً لأنه يصير من باب المشبه بالمضاف .

ولو قيل : إن الخبر محذوف ، وعليكم متعلق بمحذوف يدل عليه تثريب ، وذلك المحذوف هو العامل في اليوم وتقديره : لا تثريب عليكم اليوم ، كما قدروا في ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله ﴾ أي : يعصم اليوم ، لكان وجهاً قوياً ، لأنّ خبر لا إذا علم كثر حذفه عند أهل الحجاز ، ولم يلفظ به بنو تميم .

ولما دعا لهم بالمغفرة أخبر عن الله بالصفة التي هي سبب الغفران ، وهو أنه تعالى أرحم الرحماء ، فهو يرجو منه قبول دعائه لهم بالمغفرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(52/402)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾

أي على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر بموجب أمرِ أبيهم وإنما لم يُذكر ذلك إيذاناً بمسارعتهم إلى ما أمروا به وإشعاراً بأن ذلك أمرٌ محققٌ لا يفتقر إلى الذكر والبيان ﴿ قَالُواْ يا أَيُّها العزيز ﴾ أي الملكُ القادرُ المتمنع ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ الهُزالُ من شدة الجوع ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ مدفوعةٍ يدفعها كلُّ تاجر رغبةً عنها واحتقاراً لها من أزجَيتُه إذا دفعتُه وطردتُه والريحُ تزجي السحابَ . قيل : كانت بضاعتُهم من متاع الأعراب صوفاً وسمناً ، وقيل : الصنوبرَ وحبةَ الخضراء ، وقيل : سُويقُ المُقْل والأَقِط ، وقيل : دراهمَ زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة وإنما قدّموا ذلك ليكون ذريعةً إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقةِ وهو العطفُ والرأفة وتحريكُ سلسلة المرحمة .

(53/402)

ثم قالوا ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الكيل ﴾ أي أتممه لنا ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ بردّ أخينا إلينا ، قاله الضحاك وابن جريج وهو الأنسبُ بحالهم نظراً إلى أمر أبيهم ، أو بالإيفاء أو بالمسامحة وقَبول المُزجاة أو بالزيادة على ما يساويها تفضلاً وإنما سمَّوه تصدقاً تواضعاً أو أرادوا التصدقَ فوق ما يعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حُرمة الصدقة بنبينا عليه الصلاة والسلام وإنما لم يبدأوا بما أُمروا به استجلاباً للرأفة وللشفقة ليبعثوا بما قدّموا من رقة الحالِ رقةَ القلب والحُنوّ على أن ما ساقوه كلامٌ ذو وجهين ، فإن قولهم : وتصدّق علينا ﴿ إِنَّ اللهَ يَجْزِى المتصدقين ﴾ يحتمل الحملَ على المحملين فلعله عليه السلام حمله على المحمل الأول ولذلك ﴿ قَالَ ﴾ مجيباً عما عرّضوا به وضمّنوه كلامَهم من طلب ردِّ أخيهم ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ وكان الظاهرُ أن يتعرضَ لما فعلوا بأخيه فقط ، وإنما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهما في وقوع الفعلِ عليهما ، فإن المراد بذلك إفرادُهم له عن يوسف وإذلالُه بذلك حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذِلةٍ أي هل تُبتم عن ذلك بعد علمِكم بقبحه ؟ فهو سؤالٌ عن الملزوم والمرادُ لازمُه ﴿ إِذْ أَنتُمْ جاهلون ﴾ بقبحه فلذلك أقدمتم على ذلك أو جاهلون عاقبتَه وإنما قاله نصحاً لهم وتحريضاً على التوبة وشفقةً عليهم لمّا رأى عجزَهم وتمسكنَهم لا معاتبةً وتثريباً ، ويجوز أن يكون هذا الكلامُ منه عليه السلام منقطعاً عن كلامهم وتنبيهاً لهم على ما هو حقُّهم ووظيفتهم من الإعراض عن جميع المطالب والتمحضِ في طلب بنيامين بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي

أو الإلهام على وصية أبيه وإرساله إياهم للتحسس منه ومن أخيه فلما رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ما قال ، وقيل : أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كتب فيه : "كتابٌ من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم

(54/402)

خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فإنا أهل بيتٍ موكلٍ بنا البلاءُ أما جدّي فشُدت يداه ورجلاه فرُمي به في النار فنجّاه الله تعالى وجُعلت النار له برداً وسلاماً وأما أبي فوُضع السكينُ على قفاه ليُقتل ففداه الله تعالى وأما أنا فكان لي ابنٌ وكان أحبَّ أولادي إليّ فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتَوْني بقميصه ملطخاً بالدم فقالوا : قد أكله الذئبُ فذهبت عيناي من بكائي عليه ثم كان لي ابنٌ وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا : إنه سرَق وأنك حبستَه وإنا أهلُ بيت لا نسرِق ولا نلد سارقاً فإن رددتَه عليّ وإلا دعوتُ عليك دعوةً تُدرك السابعَ من ولدك والسلام" .

فلما قرأه لم يتمالكْ وعيل صبرُه فقال لهم ما قال ، وقيل : لما قرأه بكى وكتب الجواب : اصبِر كما صبروا تظفرْ كما ظفِروا .

﴿ قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾

استفهامُ تقريرٍ ولذلك أكدوه بأن واللام قالوه استغراباً وتعجباً ، وقرىء إنك بالإيجاب ، قيل : عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به ، وقيل : تبسم فعرفوه بثناياه ، وقيل : رفع التاجَ عن رأسه فرأوا علامةً بقَرَنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارةَ ويعقوبَ مثلُها وقرىء أإنك أو أنت يوسف على معنى أئنك يوسف أو أنت يوسف ، فحذف الأولُ لدلالة الثاني عليه وفيه زيادةُ استغراب ﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ ﴾ جواباً عن مسألتهم وقد زاد عليه قوله : ﴿ وهذا أَخِى ﴾ أي من أبويّ مبالغةً في تعريف نفسه وتفخيماً لشأن أخيه وتكملةً لما أفاده قوله : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ حسبما يفيده قولُه : ﴿ قَدْ مَنَّ الله عَلَيْنَا ﴾ فكأنه قال : هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال ؟ فأنا يوسفُ وهذا أخي قد منّ الله علينا بالخلاص عما ابتُلينا به ، والاجتماعِ بعد الفُرقةِ ، والعزة بعد الذِلة ، والأُنس بعد الوحشة ، ولا يبعد أن يكون فيه إشارةٌ إلى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخي لا أخوكم فلا وجهَ لطلبكم ، ثم علل ذلك بطريق الاستئنافِ التعليلي بقوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ ﴾ أي يفعل التقوى في جميع أحوالِه أو يقِ نفسه عما يوجب سخطَ الله تعالى وعذابه ﴿ وَيِصْبِرْ ﴾ على المحن أو على مشقة الطاعاتِ أو عن المعاصي التي تستلذها النفس ﴿

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي أجرهم، وإنما وُضع المظهرُ موضع المضمرِ تنبيهاً على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان.

(56/402)

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة ﴿ وَإِن كُنَّا ﴾ وإن الشأن كنا ﴿ لَخَاطِئِينَ ﴾ لمتعمّدين للذنب إذ فعلنا بك ما فعلنا ولذلك أعزك وأذلنا، وفيه إشعارٌ بالتوبة والاستغفار ولذلك ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ ﴾ أي لا عتْبَ ولا تأنيب ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ وهو تفعيل من الثرب وهو الشحمُ الغاشي للكرِش ومعناه إزالته كما أن التجليد إزالةُ الجلد والتقريعُ إزالة القرع لأنه إذا ذهب كان ذلك غايةَ الهُزال فضرب مثلاً للتقريع الذي يذهب بماء الوجوه وقوله عز وعلا: ﴿ اليوم ﴾ منصوب بالتثريب أو بالمقدر خبراً للا أي لا أثر بكم أو لا تثريبَ مستقرٌ عليكم اليوم الذي هو مظنةٌ له فما ظنُّكم بسائر الأيام أو بقوله: ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ لأنه حينئذ صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ يغفر الصغائرَ والكبائرَ ويتفضل على التائب بالقَبول، ومن كرمه عليه الصلاة والسلام أن إخوتَه أرسلوا إليه إنك تدعونا إلى طعامك بكرةً وعشياً ونحن نستحيي منك بما فرَط منا فيك، فقال عليه الصلاة والسلام:

إن أهلَ مصرَ وإن ملكت فيهم كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى ويقولون : سبحان من بلّغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلّغ ، ولقد شرُفت بكم الآن وعظُمتُ في العيون حيث علم الناسُ أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(57/402)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾

أي على يوسف عليه السلام بعد ما رجعوا إلى مصر بموجب أمر أبيهم ، وإنما لم يذكر إيذاناً بمسارعتهم إلى ما أمروا به وإشعاراً بأن ذلك أمر محقق لا يفتقر إلى الذكر والبيان .

وأنكر اليهود رجوعهم بعد أخذ بنيامين إلى أبيهم ثم عودهم إلى مصر وزعموا أنهم لما جاؤا أولاً للميرة اتهمهم بأنهم جواسيس فاعتذروا وذكروا أنهم أولاد نبي الله تعالى يعقوب وأنهم كانوا اثني عشر ولداً هلك واحد منهم وتخلف أخوه عند أبيهم يتسلى به عن الهالك حيث أنه كان يحبه كثيراً فقال : ائتوني به لأتحقق صدقكم وحبس شمعون عنده حتى يجيؤا فلما أتوا به ووقع من أمر السرقة أظهر والخضوع والانكسار فلم يملك عليه السلام نفسه حتى

تعرف إليهم ثم أمرهم بالعود إلى أبيهم ليخبروه الخبر ويأتوا به وهو الذي تضمنته نوراتهم اليوم وما بعد الحق إلا الضلال ﴿ قَالُواْ يا أَيُّهَا العزيز ﴾ خاطبوه بذلك تعظيماً له على حد خطابهم السابق به على ما هو الظاهر ، وهل كانوا يعرفون اسمه أم لا ، لم أر من تعرض لذلك فإن كانوا يعرفون ازداد أمر جهالتهم غرابة ، والمراد على ما قال الإمام وغيره يا أيها الملك القادر المنيع ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ الهزال من شدة الجوع ، والمراد بالأهل ما يشمل الزوجة وغيرها ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ ﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً ، من أزجيته إذا دفعته وطردته والريح تزجي السحاب ، وأنشدوا لحاتم :

ليبك على ملحان ضيف مدفع . . .

وأرملة تزجى مع الليل أرملاً

وكنى بها عن القليل أو الرديء لأنه لعدم الاعتناء يرمى ويطرح ، وقيل : كانت بضاعتهم من متاع الأعراب صوفاً وسمناً ، وقيل : الصنوبر وحبة الخضراء وروى ذلك عن أبي صالح .

(58/402)

وزيد بن أسلم ، وقيل : سويق المقل والأقط ، وقيل : قديد وحش ، وقيل : حبالاً وإعدالاً وأحقاباً ، وقيل : كانت دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة ، وروى ذلك عن ابن عباس

رضي الله تعالى عنهما ، والمروى عن الحسن تفسيرها بقليلة لا غير ، وعلى كل فمزجاة صفة حقيقية للبضاعة ، وقال الزجاج : هي من قولهم : فلان يزجى العيش أي يدفع الزمان بالقليل ، والمعنى إنا جئنا ببضاعة يدفع بها الزمان وليس مما ينتفع بها ، والتقدير على هذا ببضاعة مزجاة بها الأيام أي تدفع بها ويصبر عليها حتى تنقضي كما قيل :

درج الأيام تندرج . . .

وبيوت الهم لا تلج

وما ذكر أولاً هو الأولى ، وعن الكلبي أن ﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ من لغة العجم ، وقيل : من لغط القبط .

وتعقب ذلك ابن الانباري بأنه لا ينبغي أن يجعل لفظ معروف الاشتقاق والتصريف منسوباً إلى غير لغة العرب فالنسبة إلى ذلك مزجاة .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ مزجية ﴾ بالإمالة لأن أصلها الياء ، والظاهر أنهم إنما قدموا هذا الكلام ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقة وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة الرحمة ثم قالوا : ﴿ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكيل ﴾ أي أتمه لنا ولا تنقصه لقلة بضاعتنا أو رداءتها ، واستدل بهذا على أن الكيل على البائع ولا دليل فيه ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ ظاهره بالإيفاء أو بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على ما يساويها .

وقال الضحاك .

وابن جريج .

(59/402)

إنهم أرادوا تصدق علينا برد أخينا بنيامين على أبيه ، قيل : وهو الأنسب بحالهم بالنسبة إلى أمر أبيهم وكأنهم أرادوا تفضل علينا بذلك لأن رد الأخ ليس بصدقة حقيقة ، وقد جاءت الصدقة بمعنى التفضل كما قيل ، ومنه تصدق الله تعالى على فلان بكذا ، وأما قول الحسن لمن سمعه يقول : اللهم تصدق على إن الله تعالى لا يتصدق إنما يتصدق من يبغي الثواب قل : اللهم أعطني أو تفضل على أو ارحمني فقد رد بقوله صلى الله عليه وسلم : " صدقة تصدق الله تعالى بها عليكم فاقبلوا صدقته " وأجيب عنه مجازاً ومشاكلة ، وإنما رد الحسن على القائل لأنه لم يكن بليغاً كما في قصة المتوفي ، وادعى بعضهم تعين الحمل على المجاز أيضاً إذا كان المراد طلب الزيادة على ما يعطي بالثمن بناء على أن حرمة أخذ الصدقة ليست خاصة بنبينا صلى الله عليه وسلم كما ذهب إليه سفيان بن عيينة بل هي عامة له عليه الصلاة والسلام ولمن قبله من الأنبياء عليهم السلام وآلهم كما ذهب إليه البعض ، والسائلون من إحدى الطائفتين لا محالة ، وتعقب بأنا لو سلمنا العموم لا نسلم أن

المحرم أخذ الصدقة مطلقاً بل المحرم إنما هو أخذ الصدقة المفروضة وما هنا ليس منها ،

والظاهر كما قال الزمخشري : أنهم تمسكوا له عليه السلام بقولهم : ﴿ مَسَّنَا ﴾ الخ

وطلبوا إليه يتصدق عليهم بقوله : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ فلو لم يحمل على الظاهر لما طابقه

ذلك التمهيد ولا هذا التوطيد أعني ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ بذكر الله تعالى

وجزائه الحاملين على ذلك وإن فاعله منه تعالى بمكان .

(60/402)

قال النقاش : وفي العدول عن إن الله تعالى يجزيك بصدقتك إلى ما في النظم الكريم مندوحة

عن الكذب فهو من المعاريض ، فإنهم كانوا يعتقدونه ملكاً كافراً وروى مثله عن الضحاك ،

ووجه عدم بدءهم بما أمروا به على القول بخلاف الظاهر في متعلق التصدق بأن فيما

سلكوه استجلاباً للشفقة والرحمة فكأنهم أرادوا أن يملأوا حياض قلبه من نميرها ليسقوا

به أشجار تحسسهم لتثمر لهم غرض أبيهم ، ووجهه بعضهم بمثل هذا ثم قال : على أن قولهم

﴿ وَتَصَدَّقْ ﴾ الخ كلام ذو وجهين فإنه يحتمل الحمل على المحملين فلعله عليه السلام حمله

على طلب الرد ولذلك :

(61/402)

﴿ قَالَ ﴾ مجيباً عما عرضوا به وضمنوه كلامهم من ذلك : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ وكان الظاهر على هذا الاقتصار على التعرض بما فعل مع الأخ إلا أنه عليه السلام تعرض لما فعل به أيضاً لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما ، فإن المراد بذلك إفرادهم له عنه وإذلاله بذلك حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وطلة ، والاستفهام ليس عن العلم بنفس ما فعلوه لأن الفعل الإرادي مسبوق بالشعور لا محالة بل هو عما فيه من القبح بدليل قوله : ﴿ إِذْ أَنتُمْ جاهلون ﴾ أي هل علمتم قبح ما فعلتموه زمان جهلكم قبحه وزال ذلك الجهل أم لا ؟ وفيه من إبداء عذرهم وتلقينهم إياه ما فيه كما في قوله تعالى : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ [الإنفطار : 6] والظاهر لهذا أن ذلك لم يكن تشفياً بل حث على الإقلاع ونصح لهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم ما رأى مع خفي معاتبة على وجود الجهل وأنه حقيق الانتفاء في مثلهم ، فلله تعالى هذا الخلق الكريم كيف ترك حظه من التشفي إلى حق الله تعالى على وجه يتضمن حق الأخوين أيضاً والتلطف في اسماعه مع التنبيه على أن هذا الضر أولى بالكشف ، قيل : ويجوز أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام منقطعاً عن كلامهم وتنبيهاً لهم عما هو حقهم ووظيفتهم من الإعراض عن جميع المطالب والتمحض لطلب بنيامين ، بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي أو الإلهام على وصية أبيه عليه السلام وإرساله إياهم للتحسس منه ومن أخيه فلما رآهم قد

اشتغلوا عن ذلك قال ما قال ، والظاهر أنه عليه السلام لما رأى ما رأى منهم وهو من أرق خلق الله تعالى قلباً وكان قد بلغ الكتاب أجله شرع في كشف أمره فقال ما قال .

(62/402)

روى عن ابن إسحاق أنهم لما استعطفوه رق لهم ورحمهم حتى أنه ارفض دمعه باكياً ولم يملك نفسه فشرع في التعرف لهم ، وأراد بما فعلوه به جميع ما جرى وبما فعلوه بأخيه أداهم له وجفاءهم إياه وسوء معاملتهم له وإفرادهم له كما سمعت ، ولم يذكر لهم ما آذوا به أباهم على ما قيل تعظيماً لقدره وتفخيماً لشأنه أن يذكره مع نفسه وأخيه مع أن ذلك من فروع ما ذكر ، وقيل : إنهم أدوا إليه كتاباً من أبيهم وصورته كما في "الكشاف" من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمى به في النار ليحرق فنجاه الله تعالى وجعلت النار عليه برداً وسلاماً ، وأما أبي فوضع على قفاه السكين ليقتل ففداه الله تعالى ، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب الأولاد إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا : قد أكله الذئب فذهبت عيناي من بكائي عليه ثم كان لي ابن كان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا : إنه سرق وإنك حبسته لذلك وإنا أهل

بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي روق نحوه، فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك.

(63/402)

وروى أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا هذا، وما أشرنا إليه من كون المراد إثبات الجهل لهم حقيقة هو الظاهر، وقيل: لم يرد نفي العلم عنهم لأنهم كانوا علماء ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم وترك مقتضى العلم من صنيع الجهال سماهم جاهلين، وقيل: المراد جاهلون بما يؤل إليه الأمر، وعن ابن عباس والحسن ﴿ جاهلون ﴾ صبيان قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة، وتعقب بأنه ليس بالوجه لأنه لا يطابق الوجود وينافي ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف: 8] فالظاهر عدم صحة الإسناد، وزعم في التحرير أن قول الجمهور: إن الاستفهام للتقرير والتوبيخ ومراده عليه السلام تعظيم الواقعة أي ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وأخيه كما يقال: هل تدري من عصيت، وقيل: هل بمعنى قد كما في ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مّنَ الدهر ﴾ [الإنسان: 1]

والمقصود هو التوبيخ أيضاً وكلا القولين لا يعول عليه والصحيح ما تقدم .

ومن الغريب الذي لا يصح البتة ما حكاه الثعلبي أنه عليه السلام حين قالوا له ما قالوا غضب عليهم فأمر بقتلهم فبكوا وجزعوا فرق لهم وقال : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ ﴾ الخ .

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾

استفهام تقرير ولذلك أكد بإن واللام لأن التأكيد يقتضي التحقق المنافي للاستفهام الحقيق ، ولعلهم قالوه استغراباً وتعجباً ، وقرأ ابن كثير .

وقتادة .

(64/402)

وابن محيصن ﴿ إِنَّكَ ﴾ بغير همزة استفهام ، قال في "البحر" : والظاهر أنها مرادة ويبعد حمله على الخبر المحض ، وقد قاله بعضهم لتعارض الاستفهام والخبر أن اتحد القائلون وهو الظاهر ، فإن قدر أن بعضاً استفهم وبعضاً أخبر ونسب كل إلى المجموع أمكن وهو مع ذلك بعيد ، و﴿ أَنتَ ﴾ في القراءتين مبتدأ و﴿ يُوسُفَ ﴾ خبره والجملة في موضع الرفع خبر إن ، ولا يجوز أن يكون أنت تأكيداً للضمير الذي هو اسم إن لحيلولة اللام ، وقرأ أبي ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ ﴾ وخرج ذلك ابن جني في كتاب المحتسب على حذف خبر إن

وقدره أئنك لغير يوسف أو أنت يوسف ، وكذا الزمخشري إلا أنه قدره أئنك يوسف أو أنت يوسف ثم قال : وهذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع فهو يكرر الاستيثاق ، قال في "الكشف" وما قدره أولى لقلة الإضمار وقوة الدلالة على المحذوف وإن كان الأول أجرى على اقنون الاستفهام ، ولعل الأنسب أن يقدر أئنك أنت أو أنت يوسف تجهيلاً لنفسه أن يكون مخاطبه يوسف أي أئنك المعروف عزيز مصر أو أنت يوسف ، استبعدوا أن يكون العزيز يوسف أو يوسف عزيزاً ، وفيه قلة الإضمار أيضاً مع تغاير المعطوف والمعطوف عليه وقوة الدلالة على المحذوف والجري على قانون الاستفهام مع زيادة الفائدة من إيهام البعد بين الحالتين .

(65/402)

فإن قيل : ذاك أوفق للمشهور لقوة الدلالة على أنه هو ، يجاب بأنه يكفي في الدلالة على الأوجه كلها أن الاستفهام غير جار على الحقيقة ، على أن عدم التنافي بين كونه مخاطبهم المعروف وكونه يوسف شديد الدلالة أيضاً مع زيادة إفادة ذكر موجب استبعادهم وهو كلام يلوح عليه مخايل التحقيق ، واختلفوا في تعيين سبب معرفتهم إياه عليه السلام فقيل : عرفوه بروائه وشمائله وكان قد أدناهم إليه ولم يدنهم من قبل ، وقيل : كان يكلمهم من وراء

حجاب فلما أراد التعرف إليهم رفعه فعرفوه ، وقيل : تبسم فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم وكان يضيء ما حواليه من نور تبسمه ، وقيل : إنه عليه السلام رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه كان ليعقوب.

وإسحاق.

وسارة مثلها تشبه الشامة البيضاء فعرفوه بذلك ، وينضم إلى كل ذلك علمهم أن ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم لا عن بعض أعزاء مصر ، وزعم بعضهم أنهم إنما قالوا ذلك على التوهم ولم يعرفوه حتى أخبر عن نفسه ﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ ﴾ والمعول عليه ما تقدم وهذا جواب عن مساءلتهم وزاد عليه قوله : ﴿ وهذا أَخِى ﴾ أي من أبوي مبالغة في تعريف نفسه ، قال بعض المدققين : إنهم سألوه متعجبين عن كونه يوسف محققين لذلك مخيلين لشدة التعجب أنه ليس إياه فأجابهم بما يحقق ذلك مؤكداً ، ولهذا لم يقل عليه السلام : بلى أو أنا هو فأعاد صريح الاسم ﴿ وهذا أَخِى ﴾ بمنزلة أنا يوسف لا شبهة فيه على أن فيه ما يبنيه عليه من قوله : ﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ وجوز الطيبي أن يكون ذلك جارياً على الأسلوب الحكيم كأنهم لما سألوه متعجبين أنت يوسف ؟ أجاب لا تسألوا عن ذلك فإنه ظاهر ولكن اسألوا ما فعل الله تعالى بك من الامتنان والإعزاز وكذلك بأخي وليس من ذاك في شيء كما لا يخفى.

وفي إرشاد العقل السليم أن في زيادة الجواب مبالغة وتفخيماً لشأن الأخ وتكملة لما أفاده قوله : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ [يوسف : 89] حسبما يفيده ﴿ قَدْ مَنَّ ﴾ الخ فكأنه قال : هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال فأنا يوسف وهذا أخي قد من الله تعالى علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والأنس بعد الوحشة .

ولا يبعد أن يكون فيه إشارة إلى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخي لا أخوكم فلا وجه لطلبكم انتهى وفيه ما فيه .

وجملة ﴿ قَدْ مَنَّ ﴾ الخ عند أبي البقاء مستأنفة ، وقيل : حال من ﴿ يُوسُفَ ﴾ و ﴿ أَخِي ﴾ وتعقب بأن فيه بعداً لعدم العامل في الحال حينئذٍ ، ولا يصح أن يكون ﴿ هذا ﴾ لأنه إشارة إلى واحد وعلينا راجع إليهما جميعاً ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي الشأن ﴿ مَن يَتَّقِ ﴾ أي يفعل التقوى في جميع أحواله أو يق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى وعذابه ﴿ وَيِصْبِرْ ﴾ على البلايا والمحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصي التي تستلذها النفس ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ أي أجرهم ، وإنما وضع المظهر موضع المضمر تنبيهاً على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان ، والجملة في موضع العلة للمن .

واختار أبو حيان عدم التخصيص في التقوى والصبر ، وقال مجاهد .

المراد من يتق في ترك المعصية ويصبر في السجن ، والنخعي من يتق الزنا ويصبر على العزوبة ، وقيل : من يتق المعاصي ويصبر على أذى الناس ، وقال الزمخشري : المراد من يخف الله تعالى ويصبر عن المعاصي وعلى الطاعات .

(67/402)

وتعقبه صاحب الفرائد بأن فيه حمل من يتق على المجاز ولا مانع من الحمل على الحقيقة والعدول عن ذلك إلى المجاز من غير ضرورة غير جائز فالوجه أن يقال : من يتق من يحترز عن ترك ما أمر به وارتكاب ما نهى عنه ويصبر في المكاره وذلك باختياره وهذا بغير اختياره فهو محسن ، وذكر الصبر بعد التقوى من ذكر الخاص بعد العام ، ويجوز أن يكون ذلك لإرادة الثبات على التقوى كأنه قيل : من يتق ويثبت على التقوى انتهى .

والوجه الأول : ميل لما ذكره أبو حيان .

وتعقب ذلك الطيبي بأن هذه الجملة تعليل لما تقدم وتعريض باخوته بأنهم لم يخافوا عقابه تعالى ولم يصبروا على طاعته عز وجل وطاعة أبيهم وعن المعصية إذ فعلوا ما فعلوا فيكون المراد بالاتقاء الخوف وبالصبر الصبر على الطاعة وعن المعصية ورد بأن التعريض حاصل

في التفسير الآخر فكأنه فسره به لئلا يتكرر مع الصبر وفيه نظر .

وقرأ قنبل ﴿ مِنْ يَتَّقِى ﴾ بإثبات الياء ، فقيل : هو مجزوم بحذف الياء التي هي لام الكلمة وهذه ياء إشباع ؛ وقيل : جزمه بحذف الحركة المقدرة وقد حكوا ذلك لغة ، وقيل : هو مرفوع و﴿ مِنْ ﴾ موصول وعطف المجزوم عليه على التوهم كأنه توهم أن ﴿ مِنْ ﴾ شرطية و﴿ يَتَّقِى ﴾ مجزوم ، وقيل : أن ﴿ يصبر ﴾ مرفوع كيتقي إلا أنه سكنت الراء لتوالي الحركات وإن كان ذلك في كلمتين كما سكنت في ﴿ يَأْمُرُكُمْ ﴾ [البقرة : 67] و﴿ يُشْعِرُكُمْ ﴾ [الأنعام : 109] ونحوهما أو للوقف وأجرى الوصل مجرى الوقف ، والأحسن من هذه الأقوال كما في "البحر" أن يكون يتقي مجزوماً على لغة وإن كانت قليلة ، وقول أبي علي : إنه لا يحمل على ذلك لأنه إنما يجيء في الشعر لا يلتفت إليه لأن غيره من رؤساء النحويين حكوه لغة نظماً ونثراً .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾

(68/402)

أي اختارك وفضلك علينا بالتقوى والصبر ، وقيل : بالملك ، وقيل : بالصبر والعلم ورويا عن ابن عباس ، وقيل : بالحلم والصفح ذكره سليمان الدمشقي ، وقال صاحب الغنيان :

بحسن الخلق والخلق والعلم والحلم والإحسان والملك والسلطان والصبر على أذانا والأول أولى .

﴿ وَأَنْ ﴾ أي والحال أن الشأن ﴿ كُنَّا لخاطئين ﴾ أي لمتعمدين للذنب إذ فعلنا ما فعلنا ولذلك أعزك وأذلنا ، فالواو حالية و﴿ إن ﴾ مخففة اسمها ضمير الشأن واللام التي في خبر كان هي المزحلقة ﴿ وخاطئين ﴾ من خطىء إذا تعمد وأما أخطأ فقصد الصواب ولم يوفق له ، وفي قولهم : هذا من الاستنزال لإحسانه عليه السلام والاعتراف بما صدر منهم في حقه مع الإشعار بالتوبة ما لا يخفى ولذلك .

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ ﴾)

أي لا تأنيب ولا لوم ﴿ عَلَيْكُمُ ﴾ وأصله من الثرب وهو الشحم الرقيق في الجوف وعلى الكرش ، وصيغة التفعيل للسلب أي إزالة الثرب كالتجليد والتقريع بمعنى إزالة الجلد والقرع ، واستعير للوم الذي يمزق الاعراض ويذهب بهاء الوجه لأنه بإزالة الشحم يبدو الهزال وما لا يرضى كما أنه باللوم تظهر العيوب فالجامع بينهما طريان النقص بعد الكمال وإزالة ما به الكمال والجمال وهو اسم ﴿ لا ﴾ و﴿ عَلَيْكُمُ ﴾ متعلق بمقدر وقع خبراً ، وقوله تعالى : ﴿ اليوم ﴾ متعلق بذلك الخبر المقدر أو بالظرف أي لا تثريب مستقر عليكم اليوم ، وليس التقييد به لإفادة وقوع التثريب في غيره فإنه عليه السلام إذا لم يثرب أول لقائه واشتعال ناره فبعده بطريق الأولى .

وقال المرتضى : إن ﴿ اليوم ﴾ موضوع موضع الزمان كله كقوله :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا . . .

واليوم نتبع من كانوا لنا تبعاً

(69/402)

كأنه أريد بعد اليوم ، وجوز الزمخشري تعلقه بتثريب وتعقبه أبو حيان قائلاً : لا يجوز ذلك لأن التثريب مصدر وقد فصل بينه وبين معموله بعليكم وهو إما خبر أو صفة ولا يجوز الفصل بينهما بنحو ذلك لأن معمول المصدر من تمامه ، وأيضاً لو كان متعلقاً به لم يجز بناؤه لأنه حينئذٍ من قبيل المشبه بالمضاف وهو الذي يسمى المطول والممطول فيجب أن يكون معرباً منوناً ، ولو قيل : الخبر محذوف و ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف يدل عليه تثريب وذلك المحذوف هو العامل في ﴿ اليوم ﴾ والتقدير لا تثريب يثرب عليكم اليوم كما قدروا في ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [هود : 43] أي لا عاصم يعصم اليوم لكان وجهاً قوياً لأن خبر ﴿ لا ﴾ إذا علم كثر حذفه عند أهل الحجاز ولم يلفظ به بنو تميم ، وكذا منع ذلك أبو البقاء وعلله بلزوم الإعراب والتنوين أيضاً ، واعترض بأن المصرح به في متون النحو بأن شبيه المضاف سمع فيه عدم التنوين نحو لا طالع جبلاً ووقع في الحديث " لا مانع لما

أعطيت ولا معطى لما منعت " باتفاق الرواة فيه وإنما الخلاف فيه هل هو مبني أو معرب ترك تنوينه ، وفي التصريح نقلاً عن المغني أن نصب الشبيه بالمضاف وتنوينه هو مذهب البصريين ، وأجاز البغداديون لا طالع جبلاً بلا تنوين أجروه في ذلك مجرى المضاف كما أجروه مجراه في الإعراب وعليه يتخرج الحديث "لا مانع" الخ .

فيمكن أن يكون مبني ما قاله أبو حيان وغيره مذهب البصريين ، والحديث المذكور لا يتعين كما قال الدنوشرى أخذاً من كلام المغني في الجهة الثانية من الباب الخامس حمله على ما ذكر لجواز كون اسم ﴿ لا ﴾ فيه مفرداً واللام متعلقة بالخبر والتقدير لا مانع مانع لما أعطيت وكذا فيما بعده .

(70/402)

وذكر الرضي أن الظرف بعد النفي لا يتعلق بالمنفي بل بمحذوف وهو خبر وأن ﴿ اليوم ﴾ في الآية معمول ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ ويجوز العكس ، واعترض أيضاً حديث الفصل بين المصدر ومعموله بما فيه ما فيه ، وقيل : ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ بيان كلك في سقيا لك فيتعلق بمحذوف و﴿ اليوم ﴾ خبر .

وجوز أيضاً كون الخبر ذاك و﴿ اليوم ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ ونقل عن

المرتضى أنه قال في "الدرر" : قد ضعف هذا قوم من جهة أن الدعاء لا ينصب ما قبله ولم يشتهر ذلك ، وقال ابن المنير : لو كان متعلقاً به لقطعوا بالمغفرة بإخبار الصديق ولم يكن كذلك لقوله : ﴿ يا أَبَانَا استغفر لَنَا ذنُوبَنَا ﴾ [يوسف : 97] وتعقب بأنه لا طائف تحته لأن المغفرة وهي ستر الذنوب يوم القيامة حتى لا يؤاخذوا به ولا يقرعوا إنما يكون ذلك الوقت وأما قبله فالحاصل هو الإعلام به والعلم بتحقق وقوعه بخبر الصادق لا يمنع الطلب لأن الممتنع طلب الحاصل لا طلب ما يعلم حصوله ، على أنه يجوز أن يكون هضماً للنفس واعتبر باستغفار الأنبياء عليهم السلام ، ولا فرق بين الدعاء والإخبار هنا انتهى .

وقد يقال أيضاً : إن الذي طلبوه من أبيهم مغفرة ما يتعلق به ويرجع إلى حقه ولم يكن عندهم علم بتحقق ذلك ، على أنه يجوز أن يقال : إنهم لم يعتقدوا إذ ذاك نبوته وظنوه مثلهم غير نبي فإنه لم يمض وقت بعد معرفة أنه يوسف يسع معرفة أنه نبي أيضاً وما جرى من المفاوضة لا يدل على ذلك فافهم ، وإلى حمل الكلام على الدعاء ذهب غير واحد وذهب جمع أيضاً إلى كونه خبراً .

والحكم بذلك مع أنه غيب قيل : لأنه عليه السلام صفح عن جريمتهم حينئذٍ وهم قد اعترفوا بها أيضاً فلا محالة أنه سبحانه يغفر لهم ما يتعلق به تعالى وما يتعلق به عليه السلام بمقتضى وعده جل شأنه بقبول توبة العباد ، وقيل : لأنه عليه السلام قد أوحى إليه بذلك ، وأنت تعلم أن أكثر القراء على الوقف على ﴿ اليوم ﴾ وهو ظاهر في عدم تعلقه بيغفر وهو اختيار الطبري .

وابن إسحاق .

وغيرهم واختاروا كون الجملة بعد دعائية وهو الذي يميل إليه الذوق والله تعالى أعلم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ فإن كل من يرحم سواه جل وعلا فإنما يرحم برحمته سبحانه مع كون ذلك مبنياً على جلب نفع أو دفع ضر ولا أقل من دفع ما يجده في نفسه من التألم الروحاني مما يجده في المرحوم ، وقيل : لأنه تعالى يغفر الصغائر والكبائر التي لا يغفرها غيره سبحانه ويتفضل على التائب بالقبول ، والجملة إما بيان للوثوق بإجابة الدعاء أو تحقيق لحصول المغفرة لأنه عفا عنهم فالله تعالى أولى بالعفو والرحمة لهم هذا .

ومن كرم يوسف عليه السلام ما روي أن إخوته أرسلوا إليه إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية ونحن نستحي منك بما فرط منا فيك فقال عليه السلام : إن أهل مصر وإن ملكت فيهم كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى ويقولون : سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم إخوتي وأني من حفدة

إبراهيم عليه السلام ، والظاهر أنه عليه السلام أنه حصل بذلك من العلم للناس ما لم يحصل قبل فإنه عليه السلام على ما دل عليه بعض الآيات السابقة والإخبار قد أخبرهم أنه ابن من وممن .

وكذا ما أخرجه سعيد بن منصور .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قال الملك يوماً ليوسف عليه السلام أني أحب أن تخالطني في كل شيء إلا في أهلي وأنا آنف أن تأكل معي فغضب يوسف عليه السلام ، فقال : أنا أحق أن آنف أنا ابن إبراهيم خليل الله وأنا ابن إسحاق ذبيح الله وأنا ابن يعقوب نبي الله لكن لم يشتهر ذلك أو لم يفد الناس علماً .

وفي التوراة التي بأيدي اليهود اليوم أنه عليه السلام لما رأى من إخوته مزيد الحجل أدناهم إليه وقال : لا يشق عليكم أن بعتموني وإلى هذا المكان أوصلتموني فإن الله تعالى قد علم ما يقع من القحط والجدب وما ينزل بكم من ذلك ففعل ما أوصلني به إلى هذا المكان والمكانة

ليزيل عنكم بي ما ينزل بكم ويكون ذلك سبباً لبقائكم في الأرض وانتشار ذراريكم فيها وقد مضت من سني الجدب سنتان وبقي خمس سنين وأنا اليوم قد صيرني الله تعالى مرجعاً لفرعون وسيداً لأهله وسلطاناً على جميع أهل مصر فلا يضق عليكم أمركم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(73/402)

وقال القاسمى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ أي : على يوسف بعد ما رجعوا من مصر، ولانفهامه من المقام طوى ذكره إيجازاً : ﴿ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ أي : الملك القادر المتمنع : ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ أي : الشدة من الجدب : ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ أي : بدراهم قليلة في مقابلة ما نمتاره. استقلوا الثمن واستحقروه؛ اتضاعاً لهيبة الملك، واستجلاباً لرأفته وحنانه. وأصل معنى (التزجية) : الدفع والرمي، فكنوا به عن القليل الذي يدفع؛ رغبة عنه، لذلك : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ أي : أتممه ووفره بهذه الدراهم المزجاة، كما توفره بالدراهم الجياد : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ أي : برد أخينا، أو بالإيفاء، أو بالمسامحة وقبول ما لا يعد عوضاً : ﴿ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ أي : يثيبهم أحسن المثوبة.

تنبيهات :

الأول : في الآية إرشاد إلى أدب جليل ، وهو تقديم الوسائل أمام المآرب ، فإنها أنجح لها .

وهكذا فعل هؤلاء : قدموا ما ذكر من رقة الحال ، والتمسكن وتصغير العوض ، ولم يفجؤوه بحاجتهم ؛ ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ، ببعث الشفقة ، وهز العطف والرأفة ، وتحريك سلسلة الرحمة - كما قدمنا - ومن ثم رق لهم ، وملكته الرحمة عليهم ، فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه ، - كما يأتي - .

الثاني : يؤخذ من الآية جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها .

الثالث : استدل بعضهم بقوله تعالى : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ على أن أجرة الكيال على البائع ؛ لأنه إذا كان عليه توفية الكيل ، فعليه مؤنته ، وما يتم به .

الرابع : استدل بقوله تعالى : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ من قال : إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء - كذا في " الإكليل " - وهذا بعد تسليم نبوة إخوة يوسف . وفيها خلاف .

وسيأتي في التنبيهات ، آخر السورة ، تحقيق ذلك .

الخامس : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ حثٌّ على الإحسان ، وإشارة إلى أن المحسن يجزى أحسن جزاء منه تعالى ، وإن لم يجزه المحسن إليه .

ثم بيَّن تعالى رأفة يوسف بتعرفه إليهم بقوله :

﴿ قَالَ ﴾ أي : يوسف مجيباً لهم : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أي : شبان غافلون ؟ استفهام تقرير ، يفيد تعظيم الواقعة . ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ! كما يقال للمذنب : هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت ؟ وهذه الآية تصديق لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف : من الآية 15] .

لطائف :

الأولى : أبدى المهايمي مناسبة بديعة في قول يوسف لهم : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم ﴾ إثر قولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ وهو أنهم أرادوا بقولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ أنه يعطيهم في الآخرة ما هو خير من العوض الدنيوي ، فأشار لهم يوسف بأنكم تريدون دفع الضرر العاجل ، بوعد الأجر الآجل ، ولا تدفعون عن أنفسكم الضرر الآجل ، كأنكم تنكرونه ، هل علمتم ضرر ما فعلتم بيوسف ؟ .

الثانية : قيل : من تلطفه بهم قوله : ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ كالاعتذار عنهم ؛ لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه ، أسهل من فعله على علم . وهم لو ضربوا في طرق

الاعتذار لم يلفوا عذراً كهذا . ألا ترى أن موسى عليه السلام ، لما اعتذر عن نفسه لم يزد على أن قال : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [الشعراء : 20] ففيه تخفيف للأمر عليهم .

(75/402)

الثالثة : قال الزمخشري : فإن قلت : ما فعلهم بأخيه ؟ قلت : تعريضهم إياه للغم والثكل ، بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه ، وجفاؤهم به ، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الذليل للعزيز ، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى . انتهى .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي : استغراباً وتعجباً من أن هذا لا يعلمه إلا يوسف : ﴿ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ ﴾ أي : الذي فعلتم به ما فعلتم : ﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾ أي : من أبويّ .

قال أبو السعود : زادهم ذلك مبالغة في تعريف نفسه ، وتفخيماً لشأن أخيه ، وتكملة لما أفاده قوله : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ حسبما يفيده قوله : ﴿ قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا ﴾ فكأنه قال : هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال ، فأنا يوسف ، وهذا أخي ، قد منّ الله علينا بالخلاص مما ابتلينا به ، والاجتماع بعد الفرقة ، والعزة بعد الذلة ، والأنس بعد الوحشة .

ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلي بقوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ ﴾ أي : ربه في جميع أحواله : ﴿ وَيَصْبِرْ ﴾ أي : على الضراء ، وعن المعاصي ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : أجرهم ، وفي وضع الظاهر موضع الضمير تنبيه على أن المنعوتين بالتقوى والصبر ، موصوفون بالإحسان .

﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي : فضلّك بما ذكرت من التقوى والصبر ، وسيرة المحسنين : ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أي : وإن شأننا وحالنا أنا كنا متعمدين للذنب ، لم نتق ولم نصبر ، ففعلنا بك ما فعلنا ، ولذلك أوثرت علينا . وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار ، ولذلك :

﴿ قَالَ لاَ تَثْرَيبَ ﴾ أي : لا تعيير ولا توبيخ ولا تقريع : ﴿ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي : وإن كنتم ملومين قبل ظهور منتهى فعلكم ، ولا إثم عليكم ؛ إذ : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي : حقي لرضاي عنكم ، وحقه أيضاً لواسع رحمته ، كما قال : ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أي : فكأنه لا خطأ منكم . و (اليوم) متعلق بالتثريب ، أو بالمقدر في (عليكم) من معنى الاستقرار . والمعنى : ولا أثرّبكم اليوم ، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب ، فما ظنكم

بغيره من الأيام ؟ ! فتعبيره بـ (اليوم) ليس لوقوع التثريب في غيره ، لأن من لم يثرب أول لقائه واشتعال ناره ، فبعده بطريق الأولى .

وقال الشريف المرتضى في " الدرر " : إن اليوم موضوع موضع الزمان كله كقوله :

~اليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم نتبع من كانوا لنا تبعا

ثم زادهم تكريماً بأن دعا لهم بالمغفرة ، لما فرط منهم بقوله : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ تحقيق لحصول المغفرة ؛ لأنه عفا عنهم ، فالله أولى بالعفو والرحمة لهم ، وبيان للوثوق بإجابة الدعاء . وجوز تعلق (اليوم) بـ (يغفر) .

والجملة خبرية سيقت بشارة بعاجل غفران الله ؛ لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم . والوجه الأول أظهر . والثاني من الإغراب في التوجيهات .

تنبيه :

قال بعضهم : إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته ، وإبقاءه عليهم ، ومصافاته لهم ، تعلمنا أن نغفر لمن يسيء إلينا ، ونحسن إليه ، ونصفي له الود ، وأن نغضي عن كل إهانة تلحق بنا ، فيسبغ الله تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته في هذه الدنيا ، كما أوسع على يوسف ويورثنا السعادة الأخروية . وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا ، ونقمنا منهم ، فينتقم الله منا ، ويوردنا مورد الثبور ، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ محاسن التأويل جـ 9 صـ 218 . 221 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾

الفاء عاطفة على كلام مقدّر دل عليه المقام ، أي فارتحلوا إلى مصر بقصد استطلاق بنيامين من عزيز مصر ثم بالتعرض إلى التحسّس من يوسف عليه السلام ، فوصلوا مصر ، فدخلوا على يوسف ، ﴿ فلما دخلوا عليه ﴾ الخ . . .

وقد تقدم آنفاً وجه دعائهم يوسف عليه السلام بوصف العزيز .

وأرادوا بمسّ الضر إصابته .

وقد تقدم إطلاق مسّ الضرّ على الإصابة عند قوله تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ في سورة الأنعام (17) .

والبضاعة تقدمت آنفاً .

والمزجاة : القليلة التي لا يرغب فيها فكأنّ صاحبها يُزجيها ، أي يدفعها بكفة ليقبلها المدفوعة إليه .

والمراد بها مال قليل للامتيار ، ولذلك فرع عليه فأوف لنا الكيل ﴾ .

وطلبوا التصدّق منه تعريضاً بإطلاق أخيهم لأن ذلك فضل منه إذ صار مملوكاً له كما تقدم .

وجملة ﴿ إن الله يجزي المتصدّقين ﴾ تعليل لاستدعائهم التصدّق عليهم .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

الاستفهام مستعمل في التوبيخ .

و﴿ هل ﴾ مفيدة للتحقيق لأنها بمعنى ﴿ قد ﴾ في الاستفهام .

فهو توبيخ على ما يعلمونه محققاً من أفعالهم مع يوسف عليه السلام وأخيه ، أي أفعالهم الذميمة بقرينة التوبيخ ، وهي بالنسبة ليوسف عليه السلام واضحة ، وأما بالنسبة إلى بنيامين فهي ما كانوا يعاملونه به مع أخيه يوسف عليه السلام من الإهانة التي تنافيها الأخوة ، ولذلك جعل ذلك الزمن زمن جهالتهم بقوله : ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ .

وفيه تعريض بأنهم قد صلح حالهم من بعد .

(78/402)

وذلك إما بوحي من الله إن كان صار نبيئاً أو بالفراسة لأنه لما رآهم حريصين على رغبات أبيهم في طلب فداء (بنيامين) حين أُخذ في حكم تهمة السرقة وفي طلب سراحه في هذا الموقف مع الإلحاح في ذلك وكان يعرف منهم معاكسة أبيهم في شأن بنيامين علم أنهم ثابوا إلى

صلاح.

وإنما كاشفهم بحاله الآن لأن الاطلاع على حاله يقتضي استجلاب أبيه وأهله إلى السكنى بأرض ولايته، وذلك كان متوقفاً على أشياء لعلها لم تتهيأ إلا حينئذٍ.

وقد أشرنا إلى ذلك عند قوله تعالى: ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ [يوسف: 79] فقد صار يوسف عليه السلام جِدّ مكين عند فرعون.

وفي الإصحاح (45) من سفر التكوين أن يوسف عليه السلام قال لإخوته حينئذٍ وهو أي الله قد جعلني أباً لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلطاً على كل أرض مصر.

فالظاهر أن الملك الذي أطلق يوسف عليه السلام من السجن وجعله عزيز مصر قد توفّي وخلفه ابن له فجبه يوسفُ عليه السلام وصار للملك الشاب بمنزلة الأب، وصار متصرّفاً بما يريد، فرأى الحال مساعداً لجلب عشيرته إلى أرض مصر.

ولا تعرف أسماء ملوك مصر في هذا الزمن الذي كان فيه يوسف عليه السلام لأن المملكة أيامئذٍ كانت منقسمة إلى مملكتين: إحداهما ملوكها من القبط وهم الملوك الذين يُقسهم المؤرخون الإفرنج إلى العائلات الخامسة عشرة، والسادسة عشرة، والسابعة عشرة، وبعض الثامنة عشرة.

والمملكة الثانية ملوكها من الهكسوس، ويقال لهم: العمالقة أو الرعاة وهم عَرب.

ودام هذا الانقسام خمسمائة سنة وإحدى عشرة سنة من سنة (2214) قبل المسيح

إلى سنة (1703) قبل المسيح .

وقولهم : أإنك لأنت يوسف ﴾ يدل على أنهم استشعروا من كلامه ثم من ملامحه ثم من تفهم قَول أبيهم لهم : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ إذ قد اتضح لهم المعنى التعريضي من كلامه فعرفوا أنه يتكلم مريداً نفسه .

(79/402)

وتأكيد الجملة بـ ﴿ إنّ ﴾ ولام الابتداء وضمير الفصل لشدة تحققهم أنه يوسف عليه السلام .

وأدخل الاستفهام التقريري على الجملة المؤكّدة لأنهم تطلبوا تأيده لعِلمهم به .

وقرأ ابن كثير ﴿ إنك ﴾ بغير استفهام على الخبرية ، والمراد لازم فائدة الخبر ، أي عرفناك ، ألا ترى أن جوابه بـ ﴿ أنَا يوسف ﴾ مجرد عن التأكيد لأنهم كانوا متحققين ذلك فلم يبق إلا تأيده لذلك .

وقوله : ﴿ وهذا أخي ﴾ خبر مستعمل في التعجيب من جمع الله بينهما بعد طول الفرقة ، فجملة ﴿ قد من الله علينا ﴾ بيان للمقصود من جملة ﴿ وهذا أخي ﴾ .

وجملة ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ تعليل لجملة ﴿ منّ الله علينا ﴾ .

فيوسف عليه السلام اتّقى الله وصبر وبنيا مين صَبر ولم يعْص الله فكان تقياً .

أراد يوسف عليه السلام تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى ، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضاً بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على إيثار أبيهم إياهما عليهم .

وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة ، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته .

وذكر المحسنين وضعٌ للظاهر موضع المضمر إذ مقتضى الظاهر أن يقال : فإن الله لا يضيع أجرهُم .

فعدل عنه إلى المحسنين للدلالة على أن ذلك من الإحسان ، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذييل ، ويدخل في عمومه هو وأخوه .

ثم إن هذا في مقام التحدث بالنعمة وإظهار الموعظة سائغ للأنبياء لأنه من التبليغ كقول النبي صلى الله عليه وسلم " إنّي لأتقاكم لله وأعلمكم به " .

والإيثار : التفضيل بالعطاء .

وصيغة اليمين مستعملة في لازم الفائدة ، وهي علمهم ويقينهم بأن ما ناله هو تفضيل من الله وأنهم عرفوا مرتبتَه ، وليس المقصود إفادة تحصيل ذلك لأن يوسف عليه السلام يعلمه .

والمراد : الإيثار في الدنيا بما أعطاه الله من النعم .

واعترفوا بذنبهم إذ قالوا : ﴿ وإنّ كنا لخاطئين ﴾ .

(80/402)

والخاطىء : فاعل الخطيئة ، أي الجريمة ، فنفعت فيهم الموعظة .

ولذلك أعلمهم بأن الذنب قد غفر فرفع عنهم الذم فقال : ﴿ لا تثريب عليكم ﴾ .

والتثريب : التوبيخ والتقريع .

والظاهر أن منتهى الجملة هو قوله : ﴿ عليكم ﴾ ، لأن مثل هذا القول مِمّا يجري مجرى المثل فيُبنى على الاختصار فيكتفي بـ ﴿ لا تثريب ﴾ مثل قولهم : لا بأس ، وقوله تعالى : ﴿ لا وزر ﴾ [القيامة : 11] .

وزيادة عليكم ﴾ للتأكيد مثل زيادة ﴿ لَك ﴾ بعد (سقياً ورعياً) ، فلا يكون قوله : ﴿ اليوم ﴾ من تمام الجملة ولكنه متعلق بفعل ﴿ يغفر الله لكم ﴾ .

وأعقب ذلك بأن أعلمهُم بأن الله يغفر لهم في تلك الساعة لأنها ساعة توبة ، فالذنب مغفور لإخبار الله في شرائعه السالفة دون احتياج إلى وحي سوى أن الوحي لمعرفة إخلاص توبتهم .

وأطلق ﴿ اليوم ﴾ على الزمن ، وقد مضى عند قوله تعالى : ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ﴾ في أول سورة العقود (3) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(81/402)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾

ولم يذكر الحق سبحانه اسم مَنْ دخلوا عليه ، لأنه بطل القصة ، والضمير في " عليه " لا بُدَّ أن يعود إلى معلوم ، ونادوه بالتفخيم قائلين :

﴿ يا أَيُّهَا العزيز مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ [يوسف : 88] .

أي : أن الجوع صيَّرنا إلى هُزَال ، وبدأوا بترقيق قلب مَنْ يسمعهم ؛ بعد تفخيمهم له ؛ فهو الأعلى وهُم الأدنى .

ويستمر قولهم :

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكيل وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ الله يَجْزِي المتصدقين ﴾ [يوسف : 88] .

ونعلم أنهم قد جاءوا ليتحسسوا أمر يوسف وأخيه ، وقد اختاروا مَدْخل الترقيق والتفخيم كلَوْن من المَكْر ، فالتفخيم بندائه بلقب العزيز ؛ أي : المالك المُتمكِّن ؛ ويعني هذا النداء أن ما سوف يطلبونه منه هو أمر في متناول سلطته .

والترقيق بشكوى الحال من جوع صار بهم إلى هُزال ، وأعلنوا قدومهم ومعهم بضاعة مزجاة ، أي : بضاعة تُستخدم كأثمان لِمَا سوف يأخذونه من سِلَع .

وكلمة : ﴿ مُّزْجَاةٍ ﴾ [يوسف : 88] .

أي : مدفوعة من الذي يشتري أو يبيع .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ [النور : 43] .

وكلمة " يزجي " بمعنى : يدفع .

إذن : فما معنى قول الحق سبحانه :

﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ [يوسف : 88] .

ولكي تعرف المعنى بإحساسك ؛ جَرِّب هذا الأمر في نفسك ، وراقب كيف تدفع ثمن أيِّ شيء تشتريه ؛ فإنْ كان معك نقود قديمة ونقود جديدة ؛ ستجد أنك تدفع قيمة ما تشتريه من النقود القديمة ؛ وسوف تجد نفسك مرتاحاً لاحتفاظك بالنقود الجديدة لنفسك .

وقد يقول لك مَنْ تشتري منه : "خذ هذه الورقة النقدية القديمة التي تدفعها لي ، واستبدلها لي بورقة جديدة" .

(82/402)

فما دامت النقود سوف تُدفع ؛ فأنت تريد أن تتخلص من النقود القديمة ؛ وتفعل ذلك وأنت مُرتاح ، وبذلك يمكننا أن نفهم معنى :

﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ [يوسف : 88] .

على أنها بضَاعة رديئة .

فكأن الضُّرَّ الذي أصابهم جعلهم عاجزين عن دفع الأثمان للمَيْرة التي سوف يأخذونها ، مثل الأثمان السابقة التي تميزت بالجودة .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الكيل وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ الله يَجْزِي المتصدقين ﴾ [يوسف : 88] .

أي : أنهم يرجونه أن يُوفِّي لهم الكيل ولا ينقصه ؛ إنْ كان ما جاءوا به من أثمان لا يُوفى ما تساويه المَيْرة ، وطالبوه أن يعتبر تلك التَّوْفِية في الكَيْل صدقة .

وبذلك ردُّوه إلى ثمن أعلى مما حملوه من أثمان ، وفوق قدرة البشر على الدَّفْع ؛ لأن الصدقة

إنما يُثيب عليها الحق سبحانه وتعالى .

ولقائل أن يسأل : أليسوا أبناء نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة ؟

نقول : إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختصَّ به الحق سبحانه آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أمر خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

" إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس " .

وانظر إلى ما فعلته الترقيقات التي قالوها ؛ نظر إليهم يوسف عليه السلام وتبسم ، ولما تبسَّم ظهرت ثناياه ، وهي ثنايا مميزة عن ثنايا جميع مَنْ رأوه .

وجاء الحق سبحانه بما قاله : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ . . . ﴾ .

ومجيء هذا القول في صيغة السؤال ؛ يدفعهم إلى التأمل والتدقيق ؛ لمعرفة شخصية المُتحدّث .

ثم يأتي التلطُّف الجميل منه حين يضيف :

﴿ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف : 89] .

وفي هذا القول ما يلتمس لهم به العُذْر بالجهل ، ولم يتحدث إليهم بعِزَّة الكبرياء ، وغرور المكانة التي وصل إليها ، وهدفه أن يخفف عَنهم صَدْمة المفاجأة ، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم .

وهذا مثلما يكون أحدهم قد أخطأ في حقّك قديماً بسلوك غير مقبول ، ولكن الأيام أزالتْ مرارتك من سلوكه ، فتُذكِّره بما فعله قديماً وأنت تقول له : إن فعلك هذا قد صدر منك أيام طَيْشك ، لكنك الآن قد وصلت إلى درجة التعقُّل وفَهْم الأمور .

وقول يوسف عليه السلام لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطُّف ، إنما يعبر أيضاً عن تأثُّره بشكواهم ، ثم تبسُّمه لهم ، وظهور ثناياه دفعهم إلى تذكُّره ، ودار بينهم وبينه الحوار الذي جاء في الآية التالية : ﴿ قالوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ . . . ﴾ .

وهكذا انتبهوا إلى شخصية يوسف وتعرَّفوا عليه ، وقالوا :

﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ . . . ﴾ [يوسف : 90] .

وجاء قولهم بأسلوب الاستفهام التقريريّ الذي أكّدوه ب " إنْ " و " اللام " ، وقد قالوا ذلك بلهجة مُمتلئة بالفرح والتعجُّب بنجاحهم في التحسُّس الذي أوصاهم به أبوهم .

فرد عليهم :

﴿ أَنَاْ يُوسُفُ وهذا أَخِي ﴾ [يوسف : 90] .

وبطبيعة الحال هم يعرفون أخَ يوسف " بنيامين " ، وجاء ذِكْر يوسف له هنا دليلاً على أن بنيامين قد دخل معه في النعمة ، وأن الحق سبحانه قد أعزَّ الاثنين .

ويجيء شُكْر يوسف لله على نعمته في قوله :

﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 90]

.

وجاء يوسف بهذا القول الذي يعرض القضية العامة التي تنفعهم كإخوة له ، وتنفع أيَّ سامع لها وكل مَنْ يتلوها ، وقد قالها يوسف عليه السلام بعد بيِّنة من واقع أحداث مرَّتْ به بَدْءاً من الرُّؤيا إلى هذا الموقف .

فهو كلام عليه دليل من واقع مُعَاش ، فقد مَنَّ الله على يوسف وأخيه مما ابْتُلِيا به واجتمعا من بعد الفُرْقة ، وعَلَّل يوسف ذلك بالقول :

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ ﴾ [يوسف : 90] .

(84/402)

أي : مَنْ يجعل بينه وبين معصية الله وقاية ، ويخشى صفات الجلال ، ويتبع منهجه سبحانه ، ويصبر على ما أصابه ، ولا تفتر هِمَّته عن عبادة الله طاعة ، ويتجنب كل المعاصي مهما زُيِّنَتْ له .

فسبحانه وتعالى لا يُضيع أجر المحسنين الذين يتقونه ، وصاروا بتقواهم مُستحقِّين لرحمته ، وإحسانه في الدنيا والآخرة .

ويأتي قول الحق سبحانه بعد ذلك ليحمل لنا ما قاله أخوة يوسف في هذا الموقف : ﴿ قَالُواْ تالله . . . ﴾ .

و " تالله " قَسَم بالله .

و ﴿ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا . . ﴾ [يوسف : 91] .

أي : خصَّك بشيء فوق ما خَصَّ به الآخرين ، وهو لم يُؤثِرْك بظلم لغيرك ، ولكنك كنت تستحق ما آثرك به من المُلْك وعلو الشأن والمكانة .

وهكذا صدَّق إخوة يوسف على ما قاله يوسف ، واعترفوا بخطيئتهم ، حين حاولوا أن يكونوا مُقرَّبين مثله عند أبيهم ، ولكنك يا يوسف وصلت إلى أن تصير مُقرباً مُقدَّماً عند ربِّ أبينا وربِّ العالمين .

والشأن والحال التي كنا فيها تؤكد أننا كنا خاطئين ، ولا بُدَّ أن ننتبه إلى الفَرْق بين " خاطئين " و " مخطئين " .

والعزيز قد قال لزوجته : ﴿ واستغفري لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ﴾ [يوسف : 29] .

ولم يَقُلْ لها " كنت من المخطئين " فالمادة واحدة هي : " الخاء " و " الطاء " و " الهمزة " ، ولكن المعنى يختلف ، فالخاطئ هو مَنْ يعلم منطقة الصواب ويتعدَّاها ، أما المُخْطئ فهو مَنْ لم يذهب إلى الصواب ؛ لأنه لا يعرف مكانه أو طريقه إليه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام لأخوته بعد أن أقرُّوا بالخطأ :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ . . . ﴾ .

والتثريب هو اللوم العنيف ، وهو مأخوذ من الثَّرْب ؛ فحين يذبحون ذبيحة ، ويُخرِجون أمعاءها يجدون حول الأمعاء دُهْناً كثيفاً ؛ هذا الدُّهْن يُسمَّى ثَرْب .

أما إن كانت هزيلة ، ولم تتغذَّ جيداً ، فأمعاؤها تخرج وقد ذاب من عليه هذا الثَّرْب .

(85/402)

والتثريب يعني : أن اللوم العنيف قد أذابَ الشحم من لحمه ، وجعل دمه ينزّ ، ويكاد أن يصل بالإنسان إلى أن ينزل به ويسلّه .

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا زنت أَمَةُ أحدكم فتبيَّن زناها فليجلدها الحدّ ، ولا يُثرِّب عليها ، ثم إن زنت فليجلدها الحد ، ولا يُثرِّب عليها ، ثم إنْ زنت الثالثة فتبيّن زِنَاها فَليبِعْها ، ولو بحبل من شعر " .

أي : لا يقولن لها : يا مَنْ فعلت كذا وكذا ، بل فليعاقبها بالعقاب الذي أنزله الله لمثل هذه الجريمة ؛ فإن لم ترتدع عن الفعل فَلْيبِعْها ، وهكذا نفهم أن التثريب أو اللوم العنيف قد يُولِّد العِناد .

وقال يوسف عليه السلام :

﴿ اليوم يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [يوسف : 92] .

ولقائل أن يتساءل : ولماذا قال يوسف ذلك ؛ وقد يكونون قد استغفروا الله من قبل ؟

ونقول : إن دعوة يوسف بالمغفرة لهم جاءت في حدود معرفته ولتصفية النفوس مما شابها بهذا اللقاء .

وقوله :

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [يوسف : 92] .

هو فَهْمٌ لحقيقة أن أيَّ رحمة في العالم ، أو من أي أحد إنما هي مُستمدَّة من رحمته سبحانه .

وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته ، لأنه قد غفر لهم خطأهم القديم وعَفَا عنهم ؛ والله أَوْلَى منه بالعفو عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(86/402)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا

الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ مُّزْجَاةٍ ﴾ : أي : مَدْفُوعة يَدْفَعها كلُّ أُحدٍ عنه لزهادته فيها ، ومنه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ [النور : 43] ، أي : يَسُوقها بالريح . وقال حاتم الطائي :

2824 لِبَيْكِ على مِلْحانَ ضَيْفٌ مُدَفَّعٌ . . . وأَرمَلَةٌ تُزْجي مع الليل أَرْمَلا

ويقال : أَزْجَيْتُ رديءَ الدرهم فَزُجِيَ ، ومنه استعير " زَجَا الخراجَ يَزْجُو زَجَاءً " ، وخَرَاجٌ زاجٍ ، وقول الشاعر :

2825 . . . . وحاجةٍ غيرِ مُزْجاةٍ من الحاجِ

أي : غير يسيرةٍ يمكن دَفْعُها وصَرْفها لقلة الاعتداد بها / فألف " مُزْجاةٌ " منقلبة عن واو .

وقوله : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الكيل ﴾ يجوز أن يُراد به حقيقته من الآلة ، وأن يُرادَ به المَكِيل فيكونَ مصدراً .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ ﴾ : يجوز أن يكونَ استفهاماً للتوبيخ وهو الأظهرُ . وقيل : هو خبر ، و " هل " بمعنى قد .

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَإِنَّكَ ﴾ : قرأ ابن كثير ، إنَّك " بهمزة واحدة والباقون بهمزتين استفهاماً ، وقد عَرَفْتَ قراءاتهم في هاتين الهمزتين تخفيفاً وتسهيلاً وغيرَ ذلك . فأمَّا قراءة ابن كثير فيحتمل أن تكون خبراً محضاً ، واستُبْعِد هذا مِنْ حيث تخالُفُ القراءتين مع أن القائلَ واحد ، وقد أجيب عن ذلك بأنَّ بعضَهم قاله استفهاماً ، وبعضهم قاله خبراً ، ويحتمل أن تكونَ استفهاماً حُذِفَت منه الأداة لدلالة السياق ، والقراءةُ الأخرى عليه . وقد تقدَّم لك نحوُه من هذا في الأعراف . و " لأَنْتَ " يجوز أن تكونَ " أنت " مبتدأً و " يوسف " خبرُه ، والجملةُ خبر " إنَّ " دَخَلَتْ عليها لامُ الابتداء . ويجوز أن يكونَ فصلاً ، ولا يجوز أن يكونَ تأكيداً لاسم إنَّ ؛ لأنَّ هذه اللامَ لا تَدْخُل على التوكيد .

وقرأ أُبَيّ : " أإنك أو أنت يوسف " ، وفيها وجهان ، أحدهما ما قاله أبو الفتح : من أن الأصل أإنك لغيرُ يوسف أو أنت يوسفُ ، فحذف خبر " إن " لدلالة المعنى عليه . الثاني ما قاله الزمخشري : وهو إنك يوسفُ أو أنت يوسف " فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ، وهذا كلامُ متعجب مُسْتَغْرِبٍ لما يَسْمع فهو يكرِّر الاستثباتَ " .

قوله : ﴿ يَتَّقِ ﴾ قرأ قنبل " يَتَّقي " بإثبات الياء وصلاً ووقفاً ، والباقون بحذفها فيهما . وأمَّا قراءةُ الجماعة فواضحة لأنه مجزوم . وأما قراءةُ قنبل فاخْتَلَفَ فيها الناسُ على قولين ، أجودهما : أنَّ إثباتَ حرفِ العلة في الحركة لغةٌ لبعض العرب ، وأنشدوا على ذلك قولَ

قيس ابن زهير :

2826 ألم يأتيك والأنباء تَنْمي . . . بما لاقَتْ لَبونُ بني زيادِ

وقول الآخر :

2827 هَجَوْت زَبَّانَ ثم جِئْتَ مُعْتَذِراً . . . مِنْ هَجْوِ زَبَّانَ لم تَهْجُو ولم تَدَعِ

وقول الآخر :

2828 إذا العجوزُ غَضِبَتْ فَطَلِّقِ . . . ولا تَرَضَّاها ولا تَمَلَّقِ

(88/402)

ومذهبُ سيبويه أنَّ الجزمَ بحذف الحركة المقدرة ، وإنما تبعها حرفُ العلة في الحذف تَفْرِقَةً بين المرفوع والمجزوم . واعتُرض عليه بأنَّ الجازم يُبَيّن أنه مجزوم ، وعَدَمَه يبيِّن أنه غير مجزوم . وأجيب بأنه في بعض الصور يُلْبِس فاطَّرَدَ الحَذْفُ ، بيانه أنك إذا قلت : " زُرْني أعطيك " بثبوت الياء احتمل أن يكون " أعطيك " جزاءً لزيارته ، وأن يكونَ خبراً مستأنفاً ، فإذا قلت : " أُعْطك " بحذفها تعيَّن أن يكونَ جزاءً له ، فقد وقَعَ اللَّبْسُ بثبوت حرف العلة وفُقِد بحَذْفِه ، فيقال : حرفُ العلة يُحذف عند الجازم لا به . ومذهب ابن السَّراج أن الجازم أَثَّرَ في نفسِ الحرف فحذفه ، وفيه البحث المتقدم .

الثاني : أنه مرفوعٌ غير مجزومٍ ، و " مَنْ " موصولةٌ والفعل صلتُها ، فلذلك لم يَحْذف لامَه .

واعْتُرِض على هذا بأنه قد عُطِف عليه مجزومٌ وهو قوله " ويَصْبِرْ " فإنَّ قنبلاً لم يَقْرأه إلا ساكنَ الراء .

وأجيب عن ذلك بأنَّ التسكين لتوالي الحركات . وإنْ كان من كلمتين كقراءة أبي عمرو : ﴿ يَنصُرْكُمُ ﴾ [آل عمران : 160] ﴿ يَأْمُرْكُمْ ﴾ [البقرة : 67] . وأُجيب أيضاً بأنه جُزِم على التوهُّم ، يعني لَمَّا كانت " مَنْ " الموصولةُ تُشْبه " مَنْ " الشرطية . وهذه عبارةٌ فيها غَلَطٌ على القرآن فينبغي أن يُقال : فيها مراعاةٌ للشبه اللفظي ، ولا يقال للتوهُّم . وأجيب أيضاً بأنه سُكِّن للوقف ثم أُجري الوصل مُجرى الوقفِ . وأُجيب أيضاً بأنه إنما جُزِم حملاً ل " مَنْ " الموصولة على " مَنْ " الشرطية ؛ لأنها مثلُها في المعنى ولذلك دَخَلَتِ الفاءُ في خبرها .

(89/402)

قلت : وقد يُقال على هذا : يجوز أن تكونَ " مَنْ " شرطيةً ، وإنما ثَبَتَت الياءُ ، ولم تَجْزِمْ " مَنْ " لشبهها ب " مَنْ " الموصولة ، ثم لم يُعْتَبر هذا الشبهُ في قوله " ويَصْبر " فلذلك جَزَمَه إلا أنه يَبْعُدُ مِنْ جهة أنَّ العامل لم يؤثِّر فيما بعده ، ويليه ويؤثِّر فيما هو بعيدٌ منه . وقد تقدَّم

الكلامُ على مثل هذه المسألة أولَ السورة في قوله ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ [يوسف : 12] .

وقوله ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ ﴾ الرابطُ بين جملة الشرط وبين جوابها : أمَّا العمومُ في " المحسنين " ، وإمَّا الضميرُ المحذوف ، أي : المحسنين منهم ، وإمَّا لقيام أل مُقامه والأصل : مُحْسِنيهم ، قامَتْ أل مُقام ذلك الضمير .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) ﴾

قوله تعالى : ﴿ آثَرَكَ ﴾ : أي : " تَفَضَّل عليك ، والإِيثار : التفضيل/ بجميع أنواع العطايا ، آثَره يُؤْثِره إيثاراً ، وأصلُه مِن الأَثَر وهو تَتَبُّع الشيءِ فكأنه يَسْتقصي جميعَ أنواع المكارم ، وفي الحديث " ستكون بعدي أَثَرة " ، أي : يَسْتأثر بعضُكم على بعض ، ويقال : استأثر بكذا ، أي : اختصَّ به ، واستأثر الله بفلانٍ كنايةٌ عن اصطفائه ، قال الشاعر :

2829 والله أَسْماك سُما مباركا . . . آثرك الله به إيثاركا

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) ﴾

(90/402)

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ : " عليكم " يجوز أن يكون خبراً ل " لا " ، و " اليومَ " : يُحتمل أن يتعلَّقَ بما تعلَّق به هذا الخبر ، أي : لا تثريبَ مستقرٌّ عليكم اليومَ . ويجوز أَنْ يكونَ

" اليوم " خبرَ " لا " و " عليكم " متعلقٌ بما تعلّق به هذا الظرفُ . ويجوز أن يكون " عليكم " صفةً لاسم " لا " ، و " اليوم " خبرُها أيضاً ، ولا يجوز أن يتعلق كلٌّ مِن الظرف والجارِّ ب " تَثْريب " لأنه يصير مُطَوَلاً شبيهاً بالمضاف ، ومتى كان كذلك أُعْرِب ونُوِّن نحو : " لا خيراً مِنْ زيد عندك " ، ويزيدُ عليه الظرفُ : بأنه يَلْزم الفصلُ بين المصدرِ المؤول بالموصولِ ومعموله بأجنبي وهو " عليكم " لأنه : إمَّا خبر وإمَّا صفة .

وقد جوَّز الزمخشري أن يكونَ الظرفُ متعلقاً ب " تَثْريب " فقال : " فإنْ قلت : بِمَ يتعلَّق " اليوم " ؟ قلت : بالتثريب أو بالمقدَّر في " عليكم " من معنى الاستقرار ، أو ب " يَغْفر " .

قلت : فَجَعْلُه أنَّه متعلقٌ ب " تَثْريب " فيه ما تقدم . وقد أَجْرَى بعضُهم الاسمَ العاملَ مُجرى المضافِ لشبهه به فيُنْزَع ما فيه من تنوينٍ أو نون ، وجعل الفارسي من ذلك قوله :

2830 أراني ولا كُفْرانَ للَّه آيَةً ... لنفسي ، لقد طالَبْتُ غيرَ مُنِيْلِ

قال : " فآيَةً منصوب بكُفْران ، أي : لا أكفر اللَّهَ رحمةً لنفسي . ولا يجوزُ أن تُنْصب " آيَةً " بأَوَيْت مضمراً ؛ لئلا يَلْزمَ الفصلُ بين مفعولي " أرى " بجملتين : أي ب " لا " وما في حيِّزها ، و ب " أَوَيْت " المقدرة . ومعنى أَوَيْت رَقَقْت . وجعل منه الشيخ جمال الدين بن مالك ما جاء في الحديث " لا صَمْتَ يومٌ إلى الليل " برفع " يومٌ " على أنه مرفوعٌ بالمصدرِ المنحلِّ لحرفٍ مصدري وفعل مبني للمفعول ، وفي بعض ما تقدم خلافٌ لا يَليقُ التعرُّضُ له هنا .

وأمّا تعليقُه بالاستقرار المقدر فواضِحٌ، ولذلك وقف أكثرُ القراءِ عليه، وابتدأ ب ﴿ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ﴾ ، وأمّا تعليقُه ب "يَغْفر" فواضِحٌ أيضاً ولذلك وقف بعضُ القرّاء على " عليكم" وابتدأ ﴿ اليوم يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ﴾ ، وجوَّزوا أن يكونَ "عليكم" بياناً ك "لك" في نحو "سقياً لك" ، فعلى هذا تتعلَّق بمحذوف، ويجوز أن يكونَ خبرُ "لا" محذوفاً ، و " عليكم" و "اليوم" كلاهما متعلقان بمحذوفٍ آخر يدل عليه "تثريب" ، والتقدير : لا تثريب يَثْرِبُ عليكم اليومَ، كما قَدَّروا في

﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ [هود : 43] لا عاصمَ يَعْصِم اليومَ . قال الشيخ : "لو قيل به لكان قوياً" .

وقد يُفرَّق بينهما بأنَّ هنا يلزم كثرةُ المجاز، وذلك أنَّك تَحْذف الخبر ، وتَحْذف هذا الذي تَعَلَّق به الظرفُ وحرفُ الجر وتَنسب الفعل إليه ؛ لأن التثريب لا يَثْرِب إلا مجازاً كقولهم : " شعرٌ شاعر " بخلاف " عاصم يَعْصِم " فإن نسبة الفعل إلى العاصم حقيقة ، فهناك حَذْف شيءٍ واحدٍ من غير مجاز، وهنا حَذْف شيئين مع مجاز .

والتَّثْريبُ العَتْب والتأنيب ، وعَبَّر بعضُهم عنه بالتعيير، مِنْ عَيَّرته بكذا إذا عِبْته به ، وفي الحديث : "إذا زنَتْ أَمَةُ أحدِكم فَلْيَجْلِدْها ولا يُثَرِّبْ" ، أي : لا يُعَيِّر ، وأصله مِن الثَّرْب وهو ما يَغْشى الكَرْش من الشحم ، ومعناه إزالة الثَّرْب كما أن التجليدَ إزالة الجِلْد ، فإذا

قلت : " تَرّبْتُ فلاناً " فكأنك لشدة عَيْبِك له أزَلْت تُرْبَه فضُرِب مَثَلاً في تمزيق الأعراض .

وقال الراغب : " ولا يُعْرف مِنْ لَفْظِه إلا قولُهم " التَّرْب " وهو شَحْمة رقيقة ، وقولُه تعالى :

﴿ ياأهل يَثْرِبَ ﴾ [الأحزاب : 13] يَصِحُّ أن يكونَ أصلُه من هذا الباب والياءُ في مزيدة

" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 550 . 556 ﴾

(92/402)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾

لما دخلوا على يوسف خاطبوه بذكر الضُّرّ ، ومقاساة الجوع والفقر ، ولم يذكروا حديث يوسف عليه السلام ، وما لأجله وَجَّهَهُم أبوهم .

ويقال استلطفوه بقولهم : ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ ثم ذكروا بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم .

ويقال لمَّا طالعوا فقرهم نطفوا بقدرهم فقالوا : وجئنا ببضاعة مزجاة - أي رديئة - ولما شاهدوا قدر يوسف سألوا على قدره فقالوا : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ .

ويقال قالوا كلنا كيلاً يليق بفضلك لا بفقرنا ، وبكرمك لا بعدمنا ، ثم تركوا هذا اللسان وقالوا : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ : نزلوا أوضعَ منزلٍ ؛ كأنهم قالوا : إنْ لم نستوجبْ معاملة البيع والشراء فقد استحققنا بَذْلَ العطاءِ ، على وجه المكافأة والجزاء .

فإنْ قيل كيف قالوا وتصدّقْ علينا وكانوا أنبياء – والأنبياء لا تحل لهم الصدقة ؟

فيقال لم يكونوا بعد أنبياء ، أو لعلّه في شرعهم كانت الصدقة غيرَ مُحرَّمةٍ على الأنبياء .

ويقال إنما أرادوا أنّ مِنْ ورائنا مَنْ تَحِلُّ له الصدقة .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) ﴾

افتضحوا بحضرة يوسف عليه السلام وقالوا : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ فعرفهم فعلمهم ووقفهم عند أحدهم فقال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ يعني إنّ مَنْ عَامَل يوسفَ وأخاه بمثل معاملتكم فلا ينبغي له أن يتجاسَرَ في الخطاب كتجاسركم .

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لهم : أنهيتم كلامكم ، وأكثرتم خطابكم ، فما كان في حديثكم إلا ذكر ضرورتكم . . أفلا يخطر ببالكم حديث أخيكم يوسف ؟ ! وذلك في باب العتابِ أعظم من كلِّ عقوبة .

ولمّا أخجلهم حديث العتاب لم يَرْضَ يوسفُ حتى بسط عندهم فقال : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) ﴾

في الابتداء حين جهلوه كانوا يقولون له في الخطاب : " يا أيها العزيز " فلمّا عرفوه قالوا : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ ؛ لأنه لمّا ارتفعت الأجنبيةُ سقط التكلُّف في المخاطبة ، وفي معناه أنشدوا :

إذا صفَتْ المودَّةُ بين قومٍ . . . ودام ودادُهم قَبُحَ الثّناءُ

ويقال إنَّ التفاصُلَ والتفارُقَ بين يوسف وإخوته سَبَقَا التواصلَ بينه وبين يعقوب عليهما السلام ؛ فالإخوةُ خَبَره عرفوه قبل أنْ عَرَفَه أبوه ليعلَم أن الحديث بلا شكٍ .

ويقال لم يتقدموا على أبيهم في استحقاق الخبر عن يوسف ومعرفته ، بل إنهم - وإن عرفوه- فلم يلاحظوه بعين المحبة والخلة ، وإنما كان غرضُهم حديثَ الميرة والطعام فقط ، فقال : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِى ﴾ : يعني إني لأخٍ لِمثْلِ هذا لمثلكم ؛ ولذا قال : ﴿ أَنَّا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِى ﴾ ، ولم يقل وأنتم إخوتي ، كأَنَّه أشار إلى طرفٍ من العتاب ، يعني ليس ما عاملتموني به فِعْلَ الإخوة .

ويقال هوَّنَ عليهم حالَ بَداهَةِ الخجلة حيث قال ﴿ أَنَا يُوسُفُ ﴾ بقوله : ﴿ وَهَذَا أَخِى

﴿ وكأنه شغلهم بقوله : ﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾ كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه : 17] إنه سبحانه شغل موسى عليه السلام باستماع : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه : 17] بمطالعة العصا في عين ما كوشف به من قوله : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾ [طه : 14] .

(94/402)

ثم اعترف بوجدان الجزاء على الصبر في مقاساة الجهد والعناء فقال : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وسمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق - رحمه الله - يقول لما قال يوسف : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ أحَال في استحقاق الأجر على ما عمل من الصبر . . . فأنطقهم الله حتى أجابوه بلسان التوحيد فقالوا : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ يعني ليس بصبرِك يا يوسفُ ولا بتقواك ، وإنما هو بإيثار اللَّهِ إياك علينا ؛ فبه تقدمت علينا بجمدك وتقواك . فقال يوسف - على جهة الانقياد للحقّ - : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ ، فأسقط عنهم اللوم ، لأنه لمَّا لم يَرَ تقواه من نفسه حيث نبّهوه عليه نَطَقَ عن التوحيد ، وأخبر عن شهود التقدير .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) ﴾

اعترفوا بالفضل ليوسف – عليه السلام – حيث قالوا : لقد آثرك الله علينا ، وأكَّدوا إقرارَهم بالقَسَم بقوله : ﴿ تَاللَّهِ ﴾ وذلك بعد ما جحدوا فَضْلَه بقولهم : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ، وهكذا من جحد فلأنه ما شهد ، ومن شهد فما جحد .

ويقال لمّا اعترفوا بفضله وأقرُّوا بما اتصفوا به من جُرْمهم بقولهم : ﴿ وإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ وجدوا التجاوز عنهم .

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) ﴾

أسرع يوسفُ في التجاوز عنهم ، ووَعَد يعقوبُ لهم بالاستغفار بقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى ﴾ لأنه كان أشدَّ حباً لهم فعاتبهم ، وأما يوسف فلم يرهم أهلاً للعتاب فتجاوز عنهم على الوهلة ، وفي معناه أنشدوا :

تركُ العتابِ إذا استحق أخ . . . مِنك العتابَ ذريعةُ الهَجْرِ

ويقال أصابهم – في الحال – مِنَ الخجلة مقام كلِّ عقوبة ، ولهذا قيل :

كفى للمقصِّر الحياءُ يوم اللقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 202 . 205 ﴾

فصل

قال صاحب الميزان فى الآيات السابقة :

﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾

(بيان) فصل آخر مختار من قصة يوسف (عليه السلام) يذكر الله تعالى فيه مجئ اخوته إليه في خلال سنى الجدب لاشتراء الطعام لبيت يعقوب وكان ذلك مقدمة لضم يوسف (عليه السلام) اخاه من امه وهو المحسود المذكور في قوله تعالى : " حكاية عن الاخوة ليوسف واخوه احب إلى ابينا منا ونحن عصبة " إليه ثم تعريفهم نفسه ونقل بيت يعقوب (عليه السلام) من البدو إلى مصر .

وانما لم يعرفهم نفسه ابتداء لأنه اراد ان يلحق اخاه من امه إلى نفسه ويرى اخوته من ابيه عند تعريفهم نفسه صنع الله بهما ومن الله عليهما اثر تقواهما وصبرهما على ما آذوهما عن الحسد والبغى ثم يشخصهم جميعا والآيات الخمس تتضمن قصة دخولهم مصر واقتراحه ان يا توا باخيهم من ابيهم إليه ان عادوا إلى اشتراء الطعام والميرة وتقبلهم ذلك .

قوله تعالى : " وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون " في الكلام حذف كثير وانما ترك الاقتصاص له لعدم تعلق غرض هام به وانما الغرض بيان لحوق اخى يوسف من امه به واشراكه معه في النعمة والمن الإلهى ثم معرفتهم بيوسف ولحوق بيت يعقوب به

فهو شطر مختار من قصته وما جرى عليه بعد عزة مصر .

والذى جاء إليه من اخوته هم العصبة ما خلا اخيه من امه فان يعقوب (عليه السلام) كان يأنس به ولا يخلى بينه وبينهم بعد ما كان من أمر يوسف ما كان والدليل على ذلك كله ما سيأتي من الآيات .

(96/402)

وكان بين دخولهم هذا على اخيهم يوسف وبين انتصابه على خزائن الأرض وتقلده عزة مصر بعد الخروج من السجن اكثر من سبع سنين فانهم انما جاؤا إليه في بعض السنين المجدبة وقد خلت السبع السنون المخصبة ولم يروه منذ سلموه إلى السيارة يوم اخرج من الجب وهو صبى وقد مر عليه سنون في بيت العزيز ولبث بضع سنين في السجن وتولى أمر الخزائن منذ اكثر من سبع سنين وهو اليوم في زى عزيز مصر لا يظن به انه رجل عبرى من غير القبط وهذا كله صرفهم عن ان يظنوا به انه اخوهم ويعرفوه لكنه عرفهم بكياسته أو بفراسة النبوة كما قال تعالى : " وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون "

.

قوله تعالى : " ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من ابيكم الا ترون انى أوفي الكيل

وانا خير المنزلين " قال الراغب في المفردات الجهاز ما يعد من متاع وغيره والتجهيز حمل ذلك أو بعثه انتهى فالمعنى ولما حملهم ما اعد لهم من الجهاز والطعام الذى باعه منهم امرهم بان ياتوا إليه باخ لهم من ابيهم وقال ائتونى الخ .

وقوله ألا ترون انى أوفي الكيل أي لا ابخس فيه ولا اظلمكم بالاتكاء على قدرتي وعزتي وانا خير المنزلين اكرم النازلين بى واحسن مثواهم وهذا تحريض لهم ان يعودوا إليه ثانيا ويأتوا إليه بأخيهم من ابيهم كما ان قوله في الآية التالية : " فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون " تهديد لهم لئلا يعصوا امره وكما ان قولهم في الآية الاتية : " سنراود عنه اباه وانا لفاعلون " تقبل منهم لذلك في الجملة وتطييب لنفس يوسف (عليه السلام) .

ثم من المعلوم ان قوله (عليه السلام) أو ان خروجهم " ائتونى بأخ لكم من ابيكم " مع ما فيه من التأكيد والتحريض والتهديد ليس من شأنه ان يورد كلاما ابتدائيا من غير مقدمة وتوطئة تعمي عليهم وتصرفهم ان يتفطنوا أنه يوسف أو يتوهموا فيه ما يريبهم في أمره .

وهو ظاهر .

وقد اورد المفسرون في القصة من مفاوضته لهم وتكليمه اياهم امورا كثيرة لا دليل على شئ منها من كلامه تعالى في سياق القصة ولا اثر يطمأن إليه في امثال المقام .

وكلامه تعالى خال عن التعرض لذلك ، وانما الذي يستفاد منه أنه سألهم عن خطبهم فأخبروه وهم عشرة أنهم اخوة وأن لهم أخا آخر بقي عند أبيهم لا يفارقه ابوه ولا يرضى أن يفارقه لسفر أو غيره فأحب العزيز أن يأتوا به إليه فيراه .

قوله تعالى : " فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون " الكيل بمعنى المكيل وهو الطعام ، ولا تقربون اي لا تقربوني بدخول أرضي والحضور عندي للامتيار واشتراء الطعام .

ومعنى الآية ظاهر ، وهو تهديد منه لهم لو خالفوا عن أمره كما تقدم .

قوله تعالى : " قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون " المراودة كما تقدم هي الرجوع في أمر مرة بعد مرة بالالحاح أو الاستخدام ، ففي قولهم ليوسف (عليه السلام) " سنراود عنه أباه " دليل على انهم قصوا عليه قصته أن أباهم يضن به ولا يرضى بمفارقته له ويأبى أن يبتعد منه لسفر أو أي غيبة ، وفى قولهم : " اباه " ولم يقولوا : ابانا تأييد لذلك .

وقولهم : " وإنا لفاعلون " أي فاعلون للاتيان به أو للمراودة لحمله معهم والاتيان به إليه ، ومعنى الآية ظاهر ، وفيه تقبل منهم لذلك في الجملة وتطييب لنفس يوسف (عليه السلام) كما تقدم .

قوله تعالى : " وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون " الفتيان جمع الفتى وهو الغلام وقال الراغب البضاعة قطعة وافرة من المال يقتنى للتجارة يقال ابضع بضاعة وابتضعها قال تعالى " هذه بضاعتنا " ردت الينا وقال تعالى ببضاعة مزجاة والأصل في هذه الكلمة البضع بفتح الباء وهو جملة من اللحم يبضع أي يقطع قال وفلان بضعة منى أي جار مجرى بعض جسدي لقربه منى قال والبضع بالكسر المنقطع من العشرة ويقال ذلك لما بين الثلاث إلى العشرة وقيل بل هو فوق الخمس ودون العشرة انتهى والرحال جمع رحل وهو الوعاء والاثاث والانقلاب الرجوع .

ومعنى الآية وقال يوسف (عليه السلام) لغلمانه اجعلوا ما لهم وبضاعتهم التى قدموها ثمنا لما اشتروه من الطعام في اوعيتهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا ورجعوا إلى اهلهم وفتحوا الاوعية لعلهم يرجعون الينا ويأتوا باخيهم فان ذلك يقع في قلوبهم ويطمعهم إلى الرجوع والتمتع من الاكرام والاحسان

﴿ فلما رجعوا إلى ابيهم قالوا يا ابانا منع منا الكيل فارسل معنا اخانا نكتل وانا له لحافظون - 63 . ﴾

(بيان) الآيات تقتص رجوع اخوة يوسف (عليه السلام) من عنده إلى ابيهم وارضاءهم اباهم ان يرسل معهم اخا يوسف من امه للاكتيال ثم مجيئهم ثانيا إلى يوسف واخذ يوسف اخاه إليه عن حيلة احتالها لذلك .

قوله تعالى : " فلما رجعوا إلى ابيهم قالوا يا ابانا منع منا الكيل فأرسل معنا اخانا نكتل وانا له لحافظون " الاكتيال اخذ الطعام كيلا ان كان مما يكال قال الراغب الكيل كيل الطعام يقال كلت له الطعام إذا توليت له ذلك وكلته الطعام إذا اعطيته كيلا واكتلت عليه إذا اخذت منه كيلا قال تعالى : " ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم " .

(99/402)

وقوله : " قالوا يا ابانا منع منا الكيل أي لو لم نذهب بأخينا ولم يذهب معنا إلى مصر بدليل قوله فأرسل معنا اخانا فهو اجمال ما جرى بينهم وبين عزيز مصر من امره بمنعهم من الكيل ان لم ياتوا إليه باخ لهم من ابيهم يقصونه لابيهم ويسألونه ان يرسله معهم ليكتالوا ولا يحرموا . وقولهم اخانا اظهار رأفة واشفاق لتطييب نفس ابيهم من انفسهم كقولهم " وانا له لحافظون " بما فيه من التأكيد البالغ .

قوله تعالى : " قال هل آمنكم عليه الا كما امنتكم على اخيه من قبل فالله خير حافظا وهو

ارحم الراحمين " قال في المجمع الا من اطمئنان القلب إلى سلامة الأمر يقال أمنه يأمنه امنا انتهى فقوله هل آمنكم عليه الخ أي هل اطمئن اليكم في ابني هذا الا مثل ما اطمانت اليكم في اخيه يوسف من قبل هذا فكان ما كان .

ومحصله انكم تتوقعون منى ان اثق فيه بكم وتطمئن نفسي اليكم كما وثقت بكم واطمانت اليكم في اخيه من قبل وتعدونني بقولكم وانا له لحافظون ان تحفظوه كما وعدتم في يوسف بقولكم وانا له لحافظون وقد امنتكم بمثل هذا الا من على يوسف فلم تغنوا عنى شيئا وجئتم بقميصه الملطخ بالدم ان الذئب اكله وامنى لكم على هذا الاخ مثل امني على اخيه من قبل امن لمن لا يغنى امنه والاطمئنان إليه شيئا ولا بيده حفظ ما سلم إليه وائتمن له .

وقوله فالله خير حافظا وهو ارحم الراحمين تفريع على سابق كلامه هل آمنكم عليه الخ وتفيد الاستنتاج أي إذا كان الاطمئنان اليكم في امره لغي لا اثر له ولا يغنى شيئا فخير الاطمئنان والاتكال ما كان اطمئنانا إلى الله سبحانه من حيث حفظه وإذا تردد الأمر بين التوكل عليه والتفويض إليه وبين الاطمئنان إلى غيره كان الوثوق به تعالى هو المختار المتعين

وقوله " وهو ارحم الراحمين " في موضع التعليل لقوله فالله خير حافظا أي ان غيره تعالى ربما امن في أمر وائتمن عليه في امانة سلم له فلم يرحم المؤتمن وضيع الامانة لكنه سبحانه ارحم الراحمين لا يترك الرحمة في محل الرحمة ويترحم العاجز الضعيف الذى فوض إليه امرا وتوكل عليه ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

ومن هنا يظهر ان مراده (عليه السلام) ليس بيان لزوم اختياره تعالى في الاعتماد عليه من جهة انه سبب مستقل في سببيته غير مغلوب البتة بخلاف سائر الأسباب وان كان الأمر كذلك قال تعالى : " ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره " الطلاق : 3 كيف والاطمئنان إلى غيره تعالى بهذا المعنى من الشرك الذى يتنزه عنه ساحة الأنبياء وقد نص تعالى على ان يعقوب (عليه السلام) من المخلصين اهل الاجتباء وانه من الائمة الهداة المهديين وهو (عليه السلام) يعترف في قوله الا كما امنتكم على اخيه من قبل انه امنهم على يوسف ولو كان من الشرك لم يقدم عليه البتة على انه امنهم على اخى يوسف أيضا بعد ما اعطوه موثقا من الله تعالى كما تدل عليه الآيات التالية .

بل يريد بيان لزوم اختياره تعالى في الاطمئنان إليه دون غيره من جهة انه تعالى

متصف بصفات كريمة يؤمن معها ان يستغش عباده المتوكلين عليه المسلمين له امورهم فانه رؤف بعباده رحيم غفور ودود كريم حكيم عليم ويجمع الجميع انه ارحم الراحمين على انه لا يغلب في امره لا يقهر في مشيته واما الناس إذا امنوا على أمر واطمئن إليهم في شئ فانهم اسراء الاهواء وملاعب الهوسات النفسانية ربما اخذتهم كرامة النفس وشيمة الوفاء وصفة الرحمة فحفظوا ما في اختيارهم ان يحفظوه ولا يخونوه وربما خانوا ولم يحفظوا على انهم لا استقلال لهم في قدرة ولا استغناء لهم في قوة وارادة .

وبالجملة مراده (عليه السلام) ان الاطمئنان إلى حفظ الله سبحانه خير من الاطمئنان إلى حفظ غيره لأنه تعالى ارحم الراحمين لا يخون عبده فيما امنه عليه واطمأن فيه إليه بخلاف الناس فانهم ربما لم يفوا لعهد الامانة ولم يرحموا المؤتمن المتوسل بهم فخانوه ولذلك لما كلف بنيه ثانيا ان يؤتوه موثقا من الله قال : " ان تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم " فاستثنى ما ليس في اختيارهم من الحفظ وهو حفظه إذا احيط بهم فانه فوق استطاعتهم ومقدرتهم وليسوا بمسؤلين عنه وانما سالهم الموثق في اتيانه فيما لا يخرج من اختيارهم كالقتل والنفى ونحو ذلك فافهم ذلك .

ومما تقدم يظهر ان في قوله (عليه السلام) وهو ارحم الراحمين نوع تعريض لهم وتلويح إلى انهم لم يستوفوا الرحم أو لم يرحموه اصلا في أمر يوسف حين امنهم عليه والآية على أي حال في معنى الرد لما سألوه .

قوله تعالى : " ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم " إلى آخر الآية البغى هو الطلب ويستعمل كثيرا في الشر ومنه البغى بمعنى الظلم والبغى بمعنى الزنا وقال في المجمع الميرة الاطعمة التى تحمل من بلد إلى بلد ويقال مرتهم اميرهم ميرا إذا اتيتهم بالميرة ومثله امترتهم امتيارا انتهى .

(102/402)

وقوله : " يا ابانا ما نبغى " استفهام أي لما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم ردت إليهم وكان ذلك دليلا على اكرام العزيز لهم وانه غير قاصد بهم سوء وقد سلم إليهم الطعام ورد إليهم الثمن فكان ذهابهم إلى مصر للامتيار خير سفر نفعا ودرا راجعوا اباهم وقالوا يا ابانا ما الذى نطلب من سفرنا إلى مصر وراء هذا ؟ فقد أوفي لنا الكيل ورد الينا ما بذلناه من البضاعه ثمنا .

فقولهم يا ابانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت الينا ارادوا به تطييب نفس ابيهم ليرضى بذهاب اخيهم معهم لأنه في امن من العزيز وهم يحفظونه كما وعدوه ولذلك عقبوه بقولهم ونمير اهلنا ونحفظ اخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير أي سهل .

وربما قيل ان ما في قوله ما نبغى للنفي أي ما نطلب بما اخبرناك من العزيز واكرامه لنا الكذب

فهذه بضاعتنا ردت الينا وكذا قيل ان اليسير بمعنى القليل أي ان الذى جئنا به اليك من الكيل قليل لا يقنعنا فنحتاج إلى ان نضيف إليه كيل بعير اخينا .

قوله تعالى : " قال لن ارسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتاتننى به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل " الموثق بكسر الثاء ما يوثق به ويعتمد عليه والموثق من الله هو أمر يوثق به ويرتبط مع ذلك بالله وايتاء موثق الهى واعطاؤه هو ان يسلط الإنسان على أمر الهى يوثق به كالعهد واليمين بمنزلة الرهينة والمعاهد والمقسم بقوله عاهدت الله ان افعل كذا أو بالله لافعلن كذا يراهن كرامة الله وحرمته فيضعها رهينة عند من يعاهده أو يقسم له ولو لم يف بما قال خسر في رهينته وهو مسؤل عند الله لا محالة .

(103/402)

والاحاطة من حاط بمعنى حفظ ومنه الحائط للجدار الذى يدور حول المكان ليحفظه والله سبحانه محيط بكل شئ أي مسلط عليه حافظ له من كل جهة لا يخرج ولا شئ من اجزائه من قدرته واحاط به البلاء والمصيبة أي نزل به على نحو انسدت عليه جميع طرق النجاة فلا مناص له منه ومنه قولهم احيط به أي هلك أو فسد أو انسدت عليه طرق النجاة والخلاص قال تعالى : " واحيط بثمره فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها " الكهف

: 42 وقال : " وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين " يونس : 22 ومنه قوله في الآية " إلا أن يحاط بكم " أي ان ينزل بكم من النازلة ما يسلب منكم كل استطاعة وقدرة فلا يسعكم الاتيان به الي .

والوكالة نوع تسلط على أمر يعود إلى الغير ليقوم به وتوكيل الإنسان غيره في أمر تسليطه عليه ليقوم في اصلاحه مقامه والتوكل عليه اعتماده والاطمئنان إليه في أمر وتوكيله تعالى والتوكل عليه في الأمور ليس بعناية انه خالق كل شئ ومالكه ومدبره بل

بعناية انه اذن في نسبة الأمور إلى مصادرها والافعال إلى فواعلها وملكها اياها بنحو من التمليك وهى فاقدة للاصالة والاستقلال في التأثير والله سبحانه هو السبب المستقل القاهر لكل سبب الغالب عليه فمن الرشد إذا اراد الإنسان امرا وتوصل إليه بالاسباب العادية التى بين يديه ان يرى الله سبحانه هو السبب الوحيد المستقل بتدبير الأمر وينفى الاستقلال والاصالة عن نفسه وعن الأسباب التى استعملها في طريق الوصول إليه فيتوكل عليه سبحانه فليس التوكل هو قطع الإنسان أو نفيه نسبة الأمور إلى نفسه أو إلى الأسباب بل هو نفيه دعوى الاستقلال عن نفسه وعن الأسباب وارجاع الاستقلال والاصالة إليه تعالى مع ابقاء أصل النسبة غير المستقلة التى إلى نفسه وإلى الأسباب .

ولذلك نرى ان يعقوب (عليه السلام) فيما تحكيه الآيات من توكله على الله لم يلغ الأسباب ولم يهملها بل تمسك بالاسباب العادية فكلم اولا بنيه في اخيهم ثم اخذ منهم موثقا من الله ثم توكل على الله وكذا فيما وصاهم في الآية الاتية بدخولهم من ابواب متفرقة ثم توكله على ربه تعالى .

فالله سبحانه على كل شئ وكيل من جهة الأمور التى لها نسبة إليها كما انه ولى لها من جهة استقلاله بالقيام على الأمور المنسوبة إليها وهى عاجزة عن القيام بها بحول وقوة وانه رب كل شئ من جهة انه المالك المدبر لها .

ومعنى الآية قال يعقوب لبنيه لن ارسله أي اخاكم من ام يوسف معكم حتى تؤتون وتعطوني موثقا من الله اثق به واعتمد عليه من عهد أو يمين لتاتننى به واللام للقسم ولما كان ايتاؤهم موثقا من الله انما كان يمضى ويفيد فيما كان راجعا إلى استطاعتهم وقدرتهم استثنى فقال إلا أن يحاط بكم وتسلبوا الاستطاعة والقدرة فلما آتوه موثقهم من الله قال يعقوب الله على ما نقول وكيل أي انا قاولنا جميعا فقلت وقلتم وتوسلنا بذلك إلى هذه الأسباب العادية للوصول إلى غرض نبتغيه فليكن الله سبحانه وكيلا على هذه الاقاويل يجريها على رسلها فمن التزم بشئ فليات به كما التزم وان تخلف فليجازه الله وينتصف منه .

قوله تعالى : " وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة " إلى آخر

الآية هذه كلمة القاها يعقوب (عليه السلام) إلى بنيه حين آتوه موثقا من الله وتجهزوا واستعدوا للرحيل ومن المعلوم من سياق القصة انه خاف على بنيه وهم احد عشر عصبة لا من ان يراهم عزيز مصر مجتمعين صفا واحدا لأنه كان من المعلوم انه سيشخصهم إليه فيصطفون عنده صفا واحدا وهم احد عشر اخوة لاب واحد بل انما كان يخاف عليهم ان يراهم الناس فيصيبهم عين على ما قيل أو يحسدون أو يخاف منهم فينالهم ما يتفرق به جمعهم من قتل أو أي نازلة أخرى .

(105/402)

وقوله بعده : " وما اغنى عنكم من الله من شئ ان الحكم الا لله " لا يخلو من دلالة أو اشعار بانه كان يخاف ذلك جدا فكأنه (عليه السلام) والله اعلم احس حينما تجهزوا للسفر واصطفوا امامه للوداع احساس الهام ان جمعهم وهم على هذه الهيئة الحسنة سيفرق وينقص من عددهم فأمرهم ان لا يتظاهروا بالاجماع كذلك وحذرهم عن الدخول من باب واحد وعزم عليهم ان يدخلوا من ابواب متفرقة رجاء ان يندفع بذلك عنهم بلاء التفرقة بينهم والنقص في عددهم .

ثم رجع إلى اطلاق كلامه الظاهر في كون هذا السبب الذى ركن إليه في دفع ما خطر بباله

من المصيبة سببا اصيلا مستقلا ولا مؤثر في الوجود بالحقيقة الا الله سبحانه فقيد كلامه بما يصلحه فقال مخاطبا لهم " وما اغنى عنكم من الله من شئ " ثم علله بقوله ان الحكم الا لله أي لست ارفع حاجتكم إلى الله سبحانه بما امرتكم به من السبب الذى تتقون به نزول النازلة وتتوسلون به إلى السلامة والعافية ولا احكم بان تحفظوا بهذه الحيلة فان هذه الأسباب لا تغنى من الله شيئا ولا لها حكم دون الله سبحانه فليس الحكم مطلقا الا لله بل هذه اسباب ظاهرية انما تؤثر إذا اراد الله لها ان تؤثر .

ولذلك عقب كلامه هذا بقوله : " عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون " أي ان هذا سبب امرتكم باتخاذه لدفع ما اخافه عليكم من البلاء وتوكلت مع ذلك على الله في اخذ هذا السبب وفي سائر الأسباب التى اخذتها في اموري وعلى هذا المسير يجب ان يسير كل رشيد غير غوى يرى انه لا يقوى باستقلاله لادارة اموره ولا ان الأسباب العادية باستقلالها تقوى على ايصاله إلى ما يبتغيه من المقاصد بل عليه ان يلتجئ في اموره إلى وكيل يصلح شأنه ويدبر امره احسن تدبير فذلك الوكيل هو الله سبحانه القاهر الذى لا يقهره شئ الغالب الذى لا يغلبه شئ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وقد تبين بالآية أولا معنى التوكل وانه تسليط الغير على أمر له نسبة إلى المتوكل والموكل .

وثانيا ان هذه الأسباب العادية لما لم تكن مستقلة في تأثيرها ولا غنية في ذاتها غير مفتقرة إلى ما وراءها كان من الواجب على من يتوسل إليها في مقاصده الحيوية ان يتوكل مع التوسل إليها على سبب وراءها ليتم لها التأثير ويكون ذلك منه جريا في سبيل الرشد والصواب لا ان يهمل الأسباب التى بنى الله نظام الكون عليها فيطلب غاية من غير طريق فانه من الغي والجهل .

وثالثا ان ذاك السبب الذى يجب التوكل عليه في الأمور هو الله سبحانه وحده لا شريك له فانه الله لا اله الا هو رب كل شئ وهذا هو المستفاد من الحصر الذى يدل عليه قوله : " وعلى الله فليتوكل المتوكلون " قوله تعالى : " ولما دخلوا من حيث امرهم ابوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شئ الا حاجة في نفس يعقوب قضاها إلى آخر الآية الذى يعطيه سياق الآيات السابقة واللاحقة والتدبر فيها والله اعلم ان يكون المراد بدخولهم من حيث امرهم ابوهم انهم دخلوا مصر أو دار العزيز فيها من ابواب متفرقة كما امرهم ابوهم حينما ودعوه للرحيل وانما اتخذ يعقوب (عليه السلام) هذا الأمر وسيلة لدفع ما تفرسه من نزول مصيبة بهم تفرق جمعهم وتنقص من عددهم كما اشير إليه في الآية السابقة لكن اتخاذ هذه الوسيلة وهى الدخول من حيث امرهم ابوهم لم يكن ليدفع عنهم البلاء وكان قضاء الله سبحانه ماضيا فيهم واخذ العزيز اخاهم من ابيهم لحديث سرقت الصواع وانفصل منهم كبيرهم

فبقي في مصر وادى ذلك إلى تفرق جمعهم ونقص عددهم فلم يغن يعقوب أو الدخول من حيث امرهم من الله من شئ .

لكن الله سبحانه قضى بذلك حاجة في نفس يعقوب (عليه السلام) فانه جعل هذا السبب الذى تخلف عن امره وادى إلى تفرق جمعهم ونقص عددهم بعينه سببا لوصول يعقوب إلى يوسف (عليه السلام) فان يوسف اخذ اخاه إليه ورجع سائر الاخوة الا كبيرهم إلى ابيهم ثم عادوا إلى يوسف يسترحمونه ويتذللون لعزته فعرفهم نفسه واشخص اباه واهله إلى مصر فاتصلوا به .

(107/402)

فقوله : " ما كان يغنى عنهم من الله من شئ " أي لم يكن من شان يعقوب أو هذا الأمر الذى اتخذه وسيلة لتخلصهم من هذه المصيبة النازلة ان يغنى عنهم من الله شيئًا البتة ويدفع عنهم ما قضى الله ان يفارق اثنان منهم جمعهم بل اخذ منهم واحد وفارقهم ولزم ارض مصر آخر وهو كبيرهم .

وقوله : " الا حاجة في نفس يعقوب قضاها " قيل ان الا بمعنى لكن أي لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها الله فرد إليه ولده الذى فقده وهو يوسف .

ولا يبعد ان يكون الا استثنائية فان قوله ما كان " يغنى عنهم من الله من شئ " في معنى قولنا لم ينفع هذا السبب يعقوب شيئا أو لم ينفعهم جميعا شيئا ولم يقض الله لهم جميعا به حاجة الا حاجة في نفس يعقوب وقوله قضاها استئناف وجواب سؤال كأن سائلا يسال فيقول ما ذا فعل بها ؟ فاجيب بقوله قضاها .

وقوله " وانه لذو علم لما علمناه " الضمير ليعقوب أي ان يعقوب لذو علم بسبب ما علمناه من العلم أو بسبب تعليمنا اياه وظاهر نسبة التعليم إليه تعالى انه علم موهبي غير اكتسابي وقد تقدم ان اخلاص التوحيد يؤدى إلى مثل هذه العناية الإلهية ويؤيد ذلك أيضا قوله تعالى : " بعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون " إذ لو كان من العلم الاكتسابى الذى يحكم بالاسباب الظاهرية ويتوصل إليه من الطرق العادية المألوفة لعلمه الناس واهتدوا إليه .

والجملة " وانه لذو علم لما علمناه " الخ ثناء على يعقوب (عليه السلام) والعلم الموهبى لا يضل في هدايته ولا يخطئ في اصابته والكلام كما يفيده السياق يشير إلى ما تفرس له يعقوب (عليه السلام) من البلاء وتوسل به من الوسيلة وحاجته في يوسف في نفسه لا ينساها ولا يزال يذكرها فمن هذه الجهات يعلم ان في قوله : " وانه لذو علم لما علمناه " الخ تصديقا ليعقوب (عليه السلام) فيما قاله لبنيه وتصويبا لما اتخذه من الوسيلة لحاجته بامرهم بما أمر وتوكله على الله فقضى الله له حاجة في نفسه .

هذا ما يعطيه التدبر في سياق الآيات وللمفسرين اقوال عجيبة في معنى الآية كقول بعضهم ان المراد بقوله ما كان يغنى عنهم إلى قوله قضاها انه لم يكن دخولهم كما امرهم ابوهم يغنى عنهم أو يدفع عنهم شيئًا اراد الله ايقاعه بهم من حسد أو اصابة عين

وكان يعقوب (عليه السلام) عالما بان الحذر لا يدفع القدر ولكن كان ما قاله لبنيه حاجة في نفسه فقضى يعقوب تلك الحاجة أي ازال به اضطراب قلبه واذهب به القلق عن نفسه .

وقول بعضهم ان المعنى ان الله لو قدر ان تصيبهم العين لا صابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم مجتمعين .

وقول بعضهم ان معنى قوله : " وانه لذو علم لما علمناه " الخ انه لذو يقين ومعرفة بالله لاجل تعليمنا اياه ولكن اكثر الناس لا يعلمون مرتبته .

وقول بعضهم ان اللام في لما علمناه للتقوية والمعنى انه يعلم ما علمناه فيعمل به لأن من علم شيئًا وهو لا يعمل به كان كمن لا يعلم إلى غير ذلك من اقاويلهم .

قوله تعالى : " ولما دخلوا على يوسف آوى إليه اخاه قال انى انا اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون " الايواء إليه ضمه وتقريبه منه في مجلسه ونحوه والابتئاس اجتلاب البؤس والاغتمام والحزن وضمير الجمع للاخوة .

ومعنى الآية ولما دخلوا على يوسف بعد دخولهم مصر آوى وقرب إليه اخاه الذى امرهم

ان يا توا به إليه وكان اخا له من ابيه وامه قال له انى انا اخوك أي يوسف الذى فقدته منذ سنين والجملة خبر بعد خبر أو جواب سؤال مقدر فلا تبتئس ولا تغتم بما كانوا أي الاخوة يعملون من انواع الاذى والمظالم التى حملهم عليها حسدهم لى ولك ونحن اخوان من ام أو لا تبتئس بما كان غلماني يعملون فانه كيد لحبسك عندي .

وظاهر السياق انه عرفه نفسه باسرار القول إليه وسلاه على ما عمله الاخوة وطيب نفسه فلا يعبأ بقول بعضهم ان معنى قوله انى انا اخوك انا اخوك مكان اخيك الهالك وقد كان اخبره انه كان له اخ من امه هلك من قبل فبقى وحده لا اخ له من امه ولم يعترف يوسف له بالنسب ولكنه اراد ان يطيب نفسه .

وذلك انه ينافيه ما في قوله انى انا اخوك من وجوه التأكيد وذلك انما يناسب تعريفه نفسه بالنسب ليستيقن انه هو يوسف على انه ينافى أيضا ما سيأتي من قوله لاخوته عند تعريفهم نفسه " انا يوسف وهذا اخى قد من الله علينا " فانه انما يناسب ما إذا علم اخوه انه اخوه فاعتز بعزته كما لا يخفى .

قوله تعالى : " فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل اخيه ثم اذن مؤذن ايتها العير

انكم لسارقون " السقاية الظرف الذى يشرب فيه والرحل ما يوضع على البعير للركوب والعير القوم الذين معهم احمال الميرة وذلك اسم للرجال والجمال الحاملة للميرة وان كان قد يستعمل في كل واحد من دون الاخر ذكر ذلك الراغب في مفرداته .

ومعنى الآية ظاهر وهذه حيلة احتالها يوسف (عليه السلام) لياخذ بها اخاه إليه كما قصه وفصله الله تعالى وجعل ذلك مقدمة لتعريفهم نفسه في حال التحق به اخوه وهما منعمان بنعمة الله مكرمان بكرامته .

وقوله ثم اذن مؤذن ايتها العير انكم لسارقون الخطاب لاخوة يوسف وفيهم اخوه لامه ومن الجائز توجيه الخطاب إلى الجماعة في أمر يعود إلى بعضهم إذا كان لا يمتاز عن الاخرين وفي القرآن منه شئ كثير وهذا الأمر الذى سمى سرقه وهو وجود السقاية في رحل البعير كان قائما بواحد منهم وهو اخو يوسف لامه لكن عدم تعينه بعد من بينهم كان مجوزا لخطابهم جميعا بأنكم سارقون فان معنى هذا الخطاب في مثل هذا المقام ان السقاية مفقودة وهى عند بعضكم ممن لا يتعين الا بعد الفحص والتفتيش .

ومن المعلوم من السياق ان اخا يوسف لامه كان عالما بهذا الكيد مستحضرا منه ولذلك لم يتكلم من اول الأمر إلى آخره ولا بكلمة ولا نفى عن نفسه السرقة ولا اضطرب كيف ؟ وقد عرفه يوسف انه اخاه وسلاه وطيب نفسه فليس إلا أن يوسف (عليه السلام) كان عرفه ما هو غرضه من هذا الصنع وانه انما يريد بتسميته سارقا واخراج السقاية من رحله ان يقبض عليه ويأخذه إليه فتسميته سارقا انما كان اتهاما في نظر الاخوة واما بالنسبة إليه وفي نظره فلم يكن تسمية جدية وتهمة حقيقية بل توصيفا صوريا فحسب لمصلحة لازمة جازمة .

فنسبة السرقة إليهم بالنظر إلى هذه الجهات لم تكن من الافتراء المذموم عقلا المحرم شرعا على ان القائل هو المؤذن الذى اذن بذلك .

وذكر بعض المفسرين ان القائل انكم لسارقون بعض من فقد الصاع من قوم يوسف من غير امره ولم يعلم ان يوسف أمر بجعل الصاع في رحالهم .

وقال بعضهم ان يوسف (عليه السلام) أمر المنادى ان ينادى به ولم يرد به سرقة الصاع وانما عنى به انكم سرقتم يوسف من ابيه والقيتموه في الجب ونسب ذلك إلى أبى مسلم المفسر .

وقال بعضهم ان الجملة استفهامية والتقدير أ إنكم لسارقون ؟ بحذف همزة الاستفهام ولا يخفى ما في هذه الوجوه من البعد .

قوله تعالى : " قالوا واقبلوا عليهم ما ذا تفقدون " الفقد كما قيل غيبة الشئ عن الحس

بحيث لا يعرف مكانه والضمير في قوله قالوا للاخوة وهم العير وقوله ما ذا تفقدون مقول القول والضمير في قوله عليهم ليوسف وفتيانه كما يدل عليه السياق .

والمعنى قال اخوة يوسف المقبلين ليوسف وفتيانه ما ذا تفقدون وفى السياق دلالة على ان المنادى انما ناداهم من ورائهم وقد اخذوا في السير .

(111/402)

قوله تعالى : " قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم " الصواع بالضم السقاية وقيل ان الصواع هو الصاع الذى يكال به وكان صواع الملك اناء يشرب فيه ويكال به ولذلك سمى تارة سقاية واخرى صواعا ويجوز فيه التذكير والتانيث ولذلك قال ولمن جاء به وقال ثم استخرجها .

والحمل ما يحمله الحامل من الاثقال وقد ذكر الراغب ان الاثقال المحمولة في الظاهر كالشئ المحمول على الظهر تختص باسم الحمل بكسر الحاء والاثقال المحمولة في الباطن كالولد في البطن والماء في السحاب والثمرة في الشجرة تختص باسم الحمل بفتح الحاء .

وقال في المجمع الزعيم والكفيل والضمين نظائر والزعيم أيضا القائم بامر القوم وهو الرئيس .

ولعل القائل نفقد صواع الملك هو فتيان يوسف والقائل ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم

يوسف (عليه السلام) نفسه لأنه هو الرئيس الذى يقوم بامر الاعطاء والمنع والضمانة والكفالة والحكم ويعود معنى الكلام على هذا إلى نحو من قولنا اجاب عنهم يوسف وفتيانه اما فتيانه فقالوا نفقد صواع الملك واما يوسف فقال ولمن جاء به

حمل بعير وانا به زعيم وهذه جعالة .

وظاهر بعض المفسرين ان قوله ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم تتمة قول المؤذن ايتها العير انكم لسارقون وعلى هذا فقوله قالوا واقبلوا عليهم إلى قوله صواع الملك معترض قوله تعالى : " قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين " المراد بالارض ارض مصر وهى التى جاؤها ومعنى الآية ظاهر .

وفى قولهم " لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض " دلالة على انهم فتشوا وحقق في امرهم اول ما دخلوا مصر للميرة بامر يوسف (عليه السلام) بدعوى الخوف من ان يكونوا جواسيس وعيونا أو نازلين بها لاغراض فاسدة أخرى فسئلوا عن شانهم ومحلهم ونسبهم وامثال ذلك وبه يتأيد ما ورد في بعض الروايات ان يوسف اظهر لهم انه في ريب من امرهم فسألهم عن شأنهم ومكانهم واهلهم وعند ذلك ذكروا ان لهم ابا شائخا واخا من ابيهم

فأمر باتيانهم به وسياتى في البحث الروائي التالى ان شاء الله تعالى .

وقولهم وما كنا سارقين نفى ان يكونوا متصفين بهذه الصفة الرذيلة من قبل أو يعهد منهم اهل البيت ذلك .

قوله تعالى : " قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين " أي قال فتيان يوسف أو هو وفتيانه سائلين منهم عن الجزاء ما جزاء السرق أو ما جزاء الذى سرق منكم ان كنتم كاذبين في انكاركم .

والكلام في قولهم ان كنتم كاذبين في نسبة الكذب إليهم يقرب من الكلام في قولهم انكم لسارقون وقد تقدم .

قوله تعالى : " قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين " مرادهم ان جزاء السرق نفس السارق أو جزاء السارق نفسه بمعنى ان من سرق ما لا يصير عبدا لمن سرق ما له وهكذا كان حكمه في سنة يعقوب (عليه السلام) كما يدل عليه قولهم "كذلك نجزى الظالمين " أي هؤلاء الظالمين وهم السراق لكنهم عدلوا عنه إلى قولهم : " جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه " للدلالة على ان السرقة انما يجازى بها نفس السارق لا رفقته وصحبه وهم احد عشر نسمة لا ينبغى ان يؤاخذ منهم لو تحققت السرقة الا السارق بعينه من غير ان يتعدى إلى نفوس الاخرين ورحالهم ثم للمسروق منه ان يملك السارق نفسه يفعل به ما يشاء .

قوله تعالى : " فبدأ باوعيتهم قبل وعاء اخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه " فيه تفريع على ما تقدم أي اخذ بالتفتيش والفحص بالبناء على ما ذكروه من الجزاء فبدأ بأوعيتهم وظروفهم قبل وعاء اخيه للتعمية عليهم حذرا من ان يتنبهوا ويتفطنوا انه هو الذى وضعها في رحل اخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه وعند ذلك استقر الجزاء عليه لكونها في رحله .

قوله تعالى : "كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله " إلى آخر الآية الإشارة إلى ما جرى من الأمر في طريق اخذ يوسف (عليه السلام) اخاه لامه من عصبة اخوته وقد كان كيدا لأنه يوصل إلى ما يطلبه منهم من غير ان يعلموا ويتفطنوا به ولو علموا لما رضوا به ولا مكنوه منه وهذا هو الكيد غير انه كان بإلهام من الله سبحانه أو وحى منه إليه علمه به طريق التوصل إلى اخذ اخيه ولذلك نسب الله سبحانه ذلك إلى نفسه مع توصيفه بالكيد فقال كذلك كدنا ليوسف .

وليس كل كيد بمنفى عنه تعالى وانما تتنزه ساحة قدسه عن الكيد الذى هو ظلم ونظيره المكر والاضلال والاستدراج وغيرها .

وقوله " ما كان لياخذ اخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله " بيان للسبب الداعي إلى الكيد وهو انه كان يريد ان ياخذ اخاه إليه ولم يكن في دين الملك أي سنته الجارية في ارض مصر

طريق يؤدى إلى اخذه ولا ان السرقة حكمها استعباد السارق ولذلك كادهم يوسف بامر من الله بجعل السقاية في رحله ثم اعلام انهم سارقون حتى ينكروه فيسألهم عن جزائه ان كانوا كاذبين فيخبروا ان جزاء السرق عندهم اخذ السارق واستعباده فيأخذهم بما رضوا به لانفسهم .

وعلى هذا فلم يكن له ان ياخذ اخاه في دين الملك الا في حال يشاء الله ذلك وهو هذا الحال الذى رضوا فيه ان يجازوا بما رضوا به لانفسهم .

(114/402)

ومن هنا يظهر ان الاستثناء يفيد انه كان من دين الملك ان يؤخذ المجرم بما يرضاه لنفسه من الجزاء وهو اشق وكان ذلك متداولا في كثير من السنن القومية وسياسات الملوك .

وقوله " نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم " امتنان على يوسف (عليه السلام) بما رفعه الله على اخوته وبيان لقوله كذلك كدنا ليوسف وكان امتنانا عليه .

وفى قوله وفوق كل ذى علم عليم بيان ان العلم من الأمور التى لا يقف على حد ينتهى إليه بل كل ذى علم يمكن ان يفرض من هو اعلم منه .

وينبغى ان يعلم ان ظاهر قوله ذى علم هو العلم الطارئ على العالم الزائد على ذاته لما في

لفظه ذى من الدلالة على المصاحبة والمقارنة فالله سبحانه وعلمه الذى هو صفة ذاته عين ذاته وهو تعالى علم غير محدود كما ان وجوده احدى غير محدود خارج بذاته عن اطلاق الكلام .

على ان الجملة وفوق كل ذى علم عليم انما تصدق فيما امكن هناك فرض فوق والله سبحانه لا فوق له ولا تحت له ولا وراء لوجوده ولا حد لذاته ولا نهاية .

ولا يبعد ان يكون قوله " وفوق كل ذى علم عليم " اشارة إلى كونه تعالى فوق كل ذى علم بان يكون المراد بعليم هو الله سبحانه اورد في هيئة النكرة صونا للسان عن تعريفه للتعظيم .

قوله تعالى : " قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل " إلى آخر الآية القائلون هم اخوة يوسف (عليه السلام) لأبيه ولذلك نسبوا يوسف إلى اخيهم المتهم بالسرقة لانهما كانا من ام واحدة والمعنى انهم قالوا ان يسرق هذا صواع الملك فليس ببعيد منه لأنه كان له اخ وقد تحققت السرقة منه من قبل فهما يتوارثان ذلك من ناحية امهما ونحن مفارقوهما في الام .

وفى هذا نوع تبرئة لانفسهم من السرقة لكنه لا يخلو من تكذيب لما قالوه آنفا " وما كنا سارقين " لانهم كانوا ينفون به السرقة عن ابناء يعقوب جميعا والا لم يكن ينفعهم البتة فقولهم فقد سرق اخ له من قبل يناقضه وهو ظاهر على انهم اظهروا

بهذه الكلمة ما في نفوسهم من الحسد ليوسف واخيه ولعلهم لم يشعروا به وهذا يكشف عن امور مؤسفة كثيرة فيما بينهم .

وبهذا يتضح بعض الاتضاح معنى قول يوسف انتم شر مكانا كما ان الظاهر ان قوله انتم شر مكانا إلى آخر الآية كالبيان لقوله " فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم " وكما ان قوله ولم يبدها لهم عطف تفسير لقوله فأسرها يوسف في نفسه .

والمعنى والله اعلم فأسرها أي اخفى هذه الكلمة التى قالوها أي لم يتعرض لما نسبوا إليه من السرقة ولم ينفه ولم يبين حقيقة الحال بل اسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم وكان هناك قائلا يقول كيف اسرها في نفسه فاجيب انه قال انتم شر مكانا واسوء حالا لما في اقوالكم من التناقض وفى نفوسكم من غريزة الحسد الظاهرة واجترائكم على الكذب في حضرة العزيز بعد هذا الأكرام والاحسان كله والله اعلم بما تصفون انه قد سرق اخ له من قبل فلم يكذبهم في وصفهم ولم ينفه .

وذكر بعض المفسرين ان معنى قوله انتم شر مكانا الخ انكم اسوء حالا منه لانكم سرقتم اخاكم من ابيكم والله اعلم أسرق اخ له من قبل ام لا .

وفيه ان من الجائز ان يكون هذا المعنى بعض ما قصده يوسف بقوله انتم شر مكانا لكن الكلام فيما تلقاه اخوته من قوله هذا والظرف هذا الظرف هم ينكرون يوسف (عليه

السلام) وهو لا يريد ان يعرفهم نفسه ولا ينطبق قوله في مثل هذا الظرف الا بما تقدم .

وربما ذكر بعضهم ان التى اسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم هي كلمته انتم شر مكانا فلم يخاطبهم بها ثم جهر بقوله " والله اعلم بما تصفون " وهذا بعيد غير مستفاد من السياق .

(116/402)

قوله تعالى : " قالوا يا ايها العزيز ان له ابا شيخا كبيرا فخذ احدنا مكانه انا نراك من المحسنين " سياق الآيات يدل على انهم انما قالوا هذا القول لما شاهدوا انه استحق الاخذ والاستعباد وذكروا انهم اعطوا اباهم موثقا من الله ان يرجعوه إليه فلم يكن في مقدرتهم ان يرجعوا إلى ابيهم ولا يكون معهم فعند ذلك عزموا ان يفدوه بواحد منهم ان قبل العزيز وكلموا العزيز في ذلك ان ياخذ أي من شاء منهم ويخلى عن سبيل اخيهم المتهم ليرجعوه إلى ابيه .

ومعنى الآية ظاهر وفي اللفظ ترقيق واسترحام واثارة لصفة الفتوة والاحسان من العزيز .

قوله تعالى : " قال معاذ الله ان ناخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا إذا لظالمون " رد منه (عليه السلام) لسؤالهم ان ياخذ احدهم مكانه ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : " فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا " إلى آخر الآية قال في المجمع اليأس قطع الطمع من الأمر يقال يئس ييأس وايس يأيس لغة واستفعل مثل استيأس واستأيس قال ويئس واستيأس بمعنى مثل سخر واستسخر وعجب واستعجب .

والنجى القوم يتناجون الواحد والجمع فيه سواء قال سبحانه وقربناه نجيا وانما جاز ذلك لأنه مصدر وصف به والمناجاة المسارة واصله من النجوة هو المرتفع من الأرض فانه رفع السر من كل واحد إلى صاحبه في خفية والنجوى يكون اسما ومصدرا قال سبحانه " واذ هم نجوى " أي يتناجون وقال في المصدر انما النجوى من الشيطان وجمع النجى انجية قال وبرح الرجل براحا إذا تنحى عن موضعه انتهى .

والضمير في قوله فلما استيأسوا منه ليوسف ويمكن ان يكون لاخيه والمعنى فلما استيأسوا أي اخوة يوسف منه أي من يوسف ان يخلى عن سبيل اخيه ولو بأخذ احدهم بد لا منه خلصوا وخرجوا من بين الناس إلى فراغ نجيا يتناجون في امرهم أيرجعون إلى ابيهم وقد اخذ منهم موثقا من الله ان يعيدوا اخاهم إليه ام يقيمون هناك ولا فائدة في اقامتهم ؟ ماذا يصنعون ؟ قال كبيرهم مخاطبا لسائرهم " ألم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا من الله "

الا ترجعوا من سفركم هذا إليه الا باخيكم ومن قبل هذه الواقعة ما فرطتم أي تفريطكم وتقصيركم في أمر يوسف عهدتم اباكم ان تحفظوه وتردوه إليه سالما فألقيتموه في الجب ثم بعتموه من السيارة ثم اخبرتم اباكم انه اكله الذئب .

" فلن ابرح الأرض " أي فإذا كان الشأن هذا الشان لن اتنحى ولن افارق ارض مصر حتى يأذن لى أبى برفعه اليد عن الموثق الذى واثقته به أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين فيجعل لى طريقا إلى النجاة من هذه المضيقة التى سدت لى كل باب وذلك اما بخلاص اخى من يد العزيز من طريق لا احتسبه أو بموتى أو بغير ذلك من سبيل ! ! اما انا فأختار البقاء ههنا واما انتم فارجعوا إلى ابيكم إلى آخر ما ذكر في الآيتين التاليتين .

قوله تعالى : " ارجعوا إلى ابيكم وقولوا يا ابانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين " قيل المراد بقوله : " وما شهدنا الا بما علمنا " انا لم نشهد في شهادتنا هذه ان ابنك سرق الا بما علمنا من سرقته وقيل المراد ما شهدنا عند العزيز ان السارق يؤخذ بسرقته ويسترق الا بما علمنا من حكم المسالة قيل وانما قالوا ذلك حين قال لهم يعقوب ما يدرى الرجل ان السارق يؤخذ بسرقته ويسترق ؟ وانما علم ذلك بقولكم واقرب المعنيين إلى السياق أولهما .

وقوله : " وما كنا للغيب حافظين " قيل أي لم نكن نعلم ان ابنك سيسرق فيؤخذ ويسترق وانما كنا نعتمد على ظاهر الحال ولو كنا نعلم ذلك لما بادرنا إلى تسفيره معنا ولا اقدمنا على الميثاق .

والحق ان المراد بالغيب كونه سارقا مع جهلهم بها ومعنى الآية ان ابنك سرق وما شهدنا في جزاء السرقة الا بما علمنا وما كنا نعلم انه سرق السقاية وانه سيؤخذ بها حتى نكف عن تلك الشهادة فما كنا نظن به ذلك قوله تعالى : " واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى اقبلنا فيها وانا لصادقون " أي واسال جميع من صاحبنا في هذه السفرة أو شاهد جريان حالنا عند العزيز حتى لا يبقى لك ادنى ريب في انا لم نفرط في امره بل انه سرق فاسترق .

فالمراد بالقرية التى كانوا فيها بلدة مصر على الظاهر وبالعير التى اقبلوا فيها القافلة التى كانوا فيها وكان رجالها يصاحبونهم في الخروج إلى مصر والرجوع منها ثم اقبلوا مصاحبين لهم ولذلك عقبوا عرض السؤال بقولهم وانا لصادقون أي فيما نخبرك من سرقته واسترقاقه لذلك ونكلفك السؤال لازالة الريب من نفسك

﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم امرا فصبر جميل عسى الله أن يأ تيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم ﴾

(بيان) الآيات تتضمن محاورة يعقوب بنيه بعد رجوعهم ثانيا من مصر واخبارهم اياه خبر اخي يوسف وامره برجوعهم ثالثا إلى مصر وتحسسهم من يوسف واخيه إلى ان عرفهم يوسف (عليه السلام) نفسه .

قوله تعالى : " قال بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل عسى الله ان يأتيني بهم جميعا انه هو العليم الحكيم " في المقام حذف كثير يدل عليه قوله ارجعوا إلى ابيكم فقولوا إلى آخر الآيتين والتقدير ولما رجعوا إلى ابيهم وقالوا ما وصاهم به كبيرهم قال ابوهم بل سولت لكم انفسكم امرا الخ .

وقوله " قال بل سولت لكم انفسكم امرا حكاية ما اجابهم به يعقوب (عليه السلام) ولم يقل (عليه السلام) هذا القول تكذيبا لهم فيما اخبروه به وحاشاه ان يكذب خبرا يحتف بقرائن الصدق وتصاحبه شواهد يمكن اختباره بها ولا رماهم بقوله بل سولت لكم انفسكم أمر ارميا بالمظنة بل ليس الا انه وجد بفراسة الهية ان هذه الواقعة ترتبط وتتفرع على تسويل نفساني منهم اجمالا وكذلك كان الأمر فان الواقعة من اذناب واقعة يوسف وكانت واقعته من تسويل نفساني منهم .

ومن هنا يظهر انه (عليه السلام) لم ينسب إلى تسويل انفسهم عدم رجوع اخى يوسف فحسب بل عدم رجوعه وعدم رجوع كبيرهم الذى توقف بمصر ولم يرجع إليه ويشهد لذلك قوله " عسى الله ان يأتيني بهم جميعا " فجمع في ذلك بين يوسف واخيه وكبير الاخوة فلم يذكر اخا يوسف وحده ولا يوسف واخاه معا فظاهر السياق ان ترجيه رجوع بنيه الثلاثة مبنى على صبره الجميل قبال ما سولت لهم انفسهم امرا .

فالمعنى والله اعلم ان هذه الواقعة مما سولت لكم انفسكم كما قلت ذلك في واقعة يوسف فصبر جميل قبال تسويل انفسكم عسى الله ان يا تيني با بنائى الثلاثة جميعا .

ومن هنا يظهر ان قولهم ان المعنى ما عندي ان الأمر على ما تصفونه بل سولت لكم انفسكم امرا فيما اظن ليس في محله .

وقوله " عسى الله ان يأتيني بهم جميعا انه هو العليم الحكيم " ترج مجرد لرجوعهم جميعا مع ما فيه من الإشارة إلى ان يوسف حي لم يمت على ما يراه وليس مشربا معنى الدعاء ولو كان في معنى الدعاء لم يختمه بقوله انه هو العليم الحكيم بل بمثل قولنا انه هو السميع العليم أو الرؤف الرحيم أو ما يناظرهما كما هو المعهود في الادعية المنقولة في القرآن الكريم .

بل هو رجاء لثمرة الصبر فهو يقول ان واقعة يوسف السابقة وهذه الواقعة التى اخذت منى ابنين آخرين انما هما لامر ما سولته لكم انفسكم فسا صبر صبرا وارجو به ان يا تيني الله

بابنائى جميعا ويتم نعمته على آل يعقوب كما وعدنيه انه هو العليم بمورد الاجتباء واتمام النعمة حكيم في فعله يقدر الأمور على ما تقتضيه الحكمة البالغة فلا ينبغى للإنسان ان يضطرب عند البلايا والمحن بالطيش والجزع ولا ان ييأس من روحه ورحمته .

(121/402)

والاسمان العليم الحكيم هما اللذان ذكرهما يعقوب ليوسف (عليه السلام) لاول مرة اول رؤياه فقال ان ربك عليم حكيم ثم ذكرهما يوسف ليعقوب (عليه السلام) ثانيا حيث رفع ابويه على العرش وخروا له سجدا فقال يا ابت هذا تأويل رؤياي إلى ان قال وهو العليم الحكيم .

قوله تعالى : " وتولى عنهم وقال يا اسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم " قال الراغب في المفردات الاسف الحزن والغضب معا وقد يقال لكل واحد منهما على الانفراد وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا إلى ان قال وقوله تعالى : " فلما آسفونا " انتقمنا منهم أي اغضبونا قال أبو عبد الله

غضبه قال وعلى ذلك قال - من اهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة انتهى .

وقال الكظم مخرج النفس يقال اخذ بكظمه والكظوم احتباس النفس ويعبر به عن السكوت كقولهم فلان لا يتنفس إذا وصف بالمبالغة في السكوت وكظم فلان حبس نفسه قال تعالى : " إذ نادى وهو مكظوم " وكظم الغيظ حبسه قال تعالى : " والكاظمين الغيظ " ومنه كظم البعير إذا ترك الاجترار وكظم السقاء شدة بعد ملئه مانعا لنفسه انتهى .

وقوله " وابيضت عيناه من الحزن " ابيضاض العين أي سوادها هو العمى وبطلان الابصار وربما يجامع قليل ابصار لكن قوله الاتى : " اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا " الآية : 93 من السورة يشهد بانه كناية عن ذهاب البصر .

(122/402)

ومعنى الآية ثم تولى واعرض يعقوب (عليه السلام) عنهم أي عن ابنائه بعد ما خاطبهم بقوله بل سولت لكم انفسكم امرا وقال يا اسفى ويا حزني على يوسف وابيضت عيناه وذهب بصره من الحزن على يوسف فهو كظيم حابس غيظه متجرع حزنه لا يتعرض لبنيه بشئ .

قوله تعالى : " قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين "

الحرض والحارض المشرف على الهلاك وقيل هو الذى لا ميت فينسى ولا حى فيرجى

والمعنى الأول انسب بالنظر إلى مقابلته الهلاك والحرض لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر .

والمعنى نقسم بالله لا تزال تذكر يوسف وتديم ذكره منذ سنين لا تكف عنه حتى تشرف على الهلاك أو تهلك وظاهر قولهم هذا انهم انما قالوه رقة بحاله ورأفة به ولعلهم انما تفوهوا به تبرما ببكائه وسأمة من طول نياحه ليوسف وخاصة من جهة انه كان يكذبهم في ما كانوا يدعونه من أمر يوسف وكان ظاهر بكائه وتأسفه انه يشكوهم كما ربما يؤيده قوله : " انما اشكوا " الخ .

قوله تعالى : " قال انما اشكوا بثى وحزني إلى الله واعلم من الله ما لا تعلمون " قال في المجمع البث الهم الذى لا يقدر صاحبه على كتمانه فيبثه أي يفرقه وكل شئ فرقته فقد بثثه ومنه قوله : " وبث فيها من كل دابة انتهى فهو من المصدر بمعنى المفعول أي المبثوث .

والحصر الذى في قوله انما اشكوا الخ من قصر القلب فيكون مفاده انى لست اشكو بثى وحزني اليكم معاشر ولدى واهلى ولو كنت اشكوه اليكم لا نقطع في اقل زمان كما يجرى عليه دأب الناس في بثهم وحزنهم عند المصائب وانما اشكو بثى وحزني إلى الله سبحانه ولا ياخذه ملل ولا سأمة فيما يسأله عنه عباده ويبرمه ارباب الحوائج ويلحون عليه واعلم من الله ما لا تعلمون فلست ايأس من روحه ولا اقنط من رحمته .

وفى قوله " واعلم من الله ما لا تعلمون " اشارة اجمالية إلى علمه بالله لا يستفاد منه الا ما يساعد على فهمه المقام كما اشرنا إليه .

قوله تعالى : " يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون " قال في المجمع التحسس بالحاء طلب الشئ بالحاسة والتجسس بالجيم نظيره وفي الحديث : لا تحسسوا ولا تجسسوا وقيل ان معناهما واحد ونسق احدهما على الاخر لاختلاف اللفظين كقول الشاعر " متى ادن " منه ينأ عنه ويبعد .

وقيل التجسس بالجيم البحث عن عورات الناس وبالحاء الاستماع لحديث قوم وسئل ابن عباس عن الفرق بينهما ؟ قال : لا يبعد احدهما عن الاخر التحسس في الخير والتجسس في الشر انتهى .

وقوله " ولا تيأسوا من روح الله " الروح بالفتح فالسكون النفس أو النفس الطيب ويكنى به عن الحالة التى هي ضد التعب وهى الراحة وذلك ان الشدة التى فيها انقطاع الأسباب وانسداد طرق النجاة تتصور اختناقا وكظما للإنسان وبالمقابلة الخروج إلى فسحة الفرج والظفر بالعافية تنفسا وروحا لقولهم يفرج الهم وينفس الكرب فالروح المنسوب إليه تعالى هو الفرج بعد الشدة باذن الله ومشيته وعلى من يؤمن بالله ان يعتقد ان الله يفعل ما يشاء

ويحكم ما يريد لا قاهر لمشيته ولا معقب لحكمه وليس له ان ييأس من روح الله ويقنط من رحمته فانه تحديد لقدرته وفي معنى الكفر باحاطته وسعة رحمته كما قال تعالى حاكيا عن لسان يعقوب (عليه السلام) " انه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون " وقال حاكيا عن لسان إبراهيم (عليه السلام) " ومن يقنط من رحمه ربه الا الضالون " الحجر : 56 وقد عد اليأس من روح الله في الاخبار المأثورة من الكبائر الموبقة .

(124/402)

ومعنى الآية ثم قال يعقوب لبنيه آمرا لهم " يا بنى اذهبوا فتحسسوا " من يوسف واخيه " الذى اخذ بمصر وابحثوا عنهما لعلكم تظفرون بهما ولا تياسوا من روح الله والفرج الذى يرزقه الله بعد الشدة " انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون " الذين لا يؤمنون بان الله يقدر ان يكشف كل غمة وينفس عن كل كربة قوله تعالى : " فلما دخلوا عليه قالوا يا ايها العزيز مسنا واهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة " الخ البضاعة المزجاة المتاع القليل وفي الكلام حذف والتقدير فساروا بنى يعقوب إلى مصر ولما دخلوا على يوسف قالوا الخ . كانت لهم على ما يدل عليه السياق حاجتان إلى العزيز ولا مطمع لهم بحسب ظاهر الأسباب إلى قضائهما واستجابته عليهم فيهما .

احداهما ان يبيع منهم الطعام ولا ثمن عندهم يفى بما يريدونه من الطعام على انهم عرفوا بالكذب وسجل عليهم السرقة من قبل وهان امرهم على العزيز لا يرجى منه ان يكرمهم بما كان يكرمهم به في الجيئة الأولى .

وثانيتهما ان يخلى عن سبيل اخيهم المأخوذ بالسرقة وقد استيأسوا منه بعد ما كانوا الحوا عليه فأبى العزيز حتى عن تخلية سبيله بأخذ احدهم مكانه .

ولذلك لما حضروا عند يوسف العزيز وكلموه وهم يريدون اخذ الطعام واعتاق اخيهم اوقفوا انفسهم موقف التذلل والخضوع وبالغوا في رقة الكلام استرحاما واستعطافا فذكروا أولا ما مسهم واهلهم من الضر وسوء الحال ثم ذكروا قلة ما اتوا به من البضاعة ثم سألوه ايفاء الكيل واما حديث اخيهم المأخوذ فلم يصرحوا بسؤال تخلية سبيله بل سألوه ان يتصدق عليهم وانما يتصدق بالمال والطعام مال واخوهم المسترق مال العزيز ظاهرا ثم حرضوه بقولهم : " ان الله يجزى المتصدقين " وهو في معنى الدعاء .

(125/402)

فمعنى الآية يا ايها العزيز مسنا واهلنا الضر واحاط بنا جميعا المضيقة وسوء الحال وجئنا اليك ببضاعة مزجاة ومتاع قليل لا يعدل ما نسألك من الطعام غير انه نهاية ما في وسعنا

فأوف لنا الكيل وتصدق علينا وكأنهم يريدون به اخاهم أو اياه والطعام ان الله يجزى المتصدقين خيرا .

وقد بدؤا القول بخطاب " يا ايها العزيز " وختموه بما في معنى الدعاء واتوا خلاله بذكر سوء حالهم والاعتراف بقلة بضاعتهم وسؤاله ان يتصدق عليهم وهو من أمر السؤال والموقف موقف الاسترحام ممن لا يستحق ذلك لسوء سابقته وهم عصبة قد اصطفوا امام عزيز مصر .

وعند ذلك تمت الكلمة الإلهية انه سيرفع يوسف واخاه ويضع عنده سائر بنى يعقوب لظلمهم ولذلك لم يلبث يوسف (عليه السلام) دون ان اجابهم بقوله " هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه " وعرفهم نفسه وقد كان يمكنه (عليه السلام) ان يخبر اباه واخوته مكانه وانه بمصر طول هذه المدة غير القصيرة لكن الله سبحانه شاء ان يوقف اخوته امامه ومعه اخوه المحسود موقف المذلة والمسكنة وهو متك على اريكه العزة .

قوله تعالى قال : " هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه إذ انتم جاهلون " انما يخاطب المخطئ المجرم بمثل هل علمت وأتدرى وأرايت ونحوها وهو عالم بما فعل لتذكيره جزاء عمله ووبال ذنبه لكنه (عليه السلام) اعقب استفهامه بقوله " إذ انتم جاهلون " وفيه تلقين عذر .

فقوله " هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه " مجرد تذكير لعملهم بهما من غير توبيخ

ومؤاخذة ليعرفهم من الله عليه وعلى اخيه وهذا من عجيب فتوة يوسف (عليه السلام) ويا لها من فتوة .

قوله تعالى : " قالواء انك لانت يوسف قال انا يوسف وهذا اخى قد من الله علينا " إلى آخر الآية تأكيد الجملة المستفهم عنها للدلالة على ان الشواهد القطعية قامت على تحقق مضمونها وانما يستفهم لمجرد الاعتراف فحسب .

(126/402)

وقد قامت الشواهد عندهم على كون العزيز هو اخاهم يوسف ولذلك سألوه بقولهم " ء إنك لانت يوسف " مؤكدا بان واللام وضمير الفصل فأجابهم بقوله انا يوسف وهذا اخى " وانما الحق اخاه بنفسه ولم يسالوا عنه وما كانوا يجهلونه ليخبر عن من الله عليهما وهما معا المحسودان ولذا قال " قد من الله علينا " .

ثم اخبر عن سبب المن الإلهى بحسب ظاهر الأسباب فقال " انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين " وفيه دعوتهم إلى الاحسان وبيان انه يتحقق بالتقوى والصبر .

قوله تعالى : " قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين " الايثار هو الاختيار والتفضيل والخطأ ضد الصواب والخاطئ والمخطئ من خطا خطا واخطا اخطاء بمعنى واحد

ومعنى الآية ظاهر وفيها اعترافهم بالخطأ وتفضيل الله يوسف عليهم .

قوله تعالى : " قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين " التثريب التوبيخ والمبالغة في اللوم وتعديد الذنوب وانما قيد نفى التثريب باليوم ليدل على مكانة صفحه واغماضه عن الانتقام منهم والظرف هذا الظرف هو عزيز مصر اوتى النبوة والحكم وعلم الاحاديث ومعه اخوه وهم اذلاء بين يديه معترفون بالخطيئة وان الله آثره عليهم بالرغم من قولهم اول يوم " ليوسف واخوه احب إلى ابينا منا ونحن عصبة ان ابانا لفى ضلال مبين " . ثم دعا لهم واستغفر بقوله " يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين " وهذا دعاء واستغفار منه لاخوته الذين ظلموه جميعا وان كان الحاضرون عنده اليوم بعضهم لا جميعهم كما يستفاد من قوله تعالى الاتى " قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم " وسيجئ ان شاء الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 11 صـ 208 . 237 ﴾

(127/402)

قوله تعالى ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أقر أعينهم بعد اجتماع شملهم بإزالة ما يخشونه دنيا وأخرى ، بقي ما يخص أباهم من ذلك ، فكأنه وقع السؤال عنه فأجيب بقوله : ﴿ اذهبوا بقميصي ﴾ ولما كان قوله هذا ربما أوقع في أفهامهم قميصه الذي سلبوه إياه ، احترز عن ذلك بقوله : ﴿ هذا فألقوه ﴾ أي عقب وصولكم ﴿ على وجه أبي يأت ﴾ أي يرجع إلى ما كان ﴿ بصيراً ﴾ أو يأت إلى حالة كونه بصيراً ، فإنه إذا رد إليه بصره وعلم مكاني لم يصبر عن القصد إليّ لما عنده من وفور المحبة وعظيم الشوق ، وكونه قميصاً من ملابس يوسف المعتادة أدخل في الغرابة وأدل على الكرامة ؛ والقميص ألصق الثياب بالجسم ، فإظهار الكرامة به أدل على كمال دين صاحبه وعراقته في أمور الإيمان ، وهو يؤول في المنام بالدين ، وذلك أدخل في كمال السرور ليعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ وأتوني ﴾ أي بأبي وأنتم ﴿ بأهلكم ﴾ أي مصاحبين لهم ﴿ أجمعين ﴾ لا يتخلف منهم أحد ، فرجعوا بالقميص لهذا القصد ، قيل : كان يهوذا هو الذي حمل قميصه لما لطخوه بالدم ، فقال : لا يحمل هذا غيري لأفرحه كما أحزنته ، فحمله وهو حافٍ حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما ثمانون فرسخاً ﴿ ولما فصلت العير ﴾ من

العريش آخر بلاد مصر إلى بلاد الشام ﴿ قال أبوهم ﴾ لولد ولده ومن حوله من أهله ، مؤكداً لعلمه أنهم ينكرون قوله : ﴿ إني لأجد ﴾ أي لأقول : إني لأجد ﴿ ريح يوسف ﴾ وصدهم عن مواجهته بالإنكار بقوله : ﴿ لولا أن تفندون ﴾ أي لقلت غير مستح ولا متوقف ، لأن التفنيد لا يمنع الوجدان ، وهو كما تقول لصاحبك : لولا أن تنسبني إلى الخفة لقلت كذا ، أي إني قائل به مع علمي بأنك لا توافقني عليه ، " وفصل " هنا لازم يقال : فصل من البلد يفصل فصولاً ، والفصل : القطع بين الشيئين بحاجز ، والوجدان : ظهور من جهة إدراك يستحيل معه انتفاء الشيء ، والريح : عرض يدرك بحاسة الأنف أي الشم ، والتفنيد : تضعيف الرأي بالنسبة إلى الفند ، وهو الخوف وإنكار العقل من هرم ، يقال : شيخ مفند ، ولا يقال :

(128/402)

عجوز مفندة ، لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي فيفندها كبرها ؛ ثم استأنف حكاية جوابهم فقال : ﴿ قالوا ﴾ أي السامعون له ما ظنه بهم ، مقسمين بما دل على تعجبهم ، وهو ﴿ تالله ﴾ أي الملك الأعظم ، وأكدوا لمعرفتهم أنه ينكر كلامهم وكذا كل من يعرف كماله ﴿ إنك لفي ضلالك ﴾ أي بحيث صار ظرفاً لك ﴿ القديم ﴾ أي خطئك في ظن

حياة يوسف ؛ قال الرماني : والضلال : الذهاب عن جهة الصواب .

فصحح الله قوله وحقق وجدانه ، وعجلوا إليه بشيراً فأسرع بعد الفصول ، ولذلك عبر بالفاء في ﴿ فلما ﴾ وزيدت ﴿ أن ﴾ لتأكيد مجيئه على تلك الحال وزيادتها قياس مطرد ﴿ جاء البشير ﴾ وهو يهوذا بذلك ، معه القميص ﴿ ألقاه ﴾ أي القميص حين وصل إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام من غير فاصل ما بين أول المجيء وبينه كما أفادته زيادة " أن " لتأكيد ما تفيده " لما " من وقوع الفصل الثاني وهو هنا الإلقاء عقب الأول وترتبه عليه وهو هنا المجيء ﴿ على وجهه ﴾ أي يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ فارتد ﴾ من حينه ﴿ بصيراً ﴾ والارتداد : انقلاب الشيء إلى حال كان عليها ، فالتفت الخاطر إلى حاله مع فنده ، فأخبر تعالى عن ذلك بقوله مستأنفاً : ﴿ قال ﴾ أي يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ ألم أقل لكم ﴾ : إني أجد ريحه ؛ ثم علل هذا التقرير بقوله مؤكداً لأن قولهم قول من ينكر : ﴿ إني أعلم من الله ﴾ أي المختص بصفات الكمال ﴿ ما لا تعلمون ﴾ لما خصني به تعالى من أنواع المواهب ، وهو عام لأخبار يوسف عليه الصلاة والسلام وغيرها ، وهو من التحديث بنعمة الله .

ولما كان ذلك تشوفت النفس إلى علم ما يقع بينه وبين أولاده في ذلك ، فدفع عنها هذا العناء بقوله : ﴿ قالوا يا أبانا ﴾ منادين بالأداة التي تدل على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له

من عظيم الوقع : ﴿ استغفر ﴾ أي اطلب من الله أن يغفر ﴿ لنا ذنوبنا ﴾ ورد كل ضمير من هذه الضمائر إلى صاحبه في غاية الوضوح ، فلذلك لم يصرح بصاحبه .

(129/402)

ولما سألوه الاستغفار لذنوبهم ، عللوه بالاعتراف بالذنب ، لأن الاعتراف شرط التوبة - كما قال - صلى الله عليه وسلم - : " إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه " فقالوا مؤكدين تحقيقاً للإخلاص في التوبة : ﴿ إنا كنا خاطئين ﴾ أي متعمدين للإثم بما ارتكبنا في أمر يوسف علية الصلاة والسلام ؛ ثم حكى جوابه بقوله مستأنفاً : ﴿ قال ﴾ أي أبوهم عليه السلام مؤكداً لكلامه : ﴿ سوف أستغفر ﴾ أي أطلب أن يغفر ﴿ لكم ربي ﴾ أي الذي لم يزل يحسن إليّ ويربيني أحسن تربية ، فهو الجدير بأن يغفر لبني حتى لا يفرق بيني وبينهم في دار البقاء ؛ والربوبية : ملك هو أتم الملك على الإطلاق ، وهو ملك الله تعالى لإنشاء الأنفس باختراعها وتصريفها أتم التصريف من الإيجاد والإعدام والتقليب من حال إلى حال في جميع الأمور من غير تعب ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه هو ﴾ أي وحده ﴿ الغفور الرحيم ﴾ كل ذلك تسكيناً لقلوبهم وتصحيحاً لرجائهم ليقوى أملهم ، فيكون تعالى عند ظنهم بتحقيق الإجابة وتنجيزاً لطلبه ؛ ولعله عبر ب " سوف " لتقديم هاتين

الجملتين على المسألة لما ذكرته من الأغراض ، وقيل : لأنه أخر الدعاء إلى صلاة الليل ، وقيل : إلى ليلة الجمعة ؛ وقيل : يؤخذ منها أن طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منه إلى الشيوخ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 96.98 ﴾

(130/402)

فصل

قال الفخر :

ثم قال يوسف عليه السلام : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾

قال المفسرون : لما عرفهم يوسف سألهم عن أبيه فقالوا ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه ، قال المحققون : إنما عرف أن إلقاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ولولا الوحي لما عرف ذلك ، لأن العقل لا يدل عليه ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فإذا ألقي عليه قميصه فلا بد أن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد ، وذلك يقوي الروح ويزيل الضعف عن القوي ، فحينئذ يقوى بصره ، ويزول عنه ذلك النقصان ، فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى ، وقوله :

﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ أي يصير بصيرا بصيراً ويشهد له

﴿ فارتد بَصِيرًا ﴾ [يوسف : 96] ويقال : المراد يأت إلي وهو بصير ، وإنما أفرده بالذكر تعظيماً له ، وقال في الباقين : ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قال الكلبي : كان أهله نحواً من سبعين إنساناً وقال مسروق دخل قوم يوسف عليه السلام مصر .

وهم ثلاثة وتسعون من بين رجل وامرأة ، وروي أن يهودا حمل الكتاب وقال أنا أحزنته بحمل القميص الملطخ بالدم إليه فأفرحه كما أحزنته .

وقيل حمله وهو حاف وحاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾

يقال : فصل فلان من عند فلان فصولاً إذا خرج من عنده .

وفصل مني إليه كتاباً إذا أنفذ به إليه .

وفصل يكون لازماً ومتعدياً وإذا كان لازماً فمصدره الفصول وإذا كان متعدياً فمصدره الفصل قال لما خرجت العير من مصر متوجهة إلى كنعان قال يعقوب عليه السلام لمن حضر عنده من أهله وقرابته وولد ولده ﴿ إِنّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنّدُونِ ﴾ ولم يكن هذا

القول مع أولاده لأنهم كانوا غائبين بدليل أنه عليه السلام قال لهم : ﴿ اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ [يوسف : 87] واختلفوا في قدر المسافة فقيل : مسيرة ثمانية أيام ، وقيل عشرة أيام ، وقيل ثمانون فرسخاً .

واختلفوا في كيفية وصول تلك الرائحة إليه ، فقال مجاهد : هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فمن ثم قال : ﴿ إِنّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ وروى الواحدي بإسناده عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أما قوله : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ [يوسف : 93] فإن نمروذ الجبار لما ألقى إبراهيم في النار نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه ، فكسا إبراهيم عليه السلام ذلك القميص إسحاق وكساه إسحق يعقوب وكساه يعقوب يوسف فجعله في قصبة من فضة وعلقها في عنقه فألقى في الجب القميص في عنقه فذلك قوله : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا ﴾ والتحقيق أن يقال : إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات لا وصول الرائحة إليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة فيكون معجزة ولا بد من كونها معجزة لأحدهما والأقرب أنه ليعقوب عليه السلام

حين أخبر عنه ونسبوه في هذا الكلام إلى ما لا ينبغي ، فظهر أن الأمر كما ذكر فكان معجزة له .

قال أهل المعاني : إن الله تعالى أوصل إليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجيء وقت الروح والفرح من المكان البعيد ومنع من وصول خبره إليه مع قرب إحدى البلدتين من الأخرى في مدة ثمانين سنة وذلك يدل على أن كل سهل فهو في زمان المحنة صعب وكل صعب فهو في زمان الإقبال سهل ومعنى : لأجد ريح يوسف أشم وعبر عنه بالوجود لأنه وجدان له بحاسة الشم ، وقوله : ﴿ لَوْلاَ أَن تُفَنّدُونِ ﴾ قال أبو بكر ابن الأنباري : أفند الرجل إذا حزن وتغير عقله وفند إذا جهل ونسب ذلك إليه ، وعن الأصمعي إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو المفند قال صاحب "الكشاف" : يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة ، لأنها لم يكن في شبيبتها ذات رأي حتى تفند في كبرها فقوله : ﴿ لَوْلاَ أَن تُفَنّدُونِ ﴾ أي لولا أن تنسبوني إلى الخرف ، ولما ذكر يعقوب ذلك قال الحاضرون عنده : ﴿ تالله إِنَّكَ لَفِى ضلالك القديم ﴾ وفي الضلال ههنا وجوه : الأول : قال مقاتل : يعني بالضلال ههنا الشقاء ، يعني شقاء الدنيا والمعنى : إنك لفي شقائك القديم بما تكابد

من الأحزان على يوسف ، واحتج مقاتل بقوله :

﴿ إِنَّا إِذاً لَّفِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : 24] يعنون لفي شقاء دنيانا ، وقال قتادة : لفي ضلالك القديم ، أي لفي حبك القديم لا تنساه ولا تذهل عنه وهو كقولهم : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : 8] ثم قال قتادة : قد قالوا كلمة غليظة ولم يكن يجوز أن يقولوها لنبي الله ، وقال الحسن إنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات وقد كان يعقوب في ولوعه بذكره ، ذاهباً عن الرشد والصواب وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَن جَاء البشير ﴾ في "أن" قولان : الأول : أنه لا موضع لها من الإعراب وقد تذكر تارة كما ههنا ، وقد تحذف كقوله :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الروع ﴾ [هود : 74] والمذهبان جميعاً موجودان في أشعار العرب .

(133/402)

والثاني : قال البصريون هي مع "ما" في موضع رفع بالفعل المضمر تقديره : فلما ظهر أن جاء البشير ، أي ظهر مجيء البشير فأضمر الرافع قال جمهور المفسرين البشير هو يهودا قال أنا ذهبت بالقميص الملطخ بالدم وقلت إن يوسف أكله / الذئب فأذهب اليوم بالقميص فأفرحه كما أحزنته قوله : ﴿ أَلْقَاهُ على وَجْهِهِ ﴾ أي طرح البشير القميص على وجه

يعقوب أو يقال ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿ فارتد بَصِيرًا ﴾ أي رجع بصيرا ومعنى الارتداد انقلاب الشيء إلى حالة قد كان عليها وقوله : ﴿ فارتد بَصِيرًا ﴾ أي صيره الله بصيراً كما يقال طالت النخلة والله تعالى أطالها واختلفوا فيه فقال بعضهم : إنه كان قد عمي بالكلية فالله تعالى جعله بصيراً في هذا الوقت .

وقال آخرون : بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الأحزان ، فلما ألقوا القميص على وجهه ، وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه ، فعند ذلك قوي بصره وزال النقصان عنه ، فعند هذا قال : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ والمراد علمه بحياة يوسف من جهة الرؤيا ، لأن هذا المعنى هو الذي له تعلق بما تقدم ، وهو إشارة إلى ما تقدم من قوله : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثّى وَحُزْنِى إِلَى الله وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 86] روي أنه سأل البشير وقال : كيف يوسف قال هو ملك مصر ، قال : ما أصنع بالملك على أي دين تركته قال : على دين الإسلام قال : الآن تمت النعمة ، ثم إن أولاد يعقوب أخذوا يعتذرون إليه ﴿ وَقَالُواْ يا أبانا استغفر لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خاطئين قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّى إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ وظاهر الكلام أنه لم

يستغفر لهم في الحال، بل وعدهم بأنه يستغفر لهم بعد ذلك، واختلفوا في سبب هذا المعنى على وجوه: الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: والأكثرون أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر، لأن هذا الوقت أوفق الأوقات لرجاء الإجابة.

الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: في رواية أخرى أخر الاستغفار إلى ليلة الجمعة، لأنها أوفق الأوقات للإجابة.

الثالث: أراد أن يعرف أنهم هل تابوا في الحقيقة أم لا، وهل حصلت توبتهم مقرونة بالإخلاص التام أم لا.

الرابع: استغفر لهم في الحال، وقوله: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ﴾ معناه أني أداوم على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل، فقد روي أنه كان يستغفر لهم في كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل: قام إلى الصلاة في وقت فلما فرغ رفع يده إلى السماء وقال: "اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عليه، واغفر لأولادي ما فعلوه في حق يوسف عليه السلام" فأوحى الله تعالى إليه: قد غفرت لك ولهم أجمعين.

وروي أن أبناء يعقوب عليه السلام قالوا ليعقوب وقد غلبهم الخوف والبكاء: ما يغني عنا

إن لم يغفر لنا ، فاستقبل الشيخ القبلة قائماً يدعو ، وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى قل صبرهم فظنوا أنها الهلكة فنزل جبريل عليه السلام وقال : "إن الله تعالى أجاب دعوتك في ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة" وقد اختلف الناس في نبوتهم وهو مشهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 167.165 ﴾

(136/402)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾

وفيه وجهان :

أحدهما : مستبصراً بأمري لأنه إذا شم ريح القميص عرفني .

الثاني : بصيراً من العمى فذاك من أحد الآيات الثلاث في قميص يوسف بعد الدم الكذب وقدّه من دُبره . وفيه وجه آخر لأنه قميص إبراهيم أنزل عليه من الجنة لما أُلقي في النار ، فصار لإسحاق ثم ليعقوب ، ثم ليوسف فخلص به من الجب وحازه حتى ألقاه أخوه على وجه أبيه فارتد بصيراً ، ولم يعلم بما سبق من سلامة إبراهيم من النار ويوسف من الجب أن

يعقوب يرجع به بصيراً .

قال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره . . . وكان الذي حمل قميصه يهوذا بن يعقوب ، قال ليوسف : أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته فأنا الآن أحمل قميصك لأسرّه وليعود إليه بصره فحمله ، حكاه السدي .

﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ لتتخذوا مِصرَ داراً . قال مسروق فكانوا ثلاثة وتسعين بين رجل وامرأة .

قوله عز وجل : ﴿ ولمّا فصلت العير ﴾ أي خرجت من مصر منطلقة إلى الشام .

﴿ قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها أمارات شاهدة وعلامات قوي ظنه بها ، فكانت هي الريح التي وجدها ليوسف ، مأخوذ من قولهم تنسمت رائحة كذا وكذا إذا قرب منك ما ظننت أنه سيكون .

والقول الثاني : وهو قول الجمهور أنه شم ريح يوسف التي عرفها .

قال جعفر بن محمد رضي الله عنه : وهي ريح الصبا . ثم اعتذر فقال :

﴿ لولا أن تفندّون ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : لولا أن تسفهون ، قاله ابن عباس ومجاهد ، ومنه قول النابغة الذبياني :

إلا سليمان إذ قال المليكُ له . . . قم في البرية فاجددها عن الفنَد

أي عن السفة .

الثاني : معناه لولا أن تكذبون ، قاله سعيد بن جبير والضحاك ، ومنه قول الشاعر :

هل في افتخار الكريم من أود . . . أم هل لقول الصديق من فند

أي من كذب .

(137/402)

الثالث : لولا أن تضعّفون ، قاله ابن إسحاق . والتفنيد : تضعيف الرأي ، ومنه قول الشاعر

:

يا صاحبي دعا لومي وتفنيدي . . . فليس ما فات من أمري بمردود

وكان قول هذا لأولاد بنيه ، لغيبة بنيه عنه ، فدل هذا على أن الجدّ أبٌ .

الرابع : لولا أن تلوموني ، قاله ابن بحر .

ومنه قول جرير :

يا عاذليَّ دعا الملامة واقصِرا . . . طال الهوى وأطْلتُما التفنيدا

واختلفوا في المسافة التي وجد ريح قميصه منها على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه وجدها من مسافة عشرة أيام . قاله أبو الهذيل .

الثاني : من مسيرة ثمانية أيام ، قاله ابن عباس .

الثالث : من مسيرة ستة أيام ، قاله مجاهد . وكان يعقوب بأرض كنعان ويوسف بمصر وبينهما ثمانون فرسخاً ، قاله قتادة .

قوله عز وجل : ﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أي في خطئك القديم ، قاله ابن عباس وابن زيد .

الثاني : في جنونك القديم ، قاله سعيد بن جبير . قال الحسن : وهذا عقوق .

الثالث : في محبتك القديمة ، قاله قتادة وسفيان .

الرابع : في شقائك القديم ، قاله مقاتل ، ومنه قول لبيد :

تمنى أن تلاقي آل سلمى . . . بحطمة والمنى طرف الضّلالِ

وفي قائل ذلك قولان :

أحدهما : بنوه ، ولم يقصدوا بذلك ذماً فيأثموا .

والثاني : بنو نبيه وكانوا صغاراً .

قوله عز وجل : ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾

وفي قولان :

أحدهما : شمعون ، قاله الضحاك .

الثاني : يهوذا . سمي بذلك لأنه أتاه ببشارة .

﴿ ألقاه على وجهه ﴾ يعني ألقى قميص يوسف على وجه يعقوب .

﴿ فارتدَّ بصيراً ﴾ أي رجع بصيراً ، وفيه وجهان :

أحدهما : بصيراً بخبر يوسف .

الثاني : بصيراً من العمى .

﴿ قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : إني أعلم من صحة رؤيا يوسف ما لا تعلمون .

الثاني : إني أعلم من قول ملك الموت أنه لم يقبض روح يوسف ما لا تعلمون .

(138/402)

الثالث : إني أعلم من بلوى الأنبياء بالمحن ونزول العراج ونيل الثواب ما لا تعلمون .

قوله عز وجل : ﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ وإنما سألوه ذلك لأمرين :

أحدهما : أنهم أدخلوا عليه من آلام الحزن ما لا يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله .

الثاني : أنه نبيٌّ تُجاب دعوته ويعطى مسألته ، فروى ابن وهب عن الليث بن سعد أن يعقوب وإخوة يوسف قاموا عشرين سنة يطلبون التوبة فيما فعل إخوة يوسف بيوسف لا يقبل ذلك منهم حتى لقي جبريل يعقوب فعلمه هذا الدعاء : يا رجاء المؤمنين لا تخيب

رجائي ، ويا غوث المؤمنين أغثني ، ويا عَوْن المؤمنين أعني ، ويا مجيب التّوابين تُبْ عليَّ فاستجيب لهم .

فإن قيل قد تقدمت المغفرة لهم بقول يوسف من قبل ﴿ لا تثريب عليكم ﴾ الآية ، فلمَ سألوا أباهم أن يستغفر لهم ؟

فعن ذلك ثلاثة أجوبة :

أحدها : لأن لفظ يوسف عن مستقبل صار وعداً ، ولم يكن عن ماض فيكون خبراً .

الثاني : أن ما تقدم من يوسف كان مغفرة في حقه ، ثم سألوا أباهم أن يستغفر لهم في حق نفسه .

الثالث : أنهم علموا نبوة أبيهم فوثقوا بإجابته ، ولم يعلموا نبوة أخيهم فلم يثقوا بإجابته .

قوله عز وجل : ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ وفي تأخيره الاستغفار لهم وجهان :

أحدهما : أنه أخره دفعاً عن العجيل ووعداً من بعد ، فلذلك قال عطاء : طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ ، ألا ترى إلى قول يوسف : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ وإلى قول يعقوب : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ .

الثاني : أنه أخّره انتظاراً لوقت الإجابة وتوقعاً لزمان الطلب .

وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : عند صلاة الليل ، قاله عمرو بن قيس .

الثاني : إلى السحَر ، قاله ابن مسعود وابن عمر . روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أخرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجار " . الثالث : إلى ليلة الجمعة قاله ابن عباس ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعاً .

(139/402)

وإنما سألوه عن الاستغفار لهم وإن كان المستحق في ذنوبهم التوبة منها دون الاستغفار لهم ثلاثة أمور :

أحدها : للتبرك بدعائه واستغفاره . الثاني : طلباً لاستعطافه ورضاه . الثالث : لحذرهم من البلوى والامتحان في الدنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(140/402)

وقال ابن عطية :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾

حكمه بعد الأمر إلقاء القميص على وجه أبيه بأن أباه يأتي بصيراً ويزول عماه دليل على أن

هذا كله بوحي وإعلام من الله . قال النقاش : وروي أن هذا القميص كان لإبراهيم كساه الله إياه حين خرج من النار وكان من ثياب الجنة . وكان بعد لإسحاق ثم ليعقوب ثم كان دفعه ليوسف فكان عنده في حفاظ من قصب .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله يحتاج إلى سند ، والظاهر أنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد ، وهكذا تبين الغرابة في أن وجد ريحه من بعد ، ولو كان من قميص الجنة لما كان في ذلك غرابة ولوجده كل أحد .

وأما " أهلهم " فروي : أنهم كانوا ثمانين نسمة ، وقيل ستة وسبعين نفساً بين رجال ونساء - وفي هذا العدد دخلوا مصر ثم خرج منها أعقابهم مع موسى في ستمائة ألف . وذكر الطبري عن السدي أنه لما كشف أمره لإخوته سألهم عن أبيهم : ما حاله ؟ فقالوا : ذهب بصره من البكاء . فحينئذ قال لهم : ﴿ اذهبوا بقميصي ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ولما فصلت العير ﴾ الآية ، معناه : فصلت العير من مصر متوجهة إلى موضع يعقوب ، حسبما اختلف فيه ، فقيل : كان على مقربة من بيت المقدس ، وقيل كان بالجزيرة والأول أصح لأن آثارهم وقبورهم حتى الآن هناك .

وروي أن يعقوب وجد ﴿ ريح يوسف ﴾ وبينه وبين القميص مسيرة ثمانية أيام ، قاله ابن عباس ، وقال : هاجت ريح فحملت عرفه ؛ وروي : أنه كان بينهما ثمانون فرسخاً - قاله

الحسن – وابن جريج قال : وقد كان فارقه قبل ذلك سبعاً وسبعين سنة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قريب من الأول .

وروي : أنه كان بينهما مسيرة ثلاثين يوماً ، قاله الحسن بن أبي الحسن ، وروي عن أبي أيوب الهوزني : أن الريح استأذنت في أن توصل عرف يوسف إلى يعقوب ، فأذن لها في ذلك .

وكانت مخاطبة يعقوب هذه لحاضريه ، فروي : أنهم كانوا حفدته ، وقيل : كانوا بعض بنيه ، وقيل : كانوا قرابته .

و ﴿ تفندون ﴾ معناه : تردون رأيي وتدفعون في صدري ، وهذا هو التفنيد في اللغة ، ومن ذلك قول الشاعر : [البسيط]

يا عاذليّ دعا لومي وتفنيدي . . . فليس ما فات من أمري بمردود

ويقال : أفند الدهر فلاناً : إذا أفسده .

قال ابن مقبل : [الطويل]

دع الدهر يفعل ما أراد فإنه . . . إذا كلف الإفناد بالناس أفندا

ومما يعطي أن الفند الفساد في الجملة قول النابغة : [البسيط]

إلا سليمان إذ قال الإله له . . . قم في البرية فاحددها عن الفند

وقال منذر بن سعيد : يقال : شيخ مفند : أي قد فسد رأيه ، ولا يقال : عجوز .

قال القاضي أبو محمد : والتفنيد يقع إما لجهل المفند ، وإما لهوى غلبه ، وإما لكذبه ، وإما لضعفه وعجزه لذهاب عقله وهرمه ، فلهذا فسّر الناس التفنيد في هذه الآية بهذه المعاني ومنه قوله عليه السلام أو هرماً مفنداً .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : معناه تسفهون ، وقال ابن عباس – أيضاً – تجهلون ، وقال ابن جبير وعطاء : معناه : تكذبون ، وقال ابن إسحاق : معناه : تضعفون ، وقال ابن زيد ومجاهد : معناه : تقولون : ذهب عقلك ، وقال الحسن : معناه : تهرمون .

والذي يشبه أن تفنيدهم ليعقوب إنما كان لأنهم كانوا يعتقدون أن هواه قد غلبه في جانب يوسف . قال الطبري : أصل التفنيد الإفساد .

وقولهم : ﴿ لفي ضلالك ﴾ يريدون في انتكافك وتحيرك ، وليس هو بالضلال الذي هو في العرف ضد الرشاد ، لأن ذلك من الجفاء الذي لا يسوغ لهم مواجهته به ، وقد تأول بعض الناس على ذلك ، ولهذا قال قتادة رحمه الله : قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم

أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله عليه السلام ، وقال ابن عباس : المعنى : لفي خطئك .

قال القاضي أبو محمد : وكان حزن يعقوب قد تجدد بقصة بنيامين ، فلذلك يقال له : ذو الحزنين .

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾

روي عن ابن عباس : أن ﴿ البشير ﴾ كان يهوذا لأنه كان جاء بقميص الدم .

قال القاضي أبو محمد : حدثني أبي رضي الله عنه قال : سمعت الواعظ أبا الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يقول : إن يوسف عليه السلام لما قال : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي ﴾ [يوسف : 93] قال يهوذا لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص الترحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة ؛ فتركوه وذلك . وقال هذا المعنى السدي . و﴿ ارتد ﴾ معناه : رجع هو ، يقال : ارتد الرجل ورده غيره ، و﴿ بصيرا ﴾ معناه : مبصراً ، ثم وقفهم على قوله : ﴿ إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ وهذا – والله أعلم – هو انتظاره لتأويل الرؤيا – ويحتمل أن يشير إلى حسن ظنه بالله تعالى فقط .

وروي : أنه قال للبشير : على أي دين تركت يوسف ؟ قال : على الإسلام قال : الحمد لله ، الآن كملت النعمة .

وفي مصحف ابن مسعود : " فلما أن جاء البشير من بين يدي العير " ، وحكى الطبري عن بعض النحويين أنه قال : ﴿ أن ﴾ في قوله : ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ زائدة ، والعرب

تزيدها أحياناً في الكلام بعد لما وبعد حتى فقط ، تقول : لما جئت كان كذا ، ولما أن جئت ، وكذلك تقول : ما قام زيد حتى قمت ، وحتى أن قمت .

وقوله : ﴿ قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ الآية ، روي أن يوسف عليه السلام لما غفر لإخوته ، وتحققوا أيضاً أن يعقوب يغفر لهم ، قال بعضهم لبعض : ما يغني عنا هذا إن لم يغفر الله لنا ؟ ! فطلبوا – حينئذ – من يعقوب أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى ، واعترفوا بالخطأ ، فقال لهم يعقوب : ﴿ سوف أستغفر ﴾ ، فقالت فرقة : سوفهم إلى السحر ، وروي عن محارب بن دثار أنه قال : كان عم لي يأتي المسجد فسمع إنساناً يقول : اللهم دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت ، وهذا سحر فاغفر لي ، فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسئل عبد الله بن مسعود عن ذلك ، فقال : إن يعقوب عليه اسلام أخر بنيه إلى السحر ، ويقوي هذا التأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ينزل ربنا كل ليلة إذا كان الثلث الآخر إلى سماء الدنيا فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ " الحديث . ويقويه قوله تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران : 17] . وقالت فرقة : إنما سوفهم يعقوب إلى قيام الليل ، وقالت فرقة – منهم

سعيد بن جبير – سوفهم يعقوب إلى الليالي البيض ، فان الدعاء فيهن يستجاب وقيل : إنما أخرهم إلى ليلة الجمعة ، وروى ابن عباس هذا التأويل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " أخرهم يعقوب حتى تأتي له الجمعة " .

ثم رجاهم يعقوب عليه السلام بقوله : ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ . انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(144/402)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِي هذا ﴾

نعت للقميص ، والقميص مذكر ، فأما قول الشاعر :

تَدْعو هَوَازِنُ والقميصُ مُفَاضَةٌ . . .

فوق النِّطاقِ تُشَدّ بالأزرارِ

فتقديره : (والقميص) دِرْعٌ مُفاضةٌ .

قاله النحاس .

وقال ابن السدّي عن أبيه عن مجاهد : قال لهم يوسف : "اذهبوا بِقَمِيصي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى

وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً" قال : كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدّ على يعقوب بصره ، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذي ألبسه الله في النار من حرير الجنة ، وكان كساه إسحق ، وكان إسحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص في قَصَبة من فضة وعلّقه في عُنق يوسف ، لِمَا كان يخاف عليه من العين ، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة ، و (إن) ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مُبتلًى إلا عُوفي .

وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره ، وكان الذي حمل قميصه يهوذا ، قال ليوسف : أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته ، وأنا الذي أحمله الآن لأسرّه ، وليعود إليه بصره ، فحمله ؛ حكاه السدّي .

﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لتتخذوا مصر داراً .

قال مسروق : فكانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة .

وقد قيل : إن القميص الذي بعثه هو القميص الذي قدّ من دُبره ، ليعلم يعقوب أنه عُصِم من الزنى ؛ والقول الأوّل أصح ، وقد روي مرفوعاً من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره القُشَيري والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ ﴾

أي خرجت منطلقة من مصر إلى الشام ، يقال : فَصَلَ فُصُولاً ، وفَصَلْته فَصْلاً ، فهو لازم ومتعد .

﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ أي قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده : ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ .

(145/402)

وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه ، فقال لمن بقي : "إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ" .

قال ابن عباس : هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه ، وبينهما مسيرة ثمان ليال .

وقال الحسن : مسيرة عشر ليال ؛ وعنه أيضاً مَسيرة شهر .

وقال مالك (بن أنس) رضي الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتدّ إلى سليمان عليه السلام طرفه .

وقال مجاهد : هبّت ريح فصَفَقَت القميصَ فراحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فعند ذلك قال : "إِنِّي لأَجِدُ" أي أشم ؛ فهو وجود بحاسة الشم .

﴿ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : لولا أن تُسفّهون ؛ ومنه قول النابغة :

إلاَّ سُليمانَ إذ قال المليكُ لَهُ . . .

قُمْ في البرِيَّة فاحددها عنِ الفَنَدِ

أي عن السَّفَه .

وقال سعيد بن جُبير والضحاك : لولا أن تكذِّبون .

والفَنَد الكذب .

وقد أَفْنَد إفْنَاداً كَذَب ؛ ومنه قول الشاعر :

هل في افتخار الكريم من أَوَدِ . . .

أَمْ هل لقول الصَّدُوقِ من فَنَدِ

أي من كذب .

وقيل : لولا أن تُقبِّحون ؛ قاله أبو عمرو ؛ والتّفنيد التقبيح ، قال الشاعر :

يا صاحبيّ دعا لومي وتَفْنِيدِي . . .

فليس ما فاتَ مِن أمري بمردودِ

وقال ابن الأعرابي : "لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ" لولا أن تُضعِّفوا رأيي ؛ وقاله ابن إسحق .

والفند ضعف الرأي من كِبر .

وقول رابع : تُضلِّلون ، قاله أبو عبيدة .

وقال الأخفش : تلومونني ؛ والتفنيد اللوم وتضعيف الرأي .

وقال الحسن وقَتَادة ومجاهد أيضاً : تُهرِّمون ؛ وكله متقارب المعنى ، وهو راجع إلى التعجيز

وتضعيف الرأي ؛ يقال : فَنَّده تفنيداً إذا أعجزه ، كما قال :

أهلكتني باللوم والتفنِيد . . .

ويقال : أفند إذا تكلم بالخطأ ؛ والفند الخطأ في الكلام والرأي ، كما قال النابغة :

. . .

فاحددها عن الفَنَدِ . . .

(146/402)

أي امنعها عن الفساد في العقل ، ومن ذلك قيل : اللوم تفنيد ؛ قال الشاعر :

يا عاذليّ دَعَا الْمَلاَمَ وأَقْصِرا . . .

طال الهَوَى وأطلتما التَّفْنِيدا

ويقال : أَفْنَد فلاناً الدهرُ إذا أفسده ؛ ومنه قول ابن مُقْبل :

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ ما أَرادَ فإنَّهُ . . .

إذا كُلِّف الإفنادَ بالناس أَفْنَدَا

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ ﴾ أي لفي ذهاب عن طريق الصواب .

وقال ابن عباس وابن زيد : لفي خطئِك الماضي من حبّ يوسف لا تنساه .

وقال سعيد بن جُبير : لفي جنونك القديم .

قال الحسن : وهذا عقوق .

وقال قَتَادة وسفيان : لفي محبتك القديمة .

وقيل : إنما قالوا هذا ؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات .

وقيل : إن الذي قال له ذلك من بقي معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر .

وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقرابته .

وقيل : بنو بنيه وكانوا صغاراً ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ أي على عينيه .

﴿ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ "أَنْ" زائدة ، والبشير قيل هو شمعون .

وقيل : يهوذا قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به مُلَطَّخاً بالدّم ؛ قاله ابن عباس .

وعن السدّي أنه قال لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفَرْحة .

وقال يحيى بن يمان عن سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : على أيّ دِينٍ تركت يوسف ؟ قال : على الإسلام ؛ قال : الآن تمت النعمة ؛ وقال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئاً يُثيبه به ؛ فقال : والله ما أصبتُ عندنا شيئاً ، وما خبزنا شيئاً منذ سبع ليال ، ولكن هوّن الله عليك سكراتِ الموت .

قلت : وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز ، وأفضل العطايا والذخائر .

ودلّت هذه الآية على جواز البذل والهِبات عند البشائر .

(147/402)

وفي الباب حديث كعب بن مالك الطويل وفيه : "فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني نزعت ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته" وذكر الحديث ، وقد تقدّم بكماله في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا ، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصول ما يستبشر به ، وهو دليل على جواز إظهار الفرح بعد زوال الغمّ والتّرَح.

ومن هذا الباب جواز حِذَاقة الصبيان ، وإطعام الطعام فيها ، وقد نحر عمر بعد (حفظه) سورة "البقرة" جَزُوراً .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ذَكَّرهم قوله : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يا أبانا استغفر لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ في الكلام حذف ، التقدير

: فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا ؛ وهذا يدلّ على أن الذي قال له : "تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ" بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله لا ولده ؛ فإنهم كانوا غُيَّبًا ، وكان يكون ذلك زيادة في العقوق .

والله أعلم .

وإنما سألوه المغفرة ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله .

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالماً له ؛ فإنه يجب عليه أن يَتَحَلَّل له ويخبره بالمَظْلِمة وقدرها ؛ وهل ينفعه التّحليل المطلق أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينفع ؛ فإنه لو أخبره بمظلِمة لها قَدْرٌ وبَالٌ ربما لم تَطب نفس المظلوم في التَّحلُّل منها .

والله أعلم .

وفي صحيح البخاريّ وغيره عن أبي هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" من كانت له مَظْلِمَة لأخيه من عِرْضه أو شيءٌ فلْيحلّله منه اليوم قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهمٌ إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مَظلِمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات

صاحبه فُحمِل عليه " قال المهلَّب فقوله صلى الله عليه وسلم : "أُخذ منه بقدر مَظْلِمته" يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشاراً إليها مبيّنة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربي ﴾ قال ابن عباس : أَخَّر دعاءه إلى السَّحَر .

وقال المُثَنَّى بن الصَّبَّاح عن طاوس قال : سَحَر ليلة الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء .

وفي دعاء الحِفظ من كتاب الترمذيّ " عن ابن عباس أنه قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : بأبي أنت وأمّي تَفَلَّتَ هذا القرآنُ من صدري ، فما أجدني أقدر عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلا أعلمك كلماتٍ يَنفعُكَ اللَّهُ بهنّ ويَنفعْ بهنّ من عَلَّمته ويُثبّت ما تعلمتَ في صدرك قال : أجل يا رسول الله ! فَعلِّمني ؛ قال : إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخِر فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أخي يعقوب لبنيه "سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي" يقول حتى تأتي ليلة الجمعة " وذكر الحديث .

وقال أيوب بن أبي تميمة السَّخْتِيَاني عن سعيد بن جُبير قال : "سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي" في الليالي البيض ، في الثالثة عشرة ، والرابعة عشرة ، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب .

وعن عامر الشّعبي قال : "سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي" أي أسأل يوسف إن عفا عنكم استغفرت لكم ربي ؛ وذكر سُنَيد بن داود قال : حدّثنا هشيم قال حدّثنا عبد الرحمن بن إسحق عن محارب بن دِثَار عن عَمّه قال : كنت آتي المسجد في السَّحر فأمرُّ بدار ابن مسعود فأسمعه يقول : اللهم إنك أمرتني فأطعت ، ودعوتني فأجبت ، وهذا سَحَرٌ فاغفر لي ، فلقيت ابن مسعود فقلت : كلمات أسمعك تقولهنّ في السحر ؟ فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السَّحَر بقوله : "سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(150/402)

وقال الخازن :

﴿ اذهبوا بقميصي هذا ﴾

قال الضحاك كان هذا القميص من نسج الجنة (1) ، وقال مجاهد : أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه وكان ذلك القميص قميص إبراهيم وذلك أنه لما جرد من ثيابه وألقي في النار عرياناً أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فكان ذلك القميص عند إبراهيم ،

فلما مات ورثه إسحاق فلما مات ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في قصبة من فضة وسد رأسها وجعلها في عنق يوسف كالتعاويذ لما كان يخاف عليه من العين وكانت لا تفارقه فلما ألقي يوسف في البئر عرياناً أتاه جبريل وأخرج ذلك القميص وألبسه إياه فلما كان هذا الوقت جاءه جبريل فأمره أن يرسل هذا القميص إلى أبيه لأن فيه ريح الجنة فلا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي في الوقت فدفع ذلك القميص يوسف إلى إخوته وقال اذهبوا بقميصي هذا ﴿ فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ قال المحققون : إن علم يوسف أن إلقاء ذلك القميص على وجه يعقوب يوجب رد البصر كان بوحي الله إليه ذلك ويمكن أن يقال إن يوسف لما علم أن أباه قد عمي من كثرة البكاء عليه وضيق الصدر بعث إليه قميصه ليجد ريحه فيزول بكاؤه وينشرح صدره ويفرح قلبه فعند ذلك يزول الضعف ويقوى البصر فهذا القدر تمكن معرفته من جهة العقل وقوله ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ قال الكلبي : كانوا نحواً من سبعين إنساناً وقال مسروق : كانوا ثلاثة وسبعين ما بين رجل وامرأة ﴿ ولما فصلت العير ﴾ يعني خرجت من مصر وقيل من عريش مصر متوجهين إلى أرض كنعان ﴿ قال أبوهم ﴾ يعني : قال يعقوب لولد ولده ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ قيل : إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير ، وقال مجاهد : أصابت يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاث أيام ، وقال ابن عباس : من مسيرة ثمان ليل وقال الحسن كان بينهما ثمانون فرسخاً ، وقيل :

هبت ريح فاحتملت ريح القميص إلى يعقوب فوجد يعقوب ريح الجنة فعلم أنه ليس في الأرض من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص فعلم

---

(1) كلام فى غاية البعد فملابس الجنة أعده الله تعالى للمؤمنين يوم المزيد وله مواصفات خاصة منها أنه لا يبلى وقميص يوسف عليه السلام قد من دبر. والله أعلم.

(151/402)

بذلك أنه من ريح يوسف فلذلك قال: إني لأجد ريح يوسف ﴿ لولا أن تفندون ﴾ أصل التفنيد من الفند وهو ضعف الرأي وقال ابن الأنباري أفند الرجل إذا خرف وفند إذا جهل ونسب ذلك إليه وقال الأصمعي: إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو الفنيد والفند يكون المعنى لولا أن تفندوني أي تنسبوني إلى الخرف وقيل تسفهوني وقيل: تلوموني وقيل تجلهوني وهو قول ابن عباس: ، وقال الضحاك تهرموني فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله ﴿ قالوا ﴾ يعني أولاد أولاد يعقوب وأهله الذين عنده لأن أولاده لصلبه كانوا غائبين عنه ﴿ تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ يعني من ذكر يوسف ولا تنساه لأنه كان عندهم ان يوسف قد مات وهلك ويرون أن يعقوب قد لهج بذكره فلذلك قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم من ذكره والضلال الذهاب عن طريق الصواب.

﴿ فلما أن جاء البشير ﴾

وهو المبشر بخبر يوسف ، قال ابن مسعود : جاء البشير بين يدي العير قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنهما هو يهوذا ، قال السدي : قال يهوذا أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب وأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره أنه حي فأفرحه كما أحزنته .

قال ابن عباس : حمله يهوذا وخرج به حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى أتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخاً ﴿ ألقاه على وجهه ﴾ يعني فألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب ﴿ فارتد بصيراً ﴾ يعني فرجع بصيراً بعد ما كان قد عمي وعادت إليه قوته بعد الضعف وسروره بعد الحزن ﴿ قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ يعني من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا ، وروي أن يعقوب قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال يعقوب ما أصنع بالملك على أي دين تركته ؟ قال على دين الإسلام قال الآن تمت النعمة .

قوله تعالى : ﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ يعني قال أولاد يعقوب حين وصلوا إليه وأخذوا يعتذرون إليه مما صنعوا به وبيوسف استغفر لنا أي اطلب لنا غفر ذنوبنا من الله ﴿ إنا كنا خاطئين ﴾ يعني في صنيعنا ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ قال أكثر المفسرين : إن يعقوب أخر الدعاء والاستغفار لهم إلى وقت السحر لأنه أشرف الأوقات وهو الوقت الذي يقول الله فيه هل من داع فأستجب له فلما انتهى يعقوب إلى وقت السحر قام إلى الصلاة متوجهاً إلى الله تعالى فلما فرغ رفع يديه إلى الله تعالى وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لأولادي ما أتوا إلى أخيهم يوسف فأوحى الله إليه أني قد غفرت لك ولهم أجمعين قال عكرمة عن ابن عباس : إنه أخر الاستغفار لهم إلى ليلة الجمعة لأنها أشرف الأوقات قال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة نيفاً وعشرين سنة وقال طاوس أخر الاستغفار إلى وقت السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وقال الشعبي سوف أستغفر لكم ربي قال حتى أسأل يوسف فإن كان قد عفا عنكم أستغفر لكم ربي ﴿ إنه هو الغفور ﴾ يعني لذوب عباده ﴿ الرحيم ﴾ بجميع خلقه قال عطاء الخراساني طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منه إلى الشيوخ ألا ترى إلى قول يوسف لإخوته لا تثريب عليكم الآية وقول يعقوب سوف أستغفر لكم ربي ، قال أصحاب الأخبار إن يوسف بعث مع إخوته إلى أبيه مائتي راحلة وجهازاً كثيراً ليأتوه بيعقوب وجميع أهله إلى مصر فلما أتوه تجهز يعقوب للخروج إلى مصر فجمع أهله وهم يومئذ اثنان وسبعون

ما بين رجل وامرأة وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الأكبر يعني ملك مصر وعرفه بمجيء أبيه وأهله فخرج يوسف ومعه الملك في أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يد ابنه يهوذا فلما نظر إلى الخيل والناس قال يا هوذا هذا فرعون مصر قال لا بل هذا ابنك يوسف فلما دنا كل

واحد من صاحبه أراد يوسف أن يبدأ يعقوب بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يا مذهب الأحزان ، وقيل : إنهما نزلا وتعانقا وفعلا كما يفعل الوالد بولده والولد بوالده وبكيا ، وقيل : إن يوسف قال لأبيه يا أبت بكيت حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا قال بلى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾

والباء في بقميصي الظاهر أنها للحال أي : مصحوبين أو ملتبسين به .

وقيل : للتعدية أي : اذهبوا بقميصي ، أي احملوا قميصي .

قيل : هو القميص الذي توارثه يوسف وكان في عنقه ، وكان من الجنة ، أمره جبريل عليه السلام أنْ يرسله إليه فإن فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي .

وقيل : كان لابراهيم كساه الله إياه من الجنة حين خرج من النار ، ثم لإسحاق ، ثم ليعقوب ، ثم ليوسف .

وقيل : هو القميص الذي قدّ من دبر ، أرسله ليعلم يعقوب أنه عصم من الفاحشة .

والظاهر أنه قميص من ملبوس يوسف بمنزلة قميص كل واحد ، قال ذلك : ابن عطية .

وهكذا تتبين الغرابة في أنْ وجد يعقوب ريحه من بعد ، ولو كان من قمص الجنة ما كان في ذلك غرابة ولوجده كل أحد .

وقوله : فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، يدل على أنه علم أنه عمى من الحزن ، إما بإعلامهم ، وإما بوحي .

وقوله : يأت بصيراً ، يظهر أنه بوحي .

وأهلوه الذين أمر بأن يؤتي بهم سبعون ، أو ثمانون ، أو ثلاثة وتسعون ، أو ستة وتسعون ،

أقوال أولها للكلبي وثالثها المسروق .

وفي واحد من هذا العدد حلوا بمصر ونموا حتى خرج من ذريتهم مع موسى عليه السلام ستمائة ألف .

ومعنى : يأت ، يأتيني ، وانتصب بصيراً على الحال .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾

الفند : الفساد ، قال :

ألا سليمان إذ قال الإله له . . .

قم في البرية فاحددها عن الفند

وفندت الرجل أفسدت رأيه ورددته قال :

يا عاذليّ دعا لومي وتفيدي . . .

فليس ما قلت من أمر بمردود

وأفند الدهر فلاناً أفسده .

قال ابن مقبل :

دع الدهر يفعل ما أراد فإنه . . .

إذا كلف الإفناد بالناس أفندا

القديم : الذي مرت عليه أعصار ، وهو أمر نسبي .

البدو البادية وهي خلاف الحاضرة .

﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون .

قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم .

فلما أن جآء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون .

قالوا يأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين .

قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ : فصل من البلد يفصل فصولاً انفصل منه وجاوز حيطانه ، وهو لازم .

وفصل الشيء فصلاً فرق ، وهو متعد .

ومعنى فصلت العير : انفصلت من عريش مصر قاصدة مكان يعقوب ، وكان قريباً من بيت المقدس .

وقيل : بالجزيرة ، وبيت المقدس هو الصحيح ، لأنّ آثارهم وقبورهم هناك إلى الآن .

وقرأ ابن عباس : ولما انفصل العير ، قال ابن عباس : وجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام ،

هاجت ريح فحملت عرفه .

وقال الحسن وابن جريج : من ثمانين فرسخاً ، وكان مدة فراقه منه سبعاً وسبعين سنة .

وعن الحسن أيضاً : وجده من مسيرة ثلاثين يوماً ، وعنه : مسيرة عشر ليال .

وعن أبي أيوب المهروي : أن الريح استأذنت في إيصال عرف يوسف إلى يعقوب ، فأذن لها في ذلك .

وقال مجاهد : صفقت الريح القميص فراحت روائح الجنة في الدنيا ، واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة ، فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص .

ومعنى لأجد : لأشم فهو وجود حاسة الشم .

وقال الشاعر :

وإني لأستشفي بكل غمامة . . .

يهب بها من نحو أرضك ريح

ومعنى تفندون قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : تسفهون .

وعن ابن عباس أيضاً : تجهلون ، وعنه أيضاً : تضعفون .

وقال عطاء وابن جبير : تكذبون .

وقال الحسن : تهرمون .

وقال ابن زيد ، والضحاك ومجاهد أيضاً : تقولون ذهب عقلك وخرفت .

وقال أبو عمرو : تقبحون .

وقال الكسائي : تعجزون .

وقال أبو عبيدة : تضللون .

وقيل : تخطئون .

وهذه كلها متقاربة في المعنى ، وهي راجعة لاعتقاد فساد رأي المفند إما لجهله ، أو لهوى غالب عليه ، أو لكذبه ، أو لضعفه وعجزه لذهاب عقله بهرمه .

(156/402)

وقال منذر بن سعيد البلوطي : يقال شج مفند أي : قد فسر رأيه ، ولا يقال : عجوز مفندة ، لأن المرأة لم يكن لها رأي قط أصيل فيدخله التفنيد .

وقال معناه الزمخشري قال : التفنيد النسبة إلى الفند وهو الخوف وإنكار العقل ، من هرم يقال : شيخ مفند ، ولا يقال عجوز مفندة ، لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي فنفند في كبرها ، ولولا هنا حرف امتناع لوجود ، وجوابها محذوف .

قال الزمخشري : المعنى لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني انتهى .

وقد يقال : تقديره لولا أن تفندوني لأخبرتكم بكونه حياً لم يمت ، لأن وجداني ريحه دال

على حياته .

والمخاطب بقوله : تفندون ، الظاهر من تناسق الضمائر أنه عائد على من كان بقي عنده من أولاده غير الذين راحوا يمتارون ، إذ كان أولاده جماعة .

وقيل : المخاطب ولد ولده ومن كان بحضرته من قرابته .

والضلال هنا لا يراد به ضد الهدى والرّشاد ، قال ابن عباس : المعنى إنك لفي خطئك ، وكان حزن يعقوب قد تجدد بقصة بنيامين ، ولذلك يقال له : ذو الحزنين .

وقال مقاتل : الشقاء والعناء .

وقال ابن جبير : الجنون ، ويعني والله أعلم غلبة المحبة .

وقيل : الهلاك والذهاب من قولهم : ضل الماء في اللبن أي : ذهب فيه .

وقيل : الحب ، ويطلق الضلال على المحبة .

وقال ابن عطية : ذلك من الجفاء الذي لا يسوغ لهم مواجهته به ، وقد تأوله بعض الناس على ذلك ، ولهذا قال قتادة : قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبي الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الزمخشري : لفي ذهابك عن الصواب قدماً في إفراط محبتك ليوسف ، ولهجك بذكره ، ورجائك لقاءه ، وكان عندهم أنه قد مات .

روي عن ابن عباس أنّ البشير كان يهوذا ، لأنه كان جاء بقميص الدم .

وقال أبو الفضل الجوهري : قال يهوذا لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص القرحة ، فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة فتركوه ، وقال هذا المعنى : السدي .

(157/402)

وأن تطرد زيادتها بعد لما ، والضمير المستكن في ألقاه عائد على البشير ، وهو الظاهر ، هو لقوله : فألقوه .

وقيل : يعود على يعقوب ، والظاهر أنه أريد الوجه كله كما جرت العادة أنه متى وجد الإنسان شيئاً يعتقد فيه البركة مسح به وجهه .

وقيل : عبر بالوجه عن العينين لأنهما فيه .

وقيل : عبر بالكل عن البعض .

وارتدَّ عدّه بعضهم في أخوات كان ، والصحيح أنها ليست من أخواتها ، فانتصب بصيراً على الحال والمعني : أنه رجع إلى حالته الأولى من سلامة البصر .

ففي الكلام ما يشعر أنّ بصره عاد أقوى مما كان عليه وأحسن ، لأنّ فعيلاً من صيغ المبالغة ، وما عدل من مفعل إلى فعيل إلا لهذا المعنى انتهى .

وليس كذلك لأنّ فعيلاً هنا ليس للمبالغة ، إذ فعيل الذي للمبالغة هو معدول عن فاعل لهذا

المعنى .

وأما بصيراً هنا فهو اسم فاعل من بصر بالشيء ، فهو جار على قياس فعل نحو ظرف فهو ظريف ، ولو كان كما زعم بمعنى مبصر لم يكن للمبالغة أيضاً ، لأنّ فعيلاً بمعنى ليس للمبالغة نحو : أليم وسميع بمعنى مؤلم ومسمع .

وروي أن يعقوب سأل البشير كيف يوسف ؟ قال : ملك مصر .

قال : ما أصنع بالملك ؟ قال : على أي دين تركته ؟ قال : على الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة .

وقال الحسن : لم يجد البشير عند يعقوب شيئاً يثيبه به وقال : ما خبرنا شيئاً منذ سبع ليال ، ولكن هون الله عليك سكرات الموت .

وقال الضحاك : رجع إليه بصره بعد العمى ، والقوة بعد الضعف ، والشباب بعد الهرم ، والسرور بعد الكرب .

والظاهر أن قوله : إني أعلم ، محكي بالقول ويريد به إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون .

فقيل : ما لا تعلمون من حياة يوسف ، وأن الله يجمع بيننا وبينه .

وقيل : من صحة رؤيا يوسف عليه السلام ، وقيل : من بلوى الأنبياء بالحزن ، ونزول الفرج ، وقيل : من إخبار ملك الموت إياي ، وكان أخبره أنه لم يقبض روحه .

وقال ابن عطية : ما لا تعلمون هو انتظاره لتأويل الرؤيا ، ويحتمل أن يشير إلى حسن ظنه بالله فقط .

وقال الزمخشري : ألم أقل لكم يعني قوله : إني لأجد ريح يوسف ، أو قوله : ولا تيأسوا من روح الله .

وقوله إني أعلم ، كلام مبتدأ لم يقع عليه القول انتهى .

وهو خلاف الظاهر الذي قدمناه .

ولما رجع إليه بصره وقرت عينه بالمسير إلى ابنه يوسف ، وقررهم على قوله : ألم أقل لكم ؟ طلبوا منه أن يستغفر لهم الله لذنوبهم ، واعترفوا بالخطأ السابق منهم ، وسوف أستغفر لكم : عدة لهم بالاستغفار بسوف ، وهي أبلغ في التنفيس من السين .

فعن ابن مسعود : أنه أخر الاستغفار لهم إلى السحر .

وعن ابن عباس : إلى ليلة الجمعة ، وعنه : إلى سحرها .

قال السدي ، ومقاتل ، والزجاج : أخر لإجابة الدعاء ، لا ضنة عليهم بالاستغفار .

وقالت فرقة : سوف إلى قيام الليل .

وقال ابن جبير وفرقة : إلى الليالي البيض ، فإن الدعاء فيها يستجاب .

وقال الشعبي : أخره حتى يسأل يوسف ، فإن عفا عنهم استغفر لهم .

وقيل : أخرهم ليعلم حالهم في صدق التوبة وإخلاصها .

وقيل : أراد الدوام على الاستغفار لهم .

ولما وعدهم بالاستغفار رجاهم بحصول الغفران بقوله : إنه هو الغفور الرحيم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(159/402)

وقال أبو السعود :

﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا ﴾

قيل : هو الذي كان عليه حينئذ ، وقيل : هو القميصُ المتوارَث الذي كان في التعويذ أمره جبريلُ بإرساله إليه وأوحى إليه أن فيحَ رِيحِ الجنةِ لا يقع على مبتلىً إلا عُوفي ﴿ فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ يكن بصيراً أو يأت إليَّ بصيراً ، وينصره قوله : ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي بأبي وغيره ممن ينتظمه لفظُ الأهل جميعاً من النساء والذراري . قيل : إنما حمل القميصَ يهوذا وقال : أنا أحزنته بحمل القميصِ ملطخاً بالدم إليه فأُفرِحه كما أحزنته ،

وقيل : حمله وهو حافٍ حاسرٌ من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ العير ﴾ خرجت من عريش مصر ، يقال : فصَل من البلد فصولاً إذا انفصل منه وجاوز حيطانه ، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انفصل العير ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ يعقوبُ عليه الصلاة والسلام لمن عنده ﴿ إِنّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ أوجده الله سبحانه ما عبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخاً حين أقبل به يهوذا ﴿ لَوْلاَ أَن تُفَنّدُونِ ﴾ أي تنسبوني إلى الفند وهو الخرفُ وإنكارُ العقل وفسادُ الرأي مِن هرمٍ ، يقال : شيخٌ مفنّد ولا يقال عجوزٌ مفنّدة إذ لم تكن في شبيبتها ذاتَ رأي فتُفَنّد في كِبَرها ، وجواب لولا محذوف أي لصدقتموني ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الحاضرون عنده ﴿ تالله إِنَّكَ لَفِى ضلالك القديم ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قدماً في إفراط محبتِك ليوسف ولَهجك بذكره ورجائِك للقائه وكان عندهم أنه قد مات .

(160/402)

﴿ فَلَمَّا أَن جَاء البشير ﴾ وهو يهوذا ﴿ أَلْقَاهُ ﴾ أي ألقى البشيرُ القميصَ ﴿ على وَجْهِهِ ﴾ أي وجه يعقوب أو ألقاه يعقوبُ على وجه نفسه ﴿ فارتد ﴾ عاد ﴿ بَصِيراً ﴾ لما انتعش فيه من القوة ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ ﴾ يعني قوله : إني لأجد ريحَ يوسف ،

فالخطابُ لمن كان عنده بكنعان أو قولَه : ولا تيأسوا من رَوْح الله فالخطابُ لبنيه وهو الأنسب بقوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ فإن مدارَ النهي المذكورِ إنما هو العلمُ الذي أوتي يعقوبُ من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقولَ القولِ أي ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصرَ وأمرتُكم بالتحسس ونهيتُكم عن اليأس من رَوْح الله تعالى وأعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام . روي أنه سأل البشيرَ : كيف يوسف ؟ فقال : هو مِلكُ مصرَ ، قال : ما أصنع بالمُلك ، على أي دينٍ تركتَه ؟ قال : على دين الإسلام ، قال : الآن تمت النّعمة .

﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا استغفر لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خاطئين ﴾

ومن حق من اعترف بذنبه أن يُصفح عنه ويُستغفرَ له فكأنهم كانوا على ثقة من عفوه عليه الصلاة السلام ولذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار وأدرجوا ذلك في الاستغفار .

(161/402)

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ وهذا مُشعرٌ بعفوه ، قيل : أخّر الاستغفارَ إلى وقت السحر ، وقيل : إلى ليلة الجمعة ليتحرّى به وقت الإجابة ، وقيل : أخّره إلى أن يستحِلَّ لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم فإن عفوَ

المظلوم شرطُ المغفرة ، ويعضُده أنه روي عنه أنه استقبل القِبلة قائماً يدعو وقام يوسفُ خلفه يؤمّن وقاموا خلفَهما أذلةً خاشعين عشرين سنة حتى إذا بلغ جهدَهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال : إن الله قد أجاب دعوتَك في ولدك وعقدوا مواثيقهم بعدك على النبوة فإن صح ثبتت نبوتُهم وإن ما صدر عنهم إنما صدر قبل الاستنباء . وقيل : المرادُ الاستمرارُ على الدعاء فقد روي أنه كان يستغفر كلّ ليلةِ جمعةٍ في نيّف وعشرين سنة ، وقيل : قام إلى الصلاة في وقت السحر ، فلما فرَغ رفع يديه فقال : اللهم اغفِرْ لي جزَعي على يوسف وقلةَ صبري عنه واغفِر لولدي ما أتوا إلى أخيهم فأوحى الله إليه أن الله قد غفر لك ولهم أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(162/402)

وقال الآلوسى :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾

هو القميص الذي كان عليه حينئذٍ كما هو الظاهر ؛ وعن ابن عباس وغيره أنه القميص الذي كساه الله تعالى إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وكان من قمص الجنة جعله

يعقوب حين وصل إليه في قصبة فضة وعلقه في عنق يوسف وكان لا يقع على عاهة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن الله تعالى .

وضعف هذا بأن قوله : ﴿ إِنّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 94] يدل على أنه عليه السلام كان لابساً له في تعويذته كما تشهد به الإضافة إلى ضميره وهو تضعيف ضعيف كما لا يخفى ، وقيل : هو القميص الذي قد من دبر وأرسله ليعلم يعقوب أنه عصم من الفاحشة ولا يخفى بعده ، وأياً ما كان فالباء إما للمصاحبة أو للملابسة أي اذهبوا مصحوبين أو ملتبسين به أو للتعدية على ما قيل أي اذهبوا قميصي هذا ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ أي يصر بصيراً ويشهد له ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ [يوسف : 96] أو يأت إلي وهو بصير وينصره قوله : ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ من النساء والذراري وغيرهم مما ينتظمه لفظ الأهل كذا قالوا .

(163/402)

وحاصل الوجهين كما قال بعض المدققين أن الإتيان في الأول مجاز عن الصيرورة ولم يذكر إتيان الأب إليه لا لكونه داخلاً في الأهل فإنه يجل عن التابعية بل تفادياً عن أمر الإخوة بالإتيان لأنه نوع إجبار على من يؤتى به فهو إلى اختياره ، وفي الثاني على الحقيقة وفيه

التفادي المذكور ، والجزم بأنه من الآتين لا محالة وثوقاً بمحبته وإن فائدة الإلقاء إتيانه على ما أحب من كونه معافى سليم البصر ، وفيه أن صيرورته بصير أمر مفروغ عنه مقطوع إنما الكلام في تسبب الإلقاء لإتيانه كذلك فهذا الوجه أرجح وإن كان الأول من الخلافة بالقبول بمنزل ، وفيه دلالة على أنه عليه السلام قد ذهب بصره ، وعلم يوسف عليه السلام بذلك يحتمل أن يكون بإعلامهم ويحتمل أن يكون بالوحي ، وكذا علمه بما يترتب على الإلقاء يحتمل أن يكون عن وحي أيضاً أو عن وقوف من قبل على خواص ذلك القميص بالتجربة أو نحوها إن كان المراد بالقميص الذي كان في التعويذة ويتعين الاحتمال الأول إن كان المراد غيره على ما هو الظاهر .

وقال الإمام : يمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما عرا بصره ما عراه إلا من كثرة البكاء وضيق القلب فإذا ألقى عليه قميصه فلا بد وأن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد وذلك يقوى الروح ويزيل الضعف عن القوى فحينئذٍ يقوى بصره ويزول عنه ذلك النقصان فهذا القدر مما يمكن معرفته بالعقل فإن القوانين الطبية تدل على صحته وأنا لا أرى ذلك ، قال الكلبي : وكان أولئك الأهل نحواً من سبعين إنساناً وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس أنهم اثنان وسبعون من ولده وولد ولده ، وقيل : ثمانون ، وقيل : تسعون وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن ابن مسعود أنهم ثلاثة وتسعون .

وقيل : ست وتسعون وقد نموا في مصر فخرجوا منها مع موسى عليه السلام وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف على ما قيل .

(164/402)

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾

خرجت من عريش مصر قاصدة مكان يعقوب عليه السلام وكان قريباً من بيت المقدس والقول بأنه كان بالجزيرة لا يعول عليه ، يقال : فصل من البلد يفصل فصولاً إذا انفصل منه وجاوز حيطانه وهو لازم وفصل الشيء فصلاً إذا فرقه وهو متعد .

وقرأ ابن عباس ﴿ وَلَمَّا أَتَتْهَا العير ﴾ ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ يعقوب عليه السلام لمن عنده ﴿ إِنِّى لاجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ أي لأشم فهو وجود حاسة الشم أشمه الله تعالى ما عبق بالقميص من ريح يوسف عليه السلام من مسيرة ثمانية أيام على ما روي عن ابن عباس ، وقال الحسن .

وابن جريج .

من ثمانين فرسخاً ، وفي رواية عن الحسن أخرى من مسيرة ثلاثين يوماً .

وفي أخرى عنه من مسيرة عشر ليال ، وقد استأذنت الريح على ما روي عن أبي أيوب الهروي في إيصال عرف يوسف عليه السلام فأذن الله تعالى لها ، وقال مجاهد : صفقت الريح القميص فراحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب عليه السلام فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس في الدنيا من ريحها إلا ما كان من ذلك القميص فقال ما قاله ، وبعد ذلك الإضافة فإنها حينئذٍ لأدنى ملابسة وهي فيما قبل وإن كانت كذلك أيضاً إلا أنها أقوى بكثير منها على هذا كما لا يخفى ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي تنسبوني إلى الفند بفتحتين ويستعمل بمعنى الفساد كما في قوله :

إلا سليمان إذ قال الإله له . . .

قم في البرية فاحددها عن الفند

وبمعنى ضعف الرأي والعقل من الهرم وكبر السن ويقال : فند الرجل إذا نسبه إلى الفند ، وهو على ما قيل مأخوذ من الفند وهو الحجر كأنه جعل حجراً لقلة فهمه كما قيل :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى . . .

فكن حجراً من يابس الصخر جلمد

ثم اتسع فيه فقيل فنده إذا ضعف رأيه ولامه على ما فعل ؛ قال الشاعر :

يا عاذلي دعا لومي وتفنيدي . . .

فليس ما قلت من أمر بمردود

وجاء أفند الدهر فلاناً أفسده ، قال ابن مقبل :

دع الدهر يفعل ما أراد فإنه . . .

(165/402)

إذا كلف الإفناد بالناس أفندا

ويقال : شيخ مفند إذا فسد رأيه ، ولا يقال : عجوز مفندة لأنها لا رأي لها في شبيبتها حتى يضعف قاله الجوهري وغيره من أهل اللغة ، وذكره الزمخشري في "الكشاف" وغيره ، واستغربه السمين ولعل وجهه أن لها عقلاً وإن كان ناقصاً يشتد نقصه بكبر السن فتأمل ، وجواب ﴿ لَوْلاَ ﴾ محذوف أي لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني أو لقلت : إن يوسف قريب مكانه أو لقاؤه أو نحو ذلك ، والمخاطب قيل : من بقي من ولده غير الذين ذهبوا يمتارون وهم كثير ، وقيل : ولد ولده ومن كان بحضرته من ذوي قرابته وهو المشهور .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي أولئك المخاطبون ﴿ تالله إِنَّكَ لَفِى ضلالك القديم ﴾ أي لفي ذهابك عن الصواب قدماً بالإفراط في محبة يوسف والإكثار من ذكره والتوقع للقائه وجعله فيه لتمكنه ودوامه عليه ، وأخرج ابن جرير عن مجاهد أن الضلال هنا بمعنى الحب ، وقال مقاتل : هو الشقاء والعناء ، وقيل : الهلاك والذهاب من قولهم : ضل الماء في اللبن أي

ذهب فيه وهلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير تفسيره بالجنون وهو مما لا يليق وكأنه لتفسير بمثل

ذلك قال قتادة : لقد قالوا كلمة غليظة لا ينبغي أن يقولها مثلهم لمثله عليه السلام ولعلهم إنما

قالوا ذلك لظنهم أنه مات .

﴿ فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِير ﴾

قال مجاهد . هو يهوذا .

روي أنه قال لإخوته قد علمتم أني ذهبت إلى أبي بقميص الترحة فدعوني أذهب إليه

بقميص الفرحة فتركوه .

وفي رواية عن ابن عباس أنه مالك بن ذعر والرواية الشهيرة عنه ما تقدم ، و﴿ إن ﴾ صلة

وقد أطردت زيادتها بعد لما .

وقرأ ابن مسعود وعد ذلك قراءة تفسير ﴿ وَجَاء الْبَشِيرِ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ الْعِير ﴾ ﴿ أَلْقَاه

﴾ أي ألقى البشير القميص ﴿ مُكِبًّا على وَجْهِهِ ﴾ أي وجه يعقوب عليه السلام ، وقيل

: فاعل ﴿ ألقى ﴾ ضمير يعقوب عليه السلام أيضاً والأول أوفق بقوله : ﴿ فَأَلْقُوهُ على

وجه أبي ﴾ [يوسف : 93] وهو يبعد كون البشير مالكاً كما لا يخفى ، والثاني قيل : هو الأنسب بالأدب ونسب ذلك إلى فرقد قال : إنه عليه السلام أخذه فشمه ثم وضعه على بصره ﴿ فارتد بَصِيرًا ﴾ والظاهر أنه أريد بالوجه كله ، وقد جرت العادة أنه متى وجد الإنسان شيئاً يعتقد فيه البركة مسح به وجهه ، وقيل : عبر بالوجه عن العينين لأنهما فيه ، وقيل : عبر بالكل عن البعض ﴿ وارتد ﴾ عند بعضهم من أخوات كان وهي بمعنى صار فبصيراً خبرها وصحح أبو حيان أنها ليست من أخواتها فبصيرا حال ، والمعنى أنه رجع إلى حالته الأولى من سلامة البصر .

وزعم بعضهم أن في الكلام ما يشعر بأن بصره صار أقوى مما كان عليه لأن فعيلاً من صيغ المبالغة وما عدل من يفعل إليه إلا لهذا المعنى .

وتعقب بأن فعيلاً هنا ليس للمبالغة إذ ما يكون لها هو المعدول عن فاعل وأما ﴿ تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ هنا فهو اسم فاعل من بصر بالشيء فهو جار على قياس فعل نحو ظرف فهو طريف ولو كان كما زعم بمعنى مبصر لم يكن للمبالغة أيضاً لأن فعيلاً بمعنى مفعل ليس للمبالغة نحو أليم وسميع ، وأياً ما كان فالظاهر أن عوده عليه السلام بصيراً بإلقاء القميص على وجهه ليس إلا من باب خرق العادة وليس الخارق بدعاً في هذه القصة ، وقيل : إن ذاك لما أنه عليه السلام انتعش حتى قوي قلبه وحرارته الغريزية فأوصل نوره إلى الدماغ وأداه إلى البصر ، ومن هذا الباب استشفاء العشاق بما يهب عليهم من جهة أرض المعشوق

كما قال :

وإني لأستشفي بكل غمامة . . .

يهب بها من نحو أرضك ريح

وقال آخر :

ألا يا نسيم الصبح مالك كلما . . .

تقربت منا فاح نشرك طيبا

(167/402)

كأن سليمى نبئت بسقامنا . . .

فأعطتك رياها فجئت طبيبا

إلى غير ذلك مما لا يحصى وهو قريب مما سمعته آنفاً عن الإمام هذا ، وجاء في بعض الأخبار أنه عليه السلام سأل البشير كيف يوسف ؟ قال : ملك مصر فقال : ما أصنع بالملك على أي دين تركته ؟ قال : على الإسلام قال : الآن تمت النعمة .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : لما جاء البشير إليه عليه السلام قال : ما وجدت عندنا شيئاً وما اختبزنا منذ سبعة أيام ولكن هون الله تعالى عليك سكرات الموت ، وجاء في

رواية أنه قال له : ما أدري ما أثيبك اليوم ثم دعا له بذلك ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمن كان عنده من قبل أي ألم أقل لكم إني لأجد ريح يوسف ، ويحتمل أن يكون خطاباً لبنيه القادمين أي ألم أقل لكم .

لا تيأسوا من رحمة الله وهو الأنسب بقوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ فإن مدار النهي العلم الذي أوتيه عليه السلام من جهة الله سبحانه ، والجملة على الاحتمالين مستأنفة وعلى الأخير يجوز أن تكون مقول القول أي ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله تعالى إني أعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام ، واستظهر في "البحر" كونها مقول القول وهو كذلك .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾

طلبوا منه عليه السلام الاستغفار ، ونادوه بعنوان الأبوة تحريكاً للعطف والشفقة وعللوا ذلك بقولهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا خاطئين ﴾ أي ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويستغفر له ، وكأنهم كانوا على ثقة من عفوه ولذلك اقتصروا على طلب الاستغفار وأدرجوا ذلك في الاستغفار ، وقيل : حيث نادوه بذلك أرادوا ومن حق شفقتك علينا أن تستغفر لنا فإنه لولا ذلك لكنا هالكين لتعمد الإثم فمن ذا يرحمنا إذا لم ترحمنا وليس بذاك .

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾

روي عن ابن عباس مرفوعاً أنه عليه السلام أخر الاستغفار لهم إلى السحر لأن الدعاء فيه مستجاب ، وروي عنه أيضاً كذلك أنه أخره إلى ليلة الجمعة وجاء ذلك في حديث طويل رواه الترمذي وحسنه ، وقيل : سوفهم إلى قيام الليل ، وقال ابن جبير .

وفرقة : إلى الليالي البيض فإن الدعاء فيها يستجاب ، وقال الشعبي : أخره حتى يسأل يوسف عليه السلام فإن عفا عنهم استغفر لهم ، وقيل أخر ليعلم حالهم في صدق التوبة وتعقب بعضهم بعض هذه الأقوال بأن سوف تأبى ذلك لأنها أبلغ من السين في التنفيس فكان حقه على ذلك السين ورد بما في "المغني" من أن ما ذكر مذهب البصريين وغيرهم يسوى بينهما ، وقال بعض المحققين : هذا غير وارد حتى يحتاج إلى الدفع لأن التنفيس التأخير مطلقاً ولو أقل من ساعة فتأخيره إلى السحر مثلاً ومضى ذلك اليوم محل للتنفيس بسوف ، وقيل : أراد عليه السلام الدوام على الاستغفار لهم وهو مبني على أن السين وسوف يدلان على الاستمرار في المستقبل وفيه كلام للنحويين .

نعم جاء في بعض الأخبار ما يدل على أنه عليه السلام استمر برهة من الزمان يستغفر لهم .

أخرج ابن جرير عن أنس بن مالك قال: إن الله تعالى لما جمع شمله ببنيه وأقر عينه خلا ولده نجياً فقال بعضهم لبعض: لستم قد علمتم ما صنعتم وما لقي منكم الشيخ وما لقى منكم يوسف قالوا بلى قال فيغركم عفوهما عنكم فكيف لكم بربكم واستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنبه فقالوا يا أبانا أتيناك في أمر لم نأتك في مثله قط ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله حتى حركوه والأنبياء عليهم السلام أرحم البرية فقال: ما لكم يا بني؟ قالوا ألست قد علمت ما كان منا إليك وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قالا بلى قالوا أفلستما قد عفوتما؟ قالا بلى قالوا فإن عفوكما لا يغني عنا شيئاً إن كان الله تعالى لم يعف عنا قال فما تريدون يا بني؟ قالوا: نريد أن تدعو الله سبحانه فإذا جاءك الوحي من عند الله تعالى بأنه قد عفا عما صنعنا قرت أعيننا واطمأنت قلوبنا وإلا فلا قرة عين في الدنيا لنا أبداً قال فقام الشيخ فاستقبل القبلة وقام يوسف عليه السلام خلفه وقاموا خلفهما أذلة خاشعين فدعا وأمن يوسف فلم يجب فيهم عشرين سنة حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبريل على يعقوب عليهما السلام فقال: إن الله تعالى بعثني أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك وأنه قد عفا عما صنعوا وأنه قد عقد مواثيقهم من بعدك على النبوة، قيل: وهذا إن صح دليل على نبوتهم وإن ما صدر منهم كان قبل استنبائهم، والحق عدم الصحة وقد مر تحقيق المقام بما فيه كفاية فتذكر.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عائشة قال: ما تيب على ولد يعقوب إلا بعد عشرين سنة وكان

أبوهم بين يديهم فما تيب عليهم حتى نزل جبريل عليه السلام فعلمه هذا الدعاء "يا رجاء المؤمنين لا تقطع رجاءنا يا غياث المؤمنين أغثنا يا معين المؤمنين أعنا يا محب التوابين تب علينا" فأخره إلى السحر فدعا به فتيب عليهم، وأخرج أبو عبيد.

(170/402)

وغيره عن ابن جريج أن ما سيأتي إن شاء الله متعلق بهذا وهو من تقديم القرآن وتأخيره والأصل سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله.

وأنت تعلم أن هذا مما لا ينبغي الالتفات إليه فإن ذاك من كلام يوسف عليه السلام بلا مرية ولا أدري ما الداعي إلى ارتكابه ولعله محض الجهل.

واعلم أنه ذكر بعض المتأخرين في الكلام على هذه الآية أن الصحيح أن ﴿ أَسْتَغْفِرُ ﴾ متعد إلى مفعولين يقال: استغفرت الله الذنب، وقد نص على ذلك ابن هشام وقد حذف من ﴿ استغفر لَنَا ﴾ أولهما، وذكر ثانيهما وعكس الأمر في ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ ﴾ ولعل السر والله سبحانه أعلم أن حذف الأول من الأول لإرادة التعميم أي استغفر لنا كل من أذنبنا في حقه ليشمله سبحانه وتعالى ويشمل يوسف وبنيامين وغيرهما ولم يحذف الثاني أيضاً تسجيلاً على أنفسهم باقتراف الذنوب لأن المقام مقام الاعتراف بالخطأ والاستعطاف

لما سلف فالمناسب هو التصريح ، وأما إثباته في الثاني فلأنه الأصل مع التنبيه على أن الأهم الذي ينبغي أن يصرف إليه الهم ويمحض له الوجه هو استغفار الرب واستجلاب رضاه فإنه سبحانه إذا رضي أرضى ، على أن يوسف وأخاه قد ظهرت منهما مخايل العفو وأدركتهما رقة الأخوة ، وأما حذف الثاني منه فللإيجاز لكونه معلوماً من الأول مع قرب العهد بذكره اه ، ولعل التسويف على هذا ليزداد انقطاعهم إلى الله تعالى فيكون ذلك أرجى لحصول المقصود فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(171/402)

وقال القاسمى :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك ، وتصديقه بإرسال حلة من حلله التي كان يستشعر بها أو يتدثر ، ليكون في مقابلة القميص الأول ، جالب الحزن ، وغشاوة العين . و (الإلقاء على وجهه) بمعنى المبالغة في تقريبه منه ، لما ناله من ضعف بصره ، فتتراجع إليه قوة بصره ، بانتعاش قلبه ، بشمه واطمئنانه على سلامته . وللمفرحات تأثير عظيم في صحة الجسم ، وتقوية الأعضاء ، وقد جوّد الكلام في ذلك الحكيم داود

الأنطاكي في " تذكرته " في مادة مفرح بما لا يستغنى عن مراجعته .

وفي " الكنوز " من كتب الطب : الفرح ، إن كان بلطف ، فإنه ينفع الجسم ، ويبسط النفس ، ويريح العقل ، فتقوى الأعضاء وتنتعش . انتهى .

ثم رأيت الرازي عوَّل على نحو ما ذكرناه ، وعبارته : قال المفسرون : لما عرفهم يوسف سألهم عن أبيه ، فقالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه . قال المحققون : إنما عرف أن إلقاء القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ، ولولا الوحي ، لما عرف ذلك ؛ لأن العقل لا يدل عليه . ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء ، وضيق القلب ، ضعف بصره ، فإذا ألقي عليه قميصه ، فلا بد أن ينشرح صدره ، وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد ، وذلك يقوي الروح ، ويزيل الضعف عن القوى ، فحينئذ يقوى بصره ، ويزول عنه ذلك النقصان . فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب . فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى . انتهى .

ولعل الرازي عنى بالمحققين الصوفية ، أو من يقف على الظاهر وقوفاً بحتاً ، ولا يخفى أن أسلوب التنزيل في كناياته ومجازاته أسلوب فريد ، ينبغي التفطن له .

وقد جوز في قوله : ﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ أن يكون معناه : يصير بصيراً ، أو يجيء إليَّ بصيراً ، على حقيقة الإتيان فـ (بصيراً) حال . قيل : ينصره قوله : ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : بأبي وغيره ، وفيه نظر ؛ لأن اتحاد الفعلين هنا في المبنى لا يدل على اتحادهما في المعنى . ولا يقال : الأصل الحقيقة ؛ لأن ذلك فيما يقتضيه السياق ، ولا اقتضاء هنا . فالأول أرق وأبدع ، لما فيه من التجانس .

روي أن يوسف عليه السلام ، بعد أن دعا لهم بالمغفرة قال لهم : إن الله بعثني أمامكم لأحييكم ، وقد مضت سنتا جوع في الأرض وبقي خمس سنين ، ليس فيها حرث ولا حصاد . فأرسلني الله أمامكم ليجعل لكم بقية في الأرض ، ويستبقيكم لنجاة عظيمة . وقد جعلني سبحانه أباً لفرعون ، وسيداً لجميع أهله ، ومتسلطاً على جميع أرض مصر ، فبادروا وأشخصوا إلى أبي ، وأخبروه بجميع مجدي بمصر ، وما رأيتموه ، وقولوا له : كذا قال ابنك يوسف : قد جعلني الله سيداً لجميع المصريين ، فهلم إلي ، فتقم في أرض جاسان ، وتكون قريباً مني أنت وبنوك ، وبنو بنيك ، ومواشيك ، وجميع ما هولك ، وأعولك ، ها هنا ، فقد بقي خمس سنين مجدبة ، فأخشى أن يهلك الأهل والمال . وكان نما الخبر إلى بيت فرعون . وقيل : جاء إخوة يوسف ، فسر بذلك فرعون وخاصته ، وأمره أيضاً بأن يؤكد عليهم إتيانهم بأبيهم وأهلهم ، ووعدهم خير أرض في مصر تكون لهم ؛ لئلا يأسفوا على ما خلفوا . ثم زود يوسف إخوته أحسن زاد ، وأعطاهم من الحلل والثياب

والدراهم مقداراً وافراً ، وبعث إلى أبيه بمثل ذلك ، وأصحبهم عجلات لأطفالهم ونسائهم ، وأوصاهم ألا يتخاصموا في الطريق – والله أعلم – .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أي : خرجت من مصر . يقال : فصل القوم عن المكان وانفصلوا ، بمعنى فارقوه : ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ أي : لحفدته ومن حوله من قومه ، من عظم اشتياقه ليوسف ، وانتظاره لروح الله : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ الريح : الرائحة ، توجد في النسيم . لأتنسم رائحته مقبلة إلي ، كناية عن تحققه وجوده بما ألقى الله في روعه من حياته ، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته . وقد كان عظم رجاؤه بذلك من مولاه ، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه ، ولذلك نهى بنيه عن الاستيئاس من روح الله . وإذا دنا أجل الضراء أخذت تهب نسائم الفرج حاملة عرف السراء ، يدري ذلك كل من قوي إحساسه ، وعظمت فطنته ، واستنارت بصيرته ، فيكاد أن يلمس في نهاية الشدة زهر الفرج ، ولا يحنث إن آلى أنه يجد من نسيمه أزكى الفرج . عرف ذلك من عرف ، فأحرى بمن نالوا من النبوة ذروة الشرف .

وإضافة الريح إلى الولد معروفة في كلامهم : وفي حديث عند الطبراني : < ريح الولد من ريح الجنة > وقال الشاعر :

~يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى في البلد

وقوله : ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ بمعنى إلا أنكم تفندون . أو لولاه لصدقتموني . و (فنده) نسبه إلى الفند بفتحتين . وهو ضعف الرأي والعقل من الهرم وكبر السن .

قال في " العناية " : مأخوذ من الفند ، وهو الحجر والصخرة ، كأنه جعل حجراً لقلة فهمه ، كما قال :

~إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

ثم اتسع فيه فقيل : فنده ، إذا ضعف رأيه ، ولامه على ما فعله .

وقوله تعالى :

﴿ قَالُواْ ﴾ أي : حفدته ومن عنده : ﴿ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ ﴾ أي : لفي ذهابك عن الصواب المتقدم ، في إفراطك في محبة يوسف ، ولهجتك بذكره ، ورجائك للقائه ، وكان عندهم أنه مات أو تشتت ، فاستحال الاجتماع به ، وجعله فيه لتمكنه ودوامه عليه .

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ أي : المخبر بما يسرّه من أمر يوسف : ﴿ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أي : طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو ألقاه يعقوب نفسه على وجهه : ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾ أي : عاد بصيراً لما حدث فيه من السرور والانتعاش : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : من حياة يوسف ، وإنزال الفرج ، وجوّز كون : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ ﴾ كلاماً مبتدأ . والمقول : ﴿ لاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ ﴾ إن كان الخطاب لبنيه . أو : ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ إن كان لحفدته ومن عنده .

﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ الضمير لبنيه . طلبوا أن يستغفر لهم لما فرط منهم ، أو لحفدته ومن عنده لقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ ﴾ والأول أقرب وأصوب .

ولما كان من حق المعترف بذنبه أن يُصفح عنه ، ويسأل له المغفرة ، وعدهم بذلك .

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي : سوف أدعوه لكم ، فإنه المتجاوز عن السيئات ، الرحيم لمن تاب .

قال المهايمي : صرحوا بالذنوب دون الله ؛ لمزيد اهتمامهم بها ، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره . وصرح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب ، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التي ربى بها الكل . انتهى .

وهذا من دقائق لطائف التنزيل ومحاسنها فيه .

تنبيه :

قيل : في هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه ، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة في الدنيا . وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه أحضر فيه قلباً من غيره أو أنه أفضل وأقرب للإجابة .

(175/402)

وقد روي أنه أخر الاستغفار إلى السحر . وتخصيص الأوقات الفاضلة بالاستغفار والدعاء معروف في السنة ، ومنه شرع الاستغفار في السحر ، وعقب الصلوات ، وقضاء الحج . وكان الدعاء في السجود ، وعند الأذان ، وبينه وبين الإقامة ، والإفطار من الصيام أقرب للإجابة مما عداه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل جـ 9 صـ 221 . 225 ﴾

(176/402)

وقال ابن عاشور :

قوله ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ﴾

يدل على أنه أعطاهم قميصاً ، فلعلّه جعل قميصه علامة لأبيه على حياته ، ولعلّ ذلك كان مصطلحاً عليه بينهما .

وكان للعائلات في النظام القديم علامات يصطلحون عليها ويحتفظون بها لتكون وسائل للتعارف بينهم عند الفتن والاغتراب ، إذ كانت تعتريهم حوادث الفقد والفراق بالغزو والغارات وقطع الطريق ، وتلك العلامات من لباس ومِن كلمات يتعارفون بها وهي الشعار ، ومن علامات في البَدن وشَامات .

وفائدة إرساله إلى أبيه القميصَ أن يثق أبوه بحياته ووجوده في مصر ، فلا يظن الدعوة إلى قدومه مكيدة من ملك مصر ، ولقصد تعجيل المسرة له .

والأظهر أنه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف عليه السلام بجلبه فإنّ قمصان الملوك والكبراء تنسج إليهم خصيصاً ولا توجد أمثالها عند الناس وكان الملوك يخلعونها على خاصتهم ، فجعل يوسف عليه السلام إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق إخوته أنهم جاءوا من عند يوسف عليه السلام بخبر صدق .

ومن البعيد مَا قيل : إن القميص كان قميص إبراهيم عليه السلام مع أن قميص يوسف قد

جاء به إخوته إلى أبيهم حين جاءوا عليه بدم كذب .

وأما إلقاء القميص على وجه أبيه فلقصد المفاجأة بالبُشرى لأنه كان لا يبصر من بعيد فلا يتبين رفعة القميص إلا من قرب .

وأما كونه يصير بصيراً فحصل ليوسف عليه السلام بالوحي فبشرهم به من ذلك الحين .

ولعل يوسف عليه السلام نُبيء ساعتئذٍ .

وأدمج الأمر بالإتيان بأبيه في ضمن تبشيره بوجوده إدماجاً بليغاً إذ قال : ﴿ يأت بصيراً ﴾ ثم قال : ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ لقصد صلة أرحام عشيرته .

قال المفسرون : وكانت عشيرة يعقوب عليه السلام ستاً وسبعين نفساً بين رجال ونساء .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾

التقدير : فخرجوا وارتحلوا في عير .

ومعنى فصلتْ وَلَمَّا فَصَلَتِ العيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ *

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رِبِّى إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ ابتعدت عن المكان ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود ﴾ في سورة البقرة (249) .

والعير تقدم آنفاً ، وهي العير التي أقبلوا فيها من فلسطين .

ووجدَانُ يعقوب ريح يوسف عليهما السلام إلهام خارق للعادة جعله الله بشارة له إذ ذكره بشمه الريح الذي ضمّخ به يوسف عليه السلام حين خروجه مع إخوته وهذا من صنف الوحي بدون كلام ملك مُرسل .

وهو داخل في قوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ [سورة الشورى : 51] .

والريح : الرائحة ، وهي ما يعبق من طيب تدركه حاسة الشم .

وأكد هذا الخبر بإنّ ﴾ واللام لأنه مظنة الإنكار ولذلك أعقبه بـ ﴿ لولا أن تفندون ﴾ .

وجواب ﴿ لولا ﴾ محذوف دلّ عليه التأكيد ، أي لولا أن تفندوني لتحققتم ذلك .

والتفنيد : النسبة للفَنَد بفتحتين ، وهو اختلال العقل من الخرف .

وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً بعد نون الوقاية وبقيت الكسرة .

والذين قالوا : ﴿ تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ هم الحاضرون من أهله ولم يسبق ذكرهم لظهور المراد منهم وليسوا أبناءه لأنهم كانوا سائرين في طريقهم إليه .

والضلال : البُعْد عن الطريق الموصّلة .

والظرفية مجاز في قوة الاتّصاف والتلبّس وأنه كتلبس المظروف بالظرف .

والمعنى : أنك مستمر على التلبس بتطلب شيء من غير طريقه .

أرادوا طمعه في لقاء يوسف عليه السلام .

ووصفوا ذلك بالقديم لطول مدّته ، وكانت مدة غيبة يوسف عن أبيه عليهما السلام اثنتين وعشرين سنة .

وكان خطابهم إياه بهذا مشتملاً على شيء من الخشونة إذ لم يكن أدب عشيرته منافياً لذلك في عرفهم .

و﴿ أن ﴾ في قوله : ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ مزيدة للتأكيد .

ووقوع ﴿ أنْ ﴾ بعد ﴿ لمّا ﴾ التوقيتية كثير في الكلام كما في "مغني اللّبيب" .

وفائدة التأكيد في هذه الآية تحقيق هذه الكرامة الحاصلة ليعقوب عليه السلام لأنها خارق عادة ، ولذلك لم يؤت بـ ﴿ أن ﴾ في نظائر هذه الآية مما لم يكن فيه داع للتأكيد .

والبشير : فعيل بمعنى مُفعل ، أي المُبشر ، مثل السميع في قول عمرو بن معديكرب:

أمِن ريحانة الداعي السميع

والتبشير : المبادرة بإبلاغ الخبر المسرّ بقصد إدخال السرور .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ يبشرّهم ربهم برحمة منه ﴾ في سورة براءة (21) .

وهذا البشير هو يهوذا بن يعقوب عليه السلام تقدم بين يدي العِير ليكون أول من يخبر أباه بخبر يوسف عليه السلام .

وارتد : رجع ، وهو افتعال مطاوع ردّه ، أي رد الله إليه قوة بصره كرامة له وليوسف عليهما السلام وخارق للعادة .

وقد أشرت إلى ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وابيضّت عيناه من الحزن ﴾ [سورة يوسف : 84] .

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قَالُوا يا أبانا استغفر لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خاطئين * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربى إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾

جواب للبشارة لأنها تضمنت القول ، ولذلك جاء فعل ﴿ قال ﴾ مفصولاً غير معطوف لأنه على طريقة المحاورات ، وكان بقية أبنائه قد دخلوا فخاطبهم بقوله : ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ فبيّن لهم مجمل كلامه الذي أجابهم به حين قالوا : ﴿ تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ [يوسف : 85] الخ .

وقولهم : استغفر لنا ذنوبنا ﴾ توبة واعتراف بالذنب ، فسألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله .

(179/402)

وإنما وعدهم بالاستغفار في المستقبل إذ قال : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ للدلالة على أنه يلازم الاستغفار لهم في أزمنة المستقبل .

ويعلم منه أنه استغفر لهم في الحال بدلالة الفحوى ؛ ولكنه أراد أن ينبههم إلى عظم الذنب وعظمة الله تعالى وأنه سيكرر الاستغفار لهم في أزمنة مستقبلة .

وقيل : أخّر الاستغفار لهم إلى ساعة هي مظنة الإجابة .

وعن ابن عباس مرفوعاً أنه أخر إلى ليلة الجمعة ، رواه الطبري .

وقال ابن كثير : في رفعه نظر .

وجملة ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ في موضع التعليل لجملة ﴿ أستغفر لكم ربي ﴾ .

وأكد بضمير الفصل لتقوية الخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(180/402)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾

وكان يوسف عليه السلام ، قد عَلِم أن أباه يربط عينيه من الحزن ، وكاد أن يفقد بصره ، فأمر أخوته أن يذهبوا بقميصه الذي كان يلبسه إلى أبيه .

وتقول كتب السِّير أن أخاه الأكبر الذي رفض أن يبرح مصر ، وقال : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرض حتى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ [يوسف : 80] .

قد قال ليوسف :

" يا أيها العزيز إنني أنا الذي حملتُ القميص بدم كذب إلى أبي ، فدعْني احمل هذا القميص لأبي ، كي تمحو هذه تلك " .

وقال يوسف عن فعل القميص مع الأب :

﴿ فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً ﴾ [يوسف : 93] .

ونلحظ أنه لم يَقُلْ : " وجه أبيكم " .

وفي قوله :

﴿ وَجْهِ أَبِي ﴾ [يوسف : 93] .

إشارة إلى الحنان الأبوي الذي فقدوه منذ أن غاب يوسف ، فغرق والده في الحزن .

و﴿ يَأْتِ بَصِيراً ﴾ [يوسف : 93] أي : يرتدّ إليه بصره ، أو يراه أمامه سليماً .

ويضيف يوسف :

﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : 93] .

هذا تعبير قُرآني دقيق ، أن يُحضروا معهم كل مَنْ يَمُتُّ بصلة قرابة لهم أو يعمل معهم ، ولم يَقُلْ يوسف " بآلكم " حتى لا يأتوا بالأعيان فقط .

ونلحظ أنه لم يذكر والده في أمر يوسف لأخوته أن يأتوه بكل مَنْ يُمتُّ لهم بصلة قُرْبى ؛ لأن في مثل هذا الأمر من موقع عزيز مصر إجباراً للأب على المجيء ، وهو يُجِلّ أباه عن ذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ . . . ﴾ .

و" فصلت " تدل على شيء كان مُلْتصقاً بشيء آخر وانفصل عنه ، وفَصِلت العِيرُ . أي : خرجتْ من المدينة وتجاوزتْها ؛ لتسير في رحلتها ، والمقصود خروج القافلة من حدود مصر قاصدةً مكان يعقوب عليه السلام .

وهنا قال يعقوب لمن كانوا حاضرين معه من الأحفاد وأبناء الأبناء :

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 94] .

والمعروف أن القميص الذي أرسله مع أخيه الأكبر يحمل رائحة يوسف ، لكن الذين حول

يعقوب من أقربائه لم يُصدِّقوا قوله ، فأضاف :

﴿ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف : 94] .

أي : لولا اتهامكم لي بالخَرف ، لأن التفنيد هو الخرف .

ومن العجيب أننا في أيامنا هذه نجد العلم وقد أثبت أن صُورَ المرائي والأصوات ، توجد لها آثار في الجو ، رغم ما يُخيَّل للإنسان أنها تلاشتْ .

ويحاول العلم بوسائل من الأشعة أن يكشف صورة أيِّ جماعة كانت تجلس في مكان ما ، ثم رحلتْ عنه منذ ساعة أو ساعتين ، ممَّا يدلُّ على أن الصور لها نضح من شعاع وظلال يظل بالمكان لفترة قبل أن يضيع .

وكذلك الأصوات ؛ فالعلماء يحاولون استرداد أصوات مَنْ رحلوا ؛ ويقولون : لا شيءَ يضيع في الكون ، بل كل ما وُجِد فيه محفوظ بشكل أو بآخر .

والرائحة أيضاً لا تضيع ، بدليل أن الكلب يشُمُّ الريح من على مسافات بعيدة ، ويميز الآن المخدرات من رائحتها ؛ ولذلك تنتشر الكلاب المدرَّبة في المطارات وعلى الحدود ؛ لتكشف أيَّ محاولة لتهريب المخدرات .

وإذا كان الحيوان المخلوق بقدرة الله قادراً على التقاط الرائحة من بين آلاف الروائح ، وإذا كان العلم الموهوب من الله للبشر ؛ يبحث الآن في كيفية استحضار الصورة واسترداد الصوت من الفضاء المحيط بالإنسان ؛ فعلينا أن ندرك أن العِيرَ عندما خرجتْ من أسوار

المدينة ؛ وأخذتْ طريقها إلى الموقع الذي يعيش فيه يعقوب عليه السلام ؛ استطاع يعقوبُ بقدرة الله أن يَشُمَّ رائحة يوسف ؛ تلك التي يحملها قميصه القادم مع القافلة .

ولسائل أن يقول : ولماذا ارتبط تنسُّم يعقوب لرائحة يوسف بخروج العِير من مصر ، وتواجدها على الطريق إلى موطن يعقوب ؟

(182/402)

نقول : لأن العِيرَ لحظة تواجدها في المدينة تكون رائحة قميص يوسف مُخْتلطة بغيرها من الروائح ؛ فهناك الكثير من الروائح الأخرى داخل أي مدينة ، ويصعب نفاذ رائحة بعينها لتغلب على كل الروائح ؛ ويختلف الأمر في الخلاء ؛ حيث يمكن أن تمشي هَبَّة الرائحة دون أن يعترضها شيء .

وبذلك نؤمن أن كل شيء في الكون محفوظ ولا يضيع ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾ [الانفطار : 10-11] .

وكل ما يصدر منك مُسجَّل عليك ؛ ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة لتقرأه ، وتكون على نفسك حسيباً .

ويردُّ مَنْ بقي من أهل يعقوب معه على قوله بأنه يجد رِيحَ يوسف : ﴿ قَالُواْ تَاللهِ . . . ﴾

وكأنهم قد مَلُّوا حديثه عن يوسف ؛ وأعرضوا عن كلامه قائلين له : إلى متى ستظل على ضلالك ، وهم لا يعنُون الضلال بمعنى الخروج عن المنهج ، ولكنهم يعنُونَ الضلال بمعنى الجزئيات التي لا علاقة لها بالتديُّن من محبة شديدة ليوسف ، وتعلُّق به ، والتمنِّي لعودته ، وكثرة الحديث عنه ، وتوقُّع لقائه ، وهم الذين ظَنُّوا أن يوسف قد مات .

ويأتي البشير ليعقوب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ الْبشير . . . ﴾ .

وحين حضر البشير ، وهو كما تقول الروايات كبير الأخوة ؛ ويُقال أيضاً : إنه يهوذا ؛ وهو مَنْ رفض أن يغادر مصر إلا بعد أن يأذن له والده ، أو يأتي حَلٌّ من السماء لمشكلة بقاء بنيامين في مصر ، بعد اتهام أعوان العزيز له بالسرقة ، طبقاً لما أراده يوسف ليستبقي شقيقه معه .

ولما جاء هذا البشير ومعه قميص يوسف ؛ فألقاه على وجه الأب تنفيذاً لأمر يوسف عليه السلام .

وبذلك زال سبب بكاء يعقوب ، وفَرِح يعقوب فرحاً شديداً ؛ لأنه في أيام حزنه على يوسف ، وابيضاض عينيه من كثرة البكاء حدَّثه قلبه بالإلهام من الله أن يوسف ما زال حياً ؛ وكان البكاء عليه من بعد ذلك هو بكاء من فَرْط الشوق لرؤية ابنه .

وكذلك قد يكون يوسف قد علم بالوحي من الله أن إلقاء القميص على وجه أبيه يردُّ إليه بصره ، بإذن من الحق سبحانه وتعالى ، فضلاً عن أن الفرح له آثار نفسية تنعكس على الحالة الصحية ، وهكذا تجلَّتْ انتصارات الحقّ والنبوة .

وقال يعقوب عليه السلام :

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 96] .

ولم يَقُلْ ذلك إذلالاً لهم ، بل ليعطي الثقة والتوثيق لأخبار كل نبي ، وأن الواقع قد أيّد الكلام الذي قاله لهم : ﴿ يا بني اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القوم الكافرون ﴾ [يوسف : 87] .

فإذا جاءكم خبر من معصوم ؛ إياكم أن تقفوا بعقولكم فيه ؛ لأن العقول تأخذ مُدْركات الأشياء على قَدْرها ، وهناك أشياء فوق مُدْركات العقول .

وحين يُحدِّثكم معصوم عن ما فوق مُدْركات عقولكم إياكم أن تُكذِّبوه ؛ سواء فهمتم ما حدَّثكم عنه ، أو لم تستوعبوا حديثه عَمَّا فوق مُدْركات العقول .

وهنا يقرّ أخوة يوسف بذنوبهم فيقول الحق سبحانه : ﴿ قَالُواْ يا أبانا استغفر . . . ﴾ .

وهم هنا يُقِرُّون بالذنب ، ويُحدِّثون والدهم بنداء الأبوة كي يستغفر لهم ما ارتكبوه من ذنوب كثيرة ، فقد آذَوْا أباهم وجعلوه حزيناً ، ولا يسقط مثل هذا الذنب إلا بأن يُقِرَّ به مَنْ

فعله ، ونلحظ أنهم قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : 97]

أي : أنهم كانوا يعلمون الصواب ، ولم يفعلوه .

ويأتي الحق سبحانه بما قاله يعقوب : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربي . . . ﴾

ونلحظ أن يوسف قد قال لهم من قبل : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [يوسف : 92]

لكن والدهم هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربي . . . ﴾ [يوسف : 98]

ولم يقل : " سأستغفر لكم ربي " ، وهذا يدل على أن الكبار يحتاجون لوقت أكبر من وقت الشباب ؛ لذلك أجَّل يعقوب الاستغفار لما بعد .

والشيخ الألوسي في تفسيره يقول : " إنما كان ذلك لأن مطلوبات البر من الأخ لأخوته غير مطلوبات البر من ابن لأبيه ؛ لأن الأخ ليس له نفس حق الأب ؛ لذلك يكون غضب الأب أشدّ من غضب الأخ " .

ثم إن ذنوبهم هنا هي من الذنوب الكبيرة التي مرّ عليها وعلى تأثيرها على الأب زمن طويل

. ويقال : إن يعقوب عليه السلام قد أخَّر الاستغفار لهم إلى السَّحَر ، لأن الدعاء فيه مُستجَاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(185/402)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ﴾ أي الضر في المعيشة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ وجئنا ببضاعة ﴾ قال : دراهم ﴿ مزجاة ﴾ قال : كاسدة غير طائلة .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ ببضاعة مزجاة ﴾ قال : رثة المتاع ، خلق الحبل والغرارة والشيء .

وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿ ببضاعة مزجاة ﴾ قال : الورق الردية الزيوف ، التي لا تنفق حتى يوضع فيها .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن عكرمة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ببضاعة مزجاة ﴾ قال : قليلة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ببضاعة مزجاة ﴾ قال : دراهم زيوف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن سعيد بن جبير وعكرمة - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ ببضاعة مزجاة ﴾ قال أحدهما : ناقصة . وقال الآخر : فلوس رديئة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن عبد الله بن الحارث - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ببضاعة مزجاة ﴾ قال : متاع الإِعراب ، الصوف والسمن .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن أبي صالح - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ببضاعة مزجاة ﴾ قال : حبة الخضراء ، وصنوبر وقطن .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ببضاعة مزجاة ﴾ قال : ببعيرات وبقرات عجاف .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ مزجاة ﴾ قال : كاسدة .

وأخرج ابن النجار ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ ببضاعة مزجاة ﴾ قال : سويق المقل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مالك بن أنس - رضي الله عنهما - أنه سئل عن أجر الكيالين : أيؤخذ من المشتري ؟ قال : الصواب - والذي يقع في قلبي - أن يكون على البائع . وقد قال إخوة يوسف عليهم السلام : ﴿ أوف لنا الكيل وتصدق علينا ﴾ . وكان يوسف عليه السلام هو الذي يكيل .

وأخرج ابن جرير ، عن إبراهيم - رضي الله عنه - قال : في مصحف عبد الله " فأوف لنا الكيل وأوقر ركابنا " .

وأخرج ابن جرير ، عن سفيان بن عيينة - رضي الله عنه ، أنه سئل : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ألم تسمع قوله ﴿ فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: الأنبياء عليهم السلام لا يأكلون الصدقة، إنما كانت دراهم نفاية لا تجوز بينهم، فقالوا: تجوّز عنا ولا تُنْقِصْنا من السعر لأجل رديء دراهمنا.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ، عن ابن جريج -رضي الله عنه- في قوله ﴿ وتصدق علينا ﴾ قال: اردد علينا أخانا.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- أن رجلاً قال له: تصدق عليَّ، تصدق الله عليك بالجنة، فقال: ويحك، إن الله لا يتصدق، ولكن الله يجزي المتصدقين.

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر، عن مجاهد -رضي الله عنه- أنه سئل: أيكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علي؟ فقال نعم إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ثابت البناني -رضي الله عنه- قال: قيل لبني يعقوب: إن بمصر رجلاً يطعم المسكين ويملأ حجر اليتيم. قالوا: ينبغي أن يكون هذا منا أهل البيت، فنظروا فإذا هو يوسف بن يعقوب.

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن الأعمش - رضي الله عنه - قال: قرأ يحيى بن وثاب - رضي الله عنه "أنك لأنت يوسف" بهمزة واحدة.

وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك - رضي الله عنه - قال: في حرف عبد الله ﴿ قال: أنا يوسف وهذا أخي ﴾ بيني وبينه قربى ﴿ قد منّ الله علينا ﴾.

وأخرج أبو الشيخ في قوله ﴿ إنه من يتق ﴾ الزنا ﴿ ويصبر ﴾ على العزوبة فإن الله ﴿ لا يضيع أجر المحسنين ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن الربيع بن أنس - رضي الله عنه - قال: مكتوب في الكتاب الأول، أن الحاسد لا يضر بحسده إلا نفسه، ليس ضاراً من حسد. وإن الحاسد ينقصه حسده، وإن المحسود إذا صبر، نجاه الله بصبره؛ لأن الله يقول ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ وذلك بعدما عرفهم نفسه، لقوا رجلاً حليماً لم يبث ولم يثرب

عليهم أعمالهم .

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ لا تثريب ﴾ قال لا تعيير .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ لا تثريب ﴾ قال لا إباء .

(188/402)

وأخرج أبو الشيخ ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال : " لما استفتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، التفت إلى الناس فقال : " ماذا تقولون ، وماذا تظنون ؟ . . . قالوا : ابن عم كريم . فقال ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ " " .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : " يا أهل مكة ، ماذا تظنون ، ماذا تقولون ؟ قالوا : نظن خيراً ونقول خيراً : ابن عم كريم قد قدرت ، قال : فإني

أقول كما قال أخي يوسف ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ " .

وأخرج البيهقي في الدلائل ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة ، طاف بالبيت وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب ، فقال : " ماذا تقولون ، وماذا تظنون ؟ قالوا : نقول ابن أخ وابن عم حليم رحيم ، فقال : أقول كما قال يوسف ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإِسلام " " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن عطاء الخراساني - رضي الله عنه - قال : طلب الحوائج إلى الشباب ، أسهل منها إلى الشيوخ . ألم تر إلى قول يوسف ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ وقال يعقوب عليه السلام ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني - رضي الله عنه - قال : أما والله ، ما سمعنا بعفو قط مثل عفو يوسف .

وأخرج الحكيم الترمذي وأبو الشيخ ، عن وهب بن منبه – رضي الله عنه – قال : لما كان من أمر إخوة يوسف ما كان ، كتب يعقوب إلى يوسف – وهو لا يعلم أنه يوسف – بسم الله الرحمن الرحيم . من يعقوب بن إسحق بن إبراهيم إلى عزيز آل فرعون ، سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنا أهل بيت ، مولع بنا أسباب البلاء . كان جدي إبراهيم ، خليل الله عليه السلام ألقي في النار في طاعة ربه ، فجعلها عليه الله برداً وسلاماً . وأمر الله جدي أن يذبح له أبي ، ففداه الله بما فداه الله به . وكان لي ابن وكان من أحب الناس إلي ففقدته .

فأذهب حزني عليه نور بصري ، وكان له أخ من أمه ، كنت إذا ذكرته ضممته إلى صدري . فأذهب عني وهو المحبوس عندك في السرقة ، وأني أخبرك أني لم أسرق ولم ألد سارقاً . فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب ، بكى وصاح وقال ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الحسن – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قوله ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ﴾ "إن نمرود لما ألقى إبراهيم في النار ، نزل إليه جبريل بقميص من الجنة ، وطنفسة من الجنة ، فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة ، وقعد معه يتحدث ، فأوحى الله إلى النار ﴿ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ [الأنبياء : 69] ولولا أنه قال : وسلاماً ، لأذاه البرد ولقتله البرد " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : " يا خير البشر ، فقال : ذاك يوسف صديق الله ابن يعقوب إسرائيل الله ابن اسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله . إن الله كسا إبراهيم ثوباً من الجنة ، فكساه إبراهيم إسحاق ، فكساه اسحاق يعقوب ، فأخذه يعقوب فجعله في قصبة حديد ، وعلقه في عنق يوسف ، ولو علم إخوته إذ ألقوه في الجب لأخذوه ، فلما أراد الله أن يرد يوسف على يعقوب وكان بين رؤياه وتعبيرها أربعين سنة ، أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل ، فوجد يعقوب ريحه فقال ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ فلما ألقاه على وجهه ارتد بصيراً ، وليس يقع شيء من الجنة على عاهة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن الله تعالى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب – رضي الله عنه – قال : لما ألقي إبراهيم في النار ، كساه الله تعالى قميصاً من الجنة ، فكساه إبراهيم اسحاق ، وكساه اسحاق يعقوب ، وكساه يعقوب يوسف ، فطواه وجعله في قصبة فضة ، فجعله في عنقه وكان في عنقه حين ألقي في الجب ، وحين سجن ، وحين دخل عليه إخوته . وأخرج

القميص من القصبة فقال ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ فشم يعقوب عليه السلام ريح الجنة وهو بأرض كنعان ، بأرض فلسطين ، فقال ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : كان أهله حين أرسل إليهم ، فأتوا مصر ثلاثة وتسعين إنساناً ، رجالهم أنبياء ، ونساؤهم صِدّيقات ، والله ما خرجوا مع موسى عليه السلام ، حتى بلغوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس - رضي الله عنه - قال : خرج يعقوب عليه السلام إلى يوسف عليه السلام بمصر ، في اثنين وسبعين من ولده وولد ولده ، فخرجوا منها مع موسى عليه السلام وهم ستمائة ألف .

(191/402)

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) ﴾

أخرج عبد الرزاق والفريابي وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما - في قوله ﴿ ولما فصلت العير ﴾

قال : خرجت العير ، هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف ، قال : ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ تسفهون . قال : فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ قال : وجد ريحه من مسيرة عشرة أيام .

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه سئل من كم وجد يعقوب عليه السلام ريح القميص ؟ قال : وجده من مسيرة ثمانين فرسخاً .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن - رضي الله عنه - قال : وجد ريح يوسف من مسيرة شهر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : وجد يعقوب عليه السلام ريح يوسف ، من مسيرة ستة أيام .

وأخرج أبو الشيخ ، عن محمد بن كعب - رضي الله عنه - قال : وجد ريحه من مسيرة سبعة أيام .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ لولا أن تفندون ﴾ يقول : تجهلون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ لولا أن تفندون ﴾ قال : تكذبون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ لولا أن تفندون ﴾ قال : تهرمون ، تقولون قد ذهب عقلك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد - رضي الله عنه - في الآية قال : المفند ، الذي ليس له عقل . يقولون : لا يعقل . قال : وقال الشاعر :

مهلاً فإن من العقول مفندا . . . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن الربيع - رضي الله عنه - في قوله ﴿ لولا أن تفندون ﴾ قال : لولا أن تُحَمِّقون .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن زيد - رضي الله عنه - قال : لما بعث يوسف عليه السلام القميص إلى يعقوب عليه السلام ، أخذه فشمه ، ثم وضعه على بصره فرد الله عليه بصره ، ثم حملوه إليه ، فلما دخلوا ويعقوب متكئ على ابن له يقال له يهودا ، استقبله يوسف عليه السلام في الجنود والناس ، فقال يعقوب : يا يهودا ، هذا فرعون مصر . قال : لا يا أبت ، ولكن هذا ابنك يوسف قيل له إنك قادم فتلقاك في أهل مملكته ، والناس ، فلما لقيه ذهب يوسف عليه السلام ليبدأه بالسلام ، فمنع من ذلك ليعلم أن يعقوب أكرم على الله منه ، فاعتنقه وقبّله وقال : السلام عليك أيها الذاهب بالأحزان عني .

وأخرج أبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – قال : إن يعقوب عليه السلام لقي ملك الموت عليه السلام فقال : هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت ؟ قال : لا . فعند ذلك ﴿ قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو الشيخ ، عن عمر بن يونس اليمامي قال : بلغني أن يعقوب عليه السلام كان أحب أهل الأرض إلى ملك الموت ، وأن ملك الموت استأذن ربه في أن يأتي يعقوب عليه السلام ، فأذن له ، فجاءه ، فقال له يعقوب عليه السلام : يا ملك الموت ، أسألك بالذي خلقك : هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت من النفوس ؟ قال : لا . قال له ملك الموت : يا يعقوب ، ألا أعلمك كلمات ، لا تسأل الله شيئاً إلا أعطاك ؟ قال : بلى . قال : قل : ياذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً ، ولا يحصيه غيرك . فدعا بها يعقوب عليه السلام في تلك الليلة ، فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه فارتد بصيراً .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسن ، أنه حدث أن ملكاً من ملوك العمالق ، خطب إلى يعقوب ابنته رقية ، فأرسل إليه يعقوب أن المرأة المسلمة المعزوزة

لا تحل للكافر الأغرل ، فغضب ذلك الملك وقال : لأقتلنه ولأقتلن ولده ، فبعث إليهم جيشاً ، فغزا يعقوب ومعه بنوه ، فجلس لهم على تل مرتفع ، ثم قال : أي بني ، أي ذلك أحب إليكم أن تقتلوهم بأيديكم قتلاً ، أو يكفيكموهم الله ؟ فإني قد سألت الله ذلك فأعطانيه . قالوا نقتلهم بأيدينا هو أشفى لأنفسنا . قال : أي بني ، أو تقبلون كفاية الله ؟ قال : فدعا الله عليهم يعقوب عليه السلام ، فخسف بهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ إنك لفي ضلالك القديم ﴾ يقول : خطئك القديم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير – رضي الله عنه – في قوله ﴿ لفي ضلالك القديم ﴾ قال : حبك القديم .

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ﴾ قال : البريد .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن الضحاك – رضي الله عنه – مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ قال : البشير ، يهودا بن يعقوب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن سفيان – رضي الله عنه – قال : البشير ، هو يهودا . قال : وكان ابن مسعود – رضي الله عنه – يقرأ : [وجاء البشير من بين يدي العير] .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الحسن – رضي الله عنه – قال : لما جاء البشير إلى يعقوب عليه السلام ، قال : ما وجدت عندنا شيئًا ، وما اختبزنا منذ سبعة أيام . ولكن هوّن الله عليك سكرة الموت .

(194/402)

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن لقمان الحنفي – رضي الله عنه – قال : بلغنا أن يعقوب عليه السلام ، لما أتاه البشير قال له : ما أدري ما أثيبك اليوم ، ولكن هوّن الله عليك سكرات الموت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن – رضي الله عنه – قال : لما أن جاء البشير إلى يعقوب عليه السلام فألقى عليه القميص ، قال : على أي دين خلفت عليه يوسف عليه السلام ؟ قال : على الإسلام . قال : الآن تمت النعمة .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) ﴾

أخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – في قوله ﴿ سأستغفر لكم ربي ﴾ قال : إن يعقوب عليه السلام أخر بنيه إلى السَحَر .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ سأستغفر لكم ربي ﴾ قال : أخرهم إلى السَحَرِ ، وكان يصلي بالسحر .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : لم أخر يعقوب بنيه في الاستغفار ؟ ! . . . قال : " أخرهم إلى السحر ؛ لأن دعاء السحر مستجاب " " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " في قصة قول أخي يعقوب لبنيه ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ يقول : حتى تأتي ليلة الجمعة " .

وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال جاء علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال " بأبي أنت وأمي ، تفلت هذا القرآن من صدري . فما أجدني أقدر عليه ؟ . . . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا الحسن ، أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، وينفع الله بهن من علمته ، ويثبت ما تعلمت في صدرك ؟ . . . قال : أجل يا رسول الله ، فعلمني . قال : إذا كانت ليلة الجمعة ، فإن استطعت أن تقوم ثلث الليل الأخير ، فإنه ساعة مشهودة ، والدعاء فيها مستجاب . وقد قال أخي يعقوب لبنيه ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ يقول : حتى تأتي ليلة الجمعة ، فإن لم تستطع ، فقم في وسطها ، فإن لم تستطع ، فقم في أولها ، فصل أربع ركعات ، تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس ، وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان ، وفي الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب والم تنزيل السجدة ، وفي الركعة الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل ، فإذا فرغت من التشهد ، فاحمد الله وأحسن الثناء على الله ، وصلّ عليّ وعلى سائر النبيين ، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان ، ثم قل في آخر ذلك : اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني ، وارحمني أن أتكلف ما لا يعنيني ، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني ، اللهم بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام ، أسألك يا الله ، يا رحمن ، بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني ، وارزقني أن أتلوه على النحو

الذي يرضيك عني . اللهم بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام ، أسألك يا ألله ، يا رحمن ، بجلالك ونور وجهك أن تنوّر بكتابك بصري ، وأن تطلق به لساني ، وأن تفرج به عن قلبي ، وأن تشرح به صدري ، وأن تغسل به بدني ، فإنه لا يعينني على الحق غيرك ، ولا يؤتيه إلا أنت ، ولا حول

(196/402)

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . يا أبا الحسن ، تفعل ذلك ثلاث جمع ، أو خمساً أو سبعاً ، بإذن الله تعالى ، والذي بعثني بالحق ما أخطأ مؤمناً قط "

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – فوالله ما مكث علي – رضي الله عنه – إلا خمساً أو سبعاً ، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل ذلك المجلس ، قال " يا رسول الله ، إني كنت فيما خلا لا آخذ الأربع آيات ونحوهن ، فإذا قرأتهن على نفسي تفلتن ، وأنا أتعلم اليوم أربعين آية ونحوها ، فإذا قرأتها على نفسي فكأنما كتاب الله بين عيني ، ولقد كنت أسمع الحديث ، فإذا رددته تفلت . وأنا اليوم أسمع الأحاديث ، فإذا تحدثت بها لم أخرم منها حرفاً . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : مؤمن ورب الكعبة أبا الحسن . . . " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن عمرو بن قيس – رضي الله عنه – في قوله ﴿ سأستغفر لكم ربي ﴾ قال : في صلاة الليل .

(197/402)

وأخرج ابن جرير عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : إن الله لما جمع ليعقوب عليه السلام شمله ببنيه وأقر عينه ، خلا ولده نجيا . فقال بعضهم لبعض : ألستم قد علمتم ما صنعتم وما لقي منكم الشيخ ؟ فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعد ، قالوا : يا أبانا ، أتيناك في أمر لم نأتك في مثله قط ، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله ، حتى حركوه – والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أرحم البرية – فقال : ما لكم يا بني ؟ ؟ ؟ . . . قالوا : ألست قد علمت ما كان منا إليك ، وما كان منا إلى أخينا يوسف ؟ قالا بلى . قالوا : يا بني ؟ قالوا : نريد أن تدعو الله ، فإذا جاءك من عند الله بأنه قد عفا ، قرت أعيننا واطمأنت قلوبنا . وإلا ، فلا قرة عين في الدنيا لنا أبداً . قال : فقام الشيخ فاستقبل القبلة ، وقام يوسف خلف أبيه ، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين . فدعا وأمن يوسف ، فلم يجب فيهم عشرين سنة ، حتى إذا كان رأس العشرين ، نزل جبريل عليه السلام على يعقوب عليه السلام فقال : إن الله بعثني أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك ، وإنه قد عفا عما

صنعوا ، وإنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوّة .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن – رضي الله عنه – قال : لما جمع الله ليعقوب عليه السلام بنيه ، قال ليوسف : حدثني ، ما صنع بك اخوتك ؟ قال : فابتدأ يحدثه ، فغشي عليه جزعاً .

(198/402)

فقال : يا أبت ، إن هذا من أهون ما صنعوا بي ، فقال لهم يعقوب عليه السلام : يا بني ، أما لكم موقف بين يدي الله تخافون أن يسألكم عما صنعتم ؟ قالوا يا أبانا ، قد كان ذاك فاستغفر لنا ، قال : وقد كان الله تبارك وتعالى عود يعقوب عليه السلام ، إذا سأله حاجة أن يعطيها إياه في أول يوم أو في الثاني أو الثالث لا محالة – فقال : إذا كان السحر ، فأفيضوا عليكم من الماء ، ثم البسوا ثيابكم التي تصونوها ، ثم هلموا إلي : ففعلوا فجاؤوا ، فقام يعقوب أمامهم ويوسف عليه السلام خلفه ، وهم خلف يوسف إلى أن طلعت الشمس لم تنزل عليهم التوبة ، ثم اليوم الثاني ، ثم اليوم الثالث ، فلما كانت الليلة الرابعة ، ناموا ، فجاءهم يعقوب عليه السلام فقال : يا بني ، تنامون والله عليكم ساخط ؟ ! فقوموا . فقام وقاموا عشرين سنة يطلبون إلى الله الحاجة ، فأوحى الله إلى يعقوب عليه السلام : إني قد

تبت عليهم وقبلت توبتهم . قال : يا رب ، النبوّة قال : قد أخذت ميثاقهم في النبيين .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عائشة قال : ما تيب على ولد يعقوب إلا بعد عشرين سنة ، وكان أبوهم بين أيديهم فما تيب عليهم ، حتى نزل جبريل عليه السلام فعلمه هذا الدعاء " يا رجاء المؤمنين ، لا تقطع رجاءنا ، يا غياث المؤمنين ، أغثنا . يا مانع المؤمنين ، امنعنا . يا مجيب التائبين ، تب علينا " . قال : فأخره إلى السحر فدعا به ، فتيب عليهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الليث بن سعد ، أن يعقوب وإخوة يوسف ، أقاموا عشرين سنة يطلبون فيما فعل إخوة يوسف بيوسف ، لا يقبل ذلك منهم ، حتى لقي جبريل يعقوب فعلمه هذا الدعاء : يا رجاء المؤمنين ، لا تخيب رجائي ، ويا غوث المؤمنين ؛ أغثني . ويا عون المؤمنين ، أعني . يا حبيب التوّابين ، تب علي . فاستجيب لهم .

(199/402)

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله ﴿ سوف أستغفر لكم ربي . . . ﴾ إلى قوله ﴿ إن شاء الله آمنين ﴾ قال يوسف : أستغفر لكم ربي إن شاء الله . وبين هذا وبين ذاك ما بينه قال : وهذا من تقديم القرآن وتأخيره . قال أبو عبيد : ذهب ابن جريج إلى أن الاستثناء في قوله ﴿ إن شاء الله ﴾ من كلام يعقوب عليه السلام ،

حين قال ادخلوا مصر .

وأخرج ابن جرير عن أبي عمران الجوني – رضي الله عنه – قال : ما قص الله علينا نبأهم يعيرهم بذلك إنهم أنبياء من أهل الجنة ، ولكن قص علينا نبأهم لئلا يقنط عبده . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(200/402)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِقَمِيصِي ﴾ : يجوز أن يتعلق بما قبله على أنَّ الباء مُعَدِّيَةٌ/ كهي في " ذهبْتُ به " ، وأن تكون للحال فتتعلَّقَ بمحذوفٍ ، أي : اذهبوا معكم قميصي . و " هذا " نعت له أو بيان أو بدل ، و " بصيراً " حال . و " أجمعين " تأكيدٌ ، وقد أُكِّد بها دون " كل " ، ويجوز أن تكونَ حالاً .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) ﴾

قوله تعالى: ﴿ تُفَنِّدُونِ ﴾ : التَّفْنيد: الإِفساد، يقال: فَنَّدت فلاناً، أي: أَفْسَدْت رأيه وردَدْته، قال:

2831 يا صاحِبَيَّ دَعَا لَوْمي وتَفْنيدي . . . فليسَ ما قُلْتُ من أمرٍ بمَرْدُوْدِ

ومنه "أَفْنَدَ الدهرُ فلاناً" قال:

2832 دعِ الدهرَ يَفْعَلُ ما أرادَ فإنه . . . إذا كُلِّفَ الإِفنادَ بالناسِ أفندا

والفَنَدُ: الفساد، قال النابغة:

2833 إلاَّ سليمانَ إذ قال الإِلهُ له . . . قُمْ في البَرِيَّةِ فاحْدُدْها عن الفَنَدِ

والفِنْد: شِمْراخ الجبل وبه سُمِّي الرجل فِنْداً، والفِنْدُ الزمانيُّ أحدُ شعراء الحماسة من ذلك. وقال الزمخشري: "يقال: شيخ مُفَنَّد ولا يقال: عجوز مُفَنَّدة لأنهما لم تكن في شبيبتها ذاتَ رأي فتُفَنَّد في كبرها" وهو غريبٌ. وجوابُ "لولا" الامتناعية محذوفٌ تقديرُه لصَدَّقْتُموني. ويجوز أن يكونَ تقديرُه: لأَخْبَرْتكم.

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أَلْقَاهُ ﴾ : الظاهر أنّ الفاعلَ هو ضميرِ البشير . وقيل : هو ضميرُ يعقوب . وفي "بصيراً" وجهان ، أحدهما : أنه حال أي : رَجَع في هذه الحال . والثاني : أنه خبرها لأنها بمعنى صار عند بعضهم . وبَصير مِنْ بَصُر بالشيء ، كظَريف مِنْ ظَرُف . وقيل : هو مِثال مُبالغةٍ كعليم . وفيه دلالةٌ على أنه لم يذهب بَصَرُه بالكليَّة . انتهى . ا . هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 556 . 557 ﴾

(202/402)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) ﴾

البلاءُ إذا هَجَمَ هجَمَ مَرَّةً ، وإذا زال بالتدريج ؛ حلَّ البَلاءُ بيعقوب مرةً واحدةً حيث قالوا : ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئبُ ﴾ ولما زال البلاءُ . . فأولاً وَجَدَ رِيحَ يوسفَ عليه السلام ، ثم قميص يوسف ، ثم يوم الوصول بين يدي يوسف ، ثم رؤية يوسف .

ويقال لمَّا كان سببُ البلاءِ والعمى قميصَ يوسف أراد اللَّهُ أن يكونَ به سَبَبُ الخلاص من

البلاء .

ويقال علم أن يعقوب عليه السلام - لِمَا يلحقه من فَرْطِ السرور - لا يطيقه عند أخذ القميص فقال : ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى ﴾ .

ويقال القميص لا يصلح إلا للباس إلا قميص الأحباب فإنه لا يصلح إلا لوجدان ريح الأحباب .

ويقال كان العمى في العين فأمر بإلقاء القميص على الوجه ليجدَ الشفاءَ من العمى .

ويقال لمّا كان البكاء بالعين التي في الوجه كان الشفاء في الإلقاء على العين . التي في الوجه ، وفي معناه أنشدوا :

وما بات مطوياً على أريحية . . . عُقَيب النّوى إلا فتىً ظلّ مغرما

وقوله ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ : لما عَلِمَ حزنَ جميعَ الأهلِ عليه أراد أن يشترك في الفرح جميعُ من أصابهم الحزن .

ويقال عَلِمَ يوسفُ أن يعقوبَ لن يطيق على القيام بكفاية أمور يوسف فاستحضرَه ، إبقاءً على حالِه لا إخلالاً لِقَدْرِه وما وَجَبَ عليه من إجلاله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ .

ما دام البلاءُ مُقْبِلاً كان أمرُ يوسفَ وحديثُه - على يعقوب - مُشْكِلاً ، فلما زالت المحنة بعثرت بكل وجهٍ حاله .

ويقال لم يكن يوسف بعيداً عن يعقوب حين ألقوه في الجُبّ ولكن اشتبه عنيه وخَبَرُه وحالُه ، فلما زال البلاءُ وَجَدَ ريحَه وبينهما مسافة ثمانين فرسخاً - من مصر إلى إلى كنعان .

ويقال إنما انفرد يعقوبُ عليه السلام بوجدان ريح يوسف لانفرادِه بالأسف عند فقدان يوسف . وإنما يجد ريح يوسف مَنْ وَجَدَ على فراق يوسف ؛ فلا يعرف ريحَ الأحباب إلا الأحبابُ ، وأَمَّا على الأجانب فهذا حديثٌ مُشْكِل . . إذ أَنَّى يكون للإنسان ريح ! ؟ .

ويقال لفظ الريح ها هنا توسع ، فيقال هبَّتْ رياحُ فلانٍ ، ويقال إني لأَجِدُ ريح الفتنة . . وغير ذلك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ .

تَفَرَّسَ فيهم أنهم يبسطون لسان الملامة فلم ينجع فيهم قولُه ، فزادوا في الملامة .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) ﴾

قرنوا كلامهم بالشتم ، ولم يحتشموا أباهم ، ولم يُراعوا حقَّه في المخاطبة ، فوصفوه بالضلال في المحبة .

ويقال إن يعقوب عليه السلام قد تعرَّف من الريح نسيمَ يوسف عليه السلام ، وخبر يوسف

كثير حتى جاء الإذن للرياح، وهذه سُنَّةُ الأحباب: مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال وفي معناه أنشدوا:

وإنِّي لأستهدي الرياح نسيمكم . . . إذا هي أقبْلت نحوكم بهُبُوب

واسألها حَمْلَ السلام إليكمُ . . . فإن هي يوماً بَلَغَتْ فأَجيبُوا

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) ﴾

لو أُلقِيَ قميص يوسف على وجه مَنْ في الأرض مِنَ العميان لم يرتد بصرهم، وإنما رجع بصرُ يعقوب بقميص يوسف على الخصوص؛ فإنَّ بَصرَ يعقوبَ ذهب لفراق يوسف، ولمّا جاءوا بقميصه أنْطَقَ لسانَه، وأَوْضح برهانَه، فقال لهم: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ عن حياة يوسف، وفي معناه أنشدوا:

(204/402)

وَجْهُك المأمولُ حُجَّتُنا . . . يومَ يأتي النَّاسُ بالحجج

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) ﴾

كلُّ إنسانٍ وهمُّه؛ وقَعَ يعقوبُ ويوسفُ عليهما السلام في السرور والاستبشار، وأَخَذَ

إخوةُ يوسف في الاعتذار وطَلَبَ الاستغفار .

ويقال إخوة يوسف - وإنْ سَلَفَتْ منهم الجفوة - كلَّموا أباهم بلسان الانبساط لتقديم شفقةِ الأبوةِ على ما سَبَقَ منهم من الخطيئة .

ويقال يومٌ بيومٍ ، اليوم الذي كان يعقوب محزوناً بغيبة يوسف فلا جَرَمَ اليوم كان يعقوب مسروراً بقميص يوسف ، وكان الأخوة في الخَجلة مما عملوا بيوسف .

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) ﴾

وَعدَهُم الاستغفار لأنه لم يَفْرغْ من استبشاره إلى الاستغفار .

ويقال لم يُجِبْهُم على الوهلة ليدلَّهم على ما قَدَّمُوا من سوء الفَعْلةِ ، لأن يوسف كان غائباً وقتئذٍ ، فوعدهم الاستغفار في المستأنف - إذا رضِي عنهم يوسف حيث كان الحقُّ أكثرُه له ، لو كان كله ليعقوب لوهبهم على الفور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 205.208 ﴾

(205/402)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾

قوله : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أي : زينت ، والأمر هنا قولهم : ﴿ إِنَّ ابنكَ سَرَقَ ﴾ وما سرق في الحقيقة ، وقيل : المراد بالأمر إخراجهم بنيامين ، والمضي به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد ذلك بالمضرّة .

وقيل : التسويل : التخييل ، أي : خيلت لكم أنفسكم أمراً لا أصل له .

وقيل : الأمر الذي سوّلت لهم أنفسهم : فتياهم بأن السارق يؤخذ بسرقته ، والإضراب هنا هو باعتبار ما أثبتوه من البراءة لأنفسهم ، لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح ، والجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدّر كغيرها ، وجملة : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ خبره محذوف أي : فأمري صبر جميل ، أو فصبر جميل أجمل بي ، وأولى لي ، والصبر الجميل : هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى ، بل يُفوّضُ أمره إلى الله ويسترجع ، وقد ورد أن الصبر عند أوّل الصدمة ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ أي : بيوسف وأخيه بنيامين ، والأخ الثالث الباقي بمصر ، وهو كبيرهم كما تقدّم ، وإنما قال هكذا لأنه قد كان عنده أن يوسف لم يمت ، وأنه باقٍ على الحياة وإن غاب عنه خبره ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم ﴾ بحالي ، ﴿ الحكيم ﴾ فيما يقضي به ﴿ وتولى عَنْهُمْ ﴾ أي : أعرض عنهم ، وقطع الكلام معهم وقال : ﴿ يا أسفا على يوسف ﴾ .

قال الزجاج : الأصل يا أسفي ، فأبدل من الياء ألفاً لخفة الفتحة ، والأسف : شدة الجزع .

وقيل : شدة الحزن ، ومنه قول كثير :

فيا أسفا للقلب كيف انصرافه . . . وللنفس لما سليت فتسلت

(206/402)

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغة بسبب فراقه ليوسف ، وانضمام فراقه لأخيه بنيامين ، وبلوغ ما بلغه من كونه أسيراً عند ملك مصر ، فتضاعفت أحزانه ، وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير .

وقد روي عن سعيد بن جبير : أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت في شريعتنا من الاسترجاع ، والصبر على المصائب ، ولو كان عنده ذلك لما قال : ﴿ يا أسفا على يوسف ﴾ .

ومعنى المناداة للأسف طلب حضوره ، كأنه قال : تعال يا أسفي ، وأقبل إليّ ﴿ وابيضت عَيْنَاهُ مِنَ الحزن ﴾ أي : انقلب سواد عينيه بياضاً من كثرة البكاء .

قيل : إنه زال إدراكه بحاسة البصر بالمرة .

وقيل : كان يدرك إدراكاً ضعيفاً .

وقد قيل في توجيه ما وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم المفضي إلى ذهاب بصره كلاً أو بعضاً بأنه : إنما وقع منه ذلك لأنه علم أن يوسف حيّ ، فخاف على دينه مع

كونه بأرض مصر وأهلها حينئذٍ كفار .

وقيل : إن مجرد الحزن ليس بمحرّم ، وإنما المحرّم ما يفضي منه إلى الوله وشق الثياب والتكلم بما لا ينبغي ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم عند موت ولده إبراهيم :

" تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الربّ ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزنون "

ويؤيد هذا قوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي : مكظوم ، فإن معناه : أنه مملوء من الحزن ممسك له لا يبثه ، ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه ، فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه ، من كظم السقاء : إذا سدّه على ما فيه ، والكظم بفتح الظاء .

مخرج النفس ، يقال : أخذ بأكظامه ، وقيل : الكظيم بمعنى الكاظم / أي : المشتمل على حزنه ، الممسك له ، ومنه :

فإن أك كاظما لمصاب ناسٍ . . . فإني اليوم منطلق لساني

ومنه ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : 134] .

وقال الزجاج : معنى كظيم : محزون .

وروي عن ابن عباس أنه قال : معناه : مغموم مكروب .

قال بعض أهل اللغة : الحزن بالضم والسكون : البكاء ، وبفتحتين : ضدّ الفرح ، وقال أكثر أهل اللغة : هما لغتان : ﴿ قَالُواْ تاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أي : لا تفتأ ، فحذف حرف النفي لعدم اللبس .

قال الكسائي : فتأت وفتئت أفعل كذا ، أي : مازلت .

وقال الفراء : إن "لا" مضمرة ، أي : لا تفتأ .

قال النحاس : والذي قال صحيح .

وقد روي عن الخليل وسيبويه مثل قول الفراء ، وأنشد الفراء محتجاً على ما قاله :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً . . . ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

ويقال : فتيء ، وفتأ لغتان ، ومنه قول الشاعر :

فما فتئت حتى كأن غبارها . . . سرادق يوم ذي رياح ترفع

﴿ حتى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ الحرض مصدر يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، والصفة المشبهة ، حرض بكسر الراء كدنف ودنف ، وأصل الحرض : الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم ، حكي ذلك عن أبي عبيدة وغيره ، ومنه قول الشاعر :

سرى همي فأمرضني . . . وقدماً زادني مرضا

كذاك الحب قبل اليو . . . م ممَّ يورث الحرضَا

وقيل : الحرض ما دون الموت ، وقيل : الهرم ، وقيل : الحارض : البالي الدائر .

وقال الفراء : الحارض : الفاسد الجسم والعقل ، وكذا الحرض .

وقال مؤرج : هو الذائب من الهمّ ، ويدّل عليه قول الشاعر :

إني امرؤلجّ بي حب فأحرضني . . . حتى بليت وحتى شفني السقم

ويقال : رجل محرض ، ومنه قول الشاعر :

طلبته الخيل يوماً كاملا . . . ولو ألفته لأضحى محرضا

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه الهمّ : إذا أسقمه ، ورجل حارض : أي أحمق .

وقال الأخفش : الحارض الذاهب .

وقال ابن الأنباري : هو الهالك .

والأولى تفسير الحرض هنا بغير الموت والهلاك من هذه المعاني المذكورة حتى يكون لقوله :

﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ﴾ معنى غير معنى الحرض ، فالتأسيس أولى من التأكيد ،

ومعنى ﴿ من الهالكين ﴾ : من الميتين ، وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة

عليه وإن كانوا هم سبب أحزانه ومنشأ همومه وغمومه .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى الله ﴾ هذه الجملة مستأنفة ، كأنه قيل : فما قال

يعقوب لما قالوا له ما قالوا ؟ والبث : ما يرد على الإنسان من الأشياء التي يعظم حزن صاحبها بها حتى لا يقدر على إخفائها ، كذا قال أهل اللغة ، وهو مأخوذ من بثثته ، أي : فرقته ، فسميت المصيبة بثاً مجازاً ، قال ذو الرّمة :

وقفتُ على ربَع لمية ناقتي . . . فما زلت أبكي عنده وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبثه . . . تكلمني أحجارُهُ ومَلاعبُه

وقد ذكر المفسرون : أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزناً ، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثاً ، فالبثّ على هذا : أعظم الحزن وأصعبه ، وقيل : البثّ الهمّ ؛ وقيل : هو الحاجة .

وعلى هذا القول يكون عطف الحزن على البثّ واضح المعنى .

وأما على تفسير البث بالحزن العظيم ، فكأنه قال : إنما أشكو حزني العظيم وما دونه من الحزن إلى الله لا إلى غيره من الناس .

وقد قرىء ﴿ حزني ﴾ بضم الحاء وسكون الزاي و " حزني " بفتحهما ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : أعلم من لطفه وإحسانه وثوابه على المصيبة ما لا تعلمونه أنتم .

وقيل : أراد علمه بأن يوسف حيّ .

وقيل : أراد علمه بأن رؤياه صادقة .

وقيل : أعلم من إجابة المضطرين إلى الله ما لا تعلمون .

﴿ يا بني اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ التحسس بمهملات : طلب الشيء بالحواس ، مأخوذ من الحسّ ، أو من الإحساس أي : اذهبوا فتعرّفوا خبر يوسف وأخيه وتطلبوه .

(209/402)

وقرئ بالجيم ، وهو أيضاً التطلب ﴿ وَلاَ تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ أي : لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه .

قال الأصمعي : الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه ، والتركيب يدل على الحركة والهزة ، فكل ما يهتز الإنسان بوجوده ويلتذ به فهو روح .

وحكى الواحدي عن الأصمعي أيضاً أنه قال : الروح : الاستراحة من غمّ القلب ، وقال أبو عمرو : الروح : الفرج ، وقيل : الرحمة ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه ، وعظيم صنعه ، وخفيّ ألطافه .

قوله : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ أي : على يوسف ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فذهبوا كما أمرهم أبوهم إلى مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه ، فلما دخلوا على يوسف ﴿ قَالُواْ أَيُّهَا العزيز ﴾ أي : الملك الممتنع القادر ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ أي : الجوع والحاجة

، وفيه دليل على أنه تجوز الشكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه ، كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب ما يجده من العلة ، وهذه المرّة التي دخلوا فيها مصر هي المرّة الثالثة ، كما يفيده ما تقدّم من سياق الكتاب العزيز ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ البضاعة هي القطعة من المال يقصد بها شراء شيء ، يقال : أبضعت الشيء واستبضعته : إذا جعلته بضاعة .

وفي المثل : كمستبضع التمر إلى هجر .

والإزجاء : السوق بدفع .

قال الواحدي : الإزجاء في اللغة : السوق والدفع قليلاً قليلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ [النور : 43] ، والمعنى : أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار .

قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة .

قال أبو عبيدة : إنما قيل للدراهم الرديئة : مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة .

واختلف في هذه البضاعة ما هي ؟ فقيل : كانت قديداً وحيساً ، وقيل : صوف وسمن ، وقيل : الحبة الخضراء والصنوبر ، وقيل : دراهم رديئة ، وقيل : النعال والأدم .

ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التي معهم أن يوفي لهم الكيل ، أي : يجعله تاماً لا نقص فيه ، وطلبوا منه أن يتصدّق عليهم إما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم ، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها ، وأن يجعلها كالبضاعة الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها ، وبهذا قال أكثر المفسرين .

وقد قيل : كيف يطلبون التصدّق عليهم وهم أنبياء والصدقة محرّمة على الأنبياء .

وأجيب باختصاص ذلك بنبينا صلى الله عليه وسلم ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ بما يجعله لهم من الثواب الأخروي ، أو التوسيع عليهم في الدنيا .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ قال : يوسف وأخيه وروبيل .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال : يوسف وأخيه وكبيرهم الذي تخلف ، وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ يا أسفا على يُوسُفَ ﴾ قال : يا حزناً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة مثله .

وأخرجوا عن مجاهد قال : يا جزعاً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ قال : حزين .

وأخرج ابن المبارك ، وعبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة قال : كظم على الحزن فلم يقل إلاّ خيراً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال : كظيم مكروب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن الضحاك قال : الكظيم : الكمد .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه .

(211/402)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ قال : لا تزال تذكر يوسف ﴿ حتى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ قال : دنفاً من المرض .

﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ﴾ قال : الميتين .

وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه .

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ قال: لا تزال تذكر يوسف ﴿ حتى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ قال: هرماً ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ﴾ قال: أو تموت.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاك ﴿ حتى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ قال: الحرض: البالي ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ﴾ قال: من الميتين.

وأخرج ابن جرير، وعبد الرزاق عن مسلم بن يسار يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "من بث لم يصبر،" ثم قرأ ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثّى وَحُزْنِى إِلَى الله ﴾ وأخرج ابن منده في المعرفة عن مسلم بن يسار عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره.

وأخرج ابن مردويه من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً مثله.

وأخرجه ابن المنذر، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن يعمر مرفوعاً مرسلاً.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثّى ﴾ قال: همي.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأني سأسجد له.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في قوله: ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ قال: من رحمة الله.

وأخرج ابن جرير، عن الضحاك مثله.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد قال: من فرج الله يفرج عنكم الغم الذي أنتم فيه.

(212/402)

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ قال: أي الضرّ في المعيشة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ ببِضَاعَةٍ ﴾ قال: دراهم ﴿ مُّزْجَاةٍ ﴾ قال: كاسدة.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه قال: ﴿ مزجاة ﴾ رثة المتاع، خلقة الحبل والغرارة والشيء.

وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿ مزجاة ﴾ قال: الورق الزيوف التي لا تنفق حتى يوضع منها.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن جرير في قوله: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ قال: أردد علينا أخانا.

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

الاستفهام في قوله: ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ ﴾ للتوبيخ والتقريع، وقد كانوا عالمين بذلك، ولكنه أراد ما ذكرناه، ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه في قوّة: ما أعظم الأمر الذي ارتكبتم من يوسف وأخيه، وما أقبح ما أقدمتم عليه؟ كما يقال للمذنب: هل تدري من عصيت؟ والذي فعلوا بيوسف هو ما تقدّم مما قصه الله سبحانه علينا في هذه السورة، وأما ما فعلوا بأخيه، فقال جماعة من المفسرين: هو ما أدخلوه عليه من الغمّ بفراق أخيه يوسف، وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة، ولم يستفهمهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب، مع أنه قد ناله منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الأذى.

قال الواحدي: ولم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغمّ بفراقه تعظيماً له، ورفعاً من قدره، وعلماً بأن ذلك كان بلاء له من الله عزّ وجلّ ليزيد في درجته عنده ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ نفى عنهم العلم، وأثبت لهم صفة الجهل، لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم،

وقيل : إنه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم ، وتخفيف الأمر عليهم ، فكأنه قال : إنما أقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم ، وقصور معارفكم عن عاقبته ، وما يترتب عليه ، أو أراد عند ذلك في أوان الصبا وزمان الصغر ، اعتذاراً لهم ، لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا في ذلك الوقت كباراً .

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ .

قرأ ابن كثير " إنك " على الخبر بدون استفهام .

وقرأ الباقون على الاستفهام التقريري ، وكان ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب .

قيل : سبب معرفتهم له بمجرد قوله لهم : ﴿ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلاّ هو .

وقيل : إنه لما قال لهم بهذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه .

وقيل : إنه تبسم فعرفوا ثناياه ﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وهذا أَخِى ﴾ أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه .

قال ابن الأنباري : أظهر الاسم فقال : أنا يوسف ، ولم يقل : أنا هو ، تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته ، كأنه قال : أنا المظلوم المستحل منه المحرم ، والمراد قتله .

فاكتفى بإظهار الاسم عن هذه المعاني ، وقال : وهذا أخي مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه ؛

لأن قصده وهذا أخي المظلوم كظلمي ، ﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ بالخلاص عما ابتلينا به ،

وقيل : منّ الله علينا بكل خير في الدنيا والآخرة .

وقيل : بالجمع بيننا بعد التفرق ، ولا مانع من إرادة جميع ذلك ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ ﴾ .

قرأ الجمهور بالجزم على أن " من " شرطية .

وقرأ ابن كثير بإثبات الياء في يتقي .

كما في قول الشاعر :

ألم يأتيك والأنباء تنمي . . . بما لاقت لبونُ بني زياد

وقيل إنه جعل " من " موصولة لا شرطية ، وهو بعيد .

والمعنى : إنه من يفعل التقوى أو يفعل ما يقيه عن الذنوب ويصبر على المصائب ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ على العموم ، فيدخل فيه ما يفيده السياق دخولاً أوّلياً ، وجاء بالظاهر ، وكان المقام مقام المضمر ، أي : أجرهم للدلالة على أن الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الإحسان ﴿ قَالُواْ تالله لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ أي : لقد اختارك وفضلك علينا بما خصك به من صفات الكمال ، وهذا اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره ، ولا يلزم

من ذلك ألا يكونوا أنبياء ، فإن درج الأنبياء متفاوتة ، قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرسل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ [البقرة : 253] ﴿ وَإِن كُنَّا لخاطئين ﴾ أي : وإن الشأن ذلك .

قال أبو عبيدة : خطىء وأخطأ بمعنى واحد .

وقال الأزهري : المخطىء من أراد الصواب فصار إلى غيره ، ومنه قولهم : المجتهد يخطىء ويصيب ، والخاطىء من تعمد ما لا ينبغي .

قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب استجلاباً لعفوه واستجذاباً لصفحه .

﴿ قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ التثريب التعيير والتوبيخ أي : لا تعيير ولا توبيخ ، ولا لوم عليكم .

قال الأصمعي : ثربت عليه : قبحت عليه فعله .

وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوّة ، ولكم عندي الصلح والعفو ، وأصل التثريب : الإفساد ، وهي لغة أهل الحجاز .

وقال ابن الأنباري : معناه .

قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب .

قال ثعلب : ثرب فلان على فلان إذا عدّد عليه ذنوبه ، وأصل التثريب من الثرب ، وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ، ومعناه : إزالة التثريب ، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع ، وانتصاب ﴿ اليوم ﴾ بالتثريب ، أي : لا أثرب عليكم أو منتصب بالعامل المقدّر في ﴿ عليكم ﴾ وهو مستقرّ أو ثابت أو نحوهما ، أي : لا تثريب مستقر أو ثابت عليكم .

وقد جوّز الأخفش الوقف على ﴿ عليكم ﴾ فيكون : اليوم متعلق بالفعل الذي بعده .

وقد ذكر مثل هذا ابن الأنباري ، ثم دعا لهم بقوله : ﴿ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ على تقدير الوقف على اليوم ، أو أخبرهم بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على ﴿ اليوم ﴾ ، أو أخبرهم بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على ﴿ عليكم ﴾ ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم فيجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم .

قوله : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا ﴾ قيل : هذا القميص هو القميص الذي ألبسه الله إبراهيم لما ألقي في النار وكساه إبراهيم إسحاق ، وكساه إسحاق يعقوب .

وكان يعقوب أدرج هذا القميص في قضيب وعلقه في عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين ، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره ؛ لأنّ فيه ريح الجنة ،

وريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفي ، ولا مبتلي إلاّ عوفي ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ أي : يصر بصيرا ، على أن ﴿ يأت ﴾ هي التي من أخوات كان .

قال الفراء : يرجع بصيراً .

وقال السدّي : يعد بصيراً .

وقيل : معناه يأتِ إليّ إلى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى ، ويؤيده قوله : ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : جميع من شمله لفظ الأهل من النساء والذراري ، وقيل : كانوا نحو سبعين ، وقيل : ثلاثة وتسعين .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ ﴾ أي : خرجت منطلقة من مصر إلى الشام .

(216/402)

يقال : فصل فصولاً ، وفصلته فصلاً ، لازم ومتعدّ ، ويقال : فصل من البلد فصولاً : إذا انفصل عنه وجاوز حيطانه ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ أي : يعقوب لمن عنده في أرض كنعان من أهله ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ قيل : إنها هاجت ريح فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة ، فأخبرهم بما وجد ، ثم قال : ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ لولا أن تنسبوني إلى الفند ، وهو ذهاب العقل من الهرم ، يقال : أفند الرجل إذا خرف وتغير عقله .

وقال أبو عبيدة : لولا أن تسفهون ، فجعل الفند السفه .

وقال الزجاج : لولا أن تجهلون ، فجعل الفند الجهل ، ويؤيد ذلك قول من قال : إنه السفه قول النابغة :

إلاّ سليمان إذ قال المليك له . . . قم في البرية فاحددها عن الفند

أي : امنعها عن السفه .

وقال أبو عمرو الشيباني : التفنيد : التقبيح ، ومنه قول الشاعر :

يا صاحبيّ دعا لومي وَتَفنيدي . . . فليس ما فات من أمري بمردود

وقيل : هو الكذب ، ومنه قول الشاعر :

هل في افتخار الكريم من أود ؟ . . . أم هل لقول الصدّيق من فند ؟

وقال ابن الأعرابي : ﴿ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ لولا أن تضعفوا رأيي ، وروي مثله عن أبي عبيدة .

وقال الأخفش : التفنيد : اللوم وضعف الرأي .

وكل هذه المعاني راجع إلى التعجيز ، وتضعيف الرأي ، يقال : فنده تفنيداً : إذا عجزه ، وأفند : إذا تكلم بالخطأ ، والفند : الخطأ من الكلام ، ومما يدل على إطلاقه على اللوم قول الشاعر :

يا عاذِلي دعا الملام وأَقصِرا . . . طال الهوى وَأطلتُما التفنيدا

أخبرهم يعقوب بأن الصبا قد حملت إليه ريح حبيبه ، وأنه لولا ما يخشاه من التفنيد لما شك في ذلك :

فإن الصبا ريح إذا ما تنفست . . . على نفس مهموم تجلت همومها

إذا قلت هذا حين أسلو يهيجني . . . نسيم الصبا من حيث ما يطلع الفجر

ولقد تهبّ لي الصبا من أرضها . . . فيلذّ مسّ هبوبها ويطيب

(217/402)

﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضلالك القديم ﴾ أي : قال الحاضرون عنده من أهله : إنك يا يعقوب لفي ذهابك عن طريق الصواب الذي كنت عليه قديماً من إفراط حبك ليوسف لا تنساه ، ولا تفترّ عنه ، ولسان حال يعقوب يقول لهم :

لا يعرف الشوق إلاّ من يكابده . . . ولا الصبابة إلاّ من يعانيها

لا تعذل المشتاق في أشواقه . . . حتى تكون حشاك في أحشائه

وقيل : المعنى : إنك لفي جنونك القديم ، وقيل : في محبتك القديمة .

قالوا له ذلك لأنه لم يكن قد بلغهم قدوم البشير .

﴿ فَلَمَّا أَن جَاء البشير ﴾ قال المفسرون : البشير هو يهوذا بن يعقوب ، قال لإخوته : أنا

جئته بالقميص ملطخاً بالدم، فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حيّ، فأفرحه كما أحزنته ﴿ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أي: ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ الارتداد: انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها، والمعنى: عاد ورجع إلى حالته الأولى من صحة بصره ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ ﴾ أي: قال يعقوب لمن كان عنده من أهله الذين قال لهم: إني لأجد ريح يوسف، ألم أقل لكم هذا القول فقلتم ما قلتم، ويكون قوله: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ كلاماً مبتدأ لا يتعلق بالقول، ويجوز أن تكون جملة: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ مقول القول، ويريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقاً ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 86]، ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم، واعترفوا بالذنب، وفي الكلام حذف، والتقدير: ولما رجعوا من مصر ووصلوا إلى أبيهم قالوا هذا القول، فوعدهم بما طلبوه منه، و ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾.

قال الزجاج : أراد يعقوب أن يستغفر لهم في وقت السحر ؛ لأنه أخلق بإجابة الدعاء ، لا أنه بخل عليهم بالاستغفار ، وقيل : أخره إلى ليلة الجمعة ، وقيل : أخره إلى أن يستحلّ لهم من يوسف ، ولم يعلم أنه قد عفا عنهم .

وجملة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ تعليل لما قبله .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ لَا تَثْرَيبَ ﴾ قال : لا تعيير .

وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدّه قال : قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة التفت إلى الناس فقال : " ماذا تقولون وماذا تظنون ؟ فقالوا : ابن عمّ كريم ، فقال : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم " وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عطاء الخراساني قال : طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ ، ألم تر إلى قول يوسف ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ ؟ .

وقال يعقوب : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى ﴾ .

أقول : وفي هذا الكلام نظر فإنهم طلبوا من يوسف أن يعفو عنهم بقولهم : ﴿ لقد آثرك الله علينا ﴾ ، فقال : لا تثريب عليكم اليوم ، لأن مقصودهم صدور العفو منه عنهم ، وطلبوا

من أبيهم يعقوب أن يستغفر الله لهم وهو لا يكون إلاّ بطلب ذلك منه إلى الله عزّ وجلّ ، وبين المقامين فرق ، فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلاً عليهم بسؤال الله لهم ، ولا سيما إذا صح ما تقدّم من أنه أخر ذلك إلى وقت الإجابة .

فإنه لو طلبه لهم في الحال لم يحصل له علم بالقبول .

وأخرج الحكيم الترمذي ، وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال : لما كان من أمر إخوة يوسف ما كان ، كتب يعقوب إلى يوسف وهو لا يعلم أنه يوسف : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إلى عزيز آل فرعون : سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو ، أما بعد : فإنا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء ، كان جدّي إبراهيم خليل الله ألقي في النار في طاعة ربه ، فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، وأمر الله جدّي أن يذبح له أبي ففداه الله بما فداه ، وكان لي ابن وكان من أحبّ الناس إليّ ففقدته ، فأذهب حزني عليه نور بصري ، وكان له أخ من أمه كنت إذا ذكرته ضممته إلى صدري فأذهب عني بعض وجدي ، وهو المحبوس عندك في السرقة ، وإني أخبرك أني لم أسرق ، ولم ألد سارقاً ؛ فلما قرأ يوسف الكتاب بكى وصاح وقال : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِى يَأْتِ

بَصِيرًا ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قوله : " ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِي هذا ﴾ أن نمروذ لما ألقى إبراهيم في النار نزل إليه جبريل بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة ، فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة ، وقعد معه يتحدّث ، فأوحى الله إلى النار ﴿ كُونِى بَرْدًا وسلاما ﴾ [الأنبياء : 69] " ولولا أنه قال ﴿ وسلاماً ﴾ لآذاه البرد .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعاً : إن الله كسا إبراهيم ثوباً من الجنة ، فكساه إبراهيم إسحاق ، وكساه إسحاق يعقوب ، فأخذه يعقوب فجعله في قصبة من حديد وعلقه في عنق يوسف ، ولو علم إخوته إذ ألقوه في الجب لأخذوه ، فلما أراد الله أن يردّ يوسف على يعقوب كان بين رؤياه وتعبيره أربعون سنة ، أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل ، فوجد يعقوب ريحه فقال : ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ ، فلما ألقاه على وجهه ارتدّ بصيراً ، وليس يقع شيء من الجنة على عامة من عاهات الدنيا إلاّ أبرأها بإذن الله .

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأحمد في الزهد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ قال: لما خرجت العير هاجت الريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ تسفهون، فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه قال: وجد ريحه من مسيرة عشرة أيام.

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عنه قال: وجده من مسيرة ثمانين فرسخاً.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ قال: تجهلون.

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: قال: تكذبون.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: تهرمون، يقولون: قد ذهب عقلك.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن الربيع قال: لولا أن تحمقون.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ الْقَدِيمِ ﴾ يقول: خطئك القديم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: جنونك القديم.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: حبك القديم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: البشير: البريد.

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن الضحاك مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن سفيان قال : البشير هو يهوذا بن يعقوب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : لما أن جاء البشير إلى يعقوب فألقى عليه القميص قال : على أيّ دين خلفت يوسف ؟ قال : على الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة .

وأخرج أبو عبيد ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني عن ابن مسعود في قوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى ﴾ قال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر .

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : أخرهم إلى السحر ، وكان يصلي بالسحر .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه عنه قال : أخرّهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عنه أيضاً قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في قصه " هو

قول أخي يعقوب لبنيه : سوف أستغفر لكم ربي " ، يقول : حتى تأتي ليلة الجمعة " . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(222/402)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وقع ما ذكر ، وكان قد أرسل معهم من الدواب والمال والآلات ما يتجهزون به ، أقبلوا على التجهيز كما أمرهم يوسف عليه الصلاة والسلام ، ثم قدموا مصر وهم اثنان وسبعون نفساً من الذكور والإناث ، وكأنهم أسرعوا في ذلك فلذلك قال : ﴿ فلما ﴾ بالفاء ﴿ دخلوا على يوسف ﴾ في المكان الذي تلقاهم إليه في وجوه أهل مصر وضرب به مضاربه ﴿ آوى إليه أبويه ﴾ إكراماً لهما بما يتميزان به ، قيل : هو المعانقة ، والظاهر أنها

أمه حقيقة ، وبه قال الحسن وابن إسحاق – كما نقله الرماني وأبو حيان ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنها خالته ، وغلب الأب في هذه التثنية لذكورته كما غلب ما هو مفرد في أصله على المضاف في العمرين ﴿ وقال ﴾ مكرماً للكل ﴿ ادخلوا مصر ﴾ أي البلد المعروف ، وأتى بالشرط للأمن لا للدخول ، فقال : ﴿ إن شاء الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الأمر كله ﴿ آمنين ﴾ من جميع ما ينوب حتى مما فرطتموه في حقي وحق أخي .

ولما ذكر الأمن الذي هو ملاك العافية التي بها لذة العيش ، أتبعه الرفعة التي بها كمال النعيم ، فقال : ﴿ ورفع أبويه ﴾ أي بعدما استقرت بهم الدار بدخول مصر مستويين ﴿ على العرش ﴾ أي السرير الرفيع ؛ قال الرماني : أصله الرفع .

(223/402)

﴿ وخروا ﴾ أي انحطوا ﴿ له سجداً ﴾ الأبوان والإخوة تحقيقاً لرؤياه ممن هو غالب على كل أمر ، والسجود – وأصله : الخضوع والتذلل – كان مباحاً في تلك الأزمنة ﴿ وقال ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ يا أبت ﴾ ملذذاً له بالخطاب بالأبوة ﴿ هذا ﴾ أي الذي وقع من السجود ﴿ تأويل رؤياي ﴾ التي رأيتها ، ودل على قصر الزمن الذي رآها فيه بالجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ ثم استأنف قوله : ﴿ قد جعلها ربي ﴾ أي الذي رباني بما

أوصلني إليها ﴿ حقاً ﴾ أي بمطابقة الواقع لتأويلها ، وتأويل ما أخبرتني به أنت تحقق أيضاً من اجتبائي وتعليمي وإتمام النعمة عليّ ؛ والتأويل : تفسير بما يؤول إليه معنى الكلام ؛ وعن سلمان -رضى الله عنهم- أن ما بين تأويلها ورؤياها أربعون سنة .

(224/402)

﴿ وقد أحسن ﴾ أي أوقع إحسانه ﴿ بي ﴾ تصديقاً لما بشرتني به من إتمام النعمة ، وتعدية ﴿ أحسن ﴾ بالباء أدل على القرب من المحسن من التعدية ب " إلى " وعبر بقوله : ﴿ إذا أخرجني من السجن ﴾ معرضاً عن لفظ " الجب " حذراً من إيحاش إخوته مع أن اللفظ يحتمله احتمالاً خفياً ﴿ وجاء بكم ﴾ وقيل : إنهم كانوا أهل عمد وأصحاب مواش ، يتنقلون في المياه والمناجع ، فلذلك قال : ﴿ من البدو ﴾ من أطراف بادية فلسطين ، وذلك من أكبر النعم كما ورد في الحديث " من يرد الله به خيراً ينقله من البادية إلى الحاضرة " والبدو : بسيط من الأرض يرى فيه الشخص من بعيد ، وأصله من الظهور ، وأنس إخوته أيضاً بقوله مثبتاً الجار لأن مجيئهم في بعض أزمان البعد : ﴿ من بعد أن نزغ ﴾ عبر بالماضي ليفهم أنه انقضى ﴿ الشيطان ﴾ أي أفسد البعيد المحترق بوسوسته التي هي كالنخس ﴿ بيني وبين إخوتي ﴾ حيث قسم النزع بينه وبينهم ولم يفضل أحداً من الفريقين فيه ، ولم

يثبت الجار إشارة إلى عموم الإفساد للبينين ، كل ذلك إشارة إلى تحقق ما بشر به يعقوب عليه الصلاة والسلام من إتمام النعمة وكمال العلم والحكمة ؛ ثم علل الإحسان إليهم أجمعين بقوله : ﴿ إن ربي ﴾ أي المحسن إليّ على وجوه فيها خفاء ﴿ لطيف ﴾ - أي يعلم دقائق المصالح وغوامضها ، ثم يسلك - في إيصالها إلى المستصلح - سبيل الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك فهو اللطيف - قاله الرازي في اللوامع . وهو سبحانه فاعل اللطف في تدبيره ورحمته ﴿ لما يشاء ﴾ لا يعسر عليه أمر ؛ ثم علل هذه العلة بقوله : ﴿ إنه هو ﴾ أي وحده ﴿ العليم ﴾ أي البليغ العلم للدقائق والجلائل ﴿ الحكيم ﴾ أي البليغ الإتقان لما يصنعه طبق ما ختم به يعقوب عليه الصلاة والسلام بشراه في أول السورة ، أي هو منفرد بالاتصاف بذلك لا يدانيه أحد في علم ليتعرض إلى أبطال ما يقيمه من الأسباب ، ولا في حكمة ليتوقع الخلل في شيء منها . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 98 . 99 ﴾

(225/402)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾

اعلم أنه روي أن يوسف عليه السلام وجه إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه وخرج يوسف عليه السلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم تلقوا يعقوب عليه السلام وهو يمشي يتوكأ على يهودا فنظر إلى الخيل والناس فقال يا يهودا هذا فرعون مصر .

قال : لا هذا ولدك يوسف فذهب يوسف يبدأ بالسلام فمنع من ذلك فقال يعقوب عليه السلام : السلام عليك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً سوى الصبيان والشيوخ .

أما قوله : ﴿ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : في المراد بقوله أبويه قولان : الأول : المراد أبوه وأمه ، وعلى هذا القول فقيل إن أمه كانت باقية حية إلى ذلك الوقت ، وقيل إنها كانت قد ماتت ، إلا أن الله تعالى أحياها وأنشرها من قبرها حتى سجدت له تحقيقاً لرؤية يوسف عليه السلام .

والقول الثاني : أن المراد أبوه وخالته ، لأن أمه ماتت في النفاس بأخيه بنيامين ، وقيل : بنيامين بالعبرانية ابن الوجع ، ولما ماتت أمه تزوج أبوه بخالته فسماها الله تعالى بأحد الأبوين ، لأن الرابة تدعى ، إما لقيامها مقام الأم أو لأن الخالة أم كما أن العم أب ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وإله آبَآئِكَ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ [البقرة : 133] .

البحث الثاني : آوى إليه أبويه ضمهما إليهما واعتنقهما .

فإن قيل : ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر ؟

قلنا : كأنه حين استقبلهم نزل بهم في بيت هناك أو خيمة فدخلوا عليه وضم إليه أبويه وقال لهم : ﴿ ادخلوا مِصْرَ ﴾ .

أما قوله : ﴿ دَخَلُواْ على يُوسُفَ ءاوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ ففيه أبحاث :

(226/402)

البحث الأول : قال السدي إنه قال : هذا القول قبل دخولهم مصر ؛ لأنه كان قد استقبلهم وهذا هو الذي قررناه ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : المراد بقوله : ﴿ ادخلوا مِصْرَ ﴾ أي أقيموا بها آمنين ، سمى الإقامة دخولاً لاقتران أحدهما بالآخر .

البحث الثاني : الاستثناء وهو قول : ﴿ إِن شَاء الله ﴾ فيه قولان : الأول : أنه عائد إلى الأمن لا إلى الدخول ، والمعنى : ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَاء الله ءامِنِينَ ﴾ [الفتح : 27] وقيل إنه عائد إلى الدخول على القول الذي ذكرناه إنه قال لهم هذا الكلام قبل أن دخلوا مصر .

البحث الثالث : معنى قوله : ﴿ ءامِنِينَ ﴾ يعني على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحداً ، وكانوا فيما سلف يخافون ملوك مصر وقيل آمنين من القحط والشدة والفاقة ، وقيل آمنين من أن يضرهم يوسف بالجرم السالف .

أما قوله : ﴿ ورَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش ﴾ قال أهل اللغة : العرش السرير الرفيع قال تعالى : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : 23] والمراد بالعرش ههنا السرير الذي كان يجلس عليه يوسف ، وأما قوله : ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدَا ﴾ ففيه إشكال ، وذلك لأن يعقوب عليه السلام كان أبا يوسف وحق الأبوة عظيم قال تعالى : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِياه وبالوالدين إحسانا ﴾ [الإسراء : 23] فقرن حق الوالدين بحق نفسه ، وأيضاً أنه كان شيخاً ، والشاب يجب عليه تعظيم الشيخ .

والقول الثالث : أنه كان من أكابر الأنبياء ويوسف وإن كان نبياً إلا أن يعقوب كان أعلى حالاً منه .

والقول الرابع : أن جد يعقوب واجتهاده في تكثير الطاعات أكثر من جد يوسف ولما اجتمعت هذه الجهات الكثيرة فهذا يوجب أن يبالغ يوسف في خدمة يعقوب فكيف استجاز يوسف أن يسجد له يعقوب هذا تقرير السؤال .

والجواب عنه من وجوه :

الوجه الأول : وهو قول ابن عباس في رواية عطاء أن المراد بهذه الآية أنهم خروا له أي لأجل وجدانه سجداً لله تعالى ، وحاصل الكلام : أن ذلك السجود كان سجوداً للشكر فالمسجود له هو الله ، إلا أن ذلك السجود إنما كان لأجله والدليل على صحة هذا التأويل أن قوله : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدَا ﴾ مشعر بأنهم صعدوا ذلك السرير ، ثم سجدوا له ، ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لأن ذلك أدخل في التواضع .

فإن قالوا : فهذا التأويل لا يطابق قوله : ﴿ وَقَالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُؤيايَ مِن قَبْلُ ﴾ والمراد منه قوله : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] .

قلنا : بل هذا مطابق ويكون المراد من قوله : ﴿ والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ لأجلي أي أنها سجدت لله لطلب مصلحتي وللسعي في إعلاء منصبي ، وإذا كان هذا محتملاً سقط السؤال .

وعندي أن هذا التأويل متعين ، لأنه لا يستبعد من عقل يوسف ودينه أن يرضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته في حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة .

والوجه الثاني : في الجواب أن يقال : إنهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكراً لنعمة

وجدانه .

وهذا التأويل حسن فإنه يقال : صليت للكعبة كما يقال : صليت إلى الكعبة .

قال حسان شعراً :

ما كنت أعرف أن الأمر منصرف . . عن هاشم ثم منها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبلتكم . . وأعرف الناس بالقرآن والسنن

وهذا يدل على أنه يجوز أن يقال فلان صلى للقبلة ، وكذلك يجوز أن يقال سجد للقبلة

وقوله : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أي جعلوه كالقبلة ثم سجدوا لله شكراً لنعمة وجدانه .

الوجه الثالث : في الجواب قد يسمى التواضع سجوداً كقوله :

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر . .

(228/402)

وكان المراد ههنا التواضع إلا أن هذا مشكل ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾

والخرور إلى السجدة مشعر بالإتيان بالسجدة على أكمل الوجوه وأجيب عنه بأن الخرور

قد يعني به المرور فقط قال تعالى : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان : 73]

يعني لم يمروا .

الوجه الرابع : في الجواب أن نقول : الضمير في قوله : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ ﴾ غير عائد إلى الأبوين لا محالة ، وإلا لقال : وخروا له ساجدين ، بل الضمير عائد إلى إخوته ، وإلى سائر من كان يدخل عليه لأجل التهنئة ، والتقدير : ورفع أبويه على العرش مبالغة في تعظيمهما ، وأما الإخوة وسائر الداخلين فخروا له ساجدين .

فإن قالوا : فهذا لا يلائم قوله : ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رؤياى مِن قَبْلُ ﴾ .

قلنا : إن تعبير الرؤيا لا يجب أن يكون مطابقاً للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كل الوجوه فسجود الكواكب والشمس والقمر ، تعبير عن تعظيم الأكابر من الناس له ولا شك أن ذهاب يعقوب مع أولاده من كنعان إلى مصر لأجله في نهاية التعظيم له ، فكفى هذا القدر في صحة الرؤيا فأما أن يكون التعبير مساوياً لأصل الرؤيا في الصفة والصورة فلم يوجبه أحد من العقلاء .

الوجه الخامس : في الجواب لعل الفعل الدال على التحية والإكرام في ذلك الوقت هو السجود ، وكان مقصودهم من السجود تعظيمه ، وهذا في غاية البعد لأن المبالغة في التعظيم كانت أليق بيوسف منها بيعقوب ، فلو كان الأمر كما قلتم ، لكان من الواجب أن يسجد يوسف ليعقوب عليه السلام .

والوجه السادس : فيه أن يقال : لعل إخوته حملتهم الأنفة والاستعلاء على أن لا يسجدوا له على سبيل التواضع ، وعلم يعقوب عليه السلام أنهم لو لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سبباً لثوران الفتن ولظهور الأحقاد القديمة بعد كمونها فهو عليه السلام مع جلالة قدره وعظم حقه بسبب الأبوة والشيخوخة والتقدم في الدين والنبوة والعلم فعل ذلك السجود ، حتى تصير مشاهدتهم لذلك سبباً لزوال الأنفة والنفرة عن قلوبهم ألا ترى أن السلطان الكبير إذا نصب محتسباً فإذا أراد ترتيبه مكنه في إقامة الحسبة عليه ليصير ذلك سبباً في أن لا يبقى في قلب أحد منازعة ذلك المحتسب في إقامة الحسبة فكذا ههنا .

الوجه السابع : لعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعرفها إلا هو كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعرفها إلا هو ، ويوسف ما كان راضياً بذلك في قلبه إلا أنه لما علم أن الله أمره بذلك سكت .

ثم حكى تعالى أن يوسف لما رأى هذه الحالة : ﴿ قَالَ يَا أَبتِ هذا تَأْوِيلُ رُؤيَاى مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنه لما رأى سجود أبويه وإخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه ، وقال ليعقوب هذا تأويل رؤياي من قبل ، وأقول : هذا يقوي الجواب السابع كأنه يقول : يا أبت لا يليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا أمر أمرت به وتكليف كلفت به ، فإن رؤيا الأنبياء حق كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده صار سبباً لوجوب ذلك الذبح عليه في اليقظة فكذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف وحكاها ليعقوب سبباً لوجوب ذلك السجود ، فلهذا السبب حكى ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما رأى ذلك هاله واقشعر جلده ولكنه لم يقل شيئاً ، وأقول : لا يبعد أن يكون ذلك من تمام تشديد الله تعالى على يعقوب كأنه قيل له : إنك كنت دائم الرغبة في وصاله ودائم الحزن بسبب فراقه ، فإذا وجدته فاسجد له ، فكان الأمر بذلك السجود من تمام الشديد .

والله أعلم بحقائق الأمور .

البحث الثاني : اختلفوا في مقدار المدة بين هذا الوقت وبين الرؤيا فقيل ثمانون سنة ، وقيل : سبعون ، وقيل : أربعون ، وهو قول الأكثرين ، ولذلك يقولون إن تأويل الرؤيا إنما صحت بعد أربعين سنة ، وقيل ثماني عشرة سنة وعن الحسن أنه ألقي في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وبقي في العبودية والسجون ثمانين سنة ، ثم وصل إلى أبيه وأقاربه ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة والله أعلم بحقائق الأمور .

ثم قال : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بَى ﴾ أي إلي يقال : أحسن بي وإليه .

قال كثير :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة . . لدينا ولا مقلية إن تقلت

(231/402)

إذا أخرجني من السجن ولم يذكر إخراجه من البئر لوجوه : الأول : أنه قال لإخوته ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم ﴾ ولو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تثريباً لهم فكان إهماله جاراً مجري الكرم ، الثاني : أنه لما خرج من البئر لم يصر ملكاً بل صيروه عبداً ، أما لما خرج من السجن صيروه ملكاً فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعاما كاملاً ، الثالث : أنه لما أخرج من البئر وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة فلما أخرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته وزالت التهمة فكان هذا أقرب إلى المنفعة ، الرابع : قال الواحدي : النعمة في إخراجه من السجن أعظم لأن دخوله في السجن كان بسبب ذنب هم به ، وهذا ينبغي أن يحمل على ميل الطبع ورغبة النفس ، وهذا وإن كان في محل العفو في حق غيره إلا أنه ربما كان سبباً للمؤاخذة في حقه لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ثم قال : ﴿ وَجَاء بِكُمْ مّنَ البدو ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في الآية قولان :

القول الأول : جاء بكم من البدو أي من البداية ، وقال الواحدي : البدو بسيط من الأرض يظهر فيه الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدو بدواً ، ثم سمي المكان باسم المصدر فيقال : بدو وحضر وكان يعقوب وولده بأرض كنعان أهل مواش وبرية .

والقول الثاني : قال ابن عباس رضي الله عنهما كان يعقوب قد تحول إلى بدا وسكنها ، ومنها قدم على يوسف وله بها مسجد تحت جبلها قال ابن الأنباري : بدا اسم موضع معروف يقال هو بين شعب وبدا وهما موضعان ذكرهما جميعاً كثير فقال :

وأنت التي حببت شعباً إلى بدا . . إلى وأوطاني بلاد سواهما

(232/402)

فالبدو على هذا القول معناه قصد هذا الموضع الذي يقال له بدا يقال بدا القوم يبدون بدوا إذا أتوا بدا كما يقال : غار القوم غوراً إذا أتوا الغور فكان معنى الآية وجاء بكم من قصد بدا ، وعلى هذا القول كان يعقوب وولده حضريين لأن البدو لم يرد به البادية لكن عنى به قصد بدا إلى ههنا كلام قاله الواحدي في "البسيط" .

المسألة الثانية :

تمسك أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى ، لأن خروج العبد من السجن أضافه إلى نفسه بقوله : ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السجن ﴾ ومجيئهم من البدو وأضافه إلى نفسه سبحانه بقوله : ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ البدو ﴾ وهذا صريح في أن فعل العبد بعينه فعل الله تعالى وحمل هذا على أن المراد أن ذلك إنما حصل بإقدار الله تعالى وتيسيره عدول عن الظاهر .

ثم قال : ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشيطان بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى ﴾ قال صاحب "الكشاف" : ﴿ نَّزَغَ ﴾ أفسد بيننا وأغوى وأصله من نزغ الراكض الدابة وحملها على الجري : يقال : نزغه ونسغه إذا نخسه .

واعلم أن الجبائي والكعبي والقاضي : احتجوا بهذه الآية على بطلان الجبر قالوا : لأنه تعالى أخبر عن يوسف عليه السلام أنه أضاف الإحسان إلى الله وأضاف النزغ إلى الشيطان ، ولو كان ذلك أيضاً من الرحمن لوجب أن لا ينسب إلا إليه كما في النعم .

والجواب : أن إضافته هذا الفعل إلى الشيطان مجاز ، لأن عندكم الشيطان لا يتمكن من الكلام الخفي وقد أخبر الله عنه فقال : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مِّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِى ﴾ [إبراهيم : 22] فثبت أن ظاهر القرآن يقتضي إضافة هذا الفعل إلى الشيطان مع أنه ليس كذلك .

وأيضاً فإن كان إقدام المرء على المعصية بسبب الشيطان فإقدام الشيطان على المعصية إن كان بسبب شيطان آخر لزم التسلسل وهو محال وإن لم يكن بسبب شيطان آخر فليقل مثله في حق الإنسان ، فثبت أن إقدام المرء على الجهل والفسق ليس بسبب الشيطان وليس إيضاً بسبب نفسه لأن أحداً لا يميل طبعه إلى اختيار الجهل والفسق الذي يوجب وقوعه في ذم الدنيا وعقاب الآخرة ، ولما كان وقوعه في الكفر والفسق لا بد له من موقع ، وقد بطل القسمان لم يبق إلا أن يقال ذلك من الله تعالى ، ثم الذي يؤكد ذلك أن الآية المتقدمة على هذه الآية وهي قوله : ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السجن وَجَاء بِكُمْ مّنَ البدو ﴾ صريح في أن الكل من الله تعالى .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبّى لَطِيفٌ لّمَا يَشَاء ﴾ والمعنى أن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه وإخوته مع الألفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان في غاية البعد عن العقول إلا أنه تعالى لطيف فإذا أراد حصول شيء سهل أسبابه فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم الحكيم ﴾ أعني أن كونه لطيفاً في أفعاله إنما كان لأجل أنه عليم

بجميع الاعتبارات الممكنة التي لا نهاية لها فيكون عالماً بالوجه الذي يسهل تحصيل ذلك الصعب وحكيم أي محكم في فعله ، حاكم في قضائه ، حكيم في أفعاله مبرأ عن العبث والباطل والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 167 . 172 ﴾

(234/402)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ﴾

اختلف في إجتماع يوسف مع أبويه وأهله ، فحكى الكلبي والسدي أن يوسف خرج عن مصر وركب معه أهلها ، وقيل خرج الملك الأكبر معه واستقبل يعقوب ، قال الكلبي على يوم من مصر ، وكان القصر على ضحوة من مصر ، فلما دنا يعقوب متوكئاً على ابنه يهوذا يمشي ، فلما نظر إلى الخيل والناس قال : يا يهوذا أهذا فرعون ؟ قال : لا ، هذا ابنك يوسف ، فقال يعقوب : السلام عليك يا مذهب الأحزان عني ، فأجابه يوسف :

﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ فيه وجهان : أحدهما : آمنين من فرعون ، قاله أبو العالية .

الثاني : آمنين من القحط والجدب ، قاله السدي .

وقال ابن جريج : كان اجتماعهم بمصر بعد دخولهم عليه فيها على ظاهر اللفظ ، فعلى هذا يكون معنى قوله ﴿ ادخلوا مصر ﴾ استوطنوا مصر .

وفي قوله : ﴿ إن شاء الله ﴾ وجهان :

أحدهما : أن يعود إلى استيطان مصر ، وتقديره استوطنوا مصر إن شاء الله .

الثاني : أنه راجع إلى قول يعقوب : سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله آمنين إنه هو الغفور الرحيم ، ويكون اللفظ مؤخراً ، وهو قول ابن جريج .

فحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنساناً من رجل وامرأة ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً .

قوله عز وجل : ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ قال مجاهد وقتادة :

وفي أبويه قولان :

أحدهما : أنهما أبوه وخالته راحيل ، وكان أبوه قد تزوجها بعد أمه فسميت أُماً ، وكانت أمه قد ماتت في نفاس أخيه بنيامين ، قاله وهب والسدي .

الثاني : أنهما أبوه وأمه وكانت باقيه إلى دخول مصر ، قاله الحسن وابن إسحاق .

﴿ وخرّوا له سجداً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم سجدوا ليوسف تعظيماً له ، قال قتادة : وكان السجود تحية من قبلكم

وأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

وقال الحسن : بل أمرهم الله تعالى بالسجود له لتأويل الرؤيا .

وقال محمد بن إسحاق : سجد له أبواه وإخوته الأحد عشر .

والقول الثاني : أنهم سجدوا لله عز وجل ، قاله ابن عباس ، وكان يوسف في جهة القبلة فاستقبلوه بسجود ، وكان سجودهم شكراً ، ويكون معنى قوله ﴿ وخروا ﴾ أي سقطوا ، كما قال تعالى ﴿ فخرّ عليهم السقف مِنْ فوقهم ﴾ أي سقط .

والقول الثالث : أن السجود ها هنا الخضوع والتذلل ، ويكون معنى قوله تعالى ﴿ خروا ﴾ أي بدروا .

﴿ وقال يا أبَتِ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ واختلف العلماء فيما بين رؤياه وتأويلها على خمسة أقاويل :

أحدها : أنه كان بيهما ثمانون سنة ، قاله الحسن وقتادة .

الثاني : كان بينهما أربعون سنة ، قاله سليمان .

الثالث : ست وثلاثون سنة ، قاله سعيد بن جبير .

الرابع : اثنتان وعشرون سنة .

والخامس : أنه كان بينهما ثماني عشرة سنة ، قاله ابن إسحاق .

فإن قيل : فإن رؤيا الأنبياء لا تكون إلا صادقة فهلاّ وثق بها يعقوب وتسلى ؟ ولم ﴿ قال يا بُني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ وما يضر الكيد مع سابق القضاء ؟

قيل عن هذا جوابان :

أحدهما : أنه رآها وهو صبي فجاز أن تخالف رؤيا الأنبياء المرسلين . الثاني : أنه حزن لطول المدة في معاناة البلوى وخاف كيد الإخوة في تعجيل الأذى .

﴿ وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ﴾ فإن قيل فلم اقتصر من ذكر ما بُلي به على شكر إخراجه من السجن دون الجب وكانت حاله في الجب أخطر ؟

قيل عنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه كان في السجن مع الخوف من المعرة ما لم يكن في الجب فكان ما في نفسه من بلواه أعظم فلذلك خصه بالذكر والشكر .

الثاني : أنه قال ذلك شكراً لله عز وجل على نقله من البلوى إلى النعماء ، وهو إنما انتقل إلى

الملك من السجن لا من الجب ، فصار أخص بالذكر والشكر إذ صار بخروجه من السجن ملكاً ، وبخروجه من الجب عبداً .

(236/402)

الثالث : أنه لما عفا عن إخوته بقوله ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ أعرض عن ذكر الجب لما فيه من التعريض بالتوبيخ

وتأول بعض أصحاب الخواطر قوله : ﴿ وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ﴾ أي من سجن السخط إلى فضاء الرضا .

وفي قوله : ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم كانوا في بادية بأرض كنعان أهل مواشٍ وخيام ، وهذا قول قتادة .

الثاني : أنه كان قد نزل " بدا " وبنى تحت جبلها مسجداً ومنها قصد ، حكاه الضحاك عن ابن عباس . قال جميل :

وأنتِ التي حَبَبْتِ شغباً إلى بَدَا . . . إليّ وأوطاني بلادٌ سِواهما

يقال بدا يبدو إذا نزل " بدا " فلذلك قال : وجاء بكم من البدو وإن كانوا سكان المدن .

الثالث : لأنهم جاءُوا في البادية وكانوا سكان مدن ، ويكون بمعنى في .

واختلف من قال بهذا في البلد الذي كانوا يسكنونه على ثلاثة أقاويل .

أحدها : أنهم كانوا من أهل فلسطين ، قاله علي بن أبي طلحة .

الثاني : من ناحية حران من أرض الجزيرة ، ولعله قول الحسن .

الثالث : من الأولاج من ناحية الشعب ، حكاه ابن إسحاق .

﴿ من بَعْدِ أن نَزَغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي ﴾ وفي نزغه وجهان :

أحدهما : أنه إيقاع الحسد ، قاله ابن عباس .

الثاني : معناه حرّش وأفسد ، قاله ابن قتيبة .

﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ قال قتادة : لطيف بيوسف بإخراجه من السجن ، وجاء بأهله من البدو ، ونزع عن يوسف نزغ الشيطان . انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(237/402)

وقال الجصاص فى الآيات السابقة :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ارْجِعُوا إلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إنَّ ابْنَك سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ إنَّمَا أَخْبَرُوا عَنْ ظَاهِرِ الْحَالِ لَا عَنْ بَاطِنِهَا ؛ إذْ لَمْ يَكُونُوا عَالِمِينَ بِبَاطِنِهَا وَلِذَلِكَ قَالُوا : ﴿

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ فَكَانَ فِي الظَّاهِرِ لَمَّا وُجِدَ الصَّاعُ فِي رَحْلِهِ أَنَّهُ هُوَ الْآخِذُ لَهُ فَقَالُوا : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ يَعْنِي مِنْ الْأَمْرِ الظَّاهِرِ لَا مِنْ الْحَقِيقَةِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْعِلْمِ مِنْ طَرِيقِ الظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ حَقِيقَةً ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّا لَا نُحِيطُ بِضَمَائِرِهِنَّ عِلْمًا وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنْ إِيمَانِهِنَّ.

وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا : مَا رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ : " مَا كُنَّا نَشْعُرُ أَنَّ ابْنَكَ سَيَسْرِقُ " ، وَالْآخَرُ : مَا قَدَّمْنَا ، وَهُوَ أَنَّا لَا نَدْرِي بَاطِنَ الْأَمْرِ فِي السَّرِقَةِ.

فَإِنْ قِيلَ : لِمَ جَازَ لَهُ اسْتِخْرَاجُ الصَّاعِ مِنْ رَحْلِ أَخِيهِ عَلَى حَالٍ يُوجِبُ تُهْمَتَهُ عِنْدَ النَّاسِ مَعَ بَرَاءَةِ سَاحَتِهِ وَعَمَّ أَبِيهِ وَإِخْوَتَهُ بِهِ ؟ قِيلَ لَهُ : لِأَنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ ضُرُوبٌ مِنْ الصَّلَاحِ ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ مُوَاطَأَةٍ مِنْ أَخِيهِ لَهُ عَلَى ذَلِكَ وَتَلَطُّفٍ فِي إِعْلَامِ أَبِيهِ بِسَلَامَتِهِمَا ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَّهِمَهُ بِالسَّرِقَةِ مَعَ إِمْكَانِ أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ جَعَلَهُ فِي رَحْلِهِ ، وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ بِذَلِكَ تَعْظِيمًا لِيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْبَلْوَى بِفَقْدِهِ أَيْضًا لِيَصْبِرَ فَيَتَضَاعَفَ لِيَعْقُوبَ عَلَيْهِ

السَّلَامُ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ بِصَبْرِهِ عَلَى فَقْدِهِمَا .

وَفِيمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ وَمَا عَامَلَ بِهِ إخْوَتَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ دَلَالَةٌ عَلَى إجَازَةِ الْحِيلَةِ فِي التَّوَصُّلِ إلَى الْمُبَاحِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَضِيَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِ وَلَمْ يُنْكِرْهُ ، وَقَالَ فِي آخِرِ الْقِصَّةِ : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ وَمِنْ نَحْوِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِك ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ وَكَانَ حَلَفَ أَنْ يَضْرِبَهَا عَدَدًا ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَخْذِ الضِّغْثِ وَضَرْبِهَا بِهِ لِيَبَرَّ فِي يَمِينِهِ مِنْ غَيْرِ إيصَالِ أَلَمٍ كَبِيرٍ إلَيْهَا .

وَمِنْ نَحْوِهِ النَّهْيُ عَنْ التَّصْرِيحِ بِالْخِطْبَةِ وَإِبَاحَةُ التَّوَصُّلِ إلَى إعْلَامِهَا رَغْبَتَهُ بِالتَّعْرِيضِ .

(239/402)

وَمِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى خَيْبَرَ فَأَتَاهُ بِتَمْرٍ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا ؟ فَقَالَ : لَا وَاَللَّهِ ، إنَّمَا نَأْخُذُ الصَّاعَ بِالصَّاعَيْنِ وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثَةِ ، قَالَ : فَلَا تَفْعَلْ بِعْ الْجَمِيعَ بِالدَّرَاهِمِ ثُمَّ اشْتَرِ بِالدَّرَاهِمِ تَمْرًا ﴾ ، كَذَا رَوَى ذَلِكَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ عَبْدِ الْمَجِيدِ بْنِ سُهَيْلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ﴿ فَحَظَرَ عَلَيْهِ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّفَاضُلَ فِي التَّمْرِ وَعَلَّمَهُ كَيْفَ يَحْتَالُ فِي التَّوَصُّلِ إِلَى أَخْذِ هَذَا التَّمْرِ .

﴿ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِهِنْدٍ : ﴿ خُذِي مِنْ مَالِ أَبِي سُفْيَانَ مَا يَكْفِيك وَوَلَدَك بِالْمَعْرُوفِ ﴾ .

فَأَمَرَهَا بِالتَّوَصُّلِ إِلَى أَخْذِ حَقِّهَا وَحَقِّ وَلَدِهَا .

وَرُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا وَرَّى بِغَيْرِهِ ﴾ .

وَرَوَى يُونُسُ وَمَعْمَرٌ عَنْ

(240/402)

الزُّهْرِيِّ قَالَ : ﴿ أَرْسَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ أَنْ ائْتُونَا فَإِنَّا سَنُغِيرُ عَلَى بَيْضَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ ، فَسَمِعَ ذَلِكَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ وَكَانَ مُوَادِعًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ عِنْدَ عُيَيْنَةَ حِينَ أَرْسَلَتْ بِذَلِكَ بَنُو قُرَيْظَةَ إِلَى الْأَحْزَابِ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ ، فَأَقْبَلَ نُعَيْمٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهَا وَمَا أَرْسَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ إِلَى الْأَحْزَابِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَعَلَّنَا أُمِرْنَا بِذَلِكَ فَقَامَ نُعَيْمٌ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

وكَانَ نُعَيْمٌ رَجُلًا لَا يَكْتُمُ الْحَدِيثَ ، فَلَمَّا وَلَّى مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاهِبًا إِلَى غَطَفَانَ قَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا الَّذِي قُلْتَ إِنْ كَانَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فَأَمْضِهِ وَإِنْ كَانَ هَذَا رَأْيًا رَأَيْتَهُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ فَإِنَّ شَأْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَقُولَ شَيْئًا يُؤْثَرُ عَنْكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بَلْ هَذَا رَأْيٌ إِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ ﴾ .

وَرَوَى أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ عَنْ عُمَرَ قَالَ : " إِنَّ فِي مَعَارِيضِ الْكَلَامِ لَمَنْدُوحَةً عَنْ الْكَذِبِ " .

وَرَوَى الْحَسَنُ بْنُ عُمَارَةَ عَنْ الْحَكَمِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " مَا يَسُرُّنِي بِمَعَارِيضِ الْكَلَامِ حُمْرُ النَّعَمِ " .

(241/402)

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِلْمَلِكِ حِينَ سَأَلَهُ عَنْ سَارَةَ فَقَالَ : مَنْ هِيَ مِنْك ؟ قَالَ : هِيَ أُخْتِي لِئَلَّا يَأْخُذَهَا ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أُخْتِي فِي الدِّينِ وَقَالَ لِلْكُفَّارِ : إِنِّي سَقِيمٌ ، حِينَ تَخَلَّفَ لِيُكَسِّرَ آلِهَتَهُمْ ، وَكَانَ مَعْنَاهُ : إِنِّي سَأَسْقَمُ يَعْنِي أَمُوتُ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّك مَيِّتٌ ﴾ فَعَارَضَ بِكَلَامِهِ عَمَّا سَأَلُوهُ عَنْهُ

إلَى غَيْرِهِ عَلَى وَجْهٍ لَا يَلْحَقُ فِيهِ الْكَذِبُ .

فَهَذِهِ وُجُوهٌ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا بِالِاحْتِيَالِ فِي التَّوَصُّلِ إلَى الْمُبَاحِ ، وَقَدْ

كَانَ لَوْلَا وَجْهُ الْحِيلَةِ فِيهِ مَحْظُورًا وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ الْوَطْءَ بِالزِّنَا وَأَمَرَنَا بِالتَّوَصُّلِ إلَيْهِ بِعَقْدِ النِّكَاحِ وَحَظَرَ عَلَيْنَا أَكْلَ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ وَأَبَاحَهُ بِالشِّرَى وَالْهِبَةِ وَنَحْوِهَا ، فَمَنْ أَنْكَرَ التَّوَصُّلَ إلَى اسْتِبَاحَةِ مَا كَانَ مَحْظُورًا مِنْ الْجِهَةِ الَّتِي أَبَاحَتْهُ الشَّرِيعَةُ فَإِنَّمَا يَرُدُّ أُصُولَ الدِّينِ وَمَا قَدْ ثَبَتَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ .

فَإِنْ قِيلَ : حَظَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ صَيْدَ السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ حَبَسُوا السَّمَكَ يَوْمَ السَّبْتِ وَأَخَذُوهُ يَوْمَ الْأَحَدِ فَعَاقَبَهُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ .

قِيلَ لَهُ : قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ ، وَهَذَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ حَبْسُهَا فِي السَّبْتِ قَدْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِمْ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ حَبْسُهُمْ لَهَا فِي السَّبْتِ مُحَرَّمًا لَمَا قَالَ : ﴿ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ .

(242/402)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ لَمَّا تَرَكَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّكِيرَ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى جَوَازِ إظْهَارِ مِثْلِ ذَلِكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إلَيْهِ وَأَنَّهُ لَا يَجْرِي مَجْرَى الشَّكْوَى مِنْ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أُجْرَةَ الْكَيَّالِ عَلَى الْبَائِعِ لِأَنَّ عَلَيْهِ تَعْيِينَ الْمَبِيعِ

لِلْمُشْتَرِي وَلَا يَتَعَيَّنُ إلَّا بِالْكَيْلِ ، وَقَدْ قَالُوا لَهُ : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْكَيْلَ قَدْ كَانَ عَلَيْهِ .

فَإِنْ قِيلَ : ﴿ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيْعِ الطَّعَامِ حَتَّى يَجْرِيَ فِيهِ الصَّاعَانِ صَاعُ الْبَائِعِ وَصَاعُ الْمُشْتَرِي ﴾ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكَيْلَ عَلَى الْمُشْتَرِي لِأَنَّ مُرَادَهُ الصَّاعُ الَّذِي اكْتَالَ بِهِ الْبَائِعُ مِنْ بَائِعِهِ وَصَاعُ الْمُشْتَرِي هُوَ مَا اكْتَالَهُ الْمُشْتَرِي الثَّانِي مِنْ الْبَائِعِ .

قِيلَ لَهُ : قَوْلُهُ صَاعُ الْبَائِعِ " لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّ الْبَائِعَ هُوَ الَّذِي اكْتَالَ ، وَجَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الصَّاعَ الَّذِي كَالَ الْبَائِعُ بِهِ بَائِعَهُ وَصَاعَ الْمُشْتَرِي الَّذِي كَالَهُ لَهُ بَائِعُهُ ، فَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى الِاكْتِيَالِ عَلَى الْمُشْتَرِي وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فِيمَا وَصَفْنَا مِنْ الْكَيْلِ فَوَاجِبٌ أَنْ يَكُونَ أُجْرَةُ وَزَّانِ الثَّمَنِ عَلَى الْمُشْتَرِي لِأَنَّ عَلَيْهِ تَعْيِينَ الثَّمَنِ لِلْبَائِعِ ، وَلَا يَتَعَيَّنُ إلَّا بِوَزْنِهِ فَعَلَيْهِ أُجْرَةُ الْوَزَّانِ .

(243/402)

وَأَمَّا أُجْرَةُ النَّاقِدِ فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ سَمَاعَةَ رَوَى عَنْ مُحَمَّدٍ : " أَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَوْفِيَهُ الْبَائِعُ فَهُوَ عَلَى الْمُشْتَرِي لِأَنَّ عَلَيْهِ تَسْلِيمَ الثَّمَنِ إلَيْهِ صَحِيحًا ، إنْ كَانَ قَدْ قَبَضَهُ الْبَائِعُ فَأُجْرَةُ النَّاقِدِ عَلَى الْبَائِعِ لِأَنَّهُ قَدْ قَبَضَهُ وَمَلَكَهُ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ شَيْئًا مِنْهُ مَعِيبٌ يَجِبُ رَدُّهُ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : إنَّمَا سَأَلُوا التَّفَضُّلَ بِالنُّقْصَانِ فِي

السِّعْرِ وَلَمْ يَسْأَلُوا الصَّدَقَةَ " .

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : " سَأَلُوا الصَّدَقَةَ وَهُمْ أَنْبِيَاءُ وَكَانَتْ حَلَالًا ، وَإِنَّمَا حُرِّمَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

وَكَرِهَ مُجَاهِدٌ أَنْ يَقُولَ فِي دُعَائِهِ : اللَّهُمَّ تَصَدَّقْ عَلَيَّ لِأَنَّ الصَّدَقَةَ إِنَّمَا هِيَ مِمَّنْ يَبْتَغِي الثَّوَابَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ؛ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ فِيهِ إِخْبَارٌ أَنَّهُمْ كَانُوا جَاهِلِينَ عِنْدَ وُقُوعِ الْفِعْلِ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا جَاهِلِينَ فِي هَذَا الْوَقْتِ ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ قَبْلَ الْبُلُوغِ لِأَنَّهُمْ لَوْ فَعَلُوهُ بَعْدَ الْبُلُوغِ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُمْ تَوْبَةٌ لَكَانُوا جَاهِلِينَ فِي الْحَالِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ جَهَالَةَ الصِّبَا لَا جَهَالَةَ الْمَعَاصِي .

(244/402)

وَقَوْلُ يُوسُفَ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ فَعَلُوهُ بَعْدَ الْبُلُوغِ وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ ذَنْبًا مِنْهُمْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ الِاسْتِغْفَارُ مِنْهُ وَظَاهِرُ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ تَابُوا بِقَوْلِهِمْ : ﴿ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ : ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ وَلَا يَقُولُ مِثْلَهُ مَنْ فَعَلَ شَيْئًا فِي حَالِ الصِّغَرِ قَبْلَ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِ

الْقَلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ إِنَّمَا جَازَ لَهُمْ مَسْأَلَةُ الِاسْتِغْفَارِ مَعَ حُصُولِ التَّوْبَةِ لِأَجْلِ الْمَظْلِمَةِ الْمُعَلَّقَةِ بِعَفْوِ الْمَظْلُومِ وَسُؤَالِ رَبِّهِ أَنْ لَا يَأْخُذَهُ بِمَا عَامَلَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا سَأَلُوهُ أَنْ يُبَلِّغَهُ بِدُعَائِهِ مَنْزِلَةَ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي جِنَايَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَالتَّيْمِيِّ وَابْنِ جُرَيْجٍ وَعَمْرِو بْنِ قَيْسٍ: "أَنَّهُ أَخَّرَ الِاسْتِغْفَارَ لَهُمْ إِلَى السَّحَرِ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى إِجَابَةِ الدُّعَاءِ ".

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ ﴿ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ أَخَّرَ ذَلِكَ إِلَى لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ ﴾.

وَقِيلَ: إِنَّمَا سَأَلُوهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ دَائِمًا فِي دُعَائِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ يُقَالُ: إِنَّ التَّحِيَّةَ لِلْمُلُوكِ كَانَتْ السُّجُودَ وَقِيلَ: إِنَّهُمْ سَجَدُوا لِلَّهِ شُكْرًا لَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ الِاجْتِمَاعِ مَعَ يُوسُفَ عَلَى الْحَالِ السَّارَّةِ، وَأَرَادُوا بِذَلِكَ التَّعْظِيمَ لِيُوسُفَ، فَأَضَافَ السُّجُودَ إِلَى يُوسُفَ مَجَازًا كَمَا يُقَالُ: " صَلَّى

لِلْقِبْلَةِ" وَ" صَلَّى إلى غَيْرِ الْقِبْلَةِ "يَعْنِي إلى تِلْكَ الْجِهَةِ.

وَقَوْلُ يُوسُفَ: ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ يَعْنِي سُجُودَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ فَكَانَ السُّجُودُ فِي الرُّؤْيَا هُوَ السُّجُودُ فِي الْيَقَظَةِ، وَكَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْكَوَاكِبُ أَبَوَيْهِ وَإِخْوَتَهُ وَيُقَالُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ إنَّ أُمَّهُ كَانَتْ مَاتَتْ وَتَزَوَّجَ خَالَتَهُ، رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ السُّدِّيِّ وَقَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ إِسْحَاقَ: كَانَتْ أُمُّهُ بَاقِيَةً" وَرُوِيَ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ: كَانَتْ الْمُدَّةُ بَيْنَ الرُّؤْيَا وَبَيْنَ تَأْوِيلِهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً"، وَعَنْ الْحَسَنِ: كَانَتْ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: "ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً" فَإِنْ قِيلَ: إذَا كَانَتْ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ صَادِقَةً فَهَلَّا تَسَلَّى يَعْقُوبُ بِعِلْمِهِ بِوُقُوعِ تَأْوِيلِ رُؤْيَا يُوسُفَ قِيلَ لَهُ: لِأَنَّهُ رَآهَا وَهُوَ صَبِيٌّ، وَقِيلَ لِأَنَّ طُولَ الْغَيْبَةِ عَنْ الْحَبِيبِ يُوجِبُ الْحُزْنَ كَمَا يُوجِبُهُ مَعَ الثِّقَةِ بِالِالْتِقَاءِ فِي الْآخِرَةِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(246/402)

وقال ابن العربى:

قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: كَانَ هَذَا سُجُودَ تَحِيَّةٍ لَا سُجُودَ عِبَادَةٍ، وَهَكَذَا كَانَ سَلَامُهُمْ بِالتَّكْبِيرِ وَهُوَ

الِانْحِنَاءُ ، وَقَدْ نَسَخَ اللَّهُ فِي شَرْعِنَا ذَلِكَ ، وَجَعَلَ الْكَلَامَ بَدَلًا عَنْ الِانْحِنَاءِ وَالْقِيَامِ .

وَمِنْهُ الْحَدِيثُ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ كَفَّرَتْ أَعْضَاؤُهُ اللِّسَانَ ، تَقُولُ لَهُ : اتَّقِ اللَّهَ فِينَا ، فَإِنَّك إنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا ، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا تَقُولُ فِي الْإِشَارَةِ بِالْإِصْبَعِ ؟ قُلْنَا : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ اللِّسَانَ يَكْفِي فِي السَّلَامِ ، وَأَمَّا حَرَكَةُ الْبَدَنِ أَوْ شَيْءٍ مِنْهُ فَلَمْ يُشْرَعْ فِي السَّلَامِ ، لَا تَحْرِيكُ يَدٍ [وَلَا قَدَمٍ] وَلَا قِيَامُ بَدَنٍ .

الثَّانِي : أَنَّ رَدَّ السَّلَامِ فَرْضٌ ، وَابْتِدَاؤُهُ سُنَّةٌ فِي مَشْهُورِ الْأَقْوَالِ ، وَلَكِنْ يَجُوزُ الْقِيَامُ لِلرَّجُلِ الْكَبِيرِ بُدَاءَةً إذَا لَمْ يُؤَثِّرْ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، كَمَا ﴿ قَالَ النَّبِيُّ لِجُلَسَائِهِ حِينَ جَاءَ سَعْدٌ : قُومُوا إلَى سَيِّدِكُمْ ﴾ ؛ فَإِنْ أَثَّرَ فِيهِ لَمْ يَجُزْ عَوْنُهُ عَلَى ذَلِكَ ، لِمَا رُوِيَ : ﴿ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَمْثُلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ ﴾ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ يَجُوزُ الْإِشَارَةُ بِالْإِصْبَعِ إذَا بَعُدَ عَنْك لِتُعَيِّنَ لَهُ أَوْ بِهِ وَقْتَ السَّلَامِ ، فَإِنْ كَانَ دَانِيًا فَلَا بَأْسَ بِالْمُصَافَحَةِ ، فَقَدْ ﴿ صَافَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعْفَرًا ، حِينَ قَدِمَ مِنْ

الْحَبَشَةِ ﴾ ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ : ﴿ مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إلَّا غُفِرَ لَهُمَا ﴾ خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَإِنْ كَانَ كَرِهَ مَالِكٌ الْمُصَافَحَةَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرَهَا أَمْرًا عَامًّا فِي الدِّينِ ، وَلَا شَائِعًا بَيْنَ الصَّحَابَةِ ، وَلَا مَنْقُولًا نَقْلَ السَّلَامِ ؛ وَلَوْ كَانَ مِنْهُ لَاسْتَوَى مَعَهُ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(248/402)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ فلما دخلوا ﴾ الآية

ها هنا محذوفات يدل عليها الظاهر ، وهي : فرحل يعقوب بأهله أجمعين وساروا حتى بلغوا يوسف ، فلما دخلوا عليه .

و ﴿ آوى ﴾ معناه : ضم وأظهر الحماية بهما ، وفي الحديث : "أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله" وقيل : أراد "بالأبوين" : أباه وأمه - قاله ابن إسحاق والحسن - وقال بعضهم : أباه وجدته - أم أمه - حكاه الزهراوي - وقيل : أباه وخالته ، لأن أمه قد كانت ماتت - قاله السدي - .

قال القاضي أبو محمد : والأول أظهر - بحسب اللفظ - إلا لو ثبت بسند أن أمه قد كانت ماتت .

وفي مصحف ابن مسعود : "آوى إليه أبويه وإخوته" . وقوله : ﴿ ادخلوا مصر ﴾ معناه : تمكنوا واسكنوا واستقروا ، لأنهم قد كانوا دخلوا عليه ، وقيل : بل قال لهم ذلك في الطريق حين تلقاهم - قاله السدي وهذا الاستثناء هو الذي ندب القرآن إليه ، أن يقوله الإنسان في جميع ما ينفذه بقوله في المستقبل ، وقال ابن جريج : هذا مؤخر في اللفظ وهو متصل في المعنى بقوله : ﴿ سوف أستغفر لكم ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا التأويل ضعف .

و﴿ العرش ﴾ : سرير الملك ، وكل ما عرش فهو عريش وعرش ، وخصصت اللغة العرش لسرير الملك ، و﴿ خرجوا ﴾ معناه : تصوبوا إلى الأرض ، واختلف في هذا السجود ، فقيل : كان كالمعهود عندنا من وضع الوجه بالأرض ، وقيل : بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه مما كان سيرة تحياتهم للملوك في ذلك الزمان ، وأجمع المفسرون أن ذلك السجود - على أي هيئة كان - فإنما كان تحية لا عبادة . قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم . وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة . وقال الحسن : الضمير في ﴿ له ﴾ لله عز وجل .

قال القاضي أبو محمد : ورد على هذا القول .

وحكى الطبري : أن يعقوب لما بلغ مصر في جملته كلم يوسف فرعون في تلقيه فخرج إليه وخرج الملوك معه فلما دنا يوسف من يعقوب وكان يعقوب يمشي متوكئاً على يهوذا – قال : فنظر يعقوب إلى الخيل والناس فقال : يا يهوذا ، هذا فرعون مصر ، قال : لا هو ابنك ، قال : فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدأ بالسلام ، فمنعه يعقوب من ذلك وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل ، فقال : السلام عليك يا مذهب الأحزان .

قال القاضي أبو محمد : ونحو هذا من القصص ، وفي هذا الوقت قال يوسف ليعقوب : إن فرعون قد أحسن إلينا فادخل عليه شاكراً ، فدخل عليه ، فقال فرعون : يا شيخ ما مصيرك إلى ما أرى ؟ قال : تتابع البلاء عليّ . قال : فما زالت قدمه حتى نزل الوحي : يا يعقوب ، أتشكوني إلى من لا يضرك ولا ينفعك ؟ قال : يا رب ذنب فاغفره . وقال أبو عمرو الشيباني : تقدم يوسف يعقوب في المشي في بعض تلك المواطن فهبط جبريل فقال له : أتتقدم أباك ؟ إن عقوبتك لذلك ألا يخرج من نسلك نبي .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾

المعنى : قال يوسف ليعقوب : هذا السجود الذي كان منكم ، هو ما آلت إليه رؤياي قديماً

في الأحد عشر كوكباً وفي الشمس والقمر .

وقوله : ﴿ قد جعلها ربي حقاً ﴾ ابتداء تعديد نعم الله تعالى عليه ، وقوله : ﴿ وقد أحسن بي ﴾ ، أي أوقع وناط إحسانه بي . فهذا منحى في وصول الإحسان بالباء ، وقد يقال : أحسن إليّ ، وأحسن فيّ ، ومنه قول عبد الله بن أبي ابن سلول : يا محمد أحسن في مواليّ ؛ وهذه المناحي مختلفة المعنى ، وأليقها بيوسف قوله : ﴿ بي ﴾ لأنه إحسان درج فيه دون أن يقصد هو الغاية التي صار إليها .

وذكر يوسف عليه السلام إخراجه من السجن ، وترك إخراجه من الجب لوجهين .

أحدهما : أن في ذكر إخراجه من الجب تجديد فعل إخوته وخزيهم بذلك وتقليع نفوسهم وتحريك تلك الغوائل وتخبيث النفوس .

والوجه الآخر : أنه خرج من الجب إلى الرق ، ومن السجن إلى الملك فالنعمة هنا أوضح .

وقوله : ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ يعم جمع الشمل والتنقل من الشقاوة إلى النعمة بسكنى الحاضرة ، وكان منزل يعقوب عليه السلام بأطراف الشام في بادية فلسطين وكان رب إبل وغنم وبادية .

و﴿ نزغ ﴾ معناه : فعل فعلاً أفسد به ، ومنه قول النبي عليه السلام : " لا يشر أحدكم على أخيه بالسلاح لا ينزغ الشيطان في يده " .

وإنما ذكر يوسف هذا القدر من أمر إخوته ليبين حسن موقع النعم ، لأن النعمة إذا جاءت إثر شدة وبلاء فهي أحسن موقعاً .

وقوله : ﴿ لما يشاء ﴾ أي من الأمور أن يفعله ، واختلف الناس في كم كان بين رؤيا يوسف وبين ظهورها : فقالت فرقة أربعون سنة – هذا قول سلمان الفارسي وعبد الله بن شداد ، وقال عبد الله بن شداد : ذلك آخر ما تبطىء الرؤيا – وقالت فرقة – منهم الحسن وجسر بن فرقد وفضيل بن عياض – ثمانون سنة . وقال ابن إسحاق : ثمانية عشر ، وقيل : اثنان وعشرون قاله النقاش – وقيل : ثلاثون ، وقيل : خمس وثلاثون – قاله قتادة – وقال السدي وابن جبير : ستة وثلاثون سنة . وقيل : إن يوسف عليه السلام عمر مائة وعشرين سنة . وقيل : إن يعقوب بقي عند يوسف نيفاً على عشرين سنة ثم توفي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : ولا وجه في ترك تعريف يوسف أباه بحاله منذ خرج من السجن إلى العز إلا الوحي من الله تعالى لما أراد أن يمتحن به يعقوب وبنيه ، وأراد من صورة جمعهم – لا إله إلا هو – وقال النقاش : كان ذلك الوحي في الجب ، وهو قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ [يوسف : 15] وهذا محتمل .

ومما روي في أخبار يعقوب عليه السلام : قال الحسن : إنه لما ورده البشير لم يجد عنده شيئاً يثيبه به فقال له : والله ما أصبت عندنا شيئاً ، وما خبرنا منذ سبه ليال ، ولكن هون الله عليك سكرات الموت .

(251/402)

ومن أخباره : أنه لما اشتد بلاؤه وقال : يا رب أعميت بصري وغيبت عني يوسف ، أفما ترحمني ؟ فأوحى الله إليه : سوف أرحمك وأرد عليك ولدك وبصرك ، وما عاقبتك بذلك إلا أنك طبخت في منزلك حملاً فشمه جار لك ولم تساهمه بشيء ، فكان يعقوب بعد يدعوه إلى غدائه وعشائه . وحكى الطبري : أنه لما اجتمع شمله كلفه بنوه أن يدعو الله لهم حتى يأتي الوحي بأن الله قد غفر لهم . قال : فكان يعقوب يصلي ويوسف وراءه وهم وراء يوسف ، ويدعو لهم فلبث كذلك عشرين سنة ثم جاءه الوحي : إني قد غفرت لهم وأعطيتهم مواثيق النبوة بعدك . ومن أخباره : أنه لما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يدفنه بالشام ، فلما مات نفخ فيه المر وحمله إلى الشام ، ثم مات يوسف فدفن بمصر ، فلما خرج موسى – بعد ذلك – من أرض مصر احتمل عظام يوسف حتى دفنها بالشام مع آبائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا على يُوسُفَ ﴾

أي قَصْراً كان له هناك .

﴿ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ قيل : إن يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة وجهازاً ، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعاً ؛ فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه ، أي ضمّ ؛ ويعني بأبويه أباه وخالته ، وكانت أمّه قد ماتت في ولادة أخيه بنيامين .

وقيل : أحيا الله (له) أمّه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له ، قاله الحسن ؛ وقد تقدّم في "البقرة" أن الله تعالى أحيا لنبيه عليه السلام أباه وأمه فآمنا به .

قوله تعالى : ﴿ ادخلوا مِصْرَ إِن شَآءَ الله آمِنِينَ ﴾ قال ابن جريج : أي سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله ؛ قال : وهذا من تقديم القرآن وتأخيره ؛ قال النحاس : يذهب ابن جُرَيج إلى أنهم قد دخلوا مصر فكيف يقول : "ادخلوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" .

وقيل : إنما قال : "إِنْ شَاءَ اللَّهُ" تَبَرُّكاً وجزْماً .

"آمنين" من القَحْط ، أو من فرعون ؛ وكانوا لا يدخلونها إلا بجوازه .

قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش ﴾

قال قَتَادة: يريد السَّرير، وقد تقدّمت محامله؛ وقد يُعبر بالعرش عن المُلْك والمَلِك نفسه؛

ومنه قول النابغة الذّبْيَانيّ:

عُروشٌ تَفَانَوْا بعد عِزٍّ وأَمْنَةٍ . . .

وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ الهاء في "خَرُّوا لَهُ" قيل: إنها تعود على الله تعالى؛ المعنى: وخرّوا شكراً لله سجداً؛ ويوسف كالقِبْلة لتحقيق رؤياه، وروي عن الحسن؛ قال النّقّاش: وهذا خطأ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى في أوّل السورة: "رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ".

وكان تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف، والصغير للكبير؛ سجد يعقوب وخالته وإخوته ليوسف عليه السلام، فاقشعرّ جلده وقال: "هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ" وكان بين رؤيا

يوسف وبين تأويلها اثنتان وعشرون سنة .

وقال سلمان الفارسيّ وعبد الله بن شَدّاد : أربعون سنة ؛ قال عبد الله بن شَدّاد : وذلك آخر ما تبطىء الرؤيا .

وقال قَتَادة : خمس وثلاثون سنة .

وقال السدّي وسعيد بن جُبير وعِكرمة : ست وثلاثون سنة .

وقال الحسن وجِسْر بن فَرْقَد وفُضَيل بن عِيَاض : ثمانون سنة .

وقال وهب بن مُنَبِّه : أُلقي يوسف في الجُبّ وهو ابن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة .

وفي التوراة مائة وست وعشرون سنة .

وولد ليوسف من امرأة العزيز إفراثيم ومنشا ورحمة امرأة أيوب .

وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة .

وقيل : إن يعقوب بقي عند يوسف عشرين سنة ، ثم توفي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : أقام عنده ثماني عشرة سنة .

وقال بعض المحدّثين : بضعاً وأربعين سنة ؛ وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله .

وقال ابن إسحق : ثماني عشرة سنة ، والله أعلم .

الثانية : قال سعيد بن جُبير عن قَتَادة عن الحسن في قوله : "وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا" قال : لم يكن سجوداً ، لكنه سنة كانت فيهم ، يُومِئون برؤوسهم إيماء ، كذلك كانت تحيتهم .

وقال الثّوري والضحّاك وغيرهما : كان سجوداً كالسجود المعهود عندنا ، وهو كان تحيتهم .

وقيل : كان انحناء كالركوع ، ولم يكن خروراً على الأرض ، وهكذا كان سلامهم بالتَّكفّي والانحناء ، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا ، وجعل الكلام بدلاً عن الانحناء .

وأجمع المفسِّرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة ؛ قال قَتَادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

(254/402)

قلت : هذا الانحناء والتَّكفِّي الذي نُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية ، وعند العجم ، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض ؛ حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يُؤبه به ، وأنه لا قدر له ؛ وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراثة مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء .

نَكَبوا عن السُّنَنِ ، وأعرضوا عن السَّنَن .

" وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول ! أينحني بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال : "لا" ؛ قلنا : أفيعتَنِق بعضنا بعضاً ؟ قال "لا" .

قلنا : أفيصافح بعضنا بعضاً ؟ قال "نعم" " خرّجه أبو عمر في "التمهيد" فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قوموا إلى سيّد كم وخَيْرِكم " يعني سعد بن معاذ قلنا : ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعيّنة ؛ وقد قيل : إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار ؛ وأيضاً فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثِّر ذلك في نفسه ، فإن أثّر فيه وأعجب به ورأى لنفسه حظاً لم يجز عَوْنه على ذلك ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " من سره أن يتمثَّل له الناس قياماً فليتبوّأ مقعده من النار " وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهٌ أكرمَ عليهم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لما يعرفون من كراهته لذلك .

الثالثة : فإن قيل : فما تقول في الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك جائز إذا بَعد عنك ، لتعيّن له به وقت السلام ، فإن كان دانياً فلا ؛ وقد قيل بالمنع في القرب والبعد ؛ لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تَشبّه بغيرنا فليس منا " وقال : " لا تُسلّموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكُفّ والنّصارى بالإشارة " .

وإذا سَلَّم فإنه لا يَنحني ، ولا أن يُقبِّل مع السّلام يده ، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا ينبغي إلا لله .

(255/402)

وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أفعالهم التي أحد ثوها تعظيماً منهم لكبرائهم ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "لا تقوموا عند رأسي كما تقوم الأعاجم عند رؤوس أكاسرتها " فهذا مثله .

ولا بأس بالمصافحة ؛ فقد صافح النبي صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، وقال : " تصافحوا يذهب الغِلّ " وروى غالب التَّمَّار عن الشّعبيّ أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا إذا التقوا تَصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تَعانقوا ؛ فإن قيل : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة ، وذهب إلى هذا سُحْنون وغيره من أصحابنا ؛ وقد روي عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذي يدلّ عليه معنى ما في الموطأ ؛ وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف .

قال ابن العربي : إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمراً عاماً في الدِّين ، ولا منقولاً نقل

السلام؛ ولو كانت منه لاستوى معه.

قلت: قد جاء في المصافحة حديث يدلّ على الترغيب فيها، والدّأب عليها والمحافظة؛ وهو ما رواه "البَرَاء بن عازب قال: لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدي فقلت: يا رسول الله! أن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم؟ فقال: نحن أحق بالمصافحة منهم ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبهما بينهما".

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السجن ﴾ ولم يقل من الجُبّ استعمالا للكرم؛ لئلا يُذكّر إخوته صنيعهم بعد عفوه (عنهم) بقوله: "لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ".

قلت: وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية: ذِكْرُ الجَفَا في وقت الصَّفَا جَفَا؛ وهو قول صحيح دَلَّ عليه الكتاب.

(256/402)

وقيل: لأن في دخوله السجن كان باختياره بقوله: "رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ" وكان في الجبّ بإرادة الله تعالى له.

وقيل: لأنه كان في السجن مع اللصوص والعُصَاة، وفي الجبّ مع الله تعالى؛ وأيضاً فإن المِنّة

في النّجاة من السّجن كانت أكبر ، لأنه دخله بسبب أَمْرٍ هَمَّ به ؛ وأيضاً دخله باختياره إذ قال : "رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ" فكان الكَرْب فيه أكثر ؛ وقال فيه أيضاً : "اذكرني عِنْدَ رَبِّكَ" فعوقب فيه .

﴿ وَجَآءَ بِكُمْ مِّنَ البدو ﴾ يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواشٍ وبَرية ؛ وقيل : كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسَكَنها ، وأن الله لم يبعث نبياً من أهل البادية .

وقيل : إنه كان خرج إلى بَدَا ، وهو موضع ؛ وإياه عنى جَمِيل بقوله :

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شَغْباً إلى بَدَا . . .

إليّ وأوطاني بلادٌ سِواهُمَا

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل .

يقال : بَدَا القومُ بَدْواً إذا أَتَوا بَدَا ، كما يقال : غَاروا غَوْراً أي أَتَوا الْغَوْر ؛ والمعنى : وجاء بكم من مكان بَدَا ؛ ذكره القشيريّ ، وحكاه الماوَرْديّ عن الضحّاك عن ابن عباس .

﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشيطان بَيْنِي وَبَيْنَ إخوتي ﴾ بإيقاع الحسد ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : أفسد ما بيني وبين إخوتي ؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكرماً منه .

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ أي رفيق بعباده .

وقال الخَطَّابيّ : اللطيف هو البَرّ بعباده الذي يَلطُف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبّب لهم مصالحهم من حيث لا يَحتسبون ؛ كقوله : ﴿ اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [

الشورى : 19] .

وقيل : اللطيف العالم بدقائق الأمور ؛ والمراد هنا الإكرام والرفق .

قال قَتادة ، لطف بيوسف بإخراجه من السجن ، وجاءه بأهله من البدو ، ونزع عن قلبه نزغ الشيطان .

(257/402)

ويروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشَارَفَ أرض مصر وبلغ ذلك يوسف استأذن فرعون واسمه الريان أن يأذن له في تَلَقِّي أبيه يعقوب ، وأخبره بقدومه فأذن له ، وأمر الملا من أصحابه بالركوب معه ؛ فخرج يوسف والملك معه في أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خَلْقٌ الله أعلم بهم ؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب ، فكان يعقوب يمشي متكئاً على يد يهوذا ؛ فنظر يعقوب إلى الخيل والناس والعساكر فقال : يا يهوذا ! هذا فرعون مصر ؟ قال : لا ، بل هذا ابنك يوسف ؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمُنع من ذلك ، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل ؛ فابتدأ يعقوب بالسلام فقال : السلام عليك يا مُذْهِب الأحزان ، وبكى وبكى معه يوسف ؛ فبكى يعقوب فرحاً ، وبكى يوسف لِما رأى بأبيه من الحزن ؛ قال ابن عباس : فالبكاء أربعة ، بكاءٌ من الخوف ، وبكاءٌ

من الجزع ، وبكاء من الفرح ، وبكاءُ رياءٍ .

ثم قال يعقوب : الحمد لله الذي أقرّ عيني بعد الهموم والأحزان ، ودخل مصر في اثنين وثمانين من أهل بيته ؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف ؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام ؛ رواه عِكْرِمة عن ابن عباس .

وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنساناً ما بين رجل وامرأة ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة (ألف) وسبعون ألفاً .

وقال الربيع بن خَيْثَم : دخلوها وهم اثنان وسبعون ألفاً ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف .

وقال وهب : (بن منبه) دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنساناً ما بين رجل وامرأة وصغير ، وخرجوا منها مع موسى فِراراً من فرعون ، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً مقاتلين ، سوى الذرية والهَرْمى والزَّمْنى ؛ وكانت الذرّية ألف ألف ومائتي ألف سوى المقاتلة .

وقال أهل التواريخ : أقام يعقوب بمصر أربعاً وعشرين سنة في أغبط حال ونعمة ، ومات بمصر ، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق بالشام ففعل ، ثم انصرف إلى مصر .

قال سعيد بن جُبير : نقل يعقوب صلى الله عليه وسلم في تابوت من ساج إلى بيت المقدس ، ووافق ذلك يوم مات عِيصو ، فدفنا في قبر واحد ؛ فمن ثَمّ تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس ، مَنْ فَعَل ذلك منهم ؛ وولُد يعقوب وعِيصُو في بطن واحد ، ودفنا في قبر واحد وكان عمرهما جميعاً مائة وسبعاً وأربعين سنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(259/402)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه ﴾

يعني ضم إليه ﴿ أبويه ﴾ قال أكثر المفسرين : هو أبوه يعقوب وخالته ليا وكانت أمه قد ماتت في نفاس بنيامين وقال الحسن هما أبوه وأمه وكانت حية بعد ، وقيل : إن الله أحياها ونشرها من قبرها حتى تسجد ليوسف تحقيقاً لرؤياه والأول أصح ﴿ وقال ادخلوا مصر

﴾ قيل المراد بالدخول الأول في قوله فلما دخلوا على يوسف أرض مصر وذلك حين استقبلهم ثم قال ادخلوا مصر يعني البلد وقيل إنه أراد بالدخول الأأول دخولهم مصر وأراد بالدخول الثاني الاستطيان بها أي أدخلوا مصر مستوطنين فيهما ﴿ إن شاء الله آمنين ﴾ قيل إن هذا الاستثناء عائد إلى الأمن لا إلى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله وقيل إنه عائد إلى الدخول فعلى هذا يكون قد قال ذلك لهم قبل أن يدخلوا مصر ، وقيل : إن هذا الاستثناء يرجع إلى الاستغفار فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير تقديره سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله وقيل إن الناس كانوا يخافون من ملوك مصر فلا يدخلها أحد إلا بجوارهم فقال لهم يوسف ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأهليكم إن شاء الله فعلى هذا يكون قوله إن شاء الله للتبرك فهو كقوله (صلى الله عليه وسلم) " وإنا إن شاء الله بكم لاحقون " مع علمه أنه لاحق بهم ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ يعني على السرير الذي كان يجلس عليه يوسف والرفع النقل إلى لعلو ﴿ وخروا له سجداً ﴾ يعني يعقوب وخالته ليا وإخوته وكانت تحية الناس يومئذ السجود وهو الانحناء والتواضع ولم يرد به حقيقة السجود مع وضع الجبهة على الأرض على سبيل العبادة .

فإن قلت كيف استجاز يوسف عليه السلام أن يسجد له أبوه وهو أكبر منه وأعلى منصباً في النبوة والشيخوخة ؟ قلت : يحتمل أن الله تعالى أمر بذلك لتحقيق رؤياه ، ثم في معنى هذا السجود قولان : أحدهما أنه كان انحناء على سبيل التحية كما تقدم فلا إشكال فيه ، والقول الثاني أنه كان حقيقة السجود وهو وضع الجبهة على الأرض وهو مشكل لأن السجود على هذه الصورة لا ينبغي أن يكون إلا لله تعالى ، وأجيب عن هذا الإشكال بأن السجود كان في الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر له وإنما كان يوسف كالقبلة كما سجد الملائكة لآدم ويدل على صحة هذا التأويل قوله ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وظاهر هذا يدل على أنهم لما صعدوا على السرير خروا سجداً لله تعالى ولو كان ليوسف لكان قبل الصعود لأن ذلك أبلغ من التواضع .

فإن قلت يدفع صحة هذا التأويل قوله

﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ وقوله ﴿ خروا له سجداً ﴾ فإن الضمير يرجع إلى أقرب المذكورات وهو يوسف .

قلت : يحتمل أن يكون المعنى وخروا لله سجداً لأجل يوسف واجتماعهم به وقيل يحتمل أن الله أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية وهي أن إخوة يوسف ربما احتملتهم الأنفة والتكبر عن السجود ليوسف فلما رأوا أن أباهم قد سجد له سجدوا له أيضاً فتكون هذه السجدة على سبيل التحية والتواضع لا على سبيل العبادة وكان ذلك جائزاً في ذلك الزمان فلما جاء الإسلام نسخت هذه الفعلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ﴿ وقال ﴾ يعني وقال يوسف عند ما رأى ذلك ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ يعني هذا تصديق الرؤيا التي رأيت في حال الصغر ﴿ قد جعلها ربي حقاً ﴾ يعني في اليقظة واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها فقال سلمان الفارسي وعبد الله بن شداد أربعون سنة ، وقال أبو صالح عن ابن عباس : اثنتان وعشرون سنة ، وقال سعيد بن جبير وعكرمة والسدي : ست وثلاثون سنة ، وقال قتادة : خمس وثلاثون سنة ، وقال عبد الله بن سودون : سبعون سنة ، وقال الفضيل بن عياض : ثمانون سنة ، حكى هذه الأقوال كلها ابن الجوزي وزاد غيره عن الحسن : أن يوسف كان عمره حين ألقي في الجب سبع عشرة سنة وأقام في العبودية والسجن والملك مدة ثمانين سنة وأقام مع أبيه وإخوته وأقاربه مدة ثلاث وعشرين سنة وتوفاه الله وهو ابن مائة وعشرين سنة وقوله ﴿ وقد أحسن بي ﴾ يعني أنعم عليّ يقال أحسن بي وإليّ بمعنى واحد ﴿ إذ أخرجني من السجن ﴾ إنما ذكر إنعام الله عليه في إخراجه من السجن وإن كان الجب أصعب منه استعمالاً للأدب والكرم لئلا يخجل إخوته

بعد أن قال لهم لا تثريب عليكم اليوم ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن كانت أعظم من إخراجه من الجب وسبب ذلك أن خروجه من الجب كان سبباً لحصوله في العبودية والرق وخروجه من السجن كان سبباً لوصوله إلى الملك وقيل إن دخوله الجب كان لحسد إخوته ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من أعظم نعمه عليه ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ يعني من البادية وأصل البدو

(262/402)

والبسيط من الأرض يبدو الشخص فيه من بعد يعني يظهر والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾ يعني أفسد ما بيننا بسبب الحسد وأصل النزغ دخول في أمر لإفساده واستدل بهذه الآية من يرى بطلان الجبر من المبتدعة قالوا لأن يوسف أضاف الإحسان إلى الله وأضاف النزغ إلى الشيطان ولو كان من فعل الله لوجب أن ينسب إليه كما في الإحسان والنعم ، والجواب عن هذا الاستدلال أن إسناد الفعل إلى الشيطان وإضافته إليه على سبيل المجاز وإن كان ظاهر اللفظ يقتضي إضافة الفعل إلى الشيطان لا على الحقيقة لأن الفاعل المطلق المختار هو الله تعالى في الحقيقة

﴿ قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ فثبت بذلك أن الكل من عند الله وبقضائه وقدره ليس للشيطان فيه مدخل إلا بإلقاء الوسوة والتحريش لإفساد ذات البين وذلك بإقدار الله إياه على ذلك ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ يعني أنه تعالى ذو لطف عالم بدقائق الأمور وخفياتها .

قال صاحب المفردات : وقد يعب باللطف عما تدركه الحاسة ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه وأن يكون لمعرفه بدقائق الأمور وأن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم ، وقوله : إن ربي لطيف لما يشاء ، أي حسن الاستخراج تنبيهاً على ما أوصل إلى يوسف حين ألقاه إخوته في الجب .

وقيل إن اجتماع يوسف بأبيه وإخوته بعد طول الفرقة وحسد إخوته له وإزالة ذلك مع طيب الأنفس وشدة المحبة كان من لطف الله بهم حيث جعل ذلك كله لأن الله تعالى إذا أراد أمراً هيأ أسبابه ﴿ إنه هو العليم ﴾ يعني بمصالح عباده ﴿ الحكيم ﴾ في جميع أفعاله .

قال أصحاب الأخبار والتواريخ : إن يعقوب أقام عنه يوسف بمصر أربعاً وعشرين سنة في أهنأ عيش وأنعم بال وأحسن حال فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند قبر أبيه إسحاق في الأرض المقدسة بالشام فلما مات يعقوب عليه السلام بمصر فعل يوسف ما أمره به أبوه فحمل جسده في تابوت من ساج حتى قدم به الشام فوافق ذلك موت العيص أخي يعقوب وكانا قد ولدا في بطن واحد فدفنا في قبر واحد وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين سنة فلما دفن يوسف أباه وعمه رجع إلى مصر .

قالوا لما جمع الله شمل يوسف بأبيه وإخوته علم أن نعيم الدنيا زائل سريع الفناء لا يدوم فسأل الله حسن العاقبة والخاتمة الصالحة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(264/402)

وقال أبو حيان :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾

البدو البادية وهي خلاف الحاضرة .

﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين .

ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ : في الكلام حذف تقديره : فرحل يعقوب بأهله أجمعين، وساروا حتى تلقوا يوسف.

قيل : وجهز يوسف إلى أبيه جهازاً، ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه، وخرج يوسف قيل : والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقوا يعقوب عليه السلام وهو يمشي يتوكأ على يهوذ، فنظر إلى الخيل والناس فقال : يا يهوذا أهذا فرعون مصر؟ فقال : لا، هذا ولدك.

فلما لقيه يعقوب عليه السلام قال : السلام عليك يا مذهب الأحزان.

وقيل : إن يوسف قال له لما التقيا : يا أبت، بكيت عليّ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال : بلى، ولكن خشيت أن تسلب دينك، فيحال بيني وبينك.

آوي إليه أبويه أي : ضمهما إليه وعانقهما، والظاهر أنهما أبوه وأمه راحيل.

فقال الحسن وابن إسحاق : كانت أمه بالحياة.

وقيل : كانت ماتت من نفاس بنيامين، وأحياها له ليصدق رؤياه في قوله : ﴿ والشمس

والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ حكي هذا عن الحسن وابن إسحاق أيضاً .

وقيل : أبوه وخالته ، وكان يعقوب تزوجها بعد موت راحيل ، والخالة أم .

روي عن ابن عباس ، وكانت ربت يوسف ، والرابة تدعى أمّاً .

وقال بعضهم : أبوه وجدته أم أمه ، حكاه الزهراوي .

وفي مصحف عبد الله آوى إليه أبويه وإخوته .

وظاهر قوله : ادخلوا مصر ، إنه أمر بإنشاء دخول مصر .

قال السدي : قال لهم ذلك وهم في الطريق حين تلقاهم انتهى .

فيبقى قوله : فلما دخلوا على يوسف كأنه ضرب له مضرب ، أو بيت حالة التلقي في الطريق فدخلوا عليه فيه .

وقيل : دخلوا عليه في مصر .

ومعنى ادخلوا مصر أي : تمكنوا منها واستقروا فيها .

والظاهر تعلق الدخول على مشيئة الله لما أمرهم بالدخول ، علق ذلك على مشيئة الله لأن جميع الكائنات إنما تكون بمشيئة الله ، وما لا يشاء لا يكون .

وقال الزمخشري : التقدير ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، إن شاء الله دخلتم آمنين ، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام ، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال .

ومن بدع التفاسير أن قوله : إن شاء الله من باب التقديم والتأخير ، وأن موضعه بعد قوله : سوف أستغفر لكم ربي في كلام يعقوب انتهى .

وهذا البدع من التفسير مروي عن ابن جريج ، وهو في غاية البعد ، بل في غاية الامتناع .

والعرش سرير الملك .

ولما دخل يوسف مصر وجلس في مجلسه على سريره ، واجتمعوا إليه ، أكرم أبويه فرفعهما معه على السرير .

ويحتمل أن يكون الرفع والخرور قبل دخول مصر بعد قوله : ادخلوا مصر ، فكان يكون في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال أو الإبل ، فحين دخلوا إليه آوى إليه أبويه وقال : ادخلوا مصر ، ورفع أبويه .

وخروا له ، والضمير في وخروا عائد على أبويه وعلى إخوته .

وقيل : الضمير في وخروا عائد على إخوته وسائر من كان يدخل عليه لأجل هيبته ، ولم يدخل في الضمير أبواه ، بل رفعهما على سرير ملكة تعظيماً لهما .

وظاهر قوله : وخروا له سجداً أنه السجود المعهود ، وأن الضمير في له عائد على يوسف لمطابقة الرؤيا في قوله : ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً ﴾ الآية وكان السجود إذ ذاك

جائزاً من باب التكريم بالمصافحة ، وتقبيل اليد ، والقيام مما شهر بين الناس في باب التعظيم والتوقير .

(266/402)

وقال قتادة : كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

وقيل : هذا السجود كان إيماء بالرأس فقط .

وقيل : كان كالركوع البالغ دون وضع الجبهة على الأرض .

ولفظة وخروا تأبى هذين التفسرين .

قال الحسن : الضمير في له عائد على الله أي : خرُّوا لله سجداً شكراً على ما أوزعهم من هذه النعمة ، وقد تأول قوله : رأيتهم لي ساجدين ، على أن معناه رأيتهم لأجلي ساجدين .

وإذا كان الضمير ليوسف فقال المفسرون : كان السجود تحية لا عبادة .

وقال أبو عبد الله الداراني : لا يكون السجود إلا لله لا ليوسف ، ويبعد من عقله ودينه أن يرضي بأن يسجد له أبوه مع سابقته من صون أولاده ، والشيخوخة ، والعلم ، والدين ، وكمال النبوة .

وقيل : الضمير وإن عاد على يوسف فالسجود كان لله تعالى ، وجعلوا يوسف قبلة كما

تقول : صليت للكعبة ، وصليت إلى الكعبة ، وقال حسان :

ما كنت أعرف أن الدهر منصرف . . .

عن هاشم ثم عنها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبلتكم . . .

وأعرف الناس بالأشياء والسنن

وقيل : السجود هنا التواضع ، والخرور بمعنى المرور لا السقوط على الأرض لقوله : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ أي لم يمروا عليها .

وقال ثابت : هذا تأويل رؤياي من قبل أي : سجودكم هذا تأويل ، أي : عاقبة رؤياي أنّ تلك الكواكب والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين : ومن قبل متعلق برؤياي ، والمحذوف في من قبل تقديره : من قبل هذه الكوائن والحوادث التي جرت بعد رؤياي .

ومن تأول أنّ أبويه لم يسجدا له زعم أن تعبير الرؤيا لا يلزم أن يكون مطابقاً للرؤيا من كل الوجوه ، فسجود الكواكب والشمس والقمر يعبر بتعظيم الأكابر من الناس .

ولا شك أن ذهاب يعقوب عليه السلام مع ولده من كنعان إلى مصر لأجل يوسف نهاية في التعظيم له ، فكفى هذا القدر في صحة الرؤيا وعن ابن عباس : أنه لما رأى سجود أبويه وإخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه .

وقال ليعقوب : هذا تأويل رؤياي من قبل ، ثم ابتدأ يوسف عليه السلام بتعديد نعم الله عليه فقال : قد جعلها ربي حقاً أي : صادقة ، رأيت ما يقع في المنام يقظة ، لا باطل فيها ولا لغو.

وفي المدة التي كانت بين رؤياه وسجودهم خلاف متناقض .

قيل : ثمانون سنة ، وقيل : ثمانية عشر عاماً .

وقيل : غير ذلك من رتب العدد .

وكذا المدة التي أقام يعقوب فيها بمصر عند ابنه يوسف خلاف متناقض ، وأحسن أصله أن يتعدى بإلى قال : ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ وقد يتعدى بالباء قال تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ كما يقال أساء إليه ، وبه قال الشاعر :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة . . .

لدينا ولا مقلية إن تقلت

وقد يكون ضمن أحسن معنى لطف ، فعداه بالباء ، وذكر إخراجه من السجن وعدل عن إخراجه من الجب صفحاً عن ذكر ما تعلق بقول إخوته ، وتناسياً لما جرى منهم إذ قال : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ وتنبيهاً على طهارة نفسه ، وبراءتها مما نسب إليه من المراودة .

وعلى ما تنقل إليه من الرياسة في الدنيا بعد خروجه من السجن بخلاف ما تنقل إليه

بالخروج من الجب ، إلى أن بيع مع العبيد ، وجاء بكم من البدو من البادية .

وكان ينزل يعقوب عليه السلام بأطراف الشام ببادية فلسطين ، وكان رب إبل وغنم وبادية .

وقال الزمخشري : كانوا أهل عمد وأصحاب مواش يتنقلون في المياه والمناجع .

قيل : كان تحول إلى بادية وسكنها ، فإنّ الله لم يبعث نبياً من أهل البادية .

وقيل : كان خرج إلى بدا وهو موضع وإياه عني جميل بقوله :

وأنت التي جببت شعباً إلى بدا . . . .

إليّ وأوطاني بلاد سواهما

وليعقوب عليه السلام بهذا الموضع مسجد تحت جبل .

يقال : بداً القوم بدوا ، إذا أتوا بدا كما يقال : غاروا غوراً .

إذ أتوا الغور .

والمعنى : وجاء بكم من مكان بدا ، ذكره القشيري ، وحكاه الماوردي عن الضحاك ،

وعن ابن عباس .

وقابل يوسف عليه السلام نعمة إخراجه من السجن بمجيئهم من البدو ، والإشارة بذلك إلى الاجتماع بابيه وإخوته ، وزوال حزن أبيه .

ففي الحديث : " من يرد الله به خيراً ينقله من البادية إلى الحاضرة " من بعد أن نزغ أي أفسد ، وتقدم الكلام على نزع ، وأسند النزغ إلى الشيطان لأنه الموسوس كما قال : ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ وذكر هذا القدر من أمر إخوته ، لأنّ النعمة إذا جاءت إثر شدة وبلاء كانت أحسن موقعاً .

إن ربي لطيف ، أي : لطيف التدبير لما يشاء من الأمور ، رفيق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ ﴾

روي أنه وجّه يوسفُ إلى أبيه جهَازاً ومائتي راحلةٍ ليتجهز إليه بمن معه فاستقبله يوسفُ والملكُ في أربعة آلاف من الجند والعُظماء وأهلِ مصرَ بأجمعهم فتلقّوا يعقوبَ عليه الصلاة والسلام وهو يمشي متوكئاً على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال : يا يهوذا ، أهذا فرعونُ

مصرَ؟ قال: لا بل ولدُك، فلما لقِيه قال عليه الصلاة والسلام: السلامُ عليك يا مذهبَ الأحزان، وقيل: قال له يوسف: يا أبت بكَيتَ عليّ حتى ذهب بصرُك ألم تعلم أن القيامةَ تجمعنا؟ فقال: بلى، ولكني خشِيتُ أن يسلَبَ دينُك فيُحالَ بيني وبينك، وقيل إن يعقوبَ وولدَه دخلوا مصرَ وهم اثنان وسبعون ما بين رجلٍ وامرأةٍ وكانوا حين خرجوا مع موسى ستّمائةِ ألفٍ وخمسَمائةٍ وبضعةً وسبعين رجلاً سوى الذرية والهرمى وكانت الذريةُ ألفَ ألفٍ ومائتي ألف.

﴿ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أي أباه وخالتَه وتنزيلُها منزلةَ الأمِّ كتنزيل العمِّ منزلةَ الأب في قوله عز وجل: ﴿ وإله آبَائِكَ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ أو لأن يعقوبَ عليه الصلاة والسلام تزوّجها بعد أمّه، وقال الحسن وابنُ إسحاق: كانت أمُّه في الحياة فلا حاجة إلى التأويل، ومعنى آوى إليه ضمّهما إليه واعتنقهما وكأنه عليه الصلاة والسلام ضَرب في الملتقى مضرباً فنزل فيه فدخلوا عليه فآواهما إليه ﴿ وَقَالَ ادخلوا مِصْرَ إِن شَاء الله ءامِنِينَ ﴾ من الشدائد والمكاره قاطبةً والمشيئةُ متعلقةٌ بالدخول على الأمن.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ ﴾

عند نزولهم بمصر ﴿ عَلَى العرش ﴾ على السرير تكرمةً لهما فوق ما فعله لإخوته ﴿ وَخَرُّوا لَهُ ﴾ أي أبواه وإخوته ﴿ سُجَّدًا ﴾ تحية له فإنه كان السجودُ عندهم جاريًا مجرى التحيةِ والتكرمةِ كالقيام والمصافحةِ وتقبيلِ اليد ونحوِها من عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير، وقيل: ما كان ذلك إلا انحناءً دون تعفيرِ الجباه، ويأباه الخرورُ، وقيل: خروا لأجله سجداً لله شكراً ويرده قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رؤيايَ ﴾ التي رأيتها وقصصتها عليك ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ في زمن الصِّبا ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبّى حَقّا ﴾ صدقاً واقعاً بعينه، والاعتذارُ بجعل يوسفَ بمنزله القِبلة وجعلِ اللام كما في قوله:

(271/402)

أَلَيْسَ أَوَّلَ مَنْ صلى لقبلتكم . . . تعسفٌ لا يخفى، وتأخيرُه عن الرفع على العرش ليس بنص في ذلك لأن الترتيبَ الذكريَّ لا يجب كونُه على وفق الترتيب الوقوعيِّ فلعل تأخيرَه عنه ليصل به ذكرُ كونِه تعبيراً لرؤياه وما يتصل به من قوله: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بَى ﴾ المشهورُ استعمالُ الإحسان بإلى، وقد يستعمل بالباء أيضاً كما في قوله عز اسمُه: ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ وقيل: هذا بتضمين لَطَف وهو الإحسانُ الخفيُّ كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبّى لَطِيفٌ لّمَا يَشَاء ﴾ وفيه فائدة لا تخفى أي لطَف بي محسناً إليَّ غيرَ هذا الإحسان

﴿ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السجن ﴾ بعدما ابتُليت به ولم يصرِّح بقصة الجُبّ حِذاراً من تثريب إخوتِه لأن الظاهرَ حضورُهم لوقوع الكلام عَقيب خرورهم سجّداً واكتفاءً بما يتضمنه قوله تعالى : ﴿ وَجَاء بِكُمْ مّنَ البدو ﴾ أي البادية ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشيطان بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى ﴾ أي أفسد بيننا بالإغواء وأصلُه من نخْس الرائضِ الدابةَ وحملِها على الجري ، يقال : نزَغه ونسَغه إذا نخسَه ولقد بالغ عليه الصلاة والسلام في الإحسان حيث أسند ذلك إلى الشيطان ﴿ إِنَّ رَبّى لَطِيفٌ لّمَا يَشَاء ﴾ أي لطيفُ التدبير لأجله رفيقٌ حتى يجيء على وجه الحِكمة والصواب ، ما من صعبٍ إلا وهو بالنسبة إلى تدبيره سهلٌ ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم ﴾ بوجود المصالح ﴿ الحكيم ﴾ الذي يفعل كلّ شيء على قضية الحكمة . روي أن يوسف أخذ بيد يعقوبَ عليهما الصلاة والسلام فطاف به في خزائنه فأدخله في خزائن الورِقِ والذهب وخزائن الحِليّ وخزائنِ الثياب وخزائنِ السلاح وغيرِ ذلك ، فلما أدخله خزائنَ القراطيس قال : يا بني ما أعقّك ، عندك هذه القراطيسُ وما كتبت إلي على ثماني مراحلَ ؟ قال : أمرني جبريلُ ، قال : أو ما تسأله ، قال : أنا أبسطُ إليه مني فسأله قال جبريلُ : الله تعالى أمرني بذلك لقولك : أخاف أن يأكله الذئب ،

قال : فهلا خِفْتني . ورُوي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفِنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق فمضى بنفسه ودفنه ثمَةَ ثم عاد إلى مصرَ وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة فلما تم أمرُه وعلِم أنه لا يدوم له تاقت نفسُه إلى المُلك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(273/402)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ ﴾

روي أنه عليه السلام جهز إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه ، وفي التوراة أنه عليه السلام أعطى لكل من إخوته خلعة وأعطى بنيامين ثلثمائة درهم وخمس خلع وبعث لأبيه بعشرة حمير موقرة بالتحف وبعشرة أخرى موقرة براً وطعاماً .

وجاء في بعض الأخبار أنه عليه السلام خرج هو والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء

وأهل مصر بأجمعهم لاستقباله فتلقوه عليه السلام وهو يمشي يتوكأ على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال : يا يهوذا أهذا فرعون مصر قال : لا يا أبت ولكن هذا ابنك يوسف قيل له : إنك قادم فتلقاك بما ترى ، فلما لقيه ذهب يوسف عليه السلام ليبدأه بالسلام فمنع ذلك ليعلم أن يعقوب أكرم على الله تعالى منه فاعتنقه وقبله وقال : السلام عليك أيها الذاهب بالأحزان عنى ، وجاء أنه عليه السلام قال لأبيه : يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ قال : بلى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك . وفي الكلام إيجاز والتقدير فرحل يعقوب عليه السلام بأهله وساروا حتى أتوا يوسف فلما دخلوا عليه وكان ذلك فيما قيل يوم عاشوراء ﴿ ءاوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أي ضمهما إليه واعتنقهما ، والمراد بهما أبوه وخالته ليا ، وقيل : راحيل وليس بذاك ، والخالة تنزل منزلة الأم لشفقتها كما ينزل العم منزلة الأب ، ومن ذلك قوله : ﴿ وإله آبَائِكَ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ [البقرة : 133] وقيل : إنه لما تزوجها بعد أمه صارت رابة ليوسف عليه السلام فنزلت منزلة الأم لكونها مثلها في زوجية الأب وقيامها مقامها والرابة تدعى أماً وإن لم تكن خالة ، وروى هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وقال بعضهم : المراد أبوه وجدته أم أمه حكاه الزهراوي ، وقال الحسن .

وابن إسحاق : إن أمه عليه السلام كانت بالحياة فلا حاجة إلى التأويل لكن المشهور أنها ماتت في نفاس بنيامين ، وعن الحسن .

وابن إسحاق القول بذلك أيضاً إلا أنهما قالا : إن الله تعالى أحياها له ليصدق رؤياه ، والظاهر أنه لم يثبت ولو ثبت مثله لاشتهر ، وفي مصحف عبد الله ﴿ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ ﴿ وَقَالَ ادخلوا مِصْرَ ﴾ وكأنه عليه السلام ضرب في الملتقى خارج البلد مضرباً فنزل فيه فدخلوا عليه فيه فآواهما إليه ثم طلب منهم الدخول في البلدة فهناك دخولان : أحدهما : دخول عليه خارج البلدة ، والثاني : دخول في البلدة ، وقيل : إنهم إنما دخلوا عليه عليه السلام في مصر وأراد بقوله : ﴿ ادخلوا مِصْرَ ﴾ تمكنوا منها واستقروا فيها ﴿ إِن شَاء الله ءامِنِينَ ﴾ أي من القحط وسائر المكاره ، والاستثناء على ما في التيسير داخل في الأمن لا في الأمر بالدخول لأنه إنما يدخل في الوعد لا في الأمر .

وفي "الكشاف" أن المشيئة تعلقت بالدخول المكيف بالأمن لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم فكأنه قيل : أسلموا وآمنوا في دخولكم إن شاء الله والتقدير ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين فحذف الجزاء لدلالة الكلام ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال اه ، وكأنه أشار بقوله : فكأنه قيل الخ إلى أن في التركيب معنى الدعاء وإلى ذلك ذهب العلامة الطيبي ، وقال في "الكشف" : إن فيه إشارة إلى أن الكيفية مقصودة بالأمر

كما إذا قلت : ادخل ساجداً كنت آمراً بهما وليس في إشارة إلى أن في التركيب معنى الدعاء فليس المعنى على ذلك ، والحق مع العلامة كما لا يخفى ، وزعم صاحب الفرائد أن التقدير ادخلوا مصر إن شاء الله دخلتم آمنين ، فآمنين متعلق بالجزاء المحذوف لا يفتقر إلى التقديم والتأخير وإلى أن يجعل الجزائية معترضة ، وتعقب بأنه لا ارتياب أن هذا الاستثناء في أثناء الكلام كالتسمية في الشروع فيه للتيمن والتبرك واستعماله مع الجزاء كالشريعة المنسوخة فحسن موقعه في الكلام أن يكون معترضاً فافهم .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ ﴾

عند نزولهم بمصر ﴿ عَلَى العرش ﴾ على السرير كما قال ابن عباس .

ومجاهد .

وغيرهما تكرمة لهما فوق ما فعله بالإخوة ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ ﴾ أي أبواه وإخوته ، وقيل : الضمير للإخوة فقط وليس بذاك فإن الرؤيا تقتضي أن يكون الأبوان والإخوة خروا له ﴿ سُجَّدًا ﴾ أي على الجباه كما هو الظاهر ، وهو كما قال أبو البقاء حال مقدرة لأن السجود يكون بعد الخرور وكان ذلك جائزاً عندهم وهو جار مجرى التحية والتكرمة

كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير ، قال قتادة : كان السجود تحية الملوك عندهم وأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة كرامة منه تعالى عجلها لهم ، وقيل : ما كان ذلك إلا إيماء بالرأس ، وقيل : كان كالركوع البالغ دون وضع الجبهة على الأرض ، وقيل : المراد به التواضع ويراد بالخرور المرور كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ [الفرقان : 73] فقد قيل : المراد لم يمروا عليها كذلك ، وأنت تعلم أن اللفظ ظاهر في السقوط ، وقيل : ونسب لابن عباس أن المعنى خروا لأجل يوسف سجداً لله شكراً على ما أورعهم من النعمة ، وتعقب بأنه يرده قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ ﴾ إذ فيها ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] ، ودفع بأن القائل به يجعل اللام للتعليل فيهما ، وقيل : اللام فيهما بمعنى إلى كما في صلى للكعبة ؛ قال حسان :

ما كنت أعرف أن الدهر منصر . . .

عن هاشم ثم منها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبلتكم . . .

وأعرف الناس بالأشياء والسنن

وذكر الإمام أن القول بأن السجود كان لله تعالى لا ليوسف عليه السلام حسن ، والدليل عليه أن قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ مشعر بأنهم صعدوا ثم سجدوا ولو كان السجود ليوسف عليه السلام كان قبل السعود والجلوس لأنه أدخل في التواضع بخلاف سجود الشكر لله تعالى ، ومخالفة ظاهر الترتيب ظاهر المخالفة للظاهر ، ودفع ما يرد عليه مما علمت بما علمت ، ثم قال : وهو متعين عندي لأنه يبعد من عقل يوسف عليه السلام ودينه أن يضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته في حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة ، وأجيب بأن تأخير الخرور عن الرفع ليس بنص في المقصود لأن الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعي فلعل تأخيره عنه ليتصل به ذكر كونه تعبيراً لرؤياه وما يتصل به ، وبأنه يحتمل أن يكون الله تعالى قد أمر يعقوب بذلك لحكمة لا يعلمها إلا هو وكان يوسف عليه السلام عالماً بالأمر فلم يسعه إلا السكوت والتسليم ، وكأن في قوله : ﴿ يا أبت ﴾ الخ إشارة إلى ذلك كأنه يقول : يا أبت لا يليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا أمر أمرت به وتكليف كلفت به فإن رؤيا الأنبياء حق كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده صار سبباً لوجوب الذبح في اليقظة .

ولذا جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه عليه السلام لما رأى سجود أبويه

وإخوته له هاله ذلك واقشعر جلده منه ، ولا يبعد أن يكون ذلك من تمام تشديد الله تعالى على يعقوب عليه السلام كأنه قيل .

له : أنت كنت دائم الرغبة في وصاله والحزن على فراقه فإذا وجدته فاسجد له .

ويحتمل أيضاً أنه عليه السلام إنما فعله مع عظم قدره لتتبعه الإخوة فهي لأن الأنفة ربما حملتهم على الأنفة منه فيجر إلى ثوران الأحقاد القديمة وعدم عفو يوسف عليه السلام .

(277/402)

ولا يخفى أن الجواب عن الأول لا يفيد لما علمت أن مبناه موافقة الظاهر ، والاحتمالات المذكورة في الجواب عن الثاني قد ذكرها أيضاً الإمام وهي كما ترى ، وأحسنها احتمال أن الله تعالى قد أمره بذلك لحكمة يعلمها إلا هو .

(278/402)

ومن الناس من ذهب إلى أن ذلك السجود لم يكن إلا من الأخوة فراراً من نسبته إلى يعقوب عليه السلام لما علمت ، وقد رد بما أشرنا إليه أولاً من أن الرؤيا تستدعي العموم ، وقد

أجاب عن ذلك الإمام بأن تعبير الرؤيا لا يجب أن يكون مطابقاً للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كل الوجوه فسجود الكواكب والشمس والقمر يعبر بتعظيم الأكابر من الناس له عليه السلام ، ولا شك أن ذهاب يعقوب وأولاده من كنعان إلى مصر لأجله في نهاية التعظيم له فكفى هذا القدر في صحة الرؤيا فأما أن يكون التعبير كالأصل حذو القذة بالقذة فلم يوجبه أحد من العقلاء اه ، والحق أن السجود بأي معنى كان وقع من الأبوين والإخوة جميعاً والقلب يميل إلى أنه كان انحناء كتحية الأعاجم وكثير من الناس اليوم ولا يبعد أن يكون ذلك بالخرور ولا بأس في أن يكون من الأبوين وهما على سرير ملكه ولا يأبى ذلك رؤياه عليه السلام ﴿ على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل سجودكم هذا أو من قبل هذه الحوادث والظرف متعلق برؤياي وجوز تعلقها بتأويل لأنها أولت بهذا قبل وقوعها ، وجوز أبو البقاء كونه متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من ﴿ رؤياى ﴾ وصحة وقوع الغايات حالاً تقدم الكلام فيها ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبّى حَقّا ﴾ أي صدقاً ، والرؤيا توصف بذلك ولو مجازاً ، وأعربه جمع على أنه مفعول ثان لجعل وهي بمعنى صير ، وجوز أن يكون حالاً أي وضعها صحيحة وأن يكون صفة مصدر محذوف أي جعلا حقاً وأن يكون مصدراً من غير لفظ الفعل بل من معناه لأن جعلها في معنى حققها و ﴿ حَقّاً ﴾ في معنى تحقيق ، والجملة على ما قال أبو البقاء حال مقدرة أو مقارنة ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بَى ﴾ الأصل كما في "البحر" أن يتعدى الإحسان بإلى أو اللام كقوله تعالى :

﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : 77] بالباء كقوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ [البقرة : 83] وكقول كثير عزة

اسيئي بنا أو أحسني لا ملومة . . .

لدينا ولا مقلية إن تقلت

وحمله بعضهم على تضمين ﴿ أَحْسَنُ ﴾ معنى لطف ولا يخفى ما فيه من اللطف إلا أن بعضهم أنكر تعدية لطف بالباء وزعم أنه لا يتعدى إلا باللام فيقال : لطف الله تعالى له أي أوصل إليه مراده بلطف وهذا ما في القاموس لكن المعروف في الاستعمال تعديه بالباء وبه صرح في الأساس وعليه المعول ، وقيل : الباء بمعنى إلى ، وقيل : المفعول محذوف أي أحسن صنمعه بي فالباء متعلقة بالمفعول المحذوف ، وفيه حذف المصدر وإبقاء معموله وهو ممنوع عند البصريي ، وقوله : ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السجن ﴾ منصوب بأحسن أو بالمصدر المحذوف عند من يرى جواز ذلك وإذا كانت تعليلية فالإحسان هو الإخراج من السجن بعد أن ابتلى به وما عطف عليه وإذا كانت ظرفية فهو غيرهما ، ولم يصرح عليه السلام بقصة الجب حذراً من تثريب إخوته وتناسياً لما جرى منهم لأن الظاهر حضورهم

لوقوع الكلام عقيب خرورهم سجداً ولأن الإحسان إنما تم بعد خروجه من السجن لوصوله للملك وخلوصه من الرق والتهمة واكتفاء بما يتضمنه قوله : ﴿ وَجَاء بِكُمْ مِّنَ البدو ﴾ أي البادية ، وأصله البسيط من الأرض وإنما سمي بذلك لأن ما فيه يبدو للناظر لعدم ما يواريه ثم أطلق على البرية مطلقاً ، وكان منزلهم على ما قيل : بأطراف الشام ببادية فلسطين وكانوا أصحاب إبل وغنم ، وقال الزمخشري : كانوا أهل عمد وأصحاب مواض ينتقلون في المياه والمناجع .

وزعم بعضهم أن يعقوب عليه السلام إنما تحول إلى البادية بعد النبوة لأن الله تعالى لم يبعث نبياً من البادية .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : كان يعقوب عليه السلام قد تحول إلى بدا وسكنها ومنها قدم على يوسف وله بها مسجد تحد جبلها : قال ابن الأنباري : إن بدا اسم موضع معروف يقال : هو بين شعب وبدا وهما موضعان ذكرهما جميل بقوله :

وأنت الذي حببت شعباً إلى بدا . . .

إلي وأوطاني بلاد سواهما

فالبدو على هذا قصد هذا الموضع يقال : بدا القوم بدوا إذا أتوا بدا كما يقال : أغاروا غوراً إذا أتوا الغور ، فالمعنى أتى بكم من قصد بدا فهم حينئذ حضريون كذا قاله الواحدي في البسيط وذكره القشيري وهو خلاف الظاهر جداً ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشيطان بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى ﴾ أي أفسد وحرش ، وأصله منه نزغ الرابض الدابة إذا نسخها وحملها على الجري وأسند ذلك إلى الشيطان مجازاً لأنه بوسوسته وإلقائه ، وفيه تفاد عن تقريبهم أيضاً تعظيماً لأمر الإحسان لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعاً .

واستدل الجبائي والكعبي .

والقاضي بالآية على بطلان الجبر وفيه نظر ﴿ إِنَّ رَبّى لَطِيفٌ لّمَا يَشَاء ﴾ أي لطيف التدبير له إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته تعالى ويتسهل دونها كذا قاله غير واحد ، وحاصله أن اللطيف هنا بمعنى العالم بخفايا الأمور المدبر لها والمسهل لصعابها ، ولنفوذ مشيئته سبحانه فإذا أراد شيئاً سهل أسبابه أطلق عليه جل شأنه اللطيف لأن ما يلطف يسهل نفوذه ، وإلى هذا يشير كلام الراغب حيث قال : اللطيف ضد الكثيف ويعبر باللطيف عن الحركة الخفيفة وتعاطي الأمور الدقيقة فوصف الله تعالى به لعلمه بدقائق الأمور ورفقه بالعباد ، فاللام متعلقة بلطيف لأن المراد مدبر لما يشاء على ما قاله غير واحد ، وقال بعضهم إن المعنى لأجل ما يشاء ، وهو على الأول متعد باللام وعلى الثاني

غير متعد بها وقد تقدم آنفاً ما في ذلك ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم ﴾ بوجوه المصالح ﴿ الحكيم ﴾ الذي يفعل كل شيء على وجه الحكمة لا غيره.

روى أن يوسف طاف بأبيه عليهما السلام في خزائنه فلما أدخله خزينة القرطاس قال : يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى علي ثمان مراحل قال : أمرني جبريل قال : أو ما تسأله؟ قال : أنت أبسط مني إليه فسأله قال : جبريل عليه السلام الله تعالى أمرني بذلك لقولك : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب ﴾ [يوسف : 13] قال : فهلا خفتني وهذا عذر واضح ليوسف عليه السلام في عدم إعلام أبيه بسلامته.

وقد صرح غير واحد بأنه عليه السلام أوحى إليه بإخفاء الأمر على أبيه إلى أن يبلغ الكتاب أجله، لكن يبقى السؤال بأن يعقوب عليه السلام كان من أكابر الأنبياء نفساً وأباً وجداً وكان مشهوراً في أكناف الأرض ومن كان كذلك ثم وقعت له واقعة هائلة في أعز أولاده عليه لم تبق تلك الواقعة خفية بل لا بد وأن تبلغ في الشهرة إلى حيث يعرفها كل أحد لا سيما وقد انقضت المدة الطويلة فيها وهو في ذلك الحزن الذي تضرب فيه الأمثال ويوسف عليه السلام ليس بمكان بعيد عن مكانه ولا متوطناً زوايا الخفاء ولا خامل الذكر بل كان

مرجع العام والخاص وداعياً إلى الله تعالى في السر والعلن وأوقات السرور والمحن فكيف غم أمره ولم يصل إلى أبيه خبره ؟ .

وأجيب عن ذلك بأنه ليس إلا من باب خرق العادة ، واختلفوا في مقدار المدة بين الرؤيا وظهور تأويلها فقيل : ثماني عشرة سنة ، وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الحسن أن المدة ثمانون سنة ، وأخرج ابن جرير عن ابن جريج أنها سبع وتسعون سنة ، وعن حذيفة أنها سبعون سنة ، وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أنها خمس وثلاثون سنة ، وأخرج جماعة عن سلمان الفارسي أنها أربعون سنة وهو قول الأكثرين ، قال ابن شداد : وإلى ذلك ينتهي تأويل الرؤيا والله تعالى أعلم بحقائق الأمور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(282/402)

وقال القاسمى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾

إشارة إلى ورود يعقوب وآله على يوسف . وذلك أنهم تخلوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان ، وأركبوا أطفالهم ونساءهم على العجل التي بعث بها فرعون ، وصحبوا ماشيتهم

وسرحهم ، وهبطوا أرض مصر - وروي أنهم كانوا سبعين نفساً - وتقدمهم يهوذا إلى يوسف ليدله على أرض (جاسان) فينزلونها . ثم خرج يوسف في مركبته ، فتلقى أباه في (جاسان) ولما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلاً . والمراد بدخولهم على يوسف وصولهم لملتقاه خارج البلد ، وبإيواء أبويه ضمهما إليه ، واعتناقهما واصطحابه لهما في مركبه . قالوا : عنى بأبويه والده وخالته ؛ لأن أمه راحيل توفيت وهي نفساء بأخيه بنيامين ، وتنزيل الخالة منزلة الأم ؛ لكونها مثلها في زوجة الأب ، وقيامها مقامها وتوقيرها ، كتنزيل العم منزلة الأب في قوله : ﴿ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [البقرة : من الآية 133] .

﴿ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ ﴾ أي : من القحط وأصناف المكاره .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾

أي : أجلسهما معه على سرير ملكه تكريماً لهما : ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً ﴾ أي : سجد له أبوه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر ، تحية وتكرمة له . وكان السجود عندهم للكبير يجري مجرى التحية عندنا .

﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا ﴾ أي : السجود : ﴿ تَأْوِيلُ ﴾ أي : تعبير : ﴿ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : التي رأيتها أيام الصبا ، وهي سجود أحد عشر كوكباً والشمس والقمر : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً ﴾ أي : صدقاً مطابقاً للواقع في الحسّ : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ أي : نجاني من العبودية ، وجعل الملك مطيعاً لي مفوضاً إليّ خزائن الأرض . وفي الاقتصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه ، وفخامة شأنه من التواضع ، وتذكر ما سلف من الضراء ، استدامة للشكر ، ما فيه من أدب النفس الباهر .

وفيه إشارة إلى النعمة في الانطلاق من الحبس ؛ لأنه كما قال عبد الملك بن العزيز ، لما كان في حبس الرشيد :

~ومحلة شمل المكاره أهلها وتقلدوا مشنوءة الأسماء

~دار يُهاب بها اللئام وتُتقى وتقل فيها هيبة الكرماء

~ويقول علج ما أراد ولا ترى حراً يقول برقة وحياء

~ويرق عن مس الملاحة وجهه فيصونه بالصمت والإغضاء

وقال شاعر من المسجونين :

~خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى

~إذا جاءنا السجان يوماً لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

ويؤثر عن يوسف عليه السلام أنه كتب على باب السجن : هذه منازل البلاء ، وتجربة

الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، وقبور الأحياء .

هذا وقد حاول كثير من الأدباء مدح السجن بسحر بيانهم ، فقال علي بن الجهم :

~قالوا حبست فقلت ليس بضائري حبسي وأي مهند لا يغمد ؟

~أو ما رأيت الليث يألف غابه كبراً وأوباش السباع تردد

~والبدر يدركه المحاق فتنجلي أيامه وكأنه متجدد

~ولكل حال معقب ولربما أجلى لك المكروه عما تحمد

~والسجن ما لم تغشه لدنية شنعاء نعم المنزل المتورد

~بيت يجدد للكريم كرامة فيزار فيه ولا يزور ويحفد

وأحسن ما قيل في تسلية المسجونين قول البحتري :

~أما في رسول الله يوسف أسوة لمثلك محبوساً على الجور والإفك

~أقام جميل الصبر في السجن برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك

نقله الثعالبي في " اللطائف واليواقيت " .

﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ أي : البادية ، وقد كانوا أصحاب مواش : ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ

﴿ أي : أفسد : ﴿ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ أي : بالحسد . وأسنده إلى الشيطان ، لأنه بوسوسته وإلقائه . وفيه تفادٍ عن تثريبهم أيضاً . وإنما ذكره لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعاً .

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ أي : لطيف التدبير له ، والرفق به ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بوجوه المصالح : ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في أفعاله وأقضيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 225 . 227 ﴾

(285/402)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾

طوى ذكر سفرهم من بلادهم إلى دخولهم على يوسف عليه السلام إذ ليس فيه من العبر شيء .

وأبواه أحدهما يعقوب عليه السلام وأما الآخر فالصحيح أن أم يوسف عليه السلام وهي (راحيل) توفيت قبل ذلك حين ولدت بنيامين ، ولذلك قال جمهور المفسّرين : أطلق الأبوان على الأب زوج الأب وهي (ليئة) خالة يوسف عليه السلام وهي التي تولت تربيته على

طريقة التغليب والتنزيل .

وإعادة اسم يوسف عليه السلام لأجل بعد المعاد .

وقوله : ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ جملة دعائية بقرينة قوله : ﴿ إن شاء الله ﴾ لكونهم قد دخلوا مصر حينئذٍ .

فالأمر في ﴿ ادخلوا ﴾ للدعاء كالذي في قوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ﴾ [الأعراف : 49] .

والمقصود : تقييد الدخول بآمنين ﴾ وهو مناط الدعاء .

والأمنُ : حالة اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه ، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق ونحو ذلك .

ولذلك قالوا في دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿ ربّ اجعل هذا البلد آمناً ﴾ إنه جمع في هذه الجملة جميع ما يطلب لخير البلد .

وجملة ﴿ إن شاء الله ﴾ تأدب مع الله كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر وهو لمجرد التيمّن ، فوقوعه في الوعد والعزم والدعاءِ بمنزلة وقوع التسمية في أول الكلام وليس هو من الاستثناء الوارد النهي عنه في الحديث : أن لا يقول اغفر لي إن شئت ، فإنه لا مُكره له لأن ذلك في الدعاء المخاطب به الله صراحة .

وجملة ﴿ إن شاء الله ﴾ معترضة بين جملة ﴿ ادخلوا ﴾ والحال من ضميرها .

والعرش : سرير للقعود فيكون مرتفعاً على سوق ، وفيه سعة تمكن الجالس من الاتّكاء .

والسجود : وضع الجبهة على الأرض تعظيماً للذات أو لصورتها أو لذِكرها ، قال الأعشى :

فلما أتانا بُعيد الكرَى

سَجدنا له ورفَعْنا العَمَار . . .

(286/402)

وفعله قاصر فيعدى إلى مفعوله باللام كما في الآية .

والخرور : الهوي والسقوط من علو إلى الأرض .

والذين خروا سُجداً هم أبواه وإخوته كما يدل له قوله : ﴿ هذا تأويل رؤياي ﴾ وهم أحد عشر وهم : رأوبين ، وشمعون ، ولاوي ، ويهوذا ، ويساكر ، وربولون ، وجاد ، وأشير ، ودان ، ونفتالي ، وبنيامين .

و﴿ الشمس ﴾ ، و ﴿ القمر ﴾ ، تعبيرهما أبواه يعقوب عليه السلام وراحيل .

وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم ، ولم يكن يومئذٍ ممنوعاً في الشرائع وإنما منعه الإسلام لغير الله تحقيقاً لمعنى مساواة الناس في العبودية والمخلوقية .

ولذلك فلا يعدّ قبوله السجودَ من أبيه عقوقاً لأنه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم .

والأحسن أن تكون جملة ﴿ وخروا ﴾ حالية لأن التحية كانت قبل أن يرفع أبويه على العرش ، على أن الواو لا تفيد ترتيباً .

و﴿ سجدا ﴾ حال مبيّنة لأن الخرور يقع بكيفيات كثيرة .

والإشارة في قوله : ﴿ هذا تأويل رؤياي ﴾ إشارة إلى سجود أبويه وإخوته له هو مصداق رؤياه الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً سُجداً له .

وتأويل الرؤيا تقدم عند قوله : ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ [سورة يوسف : 36] .

ومعنى قد جعلها ربي حقا ﴾ أنها كانت من الأخبار الرمزية التي يكاشِف بها العقل الحوادث المغيبة عن الحس ، أي ولم يجعلها باطلاً من أضعاث الأحلام الناشئة عن غلبة الأخلاط الغذائية أو الانحرافات الدماغية .

ومعنى ﴿ أحسن بي ﴾ أحسن إليّ .

يقال : أحسن به وأحسن إليه ، من غير تضمين معنى فعل آخر .

وقيل : هو بتضمين أحسن معنى لطف .

وباء ﴿ بي ﴾ للملابسة أي جعل إحسانه ملابساً لي ، وخصّ من إحسان الله إليه دون مطلق الحضور للامتيار أو الزيادة إحسانين هما يوم أخرجه من السجن ومجيء عشيرته من البادية .

فإن ﴿ إذْ ﴾ ظرف زمان لفعل ﴿ أحسن ﴾ فهي بإضافتها إلى ذلك الفعل اقتضت وقوع إحسان غير معدود ، فإن ذلك الوقت كان زمنَ ثبوت براءته من الإثم الذي رمته به امرأة العزيز وتلك منة ، وزمنَ خلاصه من السجن فإن السجن عذاب النفس بالانفصال عن الأصدقاء والأحبّة ، وبخلطة من لا يشاكلونه ، وبشُغله عن خلوة نفسه بتلقي الآداب الإلهية ، وكان أيضاً زمن إقبال الملك عليه .

وأما مجيء أهله فزوال ألم نفساني بوحشته في الانفراد عن قرابته وشوقه إلى لقائهم ، فأفصح بذكر خروجه من السجن ، ومجيء أهله من البدوِ إلى حيث هو مكين قويّ .

وأشار إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجبّ ، ومشاهدة مكر إخوته به بقوله : ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾ ، فكلمة ﴿ بعد ﴾ اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره .

وقد ألم به إجمالاً اقتصاراً على شكر النعمة وإعراضاً عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين إخوته فمرّ بها مرّ الكرام وباعدها عنهم بقدر الإمكان إذ ناطها بنزغ الشيطان .

والمجيء في قوله : ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ نعمة ، فأسنده إلى الله تعالى وهو مجيئهم بقصد الاستيطان حيث هو .

والبَدْو : ضد الحضر ، سمي بَدواً لأن سكانه بادُون ، أي ظَاهرون لكل واردٍ ، إذ لا تحجبهم جدران ولا تغلق عليهم أبواب .

وذكر ﴿ من البدو ﴾ إظهار لتمام النعمة ، لأن انتقال أهل البادية إلى المدينة ارتقاء في الحضارة .

والنزغ : مجاز في إدخال الفساد في النفس .

شُبه بنزغ الراكب الدابّة وهو نخسها .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ ﴾ في سورة الأعراف (200) .

وجملة إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً لقصد الاهتمام بها وتعليم مضمونها .

واللطف : تدبير الملائم .

وهو يتعدّى باللام على تقدير لطيف لأجل ما يشاء اللطف به ، ويتعدى بالباء قال تعالى : ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ [الشورى : 19] .

وقد تقدم تحقيق معنى اللطف عند قوله تعالى : ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ في سورة الأنعام (103) .

وجملة إنه هو العليم الحكيم ﴾ مستأنفة أيضاً أو تعليل لجملة ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ .

وحرف التوكيد للاهتمام ، وتوسيط ضمير الفصل للتقوية .

وتفسير ﴿ العليم ﴾ تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إنك أنت العليم الحكيم ﴾ في سورة البقرة (32) .

والحكيم ﴾ تقدم عند قوله : ﴿ فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ أواسط سورة البقرة (209) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(289/402)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾

ونعلم أن الجَدَّ إسحق لم يكُنْ موجوداً ، وكانوا يُغلِّبون جهة الأبوة على جهة الأمومة ،

ودخلت معهم الخالة ؛ لأن الأم كانت غير موجودة .

ويبدو أن يوسف قد استقبلهم عند دخولهم إلى مصر استقبال العظماء ، فاستقبلهم خارج البلد مرة ليريحهم من عناء السفر ويستقبلهم وجهاء البلد وأعيانهم ؛ وهذا هو الدخول الأول الذي آوى فيه أبويْه .

ثم دخل بهم الدخول الثاني إلى البلد بدليل أنه قال : ﴿ . . . ادخلوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف : 99]

ففي الآية دخولان .

وقول الحق سبحانه : ﴿ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ . . . ﴾ [يوسف : 99]

يدل على حرارة اللقاء لمغتربين يجمعهم حنان ، فالأب كان يشتاق لرؤية ابنه ، ولأبدَّ أنه قد سمع من أخوته عن مكانته ومنزلته ، والابن كان مُتشوِّقاً للقاء أبيه .

وانفعالات اللقاء عادة تُترك لعواطف البشر ، ولا تقنينَ لها ، فهي انفعالات خاصة تكون مزيجاً من الود ، ومن المحبة ، ومن الاحترام ، ومن غير ذلك .

فهناك مَنْ تلقاه وتكتفي بأن تسلم عليه مُصَافحة ، وآخر تلتقي به ويغلبُك شوقك فتحتضنه ، وتقول ما شِئْتَ من ألفاظ الترحيب .

كل تلك الانفعالات بلا تقنين عباديّ ، بدليل أن يوسف عليه السلام آوى إليه أبويه ، وأخذهما في حضنه .

" والمثل من حياة رسولنا صلى الله عليه وسلم في سياق غزوة بدر حيث كان يستعرض المقاتلين ، وكان في يده صلى الله عليه وسلم قدح يعدل به الصفوف ، فمَرَّ بسواد بن غزية من بني عدي بن النجار ، وهو مستنصل عن الصف أي خارج عنه ، مما جعل الصف على غير استواء فطعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بطنه بالقدح وقال له : " اسْتَوِ يا سواد " .

فقال سواد : أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني .

فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال صلى الله عليه وسلم : " استقد " . فاعتنقه سَواد وقَبّل بطنه .

فقال صلى الله عليه وسلم : " ما حملك على هذا يا سواد ؟ " .

قال : يا رسولَ الله ، قد حضر ما ترى يقصد الحرب فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جِلْدي جلدك . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخير " .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش . . . ﴾

وقد رفع يوسف أبويه على العرش لأنه لم يحب التميُّز عنهم ؛ وهذا سلوك يدل على المحبة والتقدير والإكرام .

والعرش هو سرير الملك الذي يدير منه الحاكم أمور الحكم . وهم قد خَرُّوا سُجَّداً لله من أجل جمع شمل العائلة ، ولم يخروا سُجَّداً ليوسف ، بل خَرُّوا سُجَّداً لمن يُخَرّ سجوداً إليه ، وهو الله .

وللذين حاولوا نقاش أمر سجود آل يعقوب ليوسف أقول : هل أنتم أكثر غَيْرةً على الله منه سبحانه ؟

إنه هو سبحانه الذي قال ذلك ، وهو سبحانه الذي أمر الملائكة من قَبْل بالسجود لآدم فلماذا تأخذوا هذا القول على أنه سجود لآدم ؟

والمؤمن الحق يأخذ مسألة سجود الملائكة لآدم ؛ على أنه تنفيذ لأمر الحق سبحانه لهم بالسجود لآدم ، فآدم خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ؛ وأمر الملائكة أن تسجد لآدم شكراً لله الذي خلق هذا الخَلْق .

وكذلك سجود آل يعقوب ليوسف هو شكر لله الذي جمع شملهم ، وهو سبحانه الذي قال هذا القول ، ولم يُجرِّم سبحانه هذا الفعل منهم ، بدليل أنهم قَدَّموا تحية ليوسف هو قادر أن يردَّها بمثلها .

ولم يكن سجودهم له بغرض العبادة ؛ لأن العبادة هي الأمور التي تُفعل من الأدنى تقرباً

للأعلى ، ولا يقابلها المعبود بمثلها ؛ فإنْ كانت عبادة لغير الله فالله سبحانه يُعاقب عليها ؛ وتلك هي الأمور المُحرَّمة .

(291/402)

أما العبادة لله فهي اتباع أوامره وتجنب نواهيه ؛ إذن : فالسجود هنا استجابة لنداء الشكر من الكل أمام الإفراج عن الهم والحزن وسبحانه يُثيب عليها . أما التحية يقدمها العبد ، ويستطيع العبد الآخر أن يردَّ بمثلها أو خَيْرٍ منها ، فهذا أمر لا يحرمه الله ، ولا دَخْل للعبادة به .

لذلك يجب أن نفطن إلى أن هذه المسألة يجب أن تُحرَّر تحريراً منطقيّاً يتفق مع معطيات اللغة ومقتضى الحال ، ولو نظرنا إلى وضع يعقوب عليه السلام ، وما كان فيه من أحزان وموقف إخوته بين عذاب الضمير على ما فعلوا وما لاقوه من متاعب لأيقنا أن السجود المراد به شكر من بيده مقاليد الأمور بدلاً من خلق فجوات بلا مبرر وَهُمْ حين سجدوا ليوسف ؛ هل فعلوا ذلك بدون علم الله ؟ طبعاً لا .

ومن بعد ذلك نجد قول يوسف لأبيه : ﴿ وَقَالَ يا أبت هذا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً . . . ﴾ [يوسف : 100]

وقد كانت الرُّؤيا هي أول لَقْطة في قصة يوسف عليه السلام حيث قال الحق ما جاء على لسان يوسف لأبيه : ﴿ . . . إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] وقوله في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً . . . ﴾ [يوسف : 100] أي : أمراً واقعاً ، وقد رآه والد يوسف وأخوته لحظة أنْ سجدوا ليوسف سجودَ الشكر والتحية لا سجود عبادة ، وقد سجد الأخوة الأحد عشر والأب والخالة التي تقوم مقام الأم ، ورؤيا الأنبياء كما نعلم لأبدّ أن تصير واقعاً .

ولقائل أن يقول : وماذا عن رُؤْيا إبراهيم عليه السلام التي أمره فيها الحق سبحانه أن يذبح ابنه ؛ فقام إلى تنفيذها ؛ واستسلم إسماعيل لأمر الرُّؤْيا .

نقول : إن الأنبياء وحدهم هم الملتزمون شرعاً بتنفيذ رؤاهم ؛ لأن الشيطان لا يُخايلهم ؛ فهم معصومون من مخايلة الشيطان .

أما إنْ جاء إنسان وقال : لقد جاءتني رؤيا تقول لي نَفِّذ كذا . نقول له : أنت غير مُلْزم بتنفيذ ما تراه في منامك من رُؤًى ؛ فليس عليك حكم شرعي يلزمك بذلك ؛ فضلاً عن أن

الشيطان يستطيع أن يُخايلك .

أما تنفيذ إبراهيم عليه السلام لما رآه في المنام بأن عليه أن يذبح ابنه ، وقيام إبراهيم بمحاولة تنفيذ ذلك ؛ فسببه أنه يعلم بالتزامه الشرعي بتنفيذ الرُّؤيا .

وقد جاء لنا الحق سبحانه بهذا الذي حدث ليبين لنا عِظَم الابتلاءات التي مرَّتْ على إبراهيم ، وكيف حاول أن يتم كل ما توجهه له السماء من أوامر ، وأن ينفذ ذلك بدقّة .

وقال الحق سبحانه مُصوِّراً ذلك : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً . . . ﴾ [البقرة : 124]

وكانت قمة الابتلاءات هي أن يُنفِّذ بيديه عملية ذبح الابن ؛ ولذلك أؤكد دائماً على أن الأنبياء وحدهم هم المُلْزمون بتنفيذ رُؤاهم ، أما أي إنسان آخر إنْ جاءته رُؤْيا تخالف المنهج ؛ فعليه أن يعتبرها من نزغ الشيطان .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السجن . . . ﴾ [يوسف : 100]

ولقائل أن يسأل : ولماذا لم يذكر يوسف الأحداث الجِسَام التي مرَّتْ به في تَسَلْسُلها ؛ مثل إلقاء أخوته له في الجُبّ ؟

نقول : لم يُرِدْ يوسف أن يذكر ما يُكدِّر صَفْو اللقاء بين العائلة من بعد طول فراق . ولكنه جاء بما مرّ به من بعد ذلك ، من أنه صار عبداً ، وكيف دخل السجن ؛ لأنه لم يستسلم

لِغُواية امرأة العزيز ، وكيف مَنَّ الله عليه بإخراجه من السجن ، وما أن خرج من السجن حتى ظهرت النعمة ، ويكفي أنه صار حاكماً .

وقد يقول قائل : إن القصة هنا غير مُنْسجمة مع بعضها ، لأن بعضاً من المواقف تُذكر ؛ وبعضها لا يُذْكر .

(293/402)

نقول : إن القصة مُنْسجمة تماماً ، وهناك فارق بين قصص التاريخ كتاريخ ؛ وبين قَصص يوضح المواقف الهامة في التاريخ .

والمناسبة في هذه الآية هي اجتماع الإخوة والأب والخالة ، ولا داعي لذكر ما يُنغّص هذا اللقاء ؛ خصوصاً ؛ وأن يوسف قد قال من قبل : ﴿ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [يوسف : 92]

وسبق أن قال لهم بلطف من يلتمس لهم العذر بالجهل : ﴿ . . . هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف : 89]

وهو هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يذكر إحسان الحق سبحانه له فيقول : ﴿ هذا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً .

. . ﴾ [يوسف : 100]

ويُثني على الله شاكراً إحسانه فيقول : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السجن . . .

﴾ [يوسف : 100]

وهو إحسان له في ذاته ، ثم يذكر إحسان الله إلى بقية أهله : ﴿ وَجَآءَ بِكُمْ مِّنَ البدو . .

. ﴾ [يوسف : 100]

وكلمة " أحسن " كما نعلم مرة تتعدى ب إلى ، فتقول : " أحسن إليه " ، ومرة تتعدى بالباء

، فنقول : " أحسن به " ، وهو هنا في مجال " أحسن بي " .

أي : أن الإحسان بسببه قد تعلّق بكل ما اتصل به ؛ فجعله حاكماً ، وجاء بأهله من البدو

؛ أما الإحسان إليه فيكون محصوراً في ذاته لا يتعداه .

وجعل الحق سبحانه الإحسان هنا قسمين : قسم لذاته ؛ وقسم للغير ، واعتبر مجيء

الأهل من البدو إحساناً إليه ، لأن البَدْو قوم يعيشون على الفطرة والانعزالات الأسرية ، ولا

تَوطُّن لهم في مكان ، ولا يضمُّهم مجتمع ، وليس لهم بيوتٌ مبنية يستقِرُّون فيها ، ولكنهم

يتبعون أرزاقهم من منابت الكلأ ومساقط المياه ، ويحملون رِحَالهم إلى ظهر الجمال متنقلين

من مكان لآخر .

وتخلو حياتهم من نِعَم الحضارة . ففي الحضارة يحضر إليك كل ما تطلب ، ولكن الحياة في البدو تُحتِّم أن يذهب الإنسان إلى حيث يجد الخير ؛ ولذلك تستقر الحياة في الحضر عنها في البادية .

ويعطينا الشاعر أحمد شوقي رحمة الله عليه صورة تبين الفارق بين البدو والحضر ، حين صنع مناظرة بين واحدة تتعصب للبدو ، وأخرى تتعصب للحضر . فقال :

فأنا مِنَ البيدِ يا ابن جُرَيج . . . ومن هذه العِيشَة الجَافِيه

ومن حَالبِ الشاة في موضعٍ . . . ومن مُوقِد النارِ في نَاحِيه

مُغَنّيكُمو معبدٌ والغَريق . . . وقَيْنتنا الضبع العَاويه

هُمْ يأكلونَ فُنونَ الطهاةِ . . . ونحن نأكل ما طَهَتِ المَاشِيه

فابن جريج يشكو السَّأم من حياة البادية ، حيث لا يرى إلا المناظر المُعَادة من حَلْبٍ لشاة ، أو إشعال نار ، ولا يسمع كأهل الحضر صوت المُغنِّين المشهورين في ذلك الزمن ؛ بل يسمع صوت الضِّبَاع العاوية ، ولا يأكل مثل أهل الحضر ما قام بِطَهْيِه الطُّهاة ؛ بل يأكل اللبن وهو ما تقدمه لهم الماشية .

وتردُّ ليلى المتعصِّبة للبادية :

قد اعتسفتْ هِنْدُ يا ابن جَريج . . . وكانت على مَهْدِها قَاسيه

فَمَا البِيِد إلاّ دِيَارُ الكِرَام . . . ومنزِلَةُ الذّمَمِ الوَاقِيه

لها قِبْلَةُ الشمسِ عند البُزُوغِ . . . وللحضر القبلة الثانيه

ونحنُ الرَّيَاحِينِ مِلْءَ الفضاءِ . . . وهُنَّ الرَّيَاحِينُ في آنِيه

ويَقْتُلنا العِشْقُ والحَاضِراتُ . . . يَقُمْنَ من العِشق في عَافِيه

وقولها " اعتسفت " يعني " ظلمت " ، أي : أن هنداً ظلمت البيد يا ابن جريج ، ثم جاءت بميزات البدو ؛ فأوضحت أن بنات البادية كالرياحين المزروعة في الفضاء الواسع ، عكس بنات الحَضَر التي تشبه الواحدة منهن الريحانة المزروعة في أُصص الزرع ، أو أي آنية أخرى

.

ثم تأتي إلى القيم ؛ فتفخر أن بنت البادية يقتلها العِشْق ، ولا تنال مِمَّنْ تعشق شيئاً ؛ فتنسلّ وتموت ، أما بنت الحضر ؛ فصحتها تأتي على الحب .

(295/402)

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يشكر يوسف ما مَنَّ به الله عليه ، وعلى أهله الذين جاء بهم سبحانه من البادية ، ليعيشوا في مصر ذات الحضارة الواسعة ؛ وبذلك يكون قد ضخَّم الفرق بين ما كانوا يعيشون فيه من شَظَف العيش إلى حياة اللين والدّعة .

ثم يلمس ما كان من إخوته تجاهه فيقول: ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشيطان بَيْنِي وَبَيْنَ إخوتي . . . ﴾ [يوسف: 100]

وهذا مَسٌّ لطيف لما حدث، وقد نسبه يوسف للشيطان؛ وصوَّره على أنه "نَزْغ".

أي: أنه لم يكن أمراً مستقراً على درجة واحدة من السوء. أي: أن ما فعله الشيطان هو مجرد وَخْزة تنبِّه إلى الشيء الضار فيندفع له الإنسان، وهي مأخوذة من المِهْماز الذي يُروِّض به مدرب الخيل أيَّ حصان، فهو ينغزه بالمِهْماز نزغة خفيفة، فيستمع وينفذ ما أمره به، فالنَّغْز تنبيه لمهمة، ويختلف عن الطَّعْن.

والحق سبحانه ينبهنا إلى ما يفعله الشيطان؛ فيقول لنا: ﴿ وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله . . . ﴾ [الأعراف: 200]

وكُلٌّ منا يعلم أن الشيطان عدوٌّ له عداوة مُسبقة، وحين تستعيذ بالله من الشيطان، فأنت تكتسب حَصَانه من الشيطان.

وسبحانه القائل: ﴿ . . . إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشيطان تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 201]

أي: أن الإنسان حين يتذكر العداوة بينه وبين الشيطان؛ فعليه أن يشحن نفسه بالمناعة الإيمانية ضد هذا النَّزْغ.

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقول يوسف: ﴿ . . . إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُ هُوَ

العليم الحكيم ﴾ [يوسف : 100]

فسبحانه هو المدبر الذي لا تَخْفى عليه خافية أبداً ، وكلمة " لُطْف " ضد كلمة " كثافة " فاللطيف هو الذي له جِرْم دقيق ، والشيء كلما لَطُف عَنُفَ ؛ لأنه لا توجد عوائق تمنعه .

(296/402)

ولا شيء يعوق الله أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كل شيء ، فهو يجمع بين اللطف والخبرة ، فلُطْفه لا يقف أمامه أي شيء ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شيء ، وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعِلْمه سبحانه مُطْلق ، وهو حكيم يُجرِي كل حَدَث بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحد أيّ شيء ، فهو صاحب الكمال المطلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(297/402)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾

أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة قال : دخل يعقوب عليه السلام مصر في ملك يوسف عليه السلام ، وهو ابن مائة وثمانين سنة ، وعاش في ملكه ثلاثين سنة . ومات يوسف عليه السلام وهو ابن مائة وعشرين سنة . قال أبو هريرة – رضي الله عنه – وبلغني أنه كان عمر إبراهيم خليل الله مائة وخمسة وتسعين سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ آوى إليه أبويه ﴾ قال : أبوه وأمه ضمهما .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن وهب بن منبه – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ قال : أبوه وخالته ، وكانت توفيت أم يوسف في نفاس أخيه بنيامين .

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان بن عيينة ﴿ ورفع أبويه ﴾ قال : كانت الخالة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي اله عنهما – في قوله ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ قال : السرير .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ قال : السرير .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ قال : مجلسه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وخروا له سجداً ﴾ قال: كان تحية من كان قبلكم السجود، بها يحيي بعضهم بعضاً، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة، كرامة من الله عجلها لهم ونعمة منه.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن ابن زيد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وخروا له سجداً ﴾ قال: ذلك السجود تشرفة، كما سجدت الملائكة عليهم السلام تشرفة لآدم عليه السلام، وليس بسجود عبادة.

(298/402)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ وخروا له سجداً ﴾ قال: بلغنا أن أبويه واخوته سجدوا ليوسف عليه السلام إيماء برؤوسهم، كهيئة الأعاجم، وكانت تلك تحيتهم كما يصنع ذلك ناس اليوم.

وأخرج ابن جرير عن الضحاك وسفيان - رضي الله عنهما - قالا: كانت تلك تحيتهم.

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان، عن سلمان الفارسي - رضي الله عنه - قال: كان بين رؤيا يوسف عليه السلام وبين تأويلها، أربعون سنة.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ والبيهقي ، عن عبد الله بن شداد – رضي الله عنه – قال : كان بين رؤيا يوسف عليه السلام وتأويلها .

أربعون سنة . وإليه ينتهي أقصى الرؤيا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة – رضي الله عنه – قال : بينهما خمسة وثلاثون عاماً .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن الحسن – رضي الله عنه – قال : كان بين الرؤيا والتأويل ثمانون سنة .

وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه ، عن الفضيل بن عياض – رضي الله عنه – قال : كان بين فراق يوسف بن يعقوب إلى أن التقيا ، ثمانون سنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج – رضي الله عنه – قال : كان بينهما سبع وسبعون سنة .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه ، عن الحسن – رضي الله عنه – أن يوسف عليه السلام ألقي في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، ولقي أباه بعد ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة .

وأخرج ابن مردويه عن زياد يرفعه قال : لبث يوسف عليه السلام في العبودية ، بضعة وعشرين سنة .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن حذيفة - رضي الله عنه - قال : كان بين فراق يوسف يعقوب عليهما السلام إلى أن لقيه ، سبعون سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن علي بن أبي طلحة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ قال : كان يعقوب وبنوه بأرض كنعان ، أهل مواش وبرية .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ قال : كانوا أهل بادية وماشية ، وبلغنا أن بينهم يومئذ ثمانين فرسخاً ، وقد كان فارقه قبل ذلك ببضع وسبعين سنة .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ قال : لطف بيوسف وصنع له حين أخرجه من السجن ، وجاء بأهله من البدو ، ونزع من قلبه نزغ الشيطان ، وتحريشه على اخوته .

وأخرج أبو الشيخ عن ثابت البناني - رضي الله عنه - قال : لما قدم يعقوب على يوسف عليه السلام ، تلقاه يوسف عليه السلام على العجل ، ولبس حلية الملوك ، وتلقاه فرعون إكراماً ليوسف ، فقال يوسف لأبيه : إن فرعون قد أكرمنا ، فقل له فقال يعقوب : لقد بوركت يا فرعون .

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان الثوري - رضي الله عنه - قال : لما التقى يوسف ويعقوب ،

عانق كل واحد منهما صاحبه وبكى . فقال يوسف : يا أبت ، بكيت علي حتى ذهب بصرك ، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ قال : بلى يا بني ، ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك .

وأخرج أبو الشيخ عن ثابت البناني - رضي الله عنه - قال : لما حضر يعقوب عليه السلام الموت قال : ليوسف عليه السلام . إني أسألك خصلتين وأعطيك خصلتين : أسألك أن تعفو عن اخوتك ولا تعاقبهم بما صنعوا بك ، وأسألك إذا أنا متّ أن تحملني فتدفنني مع آبائي إبراهيم واسحق وأعطيك أن تغمضني عند الموت ، وأن ادخل ابنين لك في الأسباط ، فلما وضع يوسف عليه السلام يده على وجه أبيه ليغمضه ، فتح عينيه ثم قال : يا بني ، إن هذا من الأبناء للآباء عند الله عظيم .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي بكر بن عياش - رضي الله عنهما - قال : لما مات يعقوب النبي عليه السلام ، أقيم عليه النوائح أربعة أشهر .

وأخرج أحمد في الزهد عن مالك بن دينار - رضي الله عنه - أن يعقوب عليه السلام ، قال لما ثقل لابنه يوسف عليه السلام : أدخل يدك تحت صلبي ، فاحلف لي برب يعقوب لتدفنني

مع آبائي ، فإني قد اشركتهم في العمل ، فاشركني معهم في قبورهم . فلما توفي يعقوب عليه السلام ، فعل ذلك يوسف حتى أتى به أرض كنعان فدفنه معهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(301/402)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ ﴾ : من باب التغليب ، يريد أباه وأمَّه أو خالتَه . و " سُجَّداً " حال . قال أبو البقاء : " حالٌ مقدرة ؛ لأنَّ السجود يكون بعد الخُرور " وفيه نظرٌ لأنه متصلٌ به غيرُ متراخٍ عنه .

قوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ يجوز أَنْ يتعلق ب " رؤْيايَ " ، أي : تأويل رُؤْيايَ في ذلك الوقت . ويجوز أَنْ يكونَ العامل فيه " تأْويل " لأنَّ التأويل كان مِنْ حينِ وقوعِها هكذا ، والآن ظهر له ، ويجوز أن يكونَ حالاً مِنْ " رُؤْياي " قاله أبو البقاء ، وقد تقدم أنَّ المقطوعَ عن الإِضافة لا يقع حالاً .

قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي ﴾ حالٌ من " رؤياي " ويجوز أن تكون مستأنفة . وفي " حقاً " وجوه أحدُها : أنه حال . والثاني : أنه مفعولٌ ثان . والثالث : أنه مصدرٌ مؤكد للفعل من حيث المعنى ، أي : حَقَقها ربي حَقّاً بجَعْلِه .

قوله : ﴿ أَحْسَنَ بي ﴾ " أَحْسَنَ " أصله أن يتعدَّى ب " إلى " . قال : ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : 77] فقيل : ضُمِّن معنى لَطُف فتعدى بالباء كقوله : ﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾ [البقرة : 83] وقول كُثَيِّر عَزَّة :

2834 أَسِيْئي بنا أو أَحْسِني لا مَلُوْمَةً . . . لَدَيْنَا ولا مَقْلِيّةً إنْ تَقَلَّتِ

وقيل : بل يتعدى بها أيضاً . وقيل : هي بمعنى " إلى " . وقيل : المفعول محذوفٌ : " أَحْسَنَ صُنْعَه بي " ، ف " بي " يتعلّق بذلك المحذوفِ ، وهو تقدير أبي البقاء . وفيه نظر ؛ من حيث حَذْفُ المصدرِ وإبقاءُ معموله ، وهو ممنوعٌ عند البصريين . و " إذ " منصوبٌ ب " أَحْسَنَ " أو المصدرِ المحذوف قاله أبو البقاء ، وفيه النظر المتقدم .

والبَدْوُ : ضد الحضارة وهو مِن الظهور ، بدا يبدو : إذا سكن البادية ، " إذا بَدَوْنا جَفَوْنا " يروى عن عمر ، أي : تخلَّقنا بأخلاقِ البدويين .

قوله : ﴿ لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ لَطُفَ أصلهُ أن يتعدَّى بالباء ، وإنما تعدى باللام لتضمُّنِه معنى مُدَبِّر ، أي : أنت مُدبِّر بلطفكِ لما تَشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 557.559 ﴾

(303/402)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ (99) ﴾

اشتركوا في الدخول ولكن تباينوا في الإيواء فانفرد الأَبوان به لِبُعْدِهما عن الجفاء ، كذلك غداً ، إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون في وجود الجنان ، ولكنهم يتباينون في بساط القربة فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف اليوم بالاستواء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ورَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يا أبت هذا تَأْوِيل رُؤْيَاي مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً ﴾ .

أوقف كُلاًّ بمحلِّه ؛ فَرَفَعَ أبويه على السرير ، وتَرَكَ الإخوة نازلين بأماكنهم .

قوله : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ : كان ذلك سجودَ تحيةٍ ، فكذلك كانت عادتهم . ودَخَلَ

الأَبوان في السجود – في حقِّ الظاهر – لأنَّ قوله ﴿ وَخَرُّوا ﴾ إخبارٌ عن الجميع ، ولأنه كان عن رؤياه قد قال : ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] وقال ها هنا : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُءيَاىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

شهد حسانه فَشَكَرَه . . كذلك مَنْ شهد النعمة شَكَرَ ، ومَنْ شهد المُنْعِمَ حمده .

وذَكَرَ حديثَ السجن – دون البئر – لطول مدة السجن وقلة مدة البئر .

(304/402)

وقيل لأن فيه تذكيرا بجُرْمِ الإخوة وكانوا يخجلون . وقيل لأن ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾ وقيل لأن كان في البئر مرفوقا به والمبتدئ يُرفَقُ به وفي السجن فَقَدَ ذلك الرِّفق لقوة حاله ؛ فالضعيف مرفوقٌ به والقويُّ مُشَدَّدٌ عليه في الحال ، وفي معناه أنشدوا :

وأسررتني حتى إذا ما سَبَبْتَنِي . . . بقولٍ يحل العُصْمَ سهل الأباطح

تجافيتَ عنِّي حين لا لي حيلة . . . وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وفي قوله : ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ إشارة إلى أنه كما سُرَّ برؤية أبويه سُرَّ بإخوته - وإنْ كانوا أهل الجفاء ، لأنَّ الأُخُوَّة سَبَقتْ الجفوة .

قوله : ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى ﴾ أظهر لهم أمرهم بما يشبه العذر ، فقال كان الذي جرى منهم من نزعات الشيطان ، ثم لم يرض بهذا حتى قال ﴿ بينى وبني إخوتى ﴾ يعني إن وَجَدَ الشيطان سبيلاً إليهم ، فقد وجد أيضاً إليّ حيث قال : ﴿ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى ﴾ .

ثم نطق عن عين التوحيد فقال : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ فبلطفه عصمهم حتى لم يقتلوني . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 208 . 209 ﴾

(305/402)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/403)

الجزء الثالث بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 101 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 104 ﴾ من نفس السورة

(4/403)

قوله تعالى ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر هاتين الصفتين ، تذكر ما وقع له بهما من الأسباب ، فغلب عليه مقام الشهود وازدادت نفسه عن الدنيا عزوفا ، فقال مخاطباً : ﴿ رب قد آتيتني ﴾ وافتتح ب " قد " لأن الحال حال توقع السامع لشرح مآل الرؤيا ﴿ من الملك ﴾ أي بعضه بعد بعدي منه جداً ، وهو معنى روحه تمام القدرة ﴿ وعلمتني ﴾ وقصر دعواه تواضعاً بالإتيان بالجار فقال : ﴿ من تأويل الأحاديث ﴾ طبق ما بشرني به أبي وأخبرت به أنت من التمكين والتعليم قبل قولك ، والله غالب على أمره ؛ ثم ناداه بوصف جامع للعلم والحكمة فقال : ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ ثم أعلمه بما هو أعلم به منه من أنه لا يعول على غيره في شيء من الأشياء فقال : ﴿ أنت وليّي ﴾ أي الأقرب إليّ باطناً وظاهراً ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ أي لا ولي لي غيرك ، والولي يفعل لمولاه الأصلح والأحسن ، فأحسن بي في الآخرة أعظم ما أحسنت بي في الدنيا .

ولما كان توليه لله لا يتم إلا بتولي الله له ، أتبعه بما يفيده فقال : ﴿ توفني ﴾ أي اقبض روحي وافياً تاماً في جميع أمري حساً ومعنى حال كوني ﴿ مسلماً ﴾ ولما كان المسلم حقيقة من

كان عريقاً في الإخلاص ، حققه بقوله : ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ فتوفاه الله كما سأل ؛ قالوا : وتخاصم أهل مصر فيه ، كلهم يرجوا أن يدفن في محلته يرجو بركته ، ثم اصطلحوا على أن عملوا له صندوقاً من رخام ودفنوه في وسط النيل ، ليفترق الماء على جميع الأرض فتنالها بركته وتخصب كلها على حد سواء ، ويكونوا كلهم في الماء سواء .

ذكر ما بقي من القصة عن التوراة :

قال بعدما مضى : فلم يقدر يوسف على الصبر – يعني على ترفق إخوته – فأمر بإخراج جميع من كان عنده ، فلم يبق عنده أحد حيث ظهر يوسف لإخوته ، فرفع صوته فبكى حتى سمع المصريون فأخبروا في آل فرعون ، فقال يوسف لإخوته : أنا أخوكم يوسف ، هل أبي باق ؟ فلم يقدر إخوته على إجابته لأنهم رهبوه ، فقال يوسف لإخوته : ادنوا مني فدنوا فقال لهم : أنا يوسف الذي بعتموني لمن ورد إلى مصر ، والآن فلا تحزنوا ، ولا يشقن عليكم ذلك ، ولا يشتدن عليكم بيعكم إياي إلى ما هنا ، لأن الله أرسلني أمامكم لأعد لكم القوت ، لأن للجوع مذ أتى سنتين ، وستأتي خمس سنين أخر لا يكون فيها زرع ولا حصاد ، فأرسلني الرب أمامكم لأصير لكم بقاء في الأرض وأخلصكم وأستنقذكم ، لتحيوا

وتستبشروا على الأرض ، والآن فلستم أنتم الذين بعثتموني إلى ها هنا بل الله أرسلني وجعلني أباً لفرعون وسيداً لجميع أهل بيته ، ومسلطاً على جميع أرض مصر ، فاصعدوا الآن عجلين عليّ بأبي وقولوا له : هكذا يقول ابنك يوسف : إن الله جعلني سيداً لجميع أهل مصر ، فاهبط إليّ ولا تتأخر ، وانزل إلى أرض السدير - وفي نسخة : خشان - فكن قريباً مني أنت وبنوك وأهل بيتك وعمتك وبقرك وجميع مالك ، فأمّونكم هناك ، لأنه قد بقي خمس سنين جوعاً ، لئلا تهلك أنت وأهل بيتك وكل مالك ، وهذه أعينكم تبصر وعينا أخي بنيامين ، إني أكلمكم مشافهة ، وأخبروا أبي بجميع كرامتي ووقاري في أرض مصر ، وبجميع ما رأيتم ، وأسرعوا واهبطوا بأبي إلى ما هاهنا ، فاعتنق أخاه بنيامين أيضاً وبكى ، وقبل جميع إخوته وبكى ، ومن بعد ذلك كلمه إخوته ، فبلغ ذلك فرعون وقيل له : إن إخوة يوسف قد أتوه ، فسر ذلك فرعون ، عبده - وفي نسخة : وجميع قواده - فقال فرعون ليوسف : قل لإخوتك فليفعلوا هكذا ، أوقروا دوابكم ميرة ، وانطلقوا بها إلى أرض كنعان ، وأقبلوا بأبيكم وأهل بيوتاتكم وائتوني فأنحلكم خيرات أرض مصر وخصبها ، وكلوا خصب الأرض ، وهذا

أنت المسلط ، فأمر إخوتك أن يفعلوا هذا الفعل ، احملوا من أرض مصر عجلاً لنسائكم وحشمكم ، وأظعنوا بأبيكم فأقبلوا ، ولا تشفقن على أمتعتكم ، لأن جميع خيرات مصر وأرضها وخصبها هو لكم ، ففعل بنو إسرائيل كما أمر فرعون ، ودفع إليهم يوسف عجلاً عن أمر فرعون ، وزودهم جميع أزودة الطريق ، وخلع على كل أمرىء منهم خلعة ، فأما بنيامين فأجازه بثلاثمائة درهم – وفي نسخة : مثقال فضة – وخلع عليه خمس خلع ، وبعث إلى أبيه بمثل ذلك أيضاً وعشرة حمير موقرة من البر والطعام وأزودة لأبيه للطريق وأرسلهم ، فانطلقوا ، وتقدم إليهم وقال لهم : لا تقع المشاجرة فيما بينكم في الطريق ، فظعنوا من مصر فأتوا أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم ، فأخبروه وقالوا له : إن يوسف بعد في الحياة ، وهو المسلط على جميع أرض مصر ، ورأى يعقوب العجل الذي بعث يوسف لحمله فاطمأنت نفسه وقال : إن هذا لعظيم عندي ، إذ كان ابني يوسف بعد الحياة ، أنطلق الآن فأنظر إليه قبل الموت .

فظعن إسرائيل وجميع ما له ، فأتى بئر السبع ، وقرب قرباناً لإله إسحاق أبيه ، فكلم الله إسرائيل في الرؤيا وقال له : يا يعقوب ! فقال : هاأنذا ! فقال : إني أنا إيل إله أبيك ، لا تخف

من الحدور إلى مصر ، لأني أجعلك هناك إلى شعب عظيم – وفي نسخة : لأني أصير منك أمة عظيمة – أنا أهبط معك ، وأنا أصعدك ، ويوسف يضع يده على عينيك ، فنهض يعقوب من بئر السبع وظعن بنو إسرائيل بيعقوب أبيهم وبحشمهم ونسائهم على العجل الذي بعث فرعون لحمله ، وساقوا دوابهم ومواشيهم التي استفادوها بأرض كنعان ، فأتوا بها مصر يعقوب وجميع نسله وبنوه معه وبنو بنيه وبناته وبنات بناته ، وأدخل إلى مصر كل نسله ، ثم سماهم واحداً واحداً ، ثم قال : فجميع بني يعقوب الذين ادخلوا مصر سبعون إنساناً ، ثم بعث يعقوب يهوذا بين يديه إلى يوسف عليه الصلاة والسلام ليدله على السدير – وفي نسخة : خشان – فألجم يوسف مراكبه ، وصعد للقاء أسرائيل أبيه إلى خشان – وفي نسخة : السدير – فتلقاه واعتنقه وبكى إذ اعتنقه ، فقال إسرائيل ليوسف : أتوفى الآن بعد نظري إليك يا بني ، فأنت في الحياة بعد ، فقال يوسف لإخوته وآل أبيه : أصعد فأخبر فرعون وأقول : إن إخوتي وآل أبي الذين كانوا بأرض كنعان قد أتوني والقوم رعاء غنم ، لأنهم أصحاب مواش وقد أتوا بغنمهم وبقرهم وبكل شيء لهم ، فإذا دعاكم فقولوا له : إنا عبيدك أصحاب ماشية منذ صبانا ، وحتى الآن نحن وآباؤنا من قبل أيضاً ، لكي تنزلوا أرض خشان – وفي نسخة : السدير – لأن رعاة الغنم هم مرذولون عند المصريين .

فأتى يوسف فأخبر فرعون وقال له : إن أبي وإخوتي أتوني وغنمهم وبقرهم وجميع ما لهم في أرض كنعان ، وهو ذا هم حلول بأرض السدير ، وحمل من إخوته خمسة رهط ،

فأدخلهم على فرعون فوقفوا بين يديه ، فقال فرعون لإخوة يوسف : ما صنعتكم ؟ فقالوا : إن عبيدك رعاء غنم نحن منذ صبانا ، وآباؤنا أيضاً من قبل .

(8/403)

وقالوا لفرعون : إنا أتينا لنسكن هذه الأرض لأنه فقد الحشيش والعشب والكلأ من مرابع غنم عبيدك ، وذلك لأن الجوع اشتد في أرض كنعان ، فأمر عبيدك أن ينزلوا بأرض السدير ، فقال فرعون ليوسف : إن أباك وإخوتك قد أتوا ، وهذه أرض مصر بين يديك ، فأسكن أباك وإخوتك في أحسن الأرض وأخصبها لينزلوا أرض السدير ، وإن كنت تعلم أن فيهم قوماً ذوي قوة وبطش ونفاذ فولهم جميع مالي ، فأدخل يوسف عليه السلام أباه يعقوب عليهم الصلاة والسلام على فرعون فأقامه بين يديه ، فقال فرعون ليعقوب عليه الصلاة والسلام : كم عدد سني حياتك ؟ فقال يعقوب عليه السلام لفرعون : مبلغ حياتي مائة وثلاثون سنة ، وإن أيام حياتي لناقصة ، ولم أبلغ سني حياة آبائي في أيام حياتهم ، فبارك يعقوب فرعون ودعا له ، وخرج من بين يديه ، فأسكن يوسف عليه السلام أباه يعقوب عليه السلام وإخوته وأعطاهم وراثة في أرض مصر في أخصب الأرض وأحسنها في أرض رعمسيس – وفي نسخة : أرض عين شمس – كما أمر فرعون ، فقات يوسف أباه وإخوته

وجميع أهل بيته بالميرة على قدر الحشم ، ولم تكن ميرة في جميع الأرض كلها لأن الجوع اشتد جداً ، فخرجت جميع أرض مصر وأرض كنعان ، فصار إلى يوسف عليه الصلاة والسلام كل ورق ألفي في أرض مصر وأرض كنعان ، وذلك ثمن البر الذي كانوا يبتاعونه ، فأورد يوسف الورق بيت مال فرعون ، ونفد الورق من أرض مصر وأرض كنعان ، فأتى جميع المصريين إلى يوسف عليه الصلاة والسلام فقالوا له : أعطنا من القمح حاجتنا فنحيى ولا نموت ، لأن ورقنا قد نفذ ، فقال لهم يوسف : ادفعوا إليَّ مواشيكم إن كانت الأوراق قد نفدت ، فأقوتكم بمواشيكم ، فأتوه بمواشيهم فأعطاهم يوسف من الميرة بخيلهم وبمواشي الغنم وماشية البقر والحمير ، وقاتهم سنتهم تيك بجميع مواشيهم ، فأتوه في السنة الأخرى وقالوا له : لسنا نكتم سيدنا أمرنا ، لأن أوراقنا وماشيتنا ودوابنا قد نفدت وصارت عند سيدنا ، ولم يبق بين يدي سيدنا

غير أنفسنا وأرضنا ، فلم نهلك بين يديك ؟ فابتعنا وأراضينا بإطعامك إيانا الخبز ، فنصير نحن عبيداً لفرعون وأرضنا ملكاً له ، وأعطنا البذر فنحيا ولا نموت ، ولا تخلو الأرض وتخرب لفقد سكانها ، فابتاع يوسف لفرعون جميع أرض مصر ، فصارت الأرض لفرعون

، فنقل الشعب من قرية إلى قرية وحولهم من أقاصي الأرض نحو مصر إلى أقطارها ما خلا أرض الأجناد – وفي نسخة : أئمتهم – فإنه لم يبتعها ، لأنه كان يجري على الأجناد – وفي رواية : أئمتهم – وظيفة ونزلا من عند فرعون ، وكانوا يأكلون برهم الموظف لهم من قبل فرعون ، ولذلك لم يبيعوا أرضهم ، فقال يوسف للشعب : إني قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون ، وها أنذا معطيكم البذر لتزرعوا في الأرض ، فإذا دخلت الغلة فأعطوا فرعون الخمس منها ، وتكون لكم لزراعة الحقل أربعة أخماس ، ولمأكل أهل بيوتاتكم وإطعام حشمكم ، فقالوا له : لقد أحييتنا ، فلنظفر من سيدنا برحمة ورأفة ، ونكون عبيداً لفرعون ، فسن يوسف هذه السنة على أرض مصر إلى يوم الناس هذا ، فصار الخمس لفرعون ما خلا أرض أئمتهم – وفي رواية : الأجناد – فإنها لم تكن لفرعون .

فسكن إسرائيل أرض مصر وأرض السدير ، فعظموا واعتزوا فيها واستيسروا وتماجدوا ، وعاش يعقوب في أرض مصر سبع عشرة سنة ، وكانت جميع أيام حياة يعقوب مائة وسبعاً وأربعين سنة ، ودنت أيام وفاة إسرائيل عليه السلام ، فدعا يوسف ابنه عليه السلام وقال له : إن ظفرت منك برحمة ورأفة ، فضع يدك تحت ظهري حتى أستحلفك بالله وأقسم عليك به ، وأنعم عليّ بالنعمة والقسط ، لا تدفني بمصر ، بل أضطجع مع آبائي ، احملني من مصر فادفني في مقبرتهم ، فقال يوسف : أنا فاعل ذلك كقولك وأمرك ، فقال له : أقسم لي ، فأقسم له فتوكأ إسرائيل على عصاه وسجد شكراً .

فلما كان بعد هذه الأقاويل بلغ يوسف عليه السلام أن أباه قد مرض ، فانطلق بابنيه معه : منشا وإفرايم ، فبلغ يعقوب وقيل له : إن ابنك يوسف قد أتاك ، فتقوى إسرائيل وجلس على أريكته ، فقال إسرائيل ليوسف : إن إله المواعيد اعتلن لي بلوز في أرض كنعان ، فباركني وقال لي : ها أنذا مباركك ومكثرك ، وأجعلك أباً لجميع الشعوب ، وأعطي نسلك من بعدك هذه الأرض ميراثاً إلى الأبد ، وأنا إذ كنت مقبلاً من فدانة أرام توفيت عني راحيل أمك في أرض كنعان في الطريق ، وكان بيني وبين الدخول إلى إفراث قدر مسيرة ميل – وفي نسخة : – فرسخ – فدفنتها هناك في طريق إفراث – وهي بيت لحم – ونظر إسرائيل إلى ابني يوسف فقال له : من هذان ؟ فقال : ابناي اللذان رزقني الله ها هنا ، فقال أدنهما مني ، فقبلهما واعتنقهما وقال : ما كنت أرجو النظر إلى وجهك فقد أراني الله نسلك أيضاً ، وقال إسرائيل ليوسف عليهما الصلاة والسلام : ها أنذا متوف ، ويكون الله بنصره وعونه معكم ، ويردكم إلى أرض آبائكم ، وها أنذا قد فضلتك على إخوتك بسهم من الأرض التي غلبت عليها الأمورانيون بسيفي وقوسي ، ثم إن يعقوب دعا بنيه وقال : اجتمعوا إليّ فأبين لكم ما هو كائن من أمركم في آخر الأيام ، فذكر ذلك ثم قال : وهذا ما أخبرهم به يعقوب

أبوهم ، نبأهم بذلك وبارك عليهم كل امرىء منهم على قدره ، ثم أوصاهم وقال لهم : إنني أنتقل إلى شعبي فادفنوني إلى جانب آبائي في المغارة التي في حقل عفرون الحيثاني ، في المغارة التي في الروضة المضاعفة إلى جانب ممري بأرض كنعان التي ابتاعها إبراهيم : روضة من عفرون الحيثاني وراثة المقبرة ، هنالك دفن إبراهيم وسارة حليلته ، وفيها دفن إسحاق ورفقا حليلته ، وهنالك دفنت ليا في الروضة المبتاعة والمغارة التي فيها من بني حاث .

فلما فرغ يعقوب من وصيته لبنيه بسط رجليه على أريكته فمات ونقل إلى شعبه .

فوقع يوسف عليه فقبله وبكى عليه ، فأمر عبيده الأطباء بتحنيطه ، فحنط الأطباء إسرائيل وتمت له أربعون ليلة ، لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين ، وناح المصريون عليه سبعين يوماً ، فقال يوسف لآل فرعون : إن ظفرت منكم برحمة ورأفة فأخبروا فرعون أن أبي أحلفني وأقسم عليّ وقال لي : هاأنا متوف ، فاقبرني في القبر الذي ابتعته في أرض كنعان ، فيأذن لي فأصعد فأدفن أبي ثم أرجع ، فقال له فرعون : اصعد فادفن أباك كما أقسم عليك ، فصعد يوسف ليدفن أباه ، وصعد معه جميع عبيد فرعون وأشياخ بيته وجميع أشياخ مصر وجميع أهل بيت يوسف ، وصعد معه إخوته وآل أبيه ، وأما حشمهم وبقرهم

وغنمهم فخلفوها بأرض خشان – وفي نسخة : السدير – وأصعد المراكب والفرسان أيضاً ، فصار في عسكر عظيم منيع ، فأتوا إلى بيادر أطرا – وفي نسخة : أندر العوسج – التي في مجاز الأردن ، فرنوا هناك وناحوا نوحاً عظيماً مراً ، فنظر سكان أرض كنعان إلى التأبل والنواح في أجران العوسج ، فقالوا : إن هذا التأبل عظيم للمصريين ، ولذلك دعي ذلك الموضع " تأبل مصر " ، الذي في مجاز الأردن ، ففعل بنو إسرائيل كما أمرهم ، وحملوه وانطلقوا به إلى أرض كنعان فدفنوه ثم في المغارة المضاعفة التي في الروضة التي ابتاعها إبراهيم وراثة المقبرة من عفرون الحيثاني وهي إمام ممري .

(12/403)

ثم رجع يوسف إلى مصر هو وإخوته وجميع من صعد معه في دفن أبيه ، ومن بعد ما دفن أباه نظر إخوة يوسف إلى أبيهم قد توفى ، ففرقوا وقالوا : لعل يوسف أن يؤذينا وينكأنا ولعله أن يكافئنا على جميع الشر الذي ارتكبنا منه ، فدنوا من يوسف وقالوا له : إن أباك أوصى قبل وفاته وقال : هكذا قولوا ليوسف : نطلب إليك أن تعفو عن جهل إخوتك وعن خطاياهم بارتكابهم الشر منك ، فالآن نطلب إليك أن تعفو عن ذنب عبيد إله أبيك ، فبكى يوسف لما قالوا ذلك ، فدنا إخوته فخروا بين يديه سجداً وقالوا له : هوذا نحن لك

عبيد ، فقال لهم : لا تخافوني لأني أخاف الله ، أما أنتم فهممتم بي شراً فصيره الله لي خيراً كما فعل بي يومنا هذا ، فأحيي على يدي خلقاً عظيماً ، والآن فلا خوف عليكم ، أنا أقوتكم وحشمكم ، فعزاهم وملأ قلوبهم خيراً .

ثم أقام يوسف بمصر هو وآل بيته ، فعاش يوسف مائة وعشر سنين ورأى يوسف ولد ولده ، فقال يوسف لإخوته : ها أنذا متوف ، والله سيذكركم ويخرجكم من هذه الأرض إلى الأرض التي أقسم بها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فأقسم يوسف على بني أسرائيل وقال : إن الله سيذكركم ، فأصعدوا عظامي معكم ، فتوفي يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين ، فحنطوه ووضعوه في صندوق بأرض مصر - وسيأتي ما بعد ذلك من استعبادهم وما يتبعه في سورة القصص إن شاء الله تعالى .

(13/403)

وهذا الذي ذكر من القصة في التوراة مصدق لما في القرآن وشاهد بإعجازه ، غير أنه لم يذكر شرح قوله تعالى : ﴿ فلما استيئسوا منه خلصوا نجياً ﴾ [يوسف : 80] في أنه بعد أخذ الصواع من رحل أخيه تركهم من غير تعريف لهم بنفسه فمضوا إلى أبيهم فأخبروه بذلك ، ثم عادوا مرة أخرى للميرة والطلب ليوسف وأخيه فعرفهم يوسف عليه السلام بنفسه وجلا

لهم الأمر في هذه القدمة الثالثة ، فكأنهم أسقطوا ما في التوراة من ذلك تدليساً وتلبيساً ، وهو لا يضر غيرهم ، فإن ما صار في كتابهم لا يتمشى على قوانين العقل لمن تدبر ، فلم يفدهم ذلك غير التحقق لخيانتهم وجهلهم - والله الهادي إلى الصواب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 99. 105 ﴾

(14/403)

فصل

قال الفخر :

﴿ رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

روي أن يوسف عليه السلام أخذ بيد يعقوب وطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلي وخزائن الثياب وخزائن السلاح ، فلما أدخله مخازن القراطيس قال يا بني ما أغفلك ، عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل قال : نهاني جبريل عليه السلام عنه قال سله عن السبب قال : أنت أبسط إليه فسأله فقال جبريل عليه

السلام : أمرني الله بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب فهلا خفتني وروي أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ولما قربت وفاته أوصى إليه أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحق فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة ، فعند ذلك تمنى ملك الآخرة فتمنى الموت .

وقيل : ما تمناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيباً طاهراً ، فتخاصم أهل مصر في دفنه كل أحد يحب أن يدفنه في محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا أن الأصلح أن يعملوا له صندوقاً من مرمر ويجعلوه فيه ويدفنوه في النيل بمكان يمر الماء عليه ثم يصل إلى مصر لتصل بركته إلى كل أحد ، وولد له افراثيم وميشا ، وولد لافراثيم نون ولنون يوشع فتى موسى ، ثم دفن يوسف هناك إلى أن بعث الله موسى فأخرج عظامه من مصر ودفنها عند قبر أبيه .

المسألة الثانية :

من في قوله : ﴿ مِّنَ الملك وَمِنْ تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ للتبعيض ، لأنه لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل .

قال الأصم : إنما قال من الملك ، لأنه كان ذو ملك فوقه .

(15/403)

واعلم أن مراتب الموجودات ثلاثة : المؤثر الذي لا يتأثر وهو الإله تعالى وتقدس ، والمتأثر الذي لا يؤثر وهو عالم الأجسام ، فإنها قابلة للتشكيل والتصوير والصفات المختلفة والأعراض المتضادة فلا يكون لها تأثير في شيء أصلاً ، وهذان القسمان متباعدان جداً ويتوسطهما قسم ثالث ، وهو الذي يؤثر ويتأثر ، وهو عالم الأرواح ، فخاصية جوهر الأرواح أنها تقبل الأثر والتصرف عن عالم نور جلال الله ، ثم إنها إذا أقبلت على عالم الأجسام تصرفت فيه وأثرت فيه ، فتعلق الروح بعالم الأجسام بالتصرف والتدبير فيه ، وتعلقه بعالم الإلهيات بالعلم والمعرفة .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الملك ﴾ إشارة إلى تعلق النفس بعالم الأجسام وقوله : ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ إشارة إلى تعلقها بحضرة جلال الله ، ولما كان لا نهاية لدرجات هذين النوعين في الكمال والنقصان والقوة والضعف والجلاء والخفاء ، امتنع أن يحصل منهما للإنسان إلا مقدار متناه ، فكان الحاصل في الحقيقة بعضاً من أبعاض الملك ، وبعضاً من أبعاض العلم ، فلهذا السبب ذكر فيه كلمة "من" لأنها دالة على التبعيض ، ثم قال : ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : في تفسير لفظ الفاطر بحسب اللغة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما كنت أدري معنى الفاطر حتى احتكم إلي أعرابيان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها وأنا ابتدأت حفرها .

قال أهل اللغة : أصل الفطر في اللغة الشق يقال : فطر ناب البعير إذ بدا وفطرت الشيء فانفطر ، أي شققته فانشق ، وتفطر الأرض بالنبات والشجر بالورق إذا تصدعت ، هذا أصله في اللغة ، ثم صار عبارة عن الإيجاد ، لأن ذلك الشيء حال عدمه كأنه في ظلمة وخفاء فلما دخل في الوجود صار كأنه انشق عن العدم وخرج ذلك الشيء منه .

(16/403)

البحث الثاني : أن لفظ الفاطر قد يظن أنه عبارة عن تكوين الشيء عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذي ذكرناه ، إلا أن الحق أنه لا يدل عليه ويدل عليه وجوه : أحدها : أنه قال : ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السموات والأرض ﴾ [فاطر : 1] ثم بين تعالى أنه إنما خلقها من الدخان حيث قال : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : 11] فدل على أن لفظ الفاطر لا يفيد أنه أحدث ذلك الشيء من العدم المحض .

وثانيها : أنه قال تعالى : ﴿ فِطْرَةَ الله التى فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ [الروم : 30] مع أنه تعالى إنما خلق الناس من التراب .

قال تعالى : ﴿ مِنْهَا خلقناكم وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ [طه : 55]

وثالثها : أن الشيء إنما يكون حاصلاً عند حصول مادته وصورته مثل الكوز ، فإنه إنما

يكون موجوداً إذا صارت المادة المخصوصة موصوفة بالصفة المخصوصة ، فعند عدم الصورة ما كان ذلك المجموع موجوداً ، وبإيجاد تلك الصورة صار موجداً لذلك الكوز فعلمنا أن كونه موجداً للكون لا يقتضي كونه موجداً لمادة الكوز ، فثبت أن لفظ الفاطر لا يفيد كونه تعالى موجداً للأجزاء التي منها تركبت السموات والأرض ، وإنما صار إلينا كونه موجداً لها بحسب الدلائل العقلية لا بحسب لفظ القرآن .

واعلم أن قوله : ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ يوهم أن تخليق السموات مقدم على تخليق الأرض عند من يقول : الواو تفيد الترتيب ، ثم العقل يؤكده أيضاً ، وذلك لأن تعين المحيط يوجب تعين المركز وتعينه فإنه لا يوجب تعين المحيط ، لأنه يمكن أن يحيط بالمركز الواحد محيطات لا نهاية لها ، أما لا يمكن أن يحصل للمحيط الواحد إلا مركز واحد بعينه .

وأيضاً اللفظ يفيد أن السماء كثيرة والأرض واحدة ، ووجه الحكمة فيه قد ذكرناه في قوله : ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 1] .

(17/403)

البحث الثالث : قال الزجاج : نصبه من وجهين : أحدهما : على الصفة لقوله : ﴿ رَبّ ﴾ وهو نداء مضاف في موضع النصب .

والثاني : يجوز أن ينصب على نداء ثان .

ثم قال : ﴿ أَنتَ وَلِىِّ فِى الدنيا والأخرة ﴾ والمعنى : أنت الذي تتولى إصلاح جميع مهماتي في الدنيا والآخرة فوصل الملك الفاني بالملك الباقي ، وهذا يدل على أن الإيمان والطاعة كلمة من الله تعالى إذ لو كان ذلك من العبد لكان المتولي لمصالحه هو هو ، وحينئذ يبطل عموم قوله : ﴿ رَبِّ قَدْ اتَيْتَنِى مِنَ الملك ﴾ .

ثم قال : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حكى عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال : "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين" فلهذا المعنى من أراد الدعاء فلا بد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله فههنا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله : ﴿ رَبِّ قَدْ اتَيْتَنِى مِنَ الملك وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأحاديث فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ ثم ذكر عقيبه الدعاء وهو قوله : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ ونظيره ما فعله الخليل صلوات الله عليه في قوله : ﴿ الذى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] من هنا إلى قوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً ﴾ [الشعراء : 83] ثناء على الله ثم قوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى ﴾ إلى آخر الكلام دعاء فكذا ههنا .

المسألة الثانية :

اختلفوا في أن قوله : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ هل هو طلب منه للوفاة أو لا ؟ فقال قتادة : سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبي قط الموت قبله ، وكثير من المفسرين على هذا القول ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : في رواية عطاء يريد إذا توفيتني فتوفني على دين الإسلام ، فهذا طلب لأن يجعل الله وفاته على الإسلام وليس فيه ما يدل على أنه طلب الوفاة .

(18/403)

واعلم أن اللفظ صالح للأمرين ولا يبعد في الرجل العاقل إذا كمل عقله أن يتمنى الموت ويعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها : أن كمال النفس الإنسانية على ما بيناه في أن يكون عالماً بالإلهيات ، وفي أن يكون ملكاً ومالكاً متصرفاً في الجسمانيات ، وذكرنا أن مراتب التفاوت في هذين النوعين غير متناهية والكمال المطلق فيهما ليس إلا لله وكل ما دون ذلك فهو ناقص والناقص إذا حصل له شعور بنقصانه وذاق لذة الكمال المطلق بقي في القلق وألم الطلب ، وإذا كان الكمال المطلق ليس إلا الله ، وما كان حصوله للإنسان ممتنعاً لزم أن يبقى الإنسان أبداً في قلق الطلب وألم التعب فإذا عرف الإنسان هذه الحالة عرف أنه لا سبيل له إلى دفع هذا التعب عن النفس إلا بالموت ، فحينئذ يتمنى الموت .

والسبب الثاني : لتمنى الموت أن الخطباء والبلغاء وإن أطنبوا في مذمة الدنيا إلا أن حاصل

كلامهم يرجع إلى أمور ثلاثة : أحدها : أن هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والألم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها .

وثانيها : أنها غير خالصة بل هي ممزوجة بالمنغصات والمكدرات .

وثالثها : أن الأراذل من الخلق يشاركون الأفاضل فيها بل ربما كان حصة الأراذل أعظم بكثير من حصة الأفاضل ، فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات ، ولما عرف العاقل أنه لا سبيل إلى تحصيل هذه اللذات إلا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لا جرم يتمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات .

والسبب الثالث : وهو الأقوى عند المحققين رحمهم الله أجمعين أن هذه اللذات الجسمانية لا حقيقة لها ، وإنما حاصلها دفع الآلام ، فلذة الأكل عبارة عن دفع ألم الجوع ، ولذة الوقاع عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب الدغدغة المتولدة من حصول المني في أوعية المني .

ولذة الإمارة والرياسة عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب شهوة الانتقام وطلب الرياسة وإذا كان حاصل هذه اللذات ليس إلا دفع الألم لا جرم صارت عند العقلاء حقيرة خسيسة نازلة ناقصة وحينئذ يتمنى الإنسان الموت ليتخلص عن الاحتياج إلى هذه

الأحوال الخسيسة .

والسبب الرابع : أن مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهي ثلاثة أنواع : لذة الأكل ولذة الوقاع ولذة الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة .

أما لذة الأكل ففيها عيوب : أحدها : أن هذه اللذات ليست قوية فإن الشعور بألم القولنج الشديد والعياذ بالله منه أشد من الشعور باللذة الحاصلة عند أكل الطعام .

وثانيها : أن هذه اللذة لا يمكن بقاؤها فإن الإنسان إذا أكل شبع وإذا شبع لم يبق شوقه للالتذاذ بالأكل فهذه اللذة ضعيفة ، ومع ضعفها غير باقية .

وثالثها : أنها في نفسها خسيسة فإن الأكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع في الفم ولا شك أنه شيء منفر مستقذر ثم لما يصل إلى المعدة تظهر فيه الاستحالة إلى الفساد والنتن والعفونة ، وذلك أيضاً منفر .

ورابعها : أن جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة فيها فإن الروث في مذاق الجعل كاللوزنيج في مذاق الإنسان وكما أن الإنسان يكره تناول غذاء الجعل ، فكذلك الجعل يكره تناول غذاء الإنسان ، وأما اللذة فمشتركة فيما بين الناس .

وخامسها : أن الأكل إنما يطيب عند اشتداد الجوع وتلك حاجة شديدة والحاجة نقص وافر .

وسادسها : أن الأكل يستحقر عند العقلاء .

قيل : من كان همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه ، فهذا هو الإشارة المختصرة في معايب الأكل ، وأما لذة النكاح ، فكل ما ذكرناه في الأكل حاصل ههنا مع أشياء أخرى ، وهي أن النكاح سبب لحصول الولد ، وحينئذ تكثر الأشخاص فتكثر الحاجة إلى المال فيحتاج الإنسان بسببها إلى الاحتيال في طلب المال بطرق لا نهاية لها ، وربما صار هالكاً سبب طلب المال ، وأما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة والذي نذكره ههنا بسبب واحد وهو أن كل أحد يكره بالطبع أن يكون خادماً مأموراً ويحب أن يكون مخدوماً آمراً ، فإذا سعى الإنسان في أن يصير رئيساً آمراً كان ذلك دالاً على مخالفة كل ما سواه ، فكأنه ينازع كل الخلق في ذلك ، وهو يحاول تحصيل تلك الرياسة ، وجميع أهل الشرق والغرب يحاولون إبطاله ودفعه ، ولا شك أن كثرة الأسباب توجب قوة حصول الأثر وإذا كان كذلك كان حصول هذه الرياسة كالمعتذر ولو حصل فإنه يكون على شرف الزوال في كل حين وأوان بكل سبب من الأسباب وكان صاحبها عند حصولها في الخوف الشديد من الزوال وعند زوالها في الأسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال .

واعلم أن العاقل إذا تأمل هذه المعاني علم قطعاً أنه لا صلاح له في طلب هذه اللذات

والسعي في هذه الخيرات ألبتة .

ثم إن النفس خلقت مجبولة على طلبها ، والعشق الشديد عليها ، والرغبة التامة في الوصول إليها وحينئذ ينعقد ههنا قياف ، وهو أن الإنسان ما دام يكون في هذه الحياة الجسمانية فإنه يكون طالباً لهذه اللذات وما دام يطلبها كان في عين الآفات وفي لجة الحسرات ، وهذا اللازم مكروه فالملزوم أيضاً مكروه فحينئذ يتمنى زوال هذه الحياة الجسمانية والسبب في الأمور المرغبة في الموت أن موجبات هذه اللذة الجسمانية متكررة ولا يمكن الزيادة عليها والتكرير يوجب الملالة أما سعادات الآخرة فهي أنواع كثيرة غير متناهية .

(21/403)

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله عليه وهو مصنف هذا الكتاب أنار الله برهانه .

أنا صاحب هذه الحالة والمتوغل فيها ، ولو فتحت الباب وبالغت في عيوب هذه اللذات الجسمانية فربما كتبت المجلدات وما وصلت إلى القليل منها فلهذا السبب صرت مواظباً في أكثر الأوقات على ذكر هذا الذي ذكره يوسف عليه السلام وهو قوله : ﴿ رَبِّ قَدْ اتَيْتَنِى مِنَ الملك وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأحاديث فَاطِرَ السموات والأرض أنت ولِىِّ فِى الدنيا

والآخرة تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ .

المسألة الثالثة :

تمسك أصحابنا في بيان أن الإيمان من الله تعالى بقوله ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ وتقريره أن تحصيل الإسلام وإبقاءه إذا كان من العبد كان طلبه من الله فاسداً وتقريره كأنه يقول افعل يا من لا يفعل والمعتزلة أبداً يشنعون علينا ويقولون إذا كان الفعل من الله فكيف يجوز أن يقال للعبد افعل مع أنك لست فاعلاً ، فنحن نقول ههنا أيضاً إذا كان تحصيل الإيمان وإبقاؤه من العبد لا من الله تعالى ، فكيف يطلب ذلك من الله قال الجبائي والكعبي معناه : اطلب اللطف لي في الإقامة على الإسلام إلى أن أموت عليه .

فهذا الجواب ضعيف لأن السؤال وقع على السلام فحمله على اللطف عدول عن الظاهر وأيضاً كل ما في المقدور من الألطاف فقد فعله فكان طلبه من الله محالاً .

المسألة الرابعة :

لقائل أن يقول : الأنبياء عليهم السلام يعلمون أنهم يموتون لا محالة على الإسلام ، فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وأنه لا يجوز .

والجواب : أحسن ما قيل فيه أن كمال حال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الإسلام ويرضى بقضاء الله وقدره ، ويكون مطمئن النفس منشرح الصدر منفسح القلب في هذا الباب ، وهذه الحالة زائدة على الإسلام الذي هو ضد

الكفر ، فالمطلوب ههنا هو الإسلام بهذا المعنى .

المسألة الخامسة :

(22/403)

أن يوسف عليه السلام كان من أكابر الأنبياء عليهم السلام ، والصلاح أول درجات المؤمنين ، فالواصل إلى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية .

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين : يعني بآبائه إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب ، والمعنى : ألحقني بهم في ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم ، وههنا مقام آخر من تفسير هذه الآية على لسان أصحاب المكاشفات ، وهو أن النفوس المفارقة أذا أشرقت بالأنوار الإلهية واللوامع القدسية ، فإذا كانت متناسبة متشاكلة انعكس النور الذي في كل واحدة منها إلى الأخرى بسبب تلك الملازمة والمجانسة ، فتعظم تلك الأنوار وتقوى تلك الأضواء ، ومثال تلك الأحوال المرآة الصقيلة الصافية إذا وضعت وضعاً متى أشرقت الشمس عليها انعكس الضوء من كل واحدة منها إلى الأخرى ، فهناك يقوى الضوء ويكمل النور ، وينتهي في الإشراق والبريق اللمعان إلى حد لا تطيقه العيون والأبصار الضعيفة ، فكذا ههنا .

انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 172 . 177﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾

فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن الملك هو احتياج حساده إليه ، قاله ابن عطاء .

الثاني : أراد تصديق الرؤيا التي رآها .

الثالث : أنه الرضا بالقضاء والقناعة بالعطاء .

الرابع : أنه أراد مُلْك الأرض وهو الأشهر . وإنما قال من الملك لأنه كان على مصر من قبل فرعون .

﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عبارة الرؤيا . قاله مجاهد .

الثاني : الإخبار عن حوادث الزمان ، حكاه ابن عيسى .

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي خالقهما .

﴿ أنت وليّي في الدنيا والآخرة ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : مولاي .

الثاني : ناصري . ﴿ توفني مسلماً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني مخلصاً للطاعة ، قاله الضحاك .

الثاني : على ملة الإسلام . حكى الحسن أن البشير لما أتى يعقوب قال له يعقوب عليه السلام : على أي دين خلفت يوسف ؟ قال : على دين الإسلام . قال : الآن تمت النعمة .

﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بأهل الجنة ، قاله عكرمة .

الثاني : بآبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، قاله الضحاك .

قال قتادة والسدي : فكان يوسف أول نبي تمنى الموت .

وقال محمد بن إسحاق : مكث يعقوب بأرض مصر سبع عشرة سنة . وقال ابن عباس مات يعقوب بأرض مصر وحمل إلى أرض كنعان فدفن هناك . ودفن يوسف بأرض مصر ولم يزل بها حتى استخرج موسى عظامه وحملها فدفنها إلى جنب يعقوب عليهم السلام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(24/403)

وقال ابن عطية :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

قرأ ابن مسعود " آتيتن " و " علمتن " بحذف الياء على التخفيف ، وقرأ ابن ذر " رب آتيتني " بغير " قد " .

وذكر كثير من المفسرين : أن يوسف عليه السلام لما عدد في هذه الآية نعم الله عنده تشوق إلى لقاء ربه ولقاء الجلة وصالحي سلفه وغيرهم من المؤمنين ، ورأى أن الدنيا كلها قليلة فتمنى الموت في قوله : ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ وقال ابن عباس : " لم يتمن الموت نبي غير يوسف " ، وذكر المهدوي تأويلاً آخر - وهو الأقوى عندي - أن ليس في الآية تمني موت - وإنما عدد يوسف عليه السلام نعم الله عنده ثم دعا أن يتم عليه النعم في باقي عمره أي ﴿ توفني ﴾ - إذا حان أجلي - على الإسلام ، واجعل لحاقي بالصالحين ، وإنما تمنى الموافاة على الإسلام لا الموت . وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضرّ نزل به " الحديث بكماله . وروي عنه عليه السلام أنه قال في بعض دعائه : " وإذا أردت في الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون " ، وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال : اللهم قد رقّ عظمي وانتشرت وعييت فتوفني غير مقصر ولا عاجز .

قال القاضي أبو محمد : فيشبه أن قول النبي صلى الله عليه وسلم : لضر نزل به - إنما يريد ضرر الدنيا كالفقر والمرض ونحو ذلك ويبقى تمني الموت مخافة فساد الدين مباحاً ، ويدلك

على هذا قول النبي عليه السلام : " يأتي على الناس زمان يمر فيه الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه ، ليس به الدين لكن ما يرى من البلاء والفتن " .

قال القاضي أبو محمد : فقوله : ليس به الدين – يقتضي إباحة ذلك أن لو كان عن الدين وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حالة الناس كيف تكون .

(25/403)

وقوله : ﴿ آتيتني من الملك ﴾ قيل : ﴿ من ﴾ للتبعيض وقيل : لبيان الجنس ؛ وكذلك في قوله : ﴿ من تأويل الأحاديث ﴾ المراد بقوله : ﴿ الأحاديث ﴾ الأحلام ، وقيل : قصص الأنبياء والأمم .

وقوله : ﴿ فاطر ﴾ منادى ، وقوله ﴿ أنت وليي ﴾ أي القائم بأمري الكفيل بنصرتي ورحمتي . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(26/403)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الملك وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾

قال قَتَادة : لم يتمنّ الموت أحدٌ ؛ نبيّ ولا غيره إلاّ يوسف عليه السلام ؛ حين تكاملت عليه النِّعم وجمع له الشمل اشتاق إلى لقاء ربه عزّ وجلّ .

وقيل : إن يوسف لم يتمنّ الموت ، وإنما تمنّى الوفاة على الإسلام ؛ أي إذا جاء أَجَلِي تَوَفَّنِي مسلماً ؛ وهذا قول الجمهور .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : لا يتمنى الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفرّ من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاقٌ محبٌّ للقاء الله عزّ وجلّ .

وثبت في الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يتمنّين أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به فإن كان لا بدّ متمنياً فليقل اللهم أَحْيني ما كانت الحياة خيراً لي وتَوَفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي " رواه مسلم .

وفيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يتمنّى أحدكم الموت ولا يَدْعُ به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمِنَ عُمُره إلا خيراً " .

وإذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام تمنى الموت والخروج من الدنيا وقطع العمل ؟ هذا بعيدا إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزاً في شرعه ؛ أَمَا أنه يجوز تمنّي الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها ، وخوف ذهاب الدين ، على ما بيّناه في كتاب

"التذكرة" و"مِنَ" من قوله : "مِنَ الْمُلْكِ" للتبعيض ، وكذلك قوله : "وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأحاديث" لأن مُلْك مصر ما كان كل الْمُلك ، وعلم التّعبير ما كان كلّ العلوم .

وقيل : "مِنَ" للجنس كقوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] .

وقيل : للتأكيد .

أي آتيتني الملك وعلمتني تأويل الأحاديث .

(27/403)

قوله تعالى : ﴿ فَاطِرَ السماوات والأرض ﴾ نصب على النعت للنداء ، وهو ربّ ، وهو نداء مضاف ؛ والتقدير : يا رب ويجوز أن يكون نداء ثانياً .

والفاطر الخالق ؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات ، أي خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء ، ولا مثال سبق ؛ وقد تقدّم هذا المعنى في "البقرة" مستوفى ؛ عند قوله : "بَدِيعُ السَّمَوَاتِ والأَرض" وزدناه بياناً في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .

﴿ أَنتَ وَلِيّي ﴾ أي ناصري ومتولّي أموري في الدنيا والآخرة .

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ يريد آباءه الثلاثة ؛ إبراهيم وإسحق ويعقوب ،

فتوفاه الله طاهراً طيباً صلى الله عليه وسلم بمصر ، ودُفن في النيل في صندوق من رخام ؛ وذلك أنه لما مات تَشاحّ الناس عليه ؛ كلٌّ يحب أن يدفن في مَحَلّتهم ، لما يرجون من بركته ؛ واجتمعوا على ذلك حتى همُّوا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه في النّيل من حيث مَفرِق الماء بمصر ، فيمرّ عليه الماء ، ثم يتفرّق في جميع مصر ، فيكونوا فيه شَرَعاً ففعلوا ؛ فلما خرج موسى ببني إسرائيل أخرجه من النيل : ونقل تابوته بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آبائه لدعوته : "وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ" وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام .

وعن الحسن قال : أُلقي يوسف في الجبّ وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان في العبودية والسّجن والملك ثمانين سنة ، ثم جُمع له شمله فعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ؛ وكان له من الولد إفراثيم ، ومنشا ، ورحمة ، زوجة أيوب ؛ في قول ابن لَهِيعة .

قال الزّهريّ : وولد لإفراثيم بن يوسف نون بن إفراثيم ، وولد لنون يوشع ؛ فهو يوشع بن نون ، وهو فتى موسى الذي كان معه صاحب أمره ، ونبأه الله في زمن موسى عليه السلام ؛ فكان بعده نبياً ، وهو الذي افتتح أرِيحا ، وقَتل من كان بها من الجبابرة ، واستوقفت له الشمس حسب ما تقدّم في "المائدة" .

وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا ، قبل موسى بن عمران .

وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذي طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه ، والعالم هو الذي خرق السفينةِ ، وقتل الغُلامَ ، وبنَى الجدارَ ، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ ؛ وكان ابن عباس ينكر ذلك ؛ والحق الذي قاله ابن عباس ؛ وكذلك في القرآن .

ثم كان بين يوسف وموسى أمم وقرون ، وكان فيما بينهما شعيب ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(29/403)

وقال الخازن :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

﴿ رب ﴾ أي يا رب ﴿ قد آتيتني من الملك ﴾ يعني من ملك مصر ومن هنا للتبعيض لأنه لم يؤت ملك مصر كله بل كان فوقه ملك آخر والملك عبارة عن الاتساع في المقدور لمن له السياسة والتدبير ﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾ يعني تعبير الرؤيا ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ يعني خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق .

وأصل الفطر الشق يقال فطر ناب البعير إذا شق وظهر وفطر الله الخلق أوجده وأبدعه ﴾

أنت وليي ﴾ يعني معيني ومتولي أمري ﴿ في الدنيا والآخرة توفني مسلماً ﴾ أي اقبضني إليك مسلماً .

واختلفوا هل هو طلب للوفاة في الحال أم لا على قولين :

أحدهما : أنه سأل الله الوفاة في الحال ، قال قتادة : لم يسأل نبي من الأنبياء الموت إلا يوسف قال أصحاب هذا القول وإنه لم يأت عليه أسبوع حتى توفي .

والقول الثاني : أنه سأل الوفاة على الإسلام ولم يتمن الموت في الحال قال الحسن إنه عاش بعد هذه سنين كثيرة فعلى هذا القول يكون معنى الآية توفني إذا توفتني على الإسلام فهو طلب لأن يجعل الله وفاته على الإسلام وليس في اللفظ ما يدل على أنه طلب الوفاة في الحال ، قال بعض العلماء وكلا القولين محتمل لأن اللفظ صالح للأمرين ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل أن يتمنى الموت لعلمه أن الدنيا ولذاتها فانية زائلة سريعة الذهاب وأن نعيم الآخرة باق دائم لا نفاذ له ولا زوال ولا يمنع من هذا قوله (صلى الله عليه وسلم) "لا يتمن أحدكم الموت لضر نزل به" فإن تمني الموت عند وجود الضر ونزول البلاء مكروه والصبر عليه أولى وقوله : ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ أراد به بدرجة آبائه وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم

الصلاة والسلام قال علماء التاريخ عاش يوسف مائة وعشرين سنة وفي التوارة مائة وعشر سنين وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد أفراثيم وميشا ورحمة امرأة أيوب وقيل عاش بعد أبيه ستين سنة وقيل أكثر .

ولما مات يوسف دفنوه في النيل في صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر وذلك أنه لما مات يوسف تشاحن الناس فيه فطلب كل أهل محلة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته حتى هموا أن يقتتلوا ثم رأوا أن يدفنوه في النيل بحيث يجري الماء عليه ويتفرق عنه وتصل بركته إلى جميعهم وقال عكرمة إنه دفن في الجانب الأيمن من النيل فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر فنقل إلى الجانب الإيسر فأخصب وأجدب الجانب الأيمن فدفنوه في وسط النيل وقدروه بسلسلة فأخصب الجانبان فبقي إلى أن أخرجه موسى وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام في الأرض المقدسة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(31/403)

وقال أبو حيان :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾

ومن في قوله من الملك ، وفي من تأويل للتبعيض ، لأنه لم يؤته إلا بعض ملك الدنيا ، ولا علمه إلا بعض التأويل .

ويبعد قول من جعل من زائدة ، أو جعلها البيان الجنس ، والظاهر أن الملك هنا ملك مصر .

وقيل : ملك نفسه من إنفاذ شهوته .

وقال عطاء : ملك حساده بالطاعة ، ونيل الأماني من الملك .

وقرأ عبد الله ، وعمرو بن ذر : آتيتن ، وعلمتن بحذف الياء منهما اكتفاء بالكسرة عنهما ، مع كونهما ثابتتين خطاً .

وحكى ابن عطية عن ابن ذرانة : قرأ رب آتيتني بغير قد ، وانتصب فاطر على الصفة ، أو على النداء .

وأنت وليي تتولاني بالنعمة في الدارين ، وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي .

وذكر كثير من المفسرين أنه لما عد نعم الله عنده تشوق إلى لقاء ربه ولحاقه بصالحي سلفه ، ورأى أنّ الدنيا كلها فانية فتمنى الموت .

وقال ابن عباس : لم يتمن الموت حي غير يوسف ، والذي يظهر أنه ليس في الآية تمنى الموت ، وإنما عدد نعمه عليه ، ثم دعا أن يتم عليه النعم في باقي أمره أي : توفني إذا حان أجلي على الإسلام ، واجعل لحاقي بالصالحين .

وإنما تمنى الوفاة على الإسلام لا الموت ، والصالحين أهل الجنة أو الأنبياء ، أو آباؤه إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

وعلماء التاريخ يزعمون أنّ يوسف عليه السلام عاش مائة عام وسبعة أعوام ، وله من الولد : افراثيم ، ومنشا ، ورحمة زوجة أيوب عليه السلام .

قال الذهبي : وولد لافراثيم نون ، ولنون يوشع ، وهو فتى موسى عليه السلام .

وولد لمنشأ موسى ، وهو قبل موسى بن عمران عليه السلام .

ويزعم أهل التوراة أنه صاحب الخضر ، وكان ابن عباس ينكر ذلك .

وثبت في الصحيح أن صاحب الخضر هو موسى بن عمران ، وتوارثت الفراعنة ملك مصر ، ولم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف عليه السلام إلى أن بعث موسى عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(32/403)

وقال أبو السعود :

﴿ رَبّ قَدْ اتَيْتَنِى مِنَ الملك ﴾

أي بعضاً منه عظيماً وهو ملكُ مصرَ ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الاحاديث ﴾ أي بعضاً من

ذلك كذلك إن أريد بتعليم تأويلِ الأحاديث تفهيمُ غوامضِ أسرارِ الكتب الإلهية ودقائقِ سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالترتيبُ ظاهر ، وأما إن أريد به تعليمُ تعبيرِ الرؤيا كما هو الظاهرُ فلعل تقديمَ إيتاءِ الملك عليه في الذكر لأنه بمقام تعدادِ النعم الفائضةِ عليه من الله سبحانه والمُلكُ أعرقُ في كونه نعمةً من التعليم المذكور وإن كان ذلك أيضاً نعمةً جليلةً في نفسه ، ولا يمكن تمشيةُ هذا الاعتذارِ فيما سبق لأن التعليمَ هناك واردٌ على نهج العلة الغائيةِ للتمكين فإن حُمل على معنى التمليك لزم تأخُره عنه ، وأما الواقعُ ها هنا فمجردُ التأخيرِ في الذكر والعطفُ بحرف الواو ، ولا يستدعي ذلك الترتيبَ في الوجود ﴿ فَاطِرَ السموات وَالأَرْضِ ﴾ مُبدعَهما وخالقَهما ، نُصب على أنه صفةٌ للمنادى ، أو منادى آخرُ وصفه تعالى به بعد وصفِه بالربوبية مبالغةً في ترتيب مبادىء ما يعقُبه من قوله : أَنتَ وَلِيّي ﴾ مالكُ أموري ﴿ فِى الدنيا والآخرة ﴾ أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما وإذ قد أتممتَ عليّ نعمة الدنيا ﴿ تَوَفَّنِى ﴾ اقبِضْني ﴿ مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامةِ فإنما تتم النعمةُ بذلك ، قيل : لما دعا توفاه الله عز وجل طيباً طاهراً فتخاصم أهلُ مصرَ في دفنه وتشاحّوا في ذلك حتى همّوا بالقتال فرأوا أن يصنعوا له تابوتاً من مَرمر فجعلوه فيه ودفنوه في النيل ليمُرَّ عليه ثم يصلَ إلى مصر ليكونوا شرعاً واحداً في التبرك به ، ووُلد له أفراييم وميشا ، ولأفراييم نونٌ ، ولنونٍ يوشعُ فتى موسى عليه الصلاة والسلام ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعده مصر ولم يزل بنو

إسرائيلَ تحت أيديهم على بقايا دين يوسفَ وآبائِه إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(33/403)

وقال الآلوسى :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾

أي بعضاً عظيماً منه فمن للتبعيض ويبعد القول بزيادتها أو جعلها لبيان الجنس والتعظيم من مقتضيات المقام ، وبعضهم قدر عظيماً في النظم الجليل على أن مفعول به كما نقل أبو البقاء وليس بشيء ، والظاهر أنه أراد من ذلك البعض ملك مصر ومن ﴿ الملك ﴾ ما يعم مصر وغيرها ، ويفهم من كلام بعضهم جواز أن يراد من الملك مصر ومن البعض شيء منها وزعم أنه لا ينافي قوله تعالى : ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرض يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء ﴾ [يوسف : 56] لأنه لم يكن مستقلاً فيه وإن كان ممكناً فيه وفيه تأمل ، وقيل : أراد ملك نفسه من إنفاذ شهوته ، وقال عطاء ملك حساده بالطاعة ونيل الأماني وليس بذاك ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الاحاديث ﴾ أي بعضاً من ذلك كذلك ، والمراد بتأويل الأحاديث أما تعليم تعبي الرؤيا وهو الظاهر وإما تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهية ودقائق سنن

الأنبياء ، وعلى التقديرين لم يؤت عليه السلام جميع ذلك ، والترتيب على غير الظاهر ظاهر وأما على الظاهر فلعل تقديم إيتاء الملك على ذلك في الذكر لأنه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه من الله سبحانه والملك أعرق في كونه نعمة من التعليم المذكور وإن كان ذلك أيضاً نعمة جليلة في نفسه فتذكر وتأمل .

(34/403)

وقرأ عبد الله وابن ذر ﴿ آتيتن وعلمتن ﴾ بحذف الياء فيهما اكتفاء بالكسرة ، وحكى ابن عطية عن الأخير ﴿ رَبِّ قَدْ ءاتَيْتَنِى ﴾ بغير ﴿ قَدْ ﴾ ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما وخالقهما ، ونصبه على أنه نعت لرب أو بدل أو بيان أو منصوب بأعني أو منادي ثان ، ووصفه تعالى به بعد وصفه بالربوبية مبالغة في ترتيب مبادىء ما يعقبه من قوله : ﴿ رَبِّ قَدْ ﴾ متولى أموري ومتكفل بها أو موالي لي وناصر ﴿ فِى الدنيا والاخرة ﴾ فالولي إما من الولاية أو الموالاة ، وجوز أن كيون بمعنى الموالي كالمعطي لفظاً ومعنى أي الذي يعطيني نعم الدنيا والآخرة ﴿ تَوَفَّنِى ﴾ أقبضني ﴿ مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ من آبائي على ما روى عن ابن عباس أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة كما قيل ، واعترض بأن يوسف عليه السلام من كبار الأنبياء عليهم السلام والصلاح أول درجات

المؤمنين فكيف يليق به أن يطلق اللحاق بمن هو في البداية ؟ وأجيب بأنه عليه السلام طلبه هضماً لنفسه فسبيله سبيل استغفار الأنبياء عليهم السلام ، ولا سؤال ولا جواب إذا أريد من الصالحين آباؤه الكرام يعقوب وإسحق وإبراهيم عليه السلام ، وقال الإمام : ههنا وههنا مقام آخر في الآية على لسان أصحاب المكاشفات وهو أن النفوس المفارقة إذا أشرقت بالأنوار الإلهية واللوامع القدسية فإذا كانت متناسبة متشاكلة انعكس النور الذي في كل واحد منها إلى الأخرى بسبب تلك الملاءمة والمجانسة فعظمت تلك الأنوار وتقوت هاتيك الأضواء ، ومثال ذلك المرايا الصقيلة الصافية إذا وصفت وصفاً متى أشرقت الشمس عليها انعكس الضوء من كل واحد منها إلى الأخرى فهناك يقوى الضوء ويكمل النور وينتهي في الإشراق والبريق إلى حد لا تطيقه الأبصار الضعيفة فكذلك ههنا انتهى .

(35/403)

وهو كما ترى ، والحق أن يقال : إن الصلاح مقول بالتشكيك متفاوت قوة وضعفاً والمقام يقتضي أنه عليه السلام أراد بالصالحين المتصفين بالمرتبة المعتنى بها من مراتب الصلاح ، وقد قدمنا ما عند أهل المكاشفات في الصلاح فارجع إليه .

(36/403)

بقي أن المفسرين اختلفوا في أن هذا هل هو منه عليه السلام تمنى للموت وطلب منه أم لا ؟ فالكثير منهم على أنه طلب وتمنى لذلك ، قال الإمام : ولا يبعد من الرجل العاقل إذا كمل عقله أن يتمنى الموت وتعظم رغبته فيه لأنه حينئذ يحس بنقصانه مع شغفه بزواله وعلمه بأن الكمال المطلق ليس إلا لله تعالى فيبقى في قلق لا يزيله إلا الموت فيتمناه ، وأيضاً يرى أن السعادة الدنيوية سريعة الزوال مشرفة على الفناء والألم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها مع أنه ليس هناك لذة إلا وهي ممزوجة بما ينغصها بل لو حققت لا ترى لذة حقيقية في هذه اللذائذ الجسمانية وإنما حاصلها دفع الآلام ، فلذة الأكل عبارة عن دفع ألم الجوع ، ولذة النكاح عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب الدغدغة المتولدة من حصول المني في أوعيته ، وكذا الإمارة والرياسة يدفع بها الألم الحاصل بسبب شهوة الانتقام ونحو ذلك ، والكل لذلك خسيس وبالموت التخلص عن الاحتياج إليه ، على أن عمدة الملاذ الدنيوية الأكل والجماع والرياسة والكل في نفسه خسيس معيب ، فإن الأكل عبارة عن ترطيب الطعام بالبزاق المجتمع في الفم ولا شك أنه مستقذر في نفسه ؛ ثم حينما يصل إلى المعدة يظهر فيه الاستحالة والتعفن ومع ذا يشارك الإنسان فيه الحيوانات الخسيسة فيلتذ الجعل بالروث التذاذ الإنسان باللوزينج ، وقد قال العقلاء : من كان همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه ، والجماع نهاية ما يقال فيه : إنه إخراج فضلة متولدة من

الطعام بمعونة جلدة مدبوغة بالبول ودم الحيض والنفاس مع حركات لو رأيتها من غيرك لأضحكتك ، وفيه أيضاً تلك المشاركة وغاية ما يرجى من ذلك تحصيل الولد الذي يجر إلى شغل البال والتحيل لجمع المال ونحو ذلك ، والرياسة إذا لم يكن فيها سوى أنها على شرف الزوال في كل آن لكثرة من ينازع فيها ويطمح نظره إليها فصاحبها لم يزل خائفاً وجلا من ذلك لكفاها عيباً ، وقد يقال أيضاً ؛

(37/403)

إن النفس خلقت مجبولة على طلب اللذات والعشق الشديد لها والرغبة التامة في الوصول إليها فما دام في هذه الحياة الجسمانية يكون طالباً لها وما دام كذلك فهو في عين الآفات ولجة الحسرات ، وهذا اللازم مكروه والملزوم مثله فلهذا يتمنى العاقل زوال هذه الحياة الجسمانية ليستريح من ذلك النصب ، ولله تعالى قول من قال : وقال :

ضجعة الموت رقدة يستريح ال . . .

جسم فيها والعيش مثل السهاد

تعب كلها الحياة فما أع . . .

ب إلا من راغب في ازدياد

إن حزناً فس ساعة الفوت أضعا . . .

ف سرور في ساعة الميلاد

وقد ذكر غير واحد أن تمني الموت حباً للقاء الله تعالى مما لا بأس به ، وقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله تعالى عنها : " من أحب لقاء الله تعالى أحب الله تعالى لقاءه " الحديث .

نعم تمنى الموت عند نزول اللابء منتهى عنه ففي الخبر لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، وقال قوم : إنه عليه السلام لم يتمن الموت وإنما عدد نعم الله تعالى عليه ثم دعا بأن تدوم تلك النعم في باقي عمره حتى إذا حان أجله قبضه على الإسلام وألحقه بالصالحين .

والحاصل أنه عليه السلام إنما طلب الموافاة على الإسلام لا الوفاة ، ولا يرد على القولين أنه من المعلوم أن الأنبياء عليهم السلام لا يموتون إلا مسلمين أما لأن الإسلام هنا بمعنى الاستسلام لكل ما قضاه الله تعالى أو لأن ذلك بيان لأنه وإن لم يتخلف ليس إلا بإرادة الله تعالى ومشيئته والذاهبون إلى الأول قالوا إنه عليه السلام لم يأت عليه أسبوع حتى توفاه الله تعالى وكان الحسن يذهب إلى القول الثاني ويقول : إنه عليه السلام عاش بعد هذا القول

سنين كثيرة وروى المؤرخون أن يعقوب عليه السلام أقام مع يوسف أربعاً وعشرين سنة ثم توفى وأوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه فذهب به ودفنه ثمت وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة وقيل: أكثر ثم تاقت نفسه إلى الملك المخلد فتمنى الموت فتوفاه الله تعالى طيباً طاهراً فتخاصم أهل مصر في مدفنه حتى هموا بالقتال فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل بحيث يمر عليه الماء ثم يصل إلى مصل ليكونوا شرعاً فيه ففعلوا ثم أراد موسى عليه السلام نقله إلى مدفن آبائه فأخرجه بعد أربعمائة سنة على ما قيل: من صندوق المرمر لثقله وجعله في تابوت من خشب ونقله إلى ذلك، وكان عمره مائة وعشرين سنة، وقيل: مائة وسبع سنين، وقد ولد له من امرأة العزيز افراثيم وهو جد يوشع عليه السلام.

وميشا ورحمة زوجة أيوب عليه السلام، ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعده مصر ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه عليهم السلام إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه السلام فكان ما كان.

وفي التوراة أن يوسف عليه السلام أسكن أباه وإخوته في مكان يقال له عين شمس من أرض السدير وبقي هناك سبع عشرة سنة وكان عمره حين دخل مصر مائة وثلاثين سنة ولما قرب أجله دعا يوسف عليه السلام فجاء ومعه ولداه منشا وهو بكره وافرايم فقدمهما إليه ودعا لهما ووضع يده اليمنى على رأس الأصغر واليسرى على رأس الأكبر وكان يوسف يحب عكس ذلك فكلم أباه فيه فقال : يا بني إني لأعلم أن ما يتناسل من هذا الأصغر أكثر مما يتناسل من هذا الأكبر ودعا ليوسف عليه السلام وبارك عليه وقال ؛ يا بني إني ميت كان الله تعالى معكم وردكم إلى بلد أبيكم يا بني إذا أنا مت فلا تدفنني في مصر وادفني في مقبرة آبائي وقال : نعم يا أبا وحلف له ثم دعا سائر بنيه وأخبرهم بما ينالهم في أيامهم ثم أوصاهم بالدفن عند آبائه في الأرض التي اشتراها إبراهيم عليه السلام من عفرون الحتى في أرض الشام وجعلها مقبرة ، وبعد أن فرغ من وصيته عليه السلام توفي فانكب يوسف عليه السلام عليه يقبله ويبكى وأقام له حزناً عظيماً وحزن عليه أهل مصر كثيراً ثم ذهب به يوسف وإخوته وسائر آله سوى الأطفال ومعهم قواد الملك ومشايخ أهل مصر ودفنوه في المكان الذي أراد ثم رجعوا ، وقد توهم إخوة يوسف منه عليه السلام أن يسيء المعاملة معهم بعد موت أبيهم عليه السلام فلما علم ذلك منهم قال لهم : لا تخافوا إني أخاف الله تعالى ثم عزاهم وجبر قلوبهم ثم أقام هو وآل أبيه بمصر وعاش مائة وعشر سنين حتى رأى لافرايم ثلاثة بنين وولد بنو ماخير بن منشا في حجره أيضاً ، ثم لما أحس بقرب

أجله قال لإخوته : إني ميت والله سبحانه سيذكركم ويردكم إلى البلد الذي أقسم أن يملكه إبراهيم وإسحق .

ويعقوب فإذا ذكركم سبحانه وردكم إلى ذلك البلد فاحملوا عظامي معكم ثم توفى عليه السلام فحنطوه وصيروه في تابوت بمصر وبقى إلى زمن موسى عليه السلام فلما خرج حمله حسبما أوصى عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(40/403)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾

قوله : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ ﴾ لعلّ في الكلام محذوفاً مقدّراً ، وهو : فرحل يعقوب وأولاده وأهله إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، أي : ضمهما وأنزلهما عنده ، قال المفسرون : المراد بالأبوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف ؛ لأن أمه قد كانت ماتت في ولادتها لأخيه بنيامين ، كما تقدّم .

وقيل : أحيا الله له أمه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له ﴿ وَقَالَ ادخلوا مِصْرَ إِن شَاء الله آمنين ﴾ مما تكرهون ، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ، ولا يدخلونها إلاّ بجواز

منهم .

قيل : والتقييد بالمشيئة عائد إلى الأمن ، ولا مانع من عوده إلى الجميع ؛ لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، كما أنهم لا يكونون آمنين إلاّ بمشيئته .

وقيل : إن التقييد بالمشيئة راجع إلى قوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى ﴾ وهو بعيد ،

وظاهر النظم القرآني : أن يوسف قال لهم هذه المقالة ، أي : ادخلوا مصر قبل دخولهم ،

وقد قيل في توجيه ذلك : أنه تلقاهم إلى خارج مصر ، فوقف منتظراً لهم في مكان أو خيمة ، فدخلوا عليه ف ﴿ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادخلوا مِصْرَ ﴾ فلما دخلوا مصر ودخلوا عليه دخولاً آخر في المكان الذي له بمصر ﴿ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش ﴾ أي : أجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه كما هو عادة الملوك .

﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدَا ﴾ أي : الأبوان والأخوة ، والمعنى : أنهم خرّوا ليوسف سجداً ، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم منزلاً منزلة التحية .

وقيل : لم يكن ذلك سجوداً بل هو مجرد إيماء ، وكانت تلك تحيتهم ، وهو يخالف معنى : وخرّوا له سجداً ، فإن الخرور في اللغة المقيد بالسجود لا يكون إلاّ بوضع الوجه على الأرض .

وقيل: الضمير في قوله: ﴿ له ﴾ راجع إلى الله سبحانه، أي: وخرّوا لله سجداً، وهو بعيد جداً.

وقيل: إن الضمير ليوسف، واللام للتعليل أي: وخرّوا لأجله سجداً، وفيه أيضاً بعد؛ وقال يوسف: ﴿ يأَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رؤياى ﴾ يعني: التي تقدّم ذكرها ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبل هذا الوقت ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبّى حَقّاً ﴾ بوقوع تأويلها على ما دلت عليه ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بَى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السجن ﴾ الأصل أن يتعدّى فعل الإحسان بإلى، وقد يتعدّى بالباء كما في قوله تعالى: ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ [الإسراء: 23]، وقيل: إنه ضمن أحسن معنى لطف أي: لطف بي محسناً، ولم يذكر إخراجه من الجبّ، لأن في ذكره نوع تثريب للإخوة، وقد قال: لا تثريب عليكم.

وقد تقدّم سبب سجنه ومدّة بقائه فيه، وقد قيل: إن وجه عدم ذكر إخراجه من الجبّ أن المنة كانت في إخراجه من السجن أكبر من المنة في إخراجه من الجبّ، وفيه نظر، ﴿ وَجَاء بِكُمْ مّنَ البدو ﴾ أي: البادية، وهي أرض كنعان بالشام، وكانوا أهل مواش وبرية، وقيل: إن الله لم يبعث نبياً من البادية، وأن المكان الذي كان فيه يعقوب يقال له: بدا، وإياه عني جميل بقوله:

وأنت الذي حببت شعباً إلى بدا . . . إليّ وأوطاني بلاد سواهما

وفيه نظر ، ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشيطان بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى ﴾ أي : أفسد بيننا وحمل بعضنا على بعض ، يقال : نزغه : إذا نخسه ، فأصله من نخس الدابة ليقوى مشيها .

وأحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تكرماً منه وتأدّباً ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء ﴾ اللطيف : الرفيق ، قال الأزهري : اللطيف من أسماء الله تعالى معناه : الرفيق بعباده ، يقال : لطف فلان بفلان يلطف : إذا رفق به ، وقال عمرو بن أبي عمرو : اللطيف : الذي يوصل إليك أربك في لطف .

(42/403)

قال الخطابي : اللطيف هو البرّ بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون .

وقيل : اللطيف : العالم بدقائق الأمور .

ومعنى ﴿ لما يشاء ﴾ : لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم الحكيم ﴾ أي : العليم بالأمور ، الحكيم في أفعاله .

ولما أتم الله نعمته على يوسف عليه السلام بما أخلصه منه من المحن العظيمة ، وبما خوّله من الملك ، وعلمه من العلم ، تاقت نفسه إلى الخير الأخروي الدائم الذي لا ينقطع ، فقال : ﴿

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الملك ﴾ " من " للتبعيض ، أي : بعض الملك ، لأنه لم يؤت كل الملك ، إنما أوتي ملكاً خاصاً ، وهو ملك مصر في زمن خاص ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ أي : بعضها ، لأنه لم يؤت جميع علم التأويل ، سواء أريد به مطلق العلم والفهم ، أو مجرد تأويل الرؤيا .

وقيل : " من " للجنس ، كما في قوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] .

وقيل : زائدة أي : آتيتني الملك وعلمتني تأويل الأحاديث ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ منتصب على أنه صفة لربّ ، لكونه منادى مضافاً ، ويجوز أن يكون انتصابه على أنه منادى بحرف مقدّر ، أي : يا فاطر ، والفاطر : الخالق والمنشىء والمخترع والمبدع ﴿ أنت وليى ﴾ أي : ناصري ومتولي أموري ﴿ فِى الدنيا والآخرة ﴾ تتولانى فيهما ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ أي : توفني على الإسلام لا يفارقني حتى أموت ، وألحقني بالصالحين من النبيين من آبائي وغيرهم فأظفر بثوابهم منك ودرجاتهم عندك .

وقيل : إنه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله عزّ وجلّ .

وقيل : كان عمره عند أن ألقي في الجبّ سبع عشرة سنة ، وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة إلى قدوم أبيه يعقوب عليه ، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره

المقدار الذي سيأتي وتوفاه الله .

قيل : لم يتمنّ الموت أحد غير يوسف لا نبيّ ولا غيره .

(43/403)

وذهب الجمهور إلى أنه لم يتمنّ الموت بهذا الدعاء ، وإنما دعا ربه أن يتوفاه على الإسلام ، ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله .

وقد أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة قال : دخل يعقوب مصر في ملك يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة ، وعاش في ملكه ثلاثين سنة ، ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة .

قال أبو هريرة : وبلغني أنه كان عمر إبراهيم خليل الله مائة وخمساً وتسعين سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ آوى إليه أبويه ﴾ قال : أبوه وأمه ضمهما .

وأخرجا عن وهب قال : أبوه وخالته ، وكانت توفيت أمّ يوسف في نفاس أخيه بنيامين .

وأخرج أبو الشيخ نحوه عن سفيان بن عيينة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش ﴾ قال : السرير .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عدي بن حاتم في قوله : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ قال : كانت تحية من كان قبلكم فأعطاكم الله السلام مكانها .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة نحوه ، وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن زيد قال : ذلك سجود تشرفة كما سجدت الملائكة تشرفة لآدم ، وليس سجود عبادة .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ قال : لطيف ليوسف ، وصنع له حين أخرجه من السجن ، وجاء بأهله من البدو ، ونزع من قلبه نزغ الشيطان وتحريشه على إخوته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ما سأل نبيّ الوفاة غير يوسف .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عنه قال : اشتاق إلى لقاء الله ، وأحب أن يلحق به وبآبائه ، فدعا الله أن يتوفاه ، وأن يلحقه بهم .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ قال : يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : يعني أهل الجنة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾

أي : بعضاً منه عظيماً ، وهو ملك مصر : ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أي : تعبير الرؤيا : ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : مبدعهما وخالقهما : ﴿ أَنتَ وَلِيِّي ﴾ أي : مالك أموري : ﴿ فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أي : من النبيين والمرسلين . دعا يوسف عليه السلام بهذا الدعاء لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته وما آثره به من العلم والملك ، فسأل ربه عز وجل ، كما أتم عليه نعمته في الدنيا ، أن يحفظها عليه باقي عمره ، حتى إذا حان أجله قبضه على الإسلام ، وألحقه بالصالحين . فليس فيه تمنٍّ للموت ، وطلب التوفي منجزاً كما قيل .

روى الإمام أحمد والشيخان عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إن كان محسناً فيزداد ، وإن كان مسيئاً فلعله يستعتب ، ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي > . وفي رواية : < وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي > .

تنبيهان :

الأول : في فقه هذه الآيات : قال بعض اليمانين : يستدل مما روي أن يوسف خرج للقاء أبيه ،

على حسن التعظيم باللقاء ، وكذا يأتي مثله في التشييع ، ومنه ما روي في تشييع الضيف : ويستدل مما روي أن المراد بأمه خالته – كما مر – أن من نسب رجلاً إلى خالته فقال : يا ابن فلانة ! لم يكن قاذفاً لها . ويستدل من رفعهما على العرش – وهو السرير الرفيع – جواز اتخاذه ، ورفع الغير ، تعظيماً للمرفوع ، ويستدل من قوله : ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ على أن الانتقال منه نعمة ، وذلك لما يحلق أهل البادية من الجفاء ، والبعد عن موارد العلوم ، وعن رفاهة المدنية ، ولطف المعاشرة ، والكمالات الإنسانية ، وروي لجرير :

~أرض الحراثة لو أتاها جرول أعني الحطيئة لاغتدى حراثا

(45/403)

~ما جئتها من أي : وجه جئتها إلا حسبت بيوتها أجداثاً

وفي الحديث : < من بدا جفا > أي : من حل البادية . وفي آخر : < إن الجفا والقسوة في الفدادين > . ففي هذا دليل على حسن النقلة من البوادي إلى المدن . بزيادة .

(46/403)

الثاني : قص كثير نبأ استقرار يعقوب وآله بمصر . ومجمله : أن يوسف اختار لمستقرهم أرض جاسان ، فلما دخلوا مصر أخبر يوسف فرعون بقدوم أبيه وإخوته وجميع ما لهم إلى أرض جاسان ، ثم أدخل أباه على فرعون ، فأكرمه وكلمه حصة . وسأله عن عمره ، فأجابه : مائة وثلاثون سنة ، وأقطعه وبنيه أجود أرض في مصر ، وهي أرض رعمسيس ، أي : عين شمس ، وملكها إياهم ، ودعا له يعقوب ثم انصرف . ثم أخذ يوسف خمسة من إخوته ، فمثلهم بين يدي فرعون ، فقال لهم : ما حرفتكم فأجابوه - كما أوصاهم يوسف - : نحن وآباؤنا رعاة غنم ! فقال فرعون ليوسف : إن كنت تعلم أن فيهم ذوي حذق ، فأقمهم وكلاء على ماشيتي . وأجرى يوسف لأبيه وإخوته وسائر أهله طعاماً على حسبهم . وأقاموا في أرض مصر بجاسان فتملكوا فيها ونموا وكثروا جداً ، وعاش يعقوب في أرض مصر سبع عشرة سنة ، فكانت مدة عمره كله مائة وسبعاً وأربعين سنة . ولما دنا أجله قال ليوسف : لا تدفني بمصر إذا مت ، بل احملني منها إلى مدفن آبائي ، فأجابه لذلك . ثم بعد مدة أخبر يوسف بمرض أبيه ، فأخذ ولديه وسار إلى أبيه ، فانتعش أبوه بمقدمه ، ورأى ولديه ، فقال : من هذان ؟ فقال : ابناي رزقنيهما الله ها هنا . فقال : أدنهما مني ، فأدناهما ، فقبلهما ، ودعا لهما ، وقال له : لم أكن أظن أني أرى وجهك ، والآن أراني الله نسلك أيضاً . ثم أعلم يوسف بدنو أجله ، وبشره بأن الله سيكون معكم ، ويردكم إلى أرض آبائكم ، ثم دعا بقية بنيه ، ودعا لهم بالبركة ، وأوصاهم بأن يضموه إلى قومه ،

ويدفنوه مع آبائه في المغارة التي في حبرون ، وهي المعروفة اليوم بمدينة الخليل ، فإن فيها دفن إبراهيم ، وسارة امرأته ، وإسحاق ورفقة زوجته ، ولياة امرأة يعقوب . ولما فرغ يعقوب من وصيته لبنيه فاضت روحه ، فوقع يوسف على وجه أبيه ، وبكى وقبله . ثم أمر الأطباء أن يحنطوه ويصبروه . ولما انقضت أيام التعزية به ، استأذن يوسف فرعون بأن يبرح لدفن أبيه

(47/403)

؛ عملاً بوصيته ، فأذن له وسار من مصر ، وصحبه إخوته آل أبيه وحاشيته ، ووجهاء مصر ، وأتباع فرعون في موكب عظيم ، إلى أن وصلوا أرض كنعان ، ودفنوه في المغارة – كما أوصى – ثم عاد بمن معه إلى مصر ، ولم يزل يوسف يرعى إخوته بالإكرام والإحسان ، إلى أن قرب أجله ، فأوصاهم بأن ينقلوه معهم إذا عادوا إلى الأرض التي كتبها الله لآبائهم .

ثم توفي يوسف ، وهو ابن مائة وعشر سنين ، فحنطوه ، وجعلوه في تابوت بمصر .

هذا ما قصه قدماء المؤرخين ، والله أعلم بالحقائق . وإنما لم يذكر هذا القرآن الكريم ؛ لأن القرآن لم يبْنَ على قانون التاريخ ، فليس فيه شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار ، وإنما هي الآيات والعبر ، تجلت في سياق الوقائع ، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها ،

وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما سيأتي الإشارة إليه في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : من الآية 111] . وقوله : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : من الآية 120] . ومضى في المقدمة بسط هذا البحث ، فراجعه . وسنذكر إن شاء الله في السورة شيئاً من الحكم والعبر المقتبسة من نبأ يوسف ، فانتظر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 228. 230 ﴾

(48/403)

وقال ابن عاشور :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾

أعقب ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة العظمى في الآخرة ، فذكر ثلاث نعم : اثنتان دنيويتان وهما : نعمة الولاية على الأرض ونعمة العلم ، والثالثة : أخروية وهي نعمة الدين الحق المعبر عنه بالإسلام وجعل الذي أوتيه بعضاً من الملك ومن التأويل لأن ما أوتيه بعض من جنس الملك وبعض من التأويل إشعاراً بأن ذلك في جانب مُلك الله وفي جانب علمه شيء قليل .

٧ وعلى هذا يكون المراد بالمُلك التصرف العظيم الشبيه بتصرف المَلِك إذ كان يوسف عليه السلام هو الذي يُسير المَلك برأيه.

ويجوز أن يراد بالمُلك حقيقته ويكون التبعيض حقيقياً، أي آتيتني بعض المُلك لأن المُلك مجموع تصرفات في أمر الرعية، وكان ليوسف عليه السلام من ذلك الحظُّ الأوفر، وكذلك تأويل الأحاديث.

وتقدم معنى تأويل الأحاديث عند قوله تعالى: ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ [يوسف: 6] في هذه السورة.

وفاطر السماوات والأرض ﴾ نداء محذوف حرف ندائه.

والفاطر: الخالق.

وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض ﴾ في سورة الأنعام (14).

والولي: الناصر، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً ﴾ في سورة الأنعام.

وجملة ﴿ أنت ولي في الدنيا والآخرة ﴾ من قبيل الخبر في إنشاء الدعاء وإن أمكن حمله على الإخبار بالنسبة لولاية الدنيا، قيل لإثباته ذلك الشيء لولاية الآخرة.

فالمعنى: كن وليي في الدنيا والآخرة.

وأشار بقوله: ﴿ توفني مسلما ﴾ إلى النعمة العظمى وهي نعمة الدين الحق، فإن طلب

توفّيه على الدين الحق يقتضي أنه متصف بالدين الحق المعبر عنه بالإسلام من الآن ، فهو يسأل الدوام عليه إلى الوفاة .

والمسلم : الذي اتصف بالإسلام ، وهو الدين الكامل ، وهو ما تعبّدَ اللّهَ به الأنبياء والرسل عليهم السلام .

(49/403)

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ في سورة آل عمران (102) .

والإلحاق : حقيقته جعل الشيء لاَحقاً ، أي مُدركاً من سبقه في السّيْر .

وأطلق هنا مجازاً على المَزيد في عداد قوم .

والصالحون : المتصفون بالصلاح ، وهو التزام الطاعة .

وأراد بهم الأنبياء .

فإن كان يوسف عليه السلام يومئذٍ نبيئاً فدعاؤهُ لطلب الدوام على ذلك ، وإن كان نُبّىء فيما بعد فهو دعاء لحصوله ، وقد صار نبيئاً بعد ورسولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾

ونعلم أن الربوبية تعني الخَلْق من عدم ، والإمداد من عدم ؛ والإقاتة لاستبقاء الحياة ، والتزاوج لاستباق النسل ، وتسيير كل هذه العمليات في تناسق كبير .

فالحق سبحانه أوجد من عدم ، واستبقى الحياة الذاتية بالقوت ، واستبقى الحياة النوعية بما أباح من تزاوج وتكاثر .

وكل مخلوق له حَظٌّ في عطاء الربوبية ، مؤمناً كان أم كافراً ، وكل مخلوقات الكون مُسخَّرة لكل الخلق ، فسبحانه هو الذي استدعى الخَلْق إلى الوجود ؛ ولذلك تكفل بما يحقق لهم الحياة .

ويختص الحق سبحانه عباده المؤمنين بعطاء آخر بالإضافة لعطاء الربوبية ؛ وهو عطاء الألوهية المتمثل في المنهج .

يقول يوسف عليه السلام مناجياً ربه : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الملك . . . ﴾ [يوسف :
101]

أي : أنه سبحانه هو الذي أعطاه تلك السيادة ، وهذا النفوذ والسلطان ؛ فلا أحد يملك قَهْراً عن الله ، وحتى الظالم لا يملك قهراً عن الله ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى من القرآن : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : 26]

وإتيان المُلْك لا توجد فيه مقاومة ممَّنْ يملك ؛ ولكن نَزْع المُلْك هو الذي يقاومه المنزوع منه .

والحق سبحانه هو أيضاً الذي يُعِز مَنْ يشاء ، وهو الذي يُذل مَنْ يشاء .

وحين تتغلغل هذه الآية في نفس المؤمن ؛ فهو يُوقِن أنه لا مفرَّ من القدر ، وأن إيتاء المُلْك خير ، وأن نزع الملك خير ، وأن الإعزاز خير والإذلال خير ؛ كي لا يطغى الإنسان ، ولا يتكبر ، ولا يُعدِّل في إيمان غيره .

وكان بعض الناس يقولون : لابد أن تُقدر محذوفاً في الآية .

وهم قد قالوا ذلك بدعوى الظن أن هناك خيرين في الآية وشرَّين محذوفين .

(51/403)

وأقول : لا ، إن ما تظنه أيها الإنسان أنه شر إنما هو خير يريده الله ؛ فكل ما يُجريه الله خير

.

وقول يوسف عليه السلام: ﴿ آتَيْتَنِي مِنَ الملك . . . ﴾ [يوسف: 101]

يقتضي أن نفهم معنى "المُلْك"؛ ومعنى "المِلْك"، ولنا أن نعرف أن كل إنسان له شيء يملكه؛ مثل ملابسه أو قلمه أو أثاث بيته، ومثل ذلك من أشياء، وهذا ما يُسمَّى: "المِلْك". أما "المُلْك" فهو أن تملك مَنْ يملك.

وقد ملَّك الله بعضاً من خَلْقه لخلقه، ملَّكهم أولاً ما في حوزتهم، وملَّكهم غيرهم، وسبحانه ينزع المُلْك من واحد ويهبه لآخر، كي لا تصبح المسألة رَتَابة ذات.

ومثال هذا: هو ما حدث لشاه إيران، وكان له المُلْك، وعنده كل أسباب الحضارة، وفي طَوْعه جيش قوي، ثم شاء الحق سبحانه أن ينزع منه المُلْك، فقام غيره بتفكيك المسامير غير المرئية التي كان الشاه يُثبِّت بها عرشه؛ فزال عنه المُلْك.

وأنت في هذه الدنيا تملك السيطرة على جوارحك؛ تقول لليد "إضربي فلان" فتضرب يدُك فلاناً، إلى أن يأتي اليوم الآخر فلا يملك الإنسان السيطرة على جوارحه؛ لأن المُلْك يومها يكون لله وحده، فسبحانه القائل: ﴿ . . . لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر: 16]

ففي اليوم الآخر تنتفي كل الولايات، وتكون الولاية لله وحده.

وبجانب "المُلْك" و "المِلْك": هناك الملكوت، وهو ما لا تراه بأجهزة الحواس.

وسبحانه يقول: ﴿ وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض . . . ﴾ [الأنعام

[75 :

أي : أن الحق سبحانه قد كشف لإبراهيم أسرار العالم الخفية من المخلوقات ، وأنت ترى العلماء وهم يتتبعون أسرار ممالك النباتات والحيوانات ؛ فتتعجب من دِقَّة خَلْق الله .

ومَنْ وهبه الله دِقَّة العلم وبصيرة العلماء ، يرى بإشعاعات البصر والعلم عالم الملكوت ، ويستخرج الأسرار ، ويستنبط الحقائق .

(52/403)

ويضيف يوسف عليه السلام في مناجاته لربه : ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأحاديث . . . ﴾ [يوسف : 101]

وهو يعترف بفضل الله عليه حين اختصّه بالقدرة على تأويل الأحاديث ؛ تلك التي أوّل بها رُؤْيا الفتييْنِ اللذين كانا معه في السجن ؛ وأوّل رؤيا المِلَك ؛ هذا التأويل الذي قاده إلى الحكم ، وليس هذا غريباً أو عجيباً بالنسبة لقدرة الله سبحانه .

ويقول يوسف شاكراً لله : ﴿ فَاطِرَ السماوات والأرض . . . ﴾ [يوسف : 101]

وما دام سبحانه هو خالق كل شيء ؛ فليس غريباً أن يُعلّمه سبحانه ما شاء ، وكأن إيمان يوسف قد وصل به إلى أن يعلم ما قاله الحق سبحانه : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف

الخبير ﴾ [الملك : 14]

ونحن في حياتنا نجد الذي صنع جهازاً يستفيد منه غيره ؛ يوضح مواصفات استعمال الجهاز أو الأداة ، حتى ولو كانت نورجاً أو مِحْراثاً ؛ وذلك ليضمن للجهاز الحركة السَّوِيَّة التي يؤدي بها الجهاز عمله .

والواحد منا إن تعطلت منه السيارة يستدعي الميكانيكي الذي ينظر ما فيها ؛ فإن كان أميناً ، فهو يُشخِّص بدِقَّة ما تحتاجه السيارة ، ويُصلِحها ، وإن كان غير أمين ستجده يُفسد الصالح ، ويزيد من الأعمال التي لا تحتاجها السيارة .

وهكذا نرى أن كل صانع في مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا بالخالق الأعظم سبحانه وتعالى ؟

إنه خبير عليم بكل شيء .

ولماذا قال يوسف عن الحق سبحانه : ﴿ فَاطِرَ السماوات والأرض . . . ﴾ [يوسف : 101]

لأنه يعلم أن الحق سبحانه قد خلق الإنسان ؛ والإنسان له بداية ونهاية ، لا يعلمها أحد غير الله سبحانه ، فقد يموت الإنسان وعمره يوم ، أو يموت في بطن أمه ، أو بعد مائة سنة ، وتمر على الإنسان الأغيار .

أما السماوات والأرض فهي مخلوقات ثابتة ، فالشمس لا تحتاج إلى قطعة غيار ، ولم تقع ، وتعطي الدفء للأرض ، وهي مرفوعة عن الأرض ؛ لا تقع عليها بمشيئة الله .

(53/403)

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ . . . وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

[الحج : 65]

واسمع قوله الحق : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : 57]

فالإنسان يتغير ويموت ؛ أما السماوات والأرض فثابتة إلى ما شاء الله .

ويقول يوسف عليه السلام مواصلاً المناجاة لله : ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدنيا والآخرة . . . ﴾ [يوسف : 101]

وصحيح أن الحق سبحانه وليّ ليوسف في الدنيا ، وقد نصره وقرّبه وأعانه ؛ بدليل كل ما مَرَّ به من عقبات ، ويرجو يوسف ويدعو ألاّ يقتصر عطاء الله له في الدنيا الفانية ، وأن يثيبه أيضاً في الباقية ، والآخرة .

وما دام سبحانه وليّه في الدنيا والآخرة ؛ فيوسف يدعوه : ﴿ . . . تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ [يوسف : 101]

وقوله : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً . . . ﴾ [يوسف : 101]

إنما بسبب أن يكون أهلاً لعطاء الله له في الآخرة ؛ فقد أخذ يوسف عطاء الدنيا واستمتع به ، ومَتّع به ، ومشى فيه بما يُرضِي الله .

وعند تمنِّي يوسف للوفاة وقف العلماء ، وقالوا : ما تمناها أحد إلا يوسف .

فالإنسان إن كان مُوفّقاً في الدنيا ، تجده دائم الطموح ، وتوّاقاً إلى المزيد من الخير .

وتحمل لنا ذاكرة التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه قَبل الإمارة ، حينما كانوا يجيئون له بثوب ناعم ؛ كان يطلب الأكثر منه نعومة ، وإذا جِيء له بطعام ليِّن ؛ كان يطلب الأكثر ليُونة .

وحين صار خليفة ؛ كانوا يأتونه بالثوب ؛ فيطلب الأكثر خشونة وظن مَنْ حوله أنه لم يَعُدْ منطقياً مع نفسه ، ولم يفهموا أن له نفساً توّاقة إلى الأفضل ؛ تستشرف الأعلى دائماً ، فحينما تَاقَ إلى الإمارة جاءتْه ؛ وحين تاق إلى الخلافة جاءتْه ، ولم يَبْقَ بعدها إلا الجنة .

ونجد ميمون بن مهران وكان ملازماً له ؛ رضي الله عنهما ؛ دخل عليه مرة فوجده يسأل ربَّه الموت . فقال : يا أمير المؤمنين ، أتسأل ربك الموت وقد صنع الله على يديك خيراً كثيراً ؛ فأحييْتَ سُنناً وأَمَتّ بدعاً ؛ وبقاؤك خير للمسلمين ؟

فقال عمر بن عبد العزيز : ألا أكون كالعبد الصالح حينما أتمَّ الله عليه نعمته قال : ﴿ . . . تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ [يوسف : 101]

وقوله : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً . . . ﴾ [يوسف : 101]

مكونة من شِقَّين :

الشق الأول : طلب الموت .

والشق الثاني : أن يموت مسلماً .

وكُلُّنا يُتوفَّى دون أن يطلب ، وعلى ذلك يكون الشق الأول غير مطلوب في ذاته ؛ لأنه واقع لا محالة ، ويصبح المطلوب إذن هو الشق الثاني ، وهو أن يتوفاه الله مسلماً ؛ ولذلك حين نأتي إلى القبور نقول : السلام عليكم ديار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ، وإنَّا إنْ شاء الله بكم لاحقون .

وإنْ قال سائل : ولماذا نقول إن شاء الله بكم لاحقون ، رغم أننا سنموت حتْماً ؟

نقول : إن قولنا " إن شاء الله " سببه هو رغبتنا أن نلحق بهم كمؤمنين .

وأيضاً قد يسأل سائل : لماذا يقول نبي لربه : ﴿ . . . وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ [يوسف :

وهل هناك صالح يأتي إلى هذا العالم دون أن يهتدي بمنهج نبي مرسل ؟

نقول : إن كلمة " الصالحين " تضم الأنبياء وغيرهم من الذين آمنوا برسالة السماء .

وهكذا انتهت قصة يوسف عليه السلام ؛ ولذلك يتجه الحق سبحانه من بعد تلك النهاية إلى المُرَاد من القصة التي جاءتْ مكتملة في سورة كاملة ، غير بقية قَصَص القرآن التي تتناثر أيٌّ منها في لقطات متفرقة بمواقع مختلفة من القرآن الكريم .

وذلك باستثناء قصة نوح التي جاءت مكتملة أيضاً ، لدرجة أن بعض السطحيين قالوا " إن هذا تكرار للقصة في لقطات مختلفة " ودائماً أقول رداً على ذلك : إنه تأسيس للقطات ؛ إن اجتمعت جاءت القصة كاملة .

(55/403)

وشاء الحق سبحانه أن تأتي اللقطات متفرقة ؛ لأن كل لَقْطة إنما جاءت لمناسبة ما ، وكل القَصَص القرآني قد جاء لتثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه خلال عمره الرِّسالي الذي استمر ثلاثة وعشرين عاماً تعرَّض لأحداث جِسَام . وكل لحظة كانت تحتاج لتثبيت ، فيُنزِل الحق سبحانه ما يُثبِّت به فؤاد رسوله صلى الله عليه وسلم فيوضح

له في موقع ما : لا تحزن ؛ لأن مَنْ سبقك من الرسل حدث معهم كذا .

بل قد تجد في الواقعة الواحدة لقطتيْن ، مثلما جاء في العداوة بين موسى وفرعون .

قال الحق سبحانه : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . . ﴾ [القصص : 8]

وهنا تكون العداوة من طرف موسى .

ويقول في نفس المسألة أيضاً : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ . . . ﴾ [طه : 39]

وهنا تكون العداوة من جهتين ؛ لأن العداوة تتفاعل حين تكون من جهتين ، فلا يمكن أن يستمر عداءٌ من طرف واحد ، وتقوم من أجل هذا العداء معركة ، لكن حين تكون العداوة من جهتين فهذا يُطيل أَمَد المعركة .

والمثل الثاني هو قول الحق سبحانه في نفس قصة موسى ؛ وهي لقطة متقدمة حدثتْ في الأيام الأولى من حياة موسى ، وقبل أن تُلقيه أمه في اليَمّ ؛ فقد مهَّد الله لها الأمر .

يقول الحق سبحانه عن ذلك : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني . . . ﴾ [القصص : 7]

وهذا شَحْذٌ لِهمَّتها قبل الحادث ، وتنبيه لها من قبل أن يقع ، ولحظةَ أن جاء الحادث نفسه أوحى لها الحق سبحانه : ﴿ أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ . . . ﴾ [طه : 39]

والذين قالوا : إن قَصص القرآن جاء مُبعثرا ً، قد نسوا أن قصة نوح جاءت في موقع واحد ، وجاءت سورة يوسف مَحْبوكة من أول الرؤيا إلى تولي المُلْك ، وجمع شَمْل العائلة .

(56/403)

ونزلت القصة في سورة واحدة بعد أن سألوا عنها ؛ وهم يعلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يجلس إلى مُعلِّم ، ولم يقرأ في كتاب ، وتاريخه معروف بالنسبة لهم ، وحين يأتي لهم مُوضِّحاً أن الحق سبحانه قد أنزل عليه ، فكذَّبوه ؛ وادَّعَوْا أنه يسمع لقطة من هنا ؛ ولقطة من هناك . حين سألوه أن يأتي بقصة يوسف جاء بها كاملة ؛ من أولها إلى آخرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(57/403)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ [101] قال سهل : فيه ثلاثة

أشياء ، سؤال ضرورة وإظهار فقر واختيار فرض ، ومعناه : أمتني وأنا مسلم إليك أمري ، مفوض إليك شأني ، لا يكون لي إلى نفسي رجوع بحال ولا تدبير بسبب من الأسباب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير التسترى صـ 83 ﴾

(58/403)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن الأعمش – رضي الله عنه – قال : لما قال يوسف عليه السلام ﴿ رب قد آتيتني من الملك . . . . ﴾ إلى قوله ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ شكر الله له ذلك ، فزاد في عمره ثمانين عاماً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق ابن جريج ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في الآية قال : اشتاق إلى لقاء الله ، وأحب أن يلحق به وبآبائه ، فدعا الله أن يتوفاه وأن يلحقه بهم . قال ابن عباس – رضي الله عنهما – ولم يسأل نبي قط

الموت غير يوسف عليه السلام، فقال ﴿ رب قد آتيتني من الملك . . . ﴾ الآية. قال ابن جريج - رضي الله عنه - وأنا أقول: في بعض القرآن من الأنبياء من قال توفني.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ما سأل نبي الوفاة غير يوسف.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ يقول: توفني على طاعتك، واغفر لي إذا توفيتني.

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ قال: يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن عكرمة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ قال: يعني أهل الجنة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه - رضي الله عنه - قال: لما أوتي يوسف عليه السلام من الملك ما أوتي، تاقت نفسه إلى آبائه قال ﴿ رب قد آتيتني من الملك . . . ﴾ إلى قوله ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ قال: بآبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب.

وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة قال : لما قدم على يوسف أبوه واخوته وجمع الله شمله وأقر عينيه – وهو يومئذ مغموس في نعيم من الدنيا – اشتاق إلى آبائه الصالحين : إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فسأل الله القبض ، ولم يتمن الموت أحد قط ، نبي ولا غيره إلا يوسف .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن عبد العزيز – رضي الله عنه – أن يوسف عليه السلام ، لما حضرته الوفاة قال : يا اخوتاه ، إني لم انتصر من أحد ظلمني في الدنيا ، وإني كنت أحب أن أظهر الحسنة وأخفي السيئة ، فذلك زادي من الدنيا . يا اخوتاه ، إني أشركت آبائي في أعمالهم ، فأشركوني معهم في قبورهم ، وأخذ عليهم الميثاق ، فلم يفعلوا حتى بعث الله موسى عليه السلام ، فسأل عن قبره ، فلم يجد أحداً يخبره إلا امرأة يقال لها شارخ بنت شيرا بن يعقوب ، فقالت : أدلك عليه على أن أشترط عليه .

قال ذاك لك ، قالت : أصير شابة كلما كبرت . قال : ذاك لك . قالت : وأكون معك في درجتك يوم القيامة . فكأنه امتنع ، فأمر أن يمضي لها ذلك ففعل ، فدلته عليه فأخرجه ، فكانت كلما كانت بنت خمسين سنة ، صارت مثل ابنة ثلاثين سنة . حتى عمرت عمر نسرين ألف وستمائة سنة ، أو ألف وأربعمائة سنة ، حتى أدركها سليمان بن داود عليه السلام فتزوجها .

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم ، عن عروة بن الزبير – رضي الله عنه – قال : إن الله حين أمر موسى عليه السلام بالسير ببني إسرائيل ، أمره أن يحتمل معه عظام يوسف عليه السلام ، وأن لا يخلفها بأرض مصر ، وأن يسير بها معه حتى يضعها بالأرض المقدسة ، فسأل موسى عليه السلام عمن يعرف موضع قبره ، فما وجد إلا عجوزاً من بني إسرائيل ، فقالت : يا نبي الله ، إني أعرف مكانه ، إن أنت أخرجتني معك ولم تخلفني بأرض مصر ، دللتك عليه . قال : أفعل . وقد كان موسى وعد بني إسرائيل أن يسير بهم إذا طلع الفجر ، فدعا ربه أن يؤخر طلوعه حتى يفرغ من أمر يوسف ، ففعل . فخرجت به العجوز حتى أرته إياه في ناحية من النيل في الماء ، فاستخرجه موسى عليه السلام صندوقاً من مرمر فاحتمله . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(61/403)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

وقرأ عبد اللَّه : " آتَيْتَنِ " و " عَلَّمْتَنِ " بغير ياءٍ فيهما ، وحكى ابن عطية : أنَّ أبا ذر قرأ : " أتيتني " بغير ألفٍ بعد الهمزة و " مِنْ " في " مِن المُلْك " وفي " مِنْ تأويل " للتبعيض ، والمفعولُ محذوفٌ ، أي : عظيماً من الملك فهي صفة لذلك المحذوفِ وقيل : زائدة . وقيل : لبيان الجنس ، وهذان بعيدان .

و " فاطر " يجوز أن يكونَ نعتاً لربّ ، ويجوز أنْ يكون بدلاً أو بياناً أو منصوباً بإضمار أَعْني أو نداءً ثانياً . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 559﴾

(62/403)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ .

في حرف تبعيض ؛ لأن المُلك - بالكمال - لله وحده .

ويقال المُلْكُ الذي أشار إليه قسمان : مُلْكُه في الظاهر من حيث الولاية ، ومُلْكٌ على نفسه حتى لم يعمل ما همَّ به الزَّلة .

ويقال ليس كلُّ مُلْكِ المخلوقين الاستيلاءَ على الخَلق ، إنما المُلْكُ - على الحقيقة - صفاءُ

الخُلُق .

قوله : ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ : التأويل للخواص ، وتفسير التنزيل للعوام .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِّى فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ - هذا ثناء ، وقوله : ﴿ تَوَفَّنِى ﴾ - هذا دعاء .

فَقَدَّمَ الثناء على الدعاء ، كذلك صفة أهل الولاء .

ثم قال : ﴿ أَنتَ وَلِىِّ في الدنيا والأخرة ﴾ هذا إقرارٌ بِقَطْعِ الأسرار عن الأغيار .

ويقال معناه : الذي يتولّى في الدنيا والآخرة بعرفانه أنتَ ، فليس لي غيرك في الدارين .

قوله : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِماً ﴾ : قيل عَلِمَ أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال فَسأَلَ الوفاة .

وقيل من أمارات الاشتياق تمنّي الموت على بساط العوافي مثل يوسف عليه السلام أُلْقِيَ في الجُبِّ فلم يقل توفني مسلماً ، وأقيم فيمن يزيد فلم يقل توفني مسلماً ، وحُبِسَ في السجن سنين فلم يقل توفني مسلماً ، ثم لما تمَّ له المُلْكُ ، واستقام الأمر ، ولَقِيَ الإخوة سُجَّداً ، وأَلْفَى أبويه معه على العرش قال :

﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِماً ﴾ فعُلِمَ أنه كان يشتاق للقائه (سبحانه) .

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق - رحمه الله يقول . قال يوسف ليعقوب : عَلِمْتَ أَنَّا نلتقي فيما بعد الموت . . فلِمَ بَكَيْتَ كلَّ هذا البكاء ؟

(63/403)

فقال يعقوب ، يا بُنَيّ إنَّ هناك طرُقاً ، خِفْتُ أن أسلكَ طريقاً وأنت تسلك طريقاً ، فقال يوسف عند ذلك : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِماً ﴾ .

ويقال إن يوسف – عليه السلام – لما قال : توفني مسلماً ، فلا يبعد من حال يعقوب أن لو قال : يا بني دَعْني أشتفي بلقائك من الذي مُنِيتُ به في طول فراقك ، فلا تُسْمِعْني – بهذه السرعة – قولَكَ : توفَّنِي مسلماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 211.209 ﴾

(64/403)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ قَالُواْ إِن يَسْرِقْ ﴾

يعني : قال إخوة يوسف : إن يسرق بنيامين ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ يعنون يوسف

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ ﴾ يعني فأضمر الكلمة يوسف ﴿ فِى نَفْسِهِ ﴾ أي في قلبه ﴿ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ يعني : لم يعلن لهم جواباً ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ يعني : صنيعاً من يوسف ، لأن يوسف سرق الوثن ، وأنتم تسرقون الصواع .

وذلك أن يوسف كان سرق صنماً من ذهب من خاله لاوي وقال قتادة : ذكر لنا أنه سرق صنماً ، كان لجده أب أمه .

فعيّروه بذلك .

فقال : أنتم شر مكاناً ، لأن سرقتكم قد ظهرت ، وسرقة أخيه لم تظهر إلا بقولكم ، ولا ندري أنتم صادقون في مقالتكم أم لا .

﴿ والله أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ يعني : بما تقولون .

وروى عكرمة عن ابن عباس .

قال : عوقب يوسف ثلاث مرات : حين هَمَّ ، فسجن .

وحين قال : ﴿ اذكرنى عِندَ رَبِّكَ فَلَبِثَ فِى السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ وحين قال : ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ فردوا عليه ، وقالوا : فقد سرق أخ له من قبل .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يا أَيُّهَا العزيز إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ يعني : ضعيفاً حزيناً على ابن له مفقود ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ رهناً ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ إن فعلت ذلك إلينا ، فقد أحسنت إلينا الإحسان كله .

ويقال : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعني : من أتاك من الآفاق فأحسن إلينا ف ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ يعني : أعوذ بالله ﴿ أَن نَّأْخُذَ ﴾ رهناً ﴿ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذاً لَّظَالِمُونَ ﴾ لو أخذنا غيره .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ ﴾ يعني : من بنيامين أن يرد عليهم ويقال أيسوا من الملك أن يقضي حاجتهم ﴿ خَلَصُوا نَجِيّاً ﴾ يعني : اعتزلوا ، يتناجون بينهم ، ليس معهم غيرهم .

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ يعني : كبيرهم في العقل ، وهو يهوذا .

(65/403)

ولم يكن أكبرهم في السن .

وهذا في رواية الكلبي ، ومقاتل .

وقال مجاهد : ﴿ كَبِيرُهُمْ ﴾ أي : أعلمهم وهو شمعون .

وكان رئيسهم .

وقال قتادة : ﴿ كَبِيرُهُمْ ﴾ في السن روبيل ، وهو الذي أشار إليهم ألا يقتلوه ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ ﴾ يعني : عهداً من الله في هذا الغلام ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ

﴾ أي : لتردنه إليّ ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾ يعني : ما تركتم ، وضيعتم العهد في أمر يوسف من قبل هذا الغلام ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرض ﴾ يعني : فلن أزال في أرض مصر ﴿ حتى يَأْذَنَ لِى رَبِّى ﴾ أي : حتى يبعث إليّ أحداً أن آتيه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِى ﴾ فيرد عليّ أخي بنيامين ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ يعني : أعدل العادلين ، وأقضى القاضين .

وروى أسباط ، عن السدي .

أنه قال : كان بنو يعقوب إذا غضبوا ، لن يطاقوا .

فغضب روبيل ، فقال : أيها الملك ، والله لتتركنا أو لأصيحن صيحة ، لا تبقى امرأة حامل ، إلا ألقت ما في بطنها ، وقامت كل شعرة في جسده ، فخرجت من ثيابه .

وقال ابن عباس : كان يهوذا إذا غضب ، وصاح ، لم تسمع صوته امرأة حامل ، إلا وضعت حملها ، وتقوم كل شعرة في جسده .

فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه ، فيسكن .

فقال يوسف لابن له صغير : اذهب وضع يدك عليه ، فذهب ووضع يده عليه ، فسكن غضبه ، فقال : إن في هذا الدار أحداً من آل يعقوب .

ثم قال لإخوته : ﴿ ارجعوا إلى أَبِيكُمْ ﴾ يعني : قال يهوذا ﴿ فَقُولُواْ يَأَبَانَا أَبَانَا إِنَّ ابنك سَرَقَ ﴾ أي : سرق الصواع ، يعني : إناء الملك .

وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ سَرَقَ ﴾ بضم السين وكسر الراء مع التشديد ، يعني

: اتهم بالسرقة ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ أي : وما قلنا إلا ما رأينا حين أخرج من رحله ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافظين ﴾ يعني : وما كنا نرى أنه سرق ، ولو علمنا ما ذهبنا به .

(66/403)

ويقال : إنا لم نطلع على أنه سرق ولكنهم سرقوه .

قوله تعالى ؛ ﴿ واسئل القرية التى كُنَّا فِيهَا ﴾ يعني : أهل القرية .

قال الكلبي : وهي قرية من قرى مصر .

ويقال : هي مصر بعينها .

ويقال : هو المنزل المؤذن فيه ، إنكم لسارقون ﴿ والعير التى أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ يعني : سل أهل العير الذين كانوا معنا من أرض كنعان ﴿ وِإِنَّا لصادقون ﴾ في قولنا .

فرجعوا إلى يعقوب بذلك القول ، فاتهمهم ، فقال : كلما خرجتم من عندي ، نقصتم واحداً ، ذهبتم مرة ، فنقصتم يوسف .

وذهبتم مرة ، فنقصتم شمعون .

وذهبتم الآن ، ونقصتم بنيامين .

فقد صرتم كالذئاب ، يأكل بعضهم بعضاً .

ثم قال تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ قال يعقوب اشتهت ، وزينت لكم قلوبكم ﴿ أَمْراً ﴾ فصنعتموه ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ يعني : عليّ صبر جميل ، حسن ، من غير جزع ، لا أشكو فيه إلى أحد ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ يعني : لعل الله أن يرد عليّ يوسف ، ويهوذا ، وبنيامين ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بمكانتهم ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ أن يردهم عليّ .

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ يعني : أعرض عن بنيه وخرج عنهم ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ يعني : يا حزناً ، والأسف : أشد الحسرة ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ يعني : من البكاء ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ يعني : مغموماً ، مكروباً ، يتردد الحزن في جوفه .

والكظيم والكاظم بمعنى واحد مثل القدير والقادر .

وهو المتمسك على حزنه ، لا يظهره ، ولا يشكوه .

وروي عن الحسن أنه قال : مكث يعقوب ثمانين سنة ، ما تجف دموعه ، ولا يفارق قلبه الحزن يوماً ، وما كان على الأرض يومئذٍ أحد أكرم على الله منه .

قال : وألقي يوسف في الجب ، وهو يومئذٍ ابن سبع سنين ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد ما جمع الله شمله ثلاثاً وعشرين سنة .

وروي عن ابن عباس أنه قال : غاب يوسف عنه اثنين وعشرين سنة .

وقال سعيد بن جبير : ما أعطيت أمة من الأمم ﴿ الذين إِذَآ أَصابتهم مُّصِيبَةٌ قالوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ راجعون ﴾ [البقرة : 156] غير هذه الأمة ، ولو كان أوتيها أحد قبلكم لأوتيها يعقوب حين قال : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ ﴾ وروي عن إبراهيم بن ميسرة أنه قال : لو أن الله أدخلني الجنة ، لعاتبت يوسف بما فعل بأبيه ، حيث لم يكتب إليه ، ولم يعلمه حاله ، ليسكن ما به من الغم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ يعني : لا تزال تذكر يوسف ﴿ حتى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ أي : دنفاً من الوجع .

ويقال : حتى تبلى وتهرم .

وقال القتبي : لا تحذف من الكلام ، ويراد إثباتها ، لقوله : ﴿ تفتؤ ﴾ أي : لا تزال .

كقوله : ﴿ تَاللهِ تَفْتَأُ ﴾ وكقول ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لاَ ترفعوا أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبى وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أعمالكم وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : 2] أي : أن لا تحبط .

وقال الربيع بن أنس : حتى تكون بالياً ، يابس الجلد ، وقال محمد بن إسحاق : حتى تكون

حرضاً يعني : لا عقل لك ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ﴾ يعني : من الميتين .

وقال مجاهد : الحرض ما دون الموت والهالك الميت ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثّى وَحُزْنى ﴾

يعني : همي وغمي ﴿ إِلَى الله ﴾ لما رأى من فظاظتهم ، وسوء لفظهم ، ولا أشكو ذلك إليكم .

وقال القتبي : البث أشد الحزن ، إنما سمي الحزن البث ، لأن صاحبه لا يصبر عليه ، حتى يبثه أي : يفشوه .

ثم قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أن يوسف حي ، وليس بميت .

وإنما كان يعلم ذلك من تحقيق رؤيا يوسف ، حين رأى في المنام أحد عشر كوكباً ، أن ذلك سيكون .

ويقال : إن يعقوب رأى ملك الموت في المنام ، وسأله هل قبضت روح قرة عيني يوسف ؟

قال : لا .

ولكن هو في الدنيا حي ، فلذلك قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ تَعْلَمُونَ يَبَنِىَّ اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ ﴾ يعني : انطلقوا إلى مصر ،

فاطلبوا خبر يوسف ﴿ وَأَخِيهِ ﴾ قالوا له : أما بنيامين فلا نترك الجهد في أمره ، وأما يوسف فإنه ميت ، وإنا لا نطلب الأموات .

فقال لهم يعقوب : ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ ﴾ يعني : لا تقنطوا من رحمة الله ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن ﴾ يعني : الجاحدون للنعمة .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ ﴾ يعني : رجعوا إلى يوسف ، ودخلوا عليه ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ يعني : أصابنا ، وأهلنا الجوع ﴿ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ ﴾ قال الحسن يعني : قليلة .

ويقال : نفاية .

وكان لا يؤخذ في الطعام ، ويؤخذ في غيره ، لأن الطعام كان عزيزاً .

فلا يؤخذ فيه إلا الجيد .

وعن عبد الله بن الحارث في قوله : ﴿ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ ﴾ قال : متاع الأعراب الصوف ، والسمن ، ونحو ذلك .

وعن ابن عباس قال : يعني جئنا بدراهم رديئة .

وقال سعيد بن جبير بدراهم زيوف ﴿ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ ﴾ يعني : أتمم لنا الكيل ﴿ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ ﴾ يعني : تفضل علينا باستيفائه منا ، مكان الجيد ، وتصدق علينا ، ما بين الثمنين .

يعني : ما بين الجيد والرديء ﴿ إِنَّ اللهَ يَجْزِى المتصدقين ﴾ يعني : يثيبهم في الآخرة بما صنعوا .

وقال ابن عباس : لو علموا أنه مسلم ، لقالوا : إن الله يجزيك بالصدقة .

يعني : إنه كان يلبس عليهم ، فلا يعرفون حاله ، ومذهبه .

فأخرج يوسف الكتاب الذي كان كتبه يهوذا حين باعوا يوسف ، ودفعه إليهم ، فعرف يهوذا خطه ، وقالوا : نحن بعنا هذا الغلام ، إذ كنا نرعى الغنم .

فقال لهم : ظلمتم ، وبعتم الحر .

(69/403)

فدعا يوسف السيافين ، وأمر بإخوته بأن يقتلوا جميعاً ، فاستغاثوا كلهم ، وصرخوا ، وقالوا : إن لم ترحمنا ، فارحم الشيخ الضعيف .

فإنه قد جزع على ولد واحد ، فكيف وقد أهلكت أولاده كلهم .

﴿ قَالَ ﴾ لهم يوسف ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جاهلون ﴾ يعني : شابون ، مذنبون ، ووصف لهم ما فعلوا به .

﴿ قَالُواْ أَءِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ ﴾ قرأ ابن كثير ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ ﴾ بهمزة واحدة ، وكسر

الألف .

يعني : حققوا أنه يوسف .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿ أَءِنَّكَ ﴾ بهمزتين على معنى الاستفهام .

يعني : إنك يوسف أم لا ؟ وقرأ نافع وأبو عمرو ، ﴿ آينك ﴾ بهمزة واحدة مع المد .

ومعناه : مثل الأول على معنى الاستفهام ﴿ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وهذا أَخِى قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ يعني : أنعم علينا بالصبر ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ ﴾ أي : يتق الله ﴿ وَيِصْبِرْ ﴾ على البلاء ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ أي : ثواب الصابرين .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تالله لَقَدْ اثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ يعني : إخوة يوسف اعتذروا إليه ، وقالوا : لقد فضلك الله علينا ، واختارك ﴿ وَإِن كُنَّا لخاطئين ﴾ يقول : وقد كنا لعاصين لله فيما صنعنا بك ﴿ قَالَ ﴾ يوسف عليه السلام ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم ﴾ يعني : لا تعيير عليكم اليوم ، ولا عيب ، ولا عار عليكم ، وأصل التثريب : الإفساد .

ويقال : أثربت الأمر علينا إذا أفسدت .

ثم قال : ﴿ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ فيما فعلتم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ من غيره .

ثم قال تعالى : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا ﴾ وروي عن وهب بن منبه قال : كان القميص من الجنة .

وهو القميص الذي ألبس جبريل إبراهيم ، حين ألقي في النار ، فبردت عليه النار ، فصار عند إسحاق ، ثم صار عند يعقوب ، فجعله يعقوب في عوذة ، وعلقه في عنق يوسف ، فكان معه حين ألقي في الجب ، ونزع عنه القميص ، فبشره جبريل ، وألبسه عي ألج ، وكان القميص معه ، وقال لإخوته : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا ﴾ ﴿ فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ وذلك أنه سألهم ، فقال : ما فعل أبي بعدي ؟ قالوا : لما فارقه بنيامين ، عمي من الحزن .

قال : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا ﴾ فألقوه على وجه أبي ، يأت بصيراً ، كما كان أول مرة .

ثم قال : ﴿ وَائْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فاختلفوا فيما بينهم .

فقال كل واحد منهم : أنا أذهب به .

فقال يوسف : يذهب به الذي ذهب بقميصي الأول .

فقال يهوذا : أنا ذهبت بالقميص الأول ، وهو ملطخ بالدم ، وأخبرته بأنه قد أكله الذئب ، وأنا اليوم أذهب بالقميص ، فأخبره أنه حي ، وأفرحه ، كما أحزنته .

وأمر لهم بالهدايا ، والدواب ، والرواحل ، فتوجهوا نحو كنعان .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ يعني : خرجت العير من مصر ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ قال ابن عباس : لما خرجت العير ، هاجت ريح ، فجاءت بريح قميص يوسف من مسيرة ثمان ليال ، فقال يعقوب : إني لأشم ريح يوسف ﴿ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ يقول لولا أن تعيروني ، وتجهلوني .

يقال : فنده الهرم إذا خلط في كلامه ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ يعني : ولد ولده قالوا ليعقوب : إنك مختلط في الكلام كما كنت في القديم من ذكر يوسف .

(71/403)

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ يعني : جاء يهوذا بالبشارة ﴿ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ يعني : دفع القميص إليه ، ووضعه على وجهه ، ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ يعني : رجع بصيرا كما كان ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب لولد ولده ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ويقال : قال لولده : ألم أقل لكم حين قلت لكم : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أن يوسف في الأحياء ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ فاعتذروا إليه ، فيما فعلوا به ، وطلبوا منه أن يستغفر لهم ، واعترفوا بذنبهم ، وقالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ لهم يعقوب عليه السلام ﴿ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ يعني : عند السحر استغفر لكم .

ويقال : معناه سوف استغفر لكم إن شاء الله على وجه التقديم في قوله : ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ ، فأخّر الاستغفار ، إلى أن قدموا مصر ، فاستغفر لهم ليلة الجمعة عند السحر ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ لمن تاب ، ورجع ، وندم على ما فعل ، فخرجوا كلهم بأثقالهم ، وأهاليهم ، ومواشيهم ، وكانوا اثنين وسبعين رأساً ، وروى أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود أنه قال : كان أهل بيت يعقوب حين دخلوا مصر ، ثلاثة وسبعين إنساناً ، رجالهم ونساؤهم ، فخرجوا مع موسى عليه السلام وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً ، فلما دنوا من مصر ، خرج يوسف بجماعته وحاشيته حتى أدخلهم مصر .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ ﴾ أي : ضمّ إليه ﴿ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ قال أبو عبيدة : هذا من كلام يعقوب ، حيث قال : سوف استغفر لكم إن شاء الله .

وكذلك قال ابن جريج .

ويقال : هذا من كلام يوسف .

قال لهم حين دخلوا مصر : انزلوا بأرض مصر .

ويقال: إنما قال لهم قبل أن يدخلوها ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ من الجوع.

ويقال: ﴿ آمنين ﴾ من الخوف، لأنها أرض الجبابرة.

قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ يعني: على السرير.

أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله.

قال مقاتل: يعني أباه وخالته.

وكانت أمه راحيل قد ماتت، وخالته تحت يعقوب، وعن وهب بن منبه قال: أبوه وخالته.

وعن سفيان الثوري مثله، وهو قول ابن عباس.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الخالة أم".

ويقال: إن أمه راحيل قد ماتت في ولادة بنيامين.

ولذلك سمي بنيامين، واليامين وجع الولادة بلسانهم.

ثم قال: ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ على وجه التقديم، يعني: ﴿ وخرُّوا له سجداً ﴾ ورفع أبويه على العرش، وكانت تحيتهم، أن يسجد الوضيع للشريف، فسجد له إخوته، وأبوه، وخالته، ﴿ وَقَالَ ﴾ يعني يوسف عند ذلك ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني: هذا السجود تحقيق رؤياي من قبل ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً ﴾ يعني: جعل

رؤياي صدقاً .

ويقال : كائناً .

وروي عن ابن عباس أنه قال : كان بين رؤياه ، وبين ذلك ، اثنان وعشرون سنة .

وروى أبو عثمان النهدي ، عن سلمان أنه قال : كان بين رؤياه ، وبين أن رأى تأويلها ، أربعون سنة .

وعن عبد الله بن شداد أنه قال : وقعت رؤيا يوسف بعد أربعين سنة ، وإليه تنتهي الرؤيا .

وقال السدي : كان بينهما تسع وثلاثون سنة .

وقال : حين رأى رؤياه ، كان يوسف ابن تسع سنين ، فظهر تأويلها وهو ابن أربعين سنة .

ثم قال : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ يعني : جاء بكم معافين ، سالمين من البادية .

يعني : أرض كنعان و ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ ﴾ يعني : من بعد أن أفسد وألقى الشيطان ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ من الفرقة ، والجماعة .

ويقال: ﴿ لطيف ﴾ في فعاله، إن شاء فرق، وإن شاء جمع ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بما صنعوا ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ إذ رد عليّ أبي، وجمع بيني وبين إخوتي.

قوله تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: إن الله تعالى مدح يوسف في هذه السورة، في ثمانية مواضع.

أولها أن أخوته لما فعلوا به ما فعلوا، صرف العداوة من إخوته إلى الشيطان.

فقال: ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشيطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ والثاني: حين راودته المرأة، قال: ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ فعرف حرمة سيده، ولم يهتك حرمته.

الثالث ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ فاختار السجن على الشهوة الحرام.

والرابع قال: ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ بعد ما ظهر أن الذنب كان من غيره.

والخامس لما اعتذر إليه إخوته، قال لهم: ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ والسادس أنه بعث القميص على يد إخوته كما أدخلوا على أبيهم الحزن في الابتداء، أراد أن يدخلوا عليه السرور.

فقال: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾ والسابع: لما لقي أباه، لم يذكر عنده ما لقي من الشدة، وإنما ذكر المحاسن، حيث قال: ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً

وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ .

والثامن : لما تمّ أمره ، تمنى الموت ، وترك الدنيا ، قال : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ أي : أعطيتني من الملك .

يعني : بعض الملك ، وهو ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ يعني : بعض التأويل .

ويقال : من ههنا لإبانة الجنس ، لا للتبعيض .

(74/403)

ومعناه ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني تأويل الأحاديث ﴾ يعني : تعبير الرؤيا ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يعني : خالق السموات والأرض ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً ﴾ يعني : أمتني مخلصاً بتوحيدك ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يعني : بآبائي المرسلين .

ويقال : عاش يعقوب في أرض مصر ، سبع عشرة سنة ، وكان عمره مائة وسبعاً وأربعين سنة .

وعاش يوسف بعده ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة .

ويقال : ابن مائة وعشر سنين .

وأوصى يعقوب بأن يدفن عند آبائه ، فحمل إلى الأرض المقدسة ، فدفن مع أخيه يحصوص بن إسحاق .

فلما مات يوسف ، أرادوا أن يحملوه إلى الأرض المقدسة ، فلم يتركهم أهل مصر ، واختلفوا في دفنه ، وأراد أهل كل محلة أن يدفن في مقابرهم ، وكاد أن يقع بينهم قتال ، حتى اصطلحوا واتفقوا على أن يدفن عند قسمة مياههم في أعلى مصر ، لكي يصيب بركته أهل مصر ، وكان هناك إلى زمن موسى عليه السلام ، فرفعه موسى ، وحمله إلى الأرض المقدسة ، ووضعه عند آبائه ، وقد كان يوسف أوصى إلى بني إسرائيل أن يحملوا عظامه من أرض مصر إذا خرجوا من مصر . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم جـ 2 ص 212.203 ﴾

---

(1) كلام غريب يفتقر إلى سند صحيح .

(75/403)

وقال الثعلبى :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ

شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77) ﴾

ثمّ قالوا ليوسف : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ ﴾ : من أبيه وأُمّه ، من قبل ، واختلف العلماء في السرقة التي وصفوا بها يوسف ، فقال سعيد بن جبير وقتادة : سرق يوسف صنماً لجدّه أبي أمّه كسّره وألقاه في الطريق ، الكلبي : بعثته أُمّه حين أرادت أن ترتحل من حران مع يعقوب إلى فلسطين والأردن ، أمرته أن يذهب فأخذ جونة فيها أوثان لأبنها [أي] ذهب فيأتيها بها لكي إذا فقدها أبوها أسلم ، فانطلق فأخذها وجاء بها إلى أُمّه ، فهذه سرقته التي يعنون .

وعن ابن جريج : كانت أُمّ يوسف أمرتة أن يسرق صنماً خاله يعبده وكانت مسلمة ، وروى أبو كريب عن أبي ادريس قال سمعت أبي قال : كان أولاد يعقوب على طعام ونظر يوسف إلى عرق فخبّأه فعيّروه بذلك ، وأخبر عبد الله بن السدّي ، عن أبيه عن مجاهد أنّ يوسف جاءه سائل إلى البيت فسرق [جُبّة] من البيت فناولها السائل فعيّروها بها ، وقال سفيان بن عيينة : سرق يوسف دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فأعطاها سائلا .

كعب : كان يوسف في المنزل وحده فأتاه سائل وكان في المنزل عناق وهي الانثى من الجديّ ، فدفعها إلى السائل من غير أمر أبيه . وهب : كان يُخبّئ الطعام من المائدة للفقراء .

هشام عن سعد بن زيد بن أسلم في هذه الآية قال : كان يوسف (عليه السلام) مع أُمّه عند

خال له ، قال : فدخل وهو صبي يلعب وأخذ تمثالا صغيراً من الذهب ، فذلك تعيير اخوانه إيّاه .

(76/403)

وروى ابن إسحاق عن مجاهد عن جويبر عن الضحّاك قال : كان أوّل ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغني أنّ عمّته بنت اسحاق وكانت أكبر أولاد إسحاق ، وكانت لها منطقة إسحاق ، وكانوا يتوارثوها بالكبر من أختانها ممّن وليها كان له سلماً لا ينازع فيه ، يصنع فيه ما يشاء ، وكانت راحيل أُمّ يوسف قد ماتت فحضنته عمّته وأحبّته حُبّاً شديداً ، وكانت لا تصبر عنه .

فلمّا ترعرع وبلغ سنوات وقعت محبّة يعقوب عليه فأتاها يعقوب فقال : يا اخاه سلّمي إليّ يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عنّي ساعة ، فقالت : لا ، فقال : والله ما أنا بتاركه .

قالت : فدعه عندي أيّاماً أنظر إليه لعلّ ذلك يُسلّيني عنه ، ففعل ، فلمّا خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحق فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وهو صغير ثمّ قالت : لقد فقدت منطقة إسحق فانظروا من أخذها فالتمسوها فلم توجد فقالت : اكشفوا أهل

البيت ، فكشفوهم فوجودها مع يوسف ، فقالت : والله إنّه لسلم لي أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال : إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته ، فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، فهذا الذي قال أخوة يوسف : إن سرق فقد سرق أخ له من قبل ، وهذا هو المثل السائر الذي قال عُذره شرُ من جرمه .

﴿ فَأَسَرَّهَا ﴾ فأضمرها ، ﴿ يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ وإنّما أنّث الكناية لأنّه عنى بها الكلمة والمقالة وهي قراءة .

﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً ﴾ أي شرٌّ منزلاً عند الله ممّن رميتموه بالسرقة في صنيعكم بيوسف ﴿ واللّه أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ تقولون ، قتادة : تكذبون .

(77/403)

وقالت الرواة : لما دخلوا على يوسف واستخرج الصواع من رحل بنيامين دعا يوسف بالصواع فنقر فيه ثمّ أدناه من أُذنه ثمّ قال : إنّ صواعي هذا ليخبرني أنّكم كنتم اثني عشر رجلاً وأنّكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه ، فلمّا سمعها بنيامين قام فسجد ليوسف ثمّ قال : أيّها الملك سَل صواعك هذا عن أخي أين هو فنقره ثمّ قال : هو؟ حيّ وسوف تراه قال : فاصنع فيّ ما شئت فإنّه إن علم بي فسوف يستنقذني ، قال : فدخل يوسف فبكى ، ثمّ

توضّأ وخرج فقال بنيامين : أيها الملك إنّي أرى أن تضرب صواعك هذا فيخبرك بالحقّ من الذي سرقه فجعله في رحلي ؟ فنقره فقال : إنّ صواعي هذا عصاني وهو يقول : كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت ؟

قال : وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يُطاقوا فغضب روبيل ، وقال : والله أيّها الملك لتتركنا أو لأصيحنّ صيحة لا تبقي بمصر امرأة حامل إلاّ ألقت ما في بطنها قامت كلّ شعرة في جسد روبيل فجرجت من [. . . . . .] فمسّه فذهب غضبه ، فقال روبيل من هذا ؟ إن في هذا البلد لبذراً من بذر يعقوب .

فقال يوسف : ومن يعقوب ؟ فغضب روبيل وقال : يا أيّها الملك لا تُذكر يعقوب فإنّه سري الله ابن ذبيح الله ابن خليل الرحمن ، قال يوسف [إشهد] إذاً أنت كنت صادقاً ، احتبس يوسف أخاه وصار بحكم اخوته أولى به منهم ، فرأوا أنّه لابدّ لهم إلى تخليصه منه سألوه تخليته ببدل منهم يعطونه إيّاه ، ﴿ قَالُوا يا أيها العزيز إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً ﴾ : متعلّقاً بحبّه يعنون يعقوب ، ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ : بدلاً منه ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ في أفعالك قيل : إلينا ، وقال ابن إسحاق : يعنون إنْ فعلت ذلك كنت من المُحسنين .

﴿ قَالَ ﴾ يوسف ﴿ مَعَاذَ اللهِ ﴾ أعوذ بالله وهو نصب على المصدر ، وكذلك تفعل العرب في كلّ مصدر وضع موضع الفعل ، تقول : حمداً لله وشكراً لله ، بمعنى أحمد الله وأشكره ﴿ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ ولم يقل من سرق تحرّزاً من الكذب ، ﴿ إِنَّآ إِذاً لَّظَالِمُونَ ﴾ إن أخذنا بريئاً بسقيم .

﴿ فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ ﴾ يعني أيسوا من يوسف من أن يُجيبهم إلى ما سألوه ﴿ خَلَصُواْ نَجِيّاً ﴾ أي خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم ، والنجيّ لقوم يتناجون وقد يصلح للواحد أيضاً ، قال الله في الواحد : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [مريم : 52] ، وقال في الجمع ﴿ خَلَصُواْ نَجِيّاً ﴾ وإنّما جاز للواحد والجمع لأنّه مصدر أُبدل نعتاً كالعدل والزور والفطر ونحوها ، وهو من قول القائل نجوت فلاناً أنجوه نجيّاً ، ومثله النجوى يكون اسماً ومصدراً ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ [الإسراء : 47] أي يتناجون وقال : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ ﴾ [المجادلة : 7] وقال في المصدر ﴿ إِنَّمَا النجوى مِنَ الشيطان ﴾ [المجادلة : 10] وقال الشاعر :

بني بدا خبّ نجوى الرجال . . . (وكُ) عند سرّك خبّ النجيّ

والنجوى والنجيّ في هذا البيت بمعنى المناجاة ، وجمع النجيّ أنجية ، قال لبيد :

وشهدتُ أنجية الأفاقة عالياً . . . كعبي وأرداف الملوك شهود

وقال آخر :

إنّي إذا ما القوم كانوا أنجيه . . . واضطربت أعناقهم كالأرشية

هناك أوصيني ولا توصي بيه .

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ يعني في العقل والعلم لا في السنّ وهو شمعون ، وكان رئيسهم ، قاله مجاهد ، وقال قتادة والسدّي والضحاك وكعب : هو روبيل وكان أسنّهم وهو ابن خالة يوسف ، وهو الذي نهى إخوته عن قتله ، وهب والكلبي : يهودا ، وكان أعقلهم ، محمد بن اسحاق : لاوي .

(79/403)

﴿ أَلَمْ تعلموا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقاً مِّنَ اللهِ ﴾ عهداً من الله ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ اختلفوا في محلّ ما فقال بعضهم : هو نصب إيقاع العلم عليه يعني : ألم تعلموا من قبل فعليكم بهذه تفريطكم في يوسف ؟ وقيل : هو في محلّ الرفع على الابتداء ، وتمام الكلام عند قوله : من الله يعني : ومن قبلي هذا تفريطكم في يوسف ، فيكون ما مرفوعاً بخبر [. . . .] الصفة وهو قوله : ومن قبل ، وقيل : ما صلة ، ويعني ومن هذا فرّطتم في يوسف أي قصّرتم وضيّعتم ، وقيل : رفع على الغاية .

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرض ﴾ التي أنا بها وهي أرض مصر ﴿ حتى يَأْذَنَ لِي أبي ﴾ بالخروج

منها ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي ﴾ بالخروج منها وترك أخي بنيامين بها أو معه ، وإلاّ فإنّي غير خارج منها ، وقال أبو صالح : أو يحكم الله لي بالسيف فأُحارب من حبس أخي بنيامين .

﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ أفضل وأعدل من يفصل بين الناس .

﴿ ارجعوا إلى أَبِيكُمْ ﴾ يقوله الآخر في المحتبس بمصر لإخوته ﴿ فَقُولُواْ ياأبانا إِنَّ ابنك ﴾ بنيامين ﴿ سَرَقَ ﴾ الصواع ، وقرأ ابن عباس والضحاك : سُرِّق بضمّ السين وكسر الراء وتشديده على وجه ما لم يُسمِّ فاعله ، يعني أنّه نُسب إلى السرقة مثل : خوّنته وفجّرته [. . . .] أي نسبته إلى هذه الخلال .

﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ يعني ما كانت منّا شهادة في عمرنا على شيء إلاّ بما علمنا وليست هذه شهادة منّا إنّما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم ، وقال ابن اسحاق : معناه : وما قلنا : إنّه سرق إلاّ بما علمنا ، قال : وكان الحكم عند الأنبياء يعقوب وبنيه أن يسترقّ السارق بسرقته .

﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : ما كنا نعلم أنّ ابنك يسرق ويصير أمرنا إلى هذا ، فلو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا ، وإنّما قلنا ونحفظ أخانا ممّا لنا إلى حفظه منه

سبيل ، وقال جويبر عن الضحّاك عن ابن عباس يعنون : أنّه سرق ليلا وهم نيام والغيب هو الليل بلغة حمير ، وقال ابن عباس : لم نعلم ما كان يعمل في ليله ونهاره ومجيئه وذهابه ، عكرمة ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ لعلّها دُسّت بالليل في رحله .

وقيل معناه : قد أُخذت السرقه من رحله ونحن ننظر إليه ، ولا علم لنا بالغيب فلعلّهم سَرّقوه ولم يسرق ، وهذا معنى قول أبي اسحاق ، وقال ابن كيسان : لم نعلم أنّك تنصاب كما أُصبت بيوسف ، ولو علمنا ذلك لم [نأخذ] فتاك ولم نذهب به .

﴿ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا ﴾ يعني أهل القرية وهي مصر ، ابن عباس : قرية من قُرى مصر .

﴿ والعير التي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ يعني القافلة التي كنا فيها وكان معهم قومٌ من كنعان من جيران يعقوب (عليه السلام) ، قال ابن اسحاق : قد عرف الأخ المُحتبس بمصر أنّ إخوته أهل تهمة عند أبيهم لما صنعوا في أمره فأمرهم أن يقولوا هذا الاسم ، ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ في الآية اختصار معناها ، فرجعوا إلى أبيهم وقالوا له ذلك ، فقال : بل سوّلت أي زيّنت ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ أردتموه ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ يوسف وبنيامين وأخيهما المقيم بمصر ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم ﴾ بحزني ووجدي على فقدهم ﴿ الحكيم ﴾ في تدبير خلقه .

﴿ وتولى عَنْهُمْ ﴾ وذلك أنّ يعقوب لمّا بلغه خبر بنيامين تتامّ حزنه وبلغ جهده وجدّد حزنه

على يوسف ، فأعرض عنهم ﴿ وَقَالَ يا أسفى ﴾ يا حزني ﴿ عَلَى يُوسُفَ ﴾ وقال مجاهد : يا جزعاه ، والأسف : شدّة الحزن والندم .

(81/403)

﴿ وابيضت عَيْنَاهُ مِنَ الحزن ﴾ مقاتل : لم يُبصر بهما ستّ سنين ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مكظوم مملوء من الحزن ، ممسك عليه لا يبثّه ، ومنه كظم الغيظ ، عطاء الخراساني : كظيم : حزين ، مجاهد : مكبود ، الضحّاك : كميد ، قتادة : تردّد حزنه في جوفه ، ولم يتكلّم بسوء ، ولم يتكلّم إلاّ خيراً ، ابن زيد : بلغ به الجزع حتى كان لا يكلّمهم ، ابن عباس : مهموم ، مقاتل : مكروب ، وكلّها متقاربة .

سعيد بن جبير : عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لم يعط أُمّة من الأمم إنّا لله وإنّا إليه راجعون عند المصيبة إلاّ أُمّة محمّد ، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه لم يسترجع : إنّما قال يا أسفى على يوسف ؟ " .

وأخبرني ابن فنجويه [قال : حدّثنا أبو بكر بن مالك] القطيعي قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، [قال : حدّثني] أُبي ، عن هشام [بن القاسم] عن الحسن ، قال : كانت بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانين عاماً لا تجف عينا يعقوب ، وما

على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب.

﴿ قَالُواْ ﴾ يعني ولد يعقوب ﴿ تَاللهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أي لا تزال تذكر يوسف، لا تفتر من حبّه، يقال: ما فِتِئتُ أقول ذلك، وما فتأتُ أو أفتؤ، فتأً وفتوّاً، قال أوس بن حجر :

فما فِتِئتْ حيّ كأن غبارها . . . سرادق يوم ذي رياح ترفع

وقال آخر :

فما فتئت خيل تثوب وتدّعي . . . ويلحق منها لاحق وتقطع

أي فما زالت.

وحذف (لا) قوله فتئ كقول امرئ القيس :

فقلتُ يمين الله أبرحُ قاعداً . . . ولو قطّعوا رأسي لديك وأوصالي

أي: لا أبرح.

وقال خداش بن زهير :

وأبرحُ ما أدام الله قومي . . . بحمد الله منتطقاً مجيداً

أي لا أبرح ومثله كثير.

﴿ حتى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ اختلف ألفاظ المفسّرين فيه ، فقال ابن عباس : دنفاً ، العوفي : يعني الهد في المرض ، مجاهد : هو ما دون الموت ، يعني قريباً من الموت ، قتادة : هرِماً ، الضحّاك : بالياً مدبراً ، ابن اسحاق : فاسداً لا عمل لك ، ابن زيد : الحرض : الذي قد ردّ إلى أرذل العمر حتى لا يعقل ، الربيع بن أنس : يابس الجلد على العظم ، مقاتل : مُدنفاً ، الكسائي : الحرض : الفاسد الذي لا خير فيه ، الأخفش : يعني ذاهباً ، المُخرج : ذائباً من الهمّ ، الفرّاء عن بعضهم : ضعيفاً لا حراك بك ، الحسن : كالشنّ المدقوق المكسور ، علام تعباً مُضنى ، ابن الأنباري : هالكاً فاسداً ، القتيبي : ساقطاً ، وكلّها متقاربة .

ومعنى الآية : حتى يكون دنف الجسم مخبول العقل ، وأصل الحرض : الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم ، ومنه قول العَرجي :

إنّي امرؤٌ لجّ بي حبٌّ فأحرضني . . . حتى بليتُ وحتى شفني السقم

يُقال : منه رجل حرض وامرأة حرض ورجلان وامرأتان حرض ، ورجال ونساء حرض يستوي فيه الواحد والإثنان والجمع ، والمذكّر والمؤنّث ، لأنّه مصدر وضع موضع الاسم ، ومن العرب من يقول للذكر حارض وللأُنثى حارضة ، فإذا وصف بهذا اللفظ ثنّى وجمع وانّث ، ويُقال : حرض ، يحرّض ، حرضاً وحراضة فهو حرض ، ويُقال : رجل محرّض وأنشد في ذلك :

طلبته الخيل يوماً كاملا . . . ولو آلفته لأضحى مُحرضاً

وقال امرؤ القيس :

أرى المرءَ ذا الأذواد يُصبح مُحرضاً . . . كإحراض بكر في الدّيار مريض

(83/403)

﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ﴾ أي الميّتين ، وقال يعقوب عند ذلك لمّا رأى غلظتهم وسوء لفظهم ، ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى الله ﴾ لا إليكم ، قال المفسّرون دخل على يعقوب جار له فقال : يا يعقوب ما لي أراك قد انهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك ؟ قال : هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من مُصاب يوسف ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب تشكوني إلى خلقي ؟ قال : يا ربّ خطيئة أخطأتها فاغفر لي ، قال : فإنّي قد غفرتها لك وكان بعد ذلك إذا سُئل قال : إنما أشكو بثّي وحُزني إلى الله .

وقال حبيب بن أبي ثابت : بلغني أنّ يعقوب كبر حتى سقط حاجباه على عينيه ، وكان يرفعهما بخرقة ، فقال له رجل : ما بلغ بك ما أرى ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحزان .

فأوحى الله إليه : يا يعقوب تشكوني ، فقال : خطيئة أخطأتها فاغفرها لي .

وعن عبد الله بن قميط ، قال : سمعت أبي يقول : بلغنا أنّ رجلا قال ليعقوب (عليه السلام

) : ما الذي أذهب بصرك ؟ قال : حزني على يوسف ، قال : فما الذي قوّس ظهرك ؟ قال : حزني على أخيه ، فأوحى الله عزّ وجل إليه : يا يعقوب أتشكوني ؟ وعزّتي وجلالي لو كانا ميّتين لأخرجتهما لك حتى تنظر إليهما ، وإنّما وجدت عليكم أنّكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين فلم تطعموه شيئًا ، وأنّ أحبّ خلقي إليّ الأنبياء ثمّ المساكين ، فاصنع طعاماً وادعُ إليه المساكين ، فصنع طعاماً ، ثمّ قال : من كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب .

وروى أبو عمران عن أبي الخلد ووهب بن منبه ، قالا : أوحى الله تعالى إلى يعقوب : تدري لم عاقبتك وغيّبت عنك يوسف وبنيامين ؟ قال : لا إلهي ، قال : لأنّك شويت عناقاً وقترت على جارك ، وأكلت ولم تطعمه ، ويقال : إنّ سبب ابتلاء يعقوب بفقد يوسف ، أنّه كانت له بقرة ولها عجول فذبح عجولها بين يديها ، وإنّما كانت تخور فلم يرحمها ، فأخذه الله به وابتلاه بفقد يوسف أعزّ ولده .

وقال وهب بن منبه والسدّي وغيرهما : أتى جبرئيل يوسف وهو في السجن ، فقال : هل تعرفني أيها الصدّيق ؟ قال : أرى صورة طاهرة وريحاً طيّبة ، قال : فإنّي رسول ربّ العالمين ، وأنا الروح الأمين ، قال : فما الذي أدخلك حبس المذنبين وأنت أطيب الطيّبين ، ورأس

المقرّبين ، وأمين ربّ العالمين ؟ قال : ألم تعلم يا يوسف أنّ الله يُطهّر البيوت لهؤلاء الطيّبين ، وأنّ الأرض التي تدخلونها هي أطهر الأرضين ، وأنّ الله قد طهّر بك السجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن الصالحين ؟

قال : كيف لي باسم الصدّيقين وتعدّني من المخلصين ، وقد أدخلت مدخل المُذنبين ، سمّيت باسم المفسدين ؟ قال : لأنّه لم يفتتن قلبك ولم تطع سيدتك في معصية ربّك فلذلك سمّاك الله في الصدّيقين ، وعدّك مع المخلصين وألحقك بآبائك الصالحين ، قال : هل لك علم بيعقوب أيّها الروح الأمين ؟ قال : نعم وهب الله له البلاء الجميل وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم ، قال : فما قدر حزنه ؟ قال : حزن سبعين ثكلى ، قال : فماذا له من الأجر يا جبرئيل ؟ قال : أجر مائة شهيد ، قال : أفتراني لاقيه ؟ قال : نعم ، فطابت نفس يوسف ، قال : ما أُبالي ما ألفيته أن رأيته .

وأمّا قوله بثّي فالبثّ : أشدّ الحزن سُمّي بذلك لأنّ صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثّه أي يُظهره ، يقال : بثّ ، يبثّ فهو باثّ وأبثّ [يأبثه أبثاً] يُبثّ فهو مُبثّ إذا أظهره قال ذو الرمّة :

وقفتُ على ربع لميّة ناقتي . . . فما زلتُ أبكي عندهُ وأُخاطبه

وأسقيه حتى كاد ممّا أُبثّه . . . تكلّمني أحجاره وملاعبه

وقال الحسن : بثّي أي حاجتي ، وقال محمّد بن القاسم الأنباري : البثّ : التفرق ، وقال

محمّد بن إسحاق : معناه : إنّما أشكو حزني الذي أنا فيه إلى الله ، وهو من بثّ الحديث .

﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ قال ابن عباس : يقول أعلم أنّ رؤيا يوسف صادقة وأني وأنتم سنسجد له ، وقال آخرون : وأعلم أنّ يوسف حيّ .

(85/403)

قال السدّي : لما أخبره ولده بسيرة الملك وقوله أحسّت نفس يعقوب فطمع وقال : لعلّه يوسف ، ويروى أنّه رأى الملك في المنام فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟ قال : لا والله ، وهو حيّ .

ويقال : أرسل الله إليه ذئباً فسلّم عليه وكلّمه ، فقال له يعقوب : أكلت ابني وقرّة عيني وثمرة فؤادي ؟ قال : قد والله علمتَ يا يعقوب أنّ لحوم الأنبياء وأولاد الأنبياء علينا حرام ، فلذلك قال لبنيه : ﴿ يا بني اذهبوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ ولا تيأسوا من روح الله سيروا واطلبوا الخبر ، من يوسف وأخيه : وهو تفعّلوا من الحسّ يعني تتبّعوا ، قال ابن عباس : إلتمسوا ، ﴿ وَلاَ تَيْأَسُوا ﴾ ، أي لا تقنطوا ، من روح الله : من فرج الله ، قال ابن زيد وقتادة ، والضحّاك : من رحمة الله ، ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القوم الكافرون ﴾ .

يُقال : سُئِل ابن عباس عن الفرق بين التجسّس والتحسّس فقال : لا يبعد أحدهما عن الآخر إلاّ أنّ التحسّس في الخير والتجسّس في الشرّ ، الحسن وقتادة : ذكر لنا أنّ نبي الله يعقوب لم ينزل به بلاء قط إلاّ أتى حسن ظنّه بالله من ورائه ، وما ساء ظنّه بالله ساعة قط من ليل أو نهار ، الحسن عن الأحنف بن قيس عن ابن عباس بن عبد المطّلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" قال داود : [إلهي] أسمع الناس يقولون إله إبراهيم وإسحق ويعقوب فاجعلني رابعاً : فقال : لست هناك ، إنّ ابراهيم لم يَعدل بي شيئاً قط إلاّ اختارني ، وإنّ إسحاق جادَ لي بنفسه ، وإنّ يعقوب في طول ما كان لم ييأس من يوسف " .

(86/403)

﴿ قَالُواْ يا أيها العزيز ﴾ في الآية متروك يستدلّ بسياق الكلام عليه تقديره : فجاؤوا راجعين إلى مصر حتى وصلوا إليها فدخلوا على يوسف ، فقالوا له : يا أيّها العزيز ، يا أيّها الملك بلغة حمير ، ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ الشدّة والجوع ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ قليلة ، رديئة ناقصة ، كاسدة . لا تنفق في شيء من الطعام إلاّ [يتوجبن] من البائع فيها ، وأصل الإزجاء السوق والدفع ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي سَحَاباً ﴾ [النور

: 43] قال النابغة الذبياني :

وهبّت الريحُ من تلقاء ذي أزل . . . تُزجي مع الليلِ من صرّادها صرما

وقال حاتم الطائي :

لَيبكِ على مَلحان ضيفٌ مُدَفَّعٌ . . . وأرمَلةٌ تُزجي مع الليلِ أَرملا

وإنّما قيل للبضاعة : مزجاة لأنّها غير نافقة وإنّما يجوز تجويزاً على دفع من أخذها .

وأمالها حمزة والكسائي وفخّمها الباقون .

واختلف المفسّرون في هذه البضاعة ما هي ؟ عكرمة عن عباس : كانت دراهم رديئة زيوفاً لا تنفق إلاّ بوضيعه بإذن عنه ، يعني لا تنفق في الطعام ؛ لأنّه لا يُؤخذ في ثمن الطعام إلاّ الجيّد ، ابن أبي مليكة : حبل خِلق الغرارة والحبل ورثة المتاع ، عبدالله بن الحرث : متاع الأعراب ، الصوف والسّمن ، الكلبي ومقاتل وابن حيّان : الصنوبر وحبّة خضراء ، سعيد بن جبير : دراهم [قليلة] ، ابن اسحاق : قليلة لا تبلغ ما كان يشترى به إلاّ أن تتجاوز لنا فيها أحسن كانت أو أوطأ ، جويبر عن الضحّاك : النعال والأدم ، وروي عنه أنّها سويق المقل .

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الكيل ﴾ أي أعطنا بها ما كنت تُعطينا من قبل بالثمن الجيّد الوافي ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ وتفضّل علينا بما بين الثمنين الجيّد والرديء . ولا تنقصنا من السعر ، هذا قول أكثر المفسّرين ، وقال ابن جريج والضحّاك : تصدّق علينا بردّ أخينا إلينا .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ قال الضحّاك : لم يقولوا : إنّ الله يجزيك أن تصدّقت علينا لأنّهم لم يعلموا أنّه مؤمن ، قال عبد الجبار بن العلاء : سُئِلَ سفيان بن عُيينة : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبيّنا صلى الله عليه وسلم قال سفيان : ألم تسمع قوله : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ أراد سفيان أنّ الصدقة كانت لهم حلالا وأنّها إنّما حُرّمت على نبيّنا صلى الله عليه وسلم وروي أنّ الحسن البصري سمع رجلا يقول : اللهمّ تصدّق عليّ ، فقال : يا هذا إنّ الله لا يتصدّق إنّما يتصدّق من يبغي الثواب ، قل : اللهمّ أعطني أو تفضّل عليّ .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ اختلفوا في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول ، فقال ابن اسحاق : ذُكر لي أنّهم لمّا كلّموه بهذا الكلام غلبته نفسه وأدركته الرقّة فانفضّ دمعه باكياً ثمّ باح لهم بالذي كان يكتم فقال : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ .

وقال الكلبي : إنّما قال ذلك حين حكى لإخوانه : أنّ مالك بن أذعر قال : إنّي وجدت غلاماً في بئر حاله كيت وكيت وابتعته من قوم بألف درهم فقال : أيّها الملك نحن بعنا ذلك

الغلام منه ، فغاظ يوسف ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم ، فولّى يهوذا وهو يقول : كان يعقوب يحزن لفقد واحد منّا حتى كفّ بصره فكيف به إذاً لو قتل بنوه كلّهم ، ثمّ قالوا : إن فعلت ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا وإنّه في مكان كذا وكذا ، فذاك حين رحمهم وبكى وقال لهم ذلك القول .

(88/403)

وقال بعضهم : إنّما قال ذلك حين قرأ كتاب أبيه إليه وذلك أنّ يعقوب لما قيل له : إنّ ابنك سرق ، كتب إليه : من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ، بن ابراهيم خليل الله أمّا بعد فإنّا أهل بيت مُوكَّل بنا البلاء ، فأمّا جدّي فشدّت يداه ورجلاه وأُلقي في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وأمّا أبي فشدّت يداه ورجلاه ووضع السكّين على قفاه ، ليُقتل ، ففداه الله ، وأمّا أنا فكان لي ابن وكان أحبّ أولادي إليّ فذهب به إخوته إلى البريّة ثمّ أتوني بقميصه مُلطّخاً بالدم وقالوا : قد أكله الذئب وذهب [. . . . .] ثمّ كان لي ابن وكان أخاه من أُمّة وكنت أتسلّى به ، فذهبوا به ثمّ رجعوا وقالوا : إنّه سرق ، وإنّك حبسته بذلك وإنّا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً ، فإنْ رددَته إليّ وإلاّ دعوت عليك دعوة تنزل السابع من ولدك ، فلمّا قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء وعيل صبره فقال

لهم ذلك .

وقال بعضهم : إنّما قال ذلك حين سأل أخاه بنيامين : هل لك ولد ؟ قال : نعم ، ثلاثة بنين ، قال : فما سمّيتهم ؟ قال : سمّيتُ الأكبر يوسف قال : ولِم ؟ قال : محبّة لك ، لأذكرك به ، قال : فما سمّيت الثاني ؟ قال : ذئباً ، قال : ولم سمّيته بالذئب وهو سبع عاقر ؟ قال : لأذكرك به ، قال : فما سمّيت الثالث ؟ قال : دماء ، قال : ولِمَ ؟ قال لأذكرك به ، فلمّا سمع يوسف المقالة خنقته العبرة ، ولم يتمالك ، فقال لإخوته : لمّا دخلوا عليه : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ فرّقتم بينهما وصنعتم ما صنعتم إذ أنتم جاهلون ، بما يؤول إليه أمر يوسف .

وقيل : يكون المذنب جاهل وقت ذنبه .

قال ابن عباس : إذا أنتم صبيّان ، الحسن : شبان وهذا غيرُ بعيد من الصواب لأنّ مظنّة الجهل الشباب .

(89/403)

فإنّ سئل عن معنى قول يوسف ﴿ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ وقيل ما كان عنهم إلى أخيه وهم لم يسعوا في حبسه ، فالجواب أنّهم لمّا أطلقوا ألسنتهم على أخيهم بسبب الصاع [

حبس] وقالوا : ما رأينا منكم يا بني راحيل كما ذكرناه ، فعاتبهم يوسف على ذلك .

وقيل : إنّهما لمّا كانا من أُمّ واحدة وكانوا يؤذونه بعد فَقْد يوسف فعاتبهم على ذلك .

﴿ قالوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ : قرأ ابن مُحصن وابن كثير : إنّك على الخبر ، وقرأ الآخرون على الاستفهام ، ودليلهم قراءة أُبي بن كعب أو أنت يوسف ، قال ابن أسحاق : لمّا قال يوسف لأخوته ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ الآية ، كشف عنهم الغطاء ورفع الحجاب فعرفوه ، فقالوا : إنّك لأنت يوسف ، جويبر عن الضحّاك عن ابن عباس ، قال : قال يوسف : هل علمتم ما فعلتم بيوسف ؟ ثمّ تبسّم ، وكان إذا تبسّم كأنّ ثناياه اللؤلؤ المنظوم ، فلمّا أبصروا ثناياه شبّهوه بيوسف ، فقالوا له استفهاماً : إنّك لأنت يوسف ؟ ، ابن سمعان عن عطاء عن ابن عباس قال : إنّ إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه ، وكان في قرنه علامة ، وكان ليعقوب مثلها ، وكان لإسحاق مثلها ، وكان لسارة مثلها شبه الشامة البيضاء ، فلمّا قال لهم : [هل] علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ورفع التاج عنه ، فعرفوه فقالوا : إنك لأنت يوسف .

﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَآ ﴾ بأن جمع بيننا بعدما فرّقتم ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، ويصبر عمّا حرّم الله عليه، قال ابن عباس: يتّق الزنا ويصبر على العزوبة، مجاهد: يتّق معصية الله ويصبر على السجن ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾، ف ﴿ قَالُواْ ﴾ مُقرّين مُعتذرين: ﴿ تالله لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ اختارك الله علينا بالعلم والحكم والعقل والفضل والحسن والمُلك ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ وإن كنّا في صنيعنا بك لمخطئين، مذنبين، يُقال: خطئ، يخطأ، خطأ وخِطأ وأخطأ إذا أذنب، قال أُمّية بن الأكسر:

وإنّ مهاجرين تكنّفاهُ . . . لعمرُ الله قد خطئا وخابا

وقيل لابن عباس: كيف قالوا: إنّا كنّا خاطئين وقد تعمّدوا لذلك؟ فقال: أخطأوا الحقّ وإن تعمّدوا، وكلّ من أتى ذنباً كذلك يُخطئ المنهاج الذي عليه من الحقّ حتى يقع في الشبهة والمعصية ف ﴿ قَالَ ﴾ يوسف وكان حليماً موفّقاً: ﴿ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ اليوم ﴾ لا تعيير ولا تأنيب عليكم، ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم، وأصل التثريب: الإفساد، وهي لغة أهل الحجاز، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا زنَت أَمَة أحدكم فليجلدها الحد ولا يُثرب عليها " أي لا يُعيّرها، ثمّ دعا لهم يوسف وقال: ﴿ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾.

عطاء عن ابن عباس قال: " أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بعضادتي الباب يوم فتح مكّة

وقد لاذ الناس بالبيت ، وقال : الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده " ثمّ قال : " ما تظنون ؟ " قالوا : نظنّ خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ، قال : " وأنا أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم " " .

(91/403)

قال السدي وغيره : فلمّا عرّفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه ، فقال : ما فعل ؟ قالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه وقال لهم : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً ﴾ يعود مُبصراً ، لأنّه كان دُعاء . قال الضحاك : كان ذلك القميص من نسج الجنّة ، روى السدّي عن أبيه عن مجاهد عن هذه الآية قال : كان يوسف أعلم بالله عزّ وجل من أن يعلم أنّ قميصه يردّ على يعقوب بصره ، ولكنّ ذلك قميص إبراهيم الذي ألبسه الله عزّ وجل في النار من حرير الجنّة ، وكان كساه إسحاق ، وكان إسحاق كساه يعقوب وكان يعقوب ، أدرج القميص وجعله في قصبة وعلّقه في عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين ، ثمّ أمره جبرئيل (عليه السلام) أن أرسل بقميصك فإنّ فيه ريح الجنّة لا يقع على مبتل ولا سقيم إلاّ صحّ وعوفي .

﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ ﴾ يعني خرجت من عريش مصر متوجّهة إلى كنعان . ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ لِولد ولده ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ روي أنّ الريح استأذنت ربّها في أن تأتي يعقوب (عليه السلام) بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير ، فأذن لها فأتته بها ، ابن السدّي عن أبيه عن مجاهد ، قال : أصاب يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيّام وذلك أنّه هبّت فصفقت القميص فاحتملت الريحُ ريحَ القميص إلى عقوب فوجد ريح الجنّة فعلم أن ليس في الأرض من ريح الجنّة إلاّ أن تأتي من ذلك القميص فمن ثمّ قال : إنّي لأجدُ ريح يوسف ، وهو منه على مسيرة ثماني ليال .

(92/403)

وروى شعيبة عن أبي سنان قال : سمعت عبد الله بن أبي الهُذيل قال : سمعت ابن عباس يقول : وجد يعقوب ريح يوسف روى أبو سنان عن أبي هذيل قال : سمعت ابن عباس يقول : وجد يعقوب ريح يوسف وهو منه على مسيرة ثماني ليال ، وروى شعيبة عن أبي سنان قال : سمعت عبد الله بن أبي الهُذيل عن ابن عباس في هذه الآية قال : وجد ريحه من مسيرة ما بين البصرة والكوفة . وقال الحسن : ذكر لنا أنّه كان بينهما يومئذ ثمانون فرسخاً .

﴿ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ : سفيان عن حصيف ، عن مجاهد ﴿ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ ، قال :

تُسفهون الرأي ، عن ابن عباس : تجهلون ، ابن جريج وابن أبي نجيح عن مجاهد : لولا أن تقولوا ذهب عقلك ، سعيد بن جبير والسدّي والضحّاك : تُكذّبون ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ، والحسن وقتادة : تهرمون ، ومثله روى إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد ، ربيع : تحمقون ، جويبر عن الضحّاك : تُهرمون ، فتقولون : شيخ كبير قد خرف وذهب عقله ، ابن يسار : تضعفون ، أبو عمرو بن العلاء : تقبحون ، الكسائي : تُعجزون ، الأخفش : تلومون ، أبو عبيدة : تُضللون ، وأصل الفند : الفساد ، قال النابغة :

إلاّ سُليمان إذْ قالَ المليك له . . . قم في البرية فاحددها عن الفند

أي امنعها من الفساد ، ولذلك يقال : اللوم تفنيد ، قال الشاعر :

يا صاحبيَّ دعا لومي وتفنيدي . . . فليس ما فات من أمر بمردود

وقال جرير بن عطية :

يا عاذليّ دعا الملامَ وأقصرا . . . طال الهوى وأطلتُما التفنيدا

وقال آخر :

أهلكتني باللومِ والتفنيد . . . والفند : الخطأ في الكلام والرأي ويقال : أفند فلاناً الدهر إذا أفسده ، ومنه قول ابن مُقبل :

دَعْ الدهر يفعل ما أراد فإنّه . . . إذا كُلّف الافناد بالناس أفندا

﴿ قَالُواْ ﴾ يعني أولاد أولاده ﴿ تاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ ﴾ خطأك ﴿ القديم ﴾ من حبّك يوسف لا تنساه ، ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ البشير ﴾ المُبشّر برسالة يوسف ، قال ابن عباس : البريد يهوذا بن يعقوب ، ابن مسعود : جاء البشير من بين يدي العِير قال السدّي : قال يهوذا : أنا ذهبتُ بالقميص مُلطّخاً بالدم إلى يعقوب وأخبرته أنّ يوسف أكله الذئب ، وأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره أنّه حيّ وأفرحه كما أحزنته ، قال ابن عباس : حمله يهوذا دونهم ، وخرج حاسراً حافياً وجعل يعدو حتى أتى أباه ، وكان معه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها ، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً ، وروى الضحّاك عن ابن عباس ، قال : البشير مالك بن ذعر من أهل مدين .

﴿ أَلْقَاهُ ﴾ يعني ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب ، ﴿ فارتد بَصِيراً ﴾ : فعاد بصيراً بعد ما كان عمي .

عبدالله بن أحمد بن حنبل عن أبي عبدالله السلمي : قال سمعتُ يحيى بن مسلم عمّن ذكره قال : كان يعقوب أكرم أهل الأرض على ملك الموت ، وإنّ ملك الموت استأذن ربّه في أن يأتي يعقوب فأذن له فجاءه فقال يعقوب : يا ملك الموت أسألك بالذي خلقك ، هل أخذت نفس يوسف فيمن قبضت من النفوس ؟ قال : لا ، قال مَلك الموت : يا يعقوب ألا أُعلّمك دُعاءً ؟ قال : بلى ، قال : قُل : يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً ولا يُحصيه غيرك ، قال : فدعا به

يعقوب في تلك الليلة فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه فارتدّ بصيراً ، قال الضحّاك : رجع إليه بصره بعد العمى والقوّة بعد الضعف والشباب بعد الهرم والسرور بعد الحزن .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من حياة يوسف وأنّ الله يجمع بيننا ﴿ قَالُواْ ﴾ بعد ذلك ﴿ ياأبانا استغفر لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ مذنبين .

(94/403)

﴿ قَالَ ﴾ يعقوب (عليه السلام) : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربي ﴾ في صلاة الليل ، قال أكثر المفسّرين : أخّره من الليل إلى السحر ، وذلك أنّ الدعاء بالأسحار لا يُحجب عن الله ، فلمّا انتهى يعقوب إلى الموعد تقدّم إلى الصلاة بالسحر ، فلمّا فرغ منها رفع يده إلى الله تعالى : اللهمّ اغفر لي حزني على يوسف وقلّة صبري عنه ، واغفر لولدي ما أتوا على يوسف ، فأوحى الله إليه : إنّي قد غفرتُ لك ولهم جمعين .

قال محارب بن دثار : كان عمّ لي يأتي المسجد ، قال : فمررت بدار عبد الله بن مسعود فسمعته يقول : اللهمّ إنّك دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت فهذا سحرٌ فاغفر لي . فسألته عن ذلك فقال : إنّ يعقوب أخّر استغفار بنيه إلى السحر بقوله : سوف أستغفر لكم ربّي .

عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سوف أستغفر لكم ربّي ، يقول : حتى يأتي يوم الجمعة " .

قال وهب : كان يستغفر لهم كلّ ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة ، وقال طاووس : أخّر إلى السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء .

عن أبي سلمة عن عطاء الخراساني قال : طلب الحوائج إلى الشاب أسهل منها في الشيوخ ، ألا ترى إلى قول يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، وقول يعقوب (عليه السلام) : سوف أستغفر لكم ربّي .

أبو الحسن الملاني الشعبي : قال : سوف أستغفر لكم ربي ، قال : أسأل يوسف إن عفا عنكم استغفر لكم ربي ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ روي أنّ يعقوب (عليه السلام) قال للبشير لمّا أخبره بحياة يوسف ، قال : كيف تركت يوسف ؟ قال : إنّه ملك مصر ، فقال يعقوب : ما أصنع بالملك ؟ على أيّ دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام .

فقال يعقوب : الآن تمّت النعمة .

وقال الثوري : لمّا التقى يعقوب ويوسف (عليهما السلام) عانق كلّ واحد منهما صاحبه وبكيا ، فقال يوسف : يا أبة بكيتَ عليَّ حتى ذهب بصرك ، ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا ؟ قال : بلى بُنيّ ، ولكن خشيت أن تُسلب دينك ، فيُحال بيني وبينك .

قالوا : قد كان يوسف بعث مع البشير إلى يعقوب جهازاً ومائتي راحلة ، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده أجمعين ، متهيّأ يعقوب للخروج إلى مصر ، فلمّا دنا من مصر كلّم يوسف الملك الذي فوقه فخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند ، وركب أهل مصر معهما ، يتلقون يعقوب ، ويعقوب يمشي ويقود ركابه يهوذا ، فنظر يعقوب إلى الخيل والناس ، فقال ليهوذا : هذا فرعون مصر ؟ قال : لا ، هذا إبنك .

فلمّا دنا كلّ واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمنع من ذلك وكان يعقوب أحقّ بذلك منه وأفضل ، فابتدأه يعقوب بالسلام وقال : السلام عليك أيّها الذاهب بالأحزان ، فذلك قوله عزّ وجل : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادخلوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ .

فإن قيل : كيف قال لهم يوسف : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين بعدما دخلوها ، وقد أخبر الله أنّهم لما دخلوا على يوسف وضمّ إليه أبويه قال لهم هذا القول حين تلقّاهم قبل دخولهم مصر كما ذكرنا .

وقال بعضهم : في الآية تقديم وتأخير ، وهذا الاستثناء من قول يعقوب حين قال : سوف

أستغفر لكم ربي ومعنى الكلام: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ إن شاء الله ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ .

(96/403)

فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال: ادخلوا مصر آمنين ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش ﴾ وهذا معنى قول أبي جرير، وقال بعضهم: إنّما وقع الاستثناء على الأمن لا على الدخول كقوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَآءَ الله آمِنِينَ ﴾ [الفتح: 27] و" قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عند دخول المقابر: وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون " .

فالاستثناء وقع على اللحوق بهم لا على الموت، وقيل: (إنْ) هاهنا بمعنى (إذْ) كقوله تعالى: ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: 278]، وقوله: ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 139]، وقوله ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾ [النور: 33].

وقال ابن عباس: إنّما قال: آمنين لأنّهم فيما خلا كانوا يخافون ملوك مصر ولا يدخلون مصر لأنّهم لا جواز لهم، وأمّا قوله تعالى ﴿ آوى ﴾ فقال ابن إسحاق: أباه وأمّه وقال الآخرون

: أبوه وخالته لعيّا ، وكانت راحيل أمّ يوسف قد ماتت في نفاسها وتزوّج يعقوب بعدها أُختها لعيا فسمى الخالة أُمّاً كما سمّى العمّ أباً في قوله :

﴿ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [البقرة : 133] وروى اسحاق عن بشر عن سعيد عن الحسن ، قال : نشر الله راحيل أمّ يوسف من قبرها حتى سجدت تحقيقاً للرؤيا .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش ﴾ على السرير ، يعني أجلسهما عليه قال ابن اسحاق يعني رفع اسمهما ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدَاً ﴾ يعني يعقوب وخالته وإخوته ، وكانت تحيّة الناس يومئذ السجود ، ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض ، لأنّ ذلك لا يجوز إلاّ لله تعالى وإنّما هو الانحناء والتواضع على طريق التحيّة والتعظيم والتسليم إلاّ على جهة العبادة والصلاة ، وهذا قول الأعشى بن ثعلبة :

فلمّا أتانا بعيد الكرى . . . سجدنا له ورفعنا العمارا

(97/403)

وقال آخر :

فضول أزمتها لأمّها أسجدت . . . سجود النصارى لأربابها

وقيل : السجود في اللغة الخضوع كقول النابغة :

بجمع تضل البلق في حجراته . . . ترى الأكم فيه سُجّداً للحوافِر

أي متطامنة ذليلة .

قال [ثعلبة] : خرّوا يعني مرّوا ، ولم يرد الوقوع والسقوط على الأرض ، نظيره قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ [الفرقان : 73] إنّما أراد لم يمرّوا كذلك ، مجاهد : بمعنى المرور ، وروي عن ابن عباس أنّ معناه خرّوا لله سُجّداً فقوله : له كناية عن الله تعالى ﴿ وَقَالَ ﴾ يوسف عند ذلك واقشعرّ جلده : ﴿ هذا تَأْوِيل رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً ﴾ ، وهو قوله ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ﴾ .

واختلفوا في مدّة غيبة يوسف عن يعقوب ، فقال الكلبي : مائتان وعشرون سنة ، سلمان الفارسي : أربعون سنة ، عبدالله بن شدّاد : سبعون سنة وقيل : سبع وسبعون سنة ، وقال الحسن : أُلقي يوسف في الجُب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد لقائه بيعقوب ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات وهو ابن عشرين ومائه سنة ، وفي التوراة : مائة وستّ وعشر سنين . في قول ابن إسحاق بن يسار : ثمانين وسبعة أعوام ، وقال ابن أبي إسحاق : ثماني عشرة سنة ، وولد ليوسف من امرأة العزيز : افرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوّب ، وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة .

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السجن ﴾ ولم يقل من الجبّ استعمالا للكرم لئلاّ يذكر

إخوته صنيعهم ، وقيل : لأنّ نعمة الله عليه في النجاة من السجن أكبر من نعمته عليه في إنقاذه من الجب ، وذلك أنّ وقوعه في البئر كان لحسد إخوته ، ووقوعه في السجن مكافأة من الله لزلّة كانت منه .

(98/403)

﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ البدو ﴾ وذلك أنّ يعقوب وبنوه كانوا أهل بادية ومواشي ، والبدو مصدر قولك : بدا ، يبدو ، بدوّاً ، إذا صار بالبادية ، ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ ﴾ أفسد ﴿ الشيطان بَيْنِي وَبَيْنَ إخوتي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ ﴾ ذو لُطف وصنع ﴿ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ عالم بدقائق الأمور وحقائقها ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم الحكيم ﴾ .

روى عبد الصمد عن أبيه عن وهب : قال : دخلوا يعني يعقوب وولده مصر وهم اثنان وسبعون إنساناً ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى ومقاطنهم ستّمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا سوى الذرّية والهرمى والزمنى ، وكانت الذرّية ألف ألف ومائتا ألف سوى المقاتلة .

قال أهل التاريخ : أقام يعقوب بمصر بعد موافاته بأهله أربعاً وعشرين سنة في أغبط حال وأهنأ عيش ، ثمّ مات بمصر ، ولمّا حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده

حتى يدفنه عند أبيه إسحاق ، ففعل يوسف ذلك ومضى به حتى دفنه بالشام ، ثمّ انصرف إلى مصر .

قال سعيد بن جبير : نُقل في تابوت من ساج إلى بيت المقدس ووافق ذلك يوم مات عيصوا فدفنا في قبر واحد ، فمن ثَمّ تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس من فعل ذلك منهم ، وولد يعقوب وعُيص في بطن واحد ، ودفنا في قبر واحد وكان عمرهما جميعاً مائة وسبعة وأربعين سنة .

قالوا : فلمّا جمع الله ليوسف شمله وأقرّ له عينه وأتمّ له رؤياه ، وكان موسّعاً له في ملك الدنيا ونعيمها علم أنّ ذلك لا يدوم له وأن لابدّ له من فراقه فأراد نعيماً هو (أدوم) منه ، فاشتاقت نفسه إلى الجنّة فتمنى الموت ودعا ربّه ، ولم يتمنّ نبي قبله ولا بعده الموت فقال :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الملك ﴾ يعني ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ يعني تعبير الرؤيا ﴿ فَاطِرَ السماوات والأرض ﴾ أي خالقها وبارئها .

(99/403)

﴿ أَنتَ وَلِيِّي ﴾ مُعيني ﴿ فِي الدنيا والآخرة ﴾ تتولّى أمري ﴿ تَوَفَّنِي ﴾ اقبضني إليك ﴿ مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ بآبائي النبيين .

قيل : فتوفّاه الله طيّباً طاهراً بمصر ، ودفن في النيل في صندوق رُخام ، وذلك أنّه لما مات تشاحّ الناس عليه كلٌّ يُحب أن يُدفن في محلّتهم لما يرجون من بركته ، فاجتمعوا على ذلك حتى همّوا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه في النيل حيث مفرق الماء بمصر فيمرّ الماء عليه ثمّ يصل الماء إلى جميع مصر ، فيكونوا كلّهم فيه شرعاً واحداً ففعلوا .

وروى صالح المرّي ، عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك ، قال : إنّ الله عزّ وجل لمّا جمع ليعقوب شمله خلا ولده نجيّاً ، فقال بعضهم لبعض : أليس قد علمتم ما صنعتم وما لقي منكم الشيخ وما لقي منكم يوسف ؟ قالوا : بلى ، قال : فإنْ أعَفَوا عنكم ولكن كيف لكم بربّكم ؟ ، فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعد .

قالوا : يا أبانا أتيناك في أمر لم نأتك في مثله قط ، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله ، حتى حرّكوه ، والأنبياء (عليهم السلام) أرحم البريّة ، فقال : ما لكم يا بَنيَّ ؟ قالوا : ألست قد علمت ما كان منّا إليك ، وما كان منّا إلى أخينا يوسف ؟ قالا : بلى ، وقالوا : أفلستما قد عفوتما ، قالا : بلى ، قالوا : فإنّ عفوكما لا يغني عنّا إنْ كان الله لم يعفُ عنّا ، قال : فما تُريدون يا بَني ؟ قالوا : نُريد أن تدعو الله فإذا جاء الوحي من عند الله بأنّه قد عفا عنا صُنْعَنا قرّت أعيُننا واطمأنّت قلوبنا ، وإلاّ فلا قرّة عين لنا في الدنيا أبداً ، فقام الشيخ واستقبل القبلة

وقام يوسف خلف أبيه ، وقاموا خلفهما أذلّة خاشعين ، فدعا يعقوب وأمّن يوسف فلم يجب فيهم عشرين سنة .

(100/403)

قال صالح المرّي : يخيفهم ، حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبرئيل على يعقوب فقال : إنّ الله تبارك وتعالى بعثني إليك أُبشّرك ، فإنّه قد أجاب دعوتك في ولدك ، وإنّه قد عفا عمّا صنعوا ، فإنّه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوّة ، وذلك الذي ذكرت وقصصتُ عليك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 242 . 261 ﴾

(101/403)

وقال الزمخشرى :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

أَخٌ لَّهُ أرادوا يوسف . روى أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء ، وأقبلوا عليه وقالوا له : ما الذي صنعت ؟ فضحتنا وسوّدت وجوهنا ،

يا بنى راحيل ما يزال لنا منكم بلاء ، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال : بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء ، ذهبتم بأخى فأهلكتموه ، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم .

واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة ، فقيل : كان أخذ في صباه صنما لجدّه أبى أمّه فكسره وألقاه يين الجيف في الطريق . وقيل : دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه . وقيل : كانت في المنزل عناق أو دجاجة فأعطاها السائل . وقيل كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكابر ولده ، فورثها إسحاق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده ، فحضنت يوسف – وهي عمته – بعد وفاة أمّه وكانت لا تصبر عنه ، فلما شبّ أراد يعقوب أن ينتزعه منها ، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت : فقدت منطقة إسحاق ،

فانظروا من أخذها ، فوجدوها محزومة على يوسف ، فقالت : إنه لي سلم أفعل به ما شئت ، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت فَأَسَرَّها إضمار على شريطة التفسير ، تفسيره أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وإنما أنث لأنّ قوله أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً جملة أو كلمة ، على تسميتهم الطائفة من

الكلام كلمة، كأنه قيل: فأسرّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً والمعنى: قال في نفسه:

أنتم شر مكاناً، لأنّ قوله قال أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً بدل من أسرّها. وفي قراءة ابن مسعود: فأسرّه، على التذكير، يريد القول أو الكلام. ومعنى شَرٌّ مَكاناً أنتم شر منزلة في السرق، لأنكم سارقون بالصحة، لسرقتكم أخاكم من أبيكم وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ يعلم أنه لم يصح لي ولا لأخى سرقة، وليس الأمر كما تصفون.

[سورة يوسف (12): آية 78]

قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78)

استعطفوه بإذكارهم إياه حق أبيهم يعقوب، وأنه شيخ كبير السنّ أو كبير القدر، وأنّ بنيامين أحب إليه منهم، وكانوا قد أخبروه بأن ولداً له قد هلك وهو عليه ثكلان، «1» وأنه مستأنس بأخيه فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ فخذه بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ إلينا فأتمم إحسانك. أو من عادتك الإحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها.

[سورة يوسف (12): آية 79]

قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (79)

مَعاذَ اللَّهِ هو كلام موجه، ظاهره: أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع في

رحله واستعباده ، فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم ، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ، وباطنه : إنّ اللّه أمرنى وأوحى إلىّ بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمة علمها في ذلك ، فلو أخذت غير من أمرنى بأخذه كنت ظالماً وعاملا على خلاف الوحى . ومعنى مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ نعوذ باللّه معاذاً من أن نأخذ ، فأضيف المصدر إلى المفعول به وحذف من . وإِذاً جواب لهم وجزاء ، «2» لأن المعنى : إن أخذنا بدله ظلمنا .

---

(1) . قوله «قد هلك وهو عليه ثكلان» أى حزين أسيف على فقد ولده . (ع)

(2) . قوله «وإذاً جواب لهم وجزاء» أى لقولهم فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ . (ع)

[سورة يوسف (12) : آية 80]

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (80)

اسْتَيْأَسُوا يئسوا . وزيادة السين والتاء في المبالغة نحو ما مرّ في استعصم . و«النجي» على معنيين : يكون بمعنى المناجى ، كالعشير والسمير بمعنى : المعاشر والمسامر ، ومنه قوله

تعالى وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا : وبمعنى المصدر الذي هو التناجي ، كما قيل النجوى بمعناه . ومنه قيل : قوم نجى ، كما قيل وَإِذْ هُمْ نَجْوى تنزيلا للمصدر منزلة الأوصاف . ويجوز أن يقال : هم نجى ، كما قيل : هم صديق ، لأنه بزنة المصادر وجمع أنجية . قال :

إِنِّى إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَهْ «1»

ومعنى خَلَصُوا اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم نَجِيًّا ذوى نجوى ، أو فوجا نجياً ، أى مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً . وأحسن منه أنهم تمحضوا تناجياً ، لاستجماعهم لذلك ، وإفاضتهم فيه بجدّ واهتمام ، كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته ، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم ، على أىّ صفة يذهبون ؟ وما ذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ؟ كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب ، فاحتاجوا إلى التشاور كَبِيرُهُمْ في السنّ وهو روبيل . وقيل :

رئيسهم وهو شمعون : وقيل : كبيرهم في العقل والرأى وهو يهوذا ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فيه وجوه : أن تكون «ما» صلة ، أى : ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم .

وأن تكون مصدرية ، على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف ، وهو مِنْ قَبْلُ

---

(1) إنى إذا ما القوم كانوا أنجيه واضطرب القوم اضطراب الأرشيه

وشد فوق بعضهم بالأرويه هناك أوصينى ولا توصى بيه

من أبيات الحماسة . و«ما» زائدة . والأنجية . جمع نجي بمعنى المناجى ، كالسمير والجليس والعشير ، بمعنى المفاعل .

أو النجي : مصدر كالدوى والأزيز والنشيج والنئيج والصهيل ، كلها أنواع من الصوت ، فيكون على حد «زيد عدل» ولو قلت : إنه جمع نجاء مصدر ناجاه ، كقتال مصدر قاتله لجاز ، وكان كالأرشية جمع رشاء وهو حبل الاستقاء ، والأروية جمع رواء وهو حبل الارتواء والاستقاء أيضا ، أى : كانوا فرقا متناجين ومتشاورين فيما نزل بهم واضطربوا قياما وقعوداً وذهابا وإيابا ، كاضطراب الأرشية على الماء . ويروى : واضطربت أعناقهم كالأرشية . وشد : مبنى للمجهول ، أى : شد بعضهم بعضا وشمره وحزمه بحبال الاستقاء ، كناية عن استعدادهم للحرب . ويبعد كونه كناية عن الاستعداد للاستقاء في الزمن الجدب هناك ، أى : في ذلك الزمان أو المكان .

قيل : أو فيهما أكون شجاعا صبوراً ، فأوصينى بغيري ولا توصى غيرى بيه . وظاهر البيت جواز الاخبار عن اسم إن بجملة إنشائية وليس كذلك ، بل هو على التأويل كما ترى . والخطاب لمؤنثة . ويجوز : أنه لمذكر . وثبوت الياء في الفعلين للإشباع . والهاء في «بيه» للسكت . فهذا كناية عن شجاعته وتجلده . أو كناية عن كرمه على البعد .

ومعناه : ووقع من قبل تفريطكم في يوسف . أو النصب عطفاً على مفعول أَلَمْ تَعْلَمُوا وهو أَنَّ أَباكُمْ كأنه قيل : ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطكم من قبل في يوسف ، وأن تكون موصولة بمعنى : ومن قبل هذا ما فرطتموه ، أى قدّمتموه في حق يوسف من الجناية العظيمة ، ومحله الرفع أو النصب على الوجهين فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ فلن أفارق أرض مصر حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي في الانصراف إليه أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي بالخروج منها ، أو بالانتصاف ممن أخذ أخى ، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ لأنه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق.

[سورة يوسف (12) : آية 81]

ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلاَّ بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (81)

وقرئ سَرَقَ أى نسب إلى السرقة وَما شَهِدْنا عليه بالسرقة إِلَّا بِما عَلِمْنا من سرقته «1» وتيقناه ، لأنّ الصواع استخرج من وعائه ولا شيء أبين من هذا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق «2» . أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف . ومن قرأ سَرَقَ فمعناه : وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التسريق ، وما كنا للغيب : للأمر الخفي حافظين ، أسرق بالصحة أم دسّ الصاع في رحله ولم يشعر .

[سورة يوسف (12) : الآيات 82 إلى 83]

وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ (82) قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83)

---

(1) . قال : محمود «معناه وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه من سرقته . . . الخ» قال أحمد : إما أن يكون مقتضى شرعهم حينئذ أن مجرد وجود الشيء بيد المدعى عليه بعد إنكاره يوجب له أحكام السارق فيكون العلم على ظاهره إذا . وإما أن لا يكون كذلك ، فهذا القدر من مجرد وجوده في رحله لا يوجب علم كونه سارقا . وغايته أن يفيد ظناً بيناً ، فيكون المراد بالعلم هاهنا الظن . وقد ورد مثله ، ويكون قولهم وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ تنبيها على أن مستندهم فيما قالوه ظن بمقتضى ظاهر الحال . وأما كشف باطن الأمر الموجب للعلم فليسوا يدعونه عليه .

(2) . عاد كلامه . قال : «و قولهم وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ معناه : وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق . . .

الخ» قال أحمد : وإنما تلتئم القراءتان على التأويل الذي ذكرته ، وهو أنهم إنما أضافوا إليه السرقة ظنا بمقتضى ظاهر الحال ، واحترزوا أن يعتقد أنهم علموا ذلك حقيقة فقالوا : وما كنا للغيب حافظين فالقراءتان على التأويل المذكور يقتضيان تبرئتهم من دعوى العلم الجازم

عليه. وأما على غيره من التأويلات المذكورة فلا تنتظم القراءتان لأن مقتضى الأولى الجزم عليه بالسرقة علما. ومقتضى الثانية التبري من الجزم، واللّه أعلم.

(105/403)

الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها هي مصر، أى أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وأصحاب العير، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب. وقيل من أهل صنعاء، معناه: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ما قال لهم أخوهم ف قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً أردتموه «1» وإلا فما أدرى ذلك الرجل أنّ السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم بِهِمْ جَمِيعاً بيوسف وأخيه وروبيل أو غيره إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بحالي في الحزن والأسف الْحَكِيمُ الذي لم يبتلنى بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

[سورة يوسف (12) : آية 84]

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84)

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وأعرض عنهم كراهة لما جاءوا به يا أَسَفى أضاف الأسف وهو أشدّ الحزن والحسرة إلى نفسه، والألف بدل من ياء الإضافة، والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيملح ويبدع، ونحوه اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ، وَهُمْ يَنْهَوْنَ

عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ. يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ، مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «لم تعط أمة من الأمم – إنا للّه وإنا إليه راجعون – عند المصيبة إلا أمّة محمد صلى اللّه

---

(1). قال محمود: «إن هذا شيء أردتموه . . . الخ» قال أحمد: وهذا من الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال، كأن قائلا يقول: هم في الوقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء، وأما في هذه الوقعة الثانية فلم يتعمدوا في حق بنيامين سوءا، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه، فما وجه قوله ثانياً بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً كما قال لهم أولا، وإذا ورد السؤال على هذا التقرير فلا بد من زيد بسط في الجواب فنقول: كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين، وهم قمن بإتمامه لما أسلفوه في حق يوسف عليه السلام وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها، وهي أخذ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده لا من دين غيره من الناس ولا من عادتهم، وإلى ذلك وقعت الاشارة بقوله تعالى ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ تنبيها من اللّه تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمدا ليتخلف أخوهم، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة، فذكروا ما عندهم، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا واتهام من هو بحيث تتطرق التهمة اليه لا حرج فيه، وخصوصا فيما يرجع إلى الوالد من الولد.

ويحتمل – والّله أعلم – أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله سرقة ، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقا بوجه معلوم ، وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة على من ادعيت عليه ، فان كان شرعهم مثل شرعنا في ذلك ففتواهم إذاً غير محررة ، وهو إشعار بأنهم كانوا حراصا على ثبوت السرقة عليه ، ويؤكد ذلك قولهم إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ يؤكدون بذلك ثبوت السرقة عليه ، والّله أعلم . وقوله لهم بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً واقع بمكانه من حالهم ، وإن كان شرعهم يقتضى ذلك مخالفا لشرعنا ، فالعمدة على الجواب الأول ، والّله المستعان .

(106/403)

عليه وسلم «1» . ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع . وإنما قال يا أسفى» فإن قلت : كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث ، والرزء الأحدث أشدّ على النفس وأظهر أثراً ؟ قلت : هو دليل على تمادى أسفه على يوسف ، وأنه لم يقع فائت عنده موقعه ، وأنّ الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طريا .

ولَمْ تُنْسِنِى أَوْفَى الْمُصِيبَاتِ بَعْدَهُ «2»

ولأنّ الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر . قيل : قد عمى بصره . وقيل : كان يدرك إدراكا ضعيفاً . قرئ من الحزن .

ومن الحزن ، الحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض ، فكأنه حدث من الحزن . قيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاما ، وما على وجه الأرض أكرم على اللّه من يعقوب . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام : ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف «3» ؟ قال : وجد سبعين ثكلى . قال : فما كان له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه باللّه ساعة قط . فإن قلت : كيف جاز لنبي اللّه أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن ، ولقد بكى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على ولده

---

(1) . أخرجه الثعلبي من حديث محمد بن سعيد الهادي عن إسحاق بن الربيع بن سفيان بن زياد المعصفرى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بهذا مرفوعا وأخرجه الطبراني في الدعاء من وجه آخر عن سفيان بن زياد . ورواه عبد الرزاق من طريق الطبري عن الثوري

عن سفيان عن زياد المعصفرى عن سعيد بن جبير أقول وكذا رواه البيهقي في الشعب من رواية أبى عامر عن الثوري قال : ورفعه بعض الضعفاء وليس بشيء .

(2) تعزيت عن أوفى بغيلان بعده عزاء وجفن العين ملآن مترع

فلم تنسني أوفى المصيبات بعده ولكن نكأ القرح بالقرح أوجع

لهشام بن عقبة العذرى ، يرثى أخاه ذى الرمة ، واسمه غيلان بن عقبة . ويرثى أوفى بن دلهم . وقيل : يرثى أخويه .

يقول : تعزيت أى تسليت عن أوفى بموت غيلان بعده ، أى نابني ما يوجب النسيان الأول ولم أنسه ، والحال أن جفن عينى ممتلئ بالدموع . أو المعنى : تكلفت التسلي فلم أقدر . ويقال : أترع الحوض إذا ملئ بالماء في المترع توكيد . ويجوز تشبيه الجفن بالحوض على طريق المكنية والاتراع تخييل ، فلم تنسني أوفي المصيبات التي أصابتنى بعده موت أخى غيلان ، ولكن زادتنى حزنا على حزنى . والقرح : الجرح إذا اندمل ويبست جلبته . والنكاء : كشط تلك الجلبة . ويروى : ولكن نكأ بتشديد النون . والنكأ : التي منها وزن الضرب ، فشبه حال مصيبته الأولى التي طرأ عليها غيرها فزادها بحال ذلك الجرح على سبيل التمثيلية ، أى : ولكن نكأ القرح أوجع به من الحالة الأولى . وأظهر محل المضمر لإظهار التوجع والتفجع . أو المعنى : ولكن نكأ القرح الأول بقرح غيره أوجع بالإنسان مما كان ، فبالقرح متعلق بأوجع ، أو بنكاء .

(3) . لم أجده مرفوعا ، وأخرجه الطبري من رواية عيسى بن يزيد عن الحسن البصري أنه قيل له : ما بلغ . . . فذكره .

(107/403)

إبراهيم وقال : «القلب يجزع ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون «1»» وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ، ولطم الصدور والوجوه ، وتمزيق الثياب . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه ، فقيل : يا رسول اللّه ، تبكى وقد نهيتنا عن البكاء ؟ فقال : ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين : صوت عند الفرح ، وصوت عند الترح «2» : وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره ، فقيل له في ذلك ، فقال : ما رأيت اللّه جعل الحزن عارا على يعقوب فَهُوَ كَظِيمٌ فهو مملوة من الغيظ «3» على أولاده ولا يظهر ما يسوؤهم ، فعيل بمعنى مفعول ، بدليل قوله وَهُوَ مَكْظُومٌ من كظم السقاء إذا شدّه على ملئه ، والكظم بفتح الظاء : مخرج النفس .

يقال : أخذ بأكظامه .

[سورة يوسف (12) : آية 85]

قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (85)

تَفْتَؤُا أراد: لا تفتؤ، فحذف حرف النفي لأنه لا يلتبس بالإثبات، لأنه لو كان إثباتا لم يكن بدّ من اللام والنون. ونحوه:

فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِداً «4»

---

(1). متفق عليه من حديث أنس.

(2). قال المخرج: عزاه الطيبي إلى الصحيحين فلم يصب. ولم يرد هذا في ولد بعض بناته وإنما ورد في ولده إبراهيم كما أخرجه الترمذي وابن أبى شيبة وإسحاق وعبد بن حميد وغيرهما من حديث جابر. وأخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن ابن عوف نحوه. والذي ورد في بعض بناته متفق عليه من حديث أسامة وفيه «ففاضت عيناه فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده» قلت والأول إنما هو بلفظ «قال عبد الرحمن بن عوف:

أتبكي، أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: لا، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين: صوت عند مصيبة، وخمش وجوه، ورنة شيطان، وشق جيوب. وصوت نغمة لعب ولهو ومزامير شيطان».

(3). قوله «فهو مملوء من الغيظ» أى الغضب الكامن. أفاده الصحاح. قوله «ولا يظهر ما يسوؤهم» أى لما صنعوا بيوسف وأخيه. (ع) [.....]

(4) سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

فقلت يمين اللّه أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

لامرئ القيس . يقول : سموت إلى محبوبتى سلمى بعد نوم أهلها ، ولم يسمع لي أحد صوتا ، ولم تشعر بى هي إلا وأنا عندها ، كسمو حباب الماء فوقه بسهولة . وحباب الماء - بالضم : اسم لثعبان الماء . وحباب الماء - بالفتح - :

فقاقعه التي تعلوه . وقوله : «حالا على حال» واقع موقع الحال المؤكدة للتشبيه ، أى : حالا منطبقا على حال ومساويا له ، كقولك «سواء بسواء» وهاهنا حذف ، أى : فخوفتنى بالقوم ، فقلت : يمين الله أبرح ، أى : لا أبرح قاعدا .

وحذف «لا» النافية للمضارع بعد القسم كثير لأمن اللبس ، ولأنه لولا تقديرها لوجب اقتران الفعل بلام جواب القسم أو بنون التوكيد أو بهما . ويمين : نصب بمحذوف ، أى أحلف يمين اللّه ، فهو كالمصدر النائب عن فعله .

وبقية القصة تقدمت .

ومعنى تَفْتَؤُا لا تزال. وعن مجاهد : لا تفتر من حبه ، كأنه جعل الفتوء والفتور أخوين .

يقال : ما فتئ يفعل . قال أوس :

فَما فَتِئَتْ خَيْلٌ تثُوبُ وَتَدَّعِى وَيَلْحَقُ مِنها لَاحِقٌ وَتَقَطَّعُ «1»

حَرَضاً مشفياً على الهلاك مرضاً ، وأحرضه المرض ، ويستوي فيه الواحد والجمع

والمذكر والمؤنث ، لأنه مصدر . والصفة : حَرِض ، بكسر الراء . ونحوهما : دنف ودنف ،

وجاءت القراءة بهما جميعاً . وقرأ الحسن : حرضاً ، بضمتين ، ونحوه في الصفات : رجل

جنب وغرب .

[سورة يوسف (12) : آية 86]

قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (86)

البث : أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه ، فيبثه إلى الناس أى ينشره . ومنه : باثه

أمره ، وأبثه إياه . ومعنى نَّما أَشْكُوا

إنى لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أشكو إلى ربى داعياً له وملتجئاً إليه ،

فخلوني وشكايتي . وهذا معنى توليه عنهم ، أى فتولى عنهم إلى اللّه والشكاية إليه . وقيل

: دخل على يعقوب جارٌ له فقال : يا يعقوب ، قد تهشمت وفنيت وبلغت من السن ما بلغ

أبوك ! فقال : هشمنى وأفنانى ما ابتلاني اللّه به من همّ يوسف ، فأوحى اللّه إليه :

يا يعقوب ، أتشكوني إلى خلقي ؟ قال : يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لي ، فغفر له ، فكان

بعد ذلك إذا سئل قال : إنما أشكو بثي وحزنى إلى اللّه . وروى أنه أوحى إلى يعقوب : إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه ، وإن أحب خلقي إلىّ الأنبياء ، ثم المساكين ، فاصنع طعاما وادع عليه المساكين . وقيل : اشترى جارية مع ولدها ، فباع ولدها فبكت حتى عميت أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

أى أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظنى به أنه يأتينى بالفرج من حيث لا أحتسب .

وروى أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟ فقال ، لا واللّه هو حىّ فاطلبه . وقرأ الحسن : وحزنى ، بفتحتين . وحزنى ، بضمتين : قتادة .

[سورة يوسف (12) : آية 87]

يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (87)

---

(1) . لأوس بن حجر ، وكنى بالخيل عن أصحابها . ويقال : ثاب وثوب . إذا لوح بطرف ثوبه عند النداء من بعيد . وتدعى : تفتعل من الدعاء أى يدعو بعضهم بعضا . ويحتمل أن تثوب بمعنى ترجع ، أى تذهب وترجع .

ومعنى «تدعي» تلاحق وينتسب بعضها إلى بعض مجازاً ، فيجوز أن الخيل حقيقة . أو شبه الخيل بالناس على طريق المكنية ، والادعاء بمعنى التنادى تخييل ، وهذان الوجهان أنسب بقوله «ويلحق» أى يسبق منها سابق . وتقطع :

أي تتقطع وينقطع بعضها عن بعض قطعا قطعا ، فهي تجتمع وتفترق : صور الحرب من أولها إلى آخرها في هذا البيت ، أي : فما زالت الخيل تفعل كذلك حتى انتهت الحرب .

(109/403)

فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ فتعرّفوا منهما وتطلبوا خبرهما . وقرئ بالجيم ، كما قرئ بهما في الحجرات ، وهما تفعل من الإحساس وهو المعرفة فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ومن الجس ، وهو الطلب . ومنه قالوا لمشاعر الإنسان : الحواس ، والجواس مِنْ رَوْحِ اللَّهِ من فرجه وتنفيسه . وقرأ الحسن وقتادة : من روح اللّه ، بالضم : أى من رحمته التي يحيا بها العباد .

[سورة يوسف (12) : آية 88]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88)

الضُّرُّ الهزال من الشدّة والجوع مُزْجاةٍ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها ، من أزجيته إذا دفعته وطردته ، والريح تزجى السحاب ، قيل : كانت من متاع الأعراب صوفا وسمنا . وقيل : الصنوبر وحبة الخضراء . وقيل : سويق المقل والأقط .

وقيل : دراهم زيوفا لا تؤخذ إلا بوضيعة فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ الذي هو حقنا وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة ، أو زدنا على حقنا ، فسموا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة ، لأنّ الصدقات محظورة على الأنبياء . وقيل كانت تحل لغير نبينا . وسئل ابن عيينة عن ذلك فقال : ألم تسمع وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا أراد أنها كانت حلالا لهم .

والظاهر أنهم تمسكنوا له وطلبوا إليه أن يتصدّق عليهم ، ومن ثم رق لهم وملكته الرحمة عليهم ، فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه . وقوله إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ شاهد لذلك لذكر اللّه وجزائه ، والصدقة : العطية التي تبتغى بها المثوبة من اللّه : ومنه قول الحسن - لمن سمعه يقول : اللهمّ تصدق علىّ : - إن اللّه تعالى لا يتصدق ، إنما يتصدق الذي يبتغى الثواب ، قل : اللهم أعطنى ، أو تفضل علىّ ، أو ارحمني .

[سورة يوسف (12) : آية 89]

قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (89)

قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ أتاهم من جهة الدين وكان حليما موفقاً ، »

فكلمهم مستفهماً عن وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب ، فقال : هل علمتم قبح ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ

---

(1) . قال محمود : «أتاهم من جهة الدين وكان حليما موفقا ، فكلمهم مستفهما عن

معرفة وجه القبح . . . الخ» قال أحمد : ومن تلطفه بهم قوله إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ كالاعتذار عنهم ، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه أسهل من فعله على علم ، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يلفوا عذرا كهذا ، ألا ترى أن موسى عليه السلام لما اعتذر عن نفسه لم يرد على أن قال : فعلتها إذاً وأنا من الضالين .

(110/403)

لا تعلمون قبحه ، فلذلك أقدمتم عليه ، يعنى : هل علمتم قبحه فتبتم إلى اللّه منه ، لأنّ علم القبح يدعو إلى الاستقباح ، والاستقباح يجرّ إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحاً لهم في الدين ، لا معاتبة وتثريباً ، إيثاراً لحق اللّه على حق نفسه ، في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب ، وينفث المصدور ، «1» ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك ثأره الموتور ، فللّه أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها «2» وللّه حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها .

وقيل . لم يرد نفى العلم عنهم ، لأنهم كانوا علماء ، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل «3» ، سماهم جاهلين . وقيل :

معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة . روى أنهم لما قالوا : مسنا وأهلنا الضر ، وتضرعوا إليه : ارفضت عيناه ، ثم قال هذا القول . وقيل :

أدوا إليه كتاب يعقوب : من يعقوب إسرائيل اللّه بن إسحاق ذبيح اللّه بن إبراهيم خليل اللّه ، إلى عزيز مصر . أما بعد ، فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء : أما جدّى ، فشدّت يداه ورجلاه ورمى به في النار ليحرق فنجاه اللّه وجعلت النار عليه برداً وسلاماً ، وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه اللّه . وأمّا أنا فكان لي ابن وكان أحبّ أولادى إلىّ فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب ، فذهبت عيناي من بكائي عليه ، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمّه وكنت أتسلى به ، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا : إنه سرق ، وأنك حبسته لذلك ، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً ، فإن رددته علىّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام . فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره ، فقال لهم ذلك . وروى أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب : اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا . فإن قلت : ما فعلهم بأخيه؟

قلت : تعريضهم إياه للغم والثكل «4» بإفراده عن أخيه لأبيه وأمّه ، وجفاؤهم به ، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الذليل للعزيز ، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى .

---

(1) . قوله «وينفث المصدور . . . الخ» المصدور : الذي يشتكى صدره . والمحنق : المغيظ . والموتور : الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . قوله «ما أوطأها وأسجحها» أى ما أسهلها وما أرفقها ، أفاده الصحاح . وفيه : فلان ذو حصاة ، أى ذو عقل ولب ، فحصا عقولهم : إضافة بيانية . (ع)

(3) . قوله «ولا يقدم عليه إلا جاهل» لعله عطف على المعنى لأن قوله «لم يفعلوا . . . الخ» بمعنى فعلوا ما لا يقتضيه العلم . (ع)

(4) . والثكل: فقدان المرأة ولدها، كما في الصحاح. والمراد هنا الحزن . (ع)

(111/403)

[سورة يوسف (12) : الآيات 90 إلى 93]

قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (91) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)

قرئ أَإِنَّكَ على الاستفهام. وأنك، على الإيجاب. وفي قراءة أبىّ: أإنك أو أنت يوسف، على معنى أإنك يوسف أو أنت يوسف، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه، وهذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع، فهو يكرر الاستثبات. فإن قلت: كيف عرفوه؟ قلت: رأوا في روائه «1» وشمائله حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو، مع علمهم بأنّ ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم، لا عن بعض أعزاء

مصر . وقيل : تبسم عند ذلك فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم . وقيل : ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه كانت ليعقوب وسارة مثلها ، تشبه الشامة البيضاء . فإن قلت : قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه؟ على أن أخاه كان معلوماً لهم . قلت : لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه مَنْ يَتَّقِ من يخف اللّه وعقابه وَيَصْبِرْ عن المعاصي وعلى الطاعات فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أجرهم ، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا أى فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين . وإنّ شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم ، لم نتق ولم نصبر ، لا جرم أنّ اللّه أعزّك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ لا تأنيب عليكم ولا عتب . وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش . ومعناه : إزالة الثرب ، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع «2» ، لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده ، فضرب مثلا للتقريع الذي يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه . فإن قلت : بم تعلق اليوم؟ «3» قلت : بالتثريب ، أو بالمقدر في عَلَيْكُمُ

---

(1) . قوله «قلت رأوا في روائه» بالضم ، أى منظره . أفاده الصحاح. (ع)

(2) . قوله «والقرع» في الصحاح «القرع» بالتحريك : بثر أبيض ، يخرج بالنصال . والتقريع : معالجة الفصيل من القرع ، وينزع ذلك منه . (ع)

(3) . قال : «فان قلت بم تعلق اليوم في قوله لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ . . . الخ» ؟ قال أحمد : وهذا المعنى إنما يتوجه على الإعراب الأول وهو الأوجه . ألا ترى إلى قولهم بعد ذلك يا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ وقوله سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي دل على أنهم كانوا بعد في عهدة الذنب ، ولو كان متعلقا بيغفر للزم أن يقطعوا بغفران ذنبهم حينئذ باخبار النبي الصديق . ويحتمل أن يقال : إنما أراد مغفرة ما يرجع إلى حقه دون حق أبيه ، إذ الإثم كان مشتركا بينهما ، واللّه أعلم .

(112/403)

من معنى الاستقرار . أو بيغفر . والمعنى : لا أثر بكم اليوم ، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الأيام ، ثم ابتدأ فقال يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم . يقال :

غفر اللّه لك ، ويغفر اللّه لك ، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً . ومنه قول المشمت «يهديكم اللّه ويصلح بالكم» والْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ بشارة بعاجل غفران اللّه ، لما تجدّد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم . وروى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح ، فقال لقريش : ما تروني فاعلا بكم ؟ قالوا : نظن خيراً ،

أخ كريم وابن أخر كريم، وقد قدرت. فقال: أقول ما قال أخى يوسف: لا تثريب عليكم اليوم «1». وروى أنّ أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت الرسول فاتل عليه لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ففعل، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: غفر اللّه لك ولمن علمك «2». ويروى أن إخوته لما عرفوه وأرسلوا إليه:

إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية، ونحن نستحيى منك لما فرط منا فيك، فقال يوسف:

إنّ أهل مصر وإن ملكت فيهم، فإنهم ينظرون إلىّ بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهما ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم إخوتى، وأنى من حفدة إبراهيم اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا قيل هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة، أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإنّ فيه ريح الجنة، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي يَأْتِ بَصِيراً يصر بصيراً، كقولك: جاء البناء محكما، بمعنى صار. ويشهد له فَارْتَدَّ بَصِيراً أو يأت إلىّ وهو بصير. وينصره قوله وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ أى يأتنى أبى، ويأتنى آله جميعاً وقيل: يهوذا هو الحامل، قال: أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخاً بالدم إليه، فأفرّحه كما أحزنته. وقيل: حمله وهو حاف حاسر «3» من مصر إلى كنعان، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً.

[سورة يوسف (12): الآيات 94 إلى 96]

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (96)

---

(1) . أخرجه النسائي والبيهقي من رواية ثابت عن عبد الرحمن بن رباح عن أبى هريرة بمعناه وأتم منه. وأخرجه الثعلبي من رواية سمعان عن عطاء عن ابن عباس بهذا اللفظ وأتم منه. وكذا ذكره ابن إسحاق عن بعض أهل العلم وقال فيه «قدرت فاسمح» وكذا أخرجه الواقدي في المغازي من حديث برة بنت تجراة. ورواه أبو عبيد في الأموال عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين.

(2) . لم أجده

(3) . قوله «و هو حاف حاسر» أى لا مغفر له ولا درع، أفاده الصحاح. (ع)

(113/403)

فَصَلَتِ الْعِيرُ خرجت من عريش مصر. يقال: فصل من البلد فصولا، إذا انفصل منه وجاوز حيطانه. وقرأ ابن عباس: فلما انفصل العير قال لولد ولده ومن حوله من قومه: إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمان. والتفنيد:

النسبة إلى الفند ، وهو الخرف وإنكار العقل من هرم . يقال : شيخ مفند ، ولا يقال عجوز مفندة ، لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأى فتفند في كبرها . والمعنى : لولا تفنيد كم إياى لصد قتمونى لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ لفي ذها بك عن الصواب قدما في إفراط محبتك ليوسف ، ولهجك بذكره ، ورجائك للقائه ، وكان عندهم أنه قد مات أَلْقاهُ طرح البشير القميص على وجه يعقوب .

أو ألقاه يعقوب فَارْتَدَّ بَصِيراً فرجع بصيرا . يقال : ردّه فارتد ، وارتده إذا ارتجعه أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ يعنى قوله إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ أو قوله وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وقوله إِنِّي أَعْلَمُ كلام مبتدأ لم يقع عليه القول ، ولك أن توقعه عليه وتريد قوله إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

وروى : أنه سأل البشير كيف يوسف ؟ فقال : هو ملك مصر :

فقال : ما أصنع بالملك ؟ على أن دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام . قال : الآن تمت النعمة .

[سورة يوسف (12) : الآيات 97 إلى 98]

قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (97) قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98)

سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ قيل : أخر الاستغفار إلى وقت السحر . وقيل : إلى ليلة الجمعة ليتعمد

به وقت الإجابة. وقيل: ليتعرّف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها. وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم. فقد روى أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة.

وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر، فلما فرغ رفع يديه وقال: اللهمّ اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحى إليه: إنّ اللّه قد غفر لك ولهم أجمعين.

وروى أنهم قالوا له وقد علتهم الكآبة: ما يغنى عنا عفوكما إن لم يعف عنا ربنا، فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرّت لنا عين أبدا، فاستقبل الشيخ القبلة قائما يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمّن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه السلام فقال: إن اللّه قد أجاب دعوتك في ولدك، وعقد مواثيقهم بعدك على النبوّة، وقد اختلف في استنبائهم.

[سورة يوسف (12): الآيات 99 إلى 100]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ قيل وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه. وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقوا يعقوب وهو يمشى يتوكأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا، أهذا فرعون مصر؟ قال لا، هذا ولدك، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام: السلام عليك يا مذهب الأحزان.

وقيل إن يوسف قال له لما التقيا: يا أبت، بكيت علىّ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى، ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك، وقيل: إنّ يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون، ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى، وكانت الذرّية ألف ألف ومائتي ألف آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ضمهما إليه واعتنقهما. قال ابن أبى إسحاق: كانت أمّه تحيى، وقيل: هما أبوه وخالته. ماتت أمّه فتزوّجها وجعلها أحد الأبوين، لأنّ الرابة تدعى أمّاً، لقيامها مقام الأمّ، أو لأنّ الخالة أمّ كما أنّ العم أب. ومنه قوله وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ فإن قلت: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟ قلت: كأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب «1» أو بيت ثم، فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويه، ثم قال لهم ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ولما دخل مصر وجلس في

مجلسه مستويا على سريره واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير وَخَرُّوا لَهُ يعني الإخوة الأحد عشر والأبوين سُجَّدًا ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال، فأمر أن يرفع إليه أبواه، فدخلا عليه القبة. فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقرّبهما منه، وقال بعد ذلك: ادخلوا مصر. فإن قلت: بم تعلقت المشيئة؟ قلت: بالدخول مكيفاً بالأمن، لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل لهم: اسلموا وأمنوا في دخولكم إن شاء اللّه. ونظيره قولك للغازى: ارجع سالما غانما إن شاء اللّه. فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقا، ولكن مقيداً بالسلامة والغنيمة، مكيفا بهما. والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء اللّه دخلتم آمنين، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذى الحال. ومن بدع التفاسير أن قوله

---

(1). قوله «في مضرب» عبارة النسفي: مضرب خيمة. (ع) [. . . . . .]

(115/403)

إِنْ شاءَ اللَّهُ من باب التقديم والتأخير، وأن موضعها ما بعد قوله سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي في كلام يعقوب، وما أدرى ما أقول فيه وفي نظائره. فإن قلت: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير اللّه؟ قلت: كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة، كالقيام،

والمصافحة وتقبيل اليد .

ونحوها مما جرت عليه عادة الناس ، من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير . وقيل : ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه ، وخرورهم سجداً يأباه . وقيل : معناه وخرّوا لأجل يوسف سجداً للّه شكراً . وهذا أيضا فيه نبوة . يقال : أحسن إليه وبه ، وكذلك أساء إليه وبه .

قال :

أَسِيئِى بِنَا أَوْ أَحْسِنِى لَا مَلُومَةً «1»

مِنَ الْبَدْوِ من البادية ، لأنهم كانوا أهل عمد وأصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع نَزَغَ أفسد بيننا وأغرى ، وأصله من نخس الرائض الدابة وحمله على الجري . يقال ، نزغه ونسغه ، إذا نخسه لَطِيفٌ لِما يَشاءُ لطيف التدبير لأجله ، رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب . وروى أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه ، فأدخله خزائن الورق والذهب ، وخزائن الحلىّ ، وخزائن الثياب ، وخزائن السلاح وغير ذلك ، فلما أدخله خزانة القراطيس قال : يا بنىّ ، ما أعقك : عندك هذه القراطيس وما كتبت إلىّ على ثمان مراحل ؟

قال : أمرنى جبريل . قال أو ما تسأله ؟ قال : أنت أبسط إليه منى فسله . قال جبريل عليه السلام :

اللّه تعالى أمرنى بذلك لقولك وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ قال : فهلا خفتنى ؟ وروى أن يعقوب

أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات . وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق . فمضى بنفسه ودفنه ثمة ، ثم عاد إلى مصر ، وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة ، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له ، طلبت نفسه الملك الدائم الخالد ، فتاقت نفسه إليه فتمنى الموت . وقيل : ما تمناه نبيّ قبله ولا بعده ، فتوفاه اللّه طيبا طاهراً ، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه : كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال ، فرأوا من الرأى أن عملوا له صندوقا من مر مر وجعلوه فيه ، ودفنوه في النيل بمكان يمرّ عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعا واحداً «2» ، وولد له :

إفراثيم وميشا ، وولد لإفراثيم نون ، ولنون يوشع فتى موسى ، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر ، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه . إلى أن بعث اللّه موسى صلى اللّه عليه وسلم .

---

(1) . مر شرح هذا الشاهد صفحة 279 من هذا الجزء فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . قوله «ليكونوا كلهم فيه شرعا واحداً» في الصحاح : الناس في هذا الأمر شرع ، أى سواء ، يحرك ويسكن . (ع)

[سورة يوسف (12) : آية 101]

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)

«من» في مِنَ الْمُلْكِ ومِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ للتبعيض، لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا، أو بعض ملك مصر وبعض التأويل أَنْتَ وَلِيِّي أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، ويوصل الملك الفاني بالملك الباقي تَوَفَّنِي مُسْلِماً طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير والحسنى، كما قال يعقوب لولده وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ويجوز أن يكون تمنياً للموت على ما قيل وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ من آبائي أو على العموم. وعن عمر ابن عبد العزيز: أنّ ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسألة للموت، فقال له: صنع الله على يديك خيراً كثيراً: أحييت سننا وأمت بدعا وفي حياتك خير وراحة للمسلمين، فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقرّ الله عينه وجمع له أمره قال: توفني مسلماً وألحقنى بالصالحين. فإن قلت: علام انتصب فاطر السموات؟ قلت على أنه وصف لقوله رَبِّ كقولك أخا زيد حسن الوجه. أو على النداء. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 492. 507﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قالوا ﴾ يعني : إِخوة يوسف ﴿ إِن يسرق ﴾ يعنون بنيامين ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ يعنون يوسف .

قال المفسرون : عوقب يوسف ثلاث مرات ، قال للساقي : "اذكرني عند ربك" فلبث في السجن بضع سنين ، وقال للعزيز : "ليعلم أني لم أخنه بالغيب" ، فقال له جبريل : ولا حين هممت ؟ فقال : "وما أُبرىء نفسي" ، وقال لإِخوته : "إِنكم لسارقون" ، فقالوا : "إِن يسرق فقد سرق أخ له من قبل" .

وفي ما عنوا بهذه السرقة سبعة أقوال .

أحدها : أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه في سني المجاعة ، فيطعمه للمساكين ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : أنه سرق مكحلة لخالته ، رواه أبو مالك عن ابن عباس .

والثالث : أنه سرق صنماً لجده أبي أمه ، فكسره وألقاه في الطريق ، فعيَّره إِخوته بذلك ، قاله سعيد بن جبير ، ووهب بن منبه ، وقتادة .

والرابع : أن عمة يوسف وكانت أكبر ولد إِسحاق كانت تحضن يوسف وتحبُّه حباً شديداً ، فلما ترعرع ، طلبه يعقوب ، فقالت : ما أقدر أن يغيب عني ، فقال : والله ما أنا بتاركه ، فعمدت إِلى منطقة إِسحاق ، فربطتها على يوسف تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدت منطقة إِسحاق ، فانظروا من أخذها ، فوجدوها مع يوسف ، فأخبرت يعقوب ذلك ، وقالت : والله إِنه لي أصنع فيه ما شئت ، فقال : أنت وذاك ، فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، فذاك الذي عيَّره به إِخوته ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والخامس : أنه جاءه سائل يوماً ، فسرق شيئاً ، فأعطاه السائل ، فعيَّروه بذلك .

وفي ذلك الشيء ثلاثة أقوال : أحدها : أنه كان بيضة ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه شاة ، قاله كعب .

والثالث : دجاجة ، قاله سفيان بن عيينة .

والسادس : أن بني يعقوب كانوا على طعام ، فنظر يوسف إِلى عَرْق ، فخبأه ، فعيَّروه بذلك ، قاله عطية العوفي ، وإِدريس الأودي .

قال ابن الأنباري : وليس في هذه الأفعال كلِّها ما يوجب السرقة ، لكنها تشبه السرقة ، فعيَّره إِخوته بذلك عند الغضب .

والسابع : أنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إِليه ، قاله الحسن .

وقرأ أبو رزين ، وابن أبي عبلة : "فقد سُرِّق" بضم السين وكسر الراء وتشديدها .

قوله تعالى : ﴿ فأسرَّها يوسف في نفسه ﴾ في هاء الكناية ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إِلى الكلمة التي ذُكرت بعد هذا ، وهي قوله : ﴿ أنتم شر مكاناً ﴾ ، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنها ترجع إِلى الكلمة التي قالوها في حقه ، وهي قولهم : "فقد سرق أخ له من قبل" ، وهذا معنى قول أبي صالح عن ابن عباس ، فعلى هذا يكون المعنى : أسرَّ جواب الكلمة فلم يجبهم عليها .

والثالث : أنها ترجع إِلى الحُجة ، المعنى : فأسر الاحتجاج عليهم في ادعائهم عليه السرقة ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ أنتم شرٌّ مكانا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : شرٌّ صنيعاً من يوسف لما قدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم ، قاله ابن عباس .

والثاني : شرٌّ منزلة عند الله ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : تقولون ، قاله مجاهد .

والثاني : بما تكذبون ، قاله قتادة .

قال الزجاج : المعنى : والله أعلم أسرق أخ له ، أم لا .

(119/403)

وذكر بعض المفسرين أنه لما استخرج الصواع من رحل أخيه ، نقر الصواع ، ثم أدناه من أذنه ، فقال : إِنَّ صواعي هذا يخبرني أنكم كنتم اثنى عشر رجلاً ، وأنكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه ، فقال بنيامين : أيها الملك ، سل صواعك عن أخي ، أحيّ هو؟ فنقره ، ثم قال : هو حي وسوف تراه ، فقال : سل صواعك ، من جعله في رحلي ؟ فنقره ، وقال : إِنَّ صواعي هذا غضبان ، وهو يقول : كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت ؟ فغضب روبيل ، وكان بنو يعقوب إِذا غضبوا لم يطاقوا ، فإِذا مسَّ أحدهم الآخر ذهب غضبه ، فقال : والله أيها الملك لتتركنّا ، أو لأصيحنَّ صيحةً لا يبقى بمصر امرأة حامل إِلا أَلقتْ ما في بطنها ، فقال يوسف لابنه : قم إِلى جنب روبيل فامسسه ، ففعل الغلام ، فذهب غضبه ، فقال روبيل : ما هذا ؟ ! إِن في هذا البلد من ذرية يعقوب ؟ قال يوسف :

ومَن يعقوب؟ فقال: أيها الملك، لا تذكر يعقوب، فانه إسرائيل الله بن ذبيح الله بن خليل.

الله فلمّا لم يجدوا إلى خلاص أخيهم سبيلاً، سألوه أن يأخذ منهم بديلاً به، فذلك قوله:

﴿ يا أيها العزيز إنَّ له أباً شيخاً كبيراً ﴾ أي: في سِنّه، وقيل: في قَدره، ﴿ فخذ أحدنا

مكانَه ﴾ أي: تستعبده بدلاً عنه ﴿ إنَّا نراك من المحسنين ﴾ فيه قولان:

أحدهما: فيما مضى.

والثاني: إن فعلت.

﴿ قال معاذَ الله ﴾ قد سبق تفسيره [يوسف: 33]، والمعنى: أعوذ بالله أن نأخذ

بريئاً بسقيم.

قوله تعالى: ﴿ فلما استيأسوا منه ﴾ أي: أيسوا.

وفي هاء "منه" قولان.

أحدهما: أنها ترجع إلى يوسف، فالمعنى: يئسوا من يوسف أن يخلّي سبيل أخيهم.

والثاني: إلى أخيهم، فالمعنى: يئسوا من أخيهم.

قوله تعالى: ﴿ خلصوا نجياً ﴾ أي: اعتزلوا الناس ليس معهم غيرهم، يتناجَون

ويتناظرون ويتشاورون، يقال: قوم نجي، والجمع أنجية، قال الشاعر:

إني إذا ما القومُ كانوا أنجِيَه . . .

وَاضّطرَبَتْ أَعْنَاقُهم كالأَرْشِيَهْ

وإنما وحد "نجياً" لأنه يجري مجرى المصدر الذي يكون للاثنين، والجمع والمؤنث بلفظ واحد وقال الزجاج: انفردوا متناجين فيما يعملون في ذهابهم إلى أبيهم وليس معهم أخوهم.

قوله تعالى: ﴿ قال كبيرهم ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه كبيرهم في العقل، ثم فيه قولان:

أحدهما: أنه يهوذا، ولم يكن أكبرهم سناً، وإنما كان أكبرهم سناً روبيل، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، ومقاتل.

والثاني: أنه شمعون، قاله مجاهد.

والثاني: أنه كبيرهم في السن وهو روبيل، قاله قتادة، والسدي.

قوله تعالى: ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ في حفظ أخيكم وردّه إليه ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ قال الفراء: "ما" في موضع رفع، كأنه قال: ومن قبل هذا تفريطكم في يوسف.

وإن شئت جعلتها نصباً، المعنى: ألم تعلموا هذا، وتعلموا من قبل تفريطكم في يوسف.

وإن شئت جعلت "ما" صلة، كأنه قال: ومن قبل فرّطتم في يوسف.

قال الزجاج: وهذا أجود الوجوه، أن تكون "ما" لغواً.

قوله تعالى: ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ أي: لن أخرج من أرض مصر، يقال: بَرِح الرجل بَراحاً: إِذا تنحّى عن موضعه.

﴿ حتى يأذن لي ﴾ قال ابن عباس: حتى يبعث إِليّ أن آتيه، ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أو يحكم الله لي، فيردّ أخي عليّ.

والثاني: يحكم الله لي بالسيف، فأحارب من حبس أخي.

والثالث: يقضي في أمري شيئاً، ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ أي: أعدلهم وأفضلهم.

قوله تعالى: ﴿ إِن ابنك سرق ﴾ وقرأ ابن عباس، والضحاك، وابن أبي سريج عن الكسائي: "سُرِّق" بضم السين وتشديد الراء وكسرها.

قوله تعالى: ﴿ وما شهدنا إِلا بما علمنا ﴾ فيه قولان:

أحدهما: وما شهدنا عليه بالسرقة إِلا بما علمنا، لأنا رأينا المسروق في رحله، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني : وما شهدنا عن يوسف بأن السارق يؤخذ بسرقته إلا بما علمنا من دينك ، قاله ابن زيد .

وفي قوله : ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ ثمانية أقوال :

أحدها : أن الغيب هو الليل ، والمعنى : لم نعلم ما صنع بالليل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وهذا يدل على أن التهمة وقعت به ليلاً .

والثاني : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال عكرمة ، وقتادة ، ومكحول .

قال ابن قتيبة : فالمعنى : لم نعلم الغيب حين أعطيناك الموثق لنأتينَّك به أنه يسرق فيؤخذ .

والثالث : لم نستطع أن نحفظه فلا يسرق ، رواه عبد الوهاب عن مجاهد .

والرابع : لم نعلم أنه سرق للملك شيئاً ، ولذلك حكمنا باسترقاق السارق ، قاله ابن زيد .

والخامس : أن المعنى : قد رأينا السرقة قد أُخذت من رحله ، ولا علم لنا بالغيب فلعلهم سرَّقوه ، قاله ابن إسحاق .

والسادس : ما كنا لغيب ابنك حافظين ، إنما نقدر على حفظه في محضره ، فإذا غاب عنا ، خفيت عنا أموره .

والسابع : لو علمنا من الغيب أن هذه البلية تقع بابنك ما سافرنا به ، ذكرهما ابن الأنباري .

والثامن : لم نعلم أنك تُصَابُ به كما أُصبتَ بيوسف ، ولو علمنا لم نذهب به ، قاله ابن

كيسان.

قوله تعالى: ﴿ واسأل القرية ﴾ المعنى: قولوا لأبيكم: سل أهل القرية ﴿ التي كنا فيها ﴾ يعنون مصر ﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أي: وأهل العير، وكان قد صحبهم قوم من الكنعانيين.

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون المعنى: وسل القرية والعير فانها تعقل عنك لأنك نبي، والأنبياء قد تخاطبهم الأحجار والبهائم، فعلى هذا تسلم الآية من إِضمار.

قوله تعالى: ﴿ قال بل سوّلت لكم أنفسكم ﴾ في الكلام اختصار، والمعنى: فرجعوا إِلى أبيهم فقالوا له ذلك، فقال لهم هذا، وقد شرحناه في اول السورة [يوسف: 18].

واختلفوا لأي علَّة قال لهم هذا القول، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ظن أن الذي تخلَّف منهم، إِنما تخلف حيلة ومكراً ليصدِّقهم، قاله وهب بن منبه.

والثاني: أن المعنى: سوّلت لكم أنفسكم أنّ خروجكم بأخيكم يجلب نفعاً، فجرّ ضرراً، قاله ابن الأنباري.

والثالث : سوّلت لكم أنه سرق ، وما سرق .

قوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ﴾ يعني : يوسف وبنيامين وأخاهما المقيم بمصر ، وقال مقاتل : أقام بمصر يهوذا وشمعون ، فأراد بقوله .

"أن يأتيني بهم" يعني : الأربعة .

قوله تعالى : ﴿ إنه هو العليم ﴾ أي : بشدة حزني ، وقيل : بمكانهم ، ﴿ الحكيم ﴾ فيما حكم عليّ .

قوله تعالى : ﴿ وتولّى عنهم ﴾ أي : أعرض عن ولده أن يطيل معهم الخطب ، وانفرد بحزنه ، وهيّج عليه ذِكر يوسف ﴿ وقال يا أسفى على يوسف ﴾ قال ابن عباس : يا طول حزني على يوسف .

قال ابن قتيبة : الأسف : أشد الحسرة .

قال سعيد بن جبير : لقد أُعطيتْ هذه الأمة عند المصيبة ما لم يُعْطَ الأنبياء قبلهم ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ [البقرة : 156] ، ولو أعطيها الأنبياء لأعطيها يعقوب ؛ إذ يقول : "يا أسفى على يوسف" .

فإن قيل : هذا لفظ الشكوى ، فأين الصبر ؟

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أنه شكا إلى الله تعالى ، لا مِنْهُ .

والثاني : أنه أراد به الدعاء ، فالمعنى : يارب ارحم أسفي على يوسف .

وذكر ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال : نداء يعقوب الأسف في اللفظ من المجاز الذي يُعنى به غير المظهر في اللفظ وتلخيصه : يا إِلهي ارحم أسفي ، أو أنت راءٍ أسفي ، وهذا أسفي ، فنادى الأسف في اللفظ ، والمنادى في المعنى سواه ، كما قال : "يا حسرتنا" والمعنى : يا هؤلاء تنبهوا على حسرتنا ، قال : والحزن ونفور النفس من المكروه والبلاء لا عيب فيه ولا مأثم إِذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثِّم ولم يشكُ إِلا إِلى ربه فلما كان قوله : "يا أسفى" شكوى إِلى ربه ، كان غير ملوم .

(123/403)

وقد روي عن الحسن أن أخاه مات ، فجزع الحسن جزعاً شديداً ، فعوتب في ذلك ، فقال : ما وجدت الله عاب على يعقوب الحزن حيث قال : "يا أسفى على يوسف" .

قوله تعالى : ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ أي : انقلبت إِلى حال البياض .

وهل ذهب بصره ، أم لا ؟ فيه قولان :

أحدهما : أنه ذهب بصره ، قاله مجاهد .

والثاني : ضعف بصره لبياضٍ تغشّاه من كثرة البكاء ، ذكره الماوردي .

وقال مقاتل : لم يُبصر بعينيه ست سنين .

قال ابن عباس : وقوله : "من الحزن" أي : من البكاء ، يريد أن عينيه ابيضتا لكثرة بكائه ، فلما كان الحزن سبباً للبكاء ، سمي البكاء حزناً .

وقال ثابت البُناني : دخل جبريل على يوسف ، فقال : أيها الملَك الكريم على ربه ، هل لك عِلم بيعقوب ؟ قال : نعم .

قال : ما فعل ، قال : ابيضت عيناه ، قال : ما بلغ حزنه ؟ قال : حزن سبعين ثكلى ، قال : فهل له على ذلك من أجر ؟ قال : أجر مائة شهيد .

وقال الحسن البصري : ما فارق يعقوبَ الحزنُ ثمانين سنة ، وما جفَّت عينه ، وما أحد يومئذ أكرم على الله منه حين ذهب بصره .

قوله تعالى : ﴿ فهو كظيم ﴾ الكظيم بمعنى الكاظم ، وهو الممسك على حزنه فلا يظهره ، قاله ابن قتيبة : وقد شرحنا هذا عند قوله : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : 134] .

قوله تعالى : ﴿ قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ قال ابن الأنباري : معناه : والله ، وجواب هذا القسم "لا" المضمرة التي تأويلها : تالله لا تفتأ ، فلما كان موضعها معلوماً خفف الكلام بسقوطها من ظاهره ، كما تقول العرب : والله أقصدك أبداً ، يعنون : لا أقصدك ، قال امرؤ القيس :

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِداً . . .

وَلَوْ قطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

يريد : لا أبرح.

وقالت الخنساء :

فَأَقْسَمْتُ آسَى عَلَى هَالِكٍ . . .

أَو اسْأَلُ نَائِحَةً مَالَهَا

أرادت : لا آسى ، وقال الآخر :

لَمْ يَشْعُرِ النَّعْشُ مَا عَلَيْهِ مِن ال . . .

(124/403)

عُرْفِ وَلَا الحَامِلُونَ مَا حَمَلُوا

تاللّه أَنْسَى مُصِيْبَتِي أَبَداً . . .

مَا أَسْمَعَتْنِي حَنِيْنَهَا الإِبلُ

وقرأ أبو عمران ، وابن محيصن ، وأبو حيوة : "قالوا باللّه" بالباء ، وكذلك كل قسم في القرآن.

وأما قوله : "تفتأ" فقال المفسرون وأهل اللغة : معنى "تفتأ" تزال ، فمعنى الكلام : لا تزال تذكر يوسف ، وأنشد أبو عبيدة :

فَمَا فَتِئَتْ خَيْلٌ تثُوبُ وتدَّعي . . .

وَيَلْحَقُ منها لاَحِقٌ وتقطَّعُ

وأنشد ابن القاسم :

فَمَا فَتِئَتْ مِنَّا رِعَالٌ كَأَنَّها . . .

رِعَالُ القَطَا حَتَّى احْتَوَيْنَ بني صَخْرِ

قوله تعالى : ﴿ حتى تكون حرضاً ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه الدَّنِف ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

قال ابن قتيبة : يقال : أحرضه الحزن ، أي : أدنفه .

قال أبو عبيدة : الحرض : الذي قد أذابه الحزن أو الحُب ، وهي في موضع مُحْرَض .

وأنشد :

إِني امرؤٌ لَجَّ بي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي . . .

حَتى بَلِيتُ وحَتَى شفَّني السَّقَم

أي : أذابني .

وقال الزجاج : الحرض : الفاسد في جسمه ، والمعنى : حتى تكون مدنفاً مريضاً .

والثاني: أنه الذاهب العقل، قاله الضحاك عن ابن عباس.

وقال ابن إِسحاق: الفاسد العقل.

قال الزجاج: وقد يكون الحرض: الفاسد في أخلاقه.

والثالث: أنه الفاسد في جسمه وعقله، يقال: رجل حارض وحرض، فحارض، يثَنَّي ويُجمع ويُؤنث، وحرض لا يُجمع ولا يثنّى، لأنه مصدر، قاله الفراء.

والرابع: أنه الهرم، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ يعنون: الموتى.

فإن قيل: كيف حلفوا على شيء يجوز أن يتغير؟

فالجواب: أن في الكلام إِضماراً، تقديره: إِن هذا في تقديرنا وظننا.

قوله تعالى: ﴿ إِنما أشكو بَثّي ﴾ قال ابن قتيبة: البثُّ: أشد الحزن، سمي بذلك، لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثّه.

(125/403)

قوله تعالى: ﴿ إِلى الله ﴾ المعنى: إِني لا أشكو إِليكم، وذلك لما عنَّفوه بما تقدم ذِكره.

وروى الحاكم أبو عبد الله في "صحيحه" من حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم .

أنه قال : "كان ليعقوب أخ مؤاخٍ ، فقال له ذات : يوم يا يعقوب ، ما الذي أذهب بصرك ؟ وما الذي قوَّس ظهرك ؟ قال : أمَّا الذي أذهب بصري ، فالبكاء على يوسف ، وأما الذي قوَّس ظهري ، فالحزن على بنيامين ، فأتاه جبريل ، فقال : يا يعقوب إِن الله يقرئك السلام ويقول لك ، أما تستحي أن تشكو إِلى غيري ؟ فقال : إِنما أشكو بثّي وحزني إِلى الله ، فقال جبريل : الله أعلم بما تشكو ، ثم قال يعقوب : أي رب ، أما ترحم الشيخ الكبير ؟ أذهبتَ بصري ، وقوّستَ ظهري ، فاردد عليّ ريحاني أشمه شمّةً قبل الموت ، ثم اصنع بي يا رب ما شئت ، فأتاه جبريل ، فقال : يا يعقوب ، إِن الله يقرأ عليك السلام ويقول : أبشر ، فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك ، اصنع طعاماً للمساكين ، فإِن أحب عبادي إِليّ ، المساكين ، وتدري لم أذهبتُ بصرك ، وقوّست ظهرك ، وصنع إِخوة يوسف بيوسف ما صنعوا ؟ لأنكم ذبحتم شاة ، فأتاكم فلان المسكين وهو صائم ، فلم تطعموه منها .

فكان يعقوب بعد ذلك إِذا أراد الغداء أمر منادياً فنادى : ألا مَن أراد الغداء من المساكين فليتغدَّ مع يعقوب ، وإِذا كان صائماً ، أمر منادياً فنادى : من كان صائماً فليُفطر مع يعقوب "

وقال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى إِلى يعقوب : أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة ؟ قال : لا ، قال : لأنك شويت عناقاً وقتَّرت على جارك وأكلت ولم

تطعمه .

وذكر بعضهم أن السبب في ذلك أن يعقوب ذبح عجل بقرة بين يديها ، وهي تخور ، فلم يرحمها .

فإن قيل : كيف صبر يوسف عن أبيه بعد أن صار ملكاً ؟

فقد ذكر المفسرون عنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه يجوز أن يكون ذلك عن أمر الله تعالى ، وهو الأظهر .

والثاني : لئلا يظن الملك بتعجيل استدعائه أهله ، شدة فاقتهم .

والثالث : أنه أحب بعد خروجه من السجن أن يدرِّج نفسه إلى كمال السرور .

والصحيح أن ذلك كان عن أمر الله تعالى ، ليرفع درجة يعقوب بالصبر على البلاء .

وكان يوسف يلاقي من الحزن لأجل حزن أبيه عظيماً ، ولا يقدر على دفع سببه .

قوله تعالى : ﴿ وأعلم من الله مالا تعلمون ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأنّا سنسجد له ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أعلم من سلامة يوسف مالا تعلمون .

قال ابن السائب : وذلك أن ملك الموت أتاه ، فقال له يعقوب : هل قبضت روح ابني يوسف ؟ قال : لا .

والثالث : أعلم من رحمة الله وقدرته مالا تعلمون ، قاله عطاء .

والرابع : أنه لما أخبره بنوه بسيرة العزيز ، طمع أن يكون هو يوسف ، قاله السدي ، قال : ولذلك قال لهم : ﴿ اذهبوا فتحسسوا ﴾ .

وقال وهب بن منبه : لما قال له ملك الموت : ما قبضت روح يوسف ، تباشر عند ذلك ، ثم أصبح ، فقال لبنيه : ﴿ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ .

قال أبو عبيدة : "تحسسوا" أي : تخَبَّروا والتمِسوا في المظانّ .

فإن قيل : كيف قال "من يوسف" والغالب أن يقال : تحسست عن كذا ؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري :

أحدهما : أن المعنى : عن يوسف ، ولكن نابت عنها "من" كما تقول العرب : حدثني فلان من فلان ، يعنون عنه .

والثاني : أن "مِن" أوثرت للتبعيض ، والمعنى : تحسَّسُوا خبراً من أخبار يوسف .

قوله تعالى : ﴿ ولا تيأسوا من رَوْحِ الله ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : من رحمة الله ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

والثاني : من فرج الله ، قاله ابن زيد .

والثالث : من توسعة الله ، حكاه ابن القاسم .

قال الأصمعي : الروح : الاستراحة من غم القلب .

وقال أهل المعاني : لا تيأسوا من الروح الذي يأتي به الله ، ﴿ إِنه لا ييأس من رَوْح الله إِلا القوم الكافرون ﴾ لأن المؤمن يرجو الله في الشدائد .

(127/403)

قوله تعالى : ﴿ فلما دخلوا عليه ﴾ في الكلام محذوف .

تقديره : فخرجوا إِلى مصر ، فدخلوا على يوسف ، ف ﴿ قالوا : يا أيها العزيز ﴾ وكانوا يسمُّون ملكهم بذلك ، ﴿ مسَّنا وأهلنا الضرُّ ﴾ يعنون الفقر والحاجة ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ .

وفي ماهية تلك البضاعة سبعة أقوال :

أحدها : أنها كانت دراهم ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنها كانت متاعاً رثّاً كالحبل والغرارة ، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس .

والثالث : كانت أَقِطاً قاله الحسن .

والرابع : كانت نعالاً وأدَماً ، رواه جويبر عن الضحاك .

والخامس : كانت سويق المُقْل ، روي عن الضحاك أيضاً .

والسادس : حبة الخضراء وصنوبر ، قاله أبو صالح .

والسابع : كانت صوفاً وشيئاً من سمن ، قاله عبد الله بن الحارث .

وفي المزجاة خمسة أقوال :

أحدها : أنها القليلة .

روى العوفي عن ابن عباس قال : دراهم غير طائلة ، وبه قال مجاهد ، وابن إسحاق ، وابن قتيبة .

قال الزجاج : تأويله في اللغة أن التزجية : الشيء الذي يدافَع به ، يقال : فلان يزجي العيش ، أي : يدفع بالقليل ويكتفي به ، فالمعنى : جئنا ببضاعة إنما ندافع بها ونتقوّت ، وليست مما يُتَّسع به ، قال الشاعر :

الوَاهِبُ المائَةَ الهِجَانَ وَعَبْدَهَا . . .

عُوذاً تُزَجِّي خَلْفَهَا أَطْفَالَهَا

أي : تدفع أطفالها .

والثاني : أنها الرديئة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

قال أبو عبيدة : إنما قيل للرديئة : مزجاة ، لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها ، قال : وهي من الإزجاء ، والإزجاء عند العرب : السّوق والدفع ، وأنشد :

لِيَبْكِ على مِلحانَ ضيفٌ مُدفَّعٌ . . .

وَأَرْمَلَةٌ تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ أَرْمَلاَ

أي : تسوقه .

والثالث : الكاسدة ، رواه الضحاك أيضاً عن ابن عباس .

والرابع : الرثّة ، وهي المتاع الخَلَق ، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس .

والخامس : الناقصة ، رواه أبو حصين عن عكرمة .

(128/403)

قوله تعالى : ﴿ فأوف لنا الكيل ﴾ أي : أتمه لنا ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا .

قوله تعالى : ﴿ وتصدق علينا ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : تصدّق علينا بما بين سعر الجياد والرديئة ، قاله سعيد بن جبير ، والسدي .

قال ابن الأنباري : كان الذي سألوه من المسامحة يشبه التصدُّق ، وليس به .

والثاني : بردّ أخينا ، قال ابن جريج .

قال : وذلك أنهم كانوا أنبياء ، والصَّدَقَةُ لا تحل للأنبياء .

والثالث : وتصدّق علينا بالزيادة على حقِّنا ، قاله ابن عيينة ، وذهب إلى أن الصدقة قد

كانت تحل للأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه وسلم ، حكاه أبو سليمان الدمشقي ، وأبو الحسن الماوردي ، وأبو يعلى بن الفراء .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يجزي المتصدقين ﴾ أي : بالثواب .

قال الضحاك : لم يقولوا : إن الله يجزيك إن تصدقت علينا ، لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن .

قوله تعالى : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ في سبب قوله لهم هذا ، ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه أخرج إليهم نسخة الكتاب الذي كتبوه على أنفسهم ببيعه من مالك بن ذعر ، وفي آخر الكتاب : "وكتب يهوذا" فلما قرؤوا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا : هذا كتاب كتبناه على أنفسنا عند بيع عبدٍ كان لنا ، فقال يوسف عند ذلك : إنكم تستحقون العقوبة ، وأمر بهم ليُقتَلوا ، فقالوا : إن كنت فاعلاً ، فاذهب بأمتعتنا إلى يعقوب ، ثم أقبل يهوذا على بعض إخوته ، وقال : قد كان أبونا متصل الحزن لفقد واحد من ولده ، فكيف به إذا أُخبر بهُلكنا أجمعين ؟ فرقّ يوسف عند ذلك وكشف لهم أمره ، وقال لهم هذا القول ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

الثاني : أنهم لما قالوا : "مسَّنا وأهلنا الضرُّ" أدركته الرحمة ، فقال لهم هذا ، قاله ابن إسحاق .

والثالث : أن يعقوب كتب إليه كتاباً : إن رددتَ ولدي ، وإلا دعوتُ عليك دعوةً تدرك

السابعَ من ولدك ، فبكى ، وقال لهم هذا .

وفي "هل" قولان :

(129/403)

أحدهما : أنها استفهام لتعظيم القصة لا يراد به نفس الاستفهام .

قال ابن الأنباري : والمعنى : ما أعظم ما ارتكبتم ، وما أسمج ما آثرتم من قطيعة الرحم وتضييع الحق ، وهذا مثل قول العربي : أتدري من عصيت ؟ هل تعرف من عاديت ؟ لا يرد بذلك الاستفهام ، ولكن يريد تفظيع الأمر ، قال الشاعر :

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي . . .

لم يرد الاستفهام ، إنما أراد أن هذا غير مرجوٍّ عندهم .

قال : ويجوز أن يكون المعنى : هل علمتم عقبى ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم الله لهما من المكروه ؟ وهذه الآية تصديق قوله : ﴿ لتنبِّئَنَّهم بأمرهم ﴾ .

والثاني : أن "هل" بمعنى "قد" ذكره بعض أهل التفسير .

فإن قيل : فالذي فعلوا بيوسف معلوم ، فما الذي فعلوا بأخيه ، وما سعَوا في حبسه ولا أرادوه ؟

فالجواب من وجوه .

أحدها : أنهم فرَّقوا بينه وبين يوسف ، فنغَّصوا عيشه بذلك .

والثاني : أنهم آذوْهُ بعد فُقْدِ يوسف .

والثالث : أنهم سبّوه لما قُذف بسرقة الصاع .

وفي قوله : ﴿ إِذ أنتم جاهلون ﴾ أربعة أقوال :

أحدها : إِذ أنتم صبيان ، قاله ابن عباس .

والثاني : مذنبون ، قاله مقاتل .

والثالث : جاهلون بعقوق الأب ، وقطع الرحم ، وموافقة الهوى .

والرابع : جاهلون بما يؤول إِليه أمر يوسف ، ذكرهما ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ أئنك لأنت يوسف ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو جعفر ، وابن محيصن : "إِنك" على الخبر ، وقرأه آخرون بهمزتين محققتين ، وأدخل بعضهم بينهما ألفاً .

واختلف المفسرون ، هل عرفوه ، أم شبّهوه ؟ على قولين .

أحدهما : أنهم شبّهوه بيوسف ، قاله ابن عباس في رواية .

والثاني : أنهم عرفوه ، قاله ابن إِسحاق .

وفي سبب معرفتهم له ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه تبسم ، فشبَّهوا ثناياه بثنايا يوسف ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنه كانت له علامة كالشامة في قرنه ، وكان ليعقوب مثلها ، ولإِسحاق مثلها ، ولسارة مثلها ، فلما وضع التاج عن رأسه ، عرفوه ، رواه عطاء عن ابن عباس .

(130/403)

والثالث : أنه كشف الحجاب ، فعرفوه ، قاله ابن إِسحاق .

قوله تعالى : ﴿ قال أنا يوسف ﴾ قال ابن الأنباري : إِنما أظهر الاسم ، ولم يقل : أنا هو ، تعظيماً لما وقع به من ظلم إِخوته ، فكأنه قال : أنا المظلوم المستحَلّ منه ، المراد قتلُه ، فكفى ظهور الاسم من هذه المعاني ، ولهذا قال : ﴿ وهذا أخي ﴾ وهم يعرفونه ، وإِنما قصد : وهذا المظلوم كظلمي .

قوله تعالى : ﴿ قد منَّ الله علينا ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : بخير الدنيا والآخرة .

والثاني : بالجمع بعد الفرقة .

والثالث : بالسلامة ثم بالكرامة .

قوله تعالى : ﴿ إِنه من يتق ويصبر ﴾ قرأ ابن كثير في رواية قنبل : "من يتقي ويصبر" بياء في الوصل والوقف ، وقرأ الباقون بغير ياء الحالين .

وفي معنى الكلام أربعة أقوال :

أحدها : من يتق الزنى ويصبر على البلاء .

والثاني : من يتق الزنى ويصبر على العزبة .

والثالث : من يتق الله ويصبر على المصائب ، رويت هذه الأقوال عن ابن عباس .

والرابع : يتق معصية الله ويصبر على السجن ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أي : أجر مَنْ كان هذا حاله .

قوله تعالى : ﴿ لقد آثرك الله علينا ﴾ أي : اختارك وفضّلك .

وبماذا عنوا أنه فضّله فيه ؟ أربعة أقوال :

أحدها : بالملك ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : بالصبر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : بالحلم والصفح عنا ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

والرابع : بالعلم والعقل والحسن وسائر الفضائل التي أعطاه .

قوله تعالى : ﴿ وإِن كنا لخاطئين ﴾ قال ابن عباس : لمذنبين آثمين في أمرك .

قال ابن الأنباري : ولهذا اختير "خاطئين" على "مخطئين" وإِن كان "أخطأَ" على ألسن الناس أكثر من "خطئ يخطأ" لأن معنى خطئ يخطأ ، فهو خاطئ : آثم ، ومعنى أخطأ يخطئ ، فهو مخطئ : ترك الصواب ولم يأثم ، قال الشاعر :

عِبَادُكَ يَخْطَأُونَ وَأَنْتَ رَبٌّ . . .

بِكَفَّيْكَ الْمَنَايَا والحُتُومُ

أراد : يأثمون .

(131/403)

قال : ويجوز أن يكون آثر "خاطئين" على "مخطئين" لموافقة رؤوس الآيات لأن "خاطئين" أشبه بما قبلها .

وذكر الفراء في معنى "إن" قولين :

أحدهما : وقد كنا خاطئين .

والثاني : وما كنا إلا خاطئين .

قوله تعالى : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس : لا أعيّركم بعد اليوم بهذا أبداً .

قال ابن الأنباري : إنما أشار إلى ذلك اليوم ، لأنه أول أوقات العفو ، وسبيل العافي في مثله أن لا يراجع عقوبة .

وقال ثعلب : قد ثرّب فلان على فلان : إذا عدّد عليه ذنوبه .

وقال ابن قتيبة : لا تعيير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتم ، وأصل التثريب : الإِفساد ، يقال : ثرّب علينا : إِذا أفسد ، وفي الحديث : " إِذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحدّ ، ولا يثرِّب " أي : لا يعيِّرها بالزنى ، قال ابن عباس : جعلهم في حِلّ ، وسأل الله المغفرة لهم .

وقال السدي : لما عرّفهم نفسه ، سألهم عن أبيه ، فقالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصَه ، وقال : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ وهذا القميص كان في قصبة من فضة معلّقاً في عنق يوسف لما أُلقي في الجب ، وكان من الجنة ، وقد سبق ذكره [يوسف : 18 ، 25 ، 26 ، 27 ، 28] .

قوله تعالى : ﴿ يأت بصيراً ﴾ قال أبو عبيدة : يعود مبصراً .

فإن قيل : من أين قطع على الغيب ؟

فالجواب : أن ذلك كان بالوحي إِليه ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وائتوني بأهلكم أجمعين ﴾ قال الكلبي : كان أهله نحواً من سبعين إِنساناً .

قوله تعالى : ﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي : خرجت من مصر متوجهة إِلى كنعان .

وكان الذي حمل القميص يهوذا .

قال السدي : قال يهوذا ليوسف : أنا الذي حملت القميص إِلى يعقوب بدم كذب فأحزنتُه ، وأنا الآن أحمل قميصك لأسرّه ، فحمله ، قال ابن عباس : فخرج حافياً حاسراً يعدو ، ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها .

قوله تعالى : ﴿ قال لهم أبوهم ﴾ يعني يعقوب لمن حضره من أهله وقرابته وولد ولده ﴿ إِني لأجد ريح يوسف ﴾ .

ومعنى أجد : أشم ، قال الشاعر :

وَلَيْسَ صَرِيْرُ النَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَه . . .

وَلَكِنَّها أَصْلاَبُ قَوْمٍ تَقَصَّفُ

وَلَيْسَ فَتِيقُ المِسْكِ مَا تَجِدُونَه . . .

وَلَكِنَّه ذَاكَ الثَّنَاءُ المُخَلَّفُ

فإن قيل : كيف وجد يعقوب ريحه وهو بمصر ، ولم يجد ريحه من الجب وبعد خروجه منه ، والمسافة هناك أقرب ؟

فعنه جوابان .

أحدهما : أن الله تعالى أخفى أمر يوسف على يعقوب في بداية الأمر لتقع البلية التي يتكامل بها الأجر ، وأوجده ريحه من المكان النازح عند تقضّي البلاء ومجيء الفرج .

والثاني : أن هذا القميص كان في قصبة من فضة معلّقا في عنق يوسف على ما سبق بيانه .

فلما نشره فاحت روائح الجنان في الدنيا فاتصلت بيعقوب، فعلم أن الرائحة من جهة ذلك القميص.

قال مجاهد: هبت ريح فضربت القميص، ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة، فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فمن ثم قال: ﴿ إِني لأجد ريح يوسف ﴾.

وقيل: إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل البشير فأذن لها، فلذلك يستروح كل محزون إلى ريح الصبا، ويجد المكروبون لها رَوْحاً، وهي ريح لينة تأتي من ناحية المشرق، قال أبو صخر الهذلي:

إِذا قُلْتُ هَذَا حِينَ أَسْلُو يَهِيْجُني . . .
نَسِيْمُ الصَّبا مِنْ حَيْثُ يطَّلِعُ الفَجْرُ

قال ابن عباس: وجد ريح قميص يوسف من مسيرة ثمان ليال ثمانين فرسخاً.

قوله تعالى: ﴿ لولا أن تفنّدونِ ﴾ فيه خمسة أقوال.

أحدها: تُجهّلونِ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مقاتل.

والثاني: تسفّهونِ، رواه عبد الله بن أبي الهذيل عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وقتادة، ومجاهد في رواية.

وقال في رواية أخرى: لولا أن تقولوا: ذهب عقلك.

والثالث : تكذّبونِ ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، والضحاك .

والرابع : تهرّمونِ ، قاله الحسن ، ومجاهد في رواية .

قال ابن فارس : الفَنَد : إنكار العقل من هرم .

والخامس : تعجّزونِ ، قاله ابن قتيبة .

وقال أبو عبيدة : تسفّهون وتعجّزون وتلومون ، وأنشد :

يَا صَاحِبَيَّ دَعَا لَوْمِي وَتَفْنِيدِي . . .

فَلَيْسَ مَا فَاتَ مِنْ أَمْرٍ بِمَرْدُودِ

قال ابن جرير : وأصل التفنيد : الإفساد ، وأقوال المفسرين تتقارب معانيها ، وسمعت الشيخ أبا محمد إبن الخشاب يقول : قوله : "لولا أن تفنّدون" فيه إضمار ، تقديره : لأخبرتكم أنه حيّ .

قوله تعالى : ﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ قال ابن عباس : بنو بنيه خاطبوه بهذا ، وكذلك قال السدي : هذا قول بني بنيه ، لأن بنيه كانوا بمصر .

وفي معنى هذا الضلال ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه بمعنى الخطأ ، قاله ابن عباس ، وابن زيد .

والثاني : أنه الجنون ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : الشقاء والعناء ، قاله مقاتل ، يريد بذلك شقاء الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه يهوذا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال وهب بن منبه ، والسدي ، والجمهور .

والثاني : أنه شمعون ، قاله الضحاك .

فإن قيل : ما الفرق بين قوله هاهنا : ﴿ فلما أن جاء ﴾ وقال في موضع : ﴿ فلما جاءهم ﴾ [البقرة : 89] .

فالجواب : أنهما لغتان لقريش خاطبهم الله بهما جميعاً ، فدخول "أن" لتوكيد مُضِيّ الفعل ، وسقوطها للاعتماد على إِيضاح الماضي بنفسه ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ ألقاه ﴾ يعني القميص ﴿ على وجهه ﴾ يعني يعقوب ﴿ فارتدَّ بصيراً ﴾ ، الارتداد : رجوع الشيء إِلى حال قد كان عليها .

قال ابن الأنباري : إِنما قال : ارتد ، ولم يقل : رُدَّ ، لأن هذا من الأفعال المنسوبة إِلى المفعولِين ، كقولهم : طالت النخلة ، والله أطالها ، وتحركت الشجرة ، والله حركها .

قال الضحاك : رجع إِليه بصره بعد العمى ، وقوّته بعد الضعف ، وشبابه بعد الهرم ، وسروره بعد الحزن .

وروى يحيى بن يمان عن سفيان قال : لما جاء البشيرُ يعقوبَ ، قال : على أيِّ دين تركت يوسف ؟ قال : على الإِسلام ، قال : الآن تمت النعمة .

قوله تعالى : ﴿ ألم أقل لكم إِني أعلم من الله مالا تعلمون ﴾ فيه أقوال قد سبق ذكرها قبل هذا بقليل .

قوله تعالى : ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ سألوه أن يستغفر لهم ما أتوا ، لأنه نبيّ مجاب الدعوة .

﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ في سبب تأخيره لذلك ثلاثة أقوال :

أحدهما : أنه أخَّرهم لانتظار الوقت الذي هو مَظِنَّة الإِجابة ، ثم فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه أخَّرهم إِلى ليلة الجمعة ، رواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال وهب : كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيِّف وعشرين سنة .

والثاني : إِلى وقت السَّحَر من ليلة الجمعة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

قال طاووس : فوافق ذلك ليلة عاشوراء .

والثالث : إلى وقت السَّحَر ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال ابن مسعود ، وابن عمر ، وقتادة ، والسدي ، ومقاتل .

قال الزجاج : إنما أراد الوقت الذي هو أخلق لإجابة الدعاء ، لا أنه ضَنَّ عليهم بالاستغفار ، وهذا أشبه بأخلاق الأنبياء عليهم السلام .

والقول الثاني : أنه دفعهم عن التعجيل بالوعد .

قال عطاء الخراساني : طلبُ الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ ، ألا ترى إلى قول يوسف : "لا تثريب عليكم اليوم" وإلى قول يعقوب : "سوف أستغفر لكم ربي"

والثالث : أنه أخَّرهم ليسأل يوسف ، فإن عفا عنهم ، استغفر لهم ، قاله الشعبي .

وروي عن أنس بن مالك أنهم قالوا : يا أبانا إنْ عفا الله عنا ، وإلا فلا قُرَّة عين لنا في الدنيا ، فدعا يعقوبُ وأمَّن يوسف ، فلم يُجب فيهم عشرين سنة ، ثم جاء جبريل فقال : إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك ، وعفا عما صنعوا به ، واعتقد مواثيقهم من بَعْدُ على النبوَّة .

قال المفسرون : وكان يوسف قد بعث مع البشير إلى يعقوب جَهازاً ومائتي راحلة ، وسأله أن يأتيه بأهله وولده .

فلما ارتحل يعقوب ودنا من مصر ، استأذن يوسف المِلك الذي فوقه في تلقِّي يعقوب ، فأذن له ، وأمر الملأ من أصحابه بالركوب معه ، فخرج في أربعة آلاف من الجند ، وخرج معهم أهل مصر .

وقيل : إِن الملك خرج معهم أيضاً .

فلما التقى يعقوب ويوسف ، بكيا جميعاً ، فقال يوسف : يا أبت بكيتَ عليَّ حتى ذهب بصرك ، أما علمتَ أن القيامة تجمعني وإِياك ؟ قال : أي بني ، خشيت أن تسلب دينك فلا نجتمع .

وقيل : إِن يعقوب ابتدأه بالسلام ، فقال السلام عليكم يا مذهب الأحزان .

قوله تعالى : ﴿ فلما دخلوا على يوسف ﴾ يعني : يعقوب وولده .

وفي هذا الدخول قولان :

أحدهما : أنه دخول أرض مصر ، ثم قال لهم : ﴿ ادخلوا مصر ﴾ يعني البلد .

والثاني : أنه دخول مصر ، ثم قال لهم : "ادخلوا مصر" أي : استوطنوها .

وفي قوله : ﴿ آوى إِليه أبويه ﴾ قولان :

أحدهما : أبوه وخالته ، لأن أمه كانت قد ماتت ، قاله ابن عباس والجمهور .

والثاني : أبوه وأمه ، قاله الحسن ، وابن إِسحاق .

وفي قوله : ﴿ إِن شاء الله آمنين ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، فالمعنى : سوف أستغفر لكم ربي إِن شاء الله ، إِنه هو الغفور الرحيم ، هذا قول ابن جريج .

والثاني : أن الاستثناء يعود إِلى الأمن .

ثم فيه قولان .

أحدهما : أنه لم يثق بانصراف الحوادث عنهم .

والثاني : أن الناس كانوا فيما خلا يخافون ملوك مصر ، فلا يدخلون إِلا بجوارهم .

(136/403)

والثالث : أنه يعود إِلى دخول مصر ، لأنه قال لهم هذا حين تلقَّاهم قبل دخولهم ، على ما سبق بيانه .

والرابع : أن "إِن" بمعنى : "إِذ" كقوله : ﴿ إِن أَرَدْنَ تحصُّناً ﴾ [النور : 33] .

قال ابن عباس : دخلوا مصر يومئذ وهم نيِّف وسبعون من ذكر وأنثى ، وقال ابن مسعود : دخلوا وهم ثلاثة وتسعون ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً .

قوله تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ في "أبويه" قولان قد تقدما في الآية التي قبلها .

والعرش هاهنا : سرير المملكة ، أجلس أبويه عليه ﴿ وخرّوا له ﴾ يعني : أبويه وإِخوته .

وفي هاء "له" قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى يوسف ، قاله الجمهور .

قال أبو صالح عن ابن عباس : كان سجودهم كهيأة الركوع كما يفعل الأعاجم .

وقال الحسن : أمرهم الله بالسجود لتأويل الرؤيا .

قال ابن الأنباري : سجدوا له على جهة التحية ، لا على معنى العبادة ، وكان أهل ذلك الدهر يحيِّي بعضهم بعضاً بالسجود والانحناء ، فحظره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فروى أنس بن مالك قال : " قال رجل : يا رسول الله أحدنا يلقى صديقه ، أينحني له ؟ قال : لا " .

والثاني : أنها ترجع إلى الله ، فالمعنى : وخرُّوا لله سجَّداً ، رواه عطاء ، والضحاك عن ابن عباس ، فيكون المعنى : أنهم سجدوا شكراً لله إذ جمع بينهم وبين يوسف .

قوله تعالى : ﴿ هذا تأويل رؤياي ﴾ أي : تصديق ما رأيت ، وكان قد رآهم في المنام يسجدون له ، فأراه الله ذلك في اليقظة .

واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها على سبعة أقوال :

أحدها : أربعون سنة ، قاله سلمان الفارسي ، وعبد الله بن شداد بن الهاد ، ومقاتل .

والثاني : اثنتان وعشرون سنة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : ثمانون سنة ، قاله الحسن ، والفضيل بن عياض .

والرابع : ست وثلاثون سنة ، قاله سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والسدي .

والخامس : خمس وثلاثون سنة ، قاله قتادة .

والسادس : سبعون سنة ، قاله عبد الله بن شوذب .

والسابع : ثماني عشرة سنة ، قاله ابن إِسحاق .

قوله تعالى : ﴿ وقد أحسن بي ﴾ أي : إِليّ .

والبَدْوُ : البَسْطُ من الأرض .

وقال ابن عباس : البدو : البادية ، وكانوا أهل عمود وماشية .

قوله تعالى : ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إِخوتي ﴾ أي : أفسد بيننا : قال أبو عبيدة : يقال : نزغ بينهم يَنْزَغ ، أي : أفسد وهيَّج ، وبعضهم يكسر زاي ينزِغ .

﴿ إِن ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي : عالم بدقائق الأمور .

وقد شرحنا معنى "اللطيف" في [الأنعام : 102] .

فإن قيل : قد توالت على يوسف نعم خمسة ، فما اقتصاره على ذِكر السجن ، وهلاّ ذكر الجُبَّ ، وهو أصعب ؟

فالجواب من وجوه .

أحدها : أنه ترك ذِكر الجُبِّ تكرماً ، لئلا يذكِّر إخوته صنيعهم ، وقد قال : "لا تثريب عليكم اليوم" .

والثاني : أنه خرج من الجُبِّ إلى الرق ، ومن السجن إلى الملك ، فكانت هذه النعمة أوفى .

والثالث : أن طول لبثه في السجن كان عقوبة له ، بخلاف الجُبِّ ، فشكر الله على عفوه .

قال العلماء بالسِّيَر : أقام يعقوب بعد قدومه مصر أربعاً وعشرين سنة .

وقال بعضهم : سبع عشرة سنة في أهنأ عيش ، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يُحمَل إلى الشام حتى يدفنه عند أبيه إسحاق ، ففعل به ذلك ، وكان عمره مائة وسبعاً وأربعين سنة ، ثم إن يوسف تاق إلى الجنة ، وعلم أن الدنيا لا تدوم فتمنَّى الموت ، قال ابن عباس ، وقتادة : ولم يتمنَّ الموتَ نبيٌّ قبله ، فقال : ﴿ ربِّ قد آتيتني من الملك ﴾ يعني : ملك مصر ﴿ وعلَّمتني من تأويل الأحاديث ﴾ وقد سبق تفسيرها [يوسف : 6] .

وفي "مِنْ" قولان :

أحدهما : أنها صلة ، قاله مقاتل .

والثاني : أنها للتبعيض ، لأنه لم يؤتَ كلَّ الملك ، ولا كلَّ تأويل الأحاديث .

قوله تعالى : ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ قد شرحناه في [الأنعام : 6] .

﴿ أنت وليي ﴾ أي : الذي تلي أمري .

﴿ توفَّني مسلماً ﴾ قال ابن عباس : يريد : لا تسلبني الإِسلام حتى توفاني عليه .

وكان ابن عقيل يقول : لم يتمنَّ يوسف الموت ، وإِنما سأل أن يموت على صفة .

والمعنى : توفني إِذا توفيتني مسلماً ، قال الشيخ : وهذا الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ والمعنى : ألحقني بدرجاتهم ، وفيهم قولان :

أحدهما : أنهم أهل الجنة ، قاله عكرمة .

والثاني : آباؤه إِبراهيم وإِسحاق ويعقوب ، قاله الضحاك : قالوا : فلما احتُضر يوسف ، أوصى إِلى يهوذا ، ومات ، فتشاحَّ الناس في دفنه ، كل يُحبُّ أن يُدفن في محلَّته رجاءَ البركة ، فاجتمعوا على دفنه في النيل ليمر الماء عليه ويصل إِلى الجميع ، فدفنوه في صندوق من رخام ، فكان هنالك إِلى أن حمله موسى حين خرج من مصر ودفنه بأرض كنعان .

قال الحسن : مات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة .

وذكر مقاتل أنه مات بعد يعقوب بسنتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال النسفى :

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾

أرادوا يوسف .

قيل : دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه .

وقيل : كان في المنزل دجاجة فأعطاها السائل .

وقيل : كانت منطقة لإبراهيم عليه السلام يتوارثها أكابر ولده فورثها إسحاق ، ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة أمه وكانت لا تصبر ، عنه فلما شب أراد يعقوب أن ينزعه منها فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت : فقدت منطقة إسحاق فانظروا من أخذها .

فوجدوها محزومة على يوسف فقالت : إنه لي سَلَم أفعل به ما شئت فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت .

وروي أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء وأقبلوا عليه وقالوا له : فضحتنا وسودت وجوهنا يا بني راحيل ، ما يزال لنا منكم بلاء متى أخذ هذا الصاع .

فقال بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه ووضع هذا الصواع

في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم ﴿ فَأَسَرَّهَا ﴾ أي مقالتهم إنه سرق كأنه لم يسمعها ﴿ يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ تمييز أي أنتم شر منزلة في السرق لأنكم سرقتم أخاكم يوسف من أبيه ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ تقولون أو تكذبون .

﴿ قَالُوا يا أَيُّهَا العزيز إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ في السن وفي القدر ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ أبدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد فإن أباه يتسلى به عن أخيه المفقود ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ﴾ إلينا فأتمم إحسانك أو من عادتك الإحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها .

(140/403)

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا متاعنا عِنْدَهُ ﴾ أي نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ فأضيف المصدر إلى المفعول به وحذف من ﴿ إِنَّا إِذًا لظالمون ﴾ "إذاً" جواب لهم وجزاء لأن المعنى إن أخذنا بدله ظلمنا ، وهذا لأنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصاع في رحله واستعباده فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ﴿ فَلَمَّا استيأسوا ﴾ يئسوا وزيادة السين والتاء للمبالغة كما مر في ﴿

استعصم ﴿ مِنْهُ ﴾ من يوسف وإجابته إياهم ﴿ خَلَصُواْ ﴾ انفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم ﴿ نَجِيّاً ﴾ ذوي نجوى أو فوجاً نجيا أي مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً ، أو تمحضوا تناجيا لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه بجد واهتمام كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته .

فالنجيّ يكون بمعنى المناجي كالسمير بمعنى المسامر ، وبمعنى المصدر الذي هو التناجي وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ في السن وهو روبيل ، أو في العقل والرأي وهو يهوذا ، أو رئيسهم وهو شمعون ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾ "ما" صلة أي ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم ، أو مصدرية ومحل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿ حتى يَأْذَنَ لِى أَبِى ﴾ في الانصراف إليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِى ﴾ بالخروج منها أو بالموت أو بقتالهم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ لأنه لا يحكم إلا بالعدل .

﴿ ارجعوا إلى أَبيكُمْ فَقُولُوا يا أَبَانَا إِنَّ ابنك سَرَقَ ﴾ وقرىء ﴿ سرّق ﴾ أي نسب إلى السرقة ﴿ وَمَا شَهِدْنَا ﴾ عليه بالسرقة ﴿ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ من سرقته وتيقنا إذ الصواع استخرج من وعائه ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافظين ﴾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق .

﴿ واسئل القرية التى كُنَّا فِيهَا ﴾ يعني مصر أي أرسل إلى أهلها فاسألهم عن كنه القصة ﴿ والعير التى أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ وأصحاب العير وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام ﴿ وِإِنَّا لصادقون ﴾ في قولنا فرجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أردتموه وإلا فمن أدرى ذلك الرجل أن السارق يسترق لولا فتواكم وتعليمكم ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ بيوسف وأخيه وكبيرهم ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم ﴾ بحالي في الحزن والأسف ﴿ الحكيم ﴾ الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ﴿ وتولى عَنْهُمْ ﴾ وأعرض عنهم كراهة لما جاؤوا به ﴿ وَقَالَ يا أسفى عَلَى يُوسُفَ ﴾ أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه .

والألف بدل من ياء الإضافة ، والتجانس بين الأسف ويوسف غير متكلف ونحوه ﴿ اثاقلتم إِلَى الأرض أَرَضِيتُم ﴾ [التوبة : 38] ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 26] ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : 104] ﴿ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾) النحل : 22) وإنما تأسف دون أخيه وكبيرهم لتمادي أسفه على يوسف دون

الآخرين ، وفيه دليل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طرياً ﴿ وابيضت عَيْنَاهُ ﴾ إذ أكثر الاستعبار ومحقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر .

وقيل : قد عمي بصره .

وقيل : كان قد يدرك إدراكاً ضعيفاً ﴿ مِنَ الحزن ﴾ لأن الحزن سبب البكاء الذي حدث منه البياض فكأنه حدث من الحزن .

قيل : ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب ويجوز للنبي عليه السلام أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لأن الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الحزن فلذلك حمد صبره ، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم ، وقال : " القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون " وإنما المذموم الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوؤهم فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله ﴿ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم : 48] من كظم السقاء إذا شده على ملئه .

﴿ قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ ﴾ أي لا تفتأ فحذف حرف النفي لأنه لا يلتبس إذ لو كان إثباتاً لم يكن بد من اللام والنون.

ومعنى لا تفتأ لا تزال ﴿ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ مشفياً على الهلاك مرضاً ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ﴾ البث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس، أي بنشره أي لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم إنما أشكو إلى ربي داعياً له وملتجئاً إليه فخلوني وشكايتي.

وروي أنه أوحى إلى يعقوب.

إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فوقف ببابكم مسكين فلم تطعموه وإن أحب خلقي إليّ الأنبياء ثم المساكين فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين.

وقيل: اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وأعلم من رحمته أنه يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب، وروي أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله: هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا والله هو حي فاطلبه وعلمه هذا الدعاء "ياذا المعروف الدائم الذي لا ينقطع معروفه أبداً ولا يحصيه غيرك فرج عني".

﴿ يَبَنِيَّ اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما وهو تفعل من الإحساس وهو المعرفة ﴿ وَلَا تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ ﴾ ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه ﴿ إِنَّهُ ﴾ إن الأمر والشأن ﴿ لَا يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلَّا القوم الكافرون ﴾ لأن من آمن يعلم أنه متقلب في رحمة الله ونعمته، وأما الكافر فلا يعرف رحمة الله ولا تقلبه في نعمته فييأس من رحمته، فخرجوا من عند أبيهم راجعين إلى مصر ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ على يوسف ﴿ قَالُواْ يا أَيُّهَا العزيز مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ الهزال من الشدة والجوع ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها من أزجيته إذا دفعته وطردته.

قيل: كان دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة.

(144/403)

وقيل: كانت صوفاً وسمناً ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الكيل ﴾ الذي هو حقنا ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة أوزدنا على حقنا أوهب لنا أخانا ﴿ إِنَّ اللهَ يَجْزِى المتصدقين ﴾ ولما قالوا مسنا وأهلنا الضر وتضرعوا إليه وطلبوا منه أن يتصدق عليهم ارفضت عيناه ولم يتمالك أن عرفهم نفسه حيث قال: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا

فَعَلْتُم بِيُوسُفَ ﴾ أي هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف ﴿ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهلون ﴾ لا تعلمون قبحه أو إذ أنتم في حد السفه والطيش وفعلهم بأخيه تعريضهم إياه للغم بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه وإيذاؤهم له بأنواع الأذى ﴿ قَالُواْ أَءِنَّكَ ﴾ بهمزتين : كوفي وشامي ﴿ لأَنتَ يُوسُفُ ﴾ اللام لام الابتداء و ﴿ أنت ﴾ مبتدأ و ﴿ يوسف ﴾ خبره ، والجملة خبر "إن" ﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وهذا أَخِى ﴾ وإنما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه ﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ بالألفة بعد الفرقة وذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة ولم يبدأ بالملامة ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ ﴾ الفحشاء ﴿ وَيِصْبِرْ ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعة ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ أي أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين .

وقيل : من يتق مولاه ويصبر على بلواه لا يضيع أجره في دنياه وعقباه .

(145/403)

﴿ قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ اختارك وفضلك علينا بالعلم والحلم والتقوى والصبر والحسن ﴿ وَإِن كُنَّا لَخاطئين ﴾ وإن شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم لم نتق ولم نصبر لا جرم أن الله أعزك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك ﴿ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ لا

تعيير عليكم ﴿ اليوم ﴾ متعلق بالتثريب أو ب ﴿ يغفر ﴾ والمعنى لا أثر بكم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بغيره من الأيام ! ثم ابتدأ فقال ﴿ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم .

يقال : غفر الله لك ويغفر لك على لفظ الماضي والمضارع ، أو اليوم يغفر الله لكم بشارة بعاجل غفران الله .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش : " ما ترونني فاعلاً بكم " قالوا : نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت . فقال : " أقول ما قال أخي يوسف لا تثريب عليك اليوم " ورُوي أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس : إذا أتيت رسول الله فاتلُ عليه ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ﴾ ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " غفر الله لك ولمن علمك " ويُروى أن أخوته لما عرفوه أرسلوا إليه أنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشياً ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك ، فقال يوسف : إن أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنهم ينظرون إليَّ بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ ، ولقد شرفت الآن بكم حيث علم الناس أني من حفدة إبراهيم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ أي إذا رحمتكم وأنا الفقير القتور فما ظنكم بالغني الغفور ؟ ثم سألهم عن حال أبيه فقالوا : إنه عمي من كثرة البكاء قال :

﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا ﴾ قيل : هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف ، وكان من الجنة أمره جبريل أن يرسله إليه فإن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلي ولا سقيم إلا عوفي ﴿ فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ يصر بصيراً .

تقول : جاء البناء محكماً أي صار ، أو يأت إلي وهو بصير .

قال يهوذا : أنا أحمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء .

وقيل : حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لينعموا بآثار ملكي كما اغتموا بأخبار هلكي .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ العير ﴾ خرجت من عريش مصر .

يقال : فصل من البلد فصولاً إذا انفصل منه وجاوز حيطانه ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ لولد ولده ومن حوله من قومه ﴿ إِنّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمانية أيام ﴿ لَوْلاَ أَن تُفَنّدُونِ ﴾ التفنيد النسبة إلى الفند وهو الخرف وإنكار العقل من هرم .

يقال : شيخ مفند .

والمعنى لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي أسباطه ﴿ تالله إِنَّكَ لَفِى ضلالك القديم ﴾ لفي ذهابك عن الصواب

قديماً في إفراط محبتك ليوسف أو في خطئك القديم من حب يوسف وكان عندهم أنه قد مات ﴿ فَلَمَّا أَن جاء البشير ﴾ أي يهوذا ﴿ أَلْقَاهُ على وَجْهِهِ ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب ﴿ فارتد ﴾ فرجع ﴿ بَصِيراً ﴾ يقال : رده فارتد وارتده إذا ارتجعه ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ ﴾ يعني قوله ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ أو قوله ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ وقوله ﴿ إِنّى أَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ كلام مبتدأ لم يقع عليه القول أو وقع عليه والمراد قوله ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ ورُوي أنه سأل البشير كيف يوسف ؟ قال : هو ملك مصر .

فقال : ما أصنع بالملك ، على أي دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام .

(147/403)

قال : الآن تمت النعمة ﴿ قَالُواْ يأَبَانَا استغفر لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خاطئين ﴾ أي سل الله مغفرة ما ارتكبنا في حقك وحق ابنك إنا تبنا واعترفنا بخطايانا ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّى إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ أخر الاستغفار إلى وقت السحر ، أو إلى ليلة الجمعة ، أو ليتعرف حالهم في صدق التوبة ، أو إلى أن يسأل يوسف هل عفا عنهم .

ثم إن يوسف وجه إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه ، فلما بلغ قريباً من مصر

خرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ ءاوَى إِلَيْهِ ﴾ ضم إليه ﴿ أَبَوَيْهِ ﴾ واعتنقهما .

قيل : كانت أمه باقية .

وقيل : ماتت وتزوج أبوه خالته والخالة أم كما أن العم أب ومنه قوله ﴿ وإله آبَائِكَ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ [البقرة : 133] ومعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر أنه حين استقبلهم أنزلهم في مضرب خيمة أو قصر كان له ثمة فدخلوا عليه وضم إليه أبويه ﴿ وَقَالَ ﴾ لهم بعد ذلك ﴿ ادخُلُوا مِصرَ إن شآءَ اللهُ ءامنين ﴾ من ملوكها وكانوا لا يدخلونها إلا بجواز أو من القحط .

ورُوي أنه لما لقيه قال يعقوب عليه السلام : السلام عليك يا مذهب الأحزان ، وقال له يوسف : يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ فقال : بلى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك .

وقيل : إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجال ونساء ، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمى ، وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ قيل: لما دخلوا مصر وجلس في مجلسه مستوياً على سريره واجتمعوا إليه أكرم أبويه فرفعهما على السرير وخروا له يعني الإخوة الأحد عشر والأبوين سجداً، وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد وقال الزجاج سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظم وقيل ما كانت لا انحناء دون تعفير الجباه وخرورهم سجداً يأباه وقيل وخروا لأجل يوسف سجداً لله شكراً وفيه نبوة أيضاً واختلف في استنبائهم ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رؤياى مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا ﴾ أي الرؤيا ﴿ رَبِّي حَقّاً ﴾ أي صادقة وكان بين الرؤيا وبين التأويل أربعين سنة أو ثمانون أو ست وثلاثون أو ثنتان وعشرون ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بَى ﴾ يقال: أحسن إليه وبه وكذلك أساء إليه وبه ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السجن ﴾ ولم يذكر الجب لقوله ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ البدو ﴾ من البادية لأنهم كانوا أصحاب مواشٍ ينتقلون في المياه والمناجع ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشيطان بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى ﴾ أي أفسد بيننا وأغرى ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ أي لطيف التدبير ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم الحكيم ﴾ بتأخير الآمال إلى الآجال أو حكم بالائتلاف بعد الاختلاف.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الملك ﴾ ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ تفسير كتب الله أو تعبير الرؤيا و"من" فيهما للتبعيض إذ لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا وبعض التأويل

﴿ فَاطِرَ السماوات والأرض ﴾ انتصابه على النداء ﴿ أَنتَ وَلِيّي فِى الدنيا والآخرة ﴾ أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ طلب الوفاة على حال الإسلام كقول يعقوب لولده ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : 102] وعن الضحاك : مخلصاً .

(149/403)

وعن التستري : مسلِّماً إليك أمري وفي عصمة الأنبياء إنما دعا به يوسف ليقتدي به قومه ومن بعده ممن ليس بمأمون العاقبة ، لأن ظواهر الأنبياء لنظر الأمم إليهم ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ من آبائي أو على العموم .

رُوي أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الثياب وخزائن السلاح حتى أدخله خزانة القراطيس قال : يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل .

فقال : أمرني جبريل .

: قال أو ما تسأله ؟ قال : أنت أبسط إليه مني فاسأله .

فقال جبريل : الله أمرني بذلك لقولك ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ فهلا خفتني .

ورُوي أن يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق ، فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة ، فلما تم أمره طلبت نفسه الملك الدائم فتمنى الموت .

وقيل : ما تمناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيباً طاهراً ، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه كلٌ يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يعملوا له صندوقاً من مرمر وجعلوه فيه ودفنوه في النيل بمكان يمر عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعاً حتى نقل موسى عليه السلام بعد أربعمائة سنة تابوته إلى بيت المقدس .

وولد له أفراثيم وميشا ، وولد لإفراثيم نون ، ولنون يوشع فتى موسى ، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر ولم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 232 . 239 ﴾

(150/403)

وقال ابن جزى :

﴿ قالوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾

الضمير في قالوا لإخوة يوسف ، وأشاروا إلى يوسف ، ومعنى كلامهم إن يسرق بنيامين ،

فقد سرق أخوه يوسف من قبل ، فهذا الأمر إنما صدر من ابني راحيل لأمِنّا ، وقصدوا بذلك رفع المعرّة عن أنفسهم ، ورموا بها يوسف وشقيقه ، واختلف في السرقة التي رموا بها يوسف على ثلاثة أقوال : الأول : أن عمته ربته ، فأراد والده أن يأخذه منها ، وكانت تحبه ولا تصبر عنه ، فجعلت عليه منطقة لها ، ثم قالت إنه أخذها فاستعبدته بذلك وبقي عندها ألى أن ماتت ، والثاني : أنه أخذ صمناً لجدّه والد أمه فكسره ، والثالث : أنه كان يأخذ الطعام من دار أبيه ويعطيه المساكين ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ قال الزمخشري : الضمير للجملة التي بعد ذلك وهي قوله : أنتم شرّ مكاناً ، والمعنى قال في قوله : أنتم شر مكاناً وقال ابن عطية : الضمير للحرارة التي وجد في نفسه من قولهم فقد سرق أخ له من قبل وأسر كراهية مقالتهم ثم جاهرهم بقوله أنتم شر مكاناً أي لسوء أفعالكم ﴿ والله أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ إشارة إلى كذبهم فيما وصفوه به من السرقة .

(151/403)

﴿ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً ﴾ استعطافاً وكانوا قد أعلموه بشدّة محبة أبيه فيه ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ على وجه الضمان والاسترهان ، والانقياد ، وهذا هو الأظهر لقوله : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴿ مِنَ المحسنين ﴾ أي أحسنت إلينا فيما

فعلت معنا من قبل أو على الإطلاق ﴿ استيأسوا ﴾ أي يئسوا ﴿ خَلَصُوا نَجِيّاً ﴾ أي انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضاً ، والنجي يكون بمعنى المناجي أو مصدراً ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ قيل : كبيرهم في السن وهو روبيل ، وقيل كبيرهم في الرأي هو : شمعون ، وقيل : يهوذا ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ تحتمل " ما " وجوها : الأول : أن تكون زائدة ، والثاني : أن تكون مصدرية ومحلها الرفع بالابتداء تقديره وقع من قبل تفريطكم في يوسف ، والثالث : أن تكون موصولة ومحلها أيضاً الرفع كذلك ، والأول أظهر ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾ يريد الموضع الذي وقعت فيه القصة ﴿ ارجعوا إلى أَبِيكُمْ ﴾ من قول كبيرهم ، وقيل : من قول يوسف وهو بعيد ﴿ إِنَّ ابنك سَرَقَ ﴾ قرأ الجمهور بفتح الراء والسين ، وروي عن الكسائي سرق بضم السين وكسر وتشديد الراء أي نسبت له السرقة ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ أي قولنا لك إن ابنك : إنما هو شهادة بما علمنا من ظاهر ما جرى ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ أي لا نعلم الغيب هل ذلك حق في نفس الأمر ، أم لا ، إذ يمكن أن يدس الصواع في رحله من غير علمه .

وقال الزمخشري : المعنى ما شهدنا إلا بما علمنا من سرقته وتيقناه ، لأن الصواع استخرج من وعائه ، وما كنا للغيب حافظين أي ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق ، وقراءة سرق بالفتح تعضد قول الزمخشري ، والقراءة بالضم تعضد القول الأول ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ واسأل أهل القرية ، وكذلك أهل العير : يعنون الرفقة ، هذا هو قول الجمهور وقيل : المراد سؤال القرية بنفسها والعير بنفسها ولا يبعد أن تخبره الجمادات لأنه نبيّ والأول أظهر وأشهر على أنه مجاز ، والقرية هنا هي مصر ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ قبله محذوف تقديره : فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له هذا الكلام فقال بل سولت الآية ﴿ بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ وأخاه بنيامين ، وأخاهم الكبير الذي قال لن أبرح الأرض .

﴿ وتولى عَنْهُمْ ﴾ لما لم يصدقهم أعرض عنهم ورجع إلى التأسف ﴿ وَقَالَ ياأسفى عَلَى يُوسُفَ ﴾ تأسف على يوسف دون أخيه الثاني والثالث ، الذاهبين ، لأن حزنه عليه كان أشدّ لإفراط محبته ولأن مصيبته كانت السابقة ﴿ وابيضت عَيْنَاهُ مِنَ الحزن ﴾ أي من البكاء الذي هو ثمرة الحزن ، فقيل إنه عميَ ، وقيل إنه كان يدرك إدراكاً ضعيفاً ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن يعقوب حزن حزن سبعين ثكلى وأعطي أجر مائة شهيد ،

وما ساء ظنه بالله قط ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ قيل إنه فعيل بمعنى فاعل أي كاظم لحزنه لا يظهره لأحد ، ولا يشكو إلا لله وقيل : بمعنى مفعول كقوله : ﴿ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم : 48] أي مملوء القلب بالحزن ، أو بالغيظ على أولاده ، وقيل الكظيم : الشديد الحزن ﴿ تَاللهِ تَفْتَؤُا ﴾ أي لا تفتؤ ، والمعنى لا تزال ، وحذف حرف النفي لأنه لا يلتبس بالإثبات : لأنه لو كان إثباتاً لكان مؤكداً باللام والنون ﴿ حَرَضاً ﴾ أي مشرفاً على الهلاك ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ﴾ ردّ عليهم في تفنيدهم له : أي إنما أشكو إلى الله لا إليكم ولا إلى غيركم ، والبث : أشدّ الحزن ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم من لطفه ورأفته ورحمته ما يوجب حسن ظنّي به وقوة رجائي فيه .

(154/403)

﴿ يا بني اذهبوا ﴾ يعني إلى الأرض التي تركتم بها أخويكم ﴿ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أي تعرّفوا خبرهما ، والتحسّس طلب الشيء بالحواس ؛ السمع والبصر ، وإنما لم يذكر الولد الثالث ، لأنه بقي هناك اختياراً منه ، ولأن يوسف وأخاه كانا أحب إليه ﴿ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ ﴾ أي من رحمة الله ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القوم الكافرون ﴾ إنما جعل اليأس من صفة الكافر ، لأن سببه تكذيب الربوبية أو جهلاً بصفات الله من

قدرته وفضله ورحمته ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ أي على يوسف وقيل : هذا محذوف تقديره فرجعوا إلى مصر ﴿ الضر ﴾ يريدون به المجاعة أو الهم على إخوتهم ﴿ بِبِضَاعَةٍ مزجاة ﴾ يعنون الدراهم التي جاؤوا بها لشراء الطعام ، والمزجاة القليلة ، وقيل : الرديئة ، وقيل : الناقصة ، وقيل : إن بضاعتهم كانت عروضاً فلذلك قالوا هذا ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ قيل : يعنون بما بين الدراهم الجياد ودراهم [من فوق] وقيل : أوف لنا الكيل الذي هو حقنا وزدنا على حقنا ، وسموا الزيادة صدقة ، ويقتضي هذا أن الصدقة كانت حلالاً للأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : تصدق علينا برد أخينا إلينا ﴿ إِنَّ الله يَجْزِي المتصدقين ﴾ قال النقاش : هو من المعاريض وذلك أنهم كانوا يعتقدون أنه كافر ، لأنهم لم يعرفوه ، فظنوا أنه على دين أهل مصر ، فلو قالوا : إن الله يجزيك بصدقتك كذبوا ، فقالوا لفظاً يوهم أنهم أرادوه وهم لم يريدوه .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ لما شكوا إليه رقَّ لهم وعرّفهم بنفسه ، ورُوِي أنه كان يكلمهم وعلى وجهه لثام ، ثم أزال اللثام ليعرفوه ، وأراد بقوله ما فعلتم بيوسف وأخيه : التفريق بينهما في الصغر ، ومضرتهم ليوسف وإذايتهم أخيه من بعده ،

فإنهم كانوا يذلونه ويشتمونه ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ اعتذار عنهم ، فيحتمل أن يريد الجهل بقبح ما فعلوه أو جهل الشباب ﴿ قالوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ قرئ بالاستفهام والخبر ، فالخبر على أنهم عرفوه ؛ والاستفهام على أنهم عرفوه ؛ والاستفهام على أنهم توهموا أنه هو ولم يحققوه ﴿ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ قيل إنه أراد من يتق في ترك المعصية ، ويصبر على السجن ، واللفظ أعم من ذلك ﴿ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ أي فضلك ﴿ لخاطئين ﴾ أي عاصين ، وفي كلامهم استعطاف واعتراف ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ عفو جميل ، والتثريب التعنيف والعقوبة ، وقوله اليوم راجع إلى ما قبله فيوقف عليه ، وهو يتعلق بالتثريب ، أو بالمقدر في عليكم من معنى الاستقرار ؛ وقيل : إنه يتعلق بيغفر ، وهذا بعيد لأنه تحكم على الله ؛ وإنما يغفر دعاء ، فكأنه أسقط حق نفسه بقوله : لا تثريب عليكم اليوم ، ثم دعا إلى الله أن يغفر لهم حقه .

﴿ اذهبوا بِقَمِيصِي ﴾ روي أن هذا القميص كان لإبراهيم كساه الله له حين أخرج من النار ، وكان من ثياب الجنة ، ثم صار لإسحاق ، ثم ليعقوب ، ثم دفعه يعقوب ليوسف ، وهذا يحتاج إلى سند يوثق به ، والظاهر أنه كان قميص يوسف الذي بمنزلة قميص كل أحد

﴿ يَأْتِ بَصِيراً ﴾ الظاهر أنه علم ذلك بوحي من الله ﴿ فَصَلَتِ العير ﴾ أي خرجت من مصر متوجهة إلى يعقوب ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ كان يعقوب ببيت المقدس ، ووجد ريح القميص وبينهما مسافة بعيدة ﴿ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي تلومونني أو تردون علي قولي ، وقيل : معناه تقولون : ذهب عقلك ، لأن الفند هو الخرف ﴿ ضلالك القديم ﴾ أي ذهابك عن الصواب ، بإفراط محبتك في يوسف قديماً ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ البشير ﴾ روي أن البشير يهوذا لأنه كان جاء بقميص الدم فقال لإخوته : إني ذهبت إليه بقميص القرحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربي ﴾ وعدهم بالاستغفار لهم ، فقيل سوّفهم إلى السَّحَر لأن الدعاء يستجاب فيه ، وقيل إلى ليلة الجمعة ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ ﴾ هنا محذوفات يدل عليها الكلام ، وهي فرحل يعقوب بأهله حتى بلغوا يوسف ﴿ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أي ضمهما ، وأراد بالأبوين أباه وأمه ، وقيل أباه وخالته لأن أمه كانت قد ماتت ، وسمى الخالة على هذا أمّا ﴿ إِن شَآءَ الله ﴾ راجع إلى الأمن الذي في قوله آمنين .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أي على سرير الملك ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ كان السجود عندهم تحية وكرامة لا عبادة ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون له ، وكان بين رؤياه وبين ظهور تأويلها ثمانون عاماً وقيل أربعون ﴿ أَحْسَنَ بِي ﴾ يقال أحسن إليه وبه ﴿ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ إنما لم يقل أخرجني من الجب لوجهين : أحدهما : أن في ذكر الجب خزي لإخوته ، وتعريفهم بما فعلوه فترك ذكره توقيراً لهم . والآخر : أنه خرج من الجب إلى الرق ، ومن السجن إلى الملك ، فالنعمة به أكثر ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ أي من البادية وكانوا أصحاب إبل وغنم ، فعدّ من النعم مجيئهم للحاضرة ﴿ نَزَغَ الشَّيْطَانُ ﴾ أي أفسد وأغوى ﴿ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أي لطيف التدبير لما يشاء من الأمور ﴿ مِنَ الْمُلْكِ ﴾ من للتبعيض ، لأنه لم يعطه إلا بعض ملك الدنيا بل بعض ملك مصر ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ لما عدد النعم التي أنعم الله بها عليه اشتاق إلى لقاء ربه ولقاء الصالحين من سلفه وغيرهم ، فدعا بالموت . وقيل ليس ذلك دعاء بالموت ، وإنما دعا أن الله يتم عليه النعم بالوفاة على الإسلام إذا حان أجله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 125 . 128 ﴾

وقال البيضاوي :

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ ﴾

بنيامين . ﴿ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ يعنون يوسف . قيل ورثت عمته من أبيها منطقة إبراهيم عليه السلام وكانت تحضن يوسف وتحبه ، فلما شب أراد يعقوب انتزاعه منها فشدت المنطقة على وسطه ، ثم أظهرت ضياعها فتفحص عنها فوجدت محزومة عليه فصارت أحق به في حكمهم . وقيل كان لأبي أمه صنم فسرقه وكسره وألقاه في الجيف . وقيل كان في البيت عناق أو دجاجة فأعطاها السائل . وقيل دخل كنيسة وأخذ تمثالاً صغيراً من الذهب . ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ ﴾ أكنها ولم يظهرها لهم ، والضمير للإجابة أو المقالة أو نسبة السرقة إليه وقيل إنها كناية بشريطة التفسير يفسرها قوله : ﴿ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ ﴾ فإنه بدل من أسرها . والمعنى قال في نفسه أنتم شر مكاناً أي منزلة في السرقة لسرقتكم أخاكم ، أو في سوء الصنيع مما كنتم عليه ، وتأنيثها باعتبار الكلمة أو الجملة ، وفيه نظر إذ المفسر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن . ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ وهو يعلم أن الأمر ليس كما تصفون .

﴿ قَالُواْ يا أَيُّهَا العزيز إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا ﴾ أي في السن أو القدر ، ذكروا له حاله استعطافاً له عليه . ﴿ فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ ﴾ بدله فإن أباه ثكلان على أخيه الهالك مستأنس به . ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ إلينا فأتمم إحسانك ، أو من المتعودين

بالإحسان فلا تغير عاداتك .

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ فإن أخذ غيره ظلم على فتواكم فلو أخذنا أحدكم مكانه . ﴿ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ ﴾ في مذهبكم هذا ، وإن مراده إن الله أذن في أخذ من وجدنا الصاع في رحله لمصلحته ورضاه عليه فلو أخذت غيره كنت ظالماً .

(159/403)

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ ﴾ يئسوا من يوسف وإجابته إياهم ، وزيادة السين والتاء للمبالغة . ﴿ خَلَصُواْ ﴾ انفردوا واعتزلوا . ﴿ نَجِيّاً ﴾ متناجين ، وإنما وحده لأنه مصدر أو بزنته كما قيل هو صديق ، وجمعه أنجيه كندي وأندية . ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ في السن وهو روبيل ، أو في الرأي وهو شمعون وقيل يهوذا . ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقاً مِّنَ اللهِ ﴾ عهداً وثيقاً ، وأنما جعل حلفهم بالله موثقاً منه لأنه بإذن منه وتأكيد من جهته . ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ ومن قبل هذا . ﴿ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾ قصرتم في شأنه ، و﴿ مَا ﴾ مزيدة ويجوز أن تكون مصدرية في موضع النصب بالعطف على مفعول تعلموا ، ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف ، أو على اسم ﴿ أن ﴾ وخبره في ﴿ يُوسُفَ ﴾ أو ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أو الرفع بالابتداء والخبر ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ وفيه

نظر ، لأن ﴿ قَبْلُ ﴾ إذا كان خبراً أو صلة لا يقطع عن الإضافة حتى لا ينقص وأن تكون موصولة أي : ما فرطتموه بمعنى ما قدمتوه في حقه من الجناية ومحله ما تقدم . ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض ﴾ فلن أفارق أرض مصر . ﴿ حتى يَأْذَنَ لِى أَبِى ﴾ في الرجوع . ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِى ﴾ أو يقضي لي بالخروج منها ، أو بخلاص أخي منهم أو بالمقاتلة معهم لتخليصه . روي : أنهم كلموا العزيز في إطلاقه فقال روبيل : أيها الملك والله لتتركنا أو لأصيحن صيحة تضع منها الحوامل ، ووقفت شعور جسده فخرجت من ثيابه فقال يوسف عليه السلام لابنه : قم إلى جنبه فمسه ، وكان بنو يعقوب عليه السلام إذا غضب أحدهم فمسه الآخر ذهب غضبه . فقال روبيل من هذا إن في هذا البلد لبزراً من بزر يعقوب . ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق .

﴿ ارجعوا إلى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يا أَبَانَا إِنَّ ابنك سَرَقَ ﴾ على ما شاهدناه من ظاهر الأمر . وقرىء ﴿ سَرَقَ ﴾ أي نسب إلى السرقة . ﴿ وَمَا شَهِدْنَا ﴾ عليه . ﴿ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ بأن رأينا أن الصواع استخرج من وعائه . ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ ﴾ لباطن الحال . ﴿ حافظين ﴾ فلا ندري أنه سرق أو سرق الصواع في رحله ، أو وما كنا للعواقب عالمين فلم

ندر حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق ، أو أنك تصاب به كما أصبت بيوسف .

﴿ واسئل القرية التى كُنَّا فِيهَا ﴾ يعنون مصر أو قرية بقربها لحقهم المنادي فيها ، والمعنى أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة . ﴿ والعير التى أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ وأصحاب العير التي توجهنا فيهم وكنا معهم . ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ تأكيد في محل القسم .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أي فلما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم قال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أي سولت وسهلت . ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أردتموه فقدرتموه ، وإلا فما أدرى الملك أن السارق يؤخذ بسرقته . ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي فأمري صبر جميل ، أو فصبر جميل أجمل . ﴿ عَسَى الله أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ بيوسف وبنيامين وأخيهما الذي توقف بمصر . ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم ﴾ بحالي وحالهم . ﴿ الحكيم ﴾ في تدبيرهما .

(161/403)

﴿ وتولى عَنْهُمْ ﴾ وأعرض عنهم كراهة لما صادف منهم . ﴿ وَقَالَ يا أَسَفاً على يُوسُفَ ﴾ أي يا أسفاً تعالي فهذا أوانك ، والأسف أشد الحزن والحسرة ، والألف بدل من ياء المتكلم ، وإنما تأسف على يوسف دون أخويه والحادث رزؤهما لأن رزأه كان قاعدة المصيبات وكان غضا آخذاً بمجامع قلبه ، ولأنه كان واثقاً بحياتهما دون حياته ، وفي

الحديث : " لم تعط أمة من الأمم " ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون ﴾ " عند المصيبة إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم " ألا ترى إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال ﴿ يَا أَسَفاً ﴾ . ﴿ وابيضت عَيْنَاهُ مِنَ الحزن ﴾ لكثرة بكائه من الحزن كأن العبرة محقت سوادهما . وقيل ضعف بصره . وقيل عمي ، وقرىء ﴿ مِنَ الحزن ﴾ وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع ، ولعل أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد ، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم وقال : " القلب يجزع والعين تدمع ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون " ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا يظهره ، فعيل بمعنى مفعول كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ من كظم السقاء إذا شده على ملئه ، أو بمعنى فاعل كقوله : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ من كظم الغيظ إذا اجترعه ، وأصله كظم البعير جرته إذا ردها في جوفه .

﴿ قَالُواْ تالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكره تفجعاً عليه ، فحذف لا كما في قوله :

فَقُلْتُ يَمِينَ اللّهِ أَبْرَحُ قَاعِداً . . . لأنه لا يلتبس بالإثبات ، فإن القسم إذا لم يكن معه علامات الإثبات كان على النفي . ﴿ حتى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ مريضاً مشفياً على الهلاك . وقيل الحرض الذي أذابه هم أو مرض ، وهو في الأصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يجمع والنعت بالكسر كدنف ودنف . وقد قرىء به وبضمتين كجنب . ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ﴾ من الميتين .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى ﴾ همي الذي لا أقدر الصبر عليه من البث بمعنى النشر . ﴿ إِلَى الله ﴾ لا إلى أحد منكم ومن غيركم ، فخلوني وشكايتي . ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ الله ﴾ من صنعه ورحمته فإنه لا يخيب داعيه ولا يدع الملتجىء إليه ، أو من الله بنوع من الإلهام . ﴿ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من حياة يوسف . قيل رأى ملك الموت في المنام فسأله عنه فقال هو حي . وقيل علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى يخر له إخوته سجداً .

﴿ يا بَنِىَّ اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ فتعرفوا منهما وتفحصوا عن حالهما والتحسس تطلب الإحساس . ﴿ وَلاَ تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ الله ﴾ ولا تقنطوا من فرجه وتنفيسه . وقرىء ﴿ مِن رَّوْحِ الله ﴾ أي من رحمته التي يحيا بها العباد . ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ الله إِلاَّ القوم الكافرون ﴾ بالله وصفاته فإن العارف المؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا العزيز ﴾ بعدما رجعوا إلى مصر رجعة ثانية . ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ شدة الجوع . ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ رديئة أو قليلة ترد وتدفع رغبة عنها ، من أزجيته إذا دفعته ومنه تزجية الزمان . قيل كانت دراهم زيوفاً وقيل صوفاً وسمناً . وقيل الصنوبر والحبة الخضراء . وقيل الأقط وسويق المقل . ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الكيل ﴾ فأتمم لنا الكيل . ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ برد أخينا أو بالمسامحة وقبول المزجاة ، أو بالزيادة على ما يساويها . واختلف في أن حرمة الصدقة تعم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو تختص بنبينا صلى الله عليه وسلم . ﴿ إِنَّ الله يَجْزِى المتصدقين ﴾ أحسن الجزاء والتصدق التفضل مطلقاً ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في القصر " هذه صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته " لكنه اختص عرفاً بما يبتغي به ثواب من الله تعالى .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أي هل علمتم قبحه فتبتم عنه وفعلهم بأخيه إفراده عن يوسف وإذلاله حتى لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة . ﴿ إِذْ أَنتُمْ جاهلون ﴾ قبحه فلذلك أقدمتم عليه أو عاقبته ، وإنما قال ذلك تنصيحاً لهم وتحريضاً على التوبة ، وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريباً . وقيل أعطوه كتاب يعقوب في تخليص بنيامين وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه

فقال لهم ذلك ، وإنما جهلهم لأن فعلهم كان فعل الجهال ، أو لأنهم كانوا حينئذ صبيانا ً شياطين .

(164/403)

﴿ قَالُواْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ استفهام تقرير ولذلك حقق بأن ودخول اللام عليه . وقرأ ابن كثير على الإِيجاب . قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به ، وقيل تبسم فعرفوه بثناياه . وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكانت لسارة ويعقوب مثلها . ﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وهذا أَخِى ﴾ من أبي وأمي ذكره تعريفاً لنفسه به ، وتفخيماً لشأنه وإدخالاً له في قوله : ﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ أي بالسلامة والكرامة . ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ ﴾ أي يتق الله . ﴿ وَيِصْبِرْ ﴾ على البليات أو على الطاعات وعن المعاصي . ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ وضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر .

﴿ قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة . ﴿ وَإِن كُنَّا لخاطئين ﴾ والحال أن شأننا إنا كنا مذنبين بما فعلنا معك .

﴿ قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ لا تأنيب عليكم تفعيل من الثرب وهو الشحم الذي يغشى

الكرش للإزالة كالتجليد ، فاستعير للتقريع الذي يمزق العرض ويذهب ماء الوجه . ﴿ اليوم ﴾ متعلق بال ﴿ تَثْرِيبَ ﴾ أو بالمقدر للجار الواقع خبراً لل ﴿ لاَ تثريبَ ﴾ والمعنى لا أثربكم اليوم الذي هو مظنته فما ظنكم بسائر الأيام أو بقوله : ﴿ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ لأنه صفح عن جريمتهم حينئذ واعترفوا بها . ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ فإنه يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب ، ومن كرم يوسف عليه الصلاة والسلام أنهم لما عرفوه أرسلوا إليه وقالوا : إنك تدعونا بالبكرة والعشي إلى الطعام ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك ، فقال إن أهل مصر كانوا ينظرون إلي بالعين الأولى ويقولون : سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ ، ولقد شرفت بكم وعظمت في عيونهم حيث علموا أنكم اخوتي وأني من حفدة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

﴿ اذهبوا بِقَمِيصِي هذا ﴾ القميص الذي كان عليه . وقيل القميص المتوارث الذي كان في التعويذ . ﴿ فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ أي يرجع بصيراً أي ذا بصر . ﴿ وَأْتُونِي ﴾ أنتم وأبي . ﴿ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بنسائكم وذراريكم ومواليكم .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ العير ﴾ من مصر وخرجت من عمرانها . ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ لمن

حضره. ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ أوجده الله ريح ما عبق بقميصه من ريحه حين أقبل به إليه يهوذا من ثمانين فرسخاً. ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ تنسبوني إلى الفند وهو نقصان عقل يحدث من هرم، ولذلك لا يقال عجوز مفندة لأن نقصان عقلها ذاتي. وجواب ﴿ لَوْلَا ﴾ محذوف تقديره لصدقتموني أو لقلت إنه قريب.

﴿ قَالُوا ﴾ أي الحاضرون. ﴿ تَاللهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قدماً بالإفراط في محبة يوسف وإكثار ذكره والتوقع للقائه.

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ يهوذا. روي: أنه قال كما أحزنته بحمل قميصه الملطخ بالدم إليه فأفرحه بحمل هذا إليه. ﴿ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب عليه السلام أو يعقوب نفسه. ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ عاد بصيراً لما انتعش فيه من القوة. ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام، وإنزال الفرج. وقيل إني أعلم كلام مبتدأ والمقول ﴿ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ ﴾، أو ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسأله المغفرة.

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ اخره إلى السحر أو إلى صلاة الليل أو إلى ليلة الجمعة تحرياً لوقت الإجابة ، أو إلى أن يستحل لهم من يوسف أو يعلم أنه عفا عنهم فإن عفو المظلوم شرط المغفرة . ويؤيده ما روي أنه استقبل القبلة قائما إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة وهو إن صح فدليل على نبوتهم وأن ما صدر عنهم كان قبل استنبائهم ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا على يُوسُفَ ﴾ روي أنه وجه إليه رواحل وأموالاً ليتجهز إليه بمن معه ، واستقبله يوسف والملك بأهل مصر وكان أولاده الذين دخلوا معه مصر اثنين وسبعين رجلاً وامرأة ، وكانوا حين خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلاً سوى الذرية والهرمى . ﴿ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ ضم إليه أباه وخالته واعتنقهما نزلها منزلة الأم تنزيل العم منزلة الأب في قوله تعالى : ﴿ وإله آبَائِكَ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ أو لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه والرابة تدعى أماً ﴿ وَقَالَ ادخلوا مِصْرَ إِن شَاءَ الله ءامِنِينَ ﴾ من القحط وأصناف المكاره ، والمشيئة متعلقة بالدخول المكيف بالأمن والدخول الأول كان في موضع خارج البلد حين استقبلهم .

﴿ ورَفَعَ أَبوَيْهِ عَلَى العرش وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدَا ﴾ تحية وتكرمة له فإن السجود كان عندهم يجري مجراها . وقيل معناه خروا لأجله سجداً لله شكراً . وقيل الضمير لله تعالى والواو لأبويه وإخوته والرفع مؤخر عن الخرور وإن قدم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما . ﴿ وَقَالَ يأَبتِ هذا تَأْوِيل رُؤْيَاي مِن قَبْلُ ﴾ التى رأيتها أيام الصبا . ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبّى حَقّاً ﴾ صدقاً . ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذَا أَخْرَجَنِى مِنَ السجن ﴾ ولم يذكر الجب لئلا يكون تثريباً عليهم . ﴿ وَجَاء بِكُمْ مّنَ البدو ﴾ من البادية لأنهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو . ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشيطان بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى ﴾ أفسد بيننا وحرش ، من نزغ الرائض الدابة إذا نخسها وحملها على الجري . ﴿ إِنَّ رَبّى لَطِيفٌ لّمَا يَشَاء ﴾ لطيف التدبير له إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها . ﴿ إِنَّهُ هُوَ العليم ﴾ بوجود المصالح والتدابير . ﴿ الحكيم ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة . روي : أن يوسف طاف بأبيه عليهما الصلاة والسلام في خزائنه فلما أدخله خزانة القراطيس قال : يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل قال : أمرني جبريل عليه السلام قال : أو ما تسأله قال : أنت أبسط مني إليه فاسأله فقال جبريل : الله أمرني بذلك . لقولك : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب ﴾ قال فهلا خفتني .

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ ﴾ بعض الملك وهو ملك مصر . ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ ﴾ الكتب أو الرؤيا ، ومن أيضاً للتبعيض لأنه لم يؤت كل التأويل . ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ مبدعهما وانتصابه على أنه صفة المنادى أو منادى برأسه . ﴿ أَنتَ وَلِىِّ ﴾ ناصري ومتولي أمري . ﴿ فِى الدنيا والآخرة ﴾ أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما . ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ اقبضني . ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة . روي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم توفي وأوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه ، فذهب به ودفنه ثمة ثم عاد وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة ، ثم تاقت نفسه إلى الملك المخلد فتمنى الموت فتوفاه الله طيباً طاهراً ، فتخاصم أهل مصر في مدفنه حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل بحيث يمر عليه الماء ، ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعاً فيه ، ثم نقله موسى عليه الصلاة والسلام إلى مدفن آبائه وكان عمره مائة وعشرين سنة ، وقد ولد له من راعيل افراثيم وميشا وهو جد يوشع بن نون ، ورحمة امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 302 . 310 ﴾

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77) ﴾

ولما حصل لإخوة يوسف من إخراج الصواع من رحل بنيامين ما حصل ، فكأنه قيل : فما كان فعلهم عند ذلك ؟

فقيل : ﴿ قالوا ﴾ تسلية لأنفسهم ودفعاً للعار عن خاصتهم ﴿ إن يسرق ﴾ ولم يجزموا بسرقته لعلمهم بأمانته وظنهم أنّ الصواع دس في رحله وهو لا يشعر كما دست بضاعتهم في رحالهم ، وكان قد قال لهم ذلك ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ ، أي : يوسف وكان غرضهم من ذلك إنا لسنا على طريقته ولا على سيرته ، وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة ؛ لأنهما من أمّ أخرى ، واختلفوا في التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام على أقوال ، فقال سفيان بن عيينة : أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فأعطاها سائلاً .

وقال مجاهد : جاءه سائل فأخذ بيضة من البيت فناولها للسائل ، وقال وهب : كان يخبىء الطعام من مائدة يعقوب للفقراء ، وقال سعيد بن جبير : كان جدّه أبو أمّه كافراً يعبد

الوثن وأمرته أمّه أن يسرق تلك الأوثان ويكسرها ، فلعله يترك عبادة الأوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة . وقال محمد بن إسحاق : إنّ يوسف عليه السلام كان عند عمته ابنة إسحاق ، وكانت تحبه حباً شديداً ، فأرادت أن تمسكه عند نفسها وكان قد بقي معها منطقة لأبيها إسحاق عليه السلام ، وكانوا يتبركون بها ، فشدّتها على وسط يوسف عليه السلام من تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ، ثم قالت : إنه سرقها ، وكان علمهم أنّ من سرق يسترق فقال يعقوب عليه السلام : إن كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت ، فتوصلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عند نفسها .

(170/403)

قال ابن الأنباري : وليس في هذه الأفعال كلها سرقة ، ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب ، وقيل : إنهم كذبوا عليه وبهتوه ، وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء المدّة الطويلة . قال الرازي : وهذه الواقعة تدل على أنّ قلب الحاسد لا يطمئن من الغل البتة . ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها ﴾ ، أي : يظهرها ﴿ لهم ﴾ والضمير للكلمة التي هي قوله : ﴿ قال ﴾ ، أي : في نفسه ﴿ أنتم شرّ مكاناً ﴾ ، أي : من يوسف وأخيه ، أي : لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له ، وقيل : الضمير

يرجع إلى الكلمة التي قالوها في حقه ، وهي قولهم : ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ وعلى هذا يكون المعنى : فأسر يوسف جواب الكلمة التي قالوها في حقه ﴿ والله أعلم ﴾ منكم ﴿ بما تصفون ﴾ ، أي : تقولون ، وأنه ليس كما قلتم ، قال أصحاب الأخبار والسير : إنّ يوسف عليه السلام لما استخرج الصاع من رحل بنيامين نقره وأدناه إلى أذنه ثم قال : إنّ صاعي هذا يخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً لأب واحد وإنكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه فقال بنيامين : أيها الملك إنّ صاعك يخبرك من جعله في رحلي ، ثم نقره وأدناه من أذنه ، فقال : إنّ صاعي غضبان وهو يقول : كيف تسألوني عن صاحبي وقد رؤيت مع من كنت ؟ قالوا : فغضب روبيل لذلك ، وكانوا أولاد يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا ، وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء ، وكان إذا صاح ألقت كل حامل حملها إذا سمعت صوته ، وكان مع هذا إذا مسه أحد من ولد يعقوب عليه السلام يسكن غضبه ، وكان أقوى الأخوة وأشدّهم ، وروي أنه قال لإخوته : كم عدد الأسواق بمصر ؟ قالوا : عشرة . فقال : اكفوني أنتم الأسواق ، وأنا أكفيكم الملك أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق ، ودخلوا على يوسف فقال روبيل : لتردّن علينا أخانا أو لأصيحنّ صيحة لا تبقي بمصر امرأة حامل إلا ألقت ولدها ، وقامت كل شعرة في جسده حتى خرجت من ثيابه ، فقال يوسف لابن له صغير : قم إلى جنب روبيل فمسه ،

ويروى خذ بيده فائتني به ،

فذهب الغلام فمسه فسكن غضبه فقال لإخوته : من مسني منكم ؟ قالوا : لم يصبك منا أحد . فقال روبيل : إنّ هنا بذراً من بذر يعقوب . فقال يوسف : من يعقوب ؟ وروي أنه غضب ثانياً ، فقام إليه يوسف فركضه برجله ، وأخذ بتلابيبه فوقع على الأرض ، وقال : أنتم يا معشر العبرانيين تظنون أنّ لا أحد أشد منكم فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلوا .

و﴿ قالوا يا أيها العزيز ﴾ فخاطبوه بما يليق بالأكابر ليرق لهم ﴿ إن له ﴾ ، أي : هذا الذي وجد الصواع في رحله ﴿ أباً شيخاً كبيراً ﴾ ، أي : في سنه وقدره وهو مغرم به لا يقدر على فراقه ولا يصبر عنه ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ وأحسن إلى أبيه بإرساله إليه ﴿ إنا نراك ﴾ ، أي : نعلمك علماً هو كالرؤية أو بحسب ما رأيناه ﴿ من المحسنين ﴾ ، أي : العريقين في صفة الإحسان فاجر في أمرنا على عادة إحسانك ، فكأنه قيل : فما أجابهم ؟ قيل:

قال ابن الأنباري : وليس في هذه الأفعال كلها سرقة ، ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب ، وقيل : إنهم كذبوا عليه وبهتوه ، وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء المدّة الطويلة . قال الرازي : وهذه الواقعة تدل على أنّ قلب الحاسد لا يطمئن من الغل البتة . ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها ﴾ ، أي : يظهرها ﴿ لهم ﴾ والضمير للكلمة التي هي قوله : ﴿ قال ﴾ ، أي : في نفسه ﴿ أنتم شرّ مكاناً ﴾ ، أي : من يوسف وأخيه ، أي : لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له ، وقيل : الضمير يرجع إلى الكلمة التي قالوها في حقه ، وهي قولهم : ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ وعلى هذا يكون المعنى : فأسر يوسف جواب الكلمة التي قالوها في حقه ﴿ والله أعلم ﴾ منكم ﴿ بما تصفون ﴾ ، أي : تقولون ، وأنه ليس كما قلتم ، قال أصحاب الأخبار والسير : إنّ يوسف عليه السلام لما استخرج الصاع من رحل بنيامين نقره وأدناه إلى أذنه ثم قال : إنّ صاعي هذا يخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً لأب واحد وإنكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه فقال بنيامين : أيها الملك إنّ صاعك يخبرك من جعله في رحلي ، ثم نقره وأدناه من أذنه ، فقال : إنّ صاعي غضبان وهو يقول : كيف تسألوني عن صاحبي وقد رؤيت مع من كنت ؟ قالوا : فغضب روبيل لذلك ، وكانوا أولاد يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا ، وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء ، وكان إذا صاح ألقت كل حامل حملها إذا سمعت صوته ، وكان مع هذا إذا مسه أحد من ولد يعقوب عليه السلام يسكن غضبه ،

وكان أقوى الأخوة وأشدّهم ، وروي أنه قال لإخوته : كم عدد الأسواق بمصر ؟ قالوا : عشرة . فقال : اكفوني أنتم الأسواق ، وأنا أكفيكم الملك أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق ، ودخلوا على يوسف فقال روبيل : لتردّن علينا أخانا أو لأصيحنّ صيحة لا تبقي بمصر امرأة حامل إلا ألقت ولدها ، وقامت كل شعرة في جسده حتى خرجت من ثيابه ، فقال يوسف لابن له صغير : قم إلى جنب روبيل فمسه ،

ويروى خذ بيده فائتني به ،

فذهب الغلام فمسه فسكن غضبه فقال لإخوته : من مسني منكم ؟ قالوا : لم يصبك منا أحد . فقال روبيل : إنّ هنا بذراً من بذر يعقوب . فقال يوسف : من يعقوب ؟ وروي أنه غضب ثانياً ، فقام إليه يوسف فركضه برجله ، وأخذ بتلابيبه فوقع على الأرض ، وقال : أنتم يا معشر العبرانيين تظنون أنّ لا أحد أشد منكم فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلوا .

و﴿ قالوا يا أيها العزيز ﴾ فخاطبوه بما يليق بالأكابر ليرق لهم ﴿ إن له ﴾ ، أي : هذا الذي وجد الصواع في رحله ﴿ أباً شيخاً كبيراً ﴾ ، أي : في سنه وقدره وهو مغرم به لا يقدر

على فراقه ولا يصبر عنه ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ وأحسن إلى أبيه بإرساله إليه ﴿ إنا نراك ﴾ ، أي : نعلمك علماً هو كالرؤية أو بحسب ما رأيناه ﴿ من المحسنين ﴾ ، أي : العريقين في صفة الإحسان فاجر في أمرنا على عادة إحسانك ، فكأنه قيل : فما أجابهم ؟ قيل:

﴿ قال معاذ الله ﴾ هو نصب على المصدر ، وحذف فعله وأضيف إلى المفعول ، أي : نعوذ بالذي لا مثل له معاذاً عظيماً من ﴿ أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ ولم يقل : سرق متاعنا ؛ لأنه لم يفعل في الصواع فعل السارق ، ولم يقع منه قبل ذلك ما يصح إطلاق الوصف عليه ، ثم علله بقوله ﴿ إنا إذاً ﴾ ، أي : إذا أخذنا أحداً مكانه ﴿ لظالمون ﴾ ، أي : عريقون في الظلم في دينكم ، فلم تطلبون ما هو ظلم عندكم ، ولما استيأسهم بما قال عن إطلاق بنيامين حكى الله تعالى ما تم لهم من الرأي فقال:

﴿ فلما ﴾ دالاً بالفاء على قرب زمن تلك المراجعات ﴿ استيأسوا ﴾ ، أي : أيسوا ﴿ منه ﴾ لما رأوا من إحسانه ولطفه ورحمته يأساً شديداً بما رأوا من ثباته على أخذه بعينه وعدم استبداله ﴿ خلصوا ﴾ ، أي : انفردوا عن غيرهم حال كونهم ﴿ نجياً ﴾

وهو مصدر يصلح للواحد وغيره ، أي : ذوي نجوى يناجي بعضهم بعضاً ، فكأنه قيل : فما قالوا ؟ فقيل : ﴿ قال كبيرهم ﴾ في السنّ وهو روبيل ، وقيل : في الفضل والعلم وهو يهوذا ، وقيل : شمعون وكان له الرياسة على إخوته ﴿ ألم تعلموا ﴾ مقرراً لهم بما يعرفونه مع قرب الزمان ليشتدّ توجههم في بذل الجهد في الخلاص من غضب أبيهم ﴿ أن أباكم ﴾ ، أي : الشيخ الكبير الذي فجعتموه في أحب ولده إليه ﴿ قد أخذ عليكم ﴾ ، أي : قبل أن يعطيكم هذا الولد الآخر ﴿ موثقاً ﴾ ، أي : عهداً وثيقاً ﴿ من الله ﴾ في أخيكم ، وإنما جعل حلفهم بالله موثقاً منه ؛ لأنه بإذن منه وتأكيد من جهته ، وقوله ﴿ ومن قبل ما فرطتم ﴾ في هذه الآية وجوه : أظهرها أن ما مزيدة فيتعلق الظرف بالفعل بعدها والتقدير : ومن قبل هذا فرطتم ، أي : قصرتم في حق يوسف وشأنه ، وزيادة ما كثيرة ، وبه بدأ الزمخشري وغيره ، وقيل : أنها مصدرية في محل رفع بالابتداء والخبر هو قوله : ﴿ في يوسف ﴾ ، أي : وتفريطكم كائن أو مستقر في يوسف ، وإلى هذا ذهب الفارسي ، وقيل : غير ذلك ولا نطيل بذكره إذ في هذا القدر كفاية ﴿ فلن أبرح ﴾ ، أي : أفارق ﴿ الأرض ﴾ ، أي : أرض مصر ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ ، أي : بالعود إليه ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ بخلاص أخي ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ ، أي : أعدلهم ، فإن قيل : هذه الواقعة من أولها إلى آخرها تزوير وكذب ، فكيف يجوز ليوسف عليه السلام أن يعمل مثل هذه الأعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه ، وحبس أخاه أيضاً عنده مع علمه بشدة وجدان أبيه عليه وشدة غمه وفيه ما فيه من

العقوق وإيذاء الناس من غير ذنب لاسيما ويعلم أنه إذا حبس أخاه عنده بهذه التهمة فإنه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه ، فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة في

التزوير إلى هذا الحد ؟

أجيب : بأجوبة كثيرة للعلماء ، وأحسنها أنه إنما فعل ذلك بأمر من الله تعالى له لا عن أمره وإنما أمره الله تعالى بذلك ليزيد بلاء يعقوب عليه السلام ، فيضاعف له الأجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه ، ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه ، وهو المتصرف في خلقه بما يشاء ، فهو الذي أخفى خبر يوسف عن يعقوب في هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد أن يدبره فيهم ، والله أعلم بأحوال عباده ، ثم قال كبيرهم:

﴿ ارجعوا إلى أبيكم ﴾ دوني ﴿ فقولوا ﴾ له ، أي : متلطفين في خطابكم ﴿ يا أبانا ﴾ وأكدوا مقالتكم فإنه ينكرها وقولوا ﴿ إن ابنك سرق ﴾ فإن قيل : كيف يحكمون عليه بأنه سرق من غير بينة وهو قد أجابهم بالجواب الشافي ، فقال : الذي جعل الصاع في رحلي هو الذي جعل البضاعة في رحالكم ؟

أجيب : بأنهم لما شاهدوا الصاع وقد أخرج من متاعه غلب على ظنهم أنه سرق فلذلك

نسبوه إلى السرقة في ظاهر الأمر لا في حقيقة الحال ، ويدل على أنهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم ﴿ وما شهدنا ﴾ عليه ﴿ إلا بما علمنا ﴾ ظاهراً من رؤيتنا الصاع يخرج من وعائه ، وأما قوله : وضع الصاع في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم ، فالفرق ظاهر ؛ لأن هناك لما رجعوا بالبضاعة إليهم اعترفوا بأنهم هم الذين وضعوها في رحالهم ، وأما هذا الصاع فإن أحداً لم يعترف بأنه هو الذي وضع الصاع في رحله ، فلهذا السبب غلب على ظنهم أنه سرق ، فشهدوا بناء على الظن ﴿ وما كنا للغيب ﴾ ، أي : ما غاب عنا حين أعطينا الموثق ﴿ حافظين ﴾ ، أي : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق ، ويصير أمرنا إلى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا ، وإنما قلنا : ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه سبيل ، وحقيقة الحال غير معلومة لنا ، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، فلعل الصاع دس في رحله ، ونحن لا نعلم ذلك ، فلعل حيلة دبرت في ذلك غاب عنا علمها كما صنع في رد بضاعتنا .

﴿ واسأل القرية ﴾ ، أي : أهلها على حذف المضاف ، وهو مجاز مشهور ، وقيل : إنه مجاز لكنه من باب إطلاق المحل وإرادة الحال ﴿ التي كنا فيها ﴾ وهي مصر عما أخبرناك به يخبروك بصدقنا ، فإن الأمر قد اشتهر عندهم ، وقيل : هي قرية من قرى مصر كانوا

ارتحلوا منها إلى مصر ﴿ و ﴾ اسأل ﴿ العير ﴾ ، أي : القافلة ، وهم قوم من كنعان جيران يعقوب عليه السلام ﴿ التي أقبلنا فيها ﴾ والسؤال طلب الأخبار بأداته من الهمزة ، أو هل أو غيرهما ، والقرية الأرض الجامعة لحدود فاصلة وأصلها من قريت الماء جمعته ، والعير قافلة الحمير من العير بالفتح وهو الحمار هذا هو الأصل ثم كثر حتى استعمل في غير الحمير ، ولما كان ذلك بالإنكار لما يتحقق من كرم أخيهم أكدوه بقولهم ﴿ وإنا ﴾ ، أي : والله إنا ﴿ لصادقون ﴾ في أقوالنا ، ولما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال كبيرهم ، فكأنه قيل : فما قال لهم ؟ فقيل:

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * يَابَنِىَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَايْـَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَايْـَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ بل سوّلت ﴾ ، أي : زينت تزييناً فيه غي ﴿ لكم أنفسكم أمراً ﴾ ، أي : حدّثتكم بأمر ففعلتموه ، وإلا فما أدرى الملك أن السارق يؤخذ بسرقته ﴿ فصبر جميل ﴾ ، أي : فأمري صبر جميل ، أو فصبر جميل صبري ، أو أجمل ، وقدم مثل ذلك في واقعة يوسف إلا أنه قال فيها : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ (يوسف ،) وقال هنا ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم ﴾ ، أي : بيوسف وشقيقه بنيامين والأخ الثالث الذي أقام بمصر ﴿ جميعاً ﴾ ، أي : فلا يتخلف منهم أحد ، وإنما قال يعقوب عليه السلام هذه المقالة ؛ لأنه لما طال حزنه واشتدّ بلاؤه ومحنته علم أن الله تعالى سيجعل له فرجاً ومخرجاً عن قريب ، فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله تعالى وتفرس أن هذه الأفعال نشأت عن يوسف عليه السلام ، وأن الأمر يرجع إلى سلامة واجتماع ، ثم علل هذا بقوله : ﴿ إنه هو العليم ﴾ ، أي : البليغ العلم بما خفي عنا من ذلك فيعلم أسبابه الموصلة إلى المقاصد ﴿ الحكيم ﴾ ، أي : البليغ فيما يدبره ويقضيه .

﴿ و ﴾ لما ضاق قلب يعقوب عليه السلام بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين ﴿ تولى عنهم ﴾ ، أي : انصرف بوجهه عنهم لما توالى عنده من الحزن ﴿ وقال يا أسفا ﴾ ، أي : يا أسفي ﴿ على يوسف ﴾ ، أي : تعال هذا أوانك ، والأسف اشدّ الحزن والحسرة ، والألف بدل من ياء المتكلم ، وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ، والحادث إنما هو مصيبتهما ؛ لأن مصيبته كانت قاعدة المصائب ، والحزن القديم إذا

صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الأوّل ، كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبراً جديداً جدّد حزنه على أخيه مالك:

*فقالوا أتبكي كل قبر رأيته ** لقبر ثوى بين اللوى والدكادك ؟

*فقلت نعم إنّ الأسى يبعث الأسى ** فدعني فهذا كله قبر مالك

ولأنه كان واثقاً بحياتهما دون حياته ، وفي حديث رواه الطبراني "لم تعط أمة من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون عند المصيبة إلا أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع ، وقال ﴿ يا أسفا ﴾ ﴿ وابيضت عيناه ﴾ ، أي : انمحق سوادهما وبدل بياضاً ﴿ من الحزن ﴾ ، أي : من كثرة البكاء عليه ، وقيل : عند غلبة البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء ، وقيل : ضعف بصره حتى صار يدرك إدراكاً لطيفاً ، وقيل : عمي ، وقال مقاتل : لم يبصر بهما ست سنين حتى كشفه الله تعالى بقميص يوسف عليه السلام . قيل : إن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن ، فقال : إنّ بصر أبيك ذهب من الحزن عليك ، فوضع يده على رأسه وقال : ليت أمي لم تلدني ، ولم أكن حزناً على أبي .

فإن قيل: هذا إظهار للجزع وجار مجرى الشكاية وهو لا يليق بمثل يعقوب عليه السلام أجيب: بأنه لم يذكر إلا هذه الكلمة، ثم عظم بكاؤه، ثم أمسك لسانه عن النياحة، وذكر ما لا ينبغي، ولم يظهر الشكاية مع أحد من الخلق ويدل لذلك قوله: ﴿فهو كظيم﴾، أي: مغموم مكروب لا يظهر كربه وقوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ فكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته صبر وتجرع الغصة وما أظهر الشكاية به، فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء الجزيل. روي أن يوسف عليه السلام قال لجبريل عليه السلام: هل لك علم بيعقوب؟ قال: نعم. قال: فكيف حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى، وهي التي لها ولد واحد يموت. قال: فهل له أجر؟ قال: نعم أجر مئة شهيد، ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد وأيضاً البكاء مباح فقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم وقال: "القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون". رواه الشيخان.

تنبيه : شرف الإنسان باللسان والعين والقلب فبين تعالى أن هذه الثلاثة كانت غريقة في الغم ، فاللسان كان مشغولاً بقوله : يا أسفا ، والعين بالبكاء والبياض ، والقلب بالغم الشديد ، أي : الذي يشبه الوعاء المملوء الذي سد فلا يمكن خروج الماء منه ، وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم .

ولما وقع من يعقوب عليه السلام ذلك كأن قائلاً يقول : فما قال له أولاده ؟ فقيل:

﴿ قالوا ﴾ له حنقاً من ذلك ﴿ تالله تفتؤ ﴾ ، أي : لا تفتأ ، أي : لا تزال ﴿ تذكر يوسف ﴾ تفجعاً ، فتفتأ جواب القسم وهو على حذف لا كقول الشاعر :

*فقلت يمين الله أبرح قاعداً ** ولو قطعوا رأسي إليك وأوصالي

ويدل على حذفها أنه لو كان مثبتاً لاقترن بلام الابتداء ونون التوكيد معاً عند البصريين أو أحدهما عند الكوفيين ، فتفتأ هنا ناقصة بمعنى لا تزال كما تقرّر ، ورسمت تفتؤ بالواو ﴿ حتى ﴾ إلى أن ﴿ تكون حرضاً ﴾ ، أي : مشرفاً على الهلاك لطول مرضك وهو مصدر يستوي فيه الواحد وغيره ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ ، أي : الموتى .

فإن قيل : لما حلفوا على ذلك مع أنهم لم يعلموا ذلك قطعاً ؟

أجيب : بأنهم بنوا الأمر على الظاهر ، قال أكثر المفسرين : قائل هذا الكلام هم أخوة يوسف ، وقال بعضهم : ليس الأخوة بل الجماعة الذين كانوا في الدار من أولاده وخدمه ، ولما قالوا له ذلك فكأن قائلاً يقول : فما قال لهم ؟ فقيل:

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ إنما أشكو بثي ﴾ والبث أشد الحزن سمي بذلك ؛ لأنه من صعوبته لا يطاق حمله فيباح به وينشر ﴿ وحزني ﴾ مطلقاً وإن كان سببه خفيفاً يقدر الخلق على إزالته ﴿ إلى الله ﴾ المحيط بكل شيء علماً وقدرةً لا إلى غيره ، فهو الذي تنفع الشكوى إليه ﴿ وأعلم من الله ﴾ ، أي : الملك الأعلى من اللطف بنا أهل البيت ﴿ ما لا تعلمون ﴾ فيأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب ، وفي ذلك إشارة إلى أنه كان يعلم حياة يوسف ، ويتوقع رجوعه إليه وذكروا لسبب هذا التوقع أموراً : أحدها : أنّ ملك الموت أتاه فقال له : يا ملك الموت هل قبضت روح ابني يوسف ؟ قال : لا يا نبي الله ، ثم أشار إلى جانب مصر وقال : اطلبه من ههنا ولذلك قال:

﴿ يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا ﴾ ، أي : والتحسيس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسيس بالجيم ، وقيل : التحسيس بالحاء يكون في الخير ، وبالجيم يكون في الشرّ ومنه الجاسوس وهو الذي يطلب الكشف عن عورة الناس ، والمعنى تحسسوا خبراً ﴿ من أخبار ﴾ يوسف وأخيه ﴾ ، أي : اطلبوا خبرهما .

وثانيها : أنه علم أنّ رؤيا يوسف عليه السلام صادقة ؛ لأنّ أمارات الرشد والكمال ظاهرة

في حق يوسف عليه السلام ، ورؤيا مثله لا تخطئ .

وثالثها : لعله تعالى أوحى إليه أنه سيوصله إليه ، ولكنه تعالى ما عين الوقت ، فلهذا بقي في القلق .

ورابعها : قال السدي : لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله وأقواله وأفعاله طمع في أن يكون هو يوسف وقال : بعيد أن يظهر في الكفار مثله ، ثم تلطف ببنيه وقال لهم : ﴿ ولا تيأسوا ﴾ ، أي : تقنطوا ﴿ من روح الله ﴾ قال ابن عباس : من رحمة الله . وقال قتادة : من فضل الله . وقال ابن زيد : من فرج الله . ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ ، أي : الغريقون في الكفر ، قال ابن عباس : إنّ المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده على الرخاء ، والكافر على الضدّ من ذلك ، فإنّ اليأس من رحمة الله لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أنّ إله العالم غير قادر على الكمال ، أو غير عالم بجميع المعلومات ، أو ليس بكريم بل هو بخيل ، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، وإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة ، وكل واحد منها كفر ثبت أنّ اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً .

وقرأ البزي بعد التاء من تيأسوا وبعد الياء من لا ييأس بألف وبعدها ياء مفتوحة بخلاف عنه، والباقون بهمزة مفتوحة قبلها ياء ساكنة. ولما قال يعقوب عليه السلام لبنيه ذلك قبلوا منه هذه الوصية وعادوا إلى مصر.

(182/403)

﴿ فلما دخلوا عليه ﴾، أي: على يوسف عليه السلام ﴿ قالوا يا أيها العزيز ﴾ وكان العزيز لقباً لملك مصر يومئذ ﴿ مسنا وأهلنا ﴾، أي: من خلفناهم وراءنا ﴿ الضر ﴾، أي: لابسنا ملابسة نحسها ﴿ وجئنا ببضاعة ﴾ وقالوا ﴿ مزجاة ﴾ إمّا لنقصها أو لرداءتها أو لهما جميعاً. وقال الحسن: البضاعة المزجاة القليلة، واختلفوا في تلك الرداءة. فقال ابن عباس: كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام، وقيل: متاع الأعراب الصوف والسمن، وقيل: الأقط، وقيل: النعال والأدم وقيل: إنّ دراهم مصر كان ينقش فيها صورة يوسف عليه السلام، والدراهم التي جاؤوا بها ما كان فيها ذلك فما كانت مقبولة عند الناس، ثم سببوا عن هذا الاعتذار؛ لأنه أقرب إلى رحمة أهل الكرم قولهم: ﴿ فأوف لنا الكيل ﴾، أي: شفقة علينا بسبب ضعفنا ﴿ وتصدّق ﴾، أي: تفضل ﴿ علينا ﴾ زيادة على الوفاء كما عودتنا بفضل ترجو ثوابه، ولما رأوا أفعاله تدل على

تمسكه بدين الله تعالى عللوا ذلك بقولهم : ﴿ إنّ الله ﴾ ، أي : الذي له الكمال كله ﴿ يجزي المتصدّقين ﴾ ، أي : وإن كانت على غني قوي ، فكيف إذا كانت على أهل الحاجة والضعف .

فائدة : سئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على نبي من الأنبياء سوى نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام ؟ قال سفيان : ألم تسمع قوله : ﴿ وتصدّق علينا . . ﴾ الآية يريد أن الصدقة كانت حلالاً لهم ولأبيهم . وروي أنّ الحسن سمع رجلاً يقول : اللهم تصدّق عليّ قال : إنّ الله لا يتصدّق وإنما يتصدّق من يبغي الثواب قل : اللهم أعطني وتفضل عليّ .

فإن قيل : إذا كان أبوهم أمرهم أن يتحسسوا من يوسف وأخيه فلم عادوا إلى الشكوى ؟

أجيب : بأن المتحسس يتوصل إلى مطلوبه بجميع الطرق والاعتراف بالعجز ، وضموا رقة الحال وقلة المال وشدّة الحاجة ، وذلك مما يرقق القلب فقالوا : نجربه في هذه الأمور ، فإن رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا ، فقدّموا هذه المقدّمة قال أبو إسحاق : ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة على إخوته فارفض دمعه فباح بالذي كان يكتم فلهذا .

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ هل علمتم ﴾ مقرّراً لهم بعد أن استأنسوا به ، قال البقاعي : والظاهر أن هذا كان بغير ترجمان ﴿ ما ﴾ ، أي : قبح الذي ﴿ فعلتم بيوسف ﴾ ، أي : أخيكم الذي حلتم بينه وبين أبيه ﴿ وأخيه ﴾ في جعلكم أباه فريداً منه ذليلاً بينكم ، ثم في قولكم له لما وجد الصاع في رحله : لا يزال يأتينا البلاء من قبلكم يا بني راحيل ، وإنما قال لهم ذلك نصحاً لهم وتحريضاً على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريباً ، وقيل : أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام في تخليص بنيامين ، وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه ، فقال لهم ذلك وقوله ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ ، أي : فاعلون فعلهم ؛ أو لأنهم كانوا حينئذ صبياناً طياشين تلويحاً إلى معرفته ، فقد روي أنه لما قال هذا تبسم وكان في تبسمه أمر من الحسن لا يجهله منه من رآه ولو مرّة واحدة فعرفوه بذلك فلذلك .

(184/403)

﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف ﴾ استفهام تقرير ، ولذلك حقق بأن واللام عليه ، وقيل : عرفوه بنظره وخلقه حين كلمهم ، وقيل : رفع التاج عن رأسه فرآوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء ، وكان لسارة ويعقوب وإسحاق مثلها . وقرأ ابن كثير بهمزة مكسورة

بعدها نون على الخبر ، وقرأ قالون وأبو عمرو بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة مسهلة بينهما ألف على الاستفهام ، وقرأ ورش بغير ألف بينهما ، والتسهيل في الثانية على الاستفهام أيضاً ، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين مع القصر ، ولهشام وجه ثان وهو المدّ ، وقيل : أنهم لم يعرفوه حتى ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ أنا يوسف ﴾ وزادهم بقوله ﴿ وهذا أخي ﴾ بنيامين شقيقي ، وإنما ذكره لهم ليزيدهم ذلك معرفة له وتثبيتاً في أمره وليبني عليه قوله : ﴿ قد منّ الله علينا ﴾ قال ابن عباس : بكل خير في الدنيا والآخرة . وقال آخرون : بالجمع بيننا بعد التفرقة . ﴿ إنه من يتق ﴾ ، أي : المعاصي ﴿ ويصبر ﴾ ، أي : على البليات وأذى الناس وقال ابن عباس : يتقي الزنا ويصبر على العزوبة ، وقال مجاهد : يتقي المعصية ويصبر على السجن ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ والمعنى أنه من يتق ويصبر ، فإنّ الله لا يضيع أجرهم ، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين ، وقرأ قنبل بإثبات الياء بعد القاف وقفاً ووصلاً ، واختلف المعربون في ذلك على وجهين : أجودهما : أنّ إثبات حرف العلة في الجزم لغة لبعض العرب وأنشدوا عليه قول قيس بن زهير:

*ألم يأتيك والأنباء تنمي

** بما لاقت لبون بني زياد

وقول الآخر:

*هجوت زبان ثم جئت معتذراً

** من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

وقول الآخر:

*إذا العجوز غضبت فطلقي

** ولا ترضاها ولا تلق

والثاني أنه مرفوع غير مجزوم ومن موصولة والفعل صلتها ، فلذلك تمم بإثبات لامه وسكن (يصبر) لتوالي الحركات ، وإن كانت في كلمتين ، وقرأ الباقون بالحذف وقفاً ووصلاً ، ولما ذكر يوسف عليه السلام لإخوته أنّ الله تعالى منّ عليه ، وأنه من يتق ويصبر فإنّ الله تعالى لا يضيعهم صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والمرتبة ولذلك .

﴿ قالوا ﴾ مقسمين بقولهم : ﴿ تالله ﴾ ، أي : الملك الأعظم ﴿ لقد آثرك ﴾ ، أي : اختارك ﴿ الله علينا ﴾ بالعلم والعقل والحلم والحسن والملك والتقوى وغير ذلك ، واحتج بعضهم بهذه الآية على أنّ إخوته ما كانوا أنبياء ؛ لأنّ جميع المناصب التي تكون مغايرة لمنصب النبوّة كالعدم بالنسبة إليه ، فلو شاركوه في منصب النبوّة لما قالوا ذلك ، ثم قالوا :

﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ ، أي : والحال أن شأننا إنا كنا مذنبين بما فعلنا معك ، ولذلك أذلنا الله تعالى لك ، فكأنه قيل : ما قال لهم على قدرته وتمكنه مع ما سلف من إهانتهم له ؟

فقيل:

﴿ قال ﴾ لهم قول الكرام اقتداءً بإخوانه من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ لا تثريب ﴾ ، أي : لا لوم ولا تعنيف ولا هلاك ﴿ عليكم اليوم ﴾ وإنما خصه بالذكر ؛ لأنه مظنة التثريب فإذا انتفى ذلك فيه فما ظنك بما بعده ، ولما أعفاهم من التثريب كانوا في مظنة السؤال عن كمال العفو المزيل للعقاب من الله تعالى ، فاتبعه الجواب عن ذلك بالدعاء لهم بقوله : ﴿ يغفر الله ﴾ ، أي : الذي لا إله غيره ﴿ لكم ﴾ ، أي : ما فرط منكم ، وعبر في هذا الدعاء بالمضارع إرشاداً لهم إلى إخلاص التوبة ، ورغبّهم في ذلك ، ورجاهم بالصفة التي هي سبب الغفران ، فقال : ﴿ وهو ﴾ تعالى ﴿ أرحم الراحمين ﴾ لجميع العباد لا سيما التائب ، فهو جدير بإدراك النعم .

(186/403)

روي أنهم أرسلوا إليه إنك لتدعونا إلى طعامك وكرامتك بكرة وعشياً ونحن نستحي مما فرط منا ، فقال : إن أهل مصر ينظروني وإن ملكت فيهم بعين العبودية فيقولون : سبحان

من بلغ عبداً بعشرين درهماً ما بلغ ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم إخوتي وأني من ذرية إبراهيم عليه السلام ، ولما أقرّ أعينهم بعد اجتماع شملهم بإزالة ما يخشونه دنيا وأخرى سأل عن أبيه فقال : ما فعل أبي بعدي ؟ قالوا : ابيضت عيناه من الحزن فأعطاهم قميصه وقال:

﴿ اذهبوا بقميصي هذا ﴾ وهو قميص إبراهيم عليه السلام الذي لبسه حين ألقي في النار عرياناً فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، وكان ذلك عند إبراهيم ، فلما مات إبراهيم ورثه إسحاق ، فلما مات إسحاق ورثه يعقوب ، فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك في قصبة من فضة وسدّ رأسها وعلقها في عنقه لما كان يخاف عليه من العين ، وكان لا يفارقه ، فلما ألقي في البئر عرياناً جاءه جبريل وعلى يوسف ذلك التعويذ ، فأخرج القميص وألبسه إياه ، ففي الوقت جاء جبريل عليه السلام وقال : أرسل ذلك القميص ، فإنّ فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا على سقيم إلا عوفي ، فدفع يوسف ذلك القميص إلى إخوته ، وقال : إذا وصلتم إلى أبي ﴿ فألقوه على وجه أبي يأت ﴾ ، أي : يصر ﴿ بصيراً ﴾ ، أي : يردّ إليه بصره كما كان ، أو يأت إليّ حال كونه بصيراً ﴿ وأتوني ﴾ ، أي : أبي وأنتم ﴿ بأهلكم ﴾ ، أي : مصاحبين لكم ﴿ أجمعين ﴾ لا يتخلف منكم أحد فرجعوا بالقميص لهذا القصد . وروي أنّ يهوذا هو الذي حمل القميص لما لطخوه بالدم فقال : لا

يحمل هذا غيري لأفرحه كما أحزنته فحمله وهو حاف من مصر إلى كنعان ، وبينهما ثمانون فرسخاً .

﴿ ولما فصلت العير ﴾ من عريش مصر وهو آخر بلاد مصر إلى أوّل بلاد الشأم ﴿ قال أبوهم ﴾ لولد ولده ومن حوله من أهله مؤكداً لعلمه أنهم ينكرون قوله : ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ أوصلته إليه ريح الصبا بإذن الله تعالى من مسيرة ثلاثة أيام أو ثمانية أو أكثر ، قال مجاهد : هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص .

قال أهل المعاني : إنّ الله تعالى أوصل إليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدّة المحنة ومجيء وقت الفرج من المكان البعيد ، ومنع من وصول خبره إليه مع قرب إحدى البلدتين من الأخرى في مدّة ثمانين سنة ، وذلك يدل على أن كل سهل فهو في زمان المحنة صعب ، وكل صعب فهو في زمان الإقبال سهل ، ومعنى ﴿ أجد ريح يوسف ﴾ أشم وعبر بالوجود ؛ لأنه وجدان له بحاسة الشم ﴿ لولا أن تفندون ﴾ ، أي : تنسبوني إلى الخرف .

قال أبو بكر الأنباري : أفند الرجل إذا خرف وتغير عقله . وعن الأصمعي إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو مفند . قال في "الكشاف" : يقال : شيخ مفنّد ولا يقال : عجوز مفندة ؛ لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأى حتى تفند في كبرها ، وقيل : التفنيد الإفساد يقال : فندت فلاناً إذا أفسدت رأيه ورددته قال بعضهم:

*يا صاحبيّ دعا لومي وتفنيدي

** فليس ما فات من أمر بمردود

ولما ذكر يعقوب عليه السلام ذلك

(188/403)

﴿ قالوا ﴾ ، أي : الحاضرون عنده ﴿ تالله إنك لفي ضلالك ﴾ ، أي : حبك ﴿ القديم ﴾ ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه على بعد العهد ، وهو كقول إخوة يوسف : ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ (يوسف ،) وقال مقاتل : معنى الضلال هنا الشقاء ، أي : شقاء الدنيا ، والمعنى إنك لفي شقائك القديم بما تكابده من الأحزان على يوسف ، وقال الحسن : إنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أنّ يوسف قد مات ، فكان يعقوب في ولوعه بذكره ذاهباً عن الرشد والصواب ، ثم أنهم عجلوا له بشيراً فأسرع قبل وصولهم بالقميص

﴿ فلما ﴾ وزيدت ﴿ أن ﴾ لتأكيد مجيئه على تلك الحالة، وزيادتها بعد لما قياس مطرد ﴿ جاء البشير ﴾ وهو يهوذا بذلك القميص ﴿ ألقاه ﴾ ، أي: طرحه البشير ﴿ على وجهه ﴾ ، أي: يعقوب، وقيل: ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿ فارتدّ ﴾ ، أي: رجع ﴿ بصيراً ﴾ ، أي: صيره الله بصيراً كما كان، كما يقال: طالت النخلة، والله تعالى هو الذي أطالها. ولما ألقى القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه، وانشرح صدره، وزالت أحزانه فعند ذلك ﴿ قال ﴾ لبنيه ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ من حياة يوسف وإنا الله تعالى يجمع بيننا، قال السهيليّ: لما جاء البشير إلى يعقوب عليه السلام، أعطاه في: بشارته كلمات كان يرويها عن أبيه عن جدّه عليهم السلام، وهي: يا لطيفاً فوق كل لطيف ألطف بي في أموري كلها كما أحب ورضني في دنياي وآخرتي. وروي أنّ يعقوب عليه السلام قال للبشير: كيف تركت يوسف؟ قال: تركته ملك مصر. قال: ما أصنع بالملك على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام. قال: الآن تمت النعمة فعند ذلك

﴿ قالوا يا أبانا ﴾ منادين بالأداة التي تدل على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له من عظيم الوقع ﴿ استغفر ﴾ ، أي : اطلب من الله تعالى أن يغفر ﴿ لنا ذنوبنا ﴾ ، أي : التي اقترفناها ثم قالوا مؤكدين تحقيقاً للإخلاص في التوبة ﴿ إنا كنا خاطئين ﴾ ، أي : متعمدين للإثم بما ارتكبنا في أمر يوسف عليه السلام ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ، ويسأل له المغفرة . قال صلى الله عليه وسلم "إنّ العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه" .

فكأنه قيل : فما قال لهم ؟ فقيل :

﴿ قال ﴾ لهم : ﴿ سوف أستغفر ﴾ ، أي : أطلب أن يغفر ﴿ لكم ربي ﴾ الذي أحسن إليّ بأنّ يغفر لبنيّ حتى لا يفرق بيني وبينهم في دار البقاء والربوبية ملك هو أتم الملك على الإطلاق وهو ملك الله تعالى ، وظاهر هذا الكلام أنه لم يستغفر لهم في الحال بل وعدهم بأن يستغفر لهم بعد ذلك ، واختلفوا في سبب هذا المعنى على وجوه ، فقال ابن عباس والأكثرون : أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر ؛ لأنّ هذا الوقت أوفق الأوقات لرجاء الإجابة ، وفي رواية أخرى له أنه أخر الاستغفار إلى ليلة الجمعة ؛ لأنها أوفق لأوقات الإجابة .

وقال وهب : كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة . وقال طاوس : أخر إلى السحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء ، وقيل : استغفر لهم في الحال ، وقوله : ﴿ سوف أستغفر لكم ﴾ معناه أني أدوام على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل ، وقيل

: قام إلى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه ، وقال : اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه ، واغفر لأولادي ما فعلوا في حق يوسف ، فأوحى الله تعالى إليه أني قد غفرت لك ولهم أجمعين .

(190/403)

وعن الشعبي قال : أسأل يوسف أن عفا عنكم استغفر لكم ربي ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ كل ذلك تسكيناً لقلوبهم وتصحيحاً لرجائهم ، وروي أنّ يوسف عليه السلام كان بعث مع البشير إلى يعقوب عليه السلام مئتي راحلة وجهازاً كثيراً ليأتوا بيعقوب وأهله وولده ، فتهيأ يعقوب عليه السلام للخروج إلى مصر ، فخرج بهم فلما دنا من مصر كلم يوسف الملك الذي فوقه ، فخرج يوسف عليه السلام والملك في أربعة آلاف من الجند العظماء وركب أهل مصر معهما بأجمعهم يتلقون يعقوب ، وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا ، فنظر إلى الخيل والناس فقال : يا يهوذا هذا فرعون مصر ؟ قال : لا هذا ابنك يوسف ، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام ، فقال له جبريل : لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب : السلام عليك يا مذهب الأحزان .

وقال الثوري : لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه

وبكى فقال يوسف : يا أبت بكيت عليّ حتى ابيضت عيناك ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا ؟

قال : بلى يا بنيّ ولكن خشيت أن يسلب دينك ، فيحال بيني وبينك فذلك قوله تعالى :

﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى ﴾ ، أي : ضمّ ﴿ إليه أبويه ﴾ قال الحسن : أباه وأمّه

وكانت حية إكراماً لهما بما يتميزان ، به وغلب الأب في التثنية لذكورته ، وعن ابن عباس

أنها خالته ليا وكانت أمه قد ماتت في نفاس بنيامين . قال البغويّ : وفي بعض التفاسير أنّ

الله تعالى أحيا أمّه حتى جاءت مع يعقوب إلى مصر .

فإن قيل : ما معنى دخولهم عليه قبل مصر ؟

(191/403)

أجيب : بأنه حين استقبلهم نزل بهم في خيمة أو بيت هناك فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويه

﴿ وقال ﴾ مكرماً ﴿ ادخلوا مصر ﴾ ، أي : البلد المعروف وأتى بالشرط للأمن لا

للدخول فقال : ﴿ إن شاء الله آمنين ﴾ من جميع ما ينوب حتى مما فرطتم في حقي وفي حق

أخي ، روي أنّ يعقوب عليه السلام وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل

وامرأة وخرجوا منها مع موسى عليه السلام والمقاتلون منهم ألف وبضعة وسبعون رجلاً

سوى الصبيان والشيوخ .

﴿ و ﴾ لما استقرّت بهم الدار بدخول مصر ﴿ رفع أبويه ﴾ ، أي : أجلسهما معه ﴿ على العرش ﴾ ، أي : السرير الرفيع والرفع هو النقل إلى العلوّ ﴿ وخرّوا له ﴾ ، أي : انحنوا له أبواه وإخوته ﴿ سجداً ﴾ ، أي : سجود انحناء ، والتواضع قد يسمى سجوداً كقول الشاعر :

*ترى الأكم فيها سجداً للحوافر

لا وضع جبهة وكان تحيتهم في ذلك الزمان ، أو أنهم وضعوا الجباه وكان ذلك على طريقة التحية والتعظيم لا على طريقة العبادة ، وكان ذلك جائزاً في الأمم السالفة ، فنسخت في هذه الشريعة ، وروي عن ابن عباس أنه قال : معناه خرّوا لله سجداً بين يدي يوسف عليه السلام ، فيكون سجود شكر لله لأجل وجدان يوسف ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجداً ﴾ وذلك يشعر بأنهم صعدوا على السرير ، ثم سجدوا لله تعالى ، ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير ؛ لأنّ ذلك أدخل في التواضع .

فإن قيل : هذا التأويل لا يطابق قول يوسف عليه السلام ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ والمراد منه قوله ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ (يوسف ،) أي : رأيتهم ساجدين لأجلي ، أي : أنهم سجدوا لله لطلب مصلحتي والسعي في إعلاء منصبي ، وإذا كان هذا محتملاً سقط السؤال قال الرازيّ : وعندي أنّ هذا التأويل متعين ؛ لأنه يبعد من عقل يوسف ودينه أن يرضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته في حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوّة أو أنهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا شكراً لنعمة وجدانه ، فإنه يقال : صليت للكعبة كما يقال : صليت إلى الكعبة . /

قال حسان:

*ما كنت أعرف أنّ الأمر منصرف

** عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن

*أليس أوّل من صلى لقبلتكم

** وأعرف الناس بالآثار والسنن

ثم استأنف يوسف عليه السلام فقال ﴿ قد جعلها ربي ﴾ ، أي : الذي رباني بما أوصلني إليها ﴿ حقاً ﴾ ، أي : مطابقة للواقع لتأويلها وتأويل ما أخبرتني به أنت ، والتأويل تفسير ما يؤول إليه معنى الكلام ، وعن سلمان رضي الله تعالى عنه أنّ ما بين رؤياه وتأويلها أربعون

سنة . وعن الحسن : أنه ألقي في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وبقي في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ، ثم وصل إلى أبيه وأقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ، فكان عمره وعشرين سنة ﴿ وقد أحسن ﴾ ، أي : أوقع إحسانه ﴿ بي ﴾ تصديقاً لما بشرتني به من إتمام النعمة ، وتعدية أحسن بالباء أدل على القرب من التعدية بإلى ، وإن كان أصل أحسن أن يتعدّى بإلى كما قال تعالى : ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ (القصص ،) وقيل : ضمن معنى لطف فتعدّى بالباء كقوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ (البقرة ،) وقال : ﴿ إذ أخرجني من السجن ﴾ ولم يذكر إخراجه من الجب لوجوه : أوّلها : أنه قال لإخوته : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ (يوسف ،) ولو ذكر واقعة الجب لكان ذلك تثريباً لهم فكان إهماله جارياً مجرى الكرم .

(193/403)

ثانيها : أنه لما خرج من الجب لم يصر ملكاً بل صيروه عبداً ، وإنما صار ملكاً بعد إخراجه من السجن ، فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعاماً كاملاً . ثالثها : أنه لما خرج من الجب وقع في المضارّ الحاصلة بسبب تهمة المرأة ولما خرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته ، فكان هذا أقرب إلى المنفعة مع أنّ اللفظ محتمل للجب أيضاً لكنه احتمال خفيّ ،

ولما كان يعقوب وولده بأرض كنعان وتحوّل إلى بدو قال ابن عباس : ومنه قدم على يوسف قال يوسف عليه السلام : ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ ، أي : من أطراف بادية فلسطين وذلك من أكبر النعم ، كما جاء في الحديث : "من يرد الله به خيراً ينقله من البادية إلى الحاضرة" والبدو ضدّ الحاضرة ، وهو من الظهور يقال : بدا يبدو إذا سكن في البادية ، يروى عن عمر : إذا بدونا جفونا ، أي : تخلقنا بأخلاق البدويين قال الواحدي : البدو بسط من الأرض يظهر فيه الشخص من بعيد ، وأصله من بدا يبدو بدواً ، ثم سمي المكان باسم المصدر ، وفي الآية دلالة على أن فعل العبد خلق الله تعالى ؛ لأنه أضاف إخراجه من السجن إلى الله تعالى ومجيئهم من البدو إليه ﴿ من بعد أن نزغ ﴾ ، أي : أفسد ﴿ الشيطان ﴾ بسبب الحسد ﴿ بيني وبين إخوتي ﴾ وأصل النزغ دخول في أمر لإفساده .

فإن قيل : إضافة يوسف عليه السلام الخير إلى الله تعالى والشر إلى الشيطان تقتضي أن فعل الشر ليس من الله تعالى كما قاله بعض المبتدعة ، ولو كان منه لأضافه إليه .

أجيب : بأنّ إضافة هذا الفعل إلى الشيطان مجاز ؛ لأنّ الفاعل المطلق هو الله تعالى في الحقيقة ، قال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (الأنبياء ،) فثبت بذلك أنّ الكل من عند الله تعالى وبقضائه وقدره ، وليس للشيطان فيه مدخل إلا بإلقاء الوسوسة والتحريش لإفساد ذات البين ، وذلك بإقدار الله تعالى إياه على ذلك كما حكى الله تعالى ذلك عنه بقوله تعالى : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ (إبراهيم ،) ولما كان حصول الاجتماع بينه وبين إخوته وأبويه مع الألفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال ، وكان في غاية البعد عن العقول إلا أنه تعالى لطيف قال يوسف عليه السلام ﴿ إنّ ربي لطيف لما يشاء ﴾ ، أي : لطيف التدبير له إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ، ويتسهل دونها فإذا أراد حصول الشيء سهل أسبابه فحصل ، وإن كان في غاية البعد عن الحصول ﴿ إنه هو العليم ﴾ بوجوه المصالح والتدابير ﴿ الحكيم ﴾ ، أي : الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة روي أنّ يوسف عليه السلام طاف بأبيه في خزائنه ، فلما أدخله خزانة القرطاس قال : يا بنيّ ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثمان مراحل ؟ قال : أمرني جبريل بذلك قال : أو ما تسأله ؟ قال : أنت أقرب مني إليه ، فسأله فقال جبريل : الله أمرني بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب ، قال : فهلا خفتني ؟ ولما حضر يعقوب عليه السلام الموت وصى يوسف عليه

السلام أن يحمله ويدفنه عند أبيه فمضى بنفسه فدفنه ثمة . ثم عاد إلى مصر وأقام بعده ثلاثاً وعشرين سنة .

(195/403)

ولما تم أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه إلى الملك الدائم فقال : ﴿ رب قد آتيتني ﴾ وافتتح بقد ؛ لأنّ الحال حال توقع السامع لشرح حال الرؤيا ﴿ من الملك ﴾ ، أي : بعضه بعد بعدي منه جداًّ وهو ملك مصر ﴿ وعلمتني من ﴾ ، أي : بعض ﴿ تأويل الأحاديث ﴾ طبق ما بشرني به أبي وأخبرت به أنت من التمكين والتعليم قبل قولك ﴿ والله غالب على أمره ﴾ (يوسف ،) ثم ناداه بوصف جامع للعلم والحكمة فقال : ﴿ فاطر ﴾ ، أي : خالق ﴿ السموات والأرض ﴾ ثم أعلمه بما هو أعلم به منه من أنه لا يعوّل على غيره في شيء من الأشياء ﴿ أنت وليي ﴾ ، أي : الأقرب إليّ باطناً وظاهراً ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ ، أي : لا وليّ لي غيرك ، والولي يفعل لموليه الأصلح والأحسن فأحسن لي في الآخرة أعظم مما أحسنت لي في الدنيا .

روي أنه صلى الله عليه وسلم حكى عن جبريل عن رب العزة جل وعلا أنه قال : "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين" فلهذا المعنى من أراد الدعاء لا

بدّ وأن يقدّم عليه ذكر الثناء على الله تعالى فهذا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله : ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض ﴾ ثم ذكر عقبه الدعاء وهو قوله ﴿ توفني ﴾ ، أي : اقبض روحي وافياً تامًّا في جميع أمري حساً ومعنى حال كوني ﴿ مسلماً ﴾ ولما كان المسلم حقيقة من كان عريقاً في الإخلاص عقبه بقوله : ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ ونظيره ما فعله الخليل عليه السلام في قوله : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ (الشعراء ،) فمن ههنا إلى قوله : ﴿ رب هب لي حكماً ﴾ ثناء على الله تعالى ثم قوله : ﴿ رب هب لي حكماً ﴾ إلى آخر الكلام دعاء فكذا هنا .

(196/403)

تنبيه : اختلف في قوله ﴿ توفني مسلماً ﴾ هل هو طلب منه للوفاة أم لا ؟ فقال قتادة : سأل ربه اللحوق به ولم يتمنّ نبيّ قط الموت قبله ، وكثير من المفسرين على هذا القول . وقال ابن عباس في رواية عطاء : يريد إذا توفيتني فتوفني على الإسلام ، فهذا طلب لأن يجعل الله تعالى وفاته على الإسلام ، وليس فيه ما يدل على أنه طلب الوفاة ، واللفظ صالح للأمرين ، ولا يبعد في الرجل العاقل إذا كمل عقله أن يتمنى الموت وتعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها :

أنّ الخطباء والبلغاء وإن أطنبوا في مذمّة الدنيا إلا أنّ حاصل كلامهم يرجع إلى ثلاثة أمور :

أحدها : أنّ هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والألم الحاصل عند زوالها أشدّ من اللذة الحاصلة عند وجدانها .

وثانيها : أنها غير حاصلة بل هي ممزوجة بالمنغصات والمكدّرات .

(197/403)

وثالثها : أنّ الأراذل من الخلق يشاركون الأفاضل فيها ، بل ربما كان حصة الأراذل أعظم بكثير من حصة الأفاضل ، فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات ، ولما عرف العاقل أنه لا يحصل تحصيل هذه اللذات إلا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لا جرم تمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات ، ومنها : أن تداخل اللذات الدنيوية قليلة وهي ثلاثة أنواع : لذة الأكل ولذة النكاح ولذة الرياسة ، ولكل واحدة منها عيوب كثيرة ، أمّا لذة الأكل ففيها عيوب أحدها : أنّ هذه اللذة ليست لذة قوية ، فإنه لا يمكن إبقاؤها ، فإنّ الإنسان إذا أكل وشبع لم يبق فيه الالتذاذ ، بالأكل ، فهذه اللذة ضعيفة ، ومع ضعفها غير باقية : وثانيها : أنها في نفسها خسيسة وأنّ الأكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع في الفم ، ولا شك أنه شيء منفر ، ولما يصل إلى المعدة يظهر فيه الاستحالة إلى الفساد والنتن

والعفونة ، وذلك أيضاً منفر ، وثالثها : أنّ جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة له فيها ، ورابعها : أنّ الأكل إنما يطيب عند اشتداد الجوع ، والجوع نقص وآفة ، وخامسها : أنّ الأكل مستحقر عند العقلاء حتى قيل : من كانت همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه ، فهذه إشارات مختصرة إلى معايب الأكل ، وأمّا لذة النكاح فما ذكر في الأكل حاصل هنا مع أشياء أخر ، وهي أنّ النكاح سبب لحصول الولد ، وحينئذ تكثر الأشخاص فتكثر الحاجات إلى المال ، فيحتاج الإنسان بسببها إلى الاحتيال في المال بطرق لا نهاية لها ، وربما صار هالكاً بسبب طلب المال .

وأمّا لذة الرياسة فعيوبها كثيرة منها : أن يكون على شرف الزوال في كل حين وأوان ، ومنها : أنه عند حصولها في الخوف الشديد من الزوال ، ومنها أنه يكون عند زوالها في الأسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال ، فالعاقل إذا تأمّل في هذه المعاني علم قطعاً أنه لا صلاح له في طلب هذه اللذات فيكون لقاء الله عنده أرجح فيتمنى الموت .

(198/403)

وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه أنّ ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسألة للموت فقال له : صنع الله لك خيراً كثيراً أحييت سنناً ، وأمت بدعاً وفي

حيا تك خير وراحة للمسلمين فقال : أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقرّ الله عينه وجمع أمره قال : ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ .

فإن قيل : الأنبياء عليهم الصلاة السلام يعلمون أنهم يموتون لا محالة على الإسلام ، فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وإنه لا يجوز ؟

أجيب : بأن حال كمال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاستسلام ، ويرضى بقضاء الله ، وتطمئن النفس وينشرح الصدر ، وينفسح القلب في هذا الباب ، وهذه حالة زائدة على الإسلام الذي هو ضدّ الكفر ، والمطلوب هاهنا هو الإسلام بهذا المعنى . فإن قيل : إنّ يوسف عليه السلام كان من أكابر الأنبياء ، والصلاح أوّل درجة المؤمنين فالواصل إلى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية ؟

أجيب : بأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : يعني بأن يلحقه بآبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، والمعنى ألحقني بهم في ثوابهم ودرجاتهم ، وولد ليوسف عليه السلام من امرأة العزيز ثلاثة افراثيم وميشا وهو جدّ يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب عليهم السلام ، ولما تاقت نفسه إلى الملك المخلد وتمنى الموت فلم يأت عليه أسبوع حتى

توفاه الله عز وجل طيباً طاهراً ، وتشاح الناس في دفنه فطلب أهل كل محلة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل حيث يتفرّق الماء بمصر ليجري عليه الماء ، وتصل بركته إلى جميعهم ، قال عكرمة : دفن في الجانب ، الأيمن من النيل فأخصب ذلك الجانب ، وأجدب الجانب ، الآخر ، فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب ذلك الجانب وأجدب الآخر ، فدفنوه في وسطه وقدّروا ذلك بسلسلة فأخصب الجانبان إلى أن أخرجه موسى عليه السلام ودفنه بقرب آبائه بالشام ، وقد يسر الله تعالى

زيارته وزيارة آبائه في عام شرعت في هذا التفسير سنة أربع وستين وتسعمئة جمعني الله تعالى وآبائي وأهلي وأصحابي وأحبابي معهم في دار كرامته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 185. 204 ﴾

(200/403)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾

يئس إخوة يوسف من محاولة تخليص أخيهم الصغير ، فانصرفوا من عنده ، وعقدوا مجلساً يتشاورون فيه . وهم هنا في هذا المشهد يتناجون . والسياق لا يذكر أقوالهم جميعاً . إنما يثبت آخرها الذي يكشف عما انتهوا إليه :

﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً . قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف ؟ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ، أو يحكم الله لي ، وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا : يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴾ . .

إن كبيرهم ليذكرهم بالموثق المأخوذ عليهم ، كما يذكرهم بتفريطهم في يوسف من قبل . ويقرن هذه إلى تلك ، ثم يرتب عليهما قراره الجازم : ألا يبرح مصر ، وألا يواجه أباه ، إلا أن يأذن له أبوه ، أو يقضي الله له بحكم ، فيخضع له وينصاع .

أما هم فقد طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه بأن ابنه سرق ، فأخذ بما سرق . ذلك ما علموه شهدوا به . أما إن كان بريئاً ، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه ، فهم غير موكلين بالغيب . كما أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ما حدث ، فذلك كان غيباً بالنسبة إليهم ، وما هم بحافظين للغيب . وإن كان في شك من قولهم فليسأل أهل القرية التي

كانوا فيها وهي عاصمة مصر والقرية اسم للمدينة الكبيرة وليسأل القافلة التي كانوا فيها ، فهم لم يكونوا وحدهم ، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتمتار الغلة في السنين العجاف . .

(201/403)

ويطوي السياق الطريق بهم ، حتى يقفهم في مشهد أمام أبيهم المفجوع ، وقد أفضوا إليه بالنبأ الفظيع . فلا نسمع إلا رده قصيرا سريعاً ، شجياً وجيعاً . ولكن وراءه أملاً لم ينقطع في الله أن يرد عليه ولديه ، أو أولاده الثلاثة بما فيهم كبيرهم الذي أقسم ألا يبرح حتى يحكم الله له . وإنه لأمل عجيب في ذلك القلب الوجيع :

﴿ قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم ﴾ . .

﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ . . كلمته ذاتها يوم فقد يوسف . ولكنه في هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك . . ﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ . . الذي يعلم حاله ، ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات ، ويأتي بكل أمر في وقته المناسب ، عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج .

هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ ؟ إنه الرجاء في الله ، والاتصال الوثيق به ، والشعور بوجوده ورحمته .

ذلك الشعور الذي يتجلى في قلوب الصفوة المختارة ، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار .

﴿ وتولى عنهم وقال : يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ . .

وهي صورة مؤثرة للوالد المفجوع . يحس أنه منفرد بهمه ، وحيد بمصابه ، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه ، فينفرد في معزل ، يندب فجيعته في ولده الحبيب . يوسف . الذي لم ينسه ، ولم تهوّن من مصيبته السنون ، والذي تذكره به نكبته الجديدة في أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل :

﴿ يا أسفا على يوسف ! ﴾ . .

ويكظم الرجل حزنه ويتجلد فيؤثر هذا الكظم في أعصابه حتى تبيض عيناه حزناً وكمداً :

﴿ وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ . .

ويبلغ الحقد بقلوب بنيه ألا يرحموا ما به ، وأن يلسع قلوبهم حنينه ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم ، فلا يسرون عنه ، ولا يعزونه ، ولا يعللونه بالرجاء ، بل يريدون ليطمسوا في قلبه الشعاع الأخير :

﴿ قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ! ﴾ . .

وهي كلمة حانقة مستنكرة . تالله تظل تذكر يوسف ، ويهدك الحزن عليه ، حتى تذوب حزناً أو تهلك أسى بلا جدوى . فيوسف ميؤس منه قد ذهب ولن يعود !

ويرد عليهم الرجل بأن يتركوه لربه ، فهو لا يشكو لأحد من خلقه وهو على صلة بربه غير صلتهم ، ويعلم من حقيقته ما لا يعلمون :

﴿ قال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

وفي هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية في هذا القلب الموصول ؛ كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ، ولألائها الباهر .

إن هذا الواقع الظاهر الميئس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذي يقطع الرجاء من حياته فضلاً على عودته إلى أبيه ، واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل في وجه هذا الواقع الثقيل . . إن هذا كله لا يؤثر شيئاً في شعور الرجل الصالح بربه . فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور !

وهذه قيمة الإيمان بالله ، ومعرفته سبحانه هذا اللون من المعرفة . معرفة التجلي والشهود وملابسة قدرته وقدره ، وملامسة رحمته ورعايته ، وإدراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين .

إن هذه الكلمات : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها . وتعرض مذاقاً يعرفه من ذاق مثله ، فيدرك ماذا تعني هذه الكلمات في نفس العبد الصالح يعقوب . . .

والقلب الذي ذاق هذا المذاق لا تبلغ الشدائد منه مهما بلغت إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق !

(203/403)

ولا نملك أن نزيد . ولكننا نحمد الله على فضله في هذا ؛ وندع ما بيننا وبينه له يعلمه سبحانه ويراه .

.

ثم يوجههم يعقوب إلى تلمس يوسف وأخيه ، وألا ييأسوا من رحمة الله ، في العثور عليهما ، فإن رحمة الله واسعة وفرجه دائماً منظور :

﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ . .

فيا للقلب الموصول ! ! !

﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ . .

تحسسوا بحواسكم ، في لطف وبصر وصبر على البحث . ودون يأس من الله وفرجه ورحمته . وكلمة ﴿ روح ﴾ أدق دلالة وأكثر شفافية . ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روْح الله الندي :

﴿ إنه لا ييأس من روْح الله إلا القوم الكافرون ﴾ . .

فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله ، الندية أرواحهم بروْحه ، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية ، فإنهم لا ييأسون من روْح الله ولو أحاط بهم الكرب ، واشتد بهم الضيق . وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه ، وفي أنس من صلته بربه ، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه ، وهو في مضايق ومخانق الكروب . .

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة ، وقد أضرت بهم المجاعة ، ونفدت منهم النقود ، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد . . يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل ، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام :

﴿ فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مُزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ﴾ . .

وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى في نفس يوسف قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز ، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته . فقد انتهت الدروس ، وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر لهم على بال ؛ فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم ، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله :

﴿ قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ ﴾ ! !

ورن في آذانهم صوت لعلهم يذكرون شيئاً من نبراته . ولاحت لهم ملامح وجه لعلهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونه في سمت عزيز مصر وأبهته وشياته . والتمع في نفوسهم خاطر من بعيد :

﴿ قالوا : أَئنك لأنت يوسف ؟ ﴾ . .

أئنك لأنت ؟ ! فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير في ذلك

الرجل الكبير . .

﴿ قال : أنا يوسف . وهذا أخي . قد من الله علينا . إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ . .

مفاجأة ! مفاجأة عجيبة . يعلنها لهم يوسف ويذكرهم في إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه في دفعة الجهالة . . ولا يزيد . . سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه ، معللاً هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله في الجزاء .

أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ، ويجللهم الخزي والخجل وهم يواجهونه محسناً إليهم وقد أساءوا .

حليماً بهم وقد جهلوا . كريماً معهم وقد وقفوا منه موقفاً غير كريم :

﴿ قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين ﴾ . .

اعتراف بالخطيئة ، وإقرار بالذنب ، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان . يقابله يوسف بالصفح والعفو وإنهاء الموقف المخجل . شيمة الرجل الكريم . وينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدة . إنه كان من المحسنين .

﴿ قال : لا تثريب عليكم اليوم . يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ﴾ . .

لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم . فقد انتهى الأمر من نفسي ولم تعد له جذور . والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين . . ثم يحول الحديث إلى شأن آخر . شأن أبيه الذي ابيضت عيناه من الحزن . فهو معجل إلى تبشيره . معجل إلى لقائه . معجل إلى كشف ما علق بقلبه من حزن ، وما ألم بجسمه من ضنى ، وما أصاب بصره من كلال :

﴿ اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ . .

كيف عرف يوسف أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل ؟ ذلك مما علمه الله .

والمفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة . . وما لها لا تكون خارقة ويوسف نبي رسول ويعقوب نبي رسول ؟

ومنذ اللحظة نحن أمام مفاجأة في القصة بعد مفاجأة ، حتى تنتهي مشاهدها المثيرة بتأويل رؤيا الصبي الصغير .

﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم : إني لأجد ريح يوسف . لولا أن تفندون ! ﴾ . .

ريح يوسف ! كل شيء إلا هذا . فما يخطر على بال أحد أن يوسف بعد في الأحياء بعد هذا الأمد الطويل . وأن له ريحاً يشمها هذا الشيخ الكليل !

إني لأجد ريح يوسف . لولا أن تقولوا شيخ خرف : ﴿ لولا أن تفندون ﴾ . . لصدقتم

معي ما أجده من ريح الغائب البعيد .

كيف وجد يعقوب ريح يوسف منذ أن فصلت العير . ومن أين فصلت ؟ يقول بعض المفسرين : إنها منذ فصلت من مصر ، وأنه شم رائحة القميص من هذا المدى البعيد . ولكن هذا لا دلالة عليه . فربما كان المقصود لما فصلت العير عند مفارق الطرق في أرض كنعان ، واتجهت إلى محلة يعقوب على مدى محدود .

ونحن بهذا لا ننكر أن خارقة من الخوارق يمكن أن تقع لنبي كيعقوب من ناحية نبي كيوسف . كل ما هنالك أننا نحب أن نقف عند حدود مدلول النص القرآني أو رواية ذات سند صحيح . وفي هذا لم ترد رواية ذات سند صحيح . و دلالة النص لا تعطي هذا المدى الذي يريده المفسرون !

ولكن المحيطين بيعقوب لم يكن لهم ما له عند ربه ، فلم يجدوا ما وجد من رائحة يوسف :

﴿ قالوا : تالله . إنك لفي ضلالك القديم ﴾ . .

(206/403)

في ضلالك بيوسف ، وضلالك بانتظاره وقد ذهب مذهب الذي لا يعود .

ولكن المفاجأة البعيدة تقع ، وتتبعها مفاجأة أخرى :

﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ، فارتد بصيراً ﴾ . .

مفاجأة القميص . وهو دليل على يوسف وقرب لقياه . ومفاجأة ارتداد البصر بعد ما ابيضت عيناه . . وهنا يذكر يعقوب حقيقة ما يعلمه من ربه . تلك التي حدثهم بها من قبل فلم يفهموه :

﴿ قال : ألم أقل لكم : إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ ﴾ . .

﴿ قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ . .

ونلمح هنا أن في قلب يعقوب شيئاً من بنيه ، وأنه لم يصف لهم بعد ، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويستريح :

﴿ قال : سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

وحكاية عبارته بكلمة ﴿ سوف ﴾ لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم . .

ويمضي السياق في مفاجات القصة . فيطوي الزمان والمكان ، لنلتقي في المشهد النهائي المؤثر المثير :

﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه . وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجداً ، وقال : يا أبت ، هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ، من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي . إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم ﴾ . .

ويا له من مشهد ! بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام . وبعد اليأس والقنوط . وبعد الألم والضيق . وبعد الامتحان والابتلاء . وبعد الشوق المضني والحزن الكامد واللهف الظامئ الشديد .

يا له من مشهد ختامي بالانفعال والخفقات والفرح والدموع !

ويا له من مشهد ختامي موصول بمطلع القصة : ذلك في ضمير الغيب وهذا في واقع الحياة .

ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه :

﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ . .

ويذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه في سجود إخوته له وقد رفع أبويه على السرير الذي يجلس عليه كما رأى الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين :

﴿ ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجداً ، وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ . .

ثم يذكر نعمة الله عليه :

﴿ وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطا ن

بيني وبين إخوتي ﴾ . .

ويذكر لطف الله في تدبيره لتحقيق مشيئته :

﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ . .

يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها :

﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ . .

ذات التعبير الذي قاله يعقوب وهو يقص عليه رؤياه في مطلع القصة :

﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ . .

ليتوافق البدء والختام حتى في العبارات .

وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير المثير ، نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج والجاه والسلطان ، والرغد والأمان .

ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر ! كل دعوته وهو في أبهة السلطان ، وفي فرحة تحقيق الأحلام أن يتوفاه ربه مسلماً وأن يلحقه بالصالحين :

﴿ رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة . توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ . .

﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾ . .

آتيتني منه سلطانه ومكانه وجاهه وماله . فذلك من نعمة الدنيا .

﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾ . .

بإدراك مآلاتها وتعبير رؤاها . فذلك من نعمة العلم .

نعمتك يا ربي أذكرها وأعددها . .

﴿ فاطرَ السماوات والأرض ﴾ . .

بكلمتك خلقتها وبيدك أمرها ، ولك القدرة عليها وعلى أهلها . .

﴿ أنت وليي في الدنيا والآخرة ﴾ . .

فأنت الناصر والمعين .

رب تلك نعمتك . وهذه قدرتك .

رب إني لا أسألك سلطاناً ولا صحة ولا مالاً . رب إني أسألك ما هو أبقى وأغنى :

﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ .

(208/403)

وهكذا يتوارى الجاه والسلطان ، وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولمة الإخوان .

ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ،

وأن يلحقه بالصالحين بين يديه .

إنه النجاح المطلق في الامتحان الأخير. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2024. 2030 ﴾

(209/403)

فصل فى قصة يوسف عليه السلام

قال ابن كثير :

وقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم الر تلك آيات الكتاب المبين إنا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين قد تكلمنا على الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة فمن أراد تحقيقه فلينظر ثم وتكلمنا على هذه لسورة مستقصى في موضعها من التفسير ونحن نذكر ههنا نبذا مما هناك على وجه الإيجاز والنجاز

وجملة القول في هذا المقام أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم بلسان عرب فصيح بين واضح جلي يفهمه كل عاقل ذكي زكي فهو أشرف كتاب نزل من

السماء انزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان بأفصح لغة وأظهر بيان فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر احسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ودمغ الباطل وزيفه

ورده وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع وأوضح المناهج وأبين حكما وأعدل حكما فهو كما قال تعالى وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا يعني صدقا في الأخبار عدلا في الأوامر والنواهي ولهذا قال تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين أي بالنسبة إلى ما أوحي إليك فيه كما قال تعالى وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور وقال تعالى كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا يعني من اعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذي عن أمير المؤمنين على مرفوعا

وموقوفا من ابتغى الهدى في غيره أضله الله وقال الإمام أحمد حدثنا سريج بن النعمان حدثنا هشام أنبأنا خالد عن الشعبي عن جابر أن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه و سلم بكتاب أصابه من بعض اهل الكتاب فقرأه على النبي صلى الله عليه و سلم قال فغضب وقال أتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني إسناد صحيح ورواه أحمد من وجه آخر عن عمرو فيه فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف وفي بعضها أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خطب الناس فقال في خطبته أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لي

اختصارا ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفا حرفا إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا

والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولدا ذكرا وسميناهم وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره وباقي إخوته لم يوح إليهم وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول ومن استدل على نبوتهم بقوله قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي

لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء والله أعلم

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه نص على واحد من إخوته سواه فدل على ما ذكرناه ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد حدثنا عبد

الصمد حدثنا عبد الرحمن عن عبد الله بن دينار عن أبيه عن بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال الكريم بن الكريم ابن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم انفرد به البخاري فرواه عن عبد الله بن محمد وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث به وقد ذكرنا طرقه في قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنة قال المفسرون وغيرهم رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن أحد عشر كوكبا وهم إشارة إلى بقية أخوته والشمس والقمر هما عبارة عن ابويه قد سجدوا له فهاله ذلك فلما استيقظ قصها على أبيه فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة بحيث يخضع له أبواه وأخوته فيها فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر وهذا يدل على ما ذكرناه ولهذا جاء في بعض الآثار استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها فإن كل ذي نعمة محسود وعند أهل الكتاب انه قصها على أبيه وأخوته معا وهو غلط منهم وكذلك يجتبيك ربك أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة فإذا كتمتها يجتبيك ربك أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة ويعلمك من تأويل الأحاديث أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام مالا يفهمه غيرك ويتم نعمته عليك أي بالوحي إليك وعلى آل يعقوب أي بسببك ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة

كما أعطاها أباك يعقوب وجدك إسحاق ووالد جدك إبراهيم الخليل إن ربك عليم حكيم كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته

لهذا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لما سئل أي الناس اكرم قال يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما وأبو يعلى والبزار في مسنديهما من حديث الحكم بن ظهير وقد ضعفه الأئمة عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال أتى النبي صلى الله عليه و سلم رجل من اليهود يقال له بستانة اليهودي فقال يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها قال فسكت النبي صلى الله عليه و سلم فلم يجبه بشيء ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها قال فبعث إليه رسول الله فقال هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها قال نعم فقال هي جريان (1) والطارق والديال وذو الكتفان وقابس ووثاب وعمردان (2) والفيلق والمصبح والضروح وذو الفرع
والضياء والنور فقال اليهودي أي والله إنها لأسماؤها وعند أبي يعلى فلما قصها على أبيه قال هذا أمر مشتت يجمعه الله والشمس أبوه والقمر أمه لقد كان في يوسف وإخوته آيات

للسائلين إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين

ينبه تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم والدلالات والمواعظ والبينات ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه يعنون شقيقه لامه بنيامين أكثر منهم وهم عصبة أي جماعة يقولون فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين إن أبانا لفي ضلال مبين أي بتقديمه حبهما علينا ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ليخلو لهم وجه أبيه أي لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم وأضمروا التوبة بعد ذلك فلما تمالؤا على ذلك وتوافقوا عليه قال قائل منهم قال مجاهد هو شمعون وقال السدي هو يهودا وقال قتادة ومحمد بن إسحاق هو أكبرهم روبيل لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة أي المارة من المسافرين إن كنتم فاعلين ما تقولون لا محالة فليكن هذا الذي أقول لكم فهو أقرب حالا من قتله أو نفيه وتغريبه فاجمعوا رأيهم على هذا فعند ذلك قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له

لحافظون قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم وأن يلعب وينبسط وقد أضمروا له ما الله به عليم فأجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم يا بني يشق علي ان افارقه ساعة من النهار ومع هذا اخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه فيأتي الذئب فيأكله ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة إنا إذا لخاسرون أي عاجزون هالكون

(215/403)

وعند اهل الكتاب أنه ارسله وراءهم يتبعهم فضل عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم وهذا أيضا من غلطهم وخطئهم في التعريب فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم فكيف يبعثه وحده فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون وجاؤا اباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بؤمن لنا ولو كنا صادقين

وجاؤا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم فما كان إلا أن غابوا عنه عينيه فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال وأجمعوا على القائه في غيابت الجب أي في قعره على راعوفته وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائح وهو الذي ينزل ليملي الدلاء إذا قل الماء والذي يرفعها بالحبل يسمى الماتح فلما ألقوه فيه أوحى الله إليه أنه لا بد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها ولتخبرن أخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز وهم محتاجون إليك خائفون منك وهم لا يشعرون

قال مجاهد وقتادة وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك وعن ابن عباس وهم لا يشعرون أي لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها رواه ابن جرير عنه فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دم ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون أي على أخيهم ولهذا قال بعض السلف لا يعرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون أي في ظلمة الليل ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا أي ثيابنا فأكله الذئب أي في غيبتنا

عنه في استباقنا وقولهم وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين أي وما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له ولو كنا غير متهمين عندك فكيف وأنت تتهمنا في هذا فإنك خشيت أن يأكله الذئب وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله فصرنا غير مصدقين عندك فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه وجاؤا على قميصه بدم كذب أي مكذوب مفتعل لأنهم عمدوا إلى سخلة ذبحوها فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه ليوهموا أنه أكله الذئب قالوا ونسوا أن يخرقوه وآفة الكذب النسيان ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يرج صنيعهم على أبيهم فإنه كان يفهم عداوتهم له وحسدهم اياه على محبته له من بينهم أكثر منهم لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره لما يريد الله أن يخصه به من نبوته ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه وغيبوه عن عينيه جاؤا وهم يتباكون وعلى ما تمالؤا عليه يتواطؤن ولهذا قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

وعند أهل الكتاب أن روبيل أشار بوضعه في الجب ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه فغافلوه وباعوه لتلك القافلة فلما جاء روبيل من آخر النار ليخرج يوسف لم يجده فصاح

وشق ثيابه وعمد أولئك إلى جدي فذبحوه ولطخوا من دمه جبة يوسف فلما علم يعقوب
شق ثيابه ولبس مئزرا أسود وحزن على إبنه أياما كثيرة وهذه الركاكة جاءت من خطئهم
في التعبير والتصوير وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام
وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من
الزاهدين وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا
وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل
الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولما بلغ أشده آتيناه حكما
وعلما وكذلك نجزي المحسنين يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجب أنه جلس
ينتظر فرج الله ولطفه به فجاءت سيارة أي مسافرون

(218/403)

قال أهل الكتاب كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من
الشام فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف فلما
رآه ذلك الرجل قال يا بشرى أي يا بشارتي هذا غلام واسروه بضاعة أي أوهموا أنه معهم
غلام من جملة متجرهم والله عليم بما يعملون أي هو عالم بما تمالأ عليه أخوته وبما يسره

واجدوه من أنه بضاعة لهم ومع هذا لا يغيره تعالى لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر بما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم بثمن بخس أي قليل نزر وقيل هو الزيف دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي باعوه بعشرين درهما اقتسموها درهمين درهمين وقال مجاهد اثنان وعشرون درهما وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق أربعون درهما فالله أعلم وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه أي أحسني إليه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة قالوا وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها الذي الخزائن مسلمة إليه قال ابن إسحاق واسمه اطفير (1) بن روحيب قال وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق قال واسم امرأة العزيز راعيل بنت رعابيل (2) وقال غيره كان اسمها زليخا والظاهر أنه لقبها وقيل فكا بنت ينوس رواه الثعلبي عن أبي هشام (3) الرفاعي وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس كان اسم الذي باعه بمصر يعني الذي جلبه إليها مالك بن ذعر بن نويب بن عفقا (4) بن مديان بن إبراهيم فالله أعلم

(219/403)

وقال ابن إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر حين قال لامرأته أكرمي مثواه والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين وأبو بكر الصديق حين استخف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ثم قيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا وقيل بوزنه مسكا ووزنه حريرا ووزنه ورقا فالله أعلم وقوله وكذلك مكنا ليوسف في الأرض أي وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان

به مكنا له في أرض مصر ولنعلمه من تأويل الأحاديث أي فهمها وتعبير الرؤيا من ذلك والله غالب على أمره أي إذا أراد شيئا فإنه يقيض له أسبابا وأمورا لا يهتدي إليها العباد ولهذا قال تعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد وهو حد الأربعين الذي يوحي الله فيه إلى عباده النبيين عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين

(220/403)

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي هو الحلم وقال سعيد بن جبير ثماني عشرة سنة وقال الضحاك عشرون سنة وقال عكرمة خمس وعشرون سنة وقال السدي ثلاثون سنة وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة ثلاث وثلاثون سنة وقال الحسن أربعون سنة ويشهد له قوله تعالى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون وقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها وهي مع هذا كله امرأة الوزير قال ابن إسحاق وبنت أخت الملك (1) الريان بن الوليد صاحب مصر وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع

الجمال والبهاء إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء فعصمه ربه عن الفحشاء وحماه من مكر النساء فهو سيد السادة النجباء السبعة الأتقياء المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء في قوله عليه الصلاة و السلام من رب الأرض والسماء سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتمعا

عليه وتفرقا عليه ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه وشاب نشأ في عبادة الله ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص فقال معاذ الله إنه ربي يعني زوجها

صاحب المنزل سيدي أحسن مثواي أي أحسن إلي وأكرم مقامي عنده إنه لا يفلح الظالمون وقد تكلمنا على قوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه بما فيه كفاية ومقنع في التفسير

وأكثر أو قال المفسرين ههنا متلقى من كتب أهل الكتاب فالإعراض عنه أولى بنا والذي يجب أن يعتقد أن الله تعالى عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها ولهذا قال تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين واستبقا الباب أي هرب منها طالبا إلى الباب ليخرج منه فرارا منها فاتبعته في أثره والفيا أي وجدا سيدها أي زوجها لدى الباب فبدرته بالكلام وحرضته عليه قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم اتهمته وهي المتهمة وبرأت عرضها ونزهت ساحتها فلهذا قال يوسف عليه السلام هي راودتني عن نفسي احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة وشهد شاهد من أهلها قيل كان صغيرا في المهد قاله ابن عباس وروى عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك واختاره ابن جرير وروى فيه حديثا مرفوعا عن ابن عباس ووقفه غيره عنه وقيل كان رجلا قريبا إلى أطفير بعلها وقيل قريبا إليها وممن قال إنه كان رجلا ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم فقال إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين أي لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين أي لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك وكذلك كان ولهذا قال تعالى فلما رأى قميصه قد من دبر

قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم أي هذا الذي جرى من مكركن أنت راودته عن نفسه ثم اتهمته بالباطل ثم ضرب بعلها عن هذا صفحا فقال يوسف أعرض عن هذا أي لا تذكره لأحد لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها والتوبة إلى ربها فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك ولهذا قال لها بعلها وعذرها من بعض الوجوه

لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله إلا أنه عفيف نزيه بريء العرض سليم الناحية فقال استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها في ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهم سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن إيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين قال رب

السجن أحب إلى ما يدعونني إليه والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب

(224/403)

له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز وعيبها والتشنيع عليها في مراودتها فتاها وحبها الشديد له تعنين وهو لا يساوي هذا لأنه مولى من الموالي وليس مثله أهلا لهذا ولهذا قلن إنا لنراها في ضلال مبين أي في وضعها الشيء في غير محله فلما سمعت بمكرهن أي بتشنيعهن عليها والتنقص لها والاشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها فأظهرن ذما وهي معذورة في نفس الأمر فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ولا من قبيل ما لديهن فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها واعتدت لهن ضيافة مثلهن وأحضرت في جملة ذلك شيئا مما يقطع بالسكاكين كالأترج ونحوه وأتت كل واحدة منهن سكينا وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسن الثياب وهو في غاية طراوة الشباب وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة فلما رأينه أكبرنه أي أعظمنه وأجللنه وهبنه وما ظنن

أن يكون مثل هذا في بني آدم وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يحززن في إيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح وكلهن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم وقد جاء في حديث الإسراء فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن قال السهيلي وغيره من الأئمة معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام لأن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه فكان في غاية نهايات الحسن البشري ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه ويوسف كان على النصف من حسن آدم ولم يكن بينهما أحسن منهما كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام

(225/403)

قال ابن مسعود وكان وجه يوسف مثل البرق وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه وقال غيره كان في الغالب مبرقعا لئلا يراه الناس ولهذا لما قام عذر امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور وجرى لهن وعليهن ما جرى من تقطيع إيدينهم بجراح السكاكين وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ثم مدحته بالعصمة التامة فقالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم أي امتنع ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن

وليكونن من الصاغرين وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيد ته فأبى أشد الإباء ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ودعا فقال في دعائه لرب العالمين رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين يعني إن وكلتني إلى نفسي فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله فأنا ضعيف الا ما قويتني وعصمتني وحفظتني وحطني بحولك وقوتك ولهذا قال تعالى فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه

(226/403)

حتى حين ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه

إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذي فيه تستفتيان يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم أي ظهر لهم من الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية وأخمد لأمرها وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها فسجنوه ظلما وعدوانا وكان هذا مما قدر الله له ومن جملة ما عصمه به فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم ومن ههنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعي أن من العصمة أن لا تجد قال الله ودخل معه السجن فتيان قيل كان أحدهما ساقي الملك واسمه فيما قيل بنو والآخر خبازه يعني الذي يلي طعامه وهو الذي يقول له الترك الجاشنكير واسمه فيما قيل مجلث كان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه ودله وطريقته وقوله وفعله وكثرة عبادته ربه وإحسانه إلى خلقه فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه قال أهل التفسير رأيا في ليلة واحدة أما الساقي فرأى كأن ثلاث قضبان من حبلة وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه ورأى الخباز

على رأسه ثلاث سلال من خبز وضواري الطيور تأكل من السل الأعلى فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرهما لهما وقالا إنا نراك من المحسنين فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها و قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما قيل معناه مهما رأيتما من حلم فاني أعبره لكم قبل وقوعه فيكون كما أقول وقيل معناه إني أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلوا أو حامضا كما قال عيسى وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم وقال لهما إن هذا من تعليم الله إياي لأني مؤمن به موحد له متبع ملة آبائي الكرام إبراهيم الخليل واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا أي بأن هدانا لهذا وعلى الناس أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه وهو في فطرهم مركوز وفي جبلتهم مغروز ولكن أكثر الناس لا يشكرون ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز و جل وصغر أمر الأوثان وحقرها وضعف أمرها فقال يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله

الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أي هو المتصرف في خلقه الفعال لما يريد الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء أمر أن لا تعبدوا إلا إياه أي وحده لا شريك له و ذلك الدين القيم أي المستقيم والصراط القويم ولكن أكثر الناس لا يعلمون أي فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال لأن نفوسهما معظمة له منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا قالوا وهو الساقي وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قالوا وهو الخباز قضى الأمر الذي فيه تستفتيان أي وقع هذا لا محالة ووجب كونه على حالة ولهذا جاء في الحديث الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت

وقد روى عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهما قالا لم نر شيئا فقال لهما قضى الأمر الذي فيه تستفتيان وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين يخبر تعالى أن يوسف عليه السلام قال للذي

ظنه ناجيا منهما وهو الساقي أذكرني عند ربك يعني اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب وقوله فأنساه الشيطان ذكر ربه أي فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد وهو الصواب وهو منصوص أهل الكتاب فلبث يوسف في السجن بضع سنين والبضع ما بين الثلاث إلى التسع وقيل إلى السبع وقيل إلى الخمس وقيل ما دون العشرة حكاها الثعلبي ويقال بضع نسوة وبضع رجال ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر قال وإنما يقال نيف وقال الله تعالى فلبث في السجن بضع سنين وقال تعالى في بضع سنين وهذا رد لقوله قال الفراء ويقال بضعة عشر وبعضة وعشرون إلى التسعين ولا يقال بضع ومائة وبضع والف وخالف الجوهري فيما زاد على بضعة عشر فمنع أن يقال بضعة وعشرون إلى تسعين وفي الصحيح الايمان بضع وستون وفي رواية وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ومن قال إن الضمير في قوله فأنساه الشيطان ذكر ربه عائد على يوسف فقد ضعف ما قاله وإن كان قد روى عن ابن عباس وعكرمة والحديث الذي رواه ابن جرير في هذا الموضع ضعيف من كل وجه تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوري (1) المكي وهو متروك ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل ولا ههنا بطريق الأولى والأحرى والله أعلم

فأما قول ابن حبان في صحيح ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن ما لبث أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحي ثنا مسدد بن مسرهد ثنا خالد بن عبد الله ثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها اذكرني عند ربك ما لبث في السجن ما لبث ورحم الله لوطا أن كان ليأوي إلى ركن شديد إذ قال لقومه لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد قال فما بعث الله نبيا بعده إلا في ثروة من قومه فإنه حديث منكر من هذا الوجه ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها والذي في الصحيحين يشهد بغلطها والله أعلم وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبلة إلا قليلا مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن

ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام وذلك أن ملك مصر وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن اراشه (1) بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح رأى هذه الرؤيا قال أهل الكتاب رأى كأنه على حافة نهر وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان فجعلن يرتعن في روضة هناك فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن فاستيقظ مذعورا ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر في قصبة واحدة وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن فاستيقظ مذعورا فلما قصها على

ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها بل قالوا أضغاث أحلام أي أخلاط أحلام من الليل لعلها لا تعبير لها ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك ولهذا قالوا وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين فعند ذلك تذكر الناجي منهما الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة في ذلك فلما سمع رؤيا الملك ورأى عجز الناس عن تعبيرها تذكر أمر يوسف وما كان أوصاه به من التذكار ولها قال تعالى وقال

الذي نجا منهما وأدكر أي تذكر بعد أمة أي بعد مدة من الزمان وهو بضع سنين وقرأ بعضهم كما حكى عن ابن عباس وعكرمة والضحاك وأدكر بعد أمة أي بعد نسيان وقرأها مجاهد بعد أمه بإسكان الميم وهو النسيان أيضا يقال أمه الرجل يأمه أمها وأمها إذا نسي قال الشاعر

أمهت وكنت لا أنسى حديثا . . . كذاك الدهر يزري بالعقول . . .

فقال لقومه وللملك أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون أي فأرسلوني إلى يوسف فجاءه فقال يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون وعند أهل الكتاب أن الملك لما ذكره له الساقي استدعاه إلى حضرته وقص عليه ما رآه ففسره له وهذا غلط والصواب ما قصه الله في كتابه القرآن لا ما عربه هؤلاء الجهلة الثيران من قراى وربان فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط ولا طلب الخروج سريعا بل أجابهم إلى ما سألوا وعبر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس يعني يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية وفيه

يعصرون يعني ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها فعبر لهم وعلى الخير دلهم وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالتي خصبهم وجدبهم وما يفعلونه من ادخار حبوب سنى الخصب في السبع الأول في سنبله الا ما يرصد بسبب الأكل ومن تقليل البذر في سنى الجدب في السبع الثانية إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم

(233/403)

وقال الملك ائتوني به فلما جاء الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرئ نفسي أن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم لما أحاط الملك علما بكمال علم يوسف عليه الصلاة و السلام وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه أمر بإحضاره إلى حضرته ليكون من جملة خاصته فلما جاءه الرسول بذلك أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلما وعدوانا وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتانا قال

ارجع إلى ربك يعني الملك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم قيل معناه إن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إلي أي فمر الملك فليسألهن كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهن إياي وحثهن لي على الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد فلما سئلن عن ذلك أعرفن بما وقع من الأمر وما كان منه من الأمر الحميد وقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء فعند ذلك قالت امرأة العزيز وهي زليخا الآن حصحص الحق أي ظهر وتبين ووضح والحق أحق أن يتبع أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين أي فيما يقوله من أنه بريء وأنه لم يراودني وأنه حبس ظلما وعدوانا وزورا وبهتانا وقوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين قيل إنه من كلام يوسف أي إنما

طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب وقيل إنه من تمام كلام زليخا أي إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر وإنما كان مراده لم يقع معها فعل فاحشة وهذا القول هو الذي نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سوى الأول وما ابرىء نفسي أن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم قيل إنه من كلام يوسف وقيل من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين

وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى والله أعلم وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون لما ظهر للملك براءة عرضه ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه قال ائتوني به استخلصه لنفسي أي أجعله من خاصتي ومن أكابر دولتي ومن أعيان حاشيتي فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله قال إنك اليوم لدينا مكين أمين أي ذو مكانة وأمانة قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالاهراء لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضى سبع سنى الخصب لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الاحتياط لهم والرفق بهم وأخبر الملك إنه حفيظ أي قوي على حفظ ما لديه أمين عليه عليم بضبط الأشياء ومصالح الاهراء وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة وعند أهل الكتاب أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جدا وسلطه على جميع أرض مصر وألبسه خاتمه وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثاني ونودي بين يديه أنت رب ومسلط وقال له لست أعظم منك إلا بالكرسي قالوا وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة وزوجه امرأة عظيمة الشأن

وحكى الثعلبي أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف وقيل إنه لما مات زوجه امرأته

زليخا فوجدها عذراء لأن زوجها كان لا يأتي النساء فولدت ليوسف عليه السلام رجلين

وهما أفرايم ومنشا قال واستوثق ليوسف ملك مصر وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال

والنساء

وحكى أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة وأن الملك خاطبه بسبعين لغة

وكل ذلك يجاوبه بكل لغة منها فأعجبه ذلك مع حداثة سنه فالله أعلم قال الله تعالى

وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء أي بعد السجن والضيق والحصر

صار مطلق الركاب بديار مصر يتبوأ منها حيث يشاء أي أين شاء حل منها مكرما محسودا

معظما نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين أي هذا كله من جزاء الله وثوابه

للمؤمن مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل ولهذا قال ولأجر الآخرة

خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ويقال إن أطفير زوج

زليخا كان قد مات فولاه الملك مكانه وزوجه امرأته زليخا فكان وزير صدق

وذكر محمد بن إسحاق أن صاحب مصر الوليد بن الريان أسلم على يدي يوسف عليه

السلام فالله أعلم وقد قال بعضهم . . . وراء مضيق الخوف متسع الأمن . . . وأول

مفروح به غاية الحزن . . . فلا تيأسن فالله ملك يوسفا . . . خزائنه بعد الخلاص من السجن . . .

(236/403)

وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوف الكيل وأنا خير المنزلين فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون طعاما وذلك بعد إتيان سنى الجدب وعمومها على سائر البلاد والعباد وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية دينا ودنيا فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة فلهذا عرفهم وهم له منكرون

(237/403)

وعند أهل الكتاب أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم وأراد أن لا يعرفوه بأغلظ لهم في القول وقال أنتم جواسيس جئتم لتأخذوا خبر بلادي فقالوا معاذ الله إنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذي أصابنا ونحن بنو أب واحد من كنعان ونحن اثنا عشر رجلا ذهب منا واحد وصغيرنا عند أبينا فقال لا بد أن أستعلم أمركم وعندهم أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم واحتبس شمعون عنده ليأتوه بالأخ الآخر وفي بعض هذا أنظر قال الله تعالى فلما جهزهم بجهازهم أي أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته في إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم وكان قد سألهم عن حالهم وكم هم فقالوا كنا إثني عشر رجلا فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبينا فقال إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم ألا ترون أني أوف الكيل وأنا خير المنزلين أي قد أحسنت نزلكم وقراكم فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به قال فإن لم تأتون به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون أي فلست أعطيكم ميرة ولا أقربكم بالكلية عكس ما أسدى إليهم أولا فاجتهد في إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب قالوا سنراود عنه أباه أي سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن وإنا لفاعلون أي وإنا لقادرون على تحصيله ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاؤا به يتعوضون به عن الميرة في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون قيل أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم

وقيل خشي أن لا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية وقيل تذمم أن يأخذ منهم عوضا عن الميرة

وقد اختلف المفسرون في بضاعتهم على أقوال سيأتي ذكرها وعند أهل الكتاب أنها كانت صررا من ورق وهو أشبه والله أعلم فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقا من الله لتأتنني به الا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له منع منا الكيل أي بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا فإن أرسلته معنا لم يمنع منا ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي أي أي شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا ونمير أهلنا أي نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم ومحلهم ونحفظ أخانا ونزداد بسببه كيل بعير قال الله تعالى ذلك كيل يسير أي في مقابلة ذهاب ولده الآخر وكان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه ويتعوض بسببه منه فلهذا قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به الا أن يحاط بكم أي الا أن تغلبوا كلكم عن الاتيان به فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل أكد المواثيق وقرر العهود واحتاط لنفسه في ولده ولن يغني حذر من قدر ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة لما بعث الولد العزيز ولكن الأقدار لها أحكام والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة قيل أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين وذلك لأنهم كانوا أشكالا حسنة وصورا بديعة قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدي والضحاك وقيل أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبرا ليوسف أو يحدثون عنه بأثر قاله إبراهيم النخعي والأول أظهر ولهذا قال وما أغنى عنكم من الله من شيء وقال تعالى ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان

يغني عنهم من الله من شيء الا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون

(240/403)

وعند أهل الكتاب أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل وأخذوا الدراهم الأولى وعوضا آخر فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذون أيتها العيد إنكم

لسارقون قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر

مكانا والله أعلم بما تصفون قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون

يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف وأيوائه إليه وإخباره له سرا عنهم بأنه أخوه وأمره بكتم ذلك عنهم وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم فأمر فتيانه بوضع سقايته وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام عن غرته في متاع بنيامين ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ووعدهم جعالة على رده حمل بعير وضمنه المنادي لهم فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأبنوه وهجنوه فيما قاله لهم و قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين يقولون أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين وهذه كانت شريعتهم أن السارق يدفع إلى المسروق منه ولهذا قالوا كذلك نجزي الظالمين قال الله تعالى فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ليكون ذلك أبعد للتهمه وأبلغ في الحيلة ثم قال الله تعالى كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك أي لولا

اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء أي في العلم وفوق كل ذي علم عليهم وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم وأتم رأيا وأقوى عزما وحزما وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل يعنون يوسف قيل كان قد سرق صنم جده أبي أمه فكسره وقيل كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لاسحق ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له وقيل كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء وقيل غير ذلك فلهذا قالوا إن

يسرق فقد سرق أخ له من قبل فاسرها يوسف في نفسه وهي كلمته بعدها وقوله أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون أجابهم سرا لا جهرا حلما وكرما وصفحا وعفوا فدخلوا معه في الترقق والتعطف فقالوا يا أيها العزيز إن له أبا

شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا

متاعنا عنده إنا إذا لظالمون أي إن أطلقنا المتهم وأخذنا البرىء هذا ما لا نفعله ولا نسمح به وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده

وعند أهل الكتاب أن يوسف تعرف إليهم حينئذ وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جدا فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم لي وهو خير الحاكمين ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون

يقول تعالى مخبرا عنهم أنهم لما استيأسوا من أخذه منه خلصوا يتناجون فيما بينهم قال كبيرهم وهو روبيل ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم لقد أخلفتم عهده وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله فلم يبق لي وجه أقابله به فلن أبرح الأرض أي لا أزال مقيما ههنا حتى يأذن لي أبي في القدوم عليه أو يحكم الله لي بأن يقدرني على رد أخي إلى أبي وهو خير الحاكمين ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق أي أخبروه بما رأيتم من الأمر في لظاهر المشاهدة وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها أي فإن هذا الذي أخبرناك به من أخذهم أخانا لأنه سرق أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك وانا لصادقون قال بل سولت لكم أنفسكم أمر فصبر جميل أي ليس الأمر كما ذكرتم لم يسرق فإنه ليس سجية له ولا خلقه وإنما سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل

قال ابن إسحاق وغيره لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتبا على صنيعهم في يوسف قال لهم ما قال وهذا كما قال بعض السلف إن من جزاء السيئة السيئة بعدها ثم قال عسى الله أن يأتيني بهم جميعا يعني يوسف وبنيامين وروبيل إنه هو العليم أي بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة الحكيم فيما يقدره ويفعله وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة وتولى عنهم أي أعرض عن بنيه وقال يا أسفي على يوسف ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم وحرك ما كان كامنا كما قال بعضهم . . . نقل فؤادك حيث شئت من الهوى . . . ما الحب إلا للحبيب

الأول

وقال آخر . . . لقد لامني عند القبور على البكا . . . رفيقي لتذراف الدموع السوافك

. . . فقال أتبكي كل قبر رأيته . . . لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك . . . فقلت له إن الأسى

يبعث الأسى . . . فدعني فهذا كله قبر مالك . . .

(244/403)

وقوله وابيضت عيناه من الحزن أي من كثرة البكاء فهو كظيم أي مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق قالوا له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين يقولون لا تزال تتذكره حتى تنحل جسدك وتضعف قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون يقول لبنيه لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكو إلى الله عز وجل وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجا ومخرجا وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى ولهذا قال واعلم من الله ما لا تعلمون ثم قال لهم محرضا على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه

ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون أي لا تيئسوا من الفرج بعد الشدة فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه وما يقدره من المخرج في المضايق إلا القوم الكافرون فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين

(245/403)

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه ورغبتهم فيما لديه من الميرة والصدقة عليهم رد أخيهم بنيامين إليهم فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال وجئنا ببضاعة مزجاة أي ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن يتجاوز عنا قيل كانت دراهم رديئة وقيل قليلة وقيل حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك وعن ابن عباس كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك فأوف لنا الكيل

وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين قيل بقبولها قاله السدي وقيل برد أخينا إلينا قاله ابن جريج وقال سفيان بن عيينة إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد صلى الله عليه و سلم ونزع بهذه الآية رواه ابن جرير فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاؤوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال تعرف إليهم وعطف عليهم قائلا لهم عن أمر ربه وربهم وقد حسر لهم عن جبينه الشريف وما يحويه من الخال فيه الذي يعرفون هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون قالوا وتعجبوا كل العجب وقد ترددوا إليه مرارا عديدة وهم لا يعرفون أنه هو أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي يعني أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم وسلف من أمركم فيه ما فرطتم وقوله وهذا أخي تأكيد لما قال وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد وعملوا في أمرهما من الإحتيال ولهذا قال قد من الله علينا أي بإحسانه إلينا وصدقته علينا وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا وصبرنا على ما كان منكم إلينا وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا أي فضلك وأعطاك ما لم يعطنا وإن كنا لخاطئين أي فيما أسدينا إليك وها نحن بين يديك قال لا تثريب عليكم اليوم أي لست أعاقبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا ثم زادهم على ذلك فقال اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين

ومن زعم أن الوقف على قوله لا تثريب عليكم وابتدأ بقوله اليوم يغفر الله لكم فقوله ضعيف والصحيح الأول ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذي يلي جسده فيضعوه على عيني أبيه فإنه يرجع إليه بصره بعد ما كان ذهب بإذن الله وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجوه وأعلى الأمور فلما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم

قال عبد الرزاق أنبأنا إسرائيل عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذيل سمعت ابن عباس يقول فلما فصلت العير قال لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون قال فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام وكذا رواه الثوري وشعبة وغيرهم عن أبي سنان به وقال الحسن البصري وابن جريج المكي كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخا وكان له منذ فارقه ثمانون سنة وقوله لولا أن تفندون أي تقولون إنما قلت هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة تفندون تسفهون وقال مجاهد أيضا والحسن تهرمون قالوا تالله إنك

لفي ضلالك القديم قال قتادة والسدي قالوا له كلمة غليظة قال الله تعالى فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا أي بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيرا بعد ما كان ضريرا وقال لبنيه عند ذلك ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا

تعلمون أي اعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف وستقر عيني به وسيريني فيه ومنه ما يسرني فعند ذلك قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز و جل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه وما كانوا عزموا عليه ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل وفقهم الله للإستغفار عند وقوع ذلك منهم فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا وما عليه عولوا قائلا سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم أرجأهم إلى وقت السحر قال ابن جرير حدثني أبو السائب حدثنا ابن إدريس سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب ابن دثار قال كان عمر يأتي المسجد فسمع انسانا يقول اللهم دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت وهذا السحر فاغفر لي قال فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود فسأل عبد الله عن ذلك فقال إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله سوف أستغفر لكم ربي وقد قال الله تعالى والمستغفرين بالأسحار وثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له وقد ورد في حديث أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة قال ابن جرير حدثني المثنى ثنا سليمان بن عبد الرحمن بن أيوب الدمشقي حدثنا الوليد أنبأنا ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه و سلم سوف أستغفر لكم ربي يقول حتى تأتي ليلة الجمعة وهو قول أخي يعقوب لبنيه وهذا غريب من هذا الوجه وفي رفعه نظر والأشبه أن يكون موقوفا على ابن عباس رضي الله عنه فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم رب قد آتيتني

من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين هذا إخبار عن حال إجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة التي قيل أنها ثمانون سنة وقيل ثلاثة وثمانون سنة وهما روايتان عن الحسن وقيل خمس وثلاثون سنة قاله قتادة وقال محمد ابن إسحاق ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرة سنة قال وأهل الكتاب يزعمون أنه

غاب عنه أربعين سنة وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريبا فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة فيما قاله غير واحد فامتنع فكان في السجن بضع سنين وهي سبع عند عكرمة وغيره ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي جاء إخوتهم يمتارون السنة الأولى وحدهم وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار اهلهم أجمعين فجاؤا كلهم فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه اجتمع بها خصوصا وحدهما دون إخوته وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين قيل هذا من المقدم والمؤخر تقديره ادخلوا مصر وآوى إليه أبويه وضعفه ابن جرير وهو معذور قيل تلقاهما وآواهما في منزل الخيام ثم لما اقتربوا من باب مصر قال ادخلوا مصر

إن شاء الله آمنين قاله السدي ولو قيل إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضا وأنه ضمن قوله أدخلوا معنى اسكنوا مصر أو أقيموا بها إن شاء الله آمنين لكان صحيحا مليحا أيضا وعند اهل الكتاب أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر وهي أرض بلبيس خرج يوسف لتلقيه وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشرا بقدومه وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر يكونون فيها ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم وقد ذكر جماعة من المفسرين انه لما أزف قدوم نبي الله يعقوب وهو إسرائيل اراد يوسف أن يخرج لتلقيه فركب معه الملك وجنوده خدمة ليوسف وتعظيما لنبي الله إسرائيل وأنه دعا للملك وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سني الجدب ببركة قدومه إليهم فالله أعلم

(250/403)

وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم فيما قاله أبي إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود ثلاثة وستين إنسانا وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن عبد الله بن شداد كانوا ثلاثة وثمانين إنسانا وقال أبو إسحاق عن مسروق دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون إنسانا قالوا وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل وفي نص أهل الكتاب أنهم كانوا سبعين نفسا وسموهم قال الله تعالى ورفع أبويه على العرش قيل

كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة وقال بعض المفسرين فأحياها الله تعالى وقال آخرون بل كانت خالته ليا والخالة بمنزلة الأم وقال ابن جرير وآخرون بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه وهذا قوي والله أعلم ورفعهما على العرش أي أجلسهما مع على سريره وخروا له سجدا أي سجده له الأبوان والاخوة الأحد عشر تعظيما وتكريما وكان هذا مشروعا لهم ولم يزل ذلك معمولا به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا وقالت يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل أي هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتي الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر حين رأيتهم لي ساجدين وأمرتني بكتمانها ووعدتني ما وعدتني عند ذلك قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن أي بعد الهم والضيق جعلني حاكما نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت وجاء بكم من البدو أي البادية وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي أي فيما كان منهم إلي من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره ثم قال إن ربي لطيف لما يشاء أي إذا أراد شيئا هيأ أسبابه ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته إنه هو العليم أي بجميع الأمور الحكيم في خلقه وشرعه وقدره

وعند أهل الكتاب أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يده بأموالهم كلها من الذهب والفضة والعقار والأثاث وما يملكونه كله حتى باعهم بانفسهم فصاروا أرقاء ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا ويكون خمس ما يشتغلون من زرعهم وثمارهم للملك فصارت سنة أهل مصر بعده

وحكى الثعلبي أنه كان لا يشبع في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار قال فمن ثم اقتدى به الملوك في ذلك قلت وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب قال الشافعي قال رجل من الأعراب لعمر بعد ما ذهب عام الرمادة لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت وشمله قد إجتمع عرف أن هذه الدار لا يقربها قرار وأن كل شيء فيها ومن عليها فان وما بعد التمام إلا النقصان فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله واعترف له بعظيم إحسانه وفضله وسأل منه وهو خير المسؤلين أن يتوفاه أي حين يتوفاه على الإسلام وأن يلحقه بعباده الصالحين وهكذا كما يقال في الدعاء اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين أي حين تتوفانا ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام كما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عند احتضاره أن يرفع روحه

إلى الملأ الاعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين كما قال اللهم في الرفيق الأعلى ثلاثا ثم قضى

(252/403)

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام منجزا في صحة بدنه وسلامته وأن ذلك كان سائغا في ملتهم وشرعتهم كما روي عن ابن عباس أنه قال ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف فأما في شريعتنا فقد نهي عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين وفي الحديث الآخر ابن آدم الموت خير لك من الفتنة وقالت مريم عليها السلام يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا وتمنى الموت علي بن أبي طالب لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال وكثر القيل والقال وتمنى ذلك البخاري أبو عبد الله صاحب الصحيح لما اشتد عليه الحال ولقي من مخالفيه الأهوال

فأما في حال الرفاهية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به إما محسنا فيزداد وإما مسيئا فلعله يستعتب ولكن ليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا

كانت الوفاة خيرا لي والمراد بالضر ههنا ما يخص العبد في بدنه من مرض ونحوه لا في دينه والظاهر أن نبي الله يوسف عليه السلام سأل ذلك إما عند احتضاره أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ثم توفي عليه السلام وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق قال السدي فصبر وسيره إلى بلاد الشام فدفنه بالمنارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام

وعند أهل الكتاب أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة ومع هذا قالوا فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة هذا نص كتابهم وهو غلط إما في النسخة أو منهم أو قد أسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا وقد قال تعالى في كتابه العزيز أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون يوصي بنيه بالإخلاص وهو دين الإسلام

الذي بعث الله به الأنبياء عليهم السلام

وقد ذكر أهل الكتاب أنه أوصى بنيه واحدا واحدا وأخبرهم بما يكون من أمرهم وبشر يهوذا بخروج نبي عظيم من نسله تطيعه الشعوب وهو عيسى بن مريم والله أعلم

وذكروا أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوما وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوما ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها فلما وصلوا حبرون دفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثي وعملوا له عزاء سبعة أيام قالوا ثم رجعوا إلى بلادهم وعزى إخوة يوسف ليوسف في أبيهم وترققوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم فأقاموا ببلاد مصر ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه فحنطوه ووضعوه في تابوت فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام فدفنه عند آبائه كما سيأتي قالوا فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين هذا نصهم فيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير أيضا وقال مبارك بن فضالة عن الحسن ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة وقال غيره أوصى إلى أخيه يهوذا صلوات الله عليه وسلامه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البداية والنهاية جـ 1 صـ 197.220 ﴾

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (104) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم الذي كان من أمرهم على هذا الوجه الأحكم والصراط الأقوم من ابتدائه إلى انتهائه ، قال مشيراً إلى أنه دليل كاف في تصحيح دعوى النبوة مخاطباً لمن لا يفهم هذا الحق فهمه غيره ، مسلياً له مثبتاً لفؤاده وشارحاً لصدره ، منبهاً على أنه مما ينبغي السؤال عنه :

﴿ ذلك ﴾ أي النبأ العالي الرتبة الذي قصصناه قصاً يعجز البلغاء من حملته ورواته فكيف بغيرهم ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أي أخباره التي لها شأن عظيم ﴿ نوحيه إليك ﴾ وعبر بصيغة المضارع تصويراً لحال الإيحاء الشريف وإشارة إلى أنه لا يزال معه يكشف له ما يريد ﴿ و ﴾ الحال أنك ﴿ ما كنت لديهم ﴾ أي عند إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام في هذا النبأ الغريب جداً ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ أجمعوا أمرهم ﴾ على رأي واحد في إلقاء

يوسف عليه الصلاة والسلام في الجب بعد أن كان مقسماً ﴿ وهم يمكرون ﴾ أي يدبرون الأذى في خفية ، من المكر وهو القتل – لتعرف ذلك بالمشاهدة ، وانتفاء تعلمك لذلك من بشر مثل انتفاء كونك لديهم في ذلك الحين ، ومن المحقق لدى كل ذي لب أنه لا علم إلا بتعليم ، فثبت أنه لا معلم لك إلا الله كما علم إخوانك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فيا له من دليل جل عن مثيل ، وهذا من المذهب الكلامي ، وهو إيراد حجة تكون بعد تسليم المقدمات مستلزمة للمطلوب ، وهو تهكم عظيم ممن كذب النبي .صلى الله عليه وسلم . .

(255/403)

ولما سألت قريش واليهود رسول الله .صلى الله عليه وسلم . – كما نقله أبو حيان عن ابن الأنباري – عن قصة يوسف عليه الصلاة والسلام فنزلت مشروحة هذا الشرح الشافي ، مبينة هذا البيان الوافي ، فأمل .صلى الله عليه وسلم. أن يكون ذلك سبب إسلامهم فخالفوا تأميله ، عزاه الله بقوله : ﴿ وما ﴾ أي نوحيه إليك على هذا الوجه المقتضي لإيمانهم والحال أنه ما ﴿ أكثر الناس ﴾ أي كلهم مع ذلك لأجل ما لهم من الاضطراب ﴿ ولو حرصت ﴾ أي على إيمانهم ﴿ بمؤمنين ﴾ أي بمخلصين في إيمانهم واصفين الله بما يليق به من التنزه عن شوائب النقص ، فلا تظن أنهم يؤمنون لإنزال ما يقترحون من الآيات ،

أو لترك ما يغيظهم من الإنذار ؛ والكثير – قال الرماني : العدة الزائدة على مقدار غيرها ، والأكثر : القسم الزائد على القسم الآخر من الجملة ، ونقيضه الأقل ؛ والناس : جماعة الإنسان ، وهو من ناس ينوس – إذا تحرك يمنياً وشمالاً من نفسه لا بجر غيره .

ولما ذكر تعالى ما هم عليه من الكفر ، ذكر ما يعجب معه منه فقال : ﴿ وما ﴾ أي هم على ذلك والحال أن موجب إيمانهم موجود ، وذلك أنك – مع دعائهم إلى الطريق الأقوم وإيتانك عليه بأوضح الدلائل ما ﴿ تسئلهم عليه ﴾ أي هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ من أجر ﴾ حتى يكون سؤالك سبباً لأن يتهموك أو يقولوا : لولا أنزل عليه كنز ليستغني به عن سؤالنا .

ولما نفى عنهم سؤالهم الأجر ، نفى عن هذا الذكر كل غرض دنيوي فقال : ﴿ إن هو ﴾ أي هذا الكتاب ﴿ إلا ذكر ﴾ أي تذكير وشرف ﴿ للعالمين ﴾ قال الرماني : والذكر : حضور المعنى للنفس ، والعالم : جماعة الحيوان الكثيرة التي من شأنها أن تعلم ، لأنه أخذ من العلم ، وفيه معنى التكثير ، وقد يقال : عالم الفلك وما حواه على طريق التبع للحيوان الذي ننتفع به وهو مجعول لأجله . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 105 .

106﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ ذلك ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿ مِنْ أَنبَاء الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبر ثان ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي ما كنت عند إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ ﴾ أي عزموا على أمرهم وذكرنا الكلام في هذا اللفظ عند قوله : ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أي بيوسف ، واعلم أن المقصود من هذا إخبار عن الغيب فيكون معجزاً .

بيان إن إخبار عن الغيب أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولم يتلمذ لأحد وما كانت البلدة بلدة العلماء فإتيانه بهذه القصة الطويلة على وجه لم يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ، ومن غير أن يقال : إنه كان حاضراً معهم لا بد وأن يكون معجزاً وكيف يكون معجزاً وقد سبق تقرير هذه المقدمة في هذا الكتاب مراراً ، وقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي وما كنت هناك ذكر على سبيل التهكم بهم ، لأن كل أحد يعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما كان معهم .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

اعلم أن وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت ، واعتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا ذكرها فربما آمنوا ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص : 56] قال أبو بكر بن الأنباري : جواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف ، لأن جواب ﴿ لَوْ ﴾ لا يكون مقدماً عليها فلا يجوز أن يقال .

وقال الفراء في "المصادر" يقال : حرص يحرص حرصاً ، ولغة أخرى شاذة : حرص يحرص حريصاً .

ومعنى الحرص : طلب الشيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد .

وقوله : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ معناه ظاهر وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ للعالمين ﴾ أي هو تذكرة لهم في دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات ، ومعناه : أن هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة ، ثم لا تطلب منهم مالاً ولا جعلاً

، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 178.177 ﴾

(258/403)

وقال الماوردى :

﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾

يعني هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب .

﴿ نوحيه إليك ﴾ أي نعلمك بوحي منا إليك .

﴿ وما كنت لديهم ﴾ أي إخوة يوسف .

﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ في إلقاء يوسف في الجب .

﴿ وهم يمكرون ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بيوسف في إلقائه في غيابة الجب .

الثاني : يعقوب حين جاؤوا على قميصه بدم كذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(259/403)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾ الآية

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قصة يوسف ، وهذه الآية تعريض لقريش وتنبيه على آية صدق محمد ، وفي ضمن ذلك الطعن على مكذبيه .

والضمير في ﴿ لديهم ﴾ عائد إلى إخوة يوسف ، وكذلك الضمائر إلى آخر الآية ، و ﴿ أجمعوا ﴾ معناه : عزموا وجزموا ، و ﴿ الأمر ﴾ هنا هو إلقاء يوسف في الجب ، و " المكر " هو أن تدبر على الإنسان تدبيراً يضره ويؤذيه والخديعة هي أن تفعل بإنسان وتقول له ما يوجب أن يفعل هو فعلاً فيه عليه ضرر . وحكى الطبري عن أبي عمران الجوني أنه قال : والله ما قص الله نبأهم ليعيرهم بذلك ، إنهم لأنبياء من أهل الجنة ، ولكن قص الله علينا نبأهم لئلا يقنط عبده .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

هاتان الآيتان تدلان أن الآية التي قبلهما فيها تعريض لقريش ومعاصري محمد عليه السلام ، كأنه قال : فإخبارك بالغيوب دليل قائم على نبوتك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون وإن كنت أنت حريصاً على إيمانهم ، أي يؤمن من شاء الله . وقوله : ﴿ ولو حرصت ﴾ اعتراض فصيح .

وقوله : ﴿ وما تسألهم ﴾ الآية ، توبيخ للكفرة وإقامة الحجة عليهم ، أي ما أسفههم في أن تدعوهم إلى الله دون أن تبغي منهم أجراً فيقول قائل : بسبب الأجر يدعوهم .

وقرأ مبشر بن عبيد : " وما نسألهم " بالنون .

ثم ابتدأ الله تعالى الإخبار عن كتابه العزيز . أنه ذكر وموعظة لجميع العالم - نفعنا الله به ووفر حظنا منه بعزته - . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(260/403)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَآءِ الغيب ﴾

ابتداء وخبر .

﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبر ثان .

قال الزجاج : ويجوز أن يكون "ذَلِكَ" بمعنى الذي ، "نُوحِيهِ إِلَيْكَ" خبره ؛ أي الذي من أنباء الغيب نوحيه إليك ؛ يعني هو الذي قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب "نُوحِيهِ إِلَيْكَ" أي نعلمك بوحي هذا إليك .

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي مع إخوة يوسف ﴿ إِذْ أجمعوا أَمْرَهُمْ ﴾ في إلقاء يوسف في

الجبّ .

﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أي بيوسف في إلقائه في الجبّ .

وقيل : "يَمْكُرُونَ" بيعقوب حين جاؤوه بالقميص مُلطَّخاً بالدم ؛ أي ما شاهدت تلك الأحوال ، ولكن الله أطلعك عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ظنّ أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون ، فلم يؤمنوا ؛ فنزلت الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي ليس تقدر على هداية من أردت هدايته ؛ تقول : حَرَصَ يَحرِص ، مثل : ضَرَبَ يَضرِب .

وفي لغة ضعيفة حَرِص يَحرَص مثل حَمِدَ يَحمَد .

والحِرْص طلب الشيء باختيار .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ "مِنْ" صلة ؛ أي ما تسألهم جُعْلاً .

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما هو ؛ يعني القرآن والوحي .

﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ أي عظة وتذكرة ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن:

قوله عز جل: ﴿ ذلك ﴾

يعني الذي ذكرت لك يا محمد من قصة يوسف وما جرى له مع إخوته، ثم إنه صار إلى الملك بعد الرق ﴿ من أنباء الغيب ﴾ يعني أخبار الغيب ﴿ نوحيه إليك ﴾ يعني الذي أخبرناك به من أخبار يوسف وحي أوحيناه إليك يا محمد وفي هذه الآية دليل قاطع على صحة نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) لأنه كان رجلاً أمياً لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر إلى بلد آخر غير بلده الذي أنشأ فيه (صلى الله عليه وسلم) وأنه نشأ بين أمة أمية مثله، ثم إنه (صلى الله عليه وسلم) أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن ترتيب وأبين معان وأفصح عبارة فلعم بذلك أن الذي أتى به هو وحي إلهي ونور قدسي سماوي فهو معجزة له قائمة إلى آخر الدهر.

وقوله تعالى: ﴿ وما كنت لديهم ﴾ يعني وما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب ﴿ إذا أجمعوا أمرهم ﴾ يعني حين عزموا على إلقاء يوسف (صلى الله عليه وسلم) في الجب ﴿ وهم يمكرون ﴾ يعني بيوسف ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمعنى وما أكثر الناس يا محمد لو حرصت على إيمانهم بمؤمنين وذلك أن اليهود وقريشاً سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن قصة يوسف فلما أخبرهم بها على وفق ما عندهم في التوراة لم يسلموا فحزن رسول الله (صلى الله

عليه وسلم) لذلك فقيل له إنهم لا يؤمنون ولو حرصت على إيمانهم ففيه تسلية له ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ يعني على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله من أجر يعني أجراً وجعلا على ذلك ﴿ إن هو ﴾ أي ما هو يعني القرآن ﴿ إلا ذكر ﴾ يعني عظة وتذكيراً ﴿ للعالمين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(262/403)

وقال أبو السعود :

﴿ ذلك ﴾

إشارةٌ إلى ما سبق من نبأ يوسفَ ، وما فيه من معنى البُعد لما مر مراراً من الدِلالة على بُعد منزلِته أو كونه بالانقضاء في حكم البعيدِ والخطابُ للرسول صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبرُه ﴿ مِنْ أَنبَاء الغيب ﴾ الذي لا يحوم حوله أحدٌ وقوله : ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبرٌ بعد خبر أو حال من الضمير في الخبر ويجوز أن يكون ذلك اسماً موصولاً و (من أنباء الغيب) صلتَه ويكون الخبرُ نوحيه إليك ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ يريد إخوةَ يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ ﴾ وهو جعلهم إياه في غيابة الجب ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به ويبغون له الغوائلَ حتى تقف على ظواهر أسرارِهم وبواطنها وتطّلع على سرائرهم

طُراً وتحيط بما لديهم خُبراً ، وليس المرادُ مجردَ نفي حضورِه عليه الصلاة والسلام في مشهد إجماعِهم ومكرِهم فقط ، بل في سائر المشاهدِ أيضاً ، وإنما تخصيصُه بالذكر لكونه مطْلعَ القصة وأخفى أحوالِها كما ينبىء عنه قوله : وهم يمكرون ، والخطابُ وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكنِ المرادُ إلزامُ المكذبين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك إذ عدمُ سماعِك ذلك من الغير وعدمُ مطالعتِك للكتب أمرٌ لا يشك فيه المكذّبون أيضاً ولم تكن بين ظَهرانيهم عند وقوعِ الأمر حتى تعرِفه كما هو فتبلّغَه إليهم ، وفيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم ، وفيه أيضاً إيذانٌ بأن ما ذكر من النبأ هو الحقُّ المطابق للواقع ، وما ينقُله أهلُ الكتاب ليس على ما هو عليه يعني أن مثلَ هذا التحقيقِ بلا وحي لا يُتصوّر إلا بالحضور والمشاهدة وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي ، ومثلُه قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أقلامهم أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ وقولُه : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر ﴾

﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس ﴾

يريد به العمومَ أو أهلَ مكة ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ أي على إيمانهم وبالغت في إظهار الآياتِ القاطعةِ الدالةِ على صدقك ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لتصميمهم على الكفر وإصرارِهم على العناد ، روي أن اليهود وقريشاً لما سألوا عن قصة يوسفَ وعدوا أن يُسْلموا فلما أخبرهم بها على موافقة التوراةِ فلم يسلموا حزِن النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقيل له ذلك ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على الإنباء أو على القرآن ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ من جُعْل كما يفعله حمَلةُ الأخبار ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ عظةٌ من الله تعالى ﴿ للعالمين ﴾ كافةً لا أن ذلك مختصٌّ بهم . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(264/403)

وقال الآلوسى :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من أنباء يوسف عليه السلام ، وما فيه من معنى البعد لما مر مراراً ، والخطاب للرسو صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنبَاء الغيب ﴾ الذي لا يحوم حوله أحد خبره ، وقوله سبحانه : ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبر بعد خبر أو

حال من الضمير في الخبر، وجوز أن يكون ﴿ ذلك ﴾ اسماً موصولاً مبتدأ و ﴿ مِنْ أَنبَاء الغيب ﴾ صلته و ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبره وهو مبني على مذهب مرجوح من جعل سائر أسماء الإشارة موصولات.

(265/403)

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ يريد إخوة يوسف عليه السلام ﴿ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ ﴾ وهو جعلهم إياه في غيابة الجب ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به ويبغون له الغوائل، والجملة قيل: كالدليل على كون ذلك من أنباء الغيب وموحي إليه عليه الصلاة والسلام، والمعنى أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي لأنك لم تحضر إخوة يوسف عليه السلام حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الجب وهم يمكرون به، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلمته منه، وهذا من المذهب الكلامي على ما نص عليه غير واحد وإنما حذف الشق الأخير مع أن الدال على ما ذكر مجموع الأمرين لعلمه من آية أخرى كقوله تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ ﴾ [هود: 49] وقال بعض المحققين: إن هذا تهكم بمن كذبه وذلك من حيث أنه تعالى جعل المشكوك فيه كونه عليه السلام حاضراً بين يدي أولاد يعقوب عليه السلام ماكرين فنفاه بقوله: ﴿ وَمَا

كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ وإنما الذي يمكن أن يرتاب فيه المرتاب قبل التعرف هو تلقيه من أصحاب هذه القصة ، وكان ظاهر الكلام أن ينفي ذلك فلما جعل المشكوك ما لا ريب فيه لأن كونه عليه الصلاة والسلام لم يلق أحداً ولا سمع كان عندهم كفلق الفجر جاء التهكم البالغ وصار حاصل المعنى قد علمتم يا مكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية وإنكاركم لما أخبر به يفضي إلى أن تكابروه بأنه قد شاهد من مضى منهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء وصاكم الله بهذا ﴾ [الأنعام : 144] ومنه يظهر فائدة العدول عن أسلوب ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ ﴾ [هود : 49] إلى هذا الأسلوب وهو أبلغ مما ذكر أولاً ، وذكر لترك ذلك نكتة أخرى أيضاً وهي أن المذكور مكرهم وما دبروه وهو مما أخفوه حتى لا يعلمه غيرهم فلا يمكن تعلمه من الغير ولا يخلو عن حسن ، وأياً ما كان ففي

(266/403)

الآية إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس ﴾ الظاهر العموم ، وقال ابن عباس : إنهم أهل مكة ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ أي على إيمانهم وبالغت في إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك عليهم ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لتصميمهم على الكفر وإصرارهم على العناد حسبما اقتضاه استعدادهم و﴿ حرص ﴾ من باب ضرب وعلم وكلاهما لغة فصيحة ، وجواب ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ﴾ محذوف للعلم به ، والجملة معترضة بين المبتدأ والخبر .

قال ابن الأنباري : سألت قريش واليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف عليه السلام فنزلت مشروحة شرحاً وافياً فأمل عليه الصلاة والسلام أن يكون ذلك سبب اسلامهم ، وقيل : إنهم وعدوه أن يسلموا فلما لم يفعلوا عزاه تعالى بذلك .

وقيل : إنها نزلت في المنافقين ، وقيل : في النصارى ، وقيل : في المشركين فقط ، وقيل : في أهل الكتاب فقط ؛ وقيل : في الثنوية .

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾

أي هذا الانباء أو جنسه أو القرآن ، وأياماً كان فالضمير عائد على ما يفهم مما قبله والمعنى ما تطلب منهم على تبليغه ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي جعل ما كما يفعله حملة الأخبار ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي ما هو إلا تذكير وعظة من الله تعالى ﴿ للعالمين ﴾ كافة ، والجملة كالتعليل لما قبلها لأن الوعظ العام ينافي أخذ الأجرة من البعض لأنه لا يختص بهم .

وقيل : اريد انه ليس إلا عظة من الله سبحانه امرت أن أبلغها فوجب على ذلك فكيف

أسأل أجراً على أداء الواجب وهو خلاف الظاهر ، وعليه تكون الآية دليلاً على حرمة أخذ الأجرة على أدار الواجبات .

وقرأ مبشر بن عبيد ﴿ ومَا ﴾ بالنون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(267/403)

وقال القاسمى :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف ، البعيد درجة كماله في جميع ما لا يتناهى من المحاسن والأسرار حتى صار معجزاً . والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي : هذا من أخبار الغيوب السابقة ، نوحيه إليك ، ونعلمك به ، لما فيه من العبرة والاتعاظ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ كالدليل على كونه نبأً غيبياً ووحياً سماوياً . أي : لم تعرف هذا النبأ إلا من جهة الوحي ؛ لأنك لم تحضر إخوة يوسف ، حين أجمعوا أمرهم على إلقاء أخيهم في البئر ، وهم يمكرون به ، إذ حثوه على الخروج معهم ، يبغون له الغوائل ، وبأبيهم في استئذانه ليرسله معهم ، أي : فلم تشاهدهم حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها .

قال أبو السعود : وليس المراد مجرد نفي حضوره عليه الصلاة والسلام في مشهد إجماعهم ومكرهم فقط ، بل سائر المشاهد أيضاً . وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة ، وأخفى أحوالها ، كما ينبئ عنه قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ والخطاب وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لكن المراد إلزام المكذبين . والمعنى : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ؛ إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك ، إذ عدم سماعك ذلك من الغير ، وعدم مطالعتك للكتب أمر لا يشك فيه المكذبون أيضاً ، ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما هو ، فتبلغه إليهم . وفيه تهكم بالكفار ، فكأنهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم . وفيه أيضاً إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع . وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه . يعني : أن مثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور إلا بالحضور والمشاهدة ، وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عِمْرَان : من الآية 44] . وقوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ [القصص : من الآية 44] . انتهى .

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ ﴾ يريد به العموم ، أو أهل مكة : ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ أي : جهدت كل الجهد على إيمانهم ، وبالغت في إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك : ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : بالكتب والرسل ؛ لميلهم إلى الكفر ، وسبيل الشر . يعني : قد وضح بمثل هذا النبأ نبوته صلوات الله عليه ، وقامت الحجة ، ومع ذلك فما آمن أكثر الناس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 8 - 67 - 103 - 121 - 139 - 158 - 174 - 190] .

(269/403)

قال الرازي : ما معناه : وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ؛ أن كفار قريش ، وجماعة من اليهود ، طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام قص نبأ يوسف تعنتاً ، فكان يُظن أنهم يؤمنون إذا تلي عليهم ، فلما نزلت وأصروا على كفرهم ؛ قيل له : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ ﴾ الخ . وكأنه إشارة إلى ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص : من الآية 56] .

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي : على هذا النصح ، والدعاء إلى الخير والرشد : ﴿ مِنْ أَجْرٍ

﴾ أي : أجرة : ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي : ما هو ، يعني القرآن : ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلعَالَمِينَ ﴾ أي : عظة لهم ، يتذكرون به ويهتدون وينجون في الدنيا والآخرة . يعني : أن هذا القرآن يشتمل على العظة البالغة ، والمراشد القويمة ، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالاً ، ولا جعلاً . فلو كانوا عقلاء لقبلوا ، ولم يتمردوا .

قال بعض اليمانين : في الآية دليل على أن من تصدر للإرشاد ، من تعليم ووعظ ؛ فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 230. 232 ﴾

(270/403)

وقال ابن عاشور :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾

تذييل للقصة عند انتهائها .

والإشارة إلى ما ذُكر من الحادث أي ذلك المذكور .

واسم الإشارة لتمييز الأنباء أكمل تمييز لتتمكن من عقول السامعين لما فيها من المواعظ .

و﴿ الغيب ﴾ ما غاب عن علم الناس ، وأصله مصدر غاب فسمي به الشيء الذي لا

يشاهد .

وتذكير ضمير ﴿ نوحيه ﴾ لأجل مراعاة اسم الإشارة .

وضمائر ﴿ لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ عائدة إلى كل من صدر منه ذلك في هذه القصة من الرجال والنساء على طريقة التغليب ، يشمل إخوة يوسف عليه السلام والسيارةَ ، وامرأةَ العزيز ، ونسوتَها .

و ﴿ أجمعوا أمرهم ﴾ تَفسيره مثل قوله : ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابَات الجب ﴾ [يوسف : 15] .

والمكر تقدم ، وهذه الجملة استخلاص لمواضع العبرة من القصة .

وفيها منّة على النبي ، وتعريض للمشركين بتنبيههم لإعجاز القرآن من الجانب العلمي ، فإن صدور ذلك من النّبي الأميّ آية كبرى على أنه وحي من الله تعالى .

ولذلك عقب بقوله : وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

وكان في قوله : ﴿ وما كنت لديهم ﴾ توركاً على المشركين .

وجملة ﴿ وما كنت لديهم ﴾ في موضع الحال إذ هي تمام التعجيب .

وجملة ﴿ وهم يمكرون ﴾ حال من ضمير ﴿ أجمعوا ﴾ ، وأتي ﴿ يمكرون ﴾ بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

انتقال من سوق هذه القصة إلى العبرة بتصميم المشركين على التكذيب بعد هذه الدلائل البينة ، فالواو للعطف على جملة ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ [يوسف : 102] باعتبار إفادتها أن هذا القرآن وحي من الله وأنه حقيق بأن يكون داعياً سامعيه إلى الإيمان بالنبي .

ولما كان ذلك من شأنه أن يكون مطمعاً في إيمانهم عقب بإعلام النبي بأن أكثرهم لا يؤمنون .

(271/403)

والناس ﴾ يجوز حمله على جميع جنس الناس ، ويجوز أن يراد به ناس معيّنون وهم القوم الذين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم بمكّة وما حولها ، فيكون عموماً عرفياً .

وجملة ﴿ ولو حرصت ﴾ في موضع الحال معترضة بين اسم ﴿ ما ﴾ وخبرها .

﴿ ولو ﴾ هذه وصلية ، وهي التي تفيد أن شرطها هو أقصى الأسباب لجوابها .

وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ في سورة آل عمران (91) .

وجواب لو ﴾ هو ﴿ وما أكثر الناس ﴾ مقدّم عليها أو دليل الجواب .

والحرص : شدة الطلب لتحصيل شيء ومعاودته .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ حريص عليكم ﴾ في آخر سورة براءة (128) .

وجملة وما تسألهم عليه من أجر ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وما أكثر الناس ﴾ إلى آخرها باعتبار ما أفادته من التأييس من إيمان أكثرهم .

أي لا يسوءك عدم إيمانهم فلست تبتغي أن يكون إيمانهم جزاء على التبليغ بل إيمانهم لفائدتهم ، كقوله : ﴿ قل لا تمنوا علي إسلامكم ﴾ [سورة الحجرات : 17] .

وضمير الجمع في قوله : وما تسألهم ﴾ عائد إلى الناس ، أي الذين أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم

وجملة ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ بمنزلة التعليل لجملة ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ .

والقصر إضافي ، أي ما هو إلا ذكر للعالمين لا لتحصيل أجرٍ مبلّغه .

وضمير ﴿ عليه ﴾ عائد إلى القرآن المعلوم من قوله : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ [يوسف : 102] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(272/403)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

قال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعامر والشعبي ، وأكثر المفسرين : إن معنى هذه الآية أن أكثر الناس ، وهم الكفار ما كانوا يؤمنون بالله بتوحيدهم له في ربوبيته إلا وهم مشركون به غيره في عبادته .

فالمراد بإيمانهم اعترافهم بأنه ربهم الذي هو خالقهم ومدبر شؤونهم ، والمراد بشركهم عبادتهم غيره معه ، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً ، كقوله : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار وَمَن يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي وَمَن يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ الله فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 31] ، وكقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : 87] ، وقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ [الزخرف : 9] ، وقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : 61] ، وقوله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : 63] ، وقوله ﴿ قُل لِّمَنِ الأرض وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السماوات السبع وَرَبُّ العرش العظيم سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجْيِرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فأنى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : 84 - 89] إلى غير ذلك من الآيات .

ومع هذا فإنهم قالوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] .

وهذه الآيات القرآنية تدل على ان توحيد الربوبية لا ينقذ من الكفر إلا إذا كان معه توحيد العبادة ، أي عبادة الله وحده لا شريك له ، ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ .

وفي هذه الآية الكريمة إشكال : وهو أن المقرر في علم البلاغة أن الحال قيد لعاملها وصف لصاحبها وعليه . فإن عامل هذه الجلمة الحالية الذي هو يؤمن مقيد بها ، فيصير المعنى تقييد إيمانهم بكونهم مشركين ، وهو مشكل لما بين الإيمان والشرك من المنافاة .

قال مقيدة – عفا الله عنه :

لم ار من شفى الغليل في هذا الإشكال ، والذي يظهر لي – والله تعالى أعلم – أن هذا الإيمان المقيد بحال الشرك إنما هو إيمان لغوي لا شرعي . لأن من يعبد مع الله غيره لا يصدق عليه اسم الإيمان ألبتة شرعاً . أما الإيمان اللغوي فهو يشمل كل تصديق ، فتصديق الكافر بأن الله هو الخالق الرزاق يصدق عليه اسم الإيمان لغة مع كفره بالله ، ولا يصدق عليه اسم الإيمان شرعاً .

وإذا حققت ذلك علمت أن الإيمان اللغوي يجامع الشرك فلا إشكال في تقييده به ، وكذلك الإسلام الموجود دون الإيمان في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 14] فهو الإسلام اللغوي . لأن الإسلام الشرعي لا يوجد ممن لم يدخل الإيمان في قلبه ، والعلم عند الله تعالى .

وقال بعض العلماء : « نزلت آية ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ في قوله الكفار في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » وهو راجع إلى ما ذكرنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(274/403)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾

و" ذلك " إشارة إلى هذه القصة ، والخطاب مُوجَّه إلى محمد صلى الله عليه وسلم أي : أنك يا محمد لم تَكُنْ معهم حين قالوا : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أَبِينَا مِنَّا . . . ﴾ [يوسف : 8]

فالحق سبحانه أخبرك بأنباء لم تكن حاضراً لأحداثها ، والغيب كما عَلِمنا من قبل هو ما

غاب عنك ، ولم يَغِبْ عن غيرك ، وهو غيب نسبيّ ؛ وهناك الغيب المُطْلق ، وهو الذي يغيب عنك وعن أمثالك من البشر .

والغيب كما نعلم له ثلاثة حواجز :

الأول : هو حاجز الزمن الماضي الذي لم تشهده ؛ أو حاجز الزمن المستقبل الذي لم يَأْتِ بَعْد .

والثاني : هو حاجز المكان .

والثالث : هو حاجز الحاضر ، بمعنى أن هناك أشياء تحدث في مكان أنت لا توجد فيه ، فلا تعرف من أحداثه شيئاً . و ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ . . . ﴾ [يوسف : 102]

أي نُعلِمك به بطَرْفٍ خَفيّ ، حين اجتمعوا ليتفقوا ، إما أن يقتلوا يوسف ، أو يُلْقوه في غيابة الجب .

وكشف لك الحق سبحانه حجاب الماضي في أمر لم يُعلمه لرسول الله ؛ ولم يشهد صلى الله عليه وسلم ما دار بين الإخوة مباشرة ، أو سماعاً من مُعلِّم ، ولم يقرأ عنه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أُمِيّ لم يتعلم القراءة أو الكتابة .

وسبحانه يقول عن رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48]

وهم بشهادتهم يعلمون كل حركة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث ؛ إقامة

وتِرْحالاً والتقاءً بأيِّ أحد .

فلو عَلموا أنه قرأ كتاباً لكانت لهم حُجَّة ، وحتى الأمر الذي غابتْ عنهم فِطْنتهم فيه ؛ وقالوا : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . . ﴾ [النحل : 103]

(275/403)

فرد عليهم الحق سبحانه : ﴿ . . . لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103]

وأبطل الحق سبحانه هذه الحجة ، وقد قصَّ الحق سبحانه على رسوله الكثير من أنباء الغيب ، وسبق أن قلنا الكثير عن : " ما كُنَّات القرآن " ، مثل قوله تعالى : ﴿ . . . وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : 44]

وقوله الحق : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ [القصص : 44]

فكأن مصدر علم الرسول بكل ذلك هو من إخبار الله له .

وقد استقبل أهل الكهف ما طلبوا أن يعرفوه من قصة يوسف باللدد والجحود وهم قد

طلبوا مطلبهم هذا بتأسيس من اليهود وهو صلى الله عليه وسلم جاء لهم بقصة يوسف في مكان واحد ، ودفعة واحدة ، وفي سورة واحدة ، لا في لقطات متعددة منثورة كأغلب قصص القرآن .

وقد جاء لهم بها كاملة ؛ لأنهم لم يطلبوا جزئية منها ؛ وإنما سألوه عن القصة بتمامها ، وتوقعوا أن يعزف عن ذلك ، لكنه لم يعزف ، بل جاء لهم بما طلبوه .

وكان يجب أن يلتفتوا إلى أن الله هو الذي أرسله ، وهو الذي علّمه ؛ وهو الذي أنبأه ، لكنهم لم يؤمنوا ، وعزّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوضح له سبحانه : لا تبتئس ولا تيأس : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3]

ويقول له سبحانه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6]

(276/403)

فأنت يا رسول الله عليك البلاغ فقط ، ويذكر الحق ذلك لِيُسلِّي رسوله صلى الله عليه وسلم حين رأى لدد الكافرين ؛ بعد أن جاء لهم بما طلبوه ، ثم جحدوه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً . . . ﴾ [النمل : 14]

وهم قد جحدوا ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم حرصوا على السلطة الزمنية فقط ، وكان من الواجب أن يؤمنوا بما جاءهم به ، لكن العناد هو الذي وقف بينهم وبين حقيقة اليقين وحقيقة الإيمان .

وأنت لا تستطيع أن تواجه المُعَاند بحجة أو بمنطق ، فهم يريدون أن يظل الضعفاء عبيداً ، وأن يكونوا مسيطرين على الخَلْق بجبروتهم ، والدين سيُسوِّي بين الناس جميعاً ، وهم يكرهون تلك المسألة .

ويأتي الحق سبحانه بعد ذلك بقضية كونية ، فيقول :

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ الناس . . . ﴾

فأنت يا محمد لن تجعل كل الناس مؤمنين ؛ ولو حرصت على ذلك ، وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على أن يؤمن قومه ، فهو منهم .

ويقول فيه الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128]

لكنهم جحدوا ما جاءهم به ؛ وقد أحزنه ذلك الأمر . وفي الحرص نجد آية خاصة باليهود ؛ هؤلاء الذين دفعوا أهل مكة أن يسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف ؛ يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناس على حَيَاةٍ . . . ﴾ [البقرة : 96]

وكان على أهل مكة أن يؤمنوا ما دام قد ثبت لهم بالبينات أنه رسول من الله .

وجاء قول الحق : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103]

جاء ذلك القولُ تسليةً من الحق سبحانه لرسوله ، وليؤكد له أن ذلك ليس حال أهل مكة فقط ، ولكن هذه هي طبيعة معظم الناس . لماذا ؟

(277/403)

لأن أغلبهم لا يُحسن قياس ما يعطيه له منهج الله في الدنيا والآخرة ، والإنسان حين يُقبل على منهج الله ، يقيس الإقبال على هذا المنهج بما يُعطِيه له في الآخرة ؛ فلسوف يعلم أنه مهما أعطى لنفسه من مُتَع الدنيا فعُمْره فيها مَوْقُوت بالقَدْر الذي قدَّره له الله ، والحياة يمكن أن تنتهي عند أية لحظة .

والحق سبحانه حين خبأ عن الناس أعمارهم في الدنيا ، لم يَكُنْ هذا الإخفاء إبهاماً كما يظن البعض ، وهذا الإبهام هو في حقيقته عَيْن البيان ، فإشاعة حدوث الموت في أي زمن يجعل الإنسان في حالة ترقُّب .

ولذلك فميتات الفُجَاءة لها حكمة أن يعرف كل إنسان أن الموت لا سببَ له ، بل هو سبب في حَدّ ذاته ؛ سواء كان الموت في حادثة أو بسبب مرض أو فجأة ، فالإنسان يتمتع في الدنيا على حسب عمره المحدد الموقوت عند الله ، أما في الآخرة فإنه يتمتع على قدر إمدادات

الخالق سبحانه .

والإنسان المؤمن يقيس استمتاعه في الآخرة بقدرة الله على العطاء ، وبإمكانات الحق لا إمكانات الخَلْق .

وهَبْ أن إنساناً معزولاً عن أمر الآخرة ، أي : أنه كافر بالآخرة وأخذها على أساس الدنيا فقط ، نقول له : انظر إلى ما يُطلب منك نهياً ؛ وما يُطلب منك أمراً ، ولا تجعله لذاتك فقط ، بل اجعله للمقابل لك من الملايين غيرك .

سوف تجد أن نواهي المنهج إن منعتْك عن شر تفعله بغيرك ؛ فقد منعتْ الغير أن يفعل بك الشر ، في هذا مصلحة لك بالمقاييس المادية التي لا دَخْل للدين بها .

ويجب أن نأخذ هذه المسألة في إطار قضية هي " دَرْء المفسدة مُقدّم على جَلْب المصلحة " .

وهَبْ أن إنساناً مُحباً لك أمسك بتفاحة وأراد أن يقذفها لك ، بينما يوجد آخر كاره لك ، ويحاول أن يقذفك في نفس اللحظة بحجر ، وأطلق الاثنان ما في أيديهما تجاهك ، هنا يجب أن تردّ الحجر قبل أن تلتقط التفاحة ، وهكذا يكون دَرْء المفسدة مُقدّماً على جَلْب المصلحة .

وعلى الإنسان أن يقيس ذلك في كل أمر من الأمور ؛ لأن كثيراً من أدوات الحضارات أو ابتكارات المدنية أو المخترعات العلمية قد تعطينا بعضاً من النفع ، ولكن يثبت أن لها من بعد ذلك الكثير من الضرر .

مثال هذا : هو اختراع مادة " د . د . ت " التي قتلت بعض الحشرات ، وقتلت معها الكثير من الطيور المفيدة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . . ﴾ [الإسراء : 36]

وعليك أن تدرس أيَّ مُخْتَرع قبل استعماله ؛ لترى نفعه وضرره قبل أن تستعمله .

وقد رأينا مَنْ يُدخِلون الكهرباء إلى بيوتهم ، يحاولون أن يرفعوا موقع " فِيَش " الكهرباء عن مستوى تناول الأطفال ؛ كي لا يضيع طفل أصابعه في تلك الفتحات فتصعقهم الكهرباء ، ووجدنا بعضاً من المهندسين قد صَمَّموا أجهزة تفصل الكهرباء آلياً إنْ لمسْتها يَدُ بشر .

وهذا هو درْء المفسدة المُقدَّم على جَلْب المنفعة ، وعلينا أن نحتاط لمثل هذه الأمور .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103]

وهل قوله : ﴿ أَكْثَرُ الناس . . . ﴾ [يوسف : 103]

نسبة للذين لا يؤمنون ، يعني أن المؤمنين قلة ؟

نقول: لا؛ لأن "أكثر" قد يقابله "أقل"، وقد يقابله "الكثير".

ويقول الحق سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . . ﴾ [الحج: 18]

وهكذا نجد أن كلمة "كثير" قد يقابلها أيضاً كلمة "كثير".

وقد أوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه لو حرص ما استطاع أن يجعل أكثر الناس مؤمنين، والحِرْص هو تعلُّق النفس وتعبئة مجهود للاحتفاظ بشيء نرى أنه يجلب لنا نفعاً أو يذهب بضرٍ، وهو استمساك يتطلب جهداً.

(279/403)

ولذلك يوضح له الحق سبحانه: أنت لن تهدي مَنْ تحرص على هدايته.

ويقول سبحانه: ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ . . . ﴾ [النحل: 37]

ومن هذه الآية نستفيد أن كل رسول عليه أن يوطن نفسه على أن الناس سيعقدون مقارناتٍ بين البدائل النفعية؛ وسيقعون في أخطاء اختيار غير الملائم لفائدتهم على المدى

الطويل ؛ فوطِّنْ نفسك يا محمد على ذلك .

وإذا كنتَ يا رسول الله قد حملتَ الرسالة وتسألهم الإيمان لفائدتهم ، فأنت تفعل ذلك دون أجر ؛ رغم أنهم لو فَطِنوا إلى الأمر لكان يجب أن يقدروا أجراً لمن يهديهم سواء السبيل ، لأن الأجر يُعْطَى لمن يقدم لك منفعة .

والإنسان حريص على أن يدفع الأجر لمن يُعينه على منفعة ؛ والمنفعة إما أن تكون موقوتة بزمن دنيوي ينتهي ، وإما أن تكون منفعة ممتدة إلى ما لا نهاية ؛ راحة في الدنيا وسعادة في الآخرة .

ويأتي القرآن بقول الرسل : ﴿ لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً . . . ﴾ [الأنعام : 90]

ولم يَقُلْ ذلك اثنان هما : إبراهيم عليه السلام ، وموسى عليه السلام .

وكان العقل يقول : كان يجب على الناس لو أنها تُقدِّر التقدير السليم ؛ أن تدفع أجراً للرسول الذي يُفسِّر لهم أحوال الكون ، ويُطمئنهم على مصيرهم بعد الموت ، ويشرح لهم منهج الحق ، ويكون لهم أُسْوة حسنة .

ونحن نجد في عالمنا المعاصر أن الأسرة تدفع الكثير للمدرس الخصوصي الذي يُلقِّن الابن مبادئ القراءة والكتابة ، فما بالنا بمَنْ يضيء البصر والبصيرة بالهداية ؟

ومقتضى الأمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقدم نفعاً أبدياً لمن يتبعه ، لكنه لم يطلب أجراً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . . . ﴾

وفي هذا القول الكريم ما يوضح أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يسأل قومه أجراً على هدايته لهم ؛ لأن أجره على الله وحده .

(280/403)

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور : 40]

والحق سبحانه يقول على لسان رسوله في موقع آخر : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله . . . ﴾ [سبأ : 47]

وهو هنا يُعلي الأجر ، فبدلاً من أن يأخذ الأجر من محدود القدرة على الدَّفْع ، فهو يطلبها من الذي لا تُحَدّ قدرته في إعطاء الأجر ؛ فكأن العمل الذي يقوم به لا يمكن أن يُجَازى عليه إلا من الله ؛ لأن العمل الذي يؤديه بمنهج الله ومن الله ، فلا يمكن إلا أن يكون الأجر عليه من أحد غير الله .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿ . . . إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [يوسف : 104]

والذكر يُطْلَق إطلاقات متعددة ، ومادة " ذال " و " كاف " و " راء " مأخوذة من الذاكرة .

وعرفنا من قبل أن الإنسان له آلات استقبال هي الحواس الإنسانية ، وتنتقل المعلومات أو الخبرات منها إلى العمليات العقلية ، وتمرُّ تلك المعلومات ببؤرة الشعور ، لِتُحفظ لفترة في هذه البؤرة ، ثم تنتقل إلى حاشية الشعور ، إلى أن تستدعيها الأحداث ، فتعود مرة أخرى إلى بُؤْرة الشعور .

ولذلك أنت تقول حين تتذكر معلومة قديمة " لقد تذكرتها " ؛ كأن المعلومة كانت موجودة في مكان ما في نفسك ؛ لكنها لم تَكُنْ في بؤرة الشعور . وحين جاءت عملية الاستدعاء ، فهي تنتقل من حاشية الشعور إلى بُؤْرة الشعور .

والتذكُّر هو : استدعاء المعلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ . . . ﴾ [إبراهيم : 5]

أي : ذكِّرهم بما مَرَّ عليهم من أحداث أجراها الله ؛ وهي غير موجودة الآن في بُؤْرة شعورهم . وسُمِّي القرآن ذكراً ؛ لأنه يُذكِّر كل مؤمن به بالله الذي تفضَّل علينا بالمنهج الذي تسير به حياتنا إلى خير الدنيا والآخرة .

فالذكر إذن يكون للعاقل معونة له ، وهو من ضمن رحمة الله بالخَلْق ، فلم يترك الخلقَ منشغلين بالنعمة عن مَنْ أنعمها عليهم ، فهذا الكون منظم بِدقَّة بديعة ، وفي كل مُقوِّمات حياة البشر .

ومن فضل الله عليهم أنه أرسل الرسل مُذكِّرين لهم بهذا العطاء الرباني .

وكلمة " ذكر " تدل على أن الفطرة في الإنسان كان يجب أن تظل واعية ذاكرة لله ، وقد قَدَّر الله غفلة الأحداث ، فجعل لهم الذكر كله في القرآن الكريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(282/403)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ : مبتدأ ، و ﴿ مِنْ أَنْبَآءِ الغيب ﴾ خبره ، و " نُوحيه " حال .

ويجوز أن يكونَ خبراً ثانياً ، أو حالاً من الضمير في الخبر . وجوّز الزمخشري أن يكونَ

موصولاً بمعنى الذي . وقد تقدَّم نظيرُه . و " هم يَمْكُرون " حال .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) ﴾

[قوله :] ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ : معترضٌ بين " ما " وخبرها . وجوابُ " لو " محذوفٌ لدلالةِ ما تقدَّم عليه .

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) ﴾

و[قوله] : ﴿ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ : حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 560.559 ﴾

(283/403)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) ﴾

تبيّن للكافة أن مثل هذا البيان لهذه القصة على لسان رجلٍ أميٍّ لا يكون إلا بتعريف سماويّ .

ويقال كونُ الرسولِ – صلى الله عليه وسلم – أُميًّا في أول أحواله علامة شُرَفه وعلوّ قدْرِه في آخر أحواله ، لأنّ صِدْقَهُ في أن هذا من قِبَل اللَّهِ إنما عُرِفَ بكونه أميا ، ثم أتى بمثل هذه القصة من غير مدارسة كتاب .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) ﴾

أخبر عن سابق علمه بهم ، وصادق حُكْمِه حكمته فيهم .

ويقال معناه : أَقَمْتُكَ شاهداً لإرادة إيمانهم ، وشِدَّةِ الحِرْصِ على تحقُّقِهم بالدِّين ، وإيقانهم . ثم إنّي أعلم أنهم لا يؤمن أكثرُهم ، وأخبرتك بذلك ، وفُرِضَ عليكَ تصديقي بذلك ، وفرضتُ عليك إرادتي كونَ ما عَلِمْتُ أنه لا يكون من إيمانهم .

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (104) ﴾

هذه سُنَّةُ الله – سبحانه – مع أنبيائه حيث أَمَرَهُم بألا يأخذوا على تبليغ الرسالة عِوَضاً ولا أجراً ، وكذلك أمره للعلماءِ – الذين هم ورَثَةُ الأنبياء عليهم السلام – بألّا يأخذوا مِنَ الخَلْق عِوَضاً على دعائهم إلى الله . فمَنْ أخذ منهم حظا من الناس لم يُبَارَكْ للمستمِع فيما يسمع منه ؛ فلا له أيضا بركة فيما يأخذ منهم فتنقطع به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 212.211 ﴾

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة:

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) ﴾

التفسير: لما سمع يعقوب ما سمع من حال ابنه ضاق قلبه جداً ﴿ وتولى عنهم ﴾ أي أعرض عن بنيه الذين جاءوا بالخبر وفارقهم ﴿ وقال يا أسفي على يوسف ﴾ الأسف أشد الحزن. والألف فيه مبدل من ياء الإضافة ونداء الأسف كنداء الويل وقد مر في المائدة. والتجانس بين لفظي الأسف ويوسف لا يخفى حسنه وهو من الفصاحة اللفظية. وكيف تأسف على يوسف دون أخيه الآخر الذي أقام بمصر والرزء الأحدث أشد؟ الجواب لأن الحزن الجديد يذكر العتيق والأسى يجلب الأسى، ولأن رزء يوسف كان أصل تلك الرزايا فكان الأسف عليه أسفاً على الكل ولأنه كان عالماً بحياة الآخرين دون حياة يوسف ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ أي من البكاء الذي كان سببه الحزن.

قال الحكماء : إذا كثر الاستعبار أوجب كدورة في سواد العين مائلة فيكون منها العمى لإيلام الطبقات ولا سيما القرنية وانصباب الفضول الردية إليها . قال مقاتل : لم يبصر ست سنين حتى كشفه الله تعالى بقميص يوسف . وقال آخرون : لم يبلغ حد العمى وكان يدرك إدراكاً ضعيفاً ، أو المراد بالبياض غلبة البكاء كأن العين ابيضت من بياض ذلك الماء .

روي أنه لم تجف عين يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف ؟ وجد سبعين ثكلى . قال : فما كان له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة قط . ونقل أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف حين ما كان في السجن فقال : إن بصر أبيك ذهب من الحزن عليك . فوضع يوسف يده على رأسه وقال : ليت أمي لم تلدني فلم أكن حزناً على أبي ، قال أكثر أهل اللغة : الحزن والحزن لغتان بمعنى . وقال بعضهم : الحزن بالضم فالسكون البكاء ، والحزن بفتحتين ضد الفرح ، وقد روى يونس عن أبي عمروا قال : إذا كان في موضع النصب فتحوا كقوله ﴿ تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ﴾ [التوبة : 92] وإذا كان في موضع الجر أو

الرفع ضموا كفوله من الحزن. وقوله: ﴿ إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله ﴾ قال: هو في موضع رفع بالابتداء قيل: كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟ وأجيب بأن المنهي من الجزع هو الصياح والنياحة وضرب الخد وشق الثوب لا البكاء ونفثة المصدور، فلقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم وقال: القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون. ومما يدل على أن يعقوب عليه السلام أمسك لسانه عن النياحة وعما لا ينبغي قوله: ﴿ فهو كظيم ﴾ "فعيل" بمعنى "مفعول" أي مملوء من الغيظ على أولاده من غير إظهار ما يسوءهم، أو مملوء من الحزن

مع سد طريق نفثة المصدور من كظم السقاء إذا شده على ملئه، أو بمعنى الفاعل أي الممسك لحزنه غير مظهر إياه. والحاصل أنه غرق ثلاثة أعضاء شريفة منه في بحر المحنة: فاللسان كان مشغولاً بذكر ﴿ يا أسفا ﴾ والعين كانت مستغرقة في البكاء، والقلب كان مملوءاً من الحزن. ومثل هذا إذا لم يكن بالاختيار لم يدخل تحت التكليف فلا يوجب العقاب. يروى أن ملك الموت دخل على يعقوب فقال له: جئتني لتقبضني قبل أن أرى

حبيبي ؟ قال : لا ولكن جئت لأحزن لحزنك وأشجو لشجوك . عن النبي صلى الله عليه وسلم :

(287/403)

" لم تعط أمة من الأمم ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ عند المصيبة إلا أمة محمد ، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وإنما قال يا أسفا " وضعف هذه الرواية فخر الدين الرازي في تفسيره وقال : من المحال أن لا تعرف أمة من الأمم أن الكل من الله وأن الرجوع لا محالة إليه . وأقول : هذا نوع من المكابرة فإن منكري المبدأ والمعاد أكثر من حصباء الوادي ، على أن المراد من الإعطاء الإرشاد إلى هذا الذكر وخصوصاً عند المصيبة وقد أخبر الصادق عليه السلام أن هذا مما خصت هذه الأمة به والله أعلم ، ﴿ قالوا ﴾ الأظهر أنهم ليسوا أولاده الذين تولى عنهم وإنما هم جماعة كانوا في الدار من خدمه وأولاد أولاده . ﴿ تالله تفتؤ ﴾ أراد " لا تفتؤ " فحذف حرف النفي لعدم الإلباس إذ لو كان إثباتاً لم يكن بد من اللام والنون . قال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة أي لا تزال تذكر . وعن مجاهد : لا تفتر من حبه كأنه جعل الفتور والفتوء أخوين . قال أبو زيد : ما فتئت أذكره أي ما زلت لا يتكلم به إلا مع الجحد ﴿ حتى تكون حرضاً ﴾ وصف

بالمصدر للمبالغة. والحرض فساد في الجسم والعقل للحزن والحب حتى لا يكون كالأحياء ولا كالأموات، أرادوا أنك تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تشفى على الهلاك أو تهلك فأجابهم بقوله: ﴿ إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله ﴾ قالت العلماء: إذا أسر الإنسان حزنه كان هماً، وإذا لم يقدر على إسراره فذكر لغيره كان بثاً. فالبث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس. فمعنى الآية إني لا أذكر الحزن الشديد ولا القليل إلا مع الله ملتجئاً إليه وداعياً له فخلوني وشكايتي. وهذا مقام العارفين الصديقين كقول نبينا صلى الله عليه وسلم "أعوذ بك منك" ويحتمل أن يكون هذا معنى توليه عنهم أي تولى عنهم إلى الله والشكاية إليه.

يحكى أنه دخل على يعقوب رجل وقال له: ضعف جسمك ونحف بدنك وما بلغت سناً عالياً. فقال: الذي بي لكثرة غمومي. فأوحى الله إليه يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي فغفر له. فكان بعد ذلك إذا سأل قال: ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ وروي أنه أوحي إلى يعقوب إنما وجدت - أي غضبت - عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه وإن أحب خلقي إليّ الأنبياء ثم

المساكين فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين . وقيل : اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت . واعلم أن حال يعقوب في تلك الواقعة كانت مختلفة ؛ فتارة كان مستغرقاً في بحار معرفة الله ، وتارة كان يستولى عليه الحزن والأسف فلهذا كانت هذه الحادثة بالنسبة إليه كإلقاء إبراهيم في النار ، وكابتلاء إسحق بالذبح ، وكان شغل همه بيوسف بغير اختيار منه ، وكذا تأسفه عليه ، وما روي أنه عوتب على ذلك فلأن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وبالحقيقة كانت واقعة يعقوب أمراً خارق العادة أراد الله تعالى بذلك ابتلاءه وتمادي أسفه وحزنه وإلا فمع غاية شهرته وشدة محبته وقرب المسافة بينه وبين ابنه كيف خفي حال يوسف ولم لم يبعث يوسف إليه رسولاً بعد تملكه وقدرته ، ولم زاد في حزن أبيه بحبس أخيه عنده ؟ ! أما قوله : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ فمعناه أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون ، فأرجو أن يأتيني الفرج من حيث لا أحتسب . وقيل : إنه رأى ملك الموت في المنام فقال له : يا ملك الموهل قبضت روح ابني يوسف ؟ قال : لا يا نبي الله . ثم أشار إلى جانب مصر وقال : اطلبه ههنا . وقيل : إنه كان قد رأى أمارات الرشد والكمال في

يوسف علم أن رؤياه صادقة لا تخطئ . وقال السدي : أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله في أقواله وأفعاله أنه ابنه ، أو علم أن بنيامين لا يسرق وسمع أن الملك ما آذاه فغلب على ظنه أن الملك هو يوسف . وقيل : أوحى الله تعالى إليه أنه سيلقى ابنه ولكنه ما عين الوقت فلذلك قال ما قال . ثم دعا بنيه على سبيل التطلف فقال : ﴿ يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف ﴾ وهو طلب الشيء بالحاسة كالتسمع والتبصر ومثله التجسس بالجيم . وقد قرئ بهما وربما يخص الجيم بطلب الخبر في ضد الخير ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ من فرجه وتنفيسه وقرئ بالضم أي من رحمته التي تحيا بها العباد . قال الأصمعي : الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه ، والتركيب يدل على الحركة والهزة فكل ما تهتز بوجوده وتلتذ به فهو روح ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ لأن هذا اليأس دليل على أنه اعتقد أن الله تعالى غير قادر على كل المقدورات ، أو غير عالم بجميع المعلومات ، أو ليس بجواد مطلق ولا حكيم لا يفعل العبث ، وكل واحدة من هذه العقائد كفر فضلاً عن جميعها اللّهمّ إني لا أيأس من روحك فافعل بي ما أنت أهله . ثم ههنا إضمار والتقدير فقبلوا وصية أبيهم وعادوا إلى مصر ﴿ فلما دخلوا

عليه قالوا يا أيها العزيز ﴾ أي الملك القادر المنيع ﴿ مسنا وأهلنا الضر ﴾ الفقر والحاجة إلى الطعام وعنوا بأهلهم من خلفهم ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها من أزجيته إذا دفعته قال سبحانه ﴿ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ﴾ [النور : 43] ومنه قوله : " فلان يزجي العيش " أي يدفع الزمان بالقليل . قال الكلبي . هي من لغة العجم .

وقيل : لغة القبط . والأصح أنها عربية لوضوح اشتقاقها . قيل : كانت بضاعتهم الصوف والسمن . وقيل : الصنوبر والحبة الخضراء . وقيل : سويق المقل والأقط . وقيل : دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بنقص لأنها لم يكن عليها صورة يوسف وكانت دراهم مصر ينقش عليها صورته . ﴿ فأوف لنا الكيل ﴾ الذي هو حقنا . ﴿ وتصدق علينا ﴾ واعلم أنهم طلبوا المسامحة بما بين الثمنين وأن يسعر لهم بالرديء كما يسعر بالجيد . واختلف العلماء في أنه هل كان ذلك منهم طلب الصدقة ؟ فقال سفيان بن عيينة : إن الصدقة كانت حلالاً على الأنبياء سوى محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آخرون : أرادوا بالصدقة التفضل بالإغماض عن رداءة البضاعة وبإيفاء الكيل والصدقات محظورة على الأنبياء كلهم .

وقوله : ﴿ إن الله يجزي المتصدقين ﴾ يمكن تنزيله على القولين لأن كل إحسان يبتغى به وجه الله فإن ذلك لا يضيع عنده والصدقة العطية التي ترجى بها المثوبة عند الله ومن ثم لم

يجوز العلماء أن يقال : الله تعالى متصدق أو اللَّهم تصدق علي بل يجب أن يقال : اللَّهم أعطني أو تفضل علي أو ارحمني .

(291/403)

كان يعقوب أمرهم بالتحسس من يوسف وأخيه والمتحسس يجب عليه أن يتوسل إلى مطلوبه بجميع الطرق كما قيل : الغريق يتعلق بكل شيء . فبدأوا بالعجز والاعتراف بضيق اليد وإظهار الفاقة فرق الله تعالى قلبه وارفضت عيناه فعند ذلك قال : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف ﴾ وقيل : أدوا إليه كتاب يعقوب : من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد ، فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء . أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله تعالى وجعلت النار عليه برداً وسلاماً ، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله ، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهب عيناي من بكائي عليه ، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا إنه سرق وإنك حبسته لذلك ، وإما أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام . فلما قرأ

يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك . وروي أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب : " اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا " . وقوله : ﴿ هل علمتم ﴾ استفهام يفيد تعظيم الواقعة ومعناه ما أعظم الأمر الذي ارتكبتم من يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه كما يقال للمذنب : هل تدري من عصيت . وفيه تصديق لقوله سبحانه : ﴿ لتنبئهم بأمرهم هذا ﴾ [يوسف : 15] وأما فعلهم بأخيه فتعريضهم إياه للغم بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه وإيذاؤهم له بالاحتقار والامتهان .

(292/403)

وقوله : ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ جارٍ مجرى الاعتذار عنهم كأنه قال : إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في أوان الصبا وزمان الجهالة : والغرة إزالة للخجالة عنهم فإن مطية الجهل الشباب وتنصحاً لهم في الدين أي هل علمتم قبحه فتبتم لأن العلم بالقبح يدعو إلى التوبة غالباً فآثر كما هو عادة الأنبياء حق الله على نفسه في المقام الذي يتشفى المغيظ وينفث المصدور ويدرك ثأره الموتور . وقيل : إنما نفى العلم عنهم لأنهم لم يعملوا بعلمهم . ولما كلمهم بذلك ﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف ﴾ عرفوه بالخطاب الذي لا يصدر إلا عن حنيف مسلم عن سنخ إبراهيم ، أو تبسم عليه السلام فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ

المنظوم، أو رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء كان ليعقوب وسارة مثلها ﴿ قال أنا يوسف ﴾ صرح بالاسم تعظيماً لما جرى عليه من ظلم إخوته كأنه قال: أنا الذي ظلمتموني على أشنع الوجوه والله أوصلني إلى أعظم المناصب، أنا ذلك الأخ الذي قصدتم قتله ثم صرت كما ترون ولهذا قال: ﴿ وهذا أخي ﴾ مع أنهم كانوا يعرفونه لأن مقصوده أن يقول وهذا أيضاً كان مظلوماً كما كنت صار منعماً عليه من الله وذلك قوله: ﴿ قد منّ الله علينا ﴾ أي بكل خير دنيوي وأخروي أو بالجمع بعد التفرقة ﴿ إنه ﴾ أي الشأن ﴿ من يتق ﴾ عقاب الله ﴿ ويصبر ﴾ عن معاصيه وعلى طاعته ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أراد أجرهم فاكتفى من الربط بالعموم. ومن قرأ ﴿ يتقي ﴾ بإثبات الياء فوجهه أن يجعل "من" بمعنى "الذي"، ويجوز على هذا الوجه أن يكون قوله: ﴿ ويصبر ﴾ في موضع الرفع إلا أنه حذفت الحركة للتخفيف أو المشاكلة. وفي الآية دليل على براءة ساحة يوسف ونزاهة جانبه من كل سوء وإلا لم يكن من المتقين الصابرين.

﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ اعتراف منهم بتفضيله عليهم بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين وصورة الأحسنين . ولا يلزم من ذلك أن لا يكون أنبياء وإن احتج به بعضهم لأن الأنبياء متفاوتون في الدرجات ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ [البقرة : 253] ﴿ وإن كنا ﴾ وإن شأننا أنا كنا خاطئين . قال أبو عبيدة : خطىء وأخطأ بمعنى واحد . وقال الأموي : المخطىء من أراد الصواب فصار إلى غيره ومنه قولهم : " المجتهد يخطىء ويصيب " . والخاطىء من تعمد ما لا ينبغي . قال أبو علي الجبائي : إنهم لم يعتذروا عن ذلك الذي فعلوا بيوسف لأنه وقع منهم قبل البلوغ ومثل ذلك لا يعد ذنباً ، وإنما اعتذروا من حيث إنهم أخطئوا بعد ذلك حين لم يظهروا لأبيهم ما فعلوه ليعلم أنه حي وأن الذئب لم يأكله . واعترض عليه فخر الدين الرازي بأنه يبعد من مثل يعقوب أن يبعث جمعاً من الصبيان من غير أن يبعث معهم رجلاً بالغاً عاقلاً ، فالظاهر أنه وقع ذلك منهم بعد البلوغ .

سلمنا لكن ليس كل ما لا يجب الاعتذار عنه لا يحسن الاعتذار عنه ، ولما اعترفوا بفضله عليهم وبكونهم متعمدين للإثم ﴿ قال ﴾ يوسف ﴿ لا تثريب عليكم ﴾ لا تأنيب ولا

توبيخ . وقيل : لا أذكر لكم ذنبكم . وقيل : لا مجازاة لكم عندي على ما فعلتهم . وقيل : لا تخليط ولا إفساد عليكم واشتقاقه من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ومعناه إزالة الثرب كالتجليد والتقريد لإزالة الجلد والقراد وذلك لأنه إذا ذهب منه الثرب كان في غاية الهزال والعجف فصار مثلاً للتقريع المدنف المضني . وقوله : ﴿ اليوم ﴾ إما أن يتعلق بالتثريب أو بالاستقرار المقدر على عليكم أي لا أثربكم اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بغيره . ثم ابتدأ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم ليكون عقاب الدارين مزالاً عنهم . وأصل الدعاء أن يقع على لفظ المستقبل فإذا أوقعوه لفظ الماضي فذلك للتفاؤل ، ويحتمل أن يكون ﴿ اليوم ﴾ متعلقاً بالدعاء فيكون فيه بشارة بعاجل غفران الله لتجدد توبتهم وحدوثها في ذلك اليوم . يروى أن إخوته لما عرفوه أرسلوا إليه إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشياً ونحن نستحيي منك لما فرط منا فيك . فقال يوسف : إن أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنهم ينظرون إليّ شزراً ويقولون : سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخذ يوم الفتح بعضادتي باب الكعبة فقال لقريش : ما ترونني فاعلاً بكم ؟ قالوا : نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت . فقال صلى الله عليه وسلم : أقول ما قال أخي يوسف ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ . قال عطاء الخراساني : طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها إلى الشيوخ ، ألا ترى إلى قول

يوسف لإخوته ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ وقول يعقوب : ﴿ سوف أستغفر لكم ﴾ ولما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيهم فقالوا ذهبت عيناه فقال : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا

فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ كقولك جاء البنيان محكماً ومثله ﴿ فارتد بصيراً ﴾ أو المراد يأت إلى وهو بصير دليله قوله : ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ قيل : هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف . وكان من الجنة أوحى الله إليه أن فيه عافية كل مبتلي وشفاء كل سقيم . وقالت الحكماء : لعله علم أن أباه ما كان أعمى وإنما صار ضعيف البصر من كثرة البكاء فإذا ألقى عليه قميصه صار منشرح الصدر فتقوى روحه ويزول ضعفه . روي أن يهوذا حمل القميص وقال : أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخاً بالدم فأفرحه كما أحزنته ، فحمله وهو حافٍ حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً . عن الكلبي : كان أهله نحواً من سبعين إنساناً . وقال مسروق : دخل قوم يوسف مصر وهم ثلاثة وتسعون من بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم نحو من ستمائة ألف .

﴿ ولما فصلت العير ﴾ خرجت من عريش مصر فصل من البلد فصولاً انفصل منه وجاوز حيطانه ، وفصل مني إليه كتاب إذا نفذ وإذا كان فصل متعدياً كان مصدره الفصل ﴿ قال أبوهم ﴾ لمن حوله من قومه ﴿ إن لأجد ﴾ بحاسة الشم ﴿ ريح يوسف ﴾ قال مجاهد : هبت ريح فصفقت القميص ففاحت رائحة الجنة في الدنيا فعلم يعقوب أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من من ذلك القميص . قال أهل التحقيق : إن الله تعالى أوصل إليه ريح يوسف عند انقضاء مدة المحنة ومجيء أوان الروح والفرح من مسيرة ثمان ، ومنع من وصول خبره إليه مع قرب البلدين في مدة ثمانين سنة أو أربعين عند الأكثرين وكلاهما معجزة ليعقوب خارقة للعادة ، وذلك يدل على أن كل سهل فهو في زمان المحنة صعب وكل صعب فإنه في زمان الإقبال سهل . وقوله : ﴿ لولا أن تفندون ﴾ جوابه محذوف أي لولا تفنيدكم إياي لصدّقتموني . والتفنيد النسبة إلى الفند وهو الخرف وتغير العقل من هرم يقال : شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة لأنها لم تكن ذات رأي فتفند في الكبر . ﴿ قالوا ﴾ يعني الحاضرين عنده ﴿ تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ أي فيما كنت فيه قدماً من البعد عن الصواب في إفراط محبة يوسف كما قال بنوه ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ [يوسف : 8] . وقيل : لفي شقائك القديم بما تكابد على يوسف من الأحزان . قال الحسن : إنما قالوا هذه الكلمة الغليظة لاعتقادهم أن يوسف قد مات . ﴿

فلما أن جاء ﴾ " أن صلة " أي فملا جاء مثل ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ﴾ [هود : 74] وقيل : هي مع الفعل في محل الرفع بفعل مضمر أي فلما ظهر أن جاء البشير وهو يهوذا ﴿ ألقاه ﴾ طرحه البشير أو يعقوب على وجهه ﴿ فارتد بصيراً ﴾ أي انقلب من العمى إلى البصر أو من الضعف إلى القوة ﴿ قال ألم أقل لكم ﴾ جوز في الكشاف أن يكون مفعوله محذوفاً وهو قوله : ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ أو قوله : ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ ويكون قوله : ﴿ إني أعلم ﴾ كلاماً مستأنفاً . والظاهر

أن مفعوله قوله : ﴿ إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ وذلك أنه كان قال لهم : ﴿ إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ وروي أنه سأل البشير كيف يوسف ؟ فقال : هو ملك مصر . قال : ما أصنع بالملك على أي دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام . قال : الآن تمت النعمة . ثم إن أولاده أخذوا يعتذرون إليه فوعدهم الاستغفار .

قال ابن عباس والأكثرون : أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر لأنه أرجى الأوقات إجابة . وعن ابن عباس في رواية أخرى أخر إلى ليلة الجمعة تحرياً لوقت الإجابة . وقيل : أخر لتعرف حالهم في الإخلاص . وقيل : استغفر لهم في الحال ووعدهم دوام الاستغفار في الاستقبال . فقد روي أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة . روي أنه قام إلى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه وقال : اللّٰهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم فأوحي إليه أن الله قد غفر لك ولهم أجمعين . وروي أنهم قالوا له – وقد علتهم الكآبة – وما يغني عنا عفوكما إن لم يعف عنا ربنا فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرت لنا عين أبداً . فاستقبل الشيخ القبلة قائماً يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى جهدوا وظنوا أنهم هلكوا نزل جبريل فقال : إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة . واختلاف الناس في نبوتهم مشهور ، يحكى أنه وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه ، وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشي ويتوكأ على يهوذا ، فنظر إلى الخيل والناس فقال : يا يهوذا أهذا فرعون مصر ؟ قال : لا هذا ولدك : فلما لقيه قال يعقوب : السلام عليك يا مذهب الأحزان . فأجابه يوسف وقال : يا أبت بكيت حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن

القيامة تجمعنا ؟ قال : بلى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك . ومعنى ﴿ آوى إليه أبويه ﴾ ضمهما إليه واعتنقهما . قال ابن إسحق : كانت أمة باقية إلى ذلك الوقت أو ماتت إلى أن الله تعالى أحياها ونشرها من قبرها تحقيقاً لرؤيا يوسف . وقيل : المراد بأبويه أبوه وخالته لأن أمه ماتت في النفاس بأخيه بنيامين حتى قيل إن بنيامين بالعبرية ابن الوجع ، ولما توفيت أمه تزوج أبوه بخالته فسماها الله تعالى أحد الأبوين لأن

الخالة تدعى أماً لقيامها مقام الأم ، أو لأن الخالة أم كما أن العم أب فيكف وقد اجتمع ههنا الأمران . قال السدي : كان دخولهم على يوسف قبل دخولهم على مصر كأنه حين استقبلهم نزل لأجلهم في خيمة أو بيت هناك فدخلوا عليه وضم إليه أبويه ﴿ وقال ادخلوا مصر ﴾ فعلى هذا جاز أن يكون الاستثناء عائداً إلى الدخول . وعن ابن عباس : ادخلوا مصر أي أقيموا بها . وقوله : ﴿ إن شاء الله آمنين ﴾ تعلق بالدخول المكيف بالأمن فكأنه قيل : اسلموا وأمنوا في دخولكم وإقامتكم إن شاء الله وجواب الشرط بالحقيقة محذوف والتقدير ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين ، أراد الأمن على أنفسهم

وأموالهم وأهليهم بحيث لا يخافون أحداً وكانوا فيما سلف يخافون ملك مصر ، أو أراد الأمن من القحط والشدة أو من تعييره إياهم بالجرم السالف .

(300/403)

﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ السرير الرفيع الذي كان يجلس عليه ﴿ وخروا له سجداً ﴾ لسائل أن يقول : السجود لا يجوز لغير الله فكيف سجدوا ليوسف ؟ وأيضاً تعظيم الأبوين تالي تعظيم الله سبحانه فمن أين جاز سجدة أبويه له ؟ والجواب عن ابن عباس في رواية عطاء أن المراد خرّوا لأجل وجدانه سجداً لله فكانت سجدة الشكر لله سبحانه ، وكذا التأويل في قوله : ﴿ والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ [يوسف : 4] أي أنها سجدت لله تعالى لأجل طلب مصلحتي وإعلاء منصبي . وأحسن من هذا أن يقال : إنهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكراً على لقائه ، أو يراد بالسجدة التواضع التام على ما كانت عادتهم في ذلك الزمان من التحية ، ولعلها ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجبهة . واعترض على هذا الوجه بأن لفظ الخرور يأباه . بأن الخرور قد يعني به المرور قال تعالى . ﴿ لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ [الفرقان : 73] أي لم يمروا . وقيل : الضمير عائد إلى إخوته فقط . ورد بأن قوله : ﴿ هذا تأويل رؤياي ﴾ من قبل ينبو عنه . وأجيب بأن

التعبير لا يلزم أن يكون مطابقاً للرؤيا من كل الوجوه فيحتمل أن تكون السجدة في حق الإخوة التواضع التام ، وفي حق أبويه مجرد ذهابهما من كنعان إلى مصر ، ففيه تعظيم تام للولد .

وقيل : إنما سجد الأبوان لئلا تحمل الأنفة إخوته على عدم السجود فيصير سبباً لثوران الفتن وإحياء الأحقاد والضغائن ، أو لعله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعرفها إلا الله تعالى ، ورضي بذلك يوسف موافقة لأمر الله ويؤيده ما روي عن ابن عباس أن يوسف لما رأى سجودهم له اقشعر جلده ولكن لم يقل شيئاً وكأن الأمر بتلك السجدة كان من تمام التشديد والبلية والله أعلم . ﴿ وقد أحسن بي ﴾ يقال : أحسن به وإليه بمعنى . ﴿ إذ أخرجني من السجن ﴾ لم يذكر إخراجه من البئر لأنه نوع تثريب للإخوة وقد قال : ﴿ لا تثريب عليكم ﴾ ولأنه لم يكن نعمة لأنه حينئذ صار عبداً وصار . مبتلى

(301/403)

بالمرأة ولأن هذا الإخراج أقرب وأشمل ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ أي من البادية سمى المكان باسم المصدر لظهور الشخص فيه من بعيد ، وكان يعقوب وولده بأرض كنعان أهل مواش يتنقلون في المياه والصحارى . قال ابن الأنباري . بدا موضع معروف هنالك . روي

عن ابن عباس أن يعقوب كان قد تحول إليه وسكن فيه ومنه قدم إلى يوسف ، على هذا كان يعقوب وولده أهل الحضر والبدو قصد هذا الموضع الذي يقال له بدا والمعنى جاء بكم من قصد بدا ذكره الواحدي في البسيط . قال الجبائي والكعبي والقاضي : إنه تعالى أخبر عن يوسف أنه أضاف الإحسان إلى الله ونسب النزغ إلى الشيطان وهو الإفساد والإغراء ، ففيه دليل على أن الخير من الله دون الشر .

وأجيب بأنه إنما راعى الأدب وإلا فليس فعل الشيطان إلا الوسوسة ، وأما صرف الداعية إلى الشر فلا يقدر عليه إلا الله فإن العاقل لا يريد ضرر نفسه . ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ فإذا أراد حصول أمر هيأ أسبابه وإن كان في غاية البعد عن الأوهام . ﴿ إنه هو العليم ﴾ بالوجه الذي تسهل به الصعاب ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله حتى تجيء على الوجه الأصوب والنحو الأصلح . يحكى أن يوسف أخذ بيد يعقوب وطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الورق والذهب وخزائن الحلي والثياب والسلاح وغير ذلك ، فلما أدخله خزائن القراطيس قال : يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثمان مراحل ! قال : أمرني جبريل . قال : أو ما تسأله ؟ قال : أنت أبسط إليه مني فسأله قال جبريل : الله

أمرني بذلك لقولك : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ [يوسف : 13] قال : فهلا خفتني .

ثم إن يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحق فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد إلى مصر وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة . فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له قال : ﴿ رب آتيتني من الملك ﴾ شيئاً من ملك الدنيا أو من ملك مصر لأنه كان دون ملك فوقه ﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾ بعضاً من ذلك لأنه لا يمكن أن يحصل للإنسان في العمر المتناهي والاستعداد المعين المحصور سوى المتناهي من السعادات الدنيوية والكمالات الأخروية ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ منادى ثان أو صفة النداء الأول أي مبدعهما على النحو الأفضل من مادة سابقة كالدخان أو من عدم محض ﴿ أنت وليي في الدنيا والآخرة ﴾ لا يتولى إصلاح مهماتي في الدارين غيرك . ولما قدم النداء والثناء كما هو شرط الأدب الحسن ذكر المسألة فقال ﴿ توفني مسلماً ﴾ أراد الوفاة على حال الإسلام والختم بالحسنى كقول يعقوب لولده : ﴿ ولا تموتن إلى وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : 102] ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ من آبائي أو على العموم .

قيل : الصلاح أول درجات المؤمنين الصالحين فالواصل إلى الغاية وهي النبوة كيف يليق به أن يطلب البداية ؟ والجواب إن أراد الإلحاق بالآباء فظاهر ، وإن أراد العموم فكذلك لأن طلب الصلاح غير الإلحاق بأهل الصلاح فإن اجتماع النفوس المشرقة بالأنوار الإلهية له أثر عظيم وفوائد جمة كالمرآة المستنيرة المتقابلة التي يتعاكس أضواؤها ويتكامل أنوارها إلى حيث لا تطيقها الضعيفة ، هذا مع أن الختم على الصلاح نهاية مراتب الصديقين . وههنا بحث للأشاعرة وهو أن التوفي على الإسلام والإلحاق بأهل الصلاة لو لم يكن من فعل الله تعالى كان طلبه من الله جارياً مجرى قول القائل : افعل يا من لا يفعل .

وهل هذا إلا كتشنيع المعتزلة علينا إذ كان الفعل من الله فكيف يجوز أن يقول للمكلف افعل مع أنه ليس بفاعل ؟ أجاب الجبائي والكعبي بأن المراد الطف بي بالإقامة على الإسلام إلى أن أموت فألحق بالصلحاء . ورد بأنه عدول عن الظاهر مع أن كل ما في مقدور الله من الألطاف فقد فعله في حق الكل . سؤال آخر : الأنبياء يعلمون أنهم يموتون على الإسلام ألبتة . فما الفائدة في الطلب ؟ الجواب : العلم الإجمالي لا يغني عن العلم التفصيلي ولا سيما في مقام الخشية والرهبة . وقال في التفسير الكبير : المطلوب ههنا حالة زائدة على الإسلام الذي هو ضد الكفر وهي الاستسلام لحكم الله والرضا بقضائه . وعن قتادة وكثير من المفسرين أنه تمنى الموت واللحوق بدار البقاء في زمرة الصلحاء ولم يتمن الموت نبي قبله ولا بعده .

قال أهل التحقيق : لا يبعد من الرجل العاقل إذا كما عقله أن تعظم رغبته في الموت لوجوه منها : أن مراتب الموجودات ثلاث : المؤثر الذي لا يتأثر وهو الإله تعالى وتقدس ، والمتأثر الذي لا يؤثر وهو عالم الأجساد فإنها قابلة للتشكيل والتصوير والصفات المختلفة والأعراض المتضادة ، ويتوسطهما قسم ثالث هو عالم الأرواح لأنها تقبل الأثر والتصرف من العالم الإلهي ، ثم إذا أقبلت على عالم الأجساد تصرفت فيه وأثرت . وللنفوس في التأثير والتأثر مراتب غير متناهية لأن تأثيرها بحسب تأثرها مما فوقها والكمال الإلهي غير متناه فإذن لا تنفك النفس من نقصان ما ، والناقص إذا حصل له شعور بنقصانه وقد ذاق لذة الكمال بقي في القلق وألم الطلب ولا سبيل له إلى دفع هذا القلق والألم إلا الموت فحينئذ يتمنى الموت . ومنها أن سعادات الدنيا ولذاتها سريعة الزوال مشرفة على الفناء والألم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها ، ثم إنها مخلوطة بالمنغصات والأراذل من الخلق يشاركون الأفاضل فيها بل ربما كانت حصة الأراذل أكثر فلا جرم يتمنى العاقل موته ليتخلص من هذه الآفات . ومنها أن اللذات الجسمانية لا حقيقة لها لأن حاصلها يرجع إلى دفع الآلام . وقد قررنا هذا المعنى فيما سلف . ومنها أن مداخل

اللذات الدنيوية ثلاثة : لذة الأكل ولذة الوقاع ولذة الرياسة ولكل منها عيوب ؛ فلذة الأكل مع أنها غير باقية بعد البلع فإن المأكول يتخلط بالبصاق المجتمع في الفم ولا شك أنه شيء منفر ، ثم لما يصل إلى المعدة يستحيل إلى ما ذكره منفر فكيف به ومن هنا قالت العقلاء : من كانت همته ما يدخل في جوفه كانت قيمته ما يخرج من بطنه ، هذا مع اشتراك الحيوانات الخسيسة فيها . وأيضاً اشتداد الجوع حاجة والحاجة نقص وآفة وكذا الكلام في لذة النكاح وعيوبها مع أن فيها احتياجاً إلى زيادة المال ، والنفقة للزوج والولد وما يلزمهما ، والاحتياج إلى المال يلقي المرء في مهالك

الاكتساب ومهاوي الانتجاع ، ولذة الرياسة أدنى عيوبها أن كل واحد يكره بالطبع أن يكون خادماً مأموراً ويحب أن يكون مخدوماً ، فسعي الإنسان في الرياسة سعي في مخالفة كل من سواه .

ولا ريب أن هذا أمر صعب الحصول منيع المرام وإذا ناله كان على شرف الزوال في كل حين وأوان لأن كثرة الأسباب توجب قوة حصول الأثر فيكون دائماً في الحزن والخوف . فإذا تأمل العاقل في هذه المعاني علم قطعاً أنه لا صلاح في اللذات العاجلة ولكن النفس جبلت

على طلبها والرغبة فيها فيكون دائماً في بحر الآفات وغمرات الحسرات فحينئذ يتمنى زوال هذه الحياة. وقد سبق منا في تمني الموت كلام آخر في سورة البقرة في تفسير قوله: ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ [الجمعة: 6] فليتذكر. قال أهل السير: لما توفي يوسف تخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال، فرأوا من الرأي أن عملوا له صندوقاً من مرمر فجعلوه فيه ودفنوه في النيل بمكان يمر عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا فيه شرعاً. وولد له إفراثيم وميشا وولد لإفراثيم نون ولنون يوشع فتى موسى، ثم بقي يوسف هناك إلى أن بعث الله موسى فأخرج عظامه من مصر ودفنها عند قبر أبيه والله تعالى أعلم بحقائق الأمور. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 116.128﴾

(306/403)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى:

التأويل: إن يعقوب الروح لا يتأسف على فوات شيء من المخلوقات إلا على يوسف القلب لأنه مرآة جمال الحق لا يشاهد الحق إلا فيها فلذلك أبيضت عيناه في انتظارها فلامه على

ذلك الأوصاف البشرية بقولهم ﴿ تفتؤ تذكر يوسف ﴾ وأين أهل السلوة من أهل العشق ، أين الخلي من الشجي ، ولا بد للمحب من ملامة الخلق فأول ملامتي آدم عليه السلام حين قالت الملائكة لأجله ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : 30] بل أول ملامتي هو الله تعالى حين قالوا له : ﴿ أتجعل فيها ﴾ وذلك أنه أول محب ادعى المحبة وهو قوله ﴿ يحبهم ﴾ ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ [الأعراف : 62] من جماله وكماله ﴿ اذهبوا فتحسسوا ﴾ فيه أن الواجب على كل مسلم أن يطلب يوسف قلبه وبنيامين سره ، وإن ترك لطف الله واليأس عن وجدانه كفر . فلما رأت الأوصاف البشرية آثار العزة من رب العزة على صفحات أحوال يوسف القلب حين وصلوا بتيسير أحكام الشريعة وتدبير آداب الطريقة إلى سرداقات حضرة القلب ﴿ قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا ﴾ وهم القوى الإنسانية ﴿ ضر ﴾ البعد عن الحضرة الربانية ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ من الأعمال البدنية ﴿ فأوف لنا الكيل ﴾ بإفاضة سجال العوارف وإسباغ ظلال العواطف ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ إذ كنتم على صفة الظلومية والجهولية ﴿ لقد آثرك الله علينا ﴾ بالطلب والصدق والشوق والمحبة والوصول والوصال ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ في الإقبال على استيفاء الحظوظ الحيوانية التي تضر القلب والسر والروح ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ لأنه صدر منها ما صدر بحكمة من الله تعالى وتربية القلب وإن كان مضراً له ظاهراً كما أن صنيع إخوة يوسف في البداية صار سبباً لرفعة منزلته في النهاية ﴿ اذهبوا بقميصي

﴿ وهو نور جمال الله ﴾ ولما فصلت ﴾ عير واردات القلب وهبت نفحات ألطاف الحق

﴿ إنك لفي ضلالك القديم ﴾ .

(307/403)

يا عاذل العاشقين دع فئة . . . أضلها الله كيف ترشدها

﴿ فارتد بصيراً ﴾ لأن الروح كان بصيراً في بدو الفطرة ثم عمي لتعلقه بالدنيا وتصرفه

فيها ثم صار بصيراً بوارد من القلب :

ورد البشير بما أقر الأعينا . . . وشفى النفوس فنلن غايات المنى

والقلب في بدو الأمر كان محتاجاً إلى الروح في الاستكمال ، فلما كمل وصلح لقبول فيضان

الحق بين إصبعين ونال مملكة الخلافة بمصر القربة في النهاية صار الروح محتاجاً إليه لاستنارته

بأنوار الحق ، وذلك أن القلب بمثابة المصباح في قبول نار النور الإلهي والروح كالزيت فيحتاج

المصباح في البداية إلى الزيت في قبول النار ، ولكن الزيت يحتاج إلى المصباح في البداية

وتزكيته في النهاية لتقبل بواسطة النار ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله ﴾ لأنه لا يصل إلى

الحضرة الأحدية إلا بجذبة المشيئة آمنين من الانقطاع والانفصال ﴿ وخروا له سجداً ﴾

لما رأوه وعرفوه أنه عرش الحق تعالى ، فالسجدة كانت في الحقيقة لرب العرش لا للعرش ﴾

هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ إن كنت نائماً في نوم العدم ﴿ إذ أخرجني من السجن ﴾ سجن الوجود ولم يقل من الجب لأنه لا يخرج من جب البشرية ما دام في الدنيا ﴿ من البدو ﴾ بدو الطبيعة ﴿ آتيتني من الملك ﴾ ملك الوصال والوصول ﴿ فاطر سموات ﴾ عالم الأرواح وأرض البشرية ﴿ توفني مسلماً ﴾ أخرجني من قيد الوجود المجازي وأبقني ببقائك مع الباقين بك بفضلك وكرمك. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 130.128﴾

(308/403)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/404)

الجزء الرابع بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 105 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 110 ﴾ من نفس السورة

(4/404)

قوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان القرآن العظيم أعظم الآيات بما أنبأ فيه عن الإخبار الماضية والكوائن الآتية على ما هي عليه مضمنة من الحكم والأحكام ، في أساليب البلاغة التي لا ترام ، وغير ذلك ما لا يحصر بنظام ، كما أشار إليه أول السورة ، كان ربما قيل : إن هذا ربما لا يعلمه إلا الراسخون في العلوم الإلهية ، عطف عليه الإشارة إلى أن له تعالى غيره من الآيات إلتي لا تحتاج لوضوحها إلى أكثر من العقل ما لا يحيط به الحصر ، ومع ذلك فلم ينتفعوا به ، فقال :

﴿ وكأين من آية ﴾ أي علامة كبيرة دالة على وحدانيته ﴿ في السماوات ﴾ أي كالنيرين وسائر الكواكب والسحاب وغير ذلك ﴿ والأرض ﴾ من الجبال والشجر والدواب وغير ذلك مما لا يحصيه العد - كما سيأتي بيانه في سورة الرعد مفصلاً ﴿ يمرون عليها ﴾ مشاهدة بالحس ظاهرة غير خفية ﴿ وهم عنها ﴾ أي خاصة لا عن ملاذهم وشهواتهم بها ﴿ معرضون ﴾ أي عن دلالتها على السعادة من الوحدانية وما يتبعها .

(5/404)

ولما كان ربما قيل : كيف يوصفون بالإعراض وهم يعتقدون أن الله فاعل تلك الآيات ، بين أن إشراكهم مسقط لذلك ، فقال : ﴿ ما يؤمن أكثرهم ﴾ أي الناس ﴿ بالله ﴾ أي الذي لا شيء إلا وهو داع إلى الإيمان به ، لأنه المختص بصفات الكمال ﴿ إلا وهم مشركون ﴾ به مَن لا يقدر على شيء فضلاً عن أن يأتي بآية ، كانوا يقرون بأن الله خالقهم ورازقهم ويعبدون غيره ، وكذا المنافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفران ، وكذا أهل الكتابين يؤمنون بكتابهم ويقلدون علماءهم في الكفر بغيره ، فعلم أن إذعانهم بهذا الإيمان غير تابع لدليل ، وهو محض تقليد لمن زين له سوء علمه فرآه حسناً ، لما سبق فيه من علم الله أنه لا صلاحية له فأفسده بما شابهه به من الشرك ، والآية صالحة لإرادة الشرك الخفي الذي أشار إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله : " الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل " وهو شرك الأسباب التي قدر الله وصول ما يصل إلى العبد بواسطتها ، فقل من يتخطى من الأسباب إلى مسببها ! قال الرازي في اللوامع : وقال الإمام محمد بن علي الترمذي : إنما هو شك وشرك فالشك ضيق الصدر عند النوائب ، ومنه ثوب مشكوك ، والشرك بنور التوحيد ، فعند هذا يتولاه الله تعالى ، وقال الواسطي : إلا وهم مشركون : في ملاحظة الخواطر والحركات .

ولما أخبر الله تعالى عن ارتباكهم في أشراك إشراكهم ، وأنهم يتعامون عن الأدلة في الدنيا ، وكان الأكثر المبهم القطع بعدم إيمانهم من توجيه الأمر والنهي والحث والزجر إلى الجميع وهم

في غمارهم، وكان بعض الناس كالحمار لا ينقاد إلا بالعذاب، قال سبحانه وتعالى: ﴿أفأمنوا﴾ إنكاراً فيه معنى التوبيخ والتهديد ﴿أن تأتيهم غاشية﴾ أي شيء يغطيهم ويبرك عليهم ويحيط بهم ﴿من عذاب الله﴾ أي الذي له الأمر كله في الدنيا كما أتى من ذكرنا قصصهم من الأمم.

(6/404)

ولما كان العاقل ينبغي له الحذر من كل ممكن وإن كان لا يقربه، قال تعالى: ﴿أو تأتيهم الساعة﴾ وأشار إلى أشد ما يكون من ذلك على القلوب بقوله: ﴿بغتة﴾ أي وهم عنها في غاية الغفلة بعدم توقعها أصلاً؛ قال الرماني: قال يزيد بن مقسم الثقفي:

ولكنهم بانوا ولم أدر بغتة . . .

وأفظع شيء حين يفجؤك البغت

ولما كان هذا المعنى مهولاً، أكده الله بقوله: ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي نوعاً من الشعور ولو أنه كالشعرة، إعلاماً بشدة جهلهم في أن حالهم حال من هو في غاية الأمن مما أقل أحواله أنه ممكن، لأن الشعور إدراك الشيء بما يلطف كدقة الشعر، وإنما قلت: إنه تأكيد، لأنه معنى البغتة؛ قال الإمام أبو بكر الزبيدي في مختصر العين: البغتة: المفاجأة، وقال الإمام أبو

عبد الله القزاز في ديوانه : فاجأت الرجل مفاجأة - إذا جئته على غفلة مغافصة ، ثم قال : وفاجأته مفاجأة - إذا لقيته ولم يشعر بك ، وفي ترتيب المحكم : فجئه الأمر وفجأه وفاجأه مفاجأة : هجم عليه من غير أن يشعر به ، ويلزم ذلك الإسراع وهو مدار هذه المادة ، لأنه يلزم أيضاً التغب - بتقديم المثناة محركاً وهو الهلاك ، لأنه أقرب شيء إلى الإنسان إذ هو الأصل في حال الحدث ، والسلامة فيه هي العجب ، والتغب أيضاً : الوسخ والدرن ، وتغب - بكسر الغين : صار فيه عيب ، ويقال للقحط : تغبة - بالتحريك ، والتغب - ساكناً : القبيح والريبة ، وكل ذلك أسرع إلى الإنسان من أضداده إلا من عصم الله ، وما ذاك إلا لأن هذه الدار مبنية عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 107 . 108 ﴾

(7/404)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ سبيلي ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع ﴿ نوحي ﴾ بالنون وكسر الحاء : حفص . الآخرون بالياء وفتح الحاء ﴿ يعقلون ﴾ على الغيبة : أبو عمرو وحمزة وعلي

وخلف وهشام وابن كثير والأعشى والبرجمي . والباقون بتاء الخطاب . ﴿ كذبوا ﴾ مخففاً : عاصم وحمزة وعلي وخلف ويزيد . الباقون بالتشديد . ﴿ فنجي ﴾ بضم النون وكسر الجيم المشددة وفتح الياء : ابن عامر وعاصم وسهل ويعقوب . فعلى هذا يكون فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول . وعن الكسائي مثل هذا ولكن بسكون الياء . وخطأه علي بن عيسى بناء على أنه فعل مستقب من الإنجاء والنون لا يدغم في الجيم ، أو من التنجية والنون المتحركة لا تدغم في الساكن . وأقول : إن كان فعلاً ماضياً من التنجية والنون المتحركة لا تدغم كما في القراءة الأولى ولكن سكن الياء للتخفيف لم يلزم منه خطأ .

الآخرون : قرأوا بنونين وتخفيف الجيم وسكون الياء فعلاً مضارعاً من الإنجاء على حكاية الحال الماضية .

الوقوف : ﴿ إليك ﴾ ج لابتداء النفي مع واو العطف ﴿ يمكرون ﴾ 5 ﴿ بمؤمنين ﴾ 5 ﴿ أجر ﴾ ط ﴿ للعالمين ﴾ 5 ﴿ معرضون ﴾ 5 ﴿ مشركون ﴾ 5 ﴿ لا يشعرون ﴾ 5 ﴿ ومن اتبعن ﴾ ط ﴿ المشركين ﴾ 5 ﴿ القرى ﴾ ط ﴿ من قبلهم ﴾ ط ﴿ اتقوا ﴾ ط ﴿ تعقلون ﴾ 5 ﴿ نصرنا ﴾ ط من قرأ ﴿ فننجي ﴾ بالتخفيف ولا وقف على ﴿ من نشاء ﴾ ومن قرأ ﴿ فنجي ﴾ مشددة وصله بما قبله ووقف على ﴿ من نشاء ﴾ ﴿ المجرمين ﴾ 5 ﴿ الألباب ﴾ ط ﴿ يؤمنون ﴾ 5 .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 130 . 131 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِن ءايَةٍ فِى السموات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾

يعني : أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك ، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها .

واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لابد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهي إما الأجرام الفلكية وأما الأجرام العنصرية ، أما الأجرام الفلكية : فهي قسمان : إما الأفلاك وإما الكواكب .

أما الأفلاك : فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته ، وقد يستدل بأحوال حركاتها إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم فلابد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها ، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات .

وأما الأجرام الكوكبية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها أحيازها وحركاتها ،

وتارة بألوانها وأضوائها ، وتار بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال والظلمات والنور ، وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية : فإما أن تكون مأخوذة من بسائط ، وهي عجائب البر والبحر ، وإما من المواليد وهي أقسام : أحدها : الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح.

وثانيها : المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها .

وثالثها : النبات وخاصية الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة .

ورابعها : اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها .

وخامسها : تشريح أبدان الناس وتشريح القوى الإنسانية وبيان المنفعة الحاصلة فيها فهذه مجامع الدلائل .

ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين وحكايات الأقدمين وأن الملوك الذين استولوا على الأرض وخربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر ، ثم بقي الوزر والعقاب عليهم هذا ضبط أنواع هذه الدلائل والكتاب المحتوي على شرح هذه الدلائل هو

شرح جملة العالم الأعلى والعالم الأسفل والعقل البشري لا يفي بالإحاطة به فلهذا السبب ذكره الله تعالى على سبيل الإبهام قال صاحب "الكشاف" قرئ ﴿ والأرض ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ و ﴿ يَمُرُّونَ ﴾ عليها خبره وقرأ السدي ﴿ والأرض ﴾ بالنصب على تقدير أن يفسر قوله : ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ بقولنا يطوفونها ، وفي مصحف عبد الله ﴿ والأرض يَمْشُونَ عَلَيْهَا ﴾ برفع الأرض .

(10/404)

أما قوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ فالمعنى : أنهم كانوا مقرين بوجود الإله بدليل قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] إلا أنهم كانوا يثبتون له شريكاً في المعبودية ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هم الذين يشبهون الله بخلقه وعنه أيضاً أنه قال : نزلت هذه الآية في تلبية مشركي العرب لأنهم كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، وعنه أيضاً أن أهل مكة قالوا : الله ربنا وحده لا شريك له الملائكة بناته فلم يوحدوا ، بل أشركوا ، وقال عبدة الأصنام : ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده ، وقالت اليهود : ربنا الله وحده وعزيز ابن الله ، وقالت النصارى : ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابن الله ، وقال عبدة الشمس

والقمر : ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا ، وقال المهاجرون والأنصار ربنا الله وحده ولا شريك معه ، واحتجت الكرامية بهذه الآية على أن الإيمان عبارة عن الإقرار باللسان فقط ، لأنه تعالى حكم بكونهم مؤمنين مع أنهم مشركون ، وذلك يدل على أن الإيمان عبارة عن مجرد الإقرار باللسان ، وجوابه معلوم ، أما قوله : ﴿ أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مّنْ عَذَابِ الله ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتنبسط عليهم وتغمرهم ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً ﴾ أي فجأة .

وبغتة نصب على الحال يقال : بغتهم الأمر بغتاً وبغتة إذا فاجأهم من حيث لم يتوقعوا وقوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ كالتأكيد لقوله : ﴿ بَغْتَةً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 178.179 ﴾

(11/404)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾

فيه خمسة أوجه :

أحدها : أنه قول المشركين الله ربنا وآلهتنا ترزقنا ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه في المنافقين يؤمنون في الظاهر رياء وهم في الباطن كافرون بالله تعالى ، قاله الحسن .

الثالث : هو أن يشبه الله تعالى بخلقه ، قاله السدي .

الرابع : أنه يشرك في طاعته كقول الرجل لولا الله وفلان لهلك فلان ، وهذا قول أبي جعفر .

الخامس : أنهم كانوا يؤمنون بالله تعالى ويكفرون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يصح إيمانهم حكاه ابن الأنباري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(12/404)

وقال ابن عطية :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ ﴾

وقرأت الجماعة " وكأين " بهمز الألف وشد الياء ، قال سيبويه : هي كاف التشبيه اتصلت بأي ، ومعناها معنى كم في التكثير . وقرأ ابن كثير " وكائن " بمد الألف وهمز الياء ، وهو من اسم الفاعل من كان ، فهو كائن ولكن معناه معنى كم أيضاً . وقد تقدم استعاب القراءات في هذه الكلمة في قوله : ﴿ وكأين من نبي قتل ﴾ [آل عمران : 146] .

وال ﴿ آيه ﴾ هنا المخلوقات المنصوبة للاعتبار والحوادث الدالة على الله سبحانه في

مصنوعاته، ومعنى ﴿ يمرون عليها ﴾ الآية - أي إذا جاء منها ما يحس أو يعلم في الجملة لم يتعظ الكافر به، ولا تأمله ولا أعتبر به بحسب شهواته وعمهه، فهو لذلك كالمعرض، ونحو هذا المعنى قول الشاعر: [الطويل]

تمر الصبا صفحاً بساكن ذي الغضا . . . ويصدع قلبي أن يهب هبوبها

وقرأ السدي "والأرضَ" بالنصب بإضمار فعل، والوقف - على هذا - في ﴿ السماوات ﴾ وقرأ عكرمة وعمرو بن فائد "والأرضُ" بالرفع على الابتداء، والخبر قوله: ﴿ يمرون ﴾ وعلى القراءة بخفض "الأرضِ" ف ﴿ يمرون ﴾ نعت الآية. وفي مصحف عبد الله: "والأرض يمشون عليها". وقوله: ﴿ وما يؤمن أكثرهم ﴾ الآية، قال ابن عباس: هي في أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله ثم يشركون من حيث كفروا بنبيه، أو من حيث قالوا عزير ابن الله، والمسيح ابن الله. وقال عكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد هي في كفار العرب، وإيمانهم هو إقرارهم بالخالق والرازق والمميت، فسماه إيماناً وإن أعقبه إشراكهم بالأوثان والأصنام -فهذا الإيمان لغوي فقط من حيث هو تصديقها. وقيل: هذه الآية نزلت بسبب قول قريش في الطواف والتلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع أحدهم يقول: لبيك لا شريك لك، يقول له: قط قط، أي قف هنا ولا تزد: إلا شريك هو لك.

وال ﴿ غاشية ﴾ ما يغشي ويغطي ويغم ، وقرأ أبو حفص مبشر بن عبد الله : " يأتيهم الساعة بغتة " بالياء ، و﴿ بغتة ﴾ معناه : فجأة ، وذلك أصعب ، وهذه الآية من قوله : ﴿ وكأين ﴾ وإن كانت في الكفار -بحكم ما قبلها - فإن العصاة يأخذون من ألفاظها بحظ ، ويكون الإيمان حقيقة والشرك لغوياً كالرياء ، فقد قال عليه السلام : " الرياء : الشرك الأصغر " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(14/404)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض ﴾

قال الخليل وسيبويه : هي "أيّ" دخل عليها كاف التشبيه وبُنيت معها ، فصار في الكلام معنى كَمْ ، وقد مضى في "آل عمران" القول فيها مستوفى .

ومضى القول في آية "السَّمَوَاتِ والأَرْضِ" في "البقرة" .

وقيل : الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة ؛ أي هم غافلون معرضون عن تأملها .

وقرأ عكرمة وعمرو بن فائد "وَالأَرْضُ" رفعاً ابتداء ، وخبره .

﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ .

وقرأ السّدي "وَالأَرْضَ" نصباً بإضمار فعل ، والوقف على هاتين القراءتين على "السموات" .

وقرأ ابن مسعود : "يمشون عليها" .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ نزلت في قوم أقرّوا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان ؛ قاله الحسن ومجاهد وعامر والشّعبي وأكثر المفسرين .

وقال عِكرمة هو قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [الزخرف : 87] ثم يصفونه بغير صفته ويجعلون له أنداداً ؛ وعن الحسن أيضاً : أنهم أهل كتاب معهم شِرْكٌ وإيمان ، آمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فلا يصح إيمانهم ؛ حكاه ابن الأنباري .

وقال ابن عباس : نزلت في تلبية مشركي العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك .

وعنه أيضاً أنهم النصارى .

وعنه أيضاً أنهم المشبّهة ، آمنوا مجملاً وأشركوا مُفَصَّلاً .

وقيل : نزلت في المنافقين ؛ المعنى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ ﴾ أي باللسان إلا وهو كافر

بقلبه؛ ذكره الماورديّ عن الحسن أيضاً .

وقال عطاء : هذا في الدعاء ؛ وذلك أن الكفار يَنْسَوْن ربهم في الرّخاء ، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء ؛ بيانه : ﴿ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ [يونس : 22] الآية .

وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾ الآية .

(15/404)

وفي آية أخرى : "وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ" .

وقيل : معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهَلَكة ، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا ، ولولا الكلب لدخل علينا اللّص ، ونحو هذا ؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان ، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : وقد يقع في هذا القول والذي قبله كثير من عوامّ المسلمين ؛ ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم .

وقيل : نزلت هذه الآية في قصة الدُّخان ؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدّخان في سنيّ القَحْط قالوا : ﴿ رَّبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب إِنَّا مْؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان : 12] فذلك إيمانهم ، وشركهم عودُهم إلى الكفر بعد كشف العذاب ؛ بيانه قوله : ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾

[الدخان : 15] والعود لا يكون إلا بعد ابتداء ؛ فيكون معنى : "إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ" أي إلا وهم عائدون (إلى الشرك) ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أفأمنوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ ﴾ قال ابن عباس : مُجلّلة .

وقال مجاهد : عذاب يغشاهم ؛ نظيره .

﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 55] .

وقال قَتَادة : وقِيعة تقع لهم .

وقال الضحّاك : يعني الصَّواعِق والقَوَارِع .

﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ الساعة ﴾ يعني القيامة .

﴿ بَغْتَةً ﴾ نصب على الحال ؛ وأصله المصدر .

وقال المبرد : جاء عن العرب حال بعد نكرة ؛ وهو قولهم : وقع أمر بغتة وفجأة ؛ قال النحاس : ومعنى : "بَغْتَةً" إصابة من حيث لم يتوقّع .

﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ وهو توكيد .

وقوله : "بَغْتَةً" قال ابن عباس : تَصيح الصيحة بالناس وهم في أسواقهم ومواضعهم ، كما قال : ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ [ياس : 49] على ما يأتي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ وكأين من آية ﴾

يعني وكم من آية دالة على التوحيد ﴿ في السموات والأرض يمرون عليها ﴾ يعني لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ﴿ وهم عنها معرضون ﴾ أي لا يلتفتون إليها والمعنى ليس إعراضهم عن هذه الآيات الظاهرة الدالة على وحدانية الله تعالى بأعجب من إعراضهم عنك يا محمد ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ يعني أن من إيمانهم أنهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض قالوا الله وإذا قيل لهم من ينزل المطر قالوا الله وهم مع ذلك يعبدون الأصنام .

وفي رواية عن ابن عباس : إنهم يقرون أن الله خالقهم فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره فذلك شركهم ، وفي رواية أخرى عنه أيضاً أنها نزلت في تلبية مشركي العرب وذلك أنهم كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، وقال عطاء هذا في الدعاء وذلك أن الكفار نسوا ربهم في الرخاء فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء .

﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ﴾

يعني عقوبة مجللة تعمهم وقال مجاهد عذاب غشاهم ، وقال قتادة : وقيعة وقال الضحاك

يعني الصواعق والقوارع ﴿ أو تأتيهم الساعة بغتة ﴾ يعني فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ يعني بقيامها قال ابن عباس : تهيج الصحية بالناس وهم في أسواقهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(17/404)

وقال أبو حيان فى الآيات :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾

قال ابن الأنباري : سألت قريش واليهود رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن قصة يوسف فنزلت مشروحة شرحاً وافياً ، وأمل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم ، فخالفوا تأميله ، فعزاه الله تعالى بقوله : وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين الآيات .

وقيل : في المنافقين ، وقيل : الثنوية ، وقيل : في النصارى .

وقال ابن عباس : في تلبية المشركين .

وقيل : في أهل الكتاب آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، فجمعوا بين الإيمان والشرك .

والإشارة بذلك إلى ما قصه الله من قصة يوسف وإخوته .

وما كنت لديهم أي : عند بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم على أن يجعلوه في الجب ، ولا حين

ألقوه فيه ، ولا حين التقطته السيارة ، ولا حين بيع .

وهم يمكرون أي يبغون الغوائل ليوسف ، ويتشاورون فيما يفعلون به .

أو يمكرون بيعقوب حين أتوا بالقميص ملطخاً بالدم ، وفي هذا تصريح لقريش بصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وهذا النوع من علم البيان يسمى بالاحتجاج النظري ، وبعضهم يسميه المذهب الكلامي ، وهو أن يلزم الخصم ما هو لازم لهذا الاحتجاج ، وتقدم نظير ذلك في آل عمران ، وفي هود .

وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه ، لأنه لا يخفى على أحد أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه ، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه ، ولم يكن من علم قومه ، فإذا أخبر به وقصه هذا القصص الذي أعجز حملته ورواته لم تقع شبهة في أنه ليس منه ، وإنما هو من جهة القرون الخالية ونحوه ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ فقوله : وما كنت ، هنا تهكم بهم ، لأنه قد علم كل أحد أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) ما كان معهم .

وأجمعوا أمرهم أي : عزموا على إلقاء يوسف في الجب ، وهم يمكرون جملة حالية .

والمكر : أن يدبر على الإنسان تدبيراً يضره ويؤذيه والناس ، الظاهر العموم لقوله : ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

وعن ابن عباس : أنهم أهل مكة .

ولو حرصت : ولو بالغت في طلب إيمانهم لا يؤمنون لفرط عنادهم وتصميمهم على الكفر .

وجواب لو محذوف أي : ولو حرصت لم يؤمنوا ، إنما يؤمن من يشاء الله إيمانه .

والضمير في عليه عائد على دين الله أي : ما تبتغي عليه أجراً على دين الله ، وقيل : على القرآن ، وقيل : على التبليغ ، وقيل : على الإنباء بمعنى القول .

وفيه توبيخ للكفرة ، وإقامة الحجة عليهم .

أو وما تسألهم على ما تحدثهم به وتذكرهم أن ينيلوك منفعة وجدوى ، كما يعطى حملة الأحاديث والأخبار إن هو إلا موعظة وذكر من الله للعالمين عامة ، وحث على طلب النجاة على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ا وقرأ بشر بن عبيد : وما نسألهم بالنون .

ثم أخبر تعالى أنهم لفرط كفرهم يمرون على الآيات التي تكون سبباً للإيمان ولا تؤثر فيهم ، وأن تلك الآيات هي في العالم العلوي وفي العالم السفلي وتقدم قراءة ابن كثير وكأين .

قال ابن عطية وهو اسم فاعل من كان فهو كائن ومعناها معنى كم في التكثير انتهى .

وهذا شيء يروي عن يونس ، وهو قول مرجوح في النحو .

والمشهور عندهم أنه مركب من كاف التشبيه ومن أي ، وتلاعبت العرب به فجاءت به لغات .

وذكر صاحب اللوامح أن الحسن قرأ وكي بياء مكسورة من غير همز ولا ألف ولا تشديد ، وجاء كذلك عن ابن محيصن ، فهي لغة انتهى .

من آية علامة على توحيد الله وصفاته ، وصدق ما جيء به عنه .

وقرأ عكرمة وعمرو بن قائد : والأرض بالرفع على الابتداء ، وما بعده خبر .

ومعنى يمرون عليها فيشاهدون ما فيها من الآيات .

وقرأ السدي : والأرض بالنصب ، وهو من باب الاشتغال أي : ويطوون الأرض يمرون عليها على آياتها ، وما أودع فيها من الدلالات .

(19/404)

والضمير في عليها وعنها في هاتين القراءتين يعود على الأرض ، وفي قراءة الجمهور وهي بجر الأرض ، يعود الضمير على آية أي : يمرون على تلك الآيات ويشاهدون تلك الدلالات ، ومع ذلك لا يعتبرون .

وقرأ عبد الله : والأرض برفع الضاد ، ومكان يمرون يمشون ، والمراد : ما يرون من آثار

الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر .

وهم مشركون جملة حالية أي : إيمانهم ملتبس بالشرك .

وقال ابن عباس : هم أهل الكتاب ، أشركوا بالله من حيث كفروا بنبيه ، أو من حيث ما قالوا في عزير والمسيح .

وقال عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : هم كفار العرب أقروا بالخالق الرازق المحيي المميت ، وكفروا بعبادة الأوثان والأصنام .

وقال ابن عباس : هم الذين يشبهون الله بخلقه .

وقيل : هم أهل مكة قالوا : لله ربنا لا شريك له ، والملائكة بناته ، فأشركوا ولم يوحدوا .

وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والشعبي ، وقتادة أيضاً ذلك في تلبيتهم يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك .

وفي الحديث كان (صلى الله عليه وسلم) إذا سمع أحدهم يقول : لبيك لا شريك لك يقول له : "قط قط" أي قف هنا ولا تزد إلا شريك هو لك .

وقيل : هم الثنوية قالوا بالنور والظلمة .

وقال عطاء : هذا في الدعاء ينسى الكفار ربهم في الرخاء ، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء .

وقيل : هم المنافقون ، جهروا بالإيمان وأخفوا الكفر .

وقيل : على بعض اليهود عبدوا عزيراً ، والنصارى عبدوا عيسى .

وقيل : قريش لما غشيهم الدخان في سني القحط قالوا : إنا مؤمنون ، ثم عادوا إلى الشرك بعد كشفه .

وقيل : جميع الخلق مؤمنهم بالرسول وكافرهم ، فالكفار تقدم شركهم ، والمؤمنون فيهم الشرك الخفي ، وأقربهم إلى الكفر المشبهة .

ولذلك قال ابن عباس : آمنوا مجملاً ، وكفروا مفصلاً .

وثانيها من يطيع الخلق بمعصية الخالق ، وثالثها من يقول : نفعني فلان وضرّني فلان .

(20/404)

أفأمنوا : استفهام إنكار فيه توبيخ وتهديد ، غاشية نقمة تغشاهم أي ، تغطيهم كقوله : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ وقال الضحاك : يعني الصواعق والقوارع انتهى .

وإتيان الغاشية يعني في الدنيا ، وذلك لمقابلته بقوله أو تأتيهم الساعة أي يوم القيامة ، بغتة أي : فجأة في الزمان من حيث لا يتوقع ، وهم لا يشعرون تأكيد لقوله بغتة .

قال الكرماني : لا يشعرون بإتيانها أي : وهم غيره مستعدين لها .

قال ابن عباس : تأخذهم الصيحة على أسواقهم ومواضعهم .

وقرأ أبو حفص ، وبشر بن عبيد : أو يأتيهم الساعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(21/404)

وقال أبو السعود :

﴿ وَكَأَيِّن مِن ءايَةٍ ﴾

أي كأي عددٍ شئت من الآيات والعلاماتِ الدالةِ على وجود الصانعِ ووحدتِه وكمال علمِه وقدرتِه وحكمته غيرِ هذه الآيةِ التي جئتَ بها ﴿ فِي السموات والأرض ﴾ أي كائنةٍ فيهما من الأجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغيّر أحوالها ومن الجبال والبحار وسائرِ ما في الأرض من العجائب الفائتةِ للحصر ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ أي يشاهدونها ولا يعبأون بها ، وقرىء برفع (الأرضِ) على الابتداء ويمرّون خبره وقرىء بنصبها على معنى ويطؤون الأرضَ يمرون عليها وفي مصحف عبد الله والأرض يَمْشُونَ عَلَيْهَا والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكةِ وغيرُ ذلك من الآيات والعبر ﴿ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ غيرُ ناظرين إليها ولا متفكّرين فيها ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله ﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيته ﴿ إِلاَّ وَهُمْ

مُّشْرِكُونَ ﴾ بعبادتهم لغيره أو باتخاذهم الأحبارَ والرهبانَ أرباباً أو بقولهم باتخاذه تعالى ولداً سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، أو بالنور والظلمة ، وهي جملةٌ حالية أي لا يؤمن أكثرُهم إلا في حال شركِهم ، قيل : نزلت الآيةُ في أهل مكة ، وقيل : في المنافقين ، وقيل : في أهل الكتاب .

﴿ أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ الله ﴾ أي عقوبةٌ تغشاهم وتشمَلُهم ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً ﴾ فجاءةً من غير سابقةِ علامة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها غير مستعدّين لها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(22/404)

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ ﴾

أي وكم من آية قال الجلال السيوطي : إن ﴿ كأي ﴾ اسم ككم التكثيرية الخبرية في المعنى مركب من كاف التشبيه وأي الاستفهامية المنونة وحكيت ، ولهذا جاز الوقف عليها بالنون لأن التنوين لما دخل في التركيب أشبه النون الأصلية ولذا رسم في المصحف نوناً ، ومن وقف عليها بحذفه اعتبر حكمه في الأصل ، وقيل : الكاف فيها هي الزائدة قال ابن

عصفور : ألا ترى أنك لا تريد بها معنى التشبيه وهي مع ذا لازمة وغير متعلقة بشيء وأي مجرورها ، وقيل : هي اسم بسيط واختاره أبو حيان قال : ويدل على ذلك تلاعب العرب بها في اللغات ، وإفادتها للاستفهام نادر حتى أنكره الجمهور ، ومنه قول أبي لابن مسعود : كأين تقرأ سورة الأحزاب آية ؟ فقال : ثلاثاً وسبعين ، والغالب وقوعها خبرية ويلزمها الصدر فلا تجر خلافاً لابن قتيبة .

وابن عصفور ولا يحتاج إلى سماع ، والقياس على كم يقتضي أن يضاف إليها ولا يحفظ ولا يخبر عنها إلا بجملة فعلية مصدرة بماض أو مضارع كما هنا ، قال أبو حيان : والقياس أن تكون في موضع نصب على المصدر أو الظرف أو خبر كان كما كان ذلك في كم .

وفي البسيط أنها تكون مبتدأ وخبراً ومفعولاً ويقوال فيها : كائن بالمدّ بوزن اسم الفاعل من كان ساكنة النون وبذلك ، قرأ ابن كثير ﴿ وكأ ﴾ بالقصر بوزن ﴿ يُؤْمِنُونَ عَمَّ ﴾ ﴿ وكأي ﴾ بوزن رمي وبه ، قرأ ابن محيصن ﴿ وكيىء ﴾ بتقديم الياء على الهمزة .

(23/404)

وذكر صاحب اللوامح أن الحسن قرأ ﴿ وكي ﴾ بياء مكسورة من غيره مز ولا ألف ولا تشديد و﴿ سُوءِ ءايَةً ﴾ في موضع التمييز و﴿ مِنْ ﴾ زائدة ، وجر تمييز كأين بها دائمي

أو أكثري ، وقيل : هي مبينة للتمييز المقدر ، والمراد من الآية الدليل الدال على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته ، وهي وإن كانت مفردة لفظاً لكنها في معنى الجمع أي آيات لمكان كائن ، والمعنى وكاي عدد شئت من الآيات الدالة على صدق ما جئت به غير هذه الآية ﴿ فِي السماوات والأرض ﴾ أي كائنة فيهما من الإجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغير أحوالها ومن الجبال والبحار وسائر ما في الأرض العجائب الفائتة للحصر :

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ يشاهدونها ﴿ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ غير متفكرين فيها ولا معتبرين بها ، وفي هذا من تأكيد تعزيه صلى الله عليه وسلم وذم القوم ما فيه ، والظاهر أن ﴿ فِي السموات والأرض ﴾ في موضع الصفة لآية وجملة ﴿ يَمُرُّونَ ﴾ خبر ﴿ كأين ﴾ كما أشرنا إليه سابقاً وجوز العكس ، وقرأ عكرمة .

وعمرو بن قائد ﴿ السماء والأرض ﴾ بالرفع على أن في السموات هو الخبر لكأين ﴿ والأرض ﴾ مبتدأ خبره الجملة بعده ويكون ضمير ﴿ عَلَيْهَا ﴾ للأرض لا للآيات كما في القراءة المشهورة ، وقرأ السدى ﴿ والأرض ﴾ بالنصب على أنه مفعول بفعل محذوف يفسره ﴿ يَمُرُّونَ ﴾ وهو من الاشتغال المفسر بما يوافقه في المعنى وضمير ﴿ عَلَيْهَا ﴾

كما هو فيما قبل أي ويطؤون الأرض يمرون عليها ، وجوز أن يقدر يطؤن ناصباً للأرض

وجملة ﴿ يَمُرُّونَ ﴾ حال منها أو من ضمير عاملها .

وقرأ عبد الله ﴿ والأرض ﴾ بالرفع و ﴿ يَمْشُونَ ﴾ بدل يمرون والمعنى على القراآت

الثلاث أنهم يجيئون ويذهبون في الأرض ويرون آثار الأمم الهالكة وما فيها من الآيات والعبر

ولا يتفكرون في ذلك .

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله ﴾

(24/404)

في إقرارهم بوجوده تعالى وخالقيته ﴿ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ به سبحانه ، والجملة في

موضع الحال من الأكثر أي ما يؤمن أكثرهم إلا في حال إشراكهم .

قال ابن عباس .

ومجاهد .

وعكرمة .

والشعبي .

وقتادة : هم أهل مكة آمنوا وأشركوا كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك اللهم لبيك لبيك لا

شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم إذا سمع أحدهم يقول : لبيك لا شريك لك يقول له : قط قط أي يكفيك ذلك ولا تزد إلا شريكاً الخ .

وقيل : هم أولئك آمنوا لما غشيهم الدخان في سنى القحط وعادوا إلى الشرك بعد كشفه .

وعن ابن زيد .

وعكرمة .

وقتادة .

ومجاهد أيضاً أن هؤلاء كفار العرب مطلقاً أقروا بالخالق الرازق المميت وأشركوا بعبادة الأوثان والأصنام ، وقيل : أشركوا بقولهم : الملائكة بنات الله سبحانه .

وعن ابن عباس أيضاً أنهم أهل اكلتاب أقروا بالله تعالى وأشركوا به من حيث كفروا بنبيه صلى الله عليه وسلم أو من حيث عبدوا عزيزاً والمسيح عليهما السلام .

وقيل : أشركوا بالتبني واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً .

وقيل : هم الكفار الذين يخلصون في الدعاء عند الشدة ويشركون إذا نجوا منها وروي ذلك عن عطاء ، وقيل : هم الثنوية قالوا بالنور والظلمة .

وقيل : هم المنافقون جهروا بالإيمان واخفوا الكفر ونسب ذلك للبلخي ، وعن الحبر أنهم المشبهة آمنوا مجملاً وكفروا مفصلاً .

وعن الحسن أنهم المراؤون بأعمالهم والرياء شرك خفي ، وقيل : هم المناظرون إلى

الأسباب المعتمدون عليها ، وقيل : هم الذين يطيعون الخلق بمعصية الخالق ، وقد يقال نظراً إلى مفهوم الآية : إنهم من يندرج فيهم كل من أقر بالله تعالى وخالقيته مثلاً وكان مرتكباً ما يعد شركاً كيفما كان ، ومن أولئك عبدة القبور الناذرون لها المعتقدون للنفع والضر ممن الله تعالى أعلم بحاله فيها وهم اليوم أكثر من الدود ، واحتجت الكرامية بالآية على أن الأيمان مجرد الإقرار باللسان وفيه نظر .

(25/404)

﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ ﴾

أي عقوبة تغشاهم وتشملهم ، والاستفهام إنكار فيه معنى التوبيخ والتهديد كما في البحر ، والكلام في العطف ومحل الاستفهام في الحقية مشهور وقد مر غير مرة ، والمراد بهذه العقوبة ما يعم الدنيوية والأخروية على ما قيل .

وفي البحر ما هو صريح في الدنيوية للمقابلة بقوله سبحانه : ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً ﴾ فجأة من غير سابقة علامة وهو الظاهر ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(26/404)

وقال القاسمي :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾

أي : وكم من آية على وحدانية الخالق ، وقدرته الباهرة ، ونعوته الجليلة ، في السماوات : من كواكبها وأفلاكها ، وفي الأرض : من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات ، وثمار مختلفات ، وأحياء وأموات ، يشاهدونها ولا يعتبرون بها .

قال الرازي : يعني أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك ، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها ، واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة ، لا بد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهي إما الأجرام الفلكية ، وإما الأجرام العنصرية . أما الأجرام الفلكية فهي قسمان : أفلاك وكواكب . أما الأفلاك فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع . وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته . وقد يستدل بأحوال حركاتها ، إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم ، فلا بد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها ، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات . وأما الأجرام الكوكبية : فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها ، وتارة بتأثيراتها في

حصول الأضواء والأظلال ، والظلمات والنور .

وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية : فإما أن تكون مأخوذة من بسائط ، وهي عجائب البر والبحر ، وإما من المواليد وهي أقسام :

أحدها : الآثار العلوية ، كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح .

وثانيها : المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها .

ثالثها : النبات وخاصية الخشب والورق والتمر ، واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص ، وخاصية مخصوصة .

ورابعها : اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها .

وخامسها : تشريح أبدان الناس ، وتشريح القوى الإنسانية ، وبيان المنفعة الحاصلة فيها .

فهذه مجامع الدلائل .

ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين ، وحكايات الأقدمين ، وأن الملوك إذا استولوا على الأرض وخربوا البلاد ، وقهروا العباد ؛ ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر ، ثم بقي الوزر والعقاب .

ولما كان العقل البشري لا يفي بالإحاطة بشرح دلائل العالم الأعلى والأسفل ؛ ذكر في الكتاب العزيز مجملاً . انتهى .

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي : الناس ، أو أهل مكة : ﴿ بِاللّهِ ﴾ أي : في إقرارهم بوجوده وخالقيته : ﴿ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ أي : بعبادتهم لغيره ، وباتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً ، وبقولهم باتخاذه تعالى ولداً : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء : 43] .

تنبيه :

(28/404)

كما تدل الآية على النعي عليهم بالشرك الأكبر ، وهو أن يعبد مع الله غيره . فإنها تشير إلى ما يتخلل الأفئدة وينغمس به الأكثرون من الشرك الخفي ، الذي لا يشعر صاحبه به غالباً .

ومنه قول الحسن في هذه الآية : ذاك المنافق ، يعمل إذا عمل رئاء الناس ، وهو مشرك بعمله . يعني : الشرك في العبادة . فصاحبه ، وإن اعتقد وحدانيته تعالى ؛ ولكن لا يخلص له في عبوديته بل يعمل لحظ نفسه ، أو طلب الدنيا ، أو طلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق ؛

فلله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ، وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب . وهذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه ابن حبان في صحيحه : < الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل > . فالرياء كله شرك ، وهو محبط للعبادة ، مبطل ثواب العمل ، ويعاقب عليه إذا كان العمل واجباً . فإنه تعالى أمر بعبادته خالصة . قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة : من الآية 5] ، فمن لم يخلص لله في عبادته ؛ لم يفعل ما أمر به ، بل الذي أتى به شيء غير المأمور ، فلا يقبل منه .

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه >

.

وروى الإمام أحمد عن محمود بن لَبِيد ، رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم : < إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ! قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء > .

ومن الشرك نوع غير مغفور ، وهو الشرك بالله في المحبة والتعظيم ، بأن يحب مخلوقاً كما يحب الله ، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله ، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً ﴾ [البقرة : من الآية 165] الآية . وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم ، وقد جمعتهم الجحيم : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : 97 – 98] ، ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ، والملك والقدرة ، وإنما سووهم به في الحب والتأله ، والخضوع لهم والتذلل . وهذا غاية الجهل والظلم ، فكيف يسوى من خلق من التراب برب الأرباب ؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ، وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذي ليس له من ذاته إلا العدم ؛ بالغني بالذات ، القادر بالذات ، الذي غناه وقدرته وملكه ووجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام ، من لوازم ذاته ؟ فأي ظلم أقبح من هذا وأي حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه . أفاده الشمس ابن القيم في " الجواب الكافي " .

قال الحافظ ابن كثير : وثم شرك خفي لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روي عن حذيفة أنه دخل على مريض ، فرأى في عضده سيراً فقطعه ، ثم قال : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ .

وفي الحديث : < من حلف بغير الله فقد أشرك > رواه الترمذي عن ابن عمر وحسنه .

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إن الرقى والتمائم والتولة شرك > . ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا عن زينب امرأة عبد الله قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب ، تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ؟ قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح ، وعندي عجوز ترقيني من الحمرة ، فأدخلتها تحت السرير . قالت : فدخل فجلس إلى جانبي ، فرأى في عنقي خيطاً ، فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه ! فأخذه فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : < إن الرقى والتمائم والتولة شرك > . قالت : قلت له : لم تقول هذا ، وقد كانت عيني تفرق ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها ، فكان إذا رقاها سكنت ؟ ! فقال : إنما ذاك من الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاها كفَّ عنها ، كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : < أذهب الباس ، رب الناس ، اشف وأنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً > .

وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < من علق تميمة فقد أشرك > .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن عَمْرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك > .

وبما ذكر يعلم أن لفظ الآية يتناول كل ما يصدق عليه مسمى الإيمان ، مع وجود مسمى الشرك ، فأهل الشرك الأكبر ما يؤمن أكثرهم بأن الله هو الخالق إلا وهو مشرك به ، بما يتخذه من الشفعاء ، وما يعبده من الأصنام . وكذا أهل الشرك الأصغر من المسلمين ، كالرياء مثلاً ، ما يؤمن أحدهم بالله إلا وهو مشرك به ، بذلك الشرك الخفي . وعلى هذا ، فالشرك يجامع الإيمان ، فإن الموصوف بهما مما تقدم ، مؤمن فيما آمن به ، ومشرك فيما أشرك به . والتسمية في الشريعة لله عز وجل ولرسوله ، فلهما أن يوقعا أي : اسم شاءا على أي : مسمى شاءا . فكما أن الإيمان في اللغة التصديق ، ثم أوقعه الله عز وجل في الشريعة على جميع الطاعات ، واجتناب المعاصي ، إذا قُصد بكل ذلك ، من عمل أو ترك ، وجه الله تعالى ؛ كذلك الشرك نقل عن شرك شيء مع آخر مطلقاً ، إلى الشرك في عبادته تعالى ، وفي خصائص ربوبيته .

قال ابن القيم :

حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق ، والتشبه للمخلوق به ، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية ، فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء ، والخوف والرجاء ، والتوكل به وحده . فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فضلاً عن غيره مشبهاً بمن له الأمر كله ، جل وعلا . فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات . ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل ، مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون له وحده . ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير ، بمن لا شبيه له ، ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله . ولشدة قبحه ، وتضمنه غاية الظلم ؛ أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة . ومن خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين ، لا قوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الذل . هذا تمام العبودية . وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين . فمن أعطى

حبه وذله وخضوعه لغير الله ؛ فقد شبهه به في خالص حقه ، وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع . وقبحُه مستقر في كل فطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم ، ومضى على الفطرة من سبقت له من الله الحسنى .

إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود ، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به .

ومنها التوكل ، فمن توكل على غيره فقد شبهه به . ومنها التوبة ، فمن تاب لغيره فقد شبهه به . ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً ، فمن حلف بغيره فقد

(33/404)

شبهه به . هذا في جانب التشبيه . وأما في جانب التشبه به ، فمن تعاظم وتكبر ، ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم ، والخضوع ، والرجاء ، وتعليق القلب به ، خوفاً ، ورجاء ، والتجاء ، واستعانة ؛ فقد تشبه به ، ونازعه في ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان ، ويذله غاية الذل .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال : < يقول الله عز وجل : العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحداً منهما عذبته > . وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده ، كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ، ونحوه .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : < أغيظ رجل على الله رجل يسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله > .

فهذا غضب الله على من تشبه في الاسم ، الذي لا ينبغي إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده ، يحكم عليهم كلهم ، ويقضي عليهم ، لا غيره .

وتتمة هذا البحث في " الجواب الكافي " لابن القيم ، فانظره .

وقوله تعالى :

(34/404)

﴿ أَفَأَمِنُواْ ﴾ أي : هؤلاء المشركون : ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ ﴾ أي : عقوبة تنبسط عليهم وتغمرهم : ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي : بإتيانها ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 45 - 46 - 47] ، وقوله : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا

ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : 97 - 98 - 99] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 232.237 ﴾

(35/404)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آَيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

عطف على جملة ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ [يوسف : 103] ، أي ليس إعراضهم عن آية حصول العلم للأمي بما في الكتب السالفة فحسب بل هم معرضون عن آيات كثيرة في السماوات والأرض .

و﴿ كأين ﴾ اسم يدل على كثرة العدد المبهم يبينه تمييز مجرور بـ ﴿ من ﴾ .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وكأين من نبيء قاتل معه ربيون كثير ﴾ في سورة آل عمران (146) .

والآية : العلامة ، والمراد هنا الدالةُ على وحدانية الله تعالى بقرينة ذكر الإشراك بعدها .

ومعنى يمرون عليها ﴾ يرونها ، والمرور مجاز مكنّى به عن التحقق والمشاهدة إذ لا يصح حمل المرور على المعنى الحقيقي بالنسبة لآيات السماوات ، فالمرور هنا كالذي في قوله

تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروُّا كراماً ﴾ [الفرقان : 72] .

وضمير يمرون ﴾ عائد إلى الناس من قوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

وجملة ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يمرون ﴾ أي وما يؤمن أكثر الناس إلا وهم مشركون ، والمراد بـ ﴿ أكثر الناس ﴾ أهل الشرك من العرب .

وهذا إبطال لما يزعمونه من الاعتراف بأن الله خالقهم كما في قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ ، وبأن إيمانهم بالله كالعدم لأنهم لا يؤمنون بوجود الله إلا في تشريكهم معه غيره في الإلهية .

والاستثناء من عموم الأحوال ، فجملة ﴿ وهم مشركون ﴾ حال من ﴿ أكثرهم ﴾ .

والمقصود من هذا تشنيع حالهم .

والأظهر أن يكون هذا من قبيل تأكيد الشيء بما يشبه ضده على وجه التهكم .

وإسناد هذا الحكم إلى ﴿ أكثرهم ﴾ باعتبار أكثر أحوالهم وأقوالهم لأنهم قد تصدر عنهم أقوال خلية عن ذكر الشريك .

وليس المراد أن بعضاً منهم يؤمن بالله غير مشرك معه إلهاً آخر .

﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾

اعتراض بالتفريع على ما دلت عليه الجملتان قبله من تفظيع حالهم وجرأتهم على خالقهم والاستمرار على ذلك دون إقلاع ، فكأنهم في إعراضهم عن توقع حصول غضب الله بهم آمنون أن تأتيهم غاشية من عذابه في الدنيا أو تأتيهم الساعة بغتة فتحول بينهم وبين التوبة ويصيرون إلى العذاب الخالد .

والاستفهام مستعمل في التوبيخ .

والغشْي والغشيان : الإحاطة من كل جانب ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴾ [سورة لقمان : 32] .

وتقدم في قوله تعالى يغشي الليل النهار في [سورة الأعراف : 54] .

والغاشية الحادثة التي تحيط بالناس .

والعرب يؤنثون هذه الحوادث مثل الطّامة والصاخة والداهية والمصيبة والكارثة والحادثة والواقعة والحاقة .

والبغتة : الفجأة .

وتقدمت عند قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة ﴾ في آخر سورة الأنعام (31) . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾

وإذا سمعتَ "كأين" افهم أن معناها كثير كثير كثير ؛ بما يفوق الحَصْر ، ومثل "كأين" كلمة "كم" ، والعَدُّ هو مظنة الحصر ، والشيء الذي فوق الحصر ؛ تنصرف عن عَدّه ، ولا أحد يحصر رمال الصحراء مثلاً ، لكن كلاًّ منا يعُدُّ النقود التي يردُّها لنا البائع ، بعد أن يأخذ ثمن ما اشتريناه .

إذن : فالانصراف عن العَدّ معناه أن الأمر الذي نريد أن نتوجه لِعَدّه فوق الحصر ، ولا أحد يعُدُّ النجوم أو يحصيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يُنبِّهنا إلى هذه القضية ، لإسباغ نعمه على خلقه ، ويقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا . . . ﴾ [إبراهيم : 34]

و"إنْ" هي للأمر المشكوك فيه ، وأنتم لن تعدُّوا نعمة الله ؛ لأنها فوق الحصر ، والمعدود دائماً يكون مُكرراً ، وذكَر الحق هنا نعمة واحدة ، ولم يحددها ؛ لأن أيَّ نعمة تستقبلها من الله لو استقصيتها لوجدتَ فيها نِعماً لا تُحصَر ولا تُعَدُّ .

إذن: فكلمة "كأين" تعني "كم"، وأنت تقول للولد الذي لم يستذكر دروسه: كم نصحتك؟ وأنت لا تقولها إلا بعد أن يفيض بك الكيل.

وتأتي "كم" ويُراد بها تضخيم العدد، لا منك أنت المتكلم، ولكن ممَّنْ تُوجّه إليه الكلام، وكأنك تستأمنه على أنه لن ينطق إلا صِدْقاً، أو كأنك استحضرتَ النصائح، فوجدتها كثيرة جداً.

والسؤال عن الكمية إما أنْ يُلْقى من المتكلم، وإما أن يُطلب من المخاطب؛ وطلبُه من المخاطب دليل على أنه سَيقِرّ على نفسه، والإقرار سيد الأدلة.

وحين يقول سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن . . . ﴾ [يوسف: 105]

فمعناها أن ما يأتي بعدها كثير.

(38/404)

وسبحان القائل: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا استكانوا والله يُحِبُّ الصابرين ﴾ [آل عمران: 146]

وهكذا نفهم أن (كأين) تعني الكثير جداً؛ الذي بلغ من الكثرة مبلغاً يُبرر لنا العذر أمام الغير إنْ لم نُحْصِه.

والآيات هي جمع "آية" ؛ وهي الشيء العجيب ، المُلْفِت للنظر ويُقال : فلان آية في الذكاء . أي : أن ذكاءه مضرب المثل ، كأمر عجيب يفوق ذكاء الآخرين .

ويُقال : فلان آية في الشجاعة ؛ وهكذا .

ومعنى الشيء العجيب أنه هو الخارج عن المألوف ، ولا يُنسَى .

وقد نثر الحق سبحانه في الكون آياتٍ عجيبة ، ولكل منثور في الكون حكمة . وتنقسم معنى الآيات إلى ثلاث :

الأول : هو الآيات الكونية التي تحدثنا عنها ، وهي عجائب ؛ وهي حُجَّة للمتأمل أن يؤمن بالله الذي أوجدها ؛ وهي تلفِتُك إلى أن مَنْ خلقها لأبدَّ أن تكون له منتهى الحكمة ومنتهى الدِّقة ، وهذه الآيات تلفتنا إلى صدق توحيد الله والعقيدة فيه .

وقد نثر الحق سبحانه هذه الآيات في الكون .

وحينما أعلن الله بواسطة رسله أنه سبحانه الذي خلقها ، ولم يَقُلْ أحد غيره : "أنا الذي خلقت" فهذه المسألة مسألة الخلق تثبُت له سبحانه ، فهو الخالق وما سواه مخلوق ، وهذه الآيات قد خُلِقت من أجل هدف وغاية .

وفي سورة الروم نجد آيات تجمع أغلب آيات الكون ؛ فيقول الحق سبحانه : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الحمد فِي السماوات والأرض وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي وَيُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتسكنوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغآؤكم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : 17-25]

كل هذه آيات تنبه الإنسان الموجود في الكون أنه يتمتع فيه طبقاً لنواميس عليا ؛ فيها سِرُّ بقاء حياته ؛ فيجب أن ينتبه إلى مَنْ أوجدها .

وبعد أن ينتبه إلى وجود واحد أعلى ؛ كان عليه أن يسأل : ماذا يريد منه هذا الخالق الأعلى ؟

هذه الآيات تفرض علينا عقلياً أن يوجد مَنْ يبلغنا مطلوبَ الواجد الأعلى ، وحينما يأتي

رسول يقول لنا : إن مَنْ تبحثون عنه اسمه الله ؛ وهو قد بعثني لأبلغكم بمطلوبه منكم أن تعبدوه ؛ فتتبعوا أوامره وتجتنبوا نواهيه .

(40/404)

والنوع الثاني من الآيات هي آيات إعجازية ، والمراد منها تثبيت دعوة الرسل ، فكان ولأبدّ أن يأتي كل رسول ومعه آية ؛ لتثبت صِدْق بلاغه عن الله ؛ لأن كل رسول هو من البشر ، ولابد له من آية تخرق النواميس ، وهي المعجزات التي جاءت مع الرسل .

وهناك آيات حُكْمية ، وهي النوع الثالث ، وهي الفواصل التي تحمل جُملاً ، فيها أحكام القرآن الكريم ؛ وهو المنهج الخاتم .

وهي آياتٌ عجيبة أيضاً ؛ لأنك لا تجد حُكْماً من أحكام الدين إلا ويمسُّ منطقياً حاجة من حاجات النفس الإنسانية ، والبشر وإنْ كفروا سيُضطرون إلى كثير من القضايا التي كانوا ينكرونها ، ولكن لا حَلَّ للمشكلات التي يواجهونها ، ولا تُحَلّ إلا بها .

والمثل الواضح هو الطلاق ، وهم قد عَابُوا مجيء الإسلام به ؛ وقالوا : إن مثل هذا الحل للعلاقة بين الرجل والمرأة قد يحمل الكثير من القسوة على الأسرة ، لكنهم لجأوا إليه بعد أن عضّتهم أحداث الحياة ، وهكذا اهتدى العقل البشري إلى حكم كان يناقضه .

وكذلك أمر الربا الذي يحاولون الآن وَضْع نظام ليتحللوا من الربا كله ، ويقولون : لا شيء يمنع العقل البشري من التوصُّل إلى ما يفيد .

وهكذا نجد الآيات الكونية هي عجائب بكل المقاييس ، والآيات المصاحبة للرسل هي معجزات خَرَقَتْ النواميس ، وآياتُ القرآن بما فيها من أحكام تَقِي الإنسان من الداء قبل أن يقع ، وتُجبرهم معضلات الحياة أن يعودوا إلى أحكام القرآن ليأخذوا بها .

وهم يُعرضون عن كل الآيات ، يُعرضون عن آيات الكون التي إنْ دَقَّقوا فيها لَثبتَ لهم وجود إله خالق ؛ ولأخذوا عطاءً من عطاءات الله ليسري تربية وتنمية ، وكل الاكتشافات الحديثة إنما جاءت نتيجة لملاحظاتِ ظاهرةٍ ما في الكون .

(41/404)

وسبق أن ضربتُ المثل بالرجل الذي جلس ليطهو في قِدرْ ؛ ثم رأى غطاء القِدْر يعلو ؛ ففكَّر وتساءل : لماذا يعلو غطاء القدر ؟ ولم يُعرِض الرجل عن تأمُّل ذلك ، واستنباط حقيقة تحوُّل الماء إلى بخار ؛ واستطاع عن طريق ذلك أن يكتشف أن الماء حين يتبخر يتمدد ؛ ويحتاج إلى حَيِّزٍ أكبر من الحَيِّز الذي كان فيه قبل التمدد .

وكان هذا التأمُّل وراء اكتشاف طاقة البخار التي عملتْ بها البواخر والقطارات ، وبدأ

عصر سُمِّي " عصر البخار " . وهذا الذي رأى طَفْوَ طبقٍ على سطح الماء وتأمّل تلك الظاهرة، ووضع قاعدة باسمه، وهي " قاعدة أرشميدس " .

وهكذا نجد أن أي إنسان يتأمل الكون بدِقَّة سيجد في ظواهره ما يفيد في الدنيا ؛ كما استفاد العالم من تأملات أرشميدس وغيره ؛ ممّنْ قدَّموا تأملاتهم كملاحظات، تتبعها العلماء ليصلوا إلى اختراعات تفيد البشرية .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يضِنُّ على الكافر بما يفيد العالم ما دام يتأمل ظواهر الكون، ويستنبط منها ما يفيد البشرية .

إذن فقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا . . . ﴾ [يوسف : 105]

إنْ أردتها وسيلة للإيمان بإله ؛ فهي تقودك إلى الإيمان ؛ وإنْ أردتها لفائدة الدنيا فالحقُّ لم يبخل على كافر بأن يُعطيه نتيجة ما يبذل من جهد .

فكل المطلوب ألاّ تمُرَّ على آيات الله وأنت معْرِض عنها ؛ بل على الإنسان أن يُقبِل إقبال الدارس، إما لتنتهي إلى قضية إيمانية تُثْرِي حياتك ؛ وتعطيك حياة لا نهايةَ لها ، وهي حياة الآخرة، أو تُسعِد حياتك وحياة غيرك، بأن تبتكر أشياء تفيدك، وتفيد البشرية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله . . . ﴾

وهكذا نرى المصافي التي يمر بها البشر ليصلوا إلى الإيمان .

المصفى الأول : قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103]

(42/404)

أي : أن الكثير من الناس لن يَصِلوا إلى الإيمان ، حتى ولو حرص الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكونوا مؤمنين .

وقلنا : إن مقابل "كثير" قد يكون "قليل" ، وقد يكون "كثير" ، وبعض المؤمنين قد يشوب إيمانهم شبهةُ من الشرك ، صحيح أنهم مؤمنون بالإله الواحد ، ولكن إيمانهم ليس يقينياً ، بل إيمان متذبذب ، ويُشرِكون به غيره .

والمصفى الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : 106]

ومثال هذا : كفار قريش الذين قال فيهم الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . . . ﴾ [الزخرف : 87]

ويقول فيهم أيضاً : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . . . ﴾ [

لقمان : 25]

ورغم قولهم هذا إلا أنهم جعلوا شفعاء لهم عند الله ، وقالوا : إن الملائكة بنات الله ، وهكذا جعلوا لله شركاء . ومعهم كل مَنْ ادعى أن لله ابناً من أهل الكتاب .

وأيضاً مع هؤلاء يوجد بعض من المسلمين الذي يخصُّون قوماً أقوياء بالخضوع لهم خضوعاً لا يمكن أن يُسمَّى في العرف مودة ؛ لأنه تَقرُّب ممتلئ بالذلة ؛ لأنهم يعتقدون أن لهم تأثيراً في النفع والضر ؛ وفي هذا لون من الشرك .

ويأتي الواحد من هؤلاء ليقول لِمَنْ يتقرب منه : أرجو أن تقضي لي الأمر الفلاني . ويرد صاحب النفوذ : اعتمد على الله ، وإن شاء الله سيقضي الله لك حاجتك .

لكن صاحب الطلب يتمادى في الذِّلة ، ليقول : وأنا اعتمد عليك أيضاً ، لتقضي لي هذه الحاجة .

أو يرد صاحب النفوذ ويقول : أنا سوف افعل لك الشيء الفلاني ؛ والباقي على الله .

وحين أسمع ذلك فأنا أتساءل : وماذا عن الذي ليس باقياً ، أليس على الله أيضاً ؟

وينثر الله حِكَماً في أشياء تمنَّاها أصحابها ؛ فقُضِيتْ ؛ ثم تبين أن فيها شراً ، وهناك أشياء تمناها أصحابها ؛ فلم تُقْضَ ؛ ثم تبين أن عدم قضائها كان فيه الخير كل الخير .

نجد الأثر يقول :

وَاطلبُوا الأشياءَ بِعزّةِ الأنفُسِ . . . فَإِنَّ الأُمورَ تَجْرِي بِمقَادِير

وربما منعك هذا فكرهته ، وكان المنع لك خيراً من قضائه لك ، فإن المنع عَيْن العطاء ،

ولذلك فعلى الإنسان أن يعرف دائماً أن الله هو الفاعل ، وهو المسبب ، وأن السبب شيء آخر .

ودائماً أذكّر بأننا حين نحجُّ أو نعتمر نسعى بين الصفا والمروة لنتذكر ما فعلتْه سيدتنا هاجر التي سَعَتْ بين الصفا والمروة ؛ لتطلب الماء لوليدها بعد استنفدت أسبابها ؛ ثم وجدت الماء تحت رِجْل وليدها إسماعيل .

فقد أخذتْ هي بالأسباب ، فجاء لها رب الأسباب بما سألت عنه . ولم يأت لها الحق سبحانه بالماء في جهة الصفا أو المروة ؛ ليثبت لها القضية الأولى التي سألت عنها إبراهيم عليه السلام حين أنزلها في هذا المكان .

فقد قالت له : ءأنزلتنا هنا برأيك ؟ أم أن الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم أمرني ربِّي . قالت : إذن لا يضيعنا .

وقد سَعَتْ هي بحثاً عن الماء أخذاً بالأسباب ، وعثرتْ على الماء بقدرة المسبِّب الأعلى .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : 106]

يتطلب منا أن نعرف كيف يتسرَّب الشرك إلى الإيمان ، ولنا أن نتساءل : مادام يوجد الإيمان ؛ فمن أين تأتي لحظة الشرك ؟

ويشرح الحق سبحانه لنا ذلك حين يقول : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفلك دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 65-66]

هم إذن قد آمنوا وهم في الفُلْك ، وأخذوا يدعُون الله حين واجهتهم أزمة في البحر ؛ لكنهم ما أن وصلوا إلى الشاطئ حتى ظهر بينهم الشرك .

حين يسألهم السائل : ماذا حدث ؟

(44/404)

فيجيبون : أنهم كانوا قد أخذوا حذرهم ، واستعدوا بقوارب النجاة . ونَسَوْا أن الله هو الذي أنقذهم فانطبق عليهم قول الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلُواْ للهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ [إبراهيم : 30]

وفي حياتنا اليومية قد تذهب لتقضي حاجة لإنسان ؛ وبعد أن يُسَهِّل لك الله قضاء تلك

الحاجة ؛ تلتفت فلا تجده ، ولا يفكر في أن يُوجّه لك كلمة الشكر .

وحين تلقاه يقول لك : كل ما طلبته منك وجدته مقضياً ، لقد كلَّمْتُ فلاناً فقضاها .

وهو يقول لك ذلك ليُبعد عنك ما أسبغه الله عليك من فضل قضائك لحاجته ؛ وذلك لأنه لحظة أن طلب منك مساعدته في قضاء تلك الحاجة تذلَّل وخضع ، وبعد أن تنقضي يتصرف كفرعون ويتناسى .

ولا ينزعه من فرعنته إلا رؤياك ؛ لأنه يعلم أنك صاحب جميل عليه ، بل قد يريد بك الشر ؛ رغم أنك أنت مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأن هذه هي طبيعة الإنسان .

يقول تعالى : ﴿ كَلَّاَ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7]

ولذلك يقول في المثل : " اتَّقِ شَرَّ من أحسنت إليه " .

وأنت تتقي شره ، بأن تحذر أن تمُنَّ عليه بالإحسان ؛ كي لا تنمي فيه غريزة الكره لك .

والناصح يحتسب أيَّ مساعدة منه لغيره عند الله ؛ فيأخذ جزاءه من خالقه لحظة أداء فعل الخير ، ولا ينتظر شيئاً ممَّنْ فعل الخير له ؛ لأنك لا تعلم ماذا فكَّر لحظة أن أدَّيتَ له الخدمة ، فحين يجد ترحيبَ الناس بك في الجهة التي تؤدِّي له الخدمة فيها ؛ قد يتساءل : لماذا يحترمونك أكثر منه ؟

وهو يسأل هذا السؤال لنفسه على الرغم من أنك مُتواجِد معه في هذا المكان لتخدمه .

ولذلك يقول العامة هذا المثل : " اعمل الخير وارْمه في البحر " ؛ لأن الله هو الذي يجازيك وليس البشر ؛ فاجعل كل عملك مُوجَّهاً لله ، وانْسَ أنك فعلْتَ معروفاً لأحد .

(45/404)

والمعروف المنكُور هو أجْدى أنواع المعروف عليك ؛ لأن الذي يُجازِي عليه هو الله ؛ وهو سبحانه مَنْ سيناولك أجره وثوابه بيده ؛ ولذلك عليك أن تنسى مَنْ أحسنتَ إليه ؛ كي يُعوِّضك الله بالخير على ما فعلت .

ويُقال في الأثر : إن موسى عليه السلام قال : يا ربِّ ، إني أسألك ألاّ يُقال فيّ ما ليس فيّ .

فأوضح له الله : يا موسى لم أصنعها لنفسي ؛ فكيف أصنعها لك .

ويعرض الحق سبحانه هذه المسألة في القرآن بشكل آخر فيقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النار ﴾ [الزمر : 8]

والإنسان لحظةَ أن يمسَّه الضرُّ ؛ فهو يدعو الربوبية المتكفِّلة بمصالحه : يا ربّ أنت الذي خلقتني ، وأنت المتكفِّل بتربيتي ؛ وأنا أتوكل عليك في مصالحي ، فأنقذني ممَّا أنا فيه .

ومثل هذا الإنسان كمثل الرُّبان الذي ينقذه الله بأعجوبة من العاصفة ؛ لكنه بعد النجاة

يحاول أن ينسب نجاة السفينة من الغرق لنفسه .

ولذلك أقول دائماً : احذروا أيها المؤمنون أن تنسَوْا المُنعِم المُسبِّب في كل شيء ، وإياكم أن تُفْتنوا بالأسباب ؛ فتغفلوا عن المُسبِّب ؛ وهو سبحانه مُعْطي الأسباب .

وأقول ذلك حتى لا تقعوا في ظلم أنفسكم بالشرك بالله ؛ فسبحانه القائل : ﴿ الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : 82]

والظلم كما نعلم هو أن تُعطِي الحق لغيره صاحبه ؛ فكيف يَجْرُؤ أحد على أن يتجاهل فَضْل الله عليه ؟ فيقع في الشرك الخفي ، والظلم الأكبر هو الشرك .

وسبحانه القائل : ﴿ . . . إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(46/404)

﴿ أفأمنوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ . . . ﴾

ألم يحسب هؤلاء حساب انتقام الله منهم بعذاب الدنيا الذي يَعُمُّ ؛ لأن الغاشية هي العقاب الذي يَعُمُّ ويُغطِّي الجميع ؛ أم أنهم استبطئوا الموت ، واستبطئوا القيامة وعذابها ؛ رغم أن الموت مُعلَّق على رقاب الجميع ، ولا أحد يعلم ميعاد موته .

فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " من مات قامت قيامته " .

فما الذي يُبطئهم عن الإيمان بالله والإخلاص التوحيدي لله ، بدون أنْ يمسَّهم شرك ؛ قبل أن تقوم قيامتهم بغتةً ؛ أي : بدون جرس تمهيدي .

ونعلم أن مَنْ سبقونا إلى الموت لا يطول عليهم الإحساس بالزمن إلى أن تقومَ قيامة كُلِّ الخَلْق ؛ لأن الزمن لا يطول إلا على مُتتبع أحداثه .

والنائم مثلاً لا يعرف كَمْ ساعةً قد نام ؛ لأن وَعْيه مفقود فلا يعرف الزمن ، والذي يوضح لنا أن الذين سبقونا لا يشعرون بمرور الزمن هو قوله الحق : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : 46] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(47/404)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ [106] قال : يعني شرك النفس الأمارة بالسوء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الشرك في أمتي أخفى من

دبيب النمل على الصفا » ، هذا باطن الآية ، وأما ظاهرها مشركو العرب يؤمنون بالله ، كما قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف : 87] وهم مع ذلك مشركون يؤمنون ببعض الرسل ولا يؤمنون ببعضهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 83 ﴾

(48/404)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ قال : هم بنو يعقوب ، إذ يمكرون بيوسف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – ﴿ وما كنت لديهم ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، يقول ﴿ ما كنت لديهم ﴾ وهم يلقونه في

غيابة الجب ﴿ وهم يمكرون ﴾ بيوسف .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك - رضي الله عنه - ﴿ وكأين من آية ﴾ قال : كم من آية في السماء ، يعني شمسها وقمرها ونجومها وسحابها . وفي الأرض ، ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة قال في مصحف عبد الله [وكأين من آية في السموات والأرض يمشون عليها] والسماء والأرض آيتان عظيمتان .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال : سلهم من خلقهم ، ومن خلق السموات والأرض ؟ ؟ . . . فيقولون : الله . فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن عطاء - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال : كانوا يعلمون إن الله ربهم وهو خالقهم وهو رازقهم ، وكانوا مع ذلك يشركون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال : إيمانهم ، قولهم الله خلقنا وهو يرزقنا ويميتنا . فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال : كانوا يشركون به في تلبيتهم ، يقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال : ذاك المنافق ، يعمل بالرياء وهو مشرك بعمله .

﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ غاشية من عذاب الله ﴾ قال : تغشاهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ غاشية من عذاب الله ﴾ قال : واقعة تغشاهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ غاشية ﴾ قال : عقوبة من عذاب الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ عَذَابِ الله ﴾ : صفةٌ ل " غاشية " ، و " بَغْتة " حال وهو في الأصلِ مصدر ، وتقدَّم نظيره .

والجمهور على جَرِّ " الأرض " عطفاً على " السماوات " والضمير في " عليها " للآية فيكون " يمرُّون " صفة للآية أو حالاً لتخصُّصها بالوصفِ بالجار . وقيل : يعود الضمير في " عليها " على الأرض فيكون " يمرون " حالاً منها . وقال أبو البقاء : " وقيل منها ومن السماوات ، أي : تكون الحال من الشيئين جميعاً ، وهذا لا يجوز إذ كان يجب أن يقال " عليهما " ، وأيضاً فإنهم لا يَمُرُّون في السماوات ، / إلا أن يُراد : يمرُّون على آياتهما ، فيعودُ المعنى إلى عَوْد الضمير للآية . وقد يُجاب عن الأول بأنه مِنْ باب الحذف كقوله تعالى : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] .

وقرأ السدِّي " والأرضَ " بالنصب ، ووجهُه أنه من باب الاشتغال ، ويُفَسَّر الفعلُ بما يوافقه معنى أي : يطؤون الأرض ، أو يسلكون الأرضَ يمرون عليها كقولك : " زيداً مررت به " .

وقرأ عكرمة وعمرو بن فائد : " والأرضُ " بالرفع على الابتداء ، وخبرُه الجملةَ بعده ، والضمير في هاتين القراءتين يعودُ على الأرض فقط .

وقرأ أبو حفص ومبشر بن عبيد : أو " يأْتيهم الساعة " بالياء من تحت لأنه مؤنث مجازيٌّ وللفصلِ أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 560 . 561 ﴾

(51/404)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آَيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105) ﴾

الآياتُ ظاهرة ، والبراهين باهرة ، وكلُّ جُزْءٍ من المخلوقات شاهِدٌ على أنَّه واحد ، ولكن كما أنَّ مَنْ أغْمضَ عينه لم يستمتع بضوء نهاره فكذلك مَن قَصَّرَ في نَظَرِه واعتباره لم يحظَ بعرفانه واستبصاره .

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) ﴾

الشّرْكُ الجَلِيُّ أن يتَّخِذَ من دونه – سبحانه – معبوداً ، والشّرْكُ الخَفِيُّ أن يتخذ بقلبه عند حوائجه من دونه – سبحانه – مقصوداً .

ويقال شِرْكُ العارفين أن يتخذوا من دونه مشهوداً ، أو يطالعوا سواه موجوداً .

ويقال مِنَ الشِرْكِ الخفيّ الإحالةُ على الأشكال في تجنيس الأحوال ، والإخلاد إلى الاختيار والاحتيال عند تزاحم الأشغال .

﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107) ﴾

أَفَأَمِنَ الذي اغترّ بطول الإمهال ألا يُبْتلى بالاستئصال ، أَفَأَمِنَ مَنْ اغترّ بطول السلامة ألا يقوم بالبلاءُ عليه يومَ القيامة .

ويقال الغاشيةُ حجابٌ من القسوة يحصل في القلب ، لا يزول بالتضرع ولا ينقشع بالتخشع .

ويقال الغاشيةُ من العذاب أن تزولَ من القلب سرعةُ الانقلاب إلى الله تعالى ، حتى إذا تمادى صاحب الغفلة استقبله في الطريق ما يوجب قنوطه من زواله ، وفي معناه أنشدوا :

قلتُ للنَّفْسِ إنْ أردتِ رجوعاً . . . فارجعي قَبْلَ أَنْ يُسَدَّ الطريقُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 212 . 213 ﴾

(52/404)

قوله تعالى ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وصف الله سبحانه له ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر الناس بما وصف من سوء الطريقة للتقليد الذي منشؤه الإعراض عن الأدلة الموجبة للعلم ، أمر أن يذكر طريق الخلّص فقال : ﴿ قل ﴾ أي يا أعلى الخلق وأصفاهم وأعظمهم نصحاً وإخلاصاً : ﴿ هذه ﴾ أي الدعوة إلى الله على ما دعا إليه كتاب الله وسننه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ سبيلي ﴾ القريبة المأخذ ، الجلية الأمر ، الجليلة الشأن ، الواسعة الواضحة جداً ، فكأنه قيل : ما هي ؟ فقال : ﴿ أدعوا ﴾ كل من يصح دعاؤه ﴿ إلى الله ﴾ الحائز لجميع الكمال حال كوني ﴿ على بصيرة ﴾ أي حجة واضحة من أمري بنظري الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة وترك التقليد الدال على الغباوة والجمود ، لأن البصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل ديناً ودنيا بحيث يكون كأنه يبصر المعنى بالعين .

ولما كان الموضع في غاية الشرف ، أكد الضمير المستتر تعييناً وتنبيهاً على التأهل لظهور الإمامة ، فقال : ﴿ أنا ومن ﴾ أي ويدعو كذلك من ﴿ اتبعني ﴾ لا كمن هو على عمى جائر عن القصد ، حائر في ضلال التقليد ، فهو لا يزال في غفلة هدفاً للحتوف ؛ والاتباع : طلب الثاني اللحاق بالأول للموافقة في مكانه أو في أمره الذي دعا إليه ، ومما دخل تحت ﴿ قل ﴾ عطفاً على ﴿ أدعوا ﴾ قوله : منبهاً على أن شرط كل دعوة إليه سبحانه اقترانها بتنزيهه عن كل شائبة نقص - ﴿ وسبحان الله ﴾ أي وأسبح الذي اختص بصفات الكمال سبحاناً ، أي أقدره حق قدره فأثبت له من صفات الكمال ما يليق بجلاله ، وأنزهه عما هو متعال عنه تنزيهاً يعلم هم أنه يليق بجلالة ويرضى به ، وفي تخصيص الله بذلك عقب ما أثبت له ولأتباعه تلويح بنسبة النقص إليهم تواضعاً ، اعتذاراً عما يلحقهم من الوهن وطلباً للعفو عنه ﴿ وما أنا ﴾ وعدل عن " مشركاً " إلى أبلغ منه فقال : ﴿ من المشركين ﴾ أي في عداد من يشرك به شيئاً بوجه من الوجوه ، لأني علمت بما آتاني من البصيرة أنه منعوت بنعوت الكمال ، منزه عن سمات النقص ، متعال عنها ، وأن ذلك أول واجب لأنه الواحد الذي جل عن المجانسة ، القهار الذي كل شيء تحت مشيئته ، وفسرت ﴿ سبحان ﴾ بما تقدم لأن مادة " سبح " بكل ترتيب تدور على القدر والشدة والاتساع ؛ وتارة يقتصر فيه على الكفاية ومنه الحسب : مقدار الشيء .

وتارة يقتصر فيه على الكفاية فيلزمه الحصر ومنه : أحسبني الشيء : كفاني ، واحتساب الأجر : الاكتفاء به ، والحساب : معرفة المقدار ، والحسب بمعنى الظن راجع إلى ذلك أيضاً ، والأحسب : الذي ابيضت جلدته من داء وفسدت شعرته ، بمعنى أن ذلك الداء كفاه في الفساد عن كل داء كأنه ما بقي يسع معه داء ، والتحسيب : التكفين بما يسع الميت ، وهو كفاية له لا يحتاج بعده إلى شيء ، ومنه الحبس وهو المنع من مجاوزة الكفاية ؛ وتتجاوز الكفاية فيسبح ويتسع مداه فلا ينحصر ومنه : الحسب - بالتحريك ، وهو الشرف ؛ ومنه السحب وبه سمي السحاب لانسياحه في الهواء ؛ ومنه السبح في الماء ، ومد الفرس يديه في الجري ، والسبحة : صلاة التطوع - لأنه لا حد لها يحصرها ، ولأنها تجاوزت الفرض ، والسبح : الفراغ - للتمكن معه من الانبساط ، والتسبيح : التنزيه - لأنه الإبعاد عن النقص ، قال الرماني : وأصله البراءة من الشيء ، وقال ابن مكتوم في الجمع بين العباب والمحكم : سبحان الله معناه تنزيهاً لله من الصحابة والولد ، وتبرئة من السوء - هذا معناه في اللغة وبذلك جاء الأثر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، قال سيبويه : زعم أبو الخطاب أن " سبحان الله " كقولك براءة الله من السوء ، كأنه يقول : أبرئ براءة الله من السوء ، وزعم أن مثل ذلك قول الأعشى :

أقول لما جاءني فخره . . .

سبحان من علقمه الفاخر

أي براءة منه ، وبهذا استدل على أن سبحان معرفة إذ لو كان نكرة لانصرف ، قال : وقد جاء في الشعر منوناً نكرة ، قال أمية :

سبحانه ثم سبحاناً يعود له . . .

وقبلنا سبح الجودي والجمد

وقال ابن جني : سبحان اسم علم لمعنى البراءة والتنزيه بمنزلة عثمان وحمران ، اجتمع في سبحان التعريف والألف والنون ، وكلاهما علة تمنع من الصرف – انتهى .

(55/404)

وقال الزجاج : جاء عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن قوله " سبحان الله " تبرئة لله من السوء ، وأهل اللغة كذلك يقولون من غير معرفة بما فيه من الرواية عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ولكن تفسيره يجمعون عليه ، وقد سبح الرجل : قال سبحان الله ، وفي التنزيل ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ [النور : 41] وسبح لغة في سبّح ، وحكى ثعلب : سبح تسبيحاً وسبحاناً ، قال ابن سيده : وعندي أنا سبحاناً ليس مصدراً لسبّح ، إنما هو مصدر سبح ، وقال النصر : سبحان الله معناه السرعة إليه والخفة في طاعته ،

وسبوحة – بفتح السين : البلد الحرام ، وسباح علم الأرض الملساء عند معدن بني سليم ، وسبحات وجه الله : أنواره ، والسبحة : الدعاء ، وأيضاً صلاة التطوع – انتهى .

وكله راجع إلى الإبعاد عن السوء ، والسبحان : النفس ، وكل أحد يبرىء نفسه ويرفعها عن السوء . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 108. 110﴾

(56/404)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

قال المفسرون : قل يا محمد لهم هذه الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها سبيلي وسنتي ومنهاجي ، وسمي الدين سبيلاً لأنه الطريق الذي يؤدي إلى الثواب ، ومثله قوله تعالى : ﴿ادع إلى سَبِيلِ رَبّكَ﴾ [النحل : 125] .

واعلم أن السبيل في أصل اللغة الطريق ، وشبهوا المعتقدات بها لما أن الإنسان يمر عليها إلى الجنة ادعوا الله على بصيرة وحجة وبرهان أنا ومن اتبعني إلى سيرتي وطريقتي وسيرة أتباعي الدعوة إلى الله ، لأن كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه

إلى الله وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين ، فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور وقال عليه الصلاة والسلام : " العلماء أمناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون لما تدعونهم إليه " وقيل أيضاً يجوز أن ينقطع الكلام عند قوله ﴿ ادعوا إِلَى اللهِ ﴾ ثم ابتدأ وقال : ﴿ على بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتبعنى ﴾ وقوله : ﴿ وسبحان الله ﴾ عطف على قوله : ﴿ هذه سَبِيلِى ﴾ أي قل هذه سبيلي وقل سبحان الله تنزيهاً لله عما يشركون وما أنا من المشركين الذين اتخذوا مع الله ضداً ونداً وكفؤاً وولداً ، وهذه الآية تدل على أن حرفة الكلام وعلم الأصول حرفة الأنبياء عليهم السلام وأن الله ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 179 ﴾

(57/404)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قل هذه سبيلي ﴾

فيها تأويلان :

أحدهما : هذه دعوتي ، قاله ابن عباس .

الثاني : هذه سنتي ، قاله عبد الرحمن بن زيد . والمراد بها تأويلان :

أحدهما : الإخلاص لله تعالى بالتوحيد .

الثاني : التسليم لأمره فيما قضاه .

﴿ أدْعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبَعَني ﴾ فيه تأويلان : أحدهما : على هدى ، قاله قتادة .

الثاني : على حق ، وهو قول عبد الرحمن بن زيد . وذكر بعض أصحاب الخواطر تأويلاً (ثالثاً) أي أبلغ الرسالة ولا أملك الهداية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(58/404)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ الآية

إشارة إلى دعوة الإسلام والشريعة بأسرها . قال ابن زيد : المعنى : هذا أمري وسنتي ومنهاجي .

وقرأ ابن مسعود : " قل هذا سبيلي " " والسبيل " : المسلك ، وتؤنث وتذكر ، وكذلك

الطريق، و﴿ بصيرة ﴾ : اسم لمعتقد الإنسان في الأمر من الحق واليقين، و" البصيرة " أيضاً في كلام العرب: الطريقة في الدم، وفي الحديث المشهور: " تنظر في النصل فلا ترى بصيرة "، وبها فسر بعض الناس قول الأشعر الجعفي:

راحوا بصائرهم على أكتافهم . . . وبصيرتي يعدو بها عتد وأي

يصف قوماً باعوا دم وليهم فكأن دمه حصلت منه طرائق على أكتافهم إذ هم موسومون عند الناس ببيع ذلك الدم.

قال القاضي أبو محمد: ويجوز أن تكون " البصيرة " في بيت الأشعر على المعتقد الحق، أي جعلوا اعتقادهم طلب النار وبصيرتهم في ذلك وراء ظهورهم، كما تقول: طرح فلان أمري وراء ظهره.

وقوله: ﴿ أنا ومن اتبعني ﴾ يحتمل أن يكون تأكيداً للضمير في ﴿ ادعوا ﴾ ويحتمل أن تكون الآية كلها أمارة بالمعروف داعية إلى الله الكفرة به والعصاة.

و﴿ سبحان الله ﴾ تنزيه لله، أي وقل: سبحان الله، وقل متبرئاً من الشرك. وروي أن هذه الآية: ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ إلى آخرها كانت مرقومة على رايات يوسف عليه السلام. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هذه سبيلي ﴾

ابتداء وخبر ؛ أي قل يا محمد هذه طريقي وسُنّتي ومِنْهَاجِي ؛ قاله ابن زيد .

وقال الرّبيع : دعوتي .

مقاتل : ديني ، والمعنى واحد ؛ أي الذي أنا عليه وأدعو إليه يؤدّي إلى الجنة .

﴿ على بَصِيرَةٍ ﴾ أي على يقين وحقّ ؛ ومنه : فلان مستبصر بهذا .

﴿ أَنَاْ ﴾ توكيد .

﴿ ومَنِ اتبعني ﴾ عطف على المضمر .

﴿ وَسُبْحَانَ الله ﴾ أي قل يا محمد : "وَسُبْحَانَ اللَّهِ" .

﴿ وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ الذين يتخذون من دون الله أنداداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبي حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قل ﴾ أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ هذه سبيلي ﴾ يعني طريقي التي ﴿ أدعو ﴾ إليها وهي توحيد الله ودين الإسلام وسمي الدين سبيلاً لأنه الطريق المؤدي إلى الله وإلى الثواب والجنة ﴿ إلى الله ﴾ يعني إلى توحيد الله والإيمان به ﴿ على بصيرة ﴾ يعني على يقين ومعرفة والبصيرة هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل ﴿ أنا ومن اتبعني ﴾ يعني من آمن بي وصدق بما جئت به أيضاً يدعو إلى الله ، وهذا قول الكلبي وابن زيد قال : حق على من اتبعه وآمن به أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن وقيل تم الكلام عند قوله أدعو إلى الله ثم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعني بعدي أنا على بصيرة ومن اتبعني أيضاً على بصيرة قال ابن عباس إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه كانوا على أحسن طريقة وأفضل هداية وهم معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن .

وقال ابن مسعود : ومن كان مستناً فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) كانوا خير هذه الأمة وأبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطريقهم فهؤلاء كانوا على الصراط المستقيم .

وقوله ﴿ سبحان الله ﴾ أي وقل سبحان الله يعني تنزيهاً له عما لا يليق بجلاله من جميع العيوب والنقائص والشركاء الأضداد والأنداد ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ يعني وقل يا

محمد وما أنا من المشركين الذي أشركوا بالله غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(61/404)

فصل

سُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية :

عَنْ قَوْله تَعَالَى ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ؟

وَهَلْ الدَّعْوَةُ عَامَّةٌ تَتَعَيَّنُ فِي حَقِّ كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ أَمْ لَا وَإِذَا كَانَا دَاخِلَيْنِ أَوْ لَمْ يَكُونَا فَهَلْ هُمَا مِنْ الْوَاجِبَاتِ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا تَقَدَّمَ أَمْ لَا ؟ وَإِذَا كَانَا وَاجِبَيْنِ فَهَلْ يَجِبَانِ مُطْلَقًا مَعَ وُجُودِ الْمَشَقَّةِ بِسَبَبِهِمَا أَمْ لَا ؟ وَهَلْ لِلْآمِرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنْ الْمُنْكَرِ أَنْ يَقْتَصَّ مِنْ الْجَانِي عَلَيْهِ إذَا آذَاهُ فِي ذَلِكَ لِئَلَّا يُؤَدِّيَ إلَى طَمَعٍ مِنْهُ فِي جَانِبِ الْحَقِّ أَمْ لَا ؟ وَإِذَا كَانَ لَهُ ذَلِكَ فَهَلْ تَرْكُهُ أَوْلَى مُطْلَقًا أَمْ لَا ؟ .

فَأَجَابَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - :

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الدَّعْوَةُ إلَى اللَّهِ هِيَ الدَّعْوَةُ إلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ

بِتَصْدِيقِهِمْ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ وَطَاعَتِهِمْ فِيمَا أَمَرُوا وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الدَّعْوَةَ إلَى الشَّهَادَتَيْنِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ وَالدَّعْوَةَ إلَى الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ،

(62/404)

وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَالدَّعْوَةَ إلَى أَنْ يَعْبُدَ الْعَبْدُ رَبَّهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ. فَإِنَّ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ الثَّلَاثَ الَّتِي هِيَ " الْإِسْلَامُ " و " الْإِيمَانُ " و " الْإِحْسَانُ " دَاخِلَةٌ فِي الدِّينِ كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ﴿ هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ ﴾ بَعْدَ أَنْ أَجَابَهُ عَنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ. فَبَيَّنَ أَنَّهَا كُلَّهَا مِنْ دِينِنَا. و " الدِّينُ " مَصْدَرٌ وَالْمَصْدَرُ يُضَافُ إلَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ يُقَالُ دَانَ فُلَانٌ فُلَانًا إذَا عَبَدَهُ وَأَطَاعَهُ كَمَا يُقَالُ دَانَهُ إذَا أَذَلَّهُ. فَالْعَبْدُ يَدِينُ اللَّهَ أَيْ يَعْبُدُهُ وَيُطِيعُهُ فَإِذَا أُضِيفَ الدِّينُ إلَى الْعَبْدِ فَلِأَنَّهُ الْعَابِدُ الْمُطِيعُ وَإِذَا أُضِيفَ إلَى اللَّهِ فَلِأَنَّهُ الْمَعْبُودُ الْمُطَاعُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾. فَالدَّعْوَةُ إلَى اللَّهِ تَكُونُ بِدَعْوَةِ الْعَبْدِ إلَى دِينِهِ وَأَصْلُ ذَلِكَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا بَعَثَ اللَّهُ بِذَلِكَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا

تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا

(63/404)

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلَّا نُوحِي إلَيْهِ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ ؛ الْأَنْبِيَاءُ إخْوَةٌ لِعَلَّاتِ وَإِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا إنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ ﴾ فَالدِّينُ وَاحِدٌ وَإِنَّمَا تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَمَنَاهِجُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ . فَالرُّسُلُ مُتَّفِقُونَ فِي الدِّينِ الْجَامِعِ لِلْأُصُولِ الِاعْتِقَادِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ فَالاعتقادية كَالْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَبِرُسُلِهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْعَمَلِيَّةِ كَالْأَعْمَالِ الْعَامَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْأَنْعَامِ وَالْأَعْرَافِ وَسُورَةِ بَنِي إسْرَائِيلَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلَى آخِرِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ . وَقَوْلِهِ : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ ﴾ إلَى آخِرِ الْوَصَايَا . وَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا

ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا

(64/404)

تَعْلَمُونَ ﴾ .

(65/404)

فَهَذِهِ الْأُمُورُ هِيَ مِنْ الدِّينِ الَّذِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الشَّرَائِعُ كَعَامَّةِ مَا فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ فَإِنَّ السُّوَرَ الْمَكِّيَّةَ تَضَمَّنَتْ الْأُصُولَ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا رُسُلُ اللَّهِ ؛ إذْ كَانَ الْخِطَابُ فِيهَا يَتَضَمَّنُ الدَّعْوَةَ لِمَنْ لَا يُقِرُّ بِأَصْلِ الرِّسَالَةِ وَأَمَّا السُّوَرُ الْمَدَنِيَّةُ فَفِيهَا الْخِطَابُ لِمَنْ يُقِرُّ بِأَصْلِ الرِّسَالَةِ كَأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ آمَنُوا بِبَعْضِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِ وَكَالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِكُتُبِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ؛ وَلِهَذَا قَرَّرَ فِيهَا الشَّرَائِعَ الَّتِي أَكْمَلَ اللَّهُ بِهَا الدِّينَ : كَالْقِبْلَةِ وَالْحَجِّ وَالصِّيَامِ وَالِاعْتِكَافِ وَالْجِهَادِ وَأَحْكَامِ الْمَنَاكِحِ وَنَحْوِهَا ؛ وَأَحْكَامِ الْأَمْوَالِ بِالْعَدْلِ كَالْبَيْعِ وَالْإِحْسَانِ كَالصَّدَقَةِ وَالظُّلْمِ كَالرِّبَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ تَمَامِ الدِّينِ . وَلِهَذَا كَانَ الْخِطَابُ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ : ﴿ يَا أَيُّهَا

النَّاسُ ﴾ لِعُمُومِ الدَّعْوَةِ إلَى الْأُصُولِ ؛ إذْ لَا يُدْعَى إلَى الْفَرْعِ مَنْ لَا يُقِرُّ بِالْأَصْلِ فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْمَدِينَةِ وَعَزَّ بِهَا أَهْلُ الْإِيمَانِ وَكَانَ بِهَا أَهْلُ الْكِتَابِ خُوطِبَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ؛ فَهَؤُلَاءِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وَهَؤُلَاءِ ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ أَوْ ﴿ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ ﴾ وَلَمْ يَنْزِلْ بِمَكَّةَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا ؛ وَلَكِنْ فِي السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ خِطَابُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ كَمَا فِي سُورَةِ النِّسَاءِ وَسُورَةِ الْحَجِّ وَهُمَا مَدَنِيَّتَانِ وَكَذَا فِي الْبَقَرَةِ . وَهَذَا يُعَكِّرُ عَلَى قَوْلِ

(66/404)

الْحَبْرِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ الْمَذْكُورَ يَشْمَلُ جِنْسَ النَّاسِ وَالدَّعْوَةُ بِالِاسْمِ الْخَاصِّ لَا تُنَافِي الدَّعْوَةَ بِالِاسْمِ الْعَامِّ

(67/404)

فَالْمُؤْمِنُونَ دَاخِلُونَ فِي الْخِطَابِ بِـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وَفِي الْخِطَابِ بِـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فَالدَّعْوَةُ إلَى اللَّهِ تَتَضَمَّنُ الْأَمْرَ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَالنَّهْيَ عَنْ كُلِّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ

وهذا هو الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر . والرسول صلى الله عليه وسلم قام بهذه الدعوة فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه؛ أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر . قال تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ . ودعوته إلى الله هي بإذنه لم يشرع دينا لم يأذن به الله كما قال تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ ﴿ وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ خلاف الذين ذمهم في قوله : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ .

ومما يبين ما ذكرناه : أنه سبحانه يذكر أنه أمره بالدعوة إلى الله تارة وتارة بالدعوة إلى سبيله كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ وذلك أنه قد علم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر لا بد فيما يدعو إليه من أمرين : " أحدهما "

الْمَقْصُودُ الْمُرَادُ . و " الثَّانِي " الْوَسِيلَةُ وَالطَّرِيقُ الْمُوصِّلُ إلَى الْمَقْصُودِ ؛ فَلِهَذَا يَذْكُرُ الدَّعْوَةَ تَارَةً إلَى اللَّهِ وَتَارَةً إلَى سَبِيلِهِ ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ الْمُرَادُ الْمَقْصُودُ بِالدَّعْوَةِ . وَالْعِبَادَةُ : اسْمٌ يَجْمَعُ غَايَةَ الْحُبِّ لَهُ وَغَايَةَ الذُّلِّ لَهُ فَمَنْ ذَلَّ لِغَيْرِهِ مَعَ بُغْضِهِ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا وَمَنْ أَحَبَّهُ مِنْ غَيْرِ ذُلٍّ لَهُ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُحَبَّ غَايَةَ الْمَحَبَّةِ ؛ بَلْ يَكُونُ هُوَ الْمَحْبُوبَ الْمُطْلَقَ الَّذِي لَا يُحَبُّ شَيْءٌ إلَّا لَهُ وَأَنْ يُعَظَّمَ وَيُذَلَّ لَهُ غَايَةَ الذُّلِّ ؛ بَلْ لَا يُذَلُّ لِشَيْءِ إلَّا مِنْ أَجْلِهِ وَمَنْ أَشْرَكَ غَيْرَهُ فِي هَذَا وَهَذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ حَقِيقَةُ الْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ فَإِنَّ الشِّرْكَ يُوجِبُ نَقْصَ الْمَحَبَّةِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ أَيْ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ

لِأَنْدَادِهِمْ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ وَكَذَلِكَ الِاسْتِكْبَارُ يَمْنَعُ حَقِيقَةَ الذُّلِّ لِلَّهِ ؛ بَلْ يَمْنَعُ حَقِيقَةَ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ فَإِنَّ الْحُبَّ التَّامَّ يُوجِبُ الذُّلَّ وَالطَّاعَةَ فَإِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ . وَلِهَذَا كَانَ الْحُبُّ دَرَجَاتٍ أَعْلَاهَا " التتيم " وَهُوَ التَّعَبُّدُ وَتَيْمُ اللَّهِ أَيْ عَبْدُ اللَّهِ ؛ فَالْقَلْبُ الْمُتَيَّمُ هُوَ الْمُعَبَّدُ لِمَحْبُوبِهِ وَهَذَا لَا يَسْتَحِقُّهُ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ . وَالْإِسْلَامُ أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَبْدُ لِلَّهِ لَا لِغَيْرِهِ كَمَا

يُنْبِئُ عَنْهُ قَوْلُ: " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " فَمَنْ اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ وَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لَهُ فَهُوَ مُسْتَكْبِرٌ وَكِلَاهُمَا ضِدُّ الْإِسْلَامِ. وَالشِّرْكُ غَالِبٌ عَلَى النَّصَارَى وَمَنْ ضَاهَاهُمْ مِنْ الضُّلَّالِ وَالْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْأُمَّةِ. وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْمَوْضِعِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ. وَذَلِكَ يَتَعَلَّقُ بِتَحْقِيقِ الْأُلُوهِيَّةِ لِلَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَامْتِنَاعِ الشِّرْكِ وَفَسَادِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِتَقْدِيرِ إلَهٍ غَيْرِهِ وَالْفَرْقِ بَيْنَ الشِّرْكِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالشِّرْكِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ وَبَيَانِ أَنَّ الْعِبَادَ فُطِرُوا عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَأَنَّ الْقُلُوبَ لَا تَصْلُحُ إلَّا بِأَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا

(70/404)

كَمَالَ لَهَا وَلَا صَلَاحَ وَلَا لَذَّةَ وَلَا سُرُورَ وَلَا فَرَحَ وَلَا سَعَادَةَ بِدُونِ ذَلِكَ وَتَحْقِيقِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْمَوْضِعِ الَّذِي فِي تَحْقِيقِهِ تَحْقِيقُ مَقْصُودِ الدَّعْوَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَهُوَ لُبُّ الْقُرْآنِ وَزُبْدَتُهُ وَبَيَانُ التَّوْحِيدِ الْعِلْمِيِّ الْقَوْلِيِّ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ وَالتَّوْحِيدِ الْقَصْدِيِّ الْعَمَلِيِّ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا بَيَانٌ لِأَصْلِ الدَّعْوَةِ إلَى اللَّهِ وَحَقِيقَتِهَا وَمَقْصُودِهَا. لَكِنَّ الْمَقْصُودَ فِي الْجَوَابِ ذِكْرُ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ الْإِجْمَالِ؛ إذْ لَا يَتَّسِعُ

الْجَوَابُ لِتَفْصِيلِ ذَلِكَ وَكُلُّ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ مِنْ بَاطِنٍ وَظَاهِرٍ فَمِنْ الدَّعْوَةِ إلَى اللَّهِ الْأَمْرُ بِهِ وَكُلُّ مَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ بَاطِنٍ وَظَاهِرٍ ؛ فَمِنْ الدَّعْوَةِ إلَى اللَّهِ النَّهْيُ عَنْهُ لَا تَتِمُّ الدَّعْوَةُ إلَى اللَّهِ إلَّا بِالدَّعْوَةِ إلَى أَنْ يَفْعَلَ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَيَتْرُكَ مَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ سَوَاءٌ كَانَ مِنْ الْأَقْوَالِ أَوْ الْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ أَوْ الظَّاهِرَةِ كَالتَّصْدِيقِ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَالْمَعَادِ وَتَفْصِيلِ ذَلِكَ وَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ كَالْعَرْشِ

(71/404)

وَالْكُرْسِيِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَأُمَمِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ ؛ وَكَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ وَأَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إلَيْنَا مِمَّا سِوَاهُمَا وَكَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالرَّجَاءِ لِرَحْمَتِهِ ،

(72/404)

وَخَشْيَةِ عَذَابِهِ وَالصَّبْرِ لِحُكْمِهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَكَصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَكَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ بِالْقَلْبِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ . إذَا

تَبَيَّنَ ذَلِكَ: فَالدَّعْوَةُ إلَى اللَّهِ وَاجِبَةٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَهُ وَهُمْ أُمَّتُهُ يَدْعُونَ إلَى اللَّهِ كَمَا دَعَا إلَى اللَّهِ. وَكَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ أَمْرَهُمْ بِمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهْيَهُمْ عَمَّا يَنْهَى عَنْهُ وَإِخْبَارَهُمْ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ؛ إذْ الدَّعْوَةُ تَتَضَمَّنُ الْأَمْرَ وَذَلِكَ يَتَنَاوَلُ الْأَمْرَ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَالنَّهْيَ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ. وَقَدْ وَصَفَ أُمَّتَهُ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَمَا وَصَفَهُ بِذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ الْآيَةَ وَهَذَا الْوَاجِبُ وَاجِبٌ عَلَى مَجْمُوعِ الْأُمَّةِ وَهُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ فَرْضَ كِفَايَةٍ إذَا قَامَ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ فَالْأُمَّةُ كُلُّهَا مُخَاطَبَةٌ بِفِعْلِ ذَلِكَ؛ وَلَكِنْ إذَا قَامَتْ بِهِ طَائِفَةٌ سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾. فَمَجْمُوعُ أُمَّتِهِ تَقُومُ مَقَامَهُ فِي الدَّعْوَةِ إلَى اللَّهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ إجْمَاعُهُمْ

(73/404)

حُجَّةً قَاطِعَةً فَأُمَّتُهُ لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ وَإِذَا تَنَازَعُوا فِي شَيْءٍ رَدُّوا مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الْأُمَّةِ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ مِنْ الدَّعْوَةِ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُ فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُهُ سَقَطَ عَنْهُ وَمَا عَجَزَ لَمْ يُطَالَبْ بِهِ. وَأَمَّا مَا لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُ وَهُوَ قَادِرٌ

عَلَيْهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ بِهِ ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى هَذَا أَنْ يَقُومَ بِمَا لَا يَجِبُ عَلَى هَذَا وَقَدْ تَقَسَّطَتْ الدَّعْوَةُ عَلَى الْأُمَّةِ بِحَسَبِ ذَلِكَ تَارَةً وَبِحَسَبِ غَيْرِهِ أُخْرَى ؛ فَقَدْ يَدْعُو هَذَا إلَى اعْتِقَادِ الْوَاجِبِ وَهَذَا إلَى عَمَلٍ ظَاهِرٍ وَاجِبٍ وَهَذَا إلَى عَمَلٍ بَاطِنٍ وَاجِبٍ ؛ فَتَنَوُّعُ الدَّعْوَةِ يَكُونُ فِي الْوُجُوبِ تَارَةً وَفِي الْوُقُوعِ أُخْرَى . وَقَدْ تَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ الدَّعْوَةَ إلَى اللَّهِ تَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ؛ لَكِنَّهَا فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ الْمُعَيَّنِ مِنْ ذَلِكَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُ وَهَذَا شَأْنُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَتَبْلِيغِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَتَعْلِيمِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ . وَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الدَّعْوَةَ نَفْسَهَا أَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ فَإِنَّ الدَّاعِيَ طَالِبٌ مُسْتَدْعٍ مُقْتَضٍ لِمَا دُعِيَ إلَيْهِ وَذَلِكَ هُوَ الْأَمْرُ بِهِ ؛ إذْ الْأَمْرُ هُوَ طَلَبُ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَاسْتِدْعَاءٌ لَهُ وَدُعَاءٌ إلَيْهِ فَالدُّعَاءُ

إلَى اللَّهِ الدُّعَاءُ إلَى سَبِيلِهِ فَهُوَ أَمْرٌ بِسَبِيلِهِ وَسَبِيلُهُ تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ . وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُمَا وَاجِبَانِ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ وُجُوبَ فَرْضِ الْكِفَايَةِ لَا وُجُوبَ فَرْضِ الْأَعْيَانِ كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ بَلْ كَوُجُوبِ الْجِهَادِ .

وَالْقِيَامُ بِالْوَاجِبَاتِ : مِنْ الدَّعْوَةِ الْوَاجِبَةِ وَغَيْرِهَا يَحْتَاجُ إلَى شُرُوطٍ يُقَامُ بِهَا كَمَا جَاءَ فِي

الْحَدِيثِ : ﴿ يَنْبَغِي لِمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنْ الْمُنْكَرِ أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ فَقِيهًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ رَفِيقًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ رَفِيقًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ حَلِيمًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ حَلِيمًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ ﴾ فَالْفِقْهُ قَبْلَ الْأَمْرِ لِيُعْرَفَ الْمَعْرُوفُ وَيُنْكَرَ الْمُنْكَرُ وَالرِّفْقُ عِنْدَ الْأَمْرِ لِيَسْلُكَ أَقْرَبَ الطُّرُقِ إلَى تَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ وَالْحِلْمُ بَعْدَ الْأَمْرِ لِيَصْبِرَ عَلَى أَذَى الْمَأْمُورِ الْمَنْهِيِّ فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَحْصُلُ لَهُ الْأَذَى بِذَلِكَ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ وَقَدْ أَمَرَ نَبِيَّنَا بِالصَّبْرِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ الْمُدَّثِّرِ : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾

(75/404)

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ . وَقَدْ جَمَعَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ التَّقْوَى وَالصَّبْرِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ

عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ . وَالْمُؤْمِنُونَ كَانُوا يَدْعُونَ إلَى الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ الْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ الْمُنْكَرِ فَيُؤْذِيهِمْ الْمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ . وَقَدْ أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ قَبْلَ وُقُوعِهِ وَقَالَ لَهُمْ : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ وَقَدْ قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . فَالتَّقْوَى تَتَضَمَّنُ طَاعَةَ اللَّهِ وَمِنْهَا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالصَّبْرُ يَتَنَاوَلُ الصَّبْرَ عَلَى الْمَصَائِبِ الَّتِي مِنْهَا أَذَى الْمَأْمُورِ الْمَنْهِيِّ لِلْآمِرِ النَّاهِي .

لَكِنْ لِلْآمِرِ النَّاهِي أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ مَا يَضُرُّهُ كَمَا يَدْفَعُ الْإِنْسَانُ عَنْ نَفْسِهِ الصَّائِلَ فَإِذَا أَرَادَ الْمَأْمُورُ الْمَنْهِيُّ ضَرْبَهُ أَوْ أَخْذَ مَالِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى دَفْعِهِ فَلَهُ دَفْعُهُ عَنْهُ ؛ بِخِلَافِ مَا إذَا وَقَعَ الْأَذَى

وَتَابَ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ هَذَا مَقَامُ الصَّبْرِ وَالْحِلْمِ وَالْكَمَالُ فِي هَذَا الْبَابِ حَالُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ خَادِمًا لَهُ وَلَا امْرَأَةً وَلَا دَابَّةً وَلَا شَيْئًا قَطُّ إلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا نِيلَ مِنْهُ فَانْتَقَمَ لِنَفْسِهِ إلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُ اللَّهِ فَإِذَا انْتُهِكَتْ مَحَارِمُ اللَّهِ لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّى

يَنْتَقِمَ لِلَّهِ ﴾ فَقَدْ تَضَمَّنَ خُلُقُهُ الْعَظِيمُ أَنَّهُ لَا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ إذَا نِيلَ مِنْهُ وَإِذَا انْتُهِكَتْ مَحَارِمُ اللَّهِ لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَقِمَ لِلَّهِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَذَى الرَّسُولِ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَرَّمَاتِ فَإِنَّ مَنْ آذَاهُ فَقَدْ آذَى اللَّهَ وَقَتْلُ سَابِّهِ وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ سَوَاءٌ قِيلَ إنَّهُ قُتِلَ لِكَوْنِهِ رِدَّةً أَوْ لِكَوْنِهِ رِدَّةً مُغَلَّظَةً أَوْجَبَتْ أَنْ صَارَ قَتْلُ السَّابِّ حَدًّا مِنْ الْحُدُودِ . وَالْمَنْقُولُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي احْتِمَالِهِ وَعَفْوِهِ عَمَّنْ كَانَ يُؤْذِيهِ كَثِيرٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ . فَالْآمِرُ النَّاهِي إذَا أُوذِيَ وَكَانَ أَذَاهُ تَعَدِّيًا لِحُدُودِ اللَّهِ وَفِيهِ حَقٌّ لِلَّهِ يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ النَّهْيُ عَنْهُ وَصَاحِبُهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ

(77/404)

؛ لَكِنْ لَمَّا دَخَلَ فِيهِ حَقُّ الْآدَمِيِّ كَانَ لَهُ الْعَفْوُ عَنْهُ كَمَا لَهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْ الْقَاذِفِ وَالْقَاتِلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَعَفْوُهُ عَنْهُ لَا يُسْقِطُ عَنْ ذَلِكَ الْعُقُوبَةَ الَّتِي وَجَبَتْ عَلَيْهِ لِحَقِّ اللَّهِ ؛ لَكِنْ يُكْمِلُ لِهَذَا الْآمِرِ النَّاهِي مَقَامَ الصَّبْرِ وَالْعَفْوِ الَّذِي شَرَعَ اللَّهُ لِمِثْلِهِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ . ثُمَّ هُنَا فَرْقٌ لَطِيفٌ : أَمَّا الصَّبْرُ فَإِنَّهُ مَأْمُورٌ بِهِ مُطْلَقًا فَلَا يُنْسَخُ . وَأَمَّا الْعَفْوُ

وَالصَّفْحُ فَإِنَّهُ جُعِلَ إلَى غَايَةٍ وَهُوَ: أَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ فَلَمَّا أَتَى بِأَمْرِهِ: بِتَمْكِينِ الرَّسُولِ وَنَصْرِهِ - صَارَ قَادِرًا عَلَى الْجِهَادِ لِأُولَئِكَ وَإِلْزَامِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَمَنْعِهِمْ عَنْ الْمُنْكَرِ - صَارَ يَجِبُ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِالْيَدِ فِي ذَلِكَ مَا كَانَ عَاجِزًا عَنْهُ وَهُوَ مَأْمُورٌ بِالصَّبْرِ فِي ذَلِكَ كَمَا كَانَ مَأْمُورًا بِالصَّبْرِ أَوَّلًا. وَالْجِهَادُ مَقْصُودُهُ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَأَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ؛ فَمَقْصُودُهُ إقَامَةُ دِينِ اللَّهِ لَا اسْتِيفَاءُ الرَّجُلِ حَظَّهُ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُجَاهِدُ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ أَجْرُهُ فِيهِ عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ حَتَّى إنَّ الْكُفَّارَ إذَا أَسْلَمُوا أَوْ عَاهَدُوا لَمْ يُضَمَّنُوا مَا أَتْلَفُوهُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ؛

(78/404)

بَلْ لَوْ أَسْلَمُوا وَبِأَيْدِيهِمْ مَا غَنِمُوهُ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ مِلْكًا لَهُمْ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ: كَمَالِكِ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَد وَهُوَ الَّذِي مَضَتْ بِهِ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُنَّةُ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ.

فَالْآمِرُ النَّاهِي إذَا نِيلَ مِنْهُ وَأُوذِيَ ثُمَّ إنَّ ذَلِكَ الْمَأْمُورَ الْمَنْهِيَّ تَابَ وَقَبِلَ الْحَقَّ مِنْهُ: فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقْتَصَّ مِنْهُ وَيُعَاقِبَهُ عَلَى أَذَاهُ فَإِنَّهُ قَدْ سَقَطَ عَنْهُ بِالتَّوْبَةِ حَقُّ اللَّهِ كَمَا يَسْقُطُ عَنْ الْكَافِرِ إذَا أَسْلَمَ حُقُوقُ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

﴿ الْإِسْلَامُ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ وَالتَّوْبَةُ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا ﴾ وَالْكَافِرُ إذَا أَسْلَمَ هَدَمَ الْإِسْلَامُ مَا كَانَ قَبْلَهُ: دَخَلَ فِي ذَلِكَ مَا اعْتَدَى بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي نُفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؛ لِأَنَّهُ مَا كَانَ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ حَرَامًا؛ بَلْ كَانَ يَسْتَحِلُّهُ فَلَمَّا تَابَ مِنْ ذَلِكَ غُفِرَ لَهُ هَذَا الِاسْتِحْلَالُ وَغُفِرَتْ لَهُ تَوَابِعُهُ.

(79/404)

فَالْمَأْمُورُ الْمَنْهِيُّ إنْ كَانَ مُسْتَحِلًّا لِأَذَى الْآمِرِ النَّاهِي كَأَهْلِ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ وَأَنَّ الْآمِرَ النَّاهِيَ لَهُمْ مُعْتَدٍ عَلَيْهِمْ فَإِذَا تَابُوا لَمْ يُعَاقَبُوا بِمَا اعْتَدَوْا بِهِ عَلَى الْآمِرِ النَّاهِي مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ كَالرَّافِضِي الَّذِي يَعْتَقِدُ كُفْرَ الصَّحَابَةِ أَوْ فِسْقَهُمْ وَسَبَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَإِنْ تَابَ مِنْ هَذَا الِاعْتِقَادِ وَصَارَ يُحِبُّهُمْ وَيَتَوَلَّاهُمْ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ عَلَيْهِ حَقٌّ بَلْ دَخَلَ حَقُّهُمْ فِي حَقِّ اللَّهِ ثُبُوتًا وَسُقُوطًا؛ لِأَنَّهُ تَابِعٌ لِاعْتِقَادِهِ. وَلِهَذَا كَانَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ - كَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَأَحْمَد فِي أَصَحِّ الرِّوَايَتَيْنِ وَالشَّافِعِيِّ فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ عَلَى - أَنَّ أَهْلَ الْبَغْيِ الْمُتَأَوِّلِينَ لَا يَضْمَنُونَ مَا أَتْلَفُوهُ عَلَى أَهْلِ الْعَدْلِ بِالتَّأْوِيلِ كَمَا لَا يَضْمَنُ أَهْلُ الْعَدْلِ مَا أَتْلَفُوهُ عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ بِالتَّأْوِيلِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ.

(80/404)

وكذلك أصح قولي العلماء في المرتدين فإن المرتد والباغي المتأول والمبتدع كل هؤلاء يعتقد أحدهم أنه على حق فيفعل ما يفعله متأولا فإذا تاب من ذلك كان كتوبة الكافر من كفره؛ فيغفر له ما سلف مما فعله متأولا وهذا بخلاف من يعتقد أن ما يفعله بغي وعدوان كالمسلم إذا ظلم المسلم والذمي إذا ظلم المسلم والمرتد الذي أتلف مال غيره وليس بمحارب بل هو في الظاهر مسلم أو معاهد فإن هؤلاء يضمنون ما أتلفوه بالاتفاق.

فالمأمور المنهي إن كان يعتقد أن أذى الآمر الناهي جائز له فهو من المتأولين وحق الآمر الناهي داخل في حق الله تعالى فإذا تاب سقط الحقان وإن لم يتب كان مطلوبا بحق الله المتضمن حق الآدمي فإما أن يكون كافرا وإما أن يكون فاسقا وإما أن يكون عاصيا.

فهؤلاء كل يستحق العقوبة الشرعية بحسبه وإن كان مجتهدا مخطئا فهذا قد عفا الله عنه خطأه فإذا كان قد حصل بسبب اجتهاده الخطأ أذى للآمر الناهي بغير حق فهو كالحاكم إذا اجتهد فأخطأ وكان في ذلك ما هو أذى للمسلم أو كالشاهد أو كالمفتي. فإذا كان الخطأ لم يتبين لذلك المجتهد المخطئ كان هذا مما ابتلى الله به هذا الآمر الناهي.

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ فَهَذَا مِمَّا يَرْتَفِعُ عَنْهُ الْإِثْمُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَكَذَلِكَ الْجَزَاءُ عَلَى وَجْهِ الْعُقُوبَةِ ؛ وَلَكِنْ قَدْ يُقَالُ : قَدْ يَسْقُطُ الْجَزَاءُ عَلَى وَجْهِ الْقِصَاصِ الَّذِي يَجِبُ فِي الْعَمْدِ وَيَثْبُتُ الضَّمَانُ الَّذِي يَجِبُ فِي الْخَطَإِ كَمَا تَجِبُ الدِّيَةُ فِي الْخَطَإِ وَكَمَا يَجِبُ ضَمَانُ الْأَمْوَالِ الَّتِي يُتْلِفُهَا الصَّبِيُّ وَالْمَجْنُونُ فِي مَالِهِ وَإِنْ وَجَبَتْ الدِّيَةُ عَلَى عَاقِلَةِ الْقَاتِلِ خَطَأً ؛ مُعَاوَنَةً لَهُ فَلَا بُدَّ مِنْ اسْتِيفَاءِ حَقِّ الْمَظْلُومِ خَطَأً ؛ فَكَذَلِكَ هَذَا الَّذِي ظَلَمَ خَطَأً ؛ لَكِنْ يُقَالُ : يُفَرِّقُ بَيْنَ مَا كَانَ الْحَقُّ فِيهِ لِلَّهِ وَحَقُّ الْآدَمِيِّ تَبَعٌ لَهُ وَمَا كَانَ حَقًّا لِآدَمِيِّ مَحْضًا أَوْ غَالِبًا وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادُ مِنْ هَذَا الْبَابِ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ الْجُمْهُورِ الَّذِينَ لَا يُوجِبُونَ عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ ضَمَانَ مَا أَتْلَفُوهُ لِأَهْلِ الْعَدْلِ بِالتَّأْوِيلِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ خَطَأً مِنْهُمْ لَيْسَ كُفْرًا وَلَا فِسْقًا . وَإِذَا قَدَرَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْعَدْلِ لَمْ يَتْبَعُوا مُدْبِرَهُمْ وَلَمْ يُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحِهِمْ وَلَمْ يَسْبُوا حَرِيمَهُمْ وَلَمْ يَغْنَمُوا أَمْوَالَهُمْ فَلَا يُقَاتِلُونَهُمْ عَلَى مَا أَتْلَفُوهُ مِنْ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ إذَا أَتْلَفُوا مِثْلَ ذَلِكَ أَوْ تَمَلَّكُوا عَلَيْهِمْ . فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْقِصَاصَ سَاقِطٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْجِهَادِ الَّذِي يَجِبُ فِيهِ الْأَجْرُ عَلَى اللَّهِ وَهَذَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِحَقِّ

الْعَبْدِ الْآمِرِ النَّاهِي. وَأَمَّا قَوْلُ السَّائِلِ: هَلْ يُقْتَصُّ مِنْهُ لِئَلَّا يُؤَدِّيَ إلَى طَمَعٍ مِنْهُ فِي جَانِبِ الْحَقِّ؟ فَيُقَالُ: مَتَى كَانَ فِيمَا فَعَلَهُ إفْسَادٌ لِجَانِبِ الْحَقِّ كَانَ الْحَقُّ فِي ذَلِكَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَيُفْعَلُ فِيهِ مَا يُفْعَلُ فِي نَظِيرِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَذًى لِلْآمِرِ النَّاهِي. وَالْمَصْلَحَةُ فِي ذَلِكَ تَتَنَوَّعُ؛ فَتَارَةً تَكُونُ الْمَصْلَحَةُ الشَّرْعِيَّةُ الْقِتَالَ وَتَارَةً تَكُونُ الْمَصْلَحَةُ الْمُهَادَنَةَ وَتَارَةً تَكُونُ الْمَصْلَحَةُ الْإِمْسَاكَ وَالِاسْتِعْدَادَ بِلَا مُهَادَنَةٍ وَهَذَا يُشْبِهُ ذَلِكَ؛ لَكِنَّ الْإِنْسَانَ تُزَيِّنُ لَهُ نَفْسُهُ أَنَّ عَفْوَهُ عَنْ ظَالِمِهِ يُجَرِّيهِ عَلَيْهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ بَلْ قَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ ثَلَاثٌ إنْ كُنْت لَحَالِفًا عَلَيْهِنَّ مَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوِ إلَّا عِزًّا وَمَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ ﴾. فَالَّذِي يَنْبَغِي فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ يَعْفُوَ الْإِنْسَانُ عَنْ حَقِّهِ وَيَسْتَوْفِيَ حُقُوقَ اللَّهِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ إذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ قَالَ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِي: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَسْتَذِلُّوا فَإِذَا قَدَرُوا عَفَوْا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ يَمْدَحُهُمْ بِأَنَّ فِيهِمْ هِمَّةَ الِانْتِصَارِ لِلْحَقِّ وَالْحَمِيَّةَ لَهُ؛ لَيْسُوا بِمَنْزِلَةِ الَّذِينَ يَعْفُونَ عَجْزًا وَذُلًّا؛ بَلْ هَذَا مِمَّا يُذَمُّ بِهِ الرَّجُلُ وَالْمَمْدُوحُ الْعَفْوُ مَعَ الْقُدْرَةِ وَالْقِيَامُ لِمَا

يَجِبُ مِنْ نَصْرِ الْحَقِّ لَا مَعَ إهْمَالِ حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ الْعِبَادِ. وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى جـ 15 صـ 157. 174 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ هذه سَبِيلِى ﴾

وهي الدعوةُ إلى التوحيد والإيمان بالإخلاص وفسّرها بقوله : ﴿ أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ ﴾ بيانٍ وحجةٍ واضحةٍ غيرِ عمياءَ أو هي حال من الضمير في سبيلي والعامل فيها معنى الإشارة ﴿ أَنَاْ ﴾ تأكيدٌ للمستكن في أدعو أو على بصيرة لأنه حال منه ، أو مبتدأ خبرُه على بصيرة ﴿ وَمَنِ اتبعنى ﴾ عطف عليه ﴿ وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ مؤكد لما سبق من الدعوة إلى الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(84/404)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ هذه سَبِيلِى ﴾

أي هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتحيد سبيلي كذا قالوا ، والظاهر أنهم أخذوا الدعوة إلى الإيمان من قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103] لافادة أنه يدعوهم إلى الإيمان بجد وحرص وان لم ينفع فيهم ، والدعوة إلى

التوحيد من قوله سبحانه: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ ﴾ [يوسف: 106] لدلالته على أن كونه ذكراً لهم لاشتماله على التوحيد لكنهم لا يرفعون له رأساً كسائر آيات الآفاق والانفس الدالة على توحده تعالى ذاتاً وصفات، وفسر ذلك بقوله تعالى: ﴿ ادعوا إِلَى الله ﴾ أي أدعو الناس إلى معرفته سبحانه بصفات كماله ونعوت جلاله ومن جملتها التوحيد فالجملة لا محل لها من الإعراب، وقيل: إن الجملة في موضع الحال من الياء والعامل فيها معنى الإشارة.

وتعقب بأن الحال في مثله من المضاف إليه مخالفة للقواعد ظاهراً وليس ذلك مثل ﴿ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا ﴾ [النحل: 123] واعترض أيضاً بأن فيه تقييد الشيء بنفسه وليس ذاك ﴿ على بَصِيرَةٍ ﴾ أي بيان وحجة واضحة غير عمياء، والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير ﴿ أَدْعُو ﴾ وزعم أبو حيان أن الظاهر تعلقه بأدعو وقوله تعالى: ﴿ أَنَاْ ﴾ تأكيد لذلك الضمير أو للضمير الذي في الحال، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنِ اتبعنى ﴾ عطف على ذي الحال، ونسبة ﴿ أَدْعُو ﴾ إليه من باب التغليب كما قرر في قوله تعالى: ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ [البقرة: 35] ومنهم من قدر في مثله فعلاً عاملاً في المعطوف ولم يعول عليه المحققون، ومنع عطفه على ﴿ أَنَاْ ﴾ لكونه تأكيداً ولا يصح في المعطوف كونه تأكيداً كالمعطوف عليه.

واعترض بأن ذلك غير لازم كما يقتضيه كلام المحققين، وجوز كون ﴿ مِنْ ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي ومن اتبعني كذلك أي داع وأن يكون ﴿ على بَصِيرَةٍ ﴾ خبراً مقدماً ﴿ وَأَنَا ﴾ مبتدأ ﴿ وَمِنْ ﴾ عطف عليه، وقوله تعالى: ﴿ وسبحان الله ﴾ أي وأنزهه سبحانه وتعالى تنزيهاً من الشركاء، وهو داخل تحت القول وكذا ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ في وقت من الأوقات، والكلام مؤكد لما سبق من الدعوة إلى الله تعالى.

وقرأ عبد الله ﴿ قُلْ هذا سَبِيلِى ﴾ على التذكير والسبيل تؤنث وقد تذكر. انتهى

انتهى. ا هـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(86/404)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة:

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾

الخطاب بقوله: ﴿ ذلك ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره ﴿ مِنْ أَنبَاء الغيب ﴾، و ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبر ثان.

قال الزجاج: ويجوز أن يكون ذلك بمعنى: الذي، ونوحيه إليك خبره أي: الذي من أنباء

الغيب نوحيه إليك .

والمعنى : الإخبار من الله تعالى لرسوله الله صلى الله عليه وسلم بأن هذا الذي قصه عليه من أمر يوسف وإخوته من الأخبار التي كانت غائبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوحاه الله إليه وأعلمه به ، ولم يكن عنده قبل الوحي شيء من ذلك ، وفيه تعريض بكفار قريش ، لأنهم كانوا مكذبين له صلى الله عليه وسلم بما جاء به جحوداً وعناداً وحسداً ، مع كونهم يعلمون حقيقة الحال ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ لدي إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ إجماع الأمر : العزم عليه ، أي : وما كنت لدى إخوة يوسف إذ عزموا جميعاً على إلقائه في الجبّ وهم في تلك الحالة ﴿ يَمْكُرُونَ ﴾ به ، أي : بيوسف في هذا الفعل الذي فعلوه به ، ويبغونه الغوائل ، وقيل : الضمير ليعقوب ، أي : يمكرون بيعقوب حين جاءوه بقميص يوسف ملطخاً بالدم ، وقالوا : أكله الذئب .

(87/404)

وإذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لديهم عند أن فعلوا ذلك ، انتفى علمه بذلك مشاهدة ، ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ، ولا خالطهم ولا خالطوه ، فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير ، فلم يبق لعلمه بذلك طريق إلاّ مجرّد الوحي من الله

سبحانه ، فهذا يستلزم الإيمان بما جاء به ، فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار ، قال الله سبحانه ذاكراً لهذا ﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد ، أو أكثر الناس على العموم ، ولو حرصت على هدايتهم وبالغت في ذلك بمؤمنين بالله لتصميمهم على الكفر الذي هو دين آبائهم ، يقال : حرص يحرص مثل ضرب يضرب ، وفي لغة ضعيفة حرص يحرص مثل حمد يحمد ، والحرص : طلب الشيء باجتهاد .

قال الزجاج : ومعناه : وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم ؛ لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء .

قال ابن الأنباري : إن قريشاً واليهود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف وإخوته فشرحهما شرحاً شافياً ، وهو يأمل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم ، فخالفوا ظنه ، وحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فعزاه الله بقوله : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس ﴾ الآية .

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي : على القرآن وما تتلوه عليهم منه ، أو على الإيمان ، وحرصك على وقوعه منهم أو على ما تحدّثهم به من هذا الحديث ﴿ من أجر ﴾ من مال يعطونك إياه ، ويجعلونه لك كما يفعله أحبارهم ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي : القرآن ، أو الحديث

الذي حدثهم به ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي: ما هو إلا ذكر للعالمين كافة لا يختص بهم وحدهم.

(88/404)

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال الخليل وسيبويه: والأكثرون إن ﴿ كأين ﴾ أصلها: أي دخل عليها كاف التشبيه، لكنه انمحى عن الحرفين المعنى الإفرادي، وصار المجموع كاسم واحد بمعنى "كم" الخبرية، والأكثر إدخال "من" في مميزه، وهو تمييز عن الكاف لا عن أي كما في مثلك رجلاً.

وقد مرّ الكلام على هذا مستوفى في آل عمران.

والمعنى: كم من آية تدلهم على توحيد الله كائنة في السموات من كونها منصوبة بغير عمد، مزينة بالكواكب النيرة السيارة والثوابت، وفي الأرض من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه، وأنه الخالق لذلك، الرزاق له، المحيي والمميت، ولكن أكثر الناس يمرّون على هذه الآيات غير متأملين لها، ولا مفكرين فيها، ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه من وجود خالقها، وأنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ وإن نظروا إليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما

هو الثمرة للنظر بالحدقة، وهي التفكر والاعتبار والاستدلال.

وقرأ عكرمة وعمرو بن فايد برفع ﴿ الأرض ﴾ على أنه مبتدأ، وخبره ﴿ يمرّون عليها ﴾.

وقرأ السدّي بنصب ﴿ الأرض ﴾ بتقدير فعل.

وقرأ ابن مسعود "يمشون عليها"

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ ﴾ أي: وما يصدّق ويقرّ أكثر الناس بالله من كونه الخالق الرزاق المحيي المميت ﴿ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ بالله يعبدون معه غيره، كما كانت تفعله الجاهلية، فإنهم مقرّون بالله سبحانه، وبأنه الخالق لهم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: 87].

(89/404)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: 25] لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقرّبوهم إلى الله ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرّبُونَا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الزمر: 3] ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله المعتقدون في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلاّ الله سبحانه كما يفعله كثير من عبّاد القبور

، ولا ينافي هذا ما قيل من أن الآية نزلت في قوم مخصوصين ، فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ لا بما يفيده السبب من الاختصاص بمن كان سبباً لنزول الحكم .

﴿ أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ ﴾ الاستفهام للإنكار ، والغاشية ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 55] وقيل : هي الساعة ، وقيل : هي الصواعق والقوارع ، ولا مانع من للحمل على العموم ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة ، وانتصاب بغتة على الحال .

قال المبرد : جاء عن العرب حال بعد نكرة ، وهو قولهم : وقع أمر بغتة ، يقال : بغتهم الأمر بغتاً وبغتة : إذا فاجأهم ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه ، ويجوز انتصاب بغتة على أنها صفة مصدر محذوف .

﴿ قُلْ هذه سَبِيلِى ﴾ أي : قل يا محمد للمشركين : هذه الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة التي أنا عليها سبيلي ، أي : طريقتي وسنّتي ، فاسم الإشارة مبتدأ وخبره سبيلي ، وفسر ذلك بقوله : ﴿ ادعوا إلى الله على بَصِيرَةٍ ﴾ أي : على حجة واضحة ، والبصيرة : المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل ، والجملة في محل نصب على الحال ﴿ أَنَاْ وَمَنِ اتبعنى ﴾ واهتدى بهديي .

وقال الفراء : والمعنى ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو .

وفي هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم حق عليه أن يقتدي به في الدعاء إلى الله ، أي : الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده ، والعمل بما شرعه لعباده ﴿ وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ أي : وقل يا محمد لهم : سبحان الله وما أنا من المشركين بالله الذين يتخذون من دونه أنداداً .

قال ابن الأنباري : ويجوز أن يتم الكلام عند قوله : ﴿ ادعوا إِلَى الله ﴾ ثم ابتدأ ، فقال : ﴿ على بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتبعنى ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ قال : هم بنو يعقوب إذ يمكرون بيوسف .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن قتادة في الآية يقول : وما كنت لديهم وهم يلقونه في غيابة الجب ، وهم يمكرون بيوسف .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ وَكَأَيِّن مِن ءايَةٍ ﴾ قال : كم من آية في السماء يعني : شمسها وقمرها ونجومها وسحابها ، وفي الأرض ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ

أَكْثَرُهُمْ باللهِ إلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ قال : سلهم من خلقهم ، ومن خلق السموات والأرض ، فسيقولون الله ، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن عطاء في قوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللهِ إلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ قال : كانوا يعلمون أن الله ربهم وهو خالقهم وهو رازقهم ، وكانوا مع ذلك يشركون .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن الضحاك في الآية قال : كانوا يشركون به في تلبيتهم يقولون : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن في الآية قال : ذلك المنافق يعمل بالرياء وهو مشرك بعمله .

(91/404)

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ ﴾ قال : وقيعة تغشاهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ هذه سَبِيلِى ﴾ قل : هذه دعوتي .

وأخرج أبو الشيخ عنه ﴿ قُلْ هذه سَبِيلِى ﴾ قال : صلاتي .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال : أمري ومشيئتي ومنهاجي ،

وأخرجا عن قتادة في قوله : ﴿ على بَصِيرَةٍ ﴾ أي : على هدى ﴿ أَنَاْ وَمَنِ اتبعنى ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(92/404)

وقال القاسمى :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾

أي : هذه السبيل ، التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، سبيلي ، أي : طريقي ومسلكي وسنتي . والسبيل والطريق يذكّران ويؤنثا ن . ثم فسر سبيله بقوله : ﴿ أَدْعُو إِلَى اللّهِ ﴾ أي : إلى دينه وتوحيده ، ومعرفته بصفات كماله ، ونعوت جلاله : ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ أي : مع حجة واضحة ، غير عمياء ﴿ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ أي : آمن بي ، يدعون إلى الله أيضاً على بصيرة ، لا على هوى ﴿ وَسُبْحَانَ اللّهِ ﴾ أي : وأنزهه وأجله وأقدسه عن أن يكون له شريك ، أو ندّ أو كفءُ أو ولد أو صاحبة ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : على دينهم .

تنبيهات :

الأول : قال السمين : ﴿ أَدْعُو إِلَى اللّهِ ﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً ، وهو الظاهر ، وأن

يكون حالاً من الياء ، و : ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ حال من فاعل : ﴿ أَدْعُو ﴾ أي : أدعو كائناً على بصيرة ، وقوله : ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ عطف على فاعل : ﴿ أَدْعُو ﴾ ولذلك أكد بالضمير المنفصل . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ، أي : ومن اتبعني يدعو أيضاً ، ويجوز أن يكون : ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ خبراً مقدماً ، و : ﴿ أَنَا ﴾ مبتدأ مؤخراً و : ﴿ مَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ عطف عليه ، ومفعول : ﴿ أَدْعُو ﴾ إما منوي ، أي : الناس ، أو منسي .

الثاني : دل قوله تعالى : ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ على مزية هذا الدين الحنيف ، ونهجه الذي انفرد به ، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين ، وكرَّ عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه – انظر " رسالة التوحيد " في تتمة ذلك .

الثالث : دلت الآية على أن سيرة أتباعه صلى الله عليه وسلم ، الدعوة إلى الله .

قال الرازي : كل من ذكر الحجة ، وأجاب عن الشبهة ؛ فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله . وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط ، وأن يكون على بصيرة مما يقول ، وعلى هدى ويقين ، فإن لم يكن كذلك ، فهو محض الغرور . انتهى .

ولا يخفى أن الدعوة إلى الله إنما هي بنشر مطالب الدين وإذاعة آدابه وتعليمه .

(94/404)

قال بعضهم : ينبغي للعالم أن يكون حديثه مع العامة في حال مخالطته ومجالسته لهم ، في بيان الواجبات والمحرمات ، ونوافل الطاعات ، وذكر الثواب والعقاب ، على الإحسان والإساءة . ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها ، ويزيد بياناً للأمور التي يعلم أنهم ملابسون لها ، ولا يسكت حتى يسأل عن شيء من العلم ، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ، ومضطرون إليه ، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال . والعامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين ، علماً وعملاً ، فلا ينبغي للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم ، فيعم الهلاك ، ويعظم البلاء . وقلما تختبر عامياً – وأكثر الناس عامة – إلا وجدته جاهلاً بالواجبات والمحرمات ، وبأمور الدين التي لا يجوز ولا يسوغ الجهل بشيء منها . وإن لم يوجد جاهلاً بالكل ، وجد جاهلاً بالبعض .

وإن علم شيئاً من ذلك ، وجدت علمه به علماً مسموعاً من ألسنة الناس ، لو أردت أن تقلبه له جهلاً فعلت ذلك بأيسر مؤونة ، لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه . وعلى الجملة ، فيتأكد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم ، ويحدثوهم به ، ويبثوه لهم ، ويكون كلام العالم معهم في بيان الأمر الذي جاؤوا من أجله ، مثل ما إذا جاؤوا لعقد نكاح ، يكون كلامه معهم فيما يتعلق بحقوق النساء من الصداق والنفقة والمعاشرة بالمعروف . أو لعقد بيع ، يكون كلامه في صحيح البيوع وآدابها ، وفوائد التجارة النافعة ، واجتناب الغش والخداع وهكذا . ولا ينبغي للعالم أن يخوض مع الخائضين ، ولا أن يصرف شيئاً من أوقاته في غير إقامة الدين . وبالسكوت عن التذكير والتعليم ، يغلب الفساد ، ويعم الضرر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 9 صـ 237.239﴾

(95/404)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

استئناف ابتدائي للانتقال من الاعتبار بدلالة نزول هذه القصة للنبيء صلى الله عليه وسلم الأمّيّ على صدق نبوءته وصدقه فيما جاء به من التوحيد إلى الاعتبار بجميع ما جاء به

من هذه الشريعة عن الله تعالى ، وهو المعبّر عنه بالسبيل على وجه الاستعارة لإبلاغها إلى المطلوب وهو الفوز الخالد كإبلاغ الطريق إلى المكان المقصود للسائر ، وهي استعارة متكررة في القرآن وفي كلام العرب .

والسبيل يؤنث كما في هذه الآية ، ويذكّر أيضاً كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ﴾ في سورة الأعراف (146) .

والجملة استئناف ابتدائي معترضة بين الجمل المتعاطفة .

والإشارة إلى الشريعة بتنزيل المعقول منزلة المحسوس لبلوغه من الوضوح للعقول حداً لا يخفى فيه إلا عمّن لا يُعدّ مُدْركاً .

وما في جملة هذه سبيلي ﴾ من الإبهام قد فسرته جملة ﴿ ادعوا إلى الله على بصيرة ﴾ .

و﴿ على ﴾ فيه للاستعلاء المجازي المراد به التمكن ، مثل "على هدىً من ربهم" .

والبصيرة : فعيلة بمعنى فاعلة ، وهي الحجة الواضحة ، والمعنى : أدعو إلى الله ببصيرة متمكناً منها ، ووصف الحجة ببصيرة مجاز عقلي ، والبصير : صاحب الحجة لأنه بها صار بصيراً بالحقيقة .

ومثله وصف الآية بمبصرة في قوله : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ﴾ [سورة النمل : 13] .

وبعكسه يوصف الخفاء بالعمى كقوله : ﴿ وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ﴾ [

سورة هود : 28] .

وضمير أنا ﴾ تأكيد للضمير المستتر في ﴿ أدعوا ﴾ ، أتي به لتحسين العطف بقوله : ﴿ ومن اتبعني ﴾ ، وهو تحسين واجب في اللغة .

وفي الآية دلالة على أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين آمنوا به مأمورون بأن يدعوا إلى الإيمان بما يستطيعون .

وقد قاموا بذلك بوسائل بث القرآن وأركان الإسلام والجهاد في سبيل الله .

(96/404)

وقد كانت الدعوة إلى الإسلام في صدر زمان البعثة المحمدية واجباً على الأعيان لقول النبي صلى الله عليه وسلم " بلّغوا عنّي ولو آيةً " أي بقدر الاستطاعة .

ثم لمّا ظهر الإسلام وبلغت دعوته الأسماع صارت الدعوة إليه واجباً على الكفاية كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير الآية ﴾ في سورة آل عمران (104) .

وعُطفت جملة وسبحان الله ﴾ على جملة ﴿ أدعوا إلى الله ﴾ ، أي أدعو إلى الله وأنزهه .

وسبحان: مصدر التسبيح جاء بدلاً عن الفعل للمبالغة.

والتقدير: وأسبح الله سبحاناً، أي أدعو الناس إلى توحيده وطاعته وأنزّهه عن النقائص التي يشرك بها المشركون من دّعاء الشركاء، والولد، والصاحبة.

وجملة ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ بمنزلة التذييل لما قبلها لأنها تعمّ ما تضمنته. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(97/404)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

أي: قل يا محمد هذا هو منهجي. والسبيل كما نعلم هو الطريق، وقوله الحق: ﴿ هذه سبيلي... ﴾ [يوسف: 108]

يدل على أن كلمة السبيل تأتي مرة مُؤنَّثة، كما في هذه الآية، وتأتي مرة مُذكَّرة؛ كما في قوله الحق: ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً.. ﴾ [الأعراف: 146]

وأعْلِنْ يا محمد أن هذه الدعوة التي جِئْتَ بها هي للإيمان بالله الواحد؛ وسبحانه لا ينتفع

بالمنهج الذي نزل عليك لِيُطبِّقه العباد ، بل فيه صلاح حياتهم ، وسبحانه هو الله ؛ فهو الأول قبل كل شيء بلا بداية ، والباقي بعد كل موجود بلا نهاية ؛ ومع خَلْق الخَلْق الذين آمنوا هو الله ؛ وإن كفروا جميعاً هو الله ، والمسألة التكليفية بالمنهج عائدة إليكم أنتم ، فمَنْ شاء فَلْيؤمن ، ومَنْ شاء فَلْيكفر .

ولنقرأ قول الحق : ﴿ إِذَا السمآء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق : 1-2]

فهي تنشقُّ فَوْرَ سماعها لأمر الله ، وتأتي لحظة الحساب .

وقوله الحق : ﴿ قُلْ هذه سبيلي أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ . . . ﴾ [يوسف : 108]

أي : أدعو بالطريق المُوصِّل إلى الله إيماناً به وتَقبُّلاً لمنهجه ، وطلباً لما عنده من جزاء الآخرة ؛ وأنا على بصيرة مما أدعو إليه .

والبصر كما نعلم للمُحسَّات ، والبصيرة للمعنويات .

والبصر الحسيُّ لا يُؤدِّي نفس عمل البصيرة ؛ لأن البصيرة هي يقينٌ مصحوب بنور يُقنِع النفس البشرية ، وإنْ لم تَكُنْ الأمور الظاهرة مُلجئة إلى الإقناع .

ومثال هذا : أم موسى حين أوحى الله لها أن تقذف ابنها في اليَمِّ ، ولو قاسَتْ هي هذا الأمر بعقلها لما قَبِلَتْه ، لكنها بالبصيرة قَبِلَتْه ؛ لأنه وارد من الله لا مُعانِدَ له من النفس البشرية .

فالبصيرة إذن : هي يقين ونور مبني على برهان من القلب ؛ فيطيعه العبد طاعة بتفويض ، ويُقال : إن الإيمان طاعة بصيرة .

ويمكن أن نقرأ قوله الحق : ﴿ قُلْ هذه سبيلي أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ . . . ﴾ [يوسف : 108]

وهنا جملة كاملة ؛ ونقرأ بعدها : ﴿ أَنَاْ وَمَنِ اتبعني . . . ﴾ [يوسف : 108]

أو نقرأها كاملة : ﴿ قُلْ هذه سبيلي أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتبعني وَسُبْحَانَ الله وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ [يوسف : 108]

وقول الحق : ﴿ وَسُبْحَانَ الله . . . ﴾ [يوسف : 108]

أي : أنه سبحانه مُنزَّه تنزيهاً مطلقاً في الذات ، فلا ذاتَ تُشبهه ؛ فذاته ليست محصورة في القالب المادي مثلك ، والمنفوخة فيه الروح ، وسبحانه مُنزَّه تنزيهاً مُطْلقاً في الأفعال ، فلا فعلَ يشبه فِعله ؛ وكذلك صفاته ليست كصفات البشر ، فحين تعلم أن الله يسمع ويرى ، فخُذْ ذلك في نطاق : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11]

وكذلك وجوده سبحانه ليس كوجودك ؛ لأن وجوده وجود واجد أزليّ ، وأنت حَدَثٌ

طارئ على الكون الذي خلقه سبحانه .

ولذلك قاس بعض الناس رحلة الإسراء والمعراج على قدرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولم ينتبهوا إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لقد أُسري بي " .

ونزل قول الحق سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ [الإسراء : 1]

وهكذا تعلم أن الفعل لم يكن بقوة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولكن بقوة من خلق الكون كله ، القادر على كل شيء ، والذي لا يمكن لمؤمن حق أن يشرك به ، أمام هذا البرهان .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(99/404)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ قال: دعوتي.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن الربيع بن أنس - رضي الله عنه - مثله.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ قال: صلاتي.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن زيد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ قال: أمري وسنتي ومنهاجي.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ على بصيرة ﴾ أي على هدى ﴿ أنا ومن اتبعني ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(100/404)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَدْعُو إلى الله ﴾ : يجوز أن يكونَ مستأنفاً وهو الظاهر ، وأن يكونَ حالاً من الياء . و " على بصيرة " حال من فاعل " أدعو " أي : أَدْعو كائناً على بصيرة .

قوله : ﴿ وَمَنِ اتبعني ﴾ عطفٌ على فاعل " أدعو " ولذلك أُكِّد بالضميرِ المنفصل في قوله " أنا " ، ويجوز أن يكون مبتدأً والخبرُ محذوف ، أي : ومَنِ اتَّبعني يَدْعو أيضاً . ويجوز أن يكون " على بصيرة " خبراً مقدماً ، و " أنا " مبتدأ مؤخرٌ ، و " ومَن اتَّبعني " عطفٌ عليه ، ويجوز أُن يكونَ " على بصيرة " وحده حالاً ، و " أنا " فاعلٌ به ، " ومَنِ اتَّبعني " عطف عليه أيضاً . ومفعول " أدعو " يجوز أنْ لا يُراد ، أي : أنا مِنْ أهل الدعاء إلى اللَّه ، ويجوز أن يُقَدَّر : أنْ أدعوَ الناس .

وقرأ عبد اللَّه " هذا سبيلي " بالتذكير وقد تقدَّم أنه يُذَكَّر ويؤنَّث . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 561 ﴾

(101/404)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ (108) ﴾

" البصيرة " : اليقين الذي لا مِرْيَةَ فيه ، والبيان الذي لا شكّ فيه . البصيرةُ يكون صاحبُها مُلاَطَفاً بالتوفيق جَهْراً ، ومكاشَفاً بالتحقيق سِرّاً .

ويقال البصيرة أن تطلع شموسُ العرفانِ فتندرجُ فيها أنوارُ نجوم العقل .

قوله : ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى ﴾ أي ذلك سبيلي مَنْ اقتدى بهديي فهو أيضاً على بصيرة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 213 ﴾

(102/404)

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أوضح أبطال ما تعنتوا به من قولهم " لو أنزل عليه كنز " أتبعه ما يوضح تعنتهم في قولهم ﴿ أو جاء معه ملك ﴾ بذكر المرسلين ، وأهل السبيل المستقيم ، الداعين إلى الله على

بصيرة ، فقال : ﴿ وما أرسلنا ﴾ أي بما من العظمة .

ولما كان الإرسال لشرفه لا يتأتى على ما جرت به الحكمة في كل زمن كما أنه لا يصلح للرسالة كل أحد ، وكان السياق لإنكار التأييد بملك في قوله ﴿ أو جاء معه ملك ﴾ كالذي في النحل ، لا لإنكار رسالة البشر ، أدخل الجار تنبيهاً على ذلك فقال : ﴿ من قبلك ﴾ أي إلى المكلفين ﴿ إلا رجالاً ﴾ أي مثل ما أنك رجل ، لا ملائكة ولا إناثاً - كما قاله ابن عباس .رضى الله عنهما . ، والرجل مأخوذ من المشي على الرجل ﴿ نوحي إليهم ﴾ أي بواسطة الملائكة مثل ما يوحى إليك ﴿ من أهل القرى ﴾ مثل ما أنك من أهل القرى ، أي الأماكن المبنية بالمدر والحجر ونحوه ، لأنها متهيئة للإقامة والاجتماع وانتياب أهل الفضائل ، وذلك أجدر بغزارة العقل وأصالة الرأي وحدة الذهن وتوليد المعارف من البوادي ، ومكة أم القرى في ذلك لأنها مجمع لجميع الخلائق لما أمروا به من حج البيت ، وكان العرب كلهم يأتونها ؛ قال الرماني : وقال الحسن : لم يبعث الله نبياً من أهل البادية ولا من الجن ولا من النساء - انتهى .

وذلك لأن المدن مواضع الحكمة ، والبوادي مواطن لظهور الكلمة ، ولما كانت مكة أو القرى مدينة ، وهي مع ذلك في بلاد البادية ، جمعت الأمرين وفازت بالأثرين ، لأجل أن المرسل إليها جامع لكل ما تفرق في غيره من المرسلين ، وخاتم لجميع النبيين - .صلى الله عليه وسلم .وعليهم أجمعين .

ومادة " قرى " – يائية وواوية مهموزة وغير مهموزة بتراكيبها الخمسة عشر – تدور على الجمع ، ويلزمه الإمساك ، وربما كان عنه الانتشار ، فالقرية – بالفتح ويكسر : المصر الجامع ، وأقرى : لزم القرية ، والقاري : ساكنها ، والقارية : الحاضرة الجامعة ، وطير أخضر ، إما للزومها ، وإما لجمع لونه للبصر ، والقريتين – مثنى وأكثر ما يتلفظ به بالياء : مكة والطائف ، وقرية النمل : مجتمع ترابها ، وقريت الماء في الحوض : جمعته ، والمقراة : شبه حوض ، وكل ما اجتمع فيه ماء ، والقريّ : ماء مستجمع ، والمدة تقرى في الجرح – أي تجتمع ، والقواري : الشهود – لجمعهم الأمور ، والقواري : الناس الصالحون – كأنه مخفف من المهموز ، وقريت الضيف قرى بالكسر والقصر ، وبالفتح والمد : أضفته كاقتريته ، والمقراة : الجفنة يقرى فيها الضيف ، والمقاري : القدور ، وقرى البعير وكل ما اجتر : جمع جرته في شدقه ، وقرت الناقة : ورم شدقاها من وجع الأسنان كأنها لا تقدر مع ذلك على جمع الجرة ، فيكون من السلب ، وقرى البلاد : تتبعها يخرج من أرض إلى أرض كاقتراها واستقرها – لجمعه بينها ، وقريّ الماء كغني : مسيله من التلاع ، أو موقعه من الربو إلى

الروضة – لأنه مكان اجتماعه ، وقرى الخيل : واد – كأنها اجتمعت فيه ، والقرية – كغنية : العصا لأن الراعي يجمع بها ما يرعاه .

(104/404)

وبها يجمع كل ما يراد جمعه ، وأعواد فيها فرض يجعل فيها رأس عمود البيت ، لأنه بها يقام فيجمع من يراد ، وعود الشراع الذي في عرضه من أعلاه ، لأنه يجمع الشراع ملفوفاً ومنشوراً ، وقريت الصحيفة لغة في قرأتها – إذا تلوتها فجمعت علمها وكلامها ، والقارية : أسفل الرمح ، لأنه يجمع زجه ، أو أعلاه ، لأنه يجمع عاليته ، وحد الرمح ، لأنه يجمع مراد صاحبه ، وكذا حد السيف ، والقارية – بالتشديد : طائر أخضر إذا رأوه استبشروا بالمطر – كأنه رسول الغيث أو مقدمة السحاب ، جمعه قواري ، كأنه سمي بذلك لأنه سبب جمع الهم للمطر ؛ والقير والقار : شيء أسود تطلى به السفن ، والإبل ، والحباب ، والزقاق ، أو هما الزفت ، وعلى كل تقدير هو ساد للشقوق والمسام فكان الجامع بين أجزاء السفينة وغيرها ، وهذا أقير من هذا أشد مرارة – تشبيه بالقير الطعم ، والمر أيضاً يجمع الفم نحوه بالقبض ، والقيّور – كتنور : الخامل النسب ، شبه به أيضاً لأن القير لما قل احتياج أكثر الناس إليه في كثير من الأوقات صار قليل الذكر – وهذا معنى الخمول ، والقيار

كشداد : صاحب القير ، وبئر لبني عجل قرب واسط ، وكأنها سميت لجمعها إياهم ، وقيار اسم فرس ، كأنه لجودته يجمع لصاحبه ما يريد ، والقارة : الدّبة كذلك ، والقارة : حي من العرب سموا لأن ابن الشداخ أراد أن يفرقهم في كنانة فقال شاعرهم :

دعونا قارة لا تجفلونا . . .

فنجفل مثل إجفال الظليم

(105/404)

ذكره مختصر العين هنا وغيره في الواو ، واقتار الحديث اقتياراً : بحث عنه - لأن ذلك سبب لجمعه ، والقيِّر - كهيّن : الأسوار من الرماة الحاذق ، لأنه يجمع بذلك ما يريد ؛ ورقيت الرجل بالفتح رقية : عوذته ، ونفثت في عوذته - لأن الراقي يجمع ريقه وينفث ، ورقيت في الشيء رقياً - إذا صعدت عليه - كأنك جمعت بين درجه ، والمرقاة بالفتح ويكسر : الدرجة ، لأن العلو من آثار الجمع ، ورقى عليه كلاماً ترقية : رفع ، لأنه جمعه عليه ، ومرقيا الأنف : حرفاه لأنهما الجامعان له ؛ والرائق من الماء : الخالص ، لأنه إذا خلص اشتد تلاصق أجزائه لزوال ما كان يتخللها من الغبر ، وراق الماء يريق - إذا انصب ، إما لأنه اجتمع إلى المحل الذي انصب إليه ، أو يكون من السلب كأراقه بمعنى صبه ، وراق

السراب يريق وتريق يتريق - إذا تضحضح فوق الأرض أي تردد ، إما من السلب ، وإما تشبيه بالمجتمع ، والريق : تردد الماء على وجه الأرض من الضحضاح أي ليسير ونحوه ، لأنه لا يتردد إلا وهو مجتمع ، والريق : أول كل شيء وأفضله من الرائق بمعنى الخالص ، ولأن الأول يجتمع إليه غيره ، والأفضل يجمع ما يراد ، والريق أيضاً : الباطل ، كالريوق كتنور - تشبيهاً بالسراب ، وريق الفم معروف ، لاجتماعه ، والريق : القوة ، لجمعها المراد ، والريق الرائق : الخالص وكل ما أكل أو شرب على الريق ، ومن ليس في يده شيء ، كأنه خلص عن العلائق فاجتمع همه ، ومن هو على الريق كريقي ككيس ، وهو يريق بنفسه : يجود بها عند الموت ، من راق الماء : انصب ، والمريق - كمعظم : من لا يزال يعجبه شيء ، ولعله من راقه يروقه - إذا أعجبه ، فجمع همه إليه ؛ واليارق : ضرب من الأسورة ، لأنه يجمع المعصم ، واليرقان - ويسكن : الاستقامة والطريقة وآفة للزرع .

ومرض معروف ، وسيذكر في " أرق " في أول سورة الحجر إن شاء الله تعالى .

(106/404)

ولما كان الاعتبار بأحوال من سلف للنجاة مما حل بهم أهم المهم ، اعترض بالحث عليه بين الغاية ومتعلقها ، فقال : ﴿ أفلم يسيروا ﴾ أي يوقع السير هؤلاء المكذبون ﴿ في الأرض ﴾

أي في هذا الجنس الصادق بالقليل والكثير .

ولما كان المراد سير الاعتبار سبب عنه قوله ﴿ فينظروا ﴾ أي عقب سيرهم وبسببه ، ونبه على أن ذلك أمر عظيم ينبغي الاهتمام بالسؤال عنه بذكر أداة الاستفهام فقال ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ الذين ﴾ ولما كان الذين يعتبر بحالهم - لما حل بهم من الأمور العظام - في بعض الأزمنة الماضية ، وكان المخاطبون بهذا القرآن لا يمكنهم الإحاطة بأهل الأرض وإن كان في حال كل منهم عظه ، أتى بالجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ في الرضى بأهوائهم في تقليد آبائهم ، وهذا كما تقدم في سورة يونس من أن الآيات لا تغني عمن ختم على قلبه ، والتذكير بأحوال الماضين من هلاك العاصين ونجاة الطائعين ، والاعتراض بين ذلك بقوله ﴿ قل انتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ وهو يدل على أنه تعالى يغضب ممن أعرض عن تدبر آياته ؛ والسير : المرور الممتد في جهة ، ومنه أخذ السير ، وأخذ السيور من الجلد ؛ والنظر : طلب إدراك المعنى بالعين أو القلب ، وأصله مقابلة الشيء بالبصر لإدراكه .

ولما كان من الممكن أن يدعي مطموس البصيرة أنه كان لهم نوع خير ، قال على طريقة إرخاء العنان : ﴿ ولدار ﴾ أي الساعة أو الحالة ﴿ الآخرة ﴾ أي التي وقع التنبيه عليها بأمور تفوت الحصر منها دار الدنيا فإنه لا تكون دنيا إلا بقصيا ﴿ خير للذين اتقوا ﴾ أي حملهم الخوف على جعل الائتمار والانزجار وقاية من حياة أهون مآلها الموت ، وإن فرض

فيها من المحال أنها امتدت ألف عام ، وكان عيشها كله رغداً من غير آلام .

ولما كان تسليم هذا لا يحتاج فيه إلى أكثر من العقل ، قال مسبباً عنه منكراً عليهم مبكتاً لهم : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي فيتبعوا الداعي إلى هذا السبيل الأقوم . انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 110.113 ﴾

(107/404)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾

اعلم أنه قرأ حفص عن عاصم ﴿ نُوحِي ﴾ بالنون ، والباقون بالياء ﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ، ورواية حفص عن عاصم : ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب ، والباقون : بالياء على الغائب .

واعلم أن من جملة شبه منكري نبوته عليه الصلاة والسلام أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث ملكاً ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ مّنْ أَهْلِ القرى ﴾ فلما كان الكل هكذا فكيف تعجبوا في حقك يا محمد والآية تدل على أن الله ما بعث

رسولاً إلى الحق من النسوان وأيضاً لم يبعث رسولاً من أهل البادية .

قال عليه الصلاة والسلام : " من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل "

ثم قال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأرض فَيَنظُرُوا ﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة وقوله : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ والمعنى دار الحالة الآخرة ، لأن للناس حالتين حال الدنيا وحال الآخرة ، ومثله قوله صلاة الأولى أي صلاة الفريضة الأولى ، وأما بيان أن الآخرة خير من الأولى فقد ذكرنا دلائله مراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 180 ﴾

(108/404)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾

قال قتادة : من أهل الأمصار دون البوادي لأنهم أعلم وأحلم . وقال الحسن : لم يبعث الله تعالى نبياً من أهل البادية قط ، ولا من النساء ، ولا من الجن .

﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ يعني بالدار الجنة ، وبالآخرة القيامة ، فسمى الجنة داراً وإن كانت النار داراً لأن الجنة وطن اختيار ، والنار مسكن اضطرار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾

هذه الآية تتضمن الرد على مستغربي إرسال الرسل من البشر كالطائفة التي قالت : أبعث الله بشراً رسولاً ، وكالطائفة التي اقترحت ملكاً وغيرهما .

وقرأ الجمهور : " يوحَى إليهم " بالياء وفتح الحاء ، وهي قراءة عاصم في رواية أبي بكر ، وقرأ في رواية حفص : " نوحِي " بالنون وكسر الحاء وهي قراءة أبي عبد الرحمن وطلحة .

و﴿ القرى ﴾ : المدن ، وخصصها دون القوم المنتوين – أهل العمود – فإنهم في كل أمة أهل جفاء وجهالة مفرطة ، قال ابن زيد : ﴿ أهل القرى ﴾ أعلم وأحلم من أهل العمود .

قال القاضي أبو محمد : فإنهم قليل نبلهم ولم ينشىء الله فيهم رسولاً قط . وقال الحسن : لم يبعث الله رسولاً قط من أهل البادية ولا من النساء ولا من الجن .

قال القاضي أبو محمد : والتبدي مكروه إلا في الفتن وحين يفر بالدين ، كقوله عليه السلام " يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً " الحديث . وفي ذلك أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لسلمة بن الأكوع وقد قال صلى الله عليه وسلم : " لا تعرب في الإسلام " وقال : من "

بدا جفا " وروى عنه معاذ بن جبل أنه قال : " الشيطان ذيب الإنسان كذيب الغنم يأخذ الشاة القاصية فإياكم والشعاب وعليكم بالمساجد والجماعات والعامة " .

قال القاضي أبو محمد : ويعترض هذا ببدو يعقوب ، وينفصل عن ذلك بوجهين أحدهما : أن ذلك البدو لم يكن في أهل عمود بل هو بتقر في منازل وربوع .

والثاني : أنه إنما جعله بدواً بالإضافة إلى مصر كما هي بنات الحواضر بدو بالإضافة إلى الحواضر .

ثم أحالهم على الاعتبار في الأمم السالفة في أقطار الأرض التي كذبت رسلها فحاق بها عذاب الله ، ثم حض على الآخرة والاستعداد لها والاتقاء من الموبقات فيها ، ثم وقفهم موبخاً بقوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ .

(110/404)

وقوله : ﴿ ولدار الآخرة ﴾ زيادة في وصف إنعامه على المؤمنين ، أي عذب الكفار ونجى المؤمنين ، ولدار الآخرة أحسن لهم .

وأما إضافة " الدار " إلى ﴿ الآخرة ﴾ فقال الفراء : هي إضافة الشيء إلى نفسه كما قال الشاعر : [الوافر]

فإنك لو حللت ديار عبس . . . عرفت الذل عرفان اليقين

وفي رواية :

فلو أقوت عليك ديار إلخ .

وكما يقال : مسجد الجامع ، ونحو هذا ، وقال البصريون : هذه على حذف مضاف تقديره : ولدار الحياة الآخرة أو المدة الآخرة .

قال القاضي أبو محمد : وهذه الأسماء التي هي للأجناس كمسجد وثوب وحق وجبل ونحو ذلك - إذا نطق بها الناطق لم يدر ما يريد بها ، فتضاف إلى معرف مخصص للمعنى المقصود فقد تضاف إلى جنس آخر كقولك : جبل أحد ، وقد تضاف إلى صفة كقولك : مسجد الجامع وحق اليقين ، وقد تضاف إلى اسم خاص كقولك جبل أحد ونحوه .

وقرأ الحسن والأعمش والأعرج وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وعلقمة " يعقلون " بالياء ، واختلف عن الأعمش . قال أبو حاتم : قراءة العامة : " أفلا تعقلون " بالتاء من فوق .

ويتضمن قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ أن الرسل الذين بعثهم الله من أهل القرى دعوا أممهم فلم يؤمنوا بهم حتى نزلت بهم المثلات ، صاروا في حيز من يعتبر بعاقبته ، فلهذا المضمن حسن أن تدخل ﴿ حتى ﴾ في قوله : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ القرى ﴾

هذا ردّ على القائلين : ﴿ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : 8] أي أرسلنا رجالاً ليس فيهم امرأة ولا جِنِّيٌّ ولا مَلَك ؛ وهذا يردّ ما يُروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن في النِّساء أربع نبيَّات حوّاء وآسية وأمّ موسى ومريم " .

وقد تقدّم في "آل عمران" شيء من هذا .

"مِنْ أَهْلِ الْقُرَى" يريد المدائن ؛ ولم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو ؛ ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم .

قال الحسن : لم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية قطّ ، ولا من النِّساء ، ولا من الجنّ .

وقال قتادة : "مِنْ أَهْلِ الْقُرَى" أي من أهل الأمصار ؛ لأنهم أعلم وأحلم .

وقال العلماء : مِن شرط الرسول أن يكون رجلاً آدميًا مدنيًا ؛ وإنما قالوا آدميًا تحرّزًا ؛ من قوله : ﴿ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن ﴾ [الجن : 6] والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ ﴾ إلى مصارع الأمم المكذّبة لأنبيائهم فيعتبروا .

﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ ابتداء وخبره .

وزعم الفرّاء أن الدار هي الآخرة ؛ وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ ، كيوم الخميس ، وبارحة الأولى ؛ قال الشاعر :

ولو أَقْوَتْ عليكَ دِيارُ عَبْسٍ . . .

عَرَفْتَ الذُّلَّ عِرْفَانَ اليَقِينِ

أي عِرْفَاناً يقيناً ؛ واحتج الكسائيّ بقولهم : صلاة الأولى ؛ واحتجّ الأخفش بمسجد الجامع .

قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال ؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرّف به ؛ والأجود الصلاة الأولى ، ومن قال صلاة الأولى فمعناه : عند صلاة الفريضة الأولى ؛ وإنما سمّيت الأولى لأنها أوّل ما صُلّي حين فُرضت الصّلاة ، وأوّل ما أظهر ؛ فلذلك قيل لها أيضاً الظهر .

والتقدير : ولدار الحال الآخرة خير ، وهذا قول البصريين ؛ والمراد بهذه الدار الجنة ؛ أي هي خير للمتقين .

وقرىء : "وَلَلدّارُ الآخرة" .

وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب.

الباقون بالياء على الخبر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(113/404)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾

يعني وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالاً مثلك ولم يكونوا ملائكة ﴿ نوحي إليهم ﴾ هذا جواب لأهل مكة حيث قالوا هلا بعث الله ملكاً والمعنى كيف تعجبوا من إرسالنا إياك يا محمد وسائر الرسل الذين كانوا من قبلك بشر مثلك حالهم كحالك ﴿ ومن أهل القرى ﴾ يعني من أهل الأمصار والمدن لا من أهل البوادي لأن أهل الأمصار أفضل وأعلم وأكمل عقلاً من أهل البوادي، قال الحسن : لم يبعث نبي من بدو ولا من الجن ولا من النساء ، وقيل : إنما لم يبعث الله نبياً من البادية لغلظهم وجفائهم ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ يعني هؤلاء المشركين المكذبين ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ يعني كانت عاقبتهم الهلاك لما كذبوا رسلنا فليعتبر هؤلاء بهم وما حل بهم من عذابنا ﴿ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ﴾ يعني فعلنا هذا بأوليائنا وأهل طاعتنا إذ أنجيناهم عند نزول العذاب بالأمم

المكذبة وما في الدار الآخرة خير لهم يعني الجنة لأنها خير من الدنيا وإنما أضاف الدار إلى الآخرة وإن كانت في الآخرة لأن العرب تضيف الشيء إلى نفسه كقولهم حق اليقين والحق هو اليقين نفسه ﴿ أفلا تعقلون ﴾ يعني يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنون . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(114/404)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً ﴾

رد لقولهم ﴿ وَلَوْ شَاء الله لأَنزَلَ ملائكة ﴾ ﴿ نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ كما أوحينا إليك وقرىء بالياء ﴿ مّنْ أَهْلِ القرى ﴾ لأنهم أعلمُ وأحلم ، وأهلُ البوادي فيهم الجهلُ والجفاءُ والقسوة .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من المكذبين بالرسل والآياتِ فيحذَروا تكذيبك ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ أي الساعة أُو الحياة الآخرة ﴿ خَيْرٌ لّلَّذِينَ اتقوا ﴾ الشركَ والمعاصيَ ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ فتستعملوا عقولَكم لتعرفِوا

خيريةَ دارِ الآخرة ، وقرئ بالياء على أنه غيرُ داخل تحت قل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(115/404)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾

رد لقولهم : ﴿ لَوْ شَاء رَبُّنَا لأَنزَلَ ملائكة ﴾ [فصلت : 14] نفي له ، وقيل : المراد نفي

استنباء النساء ونسب ذلك إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وزعم بعضهم أن الآية نزلت في سجاح بنت المنذر المنبئة التي يقول فيها الشاعر :

أمست نبيتنا أنثى نطوف بها . . .

ولم تزل أنبياء الله ذكرانا

فلعنة الله والاقوام كلهم . . .

على سجاح ومن بالافك أغرانا

أعني مسيلمة الكذاب لاسقيت . . .

اصداؤه ماء مزن أينما كانا

وهو مما لا صحة له لأن ادعاءها النبوة كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم وكونه اخباراً بالغيب لا قرينة عليه ﴿ نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ كما أوحينا إليك .

وقرأ أكثر السبعة ﴿ يُوحَى ﴾ بالياء وفتح الحاء مبنياً للمفعول ، وقراءة النون وهي قراءة حفص .

وطلحة .

وأبي عبد الرحمن موافقة لأرسلنا ﴿ مّنْ أَهْلِ القرى ﴾ لأن أهلها كما قال ابن زيد .

وغيره : وهو مما لا شبهة فيه أعلم وأحلم من أهل البادية ولذا يقال : لأهل البادية أهل الجفاء ، وذكروا ان التبدي مكروه إلا في الفتن ، وفي الحديث " من بدا جفا " قال قتادة : ما نعلم أن الله تعالى أرسل رسولاً قط إلا من أهل القرى ، ونقل عن الحسن أنه قال : لم يبعث رسول من أهل البادية ولا من النساء ولا من الجن ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَاء بِكُمْ مّنَ البدو ﴾ [يوسف : 100] قد مر الكلام فيه آنفاً .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من المكذبين بالرسل والآيات من قوم نوح ، وقوم لوط .

وقوم صالح وسائر من عذبه الله تعالى فيحذروا تكذيبك وروى هذا عن الحسن ، وجوز أن يكون المراد عاقبة الذين من قبلهم من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها فيقلعوا ويكفوا عن حبها وكأنه لاحظ المجوز ما سيذكر ، والاستفهام على ما في البحر للتقريع والتوبيخ ﴿ وَلَدَارُ الْآخرة ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف عند الكوفية أي ولا الدار الآخرة وقدر البصري موصوفاً أي ولدار الحال أو الساعة أو الحياة الآخرة وهو المختار عند الكثير في مثل ذلك ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتقوا ﴾ الشرك والمعاصي : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة فتتوسلوا إليها بالاتقاء ، قيل : إن هذا من مقول ﴿ قُلْ ﴾ [يوسف : 108] أي قل لهم مخاطباً أفلا تعقلون فالخطاب على ظاهره ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ إلى ﴿ مِن قَبْلِهِمُ ﴾ أو ﴿ اتقوا ﴾ اعتراض بين مقول القول ، واستظهر بعضهم كون هذا التفاتاً .

وقرأ جماعة ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ بالياء رعيا لقوله سبحانه : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(117/404)

وقال القاسمي :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾

أي : لا ملائكة من أهل السماء ، رد لقول المشركين : ﴿ لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ [فصلت : من الآية 14] ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : من الآية 20] [في المطبوع وقع خطأ في الآية] ، وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 8] . وقوله : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : من الآية 9] الآية .

واحتج بقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ على أنه لم ينتظم في سلك النبوة امرأة .

والقرى : جمع قرية ، وهي على ما في " القاموس " : المصر الجامع ، وفي "كفاية المتحفظ " : القرية : كل مكان اتصلت به الأبنية ، واتخذ قراراً . وتقع على المدن وغيرهما . انتهى .

قال ابن كثير : والمراد بالقرى هنا المدن . أي : لا أنهم من أهل البوادي الذين هم أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً . وهذا هو المعهود المعروف : أن أهل المدن أرق طباعاً ، وألطف من أهل بواديهم . وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي . ولهذا قال تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ﴾ الآية [التوبة : من الآية 97] .

قال قتادة : إنما كانوا من أهل القرى ؛ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العُمور .

(118/404)

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ أي : هؤلاء المكذبون ﴿ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾ أي : نظر تفكر ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : من الأمم المكذبة ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ الآية [الحج : من الآية 46] ، فإذا استمعوا خبر ذلك ؛ رأوا أن الله أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين . وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ ﴾ أي : الشرك والفواحش ، وآمنوا بالله ورسله وكتبه .

قال ابن كثير : أي : وكما نجينا المؤمنين في الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة ، وهي خير لهم من الدنيا ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : 51] .

﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : تستعملون عقولكم ، فتعلموا أن الآخرة خير ، أو تعلموا كيف عاقبة أولئك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل جـ 9 صـ 239 . 240 ﴾

(119/404)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾

عطف على جملة ﴿ وما أكثر الناس ﴾ [سورة يوسف : 103] الخ .

هاتان الآيتان متّصل معناهما بما تضمنه قوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ [سورة يوسف : 102] إلى قوله : ﴿ إن هو إلاّ ذكر للعالمين ﴾ [سورة يوسف : 104] وقوله : ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ الآية [سورة يوسف : 108] ، فإن تلك الآي تضمنت الحجة على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام فيما جاءهم به ، وتضمنت أن الذين أشركوا غير مصدقينه عناداً وإعراضاً عن آيات الصدق .

فالمعنى أن إرسال الرسل عليهم السلام سنّة إلهية قديمة فلماذا يَجعل المشركون نبوءتك أمراً مستحيلاً فلا يصدّقون بها مع ما قارنها من آيات الصدق فيقولون : أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ .

وهل كان الرسل عليهم السلام السابقون إلا رجالاً من أهل القرى أوحى الله إليهم فبماذا امتازوا عليك ، فسلم المشركون ببعثتهم وتحدّثوا بقصصهم وأنكروا نبوءتك .

وراء هذا معنى آخر من التذكير باستواء أحوال الرسل عليهم السلام وما لقوه من أقوامهم فهو وعيد باستواء العاقبة للفريقين .

و﴿ من قبلك ﴾ يتعلق بـ ﴿ أرسلنا ﴾ ف ﴿ من ﴾ لابتداء الأزمنة فصار ما صدق

القبل الأزمنة السابقة، أي من أول أزمنة الإرسال.

ولولا وجود ﴿ من ﴾ لكان ﴿ قبلك ﴾ في معنى الصفة للمرسَلين المدلول عليهم بفعل الإرسال.

والرجال: اسم جنس جامد لا مفهوم له.

وأطلق هنا مراداً به أناساً كقوله صلى الله عليه وسلم " ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه " أي إنسان أو شخص، فليس المراد الاحتراز عن المرأة.

واختير هنا دون غيرِه لمطابقته الواقع فإن الله لم يرسل رسلاً من النساء لحكمة قبول قيادتهم في نفوس الأقوام إذ المرأة مستضعفة عند الرجال دون العكس؛ ألا ترى إلى قول قيس بن عاصم حين تنبأت سَجَاحِ:

أضحت نبيئتُنا أنثى نُطِيف بها

وأصبحت أنبياءُ الناس ذكرانا . . .

وليس تخصيص الرجال وأنهم من أهل القرى لقصد الاحتراز عن النساء ومن أهل البادية ولكنه لبيان المماثلة بين مَن سلّموا برسالتهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا:

﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] و ﴿ قالوا لولا أوتي مثلَ ما أوتي موسى ﴾ [القصص : 48] ، أي فما كان محمد صلى الله عليه وسلم بِدعاً من الرسل حتى تبادروا بإنكار رسالته وتُعرضوا عن النظر في آياته .

فالقصر إضافي ، أي لم يكن الرسل عليهم السلام قبلك ملائكةً أو ملوكاً من ملوك المدن الكبيرة فلا دلالة في الآية على نفي إرسال رسول من أهل البادية مثل خالد بن سنان العبسي ، ويعقوب عليه السلام حين كان ساكناً في البَدْو كما تقدم .

وقرأ الجمهور ، ﴿ يُوحَى ﴾ بتحتية وبفتح الحاء مبنياً للنائب ، وقرأه حفص بنون على أنه مبني للفاعل والنون نون العظمة .

وتفريع قوله : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ على ما دلت عليه جملة ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾ من الأسوة ، أي فكذّبهم أقوامهم من قبل قومك مثل ما كذّبك قومك وكانت عاقبتهم العقاب .

أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الأقوام السابقين ، أي فينظروا آثار آخر أحوالهم من الهلاك والعذاب فيعلم قومك أن عاقبتهم على قياس عاقبة الذين كذّبوا الرسل قبلهم ، فضمير ﴿ يسيروا ﴾ عائد على معلوم من المقام الدال عليه ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ [سورة يوسف : 108] .

والاستفهام إنكاري .

فإن مجموع المتحدّث عنهم ساروا في الأرض فرأوا عاقبة المكذبين مثل عاد وثمود .

وهذا التفريع اعتراض بالوعيد والتهديد .

وكيف ﴿ استفهام معلّق لفعل النظر عن مفعوله .

وجملة ﴿ ولدار الآخرة ﴾ خبر .

معطوفة على الاعتراض فلها حكمه ، وهو اعتراض بالتبشير وحسن العاقبة للرسل عليهم السلام ومن آمن بهم وهم الذين اتقوا .

وهو تعريض بسلامة عاقبة المتقين في الدنيا .

وتعريض أيضاً بأن دار الآخرة أشد أيضاً على الذين من قبلهم من العاقبة التي كانت في الدنيا فحصل إيجاز بحذف جملتين .

وإضافة ﴿ دار ﴾ إلى ﴿ آخرة ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة مثل " يا نساء المسلمات " في الحديث .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، وأبو جعفر ، ويعقوب : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ بتاء الخطاب على الالتفات ، لأن المعاندين لما جرى ذكرهم وتكرر صاروا

كالحاضرين فالتفت إليهم بالخطاب .

وقرأه الباقون بياء الغيبة على نسق ما قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(122/404)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾

وينتقل الحق سبحانه هنا إلى الرسل الذين سبقوا محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94]

أي : أنهم كانوا يطلبون رسولاً من غير البشر ، وتلك مسألة لم تحدث من قبل ، ولو كانت قد حدثتْ من قَبْل ؛ لقالوا : " ولماذا فعلها الله مع غيرنا ؟ " .

ولذلك أراد سبحانه أن يَردُّ لهم عقولهم ؛ فقال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95]

والملائكة بطبيعتها لا تستطيع أن تحيا على الأرض ، كما أنها لا تصلح لأنْ تكون قُدْوة أو

أُسْوة سلوكية للبشر .

فالحق سبحانه يقول عن الملائكة : ﴿ . . . لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6]

والملاك لا يصلح أن يكون أُسْوة للإنسان ؛ لأن المَلَك مخلوق غيبيّ غير مُحَسٍّ من البشر ؛ ولو أراده الله رسولاً لَجسَّده بشراً ؛ ولو جعله بشراً لبقيتْ الشبهة قائمةً كما هي .

أو : أن الآية جاءت لِتسُدَّ على الناس ذرائع انفتحت بعد ذلك على الناس في حروب الرِّدة حين ادَّعَتْ سجاح أنها نبية مُرْسَلة .

لذلك جاء الحق سبحانه من البداية بالقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى . . . ﴾ [يوسف : 109]

ليوضح لنا أن المرأة لا تكون رسولاً منه سبحانه ؛ لأن مهمة الرسول أن يلتحم بالعالم التحامَ بلاغٍ ، والمرأة مطلوب منها أن تكون سكناً .

كما أن الرسول يُفترض فيه ألاّ يسقط عنه تكليف تعبديّ في أي وقت من الأوقات ؛ والمرأة يسقط عنها التكليف التعبدي أثناء الطمث ، ومهمة الرسول تقتضي أن يكون مُسْتوفي

الأداء التكليفي في أيّ وقتٍ .

ثم كيف يطلبون ذلك ولَمْ تَأْتِ في مهام الرسل من قبل ذلك إلا رجالاً ، ولم يسأل الحق أيّاً منهم ، ولم يستأذن من أيِّ واحد من الرسل السابقين ليتولى مهمته ؛ بل تلقّى التكليف من الله دون اختيار منه ، ويتلقى ما يؤمر أن يبلغه للناس ، ويكون الأمر بواسطة الوحي .

والوحي كما نعلم إعلام بخفاء ، ولا ينصرف على إطلاقه إلا للبلاغ عن الله . ولم يوجد رسول مُفوَّض ليبلغ ما يحب أو يُشرِّع ؛ لكن كل رسول مُكلَّف بأن ينقل ما يُبَلغ به ، إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد فوَّضه الحق سبحانه في أن يُشرِّع ، ونزل في القرآن : ﴿ مَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . . ﴾ [الحشر : 7]

ويقول الحق سبحانه عن هؤلاء الرسل السابقين أنهم : ﴿ مِّنْ أَهْلِ القرى . . . ﴾ [يوسف : 109]

والقرية كانت تأخذ نفس مكانة المدينة في عالمنا المعاصر . وأنت حين تزور أهل المدينة تجد عندهم الخير عكس أهل البادية ، فالبدويّ من هؤلاء قد لا يجد ما يُقدِّمه لك ، فقد يكون ضرع الماشية قد جفَّ ؛ أو لا يجد ما يذبحه لك من الأغنام .

والفارق بين أهل القرية وأهل البادية أن أهل القرية لهم توطُّن ؛ ويملكون قدرة التعايش مع الغير ، وترتبط مصالحهم ببعضهم البعض ، وترِقُّ حاشية كل منهم للآخر ، وتتسع مداركهم بمعارف متعددة ، وليس فيهم غِلْظة أهل البادية .

فالبدويُّ من هؤلاء لا يملك إلا الرَّحْل على ظهر جَمله ؛ ويطلب مساقط المياه ، وأماكن الكلأ لما يرعاه من أغنام .

وهكذا تكون في أهل القرى رِقَّة وعِلْم وأدبُ تناول وتعاملٍ ؛ ولذلك لم يَأْتِ رسول من البدو كي لا تكون معلوماته قاصرة ، ويكون جافاً ، به غِلْظة قوْلٍ وسلوك .

والرسول يُفترض فيه أن يستقبل كل مَنْ يلتقي به بالرِّفق واللِّين وحُسْن المعاشرة ؛ لذلك يكون من أهل القرى غالباً ؛ لأنهم ليسوا قُسَاة ؛ وليسوا على جهل بأمور التعايش الاجتماعي .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ [يوسف : 109]

أي : أنهم إنْ كانوا غير مؤمنين بآخرة يعودون إليها ؛ ولا يعلمون متى يعودون ؛ فليأخذوا الدنيا مِقْياساً ؛ ولْينظروا في رُقْعة الأرض ؛ وينظروا ماذا حدث للمُكذِّبين بالرسل ، إنهم سيجدون أن الهلاك والعذاب قد حاقا بكل مُكذِّب .

ولو أنهم ساروا في الأرض ونظروا نظرة اعتبار ، لرأوا قُرى مَنْ نحتوا بيوتهم في الجبال وقد

عصف بها الحق سبحانه ، ولَرأوْا أن الحق قد صَبَّ سَوْط العذاب على قوم عاد وآل فرعون ، فإن لم تَخَفْ من الآخرة ؛ فعليك بالخوف من عذاب الدنيا .

وقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ [يوسف : 109]

وهذا القول هو من لَفتاتِ الكونيات في القرآن ، فقديماً كنا لا نعرف أن هناك غلافاً جوياً يحيط بالأرض ، ولم نَكُنْ نعرف أن هذا الغلاف الجوي به الأكسوجين الذي نحتاجه للتنفس .

ولم نَكُنْ نعرف أن هذا الغلاف الجوي من ضمن تمام الأرض ، وأنك حين تسير على اليابسة ، فالغلاف الجوي يكون فوقك ؛ وبذلك فأنت تسير في الأرض ؛ لأن ما فوقك من غلاف جوي هو من مُلْحقات الأرض .

والسَّيْر في الأرض هو للسياحة فيها ، والسياحة في الأرض نوعان : سياحة اعتبار ، وسياحة استثمار .

ويُعبِّر الحق سبحانه عن سياحة الاعتبار بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ [الروم : 9]

ويعبر سبحانه عن سياحة الاستثمار بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق ثُمَّ الله يُنشِىءُ النشأة الآخرة . . . ﴾ [العنكبوت : 20]

إذن : فالسياحة الاعتبار هي التي تَلْفتك لقدرة الله سبحانه ، وسياحة الاستثمار هي من عمارة الأرض ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأرض مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً . . . ﴾ [النساء : 100]

وأنت مُكلَّف بهذه المهمة ، بل إن ضاق عليك مكان في الأرض فابحث عن مكان آخر ، بحسب قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا . . . ﴾ [النساء : 97]

ولك أن تستثمر كما تريد ، شرط ألاَّ يُلهيك الاستثمار عن الاعتبار .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ [يوسف : 109]

ويا ليْتَ الأمر قد اقتصر على النكال الذي حدث لهم في الدنيا ؛ بل هناك نَكَالٌ أشدُّ وَطْأة في انتظارهم في الآخرة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ . . . وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتقوا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : 109]

وحديث الحق سبحانه عن مصير الذين كَذَّبوا ؛ يَظهر لنا كمقابل لما ينتظر المؤمنين ، ولم

تذكر الآية مصير هؤلاء المُكذّبين بالتعبير المباشر ، ويُسمُّون ذلك في اللغة بالاحتباك .

مثل ذلك قوله الحق : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . . ﴾ [الرعد : 41] وكل يوم تنقص أرض الكفر ، وتزيد رقعة الإيمان .

وهكذا يأتي العقاب من جانب الله ، ونأخذ المقابل له في الدنيا ؛ ومرة يأتي بالثواب المقيم للمؤمنين ، ونأخذ المقابل في الآخرة .

ولقائل أن يقول : ولماذا لم يَقُلِ الحق سبحانه أنه سوف يأتي لهم بما هو أشد شراً من عذاب الدنيا في اليوم الآخر ؟

(126/404)

وأقول : إن السياق العقلي السطحي الذي ليس من الله ؛ هو الذي يمكن أن يُذكِّرهم بأن عذاب الآخرة هو أشدُّ شراً من عذاب الدنيا .

ولكن الحق سبحانه لا يقول ذلك ؛ بل عَدل عن هذا إلى المقابل في المؤمنين ؛ فقال : ﴿ . . . وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتقوا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : 109] .

فإذا جاء في الدنيا بالعذاب للكافرين ؛ ثم جاء في الآخرة بالثواب لِلمُتقين ؛ أخذ من هذا

المقابل أن غير المؤمنين سيكون لهم حسابٌ عسير ، وقد حذف من هنا ما يدل عليه هناك ؛ كي نعرف كيف يُحبَك النظم القرآني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(127/404)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) (يوسف : 109) ، وفي سورة النحل (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النحل : 43) ، وفي سورة الأنبياء : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (الأنبياء : 7) ، وفي سورة الفرقان : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) (الفرقان : 20) ، للسائل أن يسأل عن اختصاص هاتين الآيتين الأخيرتين بسقوط ((من)) منهما وثبوتها في الآيتين الأوليين .

والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن آية يوسف قد تقدمها قوله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (يوسف : 106) ، وقوله : (وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يوسف : 108) ، وقوة السياق في هذه الآي يدل على معنى القسم ويعطيه ، فناسب

ذلك زيادة ((من)) المقتضية الاستغراق ، وكذلك قوله في سورة النحل : (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ) (النحل : 41) يؤكد ذلك المعنى ، فناسبه زيادة ((من)) لاستغراق ما تقدم من الزمان .

(128/404)

أما قوله تعالى في سورة الأنبياء (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (الأنبياء : 7) فتقدم قبلها إنكار الكفار كون الرسل من البشر في قوله : (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) (الأنبياء : 3) ، واقتراحهم الآيات في قوله : (فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) (الأنبياء : 5) ، فلما انطوى هذا الكلام على قضيتين : من اقتراحهم الآيات ، وإنكارهم كون الرسل من البشر ، وقد بين لهم حال المقترحين في قوله تعالى : (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) (الأنبياء : 6) ، فلما تقدم هذا اتبع ببيان الطرف (الآخر) وهو التعريف بأن من تقدم من الرسل إنما كانوا رجالاً من البشر ، مختصين بتخصيصه سبحانه ، ولم يكونوا ملائكة ، فقيل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (الأنبياء : 7) ، فقيل هنا : (قبلك) كما قيل في نظيرتها : (ما ءامنت قبلهم) ، فلم تدخل هنا ((من)) كما لم تدخل في النظير (الآخر) لإحراز التناسب ، والتام الجملة المنطوية على

طرفي مقصدهم من الاقتراح وإنكار كون الرسل من البشر ، وكذلك الوارد في سورة الفرقان في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان : 20) ، وإنما ورد جواباً لقولهم : ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان : 7) ، ولا داعي في هذا للقسم إذ هو جواب لقولهم ، فلا داعي لورود ((من)) ، فورد هذا كله على أبدع نظام وأعلى تناسب ، وإذا اعتبر الناظر استوضح أن كلاً من هذه الآي لا يمكن إتيانه في موضوع غيره والله أعلم .

(129/404)

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ (يوسف : 109) ، قلت : تكرر هذا الضرب من الاعتبار بأحوال من تقدم من الأمم وما أعقب المكذبين تكذيبهم في عدة مواضع ، منها ما ورد فيه بعد همزة التقرير وفاء التعقيب ، ومنها ما ورد بواو النسق ، فأما تقديم الهمزة قبلها فلما لها من الصدرية ، فلا يتقدم حرف العطف عليها ، ولما جرت في هذه الآي على ما ذكرنا من تخصيص بعض هذه المواضع بالفاء المقتضية مع التشريك الترتيب والتعقيب ، وبعضها

بالواو المقتضية مجرد التشريك والجمع ، كان ذلك مظنة سؤال ، فللسائل أن يسأل عن تخصيص كل واحد من هذه المواضع بما اختص به في عطفه على ما قبله ؟ فمن الوارد بالفاء آية يوسف المذكورة آنفاً وفي سورة الحج : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ (الحج : 46) ، وفي آخر سورة غافر : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ . . . ﴾ (غافر : 82) ، وفي سورة القتال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ (محمد : 10) ، فهذه أربع آيات مما ورد بالفاء . ومن الوارد بالواو قوله في سورة الروم : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ (الروم : 9) ، وفي سورة الملائكة : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ

مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ . . . (فاطر : 44) ، وفي سورة المؤمن : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ (غافر : 21) ، فهذه ثلاث آيات .

والجواب عن الضرب الأول : أما آية يوسف فقوله تعالى : { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ } [يوسف : 109] مربوط بما قبله ومبني على ما تقدم كحال في جواب مبني على ما قبله ، ألا ترى أن قبل الآية آيات تخويف وترهيب ، كقوله تعالى : { وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] ، ثم قال تعالى : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [يوسف : 106] ، ثم قال تعالى : { أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ

(131/404)

غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } [يوسف : 107] ، ثم قال تعالى : { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي } [يوسف : 108] ، ثم قال : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ } [يوسف : 109] فالكلام [بجملته في قوة أن لو قيل : ما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً من البشر أمثالك فكذبوا فهلك مكذبوهم وأخذوا كل مأخذ ، فإن شاء هؤلاء فليسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة (الذين من قبلهم) ممن تقدمهم ، فالكلام من حيث معناه في قوة الشرط والجزاء فورد بالفاء ، وليس موضع الواو ، ويشهد لهذا الغرض

ويبينه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ﴿النحل : 36﴾ ، ﴿أي﴾ فإن شككتم فسيروا في الأرض ، وعلى هذا المعنى كل ما ورد من هذا . ومن هذا القبيل آية سورة الحج ، ألا ترى أن قبلها قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ﴿الحج : 42-44﴾ ، ثم قال : ﴿﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ﴿الحج : 45-46﴾ ، أي فهلا ساروا في ﴿الأرض﴾ قاصدين الاعتبار فعقلوا بقلوبهم وانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم ، فعلى هذا المعنى لا مدخل

(132/404)

لواو العطف هنا ، وإنما الملائم الفاء لما تعطيه من السببيه والارتباط .

وأما الوارد في ﴿آخر﴾ سورة المؤمن فقد تقدم قبلها قوله تعالى : ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ ﴿غافر : 81﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ﴿غافر : 82﴾ أي فهلا ساروا في الأرض ﴿فاعتبروا بما﴾ في الأرض من الآيات ، قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (الذاريات : 20) ، فالمعنى على هذا وليس المعنى على العطف المجرد من معنى التسبب ، فالموضع للفاء ولا لواو النسق .

وأما الوارد في سورة القتال فإن قبل الآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) (محمد : 7–9) ، ثم قال : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (محمد : 10) ، فالملائم هنا الفاء لما في الكلام من معنى التسبب والتخصيص المحرزين هنا ما يلائم ويناسب مرتكبهم من التوبيخ ، فالموضع للفاء المقصود بها ربط الكلام بما قبله .

(133/404)

وأما الضرب الثاني مما ورد بالواو فلعطف ذلك (على) ما قبله تشريكاً لا سببية فيه ولا معنى جوابيه ولا مقصود تعقيب ولا ربط مقصزدها من المعاني بما قبله سوى التشريك خاصة ، ففي سورة الروم ورد متقدماً قبل الآية في قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى) (الروم : 8) ، فعطف على هذه عطف تشريك لا سببية فيه قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (الروم : 9) ، فتشاركت الآيتان في الحض على الاعتبار ومقصودهما واحد ، فعطفت

إحداهما على الأخرى بما يقتضي ذلك وليس إلا الواو ، وأما الفاء وثم فلا مدخل لواحدة منهما هنا ، والله أعلم .

وأما سورة الملائكة فتقدم فيها قوله : (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ) (فاطر : 43) ، فأحيلوا على ما اطرد في من قبلهم من سنته تعالى فيهم ، من أخذهم بتكذيبهم سنة الله التي خلت من قبل ، ثم أعقب بإحالتهم على قرب منهم ممن شاهدوا آثاره وتعرفوا على قرب أخباره فقيل : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (فاطر : 44) ، فقوله : (فَهَلْ يَنْظُرُونَ) وقوله : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا) مسلك واحد في الاعتبار ، فصل لهم بحسب بعد ما أمروا باعتبار حاله (أو قربه) ، فعطف أحد السببين على الآخر مع اتحاد النوع المعتبر به ، ولا يعطف مثل هذا إلا بالواو خاصة ، وما سوى الواو لا يلائم ولا يناس ، والله أعلم .

وأما الآية الأولى من سورة المؤمن فملحوظ فيها من نيطت به في معناها من قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ) (غافر : 13) ، وليس بعد هذه الآية من معناها إلا قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (غافر : 21) ، فمن آياته تعالى التي رآها عباده ما أجراه من سننه فيمن خلا من الأمم ، فوقعت الإحالة

على ذلك بعطف الآية من قوله : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) على ما به نيطت حسبما تقدم ، ولا يناسب ذلك غير الواو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 271.268 ﴾

(135/404)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن جريج - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾ قال : إنهم قالوا ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [الأنعام : 91] وقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ وقوله ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها ﴾ وقوله ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ﴾ وقوله ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ قال : كل ذلك قال لقريش أفلم يسيروا في الأرض فينظروا في

آثارهم فيعتبروا ويتفكروا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ قال : ما نعلم أن الله أرسل رسولاً قط إلا من أهل القرى ، لأنهم كانوا أعلم وأحكم من أهل العمود .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ قال : فينظروا كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح والأمم التي عذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(136/404)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾

قوله تعالى : ﴿ نوحي ﴾ : العامَّةُ على " يُوحى " بالياء من تحت مبنياً للمفعول . وقرأ حفص " نوحي " بالنون مبنياً للفاعل اعتباراً بقوله " وما أَرْسَلْنا " وكذلك قرأ ما في النحل وما في أول الأنبياء ، ووافقه الأخوان على قوله : " نوحي إليه " في الأنبياء على ما سيأتي

إن شاء اللَّه تعالى . والجملة صفة لـ " رجالاً " . و ﴿ مِّنْ أَهْلِ القرى ﴾ صفة ثانية ، وكان تقديمُ هذه الصفةِ على ما قبلها أكثرَ استعمالاً ؛ لأنها أقربُ إلى المفردِ وقد تقدَّم تحريرُه في المائدة .

قوله : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ وما بعده قد تقدَّم في الأنعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 562.561 ﴾

(137/404)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾

تعجبوا أن يبعثَ اللَّهُ إلى الخْلق بشراً رسولاً ، فبيَّن أنه أجرى سُنَّتَه - فيمن تقدَّمَ من الأمم - ألا يكونَ الرسولُ إليهم بَشَرا ، فإما أن جحدوا جوازَ بعثةِ الرسولِ أصلاً ، أو أنهم استنكروا أن يبعث بشرّاً رسولاً .

ثم أَمرهُم بالاستدلال والتفكر والاعتبار والنَّظرِ فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْض . . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 213 ﴾

قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان المعنى معلوماً من هذا السياق تقديره : فدعا الرجال المرسلون إلى الله واجتهدوا في إنذار قومهم لخلاصهم من الشقاء ، وتوعدهم عن الله بأنواع العقوبات إن لم يتبعوهم ، وطال عليهم الأمر وتراخى النصر وهم يكذبونهم في تلك الإيعادات ويبكتونهم ويستهزئون بهم ، واستمر ذلك من حالهم وحالهم ، قال مشيراً إلى ذلك : ﴿ حتى إذا استيئس الرسل ﴾ أي يئسوا من النصر يأساً عظيماً كأنهم أوجدوه أو طلبوه واستجلبوه من أنفسهم ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ أي فعلوا فعل اليأس العظيم اليأس الذي ظن أنه قد أخلف وعده من الإقبال على التحذير والتبشير والجواب - لمن استهزأ بهم وقال : ما يحبس ما وعدتمونا به - بإن ذلك أمره إلى الله ، إن شاء أنجزه ، وإن شاء أخره ، ليس علينا من أمره شيء ؛ ويجوز أن يراد أنهم لمن استبطؤوا النصر وضجروا مما يقاسون من أذى الأعداء ،

واستبطاء الأولياء ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ﴾ كما يقول الآئس ﴿ متى نصر الله ﴾ مع علمهم بأن الله تعالى له أن يفعل ما يشاء ، عبر عن حالهم ذلك بما هنا - نقل الزمخشري في الكشاف والرازي في اللوامع معناه عن ابن عباس -رضى الله عنهما - ، هذا على قراءة التخفيف ، وأما على قراءة التشديد فالتقدير : وظنوا أنهم قد كذبهم أتباعهم حتى لقد أنكرت عائشة -رضى الله عنهم- ا قراءة التخفيف ، روى البخاري في التفسير وغيره عن عروة بن الزبير أنه سألها عن القراءة : أهي بالتشديد أم بالتخفيف ؟ فقالت : إنها بالتشديد ، قال قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن ، قالت : أجل ، لعمري لقد استيقنوا بذلك ! فقلت لها : وظنوا أنهم قد كذبوا أي بالتخفيف - قالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر ، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنوا أنهم أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله

عند ذلك .

﴿ جاءهم نصرنا ﴾ لهم بخذلان أعدائهم ﴿ فنجي من نشاء ﴾ منهم ومن أعدائهم

﴿ ولا يرد بأسنا ﴾ أي عذابنا لما له من العظمة ﴿ عن القوم ﴾ أي وإن كانوا في غاية القوة ﴿ المجرمين ﴾ الذين حتمنا دوامهم على القطيعة كما قلنا ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم ﴾ وحققنا بمن ذكرنا مصارعهم من الأمم ، وكل ذلك إعلام بأن سنته جرت بأنه يطيل الامتحان ، ويمد زمان الابتلاء والاعتبار ، حثاً للأتباع على الصبر وزجراً للمكذبين عن التمادي في الاستهزاء .

(140/404)

ومادة "كذب " تدور على ما لا حقيقة له ، وأكثر تصاريفها واضح في ذلك ، ويستعمل في غير الإنسان ، قالوا : كذب البرق والحلم والرجاء والطمع والظن ، وكذبت العين : خانها حسها ، وكذب الرأي : تبين الأمر بخلاف ما هو به ، وكذبته نفسه : منته غير الحق ، والكذوب : النفس ، لذلك ، وأكذبت الناقة وكذبت - إذا ضربها الفحل فتشول أي ترفع ذنبها ثم ترجع حائلاً ، لأنها أخلفت ظن حملها ، وكذا إذا ظن بها لبن وليس بها ، ويقال لمن يصاح به وهو ساكن يرى أنه نائم : قد أكذب ، أي عد ذلك الصياح عدماً ، والمكذوبة من النساء : الضعيفة ، لأنه لما اجتمع فيها ضعف النساء وضعفها عدت عدماً ، والمكذوبة على القلب : المرأة الصالحة - كأنها لعزة الصلاح في النساء جعلت عدماً ، وكذب

الوحشي – إذا جرى ثم وقف ينظر ما وراءه ، كأنه لم يصدق بالذي أنفره ، ومنه كذب عن كذا – إذا أحجم عنه بعد أن أراده ، أو لأنه كذب ما ظنه عند الحملة من قتل الأقران ، وكذبك الحج أي أمكنك وكذبك الصيد مثله ، وهو يؤول إلى الحث لأن المعنى أن الحج لعظم مشقته وطول شقته تنفر النفس عنه ، فيكاد أن لا يوجد ، وكذا الصيد لشدة فراره وسرعة نفاره وعزة استقراره يكاد أن لا يتمكن منه فيكون صيده كالكذب لا حقيقة له ، فقد تبين حينئذ وجه كون "كذب " بمعنى الإغراء ولاح أن قوله " ثلاثة أسفار كذبن عليكم : الحج والعمرة والجهاد " معناه أنها لشدة الصعوبة لا تكاد تمكن من أرادها منها ، مع أنه – لقوة داعيته لكثرة ما يرى فيها من الترغيب بالأجر – يكون كالظافر بها ، ويؤيده ما قال ابن الأثير في النهاية عن الأخفش : الحج مرفوع ومعناه نصب ، لأنه يريد أن يأمره بالحج كما يقال : أمكنك الصيد ، يريد : ارمه ، وقال أبو علي الفارسي في الحجة في قول عنترة :

كذب العتيق وماء شن بارد . . .

إن كنت سائلتي غبوقاً فاذهبي

وإن شئت قلت : إن الكلمة لما كثر استعمالها في الإغراء بالشيء والبعث على طلبه وإيجاده صار كأنه قال بقوله لها : عليك العتيق ، أي الزميه ، ولا يريد نفيه ولكن إضرابها عما عداه ، فيكون العتيق في المعنى مفعولاً به إن كان لفظه مرفوعاً ، مثل " سلام عليكم " ونحوه مما يراد به الدعاء واللفظ على الرفع ، وحكى محمد بن السري رحمه الله عن بعض أهل اللغة في "كذب العتيق " أن مضر تنصب به وأن اليمن ترفع به ، وقد تقدم وجه ذلك – انتهى .

وأقرب من ذلك جداً وأسهل تناولاً وأخذاً أن الإنسان لا يزال منيع الجناب مصون الحجاب ما كان لازماً للصدق فإذا كذب فقد أمكن من نفسه وهان أمره ، فمعنى " ثلاثة أسفار كذبن عليكم أمكنتكم من أنفسها ، الحج كل سنة بزوال مانع الكفار عنه ، والعمرة كل السنة بزوال المفسدين بالقتل وغيره في أشهر الحل ، والجهاد كل السنة أيضاً لإباحته في الأشهر الحرم وغيرها ، وتخريج مثل : كذبتك الظهائر ، وغيره على هذا بين الظهور ولا وقفة فيه ولكون الكاذب يبادر إلى المعاذير ويحاول التخلص كان التعبير بهذا من باب الإغراء ، أي انتهز الفرصة وبادر تعسر هذا الإمكان . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 115.113﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾

اعلم أنه قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ بالتخفيف ، وكسر الذال والباقون بالتشديد ، ومعنى التخفيف من وجهين : أحدهما : أن الظن واقع بالقوم ، أي حتى إذا استيأس الرسل من إيمان القوم فظن القوم أن الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر .

فإن قيل : لم يجر فيما سبق ذكر المرسل إليهم فكيف يحسن عود هذا الضمير إليهم .

قلنا : ذكر الرسل يدل على المرسل إليهم وإن شئت قلت أن ذكرهم جرى في قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [يوسف : 109] فيكون الضمير عائداً إلى الذين من قبلهم من مكذبي الرسل والظن ههنا بمعنى التوهم والحسبان .

والوجه الثاني : أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا وهذا التأويل منقول عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما قالوا : وإنما كان الأمر كذلك لأجل ضعف البشرية إلا أنه بعيد ، لأن المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب ، بل يخرج بذلك عن الإيمان فكيف يجوز مثله على الرسل ، وأما قراءة التشديد ففيها وجهان : الأول : أن

الظن بمعنى اليقين ، أي وأيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيباً لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك ، فحينئذ دعوا عليهم فهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال ، وورود الظن بمعنى العلم كثير في القرآن قال تعالى : ﴿ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهم ملاقوا ربِّهِمْ ﴾ [البقرة : 46] أي يتيقنون ذلك .

(143/404)

والثاني : أن يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم فظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم وهذا التأويل منقول عن عائشة رضي الله عنها وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية ، روي أن ابن أبي مليكة نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : وظن الرسل أنهم كذبوا ، لأنهم كانوا بشراً ألا ترى إلى قوله : ﴿ حتى يَقُولَ الرسول والذين ءامَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ﴾ [البقرة : 214] قال فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فأنكرته وقالت : ما وعد الله محمداً صلى الله عليه وسلم شيئاً إلا وقد علم أنه سيوفيه ولكن البلاء لم يزل بالأنبياء حتى خافوا من أن يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم وهذا الرد والتأويل في غاية الحسن من عائشة .

وأما قوله : ﴿ جَاءهُمْ نَصْرُنَا ﴾ أي لما بلغ الحال إلى الحد المذكور ﴿ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجّىَ

مَن نَّشَاء ﴾ قرأ عاصم وابن عامر ﴿ فَنُجّىَ مَن نَّشَاء ﴾ بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسم فاعله ، واختاره أبو عبيدة لأنه في المصحف بنون واحدة .

وروي عن الكسائي : إدغام إحدى النونين في الأخرى وقرأ بنون واحدة وتشديد الجيم وسكون الياء ، قال بعضهم : هذا خطأ لأن النون متحركة فلا تدغم في الساكن ، ولا يجوز إدغام النون في الجيم ، والباقون بنونين ، وتخفيف الجيم وسكون الياء على معنى : ونحن نفعل بهم ذلك .

واعلم أن هذا حكاية حال ، ألا ترى أن القصة فيما مضى ، وإنما حكى فعل الحال كما أن قوله : ﴿ هذا مِن شِيعَتِهِ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ [القصص : 15] إشارة إلى الحاضر والقصة ماضية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 180 . 181 ﴾

(144/404)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : من قولهم أن يصدقوهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن يعذب قومهم ، قاله مجاهد .

ويحتمل ثالثاً : استيأسوا من النصر .

﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ في ﴿ كذبوا ﴾ قراءتان :

أحدهما : بضم الكاف وكسر الذال وتشديدها ، قرأ بها الحرميّان وأبو عمرو وابن عامر ، وفي تأويلها وجهان :

أحدهما : يعني أن قومهم ظنوا أن الرسل قد كذّبوهم ، حكاه ابن عيسى .

والقراءة الثانية ﴿ كُذِبوا ﴾ بضم الكاف وتخفيف الذال ، قرأ بها الكوفيون ، وفي تأويلها وجهان :

أحدهما : فظن اتباع الرسل أنهم قد كذبوا فيما ذكروه لهم .

الثاني : فظن الرسل أن اتباعهم قد كذبوا فيما أظهروه من الإيمان بهم .

﴿ جاءهم نصرنا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : جاء الرسل نصر الله تعالى ، قاله مجاهد .

الثاني : جاء قومهم عذاب الله تعالى ، وهو قول ابن عباس .

﴿ فنجي من نشاءُ ﴾ قيل الأنبياء ومَن آمن معهم .

﴿ ولا يُرَدُّ بأسُنا عن القومِ المجرمين ﴾ يعني عذابنا إذا نزل بهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون جـ 3 صـ ﴾

(145/404)

وقال الجصاص في الآيات السابقة :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ يَعْنِي : وَكَمْ مِنْ آيَةٍ فِيهِمَا لَا يُفَكِّرُونَ فِيهَا وَلَا يَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ .

وَفِيهِ حَثٌّ عَلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِآيَاتِهِ وَدَلَائِلِهِ وَالْفِكْرِ فِيمَا يَقْتَضِيهِ مِنْ تَدْبِيرِ مُدَبِّرِهَا الْعَالِمِ بِهَا الْقَادِرِ عَلَيْهَا وَأَنَّهُ لَا يُشْبِهُهَا ، وَذَلِكَ فِي تَدْبِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالرِّيَاحِ وَالْأَشْجَارِ وَالنَّبَاتِ وَالنِّتَاجِ وَالْحَيَوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ ظَاهِرٌ لِلْحَوَاسِّ وَمُدْرَكٌ بِالْعِيَانِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاَللَّهِ إلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ : وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاَللَّهِ فِي إقْرَارِهِ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ إلَّا وَهُوَ مُشْرِكٌ بِعِبَادَةِ الْوَثَنِ " .

وَقَالَ الْحَسَنُ هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَعَهُمْ شِرْكٌ وَإِيمَانٌ " .

وَقِيلَ : " مَا يُصَدِّقُونَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ إلَّا وَهُمْ يُشْرِكُونَ الْأَوْثَانَ فِي الْعِبَادَةِ " .

(146/404)

وَقَدْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ مَعَ الْيَهُودِيِّ إِيمَانًا بِمُوسَى وَكُفْرًا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهَا قَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ وَالْإِيمَانَ لَا يَتَنَافَيَانِ مِنْ وَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ، فَيَكُونُ فِيهِ كُفْرٌ مِنْ وَجْهٍ وَإِيمَانٌ مِنْ وَجْهٍ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ اجْتِمَاعُهُمَا عَلَى جِهَةِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْمُؤْمِنِ وَاسْتِحْقَاقِ ثَوَابِ الْإِيمَانِ لِأَنَّ ذَلِكَ يُنَافِيهِ الْكُفْرُ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ قَدْ أَثْبَتَ لَهُمْ الْإِيمَانَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَالْكُفْرَ بِبَعْضٍ آخَرَ فَثَبَتَ بِذَلِكَ جَوَازُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ كُفْرٌ مِنْ وَجْهٍ وَإِيمَانٌ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَجْتَمِعَ لَهُ صِفَةُ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ لِأَنَّ صِفَةَ مُؤْمِنٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ صِفَةُ مَدْحٍ وَصِفَةَ كَافِرٍ صِفَةُ ذَمٍّ

وَيَتَنَافَى اسْتِحْقَاقُ الصِّفَتَيْنِ مَعًا عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي ﴾ فِيهِ بَيَانٌ أَنَّهُ مَبْعُوثٌ بِدُعَاءِ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ، كَأَنَّهُ يُبْصِرُهُ بِعَيْنِهِ وَأَنَّ مَنْ اتَّبَعَهُ فَذَلِكَ سَبِيلُهُ فِي الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دُعَاءَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كَمَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ قِيلَ : مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ دُونَ الْبَوَادِي لِأَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ وَأَحْرَى بِقَبُولِ النَّاسِ مِنْهُمْ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : " لَمْ يَبْعَثْ اللَّهُ نَبِيًّا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ قَطُّ وَلَا مِنْ الْجِنِّ وَلَا مِنْ النِّسَاءِ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ الْيَأْسُ انْقِطَاعُ الطَّمَعِ وَقَوْلُهُ : كُذِبُوا قُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ وَبِالتَّثْقِيلِ ، فَإِذَا قُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ كَانَ مَعْنَاهُ مَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ قَالُوا : ظَنَّ الْأُمَمُ أَنَّ الرُّسُلَ كَذَبُوهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ وَهَلَاكِ أَعْدَائِهِمْ " .

وَرُوِيَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْحَبْحَابِ قَالَ : حَدَّثَنِي إبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي حُرَّةَ الْجَزَرِيُّ قَالَ : صَنَعْت طَعَامًا فَدَعَوْت نَاسًا مِنْ أَصْحَابِنَا فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَأَرْسَلْت إلَى الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ فَأَبَى أَنْ يَجِيءَ ، فَأَتَيْتُهُ فَلَمْ أَدَعْهُ حَتَّى جَاءَ ، قَالَ : فَسَأَلَ فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ فَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ كَيْفَ تَقْرَأُ هَذَا الْحَرْفَ فَإِنِّي إذَا أَتَيْت عَلَيْهِ تَمَنَّيْت أَنِّي لَا أَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ قَالَ

: نَعَمْ ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ مِنْ قَوْمِهِمْ أَنْ يُصَدِّقُوهُمْ وَظَنَّ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنَّ الرُّسُلَ كُذِبُوا مُخَفَّفَةً فَقَالَ الضَّحَّاكُ : مَا رَأَيْت كَالْيَوْمِ قَطُّ رَجُلًا يُدْعَى إِلَى عِلْمٍ فَيَتَلَكَّأُ ، لَوْ رَحَلْت فِي هَذَا إِلَى الْيَمَنِ كَانَ قَلِيلًا .

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّ مُسْلِمَ بْنَ يَسَارٍ سَأَلَ سَعِيدًا عَنْهُ فَأَجَابَهُ بِذَلِكَ ، فَقَامَ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ فَاعْتَنَقَهُ وَقَالَ : فَرَّجَ اللَّهُ عَنْك كَمَا فَرَّجْت عَنِّي .

وَمَنْ قَرَأَ : "كُذِّبُوا " بِالتَّشْدِيدِ كَانَ مَعْنَاهُ : أَيْقَنُوا أَنَّ الْأُمَمَ قَدْ كَذَّبُوهُمْ فَكَذِبْنَا عَمَّهُمْ حَتَّى لَا يُفْلِحَ أَحَدٌ مِنْهُمْ رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ عَائِشَةَ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(149/404)

وقال ابن عطية :

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ ﴾

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والحسن وعائشة - بخلاف - وعيسى وقتادة ومحمد بن كعب والأعرج وأبو رجاء وابن أبي مليكة "كُذّبوا " بتشديد الذال وضم الكاف ، وقرأ الباقون "كُذِبوا " بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها - وهي قراءة علي بن أبي

طالب وأبيّ بن كعب وابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطلحة والأعمش وابن جبير ومسروق والضحاك وإبراهيم وأبي جعفر ، ورواها شيبة بن نصاح عن القاسم عن عائشة – وقرأ مجاهد والضحاك وابن عباس وعبد الله بن الحارث – بخلاف عنهم – " كَذَبوا " بفتح الكاف والذال ، فأما الأولى فتحتمل أن يكون الظن بمعنى اليقين ، ويكون الضمير في ﴿ ظنوا ﴾ وفي ﴿ كذبوا ﴾ للرسل ، ويكون المكذبون مشركي من أرسل إليه ؛ المعنى : وتيقن الرسل أن المشركين كذبوهم وهموا على ذلك وأن الانحراف عنه ويحتمل أن يكون الظن على بابه ، والضميران للرسل ، والمكذبون مؤمنو من أرسل إليه ، أي مما طالت المواعيد حسب الرسل أن المؤمنين أولاً قد كذبوهم وارتابوا بقولهم .

(150/404)

وأما القراءة الثانية – وهي ضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها – فيحتمل أن يكون المعنى – حتى إذا استيأس الرسل من النصر أو من إيمان قومهم – على اختلاف تأويل المفسرين في ذلك – وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوه من النبوءة ، أو فيما توعدوهم به من العذاب – لما طال الإمهال واتصلت العافية – فلما كان المرسل إليهم – على هذا التأويل – مكذبين – بني الفعل للمفعول في قوله : "كُذِبوا " – هذا مشهور قول ابن عباس

وابن جبير - وأسند الطبري : أن مسلم بن يسار قال لسعيد بن جبير : يا أبا عبد الله ، آية بلغت مني كل مبلغ : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ فهذا هو أن تظن الرسل أنهم قد كذبوا مخففة . فقال له ابن جبير : يا أبا عبد الرحمن ؛ إنما يئس الرسل من قومهم أن يجيبوهم ، وظن قومهم أن الرسل كذبتهم ، فحينئذ جاء النصر . فقام مسلم إلى سعيد فاعتنقه وقال : فرجت عني فرج الله عنك .

قال القاضي أبو محمد : فرضي الله عنهم كيف كان خلقهم في العلم . وقال بهذا التأويل - في هذه القراءة - ابن مسعود ومجاهد ، ورجح أبو علي الفارسي هذا التأويل ، وقال : إن رد الضمير في ﴿ ظنوا ﴾ وفي "كذبوا" على المرسل إليهم - وإن كان لم يتقدم لهم ذكر صريح - جائز لوجهين .

أحدهما : أن ذكر الرسل يقتضي ذكر مرسل إليه .

والآخر : أن ذكرهم قد أشير إليه في قوله : ﴿ عاقبة الذين ﴾ ، وتحتمل هذه القراءة أيضاً أن يكون الضمير في ﴿ ظنوا ﴾ وفي ﴿ كذبوا ﴾ عائد على الرسل ، والمعنى : كذبهم من أخبرهم عن الله ، والظن على بابه - وحكى هذا التأويل قوم من أهل العلم - والرسل بشر فضعفوا وساء ظنهم - قاله ابن عباس وابن مسعود أيضاً وابن جبير - وقال : ألم يكونوا بشراً ؟ وقال ابن مسعود لمن سأله عن هذا هو الذي نكره . وردت هذا التأويل

عائشة أم المؤمنين وجماعة من أهل العلم ، وأعظموا أن توصف الرسل بهذا . وقال أبو علي الفارسي : هذا غير جائز على الرسل .

(151/404)

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو الصواب ، وأين العصمة والعلم ؟

وأما القراءة الثالثة – وهي فتح الكاف والذال – فالضمير في ﴿ ظنوا ﴾ للمرسل إليهم ، والضمير في "كذبوا " للرسل ، ويحتمل أن يكون الضميران للرسل ، أي ظن الرسل أنهم قد كذبوا من حيث نقلوا الكذب وإن كانوا لم يتعمدوه ، فيرجع هذا التأويل إلى المعنى المردود الذي تقدم ذكره .

وقوله : ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ أي بتعذيب أممهم الكافرة ، ثم وصف حال مجيء العذاب في أنه ينجي الرسل وأتباعهم ، وهم الذين شاء رحمتهم ، ويحل بأسه بالمجرمين الكفرة .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي " فَنُنْجي " – بنونين – من أنجى . وقرأ الحسن : " فننَجي " – النون الثانية مفتوحة ، وهو من نجى ينجّي . وقرأ أبو عمرو أيضاً وقتادة " فنجّي " – بنون واحدة وشد الجيم وسكون الياء – فقالت فرقة : إنها كالأولى أدغمت النون الثانية في الجيم ؛ ومنع بعضهم أن يكون هذا موضع إدغام لتنافر النون والجيم

في الصفات لا في المخارج، وقال: إنما حذفت النون في الكتاب لا في اللفظ وقد حكيت هذه القراءة عن الكسائي ونافع. وقرأ عاصم وابن عامر "فنجيَ" بفتح الياء على وزن فعل. وقرأت فرقة "فننجيَ" - بنونين وفتح الياء - رواها هبيرة عن حفص عن عاصم - وهي غلط من هبيرة. وقرأ ابن محيصن ومجاهد "فنجى" - فعل ماض بتخفيف الجيم وهي قراءة نصر بن عاصم والحسن بن أبي الحسن وابن السميفع وأبي حيوة، قال أبو عمرو الداني: وقرأت لابن محيصن "فنجّى" - بشد الجيم - على معنى فنجى النصر.

و"البأس": العذاب. وقرأ أبو حيوة "من يشاء" - بالياء - وجاء الإخبار عن هلاك الكافرين، بقوله: ﴿ ولا يرد بأسنا ... ﴾ الآية - إذ في هذه الألفاظ وعيد بين، وتهديد لمعاصري محمد عليه السلام. وقرأ الحسن "بأسه"، بالهاء. انتهى. اهـ

﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(152/404)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ حتى إِذَا استيأس الرسل ﴾

تقدّم القراءة فيه ومعناه.

﴿ وظنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم.

وهذا الباب عظيم، وخطره جسيم، ينبغي الوقوف عليه لئلا يزِلّ الإنسان فيكون في سواء الجحيم.

المعنى: وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالاً ثم لم نعاقب أممهم بالعذاب.

"حَتَّى إِذَا استيأس الرُّسُلُ" أي يئسوا من إيمان قومهم.

"وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا" بالتشديد؛ أي أيقنوا أن قومهم كَذَّبوهم.

وقيل المعنى: حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كَذَّبوهم، لا أَنَّ الْقَوْمَ كَذَّبوا، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسِبوا أنهم يُكَذِّبونهم؛ أي خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شكّ؛ فيكون "وَظَنُّوا" على بابه في هذا التأويل.

وقرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ وأبو جعفر بن القَعْقَاع والحسن وقَتَادة وأبو رجَاء العُطَارِديّ وعاصم وحمزة والكسائيّ ويحيى بن وَثَّاب والأعمش وخَلَف "كُذِبُوا" بالتخفيف؛ أي ظنّ القوم أن الرسل كَذَبوهم فيما أخبروا به من العذاب، ولم يُصدقوا.

وقيل: المعنى ظنّ الأمم أن الرسل قد كَذَبوا فيما وعدوا به من نصرهم.

وفي رواية عن ابن عباس؛ ظنّ الرسلُ أن الله أخلف ما وعدهم.

وقيل: لم تصح هذه الرواية؛ لأنه لا يُظنّ بالرسل هذا الظنّ، ومن ظنّ هذا الظنّ لا يستحق

النّصر ؛ فكيف قال : ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ؟! قال القُشَيريّ أبو نصر : ولا يبعد إن صحّت الرواية أن المراد خطر بقلوب الرسل هذا من غير أن يتحققوه في نفوسهم ؛ وفي الخبر : " إن الله تعالى تجاوز لأمّتي عما حدّثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تَعمل به " ويجوز أن يقال : قربوا من ذلك الظنّ ؛ كقولك : بلغت المنزل ، أي قربت منه .

(153/404)

وذكر الثعلبيّ والنحاس عن ابن عباس قال : كانوا بشراً فضعُفوا من طول البلاء ، ونسوا وظنّوا أنَّهُمْ أخلِفوا ؛ ثم تلا : ﴿ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ألا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 214] .

وقال الترمذيّ الحكيم : وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعدما وعد الله النصر ، لا من تهمة لوعد الله ، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حَدَثاً يَنْقُض ذلك الشرط والعهد الذي عهد إليهم ؛ فكانت إذا طالت (عليهم) المدّة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه .

وقال المهدويّ عن ابن عباس : ظنّت الرُّسل أنهم قد أُخلِفُوا على ما يلحق البشر ؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى ﴾ [البقرة :

260] الآية.

والقراءة الأولى أولى.

وقرأ مجاهد وحميد "قَدْ كَذَبوا" بفتح الكاف والذال مُخَفّفاً، على معنى: وظنّ قوم الرسل أن الرسل قد كَذَبوا، لما رأوا من تفضّل الله عزّ وجلّ في تأخير العذاب.

ويجوز أن يكون المعنى: و (لما) أيقن الرسل أن قومهم قد كَذَبوا على الله بكفرهم جاءَ الرسلَ نصرُنا.

وفي البخاريّ عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ حتى إذَا استيأس الرسل ﴾ قال قلت: أَكُذِبوا أم كُذّبوا؟ قالت عائشة: كُذّبوا.

قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أَجَل لعمري! لقد استيقنوا بذلك؛ فقلت لها: "وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا" قالت: معاذ الله! لم تكن الرسل تظنّ ذلك بربها.

قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل (الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل) ممن كذّبهم من قومهم، وظنّت الرسل أن أتباعهم (قد) كذبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ قولان: أحدهما: جاء الرسلَ نصرُ الله؛ قاله مجاهد.

(154/404)

الثاني : جاء قومهم عذاب الله ؛ قاله ابن عباس .

﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ﴾ قيل : الأنبياء ومن آمن معهم .

وروي عن عاصم "فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ" بنون واحدة مفتوحة الياء ، و"مَنْ" في موضع رفع ، اسم ما لم يسم فاعله ؛ واختار أبو عبيد هذه القراءة لأنها في مصحف عثمان ، وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة .

وقرأ ابن مُحَيْصِن "فَنَجَا" فعل ماض ، و"مَنْ" في موضع رفع لأنه الفاعل ، وعلى قراءة الباقين نصباً على المفعول .

﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ أي عذابنا .

﴿ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي الكافرين المشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(155/404)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾

(156/404)

قال صاحب الكشاف : حتى متعلقة بمحذوف دلَّ عليه الكلام كأنه قيل وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فتراخى نصرهم حتى إذا استيأس الرسل عن النصر ، وقال الواحدي : حتى هنا حرف من حروف الابتداء يستأنف بعدها والمعنى حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ قرأ أهل الكوفة وهم عاصم وحمزة والكسائي كذبوا بالتخفيف ووجه هذه القراءة على ما قاله الواحدي أن معناه ظن الأمم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إياهم وإهلاك أعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد ، وقال أهل المعاني كذبوا من قولهم كذبتك الحديث أي لم أصدقك ومنه قوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله قال أبو علي والضمير في قوله وظنوا على هذه القراءة للمرسل إليهم والتقدير وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إياهم إهلاك أعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس إنهم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب وإنما ظنوا ذلك لما شاهدوا من امهال الله إياهم

ولا يمتنع حمل الضمير في ظنوا على المرسل إليهم وإن لم يتقدم لهم ذكر لأن ذكر الرسل يدل على ذكر المرسل إليهم وإن شئت قلت إن ذكرهم جرى في قوله أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم أي مكذبي الرسل والظن هنا على معنى التوهم والحسبان وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال : حتى إذا استيأس الرسل من قومهم الإجابة وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا من نصرهم وإهلاك من كذبهم وقيل معناه وتيقين الرسل أنهم قد كذبوا في وعد قومهم إياهم الإيمان أي وعدوا أن يؤمنوا ثم لم يؤمنوا وقال صاحب الكشاف وظنوا أنهم قد كذبوا أي كذبتهم أنفسهم حتى حدثتهم بأنهم لا ينصرون أو رجاؤهم كقولهم رجاء صادق ورجاء كاذب والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة وانتظار النصر من الله تعالى وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا

نصر لهم في الدنيا فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب ، وعن ابن عباس : وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله به من النصر قال وكانوا بشراً وتلا قوله وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله .

قال صاحب الكشاف : فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه الطبيعة البشرية وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجانبين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله الذي هم أعرف الناس بربهم وأنه متعال عن خلق الميعاد وحكى الواحدي عن ابن الأنباري أنه قال هذا غير معول عليه من جهتين إحداهما أن التفسير ليس عن ابن عباس لكنه من متأول تأول عليه والأخرى أن قوله جاءهم نصرنا دال على أن أهل الكفر ظنوا ما لا يجوز مثله واستضعفوا رسل الله ونصر الله للرسل ولو كان الظن للرسل كان ذلك منهم خطأً عظيماً ولا يستحقون ظفراً ولا نصراً وتبرئة الأنبياء وتطهيرهم واجب علينا إذا وجدنا إلى ذلك سبيلاً وقرأ الباقون وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وظنوا أنهم قد كذبو بالتشديد ووجه ظاهر وهو أن معناه حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنوا يعني وأيقنوا يعني الرسل أن الم قد كذبوهم تكذيباً لا يرجى بعده إيمانهم فالظن بمعنى اليقين وهذا معنى قول قتادة وقال بعضهم معناه حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم وظنوا أن من قد آمن بهم من قومهم قد فارقوهم وارتدوا عن دينهم

لشدة المحنة والبلاء واستبطؤوا النصر أتاهم النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى الحسبان والتكذيب مظنون من جهة من آمن بهم يعني وظنوا بالرسل ظن حسبان أن ربهم قد كذبهم في وعد الظفر والنصر لإبطائه وتأخره عنهم ولطول البلاء بهم لا أنهم كذبوهم في كونهم رسلاً وقيل إن هذا التكذيب لم يحصل من أتباعهم المؤمنين لأنه لو حصل لكان نوع كفر ولكن الرسل ظنت بهم ذلك لبطء النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى اليقين والتكذيب المتيقن هو من جهة الكفار وعلى القولين جميعاً فالكناية في وظنوا للرسل (خ) عن عروة بن الزبير: أنه سأل عائشة عن قوله تعالى حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا أو كذبوا،

قالت: بل كذبهم قومهم فقلت والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم وما هو بالظن فقالت يا عروة أجل لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها قد كذبوا فقالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك من ربهم قلت فما هذه الآية قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنوا أن أتباعهم كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك.

وفي رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة قال: قال ابن عباس حتى إذا استيأس

الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا خفيفة قال ذهب لها هنالك وتلا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب قال فلقيت عروة بن الزبير وذكرت ذلك له فقال قالت عائشة معاذ الله والله ما وعد الله ورسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يموت ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون معهم من قومهم من يكذبوهم فكانت تقرؤها وظنوا أنهم قد كذبوا مثقلة.

وقوله تعالى: ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ يعني جاء نصر الله النبيين ﴿ فنجي من نشاء ﴾ من عبادنا يعني عند نزول العذاب بالكافرين فننجي المؤمنين المطيعين ﴿ ولا يرد بأسنا ﴾ يعني عذابنا ﴿ عن القوم المجرمين ﴾ يعني المشركين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(160/404)

وقال أبو حيان فى الآيات:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

لما تقدم من قول يوسف عليه السلام: ﴿ توفني مسلماً ﴾ وكان قوله تعالى: ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ دالاً على أنه حارص على إيمانهم، مجتهد في ذلك، داع إليه

، مثابر عليه .

وذكر ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ أشار إلى فيهم من ذلك وهو شريعة الإسلام والإيمان ، وتوحيد الله .

فقال : قل يا محمد هذا الطريقة والدعوة طريقي التي سلكتها وأنا عليها ، ثم فسر تلك السبيل فقال : أدعو إلى الله يعني : لا إلى غيره من ملك أو إنسان أو كوكب أو صنم ، إنما دعائي إلى الله وحده .

قال ابن عباس : سبيلي أي دعوتي .

وقال عكرمة : صلاتي ، وقال ابن زيد : سنتي ، وقال مقاتل والجمهور : ديني .

وقرأ عبد الله : قل هذا سبيلي على التذكير .

والسبيل يذكر ويؤنث ، ومفعول أدعو هو محذوف تقديره : أدعو الناس .

والظاهر تعلق على بصيرة بأدعو ، وإنا توكيد للضمير المستكن في ادعو ، ومن معطوف على ذلك الضمير والمعنى : أدعو أنا إليها من اتبعني .

ويجوز أن يكون على بصيرة خبراً مقدماً ، وأنا مبتدأ ، ومن معطوف عليه .

ويجوز أن يكون على بصيرة حالاً من ضمير ادعو ، فيتعلق بمحذوف ، ويكون أنا فاعلاً بالجار والمجرور النائب عن ذلك المحذوف ، ومن اتبعني معطوف على أنا .

وأجاز أبو البقاء أن يكون : ومن اتبعني مبتدأ خبره محذوف تقديره كذلك أي : داع إلى الله

على بصيرة .

ومعنى بصيرة حجة واضحة وبرهان متيقن من قوله : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾

وسبحان الله داخل تحت قوله قل : أي قل ، وتبرئة الله من الشركاء أي : براءة الله من أن يكون له شريك .

ولما أمر بأن يخبر عن نفسه أنه يدعو هو ومن اتبعه إلى الله ، وأمر أن يخبر أنه ينزه الله عن الشركاء ، أمر أن يخبر أنه في خاصة نفسه منتف عن الشرك ، وأنه ليس ممن أشرك .

وهو نفي عام في الأزمان لم يكن منهم ، ولا في وقت من الأوقات .

إلا رجالاً حصر في الرسل دعاة إلى الله ، فلا يكون ملكاً .

وهذا رد على من قال : ﴿ لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ وكذلك قال : ﴿ لو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ وقال ابن عباس : يعني رجالاً لا نساء ، فالرسول لا يكون امرأة ، وهل كان في النساء نبية فيه خلاف ؟ والنبي أعم من الرسول ، لأنه منطلق على من يأتيه الوحي سواء أرسل أو لم يرسل ، قال الشاعر في سجاح المتنبئة :

أمست نبيتنا أنثى نطيف بها . . .

ولم تزل أنبياء الله ذكرانا

فلعنة الله والأقوام كلهم . . .

على سجاح ومن بالإفك أغرانا

أعني مسيلمة الكذاب لا سقيت . . .

أصداؤه ماء مزن أينما كانا

وقرأ أبو عبد الرحمن ، وطلحة ، وحفص : نوحي بالنون وكسر الحاء ، موافقاً لقوله : وما أرسلنا .

وقرأ الجمهور بالياء وفتح الحاء مبنياً للمفعول .

والقرى المدن .

قال ابن زيد : أهل القرى أعلم وأحلم من أهل البادية ، فإنهم قليل نبلهم ، ولم ينشىء الله قط منهم رسولاً .

وقال الحسن : لم يبعث الله رسولاً من أهل البادية ، ولا من النساء ، ولا من الجن .

والتبدي مكروه إلا في الفتن ، ففي الحديث : "من بدا جفا" ثم استفهم استفهام توبيخ وتقريع .

والضمير في يسيروا عائد على من أنكر إرسال الرسل من البشر ، ومن عاند الرسول وأنكر رسالته كفر أي : هلا يسيرون في الأرض فيعلمون بالتواتر أخبار الرسل السابقة ، ويرون

مصارع الأمم المكذبة، فيعتبرون بذلك؟ ولدار الآخرة خير، هذا حض على العمل لدار الآخرة والاستعداد لها، واتقاء المهلكات، ففي هذه الإضافة تخريجان: أحدهما: أنها من إضافة الموصوف إلى صفته، وأصله: ولدار الآخرة.

والثاني: أن يكون من حذف الموصوف وإقامة صفته مقامه، وأصله: ولدار المدة الآخرة أو النشأة الآخرة.

والأول: تخريج كوفي، والثاني: تخريج بصرى.

وقرأ الجمهور: أفلا يعقلون بالياء رعياً لقوله: أفلم يسيروا.

(162/404)

وقرأ الحسن، وعلقمة، والأعرج، وعاصم، وابن عامر، ونافع: بالتاء على خطاب هذه الأمة تحذيراً لهم مما وقع فيه أولئك، فيصيبهم ما أصابهم.

قال الكرماني: أفلا يعقلون أنها خير.

فيتوسلوا إليها بالإيمان انتهى.

والاستيئاس من النصر، أو من إيمان قومهم قولان.

وحتى غاية لما قبلها، وليس في اللفظ ما يكون له غاية، فاحتيج إلى تقدير فقدره

الزمخشري : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ، فتراخى نصرهم حتى إذا استيأسوا عن النصر .

وقال ابن عطية : ويتضمن قوله : أفلم يسيروا إلى ما قبلهم ، أن الرسل الذين بعثهم الله من أهل القرى دعوهم فلم يؤمنوا بهم حتى نزلت بهم المثلات ، فصاروا في حيز من يعتبر بعاقبته ، فلهذا المضمن حسن أن يدخل حتى في قوله : حتى إذا استيأس الرسل انتهى .

ولم يتحصل لنا من كلامه شيء يكون ما بعد حتى غاية له ، لأنه علق الغاية بما ادعى أنه فهم ذلك من قوله : أفلم يسيروا الآية .

وقال أبو الفرج بن الجوزي : المعنى متعلق بالآية الأولى فتقديره : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يدعوا قومهم فكذبوهم ، وصبروا وطال دعاؤهم ، وتكذيب قومهم حتى إذا استيأس الرسل .

وقال القرطبي في تفسيره : المعنى وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً ، ثم لم نعاقب أممهم بالعقاب حتى إذا استيأس الرسل .

وقرأ أبي ، وعلي ، وابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وطلحة ، والأعمش ، والكوفيون : كذبوا بتخفيف الذال ، وباقي السبعة ، والحسن وقتادة ، ومحمد بن كعب ، وأبو رجاء ، وابن مليكة ، والأعرج ، وعائشة بخلاف عنها بتشديدها .

وهما مبنيان للمفعول ، فالضمائر على قراءة التشديد عائدة كلها على الرسل ، والمعنى :

إن الرسل أيقنوا أنهم كذبهم قومهم المشركون .

قال ابن عطية : ويحتمل أن كون الظن على بابه يعني من ترجيح أحد الجائزين قال : والضمير للرسل ، والمكذبون مؤمنون أرسل إليه أي : لما طالت المواعيد حسبت الرسل أنّ المؤمنين أولاً قد كذبوهم وارتابوا بقولهم .

(163/404)

وعلى قراءة التخفيف ، فالضمير في وظنوا عائد على الرسل إليهم لتقدمهم في الذكر في قوله : كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولأنّ الرسل تستدعي مرسلاً إليهم ، وفي أنهم .

وفي قد كذبوا عائد على الرسل ، والمعنى : وظن المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبهم من ادعوا أنه جاءهم بالوحي عن الله وبنصرهم ، إذ لم يؤمنوا به .

ويجوز في هذه القراءة أن تكون الضمائر الثلاثة عائدة على المرسل إليهم أي : وظن المرسل أنهم قد كذبهم الرسل فيما ادعوه من النبوّة ، وفيما يوعدون به من لم يؤمن بهم من العذاب .

وهذا مشهور قول ابن عباس ، وتأويل عبد الله وابن جبير ومجاهد .

ولا يجوز أن تكون الضمائر في هذه القراءة عائدة على الرسل ، لأنهم معصومون ، فلا يمكن أن يظن أحد منهم أنه قد كذبه من جاءه بالوحي عن الله .

وقال الزمخشري في هذه القراءة : حتى إذا استيأسوا من النصر وظنوا أنهم قد كذبوا أي : كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم أنهم ينصرون أو رجاهم كقوله : رجاء صادق ورجاء كاذب .

والمعنى : أنّ مدة التكذيب والعداوة من الكفار ، وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت ، حتى استشعروا القنوط ، وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا ، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب انتهى .

فجعل الضمائر كلها للرسل ، وجعل الفاعل الذي صرف من قوله : قد كذبوا ، إما أنفسهم ، وإما رجاؤهم .

وفي قوله : إخراج الظن عن معنى الترجيح ، وعن معنى اليقين إلى معنى التوهم ، حتى تجري الضمائر كلها في القراءتين على سنن واحد .

وروي عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن جبير : أن الضمير في وظنوا ، وفي قد كذبوا ، عائد على الرسل والمعنى : كذبهم من تباعدهم عن الله والظن على بابه قالوا : والرسل بشر ، فضعفوا وساء ظنهم .

وردت عائشة وجماعة من أهل العلم هذا التأويل ، وأعظموا أنْ يوصف الرسل بهذا .

قال الزمخشري : إن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ، ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية .

وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجانبين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين ، فما بال رسل الله الذين هم أعرف بربهم ، وأنه متعال عن خلف الميعاد ، منزه عن كل قبيح انتهى .

وآخره مذهب الاعتزال .

فقال أبو علي : إن ذهب ذاهب إلى أنّ المعنى ظن الرسل أن الذي وعد الله أممهم على لسانهم قد كذبوا فيه ، فقد أتى عظيماً لا يجوز أن ينسب مثله إلى الأنبياء ، ولا إلى صالحي عباد الله قال : وكذلك من زعم أن ابن عباس ذهب إلى أن الرسل قد ضعفوا وظنوا أنهم قد أخلفوا ، لأن الله لا يخلف الميعاد ، ولا مبدل لكلماته .

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : قد كذبوا بتخفيف الذال مبنياً للفاعل أي : وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما قالوا عن الله من العذاب والظن على بابه .

وجواب إذ جاءهم نصرنا ، والظاهر أن الضمير في جاءهم عائد على الرسل .

وقيل : عائد عليهم وعلى من آمن بهم .

وقرأ عاصم ، وابن عامر : فنجى بنون واحدة وشدّ الجيم وفتح الياء مبنياً للمفعول .

وقرأ مجاهد ، والحسن ، والجحدري ، وطلحة بن هرمز كذلك ، إلا أنهم سكنوا الياء ، وخرج على أنه مضارع أدغمت فيه النون في الجيم ، وهذا ليس بشيء ، لأنه لا تدغم النون في الجيم .

وتخريجه على أنه ماض كالقراءة التي قبلها سكنت الياء فيه لغة من يستثقل الحركة صلة على الياء ، كقراءة من قرأ ﴿ ما تطعمون أهليكم ﴾ بسكون الياء .

ورويت هذه القراءة عن الكسائي ونافع ، وقرأهما في المشهور ، وباقي السبعة فننجي بنونين مضارع أنجي .

وقرأت فرقة : كذلك إلا أنهم فتحوا الياء .

قال ابن عطية : رواها هبيرة عن حفص عن عاصم ، وهي غلط من هبيرة انتهى .

وليست غلطاً ، ولها وجه في العربية وهو أنّ الشرط والجزاء يجوز أن يأتي بعدهما المضارع منصوباً بإضمار أن بعد الفاء ، كقراءة من قرأ : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر ﴾ بنصب يغفر بإضمار أنْ بعد الفاء .

ولا فرق في ذلك بين أن تكون أداة الشرط جازمة ، أو غير جازمة .

وقرأ نصر بن عاصم ، والحسن ، وأبو حيوة ، وابن السميقع ، ومجاهد ، وعيسى ، وابن محيصن : فنجى ، جعلوه فعلاً ماضياً مخفف الجيم .

وقال أبو عمرو الداني : وقرأت لابن محيصن فنجى بشد الجيم فعلاً ماضياً على معنى فنجى النصر .

وذكر الداني أنّ المصاحف متفقة على كتبها بنون واحدة .

وفي التحبير أنّ الحسن قرأ فننجى بنونين ، الثانية مفتوحة ، والجيم مشددة ، والياء ساكنة .

وقرأ أبو حيوة : من يشاء بالياء أي : فنجى من يشاء الله نجاته .

ومن يشاء هم المؤمنون لقوله : ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ، والبأس هنا الهلاك .

وقرأ الحسن : بأسه بضمير الغائب أي : بأس الله .

وهذه الجملة فيها وعيد وتهديد لمعاصري الرسول (صلى الله عليه وسلم) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(166/404)

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابن تيمية :

فَصْلٌ :

فِي قَوْلِه تَعَالَى ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ الْآيَةُ: قِرَاءَتَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ. وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقْرَأُ بِالتَّثْقِيلِ وَتُنْكِرُ التَّخْفِيفَ كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَهُ - وَهُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِهِ: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ مُخَفَّفَةً قَالَتْ - مَعَاذَ اللَّهِ لَمْ تَكُنْ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا - قُلْت: فَمَا هَذَا النَّصْرُ - ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ ﴾ بِمَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَظَنَّتْ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ لَعَمْرِي لَقَدْ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ. وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْ ابْنِ جريج سَمِعْت ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ خَفِيفَةً ذَهَبَ بِهَا هُنَالِكَ وَتَلَا ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى

نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ فَلَقِيت عُرْوَةَ فَذَكَرْت ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: مَعَاذَ اللَّهِ وَاَللَّهِ مَا وَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إلَّا عَلِمَ أَنَّهُ كَائِنٌ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ؛ وَلَكِنْ لَمْ يَزَلْ الْبَلَاءُ بِالرُّسُلِ حَتَّى ظَنُّوا وَخَافُوا أَنْ يَكُونَ مَنْ مَعَهُمْ يُكَذِّبُهُمْ؛ فَكَانَتْ تَقْرَؤُهَا: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ مُثَقَّلَةً. فَعَائِشَةُ جَعَلَتْ اسْتِيَأْسَ الرُّسُلِ مِنْ الْكُفَّارِ الْمُكَذِّبِينَ وَظَنَّهُمْ

التَّكْذِيبَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ وَلَكِنَّ الْقِرَاءَةَ الْأُخْرَى ثَابِتَةٌ لَا يُمْكِنُ إنْكَارُهَا وَقَدْ تَأَوَّلَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَظَاهِرُ الْكَلَامِ مَعَهُ وَالْآيَةُ الَّتِي تَلِيهَا إنَّمَا فِيهَا اسْتِبْطَاءُ النَّصْرِ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ كَلِمَةٌ تُبْطِئُ لِطَلَبِ التَّعْجِيلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ قَدْ يَكُونُ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿ إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ وَالظَّنُّ لَا يُرَادُ بِهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الِاعْتِقَادُ الرَّاجِحُ كَمَا هُوَ فِي اصْطِلَاحِ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ فِي الْعِلْمِ وَيُسَمُّونَ الِاعْتِقَادَ الْمَرْجُوحَ وَهْمًا بَلْ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾.

(168/404)

فَالِاعْتِقَادُ الْمَرْجُوحُ هُوَ ظَنٌّ وَهُوَ وَهْمٌ وَهَذَا الْبَابُ قَدْ يَكُونُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ الْمَعْفُوِّ عَنْهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَكَلَّمْ أَوْ تَعْمَلْ ﴾ وَقَدْ يَكُونُ مِنْ بَابِ الْوَسْوَسَةِ الَّتِي هِيَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ كَمَا ثَبَتَ ﴿ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ الصَّحَابَةَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: إنَّ أَحَدَنَا لَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ مَا لَأَنْ يُحْرَقَ حَتَّى يَصِيرَ حُمَمَةً أَوْ يَخِرَّ مِنْ السَّمَاءِ إلَى الْأَرْضِ: أَحَبُّ إلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: أَوَقَدْ

وَجَدْتُمُوهُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ ﴾ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : ﴿ إنَّ أَحَدَنَا لَيَجِدُ مَا يَتَعَاظَمُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ . قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إلَى الْوَسْوَسَةِ . ﴾ فَهَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي هِيَ تَعْرِضُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : مِنْهَا مَا هُوَ ذَنْبٌ يُضْعِفُ بِهِ الْإِيمَانُ وَإِنْ كَانَ لَا يُزِيلُهُ . وَالْيَقِينُ فِي الْقَلْبِ لَهُ مَرَاتِبُ وَمِنْهُ مَا هُوَ عَفْوٌ يُعْفَى عَنْ صَاحِبِهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ يَقْتَرِنُ بِهِ صَرِيحُ الْإِيمَانِ . وَنَظِيرُ هَذَا : مَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَأَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ؛ وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْت الدَّاعِيَ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إبْرَاهِيمَ إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى

(169/404)

وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ﴾ وَقَدْ تَرَكَ الْبُخَارِيُّ ذِكْرَ قَوْلِهِ : " بِالشَّكِّ " لَمَّا خَافَ فِيهَا مِنْ تَوَهُّمِ بَعْضِ النَّاسِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ إبْرَاهِيمَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى ﴾ وَلَكِنْ طَلَبَ طُمَأْنِينَةَ قَلْبِهِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ فَالتَّفَاوُتُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالِاطْمِئْنَانِ سَمَّاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَكًّا لِذَلِكَ بِإِحْيَاءِ الْمَوْتَى كَذَلِكَ الْوَعْدُ

بالنّصر في الدُّنيا : يكونُ الشّخصُ مؤمنًا بذلك ؛ ولكن قد يضطرب قلبُه فلا يطمئنّ فيكونُ فواتُ الاطمئنان ظنًّا أنّه قد كُذب فالشّكّ مظنّة أنّه يكونُ من باب واحدٍ وهذه الأمورُ لا تقدح في الإيمان الواجب وإن كان فيها ما هو ذنبٌ فالأنبياء عليهم السّلام معصومون من الإقرار على ذلك كما في أفعالهم على ما عُرف من أصول السُّنّة والحديث . وفي قصص هذه الأمور عبرةٌ للمؤمنين بهم فإنّهم لا بُدّ أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك ويعلمون أنّه قد ابتلي به من هو خيرٌ منهم وكانت العاقبة إلى خيرٍ فليتيقّن المرتاب ويتوب المذنب ويقوى إيمانُ المؤمنين فبها يصحّ الاتساء بالأنبياء كما في قوله : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ .

(170/404)

وفي القرآن من قصص المرسلين التي فيها تسلية وتثبيتٌ ليتأسّى بهم في الصّبر على ما كذّبوا وأوذوا كما قال تعالى : ﴿ ولقد كذّبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتّى أتاهم نصرنا ﴾ . . . (1) ولنا ؛ لأنّه أسوةٌ في ذلك ما هو كثيرٌ في القرآن ؛ ولهذا قال : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ﴾ وقال : ﴿ ما يقال لك إلّا ما قد قيل للرّسل من قبلك ﴾ وقال : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل ولا تستعجل

لَهُمْ ﴾ ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ .

وَإِذَا كَانَ الِاتِّسَاءُ بِهِمْ مَشْرُوعًا فِي هَذَا وَفِي هَذَا فَمِنْ الْمَشْرُوعِ التَّوْبَةُ مِنْ الذَّنْبِ وَالثِّقَةُ بِوَعْدِ اللَّهِ وَإِنْ وَقَعَ فِي الْقَلْبِ ظَنٌّ مِنْ الظُّنُونِ وَطَلَبُ مَزِيدِ الْآيَاتِ لِطُمَأْنِينَةِ الْقُلُوبِ كَمَا هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلِاتِّسَاءِ وَالِاقْتِدَاءِ دُونَ مَا كَانَ الْمَتْبُوعُ مَعْصُومًا مُطْلَقًا . فَيَقُولُ التَّابِعُ : أَنَا لَسْت مِنْ جِنْسِهِ فَإِنَّهُ لَا يَذْكُرُ بِذَنْبِ فَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَيْأَسَ مِنْ الْمُتَابَعَةِ وَالِاقْتِدَاءِ ؛ لِمَا أَتَى بِهِ مِنْ الذَّنْبِ الَّذِي يُفْسِدُ الْمُتَابَعَةَ عَلَى الْقَوْلِ بِالْعِصْمَةِ بِخِلَافِ مَا إذَا قِيلَ : إنَّ ذَلِكَ مَجْبُورٌ بِالتَّوْبَةِ فَإِنَّهُ تَصِحُّ مَعَهُ الْمُتَابَعَةُ كَمَا قِيلَ : أَوَّلُ مَنْ أَذْنَبَ وَأَجْرَمَ ثُمَّ تَابَ وَنَدِمَ آدَمَ أَبُو الْبَشَرِ وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ مَا ظَلَمَ .

(171/404)

وَاَللَّهُ تَعَالَى قَصَّ عَلَيْنَا قِصَصَ تَوْبَةِ الْأَنْبِيَاءِ لِنَقْتَدِيَ بِهِمْ فِي الْمَتَابِ وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الِاقْتِدَاءَ بِهِمْ فِي الْأَفْعَالِ الَّتِي أُقِرُّوا عَلَيْهَا فَلَمْ يُنْهَوْا عَنْهَا وَلَمْ يَتُوبُوا مِنْهَا فَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ . فَأَمَّا مَا نُهُوا عَنْهُ وَتَابُوا مِنْهُ فَلَيْسَ بِدُونِ الْمَنْسُوخِ مِنْ أَفْعَالِهِمْ وَإِنْ كَانَ مَا أُمِرُوا بِهِ أُبِيحَ لَهُمْ ثُمَّ نُسِخَ تَنْقَطِعُ فِيهِ الْمُتَابَعَةُ ؛ فَمَا لَمْ يُؤْمَرُوا بِهِ أَحْرَى وَأَوْلَى . وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ قَدْ يَكُونُونَ ظَنُّوا فِي الْمَوْعُودِ بِهِ مَا لَيْسَ هُوَ فِيهِ بِطَرِيقِ الِاجْتِهَادِ مِنْهُمْ ؛ فَتَبَيَّنَ

الْأَمْرُ بِخِلَافِهِ فَهَذَا جَائِزٌ عَلَيْهِمْ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ فَإِذَا ظَنَّ بِالْمَوْعُودِ بِهِ مَا لَيْسَ هُوَ فِيهِ ثُمَّ تَبَيَّنَ الْأَمْرُ بِخِلَافِهِ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ كَذِبٌ وَكَانَ كَذِبًا مِنْ جِهَةِ ظَنٍّ فِي الْخَبَرِ مَا لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ. فَأَمَّا الشَّكُّ فِيمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِهِ فَهَذَا لَا يَكُونُ وَسَنُوَضِّحُ ذَلِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ذَكَرَ هُنَا شَيْئَانِ: "أَحَدُهُمَا" اسْتِيئَاسُ الرُّسُلِ. و "الثَّانِي" ظَنُّ أَنَّهُمْ كُذِبُوا. وَقَدْ ذَكَرْنَا لَفْظَ "الظَّنِّ" فَأَمَّا لَفْظُ (اسْتَيْأَسُوا فَإِنَّهُ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ حَتَّى إذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ يَئِسَ الرُّسُلُ وَلَا ذَكَرَ مَا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ وَهَذَا اللَّفْظُ قَدْ ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. ﴾ وَقَدْ يُقَالُ: الِاسْتِيئَاسُ لَيْسَ هُوَ الْإِيَاسُ؛ لِوُجُوهِ: "أَحَدُهَا" أَنَّ إخْوَةَ يُوسُفَ لَمْ يَيْأَسُوا مِنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّ قَوْلَ كَبِيرِهِمْ: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَرْجُو أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ وَحُكْمُهُ هُنَا لَا بُدَّ أَنْ يَتَضَمَّنَ تَخْلِيصَنَا لِيُوسُفَ مِنْهُمْ وَإِلَّا فَحُكْمُهُ لَهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ لَا يُنَاسِبُ قُعُودَهُ فِي مِصْرَ لِأَجْلِ ذَلِكَ. وَأَيْضًا: فَـ "الْيَأْسُ"

يَكُونُ فِي الشَّيْءِ الَّذِي لَا يَكُونُ وَلَمْ يَجِئْ مَا يَقْتَضِي ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إنَّا إذًا لَظَالِمُونَ ﴾ فَامْتَنَعَ مِنْ تَسْلِيمِهِ إلَيْهِمْ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا لَا يُوجِبُ الْقَطْعَ بِأَنَّهُ لَا يُسَلِّمُ إلَيْهِمْ فَإِنَّهُ يَتَغَيَّرُ عَزْمُهُ وَنِيَّتُهُ وَمَا أَكْثَرَ تَقْلِيبَ الْقُلُوبِ وَقَدْ يَتَبَدَّلُ الْأَمْرُ بِغَيْرِهِ حَتَّى يَصِيرَ الْحُكْمُ إلَى غَيْرِهِ وَقَدْ يَتَخَلَّصُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ وَالْعَادَاتُ قَدْ جَرَتْ بِهَذَا عَلَى مِثْلِ مَنْ عِنْدَهُ مَنْ قَالَ لَا يُعْطِيهِ . فَقَدْ

(173/404)

يُعْطِيهِ وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْ يَدِهِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ وَقَدْ يَمُوتُ عَنْهُ فَيَخْرُجُ وَالْعَالَمُ مَمْلُوءٌ مِنْ هَذَا . " الْوَجْهُ الثَّانِي " قَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ . فَنَهَاهُمْ عَنْ الْيَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَنْ الِاسْتِيئَاسِ وَهُوَ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ . وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا كَافِرِينَ فَهَذَا هُوَ " الْوَجْهُ الثَّالِثُ " أَيْضًا . وَهُوَ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ يَأْسٌ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَأَنْ يَقَعُوا فِي الِاسْتِيئَاسِ بَلْ الْمُؤْمِنُونَ مَا دَامُوا مُؤْمِنِينَ لَا يَيْأَسُونَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَهَذِهِ

السُّورَةُ تَضَمَّنَتْ ذِكْرَ الْمُسْتَيْئِسِينَ وَأَنَّ الْفَرَجَ جَاءَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لِئَلَّا يَيْأَسَ الْمُؤْمِنُ ؛ وَلِهَذَا فِيهَا : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ فَذِكْرُ اسْتِيئَاسِ الْإِخْوَةِ مِنْ أَخِي يُوسُفَ وَذِكْرُ اسْتِيئَاسِ الرُّسُلِ يَصْلُحُ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَا ذَكَرَتْهُ عَائِشَةُ جَمِيعًا . " الْوَجْهُ الرَّابِعُ " أَنَّ الِاسْتِيئَاسَ اسْتِفْعَالٌ مِنْ الْيَأْسِ وَالِاسْتِفْعَالُ

يَقَعُ عَلَى وُجُوهٍ : يَكُونُ لِطَلَبِ الْفِعْلِ مِنْ الْغَيْرِ فَالِاسْتِخْرَاجُ وَالِاسْتِفْهَامُ وَالِاسْتِعْلَامُ يَكُونُ فِي الْأَفْعَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ يُقَالُ : اسْتَخْرَجْت الْمَالَ مِنْ غَيْرِي وَكَذَلِكَ اسْتَفْهَمْت وَلَا يَصْلُحُ هَذَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الِاسْتِيئَاسِ فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَطْلُبُ الْيَأْسَ وَيَسْتَدْعِيهِ ؛ وَلِأَنَّ اسْتَيْأَسَ فِعْلٌ لَازِمٌ لَا مُتَعَدٍّ . وَيَكُونُ لِلِاسْتِفْعَالِ لِصَيْرُورَةِ الْمُسْتَفْعِلِ عَلَى صِفَةِ غَيْرِهِ وَهَذَا يَكُونُ فِي الْأَفْعَالِ اللَّازِمَةِ كَقَوْلِهِمْ : اسْتَحْجَرَ الطِّينُ أَيْ صَارَ كَالْحَجَرِ . وَاسْتَنْوَقَ الْفَحْلُ أَيْ صَارَ كَالنَّاقَةِ . وَأَمَّا النَّظَرُ فِيمَا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ إخْوَةِ يُوسُفَ حَيْثُ قَالَ : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ ﴾ . وَأَمَّا الرُّسُلُ فَلَمْ يَذْكُرْ مَا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ بَلْ أَطْلَقَ وَصْفَهُمْ بِالِاسْتِيئَاسِ فَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يُقَيِّدَهُ بِأَنَّهُمْ اسْتَيْأَسُوا مِمَّا وُعِدُوا بِهِ وَأُخْبِرُوا بِكَوْنِهِ وَلَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ ذَلِكَ . وَثَبَتَ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ لَا يَدُلُّ عَلَى ظَاهِرِهِ فَضْلًا

عَنْ بَاطِنِهِ : أَنَّهُ حَصَلَ فِي قُلُوبِهِمْ مِثْلُ تَسَاوِي الطَّرَفَيْنِ فِيمَا أُخْبِرُوا بِهِ فَإِنَّ لَفْظَ الظَّنِّ فِي اللُّغَةِ لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ ؛ بَلْ يُسَمَّى ظَنًّا مَا هُوَ مِنْ أَكْذَبِ الْحَدِيثِ عَنْ الظَّانِّ ؛ لِكَوْنِهِ أَمْرًا مَرْجُوحًا فِي نَفْسِهِ . وَاسْمُ

الْيَقِينِ وَالرَّيْبِ وَالشَّكِّ وَنَحْوِهَا يَتَنَاوَلُ عِلْمَ الْقَلْبِ وَعَمَلَهُ وَتَصْدِيقَهُ وَعَدَمَ تَصْدِيقِهِ وَسَكِينَتَهُ وَعَدَمَ سَكِينَتِهِ لَيْسَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ بِمُجَرَّدِ الْعِلْمِ فَقَطْ كَمَا يَحْسَبُ ذَلِكَ بَعْضُ النَّاسِ كَمَا نَبَّهْنَا عَلَيْهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . إذْ الْمَقْصُودُ هُنَا الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ حَتَّى إذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ . فَإِذَا كَانَ الْخَبَرُ عَنْ اسْتَيْئَاسِهِمْ مُطْلَقًا فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ إذَا وَعَدَ الرُّسُلَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِ مُطْلَقٍ - كَمَا هُوَ غَالِبُ إخْبَارَاتِهِ - لَمْ يُقَيِّدْ زَمَانَهُ وَلَا مَكَانَهُ وَلَا سَنَتَهُ وَلَا صِفَتَهُ فَكَثِيرًا مَا يَعْتَقِدُ النَّاسُ فِي الْمَوْعُودِ بِهِ صِفَاتٍ أُخْرَى لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهَا خِطَابُ الْحَقِّ بَلْ اعْتَقَدُوهَا بِأَسْبَابِ أُخْرَى كَمَا اعْتَقَدَ طَائِفَةٌ مِنْ الصَّحَابَةِ إخْبَارَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَيَطُوفُونَ بِهِ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مُعْتَمِرًا وَرَجَا أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ ذَلِكَ الْعَامَ وَيَطُوفَ وَيَسْعَى . فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْ دُخُولِهِ مَكَّةَ ذَلِكَ الْعَامَ - لَمَّا صَدَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى

قَاضَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصُّلْحِ الْمَشْهُورِ - بَقِيَ فِي قَلْبِ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ حَتَّى ﴿ قَالَ عُمَرُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَمْ تُخْبِرْنَا أَنَّا نَدْخُلُ الْبَيْتَ وَنَطُوفُ ؟ قَالَ : بَلَى . فَأَخْبَرْتُك أَنَّك تَدْخُلُهُ هَذَا الْعَامَ ؟ . قَالَ : لَا . قَالَ : فَإِنَّك

دَاخِلُهُ وَمُطَوِّفٌ ﴾ وَكَذَلِكَ قَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ . وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرَ عِلْمًا وَإِيمَانًا مِنْ عُمَرَ حَتَّى تَابَ

عُمَرُ مِمَّا صَدَرَ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُحَدَّثًا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ ﴾ فَهُوَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الْمُحَدَّثُ الْمُلْهَمُ الَّذِي ضَرَبَ اللَّهُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ ؛ وَلَكِنْ مَزِيَّةُ التَّصْدِيقِ الَّذِي هُوَ أَكْمَلُ مُتَابَعَةً لِلرَّسُولِ وَعِلْمًا وَإِيمَانًا بِمَا جَاءَ بِهِ دَرَجَتُهُ فَوْقَ دَرَجَتِهِ ؛ فَلِهَذَا كَانَ الصِّدِّيقُ أَفْضَلَ الْأُمَّةِ صَاحِبَ الْمُتَابَعَةِ لِلْآثَارِ النَّبَوِيَّةِ فَهُوَ

مُعَلِّمٌ لِعُمَرَ وَمُؤَدِّبٌ لِلْمُحَدِّثِ مِنْهُمْ الَّذِي يَكُونُ لَهُ مِنْ رَبِّهِ إِلْهَامٌ وَخِطَابٌ كَمَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ مُعَلِّمًا لِعُمَرَ وَمُؤَدِّبًا لَهُ حَيْثُ قَالَ لَهُ: فَأَخْبَرَكَ أَنَّك تَدْخُلُهُ هَذَا الْعَامَ؟ قَالَ: لَا قَالَ إنَّك آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ. فَبَيَّنَ لَهُ الصِّدِّيقُ أَنَّ وَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُطْلَقٌ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوَقْتِ وَكَوْنُهُ سَعَى فِي ذَلِكَ الْعَامِ وَقَصَدَهُ لَا يُوجِبُ أَنْ يَعْنِيَ مَا أَخْبَرَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَقْصِدُ الشَّيْءَ وَلَا يَكُونُ؛ بَلْ يَكُونُ غَيْرُهُ؛ إذْ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَصَدَهُ؛ بَلْ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ رَبِّهِ عَلَيْهِ أَنْ يُقَيِّدَهُ عَمَّا يَقْصِدُهُ إلَى أَمْرٍ آخَرَ هُوَ أَنْفَعُ مِمَّا قَصَدَهُ كَمَا كَانَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ أَنْفَعَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ دُخُولِهِمْ ذَلِكَ الْعَامَ بِخِلَافِ خَبَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ

(178/404)

صَادِقٌ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ وَيَتَحَقَّقَ.

(179/404)

وكَذَلِكَ ظَنُّ النَّبِيِّ كَمَا ﴿ قَالَ فِي تَأْبِيرِ النَّخْلِ : إنَّمَا ظَنَنْت ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ فَاسْتَيْأَسَ عُمَرُ وَغَيْرُهُ مِنْ دُخُولِ ذَلِكَ هُوَ اسْتَيْئَاسٌ مِمَّا ظَنُّوهُ مَوْعُودًا بِهِ وَلَمْ يَكُنْ مَوْعُودًا بِهِ . وَمِثْلُ هَذَا لَا يَمْتَنِعُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَظُنُّوا شَيْئًا فَيَكُونُ الْأَمْرُ بِخِلَافِ مَا ظَنُّوهُ فَقَدْ يَظُنُّونَ فِيمَا وَعَدُوهُ تَعْيِينًا وَصِفَاتٍ وَلَا يَكُونُ كَمَا ظَنُّوهُ فَيَيْأَسُونَ مِمَّا ظَنُّوهُ فِي الْوَعْدِ لَا مِنْ تَعْيِينِ الْوَعْدِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ رَأَيْت أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَدْ أَسْلَمَ ؛ فَلَمَّا أَسْلَمَ خَالِدٌ ظَنُّوهُ هُوَ فَلَمَّا أَسْلَمَ عِكْرِمَةُ عُلِمَ أَنَّهُ هُوَ ﴾ . وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمِ يُلَقِّحُونَ : فَقَالَ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا هَذَا لَصَلَحَ قَالَ : فَخَرَجَ شِيصًا فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ : مَا لِنَخْلِكُمْ ؟ قَالُوا : قُلْت : كَذَا وَكَذَا . قَالَ : أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ ﴾ وَرُوِيَ أَيْضًا ﴿ عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ طَلْحَةَ ابْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ : مَرَرْت مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْمِ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ فَقَالَ : مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ فَقَالَ : يُلَقِّحُونَهُ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَتَلَقَّحُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ . فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بِذَلِكَ فَقَالَ : إنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ ؛ فَإِنِّي

ظَنَنْت ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ . فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُنَا إذَا حَدَّثَنَا بِشَيْءِ عَنْ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ بِهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ أَتْقَانَا لِلَّهِ وَأَعْلَمُنَا بِمَا يُتَّقَى وَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يَكُونَ آخِذًا بِمَا يُحَدِّثُنَا عَنْ اللَّهِ فَإِذَا أَخْبَرَهُ اللَّهُ بِوَعْدِ كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ بِهِ وَتَصْدِيقُهُ هُوَ بِهِ أَعْظَمُ مِنْ تَصْدِيقِنَا وَلَمْ يَكُنْ لَنَا أَنْ نَشُكَّ فِيهِ وَهُوَ - بِأَبِي - أَوْلَى وَأَحْرَى أَنْ لَا يَشُكَّ فِيهِ ؛ لَكِنْ قَدْ يَظُنُّ ظَنًّا كَقَوْلِهِ : ﴿ إنَّمَا ظَنَنْت ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ ﴾ وَإِنْ كَانَ أَخْبَرَهُ بِهِ مُطْلَقًا فَمُسْتَنَدُهُ ظُنُونٌ كَقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ ذِي الْيَدَيْنِ : ﴿ مَا قَصُرْت الصَّلَاةَ وَلَا نَسِيت ﴾ . وَقَدْ يَظُنُّ الشَّيْءَ ثُمَّ يُبَيِّنُ اللَّهُ الْأَمْرَ عَلَى جَلِيَّتِهِ كَمَا وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي أُمُورٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ لَمَّا اسْتَعْمَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَمَّ أَنْ يَغْزُوَهُمْ لَمَّا ظَنَّ صِدْقَهُ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَكَذَلِكَ فِي قِصَّةِ بَنِي أبيرق الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا : ﴿ إنَّا أَنْزَلْنَا إلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ

وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ ، وَذَلِكَ لَمَّا جَاءَ قَوْمٌ تَرَكُوا السَّارِقَ الَّذِي كَانَ يَسْرِقُ وَأَخْرَجُوا الْبَرِيءَ ؛

(182/404)

فَظَنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صِدْقَهُمْ حَتَّى تَبَيَّنَ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ . ﴿ وَقَالَ فِي حَدِيثِ قَصْرِ الصَّلَاةِ : لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصَرْ فَقَالُوا : بَلَى قَدْ نَسِيت ﴾ . وَكَانَ قَدْ نَسِيَ فَأَخْبَرَ عَنْ مُوجَبِ ظَنِّهِ وَاعْتِقَادِهِ حَتَّى تَبَيَّنَ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ . ﴿ وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : إنِّي لَأَنْسَى لِأَسُنَّ ﴾ وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ فِي الْقُرْآنِ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ شَامِلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتِهِ حَيْثُ قَالَ فِي صَدْرِ الْآيَاتِ : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ الْآيَاتُ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيسَى الْأَنْصَارِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ﴿ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : بَيْنَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : هَذَا بَابٌ مِنْ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ إلَّا الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ : هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إلَّا الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتهمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَك : فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفِ مِنْهَا إلَّا أُعْطِيته ﴾ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ آدَمَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ

جُبَيْرٍ ﴿ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ دَخَلَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْهَا شَيْءٌ

(183/404)

لَمْ يَدْخُلْ مِثْلُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ

(184/404)

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا قَالَ : فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ الْآيَاتُ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قَالَ قَدْ فَعَلْتُ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ﴾ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ ﴿ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا : أَيْ رَسُولَ اللَّهِ كُلِّفْنَا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةَ

وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْك هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَك رَبَّنَا وَإِلَيْك الْمَصِيرُ فَلَمَّا اقْتَرَاهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ : أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَثَرِهَا : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا سُبْحَانَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ قَبْلِنَا ﴾ قَالَ : نَعَمْ : ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا

(185/404)

طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قَالَ : نَعَمْ . إلَى آخِرِ السُّورَةِ قَالَ : نَعَمْ ﴾ . وَاَلَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ الْخَطَأُ فِي

(186/404)

الِاجْتِهَادِ ؛ لَكِنْ لَا يُقَرُّونَ عَلَيْهِ وَإِذَا كَانَ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَكَيْفَ فِي الْخَبَرِ ؟ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ وَلَعَلَّ

بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ فَأَحْسَبُ أَنَّهُ صَادِقٌ فَمَنْ قَضَيْت لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ ﴾ فَنَفْسُ مَا يَعِدُ اللَّهُ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُؤْمِنِينَ حَقًّا لَا يَمْتَرُونَ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ نُوحٍ ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ إلَى آخِرِ الْآيَةِ . وَمِثْلُ هَذَا الظَّنِّ قَدْ يَكُونُ مِنْ إلْقَاءِ الشَّيْطَانِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَلِلنَّاسِ فِيهَا قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ ؛ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّ التَّمَنِّيَ هُوَ التِّلَاوَةُ وَالْقُرْآنُ كَمَا عَلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ مِنْ السَّلَفِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ ﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوَّلَ النَّهْيَ عَلَى تَمَنِّي الْقَلْبِ فَذَاكَ فِيهِ كَلَامٌ آخَرُ ؛ وَإِنْ قِيلَ : إنَّ الْآيَةَ تَعُمُّ النَّوْعَيْنِ ؛ لَكِنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الْمَعْرُوفُ الْمَشْهُورُ فِي التَّفْسِيرِ وَهُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَمُرَادُ الْآيَةِ قَطْعًا لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ . وَهَذَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ فِي مُجَرَّدِ الْقَلْبِ إذَا

لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ النَّبِيُّ ؛ لَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِي ظَنِّهِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بَعْضُهُ النَّخْلُ وَنَحْوُهَا وَهُوَ يُوَافِقُ مَا ذَكَرْنَاهُ. وَإِذَا كَانَ التَّمَنِّي لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ الْقَوْلُ فَفِيهِ قَوْلَانِ : " الْأَوَّلُ " أَنَّ الْإِلْقَاءَ هُوَ فِي سَمْعِ الْمُسْتَمِعِينَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّسُولُ وَهَذَا قَوْلُ مَنْ تَأَوَّلَ الْآيَةَ بِمَنْعِ جَوَازِ الْإِلْقَاءِ فِي كَلَامِهِ. و " الثَّانِي " - وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ عَامَّةُ السَّلَفِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ - أَنَّ الْإِلْقَاءَ فِي نَفْسِ التِّلَاوَةِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَسِيَاقُهَا مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ كَمَا وَرَدَتْ بِهِ الْآثَارُ الْمُتَعَدِّدَةُ وَلَا مَحْذُورَ فِي ذَلِكَ إلَّا إذَا أَقَرَّ عَلَيْهِ فَأَمَّا إذَا نَسَخَ اللَّهُ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ وَأَحْكَمَ آيَاتِهِ فَلَا مَحْذُورَ فِي ذَلِكَ وَلَيْسَ هُوَ خَطَأٌ وَغَلَطٌ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إلَّا إذَا أَقَرَّ عَلَيْهِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مَعْصُومٌ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَنْ يُقَرَّ عَلَى خَطَأٍ كَمَا قَالَ : ﴿ فَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ بِشَيْءِ فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا قَامَتْ الْحُجَّةُ بِهِ فَإِنَّ كَوْنَهُ رَسُولَ اللَّهِ يَقْتَضِي أَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ وَالصِّدْقُ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الْكَذِبِ وَنَفْيَ الْخَطَأِ فِيهِ. فَلَوْ جَازَ عَلَيْهِ الْخَطَأُ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ وَأَقَرَّ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ كُلُّ مَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ. وَالَّذِينَ مَنَعُوا أَنْ يَقَعَ الْإِلْقَاءُ فِي تَبْلِيغِهِ فَرُّوا مِنْ هَذَا وَقَصَدُوا

خَيْرًا وَأَحْسَنُوا فِي ذَلِكَ؛ لَكِنْ يُقَالُ لَهُمْ: أَلْقَى ثُمَّ أَحْكَمَ فَلَا مَحْذُورَ فِي ذَلِكَ. فَإِنَّ هَذَا يُشْبِهُ النَّسْخَ لِمَنْ بَلَغَهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ فَإِنَّهُ إذَا مُوقِنٌ مُصَدِّقٌ بِرَفْعِ قَوْلٍ سَبَقَ لِسَانُهُ بِهِ لَيْسَ أَعْظَمَ مِنْ إخْبَارِهِ بِرَفْعِهِ. وَلِهَذَا قَالَ فِي النَّسْخِ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ فَظَنُّهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا هُوَ يَتْبَعُ مَا يَظُنُّونَهُ مِنْ مَعْنَى الْوَعْدِ وَهَذَا جَائِزٌ لَا مَحْذُورَ فِيهِ. إذَا لَمْ يُقَرُّوا عَلَيْهِ وَهَذَا وَجْهٌ حَسَنٌ وَهُوَ مُوَافِقٌ لِظَاهِرِ الْآيَةِ وَلِسَائِرِ الْأُصُولِ مِنْ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ وَالَّذِي يُحَقِّقُ ذَلِكَ أَنَّ بَابَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ لَيْسَ بِأَعْظَمَ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. فَإِذَا كَانَ مِنْ الْجَائِزِ فِي بَابِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ أَنْ يَظُنُّوا شَيْئًا ثُمَّ يَتَبَيَّنُ الْأَمْرُ لَهُمْ بِخِلَافِهِ؛ فَلَأَنْ يَجُوزَ ذَلِكَ فِي بَابِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى حَتَّى إنَّ بَابَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ إذَا تَمَسَّكُوا فِيهِ بِالِاسْتِصْحَابِ لَمْ يَقَعْ فِي ذَلِكَ ظَنٌّ خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ؛ فَإِنَّ الْوُجُوبَ وَالتَّحْرِيمَ الَّذِي لَا يَثْبُتُ إلَّا بِخِطَابِ إذَا نَفَوْهُ قَبْلَ الْخِطَابِ كَانَ ذَلِكَ اعْتِقَادًا مُطَابِقًا لِلْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ وَبَابُ الْوَعْدِ إذَا لَمْ يُخْبَرُوا بِهِ قَدْ يَظُنُّونَ انْتِفَاءَهُ كَمَا ظَنَّ الْخَلِيلُ جَوَازَ الْمَغْفِرَةِ لِأَبِيهِ حَتَّى اسْتَغْفَرَ لَهُ وَنُهِينَا عَنْ الِاقْتِدَاءِ. كَمَا ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لِأَبِي طَالِب: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَك مَا لَمْ أُنْهَ عَنْك ﴾ وَحَتَّى اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الِاسْتِغْفَارِ لِأُمِّهِ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِي ذَلِكَ وَحَتَّى صَلَّى عَلَى الْمُنَافِقِينَ قَبْلَ أَنْ يُنْهَى عَنْ ذَلِكَ وَكَانَ يَرْجُو لَهُمْ الْمَغْفِرَةَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ وَقَالَ عَنْ الْمُنَافِقِينَ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ الْآيَةُ.

وَقَالَ ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لن يغفر الله لهم ﴾ فَإِذَا كَانَ صَلَّى عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ رَاجِيًا أَنْ يُغْفَرَ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ ذَلِكَ. وَلِهَذَا سَوَّغَ الْعُلَمَاءُ أَنْ يُرْوَى فِي بَابِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مِنْ الْأَحَادِيثِ مَا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ كَذِبٌ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفَ الْإِسْنَادِ. بِخِلَافِ بَابِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَإِنَّهُ لَا يُؤْخَذُ فِيهِ إلَّا بِمَا يَثْبُتُ أَنَّهُ صِدْقٌ؛ لِأَنَّ بَابَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ إذَا أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ صِدْقًا وَأَمْكَنَ أَنْ يُوجَدَ الْخَبَرُ كَذِبًا لَمْ يَجُزْ نَفْيُهُ؛ لَا سِيَّمَا بِلَا عِلْمٍ كَمَا لَمْ يَجُزْ الْجَزْمُ بِثُبُوتِهِ بِلَا عِلْمٍ؛ إذْ لَا مَحْذُورَ فِيهِ. مِنَابُ النَّاسِ اللَّفْظُ تَعْيِينُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فَلَا يَجُوزُ مَنْعُ ذَلِكَ بِمَنْعِ الْحَدِيثِ إذَا أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ صِدْقًا؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إبْطَالًا لِمَا هُوَ حَقٌّ وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ ﴾ وَهَذَا

الْبَابُ وَهُوَ " بَابُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ " هُوَ فِي الْكِتَابِ بِأَسْمَاءِ مُطْلَقَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ وَالْمُحْسِنِينَ فَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَظُنُّ مِنْ النَّاسِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْوَعْدِ وَيَكُونُ اللَّفْظُ فِي ظَنِّهِ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِمَا يَدْخُلُ فِي الْوَعْدِ لَا فِي اعْتِقَادِ صِدْقِ الْوَعْدِ فِي نَفْسِهِ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿ إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ الْآيَتَيْنِ فَقَدْ يَظُنُّ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ كَمَالَ الْإِيمَانِ الْمُسْتَحِقِّ لِلنَّصْرِ وَإِنَّ جُنْدَ اللَّهِ الْغَالِبُونَ وَيَكُونُ الْأَمْرُ بِخِلَافِ ذَلِكَ. وَقَدْ يَقَعُ مِنْ النَّصْرِ الْمَوْعُودِ بِهِ مَا لَا يَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ الْمَوْعُودِ بِهِ فَالظَّنُّ الْمُخْطِئُ فَهْمُ ذَلِكَ كَثِيرٌ جِدًّا أَكْثَرُ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مَعَ كَثْرَةِ مَا وَقَعَ مِنْ الْغَلَطِ فِي ذَلِكَ وَهَذَا مِمَّا لَا يَحْصُرُ الْغَلَطَ فِيهِ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَهَذَا عَامٌّ لِجَمِيعِ الْآدَمِيِّينَ؛ لَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ لَا يُقَرُّونَ؛ بَلْ يَتَبَيَّنُ لَهُمْ وَغَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ لَا يَتَبَيَّنُ لَهُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا. وَلِهَذَا كَثُرَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَأْمُرُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَصْدِيقِ الْوَعْدِ

وَالْإِيمَانِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ الصَّبْرِ إِلَى أَنْ يَجِيءَ الْوَقْتُ وَمِنْ الِاسْتِغْفَارِ لِزَوَالِ الذُّنُوبِ الَّتِي بِهَا تَحْقِيقُ اتِّصَافِهِ بِصِفَةِ الْوَعْدِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ الْآيَةَ . وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ . وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى جـ 15 صـ 195.174 ﴾

(193/404)

وقال أبو السعود :

﴿ حتى إِذَا استيئس الرسل ﴾

غايةٌ لمحذوف دل عليه السياق أي لا يغرّنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فإن مَنْ قبلهم قد أُمهلوا حتى أيسَ الرسل عن النصر عليهم في الدنيا أو عن إيمانهم لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ كذّبتهم أنفسُهم حين حدثتْهم بأنهم يُنْصرون عليهم أو كذّبهم رجاؤهم فإنه يوصف بالصدق والكذب والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظارَ النصر من الله تعالى قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القُنوطَ وتوهّموا أن لا نصر لهم في الدنيا ﴿ جَاءهُمْ نَصْرُنَا ﴾ فجأة ،

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وظنوا أنهم قد أُخلِفوا ما وعدهم الله من النصر فإن صح ذلك عنه فلعله أراد بالظن ما يخطُر بالبال من شبه الوسوسة وحديثِ النفس ، وإنما عبر عنه بالظن تهويلاً للخطب ، وأما الظنُّ الذي هو ترجّحُ أحدِ الجانبين على الآخر فلا يُتصوّر ذلك من آحاد الأمة فما ظنُّك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم هم ومنزلتُهم في معرفة شؤونِ الله سبحانه منزلتُهم ، وقيل : الضميران للمُرسل إليهم . وقيل : الأول لهم ، والثاني للرسل ، وقرىء بالتشديد أي ظن الرسل أن القوم كذّبوهم فيما وعدوهم وقرىء بالتخفيف على بناء الفاعل على أن الضميرين للرسل أي ظنوا أنهم كذَبوا عند قومهم فيما حدّثوا به لما تراخى ولم يروا له أثراً أو على أن الأول لقومهم ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾ هم الرسل والمؤمنون بهم وقرىء فننجّي على لفظ المستقبل بالتخفيف والتشديد وقرىء فنجا ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ إذا نزل بهم وفيه بيانٌ لمن تعلق بهم المشيئة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(194/404)

وقال الآلوسى :

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ ﴾

غاية لمحذوف دل عليه السباق والتقدير عند بعضهم لا يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فإن من قبلهم قد أمهلوا حتى يئس الرسل من النصر عليهم في الدنيا أو من إيمانهم لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع، وقال أبو الفرج بن الجوزي: التقدير وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فدعوا قومهم فكذبوهم وصبروا وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى إذا استيأس الخ، وقال القرطبي: التقدير وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ثم لم نعاقب أممهم حتى إذا استيأس الخ، وقال الزمخشري: التقدير وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى النصر حتى إذا الخ، ولعل الأول أولى وإن كان فيه كثرة حذف، والاستفعال بمعنى المجرد كما أشرنا إليه وقد مر الكلام في ذلك ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ بالتخفيف والبناء للمفعول، وهي قراءة علي كرم الله تعالى وجهه.

وأبى.

وابن مسعود.

وابن عباس.

ومجاهد.

وطلحة والأعمش.

والكوفيين، واختلف في توجيه الآية على ذلك فقيل: الضمائر الثلاثة للرسل والظن بمعنى التوهم لا بمعناه الأصلي ولا بمعناه المجازي أعني اليقين وفاعل ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ المقدر إما

أنفسهم أو رجاؤهم فإنه يوصف بالصدق والكذب أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون أو كذبهم رجاؤهم النصر ، والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله تعالى قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ فجأة ؛ وقيل : الضمائر كلها للرسل والظن بمعناه وفاعل ﴿ كَذَّبُوا ﴾ المقدر من أخبرهم عن الله تعالى وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، فقد أخرج الطبراني .

(195/404)

وغيره عن عبد الله بن أبي مليكة قال : إن ابن عباس قرأ ﴿ قَدْ كُذِبُوا ﴾ مخففة ثم قال : يقول أخلفوا وكانوا بشرا وتلا ﴿ حتى يَقُولَ الرسول والذين ءامَنُوا مَعَهُ متى نَصْرُ الله ﴾ [البقرة : 214] قال ابن أبي مليكة : فذهب ابن عباس إلى أنهم يئسوا وضعفوا فظنوا أنهم قد أخلفوا وروى ذلك عنه البخاري في الصحيح ، واستشكل هذا بأن فيه ما لا يليق نسبته إلى الأنبياء عليهم السلام بل إلى صالحي الأمة ولذا نقل عن عائشة رضي الله تعالى عنها ذلك ، فقد أخرج البخاري .

والنسائي .

وغيرهما من طريق عروة أنه سأل عائشة رضي الله تعالى عنها عن هذه الآية قال : قلت أكذبوا أم كذبوا فقالت عائشة بل كذبوا يعني بالتشديد قلت : والله لقد استيقنوا ان قومهم كذبوهم فما هو بالظن قالت : أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك فقلت : لعله ﴿ وَظَنُّوا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ ﴾ مخففة قالت : معاذ الله تعالى لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاء نصر الله تعالى عند ذلك .

(196/404)

وأجاب بعضهم بأنه يمكن أن يكون اراد رضي الله تعالى عنه بالظن ما يخطر بالبال ويهجس بالقلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية ، وذهب المجد بن تيمية إلى رجوع الضمائر جميعها إيضاً إلى الرسل مائلا إلى ما روي عن ابن عباس مدعيا أنه الظاهر وأن الآية على حد قوله تعالى : ﴿ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ ﴾ [الحج : 52] فإن الالقاء في قلبه وفي لسانه وفي عمله من باب واحد والله تعالى ينسخ ما يلقي الشيطان ، ثم قال : والظن لا يراد به في الكتاب

والسنة الاعتقاد الراجح كما هو في اصطلاح طائفة من أهل العلم ويسمون الاعتقاد المرجوح وهما فقد قال صلى الله عليه وسلم : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث " وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الظن لَا يُغْنِى عَنْ الحق شَيْئًا ﴾ [النجم : 28] فالاعتقاد المرجوح هو ظن وهو وهم ، وهذا قد يكون ذنباً يضعف الإيمان ولا يزيله وقد يكون حديث النفس المعفو عنه كما قال عليه الصلاة والسلام : " إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل " وقد يكون من باب الوسوسة التي هي صريح الإيمان كما ثبت في الصحيح أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا : يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما أن يحرق حتى يصير حمما أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به قال صلى الله عليه وسلم : " أو قد وجدتموه ؟ قالوا : نعم .

قال : ذلك صريح الإيمان " وفي حديث آخر " إن أحدنا ليجد ما يتعاظم أن يتكلم به قال : الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة " ونظير هذا ما صح من قوله صلى الله عليه وسلم : " نحن أحق بالشك من إبراهيم عليه السلام إذ قال له ربه : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي " فسمى النبي صلى الله عليه وسلم التفاوت بين الإيمان والإطمئنان شكا

باحياء الموتى ، وعلى هذا يقال : الوعد بالنصر في الدنيا لشخص قد يكون الشخص مؤمناً بإنجازه ولكن قد يضطرب قلبه فيه فلا يطمئن فيكون فوات الاطمئنان ظناً أنه كذب ، فالشك وظن أنه كذب من باب واحد وهذه الأمور لا تقدح في الإيمان الواجب وإن كان فيها ما هو ذنب ، فالأنبياء عليهم السلام معصومون من الإقرار على ذلك كما في أفعالهم على ما عرف من أصول السنة والحديث ، وفي قص مثل ذلك عبرة للمؤمنين بهم عليهم السلام فانهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك فلا ييأسوا إذا ابتلوا ويعلمون أنه قد ابتلى من هو خير منهم وكانت العاقبة إلى خير فيتيقن المرتاب ويتوب المذنب ويقوي إيمان المؤمن وبذلك يصح الاتساء بالأنبياء ، ومن هنا قال سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ [يوسف : 111] ولو كان المتبوع معصوماً مطلقاً لا يتأتى الاتساء فإنه التابع أنا لست من جنسه فإنه لا يذكر بذنب فإذا أذنب استيأس من المتابعة والاقتدار لما أتى به من الذنب الذي يفسد المتابعة على القول بالعصمة بخلاف ما إذا علم أنه قد وقع شيء وجبر بالتوبة فإنه يصح حينئذ أمر المتابعة كما قيل : أول من أذنب وأجرم ثم تاب وندم أبو البشر آدم .

ومن يشابه أبه فما ظلم .

ولا يلزم الاقتداء بهم فيما نهوا عنه ووقع منهم ثم تابوا عنه لتحقق الأمر بالاقتداء بهم فيما أقروا عليه ولم ينهوا عنه ووقع منهم ولم يتوبوا منه ، وما ذكر ليس بدون المنسوخ من أفعالهم وإذا كان ما أمروا به وأبيح لهم ثم نسخ تنقطع فيه المتابعة فما لم يؤمروا به ووقع منهم وتابوا عنه أحرى وأولى بانقطاع المتابعة فيه اه .

ولا يخفى أن ما ذكره مستلزم لجواز وقوع الكبائر من الأنبياء عليهم السلام وحاشاهم من غير أن يقروا على ذلك والقول به جل عظيم ولا يقدم عليه ذو قلب سليم ، على أن في كلامه بعد ما فيه ؛ وليته اكتفى بجعل الضمائر للرسل وتفسير الظن بالتوهم كما فعل غيره فانه ما لا بأس به ، وكذا لا بأس في حمل كلام ابن عباس على أنه أراد بالظن فيه ما هو على طريق الوسوسة ومثالها من حديث النفس فإن ذلك غير الوسوسة المنزه عنها الأنبياء عليهم السلام أو على أنه أراد بذلك المبالغة في التراخي وطول المدة على طريق الاستعارة التمثيلية بأن شبه المبالغة في التراخي بظن الكذب باعتبار استلزام كل منهما لعدم ترتب المطلوب فاستعمل ما لأحدهما في الآخر ، وقيل : ان الضمائر الثلاثة للمرسل إليهم لأن ذكر الرسل متقاض ذاك ، ونظير ذلك قوله :

أمنك البرق ارقبه فهاجا . . .

وبت اخاله دهما خلاجا

فإن ضمير اخاله للرعد ولم يصرح به بل اكتفى بوميض البرق عنه ، وان شئت قلت : ان ذكرهم قد جرى في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [يوسف : 109] فيكون الضمير للذين من قبلهم ممن كذب الرسل عليهم السلام ، والمعنى ظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوه من النبوة وفيما وعدوا به من لم يؤمن من العقاب وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً ، فقد أخرج أبو عبيد .

وسعيد بن منصور .

والنسائي .

وابن جرير .

(199/404)

وغيرهم من طرق عنه رضي الله تعالى عنه أنه كان يقرأ ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ مخففة ويقول : حتى إذا يئس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم وظن قومهم ان الرسل قد كذبوهم فيما جاؤوا به جاء الرسل نصرنا ، وروي ذلك أيضا عن سعيد بن جبير .

أخرج ابن جرير .

وأبو الشيخ عن ربيعة بن كلثوم قال : حدثني أبي أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير

فقال : يا أبا عبد الله آية قد بلغت مني كل مبلغ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ فإن الموت أن تظن الرسل أنهم قد كذبوا مثقلة أو تظن أنهم قد كذبوا مخففة فقال سعيد : حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبتهم جاءهم نصرنا فقام مسلم إليه فاعتنقه وقال : فرج الله تعالى عنك كما فرجت عني ، وروي أنه قال .

ذلك بمحضر من الضحاك فقال له : لو رحلت في هذه إلى اليمن لكان قليلاً ، وقيل : ضمير ﴿ ظَنُّوٓاْ ﴾ للمرسل إليهم وضمير ﴿ أَنَّهُمۡ ﴾ و﴿ وَكَذَّبُواْ ﴾ للرسل عليهم السلام وظنوا أن الرسل عليهم السلام اخلفوا فيما وعد لهم من النصر وخلط الأمر عليهم .

وقرأ غير واحد من السبعة .

والحسن .

وقتادة .

ومحمد بن كعب .

وأبو رجاء .

وابن أبي مليكة .

والأعرج .

وعائشة في المشهور ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ بالتشديد والبناء للمفعول ، والضمائر على هذا للرسل

عليهم السلام أي ظن الرسل أن اممهم كذبوهم فيما جاؤوا به لطول البلاء عليهم فجاءهم نصر الله تعالى عند ذلك وهو تفسير عائشة رضي الله تعالى عنها الذي رواه البخاري عليه الرحمة، والظن بمعناه أو بمعنى اليقين أو التوهم، وعن ابن عباس.

ومجاهد.

(200/404)

والضحاك أنهم قرؤوا ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ مخففاً مبنياً للفاعل فضمير ﴿ ظَنُّواْ ﴾ للأمم وضمير ﴿ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ للرسل أي ظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوهم به من النصر أو العقاب، وجوز أن يكون ضمير ﴿ ظَنُّواْ ﴾ للرسل وضمير ﴿ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ للمرسل إليهم أي ظن الرسل عليهم السلام أن الأمم كذبتهم فيما وعدوهم به من أنهم يؤمنون، والظن الظاهر كما قيل: إنه بمعنى اليقين، وقرىء كما قال أبو البقاء: ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ بالتشديد والبناء للفاعل، وأول ذلك بأن الرسل عليهم السلام ظنوا أن الأمم قد كذبوهم في وعدهم هذا، والمشهور استشكال الآية من جهة أنها متضمنة ظاهراً على القراءة الأولى، نسبة ما لا يليق من الظن إلى الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، واستشكل بعضهم نسبة الاستياس إليهم عليهم السلام أيضاً بناء على أن الظاهر أنهم

استيأسوا مما وعدوا به وأخبروا بكونه فإن ذلك أيضاً مما لا يليق نسبته إليهم .

وأجيب بأنه لا يراد ذلك وإنما يراد أنهم استيأسوا من إيمان قومهم .

واعترض بأنه يبعده عطف ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ الظاهر في أنهم ظنوا كونهم مكذوبين فيما وعدوا به عليه .

(201/404)

وذكر المجد في هذا المقام تحقيقاً غير ما ذكره أولا وهو أن الاستيآس وظن أنهم مكذوبين كليهما متعلقان بما ضم للموعود به اجتهاداً ، وذلك أن الخبر عن استيآسهم مطلق وليس في الآية ما يدل على تقييده بما وعدوا به وأخبروا بكونه وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن الله تعالى إذا وعد الرسل بنصر مطلق كما هو غالب اخباراته لم يعين زمانه ولا مكانه ولا صفته ، فكثيراً ما يعتقد الناس في الموعود به صفات أخرى لم يدل عليها خطاب الحق تعالى بل اعتقدوها بأسباب أخرى كما اعتقد طائفة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم إخبار النبي صلى الله عليه وسلم لهم أنهم يدخلون المسجد الحرام ويطوفون به أن ذلك يكون عام الحديبية ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج معتمراً ورجا أن يدخل مكة ذلك العام ويطوف ويسعى فلما استيئسوا من ذلك ذلك العام لما صدهم المشركون حتى قاضاهم

عليه الصلاة والسلام على الصلح المشهور بقي في قلب بعضهم شيء حتى قال عمر رضي الله تعالى عنه مع أنه كان من المحدثين : ألم تخبرنا يا رسول الله انا ندخل البيت ونطوف ؟ قال : بلى أفاخبرتك إنك تدخله هذا العام ؟ قال : لا .

(202/404)

قال : إنك داخله ومطوف به ، وكذلك قال له أبو بكر رضي الله تعالى عنه فبين له أن الوعد منه عليه الصلاة والسلام كان مطلقاً غير مقيد بوقت ، وكونه صلى الله عليه وسلم سعى في ذلك العام إلى مكة وقددها لا يوجب تخصيصاً لوعده تعالى بالدخول في تلك السنة ، ولعله عله الصلاة والسلام إنما سعى بناء على ظن أن يكون الأمر كذلك فلم يكن ، ولا محذور في ذلك فليس من شرط النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون كل ما قصده ، بل من تمام نعمة الله تعالى عليه أن يأخذ به عما يقصده إلى أمر آخر هو أنفع مما قصده إن كان كما كان في عام الحديبية ، ولا يضر أيضاً خروج الأمر على خلاف ما يظنه عليه الصلاة والسلام ، فقد روى مسلم في صحيحه أنه عليه الصلاة والسلام قال في تأبير النخل : " إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله تعالى شيئاً فخذوا به فإني لن أكذب على الله تعالى " ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في حديث ذي اليدين : " ما قصرت

الصلاة ولا نسيت ثم تبين النسيان " وفي قصة الوليد بن عقبة النازل فيها ﴿ إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجر : 6] الآية وقصة بني أبيرق النازل فيها

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَا أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لّلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء : 105] ما فيه كفاية في العلم بأنه صلى الله عليه وسلم قد يظن الشيء فيبينه الله تعالى على وجه آخر ، وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو هو هكذا فما ظنك بغيره من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، ومما يزيد هذا قوة أن جمهور المحدثين والفقهاء على أنه يجوز للأنبياء عليهم السلام الاجتهاد في الأحكام الشرعية ويجوز عليهم الخطأ في ذلك لكن لا يقرون عليه فإنه لا شك أن هذا دون الخطأ في ظن ما ليس من الأحكام الشرعية في شيء ، وإذا تحقق ذلك فلا يبعد أن يقال : إن أولئك الرسل عليهم السلام أخبروا بعذاب قومهم ولم يعين لهم وقت له فاجتهدوا وعينوا لذلك وقتاً حسبما ظهر لهم كما عين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية لدخول مكة فلما طالت المدة استيأسوا وظنوا كذب أنفسهم وغلط اجتهادهم وليس في ذلك ظن بكذب وعده تعالى ولا مستلزماً له أصلاً فلا محذور .

وأنت تعلم أن الأوفق بتعظيم الرسل عليهم السلام والأبعد عن الحوم حول حمى ما لا يليق بهم القول بنسبة الظن إلى غيرهم صلى الله عليه وسلم والله تعالى أعلم ، والظاهر أن ضمير ﴿ جَاءهُمْ ﴾ على سائر القراآت والوجوه للرسل ، وقيل : إنه راجع إليهم وإلى المؤمنين جاء الرسل ومن آمن بهم نصرنا ﴿ فَنُجِّىَ مَن نَّشَاء ﴾ انجاءه وهم الرسل والمؤمنون بهم ، وإنما لم يعينوا للإشارة إلى أنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم ولا يشاركهم فيه غيرهم .

وقرأ عاصم .

وابن عامر .

ويعقوب ﴿ فَنُجِّىَ ﴾ بنون واحدة وجيم مشددة وياء مفتوحة على أنه ماض مبني للمفعول و﴿ مِنْ ﴾ نائب الفاعل .

وقرأ مجاهد .

والحسن .

والجحدري .

وطلحة .

وابن هرمز كذلك إلا أنهم سكنوا الياء ، وخرجت على أن الفعل ماض أيضاً كما في القراءة التي قبلها إلا أنه سكنت الياء على لغة من يستثقل الحركة على الياء مطلقاً ، ومنه قراءة من قرأ ﴿ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ [المائدة : 89] بسكون الياء ، وقيل : الأصل ننجي بنونين فأدغم النون في الجيم .

ورده أبو حيان بأنها لا تدغم فيها ، وتعقب بأن بعضهم قد ذهب إلى جواز ادغامها

ورويت هذه القراءة عن الكسائي .

ونافع ، وقرأت فرقة كما قرأ باقي السبعة بنونين مضارع أنجى إلا أنهم فتحوا اليا ، ورواها هبيرة عن حفص عن عاصم ، وزعم ابن عطية أن ذلك غلط من هبيرة إذ لا وجه للفتح ، وفيه أن الوجه ظاهر ، فقد ذكروا أن الشرط والجزاء يجوز أن يأتي بعدهما المضارع منصوباً بإضمار أن بعد الفاء كقراءة من قرأ ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ ﴾ [البقرة : 284] بنصب يغفر ، ولا فرق في ذلك بين أن تكون أداة الشرط جازمة أو غير جازمة .

وقرأ نصر بن عاصم .

وأبو حيوة .

وابن السميقع .

وعيسى البصرة .

وابن محيصن .

وكذا الحسن .

ومجاهد في رواية ﴿ فنجا ﴾ ماضياً مخففاً و﴿ صَلَحَ مِنْ ﴾ فاعله .

وروي عن ابن محيصن أنه قرأ كذلك إلا أنه شدد الجيم ، والفاعل حينئذٍ ضمير النصر و﴿ مِنْ ﴾ مفعوله .

وقد رجحت قراءة عاصم ومن معه بأن المصاحف اتفقت على رسمها بنون واحدة .

وقال مكي : أكثر المصاحف عليه فأشعر بوقوع خلاف في الرسم ، وحكاية الاتفاق نقلت عن الجعبري .

وابن الجزري .

وغيرهما ، وعن الجعبري أن قراءة من قرأ بنونين توافق الرسم تقديراً لأن النون الثانية ساكنة مخفاة عند الجيم كما هي مخفاة عند الصاد والظاء في لننصر ولننظر والإخفاء لكونه ستراً يشبه الإدغام لكونه تغييباً فكما يحذف عند الإدغام يحذف عند الإخفاء بل هو عنده أولى لمكان الاتصال .

وعن أبي حيوة أنه قرأ ﴿ فَنُجِّىَ مَن يَشَاء ﴾ بيا الغيبة أي من يشاء الله تعالى نجاته ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا ﴿ عَنِ القوم المجرمين ﴾ إذا نزل بهم، وفيه بيان لمن تعلق بهم المشيئة لأنه يعلم من المقابلة أنهم من ليسوا بمجرمين.

وقرأ الحسن ﴿ بَأْسُهُ ﴾ بضمير الغائب أي بأس الله تعالى، ولا يخفى ما في الجملة من التهديد والوعيد لمعاصري النبي صلى الله عليه وسلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(206/404)

وقال القاسمى :

ثم بيّن تعالى أن العاقبة لرسله، وأن نصره يأتيهم إذا تمادى تكذيبهم، تثبيتاً لفؤاده صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه :

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾

أي : من إجابة قومهم ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أي : علموا وتيقنوا، يعني : الرسل ﴿ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءهُمْ نَصْرُنَا ﴾ يقرأ : ﴿ كُذِّبُوا ﴾ بضم الكاف وتشديد الذال. أي : كذبهم قومهم

بما جاؤوا به ؛ لطول البلاء عليهم . ويقرأ بضم الكاف وتخفيف الذال ، فالضمير في : ﴿ ظَنّوا ﴾ – على ما اختاروه – للقوم . أي : ظنوا أن الرسل قد كذبوا . أي : ما وعدوا به من النصر .

وروي عن ابن عباس أن الضمير للرسل . أي : وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر . وقال : كانوا بشراً ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّه ﴾ [البقرة : من الآية 214] ، وقد استشكلوه على ابن عباس ، وتأولوا لكلامه وجوهاً .

قال الزمخشري : أراد بالظن ما يخطر بالبال ، ويهجس في القلب ، من شبه الوسوسة ، وحديث النفس ، على ما عليه البشرية . انتهى .

وقيل : المراد بظنهم عليهم السلام ذلك ؛ المبالغة في التراخي والإمهال ، على طريق الاستعارة التمثيلية ، بأن شبه المبالغة في التراخي بظن الكذب ، باعتبار استلزام كل منهما ؛ لعدم ترتب المطلوب ، فاستعمل ما لأحدهما للآخر .

وقال الخطابي : لا شك أن ابن عباس لا يجيز على الرسل أنها تُكْذَبُ بالوحي ، ولا تشك في صدق المخبر ، فيحمل كلامه على أنه أراد أنهم ، لطول البلاء عليهم ، وإبطاء النصر ، وشدة استنجاز ما وعدوا به - توهموا أن الذي جاءهم من الوحي كان حسباناً من أنفسهم ، وظنوا عليها الغلط في تلقي ما ورد عليهم من ذلك ، فيكون الذي بني له الفعل أنفسهم ، لا الآتي بالوحي . والمراد بـ (الكذب) : الغلط ، لا حقيقة الكذب ، كما يقول القائل : كذبتك نفسك .

قال الحافظ ابن حجر : ويؤيده قراءة مجاهد : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كَذِبُواْ ﴾ بفتح أوله مع التخفيف أي : غلطوا . ويكون فاعل (وظنوا) الرسل .

وقال أبو نصر القشيري : ولا يبعد أن المراد خطر بقلب الرسل ، فصرفوه عن أنفسهم . أو المعنى : قربوا من الظن ، كما يقال : بلغت المنزل ، إذا قربت منه .

وقال الترمذي الحكيم : وجهه : أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر ؛ أن يتخلف النصر ، لا من تهمة بوعد الله ، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثاً ينقض ذلك الشرط ، فكان الأمر إذا طال ، واشتد البلاء عليهم ؛ دخلهم الظن من هذه الجهة .

وحكى الواحدي عن ابن الأنباري أنه قال : ما روي عن ابن عباس غير معول عليه ، وأنه ليس من كلامه ، بل تؤول عليه .

قال ابن حجر : وعجب لابن الأنباري في جزمه بأنه لا يصح ثم للزمخشري في توقفه عن

صحة ذلك عن ابن عباس ، فإنه صح عنه ، أي : فرواه البخاري في تفسير البقرة بلفظ : ذهب بها هناك ، وأشار إلى السماء ، وزاد الإسماعيلي عنه : كانوا بشراً ضعفوا وأيسوا وظنوا أنهم قد كذبوا .

وروى البخاري أن عائشة كانت تقرأ (كذبوا) مشددة ، وتتأولها على المعنى الأول ، وأن عروة قال لها : لعلها (كذبوا) مخففة ، فقالت : معاذ الله ! .

(208/404)

قال الحافظ ابن حجر : وهذا ظاهر في أنها أنكرت القراءة بالتخفيف ، ولعلها لم تبلغها ممن يرجع إليه في ذلك ، وقد قرأها بالتخفيف أئمة الكوفة من القراء : عاصم ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي . ووافقهم من الحجازيين أبو جعفر بن القعقاع . وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي ، والحسن البصري ومحمد بن كعب القرظي في آخرين .

وقوله تعالى : ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء ﴾ وهم الرسل والمؤمنون بهم . وقرئ (فننجي) بالتخفيف والتشديد . وقرئ (فنجا) .

﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ أي : عذابنا : ﴿ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : إذا نزل بهم .

وفيه بيان من شاء الله نجاتهم ؛ لأنه يعلم من المقابلة أنهم من ليسوا بمجرمين ، وهم من تقدم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 240. 243 ﴾

(209/404)

وقال ابن عاشور :

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ ﴾

و﴿ حتى ﴾ من قوله : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ ابتدائية ، وهي عاطفة جملة ﴿ إذا استيأس الرسل ﴾ على جملة ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾ باعتبار أنها حجة على المكذبين ، فتقدير المعنى : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم فكذبهم المرسل إليهم واستمروا على التكذيب حتى إذا استيئس الرسل إلى آخره ، فإن ﴿ إذا ﴾ اسم زمان مضمن معنى الشرط فهو يلزم الإضافة إلى جملة تبين الزمان ، وجملة ﴿ استيأس ﴾ مضاف إليها ﴿ إذا ﴾ ، وجملة ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ لأن هذا الترتيب في المعنى هو المقصود من جلب ﴿ إذا ﴾ في مثل هذا التركيب .

والمراد بالرسل عليهم السلام غير المراد بـ ﴿ رجالا ﴾ ، فالتعريف في الرسل عليهم السلام

تعريف العهد الذَكريّ وهو من الإظهار في مقام الإضمار لإعطاء الكلام استقلالاً بالدلالة اهتماماً بالجملة.

وآذن حرف الغاية بمعنى محذوف دل عليه جملة ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا ﴾ بما قصد بها من معنى قصد الإسوة بسلفه من الرسل عليهم السلام.

والمعنى: فدام تكذيبهم وإعراضهم وتأخر تحقيق ما أنذرُوهم به من العذاب حتى اطمأنوا بالسلامة وسخروا بالرسل وأيس الرسل عليهم السلام من إيمان قَومهم.

و﴿ استيأس ﴾ مبالغة في يئس، كما تقدم آنفاً في قوله: ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ [سورة يوسف: 87].

وتقدم أيضاً قراءة البزي بخلاف عنه بتقديم الهمزة على الياء.

فهذه أربع كلمات في هذه السورة خالف فيها البزي رواية عنه.

وفي صحيح البخاري ﴾ عن عروة أنه سأل عائشة رضي الله عنها: "أَكُذِبوا أم كُذّبوا أي بالخفيف أم بالشدّ؛ قالت: كذّبوا أي بالشد قال: فقد استيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظن فهي ﴿ قد كذبوا ﴾ أي بالتخفيف، قالت: معاذ الله لم يكن الرسل عليهم السلام

تظن ذلك بربها وإنما هم أتباع الذين آمنوا وصدقوا فطال عليهم البلاء واستأخر النصر حتى إذا استيأس الرسل عليهم السلام من إيمان من كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل عليهم السلام أن أتباعهم مُكذّبوهم" اه .

وهذا الكلام من عائشة رضي الله عنها رأي لها في التفسير وإنكارها أن تكون ﴿ كذبوا ﴾ مخففة إنكار يستند بما يبدو من عود الضمائر إلى أقرب مذكور وهو الرسل ، وذلك ليس بمتعيّن ، ولم تكن عائشة قد بلغتْها رواية ﴿ كذبوا ﴾ بالتخفيف .

وتفريع ﴿ فننجي من نشاء ﴾ على ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ لأن نصر الرسل عليهم السلام هو تأييدهم بعقاب الذين كذبوهم بنزول العذاب وهو البأس ، فينجي الله الذين آمنوا ولا يردّ البأس عن القوم المجرمين .

والبأس : هو عذاب المجرمين الذي هو نصر للرسل عليهم السلام . .

والقوم المجرمون : الذين كذبوا الرسل .

وقرأ الجمهور ﴿ فَنُنْجِي ﴾ بنونين وتخفيف الجيم وسكون الياء مضارع أنجى .

و﴿ من نشاء ﴾ مفعول ﴿ ننجي ﴾ .

وقرأه ابن عامر وعاصم ﴿ فنجّي ﴾ بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم مكسورة وفتح التحتية على أنه ماضي ﴿ نجّى المضاعف بني للنائب ، وعليه فمن نشاء ﴾ هو نائب الفاعل ، والجمع بين الماضي في (نجّي) والمضارع في ﴿ نشاء ﴾ احتباك تقديره

فنُجي من شئنا ممن نجا في القرون السالفة وننجي من نشاء في المستقبل من المكذبين . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(211/404)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾

وكلمة : ﴿ حتى ﴾ [يوسف : 110]

تدل على أن هناك غاية ، وما دامتْ هناك غاية فلابُدَّ أن بداية ما قد سبقتْها ، ونقول : " أكلتُ السمكة حتى رأسها " . أي : أن البداية كانت أَكْل السمكة ، والنهاية هي رأسها .

والبداية التي تسبق : ﴿ استيأس الرسل . . . ﴾ [يوسف : 110]

هي قوله الحق : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ . . . ﴾ [يوسف : 109]

وما دام الحقُّ سبحانه قد أرسلهم ؛ فهم قد ضَمِنوا النصر ، ولكن النصر أبطأ ؛ فاستيأس الرسل ، وكان هذا الإبطاء مقصوداً من الحق سبحانه ؛ لأنه يريد أن يُحمِّل المؤمنين مهمة هداية حركة الحياة في الأرض إلى أن تقوم الساعة ، فيجب ألا يضطلع بها إلا المُخْتَبر

اختباراً دقيقاً .

ولأبدَّ أن يمر الرسول الأُسْوة لمَنْ معه ومن يتبعه من بعد بمحن كثيرة ، ومَنْ صبر على المِحَن وخرج منها ناجحاً ؛ فهو أَهْلٌ لأن يحمل المهمة .

وهو الحق سبحانه القائل : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة ولَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البأساءُ والضراءُ وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله . . ﴾ [البقرة : 214]

إذن : لأبَدَّ من اختبار يُمحِّص . ونحن في حركة حياتنا نؤهِّل التلميذ دراسياً ؛ ليتقدم إلى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية ، ثم نؤهِّله لِنَيْل شهادة إتمام الدراسة الإعدادية ؛ ثم نؤهله لنيل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ثم يلتحق بالجامعة ، ويتم اختباره سنوياً إلى أن يتخرج من الجامعة .

وإنْ أراد استكمال دراسته لنيل الماجستير والدكتوراه ، فهو يبذل المزيد من الجَهْد .

(212/404)

وكل تلك الرحلة من أجل أن يذهب لتوليِّ مسئولية العمل الذي يُسند إليه وهو جدير بها ، فما بَالُنا بعملية بَعْث رسول إلى قوم ما ؟

لأبدّ إذن من تمحيصه هو ومَنْ يتبعونه ، وكي لا يبقى على العهد إلا المُوقِن تمام اليقين بأن ما يفوته من خير الدنيا ؛ سيجد خيراً أفضل منه عند الله في الآخرة .

ولقائل أن يقول : وهل من المعقول أن يستيئس الرسل ؟

نقول : فَلنفهم أولاً معنى " استيأس " ؛ وهناك فرق بين " يأس " و " استيأس " ، ف " يأس " تعني قطع الأمل من شيء . و " استيأس " تعني : أنه يُلحّ على قَطع الأمل .

أي : أن الأمل لم ينقطع بعد . ومَنْ قطع الأمل هو مَنْ ليس له منفذ إلى الرجاء ، ولا ينقطع أمل إنسان إلا إنْ كان مؤمناً بأسبابه المعزولة عن مُسبِّبه الأعلى .

لكن إذا كان الله قد أعطى له الأسباب ، ثم انتهت الأسباب ، ولم تَصِلْ به إلى نتيجة ، فالمؤمن بالله هو مَنْ يقول : أنا لا تُهمّني الأسباب ؛ لأن معي المُسبِّب .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ . . . وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القوم الكافرون ﴾

[يوسف : 87]

ولذلك نجد أن أعلى نسبة انتحار إنما تُوجَد بين الملاحدة الكافرين ؛ لأنهم لا يملكون رصيداً إيمانياً ، يجعلهم يؤمنون أن لهم رباً فوق كل الأسباب ؛ وقادر على أن يَخْرِق النواميس .

أما المؤمن فهو يأوي إلى رُكْن شديد ، هو قدرة الحق سبحانه مُسبِّب كل الأسباب ،

والقادر على أن يَخْرِق الأسباب .

ولماذا يستيئس الرسل ؟

لأن حرصهم على تعجُّل النصر دفع البعض منهم أن يسأل مثلما سأل المؤمنون : ﴿ متى نَصْرُ الله . . . ﴾ [البقرة : 214]

فضلاً عن ظَنّهِم أنهم كُذّبوا ، والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وظنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ . . . ﴾ [يوسف : 110]

(213/404)

ومادة " الكاف " ، و " الذال " و " الباء " منها " كَذَبَ " ، و " كُذِبَ عليه " و " كُذِّب " .

والكذب هو القول المخالف للواقع ، والعاقل هو من يُورِد كلامه على ذِهْنه قبل أن ينطق به .

أما فاقد الرشد الذي لا يمتلك القدرة على التدبُّر ؛ فينطق الكلام على عَواهِنه ؛ ولا يمرر الكلام على ذهنه ؛ ولذلك يقال عنه " مخرف " .

وقد سبق لنا أن شرحنا الصدق ، وقلنا : إنه تطابق النسبة الكلامية مع الواقع ، والكذب هو ألاَّ تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع .

ومَنْ يقول كلاماً يعلم أنه لا يطابق الواقع ؛ يقال عنه : إنه مُتعمِّد الكذب ، ومَنْ يقول كلاماً بغالبية الظن أنه لا يطابق الواقع ، ونقله عن غيره ؛ فهو يكذب دون أن يُحسب كَذبه افتراءً ، والإنسان الذي يتوخَّى الدِّقة بنقل الكلام منسوباً إلى مَنْ قاله له ؛ فيقول " أخبرني فلان " فلا يُعَدُّ كاذباً .

ولذلك أقول دائماً : يجب أن يُفرِّق العلماء بين كذب المُفْتين ، وكذب الخبر ؛ وكذب المُخْبر . فالخبر الكاذب مسئول عنه مَنْ تعمَّد الكذب ، أما الناقل للخبر ما دام قد نسبه إلى مَنْ قاله ، فموقفه مختلف .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد لها قراءتين ؛ قراءة هي : " وظنوا أنهم قد كُذبوا " أي : حدَّثهم غيرهم كَذِباً ؛ وقراءة ثانية هي : " وظنوا أنهم قد كُذِّبوا " وهي تعني : أنهم قد ظنُّوا أن ما قيل لهم من كلام عن النصر هو كذب .

ولقائل أن يسأل : كيف يظن الرسل ذلك ؟

وأقول : إن الرسول حين يطلب من قومه الإيمان ؛ يعلم أن ما يُؤكِّد صدق رسالته هو مجيء النصر ؛ وتمرُّ عليه بعض من الخواطر خوفاً أن يقول المقاتلون الذين معه : " لقد كذب علينا " ؛ لأن الظن إخبار بالراجح .

ولا يخطر على بال الرسل أن الله سبحانه وتعالى معاذ الله قد كَذَبهم وعده ، ولكنهم ظنُّوا

أن النصر سيأتيهم بسرعة ؛ وأخذوا بطء مجيء النصر دليلاً على أن النصر لن يأتي .

أو : أنهم خافوا أن يُكذِّبهم الغير .

(214/404)

ولذلك نجد الحق سبحانه يُعْلِم رسله أن النصر سيأتي في الموعد الذي يحدده سبحانه ، ولا يعرفه أحد ، فسبحانه لا يَعْجَل بعجلة العبادة حتى تبلغ الأمور ما أراد .

ويقول سبحانه : ﴿ وظنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا . . . ﴾ [يوسف : 110]

وهكذا يأتي النصر بعد الزلزلة الشديدة ؛ فيكون وَقْعه كوقع الماء على ذي الغُلَّة الصَّادي ، ولنا أن نتخيل شَوْق العطشان لكوب الماء .

وأيضاً فإن إبطاء النصر يعطي غروراً للكافرين يجعلهم يتمادون في الغرور ، وحين يأتي النصر تتضاعف فرحة المؤمنين بالرسول ، وأيضاً يتضاعف غَمُّ الكافرين به .

ومجيء النصر للمؤمنين يقتضي وقوع هزيمة للكافرين ؛ لأن تلك هي مشيئة الله الذي يقع بَأْسه وعذابه على الكافرين به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(215/404)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) ﴾

أخرج أبو عبيد والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق عروة ، أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قوله ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ قال : قلت : أكذبوا ، أم كذبوا ؟ قالت عائشة - رضي الله عنها بل ﴿ كذّبوا ﴾ يعني بالتشديد ، قلت : والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن . قالت : أجل ، لعمري لقد استيقنوا بذلك . فقلت لعلها ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ مخففة . قالت : معاذ الله ، لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم اتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر ، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن عبد الله بن أبي مليكة - رضي الله عنه - أن ابن عباس - رضي الله عنهما - قرأها عليه ﴿ وظنوا أنهم

قد كذبوا ﴾ مخففة . يقولوا اخلفوا ، وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – وكانوا بشراً ، وتلا ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ [البقرة : 214] قال ابن أبي مليكة : فذهب ابن عباس – رضي الله عنهما – إلى أنهم يئسوا وضعفوا ، فظنوا أنهم قد أخلفوا ، قال ابن أبي مليكة : وأخبرني عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته وقالت : ما وعد الله رسوله من شيء إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم ، وكانت تقرؤها ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ مثقلة للتكذيب .

(216/404)

وأخرج ابن مردويه من طريق عروة ، عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ بالتشديد .

وأخرج ابن مردويه من طريق عمرة ، عن عائشة ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قرأ ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ مخففة .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه كان يقرأ ﴿ حتى

إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ مخففة. قال: يئس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم فيما جاؤوهم به ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ قال: جاء الرسل نصرنا.

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ، عن تميم بن حرام قالت: قرأ على ابن مسعود – رضي الله عنه – القرآن فلم يأخذ علي إلا حرفين ﴿ كل أتوه داخرين ﴾ فقال: أتوه، مخففة.

وقرأت عليه ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ فقال: ﴿ كذبوا ﴾ مخففة قال: ﴿ استيأس الرسل ﴾ من أيمان قومهم أن يؤمنوا لهم، وظن قومهم حين ابطأ الأمر ﴿ أنهم قد كذبوا ﴾.

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي الأحوص، عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة يوسف ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ خفيفة.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن ربيعة بن كلثوم قال: حدثني أبي أن مسلم بن يسار – رضي الله عنه – سأل سعيد بن جبير – رضي الله عنه – فقال: يا أبا عبد الله، آية قد بلغت مني كل مبلغ ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ فهذا الموت إن نظن الرسل أنهم قد كذبوا أو نظن أنهم قد كذبوا مخففة. فقال سعيد بن جبير – رضي الله

عنه - ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ من قومهم أن يستجيبوا لهم ، وظن قومهم أن الرسل كذبتهم ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ فقام مسلم إلى سعيد فاعتنقه وقال : فرج الله عنك كما فرجت عني .

(217/404)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن إبراهيم ، عن أبي حمزة الجزري قال : صنعت طعاماً فدعوت ناساً من أصحابنا ، منهم سعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم ، فسأل فتى من قريش سعيد بن جبير - رضي الله عنه - فقال : يا أبا عبد الله ، كيف تقرأ هذا الحرف ؟ فإني إذا أتيت عليه تمنيت أني لا أقرأ هذه السورة ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ قال : نعم ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسل إليهم أن الرسل ﴿ قد كذبوا ﴾ فقال الضحاك - رضي الله عنه - لو رحلت في هذه إلى اليمن ، لكان قليلاً .

وأخرج ابن جرير ، عن مجاهد - رضي الله عنه - أنه قرأها ﴿ كذبوا ﴾ بفتح الكاف والتخفيف . قال : استيأس الرسل أن يعذب قومهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ قال : جاء الرسل نصرنا . قال مجاهد : قال في المؤمن ﴿ فلما جاءتهم

رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ [غافر : 83] قال قولهم : نحن أعلم منهم ولن نعذب ، وقوله ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ [الزمر : 48] قال : حاق بهم ما جاءت به رسلهم من الحق .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما ﴿ فننجي من نشاء ﴾ قال : فننجي الرسل ومن نشاء ﴿ ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ وذلك أن الله تعالى بعث الرسل يدعون قومهم ، فأخبروهم أنه من أطاع الله نجا ، ومن عصاه عذب وغوى .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ قال : العذاب .

وأخرج أبو الشيخ عن نصر بن عاصم - أنه قرأ [فنجا من نشاء] .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي بكر - أنه قرأ ﴿ فننجي من نشاء ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السدي - ﴿ ولا يرد بأسنا ﴾ قال عذابه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾

قوله تعالى : ﴿ حتى ﴾ : ليس في الكلام شيءٌ تكون " حتى " غايةً له ، فمِنْ ثَمَّ اختلف الناسُ في تقدير شيءٍ يَصِحُّ تُغْيِيَتُه ب " حتى " : فقدَّره الزمخشري : " وما أَرْسَلْنا مِنْ قبلك إلا رجالاً فتراخى نَصْرُهُمْ حتى " . وقَدَّره القرطبي : " وما أَرْسَلْنا من قبلك يا محمدُ إلا رجالاً لم نعاقِب أُمَمَهم بالعقاب حتى إذا " . وقدَّره ابن الجوزي : " وما أَرْسَلْنا مِنْ قبلك إلا رجالاً فَدَعَوا قومهم فكذَّبوهم وطال دعاؤُهم وتكذيبُ قومِهم حتى إذا " . وأَحْسَنُها ما قدَّمْتُه .

وتَصَيَّد ابن عطية شيئاً من معنى قوله : " أفلم يسيروا " فقال : " ويتضمَّن قولُه " أفلم يسيروا " إلى " مِنْ قبلِهم " أنَّ الرسلَ الذين بعثهم اللَّه من أهل القرى دَعَوْهم فلم يُؤْمنوا بهم حتى نَزَلَتْ بهم المَثُلاتُ فصبروا في حَيِّز مَنْ يُعْتبر بعاقبته ، فلهذا المُضَمَّن حَسُن أن تَدْخُل " حتى " في قوله : " حتى إذا " . قال الشيخ : " ولم يتلخَّصْ لنا من كلامِه شيءٌ يكون ما بعد " حتى " غايةً له ، لأنه عَلَّق الغايةَ بما ادَّعَى أنه فَهِمَ ذلك مِنْ قوله : " أفلم يسيروا " . الآية " . قلت : دَعَوْهم فلم يؤمنوا هو المغيى .

قوله : ﴿ كُذِبُواْ ﴾ قرأ الكوفيون "كُذِبوا " بالتخفيف والباقون بالتثقيل . فأمَّا قراءةُ

التخفيف فاضطربت أقوالُ الناسِ فيها ، ورُوي إنكارها عن عائشة رضي الله عنها قالت : " معاذَ اللَّهِ لم يكنِ الرسلُ لِتَظُنَّ ذلك بربها " وهذا ينبغي أن لا يَصِحَّ عنها لتواتُرِ هذه القراءة .

(219/404)

وقد وَجَّهها الناسُ بأربعة أوجه ، أجودُها : أن الضميرَ في " وظنُّوا " عائدٌ على المُرْسَل إليهم لتقدُّمهم في قوله : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [يوسف : 109] ، ولأن الرسلَ تَسْتدعي مُرْسَلاً إليه . والضمير في " أنهم " و " كُذِبوا " عائد على الرسل ، أي : وظنَّ المُرْسَل إليهم أنَّ الرسَلَ قد كُذِبوا ، أي : كذَّبهم مَنْ أُرْسِلوا إليه بالوحي وبنصرهم عليهم .

الثاني : أنَّ الضمائرَ الثلاثةَ عائدة على الرسل . قال الزمخشري في تقرير هذا الوجه " حتى إذا اسْتَيْئَسوا من النصر وظنُّوا أنهم قد كُذِبوا ، أي : كَذَّبَهم أنفسُهم حين حَدَّثَتْهم أنهم يُنْصَرون أو رجاؤُهم لقولهم رجاءٌ صادق ورجاءٌ كاذب ، والمعنى : أن مدَّةَ التكذيب والعداوةِ من الكفار ، وانتظارَ النصر من اللَّه وتأميلَه قد تطاولت عليهم وتمادَتْ ، حتى استشعروا القُنوط ، وتَوَهَّموا ألاَّ نصرَ لهم في الدنيا فجاءهم نَصْرُنا " انتهى/ فقد جعل

الفاعلَ المقدر : إمَّا أنفسُهم ، وإمَّا رجاؤُهم ، وجعل الظنَّ بمعنى التوهم فأخرجه عن معناه الأصلي وهو تَرَجُّحُ أحدِ الطرفين ، وعن مجازه وهو استعمالُه في المُتَيَقَّن .

الثالث : أنَّ الضمائرَ كلَّها أيضاً عائدة على الرسل ، والظنُّ على بابه من الترجيح ، وإلى هذا نحا ابن عباس وابن مسعود وابن جبير ، قالوا : والرسل بَشَرٌ فضَعُفوا وساءَ ظَنُّهم ، وهذا ينبغي ألاَّ يَصِحَّ عن هؤلاء فإنها عبارة غليظة على الأنبياء عليهم السلام ، وحاشى الأنبياء من ذلك ، ولذلك رَدَّتْ عائشة وجماعة كُثيرة هذا التأويلَ ، وأعظموا أن تُنْسَبَ الأنبياء إلى شيء مِن ذلك .

(220/404)

قال الزمخشري : " إن صَحَّ هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظنِّ ما يَخْطِر بالبال ويَهْجِس في القلب مِنْ شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية ، وأمَّا الظنُّ الذي هو ترجيحُ أحدِ الجائزين على الآخر فغير جائز على رجلٍ من المسلمين ، فما بال رُسلِ اللَّه الذين هم أعرفُ بربهم ؟ " قلت : ولا يجوز أيضاً أن يقال : خَطَر ببالهم شبهُ الوسوسة ؛ فإنَّ الوسوسة من الشيطان وهم مَعْصومون منه .

وقال الفارسي أيضا : " إنْ ذهب ذاهب إلى أن المعنى : ظنَّ الرسلُ الذين وعد اللَّه أمَمَهم

على لسانهم قد كُذِبوا فيه فقد أتى عظيماً [لا يجوز أَنْ يُنسَبُ مثلُه] إلى الأنبياء ولا إلى صالحي عبادِ اللَّه ، وكذلك مَنْ زعم أنَّ ابنَ عباس ذهب إلى أن الرسل قد ضَعُفوا فظنوا أنهم قد أُخْلفوا ؛ لأن اللَّه تعالى لا يُخْلف الميعاد ولا مُبَدّل لكلماته " . وقد روي عن ابن عباس أيضاً أنه قال : " معناه وظنُّوا حين ضَعُفوا وغُلبوا أنهم قد أُخْلفوا ما وعدهم اللَّه به من النصر وقال : كانوا بشراً وتلا قوله تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول ﴾ [البقرة : 214] .

الرابع : أن الضمائر كلَّها تَرْجِعُ إلى المرسَل إليهم ، أي : وظَنَّ المُرْسَلُ إليهم أنَّ الرسلَ قد كَذَبوهم فيما ادَّعوه من النبوّة وفيما يُوْعِدون به مَنْ لم يؤمنْ بهم من العقاب قبلُ ، وهذا هو المشهور من تأويل ابن عباس وابن مسعود وابن جبير ومجاهد قالوا : ولا يجوز عَوْدُ الضمائر على الرسل لأنهم مَعْصومون . ويُحكى أن ابن جبير حين سُئِل عنها قال : نعم إذا استيئسَ الرسل من قومهم أن يُصَدِّقوهم ، وظنَّ المُرْسَلُ إليهم أنَّ الرسلَ قد كَذَبوهم " فقال الضحاك بن مزاحم وكان حاضِراً : " لو رَحَلْتُ في هذه إلى اليمن كان قليلاً " .

وأمّا قراءةُ التشديدِ فواضحة وهو أن تعودَ الضمائرُ كلها على الرسل ، أي : وظنّ الرسلُ أنهم قد كَذَّبهم أممُهم فيما جاؤوا به لطول البلاءِ عليهم ، وفي صحيح البخاري عن عائشة : " أنها قالت : هم أتباعُ الأنبياءِ الذي آمنوا بهم وصدّقوا طال عليهم البلاءُ واستأخر عنهم النصرُ حتى إذا استيئس الرسل مُمّن كذّبهم مِنْ قومهم ، وظنّت الرسلُ أن قومَهم قد كَذَّبوهم جاءهم نَصْرُ اللَّهِ عند ذلك " . قلت : وبهذا يَتَّحد معنى القراءتين ، والظنُّ هنا يجوز أن يكون على بابه ، وأن يكونَ بمعنى اليقين وأن يكونَ بمعنى التوهُّم حسبما تقدَّم .

وقرأ ابن عباس والضحاك ومجاهد "كَذَبوا " بالتخفيف مبنياً للفاعل ، والضمير على هذه القراءة في " ظنّوا " عائد على الأمم وفي ﴿ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ عائدٌ على الرسل ، أي : ظنّ المُرْسَلُ إليهم أنّ الرسلَ قد كَذَبوهم فيما وعدوهم به من النصر أو من العقاب ، ويجوز أن يعودَ الضميرُ في " ظنّوا " على الرسل وفي ﴿ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ على المُرْسَل [إليهم] ، أي : وظنّ الرسلُ أن الأممَ كَذَبَتْهم فيما وعدوهم به مِنْ أنَّهم يؤمنون به ، والظنُّ هنا بمعنى اليقين واضح .

ونقل أبو البقاء أنه قُرِىء مشدَّداً مبنياً للفاعل ، وأوَّله بأنَّ الرسل ظنُّوا أن الأمم قد كذَّبوهم . وقال الزمخشري : بعد ما حكى قراءة المبني للفاعل " ولو قرىء بهذا مشدَّداً لكان معناه : وظنَّ الرسل أُنَّ قومَهم كذَّبوهم في موعدهم " فلم يحفظها قراءةً وهي غريبة ، وكان قد جوَّز في القراءة المتقدمة أنَّ الضمائر كلَّها تعود على الرسل ، وأن يعودَ الأول على المُرْسَل إليهم وما بعده على الرسل فقال : " وقرأ مجاهد "كَذَبوا " بالتخفيف على البناء للفاعل على : وظنَّ الرسل أُنهم قد كَذَبوا فيما حَدَّثوا به قومهم من النُّصْرة : إمَّا على تأويل ابن عباس ، وإمَّا على أنَّ قومهم إذا لم يَرَوا لموعدهم أثراً قالوا لهم : قد كَذَبْتُمونا فيكونون كاذبين عند قومهم أو : وظنَّ المُرْسَل إليهم أن الرسلَ قد كَذَبوا " .

قوله : ﴿ جَآءَهُمْ ﴾ جوابُ الشرط وتقدَّم الكلامُ في " حتى " هذه : ما هي؟

قوله : ﴿ فَنُجِّيَ ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم/ بنونٍ واحدة وجيم مشددة وياء مفتوحة على أنَّه فعلٌ ماضٍ مبني للمفعول ، و " مَنْ " قائمة مقام الفاعل . والباقون بنونين ثانيتهما ساكنةٌ ، والجيم خفيفة ، والياء ساكنة على أنه مضارع أنجى و " مَنْ " مفعولةٌ ، والفاعل ضمير المتكلم نفسِه . وقرأ الحسنُ والجحدري ومجاهد في آخرين كقراءة عاصم ، إلا أنهم سَكَّنوا الياء . والأجودُ في تخريجها كما تقدَّم ، وسُكِّنَتْ الياءُ تخفيفاً كقراءة ﴿ تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ [المائدة : 89] وقد سُكِّن الماضي الصحيح فكيف بالمعتل؟ كقوله :

2835 . . . . قد خُلِطْ بجُلْجُلان

وتقدَّم معه أمثاله . وقيل : الأصل : ننجي بنونين فأدغم النون في الجيم وليس بشيء ، إذ النونُ لا تُدْغم في الجيم . على أنه قد قيل بذلك في قوله ﴿ نُجِي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : 88] كما سيأتي بيانه .

(223/404)

وقرأ جماعة كقراءة الباقين إلا أنهم فتحوا الياء . قال ابن عطية : " رواها ابنُ هبيرة عن حفص عن عاصم ، وهي غلطٌ من ابن هبيرة " قلت : توهَّمَ ابن عطية أنه مضارع باقٍ على رفعه فأنكر فتحَ لامِه وغلَّط راويَها ، وليس بغلط ؛ وذلك أنه إذا وقع بعد الشرط والجزاء معاً مضارعٌ مقرونٌ بالفاء جاز فيه أوجهُ أحدها : نصبُه بإضمار " أنْ " بعد الفاء وقد تقدَّم عند قولِه

﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ [البقرة : 284] إلى أنْ قال : " فيغفر " قرئ بنصبه ، وتقدم توجيهه ، ولا فرق بين أن تكون أداةُ الشرط جازمة كآية البقرة أو غيرَ جازمة كهذه الآية . وقرأ الحسن أيضاً " فَنُنَجِّي " بنونين والجيم مشددة والياء ساكنة ، مضارع نجى مشدداً للتكثير . وقرأ هو أيضاً ونصر بن عاصم وأبو حيوة " فنجا " فعلاً ماضياً مخففاً و " مَنْ " فاعله .

ونقل الداني أنه قرأ لابن محيصن كذلك ، إلا أنه شَدَّ الجيم والفاعل ضمير النصر ، و " مَنْ " مفعوله ، ورجَّح بعضُهم قراءة عاصم بأن المصاحف اتفقت على كَتْبها " فنجي " بنونٍ واحدة نقله الداني . وقد نقل مكي أنَّ أكثرَ المصاحفِ عليها ، فأشعر هذا بوقوع خلافٍ في الرسل ، ورُجِّح أيضاً بأنَّ فيها مناسبةً لما قبلها من الأفعال الماضية وهي جاريةٌ على طريقةِ كلامِ الملوك والعظماء من حيث بناءُ الفعلِ للمفعول .

وقرأ أبو حيوة " يشاء " بالياء ، وقد تقدَّم أنه يقرأ " فنجا " أي فنجا مَنْ يشاء اللّه نجاته .

وقرأ الحسن " بأسَه " ، والضمير لله ، وفيها مخالفة يسيرةٌ للسواد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 562 . 568 ﴾

(224/404)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) ﴾

حتى إذا استيأس الرسل مِنْ إيمانِ قومهم ، وتَيَقَّنُوا أنهم كذبوهم - والظن ها هنا بمعنى

اليقين – فعند ذلك جاءهم نصرُنا ؛ للرسل بالنجاةِ ولأقوامهم بالهلاك ، ولا مَرَدَّ لبأسنا .

ويقال حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين شيئاً من الأحوال إلا بعد يأسهم منها ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [الشورى : 28] ، فكما أنّه يُنزِلُ المَطر بعد اليأسِ فكذلك يفتح الأحوالَ بعد اليأس منها والرضا بالإفلاس عنها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 214 ﴾

(225/404)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى.رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/405)

الجزء الخامس بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 111 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 111 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/405)

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر سبحانه هذه القصص كما كانت، وحث على الاعتبار بها بقوله: ﴿أفلم يسيروا﴾ وأشار إلى أنه بذلك أجرى سنته وإن طال المدى، أتبعه الجزم بأن في أحاديثهم أعظم عبرة، فقال حثاً على تأملها والاستبصار بها: ﴿لقد كان﴾ أي كوناً هو في غاية المكنة ﴿في قصصهم﴾ أي الخبر العظيم الذي تلي عليك تتبعاً لأخبار الرسل الذين طال بهم البلاء حتى استيأسوا من نوح إلى يوسف ومن بعده - على جميعهم أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام ﴿عبرة﴾ أي عظة عظيمة وذكرى شريفة ﴿لأولي الألباب﴾ أي لأهل العقول الخالصة من شوائب الكدر يعبرون بها إلى ما يسعدهم بعلم أن من قدر على ما قص من أمر يوسف عليه السلام وغيره قادر على أن يعز محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم ويعلي كلمته وينصره على من عاداه كائناً من كان كما فعل بيوسف وغيره - إلى غير مما ترشد إليه قصصهم من الحكم وتعود إليه من نفائس العبر؛ والقصص: الخبر بما يتلو بعضه بعضاً، من قص الأثر، والألباب: العقول، لأن العقل أنفس ما في الإنسان وأشرف.

ولما كان من أجل العبرة في ذلك القطع بحقية القرآن لما بينه من حقائق أحوالهم وخفايا أمورهم ودقائق أخبارهم على هذه الأساليب الباهرة والتفاصيل الظاهرة والمناهيج المعجزة القاهرة، نبه على ذلك بتقدير سؤال فقال: ﴿ما كان﴾ أي هذا القرآن العربي المشتمل على قصصهم وغيره ﴿حديثاً يفترى﴾ كما قال المعاندون - على ما أشير إليه

بقوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ ، والافتراء : القطع بالمعنى على خلاف ما هو به في الإخبار عنه ، من : فريت الأديم ﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ تصديق الذي ﴾ كان من الكتب وغيرها ﴿ بين يديه ﴾ أي قبله الذي هو كاف في الشهادة بصدقه وحقيته في نفسه ﴿ و ﴾ زاد على ذلك بكونه ﴿ تفصيل كل شيء ﴾ أي يحتاج إليه من أمور الدين والدنيا والآخرة ؛ والتفصيل : تفريق الجملة بإعطاء كل قسم حقه ﴿ وهدى ورحمة ﴾ وبياناً وإكراماً .

(5/405)

ولما كان الذي لا ينتفع بالشيء لا يتعلق بشيء منه ، قال : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي يقع الإيمان منهم وإن كان بمعنى : يمكن إيمانهم ، فهو عام ، وما جمع هذه الخلال فهو أبين البيان ، فقد انطبق هذا الآخر على أول السورة في أنه الكتاب المبين ، وانطبق ما تبع هذه القصص - من الشهادة بحقية القرآن ، وأن الرسل ليسوا ملائكة ولا معهم ملائكة للتصديق يظهرون للناس ، وأنهم لم يسألوا على الإبلاغ أجراً - على سبب ما تبعته هذه القصص ، وهو مضمون قوله تعالى : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ [هود : 12] الآية من قولهم ﴿ لولا ألقي عليه كنز أو جاء معه ملك ﴾ [هود : 12] وقولهم : إنه افتراه ، على ترتيب ذلك ، مع اعتناق هذا الآخر لأول التي تليه ، فسبحان من أنزله معجزاً باهراً ، وقاضياً بالحق لا يزال

ظاهراً ، وكيف لا وهو العليم الحكيم – والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 116.115 ﴾

(6/405)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

اعلم أن الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول ، والمراد منه التأمل والتفكر ، ووجه الاعتبار بقصصهم أمور : الأول : أن الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب ، وإعلائه بعد حبسه في السجن وتمليكه مصر بعد أن كانوا يظنون به أنه عبد لهم ، وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة ، لقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته .

الثاني : أن الإخبار عنه جار مجرى الإخبار عن الغيب ، فيكون معجزة دالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، الثالث : أنه ذكر في أول السورة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف : 3] ثم ذكر في آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى

الألباب ﴾ تنبيهاً على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة.

والمراد من قصصهم قصة يوسف عليه السلام وإخوته وأبيه، ومن الناس من قال: المراد قصص الرسل لأنه تقدم في القرآن ذكر قصص سائر الرسل إلا أن الأولى أن يكون المراد قصة يوسف عليه السلام.

فإن قيل: لم قال: ﴿ عِبْرَةٌ لأوْلِى الألباب ﴾ مع أن قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ذوي عقول وأحلام، وقد كان الكثير منهم لم يعتبر بذلك.

قلنا: إن جميعهم كانوا متمكنين من الاعتبار، والمراد من وصف هذه القصة بكونها عبرة كونها بحيث يمكن أن يعتبر بها العاقل، أو نقول: المراد من أولي الألباب الذين اعتبروا وتفكروا وتأملوا فيها وانتفعوا بمعرفتها، لأن ﴿ أُوْلِى الألباب ﴾ لفظ يدل على المدح والثناء فلا يليق إلا بما ذكرناه، واعلم أنه تعالى وصف هذه القصة بصفات.

الصفة الأولى: كونها ﴿ عِبْرَةٌ لأوْلِى الالباب ﴾ وقد سبق تقريره.

الصفة الثانية : قوله : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يفترى ﴾ وفيه قولان : الأول : أن المراد الذي جاء به وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفتري لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفتري هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد في التوراة من غير تفاوت ، والثاني : أن المراد أنه ليس يكذب في نفسه ، لأنه لا يصح الكذب منه ، ثم إنه تعالى أكد كونه غير مفترى فقال : ﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وهو إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة وسائر الكتب الإلهية ، ونصب تصديقاً على تقدير ولكن كان تصديق الذي بين يديه كقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مّن رّجَالِكُمْ ولكن رَّسُولَ الله ﴾ [الأحزاب : 40] قاله الفراء والزجاج ، ثم قال : ويجوز رفعه في قياس النحو على معنى : ولكن هو تصديق الذي بين يديه .

والصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلّ شَىْء ﴾ وفيه قولان : الأول : المراد وتفصيل كل شيء من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته ، والثاني : أنه عائد إلى القرآن ، كقوله : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْء ﴾ [الأنعام : 38] فإن جعل هذا الوصف وصفاً لكل القرآن أليق من جعله وصفاً لقصة يوسف وحدها ، ويكون المراد : ما يتضمن من الحلال والحرام وسائر ما يتصل بالدين .

قال الواحدي على التفسيرين جميعاً : فهو من العام الذي أريد به الخاص كقوله :

﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : 156] يريد : كل شيء يجوز أن يدخل فيها وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : 23] .

(8/405)

الصفة الرابعة والخامسة : كونها هدى في الدنيا وسبباً لحصول الرحمة في القيامة لقوم يؤمنون خصهم بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا به كما قررناه في قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان ، ختم بالخير والرضوان ، سنة إحدى وستمائة ، وقد كنت ضيق الصدر جداً بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمده الله بالرحمة والغفران وخصه بدرجات الفضل والإحسان وذكرت هذه الأبيات في مرثيته على سبيل الإيجاز :

فلو كانت الأقدار منقادة لنا . . فديناك من حماك بالروح والجسم

ولو كانت الأملاك تأخذ رشوة . . خضعنا لها بالرق في الحكم والاسم

ولكنه حكم إذا حان حينه . . سرى من مقر العرش في لجة اليم

سأبكي عليك العمر بالدم دائما . . ولم أنحرف عن ذاك في الكيف والكم

سلام على قبر دفنت بتربه . . وأتحفك الرحمن بالكرم الجم

وما صدني عن جعل جفني مدفنا . . لجسمك إلا أنه أبداً يهمي

وأقسم إن مسوا رفاتي ورمتي . . أحسوا بنار الحزن في مكمن العظم

حياتي وموتي واحد بعد بعدكم . . بل الموت أولى من مداومة الغم

رضيت بما أمضى الإله بحكمه . . لعلمي بأني لا يجاوزني حكمي .

وأنا أوصي من طالع كتابي واستفاد ما فيه من الفوائد النفيسة العالية أن يخص ولدي ويخصني بقراءة الفاتحة ، ويدعو لمن قد مات في غربة بعيداً عن الإخوان والأب والأم بالرحمة والمغفرة فإني كنت أيضاً كثير الدعاء لمن فعل ذلك في حقي وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً آمين والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 181.183 ﴾

(9/405)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾

يعني في قصص يوسف وإخوته اعتبار لذوي العقول بأن من نقل يوسف من الجب والسجن

وعن الذل والرق إلى أن جعله مَلِكاً مطاعاً ونبياً مبعوثاً ، فهو على نصر رسوله وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه قادر ، وإنما الإمهال إنذار وإعذار .

﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ أن يختلف ويتخرّص ، وفيه وجهان :

أحدهما : يعني القرآن ، قاله قتادة .

الثاني : ما تقدم من القصص ، قاله ابن إسحاق .

﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه مصدِّق لما قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى ، وهذا تأويل من زعم أنه القرآن .

الثاني : يعني ولكن يصدّقه ما قبله من كتب الله تعالى ، وهذا قول من زعم أنه القصص .

﴿ وهُدًى ورحمة لقومٍ يؤمنون ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(10/405)

وقال ابن عطية :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

الضمير في ﴿ قصصهم ﴾ عام ليوسف وأبويه وإخوته وسائر الرسل الذين ذكروا على الجملة ، ولما كان ذلك كله في القرآن قال عنه ﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ فإذا تأملت قصة يوسف ظهر أن في غرائبها وامتحان الله فيها لقوم في مواضع ، ولطفه لقوم في مواضع ، وإحسانه لقوم في مواضع ، معتبراً لمن له لب وأجاد النظر ، حتى يعلم أن كل أمر من عند الله وإليه .

وقوله : ﴿ ما كان ﴾ صيغة منع ، وقرينه الحال تقتضي أن البرهان يقوم على أن ذلك لا يفترى ، وذلك بأدلة النبوءة وأدلة الإعجاز ، و" الحديث " - هنا - واحد الأحاديث ، وليس للذي هو خلاف القديم ها هنا مدخل .

ونصب ﴿ تصديقَ ﴾ إما على إضمار معنى كان ، وإما على أن تكون ﴿ لكن ﴾ بمعنى لكن المشددة .

وقرأ عيسى الثقفي " تصديقُ " بالرفع ، وكذلك كل ما عطف عليه ، وهذا على حذف المبتدأ ، التقدير : هو تصديق . وقال أبو حاتم : النصب على تقدير : ولكن كان ، والرفع على : ولكن هو . وينشد بيت ذي الرمة بالوجهين :

وما كان مالي من تراث ورثته . . . ولا دية كانت ولا كسي مأثم

ولكن عطاءُ الله من كل رحلة . . . إلى كل محجوب السرادق خضرم

رفع عطاء الله ، والنصب أجود .

و﴿ الذي بين يديه ﴾ هو التوراة والإنجيل ، والضمير في ﴿ يديه ﴾ عائد على القرآن ، وهم اسم كان . وقوله : ﴿ كل شيء ﴾ يعني من العقائد والأحكام والحلال والحرام . وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(11/405)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾

أي في قصة يوسف وأبيه وإخوته ، أو في قصص الأمم .

﴿ عِبْرَةٌ ﴾ أي فكرة وتذكرة وعظة .

﴿ لأُوْلِي الألباب ﴾ أي العقول .

وقال محمد بن إسحاق عن الزّهريّ عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيْميّ : إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعاً وأربعين سنة ، وتُوفّي أخوه عِيصُو معه في يوم واحد ، وقُبِرا في قبر واحد ؛ فذلك قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الألباب ﴾ إلى آخر السورة .

﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يفترى ﴾ أي ما كان القرآن حديثاً يفترى ، أو ما كانت هذه القصة حديثاً يفترى .

﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي (ولكن كان تصديق ، ويجوز الرفع بمعنى لكن هو تصديق الذي بين يديه أي) ما كان قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى ؛ وهذا تأويل من زعم أنه القرآن .

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام ، والشرائع والأحكام .

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(12/405)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم ﴾

يعني في خبر يوسف وإخوته ﴿ عبرة ﴾ أي موعظة ﴿ لأولي الألباب ﴾ يعني يتعظ بها أولو الألباب والعقول الصحيحة ومعناه الاعتبار والعبرة الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد والمراد من التأمل والتفكر ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه وإخراجه من السجن وتمليكه مصر بعد العبودية وجمع شملة بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع لقادر على إعزاز محمد (صلى الله عليه وسلم) وإعلاء كلمته وإظهار دينه وأن الإخبار بهذه

القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب فكانت معجزة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وقيل : إن الله تعالى قال في أول هذه السورة نحن نقص عليك أحسن القصص وقال في آخرها لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب فدل على هذه القصة من أحسن القصص وإن فيها عبرة لمن اعتبرها ﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ يعني ما كان هذا القرآن حديثاً يفتري ويختلق لأن الذي جاء به من عند الله وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) لا يصح منه أن يفتريه أو يختلقه لأنه لم يقرأ الكتب ولم يخالط العلماء ثم إنه جاء بهذا القرآن المعجز فدل ذلك على صدقه وأنه ليس بمفتر ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ يعني ولكن كان تصديق الذي بين يديه من الكتب الإلهية المنزلة من السماء من التوراة والإنجيل وفيه إشارة إلى أن هذه القصة وردت على وجه الموافق لما في التوراة من ذكر قصة يوسف ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ يعني أن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد تفصيل كل شيء تحتاج إليه من الحلال والحرام والحدود والأحكام والقصص والمواعظ والأمثال وغير ذلك مما يحتاج إليه العباد في أمر دينهم ودنياهم ﴿ وهدى ﴾ يعني إلى كل خير ﴿ ورحمة ﴾ يعني أنزلناه رحمة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون به والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

الضمير في قصصهم عائد على الرسل ، أو على يوسف وأبويه وإخوته ، أو عليهم وعلى الرسل ثلاثة أقوال .

الأول : اختاره الزمخشري قال : وينصره قراءة من قرأ قصصهم بكسر القاف انتهى .

ولا ينصره إذ قصص يوسف وأبيه وأخوته مشتمل على قصص كثيرة وأنباء مختلفة .

والذي قرأ بكسر القاف هو أحمد بن جبير الانطاكي عن الكسائي ، والقصبي عن عبد الوارث عن أبي عمر وجمع قصة .

واختار ابن عطية الثالث ، بل لم يذكره غيره .

والعبرة الدلالة التي يعبر بها عن العلم .

وإذا عاد الضمير على يوسف عليه السلام وأبويه وإخوته ، فالاعتبار بقصصهم من وجوه إعزاز يوسف عليه السلام بعد إلقائه في الجب ، وإعلاؤه بعد حبسه في السجن ، وتملكه مصر بعد استعباده ، واجتماعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد الفرقة الطويلة .

والإخبار بهذا القصص إخباراً عن الغيب ، والإعلام بالله تعالى من العلم والقدرة والتصرف في الأشياء على ما لا يخطر على بال ولا يجول في فكر .

وإنما خص أولو الألباب لأنهم هم الذين ينتفعون بالعبر ، ومن له لب وأجاد النظر ، ورأى ما فيها من امتحان ولطف وإحسان ، علم أنه أمر من الله تعالى ، ومن عنده تعالى .

والظاهر أنّ اسم كان مضمر يعود على القصص أي : ما كان القصص حديثاً مختلفاً ، بل هو حديث صدق ناطق بالحق جاء به من لم يقرأ الكتب ، ولا تتلمذ لأحد ، ولا خالط العلماء ، فمحال أن يفتري هذه القصة بحيث تطابق ما ورد في التوراة من غير تفاوت .

وقيل : يعود على القرآن أي : ما كان القرآن الذي تضمن قصص يوسف عليه السلام وغيره حديثاً يختلق ، ولكن كان تصديق الكتب المتقدمة الإلهية ، وتفصيل كل شيء واقع ليوسف مع أبويه وإخوته إن كان الضمير عائداً على قصص يوسف ، أو كل شيء مما حتاج إلى تفصيله في الشريعة إن عاد على القرآن .

وقرأ حمران بن أعين ، وعيسى الكوفي فيما ذكر صاحب اللوامح ، وعيسى الثقفي فيما ذكر ابن عطية : تصديق وتفصيل وهدى ورحمة برفع الأربعة أي : ولكن هو تصديق ، والجمهور بالنصب على إضمار كان أي : ولكن تصديق أي : كان هو ، أي الحديث ذا تصديق الذي بين يديه .

وينشد قول ذي الرمة :

وما كان مالي من تراب ورثته . . .

ولا دية كانت ولا كسب ماثم

ولكن عطاء الله من كل رحلة . . .

إلى كل محجوب السوارق خضرم

بالرفع في عطاء ونصبه أي : ولكن هو عطاء الله ، أو ولكن كان عطاء الله .

ومثله قول لوط بن عبيد العائي اللص :

وإني بحمد الله لا مال مسلم . . .

أخذت ولا معطي اليمين محالف

ولكن عطاء الله من مال فاجر . . .

قصى المحل معور للمقارف

وهدى أي سبب هداية في الدنيا ، ورحمة أي : سبب لحصول الرحمة في الآخرة .

وخص المؤمنون بذلك لأنهم هم الذين ينتفعون بذلك كما قال تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾

وتقدم أول السورة قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ وفي آخرها : ما كان حديثاً يفترى إلى آخره ، فلذلك احتمل أن

يعود الضمير على القرآن ، وأن يعود على القصص والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(15/405)

وقال أبو السعود :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ ﴾

أي قَصص الأنبياء وأممِهم ، وينصره قراءةُ من قرأ بكسر القاف أو قصص يوسفَ وإخوتِه ﴿ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الالباب ﴾ لذوي العقول المبرّأةِ عن شوائب أحكام الحِس ﴿ مَا كَانَ ﴾ أي القرآنُ المدلولُ عليه بما سبق دلالة واضحة ﴿ حَدِيثًا يفترى ولكن ﴾ كان ﴿ تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب السماوية ، وقرىء بالرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف أي ولكن هو تصديقُ الذي بين يديه ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلّ شَىْء ﴾ مما يحتاج إليه في الدين إذ ما من أمر دينيّ إلا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بوسط ﴿ وهدى ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ ينال بها خيرُ الدارين ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يصدّقونه لأنهم المنتفعون به ، وأما مَنْ عداهم فلا يهتدون بهداه ولا ينتفعون بجدواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ ﴾

أي قصص الأنبياء عليهم السلام وأممهم ، وقيل : قصص يوسف وأبيه وإخوته عليهم السلام وروي ذلك عن مجاهد ، وقيل : قصص أولئك وهؤلاء ، والقصص مصدر بمعنى المفعول ورجح الزمخشري الأول بقراءة أحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي .

وعبد الوارث عن أبي عمرو ﴿ قَصَصِهِمْ ﴾ بكسر القاف جمع قصة .

ورد بأن قصة يوسف وأبيه وإخوته مشتملة على قصص وأخبار مختلفة على أنه قد يطلق الجمع على الواحد ، وفيه أنه كما قيل إلا أنه خلاف المتبادر المعتاد فإنه يقال في مثله قصة لا قصص ، واقتصر ابن عطية على القول الثالث وهو ظاهر في اختياره ﴿ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الألباب ﴾ أي لذوي العقول المبرأة عن الأوهام الناشئة عن الألف والحسن .

وأصل اللب الخالص من الشيء ثم أطلق على ما زكا من العقل فكل لب عقل وليس كل عقل لباً ، وقال غير واحد : إن اللب هو العقل مطلقاً وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من قواه ، ولم يرد في القرآن إلا جمعاً ، والعبرة كما قال الراغب الحالة التي يتوصل بها

من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد ، وفي "البحر" أنها الدلالة التي يعبر بها إلى العلم ﴿ مَا كَانَ ﴾ أي القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة .

(17/405)

واستظهر أبو حيان عود الضمير إلى القصص فيما قبل ، واختار بعضهم الأول لأنه يجري على القراءتين بخلاف عوده إلى المتقدم فإنه لا يجري على قراءة القصص بكسر القاف لأنه كان يلزم تأنيث الضمير ، وجوز بعضهم عوده إلى القصص بالفتح في القراءة به وإليه في ضمن المكسور في القراءة به وكذا إلى المكسور نفسه ، والتذكير باعتبار الخبر وهو كما ترى ﴿ حَدِيثًا يفترى ﴾ أي يختلق ﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب السماوية ﴿ وَتَفْصِيلَ ﴾ أي تبيين ﴿ كُلِّ شَىْء ﴾ قيل : أي مما يحتاج إليه في الدين إذ ما من أمر ديني إلا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بوسط ، وقال ابن الكمال : إن ﴿ كُلِّ ﴾ للتكثير والتفخيم لا للإحاطة والتعميم كما في قوله تعالى : و﴿ أُوتِيَتْ مِن كُلّ شَىْء ﴾ [النمل : 23] ومن لم يتنبه لهذا احتاج إلى تخصيص الشيء بالذي يتعلق بالدين ثم تكلف في بيانه فقال : إذ ما من أمر الخ ولم يدر أن عبارة التفصيل لا تتحمل هذا التأويل ، ورد بأنه متى أمكن حمل كلمة ﴿ كُلِّ ﴾ على الاستغراق الحقيقي لا يحمل على غيره ، والتخصيص مما

لا بأس به على أنه نفسه قد ارتكب ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : 154] وكون عبارة التفصيل لا تحمل ذلك التأويل في حيز المنع .

(18/405)

ومن الناس من حمل ﴿ كُلِّ ﴾ على الاستغراق من غير تخصيص ذاهباً إلى أن في القرآن تبيين كل شيء من أمور الدين والدنيا وغير ذلك مما شاء الله تعالى ولكن مراتب التبيين متفاوتة حسب تفاوت ذوي العلم وليس ذلك بالبعيد عند من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وقيل : المراد تفصيل كل شيء واقع ليوسف وأبيه وإخوته عليهم السلام مما يهتم به وهو مبني على أن الضمير في ﴿ كَانَ ﴾ لقصصهم ﴿ وهدى ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ ينال بها خير الدارين ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون تصديقاً معتداً به ، وخصوا بالذكر لأنهم المنفعون بذلك ونصب ﴿ تَصْدِيقَ ﴾ على أنه خبر كان محذوفاً أي ولكن كان تصديق ، والإخبار بالمصدر لا يخفى أمره .

وقرأ حمران بن أعين .

وعيسى الكوفة فيما ذكر صاحب اللوامح .

وعيسى الثقفي فيما ذكر ابن عطية ﴿ تَصْدِيقَ ﴾ بالرفع وكذا برفع ما عطف عليه على

تقدير ولكن هو تصديق الخ ، وقد سمع من العرب في مثل ذلك الرفع والنصب ، ومنه قول ذي الرمة :

وما كان مالي من تراث ورثته . . .

ولا دية كانت ولا كسب مأثم

ولكن عطاء الله من كل رحلة . . .

إلى كل حجوب السرداق خضرم

فإنه روي بنصب عطاء ورفعه ، هذا والله تعالى الهادي إلى سوء السبيل . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(19/405)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾

هذا رد على من قال : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عليه مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : 8] أي : لم نبعث من الأنبياء إلى من قبلهم إلا رجالاً لا ملائكة .

فكيف ينكرون إرسالنا إياك ؟ وتدل الآية على أن الله سبحانه لم يبعث نبياً من النساء ولا

من الجنّ ، وهذا يردّ على من قال : إن في النساء أربع نبيات : حواء ، وآسية ، وأم موسى ، ومريم .

وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمراً معروفاً عند العرب ، حتى قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبئة :

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها . . . وأصبحت أنبياء الله ذكرانا

فلعنة الله والأقوام كلهم . . . على سجاح ومن باللوم أغرانا

﴿ نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ كما نوحي إليك ﴿ مِّنْ أَهْلِ القرى ﴾ أي : المدائن دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو ، ولكون أهل الأمصار أتم عقلاً وأكمل حلماً وأجلّ فضلاً ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : المشركين المنكرين لنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم أي : أفلم يسر المشركون هؤلاء فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ لّلَّذِينَ اتقوا ﴾ أي : لدار الساعة الآخرة ، أو لحالة الآخرة على حذف الموصوف .

وقال الفراء : إن الدار هي الآخرة ، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة ، وصلاة الأولى ، ومسجد الجامع ، والكلام في ذلك مبين في كتب الإعراب ، والمراد بهذه الدار : الجنة ، أي : هي خير للمتقين من دار الدنيا .

وقرىء " وللدار الآخرة " .

وقرأ نافع وعاصم ويعقوب ﴿ أفلا تعقلون ﴾ بالتاء الفوقية على الخطاب .

وقرأ الباقون بالتحتية .

(20/405)

﴿ حتى إِذَا استيئس الرسل ﴾ هذه الغاية المحذوف دلّ عليه الكلام ، وتقديره : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ يا محمد إلاّ رجالاً ، ولم نعاجل أممهم الذين لم يؤمنوا بما جاءوا بالعقوبة ﴿ حتى إِذَا استيئس ﴾ من النصر بعقوبة قومهم ، أو ﴿ حتى إذ استيأس الرسل ﴾ من إيمان قومهم لانهماكهم في الكفر ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ .

قرأ ابن عباس ، وابن مسعود ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو جعفر بن القعقاع ، والحسن ، وقتادة ، وأبو رجاء العطاردي ، وعاصم وحمزة والكسائي ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش وخلف ﴿ كذبوا ﴾ بالتخفيف أي : ظنّ القوم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا .

وقيل : المعنى ظنّ القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من نصرهم ، وقيل : المعنى وظنّ الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنهم ينصرون عليهم ، أو كذبهم رجاؤهم

للنصر ، وقرأ الباقون "كذبوا " بالتشديد ، والمعنى عليها واضح أي : ظنّ الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب ، ويجوز في هذا أن يكون فاعل ظنّ القوم المرسل إليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد .

وقرأ مجاهد وحميد ﴿ قد كذبوا ﴾ بفتح الكاف والذال مخففتين على معنى : وظنّ قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا ؛ وقد قيل : إن الظنّ في هذه الآية بمعنى اليقين ؛ لأن الرسل قد تيقنوا أن قومهم كذبوهم ، وليس ذلك مجرد ظنّ منهم .

والذي ينبغي أن يفسر الظنّ باليقين في مثل هذه الصورة يفسر بمعناه الأصلي فيما يحصل فيه مجرد ظنّ فقط من الصور السابقة .

﴿ جَاءهُمْ نَصْرُنَا ﴾ أي : فجاء الرسل نصر الله سبحانه فجأة ، أو جاء قوم الرسل الذين كذبوهم نصر الله لرسله بإيقاع العذاب على المكذبين ﴿ فنجي مَّن نَّشَاء ﴾ .

قرأ عاصم : ﴿ فنجي ﴾ بنون واحدة .

وقرأ الباقون " فننجي " بنونين .

واختار أبو عبيدة القراءة الأولى ؛ لأنها في مصحف عثمان كذلك .

(21/405)

وقرأ ابن محيصن " فنجا " على البناء للفاعل ، فتكون من على القراءة الأولى في محل رفع على أنها فاعل ، والذين نجاهم الله هم الرسل ومن آمن معهم ، وهلك المكذبون ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ القوم المجرمين ﴾ عند نزوله بهم ، وفيه بيان من يشاء الله نجاته من العذاب وهم من عدا هؤلاء المجرمين .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ ﴾ أي : قصص الرسل ومن بعثوا إليه من الأمم ، أو في قصص يوسف وإخوته وأبيه ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى الألباب ﴾ والعبرة : الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة ، وقيل : هي نوع من الاعتبار ، وهي العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول .

وأولوا الألباب : هم ذوو العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم ، وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدّة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الرسل الذين قص حديثهم ، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يفترى ﴾ أي : ما كان هذا المقصوص الذي يدلّ عليه ذكر القصص وهو القرآن المشتمل على ذلك حديثاً يفترى ﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذين بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي : ما قبله من الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور .

وقرىء برفع " تصديق " على أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هو تصديق وتفصيل كل شيء

من الشرائع المجملة المحتاجة إلى تفصيلها ؛ لأن الله سبحانه لم يفرّط في الكتاب من شيء .

وقيل : تفصيل كل شيء من قصة يوسف مع إخوته وأبيه .

(22/405)

قيل : وليس المراد به ما يقتضيه من العموم ، بل المراد به الأصول والقوانين وما يئول إليها ﴿ وهدى ﴾ في الدنيا يهتدي به كل من أراد الله هدايته ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ في الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه شرط الإيمان الصحيح ، ولهذا قال : ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يصدّقون به وبما تضمنه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره ، وأما من عداهم فلا ينتفع به ولا يهتدي بما اشتمل عليه من الهدى ، فلا يستحق ما يستحقونه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ قال : أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : ما نعلم أن الله أرسل رسولاً قط إلاّ من أهل القرى ، لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمود .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ قال : كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط ، وقوم صالح ، والأمم التي عذب الله ؟

وأخرج البخاري وغيره من طريق عروة؛ أنه سأل عائشة عن قول الله سبحانه ﴿ حتى إِذَا استيئس الرسل وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ قال: قلت أكذبوا أم كذبوا؟ يعني: على هذه الكلمة مخففة أم مشددة، فقالت: بل كذبوا تعني بالتشديد.

قلت: والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن، قالت: أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت: لعلها، وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة، قالت: معاذ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك.

(23/405)

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن عبد الله بن أبي مليكة: أن ابن عباس قرأها عليه ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ مخففة، يقول: أخلفوا.

وقال ابن عباس: كانوا بشراً، وتلا ﴿ حتى يَقُولَ الرسول والذين ءامَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ﴾ [البقرة: 214] قال ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعد الله رسوله من شيء إلاّ علم أنه سيكون قبل أن يموت، ولكنه لم

يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم ، وكانت تقرؤها مثقلة .

وأخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ مخففة .

وأخرج أبو عبيد ، وسعيد بن منصور ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ قد كذبوا ﴾ مخففة .

قال : يئس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم ، وظنّ قومهم أن الرسل قد كذبوهم بما جاءوا به ﴿ جَاءهُمْ نَصْرُنَا ﴾ قال : جاء الرسل نصرنا .

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وأبو الشيخ عن تميم بن حذلم قال : قرأت على ابن مسعود القرآن فلم يأخذ عليّ إلاّ حرفين ﴿ كُلٌّ أَتَوْهُ داخرين ﴾ [النمل : 87] فقال : أتوه مخففة ، وقرأت عليه ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ فقال : ﴿ كذبوا ﴾ مخففة .

قال : استيأس الرسل من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ، وظنّ قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا .

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي الأحوص عنه قال : حفظت عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم في سورة يوسف ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ خفيفة .

وللسلف في هذا كلام يرجع إلى ما ذكرناه من الخلاف عن الصحابة .

(24/405)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ قال : فننجي الرسل ومن نشاء ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ القوم المجرمين ﴾ وذلك أن الله بعث الرسل يدعون قومهم ، فأخبروهم أن من أطاع الله نجا ومن عصاه عذب وغوى .

وأخرج أبو الشيخ عنه قال : ﴿ جَاءهُمْ نَصْرُنَا ﴾ العذاب .

وأخرج أبو الشيخ عن السدّي ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ قال : عذابه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ ﴾ قال : يوسف وإخوته .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ﴿ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الألباب ﴾ قال : معروفة لذوي العقول .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يفترى ﴾ قال : الفرية : الكذب .

﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال : القرآن يصدّق الكتب التي كانت قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزبور ، ويصدّق ذلك كله ، ويشهد عليه أن جميعه حق من عند الله ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ فصل الله بين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(25/405)

وقال القاسمى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾

الضمير ليوسف وإخوته ، أو للأنبياء وأممهم . ورجح الزمخشري الثاني بقراءة (قصصهم) بكسر القاف ، جمع قصة . والمفتوح مصدر بمعنى المفعول . وأجيب بأن قصة يوسف وأبيه وإخوته مشتملة على قصص وأخبار مختلفة ، وقد يطلق الجمع على الواحد ، كما مر في : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ ﴾ وسنذكر وجوه العبر منها بعونه تعالى .

﴿ مَا كَانَ ﴾ أي : القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة : ﴿ حَدِيثاً يُفْتَرَى ﴾ أي : يختلق ﴿ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي : من الكتب المنزلة ، فهو يصدق ما فيها

من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير .

(26/405)

قال بعض المحققين : المراد به أن قصص القرآن ليست مخترعة ولا مفتراة ، بدليل وجود أمثالها بين الناس ، قبل نزوله . فهي وإن اختلفت قليلاً في بعض التفاصيل والجزئيات ، عما يرويه الناس ، إلا أن توافقها في الجملة ، وتصدقها في الجوهر ، فلا تظنوا أيها المشركون أن النبي اخترعها بعقله ، بل اسألوا عنها أهل الكتاب ، تجدوا أنها معروفة بينهم ، ومروية في كتبهم ، فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل من أعظم ما يصدقه ويؤيده ؛ لأن النبي صلوات الله عليه ، لم يطلع على كتب أهل الكتاب . ولا يتوهم من هذه الآية أن قصص القرآن يجب ألا تختلف عن قصص التوراة والإنجيل في شيء ما ، كلا إذ لو صح هذا لما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل : 76] ، فقصصه قد تختلف عما عندهم ، وتبين لهم حقه من باطله . فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ، ومخالفته لها في بعض الجزئيات – كما قلنا – ويجوز أن يكون المراد بقوله : ﴿ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ تصديق الحق الذي عندهم ، لا كل الذي

عندهم ، وإلا لدخل في ذلك عقائدهم الفاسدة وأوهامهم وخرافاتهم وغيرها ، مما جاء القرآن لإزالته ومحقه ، ويستحيل أن يكون مصدقاً لما جاء لإبطاله . فتنبه لذلك . ولا تكن من الغافلين . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : تبيان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام ، والآداب والأخلاق ، ووجوه العبر والعظات ، ولذا كان أعظم ما تنقذ به القلوب من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، وتبتغي به الرحمة من رب العباد ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُدًى ﴾ أي : من الضلالة : ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي : من العذاب : ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يصدقون به ، ويعلمون بأوامره ، فإن الإيمان قول وعقد وعمل . وخصهم لأنهم المنتفعون به .

خاتمة في مباحث مهمة :

(27/405)

الأول : فيما قيل في وجوه العبر في هذا القصص .

قال في " اللباب " : الاعتبار والعبرة : الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد . والمراد منه التأمل والتفكر . ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر

على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتمليكه مصر بعد العبودية ، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة ، واليأس من الاجتماع ؛ قادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه . وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب ، فكانت معجزة له صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم : إن قصة يوسف الصديق ، جمة الفائدة ، وجليلة العائدة ، تحدو بكل امرئ أبيّ إلى الإقتداء بها . فإن من أطلق سوام الفكر في حياة يوسف عليه السلام رآها رغيدة ، وألفاها هنيئة ، وما ذلك إلا لطيب سيرته ، وحميد سريرته ، وتمسكه بعرى التقوى والفضيلة ، ولا سيما فضيلة العفة والطهارة ، التي ترفع قدر صاحبها ، وتنزله المنزلة السامية . فعلى المرء أن يقتفي أثر هذه الفضيلة الجليلة ، كيوسف ، فيتسنم ذروة المجد في هذه الدنيا ، وينال السعادة الدائمة في الآخرة . انتهى .

(28/405)

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه السورة من جملة ما قص على النبي ، صلوات الله عليه ، من أنباء الرسل ، وأخبار من تقدمه ، مما فيه التثبت المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْك ﴾ [هود : من الآية 120] الآية . وإنما أفردت على حدتها ، ولم تنسق

على قصص الرسل ، مع أنهم في سورة واحدة ؛ لمفارقة مضمونها تلك القصص . ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام ، وكيفية تلقي قومهم لهم ، وإهلاك مكذبيهم ؟ أما هذه القصة ، فحاصلها : فرج بعد شدة ، وتعريف بحسن عاقبة الصبر ، فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنيه وبصره ، وشتات بنيه . وامتحن يوسف عليه السلام بالجب والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والإخوة والسجن . ثم امتحن جميعهم بشمول الضر ، وقلة ذات اليد : ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ [يوسف : من الآية 88] الآية . ثم تداركهم الله بإلفهم ، وجمع شملهم ، ورد بصر أبيهم ، وائتلاف قلوبهم ، ورفع ما نزغ به الشيطان ، وخلاص يوسف عليه السلام ، وبكيد من كاده ، واكتنافه بالعصمة ، وبراءته عند الملك والنسوة ، وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر ، وجلالة اليقين ، وحسن تلقي الأقدار بالتفويض والتسليم ، على توالي الامتحان ، وطول المدة . ثم انجرّ في أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز ، ورجوعها إلى الحق ، وشهادتها ليوسف عليه السلام بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين . ثم استخلاص العزيز إياه ، إلى ما انجرّ في هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر . فقد انفردت هذه القصة بنفسها ، ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام ، وما جرى في أممهم ، فلهذا فصلت عنهم . وقد أشار في سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضي وسلم ليتنبه

المؤمنون إلى ما في طي ذلك . وقد صرح لهم ما أجملته هذه السورة من الإشارة في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ

(29/405)

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النور : من الآية 55] إلى قوله : ﴿ أَمْنًا ﴾ وكانت قصة يوسف عليه السلام بجملتها أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم في أول الأمر ، وهجرتهم ، وتشققهم مع قومهم ، وقلة ذات أيديهم ، إلى أن جمع الله شملهم : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عِمْرَان : من الآية 103] ، وأورثهم الأرض ، وأيدهم ونصرهم ، وذلك بجليل إيمانهم وعظيم صبرهم . فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص – والله أعلم – .

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام ، في صبرهما ، ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا ، وما أعد لهما من عظيم الثواب ، أنسب بحال نبينا عليه السلام في مكابدة قريش ، ومفارقة وطنه ، ثم تعقيب ذلك بظفره بعدوه ، وإعزاز دينه ، وإظهار كلمته ، ورجوعه إلى بلده ، على حالة قرت بها عيون المؤمنين ، وما فتح الله عليه وعلى أصحابه ، فتأمل ذلك !

ويوضحه ختم السورة بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ [يوسف : من الآية 110

] . فحاصل هذا كله الأمر بالصبر ، وحسن عاقبة أولياء الله فيه – كذا في تفسير " البرهان " للبقاعي ملخصاً – .

وجاء في كتاب " النظام والإسلام " في بحث التربية والآداب في قصص القرآن ما مثاله :

(30/405)

طال الأمر على أمتنا ، فأهملت ما في غضون كتابها من أساس التربية والحكمة ، وكيف تنتقى الرجال الأكفاء في مهام الأعمال . يا ليت شعري ! ما الذي أصابها حتى غضت النظر عن القصص التي قصها ، وأهملت أمرها ، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيد إلا المؤرخين . القصص في كل أمة ، عليها مدار ارتقائها ، سواء كانت وضعية أم حقيقية ، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد . على هذا تبحث الأمم ، قديمها وحديثها . وناهيك بكتاب " كليلة ودمنة " وما والاه من القصص الناسجة على منواله في الإسلام ، ككتاب " فاكهة الخلفاء " و " مقامات الحريري " . جاء القرآن بقصص الأنبياء ، وهي – لا جرم أعلى منالاً ، وأشرف مزية . كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب ، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه ، والقدوة الحسنة للكمل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم ، وتحققها في أنفسها ، لوقوع مواردها ، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان

، لا سيما لمن يقتدي بهم . فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ، ونقصت في سواها . أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن ، فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ، ومرت كأمس الدابر ؟ ! وما لنا ولها إذن ؟ تالله إن هذا لهو البوار ! ولم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها ، وإنها عبرة لمن اعتبر ، وتذكرة لمن تفكر ، وتبصرة لمن ازدجر . أما الرجوع إلى التاريخ ، ومقارنته بما قصه المؤرخون في كتبهم ، وما سطره الأقدمون على مباينتهم ، وما يقوله القاصون في خرافتهم ؛ فتلك سبيل حائد عن الجادة ، يضل فيه الماهرون ، يرشدك لذلك ما تسمعه من نبأ فتية الكهف ، وكيف يقول : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف : من الآية 22]

(31/405)

فانظر كيف أسند العلم لله ، ولم يعول على قول المؤرخين المختلفين ، ثم لم يبين الحقيقة ؛ لئلا يكون ذريعة للطعن في التنزيل . فإن قال : خمسة ، قالوا : ستة ، وإن قال : أربعة ، قالوا سبعة . فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف في القصص ، وما المقصود منها إلا ليكون عبرة . وبالإجمال : فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها ، والعبر المبصرة للسامعين : ﴿ لَقَدْ

كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ .

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان ، فلا نعتمد إلا على البرهان . تأمل هذا القصص ، تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح ، ويعرض عن كثير من الوقائع ، إذ لا لزوم له ، ولا معول عليها . فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق ، وحجج عقلية ، وتبصرة وتذكرة ، ومحاورات جملية ، تلذ العقلاء . ولأقتصر من تلك القصص على ما حكاه عن يوسف الصديق عليه السلام ، وكيف جاوز فيها كل ما لا علاقة له بالأخلاق ، من مدنية المصريين وأحوالهم ، إلى الخلاصة والثمرة . ألا ترى كيف صدرت بحديث سجود الشمس والقمر والكواكب له في الرؤيا ؛ دلالة على أن للطفل استعداداً يظهر على ملامحه ، وأقواله ، وأفعاله ، ورؤياه ؟ وهذا أعظم شيء اعتنى به قدماء الحكماء ، من اليونان والفرس ، كما ذكره المؤرخون وعلماء الأخلاق ، كانوا يختبرون أبناءهم ، ويتأملون ملامحهم ؛ ليعرفوا ما استعدوا له من الصناعات والرئاسات والعلوم . ثم تأمل في قصة الإخوة ، وحديث القميص والجب والذئب والدم ؛ لتعلم ما نشاهده كل يوم من معاداة الأقران لمن ظهرت مبادئ الجمال النفسي ، والخلق المرضي ، والجلال الظاهر على ملامحه ، فيعيبونه بما يشينه في نفسه أو عرضه أو خلقه ؛ دلالة على أن هذه سنة في الكون لا تغادر نبياً ، ولا حكيماً ، ولا عالماً مهما حسنت أخلاقه وجمل ظاهره وباطنه . . . . . ! .

~كل العدوات قد تُرجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد

جرت تلك السنة في الأناسي ، فإذا صبر الصالح فاز بالولاية عليهم ، وأحبوه بعد العداوة ولو بعد حين ، وعادوا من آذاه ! ثم انظر في حديث قصة امرأة العزيز ، وكيف عف مع الشباب ، وكيف ساس نفسه وصدق ظن مولاه في الأمانة ، وأرضى إلهه ، واتسم بالفضيلة ، فتوازى جماله الباطني والظاهري . . ! ولنكتف بهذا القدر الآن ، ولنشرع في الكلام على الآداب والأخلاق وتربية الأمراء والعفو والصفح ، التي تضمنتها تلك القصة !

.

فأما علم الأخلاق ، وتربية رؤساء الأمم منها ، فتأمل في كلام الحكماء – أولهم وآخرهم – تجد إجماعهم على أن سياسة أخلاق النفس أولاً فالمنزل فالمدينة ، كل واحدة مقدمة للاحقتها ثمرة لسابقتها ؛ إذ لا يعقل أن يسوس منزله من لم يسس نفسه ، أو يسوس أمته من لم يدبر إدارة منزله ! .

بايع الصحابة – عليهم رضوان الله – الخليفة الأول ، فأخذ قماشاً وذراعاً وذهب إلى السوق في الغداة ، فاستاء الصحابة ولاموه ، فقال : إذا أضعت أهلي ، فأنا للمسلمين أضيع ! ففرضوا له دريهمات من بيت المال ، فقال : إذن أنظر في شؤونكم ! لذلك نجد

الغربيين – إذا ولوا رجلاً إدارة بلادهم – أكثروا السؤال عن قرينته وإدارة منزله ، علماً منهم أن منزله أقرب إليه من الأمة .

(33/405)

فانظر هذه الحقائق من سيرة النبي يوسف الصديق كيف ذكرت في الكتب السماوية ، ورتبت في القرآن ترتيباً محكماً ، ذكرت فيها السياسات الثلاث مرتبة هكذا : النفس فالمنزل فالمدينة ، ترتيباً طبيعياً ، تنبيهاً لبني الإسلام على معرفة هذا العلم وانتقائهم الأكفاء للأعمال العامة . فأشير فيها لتربية الأخلاق الفاضلة بالعفة في عنفوان الشباب مع الصديق . وليت شعري ! كيف حفظ أخلاق آبائه وقومه والأنبياء في وسط مدنية المصريين وزخرفهم وجمالهم ، وعبد الله وحده ، ونسي ما يراه من أبي الهول وأبيس والأرباب المتفرقة . . . ؟ ! يذكر هذا تبصرة لمن أحاطت بهم أمواج الحدثان من كل جانب ، أن يحافظوا على أصول دينهم وقواعده ، ثم ليفعلوا ما يشاءون في أمور دنياهم . . . !

ظهر صدق يوسف في أخلاقه الشخصية ، فلم يكن ذلك كافياً لإدارة أموره العامة ، فأودع السجن ، وأحيط بالأحداث والجهلة من كل جانب ، فأخذ يسوسهم كما يسوس الرجل أهل منزله ، وبث عقيدته بينهم ، ظاهراً بمظهر الكمال والإحسان والعطف عليهم : ﴿

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِه ﴾ [يوسف : من الآية 37] الآية . وأخذ يقص عليهم سيرة أسلافه ، وحبه لمذهبهم ، وبغضه لأصنام المصريين ونحوهم ، فقال : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [يوسف : من الآية 37] الآية . ثم أخذ يذكرهم أن تفرق وجهة الأمة ضلال في السياسة ، وأن توحيد وجهتها كياسة فيها ، فقال : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : 39] ، فتفريق الوجهة شتات الجامعة . لم تَسُدْ أمة في الوجود إلا برجال يوحدون وجهتها أياً كانت ، فيؤمون مقصداً واحداً ! والتفصيل لا يخفى على أولي الألباب . . . ! .

(34/405)

وفي " آراء أهل المدينة الفاضلة " للفارابي اثنتا عشرة جامعة بكل منهن قوم اتحدت بها : كاللغة ، والوطن ، والدين ، والأخلاق ، والجنس ، والحكيم المرشد ، والأب الأكبر ، ونحو ذلك مما امتازت به أمة أو جماعة .

ولما تم له ، عليه السلام ، الأمران – سياسة النفس والعشيرة – أخرج من السجن معظماً مبجلاً ، وترقى من تعليم الصعلوك في السجن إلى تعليم الملوك على العروش ، وأخذ يربهم كيف يقتصدون الأموال ، وعبر لهم السنبلات الخضر واليابسات ، والبقرات السمان

والعجاف ، وأرشدهم إلى خزن البر وسنابله ؛ لئلا يفسد ، وغير ذلك من الأمور العامة .

وهذه هي المرتبة الثالثة : سياسة الأمة بأجمعها بعد قطع تينك العقبتين .

والبراعة والكياسة في علوم العمران ، وتدبير أمر الأمة ، إما بوحي ، وهذا خاص به وبأمثاله من الأنبياء عليهم السلام ، وإما بتعليم وتدريب ، وهو اللائق بسائر الناس .

ترشد هذه السيرة الشريفة إلى أن الأخلاق الفاضلة ما تثبت عليها النفس مع الحقير والعظيم والصغير والكبير ، وأن الإنسان لا يستحقر تعليم الأصاغر ، فإنه لا بد يوماً ما أن يصل إلى الأكابر ، كما في حديث هرقل مع أبي سفيان ، وتعليم الصديق من في السجن .

فبلغ صاحب السجن فرعون المصريين .

ابتلي هذا النبي بالسراء والضراء فلم تتغير أخلاقه ، وكان نموذج الكمال في سعة بيت الملك والجلال ، وموضع الثقة في ضيق قبر السجن وعشرة الأسافل التي تتغير بها الأخلاق ، وتنسى بها أصول الأعراق ، وتنزل الكامل من عروش الفضيلة إلى أسفل مقاعد الرذيلة ، ومن أوج الكمال إلى حضيض النقص ! .

(35/405)

وهذه قصة يوسف – الذي تربى في مصر ونشأ فيها ولم تبهجه زخارف تلك المدنية إلى الرذيلة – جاءت عبرة للناس كافة وإلى المصريين خاصة ! بهذه الأخلاق اعتلى يوسف عرش العظمة والجلال ، فساس مصر بعد أن كان مسوساً ، وملك بعد أن كان مملوكاً ! ليس الجزاء على الأخلاق والكمال خاصاً بالآخرة ، بل في الدارين : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف : 56 – 57] .

هذه هي الأخلاق الفاضلة ، ذكرت في التنزيل نموذجاً ، في غضون هذه السيرة ، للأمم الإسلامية ؛ ليأخذوا ثمرتها ولا يضيعوا الزمن في أصلها وموردها في التاريخ ، كما يجمد المفسر على الإعراب أو الصرف أو البلاغة ، وهذا غيض من فيض من حكم هذه القصة ، وبها نفهم ما ذكر في أولها : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف : من الآية 3] ، دع قول الجاهلين ، وفهم المتنسكين ، وتجاوز خلط المؤرخين ، واختلافهم ، واصغ إلى ما في هذه القصة من هيئة تربية الحكام والأمراء ، كما أشرنا سابقاً ، ولنزدك بياناً ! :

قال علماء الأخلاق والحكماء : لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين ، ورجال أعمال قائمين ، وفضلاء مرشدين هادين ، لهم شروط معلومة ، وأخلاق معهودة ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبياً فله أربعون خصلة ذكروها . كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته . وإن كان رئيساً فاضلاً لمدينة فاضلة ، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها . وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين . ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدى لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال ؛ إذ قد حاز الملك والنبوة ! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها ، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة ؛ ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة ؛ لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن ، وتنبيهاً للمتعلمين – العاشقين للفضائل – على نفائس الكتاب العظيم ، وحباً في نظرهم في القرآن ، وليعلموا أن تلك القصص وقد أودعت ما لم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغني به ومجرد اللهو واللعب ! .

أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة :

1 – العفة عن الشهوات ، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : من الآية 24] .

2 – الحلم عند الغضب ، ليضبط نفسه : ﴿ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ [يوسف : من الآية 77] .

3 – وضع اللين في موضعه ، والشدة في موضعها : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ [يوسف : 59 – 60] ، والصدر للين والعجز للشدة .

(37/405)

---

4 – ثقته بنفسه : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : من الآية 55] .

5 – قوة الذاكرة ؛ ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون ؛ ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ [يوسف : 58] .

6 – جودة المصورة والقوة المخيلة حتى تأتي بالأشياء تامة الوضوح : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : من الآية 4] .

7 – استعداده للعلم ، وحبه له ، وتمكنه منه : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : 38] ، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 22] ، ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : من الآية 101] .

8 - شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلو منصبه ، فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ [يوسف : من الآية 39] الآية ، وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما ، فالأول بقوله : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ [يوسف : من الآية 37] . والثاني بقوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : من الآية 37] الآية ، وشهدا له بقولهما : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : من الآية 36] .

(38/405)

---

9 - العفو مع القدرة : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : 92] .

10 - إكرام العشيرة : ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : من الآية 93] .

11 - قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك ، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي والرعية والسوقة ، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ

قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : من الآية 54] .

12 – حسن التدبير : ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ [يوسف : من الآية 47] الآية .

(39/405)

ثم تأمل في اقتدار يوسف عليه السلام على سياسة الملك ، وكيف اجتذب إليه القلوب بالإحسان : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ [يوسف : من الآية 62] الآية ، ودبر الحيلة العجيبة بمسألة الصواع والاتهام بالسرقة ليضم أخاه إليه : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ [يوسف : من الآية 76] الآية ، وعامل المحكومين بشرعهم ودينهم وملتهم وعادتهم ، كما عليه جميع الأمم الشرقية الحية من الرفق بالأمة المحكومة لهم ، فيسوسونهم بدينهم وعادتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم ؛ إتباعاً لما رسمته الشريعة الغراء مما يناسب حكم سيدنا يوسف عليه السلام ، وذلك أنه أمر أتباعه أن يسألوهم : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [يوسف : 74] الآية ، فكانت شريعة بني يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع ، فعاملهم بما هم عليه ، لذلك يقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف

: من الآية 76] ، امتدح على حسن خطته في السياسة ومراعاته عادة أولئك القوم .

وهذه – وإن كانت مسألة بسيطة الظاهر – فهي أم السياسة ورأس علوم العمران ، وأول ما يوصى به السواس والعقلاء ! .

تالله ! ما أجمل القرآن وما أبهج العلم ! وليت شعري كيف يقول الله بعدها : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : من الآية 76] . ولولا ما فيها من مبدأ شريف وحكم عالية مع وضوحها وبساطتها لذوي النظر السطحي والبُله الغُفْل ؛ ما أعطاها هذا الجلال والإعظام ومدح العلم ! فحيا الله العلم وأدام دولته ! .

(40/405)

ومن العجيب الغريب تدبير هذه الحيلة بإخفاء الصواع ، ثم نظر أمتعتهم جميعاً : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف : من الآية 76] ، وهذه : – وأيم الله – هي بعينها ما يصنعه ملوك الأرض قاطبة اليوم من السياسات والتلطف في الأمور الخفية ، وإلباسها ألبسة مختلفة لسياسة بلادهم ، وطلباً لحصول المقاصد النافعة ، ودخولاً للبيوت من أبوابها ، ولكن بينهم وبين هذا النبي بون بعيد . . . ! فانظر كيف تعطي هذه القصة هذه الأمور العجيبة ! .

لعمري ! إن من طالع ما أمليناه بإمعان عن هذه القصة يتخيل عند تلاوتها أنه مشاهد أعمال الأمم الحاضرة والغابرة ! وكأنما طالع آراء أهل المدينة الفاضلة ، وعرف الحكماء وسواس الأمم ، وشاهد جمال العلم والأدب والحكمة والموعظة الحسنة ، حتى يعلم علم اليقين كيف قال الله في أول السورة : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : 3] ، ويقول في آخرها : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [يوسف : من الآية 102] ، ويقول : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : 108] . ثم ذكر أن الإنسان لا ينبغي له أن ييأس من روح الله فقال : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ [يوسف : من الآية 110] الآية . ثم أفاد أن المقصود هو العبر والنظر لتأثير القصص وثمراتها ، لا مجرد تفسيرها ؛ إذ مجرد التفسير أمر بسيط يقنع به البسطاء . وإنما المقصد هو الاتعاظ والاعتبار ، فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ الآية .

وهذه ترشدك – إن كنت من ذوي الهمة العالية – أن تصبر نفسك مع الذين يتعلمون أمداً طويلاً ، ولا تعجل بالرئاسة حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنال حظاً وافراً من الأخلاق والعلوم . فلا بأس بالوظائف ونفع الأمة مع دوام المثابرة على العلم والاستزادة منه ! فلقد صبر هذا النبي عليه السلام أياماً وأياماً ، ولبس للحوادث أثواباً وأثواباً ، حتى إذا غلب اليأس جاء الفرج والرفعة ! .

فتأمل ! كيف كانت هذه السورة يقرؤها القارئون ، ويسمعها الجاهلون وهم عن آياتها معرضون ! فإذا سمعوا صوتاً حسناً ظنوا أن هذا هو جمال القرآن ، فقالوا للقارئ : سبحان من أعطاك ! وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر ورونق القراءة ، أو مجرد التفسير ومعرفة القصة ، ولم ينظروا إلى الحكم المودعة فيها ! فقبح الجهل ! يترك الرجل أعمى وإن لبس الحلل وارتدى ثياب الفخار الكاذب والسراب الخداع . . كم للإنسان من آيات وعبر في السماوات والأرض فيعرض عنها ! خلقت لنا الأبصار والأسماع والعقول لننظر ماذا في السماوات والأرض مما ذرأ المبدع في الكون ، وتلا القرآن – وهو كلام مبدع الكون – وتلطف في تصوير المعاني ، وألبسها أجمل لباس ، فأعرض العقلاء فضلاً عن العامة ! فما للعامة لا يتعلمون ! وما لذوي البصائر لا ينصحون ولا يبينون ؟ وما للناس لا يكادون يفقهون ؟ .

ذكرنا نموذجاً عن هذه السورة استنشاطاً لهمم العقلاء ، وحثاً لمن لهم ذكاء وفطن وعقول راجحة – على الرجوع إلى كتابهم ونظرهم فيه ، وإزالة لشبه من ارتاب في هذه القصص فأعرض ! وجلي أن قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة ، وفي كل واحدة منها ما ليس في الأخرى كأنها ثمرات مختلف لونها ! أين من يفقه هذا ممن يقف مع ألفاظها وهم عن آياتها معرضون ؟ ولا عجب فإن نفوس الأسافل تأخذ الحكمة فترجعها من أفق سمائها إلى أرض ضعتها ، كما يصير الماء في شجرة الحنظل مراً . فيقصدها هذا للنغمات ، وذلك لقصة بسيطة ، وآخر تسلية وتضييعاً للزمن ، وآخر يقف عند الألفاظ وإعرابها وصرفها وبلاغتها .

ولكن هذا أرقى مما قبله فقد سار في الطريق وهي الألفاظ ، ولكن هيهات أن يصل للمقصود والثمرات إلا إذا أعدَّ تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحث فيه ! وآخرون يسمعون الآيات فيعرضونها على التاريخ ، والمؤرخون مختلفون كما قدمنا . وما مثل هؤلاء في سيرهم إلا كمثل رجل أوتي آلة بخارية ليسقي بها الحرث من النهر ، فجلس بجانبها وترك استعمالها وأخذ يتفكر : من أين هذا الحديد ؟ ولم يجلب الماء ؟ وإلى أي : مسافة يرتفع ، وما العلة فيه ، ومن أين يأتي الفحم الحجري ، وفي أي : الطرق يسير إلى أن يصل إلينا ؟ فيمر عليه شهر وشهران فيذبل زرعه وتبور أرضه . ! ذلك مثل من يقرأ القرآن ويجعل جل

عنايته تطبيقه على كلام المؤرخين أو قواعد النحويين أو الصرفيين وعلماء البلاغة فحسب ! اللهم إلا قدراً يسيراً للفهم ! وهذا – لعمر الله – انتكاس على الرأس ، واتخاذ الوسيلة مقصداً ، كمثل من أراد الحج فجعل همته إعداد الذخائر سنين ، فاختطفته المنون وفارق الحياة ولم يحج ! ذلك مثلهم . ! ! انتهى .

المبحث الثاني :

احتج من جوز المعصية على الأنبياء – وهم الكرامية والباقلاني – بما جرى من إخوة يوسف وبيعهم أخاهم وكذبهم لأبيهم ، وبما وقع من يوسف نفسه من أخذه أخاه وإيحاشه أباه .

(43/405)

قال الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله في " الملل والنحل " :

ما احتجوا به لا حجة فيه ؛ لأن إخوة يوسف ، عليه السلام ، لم يكونوا أنبياء ، ولا جاء قط – في أنهم أنبياء – نص لا من قرآن ، ولا من سنة صحيحة ، ولا من إجماع ، ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم ! فأما يوسف عليه السلام فرسول الله بنص القرآن ، قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءكُمْ بِهِ

﴿ إلى قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [غافر : من الآية 34] ، وأما إخوته فأفعالهم تشهد بأنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم ، فكيف أن يكونوا أنبياء ؟ ! ولكن الرسولين – أباهم وأخاهم – قد استغفرا لهم وأسقطا التثريب عنهم !

وبرهان ما ذكرنا – من كذب من يزعم أنهم كانوا أنبياء – قول الله تعالى حاكياً عن الرسول أخيهم أنه قال لهم : ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً ﴾ [يوسف : من الآية 77] ، ولا يجوز البتة أن يقوله لنبي من الأنبياء ، نعم ، ولا لقوم صالحين ! ؛ إذ توقير الأنبياء فرض على جميع الناس ؛ لأن الصالحين ليسوا شراً مكاناً ، وقد عق ابن نوح أباه بأكثر مما عق به إخوة يوسف أباهم ، إلا أن إخوة يوسف لم يكفروا . ولا يحل لمسلم أن يُدخل في الأنبياء من لم يأت نص ولا إجماع أو نقل كافٍ بصحة نبوته ! ولا فرق بين التصديق بنبوة من ليس نبياً ، وبين التكذيب بنبوة من صحت نبوته منهم ! فإن ذكروا في ذلك ما روي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم وهو زيد بن أرقم : (إنما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد الأنبياء أنبياء !) فهذه غفلة شديدة وزلة عالم ، من وجوه :

أولها : أنه دعوى لا دليل على صحتها ! .

وثانيها : أنه لو كان ما ذكر لأمكن أن ينبأ إبراهيم في المهد كما نبئ عيسى عليه السلام ، وكما أوتي يحيى الحكم صبياً ؛ فعلى هذا القول لعل إبراهيم كان نبياً ، وقد عاش عامين غير شهرين ، وحاشا لله من هذا . . ! .

وثالثها : أن ولد نوح كان كافراً بنص القرآن : عمل عملاً غير صالح . فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبياً . وحاشا لله من هذا . . ! .

ورابعها : لو كان ذلك ، لوجب ولا بد أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم ، بل جميع أهل الأرض أنبياء ؛ لأنه يلزم أن يكون الكل من ولد آدم لصلبه أنبياء ؛ لأن أباهم نبي ، وأولاد أولادهم أنبياء ؛ لأن آباءهم أنبياء وهم أولاد أنبياء ، وهكذا . . . أبداً حتى يبلغ الأمر إلينا ! وفي هذا من الكفر لمن قامت عليه الحجة وثبت عليه ما لا خفاء به . وبالله تعالى التوفيق . . !

ثم قال ابن حزم :

وذكروا - يعني الكرامية ومن وافقهم - أيضاً أخذ يوسف عليه السلام أخاه ، وإيحاشه أباه عليه السلام منه ، وأنه أقام مدة يقدر فيها على أن يعرف أباه خبره وهو يعلم ما يقاسي به من الوجد عليه فلم يفعل ، وليس بينه وبينه إلا عشر ليال ! وبإدخاله صواع الملك في وعاء أخيه ، ولم يعلم بذلك سائر إخوته ، ثم أمر من هتف : ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [

يوسف : من الآية 70] ، وهم لم يسرقوا شيئاً ، ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : من الآية 24] ، وبخدمته لفرعون ، وبقوله للذي كان معه في السجن : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف : من الآية 42] .

(45/405)

قال ابن حزم : وكل هذا لا حجة لهم في شيء منه ، ونحن نبين ذلك بحول الله تعالى وقوته ، فنقول وبالله تعالى نتأيد : أما أخذه أخاه وإيحاشه أباه منه فلا شك في أن ذلك ليرفق بأخيه وليعود إخوته إليه ، ولعلهم لو مضوا بأخيه لم يعودوا إليه وهم في مملكة أخرى ، وحيث لا طاعة ليوسف عليه السلام ولا لملك مصر هنالك ، وليكون ذلك سبباً لاجتماعه وجمع شمل جميعهم ! ولا سبب إلى أن يظن برسول الله يوسف عليه السلام الذي أوتي العلم والمعرفة بالتأويل – إلا أحسن الوجوه . وليس مع من خالفنا نص بخلاف ما ذكرنا . ولا يحل أن يظن بمسلم فاضل عقوق أبيه ، فكيف برسول الله صلوات الله عليه ؟ ! وأما ظنهم – أنه أقام مدة يقدر فيها على تعريف أبيه خبره ولم يفعل – فهذا جهل شديد ممن ظن هذا ؛ لأن يعقوب في أرض كنعان من عمل فلسطين ، في قوم رحالين خصاصين في لسان آخر وطاعة أخرى ودين آخر وأمة أخرى ! فلم يكن عند يوسف عليه السلام علم بعد

فراقه أباه بما فعل ، ولا حي هو أو ميت ؛ أكثر من وعد الله تعالى بأن ينبئهم بفعلهم به ، ولا وجد أحداً يثق به ، فيرسل إليه ؛ للاختلاف الذي ذكرنا . وإنما يستسهل هذا اليوم من يرى أرض الشام ومصر لأمير واحد وملة واحدة ، ولساناً واحداً وأمة واحدة ، والطريق سابل ، والتجار ذاهبون وراجعون ، والرفاق سائرة ومقبلة ، والبُرُد ناهضة وراجعة ، فظن كل بيضاء شحمة ولم يكن الأمر حينئذ كذلك ، ولكن كما قدمنا ، ودليل ذلك أنه حين أمكنه لم يؤخره ، واستجلب أباه وأهله أجمعين عند ضرورة الناس إليه ، وانقيادهم له للجوع الذي كان عمَّ الأرض ، وامتيازهم عنده ، فانتظر وعد ربه تعالى الذي وعده حين ألقوه في الجب ، فأتوه ضارعين راغبين كما وعده تعالى في رؤياه قبل أن يأتوه . وأما قول يوسف لإخوته : ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ وهم لم يسرقوا الصواع ، بل هو الذي كان قد أدخله في وعاء أخيه دونهم ؛ فقد صدق عليه السلام ؛ لأنهم سرقوه من أبيه وباعوه ،

ولم يقل عليه السلام : إنكم سرقتم الصواع ، وإنما قال : ﴿ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ [يوسف : من الآية 72] ، وهو في ذلك صادق ؛ لأنه كان غير واجد له ، فكان فاقداً له بلا شك !

وأما خدمته عليه السلام لفرعون فإنما خدمه تقية ، وفي حق لاستنقاذ الله تعالى بحسن

تدبيره ، ولعل الملك أو بعض خواصه ، قد آمن به إلا أن خدمته له على كل حال حسنة وفعل خير ، وتوصل إلى الاجتماع بأبيه وإلى العدل وإلى حياة النفوس ؛ إذ لم يقدر على المغالبة ولا أمكنه غير ذلك ، ولا مرية في أن ذلك كان مباحاً في شريعة يوسف عليه السلام بخلاف شريعتنا ، قال الله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة : من الآية 48] . وأما سجود أبويه فلم يكن ذلك محظوراً في شريعتهما بل كان فعلاً حسناً ، وتحقيق رؤياه الصادق من الله تعالى . ولعل ذلك السجود كان تحية كسجود الملائكة لآدم عليه السلام . إلا أن الذي لا شك فيه أنه لم يكن سجود عبادة ولا تذلل ، وإنما كان سجود كرامة فقط بلا شك . وأما قوله عليه السلام للذي كان معه في السجن : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف : من الآية 42] ، فما علمنا الرغبة في الانطلاق من السجن محظورة على أحد ، وليس في قوله ذلك دليل على أنه أغفل الدعاء إلى الله عز وجل ، لكنه رغَّب هذا الذي كان معه في السجن في فعل الخير وحضه عليه ! وهذا فرض من وجهين : أحدهما : وجوب السعي في كف الظلم عنه . والثاني : دعاؤه إلى الخير والحسنات . وأما قوله تعالى : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : من الآية 42] ، فالضمير الذي في (أنساه) وهو الهاء راجع إلى الفتى الذي كان معه في السجن ، أي : أن الشيطان أنساه أن يُذكر ربه أمر يوسف عليه السلام . ويحتمل أيضاً أن يكون أنساه الشيطان ذكر الله تعالى

، ولو ذكر الله عز وجل لذكر حاجة يوسف عليه السلام ، وبرهان ذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَادَّكَرَ

(47/405)

بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : من الآية 45] فصح يقيناً أن المذكر بعد أمة هو الذي أنساه الشيطان ذكر ربه حتى تذكر . وحتى لو صح أن الضمير من (أنساه) راجع إلى يوسف عليه السلام ؛ لما كان في ذلك نقص ولا ذنب ؛ إذ ما كان بالنسيان فلا يبعد عن الأنبياء ! وأما قوله : ﴿ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : من الآية 24] ، فليس كما ظن من لم يمعن النظر حتى قال من المتأخرين من قال : (إنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة) ومعاذ الله من هذا أن يظن برجل من صالحي المسلمين أو مستوريهم ! فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ! ! فإن قيل : إن هذا قد روي عن ابن عباس رضي الله عنه من طريق جيدة الإسناد ، قلنا : نعم ! ولا حجة في قول أحد إلا فيما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط ! والوهم في تلك الرواية إنما هي بلا شك عمن دون ابن عباس ، أو لعل ابن عباس لم يقطع بذلك ، إذ إنما أخذه عمن لا يدرى من هو ، ولا شك في أنه شيء سمعه فذكره ؛ لأنه رضي الله عنه لم يحضر ذلك ولا ذكره عن رسول الله ، ومحال

أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به ! لكن معنى الآية لا يعدو أحد وجهين : إما أنه همَّ بالإيقاع بها وضربها ، كما قال تعالى : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ [غافر : من الآية 5] ، وكما يقول القائل : لقد هممت بك ، لكنه عليه السلام امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه استغنى به عن ضربها ، وعلم أن الفرار أجدى عليه وأظهر لبراءته ، على ما ظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بأمر قدّ القميص . والوجه الثاني : أن الكلام تم عند قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ ثم ابتدأ تعالى خبراً آخر فقال : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ وهذا ظاهر الآية بلا تكلف تأويل ، وبهذا نقول . وبرهان ربه ها هنا : هو النبوة وعصمة الله عز وجل إياه ، ولولا البرهان لكان يهم بالفاحشة ، وهذا

(48/405)

لا شك فيه ! ولعل من ينسب هذا إلى النبي المقدس يوسف ؛ ينزه نفسه الرذلة عن مثل هذا المقام فيهلك . وقد خشي النبي صلى الله عليه وسلم الهلاك على من ظن به ذلك الظن ؛ إذ قال للأنصاريين حين لقيهما : < هذه صفية > ومن الباطل الممتنع أن يظن ظان أن يوسف عليه السلام همَّ بالزنى وهو يسمع قول الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ [يوسف : من الآية 24] فنسأل من خالفنا عن الهمِّ بالزنى : سوء هو أم

غير سوء ؟ فلا بد أنه سوء ، ولو قال : إنه ليس بسوء لعاند الإجماع ، فإذ هو سوء ، وقد صرف عنه السوء ، فقد صرف عنه الهم بيقين ! وأيضاً فإنها قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً ﴾ [يوسف : من الآية 25] وأنكر هو ذلك فشهد الصادق المصدق : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : 27] ، فصح أنها كذبت بنص القرآن ، وإذ كذبت بنص القرآن فما أراد بها قط سوءاً ، فما همَّ بالزنى قط . ولو أراد بها الزنى لكانت من الصادقين ، وهذا بيِّنٌ جداً ، وكذلك قوله تعالى عنه أنه قال : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ [يوسف : من الآية 33] فصح عنه أنه قط لم يصبُ إليها .

انتهى كلام ابن حزم عليه الرحمة والرضوان . وإنما نقلت كلامه برمته ؛ لأنه كما قيل :

(وما محاسن شيء كله حسن . . . . ! !) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 243.256 ﴾

(49/405)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

هذا من رد العجز على الصدر فهي مرتبطة بجملة ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ [سورة يوسف : 102] وهي تتنزّل منها منزلة البيان لما تضمنه معنى الإشارة في قوله : ذلك من أنباء الغيب ﴾ من التعجيب ، وما تضمنه معنى ﴿ وما كنتَ لديهم ﴾ من الاستدلال على أنه وحي من الله مع دلالة الأمية .

وهي أيضاً تتنزل منزلة التذييل للجمل المستطرد بها لقصد الاعتبار بالقصة ابتداء من قوله : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ [يوسف : 103] .

فلها مواقع ثلاثة عجيبة من النظم المعجز .

وتأكيد الجملة بـ (قد) واللام للتحقيق .

وأولو الألباب : أصحاب العقول .

وتقدم في قوله : ﴿ واتقون يا أولي الألباب ﴾ في أواسط سورة البقرة (197) .

والعِبرة : اسم مصدر للاعتبار ، وهو التوصل بمعرفة المشاهد المعلوم إلى معرفة الغائب وتطلق العِبرة على ما يحصل به الاعتبار المذكور من إطلاق المصدر على المفعول كما هنا .

ومعنى كون العبرة في قصصهم أنها مظروفة فيه ظرفية مجازية ، وهي ظرفية المدلول في الدليل فهي قارة في قصصهم سواء اعتَبر بها من وُفّق للاعتبار أم لم يعتبر لها بعضُ الناس .

وجملة ما كان حديثا يفترى ﴾ إلى آخرها تعليل لجملة ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة ﴾ أي لأن ذلك القصص خبر صدق مطابق للواقع وما هو بقصة مخترعة .

ووجه التعليل أن الاعتبار بالقصة لا يحصل إلا إذا كانت خبراً عن أمر وقع ، لأن ترتب الآثار على الواقعات رتّب طبيعي فمِن شأنها أن تترتب أمثالُها على أمثالها كلما حصلت في الواقع ، ولأن حصولها ممكن إذ الخارج لا يقع فيه المحال ولا النادر وذلك بخلاف القصص الموضوعة بالخيال والتكاذيب فإنها لا يحصل بها اعتبار لاستبعاد السامع وقوعها لأن أمثالها لا يُعهد ، مثل مبالغات الخرافات وأحاديث الجن والغُول عند العرب وقصة رستم وأسفنديار عند العجم ، فالسامع يتلقاها تلقي الفكاهات والخيالات اللذيذة ولا يتهيأ للاعتبار بها إلاّ على سبيل الفرص والاحتمال وذلك لا تحتفظ به النفوس .

وهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى في أول السورة ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ [يوسف : 3] فكما سماه الله أحسن القصص في أول السورة نفى عنه الافتراء في هذه الآية تعريضاً بالنضر بن الحارث وأضرابه .

والافتراء تقدم في قوله : ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة العقود (103) .

والذي بين يديه ﴾ : الكتب الإلهية السابقة .

وضمير بين ﴿ يديه ﴾ عائد إلى القرآن الذي من جملته هذه القصص .

والتفصيل : التبيين .

والمراد بـ ﴿ كل شيء ﴾ الأشياء الكثيرة مما يرجع إلى الاعتبار بالقصص .

وإطلاق الكل على الكثرة مضى عند قوله تعالى : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ في سورة الأنعام (31) .

(51/405)

والهُدى الذي في القصص : العبر الباعثة على الإيمان والتقوى بمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص على أن المتصرف هو الله تعالى ، وعلى أن التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة ، وكذلك الرحمة فإن في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم وعنايته بهم ، وذلك رحمة للمؤمنين لأنهم باعتبارهم بها يأتون ويذرون ، فتصلح أحوالهم ويكونون في اطمئنان بال ، وذلك رحمة من الله بهم في حياتهم وسببٌ لرحمته إياهم في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : 97] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

ونلحظ أن هذه الآية جاءت في سورة يوسف ؛ أي : إنْ أردتَ قصة يوسف وإخوته ؛ ففي السورة كل القصة بمَراميها وأهدافها وعِظَتها ، أو المهم في كل قصص الأنبياء .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ . . . ﴾ [هود : 120]

ونعلم أن معنى القَصَص مأخوذ من قَصِّ الأثر ؛ وتتبُّعه بلا زيادة أو نقصان .

ويقول الحق سبحانه هنا : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الألباب . . . ﴾ [يوسف : 111]

وفي أول السورة قال الحق : ﴿ . . . إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43]

ونعرف أن مادة " العين " و " الباء " و " الراء " تفيد التعدية من جَليّ إلى خفيّ .

والعِبْرة في هذه القصة قصة يوسف وكذلك قصص القرآن كلها ؛ نأخذ منها عِبْرة من الجَليّ فيها إلى الخَفيِّ الذي نواجهه ؛ فلا نفعل الأمور السيئة ؛ ونُقدِم على الأمور الطيبة .

وحين نقبل على العمل الطيّب الذي جاء في أيّ قصة قرآنية ؛ وحين نبتعد عن العمل السيئ الذي جاء خَبرُه في القصة القرآنية ؛ بذلك نكون قد أحسنّا الفهم عن تلك القصص .

وعلى سبيل المثال : نحن نجد الظالم في القصَص القرآني ؛ وفي قصة يوسف تحديداً ؛ وهو ينتكس ، فيأخذ الواحد مِنّا العبرة ، ويبني حياته على ألاّ يظلم أحداً . وحين يرى الإنسان منا المظلومَ وهو ينتصر ؛ فهو لا يحزن إنْ تعرّض لظلم ؛ لأنه أخذ العبرة لما ينتصر ؛ فهو لا يحزن إن تعرض لظلم ؛ لأنه أخذ العبرة لما ينتظره من نصر بإذن الله .

ونحن نقول : " عبر النهر " أي : انتقل من شاطئ إلى شاطئ .

وكذلك قولنا " تعبر الرُّؤْيا " أي : تؤوّلها ؛ لأن الرّؤْيا تأتي رمزية ؛ وتعبرها أي : تشرحها وتنقلها من خفيّ إلى جليّ ؛ وإيضاح المطلوب منها .

(53/405)

ونَصِفُ الدَّمْعة بأنها " عَبْرة " ؛ والحزن المدفون في النفس البشرية تدل عليه الدَّمْعة .

وهنا قال الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الألباب . . . ﴾ [يوسف : 111]

والعِبْرة قد تمرُّ ، ولكن لا يلتفت إليها إلا العاقل الذي يُمحِّص الأشياء ، أما الذي يمرُّ عليها

مُرور الكرام ؛ فهو لا يستفيد منها .

و " أولو الألباب " هم أصحاب العقول الراجحة ، و " الألباب " جمع " لُبّ " . واللب : هو جوهر الشيء المطلوب ؛ والقِشْر موجود لصيانة اللُّبِّ ، وسُمِّي العقل " لُبّاً " لأنه ينثرُ القشور بعيداً ، ويعطينا جوهر الأشياء وخيرها .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يفترى ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ . . . ﴾ [يوسف : 111]

أي : أن ما جاء على لسانك يا محمد وأنزله الحق وَحْياً عليك ليس حديث كَذبٍ مُتعمَّد ؛ بل هو الحق الذي يطابق الكتب التي سبقتْه .

ويُقال : " بين يديك " أي : سبقك ؛ فإذا كنت تسير في طابور ؛ فَمَنْ أمامك يُقال له " بين يديك " ، ومَنْ وراءك يُقال له " مَنْ خلفك " .

والقرآن قد جاء ليصدق الكتب التي سبقتْه ؛ وليست هي التي تُصدّق عليه ؛ لأنه الكتاب المهيمن ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ . . . ﴾ [المائدة : 48]

ويضيف الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾ [يوسف : 111]

فالقرآن يُصدِّق الكتب السابقة ، ويُفصِّل كل شيء ؛ أي : يعطي كل جزئية من الأمر

حُكْمها في جزئية مناسبة لها . فهو ليس كلاماً مُجْملاً ، بل يجري تفصيل كل حُكْم بما يناسب أيّ أمر من أمور البشر .

وفي أعرافنا اليومية نقول : " فلان قام بشراء بذلة تفصيل " . أي : أن مقاساتها مناسبة له تماماً ؛ ومُحْكمة عليه حين يرتديها .

(54/405)

وفي الأمور العقدية نجد والعياذ بالله مَنْ يقول : إنه لا يوجد إله على الإطلاق ، ويقابله مَنْ يقول : إن الآلهة مُتعددة ؛ لأن كل الكائنات الموجودة في الكون من الصعب أن يخلقها إله واحد ؛ فهناك إله للسماء ، وإله للأرض ؛ وإله للنبات ؛ وإله للحيوان .

ونقول لهم : كيف يوجد إله يقدر على شيء ، ويعجز عن شيء آخر ؟

وإنْ قال هؤلاء : " إن تلك الآلهة تتكاتف مع بعضها " .

نرد عليهم : ليست تلك هي الألوهية أبداً ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 29]

وحين يكون الشركاء مختلفين ؛ فحال هذا العبد المملوك لهم يعيش في ضَنْك وعذاب ؛ أما

الرجل المملوك لرجل واحد فحاله يختلف؛ لأنه يأتمر بأمر واحد؛ لذلك يحيا مرتاحاً .

ونجد الحق سبحانه يقول عن الآلهة المتعددة: ﴿ مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: 91]

أما مَنْ يقول بأنه لا يوجد إله في الكون، فنقول له: وهل يُعقل أن كل هذا الكون الدقيق المُحْكم بلا صانع .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يُفَصِّل هذا الأمر ليؤكد أنه لا يوجد سوى إله واحد في الكون، ونجد القرآن يُفصِّل لنا الأحكام؛ ويُنزِل لكل مسألة حُكْماً مناسباً لها؛ فلا ينتقل حُكْم من مجال إلى آخر .

وكذلك تفصيل الآيات، فهناك المُحْكم والمُتَشابه؛ والمَثَل هو قول الحق سبحانه . ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الخيرات . . . ﴾ [آل عمران: 114]

ويقول في موقع آخر: ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . . ﴾ [آل عمران: 133]

جاء مرة بقول "إلى"، ومرة بقول "في"؛ لأن كلاًّ منها مناسبة ومُفصَّلة حَسْب موقعها .

فالمُسَارعة إلى المغفرة تعني أن مَنْ يسارع إليها موجود خارجها ، وهي الغاية التي سيصل إليها ، أما مَنْ يسارع في الخيرات ؛ فهو يحيا في الخير الآن ، ونطلب منه أن يزيد في الخير .

وأيضاً نجد قوله الحق : ﴿ . . . واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان : 17]

ونجد قوله الحق : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43]

وواحدة منهما وردتْ في المصائب التي لها غَرِيم ، والأخرى قد وردتْ في المصائب التي لا غريم فيها ؛ مثل المرض حيث لا غَرِيم ولا خُصومة .

أما إذا ضربني أحد ؛ أو اعتدى على أحد أبنائي ؛ فهو غريمي وتوجد خصومة ؛ فوجوده أمامي يَهِيج الشر في نفسي ؛ وأحتاج لضبط النفس بعزيمة قوية ، وهذا هو تفصيل الكتاب .

والحق سبحانه يقول : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ . . . ﴾ [فصلت : 3]

أي : أن كل جزئية فيه مناسبة للأمر الذي نزلتْ في مناسبته .

ومثال هذا هو قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم . . . ﴾ [الإسراء : 31]

وقوله الحق : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . . . ﴾ [الأنعام : 151]

وكل آية تناسب موقعها ، ومعناها مُتَّسق في داخلها ، وتَمَّ تفصيلها بما يناسب ما جاءت له ، فقوله : ﴿ وَلَا تقتلوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ . . . ﴾ [الأنعام : 151]

يعني أن الفقر موجود ، والإنسان مُنْشغل برزقه عن رزق ابنه .

أما قوله : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ . . . ﴾ [الإسراء : 31]

أي : أن الفقر غير موجود ، وهناك خَوْف أن يأتي إلى الإنسان ؛ وهو خوف من أمر لم يَطْرأ بعد .

وهكذا نجد في القرآن تفصيلاً لكل شيء تحتاجونه في أمر دنياكم وآخرتكم ، وهو تفصيل لكل شيء ليس عندك ؛ وقد قال الهدهد عن ملكة سبأ بلقيس : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾ [النمل : 23]

(56/405)

وليس معنى هذا أنها أوتيت من كل شيء في هذه الدنيا ، بل هي قد أُوتيَت من كل شيء تملكه ، أو يُمكِن أن تملكه في الدنيا .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾ [يوسف : 111]

لا يعني أن نسأل مثلاً : "كم رغيفاً في كيلة القمح ؟ " .

وقد حدث أن سأل واحد الإمام محمد عبده هذا السؤال ؛ فجاء بخباز ، وسأله هذا السؤال ؛ فأجاب الخباز ؛ فقال السائل : ولكنك لم تأْتِ بالإجابة من القرآن ؟ فقال الإمام محمد عبده : لماذا لا تذكر قوله الحق : ﴿ . . . فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنُتم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43]

وهكذا نعلم أنه سبحانه لم يُفرِّط في الكتاب من شيء .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿ . . . وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : 111]

ونعلم أن الهُدى هو الطريق المُؤدي إلى الخير ، وهذا الطريق المؤدي إلى الخير ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الوقاية من الشر لمن لم يقع فيه .

والقسم الثاني : علاج لِمَنْ وقع في المعصية .

وإليك المثال : هَبْ أن أُناساً يعلمون الشر ؛ فنردهم عنه ونشفيهم منه ؛ لأنه مرض ، وهو رحمة بمعنى ألاَّ يقعوا في المرض بداية .

إذن : فهناك ملاحظتان يشيران إلى القسمين :

الملاحظة الأولى : أن المنهج القرآني قد نزل وقايةً لمن لم يقع في المعصية .

والملاحظة الثانية : أن المنهج يتضمن العلاج لِمَنْ وقع في المعصية .

ويُحدِّد الحق سبحانه مَنْ يستفيدون من المنهج القرآني وقاية وعلاجاً ، فيقول : ﴿ . . .
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : 111]

أي : هؤلاء الذين يؤمنون بإله واحد خلقهم وخلق الكون ، ووضع للبشر قوانين صيانة حياتهم ، ومن المنطقيِّ أن يسمع المؤمن كلامه ويُنفذه ؛ لأنه وضع المنهج الذي يمكنك أن تعود إليه في كل ما يصون حياتك ، فإنْ كنت مؤمناً بالله ؛ فَخُذ الهدى ، وخُذ الرحمة .

ونسأل الله أن نُعطَى هذا كله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(57/405)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة ﴾ قال : يوسف واخوته .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة ﴾ قال : معرفة ﴿ لأولي الألباب ﴾ قال : لذوي العقول .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن قتادة - رضي الله عنه - ﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ والفرية، الكذب ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ قال: القرآن، يصدق الكتب التي كانت قبله من كتب الله التي أنزلها قبله على أنبيائه، فالتوراة والإنجيل والزبور، يصدق ذلك كله ويشهد عليه أن جميعه حق من عند الله ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ فصل الله به بين حرامه وحلاله، وطاعته ومعصيته.

وأخرج ابن السني والديلمي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا عسر على المرأة ولادتها أخذ إناءُ نظيفُ وكُتِبَ عليه ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون... ﴾ [الأحقاف: 35] إلى آخر الآية ﴿ وكأنهم يوم يرونها ﴾ [النازعات: 46] إلى آخر الآية ﴿ ولقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب.... ﴾ إلى آخر الآية، ثم تغسل وتسقى المرأة منه وينضح على بطنها وفرجها". انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(58/405)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

وقرأ أبو عمرو في رواية عبد الوارث والكسائي في رواية الأنطاكي "قِصصهم" بكسر القاف وهو جمع قِصة، وبهذه القراءة رجَّح الزمخشري عَوْدَ الضمير في "قصصهم" في القراءة المشهورة على الرسل وحدهم، وحكى أنه يجوز أن يعودَ على يوسُفَ وإخوته.

وحكى غيرُه أنه يجوز أن يعودَ على الرسل وعلى يوسف وإخوته جميعاً. قال الشيخ: "ولا تَنْصُره يعني هذه القراءة إذا قصص يوسف وأبيه وإخوته مشتملٌ على قصصٍ كثيرة وأنباء مختلفة".

قوله: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً ﴾ في "كان" ضميرٌ عائد على القرآن، أي: ما كان القرآنُ المتضمِّنُ لهذه القصة الغريبة حديثاً مختلفاً، وقيل: بل هو عائد على القصص أي: ما كان القصص المذكور في قوله "لقد كان في قَصَصِهم". وقال الزمخشري: "فإن قلت: فالإمَ يَرْجِع الضمير في ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يفترى ﴾ فيمن قرأ بالكسر؟ قلت: إلى القرآن أي: ما كان القرآن حديثاً". قلت: لأنه لو عاد على "قِصصهم" بكسر القاف لوجب أن يكون "كانت" بالتاء لإِسناد الفعل حينئذ إلى ضمير مؤنث، وإن كان مجازياً.

قوله: ﴿ ولكن تَصْدِيقَ ﴾ العامَّةُ على نصب "تصديق"، والثلاثة بعده على أنها منسوقةٌ على خبر كان أي: ولكن كان تَصْدِيْقَ. وقرأ حمران بن أعين وعيسى الكوفي وعيسى الثقفي برفع "تصديق" وما بعده على أنها أخبار لمبتدأ مضمر أي: ولكن هو

تصديق ، أي : الحديث ذو تصديقٍ ، وقد سُمع من العرب مثلُ هذا بالنصب والرفع ، قال ذو الرمة :

2836 وما كان مالي مِنْ تُراثٍ ورِثْتُه . . . ولا ديةً كانَتْ ولا كَسْبَ مأثمِ

ولكنْ عطاءَ اللَّهِ من كل رحلةٍ . . . إلى كل محجوبِ السُّرادِقِ خِضْرَمِ

وقال لوط بن عبيد :

2837 - وإني بحمد اللَّهِ لا مالَ مسلمٍ . . . أخذْتُ ولا مُعْطي اليمينِ مُحالِفِ

(59/405)

ولكنْ عطاء اللَّهِ مِنْ مالِ فاجرٍ . . . قَصِيِّ المحلِّ مُعْوِرٍ للمَقارِفِ

يُرْوى " عطاء اللَّه " في البَيتين منصوباً على " ولكن كان عطاء " ومرفوعاً على : ولكن هو عطاء اللَّه . وتقدَّم نظيرُ ما بقي من السورة فأغنى عن إعادته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 568.570﴾

(60/405)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111) ﴾

عِبْرَةٌ منها للملوك في بَسْطِ العدل كما بسط يوسفُ عليه السلام، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أَحسن إليهم، وأعتقهم حين مَلَكَهم.

وعبرة في قصصهم لأرباب التقوى؛ فإن يوسفَ لَمَّا ترك هواه رقّاه الله إلى ما رقّاه.

وعبرةٌ لأهل الهوى فيما في اتباع الهى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لَمَّا تبعت هواها لقيت الضرَّ والفقر.

وعبرةُ للمماليك في حضرة السادة، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا مَلَكَ مُلْكَ العزيز، وصارت زليخا امرأته حلالاً.

وعبرةٌ في العفو عند المقدرة، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته.

وعبرةٌ في ثمرة الصبر، فيعقوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يوماً بلقاء يوسف عليه السلام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿لطائف الإشارات جـ 2 صـ 214. 215﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾

يقول : من أخبار ما غاب عنك ، علمه يا محمد ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ يعني : ننزل عليك جبريل بالقرآن ، ليقرأه عليك ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ يعني : عند إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ يعني : قولهم أن يطرحوا يوسف في البئر ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أي : يحتالون ليوسف .

ثم قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ في الآية تقديم .

ومعناه : وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت لعلم الله السابق فيهم .

ويقال : ﴿ ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

يعني : من قدرت عليه الكفر ، وعلمت أنه أهل لذلك .

لا يؤمن بك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ يعني : على الإيمان ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يعني : إن لم يجيبوك ، فلا تبال ، لأنهم لا ينقصون من رزق ربك شيئاً ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ يعني : ما هذا القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ من الجن والإنس .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ ﴾ يعني : وكم من علامة ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يعني : الشمس والقمر والنجوم ، وفي الأرض الأمم الخالية ، والأشياء التي خلقت في الأرض ، ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ يعني : مكذبين ، لا يتفكرون .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ قال ابن عباس : ولئن سألتهم من خلقهم ، ليقولن الله ، فهذا إيمان منهم .

ثم هم يشركون به غيره .

وقال القتبي : الإيمان قد يكون في معان .

فمن الإيمان تصديق ، وتكذيب ببعض .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : 106] يعني : مقرون أن الله خالقهم ، وهم مع ذلك يجعلون لله شريكاً .

وقال الضحاك : كانوا مشركين في تلبيتهم .

وقال عكرمة : يعلمون أنه ربهم ، وهم مشركون به من دونه .

ثم قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا ﴾ يعني: أهل مكة ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ ﴾ يعني: مغشاهم العذاب، ويقال: غاشية قطعة ﴿ مِنْ عَذَابِ اللهِ ﴾ في الدنيا ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ يعني: فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بقيامها ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ يعني: هذه الملة، ديني الإسلام، ويقال: هذه دعوتي ﴿ أَدْعُوا ﴾ الخلق ﴿ إِلَى اللهِ ﴾ تعالى.

ويقال: أدعوكم إلى توحيد الله وعبادته ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ أي: على يقين وحقيقة.

ويقال: على بيان ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ يعني: من اتبعني على ديني، فهو أيضاً على بصيرة ﴿ وَسُبْحَانَ اللهِ ﴾ تنزيهاً لله عن الشرك ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ على دينهم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ يعني: الأنبياء كانوا من الآدميين، ولم يكونوا من الملائكة.

قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿ نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ بالنون.

وقرأ الباقون بالياء ﴿ يُوحَى إِلَيْهِمْ ﴾، ومعناهما واحد ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ يعني: منسوبين إليها.

ثم أمرهم بأن يعتبروا، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ يعني: يسافروا ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ ويقال: يقرؤوا القرآن ﴿ فَيَنْظُرُوا ﴾ يعني: يعتبروا ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعني: كيف كان آخر المنذرين من قبلهم من الأمم الخالية ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ﴾ وهي

الجنة ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الشرك ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن الآخرة أفضل من الدنيا .

ثم رجع إلى حديث الرسل الذين كذبهم قومهم ، فقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ يعني : أيسوا من إيمان قومهم أن يؤمنوا ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ قرأ أهل الكوفة عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ﴿ كُذِبُوا ﴾ بتخفيف الذال .

وقرأ الباقون : بالتشديد .

(63/405)

وروى الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن ابن عباس ، أنه قرأ : ﴿ كُذِبُوا ﴾ بالتخفيف .

ويقال : لما أيست الرسل ، أن يستجيب لهم قومهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا عليهم ، جاءهم بالنصرة .

وروى ابن جريج ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس أنه قال : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ قال : كانوا بشراً ، فضعفوا ، وسئموا ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، وأشار بيده إلى السماء .

قال ابن أبي مليكة : فذكرت ذلك لعروة .

فقال : قالت عائشة رضي الله عنها : معاذ الله ما حدث شيئاً إلا وعلم الله ورسوله أنه

سيكون قبل أن يموت .

قالت : ولكن نزل الأنبياء البلاء حتى خافوا أن يكون من معهم ، كذبوهم من المؤمنين ؛ وكانت تقرأ ﴿ قد كُذِّبُوا ﴾ بالتشديد .

وعن عائشة قالت : استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، أن يصدقوهم ، وظنوا أن من قد آمن بهم من قومهم ، قد كذبوهم .

وقال القتبي : الذي قالت عائشة أحسنها في الظاهر ، وأولاها بأنبياء الله تعالى ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ أي : للأنبياء بالنصرة .

ثم قال : ﴿ فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءَ ﴾ يعني : من آمن بالأنبياء .

قرأ عاصم وابن عامر ﴿ فَنُجِّيَ ﴾ بنون واحدة مع التشديد .

وقرأ الباقون بالنونين ، وأصله ﴿ فَنُنْجِيَ ﴾ بالنونين ، إلا أن من قرأ بنون واحدة ، أدغم إحداهما في الأُخرى ثم قال : ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ يعني : عذابنا ﴿ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ يعني : الكافرين .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ يعني : في قصة يوسف وإخوته ﴿ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يعني : لذوي العقول .

يعني : عجيبة لمن له عقل ، لكيلا يحسد أحد أحداً .

ويقال : لمن أراد أن يعتبر بيوسف ، ويقتدي به ، ولا يكافئ أحداً بسيئة .

(64/405)

ويقال : ﴿ عبرة ﴾ يعني : دلالة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لمن أراد أن يؤمن به ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى ﴾ يعني : مثل هذا الكلام لا يكون اختلاقاً وكذباً ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب التوراة والإنجيل ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعني : بيان الحلال والحرام ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ يعني : رحمة من العذاب ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : يصدقون بتوحيد الله تعالى ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبالقرآن . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 212.214 ﴾

(65/405)

وقال الثعلبى

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ وما كنت يا محمّد عند أولاد يعقوب ﴿ إِذْ أجمعوا أَمْرَهُمْ ﴾ أي تعاهدوا على إلقاء يوسف في غيابة الجُب ، ﴿

وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ بيوسف ، ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النّاس وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ على إيمانهم ﴿ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ : جعل وجزاء ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ يعني القرآن والوحي ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ : عِظة وتذكير ﴿ لّلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ ﴾ وكم قول فيه عِظة وعبرة ودلالة ﴿ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ لا يتفكّرون فيها ولا يعتبرون بها .

الحرث بن قدّامة عن عكرمة أنّه قرأ : والأرضُ يمرون عليها رفعاً ، عن محمّد بن عمر قال : سمعت عمرو بن وائل يقرأ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات ﴾ قطعاً ، ﴿ والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ رفعاً ، أبو حمزة الثمالي عن السدي : أنّه قرأ والأرض يمرون عليها نصباً ، وقرأ : يمرون على الأرض ، وعن ابن مجاهد قال : حدّثنا إسحاق الحربي أبو حذيفة ، حدّثنا سفيان قال : وقرأ عبد الله : (وكأيّن من آية في السماوات والأض يمشون عليها) .

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ عكرمة في قول الله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ قال : من إيمانهم إذا سُئلوا : من خلق السماوات والأرض ؟ قالوا : الله ، وإذا سُئلوا مَن نزّل القطر ؟ قالوا : الله ، ثمّ هُم يُشركون ، وروى جابر عن عكرمة وعامر ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ قالا : يؤمنون بالله أنّه ربّهم وهو خالقهم ويشركون مَن دونه ، وهذا قول أكثر المفسّرين .

وروى بن جبير عن الضحّاك عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في تلبية مشركي العرب وكانوا يقولون في تلبيتهم : لبيّك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، وكان فيها يخزونك من تلبي : فأجب يا الله لولا أن بكراً دونك بني غطفان وهم يلونك ، ينزل الناس ويخزونك ، ما زال منا غنجاً يأتونك ، وكانت تلبية حرمهم : خرجنا عبادك الناس طرف وهم تلادك ، وهم قديماً عمّروا بلادك ، وقد تعادوا فيك من يعادك ، وكانت تلبية قريش : (اللهمّ لبيّك ، لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك) ، وكانت تلبية حمدان وغسان وقضاعة وجذام وتلقين وبهرا : نحن عبادك اليماني إنّا نحجّ ثاني [على الطريق الناجي نحن نعادي] جئنا إليك حادي . فأنزل الله ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ يعني في التلبية .

وقال : لمّا سمع المشركون ما قبل هذه الآية من الآيات قالوا : فإنّا نؤمن بالله الذي خلق هذه الأشياء ولكنّا نزعم أنّ له شريكاً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

عطاء : هذا في الدعاء وذلك أنّ الكفّار أشركوا بربّهم في الرخاء ، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء ، بيانه قوله تعالى :

﴿ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [يونس : 22] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كالظلل دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [لقمان : 32] وقوله : ﴿ وَإِذَا

مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾ [يونس : 12] وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : 51] .

(67/405)

وقال بعض أهل المعاني : معناه وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون قبل إيمانهم ، نظيره قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ [ق : 36] يعني كانوا هم أشدّ منهم بطشاً . وقال وهب : هذه في وقعة الدُخان وذلك أنّ أهل مكّة لمّا غشيهم الدخان في سنيّ القحط قالوا : ربّنا اكشف عنّا العذاب إنّا مؤمنون ، وذلك إيمانهم وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب بيانه قوله : ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ والعود لا يكون ، إلاّ بعد ابتداء والله أعلم ﴿ أفأمنوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ الله ﴾ قال ابن عباس : مُجللة ، مجاهد : عذاب يغشاهم ، نظيره قوله : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 55] : قتادة : وقيعة ، الضحّاك : يعني الصواعق والقوارع ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ الساعة ﴾ القيامة ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ، ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بقيامها ، ابن عباس : تصيح الصيحة بالناس وهم في أسواقهم .

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمّد ﴿ هذه ﴾ الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها ﴿

سبيلي ﴾ سُنّتي ومنهاجي ، قاله ابن زيد ، وقال الربيع : دعوتي ، الضحّاك : دعائي ، مقاتل : ديني ، نظيره قوله تعالى : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] أي دينه ، ﴿ أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ ﴾ على يقين ، يقال : فلان مستبصر في كذا أي مستيقن ﴿ أَنَاْ وَمَنِ اتبعني ﴾ آمن بي وصدّقني فهو أيضاً يدعو إلى الله ، هذا قول الكلبي ، وابن زيد قال : أحقّ والله على من اتّبعه أن يدعو إليّ بما دعا إليه ، ويذكر بالقرآن والموعظة ، وينهى عن معاصي الله .

(68/405)

وقيل : معناه أنا ومن اتّبعني على بصيرة ، يقول : كما أنّي على بصيرة ، فكذلك من آمن بي واتّبعني فهو على بصيرة أيضاً ، قال ابن عباس : يعني أصحاب محمّد صلى الله عليه وسلم كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية ، معدن العلم ، وكنز الإيمان وجند الرحمن . ﴿ وَسُبْحَانَ الله ﴾ أي وقل : سبحان الله تنزيهاً له عمّا أشركوا ﴿ وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين * وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ : يا محمّد ﴿ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ لا ملائكة ، ﴿ نوحي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى ﴾ يعني من أهل الأمصار دون أهل البوادي لأنّ أهل الأمصار أعقل وأفضل وأعلم وأحلم .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ يعني هؤلاء المشركين المنكرين لنبوّتك ﴿ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أخبر بأمر الأُمم المكذّبة من قبلهم، فيعتبروا ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتقوا ﴾ يقول جلّ ثناؤه: هذا فعلنا في الدنيا بأهل ولايتنا وطاعتنا أن نُنْجيهم عند نزول العذاب، وما في دار الآخرة لهم خيرٌ، فترك ما ذكرنا، آنفاً لدلالة الكلام عليه، وأُضيف الدار إلى الآخرة ولا خلاف لتعظيمها كقوله تعالى:

﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة: 95] وقولهم: عامُ الأوّل، وبارحة الأولى ويوم الخميس وربيع الآخر: وقال الشاعر:

ولو أقوتُ عليك ديار عبس . . . عرفت الذلّ عرفان اليقين

يعني عرفاناً.

(69/405)

﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ يؤمنون ﴿ حتى إِذَا استيأس الرسل وظنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ اختلف القُرّاء في قوله: ﴿ كُذِبُواْ ﴾ فقرأها قوم بالتخفيف وهي قراءة علي بن أبي طالب (عليه السلام) وابن عباس وابن مسعود وأُبي بن كعب وأبي عبد الرحمن السلمي وعكرمة الضحاك وعلقمة ومسروق والنخعي وأبي جعفر المدني ومحمّد بن

كعب والأعمش وعيسى بن عمر الهمداني وأبي اسحاق السبيعي وابن أبي ليلى وعاصم وحمزة وعلي بن الحسين وابنه محمّد بن علي وابنه جعفر بن محمّد ، وعبد الله بن مسلم وابن يسار ، واختارها الكسائي وأبي عبيدة .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قرأ ﴿ وظنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ مخفّفة وهي قراءة عائشة و [هرقل] الأعرج ونافع والزهري وعطاء بن أبي رباح وعبد الله بن كثير وعبد الله بن الحارث وأبي رجاء والحسن .

وقتادة وأبي عمرو وعيسى وسلام وعمرو بن ميمون ويعقوب ، ورويتْ أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم فمن قرأ بالتخفيف ، فمعناه : حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنّ قومهم أنّ الرسل قد كذبتهم في وجود العذاب .

وروى الخبر عن شعيب بن الحجاج عن إبراهيم عن أبي حمزة الجزري : قال صنعت طعاماً فدعوتُ ناساً من أصحابنا منهم : سعيد بن جبير وأرسلتُ إلى الضحّاك بن مزاحم فأبى أن يجيئني فأتيته فلم أدعه حتى جاء ، قال : فسأل فتىً من قريش سعيد بن جبير فقال : يا أبا عبد الله كيف تقرأ هذا الحرف فإنّي إذا أتيت عليه تمنّيت إنّي لا أقرأ هذه السورة : ﴿ حتى إِذَا استيأس الرسل وظنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ قال : نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدّقوهم ، وظنّ المُرسل إليهم أنّ الرُسل كذّبوهم .

قال : فقال الضحّاك : ما رأيتُ كاليوم قط رجلا يدعى إلى علم فيتلكّأ ، لو رحلت في هذه إلى اليمن لكان قليلا .

(70/405)

وقال بعضهم : معنى الآية على هذه القراءة حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنّت الرُسُل أنّهم قد كذِبوا فيما وجدوا من النُصرة . وهذه رواية ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال : كانوا دعوا فضعفوا ويئسوا وظنوا أنّهم أخلفوا ثمّ قوله تعالى : ﴿ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ﴾ [البقرة : 214] الآية ، ومن قرأ بالتشديد فمعناها ، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يؤمنوا بهم وظنّت الرُسُل أي استيقنت أنّ أممهم قد كذبوهم جاءهم نصرُنا ، وعلى هذا التأويل يكون الظنّ بمعنى العلم واليقين كقول الشاعر :

فقلت لهم ظنوا بألفي متلبب . . . سراتهم في الفارسيّ المسرُدِ

أي أيقّنوا .

وهذا معنى قول قتادة ، وقال بعضهم : معنى الآية على هذه القراءة حتى إذا استيأس الرُسُل ممّن كذّبهم من قومهم أن يصدّقونهم ، وظنّت الرسل أنّ من قد آمن بهم وصدّقوهم

قد كذّبوهم فارتدوا عن دينهم لاستبطائهم النصر ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ وهذا معنى قول عائشة.

وقرأ مجاهد ﴿ كَذَبُوا ﴾ بفتح الكاف والذال مخفّفة ولها تأويلان: أحدهما: حتى إذا استيأس الرسل أن يُعذب قومهم، وظنّ قومهم أنّ الرُسُل قد كذبوا جاء الرُسل نصرنا، والثاني: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنّت الرسل أنّ قومهم قد كذبوا على الله بكفرهم، ويكون معنى الظنّ اليقين على هذا التأويل، والله أعلم.

(71/405)

﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ﴾ عند نزول العذاب وهم المطيعون والمؤمنون ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا ﴿ عَنِ القوم المجرمين ﴾ يعني المشركين، واختلف القرّاء في قوله فنُجّي فقرأها عامّة القراء فننجّي بنونين على معنى فنحن نفعل بهم ذلك، فأدغم الكسائي أحد النونين في الأُخرى فقرأ: فنجّي بنون واحدة وتشديد الجيم، وقرأ عاصم بضمّ النون وتشديد الجيم وفتح الياء على مذهب ما لم يُسمَّ فاعله، واختار أبو عبيد هذه القراءة لأنّها في مصحف عثمان، وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة وقرأ ابن مُحيصن فنجا من نشاء بفتح النون والتخفيف على أنه فعل ماض ويكون محلّه على قراءة عاصم وابن محيصن رفعاً

، وعلى قراءة الباقين نصباً .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ أي في خبر يوسف وأخوته ﴿ عِبْرَةٌ ﴾ عظة ﴿ لِأُوْلِي الألباب مَا كَانَ ﴾ يعني القرآن ﴿ حَدِيثاً يفترى ﴾ يُختلق ﴿ ولكن تَصْدِيقَ ﴾ يعني ولكن كان تصديق ﴿ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي ما قبله من الكتب ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ممّا يحتاج إليه العباد ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 261.266 ﴾

(72/405)

وقال الزمخشرى :

﴿ ذلك مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾

ذلِكَ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف ، والخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومحله الابتداء . وقوله مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ خبر إنّ . ويجوز أن يكون اسماً موصولا بمعنى الذي ، ومِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ صلته ونُوحِيهِ الخبر . والمعنى : أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحى ، لأنك لم تحضر بنى يعقوب حين أجمعوا أمرهم وهو إلقاؤهم أخاهم في البئر ، كقوله وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ ، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه ، لأنه لم

يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه ، ولا لقى فيها أحداً ولا سمع منه . ولم يكن من علم قومه . فإذا أخبر به وقصّ هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته ، لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحى ، فإذا أنكروه تهكم بهم . وقيل لهم : قد علمتم يا مكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية : ونحوه : وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ ، وَهُمْ يَمْكُرُونَ بيوسف ويبغون له الغوائل .

[سورة يوسف (12) : الآيات 103 إلى 104]

وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (104)

(73/405)

وَما أَكْثَرُ النَّاسِ يريد العموم ، كقوله وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ وعن ابن عباس رضى اللّه عنه . أراد أهل مكة ، أى وما هم بمؤمنين وَلَوْ حَرَصْتَ وتهالكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم وَما تَسْئَلُهُمْ على ما تحدثهم به وتذكرهم أن ينيلوك منفعة وجدوى ، كما يعطى حملة الأحاديث والأخبار إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ عظة من اللّه لِلْعالَمِينَ عامة ، وحث

على طلب النجاة على لسان رسول من رسله.

[سورة يوسف (12) : آية 105]

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (105)

مِنْ آيَةٍ من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده يَمُرُّونَ عَلَيْها ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها. وقرئ «والأرض» بالرفع على الابتداء، ويمرون عليها: خبره. وقرأ السدّى «والأرض» بالنصب على: ويطؤن الأرض يمرّون عليها. وفي مصحف عبد الله: والأرض يمشون عليها، برفع الأرض، والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر.

[سورة يوسف (12) : آية 106]

وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106)

وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ في إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض، إلا وهو مشرك بعبادته الوثن، وعن الحسن: هم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: هم الذين يشبهون الله بخلقه.

[سورة يوسف (12) : آية 107]

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (107)

غاشِيَةٌ نقمة تغشاهم. وقيل: ما يغمرهم من العذاب ويجللهم. وقيل: الصواعق.

[سورة يوسف (12) : آية 108]

قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)

هذِهِ سَبِيلِي هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي. والسبيل والطريق: يذكران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أى أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء. وأَنَا تأكيد للمستتر في أَدْعُوا. وَمَنِ اتَّبَعَنِي عطف عليه. يريد: أدعو إليها أنا، ويدعو إليها من اتبعنى. ويجوز أن يكون أَنَا مبتدأ، وعَلى بَصِيرَةٍ خبرا مقدّما، ومَنِ اتَّبَعَنِي عطفاً على أَنَا إخبارا مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة

(74/405)

وبرهان، لا على هوى. ويجوز أن يكون عَلى بَصِيرَةٍ حالا من أَدْعُوا عاملة الرفع في أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحانَ اللَّهِ وأنزهه من الشركاء «1».

[سورة يوسف (12) : آية 109]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (109)

إِلَّا رِجالًا لا ملائكة، لأنهم كانوا يقولون لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما: يريد ليست فيهم امرأة. وقيل: في سجاح المتنبئة

وَلَمْ تزَلْ أَنْبِياءُ اللَّهِ ذُكْرَانَا «2»

وقرئ: نوحى إليهم، بالنون «3». مِنْ أَهْلِ الْقُرى لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة وَلَدارُ الْآخِرَةِ ولدار الساعة، أو الحال الآخرة خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا للذين خافوا اللّه فلم يشركوا به ولم يعصوه. وقرئ: أفلا تعقلون، بالتاء والياء.

[سورة يوسف (12): آية 110]

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110)

---

(1). قوله «وأنزهه من الشركاء» لعله «عن». (ع)

(2) أضحت نبيتنا أنثى نساء بها ولم تزل أنبياء اللّه ذكرانا

فلعنة اللّه والأقوام كلهم على سجاح ومن بالإفك أغرانا

أعنى مسيلمة الكذاب لا سقيت أصداؤه ماء مزن حيثما كانا

لقيس بن عاصم. ويروى: نطيف بها، بدل نساء بها. وطاف به يطوف: دار حوله. وطاف به يطيف: أتى عليه ونزل به. وهذا مبنى للمجهول منه، عطف على أضحت. ويروى بدل الشطر الأول، فما سمعت بأنثى قط أرسلها، فالفاعل ضمير اللّه وإن لم يتقدم

له مرجع لظهوره. ويروى بدل الثاني: وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا.

وسجاح: علم امرأة من سجح إذا سمح وعفا، وهي بنت المنذر، كانت شريفة في قومها بنى حنيفة، فادعت النبوة، ثم تزوجت بمسيلمة الكذاب فاتبعه قومها، ثم حاربه أبو بكر رضى اللّه عنه فقتل على يدي وحشى قاتل حمزة، فأسلمت بعده وحسن إسلامها.

ويروى «باللؤم» بدل الافك. ولا سقيت: جملة دعائية. والأصداء: جمع صدى، وهو ذكر اليوم: كانت العرب تزعم أن عظام رأس القتيل تصير بومة تزقو وتصيح: أدركونى أدركونى، حتى يؤخذ بثأره، وهي هنا مجاز عن جثته كلها. والمزن واحده مزنة وهو السحاب، أى: اللهم اجعل قبره حارا عليه لا يناله غيث.

(3). قوله «وقرئ نُوحِي إِلَيْهِمْ بالنون مبنيا للمعلوم، فتكون القراءة الأصلية بالياء، مبنيا للمجهول. (ع)

(75/405)

حَتَّى متعلقة بمحذوف دلّ عليه الكلام، كأنه قيل: وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا فتراخى نصرهم حتى استيأسوا عن النصر وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا أى كذبتهم أنفسهم «1» حين حدّثتهم بأنهم ينصرون، أو رجاؤهم لقولهم: رجاء صادق، ورجاء كاذب. والمعنى أنّ

مدّة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من اللّه وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت ، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا ، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب .

وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم اللّه من النصر «2» وقال : كانوا بشرا ، وتلا قوله وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ فإن صح هذا عن ابن عباس ، فقد أراد بالظنّ : ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية . وأمّا الظن الذي هو ترجح أحد الجائزين على الآخر ، فغير جائز على رجل من المسلمين ، فما بال رسل اللّه الذين هم أعرف الناس بربهم ، وأنه متعال عن خلف الميعاد ، منزه عن كل قبيح ؟ وقيل : وظن المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا ، أى : أخلفوا . أو : وظنّ المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل ، أى : كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدّقوهم فيه . وقرئ : كذبوا ، بالتشديد على : وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدوهم من العذاب والنصرة عليهم . وقرأ مجاهد : كذبوا ، بالتخفيف ، على البناء للفاعل ، على : وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصرة ، إمّا على تأويل ابن عباس ، وإمّا على أنّ قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثرا قالوا لهم :

إنكم قد كذبتمونا فيكونون كاذبين عند قومهم . أو وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا .

ولو قرئ بهذا مشدّداً ، لكان معناه ، وظنّ الرسل أن قومهم كذبوهم في موعدهم . قرئ : فننجي ، بالتخفيف والتشديد ، من أنجاه ونجاه . وفنجى ، على لفظ الماضي المبنى للمفعول .

وقرأ ابن محيصن : فنجا . والمراد بـ مَنْ نَشاءُ المؤمنون ، لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم . وقد بين ذلك بقوله وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

[سورة يوسف (12) : آية 111]

لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)

---

(1) . قال محمود : «معناه يئسوا من النصر وظنوا أن أنفسهم كذبتهم . . . الخ» قال أحمد : ولا يلزم أن يكون الله وعدهم بالنصر في الدنيا ، بل كانوا يظنون ذلك ويرجونه لا عن إخبار ووحى ،

(2) . عاد كلامه . قال : «ونقل عن ابن عباس أنه قال : فظنوا حين ضعفوا وغلبوا . . . الخ» قال أحمد : وهذا أيضا تأويل حسن ينظم بين القراءتين ، لأن ظن الأمم كذب رسلهم تكذيب لهم ، فيؤدى مؤدى قراءة التشديد .

الضمير في قَصَصِهِمْ للرسل ، وينصره قراءة من قرأ فِي قَصَصِهِمْ بكسر القاف . وقيل : هو راجع إلى يوسف وإخوته . فإن قلت : فإلام يرجع الضمير في ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى فيمن قرأ بالكسر ؟ قلت : إلى القرآن ، أى : ما كان القرآن حديثاً يفترى وَلكِنْ كان تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أى قبله من الكتب السماوية وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ يحتاج إليه في الدين ، لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل . وانتصاب ما نصب بعد لكِنْ للعطف على خبر كان . وقرئ «ذلك» بالرفع على : ولكن هو تصديق الذي بين يديه . عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : علموا أرقاءكم سورة يوسف ، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هوّن اللّه عليه سكرات الموت ، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلماً «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 507 . 511﴾

---

(1) . تقدم إسناده في تفسير آل عمران وهو في آخر آل عمران ، وفي آخر الكتاب أيضا .

وقال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾

أي: ذلك الذي قصصنا عليك من أمر يوسف وإِخوته من الأخبار التي كانت غائبة عنك، فأنزله الله عليك دليلاً على نبوَّتك.

﴿ وما كنت لديهم ﴾ أي: عند إِخوة يوسف ﴿ إِذ أجمعوا أمرهم ﴾ أي: عزموا على إِلقائه في الجب ﴿ وهم يمكرون ﴾ بيوسف، وفي هذا احتجاج على صحة نبوَّة نبينا صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يشاهد تلك القصة، ولا كان يقرأ الكتاب، وقد أخبر عنها بهذا الكلام المعجز، فدلَّ على أنه أخبر بوحي.

قوله تعالى: ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ قال ابن الأنباري: إِن قريشاً واليهود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف وإِخوته، فشرحها شرحاً شافياً، وهو يؤمِّل ان يكون ذلك سبباً لإِسلامهم، فخالفوا ظنه، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعزَّاه الله تعالى بهذه الآية.

قال الزجاج: ومعناها: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهدَيهم.

﴿ وما تسألهم عليه ﴾ أي: على القرآن وتلاوته وهدايتك إِياهم ﴿ من أجر، إِن هو ﴾ أي: ما هو إِلا تذكرة لهم لما فيه صلاحهم ونجاتهم.

قوله تعالى: ﴿ وكأيِّن ﴾ أي: وكم ﴿ من آية ﴾ أي: علامة ودلالة تدلهم.

على توحيد الله ، من أمر السموات والأرض .

﴿ يمرُّون عليها ﴾ أي : يتجاوزونها غير متفكرين ولا معتبرين .

قوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إِلا وهم مشركون ﴾ فيهم ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم المشركون ، ثم في معناها المتعلق بهم قولان : أحدهما : أنهم يؤمنون بأن الله خالقهم ورازقهم وهم يشركون به ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، والشعبي ، وقتادة .

والثاني : أنها نزلت في تلبية مشركي العرب ، كانوا يقولون : لبَّيك اللهم لبَّيك ، لبَّيك لا شريك لك ، إِلا شريكاً هو لكْ ، تملكه وما ملك ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

(78/405)

والثاني : أنهم النصارى ، يؤمنون بأنه خالقهم ورازقهم ، ومع ذلك يشركون به ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أنهم المنافقون ، يومنون في الظاهر رئاء الناس ، وهم في الباطن كافرون ، قاله الحسن .

فإن قيل : كيف وصف المشرك بالإِيمان ؟

فالجواب : أنه ليس المراد به حقيقة الإِيمان ، وإِنما المعنى : أن أكثرهم ، مع إِظهارهم الإِيمان بألسنتهم مشركون .

قوله تعالى : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ﴾ قال ابن قتيبة : الغاشية : المجلِّلة تغشاهم .

وقال الزجاج : المعنى : يأتيهم ما يغمرهم من العذاب .

والبغتة : الفجأة من حيث لم تتوقع .

قوله تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ المعنى : قل يا محمد للمشركين : هذه الدعوة التي أدعو إِليها ، والطريقة التي أنا عليها ، سبيلي ، أي : سُنَّتي ومنهاجي .

والسبيل تذكَّر وتؤنَّث ، وقد ذكرنا ذلك في [آل عمران : 195] .

﴿ أدعوا إِلى الله على بصيرة ﴾ أي : على يقين .

قال ابن الأنباري : وكل مسلم لا يخلو من الدعاء إِلى الله عز وجل ، لأنه إِذا تلا القرآن ، فقد دعا إِلى الله بما فيه .

ويجوز أن يتم الكلام عند قوله : ﴿ إِلى الله ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ على بصيرة أنا ومن اتَّبعني ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وسبحان الله ﴾ المعنى : وقل سبحان الله تنزيهاً له عما أشركوا .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إِلا رجالاً ﴾ هذا نزل من أجل قولهم : هلاّ بعث الله

ملكاً ، فالمعنى : كيف تعجَّبوا من إِرسالنا إِياك ، وسائر الرسل كانوا على مثل حالك ﴿ يوحى إِليهم ﴾ ؟ وقرأ حفص عن عاصم : "نوحي" بالنون .

والمراد بالقرى : المدائن .

وقال الحسن : لم يبعث الله نبيّاً من أهل البادية ، ولا من الجن ، ولا من النساء ، قال قتادة : لأن أهل القرى أعلم وأحلم من اهل العَمود .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ يعني : المشركين المنكرين نبوّتك ﴿ فينظروا ﴾ إِلى مصارع الأمم المكذِّبة فيعتبروا بذلك .

(79/405)

﴿ ولَدَار الآخرة ﴾ يعني : الجنة ﴿ خير ﴾ من الدنيا ﴿ للذين اتقوا ﴾ الشرك .

قال الفراء : أضيفت الدار إِلى الآخرة ، وهي الآخرة ، لأن العرب قد تضيف الشيء إِلى نفسه إِذا اختلف لفظه ، كقوله : ﴿ لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة : 96] والحق : هو اليقين ، وقولهم : أتيتك عام الأول ، ويوم الخميس .

قوله تعالى : ﴿ أفلا يعقلون ﴾ قرأ أهل المدينة ، وابن عامر ، وحفص ، والمفضَّل ، ويعقوب : "تعقلون" بالتاء ، وقرأ الآخرون بالياء ، والمعنى : أفلا يعقلون هذا فيؤمنوا .

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذا استيأس الرسل ﴾ المعنى متعلق بالآية الأولى ، فتقديره : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ، فدعَوا قومهم ، فكذَّبوهم ، وصبروا وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى إِذا استيأس الرسل ، وفيه قولان :

أحدهما : استيأسوا من تصديق قومهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : من أن نعذِّب قومهم ، قاله مجاهد .

﴿ وظنوا أنهم قد كُذبوا ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "كُذِّبوا" مشددة الذال مضمومة الكاف ، والمعنى : وتيقَّن الرسل أن قومهم قد كذَّبوهم ، فيكون الظن هاهنا بمعنى اليقين ، هذا قول الحسن ، وعطاء ، وقتادة .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : "كُذِبوا" خفيفة ، والمعنى : ظن قومهم أن الرسل قد كُذِبوا فيما وُعدوا به من النصر ، لأن الرسل لا يظنون ذلك .

وقرأ أبو رزين ، ومجاهد ، والضحاك : "كَذَبوا" بفتح الكاف والذال خفيفة ، والمعنى : ظن قومهم أيضاً أنهم قد كَذَبوا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ يعني : الرسل ﴿ فنُنْجِيْ من نشاء ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : "فننجي" بنونين ، الأولى مضمومة والثانية ساكنة والياء ساكنة .

وقرأ ابن عامر، وأبو بكر، وحفص، جميعاً عن عاصم، ويعقوب: "فَنُجِّيَ" مشدده الجيم مفتوحة الياء بنون واحدة، يعني: المؤمنين، نَجَوْا عند نزول العذاب.

(80/405)

قوله تعالى: ﴿ لقد كان في قصصهم ﴾ أي: في خبر يوسف وإِخوته.

وروى عبد الوارث كسر القاف، وهي قراءة قتادة، وأبي الجوزاء.

﴿ عبرة ﴾ أي: عظة ﴿ لأولي الألباب ﴾ أي: لذوي العقول السليمة، وذلك من وجهين:

أحدهما: ما جرى ليوسف من إِعزازه وتمليكه بعد استعباده، فإِنَّ من فَعَلَ ذلك به، قادر على إِعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وتعلية كلمته.

والثاني: أن من تفكَّر، علم أن محمداً صلى الله عليه وسلم، مع كونه أمِّياً، لم يأت بهذه القصة على موافقة ما في التوراة مِنْ قِبَل نفسه، فاستدل بذلك على صحة نبوَّته.

قوله تعالى: ﴿ ما كان حديثاً يُفترى ﴾ في المشار إِليه قولان:

أحدهما: أنه القرآن، قاله قتادة.

والثاني: ما تقدم من القصص، قاله ابن إِسحاق، فعلى القول الأول، يكون معنى قوله:

﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ : ولكن كان تصديقاً لما بين يديه من الكتب ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ يُحتاج إِليه من أمور الدين ﴿ وهدىً ﴾ بياناً ﴿ ورحمةً لقوم يؤمنون ﴾ أي : يصدقون بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وعلى القول الثاني : وتفصيل كل شيء من نبأ يوسف وإِخوته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(81/405)

وقال النسفى :

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ ﴿ مِنْ أَنبَاء الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبر إن ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ لدى بني يعقوب ﴿ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ ﴾ عزموا على ما هموا به من إلقاء يوسف في البئر ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ بيوسف ويبغون له الغوائل ، والمعنى أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي لأنك لم تحضر بني يعقوب حين اتفقوا على إلقاء أخيهم في البئر ﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أراد العموم أو أهل مكة أي وما هم بمؤمنين ولو اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ على التبليغ أو على القرآن ﴿ مِنْ أَجْرٍ

﴿ جعل ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ ما هو إلا موعظة ﴿ للعالمين ﴾ وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله ﴿ وَكَأَيِّن مِن ءايَةٍ ﴾ من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده ﴿ فِى السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ على الآيات أو على الأرض ويشاهدونها ﴿ وَهُمْ عَنْهَا ﴾ عن الآيات ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ لا يعتبرون بها والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ أي وما يؤمن أكثرهم في إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السماوات والأرض إلا وهو مشرك بعبادة الوثن الجمهور على أنها نزلت في المشركين لأنهم مقرون بالله خالقهم ورازقهم ، وإذا حزبهم أمر شديد دعوا الله ومع ذلك يشركون به غيره .

ومن جملة الشرك ما يقوله القدرية من إثبات قدرة التخليق للعبد ، والتوحيد المحض ما يقوله أهل السنة وهو أنه لا خالق إلا الله .

﴿ أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿ مِّنْ عَذَابِ الله أَوْ تَأْتِيَهُمُ الساعة ﴾ القيامة ﴿ بَغْتَةً ﴾ حال أي فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها .

﴿ قُلْ هذه سَبِيلِى ﴾ هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي ، والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان .

ثم فسر سبيله بقوله ﴿ ادعوا إلى الله على بَصِيرَةٍ ﴾ أي أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء ﴿ أَنَاْ ﴾ تأكيد للمستتر في ﴿ أدعو ﴾ ﴿ وَمَنِ اتبعنى ﴾ عطف عليه أي أدعو إلى سبيل الله أنا ويدعو إليه من اتبعني ، أو ﴿ أنا ﴾ مبتدأ و ﴿ على بصيرة ﴾ خبر مقدم و ﴿ من اتبعني ﴾ عطف على ﴿ أنا ﴾ يخبر ابتداء بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى ﴿ وسبحان الله ﴾ وأنزهه عن الشركاء ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ مع الله غيره ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ لا ملائكة لأنهم كانوا يقولون لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، أو ليست فيهم امرأة ﴿ نُوحِى ﴾ بالنون حفص ﴿ إِلَيْهِمْ مّنْ أَهْلِ القرى ﴾ لأنهم أعلم وأحلم وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ أي ولدار الساعة الآخرة ﴿ خَيْرٌ لّلَّذِينَ اتقوا ﴾ الشرك وآمنوا به ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ وبالياء : مكي وأبو عمرو وحمزة وعلي .

﴿ حتى إِذَا استيئس الرسل ﴾ يئسوا من إيمان القوم ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ كذّبوا وأيقن الرسل أن قومهم كذبوهم .

وبالتخفيف : كوفي أي وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا أي أخلفوا ، أو وظن المرسل

إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل أي كذبتهم الرسل في أنهم ينصرفون عليهم ولم يصدقوهم فيه ﴿ جَاءهُمْ نَصْرُنَا ﴾ للأنبياء والمؤمنين بهم فجأة من غير احتساب ﴿ فَنُجّىَ ﴾ بنونٍ واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء : شامي وعاصم على لفظ الماضي المبني للمفعول والقائم مقام الفاعل من .

(83/405)

الباقون ﴿ فننجي ﴾ بنونين ثانيتهما ساكنة مخفاة للجيم بعدها وإسكان الياء ﴿ مَّن نَّشَاء ﴾ أي النبي ومن آمن به ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا ﴿ عَنِ القوم المجرمين ﴾ الكافرين .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ ﴾ أي في قصص الأنبياء وأممهم أو في قصة يوسف وإخوته ﴿ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الألباب ﴾ حيث نقل من غاية الحب ، إلى غيابة الجب ، ومن الحصير ، إلى السرير ، فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة ، ونهاية المكر وخامة وندامة ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يفترى ﴾ ما كان القرآن حديثاً مفترى كما زعم الكفار ﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ولكن تصديق الكتب التي تقدمته ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلّ شَىْء ﴾ يحتاج إليه في الدين لأنه القانون الذي تستند إليه السنة والإجماع والقياس ﴿ وهدى ﴾ من الضلال ﴿

وَرَحْمَةً ﴾ من العذاب ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله وأنبيائه وما نصب بعد "لكن" معطوف على خبر "كان" * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " علموا أرقاءكم سورة يوسف فأيما عبد تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً " قال الشيخ أبو منصور رحمه الله : في ذكر قصة يوسف عليه السلام وإخوته تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أذى قريش كأنه يقول : إن إخوة يوسف مع موافقتهم إياه في الدين ومع الأخوّة عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد والمكر وصبر على ذلك ، فأنت مع مخالفتهم إياك في الدين أحرى أن تصبر على أذاهم .

وقال وهب : إن الله تعالى لم ينزل كتاباً إلا وفيه سورة يوسف عليه السلام تامة كما هي في القرآن العظيم (1) ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 239 . 241 ﴾

---

(1) كلام لا يعول عليه ولا يخفى بطلانه .

(84/405)

وقال ابن جزى :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَآءِ الغيب ﴾

احتجاج على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بإخباره بالغيوب ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تأكيداً لحجته والضمير لأخوة يوسف ﴿ إِذْ أجمعوا ﴾ أي عزموا ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ يعني فعلهم بيوسف ﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس ﴾ عموم لأن الكفار أكثر من المؤمنين ، وقيل أراد أهل مكة ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ اعتراض أي لا يؤمنون ، ولو حرصت على إيمانهم ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي لست تسألهم أجراً على الإيمان ، فيثقل عليهم بسبب ذلك ، وهكذا معناه حيث وقع ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ ﴾ يعني المخلوقات والحوادث الدالة على الله سبحانه ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ نزلت في كفار العرب الذي يقرون بالله ويعبدون معه غيره ، وقيل : في أهل الكتاب لقولهم : عزير ابن الله والمسيح ابن الله ﴿ غاشية ﴾ هي ما يغشى ويعم

.

﴿ قُلْ هذه سبيلي ﴾ إشارة إلى شريعة الإسلام ﴿ أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ ﴾ أي أدعو الناس إلى عبادة الله ، وأنا على بصيرة من أمري وحجة واضحة ﴿ أَنَاْ وَمَنِ اتبعني ﴾ أنا تأكيد للضمير في أدعو ، ومن اتبعني معطوف عليه وعلى بصيرة في موضع الحال وقيل : أنا مبتدأ وعلى بصيرة خبره ، فعلى هذا يوقف على قوله أدعو إلى الله ، وهذا ضعيف ﴿ وسبحان الله ﴾ تقديره وأقول سبحان الله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ ردّ على من أنكر أن يكون النبي من البشر ، وقيل فيه إشارة إلى أنه لم يبعث رسولاً من النساء

﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقرى ﴾ أي من أهل المدن ، لا من أهل البوادي ، فإن الله لم يبعث رسولاً من أهل البادية لجفائهم .

(85/405)

﴿ حتى إِذَا استيأس الرسل ﴾ متصل بالمعنى بقوله وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً إلى قومه عاقبة الذين من قبلهم ، ويأسهم : يحتمل أن يكون من إيمان قومهم أو من النصر ، والأول أحسن ﴿ وظنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ قرئ بتشديد الذال وتخفيفها ، فأما التشديد فالضمير في ظنوا وكذبوا للرسل ، والظن يحتمل أن يكون على بابه ، أو بمعنى اليقين : أي علم الرسل أن قومهم قد كذبوهم فيئسوا من إيمانهم ، وأما التخفيف ، فالضميران فيه للقوم المرسل إليهم ، أي ظنوا أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوه من الرسالة ، أو من النصرة عليهم ﴿ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ الضمير للرسل على الإطلاق ، أو ليوسف وإخوته ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يفترى ﴾ يعني القرآن ﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ تقدم معناه في البقرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 128 . 129﴾

(86/405)

وقال البيضاوي :

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عليه الصلاة والسلام ، والخطاب فيه للرسول صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ . ﴿ مِنْ أَنبَاءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبران له . ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ كالدليل عليهما والمعنى : أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي لأنك لم تحضر إخوة يوسف حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الجب ، وهم يمكرون به وبأبيه ليرسله معهم ، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلمته منه ، وإنما حذف هذا الشق استغناء بذكره في غير هذه القصة كقوله : ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا . ﴾

﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ على إيمانهم وبالغت في إظهار الآيات عليهم . ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر .

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ على الإنباء أو القرآن . ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ من جعل كما يفعله حملة الأخبار . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ عظة من الله تعالى . ﴿ للعالمين ﴾ عامة .

﴿ وَكَأَيِّن مِن ءايَةٍ ﴾ وكم من آية . والمعنى وكأي عدد شئت من الدلائل الدالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده . ﴿ فِي السموات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا

﴿ على الآيات ويشاهدونها . ﴿ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها . وقرئ ﴿ والأرض ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿ يَمُرُّونَ ﴾ ، فيكون لها الضمير في ﴿ عَلَيْهَا ﴾ وبالنصب على ويطؤون الأرض . وقرئ و"الأرض يمشون عليها" أي يترددون فيها فيرون آثار الأمم الهالكة .

(87/405)

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ ﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيته . ﴿ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ بعبادة غيره أو باتخاذ الأحبار أرباباً . ونسبة التبني إليه تعالى ، أو القول بالنور والظلمة أو النظر إلى الأسباب ونحو ذلك . وقيل الآية في مشركي مكة . وقيل في المنافقين . وقيل في أهل الكتاب .

﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم . ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فجأة من غير سابقة علامة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها .

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ يعني الدعوة إلى التوحيد والإعداد للمعاد ولذلك فسر السبيل بقوله : ﴿ ادعوا إِلَى اللَّهِ ﴾ وقيل هو حال من الياء . ﴿ على بَصِيرَةٍ ﴾ بيان وحجة

واضحة غير عمياء . ﴿ أَنَاْ ﴾ تأكيد للمستتر في ﴿ أَدْعُو ﴾ أو ﴿ على بَصِيرَةٍ ﴾
لأنه حال منه أو مبتدأ خبره ﴿ على بَصِيرَةٍ ﴾ . ﴿ وَمَنِ اتبعنى ﴾ عطف عليه . ﴿
وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ وأنزهه تنزيهاً من الشركاء .

(88/405)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ رد لقولهم ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ ملائكة ﴾ وقيل
معناه نفي استنباء النساء ﴿ يُوحِي إِلَيْهِمُ ﴾ كما يوحي إليك ويميزون بذلك عن غيرهم .
وقرأ حفص "نُوحِي" في كل القرآن ووافقه حمزة والكسائي في سورة "الأنبياء" . ﴿ مِّنْ
أَهْلِ القرى ﴾ لأن أهلها أعلم وأحلم من أهل البدو . ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ
كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك ،
أو من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها فيقلعوا عن حبها . ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ ولدار
الحال أو الساعة أو الحياة الآخرة . ﴿ خَيْرٌ لّلَّذِينَ اتقوا ﴾ الشرك والمعاصي . ﴿ أَفَلاَ
تَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير . وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب
بالتاء حملاً على قوله : ﴿ قُلْ هذه سَبِيلِى ﴾ أي قل لهم أفلا تعقلون .

(89/405)

﴿ حتى إِذَا استيئس الرسل ﴾ غاية محذوف دل عليه الكلام أي لا يغررهم تمادي أيامهم فإن من قبلهم أمهلوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا ، أو عن إيمانهم لانهماكهم في الكفر مترفهين متمادين فيه من غير وازع . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ أي كذبتم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون ، أو كذبهم القوم بوعد الإيمان . وقيل الضمير للمرسل إليهم أي وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم بالدعوة والوعيد . وقيل الأول للمرسل إليهم والثاني للرسل أي وظنوا أن الرسل قد كذبوا وأخلفوا فيما وعد لهم من النصر وخلط الأمر عليهم . وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أن الرسل ظنوا أنهم أخلفوا ما وعدهم الله من النصر ، إن صح فقد أراد بالظن ما يهجس في القلب على طريق الوسوسة . هذا وأن المراد به المبالغة في التراخي والإِمهال على سبيل التمثيل . وقرأ غير الكوفيين بالتشديد أي وظن الرسل أن القوم قد كذبوهم فيما أوعدوهم . وقرىء ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ بالتخفيف وبناء الفاعل أي وظنوا أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به عند قومهم لما تراخى عنهم ولم يروا له أثراً . ﴿ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَاء ﴾ النبي والمؤمنين وإنما لم يعينهم للدلالة على أنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم لا يشاركهم فيه غيرهم وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب على لفظ الماضي المبني للمفعول . وقرىء فنجا . ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ القوم المجرمين ﴾ إذا نزل بهم وفيه بيانه للمشيئين ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ ﴾ في

قصص الأنبياء وأممهم أو في قصة يوسف وإخوته . ﴿ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الألباب ﴾ لذوي العقول المبرأة من شوائب الإلف والركون إلى الحس . ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يفترى ﴾ ما كان القرآن حديثاً يفترى . ﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب الإلهية . ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه في الدين إذ ما من أمر ديني إلا وله سند من القرآن بوسط أو بغير

وسط . ﴿ وهدى ﴾ من الضلال . ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ ينال بها خير الدارين . ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 310.314 ﴾

(90/405)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111) ﴾

التفسير : ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكر من نبأ يوسف هو من أخبار الغيب وقد مر تفسير مثل

هذا في آخر قصة زكريا في سورة آل عمران . ومعنى إجماع الأمر العزم عليه كما مر في سورة يونس في قصة نوح. وأراد عزمهم على إلقاء يوسف في البئر وهو المكر بعينه وذلك مع سائر الغوائل من المجيء على قميصه بدم كذب ومن شراهم إياه بثمن بخس . قال أهل النظم : إن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت ، فاعتقد رسول الله أنه إذا ذكرها فربما أمنوا فلما ذكرها لهم أصروا على كفرهم فنزل : ﴿ وما أكثر الناس ﴾ أي أكثر خلق الله المكلفين أو أكثر أهل مكة قاله ابن عباس . ﴿ ولو حرصت ﴾ جوابه مثل ما تقدم أي ولو حرصت فما هم ﴿ بمؤمنين ﴾ والحرص طلب الشيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد ونظير الآية قوله : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ [القصص : 56] ﴿ وما تسألهم عليه ﴾ على ما تحدثهم به ﴿ من أجر ﴾ كما سأل القاص ﴿ إن هو إلا ذكر ﴾ عظة من الله ﴿ للعالمين ﴾ عامة على لسان رسوله . ﴿ وكأين من آية ﴾ الأكثرون على أنه لفظ مركب من كاف التشبيه وأيّ التي هي في غاية الإبهام إذا قطعت عن الإضافة لكنه انمحى عن الجزأين معناهما الإفرادي وصار المجموع كاسم مفرد بمعنى "كم" الخبرية .

والتمييز عن الكاف لا عن أي كما في مثلك رجلاً ، والأكثر إدخال " من " في تمييزه وقد مر في سورة البقرة في تفسير قوله سبحانه : ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ ﴿ الآية : 164] وفي مواضع أخر تفصيل بعض الآيات السماوية والأرضية الدالة على توحيد الصانع وصفات جلاله . ومن جلمة الآيات قصص الأوّلين وأحوال الأقدمين . ومعنى ﴿ يمرون عليها ﴾ أشياء يشاهدونها ﴿ وهم عنها معرضون ﴾ لا يعتبرون بها . وقرىء ﴿ والأرض ﴾ بالرفع على الابتداء خبره ﴿ يمرون ﴾ والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر . والحاصل أن جملة العالم العلوي والعالم السفلي محتوية على الدلائل والبينات على وجود الصانع ونعوت كماله ولكن الغافل يتعامى عن ذلك . ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ وذلك أنهم كانوا مقرين بالإله ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [لقمان : 25] لكنهم كانوا يثبتون له شريكاً في المعبودية هو الأصنام ويقولون : هم الشفعاء . وكان أهل مكة يقولون : الملائكة بنات الله . وعن الحسن : هم أهل الكتاب يقولون عزير ابن الله والمسيح ابن الله . وعن ابن عباس : هم الذين يشبهون الله بخلقه . احتجت الكرامية بالآية على أن الإيمان عبارة عن مجرد الإقرار . والجواب أن مجرد الإقرار لو كان كافياً لما اجتمع مع الشرك غاشية عقوبة تغشاهم وتغمرهم . ﴿ قل ﴾ يا محمد لهم ﴿ هذه ﴾ السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان ﴿ سبيلي ﴾ وسيرتي وقوله ﴿ أدعوا إلى الله ﴾ تفسير ل ﴿ سبيلي ﴾ و ﴿ على بصيرة

﴿ يتعلق بأدعوا و ﴿ أنا ﴾ تأكيد للمستتر في أدعو ﴿ ومن اتبعن ﴾ عطف عليه ويجوز أن يكون ﴿ على بصيرة ﴾ حالاً من أدعو عاملة في ﴿ أنا ومن اتبعن ﴾ ، ويجوز أن يكون ﴿ أنا ﴾ مبتدأ معطوفاً عليه و ﴿ من اتبعن ﴾ و ﴿ على بصيرة ﴾ خبراً مقدماً فيكون ابتداء إخبار بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى وتشهٍ ﴿ و ﴾ قل ﴿ سبحان الله ﴾ تنزيهاً له عما أشركوا ﴿ وما أنا

(92/405)

من المشركين ﴾ لا شركاً جلياً ولا شركاً خفياً .

قال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ وفي " الأنبياء " ﴿ قبلك ﴾ [الأنبياء : 7] بغير " من " لأن قبلاً اسم للزمان السابق على ما أضيف إليه و " من " تفيد استيعاب الطرفين ، وفي هذه السورة أريد الاستيعاب . قوله : ﴿ إلا رجالاً ﴾ ردّ على من زعم أن الرسول ينبغي أن يكون ملكاً أو يمكن أن يكون امرأة مثل سجاح المتنبئة . وقوله : ﴿ من أهل القرى ﴾ خصهم بالاستنباء لما في أهل البادية في الغلظ والجفاء ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ [آل عمران : 159] قال صلى الله عليه وسلم : " من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل " ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا ﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة إنما قال : ﴿ أفلم يسيروا ﴾

بالفاء بخلاف ما في " الروم " والملائكة لاتصاله بقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ فكان الفاء أنسب من الواو ﴿ ولدار الآخرة ﴾ موصوفه محذوف أي ولدار الساعة والحال الآخرة لأن للناس حالين : حال الدنيا وحال الآخرة .

(93/405)

وبيان الخيرية قد مر في " الأنعام " . وإنما خصت ههنا بالحذف لتقدم ذكر الساعة . قال في الكشاف : حتى غاية لمحذوف دل عليه الكلام والتقدير فتراخى نصر أولئك الرجال حتى إذا استيأسوا عن النصر أو عن إيمان القوم ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ فيه وجوه لقراءتي التخفيف والتشديد ولإمكان عود الضمير في الفعلين إلى الرسل أو إلى المرسل إليهم الدال عليهم ذكر الرسل أو السابق ذكرهم ﴿ أفلم يسيروا ﴾ وأما وجوه التخفيف فمنها : وظن الرسل أنهم قد كذبوا أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون ، أو كذب رجاؤهم لقولهم رجاء صادق وكاذب . والمراد أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله قد تطاولت وتمادت حتى توهموا أن لا نصر لهم في الدنيا . قال ابن عباس : ظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر . قال : وكانوا بشراً ألا ترا إلى قوله : ﴿ وزلزلوا ﴾ والعلماء حملوا قول ابن عباس على ما يخطر بالبال

شبه الوسواس وحديث النفس من عالم البشرية . وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجانبين على الآخر فلا ، لأن الرسل أعرف الناس بالله وبأن ميعاده مبرأ عن وصمة الأخلاف . ومنها وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر . ومنها وظن المرسل إليهم أنهم قد كذبوا من جهة الرسل أي كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليه ولم يصدقوهم فيه . وأما قراءة التشديد فإن كان الظن بمعنى اليقين فمعناه أيقن الرسل أن الأمم كذبوهم تكذيباً لا يصدر عنهم الإيمان بعد فحينئذ دعوا عليهم فهنالك نزل عذاب الاستئصال ، أو كذبوهم فيما وعدوهم من العذاب والنصرة عليهم . وإن كان بمعنى الحسبان فالمعنى توهم الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم وهذا تأويل عائشة قالت : ما وعد الله محمداً شيئاً إلا وعلم أنه سيوفيه ، ولكن البلاء لم يزل بالأنبياء حتى خافوا من أن يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم .

﴿ لقد كان في قصصهم ﴾ قصص الرسل إضافة للمصدر إلى الفاعل ، ويحسن أن يقال : الضمير لإخوة يوسف وله لاختصاص هذه السورة بهم . والعبرة نوع من الاعتبار وهي العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول ، ووجه الاعتبار على العموم أن يعلم أنه لا خير

إلا في العمل الصالح والتزوّد بزاد التقوى فإن الملوك الذي عمروا البلاد وقهروا العباد ثم لم يراعوا حق الله في شيء من ذلك ماتوا وانقرضوا وبقي الوزر والوبال عليهم . وعلى الخصوص أن الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب وإعلاء شأنه بعد حبسه في السجن واجتماعه بأهله بعد طول البعاد قادر على إظهار محمد وإعلاء كلمته .

والكل مشترك في الدلالة على صدق محمد لأن هذا النوع من القصص الذي أعجز حملة الأحاديث ورواة الأخبار ممن لم يطالع الكتب ولم يخالط العلماء دليل ظاهر وبرهان باهر على أنه بطريق الوحي والتنزيل ، وإنما يكون دليلاً واعتباراً ﴿ لأولي الألباب ﴾ وأصحاب العقول الذين يتأملون ويتفكرون لا الذين يمرون ويعرضون على أن الدليل دليل في نفسه للعقلاء وإن لم ينظر فيه مستدل قط كما أن الرئيس الحقيقي من له أهلية الرياسة وإن كان في نهاية الخمول ﴿ ما كان ﴾ مدلول القصص وهو المقصوص أو القرآن ﴿ حديثاً يفترى ﴾ لظهور إعجازه ﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ تصديق الذي بين يديه ﴾ من الكتب السماوية ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ يحتاج إليه في الدين لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس . وقيل : تفصيل كل شيء من واقعة يوسف مع أبيه وإخوته قال الواحدي : وعلى التفسيرين فهو ليس على عمومه لأن المراد به الأصول والقوانين وما يؤل إليها ﴿ وهدى ﴾ في الدنيا ﴿ ورحمة ﴾ في الآخرة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لأنهم هم المنتفعون بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 134.131 ﴾

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) ﴾

ولما تمّ الذي كان من أمر يوسف عليه السلام وإخوته على الوجه الأحكم ، والصراط الأقوم من ابتدائه إلى انتهائه قال تعالى مشيراً إلى أنه دليل كاف في تصحيح نبوّته صلى الله عليه وسلم بقوله :

﴿ ذلك ﴾ ، أي : الذي ذكرته لك يا محمد من قصة يوسف عليه السلام وما جرى له مع إخوته ، ثم صار إلى الملك بعد الرق ﴿ من أنباء الغيب ﴾ ، أي : أخبار ما غاب عنك ﴿ نوحيه إليك ﴾ ، أي : الذي أخبرناك به من أخبار يوسف وحي أوحيناه إليك ﴿ و ﴾ الحال إنك ﴿ ما كنت لديهم ﴾ ، أي : عند إخوة يوسف عليه السلام ﴿ إذ ﴾ ، أي : حين ﴿ أجمعوا أمرهم ﴾ ، أي : عزموا على أمر واحد ، وهو إلقاء يوسف في الجب ﴿ وهم يمكرون ﴾ ، أي : يدبرون الأذى في الخفية بيوسف ، والمعنى أنّ هذا النبأ غيب ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولا تلمذ لأحد ، ولا كانت البلدة بلدة العلماء ،

وإتيانه صلى الله عليه وسلم بهذه القصة الطويلة على وجه لا يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ، ومن غير أن يقال : إنه حاضر معهم لا بدّ وأن يكون معجزاً وقوله تعالى : ﴿ وما كنت لديهم ﴾ ذكر على سبيل التهكم بهم ؛ لأنّ كل أحد يعلم أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم ما كان معهم ، ولما سألت قريش واليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نقله أبو حيان عن ابن الأنباري عن قصة يوسف عليه السلام ، فنزلت مشروحة هذا الشرح الشافي مبينة هذا البيان الوافي فأمّل صلى الله عليه وسلم أن يكون ذلك سبب إسلامهم فخالفوا تأميله عزاه الله تعالى بقوله:

(96/405)

﴿ وما أكثر الناس ﴾ ، أي : أهل مكة ﴿ ولو حرصت ﴾ على إيمانهم ﴿ بمؤمنين ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر وكان ذلك إشارة إلى ما ذكر الله تعالى في قوله تعالى :

﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء ﴾ (القصص ،) ثم نفى عنه التهمة بقوله تعالى:

﴿ وما تسألهم عليه ﴾ ، أي : على تبليغ هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك وأغرق في النفي فقال : ﴿ من أجر ﴾ حتى يكون سؤالك سبباً لأن يتهموك أو يقولوا : لولا أنزل عليه كنز

ليستغن به عن سؤالنا ، ثم نفى عن هذا الكتاب كل غرض دنيوي بقوله تعالى : ﴿ إن هو إلا ذكر ﴾ ، أي : عظة من الله تعالى ﴿ للعالمين ﴾ عامّة ، ثم إنّ الله تعالى أخبر عنهم أنهم لما تأمّلوا الآيات الدالة على توحيده تعالى بقوله تعالى:

﴿ وكأين ﴾ ، أي : وكم ﴿ من آية ﴾ دالة على وحدانية الله تعالى ﴿ في السموات ﴾ كالنيرين وسائر الكواكب والسحاب وغير ذلك مما لا يحصيه إلا الله تعالى ﴿ والأرض ﴾ من الجبال والشجر والدوابّ وغير ذلك مما لا يحصيه إلا الله تعالى ﴿ يمرّون عليها ﴾ ، أي : يشاهدونها ﴿ وهم عنها معرضون ﴾ ، أي : لا يتفكرون فيها فلا عجب إذا لم يتأمّلوا في الدلائل على نبوّتك ، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، ثم إنهم يمرّون عليها ولا يلتفتون إليها . ولما كان ربما قيل : كيف يوصفون بالإعراض وهم يعتقدون أنّ الله تعالى فاعل تلك الآيات ؟ بين أنّ إشراكهم سقط لذلك بقوله تعالى:

(97/405)

﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله ﴾ حيث يقرّون بأنه الخالق الرازق ﴿ إلا وهم مشركون ﴾ بعبادته الأصنام قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله ﴾ (الزخرف ،) لكنهم كانوا يثبتون شريكاً في العبودية . وعن ابن عباس أنّ هذه الآية نزلت في تلبية مشركي العرب

كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك يعنون الأصنام . وعنه أيضاً أنّ أهل مكة قالوا : الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا بل أشركوا ، وقال عبدة الأصنام : ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده ، وقالت اليهود : ربنا الله وحده وعزير ابن الله . وقالت النصارى : المسيح ابن الله . وقال عبدة الشمس والقمر : ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا ، وقال المهاجرون والأنصار : ربنا الله وحده لا شريك له ، ولما كان أكثر هؤلاء لا ينقادون إلا بالعذاب قال تعالى:

﴿ أفأمنوا ﴾ إنكار فيه معنى التوبيخ والتهديد ﴿ أن تأتيهم ﴾ في الدنيا ﴿ غاشية ﴾ ، أي : نقمة تغشاهم وتشملهم ﴿ من عذاب الله ﴾ ، أي : الذي له الأمر كله كما أتى من ذكرنا قصصهم من الأمم ﴿ أو تأتيهم الساعة بغتة ﴾ ، أي : فجأة وهم عنها في غاية الغفلة وقوله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ ، أي : بوقت إتيانها قبله كالتأكيد لقوله ﴿ بغتة ﴾ . ولما كان صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن الله تعالى أمره أن يأمرهم باتباعه بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ يا أعلى الخلق وأصفاهم وأعظمهم نصحاً وإخلاصاً ﴿ هذه ﴾ ، أي : الدعوة إلى الله تعالى التي أدعو إليها ﴿ سبيلي ﴾ ، أي : طريقتي التي أدعو إليها الناس ، وهي

توحيد الله تعالى ودين الإسلام وسمي الدين سبيلاً ؛ لأنه الطريق المؤدّي إلى ثواب الجنة ﴿ أدعو إلى الله ﴾ ، أي : إلى توحيده والإيمان به ﴿ على بصيرة ﴾ ، أي : حجة واضحة وقوله ﴿ أنا ﴾ تأكيد للمستتر في أدعو على بصيرة ؛ لأنه حال منه أو مبتدأ خبره على بصيرة وقوله : ﴿ ومن اتبعني ﴾ ، أي : ممن آمن بي وصدق بما جاءني عطف عليه ؛ لأنّ كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدور وسعه إلى الله ، وهذا دلّ على أن الدعاء إلى الله إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول ويقين ، فإن لم يكن كذلك وإلا فهو محض الغرور ، وقال صلى الله عليه وسلم "العلماء أمناء الرسل على عباد الله" من حيث يحفظون ما يدعون إليه .

فائدة : جميع القراء يثبتون الياء وقفاً ووصلاً لثباتها في الرسم ﴿ وسبحان ﴾ ، أي : وقل سبحان ﴿ الله ﴾ تنزيهاً له تعالى عما يشركون به ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ ، أي : الذين اتخذوا مع الله ضدّاً ونداً ، ولما قال أهل مكة للنبيّ صلى الله عليه وسلم هلا بعث الله ملكاً ؟ قال تعالى:

﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ إلى المكلفين ﴿ إلا رجالاً ﴾ ، أي : مثل ما أنك رجل لا ملائكة ولا إناثاً كما قاله ابن عباس ، ولا من الجنّ كما قاله الحسن ، ﴿ يوحى إليهم ﴾ ، أي : بواسطة الملائكة مثل ما يوحي إليك . وقرأ حفص قبل الواو بالنون وكسر الحاء ، والباقون بالياء وفتح الحاء وضم الهاء من إليهم حمزة على أصله ، وكسرها الباقون ﴿ من أهل القرى ﴾ ، أي : من أهل الأمصار والمدن المبنية بالمدر والحجر ونحوه لا من أهل البوادي ؛ لأنّ أهل الأمصار أفضل وأعلم وأكمل وأعقل من أهل البوادي ، ومكة أم القرى ؛ لأنها مجمع لجميع الخلائق لما أمروا به من حج البيت وكان العرب كلهم يأتونها فكيف تعجبوا في حقك ؟ قال الحسن : لم يبعث الله نبياً من البادية لغلظهم وجفائهم ، ثم هدّدهم سبحانه وتعالى بقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا ﴾ ، أي : هؤلاء المشركون المكذبون ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ من المكذبين للرسل والآيات فيحذروا تكذيبك ويعتبروا بهم وبما حلّ بهم من عذابنا . ولما أنّ الله تعالى نجى المؤمنين عند نزول العذاب بالأمم الماضية المكذبة وما في الآخرة خير لهم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ ولدار الآخرة ﴾ ، أي : ولدار الحال الآخرة أو الساعة الآخرة أو الحياة الآخرة ﴿ خير ﴾ وهي الجنة ﴿ للذين اتقوا ﴾ الله من حياة مآلها الموت ، وإن فرحوا فيها بالمحال وإن امتدّت ألف عام وكان عيشها كله رغداً من غير آلام ﴿ أفلا يعقلون ﴾ فيستعملون عقولهم فيتبعون

الداعي إلى هذا السبيل الأقوم . وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتاء على الخطاب لأهل مكة ، والباقون بالياء على الغيبة لهم وللمشركين المكذبين وقوله تعالى :

﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ غاية لمحذوف دلّ عليه الكلام ، أي : لا يغررهم تمادي أيامهم فإنّ من قبلهم أمهلوا حتى أيس الرسل من النصر عليهم في الدنيا ومن إيمانهم لانهماكهم في الكفر مترفين متمادين فيه من غير وازع ﴿ وظنوا ﴾ ، أي : أيقن الرسل ﴿ أنهم قد كذبوا ﴾ بالتشديد كما قرأه غير حمزة وعاصم والكسائي تكذيباً لا إيمان بعده ، وأمّا بالتخفيف كما قرأه هؤلاء فالمعنى أنّ الأمم ظنوا أنّ الرسل قد أخلفوا ما وعدوا به من النصر عليهم ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ لهم بخذلان أعدائهم ﴿ فنجي من نشاء ﴾ ، أي : النبيّ والمؤمنون ، وقرأ ابن عامر وعاصم بنون مضمومة بعدها جيم مشدّدة وياء بعد الجيم مفتوحة ، والباقون بنونين الأولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الجيم وسكون الياء ﴿ ولا يرد بأسنا ﴾ ، أي : عذابنا ﴿ عن القوم المجرمين ﴾ ، أي : المشركين ما نزل بهم .

ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه القصص وحث على الاعتبار بها بقوله : ﴿ أفلم يسيروا ﴾ أتبعه بأنّ في أحاديثهم أعظم عبرة فقال حثا على تأملها والاستبصار بها :

﴿ لقد كان في قصصهم ﴾ ، أي : يوسف وإخوته أو في قصص الرسل ﴿ عبرة ﴾ ، أي : عظة عظيمة ﴿ لأولي الألباب ﴾ ، أي : لذوي العقول المبرأة من شوائب الكدر ويعتبرون بها إلى ما يسعدهم ؛ لأنّ من قدر على ما قص من أمر يوسف عليه السلام لقادر على أن يعز محمداً صلى الله عليه وسلم ويعلي كلمته وينصره على من عاداه كائناً من كان كما فعل بيوسف وغيره .

(101/405)

ولما كان من أجل العبرة في ذلك القطع بحقية القرآن نبه تعالى على ذلك بتقدير سؤال فقال تعالى : ﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ ، أي : يختلق ؛ لأنّ الذي جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفتريه ؛ لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لأحد ، ولم يخالط العلماء ، فمن المحال أن يفتري هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما رأوه في التوراة من غير تفاوت كما يعلم من قوله تعالى : ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ ، أي : من الكتب الإلهية المنزلة من السماء كالتوراة والإنجيل ، ففي ذلك إشارة إلى أنّ هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة من ذكر قصة يوسف عليه السلام ﴿ و ﴾ زاد على ذلك بقوله ﴿ تفصيل ﴾ ، أي : تبيين ﴿ كل شيء ﴾ ، أي : يحتاج إليه من الدين إذ ما من أمر

دينيّ إلا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط ، وقيل : المراد تفصيل كل شيء من واقعة يوسف مع أبيه وإخوته .

قال الواحدي : وعلى التفسيرين جميعاً فهو من العامّ الذي أريد به الخاص كقوله تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ (الأعراف ،) ، أي : يجوز أن يدخل فيها وقوله تعالى : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ (النمل ،) . ﴿ وهدى ﴾ من الضلال ﴿ ورحمة ﴾ ينال بها خير الدارين ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ ، أي : يصدّقون خصهم بالذكر ؛ لأنهم هم الذين انتفعوا به كقوله تعالى ﴿ هدى للمتقين ﴾ فسبحان من أنزله معجزاً باهراً وقاضياً بالحق لا يزال ظاهراً ، وما رواه البيضاويّ تبعاً ل"الكشاف" من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "علموا أرقاءكم سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوّة أن لا يحسد أحداً" حديث موضوع والله أعلم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 204 . 208 ﴾

(102/405)

وقال صاحب الميزان فى الآيات السابقة :

﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾

(بيان) ختام قصة يوسف (عليه السلام) وتتضمن الآيات أمر يوسف اخوته بحمل قميصه إلى ابيه واتيانهم إليه باهلهم اجمعين ثم دخولهم مصر ولقاؤه ابويه .

قوله تعالى : " اذهبوا بقميصي هذا والقوه على وجه أبى يات بصيرا واتونى باهلكم اجمعين " تتمة كلام يوسف (عليه السلام) يامر فيه اخوته ان يذهبوا بقميصه إلى ابيه فيلقوه على وجهه ليشفى الله به عينيه وياتى بصيرا بعد ما صار من كثرة الحزن والبكاء ضريرا لا يبصر .

وهذا آخر العنايات البديعة التى اظهرها الله سبحانه في حق يوسف (عليه السلام) على ما يقصه في هذه السورة مما غلب الله الأسباب فحولها إلى خلاف الجهة التى كانت تجرى إليها حسده اخوته فاستذلوه وغربوه عن مستقره بالقائه في الجب وبيعه من السيارة بثمن بخس فجعل الله سبحانه هذا السبب بعينه سببا لقراره في بيت عزيز مصر في اكرم مثوى ثم اقره في اريكة عزة تضرع إليه امامها اخوته بقولهم " يا ايها العزيز مسنا واهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فاوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين " .

ثم احبته امراة العزيز ونسوة مصر فراودنه عن نفسه ليوردنه في مهلكة الفجور فحفظه الله وجعل ذلك سببا لظهور براءة ساحته وكمال عفته ثم استذلوه فسجنوه فجعله الله سببا لعزته وملكه .

وجاء اخوته إلى ابيه يوم القوة في غيابة الجب بقميصه الملطخ بالدم فاخبروه بموته كذبا فكان

القميص سببا لحزن ابيه وبكائه في فراق ابنه حتى ابيضت عيناه وذهب بصره فرد الله سبحانه به بصره إليه وبالجملة اجتمعت الأسباب على خفضه واراد الله سبحانه رفعه فكان ما اراده الله دون الذى توجهت إليه الأسباب والله غالب على امره .

(103/405)

وقوله " وآتوني باهلكم اجمعين " أمر منه بانتقال بيت يعقوب من يعقوب واهله وبنيه وذراريه جميعا من البدو إلى مصر ونزولهم بها .

قوله تعالى : " ولما فصلت العير قال ابوهم انى لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون " الفصل القطع والانقطاع والتفنيد تفعيل من الفند بفتحتين وهو ضعف الراى والمعنى لما خرجت العير الحاملة لقميص يوسف من مصر وانقطعت عنها قال ابوهم يعقوب لمن عنده من بنيه انى لاجد ريح يوسف لولا ان ترمونى بضعف الراى أي انى لاحس بريحه وارى ان اللقاء قريب ومن حقه ان تذعنوا بما اجده لولا ان تخطئونى لكن من المحتمل ان تفندونى فلا تذعنوا بقولى .

قوله تعالى : " قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم " القديم مقابل الجديد والمراد به المتقدم وجودا وهذا ما واجهه به بعض بنيه الحاضرين عنده وهو من سئ حظهم في هذه القصة

تفوهوا بمثله في بدء القصة إذ قالوا " ان ابانا لفى ضلال مبين " وفي ختمها وهو قولهم هذا " تالله انك لفى ضلالك القديم .

" والظاهر ان مرادهم بالضلال ههنا هو مرادهم بالضلال هناك وهو المبالغة في حب يوسف وذلك انهم كانوا يرون انهم احق بالحب من يوسف وهم عصبة إليهم تدبير بيته والدفاع عنه لكن اباهم قد ضل عن مستوى طريق الحكمة وقدم عليهم في الحب طفلين صغيرين لا يغنيان عنه شيئا فاقبل بكله اليهما ونسيهم ثم لما فقد يوسف جزع له ولم يزل يجزع ويبكى حتى ذهبت عيناه وتقوس ظهره .

فهذا هو مرادهم من كونه في ضلاله القديم ليسوا يعنون به الضلال في الدين حتى يصيروا بذلك كافرين .

اما أولا فلان ما ذكر من فصول كلامهم في خلال القصة يشهد على انهم كانوا موحدين على دين آبائهم إبراهيم واسحاق ويعقوب (عليه السلام) .

(104/405)

واما ثانيا فلان المقام ههنا وكذا في بدء القصة حين قالوا ان ابانا لفى ضلال مبين لا مساس له بالضلال في الدين حتى يحتمل رميهم اباهم فيه وانما يمس امرا عمليا حيويا وهو حب اب

لبعض اولاده وتقديمه في الكرامة على آخرين فهو المعني بالضلال .

قوله تعالى : " فلما ان جاء البشير القاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم اقل لكم انى اعلم من الله ما لا تعلمون " البشير حامل البشارة وكان حامل القميص وقوله " ألم اقل لكم انى اعلم " يشير (عليه السلام) إلى قوله لهم حين لاموه على ذكر يوسف " انما اشكوا بثى وحزني إلى الله واعلم من الله ما لا تعلمون " ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : " قالوا يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين " القائلون بنو يعقوب بدليل قولهم يا ابانا ويريدون بالذنوب ما فعلوه به في أمر يوسف واخيه واما يوسف فقد كان استغفر لهم قبل .

قوله تعالى : " قال سوف استغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم " اخر (عليه السلام) الاستغفار لهم كما هو مدلول قوله سوف استغفر لكم ربى ولعله انما اخره ليتم له النعمة بلقاء يوسف وتطيب نفسه به كل الطيب بنسيان جميع آثار الفراق ثم يستغفر لهم وفى بعض الاخبار انه اخره إلى وقت يستجاب فيه الدعاء وسيجئ ان شاء الله .

قوله تعالى : " ولما دخلوا على يوسف آوى إليه ابويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين " في الكلام حذف والتقدير فخرج يعقوب وآله من ارضهم وساروا إلى مصر ولما دخلوا الخ

وقوله " آوى إليه ابويه " فسروه بضمهما إليه وقوله وقال ادخلوا مصر الخ ظاهر في ان يوسف خرج من مصر لاستقبالهما وضمهما إليه هناك ثم عرض لهما دخول مصر اكراما وتأدبا وقد ابدع (عليه السلام) في قوله " ان شاء الله آمنين " حيث اعطاهم الأمن واصدر لهم حكمه على سنة الملوك وقيد ذلك بمشية الله سبحانه للدلالة على ان المشية الإنسانية لا تؤثر اثرها كسائر الأسباب الا إذا وافقت المشية الإلهية على ما هو مقتضى التوحيد الخالص وظاهر هذا السياق انه لم يكن لهم الدخول والاستقرار في مصر الا بجواز من ناحية الملك ولذا اعطاهم الامن في مبتدء الأمر .

وقد ذكر سبحانه ابويه والمفسرون مختلفون في انهما كانا والديه اباه وامه حقيقة أو انهما يعقوب وزوجه خالة يوسف بالبناء على ان امه ماتت وهو صغير ولا يوجد في كلامه تعالى ما يؤيد احد المحتملين غير ان الظاهر من الابوين هما الحقيقيان .

ومعنى الآية ولما دخلوا أي ابواه واخوته واهلهم على يوسف وذلك في خارج مصر آوى وضم إليه ابويه وقال لهم مؤمنا لهم ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين .

قوله تعالى : " ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا ابت هذا تأويل رؤياي " إلى آخر الآية العرش هو السرير العالي ويكثر استعماله فيما يجلس عليه الملك ويختص به والخرور السقوط على الأرض والبدو البادية فان يعقوب كان يسكن البادية .

وقوله ورفع ابويه على العرش أي رفع يوسف ابويه على عرش الملك الذى كان يجلس عليه ومقتضى الاعتبار وظاهر السياق انهما رفعا على العرش بامر من يوسف تصداه خدمه لا هو بنفسه كما يشعر به قوله وخروا له سجدا فان الظاهر ان السجدة انما وقعت لاول ما طلع عليهم يوسف فكأنهم دخلوا البيت واطمان بهم المجلس ثم دخل عليهم يوسف فغشيهم النور الإلهى المتلالئ من جماله البديع فلم يملكوا انفسهم دون ان خروا له سجدا .

(106/405)

وقوله وخروا له سجدا الضمير ليوسف كما يعطيه السياق فهو المسجود له وقول بعضهم ان الضمير لله سبحانه نظرا إلى عدم جواز السجود لغير الله لا دليل عليه من جهة اللفظ وقد وقع نظيره في القرآن الكريم في قصة آدم والملائكة قال تعالى

: " واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس " طه : 116 .

والدليل على انها لم تكن منهم سجدة عبادة ليوسف ان بين هؤلاء الساجدين يعقوب (عليه السلام) وهو ممن نص القرآن الكريم على كونه مخلصا بالفتح لله لا يشرك به شيئا ويوسف (عليه السلام) وهو المسجود له منهم بنص القرآن وهو القائل لصاحبيه في السجن ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ ولم يردعهم .

فليس الا انهم انما اخذوا يوسف آية لله فاتخذوه قبلة في سجدتهم وعبدوا الله بها لا غير كالكعبة التى تؤخذ قبلة فيصلى إليها فيعبد بها الله دون الكعبة ومن المعلوم ان الآية من حيث انها آية لا نفسية لها اصلا فليس المعبود عندها الا الله سبحانه وتعالى وقد تكرر الكلام في هذا المعنى فيما تقدم من اجزاء الكتاب .

ومن هنا يظهر ان ما ذكروه في توجيه الآية كقول بعضهم ان تحية الناس يومئذ كانت هي السجدة كما انها في الإسلام السلام وقول بعضهم ان سنة التعظيم كانت إذ ذاك السجدة ولم ينه عنها لغير الله بعد كما في الإسلام وقول بعضهم كان سجودهم كهيئة الركوع كما يفعله الا عاجم كل ذلك غير وجيه .

قوله تعالى : " قال يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربى حقا " إلى آخر الآية لما شاهد (عليه السلام) سجدة ابويه واخوته الاحد عشر ذكر الرؤيا التى راى فيها احد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين واخبر بها اباه وهو صغير فأولها له فاشار إلى سجودهم له وقال " يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها أي الرؤيا ربى حقا " .

ثم اثنى على ربه شاكرا له فقال " وقد احسن بى إذ اخرجني من السجن " فذكر احسان ربه به في اخراجه من السجن وهو ضراء وبلاء دفعه الله عنه بتبديله سراء ونعمة من حيث لا يحتسب حيث جعله وسيلة لنيله العزة والملك .

ولم يذكر اخراجه من الجب قبل ذلك لحضور اخوته عنده وكان لا يريد ان يذكر ما يسوؤهم ذكره كرما وفتوة بل اشار إلى ذلك باحسن لفظ يمكن ان يشار به إليه من غير ان يتضمن طعنا فيهم وشنآنا فقال " وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى " والنزغ هو الدخول في أمر لافساده .

والمراد وقد احسن بى من بعد ان افسد الشيطان بينى وبين اخوتى فكان من الأمر ما كان فأدى ذلك إلى فراق بينى وبينكم فساقنى ربى إلى مصر فأقرنى في ارغد عيش وارفع عزة وملك ثم قرب بيننا بنقلكم من البادية الي في دار المدنية والحضارة .

يعنى انه كانت نوائب نزلت بى اثر افساد الشيطان بينى وبين اخوتى ومما اخصه بالذكر من بينها فراق بينى وبينكم ثم رزية السجن فاحسن بى ربى ودفعها عنى واحدة بعد أخرى ولم يكن من المحن والحوادث العادية بل رزايا صماء وعقودا لا تنحل لكن ربى نفذ فيها بلطفه ونفوذ قدرته فبدلها اسباب حياة ونعمة بعد ما كانت اسباب هلاك وشقاء ولهذه الثلاثة الاخيرة عقب قوله " وقد احسن بى " الخ بقوله ان ربى لطيف لما يشاء .

فقوله ان ربى لطيف لما يشاء تعليل لاخراجه من السجن ومجيئهم من البدو ويشير به إلى ما

خصه الله به من العناية والمنة وان البلايا التى احاطت به لم تكن لتنحل عقدتها أو لتنحرف عن مجراها لكن الله لطيف لما يشاء نفذ فيها فجعل عوامل الشدة عوامل رخاء وراحة واسباب الذلة والرقية وسائل عزة وملك .

(108/405)

واللطيف من اسمائه تعالى يدل على حضوره واحاطته تعالى بما لا سبيل إلى الحضور فيه والاحاطة به من باطن الأشياء وهو من فروع احاطته تعالى بنفوذ القدرة والعلم قال تعالى : " ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " الملك : 14 والأصل في معناه الصغر والدقة والنفوذ يقال لطف الشئ بالضم يلطف لطافة إذا صغر ودق حتى نفذ في المجاري والثقب الصغار ويكنى به عن الارفاق والملاءمة والاسم اللطف .

وقوله " وهو العليم الحكيم تعليل لجميع ما تقدم من قوله " يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربى حقا " الخ وقد علل (عليه السلام) الكلام وختمه بهذين الاسمين محاذاة لأبيه حيث تكلم في رؤياه وقال " وكذلك يجتبيك ربك إلى ان قال إن ربك عليم حكيم " وليس يبعد ان يفيد اللام في قوله العليم الحكيم معنى العهد فيفيد تصديقه لقول ابيه (عليه السلام) والمعنى وهو ذاك العليم الحكيم الذى وصفته لى يوم اولت رؤياي .

قوله تعالى : " رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث " إلى آخر الاية لما اثنى (عليه السلام) على ربه وعد ما دفع عنه من الشدائد والنوائب اراد ان يذكر ما خصه به من النعم المثبتة وقد هاجت به المحبة الإلهية وانقطع بها عن غيره تعالى فترك خطاب ابيه وانصرف عنه وعن غيره ملتفتا إلى ربه وخاطب ربه عز اسمه فقال " رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث .

" وقوله فاطر السموات والأرض انت وليي في الدنيا والاخرة " اضراب وترق في الثناء ورجوع منه (عليه السلام) إلى ذكر أصل الولاية الإلهية بعد ما ذكر بعض مظاهرها الجليلة كاخراجه من السجن والمجئ باهله من البدو وايتائه من الملك وتعليمه من تأويل الاحاديث فان الله سبحانه رب فيما دق وجل معا ولى في الدنيا والاخرة جميعا .

(109/405)

وولايته تعالى اعني كونه قائما كل شئ في ذاته وصفاته وافعاله منشأها ايجاده تعالى اياها جميعا واظهاره لها من كتم العدم فهو فاطر السموات والأرض ولذا يتوجه إليه تعالى قلوب اوليائه والمخلصين من عباده من طريق هذا الاسم الذى يفيد وجوده تعالى لذاته وايجاده لغيره قال تعالى : " قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض " إبراهيم : 10 .

ولذا بدء به يوسف (عليه السلام) وهو من المخلصين في ذكر ولايته فقال " فاطر السموات والأرض انت وليى في الدنيا والاخرة " أي انى تحت ولايتك التامة من غير ان يكون لى صنع في نفسي واستقلال في ذاتي وصفاتي وافعالي أو املك لنفسي شيئًا من نفع أو ضر أو موت أو حياة أو نشور .

وقوله : " توفنى مسلما والحقني بالصالحين " لما استغرق (عليه السلام) في مقام الذلة قبال رب العزة وشهد بولايته له في الدنيا والاخرة سأله سؤال المملوك المولى عليه ان يجعله كما يستدعيه ولايته عليه في الدنيا والاخرة وهو الإسلام ما دام حيا في الدنيا والدخول في زمرة الصالحين في الاخرة فان كمال العبد المملوك ان يسلم لربه ما يريده منه ما دام حيا ولا يظهر منه ما يكرهه ولا يرتضيه فيما يرجع إليه من الأعمال الاختيارية وان يكون صالحا لقرب مولاه لائقا لمواهبه السامية فيما لا يرجع إلى العبد واختياره وهو سؤاله (عليه السلام) الإسلام في الدنيا والدخول في زمرة الصالحين في الاخرة وهو الذى منحه الله سبحانه لجده إبراهيم (عليه السلام) : " ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الاخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين " البقرة : 131 .

وهذا الإسلام الذى سأله (عليه السلام) اقصى درجات الإسلام واعلى مراتبه وهو التسليم المحض لله سبحانه وهو ان لا يرى العبد لنفسه ولا لاثار نفسه شيئًا من الاستقلال

حتى لا يشغله شئ من نفسه ولا صفاتها ولا اعمالها من ربه وإذا نسب إليه تعالى كان اخلاصه عبده لنفسه .

(110/405)

ومما تقدم يظهر ان قوله توفنى مسلما سؤال منه لبقاء الاخلاص واستمرار الإسلام ما دام حيا وبعبارة أخرى ان يعيش مسلما حتى يتوفاه الله فهو كناية عن ان يثبته الله على الإسلام حتى يموت وليس يراد به ان يموت في حال الإسلام ولو لم يكن قبل ذلك مسلما ولا سؤالا للموت وهو مسلم حتى يكون المعنى انى مسلم فتوفنى .

ويتبين بذلك فساد ما روى عن عدة من قد ماء المفسرين ان قوله " توفنى مسلما " دعاء منه يسأل به الموت من الله سبحانه حتى قال بعضهم لم يسال احد من الأنبياء الموت من الله ولا تمناه الا يوسف (عليه السلام) .

قوله تعالى : " ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ اجمعوا امرهم وهم يمكرون الإشارة إلى نبأ يوسف (عليه السلام) والخطاب للنبى (صلى الله عليه وآله وسلم) وضمير الجمع لاخوة يوسف والاجماع العزم والإرادة .

وقوله وما كنت لديهم الخ حال من ضمير الخطاب من اليك وقوله : " نوحيه اليك وما كنت "

إلى آخر الآية بيان لقوله ذلك من انباء الغيب والمعنى ان نبأ يوسف من انباء الغيب فانا نوحيه اليك والحال انك ما كنت عند اخوة يوسف إذ عزموا على امرهم وهم يمكرون في أمر يوسف (بحث روائي) في تفسير العياشي عن أبى بصير عن أبى جعفر (عليه السلام) في حديث طويل قال : قال يوسف لاخوته " لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم اذهبوا بقميصي هذا " الذى

بلته دموع عينى فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا لو قد نشر ريحى واتونى باهلكم اجمعين وردهم إلى يعقوب في ذلك اليوم وجهزهم بجميع ما يحتاجون إليه فلما فصلت عيرهم من مصر وجد يعقوب ريح يوسف فقال لمن بحضرته من ولده انى لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون .

قال واقبل ولده يحثون السير بالقميص فرحا وسرورا بما رأوا من حال يوسف والملك الذى آتاه الله والعز الذى صاروا إليه في سلطان يوسف وكان مسيرهم من مصر إلى بلد يعقوب تسعة ايام فلما ان جاء البشير ألقى القميص على وجهه فارتد بصيرا وقال لهم ما فعل ابن يامين ؟ قالوا خلفناه عند اخيه صالحا .

قال فحمد الله يعقوب عند ذلك وسجد لربه سجدة الشكر ورجع إليه بصره وتقوم له ظهره وقال لولده تحملوا إلى يوسف في يومكم هذا باجمعكم فساروا إلى يوسف ومعهم يعقوب وخالة يوسف ياميل فأحثوا السير فرحا وسرورا فساروا تسعة ايام إلى مصر .

اقول كون امراة يعقوب التى سارت معه إلى مصر وهى ام بنيامين خالة يوسف لا امه الحقيقية وقعت في عدة الروايات وظاهر الكتاب وبعض الروايات انها كانت ام يوسف وانه وبنيامين كانا اخوين لام وان لم يكن ظهورا يدفع به تلك الروايات .

وفي المجمع عن أبى عبد الله (عليه السلام) : في قول الله عزوجل : " ولما فصلت العير قال ابوهم انى لاجد ريح يوسف لو لا ان تفندون " قال وجد يعقوب ريح يوسف حين فصلت من مصر وهو بفلسطين من مسيرة عشرة ليال .

اقول وقد ورد في عدة روايات من طرق العامة والخاصة ان القميص الذى ارسله يوسف إلى يعقوب (عليه السلام) كان نازلا من الجنة وانه كان قميص إبراهيم انزله إليه جبريل حين القى في النار فالبسه اياه فكانت عليه بردا وسلاما ثم اورثه اسحاق ثم ورثه يعقوب ثم جعله يعقوب تميمة وعلقه على يوسف حين ولد فكان على عنقه حتى اخرجه يوسف من التميمة ففاحت ريح الجنة فوجدها يعقوب وهذه اخبار لا سبيل لنا إلى تصحيحها مضافا إلى ما فيها من ضعف الاسناد .

ومثلها روايات أخرى من الفريقين تتضمن كتابا كتبه يعقوب إلى يوسف وهو يحسبه

عزيز آل فرعون لاستخلاص بنيامين يذكر فيها انه ابن اسحاق ذبيح الله الذى أمر الله جده إبراهيم بذبحه ثم فداه بذبح عظيم وقد تقدم في الجزء السابق من الكتاب ان الذبيح هو اسماعيل دون اسحاق .

وفي تفسير العياشي عن نشيط بن ناصح البجلى قال : قلت لابي عبد الله (عليه السلام) أكان اخوة يوسف انبياء ؟ قال لا ولا بررة اتقياء وكيف ؟ وهم يقولون لابيهم تالله انك لفى ضلالك القديم .

اقول وفي الروايات من طرق اهل السنة وفى بعض الضعاف من روايات الشيعة انهم كانوا انبياء وهذه الروايات مدفوعة بما ثبت من طريق الكتاب والسنة والعقل من عصمة الأنبياء (عليه السلام) وما ورد في الكتاب مما ظاهره كون الاسباط انبياء كقوله تعالى : " واوحينا إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط " النساء : 163 غير صريح في كون المراد بالاسباط هم اخوة يوسف والاسباط تطلق على جميع الشعوب من بنى إسرائيل الذين ينتهى نسبهم إلى يعقوب (عليه السلام) قال تعالى : " وقطعناهم اثنتى عشر اسباطا امما " الأعراف : 160 .

وفي الفقيه باسناده عن محمد بن مسلم عن أبى عبد الله (عليه السلام) في قول يعقوب لبنيه : " سوف استغفر لكم ربى " قال اخرهم إلى السحر من ليلة الجمعة .

اقول وفي هذا المعنى بعض روايات اخر وفي الدر المنثور عن ابن جرير وأبى الشيخ عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : قول اخى يعقوب لبنيه " سوف استغفر لكم ربى " يقول حتى يأتي ليلة الجمعة وفي الكافي باسناده عن الفضل بن أبى قرة عن أبى عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : خير وقت دعوتم الله فيه الاسحار وتلا هذه الآية في قول يعقوب " سوف استغفر لكم ربى " اخرهم إلى السحر .

اقول وروى نظيره في الدر المنثور عن أبى الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس : ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سئل لم اخر يعقوب بنيه في الاستغفار ؟ قال اخرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب .

وقد تقدم في بيان الآيات كلام في وجه التاخير ولقد اقبل يوسف (عليه السلام) على اخوته حين عرفوه بالفتوة والكرامة من غير ان يجبههم بادنى ما يسوؤهم ولازم ذلك ان يعفو

عنهم ويستغفر لهم بلا مهل ولم يكن موقف يعقوب معهم حين ارتد إليه بصره بالقاء القميص عليه ذاك الموقف .

وفي تفسير القمى حدثنى محمد بن عيسى : ان يحيى بن اكثم سال موسى بن محمد بن على بن موسى مسائل فعرضها على أبى الحسن وكان احدها اخبرني عن قول الله : " ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا " أسجد يعقوب وولده ليوسف وهم انبياء ؟ .

فأجاب أبو الحسن (عليه السلام) اما سجود يعقوب وولده ليوسف فانه لم يكن ليوسف وانما كان ذلك من يعقوب وولده طاعة لله وتحية ليوسف كما كان السجود من الملائكة لادم ولم يكن لادم وانما كان ذلك منهم طاعة لله وتحية لادم فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكرا لله تعالى لاجتماع شملهم ألم تر انه يقول في شكره ذلك الوقت رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السماوات والأرض انت وليى في الدنيا والاخرة توفنى مسلما والحقني بالصالحين الحديث .

اقول وقد تقدم بعض الكلام في سجدتهم ليوسف في بيان الآيات وظاهر الحديث ان يوسف أيضا سجد معهم كما سجدوا وقد استدل عليه بقول يوسف في شكره : رب قد آتيتني من الملك الخ وفي دلالته على ذلك ابهام .

وقد روى الحديث العياشي في تفسيره عن محمد بن سعيد الازدي صاحب موسى بن محمد بن الرضا (عليه السلام) : قال لاخيه ان يحيى بن اكثم كتب إليه يساله عن مسائل

فاخبرني عن قول الله : " ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا " أسجد يعقوب وولده ليوسف ؟ .

(114/405)

قال فسالت اخى عن ذلك فقال اما سجود يعقوب وولده ليوسف فشكرا لله تعالى لاجتماع شملهم ألا ترى انه يقول في شكر ذلك الوقت : " رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث " الآية .

وما رواه العياشي اوفق بلفظ الآية واسلم من الاشكال مما رواه القمى .

وفي تفسير العياشي عن ابن أبى عمير عن بعض اصحابنا عن أبى عبد الله (عليه السلام) في :

قول : " الله ورفع ابويه على العرش " قال العرش السرير وفي قوله وخروا له سجدا قال كان سجودهم ذلك عبادة لله .

وفيه عن أبى بصير عن أبى جعفر (عليه السلام) في حديث قال : فسار تسعة ايام إلى مصر فلما دخلوا على يوسف في دار الملك اعتنق اباه فقبله وبكى ورفع خالته على سرير الملك ثم دخل منزله فادهن واكتحل ولبس ثياب العز والملك ثم رجع إليهم وفي نسخة ثم

خرج إليهم فلما رأوه سجدوا جميعا اعظاما وشكرا لله فعند ذلك قال " يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل إلى قوله بيني وبين اخوتى " .

قال ولم يكن يوسف في تلك العشرين السنة يدهن ولا يكتحل ولا يتطيب ولا يضحك ولا يمس النساء حتى جمع الله ليعقوب شمله وجمع بينه وبين يعقوب واخوته .

وفي الكافي باسناده عن العباس بن هلال الشامي مولى أبى الحسن (عليه السلام) عنه قال : قلت له جعلت فداك ما اعجب إلى الناس من يأكل الجشب ويلبس الخشن ويخشع فقال أما علمت ان يوسف نبى ابن نبى كان يلبس اقبية الديباج مزرورة بالذهب فكان يجلس في مجالس آل فرعون يحكم فلم يحتج الناس إلى لباسه وانما احتاجوا إلى قسطه .

وانما يحتاج من الإمام إلى (ان ظ) إذا قال صدق وإذا وعد انجز وإذا حكم عدل لأن الله لا يحرم طعاما ولا شرابا من حلال وحرم الحرام قل أو كثر وقد قال الله : قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق .

(115/405)

وفي تفسير العياشي عن محمد بن مسلم قال : قلت لابي جعفر (عليه السلام) كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر بعد ما جمع الله ليعقوب شمله وأراه تأويل رؤيا يوسف الصادقة ؟

قال عاش حولين قلت فمن كان يومئذ الحجة لله في الأرض ؟ يعقوب ام يوسف ؟ قال كان يعقوب الحجة وكان الملك ليوسف فلما مات يعقوب حمل يوسف عظام يعقوب في تابوت إلى ارض الشام فدفنه في بيت المقدس ثم كان يوسف ابن يعقوب الحجة .

اقول والروايات في قصته (عليه السلام) كثيرة اقتصرنا منها بما فيها مساس بالآيات الكريمة على ان اكثرها لا يخلو من تشوش في المتن وضعف في السند .

ومما ورد في بعضها ان الله سبحانه جعل النبوة من آل يعقوب في صلب لاوى وهو الذى منع اخوته عن قتل يوسف حيث قال " لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب " الآية وهو القائل لاخوته حين اخذ يوسف اخاه باتهام السرقة فلن ابرح الأرض حتى ياذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين فشكر الله له ذلك .

ومما ورد في عده منها ان يوسف (عليه السلام) تزوج بامراة العزيز وهى التى راودته عن نفسه وذلك بعد ما مات العزيز في خلال تلك السنين المجدبة ولا يبعد ان يكون ذلك شكرا منه تعالى لها حين صدقت يوسف بقولها " الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين " لو صح الحديث (كلام في قصة يوسف في فصول) 1 - قصته في القرآن : هو يوسف النبي بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم الخليل كان احد ابناء يعقوب الاثنى عشر واصغر اخوته غير اخيه بنيامين اراد الله سبحانه ان يتم عليه نعمته بالعلم والحكم والعزة والملك ويرفع به قدر آل يعقوب فبشره وهو صغير برؤيا رآها كان احد عشر كوكبا

والشمس والقمر ساجدة له فذكر ذلك لأبيه فوصاه ابوه ان لا يقص رؤياه على اخوته فيحسدوه ثم اول رؤياه ان الله سيجتبيه ويعلمه من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما اتمها على ابويه من قبل إبراهيم واسحاق .

(116/405)

كانت هذه الرؤيا نصب عين يوسف آخذة بمجامع قلبه ولا يزال تنزع نفسه إلى حب ربه التوله إليه على ما به من علو النفس وصفاء الروح والخصائص الحميدة وكان ذا جمال بديع يبهر القول ويدهش الألباب .

وكان يعقوب يحبه حبا شديدا لما يشاهد فيه من الجمال البديع ويتفرس فيه من صفاء السريرة ولا يفارقه ولا ساعة فثقل ذلك على اخوته الكبار واشتد حسدهم له حتى اجتمعوا وتامروا في امره فمن مشير على قتله ومن قائل اطرحوه ارضا يخل لكم وجه ابيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ثم اجتمع رأيهم على ما اشار به عليهم بعضهم وهو ان يلقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة وعقدوا على ذلك .

فلقوا اباهم وكلموه ان يرسل يوسف معهم غدا يرتع ويلعب وهم له حافظو فلم يرض به يعقوب واعتذر انه يخاف ان ياكله الذئب فلم يزالوا به يراودونه حتى ارضوه واخذوه منه

وذهبوا به معهم إلى مراتع اغنامهم بالبر فالقوه في جب هناك وقد نزعوا قميصه .

ثم جاؤا بقميصه ملطخا بدم كذب إلى ابيهم وهم يبكون فاخبروه انهم ذهبوا اليوم للاستباق وتركوا يوسف عند متاعهم فاكله الذئب وهذا قميصه الملطخ بدمه .

فبكى يعقوب وقال بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ولم يقل ذلك الا بتفرس الهى القى في روعه ولم يزل يعقوب يذكر يوسف ويبكى عليه ولا يتسلى عنه بشئ حتى ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم .

ومضى بنوه يراقبون الجب حتى جاءت سيارة فأرسلوا واردهم للاستقاء فأدلى دلوه فتعلق يوسف بالدلو فخرج فاستبشروا به فدنى منهم بنو يعقوب وادعوا انه عبد لهم ثم ساوموهم حتى شروه بثمن بخس دراهم معدودة .

(117/405)

وسارت به السيارة إلى مصر وعرضوه للبيع فاشتراه عزيز مصر وادخله بيته وقال لامراته اكرمي مثواه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا وذلك لما كان يشاهد في وجهه من آثار الجلال وصفاء الروح على ما له من الجمال البديع فاستقر يوسف في بيت العزيز في كرامة واهناء عيش وهذا اول ما ظهر من لطيف عناية الله بيوسف وعزيز ولايته له حيث توسل اخوته

بالقائه في الجب وبيعه من السيارة إلى اماتة ذكره وتحريمه كرامة الحياة في بيت ابيه اما اماتة الذكر فلم ينسه ابوه قط واما مزية الحياة فان الله سبحان بدل له بيت الشعر وعيشة البدوية قصرا ملكيا وحياة حضرية راقية فرفع الله قدره بعين ما ارادوا ان يحطوه ويضعوه وعلى ذلك جرى صنع الله به ما سار في مسير الحوادث .

وعاش يوسف في بيت العزيز في اهناء عيش حتى كبر وبلغ اشده ولم يزل تزكو نفسه ويصفو قلبه ويشتغل بربه حتى توله في حبه واخلص له فصار لا هم له الا فيه فاجتباه الله واخلصه لنفسه وآتاه حكما وعلما وكذلك يفعل بالمحسنين .

وعشقته امرأة العزيز وشغفها حبه حتى راودته عن نفسه وغلقت الابواب ودعته إلى نفسها وقالت هيت لك فامتنع يوسف واعتصم بعصمة الهية وقال معاذ الله انه ربى احسن مثواى انه لا يفلح الظالمون واستبقا الباب واجتذبته وقدت قميصه من خلف والفيا سيدها لدى الباب فاتهمت يوسف بأنه كان يريد بها سوءا وانكر يوسف ذلك غير ان العناية الإلهية ادركته فشهد صبى هناك في المهد ببراءته فبرأه الله .

ثم ابتلى بحب نساء مصر ومراودتهن وشاع أمر امراة العزيز حتى آل الأمر إلى دخوله السجن وقد توسلت امرأة العزيز بذلك إلى تأديبه ليجيبها إلى ما تريد والعزيز إلى ان يسكت هذه الاراجيف الشائعة التى كانت تذهب بكرامه بيته وتشوه جميل ذكره .

فدخل يوسف السجن ودخل معه السجن فتيان للملك فذكر احدهما انه راى في منامه انه يعصر خمرا والاخر راى انه يحمل فوق راسه خبزا تأكل الطير منه وسألاه ان يؤول منامهما فأول رؤيا الأول انه سيخرج فيصير ساقيا للملك ورؤيا الثاني انه سيصلب فتأكل الطير من راسه فكان كما قال وقال يوسف للذى راى انه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين .

وبعد بضع من السنين راى الملك رؤيا هالته فذكرها لملاه وقال انى ارى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات يا ايها الملا افتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون قالوا اضغاث احلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين وعند ذلك ادكر الساقى يوسف وتعبيره لمنامه فذكر ذلك للملك واستاذنه ان يراجع السجن ويستفتى يوسف في أمر الرؤيا فاذن له في ذلك وارسله إليه .

ولما جاءه واستفتاه في أمر الرؤيا وذكر ان الناس ينتظرون ان يكشف لهم امرها قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم ياتي من بعد ذلك سبع شداد ياكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحسنون ثم ياتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون .

فلما سمع الملك ما افتى به يوسف اعجبه ذلك وامر باطلاقه واحضاره ولما جاءه الرسول

لتنفيذ أمر الملك أبى الخروج والحضور إلا أن يحقق الملك ما جرى بينه وبين النسوة ويحكم بينه وبينهن ولما احضرهن وكلمهن في امره اتفقن على تبرئته من جميع ما اتهم به وقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء وقالت امراة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين فاستعظم الملك امره في علمه وحكمه واستقامته وامانته فامر باطلاقه واحضاره معززا وقال ائتونى به استخلصه لنفسي فلما حضر وكلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين وقد محصت احسن التمحيص واختبرت ادق الاختبار .

(119/405)

قال يوسف اجعلني على خزائن الأرض ارض مصر انى حفيظ عليم حتى اهيئ الدولة في هذه السنين السبع المخصبة التى تجرى على الناس لانجائهم مما يهددهم من السنين السبع المجدبة فأجابه الملك على ذلك فقام يوسف بالأمر وامر باجادة الزرع واكثاره وجمع الطعام والميرة وحفظه في المخازن بالحزم والتدبير حتى إذا دهمهم السنون المجدبة وضع فيهم الارزاق وقسم بينهم الطعام حتى انجاهم الله بذلك من المخمصة وفي هذه السنين انتصب يوسف لمقام عزة مصر واستولى على سرير الملك فكان السجن طريقا له يسلك به إلى اريكة العزة والملك باذن الله وقد كانوا تسببوا به إلى اخماد ذكره وانسائه من قلوب الناس

واخفائه من اعينهم .

وفى بعض تلك السنين المجدبة دخل على يوسف اخوته لاخذ الطعام فعرفهم وهم له منكرون فاستفسرهم عن شانهم وعن انفسهم فذكروا له انهم ابناء يعقوب وانهم احد عشر اخا اصغرهم عند ابيهم يأنس به ولا يدعه يفارقه قط فاظهر يوسف انه يشتاق ان يراه فيعرف ما باله يخصه ابوه بنفسه فامرهم ان ياتوه به ان رجعوا إليه ثانيا للامتيار وزاد في اكرامهم وايفاء كيلهم فاعطوه العهد بذلك وامر فتيانه ان يدسوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى اهلهم لعلهم يرجعون .

ولما رجعوا إلى ابيهم حدثوه بما جرى بينهم وبين عزيز مصر وانه منع منهم الكيل إلا أن يرجعوا إليه باخيهم بنيامين فامتنع ابوهم من ذلك ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم فراجعوا اباهم وذكروا له ذلك واصروا على ارسال بنيامين معهم إلى مصر وهو يأبى حتى وافقهم على ذلك بعد ان اخذ منهم موثقا من الله ليا تنه به إلا أن يحاط بهم .

ثم تجهزوا ثانيا وسافروا إلى مصر ومعهم بنيامين ولما دخلوا على يوسف آوى إليه اخاه وعرفه نفسه وقال انى انا اخوك واخبره انه يريد ان يحبسه عنده فعليه ان لا يبتئس بما سيشاهده من الكيد .

ولما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل اخيه فاذن مؤذن ايتها العير انكم لسارقون قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى السارق فيما بيننا فبدا بأوعيتهم قبل وعاء اخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه ثم أمر بالقبض عليه واسترقه بذلك .

فراجعه اخوته في اطلاقه حتى سألوه ان ياخذ احدهم مكانه رحمة بأبيه الشيخ الكبير فلم ينفع فرجعوا إلى ابيهم آئسين غير ان كبيرهم قال لهم ألم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن ابرح الأرض حتى ياذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين فبقى بمصر وساروا .

فلما رجعوا إلى ابيهم وقصوا عليه القصص قال بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل عسى الله ان ياتيني بهم جميعا ثم تولى عنهم وقال يا اسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم فلما لاموه على حزنه الطويل ووجده ليوسف قال انما اشكوا بثى وحزني إلى الله واعلم من الله ما لا تعلمون ثم قال لهم يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تيأسوا من روح الله فانى ارجوا ان تظفروا بهما .

فسار نفر منهم إلى مصر واستاذنوا على يوسف فلما شخصوا عنده تضرعوا إليه

واسترحموه في انفسهم واهلهم واخيهم الذى استرقه قائلين يا ايها العزيز قد مسنا واهلنا الضر بالجدب والسنة وجئنا ببضاعة مزجاة فاوف لنا الكيل وتصدق علينا باخينا الذى تملكته بالاسترقاق ان الله يجزى المتصدقين .

وعند ذلك حقت كلمته تعالى ليعزن يوسف بالرغم من استذلالهم له وليرفعن قدره وقدر اخيه وليضعن الباغين الحاسدين لهما فأراد يوسف ان يعرفهم نفسه وقال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه إذ انتم جاهلون ؟ قالوا ءإنك لانت يوسف ؟ قال انا

يوسف وهذا اخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين فاعترفوا بذنبهم وشهدوا ان الأمر إلى الله يعز من يشاء ويذل من يشاء وان العاقبة للمتقين وان الله مع الصابرين فقابلهم يوسف بالعفو والاستغفار وقال : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وقربهم إليه وزاد في اكرامهم .

ثم امرهم ان يرجعوا إلى اهليهم ويذهبوا بقميصه فيلقوه على وجه ابيه يأت بصيرا فتجهزوا للسير ولما فصلت العير قال يعقوب لمن عنده من بنيه انى لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون قال من عنده من بنيه : تالله انك لفى ضلالك القديم ولما جاءه البشير القى القميص على

وجهه فارتد بصيرا فرد الله سبحانه إليه بصره بعين ما ذهب به وهو القميص قال يعقوب لبنيه ألم اقل لكم انى اعلم من الله ما لا تعلمون قالوا يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم .

ثم تجهزوا للمسير إلى يوسف واستقبلهم يوسف وضم إليه ابويه واعطاهم الامن وادخلهم دار الملك ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا يعقوب وامراته واحد عشر من ولده قال يوسف يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربى حقا ثم شكر الله على لطيف صنعه في دفع النوائب العظام عنه وايتائه الملك والعلم .

وبقى آل يعقوب بمصر وكان اهل مصر يحبون يوسف حبا شديدا لفضل نعمته عليهم وحسن بلائه فيهم وكان يدعوهم إلى دين التوحيد وملة آبائه إبراهيم واسحاق ويعقوب (عليه السلام) (كما ورد في قصة السجن وفي سورة المؤمن) 2 - ما اثنى الله عليه ومنزلته المعنوية كان : (عليه السلام) من المخلصين وكان صديقا وكان من المحسنين وقد آتاه الله حكما وعلما وعلمه من تأويل الاحاديث وقد اجتباه الله واتم نعمته عليه والحقه بالصالحين (سورة يوسف) واثنى عليه بما اثنى على آل نوح وابراهيم (عليه السلام) من

الأنبياء وقد ذكره فيهم (سورة الانعام) .

3 - قصته في التوراة الحاضرة : قالت التوراة وكان (1) بنو يعقوب اثنى

---

(1) الإصحاح 35 من سفر التكوين تذكر التوراة ان ليئة وراحيل امرأتي يعقوب بنتا لابان الارامي وان راحيل ام يوسف ماتت حين وضعت بنيامين .

عشرة بنو ليئة رأوبين بكر يعقوب وشمعون ولاوى ويهودا ويساكر وزنولون وابنا راحيل يوسف وبنيامين وابنا بلهة جارية راحيل دان ونفتالى وابنا زلفة جارية ليئة جاد واشير هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا في فدان ارام .

قالت (1) يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع اخوته الغنم وهو غلام عند بنى بلهة وبنى زلفة امراتى ابيه واتى يوسف بنميمتهم الردية إلى ابيهم واما إسرائيل فاحب يوسف اكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصا ملونا فلما راى اخوته ان اباهم احبه اكثر من جميع اخوته ابغضوه ولم يستطيعوا ان يكلموه بسلام .

وحلم يوسف حلما فاخبر اخوته فازدادوا أيضا بغضا له فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذى حلمت فها نحن حازمون حزما في الحقل وإذا حزمتى قامت وانتصبت فاحتاطت

حزمكم وسجدت لحزمتى فقال له اخوته العلك تملك علينا ملكا ام تتسلط علينا تسلطا وازدادوا أيضا بغضا له من اجل احلامه ومن اجل كلامه .

ثم حلم أيضا حلما آخر وقصه على اخوته فقال انى قد حلمت حلما أيضا وإذا الشمس والقمر واحد عشر كوكبا ساجدة لى وقصه على ابيه وعلى اخوته فانتهره ابوه وقال له ما هذا الحلم الذى حلمت ؟ هل ياتي انا وامك واخوتك لنسجد لك إلى الأرض فحسده اخوته واما ابوه فحفظ الأمر .

ومضى اخوته ليرعوا غنم ابيهم عند شكيم فقال إسرائيل ليوسف أليس اخوتك يرعون عند شكيم ؟ تعال فأرسلك إليهم فقال له ها انا ذا فقال له اذهب انظر سلامة اخوتك وسلامة الغنم ورد لى خبرا فارسله من وطاء حبرون فأتى إلى شكيم فوجده رجل وإذا هو ضال في الحقل فسأله الرجل قائلا ماذا تطلب ؟ فقال انا طالب اخوتى اخبرني اين يرعون ؟ فقال الرجل قد ارتحلوا من هنا لانى سمعتهم يقولون لنذهب إلى دوثان فذهب يوسف وراء اخوته فوجدهم في دوثان .

فلما ابصروه من بعيد قبل ما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه فقال بعضهم لبعض هو

---

(1) الاصحاح 37 من سفر التكوين .

ذا هذا صاحب الاحلام قادم فالان هلم نقتله ونطرحه في احدى هذه الابار ونقول وحش ردي اكله فنرى ماذا يكون احلامه ؟ فسمع رأوبين وانقذه من ايديهم وقال لا نقتله وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دما اطرحوه في هذه البئر التى في البرية ولا تمدوا إليه يدا لكى ينقذه من ايديهم ليرده إلى ابيه فكان لما جاء يوسف إلى اخوته انهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون الذى عليه واخذوه وطرحوه في البئر واما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء .

ثم جلسوا ليأكلوا طعاما فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة اسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولادنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر فقال يهوذا لاخوته ما الفائدة ان نقتل اخانا ونخفى دمه ؟ تعالوا فنبيعه للاسماعيليين ولا تكن ايدينا عليه لأنه اخونا ولحمنا فسمع له اخوته .

واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف واصعدوه من البئر وباعوا يوسف للاسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ثم رجع إلى اخوته وقال الولد ليس موجودا وانا إلى اين اذهب ؟ فاخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعزى وغمسوا القميص في الدم وارسلوا القميص الملون واحضروه إلى ابيهم وقالوا وجدنا هذا حقق أقميص ابنك هو ام لا ؟ فتحققه وقال

قميص ابني وحش ردى اكله افترس يوسف افتراسا فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحا على حقويه وناح على ابنه اياما كثيرة فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فابى ان يتعزى وقال انى انزل إلى ابني نائحا إلى الهاوية وبكى عليه ابوه .

قالت (1) التوراة : واما يوسف فانزل إلى مصر واشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط رجل مصرى – من يد الاسماعيليين الذين انزلوه إلى هناك وكان الرب مع يوسف فكان رجلا ناجحا وكان في بيت سيده المصرى .

وراى سيده ان الرب معه وان كل ما يصنع كان الرب ينجحه بيده فوجد يوسف

---

(1) الاصحاح 39 من سفر التكوين .

نعمة في عينيه وخدمه فوكله إلى بيته ودفع إلى يده كل ما كان له وكان من حين وكله على بيته وعلى كل ما كان له ان الرب بارك بيت المصرى بسبب يوسف وكانت بركة الرب على كل ما كان له في البيت وفي الحقل فترك كل ما كان له في يد يوسف ولم يكن معه يعرف شيئا الا الخبز الذى ياكل وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر .

وحدث بعد هذه الأمور ان امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت اضطجع معى

فابى وقال لامراة سيده هو ذا سيدى لا يعرف معى ما في البيت وكل ماله قد دفعه إلى ليس هو في هذا البيت ولم يمسك عنى شيئًا غيرك لانك امراته فكيف اصنع هذا الشر العظيم ؟ واخطئ إلى الله ؟ وكان إذ كلمت يوسف يوما فيوما انه لم يسمع لها ان يضطجع بجانبها ليكون معها .

ثم حدث نحو هذا الوقت انه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن انسان من اهل البيت هناك في البيت فامسكته بثوبه قائله اضطجع معى فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج وكان لما رأت انه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج انها نادت اهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا قد جاء الينا برجل عبرانى ليداعبنا دخل إلى ليضطجع معى فصرخت بصوت عظيم وكان لما سمع انى رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خارج .

فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة دخل الي العبد العبراني الذى جئت به الينا ليداعبى وكان لما رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبى وهرب إلى خارج .

فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذى كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بى عبدك ان غضبه حمى فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذى كان اسرى الملك محبوسين فيه وكان هناك في بيت السجن .

ولكن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفا وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الاسرى الذين في بيت السجن وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئًا البتة مما في يده لأن الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه .

ثم (1) ساقت التوراة قصة صاحبي السجن ورؤياهما ورؤيا فرعون مصر وملخصه انهما كانا رئيس سقاة فرعون ورئيس الخبازين اذنباه فحبسهما فرعون في سجن رئيس الشرط عند يوسف فرأى رئيس السقاة في منامه انه يعصر خمرا والاخر ان الطير تأكل من طعام حمله على رأسه فاستفتيا يوسف فعبر رؤيا الأول برجوعه إلى سقى فرعون شغله السابق والثانى بصلبه واكل الطير من لحمه وسأل الساقى ان يذكره عند فرعون لعله يخرج من السجن لكن الشيطان انساه ذلك .

---

(1) الاصحاح 41 من سفر التكوين .

ثم بعد سنتين راى فرعون في منامه سبع بقرات سمان حسنة المنظر خرجت من نهر وسبع بقرات مهزولة قبيحة المنظر وقفت على الشاطئ فأكلت المهازيل السمان فاستيقظ

فرعون ثم نام فرأى سبع سنا بل خضر حسنة سمينة وسبع سنا بل رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها فأكلت الرقيقة السمينة فهال فرعون ذلك وجمع سحرة مصر وحكمائها وقص عليهم رؤياه فعجزوا عن تعبيره .

وعند ذلك ادكر رئيس السقاة يوسف فذكره لفرعون وذكر ما شاهده من عجيب تعبيره للمنام فأمر فرعون باحضاره فلما ادخل عليه كلمه واستفتاه فيما رآه في منامه مرة بعد أخرى فقال يوسف لفرعون حلم فرعون واحد قد اخبر الله فرعون بما هو صانع البقرات السبع الحسنة في سبع سنين وسنا بل سبع الحسنة في سبع سنين هو حلم واحد والبقرات السبع الرقيقة القبيحة التى طلعت وراءها هي سبع سنين والسنا بل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية يكون سبع سنين جوعا .

هو الأمر الذى كلمت به فرعون قد اظهر الله لفرعون ما هو صانع هوذا سبع سنين قادمة شعبا عظيما في كل ارض مصر ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعا فينسى كل السبع في ارض مصر ويتلف الجوع الأرض ولا يعرف السبع في الأرض من اجل ذلك الجوع بعده لأنه يكون شديدا جدا واما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلان الأمر مقرر من عند الله والله مسرع لصنعه .

فالان لينظر فرعون رجلا بصيرا وحكيما ويجعله على ارض مصر يفعل فرعون

فيوكل نظارا على الأرض ويأخذ خمس غلة ارض مصر في سبع سنى الشبع فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة ويخزنون قمحا تحت يد فرعون طعاما في المدن ويحفظونه فيكون الطعام ذخيرة للارض لسبع سنى الجوع التى تكون في ارض مصر فلا تنقرض الأرض بالجوع .

قالت التوراة ما ملخصه ان فرعون استحسن كلام يوسف وتعبيره واكرمه واعطاه امارة المملكة في جميع شؤونها وخلع عليه بخاتمه والبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه واركبه في مركبته الخاصة ونودى امامه ان اركعوا واخذ يوسف يدبر الأمور في سني الخصب ثم في سنى الجدب احسن ادارة .

ثم (1) قالت التوراة ما ملخصه انه لما عمت السنة ارض كنعان أمر يعقوب بنيه ان يهبطوا إلى مصر فيأخذوا طعاما فساروا ودخلوا على يوسف فعرفهم وتنكر لهم وكلمهم بجفاء وسألهم من اين جئتم ؟ قالوا من ارض كنعان لنشترى طعاما قال يوسف بل جواسيس انتم جئتم إلى ارضنا لتفسدوها قالوا نحن جميعا ابناء رجل واحد في كنعان كنا اثنى عشر اخا فقد منا واحد وبقى اصغرنا ها هو اليوم عند ابينا والباقون بحضرتك ونحن جميعا امنا لا نعرف الفساد والشر .

" : قال يوسف لا وحياة فرعون نحن نراكم جواسيس ولا نخلى سبيلكم حتى تحضرونا

اخاكم الصغير حتى نصدقكم فيما تدعون فامر بهم فحبسوا ثلاثة ايام ثم احضرهم واخذ من بينهم شمعون وقيده امام عيونهم واذن لهم ان يرجعوا إلى كنعان ويجيئوا باخيهم الصغير .

ثم أمر ان يملا اوعيتهم قمحا وترد فضة كل واحد منهم إلى عدله ففعل فرجعوا إلى ابيهم وقصوا عليه القصص فأبى يعقوب ان يرسل بنيامين معهم وقال اعد متمونى الاولاد يوسف مفقود وشمعون مفقود وبنيامين تريدون ان تأخذوه لا يكون ذلك ابدا وقال قد اسأتم في قولكم للرجل ان لكم اخا تركتموه عندي قالوا انه سأل عنا وعن عشيرتنا قائلا هل ابوكم حى بعد ؟ وهل لكم اخ آخر فأخبرناه كما سألنا وما كنا نعلم انه سيقول جيئوا الي باخيكم .

---

(1) الإصحاح 42 - 43 من سفر التكوين .

(128/405)

فلم يزل يعقوب يمتنع حتى اعطاه يهودا الموثق ان يرد إليه بنيامين فاذن في ذهابهم به معهم وامرهم ان ياخذوا من احسن متاع الأرض هدية إلى الرجل وان ياخذوا معهم اصرة الفضة التى ردت إليهم في اوعيتهم ففعلوا .

ولما وردوا مصر لقوا وكيل يوسف على اموره واخبروه بحاجتهم وان بضاعتهم ردت إليهم في رحالهم وعرضوا له هديتهم فرحب بهم واكرمهم واخبرهم ان فضتهم لهم واخرج إليهم شمعون الرهين ثم ادخلهم على يوسف فسجدوا له وقدموا إليه هديتهم فرحب بهم واستفسرهم عن حالهم وعن سلامة ابيهم وعرضوا عليه اخاهم الصغير فأكرمه ودعا له ثم أمر بتقديم الطعام فقدم له وحده ولهم وحدهم ولمن عنده من المصريين وحدهم .

ثم أمر وكيله ان يملا اوعيتهم طعاما وان يدس فيها هديتهم وان يضع طاسة في عدل اخيهم الصغير ففعل فلما اضاء الصبح من غد شدوا الرحال على الحمير وانصرفوا .

فلما خرجوا من المدينة ولما يبتعدوا قال لوكيله ادرك القوم وقل لهم بئس ما صنعتم جازيتم الاحسان بالاساءة سرقتم طاس سيدى الذى يشرب فيه ويتفأل به فتبهتوا من استماع هذا القول وقالوا حاشانا من ذلك هوذا الفضة التى وجدناها في افواه عدالنا جئنا بها اليكم من كنعان فكيف نسرق من بيت سيدك فضة أو ذهبا من وجد الطاس في رحله يقتل ونحن جميعا عبيد سيدك فرضى بما ذكروا له من الجزاء فبادروا إلى عدولهم وانزل كل واحد منهم عدله وفتحه فأخذ يفتشها وابتدء من الكبير حتى انتهى إلى الصغير واخرج الطاس من عدله .

فلما راى ذلك اخوته مزقوا ثيابهم ورجعوا إلى المدينة ودخلوا على يوسف واعادوا عليه

قولهم معتذرين معترفين بالذنب وعليهم سيماء الصغار والهوان والخجل فقال حاشا ان ناخذ الا من وجد متاعنا عنده واما انتم فارجعوا بسلام إلى ابيكم .

(129/405)

فتقدم إليه يهوذا وتضرع إليه واسترحمه وذكر له قصتهم مع ابيهم حين امرهم يوسف باحضار بنيامين فسألوا اباهم ذلك فابى اشد الاباء حتى آتاه يهوذا الميثاق على ان يرد بنيامين إليه وذكر انهم لا يستطيعون ان يلاقوا اباهم وليس معهم بنيامين وان اباهم الشيخ لو سمع منهم ذلك لمات من وقته ثم سأله ان يأخذه مكان بنيامين عبدا لنفسه ويطلق بنيامين لتقر بذلك عين ابيهم المستأنس به بعد فقد اخيه من امه يوسف .

قالت التوراة فلم يستطع يوسف ان يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده فصرخ اخرجوا كل انسان عنى فلم يقف احد عنده حين عرف يوسف اخوته بنفسه فاطلق صوته بالبكاء فسمع المصريون وسمع بيت فرعون وقال يوسف لاخوته انا يوسف أحي أبى بعد ؟ فلما يستطع اخوته ان يجيبوه لانهم ارتاعوا منه .

وقال يوسف لاخوته تقدموا الي فتقدموا فقال انا يوسف اخوكم الذى بعتموه إلى مصر والان لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لانكم بعتمونى إلى هنا لأنه لاستبقاء حياة ارسلني الله

قدامكم لأن للجوع في الأرض الان سنتين وخمس سنين أيضا لا يكون فيها فلاحة ولا حصاد فقد ارسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض وليستبقى لكم نجاة عظيمة فالان ليس انتم ارسلتموني إلى هنا بل الله وهو قد جعلني ابا لفرعون وسيدا لكل بيته ومتسلط على كل ارض مصر .

اسرعوا واصعدوا إلى أبى وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف انزل الي لا تقف فتسكن في ارض جاسان وتكون قريبا منى انت وبنوك وبنو بيتك وغنمك وبقرك وكل ما لك واعولك هناك لأنه يكون أيضا خمس سنين جوعا لئلا تفتقر انت وبيتك وكل ما لك وهوذا عيونكم ترى وعينا اخى بنيامين ان فمى هو الذى يكلمكم وتخبرون انى بكل مجدي في مصر وبكل ما رأيتم وتستعجلون وتنزلون بابى إلى هنا ثم وقع على عين بنيامين اخيه وبكى وبكى بنيامين على عنقه وقبل جميع اخوته وبكى عليهم .

(130/405)

ثم قالت التوراة ما ملخصه انه جهزهم احسن التجهيز وسيرهم إلى كنعان فجاؤا اباهم وبشروه بحياة يوسف وقصوا عليه القصص فسر بذلك وسار باهله جميعا إلى مصر وهم جميعا سبعون نسمة ووردوا ارض جاسان من مصر وركب يوسف إلى هناك يستقبل اباه

ولقيه قادما فتعانقا وبكى طويلا ثم انزله وبنيه واقرهم هناك واكرمهم فرعون اكراما بالغا وآمنهم واعطاهم ضيعة في افضل بقاع مصر وعالهم يوسف ما دامت السنون المجدبة وعاش يعقوب في ارض مصر بعد لقاء يوسف سبع عشرة سنة .

هذا ما قصته التوراة من قصة يوسف فيما يحاذي القرآن اوردناها ملخصة الا في بعض فقراتها لمسيس الحاجة .

(كلام في الرؤيا في فصول)

1 - الاعتناء بشأنها كان الناس كثير العناية بامر الرؤى والمنامات منذ عهود قديمة لا يضبط لها بدء تاريخي وعند كل قوم قوانين وموازين متفرقة متنوعة يزنون بها المنامات ويعبرونها بها ويكشفون رموزها ويحلون بها مشكلات اشاراتها فيتوقعون بذلك خيرا أو شرا أو نفعا أو ضرا بزعمهم .

وقد اعتنى بشأنها في القرآن الكريم كما حكى الله سبحانه فيه رؤيا إبراهيم في ابنه (عليه السلام) قال : " فلما بلغ معه السعي قال يا بنى انى ارى في المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا ابت افعل ما تؤمر إلى ان قال وناديناه ان يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا " الصافات : 105 .

ومنها ما حكاه تعالى من رؤيا يوسف (عليه السلام) : " إذ قال يوسف لأبيه يا ابت انى رايت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رايتهم لى ساجدين " يوسف : 4 .

ومنها رؤيا صاحبي يوسف في السجن قال احدهما " انى ارانى اعصر خمرا وقال الاخر انى ارانى احمل فوق راسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين " يوسف : 36 .

ومنها رؤيا الملك " وقال الملك انى ارى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات يا ايها الملا افتوني في رؤياي " يوسف : 43 .

(131/405)

ومنها رؤيا ام موسى قال تعالى : " إذ اوحينا إلى امك ما يوحى ان اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم " طه : 39 على ما ورد في الروايات انه كان رؤيا .

ومنها ما ذكر من رؤى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال تعالى : " إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو اراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر " الانفال : 43 وقال : " لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون " الفتح : 27 وقال : " وما جعلنا الرؤيا التى اريناك الا فتنة للناس " الاسراء : 60 .

وقد وردت من طريق السمع روايات كثيرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وائمة

اهل البيت (عليه السلام) تصدق ذلك وتؤيده .

لكن الباحثين من علماء الطبيعة من اوربا لا يرون لها حقيقة ولا للبحث عن شأنها وارتباطها بالحوادث الخارجية وزنا علميا الا بعضهم من علماء النفس ممن اعتنى بامرها واحتج عليهم ببعض المنامات الصحيحة التى تنبئ عن حوادث مستقبلة أو امور خفية انباء عجيبا لا سبيل إلى حمله على مجرد الاتفاق والصدفة وهى منامات كثيرة جدا مروية بطرق صحيحة لا يخالطها شك كاشفة عن حوادث خفية أو مستقبلة اوردها في كتبهم .

2 - وللرؤيا حقيقة ما منا واحد الا وقد شاهد من نفسه شيئًا من الرؤى والمنامات دله على بعض الأمور الخفية أو المشكلات العلمية أو الحوادث التى ستستقبله من الخير أو الشر أو قرع سمعه بعض المنامات التى من هذا القبيل ولا سبيل إلى حمل ذلك على الاتفاق وانتفاء أي رابطة بينها وبين ما ينطبق عليها من التأويل وخاصة في المنامات الصريحة التى لا تحتاج إلى تعبير .

نعم مما لا سبيل أيضا إلى انكاره ان الرؤيا أمر ادراكي وللخيال فيها عمل والمتخيلة من القوى الفعالة دائما ربما تدوم في عملها من جهة الانباء الواردة عليها من ناحية الحس كاللمس

والسمع وربما تأخذ صورا بسيطة أو مركبة من الصور والمعاني المخزونة عندها فتحلل المركبات كتفصيل صورة الإنسان التامة إلى راس ويد ورجل وغير ذلك وتركب البسائط كتركيبها انسانا مما اختزن عندها من اجزائه واعضائه فربما ركبته بما يطابق الخارج وربما ركبته بما لا يطابقه كتخيل انسان لا راس له أو له عشرة رؤس .

وبالجملة للاسباب والعوامل الخارجية المحيطة بالبدن كالحر والبرد ونحوها والداخلية الطارئة عليه كانواع الامراض والعاهات وانحرافات المزاج وامتلاء المعدة والتعب وغيرها تأثير في المتخيلة فلها تأثير في الرؤيا .

فترى ان من عملت فيه حرارة أو برودة بالغة يرى في منامه نيرانا مؤججة أو الشتاء والجمد ونزول الثلوج وان من عملت فيه السخونة فألجمه العرق يرى الحمام وبركان الماء ونزول الامطار ونحو ذلك وان من انحرف مزاجه أو امتلات معدته يرى رؤيا مشوشة لا ترجع إلى طائل .

وكذلك الاخلاق والسجايا الإنسانية شديدة التأثير في نوع تخيله فالذي يحب انسانا أو عملا لا ينفك يتخيله في يقظته ويراه في نومته والضعيف النفس الخائف الذعران إذا فوجئ بصوت يتخيل اثره امور هائلة لا إلى غاية وكذلك البغض والعداوة والعجب والكبر والطمع ونظائرها كل منها يجر الإنسان إلى تخيله صور متسلسلة تناسبه وتلائمه وقل ما يسلم الإنسان من غلبة بعض هذه السجايا على طبعه .

ولذلك كان اغلب الرؤى والمنامات من التخيلات النفسانية التى ساقها إليها شئ من الأسباب الخارجية والداخلية الطبيعية أو الخلقية ونحوها فلا تحكى النفس بحسب الحقيقة الا كيفية عمل تلك الأسباب واثرها فيها فحسب لا حقيقة لها وراء ذلك .

(133/405)

وهذا هو الذى ذكره منكروا حقيقة الرؤيا من علماء الطبيعة لا يزيد على تعداد هذه الأسباب المؤثرة في الخيال العمالة في ادراك الإنسان .

ومن المسلم ما اورده غير انه لا ينتج إلا أن كل الرؤيا ليس ذا حقيقة وهو غير المدعى وهو ان كل منام ليس ذا حقيقة فان هناك منامات صالحة ورؤيا صادقة تكشف عن حقائق ولا سبيل إلى انكارها ونفى الرابطة بينها وبين الحوادث الخارجية والامور المستكشفة كما تقدم .

فقد ظهر مما بينا ان جميع الرؤى لا تخلو عن حقيقة بمعنى ان هذه الادراكات المتنوعة المختلفة التى تعرض النفس الإنسانية في المنام وهى المسماة بالرؤى لها اصول واسباب تستدعى وجودها للنفس وظهورها للخيال وهى على اختلافها تحكى وتمثل باصولها واسبابها التى استدعتها فلكل منام تأويل وتعبير غير ان تأويل بعضها السبب الطبيعي

العامل في البدن في حال النوم وتاويل بعضها السبب الخلقى وبعضها اسباب متفرقة اتفاقية كمن ياخذه النوم وهو متفكر في أمر مشغول النفس به فيرى في حلمه ما يناسب ما كان ذاهنا له .

وانما البحث في نوع واحد من هذه المنامات وهى الرؤى التى لا تستند إلى اسباب خارجية طبيعية أو مزاجية أو اتفاقية ولا إلى اسباب داخلية خلقية أو غير ذلك ولها ارتباط بالحوادث الخارجية والحقائق الكونية 3 – المنامات الحقة : المنامات التى لها ارتباط بالحوادث الخارجية وخاصة المستقبلة

منها لما كان احد طرفي الارتباط امرا معدوما بعد كمن يرى ان حادثة كذا وقعت ثم وقعت بعد حين كما راى ولا معنى للارتباط الوجودى بين موجود ومعدوم أو امرا غائبا عن النفس لم يتصل بها من طريق شئ من الحواس كمن راى ان في مكان كذا دفينا فيه من الذهب المسكوك كذا ومن الفضة كذا في وعاء صفته كذا وكذا ثم مضى إليه وحفر كما دل عليه فوجده كما راى ولا معنى للارتباط الادراكى بين النفس وبين ما هو غائب عنها لم ينله شئ من الحواس .

ولذا قيل ان الارتباط انما استقر بينها وبين النفس النائمة من جهة اتصال النفس بسبب الحادثة الواقعة الذى فوق عالم الطبيعة فترتبط النفس بسبب الحادثة ومن طريق سببها بنفسها .

توضيح ذلك ان العوالم ثلاثة عالم الطبيعة وهو العالم الدنيوي الذى نعيش فيه والأشياء الموجودة فيها صور مادية تجرى على نظام الحركة والسكون والتغير والتبدل .

وثانيها عالم المثال وهو فوق عالم الطبيعة وجودا وفيه صور الأشياء بلا مادة منها تنزل هذه الحوادث الطبيعية واليها تعود وله مقام العلية ونسبة السببية لحوادث عالم الطبيعة .

وثالثها عالم العقل وهو فوق عالم المثال وجودا وفيه حقائق الأشياء وكلياتها من غير مادة طبيعية ولا صورة وله نسبة السببية لما في عالم المثال .

والنفس الإنسانية لتجردها لها مسانخة مع العالمين عالم المثال وعالم العقل فإذا نام الإنسان وتعطل الحواس انقطعت النفس طبعا عن الأمور الطبيعية الخارجية ورجعت إلى عالمها المسانخ لها وشاهدت بعض ما فيها من الحقائق بحسب ما لها من الاستعداد والامكان .

فان كانت النفس كاملة متمكنة من ادراك المجردات العقلية ادركتها واستحضرت اسباب الكائنات على ما هي عليها من الكلية والنورية والا حكتها حكاية خيالية بما تأنس بها من الصور والاشكال الجزئية الكونية كما نحكى نحن مفهوم السرعة الكلية بتصور جسم سريع الحركة ونحكي مفهوم العظمة بالجبل ومفهوم الرفعة والعلو بالسماء وما فيها من الاجرام

السماوية وتحكي الكائد المكار بالثعلب والحسود بالذئب والشجاع بالاسد إلى غير ذلك

.

وان لم تكن متمكنة من ادراك المجردات على ما هي عليها والارتقاء إلى عالمها توقفت في عالم المثال مرتقية من عالم الطبيعة فربما شاهدت الحوادث بمشاهدة عللها واسبابها من غير ان تتصرف فيها بشئ من التغيير ويتفق ذلك غالبا في النفوس السليمة المتخلفة بالصدق والصفاء وهذه هي المنامات الصريحة .

(135/405)

وربما حكت ما شاهدته منها بما عندها من الامثلة المانوس بها كتمثيل الازدواج بالاكتساء والتلبس والفخار بالتاج والعلم بالنور والجهل بالظلمة وخمود الذكر بالموت وربما انتقلنا من الضد إلى الضد كانتقال اذهاننا إلى معنى الفقر عند استماع الغنى وانتقالنا من تصور النار إلى تصور الجمد ومن تصور الحياة إلى تصور الموت وهكذا ومن امثلة هذا النوع من المنامات ما نقل ان رجلا راى في المنام ان بيده خاتما يختم به افواه الناس وفروجهم فسأل ابن سيرين عن تأويله فقال انك ستصير مؤذنا في شهر رمضان فيصوم الناس باذانك .

وقد تبين مما قدمناه ان المنامات الحقة تنقسم انقساما اوليا إلى منامات صريحة لم تتصرف

فيها نفس النائم فتنطبق على ما لها من التأويل من غير مؤنة ومنامات غير صريحة تصرفت فيها النفس من جهة الحكايا لامثال والانتقال من معنى إلى ما يناسبه أو يضاده وهذه هي التى تحتاج إلى التعبير بردها إلى الأصل الذى هو المشهود الأولى للنفس كرد التاج إلى الفخار ورد الموت إلى الحياة والحياة إلى الفرج بعد الشدة ورد الظلمة إلى الجهل والحيرة أو الشقاء .

ثم هذا القسم الثاني ينقسم إلى قسمين احدهما ما تتصرف فيه النفس بالحكاية فتنتقل من الشئ إلى ما يناسبه أو يضاده ووقفت في المرة والمرتين مثلا بحيث لا يعسر رده إلى أصله كما مر من الامثلة وثانيهما ما تتصرف فيه النفس من غير ان تقف على حد كأن تنتقل مثلا من الشئ إلى ضده ومن الضد إلى مثله ومن مثل الضد إلى ضد المثل وهكذا بحيث يتعذر أو يتعسر للمعبر ان يرده إلى الأصل المشهود وهذا النوع من المنامات هي المسماة باضغاث الاحلام ولا تعبير لها لتعسره أو تعذره .

وقد بان بذلك ان هذه المنامات ثلاثة اقسام كلية وهى المنامات الصريحة ولا تعبير لها لعدم الحاجة إليه واضغاث الاحلام ولا تعبير فيها لتعذره أو تعسره والمنامات التى تصرفت فيها النفس بالحكاية والتمثيل وهى التى تقبل التعبير .

هذا اجمال ما اورده علماء النفس من قد مائنا في أمر الرؤيا واستقصاء البحث فيها ازيد من هذا المقدار موكول إلى كتبهم في هذا الشان .

4 - وفى القرآن ما يؤيد ذلك قال تعالى : " وهو الذى يتوفاكم بالليل " الأنعام : 60 وقال : " الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت في منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى " الزمر : 42 وظاهره ان النفوس متوفاة ومأخوذة من الأبدان مقطوعة التعلق بالحواس الظاهرة راجعة إلى ربها نوعا من الرجوع يضاهى الموت .

وقد اشير في كلامه إلى كل واحد من الاقسام الثلاثة المذكورة فمن القسم الأول ما ذكر من رؤيا إبراهيم (عليه السلام) ورؤيا ام موسى وبعض رؤى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن القسم الثاني ما في قوله تعالى : " قالوا اضغاث احلام " الآية يوسف : 44 ومن القسم الثالث رؤيا يوسف ومناما صاحبيه في السجن ورؤيا ملك مصر المذكورة في سورة يوسف * * وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين - 103 وما تسئلهم عليه من اجر ان هو الا ذكر للعالمين - 104 وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون - 105 وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون - 106 أفأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون - 107 قل هذه سبيلى ادعوا إلى الله على بصيرة انا ومن اتبعنى وسبحان الله وما انا من المشركين - 108 وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي إليهم من اهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف

كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الاخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون - 109 حتى إذا استيئس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين - 110 لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون - 111 .

(137/405)

(بيان) الآيات خاتمة السورة يذكر فيها ان الإيمان الكامل وهو التوحيد الخالص عزيز المنال لا يناله الا اقل قليل من الناس واما الأكثرون فليسوا بمؤمنين ولو حرصت بايمانهم واجتهدت في ذلك جهدك والاقلون وهم المؤمنون ما لهم الا ايمان مشوب بالشرك فلا يبقى للايمان المحض والتوحيد الخالص الا اقل قليل .

وهذا التوحيد الخالص هو سبيل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذى يدعو إليه على بصيرة هو ومن اتبعه وان الله ناصره ومنجى من اتبعه من المؤمنين من المهالك التى تهدد توحيدهم وايمانهم وعذاب الاستئصال الذى سيصيب المشركين كما كان ذلك عادة الله في انبيائه الماضين كما يظهر من قصصهم .

وفي قصصهم عبرة وبيان للحقائق وهدى ورحمة للمؤمنين .

قوله تعالى : " وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين أي ليس من شان اكثر الناس لانكبابهم على الدنيا وانجذاب نفوسهم إلى زينتها وسهوهم عما اودع في فطرهم من العلم بالله وآياته ان يؤمنوا به ولو حرصت واحببت إيمانهم والدليل على هذا المعنى الآيات التالية .

قوله تعالى : " وما تسألهم عليه من اجر ان هو الا ذكر للعالمين " الواو حالية أي ما هم بمؤمنين والحال انك ما تسألهم على إيمانهم أو على هذا القرآن الذى ننزله عليك وتتلوه عليهم من اجر حتى يصدهم الغرامة المالية وانفاق ما يحبونه من المال عن قبول دعوته والإيمان به .

وقوله " ان هو الا ذكر للعالمين " بيان لشأن القرآن الواقعي وهو انه ممحض في انه ذكر للعالمين يذكرون به ما اودع الله في قلوب جماعات البشر من العلم به وباياته فما هو الا ذكر يذكرون به ما انستهم الغفلة والاعراض وليس من الامتعة التى يكتسب بها الاموال أو ينال بها عزة أو جاه أو غير ذلك .

قوله تعالى : " وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون " الواو حالية ويحتمل الاستئناف والمرور على الشئ هو موافاته ثم تركه بموافاة ما وراءه فالمرور على الآيات السماوية والارضية مشاهدتها واحدة بعد أخرى .

والمعنى ان هناك آيات كثيرة سماوية وارضية تدل بوجودها والنظام البديع الجارى فيها على توحيد ربهم وهم يشاهدونها واحدة بعد أخرى فتتكرر عليهم والحال انهم معرضون عنها لا يتنبهون .

ولو حمل قوله يمرون عليها على التصريح دون الكناية كان من الدليل على ما يبتنى عليه الهيئة الحديثة من حركة الأرض وضعا وانتقالا فانا نحن المارون على الاجرام السماوية بحركة الأرض الانتقالية والوضعية لا بالعكس على ما يخيل الينا في ظاهر الحس .

قوله تعالى : " وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون " الضمير في اكثرهم راجع إلى الناس باعتبار إيمانهم أي اكثر الناس ليسوا بمؤمنين وان لم تسألهم عليه اجرا وان كانوا يمرون على الآيات السماوية والارضية على كثرتها والذين آمنوا منهم وهم الاقلون ما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم متلبسون بالشرك .

وتلبس الإنسان بالإيمان والشرك معا مع كونهما معنيين متقابلين لا يجتمعان في محل واحد نظير تلبسه بسائر الاعتقادات المتناقضة والاخلاق المتضادة انما يكون من جهة كونها من المعاني التى تقبل في نفسها القوة والضعف فتختلف بالنسبة والاضافة كالقرب والبعد فان

القرب والبعد المطلقين لا يجتمعان الا انهما إذا كانا نسبيين لا يمتنعان الاجتماع والتصادق كمكة فانها قريبة بالنسبة إلى المدينة بعيدة بالنسبة إلى الشام وكذا هي بعيدة من الشام إذا قيست إلى المدينة قريبة منه إذا قيست إلى بغداد والإيمان بالله والشرك به وحقيقتهما تعلق القلب بالله بالخضوع للحقيقة الواجبية وتعلق القلب بغيره تعالى مما لا يملك شيئًا الا باذنه تعالى يختلفان بحسب النسبة والاضافة فان من الجائز ان يتعلق الإنسان مثلا بالحياة الدنيا الفانية وزينتها الباطلة وينسى مع ذلك كل حق وحقيقة ومن الجائز ان ينقطع عن كل ما يصد النفس ويشغلها عن الله سبحانه ويتوجه بكله إليه ويذكره ولا يغفل عنه فلا يركن في ذاته وصفاته الا إليه ولا يريد الا ما يريده كالمخلصين من اوليائه تعالى .

وبين المنزلتين مراتب مختلفة بالقرب من احد الجانبين والبعد منه وهى التى يجتمع فيها الطرفان بنحو من الاجتماع ومن الدليل على ذلك الاخلاق والصفات المتمكنة في النفوس التى تخالف مقتضى ما تعتقده من حق أو باطل والاعمال الصادرة منها كذلك ترى من يدعى الإيمان بالله يخاف وترتعد فرائصه من أي نائبة أو مصيبة تهدده وهو يذكر ان لا قوة الا بالله ويلتمس العزة والجاه من غيره وهو يتلو قوله تعالى : " ان العزة لله جميعا ويقرع كل باب يبتغى الرزق وقد ضمنه الله ويعصى الله ولا يستحيى وهو يرى ان ربه عليم بما في نفسه سميع لما يقول بصير بما يعمل ولا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء وعلى هذا القياس .

فالمراد بالشرك في الآية بعض مراتبه الذى يجامع بعض مراتب الإيمان وهو المسمى باصطلاح فن الاخلاق بالشرك الخفى .

فما قيل ان المراد بالمشركين في الآية مشركوا مكة في غير محله وكذا ما قيل : انهم المنافقون وهو تقييد لاطلاق الآية من غير مقيد .

قوله تعالى : " أفأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون " الغاشية صفة سادة مسد الموصوف المحذوف لدلالة كلمة العذاب عليه والتقدير عقوبة غاشية تغشاهم وتحيط بهم .

والبغتة الفجاءة وقوله : " وهم لا يشعرون " حال من ضمير الجمع أي تفاجئهم الساعة في اتيانها والحال انهم لا يشعرون باتيانها لعدم مسبوقيتها بعلامات تعين وقتها وتشخص قيامها والاستفهام للتعجيب والمعنى ان امرهم في اعراضهم عن آيات السماء والأرض وعدم اخلاصهم الإيمان لله وتماديهم في الغفلة عجيب أفامنوا عذابا من الله يغشاهم أو ساعة تفاجئهم وتبهتهم ؟ .

قوله تعالى : " قل هذه سبيلى ادعوا إلى الله على بصيرة انا ومن اتبعنى وسبحان الله وما انا

من المشركين " لما ذكر سبحانه ان محض الإيمان به واخلاص التوحيد له عزيز المنال وهو الحق الصريح الذى تدل عليه آيات السماوات والأرض أمر نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يبين لهم ان سبيله هو الدعاء إلى هذا التوحيد على بصيرة .

فقوله هذه سبيلى اعلان لسبيله وقوله " ادعوا إلى الله على بصيرة " بيان للسبيل وقوله " وسبحان الله " اعتراض للتنزيه وقوله وما انا من المشركين تأكيد لمعنى الدعوة إلى الله بيان ان هذه الدعوة ليست دعوة إليه تعالى كيف كان بل دعوة على اساس التوحيد الخالص لا معدل عنه إلى شرك اصلا .

واما قوله : " انا ومن اتبعنى " فتوسعة وتعميم لحمل الدعوة وان السبيل وان كانت سبيل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مختصة به لكن حمل الدعوة والقيام به لا يختص به بل من اتبعه (صلى الله عليه وآله وسلم) يقوم بها لنفسه .

لكن السياق يدل على ان الاشراك ليس بذاك العموم الذى يتراءى من لفظ من اتبعنى فان السبيل التى تعرفها الآية هي الدعوة عن بصيرة ويقين إلى ايمان محض وتوحيد خالص وانما يشاركه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها من كان مخلصا لله في دينه عالما بمقام ربه ذا

بصيرة ويقين وليس كل من صدق عليه انه اتبعه على هذا النعت ولا ان الاستواء على هذا المستوى

مبذول لكل مؤمن حتى الذين عدهم الله سبحانه في الآية السابقة من المشركين وذمهم بانهم غافلون عن ربهم آمنون من مكره معرضون عن آياته وكيف يدعو إلى الله من كان غافلا عنه آمنا من مكره معرضا عن آياته وذكره ؟ وقد وصف الله في آيات كثيرة اصحاب هذه النعوت بالضلال والعمى والخسران ولا تجتمع هذه الخصال بالهداية والارشاد البتة .

قوله تعالى : " وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي إليهم من اهل القرى " إلى آخر الآية لما ذكر سبحانه حال الناس في الإيمان به ثم حال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في دعوته اياهم عن رسالة الهية من غير ان يسالهم فيها اجرا أو يجر لنفسه نفعا بين ان ذلك ليس ببدع من الأمر بل مما جرت عليه السنة الإلهية في الدعوة الدينية فلم يكن الرسل الماضون ملائكة وانما بعثوا من بين هؤلاء الناس وكانوا رجالا من اهل القرى يخالطون الناس ويعرفون عندهم اوحى الله إليهم وارسلهم نحوهم يدعونهم إليه كما ان النبي كذلك ومن الممكن ان يسير هؤلاء المدعوون في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم فبلادهم الخربة ومساكنهم الخالية تفصح عما آل إليه امرهم وتنبئ عن عاقبة كفرهم وجحودهم وتكذيبهم لايات الله .

فالنبى (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يدعوهم الا كما كان يدعوهم الأنبياء من قبله

وليس يدعوهم الا إلى ما فيه خيرهم وصلاح حالهم وهو ان يتقوا الله فيفلحوا ويفوزوا بسعادة خالدة ونعيم مقيم في دار باقية ولدار الاخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون .

(142/405)

فقوله " وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي إليهم من اهل القرى " تطبيق لدعوة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على دعوة من قبله من الرسل ولعل توصيفهم بانهم كانوا من اهل القرى للدلالة على انهم كانوا من انفسهم يعيشون بينهم ومعروفين عندهم بالمعاشرة والمخالطة ولم يكونوا ملائكة ولا من غير انفسهم ويؤيد ذلك توصيفهم بانهم كانوا رجالا فان الرجال كانوا اقرب إلى المعرفة من النساء ذوات الخدر .

وقوله " أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم " انذار لامة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمثل ما انذر به الأمم الخالية فلم يسمعوا فذاقوا وبال امرهم .

وقوله " ولدار الاخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون " بيان النصح وان ما يدعون إليه وهو التقوى ليس وراءه الا ما فيه كل خيرهم وجماع سعادتهم .

قوله تعالى : " حتى إذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا " إلى آخر الآية ذكروا ان يأس واستيأس بمعنى ولا يبعد أن يقال ان الاستيآس هو الاقتراب من اليأس بظهور

آثاره لمكان هيئة الاستفعال وهو مما يعد يأسا عرفا وليس باليأس القاطع حقيقة .

وقوله حتى إذا استيأس الخ متعلق الغاية بما يتحصل من الآية السابقة والمعنى تلك الرسل الذين كانوا رجالا امثالك من اهل القرى وتلك قراهم البائدة دعوهم فلم يستجيبوا وانذروهم بعذاب الله فلم ينتهوا حتى إذا استيأس الرسل من ايمان اولئك الناس وظن الناس ان الرسل قد كذبوا أي اخبروا بالعذاب كذبا جاء نصرنا فنجئ بذلك من نشاء وهم المؤمنون ولا يرد بأسنا أي شدتنا عن القوم المجرمين .

(143/405)

اما استيأس الرسل من ايمان قومهم فكما اخبر في قصة نوح " واوحى إلى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن " هود : 36 وقال نوح " رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا " نوح : 27 ويوجد نظيره في قصص هود وصالح وشعيب وموسى وعيسى (عليه السلام) .

واما ظن اممهم انهم قد كذبوا فكما اخبر عنه في قصة نوح من قولهم " بل نظنكم كاذبين " هود : 27 وكذا في قصة هود وصالح وقوله " فقال له فرعون انى لاظنك يا موسى مسحورا " اسرى : 101 .

واما تنجية المؤمنين بالنصر فكقوله تعالى : " وكان حقا علينا نصر المؤمنين " الروم : 47 وقد اخبر به في هلاك بعض الأمم أيضا كقوله " نجينا هودا والذين آمنوا معه " هود : 58 " نجينا صالحا والذين آمنوا معه " هود : 66 " نجينا شعيبا والذين آمنوا معه " هود : 4 إلى غير ذلك .

واما ان بأس الله لا يرد عن المجرمين فمذكور في آيات كثيرة عموما وخصوصا كقوله " ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون " يونس : 47 وقوله " وإذا اراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال " الرعد : 11 إلى غير ذلك من الآيات .

هذا احسن ما اوردوه في الآية من المعاني والدليل عليه كون الآية بمضمونها غاية لما تتضمنه سابقتها كما قدمناه وقد اوردوا لها معاني أخرى لا يخلو شئ منها من السقم والاضراب عنها اوجه .

قوله تعالى : " لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الألباب " إلى آخر الآية قال الراغب أصل العبر تجاوز من حال إلى حال فاما العبور فيختص بتجاوز الماء إلى ان قال والاعتبار والعبرة بالحالة التى يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد قال تعالى : " ان في ذلك لعبرة " انتهى .

والضمير في قصصهم للانبياء ومنهم يوسف صاحب القصة في السورة واحتمل رجوعه إلى يوسف واخوته والمعنى اقسم لقد كان في قصص الأنبياء أو يوسف واخوته عبرة لاصحاب العقول ما كان القصص المذكور في السورة حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يدى القرآن وهو التوراة المذكور فيها القصة يعنى توراة موسى (عليه السلام) .

وقوله وتفصيل كل شئ الخ أي بيانا وتمييزا لكل شئ مما يحتاج إليه الناس في دينهم الذى عليه بناء سعادتهم في الدنيا والآخرة وهدى إلى السعادة والفلاح ورحمة خاصة من الله سبحانه لقوم يؤمنون به فانه رحمة من الله لهم يهتدون بهدايته إلى صراط مستقيم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿الميزان حـ 11 صـ 243.280﴾

(145/405)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) ﴾

انتهت قصة يوسف لتبدأ التعقيبات عليها . تلك التعقيبات التي أشرنا إليها في مقدمة

الحديث عن السورة . وتبدأ معها اللفتات المتنوعة واللمسات المتعددة ، والجولات الموحية في صفحة الكون وفي أغوار النفس وفي آثار الغابرين ، وفي الغيب المجهول وراء الحاضر المعلوم . فنأخذ في استعراضها حسب ترتيبها في السياق . وهو ترتيب ذو هدف معلوم . تلك القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد صلى الله عليه وسلم ثم بعث إليهم . وفيها أسرار لم يعلمها إلا الذين لامسوها من أشخاص القصة ، وقد غبرت بهم القرون . وقد سبق في مطلع السورة قول الله تعالى لنبيه :

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ فها هو ذا يعقب على القصة بعد تمامها ، ويعطف ختامها على مطلعها :

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ . .

ذلك القصص الذي مضى في السياق من الغيب الذي لا تعلمه ؛ ولكننا نوحيه إليك وآية وحيه أنه كان غيباً بالقياس إليك . وما كنت معهم إذ اجتمعوا واتفق رأيهم ، وهم يمكرون ذلك المكر الذي تحدثت عنه القصة في مواضعه . وهم يمكرون بيوسف ، وهم يمكرون بأبيهم ، وهم يدبرون أمرهم بعد أخذ أخيه وقد خلصوا نجياً وهو من المكر بمعنى التدبير . وكذلك ما كان هناك من مكر بيوسف من ناحية النسوة ومن ناحية رجال الحاشية وهم يودعونه السجن . . كل أولئك مكر ما كنت حاضره لتحكي عنه إنما هو الوحي الذي

سيقت السورة لتثبته من بين ما تثبت من قضايا هذه العقيدة وهذا الدين ، وهي متناثرة في مشاهد القصة الكثيرة .

(146/405)

ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحي ، وإيحاء القصص ، واللفتات واللمسات التي تحرك القلوب ، أن يؤمن الناس بهذا القرآن ، وهم يشهدون الرسول صلى الله عليه وسلم ويعرفون أحواله ، ثم يسمعون منه ما يسمعون . ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . وهم يمرون كذلك على الآيات المبثوثة في صفحة الوجود فلا ينتبهون إليها ، ولا يدركون مدلولها ، كالذي يلوي صفحة وجهه فلا يرى ما يواجهه . فما الذي ينتظرونه ؟ وعذاب الله قد يأخذهم بغته وهم لا يشعرون :

﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين . وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾ . .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصاً على إيمان قومه ، رغبة في إيصال الخير

الذي جاء به إليهم ، ورحمة لهم مما ينتظر المشركين من نكد الدنيا وعذاب الآخرة .

ولكن الله العليم بقلوب البشر ، الخبير بطبائعهم وأحوالهم ، ينهي إليه أن حرصه على إيمانهم لن يسوق الكثرة المشركة إلى الإيمان ، لأنهم كما قال في هذه الآيات يمرون على الآيات الكثيرة معرضين . فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان ، ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة في الآفاق .

وإنك لغني عن إيمانهم فما تطلب منهم أجراً على الهداية ؛ وإن شأنهم في الإعراض عنها لعجيب ، وهي تبذل لهم بلا أجر ولا مقابل :

﴿ وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ . .

تذكرهم بآيات الله ، وتوجه إليها أبصارهم وبصائرهم ، وهي مبذولة للعالمين ، لا احتكار فيها لأمة ولا جنس ولا قبيلة ، ولا ثمن لها يعجز عنه أحد ، فيمتاز الأغنياء على الفقراء ، ولا شرط لها يعجز عنه أحد فيمتاز القادرون على العاجزين . إنما هي ذكرى للعالمين . ومائدة عامة شاملة معروضة لمن يريد . .

﴿ وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ . .

والآيات الدالة على الله و وحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة في تضاعيف الكون ، معروضة للأبصار والبصائر . في السماوات وفي الأرض . يمرون عليها صباح مساء ، آناء الليل وأطراف النهار . وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها . بارزة تواجه العيون والمشاعر . موحية تخايل للقلوب والعقول . ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق .

وإن لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها . لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد . لحظة تأمل في الخضم الزاخر ، والعين الفوارة ، والنبع الروي . لحظة تأمل في النبتة النامية ، والبرعم الناعم ، والزهرة المتفتحة ، والحصيد الهشيم . لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء ، والسمك السابح في الماء ، والدود السارب والنمل الدائب ، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام . . لحظة تأمل في صبح أو مساء ، في هدأة الليل أو في زحمة النهار . . لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب . . إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب ، والتأثر المستجيب . ولكنهم ﴿ يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ . . لذلك لا يؤمن الأكثرون !

وحتى الذين يؤمنون ، كثير منهم يتدسس الشرك في صورة من صوره إلى قلوبهم . فالإيمان

الخالص يحتاج إلى يقظة تنفي عن القلب أولاً بأول كل خالجة شيطانية ، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف ، لتكون كلها لله ، خالصة له دون سواه . والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب وعلى التصرف والسلوك فلا تبقى في القلب دينونة إلا لله سبحانه ، ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد :

﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ . .

مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث والأشياء والأشخاص .

(148/405)

مشركون سبباً من الأسباب مع قدرة الله في النفع أو الضر سواء . مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه . مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق . مشركون في تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكن لغير الله . مشركون في عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله . . لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل " .

وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي :

روى الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر : " من حلف بغير الله فقد أشرك " .

وروى أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الرقى والتمائم شرك " .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من علق تميمة فقد أشرك " .

وعن أبي هريرة بإسناده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله : أنا أغني الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه " .

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد ابن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك " .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء "

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان .

وهناك الشرك الواضح الظاهر ، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة . الدينونة في شرع يتحاكم إليه وهو نص في الشرك لا يجادَل عليه والدينونة في تقليد من التقاليد كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله . والدينونة في زيّ من الأزياء يخالف ما أمر الله به من الستر ويكشف أو يحدد العورات التي نصت شريعة الله أن تستر . .

والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة وخضوعاً ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد ، وتركاً للأمر الواضح الصادر من رب العبيد .

. إنه عندئذ لا يكون ذنباً ، ولكنه يكون شركاً . لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله . . وهو من هذه الناحية أمر خطير . .

ومن ثم يقول الله :

﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ . .

فتنطبق على من كان يواجههم رسول الله في الجزيرة ، وتشمل غيرهم على تتابع الزمان وتغير المكان .

وبعد فما الذي ينتظره أولئك المعرضون عن آيات الله المعروضة في صفحات الوجود ، بعد أعراضهم عن آيات القرآن التي لا يسألون عليها أجراً ؟

ماذا ينتظرون ؟

﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ، أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾ . .

وهي لمسة قوية لمشاعرهم ، لإيقاظهم من غفلتهم ، وليحذروا عاقبة هذه الغفلة . فإن عذاب الله الذي لا يعلم موعده أحد ، قد يغشاهم اللحظة بغاشية تلفهم وتشملهم ، وربما تكون الساعة على الأبواب فيطرقهم اليوم الرهيب المخيف بغتة وهم لا يشعرون . . إن الغيب موصد الأبواب ، لا تمتد إليه عين ولا أذن ، ولا يدري أحد ماذا سيكون اللحظة ، فكيف يأمن الغافلون ؟

(150/405)

وإذا كانت آيات هذا القرآن الذي يحمل دليل الرسالة ، وكانت الآيات التي يحفل بها الكون معروضة للأنظار . . إذا كانت هذه وتلك يمرون عليها وهم عنها معرضون ، ويشركون بالله شركاً ظاهراً أو خفياً وهم الأكثرون . فالرسول صلى الله عليه وسلم ماض في طريقه

ومن اهتدى بهديه ، لا ينحرفون ولا يتأثرون بالمنحرفين :

﴿ قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ! وما أنا من المشركين ﴾ . .

﴿ قل : هذه سبيلي ﴾ . .

واحدة مستقيمة ، لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة .

﴿ ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ . .

فنحن على هدى من الله ونور . نعرف طريقنا جيداً ، ونسير فيها على بصر وإدراك ومعرفة ، لا نخبط ولا نتحسس ، ولا نحدس . فهو اليقين البصير المستنير . ننزه الله سبحانه عما لا يليق بألوهيته ، وننفصل وننعزل ونتميز عن الذين أشركوا به :

﴿ وما أنا من المشركين ﴾ . .

لا ظاهر الشرك ولا خافيه . .

هذه طريقي فمن شاء فليتابع ، ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم .

وأصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من هذا التميز ، لا بد لهم أن يعلنوا أنهم أمة وحدهم ، يفترقون عمن لا يعتقد عقيدتهم ، ولا يسلك مسلكهم ، ولا يدين لقيادتهم ، ويتميزون ولا يختلطون ! ولا يكفي أن يدعوا أصحاب هذا الدين إلى دينهم ، وهم متميعون في المجتمع الجاهلي . فهذه الدعوة لا تؤدي شيئاً ذا قيمة ! إنه لا بد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنهم

شيء آخر غير الجاهلية؛ وأن يتميزوا بتجمع خاص آصرته العقيدة المتميزة، وعنوانه القيادة الإسلامية.

. لا بد أن يميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي؛ وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلي أيضاً!

إن اندغامهم وتميعهم في المجتمع الجاهلي، وبقاءهم في ظل القيادة الجاهلية، يذهب بكل السلطان الذي تحمله عقيدتهم، وبكل الأثر الذي يمكن أن تنشئه دعوتهم، وبكل الجاذبية التي يمكن أن تكون للدعوة الجديدة.

وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية في أوساط المشركين.. إن مجالها هو مجال هذه الدعوة كلما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس.. وجاهلية القرن العشرين لا تختلف في مقوماتها الأصلية، وفي ملامحها المميزة عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ!

والذين يظنون أنهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي والأوضاع الجاهلية، والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى

الإسلام . . هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب ! . . إن أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم وواجهتهم ووجهتهم ! أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص ؟ وطريقهم الخاص ؟ وسبيلهم التي تفترق تماماً عن سبيل الجاهلية ؟

ثم لفتة إلى سنة الله في رسالاته ، وإلى بعض آيات الله في الأرض من مصائر السابقين . . إن محمداً ليس بدعاً من الرسل ، ورسالته ليست بدعاً من الرسالات . وهذه عواقب الذين كذبوا من قبل ، آيات معروضة في الأرض .

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون ﴾ . .

إن النظر في آثار الغابرين يهز القلوب . حتى قلوب المتجبرين . ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم ؛ وتصورهم أحياء يروحون في هذه الأمكنة ويجيئون ، يخافون ويرجون ، يطمعون ويتطلعون . . ثم إذا هم ساكنون ، لا حس ولا حركة . آثارهم خاوية ، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم ، ودنياهم الماثلة للعيان والمستكنة في الضمائر والمشاعر . . إن هذه التأملات

لتهز القلب البشري هزاً مهما يكن جاسياً غافلاً قاسياً . ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابرين بين الحين والحين :

(152/405)

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ . .

لم يكونوا ملائكة ولا خلقاً آخر . إنما كانوا بشراً مثلك من أهل القرى الحاضرة ، لا من أهل البادية ، ليكونوا أرق حاشية وألين جانباً . . وأصبر على احتمال تكاليف الدعوة والهداية ، فرسالتك ماضية على سنة الله في إرسال رجال من البشر نوحي إليهم . .

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ . .

فيدركوا أن مصيرهم كمصيرهم ؛ وأن سنة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستنالهم ؛ وأن عاقبتهم في هذه الأرض إلى ذهاب :

﴿ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ﴾ .

خير من هذه الدار التي ليس فيها قرار .

﴿ أفلا تعقلون ؟ ﴾ . .

فتتدبروا سنن الله في الغابرين ؟ أفلا تعقلون فتؤثروا المتاع الباقي على المتاع القصير ؟

ثم يصور ساعات الحرج القاسية في حياة الرسل ، قبيل اللحظة الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله ، وتمضي فيها سنته التي لا تتخلف ولا تحيد :

﴿ حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا ، فننجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ . .

إنها صورة رهيبة ، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل ، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود . وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل ، وتكر الأعوام والباطل في قوته ، وكثرة أهله ، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة . إنها ساعات حرجة ، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر . والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض . فتهجس في خواطرهم الهواجس . . تراهم كُذِبوا ؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا ؟

(153/405)

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر . وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر

الله . . . ؟ ﴾ ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس ، والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجة ، وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات ، وما يحس به من ألم لا يطاق .

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب ، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل ، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة . . في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً :

﴿ جاءهم نصرنا ، فنجي من نشاء ، ولا يردُّ بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ . .

تلك سنة الله في الدعوات . لا بد من الشدائد ، ولا بد من الكروب ، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة . ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس . يجيء النصر من عند الله ، فينجو الذين يستحقون النجاة ، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين ، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون . ويحل بأس الله بالمجرمين ، مدمراً ماحقاً لا يقفون له ، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير .

ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً . فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعيٌّ بدعوة لا تكلفه شيئاً . أو تكلفه القليل . ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً . فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج ، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء .

والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة ، لذلك يشفقون أن يدَّعوها ، فإذا ادَّعوها عجزوا عن حملها وطرحوها ، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون ؛ الذين لا يتخلون عن دعوة الله ، ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة !

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل ؛ إما أن تربح ربحاً معيناً محدداً في هذه الأرض ، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحاً وأيسر حصيلة !

والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في أي زمان أو مكان يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة ، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل ! إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود ! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله ، باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات ! . . ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف ، وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثيرة التكاليف أيضاً . وأنه من ثم لا تنضم إليها في أول الأمر الجماهير المستضعفة ، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله ، التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة

، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا . وأن عدد هذه الصفوة يكون دائماً قليلاً جداً . ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق ، بعد جهاد يطول أو يقصر . وعندئذ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجاً .

(155/405)

وفي قصة يوسف ألوان من الشدائد . في الجب وفي بيت العزيز وفي السجن . وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس . . ثم كانت العاقبة خيراً للذين اتقوا كما هو وعد الله الصادق الذي لا يخيب وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين . فيها عبرة لمن يعقل ، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل ، على غير صلة بين محمد وهذه الكتب . فما كان يمكن أن يكون ما جاء به حديثاً مفترى . فالأكاذيب لا يصدق بعضها بعضاً ولا تحقق هداية ، ولا يستروح فيها القلب المؤمن الروح والرحمة :

﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ . .

وهكذا يتوافق المطلع والختام في السورة ، كما توافق المطلع والختام في القصة . وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها ، وبين ثناياها ، متناسقة مع موضوع القصة ، وطريقة

أدائها ، وعباراتها كذلك . فتحقق الهدف الديني كاملاً ، وتحقق السمات الفنية كاملة ، مع صدق الرواية ، ومطابقة الواقع في الموضوع .

وقد بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة ، لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء ، فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً ، ويوماً بعد يوم ، ومرحلة بعد مرحلة . انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 4 صـ 2031 . 2037 ﴾

(156/405)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ من أنباء الغيب ﴾ لأن هذا الترتيب في السلوك لا يعلمه إلا الوالجون ملكوت السماء الغوّاصون في بحر بطن القرآن ﴿ وما كنت لديهم ﴾ بالصورة ولكن كنت حاضراً بالمعنى ﴿ وما أكثر الناس ﴾ وهم صفات الناسوتية ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ لأن اللاهوتية غير محتاجة إلى الناسوتية وإن دعتها إلى الاستكمال لأنها كاملة في ذاتها مكملة لغيرها ﴿ وكأين من آية ﴾ في سموات القلوب وأرض النفوس تمر الأوصاف الإنسانية عليها ﴿ وهم عنها معرضون ﴾ لإقبالها على الدنيا وشهواتها ﴿ وما يؤمن

﴿ أكثر الصفات الإنسانية بطلب الله وتبدل صفاته ﴿ إلا وهم مشركون ﴾ في طلب الدنيا وشهواتها ، أو طلب الآخرة ونعمها ، أو وما يؤمن أكثر الخلق بالله وطلبه إلا وهم مشركون برؤية الإيمان والطلب أنها منهم لا من الله ، فكل من يرى السبب فهو مشرك ، وكل من يرى المسبب فهو موحد كل شيء هالك في نظر الموحد إلا وجهه ، أو وما يؤمن أكثر الناس بالله وبقدرته وإيجاده إلا وهم مشركون في طلب الحاجة من غير الله ﴿ غاشية ﴾ جذبة تقهر إرادتهم . وتسلب اختيارهم كما قيل : العشق عذاب الله ﴿ أو تأتيهم الساعة ﴾ ساعة الانجذاب إلى الله ﴿ هذه سبيلي ﴾ لأن طريق السير والسلوك مختص به وبأمته ﴿ إلا رجالاً من أهل قرى ﴾ الملكوت دون مدن الملك والأجساد ، والرجال من القرى ويشبه أن يعبر عن عالم الأرواح بالقرى لبساطتها . والقرى أقل أجزاء من المدن ﴿ أفلم يسيروا في ﴾ أرض البشرية على قدمي الشريعة والطريقة ليصلوا إلى فضاء عالم الحقيقة ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ ففي إبطاء النصر ابتلاء للرسل ؛ الله حسبي ونعم الوكيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 134﴾

(157/405)

وقال الآلوسي :

ومن باب الإشارة في هذه السورة : قال سبحانه : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف : 3] وهو اقتصاص ما جرى ليوسف عليه السلام وأبيه وإخوته عليهم السلام ، وإنما كان ذلك أحسن القصص لتضمنه ذكر العاشق والمعشوق وذلك مما ترتاح له النفوس أو لما فيه من بيان حقائق محبة المحبين وصفاء سر العارفين والتنبيه على حسن عواقب الصادقين والحث على سلوك سبيل المتوكلين والاقتداء بزهد الزاهدين والدلالة على الانقطاع إلى الله تعالى والاعتماد عليه عند نزول الشدائد ، والكشف عن أحوال الخائنين وقبح طرائق الكاذبين ، وابتلاء الخواص بأنواع المحن وتبديلها بأنواع الألطاف والمنن مع ذكر ما يدل على سياسة الملوك وحالهم مع رعيتهم إلى غير ذلك ، وقيل : لخلو ذلك من الأوامر والنواهي التي يشغل سماعها القلب ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أبت يا أبت إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] هذه أول مبادىء الكشوف فقد ذكروا أن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات فإذا قوي الحال تصير الرؤيا كشفاً ، قيل : إنه عليه السلام قد سلك به نحواً مما سلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه بدىء بالرؤيا الصادقة كما بدىء رسول الله صلى الله عليه وسلم بها فكان لا يرى رؤيا إلا كانت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء على ما يشير إليه قوله : ﴿ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ [يوسف : 33] كما حبب ذلك إلى رسول الله عليه الصلاة

والسلام فكان يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد ، وفيه أن حديث السجن بعد إيتاء النبوة فتدبر .

(158/405)

وذكر بعض الكبار أن يوسف عليه السلام كان آدم الثاني لما كان عليه من كسوة الربوبية ما كان على آدم عليه السلام وهو مجلي الحق للخلق لو يعلمون فلما رأت الملائكة ما رأت من آدم سجدوا له وههنا سجد ليوسف من سجد وهم الشمس والقمر والكواكب المعدودة المشار بهم إلى أبويه وإخوته الذين هم على القول بنبوتهم خير من الملائكة عليهم السلام ، ولا بدع إذ سجدوا لمن يتلألأ من وجهه الأنوار القدسية والأشعة السبوحية :

لو يسمعون كما سمعت حديثها . . .

خروا لعزة ركعاً وسجودا

وقد يقال : إن إبراهيم عليه السلام لما رأى في وجنة الكوكب ونقطة خال القمر وأسرة جبين الشمس أمارات الحدثان وصرف وجهه عنها متوجهاً إلى ساحة القدم المنزهة عن التغير المصونة عما يوجب النقص قائلاً : ﴿ إِنِّي بَرِىء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 78] أسجد الله تعالى الشمس والقمر واسجد بدل الكواكب كواكب لبعض بنيه إعظاماً لأمره

ومبالغة في تنزيه جلال الكبرياء ، وحيث تأخرت البراءة إلى الثالث تأخر أمر الإسجاد إلى ثالث البنين ، وليس المقصود من هذا إلا بيان بعض من أسرار تخصيص المذكور بالإراءة مع احتمال أن يكون هناك ما يصلح أن يكون رؤياه ساجداً معبراً بسجود أبويه وإخوته له عليهم السلام في عالم الحس فتدبر .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ فيه إشارة إلى بعض آداب المريدين ؛ فقد قالوا : إنه لا ينبغي لهم أن يفشوا سر المكاشفة إلا لشيوخهم وإلا يقعوا في ورطة ويكونوا مرتهنين بعيون الغيرة :

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم . . .

وكذا دماء البائحين تباح

(159/405)

﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف : 5] هذا من الإلهامات المجملة وهي إنذارات وبشارات ، ويجوز أن يكون علم عليه السلام ذلك من الرؤيا ؛ قال بعضهم : إن يعقوب دبر ليوسف عليهما السلام في ذلك الوقت خوفاً عليه فوكل إلى تدبيره فوقع به ما وقع ولو ترك التدبير ورجع إلى التسليم لحفظ ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ [

يوسف : 7] وذلك كسواطع نور الحق من وجهه وظهور علم الغيب من قلبه ومزيد الكرم من أفعاله وحسن عقبى الصبر من عاقبته ، وكسوء حال الحاسد وعدم نقض ما أبرمه الله تعالى وغير ذلك ، وقال بعضهم : إن من الآيات في يوسف عليه السلام أنه حجة على كل من حسن الله تعالى خلقه أن لا يشوهه بمعصيته ومن لم يراع نعمة الله تعالى فعصى كان أشبه شيء بالكنيف المبيض والروث المفضض .

وقال ابن عطاء : من الآيات أن لا يسمع هذه القصة محزون مؤمن بها إلا استروح وتسري عنه ما فيه ، ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : 16] قيل : إن ذلك كان بكاء فرح بظفرهم بمقصودهم لكنهم أظهروا أنه بكاء حزن على فقد يوسف عليه السلام ، وقيل : لم يكن بكاءً حقيقة وإنما هو تباك من غير عبرة ؛ وجاؤا عشاء ليكونوا أجرأ في الظلمة على الاعتذار أو ليدلسوا على أبيهم ويوهموه أن ذلك بكاءً حقيقة لا تباك فإنهم لو جاؤا ضحى لافتضحوا :

إذا اشتبكت دموع في خدود . . .

تبين من بكى ممن تباكى

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : 18] وهو السكون إلى موارد القضاء سراً وعلناً ، وقال يحيى بن معاذ : الصبر الجميل أن يتلقى البلاء بقلب رحيب ووجه مستبشر ، وقال الترمذي : هو أن يلقي العبد عنانه إلى مولاه ويسلم إليه نفسه مع حقيقة المعرفة فإذا جاء

حكم من أحكامه ثبت له مسلماً ولا يظهر لوروده جزعاً ولا يرى لذلك مغتماً ، وأنشد

الشبلي في حقيقة الصبر :

عبرات خططن في الخد سطرا . . .

فقراه من لم يكن قط يقرا

صابر الصبر فاستغاث به الصب . . .

(160/405)

ر فصاح المحب بالصبر صبرا

(161/405)

﴿ قَالَ يَا بشْرى هذا غُلامٌ ﴾ [يوسف : 19] قال جعفر : كان لله تعالى في يوسف عليه

السلام سر فغطي عليهم موضع سره ولو كشف للسيارة عن حقيقة ما أودع في ذلك البدر

الطالع من برج دلوهم لما اكتفى قائلهم بذلك ولما اتخذوه بضاعة ، ولهذا لما كشف للنسوة

بعض الأمر قلن : ﴿ مَا هذا بَشَرًا إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : 31] ولجهلم أيضاً

بما أودع فيه من خزائن الغيب باعوه بثمن بخس وهو معنى قوله سبحانه : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ [يوسف : 20] قال الجنيد قدس سره : كل ما وقع تحت العد والإحصاء فهو بخس ولو كان جميع ما في الكونين فلا يكن حظك البخس من ربك فتميل إليه وترضى به دون ربك جل جلاله ، وقال ابن عطاء : ليس ما باع إخوة يوسف من نفس لا يقع عليها البيع بأعجب من بيع نفسك بأدنى شهوة بعد أن بعتها من ربك بأوفر الثمن قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين ﴾ [التوبة : 111] الآية فبيع ما تقدم بيعه باطل ، وإنما باع يوسف أعداؤه وأنت تبيع نفسك من أعدائك ﴿ وَقَالَ الذى اشتراه مِن مّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ قيل : أي لا تنظري إليه نظر الشهوة فإن وجهه مرآة تجلى الحق في العالم ، أو لا تنظري بنظر العبودية ولكن انظري إليه بنظر المعرفة لتري فيه أنوار الربوبية ؛ أو اجعلي محبته في قلبك لا في نفسك فإن القلب موضع المعرفة والطاعة والنفس موضع الفتنة والشهوة ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ قيل : أي بأن يعرفنا منازل الصديقين ومراتب الروحانيين ويبلغنا ببركة صحبته إلى مشاهدة رب العالمين ، وقيل : أراد حسنى صحبته في الدنيا لعله أن يشفع لنا في العقبى ﴿ وَرَاوَدَتْهُ التى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ حيث غلب عليها العشق ﴿ وَغَلَّقَتِ الابواب ﴾ [يوسف : 23] قطعت الأسباب وجمعت الهمة إليه أو غلقت أبواب الدار غيرة أن يرى أحد أسرارهما ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ قال ابن عطاء : هم شهوة ﴿ وَهَمَّ بِهَا

﴾ هم زجر عما همت به بضرب أو نحوه ﴾ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ وهو الواعظ الإلهي في قلبه ﴾ كذلكِ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء ﴾ والخواطر الرديئة

﴾ والفحشاء ﴾ [يوسف : 24] الأفعال القبيحة ، وقيل : البرهان هو أنه لم يشاهد في ذلك الوقت إلا الحق سبحانه وتعالى ، وقيل : هو مشاهدة أبيه يعقوب عليه السلام عاضاً على سباباته ، وجعل ذلك بعض أجلة مشايخنا أحد الأدلة على أن للرابطة المشهور عند ساداتنا النقشبندية أصلاً أصيلاً وهو على فرض صحته بمراحل عن ذلك ﴾ واستبقا الباب ﴾ فراراً من محل الخطر .

قيل : لو فر إلى الله تعالى لكفاه ولما ناله بعد ما عناه ﴾ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لدى الباب قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءا ﴾ [يوسف : 25] نفت عن نفسها الذنب لأنها علمت إذ ذاك أنها لو بينت الحق لقتلت وحرمت من حلاوة محبة يوسف والنظر إلى وجهه :

لحبك أحببت البقاء لمهجتي . . .

فلا طال إن أعرضت عني بقائيا

وإنما عرضت بنسبة الذنب إليه لعلمها بأنه عليه السلام لم يبق في البؤس ولا يقدر أحد على

أن يؤذيه لما أن وجهه سالب القلوب وجالب الأرواح :

له في طرفه لحظات سحر . . .

يميت بها ويحيي من يريد

ويسبي العالمين بمقلتيه . . .

كأن العالمين له عبيد

وقال ابن عطاء : إنها إذ ذاك لم تستغرق في محبته بعد فلذا لم تخبر بالصدق وآثرت نفسها عليه ولهذا لما استغرقت في المحبة آثرت نفسه على نفسها فقالت : ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ [يوسف : 51] الآية ، ثم إنه عليه السلام لم يسعه بعد تهمتها له إلا الذب عن ساحة النبوة التي هي أمانة الله تعالى العظمى فقال : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ [يوسف : 26] وإلا فاللائق بمقام الكرم السكوت عن جوابها لئلا يفضحها ، وقيل : إنها لما ادعت محبة يوسف وتبرأت منها عند نزول البلاء أراد يوسف عليه السلام أن يلزمها ملامة المحبة فإن الملامة شعار المحبين ومن لم يكن ملوماً في العشق لم يكن متحققاً فيه ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 28] عظم كيدهن لأنهن إذا ابتلين بالحب أظهرن مما يجلب القلب ما

يعجز عنه إبليس مع مساعدة الطبيعة إلى الميل إليهن وقوة المناسبة بين الرجال وبينهن كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحدة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء : 1] فما في العالم فتنة أضر على الرجال من النساء ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ قال الجنيد قدس سره : الشغف أن لا يرى المحب جفاء له جفاء بل يراه عدلاً منه ووفاء :

وتعذيبكم عذب لدى وجوركم . . .

علي بما يقضي الهوى لكم عدل

(164/405)

﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلال مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : 30] قال ابن عطاء : في عشق مزعج ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ عظمنه لما رأين في وجهه نور الهيبة ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ لاستغراقهن في عظمته وجلاله ، ولعله كشف لهن ما لم يكشف لزليخا ، قال ابن عطاء : دهشن في يوسف وتحيرن حتى قطعن أيديهن ولم يشعرن بالألم وهذه غلبة مشاهدة مخلوق لمخلوق فكيف بمن يحظى بمشاهدة من الحق فينبغي أن لا ينكر عليه إن تغير وصدر عنه ما صدر ، وأعظم من يوسف عليه السلام في هذا الباب عند ذوي الأبصار السليمة النور المحمدي المنقدح من النور الإلهي والمتشعشع في مشكاة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام فإنه

لعمري أبو الأنوار ، وما نور يوسف بالنسبة إلى نوره عليه الصلاة والسلام إلا النجم وشمس النهار :

لواحي زليخا لو رأين جبينه . . .

لآثرن بالقطع القلوب على الإيدي

وقلن : ﴿ مَا هذا بَشَرًا إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : 31] قلن ذلك إعظاماً له عليه السلام من أن يكون من النوع الإنساني ، قال محمد بن علي رضي الله تعالى عنهما : أردن ما هذا بأهل أن يدعى إلى المباشرة بل مثله من يكرم وينزه عن مواضع الشبه والأول أوفق بقولها : ﴿ فذلكن الذى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ [يوسف : 32] أرادت أن لومكن لم يقع في محزه وكيف يلام من هذا محبوبه ، وكأنها أشارت إلى أنها مجبورة في ذلك الوله معذورة في مزيد حبها له :

خليلي إني قلت بالعدل مرة . . .

ومنذ علاني الحب مذهبي الجبر

وفي ذلك إشارة أيضاً إلى أن اللوم لا يصدر إلا عن خلي ، ولذا لم تعاتبهن حتى رأت ما صنع الهوى بهن وما أحسن ما قيل :

وكنت إذا ما حدث الناس بالهوى . . .

ضحكت وهم يبكون في حسرات

فصرت إذا ما قيل هذا متيم . . .

تلقيتهم بالنوح والعبرات

وقال سلطان العاشقين :

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى . . .

فإذا عشقت فبعد ذلك عنف

(165/405)

﴿ قَالَ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : 33] قيل : لأن السجن مقام الانس والخلوة والمناجاة والمشاهدات والمواصلات وفيما يدعونه إليه ما يوجب البعد عن الحضرة والحجاب عن مشاهدة القربة ، وقيل : طلب السجن ليحتجب عن زليخا فيكون ذلك سبباً لازدياد عشقها وانقلابه روحانياً قدسياً كعشق أبيه له ، وقال ابن عطاء : ما أراد عليه السلام بطلب ذلك إلا الخلاص من الزنا ولعله لو ترك الاختيار لعصم من غير امتحان كما عصم في وقت المراودة ﴿ ذلك مِن فَضْلِ الله عَلَيْنَا وَعَلَى الناس ﴾ [يوسف : 38] قال أبو علي : أحسن الناس حالاً من رأى نفسه تحت ظل الفضل والمنة لا تحت ظل العمل والسعي ﴿ يَشْكُرُونَ يا صاحبى السجن ءأَرْبَابٌ مُّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد

القهار ﴾ [يوسف : 39] دعاء إلى التوحيد على أتم وجه ، وحكي أن رجلاً قال للفضيل : عظني فقرأ له هذه الآية ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذكرنى عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف : 42] كان ذلك على ما قيل غفلة منه عليه السلام عما يقتضيه مقامه ويشير إليه كلامه ، ولهذا أدبه ربه باللبث في السجن ليبلغ أقصى درجات الكمال والأنبياء مؤاخذون بمثاقيل الذر لمكانتهم عند ربهم ، وقد يحمل كلامه هذا على ما لا يوجب العتاب كما ذهب إليه بعض ذوي الألباب

(166/405)

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق ﴾ [يوسف : 46] قال أبو حفص : الصديق من لا يتغير عليه باطن أمره من ظاهره ، وقيل : الذي لا يخالف قاله حاله ، وقيل : الذي يبذل الكونين في رضا محبوبه ﴿ وَمَا أُبَرِّىء نَفْسِى إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبّى ﴾ [يوسف : 53] إشارة إلى أن النفس بطبعها كثيرة الميل إلى الشهوات ؛ قال أبو حفص : النفس ظلمة كلها وسراجها التوفيق فمن لم يصحبه التوفيق كان في ظلمة ، وقد تخفى دسائس النفس إلى حيث تأمر بخير وتضمر فيه شراً ولا يفطن لدسائسها إلا لوذعي :

فخالف النفس والشيطان واعصمها . . .

وإن هما محضاك النصح فاتهم

(167/405)

وذكر بعض السادة أن النفس تترقى بواسطة المجاهدة والرياضة من مرتبة كونها أمارة إلى مرتبة أخرى من كونها لوامة وراضية ومرضية ومطمئنة وغير ذلك وجعلوا لها في كل مرتبة ذكراً مخصوصاً وأطنبوا في ذلك فيرجع إليه ﴿ قَالَ اجعلنى على خَزَائِنِ الأرض إِنّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 55] قيل : خزائن الأرض رجالها أي اجعلني عليهم أميناً فإني حفيظ لما يظهرونه ، عليم بما يضمرونه ، وقيل : أراد الظاهر إلا أنه أشار إلى أنه متمكن من التصرف مع عدم الغفلة أي حفيظ للأنفاس بالذكر وللخواطر بالفكر ، عليم بسواكن الغيوب وخفايا الأسرار ﴿ وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف : 58] قال بعضهم : لما جفوه صار جفاؤهم حجاباً بينهم وبين معرفتهم إياه وكذلك المعاصي تكون حجاباً على وجه معرفة الله تعالى ﴿ قَالَ ائتونى بِأَخٍ لَّكُمْ مّنْ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف : 59] كأنه عليه السلام أمر بذلك ليكمل لأبيه عليه السلام مقام الحزن الذي هو كما قال الشيخ الأكبر قدس سره : من أعلى المقامات ، وقال بعضهم :

إن علاقة المحبة كانت بين يوسف ويعقوب عليهما السلام من الجانبين فتعلق أحدهما بالآخر كتعلق الآخر به كما يرى ذلك في بعض العشاق مع من يعشقونه وأنشدوا :

لم يكن المجنون في حالة . . .

إلا وقد كنت كما

كانا لكنه باح بسر الهوى . . .

وإنني قد ذبت كتمانا

فغار عليه السلام أن ينظر أبوه إلى أخيه نظره إليه فيكونا شركين في ذلك والمحب غيور فطلب أن يأتوه به لذلك ، والحق أن الأمر كان عن وحي لحكمة غير هذه ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ [يوسف : 68] إشارة إلى العلم اللدني وهو على نوعين .

(168/405)

ظاهر الغيب وهو علم دقائق المعاملات والمقامات والحالات والكرامات والفراسات ، وباطن الغيب وهو علم بطون الأفعال ويسمى حكمة المعرفة ، وعلم الصفات ويسمى المعرفة الخاصة ، وعلم الذات ويسمى التوحيد والتفريد والتجريد ، وعلم أسرار القدم ويسمى علم الفناء والبقاء ، وفي الأولين للروح مجال وفي الثالث للسر والرابع لسر السر ، وفي

المقام تفصيل وبسط يطلب من محله .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾

[يوسف : 69] كأنه عليه السلام إنما فعل ذلك ليعرفه الحال بالتدريج حتى يتحمل أثقال السرور إذ المفاجأة في مثل ذلك ربما تكون سبب الهلاك ، ومن هنا كان كشف سجف الجمال للسالكين على سبيل التدريج ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف : 70] قيل : إن الله تعالى أمره بذلك ليكون شريكاً لإخوته في الإيذاء بحسب الظاهر فلا يخجلوا بين يديه إذا كشف الأمر ، وحيث طلب قلب بنيامين برؤية يوسف احتمل الملامة ، وكيف لا يحتمل ذلك وبلاء العالم محمول بلمحة رؤية المعشوق ، والعاشق الصادق يؤثر الملامة ممن كانت في هوى محبوبه :

أجد الملامة في هواك لذيذة . . .

حبا لذكرك فليلمني اللوم

وفي الآية على ما قيل إشارة لطيفة إلى أن من اصطفاه الله تعالى في الأزل لمحبته ومشاهدته وضع في رحله صاع ملامة الثقلين ، ألا ترى إلى ما فعل بآدم عليه السلام صفيه كيف

اصطفاه ثم عرض عليه الأمانة التي لم يحملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها فحملها ثم هيج شهوته إلى حبة حنطة ثم نادى عليه بلسان الأزل ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه : 121] وذلك لغاية حبه له حتى صرفه عن الكون وما فيه ومن فيه إليه ولولا أن كشف جماله له لم يتحمل بلاء الملامة ، وهذا كما فعل يوسف عليه السلام بأخيه آواه إليه وكشف جماله له وخاطبه بما خاطبه ثم جعل السقاية في رحله ثم نادى عليه بالسرقة ليبقيه معه ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 76] أي نرفع درجاتهم في العلم فلا يزال السالكون يترقون في العلم وتشرب أطيار أرواحهم القدسية من بحار علومه تعالى على مقادير حواصلها ، وتنتهي الدرجات بعلم الله تعالى فإن علوم الخلق محدودة وعلمه تعالى غير محدود وإلى الله تعالى تصير الأمور ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : 77] قال بعض السادات : لما كان بيناميـن بريئاً مما رمى به من السرقة أنطقهم الله تعالى حتى رموا يوسف عليه السلام بالسرقة وهو بريء منها فكان ذلك من قبيل واحدة بواحدة ليعلم العالمون أن الجزاء واجب .

وقال بعض العارفين : إنهم صدقوا بنسبة السرقة إلى يوسف عليه السلام ولكنها سرقة الباب العاشقين وأفئدة المحبين بما أودع فيه من محاسن الأزل ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعنا عِندَهُ ﴾ [يوسف : 79] الإشارة في ذلك من الحق عز وجل أن لا نفشي أسرارنا وندني إلى حضرتنا إلا من كان في قلبه استعداد قبول معرفتنا أو لا نختار لكشف جمالنا إلا من كان في قلبه شوق إلى وصالنا ، وقال بعض الخراسانيين : الإشارة فيه أنا لا نأخذ من عبادنا أشد أخذ إلا من ادعى فينا أو أخبر عنا ما لم يكن له الإخبار عنه والادعاء فيه ، وقال بعضهم : إلا من مد يده إلى ما لنا وادعاه لنفسه ، وقال أبو عثمان : الإشارة أنا لا نتخذ من عبادنا ولياً إلا من ائتمناه على ودائعنا فحفظها ولم يخن فيها ، ولطيفة الواقعة أنه عليه السلام لم يرض أن يأخذ بدل حبيبه إذ ليس للحبيب بديل في شرع المحبة .

أبى القلب إلا حب ليلى فبغضت . . .

إلى نساء ما لهن ذنوب

﴿ إِنَّ ابنك سَرَقَ ﴾ [يوسف : 81] قال بعضهم : إنهم صدقوا بذلك لكنه سرق أسرار يوسف عليه السلام حين سمع منه في الخلوة ما سمع ولم يبده لهم ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ العليم الحكيم ﴾ [يوسف : 83] كأنه عليه السلام لما رأى اشتداد البلاء قوي رجاؤه بالفرج فقال ما قال :

اشتدى أزمة تنفرجي . . .

قد آذن ليلك بالبلج

وكان لسان حاله يقول :

دنا وصال الحبيب واقتراب . . .

واطربا للوصال واطرابا

﴿ وَقَالَ يا أسفي على يُوسُفَ ﴾ قال بعض العارفين : إن تأسفه على رؤية جمال الله تعالى من مرآة وجه يوسف عليه السلام وقد تمتع بذلك برهة من الزمان حتى حالت بينه وبينه طوارق الحدثان فتأسف عليه السلام لذلك واشتاقت نفسه لما هناك :

سقى الله أياماً لنا ولياليا . . .

مضت فجرت من ذكرهن دموع

فيا هل لها يوماً من الدهر أوبة . . .

وهل لي إلى أرض الحبيب رجوع

﴿ وابيضت عَيْنَاهُ مِنَ الحزن ﴾ [يوسف : 84] حيث بكى حتى أضر بعينيه وكان ذلك حتى لا يرى غير حبيبه :

لما تيقنت أني لست أبصركم . . .

غمضت عيني فلم أنظر إلى أحد

قال بعض العارفين : الحكمة في ذهاب بصر يعقوب وبقاء بصر آدم وداود عليهما السلام مع أنهما بكيا دهراً طويلاً إن بكاء يعقوب كان بكاء حزن معجون بألم الفراق حيث فقد تجلى جمال الحق من مرآة وجه يوسف ولا كذلك بكاء آدم وداود فإنه كان بكاء الندم والتوبة وأين ذلك المقام من مقام العشق ، وقال أبو سعيد القرشي : إنما لم يذهب بصرهما لأن بكاءهما كان من خوف الله تعالى فحفظاً وبكاء يعقوب كان لفقد لذة فعوتب ، وقيل : يمكن أن يكون ذهاب بصره عليه السلام من غيرة الله تعالى عليه حين بكى لغيره وإن كان واسطة بينه وبينه ، ولهذا جاء أن الله تعالى أوحى إليه يا يعقوب أتتأسف على غيري وعزتي لآخذن عينيك ولا أردهما عليك حتى تنساه ، واختار بعض العارفين أن ذلك الأسف والبكاء ليسا إلا لفوات ما انكشف له عليه السلام من تجلى الله تعالى في مرآة وجه يوسف عليه السلام ، ولعمري أنه لو كان شاهد تجليه تعالى في أول التعنيات وعين أعيان الموجودات صلى الله عليه وسلم لنسي ما رأى ولما عراه ما عرا ولله تعالى در سيدي ابن الفارض حيث يقول :

لو أسمعوا يعقوب بعض ملاحة . . .

في وجهه نسي الجمال اليوسفي

[يوسف : 85] هذا من الجهل بأحوال العشق وما عليه العاشقون فإن العاشق يتغذى

بذكر معشوقه :

فإن تمنعوا ليلى وحسن حديثها . . .

فلن تمنعوا مني البكا والقوافيا

وإذا لم يستطع ذكره بلسانه كان مستغرقاً بذكره إياه بجنانه :

غاب وفي قلبي له شاهد . . .

يولع إضماري بذكراه

مثلت الفكرة لي شخصه . . .

حتى كأني أتراآه

وكيف يخوف العاشق بالهلاك في عشق محبوبه وهلاكه عين حياته كما قيل :

ولكن لدى الموت فيه صبابة . . .

حياة لمن أهوى علي بها الفضل

ومن لم يمت في حبه لم يعش به . . .

ودون اجتناء النحل ما جنت النحل

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 86] أي أنا لا أشكو إلى غيره فإني أعلم غيرته سبحانه وتعالى على أحبابه وأنتم لا تعلمون ذلك ، وأيضاً من انقطع إليه تعالى كفاه ومن أناخ ببابه أعطاه ، وأنشد ذو النون :

إذا ارتحل الكرام إليك يوما . . .

ليلتمسوك حالاً بعد حال فإن

رحالنا حطت رضاء . . .

بحكمك عن حلول وارتحال

فسسنا كيف شئت ولا تكلنا . . .

إلى تدبيرنا يا ذا المعالي

وعلى هذا درج العاشقون إذا اشتد بهم الحال فزعوا إلى الملك المتعال ، ومن ذلك :

إلى الله أشكو ما لقيت من الهجر . . .

ومن كثرة البلوى ومن ألم الصبر

ومن حرق بين الجوانح والحشا . . .

كجمر الغضا لا بل أحر من الجمر

وقد يقال : إنه عليه السلام إنما رفع قصة شكواه إلى عالم سره ونجواه استرواحاً مما يجده بتلك المناجاة كما قيل :

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحة . . .

تمنيت أن أشكو إليه فيسمع

﴿ تَعْلَمُونَ يَبَنِىَّ اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ كأنه عليه السلام تنسم نسائم الفرج بعد أن رفع الأمر إلى مولاه عز وجل فقال ذلك : ﴿ وَلاَ تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ [يوسف : 87] من رحمته بإرجاعهما إلي أو من رحمته تعالى بتوفيق يوسف عليه السلام برفع خجالتكم إذا وجدتموه ﴿ قَالُواْ يا أَيُّهَا العزيز مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ أرادوا ضر المجاعة ولو أنهم علموا وأنصفوا لقصدوا ضر فراقك فإنه قد أضر بأبيهم وبهم وبأهلهم لو يعلمون :

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى . . .

منازل من يهوى معطلة قفرا

واعلم أن فيما قاله إخوة يوسف له عليه السلام من هنا إلى ﴿ المتصدقين ﴾ تعليم آداب الدعاء والرجوع إلى الأكابر ومخاطبة السادات فمن لم يرجع إلى باب سيده بالذلة والافتقار وتذليل النفس وتصغير ما يبدو منها ويرأن ما من سيده إليه على طريق الصدقة والفضل لا على طريق الاستحقاق كان مبعداً مطروداً ، وينبغي لعشاق جمال القدم إذا دخلوا الحضرة أن يقولوا : يا أيها العزيز مسنا وأهلنا من ضر فراقك والبعد عن ساحة وصالك ما لا يحتمله الصم الصلاب :

خليلي ما ألقاه في الحب إن يدم . . .

على صخرة صماء ينفلق الصخر

ويقولوا : ﴿ جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ من أعمال معلولة وأفعال مغشوشة ومعرفة قليلة لم تحط بذرة من أنوار عظمتك وكل ذلك لا يليق بكمال عزتك وجلال صمديتك ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ﴾ كيل قربك من بيادر جودك وفضلك ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف : 88] بنعم مشاهدتك فإنه إذا عومل المخلوق بما عومل فمعاملة الخالق بذلك أولى ﴿ قَالُواْ أَءِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ ﴾ خاطبوه بعد المعرفة بخطاب المودة لا بخطاب التكلف ، وفيه من حسن الظن فيه عليه السلام ما فيه :

إذا صفت المودة بين قوم . . .

ودام ولاؤهم سمج الثناء

ويمكن أن يقال : إنهم لما عرفوه سقطت عنهم الهيبة وهاجت الحمية فلم يكلموه على النمط الأول ، وقوله : ﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وهذا أَخِى ﴾ [يوسف : 90] جواب لهم لكن زيادة ﴿ وهذا أَخِى ﴾ قيل : لتهوين حال بديهة الحجل ، وقيل : للإشارة إلى أن إخوتهم لا تعد إخوة لأن الإخوة الصحيحة ما لم يكن فيها جفاء ، ثم إنه عليه السلام لما رأى اعترافهم واعتذارهم قال : ﴿ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ اليوم يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ [يوسف : 92] وهذا من شرائط الكرم فالكريم إذا قدر عفا :

والعذر عند كرام الناس مقبول . . .

(174/405)

وقال شاه الكرماني : من نظر إلى الخلق بعين الحق لم يعبأ بمخالفتهم ومن نظر إليهم بعينه أفنى أيامه بمخاصمتهم ، ألا ترى يوسف عليه السلام لما علم مجاري القضاء كيف عذر إخوته ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ لما علم عليه السلام أن أباه عليه السلام لا يحتمل الوصال الكلي بالبديهة جعل وصاله بالتدريج فأرسل إليه بقميصه ، ولما كان مبدأ الهم الذي أصابه من القميص الذي جاؤا عليه بدم كذب عين هذا القميص مبدأ للسرور دون غيره من آثاره عليه السلام ليدخل عليه السرور من الجهة التي دخل عليه

الهم منها ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : 93] كان كرم يوسف عليه السلام يقتضي أن يسير بنفسه إلى أبيه ولعله إنما لم يفعل لعلمه أن ذلك يشق على أبيه لكثرة من يسير معه ولا يمكن أن يسير إليه بدون ذلك أو لأن في ذلك تعطل أمر العامة وليس هناك من يقوم به غيره ، ويحتمل أن يكون أوحى إليه بذلك لحكمة أخرى ، وقيل : إن المعشوقية اقتضت ذلك ، ومن رأى معشوقاً رحيماً بعاشقه ؟ ، وفيه ما لا يخفى ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 94] يقال : إن ريح الصبا سألت الله تعالى فقالت : يا رب خصني أن أبشر يعقوب عليه السلام بابنه فأذن لها بذلك فحملت نشره إلى مشامه عليه السلام وكان ساجداً فرفع رأسه وقال ذلك وكان لسان حاله يقول :

أيا جبلي نعمان بالله خليا . . .

نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

أجد بردها أو تشف مني حرارة . . .

على كبد لم يبق إلا صميمها

فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت . . .

على نفس مهموم تجلت همومها

وهكذا عشاق الحضرة لا يزالون يتعرضون لنفحات ريح وصال الأزل ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : " إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لنفحات الرحمن " ويقال : المؤمن المتحقق يجد نسيم الإيمان في قلبه وروح المعرفة السابقة له من الله تعالى في سره ، وإنما وجد عليه السلام هذا الريح حيث بلغ الكتاب أجله ودنت أيام الوصال وحان تصرم أيام الهجر والبلبال وإلا فلم يجده عليه السلام لما كان يوسف في الجب ليس بينه وبينه إلا سويعة من نهار وما ذلك إلا لأن الأمور مرهونة بأوقاتها ، وعلى هذا كشوفات الأولياء فإنهم آونة يكشف لهم على ما قيل اللوح المحفوظ ، وأخرى لا يعرفون ما تحت أقدامهم ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ البشير أَلْقَاهُ على وَجْهِهِ فارتد بَصِيرًا ﴾ [يوسف : 96] فيه إشارة إلى أن العاشق الهائم المنتظر لقاء الحق سبحانه إذا ذهبت عيناه من طول البكاء يجيء إليه بشير تجليه فيلقى عليه قميص أنسه في حضرات قدسه فيرتد بصيراً بشم ذلك فهنالك يرى الحق بالحق وينجلي الغين عن العين ، ويقال : إنه عليه السلام إنما ارتد بصيراً حين وضع القميص على وجهه لأنه وجد لذة نفحة الحق تعالى منه حيث كان يوسف عليه السلام محل تجليه جل جلاله وكان القميص معبقاً بريح جنان قدسه فعاد لذلك نور بصره عليه السلام إلى مجاريه فأبصر ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ [يوسف : 98] وعدهم إلى أن يتعرف منهم صدق التوبة أو حتى يستأذن ربه تعالى في الاستغفار لهم فيأذن

سبحانه لئلا يكون مردوداً فيه كما رد نوح عليه السلام في ولده بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : 46] وقال بعضهم : وعدهم الاستغفار لأنه لم يفرغ بعد من استبشاره إلى استغفاره ، وقيل : إنما أسرع يوسف بالاستغفار لهم ووعد يعقوب عليهما السلام لأن يعقوب كان أشد حباً لهم فعاتبهم بالتأخير ويوسف لم يرهم أهلاً للعتاب فتجاوز عنهم من أول وهلة

(176/405)

أو اكتفى بما أصابهم من الخجل وكان خجلهم منه أقوى من خجلهم من أبيهم ، وفي المثل كفى للمقصر حياء يوم اللقاء ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا على يُوسُفَ ءاوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ [يوسف : 99] لأنهما ذاقا طعم مرارة الفراق فخصهما من بينهم بمزيد الدنو يوم التلاق ، ومن هنا يتبين أين منازل العاشقين يوم الوصال ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ [يوسف : 100] حيث بان لهم أنواع جلال الله تعالى في مرآة وجهه عليه السلام وعاينوا ما عاينت الملائكة عليهم السلام من آدم عليه السلام حين وقعوا له ساجدين ، وما هو إذا ذاك إلا كعبة الله تعالى التي فيها آيات بينات مقام إبراهيم ﴿ رَبّ قَدْ اتَيْتَنِى مِنَ الملك وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الاحاديث فَاطِرَ السموات والأرض أَنتَ وَلِيّنَا فِى الدنيا والاخرة تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ مفوضاً إليك

شأني كله بحيث لا يكون لي رجوع إلى نفسي ولا إلى سبب من الأسباب بحال من الأحوال ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ [يوسف : 101] بمن أصلحتهم لحضرتك وأسقطت عنهم سمات الخلق وأزلت عنهم رعونات الطبع ، ولا يخفى ما في تقديمه عليه السلام الثناء على الدعاء من الأدب وهو الذي يقتضيه المقام ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : 106] قال غير واحد من الصوفية : من التفت إلى غير الله تعالى فهو مشرك ، وقال قائلهم :

ولو خطرت لي في سواك إرادة . . .

على خاطري سهواً حكمت بردتي

(177/405)

﴿ قُلْ هذه سَبِيلِى أَدْعُواْ إِلَى الله على بَصِيرَةٍ ﴾ بيان من الله تعالى وعلم لا معارضة للنفس والشيطان فيه ﴿ أَنَاْ وَمَنِ اتبعنى ﴾ [يوسف : 108] وذكر بعض العارفين أن البصيرة أعلى من النور لأنها لا تصح لأحد وهو رقيق الميل إلى السوي ، وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون عارفاً بطريق الإيصال إليه سبحانه عالماً بما يجب له تعالى وما يجوز وما يمتنع عليه جل شأنه ، والدعاة إلى الله تعالى اليوم من هؤلاء الذين

نصبوا أنفسهم إلى الإرشاد بزعمهم أجهل من حمار الحكيم توما ، وهم لعمري في ضلالة مدلهمة ومهامه يحار فيها الخريت وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ولبئس ما كانوا يصنعون ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى الألباب ﴾ [يوسف : 111] وهم ذوو الأحوال من العارفين والعاشقين والصابرين والصادقين وغيرهم ، وفيها أيضاً عبرة للملوك في بسط العدل كما فعل يوسف عليه السلام ، ولأهل التقوى في ترك ما تراودهم النفس الشهوانية عليه ، وللمماليك في حفظ حرم السادة ، ولا أحد أغير من الله تعالى ولذلك حرم الفواحش ، وللقادرين في العفو عمن أساء إليهم ولغيرهم في غير ذلك ولكن أين المعتبرون ؟ أشباح ولا أرواح وديار ولا ديار فإنا لله وإنا إليه راجعون هذا .

(178/405)

وقد أول بعض الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم يوسف بالقلب المستعد الذي هو في غاية الحسن ، ويعقوب بالعقل والإخوة بني العلات بالحواس الخمس الظاهرة والخمس الباطنة والقوة الشهوانية ، وبنيامين بالقوة العاقلة العملية ، وراحيل أم يوسف بالنفس اللوامة ، وليا بالنفس الأمارة ، والجب بقعر الطبيعة البدنية ، والقميص الذي ألبسه يوسف في الجب بصفة الاستعداد الأصلي والنور الفطري ، والذئب بالقوة الغضبية ، والدم الكذب بأثرها ،

وابيضاض عين يعقوب بكلال البصيرة وفقدان نور العقل ، وشراؤه من عزيز مصر بثمن بخس بتسليم الطبيعة له إلى عزيز الروح الذي في مصر مدينة القدس بما يحصل للقوة الفكرية من المعاني الفائضة عليها من الروح ، وامرأة العزيز بالنفس اللوامة ، وقد القميص من دبر بخرقها لباس الصفة النورية التي هي من قبل الأخلاق الحسنة والأعمال الصالحة ، ووجدان السيد بالباب بظهور نور الروح عند إقبال القلب إليه بواسطة تذكر البرهان العقلي وورود الوارد القدسي عليه ، والشاهد بالفكر الذي هو ابن عم امرأة العزيز أو بالطبيعة الجسمانية الذي هو ابن خالتها ، والصاحبين بقوة المحبة الروحية وبهوى النفس ، والخمر بخمر العشق ، والخبز باللذات ، والطير بطير القوى الجسمانية ، والملك بالعقل الفعال ، والبقرات بمراتب النفس ، والسقاية بقوة الإدراك ، والمؤذن بالوهم إلى غير ذلك ، وطبق القصة على ما ذكر وتكلف له أشد تكلف وما أغناه عن ذلك والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل لا رب غيره ولا يرجى إلا خيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(179/405)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة يوسف (12) : آية 54]

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (قال) فعل ماض (الملك) فاعل مرفوع (ائتوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون. والواو فاعل و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير في محلّ نصب مفعول به (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ائتوني)، (أستخلصه) مضارع مجزوم بجواب الطلب، و (الهاء) ضمير في محلّ نصب مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (لنفسي) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أستخلصه)، و (الياء) ضمير في محلّ جر مضاف إليه (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (قال)، (كلّمه) فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، أي الملك "1"... و (الهاء) مفعول به (قال) مثل كلّم، والفاعل هو أي الملك (إنّك) حرف مشبّه بالفعل... و (الكاف) اسم إنّ في محلّ نصب (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (مكين) (لدينا) ظرف مكان مبنيّ على السكون

---

(1) يجوز أن يكون الفاعل هو يوسف لا الملك.

في محلّ نصب متعلّق بمكين . . . و (نا) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (مكين) خبر إنّ مرفوع (أمين) خبر ثان مرفوع.

جملة: "قال الملك . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ائتوني به . . . "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "أستخلصه . . . "لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء.

وجملة: "كلّمه . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "قال . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (لمّا).

وجملة: "إنّك . . . مكين" في محلّ نصب مقول القول.

الصرف:

(مكين)، صفة مشبّهة من مكن يمكن باب كرم، وزنه فعيل.

[سورة يوسف (12) : آية 55]

قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55)

الإعراب:

(قال) فعل ماض، والفاعل هو أي يوسف (اجعلني) فعل أمر دعائي، و (النون) للوقاية، و (الياء) مفعول به، والفاعل أنت (على خزائن) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول به ثان " 1 "، (الأرض) مضاف إليه مجرور (إنّي حفيظ عليم) مثل إنّك مكين أمين.

جملة: " قال... " لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة.

وجملة: " اجعلني... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " إنّي حفيظ... " لا محلّ لها تعليليّة.

---

(1) وإذا كان الفعل متعدّيا لواحد فالجار متعلّق بمحذوف حال من مفعول اجعلني.

(182/405)

[سورة يوسف (12) : الآيات 56 إلى 57]

وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (57)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (الكاف) حرف جرّ وتشبيه " 1 "، (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله مكّنا...

و(اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (مكّنّا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) ضمير في محلّ رفع فاعل (ليوسف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مكّنا) ، (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مكّنا) ، (يتبوّأ) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (من) حرف جرّ (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يتبوّأ) ، (حيث) ظرف مكان مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب متعلّق بـ (يتبوّأ) ، (يشاء) مثل يتبوّأ ، والفاعل هو (نصيب) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم (برحمتنا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نصيب) . . و (نا) ضمير مضاف إليه (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (نشاء) مثل نصيب (الواو) عاطفة (لا) نافية (نضيع) مثل نصيب (أجر) مفعول به منصوب (المحسنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " مكّنّا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتبوّأ . . . " في محلّ نصب حال من يوسف .

وجملة : " يشاء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) يجوز أن يكون اسما بمعنى مثل فهو في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته ، والعامل فعل مكّنّا أي : مثل ذلك التمكين في نفس الملك مكّنا ليوسف في الأرض ، والمعنى مكّنا له في الأرض تمكينا مثل ذلك التمكين

وجملة : " نصيب . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " نشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " لا نضيع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نصيب .

(الواو) واو الحال (اللام) لام الابتداء تفيد التوكيد (أجر) مبتدأ مرفوع (الآخرة) مضاف إليه مجرور (خير) خبر مرفوع (اللام) حرف جرّ (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (خير) (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . و (الواو) فاعل (الواو) عاطفة (كانوا) مثل آمنوا وهو ناقص - ناسخ - و (الواو) اسم كان في محلّ رفع (يتّقون) مضارع مرفوع . . . و (الواو) فاعل .

وجملة : " أجر الآخرة خير . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : "آمنوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "كانوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : "يتّقون . . . "في محلّ نصب خبر كانوا .

الفوائد

1 - حيث : ظرف للمكان مبنيّ على الضم نحو "اجلس حيث يجلس أهل الفضل" .

وهي في لغة بعض الأعراب "حوث" . وهي تلازم الإضافة إلى الجملة والأكثر ما تكون جملة فعلية ، نحو : الآية التي نحن بصددها "حيث يشاء" ولا تضاف إلى المفرد ، فإن ورد بعدها مفرد رفع على أنه مبتدأ خبره محذوف ، مثل "اجلس حيث خالد" وقد تجرّ ب" من أو إلى" : ارجع من حيث أتيت . وإذا لحقتها "ما "كانت اسم شرط .

2 - نسج أرباب السير حوادث حول هذه القصة الرائعة من نسج الخيال ، ولفقوا روايات يبدو عليها البطلان لتفاهتها وركاكتها ، أو منافاتها للعقل فعلى المرء أن يمحص تلك الروايات البادية التلفيق .

[سورة يوسف (12) : الآيات 58 إلى 60]

وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ (60)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (جاء) فعل ماض (إخوة) فاعل مرفوع (يوسف) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (الفاء) عاطفة (دخلوا) مثل آمنوا " 1 " ، (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (دخلوا) (الفاء) عاطفة (عرفهم) فعل ماض . . و (هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (له) مثل عليه متعلّق بـ (منكرون) وهو خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو " 2 " .

جملة : " جاء إخوة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " دخلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " عرفهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة دخلوا .

وجملة : " هم له منكرون . . . " في محلّ نصب حال من مفعول عرفهم " 3 " .

(الواو) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (قال) ، (جهّزهم) مثل عرفهم (بجهازهم) جارّ ومجرور متعلّق

---

(1) في الآية السابقة (57) .

(2) أو اللام في (له) زائدة للتقوية ، فمحلّ الهاء البعيد مفعول به لاسم الفاعل .

(3) يجوز أن تكون معطوفة على جملة عرفهم فلا محل لها .

ب (جهّزهم) بتضمينه معنى أكرمهم . . . و (هم) ضمير مضاف إليه (قال) فعل ماض

والفاعل هو (ائتوني) مرّ إعرابه " 1 " ، (بأخ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ائتوا) ، (اللام) حرف

جر و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لأخ (من أبيكم) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لأخ ،

وعلامة الجرّ الياء فهو من الأسماء الخمسة . . .

و(كم) ضمير مضاف إليه (ألا) أداة عرض " 2 " (ترون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع

ثبوت النون . . . والواو فاعل (أنّي) حرف مشبّه بالفعل . . . و (الياء) اسم أنّ (أوفي)

مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل أنا (الكيل) مفعول به

منصوب (الواو) عاطفة (أنا) ضمير منفصل مبتدأ في محلّ رفع (خير) خبر مرفوع (المنزلين)

مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (أنّي أوفي . . .) في محلّ نصب سد مسد مفعولي ترون .

وجملة : " جهزهم . . . " في محل جر مضاف إليه .

وجملة : " قال . . . " لا محل لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ائتوني . . . " في محل نصب مقول القول .

وجملة: "ألا ترون . . . "لا محل لها استئناف في حيز القول" 3 " .

وجملة: "أوفي . . . "في محل رفع خبر أن.

وجملة: "أنا خير . . . "في محل رفع معطوفة على جملة أوفي.

(الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (لم) حرف نفي (تأتوا) مضارع مجزوم فعل الشرط

" 4 " . . والواو فاعل و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول

---

(1) في الآية (54) من هذه السورة.

(2) - أو الهمزة للاستفهام و (لا) نافية.

(3) أو لا محل لها اعتراضية بين المتعاطفين في هذه الآية والآية التالية. [. . . . . .]

(4) لأن (لم) تقلب معنى الفعل من المضارع إلى الماضي، لهذا كانت هنا نافية فقط ولم تكن هي الجازمة.

به (الباء) حرف جر و (الهاء) ضمير في محل جر بالباء متعلق بـ (تأتوا) (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية للجنس (كيل) اسم لا مبني على الفتح في محل نصب (لكم) مثل الأول متعلق بخبر لا (عندي) ظرف منصوب متعلق بالخبر وعلامة النصب الفتحة المقدرة

على ما قبل الياء ، و (الياء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة " 1 " ، (تقربون) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . و (الواو) فاعل ، و (النون) حرف وقاية ، و (الياء) المحذوفة للتخفيف ضمير مفعول به .

وجملة : " لم تأتوني . . . " في محل نصب معطوفة على جملة ائتوني .

وجملة : " لا كيل لكم . . . " في محل جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " لا تقربون . . . " في محل جزم معطوفة على جملة جواب الشرط .

الصرف :

(منكرون) ، جمع منكر ، اسم فاعل من (أنكر) الرباعي ، وزنه مفعل بضم الميم وكسر العين .

(جهاز) ، اسم لحوائج المسافر أو غيره ، وزنه فعال بفتح الفاء ، وقد تكسر على قلة .

(المنزلين) ، جمع المنزل ، اسم فاعل من (أنزل) الرباعي ، وزنه مفعل بضم الميم وكسر العين .

[سورة يوسف (12) : آية 61]

قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ (61)

---

(1) أو هي نافية ، والجملة بعدها استئنافية . . قال أبو حيان : " هو نفي مشتق ومعناه النهي ، وحذفت النون وهو مرفوع كما حذف في (فبم تبشرون) ، أو هو نفي داخل في الجزاء معطوف على محل (لا كيل) أي مجزوم . . . " أ ه .

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض مبني على الضم . . والواو فاعل (السين) حرف استقبال (نراود) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن (عن) حرف جر و (الهاء) ضمير في محل جر متعلق بـ (نراود) ، (أباه) مفعول به منصوب وعلامة النصب الألف و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (إن) حرف مشبه بالفعل للتوكيد و (نا) ضمير في محل نصب اسم إن (اللام) المزحلقة (فاعلون) خبر إن مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " قالوا . . . " لا محل لها استئناف بياني .

وجملة : " سنراود . . . " في محل نصب مقول القول .

وجملة : " إنا لفاعلون . . . " في محل نصب معطوفة على جملة مقول القول للتوكيد .

[سورة يوسف (12) : الآيات 62 إلى 63]

وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (63)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (قال) فعل ماض ، والفاعل هو (لفتيانه) جار ومجرور متعلق بـ (قال) ، و (الهاء) مضاف إليه (اجعلوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (بضاعتهم) مفعول به منصوب . . . و (هم) ضمير متصل مضاف إليه (في رحالهم) جار ومجرور متعلق بـ (اجعلوا) ، و (هم) مثل الأخير (لعل) حرف مشبه بالفعل للترجي - ناسخ - و (هم) ضمير في محل نصب اسم لعل (يعرفون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل و (ها) ضمير مفعول به (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط في محل نصب

(188/405)

متعلّق بمضمون الجواب (انقلبوا) مثل قالوا " 1 " ، (إلى أهلهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (انقلبوا) . . و (هم) مضاف إليه (لعلّهم يرجعون) مثل لعلّهم يعرفون .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اجعلوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لعلّهم يعرفونها . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يعرفونها . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

وجملة : " انقلبوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط محذوف . دلّ عليه ما قبله أي : إذا انقلبوا . . . فلعلّهم يعرفونها .

وجملة : " لعلّهم يرجعون . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " يرجعون . . . " في محلّ رفع خبر (لعلّ) الثاني .

(الفاء) عاطفة (لمّا) مرّ إعرابه " 2 " ، (رجعوا) مثل قالوا " 3 " ، (إلى أبيهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رجعوا) وعلامة الجرّ الياء ، و (هم) مضاف إليه (قالوا) مثل السابق " 4 " ، (يا) أداة نداء (أبانا) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الألف . . . و (نا) مضاف إليه (منع) ماض مبنيّ للمجهول (من) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (منع) (الكيل) نائب الفاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أرسل) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل أنت (معنا) ظرف منصوب متعلّق بحال من (أخانا) . . . و (نا) مضاف إليه (أخانا) مفعول به منصوب وعلامة النصب الألف . . . و (نا) مثل الأخير (نكتل) مضارع مجزوم

---

(1) في الآية (61) من هذه السورة .

(2) في الآية (59) من هذه السورة .

(3 ، 4) في الآية (61) من هذه السورة .

جواب الطلب، والفاعل نحن (الواو) حاليّه (إنّا له لحافظون) مثل إنّا لفاعلون " 1 "، والجارّ متعلّق بـ (حافظون) .

وجملة: " رجعوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: " يا أبانا . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " منع منا الكيل . . . " لا محلّ لها جواب النداء " 2 " .

وجملة: " أرسل . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن رغبت في الكيل فأرسل.

وجملة: " نكتل . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي: إن ترسل معنا أخانا نكتل . . .

وجملة: " إنّا له لحافظون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل نكتل " 3 " .

الصرف:

(بضاعة)، اسم قصد به الثمن المدفوع لقاء ما اشترى من ميرة.

(رحال) ، جمع رحل اسم لما يجعل على ظهر البعير كالسرج أو الوعاء الذي يحمل الحوائج ، وزنه فعل بفتح فسكون ، ووزن رحال فعال بكسر الفاء ، وثمّة جمع آخر هو أرحل بفتح الهمزة وضمّ الحاء .

(نكتل) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، أصله نكتال ، فلمّا التقى

---

(1) في الآية 63 من هذه السورة .

(2) ذلك بجعل (منع) ماضيا حقيقة . . . أمّا إذا كان الفعل ماضيا لفظا مستقبلا معنى فالجملة جواب شرط مقدّر أي إن لم يذهب معنا أخانا يمنع منّا الكيل في المرّة القادمة . . . والظاهر أنّ المعنى الأول أقوى لقراءة (يكتل) بالياء قراءة سبعيّة .

(3) يجوز أن تكون الجملة جوابا لقسم مقدّر لوجود اللام في الخبر . . كما يجوز أن تكون معطوفة على جملة نكتل . . .

ساكنان حذفت الألف ، وزنه نفتل . . والألف منقلبة عن ياء ، وأصل اللفظ نكتيل - بفتح التاء وكسر الياء - استثقلت الكسرة على الياء فسكّنت - إعلال بالتسكين - ثمّ قلبت ألفا لانفتاح ما قبلها وتحرّكها في الأصل ، فأصبح نكتال .

[سورة يوسف (12) : آية 64]

قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64)

الإعراب:

(قال) فعل ماض، والفاعل هو أي يعقوب (هل) حرف استفهام وفيه معنى النفي (آمنكم) مضارع مرفوع... و(كم) ضمير في محلّ نصب مفعول به، والفاعل أنا (على) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (آمنكم)، (إلّا) أداة حصر (الكاف) حرف جرّ وتشبيه (ما) حرف مصدريّ (أمنت) فعل ماض مبنيّ على السكون... و(التاء) فاعل و(كم) مفعول به (على أخيه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أمنتكم)، وعلامة الجرّ الياء... و(الهاء) مضاف إليه (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أمنتكم)، (الفاء) استئنافيّة (الله) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (خير) خبر مرفوع (حافظا) تمييز منصوب "1"، (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أرحم) خبر مرفوع (الراحمين) مضاف إليه مجرور، وعلامة الجرّ الياء.

والمصدر المؤوّل (ما أمنتكم...) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي: آمنكم عليه أمانا كأماني على أخيه.

وجملة: "قال..." لا محلّ لها استئنافيّة.

(1) أو حال منصوبة.

(191/405)

وجملة: "هل آمنكم ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "أمنتكم ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: "اللّه خير حافظا ... " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 ".

وجملة: "هو أرحم ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه خير ...

الصرف:

(آمن)، المدّة مكوّنة من همزتين، همزة المضارعة وهمزة فاء الكلمة، وإذا جاءت الهمزة الثانية ساكنة أدغمت الألفان ووضع فوقها مدّة، وزنه أفعل.

(أرحم)، اسم تفضيل من رحم الثلاثيّ، وزنه أفعل.

(الراحمين)، جمع الراحم، اسم فاعل من رحم الثلاثيّ، وزنه فاعل.

الفوائد

1 - خَيْرٌ حافِظاً، جوّز النحاة إعراب " حافظا " أنها منصوبة على التمييز أو على الحال.

ويبدو أن الرأي الوجيه هو التمييز ، لأننا لو اعتبرنا " خير " صفة مشبهة باسم الفاعل فيصبح نصب الاسم بعدها على التمييز " وفي بحثها تفصيل " .

ولو اعتبرنا " خير " اسم تفضيل فهو ينصب ما بعده على التمييز فهو وجه من وجوه إعراب الاسم بعده . كقولنا فلان أكرم نفسا وأجمل وجها إلخ .

[سورة يوسف (12) : آية 65]

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65)

---

(1) أو هي جواب شرط مقدّر أي إن أرسلته معكم فالله خير حافظا .

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لمّا فتحوا . . . وجدوا) مثل لمّا رجعوا . . .

قالوا " 1 " ، (متاعهم) مفعول به منصوب و (هم) ضمير مضاف إليه (بضاعتهم) مثل متاعهم (ردّت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . . و (التاء) للتأنيث ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هي (إلى) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ردّت) ، (قالوا : يا

أبانا) مرّ إعرابها "2" (ما) اسم استفهام "3" مبنيّ في محلّ نصب مفعول به عامله (نبغي) وهو مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء والفاعل نحن (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ في محل رفع مبتدأ (بضاعتنا) بدل مرفوع - أو عطف بيان - و (نا) مضاف إليه (ردّت إلينا) مثل ردّت إليهم (الواو) عاطفة (نمير) مضارع مرفوع، والفاعل نحن (أهلنا) مثل متاعهم (الواو) عاطفة (نحفظ أخانا) مثل نمير أهلنا ... وعلامة النصب هنا الألف (الواو) عاطفة (نزداد) مثل نمير (كيل) تمييز منصوب (بعير) مضاف إليه مجرور (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ... و (اللام) للبعد، و (الكاف) للخطاب (كيل) خبر مرفوع (يسير) نعت لكيل مرفوع.

جملة: "فتحوا ..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "وجدوا ..." لا محلّ لها جواب شرط مقدّر.

وجملة: "ردّت إليهم ..." في محلّ نصب حال بتقدير (قد).

وجملة: "قالوا ..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يا أبانا ..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "ما نبغي ..." لا محلّ لها جواب النداء.

---

(1) في الآية (63) من هذه السورة.

(2) في الآية (63) من هذه السورة.

(3) أجاز أبو البقاء جعلها نافية و (نبغي) بمعنى نظلم أو نعتدي . . . والزجّاج جعلها نافية والفعل بمعنى نطلب أي ما بقي لنا ما نطلب . . .

(193/405)

وجملة : " هذه بضاعتنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " ردّت إلينا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هذه) .

وجملة : " نمير أهلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هذه بضاعتنا .

وجملة : " نحفظ أخانا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هذه بضاعتنا .

وجملة : " نزداد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هذه بضاعتنا .

وجملة : " ذلك كيل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول .

الصرف :

(بعير) ، اسم جامد للجمل البازل يطلق للذكر والأنثى ، جمعه بعران - بضمّ الباء - وأبعرة وجمع الجمع أباعر وأباعير ، والأوزان على التوالي فعيل بفتح الفاء ، وفعلان بضمّها ، وأفعلة ، وأفاعل ، وأفاعيل .

[سورة يوسف (12) : آية 66]

قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (66)

الإعراب :

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو (لن) حرف نفي واستقبال (أرسله) مضارع منصوب ، و (الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل أنا (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف حال من ضمير المفعول " 2 " ، و (كم) ضمير مضاف إليه (حتّى) حرف غاية وجرّ (تؤتون) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى ، وعلامة النصب حذف النون . . . و (الواو) فاعل ، و (النون) نون الوقاية و (الياء) المحذوفة للتخفيف مفعول به (موثقا) مفعول به ثان منصوب (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (موثقا) " 3 " .

---

(1) وقال أبو حيّان : هي موضّحة لقولهم ما نبغي والجمل بعدها معطوفة . . .

[. . . . . .]

(2) أو متعلّق بالفعل أرسله .

(3) أي موثقا مشهدا عليه من اللّه .

والمصدر المؤول (أن تؤتون) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (أرسله) .

(اللام) لام القسم لأنّ الميثاق يمين (تأتنّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال ، و (الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و (النّون) المشدّدة نون التوكيد و (النّون) المخفّفة للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تأتنّ) ، (إلّا) أداة استثناء (أن) حرف مصدريّ ونصب (يحاط) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب (الباء) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ نائب الفاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يحاط . . .) في محلّ نصب على الاستثناء على حذف مضاف أي لتأتنني به في كلّ حال إلّا حال الإحاطة بكم " 1 " .

(الفاء) عاطفة (لمّا أتوه . . . قال) مثل لمّا رجعوا . . . قالوا "

، (موثقهم) مفعول به منصوب . . . و (هم) مضاف إليه ، وفاعل قال هو أي يعقوب (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (على) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 3 " ، (نقول) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن (وكيل) خبر المبتدأ مرفوع .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لن أرسله . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " توتون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة: "تأتنّني به... " لا محلّ لها جواب القسم.

وجملة: "آتوه... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

---

(1) أو لا تمتعون عن الإتيان به لأي سبب إلّا سبب الإحاطة بكم.

(2) في الآية (63) من هذه السورة.

(3) أو اسم موصول في محلّ جرّ... والعائد محذوف، والجملة بعده صلة الموصول.

(195/405)

وجملة: "قال (الثانية)... " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "اللّه... وكيل" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "نقول... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

الصرف:

(موثقا)، مصدر ميّمي من فعل وثق يثق، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين لأنه مثال محذوف الفاء في المضارع.

(يحاط)، فيه إعلال بالقلب للبناء للمجهول، فالمضارع المعلوم يحيط، فلمّا فتح ما قبل آخره ونقلت الفتحة إلى الحرف الذي قبل الياء لسكونه، قلبت الياء المتحركة في الأصل

ألفا لانفتاح ما قبلها. والياء في (يحيط) منقلبة عن واو، مضارعه المجرّد يحوط، والأصل يحوط بضمّ الياء وكسر الواو، فلمّا استثقلت الكسرة على الواو سكّنت ونقلت الحركة إلى الحرف قبلها، كسر ما قبل الواو الساكنة قلبت ياء فأصبح يحيط.

[سورة يوسف (12) : آية 67]

وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67)

الإعراب:

(196/405)

(الواو) عاطفة (قال) فعل ماض والفاعل هو أي يعقوب (يا) أداة نداء (بنيّ) منادى مضاف منصوب، وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكر، و (الياء) الثانية مضاف إليه (لا) ناهية جازمة (تدخلوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون... والواو فاعل (من باب) جار ومجرور متعلّق بـ (تدخلوا)، (واحد) نعت لباب مجرور (الواو) عاطفة (ادخلوا) فعل

أمر مبنيّ على حذف النون... و (الواو) فاعل (من أبواب) جارّ ومجرور متعلّق بـ

(ادخلوا) ، (متفرّقة) نعت لأبواب مجرور (الواو) عاطفة (ما) نافية بـ (أغني) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل أنا (عن) حرف جرّ (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أغني) ، (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بحال من شيء (من) حرف جرّ زائد (شيء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول مطلق أي ما أغني عنكم أي إغناء أو شيئًا من الإغناء " 1 " . (إن) حرف نفي (الحكم) مبتدأ مرفوع (إلّا) أداة حصر (للّه) جارّ ومجرور خبر المبتدأ (عليه) مثل عنكم متعلّق بـ (توكّلت) وهو فعل ماض مبنيّ على السكون . . .

و(التاء) فاعل (الواو) عاطفة (عليه) مثل الأول متعلّق بـ (يتوكّل) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر (يتوكّل) مضارع مجزوم (المتوكّلون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال في الآية السابقة " 2 " .

وجملة النداء : " يا بنيّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا تدخلوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ادخلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " ما أغني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " إن الحكم إلّا للّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة: " توكّلت . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: " يتوكّل المتوكّلون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كان الحكم للّه فليتوكّل المتوكّلون عليه . . . وجملة الشرط المقدّرة لا محلّ لها

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا به بتضمين أغني معنى أدفع أي لا أدفع - أو يدفع - عنكم - أو عنهم - شيئا من القدر.

(2) أو هي استئنافيّة أصلا.

معطوفة على الاستئناف السابق " 1 " .

[سورة يوسف (12) : آية 68]

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (68)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (لمّا دخلوا) مثل لمّا رجعوا " 2 " ، (من) حرف جرّ (حيث) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (دخلوا) ، (أمرهم) فعل ماض، و (هم) ضمير مفعول

به (أبوهم) فاعل مرفوع . . . و (هم) مضاف إليه (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص -

ناسخ - واسمه ضمير مستتر تقديره هو أي دخلوهم متفرّقين (يغني) مضارع مرفوع ،

وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل هو أي الدخول (عنهم) مثل عنكم ،

متعلّق بـ (يغني) (من الله من شيء) مرّ إعرابها " 3 " ، (إلّا) أداة استثناء (حاجة)

منصوب على الاستثناء المنقطع (في نفس) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لحاجة (يعقوب)

مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (قضاها) فعل ماض و (ها) ضمير مفعول به ،

والفاعل هو (الواو) استئنافيّة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (الهاء) ضمير في محلّ نصب

اسم إنّ (اللام) المزحلقة للتوكيد (ذو) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو (علم) مضاف إليه

مجرور (اللام) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 4 " (علّمنا) فعل ماض مبنيّ على

السكون . . . و (نا) فاعل و (الهاء)

---

(1) أو هي استئنافيّة أصلا .

(2) في الآية (63) من هذه السورة .

(3) في الآية السابقة (67) ، وانظر الحاشية رقم (1) في الصفحة السابقة .

(4) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والجملة صلة ، والعائد محذوف أي لما علّمناه إيّاه .

ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف مشبّه بالفعل للاستدراك (أكثر) اسم لكنّ منصوب (الناس) مضاف إليه مجرور (لا) نافية (يعلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة : " دخلوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه معنى الجملة المنفيّة : ما كان يغني عنهم . . . . أي : أصابهم ما أصابهم " 1 " .

وجملة : " ما كان يغني . . . " في محلّ نصب حال من فاعل دخلوا . . . أي غير مفيدهم الهرب من قدر اللّه " 2 " .

وجملة : " يغني . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " قضاها . . . " في محلّ نصب نعت لحاجة .

وجملة : " إنّه لذو علم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " علّمناه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " لكنّ أكثر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّه لذو علم . . .

وجملة : " لا يعلمون . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ .

والمصدر المؤوّل (ما علّمناه . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (علم) .

الصرف :

(حاجة) ، اسم لما يحتاج إليه ، وزنه فعلة بفتح الفاء ، جمعه حاج وحوج - بكسر الحاء وفتح الواو - وحاجات وحوائج ، وهذا الأخير على

---

(1) امتنع كون جملة ما كان يغني أن تكون جوابا لأنّ (ما) النافية لا يعمل ما بعدها في ما قبلها ولأنّ جملة الجواب تعمل في (لمّا) . . . ويجوز أن تكون جملة ما كان يغني جوابا إذ أعرب (لمّا) حرف وجود لوجود (أو وجوب لوجوب) .

(2) يجوز أن تكون الجملة استئنافيّة إذا كان الجواب مقدّرا .

(199/405)

تقدير حائجة . . . والألف في (حاجة) منقلبة عن واو أصله حوجة ، جاءت الواو بعد فتح قلبت ألفا .

[سورة يوسف (12) : آية 69]

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (69)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لمّا دخلوا . . . آوى) مثل لمّا رجعوا . . .

قالوا " 1 " ، (إلى) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (آوى) ، (أخاه) مفعول

به منصوب وعلامة النصب الألف . . . و (الهاء) مضاف إليه (قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي يوسف (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد - ناسخ - و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ ، (أنا) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أخوك) خبر المبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو . . . و (الكاف) مضاف إليه (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (لا) ناهية جازمة (تبتئس) مضارع مجزوم ، والفاعل أنت (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبني في محلّ جرّ متعلّق بـ (تبتئس) ، والعائد محذوف ، (كانوا) فعل ماض ناقص . . . و (الواو) اسم كان (يعلمون) مثل السابق "2" .

جملة : "دخلوا . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "آوى . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم "3" .

وجملة : "قال . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ "4" .

---

(1) في الآية (63) من هذه السورة. [. . . . .]

(2) في الآية السابقة (68) .

(3) يجعل بعضهم هذه الجملة جوابا للشرطين معا .

(4) أو هي حال بتقدير (قد) .

وجملة: "إنّي أنا أخوك . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "أنا أخوك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "لا تبتئس . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي تنبّه. فلا تبتئس.

وجملة: "كانوا يعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: "يعملون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا.

الصرف:

[آوى) ، الألف فيه منقلبة عن ياء - إعلال بالقلب - جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا. والمدّة مكوّنة من همزة بعدها ألف ثانية فهو على وزن فاعل، مضارعه يؤاوى . .

وانظر الآية (72) من سورة الأنفال.

[سورة يوسف (12) : آية 70]

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (70)

الاعراب:

(الفاء) عاطفة (لمّا جهّزهم . . . جعل) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (السقاية) مفعول به منصوب (في رحل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جعل) ، (أخيه) مضاف إليه مجرور . . . و

(الهاء) ضمير مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (أذّن) فعل ماض (مؤذّن) فاعل مرفوع (أيّتها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب . . . (ها) حرف تنبيه (العير) بدل من أيّة - أو عطف بيان - مرفوع لفظا (إنّكم) مثل إنّي " 2 "، (اللام) المزحلقة (سارقون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

---

(1) في الآية (63) من هذه السورة .

(2) في الآية السابقة (69) .

(201/405)

جملة : " جهّزهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أذّن مؤذّن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " أيّتها العير . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " إنّكم لسارقون . . . " لا محلّ لها تفسير للأذان .

الصرف :

(السقاية) ، اسم جامد للإناء الذي يسقى به ، ووزنه فعالة بكسر الفاء . . . وانظر الآية (19) من التوبة .

(العير) ، اسم لكلّ ما يحمل عليه من الإبل والحمير والبغال ، وأريد به هنا أصحاب الإبل . . . وفي المصباح : العير بالكسر اسم للإبل التي تحمل الميرة في الأصل ثمّ غلب على كلّ قافلة .

البلاغة

- المجاز المرسل : في قوله تعالى أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ وعلاقته المجاورة ، والمراد هنا أصحاب العير ، كما في

(202/405)

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : "يا خيل الله اركبي " .

الفوائد

- ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ :

أي : يتوسّل بها لنداء المعرف بأهل ، وهي اسم مبني على الضم . وقد مرّ معنا نظيرها ، حيث اقتضى تفصيل هذا البحث ، فعد إليه حيث اقتضى التفصيل .

والعير بدل من المنادي.

[سورة يوسف (12) : آية 71]

قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (71)

الإعراب:

(قالوا) فعل ماض وفاعله (الواو) واو الحال (أقبلوا) مثل قالوا (على) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أقبلوا) ، (ماذا) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (تفقدون) مضارع مرفوع...

والواو فاعل.

جملة: " قالوا... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " أقبلوا... " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة: " تفقدون... " في محلّ نصب مقول القول.

[سورة يوسف (12) : آية 72]

قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72)

الإعراب:

(قالوا) فعل ماض وفاعله (نفقد) مضارع مرفوع، والفاعل نحن (صواع) مفعول به منصوب (الملك) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (اللام) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في

محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (جاء) فعل ماض، والفاعل هو وهو العائد (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (جاء)، (حمل) مبتدأ مؤخّر مرفوع (بعير) مضاف إليه مجرور (الواو) استئنافيّة (أنا زعيم) مثل أنا أخوك " 2 "، (به) مثل الأول متعلّق بـ (زعيم) .

جملة: " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو (ما) اسم استفهام مبتدأ (ذا) اسم موصول خبر، وجملة تفقدون صلة الموصول والعائد محذوف أي تفقدونه، وجملة ماذا مقول القول.

(2) في الآية (69) من هذه السورة.

وجملة: " نفقد . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " لمن جاء . . . حمل " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول.

وجملة: " جاء به . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: " أنا به زعيم . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي وقال المؤذّن أنا به زعيم . . . وجملة القول المقدّرة استئنافيّة،

الصرف :

(صواع) ، اسم لآلة الكيل ، وهو السقاية المتقدم ذكرها في الآية السابقة ، والصواع لفظ يذكّر ويؤنّث وزنه فعال بضمّ الفاء زنة غراب .

(زعيم) ، صفة مشبّهة من زعم يزعم باب فتح وباب نصر أي كفل به ، وزنه فعيل ، جمعه زعماء زنة فعلاء بضمّ الفاء وفتح العين .

[سورة يوسف (12) : آية 73]

قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ (73)

الإعراب :

(قالوا) فعل وفاعل (التاء) تاء القسم (اللّه) لفظ الجلالة مجرور بتاء القسم متعلّق بمحذوف تقديره نقسم (اللام) لام القسم (قد) حرف تحقيق (علمتم) فعل ماض مبنيّ السكون . . . و (تم) ضمير فاعل (ما) نافية (جئنا) مثل علمتم (اللام) لام التعليل (نفسد) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل نحن (في الأرض) جار ومجرور متعلّق بـ (نفسد) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية (كنّا) ماض ناقص واسمه (سارقين) خبر كنّا منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " (نقسم) باللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: " قد علمتم . . . " لا محلّ لها جواب القسم.

وجملة: " ما جئنا . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل العلم المعلّق بالنفي.

وجملة: " نفسد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر والمصدر المؤوّل (أن نفسد) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جئنا).

وجملة: " ما كنا سارقين . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة (ما) جئنا.

[سورة يوسف (12) : آية 74]

قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (74)

الإعراب:

(قالوا) فعل وفاعل (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (جزاؤه) خبر مرفوع . . . و (الهاء) مضاف إليه (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و (تم) ضمير اسم كان (كاذبين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ما جزاؤه . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كان سارقا وكنتم كاذبين فما جزاؤه؟ . . وجملة الشرط المقدّرة في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "كنتم كاذبين . . . " لا محلّ لها تفسير للشرط المقدّر الأوّل . . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه (ما) قبله أي: إن كنتم كاذبين فما جزاؤه.

[سورة يوسف (12) : آية 75]

قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75)

الإعراب:

(قالوا) فعل وفاعل (جزاؤه) مبتدأ مرفوع . . و (الهاء) مضاف إليه . . والخبر محذوف تقديره بيّن أو واضح أو معروف . . إلخ "1"، (من) اسم شرط جازم "2" مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (وجد) فعل ماض مبنيّ للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الصواع (في رحله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (وجد)، و (الهاء) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هو) ضمير منفصل مبتدأ في محلّ رفع - أي السجن أو الاسترقاق - (جزاؤه) خبر مرفوع و (الهاء) مضاف إليه (الكاف) حرف جرّ وتشبيه "3"، (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نجزي . . .

و (اللام) للبعد، و (الكاف) للخطاب (نجزي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء والفاعل نحن (الظّالمين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: "قالوا ... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "جزاؤه (بيّن) ... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "من وجد ... "لا محلّ لها تفسير لما سبق "4" .

(205/405)

وجملة: "وجد ... "في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة: "هو جزاؤه ... "في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: "نجزي ... "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

---

(1) أعربه بعضهم خبرا لمبتدأ محذوف تقديره المسؤول عنه ... وهو رأي الزمخشري وردّه أبو حيّان لأنّ هذا التقدير ليس فيه كبير فائدة.

2 - أو هو اسم موصول في محلّ رفع خبر المبتدأ (جزاؤه) على حذف مضاف أي جزاؤه سجن من وجد، أو استرقاق من وجد في رحله ... وجملة هو جزاؤه تقرير لحكم فهي استئنافيّة وهو اختيار أبي حيّان.

(3) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر.

(4) أو هي خبر إن كان (من) اسم موصول كما جاء في الحاشية رقم (2) .

[سورة يوسف (12) : آية 76]

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (بدأ) فعل ماض ، والفاعل هو أي يوسف - أو وكيله - (بأوعيتهم) جار ومجرور متعلّق ب (بدأ) . . و (هم) ضمير مضاف إليه (قبل) ظرف زمان منصوب متعلّق ب (بدأ) ، (وعاء) مضاف إليه مجرور (أخي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء و (الهاء) مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (استخرجها) ، مثل بدأ . . و (ها) مفعول به (من وعاء) جارّ ومجرور متعلّق ب (استخرجها) ، (أخيه) مثل الأول (كذلك) مرّ إعرابها " 1 " ، (كدنا) فعل ماض . . و (نا) ضمير فاعل (ليوسف) جارّ ومجرور متعلّق ب (كدنا) بتضمينه معنى دبّرنا ، وعلامة الجرّ الفتحة (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو أي يوسف (اللام) لام الجحود والإنكار (يأخذ) مضارع منصوب

بأن مضمرة بعد اللام (أخاه) مفعول به منصوب وعلامة النصب الألف . . و (الهاء) مضاف إليه (في دين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأخذ) ، (الملك) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (أن يأخذ . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر كان .

(إلّا) حرف للاستثناء (أن) حرف مصدريّ ونصب (يشاء) مضارع منصوب (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع .

---

(1) في الآية السابقة (75) .

(207/405)

والمصدر المؤوّل (أن يشاء . . .) في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع " 1 " .

(نرفع) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم (درجات) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (نرفع) " 2 " ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (نشاء) مثل نرفع (الواو) عاطفة (فوق) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (كلّ) مضاف إليه مجرور (ذي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (علم) مضاف إليه مجرور (عليم) مبتدأ مؤخّر مرفوع .

جملة : " بدأ بأوعيتهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

فأرجعوا إلى يوسف فبدأ بأوعيتهم . . .

وجملة : " استخرجها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بدأ .

وجملة : "كدنا ليوسف . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما كان ليأخذ . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يأخذ أخاه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يشاء اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " نرفع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " فوق كلّ . . عليم " لا محلّ لها معطوفة على جملة نرفع . . .

الصرف :

(أوعية) ، جمع وعاء ، اسم لما يوعى فيه الشيء ويحفظ ، وزنه فعال بكسر الفاء ، والهمزة منقلبة عن ياء أصله وعاي لأن الجمع أوعية ، فلمّا تطرفت الياء بعد ألف ساكنة قلبت همزة فأصبح وعاء ، وجمع الجمع أواع .

---

1 - أي (ما) كان ليأخذ أخاه في دين الملك لكن بمشيئة اللّه أخذه على شريعة يعقوب .

(2) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر أي نرفعه رفعا متمكّنا . [. . . . .]

(كدنا) ، فيه إعلال بالحذف ، وأصله كيدنا ، فلمّا بني الفعل على السكون لدخول ضمير جمع المتكلّم حذفت الياء للتخلّص من التقاء الساكنين ، وزنه فلنا بكسر الفاء .

[سورة يوسف (12) : آية 77]

قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (77)

الإعراب :

(قالوا) فعل وفاعل (إن) حرف شرط جازم (يسرق) مضارع مجزوم فعل الشرط ، والفاعل هو (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (سرق) فعل ماض (أخ) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة (اللام) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لأخ (من) حرف جرّ (قبل) اسم ظرفي مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (سرق) ،

(الفاء) عاطفة (أسرّها) مثل سرق . . . و (ها) ضمير مفعول به (يوسف) فاعل مرفوع، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (في نفسه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسرّ) . . و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم (يبدها) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة . . و (ها) ضمير مفعول به، والفاعل هو (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يبدها) ، (قال) فعل ماض، والفاعل هو (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (شرّ) خبر مرفوع (مكانا) تمييز منصوب (الواو) عاطفة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (أعلم) خبر مرفوع (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 1 "، (تصفون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل.

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والجملة بعده صلة، والعائد محذوف أي تصفونه.

والمصدر المؤوّل (ما تصفون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أعلم) .

جملة: " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " إن يسرق . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " قد سرق أخ . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: "أسرّها يوسف... "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "لم يبدها... "لا محلّ لها معطوفة على جملة أسرها.

وجملة: "قال... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "أنتم شرّ... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "اللّه أعلم... "في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: "تصفون... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

الصرف:

(211/405)

(أعلم)، لم يقصد بهذا الوصف حقيقة التفضيل وإنّما هو بمعنى اسم الفاعل أي عالم.

[سورة يوسف (12): آية 78]

قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78)

الإعراب:

(قالوا) فعل وفاعل (يا) أداة نداء (أيّ) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب و(ها) حرف تنبيه (العزيز) بدل من أيّ- أو عطف بيان- تبعه في الرفع لفظا (إنّ) حرف

مشبّه بالفعل – ناسخ – (اللام) حرف جرّ (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر إنّ (أبا) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة (شيخا) نعت لـ (أبا) منصوب (كبيرا) نعت ثان منصوب (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (خذ) فعل أمر، والفاعل أنت (أحد) مفعول به منصوب و (نا) ضمير مضاف إليه (مكانه) مفعول به ثان بتضمين خذ معنى اجعل "1"، و (الهاء) مضاف إليه (إنّا) مثل الأول.. و (نا) ضمير اسم إنّ (نراك) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف، و (الكاف) ضمير مفعول به، والفاعل نحن (من المحسنين) جارّ ومجرور حال من ضمير المفعول.

جملة: "قالوا..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يا أيّها العزيز..." لا محلّ لها اعتراضية "2".

وجملة: "إنّ له أبا..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "خذ..." في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كان لا بدّ من أخذ أحد فخذ أحدنا...

وجملة: "إنّا نراك..." لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "نراك..." في محلّ رفع خبر إنّ.

[سورة يوسف (12) : آية 79]

قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (79)

الإعراب:

(قال) فعل ماض، والفاعل هو (معاذ) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره أعوذ (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (أن) حرف مصدريّ ونصب (نأخذ) مضارع منصوب، والفاعل نحن (إلّا) أداة حصر بتضمين معاذ اللّه معنى لا يصحّ ولا يجوز.. (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (وجدنا) فعل ماض وفاعله، (متاعنا) مفعول به منصوب...

(1) أو ظرف مكان متعلّق ب (خذ).

(2) أو هي مقول القول، وجملة إنّ له أبا جواب النداء لا محلّ لها.

(212/405)

و (نا) مضاف إليه (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق ب (وجدنا)، و (الهاء) مضاف إليه (إنّا) مرّ إعرابه " 1 "، (إذا) حرف جواب لا عمل له (اللام) المزحلقة (ظالمون) خبر إنّ مرفوع، وعلامة الرفع الواو.

جملة: " قال... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " (أعوذ) معاذ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "نأخذ... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

والمصدر المؤوّل (أن نأخذ) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي: من أن نأخذ.. متعلّق بـ (معاذ)، وجملة: "وجدنا... "لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "إنّا... لظالمون" لا محلّ لها تفسير لشرط مقدّر مع جوابه أي إن أخذنا مكانه ظلمنا...

[سورة يوسف (12): الآيات 80 إلى 82]

(213/405)

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلاَّ بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (81) وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ (82)

---

(1) في الآية السابقة (78).

الإعراب:

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بـ (خلصوا) ، (استيئسوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (من) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (استيئسوا) ، (خلصوا) مثل استيئسوا (نجيّا) حال من فاعل خلصوا أي متناجين " 1 " ، منصوبة (قال) فعل ماض (كبيرهم) فاعل مرفوع . . و (هم) ضمير مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام (لم) حرف نفي وجزم (تعلموا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون والواو فاعل (أنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (أباكم) اسم أنّ منصوب ، وعلامة النصب الألف . . و (كم) ضمير مضاف إليه (قد) حرف تحقيق (أخذ) فعل ماض ، والفاعل هو (على) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أخذ) ، (موثقا) مفعول به منصوب (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخذ) ، (الواو) عاطفة (من) حرف جرّ (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (فرّطتم) على زيادة ما " 2 " ، (فرّطتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . . و (تم) ضمير فاعل (في يوسف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (فرّطتم) ، وعلامة الجرّ الفتحة ، (الفاء) عاطفة (لن) حرف نفي ونصب (أبرح) مضارع منصوب ، والفاعل أنا (الأرض) مفعول به منصوب (حتّى) حرف غاية وجرّ (يأذن) مثل أبرح ، منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (اللام) حرف جرّ و (الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يأذن) ، (أبي) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على (ما) قبل الياء ، و (الياء) مضاف إليه .

---

(1) جاء في حاشية الجمل (ما) يلي : " وقد أفردت الحال وصاحبها جمع إما لأنّ النجيّ فعيل بمعنى المفاعل، كالعشير بمعنى المعاشر، وهذا يأتي في الاستعمال مفردا أبدا، يقال (هم) خليطك وعشيرتك أي مخالطوك ومعاشروك، وإمّا لأنّه صفة على فعيل بمنزلة صديق، وقد أفرد لأنّه على وزن المصدر كالصهيل، وإمّا لأنّه مصدر بمعنى التناجي . . . " اه.

(214/405)

---

(2) يجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريا فيتعلّق الجارّ حينئذ بمحذوف خبر عند الزمخشريّ، وإن قطع الظرف عن الإضافة، والمصدر المؤوّل مبتدأ مؤخّر، وردّ ذلك أبو حيّان ردّا قاطعا لأنّ الظرف إذا بني لا يصح أن يكون خبرا جرّ أو لم يجرّ.

والمصدر المؤوّل (أن يأذن) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (أبرح) .

(أو) حرف عطف (يحكم) مثل يأذن ومعطوف عليه " 1 "، (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (لي) مثل الأول متعلّق بـ (يحكم) ، (الواو) استئنافيّة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (خير) خبر مرفوع (الحاكمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " استيئسوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة : " خلصوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قال كبيرهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ألم تعلموا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قد أخذ . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّ أباكم قد أخذ . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي فعل تعلموا "

.

وجملة : " فرّطتم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " لن أبرح . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة فرّطتم .

وجملة : " يأذن . . . أبي " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " هو خير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(ارجعوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (إلى أبيكم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ارجعوا) ، وعلامة الجرّ الياء . . و (كم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (قولوا) مثل ارجعوا (يا) أداة نداء (أبانا) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الألف . . و (نا) مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل

---

(1) أو منصوب بأن مضمرة بعد أو المعتمد على النفي .

(2) أو مفعول تعلموا إذا كان بمعنى تعرفوا .

(ابنك) اسم إنّ منصوب . . و (الكاف) مضاف إليه (سرق) فعل ماض ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (ما) نافية (شهدنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) فاعل (إلّا) أداة حصر (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (شهدنا) ، والعائد محذوف (علمنا) مثل شهدنا (الواو) عاطفة (ما) مثل الأولى (كنّا) فعل ماض ناقص . . و (نا) ضمير في محلّ رفع اسم كان (للغيب) جار ومجرور متعلّق بـ (حافظين) خبر كنّا ، منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : " ارجعوا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " قولوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ارجعوا .

وجملة : " يا أبانا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " إنّ ابنك سرق . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " سرق . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " ما شهدنا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّ ابنك سرق .

وجملة : " علمنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ما كنّا . . . حافظين " في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّ ابنك سرق .

(الواو) عاطفة (اسأل) فعل أمر ، والفاعل أنت (القرية) مفعول به منصوب " 1 " ، (التي) اسم موصول في محلّ نصب نعت للقرية (كنّا) مثل الأول (في) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر كنّا (الواو) عاطفة (العير

---

(1) وهو على حذف مضاف أي أهل القرية ، ومثله العير أي أصحاب العير ، وإذا لم يقدّر المضاف فالكلام مجاز .

(216/405)

التّي) مثل القرية التي ومعطوف عليه (أقبلنا) فعل ماض وفاعله (فيها) مثل الأول متعلّق بـ (أقبلنا) ، (الواو) عاطفة (إنّا لصادقون) مثل إنّا لظالمون " 1 " .

وجملة : " اسأل القرية . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : "كنّا فيها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " أقبلنا فيها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) الثاني .

وجملة : " إنّا لصادقون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

الصرف :

(استيئسوا) ، ترسم الهمزة على نبرة لأنها متحرّكة بعد ياء ساكنة.

(نجيّا) ، صفة مشتقّة على وزن فعيل ، أو مصدر على الوزن نفسه بمعنى التناجي وهو السرّ ، وفي اللفظ إعلان بالقلب لأنّ لام الكلمة واو من نجا ينجو ولأنّ الاسم النجوى ، وأصله نجيو - بسكون الياء وتحريك الواو - فلمّا اجتمعتا ، والأولى منهما ساكنة ، قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الثانية فأصبح (نجيّا) .

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله تعالى وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وسؤال القرية عبارة عن سؤال أهلها مجازا في القرية ، لإطلاقها عليها بعلاقة الحالية والمحلية ، وحاصل المعنى أرسل من تثق به إلى أهل القرية واسألهم عن القصة.

---

(1) في الآية (79) من هذه السورة.

الفوائد

1 - وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ في إعراب " ما " وجوه حملت النحاة على كثير من الاختلاف ، بعضه مفيد وبعضه لا طائل تحته. أحدها : زائدة ، وهو قول ابن هشام ، أي لتحسين

اللفظ ، والثاني : مصدرية ، تؤول مع ما بعدها بمصدر في محلّ رفع مبتدأ . والثالث : أنها موصولة ، ومحله الرفع على الابتداء .

وأحسب أننا لو أخذنا بالرأي الأول فهو أيسر فهما وأقل تقديرا . .

[سورة يوسف (12) : الآيات 83 إلى 84]

قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84)

الاعراب :

(قال) فعل ماض (بل) حرف إضراب " 1 " ، (سوّلت) فعل ماض و (التاء) للتأنيث (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (سوّلت) ، (أنفسكم) فاعل مرفوع . . و (كم) ضمير مضاف إليه (أمرا) مفعول به منصوب ، (الفاء) عاطفة (صبر) خبر لمبتدأ محذوف وجوبا تقديره صبري (جميل) نعت لصبر مرفوع مثله (عسى) فعل ماض جامد ناقص (اللّه) لفظ الجلالة اسم عسى مرفوع (أن يأتي) مثل أن نأخذ في الآية (79) ،

والفاعل هو و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به (بهم) مثل لكم متعلّق

---

(1) ثمة كلام محذوف قبل بل ليصح بها الإضراب أي: ليس الأمر كما أخبرتم حقيقة بل سوّلت لكم أنفسكم.

(219/405)

ب (يأتي)، (جميعا) حال منصوبة من الضمير المجرور في (بهم).

والمصدر المؤوّل (أن يأتيني...) في محلّ نصب خبر عسى.

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (العليم) خبر المبتدأ مرفوع (الحكيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: "قال..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "سوّلت لكم أنفسكم..." لا محلّ لها استئنافيّة.. وجملة مقول القول محذوفة "1".

وجملة: "(صبري) صبر..." لا محلّ لها معطوفة على جملة سوّلت...

وجملة: "عسى اللّه..." لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: "يأتيني بهم..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أنّ).

وجملة: "إنّه هو العليم . . . "لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "هو العليم . . . "في محلّ رفع خبر إنّ.

(الواو) عاطفة (تولّى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف، والفاعل هو (عن) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (تولّى)، (الواو) عاطفة (قال) فعل ماض، والفاعل هو (يا) أداة نداء وتحسّر (أسفى) منادى متحسّر به مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الألف، و (الألف) المنقلبة عن ياء في محلّ جرّ مضاف إليه (على يوسف) جارّ ومجرور متعلّق بأسف "2"، (الواو) استئنافيّة (ابيضّت) مثل سوّلت (عيناه) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الألف . . . و (الهاء) مضاف إليه (من الحزن) جارّ ومجرور

---

(1) ثمّة كلام محذوف قبل بل ليصحّ بها الإضراب أي: ليس الأمر كما أخبرتم حقيقة بل سوّلت لكم أنفسكم.

(2) أو متعلّق بـ (يا) التي فيها معنى أتحسّر.

متعلّق بـ (ابيضّت) ومن سببيّة (الفاء) عاطفة (هو كظيم) مثل هو العليم.

وجملة: " تولّى ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال ...

وجملة: " قال ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة تولّى.

وجملة: " النداء ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " ابيضّت عيناه ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " هو كظيم ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة ابيضّت عيناه.

الصرف:

(أسفى)، رسمت الألف قصيرة برسم الياء لأنها عوض من الياء، أصلها يا أسفي بكسر الفاء وفتح الياء، فلمّا أريد مدّ الصوت فتحت الفاء فانقلبت الياء ألفا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها.

(الحزن)، مصدر سماعيّ لفعل حزنه يحزنه باب نصر وزنه فعل بضمّ فسكون.

(كظيم)، صفة مبالغة من كظم يكظم باب ضرب، وزنه فعيل، ويصح أن يكون صفة مشبّهة على الرغم من تعدية الفعل بنفسه وذلك لأن يعقوب قد لازمة الحزن طويلا.

البلاغة

(1) الاستعارة التصريحية: في قوله تعالى وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ.

شبه امتلاء قلبه بالحزن على يوسف بامتلاء القربة بالماء ، وشبهه في صبره وتركه الشكوى إلى غير الله ، برابط ربط على فم القربة المليء بالماء حتى لا يخرج منها شيء وهذا هو معنى الكظم .

الفوائد

- يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ .

هذا ضرب من التوجّع والتفجّع الداخل في باب الندبة وجوزوا في آخر المنادي المندوب ثلاثة أوجه :

أ - أن يختم بألف زائدة لتوكيد التفجع والتوجع نحو " واكبدا " .

ب - أن يختم بالألف الزائدة وهاء السكت نحو " واحسيناه " .

ج - أن تبقيه على حاله نحو " وافلان " .

وإذا كان المندوب مضافا إلى ياء المتكلم ، فلك أن تحذف الياء وتضيف ألف الندبة ، ولك ان تقلب الياء ألفا نحو " يا أسفا على يوسف " كما لك أن تفتح الياء نحو " واأسفي " .

وليس في هذه العجالة ما يروي غلّة الصادي فليعد طالب المزيد إلى المطولات في كتب النحو .

[سورة يوسف (12) : آية 85]

قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (85)

الإعراب:

(قالوا تالله) مرّ إعرابها " 1 "، (تفتأ) مضارع ناقص حذف منه حرف النفي، مرفوع واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (تذكر) مضارع مرفوع، والفاعل أنت (يوسف) مفعول به، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (حتّى) حرف غاية وجرّ (تكون) مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد حتّى، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (حرضا) خبر منصوب.

---

(1) في الآية (73) من هذه السورة. [.....]

(222/405)

والمصدر المؤوّل (أن تكون) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (تذكر).

(أو) عاطفة (تكون) مثل الأول ومعطوف عليه (من الهالكين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر تكون الثاني جملة: " قالوا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة القسم وجوابها... في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " (لا) تفتأ تذكر... " لا محلّ لها جواب القسم.

وجملة: " تذكر . . . " في محلّ نصب خبر (لا) تفتأ .

وجملة: " تكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة: " تكون (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تكون (الأولى) .

الصرف:

(حرضا) ، مصدر سماعيّ لفعل حرض يحرض باب فرح بمعنى أشرف على الهلاك ومرض

. . . وزنه فعل بفتحتين.

(الهالكين) ، جمع الهالك ، اسم فاعل من هلك الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

البلاغة

(1) ائتلاف اللفظ مع المعنى: في قوله تعالى تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً

وهذا الفن أصيل في البلاغة ، وهو نسمة الحياة في الفن ، وعموده الذي يقوم عليه .

ويتلخص بأن تكون ألفاظ المعنى المراد متلائمة بعضها مع بعض ، ليس فيها لفظة نابية أو

قلقة عن أخواتها بحيث يمكن استبدالها .

الفوائد

- فنّ ائتلاف الألفاظ مع المعاني هو ذروة البلاغة وقمة فنّ البيان ، ولعظماء الأمة وبلغائها

شأو واسع في هذا المضمار. كقول زياد: إن لي فيكم

لصرعى ، فحذار أن تكونوا من صرعاي وقول الحجاج: إني لأرى رؤوسا قد أينعت

وحان قطافها . . والقرآن الكريم كلام اللّه، حاشا أن يجارى في مجال فصاحة، أو يبارى في مضمار بلاغة واستمع إلى قوله تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ إلى أي مدى بلغ التوافق بين ألفاظ الكتاب ومعانيه.

[سورة يوسف (12) : آية 86]

قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (86)

الإعراب:

(223/405)

(قال) فعل ماض، والفاعل هو أي يعقوب (إنّما) كافّة ومكفوفة (أشكو) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو، والفاعل أنا (بثّي) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء، و (الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (حزني) مثل بثّي ومعطوف عليه (إلى الله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أشكو) ، (الواو) عاطفة (أعلم) مثل أشكو، والحركة ظاهرة (من اللّه) جار ومجرور متعلّق بـ (أعلم) ، (ما) اسم موصول " 1 " مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (لا) حرف نفي (تعلمون) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل.

وجملة: "قال ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "أشكو ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "أعلم ... " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: "لا تعلمون ... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف:

(بثّي) ، مصدر سماعيّ لفعل بثّ يبثّ من بابي ضرب ونصر أي أذاع ونشر ... وزنه فعل بفتح الفاء.

---

(1) أو نكرة موصوفة ... والجملة بعدها في محلّ نصب نعت.

(224/405)

[سورة يوسف (12) : آية 87]

يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (87)

الإعراب:

(يا) أداة نداء (بنيّ) منادى مضاف منصوب، وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر

، و (الياء) الثانية ضمير مضاف إليه (اذهبوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و (الواو) فاعل (الفاء) عاطفة (تحسّسوا) مثل اذهبوا (من يوسف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تحسّسوا) " 1 " ، (الواو) عاطفة (أخيه) معطوف على يوسف مجرور وعلامة الجرّ الياء . . .

و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تيئسوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . و (الواو) فاعل (من روح) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تيئسوا) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (إنه) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و (الهاء) ضمير الشأن اسم إنّ في محلّ نصب (لا) نافية (ييئس) مضارع مرفوع (من روح اللّه) مثل الأولى ، والجارّ متعلّق بـ (ييئس) ، (إلّا) أداة حصر (القوم) فاعل مرفوع (الكافرون) نعت للقوم مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اذهبوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تحسّسوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " لا تيئسوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " إنّه لا ييئس . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لا ييئس . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(1) في المعجم: تحسّس منه: تخبّر خبره.

(225/405)

الصرف:

(تيئسوا، ييئس)، رسمت الهمزة على نبرة لأنها مسبوقة بياء ساكنة.

(روح)، مصدر بمعنى الراحة وهو استراحة القلب من غمّه، وأستعير هذا اللفظ للرحمة

، وزنه فعل بفتح فسكون.

البلاغة

(1) الاستعارة: في قوله تعالى وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ أي لا تقنطوا من فرجه سبحانه

وتنفيسه، وأصل معنى الروح - بالفتح كما قال الراغب - التنفس - يقال أراح الإنسان إذا

تنفس، ثم أستعير للفرج، وفسر بالرحمة على أنه استعارة من معناها المعروف، لأن

الرحمة سبب الحياة كالروح، وإضافتها إلى الله تعالى لأنها منه سبحانه.

[سورة يوسف (12): آية 88]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا

الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88)

الإعراب:

(226/405)

(الفاء) استئنافيّة (لمّا دخلوا عليه قالوا) مثل لمّا استيئسوا منه خلصوا " 1 "، (يأيها العزيز) مرّ إعرابها " 2 "، (مسّنا) فعل ماض مبنيّ على الفتح..

و(نا) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (أهلنا) معطوف على ضمير النصب، منصوب... و(نا) ضمير مضاف إليه (الضرّ) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة

---

(1) في الآية (80) من هذه السورة.

(2) في الآية (78) من هذه السورة.

(227/405)

(جئنا) فعل ماض وفاعله (ببضاعة) جار ومجرور متعلّق بـ (جئنا)، (مزجاة) نعت لبضاعة مجرور (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أوف) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف

العلّة، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أوف) ، (الكيل) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (تصدّق) مثل أوف (علينا) مثل لنا متعلّق بـ (تصدّق) ، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (يجزي) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء . . . والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (المتصدّقين) مفعول به منصوب، وعلامة النصب الياء .

جملة : " دخلوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يأيّها العزيز . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " مسّنا . . . الضرّ " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " جئنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مسّنا .

وجملة : " أوف . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن رضيتها فأوف . . .

وجملة : " تصدّق . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة أوف .

وجملة : " إنّ اللّه يجزي . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يجزي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(مزجاة) ، مؤنّث مزجي ، وهو اسم مفعول من أزجى الرباعيّ ، بمعنى مردود أو مدفوع لعلّة الفساد أو غيره ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين . . . والألف منقلبة عن واو لأن مجرّد الفعل زجا يزجو ، فلمّا تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا .

(أوف) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء ، حذف حرف العلّة الياء من المضارع لمّا انتقل إلى الأمر وزنه أفع بفتح الهمزة .

(المتصدّقين) ، جمع المتصدّق ، اسم فاعل من تصدّق الخماسيّ ، وزنه متفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة .

[سورة يوسف (12) : آية 89]

قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (89)

الإعراب :

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو (هل) حرف استفهام (علمتم) فعل ماض مبنيّ على السكون وفاعله (ما) اسم موصول " 1 " مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (فعلتم) مثل علمتم (بيوسف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (فعلتم) ، (الواو) عاطفة (أخيه) معطوف على يوسف مجرور وعلامة الجرّ الياء . . . و (الهاء) مضاف إليه (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (فعلتم) (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (جاهلون) خبر

مرفوع، وعلامة الرفع الواو.

جملة: " قال ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " هل علمتم ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أنتم جاهلون ... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " فعلتم ... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما)، والعائد محذوف.

[سورة يوسف (12) : آية 90]

قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90)

---

(1) يجوز أن يكون حرفا مصدريّا، والمصدر المؤوّل مفعول علمتم.

الإعراب:

(قالوا) فعل ماض وفاعله (الهمزة) للاستفهام التقريريّ- أو الاستخباريّ- (إنّك) حرف مشبّه بالفعل و (الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) لام الابتداء (أنت) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ " 1 "، (يوسف) خبر مرفوع، ومنع من التنوين للعلميّة العجمة

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو (أنا يوسف) مثل أنت يوسف (الواو) حرف عطف (ها)

حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أخي) خبر مرفوع ، وعلامة الرفع

الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء ، و (الياء) ضمير مضاف إليه (قد) حرف تحقيق (منّ)

فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (على) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق

بـ (منّ) ، (إنّه) مرّ إعرابه " 2 " ، (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يتّق)

مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل هو (الواو) عاطفة

(يصبر) مثل يتّق معطوف عليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ) مثل الأول (اللّه) لفظ

الجلالة اسم إنّ منصوب (لا) نافية (يضيع) مضارع مرفوع والفاعل هو (أجر) مفعول به

منصوب (المحسنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إنّك لأنت يوسف . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنت يوسف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنا يوسف . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هذا أخي . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أنا يوسف .

(1) الأحسن أن يكون ضميرا منفصلا - لا فصلا - لأنّ لفظ يوسف لا يلتبس بالنعت.

(2) في الآية 87 من هذه السورة.

(230/405)

وجملة: " منّ اللّه علينا ... " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول " 1 ".

وجملة: " إنّه من يتّق ... " لا محلّ لها في حكم التعليل.

وجملة: " من يتّق ... " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " يتّق ... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 ".

وجملة: " يصبر ... " في محلّ رفع معطوفة على جملة يتّق ...

وجملة: " إنّ اللّه لا يضيع ... " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: " لا يضيع ... " في محلّ رفع خبر إنّ.

الصرف:

(يتّق)، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم حيث حذف منه لام الكلمة وأصله يتّقي، وزنه يفتع ... وفيه إعلال بالقلب أو إبدال .. انظر الآية.

(21) من سورة البقرة.

[سورة يوسف (12) : آية 91]

قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (91)

الإعراب:

(قالوا تالله لقد) مرّ إعرابها " 3 "، (آثرك) فعل ماض، و (الكاف) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (علينا) مثل السابق " 4 " متعلّق بـ (آثرك)، (الواو) عاطفة (إن) مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير محذوف هو ضمير المتكلّم (كنّا) فعل ماض ناقص - ناسخ - و (نا) ضمير في محلّ رفع اسم كان (اللام) هي الفارقة (خاطئين) خبر الناقص منصوب وعلامة النصب الياء.

---

(1) لا يصح أن تكون حالا لضعف العامل، ولأنّ الإشارة لواحد والرابط (علينا) يعود على اثنين... إنّما يجوز أن تكون خبرا للإشارة و (أخي) بدل منه.

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

(3) في الآية (73) من هذه السورة.

(4) في الآية السابقة (90).

جملة: " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " تاللّه لقد . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " آثرك اللّه . . . " لا محلّ لها جواب القسم.

وجملة: " إن (نا) كنّا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

وجملة: " كنّا لخاطئين . . . " في محلّ رفع خبر (إن) المخفّفة.

الصرف:

(آثر)، المدّة مكوّنة من همزتين: الأولى مفتوحة والثانية ساكنة أي أأثر زنة أفعل لأنّ المضارع يؤثر مثل أكرم يكرم . .

[

سورة يوسف (12): الآيات 92 إلى 93]

قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)

الإعراب:

(قال) فعل ماض والفاعل هو (لا) نافية للجنس (تثريب) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (عليكم) مثل علينا " 1 " متعلّق بخبر لا (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بخبر لا " 2 "، (يغفر) مضارع مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (لكم) مثل علينا " 3 "،

متعلّق بـ (يغفر) ، (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أرحم) خبر المبتدأ مرفوع (الراحمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(1 ، 3) في الآية (73) من هذه السورة .

(2) أو متعلّق بـ (يغفر) .

(232/405)

وجملة : " لا تثريب عليكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يغفر اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول للدعاء .

وجملة : " هو أرحم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يغفر اللّه .

(اذهبوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . و (الواو) فاعل (بقميصي) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اذهبوا) " 1 " و (الياء) مضاف إليه (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ بدل من قميصي - أو عطف بيان - (الفاء) عاطفة (ألقوا) مثل اذهبوا و (الهاء) ضمير مفعول به (على وجه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ألقوه) ، (أبي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء . . . و (الياء) مضاف إليه (يأت) مضارع

مجزوم جواب الطلب ، وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، وفاعله هو (بصيرا) حال منصوبة من الفاعل (الواو) عاطفة (ائتوا) مثل اذهبوا ، و (النون) للوقاية (الياء) ضمير مفعول به (بأهلكم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ائتوا) " 2 " ، و (كم) ضمير مضاف إليه (أجمعين) توكيد معنويّ لأهل مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " اذهبوا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " القوه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اذهبوا .

وجملة : " يأت . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " ائتوني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اذهبوا . . .

الصرف :

(تثريب) ، مصدر قياسيّ لفعل ثرّب الرباعيّ ، وزنه تفعيل .

البلاغة

(1) الاستعارة : في قوله تعالى قالَ لا تَثْرِيبَ أي لا تأنيب ولا لوم " عليكم "

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من فاعل اذهبوا . [. . . . .]

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من فاعل ائتوني .

وأصله من الثرب ، وهو الشحم الرقيق في الجوف وعلى الكرش ، وأستعير للّوم الذي يمزق الأعراض ويذهب بهاء الوجه ، لأنه بإزالة الشحم يبدو الهزال وما لا يرضى ، كما أنه باللّوم تظهر العيوب ، فالجامع بينهما طريان النقص بعد الكمال .

الفوائد

يَأْتِ بَصِيراً :

يجزم الفعل المضارع بعامل من عوامل ثلاثة .

أ- أحد أحرف الجزم التي تجزم فعلا واحدا .

ب - إحدى أدوات الشرط التي تجزم فعلين ، فعل الشرط وجوابه .

ج- الطلب ، فيجزم جوابه .

وعلامات جزم الفعل المضارع ثلاث :

أ- السكون : إذا كان الفعل المضارع صحيح الآخر .

ب - حذف النون : إذا كان من الأفعال الخمسة .

ج - حذف حرف العلة من آخره : إذا كان معتل الآخر ، كما في الآية المنوّه بها .

وقد تجاوزنا التمثيل استجابة لمنهج الكتاب . فاطلب الأمور في مظانها .

[سورة يوسف (12) : آية 94]

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بـ (قال) ، (فصلت) فعل ماض ، و (التاء) للتأنيث (العير) فاعل مرفوع (قال) فعل ماض (أبو هم) فاعل مرفوع ، وعلامة الرفع الواو . .

و(هم) ضمير مضاف إليه (إنّي) حرف مشبّه بالفعل ، و (الياء) اسم إنّ (اللام) المزحلقة للتوكيد (أجد) مضارع مرفوع ، والفاعل أنا (ريح) مفعول به

منصوب (يوسف) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (لولا) حرف شرط غير جازم (أن) حرف مصدريّ (تفنّدوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . و (الواو) فاعل و (النون) للوقاية و (الياء) المحذوفة للتخفيف ضمير في محلّ نصب مفعول به .

والمصدر المؤوّل (أن تفنّدون . .) في محلّ رفع مبتدأ ، والخبر محذوف أي لو لا تفنيدكم لي موجود . . وجواب لو لا محذوف تقديره لصدّقتموني .

جملة : " فصلت العير . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال أبوهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إنّي لأجد . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أجد ريح . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " تفنيدكم موجود . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تفنّدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الفوائد :

لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ :

(234/405)

هذه النون للوقاية ، وأما نون رفع الفعل المضارع فقد حذفت بعد أن نصب بـ " أن " ، وقد حذفت ياء المتكلم لمراعاة الفواصل وجرس الكلام .

وهذه الخاصة كثيرا ما ترد في القرآن الكريم ، مرة بحذف الموجود ، ومرة بإضافة المفقود ، نحو قوله تعالى : وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ نارٌ حامِيَةٌ فقد أضيفت الهاء إلى الضمير " هي " لمراعاة الفواصل ، ولعمري فإن لموسيقا الحرف والكلمة في القرآن الكريم ، تأثيرا يفوق صنع البشر .

[سورة يوسف (12) : آية 95]

قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (95)

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض وفاعله (تالّله) تاء القسم ومجرورها ،

متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (إنّك) مثل إنّي " 1 " ، (اللام) للتوكيد (في ضلالك)

جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ . . . و (الكاف) مضاف إليه (القديم) نعت لضلال مجرور .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تالّله أي (أقسم) بالله . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّك لفي ضلالك . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

الصرف :

(القديم) ، صفة مشبّهة من فعل قدم يقدم باب كرم ، وزنه فعيل .

[سورة يوسف (12) : آية 96]

فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (96)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف متعلّق بـ (ألقاه) ، متضمّن معنى الشرط (أن) حرف زائد (جاء) فعل ماض (البشير) فاعل مرفوع (ألقاه) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، و (الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل هو أي البشير (على وجهه) جارّ ومجرور

متعلّق بـ (ألقاه) . . و (الهاء) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (ارتدّ) مثل جاء ، والفاعل هو أي يعقوب (بصيرا) حال منصوبة " 2 " ، (قال) مثل جاء (الهمزة) للاستفهام (لم) حرف نفي وجزم (أقل) مضارع مجزوم ، والفاعل أنا (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ

---

(1) يمكن تضمين فعل ارتدّ معنى صار فتكون (بصيرا) خبرا .

(2) في الآية السابقة (94) .

(235/405)

متعلّق بـ (أقل) ، (إنّي) كالسابق " 1 " (أعلم من الله ما لا تعلمون) مرّ إعرابها " 2 " .

جملة : " جاء البشير . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ألقاه . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ارتدّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقاه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لم أقل . . . " في محلّ نصب مقول القول للقول الأول .

وجملة : " إنّي أعلم . . . " في محلّ نصب مقول القول للقول الثاني .

وجملة : " أعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة: "لا تعلمون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ.

الفوائد

- فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ:

للنحاة في "أن" هذه آراء متغايرة، وبعضها متناقضة والنفس ترتاح للأخذ برأي القائلين بأنها زائدة. ولها لدى النحاة عدة أحوال:

أ- تكون ناصبة: تنصب الفعل المضارع، وهي مصدرية تؤوّل مع ما بعدها بمصدر يأخذ محله من الإعراب.

ب- وتأتي مخففة من "أنّ" فتقع بعد أفعال الظن أو اليقين.

ج- وتأتي مفسرة، وهي التي تأتي بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه، نحو "فأوحينا إليه أن اصنع الفلك".

---

(1) في الآية السابقة (94).

(2) في الآية (86) من هذه السورة.

د- وقد تكون زائدة، تفيد معنى التوكيد، كما وردت في هذه الآية. وقد ذهب إلى هذا الرأي ابن هشام والصلاح الصفدي وغيرهما كثير.

[سورة يوسف (12): آية 97]

قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (97)

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض وفاعله (يا أبانا) مرّ إعرابها " 1 " ، (استغفر) فعل أمر ، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (استغفر) ، (ذنوبنا) مفعول به منصوب . . و (نا) ضمير مضاف إليه ، (إنّا كنّا خاطئين) مثل إن كنّا لخاطئين " 2 " .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا أبانا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " استغفر . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إنّا كنّا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كنّا خاطئين . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

[سورة يوسف (12) : آية 98]

قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98)

الإعراب :

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو (سوف) حرف استقبال (أستغفر) مضارع مرفوع . . والفاعل أنا (لكم) مثل لنا " 3 " متعلّق بـ (أستغفر) ، (ربّي) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء ،

---

(1) في الآية (81) من هذه السورة .

(2) في الآية (91) من هذه السورة.

(3) في الآية السابقة (97) .

و (الياء) ضمير مضاف إليه (إنّه هو الغفور الرحيم) مثل إنّه هو العليم الحكيم " 1 " .

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " أستغفر . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " إنّه هو الغفور . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: " هو الغفور . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

]

سورة يوسف (12) : الآيات 99 إلى 100]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف متعلّق بـ (آوى) ، (دخلوا) فعل ماض وفاعله (على يوسف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (دخلوا) ، وعلامة الجرّ الفتحة (آوى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (إلى) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (آوى) ، (أبويه) مفعول به منصوب

---

(1) في الآية (83) من هذه السورة.

وعلامة النصب الياء ، و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي يوسف (ادخلوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . و (الواو) فاعل (مصر) مفعول به منصوب ، وامتنع من التنوين للعلميّة والتأنيث (إن) حرف شرط جازم (شاء) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (آمنين) حال منصوبة وعلامة النصب الياء .

جملة : " دخلوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " آوى . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة: " ادخلوا . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " شاء اللّه . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي: إن شاء الله دخولكم آمنين دخلتم.

(238/405)

(الواو) عاطفة (رفع) فعل ماض، والفاعل هو (أبويه) مثل الأول (على العرش) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رفع) (الواو) عاطفة (خرّوا) مثل دخلوا (اللام) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خرّوا)، (سجّدا) حال منصوبة من فاعل خرّوا (الواو) عاطفة (قال) مثل رفع (يا) أداة نداء (أبت) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم، ونقلت الكسرة - كسرة المناسبة - إلى التاء المبدلة من ياء المتكلّم . .

و (ياء) المتكلّم المحذوفة ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (تأويل) خبر مرفوع (رؤياي) مضاف إليه مجرور، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة . . و (الياء) ضمير مضاف إليه (من) حرف جرّ (قبل) اسم ظرفي مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (رؤياي) " 1 "،

(1) أو بحال من الرؤيا عاملها الإشارة.

(239/405)

(قد) حرف تحقيق (جعلها) مثل رفع . . و (الهاء) ضمير مفعول به (ربّي) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (حقّا) مفعول به ثان منصوب " 1 " (الواو) عاطفة (قد أحسن) مثل قد جعل (بي) مثل له متعلّق بـ (أحسن) ، (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (أحسن) ، (أخرج) مثل رفع و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به (من السجن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخرجني) ، (الواو) عاطفة (جاء) مثل رفع (بكم) مثل له متعلّق بـ (جاء) ، (من البدو) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاء) ، (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاء) ، (أن) حرف مصدريّ (نزغ) مثل رفع (الشيطان) فاعل مرفوع (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (نزغ) ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . . و (الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (بين) مثل الأول ومعطوف عليه (إخوتي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء . . . و (الياء) مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (ربّي) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . . و (الياء)

مضاف إليه (لطيف) خبر إنّ مرفوع و (اللام) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (لطيف) بمعنى مدبّر (يشاء) مضارع مرفوع، والفاعل هو.

والمصدر المؤوّل (أن نزغ..) في محلّ جرّ بإضافة (بعد) إليه.

(إنّ) مثل الأول و (الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (العليم) خبر مرفوع (الحكيم) خبر ثان مرفوع.

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر بكونه صفة له أي جعلا حقّا.

جملة: " رفع... " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر تابع لمجرى القصّة أي: لمّا دخل يوسف مصر جلس على سريره ورفع أبويه على السرير "

.

وجملة: " خرّوا... " لا محلّ لها معطوفة على جملة رفع.

وجملة: " قال... " لا محلّ لها معطوفة على جملة رفع.

وجملة: " النداء: يا أبت... " لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: " هذا تأويل... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " جعلها ربّي . . . " في محلّ نصب حال مقدّرة أو مقارنة .

وجملة : " أحسن بي . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة جعلها ربّي . . " 2 " .

وجملة : " أخرجني . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " جاء بكم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أخرجني .

وجملة : " نزغ الشيطان . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " إنّ ربّي لطيف . . . " لا محلّ لها استئناف فيه معنى التعليل .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّه هو العليم . . . " لا محلّ لها استئناف تعليليّ .

---

(1) يجوز أن تكون معطوفة على جملة جواب الشرط المتقدّم . . آوى إليه أبويه ، وذلك بحسب تفسير زمان الرفع ومكانه . .

(2) يجوز أن تقطع على الاستئناف فلا محلّ لها .

وجملة : " هو العليم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(البدو) ، اسم للبسيط من الأرض يبدو الشخص فيه من بعد ، وقد سمّي باسم المصدر

. . وقد يطلق على سكّان البادية من القبائل الرّحل . . والبدو بمعنى الصحراء جمعه

باديات وبواد .

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله تعالى وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ .

ومعلوم أنهم لا يستوعبون البلد كلها ، وإنما يدخلون جزاء منها ، فعبّر بالكل وأراد الجزء .

فعلاقة هذا المجاز الكلية .

[سورة يوسف (12) : آية 101]

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي

فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)

الإعراب :

(ربّ) منادى مضاف منصوب محذوف منه أداة النداء ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف ، و (الياء) المحذوفة مضاف إليه (قد) حرف تحقيق (آتيت) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (التاء) ضمير فاعل و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به (من الملك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آتيتني) "1" ، (الواو) عاطفة (علّمتني) مثل

---

(1) و (من) هي لبيان الجنس . . ويجوز أن تكون للتبعيض - وهو اختيار أبي حيّان الوحيد - فتتعلّق بنعت للمفعول المقدّر أيّ : آتيني عظيما من الملك . [. . . . .]

(243/405)

آتيتني (من تأويل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (علّمتني) "1" ، (الأحاديث) مضاف إليه مجرور ، (فاطر) منادى مضاف منصوب محذوف منه أداة النداء "2" ، (السموات) مضاف إليه مجرور (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور (أنت) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (وليّي) خبر مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء ، و (الياء) ضمير مضاف إليه (في الدّنيا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (وليّ) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الآخرة) معطوف على الدنيا بالواو مجرور (توفّني) فعل أمر مبنيّ على حذف

حرف العلّة . . و (النّون) للوقاية و (الياء) مفعول به ، والفاعل أنت (مسلما) حال من الياء منصوبة (الواو) عاطفة (ألحقني) مثل توفّني (بالصّالحين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ألحق) ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " النداء : ربّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آتيتني . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " علّمتني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " النداء : فاطر السموات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة - أو بدل من جملة النداء .

وجملة : " أنت وليّي . . . " لا محلّ لها جواب النداء الثاني .

---

(1) أو هي تبعيضية مثل الأولى ، متعلّقة بنعت للمفعول المحذوف أي : علّمتني حظّا من تأويل الأحاديث .

(2) أو هو بدل من (ربّ) ، أو عطف بيان ، أو نعت . . .

وجملة : " توفّني . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز النداء .

وجملة : " ألحقني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة توفّني .

[سورة يوسف (12) : الآيات 102 إلى 104]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (104)

الإعراب :

(ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، والإشارة إلى المذكور من قصّة يوسف ، و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (من أنباء) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ (الغيب) مضاف إليه مجرور (نوحيه) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، و (الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل نحن للتعظيم (إلى) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب (نوحيه) ، (الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (كنت) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون . . . و (التاء) ضمير اسم كان (لدى) ظرف مكان مبنيّ على السكون في محلّ نصب متعلّق بخبر كنت . . و (هم) ضمير مضاف إليه (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بالخبر المحذوف (أجمعوا) فعل ماض وفاعله (أمرهم) مفعول به منصوب . . و (هم) مثل الأخير (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يمكرون) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل .

جملة : " ذلك من أنباء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نوحيه . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (ذلك) " 1 " .

وجملة : " ما كنت لديهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(245/405)

وجملة : " أجمعوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هم يمكرون . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يمكرون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (أكثر) اسم ما مرفوع (الناس) مضاف إليه مجرور (الواو) اعتراضيّة " 2 " (لو) حرف شرط غير جازم (حرصت) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (التاء) فاعل (الباء) حرف جرّ زائد (مؤمنين) خبر ما منصوب محلّا ، مجرور لفظا ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " ما أكثر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كنت لديهم .

وجملة : " حرصت . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . والجواب محذوف دلّ عليه ما قبله أي لو حرصت على إيمان أكثر الناس فما هم بمؤمنين .

(الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (تسألهم) مضارع مرفوع . . و (هم) ضمير مفعول به ،

والفاعل أنت (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من أجر (من) حرف جرّ زائد (أجر) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (إن) حرف نفي (هو) مثل هم (إلّا) للحصر (ذكر) خبر مرفوع (للعالمين) جار ومجرور متعلّق بـ (ذكر) " 3 " .

---

(1) أو في محلّ نصب حال، والعامل فيها الإشارة.

(2) يجوز أن تكون حاليّة، والجملة بعدها حال.

(3) أو متعلّق بنعت لذكر.

(246/405)

وجملة: " ما تسألهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما أكثر الناس . . .

وجملة: " إن هو إلّا ذكر . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

البلاغة

1 - فن الاحتجاج النظري:

في الآية فن لطيف، يسمى في علم البيان بالاحتجاج النظري، وبعضهم يسميه المذهب الكلامي، وهو أن يلزم الخصم ما هو لازم لهذا الاحتجاج والمعنى أن هذا النبأ غيب، لم تعرفه إلا بالوحي، لأنك لم تحضر أخوة يوسف عليه السلام حين عزموا على ما هموا به من

أن يجعلوه في غيابة الجب وهم يمكرون به ، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك ، أنك ما لقيت أحدا سمع ذلك فتعلمته منه . وقال بعض المحققين : إن هذا تهكم بمن كذبه ، وذلك من حيث أنه تعالى جعل المشكوك فيه كونه عليه السلام حاضرا بين يدي أولاد يعقوب عليه السلام ماكرين ، فنفاه بقوله وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ .

2 - فن الاعتراض : في الآية 103 ، والاعتراض ينقسم إلى قسمين : أحدهما لا يأتي في الكلام إلا لفائدة ، وهو جار مجرى التوكيد ، والآخر : أن يأتي في الكلام لغير فائدة فإما أن يكون دخوله فيه كخروجه منه ، وإما أن يؤثر في تأليفه نقصا وفي معناه فسادا . فالقسم الأول كهذه الآية ، وفائدة الاعتراض في وجهين أولهما : تصوير حرصه صلّى اللّه عليه واله وسلّم على إيمان قومه وهدايتهم ، وتهالكه على ردعهم عن غيهم ، وحرفهم عن مظان الخطأ ومواطن الضلال ، واستهدافه للأذى في سبيل هذا الحرص ، مع علمه بعدم جدوى ذلك واستحالة إقلاعهم عما هم فيه وثاني الوجهين : تصوير لجاجتهم وجحود عقليتهم ، وإصرارهم على الغي الذي هم شارعون ، وبه آخذون . والقرآن الكريم حافل بهذا القسم .

الفوائد

- وَلَوْ حَرَصْتَ : جملة اعتراضية .

والاعتراض فنّ من فنون البلاغة ، وبنفس الوقت بحث يهتم به النحاة ويحدّدون أماكنه .

لذلك سنعرض لك مواقعه بإيجاز :

1 – بين الفعل وفاعله .

2 – بين الفعل ومفعوله .

3 – بين المبتدأ وخبره .

4 – بين ما أصله المبتدأ والخبر ، نحو قول الشاعر :

إن الثمانين وبلغتها أحوجت سمعي إلى ترجمان

5 – بين الشرط وجوابه .

6 – بين القسم وجوابه .

7 – بين الموصوف وصفته .

---

8 – بين الموصول وصلته .

9 – بين حرف التسويف والفعل .

10 – بين حرف النفي ومنفيّه .

هذه الأماكن يقع فيها الاعتراض على وجه الترجيح ، لا على وجه الإحاطة .

ومن شاء الاستقصاء، فعليه بكتب النحو الشاملة ذات الاستقراء والاستقصاء.

[سورة يوسف (12) : الآيات 105 إلى 107]

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (105) وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (107)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (كأيّن) اسم كناية عن عدد مبنيّ على السكون في محلّ رفع مبتدأ (من آية) جارّ ومجرور تمييز الكناية (في السموات) جارّ ومجرور نعت لآية (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور (يمرّون) مضارع مرفوع.. و (الواو) فاعل (على) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يمرّون) ، (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبتدأ (عنها) مثل عليها متعلّق بـ (معرضون) وهو الخبر مرفوع، وعلامة الرفع الواو.

جملة: "كأيّن من آية..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يمرّون..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (كأيّن) .

وجملة: "هم عنها معرضون..." في محلّ نصب حال.

(الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (يؤمن) مضارع مرفوع (أكثرهم) فاعل مرفوع.. و (هم) ضمير مضاف إليه (بالله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمن) ، (إلّا) حرف للحصر (وهم

مشركون) مثل وهم معرضون.

وجملة: "ما يؤمن أكثرهم ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف المتقدّمة.

وجملة: "هم مشركون ... " في محلّ نصب حال.

(248/405)

(الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة " 1 "، (آمنوا) فعل ماض وفاعله (أن) حرف مصدريّ ونصب (تأتي) مضارع منصوب و (هم) ضمير مفعول به (غاشية) فاعل مرفوع (من عذاب) جارّ ومجرور نعت لغاشية (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (أو) حرف عطف (تأتيهم الساعة) مثل تأتيهم غاشية ومعطوف عليه (بغتة) مصدر في موضع الحال منصوب (وهم لا يشعرون) مثل وهم يمكرون .. في الآية (102) و (لا) نافية.

---

(1) أو استئنافيّة، والجملة بعدها مستأنفة.

(249/405)

والمصدر المؤوّل (أن تأتيهم . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أمنوا .

جملة : " أمنوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما يؤمن أكثرهم .

وجملة : " تأتيهم غاشية . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تأتيهم الساعة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تأتيهم غاشية .

وجملة : " هم لا يشعرون . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يشعرون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(غاشية) ، مؤنّث غاش ، اسم فاعل من غشي الثلاثيّ ، وزنه فاعل ، ومؤنّثه فاعلة ، و (الياء) أصليّة .

الفوائد

- ليس في القرآن شعر :

قد يعمد القرآن - أحيانا - للتوافق الموسيقي في نظمه ، وقد نوهنا بهذه الخاصة في مواطن سابقة .

وقد لحظ هذه الخاصة كبار العلماء والأدباء ، منهم الفراء ، والجاحظ وابن قتيبة .

فيرى الجاحظ أن التنزيل قد أولى اللفظ عناية خاصة ، فاختاره بدقة ، ليدل على المعاني بدقة .

كما أنه تعرض لما جرى عليه نظم القرآن ، من نغم وموسيقى ووزن خاص رتيب ، مكون من وحدات مترابطة منسجمة وقد أنفق كثيرا من الجهد لينفي عن القرآن وزن الشعر .

فقد زعم أحدهم أن قوله تعالى : تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ شعر ، وأتى بوزنها من التفعيلات . فردّ عليه الجاحظ قائلا : لو اعترضت أحاديث الناس

وخطبهم ورسائلهم ، لوجدت الكثير منها يشتمل على كثير من التفاعيل ، ومع ذلك لا يحق لنا أن نسميه شعرا ، وصاحبه لم يقصد به الشعر . .

ويرى ابن قتيبة في كتابه " مشكل القرآن " أن النغم الموسيقي والنظم والتوقيع الداخلي في الآيات ، هي إحدى الخصائص التي يقوم عليها إعجاز القرآن ، فيقول : " وجعله متلوّا على طول التلاوة ، ومسموعا لا تمجّه الآذان ، وغضا لا يخلق على كثرة الردّ " .

2 - قصص القرآن :

أما طريقة القرآن في عرض القصة ، فلها صور متعددة ، وكلها لا تخرج عن الإيجاز والإعجاز .

فقد يسرد القصة من أولها إلى آخرها ، كما ورد في قصة يوسف وقد يعود فيلفّها بعد

نشرها ، كما رأينا في آخر السورة نفسها .

وقد يعرض لجانب منها في سورة ، والجانب الآخر في سورة أخرى وقد يعرضها مرة مبسوطة ، ومرة مقبوضة وفي سائر الأحوال يراعى مكان العبرة ، ومقتضى المقام ، والغرض من القصة .

[سورة يوسف (12) : الآيات 108 إلى 109]

قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (109)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (سبيلي) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) ضمير مضاف إليه (أدعو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على (الواو) ، والفاعل أنا

(إلى اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أدعو) ، (على بصيرة) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل أدعو " 1 " ، أي مستيقنا (أنا) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع توكيد لفاعل أدعو ، (الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع معطوف على الضمير المستتر فاعل أدعو " 2 " ، (اتّبعني) فعل ماض ، و (النون) للوقاية ، و (الياء) ضمير مفعول به ، والفاعل هو وهو العائد (الواو) عاطفة (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره أسبح (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (ما) حرف نفي عامل عمل ليس " 3 " ، (أنا) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما (من المشركين) جارّ ومجرور خبر ما ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هذه سبيلي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أدعوا إلى اللّه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 4 " وجملة : " اتّبعني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " (أسبح) سبحان . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

---

(1) أو متعلّق بـ (أدعو) . . أو هو خبر مقدّم و (أنا) مبتدأ مؤخّر .

(2) أو معطوف على المبتدأ المؤخّر (أنا) . . . ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي داع إلى اللّه على بصيرة . .

(3) أو مهمل . . و (أنا) مبتدأ و (من المشركين) خبره .

(4) أو تفسير للقول المتقدّم .

(252/405)

وجملة : " ما أنا من المشركين . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

(الواو) عاطفة (ما) مثل الأول ولا عمل له (أرسلنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) ضمير فاعل (من قبلك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أرسلنا) . . و (الكاف) ضمير مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (رجالا) مفعول به منصوب (نوحي) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، والفاعل نحن للتعظيم (إلى) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نوحي)، (من أهل) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (رجالا)، (القرى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم (يسيروا) مضارع مجزوم، وعلامة الجزم حذف النون . . و (الواو) فاعل (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يسيروا) " 1 "، (الفاء) عاطفة (ينظروا) مثل يسيروا ومعطوف عليه (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب خبر كان الماضي الناقص - الناسخ - (عاقبة) اسم كان مرفوع (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ

جرّ مضاف إليه (من قبلهم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة الموصول . . و (هم) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (اللام) لام الابتداء للتوكيد (دار) مبتدأ مرفوع (الآخرة) مضاف إليه مجرور (خير) خبر مرفوع (اللام) حرف جرّ (الّذين) موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (خير) ، (اتّقوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و (الواو) فاعل (أ فلا) مثل أ فلم والحرف غير جازم (تعقلون) مضارع مرفوع . . . و (الواو) فاعل .

وجملة : " ما أرسلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف

---

(1) أو حال من فاعل يسيروا .

(253/405)

قل . . .

وجملة : " نوحي إليهم . . . " في محلّ نصب نعت لـ (رجالا) " 1 " .

وجملة : " لم يسيروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسلنا " 2 " .

وجملة : " ينظروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يسيروا .

وجملة : " كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به عامله فعل النظر المعلّق عن العمل

المباشر بالاستفهام (كيف) .

وجملة : " دار الآخرة خير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " تعقلون . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أجهلتم فلا تعقلون .

[سورة يوسف (12) : آية 110]

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110)

الإعراب :

(حتّى) حرف ابتداء (إذا) ظرف للزمن المستقبل مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (جاءهم) ، (استيئس) فعل ماض (الرسل) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (ظنّوا) فعل ماض وفاعله (أنّهم) حرف مشبّه بالفعل . . .

و (هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (قد) حرف تحقيق (كذبوا) ماض مبنيّ للمجهول . . و (الواو) نائب الفاعل (جاء) مثل استيئس و (هم) ضمير مفعول به (نصرنا) فاعل مرفوع . . و (نا) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (نجّي) فعل ماض مبنيّ للمجهول (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نائب الفاعل

---

(1) الجملة بحكم المفرد لذا تقدّمت في الوصفية على الجارّ (من أهل . .) .

(2) وهي - على رأي الزمخشريّ - معطوفة على مقدّر أي أمكنوا فلم يسيروا .

(254/405)

(نشاء) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم (الواو) استئنافيّة " 1 " (لا) نافية (يردّ) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع (بأسنا) نائب الفاعل مرفوع . . و (نا) ضمير مضاف إليه (عن القوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يردّ) ، (المجرمين) نعت للقوم مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " استيئس الرسل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ظنّوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة استيئس الرسل .

وجملة : " قد كذبوا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّهم قد كذبوا . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّوا . .

وجملة : " جاءهم نصرنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " نجّي من نشاء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " نشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " لا يردّ بأسنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

[سورة يوسف (12) : آية 111]

لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)

---

(1) أو حاليّة والجملة بعدها في محلّ نصب حال. [.....]

(2) أو في محلّ نصب حال.

(255/405)

الإعراب:

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (كان) ماض ناقص - ناسخ - (في قصصهم) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم ل (كان) .. و (هم) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (عبرة) اسم كان مرفوع (لأولي) جارّ ومجرور نعت لعبرة، وعلامة الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكّر (الألباب) مضاف إليه مجرور (ما) نافية (كان) مثل الأول، واسمه ضمير مستتر تقديره هو أي القرآن (حديثا) خبر منصوب (يفترى) مضارع مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الواو) عاطفة (لكن) حرف للاستدراك مهمل (تصديق)

معطوف على (حديثا) منصوب (الّذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة الموصول (يديه) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء . . و (الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (تفصيل) معطوف على تصديق منصوب (كلّ) مضاف إليه مجرور (شيء) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة في الموضعين (هدى، رحمة) اسمان معطوفان على تصديق بحرفي العطف منصوبان (لقوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رحمة)، (يؤمنون) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل .

(256/405)

جملة: " قد كان في قصصهم عبرة . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة: " ما كان حديثا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " يفتري . . . " في محلّ نصب نعت لـ (حديثا) .

وجملة: " يؤمنون . . . " في محلّ جرّ نعت لقوم .

البلاغة

1 - في قوله تعالى لِأُولِي الْأَلْبابِ فن يطلق عليه القدامى الاسم الآنف الذكر، وهو من البيان بمثابة القلب من الإنسان، وهو يدق إلا على من صفت قرائحهم، واستغزرت ملكة

الفصاحة فيهم. وفي هذه الجملة اختلاف صيغة

اللفظة، ونعني به نقلها من هيئة إلى هيئة، حيث انتقل من الإفراد إلى التثنية والجمع، وذلك

في لفظة "اللب" الذي هو العقل لا لفظة اللب الذي تحت القشر، فإنها لا تحسن في

الاستعمال إلا مجموعة وكذلك وردت هنا. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الجدول حـ 13 صـ 12

84.﴾

(257/405)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

[سورة يوسف (12): الآيات 54 إلى 57]

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (57)

الاعراب:

(وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) عطف على ما تقدم وقال الملك فعل وفاعل

وجملة ائتوني به مقول القول واستخلصه فعل مضارع مجزوم لأنه وقع جوابا للأمر والاستخلاص خلوص الشيء من سوائب الشركة وقال ذلك لما كان يوسف نفيسا وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم. (فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) الفاء عاطفة على محذوف يمكن تقديره بما تتساوق معه مجريات القصة وحوادثها أي فجاء الرسول يوسف وقال أجب الملك فقام مودعا أهل السجن داعيا لهم لأنه كان مثابتهم وموضع ثقتهم ثم لبس ثيابه ودخل على الملك فلما . . . إلخ، ولما ظرفية حينية أو رابطة وكلمه فعل وفاعل مستتر ومفعول به وجملة قال جواب لما لا محل لها وان واسمها والظرف متعلق بمحذوف حال ولدينا متعلق بمكين ومكين خبر إن وأمين خبر ثان. (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) اجعلني فعل أمر والنون للوقاية والفاعل مستتر تقديره أنت والياء مفعول به وعلى خزائن الأرض جار ومجرور متعلقان بالمفعول الثاني أي قيما على خزائن الأرض وان واسمها وحفيظ خبرها

وعليم خبرها الثاني. (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) وكذلك نعت لمصدر محذوف أي ومثل ذلك التمكين الظاهر مكنا ليوسف ومكنا فعل وفاعل

واللام متعلقة بمكنا ومفعول مكنا محذوف أي الأمور وفي الأرض حال وجملة يتبوأ جملة حالية من يوسف ومنها جار ومجرور متعلقان بيتبوأ وحيث ظرف ليتبوأ أو مفعول به له وجملة يشاء في محل جر بإضافة الظرف إليها ولا بد من الاشارة إلى تتمة القصة التي اقتضى سياق الكلام حذفها أي فولاه مكان العزيز ثم هلك قطفير عزيز مصر فزوج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه وكانت مفاجأة تجمع بين المتعة والدهشة حين دخل عليها يوسف وقال لها : أليس هذا خيرا مما تريدين قالت أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة غريرة حسناء بلهاء وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت بالمثابة التي أنت عليها من الوسامة والجمال فغلبتني نفسي وعصمك الله إلى آخر تلك القصة الرائعة التي استوفت جميع عناصر القصة ثم استولى على مقاليد الأمور ودان له القريب والبعيد . (نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) الجملة استئنافية مسوقة إلى التصرف العادل الذي اختص الله تعالى به نفسه ونصيب فعل مضارع مرفوع والفاعل نحن وبرحمتنا متعلقان بنصيبو من مفعول به وجملة نشاء صلة ولا نضيع عطف على نصيب وأجر المحسنين مفعول به . (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) اللام لام الابتداء وأجر مبتدأ والآخرة مضاف إليه وخير خبر أجر وللذين متعلقان بخير وجملة آمنوا صلة وكانوا كان واسمها وجملة يتقون خبرها .

الفوائد :

نسج أرباب السير حوادث حول هذه القصة الرائعة من نسج

للخيال ولفّقوا روايات يبدو عليها البطلان لتفاهتها وركاكتها أو لا حالتها ومنافاتها للعقل فعلى المرء أن يمحص تلك الروايات البادية التلفيق ويشجب الأخذ بها والتوريك على نقلة هذه الزيادات بالبهت وذلك شأن المبطلة من كل طائفة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 58 إلى 62]

وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ (60) قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ (61) وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62)

الإعراب :

(وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ) الكلام معطوف على كلام سابق يفهم من سياق القصة

أي أصابت يعقوب وأولاده ضائقة وهم في فلسطين فقال لهم يعقوب بلغني أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا إليه واقصدوه لتشتروا ما نحن بحاجة إليه من الطعام فخرجوا حتى قدموا مصر . . . إلى آخر القصة . وجاء إخوة يوسف فعل وفاعل ولم ينصرف يوسف للعلمية والعجمة ، فدخلوا عليه عطف على جاء أخوة

(260/405)

يوسف . (فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) الفاء عاطفة وعرفهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به والواو للحال وهم مبتدأ وله متعلقان بمنكرون ومنكرون خبر أي لم يعرفوه لطول العهد . (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ) الواو عاطفة والكلام معطوف على مقدر يفهم من سياق الحوار أي لما وصلوا إليه قال لهم لعلكم جئتم عيونا تنظرون عورة بلادي قالوا معاذ الله نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فاستوضح منهم عن أمرهم فقال نحن أخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق نبي اسمه يعقوب وكنا اثني عشر فهلك منا واحد قال أنتم الآن عشرة فأين الأخ الحادي عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به من الهالك لأنه شقيقه قال فأتوني به أي بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين واتركوا أحدكم عندي رهينة حتى تأتوني به . . . إلى آخره ، ولما حينية أو رابطة وجهزهم فعل

وفاعل مستتر ومفعول به وبجهازهم متعلقان بجهزهم وقال جملة لا محل لها لأنها جواب لما وجملة ائتوني مقول القول وهو فعل أمر وفاعل ومفعول به وبأخ جار ومجرور متعلقان به ولكم صفة لأخ ومن أبيكم صفة ثانية.

(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) الهمزة للاستفهام ولا نافية وترون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي ترون وجملة أوفي الكيل خبر ان والواو عاطفة وأنا مبتدأ وخير المنزلين خبر أي وأنا للضيف خير المضيفين.

(فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ) الفاء عاطفة وان شرطية ولم حرف نفي وقلب وجزم وتأتوني مجزوم بلم وهو فعل الشرط والفاء رابطة ولا نافية للجنس وكيل اسمها ولكم خبرها وعندي ظرف متعلق بمحذوف حال والواو عاطفة ولا ناهية وتقربون فعل

(261/405)

مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون وهذه النون نون الوقاية وحذفت ياء المتكلم تخفيفا ويحتمل أن تكون لا نافية وتقربون مجزوم نسقا على محل قوله فلا كيل لكم وهو الجزم لأنه جواب الشرط كأنه قيل فإن لم تأتوني تحرموا ولا تقربوا. (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) جملة سنراود مقول القول وعنه متعلقان بنراود وقد تقدمت معاني المراودة قريبا

فجدد به عهدا وأباه مفعول به وإنا من عطف الجمل وان واسمها واللام المزحلقة وفاعلون خبر إنا . (وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ) لفتيانه متعلقان بقال وجملة اجعلوا مقول القول وبضاعتهم مفعول به وفي رحالهم في موضع المفعول الثاني وقد اختلف في معنى جعل البضاعة في الرحال وأقرب الأقوال انه أراد حملهم على الرجوع اليه أن يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم فتحملهم على الرجوع وهو يعلم أن ديانتهم لا تحل لهم إمساكها فيرجعون لأجلها . (لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) لعل واسمها وجملة يعرفونها خبر لعل وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملة انقلبوا مضافة للظرف والجواب محذوف أي فلعلهم يرجعون والى أهلهم جار ومجرور متعلقان بانقلبوا ولعل واسمها وجملة يرجعون خبرها .

[سورة يوسف (12) : الآيات 63 إلى 67]

(262/405)

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (63) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ

بضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (66) وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67)

الإعراب:

)

(263/405)

(فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ) الفاء حرف عطف ولما حينية أو رابطة ورجعوا فعل وفاعل وإلى أبيهم متعلقان برجعوا وجملة قالوا لا محل لها ويا حرف نداء وأبانا منادى مضاف ومنع فعل ماض مبني للمجهول ومنا متعلقان بمنع والكيل نائب فاعل وهم يشيرون إلى قول يوسف فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي. (فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) الفاء الفصيحة وأرسل فعل أمر ومعنا متعلقان بأرسل وأخانا مفعول به ونكتل مضارع مجزوم في جواب الطلب، وإنا: إن واسمها وله متعلقان بحافظون واللام

المزحلقة وحافظون خبر إن . (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ) الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كما تقدم نظائر ذلك في مواضع كثيرة . هل حرف استفهام وآمنكم فعل مضارع وفاعل مستتر

(264/405)

و مفعول وعليه متعلقان بآمنكم وإلا أداة حصر ، كما أمنتكم الكاف نعت لمصدر محذوف وما مصدرية يريد : انكم قلتم في يوسف " وإنا له لحافظون "كما تقولونه في أخيه بنيامين ثم خنتم بضمانكم فكيف آمنكم . وعلى أخيه جار ومجرور متعلقان بأمنتكم ومن قبل حال أي من قبل هذا الزمان . (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) الفاء الفصيحة والله مبتدأ وخير خبر وحافظا تمييز أو حال وهو مبتدأ وأرحم الراحمين خبر والمعنى فتوكل على الله ودفع إليهم بنيامين . (وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ) لما حينية أو رابطة وفتحوا متاعهم فعل وفاعل ومفعول به ووجدوا بضاعتهم فعل وفاعل ومفعول به وجملة ردت إليهم في محل نصب مفعول وجدوا الثاني . (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي) قالوا فعل وفاعل ويا أبانا منادى مضاف وما اسم استفهام في محل نصب مفعول مقدم لنبغي أي أي شيء نبغي ونطلب من الكرامة هذه أموالنا ردت إلينا ، وقال الزجاج : يحتمل أن تكون

نافية أي ما بقي لنا ما نطلب ويحتمل أيضا أن تكون نبغي من البغي أي ما افترينا فكذبنا على هذا الملك . (هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا) هذه مبتدأ وبضاعتنا خبر وجملة ردت إلينا حالية ويجوز إعراب بضاعتنا بدل من هذه وجملة ردت إلينا خبر والجملة مستأنفة مسوقة لإيضاح قولهم ما نبغي . (وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ) الواو عاطفة على محذوف أي نستظهر بها ونستعين ونمير أهلنا ، وأهلنا مفعول به ونحفظ أخانا جملة منسوقة على ما قبلها ونزداد جملة منسوقة أيضا وكيل بعير مفعول به لنزداد .

(ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) ذلك مبتدأ وكيل خبر ويسير صفة أي ان كيل البعير الذي نزداده هين على الملك لأنه قد أحسن إلينا وإكرامنا أكثر من ذلك .

)

(265/405)

قال لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ) لن حرف نفي ونصب واستقبال وأرسله مضارع منصوب بلن ومعكم ظرف متعلق بأرسله

وحتى حرف غاية وجر وتؤتوني فعل مضارع منصوب بأن مضمرة والنون للوقاية وياء المتكلم مفعول به أول وموثقا مفعول به ثان ومن الله صفة وجعل الحلف بالله موثقا لأن

الحلف به مما تؤكد به العهود .

)

(266/405)

لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ) اللام واقعة في جواب القسم المدلول عليه بقوله موثقا وتأتنني مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والياء مفعول به والنون المشددة للتوكيد والنون الثالثة نون الوقاية وقد تقدمت لهذا الاعراب نظائر وإلا أداة استثناء وأن وما في حيزها استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لتأتنني على كل حال إلا حال الإحاطة بكم فهو حال أو استثناء مفرغ من أعم العلل أي لا تمتنعون من الإتيان لعلة من العلل إلا علة الإحاطة بكم ، وتقول العرب أحيط بفلان إذا هلك أو أشفى على الهلاك . وعبارة أبي حيان : " وهذا الاستثناء من المفعول من أجله مراعى في قوله لتأتنني وإن كان مثبتا معنى النفي لأن المعنى لا تستعون من الإتيان به لشيء من الأشياء إلا لأن يحاط بكم ومثاله من المثبت في اللفظ ومعناه النفي قولهم أنشدك الله إلا فعلت أي ما أنشدك إلا الفعل ولا يجوز أن يكون مستثنى من الأحوال مقدرا بالمصدر الواقع حالا وإن كان صريح المصدر قد يقع حالا فيكون التقدير لتأتنني به على كل حال إلا إحاطة

بكم أي محاطا بكم لأنهم نصّوا على أن " أن " الناصبة للفعل لا تقع حالا وإن كانت مقدرة بالمصدر الذي قد يقع بنفسه حالا فإن جعلت أن والفعل واقعة موقع المصدر الواقع ظرف زمان ويكون التقدير لتأتنني به في كل وقت إلا إحاطة بكم أي وقت إحاطة ، قلت منع ذلك ابن الانباري فقال ما معناه : يجوز خروجنا صياح الديك أي وقت صياح الديك ولا يجوز خروجنا أن يصيح الديك ولا ما يصيح الديك وإن كانت أن وما مصدريتين وإنما يقع ظرفا المصدر المصرح بلفظه وأجاز ابن جني أن تقع ظرفا كما يقع صريح المصدر فأجاز في قول تأبط شرا :

وقالوا لها لا تنكحيه فإنه لأول نصل أن يلاقي مجمعا

وقول أبي ذؤيب الهذلي :

وتاللّه ما إن شهلة أمّ واحد بأوجد مني أن يهان صغيرها

أن يكون أن يلاقى تقديره وقت لقائه الجمع وان يكون ان يهان تقديره وقت إهانة صغيرها فعلى ما أجازه ابن جني يجوز أن تخرج الآية وتبقى لتأتنني به على ظاهره من الإثبات ولا يقدر فيه معنى النفي .

(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ : اللَّهُ عَلَى ما نَقُولُ وَكِيلٌ) الفاء عاطفة ولما تقدمت وآتوه فعل وفاعل ومفعول به أول وموثقهم مفعول به ثان والله مبتدأ وعلى ما نقول متعلقان بوكيل ووكيل خبر الله . (وَقَالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ) يا حرف نداء وبني منادى مضاف وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ولا ناهية وتدخلوا فعل مضارع مجزوم بلا ومن باب جار ومجرور متعلقان بتدخلوا وواحد صفة خشي عليهم أن يلفتوا الأنظار بدخولهم جملة واحدة فيعانوا أو يصيبهم سوء .

(وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) وادخلوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل ومن أبواب متعلقان بادخلوا ومتفرقة صفة وما أغني : ما نافية وأغني فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا وعنكم متعلقان بأغنى ومن الله حال ومن حرف جر زائد وشيء مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) إن نافية والحكم مبتدأ وإلا

أداة حصر ولله خبر وعليه جار ومجرور متعلقان بتوكلت وعليه عطف جملة على جملة وفليتوكل اللام لام الأمر ويتوكل فعل مضارع مجزوم بلام الأمر والمتوكلون فاعل .

[سورة يوسف (12) : الآيات 68 إلى 73]

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72)

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73)

اللغة :

(الحاجة) الأرب واللبانة وهي ترجع في اشتقاقها إلى فكرة واحدة هي الاقامة على الشيء والتشبث به ذلك أن صاحب الحاجة كلف بها

ملازم للفكر فيها مقيم على تنجزها والأصل في (الْحاجِّ) أنه شجر له شوك وما كانت هذه سبيله فهو متشبث بالأشياء كما يقول ابن جني في الخصائص ، فأي شيء مر عليه اعتقله وتشبث به فسميت الحاجة به تشبيها بالشجرة ذات الشوك أي أنا مقيم عليها متمسّك بقضائها كهذه الشجرة في اجتذابها ما مرّ بها وقرب منها والحوجاء منها ومنها تصرف الفعل احتاج يحتاج احتياجا وأحوج يحوج وحاج يحوج فهو حائج .

والأرب من الأربة وهي العقدة وعقد مؤرّب : مشدد والحاجة معقودة بنفس الإنسان متردّدة على فكره ، واللبانة من قولهم تلبّن بالمكان إذا أقام به ولزمه وهذا هو المعنى عينه .

(269/405)

و هذا بحث جليل يؤدي إذا تعورف إلى معرفة معاني الكلمات وتصور مدلولاتها وقد ذكر الزجاج في أماليه عن ابن الاعرابي ان العشقة شجرة يقال لها اللبلابة تخضر ثم تدق ثم تصفر ومن ذلك اشتقاق العاشق . وفي اللغة : عشق به كفرح لصق به والعشق عشق المحب بمحبوبه أو هو افراط الحب وشدة التعلق به فأصل المعنى المادي ظاهر انقلب إلى معنوي عريق الصلة بينه وبين المشتقات . وأورد الزجاج أيضا أن أصل المغازلة من الإدارة والفتل لأنه إدارة عن أمر ومنه سمي المغزل لاستدارته وسرعته في دورانه وسمي الغزال غزالا لسرعته وسميت الشمس غزالة لاستدارتها وسرعتها وأورد التعليل في الإدارة عن الأمر بقوله " ويقال غازل الكلب الظبي إذا عدا في أثره فلحقه وظفر به ثم عدل عنه ، ومنه مغازلة النساء قال : كأنها يلاعبها الرجل فتطمعه في نفسها فإذا رام تقبيلها انصرفت " ثم ان الغزالة قد تكون مؤنث الغزال أيضا ، وقد ورد في كلام العرب نظما ونثرا قديما وحديثا وأنكره الصفدي في شرح لامية العجم وقال : لم يسمع إلا بمعنى الشمس وقد

ردّه الدماميني وأورد له شواهد كثيرة ولو لا صحته لم تقع التورية في مثل قول الشاعر في العقاب :

ترى الطير والوحش في كفها ومنقارها ذا عظام مزاله

فلو أمكن الشمس من خوفها إذا طلعت ما تسمت غزاله

والموغل في تتبع العلاقات القائمة بين المفردات يقع منها على مذهب طريف وسر عميق في نشأة اللغة وتشقق الكلام فيها ، وفي هذا الكتاب يبدو لك العجب العجيب من هذه الأسرار .

(السّقَايَة) : مشربة يسقى بها وهي الصواع الآتي ذكره وكان يشرب فيه الملك فيسمى سقاية باعتبار أول حالة ثم صاعا باعتبار آخر أمره لأن الصاع آلة الكيل وقيل كانت إناء مستطيلا يشبه المكوك وقيل هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم وقيل كانت من فضة مموهة بالذهب وقيل كانت من ذهب وقيل كانت مرصعة بالجواهر .

)

(رَحْلِ) الرحل بفتح الراء المشدّدة ما يجعل على ظهر البعير كالسرج والمراد به هنا مكان ركوبه .

(الْعِيرُ) بكسر العين : الإبل التي يحمل عليها لأنها تعير أي تذهب وتجيء ، وقيل : قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير والمراد أصحاب العير كما سيأتي في باب البلاغة .

(صُوَاعَ) : الصواع بضم الصاد المشددة والصّاع لغتان معنا هما واحد وهو المكيال وقد تقدم انه هو السقاية وانما اتخذ هذا الإناء مكيالا لعزة ما يكال به في ذلك الوقت .

(السَّارِقُ) : هو من يسرق المتاع من الأحراز وللعرب في لغتهم تفصيل حول السارقين فإذا كان يقطع الطريق على القوافل فهو لص وفرضوب فإذا كان يسرق الإبل فهو خارب أو الغنم فهو أحمص والحميصة الشاة المسروقة فإذا كان يسرق الدراهم بين أصابعه فهو قفاف فإذا كان يشق عنها الجيوب فهو طرّار فاذا كان تخصص بالتلصص والخبث والفسق فهو طمل فإذا كان يسرق ويزني ويؤذي الناس فهو داعر فاذا كان خبيثا منكرا فهو عفر وعفرية نفرية فاذا كان أخبث اللصوص فهو عمروط فاذا كان يدل اللصوص ويندس لهم فهو شص فإذا كان يأكل ويشرب معهم ويحفظ متاعهم ولا يسرق معهم فهو لفيف .

هذا واللص بتثليت اللام وفرق بعض اللغويين بينها فقال :

إغلاق باب ستر فعل لصّ وسارق بالحركات لصّ

جمع الألصّ من رجال لصّ منضم أضراس فكن ذا خبر

الاعراب :

)

(271/405)

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ) لما ظرفية حينية أو رابطة ومن حرف جر وحيث ظرف مبني على الضم في محل جر بمن والجار والمجرور متعلقان بدخلوا والمعنى متفرقين وجملة أمرهم أبوهم مضافة للظرف . (ما كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) الجملة جواب لما وقيل الجواب هو آوى اليه أخاه قال أبو البقاء وهو جواب لما الأولى والثانية ، وما نافية وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير التفرق المدلول عليه بالكلام السابق وعنهم متعلقان بيغني ومن اللّه حال ومن حرف جر زائد وشيء مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به . (إِلَّا حاجَةً فِي
نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها)

(272/405)

استثناء منقطع على معنى ولكن حاجة في نفس يعقوب قضاها وهي حد به عليهم وفي نفس صفة ويعقوب مضاف اليه وجملة قضاها صفة لحاجة. (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) الواو للحال وان واسمها واللام المزحلقة وذو علم خبر إن وجملة علمناه صلة ولكن الواو حالية أيضا ولكن واسمها وجملة لا يعلمون خبر. (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ) تقدم اعرابها وأخاه مفعول آوى والجملة جواب لما الاولى والثانية. (قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ) إن واسمها وأنا مبتدأ وأخوك خبر والجملة خبر ان والجملة مستأنفة وهكذا كل ما اقتضى جوابا وذكر جوابه ثم جاءت بعده قال فهي مستأنفة، والفاء الفصيحة ولا ناهية وتبتئس مضارع مجزوم بلا وبما متعلقان بتبتئس وجملة كانوا صلة وجملة يعملون خبر كانوا. (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ) الفاء عاطفة للدلالة على رغبتهم الحثيثة بالسفر ولما ظرفية أو رابطة وجهزهم فعل وفاعل ومفعول به وبجهازهم جار ومجرور متعلقان بجهزهم وجملة جعل السقاية في رحل أخيه لا محل لها وفي رحل متعلقان بجعل. (ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ) ثم حرف عطف وتراخ وأذن مؤذن فعل وفاعل أي نادى مناد، وعطف بثم للاشارة إلى إمهال يوسف إياهم حتى انطلقوا وأيتها منادى محذوف منه حرف النداء وهو نكرة مقصودة مبني على الضم والهاء للتنبيه والعير بدل من أيتها وان واسمها واللام

المزحلقة وسارقون خبرها .

(

قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ) الواو للحال بتقدير قد وعليهم متعلقان بأقبلوا وماذا اسم استفهام مفعول مقدم لتفقدون أو ما اسم استفهام وذا اسم موصول خبر وجملة تفقدون صلة وقد تقدم القول في ماذا . (قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ) جملة نفقد صواع الملك مقول

(273/405)

القول . (وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) الواو عاطفة ولمن خبر مقدم وجملة جاء به صلة وحمل بعير مبتدأ مؤخر والواو عاطفة وأنا مبتدأ وبه متعلقان بزعيم وزعيم أي كفيل خبر . (قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ) التاء حرف جر وقسم ولله لفظ الجلالة مجرورة بتاء القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره نقسم واللام واقعة في جواب القسم أو هو تأكيد للقسم الاول وقد حرف تحقيق وعلمتم فعل وفاعل وما نافية وجئنا فعل وفاعل ولنفسد اللام للتعليل والفاعل مستتر تقديره نحن وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بنفسد ، وما كنا : ما نافية وكان واسمها وسارقين خبرها . وأقسموا بالتاء من حروف القسم لما فيها من معنى التعجب غالبا كأنهم عجبوا

من رميهم بهذا الأمر ولا تدخل التاء في القسم إلا على لفظ اللّه من بين أسمائه تعالى ، لا تقول تالرحمن ولا تالرحيم ولكن حكي عن العرب دخولها على الرب وعلى الرحمن وعلى حياتك قالوا ترب الكعبة وتالرحمن وتحياتك .

البلاغة :

في قوله تعالى " أيتها العير انكم لسارقون " مجاز مرسل علاقته المجاورة والمراد أصحاب العير كما ورد في الحديث " يا خيل اللّه اركبي " وفي العير سؤال جرى في مجلس سيف الدولة بن حمدان وكان السائل ابن خالوية والمسئول المتنبي قال ابن خالوية : والبعير أيضا الحمار وهو صرف نادر ألقيته على المتنبي بين يدي سيف الدولة وكانت فيه خنزوانة وعنجهية فاضطرب فقلت المراد بالبعير في قوله تعالى " ولمن جاء به حمل بعير " الحمار وذلك أن يعقوب وأخوه يوسف عليهم السلام كانوا

بأرض كنعان وليس هناك إبل وانما كانوا يمتارون على الحمير وكذلك ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره .

[سورة يوسف (12) : الآيات 74 إلى 80]

قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (74) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76) قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَر

خالطهم أحد .

(نَجِيًّا) : النجي فعيل بمعنى مفاعل كالعشير والخليط بمعنى المعاشر والمخالط كقوله تعالى : " وقربناه نجيا " أي مناجيا وهذا الاستعمال يفرد مطلقا يقال : هم خليطك وعشيرك أي مخالطوك ومعاشروك ، وإما لأنه على صفة فعيل بمنزلة صديق وبابه فوحد لأنه بزنة المصادر كالصهيل والوحيد والذميل وإما لأنه مصدر بمعنى التناجي كما قيل النجوى بمعناه .

الاعراب :

)

(قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ) الفاء الفصيحة وما اسم استفهام مبتدأ وجزاؤه خبر والضمير للصواع أي فما جزاء سرقته أو الضمير للسارق وإن شرطية وكنتم فعل الشرط وكاذبين خبر كان وجواب إن محذوف دل عليه ما قبله أي فما جزاء سرقة الصواع أو السارق. (قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ) جزاؤه مبتدأ ومن شرطية أو موصولة مبتدأ ثان ووجد صلة أو فعل الشرط وفي رحله متعلقان بوجد والفاء رابطة على الوجهين وهو مبتدأ وجزاؤه خبر وجملة فهو جزاؤه خبر من، ومن وما في حيزها خبر المبتدأ الأول والضمير على هذا الاعراب يعود على السارق ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والهاء تعود على المسروق ومن وجد في رحله خبره ومن بمعنى الذي والتقدير وجزاء الصواع الذي وجد في رحله، ويجوز أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف أي المسئول عنه جزاؤه أي استرقاقه جزاؤه وكانت تلك شريعة آل يعقوب. (كَذلِكَ نَجْزِي الظّالِمِينَ) كذلك نعت لمصدر محذوف أي نجزي الظالمين جزاء كذلك الجزاء والظالمين مفعول به أي فهو كذلك في شريعتنا المقررة بيننا. (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ) الفاء عاطفة وبدأ فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو وبأوعيتهم جار ومجرور متعلقان ببدأ وقبل ظرف زمان متعلق بمحذوف حال ووعاء أخيه مضافان وثم حرف عطف واستخرجها فعل وفاعل مستتر ومفعول به والهاء تعود على الصواع لأن فيه التذكير والتأنيث أو على السقاية لأن الصواع يحمل معناها ومن وعاء أخيه متعلقان

باستخرجها . (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) أي مثل ذلك الكيد كدنا ليوسف فالكاف نعت لمصدر محذوف كما تقدم وليوسف متعلقان

(276/405)

بكدنا . (ما كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) ما نافية وكان فعل ماض ناقص واسمها مستتر واللام للجحود ويأخذ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود واللام ومجرورها في موضع الخبر وأخاه مفعول به وفي دين الملك حال . (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) الاستثناء منقطع إذ الأخذ بدين الملك لا يشمل المراد بقوله إلا أن يشاء اللّه لأنه أخذه بشريعة يعقوب أو الاستثناء متصل من أعم الأحوال أي إلا حال مشيئته واذنه بذلك وإرادته له وجملة ما كان ليأخذ أخاه إلخ تعليل لما صنعه اللّه من الكيد ليوسف أو تفسير له وعلى كل لا محل لها . (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) درجات منصوب على الظرفية ومن مفعول به وجملة نشاء صلة وفوق الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وكل ذي علم مضافان وعليم مبتدأ مؤخر . (قالُوا : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) إن شرطية ويسرق فعل الشرط والفاء رابطة لاقتران الجواب بقد وسرق أخ فعل وفاعل والجملة في محل جزم جواب الشرط وله صفة ومن قبل حال ، قالوا ذلك متنصلين من التهمة

التي ثبتت عليهم مبرئين لساحتهم يعنون ان هذه الفعلة ليست ببعيدة من بنيامين فإن أخاه الذي هلك كان سارقا أيضا ونحن لسنا على طريقتهما لأنهما من أم أخرى ويروي المؤرخون أن يوسف كان قد سرق لأبي أمه صنما مما استفاض ذكره في المطولات والأولى ما حكاه الزجاج أنه قال : "كذبوا عليه فيما نسبوه اليه" ونقول ما هذه الكذبة بأول كذباتهم . (فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ) الفاء عاطفة وأسرها فعل ومفعول به والهاء تعود للكلمة الآتية وهي أنتم شر مكانا فهو إضمار على شريطة التفسير ويوسف فاعل وفي نفسه متعلقان بأسرها ولم يبدها عطف على أسرها ولهم متعلقان بيبدها . (

(277/405)

قال أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ) أنتم مبتدأ وشر خبر ومكانا تمييز وجملة أنتم شر مكانا بدل من الهاء

ويجوز أن يعود الضمير أي الهاء على الحجة فيكون المعنى فأسر يوسف في نفسه الحجة عليهم في ادعائهم عليه السرقة ولم يبدها لهم وقال أنتم شر مكانا ، والله مبتدأ وأعلم خبره وبما متعلقان بأعلم وجملة تصفون صلة . (قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً) يا حرف نداء وأيها منادى نكرة مقصودة والهاء للتنبيه والعزيز بدل وان حرف مشبه بالفعل وله

خبرها المقدم وشيخا اسمها المؤخر وكبيرا صفة. (فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) الفاء

(278/405)

الفصيحة وخذ فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت وأحدنا مفعول به ومكانه ظرف مكان متعلق بخذ وان واسمها وجملة نراك خبرها ومن المحسنين متعلق بنراك على أنه مفعول ثان. (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ) معاذ اللّه نصب على المصدر بفعل محذوف أي نعوذ باللّه معاذا وأن نأخذ أن وما في حيزه منصوب بنزع الخافض متعلق بنعوذ وإلا أداة حصر ومن مفعول نأخذ وجملة وجدنا صلة ومتاعنا مفعول وجدنا وعنده متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لوجدنا أي كائنا عنده. (إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ) ان واسمها واذن جواب وجزاء واللام المزحلقة وظالمون خبر إنا. (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) لما ظرفية حينية أو رابطة واستيئسوا فعل وفاعل ومنه متعلقان باستيأسوا وخلصوا فعل وفاعل ونجيا حال من فاعل خلصوا أي اعتزلوا هذه الحالة متناجين وإنما أفردت الحال وصاحبها جمع لأن النجي يفرد مطلقا كما تقدم في باب اللغة. (قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم

وتعلموا مضارع مجزوم بلم وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي تعلموا وان واسمها وجملة قد أخذ خبر وعليكم متعلقان بأخذ وموثقا مفعول به ومن اللّه صفة لموثقا .

(وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ) في اعراب هذا الكلام وجوه أظهرها

أن من قبل خبر مقدم وبني قبل على الضم لانقطاعه عن الاضافة لفظا لا معنى أي ومن قبل هذا ، وما مصدرية وهي مع مدخولها مبتدأ مؤخر ومعناه ووقع من قبل هذا تفريطكم

وفي يوسف متعلقان بفرطتم .

ويجوز أن تكون ما موصولة بمعنى ومن قبل هذا الذي فرطتموه في يوسف من الجناية العظيمة ومحل الموصول الرفع على الابتداء أيضا ويجوز أن تكون ما صلة أي زائدة لتحسين اللفظ فمن متعلقة بالفعل وهو فرطتم وقد رجح أبو حيان هذا الوجه . قال ابن هشام : " وقوله تعالى : ومن قبل ما فرطتم في يوسف ما إما زائدة فمن متعلقة بفرطتم وإما مصدرية فقيل هي وصلتها رفع بالابتداء وخبره من قبل وردّ بأن الغايات لا تقع أخبارا ولا صلات ولا صفات ولا أحوالا نصّ على ذلك سيبويه وجماعة من المحققين ويشكل عليهم : كيف كان عاقبة الذين من قبل وقيل نصب عطفا على ان وصلتها أي ألم تعلموا أخذ أبيكم الموثق

وتفريطكم ويلزم على هذا الاعراب الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف وهو ممتنع " .

هذا ما قاله ابن هشام وهو جميل غير أنّا لا نسلم به بأن الفصل ممنوع كما ذكر بل هو جائز كما ذكره ابن مالك وتمسك بعضهم لجوازه بقوله تعالى : " إن اللّه يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " وأجاب ابن هشام عن هذا الاعتراض في حواشي التسهيل بأن التقدير ويأمركم إذا حكمتم فهو عطف جمل .

والواو في قوله ومن قبل للحال على كل حال فالمعنى : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من اللّه والحال انكم فرطتم في يوسف من قبل .

(فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي) الفاء عاطفة على مقدر أي سأبقى في مصر ولن أبرحها ، ولن حرف نفي ونصب واستقبال وأبرح فعل مضارع منصوب بلن ومعناه أفارق فهي تامة وفاعل أبرح مستتر تقديره أنا والأرض مفعول به وحتى يأذن حرف غاية وجر ويأذن فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ولي متعلقان بيأذن وأبي فاعل .

)

أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ) أو حرف عطف ويحكم معطوف على يأذن ويجوز أن ينصب بأن مضمرة في جواب النفي والله فاعل ولي متعلقان بيحكم وهو مبتدأ وخير الحاكمين خبر.

[سورة يوسف (12) : الآيات 81 إلى 86]

ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلاَّ بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (81) وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ (82) قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (85) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (86)

اللغة:

(كَظِيمٌ) : أي مكظوم ممتلىء من الحزن ممسك عليه لا يبثّه قال قتادة: هو الذي يردد حزنه في جوفه ولم يقل إلا خيرا وفي المصباح:

"كظمت الغيظ كظما من باب ضرب وكظوما أمسكت على ما في نفسك منه على صفح أو غيظ" وقال الزمخشري: "فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله: وهو مكظوم من كظم السقاء إذا شده على ملئه والكظم بفتح الظاء مخرج النفس يقال: أخذ بأكظامه" وأصل هذه

المادة كما تقول معاجم اللغة من كظم البعير جرّته از دردها وكفّ عن الاجترار وباتت الإبل كظوما وكواظم وحفروا كظامة وكظيمة وكظائم وفي الحديث:

"أتى كظامة قوم فتوضأ" وهي الفقير يحفر من بئر إلى بئر والسقاية والحوض قال طرفة:

يشربن من فضلة العقار كما استوجر ماء الكظيمة الشرب جمع شروب ومن المجاز كظم الغيظ وعلى الغيظ وهو كاظم وكظمه الغيظ والغمّ: أخذ بنفسه فهو كظيم ومكظوم.

(حَرَضاً): في المصباح: "حرض حرضا من باب تعب أشرف على الهلاك فهو حرض" ويستوي فيه الواحد وغيره أي المثنى والمجموع والمذكر والمؤنث.

الاعراب:

(ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ) ارجعوا فعل أمر وفاعل والى أبيكم متعلقان بارجعوا، فقولوا عطف على ارجعوا

ويا أبانا منادى مضاف وان واسمها وجملة سرق خبرها. (وَما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ) الواو حرف عطف وما نافية وشهدنا فعل وفاعل وإلا أداة حصر وبما متعلقان بشهدنا وجملة علمنا صلة وما عطف أيضا وما نافية وكان واسمها وللغيب

متعلقان بحافظين وحافظين خبر كنا . (وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها) الواو عاطفة واسأل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والقرية مفعول به وسؤال القرية يعني سؤال أهلها كما يأتي في باب البلاغة والتي صفة وجملة كنا صلة وكان واسمها وفيها خبرها . (وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ) والعير عطف على القرية والتي صفة وجملة أقبلنا صلة وفيها متعلقان بأقبلنا وإنا عطف وان واسمها واللام المزحلقة وصادقون خبرها .

(

قال بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً) قال مرتب على محذوف أي فرجعوا فقال ، وبل حرف إضراب وسولت فعل ماض والتاء للتأنيث ولكم جار ومجرور متعلقان بسولت وأنفسكم فاعل وأمرا مفعول به . (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) الفاء عاطفة وصبر خبر لمبتدأ محذوف أي صبري وجميل نعت وعسى من أفعال الرجاء والله اسمها وان وما في حيزها خبرها وبهم متعلقان بيأتيني وجمع لأن المفقودين صاروا ثلاثة وهم يوسف وبنيامين وكبير الأخوة الذي آثر الاقامة بمصر وجميعا حال وان واسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ والعليم الحكيم خبر لأن أو للضمير والجملة

خبر إن. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ وتولى الواو عاطفة وتولى فعل ماض أي أعرض عنهم وعنهم متعلقان بتولي وقال عطف على تولى ويا حرف نداء وأسفا منادى مضاف لياء المتكلم المنقلبة ألفا والأصل يا أسفي وقد تقدم بحث المنادى المضاف لياء المتكلم وعلى يوسف متعلقان بالأسف وخص يوسف بالذكر للدلالة على تمادي الأسف عليه وان الرزء به كان

ولا يزال غضا طريا وان رزأه بأخويه جدد حزنه عليه لأنه قاعدة أحزانه ومصائبه على حد قول ابن الرومي في رثاء ابنه الأوسط:

أرى أخويك الباقيين كليهما يكونان للأحزان أورى من الزند

ولعل ابن الرومي رمق هذه البلاغة العالية.

)

(283/405)

وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وابيضت عيناه فعل وفاعل وإذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض ومن الحزن جار ومجرور متعلقان بابيضت، فهو الفاء عاطفة وهو مبتدأ وكظيم خبره. ﴿قَالُوا: تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً

أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ) قالوا فعل وفاعل والتاء تاء القسم ولفظ الجلالة مجرور بتاء القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم وتفتأ أي لا تفتأ من أخوات كان واسمها مستتر تقديره أنت وجملة تذكر خبرها ويوسف مفعول به وحتى حرف غاية وجر وتكون منصوب بأن مضمرة بعد حتى وحرضا خبر تكون واسم تكون مستتر تقديره أنت وأو حرف عطف وتكون فعل مضارع ناقص واسمها أنت ومن الهالكين خبرها .

(قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)

إنما كافة ومكفوفة وأشكو بثي فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ، وحزني عطف على بثي والى اللّه متعلقان بأشكو ، والبث : ما يرد على الإنسان من الأشياء التي يعظم حزن صاحبها بها حتى لا يقدر على اخفائها كذا قال أهل اللغة وهو مأخوذ من بثثته أي فرقته فسميت المصيبة بثا مجازا قال ذو الرمة :

وقفت على ربع لميّة ناقتي فما زلت أبكي عنده وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه

(وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ)

وأعلم عطف على أشكو ، ومن اللّه متعلقان بأعلم ، أي أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به ، وما مفعول به وجملة لا تعلمون صلة .

البلاغة :

1- في قوله تعالى " واسأل القرية " مجاز مرسل إذ المراد أهلها والعلاقة المحلية وقد تقدمت نظائر كثيرة لهذا المجاز وأراد بالقرية مصر أي أرسل إلى أهلها فاسألهم عن تفاصيل هذه القصة وكذلك قوله " والعير التي أقبلنا فيها " أي أصحاب العير .

(284/405)

2- في قوله " تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا " فن أصيل في البلاغة وهو ما يسمّى " ائتلاف اللفظ مع المعنى " وهو نسمة الحياة في الفن ، وعموده الذي يقوم عليه ويتلخص بأن تكون ألفاظ المعنى المراد متلائمة بعضها مع بعض ليس فيها لفظة نابية أو قلقة عن أخواتها بحيث يمكن استبدالها ولا بد من ملاحظة أشياء ثلاثة في هذا الصدد وهي :

آ- اختيار الألفاظ المفردة وحكم ذلك حكم اللآلئ المبدّدة فانها تتخير وتنتقى قبل النظم .

ب- نظم كل كلمة مع أختها المشكلة لها .

ج- الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه وهذا الموضع جم الشعاب دقيق المسلك يضل عنه الكثيرون إلا من أشرقت نفوسهم بضياء المعرفة واليقين وسنورد أمثلة منه قبل أن تتناول الآية

فمن ذلك قوله تعالى : " وما جعل اللّه لرجل من قلبين في جوفه " وقوله تعالى " رب إني نذرت لك ما في بطني محررا " فاستعمل الجوف في الأولى واستعمل البطن في الثانية ولم يستعمل الجوف موضع البطن ولا البطن موضع الجوف واللفظتان سواء في الدلالة وهما ثلاثيتان في عدد واحد ووزنهما واحد أيضا ولو استعمل هذه موضع تلك لكان الكلام نافرا قلقا وعلى هذا ورد قول الأعرج من أبيات الحماسة :

نحن بنو الموت إذا الموت نزل لا عار بالموت إذا حم الأجل

الموت أحلى عندنا من العسل وقال أبو الطيب المتنبي :

إذا شئت حفت بي على كل سابح رجال كأن الموت في فمها شهد

فهاتان لفظتان هما العسل والشهد وكلاهما حسن مستعمل لا يشك في حسنه واستعماله وقد وردت لفظة العسل في القرآن دون لفظة الشهد لأنها أحسن منها ومع هذا فإن لفظة الشهد وردت في بيت أبي الطيب فجاءت أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج.

ويجمل بنا لإيضاح هذا الفن واظهار خصائصه الرفيعة اقتباس فصل ممتع لابن الأثير في كتابه " المثل السائر " قال : " وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم إن هذه اللفظة

حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك وقال : كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنا ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العسلوج وبين لفظة المدامة ولفظة الإسفنط وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل وبين لفظة الأسد ولفظة الفدوكس فلا ينبغي أن يخاطب ولا يجاب بجواب بل

يترك وشأنه كما قيل : اتركوا الجاهل ولو ألقي الجعر في رحله وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوي بن صورة زنجية سوداء مظلمة السواد ، سوهاء الخلق ، ذات عين محمرة ، وشفة غليظة كأنها كلوة ، وشعر قطط كأنه زبيبة وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خدّ أسيل ، وطرف كحيل ، ومبسم كأنما نظم من أقاح ، وطرّة كأنها ليل على صباح ، فإذا كان انسان من سقم النظر أن يسوي بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوي بين هذه الألفاظ وهذه ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام" .

أقسام الألفاظ : والواقع أن الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ولكل منها مواضع يحسن استعمالها فيه فالجزل يستعمل في مواقف الشدة وقوارع التهديد والتخويف ، والرقيق يستعمل في وصف تباريح الأشواق ، ولوعة الفراق ، والآية التي نحن بصددها من أروع الأمثلة على ذلك فإنه سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها وهي التاء لأن الواو والباء أكثر دورانا على الألسنة منها أتى سبحانه بأغرب صيغ الأفعال الناقصة التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها وهي تفتأ وحذف منها

حرف النفي زيادة في الاغراب ولأن المقام لا يلتبث بالاثبات على حد قول امرئ القيس :

فقلت : يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

(286/405)

وكذلك لفظ " حرضا " أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك فاقتضى حسن النظم وحسن الوضع فيه أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة والاستعمال توخيا لحسن الجوار ورغبة في

ائتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم وسيأتي المزيد من هذه الملاءمة فيما يأتي .

3- الجناس : وهو اشتراك اللفظتين في الاشتقاق وقد وقع جميلا جدا في قوله : " يا أسفا على يوسف " .

الفوائد :

1- اشترط النحاة في اعمال زال ماضي يزال لا يزول ، وفتئ ، وبرح ، وانفك ،

أن يتقدمها نفي أو نهي أو دعاء ب " لا " خاصة في الماضي أو بلن في المضارع ، وانما

اشترطوا فيها ذلك لأنها بمعنى النفي فإذا دخل عليها النفي انقلبت اثباتا فمعنى ما زال

زيد قائما هو قائم فيما مضى وقد يحذف حرف النفي كما تقدم في الاعراب وكالآية الكريمة " تالله تفتأ تذكر يوسف " على أن حذف النافي لا ينقاس إلا بثلاثة شروط وهي كونه مضارعا وكونه جواب قسم وكون النافي " لا " ومن أمثلة النفي بعد الاسم قوله :

غير منفك أسير هوى كل وان ليس يعتبر

ومن أمثلة النفي بالفعل الموضوع للنفي قوله :

ليس ينفك ذا غنى واعتزاز كل ذي عفة مقل قنوع

ومن أمثلة النفي بالفعل العارض للنفي قوله :

قلما يبرح اللبيب إلى ما يورث الحمد داعيا أو مجيبا

فإن قلما خلع منه معنى التقليل وصير بمعنى ما النافية .

ومن أمثلة النفي بالفعل المستلزم للنفي قولهم : أبيت أزال استغفر الله أي لا أزال ووجهه أن من أبى شيئًا لم يفعله والإباء مستلزم للنفي .

ومثال النهي قوله :

صاح شمر ولا تزل ذاكر الموت فنسيانه ضلال مبين

ومثال الدعاء قول ذي الرمة :

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

2- لمحة عن فعل الأمر :

الأمر ينقسم إلى قسمين : لغوي وهو طلب إيجاد الفاعل من الفعل في الخارج على سبيل الاستعلاء وقيل اقتضاء فعل غير كف على جهة الاستعلاء والمراد بالاقتضاء ما يقوم بالنفس من الطلب لأنه الأمر في الحقيقة وتسمية الصيغة به مجاز وقيل غير كف ليقع الاحتراز من النهي على جهة الاستعلاء ليقع الاحتراز من الدعاء وأورد على طرده كف لأنه اقتضاء فعل غير كف فلا يكون هذا أمرا لكنه أمر فلا يكون مطردا وعلى عكسه لا تكف لأنه اقتضاء فعل غير كف فيكون أمرا لكنه ليس بأمر فلا يكون منعكسا .

وصناعي وهو ما حصل به ذلك أي طلب إيجاد الفعل والذي حصل به ذلك هو الصيغة التي يطلب بها الفعل من الفاعل وفعل الأمر بني على السكون لأنه . الأصل في البناء وصيغته

مأخوذة من المضارع فإذا أردت أن تصوغ فعل أمر حذفت حرف المضارعة ونظرت إلى ما يليه فإن كان متحركا صغت مثال الأمر على صيغته وحركته فتقول مثلا من يشمر شمر ومن يدحرج دحرج ومن يثب ثب ومن يصل صل وإن كان الذي يلي حرف المضارعة ساكنا اجتلبت له همزة وصل ليتوصل إلى النطق بأول الفعل ساكنا فتقول مثلا من يضرب

اضرب ومن مثل ينطلق انطلق ومن مثل يستخرج استخرج لأن الابتداء بالساكن في النطق مستحيل. وما أحسن قول السراج الوراق:

يا ساكنا قلبي ذكرتك قبله أرأيت قبلي من بدا بالساكن

وجعلته وقفا عليك وقد غدا متحركا بخلاف قلب الآمن

وبذا جرى الاعراب في نحو الهوى فإليك معذرتي فلست بلاحن

وسواء كان الفعل ثلاثيا أو خماسيا أو سداسيا، وشذ من هذه القاعدة فعلان فلا تدخل عليهما همزة وهما خذ وكل وجوز في فعلين إلحاق الهمزة وحذفها وهما مر وسل وقد نطق القرآن بهما فقال تعالى:

"

سل بني إسرائيل " " واسأل القرية " وتقول: مره بكذا وأمره بكذا، فأما حركة الهمزة المجتلبة فإن كان الماضي رباعيا فانها مفتوحة في الأمر، تقول من أكرم: أكرم، وإذا كان ثالث المضارع مضموما فانها مضمومة في الأمر، تقول في الأمر من قتل: اقتل، وما عدا ذلك فهي مكسورة.

3- الكلام على " بل " :

بل : حرف عطف للاضراب عن الأول واثبات الحكم للثاني سواء كان ذلك الحكم إيجابا أو سلبا واعلم أن للاضراب معنيين أحدهما ابطال الأول والرجوع عنه إما لغلط أو نسيان تقول في الإيجاب : قام زيد بل عمرو وتقول في النفي : ما قام زيد بل عمرو كأنك أردت الإخبار عن عمرو فغلطت وسبق لسانك إلى ذكر زيد فأتيت ببل مضربا عن زيد ومثبتا ذلك الحكم لعمرو والآخر ابطاله لانتهاء مدة ذلك الحكم وعلى ذلك يأتي في الكتاب العزيز نحو قوله : " بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل "كأنه انتهت القصة الأولى فأخذ في قصة أخرى وكذلك قوله : " أ تأتون الذكران من العالمين " ثم قال : " بل أنتم قوم عادون " ولم يرد أن الأول لم يكن ، ومما ورد في ذلك شعرا قول رؤبة ابن العجاج :

قلت لزير لم تصله مريمه هل تعرف الربع المحيل ارسمه

عفت عوافيه وطال قدمه بل بلد ملء الفجاج قتمه

والزير بكسر الزاي الرجل الذي يخالط النساء ويمازحهن بغير شر أو به ومريم أي سميرته وفي القاموس : المريم التي تحب محادثة الرجال ولا تفجر قال الشاعر :

وزائرة ليلا كما لاح بارق تضوّع منها للكباء عبير

فقلت لها : أهلا وسهلا أمريم ؟ فقالت : نعم من أنت ؟ قلت لها : زير

[سورة يوسف (12) : الآيات 87 إلى 92]

(289/405)

يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (87) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (89) قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (91)

قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92)

اللغة:

(فَتَحَسَّسُوا) : التحسّس: طلب الخير بالحاسة وهو قريب من التجسّس الذي بالجيم وقيل: ان التحسس بالحاء يكون في الخير وبالجيم يكون في الشر ومنه الجاسوس وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس ولهذه المادة خواص عجيبة فهي تتناول جميع خوالج الناس وهواجس نفوسهم، وتشير إلى احداث التأثير في الأشياء يقال:

(290/405)

حسه يحسه من باب نصر قتله واستأصله ، وحسّ الدابة نفض التراب عنها بالمحسة ، وحسّ البرد الزرع أحرقه ، وحسّ اللحم جعله على الجمر ، وحسن النار ردّها على خبز الملة والشواء من نواحيه لينضج ، وحس يحس حسا من باب تعب الشيء وبالشيء علمه وشعر به وأدركه ، وحس يحس من بابي تعب وجلس بالخير أيقن به ، وحس لفلان رق له ، وتحسّس تسمع وتبصّر ، وتحسّس الخبر سعى في إدراكه ، وتحسّس الشيء تعرّفه وتطلّبه بالحاسة ، وتحسّس منه تخبر خبره ، والحاسة مؤنث الحاس والقوة النفسانية المدركة ، والحواس الخمس هي السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، وحواسّ الأرض خمس وهي البرد والبرد والريح والجراد والمواشي أخذت من حسّ الزرع يقال مرت بالقوم حواسّ أي سنون شداد ، والحسيس الصوت الخفي والحركة والقتيل ، وحساس الحمى بالكسر مسها وأول ما يبدأ منها ، والحسي ما يدرك بالحس الظاهر وضده العقلي ، أما مادة جس فتشابهها مشابهة غريبة يقال جسّه يجسه من باب نصر ، واجتسّه مسه بيده ليتعرفه ، وجسّ الأرض وطئها ، وجسه بعينه أحدّ النظر اليه ليتبينه ، وجسّ وتجسّس واجتسّ الأخبار والأمور بحث عنها ، والجاس وجمعه جواسيس ، والجسّاس الذي يأتي بالأخبار ، وجواسّ الإنسان هي حواسه الخمس والواحدة جاسة ، والمجسّ والمجسّة موضع اللمس قال دوقلة :

ولها هن بض ملاذهن را بي المجسّة حشوه وقد

وفلان ضيق المجسّ والمجسّة أي غير رحب الصدر والمجسة أيضا هي الموضع الذي يجسه الطبيب .

(مُزْجاةٍ) : أي بضاعة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من أزجيته إذا دفعته وطردته ، والريح تزجي السحاب . وفي المصباح : زجيته بالتثقيل دفعته برفق ، والريح تزجي السحاب تسوقه سوقا رفيقا . يقال أزجاه بوزن أرضاه وزجاه بالتثقيل كزكاه ، وفي القاموس : زجاه ساقه ودفعه .

)

(291/405)

تَثْرِيبَ) : عتب ، وفي المصباح : ثرب عليه يثرب من باب ضرب عتب ولام ، وبالمضارع بياء الغيبة سمي رجل من العمالقة وهو الذي بنى مدينة النبي صلى اللّه عليه وسلم فسميت المدينة باسمه ، وقاله السهيلي وثرّب بالتشديد مبالغة وتكثير ومنه قوله تعالى " لا تثريب عليكم اليوم " والثرب وزان فلس شحم رقيق على الكرش والأمعاء .

وقال الرازي : التثريب التعيير والاستقصاء في اللوم . وقال الزمخشري :

" وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده فضرب مثلا للتقريع الذي يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه " .

الاعراب :

(يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ) يا بني تقدم اعرابها واذهبوا فعل أمر وفاعل والفاء عاطفة وتحسسوا فعل أمر وفاعل ومن يوسف متعلقان بتحسسوا وأخيه عطف على يوسف . (وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ) الواو عاطفة ولا ناهية وتيئسوا مجزوم بلا والواو فاعل ومن روح اللّه جار ومجرور متعلقان به وسيأتي بحث هذه الاستعارة في باب البلاغة . (إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ)

(292/405)

ان واسمها وجملة لا ييئس خبرها ومن روح اللّه متعلقان بييئس وإلا أداة حصر والقوم فاعل والكافرون صفة . (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ) فيه حذف واختصار تقديره فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر فلما . . إلخ ، والفاء عاطفة ولما ظرفية حينية أو رابطة ودخلوا فعل وفاعل وعليه متعلقان بدخلوا . (قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ) جملة قالوا لا محل

لها ويا أيها العزيز نداء تقدم إعرابه والعزيز بدل من أي ، ومسنا فعل ومفعول به وأهلنا عطف على نا أو مفعول معه والضر فاعل . (وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) الواو عاطفة وجئنا فعل وفاعل وببضاعة متعلقان بجئنا ومزجاة صفة ، فأوف الفاء عاطفة وأوف فعل أمر ولنا متعلقان بأوف والكيل مفعول به . (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) وتصدق عطف على فأوف وعلينا متعلقان بتصدق وان واسمها وجملة يجزي خبرها والمتصدقين مفعول به . (قالَ : هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ) هل حرف استفهام وعلمتم فعل وفاعل وما اسم موصول مفعول به ويجوز أن تكون مصدرية أي فعلكم بيوسف والجار والمجرور متعلقان بفعلتم وأخيه عطف على يوسف وإذ ظرف متعلق بفعلتم أي فعلتم ذلك وقت جهلكم وأنتم مبتدأ وجاهلون خبر والجملة الاسمية مضاف إليها الظرف ، والاستفهام يفيد التعظيم والتهويل أي ان الأمر الذي ارتكبتموه كان بمثابة لا يقدم عليه فيها أحد ولكنكم أقدمتم غير آبهين للعواقب ولا عارفين بما يئول اليه أمر يوسف من الخلاص من الجب ثم ولاية الملك وسيأتي نص كتاب يعقوب الذي قدموه إليه في باب الفوائد . (

قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ) قالوا فعل وفاعل ، أإنك الهمزة للاستفهام التقريري وان واسمها واللام المزحلقة وأنت مبتدأ ويوسف خبر والجملة خبر ان ويجوز أن يكون الضمير وهو أنت فصلا وقد تقدم . (قالَ : أَنَا

يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا)

أنا مبتدأ ويوسف خبر وأظهر الاسم فقال أنا يوسف تعظيما لما وقع به من ظلم أخوته كأنه قال :

انا المظلوم المستحلّ منه المحرّم المراد قتله ، وهذا مبتدأ وأخي خبر وقد حرف تحقيق ومنّ فعل ماض واللّه فاعل وعلينا متعلقان بمنّ والجملة حالية (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) ان واسمها وهو ضمير الشأن والحال ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ، ويتق فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة ويصبر عطف عليه ، فإنه : الفاء رابطة للجواب وان واسمها وجملة لا يضيع خبرها وأجر المحسنين مفعول به وجملة الشرط وجوابه خبران .

)

قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا) التاء تاء القسم ولفظ الجلالة مجرور بها والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره نقسم واللام جواب القسم وقد حرف تحقيق وآثرك اللّه فعل ومفعول به وفاعل وعلينا متعلقان بآثرك . (وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ) الواو عاطفة وان مخففة من

لثقيلة مهملة وكان واسمها واللام الفارقة وخاطئين خبر كنا . (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) جملة لا تثريب مقول القول ولا نافية للجنس وتثريب اسمها وعليكم خبرها واليوم ظرف متعلق بمحذوف خبر ثان أو بمتعلق الخبر وهو عليكم وعلى كل فالوقف عليه ولا يجوز تعليق الظرف بالمصدر وهو التثريب لأنه يصير شبيها بالمضاف ومتى كان كذلك أعرب ونون نحو لا خيرا من زيد عندك ، والعجب من الزمخشري إذ أجاز تعليق الظرف بالتثريب وهي زلة لا أدري كيف وقع فيها ؟ ومن جهة ثانية فصل بينه وبين معموله على حد قوله بقوله " عليكم " ويجوز تعليق الظرف بالفعل الذي بعده . (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) جملة دعائية بمثابة التعليل ويغفر الله فعل وفاعل ولكم متعلقان بيغفر وهو مبتدأ وأرحم الراحمين خبر .

البلاغة :

استعارة الروح للرحمة وإيضاحه ان الروح مصدر بمعنى الرحمة وأصله استراحة القلب من غمه ، والمعنى لا تقنطوا من راحة تأتيكم من اللّه .

الفوائد :

روى التاريخ أن اخوة يوسف لما قالوا ليوسف " مسنا وأهلنا الضر " وتضرعوا اليه ارفضت عيناه وقيل أدوا اليه كتاب يعقوب اليه وهذا نصه نثبته لما فيه من عاطفة مضطرمة واحساس فياض :

من يعقوب إسرائيل اللّه بن اسحق ذبيح اللّه بن ابراهيم خليل اللّه إلى عزيز مصر ، أما بعد فإنّا أهل بيت موكل بنا البلاء ، أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي إلى النار ليحرق فجعلها اللّه عليه بردا وسلاما وأما أبي فوضعت المدية في قفاه ليذبح ففداه اللّه وأما أنا فكان لي ابن وكان أحبّ أولادي إلي فذهب به اخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطّخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي من بكائي عليه ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا فقالوا انه سرق وانك حبسته وإنّا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فإن رددته إليّ وإلا دعوت عليك دعوة تبلغ السابع من ولدك والسلام .

فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتماسك وعيل صبره ، وعلى افتراض عدم صحة هذا الكتاب فنفحة العاطفة تدعو لاثباته .

[سورة يوسف (12) : الآيات 93 إلى 101]

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي

ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (96) قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (97)

قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)

اللغة :

)

فَصَلَتِ الْعِيرُ) : خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا إذا انفصل منه وجاوز حيطانه وفي المختار : وفصل من الناحية خرج وبابه جلس ، وللفاء والصاد فاء وعينا للكلمة سر غريب : إنهما تدلان على الخروج والمزايلة يقال : فصّ من كذا فصّا وافتصّ كذا من كذا انتزعه وافترزه وبابه ضرب وفصّ الجرح يفص من باب ضرب أيضا سال بما فيه وفصّ العرق رشح وفصّ الولد بكى وفصصت الشيء من الشيء فانفصّ أي فصلته فانفصل وفصح يفصح من باب فتح الصبح فلانا بان له وغلبه ضوءه وفصح يفصح فصاحة من باب ظرف جادت لغته وحسن منطقه فهو فصيح والفصاحة مصدر والبيان وخلوص الكلام من التعقيد ويوصف بها المتكلم والكلام والكلمة وفضح يفضح من باب فتح فضحا عن الأمر تغابى عنه وهو يعلمه فكأنه خرج عن عهدته وألقى عنه تبعاته ، وفصد يفصد من باب ضرب فصدا المريض شق عرقه وفصد له عطاء قطعه له وافتصد العرق شقه وفي المثل " لم يحرم من فصد له " أي لم يخب من نال بعض حاجته وفصع التمرة يفصعها من باب فتح عصرها بإصبعيه حتى تنقشر وفصع عمامته عن رأسه حسرها وفصع الشيء دلكه بإصبعيه ليلين فينفتح عما فيه وفصم يفصم فصما من باب ضرب الدملج ونحوه كسره من غير أن تنفرق كسره وفصم الشيء قطعه وفصم البيت بالبناء للمجهول انهدم وكانت عروة قد فصمت وفصى يفصي من باب ضرب الشيء فصيا نزعه وأزاله وفصّى اللحم من أو

عن العظم تفصية خلصه منه وأبانه عنه وتفصى الرجل من الديون خرج منها . وهذا من الأسرار التي تميزت بها لغتنا الشريفة .

(297/405)

(

تُفَنّدُونِ) : التفنيد النسبة إلى الفند وهو الخرف وانكار العقل من هرم يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي فتفند في كبرها ، وفي المختار الفند بفتحتين الكذب وهو أيضا ضعف الرأي من الهرم والفعل منه أفند والتفنيد اللوم وتضعيف الرأي . وفي القاموس : الفند بالتحريك الخرق وانكار العقل لهرم أو مرض والخطأ في القول والرأي والكذب كالافناد ولا تقل عجوز مفندة لانها لم تكن ذات رأي أبدا وقال دعبل :

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم الله يعلم اني لم أقل فندا

إني لأغمض عيني ثم أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

(الْبَدْوِ) : البادية والبدو هو البسيط من الأرض يبدو الشخص فيه من بعد يعني يظهر ، والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية ، وفي القاموس والتاج : البدو والبادية والبداوة الصحراء والجمع باديات

وبواد والبدو أيضا سكان البادية من القبائل العربية الرحّل وهم ينقسمون إلى عدة قبائل والنسبة إلى البدو بدوي بسكون الدال وبدوي بفتحها والأنثى بدوية والجمع بداويّ وفي الأساس : " لقد بدوت يا فلان أي نزلت البادية وصرت بدويا ، وما لك والبداوة؟ وتبدّى الحضري ، ويقال :

أين الناس؟ فتقول قد بدوا أي خرجوا إلى البدو ، وكانت لهم غنيمات يبدون إليها . وقال الأصمعي : الحضارة والبداوة بالفتح وقال أبو زيد : بالكسر والحضارة الإقامة في الحضر والبداوة الإقامة في البدو وللمتنبي مقايسة بين الحضارة والبداوة جميلة نثبتها فيما يلي :

كم زورة لك في الاعراب خافية أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

قد وافقوا الوحش في سكنى مراتعها وخالفوها بتقويض وتطنيب

يقول في هذا البيت واصفا حياة البدو : انهم يسكنون البدو فهم يجرون مجرى الوحوش في حلولها المراتع إلا أنهم لهم خيام يحطونها وينصبونها في الرحيل وفي الاقامة والوحش لا خيام لها فقد خالفوها في هذا ثم استرسل في وصفه :

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

أين المعيز من الآرام ناظرة وغير ناظرة في الحسن والطيب

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولا برزن من الحمام مائلة أوراكهنّ صقيلات العراقيب

يريد بظباء الفلاة نساء العرب وانهن فصيحات لا يمضغن الكلام ولا يصبغن حواجبهن كعادة نساء الحضر وهو يريد أن حسنهن بغير تطرية ولا تصنع ولا دخول حمام بل هو خلقة فيهن .

(نَزَغَ) : أفسد بيننا وأغرى وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجري يقال نزغه ونسغه إذا نخسه وفي المختار : نزغ الشيطان بينهم أفسد وبابه قطع .

الاعراب :

)

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً) لا بد من تقدير محذوف يمهد لقوله

وذلك انه سألهم عن أبيه فقالوا : ذهبت عيناه فقال اذهبوا بقميصي ، واذهبوا فعل أمر

وفاعل وبقميصي يجوز أن يتعلق باذهبوا فتكون الباء للتعدية ويجوز أن يكون متعلقا

بمحذوف حال أي اذهبوا معكم قميصي وهذا نعت أو بدل أو عطف بيان ، فألقوه الفاء

عاطفة وألقوه فعل وفاعل ومفعول به وعلى وجه أبي متعلقان بألقوه ويأت فعل مضارع

مجزوم لأنه جواب الأمر والفاعل مستتر تقديره هو وبصيرا حال واختار الزمخشري أن يكون

خبرا ليأت على تضمينه معنى يصر بصيرا ويشهد له : فارتد بصيرا . (وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ

أَجْمَعِينَ) وائتوني عطف على اذهبوا وبأهلكم متعلقان بائتوني وأجمعين تأكيد للأهل أي

بنسائكم وأولادكم . (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

لما ظرفية أو رابطة وفصلت العير فعل وفاعل وان

(300/405)

واسمها واللام المزحلقة وجملة أجد خبر إن وريح يوسف مفعول به ولولا حرف امتناع

لوجود وأن وما في حيزها مبتدأ خبره محذوف وحذفت ياء المتكلم من تفندون للتخفيف

ولمراعاة الفواصل أما تقدير الخبر لولا تفنيدكم موجود وجواب لولا محذوف أي

لصدقتموني . (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) التاء تاء القسم والله مجرور بتاء القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم وإن واسمها واللام المزحلقة وفي ضلالك خبر ان والقديم صفة . (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا) لما ظرفية حينية أو رابطة وان زائدة وسيأتي بحث مفيد عنها في باب الفوائد وجاء البشير فعل وفاعل وجملة ألقاه لا محل لها والهاء مفعول به وعلى وجهه متعلقان بألقاه ، فارتد الفاء عاطفة وارتد فعل ماض فاعله هو وبصيرا حال ، أو ارتد فعل ماض ناقص يعمل عمل صار وبصيرا خبرها .

(قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وأقل مضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر تقديره أنا ولكم متعلقان بأقل وان واسمها وجملة أعلم خبرها ومن الله جار ومجرور متعلقان بأعلم وما موصول مفعول به وجملة لا تعلمون صلة . (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) يا أبانا منادى مضاف واستغفر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولنا متعلقان باستغفر وذنوبنا مفعول به وإن واسمها وجملة كنا خاطئين خبر إنا وكان واسمها وخاطئين خبرها . (قَالَ: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) جملة سوف أستغفر مقول القول ولكم متعلقان بأستغفر وربي مفعول به وان واسمها وهو مبتدأ أو ضمير فصل والغفور الرحيم خبران لإن أو لهم والجملة الاسمية خبر ان . (

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) عطف على محذوف تقديره ثم توجهوا إلى مصر وخرج يوسف وحاشيته لاستقبالهم ، ودخلوا فعل وفاعل وعلى

يوسف متعلقان بدخلوا وجملة آوى لا محل لها واليه متعلقان بآوى وأبويه مفعول به والظاهر أن دخولهم عليه كان في مضرب له في ضاحية البلد ولذلك عطف . (وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) وادخلوا مصر فعل وفاعل ومفعول به وإن شرطية وشاء فعل الشرط والجواب محذوف لدلالة الكلام عليه وجملة الشرط اعتراضية بين الحال وصاحبها فآمنين حال من الواو . (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً) ورفع أبويه فعل وفاعل مستتر ومفعول به وعلى العرش متعلقان برفع وخروا فعل وفاعل وله متعلقان بخروا وسجدا حال . (وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ) يا أبت تقدم اعرابها وهذا مبتدأ وتأويل خبر ورؤياي مضاف اليه ومن قبل حال . (قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا) قد حرف تحقيق وجعلها ربي فعل وفاعل وحقا مفعول ثان والجملة حال مقدرة أو مقارنة . (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ) الواو عاطفة وقد حرف تحقيق وأحسن فعل ماض وبي متعلقان بأحسن وأحسن أصله أن يتعدى بإلى وقد يتعدى بالباء كما يقال أساء اليه وبه قال كثير :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لعزة من أعراضنا ما استحلت

قال ابن هشام معناها الغاية أي إليّ وقيل ضمن أحسن معنى لطف فعداه بالباء كما تقول : لطف اللّه بك فالباء حينئذ للالصاق لأن اللطف ملتصق وقائم بالمتكلم والتضمين شائع وهو إشراب الكلمة معنى آخر ، وإذ متعلق بأحسن أيضا وجملة أخرجني مضافة والفاعل مستتر والياء مفعول به ومن السجن جار ومجرور متعلقان بأخرجني .

)

وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) بكم متعلقان بجاء ومن البدو متعلق به أيضا ومن بعد حال وان وما في حيزها مضافة للظرف والشيطان فاعل نزغ وبيني ظرف متعلق بنزغ وبين عطف

على الظرف الأول واخوتي مضاف إلى بين . (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) ان واسمها وخبرها ولما متعلقان بلطيف أي لطيف التدبير لأجله رفيق ، وجملة يشاء صلة وانه ان واسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ والعليم الحكيم خبران لإن أو لهو وقد تقدمت له نظائر . (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَل

الفوائد :

(أَنْ) حرف مصدري ينصب المضارع ويؤول مع ما في حيزه بمصدر يعرب حسب موقعه، وتكون مخففة من أن فتقع بعد فعل اليقين والظن وما شابهه، ومفسرة وهي التي تقع بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه نحو "فأوحينا إليه أن اصنع الفلك" وزائدة للتوكيد كالآية" فلما أن جاء البشير" قال ابن هشام: "ولا معنى لأن الزائدة غير التوكيد كسائر الزوائد" وقال ابن الأثير في المثل السائر: "وأما قوله تعالى" فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه" فإنه إذا نظر في قصة يوسف عليه السلام مع اخوته منذ ألقوه في الجب والى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثم إبطاء بعيد وقد اختلف المفسرون في طول تلك المدة ولو لم يكن ثم مدة بعيدة وأمد متطاول لما جيء بأن بعد لما وقبل الفعل بل كانت تكون الآية: فلما جاء البشير ألقاه على وجهه، وهذه دقئق ورموز لا تؤخذ من النحاة لأنها ليست من شأنهم.

(303/405)

هذا وقد رد الصلاح الصفدي على ابن الأثير فقال: "قلت: هذا من جناية إعجاب المرء بعقله ألا تراه كيف يتصور الخطأ صوابا ثم أخذ يتبجح أنه ظفر بما لم يكن عند النحاة ولو أنه نظر إلى هذه الفاء عقيب ماذا وردت؟ هل هي عقيب قوله تعالى: "فلما ذهبوا به

وأجمعوا على أن يجعلوه في غيابة الجب " والآيات المتعلقة بواقعة إلقائه الجب ، أو وردت عقيب قوله تعالى " اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وائتوني بأهلكم أجمعين ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ، قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيرا " لعلم ابن الأثير أنه لا تراخي يين هذين البعدين ولا مدة مديدة لأن المدة إنما كانت بقدر المسافة التي توجه فيها البشير من مصر إلى أن وصل إلى أرض كنعان وهي مقام يعقوب عليه السلام وقدر مسافة ما يين ذلك اثنا عشر يوما وما حولها ولهذا قال النحاة : إنها هنا زائدة ، ولابن الأثير من هذه الشناعات على النحاة وغيرهم أشياء أجبت عنها في كتابي " .

[سورة يوسف (12) : الآيات 102 إلى 107]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102)
وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ
لِلْعالَمِينَ (104) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ
(105) وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106)
أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (107)

اللغة :

(

حَرَصْتَ) : في المصباح : حرص عليه حرصا من باب ضرب إذا اجتهد والاسم الحرص بالكسر وحرص على الدنيا من باب ضرب وحرص حرصا من باب تعب لغة إذا رغب رغبة مذمومة . وقال علماء اللغة : وحرص على الشيء وهو حريص من قوم حراص وما أحرصك على الدنيا والحرص شؤم ولا حرس اللّه من حرص ، وحرص القصار الثوب شقه وبثوبك حرصة وأصابته حارصة وهي من الشجاج التي شقت الجلد ، وحما محرّص : مكدّح ، وانهلّت الحارصة والحريصة وهي السحابة الشديدة وقع المطر وتحرّص وجه الأرض ،

قال الحويدرة :

ظلم البطاح بها انهلال حريصة فصفا النّطاف بها بعيد المقلع

ورأيت العرب حريصة ، على وقع الحريصة .

(غاشِيَةٌ) : نقمة تغشاهم وقيل ما يغمرهم من العذاب ويجللهم وفي القاموس والتاج الغاشية مؤنث الغاشي والغطاء والجمع غواش والداهية والقيامة وداء في الجوف وغاشية فلان خدمه وزواره .

الاعراب :

)

(305/405)

ذِلكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) ذلك اسم اشارة في محل رفع مبتدأ ومن أنباء الغيب خبره وجملة نوحيه إليك حال ويجوز أن تكون في محل رفع خبرا ثانيا وفي هذه الآية الكريمة دليل لا يقبل الريب على نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلم لأنه كان أميا لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر إلى غير بلده الذي نشأ فيه ومع ذلك أتى بهذه القصة الطويلة مستجمعة شرائط القصة وخصائصها التي ابتدعت ذكرها العصور الحديثة. (وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) الواو عاطفة وكنت كان واسمها ولديهم ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر كنت وإذ ظرف متعلق بما تعلق به الظرف أي بالاستقرار المحذوف وجملة أجمعوا مضافة للظرف والواو للحال وهم مبتدأ وجملة يمكرون خبر والجملة حالية. (وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) الواو عاطفة وما نافية حجازية بذلك زيادة الباء في خبرها وأكثر الناس اسمها والواو اعتراضية ولو شرطية وحرصت فعل وفاعل والجملة معترضة بين ما الحجازية وخبرها وسيأتي في باب الفوائد بحث مسهب عن الجملة

الاعتراضية والباء حرف جر زائد ومؤمنين مجرور بالباء لفظا

في محل نصب خبر لما وجواب لو محذوف أي لم يؤمنوا .

)

(306/405)

وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ) الواو عاطفة وما نافية وتسألهم فعل مضارع وفاعل مستتر والهاء مفعول به وعليه حال لأنه كان في الأصل صفة لأجر والضمير يعود على القرآن ومن حرف زائد وأجر مجرور بمن لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به وإن نافية وهو مبتدأ وإلا أداة حصر وذكر خبر هو وللعالمين صفة لذكر . (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) تقدم القول مسهبا في كأين وكم الخبريتين ، وهي في محل رفع مبتدأ ومن آية تمييز مجرور بمن وفي السموات والأرض صفة لآية . (يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ) جملة يمرون خبرا لمبتدأ وهو كأين وعليها متعلقان بيمرون ، وهم : الواو حالية وهم مبتدأ وعنها متعلقان بمعرضون ومعرضون خبرهم والجملة الاسمية حالية ويجوز أن يكون في السموات والأرض خبرا لكأين وجملة يمرون صفة لآية (وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) الواو عاطفة وما نافية ويؤمن أكثرهم فعل مضارع وفاعل وبالله متعلقان بيؤمن

وإلا أداة حصر والواو حالية وهم مبتدأ ومشركون خبر والجملة نصب على الحال (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ) الهمزة للاستفهام الانكاري وفيه معنى التوبيخ والتهديد والفاء عاطفة وأمنوا فعل وفاعل، وأن تأتيهم المصدر المؤول مفعول أمنوا والهاء مفعول تأتي وغاشية فاعل تأتي ومن عذاب اللّه صفة لغاشية (أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) أو تأتيهم عطف على تأتيهم السابقة والساعة فاعل تأتيهم وبغتة حال والواو حالية وهم مبتدأ وجملة لا يشعرون خبر والجملة نصب على الحال.

البلاغة:

1- في قوله " وما كنت لديهم " الآية فن يسمى في علم البيان بالاحتجاج النظري وبعضهم يسميه المذهب الكلامي وهو أن يلزم

الخصم ما هو لازم لهذا الاحتجاج وقد تقدم بحثه وفيه تهكم مرير بهم لأنه قد علم كل أحد أن محمدا صلى اللّه عليه وسلم ما كان معهم فإذا أخبر به وقصه هذا القصص البديع لم تقع شبهة في أنه ليس منه.

2- في قوله تعالى " وما أكثر الناس، ولو حرصت، بمؤمنين " فن الاعتراض وقد تقدم ذكره

وتحديده ونزيد هنا ما يتعلق ببحث بلاغي طريف وهو أن الاعتراض ينقسم إلى قسمين أحدهما لا يأتي في الكلام إلا لفائدة وهو جار مجرى التوكيد والآخر أن يأتي في الكلام لغير فائدة فإما أن يكون دخوله فيه كخروجه منه وإما أن يؤثر في تأليفه نقصا وفي معناه فسادا فالقسم الأول كهذه الآية ، وفائدة الاعتراض من وجهين أولهما تصوير حرصه صلى اللّه عليه وسلم على ايمان قومه وهدايتهم وتهالكه على ردعهم عن غيهم وحرفهم عن مظان الخطأ ومواطن الضلال واستهدافه للأذى في سبيل هذا الحرص مع علمه بعدم جدوى ذلك واستحالة إقلاعهم عما هم فيه ، وثاني الوجهين تصوير لجاجتهم ، وجحود عقليتهم وإصرارهم على الغي الذي هم فيه شارعون وبه آخذون وعنادهم ومكابرتهم فيما لا تجدي معه الحجج والبراهين الثابتة المنيرة والقرآن الكريم حافل بهذا القسم وسيرد عليك في مواضعه إن شاء اللّه ، وقد أوردنا طائفة من الشعر الجيد الذي زاده الاعتراض رقة وحلاوة وما أجمل قول ابن المعذب السعدي :

فلو سألت سراة الحي سلمى على أن قد تلوّن بي زماني

لخبرها ذو وأحساب قومي وأعدائي فكلّ قد بلاني

وهذا اعتراض بين لو وجوابها وهو من فائق الاعتراض ونادره وتقديره فلو سألت سراة الحي سلمى لخبرها ذو وأحساب قومي وأعدائي وفائدة قوله : " على أن قد تلوّن بي زماني " أي أنهم يخبرون عني على تلون الزمان بي يريد تنقل حالاته من خير وشر وليس

من عجمه على الزمان وأبان عن جوهره كغيره ممن لم يعجمه ولم يبن عنه .

أما القسم الثاني وهو الذي يأتي في الكلام لغير فائدة فهو ضربان :

الأول : يكون دخوله في الكلام كخروجه منه لا يكتسب به حسنا ولا قبحا فمن ذلك قول النابغة الذبياني يرثي النعمان بن المنذر :

يقول رجال يجهلون خليقتي لعل زيادا - لا أبا لك - غافل

فقوله : لا أبا لك من الاعتراض الذي لا فائدة فيه إلا إقامة الوزن وليس مؤثرا فيه حسنا ولا قبحا ، ومثله قول زهير بن أبي سلمى :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا ، لا أبا لك ، يسأم

والثاني : وهو الذي يؤثر في الكلام نقصا وفي المعنى فادا وسنورد أمثلة منه ليتفاداها العاقل فمن ذلك قول بعضهم :

فقد ، والشك : بيّن لي ، عناء بوشك فراقهم صرد يصيح

فإنه قدم " بوشك فراقهم " وهو معمول " يصيح " ويصيح صفة لصرد وذلك قبيح ، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال هذا من موضع كذا رجل ورد اليوم وانما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز

وقوع العامل فكما لا يجوز تقديم الصفة على موصوفها فكذلك لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها وفيه بعد ذلك من رديء الاعتراض الفصل بين " قد " والفعل الذي هو بيّن وذلك قبيح جدا لقوة اتصال

" قد " بما تدخل عليه من الأفعال حتى انهم يعدونها بمثابة الجزء من الفعل ولذلك أدخلت عليه لام القسم المراد بها توكيد الفعل كقوله تعالى :

"

ولقد علموا لمن اشتراه " هذا وفي البيت عيب ثالث وهو الفصل بين المبتدأ الذي هو الشك وبين الخبر الذي هو عناء بقوله " بين لي " وعيب رابع وهو الفصل بين الفعل الذي هو بيّن وبين فاعله الذي هو صرد بخبر المبتدأ الذي هو عناء فجاء معنى البيت ، كما تراه ، كأنه صورة مشوهة قد نقلت أعضاؤها بعضها إلى مكان بعض .

ومن هذا الضرب قول الآخر :

نظرت وشخصي مطلع الشمس ظله إلى الغرب حتى ظله الشمس قد عقل

أراد نظرت مطلع الشمس وشخصي ظله إلى الغروب حتى عقل الشمس أي حاذاها

وعلى هذا التقدير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدأ الذي هو شخصي وبين خبره الجملة

وهو قوله " ظله إلى الغرب " وأغلظ من ذلك وأسمج أنه فصل بين الفعل وفاعله بأجبني

وهذا مما يبدو السكوت خيرا منه .

وحيث تكلمنا على الاعتراض من الناحية البلاغة الفنية فلا ندحة لنا عن أن نتناوله من

ناحيته النحوية فقد قرر النحاة أنه يقع في مواضع :

1- بين الفاعل ومرفوعه كقول بعضهم :

شجاك أظن ربع الظاعنينا ولم تعبأ بعذل العاذلينا

فشجاك فعل ماض وفاعله ربع الظاعنينا وفصل بينهما بجملة أظن وقد أفادت هذه الجملة

المعترضة التقوية لأنه حين يقال شجاك ربع

الظاعنين يحتمل أن ذلك مظنون أو متوهم فأخبر أنه مظنون على أنه يحتمل في هذا البيت

نصب ربع على أنه مفعول أول لأظن وجملة شجاك مفعوله الثاني وتقديره أظن ربع

الظاعنينا شجاك .

2- بين الفعل ومفعوله المنصوب كقول الشاعر :

وبدلت ، والدهر ذو تبدل ، هيفا دبورا بالصبا والشمأل

فبدلت فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل يعود على الريح والدهر ذو تبدل معترضة

وهيفا مفعول بدلت أي ريحا هيفا ومعناها حارة وبالصبا داخلة على المتروك كما هي القاعدة في الباء التي تقع بعد بدل والصبا الريح التي تهب من المشرق . عند استواء الليل والنهار والشمأل هي الريح التي تأتي من ناحية القطب .

3- بين المبتدأ وخبره كقوله :

وفيهن ، والأيام يعثرن بالفتى نوادب لا يمللنه ونوائح

فقد فصل بين فيهن وهو خبر مقدم ونوادب وهو مبتدأ مؤخر بجملة والأيام يعثرن بالفتى .

4- وبين ما أصله المبتدأ والخبر كقول عوف بن محلم :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فقوله وبلغتها جملة دعائية اعترضت بين اسم ان وخبرها وأصلهما مبتدأ وخبر .

(310/405)

5- بين الشرط وجوابه كقوله تعالى " فإن لم تفعلوا . ولن تفعلوا ، فاتقوا النار " وقد تقدم اعرابها .

6- بين القسم وجوابه كقول النابغة :

لعمري وما عمري عليّ بهين لقد نطقت بطلا عليّ الأقارع

فقد اعترض بجملة وما عمري علي بهين بين القسم وجوابه.

7- بين الموصوف وصفته كقوله تعالى " وانه لقسم لو تعلمون عظيم " فقد اعترض بجملة لو تعلمون بين الموصوف وهو قسم وصفته وهو عظيم.

8- بين الموصول وصلته كقول الشاعر:

واني لرام نظرة قبل التي لعلي وإن شطت نواها أزورها

فاعترض بين التي وصلتها وهي أزورها بلعلي وخبر لعل محذوف أي لعلي أفعل ذلك.

9- بين حرف التنفيس والفعل كقول زهير:

وما أدري وسوف أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وهذا الاعتراض في أثناء اعتراض آخر فإن سوف وما بعدها اعتراض بين أدري وجملة الاستفهام.

10- بين حرف النفي ومنفيه كقوله:

فلا وأبي دهماء زالت عزيزة على قومها ما دام للزند قادح

وهناك مواضع أخرى ضربنا عنها صفحا لندرة وقوعها ويمكن الرجوع إليها في المطولات.

[سورة يوسف (12) : الآيات 108 إلى 111]

قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (109) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)

اللغة:

(سَبِيلِي): السبيل الطريق أو ما وضح منها يذكر ويؤنث والجمع سبل وسبل وأسبل وأسبلة وسبول، وابن السبيل: المسافر،

وسبيل اللّه الجهاد وطلب العلم والحج وكل ما أمر اللّه به من الخير ويقال: ليس لك عليّ سبيل أي حجة تعتّل بها وليس عليّ في كذا سبيل أي حرج ويقول المولّدون: ما على المحسن سبيل أي معارضة وسبيلنا أن نفعل كذا أي نحن جديرون بفعله.

الاعراب:

(

قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) هذه مبتدأ وسبيلي خبر وجملة أدعو اللّه تفسير للسبيل والى اللّه متعلقان بأدعو ويجوز أن تكون الجملة حالية من الياء والأول أولى وعلى بصيرة متعلقان بأدعو أو بمحذوف حال من فاعل أدعو وأنا تأكيد لفاعل أدعو المستتر ومن اتبعني عطف على فاعل أدعو المستتر ويجوز أن يكون من مبتدأ وخبره محذوف أي ومن اتبعني يدعو أيضا ويجوز أن يكون أنا مبتدأ مؤخرا وعلى بصيرة خبرا مقدما ومن اتبعني عطفا على أنا . (وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وسبحان مفعول مطلق لفعل محذوف أي وأسبح سبحان اللّه وما الواو حرف عطف وما نافية حجازية وأنا اسمها ومن المشركين خبرها . (وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى) ما نافية أرسلنا فعل وفاعل ومن قبلك حال وإلا أداة حصر ورجالا مفعول به وجملة نوحي إليهم صفة ومن أهل القرى صفة ثانية لرجالا . (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة على محذوف وقد تقدم تقريره ولم حرف نفي وقلب وجزم ويسيروا فعل مضارع مجزوم بلم وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بيسيروا . (فَيَنْظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الفاء عاطفة أو سببية وينظروا فعل مضارع إما مجزوم نسقا على يسيروا أو منصوب

(313/405)

بأن مضمرة في جواب النفي وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان مقدما وعاقبة اسم كان والذين مضاف لعاقبة ومن قبلهم متعلقان بمحذوف صلة الموصول. (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) الواو حالية واللام لام الابتداء ودار مبتدأ والآخرة مضاف إليه من إضافة الشيء إلى نفسه لأن المراد بالدار الجنة وهي نفس الآخرة واختار الزمخشري والبيضاوي ان يكون التقدير ولدار الساعة الآخرة أو الحال الآخرة فليس في الكلام على ذلك اضافة الشيء إلى نفسه.

وخير خبر دار وللذين متعلقان بخير وجملة اتقوا صلة، أفلا تعقلون تقدم إعرابه.

)

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا) حتى حرف غاية وهي متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام كأنه قيل وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا فتراخى نصرهم حتى إذا استيئسوا من النصر ولا يلزم أن يكون اللّه وعدهم بالنصر في الدنيا بل كانوا يظنون ذلك

ويرجونه لا عن اخبار ووحي وهذا خير ما قيل في هذه الآية التي اضطربت فيها أقوال العلماء والمفسرين والمعربين فيها اضطرابا شديدا وسياق الآية يرشد اليه وظنوا عطف على استيئسوا وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي ظنوا وكذبوا بالبناء للمجهول أي ظنت الأمم أن الرسل أخلفوا ما وعدوا به من النصر وجملة كذبوا خبر أنهم. (جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ) جملة جاءهم لا محل لها لأنهم جواب إذا وجاءهم نصرنا فعل ومفعول به وفاعل والفاء عاطفة ونجي بالبناء للمجهول عطف على جاءهم ومن نائب فاعل ونشاء صلة. (وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) الواو عاطفة ولا نافية ويرد بالبناء للمجهول وبأسنا نائب فاعل وعن القوم متعلقان بيرد والمجرمين صفة. (لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ) اللام جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق وفي قصصهم خبر مقدم وعبرة مبتدأ مؤخر ولأولي صفة لعبرة والألباب مضاف اليه

(314/405)

وسيرد في باب البلاغة مغزى هذه العبرة. (ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى) ما نافية وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر يعود على القرآن وحديثا خبرها وجملة يفترى صفة لحديثا.

(وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) الواو حرف

عطف ولكن مخففة مهملة وتصديق عطف على حديثا وهو أولى من تقدير كان ، وقد تقدم مثل هذا في سورة يونس ، والذي مضاف اليه والظرف صلة وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة معطوفان على تصديق ولقوم صفة وجملة يؤمنون صفة لقوم .

البلاغة :

في سورة يوسف نفحة من القصص الرائع الذي استوفي شرائط القصة كما انتهت اليه أبحاث النقاد في العصر الحديث مما يؤخذ من مظانه الكثيرة وقد امتازت هذه القصة على تسلسل حوادثها وكثرة فنونها ، وتنوع فصولها بالايجاز وقد ألمعنا اليه فيما تقدم ونزيده بسطا هنا فنقول :

1- تقسيم الإيجاز :

يأتي الإيجاز على قسمين :

1- قسم طويل ، 2- وقسم قصير .

والطويل : طوله بالنسبة للقصير منه لا لغيره من الكلام كما جاءت قصص القرآن كلها وأحسن ما جاء منها في هذا الباب قصة يوسف فإنها جاءت على الطريقتين في سورة واحدة من قوله : " نحن نقص

عليك أحسن القصص " إلى قوله : " وخروا له سجدا " وجاءت على الطريقة المختصرة في قوله على لسان يوسف : " يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي " فذكر تعالى القصة أولا على طريق البسط مفصلة لمن لم يشارك في طريق علمها وذكرها تعالى أخيرا مختصرة ليعلمها مفصلة من لم يكن يعلمها حتى إذا جاءت مجملة علم الإشارات فيها وابتدأها بقوله " نحن نقص عليك أحسن القصص " ثم أنهاها بقوله " لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب " ووجه الاعتبار بقصصهم هو أن هذه القصص انما سجلت لحصول العبرة منها ومعرفة الحكمة والمغزى .

2- اختلاف صيغة اللفظة :

وفي قوله تعالى " لأولي الألباب " فن يطلق عليه القدامى الاسم الآنف الذكر وهو من البيان بمثابة القلب من الإنسان وهو يدق إلا على من صفت قرائحهم واستغزرت ملكة الفصاحة فيهم ونعني باختلاف صيغة اللفظة نقلها من هيئة إلى هيئة كنقلها من وزن إلى وزن آخر أو نقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل أو بالعكس أو كنقلها من الماضي إلى المستقبل أو بالعكس أو من الواحد إلى التثنية أو الجمع أو إلى النسب إلى غير ذلك انتقل قبحها فصار حسنا وحسنها فصار قبحا وسنورد أمثلة مترتبة على نسق الترتيب الذي أوردناه فمن

نقل اللفظة من صيغة إلى أخرى لفظة " خود " عبارة عن المرأة الناعمة وإذا نقلت إلى صيغة الفعل قيل خوّد على وزن فعّل ومعناها أسرع يقال : خوّد البعير إذا أسرع فهي على صيغة الاسم حسنة رائعة وإذا جاءت على صيغة الفعل

لم تكن مستحسنة كقول أبي تمام من قصيدة له يمدح فيها أحمد ابن عبد الكريم :

وإلى بني عبد الكريم تواهقت رتك النعام رأى الظلام فخودا

فهي ثقيلة سمجة كما ترى على أن ثقلها وسماجتها يخفان عند ما تنقل من الحقيقة إلى المجاز كقول رجل من بني أسد :

أقول لنفسي حين خود رألها رويدك لما تشفقي حين مشفق

رويدك حتى تنظري عمّ ينجلي غيابة هذا البارق المتألق

والرأل النعام والمراد به هاهنا أن نفسه فرت وفزعت وشبه ذلك باسراع النعام في فراره وفزعه ولما أورده على حكم المجاز خف عنه بعض القبح الذي على لفظة خوّد وهذا يدرك بالذوق السليم ولا ضابط له ولا يخفى ما بين هذه اللفظة في إيرادها هاهنا وإيرادها في بيت أبي تمام فانها وردت في بيت أبي تمام قبيحة سجة ووردت هنا متوسطة أما نقل

الفعل من صيغة إلى صيغة فمثاله لفظة " ودع " وهي فعل ماض ثلاثي لا ثقل بها وليست حروفها متنافرة ومع ذلك أحجم العرب عن استعمالها بصيغة الماضي لسماجتها فاذا نقلت إلى المستقبل أو الأمر كانت حسنة فصيحة ، أما الأمر فكقوله تعالى " فذرهم يخوضوا ويلعبوا " ولم تأت في القرآن إلا كذلك وأما نقلها إلى صيغة المستقبل فكقول أبي الطيب المتنبي :

تشقّكم بقناها كل سلهبة والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع

فهي هنا غاية في الفصاحة ولهذا أمات العرب ماضي يدع ويذر وقد استسمجوا قول أبي العتاهية مع حسن معناه :

أثروا فلم يدخلوا قبورهم شيئًا من الثروة التي جمعوا

وكان ما قدموا لأنفسهم أعظم نفعا من الذي ودعوا

أما النقل من الإفراد إلى التثنية والجمع فمثاله الآية التي نحن بصددها وذلك ان لفظة " اللب " الذي هو العقل لا لفظة اللب الذي تحت القشر فانها لا تحسن في الاستعمال الا مجموعة وكذلك وردت هنا وفي أكثر من موضع من القرآن الكريم وقد تستعمل مفردة ولكن شريطة أن تكون مضافة أو مضافا إليها فأما كونها مضافة فكقول النبي صلى اللّه عليه وسلم في ذكر النساء : " ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الحازم من إحداكن يا معشر النساء " واما كونها مضافا إليها فكقول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

(317/405)

و هذا أمر يكاد يذهل المبين ، اسمع إلى كلمة الصوف وهي مفردة تجدها سمجة في الاستعمال وقد استعملها أبو تمام فجاءت غثة وزاد في غثاثتها انها جاءت مجازية في نسبتها إلى الزمان حيث يقول :

كانوا برود زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

ولكنها وردت في القرآن . الكريم مجموعة فاذا هي مرقصة مطربة قال تعالى " وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم

ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين " .

ولم يمنع العرب جمع المصادر إلا لهذا السبب والمدار في ذلك على الذوق السليم والجرس الموسيقي الذي لا يكتنه حسنه ولا يوصف وقد استعمل عنترة المصدر مجموعا فجاء سمجا مرذولا قال :

فإن يبرأ فلم أنفث عليه وإن يفقد فحق له الفقود

فقوله الفقود جمع مصدر من قولك فقد يفقد فقدا ، واستعمال مثل هذه اللفظة غير سائغ وهذا كله مرده الذوق السليم ويرحم الله فولتير القائل " ذوقك أستاذك " .

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه المرحلة من التحليل الأدبي فلا بد لنا من أن نشير إلى كتاب رائع هو " معاني القرآن للفراء " ومنهج الكتاب يقوم على الأمور التالية :

ينهج الكتاب نهجا مبتكرا فهو يتعرض لآيات كل سورة بالترتيب فلا يقتصر على الغريب بل يتجاوزه إلى إيضاح الجانب النحوي والاعراب في الآية وينتهي إلى النظرية العامة فيبين قواعدها وأصولها وأدلتها وأسبابها ومسبباتها ثم يتكلم عن التشبيه والمثل والكناية والمجاز بصورة عامة ثم يتناول الاستعارة أحد قسمي المجاز والالتفات ، على أن الجديد كل الجدة في كتاب الفراء انه لاحظ النسق الصوتي ، والترابط بين الكلمات وانسجام النغم وتوافق الفواصل في آخر الآيات فيجيز حذف أواخر الكلمات موافقة لرؤوس الآيات مع موافقة ذلك لكلام العرب مثل قوله عز وجل : " والليل إذا يسر " وقد قرأ القراء يسري بإثبات

الياء ويسر بحذفها وحذفها أحب إليّ لمشاكلتها لرؤوس الآيات والعرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها أنشدني :

كفاك كف ما تليق درهما جودا وأخرى تعط بالسيف الدما

وأنشدني الآخر :

ليس يخفي يسارتي قدر يوم ولقد يخف شيمتي إعساري

وقوله " بطغواها " أراد بطغيانها إلا أن الطغوى أشكل برؤوس الآيات فاختير لذلك ، ألا ترى أنه قال : " وآخر دعواهم أن الحمد لله " ومعناه آخر دعائهم وكذلك " دعواهم فيها سبحانك اللهم " دعواهم فيها هذا ، " وما قلى " يريد ما قلاك فألقيت الكاف كما تقول : قد أعطيتك وأحسنت ، معناه وأحسنت إليك فيكتفى بالياء الاولى من إعادة الأخرى ولأن رؤوس الآيات بالياء فاجتمع ذلك فيه " إلى أن يقول الفراء : للّه وقوله عز وجل فأغنى فآوى يريد به فأغناك وآواك جرى على طرح الياء لمشاكلة رؤوس الآيات " .

ويجيز الفراء في كتابه الممتع " معاني القرآن " إضافة المصدر إلى صاحبه مثل ما في قوله تعالى " إذا زلزلت الأرض زلزالها " قال :

" فأضيف المصدر إلى صاحبه وأنت قائل في الكلام : لأعطينك عطيتك وأنت تريد عطية وكان قربه من الجواز موافقة رءوس الآيات التي جاء بعدها " .

وعلى هذا النحو وضع الفراء أمامنا قواعد عامة للتغييرات التي يمكن أن تطرا على

الكلمات والتي قد يعمد إليها القرآن أحيانا للتوافق الموسيقي في نظمه ، وصلة تلك التغييرات بما يطرأ على القافية في الشعر لإقامة الوزن ولا يفتأ الفراء يشير إلى أن القرآن في عدوله عن لفظ إلى آخر أو تعديله الألفاظ لا يخرج عن أساليب العرب وفنون القول عندهم ، وخاصة في الشعر وهو الكلام الموزون الذي يشابه ما في نظمه من توافق وانسجام ما يراعيه أسلوب القرآن ، هذا وسيرد من كتاب الفراء في مواضع متفرقة من هذا الكتاب ما تميز به هذا السفر الجليل في مواضع متعددة من البيان .

(319/405)

ويرى الجاحظ في كتابه " نظم القرآن " الذي ألفه للفتح بن خاقان وزير المتوكل على اللّه الذي لم يطبع – مع الأسف – بل فقد مع ما فقد من الكتب في محنة بغداد التي أوقعها بها هولاكو ولم تقع إلا نبذ منه مبثوثة في كتب الجاحظ المطبوعة الأخرى ، يرى أن التنزيل قد أولى اللفظ عناية خاصة فاختاره بدقة ليدل على المعاني بدقة وقد يشترك لفظان في المعنى لكن أحدهما أدق من الآخر في الدلالة عليه ، ولنظم القرآن براعته في تنزيل اللفظ منزلته في الموضع الذي أريد له ويمتاز بروعته أيضا في الاختيار ومراعاة الفروق بين الألفاظ فلا يأتي بالألفاظ المترادفة دالا على معنى واحد إنما للدلالة على معان مختلفة وبقدر الدقة في

إصابة المعنى يكون الفرق بين ألفاظ الناس في كلامهم وألفاظ القرآن ويقول في هذا الصدد :

" وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ألا ترى أن اللّه تعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة وكذلك

ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في مواضع الانتقام والأمة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث ولفظ القرآن الذي عليه نزل انه إذا ذكر الابصار لم يقل الاسماع وإذا ذكر سبع سموات لم يقل أرضين ألا ترى أنه لا تجمع الأرض على أرضين ولا السمع اسماعا ، والجاري على أفواه العامة غير ذلك لا يتفقدون من الألفاظ إلا ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال وقد زعم بعض القراء انه لم يرد ذكر النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج

" .

وتعرض الجاحظ لما جرى عليه نظم القرآن من نغم وموسيقى ووزن خاص رتيب مكون من وحدات مترابطة منسجمة ، وكم كنا نتمنى لو بقي هذا الكتاب لنستمتع بما فيه من أبحاث ولكننا سنحاول جمع ما تفرق منه في هذا الكتاب فقد تصدى لوزن القرآن وتكلم كثيرا

لينفي عنه وزن الشعر يقول في هذا الصدد " ويدخل على من طعن في قوله تعالى " تبت يدا أبي لهب وتب " وزعم انه شعر لأنه في تقدير مستفعلن مفاعلن فيقال له : اعلم انك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيرا ومستفعلن فاعلن وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا ولو أن رجلا من الباعة صاح : من يشتري باذنجان ؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات وكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر ؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام وإذا جاء المقدار الذي يعلم انه من نتاج الشعر والمعرفة بالاوزان والقصد إليها كان ذلك شعرا وهذا قريب والجواب فيه سهل والحمد لله " .

ويرى ابن قتيبة في كتابه " مشكل القرآن " ان النغم الموسيقي والنظم والتوقيع الداخلي في الآيات هي احدى الخصائص التي يقوم

عليها إعجاز القرآن فهو حلو النغم ، رتيب الوقع ، حبيب الجرس إلى النفوس لا تمله الآذان لما ينساب في عباراته وخلال لفظه من الموسيقى الخافتة ولا تتعثر فيه الألسنة لسلاستها وفي هذا الصدد يقول ابن قتيبة :

" وجعله متلوا على طول التلاوة ومسموعا لا تمجه الآذان ، وغضا لا يخلق على كثرة الرد "

.

ونختم هذا المبحث ، على أن نعود اليه في مكان آخر بكلمة وردت في القرآن جميلة جدا

ووردت في الشعر فكانت باردة وهي كلمة يؤذي فقد قال أبو الطيب :

تلذ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذ له الغرام

و هذا البيت جميل شريف المعنى إلا أن لفظة يؤذي قد جاءت فيه غثة باردة بينما وردت في القرآن بالغة الروعة بادية الكمال وذلك في قوله تعالى : " فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق " ويبدو لنا أنها وردت في بيت أبي الطيب منقطعة ، ألا ترى أنه قال : " تلذ له المروءة وهي تؤذي " ثم قال : " ومن يعشق يلذ له الغرام " فجاء بكلام مستأنف وهذا باب طويل المدار في سبر غوره واكتناه حسنه على الذوق السليم والطبع الرهيف .

هذا ولا مندوحة عن الاشارة إلى أن أكثر القصص التي وردت في القرآن الكريم من قصص الأنبياء في جهادهم لتبليغ رسالتهم ونشر دعوتهم ومقاومة خصومهم من ذوي السلطان الذين أنكروهم وحالوا بينهم وبين هداية أقوامهم .

وإذا روجعت قصص القرآن الكريم مراجعة دقيقة تبيّن للناظر في مضامينها ان عبرتها الأولى دروس ينتفع بها الهداة ودعاة الإصلاح إذ كان من فرائض الإسلام الاجتماعية أن

يندب من الأمة طائفة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

من تلك الدروس أن الجهلاء ينقادون للأمر والسطوة ولا ينقادون للحجة والدليل ويريدون من صاحب الدعوة كما جاء في قصة نوح أن يكون ملكا أو تكون عنده خزائن اللّه ويقولون له : " قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين " .

ومن تلك الدروس أن أصحاب السادة في الأمة يكرهون التغيير ويتشبثون بالقديم ، ويأخذون على النبي أن يتبعه أناس من غير ذوي السيادة والجاه " وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادئ الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كذبين " .

ومن تلك الدروس أن الجمود على التقاليد الموروثة أكبر آفات العقل البشري لأنها تعطل تفكيره وتتركه في حكم الآلة التي تسير على نهج واحد في آثار الآباء والأجداد مع اختلاف الزمن وتبدل الأحوال .

على أن في القرآن الكريم قصصا شتى من غير قصص الدعوة أو قصص الجهاد في تبليغ الرسالة ولكنها تراد كذلك لعبرتها ولا تراد لأخبارها التاريخية ، ومنها قصة يوسف التي نحن بصددها فهي قصة إنسان قد تمرس من طفولته بآفات الطبائع البشرية من حسد

الأخوة إلى غواية المرأة إلى ظلم السجن إلى تكاليف الولاية وتدبير المصالح في إبان الشدة والمجاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 5 صـ 11. 79 ﴾

(323/405)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/406)

الجزء السادس بعد الأربعمائة

(سورة الرعد)

(4/406)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الرعد)

(5/406)

" فصل "

قال الخازن :

سورة الرعد .

قال الجوزي : (1)

اختلفوا في نزولها على قولين : أحدهما أنها مكية رواه أبو طلحة عن ابن عباس وبه قال الحسن وسعيد بن حجير وعطاء وقتادة .

وروى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية إلا آيتين إحداهما قوله ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة والأخرى قوله " ويقول الذين كفروا لست مرسلا " والقول الثاني أنها مدنية رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس وبه قال جابر بن زيد وروى عن ابن عباس أنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة وهما قوله " ولو أن قرآنا سيرت به الجبال " إلى آخر الآيتين وقال بعضهم المدني منها قوله " وهو الذي يريكم البرق إلى قوله دعوة الحق " وهي ثلاث وقيل خمس وأربعون آية وثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 2 ﴾

---

(1) ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ 299 ﴾

" فصل فى فضل السّورة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

يذكر فيه من الأَحاديث السّاقطة حديث أُبىّ : مَن قرأَ سورة الرّعد أُعطى من الأَجر عشرَ حسنات ، بوزن كلِ سّحاب مضى ، وكلِ سّحاب يكون ، إِلى يوم القيامة ، ودرجاتٍ فى جنات عَدْن ، وكان يوم القيامة فى أَولاده ، وذرّيّته ، وأَضهل بيته من المسلمين .

وعن جعفر الصادق : من قرأَها لم تصبه صاعقةٌ أَبدا ، ودخل الجنة بلا حساب ،

وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَ سورة الرّعد كُتب له بكل قطرة تمطر فى تلك السنة ثمانون حسنة ، وأَربع وثمانون درجة ، وله بكل آية قرأَها مثل ثواب مَنْ يموت فى طلب العلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 267 ﴾

(7/406)

فصل فى مقصود السورة الكريمة

قال البقاعى :

سورة الرعد

مقصودها وصف الكتاب بأنه الحق في نفسه ، وتارة يتأثر عنه مع أن له صوتا وصيتا وإرعابا وإرهابا يهدي بالفعل ، وتارة لا يتأثر بل يكون سببا للضلال والعمى ، وأنسب ما فيها لهذا المقصد الرعد فإنه مع كونه حقا في نفسه يسمعه الأعمى والبصير والبارز

والمستتر، وتارة يتأثر عنه البرق والمطر وتارة لا، وإذا نزل المطر فتارة ينفع إذا أصاب الأراضي الطيبة وسلمت من عاهة، وتارة يخيب إذا نزل على السباخ الخوارة وتارة يضر لإغراق أو الصواعق أو البرد وغيرها - والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 117﴾

(8/406)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

(بصيرة فى.. المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل اليك)

السّورة مكّيّة.

وعدد آياتها سبع وأَربعون عند الشاميّين، وثلاث عند الكوفيّين، وأَربع عند الحجازيّين، وخمس عند البصريّين.

وكلماتها ثمان مائة وخمس وستون.

وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وستّة أَحرف.

والآيات المختلف فيها خمس: (جديد، والنور، البصير، وسُوءُ الحساب، من كل باب)

وفواصل آياتها يجمعها قولك (نقر دِعْبل) منها على العين آية واحدة ﴿إِلاَّ مَتَاعَ﴾ وما على النون فقبل النون واوٌ ، وسائر الآيات الَّتى على الباءِ فقبلها أَلف ؛ نحو مآب ، متاب ، سوى (القلوب) ؛ فقبلها واوٌ.

وتسمّى سورة الرّعد ؛ لقوله فيها : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ .

مقصود السّورة : بيان حُجّة التوحيد فى تخليق السّموات والأَرض ، واستخراج الأَنهار والأَشجاز والثمار ، وتهديدُ الكفَّار ، ووعيدُهم ، وذكر تخليق الأَولاد فى أَرحام الأُمهات ، على تباين الدّرجات ، ومع النقصان والزِّيادات ، فى الأَيّام والسّاعات ، واطِّلاع الحقِّ تعالى على بواطن الأَسرار ، وضمائر الأَخيار والأَشْرار ، وذكر السّحاب ، والرّعد ، والبرق ، والصّواعق ، والانتظار .

والرّدّ على عبادة الأَصنام ، وقصّة نزول القرآن من السّماءِ ، والوفاءُ بالعهد ، ونقض المِيثاق ، ودخول الملائكة بالتسليم على أَهل الجنان ، وأُنْس أَهل الإِيمان ، بذكر الرّحمة ، وبيان تأْثير القرآن ، فى الآثار والأَعيان ، وكون عاقبة أَهل الإِيمان إِلى الجَنان ، ومقرّ مرجع الكفَّار إِلى النّيِران ، والمحو والإِثبات فى اللَّوح بحسب مَشيئة الديّان ، وتقدير الحقِّ فى أَطراف الأَرض بالزِّيادة والنقصان ، وتقرير نبوّة المصطفى بنزول الكتاب ، وبيان القرآن فى قوله :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ إلى آخر السّورة.

النّاسخ والمنسوخ:

(9/406)

فى السّورة آيتان ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ م آية السّيف ن ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ م ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ن وقيل: هى محكمة. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 262.264 ﴾

(10/406)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة:

سورة الرعد

294 - مسألة:

قوله تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وفى النحل: (مَا فِي السَّمَاوَاتِ) ؟

.

جوابه :

أنه حيث أريد بالسجود الخضوع والانقياد جئ ب (ما) لأنها عامة فيمن يعقل ومن لا يعقل ، كآية النحل فيمن يعقل ومن لا يعقل .

وخص من يعقل هنا لتقدم قوله : (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ) وقبله : (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ) الآيات ، فناسب : (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

ولما تقدم في النحل : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) وهو عام في كل ذي ظل غلب ما لا يعقل لأنه

أكثر ، وكذلك في سجدة الحج وعطف ما لا يعقل

على ما يعقل .

215 - مسألة :

قوله تعالى : (لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

قدم النفع لأن النفس ترتاح إليه ولا تسأمه ، فقدمه لقوله : (لِأَنْفُسِهِمْ) ؟ .

جوابه :

لما قال : (قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) والولى دأبه نفع وليه مطلقا أصابه ضراء أو لم يصبه

، وسواء قدر على دفع الضر أو لا ، فناسب تقديم النفع على الضر بخلاف آية الفرقان كما سيأتي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 219.217 ﴾

(11/406)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، وفى لقمان : ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾ لا ثانى له ، لأَنك تقول فى الزّمان : جَرَى ليوم كذا ، وإِلى يوم كذا ، والأَكثر اللام ؛ كما فى هذه السّورة ، وسورة الملائكة .

وكذلك فى يس ﴿ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَهَا ﴾ ؛ لأَنَّه بمنزلة التَّاريخ ؛ تقول : كتبت لثلاث بَقِين من الشهر ، وآتِيك لخمس تبقى من الشَّهر .

وأَما فى لقمان فوافق ما قبلها ، وهو قوله : ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ ﴾ ، والقياس : لله ؛ كما فى قوله : ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ ﴾ لكنّه حُمل على المعنى ، أَى يقصد بطاعته إِلى الله ، كذلك : يجرى إِلى أَجل مسمّى ، أَى يجرى إِلى وقته المسمّى له .

قوله : ﴿إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وبعدها ﴿إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

؛ لأَنَّ بالتفكُّر فى الآيات يعقل ما جعلت الآيات دليلاً له ؛ فهو الأَوّل المؤدّى إِلى الثَّانى .

قوله : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ههنا موضعان .

وزعموا أَنَّه لا ثالث لهما .

ليس هذا بتكرار محض ؛ لأَنَّ المراد بالأَوّل آية مّما اقترحُوا ؛ نحو ما فى قوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ ﴾ الآيات وبالثانى آية مّا ، لأَنَّهم لم يهتدوا إِلى أَن القرآن آية فوق كلِّ آية ، وأَنكروا سائر آياته صلَّى الله عليه وسلَّم .

(12/406)

قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وفى النحل ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ ولى الحجّ ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴾ ؛ لأَنَّ فى هذه السّورة تقدّم آية السّجدة ذكرُ العُلْويّات : من البرق والسّحاب والصواعق ، ثمّ

ذِكر الملائكة وتسبيحهم ، وذكر بأَخرة الأَصنام والكفّار ، فبدأَ فى آية السّجدة بذكر من فى السّموات لذلك ، وذَكَر الأَرض تبعاً ، ولم يذكر مَن فيها ؛ استخفافاً بالكفاَّر والأَصنام ، وأَمّا فى الحجّ فقد تقدّم ذكر المؤمنين وسائر الأَديان ، فقدّم ذكر مَن فى السّموات ؛ تعظيما

لهم ولها ، وذكر مَن فى الأَرض ؛ لأَنهم هم الَّذين تقدّم ذكرهم .

وأَمَّا فى النَّحل فقد تقدّم ذكرُ ما خلق الله على العموم ، ولم يكن فيه ذكر الملائكة ، ولا الإِنس تصريحاً ، فنصّت الآية ما فى السّموات وما فى الأَرض ؛ فقال فى كلِّ آية ما ناسبها .

قوله : ﴿ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾ قد سبق .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ ﴾ ليس بتكرار ؛ لأَنَّ التقدير : كذلك يضرب الله للحقّ والباطل الأَمثال ، فلمّا اعترض بينهما (فأَمّا) و (أَمّا) وطال الكلام أَعاد ، فقال : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ .

قوله : ﴿ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ ﴾ وفى المائدة ﴿ لِيَفْتَدُوا بِهِ ﴾ ؛ لأَن (لو) وجوابها يتَّصلان بالماضى ، فقال : فى هذه السّورة ﴿ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ ﴾ وجوابه فى المائدة ﴿ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ﴾ وهو بلفظ الماضى ، وقوله : ﴿ لِيَفْتَدُوا بِهِ ﴾ عِلَّة ، وليس بجواب .

(13/406)

قوله : ﴿ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ فى موضعين : هذا ليس بتكرار ؛ لأَنَّ الأَوّل متَّصل بقوله : (يَصِلُون) وعطف عليه (ويخْشَون) ، والثَّانى متَّصل بقوله : (يقطعون) وعطف

عليه (يفسدون) .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ ﴾ ومثله فى المؤمنين ليس بتكرار .

قال ابن عباس : عَيّروا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم باشتغاله بالنّكاح والتَّكثُّر منه فأَنزل الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ فكان المراد من الآية قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ بخلاف ما فى المؤمنين ؛ فإِنَّ المراد منه : لست ببدْع من الرسل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ .

قوله : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ مقطوع ، وفى سائر القرآن : (وإمّا) موصول .

وهو من الهجاءِ : (إِن) و (ما) وذكر فى موضعين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 264. 267 ﴾

(14/406)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الرعد

233 - قوله تعالى كل يجري لأجل مسمى 2 وفي سورة لقمان إلى أجل 39 لا ثاني له

لأنك تقول في الزمان جرى ليوم كذا وإلى يوم كذا والأكثر اللام كما في هذه السورة وسورة الملائكة 13 وكذلك في يس تجري لمستقر لها 38 لأنه بمنزلة التاريخ تقول لبثت لثلاث بقين من الشهر وآتيك لخمس تبقى من الشهر وأما في لقمان فوافق ما قبلها وهو قوله ومن يسلم وجهه إلى الله 22 والقياس لله كما في قوله أسلمت وجهي لله 3 20 لكنه حمل على المعنى أي يقصد بطاعته إلى الله وكذلك يجري إلى أجل مسمى 29 31 أي يجري إلى وقته المسمى له

234 - قوله إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون 3 وبعدها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون 4 لأن بالتفكر في الآيات يعقل ما جعلت الآيات دليلا عليه فهو الأول المؤدي إلى الثاني

235 - قوله ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه 7 27 في هذه السورة في موضعين وزعموا أنه لا ثالث لهما ليس بتكرار محض لأن المراد بالأول آية مما اقترحوا نحو ما في قوله لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا 17 90 والمراد بالثاني آية ما لأنهم لم يهتدوا إلى أن القرآن آية فوق كل آية وأنكروا سائر آياته صلى الله عليه و سلم

236 - قوله ولله يسجد من في السموات والأرض 15 وفي النحل ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة 49 وفي الحج ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم 18 لأن ما في هذه السورة تقدم آية السجدة ذكر العلويات من البرق والسحاب والصواعق ثم ذكر الملائكة وتسبيحهم وذكر

بآخرة الأصنام والكفار فبدأ في آية السجدة بذكر من في السموات لذلك وذكر الأرض تبعا ولم يذكر من فيها استخفافا بالكفار والأصنام

وأما ما في الحج فقد تقدم ذكر المؤمنين وسائر الأديان فقدم ذكر من في السموات تعظيما لهم ولها وذكر من في الأرض لأنهم هم الذين تقدم ذكرهم

(15/406)

وأما في النحل فقد تقدم ذكر ما خلق الله على العموم ولم يكن فيه ذكر الملائكة ولا الإنس بالصريح فاقتضت الآية ما في السموات فقال في كل آية ما لاق بها

237 - قوله نفعا ولا ضرا 16 قد سبق

238 - قوله كذلك يضرب الله الحق والباطل 17 ليس بتكرار لأن التقدير كذلك يضرب الله الحق والباطل الأمثال فلما اعترض بينهما فأما وأما وأطال الكلام أعاد فقال كذلك يضرب الله الأمثال 17

239 - قوله لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به 18 وفي المائدة ليفتدوا به 36 لأن لو وجوابها يتصلان بالماضي فقال في هذه السورة لافتدوا به وجوابه في المائدة ما تقبل منهم 36 وهو بلفظ الماضي وقوله ليفتدوا به علة وليس بجواب

240 - قوله ما أمر الله به أن يوصل 21 25 في موضعين من هذه السورة ليس بتكرار لأن الأول متصل بقوله يصلون 21 وعطف عليه ويخشون 21 والثاني متصل بقوله يقطعون 25 وعطف عليه ويفسدون

241 - قوله ولقد أرسلنا رسلا من قبلك 38 ومثله في المؤمن 78 ليس بتكرار قال ابن عباس عيروا رسول الله صلى الله عليه و سلم باشتغاله بالنكاح والتكثر منه فأنزل الله تعالى ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية 38 بخلاف ما في المؤمن فإن المراد منه لست ببدع من الرسل ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك 78

242 - قوله وإما نرينك 40 مقطوع وفي سائر القرآن وأما موصل وهو من اللهجات وقد ذكر في موضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 116.114 ﴾

(16/406)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة الرعد

سورة مدنية ، وعدد آياتها ثلاث وأربعون آية ، وسميت " سورة الرعد " لقوله تعالى فيها : (ويسبح الرعد بحمده والملائكة . . . ولو سميت الكون والهداية لكانت التسمية محكمة .

وقد ابتدأت بالحروف المفردة (المر) ، وأعقبها بإشارة إلى القرآن الكريم : (والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

ثم بعد ذلك يبين الله سبحانه وتعالى ما فى الكون مما يدل على قدرة القادر ووحدأنيته ، فالله هو الذى رفع السماوات بغير عمد مرئية ، ولكن عدم رؤيتها لا ينفى وجودها ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، فسبحان الذى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون .

وهو الذى مد الأرض وبسطها ، وجعل فيها جبالا رواسى ، وأنهارا وجعل من كل الثمرات ، ومن كل من الحيوان وكل الأحياء زوجين اثنين ، وجعل الليل والنهار آيتين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وجعل فى الأرض قطعا متجاورات وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ومع أنها متجاورة وتسقى بماء واحد ، يفضل الله بعضها على بعض فى الاءكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وإن هذا الكون وما فيه يدل على أن الذى قدر على خلق الإنسان قادر على إعادته ، كما بدأكم تعودون ، (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين

كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون بالعذاب واستعجلوه إمعانا منهم فى الإنكار ، (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو مغفرة للناس علىٰ ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب .

(17/406)

وإنهم لينكرون المعجزات التى جاءت دلة على رسالة الرسول الذى أرسل إليهم ، ويتجرءون على الله باقتراح معجزات ، وينكرون أن يكون غيرها آية (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد .

ثم يبين سبحانه إحاطة علمه ، (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال .

ثم يبين الله سبحانه عجائب خلقه (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب

الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء . . . ، ينشى كل ذلك ، ويرونه عيانا ومع ذلك يجادلون فى شأن الله تعالى (. . . وهو شديد المحال .

ويبين الله تعالى الحقائق التى يجب أن يذعن لها المؤمن ، (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ، ويبين سبحانه وتعالى بعد ذلك أن كل ما فى الوجود ومن فى الوجود خاضع له بمقتضى التكوين طوعا وكرها ، ونبه سبحانه إلى أنه خالق السماوات والأرض فسألهم (. . . من رب السموات والأرض . . . ووبخهم على اتخاذهم آلهة من دون الله (. . . قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

(18/406)

وضرب الله مثلا بين الحق والباطل ، فقال ظلى : (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ

مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17) .

وبعد ذلك يبين جزاء الذين يستجيبون ، ويشير إلى الذين يكفرون وهم الذين لم يستجيبوا له (. . . لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد .

ويبين الله على طريقة الاستفهام فيقول : (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (19)

ويبين أوصاف أهل الحق بأنهم . . . يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق و (. . . يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ) وهم الذين (. . . صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ . . . ، ثم يبين جزاءهم فى الآخرة فيقول : (. . . أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (23) سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24) .

ويبن الله سبحانه وتعالى أوصاف الكفار ، وهى نقيض أوصاف المؤمنين

فهم : (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض . . . وجزاؤهم بينه سبحانه بقوله : (. . . أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار .

وقد كان المشركون يتخذون من بسط الرزق وضيقه دليلا على الفضل عند الله ، وإذا كان الله تعالى قد بعث محمدا (صلى الله عليه وسلم) فقيرا ، ومحبوه من الفقراء فقد ظنوا أنهم أولى ، فقال تعالى : (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع .

وقد طلبوا آيات أخرى مادية ، وما كانوا ليؤمنوا إذا جاءتهم ، فقال تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29) .

ثم بين سبحانه أن مثل هذه الآيات جاءت من قبلهم ولم يؤمنوا ، فقال تعالى : (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (30) .

ويبين منزلة معجزة النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وهى القرآن فيقول تبارك وتعالى : (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31)

.

وإذا كانوا يستهزئون بك وبمن معك فقد استهزئ برسل من قبلك (وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32) أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (34) .

وبعد بيان عذابهم فى الدنيا والآخرة ذكر الجنة التى ينالها المؤمنون ، فقال سبحانه : (مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35) .

وبين سبحانه وتعالى موقف اليهود من القرآن والنبى ، فقال تعالى : (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ (37) .

ولقد بين سبحانه من بعد ذلك أن الله أرسل رسلا من قبله من البشر لهم أزواج وذرية ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، يمحو الله ما يشاء من الآيات ، ويثبت ، وعنده أم الكتاب ، وهو التوحيد ، وألا يشركوا بالله شيئا ومهما يكن من أمر المشركين ، فإما نرينك بعض الذى نعدهم من العذاب ، وإما نتوفينك . فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

ولقد بين سبحانه وتعالى العبر ، وقدرة الله تعالى ليعتبروا فلم يعتبروا : (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) ، وبين سبحانه أنهم يدبرون تدبيرهم الخبيث والله يعلم ما تكسب كل نفس (. . . وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 3887.3883 ﴾

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

هكذا سميت من عهد السلف .

وذلك يدل على أنها مسماة بذلك من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إذ لم يختلفوا في اسمها .

وإنما سميت بإضافتها إلى الرعد لورود ذكر الرعد فيها بقوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ [سورة الرعد : 13] .

فسميت بالرعد لأن الرعد لم يذكر في سورة مثل هذه السورة ، فإن هذه السورة مكية كلها أو معظمها .

وإنما ذكر الرعد في سورة البقرة وهي نزلت بالمدينة وإذا كانت آيات ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [سورة الرعد : 12] مما نزل بالمدينة ، كما سيأتي تعين أن ذلك نزل قبل نزول سورة البقرة .

وهذه السورة مكية في قول مجاهد وروايته عن ابن عباس ورواية علي بن أبي طلحة وسعيد بن جبير عنه وهو قول قتادة.

وعن أبي بشر قال: سألت سعيد ابن جبير عن قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ أي في آخر سورة الرعد [43] أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: كيف وهذه سورة مكية، وعن ابن جريج وقتادة في رواية عنه وعن ابن عباس أيضا: أنها مدنية، وهو عن عكرمة والحسن البصري، وعن عطاء عن ابن عباس.

وجمع السيوطي وغيره بين الروايات بأنها مكية إلا آيات منها نزلت بالمدينة يعني قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ إلى قوله: ﴿ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ وقوله: ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [سورة الرعد: 43].

قال ابن عطية: والظاهر أن المدني فيها كثير، وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة فهو مدني.

(23/406)

وأقول أشبه آياتها بأن يكون مدنيا قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [سورة الرعد: 41] كما ستعلمه، وقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ ﴾ -إلى-

﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [سورة الرعد : 30] ، فقد قال مقاتل وابن جريج : نزلت في صلح الحديبية كما سيأتي عند تفسيرها .

ومعانيها جارية على أسلوب معاني القرآن المكي من الاستدلال على الوحدانية وتقريع المشركين وتهديدهم .

والأسباب التي أثارت القول بأنها مدنية أخبار واهية ، وسنذكرها في مواضعها من هذا التفسير ولا مانع من أن تكون مكية .

ومن آياتها نزلت بالمدينة وألحقت بها ، فإن ذلك في بعض سور القرآن ، فالذين قالوا : هي مكية لم يذكروا موقعها من ترتيب المكيات سوى أنهم ذكروها بعد سورة يوسف وذكروا بعدها سورة إبراهيم .

والذين جعلوها مدنية عدوها في النزول بعد سورة القتال وقبل سورة الرحمان وعدوها سابعة وتسعين في عداد النزول .

وإذ قد كانت سورة القتال نزلت عام الحديبية أو عام الفتح تكون سورة الرعد بعدها .

وعدت آياتها ثلاثا وأربعين من الكوفيين وأربعا وأربعين في عدد المدنيين وخمسا وأربعين

عند الشام.

مقاصدها

أقيمت هذه السورة على أساس إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أوحي إليه من إفراد الله بالإلهية والبعث وإبطال أقوال المكذبين فلذلك تكررت حكاية أقوالهم خمس مرات موزعة على السورة بدءا ونهاية.

ومهد لذلك بالتنويه بالقرآن وأنه منزل من الله، والاستدلال على تفرده تعالى بالإلهية بدلائل خلق العالمين ونظامهما الدال على انفراده بتمام العلم والقدرة وإدماج الامتنان لما في ذلك من النعم على الناس.

ثم انتقل إلى أقوال أهل الشرك ومزاعمهم في إنكار البعث.

وتهديدهم أن يحل بهم ما حل بأمثالهم.

والتذكير بنعم الله على الناس.

وإثبات أن الله هو المستحق للعبادة دون آلهتهم.

وأن الله العالم بالخفايا وأن الأصنام لا تعلم شيئا ولا تنعم بنعمة.

والتهديد بالحوادث الجوية أن يكون منها عذاب للمكذبين كما حل بالأمم قبلهم .

والتخويف من يوم الجزاء .

والتذكير بأن الدنيا ليست دار قرار .

وبيان مكابرة المشركين في اقتراحهم مجيء الآيات على نحو مقترحاتهم .

ومقابلة ذلك بيقين المؤمنين .

وما أعد الله لهم من الخير .

وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ما لقي من قومه إلا كما لقي الرسل عليهم السلام من قبله .

والثناء على فريق من أهل الكتب يؤمنون بأن القرآن منزل من عند الله .

والإشارة إلى حقيقة القدر ومظاهر المحو والإثبات .

وما تخلل ذلك من المواعظ والعبر والأمثال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ 123.125 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

التعريف بسورة الرعد

كثيرا ما أقف أمام النصوص القرآنية وقفة المتهيب أن أمسها بأسلوبي البشري القاصر ؛ المتحرج أن أشوبها بتعبيري البشري الفاني !

وهذه السورة كلها - شأنها شأن سورة الأنعام من قبلها - من بين هذه النصوص التي لا أكاد أجرؤ على مسها بتفسير أو إيضاح .

ولكن ماذا أصنع ونحن في جيل لا بد أن يقدم له القرآن مع الكثير من الإيضاح لطبيعته ولمنهجه ولموضوعه كذلك ووجهته . بعد ما ابتعد الناس عن الجو الذي تنزل فيه القرآن . وعن الاهتمامات والأهداف التي تنزل لها ، وبعد ما انماعت وذبلت في حسهم وتصورهم مدلولاته وأبعادها الحقيقية ، وبعد ما انحرفت في حسهم مصطلحاته عن معانيها . . وهم يعيشون في جاهلية كالتي نزل القرآن ليواجهها ، بينما هم لا يتحركون بهذا القرآن في مواجهة الجاهلية كما كان الذين تنزل عليهم القرآن أول مرة يتحركون . . وبدون هذه الحركة لم يعد الناس يدركون من أسرار هذا القرآن شيئا . فهذا القرآن لا يدرك أسراره قاعد ، ولا يعلم مدلولاته إلا إنسان يؤمن به ويتحرك به في وجه الجاهلية لتحقيق مدلوله ووجهته .

ومع هذا كله يصيبني رهبة ورعشة كلما تصديت للترجمة عن هذا القرآن !

إن إيقاع هذا القرآن المباشر في حسي محال أن أترجمه في ألفاظي وتعبيراتي . ومن ثم أحس دائما بالفجوة الهائلة بين ما أستشعره منه وما أترجمه للناس في هذه "الظلال" !

(27/406)

وإنني لأدرك الآن - بعمق - حقيقة الفارق بين جيلنا الذي نعيش فيه والجيل الذي تلقى مباشرة هذا القرآن . لقد كانوا يخاطبون بهذا القرآن مباشرة ؛ ويتلقون إيقاعه في حسهم ، وصوره وظلاله ، وإيحاءاته وإيماءاته ، وينفعلون بها انفعالا مباشرا ، ويستجيبون لها استجابة مباشرة . وهم يتحركون به في وجه الجاهلية لتحقيق مدلولاته في تصورهم . ومن ثم كانوا يحققون في حياة البشر القصيرة تلك الخوارق التي حققوها ، بالانقلاب المطلق الذي تم في قلوبهم ومشاعرهم وحياتهم ، ثم بالانقلاب الآخر الذي حققوه في الحياة من حولهم ، وفي أقدار العالم كله يومذاك ، وفي خط سير التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد كانوا ينهلون مباشرة من معين هذا القرآن بلا وساطة . ويتأثرون بإيقاعه في حسهم فما لأذن . وينضجون

بحرارته وإشعاعه وإيحائه ؛ ويتكيفون بعد ذلك وفق حقائقه وقيمه وتصوراته .

أما نحن اليوم فنتكيف وفق تصورات فلان وفلان عن الكون والحياة والقيم والأوضاع .

وفلان وفلان من البشر القاصرين أبناء الفناء !

ثم ننظر نحن إلى ما حققوه في حياتهم من خوارق في ذات أنفسهم وفي الحياة من حولهم ، فنحاول تفسيرها وتعليلها بمنطقنا الذي يستمد معاييره من قيم وتصورات ومؤثرات غير قيمهم وتصوراتهم ومؤثراتهم . فنخطيء ولا شك في تقدير البواعث وتعليل الدوافع وتفسير النتائج . . لأنهم هم خلق آخر من صنع هذا القرآن . .

وإنني لأهيب بقراء هذه الظلال ، ألا تكون هي هدفهم من الكتاب . إنما يقرءونها ليدنوا من القرآن ذاته . ثم ليتناولوه عند ذلك في حقيقته ، ويطرحوا عنهم هذه الظلال . وهم لن يتناولوه في حقيقته إلا إذا وقفوا حياتهم كلها على تحقيق مدلولاته وعلى خوض المعركة مع الجاهلية باسمه وتحت رايته .

(28/406)

وبعد فهذا استطراد اندفعت إليه وأمامي هذه السورة - سورة الرعد - وكأنما أقرؤها لأول مرة ، وقد قرأتها من قبل وسمعتها ما لا أحصيه من المرات . ولكن هذا القرآن يعطيك بمقدار ما تعطيه ؛ ويتفتح عليك في كل مرة بإشعاعات وإشراقات وإيحاءات وإيقاعات

بقدر ما تفتح له نفسك ؛ ويبدو لك في كل مرة جديدا كأنك تتلقاه اللحظة ، ولم تقرأه أو تسمعه أو تعالجه من قبل !

وهذه السورة من أعاجيب السور القرآنية التي تأخذ في نفس واحد ، وإيقاع واحد ، وجو واحد ، وعطر واحد من بدئها إلى نهايتها ؛ والتي تفعم النفس ، وتزحم الحس بالصور والظلال والمشاهد والخوالج ، والتي تأخذ النفس من أقطارها جميعا ، فإذا هي في مهرجان من الصور والمشاعر والإيقاعات والإشراقات ؛ والتي ترتاد بالقلب آفاقا وأكوانا وعوالم وأزمانا ، وهو مستيقظ ، مبصر ، مدرك ، شاعر بما يموج حوله من المشاهد والموحيات . إنها ليست ألفاظا وعبارات ، إنما هي مطارق وإيقاعات:صورها . ظلالها . مشاهدها . موسيقاها . لمساتها الوجدانية التي تكمن وتتوزع هنا وهناك !

إن موضوعها الرئيسي ككل موضوع السور المكية كلها على وجه التقريب – هو العقيدة وقضاياها . . هو توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الدينونة لله وحده في الدنيا والآخرة جميعا ؛ ومن ثم قضية الوحي وقضية البعث . . . وما إليها . . .

ولكن هذا الموضوع الواحد ذا القضايا الواحدة ، لم يتكرر عرضه قط بطريقة واحدة في كل تلك السور

المكية وفي غيرها من السور المدنية . فهو في كل مرة يعرض بطريقة جديدة ؛ وفي ضوء جديد ؛ ويتناول عرضه مؤثرات وموحيات ذات إيقاع جديد وإيحاء جديد !

إن هذه القضايا لا تعرض عرضا جدليا باردا يقال في كلمات وينتهي كأية قضية ذهنية باردة إنما تعرض وحولها إطار ، هو هذا الكون كله بكل ما فيه من عجائب هي براهين هذه القضايا وآياتها في الإدراك البشري البصير المفتوح . وهذه العجائب لا تنفذ ؛ ولا تبلى جدتها . لأنها تتكشف كل يوم عن جديد يصل إليه الإدراك ، وما كشف منها من قبل يبدو جديدا في ضوء الجديد الذي يكشف ! ومن ثم تبقى تلك القضايا حية في مهرجان العجائب الكونية التي لا تنفد ولا تبلى جدتها !

وهذه السورة تطوف بالقلب البشري في مجالات وآفاق وآماد وأعماق ؛ وتعرض عليه الكون كله في شتى مجالاته الأخاذة:في السماوات المرفوعة بغير عمد . وفي الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . وفي الليل يغشاه النهار . وفي الأرض الممدودة وما فيها من رواس نابتة وأنهار جارية ، وجنات وزرع ونخيل مختلف الأشكال والطعوم والألوان ، ينبت في قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد . وفي البرق يخيف ويطمع ، والرعد يسبح ويحمد ، والملائكة تخاف وتخشع ، والصواعق يصيب بها من يشاء ، والسحاب الثقال والمطر في الوديان ، والزبد الذي يذهب جفاء ، ليبقى في الأرض ما ينفع الناس .

وهي تلاحق ذلك القلب أينما توجه: تلاحقه بعلم الله النافذ الكاشف الشامل، يلم بالشارد والوارد، والمستخفي والسارب، ويتعقب كل حي ويحصي عليه الخواطر والخوالج.

والغيب المكنون الذي لا تدركه الظنون، مكشوفا لعلم الله، وما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد.

إنها تقرب لمدارك البشر شيئًا من حقيقة القوة الكبرى المحيطة بالكون ظاهره وخافيه، جليله ودقيقه، حاضره وغيبه. وهذا القدر الذي يمكن لمدارك البشر تصوره هائل مخيف، ترجف له القلوب.

(30/406)

وذلك إلى الأمثال المصورة تتمثل في مشاهد حية حافلة بالحركة والانفعال. إلى مشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، وخلجات الأنفس في هذا وذاك. إلى وقفات على مصارع الغابرين، وتأملات في سير الراحلين، وفي سنة الله التي مشت عليهم فإذا هم داثرون..

هذا عن موضوعات السورة وقضاياها ، وعن آفاقها الكونية وآمادها . . ووراءها خصائص الأداء الفنية العجيبة . فالإطار العام الذي تعرض فيه قضاياها هو الكون كما أسلفنا ومشاهده وعجائبه في النفس وفي الآفاق . وهذا الإطار ذو جو خاص: إنه جو المشاهد الطبيعية المتقابلة:من سماء وأرض . وشمس وقمر . وليل ونهار . وشخوص وظلال . وجبال راسية وأنهار جارية . وزبد ذاهب وماء باق . وقطع من الأرض متجاورات مختلفات . ونخيل صنوان وغير صنوان . . ومن ثم تطرد هذه التقابلات في كل المعاني وكل الحركات وكل المصائر في السورة ، فيتناسق التقابل المعنوي في السورة مع التقابلات الحسية ، وتنسق في الجو العام . . ومن ثم يتقابل الاستعلاء في الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر . ويتقابل ما تغيض الأرحام مع ما تزداد . ويتقابل من أسر القول مع من جهر به . ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارب بالنهار . ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق . ويتقابل تسبيح الرعد حمدا مع تسبيح الملائكة خوفا . وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل

للشركاء . ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى .

ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه . ويتقابل المحو مع الإثبات في الكتاب . . وبالإجمال تتقابل المعاني ، وتتقابل الحركات ، وتتقابل الاتجاهات . .

تنسيقا للجو العام في الأداء !

(31/406)

وظاهرة أخرى من ظواهر التناسق في جو الأداء . . فلأنه جو الطبيعة من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، ورعد وبرق ، وصواعق وأمطار . . وحياة وإنبات . . يجيء الحديث عما تكنه الأرحام من حيوان ؛ ويجيء معها : وما تغيض الأرحام وما تزداد . . ويتناسق غيض الأرحام وازديادها مع سيل الماء في الأودية ومع الإنبات . . وذلك من بدائع التناسق في هذا القرآن .

ذلك طرف من الأسباب التي من أجلها أقف أمام هذه السورة - كما وقفت من قبل كثيرا أمام غيرها - متهيبا أن أمسها بأسلوبي البشري القاصر ، متحرجا أن أشوبها بتعبيري البشري الفاني . . . .

ولكنها ضرورة الجيل . . الجيل الذى لا يعيش في جو هذا القرآن . . نستعين عليها بالله . والله المستعان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2038 . 2041 ﴾

(32/406)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الرعد

مدنية وآَياتها ثلاث وأربعون آية

يدى السورة

سورة الرعد من السور المكية ، التي تتناول المقاصد الأساسية للسور المكية ، من تقرير " الوحدانية " و " الرسالة " و " البعث والجزاء " ودفع الشبه التي يثيرها المشركون ، وقيل : إنها مدنية وجوها جو المكي . ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى ، قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، فمع سطوع الحق ووضوحه ، كذب المشركون بالقرآن ، وجحدوا وحدانية الرحمن ، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته تعالى ، وعجيب خلقه ، في السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والزروع والثمار ، وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع .

ثم تلتها الآيات في إثبات البعث والجزاء ، ثم بعد ذكر الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، على انفراده جل وعلا بالخلق والإِيجاد ، والإِحياء والإِماتة ، والنفع والضر ، ضرب القرآن مثلين للحق والباطل أحدهما : في الماء ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية والشعاب ، ثم هو يجرف في طريقه الغثاء ، فيطفو على وجهه الزبد الذي لا فائدة فيه ، والثاني : في المعادن التي تذاب لتصاغ منها الأواني وبعض الحلية كالذهب والفضة ، وما يعلو هذه

المعادن من الزبد والخبث ، الذي لا يلبث ان يذهب جفاء ويضمحل ويتلاشى ، ويبقى المعدن النقي الصافي [أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا . .] الآيات فذلك مثل الحق والباطل . وذكرت السورة الكريمة اوصاف أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وضربت مثَلا بشهادة الله لرسوله بالنبوة والرسالة ، وأنه مرسل من عند الله العزيز الحكيم .

التسمية :

سميت [سورة الرعد] لتلك الظاهرة الكونية العجيبة ، التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه ، فالماء جعله الله سببا للحياة ، وأنزله بقدرته من السحاب ، والسحاب جمع الله فيه بين (الرحمة والعذاب) ، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق ، وفي الماء الإحياء ، وفي الصواعق الإفناء ، وجمع النقيضين من العجائب كما قال القائل : جمع النقيضين من أسرار قدرته هذا السحاب به ماء به نار فما أجمل واعظم قدرة الله ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير جـ 2 صـ 72 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الرعد

العمد : السواري واحدها عمود كأدم وأديم ، والتسخير : التذليل والطاعة ، والتدبير : التصريف للأمور على وجه الحكمة ، والتفصيل : التبيين ، والآيات : هى الأدلة التي تقدم ذكرها من الشمس والقمر ، واليقين : العلم الثابت الذي لاشك فيه ، والمد : البسط ، والرواسي : الثوابت المستقرة التي لا تتحرك ولا تنتقل واحدها راسية ، والأنهار واحدها نهر : وهو المجرى الواسع من الماء ، زوجين اثنين : أي ذكر وأنثى ، والعرب تسمى الاثنين زوجين والواحد من الذكور زوجا لأنثاه ، والأنثى زوجا وزوجة لذكرها ، يغشى يغطى ، قطع : أي بقاع ، متجاورات : أي متقاربات ، جنات أي بساتين ، صنوان : هى النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها واحدها صنو ، وفى الحديث " عم الرجل صنو أبيه " والأكل (بضمتين وبتسكين الثاني) : ما يؤكل والمراد به التمر والحب .

العجب : تغير النفس حين رؤية ما يستبعد فى مجرى العادة ، والأغلال : واحدها غلّ ، وهو طوق من الحديد طرفاه فى اليدين ويحيط بالعنق ، والمثلات (بفتح فضم) واحدها مثلة (بفتح فضم) كسرة وهى العقوبة التي تترك فى المعاقب أثرا قبيحا كصلم أذن أو جدع

أنف أو سمل عين ، والغفر : الستر بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، والمراد بالآية هنا الآيات الحسية كقلب عصا موسى حية وناقة صالح ، والإنذار : التخويف ، والهادي : القائد الذي يقود الناس إلى الخير كالأنبياء والحكماء والمجتهدين .

الغيض : النقصان يقال غاض الماء وغضته كما قال "وَغِيضَ الْماءُ" بمقدار ، أي بأجل لا يتجاوزه ولا ينقص عنه ، والغائب : ما غاب عن الحس ، والشاهد :

(35/406)

الحاضر المشاهد ، الكبير : العظيم الشأن ، والمتعالي : المستعلى على كل شيء ، وأسر الشيء : أخفاه في نفسه ، والمستخفى : المبالغ في الاختفاء ، والسارب : الظاهر ، من قولهم سرب : إذا ذهب في سربه (طريقه) معقبات ، أي ملائكة تعتقب في حفظه وكلاءته واحدها معقبة ، من عقّبه : أي جاء عقبه ، من بين يديه ، أي قدّامه ، ومن خلفه ، أي من ورائه ، من أمر الله ، أي بأمره وإعانته ، وال ، أي ناصر .

البرق : ما يرى من النور لا معا خلال السحاب ، والرعد : هو الصوت المسموع خلال السحاب . وسببهما على ما بيّن في العلوم الطبيعية – أن البرق يحدث من تقارب سحابتين مختلفى الكهربائية ، حتى يصير ميل إحداهما للاقتراب من الأخرى أشد من قوة

الهواء على فصلهما فتهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قويّ شديد ، فذلك النور هو البرق . والصوت هو الرعد الذي نشأ من تصادم دقائق الهواء الذي تطرده كهربائية البرق أمامها ، والصواعق : واحدها صاعقة . وسببها أن السحب قد تمتلىء بكهربائية ، والأرض بكهربائية أخرى والهواء يفصل بينهما ، فإذا قاربت السحب وجه الأرض تنقص الشرارة الكهربائية منها فتنزل صاعقة تهلك الحرث والنسل ، والمجادلة : من الجدل وهو شدة الخصومة ، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله ، كأن المجادلين يفتل كل منهما الآخر عن رأيه ، والمحال : أي أقتله المماحلة والمكايدة لأعدائه ، يقال محل فلان بفلان إذا كايده وعرّضه للهلاك ، وتمحل إذا تكلف فى استعمال الحيلة ، فى ضلال أي ضياع وخسار ، والظلال : واحدها ظل وهو الخيال الذي يظهر للجرم ، والغدو : واحدها غداة كقنىّ وقناة وهى أول النهار ، والآصال ، واحدها أصيل : ما بين العصر والمغرب .

(36/406)

الأودية : واحدها واد ، وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء والفرجة بين الجبلين وقد يراد به الماء الجاري فيه ، بقدرها : أي بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت أمكنتها صغرا وكبرا ، واحتمل : أي حمل ، والزبد : ما يعلو وجه الماء حين الزيادة كالجب ، وما يعلو

القدر عند غليانها ، والرابى : العالي المرتفع فوق الماء الطافي عليه ، والجفاء : ما رمى به الوادي من الزبد إلى جوانبه .

يدرءون : أي يدفعون ، والعدن : الإقامة ، يقال عدن بمكان كذا : إذا استقر ، ومنه المعدن لمستقر الجواهر ، والدار : هى دار الآخرة .

يقدر : يضيّق كقوله " وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ " أي ضيّق ، والمراد أنه يعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شىء ، متاع : أي متعة قليلة لا دوام لها ولا بقاء ، وأناب :

أي رجع عن العناد ، وأقبل على الحق ، وتطمئن : أي تسكن وتخشع ، وطوبى لهم :

أي لهم العيش الطيب وقرة العين والغبطة والسرور ، والمآب : المرجع والمنقلب .

خلت : مضت ، متاب : مرجعى ، قطعت : شققت ، ييأس : يعلم وهو لغة هوازن قارعة رزية تقرع القلوب ، أمليت : أي أمهلت مدة طويلة فى أمن ودعة ، قائم :

رقيب ومتولّ للأمور ، تنبئونه : تخبرونه ، بظاهر من القول : أي بباطل منه لا حقيقة له فى الواقع . والسبيل : هو سبيل الحق وطريقه ، والواقي : الحافظ .

المثل : الصفة والنعت ، والأكل : ما يؤكل ، والظل : واحد الظلال والظلول والأظلال ، والأحزاب : واحدهم حزب ، وهو الطائفة المتحزّبة : أي المجتمعة لشأن من الشئون كحرب أو عداوة أو نحو ذلك ، والمآب : المرجع ، والواقي . الحافظ ، والأجل :

الوقت والمدة ، والكتاب : الحكم المعين الذي يكتب على العباد بحسب ما تقتضيه الحكمة ، والمحو : ذهاب أثر الكتابة ، وأمّ الكتاب : أصله وهو علم اللّه تعالى .

(37/406)

الأطراف : الجوانب ، المعقب : الذي يكرّ على الشيء فيبطله ، ويقال لصاحب الحق معقّب ، لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء والطلب ، والمكر : إرادة المكروه فى خفية ، وعقبى الدار : أي العاقبة الحميدة ، والأم : أصل الشيء وما يجرى مجراه ، كأم الرأس للدماغ ، وأم القرى لمكة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المراغى حـ 13 صـ 116.62 ﴾ .

باختصار .

(38/406)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

تفسير سورة الرعد

مدنية وآياتها 43 آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد وهي مدنية 1 - من ذلك قوله جل وعز آلمر تلك آيات الكتاب (آية 1) هذا تمام الكلام ومن ذهب إلى ان كل حرف من هذه يؤدي عن معنى قال المعنى أنا الله أرى 2 - وقوله جل وعز الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها (آية 2) المعنى ترونها بغير عمد ويجوز أن يكون الضمير يعود على العمد 3 - ثم قال جل وعز وسخر الشمس والقمر (آية 2) أي أنهما مقهوران مدبران فهذا معنى التسخير في اللغة 4 - ثم قال تعالى وهو الذي مد الأرض (آية 3) أي بسطها وجعل فيها رواسي أي جبالا

ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين أي صنفين وكل صنف زوج 5 - ثم قال تعالى وفي الأرض قطع متجاورات (آية 4) وفي هذا قولان قال ابن عباس يعني الطيب والخبيث والسباخ

والعذاب وكذلك قال مجاهد والقول الآخر أن في الكلام حذفا والمعنى وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات كما قال سرابيل تقيكم الحر والمعنى وتقيكم البرد ثم حذف ذلك لعلم السامع والمتجاورات المدن وما كان عامرا وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر 6 - ثم قال تعالى وجنات من أعناب (آية 4) أي وفيها جنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان (آيه 4) وقرأ صنوان بضم الصاد أبو رجاء وأبو عبد الرحمن وطلحة

وروى أبو إسحاق عن البراء قال الصنوان المجتمع وغير صنوان المتفرق حدثنا زهير بن شريك قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس قال

(39/406)

حدثنا زهير بن معاوية قال أبو إسحاق عن البراء في قوله صنوان وغير صنوان قال الصنوان ما كان أصلحه واحدا وهو متفرق وغير صنوان التي تنبت وحدها وكذلك هو في اللغة يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان فإذا تفرقت قيل غير صنوان 7 - ثم قال جل وعز يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل (آية 4) أي في الثمر أي هي تأتي مختلفة وإن كان الهواء واحدا فقد علم أن ذلك ليس من أجل الهواء ولا الطبع وأن لها مدبرا

وروى سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى ونفضل بعضها على بعض في الأكل قال الحلو والحامض والفارسي والدقل 8 - ثم قال تعالى وإن تعجب فعجب قولهم (آية 5) أي إن تعجب من إنكارهم البعث بعد هذه الدلائل فإن ذلك ينبغي ان يتعجب منه 9 وقوله تعالى ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة (آية 6)

روى معمر عن قتادة قال بالعقوبة قبل العافية قال غيره يعني قولهم اللهم إن كان هذا هو الحق

من عندك فامطر علينا حجارة من السماء 10 - ثم قال تعالى وقد خلت من قبلهم المثلات (آية 6)

قال مجاهد يعني الأمثال وقال قتادة يعني العقوبات قال أبو جعفر وهذا القول أولى لأنه معروف في اللغة أن يقال للعقوبة الشديدة مثلة ومثلة وروى عن الأعمش أنه قرأ المثلات بضم الميم والثاء وهذا جمع مثله وروي عنه أنه قرأ المثلات بضم الميم وإسكان الثاء

وهذا أيضا جمع مثلة ويجوز المثلات تبدل من الضمة فتحة لثقلها وقيل تأتي بالفتحة عوضا من الهاء وروي عن الأعمش أيضا أنه قرأ المثلات بفتح الميم وإسكان الثاء فهذا جمع مثلة ثم حذف الضمة لثقلها 11 - وقوله جل وعز وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم (آية 6) روى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنا أحدا عيش ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتكل كل واحد 12 - وقوله تعالى إنما أنت منذر ولكل قوم هاد (آية 7) قال مجاهد وقتادة وهذا معنى كلامهما إنما أنت

منذر يعني النبي صلى الله عليه وسلم ولكل قوم هاد أي نبي

يدعوهم وروى سفيان عن أبي الضحى إنما أنت منذر قال النبي صلى الله عليه وسلم

ولكل قوم هاد قال الله جل وعز وروى علي بن الحكم عن الضحاك ولكل قوم هاد قال الله

عز وجل وقال أبو صالح المعنى لكل قوم داعي هدى أو داعي ضلالة والذي يذهب إليه

جماعة من أهل اللغة أن المعنى أنهم لما اقترحوا الايات أعلم الله جل وعز أن لكل قوم نبيا

يهديهم ويبين لهم وليس عليه أن يأتيهم من الآيات بما يقترحون وروى سفيان عن عطاء عن

سعيد بن جبير في قوله تعالى إنما أنت منذر قال النبي صلى الله عليه وسلم ولكل قوم هاد

قال الله جل ذكره

وروى سفيان عن السدي عن عكرمة في قوله جل وعز الله يعلم ما تحمل كل أنثى قال

سفيان يعني من ذكر أو أنثى 13 ثم قال تعالى وما تغيض الأرحام وما تزداد (آية 8) قال

الحسن والضحاك هو نقصان الولد عن تسعة أشهر وزيادته عليها

وقال قتادة تغيض السقط وتزداد على التسعة أشهر وقال مجاهد الغيض النقصان فإذا

اهراقت في المرأة الدم وهي حامل انتقص الولد وإذا لم تهرق الدم عظم الولد وتم وقال سعيد

بن جبير إذا حملت المرأة ثم حاضت نقص ولدها ثم تزداد به الحمل مقدار ما جاءها الدم

به وقال عكرمة الغيض أن ينقص الولد بمجئ الدم والزيادة أن يزيد مقدار ما جاءها الدم فيه

حتى تستكمل تسعة أشهر

سوى الأيام التى جاءها الدم فيها 14 – وقوله جل وعز سواء منكم من أسر القول ومن

جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار (آية 10) قال ابن عباس السارب الظاهر

قال قتادة السارب الظاهر الذاهب وقال مجاهد ومن هو مستخف بالليل أي مستتر

بالمعاصي وسارب بالنهار ظاهر وقال بعض أهل اللغة ومن هو مستخف بالليل أي ظاهر

من خفيته إذا أظهرته وسارب بالنهار أي مستتر من قولهم انسرب الوحش إذا دخل كناسه

قال أبو جعفر القول الأول أولى لجلالة من قال به وأشبه بالمعنى لأن المعنى والله أعلم سواء

منكم من أسر منطقه أو

أعلنه واستتر بالليل أو ظهر بالنهار وكل ذلك في علم الله

سواء وهو في اللغة أشهر وأكثر قال الكسائي يقال سرب يسرب سربا وسروبا إذا ذهب

وحكى الأصمعي خل له سربه أي طريقه 15 – ثم قال جل وعز له معقبات من بين يديه

ومن خلفه يحفظونه من أمر الله (آية 11) في الآية ثلاثة أقوال روى إسرائيل عن سماك عن

عكرمة عن ابن عباس قال ملائكة يحفظونه فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه وروى معاوية

بن صالح عن علي بن أبى طلحة عن ابن

عباس له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله قال بإذن الله وهي من أمر الله

وهي ملائكة قال الحسن عن أمر الله قال مجاهد وقتادة وهذا لفظ قتادة وهي ملائكة

تتعاقب بالليل والنهار عن أمر الله أي بأمر الله فهذا قول والقول الثاني أنه روي عن جويبر

عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه قال هم

السلاطين الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم من أمر الله فإذا جاء أمر الله لم

ينفعوا شيئا

وروى علي بن الحكم عن الضحاك قال هو السلطان المتحرس بن من الله وذلك أهل الشرك

وروى شعبة عن شرقي عن عكرمة قال هم الأمراء

فهذان قولان والقول الثالث أن ابن جريج قال هو مثل قوله عن اليمين وعن الشمال قعيد

فالذي عن اليمين يكتب الحسنات والذي عن الشمال يكتب السيئات ويحفظونه أي

يحفظون عليه كلامه وفعله وأولى هذه الأقوال الأول لعلو إسناده وصحته ويقويه أن مالك بن

أنس روى عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لله

ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل والنهار وذكر الحديث وروى شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي

عبيدة عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى إن قرآن الفجر كان مشهودا قال تدور كالحرس ملائكة الليل وملائكة النهار

وروى ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس انه قرأ معقبات من بين يديه ورقباء من خلفه من أمر الله يحفظونه فهذا قد بين المعنى وقال الحسن في المعنى يحفظونه عن أمر الله وهذا قريب من الأول أي حفظهم إياه من عند الله لا من عند أنفسهم

وروى عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء في قوله له معقبات من بين يديه ومن خلفه قال النبي صلى الله عليه وسلم وهذا يريد الملائكة أيضا وعن بعضهم أنه قرأ معاقيب من بين يديه ومن خلفه ومعاقيب جمع معقب وتفسيره كتفسير الأول 16 - وقوله جل وعز وما لهم من دونه من وال (آية 11) أي ليس أحد يتولاهم من دون الله

(43/406)

ووال وولي واحد كما يقال قدير وقادر وحفيظ وحافظ 17 - وقوله جل وعز هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا (آية 12) قال الحسن ومجاهد وقتادة أي خوفا للمسافر وطمعا للحاضر والمعنى ان المسافر يخاف من المطر ويتأذى به قال الله تعالى أذى من مطر والحاضر المنتفع بالمطر يطمع فيه إذا رأى البرق 18 - ثم قال تعالى وينشئ السحاب الثقال

(آية 12) قال مجاهد التي فيها المطر

19 - ثم قال تعالى ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته (آية 13)

روى سفيان عن سالم عن أبي صالح قال الرعد ملك يسبح وروى عثمان بن الأسود عن مجاهد قال الرعد ملك يسمى الرعد ألا تسمع إلى قوله ويسبح الرعد بحمده وروى سفيان عن الحكم بن عتيبة عن مجاهد قال الرعد ملك يزجر السحاب بصوته وقال عكرمة الرعد ملك يصوت بالسحاب كالحادي هذه بالإبل

وروي أن ابن عباس كان إذا سمع صوت الرعد قال سبحان الذي سبحت له وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه كان إذا سمع صوت الرعد لهي من حديثه وقال سبحان من سبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثم يقول إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد 20 - ثم قال تعالى ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله (آية 13) يجوز أن تكون الواو واو حال أي يصيب بها من يشاء في حال مجادلته لأنه يروى أن أربد سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنا عن ربنا أهو من نحاس أو من حديد فأرسل الله صاعقة فقتلته

ويجوز ان يكون قوله وهم يجادلون في الله منقطعا من الأول 21 - ثم قال تعالى وهو شديد المحال (آية 13) قال ابن عباس أي الحول وقال قتادة أي الحيلة وقال الحسن المكر وروي عن الحسن أنه قال أي الهلاك وهذه أقوال متقاربة واشبهها بالمعنى والله أعلم أنه الإهلاك

لأن المحل الشدة فكأن المعنى شديد العذاب والإهلاك وقد قال جماعة من أهل اللغة منهم أبو عبيدة وابو عبيد هو المكر من قولهم محل به وأنشد بيت الأعشى

(44/406)

فرع نبع يهتز في غصن المجد غزير الندى شديد المحال وقال أبو عبيد الشبه بقول ابن عباس ان يكون قرأ شديد المحال بفتح الميم فأما الأعرج فالمعروف من قراءته المحال بفتح الميم ومعناه كمعنى الحول من قولهم لا حول ولا قوة إلا بالله فأما معنى المكر من الله فهو إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر 22 - وقوله جل وعز له دعوة الحق (آية 14) روى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال لا إله إلا الله وكذلك قال قتادة والضحاك

23 - ثم قال تعالى والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه (آية 14) قال مجاهد أي يشير إلى الماء بيده ويدعوه بلسانه وقال غيره أي الذي يدعو الأصنام بمنزلة القابض على الماء لا يحصل له شئ 24 - وقوله جل وعز ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها (آية 15) قيل من أسلم طوعا ومن لم يسلم حتى فحص عن رأسه بالسيف فكان أول دخوله كرها وقيل إنما وقع هذا

على العموم لأن كل من عبد غير الله فإنما يقصد إلى ما يعظم في قلبه والله العظيم الكبير

والسجود في اللغة الخضوع والانقياد وليس شئ إلا وهو يخضع لله وينقاد له 25 - ثم قال

تعالى وظلالهم بالغدو والآصال (آية 15) يروى ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله

وهذا من الانقياد والخضوع وقيل الظلال ها هنا الأشخاص

26 - وقوله جل وعز أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم (آية 16) أي

هل رأوا غير الله خلق مثل خلقه فتشابه الخلق عليهم

(45/406)

---

27 - وقوله تعالى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها (آية 17) قال ابن جريج

أخبرني ابن كثير قال سمعت مجاهدا يقول بقدر ملئها قال ابن جريج بقدر صغرها وكبرها

وقرأ الأشهب العقيلي فسالت أودية بقدرها والمعنى واحد وقيل معناها بما قدر لها 28

ثم قال تعالى فاحتمل السيل زبدا رابيا (آية 17) أي طالعا عاليا قال مجاهد تم الكلام 29

- ثم قال تعالى ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله (آية 17)

قال مجاهد المتاع الحديد والنحاس والرصاص قال غيره الذي يوقد عليه ابتغاء حلية

الذهب والفضة 30 - ثم قال تعالى فأما الزبد فيذهب جفاء (آية 17)

قال مجاهد أي جمودا قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله يقال أجفأت القدر إذا غلت حتى ينضب زبدها وإذا جمد في أسفلها قال أبو زيد وكان رؤبة يقرأ فيذهب جفالا يقال جفلت الريح السحاب إذا قطعته وأذهبته

31 - ثم قال تعالى وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض (آية 17) قال مجاهد وهو الماء وهذا مثل للحق والباطل أي إن الحق يبقى وينتفع به والباطل يذهب ويضمحل كما يذهب هذا الزبد وكذهاب خبث هذه الأشياء 32 - ثم قال تعالى كذلك يضرب الله الأمثال (آية 17) تم الكلام 33 - ثم قال جل وعز للذين استجابوا لربهم الحسنى (آية 18) قال قتادة هي الجنة 34 - وقوله تعالى اولئك لهم سوء الحساب (آية 18)

قال أبو الجوزاء عن ابن عباس يعني المناقشة بالأعمال ويدل على هذا الحديث من نوقش الحساب هلك قال فرقد قال لي إبراهيم يا فرقد أتدري ما سوء

الحساب قلت لا قال أن يحاسب العبد بذنبه كله لا يغفر له منه شئ 35 - وقوله تعالى جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم (آية 23) أي من كان صالحا لا يدخلونها بالأنساب 36 - ثم قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (آية 23) أي تكرمة من الله لهم 37 - ثم قال تعالى سلام عليكم بما صبرتم (آية 24)

أي يقولون سلام عليكم بما صبرتم 38 - ثم قال جل وعز فنعم عقبى الدار (آية 24) قال

أبو عمران الجوني فنعم عقبى الدار الجنة من النار 39 - وقوله جل وعز وما الحياة الدنيا

في الآخرة إلا متاع (آية 26) قال مجاهد أي تذهب 40 - قوله عز وجل قل إن الله يضل

من يشاء ويهدي إليه من اناب (آية 27) أناب إذا رجع إلى الطاعة

41 - ثم قال تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله (آية 28) أي بتوحيده والثناء

عليه 42 - ثم قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب (آية 28) أي التي هي قلوب المؤمنين

قال مجاهد يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم 43 - ثم قال تعالى الذين آمنوا

وعملوا الصالحات طوبى لهم (آية 29) قال ابن عباس وابو أمامة طوبى شجرة في الجنة

وكذلك قال عبيد بن عمير وقال مجاهد هي الجنة وقال عكرمة أي نعم ما لهم وقال إبراهيم

طوبى أي خير وكرامة

وهذه الأقوال متقاربة لأن طوبى فعلى من الطيب أي من العيش الطيب لهم وهذه الأشياء

ترجع إلى الشئ الطيب 44 - ثم قال تعالى وحسن مآب (آية 29) قال مجاهد أي مرجع

45 - وقوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى (آية

31) قال ابن عباس قال الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم سير لنا الجبال قطع لنا الأرض

أحيي لنا الموتى

وقال مجاهد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم بعد لنا هذه الجبال وادع لنا أن يكون لنا زرع وقرب منا الشام فإنا نتجر إليه وأحيي لنا الموتى قال قتادة قالت قريش للنبي أحيي لنا الموتى حتى نسألهم عن الذي جئت به أحق هو فأنزل الله ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى

قال لو فعل هذا بأهل الكتاب لفعل بكم وهذه الأقوال كلها توجب أن الجواب محذوف لعلم السامع لأنهم سألوا فكان سؤالهم دليلا على جواب لو ونظيره لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد وقال الشاعر فلو لأنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا فحذف جواب لو أي لتسلت سنة

(47/406)

وفي الحذف من الاية قولان أكثر أهل اللغة يذهب إلى أن المعنى ولو أن قرآن سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن وقال بعضهم المعنى لو فعل بهم هذا لما آمنوا كما قال تعالى ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله قال أبو جعفر وقيل في الكلام تقديم وتأخير والمعنى وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أي وهم يكفرون ولو

وقع هذا 46 - وقوله جل وعز أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا (آية 31) قال أبو جعفر في هذه الاية اختلاف كثير

روى جرير بن حازم عن يعلى بن حكيم وعكرمة عن ابن عباس أنه قرأ أفلم يتبين الذين آمنوا مختصر وفي كتاب خارجة ان ابن عباس قرأ أفلم يتبين للذين آمنوا وروى المنهال بن عمير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس افلم ييأس الذين آمنوا أي افلم يعلم واكثر أهل اللغة على هذا القول وممن قال به أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة قال سحيم بن وثيل اقول لهم بالشعب إذ ييسرونني الم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

ويروى إذ ياسرونني عمرو فمعنى أفلم ييأس الذين آمنوا ألم يعلموا

وروى معاوية بن صالح بن علي بن أبى طلحة عن ابن عباس في قوله أفلم ييأس الذين آمنوا قال افلم يعلم وفي الآية قول آخر قال الكسائي لا أعرف هذه اللغة ولا سمعت من يقول يئست بمعنى علمت ولكنه عندي من اليأس بعينه والمعنى إن الكفار لما سألوا تسيير الجبال بالقرآن وتقطيع الأرض وتكليم الموتى اشرأب لذلك المؤمنون وطمعوا في أن يعطى الكفار ذلك فيؤمنوا فقال الله أفلم ييأس الذين آمنوا أي افلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء لعلمهم أن الله لو أراد أن يهديهم لهداهم كما تقول قد يئست من فلان ان يفلح والمعنى لعلمي به

47 – وقوله تعالى ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة (آية 31) قال ابن عباس يعني السرايا وكذلك قال عكرمة وعطاء الخراساني إلا أن ابا عاصم روى عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس قال النكبة وقال مجاهد قارعة أي سرية ومصيبة تصيبهم والقارعة في اللغة المصيبة العظيمة 48 – ثم قال جل وعز أو تحل قريبا من دارهم (آية 31) قال مجاهد وعكرمة وقتادة أو تحل انت يا محمد قريبا من دارهم حدثنا سعيد بن موسى بقرقيسيا قال حدثنا مخلد بن مالك

عن محمد بن سلمة عن خصيف قال القارعة السرايا التي كان يبعث بها رسول الله أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم قال الحسن أو تحل القارعة قريبا من دارهم 49 – ثم قال تعالى حتى يأتي وعد الله (آية 31) قال مجاهد وقتادة أي فتح مكة 50 – وقوله تعالى افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت (آية 33) قال قتادة هو الله جل جلاله وقال الضحاك يعني نفسه جل وعز وهو القائم على عباده من كان منهم برا ومن كان منهم فاجرا يرزقهم ويطعمهم وقد جعلوا لله شركاء

51 – قال الله قل سموهم ولو سموهم لكذبوا وأنبؤه قبل بما لا يعلمه وذلك قوله تعالى أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض (آية 33) 52 – وقوله تعالى مثل الجنة التي وعد المتقون (آية 35) روى النضر بن شميل عن الخليل قال مثل بمعنى صفة فالمعنى على هذا صفة الجنة

التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار كما تقول صفة فلان أسمر لأن معناه فلان أسمر

وقال أبو إسحاق مثل الله لنا ما غاب بما نراه وكذلك كلام العرب فالمعنى مثل الجنة التي

وعد المتقون جنة تجري من

تحتها الأنهار

(49/406)

---

53 - وقوله تعالى وإليه مآب (آية 36) قال قتادة أي إليه مصير كل عبد 54 - وقوله

تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت (آية 39) وقرأ ابن عباس ويثبت روي عنه يحكم الله جل

وعز أمر السنة في شهر رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت إلا الحياة والموت والشقوة والسعادة

وفي رواية أبي صالح يمحو الله مما كتب الحفظة ما ليس للإنسان وليس عليه ويثبت ما له

وعليه وحدثنا بكر بن سهل قال حدثنا أبو صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي

طلحة عن ابن عباس يمحو الله ما

يشاء يقول يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله وعنده أم الكتاب

يقول جملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ والمنسوخ وكذلك قال قتادة وقال ابن جريج

يمحو الله ما يشاء أي ينسخ وكأن معنى ويثبت عنده لا ينسخه فيكون محكما ويثبت

بالتشديد على التكثير قال أبو جعفر ويثبت بالتخفيف أجمع لهذه الأقوال من يثبت وكان أبو عبيد قد اختار ويثبت على أن أبا حاتم قد أوما إلى أن معناهما واحد وروى عوف عن الحسن قال يمحو من جاء أجله ويثبت من لم يجئ أجله بعد إلى أجله

54 - قوله عز وجل وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب (آية 40) أي إما نرينك بعض ما وعدناك من إظهار دين الإسلام على الدين كله أو نتوفينك قبل ذلك فإنما عليك أن تبلغهم وعلينا أن نحاسبهم فنجازيهم بأعمالهم ثم بين جل وعز أنه كان ما وعد 55 - فقال أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها (آية 41) يظهر الإسلام بإخراج ما في يد المشركين وإظهار المسلمين عليهم

وفي هذه الاية أقوال هذا أشبهها بالمعنى ومن الدليل على صحته قوله جل وعز افلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون وهذا القول مذهب الضحاك وروى سلمة بن نبيط عنه أنه قال في قول الله تعالى أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها قال هو ما

تغلب عليه من بلادهم وروى عكرمة عن ابن عباس قال هو خراب الأرض حتى يكون في ناحية منها أي حتى يكون العمران في ناحية منها وروى سفيان عن منصور عن مجاهد

ننقصها من أطرافها قال الموت موت الفقهاء والعلماء

56 - ثم قال تعالى والله يحكم لا معقب لحكمه (آية 41) قال الخليل لا راد لقضائه قال أبو جعفر والمعنى ليس أحد يتعقب حكمه بنقض ولا تغيير 57 - وقوله تعالى قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب (آية 43) قال ابن جريج عن مجاهد عبد الله بن سلام وقال شعبة عن الحكم عن مجاهد ومن عنده علم الكتاب هو الله تبارك وتعالى وقال سليمان التيمي هو عبد الله بن سلام وقال قتادة منهم عبد الله بن سلام فإنه قال نزل في قرآن ثم تلا ومن عنده علم الكتاب وأذكر هذا القول الشعبي وعكرمة قال الشعبي نزلت هذه الآية قبل أن يسلم عبد الله بن سلام

وقال سعيد بن جبير وعكرمة هذه الاية نزلت بمكة فكيف نزلت في عبد الله بن سلام وقال الحسن أي كفى بالله شهيدا وبالله مرتين يذهب إلى ان من تعود على اسم الله قال أبو جعفر وهذا احسن ما قيل في هذه الاية من وجهات إحداها أنه يبعد ان يستشهد الله بأحد من خلقه ومنها ما أنكره الشعبي وعكرمة ومنها أنه قرئ ومن عنده علم الكتاب بكسر الميم والدال والعين روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان في الرواية ضعف روى ذلك سليمان بن الأرقم عن الزهري بن سالم عن ابيه ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ومن عنده علم وكذلك روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قرآ ولا اختلاف بين المفسرين ان المعنى ومن عند الله فأن

يكون معنى القراءتين واحدا أحسن وروى محبوب عن إسماعيل بن محمد اليماني أنه قرأ ومن عنده علم الكتاب بضم العين ورفع الكتاب قال أبو جعفر وقول من قال هو عبد الله بن سلام وغيره يحتمل أيضا لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا .

والله أعلم بحقيقة ذلك انتهت سورة الرعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 3 صـ 465.510 ﴾

(51/406)

وقال الفراء :

ومن سورة الرعد

قول اللّه جلّ وعزّ : الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها .

جاء فيه قولان . يقول : خلقها مرفوعة بلا عمد ، ترونها : لا تحتاجون مع الرؤية إلى خبر .

ويقال : خلقها بعمد لا ترونها ، لا ترون تلك العمد . والعرب قد تقدم الحجة من آخر الكلمة إلى أوّلها : يكون ذلك جائزا . أنشدنى بعضهم :

إذا أعجبتك الدهر حال من امرئ فدعه وواكل حاله واللياليا

يجئن على ما كان من صالح به وإن كان فيما لا يرى الناس آليا

معناه وإن كان (فيما يرى) الناس لا يألو. وقال الآخر:

ولا أراها تزال ظالمة تحدث لى نكبة وتنكؤها

ومعناها: أراها لا تزال.

وقوله قبل هذه الآية: وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ [1] فموضع (الذي) رفع تستأنفه على الحقّ، وترفع كلّ واحد بصاحبه. وإن شئت جعلت (الذي) فى موضع خفض تريد: تلك

(52/406)

آيات الكتاب وآيات الذي أنزل إليك من ربك فيكون خفضا، ثم ترفع (الحقّ) أي ذلك الحق، كقوله فى البقرة (وَإِنَّ «1» فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) فنرفع على إضمار ذلك الحقّ أو هو الحق. وإن شئت جعلت (الذي) خفضا فخفضت (الحقّ) فجعلته من صفة الذي ويكون (الذي) نعتا للكتاب مردودا عليه وإن كانت فيه الواو كما قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم «2»

فعطف بالواو وهو يريد واحدا . ومثله فى الكلام : أتانا هذا الحديث عن أبى حفص والفاروق وأنت تريد عمر بن الخطّاب رحمه اللّه .

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ [3] أي بسط الأرض عرضا وطولا .

وقوله : (زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) الزوجان اثنان الذكر والأنثى والضربان . يبيّن ذلك قوله (وَأَنَّهُ خَلَقَ «3» الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى) فتبيّن أنهما اثنان بتفسير الذكر والأنثى لهما .

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ [4] يقول : فيها اختلاف وهى متجاورات : هذه طيّبة تنبت وهذه سبخة لا تخرج شيئا .

ثم قال : (وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ) فلك فى الزرع وما بعده الرفع . ولو خفضت كان صوابا . فمن رفع جعله مردودا على الجنّات ومن خفض جعله مردودا على الأعناب أي من أعناب ومن كذا وكذا .

وقوله : (صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ) الرفع فيه سهل لأنه تفسير لحال النخل . والقراءة بالخفض «4» ولو كان رفعا كان صوابا . تريد : منه صنوان ومنه غير صنوان . والصّنوان النّخلات يكون

---

(1) الآيتان 146 ، 147 سورة البقرة .

(2) سبق هذا الشعر فى ص 105 من الجزء الأول .

(3) الآية 45 سورة النجم .

(4) قرأ بالرفع ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب. وقرأ بالخفض غيرهم، كما فى الإتحاف.

(53/406)

أصلهنّ واحدا. وجاء فى الحديث عن النبي صلى اللّه عليه وسلم: إن عمّ الرجل صنو أبيه ثم قال: (تسقى بماءٍ واحِدٍ) و(يُسْقى) «1» فمن قال بالتاء ذهب إلى تأنيث الزروع والجنّات والنخل. ومن ذكّر ذهب إلى النبت: ذلك كلّه يسقى بماء واحد، كلّه مختلف: حامض وحلو.

ففى هذه آية.

وقوله: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ [6] يقول: يستعجلونك بالعذاب وهم آمنون له، وهم يرون العقوبات المثلات فى غيرهم ممّن قد مضى.

هى المثلات وتميم تقول: المثلات، وكذلك قوله: (وَآتُوا «2» النّساءَ صَدُقاتِهِنَّ) حجازية. وتميم: صدقات، واحدها «3» صدقة.

قال الفراء : وأهل الحجاز يقولون : أعطها صدقتها ، وتميم تقول :

أعطها صدقتها فى لغة تميم .

وقوله : إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ [7] قال بعضهم : نبىّ . وقال بعضهم : لكل قوم هاد يتّبعونه ، إمّا بحق أو بباطل .

وقوله : وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ [8] (تَغِيضُ) يقول : فما تنقص من التسعة الأشهر التي هى وقت الحمل (وَما تَزْدادُ) أي تزيد على التسعة أو لا ترى أن العرب تقول : غاضت المياه أي نقصت . وفى الحديث «4» : إذا كان الشتاء قيظا ، والولد غيظا ، وغاضت الكرام غيضا وفاضت اللئام فيضا . فقد تبيّن النقصان فى الغيض .

وقوله : سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ [10] . (من) و(من) فى موضع

---

(1) هذه قراءة ابن عامر وعاصم ويعقوب .

(2) الآية 4 سورة النساء .

(3) كذا . والأولى : «واحدتها»

(4) هذا الحديث فى أشراط الساعة .

رفع ، الذي رفعهما جميعا سواء ، ومعناهما : أن من أسرّ القول أو جهر به فهو يعلمه ، وكذلك قوله :

(وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ) أي ظاهر بالنهار . يقول : هو يعلم الظاهر والسرّ وكلّ عنده سواء .

وقوله : لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ [11] المعقّبات : الملائكة ، ملائكة الليل تعقّب ملائكة النهار «1» يحفظونه . والمعقّبات : ذكران إلّا أنه جميع جمع ملائكة معقّبة ، ثم جمعت معقّبة ، كما قال : أبناوات سعد «2» ، ورجالات جمع رجال .

ثم قال عزّ وجلّ (يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) فرجع إلى التذكير الذي أخبرتك وهو المعنى .

والمعقّبات من أمر اللّه عز وجل يحفظونه ، وليس يحفظ من أمره إنما هو تقديم وتأخير واللّه أعلم ، ويكون (يَحْفَظُونَهُ) ذلك الحفظ من أمر الله وبأمره وبإذنه عز وجلّ كما تقول للرجل : أجيئك من دعائك إيّاى وبدعائك إياى والله أعلم بصواب ذلك .

وقوله : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً : [12] خوفا على المسافر وطمعا للحاضر .

وقوله : (وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ) السحاب وإن كان لفظه واحدا فإنه جمع ، واحدته سحابة . جعل نعته على الجمع كقوله (مُتَّكِئِينَ «3» عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ) ولم يقل :

أخضر ، ولا حسن ، ولا الثقيل ، للسحاب . ولو أتى بشىء من ذلك كان صوابا كقوله :

(جَعَلَ لَكُمْ «4» مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نارًا فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ) فإذا كان نعت شىء من ذا يرجع إلى صغر أو كبر لم تقله إلّا على تأويل الجمع. فمن ذلك أن تقول: هذا تمر طيّب، ولا تقول تمر

---

(1) بعده فى اللسان فى سوق عبارة الفراء: «وملائكة النهار تعقب ملائكة الليل».

(2) اسم لأكثر من قبيلة فى العرب، منهم سعد تميم وسعد قيس وسعد هذيل، كما فى القاموس.

(3) الآية 76 سورة الرحمن.

(4) الآية 80 سورة يس. [.....]

(55/406)

صغير ولا كبير من قبل أن الطيّب عامّ فيه، فوحّد، وأن الصغر والكبر والطول والقصر فى كل تمرة على حدتها.

قوله: لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ: [14] لا إله إلا الله (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ) يعنى الأصنام لا تجيب داعيها بشىء إلا كما ينال الظمآن المشرف على ماء ليس معه ما يستقى به. وذلك قوله عزّ وجلّ:

(إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ) ثم بيّن اللّه عزّ وجلّ ذلك فقال : (لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ) .

وقوله : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً : [15] فيقال : من الساجد طوعا وكرها من أهل السموات والأرض ؟ فالملائكة «1» تسجد طوعا ، ومن دخل فى الإسلام رغبة فيه أو ولد عليه من أهل الأرض فهو أيضا طائع . ومن أكره على الإسلام فهو يسجد كرها (وَظِلالُهُمْ) يقول : كل شخص فظلّه بالغداة والعشىّ يسجد معه . لأن الظلّ يفىء بالعشيّ فيصير فيئا يسجد .

وهو كقوله : (عَنِ الْيَمِينِ «2» وَالشَّمائِلِ) فى المعنى واللّه أعلم . فمعنى الجمع والواحد سواء .

قوله : أَمْ هَلْ تَسْتَوِي «3» الظُّلُماتُ وَالنُّورُ [16] : ويقرأ (أم هل يستوى الظّلمات والنّور) ونقرأ (تَسْتَوِي) بالتاء . وهوقوله : (وَأَخَذَ الَّذِينَ «4» ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) وفى موضع آخر : (وَأَخَذَتِ «5») .

وقوله : أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها [17] :

ضربه مثلا للقرآن إذا نزل عليهم لقوله : (فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها) يقول قبلته القلوب بأقدارها وأهوائها .

---

(1) هذا شروع فى الجواب .

(2) الآية 48 سورة النحل .

(3) هى قراءة أبى بكر وحمزة والكسائي وخلف .

(4) الآية 67 سورة هود .

(5) فى الآية 94 سورة هود .

(56/406)

وقوله : (فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً) يذهب لا منفعة له ، كذلك ما سكن فى قلب من لم يؤمن وعبد آلهته وصار لا شىء فى يده (وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) فهذا مثل المؤمن .

ثم قال عزّ وجلّ : (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ) من الذهب والفضة والنّحاس زبد كزبد السيل يعنى خبثه الذي تحصّله النار فتخرجه من الذهب والفضّة بمنزلة الزبد فى السيل .

وأمّا قوله : (ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ) يقول : يوقدون عليه فى النار يبتغون به الحلّى والمتاع ما يكون من النحاس والحديد هو زبد مثله .

وقوله : (فَيَذْهَبُ جُفاءً) ممدود أصله الهمز يقول : جفأ الوادي غثاءه «1» جفئا . وقيل : الجفاء :

كما قيل : الغثاء : وكل مصدر اجتمع بعضه إلى بعض مثل القماش «2» والدّقاق «3»

والغثاء والحطام فهو مصدر . ويكون فى مذهب اسم على هذا المعنى كما كان العطاء

اسما على الإعطاء ، فكذلك الجفاء والقماش لو أردت مصدره قلت : قمشته قمشا .

والجفاء أي يذهب سريعا كما جاء .

وقوله : وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ [23] سَلامٌ عَلَيْكُمْ [24] .

يقولون : سلام عليكم . القول مضمر كقوله : (وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ «4»

عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا [27] أي يقولون : ربنا ثم تركت

وقوله : اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ [27] .

أي يوسّع ويقدر (أي «5» يقدر ويقتّر) ويقال يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له فى ذلك أي

---

(1) الغثاء ما يحمله السيل من ورق الشجر البالي والزبد وغيره وجف الوادي له : رميه إياه .

(2) القماش : ما يجمع من هنا وهناك .

(3) الدقاق : فتات كل شىء .

(4) الآية 12 سورة السجدة .

(5) سقط ما بين القوسين فى ا .

يخير «1» له. قال ابن عباس: إنّ اللّه عزّ وجلّ خلق الخلق وهو بهم عالم، فجعل الغنى لبعضهم صلاحا والفقر لبعضهم صلاحا، فذلك الخيار للفريقين.

وقوله: طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ [29] رفع «2». وعليه القراءة. ولو نصب طوبى والحسن كان صوابا كما تقول العرب: الحمد للّه والحمد للّه. وطوبى وإن كانت اسما فالنصب يأخذها كما يقال فى السبّ: التراب له والتراب له. والرفع فى الأسماء الموضوعة أجود من النصب.

وقوله: وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ [31] لم يأت «3» بعده جواب للو فإن «4» شئت جعلت جوابها متقدّما: وهم يكفرون - 86 ب ولو أنزلنا عليهم الذي سألوا. وإن شئت كان جوابه متروكا لأن أمره معلوم: والعرب تحذف جواب الشيء إذا كان معلوما إرادة الإيجاز، كما قال الشاعر:

وأقسم لو شىء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

وقوله: (بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا) قال المفسّرون: ييأس: يعلم. وهو فى المعنى على تفسيرهم لأن اللّه قد أوقع إلى المؤمنين أنه لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعا فقال: أفلم ييأسوا علما. يقول: يؤيسهم العلم، فكان فيهم «5» العلم مضمرا كما تقول فى الكلام: قد يئست منك ألّا تفلح علما كأنك قلت: علمته علما.

(1) يقال : خار اللّه لك فى الأمر : جعل لك الخير فيه .

(2) أنظر كتاب سيبويه 1/ 166 .

(3) ا : «فلم» .

(4) سبق له هذا فى تفسير قوله تعالى فى سورة هود : «أفمن كان على بينه من ربه ...» [.....]

(5) فى عبارة الطبري : «فيه» وكذا فى اللسان (يأس) .

(58/406)

وقال الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس قال : ييأس فى معنى يعلم لغة للنخع .

قال الفراء : ولم نجدها فى العربية إلّا على ما فسّرت . وقول الشاعر «1» :

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غضفا دواجن قافلا أعصامها

معناه حتى إذا يئسوا من كل شىء ممّا يمكن إلا الذي ظهر لهم أرسلوا . فهو معنى حتى إذا علموا أن ليس وجه إلا الذي رأوا أرسلوا . كان ما وراءه يأسا .

وقوله : (وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ) القارعة : السريّة من السرايا (أَوْ تَحُلُّ) أنت يا محمد بعسكرك (قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ) .

وقوله: أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ [33]. ترك جوابه ولم يقل: ككذا وكذا لأن المعنى معلوم. وقد بيّنه ما بعده إذ قال: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ) كأنه فى المعنى قال: كشركائهم الذين اتّخذوهم، ومثله قول الشاعر:

تخيّرى خيّرت أمّ عال بين قصير شبره تنبال «2»

أذاك أم منخرق «3» السربال ولا يزال آخر الليالى

متلف مال ومفيد مال تخيّرى بين كذا وبين منخرق السربال. فلمّا أن «4» أتى به فى الذكر كفى من إعادة الإعراب «5» عليه.

---

(1) هو لبيد فى معلقته والبيت فى وصف كلاب الصيد والغضف كلاب الصيد لغضف آذانهن وهو إقبالها على القفا.

و«دواجن» ألفن البيوت. و«قافلا» يابسا. والأعصام القلائد.

(2) الشبر: القد والقامة. والتنبال: القصير.

(3) منخرق السربال كأنه كناية عمن يشتغل فى خدمة أهله، فينخرق سرباله، والسربال الثوب والقميص

(4) سقط فى ا.

(5) أي البيان والتصريح بما هو معلوم

وقوله : (فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ) باطل «1» المعنى ، أي أنه ظاهر فى القول باطل المعنى .

ويقرأ : (وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ) وبعضهم (وصدّوا) يجعلهم «2» فاعلين .

وقوله : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ [35] يقول : صفات الجنة .

قال الفراء : وحدّثنى بعض المشيخة عن الكلبىّ عن أبى عبد الرحمن السّلمىّ أن عليّا قرأها : (أمثال الجنّة) قال الفراء أظن دون «3» أبى عبد الرحمن رجلا قال : وجاء عن أبى عبد الرحمن ذلك والجماعة على كتاب المصحف .

وقوله : (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) هو الرافع . وإن شئت للمثل الأمثال فى المعنى كقولك : حلية فلان أسمر وكذا وكذا . فليس الأسمر بمرفوع بالحلية ، إنما هو ابتداء أي هو أحمر أسمر ، هو كذا .

ولو دخل فى مثل هذا أن كان صوابا . ومثله فى الكلام مثلك أنك كذا وأنك كذا . وقوله : (فَلْيَنْظُرِ «4» الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ أَنَّا) من وجه (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) ومن قال (أَنَّا صَبَبْنَا «5» الْماءَ) بالفتح أظهر «6» الاسم لأنه مردود على

الطعام بالخفض أو مستأنف أي طعامه أنا صببنا ثم فعلنا .

وقوله لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ [38] جاء التفسير : لكل كتاب أجل . ومثله (وَجاءَتْ «7» سَكْرَةُ

---

(1) فى الأصول : «باطن» والتصويب من تفسير الطبري .

(2) القراءة الأولى لعاصم وحمزة والكسائي وخلف ، والأخرى لغيرهم .

(3) أي سقط فى الإسناد رجل بين الكلبي والسلمى .

(4) الآيتان 24 ، 25 سورة عبس . وكسر (إنا) قراءة غير عاصم وحمزة والكسائي وخلف ، والفتح قراءة هؤلاء كما فى الإتحاف .

(5) الآيتان 24 ، 25 سورة عبس . وكسر (إنا) قراءة غير عاصم وحمزة والكسائي وخلف ، والفتح قراءة هؤلاء كما فى الإتحاف .

(6) كذا فى ا . وفى ش : «أضمر» .

(7) الآية 19 سورة ق .

الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) وذلك عن أبى بكر الصّديق رحمه اللّه : (وجاءت سكرة الموت بالحقّ) لأن الحقّ 87 ا أتى بها وتأتى به . فكذلك تقول : لكل أجل مؤجّل ولكل مؤجّل أجل والمعنى واحد واللّه أعلم .

قوله : يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ [39] (ويثبّت) مشدّد قراءة أصحاب عبد اللّه وتقرأ و(يُثْبِتُ «1») خفيف . ومعنى تفسيرها أنه - عزّ وجلّ - ترفع إليه أعمال العبد صغيرها وكبيرها ، فيثبت ما كان فيه عقاب أو ثواب ويمحو ما سوى ذلك .

وقوله : وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ [40] وأنت حىّ .

(أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ) يكون بعد موتك (فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ) .

وقوله : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها [41] جاء : أولم ير أهل مكّة أنا نفتح لك «2» ما حولها . فذلك قوله (نَنْقُصُها) أي أفلا يخافون أن تنالهم . وقيل (نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها) بموت العلماء .

وقوله : (لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) يقول : لا راد لحكمه إذا حكم شيئا «3» والمعقّب الذي يكرّ على الشيء . وقول لبيد :

حتّى تهجّر فى الرّواح وهاجه طلب المعقّب حقّه المظلوم «4»

من ذلك لأن (المعقّب صاحب الدين يرجع على صاحبه فيأخذه منه ، أو من أخذ منه شىء فهو راجع ليأخذه .

(1) هذه قراءة ابن كثير وأبى عمرو وعاصم ويعقوب . [. . . . . .]

(2) ا : «عليك» .

(3) شىء : «بيننا» .

(4) هذا من شعره فى وصف الحمار الوحشي وأتانه ، يبحث معها عن أرض يستطيبها . والتهجر : السير فى الهاجرة وهى شدة الحر يذكر أنه أثاره على السير طلب ما يرعاه ، وقد أجدبت الأماكن التي كان يرتادها فكأنما أصابه ظلم فى ذلك فهو يدفعه بطلب المرعى فى موضع آخر فهو يغذ السير ولا يبالى الهاجرة .

(61/406)

وقوله : وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ [42] على الجمع «1» وأهل المدينة (الكافر) .

وقوله : وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ [43] يقال عبد اللّه بن سلام . و(من عنده «2») خفض مردود على اللّه عزّ وجل . حدثنا الفراء قال : وحدثنى شيخ عن الزّهرىّ رفعه إلى عمر بن الخطاب أنه لما جاء يسلم سمع النبي صلى اللّه عليه وسلم وهو يتلو (ومن عنده علم الكتاب) حدثنا الفراء قال وحدّثنى شيخ عن رجل عن الحكم بن عتيبة (ومن عنده علم الكتاب) ويقرأ (ومن عنده علم الكتاب) بكسر الميم من (من) . انتهى انتهى . ا ه

﴿ معانى القرآن / للفراء جـ 2 صـ 57.67 ﴾

---

(1) هى قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف.

(2) هى قراءة الحسن والمطوعى، كما فى الإتحاف.

(62/406)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الرعد

(بغير عمد ترونها) [2] أي: بعمد لا ترونها، كما قال ابن هرمة: 614- إن سليمى والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزؤها 615- فلا أراها تزال ظالمة تحدث بي قرحة وتنكؤها . أي: أراها لا تزال ظالمة.

وقال قتادة: معناه بل رفعها بغير عمد وترونها كذلك. [و]هذا القول أدل على القدرة، وأثبت عند النظر والمشاهدة. / (كل يجري لأجل مسمى) [2] في أدوارها وأكوارها .

([و]من كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) [3] أي: نوعين اثنين من الحلو والحامض، والرطب واليابس، والنافع والضار.

فهو من مشاكلة النقيض للنقيض، لأن الأشكال تقابل بالنقائض أكثر مما [تقابل] بالنظائر .

(صنوان) [4] مجتمعة متشاكلة. قال ابن عباس: هي النخلات أصلها واحد. (المثلات) [6] العقوبات التي يمثل بها المعاقب. واحد [ها] مثلة [ك]صدقة وصدقات. (ولكل قوم هاد) [7] أي: سابق يؤديهم إلى الهدى.

(وما تغيض الأرحام) [8] ما تنقص من مدة الولادة (وما تزداد) عليها. [و]قيل: ما تغيض الأرحام من استواء الخلق، (وما تزداد) من الحسن وسلامة النية، والطول والعرض في الجثة.

(ومن هو مستخف بالليل) [10]

مخف عمله في ظلمة الليل. قال: 616- فإنكما يا [ا]بني حباب وجدتما كمن دب يستخفي وفي العنق جلجل. (وسارب) [10]

ذاهب سارح. قال: 617- أنت وهبت الفتية السلاهب 618- وهجمة يحار فيها الحالب 619- وغنماً مثل الجراد السارب 620- متاع أيام وكل ذاهب. (معقبات) [11] أي: الملائكة الذين يتعاقبون بأمر الله وحكمه في العالم. يقال: عقب وعاقب وتعاقب. (يحفظونه من أمر الله)

قال إبراهيم: فيه تقديم وتأخير، أي: له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه. (من وال) [11] من ولي يليهم. وقيل: من ملجأ. (شديد المحال) [13] شديد الحول والقوة، عن مجاهد. والمكر: عن ثعلب، وأنشد/:

621- مصاد بن عمرو والخطوب كثيرة ألم تر أن الله يمحل بالألف 622- فلا غرو ألا نوزهم من نبالنا كما اصعنفرت معزى الحجاز من الشعف . (كباسط كفيه إلى الماء) [14] العرب تضرب المثل لما لا يدرك ، أو يفوت عن سريع بالقبض على الماء . قال:

623- فأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء [خانته] فروج الأصابع .

[و]قال آخر: 624- وأصبحت مما كان بيني وبينها [من الود مثل القابض الماء باليد .

وقال آخر: 625- وإي وإياكم وشوقاً إليكم كقابض ماء لم [تسقه] أنامله . (أنزل من السماء ماء فسالت أودية) [17]

يعني القرآن ، فإنه في عموم نفعه كالمطر ، نفع حيث وقع ، كما قيل: 626- ليهنك أني لم أجدلك عائباً سوى حاسد والحاسدون كثير 627- وأنك مثل الغيث أما وقوعه فخصب وأما ماؤه فطهور . وأيضاً فإن نفع المطر يختلف باختلاف الأودية ، كذلك نفع القرآن [يختلف] باختلاف المتدبرين . وجفاء السيل وخبث ما يذاب من الجوهر ، مثل الباطل وذهابه ، وصفو الماء مثل الحق في بقائه ونقائه .

(طوبى لهم) [29] نعمى لهم . وقيل: حسنى . و[قيل:] هو فعلى من الطيب . (ولو أن

قرءاناً سيرت به الجبال) [31] نزلت حين سألت قريش هذه الأشياء ، وإنما حذف جوابه ، ليكون أبلغ في

العبارة ، وأعم في الفائدة . كما قال امرؤ القيس: 628- فلو أنها نفس تموت كريمة ولكنها نفس تساقط أنفسا . (أفلم ييأس الذين ءامنوا) [31] أي: لم يعلم ، ولم يتبين ، في لغة جرهم . قال سحيم/: 629- أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني ألم [تيأسوا] أني ابن فارس زهدم .

ييسرونني: يقتسمونني بالميسر . وإنما سمي العلم يأساً ، لأن العالم يعلم ما لا يكون ، أنه لا يكون فييأس منه ، بخلاف الجاهل . وقال الكسائي والفراء: هو اليأس المعروف ، أي: القنوط . وفي الآية حذف ، وهو عند الفراء: أفلم ييأسوا ، لأنهم يعلمون أن آيات الله تجري على المصالح ، لا الاقتراح العنادي . وعند الكسائي: ألم ييأسوا من [إيمان الكافرين] .

(64/406)

(وجعلوا لله شركاء قل سموهم) [33] أي: آلهة كما تزعمون . وقيل: معناه صفوهم بما فيهم ، لتعلموا أنها لا تكون آلهة . (أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض) [33] بالشريك ، فلا يعلم شريكاً لنفسه فيها ، كقوله: (قل أتنبئون الله بما لا يعلم) . (أم بظاهر من القول) أي:

بباطل زائل. كما قال: 630- أعيرتنا ألبانها ولحومها وذلك عار يا [ا]بن ريطة ظاهر.

وقال الهذلي: 631- وعيرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر [عنك] عارها

632- فلا تهنئ الو[ا]شين أني هجرتها وأظلم دوني ليلها ونهارها. قال أبو القاسم بن حبيب: تضمنت الآية إلزاماً [تقسيماً] أي: أتنبؤن الله بباطن لا يعلمه، أم بظاهر يعلمه، [فإن قالوا: بباطن لا يعلمه، أحالوا، وإن قالوا: بظاهر يعلمه،] قل: سموهم، فإنه لا يعلم لنفسه سمياً ولا شريكاً.

(مثل الجنة) [35] صفتها، كقوله: (ولله المثل الأعلى). (يمحو الله ما يشاء ويثبت) [39] أي: من الأعمال التي رفعها الحفظة، فلا يثبت منها إلا ما له ثواب أو عليه عقاب. وعن ابن عباس: أن الله يمحو ويثبت ما في الكتب من أمور [العباد] على حسب اختلاف المصالح، إلا [أ]صل السعادة والشقاوة/فإنه في أم الكتاب لا تغيير له.

(لا معقب لحكمه) [41] لا راد [لقضائه]، من قولهم: عقب الحاكم [حكم] من قبله، إذا رده. (ومن عنده علم الكتاب) [43] قيل: إنه جبريل. وقيل: إنه مثل عبد الله بن سلام وتميم الداري.

(تمت سورة الرعد]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 739.756﴾

وقال الأخفش :

سورة (الرعد)

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾

قال ﴿ كُلٌّ يَجْرِي ﴾ يعني كله كما تقول: "كلٌّ مُنْطَلِقٌ" أي: كلُّهُم .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي الْلَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وقال ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ فواحدتها "راسِيَةٌ" .

﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

وقال ﴿ يُسْقَى بِمَآءٍ وَاحِدٍ ﴾ فهذا التأنيث على "الجَنَّاتِ" وإِنْ شِئْتَ على "الأَعْنابِ" لأَنَّ "الأعْناب" جماعة من غير الإِنْس فهي مؤنثة إلاّ أنَّ بعضهم قرأها (يُسْقَى بماءٍ واحِدٍ) فجعله على الأَعْناب كما ذكر "الأَنعام" فقال ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ ثم أنث بعد فقال ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ فمن قال (يُسْقَى) بالياء جعل "الأَعْناب" مما يؤنّث ويذكّر مثل "الأَنعام" .

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَائِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَائِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ﴾

(66/406)

وقال ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وفي موضع آخر ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ فالاخر هو الذي وقع عليه الاستفهام والأول حرف*** ، كما تقول "أَيَوْمَ الجُمُعَةِ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ" . ومن أوقع استفهاما آخر جعل قوله ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ ظرفا لشيء مذكور قبله ، ثم جعل هذا الذي استفهم عنه استفتها ما آخر وهذا بعيد . وان شئت لم تجعل في قولك (أَإِذا) *** استفهاما وجعلت الاستفهام في اللفظ على "أَإِنّا" ، كأنك قلت "يوم الجمعة أعبد الله منطلق" واضمرت فيه . فهذا موضع قد ابتدأت فيه "إذا" وليس بكثير في الكلام و ولو قلت "اليومَ إنّ عَبْدَ اللهِ مُنطَلِقٌ" [140] لم يحسن وهو جائز . وقد قالت العرب "مَا عَلِمْتُ إنه لَصالِح" يريد : إنّه لَصالِحٌ ما عَلِمْتُ .

﴿ سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾

وقال ﴿ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ فقوله ﴿ مُسْتَخْفٍ ﴾ يقول: ظاهِرٌ .

و"السارِب" : المُتَوارِي . وقد قرئت (أَخفيها) أي: أُظْهِرُها لأَنَّكَ تقول "خَفَيْتُ السِّرَّ" أَيْ:

أَظْهَرْتُهُ وأَنْشَدَ: [من المتقارب وهو الشاهد السادس والثلاثون بعد المئتين]:

إِنْ تَكْتُموا الداءَ لا نَخْفِهِ * وَإِنْ تَبْعَثُوا الحَرْبَ لا نَقْعُدِ

والضم أَجْوَدُ. وزعموا أَنَّ تفسير (أَكادُ): أُريد وأَنَّها لُغَةٌ لأَن "أُرِيدُ" قد تجعل مكان "أَكادُ" مثل (جِداراً يُريدُ أنْ يَنْقَضَ) أي: "يَكادُ أَنْ يَنْقَضَّ" فكذلك "أَكادُ" إِنَّما هي: أُريدُ. وقال الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد السابع والثلاثون بعد المئتين]:

كَادَتْ وكِدْتُ وتِلْكَ خَيْرُ إِرادَةٍ * لَوْ عادَ مِنْ لَهْوِ الصَبَّابَةِ ما مَضَى

(67/406)

وَأَمّا "المُعَقّباتُ" فإنما أُنِّثَت لكثرة ذلك منها نحو "النَّسّابَة" و"العَلاّمَة" * ثم ذكر لأن المعنى مذكر فقال (يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ)

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾

وقال ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ و ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ فجعل "الغُدُوّ" يدل على الغَداةِ وإنما "الغُدُوّ" فِعْلٌ، وكذلك "الإِبْكار" انما هو من "أَبْكَرَ" "إِبْكاراً"، والذين قالوا (الأَبْكار) احجوا بأنهم جمعوا "بُكْراً" على "أَبْكار". و"بُكْرٌ" لا تجمع [140 ب] لانه اسم ليس بمتمكن وهو أيضاً مصدر مثل "الإِبْكار" فاما الذين جمعوا فقالوا إنما جمعنا "بُكْرَةً"

و"غُدْوَةً" . ومثل "البُكْرَة" و"الغدْوَة" لا يجمع هكذا . لا تجىء "فُعْلَة" و"أفعال" وانما تجيء "فُعْلَة" و"فُعَل" .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

وقال ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ فهذه "أَمْ" التي تكون منقطعة من اول الكلام .

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾

(68/406)

وقال ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ تقول: "أَعْطِني قَدْرَ شِبْرٍ" و"قَدَرَ شِبْرٍ" وتقول: "قَدَرْتُ" و"أَنَا أَقْدُرُ" "قَدْراً" فأما المِثْلُ ففيه "القَدْرُ" و"القَدَرَ" .

وقال ﴿ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ يقول: "ومن ذلك الذي يوقدون عليه زَبَدٌ مثله" قول: "ومن ذلك الذي يوقدون عليه زبد مثل هذا" .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

وقال ﴿ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ [23] سَلاَمٌ عَلَيْكُم ﴾ أي: يقولون "سلامٌ عليكم" .

﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾

وقال: ﴿ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ فـ (طُوبَى) في موضع رفع يدلك على ذلك رفع (وَحُسْنُ مآبٍ) وهو يجري مجرى "وَيْلٌ لِزيدٍ" لأنك قد تضيفها بغير لام تقول "طُوباكَ" ولو لم تضفها لجرت مجرى "تَعْساً لِزَيْدٍ" . وان قلت: "لَكَ طُوبى" لم يَحْسُن كما لا تقول: "لَكَ وَيْلٌ" .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

وقال ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ فهذا في المعنى "أَفَمَنْ هو قائم على كل نفس مثل شركائهم" ، وحذف فصار [141] (وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ) يدل عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 401 .

405 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الرعد

مكية كلها

2 - وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ذلّلهما وقصرهما على شيء واحد .

3 - جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أي من كل الثمرات لونين حلوّ وحامضا . والزّوج : هو اللون الواحد .

4 - وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ يعني قرى متجاورات .

و(الصّنوان) من النخل : النخلتان أو النخلات يكون أصلها واحدا .

وَغَيْرُ صِنْوانٍ يعني متفرق الأصول . ومن هذا قيل : بعض الرجل صنو أبيه .

وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ أي في الثمر .

6 - وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ أي بالعقوبة .

وأصل المثلة : الشّبه والنظير وما يعتبر به . يريد من خلا من الأمم .

7 - وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ أي نبي يدعوهم .

8 - وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ أي ما تنقص في الحمل عن تسعة أشهر من السقط وغيره .

وَما تَزْدادُ على التسعة. يقال: غاض الماء فهو يغيض إذا نقص، وغضته.

10 - وَسارِبٌ بِالنَّهارِ أي متصرّف في حوائجه. يقال: سرب يسرب. وقال الشاعر:

أرى كلّ قوم قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أي ذاهب.

11 - لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ يعني: ملائكة يعقب بعضها بعضا في الليل والنهار، إذا مضى فريق خلف بعده فريق.

يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أي بأمر اللّه.

وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ أي وليّ. مثل: قادر وقدير. وحافظ وحفيظ.

12 - يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً للمسافر، وَطَمَعاً للمقيم.

13 - وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ أي الكيد والمكر. وأصل المحال: الحيلة. والحول: الحيلة. قال ذو الرّمة:

وليس بين أقوام فكلّ أعدّ له الشغازب والمحالا

14 - لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ أي لا يصير في أيديهم منه

إذا دعوهم إلّا ما يصير في يدي من قبض على الماء ليبلغه فاه. والعرب تقول لمن طلب ما لا يجد: هو كالقابض على الماء. قال الشاعر:

فإني وإيّاكم وشوقا إليكم كقابض ماء لم تسقه أنامله

لم تسقه: أي لم تحمله، والوسق: الحمل.

15 - وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً أي

(71/406)

يستسلم وينقاد ويخضع. وقد بينت هذا في تأويل «المشكل».

17 - فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها أي على قدرها في الصغر والكبر.

فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً أي زبدا عاليا على الماء.

ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أي حلى، أَوْ مَتاعٍ أو آنية. يعني: أن من فلزّ الأرض وجواهرها مثل الرصاص والحديد والصّفر والذهب والفضة - خبثا يعلوها إذا أذيبت، مثل زبد الماء.

والجفاء ما رمى به الوادي إلى جنباته. يقال: أجفأت القدر بزبدها: إذا ألقت زبدها عنها.

22 - وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أي يدفعون السيئة بالحسنة، كأنهم إذا سفه عليهم

حلموا . فالسّفه سيئة والحلم حسنة . ونحوه ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ [سورة فصلت آية : 34] .

ويقال : درأ اللّه عنّي شرّك : أي دفعه . فهو يدرؤه درءا .

24 - يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ أي يقولون : سلام عليكم . فحذف اختصارا .

31 - وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى «1» أراد لكان هذا القرآن . فحذف اختصارا .

أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أي أفلم يعلم . ويقال : هي لغة للنخع .

وقال الشاعر :

---

(1) أخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس قال : قالوا للنبي صلّى اللّه عليه وسلم إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول نكلمهم من الموتى وافسح لنا هذه الجبال جبال مكة القي قد ضمتنا فنزلت : وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ الآية .

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أنّي ابن فارس زهدم

أي ألم تعلموا .

قارِعَةٌ داهية تقرع أو مصيبة تنزل . وأراد أن ذاك لا يزال يصيبهم من سرايا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم .

32 - فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أي أمهلتهم وأطلت لهم .

33 - أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ . هو اللّه القائم على كل نفس بما كسبت يأخذها بما جنت ويثيبها بما أحسنت . وقد بينت [معنى] القيام في مثل هذا في كتاب «المشكل» .

38 - لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ أي وقت قد كتب .

39 - يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ «1» أي ينسخ من القرآن ما يشاء وَيُثْبِتُ أي يدعه ثابتا فلا ينسخه ، وهو المحكم وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ أي جملته وأصله .

وفي رواية أبي صالح : أنه يمحو من كتب الحفظة ما تلكم به الإنسان مما ليس له ولا عليه ، ويثبت ما عليه وما له .

41 - نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أي بموت العلماء والعبّاد ويقال : بالفتوح على المسلمين . كأنه ينقص المشركين مما في أيديهم .

لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ أي لا يتعقبه أحد بتغيير ولا نقص . انتهى انتهى . اه ﴿ تأويل مشكل

القرآن صـ 193.196 ﴿

(1) اخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قالت قريش حين أنزل: وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ما نراك يا محمد تملك للّه شيء لقد فرغ من الأمر فأنزل اللّه:

يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ.

(73/406)

وقال الغزنوى:

ومن سورة الرعد

2 بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها: أي: بعمد لا ترونها «1». بل معناه: بغير عمد وترونها كذلك «2».

و «العمد» جمع «عمود» «3» وعمدته: أقمته.

ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ: استولى بالاقتدار ونفوذ السلطان «4».

كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى: في أدوارها وأكوارها «5».

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: (16/ 323، 324) عن ابن عباس،

ومجاهد، وذكره الفراء في معانيه: 2/ 57، فقال: «خلقها بعمد لا ترونها، لا ترون تلك العمد. والعرب قد تقدم الحجة من آخر الكلمة إلى أولها يكون ذلك جائزا».

(2) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج: 3/ 136.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 315 عن قتادة، وإياس بن معاوية.

قال الطبري في تفسيره: 16/ 325: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال الله تعالى: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها فهي مرفوعة بغير عمد تراها، كما قال ربنا جل ثناؤه ولا خبر بغير ذلك، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه».

(3) في تفسير الطبري: 16/ 322: «و العمد» جمع عمود، وهي السّواري، وما يعمد به البناء، ... وجمع «العمود» عمد، كما جمع «الأديم» أدم، ولو جمع بالضم فقيل «عمد» جاز، كما يجمع «الرسول» رسل، و«الشكور» شكر».

وانظر المفردات للراغب: 346، وتفسير البغوي: 3/ 5، وتفسير الفخر الرازي: 18/ 236.

(4) ينظر تفسير «الاستواء» فيما سبق 78، ومذهب السلف في «الاستواء» أنه معلوم والكيف مجهول.

(5) قال الراغب في المفردات: 443: «كور الشيء إدارته وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة، وقوله: يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ فإشارة إلى جريان الشمس

في مطالعها وانتقاص الليل والنهار وازديادهما» .

وانظر الصحاح: 2/ 810، واللسان: 5/ 156 (كور) .

(74/406)

---

3 وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ: نوعين اثنين من الحلو والحامض، والرّطب واليابس، والنافع والضار ولهذا لم يقع الاكتفاء ب «الزوجين» عن «الاثنين» «1» .

4 صِنْوانٌ: مجتمعة متشاكلة «2» . قيل «3» : هي النخلات، أصلها واحد، وركيّتان «4» صنوان إذا تقاربتا ولم يكن بينهما حوض.

و «المثلات» «5» : العقوبات يمثّل بها «6» ، واحدها «مثله»/ [49/ أ] ك «صدقة» و «صدقات» «7» .

8 وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ: تنقص من مدة الولادة، وَما تَزْدادُ عليها.

أو ما تغيض من استواء الخلق، وما تزداد من الحسن والجثّة.

---

(1) عن تفسير الماوردي: 2/ 316.

وأورده المؤلف في كتابه وضح البرهان: 1/ 472، وأضاف: «فهو من مشاكلة النقيض للنقيض، لأن الأشكال تقابل بالتناقض أكثر مما تقابل بالنظائر» .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 321 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 224 ، وتفسير الطبري : 16/ 329 ، وتفسير القرطبي : 9/ 281 . [. . . . .]

(2) ذكره نحوه الماوردي في تفسيره : 2/ 317 ، وقال : «قاله بعض المتأخرين» .

(3) عزاه المؤلف في وضح البرهان : 1/ 472 إلى ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأخرجه الطبري في تفسيره : (16/ 335 - 338) عن البراء بن عازب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

وذكره الفراء في معاني القرآن : 2/ 58 ، وأبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 322 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 224 .

(4) الركيّة : البئر .

الصحاح : 6/ 2361 ، واللسان : 14/ 334 (ركا) .

(5) من قوله تعالى : وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ . . . [آية : 6] .

(6) ينظر تفسير الطبري : 16/ 350 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 472 ، وتفسير الماوردي :

2/ 318 ، وتفسير القرطبي : 9/ 284 .

(7) معاني القرآن للفراء : 2/ 59 ، وتفسير الطبري : 16/ 350 .

وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ : أي : كل ما يفعله - تعالى - على مقدار الحكمة والحاجة بلا زيادة ولا نقصان .

10 مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ : مخف عمله في ظلمة اللّيل «1» .

وَسارِبٌ : ذاهب سارح «2» . وقيل : [هو] «3» الداخل في سربه ، أي : مذهبه «4» . مستتر فيها .

11 لَهُ مُعَقِّباتٌ : الملائكة «5» ، يتعاقبون بأمر اللّه في العالم ، يأتي بعضهم في عقب بعض . عقّب وعاقب وتعقّب وتعاقب . وفي الحديث «6» : «كان عمر يعقّب

---

(1) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 320 .

وانظر تفسير الطبري : 16/ 366 ، وزاد المسير : 4/ 309 .

(2) عن تفسير الماوردي : 2/ 320 ، ونص كلامه : «والسارب : هو المنصرف الذاهب ، مأخوذ من السّروب في المرعى ، وهو بالعشي ، والسروح بالغداة . . .» .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 225 ، والمفردات للراغب : 229 .

(3) عن نسخة «ج» .

(4) في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 323 : «مجازه : سالك في سربه ، أي : مذاهبه

ووجوهه، ومنه قولهم: أصبح فلان آمنا في سربه، أي في مذاهبه وأينما توجه».

وانظر تفسير الطبري: 16/ 367، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 141، وتفسير البغوي:

3/ 9، والمفردات للراغب: 299 . .

(5) ينظر تفسير الطبري: 216/ 370، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 142،

وتفسير البغوي:

3/ 9، وزاد المسير: 4/ 310.

وفي الحديث المرفوع: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون».

صحيح البخاري: 1/ 139، كتاب مواقيت الصلاة، باب «فضل صلاة العصر».

صحيح مسلم: 1/ 439، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب «فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما».

(6) أخرجه أبو داود في سننه: 3/ 364، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب «في تدوين العطاء».

وانظر غريب الحديث لابن الجوزي: 2/ 110، والنهاية: 3/ 267.

الجيوش كل عام» ، أي : يردّ قوما ويبعث آخرين .

يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ : بما أمرهم اللّه به ، تقول : جئتك من دعائك ، أي : بدعائك «1» .

13 وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ : يدعو إلى تسبيح اللّه بما فيه من الآيات «2» .

وَالْمَلائِكَةُ : الملك على مفهوم دين نبينا - صلوات اللّه عليه - جسم رقيق «3» هوائيّ حيّ على الصورة المخصوصة ذات الأجنحة «4» ، اصطفاه اللّه تعالى لرسالته وعظّمه على غيره .

والرّعد : اصطكاك أجرام السحاب بقدرة اللّه «5» .

والصّاعقة : نار لطيفة تسقط من السماء بحال هائلة «6» .

---

(1) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 60 ، وقال : «كما تقول للرجل : أجبتك من دعائك وإياي وبدعائك إياي» .

وانظر تفسير الطبري : 16/ 386 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 142 ، وزاد المسير : 4/ 311 .

(2) الأولى إجراء التسبيح على ظاهره ، ولا حاجة لمثل هذا التأويل ، فالقرآن أثبت

التسبيح للجمادات جميعا ، قال تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .

وقال الشوكاني في تسبيح الرعد : «أي» : يسبح الرعد نفسه بحمد اللّه ، أي ملتبسا بحمده ، وليس هذا بمستبعد ، ولا مانع من أن ينطقه بذلك . . . » .

ينظر فتح القدير : 3/ 72 . [. . . . .]

(3) وهم مخلوقون من نور كما في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه :

4/ 2294 ، كتاب الزهد والرقائق ، باب أحاديث متفرقة عن عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار . . . » .

(4) يدل عليه قوله تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ . . . [آية : 1 من سورة فاطر] .

(5) تفسير الفخر الرازي : 2/ 87 .

(6) قال الفخر الرازي في معنى الصاعقة : «إنها قصف رعد ينقض منها شعلة من نار . وهي نار لطيفة قوية لا تمر بشيء إلا أتت عليه إلا أنها مع قوتها سريعة الخمود» . تفسيره : 2/ 88 .

شَدِيدُ الْمِحالِ: عظيم الحول والقوة «1» ، أو المكر وهو العقوبة «2» على وجه الاستدراج.

14 لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ: أي: للّه دعوة الحقّ من خلقه، وهي شهادة أن لا إله إلّا اللّه على إخلاص التوحيد «3».

وقال الحسن «4»: اللّه الحق فمن دعاه دعا بحق «5».

15 وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً: أي: السجود واجب اللّه، فالمؤمن يفعله طوعا والكافر يؤخذ به كرها «6».

أو الكافر في حكم الساجد وإن أباه، لما فيه من الحاجة الداعية إلى الخضوع. وأما سجود الظل «7» فيما فيه من التغيّر الدّال على مغيّر غير متغيّر.

وَالْآصالِ: جمع «أصل»، و«أصل» جمع «أصيل» وهو ما بين

---

(1) أخرج الطبري في تفسيره: 16/ 396 عن مجاهد قال: «شديد القوة»، كذا أخرجه عن ابن زيد.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 333، والبغوي في تفسيره: 3/ 11، وابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 316 عن مجاهد أيضا.

(2) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 325 ، وذكره البغوي في تفسيره : 3/ 11

، وابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 316 .

(3) أخرج عبد الرزاق هذا القول في تفسيره : 260 عن ابن عباس ، وقتادة .

وأخرجه الطبري في تفسيره : 16/ 398 عن ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد .

واختاره الطبري رحمه اللّه .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 628 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وابن المنذر ،

وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، والبيهقي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(4) ينظر قوله في الكشاف : 2/ 354 ، وزاد المسير : 4/ 317 ، وتفسير الفخر

الرازي :

19/ 30 ، وتفسير القرطبي : 9/ 300 .

(5) في «ج» : الحق .

(6) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 61 ، وتأويل مشكل القرآن : 418 ، وتفسير

الطبري :

16/ 403 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 144 ، وتفسير الماوردي : 2/ 325 .

(7) من قوله تعالى : وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ .

العصر إلى المغرب.

17 أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ يعني القرآن فإنه في عموم نفعه كالمطر «1».

29 طُوبى لَهُمْ: نعمى «2»، أو/ حسنى «3» «فعلى» من الطّيّب، [49/ ب] تأنيث الأطيب.

31 وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ: حين سألت قريش هذه المعاني «4»، وحذف جوابها ليكون أبلغ عبارة وأعمّ فائدة.

أَفَلَمْ يَيْأَسِ: لم يعلم ولم يتبين «5»، سمّي العلم يأسا لأنّ العالم يعلم ما لا يعلم غيره فييأس منه، أو هو اليأس المعروف «6»، أي: لم ينقطع

---

(1) معاني القرآن للفراء: 2/ 61.

وقال الماوردي في تفسيره: 2/ 327: «وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن وما يدخل منه في القلوب، فشبه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه، وشبه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية من الماء بحسب سعتها وضيقها».

(2) نقله ابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 328، عن عكرمة.

وكذا القرطبي في تفسيره: 9/ 316، وأبو حيان في البحر المحيط: 5/ 389.

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 16/ 435 عن قتادة.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 330، والبغوي في تفسيره: 3/ 18، وابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 328 عن قتادة أيضا. [.....]

(4) سألت قريش إحياء الموتى، وتوسيع أودية مكة. وغير ذلك.

ينظر ذلك في تفسير الطبري: (16/ 447 - 450)، وأسباب النزول للواحدي: 316، وتفسير ابن كثير: 4/ 382، والدر المنثور: (4/ 651 - 653).

(5) نص هذا القول في مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 332، واختاره الطبري في تفسيره: 16/ 455.

ينظر هذا القول - أيضا - في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 227، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 149، ومعاني النحاس: 3/ 497.

قال النحاس: «وأكثر أهل اللغة على هذا القول». ونقل النحاس عن الكسائي أنه قال: «لا أعرف هذه، ولا سمعت من يقول: يئست بمعنى علمت».

(6) هذا قول الكسائي كما في معاني القرآن للنحاس: 3/ 498، وتفسير الماوردي: 2/ 331، وزاد المسير: 4/ 332. وانظر معاني القرآن للزجاج: 3/ 149، وتفسير الفخر الرازي: 19/ 55.

طمعهم من خلاف هذا علما بصحته ، أو أفلم ييأسوا من إيمانهم في الكافرين .

33 وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ : أي : صفوهم بما فيهم ليعلموا أنها لا تكون آلهة «1» .

أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ : أي : ب «الشريك» ، أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ : باطل زايل «2» .

وقد تضمنت الآية إلزاما تقسيميا ، أي : أتنبؤن اللّه بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه ؟ فإن قالوا : بباطن لا يعلمه أحالوا ، وإن قالوا : بظاهر يعلمه قل : سمّوهم ليعلموا أنّه لا سميّ له ولا شريك «3» .

35 مَثَلُ الْجَنَّةِ : صفتها «4» ، كقوله «5» : وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى : أي : صفته العليا ، أو : مثل الجنّة أعلى مثل فحذف الخبر «6» .

---

(1) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 332 .

وانظر تفسير البغوي : 3/ 21 ، وزاد المسير : 4/ 333 .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 16/ 466 عن قتادة ، والضحاك .

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 333، وابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 333 عن قتادة.

(3) ينظر ما سبق في تفسير القرطبي: (9/ 322، 323).

(4) معاني القرآن للفراء: 2/ 65، وذكره الطبري في تفسيره: 16/ 469 عن بعض النحويين البصريين، فنقل ما نصه: «معنى ذلك: صفة الجنة، قال: ومنه قوله تعالى: وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى، معناه: ولله الصفة العليا. قال: فمعنى الكلام في قوله: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أو فيها أنهار، كأنه قال: وصف الجنة صفة تجري من تحتها الأنهار، أو صفة فيها أنهار، والله أعلم».

وانظر معاني القرآن للزجاج: 3/ 150، ومعاني النحاس: 3/ 501، وتفسير البغوي:

3/ 21، والمحرر الوجيز: 8/ 176، والبحر المحيط: 5/ 395.

(5) سورة النحل: آية: 60.

(6) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن: (1/ 333، 334).

وانظر البيان لابن الأنباري: 2/ 52، والتبيان للعكبري: 2/ 759، والبحر المحيط: 5/ 395.

36 وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ : يعني أصحاب محمد «1» .

وَمِنَ الْأَحْزابِ : اليهود والنصارى والمجوس «2» .

39 يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ : من الأعمال التي يرفعها الحفظة ، فلا يثبت إلا ما له ثواب أو عليه عقاب «3» .

وعن ابن عباس «4» رضي الله عنه : إنّ اللّه يمحو ويثبت مما كتب من أمر العباد إلا أصل السعادة والشقاوة فإنه في أمّ الكتاب . وإثبات ذلك ليعتبر المتفكر فيه بأن ما يحدث على كثرته قد أحصاه اللّه .

41 نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها : بالفتوح على المسلمين من أرض الكافرين «5» .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 16/ 473 عن قتادة .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 333 عن قتادة وابن زيد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 658 ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وأبي الشيخ ، وابن أبي حاتم عن قتادة .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 16/ 474 عن ابن زيد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 658 ، وزاد نسبته إلى أبي الشيخ عن ابن زيد

أيضا .

(3) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 66 ، وأورده النحاس في معاني القرآن : 3/ 502 من رواية أبي صالح .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 335 عن الضحاك . وابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 338 عن الضحاك ، وأبي صالح .

(4) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره : 263 ، والطبري في تفسيره : 16/ 477 .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 334 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 659 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس أيضا .

(5) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 229 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 16/ 494 عن ابن عباس ، والحسن ، والضحاك . ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 335 .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 340 ، وقال : «رواه العوفي عن ابن عباس» .

ورجح الطبري هذا القول ، وكذا ابن كثير في تفسيره : 4/ 393 . [. . . . .]

وقيل «1» : بموت العلماء وخيار أهلها .

لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ : لا رادّ لقضائه .

42 فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً : أي : جزاء المكر «2» .

43 كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً : دخول الباء لتحقيق الإضافة من جهة الإضافة وجهة حرف الإضافة .

وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ : مثل عبد اللّه بن سلام ، وتميم الداري «3» ، وسلمان الفارسي . انتهى انتهى . اهـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 1 صـ 450 . 458﴾

---

(1) ذكره الفراء في معاني القرآن : 2/ 66 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 229 .

وأخرج نحوه الطبري في تفسيره : 16/ 497 عن ابن عباس ، ومجاهد .

وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره : 1/ 264 عن مجاهد .

وأخرج الحاكم في المستدرك : 2/ 350 ، كتاب التفسير ، «تفسير سورة الرعد» من طريق الثوري عن طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس رضي اللّه عنهما في قوله عز وجل :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها قال : «موت علمائها وفقهائها» .

قال الحاكم : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، وتعقبه الذهبي بقوله : طلحة بن عمرو . قال أحمد : متروك» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 665 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة ، ونعيم بن حماد في الفتن ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم - كلهم - عن ابن عباس بنحوه .

(2) تفسير الفخر الرازي : 19/ 70 ، وتفسير القرطبي : 9/ 335 ، والبحر المحيط : 5/ 400 ، 401) .

(3) تميم الداري صحابيّ جليل ، منسوب إلى الدار ، بطن من لخم . أسلم تميم سنة تسع للهجرة ، ومات بالشام ، رضي اللّه تعالى عنه .

ترجمته في الاستيعاب : 1/ 193 ، وأسد الغابة : 1/ 256 ، والإصابة : 1/ 367 .

ينظر القول الذي ذكره المؤلف في تفسير الطبري : 16/ 503 ، وزاد المسير : 4/ 341 ، والتعريف والإعلام : 85 ، ومفحمات الأقران : 127 .

(82/406)

وقال ملاحويش :

تفسير سورة الرّعد

عدد 10 - 96 و13

نزلت بالمدينة بعد سورة القتال سورة محمد عليه السّلام .

وهي ثلاث وأربعون آية وثمنمئة وخمس وخمسون كلمة ، وثلاثة آلاف وخمسمائة وستة

أحرف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى المر تقدم ما فيه أول الأعراف ج 1 وأول يونس ج 2 وفيها ما يشيران إلى ما انطوت

عليه هذه الأحرف المقطعة ومرجع علم ما فيها إلى اللّه تعالى ، قال عطاء معناه أنا الملك

الرّحمن "تِلْكَ" الآيات المارة من أول ما نزل إلى هنا ، وآيات هذه السّورة وما بعدها هي

"آياتُ الْكِتابِ" العظيم الكامل المنسوخ عن اللّوح المحفوظ عند اللّه "وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ

رَبِّكَ" يا سيد الرّسل من القرآن هو "الْحَقُّ" الذي لا مرية فيه "وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ

1" بأنه الحق من عند اللّه ويقولون تقوله محمد .

ويلهم أنى لمحمد أن يأتي بمثله وهو يعلم أن الذي أنزله عليه هو "اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ

عَمَدٍ تَرَوْنَها" أنتم أيها النّاس بأنها مرفوعة بلا عمد من تحتها وليس لها كلاليب من فوقها

تمسكها ، ويجوز أن يكون لها عمد غير مرئية لأن أحدا لم يرها .

مطلب في قوله تعالى بغير عمد .

وفي قارات الأرض الخمس ومعجزات القرآن والمعقبات :

والآية تحتمل الوجهين فيجوز أن تقول بلا عمد البتة ، أو بعمد ولكنها لم واللّه على كلّ شيء قدير "ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ" استواء يليق بذاته لا يعرفه خلقه راجع الآية 4 من سورة طه ج 1 والآية 41 من سورة يونس ج 2 والآية 4 من سورة الحديد المارة "وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ" لمنافع خلقه "كلّ" منها "يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى" هو انقضاء الدّنيا وخراب هذا يكون ، وقد جعل جل شأنه لكل من الشّموس والأقمار والكواكب سيرا خاصا لجهة خاصة بمقدار خاص من السّرعة ومقياس خاص في البطء والحركة ، راجع الآية 77 من سورة يس والآية 13 من سورة الإسراء في ج 1 "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ" ملكوته ناسوته ولاهوته بمقتضى حكمته لا يشغله شأن عن شأن "يُفَصِّلُ الْآيَاتِ" الدالة على وحدانيته وكمال قدرته "لَعَلَّكُمْ" أيها النّاس "بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ 2" إيقانا لا شبهة ولا ريب فيه .

(84/406)

واعلم أن اليقين صفة من صفات العلم فوق المعرفة والدّراية وهو سكوت الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشّك لما ذكر اللّه تعالى الدّلائل السّماوية أردفها بالدلائل الأرضية فقال "وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ" بسطها بعد أن كانت مجتمعة ولا يعني بالبسط أنها كالكف بل بالنسبة لما

نراه منها ، فالنملة ترى البيضة حينما تمشى عليها منبسطة ونحن نرى ما تحتنا ما يلينا من الأرض منبسطا ، وهذا لا ينافي القول بكرويتها إن كانت كروية وجعل فيها رواسي جبالا عظاما ثوابت تثقلها لئلا تطبش فتميد راجع الآية 9 من سورة لقمان ج 2 ففيها ما يتعلق بهذا وما يتعلق بالآية الثانية المارة من جود العمد وعدمه "وَأَنْهارا" عذبة لمنافع خلقه "وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" ذكرا وأنثى أسود وأبيض مالح وباهت حلو حامض جليل وحقير كبير وصغير وما بينهما "يُغْشِي اللَّيْلَ" بضوء النّهار يغشي "النَّهارَ" بظلمة اللّيل "إِنَّ فِي ذلِكَ" الصنع البديع "لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ 3" بها ويفقهون المغزى فيها وما ترمي إليه فيستدلون بها

على عظمة خالقها ويعرفون ماهية أنفسهم ، والفكر مقلوب الفرك ، لأنه يستعمل في طلب المعاني وهو فرك الأمور وبحثها طلبا الوصول إلى حقيقتها والوقوف على ماهيتها .

قال تعالى "وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ" متقابلات متقاربات في الصّفة مختلفات في اللّون والإنبات طيبة وسبخة رخوة وصلبة محجرة ومترية حصية ورملية فمنها صالح للزرع ومنها للشجر ، ومنها ما ينبت نوعا خاصا من الأشجار والخضر ، وما ينبت ويثمر شيئا

منها ولا ينبت في الأخرى وما يعيش ، ويوجد من الحيوانات في قطعة ولا يعيش ويوجد في الأخرى ، فقد يوجد في آسيا مالا يوجد في استراليا ، ويوجد في إفريقيا مالا يوجد بأمريكا وبالعكس ، وهكذا أوربا من حيث الجمع لا الانفراد ، لأن هذه القارات الخمس وهي في الحقيقة سبع لأن آسيا تقسم إلى قسمين وأمريكا كذلك ، وقد يختلف نباتها وثمارها وحيواناتها ومخلوقاتها في اللّغة واللّون والأخلاق تختلف أيضا ، فسبحان من أودع في كل ما هو صالح له ، وفي كلّ قلب ما أشغله "جَنَّاتٌ" فيها مختلفة الصّفات بحسب طبايع أرضها وكلّ أرض ذات شجر يجنّها أي يسترها تسمى جنة ، ولكن شتان بين هذه وجنّات الآخرة على حد قوله :

ولن يتساوى سادة وعبيدهم على أن أسماء الجميع موالي

(86/406)

ثم بين أشجار هذه الجنان بأنها "مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ" كل منها مختلفة في النّوع والشّكل والهيئة ، وكلّ منها "صِنْوانٌ" الصنوان الشّجرات المتعددة من أصل واحد واحده صنو "وَغَيْرُ صِنْوانٍ" شجرة منفردة بأصلها ، فالأشجار المجتمعة بأصلها أو برأسها كالنخل لأنه قد يتفرع له في رأسه فروع تصير كالنخلة المتفرعة من الأصل وتحمل ثمرا أيضا ، وهذا كثير

مشاهد ويسمى صنوان وقد بينا في الآية 99 من سورة الأنعام في ج 2 الكلمات التي هي على وزن صنوان فراجعها تقف على أصلها وجمعها ، وانظر أيها الإنسان إلى عظيم قدرة ربك أن تلك الأشجار كلها "يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ" أي الطّعم فمنها الحلو والحامض والمز والمر وغير ذلك ، وكذلك في الرّائحة واللّون والشّكل كالإنسان ، منه الخبيث والصّالح والأحمر والأسود والحسن والقبيح وما بينهما وهم من أب واحد "إِنَّ فِي ذلِكَ" الخلق العجيب والاختلاف الغريب الذي يبهر العقول ويكل عن فهمه المعقول والمنقول ويعجز عن إدراكه الفحول "لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ 4" تلك المعاني ويتدبرون مغزاها ومرماها ويتفكرون في تلك القدرة العظيمة "وَإِنْ تَعْجَبْ" أيها الإنسان الكامل من هذه المكونات البديعة النّاشئة عن قدرة اللّه البالغة ، فحق لك أن تعجب لأنه مما يوجب العجب ، ولكن إنكار الكفرة للبعث مع اعترافهم بأن اللّه خلقهم على غير مثال سابق أكثر عجبا من هذا لأنه كله دون قدرة القادر ، ولأن إعادة الشّيء أهون وأيسر من إبداعه ، ولهذا "فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ 5" فقولهم هذا هو الذي يجب أن تتعجب منه لا ذلك .

واعلم أن العجب في حقّه تعالى محال لأنه حالة تغوي الإنسان ، وتعرض له عند الجهل بالسبب ، للشيء المتعجب منه ، لأن النّفس تستبعد رؤية مالا تعرف سببه ، وتتنزه ذات اللّه تعالى عن تلك "أُولئِكَ" الّذين ينكرون لبعث هم "الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ" لإنكارهم قدرته "وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ" يقادون فيها كالأسرى إلى النّار يوم القيامة هوانا بهم ، ولكن بين إهانة الأسرى المنقطعة وإهانتهم الدّائمة في الوصف والكيفية فرق عظيم "وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ 5" وفي تكرار كلمة أولئك دلالة على عظم الأمر والهول والتعجيب .

قال تعالى "وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ" وذلك أنه صلّى اللّه عليه وسلم كان حينما يخوفهم عذاب اللّه يستهزئون به يقولون هات ما تنذرنا به إن كنت صادقا ، وحينما يبشرهم بما عند اللّه للمؤمن كانوا لا يلتفتون إليه ، وقد قص اللّه تعالى عنهم قولهم قبلا (اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً) الآية 32 من سورة الأنفال المارة ، ولم يقولوا لكثافة جهلهم اللّهم اهدنا إليه "وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ" النقم التي أوقعناها بالأمم الماضية جمع مثلة بفتح الميم وضم الثاء أو بفتحها جمع مثل هو ما ضربه اللّه لأمثالهم من الكفرة الأقدمين ليتعظوا فلم ينجع بهم ولم يرتدعوا "وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ" أنفسهم وغيرهم .

قال

السدي هذه أرجى آية في القرآن لذكر المغفرة مع الظّلم بدون التوبة راجع الآية 85 من سورة الإسراء ج 1 تجد ما يتعلق في هذا البحث "وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ 6" لمن يموت على كفره "وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا" هلا "لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ" على الرّسول محمد صلّى اللّه عليه وسلم الذي يدعونا إلى دينه "آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ" يقنعنا بها كآية صالح أو موسى وغيرهما يريدون شيئا محسوسا فقال تعالى لرسوله لا ترد عليهم "إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ" لهم سوء عاقبة الكفر ومبشر بحسن نتيجة الإيمان "وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ" يهديهم بما أرسل إليه من ربه إلى دينه القويم بالطرق التي أمره بها ربه لا بما يريدون ويتحكمون، لأن اللّه تعالى لم تجر عادته أن ينزل الآيات على حسب اقتراح الكفرة، وإنما ينزلها بإرادته ومشيئته على من يريد من عباده، أما ناقة صالح عليه السّلام فكانت بمراد اللّه وتقديره في أزله أنهم يطلبونها من نبيهم فيعطونها، وما عموم إلّا وخص منه البعض مثل رفع العذاب عن قوم يونس

ناقصه حسن أم دميم طويل أو تصير ذكر أو أنثى يعيش أو لا يعيش عالم أو جاهل غني أو فقير ويعلم مدة حمله وعيشه في الدّنيا ورزقه وأجله وكلّ ما يقع منه وما يؤول إليه أمره في الدّنيا والآخرة، وهذا العلم مما استأثر به نفسه

تسقطه من الحمل يعلمه متى يكون "وَمَا تَزْدَادُ" عن الواحد ومن نقص الأرحام والحيض زمن الحمل فإنه ينقص غذاء الجنين فيخرج ضعيفا ، قال أبو حنيفة رحمه اللّه لا تحيض المرأة حال حملها لأن اللّه تعالى أجرى عادته بانسداد فم الرّحم بالحمل وما تراه الحامل من الدّم فهو استحاضة ودم الاستحاضة يكون من مرض وشبهه فيسبب ضعفا بالحامل فينشأ عنه ضعف الجنين ، وقد تسقطه ، وقد يخرج ناقص الخلقة ويولد لأقل من تسعة أشهر ،

(89/406)

و الزيادة عكس هذه الأشياء ، ومن الزيادة زيادة الأصبع وشبهه ، وقد يكون اثنان برأس واحد ، ورأسان بجثة واحدة ، يخلق ما يشاء "وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ" (8) لا يتجاوزه ، فالقادر على هذه الأشياء وتمحيصها هو "عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (9)" على مخلوقاته تشير هذه الآية الكريمة إلى الأوزان الكيماوية التي لم تكشف إلّا بعد وقوف علماء أوربا الدّنيويين على أصول تحليل العناصر وتركيبها ، واطلاعهم على أن لكل عنصر موجود في هذا الكون مقدارا محدودا ، وأنه يستحيل أن يتركب جسم من الأجسام إلّا على مقادير معينة منها الماء ، فإن تركيبه الكيموي ؟ ؟ لتركبه على نسبة ثمانية أوكسجين إلى واحد هدروجين وهذه النّسبة لا تزيد ولا تنقص ، فلو نقص من أحدهما عشر معشار

الدّرهم لا يتولد الماء ، وإن زدنا على أحدهما يحصل التركيب على القدر الذي قدره لهما والزائد يبقى معلقا والتولد سر خفي يسمى الألفة الكيمياوية ، ولما كان أمرها غامضا لم يقف ولن يقف على كنهها واقف للاشارة إليها بقوله (عَالِمُ الْغَيْبِ) بعد قوله (اللَّهُ يَعْلَمُ) لان استحالة تكون الجنين ومعرفة كنه تولد الأرحام سواء .

(90/406)

ولكبير أهمية مقادير العناصر ذكرها اللّه سبحانه في قوله الجليل (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) الآيتين 21 و22 من سورة الحجر في ج 2 إذ لو زاد أو كسجين أهواء لهاجت النّفوس واضطربت أو زاد نتروجينه لاعتراها الموت ، فالحكمة الإلهية جعلته مزيجا منها على قدر معين محدود بحيث تلطفت حرارة الأوّل ببرودة الثاني ، فتأمل معجزات القرآن العظيم وانظر هل كان إبان نزوله من يعرف هذا غير منزله ؟ وهناك معجزات أخرى لم تختمر بعد في العقول لتظهر للملأ وصدق اللّه في قوله العزيز (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) الآية 38 من الأنعام في ج 2 وفي كلّ ما جاء عنه في كتبه وعلى لسان رسله ورحم اللّه الأبوصيري حيث يقول :

آيات حق من الرّحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم

فلا تعد ولا تحصى عجائبها ولا تسام على الإكثار بالسام

وإذا أردت أن تقف على الموزونات راجع الآيتين المذكورتين آنفا في سورة الحجر قال تعالى "سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ" عند اللّه لا فرق بينهما لديه "وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ" (10) ذاهب على وجه الأرض، والسّرب بفتح السّين وسكون الرّاء هو الماشية كلها والطّريق وبالكسر لقطيع من النّساء والظّباء وبفتحتين الحفرة تحت الأرض والقناة وجاء في الحديث (آمنا في سربك) أي أهلك، والمعنى أن كلّ ذلك عند اللّه سواء لا يختلف عنده حال عن حال فالسر والعلانية والخفاء والظّهور عنده سواسية

(91/406)

"لَهُ" لذلك الإله العظيم "مُعَقِّباتٌ" ملائكة يتعاقبون ليل نهار "مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ" من أمام كلّ عبد من عبيده "وَمِنْ خَلْفِهِ" ورائه "يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" قدره وقضائه بأمر اللّه وإذنه، ومعقبات جمع معقبة، ومعقبة جمع عاقب، ولا يستدل بهذا أن الملائكة إناث كما زعم البعض، لأن جمع الجمع مثل رجالات جمع رجال ورجال جمع رجل، والملائكة لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال يتعاقبون

فيكم ملائكة .

وعلى هذا الحديث .

وقوله تعالى (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) الآية الثالثة من سورة الأنبياء في ج 2 ، جاءت لغة (أكلوني البراغيث) على أن يكون الواو في الفعل ضمير جمع فقط والفاعل البراغيث ، كما أن الملائكة في الحديث (والّذين في الآية) هما الفاعل ، والواو في الفعلين ضمير جمع فقط أي يحرسونه بالليل والنّهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الّذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم كيف تركتم عبادي ، فيقولون تركناهم وهم يصلون ، وآتيناهم وهم يصلون ، وهذه الآية عامة ، لأن اللّه تعالى وكّل بكل نفس من من يحفظها من ملائكته .

وروي عن ابن عباس وغيره لما جاء عامر بن الطّفيل وزيد بن ربيعة من بني عامر بن زيد قال عامر يا محمد مالي إن أسلمت ؟ قال لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم (ومن هنا يعلم أن ليس لأحد أن يشترط على إمام المسلمين شرطا يتميز به عن بقية المسلمين) قال تجعل الأمر لي من بعدك ؟ قال ليس ذلك لي إنما هو للّه تعالى يجعله حيث يشاء ، قال فتجعلني على الدّبر أي البادية ؟

أنت على المدر أي المدن ؟ قال لا ، قال فما تجعل لي ؟ قال أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها ، قال أو ليس ذلك لي اليوم ، قم معي أكلمك ، فقام معه صلّى اللّه عليه وسلم لانه كبير قومه وأوعز إلى رفيقه زيد (أو أريد أخي لبيد) إني إذا كلمته قدر خلفه واضربه بالسّيف ، فجعل عامر يخاصم الرّسول ويراجعه ، فجاء زيد أو أربد واخترط السّيف ليضربه فلم ينسل ، فالتفت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فرآه ماسكا قبضة السيف ومسلول منه قدر شبر ، فقال اللّهم اكفنيهما بما شئت ، فأرسل اللّه صاعقة على زيد في يوم صحر فأحرقته ، وهرب عامر وهو يقول واللّه لأملأنها عليك خيلا ورجالا لأنك دعوت ربك فقتل صاحبي زيدا ، فقال اللّه يمنعني فخرج خراج أصل أذن عامر وهو في بيت امرأة سلولية وصارت له غدة كغدة البعير ، ركب جواده وجعل يركض في الصّحراء ، ومات على ظهره .

وهذه معجزتان صلّى اللّه عليه وسلم وأنزل اللّه (سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ) إلى السّجدة الآتية قال تعالى "إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ" من النّعم والعافية التي أنعم بها على هذين الخبيثين وغيرهم لأن المعنى عام وخصوص السّبب لا يقيده ولا يخصصه "حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ" من النية والعمل الحسن إلى النّية السّيئة والعمل القبيح فيبدل اللّه نعمهم نقما وصحتهم سقما وخيرهم شرا وتوفيقهم خذلانا وكثرتهم قلة وخصبهم جدبا وعزهم ورياستهم ذلا ومهانة كما فعل بعامر ورفيقه زيد الّذين أرادا أن يمكرا بحضرة الرسول ويغدرا به فحنظه

اللّه وأهلكهما أي أن اللّه تعالى لا يزال مديما نعمه عباده حتى يتسببوا لانقطاعها "وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً" من الأسواء فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ" (11) بلي أمرهم غيره.

مطلب في البرق والصّواعق والتسبيح والسجود والفوق بين العالم والجاهل:

(93/406)

ولما خوف اللّه عباده في هذه الآية ذكر شيئا من عظيم قدرته بشبه النّعم من وجه والعذاب من آخر فقال جل قوله "هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً" من نزول الصّواعق "وَطَمَعاً" بنزول الغيث قال أبو الطّيب:

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى يرجى الحيا منه وتخشى الصّواعق

وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ" (12) بالغيم والسّحاب الملئان بالماء ويقال سحاب جهام للخالي من الماء كما يقال خلّب للخالي من المطر "وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ"

(94/406)

هو الصّوت الخارج بعد البرق ، والبرق هو اللّمعان الحاصل من خلال السحب عند تراكمها وتصادمها بعضها ببعض ، ولما كان كلّ شيء يسبح بحمد اللّه كما مر في الآية 44 من الاسراء في ج 1 وفي الآية الأولى من سورة الحديد المارة ، وبما أن الرّعد شيء أيضا فيسبح اللّه كسائر الأشياء "وَالْمَلائِكَةُ" تسبح مِنْ خِيفَتِهِ" أيضا "وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ" الشعل الغارية الكهربائية الحاصلة من الرعد "فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ" من خلقه فيهلكهم كما أهلك زيد المذكور آنفا "وَهُمْ" والحال ان الّذين يكذبون رسول اللّه "يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ" وينكرون على رسوله قدرته على بعث الخلق بعد الموت ويتخذون معه شركاء بعد صدور هذه الآيات ولا يخشونه وهو القوي العظيم "وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ" (13) المكر والكيد لأعدائه حيث يأتيهم بما يدمرهم من حيث لا يحتسبون ولا يعرفون ولا يقدرون على رده ، وهذه اللّفظة لم تكرر في القرآن "لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ" المجابة من الحق لأنها دعوة حق من الرّسول على عامر وزيد لتجاوزهما عليه صلّى اللّه عليه وسلم وإرادتهما اغتياله بطريق الغدر بلا سبب "وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ" أوثانا مما اتخذوه وعبدوه من دون اللّه كعامر وزيد وغيرهما من الكفرة ، والآية عامة في كلّ من يدعو من دون اللّه "لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ" يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا "إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ" أي إلّا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه على بعد منه يطلب منه المجيء "لِيَبْلُغَ فاهُ" فيدخل في فيه ليشربه وهو جماد من حيث عدم النّطق والفهم ، كما أن الماء جماد من هذه الحيثية لا يشعر ببسط الكفين ولا يعلم بما

يراد منها ولا بالعطش ، لذلك يقول اللّه تعالى "وَما هُوَ بِبالِغِهِ" لأنه لا يفهم ولا يقدر أن يجيب دعاءه ، فمثل الّذين يدعون من دون اللّه لدفع ما يهمهم دفعه و

(95/406)

جلب ما يهمهم جلبه مثل هذا الجماد لا يعي ما يراد منه ولا به ، لأنه لا يفهم ولا يقدر على الاجابة ، فلا يركن إلى أمثال هذا إلّا الكافر الذي لا يعتقد باللّه ، ولهذا فلا يستجاب دعاؤه لكفره "وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ" أوثانهم "إِلَّا فِي ضَلالٍ" (14) عن طريق الحق وهباء لا قيمة له .

ونظير هذه الجملة آخر الآية 50 من سورة المؤمن في ج 2

وذلك لأن أصواتهم منصرفة إلى أوثانهم وهي لا تجيبهم لأنها محجوبة عن اللّه تعالى لعدم دعائهم إياه ولأنهم يأنفون من السّجود لعظمته "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً" واختيارا رغبة ورضى وشوقا كالملائكة والرّسل والمؤمنين المخلصين "وَكَرْهاً" جبرا وقسرا رغم أنوفهم كالكفار والمنافقين عند نزول الشّدائد بهم ، ولكن لا فائدة لهم من ذكره لأنهم لا يرجون له ثوابا ولا يعتقدون به ، وإنما يخضعون للّه حال الضّيق والمحنة فقط "وَظِلالُهُمْ" تسجد لعظمته أيضا تبعا لهم .

والضّمير فيه يعود ان في الأرض ، لأن من في السّماء لا ظل له "بِالْغُدُوِّ" من طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس والغدوة والغداة منها إلى نصف النّهار "وَالْآصَالِ" (15) جمع أصيل ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، هذا ويجب على من قرأ هذه الآية ومن سمعها السّجود للّه تعالى كما مر في الآية الأخيرة من سورة والنّجم في ج 1 "قُلْ" يا سيد الرّسل لهؤلاء الّذين لا يعرفون اللّه تعالى إلّا عند نزول البلاء بهم ولا يدعونه إلّا عند اشتداد الأزمة رسلهم "مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" فإن لم يجيبوك عتوا وعنادا فأنت "قُلِ اللَّهُ" لأنهم يتلعثمون عند قول الحق ويترددون عن الإجابة عنه ، وإذا قالوه يقولونه جبرا ، ثم "قُلْ" توبيخا لهم لاتخاذهم أوثانا يزعمون أنها تشفع لهم "أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ" لأموركم أصناما "لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا" فما فائدتكم منهم بعد أن علمتم أن مالك الضر والنّفع هو اللّه لا غير ، ومما يدل على تمام معرفتهم به أنه يملك ذلك ويملك الحياة والموت والخير والشر ، إنهم يدعونه عند الشّدة ، ومن جهلهم وحمقهم يعرضون عنه عند الرّخاء قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظّلمات والنّور" فبالطبع

يقولون لا ، فقل لهم كما لا يستوي هذان الصّنفان ، لا يستوي الكفر والإيمان الوثن والرّحمن ،

راجع الآية 21 من سورة فاطر في ج 1 تجد ما يتعلق في هذا البحث "أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ" سماء وأرضا وشمسا وقمرا وإنسا وجنا وملائكة ووحشا وأنهارا وبحارا "فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ" الخلق الذي خلقه شركاؤهم فلم يميزوا بين خلق اللّه وخلق أوثانهم ، كلا لم تخلق

(97/406)

شيئا ما ، فيا سيد الرّسل "قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ" وما يعمله خلقه من خلقه "وَهُوَ الْوَاحِدُ" المتفرد بالخلق "الْقَهَّارُ" (16) لكل شيء لا أوثانهم العاجزة عن حفظ نفسها وهذا الإله الجليل هو الذي "أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ" به "بِقَدَرِهَا" الذي علمه قبل نزوله "فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا" رغوة بيضاء قيقاء تشبه الزبد منتفخة مرتفعة على وجه السيل وهذا مثل ضربه اللّه تعالى لعباده بمثل آخر وهو "وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ" من الذهب والفضة "ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ" لا تكون إلّا منهما ، وإنما أعيد الضّمير إلى الذهب والفضة مع عدم ذكرها للمعلومية ، راجع قوله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) وقوله تعالى (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) الآية 32 من سورة ص في ج 1 فيما يتعلق بهذا الضّمير لأن الحلية لا تكون إلّا منهما ، أما الأحجار الكريمة التي يتحلى بها فلا توقد ، عليها النّار ، لذلك لا

يتصور إعادة الضّمير إليها "أَوْ مَتَاعٍ" آخر من غيرهما كالحديد والنّحاس والرّصاص وكلّ ما يذاب مما يتخذ منه الأواني وما يتمتع به فيكون له "زَبَدٌ مِثْلُهُ" مثل زبد الماء بسبب غليانه على النّار ، ولا دخل للأحجار الكريمة في هذا أيضا ، لأنها لا تذاب على النّار "كذلك" مثل هذا المثل "يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ" الذي ينتفع به مثل الماء والذهب وبقية المعادن المنطبعة "وَالْباطِلَ" الذي لا ينتفع به كرغوة الماء وخبث المعادن المعبر عنها بالزبد المعبر عنه بقوله عز قوله "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً" متلاشيا لا فائدة فيه "وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ" كالماء الصّافي وجوهر المعادن المذكورة التي يتزين بها "فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ" وعلى النّاس "كَذلِكَ" مثل هذا الضّرب "يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ" (17) ليعتبر خلقه بها قال تعالى "لِلَّذِينَ

اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ" ما دعاهم إليه "الْحُسْنى" الجنّة إذ لا أحسن منها مقعدا ولا أهنا منها مشربا ، ولا أمرا منها مأكلا ، فنعمة الجنّة مكافأة لهم وجزاء "وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ" دعاءه هم النّار والدّمار وحين يعانون عذابها يتمنون "لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ" مما يلاقونه من هولها ولكن ليس لهم ذلك ، ولو فرض أنهم يملكونه وأرادوا أن يفتدوا به لما قبل منهم "أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ" عند رب الأرباب في الموقف العظيم

"وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ" (18) هي لأهلها وقبح المأوى وأسوا المنقلب وأسام المرجع.

قال تعالى "أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ" فيذعن إليه ويؤمن به "كَمَنْ هُوَ أَعْمَى" باق على كفره، كلا لا يستويان "إِنَّما يَتَذَكَّرُ" بآياتنا وينفاد إلى طاعتنا "أُولُوا الْأَلْبَابِ" (19) الواعية "الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ" المأخوذ عليهم بالأزل "وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ" (20) الذي واثقهم عليه

(99/406)

"وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ" كأرحامهم وجيرانهم الفقراء وإخوانهم المسلمين ويراعون حقوق زوجاتهم وخدمهم ورفقائهم في الحضر والسّفر والغيبة والحضور "وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ" (21) فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا "وَالَّذِينَ صَبَرُوا" على المصائب والمشاق أملا بما لهم عند اللّه من الخلف والثواب "ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ" لا ليقال إنهم صابرون ولا لقساوة في قلوبهم ولا لعدم محبة بالمفقود والمصاب "وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً" طلبا لمرضاة اللّه تعالى فوق صبرهم على المصائب وعلى القيام بأوامر اللّه "وَيَدْرَؤُنَ" يدفعون "بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ" الواقعة عليهم

من الغير ، فإذا حرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا ، وإذا أذنبوا استغفروا وتابوا واسترضوا خصومهم بما شاؤه ولو بالقصاص منهم "أُولَئِكَ" المتصفون بهذه الصّفات التسع المارة "لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ" (22) المحمودة وهي "جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا" يقيمون فيها يوم القيامة هم "وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ" تبعا لهم وتكميلا لفرحهم وتعظيما لشأنهم وتكريما لهم .

وفي هذه الآية دلالة على أن الصالح يشفع بأتباعه ، وهو كذلك .

مطلب ينتفع الميت بعمل غيره وبصلة الوفاء والصّدقات ويجوز قضاء حجه وصومه من قبل أوليائه وفي ذكر اللّه تعالى وصلة الرّحم :

وهذا دليل على أن سعي الغير ينفع كما ذكرناه في الآية 38 فما بعدها من سورة النجم ج 1 ، والآية 87 من سورة الأنعام ، والآية 8 من سورة غافر ، والآية

(100/406)

---

21 من سورة الطّور في ج 2 ، هذا ويؤكد هذا المعنى ما أخرج في الصّحيحين أن رجلا قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن أمي افتلت (ماتت على حين غفلة) وأظنها لو تكلمت لتصدقت ، فهل لها أجر ان تصدقت عنها ؟ قال نعم .

وقد أجمعت العلماء على أن الصّدقة تنفع الميت ويصله ثوابها ، وأجمعوا على وصول الدّعاء إليه وقضاء الدين والحج عنه ، ورجحوا جواز الصّوم عنه أيضا إذا كان عليه صوم استنادا على ما ورد من الأحاديث في ذلك ، وأن حديث : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . . .

لا ينفي وصول عمل الغير كما جاء في شرح هذا الحديث وغيره من أقوال العلماء العاملين ، واللّه أعلم "وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ 23" من أبواب الجنّة يسلمون عليهم زيادة لسرورهم وتحيتهم التي يؤدونها لهم عند دخولهم عليهم هي "سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ" على المحن في الدّنيا "فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" (24) دارهم هذه دار الكرامة ولما ذكر العداء وما وعدهم اللّه به من الخير والاستيفاء وما أوعدهم اللّه به من الشّر .

قال جل قوله "وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ" مما ذكر آنفا "وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ" علاوة على تلك المثالب "أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ 25" والعياذ باللّه ، وإذا كان هذا مصيرهم فلا تنظروا إلى ما هم فيه في الدّنيا من السّعة وما هم عليه من الصّحة لأن عاقبتهم وخيمة ، راجع الآية 22 من سورة محمد المارة فيما يتعلق في هذه الآية وما قبلها ، والآية 27 من سورة البقرة أيضا .

قال تعالى "اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ" يضيّق على من يشاء "وَفَرِحُوا" ابتهج هؤلاء "بِالْحَياةِ الدُّنْيا" ولذاتها وشهواتها "وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ" أي بالنسبة إليها "إِلَّا مَتاعٌ" (26) قليل فان كعجالة المسافر "وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا" مع هذه الآيات العظام "لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ" عنادا ليس إلا ، إذ ما بعد كلام اللّه آية ، ولا تضاهي آياته آية ، فيا سيد الرّسل "قُلْ" لهؤلاء العتاة "إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ" مع وجود الآيات "وَيَهْدِي" من يشاء ويقرب "إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ" (27)

إليه ورجع عن غيه دون آية ما بالنظر إلى أصل الخلقة ولما هو مدوّن في علمه تعالى ، وهؤلاء المنيبون هم "الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ" وحده ، المعرضون عما سواه ، وعما يقترحه الكافرون من طلب المعجزات "أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" (28) الطاهرة ويستقر إليه يقينهم ، فهلموا أيها المؤمنون لذكره إذا أردتم الهداية .

ثم وصف المهتدين في الوفاء وصلة الرّحم وانهم هم "الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" المطمئنة قلوبهم لذكر اللّه "طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ" (29) في الآخرة ، وطوبى مبالغة الطّيب كالحسنى مبالغة لأحسن ويعبر عنها بالجنة أو شجرة عظيمة فيها .

وبما أنا وعدنا في تفسير الآية 22 من سورة القتال المارة بذكر ما يتعلق بصلة الرّحم فإنا نورد هنا ما عنّ لنا بيانه وتبسر لنا تبيانه .

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن مثل ما بعثني اللّه به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أخاديد (غدران تمسك الماء كالبرك) أمسكت الماء نفع اللّه بها النّاس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، بذلك مثل من فقه في دين اللّه وفقه ما بعثني اللّه به فتعلم وعلّم، ومثل من لم رفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى اللّه الذي أرسلت به.

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الرّحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه اللّه.

وأخرج الترمذي وأبو داود عن عبد الرّحمن بن عوف قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول قال اللّه تبارك وتعالى أنا الرّحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي (يريد جل جلاله الرّحمن الرّحيم) فمن وصلك وصلته ومن قطعك قطعته أو قال بتّته (البتّ أقصى غاية القطع و

القطع الذي لا وصل بعده) وروى البخاري عن أبي هريرة أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلم

قال من سره أن بسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه .

وروينا عن جبير بن مطعم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال لا يدخل الجنّة قاطع رحم .

وروينا عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافىء (أي المقابل

(103/406)

يعني إذا زاره رحمه كافأه بزيارته) ولهذا قال صلّى اللّه عليه وسلم الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها (يريد عليه الصّلاة والسّلام أنه يزور رحمه وإن لم يزره هو لأن المقابلة بالزيارة مكافأة ، ولهذا قال صلّى اللّه عليه وسلم ليس الواصل بالمكافئ أي لا يعد هذا صلة كاملة وأخرج الترمذي عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرّحم محبة في الأهل ومثراة في المال ومنسأة في الأجل .

وروى البغوي بسنده عن عاقبة بن عامر قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن مثل الذي يعمل السّيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل

حسنة فانفكت حلقة ، ثم عمل اخرى حتى خرج إلى الأرض .

وفي هذا الباب أحاديث كثيرة بضيق النّطاق عن ذكرها هنا ، ويكفي أن اللّه تعالى يظن واصل رحمه بظله المبين فيما رواه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال إن في الجنّة شجرة يسير الرّاكب في ظلها مئة عام لا يقطعها .

ومثله عن أبي سعيد الخدري بزيادة الجواد المضمر السّريع .

(104/406)

ومثله عن أبي هريرة وذكر فيه (سنة بدل عام) وإقرارا إن شئتم وظل ممدود الآية 31 في سورة الواقعة في ج 1 راجع هذه الآية في معناه وأما ما يتعلق بنقض العهد وإبرامه ، فراجع فيه الآية 34 من سورة الإسراء في ج 1 والآية 42 من سورة النّحل ج 2 قال تعالى "كَذلِكَ" مثل ما أرسلنا قبلك يا محمد رسلا إلى الأمم الماضية لأجل إرشادهم وتعليمهم أوامرنا ونواهينا وتفهيمهم قدرتنا "أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ" كما تلت أولئك الرّسل الأقدمون على أقوامهم ما أوحيناه إليهم فيما لهم وعليهم "وَهُمْ" والحال أنهم الكافرون المذكورون "يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ" الإله البالغ الرّحمة المنتهى الرّأفة الذي من رحمته ورأفته أرسلك إليهم .

وضمير يكفرون يعود إلى القائلين (لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ) الآية 27 المارة وما قيل أن هذه الآية نزلت في أبي جهل إذ قال إن محمدا يدعو بالحجر إلهين اللّه والرّحمن (المراد بالحجر هنا حجر إسماعيل عليه السّلام المقابل للبيت من جهة الميزاب) أو أنها نزلت في سهيل بن عمرو حين كتابة معاهدة الحديبية.

حينما قال له حضرة الرّسول اكتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، فقال

سهيل لا نعرف الرّحمن الرّحيم، لا نعرف إلّا رحمن اليمامة، فهما قيلان لا مستند لهما لأن أبا جهل قتل في حادثة بدر قبل نزول هذه الآية بخمس سنين، وهذه السّورة كلها مدنية، ولم يستثن منها أحد هذه الآية ولا غيرها على القول الصّحيح، ولأن سهيل بن عمرو لم يأت المدينة ولم يقل أحد بأن هذه الآية نزلت عند حادثة الحديبية التي وقعت قبل نزولها بأكثر من سنة "قُلْ" يا سيد الرّسل أن الرّحمن "هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ" (30) أصلها متابي حذف الياء منها للتخفيف أي مرجعي إليه، لأن تاب بمعنى رجع قال تعالى "وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ" فصارت تمرّ مرّ السّحاب "أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ" فتفجرت عيونا منهمرة بالماء "أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى" فأحياهم ونطقوا بما رأوا، كما رفع الطّور

لموسى ، ومثل ضربه الحجر فتفجر بالماء ، وما وقع لعيسى من احياء الموتى وكلامهم ، لكان هذا القرآن جديرا بذلك وقمينا به ، لأنه على جانب كبير من الإعجاز ، وغاية بالغة من التذكير ، ونهاية عالية بالتخويف .

وليعلم أن ليس لهؤلاء الخوض بالاقتراح "بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً" إن شاء أظهر على يد رسوله ما اقترحوه ، وإن شاء لم يظهر بحسب ما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة وهذه الآية الباهرة متعلقة بقوله تعالى (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ) المارة .

وما قيل أنها نزلت في كفار مكة كأبي جهل وأضرابه حين قالوا لحضرة الرّسول إن سرك أن نتبعك فسيّر جبال مكة إلخ لا يصح لما تقدم من التعليل ، ولأن هذا مرّ القول فيه في الآية 93 من الاسراء والآية 7 من الفرقان في ج 1 فراجعه إن شئت .

قال تعالى "أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا" أي (أفلم يعلم) وعليه قوله :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

أي ألم يعلموا وقول الآخر :

ألم ييأس الأقوام اني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

أي ألم يعلم .

"أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعاً" ولكنهم علموا باعلام اللّه إياهم أنه لم يشأ لذلك فهم آيسون من هداية كلّ النّاس ومقطوع أملهم من ذلك "وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ" هذه الدّاهية

"قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ" فتقرع قلوبهم وتفطرها ولا يزالون فزعين من تأثيرها "حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ" بنصرك عليهم أو إهلاكهم أو ايمانهم "إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ" (31) الذي وعدك به يا سيد الرّسل من ظفرك بهم فلا يهولنّك تكذيبهم لك وسخريتهم بك "وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ" من قبل قومهم كما استهزأ بك قومك الكفرة "فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا" بإطالة المدة وزيادة النعم حتى ظنوا أنهم على خير "ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ" على غرة وغفلة بعذاب عظيم إذ لم ينتفعوا بالإمهال وعاقبتهم "فَكَيْفَ كانَ عِقابِ 32" لو رأيته أيها الإنسان لهالك أمره وأهابت بك فظاعته .

واعلم أن المراد بالّذين آمنوا الواردة في منتصف الآية 31 السّالفة الرّسل وأتباعهم الّذين يحرصون على إيمان النّاس ويريدون أن يكونوا كلهم مؤمنين ، وعلى هذا يجوز أن يكون فعل ييأس على ظاهره دون حاجة لتأويله بيعلم ، وعلى هذا يكون المعنى ألم ييأسوا من هداية

كل النّاس وقد قدمنا لهم عدم إمكانه وفقا لما هو ثابت في علمنا ومقدر بأزلنا راجع الآية 120 من سورة هود في ج 2 .

(107/406)

فيا سيد الرّسل قل لهم على طريق الاستفهام "أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ" مثل هذا الإله العظيم كمن هو عاجز عن حفظ نفسه مثل الأوثان ؟ كلا ، ليسوا سواء ، ولكن هؤلاء الكفرة سوّوا بينهم "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ" من تلقاء أنفسهم تقليدا لما ابتدعه أسلافهم "قُلْ" لهم يا سيد الرّسل "سَمُّوهُمْ" من هم ونبؤوني بأسمائهم إن كنتم ثابتين على قولكم "أَمْ تُنَبِّئُونَهُ" جل جلاله "بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ" وهو عالم بما فيها وبما في السّماوات وليس فيها شركاء له "أَمْ" تتمسكون "بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ" الذي تلقيتموه عن أسلافكم بأن للّه شريكا دون دليل أو حجة أو برهان ، كلا لا هذا ولا ذاك "بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ" في المسلمين وكيدهم لهم بما ألقى الشّيطان في قلوبهم من وساوسه ودسائسه "وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ" الموصلة للرشد فضلوا عن الهدى "وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ" (33) يهديه البتة والّذين هذه صفتهم وماتوا عليها "لَهُمْ عَذابٌ"
شديد لا تطيقه قواهم ، "فِي الْحَياةِ الدُّنْيا"

قتلا وأسرا و جلاء وذلة ومهانة "وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ"

المخبوء لهم يا سيد رسلنا وأكمل خلقنا "أَشَقُّ"

وأعظم من ذلك حيث لا يكون لهم فيها من يقيهم منه أو يشاركهم به فيخفف عليهم "وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ"

في الآخرة حين يحل بهم عذابها "مِنْ وَاقٍ"

(108/406)

---

(34) يقيهم منه أبدا ، قال تعالى "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ" المعاصي والآثام ، القائمون بالأوامر والأحكام ، المتنعون عن النّواهي والاجرام ، كمثل جنة عظيمة "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" وميزتها عن جنّات الدّنيا أيها العاقل كثيرة ، ولكن اللّه تعالى ذكر منها خصلتين عظيمتين وهما "أُكُلُهَا دَائِمٌ" لا ينقطع على الأبد "وَظِلُّهَا" دائم أيضا وحذف لفظ دائم هنا اكتفاء بذكره قبل ، راجع الآية 84 من سورة النّساء ، وذلك أنه لا ليل فيها ولا نهار ، وفي هذه الآية ردّ على جهم وأضرابه القائلين بفناء نعيم الجنّة ، لأن اللّه يقول دائم ما فيها ، فلأن تكون هي دائمة من باب أولى ، إذ لا يعقل أن يكون نعيمها دائما وهي فانية ، تدبر "تِلْكَ" الجنّة الدّائم نعيمها أيها الإنسان هي "عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا" ربهم في الدّنيا

فكافأهم بها بآخرتهم لقاء إيمانهم به وبرسوله وكتابه بأن جعل مثواهم في هذه الجنّة

و"عُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ" (35) وبئس العاقبة هي أجارنا اللّه منها .

قال تعالى "وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ" أي من أسلم منهم ، فإنه يسرّ بالأحكام لمنزلة عليك يا حبيبي الدالة على التوحيد والنّبوة والمعاد لأنها مؤيدة لما في كتبهم ، قالوا كانوا ثمانين رجلا أربعون من نصارى نجران الوفد الذي أشرنا إليه أول سورة آل عمران ، إلى بضع وثمانين آية منها ، وثلاثون من الحبشة أصحاب النّجاشي ، وعشرة من اليهود عبد اللّه بن سلام وأصحابه ، وفرحهم من جهتين : الأولى أنه منزل من الحق على لسان محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، والثانية تأييد دعواهم للاسلام وإخفاق دعوى من لم يسلم وإذلاله

(109/406)

"وَمِنَ الْأَحْزابِ" الّذين تحزبوا على الرّسل قبلك والّذين تحزبوا عليك في حادثة الخندق المارة في الآية 9 من سورة الأحزاب "مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ" لأن اليهود الّذين تحزبوا مع قريش وغطفان وغيرهم على حرب حضرة الرّسول وأصحابه لا ينكرون كلّ القرآن بل يعترفون بما فيه من المعاد والتوحيد والنّبوة ، وقصص

بني إسرائيل، وأخبار الأمم المتقدمة لأنها موجودة في التوراة "قُلْ" يا سيد الرسل للناس كافة يهودهم ونصاراهم عجمهم وعربهم وأعرابهم وبربرهم "إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ" وحده وأخلص له عبادتي "وَلا أُشْرِكَ بِهِ" أحدا ولا شيئا "إِلَيْهِ" وحده جل جلاله "أَدْعُوا" الناس إلى دينه القويم ليعملوا به ويخلصوا العبادة للّه لا إلى الأصنام ولا للملائكة وعزير والمسيح ولا لغيرهم أبدا بل أحصر دعوتي لحضرته خاصة "وَإِلَيْهِ مَآبِ" (36) مرجعي ومثواي، وقد حذف الياء تخفيفا.

مطلب في أحوال أهل الكتاب، والمحو والإثبات ونقص الأرض وحكم اللّه تعالى:

(110/406)

"وَكَذلِكَ" مثل ما أنزلنا على الأنبياء السّابقين كتبا بلغتهم ولغة أقوامهم "أَنْزَلْناهُ" أي القرآن المنوه به في الآية 31 المارة وجعلناه "حُكْماً عَرَبِيًّا" بلغتك ولغة قومك راجع الآية 5 من سورة ابراهيم في ج 2 "وَ" عزتي وجلالي يا أكمل الرّسل "لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ" فيه فاعلم أنه "ما لَكَ مِنَ اللَّهِ" ربك الذي شرفك على الكل وجعل أمتك خير الأمم "مِنْ وَلِيٍّ" يواليك وينصرك "وَلا واقٍ 37" يقيك من العذاب البتة، وهذا تهديد شديد عظيم في هذا الخطاب، ولكنه على حد القول (إياك أعني واسمعي يا جاره) وقد

أسهبنا البحث فيه في الآيات الأخيرة من سورة القصص ج 1 ، وفي الآية 66 من سورة الزمر في ج 2 ، فراجعهما وما تشير إليهما من المواقع ، أي من يتبع أهواء الكفرة ويوافقهم على آرائهم فيما يتعلق بأمر الدّين ، فليس له ناصر ينصره من عذاب اللّه ولا واق يقيه منه. قال تعالى "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً" مثلك فلم لم تعترض عليهم أمهم ؟ وهذه الآية بمعرض الرّدّ على اليهود والنّصارى القائلين إن هذا الرّسول لا همّ له إلّا النّساء ، ولو كان رسولا لزهد فيهنّ ، قاتلهم اللّه ألم يعلموا أن سليمان وداود ومن تقدمهم كانوا أكثر النّاس نساء من محمد ، ولم يقدح ذلك بنبوّتهم ، وكذلك قولهم لو كان نبيا لأتى بآية ، مردود عليهم بقوله جل قوله "وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" وبالوقت الذي يريده

(111/406)

إذ "لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ" (38) يبين فيه زمان ومكان وقوعه والسّبب المبتنى عليه والفائدة التي تنشا عنه ، وهذه بمعرض استبطائهم ما خوفهم به حضرة الرّسول من نزول العذاب لأنه لا شك نازل بهم ولكن لم يحن أجله بعد وهو قريب منهم ، قال تعالى "يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ" من مقدراته التي أظهرها لملائكته وكلمة يمحو كررت في الآية 12 من الإسراء ج 1 وفي الآية

24 من الشّورى ج 2 فقط "وَيُثْبِتُ" منها ما يشاء فينفذه "وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ" (39)

الذي فيه كل شيء مما كان ويكون في الدّنيا والآخرة فلا يقع شيء فيهما إلّا وهو مدون فيه وقد أشرنا إلى ما يتعلق في هذا البحث في الآية 4 من سورة الأنعام ج 2 ، والمعنى أن اللّه تعالى قد يهيء للكافر الإسلام فيمحو كفره ويثبت إسلامه فيما يبدو للناس وهكذا ينقلب من الشّقاء للسعادة كما يقلب بعض عباده من الفقر إلى الغنى ومن السقم للصحة ومن الذل للعز وبالعكس مما أظهره اللّه لملائكة وعلقه على أشياء قد يفعلها العبد بمقتضى حكمته فتبدل حاله من شيء إلى أحسن وبالعكس ، ومن هذا القبيل زيادة العمر ونقصه فعلا أو بما يبارك له ويوفقه لدوام الطّاعة وتمادي العافية كما ينقصه معنى أضداد هذه ، راجع الآية الثانية من سورة الأنفال المارة وما ترشدك إليه من المواضع ، وهناك أحكام مبرمة مدونة في لوحه أيضا لا يعتريها التبديل والتغيير أبدا مهما فعل أهلها .

(112/406)

قال تعالى "وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ" يا خاتم الرّسل "بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ" من العذاب "أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ" قبله فنريكه بالآخرة بأن نمثل لك وقوعه فيهم كما كان في الدّنيا فضلا عن عذاب الآخرة ، راجع الآية 30 من آل عمران المارة وما ترشدك إليه ، فلا يهمنك شأن من لم يؤمن "فَإِنَّما

عَلَيْكَ الْبَلاغُ" هم والمداومة عليه فقط ، وعليهم أن يؤمنوا ويقبلوا إرشادك ونصحك ، وإن لم يقبلوا فعليهم الوبال "وَعَلَيْنَا الْحِسابُ" 40 والجزاء لمن أعرض عن بلاغك ، ولا تتعجل نزول العذاب بهم يا محمد فإن له أجلا لا يتعداه ولا يتقدم عليه بمقتضى الكتاب المشار إليه آنفا .

ونظير هذه الآية الآية 78 من سورة المؤمن والآية 46 من سورة يونس والآيتين 63 و64 من سورة المؤمنين في ج 2 فقط لا يوجد غيرها في القرآن كله والله أعلم .

قال تعالى "أَ وَلَمْ يَرَوْا"

هؤلاء "أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ" المقيم بها الكفرة "نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها" بالاستيلاء عليها وإجلاء أهلها منها وإسكان المؤمنين فيها كما وقع في بني النّضير وقريظة وخيبر وغيرهم .

وتشير هذه الاية إلى استيلاء المؤمنين على كثير من أراضي الكفار بالنصر عليهم والظّفر بهم وطردهم عنها ، وترمي لمغزى آخر وهو نقص الأرض من طرق قطيها وهو كذلك ، ومما لا يعرفه أحد عند نزول القرآن فهو من معجزاته وإخباره بالغيب ، وقدمنا ما يتعلق بهذا في الآية 44 من سورة الأنبياء في ج 2 فراجعها .

وقال بعض المفسرين إن نقص الأرض يكون بموت العلماء وهو كما ترى ، وكأنه أخذ من الخبر القائل إن موت العالم يحدث ثلمة في الإسلام ، ويؤيد ما جربنا عليه ختم آية الأنبياء بقوله جل قوله (أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ) لأن الغالبية قد تكون بالفتوحات .

وختم هذه الآية بقوله "وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" (41) بما يدل على الغالبية أيضا وتفيد هذه الجملة أن أحكام أهل الدّنيا معرضة للابطال بالاعتراض عليها والاستئناف والتمييز والتصحيح والعفو عنها بخلاف أحكام اللّه فإنها قطعية لا مردّ لها ، وإن حسابه على الأعمال بأقل من طرفة عين بخلاف حسابنا لأنه قد يحتاج إلى سنين.

قال تعالى "وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" بأنبيائهم كما مكر قومك بك ، ولكن مكرهم ليس بشيء ولا قيمة له إذ ليس لهم من أمره شيء "فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً" لأنه هو الذي خلقه في العباد وهو القادر على نزعه منهم لأنه "يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ" من خير أو شر في السّر والجهر "وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ" المحمودة إذا بعثوا من قبورهم ، لأنهم الآن غافلون عنها لا يعرفونها ولا يعتقدون بصحتها "وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا" فيا سيد الرّسل "قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ" على رسالتي إليكم وإلى من في الأرض أجمع "وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ" (43) يعلم ذلك أيضا ، لأن الكتب المنزلة عليهم تشهد برسالته لكل من عنده علم بها ولا يكتم علمه ، يشهد بأن محمدا رسول اللّه.

ومن قرأ عنده بالجر باعتبار من حرف جر أعاد الضّمير في عنده إلى اللّه تعالى ، ويكون المراد بالكتاب اللّوح المحفوظ ، وما جرينا عليه أولى وأنسب بالمقام .

ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به هذه السّورة ولا بما بدئت به .

واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين ، وسلم تسليما كثيرا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بيان المعاني حـ 6 صـ 34. 55 ﴾

(114/406)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الرعد

مكية إلا قوله ولا يزال الذين كفروا الآية ويقول الذين كفروا لست مرسلا الآية وقيل مدنية ولو أن قرآنا الآيتين

المر تقدم الكلام عليه في سورة البقرة تلك آيات الكتاب تام الحق كاف وهو خبر والذي أنزل إليك لا يؤمنون تام ترونها حسن ثم استوى على العرش صالح والقمر حسن لأجل مسمى

تام وكذا توقنون وأنهار كاف عند بعضهم اثنين كاف وكذا النهار يتفكرون تام وجنات من
أعناب كاف لمن قرأ ما بعده بالرفع بالابتداء وغير صنوان صالح بماء واحد حسن إن قرئ
تسقى بالتاء ويفضل بالياء أو النون أو قرئ يسقى بالياء ونفضل بالنون وان قرآ معا بالياء
فكاف في الأكل كاف يعقلون تام جديد كاف خالدون تام المثلات حسن على ظلمهم صالح
العقاب تام من ربه حسن أنما أنت منذر كاف قوم هاد تزداد حسن وكذا بمقدار والمتعال
قيل ومن جهر به وليس بشيء بالنهار كاف من أمر الله تام بأنفسهم كاف وكذا فلا مردّ له
من وال حسن من خيفته صالح شديد المحال حسن له دعوة وفي الثاني كاف ولا ضرا كاف
والنور صالح الخلق عليهم حسن وقال أبو عمرو فيهما كاف القهار حسن زبدا رابيا كاف
وكذا زبد مثله والباطل في الأرض حسن وقال أبو عمرو كاف الأمثال تام وكذا الحسني
لأفتدوا به حسن وقال أبو عمرو كاف جهنم كاف المهاد تام كمن هو أعمى حسن وقال أبو
عمرو كاف أولو الألباب تام إن جعل ما بعده مبتدأ وخبره أولئك لهم عقبى الدار وليس
بوقف إن جعل ذلك ولا ينضون الكيثاق كاف وكذا سوء الحساب وجاز الوقف عليهما
وان كان ما بعدهما فاعلى ما قبلهما لطول الكلام عقبى الدار حسن وكذا ذرياتهم ومن كل
باب وقال أبو عمرو في الأخير كاف فنعم عقبى الدار تام لهم اللعنة جائز سوء الدار ويقدر
كاف وقيل تام بالحياة الدنيا كاف الامتاع تام آية من ربه كاف وكذا من أناب عند بعضهم
وليس بجيد لأن ما بعده نعت له بذكر الله كاف تطمئن القلوب تام وحسن مآب حسن وكذا

أوحينا إليك بالرحمن صالح إلا هو حسن وقال أبو عمرو في الأربعة كاف واليه متاب الموتى حسن وقال أبو عمرو كاف الأمر جميعا تام الناس جميعا حسن وعد الله كاف الميعاد أخذتهم صالح

(115/406)

عقاب بما كسبت كاف وكذا قل سموهم ومن القول زين للذين كفروا مكرهم حسن لمن قرأ وصدوا ببنائه للفاعل وليس بوقف لمن قرأه ببنائه للمفعول لزين وصدوا عن السبيل حسن وكذا من هاد وقال أبو عمرو فيهما كاف في الحياة الدنيا كاف أشق حسن وقال أبو عمرو كاف من واق تام مثل الجنة التي وعد المتقون حسن إن جعل مبتدأ لخبر محذوف أو عكسه تقديره مثل الجنة فيما نقص عليك مثل الجنة أي صفتها وليس بوقف إن جعل مبتدأ خبره تجري الخ الأنهار جائز وظلها تام تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار بما أنزل إليك صالح بعضه حسن وكذا مآب وقال أبو عمرو في الأول كاف عربيا صالح ولا واق تام وذرية حسن وقال أبو عمرو كاف إلا بأذن الله تام وكذا كتاب ويثبت حسن وكذا أم كتاب وقال أبو عمرو في الأول كاف وعلينا الحساب تام وكذا من أطرافها لحكمة جائز سريع الحساب وكذا المكر جميعا وكل نفس وقال أبو عمرو فيهما تام عقبى الدار تام لست مرسلا كاف

آخر السورة ومن قرأ ومن عنده أم الكتاب بكسر ميم من وقف على شهيدا بيني وبينكم على أخر السورة.

سورة إبراهيم عليه السلام مكية إلا قوله ألم ترى الذين بدّلوا الآيتين فمدني. انتهى انتهى. ا هـ ﴿المقصد صـ 413.402﴾

(116/406)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الرعد

مكية إلاَّ قوله ولا يزال الذين كفروا الآية ويقول الذين كفروا لست مرسلاً الآية وقيل مدنية إلاَّ قوله ولو أنَّ قرآنا الآيتين وهي أربعون وثلاث آيات في الكوفي وأربع في المدنيين وخمس في البصري وسبع في الشامي اختلافهم في خمس آيات لفي خلق جديد لم يعدها الكوفي قل هل يستوي الأعمى والبصير عدها الشامي أم هل تستوي الظلمات والنور لم يعدها الكوفي أولئك لهم سوء الحساب عدها الشامي من كل باب لم يعدها المدنيان وكلمها ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف حرف وخمسمائة وستة أحرف وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع موضع واحد وهو قوله وهم يكفرون بالرحمن

(المر) تقدم الكلام على مثلها قال أبو روق هذه الحروف التي في فواتح السور عزائم الله

والوقف عليها تام لأنَّ المراد معنى هذه الحروف وقيل هي قسم كأنَّه قال والله إن تلك آيات

الكتاب فعلى هذا التقدير لا يوقف عليها وقيل أراد بها التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة

قاله النكزاوي 0

آيات الكتاب (تام) إن جعل الذي مبتدأ والحق خبره وليس بوقف إن جعل والذي في محل

جر بالعطف على الكتاب وحينئذ لا وقف على ما قبل الذي وكذا إن جر الذي بالقسم

وجوابه ما قبله ولا وقف على ما قبل الذي وكذا إن جعل الذي صفة للكتاب قال أبو البقاء

وأدخلت الواو في لفظه كما أدخلت في النازلين والطيبين يعني أن الواو تدخل على الوصف

كما هو في بيت خرنق بنت هفان في قولها حين مدحت قومها :

لا يبعدن قومي الذين هم سم العدة وآفة الجزر

والنازلين بكل معترك والطيبين معاقد الأزر

فعطفت الطيبين على النازلين وهما صفتان لقوم معينين 0

الحق (كاف) على أنَّه خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق وكذا إن جعل الذي مبتدأ والحق خبراً وإن جعل المر مبتدأ وتلك آيات خبراً والذي أنزل عطف عليه جاز الوقف على من ربك ثم يبتديء الحق أي هو الحق وكذا إن جعل الحق مبتدأ ومن ربك خبره أو على إنَّ من ربك الحق كلاهما خبر واحد وليس بوقف إن جر الحق على أنَّه نعت لربك وبه قريء شاذاً وعليها لا يوقف على الحق لأنَّه لا يفصل بين النعت والمنعوت بالوقف فتلخص أنَّ في الحق خمسة أوجه أحدها خبر أول أو ثان أو هو وما قبله خبر أو خبر مبتدأ محذوف أو صفة للذي إذا جعلناه معطوفاً على آيات 0

لا يؤمنون (تام)

ترونها (حسن) على أنَّ بغير عمد متعلق برفع أي رفع السموات بغير عمد ترونها فالضمير من ترونها يعود على عمد كأنَّه قال للسموات عمد ولكن لا ترى وقال ابن عباس إنَّها بعمد ولكن لا ترونها قال وعمدها جبل ق المحيط بالدنيا وهو من زبرجد أخضر من زبرجد الجنة والسماء مقبية فوقه كالقبة وخضرتها من حضرته فيكون ترونها في موضع الصفة لعمد والتقدير بغير عمد مرئية وحينئذ فالوقف على السموات كاف ثم يبتديء بغير عمد ترونها أي ترونها بلا عمد وقال الكواشي الضمير في ترونها يعود إلى السموات أي ترون السموات قائمة بغير عمد وهذا أبلغ في الدلالة على القدرة الباهرة وإذا الوقف على عمد ليبين أحد التأويلين من الآخر ثم يبتديء ترونها أي ترونها كذلك فترونها مستأنف فيتعين

أنَّ لا عمد لها البتة لأَنَّها سالبة تفيد نفي الموضوع وإن قلنا إنَّ ترونها صفة تعين أن لها عمداً

وحاصله أنهما شيآن أحدهما انتفاء العمد والرؤية معاً أي لا عمد فلا رؤية سالبة تصدق

بنفي الموضوع لأَنَّه قد ينفي الشيء لنفي أصله نحو لا يسألون الناس إلحافاً أي انتفى الإلحاف

لانتفاء السؤال الثاني إن لها عمداً ولكن غير مرئية كما قال ابن عباس ما يدريك إنها بعمد

لا ترى 0

على العرش (جائز) ومثله والقمر 0

مسمى (حسن)

(118/406)

الآيات ليس بوقف لحرف الترجي وهو في التعلق كلام كي

توقنون (تام)

وأنهاراً (كاف) ومثله اثنين يغشي الليل النهار

يتفكرون (تام)

متجاورات (كاف) إن جعل وجنات مبتدأ وخبره محذوف تقديره وفيها جنات وليس

بوقف إن عطفت جنات على قطع وكذا ليس بوقف إن جر جنات عطفاً على ما عمل فيه

سخر أي وسخر لكم جنات من أعناب وبها قرأ الحسن البصري وعليها يكون الوقف على متجاورات كافياً ويجوز أن يكون مجروراً حملاً على كل أي ومن كل الثمرات ومن جنات من أعناب (كاف) لمن رفع ما بعده بالابتداء

وغير صنوان (جائز) لمن قرأ تسقى بالتاء الفوقية ويفضل بالتحتية أو بالنون أو قرأ يسقى بالتحتية ونفضل بالنون فإن قرئا معا بالتحتية وهي قراءة حمزة والكسائي كان كافياً وكذا بماء واحد لمن قرأ ونفضل بالنون وكذا في الأكل

يعقلون (تام)

جديد (كاف)

كفروا بربهم (جائز) ومثله في أعناقهم وأصحاب النار لعطف الجمل مع تكرار أولئك للتفضيل دلالة على عظم الأمر

خالدون (تام)

المثلات (كاف) والمثلات العقوبة واحدتها مثلة

على ظلمهم (كاف) على استئناف ما بعده

العقاب (تام)

من ربه (حسن)

إنَّما أنت منذر (كاف) على استئناف ما بعده وجعل الهادي غير محمد صلى الله عليه وسلم وفسر الهادي بعليّ كرم الله وجهه لقوله فيه والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم وليس بوقف إن جعل الهادي محمداً صلى الله عليه وسلم والمعنى إنَّما أنت منذر وهاد وضعف عطف هاد على منذر لأنَّ فيه تقديم معمول اسم الفاعل عليه لكونه فرعاً في العمل عن الفعل والعطف يصير الشيئين كالشيء الواحد فلا يوقف على منذر وقد وقف ابن كثير على هاد وواق ووال هنا وباق في النحل بإثبات الياء وقفاً ووصلاً وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً ومعنى هاد أي داع يدعوهم إلى الله تعالى لا بما يطلبون وفي الحديث إن وليتموها أبا بكر فزاهد في الدنيا راغب في الآخرة وإن وليتموها عمر فقوي أمين لا تأخذه في الله لومة لائم وإن وليتموها علياً فهاد مهتد

وما تزداد (تام) ومثله بمقدار والمتعال

ومن جهر به (حسن) للفصل بين المتقابلات ومثله يقال في مستخف بالليل وسارب بالنهار حسنه أبو حاتم وأبو بكر والظاهر أنَّهما إنما حسناه لاستغناء كل جملة عما بعدها لفظاً أو ليفرقا بين علم الله وعلم غيره وأباه غيرهما وقال كله كلام واحد فلا يفصل بينهما وانظر ما وجهه

ومن خلفه (حسن) إذا كانت من بمعنى الباء أي يحفظونه بأمر الله وإن علق من أمر الله

بمبتدأ محذوف أي هو من أمر الله كان الوقف على يحفظونه ثم يبتدىء من أمر الله على أنَّ معنى ذلك الحفظ من أمر الله أي من قضائه قال الشاعر

أمام وخلف المرء من لطف ربه كوال تنفى عنه ما هو يحذر

وقال الفراء المعنى فيه على التقديم والتأخير أي له معقبات من أمر الله بين يديه ومن خلفه يحفظونه وعلى هذا لا يوقف على من خلفه

(120/406)

من أمر الله (كاف) على الوجوه كلها فإن قلت كيف يتعلق حرفان متحدان لفظاً ومعنى بعامل واحد وهما من الداخلة على من بين يديه ومن الداخلة على من أمر الله فالجواب إن من الثانية مغايرة للأولى في المعنى كما ستعرفه اهـ سمين والمعقبات ملائكة الليل والنهار لأنهم يتعاقبون وإنما أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة وقيل ملك معقب وملائكة معقبة وجمع الجمع معقبات قاله الصاغاني في العباب في اللغة

ما بأنفسهم (تام) للابتداء بالشرط ومثله فلا مرد له

من وال (كاف)

الثقال (جائز) لاختلاف الفاعل مع اتفاق اللفظ

من خيفته (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف ما بعده على ما قبله

من يشاء (صالح) ومثله في الله لاحتمال الواو الحال والاستئناف

المحال (كاف) على استئناف ما بعده وهو رأس آية والمحال بكسر الميم القوة والإهلاك وبها

قرأ العامة وقرأ الأعرج والضحاك بفتحها

دعوة الحق (تام) لانتهاء جدال الكفار وجدالهم في إثبات آلهة مع الله تعالى

ليبلغ فاه (جائز)

وما هو ببالغه (تام) للابتداء بالنفي

في ضلال (تام)

طوعاً وكرهاً (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده معطوفاً على

من أي ولله ينقاد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً

والآصال (تام) ومثله قل الله

ولا ضراً (كاف) 0

والبصير ليس بوقف لعطف أم على ما قبلها

والنور (كاف) لأنَّ وأم بمعنى ألف الاستفهام وهو أوضح في التوبيخ على الشرك

الخلق عليهم (حسن) وقال أبو عمرو كاف

كل شيء (كاف)

القهار (تام) على استئناف ما بعده استئناف إخبار منه تعالى بهذين الوصفين الوحدانية والقهر وليس بوقف إن جعل وهو الواحد القهار داخلاً تحت الأمر بقل

زبداً رابياً (حسن) ومثله زبد مثله ومثله والباطل

وجفاء (جائز) لأنَّ الجملتين وإن اتفقتا فكلمة إما للتفصيل بين الجمل وذلك من مقتضيات الوقف وقد فسر بعضهم الماء بالقرآن والأودية بالقلوب وإن بعضها احتمل شيأً كثيراً وبعضها لم يحتمل شيأً والزبد مثل الكفر فإنَّه وإن ظهر وطفاً على وجه الماء لم يمكث والهداية التي تنفع الناس تمكث وهو تفسير بغير الظاهر

فيمكث في الأرض (حسن) وقيل كاف

الأمثال (تام) وهو رأس آية وهو من وقوف النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعمد الوقف عليها ويبتديء للذين استجابوا ومثله في التمام لربهم الحسنى وهي الجنة

لافتدوا به (حسن) وقال أبو عمرو كاف على استئناف ما بعده

سوء الحساب (جائز)

جهنم (كاف)

المهاد (تام)

كمن هو أعمى (حسن) وقال أبو عمرو كاف

الألباب (تام) إن جعل الذين مبتدأ وخبره أولئك لهم عقبى الدار وكذلك إن جعل الذين في محل رفع خبر مبتدأ محذوف تقديره هم الذين وكاف إن جعل الذين في محل نصب بتقدير أعني الذين وليس بوقف إن جعل الذين نعتاً لما قبله أو بدلاً منه أو عطف بيان

الميثاق (كاف) عند أبي حاتم ومثله سواء الحساب قال شيخ الإسلام وجاز الوقف عليهما وإن كان ما بعدهما معطوفاً على ما قبلهما لطول الكلام قال الكواشي وليس هذا العذر بشيء لأنَّ الكلام وإن طال لا يجوز الوقف في غير موضع الوقف المنصوص عليه بل يقف عند ضيق النفس ثم يبتديء من قبل الموضع الذي وقف عليه على ما جرت عليه عادة أصحاب الوقف ولا وقف من قوله والذين صبروا إلى عقبى الدار فلا يوقف على علانية ولا على السيئة

عقبى الدار (كاف) وقيل تام إن جعل جنات مبتدأ وما بعده الخبر أو خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف إن جعل جنات بدلاً من عقبى ومن حيث كونه رأس آية يجوز

وذرياتهم (تام) عند نافع والواو في والملائكة للاستئناف قال مقاتل يدخلون الجنة في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم التحف والهدايا من الله تعالى ومن كل باب رأس آية في غير المدنيين والكوفي تقول الملائكة سلام عليكم بما صبرتم

صبرتم (جائز)

فنعم عقبى الدار (تام) والمخصوص بالمدح محذوف أي فنعم عقبى الدار الجنة أو فنعم عقبى الدار الصبر 0

ويفسدون في الأرض ليس بوقف لأنَّ قوله أولئك خبر والذين ينقضون فلا يفصل بين المبتدأ والخبر بالوقف

لهم اللعنة (جائز)

ولهم سوء الدار (تام)

ويقدر (حسن) ومثله بالحياة الدنيا للابتداء بالنفي

الإمتاع (تام)

من ربه (كاف) ومثله من أناب إن جعل ما بعده مبتدأ خبره ما بعده أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هم الذين وليس بوقف إن جعل بدلاً من الذين قبله ومن حيث كونه رأس آية يجوز بذكر الله الأولى (كاف) للابتداء بأداة التنبيه

القلوب (تام) إن جعل ما بعده مبتدأ والخبر طوبى لهم وليس بوقف إن جعل الذين آمنوا بدلاً

من الذين قبله لأنَّ البدل والمبدل منه كالشيء الواحد فلا يوقف على بذكر الله ولا على

طوبى لهم

وحسن مآب (تام)

أوحينا إليك (كاف) على استئناف ما بعده

بالرحمن (حسن) وكاف عند أبي حاتم

إلَّا هو (حسن) وقال أبو عمرو كاف

متاب (تام) إن جعل جواب لو محذوفاً وليس بوقف إن جعل مقدماً والتقدير ولو أنَّ قرآناً

سيرت به الجبال أو كذا وكذا الكان هذا القرآن أو آمنوا كما قال الشاعر

فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفساً

أي لو أن نفسي تموت في مرة واحدة لاسترحت أو لهان عليّ ولكنها تخرج قليلاً قليلاً

فحذف لدلالة الكلام عليه ومن قال معناه وهم يكفرون بالرحمن وإن أجيبوا إلى ما سألوا

لشدة عنادهم فلا يوقف على الرحمن

الموتى (كاف) ومثله جميعاً الأول وكذا الثاني ولا وقف إلى قوله وعد الله

الميعاد (تام)

ثم أخذتهم (كاف) للابتداء بالتوبيخ

عقاب (تام)

بما كسبت (كاف) وقال الأخفش تام لأنَّ من استفهامية مبتدأ خبرها محذوف تقديره كمن ليس كذلك من شركائهم التي لا تضر ولا تنفع وما بعده مستأنف وجائز لمن جعل قوله وجعلوا حالاً بإضمار قد

شركاء (جائز) ومثله قل سموهم وتام عند أحمد بن جعفر للاستفهام

من القول (كاف) ومثله مكرهم لمن قرأ وصدوا ببنائه للفاعل وليس بوقف لمن قرأ ببنائه للمفعول أي بضم الصاد لعطفه على زين وبها قرأ الكوفيون هنا وفي غافر في قوله وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل وباقي السبعة ببنائهما للفاعل

من هاد (كاف) ومثله في الحياة الدنيا

أشق (حسن) وقال أبو عمرو لاتفاق الجملتين مع النفي في الثانية

من واق (تام)

المتقون (حسن) إن جعل مثل مبتدأ محذوف الخبر أي فيما نقص عليك مثل الجنة وكذا إن جعل تجري مستأنفاً أو جعل لفظة مثل زائدة فيقال الجنة التي وعد المتقون كيت وكيت وليس بوقف إن جعل مبتدأ خبره تجري

قال الفراء وجعله خبراً خطأ عند البصريين قال لأنَّ المثل لا تجري من تحته الأنهار وإنما هو من صفات المضاف إليه وشبهته إن المثل هنا بمعنى الصفة وهذا الذي ذكره أبو البقاء نقل نحوه الزمخشري ونقل غيره عن الفراء في الآية تأويلين أحدهما على حذف لفظة أنها والأصل صفة الجنة أنها تجري وهذا منه تفسير معنى لا إعراب وكيف يحذف أنها من غير دليل والثاني أن لفظة مثل زائدة والأصل الجنة تجري من تحتها الأنهار وزيادة مثل كثيرة في لسانهم ومنه ليس كمثله شيء فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به وكذا ليس المتقون وقفاً إن جعل تجري حالاً من الضمير في وعد أي وعدها مقدراً جريان أنهارها أو جعل تجري تفسيراً للمثل فلا يفصل بين المفسر والمفسر بالوقف كما يؤخذ من عبارة السمين

الأنهار (جائز) ووصله أولى لأنَّ ما بعده تفسير لما قبله

وظلها (تام) عند من جعل تجري خبر المثل بإضمار إن أي أن تجري

اتقوا (جائز) والوصل أحسن لأنَّ الجمع بين الحالتين أدل على الانتباه

النار (تام)

بما أنزل إليك (جائز)

بعضه (حسن)

ولا أشرك به (جائز)

مآب (تام)

عربياً (حسن)

من العلم ليس بوقف للفصل بين الشرط وجوابه لأنَّ اللام في ولئن مؤذنة بقسم مقدر قبلها

ولذلك جاء الجواب مالك

ولا واق (تام)

وذرية (كاف) للابتداء بالنفي

إلَّا بإذن الله قال أبو حاتم ويحيى بن نصير النحوي تم الكلام ومثله لكل أجل كتاب

ويثبت (كاف)

الكتاب (تام) قال الضحاك يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ويثبت ما فيه ثواب أو عقاب وسئل الكلبي عن هذه الآية فقال يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب نحو أكلت وشربت ودخلت وخرجت وهو صادق ويثبت ما كان فيه الثواب أو عليه العقاب اهـ نكزاوي واتفق علماء الرسم على رسم يمحوا هنا بالواو والألف مرفوع بضمة مقدرة على الواو المحذوفة لالتقاء

الساكنين فالواو هنا ثابتة خطاً محذوفة لفظاً وقد حذفت لفظاً وخطاً في أربعة مواضع استغناء عنها بالضمة ولالتقاء الساكنين وهي ويدع الإنسان ويمح الله الباطل ويوم يدع الداعي وسندع الزبانية وما ثبت خطاً لا يحذف وقفاً ورسموا أيضاً وإما نرينك إن وحدها كلمة وما وحدها كلمة وجميع ما في كتاب الله من ذكر أما فهو بغير نون كلمة واحدة

وعلينا الحساب (تام)

من أطرافها (حسن) ومثله لحكمه

الحساب (تام)

من قبلهم ليس بوقف لمكان الفاء

جميعاً (حسن) ومثله كل نفس

عقبى الدار (تام)

لست مرسلاً (حسن) ومثله وبينكم لمن قرأ ومن عنده بكسر ميم من وكسر الدال وعلم الكتاب جعلوا من حرف وعنده مجرور بها وهذا الجار خبر مقدم وعلم مبتدأ مؤخر وبها قرأ عليّ وأبيّ وابن عباس وعكرمة وابن جبير وعبد الرحمن بن أبي بكر والضحاك وابن

أبي اسحق ومجاهد ورويس والضمير في عنده لله تعالى وهي قراءة مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم شاذة فوق العشر وليس بوقف لمن قرأ ومن عنده بفتح الميم والدال وعلم بكسر العين فاعل بالظرف أو مبتدأ وما قبله الخبر وهي قراءة العامة وعليها فالوقف آخر السورة لاتصال الكلام بعضه ببعض ولا يوقف على بينكم لأنّه تعالى عطف من عنده علم الكتاب في الشهادة على اسمه تعالى وقرأ الحسن وابن السميفع ومن عنده علم الكتاب بمن الجارة وعلم مبنى للمفعول والكتاب نائب الفاعل وعليها يحسن الوقف على بينكم وقريء علم الكتاب بتشديد علم قال أبو عبيدة لو صحت هذه القراءة لما عدوناها إلى غيرها والضمير في هذه القرآت لله تعالى

الكتاب (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 413.402 ﴾

(126/406)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الرعد :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قراءة الناس : ﴿ صِنْوَانٌ ﴾ 1 إلا الحسن وقتادة ، فإنهما قرآ : "صَنْوَان" .

قال أبو الفتح : الذي روينا في هذا عن قطرب : "صِنْوانٌ" ، قال : وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : "صُنْوانٌ" بضم الصاد ، ولم يَحْكِ الفتح .

فأما الواحد فصِنْو بكسر الصاد ، وأما الجمع فصِنْوَانٌ بكسرها وصُنْوَان بضمها ، والصِّنْوُ : النخلة لها رأسان وأصلها واحد ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : "العباس عمي وصِنْو أبي" ، فكأنه قال : هما فرعان من أصل واحد . والصُّنوان بالضم لتميم وقيس ، وبالكسر لأهل الحجاز .

فأما صِنْو وصُنْوَانٌ فإن نظيره ذئب وذُؤْبان ، وقِنْو وقُنْوان2 . وقد يكون مثله شِيح3 وشِيحان ؛ لكن المسئول عنه من هذا صِنْو وصِنْوان : هل هو جمع تصحيح أو جمع تكسير ؟ وليس جمعًا مصححًا وإن كان مثال الواحد موجودًا في الجمع ؛ وذلك أن جمع التصحيح ضربان : بالواو والنون كالزيدون والعمرون ، وبالألف والتاء كالزينبات والصالحات .

وليس فِعْلَان واحدًا منهما ، وإذا كان كذلك فينبغي أن تعلم أن المثالين وإن كانا وَفْقَين فإن التقديرين مختلفان ، فالكسرة في صاد صِنوان غير الكسرة في صاد صِنو ، فيتفق "84ظ" اللفظان ويختلف التقديران ؛ وإنما صِنْوان من صِنْو كخِرْبان4 من خَرَب ، فكما أن فتحة الخاء من خَرَب غير كسرتها من خِربان لفظًا ، فكذلك كسرة الصاد من صِنْوان غير

كسرتها من صِنْو تقديرًا .

وجاء تكسير فِعْل على فِعْلان ، كما جاز تكسير فعَل عليه ، نحو : خَرَب وخِرْبان

وشَبَث5 وشِبْثان وبَرَق6 وبِرْقان ؛ وذلك أن فِعْلا وفَعَلا قد تعاقبا على المعنى الواحد ؛

فصارا في ذلك أخوين

---

1 سورة الرعد : 4 .

2 بضم القاف وكسرها .

3 من معاني الشيح : أنه برد يمني .

4 الخربان : جمع الخرب محركًا ، وهو ذكر الحبارى .

5 الشبث : العنكبوت ، ودويبة كثيرة الأرجل .

6 البرق : الحمل كجمل ، معرب .

نحو : بِدْل وبَدَل وشِبْه وشَبَه ومِثْل ومَثَل ، فكما كسروا فَعَلا على فِعْلان -فيما ذكرنا -

فكذلك أيضًا كسروا فِعْلا عليه في صِنْو وصِنْوان ، وإذا كانت كسرة الصاد من صِنْوان

غير كسرتها من صِنْو تقديرًا فكذلك أيضًا سكون النون من صنوان غير سكونها من صِنْو

تقديرًا ، فكما جاز أن تكون الكسرة غير الكسرة تقديرًا كذلك جاز أيضًا أن يكون السكون في الجمع غير السكون في الواحد .

وكما لا يُشَك في أن فتحة خاء خَرَب غير كسرة خاء خِرْبان ، فلا يُشَك أيضًا في أن فتحة راء خَرَب غير سكون راء خِرْبان ، فكذلك أيضًا كسرة الصاد في الواحد غير كسرة الصاد في الجمع ، وسكون النون في صِنْو غير سكون النون في صِنْوان ؛ اعتبارًا لحالي المتفقين بحالي المختلفين .

ونظير اتفاق اللفظين في الحركات مع اختلاف التقديرات قولهم في ترخيم منصور على من قال يا حارِ : يا منْصُ ، وكذلك تقول في ترخيم منصور على يا حَارُ : يا منْصُ ، فالكسرة على يا حارِ هي ضمة صاد منصور ، وهي على يا حَارُ ضمة مجتلبة للنداء غير تلك ؛ اعتبارًا بيا حارِ ، ويا حارُ . فكما أن الضمة في يا حارُ غير الكسرة في يا حارِ لفظًا ، فكذلك ضمة صاد يا منْصُ على يا حارِ غير ضمتها في يا منْصُ على يا حارُ تقديرًا .

وكذلك الفُلْك – في قول سيبويه – وأنت تريد الواحد ، وكذلك إذا أردت الجمع ؛ وذلك أنه يعتقد أنه كسَّر فُعْلا على فُعْل ، كما كسروا فَعَلا على فُعْل ، نحو : أَسَد وأُسْد ووَثَن ووُثْن فيمن قرأ : "إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أُثُنًا" 1 جمع وثن ، فكذلك كُسر فُعْل على فُعْل ؛ وذلك أن فُعْلا وفَعَلا قد اعتقبا على المعنى الواحد ، كالشُّغْل والشَّغَل ، والبُخْل والبَخَل ، والْحُزْن والْحَزَن ، فكما كسروا فَعَلا على فُعْلا – فيما ذكرنا – كذلك كسروا فُعْلا على

فُعْل في الفلك ، فالضمة إذن في فاء الفلك وأنت تريد الواحد كالضمة في قاف قُفْل وخاء خُرْج ، وهي في الفلك وأنت تريد الجميع كضمة حاء حُمْر وصاد صُفْر ، فاللفظان واحد والتقديران اثنان . وقد أفردنا في كتابنا الخصائص بابًا لما اتفق فيه اللفظان واختلف فيه التقديران في الحروف والحركات والسكون2 .

فسكون اللام إذن في الفلك وهو واحد غير سكونها فيه وأنت تريد الجمع ؛ اعتبارًا بأَسَد وأُسْد ووَثَن ووُثْن . وقد قالوا في جمع صِنْو : أَصْنَاء ، فهذا كِقْنو وأَقْنَاء . ونظير صِنْو

---

1 سورة النساء : 117 ، وقد سبق أنها قراءة عطاء بن أبي رباح ، وانظر : البحر : 3/ 352 .

2 انظر : الخصائص : 2/ 93 - 103 .

وصِنْوان في اتفاق اللفظين واختلاف التقديران مما جاء على فِعْل وفِعْلان قولهم : قِنْو وقِنْوان ، وحِسْل 1 وحِسْلان ، ورِئْد 2 ورِئْدان ، وخِشْف 3 وخِشْفان ، وسِيد 4 وسِيدان . هذا هو الظاهر "85و" ومثله كِير الحداد وكِيرَان ، وشِيح 5 وشِيحان ، وخِيط 6 وخِيطان من النعام ، وخِرْص 7 الرمح وخِرْصان ، وشِقْد 8 وشِقْدان ، ونِسْوة

ونِسْوان .

وأما "صَنْوان" بفتح الصاد فليس من أمثلة التكسير ؛ وإنما هو اسم للجمع بمنزلة الباقِر9 والجامِل والسامِر والدابر . وعلى أن قطربًا لم يحكِ فتح الصاد ، وكذلك أبو حاتم في كتابه الذي نرويه عنه في القرآن ؛ فإن صح فتح الصاد من "صَنْوان" فهو على ما ذكرناه من كونه اسمًا للجمع ، لا مثالًا من أمثلة التكسير . ومثله مما جاء اسمًا مفردًا للجمع غير مكسر قولهم : السَّعْدَان والضَّمْرَان10 .

ومن ذلك قراءة عيسى الثقفي وطلحة بن سليمان : "الْمَثْلَاتُ"11 ، وقرأ : "الْمُثْلَاتُ" يحيى بن وثاب ، وقراءة الناس : ﴿الْمَثُلَاتُ﴾ .

قال أبو الفتح : روينا عن أبي حاتم قال روى : زائدة12 عن الأعمش عن يحيى : "الْمَثْلَاتُ" بالفتح والإسكان . قال : وقال زائدة : وبما ثقَّل سليمان13 -يعني : الأعمش - يقول : "الْمَثُلَاتُ" .

وأصل هذا كله "الْمَثُلَاتُ" بفتح الميم وضم الثاء ، يقال : أَمْثَلْتُ الرجل من صاحبه إِمْثَالًا ، واقصصْتُه منه إِقْصَاصًا بمعنى واحد ، والاسم المثال كالقِصَاص .

فأما من قرأ : "الْمَثُلَاتُ" فعلى أصله ، كالسَّمُرَات جمع سَمُرة ، والثمُرات جمع ثَمُرَة14 .

---

1 الحسل : ولد الضب حين يخرج من بيضته .

2 الرئد : ما لان من الأغصان .

3 الخشف مثلثة: ولد الظبي أول ما يولد وأول مشيه.

4 السيد : الذئب.

5 الشيح: من معانيه برد يمنى.

6 الخيط: جماعة النعام.

7 خرص الرمح: سنانه.

8 الشقد : مفرد شقدة؛ وهي حشيشة كثيرة الإهالة واللبن.

9 الباقر: جماعة البقر، والجامل: القطيع من الإبل.

10 الضمران: نبت من دق الشجر.

11 سورة الرعد: 6.

12 هو زائدة بن قدامة أبو الصلت الثقفي. عرض القراءة على الأعمش، وعرض عليه الكسائي. وكان ثقة حجة كبيرًا صاحب مسند، توفي بالروم غازيًا سنة 161.

طبقات ابن الجزري: 1/ 288.

13 في ك: ثقل يعني الأعمش.

14 بضم الميم وفتحها.

ومن قال : "الْمُثْلَاتُ" بضم الميم وسكون الثاء احتمل عندنا أمرين :

أحدهما : أن يكون أراد : الْمُثُلَات ، ثم آثر إسكان الثاء استثقالًا للضمة ففعل ذلك ، إلا أنه نقل الضمة إلى الميم فقال : الْمُثْلَات ، كما قالوا في عَضُد : عُضْد ، وفي عَجُز : عُجْز .

والآخر : أن يكون خفف في الواحد فصار مَثُلَة إلى مُثْلَة ، ثم جمع على ذلك فقال : الْمُثْلَات .

فإن قيل : فهلا أتبع الضمَّ الضمَّ ، فقيل : الْمُثُلَات ، كما نقول في غُرْفة : غُرُفات ، وفي حجرة : حُجُرات ، ففي ذلك جوابان :

أحدهما : أنه إنما كَرِهَ الْمَثُلَة مع فتح الميم ، أفيجمع في الْمُثُلَات بين ضمين ، فيصير إلى أثقل مما هرب منه ؟

والآخر : أنه لو جمع مُثْلَة بعد أن غيرها عن مَثُلَة على مُثُلَات لكان كأنه جمع مُثْلَة مرتجلة على فُعْلَة ، كحُجْرَة وظُلْمَة ، فأقرها على سكون الثاء بحاله لذلك .

فإن قيل : هلا لم يجمع بين الضمتين لكن فتح الثاء فقال : الْمُثَلَات هربًا إلى الخفة بالفتح كظُلَمَات وغُرَفَات ، قيل : لو كان ممن يرى هذا لأقر المثال الأول بحاله فقال : الْمَثُلَات ؛ لأنه إذا فعل ذلك فإنما جمع بين ضمة وفتحة أيضًا ، فإذا انصرف عن ذلك ألبتة فلا وجه لمعاودة ما كأنه هو ، فضم الميم وأسكن الثاء فقال : الْمُثْلَات ، واستغنى عن التعسف بالكلمة إلى

هذه الغاية المستبعدة ، ثم إنها مع ذلك غير مفيدة ولا مجدية ، فهذا هذا .

وروينا عن قطرب أن بعضهم قرأ : "الْمُثُلَات" بضمتين ، فهذا إما عامَل الحاضر معه فثقَّل عليه ، وإما فيها لغلة أخرى ؛ وهي مُثُلَة ، كبُسُرة ، فيمن ضم السين ، وإما فيها لغة ثالثة ؛ وهي مُثْلَة كغُرْفَة .

وأما من قال : "الْمَثْلَات" بفتح الميم وسكون الثاء ، فإنه أسكن عين الْمَثُلَات "85ظ" استثقالًا لها فأقر الميم المفتوحة . وإن شئت قلت : أسكن عين الواحد فقال : مَثْلَة ، ثم جمع وأقر السكون بحاله ولم يفتح الثاء ، كما قال في جَفْنَة وتَمْرَة : جَفَنَات وتَمَرَات ؛ لأنها ليست في الأصل فَعْلَة ؛ وإنما هي مسكَّنة من فَعُلَة ، ففصل بذلك بين فَعْلَة مرتجلة وفَعْلَة مصنوعة منقولة من فَعُلَة على ما ترى .

وإن شئت قلت : قد أسكن الثاء تخفيفًا ، فلم يراجع تحريكها إلا بحركتها الأصلية لها .

وقد يمكن أيضًا أن يكون من قال : "الْمَثُلَات"ممن يرى إسكان الواحد تخفيفًا ، فلما صار إلى الجمع

وآثر التحريك في الثاء عاود الضمة ؛ لأنها هي الأصل لها ، ولم يرتجل لها فتحة أجنبية عنها ، كل ذلك جائز .

ومن ذلك قراءة عبيد الله بن زياد : "لَهُ مَعَاقِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه" 1 .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون هذا تكسير مُعَقِّب أو مُعَقِّبَة ، إلا أنه لما حذف إحدى القافين عوض منها الياء ، فقال : "معاقيب" ، كما تقول في تكسير مقدّم : مقاديم ، ويجوز ألا تعوض فتقول : مَعَاقِب كمقادم .

ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب وابن عباس – رضي الله عنهما – وعكرمة وزيد بن علي وجعفر بن محمد : "يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ الله" 2 .

قال أبو الفتح : المفعول هنا محذوف ؛ أي : يحفظونه مما يحاذره بأمر الله . وأما قراءة الجماعة : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ فليس معناه أنهم يحفظونه من أمر الله أن ينزل به ؛ لكن تقديره : له مُعَقِّبَات من أمر الله يحفظونه مما يخافه ، فـ"من" على هذا مرفوعة الموضع ؛ لأنها صفة للمرفوع الذي هو "معقبات" ، ولو كانت – كما يُظن – أنهم يحفظونه من أمر الله أن ينزل به لكانت منصوبة الموضع ؛ كقولك : حفِظت زيدًا من الأسد ، فقولك : من الأسد ، منصوب الموضع ؛ لأنه مفعول حفِظت .

والذي ذكرناه في هذا رأي أبي الحسن ، وما أحسنه ! فأن قلت : فهلا كان تقديره : يحفظونه من أمر الله ؛ أي : بأمر الله ، ويُستدل على إرادة الباء هنا بقراءة علي عليه السلام

: "يحفظونه بأمر الله" . وجاز أن يحفظوه بأمر الله ؛ لأن هذه المصائب كلها في علم الله وبإقداره فاعليها عليها ، فيكون هذا كقول القائل : هربتُ من قضاء الله بقضاء الله ، قيل : تأويل أبي الحسن أذهب في الاعتداد عليهم ؛ وذلك أنه -سبحانه- وكَّل بهم من يحفظهم من حوادث الدهر ومخاوفه

---

1 سورة الرعد : 11 . وفي تفسير البحر 5/ 372 : وقرأ عبيد الله بن زياد على المنبر : "له المعاقب" ، وهي قراءة أبي وإبراهيم ، وفي الكشاف 1/ 490 : وقرئ : "له معاقيب" كأن عبيد الله رُويت عنه قراءتان ؛ أحدهما : التي ذكرها ابن جني ، ورواها الكشاف من غير أن ينسبها إلى قارئها ، والأخرى : التي ذكرها تفسير البحر المحيط .

2 سورة الرعد : 11 .

(131/406)

التي لا يعتد عليهم بتسليطها عليهم ، وهذا أسهل طريقًا ، وأرسخ في الاعتداد بالنعمة عليهم عروقًا .

ومن ذلك قراءة الأعرج بخلاف : ﴿ شَدِيدُ الْمَحَالِ ﴾ 1 بفتح الميم .

قال أبو الفتح : "الْمَحَال" هنا مَفْعَل من الحِيلة . قال أبو زيد : يقال : ما له حِيلة ولا مَحَالة ؛

فيكون تقديره : شديد الحِيلة عليهم ، وتفسيره قوله سبحانه : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ 2 ، وقوله : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ 3 ، وقال : ﴿ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ 4 ، والطريق هنا واضحة .

ومن ذلك قراءة أبي مِجْلَز : ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْإِيصَالِ ﴾ 5 .

قال أبو الفتح : هو مصدر آصلْنَا : دخلنا في وقت الأصيل "86و" ونحن مُؤصلون . وقد ذكرنا هذا فيما مضى من الكتاب .

ومن ذلك قراءة يحيى بن وثاب : "فَنَعْمَ عُقْبى الدارِ"6 .

قال أبو الفتح : أصل قولنا : نِعْمَ الرجل ونحوه نَعِمَ كعَلِمَ ، وكل ما كان على فَعِل وثانيه حرف حلقى فلهم أربع لغات ، وذلك نحو : فخِذ ، ومَحِك7 ، ونَغِر8 ، بفتح اللام وكسر الثانى على الأصل . وإن شئت أسكنت الثانى وأقررت الأول على فتحه فقلت : فَخْذ ، ومَحْك ، ونَغْر . وإن شئت أسكنت ونقلت الكسرة إلى الأول فقلت : فِخْذ ، ومِحْك ، ونِغْر . وإن شئت أتبعت الكسر الكسر فقلت : فِخِذ ، ومِحِك ، ونِغِر . وكذلك الفعل نحو : ضَحِك ، وإن شئت

---

1 سورة الرعد : 13 .

2 سورة الأعراف : 182 .

3 سورة آل عمران : 54 .

4 سورة الأنفال : 24 .

5 سورة الرعد : 15 .

6 السورة السابقة : 24 .

7 من محك كمنع : بمعنى لج .

8 من نغر عليه كفرح : غلا حسوفه وغضب .

ضَحْك ، وإن شئت ضِحْك ، وإن شئت ضِحِك . فعلى هذ القول : نَعِمَ الرجل ، وإن شئت : نعْم ، وإن شئت نِعْمَ ، وإن شئت نِعِمَ . فعليه جاء : ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ .

وأنشدنا أبو علي لطرفة :

ففداء لبني قيس على ما أصاب الناس من سُر وضُرْ

ما أقلَّتْ قدمي إنهم نَعِمَ الساعون في الأمر المُبِرْ 1

وروينا عن قطرب : نَعِيم الرجل زيد ، بإشبع كسرة العين وإنشاء ياء بعدها كالمطافيل 2 والمساجيد . ولَا بُدَّ من أن يكون الأمر على ما ذكرنا ؛ لأنه ليس في أمثلة الأفعال فِعيل ألبتة .

ومن ذلك قراءة علي – عليه السلام – وابن عباس وابن أبي مليكة3 وعكرمة والجحدري وعلي بن حسين وزيد بن علي وجعفر بن محمد وأبي يزيد المدني وعلي بن بديمة وعبد الله بن يزيد : "أَفَلَمْ يَتَبَيَّنِ الذين"4 .

قال أبو الفتح : هذه القراءة فيها تفسير معنى قول الله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ، وروينا عن ابن عباس أنها لغة وَهْبِيل : فخذ من النَّخَع ، قال :

ألم ييئس الأقوام أني أنا ابنُه وإن كنتُ عن أرض العشيرة نائيا 5

وروينا لسُحيم بن وَثِيل :

أقول لأهل الشِّعْبِ إذ يأسِرُونني ألم تيئسوا أني ابن فارس زَهْدَم6

أي : ألم تعلموا . ويشبه عندي أن يكون هذا راجعًا أيضًا إلى معنى اليأس ؛ وذلك أن المتأمل للشيء المتطلب لعلمه ذاهب بفكره في جهات تعرفه إياه ، فإذا ثبت يقينه على شيء من أمره اعتقده وأَضرب عما سواه ، فلم ينصرف إليه كما ينصرف اليائس من الشيء عنه ، ولا يلتفت إليه . وهذه

---

1 انظر الصفحة 342 من هذا الجزء .

2 المطافيل : جمع المطفل كمحسن ؛ وهي ذات الطفل من الأنس والوحش .

3 هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة أبو بكر ، أو أبو محمد التابعي المشهور . وردت الرواية عنه في حروف القرآن ، وروى عن إسماعيل بن عبد الملك . توفي سنة 117 .

طبقات ابن الجزري : 1/ 43 .

4 سورة الرعد : 31 .

5 يروى : "عرض" مكان "أرض" . انظر : الأساس : يأس ، وتفسير البحر : 5/ 392 .

6 ينسب أيضاً إلى جابر بن سحيم ، ويروى : "ييسرونني" مكان "يأسرونني" ، و"تعلموا" مكان "تيئسوا" . انظر : اللسان : "زهدم ، ويأس ، ويسر" ، والمقاييس : 6/ 154 ، وتفسير البحر : 5/ 392 ، ولم أعثر عليه في ديوان الشاعر .

(133/406)

اللغة هكذا طريق صنعتها وملاءمة أجزائها وضم نَشَرِها وشتاتها ، فإن لم تطَبن 1 لها وتُلاقِ بين متهاجراتها بَدَّت 2 فِرقًا ، وكانت حرية لو لاطفْتَها بالتعانق والالتقاء فرفقًا رفقًا ، لا عُنفًا ولا خُرقًا .

ومن ذلك قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى وابن عباس وأبي -رضي الله عنهم- وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد بخلاف والحسن بخلاف وعبد الرحمن بن أبي بكرة وابن أبي إسحاق والضحاك والحكم بن عتيبة ، ورُويت عن الأعمش : "وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ" 3 ، وقرأ : "ومِنْ عِنْدِهِ" بكسر الميم والدال والهاء "عُلِمَ الكتابُ" بضم العين

وفتح الميم علي وابن السميفع "86ط" والحسن. وقراءة الجماعة: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ .

قال أبو الفتح: مَن قرأ: "وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ" فتقديره ومعناه: من فضله ولطفه علم الكتاب، ومَن قرأ: "وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الْكِتَابُ" فمعناه معنى الأول، إلا أن تقدير إعرابه مخالف له؛ لأن من قال: "وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ" فـ "من" متعلقة بمحذوف، "وعلمُ الكتاب" مرفوع بالابتداء، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾4. ومن قال: "وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الْكِتَابُ" فـ "من" متعلقة بنفس "عُلم"، كقولك: من الدار أُخرج زيد؛ أي: أخرج زيد من الدار، ثم قَدَّمتَ حرف الجر. وقراءة الجماعة: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فالعلم مرفوع بنفس الظرف؛ لأنه إذا جرى الظرف صلة رفع الظاهر لإيغاله في قوة شبهه بالفعل، كقولك: مررت بالذي في الدار أخوه. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحتسب حـ 1 صـ 350. 357﴾

---

1 كذا في ك. وطبن له كفرح وضرب: فطن. وفي الأصل "تطبق" بالقاف، وهو تحريف.

2 بدّت: تباعدت، وتنافرت.

3 سورة الرعد: 43.

4 سورة البقرة: 78.

وقال العلامة الدمياطى :

سور الرعد

مكية وقيل مدنية إلا ولا يزال الذين كفروا وآيها أربعون وثلاث كوفي وأربع حرمي وخمس بصري وسبع شامي خلافها ست خلق جديد والنور غير كوفي والبصير دمشقي والباطل حمصي لهم سوء الحساب شامي كل باب عراقي وشامي شبه الفاصلة خمسة المر تغيض الأرحام تزداد لربهم الحسنى يكفرون بالرحمن وعكسه يضرب الله الأمثال القراآت سبق السكت على حروف المر لأبي جعفر كإمالة رائها لأبي عمرو وابن عامر وأبي بكر وحمزة والكسائي وخلف وتقليلها للأزرق

وقرأيغشي) الآية 3 بفتح الغين وتشديد الشين أبو بكر وحمزة والكسائي وكذا خلف ويعقوب والباقون بالسكون والتخفيف من أغشى كما مر بالأعراف وعن الحسن ندبر بالنون وعنه قطعا متجاورات وجنات بالنصب في الثلاثة على إضمار جعل وافقه المطوعي على جنات والجمهور على الرفع في الثلاثة على الابتداء والفاعلية بالجار قبله وأمال مسمى وقفا حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق

واختلف في ( ) وزرع ونخيل صنوان وغير ( ) الآية 4 فابن كثير وابو عمرو وحفص ويعقوب برفع الأربعة فرفع زرع ونخيل بالعطف على قطع ورفع صنوان لكونه تابعا لنخيل وغير لعطفه عليه وافقهم ابن محيصن واليزيدي والباقون بالخفض تبعا لأعناب

واختلف في ﴿ تسقى ﴾ الآية 4 فابن عامر وعاصم ويعقوب بالياء من تحت وفقهم ابن محيصن والحسن أي يسقى ما ذكر والباقون بالتأنيث مراعاة للفظ ما تقدم وأمالها حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه

واختلف في (ونفضل) الآية 4 فحمزة والكسائي وخلف بالياء من تحت وافقهم ابن محيصن والأعمش والباقون بالنون

وقرأ (الأكل) الآية 4 بسكون الكاف نافع وابن كثير وأدغم باء تعجب في فاء فعجب أبو عمرو والكسائي وهشام وخلاد بخلف عنهما ومر تفصيله في الإدغام الصغير وأسقط ذكر الخلاف لهشام هنا في الأصل فليعلم

(135/406)

وقرأ ( ) أئذا كنا ترابا أئنا (الآية 5 بالاستفهام في الأول والأخبار في الثاني نافع والكسائي ويعقوب وكل على أصله فقالون بالتسهيل والمد وورش ورويس بالتسهيل والقصر

والكسائي وروح بالتخفيف والقصر وقرأ ابن عامر وأبو جعفر بالإخبار في الأول

والاستفهام في الثاني وكل على أصله أيضا فابن عامر بالتحقيق فلا فصل بالألف غير أن

أكثر الطرق عن هشام على الفصل وأما أبو جعفر فبالتسهيل والمد والباقون بالاستفهام

فيهما فابن كثير بالتسهيل بلا فصل وأبو عمرو بالتسهيل والفصل وأما عاصم وحمزة وخلف

فبالتحقيق والقصر وكسر الهاء والميم وصلا من قبلهم المثلات أبو عمرو ويعقوب وضمها

حمزة والكسائي وخلف وضم الميم فقط والباقون ومثلها لربهم الحسنى وأثبت الياء وقفا

من هاد كلاهما ووال وواق كلاهما ابن كثير على الأصل وأثبتها في الحالين في (المتعال) الآية

9 ابن كثير ويعقوب من غير خلاف كما في النشر وما ورد عن قنبل من حذفها في الحالين أو

في الوقف فغير مأخوذ به وأظهر ذال فاتخذتم ابن كثير وحفص ورويس بخلفه

وأمال (الأعمى) الآية 16 حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في ( ) أم هل تستوي ( ) الآية 16 الثانية فأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف بالياء

من تحت وافقهم الأعمش والباقون بالتاء ولم يدغم أحد لام هل في تاء تستوي لأن المدغم

يقرأ بالتذكير وورد كل من الإظهار والإدغام عن هشام والأكثر عنه على الإظهار كما مر

مفصلا في محله وعن ابن محيصن الإدغام وضم الهاء من عليهم حمزة كيعقوب عن الحسن

والمطوعي بقدرها بسكون الدال

واختلف في ﴿ توقدون ﴾ الآية 17 فحفص وحمزة والكسائي وخلف بالياء من تحت

وافقهم ابن محيصن بخلفه المطوعي والباقون بالتاء على الخطاب وغلظ الأزرق لام يوصل

واختلف عنه في الوقف ورجح في النشر التغليظ وأثبت ياء مآب معا و عقاب متاب في

الحالين يعقوب وعن ابن محيصن وحسن بالنصب عطفا على طوبى المنصوب بإضمار

جعل ومر نظير عليهم الذي كنقل قرآنا لابن كثير وسبق أفلم ييأس للبزي بخلفه بسورة

يوسف كالهمز المفرد ووقف حمزة عليه وقرأ كسر دال ولقد استهزىء وصلا أبو عمرو

وعاصم وحمزة ويعقوب وأظهر ذال أخذتهم ابن كثير وحفص ورويس بخلفه وأدغم لام بل

زين الكسائي وهشام على ما صوبه عنه في النشر واختلف في (وصدوا) الآية 33 هنا

وغافر الآية 37 (وصد عن) فعاصم وحمزة والكسائي وخلف بضم الصاد فيهما على

بناء للمفعول وافقهم الحسن والباقون بالفتح فيهما على البناء للفاعل أما من صد أعرض

وتولى فيكون لازما أو صد غيره أو

نفسه فيكون متعديا وعن الأعمش كسر الصاد أجراه كقيل وتقدم وقف ابن كثير على هاد

بالياء وكذا واق معا وقرأ أكلها بسكون الكاف نافع وابن كثير وابو عمرو ومر ياء مآب

ليعقوب في الحالين

واختلف في (ويثبت) الآية 39 فابن كثير وابو عمرو وعاصم ويعقوب بسكون الثاء

وتخفيف الباء الموحدة من أثبت وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن والشنبوذي

والباقون بالفتح والتشديد ومفعوله محذوف إليهما أي ما يشاء

(137/406)

واختلف في ﴿ وسيعلم الكافر ﴾ الآية 42 فابن عامر وعاصم حمزة والكسائي وكذا خلف بضم الكاف وتقديم الفاء وفتحها جمع تكسير وافقهم الأعمش والحسن والباقون بفتح الكاف وتأخير الفاء مع كسرها على الإفراد وعن الحسن والمطوعي ومن عنده جار ومجرور خبر مقدم و علم مبتدأ مؤخر والجمهور من اسم موصول عطف على الجلالة والجملة بعده صلته أي كفى بالله وبالذي عنده الخ من مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأما قراءة من عنده بالجر وعلم بالبناء للمفعول والكتاب رفع به فليس من طرق هذا الكتاب

المرسوم اتفقوا على حذف ألف ترابا من أئذا كنا تربا هنا والنمل وكنت تربا بالنبأ وعلى إثبات ألف كتاب من لكل أجل كتاب هنا ولها كتاب بالحجر وكتاب ربك بالكهف وآيات الكتاب بالنمل وفي الإمام كغيره وسيعلم الكفر بلا ألف وكتب هاد وواق ووال بغير ياء ويمحوا بواو وألف المقطوع اتفقوا على قطع أن الشرطية عن ما المزيدة من وإن ما نرينك

ووصل ما عداها ياآت الزوائد أربع (المتعال) الآية 9 (مآب) الآية 29 (متاب) الآية 30 (عقاب) الآية 32 ومرت بأحكامها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 340.338 ﴾

(138/406)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الرعد "

" المر " سكت أبو جعفر على ألف ولام ميم ورا من غير تنفس والباقون بغير سكت .

يؤمنون " يدبر ، وهو ، متجاورات . جلي .

" يغشى " قرأ شعبة ويعقوب والأخوان وخلف بفتح الغين وتشديد الشين والباقون بإسكان الغين وتخفيف الشين .

" وزرع ونخيل صنوان وغير " قرأ المكي وحفص والبصريان برفع عين وزرع ولام ونخيل ونون صنوان وراء غير . والباقون بخفض الأربعة ولا خلاف في خفض صنوان الثاني لإضافة غير إليه .

" يسقى " قرأ الشامي وعاصم ويعقوب بالياء التحتية على التذكير ، والباقون بالتاء الفوقية

على التأنيث .

" ونفضل " قرأ الأخوان وخلف بالياء التحتية والباقون بالنون .

" في الأكل " قرأ نافع وابن كثير بإسكان الكاف والباقون بضمها .

" يعقلون " آخر الربع .

المال

الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . القرى ويفترى بالإمالة للأصحاب والبصري وبالتقليل لورش . الناس معا لدوري البصري . يوحى وهدى ومسمى لدى الوقف عليهما واستوى وتسقى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه جاءهم لابن ذكوان وخلف وحمزة . المر . تقدم في يونس وهود ويوسف .

المدغم

" الكبير " والآخرة توفني . الثمرات جعل .

أئذا كنا ترابا أئنا ، قرأ نافع والكسائي ويعقوب أئذا بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة على الاستفهام وقرءوا أئنا بهمزة واحدة مكسورة على الخبر وكل على أصله

فقالون يسهل الثانية في أئذا ويدخل بينها وبين الأولى وورش ورويس يسهلانها من غير إدخال والكسائي وروح يحققانها من غير إدخال . وقرأ ابن عامر وأبو جعفر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني وكل على أصله كذلك فأبو جعفر يسهل الثانية في أئنا مع الإدخال وهشام يحققها مع الإدخال أيضا قولا واحدا وابن ذكوان يحققها بلا إدخال . وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما وكل على قاعدته فابن كثير بالتسهيل بلا إدخال وأبو عمرو بالتسهيل مع الإدخال وعاصم وحمزة وخلف بالتحقيق من غير إدخال .

من قبلهم المثلات . حكمه حكم بهم الأسباب فتذكر .

عليه ، يديه ، منذر ، الكبير: ومن خلفه . من خيفته . لا بغير . حتى يغيروا "كفيه" فاه ، عليهم وهو ، جلي كله .

" هاد " قرأ ابن كثير بإثبات ياء بعد الدال وقفا والباقون بحذفها ويقفون على الدال واتفق الجميع على حذفها وصلا .

" المتعال " أثبت الياء ابن كثير ويعقوب في الحالين وحذفها الباقون كذلك .

" سوءا " فيه لحمزة وقفا النقل والإدغام .

" من وال " حكمه حكم هاد .

" وينشئ " فيه لحمزة وقفا ما في يستهزئ بالبقرة .

" تستوي الظمات " قرأ شعبة والأخوان وخلف بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية .

يوقدون " قرأ حفص والأخوان وخلف بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب .

" لربهم الحسنى " واضح .

سوء ، لحمزة وهشام فيه وقفا النقل والإدغام وكل منهما مع السكون والروم والإشمام فيكون فيه ستة أوجه .

" المهاد " آخر الربع .

الممال

النار وبمقدار وبالنهار للبصري والدوري بالإمالة ولورش بالتقليل ، الناس لدوري البصري أنثى والحسنى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، الكافرين

بالإمالة للبصري والدوري ورويس وبالتقليل لورش ، الأعمى ومأواهم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " وإن تعجب فعجب . للبصري وخلاد والكسائي " أفاتخذتم " لغير حفص والمكي ورويس . ولا إدغام في هل تستوي الظلمات لأحد لأن الأخوين يقرآن بالياء

التحتية .

وأما هشام فلا يدغمه لأنه مستثنى .

" الكبير " يعلم ما " بالنهار له " فيصيب بها ، المحال له . خالق كل ، الأمثال للذين .

يوصل " لورش فيه التفخيم وصلا والتفخيم والترقيق وقفا والأصح التفخيم .

" سرا " صلح ، عليهم ، ويقدر ، إليه ، قرآنا ، سيرت عليهم الذي ، لا يخفى ما فيه .

" ويدرءون " لورش ثلاثة البدل ولحمزة عند الوقف عليه تسهيل الهمز بين بين والحذف فيصير النطق بواو ساكنة لينة بعد الراء المفتوحة .

" الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب " اجتمع لورش في هذه الآية بدلان الأول موصول والثاني موقوف عليه وبينهما كلمة ذات ياء . وقد ذكر أهل الأداء أن لورش أحد عشر وجها ، وبيانها كالآتى . قصر البدل الأول آمنوا وعليه فتح ذات الياء طوبى مع القصر والتوسط والمد في البدل الثاني مآب مع السكون المحض ثم القصر مع الروم فيكون على قصر البدل الأول أربعة أوجه . ثم توسط آمنوا مع تقليل طوبى والتوسط والمد في مآب مع السكون المحض ثم التوسط مع الروم ، فيكون على توسط آمنوا ثلاثة أوجه . ثم مد آمنوا مع فتح طوبى والمد في مآب مع السكون المحض ومع الروم . ثم تقليل طوبى مع هذين الوجهين أيضا فيكون على مد آمنوا أربعة أوجه فمجموع الأوجه أحد عشر ووقف حمزة عليه بالتسهيل فقط ولا شيء فيه ليعقوب لكونه منونا .

" متاب " أثبت يعقوب الياء وصلا ووقفا وحذفها الباقون .

" ييأس " حكمه حكم ما سبق في يوسف لسائر القراء غير أنه ينبغي أن تعلم أن لورش في هذه الآية أربعة أربعة أوجه: توسط اللين وهو ييأس وعليه ثلاثة البدل وهو آمنوا ، ثم مد ييأس مع مد آمنوا .

(141/406)

" ولقد استهزئ " كسر الدال وصلا البصريان وعاصم وحمزة وضمها الباقون وأبدل أبو جعفر الهمزة ياء مفتوحة وصلا ساكنة وقفا . وليس لهشام وحمزة عند الوقف عليه إلا الإبدال ياء .

" عقاب " أثبت يعقوب الياء مطلقا وحذفها الباقون كذلك .

" أم تنبئونه " قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة مع ضم الباء ولحمزة فيه وقفا الحذف والتسهيل والإبدال ياء خالصة .

" وصدوا " قرأ الكوفيون ويعقوب بضم الصاد والباقون بفتحها .

" من هاد " من واق وقف عليهما ابن كثير بياء ساكنة بعد الدال والقاف كما تقدم .

وواق آخر الربع .

الممال

أعمى ولهدى لدى الوقف بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلفه ، عقبى معا لدى الوقف عليه والدنيا الثلاثة وطوبى والموتى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، الدار الثلاثة ودراهم بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " أخذتهم " لغير حفص والمكي ورويس " بل زين لهشام والكسائي .

" الكبير " الصالحات طوبى . كلم به ، زين للذين .

" أكلها " قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بإسكان الكاف والباقون بضمها .

" دائم " فيه لحمزة وقفا تسهيل الهمز مع المد والقصر .

" ينكر " إليه ، أنزلناه " وهو " واضح .

" مآب " أثبت الياء في الحالين يعقوب وحذفها غيره .

" ولا واق " أثبت الياء بعد القاف المكي وقفا وحذفها وصلا وحذفها الباقون في الحالين .

" ويثبت " قرأ المكي والبصريان وعاصم بإسكان الثاء وتخفيف الباء والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء .

" وسيعلم الكفار " قرأ الشامي والكوفيون ويعقوب بضم الكاف وفتح الفاء وتشديدها

وألف بعدها على الجمع والباقون بفتح الكاف وألف بعدها وكسر الفاء على الإفراد .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 175.171 ﴾

(142/406)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الرعد

قوله تعالى يغشى الليل النهار يقرأ بالتشديد والتخفيف وقد ذكرت علته في الأعراف قوله تعالى وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يقرأ ذلك كله بالرفع

سورة الرعد والخفض فالحجة لمن رفع أنه رده على قوله وفي الأرض قطع متجاورات وجنات والحجة لمن خفض أنه رده على قوله من أعناب وزرع فإن قيل لم ظهرت الواو في صنوان وحقها الإدغام فقل عن ذلك جوابان أحدهما أنها لو أدغمت لأشبه فعلان فعالا والآخر أن سكون النون ها هنا وفي قوله بنيان وقنوان عارض لانها قد تتحرك في الجمع والتصغير فلما كان السكون فيها غير لازم كان الإدغام كذلك قوله تعالى تسقى بماء واحد يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن قرأه بالياء أنه أراد يسقى المذكور والحجة لمن قرأه بالتاء أنه رده

على لفظ جنات ولفظها مؤنث قوله تعالى ونفضل يقرأ بالياء والنون فالحجة لمن قرأه بالياء أنه جعله إخبارا عن الله تعالى من الرسول والحجة لمن قرأه بالنون أنه جعله من إخبار الله تعالى عن نفسه وقوله تعالى أئذا كنا ترابا أئنا يقرآن بالاستفهام فيهما وباستفهام الأول والإخبار في الثاني وقد تقدم ذكر علله والاحتجاج لمن قرأ به قوله تعالى المتعال يقرأ بإثبات الياء وصلا ووقفا وبإثباتها وصلا وحذفها وقفا وبحذفها وصلا ووقفا فالحجة لمن أثبتها وصلا ووقفا أنه أتى بالكلمة على ما أوجبه القياس لها لأن الياء إنما كانت تسقط لمقارنة التنوين في النكرة فلما دخلت الألف واللام زال التنوين فعاد لزواله ما سقط لمقارنته والحجة لمن أثبتها وصلا وحذفها وقفا أنه اتبع خط السواد في الوقف وأخذ بالأصل في الوصل فأتى بالوجهين معا والحجة لمن

(143/406)

حذفها فيهما أن النكرة قبل المعرفة فلما سقطت فيها الياء ثم دخلت الألف واللام دخلتا على شيء محذوف فلم يكن لهما سبيل إلى رده وله أن يقول إن العرب تجتزئ بالكسرة من الياء فلذلك سقطت الياء في السواد ووزن متعال متفاعل من العلو لام الفعل منن واو انقلبت ياء لوقوعها طرفا وكسر ما قبلها والدليل على أن اللغة لا تقاس وإنما تؤخذ سماعا

قولهم الله متعال من تعالى ولا يقال متبارك من تبارك فأما قولهم تعال يا رجل فكان أصله ارتفع ثم كثر استعماله حتى قيل لمن كان في أعلى الدار تعال إلى اسفل فإن قيل كيف تنهي من قولك تعال لأن نقيض الأمر النهي فقل إن العرب إذا غيرت كلمة عن جهتها أو جمعت بين حرفين أو أقامت لفظا مقام لفظ الزمته طريقة واحدة كالأمثال التي لا تنقل عن لفظ من قيلت فيه أبدا كقولهم في الأمر هلم وهات يا رجل وصه ومه فأمرت بذلك ولم تنه منه لانها حروف أفعال وضعت معانيها للأمر فقط فأجريت مجرى الأمثال اللازمة طريقة واحدة بلفطها قوله تعالى أم هل يستوي يقرأ بالتاء والياء وقد مضى الجواب في علته آنفا ومثله ومما توقدون عليه بالتاء والياء قوله تعالى وصدوا عن السبيل يقرأ بفتح الصاد وضمها فالحجة لمن قرأها بالفتح أنه دل بذلك على بناء الفعل لفاعله والحجة لمن قرأها بالضم أنه دل بذلك على بناء الفعل لما لم يسم فاعله قوله تعالى ويثبت يقرأ بالتخفيف والتشديد فالحجة لمن خفف أنه أخذه

من أثبت يثبت والحجة لمن شدد أنه أخذه من ثبت يثبت ومعناه يبقيه ثابتا فلا يمحوه ومنه يثبت الله الذين آمنوا والنحويون يختارون التخفيف لموافقته للتفسير لأن الله تعالى إذا

عرضت أعمال عبده عليه أثبت ما شاء ومحا ما شاء فإن قيل كيف يمحو ما قد أخبر نبيه عليه السلام بأنه قد فرغ منه فقل إنما فرغ منه علما وعلمه لا يوجب ثوابا ولا عقابا إلا بالعمل فإذا كتب الملك ثم تاب العبد فمحاه الله تعالى قبل ظهور العمل كان ذلك له لأن علمه به قبل الظهور كعلمه به بعده قوله تعالى وسيعلم الكافر يقرأ بالتوحيد والجمع فالحجة لمن وحد أنه أراد به أبا جهل فقط والحجة لمن جمع أنه أراد كل الكفار ودليله أنه في حرف أبي وسيعلم الذين كفروا وفي حرف عبد الله وسيعلم الذين كفروا وإنما وقع الخلف في هذا الحرف لأنه في خط الإمام بغير ألف وإنما هو الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الحجة فى القراءات السبعة صـ 199.203﴾

(145/406)

وقال ابن زنجلة :

13 – سورة الرعد

يغشي الليل النهار 3

قرأ حمزة والكسائي وابو بكر يغشي بالتشديد وحجتهم قوله تعالى فغشاها ما غشى

وقرأ الباقون يغشي بالتخفيف وحجتهم قوله فأغشيناهم

وفي الأرض قطع متجورات وجنت من أعنب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل 4

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان بالرفع وحجتهم ذكرها العباس فقال سألت أبا عمرو كيف لا تقرأ و زرع بالجر قال الجنات لا تكون من زرع فذهب أبو عمرو إلى أن الزرع وما بعده مردود على قوله قطع كأنه قال في الأرض قطع متجاورات وفيها جنات وفيها زرع ونخيل

وقرأ الباقون بالجر كلها حملوا الزرع والنخيل على الأعناب كأنه قال جنات من أعناب وغير ذلك من زرع ونخيل وحجتهم في ذلك على أن الأرض إذا كان فيها النخل والكرم والزرع سميت جنة قوله جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا فكما سميت الأرض ذات النخل والزرع جنة كذلك يكون في قراءة من قرأ وجنات من أعناب وزرع ونخيل أن يكون الزرع والنخيل محمولين على الأعناب

قرأ عاصم وابن عامر يسقى بماء واحد أي يسقى المذكور بماء واحد وحجتهما قوله وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره على معنى من ثمر المذكور

وقرأ الباقون تسقى بالتاء أي تسقى هذه الأشياء بماء واحد قالوا ولا يكون التذكير لأنك إن حملته على الزرع فقد

تركت غيره وإن حملته على الجنات مع حمله على الزرع فقد ذكرت المؤنث وحجتهم قوله تعالى بعدها ونفضل بعضها على بعض فقال بعضها فكما حمل هذا على التأنيث كذلك يحمل تسقى

قرأ حمزة والكسائي ويفضل بعضها بالياء إخبارا عن الله أي يفضل الله بعضها على بعض وحجتهما أن ابتداء الكلام جرى من أول السورة بقوله وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي 3 وفعل وفعل فردوا قوله ويفضل على لفظ ما تقدمه إذ كان في سياقه ليأتلف نظام الكلام على سياق واحد

وقرأ الباقون ونفضل بالنون إخبار الله عز و جل عن نفسه وحجتهم قوله تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض وقال ونفصل الآيات بلفظ الجمع

وإن تعجب فعجب قولهم أءذا كنا ترابا أءنا لفي خلق جديد 5

قرأ ابن عامر وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا على الخبر أئنا بهمزتين على الاستفهام وحجته في ذلك أن الاستفهام منهم على إحيائهم بعد الممات ولم يستفهموا في كونهم ترابا لأنهم كانوا يعلمون أنهم يصيرون ترابا وما كانوا ينكرون وإنما أنكروا البعث والنشور فيجب

على هذا أن يكون موضع الاستفهام في الكلمة الثانية في قوله أئنا لفي خلق جديد لا الأولى

وقرأ نافع والكسائي بالاستفهام في الأولى والثاني على الخبر

غير أن الكسائي قرأ بهمزتين ونافع بالمد وحجتهما في ذلك أن الاستفهام إذا دخل في أول الكلام أحاط بآخره والذي يدل على هذا قوله تعالى أئذا ما مت لسوف أخرج حيا وقوله أيضا أفإن مت فهم الخالدون ألا ترى أنه لم يعد الاستفهام في قوله فهم الخالدون وأخرى لما كان أحد الاستفهامين علة للآخر كان المعنى في أحدهما دون الآخر وكان الآخر علة له يقع لوقوعه ويرتفع بارتفاعه ويدل عليه أفإن مت فهم الخالدون ولم يعد الاستفهام في فهم وهو موضعه وكذلك قال أفإن مات أو قتل انقلبتم فلم يعد الاستفهام مع قوله انقلبتم على أعقابكم وهناك معقد الاستفهام لأن معنى الكلام أفهم الخالدون إن مت و أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل فالموت والقتل علة للانقلاب والخلود وكذلك كونهم ترابا وموتهم علة لإحيائهم ورجوعهم خلقا جديدا فلما كان ذلك كذلك جعل الاستفهام لما هو سبب للإحياء وهو الموت والتراب

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة أئذا أئنا بالاستفهام في الكلمتين ومذهب ابن كثير القصر ومذهب أبي عمرو المد ومذهب عاصم وحمزة الهمزتان وحجتهم أن موضع الاستفهام في الكلمة الثانية لأن المعنى أئنا لفي خلق جديد إذا كنا ترابا فإنما كان الاستفهام منهم عن إحيائهم بعد الممات ولم يستفهموا عن كونهم ترابا أعيد في موضعه الذي هو فائدة السامعين في استفهامهم والعرب إذا بدؤوا بحرف قبل الموضع الذي أرادوا إيقاعه فيه أعادوه في موضعه وقد نزل بذلك القرآن قال الله جل وعز أيعدكم

أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون وإنما موضع الفائدة في الكلام الإخراج فلما بدئ ب أن قبل الإخراج أعيدت مع الإخراج وقد قيل إن الاستفهام الأول رد على كلام محذوف كأنهم قالوا لهم إنكم مبعوثون بعد الموت فردوا الاستفهام وقالوا أئذا كنا ترابا

علم الغيب والشهدة الكبير المتعال 9

قرأ ابن كثير المتعالي بإثبات الياء في الوصل والوقف وهو القياس وليس ما فيه الألف واللام من هذا كما لا ألف ولام فيه من هذا النحو نحو غاز وقاض قال سيبويه إذا لم يكن في موضع تنوين يعني اسم الفاعل فإن البيان أجود في الوقف وذلك قولك هذا القاضي لأنها ثابتة في الوصل يريد أن الياء مع الألف واللام تثبت ولا تحذف كما تحذف في اسم الفاعل إذا لم يكن فيه الألف واللام نحو هذا قاض فاعلم فالياء مع غير الألف واللام تحذف في الوصل ومع الألف واللام لا تحذف

وقرأ الباقون المتعال بغير ياء وحجتهم خط المصحف بغير ياء والمتعال متفاعل من العلو والأصل متعالو فانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها لقولك الداعي والغازي والأصل الداعو والغازو

أم هل تستوي الظلمت والنور 16

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر أم هل يستوي الظلمات

(148/406)

بالياء وحجتهم في ذلك أن تأنيث الظلمات غير حقيقي فجاز تذكيره مثل قوله فمن جاءه موعظة ذهب إلى الوعظ كذلك ذهبوا في الظلمات إلى معنى المصدر فيكون بمعنى الإظلام والظلام ومثله وأخذ الذين ظلموا الصيحة يعني الصياح

وقرأ الباقون أم هل تستوي الظلمات بالتاء وحجتهم تأنيث الظلمات ذهبوا إلى اللفظ لا إلى المعنى

ومما يوقدون عليه في النار وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض 17

قرأ حمزة والكسائي وحفص ومما يوقدون عليه بالياء وحجتهم أن الكلام خبر لا خطاب فيه بدلالة قوله وأما ما ينفع الناس فأخبر عنهم فكذلك ومما يوقدون جرى بلفظ الخبر نظيرا

لما أتى عقيبه من الخبر

وقرأ الباقون بالتاء ردوا على المخاطبة في قوله قبلها قل أفاتخذتم من دونه 16

بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل 33

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وصدوا عن السبيل بضم الصاد على ما لم يسم فاعله

وحجتهم أن الكلام أتى عقيب الخبر من الله

بلفظ ما لم يسم فاعله وهو قوله بل زين للذين كفروا مكرهم فجرى الكلام بعده بترك تسمية

الفاعل ليأتلف الكلام على نظام واحد

وقرأ الباقون وصدوا عن السبيل بفتح الصاد أسندوا الفعل إلى الفاعل وحجتهم قوله الذين

كفروا و صدوا عن سبيل الله وقال سبحانه هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام

فلما رأوا الصد مسندا إليهم في هذ الآيات كذلك يكون مسندا إليهم في قوله وصدوا عن

السبيل

يمحو الله ما يشاء ويثبت 39

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم و يثبت بالتخفيف من أثبت يثبت إثبا تا فهو مثبت إذا

كتب وحجتهم قولهم فلان ثابت

وقرأ الباقون يثبت بالتشديد أي يقر الله ما قد كتبه فيتركه على حاله وحجتهم قوله وأشد

تثبيتا وقال قوم هما لغتان مثل وفيت وأوفيت و عظمته وأعظمته

وقد مكر الذين من قبلهم وسيعلم الكفر لمن عقبى الدار 42

(149/406)

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وسيعلم الكافر على التوحيد قال أبو عمرو عني به أبو جهل وحجتهم قوله ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا وقال آخرون الكافر واحد والمعنى جمع ولم يرد كافرا واحدا وإنما أراد الجنس كما تقول أهلك الناس الدينار والدرهم تريد الجنس المعنى سيعلم كل من كفر من الناس

وقرأ الباقون وسيعلم الكفار على الجمع وحجتهم في ذلك أن الكلام أتى عقيب قوله وقد مكر الذين من قبلهم ثم قال وسيعلم الكفار بلفظ ما تقدمه ليأتلف الكلام على سياق واحد وفي التنزيل ما يقوي هذا وهو قوله وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

وقف ابن كثير على هادي و واقي و والي بالياء ووقف الباقون بغير ياء وهو الوجه لأنك تقول هذا قاض وهاد و واق فتحذف في الوصل الياء لسكونها والتقائها مع النون لأنهم استثقلوا الكسرة على الياء فحذفوها فالتقى ساكنان الياء والتنوين فحذفت الياء لالتقاء الساكنين مثل ما أنت قاض و وجه قول ابن كثير أن سيبويه قال حدثنا أبو الخطاب أن بعض

من يوثق به من العرب

يقول هذا داعي فيقفون بالياء ووجه ذلك أنهم كانوا قد حذفوا الياء في الوصل لالتقائها مع التنوين وقد أمن في الوقف أن يلحق التنوين فإذا أتى التنوين الذي كانت الياء حذفت في الوصل من أجل التقائها معه في الوصل ردت الياء فصار هذا قاضي و هادي و واقي و والي ومن ثم قال الخليل في نداء قاض يا قاضي بإثبات الياء لأن النداء موضع لا يلحق فيه التنوين فثبتت الياء في النداء لما أمن من لحاق التنوين فيه كما ثبتت مع الألف واللام لما أمن التنوين معها في نحو المعالي والداعي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 368 . 376 ﴾

(150/406)

أسئلة وأجوبة فى السورة الكريمة

قال الخطيب الإسكافى :

سورة الرعد

120 الآية الأولى منها

قوله عز وجل : (وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) الرعد : 3 .

وقال في الآية التي بعدها : (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) إلى قوله : (إن في ذلك لآيات قوم يعقلون) الرعد : 4

للسائل أن يسأل عن قوله تعالى (يتفكرون) في هذه الآية وقوله في الآية التي بعدها (يعقلون) ، هل كان يصح أحدهما مكان الآخرة ؟

والجواب أن يقال : إن التفكر هو المؤدي إلى معرفة الشيء ، والعلم بالآيات التي تدل على وحدانية الله تعالى ، فهو قبل ، فإذا استعمل على وجه عقل ما جعلت هذه الأشياء أمارة له ودلالة عليه .

فبدئ في الأول بما يحتاج إليه أولا من التفكر والتدبر المفضيين بصاحبهما إلى إدراك المطلوب ، وخص الآخر بما يستقر عليه آخر التفكر من سكون النفس إلى عرفان ما دلت الآيات عليه ، فكان في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر إشارة إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ درة التنزيل صـ 177 ﴾

(151/406)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الرعد 13

مكية هذا قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وقال قتادة هي مدنية إلا هذه الآية وهي قوله تعالى (﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾)

ونظيرتها في المدنيين والمكي سأل سائل وفي البصري فاطر وق والنازعات ولا نظير لها في الكوفي والشامي

وكلمها ثماني مئة وخمس وخمسون كلمة

وحروفها ثلاثة آلاف وخمس مئة وستة أحرف

وهي أربعون وثلاث آيات في الكوفي وأربع في المدنيين والمكي وخمس بصري وسبع شامي

اختلافها خمس آيات (﴿ لفي خلق جديد ﴾) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون (﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾) عدها الشامي ولم يعدها الباقون (﴿ أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون (﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾) عدها الشامي ولم يعدها الباقون (﴿ من كل باب ﴾) لم يعدها المدنيان والمكي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضع واحد وهو قوله تعالى (﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾

ورؤوس الآي

لا يؤمنون

1 توقنون

2 يتفكرون

3 يعقلون

4 جديد

القهار

16 الأمثال

17 المهاد

18 الألباب

19 الميثاق

20 الحساب

21 الدار

22 الدار

24 الدار

25 متاع

26 أناب

27 القلوب

28 مآب

29 متاب

30 الميعاد

31 عقاب

32 هاد

33 واق

34 النار

35 مآب

36 واق

37 كتاب

38 الكتاب

39 الحساب

40 الحساب

41 الدار

42 الكتاب. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ البيان في عد آي القرآن صـ 169. 170 ﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (المر) قد ذكر حكمها في أول البقرة (تلك) يجوز أن يكون مبتدأ ، و (آيات الكتاب) خبره ، وأن يكون خبر " المر " وآيات بدل أو عطف بيا ن (والذى أنزل) فيه وجها ن .

أحد هما هو في موضع رفع ، و (الحق) خبره ، ويجوز أن يكون الخبر من ربك ، والحق خبر مبتدإ محذوف أو هو خبر بعد خبر ، وكلاهما خبر واحد ، ولو قرئ الحق با لجر لجاز على أن يكون صفة لربك .

الوجه الثاني أن يكون ، والذى صفة للكتاب ، وأدخلت الواو في الصفة كما أدخلت في النازلين والطيبين ، والحق بالرفع ، والحق بالرفع على هذا خبر مبتدأ محذوف .

قوله تعالى (بغير عمد) الجار والمجرور في موضع نصب على الحال تقديره: خالية عن عمد ،

والعمد بالفتح جمع عماد أو عمود مثل أديم وأدم وأفيق وأفق وإهاب وأهب ولا خامس لها .

ويقرأ بضمتين ، وهو مثل كتاب وكتب ورسول ورسل (ترونها) الضمير المفعول يعود على العمد ، فيكون ترونها في موضع جر صفة لعمد ، ويجوز أن يعود على السموات فيكون حالا منها (يدبر) و (يفصل) يقرآن بالياء والنون ومعناهما ظاهر ، وهما مستأنفان ، ويجوز أن يكون الأول حالا من الضمير في سخر ، والثانى حالا من الضمير في يدبر .

قوله تعالى (ومن كل الثمرات) فيه ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون متعلقا بجعل الثانية ، والتقدير: وجعل فيها زوجين اثنين من كل الثمرات .

والثانى أن يكون

حالا من اثنين وهو صفة له في الأصل .

والثالث أن يتعلق بجعل الأولى ، ويكون جعل الثاني مستأنفا (يغشى الليل) يجوز أن يكون حالا من ضمير اسم الله فيما يصح من الأفعال التى قبله ، وهى " رفع ، وسخر ويدبر ، ويفصل ، ومد ، وجعل "

قوله تعالى (وفي الأرض قطع) الجمهر على الرفع بالابتداء ، أو فاعل الظرف وقرأ الحسن " قطعا متجاورات " على تقدير: وجعل في الأرض (وجنات) كذلك على الاختلاف ، ولم يقرأ أحد منهم وزرعا بالنصب ، ولكن رفعه قوم ، وهو عطف على قطع وكذلك ما بعده ، وجره آخرون عطفا على أعناب ، وضعف قوم هذه القراءة ، لأن الزرع ليس من الجنات . وقال آخرون: قد يكون في الجنة زرع ، ولكن بين النخيل والأعناب ، وقيل التقدير: ونبات زرع فعطفه على المعنى .

والصنوان جمع صنو مثل قنو وقنوان ، ويجمع في القلة على أصناء ، وفيه لغتان: كسر الصاد وضمها ، وقد قرئ بهما (تسقى) الجمهور على التاء ، والتأنيث للجمع السابق ، ويقرأ بالياء: أي يسقى ذلك (ونفضل) يقرأ بالنون والياء على تسمية الفاعل وبالياء وفتح الضاد ، و (بعضها) بالرفع وهو بين (في الأكل) يجوز أن يكون ظرفا لنفضل ، وأن يكون متعلقا بمحذوف على أن يكون حالا من بعضها ، أي نفضل بعضها مأكولا ، أو وفيه الأكل .

قوله تعالى (فعجب قولهم) قولهم مبتدأ ، وعجب خبر مقدم ، وقيل العجب هنا بمعنى المعجب ، فعلى هذا يجوز أن يرتفع قولهم به (أئذا كنا) الكلام كله في موضع نصب بقولهم ، والعامل في إذا فعل دل عليه الكلام تقديره: أئذا كنا ترابا نبعث ، ودل عليه قوله تعالى (لفى خلق جديد) ولايجوز أن ينتصب بكنا لإن إذا مضافة إليه ، ولا بجديد لإن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها .

قوله تعالى (قبل الحسنة) يجوز أن يكون ظرفا ليستعجلونك، وأن يكون حالا من السيئة مقدرة، و (المثلات) بفتح الميم وضم الثاء واحدتها كذلك، ويقرأ بإسكان التاء وفيه وجهان: أحدهما أنها مخففة من الجمع المضموم فرارا من ثقل الضمة مع توالى الحركات والثانى أن الواحد خفف ثم جمع على ذلك، ويقرأ بضمتين وبضم الأول وإسكان الثاني، وضم الميم فيه لغة، فأما ضم الثاء فيجوز أن يكون لغة في الواحد، وأن يكون اتباعا في الجمع، وأما إسكانها فعلى الوجهين (على ظلمهم) حال من الناس والعامل المغفرة.

(154/406)

قوله تعالى (ولكل قوم هاد) فيه ثلاثة أوجه: أحدها أنه جملة مستأنفة: أي ولكل قوم نبى هاد.

والثانى أن المبتدأ محذوف تقديره: وهو لكل قوم هاد.

والثالث تقديره: إنما أنت منذر وهاد لكل قوم، وهذا فصل بين حرف العطف والمعطوف، وقد ذكروا منه قدرا صالحا.

قوله تعالى (ما تحمل) في " ما " وجهان: أحدهما هي بمعنى الذى، وموضعها نصب بيعلم.

والثانى هي استفهامية فتكون منصوبة بتحمل ، والجملة في موضع نصب ومثله (وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار) يجوز أن يكون عنده في موضع جر صفة لشئ ، أو في موضع رفع صفة لكل ، والعامل فيها على الوجهين محذوف ، وخبر كل بمقدار ، ويجوز أن يكون صفة لمقدار ، وأن يكون ظرفا لما يتعلق به الجار .

قوله تعالى (عالم الغيب) خبر مبتدأ محذوف: أي هو ، ويجوز أن يكون مبتدأ ، و (الكبير) خبره .

والجيد الوقف على (المتعال) بغير ياء لأنه رأس آية ، ولولا ذلك لكان الجيد إثباتها .

قوله تعالى (سواء منكم من أسر القول) من مبتدأ ، وسواء خبر ، فأما منكم فيجوز أن يكون حالا من الضمير في سواء لأنه في موضع مستو ، ومثله "لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح" ويضعف أن يكون منكم حالا من الضمير في أسر ، وجهر ، لوجهين: أحدهما تقديم ما في الصلة على الموصول ، أو الصفة على الموصوف والثانى تقديم الخبر على منكم ، وحقه أن يقع بعده .

قوله تعالى (له معقبات) واحدتها معقبة، والهاء فيها للمبالغة مثل نسابة: أي ملك معقب، وقيل معقبة صفة للجمع، ثم جمع على ذلك (من بين يديه) يجوز أن يكون صفة لمعقبات، وأن يكون ظرفا، وأن يكون حالا من الضمير الذى فيه فعلى هذا يتم الكلام عنده، ويجوز أن يتعلق ب (يحفظونه) أي معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، ويجوز أن يكون يحفظونه صفة لمعقبات، وأن يكون حالا مما يتعلق به الظرف (من أمر الله) أي من الجن والإنس، فتكون "من" على بابها، قيل "من" بمعنى الباء: أي بأمر الله، وقيل بمعنى عن (وإذا أراد) العامل في "إذا" مادل عليه الجواب: أي لم يرد أو وقع (من وال) يقرأ بالإمالة من أجل الكسرة ولا مانع هنا، و (السحاب الثقال) قد ذكر في الأعراف.

قوله تعالى (خوفا وطمعا) مفعول من أجله.

قوله تعالى (ويسبح الرعد بحمده) قيل هو ملك، فعلى هذا قد سمى بالمصدر، وقيل الرعد صوته، والتقدير على هذا: ذو الرعد أو الراعد، وبحمده قد ذكر في البقرة في قصة آدم صلى الله عليه وسلم، و (المحال) فعال من المحل وهو القوة، يقال محل به إذا غلبه، وفيه لغة أخرى فتح الميم.

قوله تعالى (والذين يدعون من دونه) فيه قولان: أحدهما هو كناية عن الأصنام، أي والأصنام الذين يدعون المشركين إلى عبادتهم (لا يستجيبون لهم بشئ) وجمعهم جمع من يعقل على اعتقادهم فيها.

والثانى أنهم المشركون ، والتقدير : والمشركون الذين يدعون الأصنام من دون الله لا يستجيبون لهم : أي

(156/406)

لايجيبونهم : أي أن الأصنام لا تجيبهم بشئ (إلا كباسط كفيه) التقدير إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه ، والمصدر في هذا التقدير مضاف إلى المفعول كقوله تعالى " لا يسأم الإنسان من دعاء الخير " وفاعل هذا المصدر مضمر وهو ضمير الماء : أي لايجيبونهم إلا كما يجيب الماء باسط كفيه إليه ، والإجابة هنا كناية عن الانقياد ، وأما قوله تعالى (ليبلغ فاه) فاللام متعلقة بباسط والفاعل ضمير الماء : أي ليبلغ الماء فاه (وما هو) أي الماء ، ولايجوز أن يكون ضمير الباسط على أن يكون فاعل بالغ مضمرا ، لأن اسم الفاعل إذا جرى على غير من هو له لزم إبراز الفاعل ، فكان يجب على هذا أن يقول : وما هو ببالغه الماء ، فإن جعلت الهاء في بالغه ضمير الماء جاز أن يكون هو ضمير الباسط ، والكاف في كباسط إن جعلتها حرفا كان منها ضمير يعود على الموصوف المحذوف ، وإن جعلتها اسما لم يكن فيها ضمير .

قوله تعالى (طوعا وكرها) مفعول له أو في موضع الحال (وظلالهم) معطوف على من ، و

(بالغدو) ظرف ليسجد .

قوله تعالى (أم هل يستوى) يقرأ بالياء والتاء ، وقد سبقت نظائره .

قوله تعالى (أودية) هو جمع واد ، وجمع فاعل على أفعلة شاذ ، ولم نسمعه في غير هذا الحرف ، ووجهه أن فاعلا قد جاء بمعنى فعيل ، وكما جاء فعيل وأفعلة كجريب وأجربة كذلك فاعل (بقدرها) صفة لأودية (ومما يوقدون) بالياء والتاء ، و (عليه في النار) متعلق بيوقدون ، و (ابتغاء) مفعول له (أو متاع) معطوف على حلية ، و (زبد) مبتدأ ، و (مثله) صفة له والخبر مما يوقدون ، والمعنى ومن جواهر الأرض كالنحاس ما فيه زبد وهو خبثه مثله: أي مثل الزبد الذى يكون على الماء ، و (جفاء) حال وهمزته منقلبة عن واو ، وقيل هي أصل (للذين استجابوا) مستأنف وهو خبر (الحسنى) .

قوله تعالى (الذين يوفون) يجوز أن يكون نصبا على إضمار أعنى .

قوله تعالى (جنات عدن) هو بدل من عقبى ، ويجوز أن يكون مبتدأ ، و (يدخلونها) الخبر (ومن صلح) في موضع رفع عطفا على ضمير الفاعل ،

وساغ ذلك وإن لم يؤكد لأن ضمير المفعول صار فاصلا كالتوكيد ، ويجوز أن يكون نصبا بمعنى مع .

قوله تعالى (سلام) أي يقولون سلام (بما صبرتم) لا يجوز أن تتعلق الباء بسلام لما فيه من الفصل بالخبر ، وإنما يتعلق بعليكم أو بما يتعلق به .

قوله تعالى (وما الحياة الدنيا في الآخرة) التقدير في جنب الآخرة ، ولايجوز أن يكون ظرفا لا للحياة ولا للدنيا لأنهما لا يقعان في الآخرة ، وإنما هو حال ، والتقدير : وما الحياة القريبة كائنة في جنب الآخرة .

قوله تعالى (بذكر الله) يجوز أن يكون مفعولا به : أي الطمأنينة تحصل لهم بذكر الله ، ويجوز أن يكون حالا من القلوب : أي تطمئن وفيها ذكر الله .

قوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدأ ، و (طوبى لهم) مبتدأ ثان وخبر في موضع الخبر الأول ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف : أي هم الذين آمنوا فيكون طوبى لهم حالا مقدرة ، والعامل فيها آمنوا وعملوا ، ويجوز أن يكون الذين بدلا من أناب ، أو بإضمار أعنى ، ويجوز أن يكون طوبى في موضع نصب على تقدير جعل وواوها مبدلة من ياء لأنها من الطيب أبدلت واوا للضمة قبلها (وحسن مآب) الجمهور على ضم النون والإضافة ، وهو معطوف على طوبى إذا جعلتها مبتدأ ، وقرئ بفتح النون والإضافة ، وهو عطف على طوبى في وجه نصبها ، ويقرأ شاذا بفتح النون ورفع مآب ، وحسن على

هذا فعل نقلت ضمة سينه إلى الحاء وهذا جائز في فعل إذا كان للمدح أو الذم .

قوله تعالى (كذلك) التقدير: الامر كما أخبرناك .

قوله تعالى (ولو أن قرآنا) جواب لو محذوف: أي لكان هذا القرآن .

(158/406)

وقال الفراء: جوابه مقدم عليه: أي وهم يكفرون بالرحمن، ولو أن قرآنا على المبالغة (أو كلم به الموتى) الوجه في حذف التاء من هذا الفعل مع إثباتها في الفعلين قبله أن الموتى يشتمل على المذكر الحقيقي والتغليب له فكان حذف التاء أحسن، والجبال والأرض ليسا كذلك (أن لو يشاء) في موضع نصب بييأس، لأن معناه أفلم يتبين ويعلم (أو تحل قريبا) فاعل تحل ضمير القارعة، وقيل هو للخطاب: أي أو تحل أنت يا محمد قريبا منهم بالعقوبة، فيكون موضع الجملة نصبا عطفا على تصيب .

قوله تعالى (وجعلوا لله) هو معطوف على كسبت: أي ويجعلهم شركاء، ويحتمل أن يكون مستأنفا (وصدوا) يقرأ بفتح الصاد: أي وصدوا غيرهم وبضمها

أي وصدهم الشيطان أو شركاؤهم وبكسرها، وأصلها صددوا بضم الأول فنقلت كسرة الدال إلى الصاد .

قوله تعالى (مثل الجنة) مبتدأ والخبر محذوف: أي وفيما يتلى عليكم مثل الجنة فعلى هذا

(تجرى) حال من العائد المحذوف في وعد: أي وعدها مقدرا جريان أنهارها .

وقال الفراء: الخبر "تجرى" وهذا عند البصريين خطأ لأن المثل لا تجرى من تحته الأنهار ،

وإنما هو من صفة المضاف إليه.

وشبهته أن المثل هنا بمعنى الصفة ، فهو كقولك: صفة زيد أنه طويل ، ويجوز أن يكون "

تجرى" مستأنفا (أكلها دائم) هو مثل تجرى في الوجهين.

قوله تعالى (ننقصها) حال من ضمير الفاعل أو من الأرض.

قوله تعالى (وسيعلم الكفار) يقرأ على الإفراد وهو جنس ، وعلى الجمع على الأصل.

قوله تعالى (ومن عنده) يقرأ بفتح الميم وهو بمعنى الذى ، وفى موضعه

وجهان: أحدهما رفع على موضع اسم الله: أي كفى الله وكفى من عنده.

(159/406)

والثانى في موضع جر عطفا على لفظ اسم الله تعالى ، فعلى هذا (علم الكتاب) مرفوع

بالظرف لأنه اعتمد بكونه صلة ، ويجوز أن يكون خبرا ، والمبتدأ علم الكتاب ، ويقرأ "

ومن عنده" بكسر الميم على أنه حرف ، وعلم الكتاب على هذا مبتدأ أو فاعل الظرف ،

ويقرأ علم الكتاب على أنه فعل لم يسم فاعله، وهو العامل في " من " . انتهى. ا هـ ﴾

إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 65.60 ﴾

(160/406)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الرعد

[سورة الرعد (13) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (1) اللَّهُ
الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ
يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)

(161/406)

"المر" الحروف النورانية في أوائل السور لا إعراب لها . "تِلْكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "آياتُ" خبر والجملة ابتدائية "الْكِتابِ" مضاف إليه "وَالَّذِي" الواو عاطفة ومبتدأ والجملة معطوفة "أُنْزِلَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة "إِلَيْكَ" متعلقان بأنزل "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بأنزل "الْحَقُّ" خبر الذي "وَلكِنَّ" الواو حالية ولكن حرف مشبه بالفعل "أَكْثَرَ" اسمها "النَّاسِ" مضاف إليه "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ويعلمون مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر وجملة لكن إلخ في محل نصب على الحال "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "الَّذِي" خبر والجملة ابتدائية "رَفَعَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة الموصول "السَّماواتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "بِغَيْرِ" متعلقان بحال محذوفة "عَمَدٍ" مضاف إليه "تَرَوْنَها" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والهاء مفعول به والجملة في محل جر صفة لعمد "ثُمَّ" عاطفة "اسْتَوى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر "عَلَى الْعَرْشِ" متعلقان باستوى "وَسَخَّرَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ" الشمس مفعول به والقمر معطوف عليه "كُلٌّ" مبتدأ "يَجْرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر والجملة خبر وجملة كل إلخ ابتدائية "لِأَجَلٍ" متعلقان بيجري "مُسَمًّى" صفة لأجل "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ" مضارع فاعله مستتر والأمر مفعوله والجملة مستأنفة "يُفَصِّلُ الْآياتِ" مضارع فاعله مستتر والآيات مفعوله المنصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث

سالم والجملة مستأنفة "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "بِلِقاءِ" متعلقان بتوقنون "رَبِّكُمْ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه والجملة تعليلية لا محل لها "تُوقِنُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل و

الجملة خبر لعل.

(162/406)

[سورة الرعد (13) : آية 3]

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3)

"وَهُوَ" الواو استئنافية هو مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول خبر "مَدَّ الْأَرْضَ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر وفيها متعلقان بجعل "وَأَنْهاراً" معطوف على رواسي "وَمِنْ كُلِّ" متعلقان بجعل بعدها "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر "فِيها" متعلقان بجعل "زَوْجَيْنِ" مفعول به منصوب بالياء لأنه مثنى والجملة مستأنفة "اثْنَيْنِ" صفة لزوجين منصوب بالياء "يُغْشِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر "اللَّيْلَ" مفعول أول و"النَّهارَ" مفعول به ثان ليغشي

والجملة مستأنفة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذَلِكَ" ذا اسم إشارة في محل جر وهما متعلقان بمحذوف خبر إن "لَآيَاتٍ" اللام المزحلقة وآيات اسم إن منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة مستأنفة "لِقَوْمٍ" متعلقان بمحذوف صفة لآيات "يَتَفَكَّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لقوم.

[سورة الرعد (13) : الآيات 4 الى 5]

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4) وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (5)

(163/406)

"وَفِي الْأَرْضِ" الواو استئنافية ومتعلقان بخبر مقدم "قِطَعٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "مُتَجاوِراتٌ" صفة "وَجَنَّاتٌ" معطوفة على قطع "مِنْ أَعْنابٍ" متعلقان بمحذوف صفة لجنات "وَزَرْعٌ" معطوف على أعناب "وَنَخِيلٌ" معطوف على ما سبق "صِنْوانٌ" صفة لنخيل "وَغَيْرُ" معطوف على ما سبق "صِنْوانٌ" مضاف إليه "يُسْقى" مضارع مبني

للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر "بِماءٍ" متعلقان بيسقى "واحِدٍ" صفة لماء والجملة صفة لنخيل "وَنُفَضِّلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما سبق "بَعْضَها" مفعول به والهاء مضاف إليه "عَلى بَعْضٍ" متعلقان بنفضل "فِي الْأُكُلِ" متعلقان بنفضل "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" ذا اسم إشارة في محل جر ومتعلقان بخبر مقدم "لَآياتٍ" اللام المزحلقة وآيات اسم إن المنصوب بالكسرة والجملة مستأنفة "لِقَوْمٍ" متعلقان بصفة لآيات "يَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لقوم. "وَإِنْ" الواو استئنافية وإن حرف شرط جازم "تَعْجَبْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وفاعله مستتر تقديره أنت "فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ" الفاء رابطة للجواب وعجب مبتدأ وقولهم خبر والهاء مضاف إليه والجملة في محل جزم لأنها جواب شرط جازم اقترن بالفاء "أَإِذا" الهمزة للاستفهام وإذا ظرف زمان يتضمن معنى الشرط "كُنَّا تُراباً" كان واسمها وخبرها والجملة في محل نصب مقول القول "أَإِنَّا" الهمزة للاستفهام الانكاري وإن واسمها "لَفِي خَلْقٍ" متعلقان بخبر إن واللام المزحلقة "جَدِيدٍ" صفة لخلق والجملة مؤكدة للجملة السابقة. "أُولئِكَ" أولاء اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "الَّذِينَ" اسم الموصول خبر "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة أولئك إلخ ابتدائية "بِرَبِّهِمْ" متعلقان بكفروا والهاء مضاف إليه "وَأُولئِكَ" مبتدأ "الْأَغْلالُ" مبتدأ ثان "فِي أَعْناقِهِمْ"

متعلقان بالخبر والجملة خبر المبتدأ الأول والجملة الأولى معطوفة على ما سبق "وَأُولَئِكَ" الواو عاطفة وأولئك مبتدأ "أَصْحابُ" خبر والجملة معطوفة على ما سبق "النَّارِ" مضاف إليه "هُمْ" مبتدأ "فِيها" متعلقان بخالدون "خالِدُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية.

[سورة الرعد (13) : آية 6]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (6)

"وَيَسْتَعْجِلُونَكَ" الواو استئنافية ومضارع وفاعله ومفعوله "بِالسَّيِّئَةِ" متعلقان بما قبلها "قَبْلَ" ظرف زمان "الْحَسَنَةِ" مضاف إليه والجملة استئنافية "وَقَدْ" الواو واو الحال وقد حرف تحقيق "خَلَتْ" ماض والتاء للتأنيث "مِنْ قَبْلِهِمُ" متعلقان بخلت والهاء مضاف إليه "الْمَثُلاتُ" فاعل والجملة حالية "وَإِنَّ رَبَّكَ" الواو استئنافية وإن واسمها والكاف مضاف إليه "لَذُو" اللام المزحلقة وذو خبر مرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة "مَغْفِرَةٍ" مضاف إليه "لِلنَّاسِ" متعلقان بمغفرة "عَلى ظُلْمِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال "وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ" إن

واسمها وخبرها واللام المزحلقة "العِقْابِ" مضاف إليه والجملة معطوفة بالواو .

[سورة الرعد (13) : الآيات 7 الى 10]

(165/406)

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (7) اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (8) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (9) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ (10)

(166/406)

"وَيَقُولُ" الواو استئنافية ومضارع "الَّذِينَ" فاعل والجملة استئنافية "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة لاسم الموصول "لَوْلا" حرف تحضيض "أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله وعليه متعلقان بأنزل "مِنْ رَبِّهِ" متعلقان بمحذوف صفة لآية والجملة مقول القول "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أَنْتَ مُنْذِرٌ" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة "وَلِكُلِّ" متعلقان

بهاد "قَوْمٍ" مضاف إليه "هادٍ" مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على الحرف المحذوف والجملة مستأنفة "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ والجملة مستأنفة "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "ما" موصولية مفعول به "تَحْمِلُ كُلُّ" مضارع وفاعله والجملة صلة "أُنْثى" مضاف إليه "وَما" اسم موصول معطوف على ما السابقة "تَغِيضُ الْأَرْحامُ" مضارع وفاعله "وَما" معطوف على ما سبق "تَزْدادُ" مضارع فاعله مستتر "وَكُلُّ" الواو حالية ومبتدأ "شَيْءٍ" مضاف إليه "عِنْدَهُ" ظرف مكان والهاء مضاف إليه "بِمِقْدارٍ" متعلقان بالخبر والجملة حالية "عالِمُ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو عالم "الْغَيْبِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَالشَّهادَةِ" معطوف على الغيب "الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ" خبران "سَواءٌ" مبتدأ "مِنْكُمْ" متعلقان بصفة محذوفة "مَنْ" اسم موصول خبر "أَسَرَّ الْقَوْلَ" ماض فاعله مستتر والقول مفعوله والجملة صلة "وَمَنْ" الواو عاطفة ومن اسم موصول معطوف على من السابقة "جَهَرَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بجهر "وَمَنْ" اسم موصول معطوف على ما سبق "هُوَ" مبتدأ "مُسْتَخْفٍ" خبر مرفوع بالضمة

المقدرة على الياء المحذوفة "بِاللَّيْلِ" متعلقان بمستخف والجملة صلة "وَسارِبٌ" معطوف على مستخف "بِالنَّهارِ" متعلقان بسارب والسارب هو الذاهب في طريقه.

[سورة الرعد (13) : آية 11]

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)

"لَهُ" متعلقان بالخبر المقدم "مُعَقِّبَاتٌ" مبتدأ مؤخر والجملة ابتدائية "مِنْ بَيْنِ" متعلقان بصفة لمعقبات "يَدَيْهِ" مضاف إليه مجرورة بالياء والهاء مضاف إليه "وَمِنْ خَلْفِهِ" معطوف على من بين يديه "يَحْفَظُونَهُ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة استئنافية "مِنْ أَمْرِ" متعلقان بيحفظونه "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة مستأنفة "لَا يُغَيِّرُ" لا نافية ومضارع مرفوع "مَا" موصولية مفعول به "بِقَوْمٍ" متعلقان بمحذوف صلة والجملة خبر إن "حَتَّى" حرف غاية وجر "يُغَيِّرُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل وحتى وما بعدها في تأويل المصدر متعلقان بيغير "مَا" موصولية مفعول به "بِأَنْفُسِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة "وَإِذَا" الواو عاطفة وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه "أَرَادَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "بِقَوْمٍ" متعلقان بأراد والجملة معطوفة "سُوْءًا" مفعول به "فَلَا" الفاء واقعة بجواب إذا ولا نافية للجنس "مَرَدَّ" اسمها "لَهُ" متعلقان بالخبر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَمَا" الواو مستأنفة وما نافية "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "مِنْ" زائدة "وَالٍ" مبتدأ مؤخر مرفوع محلا

مجرور لفظا والجملة مستأنفة.

[سورة الرعد (13) : الآيات 12 الى 13]

(168/406)

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (13)

"هُوَ" مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول خبر "يُرِيكُمُ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر والكاف مفعول به أول والميم للجمع "الْبَرْقَ" مفعول به ثان والجملة صلة "خَوْفاً" مفعول لأجله أو حال "وَطَمَعاً" معطوف على خوفا "وَيُنْشِئُ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع وفاعله مستتر "السَّحابَ" مفعول به والجملة معطوفة "الثِّقالَ" صفة "وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة معطوفة بالواو "بِحَمْدِهِ" متعلقان بمحذوف حال "وَالْمَلائِكَةُ" عطف على الرعد "وَيُرْسِلُ" مضارع مرفوع وفاعله مستتر والجملة معطوفة بالواو "الصَّواعِقَ" مفعول به "فَيُصِيبُ"

[سورة الرعد (13) : الآيات 14 الى 15]

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (14) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (15)

(169/406)

"لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "دَعْوَةُ" مبتدأ مؤخر "الْحَقِّ" مضاف إليه مجرور والجملة ابتدائية "وَالَّذِينَ" اسم موصول مبتدأ والجملة معطوفة على ما سبق لا محل لها "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بحال محذوفة والهاء مضاف إليه "لا يَسْتَجِيبُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ "لَهُمْ" متعلقان بيستجيبون "بِشَيْءٍ" متعلقان بيستجيبون "إِلَّا" أداة حصر "كَباسِطِ" متعلقان بمحذوف صفة لمصدر تقديره الاستجابة كائنة كاستجابة باسط "كَفَّيْهِ" مضاف إليه مجرور بالياء والهاء مضاف إليه "إِلَى الْماءِ" متعلقان بباسط "لِيَبْلُغَ" اللام لام التعليل ويبلغ مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر "فاهُ" مفعول به منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه والمصدر المؤول بعد حرف الجر متعلقان بباسط "وَما" الواو حالية وما نافية تعمل عمل ليس "هُوَ" اسمها

"ببالِغِهِ" الباء حرف جر زائد وبالغه خبر ما مجرور لفظا منصوب محلا والجملة في محل نصب على الحال "وَما" الواو حالية وما نافية و"دُعاءُ" مبتدأ "الْكافِرِينَ" مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "فِي ضَلالٍ" متعلقان بمحذوف خبر "وَلِلَّهِ" الواو استئنافية ولفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بيسجد "يَسْجُدُ" مضارع والجملة مستأنفة "مَنْ" موصول فاعل "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة "وَالْأَرْضِ" معطوف "طَوْعاً وَكَرْهاً" الأول حال والثاني معطوف عليه "وَظِلالُهُمْ" معطوف على من والهاء مضاف إليه "بِالْغُدُوِّ" متعلقان بيسجد "وَالْآصالِ" معطوف على بالغدو.

[سورة الرعد (13) : آية 16]

(170/406)

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (16)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة ابتدائية "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ "رَبُّ" خبر والجملة مقول القول "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "قُلْ" ماض فاعله

مستتر والجملة مستأنفة "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو والجملة مقول القول "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة استئنافية "أَفَاتَّخَذْتُمْ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله والجملة مقول القول "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بأ فاتخذتم والهاء مضاف إليه وسد مسد مفعول اتخذ الثاني "أَوْلِيَاءَ" مفعول أول "لا" نافية "يَمْلِكُونَ"

مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة "لِأَنْفُسِهِمْ" متعلقان بيملكون والهاء مضاف إليه "نَفْعاً" مفعول به "وَلا" الواو عاطفة ولا زائدة "ضَرّاً" معطوف على نفعا "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة استئنافية "هَلْ" حرف استفهام "يَسْتَوِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للثقل "الْأَعْمى " فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مقول القول "وَالْبَصِيرُ" معطوف على الأعمى "أَمْ" حرف عطف "هَلْ" حرف استفهام "تَسْتَوِي الظُّلُماتُ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة "وَالنُّورُ" معطوف على الظلمات "أَمْ" عاطفة "جَعَلُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "لِلَّهِ" متعلقان بمفعول به ثان "شُرَكاءَ" مفعول به أول "خَلَقُوا" ماض وفاعله والجملة صفة "كَخَلْقِهِ" متعلقان بخلقوا "فَتَشابَهَ الْخَلْقُ" ماض وفاعله والجملة معطوفة "عَلَيْهِمْ" متعلقان بتشابه "قُلْ" أمر فاعله

مستتر والجملة مستأنفة "اللَّهُ خالِقُ" مبتدأ وخبر والجملة مقول القول "كُلِّ" مضاف إليه "شَيْءٍ" مضاف إليه "وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ" مبتدأ وخبراه والجملة مستأنفة أو معطوفة.

[سورة الرعد (13) : آية 17]

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (17)

(172/406)

"أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً" ماض وفاعله مستتر ومفعوله والجار والمجرور متعلقان بأنزل والجملة مستأنفة "فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ" ماض وفاعله والجملة معطوفة "بِقَدَرِها" متعلقان بسالت "فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "رابِياً" صفة زبدا "وَمِمَّا" الواو عاطفة ومن جارة وما موصولية ومتعلقان بخبر مقدم "يُوقِدُونَ" مضارع والواو فاعله "عَلَيْهِ" متعلقان بيوقدون والجملة صلة "فِي النَّارِ" متعلقان بيوقدون "ابْتِغاءَ" مفعول لأجله "حِلْيَةٍ" مضاف إليه "أَوْ مَتاعٍ" معطوف "زَبَدٌ" مبتدأ مؤخر "مِثْلُهُ" صفة والهاء مضاف إليه "كَذلِكَ" ذا اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب ومتعلقان بمحذوف صفة

لمفعول مطلق "يَضْرِبُ اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله "الْحَقَّ" مفعول به والجملة مستأنفة "وَالْباطِلَ" معطوف على الحق "فَأَمَّا" الفاء عاطفة وأما حرف شرط وتفصيل "الزَّبَدُ" مبتدأ وجملته معطوفة "فَيَذْهَبُ" الفاء واقعة في جواب أما ومضارع فاعله محذوف "جُفاءً" حال والجملة خبر المبتدأ "وَأَمَّا" الواو عاطفة وأما حرف شرط وتفصيل "ما" موصولية مبتدأ "يَنْفَعُ النَّاسَ" مضارع فاعله مستتر والناس مفعوله والجملة صلة "فَيَمْكُثُ" الفاء رابطة ومضارع فاعله مستتر والجملة خبر ما "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بيمكث "كَذلِكَ" الكاف حرف جر وذا اسم إشارة مجرور بالكاف متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق "يَضْرِبُ اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله "الْأَمْثالَ" مفعول به والجملة مستأنفة.

[سورة الرعد (13) : الآيات 18 الى 19]

(173/406)

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (18) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (19)

(174/406)

"لِلَّذِينَ" اسم موصول متعلقان بخبر مقدم والجملة مستأنفة "اسْتَجابُوا" ماض وفاعله "لِرَبِّهِمُ" متعلقان باستجابوا والهاء مضاف إليه "الْحُسْنى " مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة صلة الموصول "وَالَّذِينَ" اسم موصول معطوف على الذين قبلها "لَمْ" حرف نفي وجزم وقلب "يَسْتَجِيبُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة صلة "لَهُ" متعلقان بيستجيبوا "لَوْ" حرف شرط غير جازم "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم "ما" موصولية اسم أن وأن وما بعدها جملة ابتدائية لا محل لها "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بصلة ما "وَمِثْلَهُ" عطف على ما والهاء مضاف إليه "مَعَهُ" ظرف مكان والهاء مضاف إليه "لَافْتَدَوْا" اللام واقعة في جواب الشرط "افتدوا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "بِهِ" متعلقان بافتدوا "أُولئِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ والكاف للخطاب والجملة مستأنفة "لَهُمْ سُوءُ" لهم متعلقان بخبر مقدم وسوء مبتدأ مؤخر والجملة خبر أولئك "الْحِسابِ" مضاف إليه "وَمَأْواهُمْ" مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والهاء في محل جر بالإضافة "جَهَنَّمُ" خبر والجملة معطوفة على ما سبق "وَبِئْسَ" الواو استئنافية وبئس فعل ماض لإنشاء الذم "الْمِهادُ" فاعل مرفوع والجملة مستأنفة "أَفَمَنْ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية ومن اسم موصول مبتدأ والجملة مستأنفة "يَعْلَمُ" مضارع فاعله محذوف والجملة صلة "أَنَّما" كافة

ومكفوفة "أُنْزِلَ" ماض مبني للمجهول "إِلَيْكَ" متعلقان بأنزل "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بأنزل "الْحَقُّ" نائب فاعل وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي يعلم "كَمَنْ" الكاف حرف جر ومن اسم موصول في محل جر مضاف إليه "هُوَ أَعْمى" مبتدأ وخبر والجملة صلة من "أَنَّما" كافة ومكفوفة "يَتَذَكَّرُ" مضارع مرفوع "أُولُوا" فاعل

(175/406)

مرفوع بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "الْأَلْبابِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة.

[سورة الرعد (13) : الآيات 20 الى 21]

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (21)

"الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع بدل من أولو "يُوفُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة صلة "بِعَهْدِ اللَّهِ" متعلقان بيوفون ولفظ الجلالة مضاف إليه "وَلا يَنْقُضُونَ" الواو عاطفة ولا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة معطوفة على ما سبق "الْمِيثاقَ" مفعول به "وَالَّذِينَ" اسم موصول معطوف على الذين السابقة "يَصِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة الموصول "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به "أَمَرَ اللَّهُ"

ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها "بِهِ" متعلقان بأمر "أَنْ" حرف ناصب "يُوصَلَ" مضارع مبني للمجهول منصوب بأن ونائب الفاعل محذوف وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل جر بدل من الهاء في به أي بوصله. "وَيَخْشَوْنَ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة على يصلون "رَبَّهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَيَخافُونَ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "سُوءَ" مفعول به "الْحِسابِ" مضاف إليه مجرور بالكسرة الظاهرة في آخره.

[سورة الرعد (13) : الآيات 22 الى 23]

(176/406)

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (23)

"وَالَّذِينَ" عطف على الذين السابقة "صَبَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "ابْتِغاءَ" مفعول لأجله "وَجْهِ" مضاف إليه "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه

"وَأَقَامُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "الصَّلَاةَ" مفعول به "وَأَنفَقُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "مِمَّا" ما موصولية ومتعلقان بأنفقوا "رَزَقْنَاهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "سِرًّا" منصوب بنزع الخافض "وَعَلَانِيَةً" معطوف على سرا "وَيَدْرَؤُنَ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "بِالْحَسَنَةِ" متعلقان بيدرؤون "السَّيِّئَةَ" مفعول به "أُولَئِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ والكاف للخطاب "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم "عُقْبَى" مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة خبر أولئك "الدَّارِ" مضاف إليه "جَنَّاتُ" مبتدأ "عَدْنٍ" مضاف إليه "يَدْخُلُونَهَا" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة خبر "وَمَنْ" الواو عاطفة ومن اسم موصول معطوف على أولئك "صَلَحَ" ماض فاعله مستتر "مِنْ آبَائِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال من فاعل صلح والهاء مضاف إليه والجملة صلة "وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ" عطف على آبائهم "وَالْمَلَائِكَةُ" الواو حالية الملائكة مبتدأ "يَدْخُلُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة خبر وجملة المبتدأ والخبر في محل نصب على الحال "عَلَيْهِمْ" متعلقان بيدخلون "مِنْ كُلِّ" متعلقان بيدخلون "بَابٍ" مضاف إليه.

[سورة الرعد (13) : الآيات 24 الى 26]

سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدّارِ (24) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدّارِ (25) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتاعٌ (26)

"سَلامٌ" مبتدأ "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالخبر والجملة مقول قول لفعل محذوف "بِما" ما موصولية متعلقان بسلام "صَبَرْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "فَنِعْمَ" الفاء عاطفة ونعم ماض لإنشاء المدح "عُقْبَى"

فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة معطوفة "الدّارِ" مضاف إليه "وَالَّذِينَ" اسم موصول مبتدأ والجملة مستأنفة "يَنْقُضُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "عَهْدَ" مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بينقضون "مِيثاقِهِ" مضاف إليه "وَيَقْطَعُونَ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة "ما" موصولية مفعول به "أَمَرَ اللَّهُ" ماض وفاعله والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بأمر "أَنْ يُوصَلَ" أن ناصبة

ومضارع مبني للمجهول منصوب ونائب فاعل مستتر والجملة في تأويل المصدر في محل جر بدل من الهاء في به "وَيُفْسِدُونَ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بيفسدون "أُولئِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ والكاف للخطاب والجملة خبر الذين "لَهُمُ اللَّعْنَةُ" مبتدأ مؤخر ومتعلقان بخبر مقدم والجملة خبر أولئك "وَلَهُمْ سُوءُ" مبتدأ مؤخر ومتعلقان بخبر مقدم والجملة معطوفة "الدَّارِ" مضاف إليه "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ والجملة مستأنفة "يَبْسُطُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "الرِّزْقَ" مفعول به "لِمَنْ" موصولية ومتعلقان بيبسط "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَيَقْدِرُ" مضارع فاعله مستتر ومعطوف على يبسط "وَفَرِحُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "بِالْحَياةِ" متعلقان بفرحوا "الدُّنْيا" صفة الحياة "وَمَا" الواو حالية وما نافية "الْحَياةُ" مبتدأ "الدُّنْيا" صفة "فِي الْآخِرَةِ" متعلقان بمحذوف حال "إِلَّا" أداة حصر "مَتاعٌ" خبر والجملة حالية.

[سورة الرعد (13) : الآيات 27 الى 28]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)

"وَيَقُولُ" الواو استئنافية وفعل مضارع "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع فاعل والجملة استئنافية "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لَوْلا" حرف تحضيض "أُنْزِلَ" ماض مبني للمجهول "عَلَيْهِ" متعلقان بأنزل "آيَةٌ" نائب فاعل "مِنْ رَبِّهِ" متعلقان بمحذوف صفة والهاء مضاف إليه والجملة في محل نصب مقول القول "قُلْ" أمر وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة مقول القول "يُضِلُّ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "مَنْ" موصول في محل نصب مفعول به والجملة خبر إن "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة لا محل لها "وَيَهْدِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر والجملة معطوفة "إِلَيْهِ" متعلقان بيهدي "مَنْ" اسم موصول مفعول به "مَنْ" موصول في محل نصب مفعول به "أَنابَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة لا محل لها "الَّذِينَ" موصول بدل من من في من أناب "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَتَطْمَئِنُّ" مضارع مرفوع "قُلُوبُهُمْ" فاعل والهاء مضاف إليه "بِذِكْرِ" متعلقان بتطمئن "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة معطوفة "أَلا" حرف تنبيه واستفتاح "بِذِكْرِ" متعلقان بتطمئن "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة مستأنفة.

[سورة الرعد (13) : الآيات 29 الى 30]

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29) كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ

خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (30)

(180/406)

"الَّذِينَ" اسم موصول مبتدأ والجملة ابتدائية "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "الصَّالِحَاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "طُوبَى" مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف خبر وجملة طوبى إلخ خبر الذين "وَحُسْنُ" معطوف على طوبى "مَآبٍ" مضاف إليه "كَذَلِكَ" الكاف حرف جر وذا اسم إشارة متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف والجملة مستأنفة "أَرْسَلْنَاكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "فِي أُمَّةٍ" متعلقان بأرسلناك "قَدْ" حرف تحقيق "خَلَتْ" ماض والتاء للتأنيث والجملة صفة أمة "مِنْ قَبْلِهَا" متعلقان بخلت "أُمَمٌ" فاعل مرفوع "لِتَتْلُوَا" اللام للتعليل وتتلو مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر واللام وما بعدها متعلقان بأرسلنا "عَلَيْهِمُ" متعلقان بتتلو "الَّذِي" موصول في محل نصب مفعول به "أَوْحَيْنَا" ماض وفاعله والجملة صلة موصول لا محل لها "إِلَيْكَ" متعلقان بأوحينا "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ والجملة حالية "يَكْفُرُونَ"

مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "بِالرَّحْمَنِ" متعلقان بيكفرون "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة استئنافية "هُوَ رَبِّي" مبتدأ وخبر والياء مضاف إليه والجملة مقول القول "لا" نافية للجنس "إِلَهَ" اسمها مبني على الفتح في محل نصب والخبر محذوف "إِلَّا" أداة حصر "هُوَ" بدل من الضمير المستكن في الخبر المحذوف والجملة في محل رفع خبر ثان "عَلَيْهِ" متعلقان بتوكلت "تَوَكَّلْتُ" ماض وفاعله والجملة استئنافية "وَإِلَيْهِ مَتَابِ" مبتدأ مؤخر والجار والمجرور متعلقان بخبر مقدم والجملة معطوفة.

[سورة الرعد (13) : آية 31]

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (31)

"وَلَوْ" الواو استئنافية ولو حرف شرط غير جازم "أَنَّ قُرْآناً" أن واسمها والجملة استئنافية "سُيِّرَتْ" ماض مبني للمجهول والتاء للتأنيث "بِهِ" متعلقان بسيرت "الْجِبالُ" نائب فاعل والجملة خبر "أَوْ" عاطفة "قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ" ماض مبني للمجهول والتاء للتأنيث وبه

متعلقان بقطعت والأرض نائب فاعل "أَوْ" عاطفة "كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله ومتعلقان بكلم والجملتان معطوفتان وجواب لو محذوف "بَلْ" حرف إضراب "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بالخبر المقدم "الْأَمْرُ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "جَمِيعاً" حال "أَفَلَمْ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية ولم حرف نفي وجزم وقلب "يَيْأَسِ" مضارع مجزوم وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين والجملة مستأنفة "الَّذِينَ" موصول فاعل "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَنَّ" مخففة من أن الثقيلة واسمها ضمير الشأن "لَوْ" أداة شرط غير جازمة "يَشاءُ اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله والجملة فعل الشرط "لَهَدَى النَّاسَ" اللام واقعة بجواب الشرط وماض ومفعوله وفاعله مستتر وجملتا الشرط خبر أن "جَمِيعاً" حال "وَلا يَزالُ" فعل ماض ناقص والجملة مستأنفة "الَّذِينَ"

(182/406)

موصول اسم لا يزال "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "تُصِيبُهُمْ" مضارع ومفعوله والجملة خبر لا يزال "بما" موصول ومتعلقان بتصيبهم "صَنَعُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "قارِعَةٌ" فاعل "أَوْ تَحُلُّ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "قَرِيباً" ظرف مكان منصوب "مِنْ دارِهِمْ" متعلقان بقريبا والهاء مضاف إليه "حَتَّى" حرف غاية وجر "يَأْتِيَ"

وَعْدُ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وفاعله "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه

وحتى وما بعدها من مصدر مؤول متعلقان بتحل "إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها والجملة مستأنفة "لا

يُخْلِفُ" لا نافية ومضارع مرفوع وفاعله مستتر والجملة خبر "الْمِيعادَ" مفعول به.

[سورة الرعد (13) : الآيات 32 الى 33]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (32) أَ

فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ

فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ

اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33)

"وَلَقَدِ" الواو حرف قسم واللام واقعة في جواب قسم وقد حرف تحقيق وجملة القسم مستأنفة "اسْتُهْزِئَ" ماض مبني للمجهول "بِرُسُلٍ" سد مسد نائب الفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بصفة لرسل "فَأَمْلَيْتُ" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "لِلَّذِينَ" موصولة متعلقان بأمليت "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة بثم "فَكَيْفَ" الفاء حرف

عطف وكيف خبر مقدم لكان "كَانَ عِقَابِ" كان واسمها والجملة معطوفة "أَفَمَنْ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية ومن موصولية مبتدأ والجملة مستأنفة "هُوَ قَائِمٌ" مبتدأ وخبر والجملة خبر "عَلَى كُلِّ" متعلقان بقائم "نَفْسٍ" مضاف إليه "بِما كَسَبَتْ" ما موصولية ومتعلقان بكسبت "وَجَعَلُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة أو معطوفة "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بجعلوا "شُرَكَاءَ" مفعول به "قُلْ" أمر وفاعله والجملة مستأنفة "سَمُّوهُمْ" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والهاء مفعول به والميم للجمع والجملة مقول القول "أَمْ" حرف عطف "تُنَبِّئُونَهُ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والهاء مفعوله والجملة معطوفة "بِما" ما موصولية ومتعلقان بتنبؤونه "لا يَعْلَمُ" لا نافية ومضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة صلة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بيعلم "أَمْ" عاطفة "بِظَاهِرٍ" متعلقان بتنبئونه "مِنَ الْقَوْلِ" متعلقان بظاهر "بَلْ" حرف إضراب "زُيِّنَ" ماض مبني للمجهول "لِلَّذِينَ" موصول متعلقان بزين "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مَكْرُهُمْ" نائب فاعل والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَصُدُّوا" الواو عاطفة وماض مبني للمجهول ونائب فاعله "عَنِ السَّبِيلِ" متعلقان بصدوا والجملة معطوفة "وَمَنْ" الواو استئنافية ومن شرطية مبتدأ "يُضْلِلِ

اللَّهُ"

مضارع ولفظ الجلالة فاعله وهو فعل الشرط وجملتا الشرط وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ "فَما" الفاء رابطة وما تعمل عمل ليس "لَهُ" متعلقان بالخبر المقدم "مِنَ" حرف جر زائد "هادٍ" اسم ما مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة في محل جزم جواب الشرط.

[سورة الرعد (13) : الآيات 34 الى 35]

لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (34) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (35)

"لَهُمْ"

متعلقان بخبر مقدم "عَذابٌ"

مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "فِي الْحَياةِ"

متعلقان بصفة لعذاب "الدُّنْيا"

صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "وَلَعَذابُ"

الواو عاطفة واللام للابتداء وعذاب مبتدأ "الْآخِرَةِ"

مضاف إليه "أَشَقُّ"

خبر والجملة معطوفة "وَما"

الواو عاطفة وما نافية ولهم متعلقان بخبر محذوف مقدم "مِنَ اللَّهِ"

لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بالخبر المحذوف "مِنَ"

حرف جر زائد "واقٍ"

(185/406)

مبتدأ مؤخر مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة معطوفة "مَثَلُ" مبتدأ "الْجَنَّةِ" مضاف إليه

"الَّتِي" موصول صفة للجنة "وُعِدَ الْمُتَّقُونَ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله المرفوع بالواو

لأنه جمع مذكر سالم والجملة صلة "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ" مضارع وفاعله ومتعلقان

بتجري والجملة خبر مثل "أُكُلُها دائِمٌ" مبتدأ وخبر والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَ

ظِلُّها" مبتدأ خبره محذوف والجملة معطوفة "تِلْكَ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف

للخطاب "عُقْبَى" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مستأنفة "الَّذِينَ"

موصول مضاف إليه "اتَّقَوْا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعُقْبَى" الواو عاطفة عقبى

مبتدأ "الْكافِرِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "النَّارُ" خبر والجملة

معطوفة.

[سورة الرعد (13) : الآيات 36 الى 37]

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37)

"وَالَّذِينَ" الواو حرف استئناف واسم الموصول مبتدأ "آتَيْناهُمُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "الْكِتابَ" مفعول به ثان "يَفْرَحُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة صلة "بِما" موصول ومتعلقان بيفرحون "أُنْزِلَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف "إِلَيْكَ" متعلقان بأنزل والجملة صلة "وَمِنَ الْأَحْزابِ" الواو عاطفة ومتعلقان بمحذوف خبر مقدم "مَنْ" موصول مبتدأ مؤخر "يُنْكِرُ بَعْضَهُ" مضارع فاعله مستتر ومفعوله المنصوب والهاء مضاف إليه والجملة صلة "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أُمِرْتُ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة مقول القول "أَنْ" ناصبة "أَعْبُدَ اللَّهَ" مضارع منصوب وفاعله مستتر ولفظ الجلالة مفعول به منصوب والمصدر المؤول من أن أعبد مفعول به

لأمرت "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "أُشْرِكَ" مضارع معطوف على أعبد منصوب مثله وفاعله محذوف "بِهِ" متعلقان بأشرك "إِلَيْهِ" متعلقان بادعو "أَدْعُوا" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل والجملة حالية "وَإِلَيْهِ" متعلقان بخبر مقدم "مَآبِ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة "وَكَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بصفة لمفعول مطلق محذوف أنزلناه إنزالا كائنا مثل "أَنْزَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "حُكْماً" حال "عَرَبِيًّا" صفة "وَلَئِنِ" الواو حرف استئناف واللام موطئة للقسم وإن حرف شرط جازم "اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والهاء مضاف إليه والكلام مستأنف وجملة فعل الشرط ابتدائية لا محل لها "بَعْدَ" ظرف زمان "ما" موصولية في محل جر مضاف إليه "جاءَكَ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر يعود على ما "مِنَ الْعِلْمِ" متعلقان بمحذوف حال والجملة صلة "ما لَكَ" ما نافية تعمل عمل ليس والجار والمجرور متعلقان بخبرها المقدم "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بمحذوف حال "مِنَ" حرف جر زائد "وَلِيٍّ" اسمها مؤخر مجرور لفظا مرفوع محلا "وَلا واقٍ" الواو عاطفة ولا زائدة وواق معطوف على ولي على اللفظ وهو مرفوع مثله. والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جملة جواب قسم.

[سورة الرعد (13) : الآيات 38 الى 40]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ

بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39) وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40)

(188/406)

"وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنَا رُسُلًا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة وجملة القسم لا محل لها من الإعراب "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بأرسلنا "وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجار والمجرور سدا مسد المفعول الثاني والجملة معطوفة "وَذُرِّيَّةً" معطوف على أزواجا "وَمَا" الواو استئنافية وما نافية "كَانَ" فعل ماض ناقص "لِرَسُولٍ" متعلقان بمحذوف خبر كان المقدم والجملة مستأنفة "أَنْ يَأْتِيَ" أن ناصبة ومضارع منصوب وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل رفع اسم كان "بِآيَةٍ" متعلقان بيأتي "إِلَّا" أداة حصر "بِإِذْنِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ" كتاب مبتدأ مؤخر ولكل متعلقان بخبر مقدم وأجل مضاف إليه والجملة تعليلية لا محل لها "يَمْحُوا اللَّهُ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل ولفظ الجلالة فاعل والجملة مستأنفة "مَا" موصولية مفعول به "يَشَاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَيُثْبِتُ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "وَعِنْدَهُ أُمُّ

الْكِتَابِ" أم مبتدأ مؤخر وعند ظرف مكان متعلق بالخبر المقدم والهاء مضاف إليه والكتاب مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَإِنْ ما" الواو استئنافية وإن الشرطية وما زائدة "نُرِيَنَّكَ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والكاف مفعول به أول وفاعله مستتر تقديره نحن "بَعْضَ" مفعول به ثان "الَّذِي" موصول مضاف إليه والجملة مستأنفة "نَعِدُهُمْ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "أَوْ" عاطفة "نَتَوَفَّيَنَّكَ" مضارع مبني

(189/406)

على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والكاف مفعوله "فَإِنَّما" الفاء رابطة وإنما كافة ومكفوفة "عَلَيْكَ الْبَلاغُ" مبتدأ مؤخر والجار والمجرور متعلقان بخبر مقدم والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَعَلَيْنَا الْحِسابُ" مبتدأ مؤخر وجار ومجرور متعلقان بالخبر المقدم والجملة معطوفة.

[سورة الرعد (13) : الآيات 41 الى 43]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (41) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ

وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)

(190/406)

"أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام والواو استئنافية ولم جازمة "يَرَوْا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة استئنافية "أَنَّا" أن ونا اسمها وأن وما بعدها سد مسد مفعولي يروا "نَأْتِي الْأَرْضَ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر والأرض مفعوله والجملة خبر "نَنْقُصُهَا" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر "مِنْ أَطْرَافِهَا" متعلقان بننقصها والجملة حالية "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ والجملة مستأنفة "يَحْكُمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "لا مُعَقِّبَ" لا نافية للجنس واسمها "لِحُكْمِهِ" متعلقان بخبر لا والجملة في محل نصب على الحال "وَهُوَ سَرِيعُ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة "الْحِسَابِ" مضاف إليه "وَقَدْ" الواو استئنافية وقد حرف تحقيق "مَكَرَ" فعل ماض "الَّذِينَ" اسم موصول فاعل والجملة استئنافية "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بصلة محذوفة والهاء في محل جر مضاف إليه "فَلِلَّهِ الْمَكْرُ" المكر مبتدأ مؤخر ولفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بالخبر المقدم والجملة معطوفة "جَمِيعاً" حال "يَعْلَمُ ما" مضارع فاعله محذوف وما الموصولية مفعوله والجملة

حالية "تَكْسِبُ كُلُّ" مضارع وفاعله والجملة صلة "نَفْسٍ" مضاف إليه "وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة "لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ" اللام حرف جر ومن اسم استفهام في محل جر باللام متعلقان بمحذوف خبر مقدم "عُقْبَى" مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "الدَّارِ" مضاف إليه والجملة في محل نصب مفعول به ليعلم "وَيَقُولُ الَّذِينَ" الواو استئنافية وفعل مضارع واسم الموصول فاعله والجملة مستأنفة "كَفَرُوا" فعل ماض وفاعله والجملة صلة "لَسْتَ مُرْسَلًا" ليس فعل ماض ناقص والتاء في محل رفع اسمها ومرسلا خبرها والجملة مقول القول "قُلْ" أمر وفاعله والجملة مستأنفة "كَفَى" ماض

(191/406)

مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر "بِاللَّهِ" الباء حرف جر زائد ولفظ الجلالة فاعل مجرور لفظا مرفوع محلا "شَهِيداً" تمييز "بَيْنِي" ظرف مكان والياء في محل جر مضاف إليه "وَبَيْنَكُمْ" ظرف مكان والكاف مضاف إليه وهو معطوف على ما قبله والظرفان متعلقان بشهيدا "وَمَنْ" الواو عاطفة واسم الموصول معطوف على لفظ الجلالة "عِنْدَهُ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم "عِلْمُ" مبتدأ مؤخر "الْكِتابِ" مضاف إليه والجملة صلة الموصول. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 123.110 ﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الرَّعْد

ذكر فِيهَا عشرَة أَحَادِيث

645 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ (لَوْلَا عَفْو الله وتجاوزه مَا هنأ أحد الْعَيْش ولَوْلَا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد)

قلت رَوَاهُ ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره حَدثنَا أبي حَدثنَا مُوسَى بن إِسْمَاعِيل حَدثنَا حَمَّاد ابْن سَلمَة عَن عَلّي بن زيد عَن سعيد بن الْمسيب قَالَ لما نزلت هَذِه الْآيَة وَإِن رَبك لذُو مغْفرَة للنَّاس عَلَى ظلمهم قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَوْلَا عَفْو الله وتجاوزه) الحَدِيث إِلَى آخِره

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره وَهُوَ مُرْسل

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط أخبرنَا نصر بن بكر بن أَحْمد بن الْحُسَيْن حَدثنَا عبد

اللهِ بن مُحَمَّد بن نصير أَنا مُحَمَّد بن أَيُّوب حَدثنَا مُوسَى بن إِسْمَاعِيل بِهِ

646 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه كَانَ يَقُول (سُبْحَانَ من يسبح الرَّعْد بِحَمْدِهِ)

وَكَانَ إِذا اشْتَدَّ الرَّعْد يَقُول (اللَّهُمَّ لَا تقتلنا بغضبك وَلَا تُهْلكنا بعذابك وَعَافنَا قبل ذَلِك)

قلت هما حديثان

فَالْأول رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا أَحْمد بن إِسْحَاق حَدثنَا أَبُو أَحْمد حَدثنَا إِسْرَائِيل عَن لَيْث عَن رجل عَن أبي هُرَيْرَة رفع الحَدِيث إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذا سمع الرَّعْد قَالَ (سُبْحَانَ من يسبح الرَّعْد بِحَمْدِهِ)

انْتَهَى

(193/406)

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا مُحَمَّد ابْن يَحْيَى حَدثنَا أَحْمد بن إِسْحَاق حَدثنَا أَبُو أَحْمد حَدثنَا عتاب بن زِيَاد عَن رجل عَن أبي هُرَيْرَة رفع الحَدِيث ... إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب مَوْقُوفا عَلَى عبد الله بن الزُّبَيْر وموقوفا عَلَى ابْن

عَبَّاس

ورَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي كتاب الدُّعَاء مَوْقُوفا عَلَى كَعْب بن مَالك

وَذكره الثَّعْلَبِيّ عَن أبي عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من غير سَنَد

وَالثَّانِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي جَامعه فِي كتاب الدَّعْوَات وَالنَّسَائِيّ فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة من حَدِيث الْحجَّاج بن أَرْطَأَة عَن أبي مطر عَن سَالم بن عبد الله عَن أَبِيه أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ إِذا سمع صَوت الرَّعْد وَالصَّوَاعِق قَالَ (اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلنَا بغضبك) إِلَى آخِره قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث غَرِيب

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَأَبُو يعلي الْموصِلِي وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَالْبُخَارِيّ فِي كتاب الْمُفْرد فِي الْأَدَب

647 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن ابْن عَبَّاس أَن الْيَهُود سَأَلت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن الرَّعْد مَا هُوَ فَقَالَ (ملك من الْمَلَائِكَة مُوكل بالسحاب مَعَه مخاريق من نَار يَسُوق بهَا السَّحَاب)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير وَالنَّسَائِيّ فِي الْعشْرَة عَن عبد الله بن

الْوَلِيد عَن بكير بن شهَاب عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ أَقبلت يهود إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا أخبرنَا يَا أَبَا الْقَاسِم عَن الرَّعْد مَا هُوَ قَالَ (ملك من الْمَلَائِكَة مُوكل بالسحاب مَعَه مخاريق من نَار يَسُوق بهَا السَّحَاب حَيْثُ شَاءَ الله) قَالُوا فَمَا هَذَا الصَّوْت الَّذِي نسْمع قَالَ (زَجْرَة بالسحاب إِذا زَجره حَيْثُ يَنْتَهِي إِلَى حَيْثُ أَمر) قَالُوا صدقت

مُخْتَصر

قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح غَرِيب

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَعند الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط فِي آخر تَرْجَمَة الْمُحَمَّدين عَن أبي عمرَان الْجونِي حَدثنَا ابْن جريج عَن عَطاء عَن جَابر بن عبد الله أَن خُزَيْمَة بن ثَابت وَلَيْسَ بالْأَنْصَارِيِّ سَأَلَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن الرَّعْد قَالَ (هُوَ ملك بِيَدِهِ مِخْرَاق إِذا رفع برقتْ وَإِذا زجر رعدتْ وَإِذا ضرب صعقتْ) مُخْتَصر

648 - الحَدِيث الرَّابِع

رُوِيَ أَن أَرْبد أَخا لبيد بن ربيعَة العامري قَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِين وَفد عَلَيْهِ مَعَ عَامر بن الطُّفَيْل قَاصِدين لقَتله فَرَمَى الله عَامِرًا بغدة كَغُدَّة الْبَعِير وَمَوْت فِي بَيت سَلُولِيَّة وَأرْسل عَلَى أَرْبد صَاعِقَة فَقتلته أَخْبِرنِي عَن رَبنَا أَمن نُحَاس هُوَ أم من حَدِيد

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث مُحَمَّد بن السَّائِب الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس قَالَ أقبل عَامر بن الطُّفَيْل وأربد بن ربيعَة وهما عَامِدَان يُريدَان رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكر الْقِصَّة بطولها وفيهَا اللَّفْظ الْمَذْكُور

(195/406)

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ مُخْتَصرا من حَدِيث عَلّي بن أبي سارة الشَّيْبَانِيّ عَن ثَابت عَن أنس قَالَ بعث النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلا إِلَى رجل من فَرَاعِنَة الْعَرَب أَن ادْعُه لي) قَالَ يَا رَسُول الله إِنَّه أَعْتَى من ذَلِك قَالَ (اذْهَبْ فَادعه)

فَأَتَاهُ وَقَالَ إِن رَسُول الله يَدْعُوك قَالَ أَرَسُول الله وَمَا الله أَمن ذهب هُوَ أم من فضَّة أَو من نُحَاس فَرجع فَأخْبر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ فَبَعثه إِلَيْهِ فَأَعَادَ عَلَيْهِ فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَة بعث الله سَحَابَة حِيَال رَأسه نزلت مِنْهَا صَاعِقَة ذهبت بقحْفِ رَأسه وَأنزل الله وَيُرْسل الصَّوَاعِق فَيُصِيب بهَا من يَشَاء الْآيَة

انْتَهَى

وَرَوَاهُ كَذَلِك أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده والطبري فِي تَفْسِيره

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي ضُعَفَاءهُ وَأَعله بعلي بن أبي سارة وَقَالَ لَا يُتَابعه عَلَيْهِ إِلَّا من هُوَ مثله أَو

دونه

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة من حَدِيث دَيْلَم بن غَزوَان عَن ثَابت عَن أنس نَحوه سَوَاء قَالَ الْبَزَّار ودَيْلَم هَذَا بَصرِي صَالح

انْتَهَى

(196/406)

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه لم يقل فِيهِ أَخْبرنِي عَن رَبنَا أَمن نُحَاس هُوَ أَو من حَدِيد فَقَالَ حَدثنَا مسْعدَة بن سعد الْعَطَّار حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن الْمُنْذر الْحزَامِي حَدثنِي عبد الْعَزِيز بن عمرَان حَدثنِي عبد الرَّحْمَن وَعبد الله ابْنا زيد بن أسلم عَن أَبِيهِمَا عَن عَطاء بن يسَار عَن ابْن عَبَّاس أَن أَرْبَد بن قيس بن جُزْء بن خَالِد بن جَعْفَر ابْن كلاب وعامر بن الطُّفَيْل بن مَالك قدما الْمَدِينَة على رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فانتهيا إِلَيْهِ وَهُوَ جَالس فَجَلَسَا بَين يَدَيْهِ فَقَالَ عَامر بن الطُّفَيْل يَا مُحَمَّد مَا تجْعَل لي إِن أسلمت فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَك مَا للْمُسلمين وَعَلَيْك مَا عَلَيْهِم) قَالَ عَامر بن الطُّفَيْل أَتجْعَل لي الْأَمر من بعْدك إِن أسلمت فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَيْسَ لَك وَلَا لقومك وَلَكِن لَك أَعِنَّة

الْخَيل) فَقَالَ أَنَا الْآنَ فِي أَعِنَّة خيل نجد اجْعَل لي الْوَبر وَلَك الْمدر فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا) فَلَمَّا قفا من عِنْده قَالَ عَامر أما وَالله لأملأنها عَلَيْك خيلا ورجالا فَقَالَ (يمنعك الله من ذَلِك) فَلَمَّا خرج أَرْبَد وعامر قَالَ عَامر يَا أَرْبَد إِذا اشْتغل عَنْك مُحَمَّد بِالْحَدِيثِ فَاضْربهُ بِالسَّيْفِ فَإِن النَّاس إِذا قتلت مُحَمَّدًا لم يزِيدُوا عَلَى أَن يرضوا بِالدِّيَةِ وَيكْرهُوا الْحَرْب وسنعطيهم الدِّيَة قَالَ أَرْبَد أفعل فَأَقْبَلَا رَاجِعين إِلَيْهِ فَقَالَ عَامر يَا مُحَمَّد قُم معي أُكَلِّمك فَقَامَ مَعَه رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَلَسْنَا إِلَى الْجِدَار

(197/406)

ووقف مَعَه رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسل أَرْبَد السَّيْف فَلَمَّا وضع يَده عَلَى السَّيْف يَبِسَتْ يَده فَلم يسْتَطع أَن يسله فَأَبْطَأَ أَرْبَد عَلَى عَامر بِالضَّرْبِ فَالْتَفت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأى أَرْبَد وَمَا صنع فَانْصَرف عَنْهُمَا فَلَمَّا خرج عَامر وأربد من عِنْد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذا كَانَا بِالْحرَّةِ نزلا فَخرج إِلَيْهِمَا سعد بن معَاذ وَأسيد بن حضير فَقَالَا اشخصا يَا عدوي الله لعنكما الله فَقَالَ عَامر من هَذَا يَا سعد فَقَالَ هَذَا أسيد بن حضير الْكَاتِب فَخَرَجَا حَتَّى إِذا كَانَا بالرقم أرسل الله عَلَى أَرْبَد صَاعِقَة فقتلته وَخرج عَامر حَتَّى إِذا كَانَ بالحريم أرسل الله عَلَيْهِ قرحَة فأدركه اللَّيْل فِي بَيت امْرَأَة

من بني سلول فَجعل يمس قرْحَته فِي حلقه ويَقُول غدَّة كَغُدَّة الْبَعِير فِي بَيت سَلُولِيَّة ترغب أَن يَمُوت فِي بَيتهَا ثمَّ ركب فرسه فَأحْضرهُ حَتَّى مَاتَ عَلَيْهِ فَأنْزل الله فيهمَا الله أعلم مَا تحمل كل أُنْثَى إِلَى قَوْله من وَال

انْتَهى

وَعَن الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ ومَتنه

649 - الحَدِيث الْخَامِس

فِي الحَدِيث (وَلَا تجْعَلهُ علينا ماحلا مُصدقا)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَالَّذِي وجدته فِي الحَدِيث الْمَرْفُوع (الْقُرْآن شَافِع مُشَفع ومَاحِل مُصدق) رُوِيَ من حَدِيث جَابر وَأنس وَعَن معقل بن يسَار وَمن حَدِيث ابْن مَسْعُود

(198/406)

فَحَدِيث جَابر رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه من حَدِيث أبي سُفْيَان عَنهُ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْقُرْآن شَافِع مُشَفع ومَاحِل مُصدق من جعله أَمَامه قَادَهُ إِلَى الْجنَّة وَمن جعله خَلفه قَادَهُ إِلَى النَّار)

انْتَهى

وَمن حَدِيث أنس رَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كِتَابه فَضَائِل الْقُرْآن حَدثنَا حجاج عَن ابْن جريج قَالَ حدثت عَن أنس بن مَالك قَالَ قَالَ رَسُول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْقُرْآن شَافِع مُشَفع وَمَاحِل مُصدق وَمن شفع لَهُ يَوْم الْقِيَامَة نجا وَمن مَحل بِهِ كَبه الله فِي النَّار)

انْتَهى

وَفِيه انْقِطَاع وحجاج ضَعِيف

وَحَدِيث معقل بن يسَار رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي فَضَائِل الْقُرْآن من حَدِيث عبيد الله بن أبي حميد عَن أبي الْمليح عَن معقل بن يسَار قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اعْمَلُوا بِالْقُرْآنِ أحلُّوا حَلَاله وحرموا حرَامه واقْتَدوا بِهِ وَلَا تكفرُوا بِشَيْء مِنْهُ وَمَا تشابه عَلَيْكُم مِنْهُ فَردُّوهُ إِلَى الله وَإِلَى أولي الْعلم كَيْمَا يُخْبِرُوكُمْ وآمنوا بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيل وَالزَّبُور وَلْيَسَعْكُمْ الْقُرْآن وَمَا فِيهِ من الْبَيَان فَإِنَّهُ شَافِع مُشَفع وَمَاحِل مُصدق وَإِنِّي أُعْطيت سُورَة الْبَقَرَة من الذّكر الأول وَأعْطيت طه وَيَاسِين وَالْحَوَاتِيم من أَلْوَاح مُوسَى وَأعْطيت فَاتِحَة الْكتاب من تَحت الْعَرْش)

انْتَهى

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَحَدِيث ابْن مَسْعُود رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث الرّبيع بن بدر عَن الْأَعْمَش عَن شَقِيق بن سَلمَة عَن عبد الله بن مَسْعُود مَرْفُوعا بِلَفْظ ابْن حبَان

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة أبي وَائِل شَقِيق بن سَلمَة وَكَذَلِكَ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان ثمَّ نقل عَن ابْن عدي أَنه قَالَ هَذَا الحَدِيث يعرف بالربيع ابْن بدر وَقد رَوَاهُ عبد الله بن الْأَجْلَح عَن الْأَعْمَش فَوَقفهُ

انْتَهَى

650 - الحَدِيث السَّادِس

رُوِيَ أَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم دَعَا عَلَيْهِمَا يَعْنِي عَامر بن الطُّفَيْل وأربد فَقَالَ (اللَّهُمَّ اخسفهما بِمَا شِئْت)

فَأُجِيب فيهمَا

قلت لم يَتَقَدَّم هَذَا فِيمَا مضى من الْأَحَادِيث وَلَكِن ذكر الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول حَدِيث أَربد وعامر عَن ابْن عَبَّاس من غير سَنَد قَالَ نزلت هَذِه

الْآيَة وَالَّتِي قبلهَا فِي عَامر بن الطُّفَيْل وأربد بن ربيعَة وَذَلِكَ أَنَّهُمَا أَقبلا يُرِيدَان رَسُول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ رجل من أَصْحَابه يَا رَسُول الله هَذَا عَامر بن طفيل قد أقبل نَحْوك فَقَالَ (دَعه إِن يرد الله بِهِ خيرا يهده) فَأقبل حَتَّى قَامَ عَلَيْهِ فَقَالَ يَا مُحَمَّد مَا لي إِن أسلمت قَالَ (لَك مَا للْمُسلمين وَعَلَيْك مَا عَلَيْهِم) قَالَ تجْعَل لي الْأَمر بعْدك قَالَ (لَيْسَ ذَلِك إِلَيّ إِنَّمَا ذَلِك إِلَى الله يَجعله حَيْثُ يَشَاء) قَالَ فتجعلني عَلَى الْوبر وَأَنت عَلَى الْمدر قَالَ (لَا)

قَالَ فَمَاذَا تجْعَل لي قَالَ (لَك أَعِنَّة الْخَيل) قَالَ أَو لَيْسَ ذَلِك الْيَوْم إِلَيّ وَكَانَ أَوْصَى بِهِ أَرْبَد بن ربيعَة إِذا رَأَيْتنِي أُكَلّمهُ فدر من خَلفه وَاضْرِبْهُ بِالسَّيْفِ فَلَمَّا دَار أَرْبَد خلف النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَاخْتَرَطَ من سَيْفه قدر شبر حَبسه الله عَنهُ فَلم يقدر عَلَى سَله وَجعل عَامر يومي عَلَيْهِ فَالْتَفت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَرَأَى أَرْبَد وَمَا يصنع بِسَيْفِهِ فَقَالَ (اللَّهُمَّ اخسفهما بِمَا شِئْت) فَأرْسل الله عَلَى أَرْبَد صَاعِقَة فِي يَوْم صَائِف فَأَحْرَقتهُ وَولى عَامر هَارِبا فَخرجت عَلَى ركبته غُدَّة وَنزل عَامر بَيت امْرَأَة سلولية وَهُوَ يَقُول غُدَّة كَغُدَّة الْبَعِير وَمَوْت فِي بَيت سَلُولِيَّة ثمَّ خرج فَمَاتَ عَلَى ظهر فرسه فَأنْزل الله فِيهِ هَذِه الْآيَة سَوَاء مِنْكُم من أسر القَوْل وَمن جهر بِهِ الْآيَة

انْتَهى

651 - الحَدِيث السَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه كَانَ يَأْتِي قُبُور الشُّهَدَاء عَلَى رَأس كل حول فَيَقُول سَلَام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنعم عُقْبى الدَّار

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنِي الْمثنى حَدثنَا سُوَيْد حَدثنَا ابْن الْمُبَارك عَن إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد عَن سُهَيْل بن أبي صَالح عَن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم التَّمِيمِي قَالَ كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (يَأْتِي قُبُور الشُّهَدَاء عِنْد رَأس الْحول فَيَقُول سَلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنعم عُقْبى الدَّار قَالَ وَكَانَ أَبُو بكر وَعُثْمَان يَفْعَلُونَ ذَلِك

انْتَهى

وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي الْجَنَائِز أخبرنَا رجل من أهل الْمَدِينَة عَن

(201/406)

سُهَيْل بن أبي صَالح عَن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ . . . فَذكره سَوَاء وَهَذَا معضل

وَذكره الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي فِي غَزْوَة أحد هَكَذَا من غير سَنَد

652 - الحَدِيث الثَّامِن

رُوِيَ أَن أَبَا جهل بن هِشَام قَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سير بِقِرَاءَتك الْجبَال عَن مَكَّة حَتَّى يَتَّسع لنا فنتخذ فِيهَا الْبَسَاتِين والقطائع كَمَا سخرت لداود إِن كنت نَبيا كَمَا تزْعم فلست بِأَهْوَن على الله من دَاوُد أَو سخر لنا بِهِ الرّيح لنركبها ونتجر إِلَى الشَّام ثمَّ نرْجِع فِي يَوْمنَا فقد شقّ علينا قطع الْمسَافَة الْبَعِيدَة كَمَا سخرت لِسُلَيْمَان أَو ابْعَثْ لنا رجلَيْن أَو ثَلَاثَة مِمَّن مَاتَ من آبَائِنَا مِنْهُم قصي بن كلاب فَنزلت وَلَو أَن قُرْآنًا سيرت بِهِ الْجبَال الْآيَة

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

(202/406)

وَيقرب مِنْهُ مَا رَوَاهُ أَبُو يعلى الْموصِلِي فِي مُسْنده وَابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل بن عَليّ الْأنْصَارِيّ حَدثنَا خلف بن تَمِيم المصيصي عَن عبد الْجَبَّار ابْن عمر الْأَيْلِي عَن عبد الله بن عَطاء بن إِبْرَاهِيم عَن جدته أم عَطاء مولاة الزُّبَيْر قَالَت سَمِعت الزُّبَيْر بن الْعَوام يَقُول لما نزلت وَأنْذر عشيرتك الْأَقْرَبين صَاح رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يَا آل عبد بني منَاف) فَجَاءَتْهُ قُرَيْش فحذرهم وأنذرهم فَقَالُوا تزْعم أَنَّك نَبِي يُوحى إِلَيْك وَأَن سُلَيْمَان سخر لَهُ الرّيح وَالْجِبَال وَأَن مُوسَى سخر لَهُ الْبَحْر وَأَن عِيسَى كَانَ يحيي الْمَوْتَى فَادع الله أَن يسير عَنَّا هَذِه الْجبَال ويفجر لنا الأَرْض أَنهَارًا فنتخذها

مَحَارِث فَنَزْرَع وَنَأْكُل وادع الله أَن يحْيى لنا موتانا فنكلمهم ويُكَلّمُونَا أَو ادْع الله أَن يصير هَذِه الصَّخْرَة الَّتِي تحْتك ذَهَبا فننحت مِنْهَا وتُغْنِينا عَن رحْلَة الشتَاء قَالَ فَبَيْنَمَا نَحن حوله إِذْ نزل عَلَيْهِ

الْوَحْي فَلَمَّا سري عَنهُ قَالَ (وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لقد أَعْطَانِي الله مَا سَأَلْتُم وَلَو شِئْت لَكَانَ وَلَكِن أَخْبرنِي أَنه إِن أَعْطَاكُم ذَلِك ثمَّ كفرتم إِنَّه معذبكم عذَابا لَا يعذبه أحدا من الْعَالمين) فَنزلت وَلَو أَن قُرْآنًا سيرت بِهِ الْجبَال الْآيَة

انْتَهى

(203/406)

حَدِيث آخر رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي الْمَغَازِي حَدثنَا أَبُو أُسَامَة حَدثنَا مجالد عَن الشّعبِيّ قَالَ قَالَت قُرَيْش لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِن كنت نَبيا كَمَا تزْعم فباعد جبلي مَكَّة أخشبيها هذَيْن مسيرَة أَرْبَعَة أَيَّام أَو خَمْسَة فَإِنَّهَا ضيقَة حَتَّى نزرع فِيهَا ونرعى وَابعث لنا آبَاءَنَا من الْمَوْت حَتَّى يُكَلِّمُونَا ويخبرونا أَنَّك نَبِي أَو احملنا إِلَى الشَّام أَو إِلَى الْيمن أَو إِلَى الْحيرَة حَتَّى نَذْهَب ونجيء فِي لَيْلَة كَمَا زعمت أَنَّك فعلته فَأنْزل الله وَلَو أَن قُرْآنًا سيرت بِهِ الْجبَال أَو قطعت بِهِ الأَرْض أَو كلم بِهِ الْمَوْتى وَهُوَ مُرْسل

انْتَهى

حَدِيث آخر رَوَى ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره حَدثنَا أَبُو زرْعَة حَدثنَا أَبُو منْجَاب ابْن الْحَارِث أَنا بشر بن عمَارَة حَدثنَا عمر بن حسان عَن عَطِيَّة الْعَوفِيّ قَالَ قلت لَهُ وَلَو أَن قُرْآنًا سيرت بِهِ الْجبَال الْآيَة قَالَ قَالُوا لمُحَمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَو سيرت لنا جبال مَكَّة حَتَّى تتَّسع فنحرث فِيهَا أَو قطعت بنَا الأَرْض كَمَا كَانَ سُلَيْمَان يقطع لِقَوْمِهِ بالرِّيح أَو أحييت لنا الْمَوْتَى كَمَا كَانَ عِيسَى يحيى الْمَوْتَى لِقَوْمِهِ فَأنْزل الله هَذِه الْآيَة قَالَ فَقلت لَهُ هَل ترَوْنَ هَذَا الحَدِيث عَن أحد من أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نعم عَن أبي سعيد عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

انْتَهى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه عَن بشر بن عمَارَة بِهِ

653 - الحَدِيث التَّاسِع

كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يزَال يبْعَث السَّرَايَا فتُغير حول مَكَّة وتختطف مِنْهُم وتصيب من مَوَاشِيهمْ

قلت فِي صَحِيح مُسلم عَن سَلمَة بن الْأَكْوَع قَالَ بعث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا بكر إِلَى فزَارَة . . . فَذكره فِي السِّيرَة فِي ذكر سيرة ابْن أبي حَدْرَد قَالَ ابْن إِسْحَاق قَالَ ابْن أبي حَدْرَد تزوجت امْرَأَة من قومِي فَجئْت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْتَعِينهُ عَلَى نكَاحي . . . إِلَى أَن قَالَ وَأَقْبل رجل من بني جشم حَتَّى نزل بقَوْمه وَمن مَعَه بالْغَابَةِ يُرِيد أَن يجمع قيسا عَلَى حَرْب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدعاني رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورجلَيْن من الْمُسلمين فَقَالَ (اخْرُجُوا إِلَى هَذَا الرجل حَتَّى تأتوا مِنْهُ بِخَبَر) وَخَرجْنَا ومعنا سِلَاحنَا من النبل وَالسُّيُوف فَجِئْنَاهَا مَعَ غرُوب الشَّمْس فَكَمَنْت فِي نَاحيَة وَأمرت صَاحِبي فكمنا فِي نَاحيَة أُخْرَى نَنْتَظِر غرَّة الْقَوْم وَأَن نصيب مِنْهُم شَيْئًا فَمر بِي رَاع لَهُم يَسُوق إبلا وغنما فنفحته بسهْم فَوَقع فِي فُؤَاده ووثبت إِلَيْهِ فجززت رَأسه وكبرت وكبر صَاحِبَايَ واستقنا إبلا عَظِيمَة وغنما كَثِيرَة فَجِئْنَا بهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجئْت بِرَأْسِهِ أحملهُ فَأَعَانَنِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تِلْكَ الْإِبِل بِثَلَاثَة عشر بَعِيرًا فِي صَدَاقي فجمعت إِلَيّ أَهلِي

مُخْتَصر

وَذكر ابْن سعد والواقدي فِي سَرِيَّة قُطْبَة بن عَامر قَالَ وَبعث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قُطْبَة بن عَامر فِي عشْرين رجلا إِلَى حَيّ من خثعم بنَاحِيَة تبَالَة وأمره أَن يشن الْغَارة أَي يفرّقهمْ فِي كل مَكَان فَخَرجُوا عَلَى عشرَة أَبْعِرَة يعتقبونها وَشن عَلَيْهِم الْغَارة وَأَقَامُوا حَتَّى نَامُوا ثمَّ أَغَارُوا عَلَيْهِم فاقْتَتلُوا حَتَّى أَكثر الْجَرْحى فِي الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا وَقتل قُطْبَة بن عَامر وَسَاقُوا الْإِبِل وَالشَّاء وَالنّسَاء إِلَى الْمَدِينَة وَقسمت فيهم فَكَانَت سُهْمَانهمْ أَرْبَعَة أَبْعِرَة وَالْبَعِير يعدل بِعشر من الْغنم بعد أَن أخرج الْخمس

وَذكر ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي سَرِيَّة عكاشة بن مُحصن فِي جمَاعَة إِلَى الْغمر عَلَى يَوْمَيْنِ من الْمَدِينَة مَاء لبني أَسد فَأَغَارَ عَلَيْهِم واستاق مِائَتي بعير فَقدم بهَا عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

وَذكر أَيْضا سَرِيَّة أبي عُبَيْدَة بن الْجراح إِلَى ذِي الْقِصَّة لَيْلَة من الْمَدِينَة فِي أَرْبَعِينَ رجلا فَأَغَارُوا عَلَى بني ثَعْلَبَة وَأخذُوا نعما من نعامهم ورثة من مَتَاعهمْ وَقدمُوا بِهِ الْمَدِينَة فخمسه عَلَيْهِ السَّلَام

وَذكر أَيْضا سَرِيَّة زيد بن حَارِثَة إِلَى بني سليم بالجموم وَهِي بطن نخل فَأَصَابُوا مِنْهُ نعما وَشاء وأسْرَى

وَذكر أَيْضا سَرِيَّة زيد بن حَارِثَة إِلَى الطّرف على سِتَّة وَثَلَاثِينَ ميلًا من الْمَدِينَة فَخرج إِلَى بني ثَعْلَبَة فِي خَمْسَة عشر رجلا فَأصَاب نعما وَشاء

وَذكر أَيْضا سَرِيَّة زيد بن حَارِثَة إِلَى الْعيص على أَربع لَيَال من الْمَدِينَة وَذكره الْوَاقِدِيّ فِي الْمَغَازِي وَذكر الَّتِي قبلهَا أَيْضا فِي مائَة وَسبعين رَاكِبًا حِين بلغه أَن عيرًا لقريش أَقبلت من الشَّام فَأخذُوهَا وَمَا فِيهَا وَأخذُوا فضَّة كَثِيرَة لصفوان بن أُميَّة وأسروا أُنَاسًا مِنْهُم أَبُو الْعَاصِ بن الرّبيع وقدمُوا بهم الْمَدِينَة فاستجار أَبُو الْعَاصِ بزَيْنَب بنت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَجَارَتْهُ

وَذكر أَيْضا سَرِيَّة عَلّي بن أبي طَالب إِلَى بني سعد بن بكر بفدك على سِتّ لَيَال من الْمَدِينَة فِي مائَة رجل فَأَغَارَ عَلَيْهِم وَأخذ خَمْسمِائَة بعير وألفي شَاة . . . وَذكره الْوَاقِدِيّ

ثمَّ ذكر سَرِيَّة مُحَمَّد بن سَلمَة إِلَى القرطاء بطن من بني بكر بن كلاب على سبع لَيَال من الْمَدِينَة وَأمره أَن يشن الْغَارة فسَار اللَّيْل وكمن النَّهَار حَتَّى انْتهى فَأَغَارَ عَلَيْهِم وَقتل مِنْهُم نَفرا وهرب سَائِرهمْ وَاسْتَاقَ مائَة وَخمسين بَعِيرًا وَثَلَاثَة آلَاف شَاة وَلم يتَعَرَّض للطعْن وانْحَدَرَ إِلَى الْمَدِينَة فخمس عَلَيْهِ السَّلَام مَا جَاءَ بِهِ وَذكرهَا الْوَاقِدِيّ

ثمّ ذكر سريّة غالب بن عبد الله اللّيْثيّ إِلى الميفعة عن الْمدينة بثمانية برد فِي مائة وثلاثين رجلا فقتل من بني عوال وبني عبد بن ثعْلبة واسْتاقوا نعما وشاء فقدموا بِه الْمدينة ولم يأسِروا أحدا وفي هذِه السّريّة قتل أسامة بن زيد الرجل الّذي قال لا إِله إِلّا الله

ثمّ ذكر سريّة أبي قتادة إِلى أرض محارب بنجْد قالوا بعث رسول الله صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم أبا قتادة إِلى أرض محارب فِي خمْسة عشر رجلا فهجموا على حاضر مِنْهم فقتلوا مِنْهم واسْتاقوا من الْإِبل مِائتي بعير ومن الْغنم ألفي شاة وسبوا سبيا كثيرا ورجعوا إِلى الْمدِينة

ثمّ ذكر سريّة علّي بن أبي طالب إِلى الْيمن يُقال مرّتيْن أحدهما فِي شهر رمضان سنة عشرة من الْهجْرة قال بعث رسول الله صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم عليا إِلى الْيمن وعقد له لواء وقال له امْض ولا تلْتفت فإِذا نزلت بساحتِهمْ فلا تقاتلهمْ حتّى يُقاتلوك) فخرج فِي ثلاثمائة فارس حتّى نزل فِي بلاد مذْحج ففرق أصْحابه عليْها فأتوا بنهْب وغنائم ونساء وأطْفال ونعم وشاء وغير ذلك وجعل علّي عليْها بُريْدة بن الْحصيب ثمّ لقِي جمعهم فدعاهُمْ إِلى الْإِسْلام فأبوا فقاتلهُمْ حتّى هزمهُمْ وقتل مِنْهُم عشْرين رجلا ثمّ دعاهم إِلى الْإِسْلام فأسْرعوا وأجابوا وبايعهُ نفر من رؤسائِهمْ على الْإِسْلام وقالوا نحن على من وراءنا من قومنا وهذِه صدقاتنا فخذ مِنْها حق الله ثمّ قفل علّي فوافى النّبي صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم بمكّة قد قدمها لِلْحجّ سنة عشرة

وروى الْواقدي في الْمغازي حدثني ابن أبي سبْرة عن إسْحاق بن عبد الله ابْن أبي فرْوة عن عمْرو بن الحكم قال بعث رسول صلى الله عليْه وسلم شجاع بن وهب في أرْبعة في أرْبعة وعشْرين رجلا إلى جمع من هوازن بالسبْي وأمرهمْ أن يغيروا عليْهم فخرج وكان يسير الليْل ويكمن النهار حتى صبحهمْ وهم غارون فأصابوا نعما كثيرا وشاء ونساء فاستاقوا ذلك كله حتى قدموا الْمدينة وكانت سهامهمْ خمْسة عشر بعيرًا لكل رجل وعدلوا الْبعير بعشْرة من الْغنم وغابتْ السرية خمْسة عشر يوْمًا

انْتهى

وروي أيضا حدثنا عبد الرحْمن بن عبد الْعزيز عن عبد الله بن أبي بكر ابْن حزم قال بعث رسول الله صلى الله عليْه وسلم علي بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل على مائة بعير وخمسين فرسا ليهْدم الْفلس وهْو صنم لطيئ وأمره أن يشن الْغارة فساروا حتى غاروا على أحياء من الْعرب وهدم الْفلس وخربه وشن الْغارة

مع الْفجْر فسبوا حتى ملوا أيديهم من السبي والنعم والشاء وسبي يوْمئذ أخْت عدي بن حاتم وهرب أخوها عدي ثم انصرفوا راجعين إلى الْمدينة وأنزلت أخْت عدي بيت رملة

بنت الْحَارِث وَكَانَت تَقول إِذا مر بهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا رَسُول الله أهلك الْوَالِد وَغَابَ الْوَافِد فامْنُنْ علينا من الله عَلَيْك فَمن النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام فِي الْيَوْم الرَّابِع ووَصلهَا

مُخْتَصر

(209/406)

سَرِيَّة خضرَة قَالَ الْوَاقِدِيّ فِي الْمَغَازِي حَدثنِي مُحَمَّد بن سهل بن أبي خَيْثَمَة عَن أَبِيه قَالَ عبد الله بن أبي حَدْرَد تزوجت امْرَأَة من قومِي فَلم أجد شَيْئا أصدقهَا فَجئْت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَسْتَعِينهُ فَقَالَ لي (مَا وَافَقت عندنَا شَيْئا وَلَكِنِّي أجمعت أَن أبْعث أَبَا قَتَادَة فِي أَرْبَعَة عشر رجلا نَحْو غطفان فَأخْرج مَعَهم فَعَسَى أَن تصيب شَيْئا) قَالَ فَخرجت مَعَهم إِلَى غطفان نَحْو نجد نسير اللَّيْل ونكمن النَّهَار حَتَّى جِئْنَا غطفان فهجمنا عَلَى حَاضر عَظِيم مِنْهُم وجَرَّدْنَا سُيُوفنَا وكَبَّرْنَا فقَتَلْنَا مِنْهُم وَسَبَيْنَا وَاسْتَقْنَا الشَّاء وَالنعم قَالَ الْوَاقِدِيّ وحَدثنِي عبد الله بن جَعْفَر عَن جَعْفَر بن عَمْرو قَالَ غَابُوا خمس عشرَة لَيْلَة وَجَاءُوا بمائتي بعير وَألف شَاة وسبوا النِّسَاء كثيرا وَكَانَت سُهْمَانهمْ بعد الْخمس اثْنَي عشر بَعِيرًا لكل رجل وَالْبَعِير يعدل بِعشر من الْغنم قَالَ ابْن أبي حَدْرَد فَدخلت بزوجتي

وَرزَقَنِي الله خيرا كثيرا

مُخْتَصر

654 - الحَدِيث الْعَاشِر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الرَّعْد أعطي من الْأجر عشر حَسَنَات بِوَزْن كل سَحَاب مضى وكل سَحَاب يكون إِلَى يَوْم الْقِيَامَة وَبعث يَوْم الْقِيَامَة من الْمُوفينَ بِعَهْد الله)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا أَبُو الْحسن مُحَمَّد بن الْقَاسِم بن أَحْمد الْفَارِسِي بقرَاءَتي

(210/406)

عَلَيْهِ حَدثنَا أَبُو عمر إِسْمَاعِيل بن مُحَمَّد بن أَحْمد بن يُوسُف السّلمِيّ حَدثنَا أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم بن سعد البوسنجي حَدثنَا سعيد بن حَفْص قَالَ قَرَأت عَلَى معقل ابْن عبد الله عَن عِكْرِمَة بن خَالِد عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره كَمَا تقدم إِسْنَاده فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط حَدثنَا أَبُو سعد أَحْمد بن مُحَمَّد بن عَلّي الْخفاف

حدثنا أَبو عَمْرو مُحَمَّد بن جَعْفَر بن مطر بِالْإِسْنَادِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس. انتهى انتهى. اهـ

﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 183. 196﴾

(211/406)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي:

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الرعد

قوله تعالى: (اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ)، الآية/ 8.

قال قائلون: فيه دلالة على ظهور الحيض في أيام الحمل، وهو المراد بقوله:

(وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ)، فلا جرم قال قائلون: إن الحامل تحيض، تعلقا بهذا الظاهر.

وقال بعضهم: لا تحيض.

وقال آخرون: المراد به السقط، فإنه من غيض الأرحام حقيقة.

وقال بعضهم: هو نقصان مدة الحمل، حتى يقابله قوله: (وَما تَزْدادُ)، يعني في مدة الوضع،

فجعلوا الغيض في ستة أشهر ، وما تزداد : ما يزيد على ذلك .

ويحتمل أن يكون معناه أن اللّه تعالى يعلم حمل كل أنثى ، ويعلم ما تغيض الأرحام ، وفي الدم والحيض في غير حال الحمل ، وما تزداد بعد

غيضها من ذلك ، حتى يجتمع في رحمها الدم ، وذلك لا يعلمه إلا الله تعالى ، فعلى هذا لا يدل ظاهر الآية على أن الحامل تحيض ، إلا أن يقال إنه عام ، فإذا بين اللّه تعالى في الأرحام أنها تغيض بالدم ، فيجب أن يكون حيضا ، لأن الحيض هو الذي تساقط عن الرحم ، والاستحاضة دم عرق لا من الرحم «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 235.236﴾

---

(1) انظر الفخر الرازي في توضيح هذه الآية .

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

سورة الرّعد (13)

«بِغَيْرِ عَمَدٍ» (2) متحرك الحروف بالفتحة ، وبعضهم يحركها بالضمة لأنها جميع عمود وهو القياس لأن كل كلمة هجاؤها أربعة أحرف الثالث منها ألف أو ياء أو واو فجميعه متحرك مضموم نحو رسول والجميع رسل ، وصليب والجميع صلب ، وحمار والجميع حمر ، غير أنه جاءت أسامى منه استعملوا جميعه بالحركة بالفتحة نحو عمود وأديم وإهاب قالوا : أدم وأهب ومعنى عمد أي سوارى «1» ودعائم وما يعمد البناء ، قال النّابغة [الذّبيانىّ] :

وخيّس الجنّ أنّى قد أذنت بهم يبنون تدمر بالصّفّاح والعمد «2»

«وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ» (2) أي ذلّلها فانطاعا .

---

(1) «سوارى» : جمع سارية وهى بمعنى أسطوانة

(2) : ديوانه من الستة 7 وشرح العشر 155 والطبري 13/ 54 والقرطبي 9/ 279 ومعجم البلدان 1/ 828 . وتدمر : بالفتح ثم بالسكون وضم الميم مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام (معجم البلدان) .

«كُلٌّ يَجْرِي» (2) مرفوع على الاستئناف وعلى «يجرى» ولم يعمل فيه «وَسَخَّرَ» ولكن انقطع منه . و«كُلٌّ يَجْرِي» فى موضع كلاهما إذا نوّنوا فيه ، فلذلك جاءت للشمس وللقمر لأن التنوين بدل من الكناية .

«وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ» (3) أي بسطها فى الطول والعرض ، «وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ» أي جبالا ثابتات يقال : أرسيت الوتد ، قال :

به خالدات ما يرمن وهامد وأشعث أرسته الوليدة بالفهر «1»

أي أثبتته فى الأرض .

«وَمِنْ كُلِّ [الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها] زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» (3) مجازه : من كل ذكر وكل أنثى اثنين ، فكأنه أربعة منهما : من هذا اثنين ومن هذا اثنين ، وللزوج موضعان : أحدهما أن يكون واحدا ذكرا ، والثاني أن يكون واحدة أنثى زوج للذكر وبعضهم يقول الأنثى زوجة ويكون الزوج اثنين أيضا .

---

(1) : للأحوص فى اللسان (رسا) وغير معزو فى الطبري 13/ 55 .

«يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ» (3) مجازه: يجلّل الليل بالنهار والنهار بالليل.

«وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ» (4) أي متدانيات متقاربات غير جنات «و» منهن «جَنَّاتٌ» (4).

«وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ» (4) أي يكون أصله واحدا وفرعه متفرق، وواحده صنو والاثنان صنوان النون مجرورة فى موضع الرفع والنصب والجر كنون الاثنين، فإذا جمعته قلت: صنوان كثير، والإعراب فى نونه: يدخله النصب والرفع والجرّ ولم نجد جمعا يجرى مجراه غير قنو وقنوان [والجميع قنوان]، «وَغَيْرُ صِنْوانٍ» مجازه: أن يكون الأصل والفرع واحدا، لا يتشعب من أعلاه آخر يحمل:

«يُسْقى «1» بِماءٍ واحِدٍ» (4) لأنه يشرب من أسفله فيصل الماء إلى فروعه المتشعبة من أعلاه.

«وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ» (4) فى الثمرة والأكل.

«الْأَغْلالُ» (5) واحدها غلّ لا يكون إلّا فى العنق. «2»

---

(1) «يسقى»: قال القرطبي (9/ 283) واختاره (أي التذكير) أبو حاتم وأبو عبيدة قال أبو عمرو والتأنيث أحسن. [.....]

(2) «الأغلال . . . العنق» كذا فى البخاري. قال ابن حجر: هو قول أبى عبيدة أيضا (فتح الباري 8/ 282).

(216/406)

«خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ» (6) واحدتها مثلة ومجازها مجاز الأمثال.

«وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ» «1» (8) أي ما تخرج من الأولاد ومما كان فيها.

«وَما تَزْدادُ» (8) أي ما تحدث وتحدث.

«وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ» (8) أي مقدر وهو مفعال من القدر. «2»

«وَسارِبٌ بِالنَّهارِ» (10) مجازه: سالك فى سربه، أي مذاهبه «3» ووجوهه، ومنه قولهم: أصبح فلان آمنا فى سربه، أي فى مذاهبه وأينما توجه، ومنه: انسرب فلان.

---

(1) «وما تغيض الأرحام»: فى البخاري: تغيض الأرحام غيض نقص. قال ابن حجر: قال أبو عبيدة فى قوله «وغيض الماء» (11/ 44) أي ذهب وقل وهذا تفسير سورة هود وإنما ذكر هنا لتفسير قوله «تغيض الأرحام» فانها من هذه المادة (فتح الباري 8/ 284).

(2) «بمقدار . . . القدر» كذا رواه ابن حجر فى فتح الباري 8/ 281 : أثناء شرح قول البخاري «بمقدار بقدر» وقال هو كلام أبى عبيدة .

(3) «سالك . . . مذهبه» : أنظر اختلاف أهل العلم بكلام العرب فى «السرب» فى الطبري 13/ 67 .

(217/406)

«لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» (11) مجازه : ملائكة تعقّب بعد ملائكة ، وحفظة تعقّب بالليل حفظة النهار وحفظة النهار تعقّب حفظة الليل ، ومنه قولهم : فلان عقّبنى ، وقولهم : عقّبت فى أثره .

«يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» (11) أي بأمر اللّه يحفظونه من أمره . «1»

«وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً» (11) مضموم الأول ، ومجازه : هلكة وكل جذام وبرص وعمّى ، وكل بلاء عظيم فهو سوء مضموم الأول ، وإذا فتحت أوله فهو مصدر سؤت القوم ، ومنه قولهم : رجل سوء [قال الزّبرقان بن بدر :

قد علمت قيس وخندق إنّني وقيت إذا ما فارس السّوء أحجما

«2»]

---

(1) «له معقبات . . . أمره» : هذا الكلام بمعناه فى البخاري ، وقال ابن حجر فإنه كلام أبى عبيدة أيضا ، وروى كلامه بلفظه فى فتح الباري 8/ 281 .

(2) : الزبرقان : اسمه حصين بن بدر بن امرئ القيس سيد فى الجاهلية عظيم القدر فى الإسلام ، شاعر محسن له ترجمة فى المؤتلف 128 ، وأخباره فى الأغانى 2/ 49 . - ولم أجد البيت فيما رجعت إليه .

(218/406)

«يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً» (12) أي ترهبونه وتطمعون أن يحييكم وأن يغيثكم .

«وَيُنْشِئُ السَّحابَ» (12) أي يبدأ السحاب ، ويقال : إذا بدأ «نشأ» .

«وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ» (13) إما أن يكون اسم ملك قد وكّل بالرّعد وإما أن يكون صوت سحاب واحتجّوا بآخر الكلام : «وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ» (13) يقال : ألا ترى أن العرب تقول :

جون هزيم رعده أجشّ «1»

ولا يكون هكذا إلّا الصوت .

«شَدِيدُ الْمِحالِ» (13) أي العقوبة «2» والمكر والنكال ، قال الأعشى :

فرع تبع يهتزّ فى غصن المجد غزير النّدى شديد المحال «3» إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنه لا يبالى

---

(1) : لم أجده فيما رجعت إليه من المظان.

(2) «المحال العقوبة» : كذا فى البخاري، قال ابن حجر هو قول أبى عبيدة أيضا (فتح الباري 8/ 281).

(3) : البيت الأول هو 38، والثاني هو 46 من القصيدة الأولى فى ديوانه، قال الطبري (13/ 75) : هكذا كان ينشده معمر بن المثنى فيما حدثت عن ابن المغيرة عنه، وأما الرواة بعده فإنهم ينشدونه :

فرع فرع يهتز فى غصن المجد كثير الندى عظيم المحال وفسر ذلك معمر بن المثنى، وزعم أنه عنى به العقوبة... والنكال، وهو فى السمط 907، والقرطبي 9/ 299، واللسان والتاج (محل).

(219/406)

غرام : هلاك وفى القرآن : «إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً» (25/ 65) أي هلاكا وقد فسرناه فى موضعه، وقال ذو الرّمّة :

[أبرّ على الخصوم فليس خصم ولا خصمان يغلبه جدالا

] «1» ولبس بين أقوام فكل أعدّ له الشّغازب والمحالا

[والشّغزبة الالتواء] .

«وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» (14) مجازه : والذين يدعون غيره من دونه ، أي يقصرون عنه . و«يَدْعُونَ» من الدعاء ، ومجاز «دُونِهِ» مجاز «عنه» قال :

أتوعدني وراء بنى رياح كذبت لتقصرنّ يداك دونى

«2» أي عنّى .

«لا يَسْتَجِيبُونَ» (14) مجازه : لا يجيبون ، وقال كعب : «3»

وداع دعا يا من يجيب إلى النّدى فلم يستجبه عند ذاك مجيب (83)

---

(1) : البيت الأول هو 75 ، والثاني هو 73 من القصيدة 57 فى ديوانه . والأول فى الأغانى 16/ 25 ، واللسان والتاج (خصم) . والثاني فى الطبري 13/ 75 ، والقرطبي 9/ 300 ، واللسان والتاج (شغزب) والشغازب : قال الأصمعى : الشغزبة : ضرب من الصراع ، وهو أن يدخل الرجل رجله بين رجلى صاحبه فيصرعه ، وقال بعضهم : الشغازب القول الشديد (شرح الديوان) .

(2) : البيت لجرير فى ديوانه (نشر الصاوى) ص 577 ، والطبري 13/ 78 ، 114 .

(3) «كعب» : هو كعب بن سعد الغنوي ، وقد مضت ترجمته .

«إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ» (15) مجازه: إن الذي يبسط كفّه ليقبض على الماء حتى يؤديه إلى فيه لا يتم له ذلك ولا تسقه أنامله «1» [أي تجمعه]، قال ضابىّ بن الحارث البرجمىّ:

فإنى وإيّاكم وشوقا إليكم كقابض ماء لم تسقه أنامله «2»

يقول: ليس فى يدى من ذلك شىء كما أنه ليس فى يد القابض على الماء شىء. «3»

وقال:

فأصبحت مما كان بينى وبينها من الودّ مثل القابض الماء باليد «4»

---

(1) «إلا كباسط... أنامله»: فى البخاري: كباسط كفيه إلى الماء ليقبض على الماء. وقال ابن حجر: هو كلام أبى عبيدة أيضا، قال فى قوله... إلخ وقال: تسقه بكسر المهملة وسكون القاف أي لم تجمعه (فتح الباري 8/ 382).

(2): فى الطبري 13/ 76، واللسان (وسق) وفتح الباري، وهو من سبعة أبيات فى الخزانة 4/ 80. [.....]

(3) «يقول . . . الماء شيء» هذا الكلام في اللسان (وسق) .

(4) : في الطبري 13/ 76 ، والقرطبي 9/ 301 .

(221/406)

«بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ» (15) أي بالعشيّ ، واحدها : أصل وواحد الأصل أصيل وهو ما بين العصر إلى مغرب الشمس ، «1» وقال أبو ذؤيب :

لعمرى لأنت البيت أكرم أهله وأقعد فى أفيائه بالأصائل (271)

وقال النّابغة :

وقفت فيها أصيلالا أسائلها عيّت جوابا وما بالرّبع من أحد «2»

أصيلال : تصغير آصال .

«فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً» (17) مجازه : فاعل من ربا يربو .

أي ينتفخ .

«أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ» (17) ، وهو ما تمتعت به ، قال [المشعث] :

تمتع يا مشعّث إنّ شيئا سبقت به الممات هو المتاع «3»

«كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ» (17) أي يمثّل الله الحق ويمثل الباطل .

---

(1) «بالعشي . . . الشمس» : أخذ الطبري هذا الكلام مع البيت الآتي لأبى ذؤيب (13/ 77) .

(2) : ديوانه من الستة . - واللسان (أصل) .

(3) : للمشعث العامري : يخاطب نفسه ، والبيت من كلمة فى معجم المرزباني 475 ، واللسان والتاج (متع) .

(222/406)

«فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً» (17) قال أبو عمرو [بن العلاء] : يقال : قد أجفأت القدر ، وذلك إذا غلت فانصبّ زبدها أو سكنت فلا يبقى منه شىء . »

«لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى » (18) استجبت لك واستجبتك سواء وهو أجبت ، و«الحسنى» هى كل خير من الجنة فما دونها ، أي لهم الحسنى .

«الْمِهادُ» (18) الفراش «2» والبساط .

«أُولُوا الْأَلْبابِ» (19) أي ذوو العقول ، واحدها لبّ [و أولو : واحدها ذو .]

«وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ» (23) أي يدفعون السيئة بالحسنة ،

---

(1) «قال . . . شىء» : روى الطبري (13/ 81) هذا الكلام عن أبى عبيدة ، وقال

:

وأما الجفاء فإنى حدثت عن أبى عبيدة . . . قال: قال أبو عمرو بن العلاء . . . إلخ.

وقال القرطبي (9/ 305) : قال أبو عبيدة قال أبو عمرو . . . إلخ، وقال: وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأها جفالا ، قال أبو عبيدة يقال: أجفلت القدر إذا قذفت بزبدها ، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته. وتفسير أبى عبيدة هذا فى البخاري بتصرف.

وروى ابن حجر كلامه بلفظه، ونبه على أن ما عند البخاري منقول عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 282) .

(2) «المهاد الفراش» : كذا فى البخاري، قال ابن حجر: هو قول أبى عبيدة أيضا (فتح الباري 8/ 282) .

(223/406)

[درأته عنى أي دفعته.] «1»

«عُقْبَى الدَّار» (24) عاقبة الدار.

«سَلامٌ عَلَيْكُمْ» (24) مجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير كقولك:

يقولون سلام عليكم.

«وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ» (26) إلّا متعة وشىء طفيف حقير.

«مَنْ أَنابَ» (27) من تاب.

«طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ» (29) أي منقلب.

«خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ» (30) أي مضت قرون من قبلها وملل.

«وَإِلَيْهِ مَتابِ» (30) مصدر تبت إليه، وتوبتى إليه سواء.

---

(1) «ويدرءون (ص 329) . . . دفعته» : كذا فى البخاري بلفظه. قال ابن حجر: هو قول أبى عبيدة أيضا (فتح الباري 8/ 292).

(224/406)

«وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى» (31) مجازه مجاز المكفوف عن خبره، ثم استؤنف فقال: «بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً» (31) فمجازه: لو سيّرت به الجبال لسارت، أو قطّعت به الأرض لتقطعت، ولو كلّم به الموتى لنشرت، والعرب قد تفعل مثل هذا لعلم المستمع به استغناء عنه واستخفافا فى كلامهم، قال [الأخطل]:

خلا أنّ حيّا من قريش تفضلوا على الناس أو أنّ الأكارم نهشلا «1»

وهو آخر قصيدة، ونصبه وكفّ عن خبره [واختصره] وقال [عبد مناف ابن ربع الهذلىّ

:

[الطّعن شغشغة والضّرب هيقعة ضرب المعوّل تحت الأيمة العضدا

وللقسىّ أزاميل وغمغمة حس الجنوب تسوق الماء والبردا]

حتى إذا اسلكوهم فى قتائدة شلّا كما تطرد الجمّالة الشردا (46)

وهو آخر قصيدة، وكفّ عن خبره. [و قوله شغشغة: أي يدخله ويخرجه والهيقعة أن يضرب بالحدّ من فوق والمعوّل: صاحب العالة وهى ظلّة يتخذها رعاة البهم بالحجاز إذا خافت البرد على بهمها. فيقول: فيعتضد العضد من الشجر

(1) : ديوانه 372. - وابن يعيش 1/ 128، والخزانة 2/ 385.

(225/406)

لبهمه أي يقطعه والدّيمة المطر الضعيف الدائم والأزاميل: الأصوات واحدها أزمل وجمعها أزامل زاد الياء اضطرارا والغماغم: الأصوات التي لم تفهم حسّ الجنوب: صوتها قتائدة طريق. أسلكوهم وسلكوهم واحد].

«أَ فَلَمْ يَيْأَسِ «1» الَّذِينَ آمَنُوا» (31) مجازه: ألم يعلم ويتبين، قال سحيم بن وثيل اليربوعىّ:

أقول لهم بالشّعب إذ يأسروننى «2» ألم تيئسوا أنّى ابن فارس زهدم «3»

«قارِعَةٌ» (31) أي داهية مهلكة، ويقال: قرعت عظمه، أي صدعته.

---

(1) (فى ص 323) «أ فلم ييأس... رغيب»: روى ابن حجر (فتح الباري 8/ 282) كلام أبى عبيدة هذا أثناء شرحه ما عند البخاري، ودل على أنه أخذ عن أبى عبيدة.

(2) «ألم يعلم... يأسروننى»: قال الطبري (13/ 90): كان بعض أهل البصرة يزعم أن معناه: ألم يعلم ويتبين، ويستشهد لفيله ذلك ببيت سحيم... ويروى: ييسروننى، فمن رواه ييسروننى فإنه أراد يقتسموننى.

(3): فى الطبري 13/ 90، والقرطبي 9/ 320، واللسان والتاج (يئس)، وشواهد الكشاف 268. وانظر الاختلاف فى عزو البيت فى اللسان والتاج «يئس» و«زهدم» زهدم: فرس لعوف جد سحيم وانظر تاج العروس «يئس».

«فَأَمْلَيْتُ» (32) أي أطلت لهم، ومنه الملىّ والملاوة من الدهر، ومنه تمليت حينا،

ويقال: لليل والنهار الملوان لطولهما، وقال ابن مقبل:

ألا يا ديار الحيّ بالسّبعان ألحّ عليها بالبلى الملوان (129)

ويقال: للخرق الواسع من الأرض «1» ملا مقصور، «2» قال:

حلا لا تخطّاه العيون رغيب «3»

وقال:

أمضى الملا بالشاحب المتبدّل «4»

«أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ» (33) أي دائم قوام عدل.

«وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ»

(36) أي أشدّ.

«لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى» (18)

ثم قال: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ» (35) مجازه مجاز المكفوف عن خبره،

---

(1) «أطلت... الأرض»: أخذ الطبري (13/ 93) هذا الكلام برمته،

(2) «ملا مقصور»: قال فى التاج: غير مهموز، يكتب بالألف عند البصريين، وغيرهم يكتبه بالياء (ملا). [.....]

(3): فى فتح الباري 8/ 282.

(4): هذا عجز بيت للشاعر الملقب بتأبط شرا، وهو فى اللسان والتاج (ملا) وصدره

:

ولكننى أروى من الخمر هامتى

(227/406)

والعرب تفعل ذلك فى كلامها ، وله موضع آخر مجازه : للذين استجابوا لربهم الحسنى مثل الجنة ، موصول صفة لها على الكلام الأول .

«حُكْماً عَرَبِيًّا» (37) «1» أي دينا عربيا أنزل على رجل عربى .

«يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ» (39) محوت تمحو ، وتمحى : لغة .

«وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ» (40) ألف «إما» مكسورة لأنه فى موضع أحد الأمرين .

«نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها» (41) مجازه : ننقص من فى الأرض ومن فى نواحيها من العلماء والعباد ، وفى آية أخرى : «وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ» (12/ 82) مجازه : وسل من فى القرية .

«لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ» (41) أي لا رادّ له ولا مغيّر له عن الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن ـ 1 صـ 320. 334 ﴾

---

(1) «حكما عربيا» : قال الطبري (13/ 96) : يقول تعالى ذكره : وكما أنزلنا عليك الكتاب يا محمد فأنكره بعض الأحزاب ، كذلك أنزلنا الحكم والدين عربيا وجعل ذلك عربيا ووصفه به لأنه أنزل على محمد صلّى اللّه عليه وسلم وهو عربى ينسب الدين إليه إذ كان عليه أنزل .

(228/406)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الرعد»

[سورة الرعد (13) : الآيات 5 الى 6]

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (5) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (6)

قوله تعالى : أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ [5] . وجديد هاهنا استعارة . لأن أصله هاهنا مأخوذ

من الجدّ ، وهو القطع . يقال : قد جدّ الثوب ، فهو جديد بمعنى مجدود . إذا قطع من منسجه ، أو قطع لاستعمال لابسه . والمراد – واللّه أعلم – إنا لفى خلق جديد ، أي قد فرغ من استئنافه ، وأعيد إلى موضع ثوابه وعقابه ، فصار كالثوب الذي قطع «1» منسجه بعد الفراغ من عمله .

وقوله سبحانه وتعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ «2» بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ [6] . وهذه استعارة والمراد بها مضىّ المثلات – وهى العقوبات – للأمم السالفة قبلهم ، وتقدّمها أمامهم . وقولهم : خلت الدار . أي مضى سكانها عنها . وخلوا هم . أي مضوا عن الدار وتركوها . وقولهم : القرون الخالية . أي الماضية .

والعقوبات على الحقيقة لم تمض «3» ، وإنما مضى المعاقبون بها . فكأنهم ذكّروا بالعقوبات الواقعة قبلهم ليعتبروا بها .

---

(1) هكذا بالأصل ولعلها : قطع من منسجه .

(2) بالأصل : «يستعجلونك» بدون واو . وقد تركها الناسخ جريا على عادته . . .

[. . . . .]

(3) فى الأصل : لم يمض وهو تحريف من الناسخ . والعقوبات هى المثلات التي قال اللّه فيها إنها قد خلت من قبلهم .

[سورة الرعد (13) : آية 8]

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (8)

وقوله سبحانه: اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى، وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ [8]. وهذه استعارة عجيبة. لأن حقيقة الغيض إنما يوصف بها الماء دون غيره.

يقال: غاض. الماء وغضته «1» ولكن النطفة لما كانت تسمّى ماء، جاز أن توصف الأرحام بأنها تغيضها فى قرارتها، وتشتمل على نفاعاتها «2». فيكون ما غاضته «3» من ذلك الماء سببا لزيادة، بأن يصير مضغة، ثم علقة ثم خلقة مصوّرة. فذلك معنى قوله: وَما تَزْدادُ.

وقيل أيضا: معنى ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ. أي ما تنقص بإسقاط العلق، وإخراج الخلق.

ومعنى: ما تَزْدادُ أي ما تلده لتمام، وتؤدى خلقه على كمال. فيكون الغيض هاهنا عبارة عن النقصان، والازدياد عبارة عن التمام.

[سورة الرعد (13) : آية 13]

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (13)

وقوله سبحانه: وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ [13].

وهذه استعارة . لأن التسبيح فى الأصل تنزيه اللّه سبحانه عن شبه المخلوقات ، وتبرئته من مدانس الأعمال ، وقبائح الأفعال . وهذا لا يتأتى من الرعد ، الذي هو اصكاك أجرام السحاب بعضها ببعض . فالمراد - واللّه أعلم - أن أصوات الرعود تقوى بها الدلالة على عظيم قدرة اللّه سبحانه ، وبعده عن شبه الخليقة المقدّرة ، وصفات البريّة المدّبرة . إذ كان الرعد كما قلنا إنما تغلظ أصواته ، وتعظم هزّاته على حسب تعاظم صفحات السحاب الممتدة ، وتراكم الغيوم المطبقة . وهى مع هذه الأحوال ، من ثقل أجرامها ، وتكاثف غمامها معلقة بمناطات الهواء الرقيق ، لولا دعائم القدرة وسماكها ، وعلائق الجبرية ومساكها لما حمل عشر معشارها ، ولا استقل ببعض أجزائها .

---

(1) غاض الماء : نقص . وغضته أنا أي نقصته . .

(2) النفاعات : جمع نفاعة وهو الشيء الذي ينتفع به .

(3) فى الأصل ما غضته . وهو تحريف من الناسخ .

ومن عجيب أحواله أنه أيضا مع ما ذكرنا من تثاقل أردافه ، وتعاظل «1» التفافه ينفشّ «2» انفشاش الهباء المتداعى ، والغثاء المتلاشى . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار .

ومعنى تسبيح الرعد بحمده سبحانه : دلالته على أفعاله التي يستحق بها الحمد ، كما يقول القائل : هذه الدار تنطق بفناء أهلها . أي تدل على ذلك بخلاء ربوعها ، وتهدّم عروشها .

وقد يجوز أن يكون معنى : وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ أن الرعد يضطر الناس إلى تسبيح اللّه سبحانه عند سماعه ، فحسن وصفه بالتسبيح لأجل ذلك ، إذ كان هو السبب فيه .

وهذا معروف فى كلامهم .

[سورة الرعد (13) : آية 15]

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (15)

وقوله تعالى وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ [15] . وهذه استعارة . لأن أصل السجود فى اللغة الخضوع والتذلل .

إمّا باللسان الناطق عن الجملة أو بآثار الصنعة وعجائب الخلقة . ثم نقل فصار اسما لهذا العمل المخصوص الذي هو من أركان الصلاة ، لأنه يدل على تذلّل الساجد لخالقه ، بتطامن شخصه ، وانحناء ظهره . وقد ذكر فى بعض الأخبار أن جدنا جعفر «3» بن محمد عليهما السلام سئل عن العلة فيما كلف اللّه سبحانه من أعمال الصلاة وسائر العبادات ، فقال : أراد اللّه

---

(1) التعاظل : هو تكاثر الشيء وركوب بعضه فوق بعض . ومنه المعاظلة فى الكلام أي تعقيده وموالاة بعضه فوق بعض .

(2) انفش: أي سكن ولان بعد شدة.

(3) جعفر بن محمد هو أبو عبد اللّه جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين رضى اللّه عنهم. وهو سادس الأئمة الاثني عشر. وكان واسع العلم، أخذ عنه أبو حنيفة ومالك وجابر بن حيان.

ولقب بالصادق لأنه لم يعهد عليه كذبة قط. توفى سنة 148 ه بالمدينة.

سبحانه بذلك إذلال الجبارين. فإذا تمهد ما ذكرنا كان فى ذكر «الظلال» فائدة حسنة، وهو أن الظل الذي هو فى سجود الشخص وهو غير قائم بنفسه، إذا ظهرت فيه أعلام الخضوع للخالق تعالى بما فيه من دلائل الحكمة وعجائب الصنعة، كان ذلك أعجب من ظهور هذه الحال فى البنية القائمة بنفسها، والمعروفة بشخصها.

[سورة الرعد (13): آية 17]

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (17)

وقوله سبحانه : كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً ، وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ [17] .

وهذه استعارة . والمراد بضرب الأمثال - والله أعلم - معنيان : أحدهما أن يكون تعالى أراد بضربها تسييرها «1» فى البلاد ، وإدارتها على ألسنة الناس . من قولهم : ضرب فلان فى الأرض . إذا توغل فيها وأبعد فى أقاصيها . ويقوم قوله تعالى : يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ مقام قوله ضرب بها فى البلاد .

والمعنى الآخر فى ضرب المثل أن يكون المراد به نصبه للناس بالشهرة ، لتستدل عليه خواطرهم ، كما تستدل على الشيء المنصوب نواظرهم . وذلك مأخوذ من قولهم : ضربت الخباء . إذا نصبته ، وأثبتّ طنبه «2» ، وأقمت عمده . ويكون قوله سبحانه : كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ [17] . إلى هذا الوجه . أي ينصب منارهما ، ويوضح أعلامهما ، ليعرف المكلفون الحق بعلاماته فيقصدوه ، ويعرفوا الباطل فيجتنبوه .

[سورة الرعد (13) : آية 33]

أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33)

وقوله سبحانه : أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ [33] وهذه استعارة .

(1) فى الأصل: تسيرها وهو تحريف فى النسخ.

(2) الطنب: حبل طويل يشد به سرادق البيت. والجمع أطناب.

(232/406)

والمراد به أنه تعالى محص على كل نفس ما كسبت، ليجازيها به. وشاهد ذلك قوله سبحانه: وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً «1». أي ما دمت له مطالبا، ولأمره مراعيا، لا تمهله للحيلة، ولا تنظره للغيلة «2». وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير.

وإذا لم يصح إطلاق صفة القيام على اللّه سبحانه حقيقة، فإن المراد بها قيام إحصائه على كل نفس بما كسبت، ليطالبها به، ويجازيها عنه بحسبه. والقيام والدوام هاهنا بمعنى واحد. والماء الدائم هو القائم الذي لا يجرى.

[سورة الرعد (13): آية 41]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (41)

وقوله سبحانه: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها [41].

وهذه استعارة . وقد اختلف الناس فى المراد بها ، فقال قوم : معنى ذلك نقصان أرض المشركين ، بفتحها على المسلمين . وقال آخرون : المراد بنقصانها : موت أهلها ، وقيل موت علمائها .

وعندى فى ذلك قول آخر ، وهو أن يكون المراد بنقص الأرض - والله أعلم - موت كرامها . وتكون الأطراف هاهنا جمع طرف . لا جمع طرف ، والطّرف هو الشيء الكريم .

ومنه سمّى الفرس طرفا ، إذ كان كريما . وعلى ذلك قول أبى الهندي «3» الرياحي :

شربنا شربة من ذات عرق بأطراف الزجاج من العصير

أي بكرائم الزجاج . ولم يمض فى هذا القول لأحد . هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 175 . 179 ﴾

---

(1) سورة آل عمران الآية رقم 75 .

(2) الغيلة بكسر الغين : الخديعة والاحتيال .

(3) فى الأصل : أبو الهند وهو تحريف من الناسخ . واسمه عبد المؤمن بن عبد القدوس ، وهو من بنى زيد بن رياح . وقد ترجم له ابن قتيبة فى «الشعر والشعراء» ص 663 من طبعة عيسى الحلبي بتحقيق الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر ، وذكر صاحب «العقد

الفريد» خبرا له وطرفا من أقواله ونوادر شرابه .

جزء 6 ص 342 .

(233/406)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الرعد

فى الآية الأولى من سورة الرعد يخاطب الله نبيه قائلا: " والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون" ! هل هناك عذر للكثرة التى أعرضت عن الحق ورفضت الانقياد إليه ؟ لا . فلنفرض أن وحيا لم ينزل ، أليس فى إبداع هذا العالم ما يشهد لصاحبه بالألوهية والعظمة ؟ إن النظر السديد فى آفاق السموات والأرض شاهد صدق على أن جحد الألوهية غباء ، وعلى أن الأصفار التى اعتبرت شركاء خرافة مزدراة . . . !

ونترك قليلا الآيات التى وصفت الكون وكشفت آيات الله فيه ، ونتابع التأمل فى هذه الآية "والذي أنزل إليك من ربك الحق" فنرى صلة لها بآية أخرى من قلب السورة "أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى " إن هؤلاء العالمين بحقائق الوحى هم الفضلاء الذين

استقامت سيرتهم بعدما استنارت سريرتهم ، وقد أحصت الآيات . بعد ذلك . صفاتهم بدءا من قوله تعالى: " إنما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل " وقد تضمنت الآيات هنا عشر وصايا ، من استجمعها كان أهلا للجزاء الأوفى " أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم " . وأولى هذه الوصايا : العقل الناضج ، وثانيتها : الوفاء بالعهد الأعظم المأخوذ على الفطرة البشرية أن تتجه إلى ربها . . ولا تشرك به شيئا . . . وتكرر الحديث عن الوحى النازل ، وعن قيام الرسول بتبليغه فى قوله تعالى بعد ذلك: "كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب" .

وقد قاوم الأميون من العرب هذه الرسالة مقاومة شديدة ، وكان محور عنادهم طلب خارق من خوارق العادات يشهد بصدق الرسول . وقد بينت آيات أخرى أنهم لو أجيبوا إلى مقترحاتهم ما آمنوا ولحاق بهم الهلاك . أما فى هذه السورة قد صيغ الإنكار والرد فى

عدة صور: 1 - " ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد " . 2 - " ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب " . 3 - ويمضون فى كفرانهم ليصلوا إلى هذه النتيجة "ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب " . والواقع أن فاقد البصر فى الكون لا ينتظر منه إيمان سليم ، ومن لم يحسن النظر فى نفسه وفى أجهزة جسمه وعقله لا يتوقع منه أن يعرف الله معرفة قيمة حتى لو مشى فى قوافل المؤمنين مع جمهور المقلدين . . ! ! وقد خوطب الرسول. صلى الله عليه وسلم. بتلاوة الوحى فى سور كثيرة " اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة . . . " . " وأمرت أن أكون من المسلمين * وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه " . وجاء فى هذه السورة " . . . لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك " . التلاوة المعنية هنا ليست قراءة مجردة ، إنها تفصيل منهج ، وخطة عمل ، وإنذار مبين ! وهى أساس ما ينبنى عليها من تزكية تقدمها برامج التربية المختلفة ، وتلاوة القرآن صيانة لأحرفه مما أصاب كتبا سابقة ، وتقديم التوجيه الإلهى المصفى إلى الأمة العربية لتنهض برسالتها ، فإن وقت نجت ، وإلا فالعقاب لها بالمرصاد: "ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد " . والرأى السائد أن سورة الرعد مدنية نزلت بعد سورة محمد ،

والذى أميل إليه أنها مكية، وأسلوبها يرجح ما أرى، لاسيما والمشركون يلحون فيها على طلب معجزة حسية مثل ما حكت سورة الأنعام ويونس والإسراء . . . إلخ.

(235/406)

قلنا: إن الآية الأولى جاء فيها قوله تعالى: والذي أنزل إليك من ربك الحق" وفى أواخر السورة نقرأ قوله تعالى: والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب" . فى هذه الآية نبوءة تحققت. فإن الإسلام عندما قرع أبواب مصر والشام، سرعان ما هوت إليه القلوب، ودخل النصارى فى دين الله أفواجا، واعتنقوه، وصاروا حملته وحماته. ومعروف أن بيت المال خرب لسقوط الجزية بعدما آمن الناس حتى اضطر الوالى فى مصر إلى استبقائها على من أسلم! لولا أن عمر بن عبد العزيز كتب له: "ويحك، إن محمدا بعث هاديا ولم يبعث جابيا، ضع الجزية عمن أسلم" نعم ولو خرب بيت المال. . ! ! ونصارى مصر والشام وسائر الأمم الأخرى التى شرحت بالإسلام صدرا أضحت عربية بالتجنس والدين، فالتعريب مورد مفتوح ينمو به الكيان العربى ويتجدد، وفيهم تقال الآية: " وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا

واق" . وكلمة الحكم تعنى السلطة السياسية ، والحكمة القرآنية على سواء . وقد انتشر الإسلام فى أطراف الجزيرة قبل أن يدخله أهل مكة الذين بقوا على وثنيتهم إلى عهد متأخر ، وهذا معنى قوله تعالى: "أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب" . القرآن دليل ناطق يقود إلى الله ، والكون دليل صامت يعزف به . وكلا الدليلين يحتاج إلى يقظة العقل ودقة الشعور ، وإلا فالغفلة والبلادة لا تجيئان بخير أبدا . ولذلك يكثر فى القرآن الكريم قوله تعالى: "أفلا تعقلون" ؟ "أفلا تذكرون" ؟ . وفى إيقاظ الحس النائم نقرأ الآية الكريمة "وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" . ألا يستدعى التأمل أن ترى فى قطعة واحدة من الأرض شجرة

عنب وشجرة ليمون وشجرة حنظل وشجرة شوك تسقى جميعا بماء واحد ، ويختلف الجنى والمذاق واللون والأثر ؟ . ألا يستدعى التأمل أن ترى الدودة تأكل من ورقة التوت فتضع حريرا ؟ وتأكل منه النحلة فتضع عسلا ؟ وتأكل منه الشاة فتضع بعرا ؟ ؟ .

إن الإرادة العليا نوعت الأنواع ، وصنفت الأصناف فى فجاج الأرض وآفاق السماء على نحو مثير ، ومع ذلك يجىء امرؤ ملحد فيقول ، لا إله ! ! فماذا إذا ؟ ويجىء آخر فيقول للرسول: لا أومن حتى تنسف هذا الجبل وتنشىء مكانه بستانا لى ! ! كأن رب الكون يستجيب لعبثه ! . ويتحدث القرآن عن عظمة الخالق فى تناسل الأحياء من إنسان وحيوان وطير وزواحف ، إنها ألوف مؤلفة فى البر والبحر والجو ، إنها " مليارات " تتلاقح وتتكاثر ، وتمر أجنتها بمراحل مكتوبة محسوبة ، فما تنخرم سنة ، ولا يضطرب نظام " الله يعلم ما تحمل كل أنثى " فى الأجواء أو الغابات أو الجحور أو الأسرة " الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال" وفاعل هذا كله هو الذى رفع السموات ، ما يشغله شأن عن شأن ، ورصعها بالنجوم فما يسقط من مكانه أو يزل عن مداره نجم ! . وهناك حفظة للإنسان تحميه الغوائل العارضة بالليل والنهار ، ترى هل عناصر المناعة التى تدافع الجراثيم الغازية من آثار هذه النعمة ؟ إن هذه الحفظة من أوامر الله على كل حاك . . وتمضى سورة الرعد فى شرح مظاهر القدرة ، وسابغ الفضل على نحو لا مثيل له فى كتاب مضى أو بقى ، ثم ترسل هذه الأسئلة مشفوعة بأجوبتها الفريدة " قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله

خالق كل شيء وهو الواحد القهار" . إن هذه السورة بدأت بالحديث عن الكون ودلالاته على الله سبحانه ، ثم أفاضت فى موقف الإنسان من

القرآن الذى شرح هذه الدلالات ونبه إليها . وقد رأيت أن أؤخر الكلام عن الكون ، وأبتدئ بالقرآن ، لأنى راغب فى إطالة الحديث عن الكون ، فالمسلمون يعيشون غرباء فيه ، وهم أبعد الناس عن علومه ، وما يخدم القرآن بشىء كما يخدم بدراسة العالم وما فيه . . ! ! قلت فى نفسى لو أنى على بعد مائة ميل من كوكب الأرض فماذا أرى وماذا اسمع ؟ ؟ . هل أرى سحب الأدخنة والأتربة التى لوثت الجو وعكرت صفاءه ؟ . هل أسمع عاصفة الضوضاء التى تنبعث من المركبات والمصانع والتى غطى ضجيجها كل شيىء ؟ أعرف أن لهذا الكوكب أجلا مسمى ، فهل هو يستعجله ويسعى إلى حتفه بظلفه ؟ .

ثم ماذا نحن فى هذا الكون الكبير ؟ قرأت أن علماء الفلك اكتشفوا ما يعتقدون أنه ثقب أسود فى مجرة نائية أكبر مائة مرة من أى ثقب أسود تم اكتشافه من قبل ! . وذكر راديو صوت أمريكا أن العلماء يعتقدون أن هذا الثقب الهائل يضم ألف مليون نجم ! وأن تجمع النجوم والمواد الأخرى فيه يشكل مركزا كثيفا للجاذبية ، يبلغ من القوة أنه لا يفلت منه شئ حتى الضوء . . . ! . قلت: إذا كان هذا ثقبا فى جانب من الكون فما يكون الكون نفسه ؟ يبدو أن ما بين السموات والأرض أعجب منها . . ! . وانفتح أمامى أفق عريض عامر بالدلائل على عظمة الله وعلو شأنه: "الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون" . قد أرى حولى جماهير من الناس ، وقد أرى محيط الأرض وأنا داخل قمر صناعى . لكن القصة ليست رؤية إنسان من بين مليارات الأناسى ، إن هذا الإنسان وحده كون صغير ! على جلده مائة ألف شجرة. أعنى مائة ألف شعرة. تنمو وتنقصف: ليعود مكانها مثلها ! . لعل الشعر أهون ما فى الإنسان ، فلننظر إلى ألوف مؤلفة من كرات الدم تسبح فى عروقه ، إنها كرات متجددة ، لها مصانع تنشئها وترسلها حسب الحاجة . ولننظر إلى شبكة الأعصاب المنتشرة فى الجسم ، إنها تتلقى الأوامر ليلا ونهار ، من المخ الذى عجز البشر عن معرفة تلافيفه المعقدة ، ووظائفها الخطيرة . من فجر الإنسانية إلى الآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، يدبر ربنا شئون هذه الأجساد ،

ومايعرض لها من بؤس ونعمى " وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا . . " ! ! إن الكون كبير كما كشف العلم ، ولكن الله أكبر كما يجب أن يشعر العلماء . فى مجتمعاتنا ـ نحن البشر ـ نرى الساسة الكبار مثلا مشغولين بالأمور الكبيرة غافلين عن الصغائر ، لكن رب العالمين لا يشغله شأن عن شأن ، فهو يسمع مواء هرة معذبة ، ويدخل من عذبها النار ، كما يسمع دعاء

جماهير بائسة ويجزى الظالمين بما كانوا يعملون . إنه يسمع سقوط ورقة من شجرة ، ويرى تجلط الدم فى عرق ، كما يرى ويسمع قصف الرعد فى السماء ، وأفول نجم فى الفضاء " سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 187 . 191 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/407)

الجزء السابع بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الرعد

وحتى الآية ﴿ 6 ﴾ من نفس السورة

(4/407)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/407)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الرعد

أقول : وجه وضعها بعد سورة يوسف زيادة على ما تقدم بعد ما فكرت فيه طائفة من الزمان: أنه سبحانه قال في آخر تلك: (وكأَين مِن آية في السموات والأَرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) فذكر الآيات السمائية والأرضية مجملة ، ثم فصل في مطلع هذه السورة

فقوله (اللَهُ الَذي رَفَعَ السموات بغيرِ عمد ترونها ثُم استوى على العرش وسخَّرَ الشمسَ والقمر كلٌ يَجري إلى أَجلٍ مُسمى يدبر الأَمر يفصل الآيات لعلَكُم بلقاءِ ربكم توقنون وهوَ الذي مدَّ الأَرض وجعل فيها رواسي وأَنهاراً ومِن كُلِ الثمرات جعَلَ فيها زوجينِ اثنَينِ يغشى الليلُ والنَهار إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لقومٍ يتفكرون وفي الأَرض قطع متجاورات وجناتٍ مِن أَعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماءٍ واحد ونُفَضِل بعضها على بعض في الأَكُل إِنَ في ذَلِكَ لآياتٍ لقومٍ يعقلون) تفصيل الآيات الأرضية هذا مع اختتام سورة يوسف بوصف الكتاب، ووصفه بالحق، وافتتاح هذه بمثل ذلك، وهو من تشابه الأطراف.

انتهى انتهى. اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 109.110﴾

(6/407)

قوله تعالى ﴿ المر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

﴿ بسم الله ﴾ الحق الذي كل ما عداه باطل ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم بالرغبة والرهبة بعموم رحمته ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص من شاء بما يرضاه عظيم الوهبة ﴿ المر ﴾ .

لما ختم التي قبلها بالدليل على حقية القرآن وأنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، بعد أن أشار إلى كثرة ما يحسونه من آياته في السماوات والأرض مع الإعراض ، ابتدأ هذه بذلك على طريق اللف والنشر المشوش لأنه أفصح للبداءة في نشره بالأقرب فالأقرب فقال : ﴿ تلك ﴾ أي الأنباء المتلوة والأقاصيص المجلوة المفصلة بدر المعاني وبديع الحكم وثابت القواعد والمباني العالية المراتب ﴿ آيات ﴾ والآية : الدلالة العجيبة في التأدية إلى المعرفة ﴿ الكتاب ﴾ المنزل إليك ﴿ و ﴾ جميع ﴿ الذي ﴾ .

(7/407)

ولما كان تحقق أن هذا الكتاب من عند الملك أمراً لا يطرقه مريه لما له من الإعجاز ، وكذا ما تبعه من بيانه بالسنة لما له من الحق الذي لا يخف على كل عاقل ، وكان ما تحقق أنه كذلك يعلم أن الآتي به لا يكون إلا عظيماً ، بني للمفعول قوله : ﴿ أنزل إليك ﴾ كائن ﴿ من ربك ﴾ فثبت حينئذ قطعاً أنه هو ﴿ الحق ﴾ أي الموضوع كل شيء منه في موضعه على

ما تدعو إليه الحكمة ، الواضح الذي لا يتخلف شيء منه عن مطابقة الواقع من بعث ولا غيره ، فهو أبعد شيء عن قولهم : إن وعده بالبعث سحر ، فوجب لثبوت حقيته على كل من اتصف بالعقل أن يؤمن به ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي الآنسين بأنفسهم المضطربين في آرائهم ، ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي لا يتجدد منهم إيمان أصلاً بأنه الحق في نفسه وأنه من عند الله ، بل يقولون : إنه من عند محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وإنه تخييل ليست معاينة - كما قلنا ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بؤمنين ﴾ [يوسف : 103] فليس هدى لهم كاملاً ولا رحمة تامة ، هذا التقدير محتمل ، ولكن الذي يدل عليه ظاهر قوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق ﴾ [الرعد : 19] أن ﴿ الذي ﴾ مبتدأ ، و ﴿ من ربك ﴾ صلة ﴿ أنزل ﴾ والخبر ﴿ الحق ﴾ والمقصود من هذه السورة هذه الآية ، وهي وصف المنزل بأنه الحق وإقامة الدليل عليه ، وذلك لأنه لما تم وصف الكتاب بأنه حكيم محكم مفصل مبين ، عطف الكلام إلى تفصيل أول سورة البقرة ، والإيماء إلى أنه حان اجتناء الثمرة في هذه السورة والتي بعدها ، ويلتحم بذلك وصف المصدقين بذلك - كما ستقف عليه .

وقال الإمام أبو جعفر بن زبير رحمه الله في برهانه : هذه السورة تفصيل لمجمل قوله سبحانه في خاتمة سورة يوسف عليه السلام ﴿ وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون أفامنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾

[يوسف : 105-106-107-108] فبيان آي السماوات في قوله ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ وبيان آي الأرض في قوله : ﴿ وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ فهذه آي السماوات والأرض ، وقد زيدت بياناً في مواضع ، ثم في قوله تعالى : ﴿ يغشى الّيل النهار ﴾ ما يكون من الآيات عنهن ، لأن الظلمة عن جرم الأرض ، والضياء عن نور الشمس وهي سماوية ، ثم زاد تعالى آيات الأرض بياناً وتفصيلاً في قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ [الرعد : 4] إلى قوله : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ [الرعد : 4] .

(9/407)

ولما كان إخراج الثمر بالماء النازل من السماء من أعظم آية ، ودليلاً واضحاً على صحة المعاد ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى ﴿كذلك نخرج الموتى﴾ [الأعراف : 57] وكان قد ورد هنا أعظم جهة في الاعتبار من إخراجها مختلفات في الطعوم والألوان والروائح مع اتحاد المادة " يسقى " بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل لذلك ما أعقب قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ الآية بقوله ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا ترابا أئنّا لفي خلق جديد ﴾ ثم بين سبحانه الصنف القائل بهذا وأنهم الكافرون أهل الخلود في النار ، ثم أعقب ذلك ببيان عظيم حلمه وعفوه فقال ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾ [الرعد : 6] الآية ، ثم أتبع ذلك بما يشعر بالجري على السوابق في قوله ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ [الرعد : 7] ثم بين عظيم ملكه واطلاعه على دقائق ما أوجده من جليل صنعه واقتداره فقال ﴿ الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الأرحام ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ وما لكم من دونه من وال ﴾ ثم خوف عباده وأنذرهم ورغبهم ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ [الرعد : 12] ، الآيات وكل ذلك راجع إلى ما أودع سبحانه في السماوات والأرض وما بينهما من الآيات ، وفي ذلك أكثر آي السورة ونبه تعالى على الآية الكبرى والمعجزة العظمى فقال : ﴿ ولو أن قراناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ﴾ [الرعد : 31] والمراد : لكان هذا القرآن ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء : 82] والتنبيه بعظيم

هذه الآيات مناسب لمقتضى السورة من التنبيه بما أودع تعالى من الآيات في السماوات والأرض ، وكأنه جل وتعالى لما بين لهم عظيم ما أودع من السماوات والأرض وما بينهما من الآيات وبسط ذلك وأوضحه ، أردف ذلك بآية أخرى جامعة للآيات ومتسعة للاعتبارات فقال تعالى

(10/407)

﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ [الرعد : 31] فهو من نحو ﴿ إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم ﴾ [الجاثية : 3] أي لو فكرتم في آيات السماوات والأرض لأقلتكم وكفتكم في بيان الطريق إليه ولو فكرتم في أنفسكم وما أودع تعالى فيكم من العجائب لاكتفيتم " من عرف نفسه عرف ربه " فمن قبيل هذا الضرب من الاعتبار هو الواقع في سورة الرعد من بسط آيات السماوات والأرض ، ثم ذكر القرآن وما يحتمل ، فهذه إشارة إلى ما تضمنت هذه السورة الجليلة من بسط الآيات المودعة في الأرضين والسماوات .

(11/407)

وأما قوله تعالى ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [يوسف : 106] فقد أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله لا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [الرعد : 28] فالذين تطمئن قلوبهم بذكر الله هم أولو الألباب المتذكرون التامو الإيمان وهم القليل المشار إليهم في قوله تعالى ﴿ وقليل ما هم ﴾ [ص : 24] والمقول فيهم ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ [الأنفال : 4] ودون هؤلاء طوائف من المؤمنين ليسوا في درجاتهم ولا بلغوا يقينهم ، وإليهم الإشارة بقوله : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [يوسف : 106] قال عليه الصلاة والسلام " الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل " فهذا بيان ما أجمل في قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ وأما قوله تعالى : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ﴾ [يوسف : 107] فما عجل لهم من ذلك في قوله : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله ﴾ القاطع دابرهم ، والمستأصل لأمرهم ، وأما قوله تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة ﴾ [يوسف : 108] الآية ، فقد أوضحت آي سورة الرعد سبيله عليه السلام بينه بما تحملته من عظيم التنبيه وبسط الدلائل بما في السماوات والأرض وما بينهما وما في العالم بجملته وما تحمله الكتاب المبين - كما تقدم ، ثم قد تعرضت السورة لبيان

جليّ سالكي تلك السبيل الواضحة المنجية فقال تعالى : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ [الرعد : 20] إلى آخر ما حلاهم به أخذاً وتركاً ، ثم عاد الكلام بعد إلى ما فيه من التنبيه والبسط وتقريع الكفار وتوبيخهم وتسليته عليه السلام في أمرهم ﴿ إنما أنت منذر ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ [الرعد : 38] ، ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ [الرعد : 40] ﴿ ويقول الذين

(12/407)

كفروا لست مرسلاً ﴾ [الرعد : 43] ، والسورة بجملتها غير حائدة عن تلك الأغراض المجملة في الآيات الأربع المذكورات من آخر سورة يوسف ، ومعظم السورة وغالب آيها في التنبيه وبسط الدلالات والتذكير بعظيم ما أودعت من الآيات ؛ ولما كان هذا شأنها أعقبت بمفتتح سورة إبراهيم عليه السلام - انتهى .

فلما أثبت سبحانه لهذا الكتاب أنه المختص بكونه حقاً فثبت أنه أعظم الأدلة والآيات ، شرع يذكر ما أشار إليه بقوله : ﴿ وكأين من آية ﴾ من الآيات المحسوسة الظاهرة الدالة على كون آيات الكتاب حقاً بما لها في أنفسها من الثبات ، والدلالة بما لفاعلها من القدرة والاختيار - على أنه قادر على كل شيء ، وأن ما أخبر به من البعث حق لما له من الحكمة

، والدالة - بما للتعبير عنها من الإعجاز - على كونها من عند الله ، وبدأ بما بدأ به في تلك من آيات السماوات لشرفها ولأنها أدل ، فقال : ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له جميع صفات الكمال وحده ﴿ الذي رفع السماوات ﴾ بعد إيجادها من عدم - كما أنتم بذلك مقرون ؛ والرفع : وضع الشيء في جهة العلو سواء كان بالنقل أو بالاختراع ، كائنة ﴿ بغير عمد ﴾ جمع عماد كأهب وإهاب أو عمود ، والعمود : جسم مستطيل يمنع المرتفع أن يميل ، وأصله منع الميل ﴿ ترونها ﴾ أي مرئية حاملة لهذه الأجرام العظام التي مثلها لا تحمل في مجاري عاداتكم إلا بعد تناسبها في العظم ، هذا على أن ﴿ ترونها ﴾ صفة ، ويجوز - ولعله أحسن - أن يكون على تقدير سؤال من كأنه قال : ما دليل أنها بغير عمد ؟ فقيل : المشاهدة التي لا أجلى منها .

(13/407)

ولما كان رفع السماوات بعد خلق الأرض وقبل تسويتها ، ذكر أنه شرع في تدبير ما للكونين من المنافع وما فيهما من الأعراض والجواهر ، وأشار إلى عظمة ذلك التدبير بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ قال الرازي في لوامع البرهان : وخص العرش لأنه أعلى خلقه وصفوته ومنظره الأعلى وموضع تسبيحه ومظهر ملكه ومبدأ وحيه ومحل قربه ، ولم

ينسب شيئاً من خلقه كنسبته ، فقال تعالى : ﴿ ذو العرش ﴾ كما قال ﴿ ذو الجلال ﴾ و " ذو " كلمة لحق واتصال وظهور ومبدأ ، وقال الرماني : والاستواء : الاستيلاء بالاقتدار ونفوذ السلطان ، وأصله : استوى التدبير ، كما أن أصل القيام الانتصاب ، ثم يقال : قائم بالتدبير - انتهى .

وعبر ب " ثم " لبعد هذه الرتبة عن الأطماع وعلوها عما يستطاع ، فليس هناك ترتيب ولا مهلة حتى يفهم أن ما قبل كان على غير ذلك ، والمراد أنه أخذ في التدبير لما خلق كما هو شأن الملوك إذا استووا على عروشهم ، أي لم يكن لهم مدافع ، وإن لم يكن هناك جلوس أصلاً ، وذلك لأن روح الملك التدبير وهو أعدل أحواله والله أعلم ﴿ وسخر ﴾ أي ذلل تذليلاً عظيماً ﴿ الشمس ﴾ أي التي هي آية النهار ﴿ والقمر ﴾ أي الذي هو آية الليل لما فيهما من الحكم والمنافع والمصالح التي بها صلاح البلاد والعباد ، ودخلت اللام فيهما وكل واحد منهما لا ثاني له لما في الاسم من معنى الصفة ، إذا لو وجد مثل لهما لم يتوقف في إطلاق الاسم عليه ، ولا كذلك زيد وعمرو .

والتسخير : التهيئة لذلك المعنى المسخر له ليكون بنفسه من غير معاناة صاحبه فيما يحتاج إليه كتسخير النار للإنضاج والماء للجريان ﴿ كل ﴾ أي من الكوكبين ﴿ يجري ﴾ .

ولما كان السياق للتدبير ، علم أن المراد بجريهما لذلك ، وهو تنقلهما في المنازل والدرجات التي يتحول بها الفصول ، ويتغير النبات وتضبط الأوقات ، وكلما كان التدبير أسرع ، علم أن صاحبه أعلم ولا سيما إن كان أحكم ، فكان الموضع للام لا لإلى ، فعلل بقوله :

﴿ لأجل ﴾ أي لأجل اختصاصه بأجل ﴿ مسمى ﴾ هذي أجلها سنة ، وذاك أجله شهر ؛ والأجل : الوقت المضروب لحدوث أمر وانقطاعه .

ولما كان كل من ذلك مشتملاً من الآيات على ما يجل عن الحصر مع كونه في غاية الإحكام ، استأنف خبراً هو كالتنبيه على ما فيما مضى من الحكمة ، فقال مبيناً للاستواء على العرش بعد أن أشار إلى عظمة هذا الخبر بما في صلة الموصول من الأوصاف العظيمة :

﴿ يدبر الأمر ﴾ أي في المعاش والمعاد وما ينظمهما بأن يفعل فيه فعل من ينظر في أدباره وعواقبه ليأتي محكماً يجل عن أن يرام بنقض ، بل هو بالحقيقة الذي يعلم أدبار الأمور وعواقبها ، لا يشغله شأن عن شأن ، مع أن هذا العالم - من أعلى العرش إلى ما تحت الثرى - محتو عل أجناس وأنواع وفصول وأصناف وأشخاص لا يحيط بها سواه ، وذلك دال قطعاً على أنه سبحانه في ذاته وصفاته متعال عن مشابهة المحدثات واحد أحد صمد ليس له كفواً أحد .

ولما كان هذا بياناً عظيماً لا لبس فيه ، قال ﴿ يفصل الآيات ﴾ أي التي برز إلى الوجود

تدبيرها ، الدالة على وحدانيته وكمال حكمته ، المشتملة عليها مبدعاته ، فيفرقها ويباين بينها مباينة لا لبس فيها ، تقريباً لعقولكم وتدريباً لفهومكم ، لتعلموا أنها فعل الواحد المختار ، لا فعل الطبائع ولا غيرها من الأسباب التي أبدعها ، وإلا فكانت على نسق واحد ، وجمعها لما تقدم من الإشارة إلى كثرتها بقوله : ﴿ وكأين من آية في السماوات والأرض ﴾ فكأن هذه الألف واللام لذلك المنكر هناك .

(15/407)

ولما كان التدبير وهذا التفصيل دالاًّ على تمام القدرة وغاية الحكمة ، وكان البعث لفصل القضاء والحكم بالعدل وإظهار العظمة هو محط الحكمة ، علل بقوله : ﴿ لعلكم بلقاء ربكم ﴾ أي لتكون حالكم حال من يرجى له بما ينظر من الدلالات الإيقان بلقاء الموجد له المحسن إليه بجميع ما يحتاجه التربية ﴿ توقنون ﴾ أي تعلمون ذلك من غير شك استدلالاً بالقدرة على ابتداء الخلق على القدرة على ما جرت العادة بأنه أهون من الابتداء وهو الإعادة ، وأنه لا تتم الحكمة إلا بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 117 . 122 ﴾

(16/407)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ وزرع ونخيل صنوان وغير ﴾ بالرفع فيهن : ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص والمفضل . الآخرون بالجر فيهن عطفاً على ﴿ أعناب ﴾ . ﴿ يسقي ﴾ بالياء المثناة من تحت على تقدير يسقى كله أو للتغليب : ابن عامر وعاصم ويزيد ورويس . الباقون بتاء التأنيث لقوله : ﴿ جنات ﴾ ﴿ ويفضل ﴾ على الغيبة : حمزة وعلي وخلف . الباقون بالنون على ونحن نفضل ﴿ أئذا ﴾ بهمزتين ﴿ إنا ﴾ بهمزة واحدة على أيذا بقلب الثانية ياء والباقي كما مر : نافع غير قالون وسهل ويعقوب غير زيد ﴿ آئذا إنا ﴾ بالمد والباقي مثله : زيد وقالون إذا بهمزة واحدة أئنا بهمزتين : ابن عامر . هشام يدخل بينهما مدة إذا بهمزة واحدة ﴿ آينا ﴾ بهمزة ممدودة ثم ياء : يزيد ﴿ أيذا أينا ﴾ بهمزة ثم ياء فيهما : ابن كثير مثله ولكن بالمد أو عمرو ﴿ أئذا آئنا ﴾ بهمزتين فيهما : عاصم وحمزة وخلف ﴿ هادي ﴾ ﴿ وافى ﴾ ﴿ وإلى ﴾ ﴿ باقي ﴾ في الوقف : يعقوب وابن كثير غير ابن فليح وزمعة ، وروى ابن شنبوذ عن قنبل بالياء في الوقف وعن البزي بغير ياء ﴿ المتعالي ﴾ في الحالين : ابن كثير ويعقوب وافق سهل وعباس في الوصل .

الوقوف : ﴿ المر ﴾ كوفي ﴿ آيات الكتاب ﴾ ط ﴿ لا يؤمنون ﴾ 5 ﴿ والقمر ﴾ ط

﴿ مسمى ﴾ ط ﴿ يوقنون ﴾ 5 ﴿ وأنهارا ﴾ ط ﴿ النهار ﴾ ط ﴿ يتفكرون ﴾ 5 ﴿ بماء واحد ﴾ زقف لمن قرأ ﴿ ونفضل ﴾ بالنون ﴿ في الأكل ﴾ ط ﴿ يعقلون ﴾ 5 ﴿ جديد ﴾ ط ﴿ بربهم ﴾ ط ﴿ في أعناقهم ﴾ ج ﴿ النار ﴾ ج ﴿ خالدون ﴾ 5 ﴿ المثلات ﴾ ط ﴿ على ظلمهم ﴾ ج لتنافي الجملتين ﴿ العقاب ﴾ 5 ﴿ من ربه ﴾ ط ﴿ هاد ﴾ 5 ﴿ وما تزداد ﴾ ط ﴿ بمقدار ﴾ 5 ﴿ المتعال ﴾ 5 ﴿ بالنهار ﴾ 5 ﴿ من أمر الله ﴾ ط ﴿ ما بأنفسهم ﴾ ط ﴿ فلا مرد له ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ وال ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 135 . 136 ﴾

(17/407)

فصل

قال الفخر :

﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) ﴾

اعلم أنا قد تكلمنا في هذه الألفاظ قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه : أنا الله أعلم ،

وقال في رواية عطاء أنا الله الملك الرحمن ، وقد أمالها أبو عمرو والكسائي وغيرهما وفخمها جماعة منهم عاصم وقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى آيات السورة المسماة بالمر .

ثم قال : إنها آيات الكتاب .

وهذا الكتاب الذي أعطاه محمداً بأن ينزله عليه ويجعله باقياً على وجه الدهر وقوله : ﴿ والذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ مبتدأ وقوله : ﴿ الحق ﴾ خبره ومن الناس من تمسك بهذه الآية في نفي القياس فقال : الحكم المستنبط بالقياس غير نازل من عند الله وإلا لكان من لم يحكم به كافراً لقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ الله فأولئك هُمُ الكافرون ﴾ [المائدة : 44] وبالإجماع لا يكفر فثبت أن الحكم المثبت بالقياس غير نازل من عند الله .

وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون حقاً لأجل أن قوله : ﴿ والذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾ يقتضي أنه لا حق إلا ما أنزله الله فكل ما لم ينزله الله وجب أن لا يكون حقاً ، وإذا لم يكن حقاً وجب أن يكون باطلاً لقوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ [يونس : 32] ومثبتو القياس يجيبون عنه بأن الحكم المثبت بالقياس نازل أيضاً من عند الله ، لأنه لما أمر بالعمل بالقياس كان الحكم الذي دل عليه القياس نازلاً من عند الله .

ولما ذكر تعالى أن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق بين أن أكثر الناس لا يؤمنون به على سبيل الزجر والتهديد .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقيبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد وهو هذه الآية وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : الله مبتدأ والذي رفع السموات خبره بدليل قوله : ﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ الأرض ﴾ [الرعد : 3] ويجوز أن يكون الذي رفع السموات صفة وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر يُفَصّلُ الآيات ﴾ خبراً بعد خبر ، وقال الواحدي : العمد الأساطين وهو جمع عماد يقال عماد وعمد مثل إهاب وأهب ، وقال الفراء : العمد والعمد جمع العمود مثل أديم وادم وادم ، وقضيم وقضم وقضم ، والعماد والعمود ما يعمد به الشيء ، ومنه يقال : فلان عمد قومه إذا كانوا يعتمدونه فيما بينهم .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى استدل بأحوال السموات وبأحوال الشمس والقمر وبأحوال الأرض وبأحوال النبات ، أما الاستدلال بأحوال السموات بغير عمد ترونها فالمعنى : أن هذه الأجسام العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لأعيانها ولذواتها

لوجهين : الأول : أن الأجسام متساوية في تمام الماهية ، ولو وجب حصول جسم في حيز معين ، لوجب حصول كل جسم في ذلك الحين .

(19/407)

والثاني : أن الخلاء لا نهاية له والأحياز المعترضة في ذلك الخلاء الصرف غير متناهية وهي بأسرها متساوية ولو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب حصوله في جميع الأحياز ضرورة أن الأحياز بأسرها متشابهة فثبت أن حصول الأجرام الفلكية في أحيازها وجهاتها ليس أمراً واجباً لذاته بل لا بد من مخصص ومرجح ، ولا يجوز أن يقال إنها بقيت بسلسلة فوقها ولا عمد تحتها ، وإلا لعاد الكلام في ذلك الحافظ ولزم المرور إلى ما لا نهاية له وهو محال فثبت أن يقال الأجرام الفلكية في أحيازها العالية لأجل أن مدبر العالم تعالى وتقدس أوقفها هناك .

فهذا برهان قاهر على وجود الإله القاهر القادر .

ويدل أيضاً على أن الإله ليس بجسم ولا مختص بحيز ، لأنه لو كان حاصلاً في حيز معين لامتنع أن يكون حصوله في ذلك الحيز لذاته ولعينه لما بينا أن الأحياز بأسرها متساوية فيمتنع أن يكون حصوله في حيز معين لذاته فلا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وكل ما

حصل بالفاعل المختار فهو محدث فاختصاصه بالحيز المعين محدث وذاته لا تنفك عن ذلك الاختصاص وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث، فثبت أنه لو كان حاصلاً في الحيز المعين لكان حادثاً وذلك محال، فثبت أنه تعالى متعال عن الحيز والجهة، وأيضاً كل ما سماك فهو سماء، فلو كان تعالى موجوداً في جهة فوق جهة لكان من جملة السموات فدخل تحت قوله: ﴿ اللّٰه الذى رَفَعَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ فكل ما كان مختصاً بجهة فوق جهة فهو محتاج إلى حفظ الإله بحكم هذه الآية فوجب أن يكون الإله منزهاً عن جهة فوق.

أما قوله: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ ففيه أقوال: الأول: أنه كلام مستأنف والمعنى: رفع السموات بغير عمد.

ثم قال: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ أي وأنتم ترونها أي مرفوعة بلا عماد.

الثاني: قال الحسن في تقرير الآية تقديم وتأخير تقديره: رفع السموات ترونها بغير عمد.

واعلم أنه إذا أمكن حمل الكلام على ظاهره كان المصير إلى التقديم والتأخير غير جائز.

والثالث: أن قوله: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ صفة للعمد، والمعنى: بغير عمد مرئية، أي للسموات عمد.

ولكنا لا نراها قالوا : ولها عمد على جبل قاف وهو جبل من زبرجد محيط بالدنيا ولكنكم لا ترونها .

وهذا التأويل في غاية السقوط ، لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام ليكون حجة على وجود الإله القادر ولو كان المراد ما ذكروه لما ثبتت الحجة لأنه يقال إن السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأي دلالة لثبوتها على وجود الإله ، وعندي فيه وجه آخر أحسن من الكل وهو أن العماد ما يعتمد عليه وقد دللنا على أن هذه الأجسام إنما بقيت واقفة في الجو العالي بقدرة الله تعالى وحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله تعالى فنتج أن يقال إنه رفع السماء بغير عمد ترونها أي لها عمد في الحقيقة إلا أن تلك العمد هي قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره وإبقاؤه إياها في الجو العالي وأنهم لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الإمساك .

وأما قوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ فاعلم أنه ليس المراد منه كونه مستقراً على العرش ، لأن المقصود من هذه الآية ذكر ما يدل على وجود الصانع ويجب أن يكون ذلك الشيء مشاهداً معلوماً وأن أحداً ما رأى أنه تعالى استقر على العرش فكيف يمكن الاستدلال به عليه وأيضاً بتقدير أن يشاهد كونه مستقراً على العرش إلا أن ذلك لا يشعر بكمال حاله وغاية جلاله ، بل يدل على احتياجه إلى المكان والحيز .

وأيضاً فهذا يدل على أنه ما كان بهذه الحالة ثم صار بهذه الحالة ، وذلك يوجب التغير

وأيضاً الاستواء ضد الاعوجاج فظاهر الآية يدل على أنه كان معوجاً مضطرباً ثم صار مستوياً وكل ذلك على الله محال، فثبت أن المراد استواؤه على عالم الأجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ يعني أن من فوق العرش إلى ما تحت الثرى في حفظه وفي تدبيره وفي الاحتياج إليه.

(21/407)

وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر: فهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

واعلم أن هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة:

النوع الأول: قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشمس والقمر﴾ وحاصله يرجع إلى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الأجرام، وذلك لأن الأجسام متماثلة فهذه الأجرام قابلة للحركة والسكون فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لا بد له من مخصص.

وأيضاً أن كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة فلا بد أيضاً من مخصص لا سيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات

وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك في بعض الأحياز وتسكن في البعض فحصول الحركة في ذلك الحيز المعين والسكون في الحيز الآخر لا بد فيه أيضاً من مرجح .

الوجه الثالث : وهو أن تقدير تلك الحركات والسكنات بمقادير مخصوصة على وجه تحصل عوداتها وأدوارها متساوية بحسب المدة حالة عجيبة فلا بد من مقدر .

والوجه الرابع : أن بعض تلك الحركات مشرقية وبعضها مغربية وبعضها مائلة إلى الشمال وبعضها مائلة إلى الجنوب وهذا أيضاً لا يتم إلا بتدبير كامل وحكمة بالغة .

النوع الثاني : من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله : ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وفيه قولان : الأول : قال ابن عباس : للشمس مائة وثمانون منزلاً كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة أشهر ، ثم إنها تعود مرة أخرى إلى واحد منها في ستة أشهر أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلاً ، فالمراد بقوله : ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا .

وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيراً خاصاً إلى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك .

والقول الثاني : أن المراد كونهما متحركين إلى يوم القيامة ، وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات كما وصف الله تعالى ذلك في قوله : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ * وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ [التكوير : 1 ، 2] ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ [الإنشقاق : 1] و ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾ [الإنفطار : 1] ﴿ وجَمَعَ الشمس والقمر ﴾ [القيامة : 9] وهو كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ﴾ [الأنعام : 2] ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ وكل واحد من المفسرين حمل هذا على تدبير نوع آخر من أحوال العالم والأولى حمله على الكل فهو يدبرهم بالإيجاد والإعدام وبالإحياء والإماتة والإغناء والإفقار ، ويدخل فيه إنزال الوحي وبعثة الرسل وتكليف العباد ، وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لأن هذا العالم المعلوم من أعلى العرش إلى ما تحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها إلا الله تعالى ، والدليل المذكور دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ، ليس إلا من الله تعالى ومن المعلوم أن كل من اشتغل بتدبير شيء فإنه لا يمكنه شيء آخر إلا الباري سبحانه وتعالى فإنه لا يشغله شأن عن شأن أما العاقل فإنه إذا تأمل في هذه الآية علم أنه تعالى يدبر عالم الأجسام وعالم الأرواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على أنه تعالى في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته غير مشابه للمحدثات والممكنات .

ثم قال: ﴿يُفَصِّلُ الآيات﴾ وفيه قولان: الأول: أنه تعالى يبين الآيات الدالة على إلهيته وعلمه وحكمته.

والثاني: أن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان: أحدهما: الموجودات الباقية الدائمة كالأفلاك والشمس والقمر والكواكب، وهذا النوع من الدلائل هو الذي تقدم ذكره.

(23/407)

والثاني: الموجودات الحادثة المتغيرة، وهي الموت بعد الحياة، والفقر بعد الغنى، والهرم بعد الصحة، وكون الأحمق في أهنأ العيش، والعاقل الذكي في أشد الأحوال، فهذا النوع من الموجودات والأحوال دلالتها على وجود الصانع الحكيم ظاهرة باهرة.

وقوله: ﴿يُفَصِّلُ الآيات﴾ إشارة إلى أنه يحدث بعضها عقيب بعض على سبيل التمييز والتفصيل.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاء رَبّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ واعلم أن الدلائل المذكورة كما تدل على وجود الصانع الحكيم فهي أيضاً تدل على صحة القول بالحشر والنشر لأن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها على عظمتها وكثرتها فلأن يقدر على الحشر والنشر كان أولى يروى أن

رجلاً قال لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه أنه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة .

وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية والنيرات الكوكبية في الجو العالي وإن كان الخلق عاجزين عنه ، وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش إلى ما تحت الثرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن ، فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن ، ومن الأصحاب من تمسك بلفظ اللقاء على رؤية الله تعالى ، وقد مر تقريره في هذا الكتاب مراراً وأطواراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 184. 188 ﴾

(24/407)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ المر تلك آيات الكتاب ﴾

وفي الكتاب ثلاثة أقاويل :

أحدها : الزبور ، وهو قول مطر .

الثاني : التوراة والإنجيل ، قاله مجاهد .

الثالث : القرآن ، قال قتادة . فعلى هذا التأويل يكون معنى قوله ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ أي هذه آيات الكتاب .

﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ يعني القرآن .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ يعني بالقرآن أنه منزل بالحق . وفي المراد ب ﴿ أكثر الناس ﴾ قولان :

أحدهما : أكثر اليهود والنصارى ، لأن أكثرهم لم يسلم . الثاني : أكثر الناس في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله عز وجل : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يعني بِعُمد لا ترونها ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها مرفوعة بغير عمد ، قاله قتادة وإياس بن معاوية .

وفي رفع السماء وجهان :

أحدهما : رفع قدرها وإجلال خطرها ، لأن السماء أشرف من الأرض .

الثاني : سمكها حتى علت على الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

تقدم القول في فواتح السور وذكر التأويلات في ذلك إلا أن الذي يخص هذا الموضع من ذلك هو ما قال ابن عباس رضي الله عنه : إن هذه الحروف هي من قوله : " أنا الله أعلم وأرى " . ومن قال : إن حروف أوائل السور هي مثال لحروف المعجم - قال : الإشارة هنا ب ﴿ تلك ﴾ هي إلى حروف المعجم ، ويصح - على هذا - أن يكون ﴿ الكتاب ﴾ يراد به القرآن ، ويصح أن يراد به التوراة والإنجيل . و ﴿ المر ﴾ - على هذا - ابتداء ، و ﴿ تلك ﴾ ابتداء ثان - و ﴿ آيات ﴾ خبر الثاني ، والجملة خبر الأول - وعلى قول ابن عباس في ﴿ المر ﴾ يكون ﴿ تلك ﴾ ابتداء و ﴿ آيات ﴾ بدل منه ، ويصح في ﴿ الكتاب ﴾ التأويلات اللذان تقدما .

وقوله : ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ ﴿ الذي ﴾ رفع بالابتداء و ﴿ الحق ﴾ خبره - هذا على تأويل من يرى ﴿ المر ﴾ حروف المعجم ، و ﴿ تلك آيات ﴾ ابتداء وخبر . وعلى قول ابن عباس يكون ﴿ الذي ﴾ عطفاً على ﴿ تلك ﴾ و ﴿ الحق ﴾ خبر ﴿ تلك ﴾ . وإذا أريد ب ﴿ الكتاب ﴾ القرآن فالمراد ب ﴿ الذي أنزل ﴾ جميع الشريعة : ما تضمنه القرآن منها وما لم يتضمنه . ويصح في ﴿ الذي ﴾ أن يكون في موضع

خفض عطفاً على الكتاب ، فإن أردت مع ذلك ب ﴿ الكتاب ﴾ القرآن ، كانت " الواو " عطف صفة على صفة لشيء واحد ، كما تقول : جاءني الظريف والعاقل ، وأنت شخصاً واحداً ، ومن ذلك قول الشاعر : [المتقارب]

إلى الملك القرم وابن الهمام . . . وليث الكتيبة في المزدحم

(26/407)

وإن أردت مع ذلك ب ﴿ الكتاب ﴾ التوراة والإنجيل ، فذلك بيّن ، فإن تأولت مع ذلك ﴿ المر ﴾ حروف المعجم - رفعت قوله : ﴿ الحق ﴾ على إضمار مبتدأ تقديره : هو الحق ، وإن تأولتها كما قال ابن عباس ف ﴿ الحق ﴾ خبر ﴿ تلك ﴾ ومن رفع ﴿ الحق ﴾ بإضمار ابتداء وقف على قوله : ﴿ من ربك ﴾ وباقي الآية ظاهر بين إن شاء الله .

وقوله تعالى : ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ﴾ الآية ، لما تضمن قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ توبيخ الكفرة ، عقب ذلك بذكر الله الذي ينبغي أن يوقن به ، ويذكر الأدلة الداعية إلى الإيمان به .

والضمير في قوله : ﴿ ترونها ﴾ قالت فرقة : هو عائد على ﴿ السماوات ﴾ . ف ﴿ ترونها ﴾ - على هذا - في موضع الحال ، وقال جمهور الناس : لا عمد للسماوات البتة ،

وقالت فرقة: الضمير عائد على العمد، ف ﴿ ترونها ﴾ - على هذا - صفة للعمد، وقالت هذه الفرقة: للسماوات عمد غير مرئية - قاله مجاهد وقتادة - وقال ابن عباس: وما يدريك أنها بعمد لا ترى؟ وحكى بعضهم: أن العمد جبل قاف المحيط بالأرض، والسماء عليها كالقبة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله ضعيف، والحق أن لا "عمد" جملة، إذ العمد يحتاج إلى العمد ويتسلسل الأمر، فلابد من وقوفه على القدرة، وهذا هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ [الحج: 65] ونحو هذا من الآيات، وقال إياس بن معاوية: السماء مقببة على الأرض مثل القبة.

وفي مصحف أبيّ: "ترونه" بتذكير الضمير، و"العمد": اسم جمع عمود، والباب في جمعه: "عمد" - بضم الحروف الثلاثة كرسول ورسل، وشهاب وشهب وغيره، ومن هذه الكلمة قول النابغة: [البسيط]

وخيس الجن إني قد أذنت لهم... يبنون تدمر بالصفّاح والعمد

وقال الطبري: "العَمد" - بفتح العين - جمع عمود، كما جمع الأديم أدماً.

قال القاضي أبو محمد : وليس كما قال ، وفي كتاب سيبويه : إن الأدم اسم جمع ، وكذلك نص اللغويون على العمد ، ولكن أبا عبيدة ذكر الأمر غير متيقن فاتبعه الطبري .

وقرأ يحيى بن وثاب " بغير عُمُد " بضم العين والميم .

وقوله : ﴿ ثم ﴾ هي – هنا – لعطف الجمل لا للترتيب ، لأن الاستواء على العرش قبل " رفع السماوات " ، ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال : "كان الله ولم يكن شيء قبله . وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض " .

وقد تقدم القول في كلام الناس في " الاستواء " ، واختصاره : أن أبا المعالي رجح أنه ﴿ استوى ﴾ بقهره وغلبته ، وقال القاضي ابن الطيب وغيره : ﴿ استوى ﴾ – في هذا الموضع – بمعنى استولى ، والاستيلاء قد يكون دون قهر . فهذا فرق ما بين القولين ، وقال سفيان : فعل فعلاً سماه استواء .

وقال الفراء : ﴿ استوى ﴾ – في هذا الموضع – كما تقول العرب : فعل زيد كذا ثم استوى إلي يكلمني ، بمعنى أقبل وقصد . وحكي لي عن أبي الفضل بن النحوي أنه قال : ﴿ العرش ﴾ – في هذا الموضع – مصدر عرش ، مكانه أراد جميع المخلوقات ، وذكر أبو منصور عن الخليل : أن العرش : الملك ، وهذا يؤيد منزع أبي الفضل بن النحوي إذ قال : العرش مصدر ، وهذا خلاف ما مشى عليه الناس من أن العرش هو أعظم المخلوقات وهو الشخص الذي كان على الماء والذي بين يديه الكرسي ؛ وأيضاً فينبغي النظر على أبي

الفضل في معنى الاستواء قريباً مما هو على قول الجميع . وفي البخاري عن مجاهد أنه قال : المعنى : علا على العرش .

قال القاضي أبو محمد : وكذلك هي عبارة الطبري ، والنظر الصحيح يدفع هذه العبارة .

(28/407)

وقوله : ﴿ وسخر ﴾ تنبيه على القدرة ، و﴿ الشمس والقمر ﴾ في ضمن ذكرهما ذكر الكواكب – وكذلك قال : ﴿ كل يجري ﴾ أي كل ما هو في معنى الشمس والقمر من التسخير ، و﴿ كل ﴾ لفظة تقتضي الإضافة ظاهرة أو مقدرة ، و" الأجل المسمى " هو انقضاء الدنيا وفساد هذه البنية ، وقيل : يريد بقوله : ﴿ لأجل مسمى ﴾ الحدود التي لا تتحداها هذه المخلوقات أن تجري على رسوم معلومة .

وقوله : ﴿ يدبر ﴾ بمعنى : يبرم – وينفذ – وعبر بالتدبير تقريباً لأفهام الناس ، إذ التدبير إنما هو النظر في أدبار الأمور وعواقبها ، وذلك من صفة البشر ، و﴿ الأمر ﴾ عام في جميع الأمور وما ينقضي في كل أوان في السماوات والأرضين وقال مجاهد : ﴿ يدبر الأمر ﴾ معناه : يقضيه وحده .

وقرأ الجمهور : " يفصل " وقرأ الحسن بنون العظمة ، ورواها الخفاف وعبد الوهاب عن

أبي عمرو وهبيرة عن حفص ، قال المهدوي : ولم يختلف في ﴿ يدبر ﴾ ، وقال أبو عمرو الداني : إن الحسن قرأ " نفصل " و " ندبر " بالنون فيهما ، والنظر يقتضي أن قوله : ﴿ يفصل ﴾ ليس على حد قوله : ﴿ يدبر ﴾ من تعديد الآيات بل لما تعددت الآيات وفي جملتها يدبر الأمر ، أخبر أنه يفصلها لعل الكفرة يوقنون بالبعث ، و ﴿ الآيات ﴾ هنا إشارة إلى ما ذكر في الآية وبعدها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(29/407)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ المر ﴾

قد ذكرنا في سورة (البقرة) جملةً من الكلام في معاني هذه الحروف .

وقد روي عن ابن عباس في تفسير هذه الكلمة ثلاثة أقوال :

أحدها : أن معناها : أنا الله أعلم وأرى ، رواه أبو الضحى عنه .

والثاني : أنا الله أرى ، رواه سعيد بن جبير عنه .

والثالث : أنا الله المِلك الرحمن ، رواه عطاء عنه .

قوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ في "تلك" قولان ، وفي "الكتاب" قولان قد تقدمت

في أول (يونس) .

قوله تعالى : ﴿ والذي أُنزل إليك من ربك الحق ﴾ يعني : القرآن وغيره من الوحي ﴿ ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ قال ابن عباس : يعني : أهل مكة .

قال الزجاج : لما ذكر أنهم لا يؤمنون ، عرّف الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ﴾ قال أبو عبيدة : العَمَد : متحرك الحروف بالفتحة ، وبعضهم يحركها بالضمة ، لأنها جمع عمود ، وهو القياس ، لأن كل كلمة هجاؤها أربعة أحرف الثالث منها ألِف أو ياء أو واو ، فجميعه مضموم الحروف ، نحو رسول ، والجمع : رسل ، وحمار ، والجمع : حُمُر ، غير أنه قد جاءت أسامي استعملوا جميعها بالحركة والفتحة ، نحو عمود ، وأديم ، وإِهاب ، قالوا : أَدَم ، وأَهَب .

ومعنى "عمدٍ" سَوارٍ ، ودعائم ، وما يَعْمِد البناء .

وقرأ أبو حيوة : "بغير عُمُد" بضم العين والميم .

وفي قوله : ﴿ ترونها ﴾ قولان :

أحدهما : أن هاء الكناية ترجع إلى السموات ، فالمعنى : ترونها بغير عَمَد ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، والجمهور .

وقال ابن الأنباري : "ترونها" خبر مستأنف ، والمعنى : رفع السموات بلا دعامة تمسكها ،

ثم قال : "ترونها" أي : ماتشاهدون من هذا الأمر العظيم ، يغنيكم عن إِقامة الدلائل عليه .

(30/407)

والثاني : أنها ترجع إِلى العَمَد ، فالمعنى : إِنها بعمد لا ترونها ، رواه عطاء ، والضحاك عن ابن عباس ، وقال : لها عَمَد على قاف ، ولكنكم لا ترون العَمَد ، وإِلى هذا القول ذهب مجاهد ، وعكرمة ، والأول أصح .

قوله تعالى : ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ اي : ذلَّلهما لما يُراد منهما ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي : إِلى وقت معلوم ، وهو فناء الدنيا .

﴿ يدبِّر الأمر ﴾ أي : يصرِّفه بحكمته .

﴿ يفصِّل الآيات ﴾ أي : يبيِّن الآيات التي تدل أنه قادر على البعث لكي توقنوا بذلك .

وقرأ أبو رزين ، وقتادة ، والنخعي .

"ندبِّر الأمر نفصِّل الآيات" بالنون فيهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(31/407)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب ﴾

تقدّم القول فيها .

﴿ والذي أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك .

﴿ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾ لا كما يقول المشركون : إنك تأتي به من تلقاء نفسك ؛ فاعتصم به ، واعمل بما فيه .

قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمداً أتى بالقرآن من تلقاء نفسه .

"وَالَّذِي" في موضع رفع عطفاً على "آيَاتُ" أو على الابتداء ، و"الْحَقُّ" خبره ؛ ويجوز أن يكون موضعه جراً على تقدير : وآيات الذي أنزل إليك ، وارتفاع "الحقّ" على هذا على إضمار مبتدأ ، تقديره : ذلك الحق ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الحق ﴾ [البقرة : 146 75] يعني ذلك الحقّ .

قال الفرّاء : وإن شئت جعلت "الَّذِي" خفضاً نعتاً للكتاب ، وإن كانت فيه الواو كما يقال : أتانا هذا الكتاب عن أبي حفص والفاروق ؛ ومنه قول الشاعر :

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابن الهُمَامِ . . .

ولَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي المُزْدَحم

يريد : إلى الملك القرم بن الهمام، ليثِ الكَتيبة .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الآية .

لّما بيّن تعالى أن القرآن حقّ، بين أن مَن أنزله قادر على الكمال ؛ فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته ؛ وقد تقدّم هذا المعنى .

وفي قوله : "بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا" قولان : أحدهما : أنها مرفوعة بغير عمد ترونها ؛ قاله قَتَادة وإيّاس بن معاوية وغيرهما .

الثاني : لها عمد ، ولكنا لانراه ؛ قال ابن عباس : لها عمد على جبل قاف ؛ ويمكن أن يقال على هذا القول : العمد قدرته التي يُمسِك بها السموات والأرض ، وهي غير مرئية لنا ؛ ذكره الزّجاج .

وقال ابن عباس أيضاً : هي توحيد المؤمن .

أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر ؛ ذكره الغَزْنَوِيّ .

والعَمَد جمع عمود ؛ قال النابغة :

وخَيِّسِ الجنَّ إني قد أَذِنْتُ لَهُمْ . . .

يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ

﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ تقدّم الكلام فيه .

﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ أي ذلَّلهما لمنافع خلقه ومصالح عباده ؛ وكل مخلوق مُذّلل للخالق .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي إلى وقت معلوم ؛ وهو فناء الدنيا ، وقيام الساعة التي عندها تُكوّر الشمس ، ويُخسَف القمر ، وتنكدر النّجوم ، وتنتثر الكواكب .

وقال ابن عباس : أراد بالأجل المسمّى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يجاوزانها .

وقيل : معنى الأجل المسمّى أن القمر يقطع فَلَكه في شهر ، والشمس في سنة .

﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ أي يصرفه على ما يريد .

﴿ يُفَصِّلُ الآيات ﴾ أي يُبيّنها ؛ أي من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة ؛ ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن:

قوله عز وجل ﴿ المر ﴾ قال ابن عباس: معناه أنا الله أعلم وأرى.

وروى عطاء عنه أنه قال: إن معناه أنا الله الملك الرحمن ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ الإشارة بتلك الى آيات السورة المسماة بالمر، والمراد بالكتاب السورة أي آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ثم قال تعالى: ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ يعني من القرآن كله هو الحق الذي لا مزيد عليه، وقيل المراد بالإشارة في قوله: تلك الأخبار والقصص أي الأخبار والقصص التي قصصتها عليك يا محمد هي آيات التوراة والإنجيل والكتب الإلهية القديمة المنزلة، والذي أنزل إليك يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك يا محمد من ربك الحق أي هو الحق فاعتصم به وقال ابن عباس وقتادة: أراد بآيات الكتاب القرآن، والمعنى: هذه آيات الكتاب الذي هو القرآن ثم قال: والذي أنزل إليك من ربك الحق يعني: وهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق لا شك فيه ولا تناقض ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ يعني مشركي مكة نزلت هذه الآية في الرد عليهم حين قالوا إن محمداً يقوله من تلقاء نفسه، ثم ذكر من دلائل ربوبيته وعجائب قدرته ما يدل على وحدانيته فقال تعالى: ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ﴾ جمع عمود وهي الأساطين والدعائم التي تكون تحت السقف وفي قوله: ﴿ ترونها ﴾ قولان أحدهما أن الرؤية ترجع إلى السماء يعني:

وأنتم ترون السماوات مرفوعة بغير عمد من تحتها يعني ليس من دونهما دعامة تدعمها ولا من فوقها علاقة تمسكها ، والمراد نفي العمد بالكلية .

قال إياس بن معاوية : السماء مقبية على الأرض مثل القبة ، وهذا قول الحسن وقتادة و جمهور المفسرين ، وإحدى الروايتين عن ابن عباس .

و القول الثاني : إن الرؤية ترجع الى العمد ، والمعنى أن لها عمداً ولكن لا ترونها أنتم ، ومن قال بهذا القول يقول : إن عمدها على جبل قاف ، وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا ، والسماء عليه مثل القبة ، وهذا قول مجاهد وعكرمة والرواية الأخرى عن ابن عباس ، والقول الأول أصح ، وقوله تعالى ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ تقدم تفسيره والكلام عليه في سورة الأعراف بما فيه كفاية ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ يعني ذللهما لمنافع خلقه فهما مقهوران ، يجريان على ما يريد ﴿ كلٌّ يجري لأجل مسمى ﴾ يعني إلى وقت معلوم ، وهو وقت فناء الدنيا وزوالها .

وقال ابن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما يعني أنهما يجريان في منازلهما ودرجاتهما الى غاية ينتهيان إليها ولا يجاوزانها ، وتحقيقه أن الله تعالى جعل لكل واحد من

الشمس والقمر سيراً خاصاً إلى جهة بمقدار خاص من السرعة والبطء في الحركة ، ﴿ يدبر الأمر ﴾ يعني أنه تعالى يدبر أمر العالم العلوي و السفلي ، ويصرفه ويقضيه بمشيئته ، وحكمته ، على أكمل الأحوال لا يشغله شأن عن شأن ، وقيل : يدبر الأمر بالإيجاد والإعدام والإحياء و الإماتة ، ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة ، لأن جميع العالم محتاجون إلى تدبيره ورحمته ، داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته ﴿ يفصل الآيات ﴾ يعني أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته ، وقيل : إن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان : الأول : الموجودات المشاهدة ، وهي خلق السماوات والأرض وما فيهما من العجائب وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم وهذا قد تقدم ذكره .

(35/407)

والقسم الثاني : الموجودات الحادثة في العالم ، وهي الموت بعد الحياة والفقر بعد الغنى والضعف بعد القوة إلى غير ذلك من أحوال هذا العالم ، وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع وكمال قدرته ﴿ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ يعني أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته لكي توقنوا ، وتصدقوا بلقائه والمصير إليه بعد الموت لأن من قدر على إيجاد الإنسان بعد عدمه قادر على إيجاده وإحيائه بعد موته ، واليقين صفة من

صفات العلم ، وهو فوق المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك ، يقال منه استيقن وأيقن بمعنى علم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(36/407)

وقال أبو حيان :

﴿ المر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

هذه السورة مكية في قول : الحسن ، وعكرمة ، وعطاء ، وابن جبير .

وعن عطاء إلا قوله : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً ﴾ وعن غيره إلا قوله : ﴿ هو الذي يريكم البرق ﴾ إلى قوله : ﴿ له دعوة الحق ﴾ ومدنية في قوله : الكلبي ، ومقاتل ، وابن عباس ، وقتادة ، واستثنيا آيتين قالا : نزلتا بمكة وهما ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ إلى آخرهما وعن ابن عباس إلا قوله : ﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ إلى آخر الآية وعن قتادة مكية إلا قوله : ﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ الآية حكاه المهدوي .

وقيل : السورة مدنية حكاه القاضي منذر بن سعد البلوطي ومكي بن أبي طالب .

قال الزمخشري : تلك إشارة إلى آيات السورة ، والمراد بالكتاب السورة أي : تلك آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها .

وقال ابن عطية : من قال حروف أوائل السور مثال الحروف المعجم قال : الإشارة هنا بتلك هي إلى حروف المعجم ، ويصح على هذا أنْ يكون الكتاب يراد به القرآن ، ويصح أن يراد به التوراة والإنجيل .

والمر على هذا ابتداء ، وتلك ابتداء ثان ، وآيات خبر الثاني ، والجملة خبر الأول انتهى .

ويكون الرابط اسم الإشارة وهو تلك .

وقيل : الإشارة بتلك إلى ما قص عليه من أنباء الرسل المشار إليه بقوله : تلك من أنباء الغيب ، والذي قال : ويصح أن يراد به التوراة والإنجيل ، هو قريب من قول مجاهد وقتادة ، والإشارة بتلك إلى جميع كتب الله تعالى المنزلة .

ويكون المعنى : تلك الآيات التي قصصت عليك خبرها هي آيات الكتاب الذي أنزلته قبل هذا الكتاب الذي أنزلته إليك .

والظاهر أن قوله : والذي مبتدأ ، والحق خبره ، ومن ربك متعلق بانزل .

وأجاز الحوفي أن يكون من ربك الخبر ، والحق مبتدأ محذوف ، أو هو خبر بعد خبر ، أو كلاهما خبر واحد انتهى .

وهو إعراب متكلف .

وأجاز الحوفي أيضاً أن يكون والذي في موضع رفع عطفاً على آيات ، وأجاز هو وابن عطية أن يكون والذي في موضع خفض .

وعلى هذين الإعرابين يكون الحق خبر مبتدأ محذوف أي : هو الحق ، ويكون والذي أنزل مما عطف فيه الوصف على الوصف وهما لشيء واحد كما تقول : جاءني الظريف العاقل وأنت تريد شخصاً واحداً .

ومن ذلك قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهام . . .

وليث الكتيبة في المزدحم

وأجاز الحوفي أن يكون الحق صفة الذي يعني : إذا جعلت والذي معطوفاً على آيات .

وأكثر الناس قيل : كفار مكة لا يصدقون أن القرآن منزل من عند الله تعالى .

وقيل : المراد به اليهود والنصارى ، والأولى أنه عام .

ولما ذكر انتفاء الإيمان عن أكثر الناس ، ذكر عقيبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد وما يجذبهم إلى الإيمان فيما يفكر فيه العاقل ويشاهده من عظيم القدرة وبديع الصنع .

والجلالة مبتدأ ، والذي هو الخبر بدليل قوله تعالى :

﴿ وهو الذي مد الأرض ﴾ ويجوز أن يكون صفة .

وقوله : يدبر الأمر يفصل الآيات خبراً بعد خبر ، وينصره ما تقدمه من ذكر الآيات قاله الزمخشري .

وقرأ الجمهور : عمد بفتحتين .

وقرأ أبو حيوة ، ويحيى بن وثاب : بضمتين ، وبغير عمد في موضع الحال أي : خالية عن عمد .

والضمير في ترونها عائد على السموات أي : تشاهدون السموات خالية عن عمد .

واحتمل هذا الوجه أن يكون ترونها كلاماً مستأنفاً ، واحتمل أن يكون جملة حالية أي : رفعها مرئية لكم بغير عمد .

وهي حال مقدرة ، لأنه حين رفعها لم نكن مخلوقين .

وقيل : ضمير النصب في ترونها عائد على عمد أي : بغير عمد مرئية ، فترونها صفة للعمد .

ويدل على كونه صفة لعمد قراءة أبي : ترونه ، فعاد الضمير مذكراً على لفظ عمد ، إذ هو اسم جمع .

قال أي ابن عطية : اسم جمع عمود والباب في جمعه عمد بضم الحروف الثلاثة كرسول ورسل انتهى .

وهو وهم ، وصوابه : بضم الحرفين ، لأن الثالث هو حرف الإعراب فلا يعتبر ضمه في كيفية الجمع .

(38/407)

هذا التخريج يحتمل وجهين : أحدهما أنها لها عمد ، ولا ترى تلك العمد ، وهذا ذهب إليه مجاهد وقتادة .

وقال ابن عباس : وما يدريك أنها بعمد لا ترى ؟ وحكى بعضهم أن العمد جبل قاف المحيط بالأرض ، والسماء عليه كالقبة .

والوجه الثاني : أن يكون نفي العمد ، والمقصود نفي الرؤية عن العمد ، فلا عمد ولا رؤية أي : لا عمد لها فترى .

والجمهور على أن السموات لا عمد لها البتة ، ولو كان لها عمد لاحتاجت تلك العمد إلى عمد ، ويتسلسل الأمر ، فالظاهر أنها ممسكة بالقدرة الإلهية .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ ونحو هذا من الآيات .

وقال أبو عبد الله الرازي : العماد ما يعتمد عليه ، وهذه الأجسام واقفة في الحيز العالي

بقدرة الله تعالى ، فعمدها قدرة الله تعالى ، فلها عماد في الحقيقة .

إلا أن تلك العمد إمساك الله تعالى وحفظه وتدبيره وإبقاؤه إياها في الحيز العالي ، وأنتم لا ترون ذلك التدبير ، ولا تعرفون كيفية ذلك الإمساك انتهى .

وعن ابن عباس : ليست من دونها دعامة تدعمها ، ولا فوقها علاقة تمسكها .

وأبعد من ذهب إلى أنّ ترونها خبر في اللفظ ومعناه الأمر أي : رها وانظروا هل لها من عمد ؟ وتقدم تفسير ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ قال ابن عطية : ثم هنا العطف الجمل لا للترتيب ، لأنّ الاستواء على العرش قبل رفع السموات .

وفي الصحيح عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : "كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض " انتهى .

وسخر الشمس والقمر أي : ذللهما لما يريد منهما .

وقيل : لمنافع العباد .

وعبر بالجريان عن السير الذي فيه سرعة ، وكل مضافة في التقدير ، والظاهر أنّ المحذوف هو ضمير الشمس والقمر أي : كليهما يجري إلى أجل مسمى .

وقال ابن عطية : والشمس والقمر في ضمن ذكرهما ذكر الكواكب ، ولذلك قال : كل يجري لأجل مسمى ، أي : كل ما هو في معنى الشمس والقمر من المسخر ، وكل لفظة تقتضي الإضافة ظاهرة أو مقدرة انتهى .

وشرح كل بقوله أي : كل ما هو في معنى الشمس والقمر ما أخرج الشمس والقمر من ذكر جريانهما إلى أجل مسمى ، وتحريره أن يقول على زعمه : إن الكواكب في ضمن ذكرهما أي ، ومما هو في معناهما إلى أجل مسمى .

وقال ابن عباس : منازل الشمس والقمر وهذ الحدود التي لا تتعداها ، قدر لكل منهما سيراً خاصاً إلى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء .

وقيل : الأجل المسمى هو يوم القيامة ، فعند مجيئه ينقطع ذلك الجريان والتسيير كما قال تعالى : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ وقال : وجمع الشمس والقمر ، ومعنى تدبير الأمر إنفاذه وإبرامه ، وعبر بالتدبير تقريباً للإفهام ، إذ التدبير إنما هو النظر في إدبار الأمور وعواقبها وذلك من صفات البشر ، والأمر أمر ملكوته وربوبيته ، وهو عام في جميع الأمور من إيجاد وإعدام وإحياء وإماتة وإنزال وحي وبعث رسل وتكليف وغير ذلك .

وقال مجاهد : يدبر الأمر يقضيه وحده ، ويفصل الآيات يجعلها فصولاً مبينة مميزاً بعضها من بعض .

والآيات هنا دلائله وعلاماته في سمواته على وحدانيته ، أو آيات الكتب المنزلة ، أو آيات

القرآن أقوال .

وقرأ النخعي ، وأبو رزين ، وابان بن ثعلب ، عن قتادة : ندبر الأمر نفصل بالنون فيهما ، وكذا قال أبو عمرو الداني عن الحسن فيهما ، ووافق في نفصل بالنون الخفاف ، وعبد الواحد عن أبي عمرو ، وهبيرة عن حفص .

وقال صاحب اللوامح : جاء عن الحسن والأعمش نفصل بالنون فقط .

وقال المهدوي : لم يختلف في يدبر ، أو ليس كما قال ؟ إذ قد تقدمت قراءة ابان .

ونقل الداني عن الحسن : والذي تقتضيه الفصاحة أن هاتين الجملتين استفهام إخبار عن الله تعالى .

(40/407)

وقيل : يدبر حال من الضمير في وسخر ، ونفصل حال من الضمير في يدبر ، والخطاب في لعلكم للكفرة ، وتوقنون بالجزاء أو بأنّ هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(41/407)

وقال الثعالبى :

قوله عز وجل : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب والذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾

قال ابن عباس : هذه الحروفُ هي مِنْ قوله : «أَنَا اللَّهُ أَعْلَمُ وأَرَى» .

وقوله سبحانه : ﴿ اللهُ الذي رَفَعَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ . . . ﴾ الاية : قال جمهور النَّاس : لاَ عَمَدَ للسموات ألبتَّة ، وهذا هو الحَق و«العمدُ» : اسم جَمْعٍ .

قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ : «ثم» ؛ هنا : لعطفِ الجُمَلِ ، لا للترتيبِ ؛ لأن الاستواء على العَرْش قبل رَفْعِ السموات ، ففي الصحيحِ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ، ثُمَّ خَلَقَ السموات وَالأَرْضَ " وقد تقدَّم القول في هذا ، وفي معنى الاستواء .

* ت * : والمعتَقَدُ في هذا : أنه سبحانَهُ مستوٍ على العرشِ على الوَجْهِ الذي قاله ، وبالمعنَى الذي أراده استواء منزَّهاً عن المماسَّة والاستقرار والتمكُّن والحلولِ والانتقال ، لا يحملُهُ العَرْش ، بل العرشُ وحَمَلَتُهُ محمُولون بلُطْفِ قُدْرته ، ومَقْهُورون في قَبْضته ، كان اللَّه ولا شيءَ معه ، كان سبحانه قبْلَ أَنْ يخلق المَكَانَ والزمَانَ ، وهو الآنَ على ما عليه كان .

وقوله سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ : تنبيهٌ على القُدْرة ، وفي ضِمْن الشمسِ والقَمرِ الكواكِبُ ، ولذلك قال : ﴿ كُلٌّ يَجْرِي ﴾ أي : كلٌّ ما هو في معنى الشَّمْسِ والقَمرِ ،

و«الأجلُ المسمَّى» : هو انقضاء الدنيا ، وفسادُ هذه البنْيَة .

﴿ يُدَبِّرُ الأَمر ﴾ : معناه : يُبْرِمه وينفذه ، وعبَّر بالتدبير ، تقريباً للأفهام ، وقال مجاهد :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمر ﴾ : معناه يقضيه وحْدَهُ .

و ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ : أي : توقنون بالبَعْثِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(42/407)

وقال أبو السعود :

﴿ المر ﴾ اسمٌ للسورة ومحلُّه إما الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي هذه السورةُ بهذا الاسمِ وهو أظهرُ من الرفع على الابتداء إذ لم يسبق العلَم بالتسمية كما مر مراراً وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ﴾ على الوجه الأول مبتدأ مستقلٌ وعلى الوجه الثاني مبتدأ ثانٍ أو بدل من الأول أشير به إليه إيذاناً بفخامته . وإما النصبُ بتقدير فعلٍ يناسب المقامَ نحوُ اقرأ أو اذكر ، فتلك مبتدأٌ كما إذا جعل آلمر مسروداً على نمط التعديدِ أو بمعنى أنا الله أعلمُ وأرى على ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والخبر على التقادير قوله تعالى : ﴿ آيَاتِ الكتاب ﴾ أي الكتابِ العجيب الكامل الغنيِّ عن الوصف به المعروفِ بذلك من بين

الكتب الحقيقِ باختصاص اسم الكتابِ فهو عبارةٌ عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزّل حينئذ حسبما مر في مطلع سورةِ يونُسَ إذ هو المتبادرُ من مطلق الكتابِ المستغني عن النعت ، وبه يظهر ما أريد من وصف الآياتِ بوصف ما أضيفت إليه من نعوت الكمالِ بخلاف ما إذا جُعل عبارةً عن السورة فإنها ليست بتلك المثابة من الشهرة في الاتصاف بذلك ، المغنية عن التصريح بالوصف على أنها عبارةٌ عن جميع آياتِها فلا بد من جعل (تلك) إشارةً إلى كل واحدةٍ منها ، وفيه ما لا يخفى من التعسف الذي مر تفصيلُه في سورة يونس .

(43/407)

﴿ والذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي الكتابَ المذكور بكماله لا هذه السورةُ وحدها ﴿ الحق ﴾ الثابتُ المطابق للواقع في كل ما نطق به ، الحقيقُ بأن يُخَصّ به الحقّيةُ لعراقته فيها ، وليس فيه ما يدل على أن ما عداه ليس بحق أصلاً على أن حقّيتَه مستتبعةٌ لحقية سائرِ الكتبِ السماوية لكونه مصدّقاً لما بين يديه ومهيمناً عليه ، وفي التعبير عنه بالموصول وإسنادِ الإنزال إليه بصيغة المبنيِّ للمفعول والتعرّضِ لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزَّل التابعةِ لجلالة شأنِ المنزِل وتشريفِ المنزَّل إليه والإيماءِ

إلى وجه بناءِ الخبر ما لا يخفى ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بذلك الحقِّ المبين ، لإخلالهم بالنظر والتأملِ فيه ، فعدمُ إيمانهم متعلقٌ بعنوان حقّيته لأنه المرجعُ للتصديق والتكذيب لا بعنوان كونِه منزلاً كما قيل ولأنه واردٌ على طريقة الوصفِ دون الإخبار .

﴿ الله الذى رَفَعَ السموات ﴾ أي خلقهن مرتفعاتٍ على طريقة قولِهم : سبحان من كبّر الفيل وصغّر البعوض ، لا أنه رفعها بعد أن لم تكن كذلك ، والجملة مبتدأ وخبرٌ كقوله : ﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ الأرض ﴾ ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ أي بغير دعائمَ جمع عِماد كإهاب وأَهَب وهو ما يُعمَد به أي يُسند ، يقال : عمَدتُ الحائطَ أي أدعمته ، وقرىء عُمُد على جمع عَمود بمعنى عماد كرُسُل ورسول ، وإيرادُ صيغةِ الجمع لجمع السموات ، لا لأن المنفيَّ عن كل واحدة منها عَمدٌ لا عماد ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ استئنافٌ استُشهد به على ما ذكر من رفع السموات بغير عمد ، وقيل : صفة لعَمَدٍ جيء بها إيهاماً لأن لها عمداً غيرَ مرئيةٍ هي قدرة الله تعالى .

(44/407)

﴿ ثُمَّ استوى ﴾ أي استولى ﴿ عَلَى العرش ﴾ بالحفظ والتدبير أو استوى أمرُه وعن أصحابنا أن الاستواءَ على العرش صفةٌ لله عز وجل بلا كيف ، وأياً ما كان فليس المرادُ به

القصدَ إلى إيجاد العرش وخلقِه فلا حاجة إلى جعل كلمة ثم للتراخي في الرتبة ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ ذللهما وجعلهما طائعَين لما أريد منهما من الحركات وغيرها ﴿ كُلٌّ ﴾ من الشمس والقمر ﴿ يَجْرِى ﴾ حسبما أريد منها ﴿ لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لمدة معينةٍ فيها تتم دورتُه كالسنة للشمس والشهر للقمر ، فإن كلاًّ منهما يجري كلَّ يوم على مدار معينٍ من المدارات اليوميةِ أو لمدة ينتهي فيها حركاتُهما ويخرج جميعُ ما أريد منهما من القوة إلى الفعل ، أو لغاية يتم عندها ذلك والجملةُ بيانٌ لحكم تسخيرهما .

﴿ يُدَبّرُ ﴾ بما صنع من الرَّفْع والاستواء والتسخير أي يقضي ويقدّر حسبما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة ﴿ الأمر ﴾ أمرَ الخلق كلِّه وأمرَ ملكوتِه وربوبيتِه ﴿ يُفَصّلُ الآيات ﴾ الدالةَ على كمال قدرتِه وبالغِ حكمتِه أي يأتي بها مفصلةً وهي ما ذكر من الأفعال العجيبةِ وما يتلوها من الأوضاع الفلكيةِ الحادثةِ شيئاً فشيئاً المستتبعةِ للآثار الغريبة في السُّفْليات على موجب التدبيرِ والتقديرِ ، فالجملتان إما حالان من ضمير استوى وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ من تتمة الاستواءِ وإما مفسّرتان له أو الأولى حالٌ منه والثانية من الضمير فيه أو كلاهما من ضمائر الأفعالِ المذكورة وقوله : ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ من تتمة التسخيرِ أو خبران عن قوله : الله خبراً بعد خبر ، والموصولُ صفةٌ للمبتدأ جيء به للدلالة على تحقيق الخبرِ وتعظيمِ شأنِه كما في قول الفرزدق

إن الذي سمك السماءَ بنى لنا . . . بيتاً دعائمُه أعزُّ وأطول

(45/407)

﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ عند معاينتِكم لها وعثورِكم على تفاصيلها ﴿ بِلِقَاء رَبِّكُمْ ﴾ بملاقاته للجزاء ﴿ تُوقِنُونَ ﴾ فإن من تدبّرها حقَّ التدبر أيقن أن من قدَر على إبداع هذه الصنائعِ البديعةِ على كل شيء قديرٌ وأن لهذه التدبيراتِ المتينة عواقبَ وغاياتٍ لا بد من وصولها وقد بُيِّنتْ على ألسنة الأنبياءِ عليهم السلام أن ذلك ابتلاءٌ للمكلفين ثم جزاؤهم حسب أعمالِهم فإذن لا بد من الإيقان بالجزاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(46/407)

وقال الآلوسى :

﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم المر ﴾

أخرج ابن جرير .

وأبو الشيخ عن ابن عباس أن معنى ذلك أنا الله أعلم وأرى وهو أحد أقوال مشهورة في مثل ذلك ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ جعل غير واحد الكتاب بمعنى السورة وهو بمعنى المكتوب صادق عليها من غير اعتبار تجوز ، والإشارة إلى آياتها باعتبار أنها لتلاوة بعضها والبعض الآخر في معرض التلاوة صارت كالحاضرة أو لثبوتها في اللوح أو مع الملك ، والمعنى تلك الآيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ، واستفيد هذا على ما قيل من اللام ، وذلك أن الإضافة بيانية فالمآل ذلك الكتاب ، والخبر إذا عرف بلام الجنس أفاد المبالغة وأن هذا المحكوم عليه اكتسب من الفضيلة ما يوجب جعله نفس الجنس وأنه ليس نوعاً من أنواعه . وحيث أنه في الظاهر كالممتنع أريد ذلك .

وجوز أن يكون المراد بالكتاب القرآن ، و﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى آيات السورة ، والمعنى آيات هذه السورة آيات القرآن الذي هو الكتاب العجيب الكامل الغني عن الوصف بذلك المعروف به من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب ، والظاهر أن المراد جميعه .

وجوز أن يراد به المنزل حينئذٍ ، ورجح إرادة القرآن بأنه المتبادل من مطلق الكتاب المستغني عن النعت وبه يظهر جميع ما أريد من وصف الآيات بوصف ما أضيفت إليه من نعوت الكمال بخلاف ما إذا جعل عبارة عن السورة فإنها ليست بتلك المثابة من الشهرة في الاتصاف بذلك المغنية عن التصريح بالوصف وفيه بحث ، وأياً ما كان فلا محذور في حمل آيات الكتاب على تلك كما لا يخفى ، وقيل : الإشارة بتلك إلى ما قص سبحانه عليه عليه الصلاة والسلام من أنباء الرسل عليهم السلام المشار إليها في آخر السورة المتقدمة بقوله سبحانه : ﴿ ذلك مِنْ أَنبَاء الغيب ﴾ [يوسف : 102] وجوز على هذا أن يراد بالكتاب ما يشمل التوراة والإنجيل ، وأخرج ذلك ابن جرير عن مجاهد .

وقتادة .

(48/407)

وجوز ابن عطية هذا على تقدير أن تكون الإشارة إلى المر مراداً بها حروف المعجم أيضاً وجعل ذلك مبتدأ أولاً و ﴿ تِلْكَ ﴾ مبتدأ ثانيا و ﴿ ءايات ﴾ خبره والجملة خبر الأول والرابط الإشارة ، وأما قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبّكَ الحق ﴾ فالظاهر أن الموصول فيه مبتدأ وجملة ﴿ أَنزَلَ ﴾ من الفعل ومرفوعه صلته ﴿ وَمِنْ رَّبّكَ

﴿ متعلق بأنزل ﴾ ﴿ والحق ﴾ خبر ، والمراد بالموصول عند كثير القرآن كله ؛ والكلام استدراك على وصف السورة فقط بالكمال ، وفي أسلوبه قول فاطمة الأنمارية وقد قيل لها : أي بنيك أفضل ؟ ربيع بل عمارة بل قيس بل أنس ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل والله أنهم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها ، وذلك كما أنها نفت التفاضل آخراً بإثبات الكمال لكل واحد دلالة على أن كمال كل لا يحيط به الوصف وهو إجمال بعد التفصيل لهذا الغرض ، كذلك لما أثبت سبحانه لهذه السورة خصوصاً الكمال استدركه بأن كل المنزل كذلك لا يختص به سورة دون أخرى للدلالة المذكورة ، وهو على ما قيل معنى بديع ووجه بليغ ذكره صاحب الكشاف ، وقيل : إنه لتقرير ما قبله والاستدلال عليه لأنه إذا كان كل المنزل عليه حقاً ففذلك المنزل أيضاً حق ضرورة أنه من كل المنزل فهو كامل لأنه لا أكمل من الحق والصدق ، ولخفاء أمر الاستدلال

قال العلامة البيضاوي : إنه كالحجة على ما قبله ، ولعل الأول أولى ومع ذا لا يخلو عن خفاء أيضاً ، ولو قيل : المراد بالكمال فيما تقدم الكمال الراجع إلى الفصاحة والبلاغة ويكون ذلك وصفاً للمشار إليه بالإعجاز من جهة ذلك ، ويكون هذا وصفاً له بخصوصه على تقدير أن يكون فيه وضع الظاهر موضع الضمير أو لما يشمله وغيره على تقدير أن لا يكون فيه ذلك بكونه حقاً مطابقاً للواقع إذ لا تستدعي الفصاحة والبلاغة الحقية كما يشهد به الرجوع إلى المقامات الحريرية لم يبعد كل البعد فتدبر .

وجوز الحوفي كون ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ هو الخبر و﴿ الحق ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق أو خبر بعد خبر أو كلاهما خبر واحد كما قيل في الرمان حلو حامض، وهو إعراب متكلف، وجوز أيضاً كون الموصول في محل خفض عطفاً على ﴿ الكتاب ﴾ و﴿ الحق ﴾ حينئذٍ خبر مبتدأ محذوف لا غير.

قيل: والعطف من عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى كما قالوا في قوله:

هو الملك القرام وابن الهمام . . .

البيت، وبعضهم يجعله من عطف الكل على الجزء أو من عطف أحد المترادفين على الآخر، ولكل وجهة، وإذا أريد بالكتاب ما روي عن مجاهد.

وقتادة فأمر العطف ظاهر، وجوز أبو البقاء كون ﴿ الذى ﴾ نعتاً للكتاب بزيادة الواو في الصفة كما في أتاني كتاب أبي حفص والفاروق والنازلين والطيبين، وتعقب بأن الذي ذكر في زيادة الواو للإلصاق خصه صاحب المغني بما إذا كان النعت جملة، ولم نر من ذكره في المفرد.

وأجاز الحوفي أيضاً كون الموصول معطوفاً على ﴿ ءايات ﴾ وجعل ﴿ الحق ﴾ نعتاً له وهو كما ترى.

ثم المقصود على تقدير أن يكون الحق ﴿ خبر ﴾ مبتدأ مذكور أو محذوف قصر الحقية على المنزل لعراقته فيها وليس في ذلك ما يدل على أن ما عداه ليس بحق أصلاً على أن حقيته مستتبعة لحقية سائر الكتب السماوية لكونه مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً عليه، وساق بعض نفاة القياس هذه الآية بناءً على تضمنها الحصر في معرض الاستدلال على نفي ذلك فقالوا: الحكم المستنبط بالقياس غير منزل من عند الله تعالى وإلا لكان من يحكم به كافراً لقوله تعالى:

(50/407)

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكافرون ﴾ [المائدة: 44] وكل ما ليس منزلاً من عند الله تعالى ليس بحق لهذه الآية لدلالتها على أن لا حق إلا ما أنزله الله تعالى، والمثبتون لذلك أبطلوا ما ذكروه في المقدمة الثانية بأن المراد بالمنزل من الله تعالى ما يشمل الصريح وغيره فيدخل فيه القياس لاندراجه في حكم المقيس عليه المنزل من عنده سبحانه وقد جاء في المنزل صريحاً ﴿ فاعتبروا ياأولى أُوْلِى الأبصار ﴾ [الحشر: 2]

وهو دال على ما حقق في محله على حسن اتباع القياس على أنك قد علمت المقصود من الحصر .

ويحتمل أيضاً على ما قيل أن يكون المراد هو الحق لا غيره من الكتب الغير المنزلة أو المنزلة إلى غيره بناءً على تحريفها ونسخها ، وقد يقال : إن دليلهم منقوض بالسنة والإجماع ، والجواب الجواب ، ولا يخفى ما في التعبير عن القرآن بالموصول وإسناد الإنزال إليه بصيغة ما لم يسم فاعله ، والتعرض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من الدلالة على فخامة المنزل وتشريف المنزل والإيماء إلى وجه بناء الخبر ما لا يخفى ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس ﴾ قيل هم كفار مكة ، وقيل : اليهود والنصارى والأولى أن يراد أكثرهم مطلقاً ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بذلك الحق المبين لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه فعدم إيمانهم كما قال شيخ الإسلام متعلق بعنوان حقيته لأنه المرجع للتصديق والتكذيب لا بعنوان كونه منزلاً كما قيل ولأنه وارد على سبيل الوصف دون الإخبار .

﴿ الله الذى رَفَعَ السموات ﴾

أي خلقهن مرتفعات على طريقة سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض لا أنه سبحانه رفعها بعد إن لم تكن كذلك ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ أي دعائم ، وهو اسم جمع عند الأكثر والمفرد عماد كإهاب وأهب يقال : عمدت الحائط أعمده عمداً إذا دعمته فاعتمد واستند ، وقيل : المفرد عمود ، وقد جاء أديم وأدم وقصيم وقصم ، وفعيل وفعول يشتركان في كثير من الأحكام ، وقيل : إنه جمع ورجح الأول بما سنشير إليه إن شاء الله تعالى قريباً .

وقرأ أبو حيوة .

ويحيى بن وثاب ﴿ عَمَدٍ ﴾ بضمتين ، وهو جمع عماد كشهاب وشهب أو عمود كرسول ورسل ويجمعان في القلة على أعمدة ، والجمع لجمع السموات لا لأن المنفي عن كل واحدة منها العمد لا العماد ، والجار والمجرور في موضع الحال أي رفعها خالية عن عمد ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ استئناف لا محل له من الإعراب جيء به للاستشهاد على كون السموات مرفوعة كذلك كأنه قيل : ما الدليل على ذلك ؟ فقيل : رؤيتكم لها بغير عمد فهو كقولك : أنا بلا سيف ولا رمح تراني .

ويحتمل أن يكون الاستئناف نحوياً بدون تقدير سؤال وجواب والأول أولى ، وجوز أن تكون الجملة في موضع الحال من السموات أي رفعها مرئية لكم بغير عمد وهي حال مقدرة لأن المخاطبين حين رفعها لم يكونوا مخلوقين ، وأياً ما كان فالضمير المنصوب للسموات .

وجوز كون الجملة صفة للعمد فالضمير لها واستدل لذلك بقراءة أبي ﴿ ترونه ﴾ لأن

الظاهر أن الضمير عليها للعمد وتذكيره حينئذٍ لائح الوجه لأنه اسم جمع فلوحظ أصله في الإفراد ورجوعه إلى الرفع خلاف الظاهر ، وعلى تقدير الوصفية يحتمل توجه النفي إلى الصفة والموصوف على منوال :

ولا ترى الضب بها ينجحر . . .

لأنها لو كانت لها عمد كانت مرئية وهذا في المعنى كالاستئناف ، ويحتمل توجهه إلى الصفة فيفيد أن لها عمداً لكنها غير مرئية وروي ذلك عن مجاهد وغيره ، والمراد بها قدرة الله تعالى وهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض ، فيكون العمد على هذا استعارة .

(52/407)

وأخرج ابن حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : السماء على أربعة أملاك كل زاوية موكل بها ملك .

وزعم بعضهم أن العمد جبل قاف فإنه محيط بالأرض والسماء عليه كالقبة ، وتعقبه الإمام بأنه في غاية السقوط وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يمكن أن يكون مراده في وجه ذلك ، وأنا لا أرى ما قبله يصح عن ابن عباس ، فالحق أن العمد قدرة الله تعالى ، وهذا دليل على وجود الصانع الحكيم تعالى شأنه وذلك لأن ارتفاع السموات على سائر الأجسام المساوية

لها في الجرمية كما تقرر في محله واختصاصها بما يقتضي ذلك لا بد وأن يكون لمخصص ليس بجسم ولا جسماني يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته .

ورجح في "الكشف" استئناف الجملة بأن الاستدلال برفع هذه الأجرام دون عمد كاف ، والاستشهاد عليه بكونه مشاهداً محسوساً تأكيد للتحقيق ، ثم لا يخفى أن الضمير المنصوب في ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ إذا كان راجعاً إلى السموات المرفوعة اقتضى ظاهر الآية أن المرئي هو السماء .

وقد صرح الفلاسفة بأن المرضي هو كرة البخار وثخنها كما قال صاحب التحفة أحد وخمسون ميلاً وتسع وخمسون دقيقة ، والمجموع سبعة عشر فرسخاً وثلث فرسخ تقريباً ، وذكروا أن سبب رؤيتها زرقاء أنها مستضيئة دائماً بأشعة الكواكب وما وراءها لعدم قبوله الضوء كالمظلم بالنسبة إليها فإذا نفذ نور البصر من الأجزاء المستنيرة بالأشعة إلى الأجزاء التي هي كالمظلم رأى الناظر ما فوقه من المظلم بما يمازجه من الضياء الأرضي والضياء الوكبي لوناً متوسطاً بين الظلام والضياء وهو اللون اللازوردي ، وذلك كما إذا نظرنا من جسم أحمر مشف إلى جسم أخضر فإنه يظهر لنا لون مركب من الحمرة والخضرة .

وأجمعوا أن السموات التي هي الأفلاك لا ترى لأنها شفافة لا لون لها لأنها لا تحجب الأبصار عن رؤية ما وراءها من الكواكب وكل ملون فإنه يحجب عن ذلك .

وتعقب ذلك الإمام الرازي بأنا لا نسلم أن كل ملون حاجب فإن الماء والزجاج ملونان لأنهما مرئيان ومع ذلك لا يحجبان.

فإن قيل: فيهما حجب عن الإبصار الكامل قلنا: وكيف عرفتم أنكم أدركتكم هذه الكواكب إدراكاً تاماً انتهى، على أن ما ذكروه لا يتمشى في المحدد إذ ليس وراءه شيء حتى يرى ولا في الفلك الذي يسمونه بفلك الثوابت أيضاً إذ ليس فوقه كوكب مرئي وليس لهم أن يقولوا لو كان كل منهما ملوناً لوجب رؤيته لأنا نقول جاز أن يكون لونه ضعيفاً كلون الزجاج فلا يرى من بعيد ولئن سلمنا وجوب رؤية لونه قلنا: لم لا يجوز أن تكون هذه الزرقة الصافية المرئية لونه وما ذكر أولاً فيها دون إثباته كرة النار وما يقال: إنها أمر يحسن في الشفاف إذا بعد عمقه كما في ماء البحر فإنه يرى أزرق متفاوت الزرقة بتفاوت قعره قرباً وبعداً فالزرقة المذكورة لون يتخيل في الجو الذي بين السماء والأرض لأنه شفاف بعد عمقه لا يجدي نفعاً لأن الزرقة كما تكون لوناً متخيلاً قد تكون أيضاً لوناً حقيقياً قائماً بالأجساد، وما الدليل على أنها لا تحدث إلا بذلك الطريق التخيلي فجاز أن تكون تلك الزرقة المرئية لوناً حقيقياً لأحد الفلكين كذا قال بعض المحققين، وأنت تعلم أنه لا مانع عند المسلمين من

كون المرئي هو السماء الدنيا المسماة بفلك القمر عند الفلاسفة بل هو الذي تقتضيه الظواهر ، ولا نسلم أن ما يذكرونه من طبقات الهواء مانعاً ، وهذه الزرقة يحتمل أن تكون لوناً حقيقياً لتلك السماء صبغها الله تعالى به حسبما اقتضته حكمته ، وعليه الأثريون كما قال القسطلاني ، ويؤيده ظاهر ما صح من قوله صلى الله عليه وسلم :

(54/407)

" ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء " ، وفي رواية "الأرض من ذي لهجة أصدق من أبي ذر" ويحتمل أن يكون لوناً تخيلياً في طبقة من طبقات الهواء الشفاف الذي ملأ الله به ما بين السماء والأرض ويكون لها في نفسها لون حقيقي الله تعالى أعلم بكيفيته ولا بعد في أن يكون أبيض وهو الذي يقتضيه بعض الأخبار لكنا نحن نراها من وراء ذلك الهواء بهذه الكيفية كما نرى الشيء الأبيض من وراء جام أخضر أخضر ، ومن وراء جام أزرق أزرق وهكذا ، وجاء في بعض الآثار أن ذلك من انعكاس لون جبل قاف عليها .

وتعقب بأن جبل قاف لا وجود له ، وبرهن عليه بما يرده كما قال العلامة ابن حجر ما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من طرق أخرجها الحفاظ وجماعة منهم ممن التزموا تخريج الصحيح ، وقول الصحابي ذلك ونحوه مما لا مجال للرأي فيه حكمه حكم المرفوع إلى

النبي صلى الله عليه وسلم ، منها أن وراء أرضنا بحراً محيطاً ثم جبلاً يقال له قاف ثم أرضاً ثم بحراً ثم جبلاً وهكذا حتى عد سبعاً من كل ، وخرج بعض أولئك عن عبد الله بن بريدة أنه جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء ، وعن مجاهد مثله .

ونقل صاحب حل الرموز أن له سبع شعب وأن لكل سماء منها شعبة ، وفي القلب من صحة ذلك ما فيه ، بل أنا أجزم بأن السماء ليست محمولة إلا على كاهل القدرة ، والظاهر أنها محيطة بالأرض من سائر جهاتها كما روي عن الحسن ، وفي الزرقة الاحتمالان .

بقي الكلام في رؤية باقي السموات وظاهر الآية يقتضيه وأظنك لا ترى ذلك وظاهر بعض الآيات يساعدك فتحتاج إلى القول بأن الباقي وإن لم يكن مرئياً حقيقة لكنه في حكم المرئي ضرورة أنه إذا لم يكن لهذا عماد لا يتصور أن يكون لما وراءه عماد عليه بوجه من الوجوه ، ويؤل هذا إلى كون المراد ترونها حقيقة أو حكماً بغير عمد ، وجوز أن يكون المراد ترون رفعها أي السموات جميعاً بغير ذلك .

(55/407)

وفي "الكشف" ما يشير إليه ؛ وإذا جعل الضمير للعمد فالأمر ظاهر فتدبر ، ومن البعيد الذي لا نراه زعم بعضهم أن ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ خبر في اللفظ ومعناه الأمر روها وانظروا هل لها

من عمد ﴿ ثُمَّ استوى ﴾ سبحانه استواء يليق بذاته ﴿ عَلَى العرش ﴾ وهو المحدد بلسان الفلاسفة ، وقد جاء في الأخبار من عظمه ما يبهر العقول ، وجعل غير واحد من الخلف الكلام استعارة تمثيلية للحفظ والتدبير ، وبعضهم فسر استوى باستولى ، ومذهب السلف في ذلك شهير ومع هذا قد قدمنا الكلام فيه ، وأياً ما كان فليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش كما قالوا في قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ [البقرة : 29] لأن إيجاده قبل إيجاد السموات ، ولا حاجة إلى إرادة ذلك مع القول بسبق الإيجاد وحمل ﴿ ثُمَّ ﴾ على التراخي في الرتبة ، نعم قال بعضهم : إنها للتراخي الرتبي لا لأن الاستواء بمعنى القصد المذكور وهو متقدم بل لأنه صفة قديمة لائقة به تعالى شأنه وهو متقدم على رفع السموات أيضاً وبينهما تراخ في الرتبة ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منها ﴿ كُلٌّ ﴾ من الشمس والقمر ﴿ يَجْرِى ﴾ يسير في المنازل والدرجات ﴿ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي وقت معين ، فإن الشمس تقطع الفلك في سنة والقمر في شهر لا يختلف جري كل منهما كما في قوله تعالى : ﴿ والشمس تَجْرِى لِمُسْتَقَرّ لَّهَا والقمر قدرناه مَنَازِلَ ﴾ [يس : 38 ، 39] وهو المروى عن ابن عباس ، وقيل : أي كل يجري لغاية مضروبة ينقطع دونها سيره وهي ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ [التكوير : 1 ، 2] وهذا مراد

مجاهد من تفسير الأجل المسمى بالدنيا ، قيل : والتفسير الحق ما روى عن الحبر ، وأما الثاني : فلا يناسب الفصل به بين التسخير والتدبير .

(56/407)

ثم إن غايتهما متحدة والتعبير بكل يجري صريح في التعدد وما للغاية ﴿ إلى ﴾ دون اللام ، ورد بأنه إن أراد أن التعبير بذلك صريح في تعدد ذي الغاية فمسلم لكن لا يجد به نفعاً ، وإن أراد صراحته في تعدد الغاية فغير مسلم ، واللام تجيء بمعنى إلى كما في المغني وغيره .

وأنت تعلم لا يفيد أكثر من صحة التفسير الثاني ، فافهم ، وما أشرنا إليه من المراد من كل هو الظاهر ، وزعم ابن عطية أن ذكر الشمس والقمر قد تضمن ذكر الكواكب فالمراد من كل كل منهما ومما هو في معناهما من الكواكب والحق ما علمت ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ أي أمر العالم العلوي والسفلي ، والمراد أنه سبحانه يقضي ويقدر ويتصرف في ذلك على أكمل الوجوه وإلا فالتدبير بالمعنى اللغوي لاقتضائه التفكر في دبر الأمور مما لا يصح نسبته إليه تعالى : ﴿ يُفَصّلُ الآيات ﴾ أي ينزلها ويبينها مفصلة ، والمراد بها آيات الكتب المنزلة أو القرآن على ما هو المناسب لما قبل ، أو المراد بها الدلائل المشار إليها فيما تقدم وبتفصيلها تبيينها ، وقيل إحداثها على ما هو المناسب لما بعد .

والجملتان جوز أن يكونا مستأنفتين وأن يكونا حالين من ضمير ﴿ استوى ﴾ وسخر من تتمته بناء على أنه جيء به لتقرير معنى الاستواء وتبيينه أو جملة مفسرة له ، وجوز أن يكون ﴿ يُدَبّرُ ﴾ حالاً من فاعل ﴿ سَخَّرَ ﴾ و ﴿ يُفَصّلُ ﴾ حالاً من فاعل ﴿ يُدَبّرُ ﴾ ، و ﴿ الله الذى ﴾ الخ على جميع التقادير مبتدأ وخبر ، وجوز أن يكون الاسم الجليل مبتدأ والموصول صفته وجملة ﴿ يُدَبّرُ ﴾ خبره وجملة ﴿ يُفَصّلُ ﴾ خبراً بعد خبر ، ورجح كون ذلك مبتدأ وخبراً في "الكشف" بأن قوله تعالى الآتي :

(57/407)

﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ الأرض ﴾ [الرعد : 3] عطف عليه على سبيل التقابل بين العلويات والسفليات وفي المقابل تتعين الخبرية فكذلك في المقابل ليتوافقا ، ولدلالته على أن كونه كذلك هو المقصود بالحكم لا أنه ذريعة إلى تحقيق الخبر وتعظيمه كما في الوجه الآخر ، ثم قال : وهو على هذا جملة مقررة لقوله سحبانه : ﴿ والذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبّكَ هُوَ الحق ﴾ [الرعد : 1] وعدل عن ضمير الرب إلى الاسم المظهر الجامع لترشيح التقرير كأنه قيل : كيف لا يكون منزل من هذه أفعاله الحق الذي لا أحق منه ، وفي الإتيان بالمبتدأ والخبر معرفتين ما يفيد تحقيق إن هذه الأفعال أفعاله دون مشاركة لا سيما وقد جعلت صلات

للموصول ، وهذا أشد مناسبة للمقام من جعله وصفا مفيداً تحقيق كونه تعالى مدبراً مفصلاً مع التعظيم لشأنهما كما في قول الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا . . .

بيتاً دعائمه أعز وأطول

(58/407)

وتقدم ذكر الآيات ناصر ضعيف لأن الآيات في الموضعين مختلفة الدلالة ولأن المناسب حينئذ تأخره عن قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ ﴾ [الرعد : 3] الخ ، على أن سوق تلك الصفات أعني رفع السموات وما تلاه للغرض المذكور وسوق مقابلاتها لغرض آخر منافر ، وفي الأول روعي لطيفة في تعقيب الأوائل بقوله سبحانه : ﴿ يُدَبّرُ يُفَصّلُ ﴾ للايقان والثواني بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : 3] أي من فضل السوابق لإفادتها اليقين واللواحق ذرائع إلى حصوله لأن الفكر إلته والإشارة إلى تقديم الثواني بالنسبة إلينا مع التأخر رتبة وذلك فائت على الوجه الآخر اه وهو من الحسن بمكان فيما أرى ، ولا تنافى كما قال الشهاب بين الوجهين باعتبار أن الوصفية تقتضي المعلومية والخبرية تقتضي خلافها لأن المعلومية عليهما والمقصود بالإفادة قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ

بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ أي لكم تتفكروا وتحققوا كمال قدرته سبحانه فتعلموا أن من قدر على ذلك قدر على الإعادة والجزاء، وحاصله أنه سبحانه فعل كل ذلك لذلك، وعلى الوجه الآخر فعل الأخيرين لذلك مع أن الكل له ثم قال: وهذ مما يرجح الوجه الأول أيضاً كما يرجحه أنه تبيين الآيات وهي الرفع وما تلاه فإنه ذكرها ليستدل بها على قدرته تعالى وعلمه ولا يستدل بها إلا إذا كانت معلومة فيقتضي كونها صفة.

فإن قيل: لا بد في الصلة أن تكون معلومة سواء كانت صفة أو خبراً يقال: إذا كان ذلك صلة دل على انتساب الآيات إلى الله تعالى وإذا كان خبراً دل على انتسابها إلى موجود مبهم وهو غير كاف في الاستدلال فتأمل.

وقرأ النخعي وأبو رزين.

وأبان بن تغلب عن قتادة ﴿ كذلك نُفَصِّلُ ﴾ بالنون فيهما؛ وكذا روى أبو عمرو الداني عن الحسن ووافق في ﴿ نُفَصِّلُ ﴾ بالنون الخفاف.

وعبد الوهاب عن أبي عمرو، وهبيرة عن حفص، وقال صاحب اللوامح: جاء عن الحسن.

والأعمش ﴿ نُفَصِّلُ ﴾ بالنون، وقال المهدوي: لم يختلف في ﴿ يُدَبِّرُ ﴾ وليس كما قال لما سمعت. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] .

قال أبو السعود : ﴿ المر ﴾ اسم للسورة ، ومحله : إما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هذه السورة مسماة بهذا الاسم ، وهو أظهر من الرفع على الابتداء ؛ إذ لم يسبق العلم بالتسمية . وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ﴾ على الوجه الأول : مبتدأ مستقل ، وعلى الوجه الثاني : مبتدأ ثان ، أو بدل من الأول أشير به إليه إيذاناً بفخامته ، وإما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو : اقرأ أو اذكر ، ف : ﴿ تلك ﴾ مبتدأ كما إذا جعل : ﴿ المر ﴾ مسروداً على نمط التعديد ، والخبر على التقادير ، قوله تعالى : ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ أي : الكتاب العجيب الكامل الغني عن الوصف به ، المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به ، فهو عبارة عن جميع القرآن ، أو عن الجميع المنزل حينئذ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي : من الكتاب المذكور بكماله : ﴿ الْحَقُّ ﴾ أي : الثابت المطابق للواقع في كل ما نطق به ، الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها ، وقصور غيره عن مرتبة الكمال فيها . وفي التعبير عنه بالموصول ، وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبني للمفعول ، والتعرض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من

الدلالة على فخامة المنزل التابعة لشأن جلالة المنزل وتشريف المنزل إليه ، والإيماء إلى وجه الخبر ؛ ما لا يخفى . . . . ! انتهى ملخصاً بزيادة .

لطيفة :

في : ﴿ الَّذِيَ أُنزِلَ ﴾ وجهان : أحدهما هو في موضع رفع ، و : ﴿ الْحَقُّ ﴾ خبره ، أو الخبر : ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ و : ﴿ الْحَقُّ ﴾ خبر محذوف ، أو خبر بعد خبر . وثانيهما : محله الجر بالعطف على : ﴿ الْكِتَابِ ﴾ عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى ، أو بتقدير زيادة الواو في الصفة ، و : ﴿ الْحَقُّ ﴾ خبر محذوف ، ومنع كثير من النحاة زيادة الواو في الصفات . وآخرون على جوازها لتأكيد اللصوق ، أي : الجمع والاتصال ؛ لأنها كما تجمع المعطوف بالمعطوف عليه ، كذلك تجمع الموصوف بالصفة ، وتفيد أن اتصافه به أمر ثابت ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : بذلك الحق لرفضهم التدبر فيه شقاقاً وعناداً . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [2]

.

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بقدرته رفع السماوات ، أي : خلقهن مرتفعات عن الأرض ارتفاعاً لا ينال ولا يدرك مداه . وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ أي : أساطين ، جمع عماد أو عمود . وقوله تعالى : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ إما استئناف للاستشهاد برؤيتهم السماوات كذلك ، كقول الشاعر :

~أنا بلا سيف ولا رمح تراني

(62/407)

أو صفة لـ (عمد) جيء بها إيهاماً ؛ لأن لها عمداً غير مرئية ، وإليه ذهب كثير من السلف ، ورجح ابن كثير الأول ، وأنها لا عمد لها ، قال : وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : من الآية 65] ، والأكمل أيضاً في القدرة . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدم

تفسيره في سورة الأعراف ، وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أي : ذللهما لما أراد منهما من نفع العالم السفلي . وقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : لغاية معينة ينقطع دونها سيره ، وهو قيام الساعة ، كقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس : من الآية 38] ، وقد بين ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : 1] و : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار : 2] والاقتصار على الشمس والقمر ؛ لأنهما أظهر الكواكب وأعظم من غيرهما ، فتسخير غيرهما يكون بطريق الأولى . وقد جاء التصريح بتسخيرهما مع غيرهما في قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : من الآية 54] وقوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ أي : أمر العالم العلوي والسفلي ويصرفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال ، لا يشغله شأن عن شأن . وقوله تعالى : ﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ يعني : الآيات الدالة على وحدته وقدرته ونعوته الجليلة . أي : يبينها في كتبه المنزلة . وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ أي : لعلكم توقنون وتصدقون بأن هذا المدبر والمفصل ، لا بد لكم من المصير إليه ، بالبعث بعد الموت للجزاء ؛ فإن من تدبر حق التدبر ؛ أيقن أن من قدر

على إبداع ما ذكر من الآيات العلوية ؛ قدر على الإعادة والجزاء ! .

لطائف :

الأولى : جُوِّزَ في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ ﴾ أن يكون الموصول خبراً ، وأن يكون صفة ، والخبر : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ ورجح في " الكشف " الأول ، بأن قوله الآتي : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ [الرعد : من الآية 3] ، عطف عليه على سبيل التقابل بين العلويات والسفليات ، وفي المقابل الخبرية متعينة ، فكذا هذا ليتوافقا . والجملة مقررة لقوله : ﴿ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ [الرعد : من الآية 1] ، وعدل عن ضمير الرب إلى الجلالة لترشيح التقرير . كأنه قيل : كيف لا يكون المنزل ممن هذه أفعاله هو الحق ؟ وتعريف الطرفين لإفادة أنه لا مشارك له فيها ؛ لا سيما وقد جعل صلة للموصول ، وهذا أشد مناسبة للمقام من جعله وصفاً مفيداً لتحقيق كونه مدبراً مفصلاً ، مع التعظيم لشأنهما . والمقصود بالإفادة قوله : ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ فالمعنى : أنه فعلها كلها لذلك .

الثانية : قال القاضي : قوله تعالى : ﴿ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ ﴾ الخ دليل على وجود الصانع الحكيم ، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجرمية ، واختصاصها بما يقتضي ذلك ؛ لا بد وأن يكون بمخصص ليس بجسم ولا جسماني ، يرجح بعض

الممكنات على بعض بإرادته ، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات .

الثالثة : ﴿ يُدبِّر ﴾ و : ﴿ يُفصِّل ﴾ يقرآن بالياء والنون . وهما مستأنفان . أو الأول حال من ضمير (سخر) والثاني من ضمير (يدبر) أو كلاهما من ضمائر الأفعال المذكورة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 258 . 260 ﴾

(64/407)

وقال ابن عاشور :

﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) ﴾

﴿ تقدم الكلام على نظائر المر ﴾

مما وقع في أوائل بعض السور من الحروف المقطعة .

القول في ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ كالقول في نظيره من طالعة سورة يونس .

والمشار إليه بـ ﴿ تلك ﴾ هو ما سبق نزوله من القرآن قبل هذه الآية أخبر عنها بأنها آيات ، أي دلائل إعجازٍ ، ولذلك أشير إليه باسم إشارة المؤنث مراعاة لتأنيث الخبر .

وقوله : ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ تلك

آيات الكتاب ﴾ فيكون قوله : ﴿ والذي أنزل إليك ﴾ إظهار في مقام الإضمار .

ولم يكتف بعطف خبرٍ على خبر اسم الإشارة بل جيء بجملة كاملة مبتدئة بالموصول للتعريف بأن آيات الكتاب منزلة من عند الله لأنها لما تقرر أنها آيات استلزم ذلك أنها منزلة من عند الله ولولا أنها كذلك لما كانت آيات .

وأخبر عن الذي أنزل بأنه الحق بصيغة القصر ، أي هو الحق لا غيره من الكتب ، فالقصر إضافي بالنسبة إلى كتب معلومة عندهم مثل قصة رستم وإسفَنْديار اللتين عرفهما النضر بن الحارث .

فالمقصود الردّ على المشركين الذين زعموه كأساطير الأولين ؛ أو القصرُ حقيقي ادعائي مبالغة لعدم الاعتداد بغيره من الكتب السابقة ، أي هو الحق الكامل ، لأن غيره من الكتب لم يستكمل منتهى مراد الله من الناس إذ كانت درجات موصلة إلى الدرجة العليا ، فلذلك ما جاء منها كتاب إلا ونسخ العمل به أو عيّن لأمة خَاصة "إنّ الدين عند الله الإسلام" .

ويجوز أن يكون عطف مفرد على قوله : ﴿ الكتاب ﴾ مفرد ، من باب عطف الصفة على الاسم ، مثل ما أنشد الفراء :

إلى الملك القرم وابن الهم

ام وليث الكتيبة بالمزدحم

والإتيان بـ ﴿ ربك ﴾ دون اسم الجلالة للتلطف .

والاستدراكُ بقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ راجع إلى ما أفاده القصر من إبطال مساواة غيره له في الحقية إبطالاً يقتضي ارتفاع النزاع في أحقيته ، أي ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بما دلت الأدلة على الإيمان به ، فمن أجل هذا الخلق الذميم فيهم يستمر النزاع منهم في كونه حقاً .

وابتداء السورة بهذا تنويه بما في القرآن الذي هذه السورة جزء منه مقصود به تهيئة السامع للتأمل مما سيرد عليه من الكلام .

﴿ اللهُ الذى رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ استوى عَلَى العرش وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾

استئناف ابتدائي هو ابتداء المقصود من السورة وما قبله بمنزلة الديباجة من الخطبة ، ولذا تجد الكلام في هذا الغرض قد طال واطّرد .

ومناسبَة هذا الاستئناف لقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ لأن أصل كفرهم بالقرآن ناشىء عن تمسكهم بالكفر وعن تطبعهم بالاستكبار والإعراض عن دعوة الحق .

والافتتاح باسم الجلالة دون الضمير الذي يعود إلى ﴿ ربك ﴾ [الرعد : 1] لأنه معيّن به

لا يشتبه غيره من آلهتهم ليكون الخبر المقصود جارياً على معيّن لا يحتمل غيره إبلاغاً في قطع شائبة الإشراك .

و﴿ الذي رفع ﴾ هو الخبر .

وجُعل اسم موصول لكون الصلة معلومة الدلالة على أن من تثبت له هو المتوحد بالربوبية إذ لا يستطيع مثل تلك الصلة غير المتوحد ولأنه مسلم له ذلك ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله [لقمان : 25] .

(66/407)

والسماوات تقدمت مراراً ، وهي الكواكب السيارة وطبقات الجو التي تسبح فيها .

ورفعها : خلقها مرتفعة ، كما يقال : وَسّعْ طوقَ الجُبة وضيّقْ كمها ، لا تريد وسعه بعد أن كان ضيقاً ولا ضيقه بعد أن كان واسعاً وإنما يراد اجْعَلْه واسعاً واجعله ضيقاً ، فليس المراد أنه رفعها بعد أن كانت منخفضة .

والعَمَد : جمع عماد مثل إهاب وأَهَب ، والعماد : ما تقام عليه القبة والبيت .

وجملة ترونها ﴾ في موضع الحال من ﴿ السماوات ﴾ ، أي لا شبهة في كونها بغير عمد .

والقول في معنى ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ تقدم في سورة الأعراف وفي سورة يونس .

وكذلك الكلام على ﴿ سخر الشمس والقمر ﴾ في قوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره في سورة الأعراف (54) .

والجري : السير السريع .

وسير الشمس والقمر والنجوم في مسافات شاسعة ، فهو أسرع التنقلات في بابها وذلك سيرها في مداراتها .

واللام للعلة .

والأجل : هو المدة التي قدرها الله لدوام سيرها ، وهي مدة بقاء النظام الشمسي الذي إذا اختل انتثرت العوالم وقامت القيامة .

والمسمّى : أصله المعروف باسمه ، وهو هنا كناية عن المعيّن المحدّد إذ التسمية تستلزم التعيين والتمييز عن الاختلاط .

يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾

جملة ﴿ يدبر الأمر ﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة .

وجملة ﴿ يفصل الآيات ﴾ حال ثانية تُرك عطفها على التي قبلها لتكون على أسلوب التعداد والتوقيف وذلك اهتمام باستقلالها .

وتقدم القول على ﴿ يدبر الأمر ﴾ عند قوله : ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ في سورة يونس (3) .

وتفصيل الآيات تقدم عند قوله : ﴿ أحكمت آياته ثم فصلت ﴾ في طالعة سورة هود (1) .

(67/407)

ووجه الجمع بينهما هنا أن تدبير الأمر يشمل تقدير الخلق الأول والثاني فهو إشارة إلى التصرف بالتكوين للعقول والعوالم ، وتفصيل الآيات مشير إلى التصرف بإقامة الأدلة والبراهين ، وشأن مجموع الأمرين أن يفيد اهتداء الناس إلى اليقين بأن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، لأن النظر بالعقل في المصنوعات وتدبيرها يهدي إلى ذلك ، وتفصيلَ الآيات والأدلة ينبه العقول ويعينها على ذلك الاهتداءِ ويقرّبه .

وهذا قريب من قوله في سورة يونس : ﴿ يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذّكرون إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدأُ الخلق ثم يعيده ﴾ [يونس : 3] .

وهذا من إدماج غرض في أثناء غرض آخر لأن الكلام جار على إثبات الوحدانية .

وفي أدلة الوحدانية دلالة على البعث أيضاً .

وصيغ يدبر ﴾ و ﴿ يفصل ﴾ بالمضارع عكس قوله : ﴿ الله الذي رفع السماوات ﴾

لأن التدبير والتفصيل متجدّد متكرر بتجدد تعلق القدرة بالمقدورات .

وأما رفع السماوات وتسخير الشمس والقمر فقد تم واستقرّ دفعة واحدة . انتهى . ا

هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(68/407)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ .

ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن السماء مرفوعة على عمد ، ولكننا لا نراها ،

ونظير هذه الآية قوله أضاً في أول سورة " لقمان " : ﴿ خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان : 10] .

واختلف العلماء في قوله : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ على قولين : أحدهما أن لها عمداً ولكننا لا نراها

، كما يشير إليه ظاهر الآية ، وممن روى عنه هذا القول ابن عباس ، ومجاهد والحسن

وقتادة ، وغير واحد ، كما قاله ابن كثير .

وروي عن قتادة أيضاً - أن المعنى أنها مرفوعة بلا عمد اصلاًن وهو قول إياس بن معاوية ،

وهذا القول يدل عليه تصريحه تعالى في سورة " الحج " أنه هو الذي يمسكها أن تقع على

الأرض في قوله : ﴿ وَيُمْسِكُ السمآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : 65] .

قال ابن كثير : فعلى هذا يكون قوله : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تأكيداً لنفي ذلك ، اي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها كذلك ، وهذا هو الأكمل في القدرة اه .

قال مقيده – عفا الله عنه : الظاهر أن هذا القول من قبيل السالبة لا تقتضي وجود الموضوع ، والمراد أن المقصود نفى اتصاف المحكوم عليه بالمحكوم به ، وذلك صادق بصورتين :

الأولى : أن يكون المحكوم عليه موجوداً ، ولكن المحكوم به منتف عنه ، كقولك ليس الإنسان بحجر ، فالإنسان موجود والحجرية منتفية عنه .

الثانية : أن يكون المحكوم عليه غير موجود فيعلم منه انتفاء الحكم عليه بذلك الأمر الموجودي ، وهذا النوع من أساليب اللغة العربية ، كما أوضحناه في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) ، ومثاله في اللغة قول امرىء القيس :

على لا حب لا يهتدى بمناره . . . إذا سافه العود النباطي جرجرا

أي لا منار له اصلاً حتى يهتدي له ، وقوله :

لا تفزع الأرنب أهوالها . . . ولا ترى الضب بها ينجحر

يعني لا أرانب فيها ولا ضباب.

وعلى هذا فقوله ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ أي لا عمد لها حتى تروها ، والعمد : جمع عمود على غير قياس ، ومنه قول نابغة ذبيان :

وخسيس الجن إني قد أذنت لهم . . . يبنون تدمر بالصفاح والعمد

والصفاح – بالضم والتشديد – : الحجر العريض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(70/407)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ المر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1)

﴾

وقد سبق لنا أن تكلمنا طويلاً في خواطرنا عن الحروف التي تبدأ بها بعض من سور القرآن الكريم : مثل قوله الحق : ﴿ الم ﴾ [البقرة : 1]

وقوله : ﴿ المر . . . ﴾ [الرعد : 1]

ومثل قوله : ﴿ المص ﴾ [الأعراف : 1]

وغير ذلك من الحروف التوقيفية التي جاءتْ في أول بعض من فَوَاتِح السُّور .

ولكن الذي أُحب أن أؤكد عليه هنا هو أن آيات القرآن كلها مَبْنية على الوَصْل ؛ لا على الوَقْف ؛ ولذلك تجدها مَشْكُولة ؛ لأنها مَوْصُولة بما بعدها .

وكان من المفروض لو طبَّقْنَا هذه القاعدة أن نقرأ " المر " فننطقها : " ألفٌ " " لامٌ " " ميمٌ " " راءٌ " ، ولكن شاء الحق سبحانه هنا أن تأتي هذه الحروف في أول سورة الرعد مَبْنية على الوقف ، فنقول : " ألفْ " " لامْ " " ميمْ " " راءْ " .

وهكذا قرأها جبريل عليه السلام على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهكذا نقرأها نحن .

ويتابع سبحانه : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب . . . ﴾ [الرعد : 1]

أي : أن السورة القادمة إليك هي من آيات الكتاب الكريم القرآن وهي إضافة إلى ما سبق وأُنْزِل إليك ، فالكتاب كله يشمل من أول ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة : 1] في أول القرآن ، إلى نهاية سورة الناس .

ونعلم أن الإضافة تأتي على ثلاث مَعَانٍ ؛ فمرَّة تأتي الإضافة بمعنى " من " مثل قولنا " أردب قمح " والمقصود : أردب من القمح .

ومرة تأتي الإضافة بمعنى " في " مثل قولنا : " مذاكرة المنزل " والمقصود : مذاكرة في المنزل

.

ومرة ثالثة تأتي الإضافة بمعنى " اللام " وهي تتخذ شَكلْين .

إمَّا أن تكون تعبيراً عن ملكية ، كقولنا " مال زُيدٍ لزيد " .

(71/407)

والشكل الثاني أن تكون اللام للاختصاص كقولنا " لجام الفرس " أي : أن اللجام يخص الفرس ؛ فليس معقولاً أن يملك الفرس لِجَاماً .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب . . . ﴾ [الرعد : 1]

يعني تلك آياتٌ من القرآن ؛ لأن كلمة " الكتاب " إذا أُطلِقتْ ؛ فهي تنصرف إلى القرآن الكريم .

والمثل هو القول " فلانٌ الرجل " أي : أنه رجل حقاً ؛ وكأن سُلوكه هو معْيار الرجولة ، وكأن خِصَال الرجولة في غيره ليست مُكْتملة كاكتمالها فيه ، أو كقولك " فلان الشاعر " أي : أنه شاعر مُتميِّز للغاية .

وهكذا نعلم أن كلمة " الكتاب " إذا أُطْلِقتْ ينصرف في العقائد إلى القرآن الكريم ، وكلمة الكتاب إذا أُطِلقت في النحو انصرفتْ إلى كتاب سيبويه الذي يضم قواعد النحو .

ويتابع سبحانه في وصف القرآن الكريم : ﴿ . . . والذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنونَ ﴾ [الرعد : 1]

ونعلم أن مراد الذي يخالف الحق هو أن يكسب شيئاً من وراء تلك المخالفة .

وقد قال سبحانه في أواخر سورة يوسف : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103]

ثم وصف القرآن الكريم ، فقال تعالى : ﴿ . . . مَا كَانَ حَدِيثاً يفترى ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : 111]

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يريد الكَسْب منكم ، لكنه شاء أن يُنزِل هذا الكتاب لتكسبوا أنتم : ﴿ . . . ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد : 1]

أي : أن أكثر مَنْ دعوتَهُم إلى الإيمان بهذا الكتاب الحق لا يؤمنون بأنه نزل إليك من ربك ؛ لأنهم لم يُحسِنوا تأمُّل ما جاء فيه ؛ واستسلموا للهَوَى . وأرادوا السلطة الزمنية ، ولم يلتفتوا إلى أن ما جاء بهذا الكتاب هو الذي يعطيهم خير الدنيا والآخرة .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ اللهُ الذي رَفَعَ السماوات . . . ﴾

وكلمة " الله " عَلَمٌ على واجب الوجود ؛ مَطمورة فيه كُلُّ صفات الكمال ؛ ولحظةَ أنْ تقول " الله " كأنك قُلْتَ " القادر " " الضار " " النافع " " السميع " " البصير " " المُعْطي " إلى آخر أسماء الله الحسنى .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " كُلُّ عمل لا يبدأ باسم الله هو أبتر " .

لأن كل عمل لا يبدأ باسمه سبحانه ؛ لا تستحضر فيه أنه سبحانه قد سَخَّر لك كُلَّ الأشياء ، ولم تُسخِّرْ أنت الأشياء بقدرتك .

ولذلك ، فالمؤمن هو مَنْ يدخل على أيِّ عمل بحيثية " بسم الله الرحمن الرحيم " ؛ لأنه سبحانه هو الذي ذَلَّلَ للإنسان كل شيء ، ولو لم يُذلِّلها لَمَا استجابتْ لك أيها الإنسان .

وقد أوضح الحق سبحانه ذلك في أمثلة بسيطة ؛ فنجد الطفل الصغير يُمسِك بحبل ويربطه في عنق الجمل ، ويأمره بأن " ينخّ " ويركع على أربع ؛ فيمتثل الجمل لذلك .

ونجد البرغوث الصغير ؛ يجعل الإنسان ساهراً الليل كلَّه عندما يتسلل إلى ملابسه ؛ ويبذل هذا الإنسان الجَهْدَ الجَهيد لِيُمسِك به ؛ وقد يستطيع ذلك ؛ وقد لا يستطيع .

وهكذا نعرف أن أحداً لم يُسخِّر أي شيء بإرادته أو مشيئته ، ولكن الحق سبحانه هو الذي يذلِّل كُلَّ الكائنات لخدمة الإنسان .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : 72]

وأنت حين تُقبِل على أيِّ عمل يحتاج إلى قدرة فتقول : " باسم القادر الذي أعطاني بعض القدرة " .

وإنْ أقبلتَ على عمل يحتاج مالاً ؛ تقول : " باسم الغني الذي وَهَبنِي بعضاً من مال أقضي به حاجتي " .

وفي كل عمل من الأعمال التي تُقبِل عليها تحتاج إلى قدرة ؛ وحكمة ؛ وغِنىً ، وبَسْط ؛ وغير ذلك من صفات الحق التي يُسخِّر بها سبحانه لك كُلَّ شيء ؛ فشاءتْ رحمتُه سبحانه أنْ سَهَّل لنا أن نفتتح أيَّ عمل باسمه الجامع لكل صفات الجمال والكمال " بسم الله الرحمن الرحيم " .

(73/407)

ولذلك يُسمُّونه " عَلَمٌ على واجب الوجود " .

وبقية الأسماء الحسنى صفات لا توجد بكمالها المُطْلق إلاَّ فيه ؛ فصارتْ كالاسم .

فالعزيز على إطلاقه هو الله . ولكِنّا نقول عن إنسان ما " عزيزُ قومِه " ، ونقول " الغَنيّ " على إطلاقه هو الله ، ولكِنْ نقول " فلان غنيّ " و " فلان فقير " .

وهكذا نرى أنها صفاتٌ أخذتْ مرتبة الأسماء ؛ وهي إذا أُطِلقَتْ إنما تشير إليه سبحانه

.

وعرفنا من قَبْل أن أسماء الله ؛ إما أن تكون أسماءَ ذات ؛ وإما أن تكون أسماءَ صفات ؛ فإنْ كان الاسم لا مقابل له فهو اسمُ ذاتٍ ؛ مثل : " العزيز " .

أما إنْ كان الاسم صفةَ الصفة والفعل ، مثل " المعِز " فلابُدَّ أن له مقابلاً ، وهو هنا " المُذِلّ "

.

ولو كان يقدر أنْ يُعِزَّ فقط ؛ ولا يقدر أن يُذِلَّ لما صار إلهاً ، ولو كان يضر فقط ، ولا ينفع أحداً لَمَا استطاع أن يكون إلهاً ، ولو كان يقدر أنْ يَبسُطَ ، ولا يقدر أن يقبض لما استطاع أنْ يكون إلهاً .

وكل هذه صفات لها مُقَابلها ؛ ويظهر فعْلُها في الغير ؛ فسبحانه على سبيل المثال عزيزٌ في ذاته ؛ ومُعِزٌّ لغيره ، ومُذِلٌّ لغيره .

وكلمة " الله " هي الاسم الجامع لكل صفات الكمال ، وهناك أسماء أخرى علَّمها الله لبعض من خلقه ، وهناك أسماء ثالثة سنعرفها إنْ شاء الله حين نلقاه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22-23]

ونلحظ أن الحق سبحانه بدأ هذه الآية بالحديث عن العالم العُلْوي أولاً ؛ ولم يتحدث عن الأرض ؛ فقال : ﴿ الله الذي رَفَعَ السماوات . . . ﴾ [الرعد : 2]

وكلمة " رفع " إذا استعملتَها استعمالاً بشرياً ؛ تدلُّ أن شيئاً كان في وَضْع ثم رفعتَه عن

موضعه إلى أعلى ؛ مثل قول الحق سبحانه : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش . . . ﴾ [يوسف : 100]

(74/407)

فقد كان أَبَوا يوسف في موضع أقلّ ؛ ثم رفعهما يوسف إلى موضع أعلى مما كَانَا فيه ، فهل كانت السماء موضوعة في موضع أقلّ ؛ ثم رفعها الله ؟ لا ، بل خلقها الله مرفوعة .

ورَحِم الله شيخنا عبد الجليل عيسى الذي قال : " لو قلت : سبحان الله الذي كبَّر الفيل ؛ فهل كان الفيل صغيراً ثم كبَّره الله ؛ أم خلقه كبيراً ؟ لقد خلقه الله كبيراً . وإنْ قلت : سبحان الله الذي صغَّر البعوضة ؛ فهل كانت كبيرة ثم صَغَّرها الله ؟ لا بل خلقها الله صغيرة " .

وحين يقول سبحانه : ﴿ الله الذي رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ . . . ﴾ [الرعد : 2] فهذا يعني أنه خلقها مرفوعة ، وفي العُرْف البشري نعرف أن مُقْتضى رَفْع أيّ شيء أَنْ تُوجَد من تحته أعمدة ترفعه .

ولكن خلقَ الله يختلف ؛ فنحن نرى السماء مرفوعة على امتداد الأفق ؛ ويظهر لنا أن السماء تنطبق على الأرض ؛ ولكنها لا تنطبق بالفعل .

ولم نجد إنساناً يسير في أيِّ اتجاه ويصطدم بأعمدة أو بعمود واحد يُظَنُّ أنه من أعمدة رَفْع السماء ؛ وهي مَرْئية هكذا ؛ فهل هناك أعمدة غير مَرْئية ؛ أم لا توجد أعمدة أصلاً ؟ .

وقد يكون وراء هذا الرَّفْع أمر آخر ؛ فقد قلنا : إن الشيء إذا رُفع ؛ فذلك بسبب وجود ما يُمسكه أو ما يَحْمله ؛ وسبحانه يقول في أمر رفع السماء : ﴿ . . . وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج : 65]

فإذا كانت مَمْسُوكة من أعلى ؛ فهي لا تحتاج إلى عَمَد ، وقوله الحق : (يمسك) يعني أنه سبحانه قد وضع لها قوانينها الخاصة التي لم نعرفها بَعْدُ .

وقد قام العلماء المعاصرون بمَسْح الأرض والفضاء بواسطة الأقمار الصناعية وغيرها ، ولم يجدوا عَمَداً ترفع السماوات أو تُمسِكها .

والمهندسون يتبارَوْنَ في عصرنا لِيرفعوا الأسْقُفَ بغير عَمَدٍ ؛ لكنهم حتى الآن ؛ ما زالوا يعتمدون على الحوائط الحاملة .

(75/407)

وهكذا نعلم أنه سبحانه إمَّا أنه حمل السماء على أعمدة أدقّ وألطف من أن تراها أعيننا ؛ ولذلك نراها بغير أعمدة ، أو أنها مرفوعة بلا أعمدة على الإطلاق .

و" عَمَد " اسم جمع لا جمع ومفردها " عمود " أو " عِمَاد " وقد جاءتْ هذه الآية بمثابة التفسير لِمَا أُجمِل في قول الحق سبحانه في سورة يوسف : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105]

وجاء سبحانه هنا بالتفصيل ؛ فأوضح لنا أنه : ﴿ رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . ﴾ [الرعد : 2] .

أي : لا ترونها أنتم بِحُكْم قانون إبصاركم . ولا تعجب من أنْ يوجد مخلوق لا تراه ؛ لأن العينَ وسيلة من وسائل الإدراك ، ولها قانون خاص ؛ فهي ترى أشياء ولا ترى أشياء أخرى .

هذا بدليل أنك إذا نظرتَ إلى إنسان طوله مِتْران يتحرك مُبْتعداً عنك ؛ تجد يَصْغُر تدريجياً إلى أن يتلاشى من مجال رؤيتك ؛ لكنه لا يتلاشى بالفعل .

وهذا معناه أن قانون إبصارك مَحْكوم بقانون ؛ له مدىً مُحدّد .

وهناك قوانين أخرى مثل : قانون السمع ؛ وقانون الجاذبية ؛ وقانون الكهرباء ؛ وكلها ظواهر نستفيد بآثارها ، ولكِنّا لا نراها ، فلا تعجب من أن يوجد شيء لا تدركه ؛ لأن قُوَى إدراكك لها قوانين خاصة .

ويشاء الحق سبحانه أن يُدلِّل على صدق ذلك بأن يجعل ما يكتشفه العلماء في الكون من أشياء وقُوىً لم تكُنْ معروفة من قبل ؛ ولكننا كنا نستفيد منها دون أن ندري ؛ مما يدلُّ على

أن إدراك الإنسان غَيْرَ قادر على إدراك كل شيء .

وذلك يوضح لنا أن رؤيتنا للسماء مرفوعة بغير عَمَد نراها ؛ قد يعني وجود أعمدة مصنوعة بطريقة غير معروفة لنا ؛ أو هي مرفوعة بغير عَمَدٍ على الإطلاق .

وقول الحق سبحانه : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . ﴾ [الرعد : 2]

(76/407)

هو كلام خبري ، والمثل من حياتنا حين تقول لابنك : " أنا خارج إلى العمل ؛ وذاكر أنت دروسك " ، وبذلك تكون قد أوضحت له : " ذاكر دروسك " وهذا كلام خبريّ ؛ لكن المراد به إنشائيّ .

وإبراز الكلام الإنشائي في مَقَام الكلام الخبري له مَلْحظ ، مثلما تقول : " فلان مات رحمه الله " وقولك " رحمه الله " كلام خبريّ ؛ فأنت تخبر أن الله قد رحمه .

على الرغم من أنك لا تدري : هل رحمه الله أم لا ؛ ولكنك قلت ذلك تفاؤلاً أن تكون الرحمةُ واقعة به ، وكان من الممكن أن تقول : " مات فلان يا ربي ارحمه " ، وأنت بذلك تطلب له الرحمة .

كذلك قول الحق سبحانه : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .

.. ﴾ [الرعد : 2]

أي : دَقِّقوا وأمعِنُوا النظر إليها ، وابحثوا فيما يعنيكم على ذلك إن استطعتم ، وإذا لفتَكَ المتكلم إلى شيء لِيُحرِّكِ فيك حواسَّ إدراكك فمعنى ذلك أنه واثقٌ من صَنْعته .

والمثل من حياتنا ولله المثل الأعلى ، وسبحانه مُنزَّه عن أن يكون له مثل حين تدخل لتشتري صُوفاً ؛ فيقدم لك البائع قماشاً ؛ فتسأله : هل هذا صوف مائة في المائة ؟ " فيقول لك البائع : " نعم إنه صوف مائة في المائة ، وهاتِ كبريتاً لنشعل فتلة منه لترى بنفسك " .

ويوضِّح الحق سبحانه هنا : أن السماوات مرفوعة بغير عَمَدٍ ، وانظروا أنتم ؛ بمَدِّ البصر ، ولن تجدوا أعمدة على هذا الامتداد ، وضمان عدم وجود أعمدة مُتحقِّق لك ولغيرك على مدى أفُق أيٍّ منكم .

ولكُلِّ إنسان أُفُقه الخاص على حسب قدرة بصره ، فهناك من تنطبق السماء على الأرض أمام عيونه ؛ فنقول له : أنت تحتاج إلى نظارة طبية تعالج هذا الأمر .

فالآفاق تختلف من إنسان إلى آخر ، وفي التعبير اليومي الشائع يقال : " فلان ضَيِّق الأفق لا يرى إلا ما تحت قدميْه " .

ولقائل أن يقول : إن هذا يحدث معي ومع مَنْ يعيشون الآن ولا أحد يرى أعمدة ترفع السماوات ؛ فهل سيحدث ذلك مع من سيأتون مَنْ بعدنا ؟

ونقول : لقد مسحتْ الأقمار الصناعية من الفضاء الخارجي كل مساحات الأرض ؛ ولم يجد أحدٌ أية أعمدة ترفع السماء عن الأرض .

وهذا دليل صدق القضية التي قالها الحق سبحانه في هذه الآية : ﴿ اللهُ الذي رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . ﴾ [الرعد : 2]

والسماوات جمع " سماء " وهي كل ما عَلاَكَ فأظَلَّك ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآء . . . ﴾ [البقرة : 22]

ونعلم أن المطر إنما نزل من السُّحُب التي تعلو الإنسان ، وتبدو مُعلَّقة في السماء ، وإذا أُطِلقتْ السماء انصرفت إلى السماء العليا التي تُظلِّل كل ما تحتها .

وحين أراد الناس معرفة كُنْه السماء ، وهل لها جِرْم أم ليس لها جِرْم ؛ وهل هي امتداد أجواء وهواء ؟ لم يتفق العلماء على إجابة .

وقد نَثَر الحقُّ سبحانه أدلة وجوده ، وأدلة قدرته ، وأدلة حكمته وأدلة صَنْعته في الكون ؛ ثم أعطاك أيها الإنسان الأدلة في نفسك أيضاً ؛ وهو القائل سبحانه : ﴿ وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ . . . ﴾ [الذاريات : 21]

وانظر إلى نفسك تجد العلماء وهم يكتشفون في كل يوم شيئاً جديداً وسِرّاً عجيباً ، سواء في التشريح أو علم وظائف الأعضاء .

وسوف تعجب من أمر نفسك ، وأنت ترى تلك الاكتشافات التي كانت العقول السابقة تعجز عن إدراكها ، وقد يُدرك بعضها الآن ، ويُدرك بعضها لاحقاً .

وإدراكُ البعض للمجهول في الماضي يُؤذِن بأنك سوف تدرك في المستقبل أشياء جديدة .

وإن نظرت خارج نفسك ستجد قول الحق سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق . . . ﴾ [فصلت : 53] ومعنى ﴿ سَنُرِيهِمْ . . . ﴾ [فصلت : 53] أن الرؤية لا تنتهي ؛ لأن " السين " تعني الاستقبال ، ومَنْ نزل فيهم القرآن قرءوها هكذا ، ونحن نقرؤها هكذا ، وستظل هناك آيات جديدة وعطاء جديد من الله سبحانه إلى أن تقوم الساعة .

(78/407)

وسبحانه القائل : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : 57]

وأنت حين تفكر في خَلْق السماوات والأرض ستجده مسألة غايةً في الضخامة ؛ ويكفيك أن تتحيّر في مسألة خَلْقك وتكوينك ؛ وأنت مجرد فرد محدود بحيّز ، ولك عمر محدود ببداية ونهاية ، فما بَالُك بخَلْق السماوات والأرض التي وُجِدت من قَبْلك ، وستستمر من

بعدك إلى أن تنشقَّ بأمر الله ، وتتكسر لحظتها النجوم .

ولأبدَّ أن خَلْق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ، فالسماوات والأرض تشمل الكون كله .

وحين تُحدَّث عنها إياك أن تخلط فيها بوهمك ؛ أو بتخمينك ؛ لأن هذه مسألة لا تُدرك في المعامل ، ولا تستطيع أن تُجرِي تحليلات لمعرفة كيفية خَلْق السماوات والأرض .

ولذلك عليك أنْ تكتفي بمعرفة ما يطلبه منك مَنْ خلقها ؛ وماذا قال عنها ، وتذكر قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . . ﴾ [الإسراء : 36]

وقد حجز الحق سبحانه عن العقول المتطفلة أمرين ؛ فلا داعي أن تُرهِق نفسك فيهما :

الأمر الأول : هو كيفية خَلْق الإنسان ؛ وهل كان قرداً في البداية ثم تطوّر ؟ تلك مسألة لا تخصُّك ، فلا تتدخل فيها بافتراضات تؤدي بك إلى الضلال .

والأمر الثاني : هو مسألة خَلْق السماوات والأرض فتقول : إن الأرض كانت جزءاً من الشمس ، ومثل هذا الكلام لا يستند إلى وقائع .

وتذكر قول الحق سبحانه : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ . . . ﴾ [الكهف : 51]

ولو كان الحق سبحانه قد أراد أن تعلم شيئاً عن تفاصيل هذين الأمرين لأشهد خلقهما

لبعض من البشر ، لكنه سبحانه نفى هذا الإشهاد ؛ لذلك ستظل هذه المسألة لُغْزاً للأبد ؛ ولن تَحُلَّ أنت هذا اللُّغْز أبداً ؛ بل يحلُّه لك البلاغ عن الحقِّ الذي خلق .

(79/407)

وقد أوضح لك أنه قد خلقك من طين ، ونفخ فيك من روحه ، فاسمع منه كيفية خَلْقك وخَلْق الكون كله .

ويدل الإعجاز البياني في القرآن على أن بعضاً مِمَّنْ يملكون الطموح العقلي أرادوا أن يأخذوا من القرآن أدلة على صِحَّة تلك النظريات التي افترضها بعض من العلماء عن خَلْق الإنسان وخَلْق الأرض ، فيبلغنا الحق سبحانه مقدّماً ألاّ نصدقهم .

ويقول لنا : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51]

والمُضِلّ هو مَنْ يُضِلُّك في المعلومات ، هكذا أثبت لنا الحق سبحانه أن هناك مُضِلّين سيأتون ليقولوا كلاماً افتراضياً لا أساسَ له من الصّحة .

وأوضح لنا سبحانه أن أحداً لم يتلصَّصْ عليه ، ليعرف كيفية خَلْق الشمس أو الأرض ، ومَنْ يدعي معرفة ذلك فهو من المُضِلّين ؛ لأنهم قَفَوْا ما ليس لهم به علم .

وما دام الحق سبحانه قد قال ذلك ، فنحن نُصدِّق ما قال .

وقد أثبتت التحليلات صِدْق ما قاله سبحانه عن خَلْق الإنسان ، فسبحانه قد خلق الكون أولاً ، ثم خلق السيد لهذا الكون وهو الإنسان ، وكل الكون مُسخَّر للإنسان ويخدم هذا الخليفة في الأرض ، وكل ما في الكون يسير بنظام وانتظام .

والمُتمرد الوحيد في الكون هو الإنسان ، فيأتي الحقُّ سبحانه إلى هذا المتمرِّد ؛ ليجعل الآية فيه ؛ وليثبت صِدْق الغيب في الأرض .

وأوضح سبحانه أنه خلق آدم من الطين ؛ والإنسان من نسل آدم الذي سَوَّاه الله ، ونفخ فيه من روحه ، وبعد ذلك أمر الملائكة ؛ من المُدبِّرات أمراً ومن الحَفَظة ؛ أنْ تسجدَ للإنسان .

وهذا السجود هو إعلان الطاعة لأمر الله بخدمة الإنسان . هذا الذي بدأت حكاية خَلْقه من تراب ، ثم خُلط التراب بالماء ؛ ليصير طيناً ؛ ثم تُرِكَ قليلاً ليصير حَمَأً مَسْنوناً ؛ ثم يجفّ الحَمأ ليصير صَلْصالاً كالفخَّار ؛ ثم ينفخ فيه الحق بالروح .

(80/407)

فإذا ما انتهى الأجل ؛ فأول ما يُنقض هو خروج الروح ؛ ثم يتصلَّب الجثمان ، وبعد أن يُوارَى التراب يصير الجثمان رِمّة ؛ ثم يتسرَّب الماء الموجود في الجثة إلى الأرض ، وتبقى العظام إلى

أن تتحول هي الأخرى إلى تراب .

وهكذا يتحقق نَقْضُ كل بناء ؛ فما يُبني في نهاية أيِّ بناء هو ما يُنقض أولاً ، وهكذا يتأكد لنا صدق الحق سبحانه حين نرى صدق المقابل فيما أخبرنا به سبحانه عن كيفية الخلق .

وعند ما يُخبِرنا الحق سبحانه أن كيفية خَلْق السماوات والأرض ليست في مُتَناولنا ؛ فقد أعطانا من قبل الدليل على صِدْق ما جاء به ، فيما أخبرنا به عن أنفسنا .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه : ﴿ اللهُ الذي رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ . . . ﴾ [الرعد : 2]

وكلمة " السماوات " في اللغة جمع ، وفي آية أخرى ، يقول سبحانه : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا . . . ﴾ [فصلت : 12]

وقديماً كانوا يقولون : إن المقصود بالسبع سماوات هو الكواكب السبعة : الشمس ، والقمر ، وعطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمشترى .

وشاء سبحانه أن يُكذِّب هذا القول وأصحابُه أحياء ؛ فرأى علماء الفلك كواكبَ أخرى مثل : نبتون وبلوتو ؛ وكان في ذلك لَفْتة سماوية لِمَنْ قالوا : إن المقصود بالسماوات السبع هو الكواكب السبعة .

وقد قالوا هذا القول بِحُسْن نية وبرغبة في رَبْط القرآن بالعلم ؛ لكنهم نَسُوا أن يُدقِّقوا الفهم لِمَا في كتاب الله ، فسبحانه قد أوضح أن الشمس والقمر والكواكب زينة السماء الدنيا ،

فما بالُنَا بطبيعة وزينة بقية السماوات؟

ويتابع سبحانه: ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش . . . ﴾ [الرعد: 2]

(81/407)

وهذه قضية هي أهمُّ قضية كلامية ناقشها علماء الكلام؛ قضية الاستواء والعرش،

وحتى نفهم أيَّ قضية لأبدَّ أن نُحلِّل ألفاظها لنتفقَ على معانيها، ثم نبحثها جملة واحدة،

لكن أن نجلس لنتجادل ونحن غير مُتوارِدين ومتفقين على فَهْم واحد؛ فهذا أمرٌ لا يليق.

ولننظر الآن معنى "الاستواء" ومعنى "العرش"، ونحن حين نستقرئ كلمة "استوى" في

القرآن نجدها قد وردتْ في آيات متعددة.

وجاءت مرّة واحدة بمعنى الاستواء أي: النضج، في قول الحق سبحانه: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ

أَشُدَّهُ واستوى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً . . . ﴾ [القصص: 14]

أي: أنه قد بلغ نُضْجه الكماليّ، ويستطيع أن يكون رجلاً صالحاً لممارسة ما يُبقِي نوعه،

وإنْ تزوج فسلوف يُنجب مثله؛ وهذا استواء لمخلوق هو الإنسان.

ومرة أخرى يقول القرآن: ﴿ ذُو مِرَّةٍ فاستوى * وَهُوَ بالأفق الأعلى ﴾ [النجم: 6-7

]

والمعنى هنا هو : صعد ؛ والمقصود هو صعود محمد وجبريل عليهما السلام إلى الأفق الأعلى .

وهناك قوله الحق : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ . . . ﴾ [البقرة : 29]

أي : أنه سبحانه قد استوى إلى السماء ؛ وإياك أن تظن أن استواءه سبحانه إلى السماء مساوٍ لاستواء البشر ؛ لأننا قلنا من قبل : إن كل شيء بالنسبة لله إنما نأخذه في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11]

وبذلك يكون استواؤه سبحانه إلى السماء هو استواء يليق بذاته ، والاستواء المطلق شيء مختلف عن الاستواء على العرش .

وهكذا نجد استواءً لغير الله من إنسان ؛ وهناك استواء لغير الله من إنسان ومن ملك ؛ وهناك استواء من الله إلى غير العرش . وبجانب ذلك هناك استواء على العرش .

وقد وردَ الاستواء على العرش في سبعة مواقع بالقرآن ؛ في : سورة الأعراف ؛ وسورة يوسف ؛ والرعد ، وطه ، والفرقان ، والسجدة ، والحديد .

وورد ذكر العرش في القرآن بالنسبة لله واحداً وعشرين مرّة ، وورد بالنسبة لبلقيس أربع مرات ؛ فهو القائل سبحانه : ﴿ . . . وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : 23]

وقال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا . . . ﴾ [النمل : 38]

ثم قال : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا . . . ﴾ [النمل : 41]

وقال : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ . . . ﴾ [النمل : 41]

وبالنسبة ليوسف قال سبحانه : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش . . . ﴾ [يوسف : 100

]

وإيّاك أن تأخذ الاستواء بالنسبة لله على أن معناه " النُّضْج " ؛ لأن النُّضْجَ إشعارٌ بكمالٍ سَبقه نَقْصٌ .

ولذلك نجد العلماء المُدقّقين قد عَلِمُوا أن ذِكْر استواء الله على العرش قد ورد في سبعة مواضع بالقرآن الكريم وقالوا :

وَذِكْرُ اسْتِواءِ اللهِ فِي كَلِمَاته على . . . العَرْشِ فِي سَبْعِ مَوَاضِعَ فَاعْدُدِ

فَفِي سُورَةِ الأَعْرَافِ ثُمَّةَ يُونُسَ . . . وَفِي الرَّعْدِ مع طه فَلِلْعَدِّ أَكِّدِ

وَفِي سُورَةِ الفُرقَانِ ثُمَّةَ سَجْدة . . . كَذَا فِي الحَدِيدِ افْهَمْهُ فَهْم مُؤَيِّدِ

وقالوا في المعنى :

فَلَهُمْ مَقالاتٌ عَلَيْهَا أَرْبعة . . . قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفارسِ الطَّعَّانِ

وَهي اسْتقرَّ وقَدْ عَلاَ . . . وَكذلِكَ ارتَفَعَ مَا فِيهِ مِنْ نُكْرانِ

وَكَذاكَ قَدْ صَعَدَ الذِي هُوَرَابِعٌ . . . بِتمَامِ أمْرٍ مِنْ حِمَى الرَّحمَانِ

والصعود إلى العرش هو حركة انتقال من وضع إلى وضع لم يَكُنْ فيه .

وهكذا نجد أن المعاني التي تتمشَّى مع الاستواء في عُرْفنا البشري لا تتناسب مع كمال الله

.

واختلف العلماء : قال واحد منهم : " سآخذ اللفظ كما قاله الله " .

ونردُّ على هذا بسؤال : وهل يمكنك أن تُغَيِّبَ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [

الشورى : 11]

طبعاً ، لا أحدَ يستطيع ذلك ، وعليك أن تأخذ كل فَهْمٍ لشيء يخصُّ الذات العَلية في إطار

:

(83/407)

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11]

ولذلك نجد أهل الدِّقة يقولون : " الاستواء معلوم ، والكَيْف مجهول ، والسؤال عنه الكيفية

بدعة ؛ لأن المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسألوا عن تلك الكيفية ، رغم

أنهم سألوا عن كثير من الأمور .

وهناك آيات متعددة تبدأ بقول الحق سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ . . . ﴾ [البقرة : 189]

وكان السؤال وارداً بالنسبة لهم ؛ لكنهم بملكتهم العربية الفطرية قد فَهِموا الاستواء كشيء يناسب الله ، فلم يسألوا عنه .

وجاء السؤال من المتأخرين الذين تمحّكوا ، فقال واحد : سآخذ الألفاظ بمعناها ؛ فإن قال : إن له صعوداً ؛ فهو يصعد ، وإنْ قال : إن له استواء فهو يستوي .

ولِمَنْ قال ذلك نردُّ عليه : إن ما تقوله صالحٌ للأغيار ، ولا يليق أن تقول ذلك عن الذي يُغيِّر ولا يتغيَّر . وإذا سألتَ عن معنى كلمة " استواء " فهو " استتب له الأمر " . وهل كان الأمر غير مستتب له سبحانه ؟

ونقول : نحن نعلم أن لله سبحانه وتعالى صفات متعددة ، وهذه الصفات كانت موجودة قبل أن يخلق الله الخَلْق والكون ؛ فسبحانه موصوفٌ أنه خالق قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ومُعِزٌّ قبل أن يخلق مَنْ يُعزّه ، ومُذِلّ قبل أنْ يخلق مَنْ يُذِلّه ، وله سبحانه صفاتُ الكمال المُطْلق .

وبهذه الصفات خلق الخلق ، يقول الحق : ﴿ . . . رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50]

وكذا نؤمن بأن صفة الخَلْق كانت في ذاته قبل أن يخلق خَلْقه ، وحين خلق سبحانه السماوات والأرض أبرز الصفة التي كانت موجودة فيه وليس لها مُتعلِّق ؛ فأوجد هو

سبحانه المُتعلّق ، وهكذا استتبّ له الأمر سبحانه .

إذن : إذا ذُكِر استواءُ الله ، فهذا يعني تمامَ المُرَاد له ، فصار للصفات التي كانت فيه ، وليس لها مُتعلِّق أو مَقْدُور ؛ مُتعلِّق ومَقْدور .

(84/407)

وإذا وُجِدَتْ هذه الصفة في البشر مثل بلقيس التي وصفها سبحانه : ﴿ . . . وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : 23]

فهي تختلف عن صِفَة الله ؛ لأنها لم تجلس على العرش إلا بعد أن خلقها الله ، ولا يستتب الأمر لملك أو ملكة إلا بمتاعب ومعارك ، وقد ينشغل هذا الشخص في معارك وحروب ، ثم يستتبّ له الأمر .

وهكذا يختلف استواءُ الله عن استواءِ خَلْق الله ، وإذا ذُكر استواء الله على العرش ؛ فنحن نُنزِّه الله عن كل استواء يناسب البشر ، ونقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11]

واستواؤه هو تمام الأمر له ، لأن أمره صادر ، وعند تحقيق أمره في توقيته المراد له يكون تمام الأمر ، وتمام الأمر استواؤه ، أما كلمة " العرش " فنحن نجدها في القرآن بالنسبة لله .

إما مُضَافاً لاسم ظاهر : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ . . . ﴾ [الحاقة : 17]

وإما مُضَافاً للضمير المخاطب أو الغائب : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَآءِ . . . ﴾ [هود : 7]

وإما مضافاً للتنسيب : ﴿ . . . فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 7]

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر .

. . ﴾ [الرعد : 2]

والتسخير هو طلب المُسخِّر أن يكون كما أراده تسخيراً ، بحيث لا تكون له رغبة ، ولا رأْي ، ولا هوَى ، والتسخير ضِدُّه الاختيار .

والكائن المُسخَّر لا اختيار له ، أما الكائن الذي له اختيار فهو إنْ شاء فعل ، وإنْ شاء لم يفعل .

وقُلْنا قديماً : إن الحق سبحانه قد خيَّرَ الإنسان : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72]

وبذلك قَبِل الإنسان أداء الأمانة وَقْت أدائها ؛ لا وَقْتَ تحمُّلها ، ووقت الأداء غير وقت التحمُّل ، وضربتُ المَثَل بمَنْ يقول لصديقه " عندي ألف جنيه ؛ وأخاف أنْ يضيعوا مِنّي ؛ فاحفظهم لي معك ؛ وحين أحتاجهم اعْطِهمْ لي " .

ويقول الصديق : " هَاتِ النقود وسأُعطِيها لك وقت أنْ تطلبها " .

والصديق صادقٌ وقت تحمُّل الأمانة ؛ لكن ظروفاً تمرُّ عليه ، فيتصرَّف في هذه الأمانة ؛ وحين يطلبها صاحبها ؛ قد يعجز حامل الأمانة عن ردِّها ، وهو بذلك ضَمِنَ نفسه وقت التحمُّل ؛ لكنه لم يضمن نفسه وقت الأداء .

وكان من الواجب عليه أن يقول لصديقه لحظةَ أنْ طلب منه ذلك : " أرجوك ، ابتعد عنِّي لأنِّي لا أضمن نفسي وَقْت الأداء " .

وقد أَبَتِ السماء والأرض والجبال تحمُّل الأمانة وَقْت عَرْضِها ؛ وقَبِلتْ كل منهم التسخير ؛ فلا الجبال ولا السماوات ولا الأرض لها قدرة الاختيار ، ولا هَوى لأيٍّ منها في هذه القدرة ؛ مثلها في ذلك مثل كل أجناس الكون ما عدا الإنسان ؛ ولم نجد فساداً في الأرض قد نشأ من ناحية المُسخَّرات .

أما الإنسان فقد قَبِل تحمُّل الأمانة ؛ لأن له عقلاً يُفكِّر ويختار ؛ ومن الاختيار ونتيجة للهوى جاء الفساد في الكون ، ولو أقبل الإنسان على العمل وكأنه مُسخَّر خاضع لمنهج الله ؛

لاستقام عمل الإنسان مِثْلما يستقيم عَمَل كل الكائنات المُسخَّرة بأمر الله .

فإن أردتم أن تستقيمَ أموركم فيما لكم فيه اختيار ، فطبّقوا قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي الميزان * وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ [الرحمن : 8-9]

وانظروا ماذا يطلب الحق منكم في منهجه ، فإنْ نفّذتم المنهج تَسْتقِمْ أموركم ، كما استقامتْ الكائنات المُسخَّرة .

(86/407)

ولا يأتي الخَلَل إلا من أننا نحن البشر نقوم ببعض الأعمال باختيارنا ، وتكون مخالفة لمنهج المُشرِّع ، أما إذا كنا نؤدي أعمالنا ونضع نُصْب أعيننا قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي الميزان ﴾ [الرحمن : 8]

فلسوف تكون أعمالنا مُطابقة لمنهج الله ، وسنجد في أعمالنا ما يَسرُّنا مثل سرورنا حين نجد الأفلاك منتظمة بدقة وحساب .

إذن : فالفساد لا يأتي إلا من الاختيار غير المُرْتجي لمنهج مَنْ خلق فينا الاختيار ، وإن كنت تريد أن تكون مختاراً ؛ فعليك أن تلتزم بمنهج مَنْ خيَّرك .

ولذلك نجد الصالحين من خَلْق الله قد ساروا على منهج ربهم ؛ والتزموا باختيار مراد ربهم

فيما لهم فيه اختيار ؛ فصاروا وكأنهم مُسخَّرون لمُرَادات الله .

وهؤلاء يسمُّونهم " العباد " لا " العبيد " ؛ فكل مملوك لله من العبيد ؛ آمن به أو كفر ؛ أطاع أو عصى ؛ أما العباد فَهُمْ مَنْ جعلوا مرادات الله هي اختيارهم ، يقول تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63]

هؤلاء هم مَنِ اتجهوا بالاختيار إلى ما يختاره لهم الله .

ونجد الحق سبحانه يقول في الملائكة : ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 26-27]

وإذا ما التزم العبد بمنهج ربه في حال الاختيار ؛ فهو لا يتساوى مع الملائكة فقط ، بل قد يسمو عنهم ؛ لأنهم مَقْهورون بالتسخير ؛ بينما تتمتع أنت بالاختيار ؛ وآثْرتَ منهج ربك .

ويقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يجري إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ [لقمان : 29]

ولحظةَ تجد التنوين مثل "كلٌّ" فهذه يعني كلاّ من السابق . أي : الشمس والقمر . أما الجَرْي إلى أَجَلٍ مُسمّى ؛ فيقتضي مِنّا أن نفهم معنى الجَرْي ؛ وهو تقليل الزمن عن المسافة .

فحين تريد الوصول إلى مكان مُعيَّن فقد تمشي الهُوَيْنا ؛ لِتَصِلَ في ساعة زمن ، وقد تجري لتقطع نفس المسافة في نصف ساعة ؛ والجَرْي بطبيعة الحال ملحوظ مِمَّن يراك .

لكن : هل يرى أحدنا الشمس وهي تجري ؟

لا ، لأنها تجري في ذاتها ؛ ويُسمَّى هذا النوع من الجري " جري انسيابي " . أي : لا تدركه بالعين المجردة ، وهناك ما يُسمّى " انتقال قفزي " ، وهناك ما يُسمّى " انتقال انسيابي " .

وانظر إلى عقارب الساعة ؛ ستجد عقربَ الثَّواني أسرعَ من عقرب الدقائق الذي يبدو ساكناً رغم أنه يتحرك ؛ وأنت ترى حركة عقرب الثواني ؛ لأنها تتم قَفْزاً ؛ بينما لا ترى حركة عقرب الدقائق ؛ لأنه يتحرك تِبَعاً لدورة هادئة من التروس داخل الساعة ؛ وكل جزئية في حركة التُّرْس الخاص بعقرب الدقائق تتأثر بحركة تُرْس عقرب الثَّواني ؛ والحركة القفزية لعقرب الثواني تتحول إلى حركة انسيابية في عقرب الدقائق .

وحركة كل من العقربين تتحول إلى حركة أكثر انسيابية في عقرب الساعات ، وهذا يعني أن كل جزئية من الزمن فيها جزئية من الحركة .

وحتى في النمو بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات ، تجد عملية النمو غير ظاهرة لك ؛ لأن الكائن الذي ينمو إنما ينمو بقدر بسيط غير ملحوظ ، وهذا القدر البسيط شائع في اليوم كله .

وإن أردتَ أن تعرف هذه المسألة أكثر ، انظر إلى الظل ، وأنت ترى الظل واضحاً ساعةَ سطوع الشمس ، ثم ينحسر الظل بانحسار الشمس .

واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ [الفرقان : 45]

أي : أن الظل متحرك وغير ثابت ، وكل جزئية من الزمن تؤثر في حركة الشمس ، فيتأثر بها الظل .

وهكذا يجب أن نُفرِّق بين الحركة القفزية والحركة الانسيابية ، وحين تقدمنا في العلم نجدهم يقولون : سنزيد من الحركة الانسيابية عن الحركات القفزية " .

(88/407)

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ [الرعد : 2] والأجل هو المدة المحدودة للشيء ؛ وهي محدودة زمناً إنْ أردنا ظرف الزمان ؛ أو محدودة بالمسافة إن أردنا المكان .

والمقصود هنا بالأجل ؛ إما الأجل النهائي لوجود الشمس والقمر ؛ ثم إذا انشقتْ السماء كُوِّرتْ الشمس ، وانكدرت النجوم .

أو : أن المقصود هنا بالأجل هو للتعبير عن عملها اليومي .

وقد عرفنا أن هناك مطالع متعددة للشمس ، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة ؛ لكن المطالع مختلفة ، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا في بعض المعابد طاقاتٍ وفتحاتٍ في البناء .

فتطلع الشمس كُلَّ يوم من أحد هذه الطاقات ؛ فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق ، وتظل تقطعها ، ثم تعود مرة أخرى ، وتفعل ذلك إلى أجل مُسمّى أي يومياً .

ونُسمِّي نحن تلك المنازل " البروج "كبرج الحَمَل ؛ والجَدي ؛ والثور ؛ والأسد ؛ والسنبلة ؛ والقوس ؛ والحوت ؛ ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة ، وبرودة ، ومطر ، وغير ذلك ، ذلك أن كُلَّ برج له زمن ، ويمكن تعريف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة .

ولكن بعضاً من تصرفات الإنسان تفسد عملية التحديد الدقيق في الكون ، مثلما يشعل البعض الحرائق في الغابات ؛ فتحرق النار الأكسوجين الذي يحتاجه البشر والحيوانات للتنفس ، ويحاول الغلاف الجوي أن يتوازن ، فيشُدّ كميات من الهواء من منطقة أخرى ، فيختلّ ميزان الطقس لأيام .

وكذلك يفسد الجو من التجارب الذرية التي تُجريها الدول أعضاء النادي الذري ؛ تلك التجارب التي تقوم بتفريغ الهواء ، فتجعل الطقس غَيْرَ مُسْتقر وغير منضبط ؛ وهذا ما

يفسد استخدامنا للأبراج كوسيلة لمعرفة تقلُّبات الطقس .

وقد أوجز الشاعر تلك الأبراج في قوله :

حَملَ الثورُ جَوْزَةَ السَّرطَانِ . . . ورعى الليث سنبل الميزان

(89/407)

عَقْرب القَوْس جَدْي دَلْو وحُوت . . . مَا عَرفْنَا مِنْ أُمةِ السُّرْيَانِ

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ . . . يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : 2]

وسبحانه قد أوضح من أول الآية مسألة رَفْع السماوات بغير عَمَدٍ ، واستوائه على العرش ، وتسخير الشمس والقمر ، وكيف يجري كُلُّ شيء لأجل مُسمّى .

وكُلُّ ذلك يتطلب تدبيراً للأمر بعد أن أبرز القدرة ؛ ثم يصون ذلك كله ، فكما قَدَّر فخلق ، فهو يُدبِّر بقيوميته ، فهو القائم على كل شيء ، وسبحانه كل يوم هو في شَأْن .

وأقول هذا المثل لأوضح لا لأُشبِّه فسبحانه مُنَزَّه عن التشبيه ونحن نقول : فلان فكَّر أولاً ثم دبَّر ، والتفكير هو العملية التي تبحث فيها عن الشيء لإخراج المطلوب منه ؛ كأن تأتي بقليل من حبوب القمح لتفركه بيدك لتخرج القمحة من قشرته .

هذا هو التفكير الذي يطلب منك أن تبحث وتُنقِّب إلى أن تصل إلى لُبِّ الأشياء .

والتدبُّر يقتضي ألاّ تقتنع بما هداك إليه فكرك في نفس اللحظة ، ولكن أن تُمحِّص الأمر لترى ماذا سينتج عن تنفيذ ما وصل إليه فكرك ؟

فربما ما فكرتَ فيه يُسعِفك ويُعينك في لحظتِكَ الحالية ؛ لكنه سيأتي لك بعَطَبٍ بعد قليل .

والمَثَلُ الذي أضربه على مثل هذه الحالة دائماً هو اختراع المُبيدات الحشرية ؛ ولم يَفْطِنوا إلى أن هذه المبيدات لا تقتل الحشرات الضارة وحدها ، بل تُسمِّم الطيور التي كانت تفيد الفلاح .

ووصل الأمر إلى حَدِّ تحريم استخدام هذه المبيدات ؛ وجاء هذا التحريم ممن تفاخروا من قَبْل على كل شعوب الأرض باختراعهم لتلك المبيدات ، فقد فَطِنوا إلى أنَّ ما جاءهم من خَير عن طريق تلك المبيدات هو أقلُّ بكثير من الضَّرِّ الذي وقع بسببها .

(90/407)

وهذا يعني أنهم لم يتدبروا اختراعهم لتلك المبيدات ؛ فقاموا بتصنيعها لفائدة عاجلة ، دون أن يتلفتوا إلى الخطورة الآجلة ، وكان لأبدَّ لهم أن يتدبروا الأمر ، لأن التدبُّر معناه النظر في

دُبر الأشياء .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : 24]

أي : لا تنظر إلى واجهة الآية فقط ، بل انظر في أعماقها ، ولذلك يقول لنا سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : " ثَوِّروا القرآن " .

أي : استخرجوا منه الكنوز بالتدبُّر ؛ لأن التدبر يحمي من حماقة التفكير ، والمثل البسيط المتكرر في بيوتنا هو أننا نغسل أفواهنا بعد تناول الطعام ونتمضمض مِمَّا بَقِي في الفم من بقايا .

ونجد من بين هذه البقايا بعضاً من " الفتافيت الصلبة بعض الشيء " ، ثم نغسل حوض المياه بتيار متدفق من ماء الصنبور ، ونُفَاجأ بعد فترة من الزمن بانسداد ماسورة الصرف الخاصة بالحوض ؛ وحين يفتح السباك ماسورة الصرف هذه يجدها مليئة برواسب من بقايا الأطعمة .

وأنت حين تمضمضتَ لم تلتفت إلا لنظافة الفَمِ من البقايا ، ولم تتدبر أمر تلك البقايا ، ولو أنك تدبرتَ ذلك لَقُمْتَ بتركيب ماسورة صرف للحوض أكبر من الماسورة التقليدية الضيقة ؛ ولَجعلْتَ صندوق الطرد الخاص بالحوض أكبر من الحجم المعتاد والمُجهّز لصرف المياه فقط .

وهكذا نرى أن الفكر يحثُّك على أن تبحث عن مطلوب لك ؛ ولكن عليك أن تنظر وتُدقّق : هل يحقق لك ما يقترحه عليك فكرك ؛ ما يفيدك أم ما يضرك ؟

هذا هو التدبُّر ، وهو ما نُسمّيه صيانة الأشياء .

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية : ﴿ . . . يُفَصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : 2]

(91/407)

وتفصيل الآيات يعني أنه جعل لكل أمر حُكْماً مناسباً له . ودائماً أقول لمن يسألني عن فتوى ؛ ويُلِحّ أن تتوافق الفتوى مع مراده : " نحن لا نُفصِّل الفتوى من أجل هواك ؛ لأن ما عندي هي فتاوى جاهزة ؛ وعليك أن تضبط مقاسك أنت على الفتوى ، لا أن نُفصِّل لك الفتوى على هواك " .

أقول ذلك ؛ لأن المسألة ليست حياة تنتهي إلى العَدَم ، ولكن هناك حياة أخرى تُحاسب فيها على كل تصرُّف ، فالحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23]

وهو القائل سبحانه أيضاً جَلَّ وعلا : ﴿ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ

يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ . . . ﴾ [إبراهيم : 18]

ولذلك فعليك أن تُقبِل على كل عمل وأنت مُوقِن بأن هذا العمل لا ينتهي بتركك للحياة الدنيا ، ولكن لكل عمل آثاره في حياة باقية ، وإذا كانت الدنيا تحمل لك راحة موقوتة أو تعباً موقوتاً ، فالراحة في الآخرة باقية أبداً ؛ والتعب فيها غير مَوْقوت . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(92/407)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) (الرعد : 1) ، هنا سؤالان : أحدهما ، أن السور الخمس المكتنفة لهذه افتتحت بقوله تعالى : (آلَر) وخصت سورة الرعد وهي سادستها بزيادة الميم (فقيل آلمر) ، وللسائل أن يسأل عن ذلك ؟

والسؤال الثاني قوله تعالى : (وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) (الرعد : 1) ، وعطف هذه الجملة على ما قبلها يقتضي أن المعطوف مغاير لما عطف عليه وإلا لزم منه عطف الشيء على نفسه ؟

والجواب عن الأول، والله أعلم: وإن كان مفهوماً مما تقدم فلهذا الوارد هنا ما يخصه وهو أن السورتين المكتنفتين لهذه السورة وهما سورة يوسف وسورة إبراهيم لم يرد فيهما من الكلم المجتمع في تركيبها الألف واللام والميم والراء (ما ورد) في سورة الرعد، أما سورة يوسف ففيها من ذلك كلمة: (الأمر) في قوله تعالى: (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) (يوسف: 41)، ولفظ: (المجرمين) في قوله تعالى: (وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) (يوسف: 110)، وأما سورة إبراهيم ففيها قوله تعالى: (لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ) (إبراهيم: 22)، وقوله: (مِنَ الثَّمَرَاتِ) (إبراهيم: 32)، وقوله: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) (إبراهيم: 33)، وقوله: (عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) (إبراهيم: 37)، وقوله: (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ) (إبراهيم: 49)، فهذه خمس كلمات. وأما سورة الرعد فقد (ورد) فيها من ذلك قوله تعالى: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) (الرعد: 2)، وقوله: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) (الرعد: 2)، وقوله: (مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) (الرعد: 3)، وقوله: (وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ) (الرعد: 8)، وقوله: (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) (الرعد: 30)، وقوله: (فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) (الرعد: 42)، فهذه ست كلمات من هذا التركيب لم ترد في مكتنفيها ،

فلزيادة ما ورد فيها من هذا التركيب ورد في مطلعها ما ورد من زيادة الميم ، والله أعلم .

والجواب عن السؤال الثاني : بعد تمهيد ، وهو أنا إن قلنا : إن المراد بالمعطوف الكتاب بجملته ، (والكتاب بجملته) هو المنزل ، كان من عطف الشيء على نفسه ، وإن قلنا : إن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل أو أحد الكتابين ففي هذا من البعد ما لا خفاء

(94/407)

به ، إذ لم نتعبد من هذه الكتب إلا بالإيمان ، فإنزالها ووجودها على الجملة على ما تقرر في شريعتنا ، فكيف تقع الإحالة في الاعتبار عليهما ولم نؤمر باعتبارهما في حكم ولا أمر ولا نهي ، وإن قلنا إن المراد بآيات الكتاب آيات السورة ، وبالكتاب السورة ، وبالذي أنزل إليك سائر القرآن ، كما قال الزمخشري كان أقرب ، وفيه نحو تحريم على المقصود من غير إفصاح مخلص ، فأقول ونسأل الله توفيقه : إن الدلائل الاعتبارية على تفاصيلها منحصرة في منهجين بهما حصول التوحيد وإثبات الرسالة ، وعلى مضمن تفاصيلها منحصرة في منهجين بهما حصول التوحيد وإثبات الرسالة ، وعلى مضمن تفاصيلها دارت الآي الاعتبارية والتذكير في كتاب الله تعالى : أحدهما ، ما يدرك بالحواس ، وإطالة التفكير في الموجودات وارتباطها ، ولحظ الابتداءات والانتهاءات ، وتقلب الأكوان ، (واختلاف

الألسنة والألوان ، وحركات الأفلاك وكواكبها الثابتة والسيارة) ، واختلاف حركاتها في السرعة والبطء ، وخنوس الخمسة منها ومطارح شعاعها ، ومقادير الأزمان ، وتقلب النهار والليل بالطول والقصر ، وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ، وتعاقب الفصول بالحر والبرد ، وتسخير الرياح ، وما في ذلك كله من عليّ الإحكام وجليل الإتقان ، إلى ما يرجع إلى ذلك مما تستقل به العقول وتجزم بدلالته ، والمنهج الثاني : ما يرجع الاعتبار به إلى المأثور من أحوال الأمم والقرون المتقدمة ، ودعاء الرسل إياهم وما كان من أخذ تكذيبهم حين تمردوا وعتوا ، فكل أخذ بذنبه ، ونجاة المؤمنين من كل أمة . فعلى هذين المنهجين دارت آي الكتاب العزيز المنطوية على تذكير العباد وتحريكهم للاعتبار ، فمن الأولى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) (البقرة : 21) إلى قوله (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة : 22) ،

(95/407)

وقوله تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) إلى قوله (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة : 164) ، وقوله : (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الجاثية : 3) ، وقوله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ) (الذاريات : 20-21) ، إلى ما

يجاري هذه الآي مما يشير إلى دلائل الآفاق ودلائل الأنفس وما يرجع إلى ذلك من دلائل التوحيد والتذكير به ، فالربع الأول من القرآن أكثر ، ثم يليه في ذلك الربع الثاني ، كما يكثر التذكير في الثاني (بما ورد في المنهج الثاني) ، وإنما ذلك -والله أعلم- لأن الضرب الأول معقول ومستنده ضروري لأن مباديه حسية وبه اعتبر من انتهى إلى علم من الأوائل ممن كان في الفترات ، فمنهم المصيب والمخطيء ، وهو معتبر منصوب للعالم من لدن وجودهم إلى قيام الساعة ، لا يضطر فيه إلى نقل ناقل ولا الاعتبار به من حيث الدلائل يتنزل النظر في آيات الرسل وما جاؤوا به متحدين ، وتعرف الخارق للعادة من غيره ، فلهذا -والله أعلم- تقرر هذا الضرب مبدوءاً به في الترتيب الثابت عليه المصحف وأتبع بالضرب الآخر على مقتضى الاعتبار ،

فمن عرف الجائز والمستحيل أمكنة الاعتراف بالبدأة والعودة ، وإرسال الرسل ، والثواب والعقاب ، فيحصل العقل الجواز ويحصل التصديق بوقوع هذا الجائز من أخبار الرسل بالنظر في معجزاتهم ، فبدئ بالضرب الأول بمقتضى الترتيب كما بينا ، ولم يقع في الربع الأول من القرآن بسط اعتبار بالضرب الثاني بالإخباري ، إنما أمعن بذكره في الربع الثاني وبسط الأخبار عن القرون المهلكة والأمم السالفة مع أنبيائهم وما أعقبهم التكذيب وأخذ كل قرن من المكذبين بما أخذ به ، ولم ينقطع التنبيه والتحريك مع ذلك بما في الضرب الأول وما يرجع إليه .

(96/407)

ثم قد تجد السورة الواحدة مجرد لهذا الضرب كسورة الرعد ، وللضرب الثاني كسورة الأعراف وسورة يوسف ، عليه السلام ، وقد تجمع السورة الضربين على السواء أو ما يقاربه كما في سورة الحجر ، وأما سورة البقرة فقد تضمنت من كل (من) الضربين ما فيه شفاء على إجمال فيما أشير إليه من الضرب الثاني ، إذ هذا الضرب إنما استوفى تفصيله في الربع الثاني .

(97/407)

ثم إن الضرب الأول وهو الذي يدرك بالعيان من آيات (اللوح) المحفوظ المتضمن لكل من الضربين ، قال تعالى : (كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (هود : 6) ، وإذا قلنا إن الإشارة إلى اللوح إنما يريد ما يستدل به ويعتبر مما نصب تعالى من الآيات الدالة على عجائب من مضمناته ، إذ لولا نصب تلك الدلائل ووضوح الاعتبار بها لما أطلعنا عليه ، وبلغ بحسب ما قدر الوصول إليه من مضمنه ، إذ هو محتو على كل شيء ، قال تعالى : (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (النمل : 75) ، وتتباين أحوال المعتبرين ، فعلى هذا يفهم المراد من قولنا : (إن الإشارة بقوله) : (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) إلى اللوح المحفوظ ، وهو مراد من قال بذلك في سورة البقرة من المفسرين وسورة النمل ، ومن قال به أيضاً في سورة الرعد وهو الظاهر فيها ، وقوله : (وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) (الرعد : 1) ، إشارة إلى الضرب الثاني وهو ما طريق تعرفه الخبر الصادق وذلك أخبار الأمم مع أنبيائهم على ما تقدم وما نبينه بعد ، وهذا الضرب موصل أيضاً إلى المقصود ، إلا أنه لا يوصل إليه إلا من جهة الخبر وإن كان من مضمن ما في اللوح المحفوظ ، وإذا وضح هذا التفصيل لم يبق إشكال في فهم ما تقدم من أن الإشارة بقوله : (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) إلى غير ما أشير بما عطف عليه من قوله : (وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) وقوله في الحجر : (وَقُرْآنٍ مُبِينٍ) (الحجر : 1) ، وكذلك الوارد في النمل وإن خالف في التقديم والتأخير لقوله فيها :

(98/407)

(تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ) (النمل : 1) ، فقدم هذا الإشارة إلى الضرب المؤخر في السورتين قبل ، ويشهد لهذا ويوضحه رعي التقابل المناسب في هذه السور وبناء النظم وبيانه على ذلك ، ألا ترى أن سورة الرعد لم تنطو من الضرب الثاني على قصة واحدة ،

وإنما دارت آيها الاعتبارية على ما به الاعتبار من الضرب (الأول خاصة ، وسنعود إلى بيان ذلك بإيراد آيها ، وإنما لم يذكر فيها شيء من الضرب) الثاني لأن بناء السورة إنما هو على الضرب الأول ، ولهذا لم يشترك المعطوفان في اسم الإشارة إلا أن قوله تعالى : (وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) (الرعد : 1) جملة مستقلة ، وقد وقع الموصول فيها وهو الذي مبتدأ خبره الحق ، وما بينها صلة ، والجملة معطوفة على الجملة قبلها ، وكل واحدة منهما مستقلة ولا تسلط لاسم الإشارة على الجملة الثانية .

أما قوله في سورة الحجر : (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ) (الحجر : 1) معطوف على الكتاب المضاف إلى الخبر عن اسم الإشارة وهو آيات وداخل تحت اسم الإراة ، وهو من عطف المفردات وما عطف المفردات وما عطف عليه وشرك معه بخلاف آية الرعد إذا العطف فها من عطف الجمل .

(99/407)

وأما الوارد في سورة النمل فمثل ما في سورة الحجر ، وحكم اسم الإشارة منسحب على ما أضيف إليه خبر اسم الإشارة وما عطف (عليه) ، وهو من عطف المفرادت أيضاً كآية الحجر ، وكلا الآيتين مخالف لما ورد في سورة الرعد ، فلما وقعت الإشارة في سورتي

الحجر والنمل إلا أن الضربين معاً تضمنت كل واحدة من السورتين مما به الاعتبار ذكر الضربين معاً ، ولما اختصت الإشارة في سورة الرعد بالضرب الأول لم يقع إخبار بغير ذلك الضرب ، وهذا يرفع كل إشكال فيما تقدم ، ومما يزيد وضوحاً فيما تقدم أن سورة الحجر لما قدم فيها ذكر الكتاب قدم فيها من الضربين الضرب المعتبر من آيات اللوح المحفوظ ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (الحجر : 16) إلى قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ (الحجر : 22) الآية ، ثم بعد ذلك ذكر مما به الاعتبار من الضرب الثاني في قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الحجر : 51) إلى قوله : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الحجر : 84) ، فتأخر ما ورد في هذه السورة من هذا الضرب ليطابق تأخر ذكره في قوله : ﴿ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ . ولما تقدم في سورة النمل من الاسمين المضاف إليهما خبر اسم الإشارة القرآن وتأخر الكتاب فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (النمل : 1) قوبل بتقديم الضرب المشار إليه أولاً ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ ﴾ (النمل : 6-7) . وذكر

من القصة مجملا ما إذا اعتبر وفي بأتم ما يحصل المعتبر به على أعلى مقصود موف بخلاصة وذلك إلى قوله : { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } [النمل : 14] ، ثم أتبع بقصة داود وسليمان وما استجر ذلك من قصة بلقيس وما تلاها ، ثم أعقب بعد بالضرب الآخر ، فقال تعالى : { أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [النمل : 60] إلى قوله : { بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ } [النمل : 66] . ولما لم يقع في سورة الرعد الضرب الأول - كما تقدم - لم يرد فيها من آي الاعتبار إلا ما هو منه ، ولم يقع في السورة غير ذلك ، فقد بان بحول الله ما اعتمد جواباً عن السؤال الثاني ، ووضح التناسب وجلالة النظم ، [ومع وضوحه لم أقف على من استقرأه من هذه السورة منا بينته ، ولا توقف فيه والحمد لله على ما ألهم إليه من ذلك] .

(101/407)

ثم أعلم بعد أن ما اعتمدناه من هذا المأخذ لم ينفرد فيه إذا حقق بغير التمهيد وإيراد النظائر وبيان ما أجمله غير واحد ممن تقدم من المفسرين على اختلاف ترجمتهم عما تضمنه ، فمنها القريب ومنها البعيد ، وكل منها : إذا أمعن فيه النظر ربما أدى إلى ما تقرر ، ولم أنفرد عنهم إلا بتوجيه النظر على ما اعتمدته ، وإظهار المناسبة ، وإبداء شواهد ونظائر لما

اعتمد . فمن ذلك ما تردد للمفسرين من قوله تعالى : في سورة البقرة : (ذَلِكَ الْكِتَابُ) (البقرة : 2) (من) مأثور ما حكوه عن من تقدمهم من أن الإشارة إلى اللوح المحفوظ ، وذكر ذلك ابن عطية وغيره من غير تعرض لزيادة ، ونسبوا ذلك إلى ابن جبير ، وقال بعضهم في قوله تعالى في سورة النمل : (تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ) (النمل : 1) ، قال : المراد بقوله : (وَكِتَابٍ مُبِينٍ) (النمل : 1) اللوح المحفوظ وذكره الزمخشري ، ولا شك أن هنا إيماء (إلى) ما تقدم بسطه ، وزاد الزمخشري على هذا ما ذكره في سورة الرعد من أن المراد (بآيات الكتاب العزيز) آيات السورة ، (والذي أنزل إليك) سائر القرآن ، وهو نحو ما قلناه ، ألا ترى أن آيات السورة لم تخرج عن الضرب الاعتباري المدرك لكل ذي عقل سليم على ما تقدم وما نبنية بعد ، وتلك آيات اللوح وأم الكتاب ، فهذا ما قلناه وقد أطنبنا فيه (من) الوارد في سورتي الحجر والنمل ما شهد بأنه المقصود قطعاً . وقال بعضهم في قوله تعالى في سورة البقرة : (ذَلِكَ الْكِتَابُ) أنه واقع على القرآن وعلى الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ ، ثم قال بعد مستدلا : ذلك إشارة إلى غائب ، يعني أن ذلك إنما يشار به إلى البعيد الغائب ، ولوضوح إدراكه صحت الإشارة إليه ، ثم قال بعد واسم الكتاب غيب ولذلك حسن فيه ذلك ، ثم استدل على أن الإشارة إلى اسم الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ في القرآن الحاضر المتلو على ألسنتنا قد ارتاب

فيه من لم يرد الله هدايته فقالوا سحر وشعر وأساطير الأولين ، وذهبوا به كل مذهب .

واسم الكتاب يعني بما بدا منصوباً وظهر ليس كذلك ، فهذا الذي لا ريب فيه إذ هو مشاهد للأبصار ومدرك للعيان لمن هدي واستبصر ، قال الله جل جلاله : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد : 1) ، ثم قال : ﴿ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الرعد : 1) ، قال : ثم جعل جل جلاله يسرد آيات التاب) المبين فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ (الرعد : 2) إلى قوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد : 4) ، قلت : على هذا استمرت وتوالت آيات هذه السور لم يتخللها من غير ما هو آية منصوبة للاعتبار إلا ما استدعاه مقصود آي منها أو معناها ، من غير أن يتخللها مما يدرك بالخبر كبير شيء ، على هذا دار كلام من أشرنا إليه وهو ما اعتمدته وبسطته واستشهدت عليه ونظرته بما ظهر لي مما ليس في كلامه . قلت ومما استشهد به من ذكرت كلامه على ما اختاره من كون الإشارة بقوله في مطلع سورة البقرة : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ إلى اللوح المحفوظ ، استحكام تنزيل ما بعده عليه ، ووضوح النظم وبيانه على ذلك ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (البقرة : 2-3) أي بما غاب عنهم من مضمون اسم الكتاب استدلالاً بما يدل من آيته على ما غاب ، فقبلوا ما أخبر الله به

على ألسنة رسله مما لا يدرك مشاهداً استدلالاً بما أدركوه وشهادته لما أخبروا به فآمنوا بالله ورسله ، واعتقدوا من صفاته سبحانه ما هو عليه ، ونزهوه هما لا يليق به تعالى ، وصدقوا ما أخبرت به الرسل من كل غائب عنهم متلقى من

إخباره سبحانه ، فبنوا ذلك على اهتدائهم الأول ومعتبرهم المشاهد المرئي حين وفقوا للاعتبار فآمنوا بالغيب كما أخبر تعالى عنهم ، ثم قال تعالى : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) (البقرة : 4) ، والمراد بهذا (المنزل) القرآن ، وقوله : (وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) (البقرة : 4) أي من الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل ، وقال في الجميع : (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (البقرة : 5) . فتأمل بيان النظم على هذا فإنه أوضح شيء .

قلت : ومن البين أن (مدار هذا الجواب بجملته إنما بناؤه على أن اسم الكتاب في سروة البقرة أو حيق وقع) من فواتح هذه السور وأشير إلأه بذلك أو تلك أو وقع في غير الفواتح فيصح أن يراد به فيها أو في بعضها اللوح المحفوظ ، وأن تكون الإشارة إلأيه إذا شهد له السياق ووضح عليه النظم ، فإذا سلم هذا فما بنيناه عليه أوضح شيء ، ولا يمكن إلا تسليمه إذ لا معارض يمنع من عقل ولا نقل ، وإن اعترض معترض بالمنع فقد خالف

جميع المفسرين ممن تقدم أو تأخر ، وخالف ما يعترف كل ذي عقل سليم بإمكانه ، وقد تبين تنزيل النظم عليه على أكمل تلاؤم ، والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 272 . 278 ﴾

(104/407)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ المر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) ﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ : يجوز في " تلك " أن تكونَ مبتدأً والخبرُ ﴿ آياتُ الكتاب ﴾ ، والمشارُ إليه آياتُ السورة . والمرادُ بالكتابِ السورةُ . وقيل : إشارةٌ إلى ما قَصَّ عليه مِنْ أنباء الرسل .

وهذه الجملةُ لا محلَّ لها إن قيل : إنَّ " المر " كلامٌ مستقلٌ ، أو قُصِد به مُجَرَّدُ التنبيهِ ، وفي محلِّ رفعٍ على الخبرِ إنْ قيل : إنَّ " المر " مبتدأٌ ، ويجوز أن تكونَ " تلك " خبراً ل " المر " ، و ﴿ آيَاتُ الكتاب ﴾ بدلٌ أو بيانٌ . وقد تقدَّم تقريرُ هذا بإيضاحٍ أولَ الكتاب ، وأَعَدْتُه .

. . .

قوله: ﴿ والذي أُنزِلَ ﴾ يجوز فيه أوجهٌ، أحدُها: أن يكونَ مبتدأً، و "الحقُّ" خبرُه.

الثاني: أن يكون مبتدأً، و ﴿ مِن ربِّكَ ﴾ خبرُه، وعلى هذا ف "الحقُّ" خبرُ مبتدأ مضمر، أي: هو الحق. الثالث: أنَّ "الحقُّ" خبرٌ بعد خبر. الرابع: أن يكونَ ﴿ مِن رِّبِّكَ الحق ﴾ كلاهما خبرٌ واحدٌ. قاله أبو البقاءُ والحوفيُّ. [وفيه بُعْدٌ]؛ إذ ليس هو مثل "هذا حلوٌ حامِضٌ".

الخامس: أن يكون "الذي" صفةً ل "الكتاب". قاله أبو البقاء: "وأُدْخِلَت الواوُ [في لفظه، كما أُدْخِلت] في "النازِلين" و "الطيبين". قلت: يعني أن الواوَ تكونُ داخلةً على الوصف. وفي المسألة كلامٌ يحتاج إلى تحقيقٍ، والزمخشريُّ [يُجيز مثلَ ذلك، ويجعل أُنَّ] في ذلك تأكيداً، وسيأتي هذا أيضاً إن شاء الله تعالى في الحجر، في قوله ﴿ مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر: 4]. وقوله: "في النازلين" و "الطيبين" يشير إلى بيت الخِرْنِق بنت هفَّان في قولها حين مَدَحَتْ قومها:

2838- لا يَبْعَدَنْ قومي الذين هُمُ . . . سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ

النازِلِينَ بكلِّ مُعْتَرَكٍ . . . والطيّبين مَعاقِدَ الأُزْرِ

فعطَفَ " الطيبين " على " النازِلين " ، وهما صفتان لقومٍ معينين ، إلاَّ أنَّ الفرقَ بين الآيةِ والبيتِ واضحٌ : من حيث إن البيتَ فيه عطفُ صفةٍ على مثلِها ، والآيةُ ليست كذلك .

وقال الشيخ شيئاً يقتضي أن تكونَ مِمَّا عُطِفَ فيها وَصْفٌ على مثِله فقال : " وأجاز الحوفي أيضاً أن يكونَ " والذي " في موضعِ رفعٍ عطفاً على " آيات " ، وأجاز هو وابنُ عطية أن يكونَ " والذي " في موضعِ خفضٍ ، وعلى هذين الإِعرابين يكون " الحقُّ " خبرَ مبتدأ محذوفٍ ، أي : هو الحق ، ويكون " والذي "مِمَّا عُطِفَ فيه الوصفُ على الوصفُ وهما لشيءٍ واحد ، كما تقول " جاءني الظريفُ والعاقلُ " وأنت تريد شخصاً واحداً ، ومن ذلك قولُ الشاعر :

2839- إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ . . . وليثِ الكَتِيبةِ في المُزْدَحَمْ

قلت : وأين الوصفُ المعطوفُ عليه حتى يجعلَه مثلَ البيتِ الذي أنشده ؟

السادس : أن يكونَ " الذي " مرفوعاً نسقاً على " آيات "كما تقدَّمَتْ حكايتُه عن الحوفي .

وجوَّز الحوفيُّ أيضاً أن يكونَ " الحقُّ " نعتاً ل " الذي " حالَ عطفِه على ﴿ آياتُ الكتاب ﴾ .

وتَلَخَّص في " الحقِ " خمسةُ أوجه ، أحدها : أنه خبرٌ أول أو ثانٍ أو هو مع ما قبله ، أو خبرٌ

لمبتدأ مضمر، أو صفةٌ ل " الذي " إذا جعَلْناه معطوفاً على " آيات " .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) ﴾

(106/407)

قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ : هذا الجارُّ في محل نصب على الحال من " السماوات " ، أي : رَفَعَهَا خاليةً مِنْ عَمَد . ثم في هذا الكلامِ وجهان ، أحدُهما : انتفاءُ العَمَدِ والرؤيةِ جميعاً ، أي : لا عَمَدَ فلا رؤية ، يعني لا عَمَدَ لها فلا تُرى . وإليه ذهب الجمهورُ . والثاني : أن لها عَمَدَاً ولكن غيرُ مرئيَّةٍ . وعن ابنِ عباس : " ما يُدْريكَ أنهما بعَمَدْ لا تُرى ؟ " ، وإليه ذهب مجاهدٌ ، وهذا قريبٌ مِنْ قولهم : ما رأيت رجلاً صالحاً ، ونحوُه : ﴿ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ [البقرة : 273] [وقوله :] .

2840- على لاحِبٍ لا يُهْتدى بِمَناره . . . .

وقد تقدَّم . هذا إذا قُلْنَا : إنَّ " تَرَوْنها " صفةٌ ، أمَّا إذا قلنا : إنها مستأنفةٌ -كما سيأتي- فيتعيَّنَ أنْ لا عَمَدَ لها البتة .

والعامَّةُ على فتحِ العينِ والميمِ وهو اسمُ جمعٍ ، وعبارةُ بعضِهم "إنه جمعٌ" ، نَظَرَ إلى المعنى دونَ الصناعة ، وفي مفردِه احتمالان ، أحدهما : أنه عِماد ، ونظيرُه إهاب وأَهَب . والثاني : أنه عمود كأَدِيْم وأَدَم وقضيم وقَضَم ، كذا قال الشيخ : وقال أبو البقاء : "جمع عِماد ، أو عَمود مثل : أَدِيْم وأَدَم ، وأَفِيْق وأَفَق ، وإهاب وأَهَب ، ولا خامسَ لها" . قلت : فجعلوا فَعُولاً كفَعِيْل في ذلك ، وفيه نظر ؛ لأنَّ الأوزانَ لها خصوصيةٌ فلا يلزمُ مِنْ جَمْعِ فَعِيل على كذا أن يُجْمع عليه فعُول ، فكان ينبغي أن يُنَظِّروه بأنَّ فَعُولاً جُمِعَ على فَعَل . ثم قول أبي البقاء "ولا خامسَ لها" يعني أنه لم يُجْمَعْ على فَعَل إلاَّ هذه الخمسةُ : عِماد ، وعَمُود ، وأَدِيم ، وأَفِيْق ، وإهاب ، وهذا الحصرُ ممنوعٌ لما ذكرْتُ لك مِنْ نحو : قَضِيم وقَضَم . ويُجْمعان في القِلَّة على "أَعْمِدة" .

وقرأ أبو حَيْوة ويحيى بن وثاب "عُمُد" بضمتين ، ومفردُه يحتمل أن يكونَ عِماداً كشِهاب وشُهُب ، وكِتاب وكُتُب ، وأن يكونَ عَمُوداً/ كرَسُول ورُسُل ، وقد قرئ في السبع : ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ [الهمزة : 9] بالوجهين . وقال ابن عطية في عَمَد : "اسم جمعِ عَمُود ، والبابُ في جمعه "عُمُد" بضم الحروفِ الثلاثة كرَسُوْل ورُسُل" .

قال الشيخ: " وهذا وهمٌ، وصوابُه بضم الحرفين؛ لأن الثالث هو حرفُ الإِعراب، فلا تُعْتبر ضمةً في كيفية الجمع " .

والعِماد والعَمود: ما يُعَمَّد به، أي: يُسْنَدُ، يقال: عَمَدْتُ الحائطَ أَعْمِدُه عَمْداً، أي: أدْعَمْتُه فاعتمد الحائطُ على العِماد . والعَمَدُ: الأساطِينُ . قال النابغة:

2841- وخَيِّسَ الجنَّ إني قد أَذِنْتُ لهمْ . . . يَبْنُون تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ

والعَمْدُ: هو قَصْدُ الشيءِ والاستنادُ إليه، فهو ضِدُّ السهو، وعمودُ الصبح: ابتداءُ ضوئِه تشبيهاً بعمود الحديد في الهيئة، والعُمْدَةُ: ما يُعتمد عليه مِنْ مالٍ وغيرِه، والعَميد: السيِّدُ الذي يَعْمِدُه الناسُ، أي: يَقْصِدُونه .

قوله: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ في الضميرِ المنصوبِ وجهان، أحدهما: أنه عائدٌ على " عَمَد " وهو أقربُ مذكورٍ، وحينئذٍ تكون الجملةُ في محلِ جرٍّ صفةً ل " عَمَد "، ويجيءُ فيه الاحتمالان المتقدمان: من كونِ العَمَد موجودةً، لكنها لا تُرى، أو غيرَ موجودةٍ البتةَ .

والثاني: أن الضميرَ عائدٌ على " السماوات " . ثم في هذه الجملة وجهان، أحدُهما: أنها مستأنفةٌ لا محلَّ لها، أي: استشهد برؤيتهم لها كذلك، ولم يَذْكر الزمخشريُّ غيرَه . والثاني: أنها في محلِ نصبٍ على الحال مِن " السماوات "، وتكونُ حالاً مقدرة؛ لأنها حين رَفْعِها لم نكن مَخْلُوْقِين، والتقدير: رَفَعَها مَرْئيةً لكم .

وقرأ أُبَيٌّ " تَرَوْنَه " مراعاةً للفظ " عَمَدَ " إذ هو اسمُ جمعٍ . وهذه القراءةُ رجَّح بها الزمخشريُّ كونَ الجملةِ صفةً ل " عَمَد " .

وزعم بعضُهم أنَّ " تَرَوْنَها " خبرٌ لفظاً ، ومعناه الأمر ، أي : رَوْها وانظروا إليها لتعتبروا بها . وهو بعيدٌ ، ويتعيَّنُ على هذا أن تكونَ مستأنفةً ؛ لأنَّ الطلبَ لا يقع صفةً ولا حالاً .

و" ثم " في " ثم استوى " لمجردِ العطفِ لا للترتيب ؛ لأنَّ الاستواءَ على العرش غيرُ مرتَّبٍ على رَفْع السماوات .

قوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات ﴾ قرأ العامَّةُ هذين الحرفين بالياء مِنْ تحتُ جَرْياً على ضميرِ اسمِ الله تعالى ، وفيهما وجهان ، أحدُهما -وهو الظاهر- : أنهما مستأنفان للإِخبارِ بذلك . والثاني : أن الأولَ حالٌ مِنْ فاعلِ " سَخَّر " ، والثاني حالٌ مِنْ فاعل " يُدَبِّر " .

وقرأ النخعي وأبان بن تغلب : " نُدَبِّرُ الأمرَ ، نُفَصِّل " بالنون فيهما ، والحسنُ والأعمشُ " نُفَصِّل " بالنون ، " يُدبِّر " بالياء . قال المهدوي : " لم يُخْتَلَفْ في " يُدبِّر " ، يعني أنه بالياء ، وليس كما ذَكَر لما قدَّمْتُه عن النخعيِّ وأبان بن تغلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 11.5 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

بسم الله الرحمن الرحيم .

" بسم الله " كلمة سماعها يورث لقوم طلبا ثم طربا ولقوم حزنا ثم هربا ، فمن سمع بشاهد الرجاء طلب وجود رحمته فأذنه لها طرب ، ومن سمع بشاهد الرهبة حزن من خوف عقوبته ثم إليه هرب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب والذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾ .

أقسم بما تدل عليه هذه الحروف من أسمائه إِنَّ هذه آيات الكتاب الذي أخبرتُ أَنِّي أُنزِّلُ عليك .

فالألف تشير إلى اسم " الله " ، واللام تشير إلى اسم " اللطيف " ، والميم تشير إلى " المجيد " ، والراء تشير إلى اسم " الرحيم " قال بسم الله اللطيف المجيد الرحيم إن هذه آياتُ الكتاب الذي أخبرتُ إني أنزله على محمد – صلى الله عليه وسلم . ثم عَطَفَ عليه بالواو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ الحَقّ ﴾ هو حق وصدق ، لأنه أنزله على نَبَيّه–

صلى الله عليه وسلم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أي ولكن الأكثر من الناس من أصناف الكفار لا يؤمنون به ، فَهُمْ الأكثرون عددا ً ، والأقلون قَدْرا ً وخَطَرا ً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ .

دلَّ على صفاته وذاته بما أخبر به من آياته ، ومن جملتها رفعُ السمواتِ وليس تحتها عمادٌ يَشُدُّها ، ولا أوتادٌ تُمْسِكها . وأخبر في غير هذه المواضع أنه زَيَّنَ السماءَ بكواكبها ، وخصَّ الأرض بجوانبها ومناكبها .

و﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ : أي أحتوى على مُلْكِه احتواءَ قُدْرَةٍ وتدبير . والعرشُ هو المُلْكُ حيث يقال : أندكَّ عرشُ فلان إذا زال مُلْكُه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمّىً . . . . ﴾ .

كلٌّ يجري في فَلَكٍ . ويدل كُلُّ جزء من ذلك على أنه فِعل في مُلْكِه غير مشترك . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 215 . 216 ﴾

(110/407)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان:

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(67) . . وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي . .

بقلم الدكتور: زغلول النجار

هذا النص القرآني المعجز جاء في مستهل سورة الرعد, وهي سورة مكية/ مدنية, وعدد آياتها ثلاث وأربعون بعد البسملة, وبها سجدة تلاوة واحدة, وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة إلي حقيقة أن الرعد كغيره من ظواهر الكون يمثل صورة من صور تسبيح الكائنات غير المكلفة لله الخالق الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق: تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا * (الإسراء:44)

ويدور المحور الرئيسي لسورة الرعد حول قضية العقيدة ومن ركائزها الإيمان بالله الخالق الواحد القهار, وبالوحي الخاتم المنزل من الله الخالق علي خاتم انبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) وبأنه الحق الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه, والايمان

بملائكة الله وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت , وبالحساب وبالجنة وبالنار .

وتبدأ سورة الرعد بأربعة من الحروف الهجائية المقطعة وهي المر وقد وردت مرة واحدة في القرآن كله .

وهذه الفواتح الهجائية (أو الحروف المقطعة) هي من أسرار القرآن الكريم , التي توقف عن الخوض فيها أعداد من علماء

المسلمين , مكتفين بتفويض الأمر فيها إلي الله (تعالي) , بينما يري عدد منهم ضرورة الاجتهاد في تفسيرها , وفهم دلالاتها , وإن لم يصلوا بعد إلي إجماع علي رأي واحد في ذلك

.

وتؤكد سورة الرعد لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) أن القرآن الذي أنزل إليه من ربه هو الحق ولكن أكثر الناس لايؤمنون ; ثم تعرض لعدد من آيات الله في الكون للاستشهاد بها علي طلاقة القدرة

الإلهية المبدعة في إنشاء الخلق , والاستدلال بذلك علي قدرته (سبحانه وتعالي) علي إفناء خلقه , وإعادة بعثه من جديد , وذلك لأن حجة الكافرين والمتشككين في كفرهم أو

تشككهم كانت ـ ولاتزال ـ هي عجزهم عن فهم إمكانية البعث بعد تحلل الأجساد وتحولها إلي تراب , متجاهلين أن قدرة الله (تعالي) لاتحدها حدود ; ولذلك ترد عليهم الآيات بصورة من صور عقاب المكذبين بالبعث يوم القيامة .

وتعجب الآيات من استعجال الكافرين لعذاب الله وكأنهم لم يعتبروا من قصص الأمم السابقة , وتؤكد أن الله (تعالي) . . لذو مغفرة للناس علي ظلمهم وأنه (تعالي) لشديد العقاب .

وتعجب الآيات كذلك من طلب الكافرين للمعجزات الحسية من رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وكأن القرآن الكريم ـ علي عظم قدره ـ لم يكن معجزة كافية لهم , ولقد أرسل الرسول منذرا به وهاديا إليه , كما أرسل كل الرسل إلي أقوامهم من قبل ; وأن الله (تعالي) هو عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال وأنه (سبحانه) قد أوكل بكل عبد من عباده ملائكة يحفظونه إلي أن يأتي أمر الله , وأنه (تعالي) لايغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم , وأنه (سبحانه) شديد المحال وأن له دعوة الحق ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال .

وتعيب الآيات علي الكافرين اتخاذهم أولياء من دون الله , لايملكون لأنفسهم نفعا ولاضرا , ولم يخلقوا شيئا , والله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ; وتتساءل : . . هل يستوي , الأعمي والبصير أم

هل تستوي الظلمات والنور . . . ؟ .

وتتحدث الآيات عن مصائر كل من المؤمنين والكافرين يوم القيامة , وتعرض لشيء من صفات كل منهم , وتؤكد أن الله (سبحانه وتعالي) يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر , وأنه (تعالي) يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لايحب وتكرر تساؤل الكافرين عن المعجزات الحسية وترد عليهم بأن الله (تعالي)

(112/407)

يضل من يشاء ممن أراد الضلالة , ويهدي من يشاء ممن طلب الهداية , وأن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر الله لأن القلوب المؤمنة لاتطمئن إلا بذكره .

وتؤكد الآيات لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) أن الله (تعالي) قد أرسله في أمة قد خلت من قبلها أمم , ليتلو عليهم الذي أوحي إليه , ويعلن إيمانه بالتوحيد الخالص لله (تعالي) , والتوكل الكامل عليه وحده , والإيمان بأن مرد كل موجود إليه ! !

وتؤكد الآيات أنه لو أن كتابا إذا تليت آياته تحركت بها الجبال عن مواضعها , وتصدعت الأرض وغارت أجزاء منها , وخوطب بها الموتي فأجابوا من قبورهم . . . لكان هو القرآن الكريم ; وعلي الرغم من ذلك فإن كثيرا من الكفار والمشركين (قديما وحديثا) في

صدود عنه , وتآمر عليه وعلي أهله وخاصته , ولله الأمر جميعا . . . ! !

وتطمئن الآيات المؤمنين بأن الله (تعالي) لو يشاء لهدي الناس جميعا , وأنه (تعالي) يعاقب الذين كفروا في الدنيا قبل الآخرة , فلا يزالون - بأعمالهم السيئة - تصيبهم القوارع الشديدة أو تنزل قريبا منهم , حتي يأتي أمر الله بإفنائهم والقضاء عليهم , والله لا يخلف الميعاد .

وتثبت الآيات رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بأن الرسل من قبله قد استهزيء بهم كما استهزأ الكافرون والمشركون - ولا يزالون يستهزئون - بما يدعو إليه من الحق , وأن من سنن الله (تعالي) أن يأخذ الذين يستهزئون برسله أخذا وبيلا في الدنيا , وأن يجعل لهم في الآخرة من العذاب ما هو أشد وأنكي , وأن ليس لهم من واق من عذاب الله أبدا .

وبسبب كفر الكافرين , ومكرهم أضلهم

الله , وجعل عقابهم النار , وهو (سبحانه) القائم علي كل نفس بما كسبت , والمجازي كلا بما يستحق , وفي المقابل تعرض الآيات لشيء من أوصاف الجنة التي وعد الله المتقين , وتؤكد ان من المفروض أن يفرح أهل الكتاب بما أنزل إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي

الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) لأنه الصورة النهائية التي تكاملت فيها رسالة السماء , ولكن قطاعا غفيرا منهم قد كفر بها وجحدها جحودا كبيرا . . ! ! وتؤكد الآيات أن إنزال القرآن الكريم حكما عربيا هو معجزة الرسول الخاتم والنبي الخاتم , وأنه ما كان لرسول أن يأتي بمعجزة إلا بإذن الله , وأن لكل أجل كتاب , وأن الله (تعالي) يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ; وأنه (تعالي) يحكم ولا معقب لحكمه , وهو سريع الحساب . . . ! !

وتشير الآيات إلي مكر الأمم السابقة (والذي لايكاد يختلف عن مكر الأمم الكافرة والمشركة اليوم , وفي كل زمان) وتؤكد أن لله المكر جميعا , فهو (تعالي) يعلم ما تكسب كل نفس , وسوف يعلم الكفار لمن عقبي الدار . . . ! !

وتختتم السورة الكريمة بخطاب موجه إلي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بأنه إذا كان الكافرون والمشركون والضالون ينكرون بعثته الشريفة فإن الله (تعالي) يشهد بصدقها , كما يشهد كل من كان عنده علم من الكتاب , ويكفيه ذلك عن كل شاهد , والآيات تنطق بقول الحق (تبارك وتعالي) :

ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفي بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب

*

(الرعد :43) .

وتأكيدا علي صدق ما جاء بها من قواعد الدين, وأمور الغيب المطلق استشهدت سورة الرعد بعدد كبير من الآيات الكونية التي يمكن إيجازها فيما يلي :

(1) رفع السماوات بغير عمد مرئية (أي بعمد غير مرئية أو بواسطة أخري غير العمد المرئية) .

(2) تسخير كل من الشمس والقمر, وجعل كل منهما يجري لأجل مسمي, تأكيدا علي نهاية الكون .

(3) مد الأرض, وخلق الجبال رواسي لها, ومنابع للأنهار الجارية علي سطحها .

(4) خلق كل شيء في زوجية واضحة حتي يبقي الله (تعالي) متفردا بالوحدانية المطلقة فوق كافة خلقه .

(5) إغشاء الليل بالنهار في إشارة واضحة إلي دوران الأرض حول محورها أمام الشمس .

(6) الإشارة إلي تقسيم الغلاف الصخري للأرض بواسطة شبكة من الصدوع وذلك بالوصف القرآني المعجز الذي يقول فيه ربنا (تبارك وتعالي): وفي الأرض قطع متجاورات ...

(7) الإشارة إلي تفضيل الله (تعالي) بعض الثمار علي بعضها في الأكل, علي الرغم من تشابهها أحيانا وتباين أشكالها في أحيان أخري, وعلي الرغم من نموها علي أرض واحدة وسقيها بماء واحد. وهي إشارة إلي شئ من طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الخلق.

(8) الإشارة إلي علم الله (تعالي) بما تحمل كل أنثي, وبما تغيض الأرحام وما تزداد, وأن كل شئ عنده بمقدار.

(9) التأكيد علي أن الله (تعالي) لاتخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء, وأن الغيب المكنون الذي لا تدركه حواس الإنسان مكشوف لعلم الله (تعالي), والذي يتساوي فيه كل من عالمي الغيب والشهادة, في الماضي والحاضر والمستقبل.

(10) الإشارة إلي عدد من الظواهر الكونية المبهرة كالرعد, والبرق, والصواعق.

(11) الإشارة إلي إنشاء السحاب الثقال وإلي إنزال المطر منه.

(12) التأكيد علي سجود كل من في السماوات والأرض لله (تعالي) طوعا وكرها, وسجود ظلالهم لله (سبحانه وتعالي) بالغدو والآصال.

(13) الإقرار بأن الله (تعالي) هو خالق كل شئ .

(14) التأكيد علي إنقاص الأرض من أطرافها , وهي حقيقة لم تدرك إلا في القرن العشرين

.

(15) تشبيه الباطل بزبد السيل , أو بزبد الفلزات المصهورة , وتشبيه الحق بما يمكث في الأرض مترسبا من ماء السيل من الجواهر والمعادن النفيسة والنافعة , أو بما يبقي بعد صهر الفلزات الثمينة والمفيدة مع خلطة من المركبات الكيميائية لتخليصها مما فيها من شوائب تطفو علي هيئة الخبث (

الزبد) .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي معالجة خاصة , ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا علي قضية تسخير كل من الشمس

والقمر , وجعل كل منهما يجري إلي أجل مسمي وقبل الوصول إلي ذلك أري لزاما علي استعراض أقوال عدد من كبار المفسرين في شرح دلالة هذا النص القرآني المعجزة .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) :

. . . وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * (الرعد :2)

* ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما نصه : . . . وقوله : (وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي) قيل : المراد أنهما يجريان إلي انقطاعهما بقيام الساعة , كقوله تعالي : (والشمس تجري لمستقر لها) , وقيل : المراد إلي مستقرهما وهو تحت العرش . . .

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) مانصه : . . . (وسخر) ذلك (الشمس والقمر كل) منهما (يجري) في فلكه (لأجل مسمي) يوم القيامة (يدبر الأمر) يقضي أمر ملكه (يفصل) يبين (الآيات) دلالات قدرته (لعلكم) يا أهل مكة وغيرها (بلقاء ربكم) بالبعث (توقنون) . . .

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) مانصه : . . . ومن الاستعلاء المطلق إلي التسخير تسخير الشمس والقمر , تسخير العلو المنظور للناس علي مافيه من عظمة أخاذة ; أخذت بألبابهم في اللمسة الأولي , ثم إذا هي مسخرة بعد ذلك لله الكبير المتعال ,,, !, ثم نمضي مع السياق . . . فمع الاستعلاء والتسخير الحكمة والتدبير : (كل يجري لأجل مسمي) . . . وإلي حدود مرسومة , ووفق ناموس مقدر سواء في جريانهما في فلكيهما ,,,, لا يتعديانه ولا ينحرفان عنه . أو جريانهما إلي الأبد المقدر لهما قبل ان يحول

هذا الكون المنظور . (يدبر الأمر) . . الأمر كله , علي هذا النحو من التدبير الذي يسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي . . والذي يمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة في الفضاء فيجريها لأجل لاتتعداه , لاشك عظيم التدبير جليل التقدير . ومن تدبيره الأمر أنه (يفصل

الآيات) وينظمها وينسقها , ويعرض كلا منها في حينه , ولعلته , ولغايته (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) حين ترون الآيات مفصلة منسقة , ومن ورائها آيات الكون , تلك التي أبدعتها يد الخالق أول مرة , وصورت لكم آيات القرآن ما وراء إبداعها من تدبير وتقدير وإحكام . . . ذلك كله يوحي بأن لابد من عودة إلي الخالق بعد الحياة الدنيا , لتقدير أعمال البشر , ومجازاتهم عليها . فذلك من كمال التقدير الذي توحي به حكمة الخلق الأول عن حكمة وتدبير .

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) مانصه : . . .

بين الله تعالي في هذه الآية والآيتين بعدها عشرة أدلة من العالم العلوي والسفلي علي كمال قدرته وعظيم حكمته : خلقه السماوات مرتفعة بغير عمد . وتسخيره الشمس والقمر

لمنافع الخلق . وخلقه الأرض صالحة للاستقرار عليها . وخلقه الجبال فيها لتثبيتها , والأنهار لتسقي الزرع . وخلقه زوجين اثنين من كل نوع من الثمرات . ومعاقبته بين الليل والنهار . وخلقه بقاعا في الأرض متلاصقة مع اختلافها في الطبيعة والخواص . وخلقه جنات من الأعناب للتفكه . وخلقه أنواع الحبوب المختلفة للغذاء . وخلقه النخيل صنوانا وغير صنوان . وجميعها تسقي بماء واحد لاتفاوت فيه , مع اختلاف الثمار والحبوب في اللون والطعم والرائحة والشكل والخواص . . . . .

* وذكر اصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيرا) مانصه : إن الذي أنزل هذا الكتاب هو الله الذي رفع ما ترون من سماوات تجري فيها النجوم بغير أعمدة تري ولا يعلمها إلا الله , وإن كان قد ربط بينها وبين الأرض بروابط لاتنقطع إلا أن يشاء الله , وذلل الشمس والقمر بسلطانه ولمنفعتكم , وهما يدوران بانتظام لزمن قدره الله سبحانه وتعالي , وهو سبحانه يدبر كل شيء في السماوات والأرض , ويبين لكم آياته الكونية رجاء أن توقنوا بالوحدانية .

* وجاء في صفوة التفاسير (جزي الله كاتبه خيرا) مانصه :

(وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي) أي ذلل الشمس والقمر لمصالح العباد , كل يسير بقدرته تعالي إلي زمن معين هو زمن فناء الدنيا (يدبر الأمر) أي يصرف بحكمته وقدرته أمور الخلق وشئون الملكوت من إيجاد وإعدام , وإحياء وإماتة وغير ذلك (يفصل الآيات) أي يبينها ويوضحها (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) أي لتصدقوا بلقاء الله , وتوقنوا بالمعاد إليه , لأن من قدر علي ذلك كله فهو قادر علي إحياء الإنسان بعد موته .

الدلالة العلمية للنص الكريم

من معاني تسخير كل من الشمس والقمر ضبط حركة كل منهما لما فيه صلاح الكون واستقامة الحياة علي الأرض .

ومن معاني أن كلا منهما يجري إلي أجل مسمي : أن الكون ليس بأزلي ولا بأبدي , بل كانت له في الأصل بداية تحاول العلوم المكتسبة تحديدها , وكل ماله بداية لابد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية لها من الشواهد الحسية في كل من الشمس والقمر ما يؤكد علي حتميتها .

أولا : من جوانب تسخير الشمس :

ان الحقائق القاطعة بتسخير الشمس عديدة جدا نوجز منها مايلي :

(1) الاتزان الدقيق بين تجاذب مكونات الشمس وتمددها :

الشمس هي أقرب نجوم السماء إلي الأرض التي تبعد عنها بمسافة مائة وخمسين مليون كيلو

متر في المتوسط ; والشمس نجم عادي , متوسط الحجم علي هيئة كرة من الغاز الملتهب يبلغ قطرها 1,400,000 كيلو متر , وحجمها 142 ألف مليون مليون كيلو متر مكعب , ومتوسط كثافتها 1,4 جرام للسنتيمتر المكعب , ولذلك تقدر كتلتها بنحو ألفي تريليون تريليون طن . ويمثل ذلك حوالي 99% من كتلة المجموعة الشمسية كلها .

والشمس عبارة عن فرن نووي كوني عملاق عمره أكثر من عشرة بلايين من السنين , يرتفع الضغط في داخله إلي ما يساوي أربعمائة مليار ضغط جوي وبذلك تبدأ عملية الاندماج النووي بين نوي ذرات الإيدروجين منتجة نوي ذرات الهيليوم

وتنطلق الطاقة التي ترفع درجة حرارة لب الشمس إلي أكثر من 15 مليون درجة مطلقة تتناقص بالتدريج إلي حوالي ستة آلاف درجة مطلقة عند سطحها , وإن تجاوزت المليون درجة في ألسنة اللهب المندفعة من داخلها .

والشمس تتكون أساسا من غازي الإيدروجين (81,76%) والهيليوم (18,17%) بالاضافة إلي آثار يسيره (لاتتعدي 0,07%) من عدد من العناصر الأخري , وعلي ذلك فإن الشمس عبارة عن خليط ملتهب من غازي الإيدروجين والهيليوم بنسبة حجمية

تقدر بحوالي 1:4 وهي نفس النسبة المطلوبة لاتحاد أربع من نوي ذرات الإيدروجين مع بعضها البعض لتكوين نواة ذرة هيليوم واحدة , وتنطلق الطاقة ; والشمس تحول في كل ثانية من عمرها الحالي حوالي 655 مليون طن من الإيدروجين إلي حوالي 650 مليون طن من الهيليوم , ويتحول الفرق بين الكتلتين (والمقدر بحوالي الخمسة ملايين طن) إلي طاقة تمثل الطاقة المنبعثة من الشمس في كل ثانية من وجودها .

ونظرا للجاذبية الرهيبة التي تحدثها كتلة الشمس الهائلة علي مكوناتها فإنها تتجاذب كلها في اتجاه المركز تجاذبا تنتج عنه ضغوط هائلة ترفع درجة حرارة لب الشمس إلي المستوي الذي يسمح ببدء واستمرار عملية الاندماج النووي فيه .

ونظرا للتوازن الدقيق بين جاذبية الشمس لمكوناتها في اتجاه مركزها , ودفع تلك المكونات بعيدا عن المركز بواسطة القوي الناتجة عن تمدد الغازات المكونة لها بفعل الحرارة الفائقة في مركزها , فقد بقيت الشمس مستمرة في الوجود تحت هذا التوازن العجيب علي مدي عشرة بلايين من السنين (علي أقل تقدير) وإلي أن يرث الله (تعالي) الكون ومن فيه ; ولولا هذا التوازن الدقيق لانفجرت الشمس كقنبلة نووية عملاقة , أو لانهارت علي ذاتها تحت ضغط جاذبيتها خاصة أنها مجرد كرة ضخمة من الغازات .

وعلي ذلك فإن تقدير حجم وكتلة الشمس بهذه الدقة البالغة هو الذي مكنها من تحقيق هذا التوازن الدقيق بين قوي الدفع

إلي الخارج, وقوي التجاذب إلي الداخل, ومن البقاء في حالة غازية أو شبه غازية, ملتهبة, متوهجة بذاتها, ولو تغير حجم وكتلة الشمس ولو قليلا لتغير سلوك مادتها تماما, أو انفجرت أو انهارت علي ذاتها, وذلك لأن السبب في اندلاع عملية الاندماج النووي في قلب النجم وانطلاق الطاقة منه هو تكونه من كتلة وحجم معينين يحافظان علي الاتزان الدقيق بين التمدد والتجاذب, وهل هناك من التسخير صورة ابلغ من ذلك؟ .

(2) تسخير طاقة الشمس من أجل ضبط حركة الحياة علي الأرض:

تطلق الشمس من مختلف صور الطاقة مايقدر بحوالي خمسمائة ألف مليون مليون مليون حصان في كل ثانية من ثواني عمرها, ويصل إلي الأرض من هذا الكم الهائل من الطاقة حوالي الواحد في الألف, ومجموع ميزانيات دول العالم لاتكفي ثمنا لهذا الكم من الطاقة الشمسية التي تصل إلينا فتمثل كل مصادر الطاقة المباشرة وغير المباشرة علي الأرض (باستثناء الطاقة النووية), وبدون هذه الطاقة الشمسية تستحيل الحياة علي كوكبنا, لأن كلا من النبات, والحيوان, والإنسان يعتمد في وجوده. بعد إرادة الله الخالق سبحانه وتعالي. علي قدر الطاقة الذي يصله من أشعة الشمس, كذلك فإن كل الظواهر الفطرية

التي تحدث علي الأرض ومن حولها تعتمد علي الطاقة القادمة إلينا من الشمس :

فتصريف الرياح , وإرسال السحاب , وإنزال المطر وبقية دورة الماء حول الأرض , وما يصاحب ذلك من تسوية وتمهيد لسطح الأرض , وشق للفجاج والسبل فيها , وتفجير للأنهار والجداول من حجارتها , وخزن للماء تحت سطح الأرض , وتكوين للتربة والصخور الرسوبية , وتركيز للعديد من الركائز المعدنية , وحركات الأمواج في البحار والمحيطات وعمليات المد والجزر وغير ذلك من عمليات وظواهر تحركها طاقة الشمس بإرادة الله تعالي .

كذلك فإن الله (تعالي) قد أعطي الشجر الأخضر القدرة علي خزن جزء من طاقة الشمس علي هيئة

(120/407)

عدد من الروابط الكيميائية التي تمثل المصدر الرئيسي لكل انواع الطاقة الحرارية والضوئية والكهربائية والكيميائية من مثل الحطب والقش والخشب , وكلا من الفحم النباتي والحجري , والنفط والغاز الطبيعي , والزيوت والدهون النباتية والحيوانية وكلها ترجع إلي الطاقة الشمسية .

3. تكوين نطق الحماية المختلفة للأرض بفعل طاقة الشمس:

شاءت إرادة الله (تعالي) أن يحمي الحياة علي سطح الأرض بعدد من نطق الحماية التي لعبت أشعة الشمس (ولا تزال تلعب) الدور الأول في تكوينها (بعد إرادة الله) وأولها من الخارج إلي الداخل: النطاق المغناطيسي للأرض

(TheMagnetosphere),

وأحزمة الإشعاع

(TheRadiationBelts),

والنطاق المتأين

(TheIonosphere),

ونطاق الأوزون

(TheOzonosphere),

وهذه النطق تتعاون في حماية الأرض من كل من الأشعة فوق البنفسجية والكونية ومن العديد من الجسيمات الكونية الدقيقة والكبيرة والتي منها النيازك والشهب; ولو لم تكن هذه النطق موجودة لاستحالت الحياة علي الأرض, ولو لم تكن الشمس موجودة ما تكونت تلك النطق علي الإطلاق ووجودها صورة من صور التسخير التي لم تكن معروفة في زمن الوحي بالقرآن الكريم, ولا بعد قرون متطاولة بعد نزوله حتي نهايات القرن العشرين

.

(4) تحديد الزمن :

يتحدد كل من الليل والنهار ويوم الأرض وشهورها وفصولها وسنينها بدورة الأرض حول محورها , وبسبحها في مدارها حول الشمس وبذلك يستطيع الأنسان إدراك الزمن وتحديد الأوقات والتاريخ للأحداث , فبدورة الأرض حول محورها أمام الشمس يتبادل الليل والنهار , ويتحدد يوم الأرض .

وبسبح الأرض في مدارها حول الشمس بمحور مائل علي الأفق تتحدد الفصول المناخية من الربيع والصيف والخريف والشتاء كما تتحدد سنة الأرض التي يتقاسمها اثنا عشر شهرا شمسيا تحددها بروج السماء الاثنا عشر المتتابعة .

ثانيا : تسخير القمر :

القمر تابع صغير

للأرض يبعد عنها بمسافة تقدر بحوالي 384,400 كيلو متر في المتوسط , وهو علي هيئة شبه كرة من الصخر , يقدر قطرها بحوالي 3474 كيلو مترا , ومساحة سطحها

بحوالي 38 مليون كيلو متر مربع , وحجمها بحوالي 22 مليون مليون كيلو متر مكعب , ومتوسط كثافتها بحوالي 3,34 جرام للسنتيمتر المكعب , وكتلتها بحوالي 735 مليون مليون طن , ويتمثل تسخير القمر في النقاط التالية :

(1) تحديد الشهر القمري بدورة القمر حول الأرض :

يدور القمر حول الأرض في مدار شبه دائري يقدر طوله بحوالي 2,4 مليون كيلو متر بسرعة متوسطة تقدر بحوالي كيلو متر واحد في الثانية ليتم دورته الاقترانية حول الأرض في حوالي 29,5 يوم من أيام الأرض , هي الشهر القمري الاقتراني للأرض .

(2) تسخير أطوار شكل القمر لتقسيم الشهر إلي أسابيع وأيام :

إن كلا من منازل القمر , وأطواره المتتالية والتي يحددها مساحة وشكل الجزء المرئي من سطح القمر المنير وهو يتزايد سعة من الهلال الوليد حتي يصل إلي البدر الكامل , ثم يبدأ في التناقص حتي يصل إلي الهلال الأخير ومن بعده يدخل في طور المحاق لمدة يوم أو يومين إلي ميلاد الهلال الجديد يمكن تقسيم الشهر القمري إلي أسابيع متتالية وتقسيم كل اسبوع إلي أيام متتابعة بدقة فائقة .

(3) إضاءة سماء الأرض بمجرد غياب الشمس :

سطح القمر معتم تماما , وعلي الرغم من ذلك فإن الله (تعالي) قد أعطاه القدرة علي عكس ماقيمته 7,3% من أشعة الشمس الساقطة عليه , وبذلك ينير سماء الأرض بمجرد

غياب الشمس , وذلك بمراحله المتتالية من الهلال الوليد , إلي ميلاد الهلال الجديد في أول الشهر التالي . وعلي ذلك فإن القمر في دورته الشهرية حول الأرض قد سخره ربنا (تبارك وتعالي) مصدرا للنور في ليل الأرض .

(4) تسخير القمر وسيلة من وسائل إتمام عمليتي المد والجزر

وهما قوتان من قوي الأرض يعملان علي تفتيت صخور الشواطئ ,

(122/407)

وتكوين انواع عديدة من الرسوبيات والصخور الرسوبية علي طول تلك الشواطيء , كما تعملان علي تركيز العديد من الثروات المعدنية في رمالها .

هذا قليل من كثير من صور التسخير التي أعدتها الإرادة الإلهية بحكمة بالغة لكي يكون كل من الشمس والقمر لبنات صالحة في بناء الكون وفي انتظام حركة الحياة علي الأرض .

ثالثا : من الشواهد الحسية علي حتمية فناء كل من الشمس والقمر :

جاءت الإشارة القرآنية إلي تسخير كل من الشمس والقمر وإلي جريهما إلي أجل مسمي أو لأجل مسمي في أربعة مواضع من القرآن الكريم علي النحو التالي :

(1) الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوي علي العرش وسخر الشمس

والقمر كل يجري لأجل مسمي يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون (الرعد

:2)

(2) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي

ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير

(فاطر :13)

(3) خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل علي النهار ويكور النهار علي الليل وسخر

الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي ألا هو العزيز الغفار

(الزمر :5)

(4) ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلي

أجل مسمي وأن الله بما تعملون خبير

(لقمان :29)

ومعني ذلك أن كلا من الشمس والقمر يجري إلي نهايته المحتومة بقيام الساعة وأن هذا

الأجل المسمي صورة من صور التسخير ; والساعة لا تأتي إلا بغتة كما جاء في قول الحق (

تبارك وتعالي) :

يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لايجليها لوقتها إلا هو ثقلت في

السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله

ولكن أكثر الناس لايعلمون * (الأعراف :187)

ولذلك فقد أبقي ربنا (تبارك وتعالي) في صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يؤكد

لكل ذي

بصيرة حتمية فناء كل من الشمس والقمر .

(123/407)

فالشمس تفقد في كل ثانية من عمرها (علي هيئة طاقة) مايعادل 4,6 مليون طن من كتلتها , مما يعني أن الشمس تحترق بتدرج واضح ينتهي بها حتما إلي الفناء التام , ولكن الآخرة لن تنتظر فناء الشمس باحتراقها بالكامل , وذلك لأن الآخرة أمر إلهي بكن فيكون , وعلي ذلك لا تأتي إلا بغتة دون انتظار لحركة السنن الراهنة والتي أبقاها الله (تعالي) شاهدة علي حتمية الآخرة , وإن كانت الآخرة لن تتم بواسطتها . . . ! !

ولما كانت الشمس تفقد من كتلتها باستمرار , فلابد أن تفقد الأرض من كتلتها قدرا متناسبا من أجل بقاء المسافة بينهما ثابتة , وهي محكومة بكتلتي هذين الجرمين ويتحدد بواسطتها قدر الطاقة التي تصل من الشمس إلي الأرض , والتي إن زادت أحرقت الأرض ومن عليها , وإن قلت جمدت الأرض ومن عليها . والأرض تفقد من كتلتها ملايين الأطنان

من الغازات والأبخرة والأتربة عن طريق نشاطها البركاني , ويعود جزء من ذلك مرة أخري إلي الأرض , بينما تهرب الغازات والأبخرة والهباءات الخفيفة إلي فسحة السماء متفلتة من عقال جاذبية الأرض بالقدر الكافي الذي يبقي المسافة بين الأرض والشمس ثابتة وذلك كله بتقدير من الخالق الحكيم الخبير العليم .

كذلك فإن المسافة بين القمر والأرض تحكمها .بعد إرادة الله تعالي.قوانين الجاذبية المعتمدة علي كتلة كل منهما ; ولما كانت الأرض تفقد من كتلتها بمعدلات ثابتة , ومتوازية مع ما تفقده الشمس , كان لابد للقمر لكي يبقي علي نفس المسافة من الأرض ان يفقد من كتلته قدرا موازيا . ولكن هذا لا يتحقق . كذلك فإنه لما كان مدار القمر حول الأرض , ومدار كل من الأرض والقمر حول الشمس مدارا بيضاني الشكل (أي علي هيئة القطع الناقص) , ولما كان من قوانين الحركة في مدار القطع الناقص أن السرعة المحيطية تخضع لقانون تكافؤ المساحات مع الزمن , بمعني اختلاف مقدار

السرعة علي طول المحيط باختلاف مقدار البعد عن مركز الثقل , فإن القمر عندما يقترب من الأرض في مداره حولها تزداد سرعته المحيطية فتزداد قوة الطرد المركزي له من الأرض ,

وإلا ارتطم بها فدمرها ودمرته . وعندما يبتعد القمر عن الأرض وهو يسبح في مداره حولها فإن سرعته المحيطية تقل , فتقل قوة الطرد المركزي له , وإلا انفلت من عقال جاذبية الأرض حتي يضيع في فسحة السماء أو تلتهمه الشمس ; ولذلك تتراوح سرعة سبح القمر في مداره حول الأرض بين 3888,3483 كيلو مترا في الساعة , بمتوسط 3675 كيل ومترا في الساعة , أي في حدود كيلو متر واحد في الثانية تقريبا وهي نفس سرعة دورانه حول محوره , ولذا نري منه وجها واحدا .

ولكن نظرا لوجود غلاف مائي غامر لثلاثة أرباع سطح الأرض تقريبا , ووجود غلاف غازي ممتد لآلاف الكيلو مترات حول الأرض , وانعدام ذلك تقريبا حول القمر وعلي سطحه , فقد ثبت ان الأرض تفقد من سرعة دورانها حول محورها . بفعل كل من الأمواج البحرية (خاصة عمليتي المد والجزر في البحار الضحلة) , وحركة الرياح. مايقدر بحوالي الواحد من الألف من الثانية في كل قرن من الزمان .

وهذا النقص في سرعة دوران الأرض حول محورها . علي ضآلته . يؤدي إلي تزايد مطرد في سرعة دوران القمر حول محوره مما يدفعه إلي التباعد عن الأرض بمعدل ثلاثة سنتيمترات في كل سنة , ويقدر علماء الفلك أن هذا التباعد التدريجي للقمر سوف يخرجه حتما في لحظة من اللحظات من نطاق أسر الأرض له إلي نطاق جاذبية الشمس فتبتلعه وتكون في ذلك نهايته الحتمية وهنا تكفي الإشارة إلي سبق القرآن الكريم بتقرير حتمية ابتلاع

الشمس للقمر من قبل ألف وأربعمائة سنة وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي) : فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر *

(القيامة : 9.7)

وقد يقول قائل أننا إذا عرفنا معدل ما تفقده الشمس من كتلتها أو معدل تباعد القمر عن الأرض

في كل سنة فإنه بإمكاننا أن نحدد لحظة ابتلاع الشمس له , ولحظة انهيارها وفنائها وهي بداية الآخرة , والآخرة من الغيب المطلق الذي لايعلمه إلا الله (تعالي) . وللرد علي ذلك اكرر ان الآخرة أمر إلهي , لا علاقة له بسنن الدنيا , ولكن الله (تعالي) من رحمته بنا قد ابقي لنا في صخور الأرض , وفي صفحة السماء , من الشواهد الحسية مايقطع بحتمية فناء الكون حتي لايتشكك متنطع في الإيمان بحتمية الآخرة فإنها إذا لم تقع بالأمر الإلهي (كن فيكون) . كما لايريد الكافرون أن يؤمنوا . فسوف تقع حتما بالسنن القائمة الحاكمة لدنيانا الراهنة , وهي واضحة لكل ذي بصيرة . . . ! !

هذه الحقائق العلمية لم يصل اليها العلم الكسبي إلا في أواخر القرن العشرين .

كذلك فإن في قوله (تعالي) في أربعة مواضع من القرآن الكريم بتسخير الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي أو إلي أجل مسمي , تأكيد علي حتمية فناء الكون .

فسبحان الذي انزل القرآن الكريم : أنزله بعلمه علي خاتم أنبيائه ورسله , وتعهد بحفظه بنفس لغة وحيه (اللغة العربية) , فحفظه حفظا كاملا علي مدي أربعة عشر قرنا أو يزيد , وإلي أن يرث الله (تعالي) الأرض ومن عليها , حفظه الله (تعالي) بصفائه الرباني , وإشراقاته النورانية , وحقائقه الكونية , وعقائده الصحيحة , وعباداته المفروضة من الله (تعالي) , ودستوره الأخلاقي الفريد , وتشريعاته العادلة , واستعراضه التاريخي الدقيق لعدد من الأمم البائدة , وصدق إنبائه بالغيب ,, فالحمد لله علي نعمة الإسلام , والحمد لله علي نعمة القرآن , وصلي الله وسلم وبارك علي الرسول الخاتم الذي تلقاه , وعلي من تبعه بإحسان إلي يوم الدين , وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴿ .

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما انقضى ما أراد من آيات السماوات ، ثنى بما فيما ثنى به في آية يوسف من الدلالات فقال : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ الذي مد الأرض ﴾ ولو شاء لجعلها كالجدار أو الأزج لا يستطاع القرار عليها ، وهذا لا ينافي أن تكون كرية ، لأن الكرة إذا عظمت كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح ، كما أن الجبال أوتاد والحيوان يستقر عليها ﴿ وجعل فيها ﴾ جبالاً مع شهوقها ﴿ رواسي ﴾ أي ثوابت ، واحدها راسية أي ثابتة باقية في حيزها غير منتقلة عن أماكنها لا تتحرك ، فلا يتحرك ما هي راسية فيه .

ولما غلب على الجبال وصفها بالرواسي ، صارت الصفة تغني عن الموصوف فجمعت جمع الاسم كحائط وكاهل – قاله أبو حيان ، ولما كانت طبيعة الأرض واحدة كان حصول الجبل في جانب منها دون آخر ووجود المعادن المتخالفة فيها تارة جوهرية ، وتارة خامية ، وتارة نفطية ، وتارة كبريتية – إلى غير ذلك ، دليلاً على اختصاصه تعالى بتمام القدرة والاختيار لأن الجبل واحد في الطبع كما أن تأثير الشمس واحد ، فقال تعالى :

﴿ وأنهاراً ﴾ أي وجعل فيها خارجة منها ، وأكثر ما تكون الأنهار من الجبال ، لأنها أجسام صلبة عالية ، وفي خلال الأرض أبخرة فتصاعد تلك الأبخرة المتكونة في قعر الأرض ، ولا تزال تخرق حتى تصل إليها فتحتبس بها فلا تزال تتكامل حتى يعظم تكاثفها ، فإذا بردت صارت ماء فيحصل بسببها مياه كثيرة كما تنعقد الأبخرة البخارية المتكاثفة في أعالي الحمامات إذا بردت وتتقاطر ، فإذا تكامل انعقاد تلك المياه وعظمت شقت أسافل الجبال أو غيرها من الأماكن التي تستضعفها لقوتها وقوة الأبخرة المصاحبة لها ، فإن كان لتلك المياه مدد من جهة الفواعل والقوابل بحيث كلما نبع منها شيء حدث عقيبه شيء ، وهكذا على الاتصال فهي النهر ، والنهر : المجرى الواسع من مجاري الماء ، وأصله الاتساع ، ومنه النهار – لاتساع ضيائه .

ولما ذكر الأنهار ذكر ما ينشأ عن المياه فقال : ﴿ ومن كل الثمرات ﴾ ويجوز أن يكون متعلقاً بما قبله ، ثم يكون كأنه قيل : من ينتفع بهذه الأشياء ؟ فقيل : ﴿ جعل فيها ﴾ أي الأرض ﴿ زوجين اثنين ﴾ ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوان ينتفع بها ، ويجوز أن يكون متعلقاً بما بعده فيكون التقدير : وجعل فيها من كل الثمرات زوجين اثنين ذكراً وأنثى تنتفع الأنثى بلقاحها من الذكر أو قربه منها فيجود ثمرها ؛ والثمرة طعمة الشجرة ، والزوج : شكل له قرين من نظير أو نقيض ، فكأنه قيل : ما الذي ينضجها ؟ فقال : ﴿ يغشي اليل النهار ﴾ أي والنهار الليل ، فينضج هذا بحره ويمسك هذا ببرده ، فيعتدل فعلهما على ما قدره تعالى لهما في السير من الزيادة والنقصان للحر والبرد للإخراج والإنضاج إلى غير ذلك من الحكم النافعة في الدين والدنيا الظاهر لكل ذي عقل أنها بتدبيره بفعله واختياره وقهره واقتداره.

ولما ساق سبحانه هذه الآيات مفصلة إلى أربع وكان فيها دقة ، جمعها وناطها بالفكر فقال : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الذي وقع التحديث عنه من الآيات متعاطفاً ﴿ لآيات ﴾ أي

دلالات واضحات عجيبات باهرات على أن ذلك كله مستند إلى قدرته واختياره ، ونبه على أن المقام يحتاج إلى تعب بتجريد النفس من الهوى وتحكيم العقل صرفاً بقوله : ﴿ لقوم ﴾ أي ذوي قوة زائدة على القيام فيما يحاولونه ﴿ يتفكرون ﴾ أي يجتهدون في الفكر ، قال الرماني : وهو تصرف القلب في طلب المعنى ، ومبدأ ذلك معنى يُخطره الله تعالى على بال الإنسان فيطلب متعلقاته التي فيها بيان عنه من كل وجه يمكن فيه ، والختم بالتفكر إشارة إلى الاهتمام بإعطاء المقام حقه في الرد على الفلاسفة ، فإنهم يسندون حوادث العالم السفلي إلى الاختلافات الواقعة في الأشكال الكوكبية ، وهو كلام ساقط لمن تفكر فيما قرره سبحانه في الآية السالفة من إسقاط وروده من أنه سبحانه هو الذي أوجد الأشياء كلها من عدم ثم أخذ في تدبيرها ، فاختصاص كل شيء من الأجرام العلوية بطبع وصفة وخاصية إنما هو بتخصيص المدبر الحكيم الفاعل بالاختيار ، فصار وجود الحوادث السفلية لو سلم أنه متأثر عن الحوادث العلوية إنما يكون مستنداً إليها باعتبار السببية ، والسبب والمسبب مستند إلى الصانع القديم المدبر الحكيم .

ولما كان الدليل – مع وضوحه – فيه بعض غموض ، شرع تعالى في شيء من تفصيل ما في الأرض من الآيات التي هي أبين من ذلك دليلاً ظاهراً جداً على إبطال قول الفلاسفة ، فقال : ﴿ وفي الأرض ﴾ أي التي أنتم سكانها ، تشاهدون ما فيها مشاهدة لا تقبل الشك ﴿ قطع متجاورات ﴾ فهي متحدة البقعة مختلفة الطبع ، طيبة إلى سبخة ، وكريمة إلى زهيدة ، وصلبة إلى رخوة ، وصالحة للزرع لا للشجر وعكسها ، ومع انتظام الكل في الأرضية ﴿ وجنات ﴾ جمع جنة ، وهي البستان الذي تجنه الأشجار ﴿ من أعناب ﴾ وكأنه قدمها لأن أصنافها – الشاهدة بأن صانعها إنما هو الفعال لما يريد – لا تكاد تحصر حتى أنه في الأصل الواحد يحصل تنوع الثمرة ولذلك جمعها .

ولما كان تفاوت ما أصله الحب أعجب ، قال : ﴿ وزرع ﴾ أي منفرداً – في قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحفص عن عاصم بالرفع ، وفي خلل الجنات – في قراءة الباقين بالجر .

ولما كان ما جمعه أصل واحد ظاهر أغرب أخر قوله : ﴿ ونخيل صنوان ﴾ فروع متفرقة على أصل واحد ﴿ وغير صنوان ﴾ باعتبار افتراق منابتها وأصولها ؛ قال أبو حيان : والصنو : الفرع يجمعه وآخر أصل واحد ، وأصله المثل ، ومنه قيل للعم : صنو وقال الرماني : والصنوان : المتلاصق ، يقال : هو ابن أخيه صنو أبيه أي لصيق أبيه في ولادته ، وهو جمع صنو ، وقيل : الصنوان : النخلات التي أصلها واحد – عن البراء بن عازب وابن عباس ومجاهد وقتادة ـ رضى الله عنهم ـ م ؛ وقال الحسن ـ رضى الله عنهم ـ : الصنوان :

النخلتان أصلهما واحد - انتهى .

وهو تركيب لا فرق بين مثناه وجمعه إلا بكسر النون من غير تنوين وإعرابها مع التنوين ، وسيأتي في يس إن شاء الله تعالى سر تسمية الكرم بالعنب .

(131/407)

ولما كان الماء بمنزلة الأب والأرض بمنزلة الأم ، وكان الاختلاف مع اتحاد الأب والأم أعجب وأدل على الإسناد إلى الموجد المسبب ، لا إلى شيء من الأسباب ، قال : ﴿ وسقى ﴾ أي أرضها الواحدة كلها ﴿ بماء واحد ﴾ فتخرج أغصانها وثمراتها في وقت معلوم لا يتأخر عنه ولا يتقدم بعد أن يتصعد الماء فيها علواً ضد ما في طبعه من التسفل ، ثم يتفرق في كل من الورق والأغصان والثمار بقسطه مما فيه صلاحه ﴿ ونفضل ﴾ أي بما لنا من العظمة المقتضية للطاعة ﴿ بعضها ﴾ أي بعض تلك الجنات وبعض أشجارها ﴿ على بعض ﴾ ولما كان التفضيل على أنحاء مختلفة ، بين المراد بقوله : ﴿ في الأكل ﴾ أي الثمر المأكول ، ويخالف في المطعوم مع اتحاد الأرض وبعض الأصول ، وخص الأكل لأنه أغلب وجوه الانتفاع ، وهو منبه على اختلاف غيره من الليف والسعف واللون للمأكول والطعم والطبع والشكل والرائحة والمنفعة وغيرها مع أن نسبة الطبائع والاتصالات الفلكية إلى

جميع الثمار على حد سواء لا سيما إذا رأيت العنقود الواحد جميع حباته حلوة نضيجة كبيرة إلا واحدة فإنها حامضة صغيرة يابسة .

ولما كان المراد في هذا السياق - كما تقدم - تفصيل ما نبه على كثرته بقوله : ﴿ وكأين من آية في السماوات والأرض ﴾ الآية ، قال : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الذي تقدم ﴿ لآيات ﴾ بصيغة الجمع فإنها بالنظر إلى تفصيلها بالعطف جمع وإن كانت بالنظر إلى الماء مفردة ، وهذا بخلاف ما يأتي في النحل لأن المحدث عنه هناك الماء ، وهنا ما ينشأ عنه ، فلما اختلف المحدث عنه كان الحديث بحسبه ، فالمعنى : دلالات واضحات على أن ذلك كله فعل واحد مختار عليم قادر على ما يريد من ابتداء الخلق ثم تنويعه بعد إبداعه ، فهو قادر على إعادته بطريق الأولى .

(132/407)

ولما كانت هذه المفصلة أظهر من تلك المجملة ، فكانت من الوضوح بحال لا يحتاج ناظره في الاعتبار به إلى غير العقل ، قال : ﴿ لقوم ﴾ أي ذوي قوة على ما يحاولونه ﴿ يعقلون ﴾ فإنه لا يمكن التعبير في وجه هذه الدلالة إلا بأن يقال هذه الحوادث السفلية حدثت بغير محدث ، فيقال للقائل : وأنت لا عقل لك ، لأن العلم بافتقار الحادث إلى المحدث ضرورة ،

فعدم العلم بالضروري يستلزم عدم العقل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 125.122﴾

(133/407)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل السماوية أردفها بتقرير الدلائل الأرضية فقال : ﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ الأرض ﴾ .

واعلم أن الاستدلال بخلقه الأرض وأحوالها من وجوه : الأول : أن الشيء إذا تزايد حجمه ومقداره صار كأن ذلك الحجم وذلك المقدار يمتد فقوله : ﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ الأرض ﴾ إشارة إلى أن الله سبحانه هو الذي جعل الأرض مختصة بذلك المقدار المعين الحاصل له لا أزيد ولا أنقص والدليل عليه أن كون الأرض أزيد مقداراً مما هو الآن وأنقص منه أمر جائز ممكن في نفسه فاختصاصه بذلك المقدار المعين لا بد أن يكون بتخصيص وتقدير .

الثاني : قال أبو بكر الأصم المد هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه فقوله : ﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ الأرض ﴾ يشعر بأنه تعالى جعل حجم الأرض حجماً عظيماً لا يقع البصر على منتهاه ، لأن الأرض لو كانت أصغر حجماً مما هي الآن عليه لما كمل الانتفاع به .

والثالث : قال قوم كانت الأرض مدورة فمدها ودحا من مكة من تحت البيت فذهبت كذا وكذا .

وقال آخرون : كانت مجتمعة عند البيت المقدس فقال لها : اذهبي كذا وكذا .

اعلم أن هذا القول إنما يتم إذا قلنا الأرض مسطحة لا كرة وأصحاب هذا القول احتجوا عليه بقوله : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ [النازعات : 30] وهذا القول مشكل من وجهين .

الأول : أنه ثبت بالدلائل أن الأرض كرة فكيف يمكن المكابرة فيه ؟

فإن قالوا : وقوله : ﴿ مَدَّ الأرض ﴾ ينافي كونها كرة فكيف يمكن مدها ؟

قلنا : لا نسلم أن الأرض جسم عظيم والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح ، والتفاوت الحاصل بينه وبين السطح لا يحصل إلا في علم الله ألا ترى أنه قال : ﴿ والجبال أَوْتَاداً ﴾ [النبأ : 7] فجعلها أوتاداً مع أن العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا .

والثاني : أن هذه الآية إنما ذكرت ليستدل بها على وجود الصانع ، والشرط فيه أن يكون ذلك أمراً مشاهداً معلوماً حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع وكونها مجتمعة تحت البيت أمر غير مشاهد ولا محسوس فلا يمكن الاستدلال به على وجود الصانع ، فثبت أن التأويل الحق هو ما ذكرناه .

والنوع الثاني : من الدلائل الاستدلال بأحوال الجبال وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ من فوقها ثابتة باقية في أحيازها غير منتقلة عن أماكنها يقال : رسا هذا الوتد وأرسيته والمراد ما ذكرنا .

واعلم أن الاستدلال بوجود الجبال على وجود الصانع القادر الحكيم من وجوه ، الأول : أن طبيعة الأرض واحدة فحصول الجبل في بعض جوانبها دون البعض لا بد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم .

قالت الفلاسفة : هذه الجبال إنما تولدت لأن البحار كانت في هذا الجانب من العالم فكانت تتولد في البحر طيناً لزجاً .

ثم يقوي تأثير الشمس فيها فينقلب حجراً كما يشاهد في كوز الفقاع ثم إن الماء كان يغور ويقل فيتحجر البقية ، فلهذا السبب تولدت هذه الجبال قالوا : وإنما كانت البحار حاصلة في هذا الجانب من العالم لأن أوج الشمس وحضيضها متحركان ، ففي الدهر الأقدم كان

حضيض الشمس في جانب الشمال والشمس متى كانت في حضيضها كانت أقرب إلى الأرض فكان التسخين أقوى ، وشدة السخونة توجب انجذاب الرطوبات ، فحين كان الحضيض في جانب الشمال كانت البحار في جانب الشمال ، والآن لما انتقل الأوج إلى جانب الشمال والحضيض إلى جانب الجنوب انتقلت البحار إلى جانب الجنوب فبقيت هذه الجبال في جانب الشمال ، هذا حاصل كلام القوم في هذا الباب وهو ضعيف من وجوه الأول : أن حصول الطين في البحر أمر عام ووقوع الشمس عليها أمر عام فلم وصل هذا الجبل في بعض الجوانب دون البعض .

والثاني : وهو أنا نشاهد في بعض الجبال كأن تلك الأحجار موضوعة سافا فسافاً فكأن البناء لبنات كثيرة موضوع بعضها على بعض ويبعد حصول مثل هذا التركيب من السبب الذي ذكروه .

والثالث : أن أوج الشمس الآن قريب من أول السرطان فعلى هذا من الوقت الذي انتقل أوج الشمس إلى الجانب الشمالي مضى قريب من تسعة آلاف سنة ، وبهذا التقدير أن الجبال في هذه المدة الطويلة كانت في التفتت فوجب أن لا يبقى من الأحجار شيء ، لكن

ليس الأمر كذلك ، فعلمنا أن السبب الذي ذكروه ضعيف .

والوجه الثاني : من الاستدلال بأحوال الجبال على وجود الصانع ذي الجلال ما يحصل فيها من معادن الفلزات السبعة ومواضع الجواهر النفيسة وقد يحصل فيها معادن الزاجات والأملاح وقد يحصل فيها معادن النفط والقير والكبريت ، فكون الأرض واحدة في الطبيعة ، وكون الجبل واحداً في الطبع ، وكون تأثير الشمس واحداً في الكل يدل دليلاً ظاهراً على أن الكل بتقدير قادر قاهر متعال عن مشابهة المحدثات والممكنات .

والوجه الثالث : من الاستدلال بأحوال الجبال أن بسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض ، وذلك أن الحجر جسم صلب فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل ، فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة ، ثم إنها لكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض ، فمنفعة الجبال في تولد الأنهار هو من هذا الوجه ، ولهذا السبب ففي أكثر الأمر أينما ذكر الله الجبال قرن بها ذكر الأنهار مثل ما في هذه الآية ، ومثل قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ شامخات وأسقيناكم مَّاء فُرَاتاً ﴾ [المرسلات : 27] .

والنوع الثالث : من الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بعجائب خلقة النبات ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَمِن كُلّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن الحبة إذا وضعت في الأرض وأثرت فيها نداوة الأرض ربت وكبرت وبسبب ذلك ينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من الشق الأعلى الشجرة الصاعدة في الهواء ، ويخرج من الشق الأسفل العروق الغائصة في أسفل الأرض وهذا من العجائب ، لأن طبيعة تلك الحبة واحدة وتأثير الطبائع والأفلاك والكواكب فيها واحد ثم إنه خرج من الجانب الأعلى من تلك الحبة جرم صاعد إلى الهواء من الجانب الأسفل منه جرم غائص في الأرض ، ومن المحال أن يتولد من الطبيعة الواحدة طبيعتان متضادتان ، فعلمنا أن ذلك إنما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم ، والمقدر القديم لا بسبب الطبع والخاصية ، ثم إن الشجرة النابتة من تلك الحبة بعضها يكون خشباً وبعضها يكون نوراً وبعضها يكون ثمرة ، ثم إن تلك الثمرة أيضاً يحصل فيها أجسام مختلفة الطبائع ، فالجوز له أربعة أنواع من القشور ، فالقشر الأعلى وتحته القشرة الخشبة وتحته القشرة المحيطة باللبنة ، وتحت تلك القشرة قشرة أخرى في غاية الرقة تمتاز عما فوقها حال كون الجوز رطباً وأيضاً فقد يحصل في الثمرة الواحدة الطباع المختلفة ، فالأترج قشره حار يابس ولحمه حار رطب وحماضه بارد يابس وبزره حار يابس ونوره حار يابس ، وكذلك العنب قشره وعجمه باردان يابسان ولحمه وماؤه حاران رطبان

فتولد هذه للطبائع المختلفة من الحبة الواحدة مع تساوي تأثيرات الطبائع وتأثيرات الأنجم والأفلاك لا بد وأن يكون لأجل تدبير الحكيم القادر القديم.

المسألة الثانية:

المراد بزوجين اثنين، صنفين اثنين والاختلاف إما من حيث الطعم كالحلو والحامض أو الطبيعة كالحار والبارد أو اللون كالأبيض والأسود.

فإن قيل: الزوجان لا بد وأن يكون اثنين، فما الفائدة في قوله: ﴿ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾.

قلنا: قيل إنه تعالى أول ما خلق العالم وخلق فيه الأشجار خلق من كل نوع من الأنواع اثنين فقط، فلو قال: خلق زوجين لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص.

أما لما قال اثنين علمنا أن الله تعالى أول ما خلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد.

والحاصل أن الناس فيهم الآن كثرة إلا أنهم لما ابتدؤا من زوجين اثنين بالشخص هما آدم وحواء، فكذلك القول في جميع الأشجار والزرع، والله أعلم.

النوع الرابع: من الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بأحوال الليل والنهار وإليه الإشارة بقوله: ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ والمقصود أن الإنعام لا يكمل إلا بالليل والنهار وتعاقبهما

كما قال : ﴿ فَمَحَوْنَا ءايَةَ الليل وَجَعَلْنَا ءايَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : 12] ومنه قوله : ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ [الأعراف : 54] وقد سبق الاستقصاء في تقريره فيما سلف من هذا الكتاب ، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم : ﴿ يُغْشِى ﴾ بالتشديد وفتح الغين والباقون بالتخفيف ، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة قال : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

واعلم أنه تعالى في أكثر الأمر حيث يذكر الدلائل الموجودة في العالم السفلي يذكر عقبها : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أو ما يقرب منه بحسب المعنى ، والسبب فيه أن الفلاسفة يسندون حوادث العالم السفلي إلى الاختلافات الواقعة في الأشكال الكوكبية ، فما لم تقم الدلالة على دفع هذا السؤال لا يتم المقصود ، فلهذا المعنى قال : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ كأنه تعالى يقول مجال الفكر باق بعد ولا بد بعد هذا المقام من التفكر والتأمل ليتم الاستدلال .

واعلم أن الجواب عن هذا السؤال من وجهين : الأول : أن نقول هب أنكم أسندتم حوادث العالم السفلي إلى الأحوال الفلكية والاتصالات الكوكبية إلا أنا أقمنا الدليل القاطع على أن

اختصاص كل واحد من الأجرام الفلكية وطبعه ووضعه وخاصيته لا بد أن يكون بتخصيص المقدر القديم والمدبر الحكيم ، فقد سقط هذا السؤال وهذا الجواب قد قرره الله تعالى في هذا المقام ، لأنه تعالى ابتدأ بذكر الدلائل السماوية وقد بينا أنها كيف تدل على وجود الصانع .

ثم إنه تعالى أتبعها بالدلائل الأرضية .

فإن قال قائل : لم لا يجوز أن تكون هذه الحوادث الأرضية لأجل الأحوال الفلكية ، كان جوابنا أن نقول فهب أن الأمر كذلك إلا أنا دللنا فيما تقدم على افتقار الأجرام الفلكية إلى الصانع الحكيم فحينئذ لا يكون هذا السؤال قادحاً في غرضنا .

والوجه الثاني : من الجواب أن نقيم الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث السفلية لأجل الاتصالات الفلكية ، وذلك هو المذكور في الآية التي تأتي بعد هذه الآية ، ومن تأمل في هذه اللطائف ووقف عليها علم أن هذا الكتاب اشتمل على علوم الأولين والآخرين .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن المقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث في هذا العالم لأجل الاتصالات الفلكية، والحركات الكوكبية، وتقريره من وجهين، الأول: أنه حصل في الأرض قطع مختلفة بالطبيعة والماهية وهي مع ذلك متجاورة، فبعضها تكون سبخية، وبعضها تكون رخوة، وبعضها تكون صلبة، وبعضها تكون منبتة، وبعضها تكون حجرية أو رملية وبعضها يكون طيناً لزجاً، ثم إنها متجاورة وتأثير الشمس وسائر الكواكب في تلك القطع على السوية فدل هذا على أن اختلافها في صفاتها بتقدير العليم القدير.

والثاني: أن القطعة الواحدة من الأرض تسقى بماء واحد فيكون تأثير الشمس فيها متساوياً، ثم إن تلك الثمار تجيء مختلفة في الطعم واللون والطبيعة والخاصية حتى أنك قد تأخذ عنقوداً من العنب فيكون جميع حباته حلوة نضيجة إلا حبة واحدة فإنها بقيت حامضة يابسة، ونحن نعلم بالضرورة أن نسبة الطباع والأفلاك للكل على السوية، بل نقول: ههنا ما هو أعجب منه، وهو أنه يوجد في بعض أنواع الورد ما يكون أحد وجهيه في غاية الحمرة، والوجه الثاني في غاية السواد مع أن ذلك الورد يكون في غاية الرقة والنعومة

فيستحيل أن يقال : وصل تأثير الشمس إلى أحد طرفيه دون الثاني ، وهذا يدل دلالة قطعية على أن الكل بتدبير الفاعل المختار ، لا بسبب الاتصالات الفلكية وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يسقى بِماء واحد ونُفَضّل بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِى الأكل ﴾ فهذا تمام الكلام في تقرير هذه الحجة وتفسيرها وبيانها .

واعلم أن بذكر هذا الجواب قد تمت الحجة فإن هذه الحوادث السفلية لا بد لها من مؤثر وبينا أن ذلك المؤثر ليس هو الكواكب والأفلاك والطبائع فعند هذا يجب القطع بأنه لا بد من فاعل آخر سوى هذه الأشياء ، وعندها يتم الدليل ، ولا يبقى بعده للفكر مقام ألبتة ، فلهذا السبب قال ههنا : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لأنه لا دافع لهذه الحجة إلا أن يقال : إن هذه الحوادث السفلية حدثت لا لمؤثر ألبتة وذلك يقدح في كمال العقل ، لأن العلم بافتقار الحادث إلى المحدث لما كان علماً ضرورياً كان عدم حصول هذا العلم قادحاً في كمال العقل فلهذا قال : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وقال في الآية المتقدمة : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : 3] فهذه اللطائف نفيسة من أسرار علم القرآن ونسأل الله العظيم أن يجعل الوقوف عليها سبباً للفوز بالرحمة والغفران .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَفِى الأَرضِ قِطَعٌ متجاورات ﴾ قال أبو بكر الأصم : أرض قريبة من أرض أخرى واحدة طيبة ، وأخرى سبخة ، وأخرى حرة ، وأخرى رملة ، وأخرى تكون حصباء ، وأخرى تكون حمراء ، وأخرى تكون سوداء .

وبالجملة فاختلاف بقاع الأرض في الارتفاع والانخفاض والطباع والخاصية أمر معلوم ، وفي بعض المصاحف (قطعاً متجاورات) والتقدير : وجعل فيها رواسي وجعل في الأرض قطعاً متجاورات .

وأما قوله : ﴿ وجنات مّنْ أعناب وزَرْعٌ ونَخِيلٌ ﴾ فنقول : الجنة البستان الذي يحصل فيه النخل والكرم والزرع وتحفه تلك الأشجار والدليل عليه قوله تعالى :

﴿ جعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جنَّتَيْنِ مِنْ أعناب وحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وجعَلْنَا بيْنَهُمَا زرْعًا ﴾ [الكهف : 32] قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم : ﴿ وزَرْعٌ ونَخِيلٌ صنوان وَغَيْرُ صنوان ﴾ كلها بالرفع عطفاً على قوله (وجنات) والباقون بالجر عطفاً على الأعناب .

وقرأ حفص عن عاصم في رواية القواس : (صنوان) بضم الصاد والباقون بكسر الصاد وهما لغتان ، والصنوان جمع صنو مثل قنوان وقنو ويجمع على أصناء مثل اسم وأسماء .

فإذا كثرت فهو الصني ، والصني بكسر الصاد وفتحها ، والصنو أن يكون الأصل واحداً

وتنبت فيه النخلتان والثلاثة فأكثر فكل واحدة صنو.

وذكر ثعلب عن ابن الأعرابي: الصنو المثل، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا إن عم الرجل صنو أبيه" أي مثله.

إذا عرفت هذا فنقول: إذا فسرنا الصنو بالتفسير الأول كان المعنى: أن النخيل منها ما ينبت من أصل واحد شجرتان وأكثر ومنها ما لا يكون كذلك، وإذا فسرناه بالتفسير الثاني كان المعنى: أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة متشابهة، وقد لا تكون كذلك.

(141/407)

ثم قال تعالى: ﴿تَسْقِى بِمَاء واحد﴾ قرأ عاصم وابن عامر (يسقى) بالياء على تقدير يسقى كله أو لتغليب المذكر على المؤنث، والباقون بالتاء لقوله: (جنات) قال أبو عمرو: ومما يشهد للتأنيث قوله تعالى: ﴿وَنُفَضّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِى الأكل﴾ قرأ حمزة والكسائي (يفضل) بالياء عطفاً على قوله: ﴿يُدَبّرُ﴾ [الرعد: 2] و ﴿يفصل﴾ [الرعد: 2]، و ﴿يغشي﴾ [الرعد: 3]، والباقون بالنون على تقدير: ونحن نفضل، و ﴿في الأكل﴾ قولان: حكاهما الواحدي حكي عن الزجاج أن الأكل الثمر الذي يؤكل، وحكى عن غيره أن الأكل المهيأ للأكل، وأقول هذا أولى لقوله تعالى في صفة الجنة: ﴿أُكُلُهَا

دَائِمٌ ﴾ [الرعد : 35] وهو عام في جميع المطعومات وابن كثير ونافع يقرآن الأكل ساكنة الكاف في جميع القرآن ، والباقون بضم الكاف ، وهما لغتان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 8.3 ﴾

(142/407)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ : " الْأَرْضُ السَّبِخَةُ وَالْأَرْضُ الْعَذْبَةُ " ﴿ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : " النَّخَلَاتُ أَصْلُهَا وَاحِدٌ ".

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ فِيهِ أَوْضَحُ دَلَالَةٍ عَلَى بُطْلَانِ مَذْهَبِ أَصْحَابِ الطَّبَائِعِ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ حُدُوثُ مَا يَحْدُثُ مِنْ الثِّمَارِ بِطَبْعِ الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ وَالْمَاءِ لَوَجَبَ أَنْ يَتَّفِقَ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ لِاتِّفَاقِ مَا يُوجِبُ حُدُوثَهُ ؛ إذْ كَانَتْ الطَّبِيعَةُ الْوَاحِدَةُ تُوجِبُ عِنْدَهُمْ اتِّفَاقَ مَا يَحْدُثُ مِنْهَا وَلَا يَجُوزُ أَنْ تُوجِبَ فِعْلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ ، فَلَوْ كَانَ حُدُوثُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالْأَرَايِيحِ وَالْأَشْكَالِ مِنْ

إيجَابِ الطَّبِيعَةِ لَاسْتَحَالَ اخْتِلَافُهَا وَتَضَادُّهَا مَعَ اتِّفَاقِ الْمُوجِبِ لَهَا ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُحْدِثَ لَهَا قَادِرٌ مُخْتَارٌ حَكِيمٌ قَدْ أَحْدَثَهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِهَا وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(143/407)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وهو الذي مَدّ الأرض ﴾

أي بسطها للاستقرار عليها ، رداً على من زعم أنها مستديرة كالكرة .

﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ أي جبالاً ، واحدها راسية ، لأن الأرض ترسو بها ، أي تثبت . قال جميل :

أُحبُّهُ والذي أرسى قواعده . . . حُبًّا إذا ظهرت آياتُه بطنا

قال عطاء : أول جبل وضع على الأرض أبو قبيس .

﴿ وأنهاراً ﴾ وفيها من منافع الخلق شرب الحيوان ونبات الأرض ومغيض الأمطار ومسالك الفلك .

﴿ ومِنْ كُلِّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ أحد الزوجين ذكر وأنثى كفحول النخل

وإناثها ، كذلك كل النبات وإن خفي . والزوج الآخر حلو وحامض ، أو عذب ومالح ، أو أبيض وأسود ، أو أحمر وأصفر ، فإن كل جنس من الثمار ذو نوعين ، فصار كل ثمر ذي نوعين زوجين ، وهي أربعة أنواع .

﴿ يغشي الليل النهار ﴾ معناه يغشي ظلمةَ الليل ضوءَ النهار ، ويغشي ضوء النهار ظلمة الليل .

قوله عز وجل : ﴿ وفي الأرض قطعٌ متجاورات ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المتجاورات المدن وما كان عامراً ، وغير المتجاورات الصحارى وما كان غير عامر .

الثاني : أي متجاورات في المدى ، مختلفات في التفاضل . وفيه وجهان :

أحدهما : أن يتصل ما يكون نباته مراً .

الثاني : أن تتصل المعذبة التي تنبت بالسبخة التي لا تنبت ، قاله ابن عباس .

﴿ وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن الصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المفترق ، قاله ابن جرير . قال الشاعر :

العلم والحلم خُلّتا كرَمٍ . . . للمرءِ زين إذا هما اجتمعا

صنوانٍ لا يستتم حسنها . . . إلا بجمع ذا وذاك معا

الثاني : أن الصنوان النخلات يكون أصلها واحداً ، وغير صنوان أن تكون أصولها شتى ،

قاله ابن عباس والبراء بن عازب .

الثالث : أن الصنوان الأشكال ، وغير الصنوان المختلف ، قاله بعض المتأخرين .

(144/407)

الرابع : أن الصنوان الفسيل يقطع من أمهاته ، وهو معروف ، وغير الصنوان ما ينبت من النوى ، وهو غير معروف حتى يعرف ، وأصل النخل الغريب من هذا ، قاله علي بن عيسى .

﴿ يسقى بماءٍ واحدٍ ونُفَضّلُ بعْضَها على بعضٍ في الأكل ﴾ فبعضه حلو ، وبعضه حامض ، وبعضه أصفر ، وبعضه أحمر ، وبعضه قليل ، وبعضه كثير .

﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن في اختلاف ذلك اعتبار يدل ذوي العقول على عظيم القدرة ، وهو معنى قول الضحاك .

الثاني : أنه مثل ضربه الله تعالى لبني آدم ، أصلهم واحد وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد ، قاله الحسن . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾

لما فرغت الآيات من ذكر السماوات ذكرت آيات الأرض .

وقوله : ﴿ مد الأرض ﴾ يقتضي أنها بسيطة لا كرة - وهذا هو ظاهر الشريعة وقد تترتب لفظة المد والبسط مع التكوير والله أعلم . و" الرواسي " الجبال الثابتة ، يقال : رسا يرسو ، إذا ثبت ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

به خالدات ما يرمن وهامد . . . وأشعث أرسته الوليدة بالفهر

و" الزوج " - في هذه الآية - الصنف والنوع ، وليس بالزوج المعروف بالمتلازمين الفردين من الحيوان وغيره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ [يس : 36] ومثل هذه الآية : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ [ق : 7] .

وهذه الآية تقتضي أن كل ثمرة فموجود منها نوعان ، فإن اتفق أن يوجد في ثمرة أكثر من

نوعين فغير ضار في معنى الآية .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم "يغْشي" بسكون الغين وتخفيف الشين ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم - في رواية أبي بكر - بفتح الغين وتشديد الشين ، وكفى ذكر الواحد ذكر الآخر ، وباقي الآية بين .

قال القاضي أبو محمد : ويشبه أن الأزواج التي يراد بها الأنواع والأصناف والأجناس إنما سميت بذلك من حيث هي اثنان ، اثنان ، ويقال : إن في كل ثمرة ذكر وأنثى ، وأشار إلى ذلك الفراء عند المهدوي ، وحكى عنه غيره ما يقتضي أن المعنى تم في قوله : ﴿ الثمرات ﴾ ثم ابتدأ أنه جعل في الأرض من كل ذكر وأنثى زوجين .

وقوله تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع . . . ﴾ الآية ، "القطع" : جمع قطعة وهي الأجزاء ، وقيد منها في هذا المثال ما جاور وقرب بعضه من بعض ، لأن اختلاف ذلك في الأكل أغرب .

(146/407)

وقرأ الجمهور "وجناتٌ" بالرفع ، عطفاً على ﴿ قطع ﴾ ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن "وجناتٍ" بالنصب بإضمار فعل ، وقيل : هو عطف على ﴿ رواسي ﴾ ، وقرأ ابن كثير

وأبو عمرو وحفص - عن عاصم - " وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ " بالرفع في الكل - عطفاً على ﴿ قطع ﴾ - وقرأ الباقون : " وزرعٍ " بالخفض في الكل - عطفاً على ﴿ أعناب ﴾ وجعل الجنة من الأعناب من رفع الزرع.

و" الجنة " حقيقة إنما هي الأرض التي فيها الأعناب وفي ذلك تجوز ومنه قول الشاعر : [زهير بن أبي سلمى] [البسيط]

كأن عيني في غربي مقتلة . . . من النواضح تسقي جنة سحقا

أي نخيل جنة ، إذ لا توصف بالسحق إلا النخل ، ومن خفض " الزرع " ف " الجنات " من مجموع ذلك لا من الزرع وحده ، لأنه لا يقال للمزرعة جنة إلا إذا خالطتها شجرات.

و﴿ صنوان ﴾ جمع صنو ، وهو الفرع يكون مع الآخر في أصل واحد ، وربما كان أكثر من فرعين ، قال البراء بن عازب : الصنوان : المجتمع ، " وغير الصنوان " المتفرق فرداً فرداً ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " العم صنو الأب " وروي أن عمر بن الخطاب أسرع إليه العباس في ملاحاة فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أردت يا رسول الله أن أقول يا رسول الله لعباس ، فذكرت مكانك منه فسكت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحمك الله يا عمر العم صنو الأب " وفي كتاب الزكاة من صحيح مسلم أنه قال : " يا عمر أما شعرت أن العم صنو الأب " وجمع الصنو صنوان ، وهو جمع مكسر ، قال أبو علي : وكسرة الصاد في الواحد ليست التي في الجمع ، وهو جار مجرى فلك . وتقول : صنو

وصنوان في الجمع بتنوين النون وإعرابه .

وقرأ عاصم - في رواية القواس عن حفص - " صُنوان " بضم الصاد قال أبو علي : هو مثل ذئب وذؤبان .

(147/407)

قال القاضي أبو محمد : وهي قراءة ابن مصرف وأبي عبد الرحمن السلمي ، وهي لغة تميم وقيس ، وكسر الصاد هي لغة أهل الحجاز ، وقرأ الحسن وقتادة " صَنوان " بفتح الصاد وهو اسم جمع لا جمع ونظير هذه الللفظة : قنو وقنوان ، وإنما نص على " الصنوان " في هذه الآية لأنها بمثابة التجاوز في القطع ، تظهر فيه غرابة اختلاف الأكل .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي والحسن وأبو جعفر وأهل مكة : " تسقى " بالتاء ، وأمال حمزة والكسائي القاف . وقرأ عاصم وابن عامر " يسقى " بالياء ، على معنى يسقى ما ذكر . وقرأ الجمهور " نفضل " بالنون وقرأ حمزة والكسائي " ويفضل " بالياء ، وقرأ ابن محيصن : " يسقى بماء واحد ، ويفضل " بالياء فيهما ، وقرأ يحيى بن يعمر وأبو حيوة " ويفضَّل " بالياء وفتح الضاد " بعضُها " بالرفع ، قال أبو حاتم : وجدته كذلك في نقط يحيى بن يعمر في مصحفه - وهو أول من نقط المصاحف .

و﴿ الأكل ﴾ اسم ما يؤكل ، بضم الهمزة ، والأكل المصدر .

وقرأت فرقة " في الأُكُل " بضم الهمزة والكاف ، وقد تقدم هذا في البقرة وحكى الطبري عن غير واحد – ابن عباس وغيره – ﴿ قطع متجاورات ﴾ أي واحدة سبخة ، وأخرى عذبة ، ونحو هذا من القول ، وقال قتادة المعنى : قرى متجاورات .

قال القاضي أبو محمد : وهذا وجه من العبرة كأنه قال : وفي الأرض قطع مختلفات بتخصيص الله لها بمعانٍ فهي " تسقى بماء واحد " ، ولكن تختلف فيما تخرجه والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور إنما هو أنها من تربة واحدة ونوع واحد ، وموضع العبرة في هذا أبين لأنها مع اتفاقها في التربة والماء ، تفضل القدرة والإرادة بعض أكلها على بعض ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم – حين سئل عن هذه الآية – فقال :

" الدقل والفارسي والحلو والحامض " وعلى المعنى الأول قال الحسن : هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم : كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة فسطحها فصارت قطعاً متجاورة فينزل عليها ماء واحد من السماء – فتخرج هذه زهرة وثمرة ، وتخرج هذه سبخة وملحاً وخبثاً ، فكذلك الناس : خلقوا من آدم فنزلت عليهم من السماء تذكرة –فرقت قلوب

وخشعت ، وقست قلوب ولهت وجفت : قال الحسن : فوالله ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان ، قال الله تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ [الإسراء : 82] .

والتفضيل في الأكل الأذواق والألوان والملمس وغير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(149/407)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي مَدَّ الأرض ﴾

قال ابن عباس : بسطها على الماء .

قوله تعالى : ﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ قال الزجاج : أي جبالاً ثوابت ، يقال : رسا الشيء يرسوا رُسُوّاً ، فهو راسٍ : إِذا ثبت .

و﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ أي : نوعين .

والزوج : الواحد الذي له قرين من جنسه .

قال المفسرون : ويعني بالزوجين : الحلو والحامض ، والعذب والملح ، والأبيض والأسود .

قوله تعالى : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ قد شرحناه في [الأعراف : 45] .

قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض قِطَعٌ متجاورات ﴾

فيها قولان :

أحدهما : أنها الأرض السَّبِخة ، والأرض العذبة ، تنبت هذه ، وهذه إلى جنبها لا تنبت ، هذا قول ابن عباس ، وأبي العالية ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : أنها القرى المتجاورات ، قاله قتادة ، وابن قتيبة ، وهو يرجع إلى معنى الأول .

قوله تعالى : ﴿ وزرع ونخيل ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : ﴿ وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوانٍ ﴾ رفعاً في الكُلِّ .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "وزرعٍ ونخيلٍ صنوانٍ "وغيرِ صنوانٍ" خفضاً في الكُلِّ .

قال أبو علي : من رفع ، فالمعنى : وفي الأرض قطع متجاورات وجنَّات ، وفي الأرض زرع ، ومن خفض حمله على الأعناب ، فالمعنى : جنَّاتٌ من أعناب ، ومن زرع ، ومن نخيل .

قوله تعالى : ﴿ صنوان وغير صنوان ﴾ هذا من صفة النخيل .

قال الزجاج : الصنوان : جمع صِنْوٍ وصُنْوٍ ، ومعناه : أن يكون الأصل واحداً وفيه النخلتان والثلاثُ والأربع .

وكذلك قال المفسرون : الصنوان : النخل المجتمع وأصله واحد ، وغير صنوان : المتفرِّق .

وقرأ أبو رزين، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي، وابن جبير، وقتادة: "صُنوانٌ" بضم الصاد.

قال الفراء: لغة أهل الحجاز "صِنوانٍ" بكسر الصاد، وتميم وقيس يضمون الصاد.

قوله تعالى: ﴿ تسقى بماء واحد ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو "تسقى" بالتاء، "ونفضِّل" بالنون، وقرأ حمزة، والكسائي "تسقى" بالتاء أيضاً، لكنهما أمالا القاف.

وقرأ الحسن "ويفضِّل" بالياء.

وقرأ عاصم، وابن عامر "يُسقى" بالياء، "ونفضِّل" بالنون، وكلُّهم كسر الضاد.

وروى الحلبي عن عبد الوارث ضمَّ الياء من "يُفضَّل" وفتح الضاد، "بعضُها" برفع الضاد.

وقال الفراء: من قرأ "تُسقى" بالتاء ذهب إِلى تأنيث الزرع، والجنَّات، والنخيل، ومن كسر ذهب إِلى النبت، وذلك كلُّه يُسقى بماءٍ واحد، وأُكُلُه مختلف حامِض وحُلو، ففي هذا آية.

قال المفسرون: الماء الواحد: ماء المطر، والأُكُل: الثمر، بعضه أكبر من بعض، وبعضه أفضل من بعض، وبعضه حامض وبعضه حلو، إِلى غير ذلك، وفي هذا دليل على بطلان قول الطبائعيين، لأنه لو كان حدوث الثمر على طبع الأرض والهواء، والماء، وجب أن

يتفق ما يحدث لاتفاق ما أوجب الحدوث ، فلما وقع الاختلاف ، دلَّ على مدبِّرٍ قادر ، ﴿ إِن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾ أنه لا تجوز العبادة إلا لمن يقدر على هذا . انتهى ا . هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(151/407)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض ﴾

لمّا بيّن آيات السّموات بيّن آيات الأرض ؛ أي بسط الأرض طولاً وعرضاً .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت ؛ واحدها راسية ؛ لأن الأرض ترسو بها ، أي تثبت ؛ والإرساء الثّبوت ؛ قال عَنْتَرَة :

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لذلك حُرَّةً . . .

تَرْسُو إذا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ

وقال جميل :

أُحِبُّها والذي أَرْسَى قواعِدَهُ . . .

حُبًّا إذا ظَهَرَت آياتُه بَطَنَا

وقال ابن عباس وعطاء : أوّل جبل وُضع على الأرض أبو قُبَيس .

مسألة : في هذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كالكرة ، وردّ على من زعم أن الأرض تهوي أبوابها عليها ؛ وزعم ابن الرّاوندي أن تحت الأرض جسماً صعّاداً كالرِّيح الصعّادة ؛ وهي منحدرة فاعتدل الهاوي والصعادي في الجِرْم والقوّة فتوافقا .

وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين ، أحدهما منحدر ، والآخر مصعد ، فاعتدلا ، فلذلك وقفت .

والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدّها ، وأن حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبها .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَاراً ﴾ أي مياهاً جارية في الأرض ، فيها منافع الخلق .

﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ بمعنى صنفين .

قال أبو عبيدة : الزوج واحد ، ويكون اثنين .

الفراء : يعني بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى ؛ وهذا خلاف النص .

وقيل : معنى "زَوْجَيْنِ" نوعان ، كالحُلْو والحامض ، والرطب واليابس ، والأبيض والأسود ، والصغير والكبير .

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ

يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾

فيه خمس مسائل :

(152/407)

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ في الكلام حذف ؛ المعنى : وفي الأرض قِطع متجاورات وغير متجاورات ؛ كما قال : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] والمعنى وتقيكم البَرْد ، ثم حذف لعلم السامع .

والمتجاورات المدن وما كان عامراً ، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر .

الثانية : قوله تعالى : "مُتَجَاوِرَاتٌ" أي قُرًى متدانيات ، ترابها واحد ، وماؤها واحد ، وفيها زروع وجنات ، ثم تتفاوت في الّثمار والّتمر ؛ فيكون البعض حُلْواً ، والبعض حامضاً ؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الّثمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم ، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ؛ وفي هذا أدّل دليل على وحدانيته وعِظم صمدِيته ، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته ؛ فإنه نبَّهَ سبحانه بقوله : ﴿ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ؛ وهذا أدّل دليل على بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع

الاختلاف .

وقيل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البِقاع ؛ فمِن تربة عذبة ، ومن تربة سبِخة مع تجاورهما ؛ وهذا أيضاً من دلالات كمال قدرته ؛ جلّ وعزّ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلوّاً كبيراً .

الثالثة : ذهبت الكفرة لعنهم الله إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع ؛ وادّعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار ، وقد أقرّوا بحدوثها ، وأنكروا محدثها ، وأنكروا الأعراض .

(153/407)

وقالت فرقة : بحدوث الثمار لا من صانع ، وأثبتوا للأعراض فاعلاً ؛ والدليل على أن الحادث لا بدّ له من مُحدِث أنه يَحدُث في وقت ، ويَحدُث ما هو من جنسه في وقت آخر ؛ فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يَحدُث في وقته كل ما هو من جنسه ؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل مُخصِّص خصّصه به ، ولولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده ؛ واستيفاء هذا في علم الكلام .

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ قرأ الحسن "وَجَنَّاتٍ" بكسر التاء، على التقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله: "وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ".

ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على "كل" التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات.

الباقون: "جَنَّاتٌ" بالرفع على تقدير: وبينهما جنات.

﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ بالرفع.

ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفاً على الجنات؛ أي على تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل.

وخفضها الباقون نَسَقاً على الأعناب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجَنّات؛ ويجوز أن يكون معطوفاً على "كُلّ" حسب ما تقدّم في "وجنّات".

وقرأ مجاهد والسُّلَميّ وغيرهما "صُنْوَانٌ" بضم الصاد، الباقون بالكسر؛ وهما لغتان؛ وهما جمع صِنْوٍ، وهي النَّخَلات والنّخلتان، يجمعهن أصلٌ واحد، وتتشعب منه رؤوس فتصير نخيلاً؛ نظيرها قِنْوان، واحدها قِنو: وروى أبو إسحاق عن البَراء قال: الصِّنْوان المجتمع، وغير الصِّنْوان المتفرق؛ النحاس: وكذلك هو في اللغة؛ يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صِنْوان.

والصّنو المِثْل؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه" ولا فرق فيها بين التّثنية والجمع، ولا بالإعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التّثنية؛ قال الشاعر:

العلمُ والحلمُ خُلَّتَا كَرَمٍ . . .

للمرءِ زَيْنٌ إذا هُمَا اجتمعا

صِنْوانِ لا يُسْتَتَمُّ حُسنُهُمَا . . .

إلَّا بجمعِ ذا وذاكَ مَعَا

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ ﴾ كصالح بني آدم وخبيثهم ، أبوهم واحد ؛ قاله النحاس والبخاريّ .

وقرأ عاصم وابن عامر : "يُسْقَى" بالياء ، أي يُسقى ذلك كله .

وقرأ الباقون بالتاء ، لقوله : "جَنَاتٌ" واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة ؛ قال أبو عمرو : والتأنيث أحسن ؛ لقوله : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأكل ﴾ ولم يقل بعضه .

وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما "وَيُفَضِّلُ" بالياء ردّاً على قوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ و "يُفَصِّلُ" و "يُغْشِي" الباقون بالنون على معنى : ونحن نفضل .

وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول لعليّ رضي الله عنه : " الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة " ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَفِى الأرض قِطَعٌ متجاورات ﴾ حتى بلغ قوله : "يُسْقَى بِماءٍ وَاحِدٍ" و "الأُكُلِ" الثمر .

قال ابن عباس : يعني الحلو والحامض والفارسيّ والدّقَل .

وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ﴾ قال : الفارسي والدَّقَل والحُلْو والحامض " ذكره الثعلبيّ .

قال الحسن : المراد بهذه الآية المثل ؛ ضربه الله تعالى لبني آدم ، أصلهم واحد ، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر ، كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد ؛ ومنه قول الشاعر :

الناسُ كالنَّبتِ والنَّبْتُ ألوان . . .

منها شجر الصَّندلِ والكافورِ والبان

ومنها شجر يَنضحُ طول الدّهرِ قطران . . .

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي مد الأرض ﴾

لما ذكر الدلالة على وحدانيته وكمال قدرته وهي رفع السمأوات بغير عمد ، وذكر أحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الأرضية ، فقال : وهو الذي مد الأرض أي بسطها على وجه الماء ، وقيل : كانت الأرض مجتمعة فمدها من تحت البيت الحرام ، وهذا القول إنما يصح إذا قيل إن الأرض منسطحة كالأكف ، وعند أصحاب الهيئة : الأرض كرة ، ويمكن أن يقال : إن الكرة إذا كانت كبيرة عظيمة فإن كل قطعة منها تشاهد ممدودة كالسطح الكبير العظيم ، فحصل الجمع ومع ذلك فالله تعالى قد أخبر أنه مد الأرض ، وأنه دحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلاً وأبين دليلاً من أصحاب الهيئة ﴿ وجعل فيها ﴾ .

يعني في الأرض ﴿ رواسي ﴾ يعني جبالاً ثابتة ، يقال : رسا الشيء يرسو إذا ثبت وأرساه غيره أثبته قال ابن عباس : كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض ﴿ وأنهاراً ﴾ ، يعني وجعل في الأرض أنهاراً جارية لمنافع الخلق ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ يعني صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلواً وحامضاً ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ ، يعني يلبس النهار ظلمة الليل ويلبس الليل ضوء النهار ﴿ إن في ذلك ﴾ يعني الذي تقدم ذكره من عجائب صنعته وغرائب قدرته الدالة على وحدانيته ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات

﴿ لقوم يتفكرون ﴾ يعني فيستدلون بالصنعة على الصانع ، وبالسبب على المسبب ، والفكر هو تصرف القلب في طلب الأشياء ، وقال صاحب المفردات : الفكر قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم ، والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل ، وذلك للإنسان دون الحيوان ، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب ولهذا روي " تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله " إذ كان الله منزها أن يوصف بصورة .

وقال بعض الأدباء : الفكر مقلوب عن الفرك لأنه يستعمل في طلب المعاني ، وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول الى حقيقتها .

(156/407)

قوله ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ يعني متقاربات بعضها من بعض ، وهي مختلفة في الطبائع فهذه طيبة تنبت وهذه سبخة لا تنبت ، وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع ﴿ وجنات ﴾ يعني متقاربات بعضها من بعض ، وهي مختلفة في الطبائع فهذه طيبة تنبت وهذه سبخة لا تنبت ، وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع ﴿ وجنات ﴾ يعني بساتين والجنة كل بستان ذي شجر من نخيل وأعناب وغير ذلك ، سمي جنة لأنه يستر بأشجاره الأرض وإليه الإشارة بقوله ﴿ من أعناب وزرع ونخيل صنوان ﴾ جمع صنو وهي

النخلات يجتمعن من أصل واحد ، ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) في عمه العباس " عم الرجل صنو أبيه " يعني أنهما من أصل واحد ﴿ وغير صنوان ﴾ هي النخلة المنفردة بأصلها فالصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المتفرق ﴿ يسقى بماء واحد ﴾ يعني أشجار الجنات وزروعها ، والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام ، وقيل : في حده جوهر سيال به قوام الأرواح ؛ ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ يعني في الطعم ما بين الحلو والحامض والعفص وغير ذلك من الطعام .

عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) " في قوله تعالى : ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ قال : الدقل والنرسيان والحلو والحامض " أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن غريب .

قال مجاهد : هذا كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد ، وقال الحسن : هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن فسطحها فصارت قطعاً متجاورات ، وأنزل على وجهها ماء السماء فتخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها ، وتخرج هذه نباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد فلو كان الماء قليلاً .

قيل : إنما هذا من قبل الماء كذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو ، ولا تسمع .

وقال الحسن : والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزياده أو نقصان قال الله تعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ وقوله تعالى ﴿ إن في ذلك ﴾ يعني الذي ذكر ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ يعني فيتدبرون ويتفكرون في الآيات الدالة على وحدانيته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾

لما قرر الدلائل السماوية أردفها بتقرير الدلائل الأرضية .

ومد الأرض : بسطها طولاً وعرضاً ليمكن التصرف فيها ، والاستقرار عليها .

قيل : مدها ودحاها من مكة من تحت البيت ، فذهبت كذا وكذا .

وقيل : كانت مجتمعة عند بيت المقدس فقال لها : اذهبي كذا وكذا .

قال ابن عطية : وقوله مد الأرض ، يقتضي أنها بسيطة لا كرة ، وهذا هو ظاهر الشريعة .

قال أبو عبد الله الداراني : ثبت بالدليل أنّ الأرض كرة ، ولا ينافي ذلك قوله : مد الأرض ، وذلك أنّ الأرض جسم عظيم .

والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان قطعة منها تشاهد كالسطح ، والتفاوت بينه وبين السطح لا يحصل إلا في علم الله تعالى .

ألا ترى أنه قال : ﴿ والجبال أوتاداً ﴾ مع أن العالم والناس يسيرون عليها فكذلك هنا .

وأيضاً إنما ذكر مد الأرض ليستدل به على وجود الصانع ، وكونها مجتمعة تحت البيت أمر غير مشاهد ولا محسوس ، فلا يمكن الاستدلال به على وجود الصانع .

فتأويل مد الأرض أنه جعلها بمقدار معين ، وكونها تقبل الزيادة والنقص أمر جائز ممكن في نفسه ، فالاختصاص بذلك المقدار المعين لا بد أن يكون بتخصيص مخصص ، وتقدير مقدر ، وبهذا يحصل الاستدلال على وجود الصانع انتهى ملخصاً .

وقال أبو بكر الأصم : المد البسط إلى ما لا يرى منتهاه ، فالمعنى : جعل الأرض حجماً يسيراً لا يقع البصر على منتهاه ، فإن الأرض لو كانت أصغر حجماً مما هي الآن عليه لما كمل الانتفاع به انتهى .

وهذا الذي ذكره من أنها لو كانت أصغر إلى آخره غير مسلم ، لأن المنتفع به من الأرض المعمور ، والمعمور أقل من غير المعمور بكثير .

(159/407)

فلو أراد تعالى أن يجعلها مقدار المعمور المنتفع به لم يكن ذلك ممتنعاً ، فتحصل في قوله : مد الأرض ثلاث تأويلات بسطها بعد أن كانت مجتمعة ، واختصاصها بمقدار معين وجعل حجمها كبيراً لا يرى منتهاه .

والرواسي الثوابت ، ومنه قول الشاعر :

به خالدات ما يرمن وهامد . . .

وأشعث أرسته الوليدة بالقهر

والمعنى : جبالاً رواسي ، وفواعل الوصف لا يطرد إلا في الإناث ، إلا أنّ جمع التكسير من المذكر الذي لا يعقل يجري مجرى جمع الإناث .

وأيضاً فقد غلب على الجبال وصفها بالرواسي ، وصارت الصفة تغني عن الموصوف ، فجمع جمع الاسم كحائط وحوائط وكاهل وكواهل .

وقيل : رواسي جمع راسية ، والهاء للمبالغة ، وهو وصف الجبل .

كانت الأرض مضطربة فثقلها الله بالجبال في أحيازها فزال اضطرابها ، والاستدلال بوجود الجبال على وجود الصانع القادر الحكيم .

قيل : من جهة أنّ طبيعة الأرض واحدة ، فحصول الجبل في بعض جوانبها دون بعض لا بد أن يكون بتخليق قادر حكيم ، ومن جهة ما يحصل منها من المعادن الجوهرية والرخامية وغيرها كالنفط والكبريت يكون الجبل واحداً في الطبع ، وتأثير الشمس واحد دليل على أنّ ذلك بتقدير قاد قاهر متعال عن مشابهة الممكنات ، ومن جهة تولد الأنهار منها .

قيل : وذلك لأنّ الجبل جسم صلب ، ويتصاعد بخاره من قعر الأرض إليه ويحتبس هناك ، فلا يزال يتكامل فيه فيحصل بسببه مياه كثيرة ، فلقوتها تشق وتخرج وتسيل على وجه الأرض ، ولهذا في أكثر الأمر إذا ذكر الله تعالى الجبال ذكر الأنهار كهذه الآية .

وكقوله : ﴿ وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ﴾ ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً ﴾ فقال المفسرون : الأنهار المياه الجارية في الأرض .

وقال الكرماني : مسيل الماء ، وتقدم الكلام في الأنهار في أوائل سورة البقرة .

والظاهر أنّ قوله : من كل الثمرات متعلق بجعل .

ولما ذكر الأنهار ذكر ما ينشأ عنها وهو الثمرات ، والزوج هنا الصنف الواحد الذي هو نقيض الاثنين ، يعني أنه حين مد الأرض جعل ذلك ، ثم تكثرت وتنوعت .

وقيل : أراد بالزوجين الأسود والأبيض ، والحلو والحامض ، والصغير والكبير ، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة .

وقال ابن عطية : وهذه الآية تقتضي أن كل ثمرة موجود فيها نوعان ، فإن اتفق أن يوجد من ثمرة أكثر من نوعين فغير ضار في معنى الآية .

وقال الكرماني : الزوج واحد ، والزوج اثنان ، ولهذا قيد ليعلم أنّ المراد بالزوج هنا الفرد لا التثنية ، فيكون أربعاً .

وخص اثنين بالذكر ، وإن كان من أجناس الثمار ما يزيد على ذلك لأنه الأقل ، إذ لا نوع تنقص أصنافه عن اثنين انتهى .

ويقال : إن في كل ثمرة ذكر وأنثى ، وأشار إلى ذلك الفراء .

وقال أبو عبد الله الرازي : لما خلق الله تعالى العالم وخلق فيه الأشجار ، خلق من كل نوع من الأنواع اثنين فقط .

فلو قال : خلق زوجين ، لم يعلم أنّ المراد النوع أو الشخص ، فلما قال : اثنين علمنا أنه أول ما خلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد .

فالشجر والزرع كبني آدم ، حصل منهم كثرة ، وابتداؤهم من زوجين اثنين بالشخص وهما

آدم وحواء .

والاستدلال بخلق الثمرات على ما ذكر تعالى من جهة ربو الجنة في الأرض ، وشق أعلاها وأسفلها ، فمن الشق الأعلى الشجرة الصاعدة ، ومن الأسفل العروق الغائصة ، وطبيعة تلك الجنة واحدة ، وتأثيرات الطبائع والأفلاك والكواكب فيها واحد .

ثم يخرج من الأعلى ما يذهب صعداً في الهواء ، ومن الأسفل ما يغوص في الثرى ، ومن المحال أن يتولد من الطبيعة الواحدة طبيعتان متضادتان ، فعلمنا أن ذلك بتقدير قادر حكيم .

ثم تلك الشجرة يكون بعضها خشباً ، وبعضها لوزاً ، وبعضها ثمراً ، ثم تلك الثمرة يحصل فيها أجسام مختلفة الطبائع وذلك بتقدير القادر الحكيم انتهى .

وفيه تلخيص .

وقيل : تم الكلام عند قوله : ومن كل الثمرات ، فيكون معطوفاً على ما قبله من عطف المفردات ، ويتعلق بقوله : وجعل فيها رواسي .

فالمعنى : أنه جعل في الأرض من كل ذكر وأنثى اثنين ، وقيل : الزوجان الشمس والقمر ،

وقيل : الليل والنهار ، يغشي الليل النهار تقدم تفسير هذه الجملة وقرآتها في الأعراف .

وخص المتفكرين لأنّ ما احتوت عليه هذه الآيات من الصنيع العجيب لا يدرك إلا بالتفكر .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾

قطع جمع قطعة وهي الجزء .

ومتجاورات متلاصقة متداينة ، قريب بعضها من بعض .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو العالية ، والضحاك : أرض طيبة وأرض سبخة ، نبتت هذه ، وهذه إلى جنبها لا تنبت .

وقال ابن قتيبة وقتادة : يعني القرى المتجاورة .

وقيل : متجاورة في المكان ، مختلفة في الصفة ، صلبة إلى رخوة .

وسحراً إلى مرد أو مخصبة إلى مجدبة ، وصالحة للزرع لا للشجر ، وعكسها مع انتظام جميعها في الأرضية .

وقيل : في الكلام حذف معطوف أي : وغير متجاورات .

والمتجاورات المدن وما كان عامراً ، وغير المتجاورات الصحاري وما كان غير عامر .

قال ابن عطية : والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور إنما هو من تربة واحدة ، ونوع واحد .

وموضع العبرة في هذا أبين ، لأنها مع اتفاقها في الترب والماء تفضل القدرة والإرادة بعض أكلها على بعض ، كما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) حين سئل عن هذه الآية فقال : "الدقل ، والقارس ، والحلو ، والحامض" وقال ابن عطية : وقيد منها في هذه المثال ما جاور وقرب بعضه من بعض ، لأن اختلاف ذلك في الأكل أغرب .

وفي بعض المصاحف : قطعاً متجاورات بالنصب على جعل .

وقرأ الجمهور : وجنات بالرفع ، وقرأ الحسن : بالنصب ، بإضمار فعل .

وقيل : عطفاً على رواسي .

(162/407)

وقال الزمخشري : بالعطف على زوجين اثنين ، أو بالجر على كل الثمرات انتهى .

والأولى إضمار فعل لبعد ما بين المتعاطفين في هذه التخاريج ، والفصل بينهما بجمل كثيرة .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص : وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان بالرفع في الجميع على مراعاة قطع .

وقال ابن عطية : عطفاً على أعناب ، وليست عبارة محررة أيضاً ، لأن فيها ما ليس بعطف وهو قوله : صنوان .

وقرأ باقي السباعة : بخفض الأربعة على مراعاة من أعناب قال : وجعل الجنة من الأعناب من رفع الزرع ، والجنة حقيقة إنما هي الأرض التي فيها الأعناب ، وفي ذلك تجوز ومنه قول الشاعر :

كأن عيني في غربي مقبلة . . .

من النواضح تسقي جنة سحقه

أي نخيل جنة إذ لا يوصف بالسحق إلا النخل .

ومن خفض الزرع فالجنات من مجموع ذلك لا من الزرع وحده ، لأنه لا يقال للمزرعة جنة إلا إذا خالطها ثمرات .

وقرأ الجمهور : صنوان بكسر الصاد فيهما ، وابن مصرف والسلمي وزيد بن علي : بضمها ، والحسن وقتادة بفتحها ، وبالفتح هو اسم للجمع ، كالسعدان .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وزيد بن علي : يسقى بالياء ، أي : يسقى ما ذكر .

وباقي السبعة بالتاء ، وهي قراءة الحسن وأبي جعفر وأهل مكة .

أنثوا لعود الضمير على لفظ ما تقدم ، ولقوله : ونفضل بالنون .

وحمزة والكسائي بالياء ، وابن محيصن بالياء في تسقي ، وفي نفضل .

وقرأ يحيى بن يعمر ، وأبو حيوة ، والحلبي عن عبد الوارث : ويفضل بالياء ، وفتح الضاد بعضها بالرفع .

قال أبو حاتم : وجدته كذلك في مصحف يحيى بن يعمر ، وهو أول من نقط المصاحف .

وتقدم في البقرة خلاف القراء في ضم الكاف من الأكل وسكونها .

والأُكل بضم الهمزة المأكول كالنقض بمعنى المنقوض ، وبفتحها المصدر .

والظاهر من تفسير أكثر المفسرين للصنوان أن يكون قوله : صنوان ، صفة لقوله : ونخيل .

ومن فسره منهم بالمثل جعله وصفاً لجميع ما تقدم أي : أشكال ، وغيره إشكال .

(163/407)

قيل : ونظير هذه الكلمة قنو وقنوان ، ولا يوجد لهما ثالث ونص على الصنوان لأنها بمثال التجاور في القطع ، فظهر فيها غرابة اختلاف الأكل .

ومعنى بماء واحد : ماء مطر ، أو ماء بحر ، أو ماء نهر ، أو ماء عين ، أو ماء نبع لا يسيل على وجه الأرض .

وخص التفضيل في الأكل وإن كانت متفاضلة في غيره ، لأنه غالب وجوه الانتفاع من الثمرات .

ألا ترى إلى تقاربها في الأشكال ، والألوان ، والروائح ، والمنافع ، وما يجري مجرى ذلك ؟

قيل : نبه الله تعالى في هذه الآية على قدرته وحكمته ، وأنه المدبر للأشياء كلها ، وذلك أن

الشجرة تخرج أغصانها وثمراتها في وقت معلوم لا تتأخر عنه ولا تتقدم ، ثم يتصعد الماء في ذلك الوقت علواً علواً وليس من طبعه إلا التسفل ، يتفرق ذلك الماء في الورق والأغصان والثمر كل بقسطه وبقدر ما فيه صلاحه ، ثم تختلف طعوم الثمار والماء واحد ، والشجر جنس واحد .

وكل ذلك دليل على مدبر دبره وأحكمه ، لا يشبه المخلوقات .

قال الراجز :

والأرض فيها عبرة للمعتبر . . .

تخبر عن صنع مليك مقتدر

تسقى بماء واحد أشجارها . . .

وبقعة واحدة قرارها

والشمس والهواء ليس يختلف . . .

وأكلها مختلف لا يأتلف

لو أن ذا من عمل الطبائع . . .

أو أنه صنعة غير صانع

لم يختلف وكان شيئاً واحداً . . .

هل يشبه الأولاد إلا الوالدا

الشمس والهواء يا معاند . . .

والماء والتراب شيء واحد

فما الذي أوجب ذا التفاضلا . . .

إلا حكيم لم يرده باطلا

وقال الحسن : هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم ، كانت الأرض طينة واحدة فسطحها ، فصارت قطعاً متجاورات ، فنزل عليها ماء واحد من السماء فتخرج هذه زهرة وثمرة ، وتخرج هذه سبخة وملحاً وخبثاً .

وكذلك الناس خلقوا من آدم .

فنزلت عليهم من السماء مذكرة ، قربت قلوب وخشعت قلوب ، وقست قلوب ولهت قلوب .

وقال الحسن : ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان .

قال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ انتهى ، وهو شبيه بكلام الصوفية .

إنّ في ذلك قال ابن عباس : في اختلاف الألوان والروائح والطعوم ، لآيات : لحججاً ودلالات لقوم يعقلون : يعلمون الأدلة فيستدلون بها على وحدانية الصانع القادر .

ولما كان الاستدلال في هذه الآية بأشياء في غاية الوضوح من مشاهدة تجاور القطع ، والجنات وسقيها وتفضيلها ، جاء ختمها بقوله : لقوم يعقلون ، بخلاف الآية التي قبلها ، فإن الاستدلال بها يحتاج إلى تأمل ومزيد نظر جاء ختمها بقوله لقوم يتفكرون . انتهى ا . هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(165/407)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾

لما فرغَتْ آيات السماء ، ذُكِرَتْ آيات الأرض ، وال ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ : الجبالُ الثابتة .

وقوله سبحانه : ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ : «الزَوْجِ» ؛ في هذه الآية : الصِّنْف والنَّوْع ، وليس بالزوْجِ المعروفِ في المتلازمين الفَرْدَيْن من الحيوان وغيره ؛ ومنه قوله سبحانه : ﴿ سبحان الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض ﴾ [يس : 36] ، ومنه : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [ق : 7] ، وهذه الآية تقتضِي أنّ كلَّ ثمرة ، فموجودٌ منها نوعانِ

، فإن اتفق أنْ يوجد من ثمرةٍ أكْثَرُ من نوعَيْنِ ، فغير ضارٍّ في معنى الآية ، و ﴿ قِطَعٌ ﴾ : جَمْعُ قِطْعَة ، وهي الأجزاء ، وقيد منها في هذا المثال ما جَاوَرَ وقَرُبَ بعضه من بعض ؛ لأن اختلاف ذلك في الأُكُلِ أغربُ ، وقرأ الجمهور : «وَجَنَّاتٌ» - بالرفع - ؛ عطفاً على «قِطَعٌ» ، وقرأ نافع وغيره : «وزَرْعٍ ونَخِيلٍ صِنْوَانٌ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ ﴾ - بالخفض في الكل - ؛ عطفاً على «أعناب» ، وقرأ ابن كثير وغيره : «وزرعٌ» - بالرفع في الكل - ؛ عطفاً على «قطع» ، و ﴿ صِنْوَانٌ ﴾ : جمع صنْو ، وهو الفرع يكونُ مع الآخَرِ في أصْلٍ واحدٍ ، قال البراءُ بْنُ عازبٍ : «الصِّنْوَان» : المجتمع ، وغَيْرُ الصِّنوان : المفترق فرداً فرداً وفي «الصحيحِ» : «العَمُّ صِنْوُ الأَبِ» ، وإنما نص على الصِّنْوان في هذه الآية ؛ لأنها بمثابة التجاوُرِ في القطع تظهر فيها غرابةُ اختلاف الأُكْلِ ، و ﴿ الأكل ﴾ - بضم الهمزة - : اسم ما يؤكل ، والأكل المَصْدَر ، وحكى الطبري عن ابن عبَّاس وغيره : ﴿ قِطَعٌ متجاورات ﴾ : أي : واحدة سبخة ، وأخرى عَذْبَة ، ونحو هذا من القولِ ، وقال قتادة : المعنى : قُرًى مُتَجَاوِرَاتٌ .

قال *ع* : وهذا وجهٌ من العبرة ، كأنه قال : وفي الأرض قِطَعٌ مختلفاتٌ بتخصيص اللَّه لها بمعانٍ فهي تُسْقَى بماءٍ واحدٍ ، ولكن تختلف فيما تُخْرِجُه ، والذي يظهر من وصفه لها بالتجاوُرِ ؛ أنها من تُرْبَةٍ واحدةٍ ، ونوعٍ واحدٍ ، وموضعُ العِبْرة في هذا أَبْيَنُ ، وعلى المَعْنَى الأول قال الحَسَنُ : هذا مَثَلٌ ضربه اللَّه لقلوب بَنِي آدم : الأرضُ واحدةٌ ، وينزل عليها ماءٌ واحدٌ من السَّماء ، فتخرجُ هذه زهرةً وثمرةً ، وتخرجُ هذه سبخةً وملحاً وخبثاً ، وكذلك النّاس خُلِقُوا من آدم ، فنزلَتْ عليهم من السماء تذكرةٌ ، فرَقَّتْ قلوبٌ وَخَشَعَتْ ، وقَسَتْ قلوبٌ ولَهَتْ .

قال الحسنُ : فواللَّه ، ما جالَسَ أحدٌ القُرْآن إلاَّ قَامَ عَنْه بزيادةٍ أو نقصانٍ ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إِلاَّ خَسَاراً ﴾ [الاسراء : 82] . انتهى انتهى . اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(167/407)

وقال أبو السعود :

ولمّا قرر الشواهدَ العلويةَ أردفها بذكر الدلائلِ السفلية فقال : ﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ الأرض ﴾ أي بسطها طولاً وعرضاً ، قال الأصم : المد هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه فيه دلالةٌ على

بعد مداها وسَعةِ أقطارها ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابتَ في أحيازها من الرُّسوّ وهو ثباتُ الأجسام الثقيلة ، ولم يُذكر الموصوفُ لإغناء غلبة الوصفِ بها عن ذلك ، وانحصارُ مجيءِ فواعل جمعاً لفاعل في فوارسَ وهوالكَ ونواكسَ إنما هو في صفات العقلاءِ وأما في غيرهم فلا يراعى ذلك أصلاً كما في قوله تعالى :

﴿ أَيَّامًا معدودات ﴾ وقوله : ﴿ الحج أَشْهُرٌ معلومات ﴾ إلى غير ذلك ، فلا حاجة إلى أن يُجعل مفردُها صفةً لجمع القلة أعني أَجبُلاً ويعتبر في جمع الكثرة أعني جبالاً انتظامُها لطائفة من جموع القلة وتنزيل كلٍّ منها منزلة مفردِها كما قيل على أنه لا مجال لذلك فإن جمعية كلَ من صيغتي الجمعَين إنما هي باعتبار الأفرادِ التي تحتها لا باعتبار انتظام جمعِ القلةِ للأفراد وجمعِ الكثرة لجموع القِلة فكلٌّ منهما جمعُ جبلٍ لا أن جبالاً جمعُ أجبل ، كما أن طوائفَ جمعُ طائفة ولا إلى أن يُلتجأ إلى جعل الوصفِ المذكور بالغلبة في عداد الأسماءِ التي تُجمع على فواعل كما ظن ، على أنه لا وجه له لما أن الغلبةَ إنما هي في الجمع دون المفردِ ، والتعبيرُ عن الجبال بهذا العنوانِ لبيان تفرّعِ قرارِ الأرض على ثباتها ﴿ وأنهارا ﴾ مجاريَ واسعةً ، والمرادُ ما يجري فيها من المياه ، وفي نظمها مع الجبال في مفعولية فعلٍ واحد إشارةٌ إلى أن الجبالَ منشأٌ للأنهار وبيانٌ لفائدة أخرى للجبال غيرِ كونها حافظةً للأرض عن الاضطراب المُخِلّ بثبات الأقدام وتقلّب الحيوان متفرّعةً على تمكنه وتقلّبه وهي تعيُّشُه بالماء والكلأ .

﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ متعلقٌ بجعل في قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ أي اثنيْنيّةً حقيقيةً وهما الفرادنِ اللذان كلٌّ منهما زوجُ الآخر وأكّد به الزوجين لئلا يُفهم أن المرادَ بذلك الشفْعان إذ يطلق الزوجُ على المجموع ولكنْ اثنينيةً اعتبارية ، أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصِنفين إما في اللون كالأبيض والأسود أو في الطعم كالحُلو والحامض . أو في القدر كالصغير والكبير ، أو في الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك ، ويجوز أن يتعلق بجعَل الأول ، ويكونَ الثاني استئنافاً لبيان كيفيةِ ذلك الجعْل ﴿ يُغْشِى الليل النهار ﴾ استعارةٌ تبعيةٌ تمثيليةٌ مبنيّةٌ على تشبيه إزالةِ نورِ الجو بالظلمة بتغطية الأشياءِ الظاهرةِ بالأغطية ، أي يستر النهارَ بالليل . والتركيب وإن احتمل العكسَ أيضاً بالحمل على تقديم المفعولِ الثاني على الأول فإن ضوء النهار أيضاً ساترٌ لظلمة الليلِ إلا أن الأنسبَ بالليل أن يكون هو الغاشي ، وعدُّ هذا في تضاعيف الآيات السفلية وإن كان تعلقُه بالآيات العلوية ظاهراً باعتبار أن ظهورَه في الأرض فإن الليل إنما هو ظلُّها وفيما فوق موقعِ ظلها لا ليلَ أصلاً ولأن الليل والنهار لهما تعلقٌ بالثمرات من حيث العقدُ والإنضاج على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلُها وقرىء يُغشّي من التغشية ﴿ إِنَّ فِى

ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من مد الأرضِ وإيتادِها بالرواسي وإجراءِ الأنهار وخلق الثمرات وإغشاءِ الليل النهارَ ، وفي الإشارة بذلك تنبيهٌ على عظم شأنِ المشار إليه في بابه ﴿ لآيَاتٍ ﴾ باهرةً وهي آثارُ تلك الأفاعيل البديعةِ جلت حكمةُ صانعِها ، (ففي) على معناها فإن تلك الآثارَ مستقرةٌ في تلك الأفاعيل منوطةٌ بها ، ويجوز أن يُشار بذلك إلى تلك الآثار المدلولِ عليها بتلك الأفاعيل (ففي) تجريدية ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن التفكر فيها يؤدّي إلى الحكم بأن تكوين

(169/407)

كلَ من ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب اللائق لا بد له من مكوّن قادرٍ حكيم يفعل ما يشاء ويختار ما يريد لا معقِّبَ لحكمه وهو الحميد المجيد .

﴿ وَفِى الأرض قِطَعٌ ﴾

جملةٌ مستأنفة مشتملةٌ على طائفة أخرى من الآيات أي بقاعٌ كثيرةٌ مختلفة في الأوصاف فمن طيّبة إلى سَبْخة وكريمة إلى زهيدة وصُلبة إلى رخْوة إلى غير ذلك ﴿ متجاورات ﴾ أي متلاصقاتٌ وفي بعض المصاحف (قطعاً متجاوراتٍ) أي جعل في الأرض قطعاً ﴿ وجنات مّنْ أعناب ﴾ أي بساتينُ كثيرة منها ﴿ وَزَرْعٌ ﴾ من كل نوع من أنواع الحبوبِ ،

وإفرادُه لمراعاة أصله ، ولعل تقديمَ ذكرِ الجنات عليه مع كونه عمودَ المعاشِ لظهور حالها في اختلافها ومبايَنتِها لسائرها ورسوخ ذلك فيها ، وتأخيرُ قوله تعالى : ﴿ وَنَخِيلٌ ﴾ لئلا يقعَ بينها وبين صفتها وهي قوله تعالى : ﴿ صنوان وَغَيْرُ صنوان ﴾ فاصلة ، والصنوان جمع صِنْو كقِنوان وقِنْو وهي النخلة التي لها رأسان وأصلُها واحدٌ وقرىء بضم الصاد على لغة بني تميم وقيس ، وقرىء جناتٍ بالنصب عطفاً على زوجين وبالجر على كل الثمرات ، فلعل عدمَ نظمِ قوله تعالى : ﴿ وَفِى الأرض قِطَعٌ متجاورات ﴾ في هذا السلكِ مع أن اختصاصَ كل من تلك القِطع بما لها من الأحوال والصفات بمحض جعْل الخالقِ الحكيم جلت قدرتُه حين مد الأرضَ ودحاها للإيماء إلى كون تلك الأحوال صفاتٍ راسخةً لتلك القطع ، وقرىء وزرعٍ ونخيلٍ بالجر عطفاً على أعناب أو جناتٍ ﴿ يسقى ﴾ أي ما ذكر من القِطع والجنات والزرع والنخيل ، وقرىء بالتأنيث مراعاةً للّفظ والأول أوفقُ بمقام بيان اتحادِ الكل في حالة السقْي ﴿ بِمَاء واحد ﴾ لا اختلاف في طبعه سواءٌ كان السقيُ بماء الأمطار أو بماء الأنهار .

﴿ وَنُفَضِّلُ ﴾ مع تآخذ أسبابِ التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا ﴿ بَعْضَهَا على بَعْضٍ ﴾ آخرَ منها ﴿ فِى الأُكُلِ ﴾ فيما يحصُل منها من الثمر والطعْمِ ، وقرئ بالياء على بناء الفاعل رداً على يدبّر ويفصّل ويغشي ، وعلى بناء المفعول وفيه ما لا يخفى من الفخامة والدلالة على أن عدمَ احتمالِ استنادِ الفعل إلى فاعلٍ آخرَ مغنٍ عن بناء الفعل للفاعل ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ الذي فُصّل من أحوال القِطع والجنات ﴿ لآيَاتٍ ﴾ كثيرةً عظيمةً ظاهرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يعلمون على قضية عقولِهم ، فإن من عقَل هذه الأحوالَ العجيبة لا يتلعثم في الجزم بأن من قدرَ على إبداع هذه البدائعِ وخلقَ تلك الثمارَ المختلفة في الأشكال والألوان والطعومِ والروائحِ في تلك القِطع المتباينةِ المتجاورةِ وجعلَها حدائقَ ذاتَ بهجةٍ قادرٌ على إعادة ما أبداه بل هي أهونُ في القياس وهذه الأحوالُ وإن كانت هي الآياتِ أنفسَها لا أنها فيها إلا أنه قد جُرّدت عنها أمثالُها مبالغةً في كونها آيةً (ففي) تجريديةٌ مثلُها في قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ أو المشارُ إليه الأحوالُ الكلية والآياتُ أفرادُها الحادثةُ شيئاً فشيئاً في الأزمنة وآحادُها الواقعةُ في الأقطار والأمكنةِ المشاهدة لأهلها (ففي) على معناها وحيث كانت دلالةُ هذه الأحوالِ على مدلولاتها أظهرَ مما سبق علق كونُها آياتٍ بمحض التعقّل ولذلك لم يتعرض لغير تفضيل بعضِها على بعض في الأُكُل الظاهرِ لكل عاقلٍ مع تحقق ذلك في الخواصّ والكيفيات مما يتوقع العثورُ عليه على نوع تأملٍ وتفكر كأنه لا

حاجة في ذلك إلى التفكر أيضاً وفيه تعريضٌ بأن المشركين غيرُ عاقلين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(171/407)

وقال الآلوسى :

ثم إنه تعالى لما ذكر من الشواهد العلوية ما ذكر أردفها بذكر الدلائل السفلية فقال عز شأنه :

﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ الأرض ﴾

أي بسطها طولاً وعرضاً ، قال الأصم : البسط المد إلى ما لا يرى منتهاه ، ففيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها ، وقيل : كانت مجتمعة فدحاها من مكة من تحت البيت ، وقيل : كانت مجتمعة عند بيت المقدس فدحاها وقال سبحانه لها : اذهبي كذا وكذا وهو المراد بالمد ، ولا يخفى أنه خلاف ما يقتضيه المقام .

واستدل بالآية على أنها مسطحة غير كرية ، والفلاسفة مختلفون في ذلك فذهب فريق منهم إلى أنها ليست كرية وهؤلاء طائفتان .

فواحدة تقول : إنها محدبة من فوق مسطحة من أسفل فهي كقدح كب على وجه الماء .

وأخرى تقول بعكس ذلك ، وذهب الأكثرون منهم إلى أنها كرية أما في الطول فلأن البلاد

المتوافقة في العرض أو التي لا عرض لها كلما كانت أقرب إلى الغرب كان طلوع الشمس وسائر الكواكب عليها متأخراً بنسبة واحدة ولا يعقل ذلك إلا في الكرة ، وأما في العرض فلأن السالك في الشمال كلما أوغل فيه ازداد القطب ارتفاعاً عليه بحسب إيغاله فيه على نسبة واحدة بحيث يراه قريباً من سمت رأسه وكذلك تظهر له الكواكب الشمالية وتخفى عنه الكواكب الجنوبية ، والسالك الواغل في الجنوب بالعكس من ذلك ، وأما فيما بينهما فلتركب الأمرين .

وأورد عليهم الاختلاف المشاهد في سطحها فأجابوا عنه بأن ذلك لا يقدح في أصل الكرية الحسية المعلومة بما ذكر ، فإن نسبة ارتفاع أعظم الجبال على ما استقر عليه استقراؤهم وانتهت إليه آراؤهم وهو جبل دماوند فيما بين الري وطبرستان أو جبل في سرنديب إلى قطر الأرض كنسبة سبع عرض شعيرة إلى ذراع .

واعترض ذلك بأنه هب أن ما ذكرتم كذلك فما قولكم فيما هو مغمور في الماء ؟ فإن قالوا : إذا كان الظاهر كرياً فالباقي كذلك لأنها طبيعة واحدة .

قلنا : فالمرجع حينئذ إلى البساطة واقتضاؤها الكرية الحقيقية ولا شك أنه يمنعها التضاريس وإن لم تظهر للحس لكونها في غاية الصغر ، لكن أنت تعلم أن أرباب التعليم يكتفون بالكرية الحسية في السطح الظاهر فلا يتجه عليهم السؤال عن المغمور ولا يليق بهم الجواب بالرجوع إلى البساطة ، والحق الذي لا ينكره إلا جاهل أو متجاهل إن ما ظهر منها كري حساً ، ولذلك كرية الفلك تختلف أوقات الصلاة في البلاد فقد يكون الزوال ببلد ولا يكون ببلد آخر وهكذا الطلوع والغروب وغير ذلك ، وكرية ما عدا ما ذكر لا يعلمها إلا الله تعالى .

نعم إنها لعظم جرمها الظاهر يشاهد كل قطعة وقطر منها كأنه مسطح وهكذا كل دائرة عظيمة ؛ وبذلك يعلم أنه لا تنافي بين المد وكونها كرية .

وزعم ابن عطية أن ظاهر الشريعة يقتضي أنها مسطحة وكأنه يقول بذلك وهو خلاف ما يقتضيه الدليل .

وهي عندهم ثلاث طبقات الطبقة الصرفة المحيطة بالمركز ثم الطبقة الطينية ثم الطبقة المخالفة التي تتكون فيها المعادن وكثير من النباتات والحيوانات ، والصرفة منها غير ملونة عند بعضهم ، ومال ابن سينا إلى أنها ملونة ، واحتج عليه بأن الأرض الموجودة عندنا وإن كانت مخلوطة بغيرها ولكنا قد نجد فيها ما يكون الغالب عليه الأرضية فلو كانت الأرض البسيطة شفافة لكان يجب أن نرى في شيء من أجزاء الأرض مما ليس متكوناً تكوناً

معدنياً شيأ فيه إشفاف ولكان حكم الأرض في ذلك حكم الماء والهواء فإنهما وإن امتزجا إلا أنهما ما عدما الاشفاف بالكلية .

(173/407)

واختلف القائلون بالتلون فمنهم من قال : إن لونها هو الغبرة ، ومنهم من زعم أنه السواد وزعم أن الغبرة إنما تكون إذا خالطت الأجزاء الأرضية أجزاء هوائية فبسببها ينكسر ويحصل الغبرة ، وأما إذا اجتمعت تلك الأجزاء بحيث لا يخالطها كثير هوائية اشتد السواد وذلك مثل الفحم قبل أن يترمد فإن النار لا عمل لها إلا في تفريق المختلفات فهي لما حللت ما في الخشب من الهوائية واجتمعت الأجزاء الأرضية من غير أن يتخللها شيء غريب ظهر لون أجزائها وهو السواد ، ثم إذا رمدته اختلطت بتلك الأجزاء أجزاء هوائية فلا جرم أبيضت مرة أخرى .

والذي صح في الخبر وقد سبق إطلاق الغبراء على الأرض وهو محتمل لأن تكون سائر طبقاتها كذلك ولأن يكون وجهها الأعلى كذلك ، نعم جاء في بعض الآثار أن في أسفل الأرض تراباً أبيض وما ذكر من الطبقات مما لا يصادم خبراً صحيحاً في ذلك ، وكونها سبع طبقات بين كل طبقة وطبقة كما بين كل سماء وسماء خمسمائة عام وفي كل خلق غير مسلم

، ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 12] لا يثبته كما ستعلم إن شاء الله تعالى ، والخبر في ذلك غير مسلم الصحة أيضاً ، ومثل ذلك فيما أرى ما روى عن كعب أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : أن الله تعالى جعل مسيرة ما بين المشرق والمغرب خمسمائة سنة فمائة سنة في المشرق لا يسكنها شيء من الحيوان لا جن ولا إنس ولا دابة وليس في ذلك شجرة ومائة سنة في المغرب كذلك وثلثمائة سنة فيما بين المشرق والمغرب يسكنها الحيوان ، وكذا ما أخرجه ابن حاتم عن عبد الله بن عمر من أن الدنيا مسيرة خمسمائة عام أربعمائة عام خراب ومائة عمران ، والمقرر عند أهل الهندسة والهيئة غير هذا .

(174/407)

فقد ذكر القدماء منهم أن محيط دائرة الأرض الموازية لدائرة نصف النهار ثمانية آلاف فرسخ حاصلة من ضرب فراسخ درجة واحدة وهي عندهم اثنان وعشرون فرسخاً وتسعا فرسخ في ثلثمائة وستين محيط الدائرة العظمى على الأرض ، والمتأخرون أن ذلك ستة آلاف وثمانمائة فرسخ حاصلة من ضرب فراسخ درجة وهي عندهم تسعة عشر فرسخاً إلا تسع فرسخ في المحيط المذكور ، وعلى القولين التفاوت بين ما يقوله المهندسون ومن معهم

وما نسب لغيرهم ممن تقدم أمر عظيم والحق في ذلك مع المهندسين .

وزعموا أن الموضع الطبيعي للأرض هو الوسط من الفلك وأنها بطبعها تقتضي أن تكون مغمورة بالماءة ساكنة في حاق الوسط منه لكن لما حصل في جانب منها تلال وجبال ومواضع عالية وفي جانب آخر ضد ذلك لأسباب ستسمعها بعد إن شاء الله تعالى وكان من طبع الماء أن يسيل من المواضع العالية إلى المواضع العميقة لا جرم انكشف الجانب المشرف من الأرض وسال المال إلى الجوانب العميقة منها .

وللكواكب في زعمهم تأثير في ذلك بحسب المسامتات التي تتبدل عند حركاتها خصوصاً الثواب والأوجات والحضيضات المتغيرة في أمكنتها .

(175/407)

وحكم أصحاب الأرصاد أن طول البر المنكشف نصف دور الأرض وعرضه أحد أرباعها إلى ناحية الشمال ، وفي تعيين أي الربعين الشماليين منكشف تعذر أو تعسر كما قال صاحب التحفة ، وأما ما عدا ذلك فقال الإمام : لم يقم دليل على كونه مغموراً في الماء ولكن الأشبه ذلك إذ الماء أكثر من الأرض أضعافاً لأن كل عنصر يجب أن يكون بحيث لو استحال بكليته إلى عنصر آخر كان مثله ، والماء يصغر حجمه عند الاستحالة أرضاً ومع

ذلك لو كان في بعض المواضع في الأرباع الثلاثة عمارة قليلة لا يعتد بها ، وأما تحت القطبين فلا يمكن أن يكون عمارة لاشتداد البرد : وإنما حكموا بأن المعمور الربع لأنهم لم يجدوا في إرصاد الحوادث الفلكية كالخصوفات وقرانات الكواكب التي لا اختلاف منظر لها تقدماً في ساعات الواغلين في المشرق لتلك الحوادث على ساعات الواغلين في المغرب زائداً على اثنتي عشرة ساعة مستوية وهي نصف الدور لأن كل ساعة خمسة عشر جزأ من أجزاء معدل النهار تقريباً وضرب خمسة عشر في اثني عشر مائة وثمانون .

ونحن نقول بوجود الخراب وأنه أكثر من المعمور بكثير وأكثر المعمور شمالي ولا يوجد في الجنوب منه إلا مقدار يسير ، لكنا نقول : ما زعموه سبباً للانكشاف غير مسلم ونسند كون الأرض بحيث وجدت صالحة لسكنى الحيوانات وخروج النبات إلى قدرته تعالى واختياره سبحانه وإلا فمن أنصف علم أن لا سبيل للعقل إلى معرفة سبب ذلك على التحقيق وقال : أنه تعالى فعل ذلك في الأرض لمجرد مشيئته الموافقة للحكمة .

(176/407)

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت في إحيازها من الرسو وهو ثبات الأجسام الثقيلة ولم يذكر الموصوف لاغناء غلبة الوصف بها عن ذلك ، وفواعل يكون جمع فاعل إذا

كان صفة مؤنث كحائض أو صفة ما لا يعقل مذكر كجمل بازل وبوازل أو اسماً جامداً أو ما جرى مجراه كحائط وحوائط وانحصار مجيئه جميعاً لذلك في فوارس وهوالك ونواكس إنما هو في صفات العقلاء لا مطلقاً ، والجمع هنا في صفة ما لا يعقل ، قيل : فلا حاجة إلى جعل المفرد هنا راسية صفة لجمع القلة أعني أجبلاً ويعتبر في جميع الكثرة أعني جبالاً انتظامه لطائفة من جموع القلة وينزل كل منها منزلة مفرده كما قيل ، على أنه لا مجال لذلك لأن جمعية كل من صيغتي الجمعين إنما هي لشمول الأفراد باعتبار شمول جمع القلة للأفراد وجمع الكثرة لجموع القلة فكل منهما جمع جبل لا أن جبالاً جمع أجبل اه .

وتعقب بأنه لعل من قال : إن الرواسي هنا جمع راسية صفة أجبل لا يلتزم ما ذكر وأنه إذا صح إطلاق أجبل راسية على جبال قطر مثلاً صح إطلاق الجبال على جبال جميع الأقطار من غير اعتبار جعل الجبال جميعاً لجموع القلة نعم لا يصح أن يكون جبال جمع أجبل لأنه يصير حينئذ جمع الجمع وهو خلاف ما صرح به أهل اللغة .

وجعل راسية صفة جبل لا أجبل والتاء فيه للمبالة لا للتأنيث كما في علامة يرد عليه أن تاء المبالغة في فاعلة غير مطرد .

وقال أبو حيان : إنه غلب على الجبال وصفها بالرواسي ولذا استغنوا بالصفة عن الموصوف وجمع جمع الاسم كحائط وحوائط وهو مما لا حاجة إليه لما سمعت ، وأورد عليه أيضاً أن الغلبة تكون بكثرة الاستعمال والكلام في صحته من أول الأمر ففيما ذكر دور ، وأجيب بأن كثرة استعمال الرواسي غير جار على موصوف يكفي لمدعاه وفيه تأمل ، وكذا لا حاجة إلى ما قيل : إنه جمع راسية صفة جبل مؤنث باعتبار البقعة وكل ذلك ناشيء من الغفلة عما ذكره محققو علماء العربية ، هذا والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرع قرار الأرض على ثباتها ، وفي "الخبر" " لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تميد فخلق الله تعالى الجبال عليها فاستقرت فقالت الملائكة : ربنا خلقت خلقاً أعظم من الجبال ؟ قال : نعم الحديد ، فقالوا : ربنا خلقت خلقاً أعظم من الحديث ؟ قال : نعم النار ، فقالوا : ربنا خلقت خلقاً أعظم من النار ؟ قال : نعم الماء فقالوا : ربنا خلقت خلقاً أعظم من الماء ؟ قال : نعم الهواء ، فقالوا : ربنا خلقت خلقاً أعظم من الهواء ؟ قال نعم ابن آدم يتصدق الصدقة بيمينه فيخفيها عن شماله " وأول جبل وضع على الأرض كما أخرج ابن أبي حاتم عن عطاء أبو قبيس ، ومجموع ما يرى عليها من الجبال مائة وسبعة وثمانون جبلاً وأبى الفلاسفة كون استقرار الأرض بالجبال واختلفوا في سبب ذلك فالقائلون بالكرية منهم من جعله جذب الفلك لها من جميع الجوانب فيلزم أن تقف في الوسط كما يحكى عن صنم

حديدي في بيت مغناطيسي الجوانب كلها فإنه وقف في الوسط لتساوي الجذب من كل جانب.

(178/407)

ورد بأن الأصغر أسرع انجذاباً إلى الجاذب من الأكبر فما بال المدرة لا تنجذب إلى افلك بل تهرب عنه إلى المركز، وأيضاً إن الأقرب أولى بالانجذاب من الأبعد فالمدرة المقذوفة إلى فوق أولى بالانجذاب على أصلهم فكان يجب أن لا تعود، ومنهم من جعله دفع الفلك بحركته لها من كل الجوانب كما إذا جعل شيء من التراب في قارورة كرية ثم أديرت على قطبيها إدارة سريعة فإنه يعرض وقوف التراب في وسطها لتساوي الدفع من كل جانب ورد بأن الدفع إذا كانت قوته هذه القوة فما باله لا يحس به، وأيضاً ما بال هذا الدفع لا يجعل حركة الرياح والسحب إلى جهة بعينها، وأيضاً ما باله لم يجعل انتقالنا إلى المغرب أسهل من انتقالنا إلى المشرق، وأيضاً يجب أن تكون حركة الثقيل كلما كان أعظم أيضاً لأن اندفاع الأعظم من الدافع أبطأ من اندفاع الأصغر، وأيضاً يجب أن تكون حركة الثقيل النازل ابتداء أسرع من حركته انتهاء لأنه عند الابتداء أقرب إلى الفلك، وغير القائلين بها منهم من جعلها غير متناهية من جانب السفل وسبب سكونها عندهم أنها لم يكن لها مهبط تنزل

فيه ، ويرد دليل تناهي الأجسام ، ومنهم من قال بتناهيها وجعل السبب طفوها على الماء إما مع كون محدبها فوق ومسطحها أسفل وأما مع العكس ، ورد بأن مجرد الطوف لا يقتضي السكون على أن فيه عند الفلاسفة بعد ما فيه ، وذهب محققوهم إلى أن سكونها لذاتها لا لسبب منفصل ، قال في المباحث المشرقية : والوجه المشترك في إبطال ما قالوا في سبب السكون أن قال : جميع ما ذكرتموه من الجذب والدفع وغيرهما أمور عارضة وغير طبيعية ولا لازمة للماهية فيصح فرض ماهية الأرض عارية عنها فإذا قدرنا وقوع هذا الممكن فأما أن تحصل في حيز معين أو لا تحصل فيه وحينئذ إما أن تحصل في كل الأحياز أو لا تحصل في شيء منها والأخيران ظاهرا الفساد فتعين الأول وهو أن تختص بحيز معين ويكون ذلك لطبعها المخصوص ويكون حينئذ سكونها في الحيز لذاتها لا

لسبب منفصل ، وإذا عقل ذلك فليعقل في اختصاصها بالمركز أيضاً ، ثم ذكر في تكون الجبال مباحث .

الأول : الحجر الكبير إنما يتكون لأن حراً عظيماً يصادف طيناً لزجاً إما دفعة أو على سبيل التدريج .

وأما الارتفاع فله سبب بالذات وسبب بالعرض ، أما الأول : فكما إذا نقلت الريح الفاعلة للزلزلة طائفة من الأرض وجعلتها تلا من التلال ، وأما الثاني : فإن يكون الطين بعد تحجره مختلف الأجزاء في الرخاوة والصلابة وتتفق مياه قوية الجري أو رياح عظيمة الهبوب فتحفر الأجزاء الرخوة وتبقى الصلبة ثم لا تزال السيول والرياح تؤثر في تلك الحفر إلى أن تغور غوراً شديد ويبقى ما تنحرف عنه شاهقاً ، والأشبه أن هذه المعمورة قد كانت في سالف الدهر مغمورة في البحار فحصل هناك الطين اللزج الكثير ثم حصل بعد الانكشاف وتكونت الجبال ، ومما يؤيد هذا الظن في كثير من الأحجار إذا كسرناها أجزاء الحيوانات المائية كالأصداف ثم لما حصلت الجبال وانتقلت البحار حصل الشهوق إما لأن السيول حفرت ما بين الجبال وإما لأن ما كان من هذه المنكشفات أقوى تحجراً وأصلب طينة إذا أنهد ما دونه بقي أرفع وأعلى ، إلا أن هذه أمور لا تتم في مدة تفي التواريخ بضبطها .

والثاني : سبب عروق الطين في الجبال يحتمل أن يكون من جهة ما تفتت منها وتترب وسالت عليه المياه ورطبته أو خلطت به طينها الجيد ، وأن يكون من جهة أن القديم من طين البحر غير متفق الجوهر منه ما يقوي تحجره ومنه ما يضعف ؛ وأن يكون من جهة أنه يعرض للبحر أن يفيض قليلاً قليلاً على سهل وجبل فيعرض للسهل أن يصير طيناً لزجاً مستعداً للتحجر القوي وللجبل أن يتفتت كما إذا نقعت آجرة وتراباً في الماء ثم عرضت الآجرة والطين على النار فإنه حينئذ تتفتت الآجرة ويبقى الطين متحجراً .

والثالث: قد نرى بعض الجبال منضوداً ساقاً فساقا فيشبه أن يكون ذلك لأن طينته قد ترتبت هكذا بأن كان ساق قد ارتكم أولاً ثم حدث بعده في مدة أخرى ساق آخر فارتكم وكان قد سال على كل ساق من خلاف جوهره فصار حائلاً بينه وبين الساق الآخر فلما تحجرت المادة عرض للحائل أن أنتثر عما بين الساقين.

هذا وتعقب ما ذكروه في سبب التكون بأنه لا يخفى أن اختصاص بعض من أجزاء الأرض بالصلابة وبعض آخر منها بالرخاوة مع استواء نسبة تلك الأجزاء كلها إلى الفلكيات التي زعموا أنها المعدات لها قطعاً للمجاورة والملاصقة الحاصلة بين الأجزاء الرخوة والصلبة يستدعي سبباً مخصصاً وعند هذا الاستدعاء يقف العقل ويحيل ذلك الاختصاص على سبب من خارج هو الفاعل المختار جل شأنه فليت شعري لم يفعل ذلك أولاً حذفاً للمؤنة.

نعم لا يبعد أن يكون ذلك من أسباب تكونها بإرادة الله تعالى عند من يقول من المليين وغيرهم بالوسائط لا عند الأشاعرة إذ الكل عندهم مستند إليه سبحانه ابتداء فلا يتصور واسطة حقيقة على رأيهم وما ذكر من الأسباب أمور لا تفيد إلا ظناً ضعيفاً.

وحديث رؤية أجزاء الحيوانات المائية كالأصداف كذلك أيضاً فإنا كثيراً ما نرى ذلك في مواضع المطر .

وقد أخبرني من أثق به أنه شاهد ضفادع وقعت مع المطر ، على أن ذلك لا يتم على تقدير أن يكون المكشوف من الأرض قد انكشف في مبدأ الفطرة ولم يكن مغموراً بالماء ثم انكشف ، وهو مما ذهب إليه بعض محققي الفلاسفة أيضاً .

واعترضوا على القائلين بأن الانكشاف قد حصل بعد بأن أقوى أدلته أن حضيض الشمس في جانب الجنوب فقرب الشمس إلى الأرض هناك أكثر من جانب الشمال بقدر ثخن المتمم من ممثلها فتشتد بذلك الحرارة هناك فانجذب الماء من الشمال انعكس الأمر .

ويرد عليه أنه لو كان كذلك لكان الربع الشمالي الآخر أيضاً مكشوفاً إذ لا فرق بين الربعين في ذلك وفي التزام ذلك بعد على أنه لم يلتزمه أحد .

ثم إن وجود الجبال في المغمور وجودها في المعمور يستدعي أنه كان معموراً وأن الحضيض في غير جهته اليوم وهو قول بأن البر لا يزال يكون بحراً والبحر لا يزال يكون براً بتبدل جهتي الأوج والحضيض فيكون المنكشف تارة جانب الشمال وأخرى جانب الجنوب وحيث إن

ذلك إنما يكون على سبيل التدريج يقتضي أن نشاهد اليوم شيئاً من جانب الجنوب منكشفاً ومن جانب الشمال مغموراً ولا نظن وجود ذلك ولو كان لاشتهر ، فإن أوج الشمس اليوم في عاشرة السرطان وحركته في كل سنة دقيقة تقريباً فيكون من الوقت الذي انتقل فيه من الجانب الشمالي إلى اليوم آلاف عديدة من السنين يغمر فيها كثير ويعمر كثير. نعم يحكى أن جزيرة قبرس كانت متصلة بالبر ثم حال البحر بينهما لكنه على تقدير ثبوته ليس مما نحن فيه ولا نسلم أن يكي دنيا مما حدث انكشافها لجواز أن تكون منكشفة من قبل ، فالحق أن هذا البر بعد أن وجد لم يصر بحراً وهذا البحر المحيط بعد أن أحاط لم يصر براً وهو الذي تقتضيه الأخبار الإلهية والآثار النبوية .

نعم جاء في بعض الآثار ما ظاهره أن الأرض المسكونة كانت مكشوفة في مبدأ الفطرة كأثر الياقوتة ، وفي بعض آخر منها ما ظاهره أنها كانت مغمورة كخبر ابن عباس أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الخلق أمر الريح فأبدت عن حشفة ومنها دحية الأرض ما شاء الله تعالى في الطول والعرض فجعلت تميد فجعل عليها الجبال الرواسي ، وفي التوراة ما هو نص في ذلك ففي أول سفر الخليقة منها أول ما خلق الله تعالى السماء والأرض وكانت الأرض غامرة

مستبحرة وكان هناك ظلام وكانت رياح الإله تهب على وجه الماء فشاء الله تعالى أن يكون نور فكان ثم ذكر فيه أنه لما مضى يوم ثان شاء الله تعالى أن يجتمع الماء من تحت السماء إلى موضع واحد ويظهر اليبس فكان كذلك وسمى الله سبحانه اليبس أرضاً ومجتمع الماء بحاراً ، وفيه أيضاً إن خلق النيرين كان في اليوم الثالث ، وهو آب عن جعل سبب الانكشاف ما سمعت عن قرب من قرب الشمس ، وما أشارت إليه هذه الآية ونطق به غيرها من الآيات من كون الجبال سبباً لاستقرار الأرض وأنها لولاها لمادت أمر لا يقوم على أصولنا دليل يأباه فنؤمن به وإن لم نعلم ما وجه ذلك على التحقيق ، ويحتمل أن يكون وجهه أن الله تعالى خلق الأرض حسبما اقتضته حكمته صغيرة بالنسبة إلى سائر الكرات وجعل لها مقداراً من الثقات معيناً ووضعها في المكان الذي وضعها فيه من الماء وأظهر منها ما أظهر وليس ذلك إلا بسبب مشيئته تعالى التابعة لحكمته سبحانه لا لأمر اقتضاه ذاتها فجعلت تميد لاضطراب أمواج البحر المحيط بها فوضع عليها من الجبال ما ثقلت به بحيث لم يبق للأمواج سلطان عليها وهذا كما يشاهد في السفن حيث يضعون فيها ما يثقلها من أحجار وغيرها لنحو ذلك ، وكون نسبة ارتفاع أعظم الجبال إليها النسبة السابقة لا يضرنا في هذا المقام لأن الحجم أمر والثقل أمر آخر فقد يكون ذو الحجم الصغير أثقل من ذي الحجم الكبير بكثير ، لا يقال : إن خلقها ابتداء بحيث لا تزحزحها الأمواج

كان ممكناً فلم لم يفعله سبحانه وتعالى بل خلقها بحيث تحركها الأمواج ثم وضع عليها الجبال لدفع ذلك؟ لأنا نقول إنما فعل سبحانه هكذا لما فيه من الحكم التي هو جل شأنه بها أعلم، وهذا السؤال نظير أن يقال: إن خلق الإنسان ابتداء بحيث لا يؤثر فيه الجوع والعطش مثلاً شيئاً كان ممكناً فلم لم يفعله تعالى بل خلقه بحيث يؤثران فيه ثم خلق له ما يدفع به ذلك ليدفعه به وله نظائر بعد كثيرة، وليس ذلك إلا ناشئاً عن الغفلة عما يترتب على ما صدر منه تعالى من الحكم، ولعل الحكمة فيما نحن فيه إظهار مزيد عظمته جلت عظمته للملائكة عليهم السلام فإن ذلك مما يوقظ جفن الاستعظام ألا تراهم كيف قالوا حين رأوا ما رأوا ربنا خلقت خلقاً أعظم من الجبال الخ.

ويقال لمن لم يؤمن بهذا بين أنت لنا حكمة تقدم بعض الأشياء على بعض في الخلق كيفما كان التقدم وكذا حكمة خلق الإنسان ونحوه محتاجاً وخلق ما يزيل احتياجه دون خلقه ابتداء على وجه لا يحتاج معه إلى شيء، فإن بين يناً قلنا بمثله فيما نحن فيه، ثم إنا نقول: ليس حكمة خلق الجبال منحصرة في كونها أوتاداً للأرض وسبباً لاستقرارها بل هناك حكم كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى.

وقد ذكر الفلاسفة للجبال منافع كثيرة قالوا: إن مادة السحب والعيون والمعدنيات هي البخار فلا تكون إلا في الجبال أو فيما يقرب منها.

(184/407)

أما العيون فلأن الأرض إذا كانت رخوة نشفت الأبخرة عنها فلا يجتمع منها قدر يعتد به فإذن لا تجتمع إلا في الأرض الصلبة والجبال أصلب الأرضين فلا جرم كانت أقواها على حبس البخاري حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة للعيون ، ويشبه أن يكون مستقر الجبل مملوءاً ماء ويكون الجبل في حقنه الأبخرة مثل الأنبيق الصلب المعد للتقطير لا يدع شيئاً من البخار يتحلل وقعر الأرض التي تحته كالقرع والعيون كالأذناب التي في الأنابيق والأودية والبخار كالقوابل ، ولذلك أكثر العيون إنما تنفجر من الجبال وأقلها في البراري وهو مع هذا لا يكون إلا إذا كانت الأرض صلبة ، وأما إن أكثر السحب تكون في الجبال فلوجوه .

(185/407)

أحدها : أن في باطن الجبال من النداوات ما لا يكون في باطن الأرضين الرخوة ، وثانيها : أن الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الانداء والثلوج ما لا يبقى على ظاهره الأرضين ، وثالثها : إن الأبخرة الصاعدة تكون في الجبال ، وإذا ثبت ذلك ظهر

أن أسباب تراكم السحب في الجبال أكثر لأن المادة فيها ظاهراً وباطناً أكثر والاحتقان أشد والسبب المحلل وهو الحر أقل ، وأما المعدنيات المحتاجة إلى أبخرة فيكون اختلاطها بالأرضية أكثر وإقامتها في مواضع لا تتفرق فيها أطول ولا شيء في هذا المعنى كالجبال ، ومن تأمل علم أن للجبال منافع غير ذلك لا تحصى فلا يضر أن بعضاً من الناس من وراء المنع لبعض ما ذكر وسمعت من بعض العصريين أن من جملة منافعها كونها سبباً لانكشاف هذا المقدار المشاهد من الأرض وذلك لاحتباس الأبخرة الطالبة لجهة العلو فيها ، وهو يقتضي أن الأرض قبلها كانت مغمورة وهو خلاف ما يقتضيه ظاهر قوله عليه الصلاة والسلام : " لما خلق الله تعالى الأرض فجعلت تميد فوضع عليها الجبال فاستقرت " على أنه يتراءى المنافاة بين جعلها أوتاداً المصرح به في الآيات وكونها جاذبة للأرض إلى جهة العلو ولا يرد على ما ذكر في توجيه كونها سبباً لاستقرار الأرض أن كونها فيها كشرع في سفينة ينافيه إذ يقتضي ذلك أن تتحرك الأرض إلى خلاف جهة مهب الهواء لأنا من وراء منع حدوث الهواء على وجه يحركها بسببه كذلك .

وهذا كله إذا حكمنا العقل في البين وتقيدنا بالعاديات ، وأما إذا أسندنا كل ذلك إلى قدرة الفاعل المختار جل شأنه وقلنا : إنه سبحانه خلق الأرض مائدة وجعل عليها الجبال وحفظها عن الميد لحكم علمها تحار فيها الأفكار ولا يحيط بها إلا من أوتي علما لدنيا من

ذوي الأبصار ارتفعت عنا جميع المؤمن وزالت سائر المحن ولا يلزمنا على هذا أيضاً القول بأن الأرض وسط العالم كما هو رأى أكثر الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين .

(186/407)

ولم يخالف من الأولين إلا شرذمة زعموا أن كرة النار في الوسط لأنها أشرف من الأرض لكونها مضيئة لطيفة حسنة اللون وكون الأرض كثيفة مظلمة قبيحة اللون وحيز الاشرف يجب أن يكون اشرف الإحياز وهو الوسط فاذن هي في الوسط وهذا من الاقناعات الضعيفة ، ومع ذلك يرد عليه أنا لا تسلم شرافة النار على الأرض مطلقاً فانها ان ترجحت عليها باللطافة وما معها فالأرض راجحة بأمور .

أحدها أن النار مفرطة الكيفية مفسدة والأرض ليست كذلك ، وثانيها أنها لا تبقى في المكان الغريب مثل ما تبقى الأرض .

وثالثها ان الأرض حيز الحياة والنشوء والنار ليست كذلك ، وما ذكر من استحسان الحس البصري للنار يعارضه استحسان الحس اللمسي للأرض بالنسبة إليها ، على أنا لو سلمنا الاشرفية فهي لا تقتضي إلا الوسط الشرقي لا المقداري إذ لا شرف له وذلك ليس هو إلا حيزها الذي يزعمه جمهور المتقدمين لها لأنه متوسط بين الأجرام العنصرية والإجرام

الفلكية ، ولم يخالف من الآخرين إلا شرذمة قليلة هم هرشل وأصحابه زعموا أن الشمس ساكنة في وسط العالم وكل ما عداها يتحرك عليها لأنها جرم عظيم جداً وكل الإجرام دونها لا سيما الأرض فإنها بالنسبة إليها كلا شيء ، والحكمة تقتضي سكون الأكبر وتحرك الأصغر ، وهذا أيضاً من الاقناعات الضعيفة ومع ذلك يرد عليه أن سكون الأصغر لا سيما بين أمواج ورياح وحركة الأكبر لا سيما مثل الحركة التي يثبتها الجمهور للشمس أبلغ في القدرة ، وتعليلهم ذلك أيضاً بأنا لا نرى للشمس ميلا عما يقال له منطقة البروج فيقتضي أن تكون ساكنة بخلاف غيرها لا يخفى ما فيه ، والذي يميل إليه كثير من الناس أن تحت الأرض ماء وانها فيه كبطيخة خضراء في حوض .

وجاء في بعض الأخبار أن الأرض على متن ثور والثور على ظهر حوت والحوت في الماء ولا يعلم ما تحت الماء إلا الذي خلقه .

وذكر غير واحد أن زيادة كبد ذلك الحوت هو الذي يكون أول طعام أهل الجنة فحملوا الحوت فيما صح من قوله صلى الله عليه وسلم : " أول شيء يأكله أهل الجنة زائدة كبد الحوت " على ذلك الحوت وبينوا حكمة ذلك الأكل بأنه اشارة إلى خراب الدنيا وبشارة

بفساد أساسها وامن العود إليها حيث أن الأرض التي كانوا يسكنونها كانت مستقرة عليه ، وخص الأكل بالزائدة لما بينه الأطباء من أن العلة إذا وقعت في الكبد دون الزائدة رجى برؤه فإن وقعت في الزائدة هلك العليل فأكلهم من ذلك أدخل في البشرى .

ومنع بعضهم صحة الأخبار الدالة على أنها ليست على الماء بلا واسطة لا سيما الخبر الطويل الذي ذكره البغوي في سورة (ن) ولم ينكر صحة الخبر في أن أول شيء يأكله أهل الجنة زائدة كبد الحوت إلا أنه قال : المراد بالحوت فيه حوت ما بدليل ما رواه سلطان المحدثين البخاري

(188/407)

" أول ما يأكله أهل الجنة زيادة كبد حوت يأكل منه سبعون ألفاً " بتنكير لفظ حوت ، ونظير ذلك في صحيح مسلم حيث ذكر فيه أنه تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفأها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة وان أدامهم ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً ، وذكر حال الأرض فيه لا يعين مراد الخصم فإنه يجوز أن يكون الجمع بين ذلك للإشارة إلى خراب الدنيا وانقطاع أمر الاستعداد للمعاش وانصرام الحياة العنصرية المائية أما الإشارة إلى الأول فظاهر ، وأما إلى الثاني فبالاستيلاء على الثور وأكل

زائدة كبده فإنه عمدة عدة الحارث المهتم لأمر معاشه وفي الخبر "كلكم حارث وكلكم همام " وأما الإشارة إلى الثالث فبالاستيلاء على الحوت وأكل زائدة كبده أيضاً فإنه حيوان عنصري مائي لا يمكن أن يحيا سويعة إذا فارق الماء ، وبهذا يظهر المناسبة التامة بين ما اشتمل عليه الخبر ، ولا يبعد أن يكون ظهور الحياة الدنيوية بصورة الحوت وما يحتاج إليه فيها من أسباب الحراثة الضرورية في أمر المعاش بصورة الثور وكل الصيد في جوف الفرا ، ويكون ذلك من قبيل ظهور الموت في صورة الكبش إلا ملح في ذلك اليوم ، وقال بعض العارفين في سر تخصيص الكبد : إنه بيت الدم وهو بيت الحياة ومنه تقع قسمتها في البدن إلى القلب وغيره ، وبخار ذلك الدم هو النفس المعبر عنه بالروح الحيواني ففي كونه طعاماً لأهل الجنة بشارة بأنهم أحياء لا يموتون .

وذكر أنه يستخرج من الثور الطحال وهو في الحيوان بمنزلة الأوساخ في البدن فإنه يجتمع فيه أوساخ البدن مما يعطيه البدن من الدم الفاسد فيعطي لأهل النار يأكلونه ، وكان ذلك من الثور لأنه بارد يابس كطبع الموت ، وجهنم على صورة جاموس والغذاء لأهل النار من طحاله أشد مناسبة منه فلما فيه من الدمية لا يموت أهل النار ولما أنه من أوساخ البدن ومن الدم الفاسد المؤلم لا يحيون ولا ينعمون فما يزيدهم أكله إلا مرضاً وسقماً .

ونقل عن الغزالي والعهدة على الناقل أنه صلى الله عليه وسلم سئل تارة ما تحت الأرض ؟ فقال : الحوت وسئل أخرى فقال : الثور ، وعنى عليه الصلاة والسلام بذلك البرجين الذين هما من البورج الأثنى عشر المعلومة وقد كان كل منهما وتد الأرض وقت السؤال ولو كان الوتد إذ ذاك العقرب مثلاً لقال عليه الصلاة والسلام العقرب تحت الأرض .

وأنت تعلم أن ذلك بمعزل عن مقاصد الشارع صلى الله عليه وسلم ، ولا يتم على ما وقفت عليه من أن الأرض على متن الثور والثور على ظهر الحوت والحوت على الماء ، والقول بأن المراد أن الأرض فوق الثور باعتبار أنه وتدها حين الأخبار ؛ والثور فوق الحوت باعتبار أنه من البروج الشمالية والحوت من البروج الجنوبية والبروج الشمالية في غالب المعمورة تعد فوق البروج الجنوبية والحوت فوق الماء باعتبار أنه ليس بينه وبينه حائل يرى لا يقدم عليه إلا ثور أو حمار .

وبعضهم يؤول خبر الترتيب بأن المراد منه الإشارة إلى أن عمارة الأرض موقوفة على الحراثة وهي موقوفة على السعي والإضطراب وذلك الثور من مبادىء الحراثة والحوت لا يكاد يسكن عن الحركة في الماء وهو كما ترى ، والذي ينبغي أن يعول عليه الإيمان بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صح فليس وراءه عليه الصلاة والسلام حكيم ،

والترتيب الذي يذكره الفلاسفة لم يأتوا له ببرهان مبين وليس عندهم فيه سوى ما يفيد الظن ، وحينئذ فيمكن القول بترتيب آخر .

(190/407)

نعم لا ينبغي القول بترتيب يكذبه الحس ويأباه العقل الصريح وإن جاء مثل ذلك عن الشارع وجب تأويله كما لا يخفى وذكر بعض الفضلاء أنه لم يجيء في ترتيب الإجرام العلوية والسفلية وشرح أحوالها كما فعل الفلاسفة عن الشارع صلى الله عليه وسلم لما أن ذلك ليس من المسائل المهمة في نظره عليه الصلاة والسلام ، وليس المهم إلا التفكر فيها والاستدلال بها على وحدة الصانع وكماله جل شأنه وهو حاصل بما يحس منها ، فسبحان من رفع السماء بغير عمد ومد الأرض وجعل فيها رواسي ﴿ وأنهارا ﴾ جمع نهر وهو مجرى الماء الفائض وتجمع أيضاً على نهر ونهور وأنهر وتطلق على المياه السائلة على الأرض ؛ وضمها إلى الجبال وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث أن الجبال سبب لتكونها على ما قيل .

وتعقب بأنه مبني على ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من أن الجبال لتركبها من أحجار صلبة إذا تصاعدت إليها الأبخرة احتبست فيها وتكاملت فتنقلب مياهاً وربما خرقتها

فخرجت ، وذكر أن الذي تدل عليه الآثار أنها تنزل من السماء لكن لما كان نزولها عليها أكثر كانت كثيراً ما تخرج الأنهار منها ، ويكفي هذا لتشريكهما في عامل واحد وجعلهما جملة واحدة ، وكأنهم عنوا بالنزول من السماء على الجبال نزول ماء المطر من السماء التي هي أحد الإجرام العلوية عليها ، والأكثرون أن النزول من السحاب ، والمراد من السماء جهة العلو وهو الذي تحكم به المشاهدة ، وقد أسلفنا لك ما يتعلق بذلك أول الكتاب فتذكر .

(191/407)

والأنهار التي جعلها الله تعالى في الأرض كثيرة ، وذكر بعضهم أنها مائة وستة وتسعون نهراً وقيل : هي أكثر من ذلك ، وجاء في أربعة منها أنها من الجنة ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة " والأولان بالألف بعد الحاء وهما نهران في أرض الأرمن فجيحان نهر المصيصة وسيحان نهر أدنه ، وقول الجوهري في صحاحه جيحان نهر بالشام غلط أو أنه أراد المجاز من حيث أنه ببلاد الأرمن وهي مجاورة للشام ، وهما غير سيحون وجيحون بالواو فإن سيحون نهر الهند وهو يجري من جبال بأقاصيها مما يلي العين إلى أن ينصب في

البحر الحبشي مما يلي ساحل الهند ، ومقدار جريه أربعمائة فرسخ ، وجيحون نهر بلخ يجري من أعين إلى أن يأتي خوارزم فيتفرق بعضه في أماكن ويمضي باقيه إلى البحيرة التي عليها القرية المعروفة بالجرجانية أسفل خوارزم يجري منه إليها السفن طولها مسيرة شهر وعرضها نحو ذلك ، وأما قول القاضي عياض هذه الأنهار الأربعة أكبر أنهار بلاد الإسلام فالنيل بمصر والفرات بالعراق وسيحان وجيحان ويقال سيحون وجيحون ببلاد خراسان فقد قال النووي : إن فيه إنكار من أوجه .

أحدها قوله : الفرات بالعراق وليست بالعراق وإنما هي فاصلة بين الشام والجزيرة .

الثاني قوله : سيحان وجيحان ويقال سيحون وجيحون فجعل الأسماء مترادفة وليس كذلك بل سيحان غير سيحون وجيحان غير جيحون باتفاق الناس .

والثالث قوله : ببلاد خراسان إنما سيحان وجيحان ببلاد الأرمن بقرب الشام انتهى .

وقد يجاب عن الأول بنحو ما أجيب به عن الجوهري ، ولا يخفى أنه بعد زعم الترادف يصح الحكم بأنهما ببلاد خراسان كما يصح الحكم بأنهما ببلاد الأرمن ، وفي كون هذه الأنهار من الجنة تأويلان ، الأول أن المراد تشبيه مياهها بمياه الجنة والاخبار بامتيازها على ما عداها ومثله كثير في الكلام .

والثاني ما ذكره القاضي عياض أن الإيمان عم بلادها وأن الأجسام المتغذية منها صائرة إلى الجنة وهذا ليس بشيء ، ولو رد إلى اعتبار التشبيه أي أنها مثل أنها الجنة في أن المتغذين من مائها المؤمنون لكان أوجه ، وقال النووي : الأصح أن الكلام على ظاهره وأن لنا مادة من الجنة وهي موجودة اليوم عند أهل السنة .

ويأبى التأويل الأول ما في صحيح مسلم أيضاً من حديث الإسراء " وحدث نبي الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت : يا جبريل ما هذه الأنهار ؟ فقال : أما النهران الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالفرات والنيل " ، وضمير أصلها السدرة المنتهى كما جاء مبينا في صحيح البخاري وغيره .

والقاضي عياض قال هنا : إن هذا الحديث يدل على أن أصل سدرة المنتهى في الأرض لخروج النيل والفرات من أصلها .

وتعقبة النووي بأن ذلك ليس بلازم بل معناه أن الأنهار تخرج من أصلها ثم تسير حيث أراد الله تعالى حتى تخرج من الأرض وتسير فيها ، هذا لا يمنعه عقل ولا شرع وهو ظاهر الحديث فوجب المصير إليه ، قيل : ولعل الله تعالى يوصل مياه ها تيك الأنهار بقدرته الباهرة إلى محالها التي يشاهد خروجها منها من حيث لا يراها أحد وما ذلك على الله

بعزيز ، والظاهر أن المراد أصل مياها الخارجة من محالها لا هي وما ينضم إليها من السيول وغيرها ، وكأني أرى بعض الناس ليسني يلتزم ذلك في جميع ما يجري في هاتيك الأنهار ، وبعضهم أيضاً يجعل الأخبار في هذا الشأن إشارات إلى أمور أنفسية فقط وليس مما ترتضيه إلا نفس المرضية .

نعم أنا لا أمنع التأويل مع بقاء الأمر أفاقيا وليس عدم اعتقاد الظاهر مما يخل بالدين كما لا يخفى على من لا تعصب عنده .

وللأخباريين في هذه الأنهار كلام طويل تمجه أسماع ذوي الألباب ولا يجري في أنهار قلوبهم ولا أراه يصلح إلا للالقاء في البحر .

(193/407)

وجاء في بعض الأخبار مرفوعاً " نهران مؤمنان ونهران كافران أما المؤمنان فالنيل والفرات وأما الكافران فدجلة وجيحون " وحمل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم شبه النهرين الأولين لنفعهما بسهولة بالمؤمن والنهرين الأخيرين بالكافر لعدم نفعهما كذلك أنهما إنما يخرج في الأكثر ماؤهما بآلة ومشقة وإلا فوصف ذلك بالإيمان والكفر على الحقيقة غير ظاهر ثم ان أفضل الأنهار كما قال وادح النيل وباقيها على السواء .

وزاد بعضهم في عداد ما هو من الجنة دجلة وروى في ذلك خبراً عن مقاتل عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وليس مما يعول عليه ، والله تعالى أعلم ﴿ وَمِن كُلِّ ﴾ متعلق بجعل في قوله تعالى : ﴿ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ أي اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكد به الزوجين لئلا يفهم ان المراد بذلك الشفعان إذ يطلق الزوج على المجموع لكن اثنينية ذلك اعتبارية أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين إما في اللون كالأبيض والأسود أو في الطعم كالحلو والحامض أو في القدرة كالصغير والكبير أو في الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك .

وقيل : المعنى خلق في الأرض من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت ، وتعقب أنه دعوى بلا دليل مع أن الظاهر خلافه فإن النوع الناطق المحتاج إلى زوجين خلق ذكره أولا فكيف في الثمرات وتكون واحد من كل أولا كاف في التكون والوجه ما ذكر أولا ، وجوز أن يتعلق الجار بجعل الأول ويكون الثاني استئنافاً لبيان كيفية الجعل .

وزعم بعضهم أن المراد بالزوجين على تقدير تعلق الجار بجعل السابق الشمس والقمر ، وقيل : الليل .

والنهار وكلا القولين ليس بشيء ﴿ يغشى وَهُوَ الذى ﴾ أي يلبسه ما كنه فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً ، ففيه إسناد ما لمكان الشيء إليه ، وفي جعل الجو مكاناً للنهار تجوز لأن الزمان لا مكان له والمكان إنما هو للضوء الذي هو لازمه ، وجوز في الآية استعارة كقوله تعالى :

﴿ يُكَوّرُ الليل عَلَى النهار ﴾ [الزمر : 5] بجعله مغشياً للنهار ملفوفاً عليه كاللباس على الملبوس ، قيل : والأول أوجه وأبلغ ، واكتفى بذكر تغشية الليل النهار مع تحقق عكسه للعلم به منه مع أن اللفظ يحتملهما إلا أن التغشية بمعنى الستر وهي أنسب بالليل من النهار ، وعد هذا في تضاعيف الآيات السفلية وان كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً باعتار ظهوره في الأرض .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

وأبو بكر ﴿ يغشى ﴾ بالتشديد وقد تقدم تمام الكلام في ذلك ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من مد الأرض وجعل الرواسي عليها وإجراء الأنهار فيها وخلق الثمرات وإغشاء الليل النهار ، وفي الإشارة بذلك تنبيه على عظم المشار إليه في بابه ﴿ لآيات ﴾ باهرة قيل : هي أثار تلك الأفاعيل البديعة بذلك إلى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الأفاعيل ﴿ لِقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن التفكر فيها يؤدي إلى الحكم بأن يكون كل من ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب اللائق لا بد له من مكون قادر حكيم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

والفكرة كما قال الراغب قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم ، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل وذلك للإنسان دون الحيوان ، ولا يقال : إلا فيما لا يمكن أن يحصل له صورة في القلب ، ولهذا روى تفكروا في آلاء الله تعالى ولا تتكفروا في الله تعالى إذا كان الله سبحانه منزهاً أن يوصف بصورة .

وقال بعض الأدباء : الفكر مقلوب عن الفرك لكن يستعمل الفكر في المعاني وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيتها ، والمشهور أنه ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول ، وقد تقدم وجه جعل هذا مقطعاً في الآية .

وذكر الإمام أن الأكثر في الآيات إذا ذكر فيها الدلائل الموجودة في العالم السفلى أن يجعل مقطعها ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وما يقرب منه وسببه أن الفلاسفة يسندون حوادث العالم السفلى إلى الاختلافات الواقعة في الإشكالات الكوكبية فرده الله تعالى بقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لأن من تفكر فيها علم أنه لا يجوز أن يكون حدوث تلك

الحوادث من الاتصالات الفلكية فتفكر .

﴿ وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ ﴾

جملة مستأنفة مشتملة على طائفة أخرى من الآيات أي في الأرض بقاع كثيرة مختلفة في الأوصاف فمن طيبة منبتة ومن سبخة لا تنبت ومن رخوة ومن صلبة ومن صالحة للزرع لا للشجر ومن صالحة للشجرء لا للزرع إلى غير ذلك ﴿ متجاورات ﴾ أي متلاصقة والمقصود الأخبار بتفاوت أجزاء الأرض المتلاصقة على الوجه الذي علمت وهذا هو المأثور عن الأكثرين ، وأخرج أبو الشيخ عن قتادة أن المعنى وفي الأرض قرى قريب بعضها من بعض ، وأخرج عن الحسن انه فسر ذلك بالاهواز .

وفارس .

والكوفة .

(196/407)

والبصرة ، ومن هنا قيل في الآية اكتفاء على حد ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] والمراد قطع متجاورات وغير متجاورات ، وفي بعض المصاحف ﴿ قِطَعًا متجاورات ﴾ بالنصب أي وجعل في الأرض قطعاً ﴿ وجنات ﴾ أي بساتين كثيرة ﴿ مّنْ أعناب

﴿ أي من أشجار الكرم ﴿ وَزَرْعٌ ﴾ من كل نوع من أنواع الحبوب ، وافراده لمراعاة أصله حيث كان مصدراً ، ولعل تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لما أن في صنعة الأعناب مما يبهر العقول ما لا يخفى ، ولو لم يكن فيها إلا أنها مياه متجمدة في ظروف رقيقة حتى أن منها شفافاً لا يحجب البصر عن إدراك ما في جوفه لكفي ؛ ومن هنا جاء في بعض الأخبار القدسية أتكفرون بي وأنا خالق العنب .

وفي إرشاد العقل السليم تعليل ذلك بظهور حال الجنن في اختلافها ومباينتها لسائرها ورسوخ ذلك فيها ، وتأخير قوله تعالى : ﴿ وَنَخِيلٌ ﴾ لئلا يقع بينها وبين صفتها وهي قوله تعالى : ﴿ صنوان وَنَخِيلٌ صنوان ﴾ فاصلة أو يطول الفصل بين المتعاطفين ، وصنوان جمع صنو وهو الفرع الذي يجمعه وآخر أصل واحد وأصله المثل ، ومنه قيل : للعم صنو ، وكثر الصاد في الجمع كالمفرد هو اللغة المشهورة وبها قرأ الجمهور ، ولغة تميم وقيس ﴿ صنوان ﴾ بالضم كذئب وذؤبان وبذلك قرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما .

والسلمى .

وابن مصرف ، ونقله الجعبري في شرح الشاطبية عن حفص .

وقرأ الحسن .

وقتادة بالفتح ، وهو على ذلك اسم جمع كالسعدان لا جمع تكسير لأنه ليس من أبنيته ، وقرأ الحسن ﴿ جنات ﴾ بالنصب عطفاً عند بعض على ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ مفعول ﴿

جعَلَ ﴾ و﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ [الرعد : 3] حينئذ حال مقدمة لا صلة ﴿ جعَلَ ﴾ لفساد المعنى عليه أي جعل فيها زوجين حال كونه من كل الثمرات وجنات من أعناب ، ولا يجب هنا تقييد العطوف بقيد المعطوف عليه .

(197/407)

وزعم بعضهم أن العطف على ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ وقال أبو حيان : الأولى اضمار فعل لبعد ما بين المتعاطفين أو بالجر عطفاً على ﴿ كُلِّ الثمرات ﴾ على أن يكون هو مفعولاً بزيادة ﴿ مِنْ ﴾ في الإثبات و﴿ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ حالا منه ، والتقدير وجعل فيها من كل الثمرات حال كونها صنفين ، فلعل عدم نظم قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأرض قِطَعٌ متجاورات ﴾ في هذا السلك من أن اختصاص كل من تلك القطع بما لها من الأحوال والصفات بمحض خلق الخالق الحكيم جلت قدرته حين مد الأرض ودحاها على ما قيل الإيماء إلى كون تلك الأحوال صفات راسخة لتلك القطع .

وقرأ جمع من السبعة ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ بالجر على أن العطف على ﴿ أعناب ﴾ وهو كما في الكشف من باب متقلداً سيفاً ورمحاً أو المراد أن في الجنات فرجاً مزروعة بين الأشجار وإلا فلا يقال للمزرعة وحدها جنة وهذا أحسن منظراً وأنزه .

وادعى أبو حيان أن في جعل الجنة من الأعناب تجوزاً لأن الجنة في الحقيقة هي الأرض التي فيها الأعناب ﴿ يسقى ﴾ أي ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل وقرأ أكثر السبعة بالتأنيث مراعاة للفظ ؛ وهي قراءة الحسن .

وأبي جعفر ، قيل : والأول أوفق بمقام بيان اتحاد الكل في حالة السقي ﴿ بِمَاء واحد ﴾ لا اختلاف في طبعه سواء كان السقي من ماء : الأمطار أو من ماء الأنهار ، وقيل : إن الثاني أوفق بقوله سبحانه : ﴿ وَنُفَضّلُ ﴾ أي مع وجود أسباب التشابه بمحض قدرتنا وإحساننا ﴿ بَعْضَهَا على بَعْضٍ ﴾ آخر منها ﴿ فِى الأكل ﴾ لمكان التأنيث ، وأمال فتحة القاف حمزة ، والكسائي ، والأكل بضم الهمزة والكاف وجاء تسكينها ما يؤكل ، وهو هنا الثمر والحب ، وقول بعضهم : أي في الثمر شكلاً وقدراً ورائحة وطعماً من باب التغليب ، وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ يفضل ﴾ بالياء على بناء الفاعل رداً على ﴿ وَمَن يُدَبّرُ ﴾ و ﴿ بفصل ﴾ و ﴿ إِذْ يغشى ﴾ وقرأ يحيى بن يعمر وهو أول من نقط المصحف .

وأبو حيوة .

والحلبي عن عبد الوارث بالياء على بناء المفعول ورفع ﴿ بَعْضَهَا ﴾ وفيه ما لا يخفى من الفخامة والدلالة على أن عدم احتمال استناد الفعل إلى فاعل آخر معن عن بناء الفعل للفاعل ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الذي فصل من أحوال القطع وغيرها ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ كثيرة عظيمة باهرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يعملون على قضية عقولهم فإن من عقل هاتيك الأحوال العجيبة وخروج الثمار المختلفة في الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك القطع المتباينة المتلاصقة مع اتحاد ما تسقى به بل وسائر أسباب نموها لا يتلعثم في الجزم بأن لذلك صانعاً حكيماً قادراً مدبراً لها لا يعجزه شيء ، وقيل : المراد أن من عقل ذلك لا يتوقف في الجزم بأن من قدر على إبداع ما ذكر قادر على إعادة ما أبداه بل هي أهون في القياس ولعل ما ذكرناه أولى .

ثم إن الأحوال وإن كانت هي الآيات أنفسها لا أنها فيها إلا أنها قد جردت عنها أمثالها مبالغة في كونه آية ففي تجريدية مثلها في قوله تعالى :

﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ [فصلت : 28] على المشهور .

وجوز أن يكون المشار إليه الأحوال الكلية ، والآيات افرادها الحادثة شيئاً فشيئاً في الأزمنة وآحادها الواقعة في الأقطار والأمكنة المشاهدة لأهلها ففي على معناها ؛ ومنهم من فسر الآيات بالدلالات لتبقى في على ذلك وهو كما ترى ، وحيث كانت دلالة هذه الأحوال على مدلولاتها أظهر مما سبق علق سبحانه كونها آيات بمحض التعقل كما قال أبو

حيان وغيره ، ولذلك على ما قيل لم يتعرض جل شأنه أنه لغير تفضيل بعضها على بعض في الأكل الظاهر لكل عاقل مع تحقق ذلك في الخواص والكيفيات مما يتوقف العثور عليه على نوع تأمل وتفكر كأنه لا حاجة إلى التفكر في ذلك أيضاً ، وفيه تعريض بأن المشركين غير عاقلين ، ولبعض الرجاز فيما تشير إليه الآية :

والأرض فيها عبرة للمعتبر . . .

تخبر عن صنع مليك مقتدر

تسقى بماء واحد أشجارها . . .

وبقعة واحدة قرارها

والشمس والهواء ليس يختلف . . .

وأكلها مختلف لا يأتلف

لو أن ذا من عمل الطبائع . . .

أو أنه صنعة غير صانع

لم يختلف وكان شيئاً واحدا . . .

هل يشبه الأولاد إلا الوالدا

الشمس والهواء يا معاند . . .

والماء والتراب شيء واحد

فما الذي أوجب ذا التفاضلا . . .

الا حيكم لم يرده باطل

وأخرج ابن جرير عن الحسن في هذه الآية أنه قال : هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة فسطحها وبطحها فصارت قطعاً متجاورة فينزل عليها الماء من السماء فتخرج هذه زهرتها وثمرها وشجرها وتخرج نباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبثها وكلتاهما تسقى بماء واحد فلو كان الماء ملحاً قيل إنما استبسخت هذه من قبل الماء ، كذلك الناس خلقوا من آدم عليه السلام فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع وتخضع ، وتقسو قلوب فتلهو وتسهو ، ثم قال : والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال الله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرءان مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء : 82] اه قال أبو حيان وهو شبيه بكلام الصوفية . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ المر ﴾ قد تقدّم الكلام في هذه الحروف الواقعة في أوائل السور بما يغني عن الإعادة ، وهو اسم للسورة مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف .

أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده ، والتقدير على الأول : هذه السورة اسمها هذا ، والإشارة بقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إلى آيات هذه السورة ، والمراد بالكتاب : السورة أي : تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة الشأن ، ويكون قوله : ﴿ والذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾ مراداً به القرآن كله ، أي : هو الحق البالغ في اتصافه بهذه الصفة ، أو تكون الإشارة بقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إلى آيات القرآن جميعه على أن المراد بالكتاب جميع القرآن .

ويكون قوله : ﴿ والذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾ جملة مبينة لكون هذا المنزل هو الحق .

قال الفراء : ﴿ والذي ﴾ رفع بالاستئناف وخبره ﴿ الحق ﴾ ، قال : وإن شئت جعلت ﴿ الذي ﴾ خفضاً نعتاً للكتاب ، وإن كانت فيه الواو كما في قوله :

إلى الملكَ القرمِ وابن الهمامِ . . . ويجوز أن يكون محل ﴿ والذي أنزل إليك ﴾ الجرّ على تقدير : وآيات الذي أنزل إليك ، فيكون الحق على هذا خبراً لمبتدأ محذوف ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بهذا الحق الذي أنزله الله عليك .

قال الزجاج: لما ذكر أنهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال: ﴿ الله الذى رَفَعَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ والعمد: الأساطين جمع عماد أي: قائمات بغير عمد تعتمد عليه، وقيل لها عمد ولكن لا نراه.

قال الزجاج: العمد: قدرته التي يمسك بها السموات، وهي غير مرئية لنا، وقرىء "عمد" على أنه جمع عمود يعمد به، أي: يسند إليه.

قال النابغة:

وخبر الجنّ إني قد أذنت لهم... يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وجملة ﴿ ترونها ﴾ مستأنفة استشهاد على رؤيتهم لها كذلك.

وقيل: هي صفة لعمد، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: رفع السموات ترونها بغير عمد، ولا ملجىء إلى مثل هذا التكلف ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ أي: استولى عليه بالحفظ والتدبير، أو استوى أمره، أو أقبل على خلق العرش، وقد تقدّم الكلام على هذا مستوفى، والاستواء على العرش صفة لله سبحانه بلا كيف كما هو مقرّر في موضعه من علم الكلام: ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ أي: ذللهما لما يراد منهما من منافع الخلق،

ومصالح العباد ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لأجل مُّسَمًّى ﴾ أي كلّ من الشمس والقمر يجري إلى وقت معلوم : وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التي تكوّر عندها الشمس ويخسف القمر ، وتنكدر النجوم وتنتثر ، وقيل : المراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي تنتهيان إليها لا يجاوزنها ، وهي سنة للشمس ، وشهر للقمر ﴿ يُدَبّرُ الأمر ﴾ أي : يصرّفه على ما يريد ، وهو أمر ملكوته وربوبيته ﴿ يُفَصّلُ الآيات ﴾ أي : يبينها ، وهي الآيات الدالة على كمال قدرته وربوبيته ، ومنها ما تقدّم من رفع السماء بغير عمد ، وتسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى ، والجملتان في محل نصب على الحال أو خبر إن لقوله : ﴿ الله الذى رَفَعَ ﴾ على أن الموصول صفة للمبتدأ ، والمراد من هذا تنبيه العباد أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة ، ولذا قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاء رَبّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ أي : لعلكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لا تشكون فيه ، ولا تمترون في صدقه .

ولما ذكر الدلائل السماوية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال : ﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ الأرض ﴾

قال الفراء : بسطها طولاً وعرضاً .

وقال الأصمّ : إن المدّ : هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه ، وهذا المدّ الظاهر للبصر لا ينافي كريتها في نفسها لتباعد أطرافها ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ ﴾ أي : جبالاً ثوابت ، واحدها راسية لأن الأرض ترسو بها ، أي : تثبت .

والإرساء : الثبوت .

قال عنترة :

فصرت عارفة لذلك حرّة . . . ترسو إذا نفس الجبانِ تطلع

وقال جميل :

أُحبها والذي أرسى قواعِده . . . حتى إذا ظَهرت آياتُه بطنا

﴿ وأنهارا ﴾ أي : مياهاً جارية في الأرض فيها منافع الخلق ، أو المراد جعل فيها مجاري الماء ﴿ وَمِن كُلّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ من كل الثمرات متعلق بالفعل الذي بعده ، أي : جعل فيها من كل الثمرات ﴿ زوجين اثنين ﴾ ، الزوج يطلق على الاثنين ، وعلى الواحد المزاوج لآخر ، والمراد هنا بالزوج الواحد ، ولهذا أكد الزوجين بالاثنين لدفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين ، وقد تقدّم تحقيق هذا مستوفي ، أي : جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين ، إما في اللونية : كالبياض والسواد ونحوهما ، أو في الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما ، أو في القدر كالصغر والكبر ، أو في الكيفية كالحر والبرد .

قال الفراء : يعني بالزوجين هنا : الذكر والأنثى .

والأول أولى ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ أي : يلبسه مكانه ، فيصير أسود مظلماً بعدما كان أبيض منيراً ، شبه إزالة نور الهدى بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التي تسترها ، وقد سبق تفسير هذه في الأعراف ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : فيما ذكر من مدّ الأرض وإثباتها بالجبال ، وما جعله الله فيها من الثمرات المتزاوجة .

وتعاقب النور والظلمة آيات بينة للناظرين المتفكرين المعتبرين .

﴿ وَفِى الأرض قِطَعٌ متجاورات ﴾ هذا كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع آخر من أنواع الآيات .

قيل : وفي الكلام حذف ، أي : قطع متجاورت ، وغير متجاورات ، كما في قوله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] أي : وتقيكم البرد .

قيل : والمتجاورات : المدن وما كان عامراً ، وغير المتجاورات : الصحارى وما كان غير عامر ، وقيل : المعنى : متجاورات متدانيات ، ترابها واحد وماؤها واحد .

وفيها زرع وجنات ، ثم تتفاوت في الثمار فيكون البعض حلواً والبعض حامضاً ، والبعض طيباً والبعض غير طيب ، والبعض يصلح فيه نوع والبعض الآخر نوع آخر ﴿ وجنات مّنْ

أعناب ﴾ والجنات : البساتين ، قرأ الجمهور برفع ﴿ جنات ﴾ على تقدير : وفي الأرض جنات ، فهو معطوف على قطع متجاورات ، أو على تقدير : وبينها جنات .

وقرأ الحسن بالنصب على تقدير : وجعل فيها جنات ، وذكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل ؛ لأنه يكون في الخارج كثيراً كذلك ، ومثله في قوله سبحانه ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أعناب وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف : 32] .

﴿ صنوان وَغَيْرُ صنوان ﴾ ، قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص ﴿ وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ﴾ برفع هذه الأربع عطفاً على جنات ، وقرأ الباقون بالجرّ عطفاً على أعناب .

وقرأ مجاهد والسلمي بضم الصاد من صنوان .

وقرأ الباقون بالكسر ، وهما لغتان .

قال أبو عبيدة : صنوان : جمع صنو ، وهو أن يكون الأصل واحداً ، ثم يتفرع فيصير نخلاً ، ثم يحمل ، وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير .

قال ابن الأعرابي : الصنو : المثل ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " عم الرجل صنو أبيه " ، فمعنى الآية على هذا : أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون .

قال في الكشاف : والصنوان جمع صنو ، وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد ، وقيل : الصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المتفرق .

قال النحاس : وهو كذلك في اللغة ، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر : صنوان ، والصنو : المثل ، ولا فرق بين التثنية والجمع إلاّ بكسر النون في المثنى ، وبما يقتضيه الإعراب في الجمع .

﴿ يسقى بِمَاء واحد ﴾ ، قرأ عاصم وابن عامر : ﴿ يسقى ﴾ بالتحتية ، أي : يسقى ذلك كله .

(204/407)

وقرأ الباقون بالفوقية بإرجاع الضمير إلى جنات ، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد وأبو عمرو ، قال أبو عمرو : التأنيث أحسن لقوله : ﴿ وَنُفَضّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِى الأكل ﴾ ولم يقل : بعضه .

وقرأ حمزة والكسائي " يفضل " بالتحتية كما في قوله : ﴿ يُدَبّرُ الأمر يُفَصّلُ الآيات ﴾ [الرعد : 2] وقرأ الباقون بالنون على تقدير : ونحن نفضل .

وفي هذا من الدلالة على بديع صنعه ، وعظيم قدرته ما لا يخفى على من له عقل ؛ فإن القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل في الثمرات في الأكل ، فيكون طعم بعضها حلواً والآخر حامضاً ، وهذا في غاية

الجودة ، وهذا ليس بجيد ، وهذا فائق في حسنه ، وهذا غير فائق مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضي لاختلافها ليس إلاّ قدرة الصانع الحكيم جلّ سلطانه وتعالى شأنه ، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلاّ لسببين : إما اختلاف المكان الذي هو المنبت ، أو اختلاف الماء الذي تسقى به ، فإذا كان المكان متجاوراً ، وقطع الأرض متلاصقة ، والماء الذي تسقى به واحداً ، لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلاّ تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب ، ولهذا قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي : يعلمون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكر في المخلوقات والاعتبار في العبر الموجودات .

وقد أخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ المر ﴾ قال : أنا الله أرى .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ المر ﴾ فواتح يفتتح بها كلامه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ تِلْكَ ءايَاتُ الكتاب ﴾ قال : التوراة والإنجيل ﴿ والذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبّكَ الحق ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن قتادة نحو .

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ رَفَعَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ قال: وما يدريك لعلها بعمد لا ترونها.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وأبو الشيخ عنه في الآية قال: يقول لها عمد ولكن لا ترونها يعني: الأعماد.

وأخرج ابن جرير عن إياس بن معاوية في الآية قال: السماء مقببة على الأرض مثل القبة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: السماء على أربعة أملاك، كل زاوية موكل بها ملك.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في قوله: ﴿ لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال: الدنيا.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ قال: يقضيه وحده.

وأخرج.

ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: الدنيا مسيرة خمسمائة عام، أربعمائة خراب، ومائة عمران، في أيدي المسلمين من ذلك مسيرة سنة.

وقد روي عن جماعة من السلف في ذلك تقديرات لم يأت عليها دليل يصح.

وأخرج ابن جرير عن عليّ بن أبي طالب قال: لما خلق الله الأرض قمصت.

وقالت: أي ربّ، تجعل عليّ بني آدم يعملون عليّ الخطايا ويجعلون عليّ الخبث، فأرسل

الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللحم ترجرج.

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ أي: يلبس الليل النهار.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَفِى الأَرضِ قِطَعٌ متجاورات ﴾ قال: يريد الأرض الطيبة العذبة التي يخرج نباتها بإذن ربها، تجاورها السبخة القبيحة المالحة التي لا تخرج، وهما أرض واحدة، وماؤها شيء واحد، ملح أو عذب، ففضلت إحداهما على الأخرى.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: قرىء "متجاورات" قريب بعضها من بعض.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: الأرض تنبت حلواً، والأرض تنبت حامضاً، وهي متجاورات تسقى بماء واحد.

(206/407)

وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن البراء بن عازب في قوله: ﴿ صنوان وَغَيْرُ صنوان ﴾ قال: الصنوان: ما كان أصله واحداً وهو متفرّق، ﴿ وغير صنوان ﴾ التي تنبت وحدها،

وفي لفظ : صنوان : النخلة في النخلة ملتصقة ، وغير صنوان : النخل المتفرق .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ صنوان ﴾ قال : مجتمع النخل في أصل واحد ﴿ وَغَيْرُ صنوان ﴾ قال : النخل المتفرّق .

وأخرج الترمذي وحسنه ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن أبي هريرة ، عن النبي في قوله : ﴿ وَنُفَضّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِى الأكل ﴾ قال : " الدقل ، والفارسي ، والحلو ، والحامض " .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : هذا حامض ، وهذا حلو ، وهذا دقل ، وهذا فارسي . انتهى انتهى . اهـ ﴿فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(207/407)

وقال القاسمى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ ﴾

أي : بسطها وجعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض لإخراج النعم الكثيرة منها .

قال الشهاب : استدل به بعضهم على تسطيح الأرض ، وأنها غير كرية بالفعل . وأن من أثبته أراد به أنه مقتضى طبعها ! ورد بأنه ثبت كريتها بأدلة عقلية ، لكنه لعظم جرمها

يشهد كل قطعة وقطر منها كأنه مسطح ! وهكذا كل دائرة عظيمة . ولا يعلم كريتها إلا هو تعالى .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي : جبالاً ثوابت أوتاداً لها يكثر فيها النبات وتتحفظ تحتها المياه : ﴿ وَأَنْهَاراً ﴾ متفجرة منها ، وذلك لتكثير النبات والأشجار وحفظ الحيوان : ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي : صنفين اثنين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، والصغير والكبير ، والبستاني والجبلي .

قال المهايمي : ليفيد كل صنف فائدة غير فائدة الآخر ، فكان كل صنف نعمة بعد الإنعام بأصول الأصناف ، وجعل لإتمام الإنعام بالأصناف المختلفة الطبائع ؛ لئلا تجتمع فتضار متناولها فصولاً مختلفة إذ :

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أي : يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً فبطول الليل يحصل الشتاء ، وبطول النهار يحصل الصيف ، وبأحد الاعتدالين يحصل الخريف ، وبالآخر الربيع : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : في مد الأرض وما بعده : ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : لآيات باهرة لقوم يتفكرون فيستدلون بأن تكوين ما ذكر على هذا النمط

البديع لا بد له من قادر حكيم ! أو يتفكرون فيعلمون أن تكثير النعم لجلب محبة المنعم بصرفها إلى ما خلقت من أجله . والمحبة موجبة للرجوع إليه . وفيه إشارة إلى أن من دبر ذلك لمعايشهم ، أفلا ينعم عليهم بإرسال رسل وإنزال كتب ترشدهم إلى ما فيه سعادتهم ؟ بلى ، وهو أحكم الحاكمين .

لطائف :

الأولى : قال الرازي : من الاستدلال بأحوال الجبال ، أن بسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض . وذلك أن الحجر جسم صلب . فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك ، فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة . ثم إنها لكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض . فمنفعة الجبال في تولد الأنهار هو من هذا الوجه ، ولهذا السبب . ففي أكثر الأمر أينما ذكر الله الجبال ؛ قرن بها ذكر الأنهار ، مثل ما في هذه الآية ، ومثل قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً ﴾ [المرسلات : 27] .

الثانية : أشار الرازي إلى أن الناس ، كما ابتدأوا من زوجين اثنين بالشخص ، هما آدم وحواء ، فكذا الأشجار والزروع خلقت أولاً من زوجين اثنين ثم كثرت ، والله أعلم .

الثالثة : في قوله : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه إزالة نور الجو بالظلمة ، بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية ، أي : يستر النهار بالليل . والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً – بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأول – فإن ضوء النهار أيضاً ساتر لظلمة الليل ، إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي . وعد هذا في تضاعيف الآيات السفلية وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً – باعتبار أن ظهوره في الأرض – فإن الليل إنما هو ظلها ، وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلاً . ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والإنضاج ، على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها . وقرئ (يغشّي) من التغشية – أفاده أبو السعود – .

ثم بيَّن تعالى طائفة من الآيات بقوله :

(210/407)

﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ أي : بقاع متقاربات مختلفة الطبائع . فمن طيبة إلى سبخة ، ومن صلبة إلى رخوة ، مما يدل على قادر مدبر مريد حكيم في صنعه : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ جمع صنو ، وهي نخلة أصلها

واحد وفروعها شتى، وفي "القاموس" النخلتان، فما زاد في الأصل الواحد، كل واحدة منهما صنو، ويضم. أو عام في جميع الشجر، وإفراد الزرع لأنه مصدر في الأصل يشمل القليل والكثير: ﴿ يُسْقَى ﴾ قرئ بالتحتية والفوقية: ﴿ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ أي: بماء المطر أو بماء النهر: ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ فتتفاضل قدراً وشكلاً ورائحة وطعماً. والأكل، قرئ بضم الهمزة والكاف وتسكينها وهو ما يؤكل، وهو هنا الثمر والحب. والمجرور إما ظرف لـ(نفضل) أو حال من بعضها، أي: نفضل بعضها مأكولاً. أو: وفيه الأكل: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي: الذي فصل: ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ على وحدانيته تعالى وباهر قدرته: ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فإن من عقل ما تقدم جزم بأن من قدر على إبداعها وخلقها مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك البقاع المتباينة المتجاورة، وجعلها حدائق ذات بهجة؛ قادر على إعادة ما أبداه، بل هو أهون في القياس. انتهى انتهى. اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 9 صـ 260.263﴾

وقال ابن عاشور:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ

اثْنَيْنِ ﴾

عطف على جملة ﴿ الله الذي رفع السماوات ﴾ فبين الجملتين شبه التضاد .

اشتملت الأولى على ذكر العوالم العلوية وأحوالها ، واشتملت الثانية على ذكر العوالم السفلية .

والمعنى : أنه خالق جميع العوالم وأعراضها .

والمد : البسط والسعة ، ومنه : ظل مديد ، ومنه مد البحر وجزره ، ومد يده إذا بسطها .

والمعنى : خلق الأرض ممدودة متسعة للسير والزرع لأنه لو خلقها أسنمة من حجر أو جبالاً شاهقة متلاصقة لما تيسّر للأحياء التي عليها الانتفاع بها والسير من مكان إلى آخر في طلب الرزق وغيره .

وليس المراد أنها كانت غير ممدودة فمدّها بل هو كقوله : ﴿ الله الذي رفع السماوات ﴾ ، فهذه خلقة دالة على القدرة وعلى اللطف بعباده فهي آية ومنة .

والرواسي : جمع رَاسسٍ ، وهو الثابت المستقر .

أي جبالاً رواسي .

وقد حذف موصوفه لظهوره فهو كقوله : ﴿ وله الجواري ﴾ ، أي السفن الجارية .

وسيأتي في قوله : ﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾ في سورة النحل (15) بأبسط مما هنا .

وجيء في جمع راسسٍ بوزن فواعل لأن الموصوف به غير عاقل ، ووزن فواعل يطرد فيما مفرده صفة لغير عاقل مثل : صاهل وبازل .

والاستدلال بخلق الجبال على عظيم القدرة لما في خلقها من العظمة المشاهدة بخلاف خلقة المعادن والتراب فهي خفية ، كما قال تعالى : ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ [الغاشية : 19] .

والأنهار : جمع نهر ، وهو الوادي العظيم .

وتقدم في سورة البقرة : ﴿ إن الله مبتليكم بنهر ﴾ (249) .

وقوله : ومن كل الثمرات ﴾ عطف على ﴿ أنهاراً ﴾ فهو معمول ل ﴿ جَعل فيها رواسِيَ ﴾ .

ودخول ﴿ مِن ﴾ على ﴿ كلّ ﴾ جرى على الاستعمال العربي في ذكر أجناس غير العاقل كقوله : ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ .

(212/407)

و ﴿ مِن ﴾ هذه تُحمل على التبعيض لأن حقائق الأجناس لا تنحصر والموجود منها ما هو إلا بعض جزئيات الماهية لأن منها جزئيات انقضت ومنها جزئيات ستوجد .

والمراد بـ ﴿ الثمرات ﴾ هيَ وأشجارُها .

وإنما ذكرت ﴿ الثمرات ﴾ لأنها موقع منة مع العبرة كقوله : ﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ [سورة الأعراف : 57] .

فينبغي الوقف على ومن كل الثمرات ﴾ ، وبذلك انتهى تعداد المخلوقات المتصلة بالأرض .

وهذا أحسن تفسيراً .

ويعضده نظيره في قوله تعالى : ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ في سورة النحل (11) .

وقيل إن قوله : ومن كل الثمرات ﴾ ابتداء كلام .

وتتعلق ﴿ من كل الثمرات ﴾ بـ ﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ ، وبهذا فسر أكثر المفسرين .

ويبعده أنه لا نكتة في تقديم الجار والمجرور على عامله على ذلك التقدير ، لأن جميع المذكور محل اهتمام فلا خصوصية للثمرات هنا ، ولأن الثمرات لا يتحقق فيها وجود أزواج ولا كون الزوجين اثنين .

وأيضاً فيه فوات المنة بخلق الحيوان وتناسله مع أن منه معظم نفعهم ومعاشهم .

ومما يقرب ذلك قوله تعالى في نحو هذا المعنى ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً

وخلقناكم أزواجاً ﴾ [النبأ : 8 6] .

والمعروف أن الزوجين هما الذكر والأنثى قال تعالى : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [سورة القيامة : 39] .

والظاهر أن جملة جعل فيها زوجين ﴾ مستأنفة للاهتمام بهذا الجنس من المخلوقات وهو جنس الحيوان المخلوق صنفين ذكراً وأنثى أحدهما زوج مع الآخر .

وشاع إطلاق الزوج على الذكر والأنثى من الحيوان كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ في سورة البقرة (35) ، وقوله : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ في أول سورة النساء (1) ، وقوله : قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ﴾ .

(213/407)

وأما قوله تعالى : ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ [ق : 7] فذلك إطلاق الزوج على الصنف بناءً على شيوع إطلاقه على صنف الذكر وصنف الأنثى فأطلق مجازاً على مطلق صنف من غير ما يتصف بالذكورة والأنوثة بعلاقة الإطلاق ، والقرينة قوله : أنبتنا ﴾ مع عدم التثنية ، كذلك قوله تعالى : ﴿ فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ في سورة طه (53) .

وتنكير زوجين ﴾ للتنويع ، أي جعل زوجين من كل نوع .

ومعنى التثنية في زوجين أن كل فرد من الزوج يطلق عليه زوج كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ثمانية أزواج من الضّأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ الآية في سورة الأنعام (143) .

والوصف بقوله : اثنين ﴾ للتأكيد تحقيقاً للامتنان .

﴿ يُغْشِي الليل النهار إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

جملة ﴿ يغشي ﴾ حال من ضمير ﴿ جعل ﴾ .

وجيء فيه بالمضارع لما يدل عليه من التجدد لأن جعل الأشياء المتقدم ذكرها جعل ثابت مستمر ، وأما إغشاء الليل والنهار فهو أمرٌ متجدّد كل يوم وليلة .

وهذا استدلال بأعراض أحوال الأرض .

وذكرُه مع آيات العالم السفلي في غاية الدقة العلمية لأن الليل والنهار من أعراض الكرة الأرضية بحسب اتجاهها إلى الشمس وليسَا من أحوال السماوات إذ الشمس والكواكب لا يتغير حالها بضياء وظلمة .

وتقدم الكلام على نظير قوله : ﴿ يغشي الليل والنهار ﴾ في أوائل سورة الأعراف (54) .

وقرأه الجمهور بسكون الغين وتخفيف الشين مضارع أغشى .

وقرأه حمزة والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، ويعقوبُ ، وخلف بتشديد الشين مضارع

غَشّى .

وقوله : إن في ذلك لآيات ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من قوله : ﴿ الله الذي رفع السماوات ﴾ [الرعد : 2] إلى هنا بتأويل المذكور .

وجَعل الأشياء المذكورات ظروفاً لآيات ﴾ لأن كل واحدة من الأمور المذكورة تتضمن آيات عظيمة يجلوها النظر الصحيح والتفكير المجرد عن الأوهام .

(214/407)

ولذلك أجرى صفة التفكير على لفظ قَوم إشارة إلى أن التفكير المتكرر المتجدد هو صفة راسخة فيهم بحيث جعلت من مقومات قوميتهم ، أي جبلتهم كما بيناه في دلالة لفظ ﴿ قوم ﴾ على ذلك عند قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) .

وفي هذا إيماء إلى أن الذين نسبوا أنفسهم إلى التفكير من الطبائعيين فعللوا صدور الموجودات عن المادة ونفوا الفاعل المختار ما فكروا إلا تفكيراً قاصراً مخلوطاً بالأوهام ليس ما تقتضيه جبلة العقل إذْ اشتبهت عليهم العلل والمواليد ، بأصل الخلق والإيجاد .

وجيء في التفكير بالصيغة الدالة على التكلف وبصيغة المضارع للإشارة إلى تفكير شديد ومُكرر .

والتفكير تقدم عند قوله تعالى : ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ في سورة الأنعام [50] .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾

لله بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقال إلى ذكر النعم الدالة على قدرة الله تعالى فيما ألهم الناس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها والقيام عليها ، فجاء ذلك معطوفاً على الأشياء التي أسند جعْلها إلى الله تعالى ، ولكنه لم يسند إلى الله حتى بلغ إلى قوله : ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ ، لأن ذلك بأسرار أودعها الله تعالى فيها هي موجب تفاضلها .

وأمثال هذه العِبر ، ولَفْتِ النظر مما انفرد به القرآن من بين سائر الكتب .

وأعيد اسم ﴿ الأرض ﴾ الظاهر دون ضميرها الذي هو المقتضَى ليستقل الكلام ويتجدد الأسلوب ، وأصل انتظام الكلام أن يقال : جَعل فيها زوجين اثنين ، وفيها قطعٌ متجاورات ، فعدل إلى هذا توضيحاً وإيجازاً .

والقِطع : جمع قِطعة بكسر القاف ، وهي الجزء من الشيء تشبيهاً لها بما يقتطع .

وليس وصف القِطع بمتجاورات مقصوداً بالذات في هذا المقام إذ ليس هو محل العبرة بالآيات ، بل المقصود وصفٌ محذوف دل عليه السياق تقديره : مختلفات الألوان والمنابت ، كما دل عليه قوله : ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ .

وإنما وصفت بمتجاورات لأن اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشد دلالة على القدرة العظيمة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ومن الجبال جُدَدٌ بِيض وحُمر مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود ﴾ [فاطر : 27] .

فمعنى قطع متجاورات ﴾ بقاعٌ مختلفة مع كونها متجاورةً متلاصقة .

والاقتصار على ذكر الأرض وقِطعها يشير إلى اختلاف حاصل فيها عن غير صنع الناس وذلك اختلاف المراعي والكلأ .

ومجرد ذكر القطَع كاف في ذلك فأحالهم على المشاهدة المعروفة من اختلاف منابت قطع الأرض من الأبّ والكلإ وهي مراعي أنعامهم ودوابّهم ، ولذلك لم يقع التعرض هنا لاختلاف أُكله إذ لا مذاق للآدمي فيه ولكنه يختلف شَرَعهُ بعض الحيوان على بعضه دون بعض .

وتقدم الكلام على ﴿ وجنات من أعناب ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب ﴾ [الأنعام : 99] .

والزرع تقدم في قوله : ﴿ والنخل والزرع مختلفا أُكله ﴾ [الأنعام : 141] .

والنخيل : اسم جمع نخلة مثل النخل ، وتقدم في تلك الآية ، وكلاهما في سورة الأنعام .

والزرع يكون في الجنات يزرع بين أشجارها .

وقرأ الجمهور وزرع ونخيل ﴾ بالجر عطفاً على ﴿ أعناب ﴾ ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص ، ويعقوب بالرفع عطفاً على ﴿ جنات ﴾ .

والمعنى واحد لأن الزرع الذي في الجنات مساوٍ للذي في غيرها فاكتُفي به قضاء لحق الإيجاز .

وكذلك على قراءة الرفع هو يغني عن ذكر الزرع الذي في الجنات ، والنخل لا يكون إلاّ في جنات .

وصنوان : جمع صِنو بكسر الصاد في الأفصح فيهما وهي لغة الحجاز ، وبضمها فيهما أيضاً وهي لغة تميم وقيسسٍ .

والصنو : النخلة المجتمعة مع نخلة أخرى نابتتين في أصل واحد أو نخلات .

(216/407)

الواحد صنو والمثنى صنوانِ بدون تنوين ، والجمع صِنوانٌ بالتنوين جمع تكسير .

وهذه الزنة نادرة في صيغ أو الجموع في العربية لم يحفظ منها إلا خمسةُ جموع : صِنو وصنوانٌ ، وقِنْو وقنوانٌ ، وزِيدٍ بمعنى مِثْل وزِيدَانٍ ، وشِقْذ (بذال معجمة اسم الحرباء) وشِقذان ،

وحِشّ (بمعنى بستان) وحِشانٍ .

وخصّ النخل بذكر صفة صنوان لأن العبرة بها أقوى .

ووجه زيادة ﴿ وغير صنوان ﴾ تجديد العبرة باختلاف الأحوال .

وقرأ الجمهور ﴿ صنوان وغير صنوان ﴾ بجر ﴿ صنوان ﴾ وجر ﴿ وغير ﴾ عطفاً على ﴿ زرع ﴾ .

وقرأهما ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص ، ويعقوب بالرفع عطفاً على ﴿ وجنات ﴾ .

والسقي : إعطاء المشروب .

والمراد بالماء هنا ماء المطر وماء الأنهار وهو واحد بالنسبة للمسقى ببعضه .

والتفضيل : منة بالأفضل وعبرة به وبضده وكناية عن الاختلاف .

وقرأ الجمهور ﴿ تُسقَى ﴾ بفوقية اعتباراً بجمع ﴿ جنات ﴾ ، وقرأه ابن عامر ، وعاصم ، ويعقوب ﴿ يسقى ﴾ بتحتية على تأويل المذكور .

وقرأ الجمهور ﴿ ونفضل ﴾ بنون العظمة ، وقرأه حمزة ، والكسائي ، وخلف ﴿ ويفضل ﴾ بتحتية .

والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ﴾ .

وتأنيث ﴿ بعضها ﴾ عند من قرأ ﴿ يسقى ﴾ بتحتية دون أن يقول بعضه لأنه أريد يفضل بعض الجنات على بعض في الثمرة .

والأُكْل : بضم الهمزة وسكون الكاف هو المأكول .

ويجوز في اللغة ضم الكاف .

وظرفية التفضيل في ﴿ الأكل ﴾ ظرفية في معنى الملابسة لأن التفاضل يظهر بالمأكول ، أي نفضل بعض الجنات على بعض أو بعض الأعناب والزرع والنخيل على بعض من جنسه بما يثمره .

والمعنى أن اختلاف طعومه وتفاضلها مع كون الأصل واحداً والغذاء بالماء واحداً ما هو إلا لقوى خفيّة أودعها الله فيها فجاءت آثارها مختلفة .

ومن ثم جاءت جملة ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ مجيء التذييل .

(217/407)

وأشار قوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى جميع المذكور من قوله : ﴿ وهو الذي مدّ الأرض ﴾ [سورة الرعد : 3] .

وقد جعل جميع المذكور بمنزلة الظرف للآيات .

وجعلت دلالته على انفراده تعالى بالإلهية دلالات كثيرة إذ في كل شيء منها آية تدل على ذلك .

ووصفت الآيات بأنها من اختصاص الذين يعقلون تعريضاً بأن من لم تقنعهم تلك الآيات منزّلون منزلة من لا يعقل .

وزيد في الدلالة على أن العقل سجية للذين انتفعوا بتلك الآيات بإجراء وصف العقل على كلمة قَوم ﴾ إيماء إلى أن العقل من مقومات قوميتهم كما بيناه في الآية قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(218/407)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾

ويتابع الحق سبحانه سَرْد آياته الكونية في هذه الآية : ﴿ مَدَّ الأرض . . . ﴾ [الرعد : 3]

يعني أنها موجودة أمامك ومُمْتدة ، وبعض الناس يفهمون المَدّ بمعنى البسط ، ونقول : إن البَسْط تابع للمَدِّ .

ولذلك وقف بعض العلماء وقالوا : ومن قال إن الأرض كُروِّية ؟

إن الحق سبحانه قال : إنها مبسوطة ، وهو سبحانه الذي قال : إنه قد مَدّ الأرض .

وقلتُ لهؤلاء العلماء : فَلْنفهم كلمة المَدِ أولاً ، ولْنفهَمْ أيضاً كلمة " الأرض " وهي التي تقف عليها أنت وغيرك ، وتعيش عليها الكائنات ، وتمتد شمالاً إلى القُطْب الشمالي ، وجنوباً إلى القُطْب الجنوبي ، أيّاً ما كُنْت في أيّ موقع فهي مَمْدودة شرقاً وغرباً .

ومعنى : ﴿ مَدّ الأرض . . . ﴾ [الرعد : 3]

تعني أنك إنْ وقفتَ في مكان وتقدمتَ منه ؛ تجد الأرض ممدودة أمامك ؛ ولا توجد حَافّة تنتهي لها ، ولو أنها كانت مبسوطة لَكان لها نهاية ، ولكانت على شكل مُثلّث أو مُربع أو مستطيل ؛ ولكان لها حافة ؛ ولوجدنا مَنْ يسير إلى تلك الحافة ، هو يقول : " لقد وصلتُ لحافة الأرض ؛ وأمامي الفراغ " ولم يحدث أنْ قال ذلك واحد من البشر .

وإذا ما سار إنسان على خط الاستواء مثلاً ؛ فسيظل ماشياً على اليابسة أو راكباً لمركب تقطع به البحر أو المحيط ليصل إلى نفس النقطة التي بدأ منها سَيْره .

وهكذا نجد الأرض ممدودة غير محدودة ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض مُكوّرة ، بحيث إذا مشيت مُتتبّعاً أيّ خط من خطوط العرض أو خطوط الطول لانتهتْ إلى النقطة التي بدأت منها سَيْرك .

وكان هذا هو الدليل الذي يقدمه العلماء على كروية الأرض ؛ قبل أن يخترعوا فكرة التصوير من خارج الغلاف الجوي .

ونأخذ من قول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي مَدّ الأرض . . . ﴾ [الرعد : 3]

معنى آخر هو ضرورة أن ينظر الإنسانُ في هذا الامتداد ؛ ومَنْ تضيق به الحياة في مكان يُمكنه أن يرحل إلى مكان آخر ، فأرضُ الله واسعة ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا . . . ﴾ [النساء : 97]

ونعلم أن فساد العالم في زمننا إنما نشأ من فساد السياسات وزيادة الاضطرابات ، وذلك واحد من نتائج تعوق مَدّ الأرض فساعة يحاول إنسان أن يترك حدود موطنه ؛ يجد الحراسات والعوائق عند حدود البلاد المجاورة ، وتناسَى الجميع قَوْل الحق سبحانه : ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ [الرحمن : 10]

فسبحانه قد سَخّر الأرض وأخضعها للأنام كل الأنام ، وإذا لم يتحقق هذا المبدأ القرآني ؛ سيظل العالم في صراع ؛ وستظُّل بعض من البلاد في حاجة للبشر وبعض من البلاد في ضِيق من الرزق ؛ لزيادة السكان عن إمكانات الأرض التي يعيشون عليها .

وستظل هناك أرض بلا رجال ؛ ورجال بلا أرض ، نتيجة للحواجز المصطنعة بين البلاد .

وحتى تُحل هذه القضية كما قلنا في الأمم المتحدة لابد من تطبيق المبدأ القرآني :

﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ [الرحمن : 10]

ومَنْ تضيق به الأرض التي نشأ فيها فليسمح له بالهجرة .

ويتابع سبحانه في نفس الآية : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً . . . ﴾ [الرعد : 3]

والرواسي هي جمع " رَاسٍ " وهو الشيء الثابت .

وسبحانه يقول : ﴿ والجبال أَرْسَاهَا ﴾ [النازعات : 32]

وهكذا جاء الحق بالحكم الذي شاء أن تكون عليه الجبال ، وفي آية أخرى يأتينا الله بعلة كونها رواسي ؛ فيقول : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 31]

(220/407)

أي : لا تضطرب بكم الأرض ، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات ؛ لما احتجْنَا إلى الجبال الرواسي كي تُثبّتها ، ولكن الأرض مخلوقة متحركة ، وهي عُرْضة للاضطراب ، ولولا الجبال الرواسي لَمادتْ الأرض .

ولسائل أن يقول : ولكننا نقطع الآن الجبال ، ونأخذ الجرانيت من جبل لِنُزيِّن به أرضية بعض المناطق ؛ ونقطع الرخام من جبل آخر لنصنع منه حماماتٍ وأحواضاً ودرجات السلالم ،

ونقتطع بعض أحجار أنواع معينة من الجبال ؛ لنستخلص اليورانيوم منها ؟

ونقول : انظر إلى حكمة الحق تبارك وتعالى حين خلق ؛ وحكمته حين دَبَّر ، فهذه الأرض لها محيط ؛ ولها مركز ؛ ولها أقطار ، وكلما اقتربتْ من مركز الأرض فالقطر يَقِلّ .

ومثال هذا هو البطيخة ؛ فأنت إن استخلصتَ القشرة الخارجية لها يكون لديْكَ كرة من القشرة الخضراء ؛ وكرة أخرى من مُكوِّنات البطيخة التي نأكلها ، ولو استخلصتَ كرة أخرى من مكونات الألياف الحمراء التي تتكون منها البطيخة ، لصار عندك كرة أخرى ، ولصار قُطْر الكرة الجديدة أصغر بطبيعة الحال من الكرة الخضراء .

وكلما استخلصتَ كُريّات أخرى من مُكوِّنات البطيخة ؛ صَغُرَتْ الأقطار ؛ لأنك تقترب من مركز الدائرة ، والمحيط الأخضر الذي يحيط بالبطيخة وهو القشرة ؛ يشبه المحيط الذي يوجد على الكرة الأرضية ؛ وهذه القشرة التي توجد حول الكرة الأرضية صُلْبة ؛ أما ما بداخل الأرض وجَوْفها ؛ فهو مُكوَّن من أشياء ومواد متعددة ، منها ما هو سائل ومنها ما هو صَلْب .

وكلما اقتربنا من مركز الأرض ؛ وجدنا ارتفاعاً في درجة الحرارة ؛ وتدلُّنا على ذلك كُلّ الحُمَم التي تخرج فوَّارة من فُوَّهات البراكين ؛ وهي حُمَم ذات حرارة مرتفعة للغاية ؛ وهي حُمَم مُحْرِقة .

وقد شاء الحق سبحانه أن يجعل بطن الأرض سائلاً ، رحمةً بنا ؛ ذلك أننا حين نبني بيوتاً ؛ أو نقتطع أحجاراً من الجبال ؛ أو نستخدم مُكوِّنات الجبال في أي غرض ؛ إنما ننقل بعضاً من مُكوِّنات الأرض من موقع إلى آخر .

وحين ينتقل ثقل من مكان على سطح الأرض إلى مكان آخر ؛ فالسائل الذي في باطن الأرض ينتقل من المنطقة التي زاد عليها الثقل إلى المنطقة التي خَفَّ من فوقها الثقل ليتحقق التوازن ، ولو لم يحدث ذلك لَتسَاقطتْ العمارات الشاهقة التي نراها أثناء دوران الأرض .

والمَثَلُ الذي يُوضِّح ذلك أنك لو وضعتَ قطعة من العجين على سطح بطيخة أو كرة ، وجعلت البطيخة أو الكرة في حالة دوران لَطردتْ الكرة أو البطيخة قطعة العجين من على سطحها .

وقد شرح العلماء في " علم الحركة " ذلك فقالوا : إن كل شيء مستدير يتحرك ؛ إنما تنشأ عن حركته عملية اسمها الطرد الذاتي ؛ لأن قطعة العجين أو أيّ شيء نضعه على شيء مستدير يتحرك تكون له كثافة وثقل على المنطقة التي يوجد فيها ، ويصل هذا الثقل إلى المركز ، ولكي تستمر الحركة الدائرية متوازنة لابد أن يطرد الشيء المستدير ما فوقه من ثُقْل زائد .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل نِصْفي الكرة الأرضية من أي موقع تتخيله ، متساوياً في

الوزن مع النصف الآخر ، ومهما أخذتَ من مواد ونقلتَها من موقع إلى آخر ، فالوزن يتعادل نتيجة لحركة السوائل التي في بطن الأرض .

وهذا يدلُّ على عظمة الخالق الذي خلق بتدبير دقيق ، ويكفي أن ننظر إلى عظمة الحق الذي لم يجعل الجبال رواسيَ ليمنع الأرض من أنْ تميدَ بنا ، بل جعل في الجبال والصحاري ما استنجدنا به حين ضاقت الأرض بنا ؛ فذهبنا إلى الجبال ؛ لنستخرج منها المواد الخام ؛ ونُصدِّرها ؛ ثم نشتري بثمنها القمح .

ونرى من حولنا الصحاري حيث كان المقيمون فيها يلهثون قديماً من العطش ، ولا يجدون شجرة يستظلون بها ؛ فيُفجِّر فيها الحق آبار البترول .

(222/407)

وهكذا نرى أن كل قطاع من الأرض فيه خير مُسَاوٍ لأي قطاع آخر من الأرض ، وجعل الله لكل أمر زمناً يمكن للبشر أن يستفيدوا من هذا الأمر في ذلك الزمن .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في الجبال : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت : 9-10]

أي : أنه سبحانه بارك في الجبال ، ، وهي جزء من الأرض ، وشاء أن يُقدِّر الأقواتَ في الجبال والأرض ؛ ويكفي أن نعلم أن المطر حين يتساقط من السماء على الجبال ؛ فيحمل المطر بعضاً من الطَّمْي من على أسطُح تلك الجبال ، فتتجدد خُصوبة الأرض .

ولو كانت الجبال هشة لذابت الجبال من عدد قليل من مرات سقوط المطر ، ولذابت القشرة الخصبة التي تغذي النبات حين نزرعه في الأرض .

ولكنه سبحانه شاء أنْ تمُرَّ الظروف الجوية باختلافها وتنوُّعها في تتابع يُوفِّر من الحرارة والرطوبة ما يجعل الأرض تتشقق ؛ فيصير سطح الجبال الصَّلْبة هَشّاً لينزل مع المطر ؛ ولِيُغذِّي الأرض بالخُصوبة من أجل أن يستمر استبقاء الحياة بإنتاج ما نحتاجه من نباتات مزروعة .

ونلحظ قوله سبحانه في نفس الآية : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً . . . ﴾ [الرعد : 3]

وهنا يجمع الحق بين الرواسي وهي الثوابت ، وبين الأنهار وهي التي تحمل الماء السائل ، وهذا جَمْعٌ بين الأضداد .

والنهر يُطلق على ما يحمل المياه العَذْبة ؛ أما البحر فهو المُكوَّن من الماء المالح ، وأنت إذا استعرضت أنهار الدنيا كلها ؛ ستجد أن مجاريها تصبُّ في البحار ، وهذا دليل على أن

منسوب النهر أعلى دائماً من منسوب البحر ، ولو كان الأمر بالعكس ؛ لَطَغى ماء البحر على مياه النهر ، ولَمَا استطعنا أن نشرب أو نزرع .

(223/407)

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الماء العذب هو الأعلى ؛ لأن له مهمة يُؤدِّيها قبل أن يصُبَّ في البحر . أقول ذلك حتى نعلم الحكمة في قول الحق سبحانه : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : 20]

ومن العجيب أن البرزخ الذي يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابياً ، يتدرج نزول مياه النهر في مياه البحر بما يُحقِّق سهولة في هذا الانتقال ، ومن العجيب أيضاً أنك إنْ حفرتَ عند شاطئ البحر قد تعثر على الماء العذب .

ولذلك حين نزور العريش نجد شاطئاً باسم شاطئ النخيل ؛ ونحن نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العَذْب ، وكأن الحق سبحانه قد جعل في هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العَذْب من هذا المكان الذي يوجد على البحر ؛ وقد تكون له جداول عذبة .

فسبحانه القائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض . . . ﴾ [الزمر : 21]

ونحن في الريف نجد من يحفر بئرًا ويكون ماؤه عَذْباً ؛ وآخر يحفر بئرًا ويكون ماؤه مالحاً .

وهذا دليل على أن الماء في بطن الأرض غير مختلط ، بل لكل ماء مسارب تختلف باختلاف نوعية المياه .

ويُرتِّب الحق سبحانه في نفس الآية مجيء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت الجبال كمصدر للغِرْيَن وخصوبة الأرض ، وعلى وجود الأنهار التي تحمل الماء اللازم للري ، وهكذا يكون مجيء الثمرات أمراً طبيعياً .

والثمرة كما نعلم هي الغاية من أي زرع .

وفي نفس الآية يواصل الحق ذكر عطائه ، فيقول سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين . . . ﴾ [الرعد : 3]

(224/407)

ويستعمل البعض كلمة " زوج " ويراد به شيئان كقولنا " زوج أحذية " مع أن التعبير الدقيق يقتضي أن نقول " زوجان من الأحذية " كتوصيف لفردة حذاء يُمْنى وفردة حذاء يسرى ؛ لأن كلمة " زوج " مرد ، وتستخدم في الشيء الذي له مِثْل ؛ ولذلك نجد العدد الفردي والعدد الزوجي ؛ والعدد الزوجي مُفْرد له مثيل ؛ وفي الإنسان هو الذكر والأنثى .

وسبحانه القائل : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : 49]

ويخطئ الناس أيضاً في فهم كلمة التوأم ، ويظنون أنها تعني الاثنين اللذين يولدان معاً ، ولكن المعنى الدقيق للتوأم وهو الفرد الذي يُولَد مع آخر ، ويقال لاثنين معاً " التوأمان " .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين . . . ﴾ [الرعد : 3]

ولم يخلق الحق سبحانه أيَّ شيء إلا وشاء له أن يتكاثر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَق الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : 36]

وكُلُّ تكاثر إنما يحتاج إلى زوجين ، وكنا نعتقد قديماً أن التكاثر يحدث فقط في النبات ؛ مثلما نُلقِّح النخلة بالذَّكَر ، وفي الحيوان يخصب الفَحْل الأنثى ، ثم كشف لنا العلم بعد ذلك أن الكهرباء على سبيل المثال لا الحصر تتكون من سالب وموجب وغير ذلك كثير ، وكل ما قدمه العلم من كشوف يؤيد صِدْقه سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَق الأزواج كُلَّهَا . . . ﴾ [يس : 36]

ويتابع سبحانه في نفس الآية : ﴿ يُغْشِي الليل النهار . . . ﴾ [الرعد : 3]

أي : أن تأتي الظُّلْمة على النهار فتُغطيه ؛ وهو القائل في موقع آخر من القرآن : ﴿ فَمَحَوْنَآ آيَةَ الليل وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار مُبْصِرَةً . . . ﴾ [الإسراء : 12]

وذلك تحقيقاً لمشيئته التي قالها : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً . . . ﴾ [الفرقان : 62]

وإن سأل سائل : هل الليل هو الذي خُلِقَ أولاً أم النهار ؟

أقول : نحن نرى الآن الليل والنهار ، كُلٌّ منهما يُؤدّي مُهِمّته في نصفٍ ما في الكرة الأرضية ، وكل منهما يخلف الآخر ، ولابد أن الأمر كذلك من أول الخلق .

فإنْ كان سبحانه قد أوجد الأرض مبسوطة وفي مواجهتها الشمس ، لَكان النهار هو الأسبق في الخَلْق ، وإنْ كان قد خلق الشمس غير مواجهة للأرض ؛ يكون الليل هو الذي سبق النهار في الخَلْق .

ويوضح الحق سبحانه هذا الأمر قليلاً في سورة يس حين يقول : ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40]

وكان العرب قديماً يظنُّون أن الليل هو الذي سبق النهار في الخَلْق ؛ لأنهم كانوا يُؤرِّخون الشهور بالقمر ؛ فيدخل الشهر بليله لا بنهاره ، ونحن نعلم أن رمضان يأتينا بأول ليلة فيه .

وقد أوضح الحق سبحانه لهم على قَدْر معارفهم ، ثم ثبت لنا أن الليل والنهار قد وُجِدا

في وقت واحد بعد أن وضحتْ لنا أن صورة الأرض كروية ، وأنه سبحانه قد خلقها كذلك ، فما واجه الشمس كان نهاراً ؛ وما غابتْ عنه الشمس كان ليلاً ، ويخلف كل منهما الآخر .

وهكذا وضَّح لنا أنهما موجودان في آنٍ واحد .

ويُذيّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿ . . . إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : 3]

أي : أن على الإنسان مسئولية التفكُّر فيما يراه من حوله ليصل إلى لُبِّ الحقائق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَفِي الأرض قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ . . . ﴾

هذه الآية جاءت بشيء من التفصيل لقول الحق سبحانه في أواخر سورة يوسف : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105]

وتلك آية تنضم إلى قوله تعالى : ﴿ رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . ﴾ [الرعد : 2]

وتنضم إلى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات . . . ﴾ [الرعد : 2]

وتنضم إلى قوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين يُغْشِي اليل النهار . . . ﴾ [الرعد : 3]

وحين نتأمل قول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي الأرض قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ . . . ﴾ [الرعد : 4]

نجد أننا لا نستطيع أن نعرفها بأنها التي يعيش عليها أمثالنا ؛ تلك هي الأرض ، ولو أردنا تعريفها لأبهمناها ، فهي أوضح من أن تُعَرَّف .

وكلمة " قِطَع " تدلُّ أول ما تدل على " كل " ينقسم إلى أجزاء ، وهذا الكُلُّ هو جنس جامع للكلية ؛ وفيه خصوصية تمييز قطع عن قطع .

وأنت تسمع كلام العلماء عن وجود مناطق من الأرض تُسمَّى حزام القمح ، ومناطق أخرى تُسمَّى حزام الموز ؛ ومناطق حارة ؛ وأخرى باردة .

وقول الحق سبحانه : ﴿ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ . . . ﴾ [الرعد : 4]

هو قول يدل على الإعجاز ؛ فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلاًّ منها تناسب الطقس الذي توجد فيه ؛ فزراعة الذرة تحتاج مناخاً مُعيناً ؛ وكذلك زراعة الموز .

وهكذا تجد كل منطقة مناسبة لما تنتجه ، فالأرض ليست عجينة واحدة استطراقية ، لا بل هي تربة مناسبة للجو الذي توجد به .

ومن العجيب أن فيها الأسرار التي يحتاجها الإنسان ؛ هذا السيد الذي تخدمه كل الكائنات ، فليست الأرض سائلة في التماثل ؛ بل تختلف بما يناسب الظروف ، فهناك قطعة سبخة لا تنبت ؛ وأخرى خصبة تنبت .

بل وتختلف الخصوبة من موقع إلى آخر ؛ ومن قطعة إلى أخرى ؛ فثمرة الجوافة من شجرة معينة في منطقة معينة تختلف عن ثمرة الجوافة من شجرة في منطقة أخرى ؛ والقمح في منطقة معينة يختلف عن القمح في منطقة أخرى ؛ ويقال لك " إنه قمح فلان " .

(227/407)

ويحدث ذلك رغم أن الأرض تُسْقَى بماء واحد .

ويقول العلماء البعيدون عن منطق السماء : " إن السبب في الاختلاف هو عملية الاختيار والانتخاب " . وكأنهم لا يعرفون أن الاختيار يتطلب مُخْتاراً ، وأن يكون له عقل يُفكِّر به ليختار ، وكذلك الانتخاب فهل البُذَيْرات تملك عقلاً تُفكِّر به وتختار ؟ طبعاً لا .

ويقولون : إن النبات يتغذَّى بالخاصية الشعرية ، ونعلم أن الأنابيب الشعرية التي نراها في

المعامل تكون من الزجاج الرفيع ؛ وإذا وضعناها في حوض ماء ، فالماء يرتفع فيها على مستوى الإناء .

وإنْ صدَّقنا العلماء في ذلك ، فُكيف نصدّقهم في أن شجرة ما تأخذ ماءً من الشجرة الأخرى ؛ وتنتج كل منهما نفس الثمار ؛ لكن ثمار شجرة تختلف عن الأخرى في الطَّعْم ؟

ونقول : إن كل شجرة تأخذ من الأرض ما ينفعها ؛ ولذلك تختلف النباتات ، ويحدث كل ذلك بقدرة الذي قَدَّر فهدى .

وهكذا نرى الأرض قطعاً متجاورات ؛ منها ما يصلح لزراعة تختلف عن زراعة الأرض الأخرى .

وقد يقول بعض من الملاحدة : إن هذا الاختلاف بسبب الطبيعة والبيئة .

وهؤلاء يتجاهلون أن الطبيعة في مجموعها هي الشمس التي تعطي الضوء والحرارة والإشعاع ، والقمر أيضاً يعكس بعضاً مَنْ الضوء ، والنجوم تهدي من يسير في الفَلاَة ، وتيارات الهواء تتناوب ولها مسارات ومواعيد .

ورغم كل ذلك فهناك أرض خِصْبة تنتج ، وأرض سبخة لا تنتج ، وأرض حمراء ؛ وأخرى سوداء ، وثالثة رملية ، وكلها متجاورة .

لابد إذن من وجود فاعل مختار يأمر هذه أمراً مختلفاً عن تلك .

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ . . . ﴾ [الرعد : 4]

(228/407)

وجاء الحق سبحانه هنا بالمُرفّهاتِ أولاً ؛ فتحدث عن الفاكهة ؛ ثم تحدث عن الزرع الذي منه القُوت الأساسي ، ونحن في حياتنا نفعل ذلك ؛ فحين تدخل على مائدة أحد الكبار ؛ تجد الفاكهة مُعدّةَ على أطباق بجانب المائدة الرئيسية التي يُقدَّم عليها الطعام .

ويأتي الحق سبحانه بعد الأعناب والزَّرْع الذي منه القُوت الضروري بالنخيل ، وهو الذي ينتج غذاء ، وقد يكون التمر الذي ينتجه تَرَفاً يتناوله الإنسان بعد تناول الطعام الضروري .

وقول الحق سبحانه : ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ . . . ﴾ [الرعد : 4]

يتطلب مِنّا أن نعرف ما الصنوان ؟ ونجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " العم صنو أبيك " أي : أن الصِّنْو هو المِثْل .

وبهذا يكون معنى الصِّنْوان هو المِثْلان . ونرى ذلك واضحاً في النخيل ؛ فنرى أحياناً أصلاً واحداً تخرج منه نخلتان ؛ أو ثلاث نخلات ؛ وأحياناً يخرج من الأصل الواحد أربع أو

خمس نخلات .

ويُطلق لقب " الصنوان " على الأصل الواحد الذي يتفرع إلى نخلتين أو أكثر ؛ فكلمة " صنوان " تصلح للمثنى وللجمع ، ولكنها في حالة المثنى تعامل في الإعراب كالمثنى ؛ فيقال " أثمرتْ صنوان " و " رأيت صنوين " أما في حالة الجمع فيقال " رأيت صنواناً " و " مررْتُ بصنوان " . والمفرد طبعاً هو " صِنْو " .

ويقول سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأُكُلِ . . . ﴾ [الرعد : 4]

ومن العجيب أن كل شجرة تأخذ عَبْر جذورها كمية من الماء والغذاء اللازم لإنتاج ثمارٍ ذات شكل وطَعْم مختلف .

وهذا ما جعلنا نقول من قَبْل : إن افتراضات العلماء المتخصصين في علوم النبات عن أن النباتات تتغذَّى بخاصية الأنابيب الشعرية هو افتراض غير دقيق .

فلو كان الأمر كذلك لأخذت الأنابيب الشعرية الخاصية بنبات المواد التي أخذتها الأنابيب الشعرية الخاصة بنبات آخر .

والأمر ليس كذلك ، فكل نبات يأخذ من الأرض ما يخصه فقط ، ويترك ما عدا ذلك .

ذلك أن الثمار لكل نبات تختلف ولا تتشابه ؛ بل إن الشجرة الواحدة تختلف ثمارها من واحدة إلى أخرى .

مثال هذا : هو شجرة المانجو أو النخلة المثمرة ، ويمكنك أن تلاحظ نفسك ، وسترى أنك تنتقي من ثمار المانجو القادمة من شجرة واحدة ما يعجبك ، وترفض غيرها من الثمار ، وسترى أنك تنتقي من ثمار البلح القادم من نخلة واحدة ما يروقُ لك ؛ وترفض بعضاً من ثمار نفس النخلة .

وحين تذهب لشراء الفاكهة ؛ فأنت تشتري حسب موقفك في الادخار ؛ فإنْ كنتَ تحب الادخار فسوف تشتري الفاكهة التي من الدرجة الثانية ؛ وإذا كنت تحب أن تستمتع بالطيب من تلك الفاكهة فسوف تشتري من الفاكهة المتميزة .

وأتحدى أنْ يقف واحد أمام قفص للفاكهة ، وينتقي الثمار غير الجميلة الشكل والرَّوْنق ، بل يحاول كل إنسان أن يأخذ الجميل والطيب من تلك الفاكهة ، وحين يدفع ثمن ما اشترى سنجده يدفع النقود الورقية القديمة التي تُوجد في جيبه ، وسيحتفظ لنفسه بالنقود الجديدة .

وهذا الموقف يغلب على مواقف أي إنسان ، فهو مُقبل دائماً على رَفْض أخذ السيئ ؛ وخائف دائماً من التفريط في الحَسَن .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق . . . ﴾ [الإسراء : 100]

وأنت لا تجد في الثمار تشابهاً ، بل اختلافاً في الطَّعْم من نوع إلى نوع ؛ كذلك تجد اختلافاً في طريقة تناولها ؛ فلا أحد مِنَّا يأكل البلحة بكاملها ، بل نأكل ثمرة البلحة بعد أن نُخرِج منها النواة ؛ ونأكل ثمرة التين بأكملها ، ونخرج ما في قلب حبَّة المشمش من بذرة جامدة ، ثم نأكل المشمشة من بعد ذلك .

فكل ثمرة لها نظام خاص ؛ وليست مسألة ميكانيكية في عطاء الله لثمار متشابهة ؛ بل هناك اختلاف ، ويمتد هذا الاختلاف إلى أدقّ التفاصيل ؛ لدرجة أنك حين تتناول قِطْفاً من العنب تجد اختلافاً لبعض من حبَّات العنب عن غيرها .

ونحن لا نُفضّل بعضاً من الفاكهة على البعض الآخر في الأُكُل فقط ، بل نُفضِّل في الصنف الواحد بعضاً من ثماره عن البعض الآخر .

وحين تقرأ : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأُكُلِ . . . ﴾ [الرعد : 4]

فاعلم أنه لا يوجد شيء أو أمر مُفضّل على إطلاقه ، وأمر آخر مفضول على إطلاقه ، فما دُمْنَا نُفضِّل بعضه على البعض الآخر ؛ فهذا يعني أن كلاً منهما مُفضَّل في ناحية ، ومفضول عليه في ناحية أخرى .

والمثل الواضح أمامنا جميعاً أننا حين نجلس إلى مائدة عليها ديك رومي قد تجد يدك تتجه إلى طبق " المخلل " قبل أن تمتدّ يدك إلى الديك الرومي ؛ لأن " نفسك " قد طلبتْه أولاً ، فلا تَقُلْ : إن هناك شيئاً مفضولاً عليه طوال الوقت ، أو شيئاً مفضلاً كل الوقت .

وكذلك الناس ؛ إياك أن تظن أن هناك إنساناً فاضلاً على إطلاقه ؛ وآخر مفضولاً على إطلاقه ؛ بل هناك إنسان فاضل في ناحية ومفضول عليه في ناحية أخرى .

والمَثَل : هو صاحب السيارة الفارهة ؛ ثم ينفجر إطار سيارته ؛ فيتمنى أن يرزقه الله بمَنْ يمرُّ عليه ليقوم بتغيير إطار السيارة ؛ فيمرُّ عليه هذا الإنسان صاحب الملابس غير النظيفة بما عليها من شحوم ؛ فيكون هذا الإنسان أفضل منه في قدرته على فَكِّ الإطار المنفجر بالإطار السليم الاحتياطي .

وهكذا نشر الله الفضل على الناس ليحتاج بعضهم لبعض ؛ ولذلك أقول : حين تجد نفسك فاضلاً في ناحية إياك أنْ تقعَ في الغرور ؛ واسأل نفسك : ما الذي يَفْضُل عليك فيه غيرك ؟

وتذكر قول الحق سبحانه : ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ . . . ﴾ [الحجرات : 11]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يُوزِّع الفضل بين الناس ، ليحتاج كل منهم الآخر ، وليتكامل المجتمع . وكذلك وَزَّع سبحانه الفضل في الأطعمة والفواكه والثمار ، وانظر إلى نفسك لحظة أنْ تُقدَّم لك أصناف متعددة من الفاكهة ؛ فقد تأخذ ثمرة من الجميز قبل أن تأخذ ثمرة من التفاح ؛ فساعة طلبتْ نفسك ثمرة الجميز صارت في تقدير الموازين والتبادل هي الأفضل ، وكل إنسان يمكن أن يجد ذلك فيما يَخصُّه أو يُحبه .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ . . . وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8]

ولذلك نجد الإنسان وهو يُلوِّن ويتفنَّن في صناعة الطعام ، ويختلف إقبال الأفراد على الأطعمة المُنوَّعة ، وقد تجد اثنين يُقبلان على لحم الدجاج ؛ لكن أحدهما يُفضِّل لحم الصدر ؛ والآخر يُفَضِّل لحم " الورِك " ، وتجد ثالثاً يُفضِّل لحم الحمام ؛ وتجد رابعاً يفضل تناول السمك .

بل إنك تجد اختلافاً في طريقة تناول مَنْ يحبون السمك ؛ فمنهم مَنْ يحب أكل رأس السمكة ، ومنهم مَنْ يحب لحم السمكة نفسها ، ولا أحد يملك معرفة السبب في اختلاف الأمزجة في الانجذاب إلى الألوان المختلفة من الأطعمة .

وحين تتأمل تلك المسألة قد يأتي إلى خاطرك قول الحق سبحانه : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ . . . ﴾ [البقرة : 28]

والسؤال هنا من الله للتعجُّب ؛ والتعجُّب عادة يكون من شيء خَفِي سببه ، فهل يَخْفَى سبب على الله ليتعجب ؟

طبعاً لا ، فسبحانه مُنَزَّه عن ذلك ، وسبحانه يعلم سبب كفر الكافرين ؛ لكنه ينكر عليهم أسباب الكفر .

والمَثَلُ من حياتنا ولله المَثَلُ الأعلى فأنت تجد نفسك وأنت تنطق بكلمة "كيف تسُبّ أباك ؟ " لإنسان يوجه كلمات جارحة لوالده ؛ فتتعجب لتنكر ما فعله هذا الإنسان .

(232/407)

وكذلك القول : كيف تكفرون بالله ؟ لأن الكفر شيء لا يتأتى من عاقل . وكان لنا شيخ هو فضيلة العالم أحمد الطويل ؛ وكان يحدثنا عن شيخ له حين كان يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ . . . ﴾ [البقرة : 28]

كان يقول : إن الخطاب هنا عام لكل إنسان ؛ لأن الحق بعدها يأتي بالقضية العامة :

﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ . . . ﴾ [البقرة : 28]

وهذا القول للعموم . وكان شيخنا يحكي عن شيخه أنه حدَّثهم أن إنساناً كان مُسرِفاً على نفسه ؛ ثم انصبَّتْ عليه الهداية مرة واحدة ؛ ورآه كل مَنْ حوله وهو مُقْبِل على الله ؛ فسألوه عن سبب الهداية ، فقال :

كنت أجلس في بستان ، ثم راقَ لي عنقود من العنب ؛ فقطفتُ العنقود ، وأخذتُ أتأمل فيه ؛ فوجدت غِشاءً رقيقاً شفافاً وهو قشرة حبة العنب يشِفُّ عما تحته من لحم العنبة الممتلئ بالعصير .

وحين وضعتُ حبة العنب في فمي ؛ صارت ماء رطباً ، وأخذني العجب من احتفاظ حبة العنب ببرودتها ورطوبتها رغم حرارة جَوّ شهر بؤونة ؛ ثم وجدت بذرة الحبة ولها طَعْم المِسْك ؛ فلما غمرني السرور من طَعْم وجمال العنب سمعت هاتفاً يهتف بي : "كيف تكفر بالله وهو خالق العنب ؟ " فهتفت : آن يا رب أن أُومن بك .

وكل مِنَّا له أن ينظر إلى شيء يعجبه ؛ وسيجد الشيء كأنه يقول له : كيف تكفر بالله وهو خالقي ؟ وهكذا سنجد كل إنسان وهو مُخاطب بهذه العبارة ، لأنه ما من كائن إلا وله شيء يعجبه في الكون .

وهكذا نفهم معنى قول الحق سبحانه : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأُكُل . . . ﴾ [الرعد : 4]

ونجد أي شيء هو فاضل في وقت الحاجة إليه وطلبه؛ وكل شيء مَفْضُول عليه في وقت ما؛ وإنْ كان فاضلاً عند مَنْ يحتاجه. ونجد أن التفضيل هنا عند الأُكْل.

(233/407)

والأُكل هو ما يُؤكَل؛ لا الآن فقط إنما ما يؤكل الآن أو بعد ذلك وسبحانه القائل: ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ . . . ﴾ [البقرة: 265]

وسبحانه يقول أيضاً: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ . . . ﴾ [الرعد: 35]

وكذلك قال: ﴿ تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا . . . ﴾ [إبراهيم: 25]

وهكذا نجد أن الأُكل مقصود به ما يُؤكل الآن، وما بعد الأكل أيضاً.

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿ . . . إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: 4]

وبعض الناس يظنون أن العقل يعني أنْ يمرحَ الإنسان في الأشياء، وأنه يعطي الإنسان الحرية المطلقة، ومثل هذا الظن خاطئ؛ لأن العقل جاء لِيُبصِّر الإنسانَ بعواقب كُلِّ فعل ونتائجه، فيقول للإنسان: "إياك أنْ يستهويك الأمر الفلاني لأن عاقبته وخيمة". ومن مادة العين

والقاف واللام عقل . ويقال : عقلْتُ البعير .

ومن مهام العقل أنْ يُفرِز الأشياء ، وأنْ يفكر فيها ليستخرج المطلوب ، وأنْ يتدبر كل أمر ، فعمليات العقل هي الاستقبال الإدراكي والبحث فيه لاستخلاص الحقائق والنتائج ، وأن يتدبر الإنسان كل أمر كي يتجنب ما فيه من ضرر .

والمثل : هو ما توصَّل إليه بعضٌ من العلماء من اكتشاف لأدوية يستخدمونها لفترة ما ، ثم يعلنون عن الاستغناء عنها ؛ لأن آثارها الجانبية ضارة جداً ؛ وهذا يعني أنهم لم يتدبروا الأمر جيداً ؛ وخَطَوْا خطوات إلى ما ليس لهم به كامل العلم .

وقول الحق سبحانه : ﴿ . . . إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : 4]

(234/407)

نلحظ فيه توجيهاً بالتعاون بين العقول ، لتبحث في آيات رَبِّ العقول ؛ فلا يأخذ أحد قراراً بعقله فقط ؛ بل يسمع أيّ مِنّا لرأي عقل ثانٍ وعقل ثالث ورابع ؛ ليستطيع الإنسان تدبُّر ما يمكن أنْ يقع ؛ ولتتكاتف العقول في استنباط الحقائق النافعة التي لا يتأَّتى منها ضرر فيما بعد ؛ لأن من استبد برأيه هلك ، ومن شاور الرجال شاركهم في عقولهم . انتهى ا .

هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(235/407)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الرعد : 3) ، ثم قال تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد : 4) ، للسائل أن يسأل عن وقله في الأولى : (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وفي الثانية : (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) وهل كان يصح ورود الأول مكان الثاني والثاني مكان الأول ؟

(236/407)

والجواب : أن معتبرات الآية الأولى من مد الأرض (وما ذكر) بعد ذلك أوضح للاعتبار ، ومعتبرات الثانية أغمض ، ألا ترى أن تجاوز قطع الأرض وتقاربها في الصفات والهيئات من

سهل وحزن ، ثم تخرج أنواع الجنات من النخل والأعناب وضروب الأشجار والنبات والزرع ، واختلاف الطعوم في ثمراتها والألوان والروائح ، وتفاوت الطيب والمنافع الحاصلة عن ذلك من غذاء ودواء نافع وضار مع تقارب الأرض وتجاورها وتشاكلها وسقيها بماء واحد كما قال الله تعالى : (يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ) ، وهذا مما تنقطع الأفكار وتقصر العقول عن عجيب الصنع الرباني فيه ، وأما معتبرات الأولى فيتوصل بالفكر إلى الحصول على الاعتبار بها وتعقلها وعجيب الحكمة فيها ، وغموض ما في الثانية بادولا يتوصل إلى بعض ذلك إلا بعد طول الاعتبار والتأييد منه سبحانه والتوفيق ، فلما كان العقل أشرف وأعلى ناسبه ان يتبع به ما هو أغمض وأخفى ، وناسب الفكر ما هو أظهر وأجلى ، فقيل في عقب الآية الأولى : (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وفي عقد الآية الثانية : (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ولو ورد العكس لم يكن ليناسب ، والله (سبحانه) أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ملاك التأويل صـ 278﴾

(237/407)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ المر ﴾ قال: أنا الله أرى.

وأخرج ابن جرير، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ قال: التوراة والإنجيل ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ قال: القرآن.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ أي هذا القرآن.

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن عكرمة – رضي الله عنه – قال: قلت لابن عباس – رضي الله عنهما – إن فلان يقول: إنها على عمد، يعني السماء. فقال: اقرأها ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ أي لا ترونها.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ قال : وما يدريك لعلها بعمد لا ترونها .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ يقول : لها عمد ، ولكن لا ترونها . يعني الأعماد .

وأخرج ابن جرير ، عن إياس بن معاوية - رضي الله عنه - في قوله ﴿ رفع السماوات بغير عمد ترونها ﴾ قال : السماء مقببة على الأرض مثل القبة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : السماء على أربعة أملاك ، كل زاوية موكل بها ملك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ قال : هي بعمد لا ترونها .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن الحسن وقتادة - رضي الله عنهما - أنهما كانا يقولان : خلقها بغير عمد . قال لها قومي فقامت .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن معاذ قال : في مصحف أبي [بغير عمد ترونه] .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ قال : أجل معلوم ، وحد لا يقصر دونه ولا يتعدى .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ يدبر الأمر ﴾ قال : يقضيه وحده .

وأخرج أبو الشيخ ، عن قتادة في قوله ﴿ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ قال : إن الله إنما أنزل كتابه وبعث رسله ، ليؤمن بوعده ويستيقن بلقائه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عمر بن عبد الله ، مولى غفرة . أن كعباً قال لعمر بن الخطاب : إن الله جعل مسيرة ما بين المشرق والمغرب ، خمسمائة سنة . فمائة سنة في المشرق ، لا يسكنها شيء من الحيوان ، لا جن ولا إنس ولا دابة ولا شجرة . ومائة سنة في المغرب بتلك المنزلة ، وثلثمائة فيما بين المشرق والمغرب يسكنها الحيوان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمر : والدنيا مسيرة خمسمائة عام ، أربعمائة عام خراب ومائة عمار ، في أيدي المسلمين من ذلك مسيرة سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية ، عن وهب بن منبه - رضي الله عنه - قال : ما العمارة في الدنيا في الخراب إلا كفسطاط في البحر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي الجلد - رضي الله عنه - قال : الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ ، فالسودان اثنا عشر ألفاً ، والروم ثمانية ، ولفارس ثلاثة ، وللعرب ألف .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن خالد بن مضرب - رضي الله عنه - قال : الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، ثلثمائة عمار ، ومائتان خراب .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن حسان بن عطية - رضي الله عنه - قال : سعة الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، البحار ثلثمائة ، ومائة خراب ، ومائة عمران .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : الأرض سبعة أجزاء : ستة أجزاء فيها يأجوج ومأجوج ، وجزء فيه سائر الخلق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة - رضي الله عنه - قال : ذكر لي أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ ، اثنا عشر ألفاً منه أرض الهند ، وثمانية الصين ، وثلاثة آلاف المغرب ، وألف العرب .

وأخرج ابن المنذر عن مغيث بن سمي - رضي الله عنه - قال : الأرض ثلاثة أثلاث ، ثلث فيه الناس والشجر ، وثلث فيه البحار ، وثلث هواء .

أما قوله تعالى : ﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ .

أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : إن الله تبارك وتعالى حين أراد

أن يخلق الخلق ، خلق الريح فنشجت الريح ، فأبدت عن حشفة ، فهي تحت الأرض .

ومنها دُحيت الأرض حيث ما شاء في العرض والطول ، فكانت تميد فجعل الجبال الرواسي .

وأخرج ابن جرير عن عليّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : لما خلق الله الأرض ، قمصت وقالت : أي رب ، تجعل عليّ بني آدم يعملون عليّ الخطايا ويجعلون عليّ الخبث ؟ فأرسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون ، فكان إقرارها كاللحم ترجرج .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم ، عن عطاء رضي الله عنه – قال : أول جبل وضع في الأرض ، أبو قبيس .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ قال : ذكراً وانثى من كل صنف .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ أي يلبس الليل النهار .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ

يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ قال : يريد الأرض الطيبة العذبة التي تخرج نباتها بإذن ربها ، تجاورها السبخة القبيحة المالحة التي لا تخرج ، وهما أرض واحدة وماؤهما شيء ملح وعذب . ففضلت احداهما على الأخرى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : ليس في الأرض ماء ، إلا ما نزل من السماء ، ولكن عروق في الأرض تغيره ، فمن أراد أن يعود الملح عذباً فليصعد الماء من الأرض .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ قال : السبخة والعذبة والمالح والطيب .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ قال : قرى متجاورات ، قريب بعضها من بعض .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن – رضي الله عنه – ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ قال : فارس والأهواز والكوفة والبصرة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ وفي الأرض قطع

متجاورات ﴾ قال : الأرض تنبت حلواً ، والأرض تنبت حامضاً . وهي متجاورات تسقى بماء واحد .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير – رضي الله عنه – ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ قال : الأرض الواحدة ، يكون فيها الخوخ والكمثرى والعنب الأبيض والأسود ، وبعضه أكبر حملاً من بعض ، وبعضه حلو وبعضه حامض ، وبعضه أفضل من بعض .

(241/407)

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن البراء بن عازب – رضي الله عنه – في قوله ﴿ صنوان وغير صنوان ﴾ قال : الصنوان ، ما كان أصله واحداً وهو متفرق وغير صنوان ، التي تنبت وحدها . وفي لفظ ﴿ صنوان ﴾ النخلة في النخلة ملتصقة ، وغير صنوان النخل المتفرق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما ﴿ صنوان ﴾ قال : مجتمع النخيل في أصل واحد ﴿ وغير صنوان ﴾ قال : النخل المتفرق .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد –

رضي الله عنه - في قوله ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ قال : طيبها عذبها . وخبيثها السباخ. وفي قوله ﴿ وجنات من أعناب ﴾ قال : جنات وما معها . وفي قوله ﴿ صنوان ﴾ قال : النخلتان وأكثر في أصل واحد ﴿ وغير صنوان ﴾ وحدها تسقى ﴿ بماء واحد ﴾ قال : ماء السماء ، كمثل صالح بني آدم وخبيثهم ، أبوهم واحد . وكذلك النخلة ، أصلها واحد وطعامها مختلف . وهو يشرب بماء واحد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - في قوله ﴿ صنوان وغير صنوان ﴾ قال : مجتمع وغير مجتمع ﴿ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ قال : العنب الأبيض والأسود والأحمر ، والتين الأبيض والأسود ، والنخل الأحمر والأصفر .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - ﴿ صنوان ﴾ قال : ثلاث نخلات في أصل واحد ، كمثل ثلاثة من بني أب وأم يتفاضلون في العمل ، كما يتفاضل ثمر هذه النخلات الثلاث في أصل واحد .

وأخرج ابن جرير عن الحسن – رضي الله عنه – في الآية قال : مثل ضربه الله عز وجل لقلوب بني آدم ، كما كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة ، فسطحها وبطحها ، فصارت الأرض قطعاً متجاورة ، فينزل عليها الماء من السماء ، فتخرج هذه زهرتها وثمرها وشجرها ، وتخرج نباتها وتحيي موتاها ، وتخرج هذه سبخها وملحها وخبثها ، وكلتاهما ﴿ يسقى بماء واحد ﴾ فلو كان الماء مالحاً ، قيل إنما استبخت هذه من قبل الماء ، كذلك الناس خلقوا من آدم ، فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع وتخضع ، وتقسو قلوب فتلهو وتسهو وتجفو ، قال الحسن – رضي الله عنه – والله ما جالس القرآن أحد ، إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان . قال الله تعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ [الإسراء : 82] .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير ، عن قتادة – رضي الله عنه – ﴿ صنوان ﴾ قال : الصنوان ، النخلة التي يكون فيها نخلتان وثلاث ، أصلهن واحد . قال : وحدثني رجل أنه كان بين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وبين العباس قول ، فأسرع إليه العباس فجاء عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فقال : يا نبي الله ، ألم تر عباساً ؟ فعل بي وفعل ، فأردت أن أجيبه فذكرت مكانك منه فكففت عنه . فقال : يرحمك الله ، إن عم الرجل صنو أبيه .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير . عن مجاهد – رضي الله عنه – أن النبي صلى الله عليه

وسلم قال : " لا تؤذوني في العباس ، فإنه بقية آبائي ، وإن عم الرجل صنو أبيه " .

وأخرج ابن جرير عن عطاء - رضي الله عنه - وابن أبي مليكة . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر : " يا عمر ، أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه ؟ " .

(243/407)

وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي وابن مردويه ، عن جابر - رضي الله عنه - سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " يا علي ، الناس من شجر شتى ، وأنا وأنت يا علي ، من شجرة واحدة " ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ﴾ .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قرأ ﴿ ونفضل بعضها على بعض ﴾ بالنون .

وأخرج الترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ قال : الدقل والفارسي والحلو والحامض .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ ونفضل

بعضها على بعض في الأكل ﴾ قال : هذا حامض وهذا حلو وهذا دقل وهذا فارسي .

وأخرج أبو الشيخ ، عن مجاهد ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ قال : هذا حلو وهذا مر وهذا حامض ، كذلك بنو آدم أبوهم واحد ، ومنهم المؤمن والكافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(244/407)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) ﴾

والرَّواسِي : الثوابت وهي الجبال ، وفواعِل الوصف لا يَطَّرِدُ إلاَّ في الإِناثِ ، إلاَّ أن المكسَّر مِمَّا لا يَعْقِل يُجري مَجْرى جمعِ الإِناث ، وأيضاً فقد كَثُر استعماله كالجوامِد فجُمِعَ كحائط وحوائط وكاهِل وكواهل . وقيل : هو جمعُ راسِيَة ، والهاء للمبالغة ، والرُّسُوُّ : الثبوت قال :

2842- بِه خالداتٌ ما يَرِمْنَ وهامِدٌ . . . وأَشْعَثُ أَرْسَتْهُ الوَلِيدةُ بالفِهْرِ

قوله: ﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ يجوز فيه ثلاثةُ أوجه، أحدها: أَنْ يتعلَّقَ ب "جَعَلَ" بعده، أي: وجعل فيها زوجين اثنين مِنْ كل، وهو ظاهر. والثاني: أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من "اثنين"؛ لأنه في الأصلِ صفةٌ له. والثالث: أن يَتِمَّ الكلامُ على قوله ﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ فيتعلَّقَ ب "جَعَلَ" الأولى على أنه من عطفِ المفردات، يعني عَطَفَ على معمول "جعل" الأولى، تقديرُه: أنه جَعَلَ في الأرض كذا وكذا ومن كل الثمرات. قال أبو البقاء: "ويكون جَعَلَ الثاني مستأنفاً".

و ﴿ يُغْشِي الليل ﴾ تقدَّم الكلامُ فيه وهو: إمَّا مستأنفٌ وإمَّا حالٌ مِنْ فاعلِ الافعالِ قبله.

قوله تعالى: ﴿ وَفِي الأرض قِطَعٌ ﴾:

العامَّة على رفع "قِطَعٌ" و "جنات": إمَّا على الابتداء، وإمَّا على الفاعلية بالجارِّ قبله. وقرئ ﴿ قِطَعاً مُّتَجَاوِرَاتٍ ﴾ بالنصب، وكذلك في بعض المصاحف، على إضمار "جَعَلَ".

وقرأ الحسن "وجناتٍ" بكسر التاء وفيها أوجهٌ، أحدُها: أنه جرٌ عطفاً على ﴿ كُلِّ الثمرات ﴾. الثاني: أنه نصبٌ نَسَقاً على ﴿ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ قاله الزمخشري. الثالث: نَصْبُه نسقاً على "رواسي". الرابع: نَصْبُه بإضمار "جَعَلَ" وهو أَوْلى لكثرةِ الفواصلِ في الأوجهِ قبله. قال أبو البقاء: "ولم يَقْرأ أحدٌ منهم "وزرعاً" بالنصب".

قوله: ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بالرفع في الأربعة، والباقون بالخفض. فالرفعُ في ﴿ زَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ للنسقِ على "قِطَعٌ" وفي "صِنْوان" لكونِه تابعاً ل "نخيل"، و "غيرُ" لعطفِهِ عليه.

وعاب الشيخُ على ابن عطية قولَه "عطفاً على "قطع" قال: "وليسَتْ عبارةً محررةً؛ لأنَّ فيها ما ليس بعطف وهو صِنْوان" قلت: ومثل هذا غيرُ مَعيبٍ لأنه عطفٌ محققٌ، غايةُ ما فيه أنَّ بعضَ ذلك تابعٌ، فلا يُقْدَحُ في هذه العبارة.

والخفضُ مراعاةُ ل "أعناب". وقال ابن عطية: "عطفاً على أعناب"، وعابَها الشيخ بما تقدَّم، وجوابُه ما تقدَّم.

وقد طعنَ قومٌ على هذه القراءة وقالوا: ليس الزرعُ من الجنات، رُوِيَ ذلك عن أبي عمرو. وقد أجيب عن ذلك: بأنَّ الجنةَ احتَوَتْ على النخيلِ والأعنابِ والزرعِ كقوله: ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ﴾ [الكهف: 32]. وقال أبو البقاء: "وقيل: المعنى: ونبات/ زرعٍ فَعَطَفَه على المعنى". قلت: ولا أدري

ما هذا الجوابُ؟ لأنَّ الذين يمنع أن تكون الجنةُ من الزرعِ يمنع أن تكونَ من نباتِ الزرع، وأيُّ فرق؟

(246/407)

والصِّنْوانُ: جَمْع صِنْوٍ كِقنْوان جمع قِنْو، وقد تقدم تحقيق هذه البنية في الأنعام. والصِّنْوُ: الفَرْعُ، يَجْمعه وفرعاً آخر أصلٌ واحدٌ، وأصله المِثْلُ، وفي الحديث: "عَمُّ الرجل صِنْوُ أبيه"، أي: مثله، أو لأنهما يجمعهما أصلٌ واحد.

والعامَّة على كسرِ الصاد. وقرأ السلمي وابن مصرِّف وزيدُ بن علي بضمِّها، وهي لغةُ قيسٍ وتميم، كذِئْب وذُؤْبان. وقرأ الحسنُ وقتادةُ بفتحها، وهو اسمُ جمعٍ لا جمعُ تكسيرٍ؛ لأنه ليس مِنْ أبنيته فَعْلان، ونظيرُ "صَنْوان" بالفتح "السَّعْدان". هذا جمعُه في الكثرةِ، وأمَّا في القِلَّة فيُجْمع على أَصْنَاءٍ كحِمْل وأَحْمال.

قوله: "يُسْقَى" قرأه بالياء مِنْ تحتُ ابنُ عامر وعاصمٌ، أي: يُسقى ما ذُكِرَ، والباقون بالتاء مِنْ فوقُ مراعاةً للفظِ ما تقدم، وللتأنيث في قولِه "بعضَها".

قوله: "ونُفَضِّل" قرأه بالياء مِنْ تحتُ مبنياً للفاعل الأخوان، والباقون بنونِ العظمة. ويحيى بن يعمر وأبو حيوة "يُفَضَّل" بالياء مبنياً للمفعول، "بعضُها" رفعاً. قال أبو حاتم:

" وَجَدْتُه كذلك في مصحف يحيى بن يعمر " وهو أول مَنْ نَقَّط المصاحفَ . وتقدَّم الخلاف في " الأُكُل " في البقرة .

و﴿ فِي الأُكُلِ ﴾ فيه وجهان ، أظهرُهما : أنه ظرفٌ للتفضيل . والثاني : أنه حال من " بعضها " ، أي : نُفضِّل بعضَها مأكولاً ، أي : وفيه الأُكُل ، قاله أبو البقاء ، وفيه بُعْدٌ مِنْ جهة المعنى والصناعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 11.15 ﴾

(247/407)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾

بَسَطَ الأرْضَ ودحاها ، الجبالَ أرساها ، وفَجّرَ عيونها ، وأجرى أنهارها ، وجَنَّسَ بحارها ، ونوّعَ من الحيوانات ما جعل البحرَ قرارها ، وأنبت أشجارها ، وصنَّفَ أزهارَها وثمارَها ، وكوَّر عليها ليلَها ونهارَها . . ذلك تقديرُ العزيز العليم .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ

يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾

فَمِنْ سبخٍ ومن حَجَرٍ ومن رمل . . أنواع مختلفة ، وأزواج متفقة . وزروع ونبات وأشجار أشتات ، وأصل الكل واحد ، فأجزاؤها متماثلة ، وأبعاضها متشاكلة ، ولكن جعل بعضها غدقاً ، وبعضاه قشراً ، وبعضها غُصْناً ، وبعضها جذعاً ، وبعضها أزهاراً ، وبعضها أوراقاً . . ثم الكلُّ واحد ، وإن كان لكلِّ واحدٍ طبعٌ مخصوص وشكلٌ مخصوص ، ولون مخصوص وقشر مخصوص مع أنها تُسْقَى بماءٍ واحدٍ ؛ إذ يصل إلى كل جزء من الشجر من الماء مقدارُ ما يحتاج إليه ، ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 216 . 217 ﴾

(248/407)

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ثبت قطعاً بما أقام من الدليل على عظيم قدرته بما أودعه من الغرائب في ملكوته التي لا يقدر عليها سواه أن هذا إنما هو فعل واحد قهار مختار يوجد المعدوم ويفاوت بين ما تقتضي الطبائع اتحاده ، كان إنكار شيء من قدرته عجباً ، فقال عطفاً على قوله :

﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ [هود : 17] مشيراً إلى أنهم يقولون : إن الوعد بالبعث سحر لا حقيقة له ﴿ إن تعجب ﴾ أي يوماً من الأيام أو ساعة من الدهر فاعجب من إنكارهم البعث ﴿ فعجب ﴾ عظيم لا تتناهى درجاته في العظم ﴿ قولهم ﴾ بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والدلالات الناطقة بعظيم القدرة على كل شيء منكرين : ﴿ إذا كنا تراباً ﴾ واختلط التراب الذي تحولنا إليه بالتراب الأصلي فصار لا يتميز ، ثم كرروا التعجب والإنكار بالاستفهام ثانياً فقالوا : ﴿ إنا لفي خلق جديد ﴾ هذا قولهم بعد أن فصلنا من الآيات ما يوجب أنهم بلقاء ربهم يوقنون ، وهذا الاستفهام الثاني مفسر لما نصب الأول بما فيه من معنى ﴿ أنبعث ﴾ ، والعجب : تغير النفس بما خفي سببه عن العادة ، والجديد : المهيا بالقطع إلى التكوين قبل التصريف في الأعمال ، وأصل الصفة القطع ؛ قال الرماني : وقد قيل : لا خير فيمن لا يتعجب من العجب ، وأرذل منه من يتعجب من غير عجب - انتهى ، يعني : فالكفار تعجبوا من غير عجب : ومن تعجبهم فقد تعجب من العجب .

ولما كان هذا إنكار المحسوس من القدرة ، استحقوا ما يستحق من يطعن في ملك الملك ، فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي الذين جمعوا أنواعاً من البعد مع كل خير ﴿ الذين كفروا بربهم ﴾ أي غطوا كل ما يجب إظهاره بسبب الاستهانة بالذي بدأ خلقهم ثم رباهم بأنواع اللطف ، فإذا أنكروا معادهم فقد أنكروا مبدأهم ﴿ وأولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ الأغلال ﴾ أي الحدائد التي تجمع أيدي الأسرى إلى أعناقهم ، ويقال لها : جوامع ، وتارة تكون في الأعناق فقط يعذب بها الناس ؛ ولما كان طرفا العنق غليظين ، فلا تكون إحاطة الجامعة منها إذا كانت ضيقة إلا بالوسط ، جعل الأعناق ظروفاً باعتبار أنها على بعض منها ، وذلك كناية عن ضيقها ، فقال : ﴿ في أعناقهم ﴾ أي بكفرهم وإن لم تكن الأغلال مشاهدة الآن ، فهي لقدرة المهدد بها على الفعل كأنها موجودة ، وهم منقادون لما قدر عليهم من أسبابها كما يقاد المغلول بها إلى ما يريد قائده ، والغل : طوق تقيد به اليد في العنق ، وأصله : انغل في الشيء - إذا انتشب فيه ، وغل المال - إذا خان بانتشابه في المال الحرام ﴿ وأولئك ﴾ أي الذين لا خسارة أعظم من خسارتهم ﴿ أصحاب النار ﴾ .

ولما كانت الصحبة تقتضي الملازمة ، صرح بها فقال : ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ فيها ﴾ أي متمحضة لا يخلطها نعيم ﴿ خالدون ﴾ أي ثابت خلودهم دائماً .

(250/407)

ولما تضمنت هذه الآية إثبات القدرة التامة مع ما سبق من أدلتها المحسوسة المشاهدة ، كان أيضاً من العجب العجيب والنبأ الغريب استهزاءهم بها ، فقال معجباً منهم : ﴿ ويستعجلونك ﴾ أي استهزاء وتكذيباً ؛ والاستعجال : طلب التعجيل ، وهو تقديم الشيء قبل وقته الذي يقدر له ﴿ بالسيئة ﴾ من العذاب المتوعد به من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة جرأة منهم تشير إلى أنهم لا يبالون بشيء منه ولا يوهن قولهم شيء ﴿ قبل الحسنة ﴾ من الخير الذي تبشرهم به ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ قد خلت ﴾ ولما كان المحدث عنه إنما كان في بعض الزمان ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبلهم المثلات ﴾ جمع مثله بفتح الميم وضم المثلثة كصدقة وصدقات ، سميت بذلك لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ، وهي العقوبات التي تزجر عن مثل ما وقعت لأجله من الأمم الذين اتصلت بهم أخبارهم ، وخاطبتهم بعظيم ما اتفق لهم آثارهم وديارهم ، وما يؤخرهم الله إلا لاستيفاء آجالهم التي ضربها لهم مع قدرته التامة عليهم .

ولما كانوا ربما قالوا : ما نرى إلا تهديداً لا يتحقق شيء منه : قال مؤكداً لإنكارهم واعتقادهم أن المسار والمضار إنما هي عادة الدهر ، عطفاً على ما تقديره : فإن ربك حليم لا يخاف الفوت فلا يستعجل في الأخذ : ﴿ وإن ربك ﴾ أي المحسن إليك بجعلك نبي الرحمة ﴿ لذو مغفرة ﴾ أي عظيمة ثابتة ﴿ للناس ﴾ حال كونهم ظالمين متمكنين في الظلم مستقلين ﴿ على ظلمهم ﴾ وهو إيقاعهم الأشياء في غير مواضعها ، فلا يؤاخذهم بجميع ما كسبوا ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ [النحل : 61] فلذلك يقيم الناس دهراً طويلاً يكفرون ولا يعاقبون حلماً منه سبحانه ، والآية مقيدة بآية النساء ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] وإن لم يكن توبة ، فإن التائب ليس على ظلمه .

(251/407)

ولما كان يمهل سبحانه ولا يهمل وذكر إمهاله ، ذكر أخذه مؤكداً لمثل ما مضى فقال : ﴿ وإن ربك ﴾ أي الموجد لك المدبر لأمرك بغاية الإحسان ﴿ لشديد العقاب ﴾ للكفار ولمن شاء من غيرهم ، فلذلك يأخذ أخذ عزيز مقتدر إذا جاء الأجل الذي قدره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 127.126 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل القاهرة على ما يحتاج إليه في معرفة المبدأ ، ذكر بعده مسألة المعاد فقال : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ وفيه أقوال :

القول الأول : قال ابن عباس – رضي الله عنهما : إن تعجب من تكذيبهم إياك بعد ما كانوا قد حكموا عليك أنك من الصادقين فهذا عجب .

والثاني : إن تعجب يا محمد من عبادتهم ما لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً بعد ما عرفوا الدلائل الدالة على التوحيد فهذا عجب .

والثالث : تقدير الكلام إن تعجب يا محمد فقد عجبت في موضع العجب لأنهم لما اعترفوا

بأنه تعالى مدبر السموات والأرض وخالق الخلائق أجمعين ، وأنه هو الذي رفع السموات بغير عمد ، وهو الذي سخر الشمس والقمر على وفق مصالح العباد ، وهو الذي أظهر في العالم أنواع العجائب والغرائب ، فمن كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة كيف لا تكون وافية بإعادة الإنسان بعد موته ، لأن القادر على الأقوى الأكمل فإن يكون قادراً على الأقل الأضعف أولى ، فهذا تقرير موضع التعجب .

ثم إنه تعالى لما حكى هذا الكلام حكم عليهم بثلاثة أشياء : أولها : قوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ وهذا يدل على أن كل من أنكر البعث والقيامة فهو كافر ، وإنما لزم من إنكار البعث الكفر بربهم من حيث إن إنكار البعث لا يتم إلا بإنكار القدرة والعلم والصدق أما إنكار القدرة فكما إذا قيل : إن إله العالم موجب بالذات لا فاعل بالاختيار فلا يقدر على الإعادة .

أو قيل : إنه وإن كان قادراً لكنه ليس تام القدرة ، فلا يمكنه إيجاد الحيوان إلا بواسطة الأبوين وتأثيرات الطبائع والأفلاك ، وأما إنكار العلم فكما إذا قيل : إنه تعالى غير عالم بالجزئيات ، فلا يمكنه تمييز هذا المطيع عن العاصي وأما إنكار الصدق فكما إذا قيل : إنه

وإن أخبر عنه لكنه لا يفعل لأن الكذب جائز عليه ولما كان كل هذه الأشياء كفراً ثبت أن إنكار البعث كفر بالله.

الصفة الثانية: قوله: ﴿ وَأُوْلَئِكَ الأغلال فِى أعناقهم ﴾ وفيه قولان: الأول: قال أبو بكر الأصم: المراد بالأغلال: كفرهم وذلتهم وانقيادهم للأصنام، ونظيره قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا ﴾ [يس: 8] قال الشاعر:

لهم عن الرشد أغلال وأقياد.. ويقال للرجل: هذا غل في عنقك للعمل الرديء معناه: أنه لازم لك وأنك مجازى عليه بالعذاب.

قال القاضي: هذا وإن كان محتملاً إلا أن حمل الكلام على الحقيقة أولى، وأقول: يمكن نصرة قول الأصم بأن ظاهر الآية يقتضي حصول الأغلال في أعناقهم في الحال وذلك غير حاصل وأنتم تحملون اللفظ على أنه سيحصل هذا المعنى ونحن نحمله على أنه حاصل في الحال إلا أن المراد بالأغلال ما ذكرناه، فكل واحد منا تارك للحقيقة من بعض الوجوه فلم كان قولكم أولى من قولنا.

والقول الثاني: المراد أنه تعالى يجعل الأغلال في أعناقهم يوم القيامة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ إِذِ الأغلال فِى أعناقهم والسلاسل يُسْحَبُونَ * فِى الحميم ثُمَّ فِى النار يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: 71، 72].

والصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ والمراد منه

التهديد بالعذاب المخلد المؤبد ، واحتج أصحابنا رحمهم الله تعالى على أن العذاب المخلد ليس إلا للكفار بهذه الآية فقالوا قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ يفيد أنهم هم الموصوفون بالخلود لا غيرهم ، وذلك يدل على أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار .

(254/407)

المسألة الثانية :

قال المتكلمون العجب هو الذي لا يعرف سببه وذلك في حق الله تعالى محال ، فكان المراد وإن تعجب فعجب عندك .

ولقائل أن يقول : قرأ بعضهم في الآية الأخرى بإضافة العجب إلى نفسه تعالى فحينئذ يجب تأويله وقد بينا أن أمثال هذه الألفاظ يجب تنزيهها عن مبادىء الأعراض ، ويجب حملها على نهايات الأعراض فإن الإنسان إذا تعجب من الشيء أنكره فكان هذا محمولاً على الإنكار .

المسألة الثالثة :

اختلف القراء في قوله : ﴿ أئذا كنا ترابا أئنا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وأمثاله إذا كان على صورة الاستفهام في الأول والثاني فمنهم من يجمع بين الاستفهامين في الحرفين وهم ابن كثير

وأبو عمرو وعاصم وحمزة ، ثم اختلف هؤلاء فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة إلا أنه لا يمد ، وأبو عمرو يستفهم بهمزة مطولة يمد فيها وحمزة وعاصم بهمزتين في كل القرآن ، ومنهم من لا يجمع بين الاستفهامين ، ثم اختلفوا فنافع وابن عامر والكسائي يستفهم في الأول ويقرأ على الخبر في الثاني وابن عامر على الخبر في الأول والاستفهام في الثاني ، ثم اختلف هؤلاء من وجه آخر فنافع بهمزة غير مطولة وابن عامر والكسائي بهمزتين أما نافع فكذلك إلا في الصافات وكذلك ابن عامر إلا في الواقعة ، وكذلك الكسائي إلا في العنكبوت والصافات .

المسألة الرابعة :

قال الزجاج : العامل في ﴿ أَءذَا كُنَّا تُرَاَبًا ﴾ محذوف تقديره : أئذا كنا ترابا نبعث ودل ما بعده على المحذوف .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴾

اعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يهددهم تارة بعذاب القيامة وتارة بعذاب الدنيا ، والقوم كلما هددهم بعذاب القيامة أنكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذي تقدم ذكره في الآية الأولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا له : فجئنا بهذا العذاب وطلبوا منه إظهاره

وإنزاله على سبيل الطعن فيه ، وإظهار أن الذي يقوله كلام لا أصل له فلهذا السبب حكى الله عنهم أنهم يستعجلون الرسول بالسيئة قبل الحسنة والمراد بالسيئة ههنا نزول العذاب عليهم كما قال الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ﴾ [الأنفال : 32] وفي قوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء : 90] إلى قوله : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء : 92] وإنما قالوا ذلك طعناً منهم فيما ذكره الرسول ، وكان صلى الله عليه وسلم يعدهم على الإيمان بالثواب في الآخرة وبحصول النصر والظفر في الدنيا فالقوم طلبوا منه نزول العذاب ولم يطلبوا منه حصول النصر والظفر فهذا هو المراد بقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ ومنهم من فسر الحسنة ههنا بالإمهال والتأخير وإنما سموا العذاب سيئة لأنه يسوءهم ويؤذيهم .

أما قوله : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ فاعلم أن العرب يقولون : العقوبة مثلة ومثلة صدقة وصدقة ، فالأولى لغة الحجاز ، والثانية لغة تميم ، فمن قال مثلة فجمعه مثلات ، ومن قال مثلة فجمعه مثلات ومثلاث بإسكان التاء هكذا حكاه الفراء والزجاج ، وقال ابن الأنباري رحمه الله : المثلة العقوبة المبينة في المعاقب شيئاً ، وهو تغيير تبقى الصورة معه قبيحة ، وهو من قولهم ، مثل فلان بفلان إذا قبح صورته إما بقطع أذنه أو أنفه أو سمل عينيه أو بقر بطنه فهذا هو الأصل ، ثم يقال للعار الباقي ، والخزي اللازم مثلة .

قال الواحدي : وأصل هذا الحرف من المثل الذي هو الشبه ، ولما كان الأصل أن يكون العقاب مشابهاً للمعاقب ومماثلاً له لا جرم سمي بهذا الاسم .

قال صاحب "الكشاف" : قرىء (المثلات) بضمتين لاتباع الفاء العين ، (والمثلات) بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال : السمرة ، والمثلات ، بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات بضمتين ، والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات .

إذا عرفت هذا فنقول معنى الآية : ويستعجلونك بالعذاب الذي لم نعاجلهم به ، وقد علموا ما نزل من عقوباتنا بالأمم الخالية فلم يعتبروا بها ، وكان ينبغي أن يردعهم خوف ذلك عن الكفر اعتباراً بحال من سلف .

أما قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ فاعلم أن أصحابنا تمسكوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يعفو عن صاحب الكبيرة قبل التوبة ، ووجه الاستدلال به أن قوله تعالى : ﴿ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ أي حال اشتغالهم بالظلم كما أنه يقال : رأيت الأمير على أكله أي حال اشتغاله بالأكل فهذا يقتضي كونه تعالى غافراً للناس حال اشتغالهم بالظلم ، ومعلوم أن حال اشتغال الإنسان بالظلم لا يكون تائباً فدل هذا على أنه تعالى قد يغفر الذنب قبل الاشتغال بالتوبة .

ثم نقول : ترك العمل بهذا الدليل في حق الكفر ، فوجب أن يبقى معمولاً به في حق أهل

الكبيرة وهو المطلوب ، أو نقول : إنه تعالى لم يقتصر على قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ بل ذكر معه قوله ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ فوجب أن يحمل الأول على أصحاب الكبائر ، وأن يحمل الثاني على أحوال الكفار .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد : لذو مغفرة لأهل الصغائر لأجل أن عقوبتهم مكفرة ثم نقول : لم لا يجوز أن يكون المراد : إن ربك لذو مغفرة إذا تابوا وأنه تعالى إنما لا يعجل العقاب إمهالاً لهم في الإتيان بالتوبة ، فإن تابوا فهو ذو مغفرة لهم ويكون من هذه المغفرة تأخير العقاب إلى الآخرة بل نقول : يجب حمل اللفظ عليه لأن القوم لما طلبوا تعجيل العقاب ، فالجواب المذكور فيه يجب أن يكون محمولاً على تأخير العقاب حتى ينطبق الجواب على السؤال ثم نقول : لم لا يجوز أن يكون المراد : وإن ربك لذو مغفرة أنه تعالى إنما لا يعجل العقوبة إمهالاً لهم في الإتيان بالتوبة ، فإن تابوا فهو ذو مغفرة ، وإن عظم ظلمهم ولم يتوبوا فهو شديد العقاب .

والجواب عن الأول أن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة ، وإلا لوجب أن يقال : الكفار كلهم مغفور لهم لأجل أن الله تعالى أخر عقابهم إلى الآخرة ، وعن الثاني : أنه تعالى تمدح بهذا

والتمدح إنما يحصل بالتفضل .

أما بأداء الواجب فلا تمدح فيه وعندكم يجب غفران الصغائر وعن الثالث : أنا بينا أن ظاهر الآية يقتضي حصول المغفرة حال الظلم ، وبينا أن حال حصول الظلم يمنع حصول التوبة ، فسقطت هذه الأسئلة وصح ما ذكرناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 8 . 11 ﴾

(258/407)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وإن تعجب فعجَبٌ قولهم ﴾ الآية .

معناه وإن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك فأعجبُ منه تكذيبهم بالبعث . والله تعالى لا يتعجب ولا يجوز عليه التعجب ، لأنه تغير النفس بما تخفى أسبابه ، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون .

قوله عز وجل : ﴿ ويستعجلونكَ بالسيئة قَبْل الحسنة ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني بالعقوبة قبل العافية ، قاله قتادة .

الثاني : بالشر قبل الخير ، وهو قول رواه سعيد بن بشير .

الثالث : بالكفر قبل الإجابة . رواه القاسم بن يحيى .

ويحتمل رابعاً : بالقتال قبل الاسترشاد .

﴿ وقد خلت من قبلهم المثلاتُ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : الأمثال التي ضربها الله تعالى لهم ، قاله مجاهد .

الثاني : أنها العقوبات التي مثل الله تعالى بها الأمم الماضية ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنها العقوبات المستأصلة التي لا تبقى معها باقية كعقوبات عاد وثمود حكاه ابن الأنباري والمثلات : جمع مثُلة .

﴿ وإن ربك لذو مغفرةٍ للناس على ظُلمِهم ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يغفر لهم ظلمهم السالف بتوبتهم في الآنف ، قاله القاسم بن يحيى .

الثاني : يغفر لهم بعفوه عن تعجيل العذاب مع ظلمهم بتعجيل المعصية .

الثالث : يغفر لهم بالإنظار توقعاً للتوبة .

﴿ وإنّ ربّك لشديد العقاب ﴾ فروى سعيد ابن المسيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عند نزول هذه الآية : " " لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

هذه آية توبيخ للكفرة أي " وإن تعجب " يا محمد من جهالتهم وإعراضهم عن الحق – فهم أهل لذلك ، وعجب وغريب ومزر بهم " قولهم " : أنعود بعد كوننا " ترابا " – خلقاً جديداً – ويحتمل اللفظ منزعاً آخر أي وإن كنت تريد عجباً فلهم ، فإن من أعجب العجب " قولهم " .

واختلف القراء في قراءة قوله : ﴿ أئذا كنا تراباً ﴾ فقرأ ابن كثير وأبو عمرو : " أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد " جميعاً بالاستفهام ، غير أن أبا عمرو يمد الهمزة ثم يأتي بالياء ساكنة ، وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مد . وقرأ نافع " أئذا كنا " مثل أبي عمرو ، واختلف عنه في المد ، وقرأ " إنا لفي خلق جديد " مكسورة على الخبر ، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأول عن الثاني ، غير أنه كان يهمز همزتين ، وقرأ عاصم وحمزة " أئذا كنا تراباً أئنا " بهمزتين فيهما . وقرأ ابن عامر " إذا كنا " مكسورة الألف من غير استفهام " ءائنا " يهمز ثم يمد ثم يهمز ، فمن قرأ بالاستفهامين فذلك للتأكيد والتحفي والاهتبال بهذا التقدير ، ومن استفهم في الأول فقط فإنما القصد بالاستفهام الموضع الثاني ، و " إذا ظرف له ، و " إذا " في موضع نصب بفعل مضمر ، تقديره : انبعث أو نحشر إذا .

ومن استفهم في الثاني فقط فهو بين ، - ولا حول ولا قوة إلا بالله - .

والإشارة ب ﴿ أولئك ﴾ إلى القوم القائلين : ﴿ أئذا كنا تراباً ﴾ وتلك المقالة إنما هي تقرير مصمم على الجحد والإنكار للبعث ، فلذلك حكم عليهم بالكفر .

وقوله : ﴿ وأولئك الأغلال ﴾ يحتمل معنيين :

أحدهما : الحقيقة وأنه أخبر عن كون ﴿ الأغلال في أعناقهم ﴾ في الآخرة فهي كقوله تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ [غافر : 71] .

(260/407)

ويحتمل أن يكون مجازاً وأنه أخبر عن كونهم مغللين عن الإيمان ، فهي إذن تجري مجرى الطبع والختم على القلوب ، وهي كقوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان ، فهم مقمحون ﴾ [يس : 8] وباقي الآية بين .

وقال بعض الناس ﴿ الأغلال ﴾ -هنا - عبارة عن الأعمال ، أي أعمالهم الفاسدة في أعناقهم كالأغلال .

قال القاضي أبو محمد : وتحرير هذا هو في التأويل الثاني الذي ذكرناه .

وقوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة . . . ﴾ الآية ،

هذه آية تبين تخطيئهم في أن يتمنوا المصائب، ويطلبوا سقوط كسف من السماء أو حجارة تمطر عليهم ونحو هذا مع خلو ذلك في الأمم ونزوله بأناس كثير؛ ولو كان ذلك لم ينزل قط لكانوا أعذر، و﴿ المثلات ﴾ جمع مثلة، كسمرة وسمرات، وصدقة وصدقات.

وقرأ الجمهور "المَثُلات" بفتح الميم وضم الثاء، وقرأ مجاهد "المَثَلات" بفتح الميم والثاء، وذلك جمع مثلة، أي الأخذة الفذة بالعقوبة، وقرأ عيسى بن عمر "المُثُلات" بضم الميم والثاء، ورويت عن أبي عمرو؛ وقرأ يحيى بن وثاب بضم الميم وسكون الثاء، وهاتان جمع مثلة، وقرأ طلحة بن مصرف "المَثْلات" بفتح الميم وسكون الثاء.

ثم رجّى عز وجل بقوله: ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ قال الطبري: معناه في الآخرة، وقال قوم: المعنى: إذا تابوا، و"شديد العقاب" إذا كفروا.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر من معنى "المغفرة" هنا إنما هو ستره في الدنيا وإمهاله للكفرة، ألا ترى التيسير في لفظ ﴿ مغفرة ﴾، وأنها منكرة مقللة، وليس فيها مبالغة كما في قوله: ﴿ وإني لغفار لمن تاب ﴾ [طه: 82] ونمط الآية يعطي هذا، ألا ترى حكمه عليهم بالنار، ثم قال: ﴿ ويستعجلونك ﴾ فلما ظهر سوء فعلهم وجب في نفس السامع تعذيبهم، فأخبر بسيرته في الأمم وأنه يمهل مع ظلم الكفر، ولم يرد في الشرع أن الله تعالى يغفر ظلم العباد.

ثم خوف بقوله : ﴿ وإن ربك لشديد العقاب ﴾ قال ابن المسيب : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا عفو الله ومغفرته لما تمنى أحد عيشاً ، ولولا عقابه لاتكل كل أحد " وقال ابن عباس : ليس في القرآن أرجى من هذه الآية .

و ﴿ المثلات ﴾ هي العقوبات المنكلات التي تجعل الإنسان مثلاً يتمثل به ، ومنه التمثيل بالقتلى ، ومنه المثلة بالعبيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(262/407)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِن تعجب ﴾

أي : من تكذيبهم وعبادتهم ما لا ينفع ولا يضر بعد ما رأوا من تأثير قُدرة الله عز وجل في خلق الأشياء ، فإنكارهم البعث موضعُ عجب .

وقيل : المعنى : وإِن تعجب بما وقفت عليه من القِطَع المتجاورات وقدرةِ ربك في ذلك ، فعجب جحدهم البعث ، لأنه قد بان لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل من القدرة .

قوله تعالى : ﴿ أإذا كنا تراباً ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو "آيذا كنا ترابا آينّا" جميعاً بالاستفهام ، غير أن أبا عمرو يمدُّ الهمزة ثم يأتي بالياء ساكنة ، وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مدٍّ .

وقرأ نافع "آيذا" مثل أبي عمرو ، واختُلف عنه في المَدِّ ، وقرأ "إنا لفي خلق" مكسورة على الخبر .

وقرأ عاصم ، وحمزة "أإذا كُنَّا" "أإنا" بهمزتين فيهما .

وقرأ ابن عامر "إِذا كُنَّا تراباً" مكسورة الألِف من غير استفهام ، "أإنا" يهمز ثم يَمُدُّ ثم يهمز على وزن : عاعِنَّا .

وروي عن ابن عامر أيضاً "أإذا" بهمزتين لا ألِف بينهما .

والأغلال جمع غُلٍّ ، وفيها قولان .

أحدهما : أنها أغلال يوم القيامة ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنها الأعمال التي هي أغلال ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها نزلت في كفار مكة ، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب ، استهزاءً منهم بذلك ، قاله ابن عباس .

والثاني : في مشركي العرب ، قاله قتادة .

والثالث : في النضر بن الحارث حين قال : اللهم إِن كان هذا هو الحقَّ من عندك ، قاله مقاتل .

وفي السيئة والحسنة قولان :

أحدهما : بالعذاب قبل العافية ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : بالشرّ قبل الخير ، قاله قتادة .

فأما ﴿ المَثُلات ﴾ فقرأ الجمهور بفتح الميم .

(263/407)

وقرأ عثمان ، وأبو رزين ، وأبو مجلز ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والحسن ، وابن أبي عبلة برفع الميم .

ثم في معناها قولان :

أحدهما : أنها العقوبات ، قاله ابن عباس .

وقال الزجاج : المعنى : قد تقدَّم من العذاب ما هو مثله وما فيه نكال ، لو أنهم اتعظوا .

وقال ابن الأنباري : المُثُلَة : العقوبة التي تُبقي في المعاقَب شَيْناً بتغيير بعض خَلْقِه ، من قولهم

: مثَّل فلان بفلان ، إذا شان خلْقَه بقَطْعِ أنفه أو أُذُنِه ، أو سمل عينيه ونحو ذلك .

والثاني : أن المثلاتِ : الأمثالُ التي ضربها الله عز وجل لهم ، قاله مجاهد ، وأبو عبيدة .

قوله تعالى : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ قال ابن عباس : لذو تجاوزٍ عن المشركين إذا آمنوا ، وإنه لشديد العقاب للمصرِّين على الشرك .

وقال مقاتل : لذو تجاوز عن شركهم في تأخير العذاب ، وإنه لشديد العقاب إذا عذَّب .

فصل

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ﴾ [النساء : 48] ، والمحققون على أنها محكَمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(264/407)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾

أي إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ؛ والله تعالى لا يتعجَّب ، ولا يجوز عليه التعجّب ؛ لأنه تغَيُّر النفس بما

تخفى أسبابه، وإنما ذَكَر ذلك ليتعجّب منه نَبيُّه والمؤمنون.

وقيل المعنى: أي إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأني خالق السموات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة في معنى الابتداء.

وقيل: الآية في منكري الصانع؛ أي إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغيّر فهو محل التعجّب؛ ونظم الآية يدلّ على الأوّل والثاني؛ لقوله: ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ أي أنبعث إذا كنا ترابا ؟!.

﴿ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقرئ "إِنَّا".

وَ﴿ الأغلال ﴾ جمع غلّ؛ وهو طَوْق تشد به اليد إلى العُنُق، أي يُغلّون يوم القيامة؛ بدليل قوله: ﴿ إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ ﴾ [غافر: 71] إلى قوله: ﴿ ثُمَّ فِي النار يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: 40].

وقيل: الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾

أي لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب؛ قيل هو قولهم: ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء ﴾ [الأنفال: 32].

قال قتادة: طلبوا العقوبة قبل العافية؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى

يوم القيامة .

وقيل : "قَبْلَ الْحَسَنَةِ" أي قبل الإيمان الذي يرجى به الأمان والحسنات .

و﴿ المثلات ﴾ العقوبات ؛ الواحدة مَثُلَة .

ورُوِي عن الأعمش أنه قرأ "المُثْلاَت" بضم الميم وإسكان الثاء ؛ وهذا جمع مُثْلَة ، ويجوز "المَثْلاَت" تبدل من الضمة فتحة لثقلها ، وقيل : يُؤْتى بالفتحة عِوَضاً من الهاء .

وروي عن الأعمش أنه قرأ "المثلات" بفتح الميم وإسكان الثاء ؛ فهذا جمع مُثْلة ، ثم حَذف الضمة لثقلها ؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله .

وعلى قراءة الجماعة واحدة مَثُلة ، نحو صَدُقة (وصُدْقة) ؛ وتميم تضم الثاء والميم جميعاً ، واحدها على لغتهم مُثْلة ، بضم الميم وجزم الثاء ؛ مثل : غُرْفة وغُرُفات ؛ والفعل منه مَثَلْتُ به أَمْثُلُ مَثْلا ، بفتح الميم وسكون الثاء .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أي لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا ، وعن المذنبين إذا تابوا .

وقال ابن عباس : أرجى آية في كتاب الله تعالى ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ إذا أصروا على الكفر .

وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت : "وإن ربك لذو مغفرةٍ للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هَنَأَ أحداً عيشٌ ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتَّكل كل أحد " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾

العجب تبعيد النفس رؤية المستبعد في العادة ، وقيل : العجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب ولهذا قال بعض الحكماء : العجب ما لا يعرف سببه ولهذا قيل : العجب في حق الله محال لأنه تعالى علاّم الغيوب لا تخفى عليه خافية ، والخطاب في الآية للنبي (صلى الله عليه وسلم) ومعناه وإنك يا محمد إن تعجب من تكذيبهم إياك بعد أن كنت عندهم تعرف بالصادق الأمين فعجب أمرهم ، وقيل : معناه وإن تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع إقرارهم بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض ، وهو يضر وينفع وقد رأوا من قدرة الله وما ضرب لهم به الأمثال ما رأوا فعجب قولهم .

وقيل وإنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة والبعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله فعجب قولهم وذلك أن المشركين كانوا ينكرون البعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله وقد تقرر في النفوس أن الإعادة أهون من الابتداء فهذا موضع التعجب وهو قولهم ﴿ أئذا كنا تراباً ﴾ يعني بعد الموت ﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾ يعني نعاد خلقاً جديداً بعد الموت كما كنا قبله ثم إن الله تعالى قال في حقهم ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم ﴾ وفيه دليل على أن كل من أنكر البعث بعد الموت فهو كافر بالله تعالى ، لأن من أنكر البعث بعد الموت فقد أنكر القدرة وأن الله على كل شيء قدير ، ومن أنكر ذلك فهو كافر ﴿ وأولئك الأغلال في أعناقهم ﴾ يعني يوم القيامة ، والأغلال جمع غل وهو طوق من حديد يُجعل في العنق .

وقيل أراد بالأغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الأسير ذليلاً بالغل ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ يعني أنهم مقيمون فيها ولا يخرجون منها ولا يموتون .

﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾ الاستعجال طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته ، والمراد بالسيئة هنا هي العقوبة وبالحسنة العافية ، وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون

العقوبة بدلاً من العافية استهزاء منهم ، وهو قولهم ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ يعني وقد مضت في الأمم المكذبة العقوبات بسبب تكذيبهم رسلهم ، والمثلة بفتح الميم وضم الثاء المثلثة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثلاً ليرتدع غيره به ، وذلك كالنكال وجمعه مثلات بفتح الميم وضمها مع ضم الثاء فيهما لغتان ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ قال ابن عباس : معناه إنه لذو تجاوزٍ عن المشركين إذا آمنوا ﴿ وإن ربك لشديد العقاب ﴾ يعني للمصرين على الشرك الذي ماتوا عليه .

وقال مجاهد : إنه لذو تجاوز عن شركهم في تأخير العذاب عنهم ، وإنه لشديد العقاب إذا عاقب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(268/407)

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

ولما أقام الدلائل على عظيم قدرته بما أودعه من الغرائب في ملكوته التي لا يقدر عليها سواه ، عجب الرسول عليه الصلاة والسلام من إنكار المشركين وحدانيته ، وتوهينهم قدرته

لضعف عقولهم فنزل .

وإن تعجب قال ابن عباس : وإن تعجبْ من تكذيبهم إياك بعد ما كانوا حكموا عليك أنك من الصادقين ، فهذا أعجب .

وقيل : وإن تعجب يا محمد من عبادتهم ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً بعد ما عرفوا الدلائل الدالة على التوحيد ، فهذا أعجب .

قال الزمخشري : وإن تعجب من قولهم يا محمد في إنكار البعث ، فقولهم عجيب حقيق بأنْ يتعجب منه ، لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ، ولم يعي بخلقهن ، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره ، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب انتهى .

وليس مدلول اللفظ ما ذكر ، لأنه جعل متعلق عجبه (صلى الله عليه وسلم) هو قولهم في إنكار البعث ، فاتحد الجزاء والشرط ، إذ صار التقدير : وإن تعجب من قولهم في إنكار البعث فاعجب من قولهم في إنكار البعث ، وإنما مدلول اللفظ أن يقع منك عجب ، فليكن من قولهم : أءذا كنا الآية .

وكان المعنى الذي ينبغي أن يتعجب منه : هو إنكار البعث ، لأنه تعالى هو المخترع للأشياء .

ومن كان قادراً على إبرازها من العدم الصرف كان قادراً على الإعادة ، كما قال تعالى :

﴿ وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده ﴾ وهو أهون عليه أي : هين عليه .

وقال ابن عطية : هذه الآية توبيخ للكفرة ، أي : إن تعجب يا محمد من جهالتهم وإعراضهم عن الحق ، فهم أهل لذلك ، وعجيب وغريب أن تنكر قلوبهم العود بعد كوننا خلقاً جديداً .

ويحتمل اللفظ منزعاً آخر : إن كنت تريد عجباً فهلم ، فإنّ من أعجب العجب قولهم انتهى .

(269/407)

واختلف القراء في الاستفهامين إذا اجتمعا في أحد عشر موضعاً ، هنا موضع ، وكذا في المؤمنين ، وفي العنكبوت ، وفي النمل ، وفي السجدة ، وفي الواقعة ، وفي والنازعات ، وفي بني إسرائيل موضعان ، وكذا في والصافات .

وقرأ نافع والكسائي بجعل الأول استفهاماً ، والثاني خبراً ، إلا في العنكبوت والنمل بعكس نافع .

وجمع الكسائي بين الاستفهامين في العنكبوت ، وأما في النمل فعلى أصله إلا أنه زاد نوناً فقرأ : ﴿ إننا لمخرجون ﴾ وقرأ ابن عامر بجعل الأول خبراً ، والثاني استفهاماً ، إلا في النمل والنازعات فعكس ، وزاد في النمل نوناً كالكسائي .

وإلا في الواقعة فقرأهما باستفهامين ، وهي قراءة باقي السبعة في هذا الباب ، إلا ابن كثير وحفصاً قرأ في العنكبوت بالخبر في الأول وبالاستفهام في الثاني ، وهم على أصولهم في اجتماع الهمزتين من تخفيف وتحقيق وفصل بين الهمزتين وتركه .

وقولهم : فعجب ، هو خبر مقدم ولا بد فيه من تقدير صفة ، لأنه لا يتمكن المعنى بمطلق فلا بد من قيده وتقديره والله أعلم : فعجب أي عجب ، أو فعجب غريب .

وإذا قدرناه موصوفاً جاز أن يعرب مبتدأ لأنه نكرة فيها مسوغ الابتداء وهو الوصف ، وقد وقعت موقع الابتداء ، ولا يضر كون الخبر معرفة ذلك .

كما أجاز سيبويه ذلك في كم مالك ؟ لمسوغ الابتداء فيه وهو الاستفهام ، وفي نحو : اقصد رجلاً خير منه أبوه ، لمسوغ الابتداء أيضاً ، وهو كونه عاملاً فيما بعده .

وقال أبو البقاء : وقيل عجب بمعنى معجب ، قال : فعلى هذا يجوز أن يرتفع قولهم به انتهى .

وهذا الذي أجازه لا يجوز ، لأنه لا يلزم من كون الشيء بمعنى الشيء أن يكون حكمه في العمل كحكمه ، فمعجب يعمل ، وعجب لا يعمل ، ألا ترى أن فعلاً كذبح ، وفعلاً كقبض ، وفعلة كغرفة ، هي بمعنى مفعول ، ولا يعمل عمله ، فلا تقول : مررت برجل ذبح كبشه ، ولا برجل قبض ماله ، ولا برجل غرف ماءه ، بمعنى مذبوح كبشه ومقبوض ماله ومعروف ماؤه .

وقد نصوا على أن هذه تنوب في الدلالة لا في العمل عن المفعول .

وقد حصر النحويون ما يرفع الفاعل ، والظاهر أن أءذا معمول لقولهم محكى به .

وقال الزمخشري : أءذا كنا إلى آخر قولهم يجوز أن يكون في محل الرفع بدلاً من قولهم انتهى .

هذا إعراب متكلف ، وعدول عن الظاهر .

وإذا متمحضة للظرف وليس فيها معنى الشرط ، فالعامل فيها محذوف يفسره ما يدل عليه الجملة الثانية وتقريره : أنبعث ، أو أنحشر .

أولئك إشارة إلى قائل تلك المقالة ، وهو تقرير مصمم على إنكار البعث ، فلذلك حكم عليهم بالكفر إذ عجزوا قدرته من إعادة ما أنشأ واخترع ابتداء .

ولما حكم عليهم بالكفر في الدنيا ذكر ما يؤولون إليه في الآخرة على سبيل الوعيد ، وأبرز ذلك في جملة مستقلة مشار إليهم .

والظاهر أنّ الأغلال تكون حقيقة في أعناقهم كالأغلال ، ثم ذكر ما يستقرون عليه في الآخرة ، كما قال : إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل .

وقيل : يحتمل أن يكون مجازاً أي : هم مغلولون عن الإيمان ، فتجري إذاً مجرى الطبع والختم

على القلوب كما قال تعالى : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ وكما قال الشاعر :

لهم عن الرشد أغلال وأقياد . . .

وقيل : الأغلال هنا عبارة عن أعمالهم الفاسدة في أعناقهم كالأغلال ، ثم ذكر ما يستقرون عليه في الآخرة ، وأبرز ذلك في جملة مستقلة مشار إليهم رادة عليهم ما أنكروه من البعث ، إذ لا يكون أصحاب النار إلا بعد الحشر .

ولما كانوا متوعدين بالعذاب إن أصروا على الكفر ، وكانوا مكذبين بما أنذروا به من العذاب ، سألوا واستعجلوا في الطلب أن يأتيهم العذاب وذلك على سبيل الاستهزاء كما قالوا : ﴿ فأمطر علينا حجارة ﴾ وقالوا : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ قال ابن عباس : السيئة العذاب ، والحسنة العافية .

وقال قتادة : بالشر قبل الخير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(271/407)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾

يا محمد من شيء ﴿ فَعَجَبٌ ﴾ لا أعجبُ منه حقيقٌ بأن يُقصرَ عليه التعجب ﴿ قَوْلُهُمْ

﴾ بعد مشاهدةِ ما عدد لك من الآيات الشاهدةِ بأنه تعالى على كل شيء قدير ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ على طريقة الاستفهامِ الإنكاريِّ المفيدِ لكمال الاستبعادِ والاستنكارِ ، وهو في محل الرفعِ على البدلية من (قولهم) على أنه بمعنى المقول أو في محل النصبِ على المفعولية منه على أنه مصدرٌ فالعجبُ على الأول كلامُهم وعلى الثاني تكلّمُهم بذلك والعاملُ في (إذا) ما دل عليه قوله : ﴿ إِءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وهو نُبعث أو نعاد ، وتقديمُ الظرف لتقوية الإنكارِ بالبعث بتوجيهه إليه في حالة منافيةٍ له ، وتكريرُ الهمزة في قولهم : أئنا لتأكيد الإنكارِ ، وليس مدارُ إنكارهم كونَهم ثابتين في الخلق الجديد بالفعل عند كونِهم تراباً بل كونَهم بعريضة ذلك واستعدادِهم له ، وفيه من الدلالة على عتوّهم وتماديهم في النكير ما لا يخفى ، وقيل : وإن تعجب من قولهم في إنكار البعثِ فعجبٌ قولُهم ، والمآلُ وإن تعجبْ فقد تعجّبت في موضع التعجّبِ ، وقيل : وإن تعجب من إنكارِهم البعثَ فعجبٌ قولُهم الدالُّ عليه فتأمل .

وقد جُوّز كونُ الخطاب لكل من يصلُح له أي إن تعجبْ يا من ينظُر في هذه الآياتِ من قدرة مَنْ هذه أفعالُه فازددْ تعجباً ممن ينكر مع هذه الدلائلِ قدرتَه تعالى على البعث وهو أهونُ من هذه ، والأنسبُ بقوله : ويستعجلونك بالسيئة هو الأولُ وقوله تعالى : ﴿ فَعَجَبٌ ﴾ خبرٌ قُدّم على المبتدأ للقصر والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمراً عجيباً ، ويجوز أن يكون مبتدأً لكونه موصوفاً بالوصف المقدر كما أشير إليه فالمعنى وإن تعجب فالعجب

الذي لا عجب وراءه قولُهم هذا فاعجب منه ، وعلى الأول وإن تعجب فقولُهم هذا عجبٌ لا عجبَ فوقه .

(272/407)

﴿ أولئك ﴾ مبتدأٌ والموصول خبرُه أي أولئك المنكرون لقدرته تعالى على البعث ريثما عاينوا ما فُصّل من الآيات الباهرة المُلْجئة لهم إلى الإيمان لو كانوا يبصرون ﴿ الذين كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ ﴾ وتمادَوْا في ذلك فإن إنكارهم لقدرته عز وجل كفرٌ به وأيُّ كفر ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ مبتدأ خبرُه قوله : ﴿ الأغلال فِى أعناقهم ﴾ أي مقيّدون بقيود الضلال لا يرجى خلاصُهم أو مغلولون يوم القيامة ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات ﴿ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ لا ينفكّون عنها ، وتوسيطُ ضمير الفصلِ ليس لتخصيص الخلودِ بمنكري البعثِ خاصةً بل بالجمع المدلولِ عليه بقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ ﴾ .

(273/407)

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة ﴾ بالعقوبة التي أُنذِروها وذلك حين سألوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيَهم بالعذاب استهزاءً منهم بإنذاره ﴿ قَبْلَ الحسنة ﴾ أي العافيةِ والإحسانِ إليهم بالإمهال ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ أي عقوباتُ أمثالِهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بها ولا يحترزون حلولَ مثلِها بهم والجملة الحاليةُ لبيان ركاكةِ رأيِهم في الاستعجال بطريق الاستهزاءِ أي يستعجلونك بها مستهزئين بإنذارك منكِرين لوقوع ما أنذرتَهم إياه والحالُ أنه قد مضت العقوباتُ النازلةُ على أمثالهم من المكذبين والمستهزئين ، والمَثُلة بوزن السَّمُرة العقوبةُ ، سميت بها لما بينها وبين المعاقَب عليه من المماثلة ومنه المِثال للقِصاص ، وقرىء المُثُلات بضمتين بإتباع الفاء العين ، والمَثْلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال : السَّمْرة ، والمُثْلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المُثُلات جمع مُثْلة كرُكبة ورُكْبات ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ عظيمةٍ ﴿ لّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ أنفسهم بالذنوب والمعاصي ومحلُّه النصبُ على الحالية أي ظالمين والعاملُ فيه المغفرة والمعنى إن ربك لغفورٌ للناس لا يعجّل لهم العقوبةَ وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخيرُ ما استعجلوه ليس للإهمال . وعنه عليه الصلاة والسلام : " لولا عفوُ الله وتجاوزُه ما هنأ لأحد العيشُ ولولا وعيدُه وعقابه لاتَّكَلَ كلُّ أحد " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾

أي إن يقع منك عجب يا محمد ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ بعد مشاهدة الآيات الدالة على عظيم قدرته تعالى أي فليكن عجبك من قولهم : ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ إلى آخره فإنه الذي ينبغي أن يتعجب منه ، ورفع ﴿ عجب ﴾ على أنه خبر مقدم و ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ مبتدأ مؤخر ، وقدم الخبر للقصر والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم أمراً عجيباً ، وفي البحر أنه لا بد من تقدير صفة لعجب لأنه لا يتمكن المعنى بمطلق فيقدر والله تعالى أعلم فعجب أي عجب أو فعجب غريب ، وإذا قدرناه موصوفاً جاز أن يعرب مبتدأ للمسوغ وهو الوصف ولا يضر كون الخبر معرفة ، وذلك كما قال سيبويه في كم مالك إن كم مبتدأ لوجود المسوغ فيه وهو الاستفهام ، وفي نحو اقصد رجلاً خير منه أبوه إن خير مبتدأ للمسوغ أيضاً وهو العمل ، ونقل أبو البقاء القول بأن ﴿ عجب ﴾ بمعنى معجب ثم قال : فعلى هذا يجوز أن يرتفع ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ به .

وتعقب بأنه لا يجوز ذلك لأنه لا يلزم من كون شيء بمعنى شيء أن يكون حكمه في العمل حكمه فمعجب يعمل و ﴿ عجب ﴾ لا يعمل ، ألا ترى أن فعلا كذبح وفعلة كقبض وفعلة كغرفة بمعنى مفعول ولا يعمل عمله فلا تقول مررت برجل ذبح كبشه أو قبض ماله أو غرفة

ماؤه، بمعنى مذبوح كبشه ومقبوض ما له ومغروف ماؤه وقد نصوا على أن هذه تنوب في الدلالة لا العمل عن المفعول، وحصر النحويون ما يرفع الفاعل في أشياء ولم يعدوا المصدر إذا كان بمعنى اسم الفاعل منها .

(275/407)

والظاهر أن ﴿ أَن كُنَّا ﴾ إلى آخره في محل نصب مقول لقول محكى به، والاستفهام إنكاري مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار، وجوز أن يكون في محل رفع على البدلية من ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ على أنه بمعنى المقول وهو على ما قال أبو حيان: أعراب متكلف وعدول عن الظاهر، وعليه فالعجب تكلمهم بذلك وعلى الأول كلامهم ذلك، والعامل في ﴿ إِذَا ﴾ ما دل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وهو نبعث أو نعاد، والجديد ضد الخلق والبالي، ويقال: ثوب جديد أي كما فرغ من عمله وهو فعيل بمعنى مفعول كأنه قطع من نسجه، وتقديم الظرف لتقوية الإنكار بالبعص بتوجيهه إليه في حالة منافية له، وتكرير الهمزة في ﴿ أئنا ﴾ لتأكيد الإنكار، وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين في الخلق الجديد بالفخل عند كونهم ترابا بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له، وفيه من الدلالة على عتوهم وتماديهم في النكير ما لا يخفى .

قال أبو البقاء : ولا يجوز أن تنتصب ﴿ قَبْلِكُمْ إِذَا ﴾ بكنا لأنها مضافة إليها ولا بجديد لأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها وكذا الاستفهام .

ورد الأول في المغنى بأن ﴿ إِذَا ﴾ عند من يقول بأن العامل فيها شرطها وهو المشهور غير مضافة كما يقوله الجميع إذا جزمت كما في قوله :

وإذا تصبك خاصة فتحمل . . .

قيل : فالوجه في رد ذلك أن عمله فيها موقوف على تعيين مدلولها وتعيينه ليس إلا بشرطها فيدور ، ونظر فيه الشهاب بأنها عندهم بمنزلة متى وأيان غير معينة بل مبهمة كما ذكره القائلون به وبه صرح في المغنى أيضاً .

وقيل : معنى الآية إن تعجب يا محمد من قولهم في إنكار البعث فقولهم عجيب حقيق أن يتعجب منه .

وتعقبه في "البحر" بأنه ليس مدلول اللفظ لأنه جعل فيه متعلق عجبه صلى الله عليه وسلم هو قولهم في إنكار البعث وجواب الشرط هو ذلك القول فيتحد الشرط والجزاء إذا تقديره إن تعجب من إنكارهم البعث فأعجب من قولهم في إنكار البعث وهو غير صحيح .

ورد بأن ذلك مما اتحد فيه الشرط والجزاء صورة وتغايراً حقيقة كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " من كانت هجرته إلى الله تعالى ورسوله فهجرته إلى الله تعالى ورسوله " وقولهم : من أدرك الصمان فقد أدرك المرعى وهو أبلغ في الكلام لأن معناه أنه أمر لا يكتنه كنهه ولا تدرك حقيقته وأنه أمر عظيم .

وذهب بعض إلى أن الخطاب في ﴿ إِن تَعْجَبْ ﴾ عام ، والمعنى إن تعجب يا من نظر ما في هذه الآيات وعلم قدرة من هذه أفعاله فازدد تعجباً ممن ينكر مع هذا قدرته على البعث وهو أهون شيء عليه ، وقيل : المعنى إن تجدد منك التعجب لإنكارهم البعث فاستمر عليه فإن إنكارهم ذلك من الأعاجيب ، وقيل : المراد إن كنت تريد أيها المريد عجباً فهلم فإن من أعجب العجب إنكارهم البعث ، واختلف القراء في الاستفهامين إذا اجتمعا في أحد عشر موضعاً هذا .

وفي المؤمنين .

والعنكبوت .

والنمل .

والسجدة والواقعة .

والنازعات .

وبني إسرائيل في موضعين وكذا في الصافات ، فقرأ نافع .

والكسائي بجعل الأول استفهاماً والثاني خبراً إلا في العنكبوت والنمل فعكس نافع وجمع الكسائي بين الاستفهامين في العنكبوت وأما في النمل فعلى أصله إلا أنه زاد نوناً .

(277/407)

وقرأ ابن عامر بجعل الأول خبراً والثاني استفهاماً إلا في النمل والنازعات فعكس وزاد في النمل نوناً كالكسائي وإلا في الواقعة فقرأ باستفهامين وهي قراءة باقي السبعة في هذا الباب إلا ابن كثير وحفصاً فإنهما قرآ في العنكبوت بالخبر في الأول والاستفهام في الثاني وهم على أصولهم في اجتماع الهمزتين من تخفيف وتحقيق وفصل بين الهمزتين ﴿ أولئك ﴾ مبتدأ والموصول خبره أي أولئك المنكرون للبعث ريثما عاينوا من آيات ربهم الكبرى ما يرشدهم إلى الإيمان لو كانوا يبصرون ﴿ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ وتمادوا في ذلك فإن إنكار قدرته عز وجل إنكار له سبحانه لأن الإله لا يكون عاجزاً مع ما في ذلك من تكذيبه جل شأنه وتكذيب رساله المتفقون عليه عليهم السلام ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ مبتدأ خبره جملة قوله تعالى : ﴿ الاغلال فِى أعناقهم ﴾ وفيه احتمالان : الأول أن يكون المراد وصفهم بذلك في الدنيا فهو تشبيه وتمثيل لحالهم في امتناعهم عن الإيمان وعدم الالتفات إلى الحق بحال طائفة في أعناقهم أغلال وقيود لا يمكنهم الالتفات معها كقوله :

كيف الرشاد وقد خلفت في نفر . . .

لهم عن الرشد أغلال وأقياد

كأنه قيل : أولئك مقيدون بقيود الضلالة لا يرجى خلاصهم .

الثاني أن يكون المراد وصفهم به في الآخرة والكلام إما باق على حقيقته كما قال سبحانه :

﴿ إِذِ الاغلال فِى أعناقهم والسلاسل ﴾ [غافر : 71] وروي ذلك عن الحسن قال : إن الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار لأنهم أعجزوا الرب سبحانه ولكنما جعلت في أعناقهم لكي إذا طغا بهم اللهب أرستهم في النار ، وأما مخرج التشبيه لحالهم بحال من يقدم للسياسة .

(278/407)

وقيل : المراد من الإغلال أعمالهم الفاسدة التي تقلدوها كالأغلال ، وهو جار على احتمال أن يكون ذلك في الدنيا أو في الآخرة والأول ناظر إلى ما قبل والثاني إلى قوله تعالى :

﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ أي الموصوفون بما ذكر ﴿ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ لا ينفكون عنها ، قيل : وتوسيط الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعص خاصة بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ ﴾ .

وأورد على ذلك أن ﴿ هُمْ ﴾ ليس ضمير فصل لأن شرطه أن يقع بين مبتدأ وخبر يكون اسماً معرفة أو مثل المعرفة في أنه لا يقبل حرف التعريف كأفعل التفضيل وهذا ليس كذلك، وأجيب بأن المراد بالفصل الضمير المنفصل وأنه أتى به وجعل الخبر جملة مع أن الأصل فيه الإفراد لقصد الحصر والتخصيص المذكور كما في هو عارف.

وقال بعضهم: لعل القائل بما ذكر لا يتبع النحاة في الاشتراط المذكور كما أن الجرجاني والسهيلي جوزا ذلك إذا كان الخبر مضارعاً واسم الفاعل مثله.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسيئة ﴾

بالعقوبة التي هددوا بها على الإصرار على الكفر استهزاءً وتكذيباً ﴿ قَبْلَ الحسنة ﴾ أي العافية والسلامة منها، والمراد بكونها قبلها أن سؤالها قبل سؤالها أو أن سؤالها قبل انقضاء الزمان المقدر لها، وأخرج ابن جرير.

وغيره عن قتادة أنه قال في الآية: هؤلاء مشركو العرب استعجلوا بالشر قبل الخير فقالوا: ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32] ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ جمع مثلة كسمرة وسمرات

وهي العقوبة الفاضحة ، وفسرها ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بالعقوبة المستأصلة للعضو كقطع الأذن ونحوه سميت بها لما بين العقاب والمعاقب به من المماثلة كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] أو هي مأخوذة من المثال بمعنى القصاص يقال : أمثلت الرجل من صاحبه وأقصصته بمعنى واحد أو هي من المثل المضروب لعظمها .

والجملة في موضع الحال لبيان ركاكة رأيهم في الاستعجال بطريق الاستهزاء أي يستعجلونك بذلك مستهزئين بإنذارك منكرين لوقوع ما أنذرتهم إياه والحال أنه قد مضت العقوبات الفاضحة النازلة على أمثالهم من المكذبين المستهزئين .

وقرأ مجاهد .

(280/407)

والأعمش ﴿ المثلات ﴾ بفتح الميم والثاء ، وعيسى بن عمرو في رواية الأعمش ؛ وأبو بكر بضمهما وهو لغة أصلية ، ويحتمل أنه اتبع فيه العين للفاء ، وابن وثاب بضم الميم وسكون الثاء وهي لغة تميم ، وابن مصرف بفتح الميم وسكون الثاء وهي لغة الحجازيين ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ عظيمة ﴿ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ أنفسهم بالذنوب والمعاصي

﴿ وهو ﴾ ، والجار والمجرور في موضع الحال من الناس والعامل فيها هو العامل في صاحبها وهو ﴿ مَغْفِرَةٍ ﴾ أي أنه تعالى لغفور للناس مع كونهم ظالمين : قيل : وهذه الآية ظاهرة في مذهب أهل السنة وهو جواز مغفرة الكبائر والصغائر بدون توبة لأنه سبحانه ذكر المغفرة مع الظلم أي الذنب ولا يكون معه إلا قبل التوبة لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وأول ذلك المعتزلة بأن المراد مغفرة الصغائر لمجتنب الكبائر أو مغفرتها لمن تاب أو المراد بالمغفرة معناها اللغوي وهو الستر بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة كأنه قيل : إنه تعالى لا يعجل للناس العقوبة وإن كانوا ظالمين بل يستر عليهم بتأخيرها .

واعترض التأويل بالتخصيص بأنه تخصيص للعامل من غير دليل .

وأجيب بأن الكفر قد خص بالإجماع فيسري التخصيص إلى ذلك .

وتعقب الأخير بأنه في غاية البعد لأنه كما قال الإمام لا يسمى مثله مغفرة وإلا لصح أن يقال : الكفار مغفورون .

ورد بأن المغفرة حقيقتها في اللغة الستر وكونهم مغفورين بمعنى مؤخر عذابهم إلى الآخرة لا محذور فيه وهو المناسب لاستعجالهم العذاب .

وأجيب بأن المراد أن ذلك مخالف للظاهر والاستعمال القرآن ، وذكر العلامة الطيبي أنه يجب تأويل الآية بأحد الأوجه الثلاثة لأنها بظاهرها كالحث على الظلم لأنه سبحانه وعد المغفرة البالغة مع وجود الظلم .

وتعقب ذلك في "الكشف" فقال : فيه نظر لأن الأسلوب يدل على أنه تعالى بليغ المغفرة لهم مع استحقاقهم لخلافها لتلبسهم بما العقاب أولى بهم عنده ، والظاهر أن التأويل بناء على مذهب الاعتزال .

وأما على مذهب أهل السنة فإنما يؤول لو عم الظلم الكفر ، ثم قال : والتأويل بالستر والإمهال أحسن فيكون قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ لتحقيق الوعيد بهم وإن كانوا تحت ستره وإمهاله ، ففيه إشارة إلى أن ذلك إمهال لا إهمال .

والمراد بالناس أما المعهودون وهم المستعجلون المذكورون قبل أو الجنس دلالة على كثرة الهالكين لتناولهم وأضرابهم وهذا جار على المذهبين ، وكذا اختار الطيبي هذا التأويل وقال هو الوجه .

والآية على وزان قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذى يَعْلَمُ السر فِى السموات والأرض إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفرقان : 6] على ما ذكره الزمخشري في تفسيره وأنت قد سمعت ما له وما عليه فتدبر .

واختار غير واحد إرادة الجنس من الناس وهو مراد أيضاً في ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ .

والتخصيص بالكفار غير مختار .

ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ ﴾ الخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لولا عفو الله تعالى وتجاوزه ما هنأ أحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(282/407)

وقال القاسمى :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أي : إن تعجب من شيء فقولهم عجيب حقيق بأن يقتصر عليه التعجب ؛ لأن من شاهد ما عدد من الآيات العجيبة التي تدل على قدرة يصغر عندها كل عظيم ؛ أيقن بأن من قدر على إنشائها ولم يعي بخلقها ، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره ، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب . وجوز أن يكون خطاباً لكل من يصلح له ، أي : إن تعجب ، يا من نظر في هذه الآيات ، وعلم قدرة من هذه أفعاله ، فازدد تعجباً ممن ينكر مع هذا ، قدرته على البعث ، وهو أهون من هذه ! .

قال أبو السعود : والأنسب بقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ [الرعد : من الآية 6] هو الأول و (عجب) خبر قدم على المبتدأ للقصر ، والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم : ذاك أمرٌ عجيباً .

وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ أي : المنكرون لقدرته على البعث : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ أي : تمادوا في الكفر ؛ فإن من أنكر قدرته تعالى فقد أنكره ؛ لأن الإله لا يكون عاجزاً ، وفيه تكذيب لخبره ولرسله عليهم السلام : ﴿ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أي : السلاسل في أيمانهم مشدودة إلى أعناقهم يوم القيامة ؛ لأنهم غلوا أفكارهم عن النظر في هذه الأمور ، كما جعلوا خالقهم مغلول القدرة على ذلك وهو القادر الحكيم .

﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ﴾ .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أي : يستعجلونك بالعقوبة قبل العافية والسلامة منها ، وذلك أنهم سألوا رسول الله صلوات الله عليه ، أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره .

قال الشهاب : والمراد بكونها قبل الحسنة ، أن سؤالها قبل سؤالها ، أو أن سؤالها قبل

انقضاء الزمان المقدر لها ! .

﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴾ أي : عقوبات أمثالهم من المكذبين . فما لهم لا يعتبرون بها ولا يخشون حلول مثلها ؟ أو العقوبات التي يضرب بها المثل في الشدة . والجملة حالية أو مستأنفة . و (المثلات) قراءة العامة فيها فتح الميم وضم الثاء جمع مثُلة – كسمرة وسمرات – وهي العقوبة الفاضحة . سميت بها لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ، كقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ أو هي مأخوذة من المثال بمعنى القصاص ، ويقال : أمثلته وأقصصته بمعنى واحد ، أو هي من المثل المضروب لعظمها . وقرئ بفتح الميم وسكون المثلثة ، وهي لغة أهل الحجاز ، وقرئ بضم الميم وسكون المثلثة ، وقرئ بفتحهما وبضمهما .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ من الناس من حمل المغفرة على المتعارف منها ، وهو مغفرة الذنوب مطلقاً إلى حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحد ، فإن ظلمه – أعني شركه – لا يغفر . وما عدا الشرك فغفرانه في المشيئة . ومنهم من ذهب إلى المغفرة مراداً بها معناها اللغوي . وهو الستر والصفح ، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، أي : إنه ذو صفح عظيم لا يعاجل بالعقوبة . مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار . كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ

عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّة ﴾ [فاطر : من الآية 45] ، وهذا التأويل أنسب بالسياق الرهيب !.

وعجب من الشهاب حيث وافق الرازي في دعواه (إن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة ؛ لأنه مخالف للظاهر ، ولاستعمال القرآن ، وللزومه كون الكفار كلهم مغفوراً لهم لأجل تأخير عقابهم إلى الآخرة) ولا يخفاك صحة تسميته مغفرة ؛ لأنه في اللغة الستر ، ومن أفراده الستر بالإمهال ؟ ودعوى أنه مخالف للظاهر ولاستعمال القرآن تحكم بحت على أسلوب القرآن ، بإرجاعه إلى ما أصّلوه . مع أن التحاكم إليه في الفروع والأصول ، وهو الحجة في اللغة والاستعمال ! ودعوى فساد اللزوم وتهويل خطبه فارغة ؛ لأنه لا محذور في ذلك ، لا سيما وهو المناسب لاستعجالهم العذاب المذكور قبل ، فالتلازم صحيح ! ثم من المقرر أن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، فهذه الآية في معناها كآية : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ ﴾ الخ . فما ذكر من التأويل مؤيد بهذه الآية ، فتفطن ولا تكن أسير التقليد . . . !

ولما بين تعالى سعة حلمه قرنه ببيان قوة عقابه ؛ ليعتدل الرجاء والخوف ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي : لمن شاء ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ

ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : 147] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأعراف : من الآية 167] ، وقال سبحانه : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمَ ﴾ [الحجر : 49 - 50] . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 9 صـ 263. 265﴾

(285/407)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾

عطف على جملة ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ﴾ [الرعد : 2] فلما قُضِي حق الاستدلال على الوحدانية نقل الكلام إلى الردّ على منكري البعث وهو غرض مستقل مقصود من هذه السورة.

وقد أدمج ابتداءً خلال الاستدلال على الوحدانية بقوله : ﴿ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ [الرعد : 2] تمهيداً لما هنا ، ثم نقل الكلام إليه باستقلاله بمناسبة التدليل على عظيم القدرة مستخرجاً من الأدلة السابقة عليه أيضاً كقوله : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في

لبس من خلق جديد ﴾ [ق : 15] وقوله : ﴿ إنه على رَجعه لقادر ﴾ [سورة الطارق : 8] فصيغ بصيغة التعجيب من إنكار منكري البعث لأن الأدلة السالفة لم تبق عذراً لهم في ذلك فصار في إنكارهم محل عجب المتعجب .

فليس المقصود من الشرط في مثل هذا تعليق حصول مضمون جواب الشرط على حصول فعل الشرط كما هو شأن الشروط لأن كون قولهم : أإذا كنا تراباً ﴾ عجباً أمر ثابت سواء عجب منه المتعجب أم لم يعجب ، ولكن المقصود أنه إن كان اتصاف بتعجب فقولهم ذلك هو أسبق من كل عجب لكل متعجب ، ولذلك فالخطاب يجوز أن يكون موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو المناسب بما وقع بعده من قوله : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾ [الرعد : 6] وما بعده من الخطاب الذي لا يصلُح لغير النبي .

ويجوز أن يكون الخطاب هنا لغير معين مثل ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم ﴾ [السجدة : 12] .

والفعل الواقع في سياق الشرط لا يقصد تعلقه بمعمول معين فلا يقدر : إن تعجب من قول أو إن تعجب من إنكار ، بل ينزل الفعل منزلة اللازم ولا يقدر له مفعول .

والتقدير : إن يكن منك تعجب فاعجب من قولهم الخ . . .

.

على أن وقوع الفعل في سياق الشرط يشبه وقوعه في سياق النفي فيكون لعموم المفاعيل في المقام الخَطابي ، أي إن تعجب من شيء فعجب قولهم .

ويجوز أن تكون جملة وإن تعجب ﴾ الخ عطفاً على جملة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ [سورة الرعد : 1] .

فالتقدير : إن تعجب من عدم إيمانهم بأن القرآن منزل من الله ، فعجب إنكارهم البعث .

وفائدة هذا هو التشويق لمعرفة المتعجب منه تهويلاً له أو نحوه ، ولذلك فالتنكير في قوله : فعجب ﴾ للتنويع لأن المقصود أن قولهم ذلك صالح للتعجيب منه ، ثم هو يفيد معنى التعظيم في بابه تبعاً لما أفاده التعليق بالشرط من التشويق .

والاستفهام في ﴿ أإذا كنا تراباً ﴾ إنكاري ، لأنهم موقنون بأنهم لا يكونون في خلق جديد بعد أن يكونوا تراباً .

والقول المحكي عنهم فهو في معنى الاستفهام عن مجموع أمرين وهما كونهم : تراباً ، وتجديد خلقهم ثانية .

والمقصود من ذلك العجب والإحالة .

وقرأ الجمهور : ﴿ أإذا كنا ﴾ بهمزة استفهام في أوله قبل همزة ﴿ إذا ﴾ .

وقرأه ابن عامر بحذف همزة الاستفهام .

وقرأ الجمهور : ﴿ أإنا لفي خلق جديد ﴾ بهمزة استفهام قبل همزة ﴿ إنّا ﴾ .

وقرأه نافع وابن عامر وأبو جعفر بحذف همزة الاستفهام .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم ﴾ للتنبيه على أنهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخبَر لأجْل ما سبق اسمَ الإشارة من قولهم : ﴿ أإذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد ﴾ بعد أن رأوا دلائل الخلق الأول فحق عليهم بقولهم ذلك حكمان : أحدهما أنهم كفروا بربهم لأن قولهم : ﴿ أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد ﴾ لا يقوله إلا كافر بالله .

أي بصفات إلهيته إذ جعلوه غير قادر على إعادة خلقه ؛ وثانيهما استحقاقهم العذاب .

(287/407)

وعطف على هذه الجملة جملة ﴿ وأولئك الأغلال في أعناقهم ﴾ مفتتحة باسم الإشارة لمثل الغرض الذي افتتحت به الجملة قبلها فإن مضمون الجملتين اللتين قبلها يحقق أنهم أحرياء بوضع الأغلال في أعناقهم وذلك جزاء الإهانة .

وكذلك عطف جملة ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

وقوله : ﴿ الأغلال في أعناقهم ﴾ وعيد بسوقهم إلى الحساب سوق المذلة والقهر ، وكانوا

يضعون الأغلال للأسرى المثقلين ، قال النابغة :

أو حُرّة كمهاة الرمل قد كُبلت

فوق المعاصم منها والعراقيب . . .

تدعو قعينا وقد عض الحديد بها

عض الثقاف على صمّ الأنابيب . . .

والأغلال : مع غُل بضم الغين ، وهو القيد الذي يوضع في العنق ، وهو أشد التقييد .

قال تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ [غافر : 71] .

وإعادة اسم الإشارة ثلاثاً للتهويل .

وجملة هم فيها خالدون ﴾ بيان لجملة أصحاب النار .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴾

جملة ﴿ ويستعجلونك ﴾ عطفٌ على جملة ﴿ وإن تعجب ﴾ [الرعد : 5] ، لأن كلتا الجملتين حكاية لغريب أحوالهم في المكابرة والعناد والاستخفاف بالوعيد .

فابتدأ بذكر تكذيبهم بوعيد الآخرة لإنكارهم البعث ، ثم عطف عليه تكذيبهم بوعيد الدنيا لتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وفي الاستخفاف بوعيد نزول العذاب وعَدّهم إياه مستحيلاً في حال أنهم شاهدوا آثار العذاب النازل بالأمم قبلهم ، وما ذلك إلا لذهولهم عن قدرة الله تعالى التي سيق الكلام للاستدلال عليها والتفريع عنها ، فهم

يستعجلون بنزوله بهم استخفافاً واستهزاء كقولهم : ﴿ فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] ، وقولهم : ﴿ أو تُسقِطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفًا ﴾ [الإسراء : 93] .

والباء في بالسيئة ﴾ لتعدية الفعل إلى ما لم يكن يتعدى إليه .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ في سورة الأنعام (57) .

والسيئة : الحالة السيئة .

وهي هنا المصيبة التي تسوء من تحل به .

والحسنة ضدها ، أي أنهم سألوا من الآيات ما فيه عذاب بسوء ، كقولهم : ﴿ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطِر علينا حجارةً من السماء ﴾ [الأنفال : 32] دون أن يسألوا آية من الحسنات .

فهذه الآية نزلت حكاية لبعض أحوال سؤالهم الظّانين أنه تعجيز ، والدالين به على التهكم بالعذاب .

وقبْليّة السيئة قبلية اعتبارية ، أي مختارين السيئة دون الحسنة .

وسيأتي تحقيقه عند قوله تعالى : ﴿ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ في سورة النمل (46) فانظره .

وجملة وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ في موضع الحال .

وهو محل زيادة التعجيب لأن ذلك قد يعذرون فيه لو كانوا لم يروا آثار الأمم المعذبة مثل عاد وثمود .

والمَثُلات بفتح الميم وضم المثلثة : جمع مَثُلة بفتح الميم وضم الثاء كسَمُرة ، وبضم الميم وسكون الثاء كغُرْفة : وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالاً تُمثّل به العقوبات .

وجملة ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ عطف على جملة ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ .

وهذا كشف لغرورهم بتأخير العذاب عنهم لأنهم لمّا استهزأوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وتعرضوا لسؤال حلول العذاب بهم ورأوا أنه لم يعجل لهم حلوله اعترتهم ضراوة بالتكذيب وحسبوا تأخير العذاب عَجْزاً من المتوعد وكذبوا النبي صلى الله عليه وسلم وهم يجهلون أن الله حليم يُمهل عباده لعلهم يرجعون ، فالمغفرة هنا مستعملة في المغفرة الموقتة ، وهي التجاوز عن ضراوة تكذيبهم وتأخير العذاب إلى أجل ، كما قال تعالى : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ [سورة النحل : 34] .

وقرينة ذلك أن الكلام جار على عذاب الدنيا وهو الذي يقبل التأخير كما قال تعالى : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾

[الدخان : 15] ، أي عذاب الدنيا ، وهو الجوع الذي أصيب به قريش بعد أن كان يطعمهم من جوع .

وعلى ﴾ في قوله : ﴿ على ظلمهم ﴾ بمعنى ﴿ مع ﴾ .

وسياق الآية يدل على أن المراد بالمغفرة هنا التجاوز عن المشركين في الدنيا بتأخير العقاب لهم إلى أجل أراده الله أو إلى يوم الحساب ، وأن المراد بالعقاب في قوله : ﴿ وإن ربك لشديد العقاب ﴾ ضد تلك المغفرة وهو العقاب المؤجل في الدنيا أو عقاب يوم الحساب ، فمحمل الظلم على ما هو المشهور في اصطلاح القرآن من إطلاقه على الشرك .

ويجوز أن يحمل الظلم على ارتكاب الذنوب بقرينة السياق كإطلاقه في قوله تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ [سورة النساء : 160] فلا تعارض أصلاً بين هذا المحمل وبين قوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] كما هو ظاهر .

وفائدة هذه العلاوة إظهار شدة رحمة الله بعباده في الدنيا كما قال : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ [فاطر : 45] .

وجملة وإن ربك لشديد العقاب ﴾ احتراس لئلا يحسبوا أن المغفرة المذكورة مغفرة دائمة تعريضاً بأن العقاب حال بهم من بعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(290/407)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ الآية .

المراد بالسيئة هنا : العقوبة وإنزال العذاب قبل الحسنة ، اي قبل العافية ، وقيل الإيمان ، وقد بين تعالى هذه الآية الكريمة أن الكفار يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يعجل له العذاب الذي يخوفهم به إن تمادوا على الكفر ، وقد بين هذا المعنى في ىيات كثيرة ، كقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ [الحج : 47] ، وكقوله ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ

﴾ [العنكبوت: 53] ، وكقوله ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ [العنكبوت: 54] ، وقوله ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [المعارج: 1 - 2] ، وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء ﴾ [الأنفال: 32] الآية.

وقوله: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا والذين آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحق ﴾ [الشورى: 18] ، وقوله: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ [ص: 16] إلى غير ذلك من الآيات.

(291/407)

وسبب طلبهم لتعجيل العذاب هو العناد ، وزعم أن النّبي صلى الله عليه وسلم كذاب فيما يخوفهم به من بأس الله وعقابه ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [هود: 8] ، وكقوله ﴿ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ﴾ [الأعراف: 77] ، ﴿ قَالُواْ يا نوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [هود: 32] ، كما تقدمت الإشارة إلى هذا.

والمثلات: العقوبات واحدتها مثلة.

والمعنى : أنهم يطلبون تعجيل العذاب تمراداً وطغياناً ، ولم يتعظوا بما أوقع الله بالأمم السالفة من المثلات – أي العقوبات – كما فعل بقوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط وقوم شعيب ، وفرعون وقومه وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ .

(292/407)

بين – جل وعلا – في هذه الآية الكريمة أنه ذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وأنه شديد العقاب . فجمع بين الوعد والوعيد ليعظم رجاء الناس على فضله ، ويشتد خوفهم من عقابه وعذابه الشديد . لأن مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضر ، فاجتماع الخوف والطمع أدعى للطاعة وقد بن هذا المعنى في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القوم المجرمين ﴾ [الأنعام : 147] ، وقوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : 165] ، وقوله جل وعلا : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم ﴾ [الحجر : 49 – 50] ، وقوله : ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِي الطول ﴾ [غافر : 3] الآية . إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾

والعجب هو أن تُبدي دهشة من شيء لا تعرف سببه ، وهذا التعجب لا يتأَّتى من الله ؛ لأنه سبحانه يعلم كل شيء ، فإذا صدر عجب من الله مثل قوله الحق : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ . . . ﴾ [البقرة : 28]

فمعنى هذا أنه سبحانه يُنكِر أن يكفر الإنسان مع قيام الأدلة على الإيمان ؛ لكن بعضاً من الناس رغم ذلك يكفر بالله .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ . . . ﴾ [الرعد : 5]

هو خطاب مُوجَّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعجّب من أنهم كانوا يُسمُّونه قبل أن يبعثه الله رسولاً بالصادق الأمين ؛ وبعد ما جاءت الرسالة قالوا : إنه ساحر كذاب .

فكيف يكون صادقاً أميناً ببشريته وذاتيته ؛ ثم إذا أمدّه الحق سبحانه بالمَدَد الرِّسَالي

تهمونه بالكذب ؟ ألم يَكُنْ من الأجدر أنْ تقولوا إنه صار أكثر صِدْقاً ؟ وهل من المُمْكن أن يكون صادقاً عندكم ، ثم يكذب على الله ؟

والتعجُّب أيضاً من أنهم أنكروا البعث من بعد الموت ، رغم أنه سبحانه أوضح الأدلة على ذلك ؛ ولكن المؤمنين وحدهم هم الذين استقبلوا أمر البَحْث بالتصديق ؛ بمجرد أن أبلغهم به رسول الله مُبلّغاً عن ربِّه .

ونجد الحقّ سبحانه وتعالى قد احترم فُضُول العقل البشري ، فأوضح سبحانه ذلك ونَصَبَ الأدلة عليه ؛ وأبلغنا أنه لم يعجز عن الخَلْق الأول ؛ لذلك لن يعجز عن البعث .

فقد جاء بنا سبحانه من عدم ، وفي البعث سيأتي بنا من موجود ، ومن الغباء إذنْ أن يتشكَّك أحد في البعث ، والمُسْرِف على نفسه إنما يُنكِر البعث ؛ لأنه لا يقدر على ضبْط النفس ؛ ويظن أنه بإنكار البعث لن يَلْقَى المصير الأسود الذي سيلقاه في الآخرة .

(294/407)

ولذلك تجد المسرفين على أنفسهم يحاولون التشكيك في البعث ويأتي الحق سبحانه بتشكيكهم هذا في قَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر . . . ﴾ [الجاثية : 24]

ولو أن الواحد منهم وضع مسألة البَعْث في يقينه لانصرف عن شهواته ، بينما هو يريد أن ينطلق بالشهوات ؛ ولذلك نجدهم يقولون : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْض . . . ﴾ [السجدة : 10]

وهم يقصدون بذلك أنهم بعد الموت سيصيرون تراباً ، ويعودون إلى الأرض كعناصر وتراب تَذْروه الرياح ، فكيف سيأتي بهم الله للبعث ، ويُنشئهم من جديد ؟

ويقول سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 78-79]

ومن الكافرين مَنْ قال : سنصير تراباً ، ثم نختلط بالتربة ، ويتم زراعة هذه التربة ، فتمتزج عناصرنا بما تنبته الأرض من فواكه وخُضر وأشجار ؛ ثم يأكل طفل من الثمرة التي تغذَّتْ بعناصرنا ؛ فيصير بعضٌ مِنَّا في مكونات هذا الطفل ؛ والقياس يُوضِّح أننا سوف نتناثر ؛ فكيف يأتي بنا الله ؟

كل ذلك بطبيعة الحال من وسوسة الشيطان ووحيه : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ . . . ﴾ [الأنعام : 121]

وأقول : لنفترض أن إنساناً قد مرض ؛ وأصابه هُزَال ، وفقد ثلاثين كيلوجراماً من وزنه ، وما نزل من هذا الوزن لأبدَّ أنه قد ذهب إلى الأرض كعناصر اختلطتْ بها ، ثم جاء طبيب قام بتشخيص الداء وكتب الدواء ، وشاء الله لهذا المريض الشفاء واستردَّ وزنه ،

وعاد مرة أخرى لحالته الطبيعية ؛ فهل الثلاثين كيلو جراماً التي استردَّها هي هي نفس الكمية بنوعيتها وخصوصيتها التي سبق أنْ فقدها ؟ طبعاً لا .

(295/407)

وهكذا نفهم أن التكوين هو تكوين نسبيّ للعناصر ، كذا من الحديد ؛ كذا من الصوديوم ؛ كذا من المغنسيوم ؛ وهكذا .

إذن : فالجزاء في اليوم الآخر عملية عقلية لازمة ، يقول الحق : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : 28]

مادام هناك أمر ؛ وهناك نهي ؛ وهناك نهي ؛ وهناك منهج واضح يُبيّن كل شيء . وإنْ كنت تعجبُ يا محمد من الكفار وما يثيرونه من أقضية ، فَلَكَ أنْ تعجب لأنها أمور تستحق العجب .

والحق سبحانه حين يخاطب الخَلْق فهو يخاطبهم إمَّا في أمر يشكُّون فيه ، أو في أمر لا يشكُ فيه أحد .

والمَثَل من حياتنا ولله المَثَلُ الأعلى حين تخاطب أنت واحداً في أمر يَشُكُّ هو فيه ؛ فأنت تحاول أن تؤكد هذا الأمر بكل الطرق ، وهكذا وجدنا بعضاً من الناس ينكرون البعث

والحساب ؛ ووجدنا الحق سبحانه وتعالى يُذكِّرهم به عبر رسوله ويؤكده لهم .

وأيضاً خاطبهم الحق سبحانه فيما لم يَشكُّوا فيه ؛ وهو الموت ؛ وقال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت . . . ﴾ [آل عمران : 185]

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت " .

فالموت يقين ، ولكن لا أحد يحاول التفكير في أنه قادم ، وسبحانه يقول : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون : 15]

وهذا تأكيد لأمر يُجمع الناس على أنه واقع ، لكنهم لغفلتهم عنه بَدَوْا كالمنكرين له ، لذلك خاطبهم خطابَ المنكرين ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : 16]

ولم يَقُل : " ولتبعثون " لأن البعث مسألة لا تحتاج إلى تأكيد ، وعدم التأكيد هنا آكد من التأكيد ، لأن أمر الموت واضح جداً رغم الغفلة عنه ، أما البعث فهو واقع لا محالة بحيث لا يحتاج إلى تأكيد .

والمثل من حياتنا ولله المثل الأعلى يذهب الإنسان إلى الطبيب ؛ فيقول له الطبيب بعد الكشف عليه " اذهب فلن أكتب لك دواء " . وهذا القول يعني أن هذا الإنسان في تمام الصحة ؛ وكأن كتابة الدواء يحمل شبهة أن هناك مرضاً .

وكذلك الحق سبحانه يخاطب الخَلْق في الشيء الذي ينكرونه وعليه دليل واضح ؛ فيأتي خطابه لهم بلا تأكيد ؛ وهو يوضح بتلك الطريقة أنهم على غير حق في الإنكار ، أما الشيء الذي يتأكدون منه وهم غافلون عنه ؛ فهو يؤكده لهم ؛ كي لا يغفلوا عنه .

وكذلك في القَسَم ؛ فنجده سبحانه قد أقسم بالتين والزيتون ؛ وأقسم بالقرآن الحكيم ؛ وأقسم بغير ذلك ، ونجده في مواقع أخرى يقول : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد * وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ [البلد : 1-3]

والعجيب أنه يأتي بجواب القسم ، فيقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد : 4]

وقد يقول قائل : كيف يقول : ﴿ لاَ أُقْسِمُ . . . ﴾ [البلد : 1]

ثم يأتي بجواب القسم ؟

وأقول : لقد جاء هنا بقوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ . . . ﴾ [البلد : 1]

وكأنه يُوضِّح ألاَّ حقّ لكم في الإنكار ؛ ولذلك ما كان يصحّ أنْ أقسم لكم ، ولو كنت مُقْسِماً ؛ لأقسمتُ بكذا وكذا وكذا .

وسبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . . ﴾ [الرعد : 5]

وهو جَلَّ وعلا يُذكِّرهم بما كان يجب ألاَّ ينسوه ؛ فقد خلقهم من تراب ؛ وخلق التراب من عدم ، وهو القائل : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق : 15]

إذن : فسبحانه يتعجب من أمر هؤلاء ؛ ويزيد من العجب أنهم كذَّبوا محمداً صلى الله عليه وسلم بعد أن جرَّبوا فيه الصدق ، ولمسوا منه الأمانة ؛ وقالوا عنه ذلك من قبل أن يُبعث ؛ وفوق ذلك أنكروا البعث مع قيام الدليل عليه .

(297/407)

ويصفهم الحق سبحانه : ﴿ أولئك الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ . . . ﴾ [الرعد : 5]

أي : أن هؤلاء المكذبين لك يا محمد والمنكرين للبعث لم يكفروا فقط بالله الذي أوجب التكليف العبادي ؛ بل هم يكفرون بالربوبية التي تعطي المؤمن والكافر ؛ والطائع والعاصي ، وتأتمر بأمرها الأسباب لتستجيب لأي مجتهد يتبع قوانين الاجتهاد ، فيأخذ من عطاءات الربوبية ؛ وهي عطاءات التشريف التي تضمن الرزق ، بينما عطاءات الألوهية ؛ هي

تكليفات بالطاعة للأوامر التعبدية ؛ الممثلة في " افعل " و " لا تفعل " . وسبحانه لا يكلف الإنسان إلا بعد أن يبلغ الإنسان درجة النضج التي تؤهله ؛ لأن ينجب مثيلاً له ؛ وقد ترك الحق سبحانه كل إنسان يرتع في خير النعم التي أسبغها سبحانه على البشر ، وكان على الإنسان أن يسعى إلى الإيمان فور أن تصله الدعوة من الرسول المبلغ عن الله ؛ هذا الرسول المشهود له بالصدق والأمانة . ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يصف المنكرين للإيمان : ﴿ أولئك الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ . . . ﴾ [الرعد : 5]

ويضيف : ﴿ . . . وَأُوْلَئِكَ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ وأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ﴾ [الرعد : 5]

والغُلّ : هو طَوْق الحديد الذي له طرف في كل يد لِيُقيدها ؛ وطرف مُعلَّق في الرقبة لِيُقلل من مساحة حركة اليدين ، ولمزيد من الإذلال .

وهم أصحاب النار ؛ وكلمة " صاحب " تُطلق على مَنْ تعرفه معرفةً تروق كيانك وذاتك ؛ فهناك مَنْ تصاحبه ؛ وهناك من تصادقه ؛ وهناك من تؤاخيه ؛ وهناك من تعرفه معرفة سطحية ، ولا تقيم علاقة عميقة معه .

إن المعرفة مراتب ، والصحبة تآلف وتجاذب بين اثنين ؛ ومَنْ يصاحب النار فهو مَنْ تعشقه النار ، ويعشق هو النار ، ويحب كل منهما ملازمة الآخر ألاَ تقول النار لربها يوم القيامة : ﴿ . . . هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30]

أي : أن العذاب نفسه يكون مَشُوقاً أنْ يصل إلى العاصي .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(298/407)

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسيئة قَبْلَ الحسنة . . . ﴾

والاستعجال أن تطلب الشيء قبل زمنه ، وتقصير الزمن عن الغاية ، فأنت حين تريد غاية ما ؛ فأنت تحتاج لزمن يختلف من غاية لأخرى ، وحين تتعجل غايةً ، فأنت تريد أنْ تصل إليها قبل زمنها .

وكل اختيار للتعجُّل أو الاستبطاء له مميزاته وعيوبه ، فهل الاستعجال هنا لمصلحة أمر مطلوب ؟

إنهم هنا يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، وهذا دليل على اختلال وخُلْف موازين تفكيرهم ، وقد سبق لهم أن قالوا : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً . . . ﴾ [الإسراء : 90-92]

وهكذا نجد هؤلاء الكافرين وهم يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، كما استعجلوا أنْ تنزل

عليهم الحجارة ، وهم لا يعرفون أنْ كل عذاب له مدة ، وله ميعاد موقوت . ولم يفكروا في أنْ يقولوا : " اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه " .

بل إنهم قالوا : ﴿ . . . اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32]

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه ما وصلوا إليه من خَلل في نفوسهم وفسادها ؛ ذلك أن مقاييسهم انتهت إلى الكفر ، وليس أدلّ على فساد المقاييس إلا استعجالهم للسيئة قبل الحسنة ؛ لأن العاقل حين يُخيَّر بين أمرين ؛ فهو يستعجل الحسنة ؛ لأنها تنفع ، ويستبعد السيئة .

ومادامت نفوس هؤلاء الكافرين فاسدة ؛ ومادامت مقاييسهم مُخْتلة ، فلابد أن السبب في ذلك هو الكفر .

إذن : فاستعجال السيئة قبل الحسنة بالنسبة للشخص أو للجماعة ؛ دليل حُمْق الاختيار في البدائل ؛ فلو أنهم أرادوا الاستعجال الحقيقي للنافع لهم ؛ لاستعجلوا الحسنة ولم يستعجلوا السيئة .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات . . . ﴾ [الرعد : 6]

فلماذا يستعجلون العذاب ؟ ألم ينظروا ما الذي حاق بالذين كذّبوا الرسل من قبلهم ؟

وحين يقول الرسول : احذروا أن يصيبكم عذاب ، أو احذروا أنْ كذا وكذا ؛ فهل في ذلك كذب ؟ ولماذا لم ينظروا للعِبَر التي حدثتْ عَبْر التاريخ للأقوام التي كذبتْ الرسل من قبلهم ؟

و" المَثُلات " جمع " مُثْلة " ؛ وفي قول آخر " مَثُلَة " . والحق سبحانه يقول لنا : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . . ﴾ [النحل : 126]

ويقول أيضاً : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا . . . ﴾ [الشورى : 40]

وهكذا تكون " مَثُلات " من المثل ؛ أي : أن تكون العقوبة مُمَاثلة للفعل .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات . . . ﴾ [الرعد : 6]

يعني : أنه سبحانه سبق وأنزل العذاب بالمثيل لهم من الأمم السابقة التي كذبتْ الرسل ؛ إما بالإبادة إن كان ميئوساً من إيمانهم ، وإما بالقهر والنصر عليهم .

ويتابع سبحانه في نفس الآية : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ . . ﴾ [الرعد : 6]

أي : أنه سبحانه لا يُعجِّل العذاب لِمَنْ يكفرون ؛ لعل رجلاً صالحاً يوجد فيهم ، وقد صبر سبحانه على أبي جهل ؛ فخرج منه عكرمة بن أبي جهل ؛ وهو الصحابي الصالح ؛ وصبر

على خالد بن الوليد فصار سيفَ الله المسلول ، بعد أن كان أحد المقاتلين الأشداء في معسكر الكفر .

وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف قاتل عكرمة بن أبي جهل ؛ إلى أن أصيب إصابة بالغة ، فينظر إلى خالد بن الوليد قائلاً : أهذه ميتة تُرضِي عني رسول الله ؟

وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف حزن واحد من المقاتلين المسلمين لحظة أنْ أفلتَ من خالد بن الوليد أيام أنْ كان على الكفر ؛ وهو لا يعلم أن الحق سبحانه قد ادخر خالداً ليكون سيف الله المسلول من بعد إسلامه .

وهكذا شاء الحق أن يُفلت بعض من صناديد قريش من القتل أيام أنْ كانوا على الكفر ، كي يكونوا من خيرة أهل الإسلام بعد ذلك .

ويتابع سبحانه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ . . . ﴾ [الرعد : 6]

فمع أن الناس ظالمون ؛ فسبحانه يغفر لهم ؛ لأنه سبحانه أفرح بعبده التائب المؤمن من أحدكم ، وقد وقع على بعيره ، وقد أضلَّه في فلاة .

ولذلك أرى أن مَنْ يُعيِّر عبداً بذنب استغفر منه الله ؛ هو إنسان آثم ؛ ذلك أن العبد قد

استغفر الله ؛ فلا يجب أنْ يحشر أحد أنفه في هذا الأمر .

ونلحظ هنا قول الحق سبحانه : ﴿ على ظُلْمِهِمْ . . . ﴾ [الرعد : 6]

وفي هذا القول يجد بعض العلماء أن الله قد استعمل حرفاً بدلاً من حرف آخر ؛ فجاءت " على " بدلاً من " مع " .

ونلحظ أن " على " هي ثلاثة حروف ؛ و " مع " مكونة من حرفين ؛ فلماذا حذف الحق سبحانه الأخفَّ وأتى ب " على " ؟ لابد أن وراء ذلك غاية .

أقول : جاء الحق سبحانه ب " على " في قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ . . . ﴾ [الرعد : 6]

ليؤكد لنا أن ظلم الناس كان يقتضي العقوبة ؛ ولكن رحمته سبحانه تسيطر على العقوبة .

وهكذا أدت كلمة " على " معنى " مع " ، وأضافت لنا أن الحق سبحانه هو المسيطر على العقوبة ؛ وأن رحمة الله تَطْغَى على ظلم العباد .

ومِثْل ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ . . . ﴾ [الإنسان : 8]

أي : أنهم يُحِبون الطعام حَبّاً جَمّاً ؛ لكن إرادة الحفاوة والكرم تَطْغَى على حُبِّ الطعام .

ولكن لا يجب أن يظن الناس أن رحمة الله تطغى على عقابه دائماً ؛ فلو ظن البعض من المجترئين هذا الظن ؛ وتوهموا أنها قضية عامة ؛ لَفسد الكون ؛ ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿ . . . وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ [الرعد : 6]

أي : أنه سبحانه قادر على العقاب العظيم ، وهكذا جمعت الآية بين الرجاء والتخويف .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(302/407)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن الحسن – رضي الله عنه – في قوله ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ قال : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك ، فعجب قولهم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن زيد – رضي الله عنه – في الآية قال : إن تعجب من تكذيبهم وهم رأوا من قدرة الله وأمره ، وما ضرب لهم من الأمثال وأراهم

حياة الموتى والأرض الميتة، فتعجب من قولهم ﴿ أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد ﴾ أو لا يرون أنه خلقهم من نطفة أشد من الخلق من تراب وعظام ؟ ؟ . .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ قال: عجب الرحمن من تكذيبهم بالبعث.

أما قوله تعالى ﴿ وأولئك الأغلال في أعناقهم ﴾ .

أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والخطيب، عن الحسن - رضي الله عنه - قال: إن الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار لأنهم أعجزوا الرب، ولكنها جعلت في أعناقهم، لكي إذا طغا بهم اللهب أرسبتهم في النار.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾ قال: بالعقوبة قبل العافية ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ قال: وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال ﴿ المثلات ﴾ ما أصاب القرون الماضية من العذاب.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ قال: الأمثال.

وأخرج ابن جرير عن الشعبي - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ قال: القردة والخنازير، هي المثلات. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لولا عفو الله وتجاوزه، ما هنأ لأحد العيش، ولولا وعيده، وعقابه، لاتَّكَلَ كُلُّ أحد". انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(304/407)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ : يجوز فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه خبرٌ مقدمٌ ، و " قولُهم " مبتدأ مؤخرٌ ، ولا بد مِنْ حَذْفِ صفةٍ لتتِمَّ الفائدةُ ، أي : فَعَجَبٌ أيُّ عَجَبٍ ، أو غريب ونحوه . والثاني : أنه مبتدأٌ ، وسَوَّغَ الابتداءُ ما ذكرْتُه مِن الوصفِ المقدّرِ ، ولا يَضُرُّ حينئذٍ كونُ خبرِه ، معرفةً ، وهذا كما أَعْرب سيبويهِ " كم " مِنْ " كم مالُك " و " خيرٌ " مِنْ " اقصِدْ رجلاً خيرٌ منه أبوه " مبتدأين لمسوِّغِ الابتداء بهما ، وخبرُهما معرفةً . قاله الشيخ وللنزاعِ فيه مجالٌ .

على أنَّ هناك عِلَّةً لا تَتَأَتَّى ههنا : وهي أن الذي حَمَلَ سيبويهِ على ذلك في المسألتين أنَّ أكثرَ ما يقع موقعَ " كم " و " خير " ما هو مبتدأ ، فلذلك حَكَمَ عليهما بحكمِ الغالبِ بخلافِ ما نحن فيه .

الثالث : أنَّ " عجبٌ " مبتدأٌ بمعنى مُعْجِب ، و " قولُهم " فاعلٌ به ، قاله أبو البقاء ، وردَّ عليه الشيخُ : بانهم نَصُّوا على أن " فَعَلاً " و " فُعْلَة " و " فِعْلاً " يَنُوب عن مفعولٍ في المعنى ولا يعمل عملَه ، فلا تقول : مررتُ برجلٍ ذِبْحٍ كبشُه ، ولا غُرْفَةٍ ماؤه ، ولا قَبَضٍ مالُه " .

قلت : وأيضاً فإن الصفاتِ لا تعمل إلاَّ إذا اعتمَدَتْ على أشياءَ مخصوصةٍ ، وليس منها هنا شيءٌ .

قوله: ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يجوز في هذه الجملةِ الاستفهاميةِ وجهان، أحدُهما: -وهو الظاهر- أنها منصوبةُ المحلِ لحكايتها بالقولِ. والثاني: أنها وما في حيِّزها في محلِ رفعٍ بدلاً مِنْ قولُهم"، وبه بدأ الزمخشري، ويكون بدل كلٍ مِنْ كل، لأنّ هذا هو نفسُ قولِهم. و"إذا" هنا ظرفٌ محضٌ، وليس فيها معنى الشرطِ، والعاملُ فيها مقدرٌ يُفَسِّره ﴿ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ تقديرُه: أإذا كنا ترابا نُبْعَثُ أو نُحْشَر، ولا يَعْمل فيها ﴿ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ لأنَّ ما بعد "إذا" لا يعمل فيما قبلها، ولا يعمل فيها أيضاً "كُنَّا" لإضافتها إليها.

واختلف القرّاءُ في هذا الاستفهامِ المكررِ اختلافاً منتشراً، وهو في أحدِ عشرَ موضعاً من القرآن، فلا بُدَّ مِنْ تَعيينِها وبيانِ مراتبِ القرّاء فيها، فإنَّ في ضبطها عُسْراً يَسْهُل بعَوْنِ الله تعالى:

أمّا المواضعُ المذكورةُ، فأوَّلُها ما في هذه السورة. الثاني والثالث كلاهما في "الإسراء" وهما: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الآيتان: 49، 98] موضعان الرابع: في "المؤمنون" ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الآية: 82]. وفي "النمل": ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَآؤُنَا أَءِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ [الآية: 67]، وفي"

العنكبوت " : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العالمين أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال ﴾

(306/407)

[الآيتان : 28 ، 29] . وفي " ألم ، السجدة " ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [الآية : 10] . وفي " الصافات " موضعان ، وفي الواقعة موضعٌ : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصافات : 16 ، 53 ، الواقعة : 47] . وفي " النازعات " : ﴿ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافرة أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾ [الآية : 11] .

هذه هي المواضعُ المختلَفُ فيها ، وأمَّا ضبطُ الخلافِ فيها بالنسبةِ إلى القرَّاء ففيه طريقان ، أحدهما بالنسبة إلى ذِكْر القُرَّاء ، والثاني : بالنسبة إلى ذِكْر السُّوَر وهذا الثاني أقربُ ، فلذلك بَدَأْتُ به فأقول : هذه المواضعُ تنقسم قسمين : قسمٌ منها سبعةُ مواضعَ لها حكمٌ واحدٌ ، وقسمٌ منها أربعةُ مواضعَ ، لكلٍ منها حكمٌ على حِدَته .

أمَّا القسم الأول : فمنه في هذه السورة ، والثاني والثالث في سبحان ، والرابع في المؤمنين ، والخامس في ألم السجدة ، والسادس والسابع في الصَّافات ، وقد عرَفْتَ أعيانَها ممَّا تقدَّمَ .

أمَّا حكمُها : فإنَّ نافعاً والكسائيَّ يستفهمان في الأول ويُخْبران في الثاني ، وأن ابنَ عامرٍ يُخْبِر في الأول ، ويستفهم في الثاني ، وأنَّ الباقين يَسْتفهمون في الأول والثاني .

(307/407)

وأمَّا القسمُ الثاني : فأوَّله [ما في سورة النمل] ، وحكمُه : أنَّ نافعاً يُخْبِر في الأول ويستفهم في الثاني ، وأن ابنَ عامر والكسائي يعكِسُه ، أي : يَسْتفهمان في الأول ويُخْبِران في الثاني ، وأنَّ الباقين يَسْتفهمون فيهما . الثاني : ما في سورة العنكبوت ، وحكمُه : أن نافعاً وابنَ كثير وابنَ عامرٍ وحفصاً يُخْبِرون في الأول ويستفهمون في الثاني ، وأن الباقين يستفهمون فيهما . الثالث : ما في سورة الواقعة ، وحكمُه : أن نافعاً والكسائيَّ يستفهمان في الأول ، ويُخبران في الثاني ، وأن الباقين يستفهمون فيهما . الرابع ما في سورة النازعات ، وحكمه : أنَّ نافعاً وابن عامر والكسائي يستفهمون في الأول ويخبرون في الثاني ، وأنَّ الباقين يستفهمون فيهما .

وأمَّا الطريقُ الآخرُ بالنسبة إلى القراء فأقول : إن القراء فيها على أربعِ مراتبَ ، والأولى : ان نافعاً –رحمه الله– قرأ بالاستفهام في الأول وبالخبر في الثاني ، إلا في النمل والعنكبوت فإنه عَكَس . المرتبة الثانية : أن ابن كثير وحفصاً قرآ بالاستفهام في الأول والثاني ، إلا الأولَ من

العنكبوت فقرآه بالخبر . المرتبة الثالثة : أن ابنَ عامر قرأ بالخبر في الأول والاستفهام في الثاني ، إلا في النمل والواقعة والنازعات ، فقرأ في النمل والنازعات بالاستفهام في الأول ، وبالخبر في الثاني ، وفي الواقعة بالاستفهام فيهما . المرتبة الرابعة : الباقون –وهم أبو عمرو وحمزة وأبو بكر– قرؤوا بالاستفهام في الأول والثاني ، ولم يخالِفْ أحدٌ منهم أصلَه ، وإنما ذكرت هذين الطريقين لعُسْرهما وصعوبةِ استخراجهما من كتب القراءات .

(308/407)

ثم الوجهُ في قراءةِ مَن ، استفهم في الأول والثاني قَصْدُ المبالغةِ في الإِنكار ، فأتى به في الجملة الأولى ، وأعاده في الثانية تأكيداً له ، والوجهُ في قراءة منْ أتى به في مرة واحدةً حصولُ المقصودِ به ؛ لأنَّ كلَّ جملة مرتبطةٌ بالأخرى ، فإذا أنكرَ في إحداهما حصَلَ الإِنكار في الأخرى ، وأمَّا مَنْ خالف أصلَه في شيءٍ من ذلك فلاتِّباع الأَثَر .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ الحسنة ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه متعلقٌ بالاستعجال ظرفاً له ، والثاني : أنه متعلِّقٌ بمحذوف على أنه حالٌ مقدَّرةٌ مِن " السَّيِّئة " قاله أبو البقاء .

قوله : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ ﴾ يجوز أن تكونَ حالاً وهو الظاهر ، وأن تكونَ مستأنفةً . والعامَّةُ على فتح الميم وضمِّ المثلثة ، الواحدة " مَثُلَة " كسَمُرَة وسَمُرات ، وهي العقوبةُ الفاضحة . قال ابن عباس : : العقوباتُ المستأصِلات كمَثُلَةِ قَطْعِ الأذن والأنف ونحوهما " ، سُمِّيَت بذلك لما بين العقاب والمُعَاقَب من المماثلة كقوله : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ، أو لأَخْذِها من المِثال بمعنى القِصاص ، يقال : أَمْثَلْتُ الرجلَ من صاحبِه وأَقْصَصْتُه ، بمعنى واحد ، أو لأخْذِها مِنْ ضَرْبِ المَثَل لِعظَم شأنها .

وقرأ ابن مُصَرِّف بفتح الميم وسكون الثاء . قيل : وهي لغةُ الحجاز في " مَثْلة " . / وقرأ ابن وثَّاب بضمِّ الميم وسكونِ الثاء ، وهي لغة تميم . وقرأ الأعمشُ ومجاهدٌ بفتحهما ، وعيسى بن عمر وأبو بكرٍ في روايةٍ بضمهما .

(309/407)

فأمَّا الضمُّ والإِسكانُ فيجوز أن يكونَ أصلاً بنفسه لغة ، وأن يكونَ مخففاً مِنْ قراءة مَنْ ضمَّهما . وأمَّا ضمُّهما فيُحْتمل أيضاً أن يكونَ اصلاً بنفسه لغةً ، وأن يكونَ إتباعاً مِنْ قراءة الضمِّ والإِسكان نحو : العُسُرِ في العُسْر ، وقد عُرِفَ ما فيه .

قوله : ﴿ على ظُلْمِهِمْ ﴾ حال من " للناس " . والعامل فيها قال أبو البقاء : " مغفرة " يعني أنه هو العامل في صاحبها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 15.20 ﴾

(310/407)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5) ﴾

وإن تعجبُ – يا محمد – لقولهم فهذا موضعٌ يُتَعَجَّبُ منه الخَلْق ، فالعَجَبُ لا يجوز في صفة الحقّ ، إذ إن التعجبَ الاستبعادُ والحقّ لا يَسْتَبْعِدُ شيئاً ، وإنما أثبت موضعَ التعجب للخَلْق ، وحَسَنٌ ما قالوا : " إنما تعجب من حجب " لأنَّ مَنْ نَالَ عيونَ البصيرةِ لا يتعجَّبُ مِنْ شيء .

وقومٌ أطلقوا اللفظ بأن هذا من باب الموافقة أي إنك إن تعجب فهذا عجب موافقتك له .

وإطلاق هذا – وإن كان فيه إشارة إلى حالة لطيفة – لا يجوز ، والأدبُ السكوتُ عن أمثال هذا . والقوم عبّروا عن ذلك فقالوا : أعجبُ العجبِ قول ما لا يجوز في وصفه

العجب . . وإنْ تعجَّب .

وقوله تعالى : ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ : استبعادُهم النشأةَ الثانيةَ - مع إقرارهم بالخَلْقِ الأول وهما في معنىً واحد - موضعُ التعجب ، إذ هو صريح في المناقضة ، وكان القومُ أَصحابَ تمييز وتحصيل ، فقياسٌ مثل هذا يدعو إلى العجب . ولكن لولا أن الله - سبحانه - لَبَّسَ عليهم كما قال : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : 9] - وإلا ما كان ينبغي أَنْ يخفي عليهم جواز هذا مع وضوحه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 217 . 218 ﴾

(311/407)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن بعد الأربعمائة

حُقوقُ النَّسْخِ والطَّبْعِ والنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بها لِكُلِّ مُسلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 7 ﴾ من سورة الرعد

وحتى الآية ﴿ 11 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

(7) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8)

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما يين سبحانه أنهم غطوا آيات ربهم المتفضل عليهم بتلك الآيات وغيرها ، عجب منهم عجباً آخر في طلبهم إنزال الآيات مع كونها متساوية الأقدام في الدلالة على الصانع وما له من صفات الكمال ، فلما كفروا بما أتاهم كانوا جديرين بالكفر بما يأتيهم فقال : ﴿ ويقول ﴾ أي على سبيل الاستمرار ﴿ الذين كفروا ﴾ استهزاء بالقدرة ﴿ لولا ﴾ أي هلا ولم لا ﴿ أنزل ﴾ أي بإنزال أيّ كائن كان ﴿ عليه آية ﴾ جاحدين عناداً لما أتاه من الآيات ﴿ من ربه ﴾ أي المحسن إليه تصديقاً له .

ولما كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم راغباً في إجابة مقترحاتهم لشدة التفاته إلى أيمانهم ، كان كأنه سأل في ذلك لتحصل لهم النجاة ، فأجيب بقوله تعالى – مقدماً ما السياق أولى به لأنه لبيان أن الأكثر لا يؤمن – : ﴿ إنما أنت منذر ﴾ أي نبي منذر هاد لهم تهديهم ببيان ما أنزله عليك مما يوقع في الهلاك أو يوصل إلى النجاة ، سائر فيهم على حسب ما أحدّه لك ، وأصل الإنذار الإعلام بموضع المخافة ليتقى ، لا أنك مثبت للإيمان في الصدور ﴿ ولكل قوم ﴾ ممن أرسلنا إليهم نبي ﴿ هاد ﴾ أي داع يهديهم إلى مراشدهم ومنذر ينذرهم من مغاويهم ، أي يبين لهم ما أرسلنا به من النذارة والبشارة ، وأعطى كل

منذر وهاد آيات تليق به وبقومه على مثلها يؤمن البشر ، فيهدي الله من يعلم فيه قابلية الهدى بما نصب من الآيات المشاهدات ، فلا يحتاج إلى شيء من المقترحات ، ويضل من يعلم فيه دواعي الضلال ولو جاءته كل آية ، لأنه الذي جبلهم على طبائع الخير والشر ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [تبارك : 14] فهو كقوله تعالى : ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر : 24] وكقوله في هذه السورة ﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ والآية من الاحتباك : ذكر المنذر أولاً يدل على حذفه ثانياً ، وذكر الهاد ثانياً دال على حذف مثله أولاً .

(5/408)

ولما كان ما مضى مترتباً على العلم والقدرة ولا سيما ختم هذه الآية بهاد ، وكان إنكارهم البعث إنكاراً للنشأة الأولى ، وكان سبحانه وتعالى يعلم أن إجابتهم إلى ما اقترحوا غير نافع لهم ، لأنهم متعنتون لا مسترشدون ، شرع سبحانه - بعد الإعراض عن إجابة مقترحاتهم - يقرر من أفعاله المحسوسة لهم المقتضية لاتصافه من العلم والقدرة بما هو كالإعادة سواء إشارة منه تعالى إلى أن إنكار البعث إن كان لاستحالة الإعادة فهي مثل البداءة ، وإن كان لاستحالة تمييز التراب الذي كان منه الحيوان - بعد اختلاطه بغيره وتفرق أجزائه - فتمييز

الماء الذي يكون منه الولد من الماء الذي لا يصلح لذلك أعجب ، لأن الماء أشد اختلاطاً وأخفى امتزاجاً ، ومع ذلك فهو يعلمه فقال : ﴿ الله ﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة ﴿ يعلم ﴾ أي علماً قديماً في الأزل بما سيوجد وعلماً يتجدد تعلقه بحسب حدوث الحادثات على الاستمرار ﴿ ما تحمل ﴾ أي الذي تحمله في رحمها ﴿ كل أنثى ﴾ أي الماء الذي يصلح لأن يكون حملاً ﴿ وما تغيض ﴾ أي تنقص ﴿ الأرحام ﴾ من الماء فتنشفه فيضمحل لعدم صلاحيته لأن يكون منه ولد ، وأصل الغيض - كما قال الرماني : ذهاب المائع في العمق الغامض ، وفعله متعد لازم ﴿ وما تزداد ﴾ أي الأرحام من الماء على الماء الذي قدر تعالى كونه حملاً فيكون توأماً فأكثر في جماع آخر بعد حمل الأول كما صرح بإمكان ذلك ابن سينا وغيره من الأطباء ، وولدت في زماننا أتان حماراً وبغلاً ، وذلك لأن الزيادة ضم شيء إلى المقدار وكثرته شيئاً بعد شيء فيقدر ذلك ، ولا يمكن أحداً زيادته ولا نقصانه ، وذلك كله يستلزم الحكمة فلذا ختمه بقوله : ﴿ وكل شيء ﴾ أي من هذا وغيره من الآيات المقترحات وغيرها ﴿ عنده ﴾ أي في قدرته وعلمه ﴿ بمقدار ﴾ في كيفيته وكميته لا يتجاوزه ولا تقصر عنه ، لأنه عالم بكيفية كل شيء وكميته على الوجه المفصل المبين ، فامتنع وقوع اللبس في تلك المعلومات وهو قادر على ما يريد منها ، فالآية

بيان لقوله تعالى : ﴿ الذين كفروا بربهم ﴾ من حيث بين فيها تربيته لهم على الوجه الذي هم له مشاهدون وبه معترفون .

ولما كان هذا عيباً وكان علمه مستلزماً لعلم الشهادة ، وكان للتصريح مزية لا تخفى ، صرح به على وجه كلي يعم تلك الجزئيات وغيرها فقال : ﴿ عالم الغيب ﴾ وهو ما غاب عن كل مخلوق ﴿ والشهادة ﴾ قال الرماني : الغيب : كون الشيء بحيث يخفى عن الحس ، والشهادة : كونه بحيث يظهر له .

ولما كان العلم والحكمة لا يتمان إلا بكمال القدرة والعظمة قال : ﴿ الكبير ﴾ أي الذي يتضاءل عنده كل ما فيه صفات تقتضي الكبر ، قال الإمام أبو الحسن الحرالي : والكبر : ظهور التفاوت في ظاهر وباهر القدر الذي لا يحتاج إلى فكر ، ولذلك كان فطرة للخلق أن الله أكبر ، ولما كان لا ظاهر قدر للخلق لما عليهم من بادي الضروريات والحاجات المعلنة بصغير بالقدر ، ومن حاول منهم أن يكبر بسطوة أو تسلط وفساد زاد صغار قدره بما اكتسب في أعين أرباب البصائر في الدنيا ، ويبدو ذلك منه لعيون جميع الخلق في الأخرى " يحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذي يطؤهم الناس بأقدامهم " فلذلك اختصاص معنى أنه لا كبير إلا الله - انتهى .

﴿ المتعال ﴾ أي الذي لا يدنو - من أوج علوه في ذات أو صفة أو فعل - عالٍ ، وأخرجه

مخرج التفاعل ليكون أدل على المعنى وأبلغ فيه ؛ وقال أبو الحسن الحرالي رحمه الله :

والتعالي : فوت التناول والمنال بحكم أو حجة ، وأشعر التفاعل بما يجري من توهم المحتجين في أمره بأوهام حجج داحضة ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ [الشورى : 16] فهو تعالى يأذن في الاحتجاج والجدال ثم يتعالى بما له من الحجة البالغة ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾ [الأنعام : 149] فهو المتعالي علماً وحكماً وحجة ، وحقيقة المتعالي الذي لا يتعالى إلا هو – انتهى .

والحاصل أنه لما وصف نفسه مما تقدم ، أشار إلى أن ذلك على ما تحتمله العقول وأن الحق في وصفه الكبر المطلق والتعالي المطلق ، لأن العقول لا تحتمل أكثر من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 127.130 ﴾

(7/408)

فائدة فى ذكر تفسير شيعي فى الآية الكريمة

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

ومن ذلك ما ذكره بعض المفسرين : كابن جرير في تفسيره ، والسيوطي في : "الدر المنثور" ومفسروا الشيعة في تفاسيرهم ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ

عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ 1 فقد فسروا المنذر : بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والهادي بأنه علي رضي الله عنه ، والجمهور من المفسرين سلفا وخلفا على أن المنذر والهادي هو رسول الله وكذلك ما روي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ 2 من أن المراد بها : أذن علي ، فقد رووا : أن النبي صلى الله عليهوسلم لما نزلت الآية أخذ بأذنه وقال : "هي أذنك يا علي" ، وفي رواية : "اللهم اجعلها أذن علي" ، وهما موضوعان كما نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ، وغيره من الأئمة . انتهى . ا هـ

﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 332 ﴾

---

1 الرعد : 7 .

2 الحاقة : 12 .

(8/408)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) ﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في الحشر والنشر أولاً ،

ثم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانياً ، ثم طعنوا في نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثاً ، وهو المذكور في هذه الآية .

واعلم أن السبب فيه أنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا : هذا كتاب مثل سائر الكتب وإتيان الإنسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزة ألبتة ، وإنما المعجز ما يكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام .

واعلم أن من الناس من زعم أنه لم يظهر معجز في صدق محمد عليه الصلاة والسلام سوى القرآن .

قالوا : إن هذا الكلام ، إنما يصح إذا طعنوا في كون القرآن معجزاً ، مع أنه ما ظهر عليه نوع آخر من المعجزات ، لأن بتقدير أن يكون قد ظهر على يده نوع آخر من المعجزات لامتنع أن يقولوا : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ فهذا يدل على أنه عليه السلام ما كان له معجز سوى القرآن .

واعلم أن الجواب عنه من وجهين : الأول : لعل المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التي شاهدوا منه صلى الله عليه وسلم كحنين الجذع ونبوع الماء من بين أصابعه وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل ، فطلبوا منه معجزات قاهرة غير هذه الأمور : مثل فلق البحر بالعصا ، وقلب العصا ثعباناً .

فإن قيل : فما السبب في أن الله تعالى منعهم وما أعطاهم ؟

قلنا إنه لما أظهر المعجزة الواحدة فقد تم الغرض فيكون طلب الباقي تحكماً وظهور القرآن معجزة ، فما كان مع ذلك حاجة إلى سائر المعجزات ، وأيضاً فلعله تعالى علم أنهم يصرون على العناد بعد ظهور تلك المعجزات الملتمسة ، وكانوا يصيرون حينئذ مستوجبين لعذاب الاستئصال ، فلهذا السبب ما أعطاهم الله تعالى مطلوبهم ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : 23] بين أنه لم يعطهم مطلوبهم لعلمه تعالى أنهم لا ينتفعون به ، وأيضاً ففتح هذا الباب يفضي إلى ما لا نهاية له .

وهو أنه كلما أتى بمعجزة جاء واحد آخر ، فطلب منه معجزة أخرى ، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء عليهم السلام ، وأنه باطل .

الوجه الثاني : وفي الجواب لعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات .

ثم إنه تعالى لما حكى عن الكفار ذلك قال : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اتفق القراء على التنوين في قوله : ﴿ هَادٍ ﴾ وحذف الياء في الوصل ، واختلفوا في الوقف ، فقرأ ابن كثير : بالوقف على الياء ، والباقون : بغير الياء ، وهو رواية ابن فليح عن ابن كثير للتخفيف .

المسألة الثانية :

في تفسير هذه الآية وجوه .

(10/408)

الأول : المراد أن الرسول عليه السلام منذر لقومه مبين لهم ، ولكل قوم من قبله هاد ومنذر وداع ، وأنه تعالى سوى بين الكل في إظهار المعجزة إلا أنه كان لكل قوم طريق مخصوص لأجله استحق التخصيص بتلك المعجزة المخصوصة ، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم ، ولما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب ، جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة وهو إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، ولما كان الغالب في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم الفصاحة والبلاغة جعل معجزته ما كان لائقاً بذلك الزمان وهو فصاحة القرآن فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم فبأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر

المعجزات أولى فهذا هو الذي قرره القاضي وهو الوجه الصحيح الذي يبقى الكلام معه منتظماً .

والوجه الثاني : وهو أن المعنى أنهم لا يجحدون كون القرآن معجزاً فلا يضيق قلبك بسببه إنما أنت منذر فما عليك إلا أن تنذر إلى أن يحصل الإيمان في صدورهم ولست بقادر عليهم ولكل قوم هاد ، قادر على هدايتهم بالتخليق وهو الله سبحانه وتعالى فيكون المعنى ليس لك إلا الإنذار ، وأما الهداية فمن الله تعالى .

واعلم أن أهل الظاهر من المفسرين ذكروا ههنا أقوالاً : الأول : المنذر والهادي شيء واحد والتقدير : إنما أنت منذر ولكل قوم منذر على حدة ومعجزة كل واحد منهم غير معجزة الآخر .

الثاني : المنذر محمد صلى الله عليه وسلم والهادي هو الله تعالى روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك .

والثالث : المنذر النبي .

والهادي علي .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال : " أنا المنذر " ثم أومأ إلى منكب علي رضي الله عنه وقال : " أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي " .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في وجه النظم وجوه ، الأول : أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم بين أنه تعالى عالم بجميع المعلومات فيعلم من حالهم أنهم هل طلبوا الآية الأخرى للاسترشاد وطلب البيان أو لأجل التعنت والعناد ، وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات ، أو يزداد إصرارهم واستكبارهم ، فلو علم تعالى أنهم طلبوا ذلك لأجل الاسترشاد وطلب البيان ومزيد الفائدة ، لأظهره الله تعالى وما منعهم عنه ، لكنه تعالى لما علم أنهم لم يقولوا ذلك إلا لأجل محض العناد لا جرم أنه تعالى منعهم عن ذلك وهو كقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الغيب للَّهِ فانتظروا ﴾ [يونس : 20] وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ [العنكبوت : 50] والثاني : أن وجه النظم أنه تعالى لما قال : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ [الرعد : 5] في إنكار البعث

وذلك لأنهم أنكروا البعث بسبب أن أجزاء أبدان الحيوانات عند تفرقها وتفتتها يختلط بعضها ببعض ولا يبقى الامتياز فبين تعالى أنه إنما لا يبقى الامتياز في حق من لا يكون عالماً بجميع المعلومات ، أما في حق من كان عالماً بجميع المعلومات ، فإنه يبقى تلك الأجزاء بحيث يمتاز بعضها عن البعض ، ثم احتج على كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات بأنه يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام .

الثالث : أن هذا متصل بقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ [الرعد : 6] والمعنى : أنه تعالى عالم بجميع المعلومات فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم كونه فيه مصلحة ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(12/408)

لفظ "ما" في قوله : ﴿ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أنثى وَمَا تَغِيضُ الأرحام وَمَا تَزْدَادُ ﴾ إما أن تكون موصولة وإما أن تكون مصدرية ، فإن كانت موصولة ، فالمعنى أنه يعلم ما تحمله من الولد أنه من أي الأقسام أهو ذكر أم أنثى وتام أو ناقص وحسن أو قبيح وطويل أو قصير وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة فيه .

ثم قال : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرحام ﴾ والغيض هو النقصان سواء كان لازماً أو متعدياً يقال : غاض الماء وغضته أنا ومنه قوله تعالى : ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾ [هود : 44] والمراد من الآية وما تغيضه الأرحام إلا أنه حذف الضمير الراجع وقوله : ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ أي تأخذه زيادة تقول : أخذت منه حقي وازددت منه كذا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وازدادوا تِسْعًا ﴾ [الكهف : 25] ثم اختلفوا فيما تغيضه الرحم وتزداده على وجوه .

الأول : عدد الولد فإن الرحم قد يشتمل على واحد واثنين وعلى ثلاثة وأربعة يروي أن شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمه .

الثاني : الولد قد يكون مخدجاً ، وقد يكون تاماً .

الثالث : مدة ولادته قد تكون تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى ، وإلى أربعة عند الشافعي وإلى خمس عند مالك ، وقيل : إن الضحاك ولد لسنتين ، وهرم بن حيان بقي في بطن أمه أربع سنين ولذلك سمي هرماً .

الرابع : الدم فإنه تارة يقل وتارة يكثر .

الخامس : ما ينقص بالسقط من غير أن يتم وما يزداد بالتمام .

السادس : ما ينقص بظهور دم الحيض ، وذلك لأنه إذا سال الدم في وقت الحمل ضعف الولد ونقص .

وبمقدار حصول ذلك النقصان يزداد أيام الحمل لتصير هذه الزيادة جابرة لذلك النقصان قال

ابن عباس رضي الله عنهما : كلما سال الحيض في وقت الحمل يوماً زاد في مدة الحمل يوماً ليحصل به الجبر ويعتدل الأمر .

(13/408)

السابع : أن دم الحيض فضلة تجتمع في بطن المرأة فإذا امتلأت عروقها من تلك الفضلات فاضت وخرجت ، وسالت من دواخل تلك العروق ، ثم إذا سالت تلك المواد امتلأت تلك العروق مرة أخرى هذا كله إذا قلنا إن كلمة "ما" موصولة .

أما إذا قلنا : إنها مصدرية فالمعنى : أنه تعالى يعلم حمل كل أنثى ويعلم غيض الأرحام وازديادها لا يخفى عليه شيء من ذلك ولا من أوقاته وأحواله .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ فمعناه : بقدر واحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، كقوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] وقوله في أول الفرقان : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : 2] .

واعلم أن قوله : ﴿ كُلّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ يحتمل أن يكون المراد من العندية العلم ومعناه : أنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على الوجه المفصل المبين ومتى كان الأمر كذلك امتنع وقوع التغيير في تلك المعلومات ويحتمل أن يكون المراد من العندية أنه تعالى

خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الأزلية وإرادته السرمدية ، وعند حكماء الإسلام أنه تعالى وضع أشياء كلية وأودع فيها قوى وخواص ، وحركها بحيث يلزم من حركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة أحوال جزئية معينة ومناسبات مخصوصة مقدرة ، ويدخل في هذه الآية أفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم ، وهو من أدل الدلائل على بطلان قول المعتزلة .

ثم قال تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد علم ما غاب عن خلقه وما شهدوه .

قال الواحدي : فعلى هذا (الغيب) مصدر يريد به الغائب ، (والشهادة) أراد بها الشاهد .

واختلفوا في المراد بالغائب والشاهد .

قال بعضهم : الغائب هو المعلوم ، والشاهد هو الموجود ، وقال آخرون : الغائب ما غاب عن الحس ، والشاهد ما حضر ، وقال آخرون : الغائب ما لا يعرفه الخلق ، والشاهد ما يعرفه الخلق .

ونقول : المعلومات قسمان : المعلومات والموجودات ، والمعدومات منها معدومات يمتنع وجودها ومنها معدومات لا يمتنع وجودها ، والموجودات أيضاً قسمان : موجودات يمتنع عدمها ، وموجودات لا يمتنع عدمها ، وكل واحد من هذه الأقسام الأربعة له أحكام وخواص ، والكل معلوم لله تعالى ، وحكى الشيخ الإمام الوالد عن أبي القاسم الأنصاري عن إمام الحرمين – رحمهم الله تعالى – أنه كان يقول لله تعالى معلومات لا نهاية لها ، وله في كل واحد من تلك المعلومات ، معلومات أخرى لا نهاية لها ، لأن الجوهر الفرد يعلم الله تعالى من حاله أنه يمكن وقوعه في أحياز لا نهاية لها على البدل وموصوفاً بصفات لا نهاية لها على البدل ، وهو تعالى عالم بكل الأحوال على التفصيل ، وكل هذه الأقسام داخل تحت قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ .

ثم إنه تعالى ذكر عقيبه قوله : ﴿ الكبير ﴾ وهو تعالى يمتنع أن يكون كبيراً بحسب الجثة والحجم والمقدار ، فوجب أن يكون كبيراً بحسب القدرة والمقادير الإلهية ثم وصف تعالى نفسه بأنه المتعال وهو المتنزه عن كل ما لا يجوز عليه وذلك يدل على كونه منزهاً في ذاته وصفاته وأفعاله فهذه الآية دالة على كونه تعالى موصوفاً بالعلم الكامل والقدرة التامة ، ومنزهاً عن كل ما لا ينبغي ، وذلك يدل على كونه تعالى قادراً على البعث الذي أنكروه وعلى الآيات التي اقترحوها وعلى العذاب الذي استعجلوه ، وأنه إنما يؤخر ذلك بحسب المشيئة الإلهية عند قوم وبحسب المصلحة عند آخرين ، وقرأ ابن كثير (المتعالي) بإثبات

الياء في الوقف والوصل على الأصل .

والباقون بحذف الياء في الحالتين للتخفيف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 15.11 ﴾

(15/408)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدٍ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ : " الْهَادِي هُوَ اللَّهُ تَعَالَى " وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا وَقَتَادَةَ : " الْهَادِي نَبِيٌّ كُلِّ أُمَّةٍ " .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا : الْهَادِي الدَّاعِي إلَى الْحَقِّ " .

وَعَنْ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَأَبِي الضُّحَى وَعِكْرِمَةَ : " الْهَادِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ لِأَنَّ تَقْدِيرَهُ : إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَهَادٍ لِكُلِّ قَوْمٍ ، وَالْمُنْذِرُ هُوَ الْهَادِي وَالْهَادِي أَيْضًا هُوَ الْمُنْذِرُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ : " وَمَا تَنْقُصُ مِنْ الْأَشْهُرِ التِّسْعَةِ وَمَا تَزْدَادُ ، فَإِنَّ الْوَلَدَ يُولَدُ لِسِتَّةِ

أَشْهُرٍ فَيَعِيشُ وَيُولَدُ لِسَنَتَيْنِ فَيَعِيشُ " .

وَقَالَ الْحَسَنُ : " وَمَا تَنْقُصُ بِالسَّقْطِ وَمَا تَزْدَادُ بِالتَّمَامِ " .

وَقَالَ الْفَرَّاءُ : " الْغَيْضُ النُّقْصَانُ ، أَلَا تَرَاهُمْ يَقُولُونَ غَاضَتْ الْمِيَاهُ إذَا نَقَصَتْ ؟ " .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ : " إذَا غَاضَتْ " وَقَالَ : " مَا غَاضَتْ الرَّحِمُ بِالدَّمِ يَوْمًا إلَّا زَادَ فِي الْحَمْلِ " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " الْغَيْضُ مَا رَأَتْ الْحَامِلُ مِنْ الدَّمِ فِي حَمْلِهَا وَهُوَ نُقْصَانٌ مِنْ الْوَلَدِ ، وَالزِّيَادَةُ مَا زَادَ عَلَى تِسْعَةِ أَشْهُرٍ وَهُوَ تَمَامُ النُّقْصَانِ وَهُوَ الزِّيَادَةُ " .

(16/408)

وَزَعَمَ إسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ : أَنَّ التَّفْسِيرَ إنْ كَانَ عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ فَهُوَ حُجَّةٌ مِنْهُ فِي أَنَّ الْحَامِلَ تَحِيضُ ، قَالَ : " لِأَنَّ كُلَّ دَمٍ تَخْرُجُ مِنْ الرَّحِمِ فَلَيْسَ يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ حَيْضًا أَوْ نِفَاسًا وَأَمَّا دَمُ الِاسْتِحَاضَةِ فَهُوَ مِنْ عَرَضٍ " .

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّ الدَّمَ الْخَارِجَ مِنْ الرَّحِمِ قَدْ يَكُونُ حَيْضًا وَنِفَاسًا وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَهُمَا ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دَمِ الِاسْتِحَاضَةِ : ﴿ إنَّهُ دَمُ عِرْقٍ ﴾ غَيْرُ مَانِعٍ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ مَا يَخْرُجُ مِنْ الرَّحِمِ مِنْ الدَّمِ قَدْ يَكُونُ دَمُ اسْتِحَاضَةٍ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : إنَّمَا هُوَ عِرْقٌ انْقَطَعَ أَوْ دَاءٌ عَرَضَ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ دَمَ الِاسْتِحَاضَةِ قَدْ يَكُونُ

مِنْ دَاءٍ عَرَضَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عِرْقٍ وَأَيْضًا فَمَا الَّذِي يُحِيلُ أَنْ يَكُونَ دَمُ الْعِرْقِ خَارِجًا مِنْ الرَّحِمِ بِأَنْ يَنْقَطِعَ الْعِرْقُ فَيَسِيلُ الدَّمُ إِلَيْهَا ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يَكُونُ حَيْضًا وَلَا نِفَاسًا ؟ ثُمَّ قَالَ : " فَلَا يُقَالُ إِنَّ الْحَامِلَ لَا تَحِيضُ إِلَّا بِخَبَرٍ عَنْ اللَّهِ أَوْ عَنْ رَسُولِهِ لِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ غَيْبٍ ".

(17/408)

وَنَسِيَ أَنَّ قَضِيَّتَهُ تُوجِبُ أَنْ لَا يُقَالَ : إِنَّهَا تَحِيضُ إِلَّا بِخَبَرٍ عَنْ اللَّهِ وَعَنْ الرَّسُولِ لِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ غَيْبٍ عَلَى حَسَبِ مَوْضُوعِهِ وَقَاعِدَتِهِ ، بَلْ قَدْ يَسُوغُ لِمَنْ نَفَى الْحَيْضَ عَنْ الْحَامِلِ مَا لَا يَسُوغُ لِمَنْ أَثْبَتَهُ لِأَنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّهَا كَانَتْ غَيْرَ حَائِضٍ فَإِذَا رَأَتْ الدَّمَ وَاخْتَلَفُوا أَنَّهُ حَيْضٌ أَوْ غَيْرُ حَيْضٍ وَفِي إِثْبَاتِ الْحَيْضِ إِثْبَاتُ أَحْكَامٍ ، فَغَيْرُ جَائِزٍ إِثْبَاتُهُ حَيْضًا إِلَّا بِتَوْقِيفٍ .

وَوَاجِبٌ أَنْ تَكُونَ بَاقِيَةً عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ الْحَيْضِ حَتَّى يَثْبُتَ الْحَيْضُ بِتَوْقِيفٍ أَوْ اتِّفَاقٍ ؛ إذْ كَانَ فِي إِثْبَاتِ الدَّمِ حَيْضًا إِثْبَاتُ حُكْمٍ لَا سَبِيلَ إِلَى عِلْمِهِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ التَّوْقِيفِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ قَوْلَنَا حَيْضٌ " هُوَ حُكْمٌ لِدَمٍ خَارِجٍ مِنْ الرَّحِمِ ، وَقَدْ يُوجَدُ الدَّمُ خَارِجًا مِنْ الرَّحِمِ عَلَى هَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ فَيُحْكَمُ لِمَا رَأَتْهُ فِي أَيَّامِهَا بِحُكْمِ الْحَيْضِ وَلِمَا رَأَتْهُ فِي غَيْرِ أَيَّامِهَا

بِحُكْمِ الِاسْتِحَاضَةِ وَكَذَلِكَ النِّفَاسُ.

فَإِذَا كَانَ الْحَيْضُ لَيْسَ بِأَكْثَرَ مِنْ إثْبَاتِ أَحْكَامٍ لِدَمٍ يُوجَدُ فِي أَوْقَاتٍ وَلَمْ يَكُنْ الْحَيْضُ عِبَارَةً عَنْ الدَّمِ فَحَسْبُ دُونَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ الْحُكْمِ وَإِثْبَاتِ الْحُكْمِ بِخُرُوجِ دَمٍ لَا يُعْلَمُ إلَّا مِنْ طَرِيقِ التَّوْقِيفِ، فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُجْعَلَ هَذَا الْحُكْمُ ثَابِتًا لِدَمِ الْحَامِلِ؛ إذْ لَمْ يَرِدْ بِهِ تَوْقِيفٌ وَلَا حَصَلَ عَلَيْهِ اتِّفَاقٌ.

(18/408)

ثُمَّ قَالَ إسْمَاعِيلُ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ لَا يُقَالُ إنَّ الْحَامِلَ لَا تَحِيضُ إلَّا بِخَبَرٍ عَنْ اللَّهِ أَوْ عَنْ رَسُولِهِ لِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ غَيْبٍ: " وَلَا يَلْزَمُ ذَلِكَ مَنْ قَالَ: إنَّهَا تَحِيضُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَالَ: ﴿ وَيَسْأَلُونَك عَنْ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ فَلَمَّا قِيلَ: " النِّسَاءَ " لَزِمَ فِي ذَلِكَ الْعُمُومُ لِأَنَّ الدَّمَ إذَا خَرَجَ مِنْ فَرْجِهَا فَالْحَيْضُ أَوْلَى بِهِ حَتَّى يُعْلَمَ غَيْرُهُ ".

قَالَ

(19/408)

أَبُو بَكْرٍ : قَوْلُهُ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْمَحِيضِ ﴾ لَيْسَ فِيهِ بَيَانُ صِفَةِ الْحَيْضِ بِمَعْنَى يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ إنَّمَا هُوَ إخْبَارٌ عَمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْمَحِيضِ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَاجْتِنَابِ الرَّجُلِ جِمَاعَهَا وَإِخْبَارٌ عَنْ نَجَاسَةِ دَمِ الْحَيْضِ وَلُزُومِ اجْتِنَابِهِ ، وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى وُجُودِهِ فِي حَالِ الْحَمْلِ وَعَدَمِهِ وَقَوْلُهُ : " لَمَّا قِيلَ النِّسَاءَ لَزِمَ فِي ذَلِكَ الْعُمُومُ " لَا مَعْنَى لَهُ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ فِي الْمَحِيضِ ﴾ لَيْسَ فِيهِ بَيَانٌ أَنَّ الْحَيْضَ مَا هُوَ ، وَمَتَى ثَبَتَ الْمَحِيضُ وَجَبَ الِاعْتِزَالُ ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَا فِي أَنَّ الدَّمَ الْخَارِجَ فِي وَقْتِ الْحَمْلِ هَلْ هُوَ حَيْضٌ أَمْ لَا ، وَقَوْلُ الْخَصْمِ لَا يَكُونُ حُجَّةً لِنَفْسِهِ وَقَوْلُهُ : " إنَّ الدَّمَ إذَا خَرَجَ مِنْ فَرْجِهَا فَالْحَيْضُ أَوْلَى بِهِ " دَعْوَى مُجَرَّدَةٌ مِنْ الْبُرْهَانِ ، وَلِخَصْمِهِ أَنْ يَقُولَ : إنَّ الدَّمَ إذَا خَرَجَ مِنْ فَرْجِهَا فَغَيْرُ الْحَيْضِ أَوْلَى بِهِ حَتَّى يَقُومَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ حَيْضٌ لِوُجُودِنَا دَمًا خَارِجًا مِنْ الرَّحِمِ غَيْرَ حَيْضٍ ، فَلَمْ يَحْصُلْ مِنْ جَمِيعِ هَذَا الْكَلَامِ إلَّا دَعَاوَى مَبْنِيَّةٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَجَمِيعُهَا مُفْتَقِرٌ إلَى دَلِيلٍ يَعْضُدُهَا .

وَقَدْ رَوَى مَطَرٌ الْوَرَّاقُ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ فِي الْحَامِلِ تَرَى الدَّمَ : " إنَّهَا لَا تَدَعُ الصَّلَاةَ " .

وَرَوَى حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ : لَا يُخْتَلَفُ فِيهِ عِنْدَنَا عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ فِي الْحَامِلِ تَرَى الدَّمَ أَنَّهَا تُمْسِكُ عَنْ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْهُرَ ، وَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ تُرِيدَ بِهِ الْحَامِلَ الَّتِي فِي بَطْنِهَا وَلَدَانِ فَوَلَدَتْ أَحَدَهُمَا أَنَّ النِّفَاسَ مِنْ الْأَوَّلِ وَأَنَّهَا تَدَعُ الصَّلَاةَ حَتَّى تَطْهُرَ ، عَلَى مَا يَقُولُ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ فِي ذَلِكَ ، حَتَّى يَصِحَّ الْخَبَرَيْنِ جَمِيعًا عَنْهَا .

وَعِنْدَ أَصْحَابِنَا أَنَّ الْحَامِلَ لَا تَحِيضُ ، وَأَنَّ مَا رَأَتْهُ مِنْ دَمٍ فَهُوَ اسْتِحَاضَةٌ ، وَعِنْدَ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ تَحِيضُ .

(21/408)

فَالْحُجَّةُ لِقَوْلِنَا مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَبَايَا أَوْطَاسٍ : { لَا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ وَلَا حَائِلٌ حَتَّى تَسْتَبْرِئَ بِحَيْضَةٍ } وَالِاسْتِبْرَاءُ هُوَ مَعْرِفَةُ بَرَاءَةِ الرَّحِمِ فَلَمَّا جَعَلَ الشَّارِعُ وُجُودَ الْحَيْضِ عَلَمًا لِبَرَاءَةِ الرَّحِمِ لَمْ يَجُزْ وُجُودُهُ مَعَ الْحَبَلِ لِأَنَّهُ لَوْ جَازَ وُجُودُهُ مَعَهُ لَمْ يَكُنْ وُجُودُ الْحَيْضِ عَلَمًا لِبَرَاءَةِ الرَّحِمِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا { قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَلَاقِ السُّنَّةِ : فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ أَوْ حَامِلًا قَدْ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا } فَلَوْ كَانَتْ الْحَامِلُ تَحِيضُ لَفُصِلَ بَيْنَ جِمَاعِهَا وَطَلَاقِهَا بِحَيْضَةٍ كَغَيْرِ الْحَامِلِ ، وَفِي إبَاحَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إيقَاعَ الطَّلَاقِ عَلَى الْحَامِلِ بَعْدَ الْجِمَاعِ مِنْ غَيْرِ فَصْلٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ

الطَّلَاقِ بِحَيْضَةٍ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهَا لَا تَحِيضُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(22/408)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ﴾ تَمَدُّحٌ مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِعِلْمِ الْغَيْبِ ، وَالْإِحَاطَةِ بِالْبَاطِنِ الَّذِي يَخْفَى عَلَى الْخَلْقِ ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُشَارِكَهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ .

وَأَهْلُ الطِّبِّ يَقُولُونَ : إذَا ظَهَرَ النَّفْخُ فِي ثَدْيِ الْحَامِلِ الْأَيْمَنِ فَالْحَمْلُ ذَكَرٌ ، وَإِنْ ظَهَرَ فِي الثَّدْيِ الْأَيْسَرِ فَالْحَمْلُ أُنْثَى ، وَإِذَا كَانَ الثِّقَلُ لِلْمَرْأَةِ فِي الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ فَالْحَمْلُ ذَكَرٌ ، وَإِنْ وَجَدَتْ الثِّقَلَ فِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ فَالْوَلَدُ أُنْثَى ؛ فَإِنْ قَطَعُوا بِذَلِكَ فَهُوَ كُفْرٌ ، وَإِنْ قَالُوا : إنَّهَا تَجْرِبَةٌ وَجَدْنَاهَا تُرِكُوا وَمَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَقْدَحْ ذَلِكَ فِي التَّمَدُّحِ ؛ فَإِنَّ الْعَادَةَ يَجُوزُ انْكِسَارُهَا وَالْعِلْمُ لَا يَجُوزُ تَبَدُّلُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ وَقَدْ تَبَايَنَ النَّاسُ فِيهَا فِرَقًا، أَظْهَرُهَا تِسْعَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ مِنْ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ وَمَا تَزِيدُ عَلَيْهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ قَالَهُ الْحَسَنُ.

الثَّانِي: مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ: مَا تُسْقِطُ، وَمَا تَزْدَادُ، يَعْنِي عَلَيْهِ إلَى التِّسْعَةِ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ.

(23/408)

الثَّالِثُ: إذَا حَاضَتْ الْحَامِلُ نَقَصَ الْوَلَدُ فَذَلِكَ غَيْضُهُ، وَإِذَا لَمْ تَحِضْ ثَمَّ فَتِلْكَ عَلَى النُّقْصَانِ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ.

الرَّابِعُ: مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ فَتِلْكَ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَمَا تَزْدَادُ فَتِلْكَ لِعَامَيْنِ؛ قَالَتْهُ عَائِشَةُ.

الْخَامِسُ: مَا تَزْدَادُ لِثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ؛ قَالَهُ اللَّيْثُ.

السَّادِسُ: مَا تَزْدَادُ إلَى أَرْبَعِ سِنِينَ قَالَهُ الشَّافِعِيُّ وَمَالِكٌ فِي إحْدَى رِوَايَتَيْهِ.

السَّابِعُ: قَالَ مَالِكٌ فِي مَشْهُورِ قَوْلِهِ: إلَى خَمْسِ سِنِينَ.

الثَّامِنُ: إلَى سِتِّ سِنِينَ، وَسَبْعِ سِنِينَ؛ قَالَهُ الزُّهْرِيُّ.

التَّاسِعُ: لَا حَدَّ لَهُ، وَلَوْ زَادَ عَلَى الْعَشَرَةِ الْأَعْوَامِ، وَأَكْثَرَ مِنْهَا؛ قَالَهُ مَالِكٌ فِي الرِّوَايَةِ الثَّالِثَةِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: نَقَلَ بَعْضُ الْمُتَسَاهِلِينَ مِنْ الْمَالِكِيِّينَ أَنَّ أَكْثَرَ مُدَّةِ الْحَمْلِ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ، وَهَذَا

مَا لَمْ يَنْطِقْ بِهِ قَطُّ إِلَّا هَالِكِيٌّ : وَهُمْ الطَّبَائِعِيُّونَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ مُدَبِّرَ الْحَمْلِ فِي الرَّحِمِ الْكَوَاكِبُ السَّبْعَةُ تَأْخُذُهُ شَهْرًا شَهْرًا ، وَيَكُونُ الشَّهْرُ الرَّابِعُ مِنْهَا لِلشَّمْسِ ، وَلِذَلِكَ يَتَحَرَّكُ وَيَضْطَرِبُ ، وَإِذَا كَمُلَ التَّدَاوُلُ فِي السَّبْعَةِ الْأَشْهُرِ بَيْنَ السَّبْعَةِ الْكَوَاكِبِ عَادَ فِي الشَّهْرِ الثَّامِنِ إِلَى زُحَلَ فَيُبْقِلُهُ بِبَرْدِهِ .

فَيَا لَيْتَنِي تَمَكَّنْتُ مِنْ مُنَاظَرَتِهِمْ أَوْ مُقَاتَلَتِهِمْ .

(24/408)

مَا بَالُ الْمَرْجِعِ بَعْدَ تَمَامِ الدَّوْرِ يَكُونُ إِلَى زُحَلَ دُونَ غَيْرِهِ ؟ اللَّهُ أَخْبَرَكُمْ [بِهَذَا] أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ؟ وَإِذَا جَازَ أَنْ يَعُودَ إِلَى اثْنَيْنِ مِنْهَا لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَعُودَ التَّدْبِيرُ إِلَى ثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ ، أَوْ يَعُودَ إِلَى جَمِيعِهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ؟ مَا هَذَا التَّحَكُّمُ بِالظُّنُونِ الْبَاطِلَةِ عَلَى الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ ؟ [فَمَنْ] نَصِيرِي مِنْ هَذَا الِاعْتِقَادِ ، وَعَذِيرِي مِنْ الْمِسْكِينِ الَّذِي تَصَوَّرَ عِنْدَهُ أَنَّ أَكْثَرَ مُدَّةِ الْحَمْلِ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ ، وَيَا لِلَّهِ وَيَا لِضَيَاعِ الْعِلْمِ بَيْنَ الْعَالَمِ فِي هَذِهِ الْأَقْطَارِ الْغَارِبَةِ مَطْلَعًا ، الْعَازِبَةِ مَقْطَعًا ،

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فَإِنْ قِيلَ : إنَّ الْحَامِلَ لَا تَحِيضُ ، وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ ؛ لِأَنَّ تَمَاسُكَ الْحَيْضِ عَلَامَةٌ عَلَى شَغْلِ الرَّحِمِ ، وَاسْتِرْسَالُهُ عَلَامَةٌ عَلَى بَرَاءَةِ الرَّحِمِ ؛ فَمُحَالٌ

أَنْ يَجْتَمِعَ مَعَ الشَّغْلِ ؛ لِأَنَّهُ مَا كَانَ يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى الْبَرَاءَةِ لَوْ اجْتَمَعَا ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ : وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ فِي الدَّمِ وَالْحَيْضِ فِي غَيْرِ حَالِ الْحَمْلِ ، وَمَا تَزْدَادُ بَعْدَ غَيْضِهَا مِنْ ذَلِكَ ، حَتَّى يَجْتَمِعَ فِي الرَّحِمِ .

فَالْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الدَّمَ عَلَامَةٌ عَلَى بَرَاءَةِ الرَّحِمِ مِنْ حَيْثُ الظَّاهِرِ لَا مِنْ حَيْثُ الْقَطْعِ ؛ فَجَازَ أَنْ يَجْتَمِعَا ، بِخِلَافِ وَضْعِ الْحَمْلِ فَإِنَّهُ بَرَاءَةٌ لِلرَّحِمِ قَطْعًا ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَجْتَمِعَ مَعَ الشَّغْلِ .

الثَّانِي : أَنَّ قَوْلَهُ فِي تَفْسِيرِ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ فِي غَيْرِ حَالِ الْحَمْلِ وَمَا تَزْدَادُ بَعْدَ غَيْضِهَا حَتَّى يَجْتَمِعَ فِي الرَّحِمِ .

فَإِنَّا نَقُولُ : إنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ غَيْضٍ وَازْدِيَادٍ وَسَيَلَانٍ وَتَوَقُّفٍ ، وَإِذَا سَالَ الدَّمُ عَلَى عَادَتِهِ بِصِفَتِهِ مَا الَّذِي يَمْنَعُ مِنْ حُكْمِهِ ؟ وَلَا جَوَابَ لَهُمْ عَنْ هَذَا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ . . . إنما أنت منذر ﴾

يعني النبي صلى الله عليه وسلم نذير لأمته

﴿ ولكل قومٍ هادٍ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : أنه الله تعالى ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير .

الثاني : ولكل قومٍ هادٍ أي نبي يهديهم ، قاله مجاهد وقتادة .

الثالث : ولكل قوم هاد معناه ولكل قوم قادة وهداة ، قاله أبو صالح .

الرابع : ولكل قوم هاد ، أي دعاة ، قاله الحسن .

الخامس : معناه ولكل قوم عمل ، قاله أبو العالية .

السادس : معناه ولكل قوم سابق بعلم يسبقهم إلى الهدى ، حكاه ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾

قال ابن أبي نجيح يعلم أذكر هو أم أنثى .

ويحتمل وجهاً آخر : يعلم أصالح هو أَم طالح .

﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ بالسقط الناقص ﴿ وما تزداد ﴾ بالولد التام ، قاله

ابن عباس والحسن .

الثاني : ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ بالوضع لأقل من تسعة أشهر ، ﴿ وما تزداد ﴾ بالوضع لأكثر من تسعة أشهر ، قاله سعيد بن جبير والضحاك . وقال الضحاك : وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين وولدتني وقد خرجت سني .

الثالث : ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ بانقطاع الحيض في الحمل ﴿ ما تزداد ﴾ بدم النفاس بعد الوضع . قال مكحول : جعل الله تعالى دم الحيض غذاء للحمل .

الرابع : ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ بظهور الحيض من أيام على الحمل ، وفي ذلك نقص في الولد ﴿ وما تزداد ﴾ في مقابلة أيام الحيض من أيام الحمل ، لأنها كلما حاضت على حملها يوماً ازدادت في طهرها يوماً حتى يستكمل حملها تسعة أشهر طهراً ، قال عكرمة وقتادة .

الخامس : ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ من ولدته قبل ﴿ وما تزداد ﴾ من تلده من بعد ، حكاه السدي وقتادة .

﴿ وكُلُّ شيءٍ عنده بمقدار ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في الرزق والأجل ، قاله قتادة .

الثاني : فيما تغيض الأرحام وما تزداد ، قاله الضحاك .

ويحتمل ثالثاً : أن كل شيء عنده من ثواب وعقاب بمقدار الطاعة والمعصية . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا ﴾ الآية ،

هذه آية غض من اقتراحاتهم المتشططة التي لم يجر الله به عادة إلا للأمم التي حتم بعذابها واستئصالها ، و" الآية " هنا يراد بها الأشياء التي سمتها قريش كالملك والكنز وغير ذلك ، ثم أخبره الله تعالى بأنه ﴿ منذر ﴾ وهذا الخبر قصد هو بلفظه ، والناس أجمعون بمعناه . واختلف المتأولون في قوله : ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ فقال عكرمة وأبو الضحى : المراد بالهادي محمد عليه السلام ، و﴿ هادٍ ﴾ عطف على ﴿ منذر ﴾ كأنه قال : إنما أنت ﴿ منذر ﴾ و﴿ هادٍ ﴾ لكل قوم . فيكون هذا المعنى يجري مع قوله عليه السلام : " بعثت للأسود والأحمر " و﴿ هادٍ ﴾ – على هذا – في هذه الآية بمعنى داعٍ إلى طريق الهدى . وقال مجاهد وابن زيد : المعنى : إنما أنت " منذر " ولكل أمة سلفت " هادٍ " أي نبي يدعوهم .

قال القاضي أبو محمد : والمقصد : فليس أمرك يا محمد ببدع ولا منكر ، وهذا يشبه غرض الآية .

وقالت فرقة : " الهادي " في هذه الآية الله عز وجل ، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير ، و﴿ هادٍ ﴾ – على هذا – معناه مخترع للرشاد .

قال القاضي أبو محمد : والألفاظ تطلق بهذا المعنى ، ويعرف أن الله تعالى هو الهادي من غير هذا الموضع .

وقالت فرقة " الهادي " : علي بن أبي طالب ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم – من طريق ابن عباس – أنه قرأ هذه الآية وعلي حاضر ، فأومأ بيده إلى منكب علي وقال : " أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي " .

قال القاضي أبو محمد : والذي يشبهه – إن صح هذا – أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما جعل علياً رضي الله عنه مثالاً من علماء الأمة وهداتها إلى الدين ، كأنه قال : أنت يا علي وصنفك ، فيدخل في هذا أبو بكر وعمر وعثمان وسائر علماء الصحابة ، ثم كذلك من كل عصر ، فيكون المعنى – على هذا – إنما أنت يا محمد ولكل قوم في القديم والحديث رعاة وهداة إلى الخير .

قال القاضي أبو محمد : والقولان الأولان أرجح ما تأول في الآية .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) ﴾

لما تقدم تعجب الكفار واستبعادهم البعث من القبور - قص في هذه الآيات المثل المنبهة على قدرة الله تعالى القاضية بتجويز البعث :

فمن ذلك هذه الواحدة من الخمس التي هي من مفاتيح الغيب ، وهي أن الله تعالى انفرد بمعرفة ما تحمل به الإناث ، من الأجنة من كل نوع من الحيوان ؛ وهذه البدأة تبين أنه لا تتعذر على القادر عليها الإعادة .

و﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما تحمل ﴾ يصح أن تكون بمعنى الذي ، مفعولة ﴿ يعلم ﴾ ويصح أن تكون مصدرية ، مفعولة أيضاً ب ﴿ يعلم ﴾ ، ويصح أن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء ، والخبر : ﴿ تحمل ﴾ وفي هذا الوجه ضعف .

وفي مصحف أبي بن كعب : " ما تحمل كل أنثى وما تضع " .

وقوله : ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ معناه : ما تنقص ، وذلك أنه من معنى قوله : ﴿ وغيض الماء ﴾ [هود : 44] وهو بمعنى النضوب فهي - ها هنا - بمعنى زوال شيء عن الرحم وذهابه ، فلما قابله قوله : ﴿ وما تزداد ﴾ فسر بمعنى النقصان : ثم اختلف المتأولون في صورة الزيادة والنقصان : فقال مجاهد " غيض الرحم " أن يهرق دماً على الحمل

، وإذا كان ذلك ضعف الولد في البطن وشحب ، فإذا أكملت الحامل تسعة أشهر لم تضع وبقي الولد في بطنها زيادة من الزمن يكمل فيها من جسمه وصحته ما نقص بمهراقة الدم ، فهذا هو معنى قوله : ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ وجمهور المتأولين على أن غيض الرحم الدم على الحمل .

وذهب بعض الناس إلى أن غيضه هو نضوب الدم فيه وامتساكه بعد عادة إرساله بالحيض ، فيكون قوله : ﴿ وما تزداد ﴾ - بعد ذلك - جارياً مجرى ﴿ تغيض ﴾ على غير مقابلة ، بل غيض الرحم هو بمعنى الزيادة فيه .

(29/408)

وقال الضحاك : غيض الرحم أن تسقط المرأة الولد ، والزيادة أن تضعه لمدة كاملة تاماً في خلقه .

وقال قتادة : الغيض : السقط ، والزيادة : البقاء بعد تسعة أشهر .

وقوله : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ لفظ عام في كل ما يدخله التقدير ، و﴿ الغيب ﴾ : ما غاب عن الإدراكات ، و﴿ الشهادة ﴾ : ما شهود من الأمور ، ووضع المصادر موضع الأشياء التي كل واحد منها لا بد أن يتصف بإحدى الحالتين .

وقوله: ﴿ الكبير ﴾ صفة تعظيم على الإطلاق، و"المتعالي" من العلو.

واختلفت القراءة في الوقف على "المتعال": فأثبت ابن كثير وأبو عمرو - في بعض ما روي عنه - الياء في الوصل والوقف، ولم يثبتها الباقون في وصل ولا وقف. وإثباتها هو الوجه والباب. واستسهل سيبويه حذفها في الفواصل - كهذه الآية - قياساً على القوافي في الشعر، ويقبح حذفها في غير فاصلة ولا شعر، ولكن وجهه أنه لما كان التنوين يعاقب الألف واللام أبداً، وكانت هذه الياء تحذف مع التنوين، حسن أن تحذف مع معاقبة.

قال القاضي أبو محمد: ويتصل بهذه الآية فقد يحسن ذكره. فمن ذلك اختلاف الفقهاء في الدم الذي تراه الحامل، فذهب مالك رحمه الله وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وجماعة، إلى أنه حيض. وقالت فرقة عظيمة: ليس حيض، ولو كان حيضاً لما صح استبراء الأمة بحيض وهو إجماع. وروي عن مالك - في كتاب محمد - ما يقتضي أنه ليس بحيض، ومن ذلك أن الأمة مجمعة على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وذلك منتزع من قوله تعالى: ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ [الأحقاف: 15] مع قوله تعالى: ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ [البقرة: 233].

وهذه الستة أشهر هي بالأهلة - كسائر أشهر الشريعة - ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك - وأظنه في كتاب ابن حارث - أنه إن نقص من الأشهر الستة ثلاثة أيام، فإن الولد يلحق لعلة نقص الشهور وزيادتها واختلف في أكثر الحمل فقيل تسعة أشهر.

(30/408)

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف .

وقالت عائشة وجماعة من العلماء أكثره حولان ، وقالت فرقة : ثلاثة أعوام وفي المدونة : أربعة أعوام وخمسة أعوام . وقال ابن شهاب وغيره : سبعة أعوام ، ويروى أن ابن عجلان ولدت امرأته لسبعة أعوام ، وروي أن الضحاك بن مزاحم بقي حولين - قال : وولدت وقد نبتت ثناياي ، وروي أن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(31/408)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لولا أُنزل عليه آية من ربه ﴾

"لولا" بمعنى هلاّ ، والآية التي طلبوها ، مثل عصا موسى وناقة صالح .

ولم يقنعوا بما رأوا ، فقال الله تعالى : ﴿ إِنما أنت منذر ﴾ أي : مخوِّفٌ عذاب الله ، وليس

لك من الآيات شيء .

وفي قوله : ﴿ ولكُلِّ قوم هادٍ ﴾ ستة أقوال :

أحدها : أن المراد بالهادي : اللهُ عز وجل ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، والنخعي ، فيكون المعنى : إنما إليك الإنذار ، والله الهادي .

والثاني : أن الهادي : الداعي ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أن الهادي : النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، قاله الحسن ، وعطاء ، وقتادة ، وابن زيد ، فالمعنى : ولكل قوم نبيٌّ ينذرهم .

والرابع : أن الهادي : رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أيضاً ، قاله عكرمة ، وأبو الضحى ، والمعنى : أنت منذرٌ ، وأنت هادٍ .

والخامس : أن الهادي : العملُ ، قاله أبو العالية .

والسادس : أن الهاديَ : القائدُ إلى الخير أو إلى الشر قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وقد روى المفسرون من طرق ليس فيها ما يثبت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ، وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره ، فقال : "أنا المنذِر" وأومأ بيده إلى منكب عليٍّ ، فقال : "أنت الهادي يا عليُّ بك يُهتدى من بعدي" قال المصنف : وهذا من موضوعات الرافضة .

ثم إن الله تعالى أخبرهم عن قدرته ، رداً على منكري البعث ، فقال : ﴿ الله يعلم ما تَحمِل كُلُّ أنثى ﴾ أي : من علقة أو مُضغة ، أو زائد أو ناقص ، أو ذكرٍ أو أنثى ، أو واحد أو اثنين أو أكثر ، ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ أي : وما تنقص ، ﴿ وما تزداد ﴾ وفيه أربعة أقوال :

(32/408)

أحدها : ما تغيض : بالوَضع لأقل من تسعة أشهر ، وما تزداد : بالوضع لأكثر من تسعة أشهر ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، والضحاك ، ومقاتل ، وابن قتيبة ، والزجاج.

والثاني : وما تغيض : بالسِّقْطِ الناقص ، وما تزداد : بالولد التامِّ ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وعن الحسن كالقولين.

والثالث : وما تغيض : بإراقة الدم في الحَمْل حتى يتضاءل الولد ، وما تزداد : إذا أمسكتِ الدمَ فيعظم الولد ، قاله مجاهد .

والرابع : ما تغيض الأرحام : مَنْ ولدته من قبل ، وما تزداد : مَنْ تلده من بعد ، روي عن قتادة ، والسُّدِّي .

قوله تعالى: ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ أي: بقدر.

قال أبو عبيدة: هو مِفعالٌ من القَدَر.

قال ابن عباس: عَلِمَ كُلَّ شيء فقدَّره تقديراً.

قوله تعالى: ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ قد شرحنا ذلك في [الأنعام: 6].

و﴿ الكبير ﴾ بمعنى: العظيم.

ومعناه: يعود إلى كبر قدره واستحقاقه صفات العلوِّ، فهو أكبر من كُلِّ كبير، لأن كل كبير يصغر بالإضافة إلى عظمته.

ويقال: "الكبير" الذي كَبُر عن مشابهة المخلوقين.

فأمّا ﴿ المتعال ﴾ فقرأ ابن كثير "المتعالي" بياء في الوصل والوقف، وكذلك روى عبد الوارث عن أبي عمرو، وأثبتها في الوقف دون الوصل ابن شَنَبُوذ عن قُنْبُل، والباقون بغير ياء في الحالين.

والمتعالي هو المتنزِّه عن صفات المخلوقين، قال الخطّابي: وقد يكون بمعنى العالي فوق خَلْقه.

وروي عن الحسن أنه قال: المتعالي عمّا يقول المشركون. انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُوا لولا ﴾

أي هلا ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ أي مُعْلِم .

﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي نبيّ يدعوهم إلى الله .

وقيل : الهادي الله ؛ أي عليك الإنذار ، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثى ﴾ أي من ذكر وأنثى ، صبيح وقبيح ، صالح وطالح ؛ وقد تقدّم في سورة "الأنعام" أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مفاتيح الغيب خمس " الحديث .

وفيه " لا يعلم ما تَغِيض الأرحام إلا الله " واختلف العلماء في تأويل قوله : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام وَمَا تَزْدَادُ ﴾ فقال قَتَادة : المعنى ما تُسقِط قبل التسعة الأشهر ، وما تزداد فوق

التسعة ؛ وكذلك قال ابن عباس .

وقال مجاهد : إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصاناً في ولدها ؛ فإن زادت على التسعة كان تماما لما نقص ؛ وعنه : الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداد منه .

وقيل : الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد ، كنقصان إصبع أو غيرها ، وزيادة إصبع أو غيرها .

وقيل : الغيض انقطاع دم الحيض .

"وَمَا تَزْدَادُ" بدم النفاس بعد الوضع .

الثانية : في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه .

وقال عطاء والشعبي وغيرهما : لا تحيض ؛ وبه قال أبو حنيفة ؛ ودليله الآية .

(34/408)

قال ابن عباس في تأويلها : إنه حيض الحبالى ، وكذلك روي عن عِكْرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة ، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حِضْن أن يتركن الصلاة ؛ والصحابة إذ ذاك

متوافرون ، ولم ينكر منهم أحد عليها ، فصار كالإجماع ؛ قاله ابن القصّار .

وذكر أن رجلين تنازعا ولداً ، فترافعا إلى عمر رضي الله عنه فعرضه على القَافَة ، فألحقه القَافَة بهما ، فعَلاه عمر بالدرة ، وسألِ نسوة من قريش فقال : انظرن ما شأن هذا الولد ؟ فقلن : إن الأوّل خلا بها وخلاّها ، فحاضت على الحمل ، فظنّت أن عِدّتها انقضت ؛ فدخل بها الثاني ، فانتعش الولد بماء الثاني ؛ فقال عمر : الله أكبر ! وألحقه بالأول ، ولم يقل إن الحامل لا تحيض ، ولا قال ذلك أحد من الصحابة ؛ فدلّ أنه إجماع ، والله أعلم .

احتجّ المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض ، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضاً لما صَحّ استبراء الأمة بحيض ؛ وهو إجماع .

ورُوي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض .

الثالثة : في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر ، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر ، وأن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر .

الرابعة : وهذه الستة الأشهر هي بالأهِلّة كسائر أشهر الشريعة ؛ ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك ، وأظنه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها ؛ حكاه ابن عطية .

الخامسة : واختلف العلماء في أكثر الحمل ؛ فروى ابن جُرَيج عن جَميلة بنت سعد عن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحوّل ظِل المِغزَل ؛ ذكره الدّارَقُطْنِي .

وقالت جَميلة بنت سعد أخت عبيد بن سعد ، وعن الليث بن سعد : إن أكثره ثلاث سنين .

(35/408)

وعن الشافعي أربع سنين ؛ وروي عن مالك في إحدى روايتيه ، والمشهور عنه خمس سنين ؛ وروي عنه لا حدّ له ، ولو زاد على العشرة الأعوام ؛ وهي الرواية الثالثة عنه .

وعن الزّهري ست وسبع .

قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع ؛ والشافعي : مُدّةُ الغاية منها أربع سنين .

والكوفيون يقولون : سنتان لا غير .

ومحمد بن عبد الحكم يقول : سنة لا أكثر .

وداود يقول : تسعة أشهر ، لا يكون عنده حمل أكثر منها .

قال أبو عمر : وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد ، والرّد إلى ما عُرف من أمر النّساء وبالله التوفيق .

رَوى الدّارَقُطْنِيّ عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمالك بن أنس إني حدّثت عن عائشة أنها قالت : لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قَدْر ظِلّ المِغْزَل ، فقال : سبحان الله ! مَن يقول

هذا ؟ هذه جارتنا امرأة محمد بن عَجْلاَن ، تحمل وتضع في أربع سنين ، امرأة صدق ، وزوجها رجل صدق ؛ حملت ثلاث أبطن في اثنتي عشرة سنة ، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره عن المبارك ابنُ مجاهد قال : مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سنين ، وكانت تسمى حاملة الفيل .

وروي أيضاً قال : بينما مالك بن دينار يوماً جالس إذ جاءه رجل فقال : يا أبا يحيى ادع لامرأة حبلى منذ أربع سنين قد أصبحت في كرب شديد ؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القوم إلا أَنَّا أنبياء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنها الساعة ، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها (بها) غلاماً ، فإنك تَمْحُو ما تشاء وتُثْبِت ، وعندك أمّ الكتاب ، ورفع مالك يده ، ورفع الناس أيديهم ، وجاء الرسول إلى الرجل فقال : أدرك امرأتك ، فذهب الرجل ؛ فما حطّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جَعْد قَطَطٌ ابن أربع سنين ، قد استوت أسنانه ، ما قُطِعت سراره ؛ ورُوي أيضاً أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! إني غبت عن امرأتي سنتين فجئت وهي حبلى ؛ فشاور عمر الناس في

رجمها ، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل ؛ فاتركها حتى تضع ، فتركها ، فوضعت غلاماً قد خرجت ثنيتاه ؛ فعرف الرجل الشبه فقال : ابني وربّ الكعبة فقال عمر : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ؛ لولا معاذ لهلك عمر .

وقال الضحّاك : وضعتني أمي وقد حملت بي في بطنها سنتين ، فولدتني وقد خرجت سِنّي .

ويذكر عن مالك أنه حمل به في بطن أُمه سنتين ، وقيل : ثلاث سنين .

ويقال : إن محمد بن عجلان مكث في بطن أُمه ثلاث سنين ، فماتت به وهو يضطرب اضطراباً شديداً ، فشُقّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه .

وقال حمّاد بن سلمة : إنما سمي هَرِم بن حيان هَرِماً لأنه بقي في بطن أُمه أربع سنين .

وذكر الغَزْنَوي أن الضحّاك وُلد لسنتين ، وقد طلعت سِنّه فسُمّي ضحّاكاً .

عبّاد بن العوّام : ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاماً شعره إلى منكبيه ، فمرّ به طير فقال : كش .

السادسة : قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد ؛ لأن علم ذلك استأثر الله به ، فلا يجوز أن يحكم في شيء منه إلا بقَدْرِ ما أظهره لنا ، ووُجد ظاهراً في النساء نادراً أو معتاداً ؛ ولمّا وجدنا امرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك ، والنفاس والحيض لَمّا لم نجد فيه أمراً مستقراً رجعنا فيه إلى ما يوجد في النادر منهنّ .

السابعة : قال ابن العربي : نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر ؛ وهذا ما لم ينطق به قطّ إلا هالكيّ ، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبّر الحمل في الرَّحِم الكواكب السبعة ؛ تأخذه شهراً شهراً ، ويكون الشهر الرابع منها للشمس ؛ ولذلك يتحرّك ويضطرب ، وإذا تكامل التداول في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر الثامن إلى زُحل ، فيُبْقِله ببَرْده ؛ فيا ليتني تمكنت من مناظرتهم أو مقاتلتهما ما بال المرجع بعد تمام الدّور يكون إلى زُحل دون غيره ؟ آلله أخبركم بهذا أم على الله تفترون ؟! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لِمَ لا يجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع ، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثا ؟! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة! .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ يعني من النقصان والزيادة .

ويقال : "بمقدار" قدر خروج الولد من بطن أمّه ، وقَدْر مكثه في بطنها إلى خروجه .

وقال قَتَادة : في الرزق والأجل .

والمقدار القَدْر ؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك ، والله سبحانه أعلم .

قلت : هذه الآية تمدّح الله سبحانه وتعالى بها بأنه ﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ أي هو عالم بما غاب عن الخلق ، وبما شهِدوه .

فالغيب مصدر بمعنى الغائب .

(38/408)

والشهادة مصدر بمعنى الشاهد ؛ فنبّه سبحانه على انفراده بعلم الغيب ، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق ، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد ؛ فأما أهل الطبّ الذين يستدِلّون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر ، وإن قالوا إنها تجربة تُرِكوا وما هم عليه ، ولم يَقدَح ذلك في الممدوح ؛ فإن العادة يجوز انكسارها ، والعلم لا يجوز تبدّله .

و﴿ الكبير ﴾ الذي كل شيء دونه .

﴿ المتعال ﴾ عما يقول المشركون ، المستعلي على كل شيء بقدرته وقَهْره ؛ وقد ذكرناهما في شرح الأسماء مستوفى ، والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(39/408)

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ ويقول الذين كفروا ﴾

يعني من أهل مكة ﴿ لولا ﴾ أي هلاّ ﴿ أنزل عليه ﴾ يعني على محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ آية من ربه ﴾ يعني مثل عصى موسى وناقة صالح ذلك لأنهم لم يقنعوا بما رأوا من الآيات التي جاء بها النبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ إنما أنت منذر ﴾ أي ليس عليك يا محمد غير الإنذار والتخويف ، وليس لك من الآيات شيء ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ قال ابن عباس : الهادي هو الله ، وهذا قول سعيد ابن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك والنخعي ، والمعنى إنما عليك الإنذار يا محمد والهادي هو الله يهدي من يشاء .

وقال عكرمة في رواية عنه وأبو الضحى : الهادي هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المعنى : إنما أنت منذر وأنت هاد ، وقال الحسن وقتادة وابن زيد : يعني ولكل قوم نبي يهديهم وقال أبو العالية : الهادي هو العمل الصالح .

وقال أبو صالح : الهادي هو القائد إلى الخير لا إلى الشر .

قوله : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾

لما سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الآيات أخبرهم الله عن عظيم قدرته ، وكمال علمه وأنه عالم بما تحمل كل أنثى يعني من ذكر أو أنثى سويّ الخلق أو ناقص الخلق واحداً أو

اثنين أو كثر ﴿ وما تغيض ﴾ يعني وما تنقص ﴿ الأرحام وما تزداد ﴾ قال أهل التفسير : غيض الأرحام الحيض على الحمل فإذا حاضت الحامل كان ذلك نقصاناً في الولد لأن دم الحيض هو غذاء الولد في الرحم ، فإذا خرج الدم نقص الغذاء فينقص الولد ، واذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم ، والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم ، وقيل : إذا حاضت المرأة في وقت حملها ينقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرة فإن رأت خمسة أيام دماً ، وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان في الغذاء زيادة في مدة الحمل .

وقيل : النقصان السقط والزيادة تمام الخلق .

وقال الحسن : غيضها نقصانها من تسعة اشهر والزيادة زيادتها على تسعة اشهر فأقل مدة الحمل ستة أشهر وقد يولد لهذه المدة ويعيش .

واختلفوا في أكثره فقال قوم : أكثر مدة الحمل سنتان ، وهو قول عائشة ، وبه قال أبو حنيفة وقيل : إن الضحاك ملد لسنتين .

وقال جماعة : أكثرها أربع سنين وإليه ذهب الشافعي .

وقال حماد بن أبي سلمة : إنما سمي هرم بن حيان هرماً لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين ، وعند مالك أن أكثر مدة الحمل خمس سنين ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ يعني بتقدير واحد لا يجاوزه ، ولا ينقص منه .

وقيل : إنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على أكمل الوجوه .

وقيل : معناه إنه تعالى خصص كل حادثة من الحوادث بوقت معين وحالة معينة وذلك بمشيئته الأزلية وإرادته وتقديره الذي لا يقدر عليه غيره ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ يعني أنه تعالى يعلم ما غاب عن خلقه ، وما يشاهدونه .

وقيل : الغيب هو المعدوم والشاهد هو الموجود .

وقيل : الغيب ما غاب عن الحس والشاهد ما حضر في الحس ﴿ الكبير ﴾ أي العظيم الذي يصغر كل كبير بالإضافة إلى عظمته وكبريائه فهو يعود إلى معنى كبر قدرته ، وأنه تعالى المستحق لصفات الكمال ﴿ المتعال ﴾ يعني المنزه عن صفات النقص المتعالي عن الخلق ، وفيه دليل على أنه تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة وتنزيهه عن جميع النقائص .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) ﴾

عن ابن عباس : " لما نزلت وضع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يده على صدره فقال : "أنا منذر" وأومأ بيده إلى منكب عليّ وقال : "أنت الهادي يا عليّ ، بك يهتدى من بعدي" " ، وقال القشيري : نزلت في النبي (صلى الله عليه وسلم) وعليّ بن أبي طالب ، والذين كفروا مشركو العرب ، أو من أنكر نبوته من مشركيهم والكفار ، ولم يعتدوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر ، وانقياد الشجر ، وانقلاب العصا سيفاً ، ونبع الماء من بين الأصابع ، وأمثال هذه .

فاقترحوا عناداً آيات كالمذكورة في سبحان ، وفي الفرقان كالتفجير للينبوع ، والرقي في السماء ، والملك ، والكنز ، فقال تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) : إنما أنت منذر تخوفهم من سوء العاقبة ، وناصح كغيرك من الرسل ، ليس لك الإتيان بما اقترحوا .

إذ قد أتى بآيات عدد الحصا ، والآيات كلها متماثلة في صحة الدعوى ، لا تفاوت فيها .

فالاقتراح إنما هو عناد ، ولم يجر الله العادة بإظهار الآيات المقترحة إلا للآية التي حتم بعذابها واستئصالها .

وهاد : يحتمل أن يكون قد عطف على منذر ، وفصل بينهما بقوله لكل قوم ، وبه قال : عكرمة ، وأبو الضحى .

فإن أخذت : ولكل قوم هاد ، على العموم فمعناه : وداع إلى الهدى ، كما قال : ﴿ بعثت إلى الأسود والأحمر ﴾ فإن أخذت هاد على حقيقته فلكل قوم مخصوص أي : ولكل قوم قائلين هاد .

وقيل : ولكل أمة سلفت هاد أي : نبي يدعوهم ، والقصد : فليس أمرك ببدع ولا منكر ، وبه قال : مجاهد ، وابن زيد ، والزجاج قال : نبي يدعوهم بما يعطي من الآيات ، لا بما يتحكمون فيه من الاقتراحات .

وتبعهم الزمخشري .

(42/408)

فقال : هاد من الأنبياء يهديهم إلى الدين ، ويدعوهم إلى الله بوجه من الهداية ، وبآية خص بها ، ولم يجعل الأشياء شرعاً واحداً في آيات مخصوصة .

وقالت فرقة : الهادي في هذه الآية هو الله تعالى ، روي أن ذلك عن ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير ، وهاد : على هذا مخترع للإرشاد .

قال ابن عطية : وألفاظ تتعلق بهذا المعنى ، وتعرف أن الله تعالى هو الهادي من غير هذا الموضع .

وقال الزمخشري : في هذا القول وجه آخر : وهو أن يكون المعنى : إنهم يجحدون كون ما أنزل عليك آيات ويعاندون ، فلا يهمنك ذلك ، إنما أنت منذر ، فما عليك إلا أن تنذر ، لا أنْ تثبت الإيمان بالإلجاء ، والذي يثبته بالإلجاء هو الله تعالى انتهى .

ودلّ كلامه على الاعتزال .

وقال في معنى القول الذي تبع فيه مجاهد ، وابن زيد ما نصه : ولقد دل بما أردفه من ذكر آيات علمه وتقديره الأشياء على قضايا حكمته ، أن أعطاء كل منذر آيات أمر مدبر بالعلم النافذ ، مقدر بالحكمة الربانية .

ولو علم في إجابتهم إلى مقترحهم خيراً أو مصلحة لأجابهم إليه .

وقال الزمخشري أيضاً في معنى أن الهادي هو الله تعالى أي : بالإلجاء على زعمه ما نصه : وأما هذا الوجه الثاني فقد دل به على أنّ من هذه القدرة قدرته وهذا علمه ، هو القادر وحده على هدايتهم العالم بأي طريق يهديهم ، ولا سبيل إلى ذلك لغيره انتهى .

وقالت فرقة : الهادي علي بن أبي طالب ، وإن صح ما روي عن ابن عباس مما ذكرناه في صدر هذه الآية ، فإنما جعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) علي بن أبي طالب مثالاً من علماء الأمّة وهداتها إلى الدين ، فكأنه قال : أنت يا علي هذا وصفك ، ليدخل في ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وسائر علماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ثم كذلك علماء كل عصر ، فيكون المعنى على هذا : إنما أنت يا محمد منذر ، ولكل قوم في القديم والحديث

دعاة هداة إلى الخير .

وقال أبو العالية : الهادي العمل .

(43/408)

وقال علي بن عيسى : ولكل قوم سابق سبقهم إلى الهدى إلى نبي أولئك القوم .

وقيل : هاد قائد إلى الخير أو إلى الشر قال تعالى في الخير : ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ وقال في الشر : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ قاله أبو صالح .

ووقف ابن كثير على هاد وواق حيث واقعا ، وعلى وال هنا وباق في النخل بإثبات الياء ، وباقي السبعة بحذفها .

وفي الإقناع لأبي جعفر بن الباذش عن ابن مجاهد : الوقف على جميع الباب لابن كثير بالياء ، وهذا لا يعرفه المكيون .

وفيه عن أبي يعقوب الأزرق عن ورش أنه خيره في الوقف في جميع الباب ، بين أن يقف بالياء ، وبين أن يقف بحذفها .

والباب هو كل منقوص منون غير منصرف .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) ﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها هو ما نبه عليه الزمخشري من أنه تعالى لما طلب الكفار أن ينزل على الرسول (صلى الله عليه وسلم) آية وكم آية نزلت ، أردف ذلك بذكر آيات علمه الباهر ، وقدرته النافذة ، وحكمته البليغة ، وأن ما نزل عليه من الآيات كافية لمن تبصر ، فلا يقترحون غيرها ، وأنّ نزول الآيات إنما هو على ما يقدره الله تعالى .

وقيل : مناسبة ذلك أنه لما تقدم إنكارهم البعث لتفرق الأجزاء واختلاط بعضها ببعض ، بحيث لا يتهيأ الامتياز بينها ، نبه على إحاط علمه ، وأن من كان عالماً بجميع المعلومات هو قادر على إعادة ما أنشأ .

وقيل : مناسبة ذلك أنهم لما استعجلوا بالسيئة نبه على علمه بجميع المعلومات ، وأنه إنما نزل العذاب بحسب ما يعلم كونه مصلحة .

(44/408)

قال ابن عطية : قص في هذا المثل المنبه عل قدرة الله القاضية بتجويز البعث ، فمن ذلك الواحدة من الجنس التي هي مفاتيح الغيب يعني : التي لا يعلمها إلا هو ، وما تحمله الإناث من

النطفة من كل نوع من الحيوان .

وهذا البدء يبين أنه لا يتعذر على القادر عليها الإعادة .

والله يعلم : كلام مستأنف مبتدأ وخبر ، ومن فسر الهادي بالله جاز أن يكون الله خبر مبتدأ محذوف أي : هو الله تعالى ، ثم ابتدأ إخباراً عنه فقال : يعلم .

ويعلم هنا متعدية إلى واحد ، لأنه لا يراد هنا النسبة ، إنما المراد تعلق العلم بالمفردات .

وما جوزوا أن تكون بمعنى الذي ، والعائد عليها في صلاتها محذوف ، ويكون تغيض متعدياً .

وأن تكون مصدرية ، فيكون تغيض وتزداد لا زمان .

وسماع تعديتهما ولزومهما ثابت من كلام العرب .

وأن تكون استفهاماً مبتدأ ، وتحمل خبره ويعلم متعلقه ، والجملة في موضع المفعول .

وتحمل هنا من حمل البطن ، لا من الحمل على الظهر .

وفي مصحف أبي : ما تحمل كل أنثى ، وما تضع وتحمل على التفسير ، لأنها زيادة لم تثبت في سواد المصحف .

قال ابن عباس : تغيض تنقص من الخلقة ، وتزداد تتم .

وقال مجاهد : غيض الرحم أن ينهرق دماً على الحمل ، فيضعف الولد في البطن ويسحب ، فإذا بقي الولد في بطنها بعد تسعة أشهر مدة كمل فيها من خمسة وصحبه ما نقص من

هراقة الدم ، انتهى كلام ابن عباس .

وقال عكرمة : تغيض بطهور الحيض في الحبل ، وتزداد بدم النفاس بعد الوضع .

وقال قتادة : الغيض السقط ، والزيادة البقاء فوق تسعة أشهر .

وقال الضحاك : غيض الرحم أن تسقط المرأة الولد ، والزيادة إن تضعه لمدة كاملة تامة .

وعن الضحاك أيضاً : الغيض النقص من تسعة أشهر ، والزيادة إلى سنتين .

وقيل : من عدد الأولاد ، فقد تحمل واحداً ، وقد تحمل أكثر .

وقال الجمهور : غيض الرحم الدم على الحمل .

(45/408)

قال الزمخشري : إن كانت ما موصولة فالمعنى : أن يعلم ما تحمل من الولد على أي حال هو من ذكورة وأنوثة ، وتمام وخدج ، وحسن وقبح ، وطول وقصر ، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة المترقبة .

ويعلم ما تغيضه الأرحام تنقصه ، وما تزداد أي تأخذه زائداً تقول : أخذت منه حقي وازددت منه كذا ، ومنه : ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾ ويقال : زدته فزاد بنفسه وازداد .

وما تنقصه الرحم وتزداد عدد الولد ، فإنها تشتمل على واحد ، وقد تشتمل على اثنين

وثلاثة وأربعة .

ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمه .

ومنه جسد الولد ، فإنه يكون تاماً ومخدجاً ، ومنه مدة ولادته فإنها تكون أقل من تسعة أشهر ، فما زاد عليها إلى سنة عند أبي حنيفة ، وإلى أربع عند الشافعي ، وإلى خمس عند مالك .

وقيل : إن الضحاك ولد لسنتين ، وهرم بن حبان بقي في بطن أمه أربع سنين ولذلك سمي هرماً ومنه الدم فإنه يقل ويكثر .

وإن كانت مصدرية فالمعنى : أنه يعلم حمل كل أنثى ، ويعلم غيض الأرحام وازديادها ، فلا يخفى عليه شيء من ذلك من أوقاته وأحواله .

ويجوز أن يراد غيوض ما في الأرحام وزيادته ، فأسند الفعل إلى الأرحام وهو لما فيها ، على أنّ الفعل غير متعد ويعضده قول الحسن : الغيضوضة أن يقع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك ، والازدياد أن يزيد على تسعة أشهر .

وعنه : الغيض الذي يكون سقطاً لغير تمام ، والازدياد ولد التمام انتهى .

وهو جمع ما قاله المفسرون مفرقاً .

وبمقدار يقدر ، ويطلق المقدار على القدر ، وعلى ما يقدر به الشيء .

والظاهر عموم قوله : وكل شيء عنده بمقدار ، أي : بحد لا يتجاوزه ولا يقتصر عنه .

وقال ابن عباس : وكل شيء من الثواب والعقاب عنده بمقدار أي : بقدر الطاعة والمعصية .

وقال الضحاك : من الغيض والازدياد .

وقال قتادة : من الرزق والأجل .

وقيل : صحة الجنين ومرضه ، وموته ، وحياته ، ورزقه ، وأجله .

والأحسن حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على التخصيص ، لأنه لا دليل عليه .

(46/408)

والمراد من العندية العلم أي : هو تعالى عالم بكمية كل شيء ، وكيفيته على الوجه المفصل المبين ، فامتنع وقوع اللبس في تلك المعلومات .

وقيل المراد بالعندية أنه تعالى خصص كل حادث بوقته بعينه ، وحالة معينة بمشيئته الأزلية وإرادته السرمدية .

ولما ذكر أنه عالم بأشياء خفية لا يعلمها إلا هو ، وكانت أشياء جزئية من خفايا علمه ، ذكر أن علمه محيط بجميع الأشياء ، فعلمه تعالى متعلق بما يشاهده العالم تعلقه بما يغيب عنهم .

وقيل : الغائب المعدوم ، والشاهد الموجود .

وقيل : الغائب ما غاب عن الحس ، والشاهد ما حضر للحس .

وقرأ زيد بن علي : عالم الغيب بالنصب ، الكبير العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ، المتعال المستعلي على كل شيء بقدرته ، أو الذي كبر عن صفات المحدثين وتعالى عنها .

وأثبت ابن كثير وأبو عمرو في رواية : ياء المتعال وقفاً ووصلاً ، وهو الكثير في لسان العرب ، وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً ، لأنها كذلك رسمت في الخط .

واستشهد سيبويه بحذفها في الفواصل ومن القوافي ، وأجاز غيره حذفها مطلقاً .

ووجه حذفها مع أنها تحذف مع التنوين ، وإن تعاقب التنوين ، فحذفت مع المعاقب إجراء له مجرى المعاقب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(47/408)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾

وهم المستعجلون أيضاً ، وإنما عدَل عن الإضمار إلى الموصول ذماً لهم ونعياً عليهم كفرَهم بآيات الله تعالى التي تخِرُّ لها صُمُّ الجبال حيث لم يرفعوا لها رأساً ولم يعُدّوها من جنس الآيات وقالوا : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبّهِ ﴾ مثل آياتِ موسى وعيسى عليهما الصلاة

والسلام عناداً ومكابرةً ، وإلا ففي أدنى آيةٍ أُنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غُنيةٌ وعِبرةٌ لأولي الألباب ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ مرسَلٌ للإنذار من سوء عاقبةِ ما يأتون ويذرون كدأب مَنْ قبلك من الرسل وليس عليك إلا الإتيانُ بما يُعلم به نُبوَّتُك ، وقد حصل ذلك بما لا مزيدَ عليه ولا حاجة إلى إلزامهم وإلقامِهم الحجرَ بالإتيان بما اقترحوا من الآيات ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ معينٌ لا بالذات بل بعنوان الهدايةِ يعني لكل قوم نبيٌّ مخصوصٌ له هدايةٌ مخصوصةٌ يقتضي اختصاصُ كلٍ منهم بما يختص به حكماً لا يعلمها إلا الله أو لكل قوم هادٍ عظيمُ الشأنِ قادرٌ على ذلك هو الله سبحانه وما عليك إلا إنذارُهم فلا يُهِمنك عنادُهم وإنكارُهم للآيات المنزّلةِ عليك وازدراؤهم بها ثم عقّبه بما يدل على كمال علمِه وقدرتِه وشمولِ قضائِه وقدرِه المبنيّين على الحِكَم والمصالِح تنبيهاً على أن تخصيصَ كلِّ قومٍ بنبيء بجنس معين من الآيات إنما هو للحِكَم الداعية إلى ذلك إظهاراً لكمال قدرتِه على هدايتهم لكن لا يهدي إلا من تعلق بهدايته مشيئتُه التابعةُ لحِكَمٍ استأثر بعلمها فقال :

(48/408)

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾ أي تحمِله فما موصولةٌ أريد بها ما في بطنها من حين العُلوقِ إلى زمن الولادةِ لا بعد تكاملِ الخلقِ فقط ، والعلمُ متعدَ إلى واحد ، أو أيَّ شيءٍ

تحملُ وعلى أي حال هو من الأحوال المتواردةِ عليه طوراً فطوراً فهي استفهاميةٌ معلقةٌ للعلم أو حملَها فهي مصدرية ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام وَمَا تَزْدَادُ ﴾ أي تنقُصه وتزداده في الجُثة كالخَديج والتام وفي المدة كالمولود في أقلّ مدة الحملِ والمولود في أكثرها وفيما بينهما . قيل : إن الضحاك ولد في سنتين ، وهرِمَ ابن حيان في أربع ومن ذلك سُمِّي هرِماً ، وفي العدد كالواحد فما فوقه . يروى أن شريكاً كان رابعَ أربعةٍ ، أو يعلم نقصَها وازديادها لما فيها فالفعلان متعدّيان كما في قوله تعالى : ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وازدادوا تِسْعًا ﴾ وقوله : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أو لازمان قد أسندا إلى الأرحام مجازاً وهما لما فيها ﴿ وَكُلُّ شيْء ﴾ من الأشياء ﴿ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ بقدر لا يمكن تجاوزُه عنه كقوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْء خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ فإن كل حادثٍ من الأعيان والأعراضِ له في كل مرتبةٍ من مراتب التكوينِ ومباديها وقتٌ معينٌ وحالٌ مخصوص لا يكاد يجاوزه ، والمرادُ بالعندية الحضورُ العلميُّ بل العلمُ الحضوريُّ فإن تحقيقَ الأشياءِ في أنفسها في أي مرتبةٍ كانت مراتبُ الوجود والاستعداد لذلك علمٌ له بالنسبة إلى الله عز وجل .

﴿ عالم الغيب ﴾

أي الغائبِ عن الحس ﴿ والشهادة ﴾ أي الحاضرِ له عبر عنهما بهما مبالغةً ، وقيل : أريد بالغيب المعدومُ وبالشهادة الموجودُ وهو خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ أو خبرٌ بعد خبر ، وقرىء بالنصب على المدح وهذا كالدليل على ما قبله من قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ الخ ﴿ الكبير ﴾ العظيمُ الشأنِ الذي كلُّ شيء دونه ﴿ المتعال ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته أو المنزّهُ عن نعوت المخلوقات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(50/408)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾

وهم المستعجلون أيضاً ، وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ذماً لهم ونعياً عليهم كفرَهم بآيات الله تعالى التي تخِرُّ لها صُمُّ الجبال حيث لم يرفعوا لها رأساً ولم يعُدّوها من جنس الآيات وقالوا : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبّهِ ﴾ مثل آياتِ موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عناداً ومكابرةً ، وإلا ففي أدنى آيةٍ أُنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غُنيةٌ وعِبرةٌ لأولي الألباب ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ مرسَلٌ للإنذار من سوء عاقبةِ ما يأتون ويذرون كدأب

مَنْ قبلك من الرسل وليس عليك إلا الإتيانُ بما يُعلم به نبوَّتُك ، وقد حصل ذلك بما لا مزيدَ عليه ولا حاجة إلى إلزامهم وإلقامِهم الحجرَ بالإتيان بما اقترحوا من الآيات ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ معينٌ لا بالذات بل بعنوان الهدايةِ يعني لكل قوم نبيٌّ مخصوصٌ له هدايةٌ مخصوصةٌ يقتضي اختصاصُ كلَ منهم بما يختص به حكماً لا يعلمها إلا الله أو لكل قوم هادٍ عظيمُ الشأنِ قادرٌ على ذلك هو الله سبحانه وما عليك إلا إنذارُهم فلا يُهِمَنك عنادُهم وإنكارُهم للآيات المنزّلةِ عليك وازدراؤهم بها ثم عقّبه بما يدل على كمال علمِه وقدرتِه وشمولِ قضائِه وقدَره المبنيّين على الحِكَم والمصالِح تنبيهاً على أن تخصيصَ كلِّ قومٍ بنبىء بجنس معين من الآيات إنما هو للحِكَم الداعية إلى ذلك إظهاراً لكمال قدرتِه على هدايتهم لكن لا يهدي إلا من تعلّق بهدايته مشيئتُه التابعةِ لحِكَمٍ استأثر بعلمها فقال :

(51/408)

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾ أي تحمِله فما موصولةٌ أُريد بها ما في بطنها من حين العُلوقِ إلى زمن الولادةِ لا بعد تكاملِ الخلقِ فقط ، والعلمُ متعدَ إلى واحد ، أو أيَّ شيءٍ تحملُ وعلى أي حال هو من الأحوال المتواردةِ عليه طوراً فطوراً فهي استفهاميةٌ معلقةٌ للعلم أو حملَها فهي مصدرية ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام وَمَا تَزْدَادُ ﴾ أي تنقصه وتزداده في الجثة

كالخَديج والتام وفي المدة كالمولود في أقلّ مدة الحملِ والمولود في أكثرها وفيما بينهما . قيل : إن الضحاك ولد في سنتين ، وهرِمَ ابن حيان في أربع ومن ذلك سُمِّي هرِماً ، وفي العدد كالواحد فما فوقه . يروى أن شريكاً كان رابعَ أربعةٍ ، أو يعلم نقصَها وازديادها لما فيها فالفعلان متعدّيان كما في قوله تعالى : ﴿ وَغِيضَ الْماء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وازدادوا تِسْعًا ﴾ وقوله : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أو لازمان قد أسندا إلى الأرحام مجازاً وهما لما فيها ﴿ وَكُلَّ شىْء ﴾ من الأشياء ﴿ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ بقدر لا يمكن تجاوزهُ عنه كقوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْء خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ فإن كل حادثٍ من الأعيان والأعراض له في كل مرتبةٍ من مراتب التكوينِ ومباديها وقتٌ معينٌ وحالٌ مخصوص لا يكاد يجاوزه ، والمرادُ بالعندية الحضورُ العلميُّ بل العلمُ الحضوريُّ فإن تحقيقَ الأشياءِ في أنفسها في أي مرتبةٍ كانت مراتبُ الوجود والاستعداد لذلك علمٌ له بالنسبة إلى الله عز وجل .

﴿ عالم الغيب ﴾

(52/408)

أي الغائبِ عن الحس ﴿ والشهادة ﴾ أي الحاضرِ له عبر عنهما بهما مبالغةً ، وقيل : أريد بالغيب المعدومُ وبالشهادة الموجودُ وهو خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ أو خبرٌ بعد خبر ، وقرىء

بالنصب على المدح وهذا كالدليل على ما قبله من قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ الخ ﴿ الكبير ﴾ العظيمُ الشأنِ الذي كل شيء دونه ﴿ المتعال ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته أو المنزَّهُ عن نعوت المخلوقات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(53/408)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾

وهم المستعجلون كما روي عن قتادة ، وكأنه إنما عبر عنهم بذلك نعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التي تخر لها صم الجبال حيث لم يرفعوا لها رأساً ولم يعدوها من جنس الآيات وقالوا : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبّهِ ﴾ مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام من قلب العصا حية وإحياء الموتى عناداً أو مكابرة وإلا ففي أدنى آية أنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غنية وعبرة لأولي الألباب ، والتعبير بالمضارع استحضاراً للحال الماضية ، وجوز أن يكون إشارة إلى أن ذلك القول ديدنهم ، وتنوين ﴿ ءايَةً ﴾ للتعظيم وجوز أن يكون للوحدة .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ ﴾ مرسل للإنذار من سوء عاقبة ما نهى الله تعالى عنه كدأب من قبلك من الرسل وليس عليك إلا الإتيان بما يعلم به نبوتك وقد حصل بما لا مزيد عليه ولا حاجة إلى إلزامهم والقامهم الحجر بالإتيان بما اقترحوه ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي نبي داع إلى الحق مرشد إليه بآية تليق به وبزمانه ، والتنكير للإبهام وروي هذا عن قتادة أيضاً .

ومجاهد

وعليه فقوله تعالى :

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾

استئناف جواباً عن سؤال من يقول : لماذا لم يجابوا إلى المقترح فتنقطع حجتهم ولعلهم يهتدون ؟ بأن ذلك أمر مدبر ببالغ العلم ونافذ القدرة لا عن الجزاف واتباع آرائهم السخاف ، وجوز أن يراد بالهادي هو الله تعالى وروي ذلك عن ابن عباس .

والضحاك .

وابن جبير ، فالتنوين فيه للتفخيم والتعظيم ، وتوجيه الآية على ذلك أنهم لما أنكروا الآيات عناداً لكفرهم الناشىء عن التقليد ولم يتدبروا الآيات قبل : إنما أنت منذر لا هاد مثبت

للإيمان في صدورهم صاد لهم عن جحودهم فإن ذلك إلى الله تعالى وحده وهو سبحانه القادر عليه ، وعلى هذا بيل : يجوز أن يكون قوله سبحانه : ﴿ الله ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو الله ويكون ذلك تفسيراً لهاد و ﴿ يَعْلَمْ ﴾ جملة مقررة لاستقلاله تعالى بالهداية كالعلة لذلك ، ويجوز أن يكون جملة ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ مقررة ويكون من باب إقامة الظاهر مقام المضمر كأنه هو تعالى يعلم أي ذلك الهادي ، والأول بعيد جداً .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن جرير عن عكرمة .

وأبي الضحى أن المنذر والهادي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجه ذلك بأن ﴿ هَادٍ ﴾ عطف على ﴿ مُنذِرُ ﴾ و ﴿ لِكُلِّ قَوْمٌ ﴾ متعلق به قدم عليه للفاصلة .

وفي ذلك دليل على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم وشمول دعوته ، وفيه الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالجار والمجرور والنحويون في جوازه مختلفون ، وقد يجعل ﴿ هَادٍ ﴾ خبر مبتدأ مقدر أي وهو هاد أو وأنت هاد ، وعلى الأول فيه التفات ، وقال أبو العالية : الهادي العمل ، وقال علي بن عيسى : هو السابق إلى الهدى ولكل قوم سابق سبقهم إلى الهدى .

قال أبو حيان : وهذا يرجع إلى أن الهادي هو النبي لأنه الذي يسبق إلى ذلك وعن أبي صالح أنه القائد إلى الخير أو إلى الشر والكل كما ترى .

وقالت الشيعة : إنه علي كرم الله تعالى وجهه ورووا في ذلك أخباراً ، وذكر ذلك القشيري

منا .

وأخرج ابن جرير .

وابن مردويه .

والديلمي .

وابن عساكر عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ ﴾ [الرعد : 7] الآية وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال : أنا المنذر وأومأ بيده إلى منكب علي كرم الله تعالى وجهه فقال : أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي .

(55/408)

وأخرج عبد الله بن أحمد في "زوائد المسند" .

وابن أبي حاتم .

والطبراني في الأوسط .

والحاكم وصححه .

وابن عساكر أيضاً عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال في الآية : رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر وأنا الهادي ، وفي لفظ الهادي رجل من بني هاشم يعني نفسه .

واستدل بذلك الشيعة على خلافة علي كرم الله تعالى وجهه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا فصل .

وأجيب بأنا لا نسلم صحة الخبر ، وتصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار عند أهل الأثر ، وليس في الآية دلالة على ما تضمنه بوجه من الوجوه ، على أن قصارى ما فيه كونه كرم الله تعالى وجهه به يهتدي المهتدون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك لا يستدعي إلا إثبات مرتبة الإرشاد وهو أمر والخلافة التي نقول بها أمر لا تلازم بينهما عندنا .

وقال بعضهم : إن صح الخبر يلزم القول بصحة خلافة الثلاثة رضي الله تعالى عنهم حيث دل على أنه كرم الله تعالى وجهه على الحق فيما يأتي ويذر وأنه الذي يهتدي به وهو قد بايع أولئك الخلفاء طوعاً ومدحهم وأثنى عليهم خيراً ولم يطعن في خلافتهم فينبغي الاقتداء به والجري على سننه في ذلك ودون ءثبات خلاف ما أظهر خرط القتاد .

وقال أبو حيان : إنه صلى الله عليه وسلم على فرض صحة الرواية إنما جعل علياً كرم الله تعالى وجهه مثالاً من علماء الأمة وهداتها إلى الدين فكأنه عليه الصلاة والسلام قال : يا

علي هذا وصفك فيدخل الخلفاء الثلاث وسائر علماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم بل وسائر علماء الأمة ، وعليه فيكون معنى الآية إنما أنت منذر ولكل قوم في القديم والحديث إلى ما شاء الله تعالى هداة دعاة إلى الخير اه وظاهره أنه لم يحمل تقديم المعمول في خبر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على الحصر الحقيقي وحينئذٍ لا مانع من القول بكثرة من يهتدي به ، ويؤيد عدم الحصر ما جاء عندنا من قوله صلى الله عليه وسلم : " اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر " وأخبار أخر متضمنة لإثبات من يهتدي به غير علي كرم الله تعالى وجهه ، وأنا أظنك لا تلتفت إلى التأويل ولا تعبأ بما قيل وتكتفي بمنع صحة الخبر وتقول ليس في الآية مما يدل عليه عين ولا أثر هذا ، و﴿ مَا ﴾ يحتمل أن تكون مصدرية أي يعلم حمل كل أنثى من أي الإناث كانت ، والحمل على هذا بمعنى المحمول ، وأن تكون موصولة والعائد محذوف أي الذي تحمله في بطنها من حين العلوق إلى زمن الولادة لا بعد تكامل الخلق فقط ، وجوز أن تكون نكرة موصوفة و﴿ يَعْلَمْ ﴾ قيل متعدية إلى واحد فهي عرفانية ، ونظر فيه بأن المعرفة لا يصح استعمالها في علم الله تعالى وهو ناشىء من عدم المعرفة بتحقيق ذلك وقد تقدم ، وجوز أن تكون استفهامية معلقة ليعلم وهي مبتدأ أو مفعول مقدم والجملة سادة مسد المفعولين ، أي يعلم أي شيء تحمل وعلى أي حال هو من الأحوال المتواردة عليه طوراً فطوراً ، ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر المتبادر ، وكما جوز في ﴿ مَا ﴾ هذه الأوجه جوزت في ما بعدها أيضاً ، ووجه مناسبة الآية لما قبلها قد

علم مما سبق ، وقيل : وجهها أنه لما تقدم إنكارهم البعث وكان من شبههم تفرق الأجزاء واختلاط بعضها ببعض بحيث لا يتهيأ الامتياز بينها

(57/408)

نبه سبحانه بهذه الآية على إحاطة علمه جل شأنه إزاحة لشبههم ؛ وقيل : وجهها أنهم لما استعجلوا بالسيئة نبه عز وجل على إحاطة علمه تعالى ليفيد أنه جلت حكمته إنما ينزل العذاب حسبما يعلم من المصلحة والحكمة ، وفي مصحف أبي ومر ما قيل في نظيره ﴿ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أنثى وَمَا تَضَعُ ﴾ ﴿ وَمَا تَغِيضُ الارحام وَمَا تَزْدَادُ ﴾ أي ما تنقصه وما تزداده في الجثة كالخديج والتام وروي ذلك عن ابن عباس ، وفي المدة كالمولود في أقل مدة الحمل والمولود في أكثرها وفيما بينهما وهو رواية أخرى عن الحبر ، قيل : إن الضحاك ولد لسنتين ، وإن هرم بن حيان لأربع ومن ذلك سمي هرماً ، وإلى كون أقصى مدة الحمل أربع سنين ذهب الشافعي ، وعند مالك أقصاها خمس ، وعند الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أقصاها سنتان وهو المروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، فقد أخرج ابن جرير عنها لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما تتحرك فلكة مغزل ، وفي العدد كالواحد فما فوق ، قيل : ونهاية ما عرف أربعة فإنه يروى أن شريك بن عبد الله ابن أبي نمير القرشي

كان رابع أربعة وهو الذي وقف عليه إمامنا الأعظم رضي الله تعالى عنه ، وقال الشافعي عليه الرحمة : أخبرني شيخ باليمن أن امرأته ولدت بطوناً في كل بطن خمسة وهذا من النوادر ، وقد اتفق مثله لكن ما زاد على اثنين لضعفه لا يعيش إلا نادراً .

(58/408)

وما يحكى أنه ولد لبعضهم أربعون في بطن واحدة كل منهم مثل الإصبع وأنهم عاشوا كلهم فالظاهر أنه كذب ، وقيل : المراد نقصان دم الحيض وازدياده وروي ذلك عن جماعة ، وفيه جعل الدم في الرحم كالماء في الأرض يغيض تارة ويظهر أخرى ، وغاض جاء متعدياً ولازماً كنقص وكذا ازداد وهو مما اتفق عليه أهل اللغة ، فإن جعلتهما لازمين لا يجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ موصولة أو موصوفة لعدم العائد ، وإسناد الفعلين كيفما كانا إلى الأرحام فإنهما على اللزوم لما فيها وعلى التعدي لله جل شأنه وعظم سلطانه ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء ﴿ عِندَهُ ﴾ سبحانه ﴿ بِمِقْدَارٍ ﴾ بقدر لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] فإن كل حادث من الاعراض والجواهر له في كل مرتبة من مراتب التكوين ومباديها وقت معين وحال مخصوص لا يكاد يجاوزه ولعل حال المعدوم معلوم بالدلالة إذا قلنا : إن الشيء هو الموجود و ﴿ عِندَ ﴾ ظرف متعلق

بمحذوف وقع صفة لشيء أو لكل و ﴿ بِمِقْدَارٍ ﴾ خبر ﴿ كُلُّ ﴾ وجوز أن يكون الظرف متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من مقدار وهو في الأصل صفة له لكنه لما قدم أعرب حالاً وفاءً بالقاعدة ؛ وأن يكون ظرفاً لما يتعلق به الجار ، والمراد بالعندية الحضور العلمي بل العلم الحضوري على ما قيل ، فإن تحقق الأشياء في أنفسها في أي مرتبة كانت من مراتب الوجود والاستعداد لذلك علم بالنسبة إليه تعالى ، وقيل : معنى عنده في حكمه .

﴿ عالم الغيب ﴾ أي الغائب عن الحس ﴿ والشهادة ﴾ أي الحاضر له عبر عنهما بهما مبالغة .

(59/408)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن الغيب السر والشهادة العلانية ، وقيل : الأول المعدوم والثاني الموجود ونقل عن بعضهم أنه قال : إنه سبحانه لا يعلم الغيب على معنى أن لا غيب بالنسبة إليه جل شأنه والمعدومات مشهودة له تعالى بناءً على القول برؤية المعدوم كما برهن عليه الكوراني في رسالة ألفها لذلك ، ولا يخفى ما في ذلك من مزيد الجسارة على الله تعالى والمصادمة لقوله جل شأنه : ﴿ عالم الغيب ﴾ ولا ينبغي لمسلم أن يتفوه بمثل هذه الكلمة التي تقشعر من سماعها أبدان المؤمنين نسأل الله تعالى أن يوفقنا للوقوف عند حدنا

ويمن علينا بحسن الأدب معه سبحانه، ورفع ﴿ عالم ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف أو خبر بعد خبر.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ عالم ﴾ بالنصب على المدح، وهذا الكلام كالدليل على ما قبله من قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ [الرعد: 8] الخ.

﴿ الكبير ﴾ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ﴿ المتعال ﴾ المستعلي على كل شيء في ذاته وعلمه وسائر صفاته سبحانه، وجوز أن يكون المعنى الكبير الذي يجل عما نعته به الخلق من صفات المخلوقين ويتعالى عنه، فعلى الأول المراد تنزيهه سبحانه في ذاته وصفاته عن مداناة شيء منه؛ وعلى هذا المراد تنزيهه تعالى عما وصفه الكفرة به فهو رد لهم كقوله جل شأنه: ﴿ سبحان اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: 159] قال العلامة الطيبي: إن معنى ﴿ الكبير المتعال ﴾ بالنسبة إلى مردوفه وهو ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ هو العظيم الشأن الذي يكبر عن صفات المخلوقين ليضم مع العلم العظمة والقدرة بالنظر إلى ما سبق من قوله تعالى: ﴿ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى ﴾ [الرعد: 8] إلى آخر ما يفيد التنزيه عما يزعمه النصارى والمشركون، ورفع ﴿ الكبير ﴾ على أنه خبر بعد خبر، وجوز أن يكون ﴿ عالم ﴾ مبتدأ وهو خبره. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعاني حـ 13 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

وهم المستعجلون بالسيئة المتقدمون .

قال أبو السعود : وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ؛ ذماً لهم ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التي تخر لها صم الجبال ، حيث لم يرفعوا لهم رأساً ، ولم يعدوها من جنس الآيات ، وقالوا عناداً :

(61/408)

﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي : مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام ، أو مثل ما يقترحون من جعل الصفا ذهباً ، أو إزاحة الجبال وجعل مكانها مروجاً وأنهاراً : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ أي : مرسل للإنذار والتخويف من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون ، وناصح كغيرك من الرسل ، فما عليك إلا البلاغ ، لا إجابة المقترحات : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي : نبي داع إلى الحق مرشد بالآية التي تناسب زمنه ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : من الآية 24] ، تعريض بأنه صلى الله عليه وسلم ليس بدعاً من الرسل

. فقد خلا قبله الهداة الداعون إلى الله ، عليهم السلام . أو المعنى : لكل قوم هاد عظيم الشأن ، قادر على هدايتهم ، هو الله سبحانه ، فما عليك إلا إنذارهم لا هدايتهم .

وإيتاؤهم الإيمان وصدهم عن الجحود ؛ فإن ذلك لله وحده كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : من الآية 272] ، أو المعنى : ﴿ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ قائد يهديهم إلى الرشد . وهو الكتاب المنزل عليهم الداعي بعنوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم . يعني : أن سر الإرسال وآيته الفريدة ؛ إنما هو الدعاء إلى الهدى وتبصير سبله ، والإنذار من الاسترسال في مساقط الردى . وقد أنزل عليك من الهدى أحسنه . فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله ، وقد لا يفيد إنزالها هداية ! قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء : من الآية 59] ، ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : من الآية 109] ، مع ما يستتبع الإصرار بعدها من الأخذ بلا إمهال ! : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ

تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : 62] .

قال الشهاب : وجوز عطف (هاد) على (منذر) وجعل المتعلق مقدماً عليه ، للفاصلة فيدل على عموم رسالته وشمول دعوته . وقد يجعل خبر مبتدأ مقدر ، أي : وهو هاد ، أو وأنت هاد ، وعلى الأول فيه التفات .

وقوله تعالى :

(63/408)

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ﴾ جملة مستأنفة ، جواب سؤال وهو : لماذا لم يجابوا لمقترحهم فتنقطع حجتهم فلعلهم يهتدون بأنه آمر مدبر عليم نافذ القدرة فعال لما تقتضيه حكمته البالغة دون آرائهم السخيفة ؟ وهذا على أن (الهادي) بمعنى (الداعي إلى الحق) .

وإن كان المراد به الله سبحانه ؛ فالجملة تفسير لقوله (هاد) أو مقررة مؤكدة لذلك . كذا في " العناية " .

وأشار الرازي إلى أن الآية : إما متصلة بما قبلها مشيرة إلى أنه تعالى واسع العلم لا يخفى عليه أن اقتراحهم عناد وتعنت ، وأنهم لا يزدادون بإظهار مقترحهم إلا عناداً ، فلذا لم يجابوا إليه

. وإما متصلة بقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ يعني أنه تعالى عالم بجميع المعلومات . فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم أن فيه مصلحة .

ثم إن لفظ (ما) في قوله تعالى : ﴿ مَا تَحْمِلُ ﴾ مصدرية أو موصولة ، أي : حملها ، أو ما تحمله من الولد ، على أي : حالة هو من ذكورة وأنوثة ، وتمام وخداج ، وحسن وقبح ، وطول وقصر . . . . وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة .

﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ ﴾ أي : تنقص من الحمل : ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ أي : تأخذه زائداً . قال الزمخشري : ومما تنقصه الرحم وتزداده عدد الولد ؛ فإنها تشمل على واحد ، وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة . ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمه ، ومنه جسد الولد فإنه يكون تاماً ومخدجاً . ومنه مدة ولادته ، فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها ، ومنه الدم فإنها يقل ويكثر .

(64/408)

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ أي : بقدر وحدّ لا يجاوزه حسب قابليته ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] ، وقوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : من الآية 2] ، وذلك أنه تعالى خص كل مكون بوقت وحل معينين ،

وهيأ لوجوده وبقائه أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ أي : ما غاب عن الحس : ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي : ما شهده الحس : ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ أي : العظيم الشأن الذي كل شيء دونه : ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ أي : المستعلي على كل شيء بقدرته . أو المنزه عن صفات المخلوقين ، المتعالي عنها .

وأكثر القراء على حذف ياء : ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ تخفيفاً ، وصلاً ووقفاً ، وقرئ بإثباته فيهما على الأصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 265.267 ﴾

(65/408)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

عطف على جملة ﴿ ويستعجلونك بالسيئة ﴾ الآية .

وهذه حالة من أعجوباتهم وهي عدم اعتدادهم بالآيات التي تأيد بها محمّد صلى الله عليه وسلم وأعظمها آيات القرآن ، فلا يزالون يسألون آية كما يقترحونها ، فله اتصال بجملة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ [هود : 17] .

ومرادهم بالآية في هذا خارق عادة على حساب ما يقترحون ، فهي مخالفة لما تقدم في قوله

: ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾ لأن تلك في تعجيل ما توعدهم به ، وما هنا في مجيء آية تؤيده كقولهم : ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : 8] .

ولكون اقتراحهم آية يُشف عن إحالتهم حصولها لجهلهم بعظيم قدرة الله تعالى سيق هذا في عداد نتائج عظيم القدرة ، كما دل عليه قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [الأنعام : 36] فبذلك انتظم تفرع الجمل بعضها على بعض وتفرع جميعها على الغرض الأصلي .

والذين كفروا هم عين أصحاب ضمير يستعجلونك ﴾ ، وإنما عدل عن ضميرهم إلى اسم الموصول لزيادة تسجيل الكفر عليهم ، ولما يومئ إليه الموصول من تعليل صدور قولهم ذلك .

وصيغة المضارع تدل على تجدد ذلك وتكرره .

و﴿ لولا ﴾ حرف تحضيض .

يموهون بالتحضيض أنهم حريصون وراغبون في نزول آية غير القرآن ليؤمنوا ، وهم كاذبون في ذلك إذ لو أوتوا آية كما يقترحون لكفروا بها ، كما قال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ [الإسراء : 59] .

وقد رد الله اقتراحهم من أصله بقوله : إنما أنت منذر ﴾ ، فقصر النبي صلى الله عليه وسلم على صفة الإنذار وهو قصر إضافي ، أي أنت منذر لا مُوجد خوارق عادٍ .

وبهذا يظهر وجه قصره على الإنذار دون البشارة لأنه قصر إضافي بالنسبة لأحواله نحو المشركين.

(66/408)

وجملة ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ تذييل بالأعم، أي إنما أنت منذر لهؤلاء لهدايتهم، ولكل قوم هاد أرسله الله ينذرهم لعلهم يهتدون، فما كنت بدعاً من الرسل وما كان للرسل من قبلك آيات على مقترح أقوامهم بل كانت آياتهم بحسب ما أراد الله أن يظهر على أيديهم.

على أن معجزات الرسل تأتي على حسب ما يلائم حال المرسل إليهم.

ولما كان الذين ظهرت بينهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم عرباً أهل فصاحة وبلاغة جعل الله معجزته العظمى القرآن بلسان عربي مبين.

وإلى هذا المعنى يشير قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: " ما من الأنبياء نبيء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيتُ وحَيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ".

وبهذا العموم الحاصل بالتذييل والشامل للرسول عليه الصلاة والسلام صار المعنى إنما أنت منذر لقومك هادٍ إياهم إلى الحق، فإن الإنذار والهدي متلازمان فما من إنذار إلاّ وهو

هداية وما من هداية إلا وفيها إنذار ، والهداية أعمّ من الإنذار ففي هذا احتباك بديع .

وقرأ الجمهور ﴿ هادٍ ﴾ بدون ياء في آخره في حالتي الوصل والوقف .

أما في الوصل فلالتقاء الساكنين سكون الياء وسكون التنوين الذي يجب النطق به في حالة الوصل ، وأما في حالة الوقف فتبعا لحالة الوصل ، وهو لغة فصيحة وفيه متابعة رسم المصحف .

وقرأه ابن كثير في الوصل مثل الجمهور .

وقرأه بإثبات الياء في الوقف لزوال مُوجب حذف الياء وهو لغة صحيحة .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) ﴾

انتقال إلى الاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهية ، فهو متصل بجملة ﴿ الله الذي رفع السماوات ﴾ [الرعد : 2] الخ .

وهذه الجملة استئناف ابتدائي .

فلما قامت البراهين العديدة بالآيات السابقة على وحدانية الله تعالى بالخلق والتدبير وعلى عظيم قدرته التي أودعها في المخلوقات دقائق الخلقة انتقل الكلام إلى إثبات العلم له تعالى علماً عاماً بدقائق الأشياء وعظائمها ، ولذلك جاء افتتاحه على الأسلوب الذي افتتح به الغرض السابق بأن ابتدىء باسم الجلالة كما ابتدىء به هنالك في قوله : ﴿ اللَّهُ الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ﴾ [الرعد : 2] .

وجعلت هذه الجملة في هذا الموقع لأن لها مناسبة بقولهم : لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ ، فإن ما ذكر فيها من علم الله وعظيم صنعه صالح لأن يكون دليلاً على أنه لا يعجزه الإتيان بما اقترحوا من الآيات ؛ ولكن بعثة الرسول ليس المقصد منها المنازعات بل هي دعوة للنظر في الأدلة .

وإذ قد كان خلق الله العوالم وغيرها معلوماً لدى المشركين ولكنّ الإقبال على عبادة الأصنام يذهلهم عن تذكره كانوا غير محتاجين لأكثر من التذكير بذلك وبالتنبيه إلى ما قد يخفى من دقائق التكوين كقوله آنفاً ﴿ بغير عَمد ﴾ [الرعد : 2] وقوله : ﴿ وفي الأرض قِطع متجاورات ﴾ [الرعد : 4] الخ ؛ صيغ الإخبار عن الخلق في آية : ﴿ الله الذي رفع السماوات ﴾ [الرعد : 2] الخ بطريقة الموصول للعلم بثبوت مضمون الصلة للمخبر عنه . وجيء في تلك الصلة بفعل المضي فقال : ﴿ الله الذي رفع السماوات كما أشرنا إليه آنفاً .

فأما هنا فصيغ الخبر بصيغة المضارع المفيد للتجدد والتكرير لإفادة أن ذلك العلم متكرر

متجدد التعلق بمقتضى أحوال المعلومات المتنوعة والمتكاثرة على نحو ما قرر في قوله : ﴿ يدبر الأمر يفصل الآيات ﴾ [الرعد : 2] .

وذُكر من معلومات الله ما لا نزاع في أنه لا يعلمه أحد من الخلق يومئذٍ ولا تستشار فيه آلهتهم على وجه المثال بإثبات الجُزئي لإثبات الكلّي ، فما تحمل كل أنثى هي أجنة الإنسان والحيوان .

ولذلك جيء بفعل الحمل دون الحَبْل لاختصاص الحبل بحمل المرأة .

(68/408)

وما ﴿ موصولة ، وعمومها يقتضي علم الله بحال الحل الموجود من ذكورة وأنوثة ، وتمام ونقص ، وحسن وقبح ، وطول وقصر ، ولون .

وتغيض : تنقص ، والظاهر أنه كناية عن العلوق لأن غيض الرحم انحباس دم الحيض عنها ، وازديادها : فيضان الحيض منها .

ويجوز أن يكون الغيض مستعاراً لعدم التعدد .

والازدياد : التعدد أي ما يكون في الأرحام من جنين واحد أو عدة أجنة وذلك في الإنسان والحيوان .

وجملة ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ معطوفة على جملة ﴿ يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ .

فالمراد بالشيء الشيء من المعلومات .

و﴿ عنده ﴾ يجوز أن يكون خبراً عن ﴿ وكل شيء ﴾ و ﴿ بمقدار ﴾ في موضع الحال من ﴿ وكل شيء ﴾ .

ويجوز أن يكون ﴿ بمقدار ﴾ في موضع الحال من مقدار ويكون ﴿ بمقدار ﴾ خبراً عن ﴿ كل شيء ﴾ .

والمقدار : مصدر ميمي بقرينة الباء ، أي بتقدير ، ومعناه : التحديد والضبط .

والمعنى أنه يعلم كلّ شيء علماً مفصّلاً لا شيوع فيه ولا إبهام .

وفي هذا ردّ على الفلاسفة غير المسلمين القائلين أنّ واجب الوجود يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات فراراً من تعلّق العلم بالحوادث .

وقد أبطل مذهبهم علماءُ الكلام بما ليس فوقه مرام .

وهذه قضية كلية أثبتت عموم علمه تعالى بعد أن وقع إثبات العموم بطريقة التمثيل بعلمه بالجزئيات الخفية في قوله : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ .

وجملة ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ تذييل وفذلكة لتعميم العلم بالخفيات والظواهر وهما قسما الموجودات .

وقد تقدم ذكر ﴿ الغيب ﴾ في صدر سورة البقرة (4) .

وأما الشهادة ﴾ فهي هنا مصدر بمعنى المفعول، أي الأشياء المشهودة، وهي الظاهرة المحسوسة، المرئيات وغيرها من المحسوسات، فالمقصود من ﴿ الغيب والشهادة ﴾ تعميم الموجودات كقوله: ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ [الحاقة: 38 39].

٧

(69/408)

والكبير: مجاز في العظمة، إذ قد شاع استعمال أسماء الكثرة وألفاظ الكبر في العظمة تشبيهاً للمعقول بالمحسوس وشاع ذلك حتى صار كالحقيقة.

والمتعالي: المترفع.

وصيغت الصفة بصيغة التفاعل للدلالة على أن العلو صفة ذاتية له لا من غيره، أي الرفيع رفعة واجبة له عقلاً.

والمراد بالرفعة هنا المجاز عن العزة التامة بحيث لا يستطيع موجود أن يغلبه أو يكرهه، أو المنزه عن النقائص كقوله عزّ وجلّ تعالى ﴿ عما يشركون ﴾ [النحل: 3].

وحذف الياء من المتعال ﴾ لمرعاة الفواصل الساكنة لأن الأفصح في المنقوص غير المُنوّن

إثبات الياء في الوقف إلاّ إذا وقعت في القافية أو في الفواصل كما في هذه الآية لمراعاة ﴿ من وال ﴾ [الرعد : 11] ، و ﴿ الآصال ﴾ [الرعد : 15] .

وقد ذكر سيبويه أن ما يختار إثباته من الياءات والواوات يحذف في الفواصل والقوافي ، والإثبات أقيس والحذف عربي كثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(70/408)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ .

أي إنما عليك البلاغ والإنذار ، أما هداهم وتوفيقهم فهو بيد الله تعالى ، كما أن حسابهم عليه جل وعلا .

وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة ، كقوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : 272] ، وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ [الرعد : 40] ونحو ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ .

أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة أن المراد بالقوم الأمة، والمراد بالهادي الرسول، كما يدل به قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ [يونس: 47] الآية. وقوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: 24]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ [النحل: 36] الآية. وقد اوضحنا أقوال العلماء وأدلتها في هذه الآية الكريمة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب، عن آيات الكتاب).

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾.

لفظة ما في هذه الآية يحتمل أن تكون موصوله والعائد محذوف، اي يعلم الذي تحمله كل أنثى وعلى هذا فالمعنى: يعلم ما تحمله م الولد على اي حال هو من ذكورة وأنوثة، وخداج، وحسن، وقبح، وطول وقصر، وسعادة وشقاوة إلى غير ذلك من الأحوال.

وقد دلت على هذا المعنى آيات من كتاب الله، كقوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان: 34]. لأن ما فيه موصولة بلا نزاع، وكقوله: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النجم: 32]، وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: 6] الآية.

ويحتمل أيضاً أن تكون لفظة ما في هذه الآية الكريمة مصدرية ، اي يعلم حمل كل انثى بالمعنى المصدري ، وقد جاءت ءيات تدل أيضاً على هذا المعنى ، كقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ [فاطر : 11] ، وقوله : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [فصلت : 47] الآية .

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون لها وجهان كلاهما حق ، وكلاهما يشهد له قرآن ، فنذكر الجميع .

وأما احتمال كون لفظة ما في هذه الآية استفهامية ، فهو بيعد فيما يظهر لي ، وإن قال به بعض اهل العلم ، وقد دلت السنة الصحيحة على أن علن ما في الأرحام المنصوص عليه في الآيات المذكورة مما استأثر الله به دون خلقه ، وذلك هو ما ثبت في صحيح البخاري من أن المراد بمفاتح الغيب في قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] الخمس المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : 34] ، والاحتمالان المذكوران في لفظة ما من قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ ﴾ الآية ، جاريان ايضاً في قوله : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ [الرعد : 8] ، فعلى كونها

موصولة فيهما ، فالمعنى يعلم الذي تنقصه وتزيده ، وعلى كونها مصدرية ، فالمعنى يعلم نقصها وزيادتها .

(72/408)

واختلف العلماء في المراد بقوله : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام ومَا تَزْدَادُ ﴾ وهذه أقوالهم في الآية بواسطة نقل " صاحب الدر المنثور في التفسير بالمأثور " : أخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله ﴿ ومَا تَغِيضُ الأرحام ومَا تَزْدَادُ ﴾ قال : " هي المرأة ترى الدم في حملها " .

وأخرج ابن ابي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ومَا تَغِيضُ الأرحام ﴾ قال : " خروج الدم " ﴿ ومَا تَزْدَادُ ﴾ قال : " استمساكه " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ومَا تَغِيضُ الأرحام ﴾ قال : " أن ترى الدم في حملها " ﴿ ومَا تَزْدَادُ ﴾ قال : " في التسعة أشهر " .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ومَا تَغِيضُ الأرحام ومَا تَزْدَادُ ﴾ قال : " ما تزداد على التسعة وما تنقص من التسعة " .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ﴿ ومَا تَغِيضُ

الأرحام ﴾ قال : " ما دون تسعة اشهر ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ فوق التسعة " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام ﴾ يعني " السقط " ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ يقول : " ما زادت في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ومنهن من تزيد في الحمل ومنهن من تنقص فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه قال : " ما دون التسعة أشهر فهو غيض وما فوقها فهو زيادة " .

واخرج ابن ابي شيبة ووابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه قال : " ما غاضت الرحم بالدم يوماً إلا زاد في الحمل يوماً حتى تكمل تسعة اشهر طاهراً " .

وأخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام ﴾ قال : " السقط " وأخرج ابن ابي شيبة وابن المنذر وابن جرير وابن ابي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال : " إذا رأت الدم هش الولد وإذا لم تر الدم عظم الولد

" اه " من الدر المنثور في التفسير بالمأثور " .

وقيل الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد كنقصان إصبع وغيرها وزيادة إصبع وغيرها .

وقيل الغيض : انقطاع دم الحيض وما تزداد بدم النفاس بعد الوضع .

ذكر هذين القولين القرطبي :

وقيل تغيض تشتمل على واحد وتزداد تشتمل على توأمين فأكثر .

قال مقيده – عفا الله عنه : مرجع هذه الأقوال كلها إلى شيء واحد وهو أنه تعالى عالم بما تنقصه الأرحام وما تزيده لأن معنى تغيض تنقص وتزداد أي تأخذه زائداً فيشمل النقص المذكور نقص العدد ونقص العضو من الجنين ونقص جسمه إذا حاضت عليه فتقلص ونقص مدة الحمل بأن تسقطه قبل أمد حمله المعتاد ، كما أن الازدياد يشمل زيادة العضو وزيادة العدد وزيادة جسم الجنين إن لم تحض وهي حامل وزيادة أمد الحمل عن القدر المعتاد ، والله جل وعلا يعلم ذلك كله والآية تشمله كله .

تنبيه .

أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن أقل أمد الحمل وأكثره وأقل أمد الحيض وأكثر مأخوذ من طريق الاجتهاد لأن الله استأثر بعلم ذلك لقوله : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأرحام ﴾ الآية .

ولا يجوز أن يحكم في شيء من ذلك إلا بقدر ما أظهره الله لنا ووجد ظاهراً في النساؤ نادراً

أو معتاداً وسنذكر إن شاء الله أقوال العلماء في اقل الحمل وأكثره ، ونرجح ما يظهر رجحانه بالدليل . فنقول وبالله تعالى نستعين .

(74/408)

اعلم أن العلماء أجمعوا على أن أقل أمد الحمل ستة أشهر وسيأتي بيان ان القرآن دل على ذلك لأن قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً ﴾ [الأحقاف : 15] إن ضمت إليه قوله تعالى ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان : 14] بقي عن مدة الفصال من الثلاثين شهراً لمدة الحمل ستة أشهر فدل ذلك على أنها أمد للحمل يولد فيه الجنين كاملاً كما يأتي إيضاحه إن شاء الله تعالى .

وقد ولد عبد الملك بن مروام لستة أشهر وهذه الأشهر الستة بالأهلة كسائر أشهر الشريعة لقوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة : 189] الآية .

قال القرطبي : " ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك وأظنه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها حكاه ابن عطية اه " .

قال مقيده – عفا الله عنه : الذي يظهر والله تعالى أعلم أن الشهر المعدود من أوله يعتبر

على حاله من كمال أو نقصان وأن المنكسر يتمم ثلاثين ، أما أكثر أمد الحمل فلم يرد في تحديده شيء من كتاب ولا سنة والعلماء مختلفون فيه وكلهم يقول بحسب ما ظهر له من أحوال النساء .

فذهب الإمام أحمد والشافعي : إلى أن أقصى أمد الحمل أربع سنين وهو إحدى الروايتين المشهورتين عن مالك والرواية المشهورة الأخرى عن مالك خمس سنين وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن أقصاه سنتان وهو رواية عن أحمد وهو مذهب الثوري وبه قالت عائشة رضي الله عنها وعن الليث ثلاث سنين وعن الزهري ست وسبع وعن محمد بن الحكم سنة لا أكثر وعن داود تسعة أشهر .

وقال ابن عبد البر هذه مسألة لا اصل لها إلا الاجتهاد والرد إلى ما عرف من أمر النساء

وقال القرطبي " روى الدارقطني عن الوليد بن مسلم قال قلت لمالك بن أنس إني حدثت عن عائشة أنها قالت لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قدر ظل المغزل فقال : سبحان الله من يقول هذا هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سنين وكانت تسمى حاملة الفيل " .

وروي أيضاً بينما مالك بن دينار يوماً جالس إذ جاءه رجل فقال : " يا أبا يحيى ادع لامرأتي حبلى منذ أربع سنين قد أًصبحت في كرب شديد " فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : " ما يرى هؤلاء القوم إلا أنا أنبياء " ثم قرأ ثم دعا ثم قال : " اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنها وإن كان في بطنها جارية فأبدلها غلاماً فإنك تمحو وتثبت وعند أم الكتاب " ورفع مالك يده ورفع الناس أيديهم وجاء الرسول إلى الرجل فقال أدرك امرأتك فذهب الرجل فما حط مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جعد قطط ابن أربع سنين قد استوت أسنانه ما قطعت سراره .

وروي ايضاً أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين : " إني غبت عن امرأتي سنتين فجئت وهي حبلى " فشاور عمر الناس في رجمها فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : " يا أمير المؤمنين إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل فاتركها حتى تضع " فتركها فوضعت غلاماً قد خرجت ثنيتاه فعرف الرجل الشبه فقال : " ابني ورب الكعبة " فقال عمر : " عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ، لولاك يا معاذ لهلك عمر " .

وقال الضحاك : " وضعتني أمي وقد حملت بي في بطنها سنتين ، فولدتني وقد خرجت سني " .

ويذكر عن مالك أنه حمل به بطن أمه سنتان وقيل ثلاث سنين ، ويقال إن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين فماتت به وهو يضطرب اضطراباً شديداً فشق بطنها وأخرج وقد نبتت اسنانه ، وقال حماد بن سلمة إنما سمي هرم بن حيان هرماً لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين .

وذكر الغزنوي أن الضحاك ولد لسنتين وقد طلعت سنه فسمي ضحاكاً .

وعن عباد بن العوام قال : " ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاماً شعره إلى منكبيه فمر به طير فقال له كش " اه كلام القرطبي .

قال مقيده – عفا الله عنه : أظهر الأقوال دليلاً لا حد لأكثر أمد الحمل وهو الرواية الثالثة عن مالك كما نقله عنه القرطبي لأن كل تحديد بزمن معين لا أصل له ولا دليل عليه وتحديد زمن بلا مستند صحيح لا يخفى سقوطه والعلم عند الله تعالى .

وأما أقل الحيض وأكثره فقد اختلف فيه العلماء ايضاً فذهب مالك إلى أن أقل الحيض بالنسبة إلى العبادة كالصوم ووجوب الغسل لا حد له بل لو نزلت من المرأة قطرة دم واحدة لكان حيضة بالنسبة إلى العبادة ، أما بالنسبة إلى الاستبراء والعدة فقيل كذلك أيضاً ، والمشهور أنه يرجع في قدر ذلك للنساء العارفات بالقدر الذي يدل على براءة الرحم من الحيض قال خليل بن إسحاق في مختصره الذي قال فيه مبيناً لما به الفتوى ورجع في قدر

الحيض هنا هل هو يوم أو بعضه إلى قوله للنساء أي رجع في ذلك كله للنساء اه .

والظاهر أنه عند مالك من قبيل تحقيق المناط والنساء أدرى بالمناط في ذلك .

(77/408)

أما أكثر الحيض عند مالك فهو بالنسبة إلى الحيضة الأولى التي لم تحض قبلها نصف شهر ، ثم إن تمادى عليها الدم بعد نصف الشهر فهي مستحاضة وأما المرأة التي اعتادت الحيض فأكثر مدة حيضها عنده هو زيادة ثلاثة أيام استظهاراً على أكثر أزمنة عادتها إن تفاوت زمن حيضها فإن حاضت مرة ستاً ومرة خمساً ومرة سبعاً استظهرت بالثلاثة على السبعة لأنها أكثر عادتها ومحل هذا إذا لم يزد ذلك على نصف الشهر فإن زاد على نصف الشهر فهي طاهر عند مضي نصف الشهر وكل هذا في غير الحامل وسيأتي الكلام في هذا المبحث إن شاء الله على الدم الذي تراه الحامل .

هذا حاصل مالك في أقل الحيض وأكثره وأما أكثر الطهر فلا حد له ولا خلاف في ذلك بين العلماء وأقل الطهر في مذهب مالك لم يصرح به مالك بل قال يسأل النساء عن عدد أيام الطهر .

وقال الشيخ أبو محمد في سالته إنه نحو ثمانية أيام أو عشرة أيام . وقال ابن سراج : " ينبغي أن

تكون الفتوى بذلك " لأن الشيخ أبا محمد استقرأ ذلك من " المدونه " وهو قول سحنون وقال ابن مسلمة " أقل الطهر في مذهب مالك خمسة عشر يوماً " واعتمده صاحب " التلقين " وجعله ابن شاس المشهور وعليه درج خليل بن إسحا في مختصره حيث قال وأكثره لمبتدئه نصف شهر كأقل الطهر .

وذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد رحمهما الله في المشهور الصحيح عنهما أن أقل الحيض يوم وليلة وأكثره خمسة عشر يوماً وهو قول عطاء وأبي ثور وأقل الطهر عند الشافعي باتفاق أصحابه خمسة عشر يوماً ونقل الماوردي عن أكثر أهل العلم أن أقل الطهر خمسة عشر يوماً وقال الثوري أقل الطهر بين الحيضتين خمسة عشر يوماً .

قال أبو ثور وذلك مما لا يختلفون فيه فيما نعلم .

وذهب الإمام أحمد إلى أن أقل الطهر بين الحيضتين ثلاثة عشر يوماً . روى عنه ذلك الأثرم وأبو طالب . وقد قدمنا مراراً أن أكثر الطهر لا حد له إجماعاً . قال النووي في شرح المهذب : ودليل الإجماع الاستقراء : لأن ذلك موجود مشاهد ، ومن أظرفه ما نقله القاضي ابو الطيب في تعليقه قال : " أخبرتني امرأة عن أختها أنها تحيض في كل سنة يوماً

وليلة وهي صحيحة تحبل وتلد ونفاسها أربعون يوما " .

وذهب الإمام أبو حنيفة – رحمه الله – إلى أن أقل الحيض ثلاثة أيام وأكثره عشرة. وعن ابي يوسف : أقله يومان وأكثر الثالث. وأقل الطهر عند أبي حنيفة وأصحابه : خمسة عشر يوماً ولا حد لأكثره عنده ، كما قدمنا حكاية الإجماع عليه مرارا ، ويستثنى من ذلك مراعاة المعتادة المستحاضة لزمن طهرها وحيضها .

وعن يحيى بن أكثم : أقل الطهر تسعة عشر يوماً . وحكى الماوردي عن مالك ثلاث روايات في أكثر الحيض. إحداها : خمسة عشر ، والثانية : سبعة عشر ، والثالثة : غير محدودة.

وعن مكحول : أكثر الحيض سبعة أيام ، وعن عبد الملك بن الماجشون : أقل الطهر خمسة ايام. ويحكى عن نساء الماجشون : أنهن كن يحضن سبع عشرة. قال أحمد : " وأكثر ما سمعنا سبع عشرة " .

هذا حاصل أقوال العلماء في أقل الحيض وأكثره ، وهذه أدلتهم. أما أبو حنيفة ومن وافقه ، فاحتجوا لمذهبهم أن أقل الحيض ثلاثة وأكثره عشرة بحديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال : " أقل الحيض ثلاثة وأكثره عشرة ايام " .

وبما روي عن ابي أمامة رضي الله عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يكون الحيض أكثر من عشرة أيام ولا أقل من ثلاثة ايام " وبما روي عن أنس رضي الله عنه قال : " الحيض ثلاث ، أربع ، خمس ، ست ، سبع ، ثمان ، تسع ، عشر " قالوا : وأنس لا يقول هذا إلا توقيفاً . قالوا : ولأن هذا التقدير ، والتقدير لا يصح إلا بتوقيف أو اتفاق ، وإنما حصل الاتفاق على ثلاثة ، ورد الجمهور الاستدلال بالأحاديث المذكورة بأنها ضعيفة لا تثبت بمثلها حجة .

قال النووي في شرح المهذب ما نصه : " وأما حديث واثلة وأبي أمامة وأنس ، فكلها ضعيفة متفق على ضعفها عند المحدثين . وقد اوضح ضعفها الدارقطني ثم البيهقي في كتاب الخلافيات ثم السنن الكبير " اه .

وقال ابن قدامة في المغني : حديث واثلة يرويه محمد بن أحمد الشامي وهو ضعيف عن حماد بن المنهال وهو مجهول . وحديث أنس يرويه الجلد بن ايوب وهو ضعيف . قال ابن عيينة هو حديث لا اصل له . وقال أحمد في حديث أنس : ليس هو شيئاً هذا من قبل الجلد بن ايوب قيل إن محمد بن إسحاق رواه . قال ما أرواه سمعه إلا من الحسن بن دينا وضعفه دداً . وقال يزيد بن زريع ذاك أبو حنيفة لم يحتج إلا بالجلد بن أيوب وحديث الجلد قد روي عن علي رضي الله عنه ما يعارضه ، فإنه قال ما زاد على خمسة عشر

استحاضة وأقل الحيض يوم وليلة. وقال البيهقي في سنن الكبرى فهذا حديث يعرف بالجلد بن أيوب، وقد أنكر عليه ذلك.

وقال البيهقي أيضاً قال ابن علية الجلد أعرابي لا يعرف الحديث. وقال أيضاً قال الشافعي نحن وأنت لا نثبت مثل حديث الجلد، ونستدل على غلط من هو أحفظ منه باقل من هذا.

(80/408)

وقال أيضاً قال سليمان بن حرب كان حماد يعني ابن زيد يضعف الجلد ويقول لم يكن يعقل الحديث. وروى البيهقي أيضاً بإسناده عن حماد بن زيد قال ذهبت أنا وجرير بن حازم إلى الجلد بن أيوب فحدثنا بحديث معاوية بن قرة عن أنس في الحائض، فذهبنا نوقفه، فإذا هو لا يفصل بين الحائض والمستحاضة. وروي أيضاً بإسناده عن أحمد بن سعيد الدارمي قال سألت أبا عاصم عن الجلد بن أيوب فضعفه جداً وقال كان الشيخ من مشايخ العرب تساهل أصحابنا في الرواية عنه.

وروى البيهقي أيضاً عن عبد الله بن المبارك أن أهل البصرة كانوا ينكرون حديث الجلد بن أيوب ويقولون شيخ من شيوخ العرب ليس بصاحب حديث. قال ابن المبارك وأهل مصره

أعلم به من غيرهم . قال يعقوب وسمعت سليمان بن حرب وصدقة بن الفضل وإسحاق بن إبراهيم ، وبلغني عن أحمد بن حنبل أنهم كانوا يضعفون الجلد بن أيوب ولا يرونه في موضع الحجة . وروي بإسناده أيضاً عن ابن عيينة أنه كان يقول ما جلد ومن جلد ومن كان جلد .

وروي بإسناده ايضاً عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال سمعت أبي ذكر الجلد بن أيوب فقال : ليس يسوي حديثه شيئًا ضعيف الحديث اه . وإنما أطلنا الكلام في تضعيف هذا الأثر . لأنه أقوى ما جاء في الباب على ضعفه كما ترى . وقد قال البيهقي في السنن الكبرى " روي في أقل الحيض وأكثره أحاديث ضعاف قد بينت ضعفها في الخلافيات " .

وأما حجة من قال إن أقل الحيض يوم وليلة وأكثره خمسة عشر ، كالشافعي وأحمد ومن وافقهما ، فهي أنه لم يثبت في ذلك تحديد من الشرع فوجب الرجوع إلى المشاهد في الوجود . والمشاهد أن الحيض لا يقل عن يوم وليلة ولا يزيد على نصف شهر . قالوا وثبت مستفيضاً عن السلف من التابعين فمن بعدهم وجود ذلك عيانا ، ورواه البيهقي وغيره عن عطاء والحسن وعبيد الله بن عمر ويحيى بن سعيد وربيعة وشريك والحسن بن صالح وعبد الرحمن بن مهدي رحمهم الله تعالى .

قال النووي " فإن قيل روى إسحاق بن راهوية عن بعضهم أن امرأة من نساء الماجشون حاضت عشرين يوماً وعن ميمون بن مهران أن بنت سعيد بن جبير كانت تحته وكانت تحيض من السنة شهرين ، فجوابه بما أجاب به المصنف في كتابه النكت أن هذين النقلين ضعيفان .

فالأول عن بعضهم وهو مجهول وقد أنكره بعضهم ، وقد أنكره الإمام مالك بن انس وغيره من علماء المدينة .

والثاني رواه الوليد بن مسلم عن رجل عن ميمون ، والرجل مجهول . والله أعلم " اه .

وأما حجة مالك في أكثر الحيض للمبتدئة ، فكحجة الشافعي وأحمد وحجته في أكثره لمعتادة ما رواه الإمام مالك وأحمد والشافعي وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أم سلمة رضي الله عنها أنها استفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأة تهراق الدم فقال " لتنظر قد الليالي والأيام التي كانت تحيضهن وقدرهم من الشهر فتدع الصلاة ثم لتغسل ولتستثفر ثم تصلي " اه .

وهذا الحديث نص في الرجوع إلى عادة الحائض .

قال ابن حجر في التلخيص " في هذا الحديث قال النووي إسناده على شرطهما " وقال البيهقي " هو حديث مشهور ، إلا أن سليمان بن يسار لم يسمعه من أم سلمة " وفي رواية

لأبي داود عن سليمان أن رجلاً أخبره عن أم سلمة ، وقال المنذري لم يسمعه سليمان منها . وقد رواه موسى بن عقبة عن نافع عن سليمان عن مرجانة عنها ، وساقه الدارقطني من طريق صخر بن جويرة عن نافع عن سليمان أنه حدثه رجل عنها . اه .

وللحديث شواهد متعددة تقوي رجوع النساء إلى عادتهن في الحيض كحديث حمنة بنت جحش ، وحديث عائشة في قصة فاطمة بنت أبي حبيش ، وأما زيادة ثلاثة أيام ، فهي لأجل الاستظهار والتحري في انقضاء الحيضة ولا أعلم لها مستنداً من نصوص الوحي الثابتة ، وأما حجة مالك في أقل الحيض بالنسبة إلى العبادات فهي التمسك بظاهر إطلاق النصوص ولم يرد نص صحيح في التحديد .

وأما أقله بالنسبة إلى العدة والاستبراء فحجته فيه أنه من قبيل تحقيق المناط لأن الحيض دليل عادي على براءة الرحم فلا بد فيما طلبت فيه بالحيض الدلالة على راءة الرحم من حيض يدل على ذلك بحسب العادة المطردة ، ولذا جعل الرجوع في ذلك إلى النساء العارفات بذلك لأن تحقيق المناط يرجع فيه لمن هو أعرف به وإن كان لا حظ له من علوم الوحي ، وحجة يحيى بن أكثم في قوله " إن اقل الطهر تسعة عشر " هي أنه يرى أن أكثر

الحيض عشرة ايام وأن الشهر يشتمل على طهر وحيض ، فعشرة منه للحيض والباقي طهر . وقد يكون الشهر تسعاً وعشرين فالباقي بعد عشرة الحيض تسعة عشر . هذا هو حاصل أدلتهم وليس على شيء منها دليل من كتاب ولا سنة يجب الرجوع إليه . وأقرب المذاهب في ذلك هو أكثرها موافقة للمشاهد ككون الحيض لا يقل عن يوم وليلة ولا يكثر عن نصف شهر ، وكون أقل الطهر نصف شهر والله تعالى أعلم .

مسالة

اختلف العلماء في الدم الذي تراه الحامل هل هو حيض أو دم فساد فذهب مالك والشافعي في أصح قوليه إلى أنه حيض وبه قال قتادة والليث وروي عن الزهري وإسحاق وهو الصحيح عن عائشة .

وذهب الإمام أبو حنيفة والإمام أحمد إلى أنه دم فساد وعلة ، وأن الحامل لا تحيض وبه قال جمهور التابعين منهم سعيد بن المسيب ، وعطاء ، والحسن ، وجابر بن زيد وعكرمة ومحمد بن المنكدر ، والشعبي ومكحول ، وحماد والثوري والأوزاعي وابن المنذر وأبو عبيد وأبو ثور ، واحتج من قال إن الدم الذي تراه الحامل حيض بأنه دم بصفات الحيض في زمن إمكانه ، وبأنه متردد بين كونه فساداً لعلة أو حيضاً ، والأصل السلامة من العلة ، فيجب استصحاب الأصل .

واحتج من قال بأنه دم فساد بأدلة منها : ما جاء في بعض روايات حديث ابن عمر في طلاقه امرأته في الحيض أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر : " مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً " وهذه الرواية أخرجها أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة . قالوا : قد جعل صلى الله عليه وسلم الحمل علامة على عدم الحيض ، كما جعل الطهر علامة لذلك .

ومنها : حديث " لا توطأ حامل حتى تضع ، ولا حائل حتى تستبرأ بحيضة " رواه أحمد وأبو داود والحاكم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه وصححه الحاكم وله شواهد ، قال : فجعل صلى الله عليه وسلم الحيض علامة على براءة الرحم فدل ذلك على أنه لا يجتمع مع الحمل .

ومنها أنه دم في زمن لا يعتاد فيه الحيض غالباً فكان غير حيض قياساً على ما تراه اليائسة بجامع غلبة عدم الحيض في كل منهما .

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله " إنما يعرف النساء الحمل بانقطاع الدم " .

ومنه : أنه لو كان دم حيض ما انتفت عنه لوازم الحيض . فلما انتفت عنه دل ذلك على أنه غير حيض ، لأن انتفاء اللازم يوجب انتفاء الملزوم ، فمن لازم الحيض حرمة الطلاق ، ودم الحامل لا يمنع طلاقها ، للحديث المذكور نفاً الدال على إباحة طلاق الحامل والطاهر ،

ومن لازم الحيض أيضاً انقضاء العدة به ودم الحامل لا اثر له في انقضاء عدتها لأنها تعتد بوضع حملها لقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَاتُ الأَحمالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 4]
وفي هذه الأدلة مناقشات ذكر بعضها النووي في شرح المهذب .

(84/408)

واعلم أن مذهب مالك التفصيل في أكثر حيض الحامل فإن رأته في شهرها الثالث إلى انتهاء الخامس تركت الصلاة نصف شهر ونحوه وفسروا نحوه بزيادة خمسة ايام فتجلس عشرين يوماً ، فإن حاضت في شهرها السادس فما بعده تركت الصلاة عشرين يوماً ونحوها ، وفسروا نحوها بزيادة خمسة أيام فتجلس خمساً وعشرين . وفسره بعضهم بزيادة عشرة ، فتجلس شهراً ، فإن حاضت الحامل قبل الدخول في الشهر الثالث . فقيل حكمه حكم الحيض في الثالث وقد تقدم .

وقيل حكمه حكم حيض غير الحامل ، فتجلس قد عادتها وثلاثة أيام استظهاراً .

وإلى هذه المسألة أشار خليل بن إسحاق المالكي في مختصره بقوله : والحامل بعد ثلاثة أشهر النصف ونحوه ، وفي ستة فأكثر عشرون يوماً ونحوها وهل ما قبل الثلاثة كما بعدها أو كالمعتادة : قولان .

هذه هو حاصل كلام العلماء في أقل الحيض وأكثره وأقل الطهر وأكثره وأدلتهم في ذلك ومسائل الحيض كثيرة ، وقد بسط العلماء الكلام عليها في كتب الفروع .

مسأله

اختلف العلماء في أقل النفاس وأكثره أيضاً فذهب مالك والشافعي إلى أن أكثره ستون يوماً ، وبه قال غطاء والأوزاعي والشعبي وعبيد الله بن الحسن العنبري والحجاج بن أرطاة وأبو ثور وداود ، وعن ربيعة بن ابي عبد الرحمن أنه قال أدركت الناس يقولون أكثر النفاس ستون يوماً ، وذهب الإمام أبو حنيفة وأحمد إلى أن أكثره اربعون يوماً وعليه أكثر العلماء .

قال أبو عيسى الترمذي أجمع أهل العلم من أصحاب النّبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم على أن النفساء تدع الصلاة أربعين يوماً إلا أن ترى الطهر قبل ذلك ، فتغتسل وتصلي اه .

قال الخكابي وقال أبو عبيد وعلى هذا جماعة الناس وحكاه ابن المنذر عن عمر بن الخطاب وابن عباس وأنس وعثمان بن أبي العاص وعائذ بن عمرو وأم سلمة وابن مبارك وإسحاق وأبي عبيد اه .

وحكى الترميذي وابن المنذر وابن جرير وغيرهم عن الحسن البصري أنه خمسون . وروي عن الليث أنه قال : قال بعض الناس : إنه سبعون يوماً . وذكر ابن المنذر عن الأوزاعي عن أهل دمشق : أن أكثر النفاس من الغلام ثلاثون يوماً ، ومن الجارية أربعون . وعن الضحاك : أكثره أربعة عشر يوماً . قاله النووي . وأما أقل النفاس فهو عند مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة في أصح الروايات عنه لا حد له وهو قول الجمهور العلماء . وعن أبي حنيفة : أقله أحد عشر يوماً . وعنه أيضاً . خمسة وعشرون . وحكى الماوردي عن الثوري أقله ثلاثة أيام . وقال المزني : اقله أربعة أيام ، وأما أدلة العلماء في أكثر النفاس وأقله ، فإن حجة كل من حدده أكثره بغير الأربعين هي الاعتماد على المشاهد في الخارج ، وأكثر ما شاهدوه في الخارج ستون يوماً ، وكذلك حججهم في أقله فهي أيضاً الاعتماد على المشاهد في الخارج ، وقد يشاهد الولد يخرج ولا دم معه ، ولذا كان جمهور العلماء على أن أقله لا حد له ، وأما حجة من حدده بأربعين ، فهي ما رواه الإمام أحمد وابو داود والترمذي وابن ماجة والدارقكني والحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : "كانت النفساء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تجلس أربعين يوماً " الحديث . روي هذا الحديث من طريق علي بن عبد الأعلى عن أبي سهل واسمه كثير بن زياد عن مسة الأزدية عن أم سلمة وعلي بن عبد الأعلى ثقة ، وأبو سهل وثقه البخاري و ضعفه ابن حبان .

وقال ابن حجر : لم يصب في تضعيفه . وقال في التقريب في ابي سهل المذكور ثقة . وقال في التقريب في مسة المذكورة مقبولة . وقال النووي في شرح المهذب في حديث أم سلمة هذا حديث حسن رواه أبو داود والترمذي وغيرهما .

(86/408)

قال الخطابي : أثنى البخاري على هذا الحديث ويعتض هذا الحديث بأحاديث بمعناه من رواية ابي الدرداء وأنس ومعاذ وعثمان بن أبي العاص وابي هريرة رضي الله عنهم . وقال النووي أيضاً بعد هذا الكلام : " واعتمد أكثر أصحابنا جواباً آخر وهو تضعيف الحديث . وهذا الجواب مردود ، بل الحديث جيد كما سبق " .

وأجاب القائلون بأن أكثر النفاس ستون عن هذا الحديث الدال على أنه أربعون بأجوبة أوجهها عندي أن الحديث إنما يدل على أنها تجلس أربعين ولا دلالة فيه على أن الدم إن تمادى بها لم تجلس أكثر من الأربعين فمن الممكن أن تكون النساء المذكورة في الحديث لم يتماد الحيض بها إلا أربعسن فنص الحديث على أنها تجلس الأربعين ولا ينافي أن الدم لو تمادى عليها أكثر من الأربعين لجلست أكثر من الأربعين ويؤيده أن الأوزاعي رحمه الله قال :

" عندنا امرأة ترى النفاس شهرين " وذلك مشاهد كثيراً في النساء . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(87/408)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) ﴾

ونحن نعلم أن " لولا " إنْ دخلت على جملة اسمية تكون حرف امتناع لوجود ؛ مثل قولك " لولا زيد عندك لَزُرْتك " ، أي : أن الذي يمنعك من زيارة فلان هو وجود زيد .

ولو دخلتْ " لولا " على جملة فعلية ؛ فالناطق بها يحب أنْ يحدث ما بعدها ؛ مثل قولك " لولا عطفتَ على فلان " أو " لولا صفحتَ عن ولدك " ، أي : أن في ذلك حَضّاً على أنْ يحدث ما بعدها .

وظاهر كلام الكفار في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها أنهم يطلبون آية لتأييد صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في البيان الذي يحمله من الحق لهم ، وكأنهم بهذا القول يُنكِرون المعجزة التي جاء بها صلى الله عليه وسلم وهي القرآن الكريم ، رغم أنهم أمةَ بلاغة وأدب وبيان ، وأداء لُغوي رائع ؛ وأقاموا أسواقاً للأدب ، وخصصوا الجوائز للنبوغ

الأدبي ؛ وعلَّقوا القصائد على جدران الكعبة ، وتفاخرت القبائل بمَنْ أنجبتهم من الشعراء ورجال الخطابة .

فلما نزل القرآن من جنس نبوغكم ؛ وتفوّق على بلاغتكم ؛ ولم تستطيعوا أن تأتوا بآية مثل آياته ؛ كيف لم تعتبروه معجزة ؛ وتطالبون بمعجزة أخرى كمعجزة موسى عليه السلام ؛ أو كمعجزة عيسى عليه السلام ؟

لقد كان عليكم أن تفخروا بالمعجزة الكاملة التي تحمل المنهج إلى قيام الساعة .

ولكن الحُمْق جعلهم يطلبون معجزة غير القرآن ، ولم يلتفتوا إلى المعجزات الأخرى التي صاحبتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يلتفتوا إلى أن الماء قد نبع من أصابعه صلى الله عليه وسلم ؛ والطعام القليل أشبع القوم وفاض منه ، والغمامة قد ظللته ، وجذع النخلة قد أَنَّ بصوت مسموع عندما نقل رسول الله منبره ؛ بعد أنْ كان صلى الله عليه وسلم يخطب من فوق الجذع .

(88/408)

وقد يكونون أصحاب عُذْر في ذلك ؛ لأنهم لم يَرَوا تلك المعجزات الحِسّية ؛ بحكم أنهم كافرون ؛ واقتصرت رُؤْياهم على مَنْ آمنوا برسالته صلى الله عليه وسلم .

وهكذا نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يُحرم من المعجزات الكونية ؛ تلك التي تحدث مرة واحدة وتنتهي ؛ وهي حُجَّة على مَنْ يراها ؛ وقد جاءتْ لتثبت إيمان القِلَّة المضطهدة ؛ فحين يروْنَ الماء مُتفجراً بين أصابعه ، وَهُمْ مزلزلون بالاضطهاد ؛ هنا يزداد تمسُّكهم بالرسول صلى الله عليه وسلم .

ولكن الكافرين لم يَرَوْا تلك المعجزات . وكان عليهم الاكتفاء بالمعجزة التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القرآن كافيني " .

والقرآن معجزة من جنس ما نبغتُم فيه أيها العرب ، ومحمّد رسول من أنفسكم ، لم يَأْتِ من قبيلة غير قبيلتكم ، ولسانه من لسانكم ، وتعلمون أنه لم يجلس إلى معلم ؛ ولا عِلمِ عنه أنه خطب فيكم من قبل ، ولم يَقْرِض الشعر ، ولم يُعرف عنه أنه خطيب من خطباء العرب .

ولذلك جاء الحق سبحانه بالقول على لسانه : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 16]

أي : أنني عِشْتُ بينكم ولم أتكلَّم بالبلاغة ؛ ولم أنافس في أسواق الشّعْرِ ؛ وكان يجب أن تؤمنوا أنه قول من لَدُنْ حكيم عليم .

ولكن منهم مَنْ قال : " لقد كان يكتم موهبته وقام بتأجيلها " .

وهؤلاء نقول لهم : هل يمكن أن يعيش طفل يتيم الأب وهو في بطن أمه ؛ ثم يتيم الأم وهو صغير ، ويموت جدّه وهو أيضاً صغير ، ورأى تساقط الكبار من حوله بلا نظام في التساقط

؛ فقد ماتوا دون مرض أو سبب ظاهر ؛ أكان مثل هذا الإنسان يأمنُ على نفسه أن يعيش إلى عمر الأربعين ليعلن عن موهبته ؟

ثم من قال : إن العبقرية تنتظر إلى الأربعين لتظهر ؟ وكلنا يعلم أن العبقريات تظهر في أواخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث .

ورغم عدم اعترافكم بمعجزة القرآن ؛ ها هو الحق سبحانه يُجري على ألسنتكم ما أخفيتموه في قلوبكم ؛ ويُظهره الناس في مُحكم كتابه : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31]

وهكذا اعترفتُم بعظمة القرآن ؛ وحاولتُم أن تغالطوا في قيمة المنزل عليه القرآن .

ويقول سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ . . . ﴾ [الرعد : 7]

فلماذا إذنْ قُلْتم واعترفتم أنَّ له رباً ؟ أمَا كان يجب أن تعترفوا برسالته وتُعلنون إيمانكم به وبالرسالة ، وقد سبق أنْ قالوا : إن ربَّ محمد قد قَلاَه .

وهذا القول يعني أنهم اعترفوا بأن له رباً ؛ فلماذا اعترفوا به في الهَجْر وأنكروه في الوَصْل .

وإذا كانوا يطلبون منك معجزة غير القرآن فاعلم يا محمد أن ربك هو الذي يرسل المعجزات ؛ وهو الذي يُحدِّد المعجزة بكل رسول حسب ما نبغ فيه القوم المُرْسَل إليهم الرسول ، وأنت يا محمد مُنْذر فقط ؛ أي مُحذِّر : ﴿ . . . إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : 7]

فكل قوم لهم هَادٍ ، يهديهم بالآيات التي تناسب القوم ؛ فبنو إسرائيل كانوا مُتفوِّقين في السحر ؛ لذلك جاءت معجزة موسى من لَوْنِ ما نبغوا فيه ؛ وقوم عيسى كانوا مُتفوقين في الطب ؛ لذلك كانت معجزة عيسى من نوع ما نبغوا فيه .

(90/408)

وهكذا نرى أن لكل قوم هادياً ، ومعه معجزة تناسب قومه ؛ ولذلك ردَّ الله عليهم الرد المُفْحم حين قالوا : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ . . . ﴾

[الإسراء : 90-93]

فيقول الحق سبحانه: ﴿ . . . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَّسُولاً * قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: 93-95]

ويأتي الرد من الحق سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ . . . ﴾ [الإسراء: 59]

أي: أن قوماً قبلكم طلبوا ما أرادوا من الآيات؛ وأرسلها لهم الله؛ ومع ذلك كفروا؛ لأن الكفر يخلع ثوب العِنَاد على الكافر؛ لأن الكافر مُصَمِّم على الكفر.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ . . . ﴾

وما المناسبة التي يقول فيها الحق ذلك؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يؤكد مسألة أن لكل قوم هادياً، وأن رسوله صلى الله عليه وسلم هو منذر، وأن طلبهم للآيات المعجزة هو ابنٌ لرغبتهم في تعجيز الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولو جاء لهم الرسول بآية مما طلبوا لأصرُّوا على الكفر، فهو سبحانه العَالِم بما سوف يفعلون

، لأنه يعلم ما هو أخفى من ذلك ؛ يعلم على سبيل المثال ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد .

(91/408)

ونحن نعلم أن كُلَّ أنثى حين يشاء الله لها أن تحبل ؛ فهي تحمل الجنين في رحمها ؛ لأن الرحم هو مُسْتقرّ الجنين في بطن الأم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام وَمَا تَزْدَادُ . . . ﴾ [الرعد : 8]

أي : ما تُنقص وما تُذهب من السِّقْط في أي إجهاض ، أو ما ينقص من المواليد بالموت ؛ فغاضت الأرحام ، أي : نزلتْ المواليد قبل أن تكتمل خِلْقتها ؛ كأن ينقص المولود عيناً أو إصبعاً ؛ أو تحمل الخِلْقة زيادة تختلف عما نألفه من الخَلْق الطبيعي ؛ كأن يزيد إصبع أو أن يكون برأسين .

أو أن تكون الزيادة في العدد ؛ أي : أن تلد المرأة تَوْأماً أو أكثر ، أو أن تكون الزيادة متعلقة بزمن الحَمْل .

وهكذا نعلم أنه سبحانه يعلم ما تغيض الأرحام . أي : ما تنقصه في التكوين العادي أو تزيده ، أو يكون النظر إلى الزمن ؛ كأن يحدث إجهاض للجنين وعمره يوم أو شهر أو شهران

، ثم إلى ستة أشهر ؛ وعند ذلك لا يقال إجهاض ؛ بل يقال ولادة .

وهناك مَنْ يولد بعد ستة شهور من الحمل أو بعد سبعة شهور أو ثمانية شهور ؛ وقد يمتد الميلاد لسنتين عند أبي حنيفة ؛ وإلى أربع سنوات عند الشافعي ؛ أو لخمس سنين عند الإمام مالك ، ذلك أن مدة الحمل قد تنقص أو تزيد .

ويُقال : إن الضحاك وُلِد لسنتين في بطن أمه ، وهرم بن حيان وُلِد لأربع سنين ؛ وظل أهل أمه يلاحظون كِبَر بطنها ؛ واختفاء الطَّمْث الشهري طوال تلك المدة ؛ ثم ولدتْ صاحبنا ؛ ولذلك سموه " هرم " أي : شاب وهو في بطنها .

وهكذا نفهم معنى " تغيض " نَقْصاً أو زيادة ؛ سواء في الخِلْقة أو للمدة الزمنية .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ . . . وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8]

والمقدار هو الكمية أو الكيف ؛ زماناً أو مكاناً ، أو مواهب ومؤهلات .

وقد عَدَّد الحق سبحانه مفاتيح الغيب الخمس حين قال : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة وَيُنَزِّلُ الغيث وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرحام . . . ﴾ [لقمان : 34]

وقد حاول البعض أن يقيموا إشكالاً هنا ، ونسبوه إلى الحضارة والتقدم العلمي ، وهذا التقدم يتطرق إليه الاحتمال ، وكل شيء يتطرق إليه الاحتمال يبطل به الاستدلال ، وذلك بمعرفة نوعية الجنين قبل الميلاد ، أهو ذكر أم أنثى ؟ وتناسَوْا أن العلم لم يعرف أهو طويل أم قصير ؟ ذكي أم غبي ؟ شقي أم سعيد ؟ وهذا ما أعجز الأطباء والباحثين إلى اليوم وما بعد اليوم .

ثم إنْ سألتَ كيف عرف الطبيب ذلك ؟

إنه يعرف هذا الأمر من بعد أن يحدث الحَمْل ؛ ويأخذ عينة من السائل المحيط بالجنين ، ثم يقوم بتحليلها ، لكن الله يعلم دون أخذ عينة ، وهو سبحانه الذي قال لواحد من عباده :

﴿ يازكريا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسمه يحيى . . . ﴾ [مريم : 7]

وهكذا نعلم أن عِلْم الله لا ينتظر عيّنة أو تجربة ، فعِلْمه سبحانه أزليّ ؛ منزه عن القصور ، وهو يعلم ما في الأرحام على أي شكل هو أو لون أو جنس أو ذكاء أو سعادة أو شقاء أو عدد .

وشاء سبحانه أن يجلي طلاقة قدرته في أنْ تحمل امرأة زكريا عليه السلام في يحيى عليه السلام ، وهو الذي خلق آدم بلا أب أو أم ؛ ثم خلق حواء من أب دون أم ؛ وخلق عيسى من أم دون أب ، وخلقنا كلنا من أب وأم ، وحين تشاء طلاقة القدرة ؛ يقول سبحانه : ﴿ . . . كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82]

والمثل كما قلت هو في دخول زكريا المحرابَ على مريم عليها السلام ؛ فوجد عندها رزقاً ؛ فسألها : ﴿ أنى لكِ هذا . . . ﴾ [آل عمران : 37]

قالت : ﴿ . . . هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37]

وكان زكريا يعلم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ؛ ولكن هذا العلم كان في حاشية شعوره ؛ واستدعاه قول مريم إلى بُؤْرة الشعور ، فزكريا يعلم عِلْم اليقين أن الله هو وحده مَنْ يرزق بغير حساب .

(93/408)

وما أنْ يأتي هذا القول مُحرِّكاً لتلك الحقيقة الإيمانية من حافة الشعور إلى بُؤْرة الشعور ؛ حتى يدعو زكريا ربه في نفس المكان ليرزقه بالولد ؛ فيبشره الحق بالولد .

وحين يتذكر زكريا أنه قد بلغ من الكبر عتياً ، وأن امرأته عاقر ؛ فيُذكّره الحق سبحانه بأن عطاء الولد أمر هيِّن عليه سبحانه : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 9]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة . . . ﴾

ومَنْ كُلُّ شيء عنده بمقدار ؛ لا يغيب عنه شيء أبداً ، وما يحدث لأيِّ إنسان في المستقبل بعد أن يُولَد هو غيب ؛ لكن المُطَّلع عليه وحده هو الله .

وكأن هناك " نموذجاً " مُصَغَّراً يعلمه الله أولاً ؛ وإن اطلع عليه الإنسان في أواخر العمر ؛ لوجده مطابقاً لِمَا أراده وعلمه الله أولاً ؛ فلا شيء يتأبَّى عليه سبحانه ؛ فكُلُّ شيء عنده بمقدار .

وهو عالم الغيب والشهادة ؛ يعلمُ ما خَفِي من حجاب الماضي أو المستقبل ، وكُلّ ما غاب عن الإنسان ، ويعلم من باب أَوْلَى المشهودَ من الإنسان ، فلم يقتصر علمه على الغيب ، وترك المشهود بغير علم منه ؛ لا بل هو يعلم الغيب ويعلم المشهود : ﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ [الرعد : 9]

والكبير اسم من أسماء الله الحسنى ؛ وهناك مَنْ تساءل : ولماذا لا يوجد " الأكبر " ضمن أسماء الله الحسنى ؛ ويوجد فقط قولنا " الله اكبر " في شعائر الصلاة ؟

وأقول : لأن مقابل الكبير الصغير ، وكل شيء بالنسبة لمُوجِده هو صغير . ونحن نقول في أذان الصلاة " الله اكبر " ؛ لأنه يُخرِجك من عملك الذي أوكله إليك ، وهو عمارة الكون ؛ لتستعين به خلال عبادتك له وتطبيق منهجه ، فيمدُّك بالقوة التي تمارس بها إنتاج ما تحتاجه في حياتك من مأكل ، ومَلْبس ، وسَتْر عورة .

إذن : فكلُّ الأعمال مطلوبة حتى لإقامة العبادة ، فإياك أن تقول : إن الله كبير والباقي صغير ، لأن الباقي فيه من الأمور ما هو كبير من منظور أنها نعم من المنعم الأكبر ؛ ولكن الله أكبرُ مِنّا ؛ ونقولها حين يُطلَب منا أن نخرج من أعمالنا لنستعين بعبادته سبحانه .

ونعلم أن العمل مطلوب لعمارة الكون ، ومطلوب حتى لإقامة العبادة ، ولن توجد لك قوة لتعبد ربك لو لم يُقوِّك ربُّك على عبادته ؛ فهو الذي يستبقي لك قُوتَك بالطعام والشراب ، ولن تطعم أو تشرب ؛ لو لم تحرُثْ وتبذر وتصنع ، وكل ذلك يتيح لك قوة لِتُصلي وتُزكي وتحُج ؛ وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وسبق أنْ قُلت : إن الحق سبحانه حينما نادانا لصلاة الجمعة قال : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة : 9]

وهكذا يُخرجنا الحق سبحانه من أعمالنا إلى الصلاة الموقوتة ؛ ثم يأتي قول الحق سبحانه :
﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : 10]

وهكذا أخرجنا سبحانه من العمل ، وهو أمر كبير إلى ما هو أكبر ؛ وهو أداء الصلاة .

وقول الحق سبحانه في وصف نفسه (المتعال) يعني أنه المُنزَّه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ؛ فلا ذات كذاته ؛ ولا صفة كصفاته ، ولا فعل كفعله ، وكل ما له سبحانه يليق به وحده ، ولا يتشابه أبداً مع غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(95/408)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ . . . ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأن لكل قوم هادياً .

وقد جاء في آيات أُخر ما يدل على أن بعض الأقوام لم يكن لهم هادٍ ، سواء فسّرنا الهدى بمعناه الخاص أو بمعناه العام .

فمن الآيات الدالة على أن بعض الناس لم يكن لهم هاد بالمعنى الخاص ؛ قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ ﴾ فهؤلاء المضلون لم يهديهم هاد الهدى الخاص ، الذي هو التوفيق لما يرضي الله .

ونظيرها قوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

ومن الآيات الدالة على أن بعض الأقوام لم يكن لهم هاد بالمعنى العام ، الذي هو إبانة الطريق ، قوله تعالى : ﴿ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ (6) سورة يس ﴾ بناء على التحقيق من أن " ما " نافية لا موصولة ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ .

.

﴾ الآية .

فالذين ماتوا في هذه الفترة ، لم يكن لهم هادٍ بالمعنى الأعمِّ أيضاً .

والجواب عن هذا من أربعة أوجه .

الأول : أن معنى قوله : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي داع يدعوهم ويُرشدهم ، إما إلى خير الأنبياء ، وإما إلى شر كالشياطين .

أي وأنت يا رسول الله منذر هادٍ إلى كل خير .

وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس ، من طريق علي بن أبي طلحة ، وقد جاء في القرآن استعمال الهدى في الإرشاد إلى الشر أيضاً ، كقوله تعالى : ﴿ كُتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم ﴾ كما جاء في القرآن أيضاً إطلاق الإمام على الداعي إلى الشر ، في قوله : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار . . ﴾ الآية .

الثاني : أن معنى الآية : أنت يا محمد – صلى الله عليه وسلم – منذر ، وأنا هادي كل قوم ويُروى هذا عن ابن عباس من طريق العوفي ، وعن محمد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد . قاله ابن كثير .

وعلى هذا القول ، فقوله : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ ، يعني به نفسه جل وعلا .

ونظيره في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ يعني نفسه ، كما قاله قتادة .

ونظيره من كلام العرب قول قتادة بن سلمة الحنفي :

ولئن بقيتُ لأرحلنَّ بغزوةٍ تحوي الغنائم أو يموت كريمُ

يعني : نفسه .

وسيأتي تحرير هذا المبحث إن شاء الله في سورة القارعة .

وتحرير المعنى على هذا القول : أنت يا محمد منذر ، وأنا هادي كل قوم سبقتْ لهم السعادة

والهدى في علمي ؛ لدلالة آيات كثيرة على أنه يتعالى هدى قوماً وأضل آخرين ، على وفق ما سبق به العلم الأزلي ، كقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ .

(97/408)

الثالث : أن معنى : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي : قائد ، والقائد : الإمام والإمام : العمل .

قاله أبو العالية ، كما نقله عنه ابن كثير .

وعلى هذا القول ، فالمعنى : ولكل قوم عمل يهديهم إلى ما هم صائرون إليه من خير وشر .

ويدلُّ لمعنى هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ هنالك تتلو كل نفسٍ ما أسلفت ﴾ على قراءة من قرأها بتاءين مثناتين ، بمعنى : تتبع كل نفس ما أسلف من خير وشر .

وأما على القول بأن معنى : " تتلو " : تقرأ في كتاب عملها ما قدمت من خير وشر ، فلا دليل في الآية .

ويدل له أيضاً حديث : " لتتبع كل أمة ما كانت تعبد .

فيتبع من كان يعبد الشمس : الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت : الطواغيت " الحديث .

الرابع: وبه قال مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد ـ: أن المراد بالقوم الأمة، والمراد بالهادي النبي.

فيكون معنى قوله: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي: ولكل أمة نبي، كقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ وقوله: ﴿ ولكل أمة رسول ﴾.

وكثيراً ما يُطلق في القرآن اسم القوم على الأمة، كقوله: ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾، ونحو ذلك.

وعلى هذا القول، فالمراد بالقوم في قوله: ﴿ ولكل قوم هادٍ ﴾ أعمُّ من مطلق ما يصدق عليه اسم القوم لغةً.

ومما يوضح ذلك: حديث معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه في السنن والمسانيد: "" "أنتم توفون سبعين أمة" الحديث.

ومعلوم أن ما يُطلق عليه اسم القوم لغةً، أكثر من سبعين بأضعاف وحاصل هذا الوجه الرابع أن الآية كقوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ وقوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ وهذا لا إشكال فيه، لحصر الأمم في سبعين، كما بين في الحديث.

فآباء القوم الذين لم ينذروا مثلاً ، المذكورون في قوله : ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ ليسوا أمة مستقلة ، حتى يرد الإشكال في عدم إنذارهم ، مع قوله : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ بل هم بعض أمة .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ لا يشكل عليه قوله تعالى : ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ لأن المعنى : أرسلنا إلى جميع القرى ، بل إلى الأسود والأحمر ، رسولاً واحداً ، هو محمد – صلى الله عليه وسلم – مع أنا لو شئنا أرسلنا إلى كل قرية بانفرادها رسولاً ، ولكن لم نفعل ذلك ، ليكون الإرسال إلى الناس كلهم فيه الإظهار لفضله – صلى الله عليه وسلم – على غيره من الرسل ، بإعطائه ما لم يُعطه أحدٌ قبله من الرسل ، عليه وعليهم الصلاة والسلام .

كما ثبت عنه – صلى الله عليه وسلم – في الصحيح : من أن عموم رسالته إلى الأسود والأحمر ؛ مما خصَّه الله به دون غيره من الرسل .

وأقرب الأوجه المذكورة عندنا ، هو ما يدل عليه القرآن العظيم ، وهو الوجه الرابع ، وهو أن معنى الآية ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي : لكل أمة نبي ، فلست يا نبي الله بدعاً من الرسل .

ووجه دلالة القرآن على هذا : كثرة إتيان مثله في الآيات ، كقوله : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ، وقوله : ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ وقوله : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ .

وعليه ، فالحكمة في الإخبار بأن لكل أمة نبياً ، أن المشركين عجبوا من إرساله – صلى الله عليه وسلم – ، كما بينه تعالى بقوله : ﴿ أكان الناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ وقوله ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ ، وقوله : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذا جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ فأخبرهم أن إنذاره لهم ليس بعجب ولا غريب ، لأن لكل أمة منذراً .

فالآية كقوله: ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ ، وقوله : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 163.167 ﴾

(99/408)

بحوث مهمة ذكرها صاحب الأمثل

1 .القرآن وعلم الأجنّة

أشار القرآن المجيد مراراً إلى مسألة الجنين وعجائب تكوينه ليكون أحد الأدلّة على التوحيد ومعرفة الله وعلمه المطلق ، وبالطبع فإنّ علم الأجنّة واحد من العلوم الحديثة وكان سابقاً عبارة عن معلومات أولّية محدودة ثمّ توسعت في هذا العصر . ولكن بتقدّم

العلم والمعرفة حدثت قفزة في هذا المجال كشفت عن كثير من أسرار هذا العالم الساكن والهادىء وعن كثير من عجائبه بحيث نستطيع أن نقول: إنّ أكبر درس للتوحيد ومعرفة الله كامنٌ في تكوين الجنين ومراحل تكامله.

فمن هذا الذي يرعى هذا الكائن المخفي وبتعبير القرآن واقع "في ظلمات ثلاث" الذي يمتاز بالظرافة ودقّة التكوين وأن يوصل له المقدار اللازم من الغذاء ويرشده مراحل حياته؟

وعندما تقول الآية السابقة: (الله يعلم ما تحمل كلّ أُنثى) فليس المقصود من علمه بالذكر والأُنثى فقط، بل بكلّ خصائصه والطاقة الكامنة فيه، هذه الأشياء لا يستطيع أحد وبأي وسيلة أن يتعرّف عليها، وعلى هذا فإنّ وجود هذا النظام الدقيق والمعقّد للجنين ومراحل تكامله لا يمكن أن يكون بدون صانع عالم وقدير.

2. كلّ شيء له مقدار

نحن نقرأ في آيات مختلفة من القرآن الكريم أنّ كلّ شيء له حدّ محدود ولا يتجاوزه، ففي الآية (3) من سورة الطلاق يقول تعالى: (قد جعل الله لكلّ شيء قدراً) وفي الآية 21 سورة الحجر يقول تعالى: (وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزله إلاّ بقدر معلوم) والآية التي نحن بصددها (وكلّ شيء عنده بمقدار).

كلّ هذه تشير إلى أنّه ليس هناك شيء في العالم بدون حساب، حتّى الموجودات في الطبيعة التي نعتبرها في بعض الأحيان غير مهمّة، فإنّ وجودها على أساس حساب دقيق، علمنا

بذلك أم لم نعلم ، وأساساً فإنّ معنى حكمة الله هو أن يجعل لكلّ ما في الكون حدّاً ومقداراً ونظاماً .

(100/408)

وكلّ ما حصلناه اليوم من أسرار الكون بواسطة العلوم يؤكّد هذه الحقيقة ، فمثلاً نرى أنّ دم الإنسان ـ الذي هو المادّة الحياتية لوجود الإنسان والذي يقوم

بنقل المواد الضروريّة اللازمة لخلايا الجسم ـ يتركّب من عشرين مادّة أو أكثر ، وبنسب ثابتة دقيقة بحيث لو تمّ أي تغيير فيها لتعرّضت سلامة الإنسان للخطر ، ولهذا السبب ولمعرفة النقص الحاصل في الجسم يقومون بتحليل الدم وقياس نسبة السكر والدهن وسائر مركّبات الدم الأُخرى ، ويتمّ تشخيص العلّة بواسطة معرفة زيادة أو نقصان هذه النسب ، وليس دم الإنسان وحده له هذه الميزة ، بل كلّ ما في الوجود له نفس هذه الدقّة في النظام .

ولابدّ هنا من التنبيه على أنّ ما يظهر لنا في بعض الأحيان من عدم النظام في عالم الوجود هو في الواقع ناتج من قصور في علومنا ومعرفتنا ، فالإنسان الذي يؤمن بالله لا يمكن أن يتصوّر ذلك ، وبتطوّر العلوم تتأكّد لنا هذه الحقيقة .

وكي نستطيع أن نتعلّم هذا الدرس وهو أنّ المجتمع الإنساني الذي هو جزء من عالم الوجود

إذا أراد له العيش بسلام ، فعليه أن يجعل شعار (كلّ شيء عنده بمقدار) يسود جميع جوانبه ، ويجتنب الإفراط والتفريط في أعماله وتخضع جميع مؤسساته الإجتماعية للحساب والموازين .

3 ـ الغيب والشهادة سواء عند الله

استندت هذه الآيات إلى أنّ الغيب والشهادة معلومان عند الله ، فهما مفهومان نسبيان وتستخدمان للكائن الذي علمه ووجوده محدود ، وعلى سبيل المثال نحن نمتلك حواساً ذات مدى نسبي ، فمتى ما كان الشيء داخلاً في هذا المدى فهو شاهد بالنسبة لنا ، وما كان خارجاً عنه فهو غيب ، فلو فرضنا أنّ أبصارنا لها قدرة غير محدودة ويمكنها النفوذ في باطن الأشياء وإدراكها ، فإنّ كلّ شيء يعتبر شاهد عندنا .

وبما أنّ كلّ شيء له حدّ محدود غير الذات الإلهيّة ، فإنّ لغير الله تعالى غيب وشهادة ، ولأنّ ذات الله غير محدودة ووجوده عام ومطلق فإنّ كلّ شيء بالنسبة

إليه شهادة ، ولا معنى للغيب بالنسبة إليه ، وإذا ما قلنا ـ إنّ الله عالم الغيب والشهادة فهو ما نعتبره نحن غيب وشهادة ، أمّا هو فهما عنده سواء . لنفترض أنّنا ننظر ما في أيدينا في النهار

، فهل نجهل ما فيها ؟ ! جميع الكون في مقابل علم الله أوضح من هذا وأظهر .

4 ـ الآثار التربوية في إدراكنا لعلم الله

أثناء قراءتنا للآيات الماضية التي تقول: إنّ الله يعلم السرّ والجهر من القول وحركاتكم في الليل والنهار وكلّها مشهودة عنده ، هل نجد في أنفسنا إيماناً بهذه الحقيقة ؟ . . لو كنّا مؤمنين بذلك حقّاً ونشعر بأنّ الله تعالى مطّلع علينا فانّ هذا الإيمان والإحساس الباطني يبعث على تغيير عميق في روحنا وفكرنا وقولنا وضمائرنا ؟ .

نقل عن الإمام الصادق (عليه السلام) في جوابه لمن سأله عن طريقتهم في الحياة قال:

"علمت إنّ الله مطلع عليّ فاستحييت" .

كما نشاهد كثيراً من المواقف من تأريخ المسلمين وحياتهم تتجلّى فيها هذه الحقيقة ، يقال: دخل أب وإبنه في بستان ، فتسلّق الأب شجرةً ليقطف ثمارها دون إذن صاحبها ، بينما بقي الإبن أسفل الشجرة لمراقبة الأوضاع . وفجأة صاح الابن الذي كان مؤمناً ومتعلّماً ونادى أباه بأن ينزل بسرعة ، عندها خاف الأب ونزل فوراً وسأل من الذي رآني ؟ قال: الذي هو فوقنا ، فنظر الأب إلى الأعلى فلم يجد أحداً ، وسأل من الذي رآني ؟ قال: الذي هو فوقنا ، فنظر الأب إلى الأعلى فلم يجد أحداً ، فقال الابن: كان قصدي هو الله المحيط بنا جميعاً ، كيف يمكن أن تخاف أن يراك الإنسان ، ولا تخاف أن يراك الله ؟ ! أين الإيمان ؟ ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿الأمثل ج 7 ص 349 . 352﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ قال : هذا قول مشركي العرب ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ لكل قوم داع يدعوهم إلى الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ قال : داع .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ قال : المنذر ، محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ نبي يدعوهم إلى الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير – رضي الله عنه – في قوله ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ قال : محمد المنذر ، والهادي الله عز وجل .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ قال: المنذر، محمد صلى الله عليه وسلم، والله عز وجل، هادي كل قوم. وفي لفظ؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المنذر وهو الهادي.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة - رضي الله عنه - وأبي الضحى في قوله ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال: "أنا المنذر، وأومأ بيده على منكب علي - رضي الله عنه - فقال: أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي".

وأخرج ابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي - رضي الله عنه - سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " ﴿ إنما أنت منذر ﴾ ووضع يده على صدر نفسه ثم وضعها على صدر علي ويقول: "لكل قوم هاد"".

وأخرج ابن مردوية والضياء في المختارة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في الآية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "المنذر أنا والهادي علي بن أبي طالب رضي الله عنه".

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط ، والحاكم وصححه وابن مردويه وابن عساكر ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر ، وانا الهادي . وفي لفظ ، والهادي : رجل من بني هاشم . يعني نفسه .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) ﴾

أخرج ابن جرير عن الضحاك – رضي الله عنه – ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ قال : يعلم ذكر هو أو أنثى ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ قال : هي المرأة ترى الدم في حملها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ قال خروج الدم ﴿ وما تزداد ﴾ قال : استمساكه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ قال : أن ترى الدم في حملها ﴿ وما تزداد ﴾ قال : في التسعة أشهر .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك – رضي الله عنه – عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ قال : ما تزداد على التسعة ، وما تنقص من التسعة . قال الضحاك – رضي الله عنه – : وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين ، وولدتني قد خرجت ثنيتي .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ قال: ما دون تسعة أشهر، وما تزداد فوق التسعة.

(104/408)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام ﴾ يعني السقط ﴿ وما تزداد ﴾ يقول: ما زادت في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص. فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن الضحاك - رضي الله عنه - قال: ما دون التسعة أشهر فهو غيض، وما فوقها فهو زيادة.

وأخرج ابن جرير عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين، قدرُ ما يتحول فلكة مغزَل.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن عكرمة - رضي الله عنه - قال: ما غاضت الرحم بالدم يوماً، إلا زاد في الحمل يوماً حتى تستكمل

تسعة أشهر طاهراً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن – رضي الله عنه – في قوله ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ قال : السقط .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في الآية قال : إذا رأت الدم ، هش الولد . وإذا لم تر الدم ، عظم الولد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مكحول – رضي الله عنه – قال : الجنين في بطن أمه لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم ، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها ، فمن ثم لا تحيض الحامل ، فإذا وقع إلى الأرض استهل .

واستهلاله استنكار لمكانه ، فإذا قطعت سرته حول الله رزقه إلى ثدي أمه ، حتى لا يطلب ولا يغتم ولا يحزن ، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله ، فإذا بلغ قال : أنى لي بالرزق ، يا ويحك ، غَذَّاكَ وأنت في بطن أمك وأنت طفل صغير ، حتى إذا اشتددت وعقلت قلت : أنى لي بالرزق ؟ ! ثم قرأ مكحول – رضي الله عنه – ﴿ يعلم ما تحمل كل أنثى . . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ أي بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(106/408)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه، أحدها : أن هذا كلامٌ مستأنفٌ مستقلٌ من مبتدأ وخبر . الثاني : أنَّ ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ ﴾ متعلقٌ بهادٍ، و " هادٍ " نَسَقٌ على مقدَّر، أي : إنما أنت منذرٌ وهادٍ لكل قوم . وفي هذا الوجهِ الفصل بين حرفِ العطفِ والمعطوف بالجارِّ، وفيه خلافٌ تقدَّم . ولمَّا ذكر الشيخ هذا الوجهَ لم يذكر هذا الإِشكالَ، ومِنْ عادته ذِكْرُه رادَّاً به على الزمخشري . الثالث : أنَّ هادياً خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه : [إنما أنت منذرٌ]، وهو لكلِّ قومٍ هادٍ، ف " لكلِّ " متعلقٌ به أيضاً .

ووقف ابن كثير على " هادٍ " و ﴿ وَاقٍ ﴾ [الرعد : 34] حيث وقعا، وعلى ﴿ وَالٍ

﴾ [الرعد : 11] هنا [وباقٍ في النحل بإثبات] الياء ، وحَذَفها الباقون . ونقل ابن مجاهد عنه أنه يقف بالياء في جميع الباب ، ونَقَل عن ورش أنه خَيَّر في الوقف [بين الياءِ وحَذْفِها ، والباب] هو كلُّ منقوص منوَّن غيرِ منصوب .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَعْلَمُ ﴾ : يجوز في الجلالة وجهان ، أحدُهما : أنها خبرُ مبتدأٍ مضمر ، [أي : هو الله ، وهذا] على قول مَنْ فسَّر هادياً بأنه هو الله تعالى ، فكأنَّ هذه الجملة تفسيرٌ له ، وهذا عَنَى الزمخشريُّ بقوله : " وأن يكونَ المعنى : هو الله تفسيراً لهادٍ على الوجه الأخير ، ثم ابتدأ فقال : "يَعْلَم" . والثاني : أن الجلالةَ مبتدأ و "يَعْلَمُ" خبرُها ، وهو كلامٌ مستأنفٌ مستقلٌّ .

(107/408)

قال الشيخ : " ويَعْلَمُ هنا متعديةٌ إلى واحدٍ ، لأنه لو يُراد هنا النسبةُ ، إنما المرادُ تعلُّق العلمِ بالمفردات " . قلت : وإذا كانت كذلك كانت عِرْفانيةً ، وقد قدَّمْتُ أنه لا ينبغي أن يجوزَ نسبةُ هذا إلى الله تعالى ، وحقَّقْتُه فيما تقدَّم ، فعليك باعتباره في موضعه من سورة الأنفال

.

قوله : ﴿ مَا تَحْمِلُ ﴾ : " ما " تحتمل ثلاثةَ أوجهٍ ، أحدُها : أن تكون موصولةً اسميةً ، والعائدُ محذوف ، أي : ما تحمله . والثاني : أن تكونَ مصدريةً فلا عائدَ . والثالث : أن تكونَ استفهاميةً ، وفي محلها وجهان ، أحدُهما : أنها في محلِّ رفعٍ بالابتداءِ ، و " تحملُ " خبرُه ، والجملة معلِّقةٌ للعلمِ . والثاني : أنها في محلِّ نصبٍ ب " تَحْمل " قاله أبو البقاء ، وهو أَوْلى ، لأنه لا يُحْوِجُ إلى حَذْفِ عائدٍ ، ولا سيما عند البصريين فإنهم لا يُجيزون " زيدُ ضربْت " ، ولم يذكرِ الشيخُ غيرَ هذا ، ولم يتعرَّضْ لهذا الاعتراضِ .

و" ما " في قوله ﴿ وَمَا تَغِيضُ . . . وَمَا تَزْدَادُ ﴾ محتملةٌ للأوجهِ المتقدمة . وغاض وزاد سُمِع تعدِّيهما ولزومُهما ، فلك أن تدَّعيَ حَذْفَ العائدِ على القول بتعدِّيهما ، وأن تجعلَها مصدريةً على القولِ بمصدرِهما .

قوله : " عندَه " يجوز أن يكونَ مجرورَ المحلِّ صفةً لشيءٍ ، أو مرفوعَه صفةً ل " كل " ، أو منصوبَه لقوله " بمقدار " أو ظرفاً للاستقرار الذي تَعَلَّق به الجارُّ لوقوعِه خبراً .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) ﴾

قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الغيب ﴾ : يجوز أن يكونَ مبتدأً وخبرُه ﴿ الكبير المتعال ﴾ ، وأن يكونَ خبراً لمبتدأ محذوف ، أي : هو عالِمٌ . وقرأ زيد بن علي " عالِمَ " نصباً على المدح . ووقف ابن كثير وأبو عمرو في روايةٍ على ياء " المتعال " وصلاً ووقفاً ، وهذا هو الأشهرُ في لسانهم ، وحَذَفَها الباقون وصلاً ووقفاً لحَذْفِها في الرسم . واستسهل سيبويه حَذْفَها في الفواصل والقوافي ولأن " أل " تعاقِبُ التنوين ، فَحُذِفَتْ معها إجراءً لها مُجْراها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 20 . 23 ﴾

(109/408)

قوله تعالى ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت العادة قاضية بتفاوت العلم بالنسبة إلى السر والجهر ، والقدرة بالنسبة إلى

المتحفظ بالحرس وغيره، أتبع ذلك سبحانه بما نفي هذا الاحتمال عنه على وجه الشرح والبيان لاستواء الغيب والشهادة بالنسبة إلى علمه فقال: ﴿سواء منكم﴾ أي في علمه ﴿من أسر القول﴾ أي أخفى معناه في نفسه ﴿ومن جهر به﴾ وفي علمه ﴿و﴾ قدرته ﴿من هو مستخف﴾ أي موجد الخفاء وطالب له أشد طلب ﴿بالليل﴾ في أخفى الأوقات فسارب أو كامن فيه، يظن أن ذلك الاستخفاء يغنيه من القدرة ﴿و﴾ من هو ﴿سارب﴾ أي ذاهب على وجهه الأرض ومتوجه جارٍ في توجهه إلى قصده بسرعة ﴿بالنهار﴾ متجاهر بسروبه فيه، فالآية من الاحتباك: ذكر ﴿مستخف﴾ أولاً دال على ضده ثانياً، وذكر ﴿سارب﴾ ثانياً دال على ضده أو مثله أولاً ﴿له﴾ أي لذلك المستخفي أو السارب - كما قاله ابن عباس - رضى الله عنهما - ﴿معقبات﴾ أي أعوان وأنصار يتناوبون في أمره بأن يخلف كل واحد منهم صاحبه ويكون بدلاً منه.

ولما كان حفظ جهتي القدام والخلف يستلزم حفظ اليمين والشمال وكان ملأ كل من الجهتين من الحفظة على المخلوق متعذراً، قال آتياً بالجار: ﴿من بين يديه﴾ أي من قدامه ﴿ومن خلفه﴾ واستأنف بيان فائدة المعقبات فقال: ﴿يحفظونه﴾ أي في زعمه من كل

شيء يخشاه ﴿ من أمر الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة .

ولما دل هذا على غاية القدرة ، وجرت عادة المتمكنين من ملوك الأرض بالتعدي على جيرانهم واستلاب ممالكهم والعسف في شأنهم ، زيادة في المكنة وتوسعاً في الملك ، ولا سيما إذا كان ذلك الجار ظاناً مع ضعفه وعجزه أن يحفظه مانه من أخذه ، أخبر تعالى من كأنه سأل عن ذلك أنه غير هذا لغناه عنه ، فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة والكمال كله ﴿ لا يغير ما بقوم ﴾ أي خيراً كان أوشراً ﴿ حتى يغيروا ما ﴾ أي الذي ﴿ بأنفسهم ﴾ مما كانوا يزينونها به من التحلي بالأعمال الصالحة والتخلي من أخلاق المفسدين ، فإذا غيروا ذلك غير ما بهم إذا أراد وإن كانوا في غاية القوة .

ولما كان ملوك الدنيا لا يتمكنون غالباً من جميع مراداتهم لكثرة المعارضين من الأمثال الصالحين للملك ، قال تعالى عاطفاً على ما تقديره : فإذا غيروا ما بأنفسهم أنزل بهم السوء : ﴿ وإذا أراد الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ بقوم ﴾ أي وإن كانوا في غاية القوة ﴿ سوءاً فلا مرد له ﴾ من أحد سواه ، وقد تقدم لهذه الآية في الأنفال مزيد بيان .

ولما كان كل أحد دونه في الرتبة لا إمكان له أن يقوم مقامه بوجه ، قال : ﴿ وما لهم ﴾ وبين سفول الرتب كلها عن رتبته فقال : ﴿ من دون ﴾ وأعرق في النفي فقال : ﴿ من ﴾ ولما كان السياق ظاهراً في أنه لا منفذ لهم مما أراده ، أتى بصيغة فاعل منقوص إشارة إلى نفي أدنى وجوه الولاية فكيف بما فوقها فقال : ﴿ وال ﴾ أي من ملجأ يعيذهم ، بأن الفعل معهم

من الإنجاء والنصرة ما يفعل القريب مع وليه الأقرب إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 131.130 ﴾

(111/408)

فصل

قال الفخر :

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ (10)

ثم إنه تعالى أكد بيان كونه عالماً بكل المعلومات فقال : ﴿ سَوَاء مّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ باليل وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لفظ (سواء) يطلب اثنين تقول سواء زيد وعمرو ثم فيه وجهان .

الأول : أن سواء مصدر والمعنى : ذو سواء كما تقول : عدل زيد وعمرو أي ذوا عدل .

الثاني : أن يكون سواء بمعنى مستو وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى الإضمار إلا أن سيبويه يستقبح أن يقول مستو زيد وعمرو لأن أسماء الفاعلين إذا كانت نكرات لا يبدأ بها .

ولقائل أن يقول : بل هذا الوجه أولى لأن حمل الكلام عليه يغني عن التزام الإضمار الذي هو خلاف الأصل .

المسألة الثانية :

في المستخفي والسارب قولان :

القول الأول : يقال : أخفيت الشيء أخفيه إخفاء فخفي واستخفى فلان من فلان أي توارى واستتر .

وقوله : ﴿ وَسَارِبٌ بالنهار ﴾

قال الفراء والزجاج : ظاهر بالنهار في سربه أي طريقه .

يقال : خلاله سربه ، أي طريقه .

وقال الأزهري : تقول العرب سربت الإبل تسرب سرباً ، أي مضت في الأرض ظاهرة حيث شاءت ، فإذا عرفت ذلك فمعنى الآية سواء كان الإنسان مستخفياً في الظلمات أو كان ظاهراً في الطرقات ، فعلم الله تعالى محيط بالكل .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الألسنة .

وقال مجاهد : سواء من يقدم على القبائح في ظلمات الليالي ، ومن يأتي بها في النهار الظاهر على سبيل التوالي .

والقول الثاني : نقله الواحدي عن الأخفش وقطرب أنه قال : المستخفي الظاهر والسارب المتواري ومنه يقال : خفيت الشيء وأخفيته أي أظهرته .

(112/408)

واختفيت الشيء استخرجته ويسمى النباش المستخفي والسارب المتواري ومنه يقال : للداخل سرباً ، والسرب الوحش إذا دخل في السرب أي في كناسة .

قال الواحدي : وهذا الوجه صحيح في اللغة ، إلا أن الاختيار هو الوجه الأول لاطباق أكثر المفسرين عليه ، وأيضاً فالليل يدل على الاستتار ، والنهار على الظهور والانتشار .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11) ﴾

اعلم أن الضمير من "له" عائد إلى "من" في قوله : ﴿ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ [الرعد : 10] وقيل على اسم الله في عالم الغيب والشهادة ، والمعنى : لله معقبات ، وأما المعقبات فيجوز أن يكون أصل هذه الكلمة معتقبات فأدغمت التاء في القاف كقوله : ﴿ وَجَاء المعذرون مِنَ الأعراب ﴾ [التوبة : 90] والمراد المعتذرون ويجوز أن يكون من عقبه إذا جاء على عقبه فاسم المعقب من كل شيء ما خلف يعقب ما قبله ، والمعنى

في كلا الوجهين واحد .

إذا عرفت هذا فنقول : في المراد بالمعقبات قولان .

الأول : وهو المشهور الذي عليه الجمهور أن المراد منه الملائكة الحفظة وإنما صح وصفهم بالمعقبات ، إما لأجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس ، وإما لأجل أنهم يتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب ، وكل من عمل عملاً ثم عاد إليه فقد عقب ، فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل وملائكة النهار .

(113/408)

روي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك فقال عليه السلام : " ملك عن يمينك يكتب الحسنات وهو أمين على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشراً ، وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال لصاحب اليمين أكتب ؟ فيقول لا لعله يتوب فإذا قال ثلاثاً قال نعم أكتب أراحنا الله منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله تعالى واستحياءه منا ، وملكان من بين يديك ومن خلفك فهو قوله تعالى : ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لربك رفعك وإن تجبرت قصمك ، وملكان على شفتك يحفظان عليك الصلاة علي ، وملك

علي فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك ، وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي تبدل ملائكة الليل بملائكة النهار فهم عشرون ملكاً على كل آدمي " وعنه صلى الله عليه وسلم : " يتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر " وهو المراد من قوله : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ [الإسراء : 78] قيل : تصعد ملائكة الليل وهي عشرة وتنزل ملائكة النهار ، وقال ابن جريج : هو مثل قوله تعالى : ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ [ق : 17] صاحب اليمين يكتب الحسنات والذي عن يساره يكتب السيئات .

وقال مجاهد : ما من عبد إلا وله ملك يحفظه من الجن والإنس والهوام في نومه ويقظته .

وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : الملائكة ذكور ، فلم ذكر في جمعها جمع الإناث وهو المعقبات ؟

والجواب : فيه قولان .

الأول : قال الفراء : المعقبات ذكران جمع ملائكة معقبة ، ثم جمعت معقبة بمعقبات ، كما قيل : ابناوات سعد ورجالات بكر جمع رجال ، والذي يدل على التذكير قوله : ﴿ يَحْفَظُونَهُ ﴾ .

والثاني : وهو قول الأخفش : إنما أنثت لكثرة ذلك منها ، نحو : نسابة ، وعلامة ، وهو ذكر .

السؤال الثاني : ما المراد من كون أولئك المعقبات من بين يديه ومن خلفه ؟

والجواب : أن المستخفي بالليل والسارب بالنهار قد أحاط به هؤلاء المعقبات فيعدون عليه أعماله وأقواله بتمامها ، ولا يشذ من تلك الأعمال والأقوال من حفظهم شيء أصلاً ، وقال بعضهم : بل المراد يحفظونه من جميع المهالك من بين يديه ومن خلفه ، لأن السارب بالنهار إذا سعى في مهماته فإنما يحذر من بين يديه ومن خلفه .

السؤال الثالث : ما المراد من قوله : ﴿ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ .

والجواب : ذكر الفراء فيه قولين :

القول الأول : أنه على التقديم والتأخير والتقدير : له معقبات من أمر الله يحفظونه .

القول الثاني : أن فيه إضماراً أي ذلك الحفظ من أمر الله أي مما أمر الله به فحذف الاسم وأبقى خبره كما يكتب على الكيس ، ألفان والمراد الذي فيه ألفان .

والقول الثالث : ذكره ابن الأنباري أن كلمة "من" معناها الباء والتقدير : يحفظونه بأمر الله وباعانته ، والدليل على أنه لا بد من المصير إليه أنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق على أن يحفظوا أحداً من أمر الله ومما قضاه عليه .

السؤال الرابع : ما الفائدة في جعل هؤلاء الملائكة موكلين علينا ؟

والجواب : أن هذا الكلام غير مستبعد ، وذلك لأن المنجمين اتفقوا على أن التدبير في كل يوم لكوكب على حدة وكذا القول في كل ليلة ، ولا شك أن تلك الكواكب لها أرواح عندهم ، فتلك التدبيرات المختلفة في الحقيقة لتلك الأرواح ، وكذا القول في تدبير القمر والهيلاج والكدخدا على ما يقوله المنجمون .

وأما أصحاب الطلسمات فهذا الكلام مشهور في ألسنتهم ولذلك تراهم يقولون : أخبرني الطباعي التام .

ومرادهم بالطباعي التام أن لكل إنسان روحاً فلكية يتولى إصلاح مهماته ودفع بلياته وآفاته ، وإذا كان هذا متفقاً عليه بين قدماء الفلاسفة وأصحاب الأحكام فكيف يستبعد مجيئه من الشرع ؟ وتمام التحقيق فيه أن الأرواح البشرية مختلفة في جواهرها وطبائعها فبعضها خيرة ، وبعضها شريرة ، وبعضها معزة ، وبعضها مذلة ، وبعضها قوية القهر والسلطان ، وبعضها ضعيفة سخيفة .

وكما أن الأمر في الأرواح البشرية كذلك ، فكذا القول في الأرواح الفلكية ، ولا شك أن

الأرواح الفلكية في كل باب وكل صفة أقوى من الأرواح البشرية وكل طائفة من الأرواح البشرية تكون متشاركة في طبيعة خاصة وصفة مخصوصة ، لما أنها تكون في تربية روح من الأرواح الفلكية مشاكلة لها في الطبيعة والخاصية ، وتكون تلك الأرواح البشرية كأنها أولاد لذلك الروح الفلكي .

ومتى كان الأمر كذلك كان ذلك الروح الفلكي معيناً لها على مهماتها ومرشداً لها إلى مصالحها وعاصماً لها عن صنوف الآفات ، فهذا كلام ذكره محققو الفلاسفة ، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن الذي وردت به الشريعة أمر مقبول عند الكل ، فكيف يمكن استنكاره من الشريعة ؟ ثم في اختصاص هؤلاء الملائكة وتسلطهم على بني آدم فوائد كثيرة سوى التي مر ذكرها من قبل .

الأول : أن الشياطين يدعون إلى الشرور والمعاصي ، وهؤلاء الملائكة يدعون إلى الخيرات والطاعات .

والثاني : قال مجاهد : ما من عبد إلا ومعه ملك يحفظه من الجن والإنس والهوام في نومه ويقظته .

الثالث : أنا نرى أن الإنسان قد يقع في قلبه داع قوي من غير سبب ثم يظهر بالآخرة أن وقوع تلك الداعية في قلبه كان سبباً من أسباب مصالحه وخيراته ، وقد ينكشف أيضاً بالآخرة أنه كان سبباً لوقوعه في آفة أو في معصية ، فيظهر أن الداعي إلى الأمر الأول كان مريداً

للخير والراحة وإلى الأمر الثاني كان مريداً للفساد والمحنة ، والأول هو الملك الهادي والثاني هو الشيطان المغوي .

(116/408)

الرابع : أن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصي عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب ، لأن من آمن يعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها كما يزجره عنها إذا حضره من يعظمه من البشر .

وإذا علم أن الملائكة تحصي عليه تلك الأعمال كان ذلك أيضاً رادعاً له عنها وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل .

السؤال الخامس : ما الفائدة في كتبة أعمال العباد ؟ قلنا ههنا مقامات :

المقام الأول : أن تفسير الكتبة بالمعنى المشهور من الكتبة .

قال المتكلمون : الفائدة في تلك الصحف وزنها ليعرف رجحان إحدى الكفتين على الأخرى ، فإنه إذا رجحت كفة الطاعات ظهر للخلائق أنه من أهل الجنة ، وإن كان بالضد فبالضد .

قال القاضي : هذا بعيد لأن الأدلة قد دلت على أن كل واحد قبل مماته عند المعاينة يعلم أنه من السعداء أو من الأشقياء فلا يتوقف حصول تلك المعرفة على الميزان ، ثم أجاب القاضي عن هذا الكلام وقال : لا يمتنع أيضاً ما روينا لأمر يرجع إلى حصول سروره عند الخلق العظيم أنه من أولياء الله في الجنة وبالضد من ذلك في أعداء الله .

والمقام الثاني : وهو قول حكماء الإسلام أن الكتابة عبارة عن نقوش مخصوصة وضعت بالاصطلاح لتعريف المعاني المخصوصة فلو قدرنا كون تلك النقوش دالة على تلك المعاني لأعيانها وذواتها كانت تلك الكتبة أقوى وأكمل .

إذا ثبت هذا فنقول : إن الإنسان إذا أتى بعمل من الأعمال مرات وكرات كثيرة متوالية حصل في نفسه بسبب تكررها ملكة قوية راسخة ، فإن كانت تلك الملكة ملكة سارة بالأعمال النافعة في السعادات الروحانية عظم ابتهاجه بها بعد الموت ؛ وإن كانت تلك الملكة ملكة ضارة في الأحوال الروحانية عظم تضرره بها بعد الموت .

إذا ثبت هذا فنقول : إن التكرير الكثير لما كان سبباً لحصول تلك الملكة الراسخة كان لكل واحد من الأعمال المتكررة أثر في حصول تلك الملكة الراسخة ، وذلك الأثر وإن كان غير

محسوس إلا أنه حاصل في الحقيقة .

وإذا عرفت هذا ظهر أنه لا يحصل للإنسان لمحة ولا حركة ولا سكون ، إلا ويحصل منه في جوهر نفسه أثر من آثار السعادة ، أو آثار الشقاوة قل أو كثر ، فهذا هو المراد من كتبة الأعمال عند هؤلاء والله أعلم بحقائق الأمور وهذا كله إذا فسرنا قوله تعالى : ﴿ لَهُ معقبات مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ بالملائكة .

القول الثاني : وهو أيضاً منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما ، واختاره أبو مسلم الأصفهاني المراد : أنه يستوي في علم الله تعالى السر والجهر ، والمستخفي بظلمة الليل ، والسارب بالنهار المستظهر بالمعاونين والأنصار وهم الملوك والأمراء ، فمن لجأ إلى الليل فلن يفوت الله أمره ، ومن سار نهاراً بالمعقبات وهم الأحراس والأعوان الذين يحفظونه لم ينجه أحراسه من الله تعالى ، والمعقب العون ، لأنه إذا أبصر هذا ذاك فلا بد أن يبصر ذاك هذا ، فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخرة ، فهذه المعقبات لا تخلص من قضاء الله ومن قدره ، وهم إن ظنوا أنهم يخلصون مخدومهم من أمر الله ومن قضائه فإنهم لا يقدرون على ذلك ألبتة ، والمقصود من هذا الكلام بعث السلاطين والأمراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المكاره عن حفظ الله وعصمته ولا يعولوا في دفعها على الأعوان والأنصار ، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ فكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد .

(118/408)

قال القاضي : والظاهر لا يحتمل إلا هذا المعنى لأنه لا شيء مما يفعله تعالى سوى العقاب إلا وقد يبتدىء به في الدنيا من دون تغيير يصدر من العبد فيما تقدم لأنه تعالى ابتدأ بالنعم دينا ودنياً ويفضل في ذلك من شاء على من يشاء ، فالمراد مما ذكره الله تعالى التغيير بالهلاك والعقاب ، ثم اختلفوا فبعضهم قال هذا الكلام راجع إلى قوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ [الرعد : 6] فبين تعالى أنه لا ينزل بهم عذاب الاستئصال إلا والمعلوم منهم الإصرار على الكفر والمعصية ، حتى قالوا : إذا كان المعلوم أن فيهم من يؤمن أو في عقبه من يؤمن فإنه تعالى لا ينزل عليهم عذاب الاستئصال وقال بعضهم : بل الكلام يجري على إطلاقه ، والمراد منه أن كل قوم بالغوا في الفساد وغيروا طريقتهم في إظهار عبودية الله تعالى فإن الله يزيل عنهم النعم وينزل عليهم أنواعاً من العذاب ، وقال بعضهم : إن المؤمن الذي يكون مختلطاً بأولئك الأقوام فربما دخل في ذلك العذاب .

روي عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب " واحتج أبو علي الجبائي والقاضي بهذه الآية في مسألتين :

المسألة الأولى :

أنه تعالى لا يعاقب أطفال المشركين بذنوب آبائهم ، لأنهم لم يغيروا ما بأنفسهم من نعمة فيغير الله حالهم من النعمة إلى العذاب .

المسألة الثانية :

قالوا : الآية تدل على بطلان قول المجبرة إنه تعالى يبتدىء العبد بالضلال والخذلان أول ما يبلغ وذلك أعظم من العقاب ، مع أنه ما كان منه تغيير .

والجواب : أن ظاهر هذه الآية يدل على أن فعل الله في التغيير مؤخر عن فعل العبد ، إلا أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان : 30] يدل على أن فعل العبد مؤخر عن فعل الله تعالى ، فوقع التعارض .

وأما قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ فقد احتج أصحابنا به على أن العبد غير مستقل في الفعل .

قالوا : وذلك لأنه إذا كفر العبد فلا شك أنه تعالى يحكم بكونه مستحقاً للذم في الدنيا والعقاب في الآخرة ، فلو كان العبد مستقلاً بتحصيل الإيمان لكان قادراً على رد ما أراده الله تعالى ، وحينئذ يبطل قوله : ﴿ وَإِذَا أراد اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ فثبت أن الآية السابقة وإن أشعرت بمذهبهم ، إلا أن هذه الآية من أقوى الدلائل على مذهبنا .

قال الضحاك عن ابن عباس : لم تغن المعقبات شيئاً ، وقال عطاء عنه : لا راد لعذابي ولا ناقض لحكمي : ﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ أي ليس لهم من دون الله من يتولاهم ، ويمنع قضاء الله عنهم ، والمعنى : ما لهم والٍ يلي أمرهم ، ويمنع العذاب عنهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 15.19 ﴾

(120/408)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ سواءٌ منكم مَن أسَرَّ القول ومَن جَهَرَ به ﴾

إسرار القول : ما حدّث به نفسه ، والجهر ما حَدّث به غيره . والمراد بذلك أنه تعالى يعلم ما

أسره الإنسان من خير وشر .

﴿ ومَن هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعلم من استخفى بعمله في ظلمة الليل ، ومن أظهره في ضوء النهار . الثاني : يرى ما أخفته ظلمة الليل كما يرى ما أظهره ضوء النهار ، بخلاف المخلوقين الذين يخفي عليهم الليل أحوال أهلهم . قال الشاعر :

وليلٍ يقول الناسُ في ظلُماتِه . . . سَواءٌ صحيحات العُيون وعورها

والسارب : هو المنصرف الذاهب ، مأخوذ من السُّروب في المرعى ، وهو بالعشي ، والسروح بالغداة ، قال قيس بن الخطيم :

أنَّى سَرَبْتِ وكُنْتِ غير سروب . . . وتقرب الأحلام غير قريب

قوله عز وجل : ﴿ له معقبات مِن بين يديه ومن خَلْفِه ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم حراس الأمراء يتعاقبون الحرس ، قاله ابن عباس وعكرمة .

الثاني : أنه ما يتعاقب من أوامر الله وقضائه في عباده ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

الثالث : أنهم الملائكة ، إذا صعدت ملائكة النهار أعقبتها ملائكة الليل ، وإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار ، قاله مجاهد وقتادة . قال الحسن : وهم أربعة أملاك : اثنان بالنهار ، واثنان بالليل ، يجتمعون عند صلاة الفجر .

وفي قوله تعالى : ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : من أمامه وورائه ، وهذا قول من زعم أن المعقبات حراس الأمراء .

الثاني : الماضي والمستقبل ، وهذا قول من زعم أن المعقبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه .

الثالث : من هُداه وضلالِه ، وهذا قول من زعم أن المعقبات الملائكة . ﴿ يحفظونَه من أمر الله ﴾ تأويله يختلف بحسب اختلاف المعقبات ، فإن قيل بالقول الأول أنهم حراس الأمراء ففي قوله ﴿ يحفظونه ﴾ أي عند نفسه من أمر الله ولا راد لأمره ولا دافع لقضائه ، قاله ابن عباس وعكرمة .

(121/408)

الثاني : أن في الكلام حرف نفي محذوفاً وتقديره : لا يحفظونه من أمر الله .

وإن قيل بالقول الثاني ، إن المعقبات ما يتعاقب من أمر الله وقضائه ، ففي تأويل قوله تعالى ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ وجهان :

أحدهما : يحفظونه من الموت ما لم يأت أجله ، قاله الضحاك .

الثاني : يحفظونه من الجن والهوام المؤذية ما لم يأت قدر ، قاله أبو مالك وكعب الأحبار .

وإن قيل بالقول الثالث : وهو الأشبه : أن المعقبات الملائكة ففيما أريد بحفظهم له وجهان :

أحدهما : يحفظون حسناته وسيئاته بأمر الله .

الثاني : يحفظون نفسه .

فعلى هذا في تأويل قوله تعالى ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : يحفظونه بأمر الله ، قاله مجاهد .

الثاني : يحفظونه من أمر الله حتى يأتي أمر الله ، وهو محكي عن ابن عباس .

الثالث : أنه على التقديم والتأخير وتقديره : له معقبات من أمر الله تعالى يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، قاله إبراهيم .

وفي هذه الآية قولان :

أحدهما : أنها عامة في جميع الخلق ، وهو قول الجمهور .

الثاني : أنها خاصة نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أزمع عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة أخو لبيد على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله عز وجل منهما وأنزل هذه الآية فيه ، قاله ابن زيد .

﴿ إِنَّ الله لا يغيرُ ما بقومٍ حتى يغيِّرُوا ما بأنفسِهم ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن الله لا يغير ما بقوم من نعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم من معصية .

الثاني : لا يغير ما بهم من نعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة .

﴿ وإذا أراد الله بقومٍ سوءًا فلا مرد له ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إذا أراد الله بهم عذاباً فلا مرد لعذابه .

الثاني : إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مرد لبلائه .

﴿ وما لهم مِن دونه من وال ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من ملجأ وهو معنى قول السدي .

الثاني : يعني من ناصر ، ومنه قول الشاعر :

ما في السماء سوى الرحمن من والِ . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ

﴾

(122/408)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ سواء منكم ﴾ الآية

﴿ سواء ﴾ مصدر وهو يطلب بعده شيئين يتماثلان . ورفعه على خبر الابتداء الذي هو "من" والمصدر لا يكون خبراً إلا بإضمار كما قالت الخنساء : [البسيط] :

. . . . فإنما هي إقبال وإدبار

أي ذات إقبال وإدبار . فقالت فرقة هنا : المعنى : ذو سواء ، وقال الزجاج كثر استعمال

سواء في كلام العرب حتى جرى مجرى اسم الفاعل فلا يحتاج إلى إضمار .

قال القاضي أبو محمد : هو عندي كعدل وزور وضيف .

وقالت فرقة : المعنى : مستوٍ منكم ، فلا يحتاج إلى إضمار .

قال القاضي أبو محمد : وضعف هذا سيبويه بأنه ابتداء بنكرة .

ومعنى هذه الآية : معتدل منكم في إحاطة الله تعالى وعلمه من أسر قوله فهمس به في نفسه ، ﴿ ومن جهر به ﴾ فأسمع ، لا يخفى على الله تعالى شيء .

وقوله تعالى : ﴿ ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ معناه : من هو بالليل في غاية الاختفاء ، ومن هو متصرف بالنهار ذاهب لوجهه ، سواء في علم الله تعالى وإحاطته بهما . وذهب ابن عباس ومجاهد إلى معنى مقتضاه : أن " المستخفي والسارب " هو رجل واحد مريب بالليل ، ويظهر بالنهار البراءة في التصرف مع الناس .

قال القاضي أبو محمد : فهذا قسم واحد جعل الليل نهار راحته ، والمعنى : هذا والذي أمره كله واحد بريء من الرب سواء في اطلاع الله تعالى على الكل ، ويؤيد هذا التأويل عطف السارب دون تكرار ﴿ من ﴾ ولا يأتي حذفها إلا في الشعر و" السارب " - في اللغة - المتصرف كيف شاء ، ومن ذلك قول الشاعر : [الأخنس بن شهاب الثعلبي] [الطويل]

أرى كل قوم كاربوا قيد محلهم . . . ونحن حللنا قيده فهو سارب

أي متصرف غير مدفوع عن جهة ، هذا رجل يفتخر بعزة قومه ، ومن ذلك قول الآخر : [

قيس بن الخطيم] [الكامل]

إني سربت وكنت غير سروب . . . وتقرب الأحلام غير قريب

(123/408)

وتحتمل الآية أن تتضمن ثلاثة أصناف : فالذي يسر طرف ، والذي يجهر طرف مضاد للأول ، والثالث : متوسط متلون : يعصي بالليل مستخفياً ، ويظهر البراءة بالنهار . و ﴿ القول ﴾ في الآية يطرد معناه في الأعمال .

وقال قطرب – فيما حكى الزجاج – ﴿ مستخف ﴾ معناه : الظاهر من قولهم خفيت الشيء إذا أظهرته .

قال القاضي أبو محمد : قال امرؤ القيس : [الطويل]

خفاهن من أنفاقهن كأنما . . . خفاهن ودق من عشي مجلّب

قال : و ﴿ سارب ﴾ معناه : متوار في سرب .

قال القاضي أبو محمد : وهذا القول – وإن كان تعلقه باللغة بيناً – فضعيف ، لأن اقتران الليل ب " المستخفي " ، والنهار ب " السارب " – يرد على هذا القول .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

اختلف المتأولون في غير عود الضمير من ﴿ له ﴾ : فقالت فرقة : هو عائد على اسم الله عز وجل المتقدم ذكره ، و" المعقبات " - على هذا الملائكة الحفظة على العباد أعمالهم ، والحفظة لهم أيضاً - قاله الحسن ، وروى فيه عثمان بن عفان حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو قول مجاهد والنخعي - والضمير على هذا في قوله : ﴿ يديه ﴾ وما بعده من الضمائر عائد على العبد المذكور في قوله : ﴿ من هو مستخف ﴾ [الرعد : 10] و﴿ من أمر الله ﴾ يحتمل أن يكون صفة ل ﴿ معقبات ﴾ ويحتمل أن يكون المعنى : يحفظونه من كل ما جرى القدر باندفاعه ، فإذا جاء المقدور الواقع أسلم المرء إليه .

وقال ابن عباس أيضاً : الضمير في ﴿ له ﴾ عائد على المذكور في قوله ﴿ من هو مستخف بالليل ﴾ [الرعد : 10] وكذلك باقي الضمائر التي في الآية ، قالوا : و﴿ معقبات ﴾ - على هذا - حرس الرجل وجلاوزته الذين يحفظونه ، قالوا : والآية - على هذا - في الرؤساء الكافرين ، واختار هذا القول الطبري ، وهو قول عكرمة وجماعة ، قال عكرمة : هي المواكب خلفه وأمامه .

قال القاضي أبو محمد : ويصح على التأويل الأول الذي قبل هذا أن يكون الضمير في ﴿ له ﴾ للعبد المؤمن على معنى جعل الله له .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل عندي أقوى ، لأن غرض الآية إنما هو التنبيه على قدرة الله تعالى ، فذكر استواء ﴿ من هو مستخف ﴾ [الرعد : 10] ومن هو ﴿ سارب ﴾ [الرعد : 10] وأن ﴿ له معقبات ﴾ من الله تحفظه في كل حال ، ثم ذكر أن الله تعالى لا يغير هذه الحالة من الحفظ للعبد حتى يغير ما بنفسه .

قال القاضي أبو محمد : وعلى كلا التأويلين ليست الضمائر لمعين من البشر .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الآية في النبي عليه السلام ، ونزلت في حفظ الله له من أربد بن ربيعة وعامر بن الطفيل في القصة التي ستأتي بعد هذا في ذكر الصواعق .

قال القاضي أبو محمد : وهذه الآية وإن كانت بألفاظها تنطبق على معنى القصة فيضعف القول : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتقدم له ذكر فيعود الضمير في ﴿ له ﴾ عليه .

و " المعقبات " : الجماعات التي يعقب بعضها بعضاً ، فعلى التأويل الأول هي الملائكة ، وينظر هذا إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " يتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة المغرب والصبح " ، وعلى التأويل الثاني : هي الحرس والوزعة الذين للملوك .

و ﴿ معقبات ﴾ جمع معقبة وهي الجماعة التي تأتي بعد الأخرى ، والتعقيب - بالجملة -

أن تكون حال تعقبها حال أخرى من نوعها ، وقد تكون من غير النوع ، ومنه معاقبة الركوب ومعاقبة الجاني ومعقب عقبة القدر والمعاقبة في الأزواج ، ومنه قول سلامة بن جندل : [البسيط]

وكرّنا الخيل في آثارهم رجعاً . . . كسر السنابك من بدء وتعقيب

وقرأ عبيد الله بن زياد على المنبر : " له معاقيب " قال أبو الفتح : هو تكسير معقب .

قال القاضي أبو محمد : بسكون العين وكسر القاف كمطعم ومطاعيم ، ومقدم ومقاديم .

(125/408)

وهي قراءة أبي البرهسم - فكأن معقباً جمع على معاقبة ثم جعلت الياء في معاقيب عوضاً من الهاء المحذوفة في معاقبة ، والمعقبة ليست جمع معقب - كما ذكر ذلك الطبري وشبه ذلك برجل ورجال ورجالات ، وليس الأمر كما ذكر لأن تلك كجمل وجمالات ، ومعقبة ومعقبات إنما هي كضاربة وضاربات .

وفي قراءة أبيّ بن كعب " من بين يديه ورقيب من خلفه " ، وقرأ ابن عباس : " ورقباء من خلفه " ، وذكر عنه أبو حاتم أنه قرأ : " معقبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله " .

وقوله : ﴿ يحفظونه ﴾ يحتمل معنيين :

أحدهما : أن يكون بمعنى يحرسونه ، ويذبون عنه : فالضمير محمول ليحفظ .

والمعنى الثاني أن يكون بمعنى حفظ الأقوال وتحصيلها ، ففي اللفظة حينئذ حذف مضاف تقديره : يحفظون أعماله ، ويكون هذا حينئذ من باب ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] وهذا قول ابن جريج .

وقوله : ﴿ من أمر الله ﴾ من جعل ﴿ يحفظونه ﴾ بمعنى يحرسونه كان معنى قوله : ﴿ من أمر الله ﴾ يراد به " المعقبات " ، فيكون في الآية تقديم وتأخير ، أي " له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ، ومن خلفه " قال أبو الفتح : ف ﴿ من أمر الله ﴾ في موضع رفع لأنه صفة لمرفوع وهي " المعقبات " .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل هذا التأويل في قوله : ﴿ من أمر الله ﴾ مع التأويل الأول في ﴿ يحفظونه ﴾ .

ومن تأول الضمير في ﴿ له ﴾ عائد على العبد ، وجعل " المعقبات " الحرس ، وجعل الآية في رؤساء الكافرين - جعل قوله ﴿ من أمر الله ﴾ بمعنى يحفظونه بزعمه من قدر الله ، ويدفعونه في ظنه ، عنه ، ذلك لجهالته بالله تعالى .

قال القاضي أبو محمد : وبهذا التأويل جعلها المتأول في الكافرين . قال أبو الفتح : ف ﴿ من أمر الله ﴾ على هذا في موضع نصب ، كقولك حفظت زيداً من الأسد ، فمن الأسد معمول لحفظت وقال قتادة : معنى ﴿ من أمر الله ﴾ : بأمر الله ، أي يحفظونه مما أمر الله ، وهذا تحكم في التأويل ، وقال قوم : المعنى الحفظ من أمر الله ، وقد تقدم نحو هذا .

وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس وعكرمة وجعفر بن محمد : " يحفظونه بأمر الله " .

ثم أخبر تعالى أنه لا يغير ما بقوم - بأن يعذبهم ويمتحنهم معاقباً - حتى يقع منهم تكسب للمعاصي وتغيير ما أمروا به من طاعة .

وهذا موضع تأمل لأنه يداخل هذا الخبر ما قررت الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال : 25] ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم - وقد قيل له : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ - قال : " نعم إذا كثر الخبث " إلى أشياء كثيرة من هذا .

فقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ﴾ معناه حتى يقع تغيير إما منهم وإما من الناظر إليهم أو ممن هو منهم بسبب ، كما غير الله تعالى بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم ، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة .

فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير ، وثم أيضاً مصائب يريد الله بها أجر المصائب فتلك ليست تغييراً .

(127/408)

ثم أخبر تعالى أنه ﴿ إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ ولا حفظ منه ، وهذا جرى في طريقة التنبيه على قدرة الله تعالى وإحاطته ، والسوء والخير بمنزلة واحدة في أنهما إذا أرادهما الله بعبد لم يردا ، لكنه خص السوء بالذكر ليكون في الآية تخويف ، واختلف القراء في – وال – فأماله بعضهم ولم يمله بعضهم ، والوالي الذي يلي أمر الإنسان كالولي هما من الولاية كعليم وعالم من العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(128/408)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ سواء منكم ﴾

قال ابن الأنباري : ناب "سواءُ" عن مُستوٍ ، والمعنى : مستوٍ منكم ﴿ من أسرَّ القول ﴾

أي : أخفاه وكتمه ﴿ ومن جهر به ﴾ أعلنه وأظهره ، والمعنى : أن السِرَّ والجهر سواء عنده .

قوله تعالى : ﴿ ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن المستخفي : هو المستتر المتواري في ظلمة الليل ، والسارب بالنهار : الظاهر المتصرِّف في حوائجه .

يقال : سرَبَتِ الإبل تَسرِب : إذا مضت في الأرض ظاهرةً ، وأنشدوا :

أرى كُلَّ قَوْمٍ قارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِم . . .

وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهْوَ سَارِبُ

أي : ذاهب .

ومعنى الكلام : أن الظاهر والخفيّ عنده سواء ، هذا قول الأكثرين .

وروى العوفي عن ابن عباس : "ومَنْ هو مستخف" قال : صاحب رِيبة بالليل ، فإذا خرج بالنهار ، أرى الناسَ أنه بريء من الإثم .

والثاني : أن المستخفيَ بالليل : الظاهر ، والساربَ بالنهار : المستتر ، يقال : انسرب الوحش : إذا دخل في كِناسِهِ ، وهذا قول الأخفش ، وذكره قطرب أيضاً ، واحتج له ابن جرير بقولهم : خَفَيْتُ الشيء : إذا أظهرتَه ، ومنه ﴿ أكاد أَخفيها ﴾ [طه : 15] بفتح الألف ، أي : أُظهرها ، قال : وإنما قيل للمتواري : ساربٌ ، لأنه صار في السرَبِ

مستخفياً .

قوله تعالى : ﴿ له معقبات ﴾

في هاء "له" أربعة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس .

والثاني : إلى الملك من ملوك الدنيا ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثالث : إلى الإنسان ، قاله الزجاج.

والرابع : إلى الله تعالى ، ذكره ابن جرير ، وأبو سليمان الدمشقي .

وفي المعقّبات قولان :

أحدهما : أنها الملائكة ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة في آخرين .

قال الزجاج : والمعنى : للإنسان ملائكة يعتقبون ، يأتي بعضهم بعَقِب بعض .

وقال أكثر المفسرين : هم الحَفَظَة ، اثنان بالنهار واثنان بالليل ، إذا مضى فريق ، خلف بعده فريق ، ويجتمعون عند صلاة المغرب والفجر .

وقال قوم، منهم ابن زيد: هذه الآية خاصة في رسول الله صلى الله عليه وسلم، عزم عامر بن الطُّفَيْل وأربد بن قيس على قتله، فمنعه الله منهما، وأنزل هذه الآية.

والقول الثاني: أن المعقِّبات حُرَّاس الملوك الذين يتعاقبون الحَرْس، وهذا مروي عن ابن عباس، وعكرمة.

وقال الضحّاك: هم السلاطين المشركون المحترسون من الله تعالى.

وفي قوله: ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ سبعة أقوال:

أحدها: يحرسونه من أمر الله ولا يقدرون، هذا على قول من قال: هي في المشركين المحترسين من أمر الله.

والثاني: أن المعنى: حِفْظُهم له من أمر الله، قاله ابن عباس، وابن جُبير، فيكون تقدير الكلام: هذا الحفظ مما أمرهم الله به.

والثالث: يحفظونه بأمر الله، قاله الحسن، ومجاهد، وعكرمة.

قال اللغويون: والباء تقوم مقام "مِنْ" وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض.

والرابع: يحفظونه من الجن، قاله مجاهد، والنخعي.

وقال كعب: لولا أن الله تعالى وكَّل بكم ملائكة يَذُبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعَوْرَاتكم، إذاً لتخطَّفَتْكم الجن.

وقال مجاهد: ما من عَبْدٍ إلا ومَلَكٌ موكّل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإِنس والهوامّ

، فإذا أراده شيء ، قال : وراءك وراءك ، إلا شيء قد قضي له أن يصيبه .

وقال أبو مجلز : جاء رجل من مُراد إلى عليّ عليه السلام ، فقال : احترس ، فإن ناساً من مُراد يريدون قتلك ، فقال : إن مع كل رجل ملَكين يحفظانه مما لم يقدّر ، فإذا جاء القدر خلَّيا بينه وبينه ، وإن الأجل جُنَّة حصينة .

والخامس : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، والمعنى : له معقِّبات من أمر الله يحفظونه ، قاله أبو صالح ، والفراء .

(130/408)

والسادس : يحفظونه لأمر الله فيه حتى يُسلِموه إلى ما قدّر له ، ذكره أبو سليمان الدمشقي ، واستدل بما روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال : يحفظونه من أمر الله ، حتى إذا جاء القَدَر خلّوا عنه .

وقال عكرمة : يحفظونه لأمر الله .

والسابع : يحفظون عليه الحسنات والسيئات ، قاله ابن جُريج .

قال الأخفش : وإنما أنَّث المعقّبات لكثرة ذلك منها ، نحو النسّابة ، والعلاّمة ، ثم ذكَّر في قوله : "يحفظونه" لأن المعنى مذكَّر .

قوله تعالى : ﴿ إِن الله لا يغيِّر ما بقوم ﴾ أي : لا يسلبهم نعَمَهُ ﴿ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ﴾ فيعملوا بمعاصيه .

قال مقاتل : ويعني بذلك كفار مكة .

قوله تعالى : ﴿ وإِذا أراد الله بقوم سوءاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه العذاب .

والثاني : البلاء .

قوله تعالى : ﴿ فلا مَرَدَّ له ﴾ أي : لا يردُّه شيء ولا تنفعه المعقِّبات .

﴿ وما لهم من دونه ﴾ يعني : من دون الله ﴿ من والٍ ﴾ أي : من وليّ يدفع عنهم العذاب والبلاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(131/408)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾

إسرار القول : ما حَدَّث به المرءُ نفسه ، والجهر ما حدَّث به غيره ؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من خير وشر ، كما يعلم ما جهر به من خير وشر .

و"مِنْكُمْ" يحتمل أن يكون وصفاً ل"سواء" التقدير : سِرٌّ مَن أَسَرَّ وَجَهْرُ مَن جَهَر سواء منكم ؛ ويجوز أن يتعلق "بسواء" على معنى : يستوي منكم ، كقولك : مررت بزيد .

ويجوز أن يكون على تقدير : سِر من أَسَرَّ منكم وجَهْر من جَهَر منكم .

ويجوز أن يكون التقدير : ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، كما تقول : عدل زيد وعمرو أي ذوا عدلٍ .

وقيل : "سواء" أي مستوٍ ، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف .

﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بالليل وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ أي يستوي في علم الله السرّ والجهر ، والظاهر في الطرقات ، والمستخفي في الظلمات .

وقال الأخفش وقُطْرُب : المستخفي بالليل الظاهر ؛ ومنه خَفَيتُ الشيء وأَخْفَيته أي أظهرتُه ؛ وأخفيت الشيء أي استخرجته ؛ ومنه قيل للنّبّاشِ : المختفي .

وقال امرؤ القيس :

خَفَاهُنَّ مِن أَنْفَاقِهِنّ كَأَنَّمَا . . .

خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلّبِ

والسّارب المتواري ، أي الداخل سَرَباً ؛ ومنه قولهم : انسرب الوحشيُّ إذا دخل في كِنّاسه .

وقال ابن عباس : "مُسْتَخْفٍ" مستتر ، "وَسَارِبٌ" ظاهر .

مجاهد : "مُسْتَخْفٍ" بالمعاصي ، "وَسَارِبٌ" ظاهر .

وقيل : معنى "سَارِبٌ" ذاهب ؛ (قال) الكسائي : سَرَبَ يَسْرُبُ سَرَبًا وسُرُوبًا إذا ذهب

؛ وقال الشاعر :

وكُلُّ أناس قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ . . .

ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو مسَارِبُ

أي ذاهب .

وقال أبو رجاء : السّارب الذاهب على وجهه في الأرض ؛ قال الشاعر :

أَنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غير سَرُوبِ . . .

(132/408)

وقال القُتَبِيّ : "سَارِبٌ بالنَّهَارِ" أي منصرف في حوائجه بسرعة ؛ من قولهم ؛ انسرب الماء .

وقال الأصمعيّ : خَلِّ سِرْبَه أي طريقه .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾

أي لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ؛ فإذا صعِدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار .

وقال : "مُعَقِّبَاتٌ" والملائكة ذُكْرَان لأنه جمع مُعقِّبة ؛ يقال : مَلَك مُعقِّب ، وملائكة مُعقِّبة ،

ثم مُعقِّبات جمع الجمع .

وقرأ بعضهم "لَهُ مَعَاقِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ" .

ومعاقيب جمع مُعْقِب ؛ وقيل للملائكة معقِّبة على لفظ الملائكة .

وقيل : أنّث لكثرة ذلك منهم ؛ نحو نسّابة وعلاّمة وراوية ؛ قاله الجوهري وغيره .

والتّعقب العود بعد البدء ؛ قال الله تعالى : ﴿ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [النمل : 10] أي لم يَرجع ؛ وفي الحديث : " مُعَقِّباتٌ لا يَخِيبُ قائِلهنّ أو فاعِلهنّ " فذكر التسبيح والتحميد والتكبير .

قال أبو الهيثم : سُمّين "مُعقِّبات" لأنهن عادت مرّة بعد مرّة ، فِعْل من عَمِل عَملاً ثم عاد إليه فقد عَقَّبَ .

والمعقبات من الإبل اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعترِكات على الحوض ؛ فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى .

وقوله : ﴿ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أي المستخفي بالليل والسارب بالنهار .

﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ اختلف في (هذا) الحفظ ؛ فقيل : يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرّة ، لطفاً منه به ، فإذا جاء القَدَر خلّوا بينه وبينه ؛ قاله ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

قال أبو مِجلَز : جاء رجل من مُرَاد إلى علي فقال : احترس فإن ناساً من مُرَاد يريدون قتلك ؛ فقال : إن مع كل رجل مَلَكين يحفظانه ما لم يُقدَّر ، فإذا جاء القَدَر خلَّيَا بينه وبين قَدَر الله ، وإن الأجل حِصن حصينة ؛ وعلى هذا ، "يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" أي بأمر الله وبإذنه ؛ ف"مِن" بمعنى الباء ؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض .

وقيل : "مِنْ" بمعنى "عن" ؛ أي يحفظونه عن أمر الله ، وهذا قريب من الأوّل ؛ أي حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم ؛ وهذا قول الحسن ؛ تقول : كسوته عن عُرْي ومن عُرْي ؛ ومنه قوله عز وجل : ﴿ الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 4] أي عن جوع .

وقيل : يحفظونه من ملائكة العذاب ، حتى لا تحلّ به عقوبة ؛ لأن الله لا يغير ما بقوم من النّعمة والعافية حتى يُغيّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر ، فإن أصرُّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النّقمة ، وتزول عنهم الحَفَظَة المعقبات .

وقيل : يحفظونه من الجِنّ ؛ قال كعب : لولا أن الله وَكَّل بكم ملائكة يَذُبُّون عنكم في مَطْعَمكم وَمَشْرَبكم وعوراتكم لَتخطَّفتكم الجِنّ .

وملائكة العذاب من أمر الله ؛ وخصّهم بأن قال : "مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" لأنهم غير معاينين ؛ كما قال : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : 85] أي ليس مما تشاهدونه أنتم .

وقال الفرّاء : في الكلام تقديم وتأخير ، تقديره ، له معقبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ؛ وهو مرويّ عن مجاهد وابن جُرَيج والنَّخعيّ ؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجِنّ من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير ، وقال ابن جريج : إن المعنى يحفظون عليه عمله ، فحذف المضاف .

وقال قتادة : يكتبون أقواله وأفعاله .

ويجوز إذا كانت المعقّبات الملائكة أن تكون الهاء في "له" لله عزّ وجل ، كما ذكرنا ؛ ويجوز أن تكون للمستخفي ، فهذا قول .

(134/408)

وقيل : "لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ" يعني به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي أن الملائكة تحفظه من أعدائه ؛ وقد جرى ذكر الرسول في قوله : "لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ" أي سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به في أنه لا يضرّ النبي صلى الله عليه وسلم ، بل له معقبات يحفظونه عليه السلام ؛ ويجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل ؛ لأنه قد قال : "وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ" أي يحفظون الهادي من بين يديه ومن خلفه .

وقول رابع : أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

يحفظونهم ؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئاً ؛ قاله ابن عباس وعِكْرِمة ؛ وكذلك قال الضّحاك : هو السّلطان المتحرّس من أمر الله ، المُشرِك .

وقد قيل : إن في الكلام على هذا التأويل نفياً محذوفاً ، تقديره : لا يحفظونه من أمر الله تعالى ؛ ذكره الماورديّ .

قال المهدويّ : ومن جعل المعقّبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه .

وقيل : سواء من أسرّ القول ومن جهر به فله حرّاس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي ، ويحفظونه من أن ينجع فيه وعظٌ ؛ قال القُشَيريّ : وهذا لا يمنع الرّب من الإمهال إلى أن يحقّ العذاب ؛ وهو إذا غَيّر هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سبباً للعقوبة ؛ فكأنّه الذي يحلّ العقوبة بنفسه ؛ فقوله : "يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" أي من امتثال أمر الله .

وقال عبد الرحمن بن زيد : المعقّبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عباده ؛ قال الماورديّ : ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله : "يَحَفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" وجهان : أحدهما : يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل ؛ قاله الضحاك .

الثاني : يحفظونه من الجِنّ والهوامّ المؤذية ، ما لم يأت قَدَرٌ ؛ قاله أبو أمامة وكعب الأحبار فإذا جاء المقدور خلّوا عنه ؛ والصحيح أن المعقّبات الملائكة ، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريج ؛ ورُوي عن ابن عباس ، واختاره النحاس ، واحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " الحديثَ ، رواه الأئمة .

وروى الأئمة عن عمرو عن ابن عباس قرأ معقّبات من بين يديه ورقباء من خلفه من أمر الله يحفظونه فهذا قد بيّن المعنى .

وقال كِنَانة العَدَويّ : " دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! أخبرني عن العبد كم معه من مَلَك ؟ قال : "مَلَك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عَمِلت حسنة كُتبت عشراً وإذا عمِلت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أأكتب قال لا لعله يستغفر الله تعالى أو يتوب إليه فإذا قال ثلاثاً قال نعم اكتب أراحنا الله تعالى منه فبئس القرين هو ما أقلّ مراقبته لله عز وجل وأقل استحياءه منا يقول الله تعالى ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] وملَكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى "لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ" (وملَك قابض على ناصيتك فإذا تواضعتَ لله رفعك وإذا تجبّرتَ على الله قصَمكَ)

وملَكَان على شَفَتَيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله ومَلَك قائم على فِيك لا يدع أن تدخل الحية في فِيك وملَكَان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي يتداولون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون مَلَكاً على كل آدمي وإبليس مع ابن آدم بالنهار وولده بالليل "

ذكره الثعلبيّ .

(136/408)

قال الحسن : المعقّبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر .

واختيار الطَّبريّ : أن المعقّبات المواكب بين أيدي الأمراء وخَلْفهم ؛ والهاء في "له" لهنّ ؛ على ما تقدّم .

وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين : أحدهما : قضى حلوله ووقوعه بصاحبه ؛ فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره .

والآخر : قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه ، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أخبر الله تعالى في هذه

الآية أنه لا يغيّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير ، إما منهم أو من الناظر لهم ، أو ممن هو منهم بسبب ؛ كما غيّر الله بالمنهزمين يوم أُحُد بسبب تغيير الرّماة بأنفسهم ، إلى غير هذا من أمثلة الشَّريعة ؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم وقد سُئل أنَهلِك وفينا الصّالحون؟ قال : "نعم إذا كَثُر الْخُبْثُ" .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سوءا ﴾ أي هلاكاً وعذاباً ، ﴿ فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ﴾ .

وقيل : إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه .

وقيل : إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه .

﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ أي ملجأ ؛ وهو معنى قول السُّدي .

وقيل : من ناصر يمنعهم من عذابه ؛ وقال الشاعر :

* ما في السماء سوى الرحمنِ من والِ .

ووالٍ ووَلِيّ كقادر وقدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به ﴾

أي مستو منكم من أخفى القول وكتمه ومن أظهره وأعلنه ، والمعنى أنه قد استوى في علم الله تعالى المسرّ بالقول والجاهر به ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ أي مستتر بظلمته ﴿ وسارب بالنهار ﴾ أي ذاهب بالنهار في سربه ظاهر .

والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق .

وقال القتيبي : السارب المتصرف في حوائجه .

قال ابن عباس في هذه الآية : هو صاحب ريبة مستخف بالليل ، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم .

وقيل : مستخف بالليل ظاهر من قولهم خفيت الشيء إذا أظهرته ، وأخفيته إذا كتمته وسارب بالنهار أي متوارٍ دخل في السرب مستخفياً ، ومعنى الآية : سواء ما أضمرت به القلوب أو نطقت به الألسن ، وسواء من أقدم على القبائح مستتراً في ظلمات الليل أو أتى بها ظاهراً في النهار فان علمه تعالى محيط بالكل ﴿ له معقبات ﴾ يعني : لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، فإذا صعدت ملائكة الليل عقبتها ملائكة النهار والتعقيب العود بعد البدء وإنما ذكر معقبات بلفظ التأنيث ، وإن كان الملائكة ذكوراً لأن واحدها معقب ،

وجمعها معقبة ثم جمع المعقبة معقبات .

كما قيل أبناوات سعد ورجالات بكر (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " يتعقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر ، وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون .

(138/408)

وقيل : إن مع كل واحد من بني آدم ملكين ملك عن يمينه ، وهو صاحب الحسنات وملك عن شمال وهو كاتب السيئات وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل العبد حسنة كتبها له بعشر أمثالها ، وإذا عمل سيئة قال صاحب الشمال لصاحب اليمين أكتبها عليه فيقول : انظره لعله يتوب أو يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات ، فإن هو تاب منها وإلا قال : اكتبها عليه سيئة واحدة وملك موكل بناصية العبد فإذا تواضع العبد لله رفعه بها ، وإن تجبر على الله وضعه بها وملك موكل بعينيه يحفظهما من الأذى وملك موكل بفيه لا يدعه يدخل فيه شيء من الهوام يؤذيه فهؤلاء خمسة أملاك موكلون بالعبد في ليله وخمسة غيرهم في نهاره ، فانظر إلى عظمة الله تعالى وقدرته وكمال شفقته عليك أيها العبد المسكين "

وهو قوله تعالى ﴿ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ يعني : يحفظون العبد من بين يديه ومن وراء ظهره ، ومعنى من أمر الله بأمر الله وإذنه ما لم يجيء القدر فإذا جاء خلوا عنه .

وقيل : معناه إنهم يحفظونه ، بما أمر الله به من الحفظ له .

قال مجاهد : ما من عبد إلا وملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما من شيء يأتيه يؤذيه إلا قال له الملك وراءك ، إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه .

وقال كعب الأحبار : لولا أن الله تعالى وكّل بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن .

وقال ابن جريج : معنى يحفظونه أي يحفظون عليه الحسنات والسيئات ، وهذا على قول من يقول : إن الآية في الملكين القاعدين عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات ، وقال عكرمة : الآية في الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم والضمير في قوله له راجع إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) قال ابن عباس في معنى هذه الآية : لمحمد (صلى الله عليه وسلم) حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من شر الجن وطوارق الليل والنهار .

وقال عبد الرحمن بن زيد : نزلت هذه الآية في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة ، وهما من بني عامر بن زيد وكانت قصتهما على ما رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس .

قال : " " أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهما من بني عامر بن زيد على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه فدخل المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر ، وكان من أجمل الناس وكان أعور فقال : يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك ، فقال : دعه فان يرد الله به خيراً يهده فأقبل حتى قام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال : يا محمد ما لي إن أسلمت ؟ قال : لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين .

قال : تجعل الأمر لي بعدك ؟ قال ليس ذلك لي إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء .

قال : فتجعلني على الوبر وأنت على المدر ؟ قال : لا قال : فما تجعل لي ؟ قال : أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها .

قال : أوليس ذلك لي اليوم قم معي أكلمك فقال معه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وكان عامر قد أوصى إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف ، فجعل عامر يخاصم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويراجعه ودار أربد بن ربيعة من خلف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لضربه ، فاخترط شبراً من سيفه ثم حبسه الله

تعالى عليه فلم يقدر على سله ، وجعل عامر يومىء إليه فالتفت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فرأى أربد وما صنع بسيفه ، فقال : اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة في يوم صحو قائظ فأحرقته فولى عامر هارباً وقال : يا محمد دعوت ربك فقتل أربد ، والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً وشباباً مرداً .

(140/408)

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : يمنعني الله من ذلك " وابنا قيلة يريد الأوس والخزرج ، فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم إليه سلاحه ، فخرج له خراج في أصل أذنه أخذه منه مثل النار فاشتد عليه فقال غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية ، ثم ركب فرسه وجعل يركض في الصحراء ، ويقول : ادن يا ملك الموت وجعل يقول الشعر ، ويقول لئن أبصرت محمداً وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذتهما برمحي فأرسل الله إليه ملكاً فلطمه ، فأرداه في التراب ثم عاد فركب جواده حتى مات على ظهره ، وأجاب الله دعاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في عامر بن الطفيل فمات بالطعن ، وأربد بن ربيعة مات بالصاعقة وأنزل الله في شأن هذه القصة سواء منكم من أسر القول ، ومن جهر به إلى قوله له معقبات من بين يديه ، ومن خلفه يعني لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) معقبات

يحفظونه من بين يديه ، ومن خلفه من أمر الله أي بأمر الله وقيل : إن تلك المعقبات من أمر الله ، وفيه تقديم وتأخير تقديره له معقباب من أمر الله يحفظونه من بيه يديه ومن خلفه ، وقوله ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم ﴾ خطاب لهذين عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة ، يعني لا يغير ما بقوم من العافية والنعمة التي أنعم بها عليهم ﴿ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ يعني : من الحالة الجميلة فيعصون ربهم ، ويجحدون نعمه عليهم فعند ذلك تحل نقمته بهم ، وهو قوله تعالى ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً ﴾ يعني هلاكاً وعذاباً ﴿ فلا مرد له ﴾ يعني لا يقدر أحد أن يرد ما أنزل الله بهم من قضائه وقدره ﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾ يعني وليس لهم من دون الله من وال يلي أمرهم ونصرهم ويمنع العذاب عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(141/408)

وقال أبو حيان :

﴿ سَوَاء مّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول ﴾

ولما ذكر أنه تعالى عالم الغيب والشهادة على العموم ، ذكر تعالى تعلق علمه بشيء خاص من أحوال المكلفين ، فقال : سواء منكم الآية .

والمعنى : سواء في علمه المسر القول ، والجاهر به لا يخفى عليه شيء من أقواله .

وسواء تقدم الكلام فيه ، وفي معانيه ، وهو هنا بمعنى مستو ، وهو لا يثني في أشهر اللغات .

وحكى أبو زيد تثنيته فتقول : هما سواآن .

وقيل : هو على حذف أي : سواء منكم سرّ من أسرّ القول ، وجهر من جهر به ، وأعربوا سواء خبر مبتدأ أو من أسر ، والمعطوف عليه مبتدأ .

ويجوز أن يكون سواء مبتدأ لأنه موصوف بقوله : منكم ، ومن المعطوف الخبر .

وكذا أعرب سيبويه قول العرب : سواء عليه الخير والشر .

وقول ابن عطية : إن سيبويه ضعف ذلك بأنه ابتداء بنكرة ، وهو لا يصح .

وقال ابن عباس : مستخف مستتر وسارب ظاهر .

وقال مجاهد : مستخف بالمعاصي .

وتفسير الأخفش وقطرب : المستخفي هنا بالظاهر .

وإن كان موجوداً في اللغة ينبو عنه اقترانه بالليل ، واقتران السارب بالنهار .

وتقابل الوصفان في قوله : ومن هو مستخف ، إذ قابل من أسر القول .

وفي قوله : سارب بالنهار إذ قابل ومن جهر به .

والمعنى والله أعلم إنه تعالى محيط علمه بأقوال المكلفين وأفعالهم ، لا يعزب عنه شيء من ذلك .

وظاهر التقسيم يقتضي تكرار من ، لكنه حذف للعلم به ، إذ تقدم قوله : من أسرّ القول ومن جهر به ، لكن ذلك لا يجوز على مذهب البصريين ، وأجازه الكوفيون .

ويجوز أن يكون : وسارب ، معطوفاً على من ، لا على مستخف ، فيصح التقسيم .

كأنه قيل : سواء شخص هو مستخف بالليل ، وشخص هو سارب بالنهار .

ويجوز أن يكون معطوفاً على مستخف .

وأريد بمن اثنان ، وحمل على المعنى في تقسيم خبر المبتدأ الذي هو هو ، وعلى لفظ من في إفراد هو .

(142/408)

والمعنى : سواء اللذان هما مستخف بالليل والسارب بالنهار ، هو رجل واحد يستخفي بالليل ويسرب بالنهار ، وليرى نصرفه في الناس .

قال ابن عطية : فهذا قسم واحد ، جعل الله نهار راحته .

والمعنى : هذا والذي أمره كله واحد بريء من الريب ، سواء في اطلاع الله تعالى على الكل .

ويؤيد هذا التأويل عطف السارب دون تكرار من ، ولا يأتي حذفها إلا في الشعر .

وتحتمل الآية أن تتضمن ثلاثة أصناف .

فالذي يسر طرف ، والذي يجهر طرف مضاد للأول ، والثالث متوسط متلون يعصي بالليل مستخفياً ويظهر البراءة بالنهار انتهى .

وقيل : ومن هو مستخف بالليل بظلمته ، يريد إخفاء عمله فيه كما قال : أزورهم وسواد الليل يشفع لي .

وقال :

وكم لظلام الليل عندي من يد . . .

والظاهر عود الضمير في له على من ، كأنه قيل لمن أسرّ ، ومن جهر ، ومن استخفى ، ومن سرب : معقبات .

وقال ابن عباس : هو عائد على من قوله : ومن هو مستخف ، وكذلك في باقي الضمائر التي في الآية .

قال ابن عطية : والمعقبات على هذا حرس الرجل وجلاوزته الذين يحفظونه ، قال : والآية على هذا في الرؤساء الكافرين .

واختار هذا القول الطبري ، وهو قول عكرمة وجماعة .

وقال الضحاك : هو السلطان المحرس من أمر الله .

وذكر الماوردي أنّ الكلام على هذا التأويل نفي تقريره لا يحفظونه من أمر الله انتهى .

وحذف لا ، لا في الجواب قسم بعيد .

قال المهدوي : ومن جعل المعقبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من الله على ظنه وزعمه .

وقيل : الضمير في له عائد على الله تعالى أي : لله معقبات ملائكة من بين يدي العبد ومن خلفه ، والمعقبات على هذا الملائكة الحفظة على العباد وأعمالهم ، والحفظة لهم أيضاً .

وروي فيه حديث عن عثمان عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وهو قول مجاهد والنخعي .

(143/408)

وقيل : الضمير في له عائد على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإن لم يجر له ذكر قريب ، وقد جرى ذكره في قوله : ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ والمعنى : أنّ الله تعالى جعل لنبيه (صلى الله عليه وسلم) حفظة من متمردي الجن والإنس .

قال أبو زيد : الآية في النبي (صلى الله عليه وسلم) نزلت في حفظ الله له من أربد بن قيس ، وعامر بن الطفيل ، من القصة التي سنشير إليها بعد في ذكر الصواعق .

والقول الأول في عود الضمير هو الأولى الذي ينبغي أن يحمل عليه وعليه يفسر .

ويقول : لما تقدم أنّ من أسر القول ومن جهر به ، ومن استخفى بالليل وسرب بالنهار ، مستو

علم الله تعالى لا يخفى عليه من أحوالهم شيء ، ذكر أيضاً أن لذلك المذكور معقبات : جماعات من الملائكة تعقب في حفظه وكلاءته .

ومعقب : وزنه مفعل ، من عقب الرجل إذا جاء على عقب الآخر ، لأن بعضهم يعقب بعضاً ، أو لأنهم يعقبون ما يتكلمون به فيكتبونه .

وقال الزمخشري : والأصل معتقبات ، فأدغمت التاء في القاف كقوله : ﴿ وجاء المعذرون ﴾ يعني المعتذرون .

ويجوز معقبات بكسر العين ، ولم يقرأ به انتهى .

وهذا وهم فاحش ، لا تدغم التاء في القاف ، ولا القاف في التاء ، لا من كلمة ولا من كلمتين .

وقد نص التصريفيون على أنْ القاف والكاف يدغم كل منهما في الآخر ، ولا يدغمان في غيرهما ، ولا يدغم غيرهما فيهما .

وأما تشبيهه بقوله : وجاء المعذرون ، فلا يتعين أن يكون أصله المعتذرون ، وقد تقدم في براءة توجيهه ، وأنه لا يتعين ذلك فيه .

وأما قوله : ويجوز معقبات بكسر العين ، فهذا لا يجوز لأنه بناه على أن أصله معتقبات ، فأدغمت التاء في القاف .

وقد ذكرنا أن ذلك وهم فاحش ، والمعقبات جمع معقبة .

وقيل : الهاء في معقبة للمبالغة ، فيكون كرجل نسابة .

وقيل : جمع معقبة ، وهي الجماعة التي تأتي بعد الأخرى ، جمعت باعتبار كثرة الجماعات ، ومعقبة ليست جمع معقب كما ذكر الطبري .

(144/408)

وشبه ذلك برجل ورجال ورجالات ، وليس الأمر كما ذكر ، لأنّ ذلك كجمل وجمال وجمالات ، ومعقبة ومعقبات إنما هي كضارب وضاربات قاله : ابن عطية .

وينبغي أن يتأول كلام الطبري على أنه أراد بقوله : جمع معقب ، أنه أطلق من حيث الاستعمال على جمع معقب وإن كان أصله أن يطلق على مؤنث معقب ، وصار مثل الواردة للجماعة الذين يردون ، وإن كان أصله أن يطلق على مؤنث وارد ، من حيث أنْ يجمع جموع التكسير للعامل يجوز أن يعامل معاملة المفردة المؤنثة في الأخبار .

وفي عود الضمير لقوله : العلماء قائلة كذا ، وقولهم الرجال وأعضادها ، وتشبيه الطبري ذلك برجل ورجال ورجالات من حيث المعنى ، لا من حيث صناعة النحويين ، فبين أنّ معقبة من حيث أريد به الجمع كرجال من حيث وضع للجمع ، وأن معقبات من حيث استعمل جمعاً لمعقبة المستعمل للجمع كرجالات الذي هو جمع رجال .

وقرأ عبيد بن زياد على المنبر له المعاقب ، وهي قراءة أبي وإبراهيم .

وقال الزمخشري : وقرئ له معاقيب .

قال أبو الفتح : هو تكسير معقب بسكون العين وكسر القاف ، كمطعم ومطاعيم ، ومقدم ومقاديم ، وكان معقباً جمع على معاقبة ، ثم جعلت الياء في معاقيب عوضاً من الهاء المحذوفة في معاقبة .

وقال الزمخشري : جمع معقب أو معقبة ، والياء عوض من حذف أحد القافين في التكسير .

وقرئ له معتقبات من اعتقب .

وقرأ أبي من بين يديه ، ورقيب من خلفه .

وقرأ ابن عباس : ورقباء من خلفه ، وذكر عنه أبو حاتم أنه قرأ معقبات من خلفه ، ورقيب من بين يديه .

وينبغي حمل هذه القرآت على التفسير ، لا أنها قرآن لمخالفتها سواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون .

والظاهر أن قوله تعالى : من أمر الله متعلق بقوله : يحفظونه .

قيل : مِن للسبب كقولك : كسرته من عرى ، ويكون معناها ومعنى الباء سواء ، كأنه قيل :

يحفظونه بأمر الله وبإذنه ، فحفظهم إياه متسبب عن أمر الله لهم بذلك .

قال ابن جريج : يحفظون عليه عمله ، فحذف المضاف .

(145/408)

وقال قتادة : يكتبون أقواله وأفعاله .

وقراءة علي ، وابن عباس ، وعكرمة ، وزيد بن علي ، وجعفر بن محمد : يحفظونه بأمر الله ، يؤيد تأويل السببية في من وفي هذا التأويل .

قال الزمخشري : يحفظونه من أجل أمر الله تعالى أي : من أجل أن الله تعالى أمرهم بحفظه .

وقال ابن عطية ، وقتادة : معنى من أمر الله ، بأمر الله أي : يحفظونه بما أمر الله ، وهذا تحكم في التأويل انتهى .

وليس بتحكم وورود من للسبب ثابت من لسان العرب .

وقيل : يحفظونه من بأس الله ونقمته كقولك : حرست زيداً من الأسد ، ومعنى ذلك : إذا أذن الله لهم في دعائهم أن يمهله رجاء أن يتوب عليه وينيب كقوله تعالى : ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ يصير معنى الكلام إلى التضمين أي : يدعون له بالحفظ من نقمات الله رجاء توبته .

ومن جعل المعقبات الحرس ، وجعلها في رؤساء الكفار فيحفظونه معناه : في زعمه وتوهمه من هلاك الله ، ويدفعون قضاءه في ظنه ، وذلك لجهالته بالله تعالى ، أو يكون ذلك على معنى التهلك به ، وحقيقة التهكم هو أن يخبر بشيء ظاهره مثلاً الثبوت في ذلك الوصف ، وفي الحقيقة هو منتصف ، ولذلك حمل بعضهم يحفظونه على أنه مراد به : لا يحفظونه ، فحذف لا .

وعلى هذا التأويل في من تكون متعلقة كما ذكرنا بيحفظونه ، وهي في موضع نصب .

وقال الفراء وجماعة : في الكلام تقديم وتأخير أي : له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه .

وروي هذا عن مجاهد ، والنخعي ، وابن جريج ، فيكون من أمر الله في موضع رفع لأنه صفة لمرفوع ، ويتعلق إذ ذاك بمحذوف أي : كائنة من أمر الله تعالى ، ولا يحتاج في هذا المعنى إلى تقدير تقديم وتأخير ، بل وصفت المعقبات بثلاث صفات في الظاهر : أحدها : من بين يديه ومن خلفه أي : كائنة من بين يديه .

والثانية : يحفظونه أي : حافظات له .

والثالثة : كونها من أمر الله ، وإن جعلنا من بين يديه ومن خلفه يتعلق بقوله : يحفظونه ، فيكون إذ ذاك معقبات وصفت بصفتين : إحداهما : يحفظونه من بين يديه ومن خلفه.

والثانية : قوله : من أمر الله أي : كائنة من أمر الله.

غاية ما في ذلك أنه بدىء بالوصف بالجملة قبل الوصف بالجار والمجرور ، وذلك شائع فصيح ، وكان الوصف بالجملة الدالة على الديمومة ، في الحفظ آكد ، فلذلك قدم الوصف بها.

وذكر أبو عبد الله الرازي في الملائكة الموكلين علينا ، وفي الكتبة منهم أقوالاً عن المنجمين وأصحاب الطلمسات ، وناس سماهم حكماء الإسلام يوقف على ذلك من تفسيره.

ولما ذكر تعالى إحاطة علمه بخفايا الأشياء وجلاياها ، وأن الملائكة تعقب على المكلفين لضبط ما يصدر منهم ، وإن كان الصادر منهم خيراً وشراً ، ذكر تعالى أن ما خولهم فيه من النعم وأسبغ عليهم من الإحسان لا يزيله عنهم إلى الانتقام منهم إلا بكفر تلك النعم ، وإهمال أمره بالطاعة ، واستبدالها بالمعصية.

فكان في ذكر ذلك تنبيه على لزوم الطاعة ، وتحذير لوبال المعصية.

والظاهر أنْ لا يقع تغير النعم بقوم حتى يقع تغيير منهم بالمعاصي.

قال ابن عطية : وهذا الموضع مؤول ، لأنه صح الخبر بما قدرت الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة وبالعكس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن ﴾ الآية.

" وسؤالهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثر الخبث في أشياء كثيرة" "

فمعنى الآية : حتى يقع تغيير إما منهم ، وإما من الناظر لهم ، أو ممن هو منهم تسبب ، كما غير الله تعالى المنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم ، إلى غير هذا في أمثله الشريعة .

فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير .

وثم أيضاً مصائب يزيد الله بها أجر المصاب ، فتلك ليست تغييراً انتهى .

(147/408)

وفي الحديث : " إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب " وقيل : هذا يرجع إلى قوله : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾ فبين تعالى أنه لا ينزل بهم عذاب الاستئصال إلا والمعلوم منهم الإصرار على الكفر والمعاصي ، إلا إن علم الله تعالى أنّ فيهم ، أو في عقبهم من يؤمن ، فإنه تعالى لا ينزل بهم عذاب الاستئصال .

وما موصولة صلتها بقوم ، وكذا ما بأنفسهم .

وفي ما إبهام لا يتغير المراد منها : إلا بسياق الكلام ، واعتقاد محذوف يتبين به المعنى ، والتقدير : لا يغير ما بقوم من نعمة وخير إلى ضد ذلك حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعته إلى توالي معصيته .

والسوء يجمع على كل ما يسوء من مرض وخير وعذاب ، وغير ذلك من البلاء .

ولما كان سياق الكلام في الانتقام من العصاة اقتصر على قوله : سوء ، وإلا فالسوء والخير إذا أراد الله تعالى شيئًا منها فلا مرد له ، فذكر السوء مبالغة في التخويف .

وقال السدي : من وال من ملجأ .

وقال الزمخشري : ممن يلي أمرهم ، ويدفع عنهم .

وقيل : من ناصر يمنع من عذابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(148/408)

وقال أبو السعود :

وبعد ما بين سبحانه أنه عالم بجميع أحوالِ الإنسان في مراتبِ فطرته ومحيطٌ بعالَمي الغيب والشهادة بيّن أنه تعالى عالمٌ بجميع ما يأتون وما يذرون من الأفعال والأقوال وأنه لا فرق بالنسبة إليه بين السرِّ والعلن فقال :

﴿ سَوَاء مّنْكُم مّنْ أَسَرَّ القول ﴾

في نفسه ﴿ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ أظهره لغيره ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ ﴾ مبالغٌ في الاختفاء كأنه مختفٍ ﴿ بالليل ﴾ وطالبٌ للزيادة ﴿ وَسَارِبٌ ﴾ بارزٌ يراه كلُّ أحد ﴿ بالنهار ﴾ من سرَب سروباً أي برَز وهو عطفٌ على مَنْ هو مستخفٍ أو على مستخف و (من) عبارةٌ عن الاثنين كما في قوله

تعالَ فإنْ عاهدتَني لا تخونُني . . . نكنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يصطحبانِ

كأنه قيل : سواءٌ منكم اثنان مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار ، والاستواءُ وإن أسند إلى من أسرّ ومن جهَر وإلى المستخفي والسارب لكنه في الحقيقة مسنَدٌ إلى ما أسرّه وما جهرَ به أو إلى الفاعل من حيث هو فاعلٌ كما في الأخيرين ، وتقديمُ الإسرارِ والاستخفاءِ لإظهار كمالِ علمِه تعالى فكأنه في التعلق بالخفيات أقدمُ منه بالظواهر وإلا فنِسبتُه إلى الكل سواءٌ لما عرَفته آنفاً .

﴿ لَهُ ﴾ أي لكل مَن أسرّ أو جهر والمستخفي أو السارب ﴿ معقبات ﴾ ملائكةٌ تعقِبُ في حفظه جمعُ معقّبة من عقّبه مبالغةُ عقَبه إذا جاء على عقِبه كأن بعضَهم يعقُب بعضاً أو

لأنهم يعقُبون أقوالَه وأفعاله فيكتُبونه أو اعتقب فأُدغمت التاء في القاف والتاء للمبالغة ، أو المرادُ بالمعقّبات الجماعاتُ ، وقرىء معاقيبُ جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من إحدى القافين ﴿ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ من جميع جوانبه أو من الأعمال ما قدّم وأخّر ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ من بأسه حين أذنب بالاستمهال والاستغفار له أو يحفظونه من المضارّ أو يراقبون أحوالَه من أجل أمر الله تعالى ، وقد قرىء به وقيل : (من) بمعنى الباء ، وقيل : من أمر الله صفة ثانية لمعقّبات ، وقيل : المعقّبات الحرّاسُ والجلاوزةُ حول السلطان يحفَظونه في توهّمه من قضاء الله تعالى ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من النعمة والعافية ﴿ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ من الأعمال الصالحةِ أو ملَكاتها التي هي فطرةُ الله التي فطرَ الناس عليها إلى أضدادها ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً ﴾ لسوء اختيارِهم واستحقاقِهم لذلك ﴿ فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ﴾ فلا ردّ له ، والعامل في (إذا) ما دل عليه الجوابُ ﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ يلي أمرَهم ويدفع عنهم السوءَ الذي أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم ، وفيه دِلالةٌ على أن تخلّف مرادِه تعالى مُحال ، وإيذانٌ بأنهم بما باشروه من إنكار البعثِ واستعجال السيئة واقتراحِ الآية قد غيّروا ما بأنفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلولَ غضبِ الله تعالى وعذابِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول ﴾

أخفاه في نفسه ولم يتلفظ به ، وقيل : تلفظ به بحيث لم يسمع نفسه دون غيره ﴿ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ من يقابل ذلك بالمعنيين ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ ﴾ مبالغ في الاختفاء كأنه مختف ﴿ بالليل ﴾ وطالب للزيادة ﴿ وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ أي ظاهر فيه كما روي عن ابن عباس ، وهو على ما قال جمع في الأصل اسم فاعل من سرب إذا ذهب في سربه أي طريقه ، ويكون بمعنى تصرف كيف شاء قال الشاعر :

إني سربت وكنت غير سروب . . .

وتقرب الأحلام غير قريب

وقال الآخر :

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم . . .

ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أي فهو متصرف كيف شاء لا يدفع عن جهة يفتخر بعزة قومه ، فما ذكره الحبر لازم معناه ، وقرينته وقوعه في مقابلة مستخف ، والظاهر من كلام بعضهم أنه حقيقة في الظاهر ، ورفع ﴿ سَوَآءٌ ﴾ على أنه خبر مقدم و ﴿ مِنْ ﴾ مبتدأ مؤخر ، ولم يثن الخبر لأنه في الأصل مصدر وهو الآن بمعنى مستو ولم يجىء تثنيته في أشهر اللغات ، وحكى أبو زيد هما سواآن ، و ﴿ مّنكُمْ ﴾ حال من الضمير المستتر فيه لا في ﴿ أَسَرَّ ﴾ و ﴿ جَهَرَ ﴾ لأن ما في حيز الصلة والصفة لا يتقدم على الموصول والموصوف ، وجوز أبو حيان كون ﴿ سَوَآءٌ ﴾ مبتدأ لوصفه بمنكم وما بعده الخبر ، وكذا أعرب سيبويه قول العرب : سواء عليه الخير والشر ، وقول ابن عطية : إن سيبويه ضعف ذلك بأنه ابتداء بنكرة لا يصح و ﴿ سارب ﴾ عطف على ﴿ صَلَحَ مِنْ ﴾ كأنه قيل : سواء منكم إنسان هو مستخف وآخر سارب ، والنكتة في زيادة هو في الأول أنه الدال على كمال العلم فناسب زيادة تحقيق وهو النكتة في حذف الموصوف عن سارب أيضاً ، والوجه في تقديم ﴿ أَسَرَّ ﴾ وأعماله في صريح القول على جهره وأعماله في ضميره ، وجوز أن يكون على ﴿ مُسْتَخْفٍ ﴾ واستشكل بأن سواء يقتضي ذكر شيئين فإذا كان سارب معطوفاً على جزء الصلة أو الصفة لا يكون هناك إلا شيء واحد ، ولا يجيء هذا على الأول لأن المعنى ما علمت .

وأجيب بأن ﴿ مِنْ ﴾ عبارة عن الاثنين كما في قوله :

تعال فإن عاهدتني لا تخونني . . .

نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

فكأنه قيل : سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار ، قال في "الكشف" :

وعلى الوجهين ﴿ مِنْ ﴾ موصوفة لا موصولة فيحمل الأوليان أيضاً على ذلك ليتوافق

الكل ، وإيثارها على الموصولة دلالة على أن المقصود الوصف فإن ذلك متعلق العلم ، وأما

لو قيل : سواء الذي أسر القول والذي جهر به فإن أريد الجنس من باب :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . .

(152/408)

فهو والأول سواء لكن الأول نص ، وإن أريد المعهود حقيقة أو تقديراً لزم إيهام خلاف

المقصود لما مر ، وقيل : في الكلام موصول محذوف والتقدير ومن هو سارب كقول أبي

فراس :

فليت الذي بيني وبينك عامر . . .

وبيني وبين العالمين خراب

وقول حسان :

أمن يهجو رسول الله منكم . . .

ويمدحه وينصره سواء

وهو ضعيف جداً لما فيه من حذف الموصول مع صدر الصلة ، وقد ادعى الزمخشري أن أحد الحذفين سائغ لكن اجتماعهما منكر من المنكرات بخلاف البيتين ، وقال أبو حيان : إن حذف من هنا وإن كان للعلم به لا يجوز عند البصريين ويجوز عند الكوفيين ، وزعم بعضهم أن المقصود استواء الحالتين سواء كانتا لواحد أو لاثنين ، والمعنى سواء استخفاؤه وسروبه بالنسبة إلى علم الله تعالى فلا حاجة إلى توجيه الآية بما مر ، وكذا حال ما تقدمه فعبر بأسلوبين والمقصود واحد .

وتعقب بأنه لا تساعده العربية لأن ﴿ مَنْ ﴾ لا تكون مصدرية ولا سابك في الكلام .

وزعم ابن عطية جواز أن تكون الآية متضمنة ثلاثة أصناف فالذي يسر طرف والذي يجهر طرف مضاد للأول والثالث متلون يعصي بالليل مستخفياً ويظهر البراءة بالنهار وهو كما ترى .

ومن الغريب ما نقل عن الأخفش وقطرب تفسير المستخفي بالظاهر فإنه وإن كان موجوداً في كلامهم بهذا المعنى لكن يمنع عنه في الآية ما يمنع ، ثم إن في بيان علمه تعالى بما ذكر بعد بيان شمول علمه سبحانه الأشياء كلها ما لا يخفى من الاعتناء بذلك .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

﴿ لَهُ ﴾ الضمير راجع إلى من تقدم ممن أسر بالقول وجهر به إلى آخره باعتبار تأويله بالمذكور وإجرائه مجرى اسم الإشارة وكذا المذكورة بعده ﴿ معقبات ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه وكلائته جمع معقبة من عقب مبالغة في عقبه إذا جاء على عقبه واصله من العقب وهو مؤخر الرجل ثم تجوز به عن كون الفعل بغير فاصل ومهلة كأن أحدهم يطأ عقب الآخر ، فالتفعيل للتكثير وهو إما في الفاعل أو في الفعل لا للتعدية لأن ثلاثيه متعد بنفسه ، ويجوز أن يكون إطلاق المعقبات على الملائكة عليهم السلام باعتبار أنهم يعقبون أقوال الشخص وأفعاله أي يتبعونها ويحفظونها بالكتابة .

وقال الزمخشري : إن أصله معتقبات فهو من باب الافتعال فأدغمت التاء في القاف كقوله تعالى : ﴿ وَجَاء المعذرون ﴾ (التوبة : 90) أي المعتذرون .

وتعقب بأنه وهم فاحش فإن التاء لا تدغم في القاف من كلمة أو كلمتين ، وقد نص الصرفيون على أن القاف والكاف كل منهما لا يدغم في الآخر ولا يدغمان في غيرهما ، والتاء في معقبة للمبالغة كتاء نسابة لأن الملائكة عليهم السلام غير مؤنثين ، وقيل : هي للتأنيث بمعنى أن معقبة صفة جماعة منهم ، فمعنى معقبات جماعات كل جماعة منها معقبة وليس معقبة جمع معقب ، وذكر الطبري أنه جمعه وشبه ذلك برجل ورجال ورجالات وهو كما ترى لكن أوله أبو حيان بأنه أراد بقوله : جمع معقب أنه أطلق من حيث

الاستعمال على جمع معقب وإن كان أصله أن يطلق على مؤنث معقب فصار مثل الواردة للجماعة الذين يردون وإن كان أصله أن يطلق على مؤنث وارد ؛ وتشبيه ذلك بما ذكر من حيث المعنى لا من حيث صناعة النحو ، فبين أن معقبة من حيث أريد به الجمع كرجال من حيث وضع للجمع وإن معقبات من حيث استعمل جمعاً لمعقبة المستعمل في الجمع كرجالات الذي هو جمع رجال .

وقرأ أبي .

وإبراهيم ﴿ معاقيب ﴾ وهو جمع كما قال الزمخشري جمع معقب أو معقبة بتشديد القاف فيهما والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير ، وقال ابن جني : إنه تكسير معقب كمطعم ومطاعيم ومقدم ومقاديم كأنه جمع على معاقبة ثم حذفت الهاء من الجمع وعوضت الياء عنها ولعله الأظهر ، وقرىء ﴿ معتقبات ﴾ من اعتقب ﴿ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمعقبات أو حالاً من الضمير في الظرف الواقع خبراً له ، فالمعنى أن المعقبات محيطة بجميع جوانبه أو هو متعلق بمعقبات و﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية ، فالمعنى أن المعقبات تحفظ ما قدم وأخر من الأعمال أي تحفظ

جميع أعماله ، وجوز أن يكون متعلقاً بقوله تعالى : ﴿ يَحْفَظُونَهُ ﴾ والجملة صفة معقبات أو حال من الضمير في الظرف .

وقرأ أبي ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ وابن عباس ﴿ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ وروى مجاهد عنه أنه قرأ ﴿ لَهُ معقبات مّن خَلْفِهِ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ ﴾ ﴿ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ متعلق بما عنده و ﴿ مِنْ ﴾ للسببية أي يحفظونه من المضار بسبب أمر الله تعالى لهم بذلك ، ويؤيد ذلك أن علياً كرم الله تعالى وجهه ، وابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وزيد بن علي .

وجعفر بن محمد .

وعكرمة رضي الله تعالى عنهم قرؤا ﴿ بِأَمْرِ الله ﴾ بالباء وهي ظاهرة في السببية .

وجوز أن يتعلق بذلك أيضاً لكن على معنى يحفظونه من بأسه تعالى متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له أي يحفظونه باستدعائهم من الله تعالى أن يمهله ويؤخر عقابه ليتوب أو يطلبون من الله تعالى أن يغفر له ولا يعذبه أصلاً ، وقال في "البحر" : إن معنى الكلام يصير على هذا الوجه إلى التضمين أي يدعون له بالحفظ من نقمات الله تعالى .

وقال الفراء .

وجماعة : في الكلام تقديم وتأخير أي له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه

، وروى هذا عن مجاهد .

والنخعي .

(155/408)

وابن جريج فيكون ﴿ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ متعلقاً بمحذوف وقع صفة لمعقبات أي كائنة من أمره تعالى ، وقيل : إنه لا يحتاج في هذا المعنى إلى دعوى تقديم وتأخير بأن يقال : إنه سبحانه وصف المعقبات بثلاث صفات .

إحداها : كونها كائنة من بين يديه ومن خلفه .

وثانيتها : كونها حافظة له .

وثالثتها : كونها كائنة من أمره سبحانه ، وإن جعل ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ متعلقاً بيحفظونه يكون هناك صفتان الجملة والجار والمجرور ، وتقديم الوصف بالجملة على الوصف به سائغ شائع في الفصيح ، وكأن الوصف بالجملة الدالة على الديمومة في الحفظ لكونه آكد قدم على الوصف الآخر .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن جرير .

وأبو الشيخ عن ابن عباس أن المراد بالمعقبات الحرس الذين يتخذهم الأمراء لحفظهم من القتل ونحوه، وروى مثله عن عكرمة، ومعنى ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أنهم يحفظونهم من قضاء الله تعالى وقدره ويدفعون عنه ذلك في توهمه لجهله بالله تعالى.

ويجوز أن يكون من باب الاستعارة التهكمية على حد ما اشتهر في قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: 21] فهو مستعار لضده وحقيقته لا يحفظونه.

وعلى ذلك يخرج قول بعضهم: إن المراد لا يحفظونه لا على أن هناك نفياً مقدراً كما يتوهم، والأكثرون على أن المراد بالمعقبات الملائكة.

وفي "الصحيح" "يتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر" وذكروا أن مع العبد غير الملائكة الكرام الكاتبين ملائكة حفظة، فقد أخرج أبو داود.

وابن المنذر وابن أبي الدنيا.

وغيرهم عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: لكل عبد حفظة يحفظونه لا يخر عليه حائط أو يتردى في بئر أو تصيبه دابة حتى إذا جاء القدر الذي قدر له خلت عنه الحفظة فأصابه ما شاء الله تعالى أن يصيبه.

وأخرج ابن أبي الدنيا.

والطبراني.

والصابوني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وكل بالمؤمن ثلاثمائة وستون ملكاً يدفعون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل من الذباب في اليوم الصائف وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كلهم باسط يديه فاغر فاه وما لو وكل العبد فيه إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين " وأخرج ابن جرير عن كنانة العدوي قال : دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك ؟ فقال : " ملك عن يمينك على حسناتك وهو أمير على الذي على الشمال إذا عملت حسنة كتبت عشراً فإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين : أأكتب ؟ قال : لا لعله يستغفر الله تعالى ويتوب فإذا قال ثلاثاً قال : نعم اكتب أراحنا الله تعالى منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله سبحانه وأقل استحياءه منه تعالى يقول الله جل وعلا : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] وملكان من بين يديك وملكان من خلفك يقول الله تعالى : ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لله تعالى رفعك وإذا تجبرت على الله تعالى قصمك وملك قائم

على فيك لا يدع أن تدخل الحية فيه وملكان على عينك فهؤلاء عشرة أملاك ينزلون على بني آدم في النهار وينزل مثلهم في الليل "

والأخبار في هذا الباب كثيرة .

واستشكل أمر الحفظ بأن المقدر لا بد من أن يكون وغير المقدر لا يكون أبداً فالحفظ من أي شيء .

وأجيب بأن من القضاء والقدر ما هو معلق فيكون الحفظ منه ولهذا حسن تعاطي الأسباب وإلا فمثل ذلك وارد فيها بأن يقال : إن الأمر الذي نريد أن نتعاطاه إما أن يكون مقدراً وجوده فلا بد أن يكون أو مقدراً عدمه فلا بد أن لا يكون فما الفائدة في تعاطيه والتشبث بأسبابه .

وتعقب هذا بأن ما ذكر إنما حسن منا لجهلنا بأن ما نطلبه من المعلق أو من غيره والمسألة المستشكلة ليست كذلك ، وأنت تعلم أن الله تعالى جعل في المحسوسات أسباباً محسوسة وربط بها مسبباتها حسبما تقضيه حكمته الباهرة ولو شاء لأوجد المسببات من غير أسباب لغناه جل شأنه الذاتي ، ولا مانع من أن يجعل في الأمور الغير المحسوسة أسباباً يربط

بها المسببات كذلك ، وحينئذ يقال : إنه جلت عظمته جعل أولئك الحفظة أسبابا ً للحفظ كما جعل في المحسوس نحو الجفن للعين سببا ً لحفظها مع أنه ليس سببا ً إلا للحفظ مما لم يبرم من قضائه وقدره جل جلاله ، والوقوف على الحكم بأعيانها مما لم نكلف به ، والعلم بأن أفعاله تالى لا تخلو عن الحكم والمصالح على الإجمال مما يكفي المؤمن ، ويقال نحو هذا في أمر الكرام الكاتبين فهم موجودون بالنص وقد جعلهم الله تعالى حفظة لأعمال العبد كاتبين لها ونحن نؤمن بذلك وإن لم نعلم ما قلمهم وما مدادهم وما قرطاسهم وكيف كتابتهم وأين محلهم وما حكمة ذلك مع أن علمه تعالى كاف في الثواب والعقاب عليها وكذا تذكر الإنسان لها وعلمه وعلمه بها يوم القيامة كاف في دفع ما عسى أن يختلج في صدره عند معاينة ما يترتب عليها .

ومن الناس من خاض في بيان الحكمة وهو أسهل من بيان ما معها .

وذكر الإمام الرازي في جواب السؤال عن فائدة جعل الملائكة عليهم السلام موكلين علينا كلاما ً طويلاً فقال : إعلم أن ذلك غير مستبعد لأن المنجمين اتفقوا على أن التدبير في كل يوم لكوكب على حدة وكذا القول في كل ليلة ، ولا شك أن لتلك الكواكب أرواحا ً عندهم فتلك التدبيرات المختلفة لتلك الكواكب أورواحا ً عندهم فتلك التدبيرات المختلفة لتلك الأرواح في الحقيقة ، وكذا القول في تدبير الهيلاك والكدخداه على ما يقولون .

وأما أصحاب الطلسمات فهذا الكلام مشهور على ألسنتهم فإنهم يقولون : أخبرنا الطباع التام بكذا ، ومرادهم به أن لكل إنسان روحاً فلكية تتولى صلاح مهماته ودفع بلياته وآفاته ، وإذا كان هذا متفقاً عليه بين قدماء الفلاسفة وأصحاب الأحكام فكيف يستبعد مجيئة في الشرع .

وتمام التحقيق فيه أن الأرواح البشرية مختلفة في جواهرها وطبائعها فبعضها خية وبعضها شريرة وبعضها حرة وبعضها نذلة وبعضها قوية القهر وبعضها ضعيفته ، وكما أن الأمر في الأرواح البشرية كذلك فكذلك القول في الأرواح الفلكية ، ولا شك أن الأرواح الفلكية في كل باب وصفة أقوى من الأرواح البشرية ، وكل طائفة من الأرواح البشرية تكون متشاركة في طبيعة خاصة وصفة مخصوصة وتكون في مرتبة روح من الأرواح الفلكية مشاكلة لها في الطبيعة والخاصية ، فتكون تلك الأرواح البشرية كأنها أولاد لذلك الروحي الفلكي وإذا كان الأمر كذلك فإن ذلك الروح الفلكي يكون معيناً على مهماتها ومرشداً لها إلى مصالحها وعاصماً إياها عن صنوف الآفات ، وهذا كلام ذكره محققو الفلاسفة ، وبذلك يعلم أن ما وردت به الشريعة أمر مقبول عند الكل فلا يمكن استنكاره اه .

ولعل مقصوده بذلك تنظير أمر الحفظة مع العبد بأمر الأرواح الفلكية معه على زعم الفلاسفة في الجملة ، وإلا فما يقوله المسلمون في أمرهم أمر وما يقوله الفلاسفة في أمر تلك الأرواح أمر آخر وهيهات هيهات أن تقول بما قالوا فإنه بعيد عما جاء عن الشارع عليه الصلاة والسلام بمراحل ، ثم ذكر عليه الرحمة من فوائد الحفظة للأعمال أن العبد إذا علم أن الملائكة عليهم السلام يحضرونه ويحصون عليه أعماله وهم هم كان أقرب إلى الحذر عن ارتكاب المعاصي ، كمن يكون بين يدي أناس أجلاء من خدام الملك موكلين عليه فإنه لا يكاد يحاول معصية بينهم ، وقد ذكر ذلك غيره ولا يخلو عن حسن ، ثم نقل عن المتكلمين في فائدة الصحف المكتوبة أنها وزنها يوم القيامة فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، ويظهر كل من الأمرين للخلائق .

وتعقبه القاضي بأن ذلك بعيد لأن الأدلة قد دلت على أن كل واحد قبل مماته عند المعاينة يعلم أنه من السعداء أو من الأشقياء والعياذ بالله تعالى فلا يجوز توقف حصول المعرفة على الميزان ، ثم أجاب بأنه لا يمتنع أيضاً ما ذكرناه لأمر يرجع إلى حصول سرور العبد عند الخلق العظيم بظهور أنه من أولياء الله تعالى لهم وحصول ضد ذلك لمن كان من أعداء الله تعالى ، ولا يخفى أن هذا مبني على أن الذي يوزن هو الصحف وهو أحد أقوال في المسؤلة .

نعم ذهب إليه جمع من الأجلة لحديث البطاقة والسجلات المشهور ، وكذا على أن الكتابة على معناها الظاهر وهو الذي ذهب إليه أهل الحديث بل وغيرهم فيما أعلم ونقل عن حكماء الإسلام : معنى آخر فقال : إن الكتابة عبارة عن نقوش مخصوصة وضعت بالاصطلاح لتعريف بعض المعاني المخصوصة فلو قدرنا كون تلك النقوش دالة على تلك المعاني بأعيانها وذواتها كانت تلك الكتابة أقوى وأكمل ، وحينئذ نقول : إن الإنسان إذا أتى بعمل من الأعمال مرات كثيرة متوالية حصل في نفسه بسبب ذلك ملكة قوية راسخة ، فإن كانت تلك الملكة ملكة في أعمال نافعة في السعادات الروحانية عظم ابتهاجه بعد الموت ، وإن كانت تلك الملكة ملكة ضارة في الأحوال الروحانية عظم تضرره بها بعد ، ثم قال : إذا ثبت هذا فنقول : إن التكرير الكثير إن كان سبباً لحصول تلك الملكة الراسخة كان لكل واحد من تلك الأعمال أثر في حصول تلك الملكة ، وذلك الأثر وإن كان غير محسوس إلا أنه حاصل في الحقيقة ، وإذا عرف هذا ظهر أنه لا يحصل للإنسان لمحة ولا حركة ولا سكون إلا ويحصل منه في جوهر نفسه أثر من آثار السعادة وآثار الشقاوة قل أو كثر ، وهذا هو المراد من كتب الأعمال عند حكماء الإسلام والله تعالى العالم بحقائق

الأمور انتهى ، وقد رأيت ذلك لبعض الصوفية .

وأنت تعلم أنه خلاف ما نطقت به الآيات والأخبار ، ونحن في أمثال هذه الأمور لا نعدل عن الظاهر ما أمكن ، والحق أبلج وما بعد الحق إلا الضلال هذا .

ومن الناس من جعل ضمير ﴿ لَهُ ﴾ لمن الأخير والأول أولى ، ومنهم من جعله لله تعالى وما بعده لمن وفيه تفكيك للضمائر من غير داع ، ومنهم من جعله للنبي صلى الله عليه وسلم وهو عليه الصلاة والسلام معلوم من السياق وقد تقدم الأخبار عنه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ ﴾ [يونس : 20] الآية .

واستدل على ذلك بما أخرجه ابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والطبراني في الكبير .

وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس أن أربد ابن قيس .

وعامر بن الطفيل قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتهيا إليه وهو عليه

الصلاة والسلام جالس فجلسا بين يديه فقال عامر : ما تجعل لي إن أسلمت ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم قال : أتجعل لي إن أسلمت الأمر بعدك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل قال : فاجعل لي الوبر ولك المدر فقال صلى الله عليه وسلم : لا فلما قفى من عنده قال : لأملأنها عليك خيلاً ورجلاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يمنعك الله تعالى ، وفي رواية وابناء قيلة يريد الأوس والخزرج فلما خرجا قال عامر : يا أربد أنى سألهي محمداً عنك بالحديث فاضربه بالسيف فإن الناس إذا قتلته لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب فسنعطيهم الدية فقال أربد : افعل فأقبلا راجعين فقال عامر : يا محمد قم معي أكلمك فقام عليه الصلاة والسلام معه فخليا إلى الجدار ووقف عامر يكلمه وسل أربد السيف فلما وضع يده عليك يبست على قائمه فلم يستطع سله وأبطأ على عامر فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما يصنع فانصرف عنهما وقال عامر لأربد : ما لك ؟ قال : وضعت يدي على قائم سيفي فيبست فلما خرجا حتى إذا كانا بالرقم نزلا فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فوقع بهما أسيد قال : اشخصا يا عدوى الله تعالى لعنكم الله تعالى فقال عامر : من هذا يا سعد ؟ فقال : هذا أسيد بن حضير الكتائب فقال : أما والله إن كان حضير صديقاً لي ، ثم إن الله سبحانه أرسل على أربد صاعقة فقتلته

وخرج عامر حتى إذا كان بوادي الجريد أرسل الله تعالى عليه قرحة فأدركه الموت ، وفي رواية أنه كان يصيح يا لعامر أغدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية فأنزل الله تعالى فيهما :

(162/408)

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾ [الرعد : 8] إلى قوله سبحانه : ﴿ لَهُ معقبات ﴾ إلى آخره ثم قال : المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجاء في رواية أخرى عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال : هذه للنبي عليه الصلاة والسلام خاصة ، والأكثرون على اعتبار العموم ، وسبب النزول لا يأبى ذلك والله تعالى أعلم ، ثم أنه سبحانه بعد أن ذكر إحاطة علمه بالعباد وإن لهم معقبات يحفظونهم من أمره جل شأنه نبه على لزوم الطاعة ووبال المعصية فقال عز من قائل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من النعمة والعافية ﴿ حتى يُغَيّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ما اتصفت به ذواتهم من الأحوال الجميلة لا ما أضمروه ونووه فقط ، والمراد بتغيير ذلك تبديله بخلافه لا مجرد تركه ، وجاء عن علي كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً يقول الله تعالى : " وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهت من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي وما

من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببت من طاعتي ثم تحولوا عنها

إلى ما كرهت من معصيتي إلا تحولت لهم عما يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من عذابي "

أخرجه ابن أبي شيبة.

وأبو الشيخ.

وابن مردويه.

(163/408)

واستشكل ظاهر الآية حيث أفادت أنه لا يقع تغيير النعم بقوم حتى يقع تغيير منهم بالمعاصي مع أن ذلك خلاف ما قررته الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة ومنه قوله سبحانه: ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: 25] وقوله عليه الصلاة والسلام وقد سئل: " أنهلك وفينا الصالحون؟ نعم إذا كثر الخبث " وقوله صلى الله عليه وسلم: " إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله سبحانه بعقاب " في أشياء كثيرة وأيضاً قد ينزل الله تعالى بالعبد مصائب يزيد بها أجره، وقد يستدرج المذنب بترك ذلك.

وأولها ابن عطية لذلك بأن المراد حتى يقع تغيير ما منهم أو ممن هو منهم كما غير سبحانه

بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم والحق أن المراد أن ذلك عادة الله تعالى الجارية في الأكثر لا أنه سبحانه لا يصيب قوماً إلا بتقدم ذنب منهم فلا إشكال، قيل: ولك أن تقول: إن قوله سبحانه:

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ تتميم لتدارك ما ذكر وفيه تأمل، والسوء يجمع كل ما يسوء من مرض وفقر وغيرهما من أنواع البلاء، و﴿ مَرَدَّ ﴾ مصدر ميمي أي فلا رد له، والعامل في ﴿ إِذَا ﴾ ما دل عليه الجواب لأن معمول المصدر وكذا ما بعد الفاء لا يتقدم عليه، والتقدير كما قال أبو البقاء وقع أو لم يرد أو نحو ذلك، والظاهر أن ﴿ إِذَا ﴾ للكلية، وقد جاءت كذلك في أكثر الآيات ﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ ﴾ سبحانه ﴿ مِن وَالٍ ﴾ يلي أمورهم من ضرر ونفع ويدخل في ذلك دخولاً أولياً دفع السوء عنهم، وقيل: الأول إشارة إلى نفي الدافع بالدال وهذا إشارة إلى نفي الرافع بالراء لئلا يتكرر ولا حاجة إلى ذلك كما لا يخفى.

واستدل بالآية على أن خلاف مراد الله تعالى محال.

واعترض بأنها إنما تدل على أنه تعالى إذا أراد بقوم سوءاً وجب وقوعه ولا تدل على أن كل مراد له تعالى كذلك ولا على استحالة خلافه بل على عدم وقوعه ، وأجيب بأنه لا فرق بين إرادة السوء وإرادة غيره لكن اقتصر على إرادة الأول لأن الكلام في الانتقام من الكفار وهو أبلغ في تخويفهم فإذا امتنع رد السوء فغيره كذلك ، والمراد بالاستحالة عدم الإمكان الوقوعي لا الذاتي ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر ، ومن أعجب ما قيل : إن الجمهور احتجوا بالآية على أن المعاصي مما يشملها السوء وأنها يخلقه تعالى ، ومن الناس من جعل الآية متعلقة بقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة ﴾ [الرعد : 6] إلى آخره وبين ذلك أبو حيان بما لا يرتضيه إنسان ، وقيل : إن فيها إيذاناً بأنهم بما باشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية قد غيروا ما في أنفسهم من الفطرة فاستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى هذا .

ووقف ابن كثير على ﴿ هَادٍ ﴾ [الرعد : 7] وكذا ﴿ وَاقٍ ﴾ [الرعد : 34] حيث وقع وعلى ﴿ وَالٍ ﴾ هنا و ﴿ بَاقٍ ﴾ في النحل (96) بإثبات الياء وباقي السبعة وقفوا بحذفها .

وفي الإقناع لأبي جعفر ابن الباذش عن ابن مجاهد الوقف في جميع الباب لابن كثير بالياء وهذا لا يعرفه المكيون ، وفيه أيضاً عن أبي يعقوب الأزرق عن ورش أنه خيره في الوقف في جميع الباب بين أن يقف بالياء وأن يقف بحذفها كذا في "البحر" وفيه أنه أثبت ابن كثير .

وأبو عمرو في رواية ياء ﴿ المتعال ﴾ وقفاً ووصلاً وهو الكثير في لسان العرب وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً لأنها كذلك رسمت في الإمام .

واستشهد سيبويه لحذفها في الفواصل والقوافي وأجاز غيره حذفها مطلقاً ووجهه حذفها مع أنها تحذف مع التنوين وأل معاقبة له أجراء المعاقب مجرى المعاقب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(165/408)

وقال القاسمى :

﴿ سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ ﴾

أي : في نفسه : ﴿ وَمَن جَهَرَ بِهِ ﴾ أي : لغيره : ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ ﴾ أي : طالب الخفاء في مختبأ بالليل في ظلمته : ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ أي : ذاهب في سربه ، أي : في طريقه يبصره كل أحد .

لطيفة :

قيل : إن (سواء) بمعنى الاستواء ، وهو يقتضي ذكر شيئين ، وهنا إذا كان (سارب) معطوفاً على جزء الصلة أو الصفة ؛ يكون شيئاً واحداً .

وأجيب عنه بوجهين : الأول : أن (سارب) معطوف على (من هو) لا على (مستخف) كأنه قيل : سواء منكم إنسان هو مستخف وآخر هو سارب . والثاني : أنه عطف على (مستخف) ، إلا أن (من) في معنى الاثنين ، كقوله :

~*نكن مثل من يا ذئب يصطحبان*

كأنه قيل : سواء منكم اثنان : هما مستخف وسارب . وعلى الوجهين (من) موصوفة لا موصولة . فيحمل الأولان على ذلك ليتوافق الكل .

وهناك وجه آخر وهو أن يكون الموصول محذوفاً وصلته باقية ، والمعنى : ومن هو مستخف بالليل ومن سارب بالنهار . وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع ، خصوصاً وقد تكرر الموصول في الآية ثلاثاً . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف : من الآية 9] . والأصل : ولا ما يفعل بكم . وإلا كان حرف النفي دخيلاً في غير موضعه ؛ لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف لم يكن للنفي موقع ، وإنما صحب في الأول الموصول لا الصلة ، ومنه قول حسان رضي الله عنه :

~فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء !

أي : ومن يمدحه وينصره .

وهذا الأخير نقله الناصر في " الانتصاف " وهو وجيه جداً . وأما تضعيف غيره له بلزوم حذف الموصول وصدر الصلة معاً ، وأن النجاة وإن ذكروا جواز كل منهما ، لكن اجتماعهما منكر ؛ فهو المنكر ؛ لأن أسلوب التنزيل هو الحجة ، وإليه التحاكم في كل فن ومحجة . والجمود على القواعد ورد ما خالفها إليها – من التعصب واللجاج ، والغفلة عن مقام التنزيل في الاحتجاج ! .

وقوله تعالى :

(167/408)

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ أي : لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب ، ملائكة يتعاقبون عليه : ﴿ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي : من جوانبه كلها ، أو من أعماله ، ما قدم وأخر : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ ﴾ أي : يراقبون ما يلفظ من قول وما يأتي من عمل ، خيراً أو شراً ، بأمره وإذنه ، أو من أجل أمره لهم بحفظه . فـ (من) تعليلية أو بمعنى باء السببية ، ولا فرق بين العلة والسبب عند النجاة ، وإن فرق بينهما أهل المعقول .

وفي (الصحيح) : < يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . ويجتمعون في صلاة

الصبح وصلاة العصر . فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقول : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون > .

وفي الحديث الآخر : < إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء ، وعند الجماع ، فاستحيوهم وأكرموهم > .

(168/408)

و (المعقبات) جمع معقبة من (عقب) مبالغة في (عقب) فالتفعيل للمبالغة والزيادة في التعقيب فهو تكثير للفعل أو الفاعل ، لا للتعدية ؛ لأن ثلاثيه متعد بنفسه . أصل معنى (العقب) مؤخر الرجل ، ثم تجوّز به عن كون الفعل بغير فاصل ومهلة ، كأن أحدهم يطأ عقب الآخر . قال الراغب : عقبه إذا تلاه نحو دبره وقفاه . وقيل : هو من (اعتقب) أدغمت التاء في القاف ؛ وردوه بأن التاء لا تدغم في القاف من كلمة أو كلمتين . وقد قال أهل التصريف : إن القاف والكاف ، كل منهما يدغم في الآخر ولا يدغمان في غيرهما . والتاء في (معقبة) واحدة (المعقبات) للمبالغة لا للتأنيث ؛ لأن الملائكة لا توصف به . مثل نسابة وعلامة . أو هي صفة جماعة وطائفة ﴿ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ ظرف مستقر صفة : ﴿ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ أو ظرف لغو متعلق بها . و (من) لابتداء الغاية أو حال من الضمير

الذي في الظرف الواقع خبراً . والكلام على هذه الأوجه يتم عند قوله : ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ . ويجوز أن يكون ظرفاً لـ : ﴿ يَحْفَظُونَهُ ﴾ أي : معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، أي : تحفظ ما قدم وأخر من الأعمال ، كناية عن حفظ جميع أعماله . ويجوز أن يكون : ﴿ يَحْفَظُونَهُ ﴾ صفة لـ : ﴿ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ أو حالاً من الظرف قبله ، بمعنى أن المعقبات محيطة بجميع جوانبه .

تنبيهات :

الأول : ما قدمناه في معنى الآية هو الأشهر . وعن ابن عباس : هو السلطان الذي له حرس من بين يديه ومن خلفه .

قال الزمخشري : أي : يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله . أي : من قضاياه ونوازله ، أو على التهكم به .

قال الرازي : وهذا القول اختاره أبو مسلم الأصفهاني . والمعنى : أنه يستوي في علم الله تعالى السر والجهر ، والمستخفي بظلمة الليل والسارب المستظهر بالأعوان والأنصار ، وهم الملوك والأمراء . فمن لجأ إلى الليل فلن يفوت الله أمره ، ومن سار نهاراً بالمعقبات ، وهم

الحراس والأعوان الذين يحفظونه ؛ لم ينجه حرسه من الله تعالى ! والمعقب العون ؛ لأنه إذا أبصر هذا ذاك فلا بد أن يبصر ذاك هذا ، فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخر ، فهذه المعقبات لا تخلص من قضاء الله ومن قدره ! وهم وإن ظنوا أنهم يخلصون مخدومهم من أمر الله ومن قضائه ، فإنهم لا يقدرون على ذلك البتة ! . والمقصود من هذه الجملة : بعث السلاطين والأمراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المكاره عن حفظ الله وعصمته ، ولا يعولوا في دفعها على الأعوان والأنصار ، ولذلك قال تعالى بعد : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا ﴾ الآية .

الثاني : قدمنا أن الضمير في : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ لمن أسر أو جهر . . الخ . وأرجعه بعضهم لله ، وما بعده (لمن) . قال الشهاب : فيه تفكيك للضمائر من غير داع . وقيل : الضمير (لمن) الأخير ، وقيل : للنبي ؛ لأنه معلوم من السياق .

الثالث : أشار الرازي في معنى الآية الأشهر إلى سر اختصاص الحفظة ببني آدم ، ما ملخصه : إنهم يدعون إلى الخيرات والطاعات بما يجده المرء من الدواعي القلبية إليها ، وإن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصي عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب ؛ لأن من آمن يعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم ، فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها ؛ زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها ، كما يزجره عنه إذا حضره من يعظمه

من البشر . وإذا علم أن الملائكة تحصي عليه تلك الأعمال ؛ كان ذلك أيضاً رادعاً له عنها . وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل . !

(170/408)

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ أي : من العافية والنعمة : ﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : من الأعمال الصالحة أو ملكاتها ، التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى أضدادها : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً ﴾ أي : لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك : ﴿ فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ﴾ أي : فلا رد لقضائه فيهم : ﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ أي : يلي أمرهم فيدفع عنهم السوء الذي أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم . وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال . وإيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة ، واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه - أفاده أبو السعود - .

تنبيه :

في هذه الآية وعيد شديد وإنذار رهيب قاطع ، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة ، ومالوا مع الأهواء ، وتركوا التمسك بآدابه وسننه القويمة ؛ حل

بهم ما ينقلهم إلى المحن والبلايا ، ويفرق كلمتهم ، ويوهي قوتهم ، ويسلط عدوهم ! .

وفي حديث قدسي عند ابن أبي حاتم : < ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيتحولون منها إلى معصية الله ، إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون > .

ولابن أبي شيبة : < ما من قرية ولا أهل بيت ، كانوا على ما كرهت من معصيتي ، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي ، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي ، إلى ما يحبون من رحمتي > .

وقال القاشاني : لا بد في تغيير النعم إلى النقم ، من استحقاق جلي أو خفي .

وعن بعض السلف : إن الفأرة مزّقت خُفّي ، وما أعلم ذلك إلا بذنب أحدثته ، وإلا ما سلطها الله عليّ ! وتمثل بقول الشاعر :

~*لو كنت من مازن لم تستبح إبلي*

أقول : المنقول عن بعض السلف محمول على شدة الخوف منه تعالى ، وإلا فالتحقيق الفرق بين ما ينال الشخص والقوم ، كما أشارت له الآية . وقد جوّد الكلام في ذلك ، الإمام مفتي

مصر في " رسالة التوحيد " في بحث الدين الإسلامي فقال :

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الإنسان) . فقرر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم إنما يجري أمرها على السنن الإلهية ، التي قدرها الله في علمه الأزلي ، لا يغيرها شي من الطوارئ الجزئية . غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها . بل ينبغي أن يحيي ذكره عند رؤيتها ، فقد جاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم : < إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله > . وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد لا يقضي فيها إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامته عليها . ثم أماط اللثام عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التي يرزؤن بها ؛ ففصل بين الأمرين (الأشخاص والأمم) فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما .

فأما النعم التي يمتع الله بها بعض الأشخاص في هذه الحياة ، والرزايا التي يرزأ بها في نفسه ؛ فكثير منها كالثروة والجاه ، والقوة والبنين ، أو الفقر والضعة والضعف والفقد ، وقد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة أو عوج أو طاعة وعصيان

. وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ؛ إنظاراً لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الأخرى ! . وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقوله : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴾ ! فلا غضب زيدٍ ، ولا رضا عمروٍ ، ولا إخلاص سريرة ، ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ، ولا في تلك النعم الخاصة ، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة ، كارتباط الفقر بالإسراف ، والذل بالجبن ، وضياع السلطان بالظلم . وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب ، والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الأكثر ، وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر . . . . ! .

(173/408)

أما شأن الأمم فليس على ذلك ؛ فإن الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الإلهية : من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ، والتعاون على البر ، والتناصح في الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل ، ذلك الروح

هو مصدر حياة الأمم، ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [آل عِمْرَان: من الآية 145]، ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها. يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه، حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره! واستبدل الله عزة القوم بالذل، وكُثْرهم بالقل، ونعيمهم بالشقاء، وراحتهم بالعناء، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [الإسراء: 16]، أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل، ثم لا ينفعهم الأنين، ولا يجديهم البكاء، ولا يفيدهم ما بقي من صور الأعمال، ولا يستجاب منهم الدعاء، ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجأوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة، يُرسُل الفكر والذكر والصبر والشكر: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: 62]، وما أجلَّ ما قاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه. اللهم! إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة. . . !.

على هذه السنن ، جرى سلف الأمة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ؛ كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ، ماض في غلوائه ، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئاً . . ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 9 صـ 267 . 274 ﴾

(175/408)

وقال ابن عاشور :

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) ﴾

موقع هذه الجملة استئناف بياني لأنّ مضمونها بمنزلة النّتيجة لعموم علم الله تعالى بالخفيات والظواهر .

وعدل عن الغيبة المتبعة في الضمائر فيما تقدم إلى الخطاب هنا في قوله : ﴿ سواء منكم ﴾ لأنه تعليم يصلح للمؤمنين والكافرين .

وفيها تعريض بالتهديد للمشركين المتآمرين على النبي صلى الله عليه وسلم

و﴿ سواء ﴾ اسم بمعنى مستو .

وإنما يقع معناه بين شيئين فصاعداً .

واستعمل سواء في الكلام ملازماً حالة واحدة فيقال : هما سواء وهم سواء ، قال تعالى :

﴿ فأنتم فيه سواء ﴾ .

وموقع سواء هنا موقع المبتدأ .

و﴿ من أسر القول ﴾ فاعل سدّ مسدّ الخبر ، ويجوز جعل ﴿ سواء ﴾ خبراً مقدّماً و

﴿ من أسر ﴾ مبتدأ مؤخّراً و ﴿ منكم ﴾ حال ﴿ من أسر ﴾ .

والاستخفاء : هنا الخفاء ، فالسين والتاء للمبالغة في الفعل مثل استجاب .

والسارب : اسم فاعل من سرب إذا ذهب في السّرْب بفتح السين وسكون الراء وهو الطريق .

وهذا من الأفعال المشتقة من الأسماء الجامدة .

وذكر الاستخفاء مع الليل لكونه أشد خفاء ، وذكر السروب مع النهار لكونه أشد ظهوراً .

والمعنى : أن هذين الصنفين سواء لدى علم الله تعالى .

والواو التي عطفت أسماء الموصول على الموصول الأول للتقسيم فهي بمعنى ﴿ أو ﴾ .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

جملة ﴿ له معقبات ﴾ إلى آخرها ، يجوز أن تكون متصلة بـ ﴿ من ﴾ الموصولة من قوله :

﴿ من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ [الرعد : 10

].

على أن الجملة خبر ثانٍ عن من أسر القول ﴾ وما عطف عليه.

(176/408)

والضمير في ﴿ له ﴾ والضمير المنصوب في ﴿ يحفظونه ﴾ ، وضميرا ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ جاءت مفردة لأن كلا منها عائد إلى أحد أصحاب تلك الصلات حيث إن ذكرهم ذكر أقسام من الذين جعلوا سواء في علم الله تعالى ، أي لكل من أسرّ القول ومنْ جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنّهار معقبات يحفظونه من غوائل تلك الأوقات.

ويجوز أن تتصل الجملة بـ ﴿ من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ [الرعد : 10] ، وإفراد الضمير لمراعاة عطف صلة على صلة دون إعادة الموصول.

والمعنى كالوجه الأول.

و(المعقبات) جمع معَقّبة بفتح العين وتشديد القاف مكسورة اسم فاعل عَقّبه إذا تبعه.

وصيغة التفعيل فيه للمبالغة في العقب.

يقال : عقبه إذا اتبعه واشتقاته من العقب يقال فكسر وهو اسم لمؤخّر الرجل فهو فعَِل

مشتق من الاسم الجامد لأنّ الّذي يتبع غيره كأنّه يطأ على عقبه، والمراد: ملائكة معقّبات.

والواحد معقب.

وإنما جمع جمع مؤنث بتأويل الجماعات.

والحفظ: المراقبة، ومنه سمي الرقيب حفيظاً.

والمعنى: يراقبون كلّ أحد في أحواله من إسرار وإعلان، وسكون وحركة، أي في أحوال ذلك، قال تعالى: ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار: 10].

و﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ مستعمل في معنى الإحاطة من الجهات كلها.

وقوله: ﴿ من أمر الله ﴾ صفة ﴿ معقبات ﴾، أي جماعات من جند الله وأمره، كقوله تعالى: ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ [الإسراء: 85] وقوله: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى: 52] يعني القرآن.

ويجوز أن يكون الحفظ على الوجه الثاني مراداً به الوقاية والصيانة، أي يحفظون من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، أي يقونه أضرار الليل من اللصوص وذوات السموم، وأضرارَ النّهار نحو الزحام والقتال، فيكون ﴿ من أمر الله ﴾ جاراً ومجروراً لغواً متعلقاً بـ ﴿ يحفظونه ﴾، أي يقُونه من مخلوقات الله.

وهذا منّة على العباد بلطف الله بهم وإلا لكان أدنى شيء يضر بهم .

قال تعالى : ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ [سورة الشورى : 19] .

جملة معترضة بين الجمل المتقدمة المسوقة للاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى وعلمه بمصنوعاته وبين التذكير بقوة قدرته وبين جملة ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ [سورة الرعد : 12] .

والمقصود تحذيرهم من الإصرار على الشّرك بتحذيرهم من حلول العقاب في الدنيا في مقابلة استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة ، ذلك أنهم كانوا في نعمة من العيش فبطروا النعمة وقابلوا دعوة الرسول بالهزء وعاملوا المؤمنين بالتّحقير

﴿ وقالوا لو نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا ﴾ [المزمل : 11] .

فذكرهم الله بنعمته عليهم ونبههم إلى أنّ زوالها لا يكون إلاّ بسبب أعمالهم السيّئة بعد ما أنذرهم ودعاهم .

والتغيير : التبديل بالمُغاير ، فلا جرم أنه تديد لأولي النعمة من المشركين بأنهم قد تعرضوا لتغييرها .

فما صدق ما إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سواءا فَلاَ

مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ الموصولة حالة ، والباء للملابسة ، أي حالة ملابسة لقوم ، أي حالة نعمة لأنها محل التحذير من التغيير ، وأما غيرها فتغييره مطلوب .

وأطلق التغيير في قوله : ﴿ حتى يغيروا ﴾ على التسبب فيه على طريقة المجاز العقلي .

وجملة ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ تصريح بمفهوم الغاية المسْتفاد من ﴿ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ تأكيداً للتحذير .

لأن المقام لكونه مقام خوف ووجل يقتضي التصريح دون التعريض ولا ما يقرب منه ، أي إذا أراد الله أن يغيّر ما بقوم حين يغيرون ما بأنفهسم لا يَردّ إرادته شيء .

وذلك تحذير من الغرور أن يقولوا : سنسترسل على ما نحن فيه فإذا رأينا العذاب آمنا .

وهذا كقوله : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس ﴾ [سورة يونس : 98] الآية .

وجملة وما لهم من دونه من وال ﴾ زيادة في التحذير من الغرور لئلا يحسبوا أن أصنامهم شفعاؤهم عند الله .

والوالي : الذي يلي أمر أحد ، أي يشتغل بأمره اشتغال تدبير ونفع ، مشتق من ولي إذا قَرب

، وهو قرب ملابسة ومعالجة .

وقرأ الجمهور ﴿ من وال ﴾ بتنوين ﴿ وال ﴾ دون ياء في الوصل والوقف .

وقرأه ابن كثير بياء بعد اللام وقفا فقط دون الوصل كما علمته في قوله تعالى ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ في هذه السورة الرعد (33) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(179/408)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) ﴾

بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة : أن السر والجهر عنه سواء ، وأن الاختفاء والظهور عنده أيضاً سواء : لأنه يسمع السر كما يسمع الجهر ، ويعلم الخفى كما يعلم الظاهر ، وقد أوضح هذا المعنى في آيات آخر كقوله : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 13 - 14] وقوله : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] وقوله : ﴿ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ

يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [هود : 5] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق : 16] الآية – إلى غير ذلك من الآيات .

وأظهر القولين في المستخفي بالليل والسارب بالنهار : أن المستخفي هو المختفي المستتر عن الأعين ، والسارب هو الظاهر البارز الذاهب حيث يشاء . ومنه قول الأخنس بن شهاب التغلبي :

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم . . . ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أي ذاهب حيث يشاء ظاهر غير خاف .

وقول قيس بن الخطيم :

أني سربت وكنت غير سروب . . . وتقرب الأحلام غير قريب

وقيل السارب : الداخل في السرب ليتواري فيه ، والميتخفي الظاهر منخفاه يخفيه : إذا أظهره . ومنه قول امرىء القيس :

خفاهن من أنفاقهن كأنما . . . خفاهن ودق من عشى مجلب

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

بين تعالى في هذه الآية الكريمة : أنه لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بانفسهم من طاعة الله جل وعلا .

والمعنى : أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعما عليهم حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح ، وبين هذا لمعنى في مواضع آخر كقوله : ﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : 53] الآية . وقوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 30] .

وقد بين في هذه الآية أيضاً : أنه إذا اراد قوماً بسوء فلا مرد له ، وبين ذلك ايضاً في مواضع أخر كقوله : ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القوم المجرمين ﴾ [الأنعام : 147] ونحوها من الآيات .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ يصدق بأن يكون التغيير من بعضهم كما وقع يوم أحد بتغيير الرماة ما بأنفسهم فعمّت البلية الجميع ، وقد سئل صلى الله عليه وسلم : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثر الخبث" والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(181/408)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ

﴿ (10) ﴾

وساعة تسمع كلمة " سواء " فالمقصود بها عدد لا يقل عن اثنين ، فنقول " سواء زيد وعمرو " أو " سواء زيد وعمرو وبكر وخالد " .

والمقصود هنا أنه مادام الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ؛ فأي سر يوجد لابد أن يعلمه سبحانه ، وهو سبحانه القائل : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى * لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى * وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه : 5-7]

وهل السر هو ما ائتمنتَ عليه غيرك ؟ إذا كان السر هو ذلك ؛ فالأَخْفَى هو ما بَقِى عندك ، وإنْ كان السر بمعنى ما يوجد عندك ولم تَقُلْه لأحد ؛ فسبحانه يعلمه قبل أن يكون سراً .

ويتابع سبحانه : ﴿ . . . هُوَ مُسْتَخْفٍ بالليل وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ [الرعد : 10]

وهكذا جمع الحق سبحانه هنا كل أنواع العمل ؛ فالعمل كما نعلم هو شغل الجوارح بمتعلقاتها ؛ فعمل اللسان أن يقول وأن يذوق ، وعمل الأيدي أن تفعل ، وعمل الأذن أن تسمع ، وعمل القلب هو النية ، والعمل كما نعلم يكون مرَّة قَوْلاً ، ومرَّة يكون فِعْلاً .

وهكذا نجد " القول " وقد أخذ مساحة نصف " العمل " ، لأن البلاغ عن الله قول ، وعمل الجوارح خاضع لمَقُول القول من الحق سبحانه وتعالى .

ولذلك أوضح لنا الحق سبحانه أن العمل هو كُلُّ فعل متعلق بالجوارح ؛ وأخذ القول شِقاً

بمفرده؛ وأخذتْ أفعال الجوارح الشِّقَّ الآخر؛ لأن عمل بقية الجوارح يدخل في إطار ما سمع من منهج الله .

ولذلك تجمع الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها كل العمل من قَوْل وفعل: ﴿ سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بالليل وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ [الرعد: 10]

(182/408)

ومَنْ يستخفي بالليل لابد أنه يُدبِّر أمراً؛ كأن يريد أن يتسمَّع ما وراء كل حركة؛ أو ينظر ما يمكن أنْ يشاهده، وكذلك مَنْ يبرز ويظهر في النهار فالله عالم به .

وكان على الكفار أن ينتبهوا لأمر عجيب كانوا يُسِرُّونه في أنفسهم؛ لحظة أنْ حكى الله؛ فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ في أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ . . . ﴾ [المجادلة: 8]

فكيف عَلِمَ الله ذلك لولا أنه يعلم السِّرَّ وأَخْفَى؟

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ . . . ﴾

وكلمة (له) تفيد النفعية، فإذا قلت "لك كذا" فهي عكس أن تقول "عليك كذا".

وحين يقول سبحانه: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ . . . ﴾ [الرعد: 11]

فكأنَّ المُعقِّبات لصالح الإنسان . و "مُعقِّبات" جمع مؤنث ، والمفرد "مُعقِّبة" ، أي : أن للحق سبحانه وتعالى ملائكة يتناوبون على حراسة الإنسان وحِفْظه ليلاً ونهاراً من الأشياء التي لا يمكن الاحتراز منها .

والمَثَلُ هو تلك الإحصاءات التي خرجت عن البشر الذين تلدغهم الثعابين ، فقد ثبت أنها لا تلدغهم وهم نائمون ؛ بل في أثناء صَحْوتهم ؛ أي : ساعة يكونون في ستْر النوم فهناك ما يحفظهم ؛ أما في اليقظة فقد يتصرَّف الإنسان بطَيْشٍ وغَفْلة فتلدغه الأفعى .

ونحن نقول في أمثالنا الشعبية : "العين عليها حارس" ؛ ونلحظ كثيراً من الأحداث التي تبدو لنا غريبة كأنْ يسقط طفل من نافذة دور علوي ؛ فلا يُصَاب بسوء ؛ لأن الحق سبحانه شاء أن تحفظه الملائكة المُعقِّبات من السُّوء ؛ لأن مهمة الحَفَظة أن يحفظوا الإنسان من كُلِّ سوء .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه قد أعدّ للإنسان الكونَ قبل أن يخلقه ليستخلفه فيه ؛ أعدَّ السماوات وأعدَّ الأرض ؛ وسَخَّر الشمس والقمر ؛ وأخرج الثمراتِ ؛ وجعل الليل يَغْشَى النهارَ .

وكُلُّ ذلك أعدَّه سبحانه للخليفة قبل أن يوجد الخليفة ؛ وهو سبحانه قَيُّوم على هذا الخليفة ؛ فيصونه أيضاً بعد الخَلْق ، ولا يَدَعُه لمقومات نفسه ليدافع عنها فيما لا يستطيع الدفاع عنها ، ويُكلِّف الله الملائكة المُعقِّبات بذلك .

وقد ينصرف معنى المُعقِّبات إلى الملائكة الذين يتعقَّبون أفعال الإنسان وكتابة حسناته وكتابة سيئاته ، ويمكن أن يقوما بالعملين معاً ؛ حِفْظه وكتابة أعماله ، فإن كتبوا له الحسنات فهذا لصالحه .

ولقائل أن يقول : ولكنهم سيكتبون السيئات ؛ وهذه على الإنسان وليست له .

وأقول : لا ؛ ويَحْسُن أن نفهم جيداً عن المُشرِّع الأعلى ؛ ونعلم أن الإنسان إذا ما عرف أن السيئة ستُحْسب عليه وتُحْصى ؛ وتُكتب ؛ يمسك كتابه ليقرأه ؛ فلسوف يبتعد عن فعل السيئات .

وهكذا يكون الأمر في مصلحته ، مَثَلُه مَثَلُ الطالب الذي يرى المراقب في لجنة الامتحان ، فلا يكرهه ؛ لأنه يحمي حقَّه في الحصول على التقدير الصحيح ؛ بدلاً من أن يَغُشَّ غيره ، فيأخذ فرصة أكبر منه في التقدير والنجاح ؛ فضلاً عن أن كل الطلبة يعلمون أن وجود المراقب اليَقِظ هو دافعٌ لهم للمُذاكرة .

ولذلك أقول دائماً : إياك أنْ تكره أن يكون لك أعداء ؛ لأن الذي يَغُرُّ الإنسانَ في سلوكه هو نفاق أُصحابه له ، أما عدوك فهو يفتح عينيه عليك طوال الوقت ؛ ولذلك فأنت تحذر أن

تقع في الخطأ .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

عِداي لَهُمْ فَضْل عليَّ . . . فتعدَّى لهم شكر على نفعهم ليا

فَهم كالدَّواءِ والشّفَاءِ لِمُزْمن . . . فَلا أبعدَ الرحْمَانُ عنّي الأعَادِيَا

هُمْ بَحثُوا عَنْ زلَّتي فاجْتَنبْتُهَا . . . فَأصْبَحتُ مِمَّا ذله العربُ خَاليَا

(184/408)

إذن : فكتابة الحسنات والسيئات هي مسألة لصالح الإنسان ؛ وحين يتَعاقبُونَ على الإنسان ؛ فكأنهم يصنعون دَوْريَّاتٍ لحماية الفرد ؛ ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ؛ فيصعد إليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتُم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهُمْ يصلون ، وتركناهم وهُمْ يُصلُّون " .

وكأن الملائكة دوريات .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ . . . إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً ﴾ [الإسراء : 78]

أي : أن ملائكة الليل يشهدون ؛ ومعهم ملائكة النهار .

وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ملحوظ فيه الوقت الزمني للحركة الإنسانية ؛ فَكُلُّ حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى العصر ، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك ؛ ثم ينام .

والمُعقِّبات يَكُنَّ من بين يدي الإنسان ومن خلفه ؛ و (من بين يديه) من أجل الرصد ، ولذلك وجدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه أثناء الهجرة النبوية كان يسير بعض الوقت أمام النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وكان يسير البعض الآخر خلف النبي صلى الله عليه وسلم .

كان أبو بكر رضي الله عنه يتقدم ليرقب : هل هناك مَنْ يرصد الرسول أم لا ؟ ثم يتراجع إلى الخلف ليمسح كل المكان بنظره ليرقب : أهناك مَنْ يتتبعهما ؟ وهكذا حرص أبو بكر على أنْ يحمي الرسول صلى الله عليه وسلم من الرّصد أو التربُّص .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ . . . ﴾ [الرعد : 11]

والسطحيّ يقول : إن تلك الملائكة يحفظون الإنسان من الأمر المراد به من الله .

ونقول : إن الله لم يُنزِل الملائكة ليعارضوا قَدَره ؛ وهذا الحفظ لا يكون من ذات الإنسان لنفسه ، أو من الملائكة ضد قَدَر الله ؛ والمعنى هنا ينصرف إلى أن الملائكة إنما يحفظون الإنسان بأمر الله .

ولذلك نجد في القرآن قول الحق سبحانه : ﴿ مِّمَّا خطيائاتهم أُغْرِقُواْ . . . ﴾ [نوح : 25]

أي : بسبب خطيئتهم أغرقوا ، فإياك أنْ تظن أنّ الملائكة يحفظون الإنسان من قَدَر الله ؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أمراً فلا رَادَّ له .

ويتابع سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ . . . ﴾ [الرعد : 11]

وهو سبحانه الذي خلق الكون الواسع بكل أجناسه ؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وأفلاكاً وأملاكاً ؛ وجعل كل ذلك مُسخَّراً للإنسان ؛ ثم يحفظ الحق سبحانه الإنسان ويصونه بقيوميته .

وقد يقول قائل : ولماذا إذن تحدث الابتلاءات لبعض من الناس ؛ رغم أنه سبحانه قد قال إنه يحفظهم ؟

ونقول : إن تلك الابتلاءات إنما تجري إذا ما غَيّر البشر من منهج الله ؛ لأن الصيانة تُقوِّم ما قام بالمنهج .

واقرءوا قَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوعِ والخوفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112]

وهكذا نعلم أن الصيانة للإنسان والحفظ له والإمداد له من قبل أن يُولَد ؛ كُلُّ ذلك لن يرجع عنه الله ما دام الإنسان يمشي على صراط مستقيم ؛ لكن إذا ما حَادَ الإنسان عن الصراط المستقيم ؛ فيلفته الله ببعض من العِبَر والعظات ليعود إلى الصراط المستقيم .

والتغيير الذي يُجرِيه الله على البشر حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ؛ يشمل الإمدادات الفرعية ؛ أما الإمدادات الأصلية فلا يمنعها عنهم مثل الشمس والقمر والنجوم والهواء ؛ ولم يمنع الأرض أن تُخرِج لهم المياه .

ويصيبهم في الأشياء التي من الممكن أن يسير الكون في انتظامه رغم حدوثها ؛ كالمصيبة في المال أو المصيبة في النفس ؛ ويظل الكون على مسيرته المنتظمة .

(186/408)

ولهذا نجد أحد الفلاسفة وقد قال : " إن الله لا يتغير من أجلكم ؛ ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله " .

وسبق أن قال الحق سبحانه: ﴿ . . . فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ [طه: 123]

وهو القائل سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً . . . ﴾ [طه: 124]

وأنت ترى في عالمنا المعاصر مجتمعاتٍ مُتْرَفة؛ نستورد منهم أدوات الحضارة المعاصرة؛ لكنهم يعيشون في الضَّنْك النفسي البالغ؛ وهذا ما يُثبت أن الثراءَ المادي بالنقود أو أدوات الحضارة؛ لا يُحقِّق للإنسان التوازن النفسي أو السعادة؛ وينطبق عليهم ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله:

ليسَ الحمْلُ مَا أَطَاقَ الظَّهْرُ . . . مَا الحمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْر

فقد يكون الثراء المادي في ظَنِّ البعض هو الحُلْم؛ فيجنح الإنسان إلى الطريق غير السَّوي بما فيه من عُمولات؛ وعدم أمانة؛ ورغم النقود التي قد يكتنزها هذا الإنسان، إلا أن الأمراض النفسية أو الأمراض العضوية تفتِكُ به .

وهكذا نجد الحق سبحانه وهو يُغيِّر ولا يتغيَّر؛ فهو المُغيِّر لا المُتغيِّر .

وقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ الله لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ . . . ﴾ [الرعد: 11]

يُوضِّح لنا أن أعمال الجوارح ناشئةٌ من نَبْعِ نفس تُحرِّك الجوارح؛ وحين تصلح النفس؛

تصبح الجوارح مستقيمة ؛ وحين تفسد النفس تصير الجوارح غير مستقيمة .

فالحق سبحانه وتعالى أخضع كل الجوارح لِمُرادَات النفس ، فلو كانت النفسُ مخالفةً لمنهج الله ؛ فاللسان خاضع لها ؛ ولا ينطق رغم إرادته بالتوحيد ؛ لأن النفسَ التي تديره مخالفةٌ للإيمان .

والمَثَل : هم هؤلاء الذين نسبوا الرسل الذين اختارهم الله ؛ فادَّعَوْا أنهم أبناءُ الله ؛ وسبحانه مُنزَّهٌ عن ذلك ؛ أما إذا كانت النفس مؤمنةً فهي تأمرُ اللسان أن يقول كلمة التوحيد ؛ ويسعد هو بذلك ؛ لكنه في الحالتين لا يعصي النفس التي سَخَّره لها الله .

وهكذا تكون الجوارح مُنفعِلَة لإرادة صاحبها ، ولا تنحلُّ الإرادة البشرية عن الجوارح إلا حين يشاء الله ذلك في اليوم الآخر ، وفي الموقف الحق .

ولحظتَها لن يستطيع أحد أنْ يسيطر على جوارحه ؛ لأن المُلْك يومئذ للواحد القهار ؛ وسقطتْ ولاية الفَرْد على جوارحه ؛ وتشهد هذه الجوارح على صاحبها بما فعلتْه وَقْتَ أنْ كانت مقهورة لإرادته .

وهكذا نعلم أن التغيير كل في النفس التي تدير الجوارح .

وقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ . . . ﴾ [الرعد : 11]

يَدلُّنا أنه سبحانه لا يتدخَّل إلا إذا عَنَّت الأمور ؛ وفسد كل المجتمع ؛ واختفتْ النفس اللوّامة من هذا المجتمع ؛ واختفى مَنْ يَقْدِرون على الرَّدْع ولو بالكلمة من هذا المجتمع ؛ هنا يتدخل الحق سبحانه .

وحين يُغيِّر الناس ما بأنفسهم ، ويُصحّحون إطلاق الإرادة على الجوارح ؛ فتنصلح أعمالهم ؛ وإياكم أنْ تظنوا أنّ هناك شيئاً يتأبَّى على الله .

ولذلك يتابع سبحانه في نفس الآية : ﴿ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سوءا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ . . . ﴾ [الرعد : 11]

وعليكم أن تأخذوا الأمرين معاً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ . . . ﴾ [الرعد : 11]

و ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سوءا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ . . . ﴾ [الرعد : 11]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ . . . وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : 11]

إياك أن تفهم أن هناك سلطة تَحُول دون أن يُغيِّر الله ما يريد تغييره ؛ ولن يجدوا صَدْراً حَنُوناً آخر يُربِّت عليهم إذا ما أراد الله بهم السُّوء ، فليس هناك وَالٍ آخر يأخذهم من الله ويتولَّى شئونهم وأمورهم من جَلْبِ الخير ودَفْعِ الشر .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ . . . وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : 11] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(189/408)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) ﴾

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾ قال : من أسره وأعلنه عنده سواء ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ راكب رأسه في المعاصي ﴿ وسارب بالنهار ﴾ قال : ظاهر بالنهار بالمعاصي .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾ قال : كل ذلك عنده سواء ، السر عنده علانية والظلمة عنده ضوء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن - رضي الله عنه - في الآية قال : يعلم من السر ما يعلم من العلانية ، ويعلم من العلانية ما يعلم من السر ، ويعلم من الليل ما يعلم من النهار ، ويعلم من النهار ما يعلم من الليل .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ وسارب بالنهار ﴾ قال : الظاهر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ قال : هو صاحب ريبة ﴿ مستخف بالليل ﴾ وإذا خرج بالنهار ، أرى الناس أنه بريء من الإثم .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير، وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل، من طريق عطاء بن يسار - رضي الله عنه - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - " أن أربد بن قيس وعامر بن الطفيل، قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانتهيا إليه وهو جالس، فجلسا بين يديه فقال عامر: ما تجعل لي إن أسلمت؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. قال: أتجعل لي إن أسلمت، الأمر من بعدك؟ قال: ليس لك ولا لقومك، ولكن لك أعنة الخيل. قال: فاجعل لي الوبر ولك المدر. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا. فلما قفى من عنده قال لأَمَلأنَّها عليك خيلاً ورجالاً. قال النبي صلى الله عليه وسلم: يمنعك الله" فلما خرج أربد وعامر، قال عامر: يا أربد، إني سألهي محمداً عنك بالحديث، فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب، فسنعطيهم الدية. فقال أربد: أفعل. فأقبلا راجعين فقال عامر: يا محمد، قم معي أكلمك. فقام معه فخليا إلى الجدار، ووقف معه عامر يكلمه وسل أربد السيف، فلما وضع يده على سيفه يبست على قائم السيف، فلا يستطيع سل سيفه. وأبطأ أربد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما يصنع فانصرف عنهما. وقال عامر لأربد: ما لك حشمت؟ قال وضعت يدي على قائم السيف فيبست، فلما خرج عامر واربد من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كانا بحرة واقم، نزلا. فخرج إليهما سعد بن

معاذ وأسيد بن حضير فقال : اشخصا يا عدوّي الله ، لعنكما الله ، ووقع بهما . فقال عامر : من هذا يا سعد ؟ فقال سعد : هذا أسيد بن حضير الكتائب ، قال : اما والله ان كان حضير صديقاً لي ، حتى إذا كانا بالرقم أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته ، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريب أرسل الله عليه قرحة فأدركه الموت فيها : فأنزل الله ﴿ الله يعلم

(191/408)

ما تحمل كل أنثى . . . . ﴾ إلى قوله ﴿ . . . له معقبات من بين يديه ﴾ قال : المعقبات من أمر الله ، يحفظون محمداً صلى الله عليه وسلم . ثم ذكر أربد وما قتله ، فقال ﴿ هو الذي يريكم البرق . . . ﴾ إلى قوله ﴿ . . . وهو شديد المحال ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردوية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ﴾ قال : هذه للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ قال : عن أمر الله ، يحفظونه من بين يديه ومن خلفه .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ قال : ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ له معقبات ﴾ قال : الملائكة ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ قال : باذن الله .

وأخرج ابن جرير عن الحسن - رضي الله عنه - في قوله ﴿ له معقبات ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ له معقبات . . . ﴾ الآية قال : الملائكة من أمر الله .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - في قوله ﴿ له معقبات ﴾ قال : الملائكة ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ قال : حفظهم إياه بأمر الله .

وأخرج ابن جرير عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ قال : بأمر الله . قال : وفي بعض القراءة [يحفظونه بأمر الله] .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ له معقبات ﴾ الآية . يعني ولي السلطان ، يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، يقول الله " يحفظونه من أمري ؟ ! . . فإني إذا أردت بقوم سوءاً فلا مرد له " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ له معقبات ﴾ الآية . قال : الملوك يتخذون الحرس يحفظونه من أمامه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله يحفظونه من القتل . ألم تسمع أن الله تعالى يقول ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً ﴾ لم يغن الحرس عنه شيئاً .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ له معقبات ﴾ قال : هؤلاء الأمراء .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ له معقبات ﴾ قال : هم الملائكة ، تعقب بالليل والنهار وتكتب على بني آدم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ له معقبات ﴾ قال : الحفظة .

وأخرج ابن المنذر من وجه آخر ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ له معقبات ﴾ قال : الملائكة تعقب الليل والنهار ، تكتب على ابن آدم . وبلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يجتمعون فيكم عند صلاة الصبح وصلاة العصر من بين يديه" مثله قوله ﴿ عن اليمين وعن الشمال ﴾ [ق : 17] الحسنات من بين يديه ، والسيئات من خلفه . الذي على يمينه يكتب الحسنات ، والذي على يساره لا يكتب إلا بشهادة الذي على يمينه

، فإذا مشى كان أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ قال : يحفظون عليه .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء - رضي الله عنه - ﴿ له معقبات ﴾ قال : هم الكرام الكاتبون ، حفظة من الله على ابن آدم أمروا به .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن إبراهيم - رضي الله عنه - في قوله ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ قال : من الجن

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ له معقبات ﴾ قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدره خلوا عنه .

(193/408)

وأخرج ابن جرير عن مجاهد - رضي الله عنه - قال : ما من عبد إلا به ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام . فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال وراءك . إلا شيئاً يأذن الله فيه فيصيبه .

وأخرج ابن جرير عن كعب الأحبار - رضي الله عنه - قال : لو تجلى لابن آدم كل سهل

وحزن ، لرأى على كل شيء من ذلك شياطين ، لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم ، إذاً لَتَخَطَّفَتْكُمْ .

وأخرج ابن جرير ، عن أبي مجلز – رضي الله عنه – قال : جاء رجل من مراد إلى علي رضي الله عنه – وهو يصلي فقال : احترس ؛ فإن ناساً من مراد يريدون قتلك . فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ! فإذا جاء القدر ، خليا بينه وبينه ، وأن الأجل جنة حصينة .

وأخرج ابن جرير عن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال : ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه ، حتى يسلمه للذي قدر له .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي – رضي الله عنه – في الآية قال : ليس من عبد إلا له معقبات من الملائكة ، ملكان يكونان معه في النهار ، فإذا جاء الليل صعدا وأعقبهما ملكان ، فكانا معه ليله حتى يصبح يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، ولا يصيبه شيء لم يكتب عليه ، إذا غشي من ذلك شيء دفعاه عنه . ألم تره يمر بالحائط فإذا جاز سقط ؟ فإذا جاء الكتاب خلوا بينه وبين ما كتب له . وهم ﴿ من أمر الله ﴾ أمرهم أن يحفظوه .

وأخرج ابن جرير عن قتادة – رضي الله عنه – قال : في قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه [له معقبات من بين يديه ورقيب من خلفه يحفظونه من أمر الله] .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه كان يقرأ [له معقبات من بين يديه ورقباء من خلفه من أمر الله يحفظونه] .

(194/408)

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الجارود بن أبي سبرة – رضي الله عنه – قال : سمعني ابن عباس – رضي الله عنهما – اقرأ ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه ﴾ فقال : ليست هناك ، ولكن [له معقبات من بين يديه ورقيب من خلفه] .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن علي – رضي الله عنه – ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ قال : ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط ، أو يتردى في بئر ، أو يأكله سبع ، أو غرق أو حرق ، فإذا جاء القدر ، خلوا بينه وبين القدر .

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان ، والطبراني والصابوني في المائتين ، عن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وكل بالمؤمن ثلثمائة وستون ملكاً ، يدفعون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك " للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل من الذباب في اليوم الصائف ، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل

وجبل ، كلهم باسط يديه فاغر فاه ، وما لو وكل العبد فيه إلى نفسه طرفة عين ، لاختطفته الشياطين .

وأخرج أبو داود في القدر ، وابن أبي الدنيا وابن عساكر ، عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : لكل عبد حفظة يحفظونه ، لا يخر عليه حائط أو يتردى في بئر أو تصيبه دابة ، حتى إذا جاء القدر الذي قدّر له ، خلت عنه الحفظة فأصابه ما شاء الله أن يصيبه . وفي لفظ لأبي داود : وليس من الناس أحد إلا وقد وكل به ملك ، فلا تريده دابة ولا شيء إلا قال اتقه اتقه ، فإذا جاء القدر خلى عنه .

(195/408)

وأخرج ابن جرير عن كنانة العدوي – رضي الله عنه – قال : دخل عثمان بن عفان – رضي الله عنه – على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا رسول الله ، أخبرني عن العبد ، كم معه من ملك ؟ فقال : ملك عن يمينك على حسناتك ، وهو أمين على الذي على الشمال ، إذا عملت حسنة كتبت عشراً ، فإذا عملت سيئة ، قال الذي على الشمال للذي على اليمين : اكتب ؟ قال : لا ، لعله يستغفر الله ويتوب ، فإذا قال ثلاثاً قال : نعم اكتبه ، أراحنا الله منه فبئس القرين ، ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منه ؟ ! يقول

الله ﴿ وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق : 18] وملكان من بين يديك ومن خلفك ، يقول الله ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ وملك قابض على ناصيتك ، فإذا تواضعت لله رفعك ، وإذا تجبرت على الله قصمك ، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك ، وملكان على يمينك ، فهؤلاء عشرة أملاك على كل بني آدم ، ينزل ملائكة الليل على ملائكة النهار ، لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار ، فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمي ، وإبليس بالنهار وولده بالليل " .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ لا يغير ما بهم من النعمة حتى يعملوا بالمعاصي ، فيرفع الله عنهم النعم .

(196/408)

وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب العرش ، وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن علي – رضي الله عنه – عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله " وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي ، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية ، كانوا على ما كرهته من معصيتي ،

ثم تحوّلوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي ، إلا تحوّلت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي ؛ وما من أهل بيت ولا قرية ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببت من طاعتي ، ثم تحولوا عنها إلى ما كرهت من معصيتي ، إلا تحولت لهم عما يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي " .

(197/408)

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن زيد - رضي الله عنه - قال : أتى عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عامر : " ما تجعل لي إن اتبعتك ؟ قال : أنت فارس ، أعطيك أعنة الخيل . قال : فقط ؟ قال : فما تبغي ؟ قال : لي الشرق ولك الغرب ، ولي الوبر ولك المدر . قال : لا . قال : لأملأنها إذاً عليك خيلاً ورجالاً . قال : يمنعك الله ذلك " وأتيا قبيلة تدعى الأوس والخزرج ، فخرجا ، فقال عامر لأربد : إن كان الرجل لنا يمكنا لو قتلناه ما انتطحت فيه عنزان ، ولرضوا بأن نعقله لهم ، وأحبوا السلم وكرهوا الحرب إذا رأوا أمراً قد وقع ، فقال الآخر : إن شئت . فتشاوروا وقال : أرجع ، أنا أشغله عنك بالمجادلة ، وكن وراءه فاضربه بالسيف ضربة واحدة ، فكانا كذلك ، واحد وراء النبي صلى الله عليه وسلم ، والآخر قال : أقصص عليّ

قصصك . قال : ما تقول ؟ قال : قرأتك ، فجعل يجادله ويستبطئه ، حتى قال له ما لك ، أحشمت ؟ قال : وضعت يدي على قائم السيف فيبست ، فما قدرت على أن أحلي ولا أمري ، فجعل يحركها ولا تتحرك ، فخرجا ، فلما كانا بالحرة سمع بذلك سعد بن معاذ وأسيد بن خضير ، فخرجا إليه على كل واحد منهما لأمته ورمحه بيده ، وهو متقلد سيفه ، فقال أسيد لعامر بن الطفيل : يا أعور الخبيث ، أنت الذي تشترط على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! لولا أنك في أمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما رمت المنزل حتى ضربت عنقك .

فقال : من هذا ؟ قالوا : أسيد ابن حضير . قال : لو كان أبوه حياً لم يفعل بي هذا ، ثم قال عامر لأربد : أخرج أنت يا أربد إلى ناحية عذبة ، وأخرج أنا إلى محمد فأجمع الرجال فنلتقي عليه ، فخرج أربد حتى إذا كان بالرقم ، بعث الله سحابة من الصيف فيها صاعقة فأحرقته ، وخرج عامر حتى إذا كان بوادي الحريد ، أرسل الله عليه الطاعون ، فجعل يصيح : يا آل عامر ، اغدة كغدة البعير تقتلني ، وموت أيضاً في بيت سلولية ، وهي امرأة من قيس ، فذلك قول الله ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به . . . ﴾ إلى قوله ﴿ له

معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ هذا مقدم ومؤخر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، تلك المعقبات من أمر الله ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم... ﴾ حتى بلغ ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ وقال لبيد في أخيه أربد وهو يبكيه:

أخشى على أربد الحتوف ولا... أرهب نوء السماء والأسد

فجعتني الرعد والصواعق بالفا... رس يوم الكريهة النجد

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ قال: إنما يجيء التغيير من الناس، والتيسير من الله، فلا تغيروا ما بكم من نعم الله.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن إبراهيم - رضي الله عنه - قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل، أن قل لقومك أنه ليس من أهل قرية ولا من أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحوّلون إلى معصية الله، إلا تحوّل الله مما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾.

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن أبي هلال – رضي الله عنه – قال : بلغني أن نبياً من الأنبياء عليهم السلام ، لما أسرع قومه في المعاصي قال لهم : اجتمعوا إلي لأبلغكم رسالة ربي ، فاجتمعوا إليه وفي يده فخارة فقال : إن الله تبارك وتعالى يقول لكم إنكم قد عملتم ذنوباً قد بلغت السماء ، وإنكم لا تتوبون منها وتنزعون عنها إلا إن كسرتم كما تكسر هذه. فألقاها فانكسرت وتفرقت ، ثم قال : وأفرقكم حتى لا ينتفع بكم ، ثم أبعث عليكم من لا حظ له فينتقم لي منكم ، ثم أكون الذي أنتقم لنفسي بعد .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن – رضي الله عنه – قال : إن الحجاج عقوبة ، فلا تستقبلوا عقوبة الله بالسيف ، ولكن استقبلوها بتوبة وتضرع واستكانة .

وأخرج أبو الشيخ ، عن مالك بن دينار – رضي الله عنه – قال : كلما أحد ثتم ذنباً ، أحدث الله لكم من سلطانكم عقوبة .

وأخرج أبو الشيخ ، عن مالك بن دينار – رضي الله عنه – قال : قرأت في بعض الكتب : " إني أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فلا تشغلوا قلوبكم بسبب الملوك ، وادعوني أعطفهم عليكم " .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي – رضي الله عنه – ﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾ قال : هو الذي تولاهم فينصرهم ويلجئهم إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ ﴾ :

في " سواءٌ " وجهان ، أحدُهما : أنه خبرٌ مقدَّمٌ ، و ﴿ مَّنْ أَسَرَّ ﴾ و ﴿ وَمَنْ جَهَرَ ﴾ هو المبتدأ ، وإنما لم يُثَنَّ الخبر لأنه في الأصل مصدرٌ ، وهو هنا بمعنى مُسْتَوٍ ، وقد تقدَّم الكلامُ فيه أولَ هذا الموضوعِ ، و " منكم " على هذا حالٌ من الضمير المستتر في " سواءٌ " لأنه بمعنى " مُسْتَوٍ " . قال أبو البقاء : " ويَضْعُفُ أن يكونَ حالاً من الضمير في " أَسَرَّ " أو " جَهَرَ " لوجهين ، أحدُهما : تقديمُ ما في الصلةِ على الموصولِ أو الصفة على الموصوف ، والثاني : تقديمُ الخبرِ على " منكم " ، وحقُّه أن يقعَ بعده " . قلت : [قوله] " وحقُّه أن يقع بعده " يعني بعده وبعد المبتدأ ، وإلا يَصِرْ / كلامُه لا معنى له .

والثاني : أنه مبتدأ ، وجاز الابتداءُ به لوصفِه بقوله " مِنْكم " وأَعْرَبَ سيبويه " سواءٌ عليه الخيرُ والشرُّ " كذلك . وقولُ ابن عطية أن سيبويه ضَعَّفَ ذلك بأنه ابتداءٌ بنكرة ، غَلَطٌ عليه .

قوله : ﴿ وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ فيه ثلاثة أوجهٍ ، أحدُها : أن يكونَ معطوفاً على " مُسْتَخْفٍ " ، ويُرادُ ب " مَنْ " حينئذٍ اثنان ، وحَمَلَ المبتدأَ الذي هو لفظةُ " هو " على لفظِها فأفرده ، والخبرَ على معناها فثنَّاه . الوجه الثاني : أن يكونَ عطفاً على " ﴿ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ ﴾ لا على مُسْتَخْفٍ وحدَه . ويُرَجِّح هذين الوجهين ما قاله الزمخشري . قال رحمه الله : " فإنْ قلت : كان حقُّ العبارة أن يُقال : " ومَنْ هو مُسْتَخْفٍ بالليل ومَنْ هو سارِبٌ بالنهار ؛ حتى يتناولَ معنى الاستواء المستخفي والساربُ ، وإلاَّ فقد تناول واحداً هو مُسْتَخْفٍ وساربٌ . قلت : فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ قولَه " وساربٌ " عطفٌ على ﴿ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ ﴾ لا على " مُسْتَخْفٍ " . والثاني : أنه عَطْفٌ على " مُسْتَخْفٍ " ، إلا أنَّ " مَنْ " في معنى الاثنين ، كقوله :

2843- . . . . نَكُنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يَصْطَحِبانِ

كأنه قيل : سواءٌ منكم اثنان : ﴿ مُسْتَخْفٍ بالليل وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ . قلت : وفي عبارتِه بقوله " كان حقُّ العبارةِ كذا " سوءُ أدب . وقوله : كقولِه " نَكُنْ مثلَ مَنْ " يشير إلى البيت المشهور في قصة بعضِهم مع ذئب يخاطبه :

تَعَشَّ فإنْ عاهَدْتَني ولا تَخُونُني . . . نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يا ذئبُ يَصْطَحِبانِ

وليس في البيت حَمْلٌ على اللفظِ والمعنى، إنما فيه حَمْلٌ على المعنى فقط، وهو مقصودُه . وقوله: " وإلا فقد تناول واحداً هو مُسْتَخْفٍ وسارِبٌ " لو قال بهذا قائلٌ لأصاب الصوابَ، وهو مذهبُ ابنِ عباس ومجاهدٍ، ذهبا إلى أن المتسخفي والسارب شخصٌ واحد، يَسْتخفي بالليل ويَسْرُب بالنهار ليرى تصرُّفَه في الناسِ .

(202/408)

الثالث: أن يكونَ على حذف " مَنْ " الموصولة، أي: ومَنْ هو سارِبٌ، وهذا إنما يَتَمَشَّى عند الكوفيين، فإنهم يُجيزون حَذْفَ الموصول، وقد تقدَّم استدلالُهم ذلك .

والسَّارِب: اسمُ فاعلٍ مِنْ سَرَبَ يَسْرُبُ، أي: تَصَرَّفَ كيف شاء . قال:

2844- أَنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوْبِ . . . وتُقَرِّبُ الأحلامُ غيرَ قريبِ

وقال آخر:

2845- وكلُّ أُناسٍ قاربوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ . . . ونحن خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سارِبُ

أي: متصرِّفٌ كيف توَجَّه، لا يدفعه أحدٌ عن مَرْعى، يَصِفُ قومه بالمَنَعَة والقوة .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لَهُ ﴾ الضميرُ فيه أربعةُ أوجهٍ، أحدها: أنه عائدٌ على " مَنْ " المكررة،

أي : لِمَنْ أسرَّ القول ولِمَنْ جَهَرَ به ولِمَنْ استخفى وسَرَبَ مُعَقّبات ، أي : جماعة من الملائكة يَعْقُبُ بعضُهم بعضاً . الثاني : أنه يعود على " مَنْ " الأخيرِة ، وهو قولُ ابن عباس . قال ابنُ عطية : " والمُعَقّبات على هذا : حَرَسُ الرَّجُل وجَلاوِزَتُه الذين يحفظونَه . قالوا : والآيةُ على هذا في الرؤساء الكفار ، واختاره الطبري في آخرين " ، إلا أنَّ الماورديَّ ذكر على التأويلِ أنَّ الكلامَ نفيٌ ، والتقدير : لا يحفظونه . وهذا ينبغي أن [لا] يُسْمَعَ البتة ، كيف يَبْرُزُ كلامٌ موجَبٌ ويُراد به نفي ؟ وحَذْفُ " لا " إنما يجوز إذا كان المنفيُّ مضارعاً في جوابِ قسمٍ نحو : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَؤُا ﴾ [يوسف : 85] وقد تقدَّم تحريرُه ، وإنما معنى الكلام -كما قال المهدوي - يحفظونه مِنْ أمرِ الله في ظنّه وزعمه .

الثالث : أنَّ الضميرَ في " له " يعود على الله تعالى ذِكْرُه ، وفي " يَحْفظونه " للعبد ، أي : لله ملائكةٌ يحفظون العبدَ من الآفات ، ويحفظون عليه أعمالَه ، قاله الحسن .

الرابع : عَوْدُ الضميرين على النبي عليه السلام ، وإن لم يَجْرِ له ذِكْرٌ قريبٌ ، ولتقدُّم ما يُشعر به في قوله : ﴿ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : 8] .

ومعقِّبات : جمع " مُعَقِّب " بزنة مُفَعِّل ، مِنْ عَقَّب الرجلُ إذا جاء على عَقِبِ الآخر ؛ لأنَّ

بعضهم يعَقّب بعضاً ، أو لأنهم يُعَقّبون ما يتكلم به . وقال الزمخشري : " والأصل مُعْتَقِبات ، فَأُدْغمت التاءُ في القاف كقوله : ﴿ وَجَآءَ المعذرون ﴾ [التوبة : 90] ، أي : : المُعْتَذِرُون " ، ويَجوز " مُعِقّبات " بكسر العين ولم يقرأ به . وقال الشيخ : " وهذا وهمٌ فاحشٌ لا تُدْغم التاءُ في القاف ، ولا القاف في التاء ، لا مِنْ كلمةٍ ولا مِنْ كلمتين ، وقد نصَّ التصريفيون على أن القافَ والكاف كلٌ منهما يُدْغم في الآخر ، ولا يدغمان في غيرهما ، ولا يُدْغم غيرهما فيهما . وأمَّا تشبيهُه بقوله : ﴿ وَجَآءَ المعذرون ﴾ فلا يتعيَّن أن يكونَ أصلُه " المُعْتَذِرون " وقد تقدَّم توجيهُه ، وأنه لا يتعيَّن ذلك فيه . وأمَّا قوله " ويجوز " مُعِقّبات " بكسر العين فهذا لا يجوز لأنه بناه على أنَّ أصلَه " مُتَعَقّبات " فأُدْغِمَت التاءُ في القافِ ، وقد بيَّنَّا أنَّ ذلك وهمٌ فاحشٌ " / .

وفي " مُعَقِّبات " احتمالان ، أحدهما : أن يكون " مُعَقِّبة " بمعنى مُعَقِّب والتاء للمبالغة كعلاَّمَة ونسَّابة ، أي : مَلَكٌ مُعَقِّبٌ ، ثم جُمِع كعلاَّمات ونسَّابات . والثاني : أن يكون " مُعَقِّبة " صفةً لجماعة ، ثم جُمِع هذا الوصفُ . وذكر ابن جرير أنَّ " مُعَقِّبة " جمعُ مُعَقِّب ، وشبَّه ذلك برجل ورجال ورجالات . قال الشيخ : " وليس كما ذَكَرَ ، إنما ذلك كجَمَل وجِمال وجِمالات ، ومُعَقِّبة ومُعَقِّبات إنما هي كضاربِة وضاربات .

ويمكن أن يُجابَ عنه بأنه يريد بذلك أنه أُطْلِق مِنْ حيث الاستعمالُ على جمع مُعَقَّب، وإن كان أصلُه أن يُطْلَق على مؤنث "مُعَقِّب"، فصار مثلَ "الوارِدَة" للجماعة الذين يَرِدُون، وإن كان أصلُه للمؤنثة من جهةِ أن جموعَ التكسير في العقلاء تُعامَلُ معاملةَ المؤنثة في الإِخبار وعَوْدِ الضمير، ومنه قولهم "الرجال وأعضادُها"، [و "العلماء ذاهبة إلى كذا" وتشبيهه] ذلك برجل ورجال ورِجالات من حيث المعنى لا الصناعةُ".

وقرأ أُبَيّ وإبراهيم وعُبيد الله بن زياد "له مَعاقيبُ". قال الزمخشري: [جمع مُعْقِب أو] مُعْقِبة، والياءُ عوضٌ مِنْ حذف إحدى القافين في التكسير". قلت: ويوضِّحُ هذا ما قاله ابنُ جني فإنه قال: "معاقيب تكسير [مُعْقِب بسكونِ العين] وكسر القاف كمُطْعِم ومَطاعِيْم، ومُقْدِم ومَقاديم، فكأنَّ مُعْقِباً جُمِع على مَعاقِبَة، ثم جُعِلَتِ الياء في "مَعاقيب" عوضاً من الهاء المحذوفة في مَعاقبة".

قوله: ﴿ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ يجوز أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ لـ "مُعَقِّبات" ويجوز أُنْ يتعلَّق بمعقِّبات، و "مِنْ" لابتداء الغاية، ويجوز أن يكونَ حالاً من الضمير الذي هو في الظرف الواقع خبراً. والكلامُ على هذه الأوجهِ تامٌّ عند قوله ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾. وعَبَّر أبو البقاء عن هذه الأوجهِ بعبارةٍ مُشْكلة هذا شَرْحُها، وهي قولُه: ﴿ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾

يجوز أن يكونَ صفةً لمعَقِّبات ، وأن يكون ظرفاً ، وأن يكونَ حالاً مِنَ الضميرِ الذي فيه ، فعلى هذا يتم الكلامُ عنده " . انتهى .

(205/408)

ويجوز أَنْ يتعلَّق ب " يحفظونه " ، أي : يحفظونه مِنْ بينِ يديه ومِنْ خلفِه . [فإن قلت : كيف يتعلَّق حرفان] متحدان لفظاً ومعنى بعاملٍ واحد : وهما " مِنْ " الداخلةُ على " بين " و " مِنْ " الداخلة على " أَمْرِ الله " ؟ فالجواب أنَّ " مِنْ " الثانيةَ مغايرةٌ للأولى في المعنى كما ستعرفه .

قوله ﴿ يَحْفَظُونَهُ ﴾ يجوز أن يكونَ صفةً ل " مُعَقِّبات " ، ويجوز أن يكونَ حالاً من الضميرِ المستكنِّ في الجارِّ الواقعِ خبراً . و ﴿ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ متعلِّقٌ به ، و " مِنْ " : إمَّا للسبب ، أي : بسبب أمرِ الله ، -ويدلُّ له قراءة علي بن أبي طالب وابن عباس وزيد بن علي وعكرمة " بأَمْرِ الله " . وقيل : المعنى على هذا : يحفظون عملَه بإذن الله ، فحذف المضافَ- وإمَّا أن تكونَ على بابها . قال أبو البقاء : " مِنْ أُمْرِ الله ، أي : من الجنِّ والإِنس ، فتكون " مِنْ " على بابها " . يعني أَنْ يُرادَ بأمر الله نفسُ ما يُحْفَظُ منه كمَرَدة الإِنس والجنِّ ، فتكون " مِنْ " لابتداء الغاية .

وجوَّز أيضاً أن تكونَ بمعنى " عن " ، وليس عليه معنىً يليقُ بالآية الكريمة .

ويجوز أن تتعلَّق بمحذوفٍ على انه صفةٌ لمُعُقّبات أيضاً ، فيجيء الوصفُ بثلاثةِ أشياءَ في بعض الأوجه المتقدمة : بكونها مِنْ بينِ يديه ومِنْ خلفِه ، وبكونها تحفظُه ، وبكونها مِنْ أَمْرِ الله ، ولكن يتقدَّمُ الوصفُ بالجملةِ على الوصف بالجارِّ ، وهو جائزٌ فصيح . وليس في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ كما زعم الفراءُ وغيره ، وأن الأصلَ : له مُعَقِّبات مِنْ أَمْرِ الله يحفظونه مِنْ بينِ يديه ، لأنَّ الأصلَ عدمُه مع الاستغناءِ عنه .

قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ ﴾ العاملُ في " إذا " محذوفٌ لدلالة جوابِها عليه تقديرُه : لم يُرَدَّ ، أو وقع ، ونحوُهما ، ولا يَعْمل فيها جوابُها ؛ لأنَّ ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها . انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 23 . 30 ﴾

(206/408)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ .

الكناية في : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ راجعة إلى العبد ، أي أن الله وكَلَ بكلِّ واحدٍ منهم معقباتٍ

وهم الملائكة الذين يعقب بعضهم بعضاً بالليل والنهار يحفظون هذا المكَلَّف وذَاكَ من أمر الله ، أي من البلاء الذي بقدرة الله . يحفظونهم بأمر الله من أمر الله ، وذلك أن الله – سبحانه – وَكَلَ لكلِّ واحدٍ من الخَلْق ملائكةً يدفعون عنهم البلاءَ إذا ناموا وغفلوا ، أو إذا انتبهوا وقاموا ومشوا . . . وفي جميع أحوالهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يغيروا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ .

وإذا غيّروا ما بهم إلى الطاعات غيّر الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة ، وإذا كانوا في نعمة فغيّروا ما بهم من الشكر لله تغيّر عليهم ما مَنَّ به من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك ، وإذا كانوا في شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أخذوا في التضرع ، وأظهروا العجز غيّر ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل .

ويقال إذا غيّروا ما بألسنتهم من الذِّكْرِ غيّر الله ما بقلوبهم من الحظوظ فأبدلهم به النسيانَ والغفلة ، فإذا كان العبد في بسطةٍ وتقريب ، وكشفٍ بالقلب وترقب . . فاللَّهُ لا يُغيِّر ما بأنفسهم بترك أدب ، أو إخلال بحقٍ ، أو إلمام بذنب .

ويقال لا يَكُفُّ ما أَتَاحه للعبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يتركَ ويُغَيِّر ما هو به من الشكر والحمد . فإذا قابل النعمة بالكفران ، وأبدل حضور القلب بالنسيان وما يُطيح به

من العصيان . . أبدل اللَّهُ تعالى ما به من النعمة بالحرمان والخذلان ، وسَلَبه ما كان يعطيه من الإحسان .

ويقال إذا توالت المحنُ وأراد العبدُ زوالَها فلا يصل إليه النَّفْضُ منها إلَّا بأَنْ يغير ما هو به ؛ فيأخذ في السؤال بعد السكوت ، وفي إظهار الجَزَع بعد السكون ، فإذا أخذ في التضرع غيَّر ما به من الصبر .

قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ : يقال إذا أراد اللَّهِ بقوم بلاءً وفتنة فما تعلَّقَتْ به المشيئة لا محالة يجري .

ويقال إذا أراد الله بقوم سوءاً (. . .) أعينهم حتى يعملوا ويختاروا ما فيه بلاؤهم ، فهم يمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، ويسعون – في الحقيقة – في دَمِهم كما قال قائلهم :

إلى حَتْفِي مَشَى قدمي . . . إذا قَدَمِي أراق دمي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 218 . 219 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة :

﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) ﴾

التفسير : ﴿ تلك ﴾ الآيات التي في هذه السورة آيات السورة العجيبة الكاملة في بابها ﴿ والذي أنزل إليك من ربك ﴾ أي القرآن كله هو ﴿ الحق ﴾ الذي لا محيد عنه والمراد أنه لا تنحصر الحقية في هذه السورة وحدها . ثم أخذ في تفصيل الحق فبدأ بالدلالة على صحة المبدأ والمعاد فقال : ﴿ الله ﴾ وهو مبتدأ خبره ﴿ الذي ﴾ أو الموصول صفة المبتدأ ، وقوله : ﴿ يدبر الأمر يفصل الآيات ﴾ خبر بعد خبر . والعمد بفتحتين جمع عمود وهو ما يعمد به الشيء شبه الأسطوانة . وقوله : ﴿ ترونها ﴾ كلام مستأنف على سبيل الاستشهاد أي وأنتم ترونها مرفوعة بلا عماد . وقال الحسن : في الآية تقديم وتأخير تقديره رفع السموات ترونها مرفوعة بغير عمد وفيه تكلف . وقيل : ترونها صفة للعمد . ثم زعم من تمسك بالمفهوم أن للسموات عمدا لكنا لا نراها وما تلك العمد ؟ قال بعض الظاهريين : هي جبل من زبرجد محيط بالدنيا يسمى جبل قاف . ولا يخفى سقوط هذا

القول لأن كل جسم لو كان يلزم أن يكون معتمداً على شيء فذلك الجبل أيضاً كان معتمداً على شيء فذلك الجبل أيضا كان معتمداً على شيء وتسلسل .

وقال بعض من ترقى في حضيض الصورة إلى ذروة عالم المعقول : إن تلك العمد هي قدرة الله تعالى وحفظه الذي أوقفها في الجوّ العالي . ونحن لا نرى ذلك التدبير ولا نعرف كيفية ذلك الإمساك . أما قوله : ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ فعن ابن عباس أن للشمس مائة وثمانين منزلاً في مائة وثمانين يوماً ، إنها تعود مرة أخرى إلى واحد واحد منها في أمثال تلك الأيام ومجموع تلك الأيام سنة تامة . أقول : إن صح عنه فلعله أراد تصاعدها في دائرة نصف النهار وتنازلها عنها في أيام السنة ، وأراد نزولها في فلكها الخارج المركز من الأوج إلى الحضيض ، ثم صعودها من الحضيض إلى الأوج فإن لها بحسب كل جزء من تلك الأجزاء في كل يوم من أيام السنة تعديلاً خاصاً زائداً أو ناقصاً كما برهن عليه أهل النجوم . وأما القمر فسيره في منازله مشهور . وقال سائر المفسرين : المراد كونهما متحركين إلى يوم القيامة وبعد ذلك تنقطع الحركات وتنتهي المسيرات كقوله : ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ [الأنعام : 2] واللام للتاريخ كما تقول : كتبت لثلاث خلون . وإنما قال في سورة لقمان ﴿ إلى أجل

مسمى ﴾ [لقمان : 29] موافقة لقبيل ذلك ومن يسلم وجهه إلى الله والقياس لله كما في قوله : ﴿ أسلمت وجهي لله ﴾ [آل عمران : 20] ﴿ يدبر الأمر ﴾ إجمال بعد التفصيل أي أمر العالم العلوي والعالم السفلي من أعلى العرش إلى ما تحت الثرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن ، لأن تدبيره لعالم الأرواح كتدبيره لعالم الأشباح ، وتدبيره للكبير كتدبيره للصغير لا يختلف بالنسبة إلى قدرته أحوال شيء من ذلك في الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وتبديل الصور والأعراض وتغيير الأشكال والأوضاع ﴿ يفصل الآيات ﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته ، ويحتمل أن يراد بتدبير الأمر تدبير عالم الملكوت ، ويكون معنى تفصيل الآيات إنزال الكتب وبعث الرسل وتكليف العباد الذي هو أثر ذلك العالم في العالم السفلي . ويجوز أن يكون تدبير الأمر إشارة إلى القضاء

(210/408)

، وتفضيل الآيات إشارة إلى القدر . وقوله : ﴿ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ على كل التفاسير إشارة إلى إثبات المعاد لأن المقر بتبيره وتقديره على الأنهاج المذكور لا بد أن يعترف باقتداره على الإعادة والجزاء .

ولما ذكر الدلائل السماوية أتبعها الدلائل الأرضية فقال : ﴿ وهو الذي مد الأرض ﴾ قال

الأصم : أي بسطها إلى ما لا يدرك منتهاه ، وهذا الامتداد الظاهر لحس البصر لا ينافي كريتها لتباعد أطرافها ﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابت في أحيازها غير منتقلة عن أماكنها . وكيفية تكوّن الجبال على بسيط الأرض لا يعلم تفصيلها إلا موجدها .

وزعمت الفلاسفة أنها من تأثير المسوات في الأجزاء الأرضية القابلة لذلك الأثر بعد امتزاجها بالأجزاء المائية وغيرها ، وقد يعين على ذلك نزول الأمطال وهبوب الرياح وهذا إن صح فعلم إجمالي .

(211/408)

وزعم بعضهم أن البحار كانت في جانب الشمال مدة كون حضيض الشمس هناك ، وحين انتقل الحضيض إلى الجنوب انجذبت المياه إلى ذلك الجانب لأن الشمس تصير في الحضيض أقرب إلى الأرض فتوجب شدة السخونة الجاذبة للرطوبات فصار الطين اللزج حجراً وحدثت الجبال والأغوار بحسب المواضع المرتفعة والمنخفضة وبإعانة من السموات والآثار العلوية . وبالجملة فالأسباب تنتهي لا محالة إلى مسبب لا سبب له وهو الله سبحانه . ومن الدلائل الدالة على وجود الصانع ووحدانيته جريان الأنهار العظيمة على وجه الأرض الكائنة فيها من احتباس الأبخرة ، وأكثر ذلك أنما يتكّون في الجبال فلذا قرن

الجبال بالأنهار في القرآن كثيراً كقوله : ﴿ وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ﴾ [المرسلات : 27] وقد يحصل فيها معادن الفلزات ومواضع الجواهر ومكامن الأجسام المائعة من النفط والقير والكبريت وغيرها ، وكل ذلك دليل على وجود فاعل مختار ومدبر قهار . ثم يحدث على الأرض بتربية المياه وتغذيتها أنواع النبات فللك قال : ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ وللمفسرين فيه قولان : الأول أنه حين مد الأرض خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين ، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوّعت فيكون كل زوجين بالنسبة إلى ذلك النوع كآدم وحواء بالإضافة إلى الإنسان . القول الثاني : إنه أراد بالزوجين الأسود والأبيض والحلو والحامض والصغير والكبير وما أشبه ذلك من الاختلاف الصنفي . ووصف الزوجين بالاثنين للتأكيد مثل نفخة واحدة . أما قوله : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ فقد مر تفسيره في " الأعراف " وإنما ذكر هذا الإنعام في أثناء الدلائل الأرضية لأن النور والظلمة إنما يحدثان في الجوّ الذي يسميه الحكماء كرة النسيم وكرة البحار وليس فيما وراء ذلك ضياء ولا ظلام . فتعاقب الليل والنهار من جملة الأحداث السفلية وإن كان سببها طلوع الشمس وغروبها في الأفق . ويحتمل أن يقال : إن هذا دليل سماوي وإنه سبحانه

عاد مرة أخرى إلى الدليل السماوي ثم إلى الدليل الأرضي وذلك قوله : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ أي بقاع مختلفة مع كونها متجاورة ومتلاصقة طيبة إلى سبخة ، وصلبة إلى رخوة ، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على خلافها ، وفي هذا دلالة ظاهرة على أنها بجعل فاعل مختار موقع لأفعاله على حسب إرادته ، وكذا الكروم والزروع والنخيل الكائنة في هذه القطع مختلفة الطباع متخالفة الثمار في اللون والطعم والشكل وهي تسقى بماء واحد ، فدل ذلك على أن هذه الاختلافات لا تستند إلى الطبيعة فقط ولكنها بتقدير العزيز العليم . وإنما ذكر الزرع بين الأعناب والنخيل لأنها كثيراً ما تكون كذلك في الوجود كقوله ﴿ جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ [الكهف : 32] والصنوان جمع صنو وهي النخلة لها رأسان وأصلهما واحد .

وعن ابن الأعرابي : الصنو المثل ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " عم الرجل صنو أبيه " فمعنى الآية على هذا أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون ، والأكل الثمر الذي يؤكل . قاله الزجاج . وعن غيره أنه عام في جميع المطعومات . وإنما ختم الآية السابقة

بقوله : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ وهذه بقوله : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ لأن المقام الأوّل يحتاج إلى التفكر لأن الفلاسفة يسندون الحوادث السفلية إلى الآباء الأثيرية والأمهات العنصرية ، لكن العاقل إذا تفكر في اختصاص كل ممتزج بحيز معين وشكل معين وطبيعة وخاصية مخالفتين لغيره علم أن كل هذه الاختلافات لا تستند إلى أشعة كواكب معدودة ولا إلى طبائع عناصر محصورة كما أشير إلى ذلك بقوله : ﴿ وفي الأرض قطع ﴾ الآية . ولئن سلم أن الاتصالات الفلكية واختلافات الفواعل والقوابل قد ترتقي إلى حد يظهر منها هذه الآثار فلا بد لكل سبب من الانتهاء إلى مسبب لا سبب فوقه وليس ذلك إلا الله وحده ، فهذا مقام لا يجحده إلا عادم عقل بل فاقد حس . والحاصل أن التفكر في الآيات يوجب عقلية ما جعلت الآيات دليلاً عليه فهو الأوّل المؤدي إلى الثاني والله ولي التوفيق .

(214/408)

ثم عاد سبحانه إلى ذكر المعاد فقال : ﴿ وإن تعجب ﴾ قال ابن عباس : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك بعدما كانوا حكموا أنك من الصادقين ، فهذا أعجب . أو إن تعجب من عبادتهم الأصنام بعد الدلائل الدالة على التوحيد ، أو إن تعجب يا محمد فقد عجبت في موضع العجب لأنهم اعترفوا بأنه تعالى رفع السموات بغير عمد وسخر الشمس

والقمر على وفق مصالح العباد وأظهر الغرائب والعجائب في عالم الخلق ، ثم أنكروا الإعادة التي هي أهون وأسهل . قال المتكلمون : موضع العجب هو الذي لا يعرف سببه وذلك في حقه تعالى محال ، فالمراد وإن تعجب ﴿ فعجب ﴾ عندك ﴿ قولهم ﴾ وإن سلم أن المراد عجب عند الله كما قرئ في الصافات ﴿ بل عجبت ﴾ [الصافات : 12] بضم التاء فتأويله أنه محمول على النهاية لا على البداية أي منكر عند الله ما قالوه فإن الإنسان إذا تعجب من شيء أنكره . قال في الكشاف ﴿ أئذا كنا ﴾ إلى آخر قولهم ، يجوز أن يكون في محل الرفع بدلاً من قولهم ، وأن يكون منصوباً بالقول . وإذا نصب بما دل عليه قوله : ﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾ وهو نبعث أو نحشر . ثم حكم عليهم بأمور ثلاثة : الأول ﴿ أولئك الذي كفروا بربهم ﴾ يعني أولئك الكاملون المتمادون في كفرهم وذلك أن إنكار البعث لا يكون إلا عن إنكار القدرة أو عن إنكار كمالها بأن يقال : إنه موجب بالذات لا فاعل بالاختيار فلا يمكنه إيجاد الحيوان إلا بواسطة الأبوين وتأثير الطبائع والأفلاك او إنكار العلم بأن يقال : إنه غير عالم بالجزيئات فلا يمكنه تمييز المطيع عن العاصي ، أو تمييز أجزاء بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو ، أو إنكار الصدق كما إذا قيل : إنه أخبر عنه ولكنه لا يفعل لأن الكذب جائز عليه كما لا يكذب أحدنا بناء على مصلحة عامة أو خاصة وكل واحدة من هذه العقائد كفر فضلاً عن جميعها .

والثاني : ﴿ وأولئك الأغلال في أعناقهم ﴾ قال الأصم : المراد بذلك كفرهم . وذلتهم وانقيادهم للأصنام . يقال للرجل هذا غل في عنقك للعمل الرديء إذا كان لازماً له وهو مصر على فعله . وقال آخرون : هو من جملة الوعيد . ولا بد من تجوّز على القولين : أما على الأول فظاهر ، وأما على الثاني فلأن المراد أنه سيحصل هذا المعنى . والظاهر أنه حاصل في الحال ويؤيد القول الثاني قوله : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ والأول قوله : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ [يس : 8] والثالث : ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وربما يستدل الأشاعرة به أن الصيغة للحصر فيدل على أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار ، ويمكن أن يناقش في إفادتها الحصر .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم كان يهددهم تارة بعذاب الآخرة وكانوا ينكرون البعث لذلك كما تقدم ، ويخوفهم تارة أخرى بعذاب الدنيا فيستعجلونه به زعماً منهم أنه كلام لا أصل له وإلى هذا أشير بقوله : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة ﴾ بالعذاب والعقوبة التي تسوءهم . ﴿ قبل ﴾ تمام ﴿ الحسنة ﴾ وهي العافية والإحسان إليهم بالإهمال والتأخير ﴾ وقد

خلت من قبلهم المثلات ﴾ أي عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بها ؟

وأصل هذا الحرف من المثل الذي هو الشبه لأن العقاب مماثل للمعاقب عليه ومنه " المثلة " بالضم والسكون لتقبيح الصورة بقطع الأنف والأذن وسمل العين ونحو ذلك ، وذلك أنه ليس تغييراً كلياً لا يماثل الصورة الأولى وإنما ذلك تغيير تبقى الصورة معه قبيحة . ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ قالت الأشاعرة : فيه دلالة على جواز العفو عن صاحب الكبيرة قبل التوبة لأن قوله : ﴿ على ظلمهم ﴾ حال منهم ، ومن المعلوم أن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً لكن الآية دلت على أنه تعالى يغفر الذنوب قبل الاشتغال بالتوبة ترك العمل بها في حق الكافر فيبقى معمولاً بها في حق أهل الكبائر . لا يقال : إن المراد من هذه المغفرة تأخير العقاب إلى الآخرة ليقع جواباً عن استعجالهم . أو المراد غفران الصغائر لمجتنب الكبائر ، أو غفران الكبائر بشرط التوبة فإن تاب وإلا فهو شديد العقاب لأنا نقول : تأخير العقاب إلى الآخرة لا يسمى مغفرة وإلا كان غافراً للكفار . وأيضاً إنه تعالى مدح نفسه بهذا والتمدح إنما يحصل بالتفضل لا بأداء الواجب . وعندكم يجب غفران الصغائر لمن اجتنب الكبائر . وجواب الباقي ما مر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد "

قال أهل النظم : إن الكفار طعنوا في نبوته بسبب الطعن في الحشر والنشور ، ثم طعنوا في نبوّته بسبب استبطاء نزول العذاب ، ثم طعنوا في نبوّته بسبب عدم الاعتداد بمعجزاته وذلك قوله : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ وقد تقدم مثل هذا في " الأنعام " في تفسير قوله : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ [الأنعام : 8] ويجيء مثل هذه بعينها في هذه السورة . قيل : وليس بتكرار محض لأن المراد بالأول آية مما اقترحوا نحو ما في قوله : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر ﴾ [الإسراء : 90] الآيات وبالثاني آية ما لأنهم لم يهتدوا إلى أن القرآن آية فوق كل آية وأنكروا سائر آياته صلى الله عليه وسلم ، أو لعلهم ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات فأجاب سبحانه تسلية لرسوله ﴿ إنما أنت منذر ﴾ ما عليك إلا الإتيان بما يصح به دعوى إنذارك ورسالتك ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ من الأنبياء يدعوهم إلى الله بوجه من الهداية والإرشاد يليق بزمانه وبأمته . ولم يجعل الأنبياء شرعاً في المعجزات فعلى هذا التقدير المنذر النبي والهادي نبي إلا أن الأول محمد والثاني نبي كل زمان . وقيل : المنذر محمد والهادي هو الله تعالى قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك . والمعنى أنهم إن جحدوا كون القرآن معجزاً فلا يضيقن قلبك بسببه فما عليك إلا الإنذار . وأما الهداية فمن الله . وقيل : المنذر النبي والهادي هو علي . روي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على صدره فقال

: أنا المنذر وأومأ إلى منكب علي فقال : وأنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون بعدي

قاله في التفسير الكبير.

(218/408)

ثم أكد المعاني المذكورة في الآيات السابقة بقوله : ﴿ الله يعلم ﴾ لأنه إذا كان عالماً بجميع المعلومات قدر على تمييز أجزاء بدن كل مكلف من غيره فلا يستنكر منه البعث ، ويكون نزول العذاب مفوّضاً إلى عمله فلا يجوز استعجاله به ، وكذا إنزال الآيات يكون موكولاً إلى تدبيره فإن علم أن المكلفين اقترحوها لأجل الاسترشاد ومزيد البيان أظهرها الله تعالى لهم وإلا فلا ، وفيه أن إعطاءه كل منذر آيات خلاف آيات غيره أمر مدبر بالعلم النافذ مقدر بالحكمة الربانية. وعلى القول الثاني فيه أن من هذه قدرته وهذا علمه وهو القادر وحده على هدايتهم بأي طريق شاء ، وعلى هذا احتمل أن يكون ﴿ الله ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة مفسرة ل ﴿ هاد ﴾ أي هو الله. ثم ابتدأ فقيل : ﴿ يعلم ﴾ ﴿ ما تحمل كل أنثى ﴾ قال في الكشاف : لفظة " ما " في ﴿ ما تحمل ﴾ و ﴿ ما تغيض ﴾ و ﴿ ما تزداد ﴾ إما أن تكون مصدرية والمعنى يعلم حمل كل أنثى ويعلم غيض الأرحام

وازديادها أو غيوض ما فيها وزيادته على أن الفعلين غير متعديين فأسند الفعل إلى الأرحام وهو لما فيها .

(219/408)

والازدياد " افتعال " من زاد فأبدلت التاء دالاً ، وإنه يتعدى ولا يتعدى كثلاثيه . أو موصولة والمراد يعلم ما تحمله من الولد ذكورته وأنوثته وتخاطيط أعضائه وسائر أحواله من السعادة وضدها ومن العلم وضده إلى غير ذلك ، ويعلم ما تغيضه الأرحام أي تنقصه كقوله : ﴿ وغيض الماء ﴾ [هود : 44] وما تزداده من العدد فقد يكون واحداً وأكثر ، ومن الخلقة فقد يكون تماماً أو مخدجاً ، ومن المدة فقد يكون أقل من تسعة أشهر أو أزيد إلى سنتين عند أبي حنيفة ، وإلى أربع عند الشافعي ، وإلى خمس عند مالك ، ومن دم الحيض . قال ابن عباس : كلما سال الحيض يوماً زاد في مدة الحمل يوماً ليحصل الجبر ويعتدل الأمر . ثم بين كمال علمه ونفاذ أمره بقوله : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ واحد لا يتجاوزه في طرفي التفريط والإفراط ، والمراد بالعندية العلم كما يقال : هذه المسألة عند الشافعي كذا . وذلك أنه سبحانه خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة حسب مشيئته الأزلية وإرادته السرمدية . وقال حكماء الإسلام : وضع أسباباً كلية وأودع فيها

قوى وخواص وحرك الأجرام بحيث يلزم من حركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة أحوال جزئية معينة ومناسبات معلومة مقدّرة ، ومن جملتها أفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم ولذلك ختم الآية بقوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي هو عالم بما غاب عن الحسن وبما حضر له ، أو بما غاب عن الخلق وبما شهدوه أو بالمعدومات وبالموجودات ﴿ الكبير ﴾ في ذاته لا بحسب الحجمية بل بالرتبة والشرف لأنه أجل الموجودات ﴿ المتعال ﴾ المنزه عن كل ما يجوز عليه في ذاته في صفاته وفي أفعاله .

(220/408)

ثم زاد في التأكيد فقال : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾ أي مستوفى علمه هذان لأنه يعلم السر كما يعلم الجهر لا يتفاوت في علمه أحد الحالين ﴿ و ﴾ سواء عنده ﴿ من هو مستخف بالليل وسارب ﴾ على أن ﴿ سارب ﴾ معطوف على ﴿ من ﴾ لا على ﴿ متسخف ﴾ ليتناول معنى الاستواء شخصين : أحدهما مستخف والآخر سارب . وإلا فلم يتناول إلا واحداً هو مستخف وسارب إلا أن يكون "من" في معنى الاثنين حتى كأنه قيل : سواء منكم اثنان متسخف بالليل وسارب ﴿ بالنهار ﴾ وفي المستخفي والسارب قولان : أحدهما أن المستخفي هو المستتر الطالب للخفاء في ظلمة

الليل ، والسارب من يضطرب في الطرقات ظاهراً بالنهار يبصره كل أحد . يقال : سرب في الأرض سروباً أي ذهب في سربه بالفتح والسكون وهو الطريق ويؤديه قول مجاهد : معناه سواء من يقدم على القبائح في ظلمات الليالي ومن يأتي بها في النهار الظاهر على سبيل التوالي . وثانيهما نقل الواحدي عن الأخفش وقطرب : المستخفي الظاهر من قولهم : " اختفيت الشيء " أي استخرجته ، والسارب المتواري الداخل سرباً بفتحتين ومنه انسرب الوحش إذا دخل في كناسه .

وهذا وإن صح من حيث اللغة لكن قرينتي الليل والنهار إنما تساعدان القول الأول ، ولهذا أطبق أكثر المفسرين عليه . ثم ذكر ما يجري في الظاهر مجرى السبب لاستواء علمه بحال المسر والمعلن فقال : ﴿ له ﴾ أي لمن أسر ومن جهر ومن استخفى ومن سرب ﴿ معقبات ﴾ جماعات من الملائكة تعقب في حفظه وكلاءته . والأصل معتقبات فأدغمت ، أو هو على أصله من عقبه بالتشديد إذا جاء على عقبه لأن بعضهم يعقب بعضاً ، أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه . والتأنيث للمبالغة نحو " نسابة " و " علامة " ، أو لأنه جمع معقبة أي ملائكة معقبة أو جماعة معقبة . وقوله : ﴿ من أمر الله ﴾ ليس من صلة

الحفظ لأنه قدرة للملك ولا لأحد من الخلق على أن يحفظوا أحداً من قضاء الله وإنما هو صفة أخرى كأنه قيل : له معقبات من أمر الله يحفظونه ، أو له معقبات يحفظونه ، ثم بين سبب الحفظ فقال : ﴿ من أمر الله ﴾ أي من أجل أن الله أمرهم بحفظه فمن بمعنى الباء وقرأ به عليّ وابن عباس وغيرهما ، ويجوز أن يكون صلة على معنى يحفظونه من بأس الله إذا أذنب بدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب . قال ابن جريج : هو مثل قوله تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ [ق : 17] صاحب اليمين يكتب الحسنات والذي عن يساره يكتب السيئات . وقال مجاهد : ما من عبد إلا وله ملك يحفظه من الجن والإنس والهوام في نومه ويقظته . وقيل : المراد يحفظونه من جميع المهالك من بين يديه ومن خلفه لأن كلاّ من المستخفي والسارب إذا سعى في مهماته فإنما يحذر من الجهتين .

وما الفائدة في تسليط هؤلاء على ابن آدم ؟ قال علماء الشريعة : إن الشياطين يدعون إلى المعاصي والشرور وهؤلاء الملائكة يدعون إلى الخيرات والطاعات بالإلهامات الحسنة والإخطارات الشريفة . وإذا علم ابن آدم أن معه ملائكة يحصون عليه أفعاله وأقواله استحيا منهم وكان ذلك له رادعاً قوياً ، وقد مر في هذا الباب كلام في " الأنعام " في قوله :

﴿ ويرسل عليكم حفظةً ﴾ فليتذكر ﴿ الآية : 61] . وللآية تفسير آخر منقول عن ابن عباس وختاره أبو مسلم الأصفهاني قال : المعقبات الحرس وأعوان الملوك ، والجملة وهي قوله : ﴿ له معقبات ﴾ صفة للمستخفي والسارب أو حال منه لكونه نكرة موصوفة أي يستوي في علم الله السر والجهر ، والمستخفي بظلمة الليل والسارب بالنهار مستظهراً بالمعاونين والأنصار . والمقصود بعث الأمراء والسلاطين على أن يطلبوا الخلاص عن المكاره بعصمة الله لا بالحرس والأعوان ولذلك ختم الآية بقوله : ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ ممن يلي أمرهم ويدفع عنهم .

(223/408)

قالت الأشاعرة : في هذا الكلام دلالة على أن العبد غير مستقل في الفعل لأنه إذا كفر العبد فلا شك أنه تعالى حكم بكونه مستحقاً للذم في الدنيا والعقاب في الآخرة ، فلو كان العبد مستقلاً لحصل الإيمان وكان راداً لقضاء الله تعالى . وقالت المعتزلة : هذا معارض بما تقدم عليه من كلام الله وهو قوله : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ لأنه لو ابتدأ بالعبد أول ما يبلغ بالضلال والخذلان كان ذلك من أعظم العقاب مع أنه ما كان منه تغيير . قالوا : وفيه دليل على أنه لا يعاقب أطفال المشركين بذنوب آبائهم لأنهم لم يغيروا ما

بأنفسهم من نعمة فيغير الله ما بهم من النعمة إلى العقاب . أجابت الأشاعرة بأن هذا راجع إلى قوله : ﴿ ويستعجلونك ﴾ بين الله سبحانه بذلك أنه لا ينزل بهم عذاب الاستئصال إلا والمعلوم منهم الإصرار على الكفر حتى قالوا : إذا كان المعلوم أن فيهم من يؤمن أو في أعقابهم من يؤمن فإنه لا يستأصلهم . ورد بأن هذا خلاف الظاهر وقد صرح بذلك في سورة الأنفال في قوله : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً ﴾ [الآية : 53] الآية . والحق أن ترتب النقمة على تغيير النعمة لا ينافي استناد تغيير النعمة إليه فإنه مبدأ المبادىء وانتهاء الوسائط وسبب الأسباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن جـ 4 صـ 136 . 144 ﴾

(224/408)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أي : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ، والله تعالى لا يجوز عليه التعجب ؛ لأنه تغير النفس بشيء تخفى أسبابه وإنما ذكر ذلك ليعجب منه رسوله وأتباعه .

قال الزجاج : أي هذا موضوع عجب أيضاً أنهم أنكروا البعث ، وقد بين لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل في القدرة .

وقيل : الآية في منكري الصانع ، أي : إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغير ، فهو محل التعجب ، والأول أولى لقوله : ﴿ أإذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد ﴾ وهذه الجملة في محل رفع على البدلية من ﴿ قولهم ﴾ ، ويجوز أن تكون في محل نصب على أنها مقول القول ، والعجب على الأول كلامهم ، وعلى الثاني تكلمهم بذلك ، والعامل في "أإذا" ما يفيده قوله : ﴿ أَإنا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وهو نبعث أو نعاد ، والاستفهام منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد ، وتقديم الظرف في قوله : ﴿ لَفِى خَلْقٍ ﴾ لتأكيد الإنكار بالبعث ، وكذلك تكرير الهمزة في قوله : " أإنا " .

ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمور ثلاثة : الأول : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ أي : أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث : هم المتمادون في الكفر الكاملون فيه ، والثاني ﴿ وَأُوْلَئِكَ الأغلال فِى أعناقهم ﴾ الأغلال : جمع غلّ ، وهو طوق تشد به اليد إلى العنق ، أي : يغلون بها يوم القيامة ، وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق .

والثالث : ﴿ وَأُوْلَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ، وفي توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكري البعث .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ السيئة : العقوبة المهلكة ، والحسنة : العافية والسلامة .

قالوا هذه المقالة لفرط إنكارهم وشدّة تصميمهم وتهالكهم على الكفر .

وقيل : معنى الآية : أنهم طلبوا العقوبة قبل الحسنة ، وهي الإيمان ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ .

قرأ الجمهور " مثُلات " بفتح الميم وضمّ المثلثة جمع مثلة كسمرة ، وهي العقوبة .

قال ابن الأنباري : المثلة : العقوبة التي تبقى في المعاقب شيئًا بتغيير بعض خلقه من قولهم : مثل فلان بفلان إذا شان خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه وبقر بطنه .

وقرأ الأعمش بفتح الميم وإسكان المثلثة تخفيفاً لثقل الضمة ، وفي لغة تميم بضم الميم والمثلثة جميعاً ، واحدتها على لغتهم : مُثلة ، بضم الميم وسكون المثلثة مثل غُرفة وغُرفات .

وحكي عن الأعمش في رواية أخرى أنه قرأ هذا الحرف بضمها على لغة تميم .

والمعنى : أن هؤلاء يستعجلونك بإنزال العقوبة بهم ، وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم

من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون بهم، ويحذرون من حلول ما حلّ بهم، والجملة في محل نصب على الحال، وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم:

﴿ اللهم إن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [الأنفال: 32] الآية.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أي: لذو تجاوز عظيم ﴿ لّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ أنفسهم باقترافهم الذنوب ووقوعهم في المعاصي إن تابوا عن ذلك، ورجعوا إلى الله سبحانه، والجارّ والمجرور أي: على ظلمهم في محل نصب على الحال أي: حال كونهم ظالمين، و " على " بمعنى: " مع " أي: مع ظلمهم، وفي الآية بشارة عظيمة ورجاء كبير؛ لأن من المعلوم أن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً، ولهذا قيل: إنها في عصاة الموحدين خاصة.

وقيل: المراد بالمغفرة هنا: تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة.

وكما تفيده الجملة المذكورة بعد هذه الآية.

وهي ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ يعاقب العصاة المكذبين من الكافرين عقاباً شديداً

على ما تقتضيه مشيئته في الدار الآخرة .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي : هلا أنزل عليه آية غير ما قد جاء به من الآيات ، وهؤلاء الكفار القائلون هذه المقالة هم المستعجلون للعذاب .

قال الزجاج : طلبوا غير الآيات التي أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى ، فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ تنذرهم بالنار ، وليس إليك من الآيات شيء .

انتهى .

وهذا مكابرة من الكفار وعناد ، وإلاّ فقد أنزل الله على رسوله من الآيات ما يغني البعض منه ، وجاء في ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ بصيغة الحصر لبيان أنه صلى الله عليه وسلم مرسل لإنذار العباد ، وبيان ما يحذرون عاقبته ، وليس عليه غير ذلك ، وقد فعل ما هو عليه ، وأنذر أبلغ إنذار ، ولم يدع شيئاً مما يحصل به ذلك إلاّ أتى به وأوضحه وكرره ، فجزاه الله عن أمته خيراً .

﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي : نبيّ يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ورشادهم .

وإن لم تقع الهداية لهم بالفعل ولم يقبلوها ، وآيات الرسل مختلفة هذا يأتي بآية أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها ، ومن طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ في التعنت إلى مكان عظيم ، فليس المراد من الآيات إلاّ الدلالة على النبوّة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية ، وذلك لا يختص بفرد منها ، ولا بأفراد معينة .

وقيل : إن المعنى ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ ، وهو الله – عزّ وجلّ – فإنه القادر على ذلك ، وليس على أنبيائه إلاّ مجرد الإنذار .

(227/408)

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾ الجملة مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته بالعلم سبحانه ، وعلمه بالغيب الذي هذه الأمور المذكورة منه ، قيل : ويجوز أن يكون الاسم الشريف خبراً لمبتدأ محذوف ، أي : ولكل قوم هاد وهو الله .

وجملة ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾ تفسير لهاد على الوجه الأخير ، وهذا بعيد جداً ، و " ما " موصولة ، أي : يعلم الذي تحمله كل أنثى في بطنها من علقة ، أو مضغة ، أو ذكر ، أو أنثى ، أو صبيح ، أو قبيح ، أو سعيد ، أو شقي .

ويجوز أن تكون استفهامية ، أيّ : يعلم أي شيء في بطنها ، وعلى أيّ حال هو .

ويجوز أن تكون مصدرية أي : يعلم حملها ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام وَمَا تَزْدَادُ ﴾ الغيض : النقص ، أي : يعلم الذي تغيضه الأرحام ، أي : تنقصه ، ويعلم ما تزداده .

فقيل : المراد نقص خلقة الحمل وزيادته كنقص إصبع أو زيادتها .

وقيل : إن المراد نقص مدّة الحمل على تسعة أشهر ، أو زيادتها ، وقيل .

إذا حاضت المرأة في حال حملها كان ذلك نقصاً في ولدها ، وقيل : الغيض : ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداده منه ، و "ما" في ﴿ ما تغيض ﴾ ﴿ وما تزداد ﴾ تحتمل الثلاثة الوجوه المتقدّمة في ﴿ ما تحمل كل أنثى ﴾ ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ أي : كل شيء من الأشياء التي من جملتها الأشياء المذكورة عند الله سبحانه بمقدار ، والمقدار : القدر الذي قدّره الله .

وهو معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] أي : كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه ، لا يخرج عن ذلك شيء .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي : عالم كل غائب عن الحسّ ، وكل مشهود حاضر ، أو كل معدوم وموجود ولا مانع من حمل الكلام على ما هو أعمّ من ذلك ﴿ الكبير المتعال ﴾ أي : العظيم الذي كل شيء دونه ، المتعالي عما يقوله المشركون ، أو المستعلي على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره .

ثم لما ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لا يغادره شيء منها ، بين أنه عالم بما يسرّونه في أنفسهم وما يجهرون به لغيره ، وأن ذلك لا يتفاوت عنده فقال : ﴿ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ من أسرّ القول ومن جهر به ﴾ فهو يعلم ما أسرّه الإنسان كعلمه بما جهر به من خير وشر ، وقوله : ﴿ منكم ﴾ متعلق بسواء على معنى : يستوي منكم من أسرّ ومن جهر ، أو سرّ من أسرّ وجهر من جهر ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ أي : مستتر في الظلمة الكائنة في الليل متوار عن الأعين .

يقال : خفي الشيء واستخفى أي : استتر وتوارى ﴿ وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ قال الكسائي : سرب يسرب سُرباً وسُروباً إذا ذهب .

ومنه قول الشاعر :

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم . . . ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أي : ذهب .

وقال القتيبي : سارب بالنهار متصرّف في حوائجه بسرعة ، من قولهم : أسرب الماء .

قال الأصمعي حلّ سربه أي : طريقته .

وقال الزجاج : معنى الآية : الجاهر بنطقه ، والمضمر في نفسه ، والظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات علم الله فيهم جميعاً سوّى ، وهذا ألصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفي والسارب ، فالمستخفي : المستتر ، والسارب البارز الظاهر .

﴿ لَهُ معقبات ﴾ الضمير في "له" راجع إلى " من " في قوله : ﴿ من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف ﴾ أي : لكل من هؤلاء معقبات .

والمعقبات : المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ، ويكون بدلاً منه ، وهم الحفظة من الملائكة في قول عامة المفسرين .

قال الزجاج : المعقبات ملائكة يأتي بعضهم بعقب بعض ، وإنما قال : معقبات مع كون الملائكة ذكوراً ؛ لأن الجماعة من الملائكة يقال لها : معقبة ، ثم جمع معقبة على معقبات : ذكر معناه الفراء ، وقيل : أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة .

قال الجوهري : والتعقب العود بعد البدء .

(229/408)

قال الله تعالى : ﴿ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [النمل : 10] وقرىء " معاقيب " جمع معقب ﴿ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي : من بين يدي من له المعقبات ، والمراد : أن الحفظة من الملائكة من جميع جوانبه .

وقيل : المراد بالمعقبات : الأعمال ، ومعنى ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ : ما تقدم منها وما تأخر .

﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي : من أجل أمر الله ، وقيل : يحفظونه من بأس الله إذا أذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب .

قال الفراء : في هذا قولان : أحدهما أنه على التقديم والتأخير .

تقديره : له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، والثاني أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به .

قال الزجاج : المعنى : حفظهم إياه من أمر الله أي : مما أمرهم به لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله .

قال ابن الأنباري : وفي هذا قول آخر ، وهو أن "من" بمعنى الباء ، أي : يحفظونه بأمر الله .

وقيل : إن " من " بمعنى عن ، أي : يحفظونه عن أمر الله ، بمعنى من عند الله ، لا من عند أنفسهم ، كقوله : ﴿ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ [قريش : 4] أي : عن جوع .

وقيل : يحفظونه من ملائكة العذاب .

وقيل : يحفظونه من الجن .

واختار ابن جرير أن المعقبات المواكب بين أيدي الأمراء ، على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من النعمة والعافية ﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ من طاعة

الله ، والمعنى : أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة ، أو يغيروا الفطرة التي فطرهم الله عليها .

قيل : وليس المراد ، أنه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة حتى يتقدم له ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما في الحديث " أنه سأل رسول الله سائل فقال : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث " ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءا ﴾ أي : هلاكاً وعذاباً ﴿ فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ﴾ أي فلا ردّ له .

وقيل : المعنى إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى قلوبهم ، حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ يلي أمرهم ويلتجئون إليه ، فيدفع عنهم ما ينزل بهم من الله سبحانه من العقاب ، أو من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله .

والمعنى : أنه لا رادّ لعذاب الله ولا ناقض لحكمه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن الحسن في قوله : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ قال : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك فعجب قولهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال : إن تعجب يا محمد

من تكذيبهم، وهم رأوا من قدرة الله وأمره، وما ضرب لهم من الأمثال وأراهم من حياة الموتى والأرض الميتة ﴿ فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ﴾ أو لا يرون أنه خلقهم من نطفة، فالخلق من نطفة أشد من الخلق من تراب وعظام.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ قال: العقوبات.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في ﴿ المثلات ﴾ قال: وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿ المثلات ﴾ ما أصاب القرون الماضية من العذاب.

(231/408)

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش: ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد" وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ

هَادٍ ﴾ نبيّ يدعوهم إلى الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير قال : محمد المنذر ، والهادي الله - عزّ وجلّ - وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه أيضاً .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المنذر وهو الهادي .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة وأبي الضحى نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة ، والديلمي ، وابن عساكر ، وابن النجار عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ : وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال : " أنا المنذر " ، وأومأ بيده إلى منكب عليّ فقال : " أنت الهادي يا علي ، بك يهتدي المهتدون من بعدي " قال ابن كثير في تفسيره : وهذا الحديث فيه نكارة شديدة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه .

وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس مرفوعاً نحوه أيضاً .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ،

والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن عليّ بن أبي طالب في الآية نحوه أيضاً .

وأخرج ابن جرير ، عن الضحاك ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثى ﴾ قال : كل أنثى من خلق الله .

(232/408)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير في الآية قال : يعلم ذكراً هو أو أنثى ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام ﴾ قال : هي المرأة ترى الدم في حملها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام ﴾ قال : خروج الدم ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ قال : استمساكه .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام ﴾ قال : أن ترى الدم في حملها ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ قال : في التسعة أشهر ، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عنه في الآية قال : ما تزداد على تسعة ، وما تنقص من التسعة .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ عنه أيضاً في الآية ﴿ مَا تَغِيضُ الأرحام ﴾ قال : السقط ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ ما زادت في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً ، وذلك أن من

النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهنّ من تحمل تسعة أشهر ، ومنهنّ من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله ، وكل ذلك بعلمه تعالى .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ قال : السرّ والعلانية .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في قوله : ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ قال : راكب رأسه في المعاصي ﴿ وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ قال : ظاهر بالنهار بالمعاصي .

وأخرج أبو عبيد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ قال : الظاهر .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : هو صاحب ريبة مستخف بالليل ، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الكبير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس : أن سبب نزول الآية قدوم عامر بن الطفيل

، وأربد بن قيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصة المشهورة ، وأنه لما أصيب عامر بن الطفيل بالغدّة نزل قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثى ﴾ إلى قوله : ﴿ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ قال : المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر أربد بن قيس وما قتله ، فقال : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ البرق ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ معقبات ﴾ الآية قال : هذه للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ قال : ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ قال : بإذن الله .

وأخرج ابن جرير عن قتادة مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : وليّ السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، يقول : يحفظونه من أمري ، فإني إذا أردت بقوم سوءاً فلا مردّ له .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عنه في الآية قال : الملوك يتخذون الحرس يحفظونه من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، يحفظونه من

القتل ، ألم تسمع أن الله يقول : ﴿ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ أي : إذا أراد سوءاً لم يغن الحرس عنه شيئاً .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة في الآية قال : هؤلاء الأمراء .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ عن عليّ في الآية قال : ليس من عبد إلاّ ومعه ملائكة يحفظونه من أن تقع عليه حائط ، أو ينزوي في بئر ، أو يأكله سبع ، أو غرق أو حرق ، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر .

وقد ورد في ذكر الحفظة الموكلين بالإنسان أحاديث كثيرة مذكورة في كتب الحديث . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ المر ﴾ الألف الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، اللام له مقاليد السموات والأرض ، الميم مالك يوم الدين ، الراء رب العالمين من الأزل إلى الأبد أقسم بهذه الأمور أن الذي أنزل على عبده محمد هو الحق ، وأنه حبل الله الذي به يوصل المؤمن من هبوط عالم الطبيعة إلى ذروة عالم الحقيقة لأنه ﴿ الله الذي رفع السموات ﴾ المحسوسة ﴿ بغير عمد ﴾ فكما أنه رفع السموات بقدرته فكذلك رفع الدرجات برحمته ، أو كما أنه رفع السموات المحسوسة بعمد القدرة كذلك يرفع سموات القلوب بجذبة العناية ، وسخر شمس الروح وقمر القلب أو النفس لتدبير مصالح العالم الصغير . وإنما تظهر هذه الغرائب والعجائب لحصول كمال الإيقان بالرجوع إلى الله والفناء فيه بل البقاء به . ومن حسن تدبيره أنه مد أرض البشرية وجعل فيها رواسي من الأوصاف الروحانية وأنهاراً من منابع العناية ، ﴿ ومن كل الثمرات ﴾ وهي الملكات والأخلاق ﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ ملكة روحانية حميدة وأخرى نفسانية وذميمة . فالأولى نورانية كالنهار والأخرى ظلمانية كالليل ، يغلب هذه تارة وتلك أخرى وهذا معنى قوله : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ وفي أرض الإنسانية ﴿ قطع متجاورات ﴾ هي النفس والقلب والروح السر والخفي حيوانية

وملكوتية روحانية وجبروتية وعظموتية ﴿ وجنات ﴾ هي هذه الأعيان المتسعدة لقبول الفيض عند بلوغها ﴿ من أعناب ﴾ هي ثمرة النفس من الصفات التي هي أصل الإسكار كالغفلة والحمق والسهو واللهو ﴿ وزرع ﴾ هو ثمرة القلب فإن القلب كالأرض الطيبة التي منها غذاء الروح ﴿ ونخيل ﴾ هو الروح ذو الأخلاق الحميدة كالكرم والجود والشجاعة والقناعة والحياء والتواضع والشفقة ﴿ صنوان ﴾ هو السر الجبروتي الكاشف عن أسرار الجبروت بين الرب والعبد فإنه إذا حكى السر للعبد كان المحكى مثالاً لما عليه الوجود ﴿ وغير صنوان ﴾ هو الخفي الواقف على أسرار العظموت التي لا مثل لها ولا أمثال ولا تحكى لعبده كما قال

(236/408)

﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ [النجم : 10] وكما قال :

بين المحبين سر ليس يفشيه . . . ﴿ يسقى بماء واحد ﴾ هو ماء القدرة والحكمة ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ أي ما في استعداد كل مستعد من الفضائل ، أو ما في كل ذرّة من ذرّات المكونات من الخواص والطبائع ، أو ما في كل منها من الآيات الدالة على موجدها ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ [فصلت : 53] ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد

﴿ أي ما يظهر من تلك الآيات الاستعدادات في جانبي التفريط والإفراط ، والمراد ما ينقص من أرحام الموجودات أو المعدومات فمهما أوجد شيء نقص من رحم العدم واحد وزاد في رحم الوجود واحد وبالعكس في جانب الإعدام . مستخف بليل العدم وظاهر النهار الوجود له أي لله معقبات من العلم والقدرة من بين يدي المعلوم ومن خلفه أي في حالتي عدمه ووجوده من أزله إلى أبده ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ أي لأجل أمره حتى لا يخرج من قبضة تدبيره ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم ﴾ من الوجود والعدم ﴿ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ من استدعاء الوجود أو العدم بلسان استحقاق الوجود أو العدم كما تقتضيه حكمته وتدبيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 144. 145 ﴾

(237/408)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى- رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/409)

الجزء التاسع بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 12 ﴾ من سورة الرعد

وحتى الآية ﴿ 15 ﴾ من نفس السورة

(4/409)

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم أخبر تعالى بأمر هو أدلة ما قبله جامع للعلم والقدرة وهو ألطف من ذلك كله ، معلم بجليل القدرة في أنه إذا أراد سوءاً فلا مرد له ، ودقيق الحكمة لأنه مظهر واحد ترجى منه النعمة وتخشى منه النقمة فقال : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الذي يريكم ﴾ أي على سبيل التجديد دائماً ﴿ البرق ﴾ وهو لمع كعمود النار ﴿ خوفاً ﴾ أي لأجل إرادة الخوف من قدرته على جعله صواعق مهلكة ، والخوف : انزعاج النفس بتوهم وقوع الضر .

(5/409)

ولما لم يكن لهم السبب في إنزال المطر ، لم يعبر بالرجاء وقال : ﴿ وطمعاً ﴾ أي ولأجل إرادة طمعكم في رحمته بأن يكون غيثاً نافعاً ، ولا بد من هذا التقدير ليكونا فعل فاعل الفعل المعلل ، ويجوز أن يكون المعنى : يريكم ذلك إخافة وإطماعاً فتخافون خوفاً وتطمعون طمعاً ، فتكون الآية من الاحتباك : فعل الإراءة دال على الإخافة والإطماع ، والخوف والطمع دالان على " تخافون وتطمعون " ويجوز أن يكونا حالين من ضمير المخاطبين أي ذوي خوف وطمع ﴿ وينشئ ﴾ والإنشاء : فعل الشيء من غير سبب مولد ﴿ السحاب ﴾ وهو غيم ينسحب في السماء ، وهو اسم جنس جمعي ، واحده سحابه ﴿ الثقال ﴾ بأنهار الماء محمولة في الهواء على متن الريح ؛ والثقل : الاعتماد على جهة الثقل بكثافة الأجزاء ﴿ ويسبح الرعد ﴾ أي ينزه عن صفات النقص تنزيهاً ملتبساً ﴿ بحمده ﴾ أي بوصفه بصفات الكمال ، ويروى عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن الرعد ملك وإن لم يصح أنه ملك فتسبيحه دلالته على أن موجده سبحانه منزه عن النقص محيط بأوصاف الكمال ﴿ والملائكة ﴾ أي تسبح ﴿ من خيفته ﴾ قال الرماني : والخيفة مضمنة بالحال ، كقولك : هذه ركبة ، أي حال من الركوب حسنة ، وكذلك هذه خيفة شديدة ، والخوف مصدر غير مضمن بالحال .

﴿ ويرسل الصواعق ﴾ المحرقة من تلك السحائب المشحونة بالمياه المغرقة ؛ والصاعقة - قال الرازي : نار لطيفة تسقط من السماء بحال هائلة .

﴿ فيصيب بها ﴾ أي الصواعق ﴿ من يشاء ﴾ كما أصاب بها أربد بن ربيعة ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم مع ذلك الذي تقدم من إحاطة علمه وكمال قدرته ﴿ يجادلون ﴾ والجدال : فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج ﴿ في الله ﴾ أي الملك الأعظم بما يؤدي إلى الشك في قدرته وعلمه .

(6/409)

ولما كان لا يغني من قصده بالعذاب شيء قال : ﴿ وهو شديد المحال ﴾ لأن المحال - ككتاب : الكيد وروم الأمر بالحيل والتدبير والمكر والقدرة والجدال والعذاب والعقاب والعداوة والمعاداة والقوة والشدة والهلاك والإهلاك ، يأتي أعداءه بما يريد من إنزال العذاب بهم من حيث لا يحتسبون ، وكلها صالح هنا حقيقة أو مجازاً ، وقال الرماني : والمحال : الأخذ بالعقاب من قولهم : ما حلت فلاناً - إذا فتلته إلى هلكه - انتهى .

(7/409)

ومادة " محل " بجميع تقاليبها تدور على صرف الشيء عن وجهه وعادته وما تقتضيه جبلته ، وذلك يستلزم القدرة والقوة والشدة ، فالحامل يمسك المحمول بقوته عن أن يهوي إلى جهة السفل ، والحملة : الكرة في الحرب ، ويلزم الحمل المشقة ، ومنه تحمل الشيء وحمل عنه أي حلم فهو حمول : ذو حلم ، والحميل - كأمير : الدعي والغريب - كأنهما محمولان لحاجتهما إلى ذلك ، والكفيل ، لأنه حامل لكل مكفول واحتمل لونه - للمفعول : غضب وامتقع - كأن الغضب صرفه عما كان من عادته ، والمحمل - كمحسن : المرأة ينزل لبنها من غير حبل ، لأن ذلك شيء على غير وجهه ، والحمل - محركة : الخروف - لسهولة حمله ، والحليم : من يحبس غيظه بقوة حلمه - أي عقله - عن أن يستخفه الغضب ، والحلم - بالكسر : الأناة والعقل ، والحلم - بالضم وبضمتين : الرؤيا ، لأنها صرف النفس عما هي عليه ، وهو من شأنها من الغفلة ، ومنه الحلم - بالضم - والاحتلام للجماع في النوم ، والاسم الحلم - كعنق ، وذلك يكون غالباً عند فراغ البال عن الهموم ، وإليه يرجع حلم المال - بالضم : سمن ، والصبي وغيره : أقبل شحمه ، أو هو من الحلمة - محركة : اللحمة الناتئة وسط الثدي كالثؤلول - لصرفها لون الثدي وهيئته عما كان عليه ، وشجر السعدان - لأنه مرعى جيد يسمن ، والصغيرة من القردان أو الضخمة - لشبهها بحلمة الثدي ودود يقع في الجلد قبل الدبغ فيأكله ، لأن ذلك يغيره عن هيئته ، والحالوم : ضرب من الأقط ، لأنه لحراقته يغير اللسان ، ودم حلام : هدر ، لأنه خرج عما عليه عادة الدماء ؛ والملح يصرف

المملوح عن الفساد ، وأما الماء الملح فمشبه به الطعم ، وكذا الملح – محركاً – للون كالبياض يخالطه سواد ، والملحاء : شجرة سقط ورقها ، شبهت بأرض الملح في عدم الإنبات .

(8/409)

ولما عرف الملح بالصلاح شبه به العلم فسمي ملحاً ، وكذا الرضاع والحسن والشحم والسمن والحرمة والذمام وخفقان الطائر بجناحيه يصلح بذلك طيرانه ويتملح به استرواحاً إليه ، وملح الشاة : سمطها ، والملاح – ككتاب : الريح تجري بها السفينة ، وهي أيضاً تصرفها عما يقتضيه حالها من عدم السير ، ومعالجة حياء الناقة منه ، وملحه على ركبته – أي لا وفاء له ، لأن الملح لا يثبت هناك ، أو هو سمين أو حديد في غضبه ، بمعنى أنه لا صلاح له ، وملحه : اغتابه ، شبه بمن يتطعم الملح ليعدل مزاجه ، وكذا الملاح – ككتاب ، وهو هبوب الجنوب عقب الشمال ، وكذا الملاحي – كغرابي وقد يشدد ، وهو عنب أبيض طويل ، ونوع من التين ، ومن الأراك ما فيه بياض وحمرة ، والملح – بضم الميم وفتح اللام من الأحاديث ، وامتلح : خلط كذباً بحق ، والملح – محركة : ورم في عرقوب الفرس ، صرفه عن هيئته المعتادة ، والملاح ككتاب : سنان الرمح ، لتهيئته له بعد الوقوف للنفوذ ، والسترة ، لصرفها البصر عن النفوذ إلى ما وراءها ، وبرد الأرض حين ينزل الغيث ، لأنه

يصرف حالها التي كانت عليها إلى أخرى ، والملحة - بالضم : المهابة ، لصرفها المجترىء عن قصده ولأن سببها صرف النفس عن هواها ، والملحاء : الكثيبة العظيمة ، ومنه البركة ، لمنعها الماشي عن حاله في المشي ، ومنه الملحة - بالفتح - للجة البحر ، وملحان : الكانون الثاني لصرفه بقوة برده الزمان عما كان عليه والناس عما كانوا عليه ، والملحاء : لحم في الصلب من الكاهل إلى العجز ، لمنعه من رؤية عظام الصلب ورؤوس الأضلاع ؛ والمحل صرف ما في الزمان عن عادته بعدم المطر والإنبات ورفاهة العيش ، وكذا المحل للكيد والمكر والغبار والشدة والمحال ، لما تقدم من تفسيره ، ومنه ماحله : قاواه ، والمتماحل : الطويل المضطرب الخلق ، لخروجه عن العادة ، وتمحل له : احتال ، والممحل - كمعظم - من اللبن : الآخذ طعم حموضة ، والمحالة : البكرة العظيمة

(9/409)

- لصرفها بفتلها الشيء عن وجهه ، والفقرة من فقر البعير - لمشابهتها والخشبة التي يستقر عليها الطيانون - لحملها إياهم ومنعها لهم من السقوط ، والمحل - ككتف : من طرد حتى أعيا ، لأنه صرف عما كان من عادته ، ورأيته متماحلاً : متغير اللون ؛ واللمح : صرف البصر عما كان عليه ، ولمح البرق : لمع بعد كمونه ؛ واللحم من لحمة الثوب - بالضم ، كأنه

سد ما حصل بالهزال من فرج ، ومنه : لحم كل شيء : لبه ؛ ولحم الأمر - كمنع : أحكمه ، والصائغ الفضة : لأمها ، وكذا كل صدع ، ولحم - كعلم : نشب في المكان ، كأنه وقع فيما يشبه اللحم فالتصق به فأدخله وشغله ، وهذا لحيم هذا ، أي وفقه وشكله - وهو يرجع إلى لحمة الثوب ، واستلحم الطريق : تبعه أو تبع أوسعه - كأنه جعل نفسه مثل لحمة السدى ، واستلحم الطريق : اتسع ، كأنه طلب ما يلحمه أي يسده ، وحبل ملاحم - بفتح الحاء : شديد الفتل ، لأنه سدت فرجه كما تسد اللحمة فرج الثوب ، ونبي الملحمة - من القتال ، لأنه ضرب اللحم بالسيف ، ومن التأليف كما يكون عن لحمة الثوب ، لأن غاية قتاله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أعظم خير وألفة ، والتحم الجرح للبرء : التأم - من ذلك ومن اللحم أيضاً لأنه به التأم - والله أعلم .

(10/409)

ولما بين تعالى تصديقاً لقوله ﴿ وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ [يوسف : 105] ما له من الآيات التابعة لصفات الكمال التي منها التنزه عما لا يليق بالجلال وأنه شديد المحال ، شرع يبين ضلالهم في اشتراكهم المشار إليه في قوله : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ بما هو علة لختم ما قبلها من أنه لا كفؤ له ،

فقال : ﴿ له ﴾ أي الله سبحانه ﴿ دعوة الحق ﴾ إن دعاه أحد سمعه فأجابه - إن شاء - بما يشاء ، وإن دعا هو أحداً دعوة أمر ، بين الصواب بما يكشف الارتياب ، أو دعوة حكم لبى صاغراً وأجاب ﴿ والذين يدعون ﴾ أي يدعو الكافرون ، وبين سفول رتبتهم بقوله : ﴿ من دونه ﴾ أي الله ﴿ لا يستجيبون ﴾ أي لا يوجدون الإجابة ﴿ لهم ﴾ أي الكافرين ﴿ بشيء ﴾ والاستجابة : متابعة الداعي فيما دعا إليه بموافقة إرادته ﴿ إلا كباسط ﴾ أي إلا إجابة كإجابة الماء لباسط ﴿ كفيه ﴾ تثنيه كف ، وهو موضع القبض باليد ، وأصله من كفه - إذا جمع أطرافه ﴿ إلى الماء ليبلغ ﴾ أي الماء ﴿ فاه ﴾ دون أن يصل كفاه إلى الماء - بما يدل عليه التعدية ب " إلى " ، فما الماء بمجيب دعاءه في بلوغ فيه ﴿ وما هو ﴾ أي الماء ﴿ ببالغه ﴾ أي فيه ، فللكافرين بذلك دعوة الباطل كما أن الماء جماد لا يحس بدعوة هذا فلا يجيبه ، فأصنامهم كذلك .

ولما كان دعاؤهم منحصراً في الباطل ، قال في موضع " وما دعاؤهم " مظهراً تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف : ﴿ وما دعاء الكافرين ﴾ أي الساترين لما دلت عليه أنوار عقولهم بمعبوداتهم أو غيرها ﴿ إلا في ضلال ﴾ لأنه لا يجد لهم نفعاً ، أما معبوداتهم فلا تضر ولا تنفع ، وأما الله فلا يجيبهم لتضييعهم الأساس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 131.135 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ كباسط ﴾ مثل ﴿ بسطة ﴾ [البقرة : 247] وقد مر في البقرة ﴿ أم هل يستوي ﴾ بيان تحتانية : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير حفص والمفضل : الآخرون بتاء التأنيث . ﴿ يوقدون ﴾ على الغيبة : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد . الباقون : على الخطاب إما للكفرة في قوله : ﴿ قل أفاتخذتم ﴾ وإما للمكلفين على العموم كما في القراءة الأخرى والضمير يعود إلى الناس المعلوم من سياق الكلام .

الوقوف : ﴿ الثقال ﴾ 5 ج لاختلاف الفاعل مع اتفاق اللفظ ﴿ من خيفته ﴾ ج لذلك ﴿ في الله ﴾ ج لاحتمال الواو الحال والاستئناف ﴿ المحال ﴾ 5 ط للآية وانقطاع النظم ﴿ دعوة الحق ﴾ ط ﴿ ببالغه ﴾ ط ﴿ ضلال ﴾ 5 ﴿ والآصال ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ قل الله ﴾ ط ﴿ ولا ضراً ﴾ ط ﴿ والبصير ﴾ 5 ط للعطف ﴿ والنور ﴾ ج لاحتمال أن يكون هذا الاستفهام بدلاً عن الأوّل ﴿ عليهم ﴾ ط ﴿ القهار ﴾ 5 ﴿ رابياً ﴾ ط ﴿ مثله ﴾ ط ﴿ والباطل ﴾ ط ﴿ جفاء ﴾ ج لاتفاق الجملتين مع كون " أما " للتفصيل ﴿ في الأرض ﴾ ط ﴿ الأمثال ﴾ 5 ط ﴿ الحسنى ﴾ ط ﴿ لافتدوا به ﴾ ط ﴿ الحساب ﴾ 5 لا ﴿ جهنم ﴾ ج ﴿ المهاد ﴾ 5 ﴿ هو أعمى

﴿ ط ﴾ الألباب ﴿ 5 لا ﴾ الميثاق ﴿ ط للعطف ﴾ سوء الحساب ﴿ 5 ط ﴾
الدار ﴿ ه لأن قوله : ﴾ جنات عدن ﴿ بدل من ﴾ عقبى ﴿ ﴾ من كل باب ﴿ 5 ج
لحق المحذوف أي قائلين . ﴾ عقبى الدار ﴿ ط ﴾ في الأرض ﴿ لا ﴾ سوء الدار ﴿
5 ﴾ ويقدر ﴿ ط ﴾ الدنيا ﴿ ط ﴾ متاع ﴿ ز ﴾ من ربه ﴿ ط ﴾ أناب ﴿ 5
﴾ بذكر الله ﴿ الأوّل ط ﴾ القلوب ﴿ 5 ﴾ مآب ﴿ 5 . انتهى انتهى . ا هـ
﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 146. 147﴾

(12/409)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

فصل فيما ذكره المفسرون في الرعد والبرق في كتبهم :

ومعظم كتب التفاسير بالمأثور وغيره ذكرت أن الرعد اسم ملك يسوق السحاب ، وأن الصوت المسموع صوت زجره السحاب ، أو صوت تسبيحه ، وأن البرق أثر من المخراق الذي يزجر به السحاب ، أو لهب ينبعث منه ، على أن المخراق من نار ، وذلك عند

(13/409)

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ 1 الآية ، ويكاد لم يسلم من ذلك أحد منهم ، إلا أن منهم من يحاول أن يوفق بين ظاهر الآية وما قاله الفلاسفة الطبيعيون في الرعد والبرق فيؤول الآية ، ومنهم : من يبقي الآية على ظاهرها ، وينحي باللائمة على الفلاسفة وأضرابهم ، الذين قاربوا أن يصلوا إلى ما وصل إليه العلماء في العصر الحديث ففي تفسير الخازن2 قال : أكثر المفسرين على أن الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب ، والصوت المسموع منه تسبيحه ، ثم أورد على هذا القول أن ما عطف عليه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ يقتضي أن يكون المعطوف عليه مغايرا للمعطوف ؛ لأنه الأصل ثم أجاب بأنه من قبيل ذكر الخاص قبل العام تشريفا !

وقد بسط الإمام الآلوسي في تفسيره كما هي عادته الأقوال في الآية ، وذكر أن للعلماء في إسناد التسبيح إلى الرعد قولين : أن في الكلام حذفا ؛ أي : سامعوا الرعد ، أو أن الإسناد مجازي من قبيل الإسناد إلى السبب والحامل عليه ، والباء في "بحمده" للملابسة أي يسبح السامعون لذلك الصوت متلبسين بحمد الله ، فيقولون : سبحان الله ، والحمد لله .

ومن العلماء من قال : إن تسبيح الرعد بلسان الحال لا بلسان المقال حيث شبه دلالة الرعد على قدرة الله وعظمته ، وإحكام صنعته ، وتنزيهه عن الشريك والعجز ، بالتسبيح والتنزيه والتحميد اللفظي ، ثم استعار لفظ "يسبح" لهذا المعنى ، وقالوا : إن هذا المعنى

أنسب وأقعد من الآخر .

وكل هذا من العلماء في الحقيقة تخلص من حمل الآية على ظاهرها ، وأن المراد بالرعد ، الملك الموكل بالسحاب ، ثم قال الآلوسي : والذي اختاره أكثر المحدثين أن الإسناد حقيقي ، بناء على أن الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب ، فقد رأى أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وآخرون عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ فقال عليه الصلاة

---

1 الرعد : 13 .

2 ج3 ص80 .

والسلام : "ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب ، بيديه مخراق من نار ، يزجر به السحاب ، يسوقه حيث أمره الله تعالى" ، قالوا : فما ذلك الصوت الذي نسمعه ؟ قال : "صوته" قالوا : "صدقت" .

وهذا الحديث إن صح : يمكن حمله على التمثيل ، ولكني لا يطمئن قلبي إليه ، ولا أكاد أصدق وروده عن المعصوم صلى الله عليه وسلم وإنما هو من إسرائيليات بني إسرائيل

ألصقت بالنبي صلى الله عليه وسلم زورا ، ثم كيف يتلاءم ما روي مع قوله قبل : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، فالآية في بيان قدرة الله وعظمته في إحداث هذه الآيات الكونية على حسب ما خلقه الله في الكون من نواميس ، وأسباب عادية ! وإنما المناسب أن نفسر تسبيح الرعد بلسان الحال ، وعطف الملائكة على الرعد يقتضي أن يكون الرعد غيرها لما ذكرنا ، وكأن السر في الجمع بينهما : بيان أنه تواطأ على تعظيم الله وتنزيهه الجمادات والعقلاء ، وأن ما لا يعقل منقاد لله وخاضع لانقياد العقلاء سواء بسواء ، ولا سيما الملائكة الذين هم مفطورون على الطاعة والانقياد ، ومن الحق أن نذكر أن بعض المفسرين كانت لهم محاولات ؛ بناء على ما كان من العلم بهذه الظواهر الكونية في عصرهم جادة ، في تفسير الرعد والبرق ، كابن عطية رحمه الله فقد قال : وقيل : إن الرعد ريح تخفق بين السحاب ، وروي ذلك عن ابن عباس ، واعترض عليه أبو حيان ، واعتبر ذلك من نزغات الطبيعيين ، مع أن قول ابن عطية أقرب إلى الصواب من تفسير الرعد بصوت الملك الذي يسوق السحاب ، والبرق بضوء مخراقه ، وقد حاول الإمام الرازي التوفيق بين ما قاله المحققون من الحكماء ، وما ورد في هذه الأحاديث والآثار ، وقد أنكر عليه أبو حيان هذا أيضا .

ثم ذكر الإمام الآلوسي آراء الفلاسفة في حدوث الرعد ، وتكوُّن السحاب وأنه عبارة عن

أبخرة متصاعدة قد بلغت في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء ، ثم تكثفت بسبب البرد ، ولم يقدر الهواء على حملها ، فاجتمعت وتقاطرت ، ويقال لها : مطر .

أقول : وقد أصابوا في تكون السحاب ونزول المطر ، فآخر ما وصل إليه العلم اليوم هو .

(15/409)

هذا ، وأما في تكوُّن الرعد ، والبرق فقد حاولوا ، وقاربوا ، وإن لم يصلوا إلى الحقيقة العلمية المعروفة اليوم ، وبحسبهم فضلا هذا .

وبعد أن ذكر الآلوسي الردود ، والاعتراضات على ما قاله الفلاسفة ، وهي –والحق يقال– لا تنهض أن تكون أدلة في رد كلامهم ، قال : وقال بعض المحققين : لا يبعد أن يكون في تكون ما ذكر أسباب عادية ، كما في الكثير من أفعاله تعالى ، وذلك لا ينافي نسبته إلى المحدث الحكيم جل شأنه ، ومن أنصف لم يسعه إنكار الأسباب بالكلية ، فإن بعضها كالمعلوم بالضرورة ، قال : وبهذا أنا أقول1 . وأنا بهذا أيضا أقول ، وكون الظواهر الكونية جعل الله نواميس خاصة لحدوثها ، لا ينافي قط أنه سبحانه الخالق للكون ، والمدبر له سبحانه ، فهو سبحانه هو الموجد لهذه النواميس ، وهو الموجد لهذه السنن التي يسير عليها الكون ، فإن بعض هذه النواميس والسنن أصبحت معلومة فإنكارها باسم الدين ،

أو التشكيك فيها –ومنها تكون السحب ، وحدوث الرعد ، والبرق ، والصواعق– إنما يعود على الدين بالضعف ، ويضره أكثر من طعن أعدائه فيه ، ولعلك على ذكر مما ذكرته عن حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في هذا المقام .

---

1 تفسير الآلوسي ج13 ص 106 ، 107 ط منير .

(16/409)

أقوال الرسول عند سماع الرعد ورؤية البرق :

وقد وردت أحاديث أخرى صحاح وحسان ، تبين ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم عند حدوث هذه الظواهر الكونية ، وهي تدل على كمال المعرفة بالله ، وأنه سبحانه هو المحدث لها ، وأنها تدل على تنزيه الله ، وتعظيمه ، وحمده ؛ فقد أخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد ، والترمذي ، والنسائي ، وغيرهم ، عن ابن عمر قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد ، والصواعق قال : "اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك" ؛ لأن احتمال الإهلاك والتعذيب بهذه الآيات الكونية أمر قريب ممكن .

وأخرج أبو داود في مراسيله عن عبد الله بن أبي جعفر : أن قومًا سمعوا الرعد فكبروا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا سمعتم الرعد فسبحوا ، ولا تكبروا" ، .

(17/409)

وذلك لما فيه من التأدب بأدب القرآن وأسلوبه في قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ ، ولأن دلالته على تنزيه الله من النقص والشريك أولى من دلالته على التعظيم ، وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول إذا سمع الرعد : "سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم" .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير عن أبي هريرة قال : كان صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد قال : "سبحان من يسبح الرعد بحمده" .

فهذا هو اللائق برسول الله صلى الله عليه وسلم وبعصمته لا ما روي من أن الرعد ملك أو صوت زجره للسحاب ، وأن البرق أثر سوطه الذي يزجر به السحاب .

(18/409)

رأي العلم في حدوث الرعد ، والبرق ، والصواعق :

وإكمالا للفائدة سأذكر ما وصل إليه العلم في حدوث هذه الظواهر الكونية ، فأقول –وبالله التوفيق : يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي رحمه الله وأثابه في كتابه "سنن الله الكونية" :

الرياح والكهربائية الجوية :

إن الكهربائية التي تتولَّد في الهواء والتي ذكرنا لك بعض مصادرها يكتسبها السحاب عند تكونه على الأيونات التي تحملها تلك الكهربائية في الطبقات العليا الجوية ، ولا يُدرَى الآن كيف يفصل الله الأيونات السالبة ، من الأيونات الموجبة ، قبل تكاثف البخار عليها إن كان هناك فصل لها ؟ أم كيف يكون السحاب عظيم التكهرب ؛ إما بنوع من الكهرباء ، وإما بالنوع الآخر إذا حدث التكاثف على الأيونات وهي مختلطة ، ومهما يكن من سر ذلك ؛ فإن السحاب مكهرب من غير شك ، كما أثبت ذلك فرانكلن لأول مرة في عام 1752م وكما أثبت غيره ، عظم تكهربه بشتى الطرق بعده ، وأنت تعرف أن نوعي الكهربائية يتجاذبان ، وأن الموجب والموجب ، أو السالب والسالب يتدافعان ، أو يتنافران ، كما تشاء أن تقول .

هذا التدافع أو التنافر من شأنه تفريق الكهربائية ، ثم إذا شاء الله ساق السحاب .

بالريح ، حتى يقترب السحاب الموجب ، من السحاب السالب قربا كافيا ، في اتجاه أفقي ، أو في اتجاه رأسي أو فيما شاء الله من الاتجاهات ، فإذا اقتربا تجاذبا ، ومن شأن اقترابهما هذا أن يزيد في كهربائية مجموع السحاب بالتأثير ، ولا يزالان يتجاذبان ، ويتقاربان ، حتى لا يكون محيص من اختلاطهما واتحاد كهربائيتهما أو من اتحاد كهربائيتهما من بعد ، وعندئذٍ تحدث شبه شرارة عظمى كهربائية ، هي البرق الذي كثيرا ما يُرى في البلاد الكثيرة الأمطار .

والمطر نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائي ، سواء حدث في هدوء أو بالإبراق ، فإذا حدث بهدوء حدث بين القطيرات المختلفة في السحابتين ، فتجذب كل منهما قرينتها أو قريناتها ، حتى تتحد ، وتكون قطرة فيها ثقل ، فتنزل ، وتكبر أثناء نزولنا بما تكتسب من كهربائية ، وما تجتذب من قطيرات ، أثناء اختراقها السحاب المكهرب ، الذي يكون بعضه فوق بعض في السحاب الركام ، أما إذا حدث الاتحاد الكهربائي ، في شدة البرق ، وعنفه ، فإنه يحدث لا بين القطيرات ، ولكن بين الكتل من السحل ، ويسهل حدوثه تخلخل الهواء ، أي قلة ضغطه في تلك الطبقات .

والبرق : يمثل قوة كهربائية هائلة ، تستطيع أن تكوِّن فكرة عنها إذا عرفت أن شرارته قد تبلغ ثلاثة أميال ، في طولها أو تزيد ، وأن أكبر شرارة كهربائية أحدثها الإنسان لا تزيد عن

بضعة أمتار .

فالحرارة الناشئة عن البرق لا شك هائلة ، فهي تمدد الهواء بشدة ، وتحدث مناطق جوية عظيمة مخلخلة ، الضغط داخلها يعادل الضغط خارجها ، ما دام الهواء داخل المنطقة ساخنا ، حتى إذا تشعت حرارته وبردت تلك المناطق برودة كافية ، وما أسرع ما تبرد ، خف منها الضغط ، وصار أقل كثيرا من ضغط الطبقات الهوائية السحابية المحيطة بها ، فهجمت عليها فجأة بحكم الفرق العظيم بين الضغطين وتمددت فيها ، وحدث لذلك صوت شديد هو صوت الرعد وهزيمه ، هذا الصوت قد يكون له صدى بين كتل السحاب ، يتردد ، فنسميه قعقعة الرعد ، أما صوت الشرارة الكهربائية البرقية ، فهو : بدء الرعد ، ويكون ضعيفا بالنسبة لهزيمه وقعقعته ، لذلك : تسمع الرعد ضعيفا في الأول ثم يزداد ، كأنما أوله إيذان بتضخمه ، كما قد تؤذن الطلقة الفردة بانطلاق بطاريات .

(20/409)

برمّتها ، من المدافع الضخمة في الحروب ، فالرعد يحدث لا عند اتحاد الكهربائيتين حين يحدث البرق فقط ، ولكن يحدث أكثره بعد ذلك عند تمدد الكتل الهوائية الهاجمة في المنطقة المفرغة ، وهي إذا تمددت بردت برودة شديدة ، فيتكاثف ما فيها من البخار ،

ومن كثل السحاب ، فينزل على الأرض إما مطرا ، وإما بردا ، حسب مقدار البرودة الحادثة في تلك المناطق ، وهذا هو السبب في أن الرعد والبرق يعقبهما في الغالب مطرات شديدة ، سواء أكانت المطرة مائية ، أم بردية ، وقطرات الماء أو حبات البرد تنمو بعد ذلك باختراقها كثل السحاب المتراكم تحت المنطقة التي حدث فيها التفريغ 1 .

الصواعق :

وقد يحدث التفريغ الكهربائي بين السحاب والأرض ، بدلا من بين السحاب والسحاب ، وهذا يكون عادة إذا كان السحاب عظيم الكهربائية ، قريبا من الأرض ، فإذا حدث التفريغ ظهر له كالعادة ضوء وصوت ، نسمي مجموعهما بالصاعقة ، أي أن الصاعقة تفريغ كهربائي بين السحاب والأرض ، إذا أصاب حيوانا أو نباتا أحرقه ، وهو يحدث أكثر ما يحدث بين الأجسام المدببة على سطح الأرض من شجر أو نحوه ، وبين السحاب ، ولذا كان من الخطأ الاستظلال بالشجر ، أو المظلات في العواصف ذات البرق ، على أن الإنسان قد استخدم سهولة حدوث التفريغ بين الأجسام المدببة ، والسحاب ؛ لوقاية الأبنية من الصواعق ، وذلك بإقامته على سطوحها قضبانا حديدية أو نحاسية ، مدببة الأطراف ، بحيث يكون طرف القضيب المدبب أعلى قليلا من أعلى نقطة في البناء ، والطرف الآخر متصلا بلوح فلزي مدفون في أرض رطبة ، ومن شأن الأطراف المدببة ، أن يكون كل منها بابًا تخرج منه الكهربائية المتجمعة على السطح تدريجًا إلى السحاب الذي

يظله ، فيحدث التفريغ ، أي الاتحاد كهربائية الأرض ، وكهربائية السحاب تدريجا ، فيمتنع ذلك التفريغ الفجائي المعروف بالصاعقة ، على أنه إذا نزلت الصاعقة بالبناء رغم ذلك فالأرجح جداً أنها تصيب القضيب المدبب أول ما تصيب ، وتنصرف الكهربائية إلى الأرض ، بدلا من أن تدك البناء ، ولذا يسمى مثل هذا القضيب المدبب الواصل إلى الأرض : بصارفة الصواعق ، وقد وجدوا أن السطح الخارجي .

---

1 سنن الله الكونية ص 158-160 .

للقضيب هو الطريق الذي تمر به الكهربائية إلى الأرض ، لذلك : كلما كان هذا السطح أكبر كان الصرف أعظم ، والبناء أحصن ، ولذا كانت الصفائح أفعل في حفظ الأبنية ، من مثل كتلتها من الأسلاك1 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 295. 302 ﴾

---

1 سنن الله الكونية ص 162 .

فصل

قال الفخر :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13) ﴾

اعلم أنه تعالى لما خوف العباد بإنزال ما لا مرد له أتبعه بذكر هذه الآيات وهي مشتملة على أمور ثلاثة ، وذلك لأنها دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته ، وأنها تشبه النعم والإحسان من بعض الوجوه ، وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه .

واعلم أنه تعالى ذكر ههنا أموراً أربعة .

الأول : البرق وهو قوله تعالى : ﴿ يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" في انتصاب قوله : ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ وجوه .

الأول : لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وطمع أو على معنى إخافة وإطماعاً .

الثاني : يجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع والتقدير :

ذا خوف وذا طمع أو على معنى إيخافاً وإطماعاً .

الثالث : أن يكونا حالاً من المخاطبين أي خائفين وطامعين .

المسألة الثانية :

في كون البرق خوفاً وطمعاً وجوه .

الأول : أن عند لمعان البرق يخاف وقوع الصواعق ويطمع في نزول الغيث قال المتنبي :

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى . . يرجى الحيا منها ويخشى الصواعق

الثاني : أنه يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر وكمن في جرابه التمر والزبيب ويطمع فيه من له فيه نفع .

الثالث : أن كل شيء يحصل في الدنيا فهو خير بالنسبة إلى قوم ، وشر بالنسبة إلى آخرين ، فكذلك المطر خير في حق من يحتاج إليه في أوانه ، وشر في حق من يضره ذلك ، إما بحسب المكان أو بحسب الزمان .

(23/409)

المسألة الثالثة :

اعلم أن حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله تعالى وبيانه أن السحاب لا شك أنه

جسم مركب في أجزاء رطبة مائية ، ومن أجزاء هوائية ونارية ولا شك أن الغالب عليه الأجزاء المائية والماء جسم بارد رطب ، والنار جسم حار يابس وظهور الضد من الضد التام على خلاف العقل فلا بد من صانع مختار يظهر الضد من الضد .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : إن الريح احتقن في داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه ، ثم إن ذلك الريح يمزقه تمزيقاً عنيفاً فيتولد من ذلك التمزيق الشديد حركة عنيفة ، والحركة العنيفة موجبة للسخونة وهي البرق ؟

والجواب : أن كل ما ذكرتموه على خلاف المعقول وبيانه من وجوه .

الأول : أنه لو كان الأمر كذلك لوجب أن يقال : أينما يحصل البرق فلا بد وأن يحصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزق السحاب ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك فإنه كثيراً ما يحدث البرق القوي من غير حدوث الرعد .

الثاني : أن السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة للطبيعة المائية الموجبة للبرد ، وعند حصول هذا العارض القوي كيف تحدث النارية ؟ بل نقول : النيران العظيمة تنطفىء بصب الماء عليها ، والسحاب كله ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية ؟

الثالث : من مذهبكم أن النار الصرفة لا لون لها ألبتة ، فهب أنه حصلت النارية بسبب قوة المحاكة الحاصلة بأجزاء السحاب لكن من أين حدث ذلك اللون الأحمر ؟ فثبت أن السبب الذي ذكروه ضعيف وأن حدوث النار الحاصلة في جرم السحاب مع كونه ماء خالصاً لا

يمكن إلا بقدرة القادر الحكيم .

النوع الثاني : من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَيُنْشِىءُ السحاب الثقال ﴾ قال صاحب "الكشاف" : السحاب اسم جنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة لأنك تقول سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما تقول امرأة كريمة ونساء كرام وهي الثقال بالماء .

(24/409)

واعلم أن هذا أيضاً من دلائل القدرة والحكمة ، وذلك لأن هذه الأجزاء المائية إما أن يقال إنها حدثت في جو الهواء أو يقال إنها تصاعدت من وجه الأرض ، فإن كان الأول وجب أن يكون حدوثها باحداث محدث حكيم قادر وهو المطلوب ، وإن كان الثاني ، وهو أن يقال إن تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض فلما وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت فرجعت إلى الأرض فنقول هذا باطل ، وذلك لأن الأمطار مختلفة فتارة تكون القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة وتارة تكون متقاربة ، وأخرى تكون متباعدة وتارة تدوم مدة نزول المطر زماناً طويلاً وتارة قليلاً فاختلاف الأمطار في هذه الصفات مع أن طبيعة الأرض واحدة ، وطبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة لا بد وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار وأيضاً فالتجربة دلت على أن للدعاء والتضرع في نزول الغيث

أثراً عظيماً ولذلك كانت صلاة الاستسقاء مشروعة ، فعلمنا أن المؤثر فيه هو قدرة الفاعل لا الطبيعة والخاصية .

النوع الثالث : من الدلائل المذكورة في هذه الآية الرعد وهو قوله : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ وفيه أقوال :

القول الأول : إن الرعد اسم ملك من الملائكة وهذا الصوت المسموع هو صوت ذلك الملك بالتسبيح والتهليل عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن اليهود سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو ؟ فقال : " ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله " قالوا : فما الصوت الذي نسمع ؟ قال : " زجره السحاب " وعن الحسن أنه خلق من خلق الله ليس بملك فعلى هذا القول الرعد هو الملك الموكل بالسحاب وصوته تسبيح لله تعالى وذلك الصوت أيضاً يسمى بالرعد ويؤكد هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان إذا سمع الرعد قال : سبحان الذي سبحت له .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" إن الله ينشىء السحاب الثقال فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك فنطقه الرعد وضحكه البرق " (1)

واعلم أن هذا القول غير مستبعد وذلك لأن عند أهل السنة البنية ليست شرطاً لحصول الحياة فلا يبعد من الله تعالى أن يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق في أجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع فعلاً له وكيف يستبعد ذلك ونحن نرى أن السمندل يتولد في النار ، والضفادع تتولد في الماء البارد ، والدودة العظيمة ربما تتولد في الثلوج القديمة ، وأيضاً فإذا لم يبعد تسبيح الجبال في زمن داود عليه السلام ، ولا تسبيح الحصى في زمان محمد صلى الله عليه وسلم "فكيف يستبعد تسبيح السحاب" (2) وعلى هذا القول فهذا الشيء المسمى بالرعد ملك أو ليس بملك فيه قولان : أحدهما : أنه ليس بملك لأنه عطف عليه الملائكة ، فقال : ﴿ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ والمعطوف عليه مغاير للمعطوف .

والثاني : وهو أنه لا يبعد أن يكون من جنس الملائكة وإنما إفراده بالذكر على سبيل التشريف كما في قوله : ﴿ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال ﴾ [البقرة : 98] وفي قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُوحٍ ﴾ [الأحزاب : 7] .

القول الثاني : أن الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص ، ومع ذلك فإن الرعد يسبح الله سبحانه ، لأن التسبيح والتقديس وما يجري مجراهما ليس إلا وجود لفظ يدل على حصول

التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى ، فلما كان حدوث هذا الصوت دليلاً على وجود موجود متعال عن النقص والإمكان ، كان ذلك في الحقيقة تسبيحاً ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] .

القول الثالث : أن المراد من كون الرعد مسبحاً أن من يسمع الرعد فإنه يسبح الله تعالى ، فلهذا المعنى أضيف هذا التسبيح إليه .

القول الرابع : من كلمات الصوفية الرعد صعقات الملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم ، والمطر بكاؤهم .

---

(1) المسند (435/5) .

(2) رحم الله الإمام فخر الدين الرازى فهذا ما تطمئن النفس إليه وما الذى يمنع من حمل اللفظ على الحقيقة وكل شىء يسبح بحمد الله تعالى وقد سمع تسبيح الحصى فى كف رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وأبى بكر وعمر . رضى الله عنهما .

ولا يصار إلى التأويل إلا عند تعذر الحمل على الحقيقة وما يقال هنا يقال فى تسبيح الأشياء بحمد الله بلسان المقال مع لسان المقال فى قوله تعالى فى سور الإسراء ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44) ﴾ وفى إجابة السماوات والأرض لخالقها جل

وعز فى قوله تعالى فى سورة فصلت ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) ﴾ . والله أعلم وأحكم .

(26/409)

فإن قيل : وما حقيقة الرعد ؟

قلنا : استقصينا القول في سورة "البقرة" في قوله : ﴿ فِيهِ ظلمات وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة : 19] .

أما قوله : ﴿ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ فاعلم أن من المفسرين من يقول : عنى بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد ، فإنه سبحانه جعل له أعواناً ، ومعنى قوله : ﴿ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ أي وتسبح الملائكة من خيفة الله تعالى وخشيته .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنهم خائفون من الله لا كخوف ابن آدم ، فإن أحدهم لا يعرف من على يمينه ومن على يساره ، ولا يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شيء .

واعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية ، فللسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره ، وكذا القول في الرياح وفي سائر الآثار العلوية

، وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله ، فهذا الذي قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون عن الحكماء ، فكيف يليق بالعاقل الإنكار ؟

النوع الرابع : من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله : ﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء ﴾ واعلم أنا قد ذكرنا معنى الصواعق في سورة البقرة .

قال المفسرون : نزلت هذه الآية في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخي لبيد بن ربيعة أتيا النبي صلى الله عليه وسلم يخاصمانه ويجادلانه ، ويريدان الفتك به ، فقال أربد بن ربيعة أخو لبيد بن ربيعة : أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد ، ثم إنه لما رجع أربد أرسل عليه صاعقة فأحرقته ، ورمى عامراً بغدة كغدة البعير ، ومات في بيت سلولية .

(27/409)

واعلم أن أمر الصاعقة عجيب جداً وذلك لأنها تارة تتولد من السحاب ، وإذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان في لجة البحر ، والحكماء بالغوا في وصف قوتها ، ووجه الاستدلال أن النار حارة يابسة وطبيعتها ضد طبيعة السحاب ، فوجب أن تكون طبيعتها في الحرارة واليبوسة أضعف من طبيعة النيران الحادثة عندنا

على العادة، لكنه ليس الأمر كذلك، فإنها أقوى نيران هذا العالم، فثبت أن اختصاصها بمزيد تلك القوة لا بد وأن يكون بسبب تخصيص الفاعل المختار.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل الأربعة قال: ﴿وَهُمْ يجادلون فِى الله﴾ والمراد أنه تعالى بين دلائل كمال علمه في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أنثى﴾ [الرعد: 8] وبين دلائل كمال القدرة في هذه الآيات.

ثم قال: ﴿وَهُمْ يجادلون فِى الله﴾ يعني هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل يجادلون في الله وهو يحتمل وجوهاً: أحدها: أن يكون المراد الرد على الكافر الذي قال: أخبرنا عن ربنا أمن نحاس أم من حديد.

وثانيها: أن يكون المراد الرد على جدالهم في إنكار البعث وإبطال الحشر والنشر.

وثالثها: أن يكون المراد الرد عليهم في طلب سائر المعجزات.

ورابعها: أن يكون المراد الرد عليهم في استنزال عذاب الاستئصال.

وفي هذه الواو قولان: الأول: أنه للحال، والمعنى: فيصيب بالصاعقة من يشاء في حال جداله في الله، وذلك أن أربد لما جادل في الله أحرقته الصاعقة.

والثاني: أنها واو الاستئناف كأنه تعالى لما تمم ذكر هذه الدلائل قال بعد ذلك: ﴿وَهُمْ يجادلون فِى الله﴾.

ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ وفي لفظ المحال أقوال : قال ابن قتيبة : الميم زائدة وهو من الحول ، ونحوه ميم مكان ، وقال الأزهري : هذا غلط ، فإن الكلمة إذا كانت على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية ، نحو مهاد ومداس ومداد ، واختلفوا مم أخذ على وجوه : الأول : قيل من قولهم محل فلان بفلان إذا سعى به إلى السلطان وعرضه للهلاك ، وتمحل لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه ، فكان المعنى : أنه سبحانه شديد المكر لأعدائه يهلكهم بطريق لا يتوقعونه .

الثاني : أن المحال عبارة عن الشدة ، ومنه تسمى السنة الصعبة سنة المحل وما حلت فلاناً محالاً .

أي قاومته أينا أشد ، قال أبو مسلم : ومحال فعال من المحل وهو الشدة ولفظ فعال يقع على المجازاة والمقابلة ، فكأن المعنى : أنه تعالى شديد المغالبة ، وللمفسرين ههنا عبارات فقال مجاهد وقتادة : شديد القوة ، وقال أبو عبيدة : شديد العقوبة ، وقال الحسن : شديد النقمة ، وقال ابن عباس : شديد الحول .

الثالث : قال ابن عرفة : يقال ماحل عن أمره أي جادل ، فقوله : ﴿ شَدِيدُ المحال ﴾ أي شديد الجدال .

الرابع : روي عن بعضهم : ﴿ شَدِيدُ المحال ﴾ أي شديد الحقد .

قالوا : هذا لا يصح ، لأن الحقد لا يمكن في حق الله تعالى ، إلا أنا قد ذكرنا في هذا الكتاب أن أمثال هذه الألفاظ إذا وردت في حق الله تعالى فإنها تحصل على نهايات الأعراض لا على مبادىء الأعراض ، فالمراد بالحقد ههنا هو أنه تعالى يريد إيصال الشر إليه مع أنه يخفي عنه تلك الإرادة .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾ أي لله دعوة الحق ، وفيه بحثان :

(29/409)

البحث الأول : في أقوال المفسرين وهي أمور : أحدها : ما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ﴿ دَعْوَةُ الحق ﴾ قول لا إله إلا الله .

وثانيها : قول الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه هو الحق ، كأنه يومىء إلى أن الانقطاع إليه في الدعاء هو الحق .

وثالثها : أن عبادته هي الحق والصدق .

واعلم أن الحق هو الموجود ، والموجود قسمان : قسم يقبل العدم وهو حق يمكن أن يصير

باطلاً وقسم لا يقبل العدم فلا يمكن أن يصير باطلاً وذلك هو الحق الحقيقي ، وإذا كان واجب الوجود لذاته موجوداً لا يقبل العدم كان أحق الموجودات بأن يكون حقاً هو هو وكان أحق الاعتقادات وأحق الأذكار بأن يكون حقاً هو اعتقاد ثبوته وذكر وجوده ، فثبت بهذا أن وجوده هو الحق في الموجودات واعتقاد وجوده هو الحق في الاعتقادات .

وذكره بالثناء والإلهية والكمال هو الحق في الأذكار فلهذا قال : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾ .

البحث الثاني : قال صاحب "الكشاف" ﴿ دَعْوَةُ الحق ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل كما تضاف إليه الكلمة في قوله : ﴿كَلِمَةَ الحق ﴾ والمقصود منه الدلالة على كون هذه الدعوة مختصة بكونها حقة وكونها خالية عن أمارات كونه باطلاً ، وهذا من باب إضافة الشيء إلى صفته .

والثاني : أن تضاف إلى الحق الذي هو الله سبحانه على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب ، وعن الحسن : الحق هو الله وكل دعاء إليه فهو دعوة الحق .

(30/409)

ثم قال تعالى : ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني الآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله : ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ مما يطلبونه إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء ،

والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه ، فكذلك ما يدعونه جماد ، لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ، ولا يقدر على نفعهم وقيل شبهوا في قلة فائد دعائهم لآلهتهم ، بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطها ناشراً أصابعه ولم تصل كفاه إلى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من شربه ، وقرىء ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بالتاء ﴿ كباسط كَفَّيْهِ ﴾ بالتنوين ، ثم قال : ﴿ وَمَا دُعَاء الكافرين إلى فِى ضلال ﴾ أي إلا في ضياع لا منفعة فيه ، لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 19 . 24 ﴾

(31/409)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : خوفاً للمسافر من أذيته ، وطمعاً للمقيم في بركته ، قاله قتادة .

الثاني : خوفاً من صواعق البرق ، وطمعاً في غيثه المزيل للقحط ، قاله الحسن .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد قال : " اللهم لا تقتلنا بغضبك

ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك

" . الثالث : خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه .

﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾ قال مجاهد : ثقال بالماء .

قوله عز وجل : ﴿ ويسبّح الرعد بحمده ﴾ وفي الرعد قولان :

أحدهما : أنه الصوت المسموع ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " الرعد وعيد من الله فإذا سمعتموه فأمسكوا عن الذنوب

" . الثاني : أن الرعد ملك ، والصوت المسموع تسبيحه ، قاله عكرمة . ﴿ والملائكة مِن خيفته ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وتسبح الملائكة من خيفة الله تعالى ، قاله ابن جرير .

الثاني : من خيفة الرعد ، ولعله قول مجاهد .

﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ اختلف فيمن نزل ذلك فيه على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها نزلت في رجل أنكر القرآن وكذب النبي صلى الله عليه وسلم فأخذته صاعقة ، قاله قتادة .

الثاني : في أربد بن ربيعة وقد كان همّ بقتل النبي صلى الله عليه وسلم مع عامر بن الطفيل فتيبست يده على سيفه ، وعصمه الله تعالى منهما ، ثم انصرف فأرسل الله تعالى عليه

صاعقة أحرقته. قال ابن جرير: وفي ذلك يقول أخوه لبيد:

أخشى على أربد الحتوف ولا... أرهب نوء السِّماك والأسد

فجّعني البرق والصواعق بالفا... رسِ يوم الكريمة النَّجُدِ

الثالث: أنها نزلت في يهودي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أخبرني عن ربك من أي شيء، من لؤلؤ أو ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأخذته، قال علي وابن عباس ومجاهد.

روى أبان عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تأخذ الصاعقة ذاكراً لله عز وجل

(32/409)

". ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعني جدال اليهودي حين سأل عن الله: من أي شيء هو؟ قاله مجاهد.

الثاني: جدال أربد فيما همّ به من قتل النبي صلى الله عليه وسلم، قاله ابن جريج.

﴿ وهو شديد المِحالِ ﴾ فيه تسعة تأويلات:

أحدها: يعني شديد العداوة، قاله ابن عباس.

الثاني : شديد الحقد ، قاله الحسن .

الثالث : شديد القوة ، قاله مجاهد .

الرابع : شديد الغضب ، قاله وهب بن منبه .

الخامس : شديد الحيلة ، قاله قتادة والسدي .

السادس : شديد الحول ، قاله ابن عباس أيضاً .

السابع : شديد الإهلاك بالمحل وهو القحط ، قاله الحسن أيضاً .

الثامن : شديد الأخذ ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه . التاسع : شديد الانتقام والعقوبة ، قاله أبو عبيدة وأنشد لأعشى بني ثعلبة .

فرع نبع يهتز في غصن المج . . . د كريم الندى عظيم المحال

قوله عز وجل ﴿ له دعوة الحق ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن دعوة الحق لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الله تعالى هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق .

الثالث : أن الإخلاص في الدعاء هي دعوة الحق ، قاله بعض المتأخرين .

ويحتمل قولاً رابعاً : أن دعوة الحق دعاؤه عند الخوف لأنه لا يدعى فيه إلا إياه ، كما قال تعالى ﴿ ضلّ من تدعون إلا إياه ﴾ [الإسراء : 67] هو أشبه بسياق الآية لأنه قال :

﴿ والذين يدعون مِن دونه ﴾ يعني الأصنام والأوثان .

﴿ لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ أي لا يجيبون لهم دعاءً ولا يسمعون لهم نداء .

﴿ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلاً لإياسهم من إجابة دعائهم لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض الماء باليد ، كما قال أبو الهذيل :

فأصبحت مما كان بيني وبينها . . . مِن الود مثل القابض الماء باليد

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه :

(33/409)

أحدها : أن الذي يدعو إلهاً من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء ليبلغ إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً ، لأن الماء لا يستجيب له وما الماء ببالغ إليه ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفر فيه ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه لكذب ظنه وفساد توهمه ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفيه شيء منه .

وزعم الفراء أن المراد بالماء ها هنا البئر لأنها معدن للماء ، وأن المثل كمن مد يده إلى البئر بغير رشاء ، وشاهده قول الشاعر :

فإن الماء ماءُ أبي وجدي . . . وبئري ذو حَفَرْتُ وذو طويت . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(34/409)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ هو الذي يريكم ﴾ الآية ،

هذه آية تنبيه على القدرة ، و﴿ البرق ﴾ روي فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مخراق بيد ملك يزجر به السحاب ، وهذا أصح ما روي فيه ، وروي عن بعض العلماء أنه قال : البرق : اصطكاك الأجرام ، وهذا عندي مردود ، وقال أبو الجلد : البرق - في هذه الآية - الماء ، وذكره مكي عن ابن عباس .

قال القاضي أبو محمد : ومعنى هذا القول : أنه لما كان داعية الماء ، وكان خوف المسافرين من الماء وطمع المقيمين فيه عبر - في هذا القول - عنه بالماء .

وقوله : ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ - من رأى ذلك في الماء فهو على ما تقدم ، والظاهر أن الخوف

إنما هو من صواعق البرق - والطمع في المطر الذي يكون معه ، وهو قول الحسن ، و ﴿ السحاب ﴾ جمع سحابة ، ولذلك جمع الصفة - و ﴿ الثقال ﴾ معناه : بحمل الماء ، وبذلك فسر قتادة ومجاهد ، والعرب تصفها بذلك ، ومنه قول قيس بن الخطيم : [المتقارب] .

فما روضة من رياض القطا . . . كأن المصابيح حوذانُها

بأحسن منها ولا مزنة . . . دلوح تكشف أدجانُها

والدلوح : المثقلة . و ﴿ الرعد ﴾ ملك يزجر ﴿ السحاب ﴾ بصوته ، وصوته - هذا المسموع - تسبيح - و ﴿ الرعد ﴾ اسم الملك : وقيل : " الرعد " اسم صوت الملك وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا سمع " الرعد " قال :

" اللهم لا تهلكنا بغضبك ولا تقتلنا بعذابك وعافنا قبل ذلك " وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره : أنهم كانوا إذا سمعوا الرعد قالوا : سبحان من سبحت له وروي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع " الرعد " قال : " سبحان من سبح الرعد بحمده " وقال ابن أبي زكرياء : من قال - إذا سمع الرعد - سبحان الله وبحمده ، لم تصبه صاعقة .

وقيل في الرعد أيضاً إنه ريح تختنق بين السحاب - روي ذلك عن ابن عباس في غير ما

ديوان .

قال القاضي أبو محمد : وهذا عندي فيه نظر ، لأنها نزعات الطبيعيين وغيرهم .

وروي أيضاً عن ابن عباس : أن الملك إذا غضب وزجر السحاب اصطدمت من خوفه فيكون البرق ، وتحتكّ فتكون الصواعق .

وقوله : ﴿ ويرسل الصواعق ﴾ الآية – قيل : إنه أدخلها في التنبيه على القدرة بغير سبب ساق ذلك . وقال ابن جريج : كان سبب نزولها قصة أربد أخي لبيد بن ربيعة لأمّة وعامر بن الطفيل ، وكان من أمرهما – فيما روي – أنهما قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاه إلى أن يجعل الأمر بعده إلى عامر بن الطفيل ويدخلا في دينه – فأبى ، فقال عامر : فتكون أنت على أهل الوبر ، وأنا على أهل المدر – فأبى ، فقال له عامر : فماذا تعطيني ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " أعطيك أعنة الخيل ، فإنك رجل فارس " ؛ فقال له عامر : والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً حتى آخذك ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأبى الله ذلك وابنا قيلة " ؛ فخرجا من عنده ، فقال أحدهما لصاحبه : لو قتلناه ما انتطح فيه عنزان ، فتآمر في الرجوع لذلك ، فقال عامر لأربد : أنا أشغله لك

بالحديث واضربه أنت بالسيف ؛ فجعل عامر يحدثه وأربد لا يصنع شيئًا ؛ فلما انصرفا قال له عامر : والله يا أربد لا خفتك أبداً ولقد كنت أخافك قبل هذا ، فقال له أربد : والله لقد أردت إخراج السيف فما قدرت على ذلك ، ولقد كنت أراك بيني وبينه أفأضربك ؟ فمضيا للحشد على النبي صلى الله عليه وسلم فأصابت أربد صاعقة فقتلته ، ففي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخوه :

أخشى على أربد الحتوف ولا . . . أرهب نوء السماك والأسد

فجعني الرعد والصواعق . . . بالفارس يوم الكريهة النجد

فنزلت الآية في ذلك .

وروي عن عبد الرحمن بن صحار العبدي أنه بلغه أن جباراً من جبابرة العرب بعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم ليسلم فقال : أخبروني عن إله محمد أمن لؤلؤ هو أو من ذهب ؟ فنزلت عليه صاعقة ونزلت الآية فيه .

وقال مجاهد : إن بعض اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم يناظره ، فبينما هو كذلك إذ نزلت صاعقة فأخذت قحف رأسه فنزلت الآية فيه .

وقوله : ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ يجوز أن تكون إشارة إلى جدال اليهودي المذكور ، وتكون الواو واو حال ؛ أو إلى جدال الجبار المذكور . ويجوز - إن كانت الآية على غير سبب - أن يكون قوله : ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ إشارة إلى جميع الكفرة من العرب وغيرهم ، الذين جلبت لهم هذه التنبيهات .

و﴿ المحال ﴾ : القوة والإهلاك ، ومنه قول الأعشى : [الخفيف]

فرع نبع يهتز في غصن المجد . . . عظيم الندى شديد المحال

ومنه قول عبد المطلب :

لا يغلبن صليبهم . . . ومحالهم عدواً محالك

وقرأ الأعرج والضحاك " المَحال " بفتح الميم بمعنى المحالة ، وهي الحيلة ، ومنه قول العرب في مثل : المرء يعجز لا المحالة ، وهذا كالاستدراج والمكر ونحوه وهذه استعارات في ذكر الله تعالى ، والميم إذا كسرت أصلية ، وإذا فتحت زائدة ، ويقال : محل الرجل بالرجل إذا مكر به وأخذه بسعاية شديدة .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾

الضمير في ﴿ له ﴾ عائد على اسم الله عز وجل ، وقال ابن عباس : ﴿ دعوة الحق ﴾ : لا إله إلا الله .

قال القاضي أبو محمد : وما كان من الشريعة في معناها .

وقال علي بن أبي طالب : ﴿ دعوة الحق ﴾ : التوحيد . ويصح أن يكون معناها له دعوة العباد بالحق ، ودعاء غيره من الأوثان باطل .

وقوله : ﴿ والذين ﴾ يراد به ما عبد من دون الله ، والضمير في ﴿ يدعون ﴾ لكفار قريش وغيرهم من العرب . .

وروى اليزيدي عن أبي عمرو بن العلاء : " تدعون من دونه " بالتاء من فوق ، و ﴿ يستجيبون ﴾ بمعنى يجيبون ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

وداع دعا : يا من يجيب إلى النِّدا . . . فلم يستجبه عند ذاك مجيب

(37/409)

ومعنى الكلام : والذين يدعوهم الكفار في حوائجهم ومنافعهم لا يجيبون بشيء . ثم مثل تعالى مثالاً لإجابتهم بالذي يبسط ﴿ كفيه ﴾ نحو الماء ويشير إليه بالإقبال إلى فيه ، فلا يبلغ فمه أبداً ، فكذلك إجابة هؤلاء والانتفاع بهم لا يقع . وقوله : ﴿ هو ﴾ يراد به الماء ، وهو البالغ ، والضمير في " بالغة " للفم ، ويصح أن يكون ﴿ هو ﴾ يريد به الفم وهو البالغ أيضاً ، والضمير في " بالغه " للماء ، لأن الفم لا يبلغ الماء أبداً على تلك الحال .

ثم أخبر تعالى عن ﴿ دعاء الكافرين ﴾ أنه في ائتلاف و﴿ ضلال ﴾ لا يفيد فيه شيئاً ولا يغنيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(38/409)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾

فيه أربعة أقوال :

أحدها : خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

قال قتادة : فالمسافر خاف أذاه ومشقّته والمقيم يرجو منفعته .

والثاني : خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الحسن .

والثالث : خوفاً للبلد الذي يخاف ضرر المطر وطمعاً لمن يرجو الانتفاع به ، ذكره الزجاج .

والرابع : خوفاً من العقاب وطمعاً في الثواب ، ذكره الماوردي .

وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد يقول : إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض .

قوله تعالى : ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾ أي : ويخلق السحاب الثقال بالماء .

قال الفراء : السحاب ، وإِن كان لفظه واحداً ، فانه جمع واحد ته سحابة ، جُعل نعته على الجمع ، كما قال : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾ [الرحمن 76] ولم يقل : أخضرَ ، ولا حسنٍ.

قوله تعالى : ﴿ ويسبّح الرعد بحمده ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه اسم الملَك الذي يزجر السحاب ، وصوته : تسبيحه ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه الصوت المسموع .

وإِنما خُص الرعد بالتسبيح ، لأنه من أعظم الأصوات .

قال ابن الأنباري : وإِخباره عن الصوت بالتسبيح مجاز ، كما يقول القائل : قد غمَّني كلامك .

قوله تعالى : ﴿ والملائكة من خيفته ﴾ في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إِلى الله عز وجل ، وهو الأظهر .

قال ابن عباس : يخافون الله ، وليس كخوف ابن آدم ، لا يعرف أحدهم مَنْ على يمينه ومَنْ على يساره ، ولا يَشْغَله عن عبادة الله شيء .

والثاني : أنها ترجع إِلى الرعد ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال :

(39/409)

أحدها : أنها نزلت في أربد بن قيس ، وعامر ابن الطُّفَيل ، أتيا إِلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان الفتك به ، فقال : "اللهم اكفنيهما بما شئت" ، فأما أربد فأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائف صاحٍ فأحرقته ، وأما عامر فأصابته غُدّة فهلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، هذا قول الأكثرين ، منهم ابن جريج ، وأربد هو أخو لبيد بن ربيعة لأُمه .

والثاني : أنها نزلت في رجل جاء إِلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : حدّثني يا محمد عن إِلهك ، أياقوت هو؟ أذهبٌ هو؟ فنزلت على السائل صاعقة فأحرقته ، ونزلت هذه الآية ، قاله عليّ عليه السلام .

قال مجاهد : وكان يهودياً .

وقال أنس بن مالك : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إِلى بعض فراعنة العرب يدعوه إِلى الله تعالى فقال للرسول : وما الله ، أَمِن ذهب هو ، أم مِن فضة ، أم من نحاس؟ فرجع إِلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : "ارجع إِليه فادعه" ، فرجع ، فأعاد عليه

الكلام ، إلى أن رجع إليه ثالثة ، فبينما هما يتراجعان الكلام ، إذ بعث الله سحابة حيال رأسه ، فرعدت ووقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه ، ونزلت هذه الآية .

والثالث : أنها في رجل أنكر القرآن وكذّب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأرسل الله عليه صاعقة فأهلكته ، ونزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يكذِّبون بعظَمة الله ، قاله ابن عباس .

والثاني : يخاصِمون في الله ، حيث قال قائلهم : أهو من ذهب ، أم من فضة ؟ على ما تقدم بيانه .

قوله تعالى : ﴿ وهو شديد المحال ﴾ فيه خمسة أقوال :

أحدها : شديد الأخذ ، قاله عليّ عليه السلام .

والثاني : شديد المكر ، شديد العداوة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : شديد العقوبة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وقال مجاهد في رواية عنه : شديد الانتقام .

وقال أبو عبيدة : شديد العقوبة والمكر والنكال ، وأنشد للأعشى :

فَرْعُ نَبْعٍ يهتزُّ في غُصُنِ المج . . .

د ، غزيرُ النَّدى ، شديدُ المِحال

إنْ يُعاقِب يكُنْ غَراماً وإنْ يُعْ . . .

طِ جَزيلاً فإنَّهُ لا يُبالي

وقال ابن قتيبة : شديد المكر والكيد ، وأصل المحال : الحيلة .

والرابع : شديد القوّة ، قاله مجاهد .

قال الزجاج : يقال ما حلتُه مِحالاً : إذا قاويته حتى تبيَّن له أيكما الأشد ، والمَحَل في اللغة : الشدة .

والخامس : شديد الحقد ، قاله الحسن البصري فيما سمعناه عنه مسنداً من طرق ، وقد رواه عنه جماعة من المفسرين منهم ابن الأنباري ، والنقاش ، ولا يجوز هذا في صفات الله تعالى .

قال النقاش : هذا قول مُنكرٌ عند أهل الخبر والنظر في اللغة لا يجوز أن تكون هذه صفةً من صفات الله عز وجل .

والذي أختاره في هذا ما قاله عليّ عليه السلام : شديد الأخذ ، يعني : أنه إذا أخذ الكافر والظالم لم يفلته من عقوباته .

قوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنها كلمة التوحيد ، وهي لا إِله إِلا الله ، قاله عليّ ، وابن عباس ، والجمهور ، فالمعنى : له من خَلقه الدعوة الحق ، فأُضيفت الدعوة إِلى الحق ، لاختلاف اللفظين .

والثاني : أن الله عز وجل هو الحق ، فمن دعاه دعا الحق ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ يعني : الأصنام يدعونها آلهة .

قال أبو عبيدة : المعنى : والذين يدعون غيره من دونه .

قوله تعالى : ﴿ لا يستجيبون لهم ﴾ أي : لا يجيبونهم .

قوله تعالى : ﴿ إِلا كباسط كفَّيه إِلى الماء ﴾ فيه خمسة أقوال :

أحدها : أنه العطشان يمدُّ يده إِلى البئر ليرتفع الماء إِليه وما هو ببالغه ، قاله عليّ عليه السلام ، وعطاء .

والثاني : أنه الرجل العطشان قد وضع كفَّيه في الماء وهو لا يرفعهما ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أنه العطشان يرى خياله في الماء من بعيد ، فهو يريد أن يتناوله فلا يقدر عليه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والرابع : أنه الرجل يدعو الماءَ بلسانه ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً ، قاله مجاهد .

والخامس : أنه الباسط كفَّيه ليقبض على الماء حتى يؤدِّيَه إلى فيه ، لا يتم له ذلك ، والعرب : تقول من طلب مالا يجد فهو القابض على الماء ، وأنشدوا :

وإنِّي وإيَّاكم وشَوْقاً إليكُمُ . . .

كقابضِ ماءٍ لم تَسِقْهُ أنامِلُهْ

أي : لم تحمله ، والوَسْق : الحِمْلُ ، وقال آخر :

فأصبحتُ مما كان بَيْني وبَيْنَها . . .

مِنَ الوُدِّ مِثْلَ القَابِضِ الماءَ باليَدِ

هذا قول أبي عبيدة ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ وما دعاء الكافرين إِلا في ضلال ﴾ فيه قولان :

أحدهما : وما دعاء الكافرين ربَّهم إِلا في ضلال ، لأن أصواتهم محجوبة عن الله ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : وما عبادة الكافرين الأصنامَ إِلا في خسران وباطل ، قاله مقاتل . انتهى ا . هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِىءُ السحاب الثقال ﴾ أي بالمطر .

"والسَّحاب" جمع ، والواحدة سَحَابة ، وسُحُب وسَحَائب في الجمع أيضاً .

﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصواعق ﴾ قد مضى في "البقرة" القول في الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة ؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته ؛ وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز ؛ أي يريكم البرق في السماء خوفاً للمسافر ، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ ﴾ [النساء : 102] وطمعاً للحاضر أن يكون عقِبه مطر وخِصْب ؛ قال معناه قَتَادة ومجاهد وغيرهما .

وقال الحسن : خوفاً من صواعق البرق ، وطمعاً في غيثه المزيل للقحط .

"وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ" قال مجاهد : أي بالماء .

"وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ" من قال إن الرّعد صوت السحاب فيجوز أن يُسبّح الرعد بدليل

خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله : "وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ" فلو كان الرّعد مَلَكاً لدخل في جملة الملائكة .

ومن قال إنه ملك قال : معنى .

"مِنْ خِيفَتِهِ" من خيفة الله ؛ قاله الطَّبَريّ وغيره .

قال ابن عباس : إن الملائكة خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم ؛ لا يعرف واحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره ، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب ؛ وعنه قال : الرّعد مَلَك يَسوق السّحاب ، وإن بخار الماء لفي نُقْرة إبهامه ، وأنه مُوكّل بالسّحاب يصرفه حيث يؤمر ، وأنه يسبّح الله ؛ فإذا سبّح الرّعد لم يبق مَلَك في السّماء إلا رفع صوته بالتّسبيح ، فعندها ينزل القَطْر ، وعنه أيضاً كان إذا سمع صوت الرّعد قال : سبحان الذي سَبَّحَت له .

وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الرّعد قال : سبحان الذي يُسَبِّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته ، ثم يقول : إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد .

وقيل : إنه مَلَك جالس على كرسيّ بين السماء والأرض ، وعن يمينه سبعون ألف مَلَك ، وعن يساره مثل ذلك ؛ فإذا أقبل على يمينه وسبّح سبّح الجميع من خوف الله ، وإذا أقبل على يساره وسَبّح سَبّح الجميع من خوف الله .

﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ ذكر الماورديّ عن ابن عباس وعليّ بن أبي طالب ومجاهد : نزلت في يهوديّ قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أخبرني مِن أيّ شيء ربّك ، أمِن لؤلؤ أم من ياقوت ؟ فجاءت صاعقة فأحرقته .

وقيل : نزلت في بعض كفّار العرب ؛ قال الحسن : كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي صلى الله عليه وسلم نَفَراً يدعونه إلى الله ورسوله والإسلام فقال لهم : أخبروني عن ربّ محمد ما هو ، ومِمّ هو ، أمِن فضة أم من حديد أم نحاس ؟ فاستعظم القوم مقالته ؛ فقال : أُجِيبُ محمداً إلى ربّ لا يعرفه ! فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليه مراراً وهو يقول مثل هذا ؛ فبينا النَّفَر ينازعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم ، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة ، فأحرقت الكافر وهم جلوس ؛ فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : احترق صاحبكم ، فقالوا : من أين علمتم ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . "وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ" .

ذكره الثعلبي عن الحسن ؛ والقشيري بمعناه عن أنس ، وسيأتي .

(44/409)

وقيل : نزلت الآية في أربد بن ربيعة أخي لَبيد بن ربيعة ، وفي عامر بن الطُّفَيْل ؛ قال ابن عباس : " أقبل عامر بن الطُّفَيْل وأَرْبَد بن ربيعة العامريان يريدان النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد ، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور ، وكان من أجمل الناس ؛ فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا يا رسول الله عامر بن الطُّفَيْل قد أقبل نحوك ؛ فقال : "دَعْه فإن يُرِدِ الله به خيراً يَهْدِه" فأقبل حتى قام عليه فقال : يا محمد ما لي إن أسلمت ؟ فقال : "لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين" .

قال : أتجعل لي الأمر من بعدك ؟ قال : "ليس ذاك إليّ إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء" .

قال : أفتجعلني على الوَبَر وأنت على المَدَر ؟ قال : "لا" .

قال : فما تجعل لي ؟ قال : "أجعل لك أَعِنّة الخيل تغزو عليها في سبيل الله" .

(45/409)

قال : أو ليس لي أعنّة الخيل اليوم ؟ قم معي أكلمك ؛ فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عامر أومأ إلى أَرْبَد : إذا رأيتني أكلمه فدُرْ من خلفه واضربه بالسيف ؛ فجعل يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم ويراجعه ؛ فاخترط أَرْبَدْ من سيفه شبراً ثم حبسه الله ، فلم يقدر على سَلّه ، ويَبست يده على سيفه ، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائفٍ صاحٍ فأحرقته ، وولّى عامر هارباً وقال : يا محمدا دعوت ربك على أربد حتى قتلته ؛ والله لأملأنها عليك خيلاً جُرْداً ، وفتياناً مُرْداً ؛ فقال عليه السلام : "يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلة" يعني الأَوْس والخَزْرَج ؛ فنزل عامر بيت امرأة سَلولية ؛ وأصبح وهو يقول : والله لئن أَصْحَرَ لي محمدٌ وصاحبه يريد مَلَك الموت لأنفذتهما برمحي ؛ فأرسل الله مَلَكاً فلطمه بجناحه فأذراه في التراب ؛ وخرجت على ركبته غُدَّة عظيمة في الوقت ؛ فعاد إلى بيت السَّلولية وهو يقول : غُدّة كغدة البعير ، وموت في بيت سَلُولية ؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره" ورَثَى لَبيد بن ربيعة أخاه أَرْبَد فقال :

يا عينُ هلاّ بَكَيتِ أَرْبَدَ إِذْ قُمْ . . .

نَا وقَامَ الخُصُوم في كَبَد

أَخْشَى على أَرْبَدَ الحُتُوفَ ولاَ . . .

أَرْهَبُ نَوْءَ السّمَاكِ والأَسَد

فَجّعَني الرّعْدُ والصّوَاعِقُ بالفا . . .

رِسِ يَوْمَ الْكَرِيهَةِ النَّجِدِ

وفيه قال :

إن الرَّزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مِثْلُهَا . . .

فِقْدَانُ كُلِّ أَخٍ كَضَوْءِ الْكَوْكَبِ

يا أَرْبَدَ الخيرِ الكريمَ جُدُودُهُ . . .

أفردَتني أَمشِي بقَرْنٍ أعْضَبَ

وأسلم لبِيد بعد ذلك رضي الله عنه .

مسألة : روى أَبَان عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تأخذ الصاعقة ذاكراً لله عزّ وجلّ " .

(46/409)

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول : " سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خِيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته " وذكر الخطيب من حديث سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال : كنا مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبرد ، فقال لنا كعب :

من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرّعد بحمده والملائكة من خِيفته ثلاثاً عوفي مما يكون في ذلك الرعد ؛ ففعلنا فعوفينا ؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإذا بَرَدَة قد أصابت أنفه فأثّرت به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال بَرَدَة أصابت أنفي فأثرت ، فقلت : إن كعباً حين سمع الرعد قال لنا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً عُوفي مما يكون في ذلك الرعد ؛ فقلنا فعوفِينا ؛ فقال عمر : أفلا قلتم لنا حتى نقولها ؟ وقد تقدّم هذا المعنى في "البقرة" .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ ﴾ يعني جدال اليهوديّ حين سأل عن الله تعالى : من أيّ شيء هو؟ قاله مجاهد .

وقال ابن جُرَيج : جدال أَرْبَدَ فيما همّ به من قتل النبي صلى الله عليه وسلم .

ويجوز أن يكون ، "وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ" حالاً ، ويجوز أن يكون منقطعاً .

وروى أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبرني عن إلهك هذا ! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس ؟ فاستعظم ذلك ؛ فرجع إليه فأعلمه ؛ فقال : "ارجع إليه فادعه" فرجع إليه وقد أصابته صاعقة ، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل : "وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ" " ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ قال ابن الأعرابي : "المِحال"

المكر ، والمكر من الله عزّ وجلّ التدبير بالحق .

النحاس : المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر .

(47/409)

وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد "وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ" أي النقمة .

وقال الأزهريّ : "المحال" أي القوّة والشدّة .

والْمَحْل : الشدّة ؛ الميم أصلية ، وماحَلْتُ فلاناً مِحَالاً أي قاويته حتى يتبيّن أينا أشدّ .

وقال أبو عبيد : "المحال" العقوبة والمكروه .

وقال ابن عَرَفة : "المِحال" الجدال ؛ يقال : ماحَلَ عن أمره أي جادل .

وقال القُتَيبيّ : أي شديد الكيد ؛ وأصله من الحيلة ، جعل ميمه كميم المكان ؛ وأصله من الكون ، ثم يقال : تمكنت .

وقال الأزهري : غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة ؛ بل هي أصلية ، وإذا رأيت الحرف على مثال فِعال أوّله ميم مكسورة فهي أصلية ؛ مثل : مِهاد ومِلاك ومِرَاس ، وغير ذلك من الحروف .

ومِفْعَل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجيء بإظهار الواو مثل : مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر ،

وغيرها من الحروف ؛ وقال : وقرأ الأعرج "وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَال" بفتح الميم ؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول ؛ ذكر هذا كله أبو عبيد الْهَرَوِيّ ، إلا ما ذكرناه أوّلاً عن ابن الأعرابيّ ؛ وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها ، وهي ثمانية : أولها : شديد العداوة ، قاله ابن عباس .

وثانيها : شديد الْحَوْل ، قاله ابن عباس أيضاً .

وثالثها : شديد الأخذ ، قاله عليّ بن أبي طالب .

ورابعها : شديد الحقد ، قاله ابن عباس .

وخامسها : شديد القوة ، قاله مجاهد .

وسادسها : شديد الغضب ، قاله وهب بن مُنَبّه .

وسابعها : شديد الهلاك بالمحل ، وهو القحط ؛ قاله الحسن أيضاً .

وثامنها : شديد الحيلة ؛ قاله قَتَادة .

وقال أبو عبيدة مَعْمَر : المِحال والمماحلة المماكرة والمغالبة ؛ وأنشد للأعشى :

فرعِ نَبْعٍ يَهْتَزُّ في غُصُنِ الْمَجْ . . .

دِ كثير النّدَى شديد المحال

وقال آخر :

ولَبّسَ بَيْنَ أقوامٍ فكُلٌّ . . .

أَعَدَّ له الشَّغَازِبَ والْمِحَالاَ

وقال عبد المطلب :

لا هُمَّ إنّ الْمَرْءَ يَمْ . . .

(48/409)

نَعُ رَحْلَهُ فامنع حِلاَلَكَ

لاَ يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُم وَمِحَا . . .

لُهُمْ عَدْواً مِحَالَك

قوله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾

أي لله دعوة الصدق .

قال ابن عباس وقَتَادة وغيرهما : لا إله إلا الله .

وقال الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق .

وقيل : إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق ؛ قاله بعض المتأخرين .

وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف ؛ فإنه لا يدعى فيه إلا إياه ، كما قال : ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 67] ؛ قال الْمَاوَرْدِيّ : وهو أشبه بسياق الآية ؛ لأنه قال :

﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأصنام والأوثان .

﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء .

﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلاً ليأسهم من الإجابة لدعائهم ؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مَثَلا بالقابض الماء باليد ؛ قال :

فأصبحتُ فيما كان بَيْني وبينها . . .

من الودّ مثلَ القابضِ الماء باليدِ

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها : أن الذي يدعو إلهاً من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فِيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً ، لأن الماء لا يستجيب ، وما الماء ببالغ إليه ؛ قاله مجاهد .

الثاني : أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفّه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لكذب ظنه ، وفساد توهمه ؛ قاله ابن عباس .

الثالث : أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد في كفه شيء منه .

وزعم الفراء أن المراد بالماء هاهنا البئر ؛ لأنها معدن للماء ، وأن المثل كمن مدّ يده إلى البئر بغير رِشاء ؛ وشاهده قول الشاعر :

فإن الماءَ ماءُ أَبِي وجَدّي . . .

وبِئري ذُو حَفَرْتُ وذُو طَوَيْتُ

(49/409)

قال علي رضي الله عنه : هو كالعطشان على شفة البئر ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا الماء يرتفع إليه ؛ ومعنى "إِلاَّ كَبَاسِطِ" إلا كاستجابة باسط كفيه "إِلَى الْمَاءِ" فالمصدر مضاف إلى الباسط ، ثم حذف المضاف ؛ وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء ؛ والمعنى : إلا كإجابة باسط كفيه إلى الماء ؛ واللام في قوله : "لِيَبْلُغَ فَاهُ" متعلقة بالبسط ؛ وقوله : "وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ" كناية عن الماء ؛ أي وما الماء ببالغ فاه.

ويجوز أن يكون "هو" كناية عن الفم ؛ أي ما الفم ببالغ الماء .

﴿ وَمَا دُعَآءُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال ، لأنها شرك .

وقيل : إلا في ضلال أي يضلّ عنهم ذلك الدعاء ، فلا يجدون منه سبيلاً ؛ كما قال : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ [الأعراف : 37] وقال ابن عباس : أي

أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾

لما خوف الله عباده بقوله : وإذا أراد الله بقوم سوءاً ذكر في هذه الآية من عظيم قدرته ما يشبه النعم من وجه يشبه العذاب من وجه ، فقال تعالى : هو الذي يعني هو الذي يريكم البرق والبرق معروف ، وهو لمعان يظهر من خلال السحاب وفي كونه خوفاً وطمعاً وجوه :

الأول إن عند لمعان البرق يخاف من الصواعق ، ويطمع في نزول المطر .

الثاني : أنه يخاف من البرق من يتضرر بالمطر كالمسافر ومن في جرينه يعني بيدره التمر والزبيب والقمح ونحو ذلك ، ويطمع فيه من له في نزول المطر نفع كالزارع ونحوه .

الثالث : أن المطر يخاف منه إذا كان في غير مكانه وزمانه ، ويطمع فيه إذا كان في مكانه وزمانه فان من البلاد ما إذا أمطرت قحطت وإذا لم تمطر أخصبت ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾ يعني المطر .

يقال : انشأ الله السحابة فنشأت أي أبداها فبدت والسحاب جمع سحابة ، والسحاب غربال الماء ، قاله علي بن أبي طالب .

وقيل : السحاب الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء .

ولهذا قيل : سحاب جهام وهو الخالي من الماء وأصل السحب الجر وسمي السحاب سحاباً إما لجر الريح له أو لجره الماء أو لانجراره في سيره ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ أكثر المفسرين على أن الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب ، والصوت المسموع منه تسبيحه .

وأورد على هذا القول ما عطف عليه .

وهو قوله ﴿ والملائكة من خيفته ﴾ وإذا كان المعطوف مغايراً للمعطوف عليه وجب أن يكون غيره .

وأجيب عنه أنه لا يبعد أن يكون الرعد اسماً لملك من الملائكة وإنما أفرده بالذكر تشريفاً له على غيره من الملائكة ، فهو كقوله : وملائكته وجبريل وميكال .

قال ابن عباس : أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله وسلم فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو قال : " ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوقه بها حيث يشاء الله " قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع ؟ قال : " زجره السحاب حتى تنتهي حيث أمرت " قالوا صدقت .

أخرجه الترمذي مع زيادة فيه .

المخاريق : جمع مخراق ، وهو في الأصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً ، وأراد به هنا آلة تزجر بها الملائكة السحاب .

وقد جاء تفسيره في حديث آخر وهو صوت (1) من نور تزجر الملائكة به السحاب ، قال ابن عباس : من سمع صوت الرعد فقال : سبحان من يسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير .

فإن أصابه صاعقة فعلي ديته ، وكان عبد الله بن الزبير إذا سمع الرعد ترك الحديث ، وقال : سبحان من يسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته وكان يقول إن الوعيد لأهل الأرض شديد .

---

(1) قوله صوت لعله سوط كما يقتضيه السياق اه مصححة .

وفي بعض الأخبار أن الله تعالى يقول : " لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولم أسمعهم صوت الرعد " وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال : الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر ، وإن بحور الماء في نقرة إبهامه ، وإنه يسبح الله فإذا سبح لا يبقى ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر ، وقيل : إن الرعد اسم لصوت الملك الموكل بالسحاب ، ومع ذلك فإن صوت الرعد يسبح الله لأن التسبيح والتقديس عبارة عن تنزيه لله عن جميع النقائص ، ووجود هذا الصوت المسموع من الرعد وحدوثه دليل على وجود موجود خالق قادر متعال عن جميع النقائص ، وإن لم يكن ذلك في الحقيقة تسبيحاً ومنه قوله : وإن من شيء إلا يسبح بحمده وقيل المراد من تسبيح الرعد أن من سمعه سبح الله فلهذا المعنى أضيف التسبح إليه ، وقوله والملائكة من خيفته يعني ويسبح الملائكة من خيفة الله وهيبته وخشيته ، وقيل : المراد بهذه الملائكة أعوان السحاب جعل الله مع الملك الموكل بالسحاب أعواناً من الملائكة ، وهم خائفون خاضعون طائعون .

وقيل : المراد بهم جميع الملائكة وحمله على العموم أولى ﴿ ويرسل الصواعق ﴾ جمع صاعقة ، وهي العذاب النازل من البرق فيحترق من تصيبه وقيل : هي الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد ، وهذه

الأشياء الثلاثة تنشأ منها ﴿ فيصيب بها ﴾ يعني بالصواعق ﴿ من يشاء ﴾ يعني فيهلك بها كما أصاب أربد بن ربيعة .

قال محمد الباقر : الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ يعني يخاصمون في الله .

وقيل : المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله نزلت في شأن أربد بن ربيعة حين قال للنبي (صلى الله عليه وسلم) : مم ربك أمن در أم من ياقوت أم من ذهب فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته .

(53/409)

وسئل الحسن عن قوله : ويرسل الصواعق الآية فقال : كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) نفراً من أصحابه يدعونه إلى الله ، وإلى رسوله فقال لهم : أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني إليه ، هل هو من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس ؟ فاستعظم القوم كلامه فانصرفوا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلاً أكفر قلباً ولا أعتى على الله منه .

فقال : ارجعوا إليه فرجعوا فلم يزدهم على مقالته الأولى شيئاً بل قال : أأجيب محمداً إلى

رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : يا رسول الله ما زادنا على مقالته شيئاً بل أخبث .

فقال : ارجعوا إليه فرجعوا إليه فبينما هم عنده يدعونه وينازعونه ، وهو لا يزيدهم على مقالته شيئاً إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم ، فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر ، وهم جلوس عنده فرجعوا ليخبروا النبي (صلى الله عليه وسلم) فلما رجعوا استقبلهم نفر من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالوا لهم : احترق صاحبكم قالوا : من أين علمتم ذلك ؟ قالوا قد أوحى الله إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ويرسل الصواعق فيصب بها من يشاء وهم يجادلون في الله .

واختلفوا في هذه الواو ، فقيل : واو الحال فيكون المعنى فيصيب بها من يشاء في حال جداله في الله وذلك أن أربد لما جادل في الله ، أهلكه الله بالصاعقة ، وقيل : إنها واو الاستئناف فيكون المعنى أنه تعالى لما تمم ذكر الدلائل قال : بعد ذلك وهم يجادلون في الله ﴿ وهو شديد المحال ﴾ أي شديد الأخذ بالعقوبة ، من قولهم يمحل به محلاً إذا أراد به سوءاً ، وقيل : هو من قولهم يمحل به إذا سعى به إلى السلطان وعرضه للهلاك وتمحل إذا تكلف استعمال الحيلة ، واجتهد فيه فيكون المعنى أنه سبحانه وتعالى شديد المحال بأعدائه حتى يهلكهم بطريق لا يعرفونه ولا يتوقعونه .

وقيل: المحل من المحول وهو الحيلة، والميم زائدة في اختلفت عبارات المفسرين في معنى قوله شديد المحال فقال الحسن: معناه شديد النقمة.

وقال مجاهد وقتادة: شديد القوة.

وقال ابن عباس: شديد الحول.

وقيل شديد العقوبة وقيل معناه شديد الجدال.

وذلك أنه لما أخبر عنهم أنهم يجادلون في الله أخبر أنه أشد جدالاً منهم.

قوله تعالى: ﴿ له دعوة الحق ﴾ يعني لله دعوة الصدق، قال على دعوة الحق التوحيد،

وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله.

قال صاحب الكشاف دعوة الحق فيها وجهان أحدهما أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل كما تضاف الكلمة إليه في قولك كلمة الحق.

للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به، وأنها بمعزل من الباطل؛ والمعنى أن الله تعالى يدعى فيستجيب الدعوة ويعطي الداعي سؤله إن كان مصلحة له فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقاً بأن يوجه إليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا نفع فيه ولا جدوى فيرد دعاءه.

الثاني أن تضاف إلى الحق الذي هو الله على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب،

وعن الحسن : الله هو الحق وكل دعاء إليه دعوة الحق .

فإن قلت : ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبلهما .

قلت : أما على قصة أربد فظاهر لأن إصابته بالصاعقة كانت بدعوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإنه دعا عليه وعلى صاحبه عامر بن الطفيل فأجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق ، وأما على قوله وهم يجادلون في الله فوعيد للكفار على مجادلتهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وإجابة دعائه إن دعا عليهم .

(55/409)

وقيل في معنى الآية : الدعاء بالإخلاص ، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله تعالى ﴿ والذين يدعون من ودنه ﴾ يعني والذين يدعونهم آلهة من دون الله ، وهي الأصنام التي يعبدونها ﴿ لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ يعني لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضرر إن دعوهم ﴿ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ يعني إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه ، يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ، ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب دعاءه أو يبلغ فاه ، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ، ولا يقدر على نفعهم .

وقيل : شبههم في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطهما ناشراً أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئاً ، ولم يبلغ طلبته من شربه وقيل إن القابض على الماء ناشراً أصابعه لا يكون في يده منه شيء ، ولا يبلغ إلى فيه منه شيء كذلك الذي يدعو الأصنام لأنها لا تضر ولا تنفع ولا يفيده منها شيء .

وقيل شبه : بالرجل العطشان الذي يرى الماء من بعيد بعينيه ، فهو يشير بكفيه إلى الماء ويدعوه بلسانه فلا يأتيه أبداً هذا معنى قول مجاهد ، وعن عطاء كالعطشان الجالس على شفير البئر وهو يمد يديه إلى البئر فلا هو يبلغ إلى قعر البئر ليخرج الماء ، ولا الماء يرتفع إليه فلا ينفعه بسطه الكف إلى الماء ودعاؤه له ، ولا هو يبلغ فاه كذلك الي يدعون الأصنام لا ينفعهم ذلك .

وقال ابن عباس : كالعطشان إذا بسط كفيه في الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما من الماء ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسط كفيه ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ودعائهم الأصنام حين لا ينفعهم البتة ثم ختم هذه بقوله ﴿ وما دعاء الكافرين ﴾ يعني أصنامهم ﴿ إلا في ضلال ﴾ يعني يضل عنهم إذا احتاجوا إليه ، قال ابن عباس في هذه الآية أصواتهم محجوبة عن الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) ﴾

لما خوف تعالى العباد بقوله تعالى : ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ أتبعه بما يشتمل على أمور دالة على قدرة الله تعالى ، وحكمته تشبه النعم من وجه ، والنقم من وجه .

وتقدم الكلام في البرق والرعد والصواعق والسحاب في البقرة .

قال ابن عباس والحسن : خوفاً من الصواعق ، وطمعاً في الغيث .

وقال قتادة : خوفاً للمسافرين من أذى المطر ، وطمعاً للمقيم في نفعه .

وقريب منه ما ذكره الزجاج وهو : خوفاً للبلد الذي يخاف ضرر المطر له ، وطمعاً لمن يرجو الانتفاع به .

وذكر الماوردي : خوفاً من العقاب ، وطمعاً في الثواب .

وعن ابن عباس وغيره : أنه كنى بالبرق عن الماء ، لما كان المطر يقاربه غالباً وذلك من باب إطلاق الشيء مجازاً على ما يقاربه غالباً .

قال الحوفي : خوفاً وطمعاً مصدران في موضع الحال من ضمير الخطاب ، وجوزه الزمخشري أي : خائفين وطامعين ، قال : ومعنى الخوف والطمع ، أن وقوع الصواعق يخوف عند لمع

البرق ، ويطمع في الغيث .

قال أبو الطيب :

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى . . .

يرجى الحيا منه وتخشى الصواعق

وقيل : يخاف البرق المطر من له منه ضرر كالمسافر ، ومن في جرينته التمر والزبيب ، ومن له بيت يكف ، ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر انتهى .

وقوله الأول في تفسير الخوف والطمع ، هو قول ابن عباس والحسن الذي تقدم ، وقوله : كأهل مصر ، ليس كما ذكر ، بل ينتفعون بالمطر في كثير من أوقات نمو الزرع ، وأنه به ينمو ويجود ، بل تمر على الزرع أوقات يتضرر وينقص نموه بامتناع المطر .

وأجاز الزمخشري أن يكونا منصوبين على الحال من البرق ، كأنه في نفسه خوف وطمع ، أو على ذا خوف وطمع .

وقال أبو البقاء : خوفاً وطمعاً مفعول من أجله .

وقال الزمخشري : لا يصح أن يكون مفعولاً لهما ، لأنهما ليسا بفعل الفاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف أي : إرادة خوف وطمع ، أو على معنى إخافة وإطماعاً انتهى .

وإنما لم يكونا على ظاهرهما بفعل الفاعل الفعل المعلل لأن الإرادة فعل الله ، والخوف والطمع فعل للمخاطبين ، فلم يتحد الفاعل في الفعل في المصدر .

وهذا الذي ذكره الزمخشري من شرط اتحاد الفاعل فيهما ليس مجمعاً عليه ، بل من النحويين من لا يشترط ذلك ، وهو مذهب ابن خروف .

والسحاب اسم جنس يذكر ويؤنث ، ويفرد ويجمع ، قال : "والنخل باسقات" ولذلك جمع في قوله : الثقال ، ويعني بالماء ، وهو جمع ثقيلة .

قال مجاهد وقتادة : معناه تحمل الماء ، والعرب تصفها بذلك .

قال قيس بن أخطم :

فما روضة من رياض القطا . . .

كأن المصابيح جودانها

بأحسن منها ولا مزنة . . .

ولوح يكشف أوجانها

والدلوح المثقلة ، والظاهر إسناد التسبيح إلى الرعد .

فإن كان مما يصح منه التسبيح فهو إسناد حقيقي، وإن كان مما لا يصح منه فهو إسناد مجازي.

وتنكيره في قوله: ﴿ فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ ينفي أن يكون علماً لملك.

وقال ابن الأنباري: الإخبار بالصوت عن التسبيح مجاز كما يقول القائل: قد غمني كلامك.

وقال الزمخشري: ويسبح سامعو الرعد من العباد الراجين للمطر حامدين له، أي: يضجون بسبحان الله والحمد لله.

وفي الحديث: "سبحان من يسبح الرعد بحمده" وعن علي: "سبحان من سبحت له إذا اشتد الرعد" قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك" ومن بدع المتصوفة: الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم انتهى.

وقال ابن عطية: وقيل في الرعد أنه ريح يختنق بين السحاب، روى ذلك عن ابن عباس.

وهذا عندي لا يصح لأنّ هذا نزغات الطبيعيين وغيرهم من الملاحدة.

وقال أبو عبد الله الرازي : إعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية ، وللسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره ، وكذا القول في الرياح ، وفي سائر الآثار العلوية .

وهذا عين ما قلناه أن الرعد اسم لملك من الملائكة يسبح الله تعالى ، فهذا الذي قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء ، فكيف بالعاقل الإنكار ؟ انتهى .

وهذا الرجل غرضه جريان ما تنتحله الفلاسفة على مناهج الشريعة ، وذلك لا يكون أبداً ، وقد تقدمت أقوال المفسرين في الرعد في البقرة ، فلم يجمعوا على أنّ الرعد اسم لملك .

وعلى تقدير أن يكون اسماً لملك ، لا يلزم أن يكون ذلك الملك يدبر لا السحاب ولا غيره ، إذ لا يستفاد مثل هذا إلا من النبي (صلى الله عليه وسلم) المشهود له بالعصمة ، لا من الفلاسفة الضلال .

والظاهر عود الضمير في قوله : من خيفته ، على الله تعالى كما عاد عليه في قوله : بحمده .

ومعنى خيفته : من هيبته وإجلاله .

وقيل : يعود على الرعد .

والملائكة أعوانه جعل الله له ذلك فهم خائفون خاضعون طائعون له .

والرعد وإن كان مندرجاً تحت لفظ الملائكة ، فهو تعميم بعد تخصيص انتهى .

وهو قول ضعيف .

ومن مفعول فيصيب ، وهو من باب الإعمال ، أعمل فيه الثاني إذ يرسل يطلب من وفيصيب يطلبه ، ولو أعمل الأول لكان التركيب : ويرسل الصواعق فيصيب بها على من يشاء ، لكن جاء على الكثير في لسان العرب المختار عند البصريين وهو إعمال الثاني .

ومفعول يشاء محذوف تقديره : من يشاء إصابته .

وفي الخبر أنّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعث إلى جبار من العرب ليسلم فقال : أخبرني عن إله محمد ؟ أمن لؤلؤ هو أم من ذهب ؟ فنزلت عليه صاعقة ونزلت الآية فيه .

وقال مجاهد : ناظر يهودي الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فبينا هو كذلك نزلت صاعقة فأخذت قحف رأسه ، فنزلت الآية فيه .

وقال ابن جريج : سبب نزولها لها قصة أربد بن ربيعة وعامر بن الطفيل ، وذكر قصتهما المشهورة مضمونها أن عامراً توعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذا لم يجبه إلى ما طلب ، وأنه وأربد راما الفتك به ، فعصمه الله تعالى ، وأصاب عامراً بغدّة فمات غريباً ، وأربد بصاعقة فقتلته ، ولأخيه لبيد فيه عدة مراثٍ منها قوله :

أخشى على أربد الحتوف ولا . . .

أرهب نوء السماك والأسد

فجعني البرق والصواعق بالفا . . .

رس يوم الكريهة النجد

وهذه الصلات الأربع التي وصلت بها الذي تدل على القدرة الباهرة ، والتصرف التام في العالم العلوي والسفلي ، فالمتصف بها ينبغي أن لا يجادل فيه ، وأن يعتقد ما هو عليه من الصفات العلوية ، والضمير في وهم يجادلون ، عائد على الكفار المكذبين للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، المنكرين الآيات ، يجادلون في قدرة الله على البعث وإعادة الخلق بقولهم : ﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ وفي وحدانيته باتخاذ الشركاء والانداد .

ونسبة التوالد إليه بقولهم : الملائكة بنات الله تعالى والمعنى : أنه عز وجل متصف بهذه الأوصاف ، ومع ذلك رتبوا عليها غير مقتضاها من المجادلة فيه وفي أوصافه تعالى ، وكان مقتضاها التسليم لما جاءت به الأنبياء .

وقيل : وهم يجادلون حال من مفعول يشاء أي : فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم كما جرى لليهودي .

وكذلك الجبار ، ولا ربد .

وهو شديد المحال ، جملة حالية من الجلالة .

وقرأ الجمهور : المحال بكسر الميم .

فعن ابن عباس : المحال العداوة ، وعنه الحقد .

وعن عليّ : الأخذ ، وعن مجاهد : القوة .

وعن قطرب : الغضب .

وعن الحسن : الهلاك بالمحل ، وهو القحط .

وقرأ الضحاك والأعرج : المحال بفتح الميم .

فعن ابن عباس : الحول .

وعن عبيدة : الحيلة .

يقال : المحال والمحالة وهي الحيلة ، ومنه قول العرب في مثل : المرء يعجز لا المحالة .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون المعنى شديد العقاب ، ويكون مثلاً في القوة والقدرة ، كما جاء : فساعد الله أشد ، وموساه أحدّ ، لأنّ الحيوان إذا اشتد غاية كان منعوتاً بشدّة القوة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره .

ألا ترى إلى قولهم : فقرته الفواقر ، وذلك أنّ الفقار عمود الظهر وقوامه .

والضمير في له عائد على الله تعالى ، ودعوة الحق قال ابن عباس : دعوة الحق لا إله إلا الله ، وما كان من الشريعة في معناها .

وقال علي بن أبي طالب ، دعوة الحق التوحيد .

وقال الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق .

وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف ، فإنه لا يدعي فيه إلا هو ، كما قال : ﴿ ضل من تدعون إلا إياه ﴾ قال الماوردي : وهو أشبه بسياق الآية .

وقيل : دعوة الطلب الحق أي : مرجو الإجابة ، ودعاء غير الله لا يجاب ، وقال الزمخشري : فيه وجهان .

أحدهما : أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل ، كما تضاف الكلمة إليه في قوله : "كلمة الحق" للدلالة على أنّ الدعوة ملابسة للحق مختصة به ، وأنها بمعزل من الباطل ، والمعنى : أن الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ، ويعطى الداعي سؤله إن كانت مصلحة له ، فكانت دعوته ملابسة للحق لكونه حقيقاً بأن يوجه إليه الدعاء ، لما في دعوته من الجدوى والنفع ، بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه .

والثاني : أن تضاف إلى الحق الذي هو الله عز وجل على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب .

وعن الحسن رحمه الله : الحق هو الله تعالى ، وكل دعاء إليه دعوة الحق انتهى .

وهذا الوجه الثاني الذي ذكره الزمخشري لا يظهر ، لأنّ مآله إلى تقدير : لله دعوة لله ، كما تقول : لزيد دعوة زيد ، وهذا التركيب لا يصح .

والذي يظهر أن هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى الصفة كقوله : ولدار الآخرة على أحد الوجهين ، والتقدير : لله الدعوة الحق بخلاف غيره فإنّ دعوتهم باطلة ، والمعنى : أن الله تعالى الدعوة له هي الدعوة الحق .

(61/409)

ولما ذكر تعالى جدال الكفار في الله تعالى ، وكان جدالهم في إثبات آلهة معه ، ذكر تعالى أنه له الدعوة الحق أي : من يدعو له فدعوته هي الحق ، بخلاف أصنامهم التي جادلوا في الله لأجلها ، فإن دعاءها باطل لا يتحصل منه شيء .

فقال : ﴿ والذين يدعون ﴾ قال الزمخشري : والآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله لا يستجيبون لهم بشيء من طلباتهم إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه أي : كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه ، يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه .

وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ، ولا يستطيع إجابتهم ، ولا يقدر على نفعهم .

وقيل : شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه ، فبسطهما ناشراً أصابعه فلم تبق كفاه منه شيئاً ، ولم يبلغ طلبته من شربه انتهى .

فالضمير في يدعون عائد على الكفار ، والعائد على الذين محذوف أي : يدعونهم .

ويؤيده قراءة من قرأ بالتاء في تدعون ، وهي قراءة اليزيدي عن أبي عمر .

وقيل : الذين أي : الكفار الذين يدعون ، ومفعول يدعون محذوف أي : يدعون الأصنام .

والعائد على الذين الواو في يدعون ، والواو في لا يستجيبون عائد في هذا القول على مفعول يدعون المحذوف ، وعلى القول الأول على الذين .

قال ابن عباس : كالناظر إلى خياله في الماء يريد تناوله ، فكذا المحتاج يخيل إليه في الاحتياج إليه خيال الاحتياج إليه .

وقال الضحاك : كمن بسط يديه إلى الماء ليصل إليه بلا اغتراف .

وقال أبو عبيدة : أي كالقابض على الماء ليس على شيء ، قال : والعرب تضرب المثل في الساعي فيما لا يدركه بالقابض على الماء ، وأنشد سيبويه :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها . . .

من الود مثل القابض الماء في اليد

وقال آخر :

وإني وإياكم وشوقاً إليكم . . .

كقابض ماء لم تسعه أنامله

(62/409)

وقيل : شبه الكفار في دعائهم لأصنامهم عند ضرورتهم برجل عطشان لا يقدر على الماء ، جلس على شفير بئر يدعو الماء ليبل غلته ، فلا هو يبلغ قعر البئر إلى الماء ، ولا الماء يرتفع إليه لأنه جماد ولا يحس بعطشه ودعائه ، كذلك ما يدعو الكفار من الأوثان جماد لا يحس بدعائهم ، ولا يستطيع إجابتهم ، ولا يقدر على نفعهم انتهى .

والكاف في موضع نصب أي : مثل استجابة ، واستجابة مضافة في التقدير إلى باسط ، وهي إضافة المصدر إلى المفعول .

وفاعل المصدر محذوف تقديره : كإجابة الماء من يبسط كفيه إليه ، فلما حذف أظهر في قوله : إلى الماء ، ولو كان ملفوظاً به لعاد الضمير إليه ، فكان يكون التركيب كفيه إليه .

هذا الذي يقدر من كلام الزمخشري في هذا التشبيه ، وتبعه أبو البقاء .

وقال ابن عطية : ومعنى الكلام الذي يدعونهم الكفار إلى حوائجهم ومنافعهم لا يجيبون ، ثم مثل تعالى مثالاً لإجابتهم بالذي يبسط كفيه إلى الماء ويشير إليه بالإقبال ، فهو لا يبلغ فمه

أبداً ، فكذلك إجابة هؤلاء والانتفاع بهم لا يقع انتهى .

وفاعل ليبلغ ضمير الماء ، وليبلغ متعلق بباسط ، وما هو أي : وما الماء ببالغه ، أي : ببالغ الفم .

ويجوز أن يكون هو ضمير الفم ، والهاء في ببالغه للماء أي : وما الفم ببالغ الماء ، لأنّ كلاًّ منهما لا يبلغ الآخر على هذه الحالة .

وقرئ : كباسط كفيه بتنوين باسط .

وما دعاء الكافرين إلا في ضلال أي : في حيرة ، أو في اضمحلال ، لأنه لا يجدي شيئاً ولا يفيد ، فقد ضل ذلك الدعاء عنهم كما ضل المدعون .

قال تعالى : ﴿ أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا ﴾ قال الزمخشري : إلا في ضياع لا منفعة فيه ، لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم ، وإن دعوا الآلهة لم نستطع إجابتهم .

وقال ابن عباس : أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاؤهم . انتهى . ا هـ

﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(63/409)

وقال الثعالبى:

قوله سبحانه: ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمُ البرق... ﴾ الآية

قد تقدَّم في أول البَقَرة تفسيرُهُ، والظاهر أنَّ الخوف إنما هو من صوَاعِقِ البرْق، والطَّمَع في الماء الذي يكونُ معه، وهو قول الحسن، و ﴿ السَّحَابَ ﴾: جمع سحابَة؛ ولذلك جمع الصفة، وال ﴿ الثِّقَالَ ﴾: معناه: بحمل الماءِ، قاله قتادة ومجاهد، والعربُ تصفها بذلك، وروى أبو هريرة "أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ إذَا سَمِعَ الرَّعْدَ، قَالَ: «سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ»"، وقال ابن أبي زكرياء: مَنْ قَالَ إذا سَمِعَ الرعْدَ: سُبْحَانَ اللَّه، وبِحَمْدِهِ، لَمْ تُصِبْهُ صَاعِقَةٌ.

* ت *: وعن عبد اللَّه بن عُمَرَ، قال: "كان رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إذَا سَمِعَ الرَّعْدَ وَالصَّوَاعِقَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ، لاَ تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلاَ تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»"، رواه الترمذيُّ والنسائيُّ والحَاكِمُ في «المستدرك»، ولفظهم واحد انتهى من «السلاح»، قال الداووديُّ: وعن ابن عَبَّاس، قال: مَنْ سمع الرعْدَ، فقال: «سُبْحَانَ الذي يُسَبِّح الرعْد بحَمْده، والملائِكَةُ مِنْ خيفته، وهو على كلِّ شيء قدير»، فإِن أصابته صاعقةٌ، فعليَّ ديته، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق... ﴾ الآية: قال ابن جُرَيْج: كان سَبَبُ نزولها قصَّةَ أَرْبَدَ، وعَامِرِ بن الطُّفَيْلِ، سألا النبيَّ صلى الله عليه وسلم أَنْ يجعل الأَمْرَ بَعْده لعامِرِ بْنِ الطُّفَيْل، ويدخلا في دِينِهِ، فأَبى عليه السلام ثم تآمَرَا في قَتْلِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ عَامِرٌ لأَرْبَدَ: أَنَا أَشْغَلُه لَكَ بالحديثِ، واضربه أَنْتَ بالسَّيْف، فجعل عامرٌ يحدِّثه، وأَرْبَدُ لاَ يَصْنَعُ شيئاً، فلما انصرفا، قَالَ لَه عَامِرٌ: وَاللَّهِ، يَا أَرْبَدُ، لاَ خِفْتُكَ أبداً، وَلَقَدْ كُنْتُ أخافُكَ قبل هذا، فقال له أَرْبَدُ: والله، لَقَدْ أَردتُّ إِخراج السَّيْفِ، فَمَا قَدَرْتُ على ذلك، ولَقَدْ كُنْتُ أَراكَ بَيْني وبَيْنَهُ، أَفَأَضْرِبُكَ، فَمَضَيَا للحَشْدِ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فأَصابَتْ أَربَدُ صَاعِقَةٌ، فقتَلَتْهُ، و ﴿ المحال ﴾: القوَّة والإِهلاك.

ت: وفي «صحيح البخاري»: ﴿ المحال ﴾: العقوبة.

وقوله عز وجل: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾: الضمير في «له» عائدٌ على اسم اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

قال ابنُ عَبَّاس: و ﴿ دَعْوَةُ الحق ﴾: «لا إله إِلا اللَّه»، يريد: وما كان من الشريعةِ في معناها.

وقوله: ﴿ والذين ﴾: يراد به ما عُبِدَ من دون اللَّه، والضَّمير في ﴿ يَدْعُونَ ﴾ لكفَّار قريشٍ وغيرهم، ومعنى الكَلاَمِ: والذين يدعونهم الكفَّارُ في حوائِجِهِم ومنافِعِهِم ﴿ لاَ

يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ ﴾ ، ثُمَّ مَثَّلَ سبحانه مثالاً لإجابتهم بالذي يَبْسُطُ كَفَّيْهِ نحو الماء ، ويشير إليه بالإقبال إلى فيه ، فلا يبلغ فَمَهُ أبداً ، فكذلك إجابة هؤلاء والانتفاعُ بهم لا يَقَعُ .

(65/409)

وقوله : ﴿ هُوَ ﴾ : يريد به الماءَ ، وهو البالغُ ، والضمير في ﴿ بَالِغِهِ ﴾ للفم ، ويصحُّ أنْ يكون هو يراد به الفم ، وهو البالغ أيضاً ، والضمير في ﴿ بَالِغِهِ ﴾ للماء ؛ لأن الفم لا يَبْلُغُ الماء أبداً على تلك الحال ، ثم أخبر سبحانه عن دعاءِ الكافرين ؛ أنه في ائتلاف وضلالٍ لا يفيدُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(66/409)

وقال أبو السعود :

﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ البرق خَوْفًا ﴾

من الصاعقة ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في المطر ، فوجهُ تقديم الخوفِ على الطمع ظاهر لما أن المَخوفَ عليه النفسُ أو الرزق العتيدُ والمطموعُ فيه الرزقُ المترقَّبُ ، وقيل : الخوف أيضاً

من المطر لكنْ الخائفُ منه غيرُ الطامع فيه كالخزّاف والحرّاث ، ويأباه الترتيبُ اللهم إلا أن يتكلف ما أشير إليه من أن المَخوفَ عتيدٌ والمطموعَ فيه مترقّبٌ ، وانتصابُهما إما على المصدرية أي فتخافون خوفاً وتطمعون طمعاً أو على الحالية من البرق أو المخاطبين بإضمار ذوي أو بجعل المصدرِ بمعنى المفعول أو الفاعل مبالغةً أو على العِلّية بتقدير المضاف أي إرادةَ خوفٍ وطمعٍ ، أو بتأويل الإخافة والإطماعِ ليتّحد فاعلُ العِلة والفعل المعلّل . وأما جعلُ المعلل هي الرؤية التي تتضمنها الإرادةُ على طريقة قول النابغة

وحلّت بيوتي في يَفاعٍ ممنَّع . . . تَخال به راعي الحَمولةِ طائرا

حِذاراً على أن لا يُنال معاوني . . . ولا نِسوتي حتى يمُتْن حرائرا

أي أحللت بيوتي حِذاراً فلا سبيل إليه لأن ما وقع في معرِض العلةِ الغائية لا سيما الخوفُ لا يصلح علةً لرؤيتهم ﴿ ويُنْشِىء السحاب ﴾ الغمامَ المنسحبَ في الجو ﴿ الثقال ﴾ بالماء وهي جمعُ ثقيلةٍ وُصف بها السحابُ لكونها اسمَ جنسٍ في معنى الجمع والواحدةُ سحابة ، يقال : سحابة ثقيلة وسحاب ثِقال ، كما يقال : امرأة كريمة ونسوة كرام .

﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد ﴾ أي سامعوه من العباد الراجين للمطر ملتبسين ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ أي يضِجّون بسبحان الله والحمد لله وإسنادُه إلى الرعد لحمله لهم على ذلك أو يسبح الرعدُ نفسه على أن تسبيحه عبارةٌ عن دلالته على وحدانيته تعالى وفضلِه المستوجِبِ لحمده .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " سُبحانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بحمدِهِ " وإذا اشتد يقول : " اللهم لا تقتُلْنا بغضبك ولا تُهلكنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك " . وعن علي رضي الله عنه : " سبحان من سبَّحْتَ له " . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود سألت النبيَّ عليه الصلاة والسلام عن الرعد فقال : " ملَكٌ من الملائكة موكلٌ بالسحاب معه مخاريقُ من نار يسوق السحابَ " وعن الحسن : " خلقٌ من خلق الله تعالى ليس بملك " ﴿ والملائكة ﴾ أي يسبح الملائكة ﴿ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ من هيبته وإجلالِه جل جلاله ، وقيل : الضمير للرعد .

﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء ﴾ فيُهلكه بذلك ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الكفرةُ المخاطبون في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ البرق ﴾ وقد التُفت إلى الغَيبة إيذاناً بإسقاطهم عن درجة الخِطاب وإعراضاً عنهم وتعديداً لجناياتهم لدى كلِّ من يستحق الخطابَ كأنه قيل : هو الذي يفعل أمثال هذه الأفاعيلِ العجيبةِ من إراءة البرقِ وإنشاء السحابِ الثقالِ وإرسالِ الصواعقِ الدالةِ على كمال علمِه وقدرته ويعقِلُها مَنْ يعقِلها من المؤمنين ، أو الرعدُ نفسه أو الملكُ الموكلُ به والملائكةُ ويعملون بموجب ذلك من التسبيح

والحمد والخوفِ من هيبته تعالى وهم أي الكفرة الذين حُكيت هَنا تُهم مع ذلهم وهوانهم وحقارةِ شأنهم ﴿ يجادلون فِى الله ﴾ أي في شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون من إنكار البعثِ واستعجالِ العذاب استهزاءً واقتراحِ الآيات ، فالواو لعطف الجملةِ على ما قبلها من قوله تعالى :

(68/409)

﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ البرق ﴾ الخ ، أو على قوله : ﴿ الله يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ ﴾ الخ ، وأما العطفُ على قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾ كما قيل فلا مجال له لأن قوله تعالى : ﴿ الله يَعْلَمُ ﴾ الخ ، استئنافٌ لبيان بطلانِ قولِهم ذلك ونظائرِه من استعجال العذابِ وإنكار البعثِ قاطعٌ لعطف ما بعده على ما قبله ، وقيل : للحال أي فيصيب بالصواعق من يشاء وهم في الجدال .

(69/409)

(وقد أريد به ما أصاب "أربدَ بنَ ربيعةَ" أخا لبيد فإنه أقبل مع "عامر بن الطفيل" إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغيانه الغوائلَ فدخلا المسجد وهو عليه الصلاة والسلام جالسٌ في نفر من الأصحاب رضي الله عنهم فاستشرفوا لجمال عامر وكان من أجمل الناسِ وقد كان أوصى إلى أربد أنه إذا رأيتَني أكلم محمداً عليه الصلاة والسلام فدُرْ من خلفه واضربْه بالسيف ، فجعل يكلمه عليه الصلاة والسلام فدار أربد من خلفه عليه الصلاة والسلام فاخترط من سيفه شبراً فحبسه الله تعالى فلم يقدِر على سلّه وجعل عامرٌ يومىء إليه فرأى النبيُّ عليه الصلاة والسلام الحالَ ، فقال : " اللهم اكفِنيهما بما شئت " فأرسل الله عز وجل على أربد صاعقةً في يوم صحْوٍ صائفٍ فأحرقتْه وولى عامرٌ هارباً فنزل في بيت امرأة سَلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحَه وتغيّر لونُه وركب فرسه فجعل يركُض في الصحراء ويقول : ابرُزْ يا ملكَ الموت ، ويقول الشعر ، ويقول : واللاتِ لئن أصْحر لي محمد وصاحبُه يعني ملك الموت لأنفُذَنَّهما برمحي ، فأرسل الله تعالى ملكاً فلطَمه بجناحه فأرداه في التراب فخرجت على ركبته في الوقت غُدةٌ عظيمة فعاد إلى بيت السَّلولية وهو يقول : غُدة كغدة البعير وموتٌ في بيت سَلولية ، ثم عاد بفرسه فركبه فأجراه حتى مات على ظهره) . وقيل : أريد به ما روي عن الحسن (أنه كان رجلٌ من طواغيت العرب فبعث النبيُّ عليه الصلاة والسلام نفراً من أصحابه يدعونه إلى الله عز وجل ، فقال لهم : أخبروني عما تدعونني إليه ما هو ومم هو؟ من ذهب ، أم من فضة ، أم من نحاس ، أم

من حديد ، أم من دُرّ ؟ فاستعظموا مقالَته فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا رجلاً أكفرَ قلباً ولا أعتى على الله منه ، فقال عليه الصلاة والسلام : " ارجُعوا إليه "

فما زاد إلا مقالَته الأولى وأخبثَ ، فرجعوا إليه عليه الصلاة والسلام وأخبَروه بما صنع ، فقال عليه الصلاة والسلام : " ارجِعوا إليه " فبينما هم عنده ينازعونه إذ ارتفعت سحابةٌ ورعَدت وبرِقت ورمَتْ بصاعقة فاحترق الكافرُ فجاءوا يسعَوْن ليخبروه عليه الصلاة والسلام بالخبر فاستقبلهم الأصحاب فقالوا : احترق صاحبُكم ، قالوا : من أين علمتم ؟ قالوا : أُوحيَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم) . ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ أي والحال أُنه شديدُ المماحلة والمماكرة لأعدائه من مَحَله إذا كاده وعرّضه للهلاك ، ومنه تمحّل إذا تلكف استعمال الحِيل ، وقيل : هو مُحال من المَحْل بمعنى القوة ، وقيل : مُحوّل من الحول أو الحيلة أُعلَّ على غير قياس ، ويعضُده أنه قرىء بفتح الميم على أنه مَفعَل من حال يحول إذا احتال ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلاً في القوة والقدرة كقولهم : فساعدُ الله أشدُّ

وموساه أحدّ .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾

(71/409)

أي الدعوةُ الثابتة الواقعة في محلها المجابةُ عند وقوعِها ، والإضافةُ للإيذان بملابستها للحق واختصاصِها به وكونِه بمعزل من شائبة البطلانِ والضَّياع والضلال كما يقال كلمةُ الحق ، وقيل : له دعوةُ الله سبحانه أي الدعوةُ اللائقة بحضرته كما في قوله عليه الصلاة والسلام : " فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله " والتعرضُ لوصف الحقّية لتربية معنى الاستجابةِ ، والأولى هو الأولُ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا دُعَاء الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ وتعلقُ الجملتين بما قبلهما من حيث أن إهلاكَ أربد وعامرٍ مِحالٌ من الله تعالى وإجابةٌ لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما إن كانت الآية نزلت في شأنهما أو من حيث إنه وعيدٌ للكفرة على مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول مِحالِه بهم وتحذيرٌ لهم بإجابة دعوته عليهم ﴿ والذين يَدْعُونَ ﴾ أي الأصنامَ الذين يدعوهم المشركون فحُذف العائد ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ من دون الله عز وجل ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْء ﴾ من طلباتهم ﴿ إِلاَّ كباسط كَفَّيْهِ إِلَى الماء ﴾ أي إلا استجابةً كائنة كاستجابه الماء لمن بسَط كفيه إليه

من بعيد ، فالاستجابةُ مصدرٌ من المبني للفاعل على ما يقتضيه الفعلُ الظاهر أعني لا يستجيبون ، ويجوز أن يكون من المبنِيّ للمفعول ويُضاف إلى الباسط بناءً على استلزام المصدرِ من المبني للفاعل للمصدر من المبني للمفعول وجوداً وعدماً ، فكأنه قيل : لا يستجيبون لهم بشيء فلا يستجاب لهم إلا استجابةً كائنة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء كما في قوله

وعضةُ دهرٍ يا ابنَ مروانَ لم تدعَ . . . من المال إلا مُسْحتٌ أو مجلّفُ

(72/409)

أي لم تدع فلم يبق إلا مسحتٌ أو مجلّف ﴿ لِيَبْلُغَ ﴾ أي الماءُ بنفسه من غير أن يؤخذ بشيء من إناء ونحوه ﴿ فَاهُ وَمَا هُوَ ﴾ أي الماء ﴿ بِبَالِغِهِ ﴾ ببالغ فيه أبداً لكونه جماداً لا يشعُر بعطشه ولا ببسط يدِه إليه فضلاً عن الاستطاعة لما أراده من البلوغ إلى فيه ، شبّه حالُ المشركين في عدم حصولهم في دعاء آلهتِهم على شيء أصلاً وركاكةِ رأيهم في ذلك بحال عطشانَ هائمٍ لا يدري ما يفعل قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصولَه إلى فيه من غير ملاحظةِ التشبيه في جميع مفرداتِ الأطراف ، فإن الماءَ في نفسه شيءٌ نافع بخلاف آلهتِهم ، والمرادُ نفيُ الاستجابةِ رأساً إلا أنه قد أُخرج الكلامُ مُخرجَ التهكم بهم فقيل : لا

يستجيبون لهم شيئاً من الاستجابة إلا استجابةً كائنة في هذه الصورةِ التي ليست فيها شائبةُ الاستجابة قطعاً فهو في الحقيقة من باب التعليقِ بالمحال ، وقرىء تدعون بالتاء وكباسطٍ بالتنوين ﴿ وَمَا دُعَاء الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ أي ذهاب وضَياعٍ وخَسار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(73/409)

وقال الآلوسى :

﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ البرق خَوْفًا ﴾

من الصاعقة ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في الغيث قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنه قال : خوفاً لأهل البحر وطمعاً لأهل البر .

وعن قتادة خوفاً للمسافر من أذى المطر وطمعاً للمقيم في نفعه ، وعن الماوردي خوفاً من العقاب وطمعاً في الثواب ، والمراد من البر معناه المتبادر وعن ابن عباس أن المراد به الماء فهو مجاز من باب إطلاق الشيء على ما يقارنه غالباً .

ونصب ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ على أنهما مفعول له ليركم واتحاد فاعل العلة والفعل المعلل ليس شرطاً للنصب مجمعاً ، ففي شرح الكافية للرضى وبعض النحاة لا يشترط تشاركهما

في الفاعل وهو الذي يقوي في ظني وإن كان الأغلب هو الأول .

واستدل على جواز عدم التشارك بما ذكرناه في حواشينا على شرح القطر للمصنف .

وفي "همع الهوامع" و"شرط الأعلم" والمتأخرون المشاركة للفعل في الوقت والفاعل ولم يشترط ذلك سيبويه ولا أحد من المتقدمين ، واحتاج المشترطون إلى تأويل هذا للاختلاف في الفاعل فإن فاعل الإراءة هو الله تعالى وفاعل الطمع والخوف غيره سبحانه فقيل : في الكلام مضاف مقدر وهو إرادة أي يريكم ذلك إرادة أن تخافوا وتطمعوا فالمفعول له المضاف المقدر وفاعله وفاعل الفعل المعلل به واحد ، وقيل : الخوف والطمع موضوعان موضع الإخافة والأطماع كما وضع النبات موضع الإنبات في قوله تعالى : ﴿ والله أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] والمصادر ينوب بعضها عن بعض أو هما مصدران محذوفاً الزوائد كما في "شرح التسهيل" ، وقيل : إنهما مفعول له باعتبار أن المخاطبين رائين لأن إراءتهم متضمنة لرؤيتهم والخوف والطمع من أفعالهم فهم فعلوا الفعل المعلل بذلك وهو الرؤية فيرجع إلى معنى قعدت عن الحرب جبناً وهذا على طريقة قول النابغة الذبياني :

وحلت بيوتي في يفاع ممنع . . .

يخال به راعي الحمولة طائراً

حذارا على أن لا تنال مقادتي . . .

ولانسوتي حتى يمتن حرائرا

حيث قيل : إنه على معنى أحللت بيوتي حذاراً ، ورد ذلك المولى أبو السعود بأنه لا سبيل إليه لأن ما وقع في معرض العلة الغائية لا سيما الخوف لا يصلح علة لرؤيتهم .

(75/409)

وتعقبه عزمي زاده وغيره بأن كلام واه لأن القائل صرح بأنه من قبيل قعدت عن الحرب جبناً ويريد أن المفعول له حامل على الفعل وموجود قبله وليس مما جعل في معرض العلة الغائية كما قالوا في ضربته تأديباً فلا وجه للرد عليه بما ذكر ، وقيل : التعليل هنا مثله في لام العاقبة لا أن ذلك من قبيل قعدت عن الحرب جبناً كما ظن لأن الجبن باعث على القعود دونهما للرؤية وهو غير وارد لأنه باعث بلا شيبهة ، واعترض عليه العزمي بأن اللام المقدرة في المفعول له لم يقل أحد بأنها تكون لام العاقبة ولا يساعده الاستعمال وهو ليس بشيء ، كيف وقد قال النحاة كما في الدر المصون : إنه كقول النابغة السابق ، وقال أيضاً : بقي ههنا بحث وهو أن مقتضى جعل الآية نحو قعدت إلى آخره على ما قاله ذلك القائل أن يكون الخوف والطمع مقدمين في الوجود على الرؤية وليس كذلك بل هما إنما يحصلان منها ويمكن

أن يقال : المراد بكل من الخوف والطمع على ما قاله ما هو من الملكات النفسانية كالجبن في المثال المذكور ويصح تعليل الرؤية من الإراءة بهما يعني أن الرؤية من الإراءة بهما يعني أن الرؤية التي تقع بإراءة الله سبحانه إنما كانت لما فيهم من الخوف والطمع إن لو لم يكن في جبلتهم ذلك لما كان لتلك الرؤية فائدة اه ، ولا يخفى ما فيه من التعسف ، وقد علمت أنه غير وارد ، وقيل : إن النصب على الحالية من ﴿ البرق ﴾ أو المخاطبين بتقدير مضاف أو تأويل المصدر باسم المفعول أو الفاعل أو إبقاء المصدر على ما هو عليه للمبالغة كما قيل في زيد عدل ﴿ وَيُنْشِىءُ ﴾ أي الغمام المنسحب في الهواء ﴿ السحاب الثقال ﴾ بالماء وهي جمع ثقيلة وصف بها السحاب لكونه اسم جنس في معنى الجمع ويذكر ويؤنث فكأنه جمع سحابة ثقيلة لا أنه جمع أو اسم جنس جمعي لا طلاقة على الواحد وغيره .

(76/409)

﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد ﴾ قيل : هو اسم للصوت المعلوم والكلام على حذف مضاف أي سامعو الرعد أو الإسناد مجازي من باب الإسناد للحامل والسبب ، والباء في قوله سبحانه : ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ للملابسة ، والجار والمجرور في موضع الحال أي يسبح السامعون لذلك الصوت ملتبسين بحمد الله تعالى فيضجون بسبحان الله والحمد لله .

وقيل : لا حذف ولا تجوز في الإسناد وإنما التجوز في التسبيح والتحميد حيث شبه دلالة الرعد بنفسه على تنزيهه تعالى عن الشريك والعجز بالتسبيح والتنزيه اللفظي ودلالته على فضله جل شأنه ورحمته بحمد الحامل لما فيهما من الدلالة على صفات الحمال ، وقيل : إنه مجاز مرسل استعمل في لازمه ، وقيل : الرعد اسم ملك فإسناد التسبيح والتحميد إليه حقيقة.

قال في "الكشف" : والأشبه في الآية الحمل على الإسناد المجازي ليتلاءم الكلام فإن الرعد في المتعارف يقع على الصوت المخصوص وهو الذي يقرن بالذكر مع البرق والسحاب والكلام في إراءة الآيات الدالة على القدرة الباهرة وإيجادها وتسبيح ملك الرعد لا يلائم ذلك ، أما حمل الصوت المخصوص للسامعين على التسبيح والحمد فشديد الملائمة جداً ، وإذا حمل على الإسناد حقيقة فالوجه أن يكون اعتراضاً دلالة على اعتراف الملك الموكل بالسحاب وسائر الملائكة بكمال قدرته سبحانه جلت قدرته وجحود الإنسان ذلك ، وأنت تعلم أن تسبيح الملائكة على ما ادعى أنه الأشبه يبقى كالاعتراض في البين ، والذي اختاره أكثر المحدثين كون الإسناد حقيقياً بناء على أن الرد اسم للملك الذي يسوق السحاب ، فقد أخرج أحمد .

والترمذي وصححه . والنسائي .

وآخرون عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ملك من ملائكة الله تعالى موكل بالسحاب بيديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوق حيث أمره الله تعالى قالوا : فما هذا الصوت الذي نسمع ؟ قال عليه الصلاة والسلام : صوته فقالوا : صدقت ، والأخبار في ذلك كثيرة ، واستشكل بأنه لو كان علماً للملك لما ساغ تنكيره وقد تنكيره وقد نكر في البقرة ، وأجيب بأن له إطلاقين ثانيهما إطلاقه على نفس الصوت والتنكير على هذا الإطلاق ، وقال ابن عطية : وقيل : إن الرعد ريح تخفق بين السحاب ، وروى ذلك عن ابن عباس ، وتعقبه أبو حيان بقوله : وهذا عندي لا يصح فإن ذلك من نزغات الطبيعيين وغيره .

وقال الإمام : إن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية وللسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره وكذا القول في الرياح وسائر الآثار العلوية ، وهو عين ما قلنا : من أن الرعد اسم لملك من الملائك يسبح الله تعالى ، فهذا الذي قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء فكيف يليق بالعاقل الإنكار اه .

وتعقبه أبو حيان أيضاً بأن غرضه جريان ما يتخيله الفلاسفة على مناهج الشريعة ولن

يكون ذلك أبداً ، ولقد صدق رحمه الله تعالى في عدم صحة التطبيق بين ما جاءت به الشريعة وما نسجته عناكب أفكار الفلاسفة .

(78/409)

نعم إن ذلك ممكن في أقل قليل من ذاك وهذا ، والمشهور عن الفلاسفة أن الريح تحتقن في داخل السحاب ويستولى البرد على ظاهره فيتجمد السطح الظاهر ثم إن ذلك الريح يمزقه تمزيقاً عنيفاً فيتولد من ذلك حركة عنيفة وهي موجبة للسخونة وليس البرق والرعد إلا ما حصل من الحركة وتسخينها ، وأما السحاب فهو أجزة متصاعدة قد بلغت في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء لكن لما لم يقو البرد تكاثفت بذلك القدر من البرد واجتمعت وتقاطرت ويقال للمتقاطر مطر .

ورد الأول بأنه خلاف المعقول من وجوه .

أحدها : أنه لو كان الأمر كما ذكر لوجب أن يكون كلما حصل البر حصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزيق السحاب ومعلوم أنه كثيراً ما يحدث البر القوي من غير حدوث الرعد .

ثانيها : أن السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة بالطبيعة المائية الموجبة للبرد وعند

حصول هذا المعارض القوي كيف تحدث النارية بل يقال : النيران العظيمة تنطفىء بصب الماء عليها والسحاب كله ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية .

(79/409)

ثالثها : أن من مذهبكم أن النار الصرفة لا لون لها البتة فهب أنه حصلت النارية بسبب قوة المحاكة الحاصلة في أجزاء السحاب لكن من أين حدث ذلك اللون الأحمر ؟ ورد الثاني بأن الأمطار مختلفة فتارة تكون قطراتها كبيرة وتارة تكون صغيرة وتارة تكون متقاربة وأخرى تكون متباعدة إلى غير ذلك من الاختلافات وذلك مع أن طبيعة اورض واحدة وطبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة يأبى أن يكون ذلك كما قرروا ، وأيضاً التجربة دالة على أن للتضرع والدعاء في انعقاد السحاب ونزول الغيث أثراً عظيماً وهو يأبى أن يكون ذلك للطبيعة والخاصية فليس كل ذلك إلا بإحداث محدث حكيم قادر يخلق ما يشاء كيف يشاء ، وقال بعض المحققين : لا يبعد أن يكون في تكون ما ذكر أسباب عادية كما في الكثير من أفعاله تعالى وذلك لا ينافي نسبته إلى المحدث الحكيم القادر جل شأنه ، ومن أنصف لم يسعه إنكار الأسباب بالكلية فإن بعضها كالمعلوم بالضرورة وبهذا أنا أقول ، وقد تقدم بعض الكلام في هذا المقام .

وكان صلى الله عليه وسلم كما أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة إذا هبت الريح أو سمع صوت الرعد تغير لونه حتى يعرف ذلك في وجهه الشريف ثم يقول للرعد : "سبحان من سبحت له وللريح اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً "

وأخرج أحمد .

والبخاري في الأدب المفرد .

والترمذي .

والنسائي .

وغيرهم عن ابن عمر "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال : " اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك "

وأخرج أبو داود في مراسيله عن عبيد الله بن أبي جعفر "أن قوماً سمعوا الرعد فكبروا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سمعتم الرعد فسبحوا ولا تكبروا " وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس " أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول إذا سمع الرعد : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم " وأخرج ابن مردويه .

وابن جرير عن أبي هريرة قال : "كان صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد قال سبحان من يسبح الرعد بحمده"

﴿ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ أي ويسبح الملائكة عليهم السلام من هيبته تعالى وإجلاله جل جلاله ، وقيل : الضمير يعود على الرعد ، والمراد بالملائكة أعوانه جعلهم الله تعالى تحت يده خائفين خاضعين له وهو قول ضعيف ﴿ وُيُرْسِلُ الصواعق ﴾ جمع صاعقة وهي كالصاقعة في الأصل الهدة الكبيرة إلا أن الصقع يقال في الأجسام الأرضية والصعق في الأجسام العلوية ، والمراد بها هنا النار النازلة من السحاب مع صوت شديد ﴿ فَيُصِيبُ ﴾ سبحانه ﴿ بِهَا مَن يَشَاء ﴾ إصابته بها فيهلكه ، قيل : وهذه النار قيل تحصل من احتكاك أجزاء السحاب ، واستدل بما أخرجه ابن المنذر .

(81/409)

وابن مردويه عن ابن عباس قال : الرعد ملك اسمه الرعد وصوته هذا تسبيحه فإذا اشتد زجره احتك السحاب واصطدم من خوفه فتخرجه الصواعق من بينه ، وقال الفلاسفة : إن الداخان المحتبس في جوف السحاب إذا نزل ومزق السحاب قد يشتعل بقوة التسخين الحاصل من الحركة الشديدة والمصاكة العنيفة وإذا اشتعل فلطيفه ينطفىء سريعاً وهو

البرق وكثيفه لا ينطفىء حتى يصل إلى الأرض وهو الصاعقة ، وإذا وصل إليها فربما صار لطيفاً ينفذ في المتخلخل ولا يحرقه بل يبقى منه أثر سواد ويذيب ما يصادمه من الأجسام الكثيفة المندمجة فيذيب الذهب والفضة في الصرة مثلاً ولا يحرقها إلا ما أحرق من المذوب ، وقد أخبر أهل التواتر بأن صاعقة وقعت منذ زمان بشيراز على قبة الشيخ الكبير أبي عبد الله بن خفيف قدس سره فأذابت قنديلاً فيها ولم تحرق شيئاً منها ، وربما كان كثيفاً غليظاً جداً فيحرق كل شيء أصابه ، وكثيراً ما يقع على الجبل فيدكه دكاً ، وقد يقع على البحر فيغوص فيه ويحرق ما فيه من الحيوانات ، وربما كان جرم الصاعقة دقيقاً جداً مثل السيف فإذا وصل إلى شيء قطعه بنصفين ولا يكون مقدار الانفراج إلا قليلاً ، ويحكى أن صبياً كان نائماً بحصراء فأصابت الصاعقة ساقيه فسقطت رجلاه ولم يخرج دم لحصول الكي من حرارتها ، وهذا الذي قالوه في سبب تكونها ليس بالبعيد عما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في ذلك ، ومادتها على ما نقل بعضهم عن ابن سينا نارية فارقتها السخونة وصارت لاستيلاء البرودة على جوهرها متكاثفة ، وقال الإمام في "شرح الإشارات" : الصواعق على ما نقل عن الشيخ تشبه الحديد تارة والنحاس تارة والحجر تارة وهو ظاهر في أن مادتها ليست كذلك وإلا لما اختلفت ، ومن هنا قيل : إن مادتها الأبخرة والأدخنة الشبيهة بمواد هذه الأجسام ، وقيل : إنها نار تخرج من فم الملك الموكل

بالسحاب إذا اشتد زجره .

وأخرج ابن أبي حاتم .

(82/409)

وأبو الشيخ عن أبي عمران الجوني قال : إن بحوراً من نار دون العرش يكون منها الصواعق ، وإذا صح ما روي عن الحبر لا يعدل عنه .

وقد أخرج سعيد بن منصور .

وابن المنذر عنه رضي الله تعالى أنه قال : "من سمع صوت الرعد فقال سبحانه الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعلى ديته" .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وغيره عن أبي جعفر قال : "الصاعقة تصيب المؤمن والكافر ولا تصيب ذاكراً" وفي خبر مرفوع ما يؤيده ، وقد أهلكت أربد كما علمت ، وقد أشار إلى ذلك أخوه لأمه لبيد العامري بقوله يرثيه :

أخشى على أربد الحتوف ولا . . .

أرهب نوء السماك والأسد

فجعني البرق والصواعق . . .

بالفارس يوم الكريهة النجد

وفي تلك القصة على ما قال ابن جريج وغيره نزلت الآية .

وعن مجاهد أن يهودياً ناظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا هو كذلك نزلت صاعقة فأخذت قحف رأسه فنزلت ، وقيل : إنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى جبار من العرب ليسلم فقال : أخبروني عن إله محمد أمن لؤلؤ هو أم من ذهب أم من نحاس ؟ فنزلت عليه صاعقة فأهلكته فنزلت .

و ﴿ مِنْ ﴾ مفعول ﴿ يُصَيبُ ﴾ والكلام على ما في "البحر" من باب الأعمال وقد أعمل فيه الثاني إذ كل من ﴿ يُرْسِلُ ﴾ و ﴿ يُصَيبُ ﴾ يطلب ﴿ مِنْ ﴾ ولو اعمل الأول لكان التركيب ويرسل الصواعق فيصيب بها على من يشاء ، لكن جاء على الكثير في "لسان العرب" المختار عند البصريين وهو إعمال الثاني ، ثم إنه تعالى بعد أن ذكر علمه النافذ في كل شيء واستواء الظاهر والخفي عنده تعالى وما دل على قدرته الباهرة

ووحدانيته قال جل شأنه : ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الذين كفروا وكذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأنكروا آياته ﴿ يجادلون فِى الله ﴾ حيث يكذبون ما يصفه الصادق به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم ، فالمراد بالمجادلة فيه تعالى المجادلة في شأنه سبحانه وما أخبر به عنه جل شأنه ، وهي من الجدل بفتحتين أشد الخصومة ، وأصله من الجدل بالسكون وهو فتل الحبل ونحوه لأنه يقوى به ويشد طاقاته .

وقال الراغب : أصل ذلك من جدلت الحبل أي أحكمت فتله كأن المتجادلين يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه ، وقيل : الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة ، وإلى تفسير الآية بما ذكر ذهب الزمخشري ، قال في "الكشف" : وفي كلامه إشارة إلى أن في الكلام التفاتاً لأن قوله تعالى : ﴿ سَوَاء مّنْكُمْ ﴾ [الرعد : 10] ﴿ هُوَالذى يُرِيكُمُ ﴾ [الرعد : 12] فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب وإن شئت فتأمل من قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ الكبير المتعال ﴾ [الرعد : 9 5].

(84/409)

ثم التفت من الخطاب إلى الغيبة وحسن موقعهما ، أما الأول فما فيه من تخصيص الوعيد المدمج في ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُمْ ﴾ [الرعد : 10] ولهذا ذيل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ إلى ﴿ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : 11] وفيه من التهديد ما لا يخفى على ذي بصيرة ، والحث على طلب النجاة وزيادة التقريع في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ ﴾ [الرعد : 12] وفي مجيء ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم ﴾ ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ ﴾ [الرعد : 12] بعد قوله تعالى : ﴿ الله يَعْلَمُ ﴾ هكذا من دون حرف النسق لأن الأول مقرر لقوله سبحانه : ﴿ الله يَعْلَمُ ﴾ مع زيادة الإدماج المذكور تحقيقاً للعلم والثاني مقرر لما ضمن من الدلالة على القدرة في قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8] مع رعاية نمط التعديد على أسلوب ﴿ الرحمن عَلَّمَ القرءان ﴾ [الرحمن : 1 ، 2] ما يبهر الألباب ويظهر للمتأمل في وجه الإعجاز التنزيلي العجب العجاب ، وأما الثاني فما فيه من الدلالة على أنهم مع وضوح الآيات وتلاوتها عليهم والتنبيه البالغ ترغيباً وترهيباً لم يبالوا بها بالة فكأنه يشكوا جنايتهم إلى من يستحق الخطاب أو كمن يدمدم في نفسه أني أصنع بهم وأفعل كيت وكيت جزاء ما ارتكبوه ليرى ما يريد أن يوقع بهم ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ هُمْ ﴾ إلى آخره معطوف على قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلَا أُنزِلَ ﴾ [الرعد : 7] المعطوف على ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ [الرعد : 6] والعدول عن الفعلية إلى الاسمية وطرح رعاية التناسب للدلالة على أنهم ما ازدادوا بعد الآيات إلا عناداً ﴿ وَأَمَّا الذين فِى

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: 125] وجاز أن يقال: إنه معطوف على ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ ﴾ [الرعد: 12] على معنى هو الذي يريكم هذه الآيات الكوامل الدالة على القدرة والرحمة وأنتم تجادلون

(85/409)

فيه سبحانه وهذا أقرب مأخذاً والأول أملأ بالفائدة اه ومخايل التحقيق ظاهرة عليه؛ وزعم الطيبي أن الأنسب لتأليف النظم أن يكون هذا تسلية لحبيبه صلى الله عليه وسلم، فإنه تعالى لما نعى على كفار قريش عنادهم في اقتراحهم الآيات كآيات موسى.

وعيسى عليهما السلام وإنكارهم كون الذي جاء عليه الصلاة والسلام آيات سلاه جل شأنه بما ذكر كأنه قال: هون عليك فإنك لست مختصاً بذلك فإنه مع ظهور الآيات البينات ودلائل التوحيد يجادلون في الله تعالى باتخاذ الشركاء وإثبات الأولاد ومع شمول علمه تعالى وكمال قدرته جل جلاله ينكرون الحشر والنشر ومع قهر سلطانه وشديد سطوته يقدمون على المكايدة والعناد فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فليتأمل، ولا يستحسن العطف على ﴿ يُرْسِلُ الصواعق ﴾ لعدم الاتساق، وجوز أن تكون الجملة.

حالاً من مفعول ﴿ يُصِيبُ ﴾ أي يصيب بها من يشاء في حال جداله أو من مفعول ﴿

يَشَاءُ ﴾ على ما قيل وهو كما ترى ، ولا يعين سبب النزول الحالية كما لا يخفى ﴿ وَهُوَ ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ شَدِيدُ المِحَالِ ﴾ أي المماحلة وهي المكايدة من محل بفلان بالتخفيف إذا كاده وعرضه للهلاك ، ومنه تمحل لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه فهو مصدر كالقتال ، وقيل : هو اسم لا مصدر من المحل بمعنى القوة وحمل على ذلك قول الأعشى :

فرع نبل يهتز في غصن المج . . .

د عظيم الندى شديد المحال

وقول عبد المطلب :

لا يغلبن صليبهم . . .

ومحالهم عدوا محالك

وكأن أصله من المحل بمعنى القحط ، وكلا التفسيرين مروي على ابن عباس ، وقيل : هو مفعل لأفعال من الحول بمعنى القوة ، وقال ابن قتيبة : هو كذلك من الحيلة المعروفة وميمه زائدة كميم مكان ، وغلطه الأزهري بأنه لو كان مفعلاً لكان كمرود ومحور ، واعتذر عن ذلك بأنه أعل على غير قياس ، وأيد دعوى الزيادة بقراءة الضحاك .

والأعرج ﴿ المحال ﴾ بفتح الميم على أنه مفعل من حال يحول إذا احتال لأن الأصل توافق القراءتين ، ويقال للحيلة أيضاً المحالة ؛ ومنه المثل المرء يعجز لا المحالة ، وقال أبو زيد : هو بمعنى النقمة وكأنه أخذه من المحل بمعنى القحط أيضاً ، وقال ابن عرفة : هو الجدال يقال : ما حل عن أمره أي جادل ، وقيل : هو بمعنى الحقد وروي عن عكرمة وحملوه على التجوز .

وجوز أن يكون ﴿ المحال ﴾ بالفتح بمعنى الفقار وهو عمود الظهر وقوامه ، قال في الأساس : يقال فرس قوي المحال أي الفقار الواحدة محالة والميم أصلية ، ويكون ذلك مثلاً في القوة والقدرة كما جاء في الحديث الصحيح " فساعد الله تعالى أسد وموساه أحد " لأن الشخص إذا اشتد محاله كان منعوتاً بشدة القوة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره ، ألا ترى إلى قولهم : فقرته الفواقر وهو مثل لتوهين القوى ، وبهذا الحمل لا يلزم إثبات الجسمية له تعالى ، والجملة الاسمية في موضع الحال من الاسم الجليل .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾

﴿ لَهُ ﴾ أي لله تعالى ﴿ دَعْوَةُ الحق ﴾ أي الدعاء والتضرع الثابت الواقع في محله المجاب عند وقوعه ، والإضافة للإيذان بملابسة الدعوة للحق واختصاصها به وكونها بمعزل من شائبة البطلان والضلال والضياع كما يقال : كلمة الحق ؛ والمراد أن إجابة ذلك له تعالى

دون غيره ، ويؤيده ما بعد كما لا يخفى وقيل : المراد بدعوة الحق الدعاء عند الخوف فإنه لا يدعي فيه إلا الله تعالى كما قال سبحانه : ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 67] وزعم الماوردي أن هذا أشبه بسياق الآية ، وقيل : الدعوة بمعنى الدعاء أي طلب الإقبال ، والمراد به العبادة للاشتمال ، والإضافة على طرز ما تقدم ، وبعضنم يقول : إن هذه الإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة والكلام فيها شهير ، وحاصل المعنى أن الذي يحق أن يعبد هو الله تعالى دون غيره .

(87/409)

ويفهم من كلام البعض على ما قيل أن الدعوة بمعنى الدعاء ومتعلقها محذوف أي للعبادة ، والمعنى أنه الذي يحق أن يدعي إلى عبادته دون غيره ، ولا يخفى ما بين المعنيين من التلازم فإنه إذا كانت الدعوة إلى عبادته سبحانه حقاً كانت عبادته جل شأنه حقاً وبالعكس ، وعن الحسن أن المراد من الحق هو الله تعالى ، وهو كما في "البحر" ثاني الوجهين اللذين ذكرهما الزمخشري ، والمعنى عليه كما قال : له دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب ، والأول ما أشرنا إليه أولاً وجعل الحق فيه مقابل الباطل .

وبين صاحب الكشف حاصل الوجهين بأن الكلام مسوق لاختصاصه سبحانه بأن

يدعي ويعبد رداً لمن يجادل في الله تعالى ويشرك به سبحانه الأنداد ولا بد من أن يكون في الإضافة إشعار بهذا الاختصاص ، فإن جعل الحق في مقابل الباطل فهو ظاهر ، وإن جعل اسماً من أسمائه تعالى كان الأصل لله دعوته تأكيداً للاختصاص من اللام والإضافة ثم زيد ذلك بإقامة الظاهر مقام المضمر معاداً بوصف ينبىء عن اختصاصها به أشد الاختصاص فقيل : له دعوة المدعو الحق والحق من أسمائه سبحانه يدل على أنه الثابت بالحقيقة وما سواه باطل من حيث هو وحق بتحقيقه تعالى إياه فيتقيد بحسب كل مقام للدلالة على أن مقابله لا حقيقة له ، وإذا كان المدعو من دونه بطلانه لعدم الاستجابة فهو الحق الذي يسمع فيجيب انتهى .

وبهذا سقط ما قاله أبو حيان في الاعتراض على الوجه الثاني من أن مآله إلى الله دعوة الله وهو نظير قولك : لزيد دعوة زيد ولا يصح ذلك ، واستغنى عما قال العلامة الطيبي في تأويله : من أن المعنى ولله تعالى الدعوة التي تليق أن تنسب وتضاف إلى حضرته جل شأنه لكونه تعالى سميعاً بصيراً كريماً لا يخيب سائله فيجيب الدعاء فإن ذلك كما ترى قليل الجدوى .

ويعلم مما في "الكشف" وجه تعلق هذه الجملة بما تقدم، وقال بعضهم: وجه تعلق هذه الجملة التي قبلها أعني قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ [الرعد: 13] إن كان سبب النزول قصة أربد.

وعامر أن إهلاكهما من حيث لم يشعرا به محال من الله تعالى وإجابة لدعوة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: "اللهم احبسهما عني بما شئت" أو دلالة على رسوله صلى الله عليه وسلم على الحق، وإن لم يكن سبب النزول ذلك فالوجه أن ذلك وعيد للكفرة على مجادلتهم الرسول صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وتهديد بإجابة دعائه عليه الصلاة والسلام أن دعا عليهم أو بيان ضلالتهم وفساد رأيهم في عبادة غير الله تعالى، ويعلم مما ذكر وجه التعلق على بعض التفاسير إذا قلنا: إن سبب النزول قصة اليهودي أو الجبار فتأمل.

(89/409)

﴿ والذين يَدْعُونَ ﴾ أي الأصنام الذين يدعونهم أي المشركون، وحذف عائد الموصول في مثل ذلك كثير، وجوز أن يكون الموصول عبارة عن المشركين وضمير الجمع المرفوع عائد إليه ومفعول ﴿ يَدّعُونَ ﴾ محذوف أي الأصنام وحذف لدلالة قوله تعالى: ﴿ مِن دُونِهِ

﴾ عليه لأن معناه متجاوزين له وتجاوزه إنما هو بعبادتها ويؤيد الوجه الأول قراءة البزدوي عن أبي عمرو ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بتاء الخطاب ، وضمير ﴿ لا ﴾ عليه عائد على ﴿ يَتَذَكَّرُونَ الذين ﴾ وعلى الثاني عائد على مفعول ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ وعلى كل فالمراد لا يستجيب الأصنام ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للمشركين ﴿ بِشَىْءٍ ﴾ من طلباتهم ﴿ إِلاَّ كباسط كَفَّيْهِ إِلَى الماء ﴾ أي لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة وطرفاً منها إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد يطلبه ويدعوه ﴿ لِيَبْلُغَ ﴾ أي الماء بنفسه من غير أن يؤخذ بشيء من إناء ونحوه ﴿ فَاهُ وَمَا هُوَ ﴾ أي الماء ﴿ بِبَالِغِهِ ﴾ أي ببالغ فيه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه وبسط يديه إليه ، وجوز أبو حيان كون ﴿ هُوَ ﴾ ضمير الفم والهاء في ﴿ بالغه ﴾ ضمير الماء أي وما فوه ببالغ الماء لأن كلاًّ منهما لا يبلغ الآخر على هذه الحال .

(90/409)

وجوز بعضهم كون الأول ضمير ﴿ وَكُلُّهُمْ باسط ﴾ والثاني ضمير "الماء" قال أبو البقاء : ولا يجوز أن يكون الأول عائداً على "باسط" والثاني عائداً على الفم لأن اسم الفاعل إذا جرى على غير من هو له لزم إبراز الفاعل فكان يجب على ذلك أن يقال : وما هو ببالغه

الماء ، والجمهور على ما سمعت أولاً ، والغرض كما قال بعض المدققين نفي الاستجابة على البت بتصوير أنهم أحوج ما يكونون إليها لتحصيل مباغيهم أخيب ما يكون أحد في سعيه لما هو مظطر إليه ، والحاصل أنه شبه آلهتهم حين استكفائهم إياهم ما أهمهم بلسان الاضطرار في عدم الشعور فضلاً عن الاستطاعة للاستجابة وبقائهم لذلك في الخسار بحال ماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه عبارة وإشارة فهو لذلك في زيادة الكباد والبوار ، والتشبيه على هذا من المركب التمثيلي في الأصل أبرز في معرض التهكم حيث أثبت أنهما استجابتان زيادة في التخسير والتحسير ، فالاستثناء مفرغ من أعم عام المصدر كما أشرنا إليه ، والظاهر أن الاستجابة هناك مصدر من المبنى للفاعل وهو الذي يقتضيه الفعل الظاهر ، وجوز أن يكون من المبني للمفعول ويضاف إلى الباسط بناءاً على استلزام المصدر من المبني للفاعل للمصدر من المبني للمفعول وجوداً وعدماً فكأنه قيل : لا يستجيبون لهم بشيء فلا يستجاب لهم استجابة كائنة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء كما في قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع . . .

من المال إلا مسحت أو مجلف

أي لم يدع فلم يبق إلا مسحت أو مجلف .

وأبو البقاء يجعل الاستجابة مصدر المبني للمفعول وإضافته إلى ﴿ باسط ﴾ من باب إضافة المصدر إلى مفعوله كما في قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْئَمُ الانسان مِن دُعَاء الخير ﴾ [فصلت : 49] والفاعل ضمير ﴿ الماء ﴾ على الوجه الثاني في الموصول ، وقد يراد من بسط الكفين إلى الماء بسطهما أي نشر أصابيعهما ومدها لشربه لا للدعاء ، والإشارة إليه كما أشرنا إليه فيما تقدم ، وعلى هذا قيل : شبه الداعون لغير الله تعالى بمن أراد أن يغرف الماء بيديه فبسطهما ناشراً أصابعه في أنهما لا يحصلان على طائل ، وجعل بعضهم وجه الشبه قلة الجدوى ، ولعله أراد عدمها لكنه بالغ بذكر القلة وإرادة العدم دلالة على هضم الحق وإيثار الصدق ولإشمام طرف من التهكم ، والتشبيه على هذا من تشبيه المفرد المقيد كقولك لمن لا يحصل من سعيه على شيء : هو كالراقم على الماء ؛ فإن المشبه هو الساعي مقيداً بكون سعيه كذلك والمشبه به هو الراقم مقيداً بكونه على الماء كذلك فيما نحن فيه ، وليس من المركب العقلي في شيء على ما توهم .

نعم وجه الشبه عقلي اعتباري والاستثناء مفرغ عن أعم عام الأحوال أي لا يستجيب الآلهة لهؤلاء الكفرة الداعين إلا مشبهين أعني الداعين بمن بسط كفيه ولم يقبضهما وأخرجهما كذلك فلم يحصل على شيء لأن الماء يحصل بالقبض لا بالبسط .

وروي عن علي كرم الله تعالى وجهه أن ذلك تشبيه بعطشان على شفير بئر بلا رشاء ولا

يبلغ قعر البئر ولا الماء يرتفع إليه ، وهو راجع إلى الوجه الأول وليس مغايراً له كما قيل ، وعن أبي عبيدة أن ذلك تشبيه بالقابض على الماء في أنه لا يحصل على شيء ، ثم قال : والعرب تضرب المثل في الساعي فيما لا يدركه بذلك ، وأنشد قول الشاعر :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها . . .

من الود مثل القابض الماء باليد

وقوله :

وإني وإياكم وشوقاً إليكم . . .

كقابض ماء لم تسعه أنامله

(92/409)

وهو راجع إلى الوجه الثاني خلا أنه لا يظهر من ﴿ باسط ﴾ معنى قابض فإن بسط الكف ظاهر في نشر الأصابيع ممدودة كما في قوله :

تعود بسط الكف حتى لو أنه . . .

أراد انقباضاً لم تطعه أنامله

وكيفما كان فالمراد بباسط شخص باسط أي شخص كان ، وما يقتضيه ظاهر ما روي

عن بكير بن معروف من أنه قابيل حيث أنه لما قتل أخاه جعل الله تعالى عذابه أن أخذ بناصيته في البحر ليس بينه وبين الماء إلا إصبع فهو يريده ولا يناله مما لا ينبغي أن يعول عليه.

وقرىء ﴿ كباسط كَفَّيْهِ ﴾ بالتنوين أي كشخص يبسط كفيه ﴿ وَمَا دُعَاءُ الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ أي في ضياع وخسار وباطل، والمراد بهذا الدعاء إن كان دعاء آلهتهم فظاهر أنه كذلك لكنه فهم من السابق وحينئذٍ يكون مكرراً للتأكيد ، وإن كان دعاءهم الله تعالى فقد استشكلوا ذلك بأن دعاء الكافرين قد يستجاب وهو المصرح به في الفتاوى ، واستجابة دعاء إبليس وهو رأس الكافر نص في ذلك.

وأجيب بأن المراد دعاؤهم الله تعالى بما يتعلق بالآخرة ، وعلى هذا يحمل ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن أصوات الكفار محجوبة عن الله تعالى فلا يسمع دعاؤهم ، وقيل : يجوز أن يراد دعاؤهم مطلقاً ولا يقيد بما أجيبوا به. انتهى انتهى. اهـ

﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(93/409)

وقال القاسمى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً ﴾

أي : من الصواعق : ﴿ وَطَمَعاً ﴾ أي : المطر أن يحيي النبات : ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أي : الماء .

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ أي : يسبح سامعوه من العباد الراجين للمطر متلبسين بحمده ، أي : يضجون بـ (سبحان الله والحمد لله) فيكون على حذف مضاف أو إسناداً مجازياً للحامل والسبب ، أو يسبح الرعد نفسه ، بمعنى دلالته على وحدانيته تعالى وفضله ، المستوجب لحمده . فيكون الإسناد على حقيقته والتجوز في التسبيح والتحميد . إذ شبه دلالته بنفسه على تنزيهه عن الشرك والعجز بالتسبيح والتنزيه اللفظي . ودلالته على فضله ورحمته ، بحمد الحامد لما فيها من الدلالة على صفات الكمال .

قال الرازي : الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص . والتسبيح والتقديس وما يجري مجراهما ليس إلا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى . فلما كان حدوث هذا الصوت دليلاً على وجود متعال عن النقص والإمكان ؛ كان ذلك في الحقيقة تسبيحاً وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : من الآية 44] .

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ أي : وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وخشيته وإجلاله : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : فيهلك بها من يشاء . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ يعني الكفرة المخاطبين في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ ﴾ وقد التفت إلى الغيبة ؛ إيذاناً بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضاً عنهم ، وتعديداً لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب . كأنه قيل : هو الذي يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة ، من إراءة البرق ، وإنشاء السحاب الثقال ، وإرسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته ، ويعقلها من يعقلها من المؤمنين ، أو الرعد نفسه ، والملائكة . ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى و (هم) أي : الكفرة الذين حكيت هناتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم ، يجادلون في شأنه تعالى ، بإنكار البعث واستعجال العذاب ، استهزاء واقتراح الآيات . قالوا : ولعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ ﴾ . أفاده أبو السعود .

أي : يريكم ما ذكر من الآيات الباهرة الدالة على القدرة والوحدانية . وأنتم تجادلون فيه ، و (الجدال) أشد الخصومة ، من (الجدال) بالسكون ، وهو فتل الحبل ونحوه ؛ لأنه يقوى به وتشتد طاقته ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ أي : والحال أنه شديد المماحلة والمماكرة والمكايدة لأعدائه ، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون من (محله) إذا كاده وعرّضه

للهلاك ، ومنه (تمحّل لكذا) إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه .

تنبيه :

(95/409)

ذكر في العلم الطبيعي : أن الصواعق شرارات تنطلق دفعة واحدة من تموجات السحب ومصادمتها لبعضها ؛ فيحصل في الهواء اهتزاز قوي . وأما الرعد فهو الصوت الذي يحصل من ذلك الانطلاق ويصل إلينا ببطء على حسب بعد السحب الحاملة للصواعق عنا . وعلى حسب اتساع السحب يطول سماعنا لصوت الرعد . وإذا لمع البرق من السحابة ، فقد تمت نتائج الصاعقة ، فمتى مضت برهة لطيفة بين لمعان البرق وسماع الرعد ، فقد أُمن ضررها . فإن لم يمض بينهما شيء ، بأن كان الإنسان قريباً من محل الصاعقة وسمع الرعد مع مشاهدة البرق في آن واحد ؛ أمكن أن يصاب بالصاعقة في مرورها . وأما سبب انفجار الصاعقة فقالوا : من المعلوم أن انطلاق الكهربائية إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها ، فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهربائية السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية فتنبجس بينهما شرارة كهربائية هي البرق . وحينئذ يقال : إن الأجسام الأرضية صعقت . هذا مجمل ما قالوه .

وقد حاول الرازي الجمع بين ما روي عن بعض السلف : أن الرعد ملك ، وبين ما ثبت في العلم الطبيعي بما يدفع المنافاة فقال : اعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية ، فللسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره .

وكذا القول في الرياح وفي سائر الآثار العلوية . قال : وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله ، فهذا الذي قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء . فكيف يليق بالعاقل الإنكار ؟ ! انتهى .

وقوله تعالى :

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ أي : الدعاء الحق بالعبادة والتضرع والإنابة . وتوجيه الوجه ثابت له تعالى لا لغيره ؛ لأنه الذي يجيب المضطر ويكشف السوء فهو الحقيق بأن يعبد وحده بالدعاء والالتجاء . فإضافة الدعوة للحق من إضافة الموصوف للصفة .

وفيها إيذان بملابستها للحق ، واختصاصها به ، وكونها بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال ، كما يقال : كلمة الحق .

ثم بيّن تعالى مثال من يعبد من الأصنام ويدعي في عدم النفع والجدوى بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أي : الأصنام الذين يدعوهم المشركون من دونه تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ﴾ أي : من مطلوباتهم : ﴿ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ أي : إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه ، أي : كاستجابة الماء لمن مد يديه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفه ولا بظمأه وحاجته إليه ، فلا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه ، وكذلك ما يدعونه ، جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم ! . والغرض نفي الاستجابة على القطع بتصوير أنهم أحوج ما يكونون إليها لتحصيل مباغيهم ؛ أخيب ما يكون أحد في سعيه لما هو مضطر إليه فضلاً عن مجرد الحاجة . وحاصله : أنه شبه آلهتهم حين استكفائهم إياهم ما أهمهم بلسان الاضطرار في عدم الشعور فضلاً عن الاستطاعة للاستجابة ، وبقائهم لذلك في الخسران ؛ بحال ماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه عبارة وإشارة . فهو لذلك في زيادة ظمأ وشدة خسران ! والتشبيه على هذا من المركب التمثيلي في الأصل ، أبرز في معرض التهكم ، حيث أثبت للماء استجابة زيادة في التخسير والتحسير . فالاستثناء مفرغ من أعم عام المصدر ، أي : لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة ، والضمير في (هو) للماء و (بالغه) للفم ، وقيل : الأول للباسط والثاني للماء . وبسط الكف : نشر الأصابع ممدودة

كما في قوله :

~تعود بسط الكف حتى لو أنه أراد انقباضاً لم تُطعه أنامله

﴿ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ ﴾ أي : عبادتهم والتجاؤهم لآلهتهم : ﴿ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ أي : في ضياع لا منفعة فيه ؛ لعدم إمكان إجابتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 274. 277 ﴾

(98/409)

وقال ابن عاشور :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) ﴾

استئناف ابتدائي على أسلوب تعداد الحجج الواحدة تلوى الأخرى ، فلأجل أسلوب التعداد إذ كان كالتكرير لم يعطف على جملة ﴿ سواء منكم من أسر القول ﴾ [الرعد : 10] .

وقد أعرب هذا عن مظهر من مظاهر قدرة الله وعجيب صنعه .

وفيه من المناسبة للإنذار بقوله : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم ﴾ [سورة الرعد : 11] الخ أنه مثال لتصرف الله بالإنعام والانتقام في تصرف واحد مع تذكيرهم بالنعمة التي هم فيها .

وكل ذلك مناسب لمقاصد الآيات الماضية في قوله : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ [سورة الرعد : 8] وقوله : وكل شيء عنده بمقدار [سورة الرعد : 8] ، فكانت هذه الجملة جديرة بالاستقلال وأن يجاء بها مستأنفة لتكون مستقلة في عداد الجمل المستقلة الواردة في غرض السورة .

وجاء هنا بطريق الخطاب على أسلوب قوله : ﴿ سواء منكم من أسر القول ﴾ [سورة الرعد : 10] لأن الخوف والطمع يصدران من المؤمنين ويهدد بهما الكفرة .

وافتتحت الجملة بضمير الجلالة دون اسم الجلالة المفتتح به في الجمل السابقة ، فجاءت على أسلوب مختلف .

وأحسب أن ذلك مراعاة لكون هاته الجملة مفرعة عن أغراض الجمل السابقة فإن جُمل فواتح الأغراض افتتحت بالاسم العلم كقوله : ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عَمد ﴾ [سورة الرعد : 2] وقوله : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ [سورة الرعد : 8] وقوله : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم ﴾ [سورة الرعد : 11] ، وجمل التفاريع افتتحت بالضمائر كقوله : ﴿ يدبر الأمر ﴾ [سورة الرعد : 4] وقوله : ﴿ وهو الذي مد الأرض ﴾ [سورة الرعد : 3] وقوله : جعل فيها زوجين .

وخوفاً وطمعاً ﴾ مصدران بمعنى التخويف والإطماع ، فهما في محل المفعول لأجله لظهور المراد .

وجعل البرق آية نذارة وبشارة معاً لأنهم كانوا يَسِمون البرق فيتوسمون الغيث وكانوا يخشون صواعقه.

وإنشاء السحاب: تكوينه من عدم بإثارة الأبخرة التي تتجمع سحاباً.

والسحاب: اسم جمع لسحابة.

والثقال: جمع ثقيلة.

والثقل كون الجسم أكثر كمية أجزاء من أمثاله، فالثقل أمر نسبي يختلف باختلاف أنواع الأجسام، فرب شيء يعد ثقيلاً في نوعه وهو خفيف بالنسبة لنوع آخر.

والسحاب يكون ثقيلاً بمقدار ما في خلاله من البخار.

وعلامة ثقله قربه من الأرض وبطء تنقله بالرياح.

والخفيف منه يُسمى جهاماً.

وعطف الرعد على ذكر البرق والسحاب لأنه مقارنهما في كثير من الأحوال.

ولما كان الرعد صوتاً عظيماً جعل ذكره عبرة للسامعين لدلالة الرعد بلوازم عقلية على أن الله منزه عما يقوله المشركون من ادعاء الشركاء، وكان شأن تلك الدلالة أن تبعث الناظر

فيها على تنزيه الله عن الشريك جعل صوت الرعد دليلاً على تنزيه الله تعالى ، فإسناد التسبيح إلى الرعد مجاز عقلي .

ولك أن تجعله استعارة مكنية بأن شبه الرعد بآدمي يُسبح الله تعالى ، وأثبت شيء من علائق المشبّه به وهو التسبيح ، أي قول سبحان الله .

والباء في ﴿ بحمده ﴾ للملابسة ، أي ينزه الله تنزيهاً ملابساً لحمده من حيث إنه دال على اقتراب نزول الغيث وهو نعمة تستوجبُ الحمد .

فالقول في ملابسة الرعد للحمد مساوٍ للقول في إسناد التسبيح إلى الرعد .

فالملابسة مجازية عقلية أو استعارة مكنية .

و﴿ الملائكة ﴾ عطف على الرعد ، أي وتسبح الملائكة من خيفته ، أي من خوف الله .

و﴿ من ﴾ للتعليل ، أي ينزهون الله لأجل الخوف منه ، أي الخوف مما لا يرضى به وهو التقصير في تنزيهه .

وهذا اعتراض بين تعداد المواعظ لمناسبة التعريض بالمشركين ، أي أن التنزيه الذي دلت عليه آيات الجو يقوم به الملائكة ، فالله غني عن تنزيهكم إياه ، كقوله : ﴿ إن تكفروا فإن الله

غني عنكم ﴾ [سورة الزمر : 7] ، وقوله : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ [سورة إبراهيم : 8] .

واقتصر في العبرة بالصواعق على الإنذار بها لأنها لا نعمة فيها لأن النعمة حاصلة بالسحاب وأما الرعد فآلة من آلات التخويف والإنذار .

كما قال في آية سورة البقرة ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾ [سورة البقرة : 19] .

وكان العرب يخافون الصواعق .

ولقبوا خويلد بن نفيل الصَعِق لأنه أصابته صاعقة أحرقته .

ومن هذا القبيل قول النبي : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوّف الله بهما عباده ، أي بكسوفهما فاقتصر في آيتهما على الإنذار إذ لا يترقب الناس من كسوفهما نفعاً .

وجملة وهم يجادلون في الله ﴾ في موضع الحال لأنه من متممات التعجب الذي في قوله : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ [الرعد : 5] إلخ .

فضمائر الغيبة كلها عائدة إلى الكفار الذين تقدم ذكرهم في صدر السورة بقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ [الرعد : 1] وقوله : ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم ﴾ [الرعد : 5] وقوله : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ [الرعد : 7] .

وقد أعيد الأسلوب هنا إلى ضمائر الغيبة لانقضاء الكلام على ما يصلح لموعظة المؤمنين

والكافرين فتمحض تخويف الكافرين.

والمجادلة: المخاصمة والمراجعة بالقول.

وتقدم في قوله تعالى: ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ في سورة النساء (107).

وقد فهم أن مفعول يجادلون ﴾ هو النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون.

فالتقدير: يجادلونك أو يجادلونكم، كقوله: ﴿ يجادلونك في الحق بعد ما تبين ﴾ في سورة الأنفال (6).

والمجادلة إنما تكون في الشؤون والأحوال، فتعليق اسم الجلالة المجرور بفعل يجادلون ﴾ يتعين أن يكون على تقدير مضاف تدل عليه القرينة، أي في توحيد الله أو في قدرته على البعث.

ومن جدلهم ما حكاه قوله: ﴿ أو لم يرى الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ في سورة يس (77، 78).

والمِحال : بكسر الميم يحتمل هنا معنيين ، لأنه إن كانت الميم فيه أصلية فهو فِعال بمعنى الكيد وفعله مَحَل ، ومنه قولهم تمحل إذا تحيل .

جعل جدالهم في الله جدال كيد لأنهم يبرزونه في صورة الاستفهام في نحو قولهم : من يُحيي العظام وهي رميم ﴾ فقوبل بـ ﴿ شديد المحال ﴾ على طريقة المشاكلة ، أي وهو شديد المحال لا يغلبونه ، ونظيره ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ [سورة آل عمران : 54] .

وقال نفطويه : هو من ماحل عن أمره ، أي جَادل .

والمعنى : وهو شديد المجادلة ، أي قوي الحجة .

وإن كانت الميم زائدة فهو مفعل من الحول بمعنى القوة ، وعلى هذا فإبدال الواو ألفاً على غير قياس لأنه لا موجب للقلب لأن ما قبل الواو ساكن سكوناً حياً .

فلعلهم قلبوها ألفاً للتفرقة بينه وبين مِحول بمعنى صبي ذي حول ، أي سنة .

وذكر الواحدي والطبري أخباراً عن أنس وابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في قضية عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة حين وردا المدينة يشترطان لدخولهما في الإسلام شروطاً لم يقبلها منهما النبي .

فهمّ أرْبد بقتل النبي فصرفه الله ، فخرج هو وعامر بن الطفيل قاصدين قومهما وتواعدا النبي بأن يجلبا عليه خيل بني عامر .

فأهلك الله أربَد بصاعقة أصابته وأهلك عامراً بغُدة نبتت في جسمه فمات منها وهو في بيت امرأة من بني سلول في طريقه إلى أرض قومه، فنزلت في أربد ﴿ ويرسل الصواعق ﴾ وفي عامر ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ .

وذكر الطبري عن صحار العبدي: أنها نزلت في جبار آخر.

(102/409)

وعن مجاهد : أنها نزلت في يهودي جادل في الله فأصابته صاعقة.

ولما كان عامر بن الطفيل إنما جاء المدينة بعد الهجرة وكان جدال اليهود لا يكون إلا بعد الهجرة أقدم أصحاب هذه الأخبار على القول بأن السورة مدنية أوْ أن هذه الآيات منها مدنية، وهي أخبار ترجع إلى قول بعض الناس بالرأي في أسباب النزول.

ولم يثبت في ذلك خبر صحيح صريح فلا اعتداد بما قالوه فيها ولا يخرج السورة عن عداد السور المكية.

وفي هذه القصة أرسل عامر بن الطفيل قوله : "أغُدّة كغدة البعير وموت في بيت سلولية" مثلاً.

ورثى لبيد بن ربيعة أخاه أربدَ بأبيات منها :

أخشى على أربد الحتوف ولا

أرهب نَوْء السِماك والأسد . . .

فجّعَني الرعد والصواعق بالف

ارس يوم الكريهة النّجدِ . . .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾

استئناف ابتدائي بمنزلة النتيجة ونهوض المدلل عليه بالآيات السالفة التي هي براهين الانفراد بالخلق الأول ، ثم الخلق الثاني ، وبالقدرة التامة التي لا تدانيها قدرة قدير ، وبالعلم العام ، فلا جرم أن يكون صاحب تلك الصفات هو المعبود بالحق وأن عبادة غيره ضلال .

والدعوة : طلب الإقبال ، وكثر إطلاقها على طلب الإقبال للنجدة أو للبذل .

وذلك متعين فيها إذا أطلقت في جانب الله لاستحالة الإقبال الحقيقي فالمراد طلب الإغاثة أو النعمة .

وإضافة الدعوة إلى الحق إمّا من إضافة الموصوف إلى الصفة إن كان الحق بمعنى مصادفة الواقع ، أي الدعوة التي تصادف الواقع ، أي استحقاقه إياها ؛ وإما من إضافة الشيء إلى منشئه كقولهم : برود اليمن ، أي الدعوة الصادرة عن حق وهو ضد الباطل ، فإن دعاء الله يصدر عن اعتقاد الوحدانية وهو الحق ، وعبادة الأصنام تصدر عن اعتقاد الشرك وهو الباطل .

واللام للملك المجازي وهو الاستحقاق .

وتقديم الجار والمجرور على المبتدإ لإفادة التخصيص ، أي دعوة الحق ملكه لا ملك غيره ،

وهو قصر إضافي .

(103/409)

وقد صُرح بمفهوم جملة القصر بجملة ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ [سورة الرعد : 14] ، فكانت بياناً لها .

وكان مقتضى الظاهر أن تفصل ولا تعطف وإنما عطفت لما فيها من التفصيل والتمثيل ، فكانت زائدة على مقدار البيان .

والمقصود بيان عدم استحقاق الأصنام أن يدعوها الداعون .

واسم الموصول صادق على الأصنام .

وضمير يدعون للمشركين ﴾ .

ورابط الصلة ضمير نصب محذوف .

والتقدير : والذين يدعونهم من دونه لا يستجيبون لهم .

وأجري على الأصنام ضمير العقلاء في قوله : ﴿ لا يستجيبون ﴾ مجازاة للاستعمال

الشائع في كلام العرب لأنهم يعاملون الأصنام معاملة عاقلين .

والاستجابة : إجابة نداء المنادي ودعوة الداعي ، فالسين والتاء لقوة الفعل .

والباء في بشيء لتعدية ﴿ يستجيبون ﴾ لأن فعل الإجابة يتعدى إلى الشيء المجاب به بالباء ، وإذا أريد من الاستجابة تحقيق المأمول اقتصر على الفعل .

كقوله : ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ﴾ [سورة يوسف : 34] .

فلما أريد هنا نفي إجداء دعائهم الأصنام جعل نفي الإجابة متعدياً بالباء إلى انتفاء أقل ما يجيب به المسؤول وهو الوعد بالعطاء أو الاعتذار عنه ، فهم عاجزون عن ذلك وهم أعجز عما فوقه .

وتنكير شيء للتحقير .

والمراد أقل ما يجاب به من الكلام .

والاستثناء في إلا كباسط كفيه ﴾ من عموم أحوال الداعين والمستجيبين والدعوة والاستجابة ، لأنه تشبيه هيئة فهو يسري إلى جميع أجزائها فلك أن تقدر الكلام إلا كداع باسط أو إلا كحال باسط .

والمعنى : لا يستجيبونهم في حالٍ من أحوال الدعاء والاستجابة إلا في حالٍ لداعٍ ومستجيبٍ كحال باسطٍ كفيه إلى الماء .

وهذا الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده فيؤول إلى نفي الاستجابة في سائر

الأحوال بطريق التمليح والكناية .

والمراد بـ (باسط كفيه) من يغترف ماء بكفين مبسوطتين غير مقبوضتين إذ الماء لا يستقر فيهما .

(104/409)

وهذا كما يقال : هو كالقابض على الماء ، في تمثيل إضاعة المطلوب .

وأنشد أبو عبيدة :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها

من الودّ مثل القابض الماءَ باليد . . .

و ﴿ إلى ﴾ للانتهاء لدلالة ﴿ باسط ﴾ على أنه مَدّ إلى الماء كفيه مبسوطتين .

واللام في ﴿ ليبلغ ﴾ للعلة .

وضمير ﴿ يبلغ ﴾ عائد إلى الماء .

وكذلك ضمير ﴿ هو ﴾ والضمير المضاف إليه في (بالغه) للفم .

والكلام تمثيلية .

شبّه حال المشركين في دعائهم الأصنام وجلب نفعهم وعدم استجابة الأصنام لهم بشيء

بحال الظمآن يبسط كفيه يبتغي أن يرتفع الماء في كفيه المبسوطتين إلى فمه ليرويه وما هو ببالغ إلى فمه بذلك الطلب فيذهب سعيه وتعبه باطلاً مع ما فيه من كناية وتمليح كما ذكرناه .

وجملة ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ عطف على جملة ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ لاستيعاب حال المدعو وحال الداعي .

فبينت الجملة السابقة حال عجز المدعو عن الإجابة وأعقبت بالتمثيل المشتمل على كناية وتمليح .

واشتمل ذلك أيضاً بالكناية على خيبة الداعي .

وبينت هذه الجملة الثانية حال خيبة الداعي بالتصريح عقب تبْيينه بالكناية .

فباختلاف الغرض والأسلوب حَسنُ العطف ، وبالمآل حصل توكيد الجملة الأولى وتقريرُها وكانت الثانية كالفذلكة لتفصيل الجملة الأولى .

والضلال : التلف والضياع .

و﴿ في ﴾ للظرفية المجازية للدلالة على التمكن في الوصف ، أي إلا ضائع ضَياعاً شديداً . انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ .

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يرى خلقه البرق خوفاً وطمعاً . قال قتادة : خوفاً للمسافر . يخاف أذاه ومشقته ، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله . وعن الحسن : الخوف لأهل البحر ، والطمع لأهل البر . وعن الضحاك : الخوف من الصواعق والطمع في الغيث .

وبين في موضع آخر : أن إراءته خلقه البرق خوفاً وطمعاً من آياته جل وعلا ، الدالة على أنه المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له . وذلك في قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مَآءً ﴾ [الروم : 24] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(106/409)

وقال الشيخ الشعراوى :

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن ظاهرة في الكون لها وجهان وتُسْتقبل استقبالين ؛

أحدهما : سَارّ ، والآخر : مُزْعِج ؛ سواء في النفس الواحدة أو في الجماعة الواحدة .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمُ البرق . . . ﴾

وكُلُّنا يعرف البَرْق ، ونحن نستقبله بالخوف مما يُزعِج وبالطمع فيما يُحَبّ ويُرْغَب ، فساعةَ يأتي البرق فنحن نخاف من الصواعق ؛ لأن الصواعقَ عادة تأتي بعد البَرْق ؛ أو تأتي السحابات المُمْطِرة .

وهكذا يأتي الخَوْف والطَّمَع من الظاهرة الواحدة . أو : أنْ يكون الخوف لقوم ؛ والرجاء والطمع لقوم آخرين .

والمثل الذي أضربه لذلك دائماً هو قول أحد المقاتلين العرب وصف سيفه بأنه " فَتْح لأحبابه ، وحَتْفٌ لأعدائه " .

والمثل الآخر الذي أضربه ما رواه لنا أمير بلدة اسمها " الشريعة " وهي تقع بين الطائف ومكة ؛ وقد حدثنا أمير الشريعة عام 1953 عن امرأة صالحة تحفظ القرآن ؛ اسمها " آمنة " .

هذه المرأة كان لها بنتان ؛ تزوَّجتا ؛ وأخذ كُلُّ زَوْجٍ زوجته إلى مَحَلِّ إقامته ؛ وكان أحدُ زَوْجَي البنتين يعمل في الزراعة ؛ والآخر يعمل بصناعة " الشُّرُك " . وقالت آمنة لزوجها : ألاَ تذهب لمعرفة أحوال البنتين ؟ فذهب الرجل لمعرفة أحوال البنتين ، فكان أول مَنْ لقي في رحلته هي ابنته المتزوجة مِمَّنْ يحرث ويبذر ، فقال لها : كيف حالك وحال زوجك

وحال الدنيا معك أنت وزوجك ؟

قالت : يا أَبتِ ، أنا معه على خير ، وهو معي على خير ، وأما حال الدنيا ؛ فَادْعُ لنا الله أنْ يُنزِل المطر ؛ لأننا حرثنا الأرض وبذرْنَا البذور ؛ وفي انتظار ريِّ السماء .

فرفع الأب يديه إلى السماء وقال : اللهم إنِّي أسألك الغَيْث لها .

وذهب إلى الأخرى ؛ وقال لها : ما حالك ؟ وما حال زوجك ؟ فقالت : خير ، وأرجوك يا أبي أن تدعوَ لنا الله أنْ يمنع المطر ؛ لأننا قد صنعنا الشِّرَاك من الطين ؛ ولو أمطرتْ لَفسدتِ الشُّرُك ، فَدَعا لها .

(107/409)

وعاد إلى امرأته التي سألته عن حال البنتين ؛ فبدا عليه الضيق وقال : هي سَنَة سيئة على واحدة منهما ، وروى لها حال البنتين ؛ وأضاف : ستكون سنة مُرْهِقة لواحدة منهما .

فقالت له آمنة : لو صبرت ؛ لَقُلْتُ لك : إن ما تقوله قد لا يتحقق ؛ وسبحانه قادر على ذلك .

قال لها : ونعم بالله ، قولي لي كيف ؟ فقال آمنة : ألم تقرأ قول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماَءِ مِن

جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ . . . ﴾ [النور : 43]

فسجد الرجل لله شكراً أن رزقه بزوج تعينه على أمر دينه ، ودعا : اللهم اصْرِف عن صاحب الشِّراكِ المطر ؛ وأفِضْ بالمطر على صاحب الحَرْث . وقد كان .

وهذا المثل يوضح جيداً معنى الخوف والطمع عند رؤية الرعد : ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً . . . ﴾ [الرعد : 12]

إما من النفس الواحدة بأن يخافَ الإنسانُ من الصواعق ، ويطمع في نزول المطر ، أو من متقابلين ؛ واحد ينفعه هذا ؛ وواحد يضره هذا .

ويضيف الحق سبحانه : ﴿ . . . وَيُنْشِئُ السحاب الثقال ﴾ [الرعد : 12]

ونحن نعلم أن السحاب هو الغَيْم المُتَراكم ؛ ويكون ثقيلاً حين يكون مُعَبأً ؛ وهو عكس السحاب الخفيف الذي يبدو كَنُتَفِ القطن .

ويُقال عند العرب : " لا تستبطئ الخَيْل ؛ لأن أبطأَ الدلاء فَيْضاً أملؤها ، وأثقلَ السحابِ مَشْياً أَحْفَلُهَا " .

فحين تنزل الدَّلْو في البئر ؛ وترفعه ؛ فالدَّلْو المَلآن هو الذي يُرهقك حين تشدُّه من البئر ؛ أما الدلو الفارغ فهو خفيفٌ لحظة جَذْبه خارج البئر ؛ وكذلك السحاب الثِّقَال تكون بطيئةً لِمَا تحمله من ماء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ . . . ﴾

(108/409)

وسبق أن جاء الحق سبحانه بذكر البرق وهو ضوئيّ ؛ وهنا يأتي بالرعد وهو صوتيّ ، ونحن نعرف أن سرعة الضوء أسرع من سرعة الصوت ؛ ولذلك جاء بالبرق أولاً ، ثم جاء بالرعد من بعد ذلك .

وحين يسمع أحدُ العامةِ واحداً لا يعجبه كلامه ؛ يقول له " سمعت الرعد " ؛ أي : يطلب له أنْ يسمع الصوت المزعج الذي يُتعِب مَنْ يسمعه . ولنا أن ننتبه أن المُزْعِجات في الكون إذا ما ذكرت مُسَبِّحة لربها فلا تنزعج منها أبداً ، ولا تظن أنها نغمة نَشَاز في الكون ، بل هي نغمة تمتزج ببقية أنغام الكون .

ونحن نفهم أن التسبيح للعاقل القادر على الكلام ، ولكن هذا عند الإنسان ؛ لأن الذي خلق الكائنات كلها علَّمها كيف تتفاهم ، مثلما علَّم الإنسان كيف يتفاهم مع بني جنسه ؛ وكذلك عَلَّم كل جنس لغته .

وكلنا نقرأ في القرآن ماذا قالت النملة حين رأتْ جنودَ سليمان : ﴿ ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ

يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : 18]

وقد سمعها سليمان عليه السلام ؛ لأن الله علّمه مَنْطِق تلك اللغات ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه عَلّم سليمان منطق الطير ، قال تعالى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير . . . ﴾ [النمل : 16]

ألم يتخاطب سليمان عليه السلام مع الهدهد وتكلَّم معه ؟ بعد أن فَكّ سليمان بتعليم الله له شَفْرة حديث الهدهد ؛ وقال الهدهد لسليمان : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : 22-23]

(109/409)

إذن : فكُلُّ شيء له لغة يتفاهم بها لقضاء مصالحه ، ومَنْ يفيض الله عليه من أسرار خَلْقه يُسْمِعه هذه اللغات ، وقد فاض الحقُّ سبحانه على سليمان بذلك ، ففهم لغةَ الطير وتكلَّم بها مع الهدهد ؛ وقال له : ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : 28]

وهكذا عرفنا بقصة سليمان وبلقيس ؛ وكيف فهم سليمان مَنْطِق الطير وتكلَّم بها مع

الهدهد ؟ وهكذا عَلِمنا كيف يتعلَّم الإنسان لغاتٍ متعددةً ؛ فحين يذهب إنسان إلى مجتمع آخر ويبقى به مُدَّة ؛ فهو يتعلم لغة ذلك المجتمع ، ويمكن للإنسان أن يتعلم أكثر من لغة .

وقد عرض الحق سبحانه مسألة وجود لغاتٍ للكائنات في قصة النملة وقصة الهدهد مع سليمان ؛ وهما من المرتبة التالية للبشر ، ويعرض الحق سبحانه أيضاً قضية وجود لغة لكل كائن من مخلوقاته في قوله : ﴿ . . . وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 79]

وكأن الجبال تفهم تسبيح داود وتُردّده من خلفه .

أيضاً يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق * والطير مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : 18-19]

وكذلك يخاطب الله الأرض والسماء ، فيقول : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً . . . ﴾ [فصلت : 11]

فيمتثلان لأمره : ﴿ . . . قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾

[فصلت : 11]

وهكذا نعلم أن لكل جنس لغةً يتفاهم بها ، ونحن نلحظ أن لكل نوع من الحيوانات صَوْتاً يختلف من نوع إلى آخر ، ويدرس العلماء الآن لُغَةَ الأسماك ، ويحاولون أنْ يضعوا لها مُعْجماً

.

إذن : فساعة تسمع : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . . . ﴾ [الإسراء : 44]

(110/409)

فافهم أن ما من كائن إلا وله لغة ، وهو يُسبِّح بها الخالق الأكرم .

ثم يقول تعالى : ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . ﴾ [الإسراء : 44]

مثلما لا يفقه جاهل بالإنجليزية لغة الإنجليز .

وقال البعض : إن المُرَاد هنا هو تسبيح الدلالة على الخالق ؛ وقد حكم سبحانه بأننا لا نستطيع فَهْم تسبيح الدلالة .

ولكني أقول : إن العلم المعاصر قد توصَّل إلى دراسة لغات الكائنات وأثبتها ؛ وعلى ذلك يكون التسبيح من الكائنات بالنطق والتفاهم بين مُتكلِّم وسامع ، بل ولتلك الكائنات عواطف أيضاً .

ونحن نرى العلماء في عصرنا يدرسون عواطف الشجر تجاه مَنْ يسقيه من البشر ، وهنا تجربة تتحدث عن قياس العلماء لذبذبة النبات أثناء ريِّه بواسطة مُزارِع مسئول عنه ؛ ثم

مات للرجل ؛ فقاسوا ذبذبة تلك النباتات ؛ فوجدوها ذبذبة مضطربة ؛ وكأن تلك النباتات قد حزنتْ على مَنْ كان يعتني بها ؛ وهكذا توصَّل العلماء إلى معرفة أن النباتات لها عواطف .

وقد بين لنا الحق سبحانه أن الجمادات لها أيضاً عواطف ؛ بدليل قوله عن قوم فرعون : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض . . . ﴾ [الدخان : 29]

فالسماء والأرض قد استراحتا لذهاب هؤلاء الأشرار عن الأرض ، فالسماوات والأرض ملتزمتان مع الكون التزاماً لا تخرج به عن مُرادات الله ، وحين يأتي كافر ليصنع بكفره نشازاً مع الكون ؛ فهي تفرح عند اختفائه ولا تحزن عليه .

ومادامت السماء والأرض لا تبكيان على الكافر عند رحيله ؛ فلابد أنها تفرحان عند هذا الرحيل ؛ ولابد أنهما تبكيان عند رحيل المؤمن .

ولذلك نجد قَوْل الإمام علي كرم الله وجهه : إذا مات ابن آدم بكى عليه موضعان ؛ موضع في السماء ، وموضع في الأرض ؛ وأما موضعه في الأرض فموضِع مُصَلاَّه ؛ وأما موضعه في السماء فمصْعَدُ عمله " .

وهكذا نجد أن معنى قول الحق سبحانه : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ . . . ﴾ [الرعد : 13]

أي : يُنزِّه الرعد ويُمجِّد اسم الحق تبارك وتعالى تسبيحاً مصحوباً بالحمد .

ونحن حين نُنزِّه ذات الله عن أن تكون مثل بقية الذوات ، وحين ننزه فِعْل الله عن أن يكون كأفعال غيره سبحانه ، وحين ننزه صفات الله عن أن تكون كالصفات ، فلابد أن يكون ذلك مصحوباً بالحمد له سبحانه ؛ لأنه مُنزَّه عن كل تلك الأغيار ، وعلينا أنْ نُسَرَّ من أنه مُنزَّه .

ويقول تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ . . . ﴾ [الرعد : 13]

ولقائل أنْ يتساءل : كيف تخاف الملائكة من الله ؟ وهم الذين قال فيهم الحق سبحانه : ﴿ . . . لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6]

وأقول : إن الملائكة يخافون الله خِيفة المَهابة ، وخيفة الجلال .

ونحن نرى في حياتنا مَنْ يحب رئيسه أو قائده ؛ فيكون خوفه مَهابة ؛ فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى الذي تُحبه ملائكته وتَهاب جلاله وكماله ، صحيح أن الملائكة مقهورون ، لكنهم يخافون ربَّهم من فوقهم .

وساعة تسمع الملائكةُ الرعدَ فهم لا يخافون على أنفسهم ؛ ولكنهم يخافون على الناس ؛ لأنهم حفظة عليهم ؛ فالملائكة تعي مهمتها كحفظة على البشر ؛ وتخشى أن يربكهم أيُّ أمر ؛ وهم يستغفرون لِمَنْ في الأرض .

إذن : فقوله : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ . . . ﴾ [الرعد : 13]

يُبيّن لنا أن الملائكة تخاف على البشر من الرعد ؛ فَهُمْ مُكلَّفون بحمايتهم ، مع خوفهم من الله مهابة وإجلالاً .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : الله أعط منفقاً خلفاً . ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً " .

(112/409)

وقد يظُنُّ ظَانٌّ أن هذه دعوة ضد المُمْسِك ؛ ولكني أقول : لماذا لا تأخذها على أنها دعوة خَيْر ؟ فالمُنفِق قد أخذ ثواباً على ما أدّى من حسنات ؛ أما المُمْسِك فحين يبتليه الله بتلفِ بعضٍ من ماله ؛ ويصبر على ذلك ؛ فهو يأخذ جزاء الصبر .

ويتابع سبحانه في نفس الآية : ﴿ . . . وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي الله وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ [الرعد : 13]

ولأبدَّ من وجود حَدَثٍ أليم في الكون لينتبه هؤلاء الناس من غفلتهم ؛ وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقد جاءه اثنان من المعاندين الكبار أربد بن ربيعة ؛ أخو لبيد بن

ربيعة ، وعامر بن الطُّفَيْل ؛ لِيُجادلاه بهدف التلكُّو والبحث عن هَفْوة فيما يقوله أو عَجْزٍ في معرفته ، والمثل ما قاله مجادلون مثلهم ، وأورده القرآن الكريم : ﴿ . . . أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : 82]

وكذلك استعجال بعض من المجادلين للعذاب .

وجاء هذان الاثنان وقالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل ربنا مصنوع من الحديد أم من النحاس ؟ وهما قد قالا ذلك لأنهما من عَبَدة الأصنام المصنوعة من الحجارة ، والأقوى من الحجارة هو الحديد أو النحاس ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت صاعقة ؛ فأحرقتهما .

وإرسال الصواعق هنا آية قرآنية ، ولابد وأن تأتي آية كونية تصدقها ؛ وقد حدثت تلك الآية الكونية .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ . . . ﴾ [الرعد : 13]

والجدال في الله أنواع متعددة ؛ جدال في ذاته ؛ وجدال في صفاته ، أو جدال في الحسنة والسيئة ، وقد جادلوا أيضاً في إنزال آية مادية عليه ؛ لأنهم لم يكتفوا بالقرآن كآية ؛ على الرغم من أن القرآن آية معجزة ومن جنس ما برعوا فيه ، وهو اللغة .

وقد جادلوا أيضاً في الرعد ؛ وقالوا : إن الرعد ليس له عَقْل ليُسبح ؛ والملائكة لا تكليفَ لها ؛ فكيف تُسبّح ؟

ولكن الحق سبحانه قال : إنه قادر على أن يُرسِل الصواعق ويصيب بها مَنْ يشاء ؛ فيأتي بالخير لِمَنْ يشاء ؛ ويصيب بالضر مَنْ يشاء .

فهل هُمْ يملكون كل الوقت لهذا الجدل ؛ بعد أن خلق كل هذا الكون ؟

هل لديكم الوقت لكل تلك المُمَاراة بقصد الجَدَل والعناد المذموم ؟

فالجدل في حَدّ ذاته قد يَحْسُن استخدامه وقد يُسَاء استخدامه ؛ والحق سبحانه قال لنا : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . ﴾ [العنكبوت : 46]

وقال أيضاً : ﴿ قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وتشتكي إِلَى الله . . . ﴾ [المجادلة : 1]

وهذا جَدَلٌ المراد منه الوصول إلى الحق .

ويُذيِّل الله آية سورة الرعد بقوله : ﴿ . . . وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ [الرعد : 13]

ويقال : " محل فلان بفلان " أي : كَادَ له كيداً خفياً ومكر به ، والمحَال هو الكَيْد والتدبير الخفيّ ، ومَنْ يلجأون إليه من البشر هُم الضِّعاف الذين يعجزون عن مواجهة الخَصْم علانية ، فيبُيِّتون له بإخفاء وسائل الإيلام .

وهذا يحدث بين البشر وبعضهم البعض ؛ لأن البشر لا يعلمون الغيب ؛ لكن حين يكيد الله ؛ فلا أحدَ بقادر على كَيْده ، وهو القائل سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ [الطارق : 15-17]

لأن كيد الله لا غالب له ؛ وهو كَيْد غير مفضوح لأحد ، ولذلك قال تعالى : ﴿ . . . وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [الأنفال : 30]

(114/409)

هُمْ أرادوا أن يُبيِّتوا لرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وأرادوا قَتْله ؛ وجاءوا بشاب من كل قبيلة ليمسك سيفاً كي يتوزع دَمُه بين القبائل ، وترصدوا له المرصاد ؛ ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تصاحبه العناية فخرج عليهم ملهماً قوله تعالى : ﴿ فَأغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : 9]

وبذلك أوضح لهم أنهم لن يستطيعوا دَفْع دعوة الإسلام ؛ لا مُجَابهة ومُجَاهرة ؛ ولا كَيْداً وتبييتاً ؛ حتى ولو استعنتُم بالجنِّ ؛ فالإنسان قد يمكر ويواجه ، وحين يفشل قد يحاول الاستعانة بقوة من جنس آخر له سلطان كسلطان الجن ، وحتى ذلك لم يفلح معه صلى الله عليه وسلم ؛ فقد حاولوا بالسحر ؛ فكشف الله له بالرؤيا موقع وَضْع السحر .

وذهب بعض من صحابته ليستخرجوا السِّحر من الموقع الذي حدده رسول الله لهم .

وهكذا أوضح لهم الحق سبحانه أن كل ما يفعلونه لن يَحِيق برسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فسبحانه : ﴿ غَالِبٌ على أَمْرِهِ . . . ﴾ [يوسف : 21]

وهكذا كان الحق سبحانه وما زال وسيظل إلى أنْ يرِث الأرضَ ومَنْ عليها ، وهو شديد المحال .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق . . . ﴾

وسبحانه قد دعانا إلى أنْ تؤمن بإله واحد وهي دعوة حق ، والذين من دونه يدعون لإله غير حق . والضمير هنا قد يعود إلى الله فكأن الله قد دعا خَلْقه إلى كلمة الحق وهي " لا إله إلا الله " ، وهو سبحانه قد شهد بأنه لا إله إلا هو ؛ وشهدتْ الملائكة شهادةَ المشْهد ، وشَهِد بها أولو العلم شهادة الاستدلال ؛ تلك هي دعوة الحق .

أو " له " أي : للإنسان الذي يدعو إلى الحق ، وحين يدعو الإنسان فهذا يدلُّ على أن أمراً قد خرج عن نطاق أسبابه ؛ لذلك يدعو مَنْ يعينه على هذا الأمر .

والدعاء لَوْنٌ من الطلب ، إلا أن الطلب يختلف باختلاف الطالب والمطلوب منه ؛ فإنْ كان الطالبُ أدنى من المطلوب منه لا يُقال له فعل أمر ؛ كقولك " اغفر لي يا رب " وهذا لا يقال له فعل أمر ؛ بل يقال له دعاء .

وهكذا نرى أنه إن كان فعل الأمر من الأدنى للأعلى ؛ لا نسميه فِعْل أمر بل نسميه دعاءً ، والطالب الذكيّ هو مَنْ يلحظ أثناء الإعراب إنْ كان المطلوب هو من الأدْنى إلى الأعلى ؛ فهو لا يقول " فِعْل أمر " بل يقول " فعل دعاء " مثل قول العبد لله : يا رب اغفر لي ، وإن كان المطلوب من مُسَاوٍ ؛ فهو يقول " التماس " . وإنْ كان المطلوب قد صدر من الأعلى للأدنى فهو " فعل أمر " .

وحين يدعو الإنسان ربه ؛ فهذا يعني أن أسبابَ العبد قد نفِدتْ ؛ وهو يلجأ إلى مَنْ يعلو الكون ويملك كل الأسباب ، ولذلك فكُلٌّ مِنّا يدعو الله ؛ لأنه سبحانه القادر على إنفاذ مطلوب العباد ؛ ولا يُعْجِزه شيء .

ولكنْ إنْ دعوتَ مَنْ لا يستطيع ؛ فهو دعوةٌ لا تنفع العبد ، وهم كانوا يدعُونَ الأصنام ؛ والأصنام لا تضرُّ ولا تنفع ؛ فالصنم مِنْ هؤلاء لا يقدر على نفسه أو لنفسه ؛ فقد كان من الحجر .

وبطبيعة الحال فالدعاء لمثل تلك الأصنام لا تحقق شيئاً ؛ لأنها لا تقدر على أي شيء .

وهكذا يتأكد لنا أن دعوة الحقِّ هي أن تدعوَ القادر ؛ أما الذين يدعون المعبودات الباطلة

فإنها تخيب من يدعوها في مقصده ، ولذلك يقول الحق سبحانه هنا : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ . . . ﴾ [الرعد : 14]

لأنهم لا يملكون شيئاً فالصنم من هؤلاء لا يسمع فكيف يستجيب ؟

ثم يضرب الحق سبحانه المَثَل بشيء مُحَسّ ؛ نفعله كلنا ؛ فيقول : ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المآء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ . . . ﴾ [الرعد : 14]

(116/409)

فالعطشان ما أنْ يرى ماءً حتى يَمُدّ يده إليه ليغترف منه ؛ لكن يده لا تصل إلى الماء ؛ هذا هو الحال مَنْ يدعو غير الله ؛ فقد سأل غير القادر على إنفاذ مطلبه ، وهكذا يكون دعاء غير الله ؛ وهو دعاء في ضلال وفي غير متاهة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(117/409)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ قال : خوفاً للمسافر ، يخاف أذاه ومشقته ﴿ وطمعاً ﴾ للمقيم ، يطمع في رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن - رضي الله عنه - في قوله ﴿ يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ قال ﴿ خوفاً ﴾ لأهل البحر ﴿ وطمعاً ﴾ لأهل البر .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ قال : الخوف : ما يخاف من الصواعق ، والطمع : الغيث .

وأخرج ابن جرير ، عن أبي جهضم موسى بن سالم مولى ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : كتب ابن عباس إلى أبي الجلد يسأله عن البرق فقال : البرق : الماء .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج - رضي الله عنه - في قوله ﴿ يريكم البرق ﴾ قال : شعيب الجياني في كتاب الله : الملائكة ، حملة العرش أسماؤهم في كتاب الله الحيات ، لكل ملك وجه إنسان واسد ونسر ، فإذا حركوا أجنحتهم فهو البرق . قال أمية بن أبي الصلت :

رجل وثور تحت رجل يمينه . . . والنسر للأخرى وليث مرصد

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ يريكم البرق ﴾ قال : ملائكة تمصع بأجنحتها ، فذلك البرق . زعموا أنها تدعى الحيات .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن محمد بن مسلم - رضي الله عنه - قال : بلغنا أن البرق له أربعة وجوه : وجه إنسان ، ووجه ثور ، ووجه نسر ، ووجه أسد ، فإذا مصع بذنبه فذلك البرق .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - قال : البرق مصع ملك ، يسوق السحاب .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المطر ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : البرق ملك يتراءا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والخرائطي في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في سننه من طرق ، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : البرق مخاريق من نار بأيدي ملائكة السحاب ، يزجرون به السحاب .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد - رضي الله عنه - قال : البرق مخاريق يسوق به الرعد السحاب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : البرق اصطفاق البرد .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في كتاب العظمة ، عن كعب - رضي الله عنه - قال : البرق تصفيق الملك البرد ، ولو ظهر لأهل الأرض لصعقوا .

وأخرج الشافعي عن عروة بن الزبير - رضي الله عنه - قال : إذا رأى أحدكم البرق أو الودق ، فلا يشر إليه وليصف ولينعت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وينشئ السحاب الثقال ﴾ قال : الذي فيه الماء .

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب المطر ، وأبو الشيخ في العظمة ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ينشئ السحاب فينطق أحسن النطق ، ويضحك أحسن الضحك " قال إبراهيم بن سعد : النطق ، الرعد . والضحك ، البرق .

وأخرج العقيلي وضعفه وابن مردويه ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ينشئ الله السحاب ، ثم ينزل فيه الماء . فلا شيء أحسن من ضحكه ؛ ولا شيء أحسن من منطقه ، ومنطقه الرعد ، وضحكه البرق " .

وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن بجاد الأشعري – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اسم السحاب عند الله ، العنان ، والرعد ، ملك يزجر السحاب . والبرق ، طرف ملك يقال له روقيل " .

(119/409)

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – أن خزيمة بن ثابت – وليس بالأنصاري – رضي الله عنه ، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن منشأ السحاب فقال : " إن ملكاً موكل بالسحاب يلم القاصية ويلحم الدانية ، في يده مخراق ، فإذا رفع برقت ، وإذا زجر رعدت ، وإذا ضرب صعقت " .

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13) ﴾

(120/409)

أخرج أحمد والترمذي وصححه ، والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل ، و الضياء في المختارة ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقالوا : "يا أبا القاسم ، إنا نسألك عن خمسة أشياء ، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك . فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه ، إذ قال ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ [القصص : 28] قال : هاتوا . قالوا : أخبرنا عن علامة النبي . قال : تنام عيناه ولا ينام قلبه . قالوا : أخبرنا ، كيف تؤنث المرأة ، وكيف تذكر ؟ قال : يلتقي الماءان ، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة ، اذكرت . وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل ، أنثت . قالوا : أخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ، فقال : كان يشتكي عرق النسا ، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا وكذا – يعني الإبل – فحرم لحومها . قالوا : صدقت ، قالوا : أخبرنا ، ما هذا الرعد ؟ قال : ملك من ملائكة الله موكل السحاب ، بيديه مخراق من نار ، يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله ، قالوا : فماذا الصوت الذي نسمع ؟ قال : صوته . قالوا : صدقت إنما بقيت واحدة ، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا أنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : جبريل . قالوا : جبريل ! . . . ذلك ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدوّنا ، لو قلت ميكائيل ، الذي ينزل بالرحمة والنبات والمطر لكان . فأنزل الله ﴿ قل من كان عدوّاً لجبريل . . . ﴾ [البقرة : 97] إلى آخر الآية .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المطر ، وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه ، والخرائطي في مكارم الأخلاق ، عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : الرعد ، ملك . والبرق ، ضربه السحاب بمخراق من حديد .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ والخرائطي ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : الرعد ، ملك يسوق السحاب بالتسبيح ، كما يسوق الحادي الإبل بحدائه .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد ، وابن أبي الدنيا في المطر ، وابن جرير ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان الذي سبحت له ، وقال : إن الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : الرعد ملك من الملائكة ، اسمه الرعد ، وهو الذي تسمعون صوته ، والبرق سوط من نور يزجر به الملك السحاب .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : الرعد ملك اسمه الرعد ، وصوته هذا تسبيحه ، فإذا اشتد زجره ، احتك السحاب واصطدم من

خوفه فتخرج الصواعق من بينه .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : الرعد ملك يزجر السحاب بالتسبيح والتكبير .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : ما خلق الله شيئاً أشد سَوْقاً من السحاب ، ملك يسوقه . والرعد ، صوت الملك يزجر به ، والمخاريق يسوقه بها .

وأخرج أبو الشيخ عن عبد الله بن عمرو ، أنه سئل عن الرعد فقال : ملك وكله الله بسياق السحاب ، فإذا أراد الله أن يسوقه إلى بلد ، أمره فساقه ، فإذا تفرق عليه زجره بصوته حتى يجتمع ، كما يرد أحدكم ركانه ، ثم تلا هذه الآية ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - قال : الرعد ، ملك ينشئ السحاب ، ودويّه صوته .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ ، عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ قال : هو ملك يسمى الرعد ، وذلك الصوت تسبيحه .

وأخرج ابن جرير والخرائطي وأبو الشيخ ، عن أبي صالح - رضي الله عنه - ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ قال : ملك من الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في سننه ، عن عكرمة – رضي الله عنه – قال : إن الرعد ملك من الملائكة ، وكل بالسحاب يسوقها كما يسوق الراعي الإِبل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابو الشيخ في العظمة ، عن شهر بن حوشب – رضي الله عنه – قال : إن الرعد ملك يزجر السحاب كما يحث الراعي الإِبل ، فإذا شذت سحابة ضمها ، فإذا اشتد غضبه طار من فيه النار ، فهي الصواعق .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ، أن رجلاً سأله عن الرعد فقال : ملك يسبح بحمده .

وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : الرعد الملك ، والبرق الماء .

وأخرج الخرائطي عن عكرمة – رضي الله عنه – قال : الرعد ، ملك يزجر السحاب بصوته .

وأخرج الخرائطي عن مجاهد – رضي الله عنه – مثله .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن الثقة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " هذا سحاب ينشئ الله عز وجل فينزل الله منه الماء ، فما من منطق أحسن من منطقه ، ولا من ضحك أحسن من ضحكه " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " منطقه الرعد وضحكه البرق رضي الله عنR>> " . وأخرج أحمد والحاكم عن أبي

هريرة – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن ربكم يقول : لو أن عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل ، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولم أسمعهم صوت الرعد " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب ، والترمذي والنسائي وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وابن مردويه والخرائطي في مكارم الأخلاق ، عن ابن عمر – رضي الله عنه – قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال :

" اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – يرفع الحديث ، أنه كان إذا سمع الرعد قال : سبحان من يسبح الرعد بحمده .

وأخرج ابن مردويه وابن جرير عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا هبت الريح أو سمع صوت الرعد تغير لونه ، حتى عرف ذلك في وجهه ، ثم يقول للرعد : " سبحان من سبحت له " ويقول للريح : " اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها

عذاباً " .

وأخرج الشافعي عن المطلب بن حنطب - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا برقت السماء أو رعدت ، عرف ذلك في وجهه ، فإذا أمطرت سري عنه .

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله ، فإنه لا يصيب ذاكراً " .

وأخرج أبو داود في مراسيله ، عن عبيد الله بن أبي جعفر - رضي الله عنه - أن قوماً سمعوا الرعد فكبروا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سمعتم الرعد فسبحوا ولا تكبروا " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان إذا سمع الرعد قال : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

وأخرج ابن جرير عن علي - رضي الله عنه - أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان من سبحت له .

وأخرج مالك وابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد ، والبخاري في الأدب ، وابن المنذر والخرائطي ، وأبو الشيخ في العظمة ، عن عبد الله بن الزبير : أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال : سبحان الذي يسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ، ثم يقول : إن

هذا الوعيد لأهل الأرض شديد .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن علي بن الحسين – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما الرعد وعيد من الله ، فإذا سمعتموه فأمسكوا عن الحديث " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما قال : من سمع صوت الرعد فقال : سبحان من يسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ، وهو على كل شيء قدير ، فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته .

(124/409)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ ، عن عبد الله بن أبي زكريا – رضي الله عنه – قال : بلغني أن من سمع صوت الرعد فقال : سبحان الله وبحمده ، لم تصبه صاعقة .

وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق ، عن أحمد بن داود – رضي الله عنه – قال : بينما سليمان بن داود عليه السلام يمشي مع أبويه وهو غلام ، إذ سمع صوت الرعد ، فخر فلصق بفخذ أبيه ، فقال : يا بني ، هذا صوت مقدمات رحمته ، فكيف لو سمعت صوت مقدمات غضبه ؟

وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، عن كعب – رضي الله عنه – قال : من قال حين يسمع

الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً ، عوفي مما يكون في ذلك الرعد .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : "كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع الرعد فقال : " أتدرون ما يقول ؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه يقول : موعدك لمدينة كذا " .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينما رجل في فلاة من الأرض ، فسمع صوتاً في سحابة : اسق حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب ، فأفرغ ماءه في حرة فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله ، فتتبع الماء ، فإذا هو رجل قائم في حديقة يحوّل الماء بمسحاته ، فقال له : يا عبد الله ، ما اسمك ؟ فقال : فلان – للإسم الذي سمع في السحابة – فقال له : لم سألتني عن اسمي ؟ ! قال : سمعت في السحاب الذي هذا ماؤه ، اسق حديقة فلان لإسمك بما تصنع فيها . قال : أما إذ قلت هذا ، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه ، وآكل أنا وعيالي ثلثاً ، وأرد فيه ثلثه " .

وأخرج النسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني في الأوسط ، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بعث رجلاً من أصحابه إلى رأس من رؤساء المشركين يدعوه إلى الله ، فقال المشرك : هذا الإِله الذي تدعوني إليه ، أمن ذهب هو أم من فضة ، أم من نحاس ؟ فتعاظم مقالته ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : ارجع إليه ، فرجع إليه ، فأعاد عليه القول الأول ، فرجع فأعاده الثالثة ، فبينما هما يتراجعان الكلام بينهما ، إذ بعث الله سحابة حيال رأسه فرعدت وأرقت ، ووقع منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه ، فأنزل الله تعالى ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير والخرائطي في مكارم الأخلاق ، عن عبد الرحمن بن صحار العبدي ، أنه بلغه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى جبار يدعوه فقال : أرأيتم ربكم ، أذهب هو ، أم فضة هو ، أم لؤلؤ هو ، قال : فبينما هو يجادلهم إذ بعث الله سحابة فرعدت ، فأرسل الله عليه صاعقة فذهبت بقحف رأسه .

فأنزل الله هذه الآية ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾ .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد – رضي الله

عنه – قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرني عن ربك ، من ذهب هو ، أم من لؤلؤ ، أم ياقوت ؟ فجاءه صاعقة فأخذته ، فأنزل الله ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن علي – رضي الله عنه – قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد حدثني عن إلهك هذا الذي تدعو إليه أياقوت هو ؟ أذهب هو ؟ أم ما هو ؟ . . . فنزلت على السائل صاعقة فأحرقته . فأنزل الله تعالى ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء . . . ﴾ .

(126/409)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي كعب المكي – رضي الله عنه – قال : قال خبيث من خبثاء قريش : أخبرونا عن ربكم ، من ذهب هو ، أم من فضة ، أم من نحاس ؟ فقعقعت السماء قعقعة ، فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه ، فأنزل الله تعالى ﴿ ويرسل الصواعق . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير والخرائطي ، عن قتادة – رضي الله عنه – ذكر لنا أن رجلاً أنكر القرآن ، وكذب النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الله عليه صاعقة فأهلكته ، فأنزل الله تعالى

فيه ﴿ وهم يجادلون في الله . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن جريج - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ويرسل الصواعق ﴾ قال : نزلت في عامر بن الطفيل وفي أربد بن قيس ، أقبل عامر فقال : إن لي حاجة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " اقترب ، فاقترب حتى جثا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وسل أربد بعض سيفه ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم بريقه ، تعوّذ بآية من القرآن كان يتعوّذ بها ، فأيبس الله يد أربد على السيف ، وأرسل عليه صاعقة فاحترق " فذلك قول أخيه :

أخشى على أربد الحتوف ولا . . . أرهب نوء السماك والأسد

فجعني البرق بالفا . . . رس يوم الكريهة النجد

وأخرج ابن أبي حاتم والخرائطي وأبو الشيخ في العظمة ، عن أبي عمران الجوني قال : إن بحوراً من النار دون العرش يكون فيها الصواعق .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال : الصواعق نار .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سفيان - رضي الله عنه - قال : الصواعق من نار السموم ، وهذا صوت الحجب التي بجرها ما بيننا وبينه من الحجاب ، يسوق السحاب .

وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن دينار - رضي الله عنه - قال : لم أسمع أحداً ذهب البرق ببصره ، لقول الله تعالى

﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ [سورة البقرة : 120] والصواعق تحرق لقول الله تعالى ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن أبي نجيح – رضي الله عنه – قال : رأيت صاعقة أصابت نخلتين بعرفة ، فأحرقتهما .

(127/409)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي جعفر – رضي الله عنه – قال : الصاعقة تصيب المؤمن والكافر ، ولا تصيب ذاكر الله .

وأخرج أبو الشيخ عن نصر بن عاصم الثقفي – رضي الله عنه – قال : من قال : سبحان الله شديد المحال ، لم تصبه عقوبة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ وهو شديد المحال ﴾ قال : شديد القوة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿ وهو شديد المحال ﴾ قال : شديد المكر ، شديد القوّة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿ وهو شديد المحال ﴾ قال :

شديد الحول .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنه - ﴿ وهو شديد المحال ﴾ قال : شديد الأخذ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد - رضي الله عنه - ﴿ وهو شديد المحال ﴾ قال : شديد الانتقام .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة - رضي الله عنه - ﴿ وهو شديد المحال ﴾ قال : شديد الحقد .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - ﴿ وهو شديد المحال ﴾ قال : شديد القوّة والحيلة .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي ، رضي الله عنه - ﴿ وهو شديد المحال ﴾ قال : شديد الحول والقوّة .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14) ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في قوله ﴿ له دعوة الحق ﴾ قال : التوحيد ، لا إله إلا الله .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في الأسماء

والصفات من طرق عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ له دعوة الحق ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله .

(128/409)

وأخرج ابن جرير عن علي - رضي الله عنه - في قوله ﴿ الا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ قال : كالرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه ، وما هو ببالغه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ كباسط كفيه إلى الماء ﴾ قال : يدعو الماء بلسانه ، ويشير إليه بيده ، فلا يأتيه أبداً ، كذلك لا يستجيب من هو دونه .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة - رضي الله عنه - ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ وليس ببالغه حتى يتمزع عنقه ويهلك عطشاً . قال الله تعالى ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ فهذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى ، إن هذا الذي يدعون من دون الله ، هذا الوثن وهذا الحجر لا يستجيب له بشيء في الدنيا ، ولا يسوق إليه خيراً ، ولا يدفع عنه سوءاً حتى

يأتيه الموت ، كمثل هذا الذي بسط ذراعيه إلى الماء ليبلغ فاه ، ولا يبلغ فاه ولا يصل ذلك إليه حتى يموت عطشاً .

وأخرج أبو عبيد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن عطاء – رضي الله عنه – في قوله ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ الآية قال : الرجل يقعد على شفة البئر فيبسط كفيه إلى قعر البئر ليتناول بهما ، فيده لا تبلغ الماء ، والماء لا ينزو إلى يده ، فكذلك لا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن بكير بن معروف – رضي الله عنه – قال : لما قتل قابيل أخاه ، جعله الله بناصيته في البحر ، ليس بينه وبين الماء إلا أصبع ، وهو يجد برد الماء من تحت قدميه ولا يناله . وذلك قول الله ﴿ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ فإذا كان الصيف ، ضرب عليه سبع حيطان من سموم ؛ وإذا كان الشتاء ، ضرب عليه سبع حيطان من ثلج .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ﴾ قال : هذا مثل المشرك الذي عبد

مع الله غيره ، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد ، هو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(130/409)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) ﴾

قوله تعالى : ﴿ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ : يجوز أن يكونا مصدرين ناصبهما محذوفٌ ، أي : يخافون خَوْفاً ويطمعون طَمَعاً . ويجوز أن يكونا مصدرين في موضع نصبٍ على الحال ، وفي صاحبِ الحال حينئذٍ وجهان ، أحدهما : أنه مفعول " يُرِيْكم " الأول ، أي : خائفين طامعين ، أي : تخافون صواعقَه ، وتطمعون في مطره ، كما قال المتنبي :

2846- فتىً كالسَّحابِ الجُونِ يُخْشَى ويُرْتجى . . . يُرَجَّى الحَيا منها وتُخْشَى الصَّواعِقُ

والثاني : أنه البرقُ ، أي : يريكموه حال كَوْنِه ذا خوفٍ وطمع ، أو هو في نفسه خوفٌ وطمعٌ على المبالغة ، والمعنى كما تقدَّم . ويجوز أن يكونَ مفعولاً من أجله ، ذكره أبو البقاء ،

ومنعه الزمخشري بعدمِ اتحاد الفاعلِ ، يعني أنَّ فاعلَ الإرادةِ وهو الله تعالى غيرُ فاعلِ الخوف والطمع وهو ضميرُ المخاطبين ، فاختلف فاعلُ الفعل المُعَلَّل وفاعلُ العلَّة . وهذا يمكن أن يجابَ عنه : بأنَّ المفعولَ في قوة الفاعل ، فإنَّ معنى "يُريكم" يجعلكم رائين ، فتخافون وتطمعون ، ومثلُه في المعنى قول/النابغة الذبياني :

2847- وحَلَّتْ بيوتي في يَفاعٍ مُمَنَّعٍ . . . تَخال به راعي الحَمولةِ طائرا

حِذاراً على أن لا تُنال مَقَادَتي . . . ولا نِسْوتي حتى يَمُتْنَ حَرائرا

ف "حِذاراً" مفعولٌ من أجله ، وفاعله هو المتكلم ، والفعل المُعَلَّل الذي هو "حَلَّتْ" فاعلُه "بيوتي" ، فقد اختلف الفاعل . قالوا : لكن لَمَّا كان التقدير : وأَحْلَلْتُ بيوتي حِذاراً صَحَّ ذلك .

(131/409)

وقد جوَّز الزمخشري : ذلك أيضاً على حَذْفِ مضاف فقال : "إلاَّ على تقدير حَذْفِ المضاف ، أي : إرادةَ خوفٍ وطَمَع" . وجوَّزه أيضاً على أنَّ بعضَ المصادر ناب عن بعض ، يعني : ان الأصلَ : يُريكم البرقَ إخافةً وإطماعاً ؛ فإنَّ المُرْئِيَ والمُخيفَ والمُطْمِعَ هو اللهُ تعالى ، وناب "خوف" عن إخافة ، و"طمع" عن إطماع نحو : ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً

﴾ [نوح: 17] ، على أنه قد ذهب جماعةٌ منهم ابنُ خروفٍ إلى أنَّ اتحادَ الفاعلِ ليس بشرطٍ.

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ ﴾ : يجوز أن تكون الجملةُ مستأنفةً أخبر عنهم بذلك، ويجوز أن تكونَ حالاً . وظاهر كلام الزمخشري أنها حالٌ مِنْ مفعول "يُصِيب" ، فإنه قال: "وقيل: الواوُ للحال، [أي: فيصيب بها مِنْ يشاء في حالِ جدالِهم "] ، وجعلها غيرُه حالاً من مفعول "يشاء" .

قوله: ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ [هذه الجملة حالٌ من الجلالة] الكريمة، ويَضْعُفُ استئنافُها . وقرأ العامَّةُ بكسر الميم، وهو القوة والإِهلاك، قال عبد المطلب:

2848- لا يَغْلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ . . . ومِحالُهم عَدْواً مِحالَكْ

وقال الأعشى:

2849- فَرْعُ نَبْعٍ يهتزُّ في غُصُنِ المَجْ . . . دِ عظيمُ النَّدى شديد المِحالِ

والمِحال أيضاً: أشدُّ المكايدة والمماكرة، يقال: ماحَلَه مُماحَلةً، ومنه: تَمَحَّلَ فلانٌ لكذا، أي: تكلَّف له استعمالَ الحيلة . وقال أبو زيد: "هو النِّقْمة" . وقال ابنُ عرفةَ، "هو

الجِدال " [وفيه على هذا] مقابلةٌ معنوية كأنه قيل : وهم يجادلون في الله وهو شديدُ الجِدال .

(132/409)

[واختلفوا في ميمه] : فالجمهور على أنها أصليةٌ من المَحْلِ وهو المَكْرُ والكيد ، ووزنُه فِعال كمِهاد . وقال القتبي : إنه مِنَ الحيلة ، وميمُه مزيدةٌ ، كمكان من الكون ، ثم يقال : تمكَّنْتُ . وقد غلَّطه الأزهري وقال : لو كان مِفْعَلاً مِنَ الحيلة لظهرت مثل : مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر " .

وقرأ الأعرج والضحاك بفتحِها ، والظاهر أنه لغةٌ في المكسورِها ، وهو مذهبُ ابن عباس ، فإنه فسَّره بالحَوْل وفسَّره غيرُه بالحيلة . وقال الزمخشري : " وقرأ الأعرج بفتح الميمِ على أنه مَفْعَل مِنْ حال يحول مُحالاً ، إذا احتال ، ومنه " أَحْوَلُ مِنْ ذئب " ، أي : أشدُّ حِيْلة ، ويجوز أن يكونَ المعنى : شديد الفَقار ، ويكون مَثَلاً في القوَّة والقدرة ، كما جاء " فساعِدُ اللهِ أشدُّ ، ومُوْساه أَحَدُّ " ، لأنَّ الحيوانَ إذا اشتدَّ مَحالُه كان منعوتاً بشدةِ القوةِ والاضطلاع بما يَعْجُزُ غيرُه ، ألا ترى إلى قولهم : " فَقَرَتْه الفاقِرة " وذلك أنَّ الفَقارَ عمودُ الظهرِ وقِوامُه " .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14) ﴾

(133/409)

وقوله : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾ : من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، والأصل : له الدعوةُ الحقّ كقوله : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ [يوسف : 109] على أحدِ الوجهين . وقال الزمخشري : " فيه وجهان ، أحدُهما : أن تُضافَ الدعوةُ إلى الحق الذي هو نقيض الباطل ، كما تُضاف الكلمةُ إليه في قوله " كلمة الحق " . والثاني : أن تُضافَ إلى الحق الذي هو اللهُ على معنى دعوةِ المَدْعُوِّ الحق الذي يسمع فيجيب " . قال الشيخ : " وهذا الوجهُ الثاني لا يظهر ؛ لأنَّ مآلَه إلى تقدير : لله دعوةُ الله كما تقول : لزيدٍ دعوةُ زيد ، وهذا التركيبُ لا يَصِحُّ " . قلت : وأين هذا ممَّا قاله الزمخشريُّ حتى يُرَدَّ عليه به ؟

قوله : ﴿ والذين يَدْعُونَ ﴾ يجوز أن يُراد بالذين المشركون ، فالواوُ في " يَدْعُون " عائده ، ومفعولُه محذوفٌ وهو الأصنام ، والواوُ في ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ ﴾ عائدٌ على مفعول " يَدْعون " المحذوفِ ، وعاد عليه الضمير كالعقلاء لمعاملِتهم إياه معاملتَهم . والتقدير : والمشركون الذين يَدْعُون الأصنام لا تستجيب لهم الأصنامُ إلا استجابةً كاستجابةِ باسطِ كَفَّيْه ، أي :

كاستجابة الماءِ مَنْ بَسَط كَفَّيْه إليه ، يطلب منه أن يَبْلُغَ فاه ، والماءُ جمادٌ لا يَشْعُر بِبَسْط كَفَّيْه ولا بعطشِه ، ولا يَقْدِرُ أن يُجيبَه ويَبْلُغَ فاه ، قال معناه الزمخشري . ولمَّا ذكر أبو البقاء قريباً من ذلك وقدَّر التقديرَ المذكور قال : " والمصدرُ في هذا التقدير مضافٌ إلى المفعول كقوله : { لاَّ يَسْأَمُ الإنسان مِن دُعَآءِ الخير } [فصلت : 49] ، وفاعلُ هذا المصدرِ مضمرٌ هو ضميرُ الماءِ ، أي : لا يُجيبونهم إلا كما يُجيب الماءُ باسطَ كفِّه إليه ، والإِجابةُ هنا كنايةٌ عن الانقياد " . /

(134/409)

ويجوز أن يُرادَ بالذين الأصنامُ ، أي : والآلهة الذين يَدْعونهم مِنْ دونِ الله لا يستجيبون لهم بشيءٍ إلا استجابةً ، والتقديرُ كما تقدَّم في الوجهِ قبلَه . وإنما جَمَعَهم جَمْعَ العقلاء : إمَّا للاختلاطِ ؛ لأنَّ الآلهةَ عقلاءُ وجمادٌ ، وإمَّا لمعاملتِهم إياها معاملةَ العقلاءِ في زعمهم ، فالواوُ في " يَدْعُون " للمشركين ، والعائدُ المحذوفُ للأصنام ، وكذا واوُ " يستجيبون " .
وقرأ اليزيديُّ عن أبي عمروٍ " تَدْعُونَ " بالخطاب وهو مُقَوِّيَةٌ للوجهِ الثاني : ولم يذكرِ الزمخشريُّ غيرَه .
قوله : " ليَبْلُغَ " اللامُ متعلقةٌ ب " باسِط " وفاعلُ " ليبلغ " ضميرُ الماءِ .

قوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ في " هو " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه ضميرُ الماء . والهاء في " ببالغِه " للفم ، أي : وما الماء ببالغٍ فيه . الثاني : أنه ضميرُ الفم ، والهاء فيي " ببالِغه " للماء ، أي : وما الفمُ ببالغِ الماءِ ؛ إذ كلُّ واحدٍ منهما لا يبلغُ الآخرَ على هذه الحالِ ، فنسبةُ الفعلِ إلى كلِ واحدٍ وعدمُها صحيحتان . الثالث : أن يكون ضميرَ الباسط ، والهاء في " ببالغه " للماء ، أي : وما باسطٌ كَفَّيْهِ إلى الماء ببالغٍ الماءَ .

ولا يجوز أن يكون " هو " ضميرَ الباسط ، وفاعلُ " ببالغِه " مضمراً والهاء في " ببالِغه " للماء ، لأنه حينئذٍ يكونُ من باب جَرَيانِ الصفةِ على غيرِ مَنْ هي] له ، ومتى كان كذا لزم إبرازُ الفاعلِ فكان التركيبُ هكذا : وما هو ببالغِه الماءُ ، فإن جَعَلْتَ الهاءَ في " ببالغِه " للماءِ جاز أن يكونَ " هو " ضميرَ الباسط كما تقدَّم تقريرُه .

والكافُ في "كباسطِ " : إمَّا نعتٌ لمصدرٍ محذوف ، وإمَّا حالٌ من ذلك المصدرِ كما تقدَّم تقريرُه غيرَ مرة .

(135/409)

وقال أبو البقاء : " والكاف في "كباسط " إنْ جعلتَها حرفاً كان فيها ضميرٌ يعود على الموصوفِ المحذوفِ ، وإنْ جعلْتَها اسماً لم يكن فيها ضميرٌ " . قلت : وكونُ الكافِ اسماً

في الكلام لم يَقُلْ به الجمهورُ ، بل الأخفشُ ، ويعني بالموصوفِ ذلك المصدرَ الذي قدَّره فيما تقدَّم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 30 . 36 ﴾

(136/409)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) ﴾

كما يريهم البرقَ – في الظاهر – فيكونون بين خوفٍ وطمعٍ ؛ خوفٍ من إحباس المطر وطمع في مجيئه . أو خوفٍ للمسافر من ضرر مجيء المطر ، وطمع للمقيم في نفعه . . كذلك يُريهم البرقَ في أسرارهم بما يبدو فيها من اللوائح ثم اللوامع ثم كالبرق في الصفاء ، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة .

﴿ خَوْفًا ﴾ : من أن ينقطع ولا يبقى ، ﴿ وَطَمَعًا ﴾ : في أن يدوم َفيه نقل ُصاحبه من المحاضرة إلى المكاشفة ، ثم من المكاشفة إلى المشاهدة ، ثم إلى الوجود ثم دوام الوجود ثم إلى كمال الخمود .

ويقال : ﴿ يرِيكُمُ الْبَرْقَ ﴾ : من حيث البرهان ، ثم يزيد فيصير كأقمار البيان ، ثم يصير

إلى نهار العرفان . فإذا طلعت شموسُ التوحيدِ فلا خفاءَ بعدها ولا استتار ولا غروب لتلك الشموس ، كما قيل :

هي الشمسُ إلا أَنَّ للشمس غيبة . . . وهذا الذي نَعْنيه ليس يغيب

ويقال تبدو لهم أنوار الوصال فيخافون أن تجنَّ عليهم ليالي الفرقة ، فَقَلَّمَا تخلو فرحةُ الوصال من أن تعقبها موجة الفراق ، كما قيل :

أي يوم سررتني بوصالٍ . . . لم تَدَعْني ثلاثةً بصدود ؟ !

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ .

إذا انتاب السحابةَ في السماء ظلامٌ في وقتٍ فإنه يعقبه بعد ذلك ضحكُ الرياض ، فَمَا لَمْ تَبْكِ السماءُ لا يضحكُ الروضُ ، كما قيل :

ومأتمٌ فيه السماءُ تبكي . . . والأرضُ من تحتها عَرُوسُ

كذلك تنشأ في القلب سحابة الطلب ، فيحصل للقلب ترددُ الخاطر ، ثم يلوح وجهُ الحقيقة ، فتضحكُ الروح لفنونِ راحاتِ الأُنْس وصنوفِ ازهارِ القُرْب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ .

أي الملائكة أيضاً تسبح من خوفه تعالى .

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾.

قد يكون في القلب حنين وأنين، وزفير وشهيق. والملائكة إذا حصل لهم على قلوب المريدين - خصوصاً - اطلاعٌ يبكون دَمَاً لأجْلهم، لا سيّما إذا وقعت لواحدٍ منهم فترةُ، والفترةُ في هذه الطريقة الصواعقُ التي يصيب بها من يشاء، وكما قيل:

ما كان ما أَوْلَيْتَ مِن وَصْلنا . . . إلا سراجاً لاح ثم انْطَفا

قوله جلّ وذكره: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾.

دواعي الحق تصير لائحةً في القلوب من حيث البرهان فمن استمع إليها بسمع الفهم، استجاب لبيان العلم. وفي مقابلتها دواعي الشيطان التي تهتف بالعبد بتزيين المعاصي، فمن أصغى إليها بسمع الغفلة استجاب لصوت الغَيّ، ومعها دواعي النّفْس وهي قائدةُ للعبد بزمام الحظوظ، فمن ركَنَ إليها ولاحظَها وقع في هوانِ الحِجاب.

ودواعي الحقِّ تكون بلا واسطة مَلَكٍ، ولا بدلالة عقل، ولا بإشارة علم، فمن أسمعه الحقُّ ذلك استجاب لا محالَة لله بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلَالٍ ﴾.

هواجس النَّفسِ ودواعيها تدعو - في الطريقة - إلى الشّركِ ، وذلك بشهود شيءٍ منكَ ، وحسبان أمرٍ لَكَ ، وتعريجٍ في أوطان الفرْق ، والعَمَى عن حقائق الجَمْع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 219. 221 ﴾

(138/409)

قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت دعوة الأمر واضحة السبل جلية المناهج في جميع كتبه ، وكلها إلى الناظرين وبين دعوة الحكم بقوله : ﴿ ولله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ يسجد ﴾ أي يخضع وينقاد ويتذلل كما بين عند قوله ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ [هود : 119] ﴿ من في السماوات والأرض ﴾ لجميع أحكامه النافذة وأقضيته الجارية ﴿ طوعاً ﴾ والطوع : الانقياد للأمر الذي يدعى إليه من قبل النفس ﴿ وكرهاً ﴾ قال الرازي رحمه الله : والكافر في حكم الساجد وإن أباه لما به من الحاجة الداعية إلى الخضوع ، واعلم أن سجود كل

صنف هو تذلله وتسخره وانقياده لما أريد له ، فكل موجود جماد وحيوان عاقل وغير عاقل وروحاني وغير روحاني مسخر لأمر من له الخلق والأمر ؛ وقال الشيخ محيي الدين النووي-رضى الله عنهم-في شرح المهذب : أصله – أي السجود – الخضوع والتذلل ، وكل من تذلل وخضع فقد سجد ، وسجود كل موات في القرآن طاعته لما سخر له – هذا أصله في اللغة ، ثم قيل لمن وضع جبهته في الأرض : سجد ، لأنه غاية الخضوع.

ولما كانت الظلال مسخرة لما أراد سبحانه ، لا قدرة لأحد على تغيير ذلك بوجه ، قال : ﴿ وضلالهم ﴾ أي أيضاً تسجد له بامتدادها على الأرض ، تقصر تارة بارتفاع الشمس وتطول أخرى بانحطاطها ، لا يقدرون على منع ظلالهم من ذلك حيث يكون لهم ظلال ، وذلك ﴿ بالغدو ﴾ جمع غداة ، وهي البكرة : أول النهار ﴿ والآصال ﴾ جمع أصيل ، دائماً في جميع البلاد ، وفي وسط النهار في بعض البلاد ؛ والظل : ستر الشخص ما بإزائه ، والفيء : الذي يرجع بعد ذهاب ضوئه ، والأصيل : العشيّ ما بين العصر إلى المغرب – كأنه أصل الليل الذي ينشأ منه .

ومادة " صلا " - واوية ويائية مهموزة وغير مهموزة بتراكيبها الأحد عشر ، وهي : صلو ، صول ، لصو ، لوص ، وصل ، صلي ، صيل ، لصي ، ليص ، أصل ، صأل - تدور على الوصالة ، فالصلاة وصلة بين العبد وربه سواء كانت دعاء أو استغفاراً أو رحمة أو حسن الثناء من الله على رسوله ، أو ذات الأركان ، وصلوات اليهود لمتعبداتهم من ذلك في الأصل ، والصلا : وسط الظهر منا ، أو من كل ذي أربع ، أو ما انحدر من الوركين ، أو الفرجة بين الجاعرة والذنب - يجوز أن يكون من ذلك ، لأنه يقرب من غيره من الأعضاء إذا انثنى الحيوان ، ويجوز أن يكون شبه بالعود المعوج الذي يقوم بإصلائه النار ، وأصلت الناقة وصليت - إذا استرخى صلواها لقرب نتاجها ، والمصلّي من خيل الحلبة : الذي يجيء على إثر السابق ، فإنه يواصله ، وصلى الحمار أتنه : طردها وقحمها الطريق - فكأنه بذلك قومها بعد أن كانت معوجة ، أو أراد مواصلتها ؛ صال الرجل صولة - إذا سطا واستطال ، لأن ذلك مواصلة على وجه القهر والغلبة ، وكذا صال الفحل على الإبل - إذا قاتلها ، والعير - إذا حمل على العانة فشلها ، وصال على كذا : وثب ، وصاوله : واثبه ، والتصويل : إخراجك الشيء بالماء ، لأن ذلك سبب الخلوص ، وإذا خلص الشيء تواصلت أجزاؤه ، لأن ذلك المخرج كان حائلاً بينها ، والتصويل - أيضاً : كنس نواحي البيدر ، لأنه سبب لتواصل ما كان متفرقاً ، ومن ذلك المصول - كمنبر : شيء ينقع فيه الحنظل لتذهب مرارته ، وبهاء : المكنسة ، والصيلة - بالكسر : عقدة العذبة - لتواصل

محل العقد بعضه ببعض وبه يتماسك اتصال بعض العمامة ببعض ، والجراد يصول في مشواه ، من التصويل ، أي يساط ، بمعنى يخلط بالتقليب فيتواصل منه ما كان متفرقاً ، وصال يصيل – لغة في يصول ، وصيل له – كذا بالكسر : قيض وأتيح ، لأنه صار مقارناً له ، ولصوت الرجل عبته وقذفته – لأنك وصلت به العيب ، وفلان لا يلصو إلى ريبة ، أي لا ينضمُّ إليها ولا ينضاف ؛

(140/409)

واللوص : اللمح من خلل باب ونحوه كالملاوصة – كأنه وصلة بالنظر من موضع غير معهود ، أو لأنه سبب الوصلة إلى ما يراد ، ولاوص : نظر كأنه يختل ليروم أمراً ، والشجرة : أراد أن يقطعها بالفأس ، فلاوص في نظره يمنة ويسرة كيف يأتيها وكيف يضربها – لأن حاصل ذلك المواصلة على وجه الشدة كما تقدم في صال عليه ، وتلوص : تلوى وتقلب ، ومنه أليص – أي أرعش ، وألاصه على الشيء : أداره عليه وأراده منه – كأنه طلب منه مواصلته ، واللواص – كسحاب : الفالوذ كالملوص كمعظم ، والعسل الصافي – لأنه أهل للمواصلة ، ولوص : أكل ، واللوص : وجع الأذن والنحر ، واللوصة ؛ وجع الظهر – كأنه لشدته لا مواصل للبدن سواه ، ولاص : حاد – أي سلب الوصلة ؛ والوصلة – التي هي مدار المادة

وكأنها الحقيقة التي تشعبت منها فروعها – هي الضم وهي التئام الشيء بالشيء ، وكل ما اتصل بشيء فالذي بينهما وصلة ، وضدها الفرقة ، والوصل : ضد القطع ، والأوصال المفاصل ومجتمع العظام ، لأنها موضع اتصال العظم بالآخر ، والوصلان – بالكسر والضم : طبقاً الظهر ، ويقال : هما العجز والفخذ ، والوصيلة : الشاة تلد ذكراً ثم تلد أنثى ، فتصل أخاها ، وفيها خلاف كثير كله يدور على الوصلة ، ووصل الشيء بالشيء : لأمه ، ووصل الشيء وإلى الشي : بلغه وانتهى إليه ، وأوصله واتصل : لم ينقطع ، ووصله وواصله – كلاهما يكون في عفاف الحب ودعارته ، والوصائل جمع وصيلة – لثياب حمر مخططة يمنية يتخذها الناس دروعاً يشق من جانبيها ، كأنه لأنها توصل بغيرها أو يقطع بعضها ثم يوصل بها لتصير دروعاً ، والوصيلة : العمارة والخصب والرفقة والسيف – لأن ذلك أهل لأن يوصل ، والوصيلة : كبة الغزل لشدة التباس بعضها ببعض ، والأرض الواسعة – لأن اتصالها لم يحل بينه جبال ، وليلة الوصل : آخر ليالي الشهر ، لأنها تصل بين الشهرين ، وحرف الوصل : الذي بعد الروي – لأنه وصل حركة حرف الروي ، ووصيلك : من يدخل ويخرج معك ،

وتَصِلُ : بئر ببلاد هذيل ، واتصل الرجل – إذا انتسب ، لأنه وصل نفسه بمن انتسب إليهم ، والموصول : دابة كالدبر تلسع الناس ، كأنه من السلب ؛ وصليت اللحم : شويته – لأنك وصلته بالنار ، وصليته : ألقيته في النار للإحراق ، والصلاء – ككساء : الشواء أو النار كالصلى فيهما ، وكأن منه : صلّى عصاه على النار ، أي أحماها ليقومها – لأن كلاًّ منهما وصله بالنار للإصلاح ، وأصليته النار : أدخلته إياها وأثويته فيها ، وصلى يده بالنار : سخنها – لأنه وصلها بها ، وصلي النار – كرضي : قاسى حرها ، وصليت فلاناً : درايته وخاتلته وخدعته – كل ذلك لإرادة مواصلته لأمر ، والصلاية – ويهمز : الجبهة ، لكثرة مباشرتها الأرض في الصلاة ، ومدق الطيب – لمواصلة الدق ، وصليت للصيد تصلية – إذا نصبت له شركاً ليقع فيه فتصل إليه ، ومنه الحديث "إن للشيطان مصالي وفخوخاً" جمع مصلاة وفخ ، والصليان – بكسر ثم تشديد – قال في مختصر العين : نبت معروف ، وقال القزاز : وهو شجر له جعثن ضخم ، ربما جرد وسطه ونبت ما حوله ، وهو من أفضل المراعي وهو خبز الإبل ، وقيل : إن الخيل تأكله ولونه أصهب – انتهى .

(142/409)

فسمي بذلك لكثرة مواصلة الإبل له ؛ ولصيت الرجل كرميت ورضيت – إذا عبته وقذفته بالفجور ، وقال القزاز : وقيل : هو أن يضيفه إلى ريبة ، ولصي إليه : انضم إليه لريبة ؛ ولاص يليص : حاد ، ولصته أليصه وألصته – إذا أزعجته أو حركته لتنتزعه – كأنه من السلب ، وألصته عن كذا – إذا راودته عنه ، يمكن أن يكون سلباً وأن يكون إيجاباً ؛ والأصل : أسفل كل شيء – لأن جميع الأشياء واصله إليه ، وأصل – ككرم : صار ذا أصل أو ثبت أو رسخ كتأصل ، والرأي : جاد – كل ذلك تشبيه بالأصل ، والأصيل : من له أصل ، والعاقب الثابت الرأي ، وقد أصل – ككرم ، والأصيل : العشيّ – لأنه وصلة ما بين النهار والليل ، أو الليل ، أو لأنه لما آذن بتصرم النهار كان كأنه اجتثه من أصله ، ومنه الأصيل – للهلاك والموت كالأصيلة فيهما ، ولقيتهم مؤصلاً أي بالأصيل ، وأخذه بأصلته – محركاً ، وأصيلته أي كله بأصله ، وأصيلتك : جميع مالك أو نخلتك ، والأصل – ككتف : المستأصل ، وأصله علماً : قتله – كأنه أدام مواصلته حتى أتقنه ، والأصلة – محركة : حية قصيرة تساور الإنسان – قاله في مختصر العين ، وفي القاموس : حية صغيرة أو عظيمة تهلك بنفخها ، فإن نظرت إلى المساورة فهو من المواصلة – كما تقدم في صال عليه ، وإن نظرت إلى الهلاك فهو من الاستئصال ، وأصل الماء – كفرح : أسن من حمأة ، واللحم : تغير ، يجوز أن يكون من الوصلة أي لشدة مواصلة الحمأة للماء والهواء للحم ، وأن يكون من الأصيل أي الهلاك بجملته وأصله ، وأن يكون من سلب المواصلة ؛ وصؤل البعير – ككرم

صالّة : واثب الناس أو صار يقتل الناس ويعدو عليهم ، وصئيل الفرس : صهيله - لمواصلة نغماته ، وهذا وقد مضى عند قوله تعالى في سورة هود عليه السلام ﴿ صلواتك تأمرك ﴾ إشارة إلى هذا - والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 135.138 ﴾

(143/409)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (15) ﴾

اعلم أن في المراد بهذا السجود قولين :

القول الأول : أن المراد منه السجود بمعنى وضع الجبهة على الأرض ، وعلى هذا الوجه ففيه وجهان : أحدهما : أن اللفظ وإن كان عاماً إلا أن المراد به الخصوص وهم المؤمنون ، فبعض المؤمنين يسجدون لله طوعاً بسهولة ونشاط ، ومن المسلمين من يسجد لله كرهاً لصعوبة ذلك عليه مع أنه يحمل نفسه على أداء تلك الطاعة شاء أم أبى .

والثاني : أن اللفظ عام والمراد منه أيضاً العام وعلى هذا ففي الآية إشكال ، لأنه ليس كل من في السموات والأرض يسجد لله بل الملائكة يسجدون لله ، والمؤمنون من الجن والإنس يسجدون لله تعالى ، وأما الكافرون فلا يسجدون .

الجواب عنه من وجهين : الأول : أن المراد من قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السموات والأرض ﴾ أي ويجب على كل من في السموات والأرض أن يسجد لله فعبر عن الوجوب بالوقوع والحصول .

والثاني : وهو أن المراد من السجود التعظيم والاعتراف بالعبودية ، وكل من في السموات ومن في الأرض يعترفون بعبودية الله تعالى على ما قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] .

(144/409)

وأما القول الثاني في تفسير الآية فهو : - أن السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع وكل من في السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى ، لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل وتحقيق القول فيه أن ما سواه ممكن لذاته والممكن لذاته هو الذي تكون ماهيته قابلة للعدم والوجود على السوية وكل من كان كذلك امتنع رجحان وجوده على عدمه أو

بالعكس، إلا بتأثير موجود ومؤثر فيكون وجود كل ما سوى الحق سبحانه بإيجاده وعدم كل ما سواه بإعدامه، فتأثيره نافذ في جميع الممكنات في طرفي الإيجاد والإعدام، وذلك هو السجود وهو التواضع والخضوع والانقياد، ونظير هذه الآية: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السموات والأرض كُلٌّ لَّهُ قانتون﴾ [البقرة: 116] وقوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السموات والأرض﴾ [آل عمران: 83].

وأما قوله تعالى: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فالمراد: أن بعض الحوادث مما يميل الطبع إلى حصوله كالحياة والغنى، وبعضها مما ينفر الطبع عنه كالموت والفقر والعمى والحزن والزمانة وجميع أصناف المكروهات، والكل حاصل بقضائه وقدره وتكوينه وإيجاده، ولا قدرة لأحد على الامتناع والمدافعة.

ثم قال تعالى: ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ وفيه قولان:

القول الأول: قال المفسرون، كل شخص سواء كان مؤمناً أو كافراً فإن ظله يسجد لله. قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد لله طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد لله كرهاً وهو كاره، وقال الزجاج: جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله، وعند هذا قال ابن الأنباري: لا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولاً وأفهاماً تسجد بها وتخشع كما جعل الله للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيح الله تعالى وحتى ظهر أثر التجلي فيها كما قال: ﴿فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً﴾ [الأعراف: 143].

(145/409)

والقول الثاني : وهو أن المراد من سجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ، فهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب إلى جانب وإنما خصص الغدو والآصال بالذكر ، لأن الظلال إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 ص 25.24 ﴾

(146/409)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : إذَا وُجِدَ الْفِعْلُ ، فِي الْآدَمِيِّ مَعَ خَلْقِ الْإِرَادَةِ فِيهِ كَانَ طَوْعًا ، وَإِذَا وُجِدَ

الْفِعْلُ مَعَ عَدَمِ الْإِرَادَةِ كَانَ كَرْهًا ، وَيَأْتِي تَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِيهِ فِي سُورَةِ النَّحْلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَفْسِيرِهَا عَلَى أَقْوَالٍ ، جُمْهُورُهَا أَرْبَعَةٌ : الْأَوَّلُ : الْمُؤْمِنُ يَسْجُدُ طَوْعًا ، وَالْكَافِرُ يَسْجُدُ خَوْفَ السَّيْفِ ؛ فَالْأَوَّلُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ آمَنَ طَوْعًا مِنْ غَيْرِ لَعْثَمَةٍ .

وَالثَّانِي : الْكَافِرُ يَسْجُدُ لِلَّهِ ، إذَا أَصَابَهُ الضُّرُّ يَسْجُدُ لِلَّهِ كَرْهًا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلَّا إيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ يُرِيدُ عَنْهُ وَعَبَدْتُمْ غَيْرَهُ .

الثَّالِثُ : قَالَ الصُّوفِيَّةُ : الْمُخْلِصُ يَسْجُدُ لِلَّهِ مَحَبَّةً ، وَغَيْرُهُ يَسْجُدُ لِابْتِغَاءِ عِوَضٍ ، أَوْ لِكَشْفِ مِحْنَةٍ ، فَهُوَ يَسْجُدُ كَرْهًا .

الرَّابِعُ : الْخَلْقُ كُلُّهُمْ سَاجِدٌ ، إلَّا أَنَّهُ مَنْ سَجَدَ بِقَلْبِهِ فَهُوَ طَوْعٌ ، وَمَنْ سَجَدَ بِحَالِهِ فَهُوَ كُرْهٌ ؛ إذْ الْأَحْوَالُ تَدُلُّ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارِ ذِي الْحَالِ .

قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ : أَمَّا مَنْ سَجَدَ لِدَفْعِ شَرٍّ فَذَلِكَ بِأَمْرِ اللَّهِ ، هُوَ الَّذِي أَمَرَنَا بِالطَّاعَةِ ، وَوَعَدَنَا بِالثَّوَابِ عَلَيْهَا ، وَنَهَانَا عَنْ الْمَعْصِيَةِ ، وَأَوْعَدَ بِالْعِقَابِ عَلَيْهَا ، وَهَذَا حَالُ التَّكْلِيفِ ، فَلَا يَتَكَلَّفُ فِيهَا تَعْلِيلًا إلَّا نَاقِصُ الْفِطْرَةِ قَاصِرُ الْعِلْمِ ؛ وَغَرَضُ الصُّوفِيَّةِ سَاقِطٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ ، فَمَا عَبَدَ اللَّهَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، وَلَا وَلِيٌّ مُكَمَّلٌ إلَّا طَلَبَ النَّجَاةَ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(148/409)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض طوعاً وكرهاً ﴾

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : طوعاً سجود المؤمن ، وكرهاً سجود الكافر ، قاله قتادة .

الثاني : ﴿ طوعاً ﴾ من دخل في الإسلام رغبة ، ﴿ وكرهاً ﴾ من دخل فيه رهبة بالسيف ، قاله ابن زيد

. الثالث : ﴿ طوعاً ﴾ من طالت مدة إسلامه فألف السجود ، ﴿ وكرهاً ﴾ من بدأ بالإسلام حتى يألف السجود ، حكاه ابن الأنباري .

الرابع : ما قاله بعض أصحاب الخواطر أنه إذا نزلت به المصائب ذل ، وإذا توالت عليه النعم ملّ .

﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ يعني أن ظل كل إنسان يسجد معه بسجوده ، فظل المؤمن يسجد طائعاً كما أن سجود المؤمن طوعاً ، وظل الكافر يسجد كارهاً كما أن سجود الكافر كرهاً .

والآصال جمع أصُل ، والأصل جمع أصيل ، والأصيل العشيّ وهو ما بين العصر والمغرب قال أبو ذؤيب :

لعمري لأنت البيت أكرم أهله . . . وأقعد في أفيائِه بالأصائل . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(149/409)

وقال ابن عطية :

قول تعالى : ﴿ ولله يسجد ﴾ الآية ،

يحتمل ظاهر هذه الألفاظ : أنه جرى في طريق التنبيه على قدرة الله ، وتسخر الأشياء له فقط ، ويحتمل أن يكون في ذلك طعن على كفار قريش وحاضري محمد عليه السلام ، أي

إن كنتم لا توقنون ولا تسجدون ، فإن جميع ﴿ من في السماوات والأرض ﴾ لهم سجود لله تعالى : وإلى هذا الاحتمال نحا الطبري .

قال القاضي أبو محمد : و﴿ من ﴾ تقع على الملائكة عموماً ، وسجودهم طوع بلا خلاف ، وأما أهل الأرض فالمؤمنون منهم داخلون في ﴿ من ﴾ وسجودهم طوع ، وأما سجود الكفرة فهو الكره ، وذلك على نحوين من هذا المعنى :

فإن جعلنا السجود هذه الهيئة المعهودة فالمراد من الكفرة من يضمه السيف إلى الإسلام – كما قال قتادة – فيسجد كرهاً ، إما نفاقاً ، وإما أن يكون الكره أول حاله فتستمر عليه الصفة ، وإن صح إيمانه بعد .

وإن جعلنا السجود الخضوع والتذلل – على حسب ما هو في اللغة كقول الشاعر :

ترى الأكم فيه سجداً للحوافر . . . فيدخل الكفار أجمعون في ﴿ من ﴾ لأنه ليس من كافر إلا وتلحقه من التذلل والاستكانة بقدرة الله أنواع اكثر من أن تحصى بحسب رزاياه واعتباراته .

وقال النحاس والزجاج : إن الكره يكون في سجود عصاة المؤمنين وأهل الكسل منهم .

قال القاضي أبو محمد : وإن كان اللفظ يقتضي هذا فهو قلق من جهة المعنى المقصود بالآية .

وقوله : ﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ ، إخبار عن أن الظلال لها سجود لله تعالى

بالبكر والعشيات . قال الطبري : وهذا كقوله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى ما خلق من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله ﴾ [النحل : 48] قال : وذلك هو فيئه بالعشي وقال مجاهد : ظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره . وقال ابن عباس : يسجد ظل الكافر حين يفيء عن يمينه وشماله ، وحكى الزجاج أن بعض الناس قال : " الظلال " هنا يراد به الأشخاص – وضعفه أبو إسحاق .

(150/409)

و ﴿ الآصال ﴾ جمع أصيل . وقرأ أبو مجلز : " والإيصال " قال أبو الفتح : هو مصدر أصلنا أي دخلنا في الأصيل ، كأصبحنا وأمسينا .

وروي أن الكافر إذا سجد لصنمه فإن ظله يسجد لله تعالى حينئذ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(151/409)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولله يسجد من في السموات ﴾

أي : من الملائكة ، ومَن في الأرض من المؤمنين ﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ .

وفي معنى سجود الساجدين كَرها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه سجود مَنْ دخل في الإِسلام بالسيف ، قاله ابن زيد .

والثاني أنه سجود ظِلّ الكافر ، قاله مقاتل .

والثالث : أن سجود الكاره تذلُّله وانقياده لما يريده الله منه من عافية ومرض وغنى وفقر .

قوله تعالى : ﴿ وظلالهم ﴾ أي : وتسجد ظلال الساجدين طوعاً وكَرهاً ، وسجودُها : تمايلها من جانب إلى جانب ، وانقيادها للتسخير بالطُّول والقِصَر .

قال ابن الأنباري : قال اللغويون : الظّل ما كان بالغَدَوات قبل انبساط الشمس ، والفيءُ ما كان بعد انصراف الشمس ، وإِنما سُمِّي فيئاً ، لأنه فاء ، أي : رجع إلى الحال التي كان عليها قبل ان تنبسط الشمس ، وما كان سوى ذلك فهو ظِلٌّ ، نحو ظِلّ الإِنسان ، وظل الجدار ، وظل الثوب ، وظل الشجرة ، قال حُمَيد بن ثور :

فلا الظّلَّ من بَرْد الضُّحى تَسْتَطِيعُهُ . . .

ولا الفَيءُ مِن بَرْدِ العَشِيّ تَذوق

وقال لبيد :

بينما الظِّلُّ ظَلِيلٌ مُونِقٌ . . .

طَلَعَتْ شَمْسٌ عَلَيْه فاضْمَحَلّ

وقال آخر :

أيا أَثلاتِ القَاعِ مِنْ بَطْنِ تُوضِحٍ . . .

حَنِيْنِي إِلى أَظْلالِكُنَّ طَوِيلُ

وقيل : إِن الكافر يسجد لغير الله ، وظلُّه يسجد لله .

وقد شرحنا معنى الغُدُوِّ والآصال في [الأعراف : 7] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(152/409)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾

قال الحسن وقَتَادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعاً ، والكافر يسجد كَرهاً بالسيف .

وعن قَتَادة أيضاً : يسجد الكافر كارهاً حين لا ينفعه الإيمان .

وقال الزجاج : سجود الكافر كَرها ما فيه من الخضوع وأثر الصّنعة .

وقال ابن زيد : ﴿ طَوْعاً ﴾ من دخل في الإسلام رغبة ، و ﴿ كَرها ﴾ من دخل فيه رهبة بالسيف .

وقيل : ﴿ طوعا ﴾ من طالت مدة إسلامه فألف السجود ، و ﴿ كَرها ﴾ من يكره نفسه لله تعالى ؛ فالآية في المؤمنين ، وعلى هذا يكون معنى ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ وبعض من في الأرض .

قال القُشَيْرِي : وفي الآية مسلكان : أحدهما : أنها عامة والمراد بها التخصيص ؛ فالمؤمن يسجد طوعاً ، وبعض الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين ؛ فالآية محمولة على هؤلاء ، ذكره الفرّاء .

وقيل على هذا القول : الآية في المؤمنين ؛ منهم من يسجد طوعاً لا يثقل عليه السجود ، ومنهم من يثقل عليه ؛ لأن التزام التكليف مشقّة ، ولكنهم يتحملون المشقّة إخلاصاً وإيماناً ، إلى أن يألفوا الحق ويَمْرُنوا عليه .

والمسلك الثاني : وهو الصحيح إجراء الآية على التعميم ؛ وعلى هذا طريقان : أحدهما : أن المؤمن يسجد طوعاً ، وأما الكافر فمأمور بالسجود مؤاخذ به .

والثاني : وهو الحق أن المؤمن يسجد ببدنه طوعاً ، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق ، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع ؛ وهذا كقوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة .

﴿ وَظِلالُهُم بالغدو والآصال ﴾ أي ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدوّ والآصال ؛ لأنها تبين في هذين الوقتين ، وتميل من ناحية إلى ناحية ؛ وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليمين والشمآئل سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل : 48] قاله ابن عباس وغيره.

وقال مجاهد : ظِل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع ؛ وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كاره.

وقال ابن الأنباريّ : يجعل للظلال عقول تسجد بها ، كما جُعِل للجبال أفهامُ حتى خاطبت وخوطبت.

قال القُشَيري : في هذا نظر ؛ لأن الجبل عين ، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة ، وأما الظلال فآثار وأعراض ، ولا يتصور تقدير حياة لها ، والسجود بمعنى الميل ؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب ؛ يقال : سجدت النخلة أي مالت.

و﴿ الآصال ﴾ جمع أُصُل ، والأُصُل جمع أَصِيل ؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب ، ثم أصائِل جمع الجمع ؛ قال أبو ذؤيب الهذلي :

لَعَمْرِي لأَنتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهلَهُ . . .

وأَقعدُ في أَفْيَائِهِ بالأَصَائِل

و"ظِلالُهُمْ" يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ منْ ﴾ ويجوز أن يكون ارتفع بالابتداء والخبر محذوف؛ التقدير: وظلالهم سُجدٌ بالغدوّ والآصال و ﴿ بالغدوّ ﴾ يجوز أن يكون مصدراً ، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوّي كونه جمعاً مقابلة الجمع الذي هو الآصال به.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(154/409)

وقال الخازن :

قوله ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾

في معنى هذا السجود قولان : أحدهما أن المراد منه السجود على الحقيقة وهو وضع الجبهة على الأرض ، ثم على هذا القول ففي معنى الآية وجهان أحدهما أن اللفظ وإن كان عاماً إلا أن المراد منه الخصوص ، فقوله : ولله يسجد من في السموات يعني الملائكة ومن في الأرض من الإنس يعني المؤمنين طوعاً وكرهاً ، يعني من المؤمنين من يسجد لله طوعاً وهم المؤمنون المخلصون لله العبادة ، وكرهاً يعني المنافقين الداخلين في المؤمنين وليسوا منهم فان سجودهم لله على كره منهم ، لأنهم لا يرجون على سجودهم ثواباً ولا يخافون على تركه

عقاباً بل سجودهم وعبادتهم خوف من المؤمنين .

الوجه الثاني : هو حمل اللفظ على العموم ، وعلى هذا ففي اللفظ إشكال ، وهو أن جميع الملائكة والمؤمنين من الجن والإنس يسجدون لله طوعاً ، ومنهم من يسجد كرهاً كما تقدم وأما الكفار من الجن والإنس ، فلا يسجدون لله البتة فهذا وجه الإشكال .

والجواب عنه أن المعنى أنه يجب على كل من في السموات ومن في الأرض أن يسجد لله ، فعبر بالوجوب عن الوقوع والحصول .

وجواب آخر وهو أن يكون المراد من هذا السجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية ، وكل من في السموات من ملك ومن في الأرض من إنس وجن ، فإنهم يقرون لله بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ والقول الثاني : في معنى هذا السجود هو الانقياد والخضوع وترك الامتناع فكل من في السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى ، وهذا الاعتبار لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل فهم خاضعون منقادون له .

وقوله تعالى ﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ الغدوة والغداة أو النهار ، وقيل : إلى نصف النهار والغدو بالضم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس والآصال جمع أصل ، وهو العشية والآصال العشايا جمع عشية وهي ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس .

قال المفسرون : إن ظل كل شخص يسجد لله ظل المؤمن والكافر .

وقال مجاهد : ظل المؤمن يسجد لله طوعاً وهو طائع وظل الكافر يسجد لله كرهاً ، وهو كاره .

وقال الزجاج : جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله .

قال ابن الأنباري : ولا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولاً وأفهاماً تسجد بها وتخشع كما جعل للجبال أفهاماً حتى سبحت لله مع داود ، وقيل : المراد بسجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب آخر ، وطولها وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ونزولها ، وإنما خص الغدو والآصال بالذكر لأن الظلال تعظم ، وتكثر في هذين الوقتين ، وقيل : لأنهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما .

(فصل)

وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة ، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (15) ﴾

إن كان السجود بمعنى الخضوع والانقياد ، فمن عمومها ينقاد كلهم إلى ما أراده تعالى بهم شاؤوا أو أبوا ، وتنقاد له تعالى ظلالهم حيث هي على مشيئته من الامتداد والتقلص ، والفيء والزوال ، وإن كان السجود عبارة عن الهيئة المخصوصة : وهو وضع الجبهة بالمكان الذي يكون فيه الواضع ، فيكون عاماً مخصوصاً إذ يخرج منه من لا يسجد ، ويكون قد عبر بالطوع عن سجود الملائكة والمؤمنين ، وبالكره عن سجود من ضمه السيف إلى الإسلام كما قاله قتادة : فيسجد كرهاً وإما نفاقاً ، أو يكون الكره أول حاله ، فتستمر عليه الصفة وإن صح إيمانه بعد .

وقيل : طوعاً لا يثقل عليه السجود ، وكرهاً يثقل عليه ، لأنّ إلزام التكاليف مشقة .

وقيل : من طالت مدة إسلامه ، فألف السجود .

وكرهاً من بدا بالإسلام إلى أن يألف السجود قاله ابن الأنباري .

وقيل : هو عام على تقدير كون السجود عبارة عن الهيئة المخصوصة ، وذلك بأن يكون يسجد صيغته صيغة الخبر ، ومدلوله أثر .

أو يكون معناه : يجب أن يسجد له كل من في السموات والأرض ، فعبر عن الوجوب

بالوقوع .

والذي يظهر أنّ مساق هذه الآية إنما هو أنّ العالم كله مقهور لله تعالى ، خاضع لما أراد منه ، مقصور على مشيئته ، لا يكون منه إلا ما قدر تعالى .

فالذين تعبدونهم كائناً ما كانوا داخلون تحت القهر ، ويدل على هذا المعنى تشريك الظلال في السجود .

والظلال ليست أشخاصاً يتصور منها السجود بالهيئة المخصوصة ، ولكنها داخلة تحت مشيئته تعالى يصرفها على ما أراد ، إذ هي من العالم .

فالعالم جواهره وأعراضه داخلة تحت إرادته كما قال تعالى : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله ﴾ وكون الظلال يراد بها الأشخاص كما قال بعضهم ضعيف ، وأضعف منه قول ابن الأنباري : إنه تعالى جعل للظلال عقولاً تسجد بها وتخشع بها ، كما جعل للجبال أفهاماً حتى خاطبت وخوطبت ، لأنّ الجبل يمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة ، وأما الظل فعرض لا يتصور قيام الحياة به ، وإنما معنى سجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب كما أراد تعالى .

وقال الفراء : الظل مصدر يعني في الأصل ، ثم أطلق على الخيال الذي يظهر للجرم ، وطوله بسبب انحطاط الشمس ، وقصره بسبب ارتفاعها ، فهو منقاد لله تعالى في طوله وقصره وميله من جانب إلى جانب .

وخص هذان الوقتان بالذكر لأنّ الظلال إنما تعظم وتكثر فيهما ، وتقدم شرح الغدوّ والآصال في آخر الأعراف .

روي أن الكافر إذا سجد لصنمه كان ظله يسجد لله حينئذ .

وقرأ أبو مجلز : والإيصال .

قال ابن جني : هو مصدر أصل أي : دخل في الأصيل كما تقول : أصبح أي دخل في الإصباح . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(158/409)

وقال أبو السعود :

﴿ وَللَّهِ ﴾ وحده ﴿ يَسْجُدُ ﴾ يخضع وينقاد لا لشيء غيرِه استقلالاً ولا اشتراكاً فالقصرُ ينتظم القلبَ والإفراد ﴿ مَن فِى السموات والأرض ﴾ من الملائكة والثقلين ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ أي طائعين وكارهين وانقيادَ طوعٍ وكُرهٍ ، أو حالَ طوعٍ وكره ، فإن خضوعَ

الكلّ لعظمة الله عز وجل وانقيادَهم لإحداث ما أراده فيهم من أحكام التكوين والإعدام شاءوا أو أبوا ، وعدمُ مداخلةِ حكمِ غيره بل غيرِ حكمِه تعالى في تلك الشؤون مما لا يخفى على أحد ﴿ وظلالهم ﴾ أي وتنقاد له تعالى ظلالُ مَنْ له ظلٌّ منهم أعني الإنسَ حيث تتصرف على مشيئته وتتأتّى لإرادته في الامتداد والتقلّص والفيء والزوال ﴿ بالغدو والأصال ﴾ ظرفٌ للسجود المقدّر أو حالٌ من الظلال ، وتخصيصُ الوقتين بالذكر مع أن انقيادها متحققٌ في جميع أوقات وجودِها لظهور ذلك فيهما ، والغدو جمع غَداة كقُنيّ في جمع قناة والآصال جمعُ أصيل ، وقيل : جمع أُصُل وهو جمعُ أصيل ، وهو ما بين العصر والمغربِ ، وقيل : الغدوّ مصدرٌ ويؤيده أنه قرىء والإيصالِ أي الدخول في الأصيل . هذا وقد قيل إن المرادَ حقيقةُ السجود فإن الكفرة حال الاضطرارِ وهو المعنيُّ بقوله تعالى : ﴿ وكَرْهًا ﴾ يخُصّون السجودَ به سبحانه ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ ولا يبعُد أن يخلُق الله تعالى في الظلال أفهاماً وعقولاً بها تسجُد لله سبحانه كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثارُ التجلّي كما قاله ابن الأنباري ، ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهَد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها ، وأنت خبير بأن اختصاصَ سجودِ الكافر حالةَ الضرورةِ والشدة بالله سبحانه لا يُجدي فإن سجودَهم لأصنامهم حالةَ الرخاء مُخِلٌّ بالقصر المستفادِ من تقديم الجار والمجرور

فالوجهُ حملُ السجودِ على الانقياد ، ولأن تحقيقَ انقيادِ الكل في الإبداع والإعدامِ له تعالى أدخلُ في

(159/409)

التوبيخ على اتخاذ أولياءَ من دونه من تحقيق سجودِهم له تعالى ، وتخصيصُ انقيادِ العقلاءِ بالذكر مع كون غيرِهم أيضاً كذلك لأنهم العُمدة وانقيادهم دليل انقيادُ غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السموات والأرض ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(160/409)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (15) ﴾

﴿ وَلِلَّهِ ﴾ وحده ﴿ يَسْجُدُ ﴾ يخضع وينقاد لا لشيء غيره سبحانه استقلالاً ولا اشتراكاً ، فالقصر ينتظم القلب والإفراد ﴿ مَن فِى السموات والأرض ﴾ من الملائكة والثقلين كما يقتضيه ظاهر التعبير بمن ، وتخصيص انقياد العقلاء مع كون غيرهم أيضاً كذلك لأنهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أن فيما سيأتي إن شاء الله تعالى بياناً لذلك ، وقيل : المراد ما يشمل أولئك وغيرهم ، والتعبير بمن للتغليب ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ نصب على الحال ، فإن قلنا بوقوع المصدر حالاً من غير تأويل فهو ظاهر وإلا فهو بتأويل طائعين وكارهين أي أنهم خاضعون لعظمته تعالى منقادون لإحداث ما أراد سبحانه فيهم من أحكام التكوين والإعدام شاؤوا أو أبوا من غير مداخلة حكم غيره جل وعلا بل غير حكمه تعالى في شيء من ذلك .

وجوز أن يكون النصب على العلة فالكره بمعنى الإكراه وهو مصدر المبني للمفعول ليتحد الفاعل بناءً على اشتراط ذلك في نصب المفعول لأجله وهو عند من لم يشترط على ظاهره ، وما قيل عليه من أن اعتبار العلية في الكره غير ظاهر لأنه الذي يقابل الطوع وهو الإباء ولا يعقل كونه علة للسجود فمدفوع بأن العلة ما يحمل على الفعل أو ما يترتب عليه لا ما يكون غرضاً له وقد مر عن قرب فتذكره ، وقيل : النصب على المفعولية المطلقة أي سجود طوع وكره ﴿ وظلالهم ﴾ أي وتنقاد له تعالى ظلال من له ذلك منهم وهم الإنس فقط أو ما يعمهم وكل كثيف .

وفي "الحواشي الشهابية" ينبغي أن يرجع الضمير لمن في الأرض لأن من في السماء لا ظل له إلا أن يحمل على التغليب أو التجوز ، ومعنى انقياد الظلال له تعالى أنها تابعة لتصرفه سبحانه ومشيئته في الامتداد والتقلص والفيء والزوال ، وأصل الظل كما قال الفراء مصدر ثم أطلق على الخيال الذي يظهر للجرم ، وهو إما معكوس أو مستو ويبني على كل منهما أحكام ذكروها في محلها ﴿ بالغدو والاصال ﴾ ظرف للسجود المقدر والباء بمعنى في وهو كثير ، والمراد بهما الدوام لأنه يذكر مثل ذلك للتأبيد ، قيل : فلا يقال لم خص بالذكر ؟ وكذا يقال : إذا كانا في موضع الحال من الظلال ، وبعضهم يعلل ذلك بأن امتدادها وتقلصها في ذينك الوقتين أظهر .

والغدو جمع غداة كقنى وقناة ، والآصال جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب ، وقيل : هو جمع أصل جمع أصيل ، وأصله أأصال بهمزتين فقلبت الثانية ألفاً ، وقيل : الغدو مصدر وأيد بقراءة ابن مجلز ﴿ الإيصال ﴾ بكسر الهمة على أنه مصدر آصلنا بالمد أي دخلنا في الأصيل كما قاله ابن جني هذا ، وقيل : إن المراد حقيقة السجود فإن الكفرة حالة

الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ يخصون السجود به سبحانه قال تعالى :

(162/409)

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [العنكبوت : 65] ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاماً وعقولاً بها تسجد لله تعالى شأنه كما خلق جل جلاله ذلك للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهرت فيها آثار التجلي كما قاله ابن الأنباري ، وجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها ، وهذا على ما قيل : مبني على ارتكاب عموم المجاز في السجود المذكور في الآية بأن يراد به الوقوع على الأرض فيشمل سجود الظلال بهذا المعنى أو تقدير فعل مؤد ذلك رافع للظلال أو خبر له كذلك أو التزام أن إرادة ما ذكر لا يضر في الحقيقة لكونه بالتبعية والعرض أو أن الجمع بين الحقيقة والمجاز جائز ولا يخفى ما في بعض الشقوق من النظر .

وعن قتادة أن السجود عبارة عن الهيئة المخصوصة وقد عبر بالطوع عن سجود الملائكة عليهم السلام والمؤمنين وبالكره عن سجود من ضمه السيف إلى الإسلام فيسجد كرهاً إما نفاقاً أو يكون الكره أول حالة فيستمر عليه الصفة وإن صح إيمانه بعد ، وقيل :

الساجد طوعاً من لا يثقل عليه السجود والساجد كرهاً من يثقل عليه ذلك .

وعن ابن الأنباري الأول من طالت مدة إسلامه فألف السجود والثاني من بدأ بالإسلام إلى أن يألف ، وأياً ما كان فمن عام أريد به مخصوص إذ يخرج من ذلك من لا يسجد ، وقيل : هو عام لسائر أنواع العقلاء والمراد بيسجد يجب أن يسجد لكن عبر عن الوجوب بالوقوع مبالغة .

واختار غير واحد في تفسير الآية ما ذكرناه أولاً ، ففي "البحر" والذي يظهر أن مساق الآية إنما هو أن العالم كله مقهور لله تعالى خاضع لما أراد سبحانه منه مقصور على مشيئته لا يكون منه إلا ما قدر جل وعلا فالذين تعبدونهم كائناً ما كانوا داخلون تحت القهر لا يستطيعون نفعاً ولا ضراً ، ويدل على هذا المعنى تشريك الظلال في السجود وهي ليست أشخاصاً يتصور منها السجود بالهيئة المخصوصة ولكنها داخلة تحت مشيئته تعالى يصرفها سبحانه حسبما أراد إذ هي من العالم والعالم جواهره وأعراضه داخلة تحت قهر إرادته تعالى كما قال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاله عَنِ اليمين والشمآئل سُجَّدًا لِّلهِ ﴾ [النحل : 48] وكون المراد بالظلال الأشخاص كما قال

بعضهم ضعيف وأضعف منه ما قاله ابن الأنباري ، وقياسها على الجبال ليس بشيء لأن الجبل يمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة وأما الظل فعرض لا يتصور قيام الحياة به وإنما معنى سجودها ميلها من جانب إلى جانب واختلاف أحوالها كما أراد سبحانه وتعالى .

وفي إرشاد العقل السليم بعد نقل ما قيل أولاً وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر حالة الاضطرار والشدة لله تعالى لا يجدي فإن سجوده للصنم حالة الاختيار والرخاء مخل بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور ، فالوجه حمل السجود على الانقياد ولأن تحقيق انقياد الكل في الإبداع والإعدام له تعالى ادخل في التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه سبحانه وتعالى من تحقيق سجودهم له تعالى اه ؛ وفي تلك الأقوال بعد ما لا يخفى على الناقد البصير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(164/409)

وقال القاسمى :

﴿ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾

إخبار عن عظمته تعالى وسلطانه الذي قهر كل شيء ، بأنه يقاد لجلاله وإرادته وتصريفه

المكونات بأسرها من أهل الملأ الأعلى والأسفل ، طائعين وكارهين لا يقدرون أن يمتنعوا عليه ، وكذا تنقاد له تعالى ظلالهم حيث تتصف على مشيئته في الامتداد والتقلص والفيء والزوال ! . وقوله : ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ إما ظرف لـ (يسجد) والباء بمعنى (في) والمراد بهما الدوام ؛ لأنه يذكر مثله للتأييد ، وإما حال من (الظلال) والمراد ما ذكر . أو يقال التخصيص ؛ لأن امتدادها وتقلصها فيهما أظهر . هذا ما جرى عليه الأكثر في معنى (السجود) فيكون استعارة للانقياد المذكور ، أو مجازاً مرسلاً لاستعماله في لازم معناه ؛ لأن الانقياد مطلقاً لازم للسجود .

وفي " تنوير الاقتباس " : تأويل السجود بالصلاة والعبادة وجعل (طوعاً وكرهاً) نشراً على ترتيب اللف . قال (طوعاً) أهل السماء من الملائكة ؛ لأن عبادتهم بغير مشقة و (كرهاً) أهل الأرض ؛ لأن عبادتهم بالمشقة ، ثم قال : ويقال (طوعاً) لأهل الإخلاص و (كرهاً) لأهل النفاق . ثم قال : (وظلالهم) يعني وظلال من يسجد لله أيضاً ، وتسجد غدوة عن أيمانهم ، وعشية عن شمائلهم .

قال أبو السعود : وقد قيل : إن المراد حقيقة السجود ، فإن الكفرة حال الاضطرار وهو المعني بقوله تعالى : ﴿ وَكَرْهاً ﴾ يخصون السجود به سبحانه . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : من الآية 65] ، ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاماً وعقولاً بها تسجد لله سبحانه ، كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلي كما قاله ابن الأنباري . ويجوز أن يراد بسجودها : ما يشهد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها . وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر حالة الضرورة والشدة ، فالله سبحانه لا يجدي ، فإن سجودهم لأصنامهم حالة الرخاء مخلٌّ بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور ، فالوجه حمل السجود على الانقياد ، ولأن تحقيق انقياد الكل في إبداع ، والإعدام له تعالى أدخل في التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه مع تحقيق سجودهم له تعالى . وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضاً كذلك ؛ لأنهم العمدة . وانقيادهم دليل انقياد غيرهم . انتهى .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [آل عِمْرَان : من الآية 83] ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ ﴾ [النحل : من الآية 48] الآية .

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة ، فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عقب قراءته

واستماعه لهذه السجدة . كذا في " اللباب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 278.277 ﴾

(166/409)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (15) ﴾

عطف على جملة ﴿ له دعوة الحق ﴾ [سورة الرعد : 14] أي له دعوة الحق وله يسجد من في السماوات والأرض وذلك شعار الإلهية ، فأما الدعوة فقد اختص بالحقة منها دون الباطلة ، وأما السجود وهو الهويّ إلى الأرض بقصد الخضوع فقد اختص الله به على الإطلاق ، لأن الموجودات العليا والمؤمنين بالله يسجدون له ، والمشركين لا يسجدون للأصنام ولا لله تعالى ، ولعلهم يسجدون لله في بعض الأحوال .

وعدل عن ضمير الجلالة إلى اسمه تعالى العَلَم تبعاً للأسلوب السابق في افتتاح الأغراض الأصلية .

والعموم المستفاد من مَن ﴾ الموصولة عموم عرفي يراد به الكثرة الكاثرة .

والمقصود من ﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ تقسيم أحوال الساجدين.

والمراد بالطوع الانسياق من النفس تقرّباً وزُلفى لمحض التعظيم ومحبة الله.

وبالكَره الاضطرار عند الشدة والحاجة كما في قوله تعالى: ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ [سورة النحل: 53].

ومنه قولهم: مُكره أخُوك لا بَطل، أي مضطر إلى المقاتلة وليس المراد من الكَره الضغط والإلجاء كما فسر به بعضهم فهو بعيد عن الغرض كما سيأتي.

والظلال: جمع ظل، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور.

والضمير راجع إلى من في السماوات والأرض ﴾ مخصوصٌ بالصالح له من الأجسام الكثيفة ذات الظل تخصيصاً بالعقل والعادة، وهو عطف على ﴿ من ﴾، أي يسجد مَن في السماوات وتسجد ظِلالهم.

والغدُوّ: الزمان الذي يغدو فيه الناس، أي يخرجون إلى حوائجهم: إما مصدراً على تقدير مضاف، أي وقت الغدو؛ وإما جمع غُدوة، فقد حكي جمعها على غُدوّ، وتقدم في آخر سورة الأعراف.

والآصال: جمع أصيل، وهو وقت اصفرار الشمس في آخر المساء، والمقصود من ذكرهما استيعاب أجزاء أزمنة الظل.

ومعنى سجود الظلال أن الله خلقها من أعراض الأجسام الأرضية ، فهي مرتبطة بنظام انعكاس أشعة الشمس عليها وانتهاء الأشعة إلى صلابة وجه الأرض حتى تكون الظلال واقعة على الأرض وُقوعَ الساجد ، فإذا كان من الناس من يأبى السجود لله أو يتركه اشتغالاً عنه بالسجود للأصنام فقد جعل الله مثاله شاهداً على استحقاق الله السجود إليه شهادة رمزية .

ولو جعل الله الشمس شمسين متقابلتين على السواء لانعدمت الظلال ، ولو جعل وجه الأرض شفافاً أو لامعاً كالماء لم يظهر الظل عليه بيّنا .

فهذا من رموز الصنعة التي أوجدها الله وأدقّها دقة بديعة .

وجعل نظام الموجودات الأرضية مهيئة لها في الخلقة لحكم مجتمعة ، منها : أن تكون رموزاً دالّة على انفراده تعالى بالإلهية ، وعلى حاجة المخلوقات إليه ، وجعل أكثرها في نوع الإنسان لأن نوعه مختص بالكفران دون الحيوان .

والغرض من هذا الاستدلال الرمزي التنبيه لدقائق الصنع الإلهي كيف جاء على نظام مطّرد دال بعضه على بعض ، كما قيل :

وفي كل شيء له آية تدلّ

على أنه الواحد . . .

والاستدلال مع ذلك على أن الأشياء تسجد لله لأن ظلالها واقعة على الأرض في كل مكان وما هي مساجد للأصنام وأن الأصنام لها أمكنة معينة هي حماها وحريمها وأكثر الأصنام، في البيوت مثل : العزى وذي الخلصة وذي الكعبات حيث تنعدم الظلال في البيوت .

وهذه الآية موضع سجود من سجود القرآن، وهي السجدة الثانية في ترتيب المصحف باتفاق الفقهاء .

ومن حكمة السجود عند قراءتها أن يضع المسلم نفسه في عداد ما يسجد لله طوعاً بإيقاعه السجود .

وهذا اعتراف فعلي بالعبودية لله تعالى .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السماوات والأرض قُلِ الله قُلْ أفاتخذتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ﴾

(168/409)

لما نهضت الأدلة الصريحة بمظاهر الموجودات المتنوعة على انفراده بالإلهية من قوله : ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ﴾ [سورة الرعد : 2] وقوله : ﴿ وهو الذي

مدّ الأرض ﴾ [سورة الرعد : 3] وقوله : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ [سورة الرعد : 8] وقوله : ﴿ هو الذي يريكم البرق ﴾ [سورة الرعد : 12] الآيات ، وبما فيها من دلالة رمزية دقيقة من قوله : ﴿ له دعوة الحق ﴾ [سورة الرعد : 14] وقوله : ﴿ ولله يسجد من في السماوات ﴾ [سورة الرعد : 15] إلى آخرها لا جرم تهيّأ المقام لتقرير المشركين تقريراً لا يجدون معه عن الإقرار مندوحة ، ثم لتقريعهم على الإشراك تقريعاً لا يسعهم إلاّ تجرّع مرارته ، لذلك استؤنف الكلام وافتتح بالأمر بالقول تنويهاً بوضوح الحجة .

ولكون الاستفهام غير حقيقي جاء جوابه من قِبَل المستفِهم .

وهذا كثير في القرآن وهو من بديع أساليبه ، كقوله : ﴿ عم يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ [سورة النبأ : 1 2] .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ﴾ في سورة الأنعام (12) .

وإعادة فعل الأمر بالقول في قل أفاتخذتم من دونه أولياء ﴾ الذي هو تفريع على الإقرار بأن الله ربّ السماوات والأرض لقصد الاهتمام بذلك التفريع لما فيه من الحجة الواضحة .

فالاستفهام تقرير وتوبيخ وتسفيه لرأيهم بناءً على الإقرار المسلّم .

وفيه استدلال آخر على عدم أهلية أصنامهم للإلهية فإن اتخاذهم أولياء من دونه معلوم لا

يحتاج إلى الاستفهام عنه .

وجملة ﴿ لا يملكون ﴾ صفة ل ﴿ أولياء ﴾ ، والمقصود منها تنبيه السامعين للنظر في تلك الصفة فإنهم إن تدبروا علموها وعلموا أن من كانت تلك صفته فليس بأهل لأن يعبد .

ومعنى الملك هنا القدرة كما في قوله تعالى : ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴾ في سورة العقود (76) .

وفي الحديث : أوَ أمْلِك لك أنْ نزع الله من قلبك الرحمة .

وعطف الضر على النفع استقصاء في عجزهم لأن شأن الضرّ أنه أقرب للاستطاعة وأسهل .

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظلمات والنور ﴾

إعادة الأمر بالقول للاهتمام الخاصّ بهذا الكلام لأن ما قبله إبطال لاستحقاق آلهتهم العبادة .

وهذا إظهار لمزية المؤمنين بالله على أهل الشرك ، ذلك أن قوله : ﴿ قل من رب السماوات والأرض قل الله ﴾ تضمّن أن الرسول عليه السلام دعا إلى إفراد الله بالربوبية وأن

المخاطبين أثبتوا الربوبية للأصنام فكان حالهم وحاله كحال الأعمى والبصير وحال الظلمات والنور .

ونفي التسوية بين الحالين يتضمن تشبيهاً بالحالين وهذا من صيغ التشبيه البليغ .

و ﴿ أم ﴾ للإضراب الانتقالي في التشبيه .

فهي لتشبيه آخر بمنزلة ﴿ أو ﴾ في قول لبيد :

أَوْ رَجْعُ واشمة أسف نؤورها

وقوله تعالى : ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ .

وأظهر حرف ﴿ هل ﴾ بعد ﴿ أم ﴾ لأن فيه إفادة تحقيق الاستفهام .

وذلك ليس مما تغني فيه دلالة ﴿ أم ﴾ على أصل الاستفهام ولذلك لا تظهر الهمزة بعد ﴿ أم ﴾ اكتفاء بدلالة ﴿ أم ﴾ على تقدير استفهام .

وجمع الظلمات وإفراد النور تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ في أول سورة الأنعام (1) .

واختير التشبيه في المتقابلات العَمَى والبصر ، والظلمة والنور ، لتمام المناسبة لأن حال المشركين أصحاب العمى كحال الظلمة في انعدام إدراك المبصرات ، وحال المؤمنين كحال البصر في العلم وكحال النور في الإفاضة والإرشاد .

وقرأ الجمهور تستوى الظلمات ﴾ بفوقية في أوله مراعاة لتأنيث الظلمات .

وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بتحتية في أوله وذلك وجه في الجمع غير المذكر السالم. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(170/409)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (15) ﴾

(171/409)

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يسجد له أهل السموات والأرض طوعاً وكرهاً وتسجد له ظلالهم بالغدو والآصال. وذكر أيضاً سجود الظلال، وسجود أهل السموات والأرض في قوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ اليمين والشمآئل سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مِن دَآبَّةٍ والملائكة وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : 48-49] إلى قوله ﴿ يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : 50] واختلف

العلماء في المراد بسجود الظل وسجود غير المؤمنين فقال بعض العلماء سجود من في السموات والأرض من العام المخصوص فالمؤمنون والملائكة يسجدون لله سجوداً حقيقياً وهو وضع الجبهة على الأرض يفعلون ذلك طوعاً والكفار يسجدون كرهاً أعني المنافقين لأنهم كفار في الباطن ولا يسجدون لله إلا كرهاً كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قامُوا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَآءُونَ الناس ﴾ [النساء : 142] الآية وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصلاة إِلاَّ وَهُمْ كسالى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة : 54] والدليل على أن سجود أهل السموات والأرض من العلم المخصوص ، قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ [الحج : 18] . فقوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ دليل على أن بعض الناس غير داخل في السجود المذكور وهذا قول الحسن وقتادة وغيرهما وذكره الفراء وقيل الآية عامة والمراد بسجود المسلمين طوعاً انقيادهم لما يريد الله منهم طوعاً والمراد بسجود الكافرين كرهاً انقيادهم لما يريد الله منهم

كرهاً لأن إرادته نافذة فيهم وهم منقادون خاضعون لصنعه فيهم ونفوذ مشيئته فيهم

وأصل السجود في لغة العرب الذل والخضوع ومنه قول زيد الخيل :

يجمع فضل البلق في حجراته . . . ترى الأكم فيها سجداً للحوافر

ومنه قول العرب أسجد إذا طأطأ رأسه وانحنى قال حميد بن ثور :

فلما لوين على معصم . . . وكف خضيب وأسوارها

فضول أزمتها أسجدت . . . سجود النصارى لأحبارها

وعلى هذا القول فالسجود لغوي لا شرعي ، وهذا الخلاف المذكور جار أيضاً في سجود الضلال فقيل سجودها حقيقي والله تعالى قادر على أن يخلق لها إدراكاً تدرك به وتسجد لله سجوداً حقيقياً وقيل سجودها مليها بقدرة الله أول النهار إلى جهة المغرب وآخره إلى جهة المشرق وادعى من قال هذا أن الظل لا حقيقة له لأنه خيال فلا يمكن منه الإدراك .

ونحن نقول : إن الله جل وعلا قادر على كل شيء فهو قادر على أن يخلق للظل إدراكاً يسجد به لله تعالى سجوداً حقيقياً والقاعدة المقررة عند علماء الأصول هي حمل نصوص الوحي على ظواهرها إلا بدليل من كتاب أو سنة ولا يخفى أن حاصل القولين : -

أن أحدهما : أن السجود شرعي وعيه فهو في أهل السموات والأرض من العام المخصوص :

والثاني : أن السجود لغوي بمعنى الانقياد والذل والخضوع وعليه فهو باق على عمومه

والمقرر في الأصول عند المالكية والحنابلة وجماعة من الشافعية أن النص إن دار بين الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية حمل على الشرعية وهو التحقيق خلافاً لأبي حنيفة في تقديم اللغوية ولمن قال يصير اللفظ مجملاً لاحتمال هذا وذاك وعقد هذه المسالة صاحب مراقي السعود بقوله : –

واللفظ محمول على الشرعي . . . إن يكن فمطلق العرفي

فاللغوي على الجلي ولم يجب . . . بحث عن المجاز في الذي انتخب

(173/409)

وقيل المراد بسجود الكفار كرها سجود ظلالهم كرهاً وقيل الآية في المؤمنين فبعضهم يسجد طوعاً لخفة امتثال أوامر الشرع عليه وبعضهم يسجد كرهاً لثقل مشقة التكليف عليه مع أن إيمانه يحمله على تكلف ذلك والعلم عند الله تعالى :

وقوله تعالى : ﴿ بالغدو ﴾ يحتمل أن يكون مصدراً أو يحتمل أن يكون كمع غداة والآصال جمع اصل بضمتين وهو جمع أصيل وهو ما بين العصر والغروب ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي

:

لعمري لأنت البيت أكرم أهله . . . وأقعد في أفيائه بالأصائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(174/409)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (15) ﴾

والسجود كما نعرفه حركة من حركات الصلاة ، والصلاة هي وَقْفة العبد بين يدي ربه بعد ندائه له ، والصلاة أقوال وأفعال مُبْتدأة بالتكبير ومُخْتتمة بالسلام ؛ بفرائض وسنن ومستحبات مخصوصة .

والسجود هو الحركة التي تُبرِز كاملَ الخضوع لله ؛ فالسجود وَضْع لأعلى ما في الإنسان في مُسْتوى الأدنى وهو قَدمَ الإنسان ؛ ونجد العامة وهُمْ يقولون : "لا ترفع رأسك عليَّ" أي : لا تتعالى عليّ ، لأن رَفْع الرأس معناه التعالي ، وتخفيضها بالركوع أو السجود هو إظهارٌ للخضوع ، فإذا قال الله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض . . . ﴾ [الرعد : 15]

عليك أن تفهم أن هذا ما يحدث فعلاً ؛ وإنْ لم يتسع ذِهْنك إلى فَهْم السجود كما يحدث منك ؛ فليتسع ظنُّك على أنه مُنْتهى الخضوع والذّلة لله الآمر .

وأنت تعلم أن الكون كله مُسخَّر بأمر الله ولأمر الله ، والكون خاضع له سبحانه ؛ فإن استجاب الإنسان لأمر الله بالإيمان به فهذا خير . وإنْ لم يستجب الإنسان مثلما يفعل الكافر فعليه سُوء عمله .

ولو استقصيتَ المسألة بدقّة الفَهْم ؛ لوجدتَ أن الكافر إنما يتمرد بإرادته المُسَيطرة على جوارحه ؛ لكن بقية أبعاضه مُسخرة ؛ وكلها تؤدي عملها بتسخير الله لها ، وكلها تُنفّذ الأوامر الصادرة من الله لها ؛ وهكذا يكون الكافر مُتمرداً ببعضه ومُسخَّراً ببعضه الآخر ، فحين يُمرِضه الله ؛ أيستطيع أنْ يعصي ؟

طبعاً لا . وحين يشاء الله أن يُوقِف قلبه أيقدر أن يجعل قلبه يخالف مشيئة الله ؟ طبعاً لا .

إذن : فالذي يتعوّد على التمرد على الله في العبادة ؛ وله دُرْبة على هذا التمرد ؛ عليه أن يُجرِّب التمرد على مرادات الله فيما لا اختيار له فيه ؛ وسيقابل العجز عن ذلك .

وعليه أنْ يعرف أنه لم يتمرد بالكفر إلا بما أوسع الله له من اختيار ؛ بدليل أن تسعة وتسعين بالمائة من قُدراته محكوم بالقهر ؛ وواحد بالمائة من قدراته متروك للاختيار ، وهكذا يتأكد التسخير .

وخضوع الكافر في أغلب الأحيان ؛ وتمرّده في البعض الآخر ؛ هو مُنْتهى العظمة لله ؛ فهو لا يجرؤ على التمرد بما أراده الله مُسخَّراً منه .

ولقائل أن يقول : ولماذا قال الله هنا : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض . . . ﴾ [الرعد : 15]

ولم يقُلْ : " ما في السماوات وما في الأرض " ؟

وأقول : مادام في الأمر هنا سجود ؛ فهو دليل على قِمّة العقل ؛ وسبحانه قد جعل السجود هنا دليلاً على أنّ كافة الكائنات تعقل حقيقة الألوهية ؛ وتعبد الحق سبحانه .

وهو هنا يقول : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً . . . ﴾ [الرعد : 15]

وهنا يُعلمنا الحق سبحانه أن كل الكائنات ترضخ لله سجوداً ؛ سواء المُسَخَّر ؛ أو حتى أبعاض الكافر التي يستخدمها بإرادته في الكفر بالله ؛ هذه الأبعاض تسجد لله .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ . . . وَظِلالُهُم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد : 15]

ونحن في حياتنا اليومية نسمع مَنْ يقول : " فلان يَتْبع فلاناً كَظِله " ؛ أي : لا يتأبى عليه أبداً

مطلقاً ، ويلازمه كأنه الظل ؛ ونعلم أن ظِلَّ الإنسان تابعٌ لحركته .

وهكذا نعلم أن الظِّلال نفسها خاضعة لله ؛ لأن أصحابها خاضعون لله ؛ فالظل يتبع حركته ؛ وإياك أنْ تظنَّ أنه خاضع لك ؛ بل هو خاضع لله سبحانه .

وسبحانه هنا يُحدِّد تلك المسألة بالغُدوِّ والآصال ؛ و " الغدو " جمع " غداة " وهو أول النهار ، والآصال هو المسافة الزمنية بين العصر والمغرب .

(176/409)

وأنت حين تقيس ظِلَّك في الصباح ستجد الظِّل طويلاً ، وكلما اقتربت من الشمس طال الظل ، وكلما اقترب الزوال يقصرُ الظلُّ إلى أنْ يتلاشى ؛ وأبرز ما يتمايل الظل بتمايل صاحبه هو في الصبح وبعد العصر . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير الشعراوى صـ ﴾

(177/409)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ ﴿ الرعد : 15 ﴾ ، وفي سورة النحل : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ ﴿ النحل : 49 ﴾ فيها سؤلان : خصوص آية الرعد ((بمن)) وآية النحل ((بما)) ، وزيادة قوله : ((والملائكة)) ولم يرد ذلك في سورة الرعد ؟

والجواب عن الأول : أن ورود ((من)) في سورة الرعد لا سؤال فيه ، فإن قبول الأوامر وامتثال الطاعات بالقصد والاختيار بمشيئة الله سبحانه إنما يكون من أصحاب العقول وهو الملائكة والإنس والجن ، وهم المقصودون في الآية ، فوردت ((بمن)) الواقعة على العقلاء ، لهذا قيل : ((طوعاً وكرهاً)) لأن ذلك إنما (يكون) ويستوضح من العاقل ، فالآية واردة على ما ينبغي . وأما آية النحل فمراعي فيها لفظ ((دابة)) الوارد فهيا إذ هو عام للعاقل وغيره ، فوردت الآية ((بما)) الواقعة على الأنواع والأجناس مناسبة لما تقدم من الإطلاق والعموم .

والجواب عن السؤال الثاني : أن قوله تعالى في آية النحل : ((والملائكة)) تخصيص لهم لجليل حالهم ، فعينوا بالذكر مع دخولهم في العموم المتقدم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ ﴿ البقرة : 98 ﴾ مع دخولهما تحت لفظ الملائكة . ثم أكد الوارد في آية النحل ما ورد فيها من لفظ دابة .

فإن قلت : لِمَ لَمْ يخصصوا بالذكر في آية الرعد ؟ قلت : لأنه لم يقع هناك لفظ دابة الذي هو

الموجب لتعيين الملائكة وتخصيصهم بالذك، فكر على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ملاك التأويل صـ 279.278﴾

(178/409)

" فصل "

قال السيوطى:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (15) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر، عن مجاهد - رضي الله عنه - ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدوّ والآصال ﴾ قال: ظل المؤمن يسجد ﴿ طوعاً ﴾ وهو طائع لله، وظل الكافر يسجد ﴿ كرهاً ﴾ وهو كاره.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة - رضي الله عنه - ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ قال: أما المؤمن، فيسجد طائعاً. وأما الكافر، فيسجد كارهاً، يسجد ظله.

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد - رضي الله عنه - في الآية قال: الطائع، المؤمن. والكاره،

ظل الكافر .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن - رضي الله عنه - في الآية قال : يسجد من في السموات طوعاً ، ومن في الأرض ، طوعاً وكرهاً .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد - رضي الله عنه - في الآية قال : من دخل طائعاً ، هذا طوعاً . وكرهاً : من لم يدخل إلا بالسيف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن منذر قال : كان ربيع بن خيثم إذا سجد في سجدة الرعد قال : بل طوعاً يا ربنا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ وظلالهم بالغدوّ والآصال ﴾ يعني حين يفيء ظل أحدهم عن يمينه أو شماله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وظلالهم بالغدوّ والآصال ﴾ قال : ذكر لنا أن ظلال الأشياء كلها تسجد لله ، وقرأ ﴿ سجداً لله وهم داخرون ﴾ [سورة النحل : 48] قال : تلك الظلال تسجد لله .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وظلالهم بالغدوّ والآصال ﴾ قال : ظل الكافر يصلي وهو لا يصلي .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك – رضي الله عنه – في الآية قال : إذا طلعت الشمس ، يسجد ظل كل شيء نحو المغرب . فإذا زالت الشمس ، سجد ظل كل شيء نحو المشرق حتى تغيب .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن – رضي الله عنه – أنه سئل عن قوله ﴿ وظلالهم ﴾ قال : ألا ترى إلى الكافر ؟ فإن ظلاله جسده كله أعضاؤه لله مطيعة غير قلبه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(180/409)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (15) ﴾

قوله تعالى : ﴿ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ : إمَّا مفعولٌ مِنْ أجله ، وإمَّا حال ، أي : طائِعين وكارهين ، وإمَّا منصوبٌ على المصدر المؤكِّد بفعلٍ مضمر . وقرأ أبو مِجْلَز : " والإِيصال " بالياء قبل

الصاد . وخرّجها ابنُ جني على أنه مصدرٌ "آصَلَ" كضارَبَ ، أي : دَخل في الأصيل ، كأصْبَح ، أي : دخل في الصباح .

و" ظلالُهم " عطف على " مَنْ " . و " بالغُدُوِّ " متعلّقٌ بيَسْجُد ، والباء بمعنى في ، أي : في هذين الوقتين . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 36 . 37﴾

(181/409)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى كره)

الكَرْه والكُرْه - بالفتح والضمّ - : الإِباءُ ، والمشقَّة .

وقيل : الكُرْه - بالضمِّ - : ما أَكرهت نفسك عليه ، والكَره - بالفتح - : ما أَكرهوك عليه .

كَرِهَه - بالكسر - كَرْهاً وكُرْهاً وكَرَاهةً وكَرَاهِيةً - بالتخفيف - ومَكْرَهة ومَكْرَها .

وشىء كَرْه وكَرِيه أَى مكروه .

وكرّهه إِليه : صيّره كرِيهاً .

وقيل: الكُره على ضربين: أَحدهما: ما يعافه (من حيث) الطَّبع، والثانى: ما يعافه من حيث العقل والشرع.

ولهذا يصحّ أَن يقال فى الشىء الواحد: أُريده وأَكرهه، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أَى تكرهونه طبعاً، ثم قال: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وبيّن به أَنه لا يجب للإِنسان أَن يعتبر كراهيته للشىء أَو محبّته له حتَّى يعلم حاله.

وقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تنبيه أَن أَكل لحم الأَخ شىء قد جُبل الطَّبعُ على كراهته له، وإِن تحرّاه الإِنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَآءِ﴾ نهى عن حملهن على ما فيه كَرْه وكُرْه.

وقوله: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، قيل: منسوخ، وإِنه كان فى أَوّل / الأَمر كان يُعرض الإِسلام على المرءِ، فإِن أَجاب وإِلاَّ تُرك.

وقيل: إِنّ ذلك فى أَهل الكتاب، (فإِنهم إِنْ أَدّوا الجزية والتزموا الشرائط تُركوا).

وقيل: معناه لا حكم لمن أُكره على دين باطل، فاعترف به ودخل فيه، كما قال: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾.

وقيل معناه: لا اعتداد فى الآخرة بما يفعله الإِنسان من الطَّاعة كرهاً، فإِنّ الله تعالى عليم بالسَّرائر، ولا يرضى إِلاَّ الإِخلاص.

وقيل معناه : لا يُحمل الإنسان على أمر مكروه فى الحقيقة ممّا يكلّفهم الله ، بل يُحملون على نعم الأبد .

قال صلّى الله عليه وسلّم : "عجِب ربُّك من قوم يُقادون إلى الجنّة بالسّلاسل" .

وقيل : الدّين هنا بمعنى الجزاء ، أى أنه ليس بمكره على الجزاءِ ، بل يفعل ما يشاءُ بمن يشاءُ كما يشاءُ .

وقوله : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ قيل : من فى السّماوات طوعاً ، ومن فى الأرض كرهاً ، أى الحجة أكرهتهم وألجأتهم ، وليس هذا من الكره المذموم .

وقيل معناه : أسلم المؤمنون طوعاً والكافرون كرهاً .

وقال قتادة : أسلم المؤمنون له طوعاً والكافرون كرهاً عند الموت حيث قال : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ وقيل : عنى بالكره من قوتل وألجئ إلى أن يؤمن .

قال أبو العالية ومجاهد : إنّ كلاًّ أقرّ بخلقه إياهم وإنْ أشركوا معه ، كقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ .

وقال ابن عباس : أسلموا بأحوالهم المنبئة عنهم ، وإن كفر بعضهم بمقالتهم ، ذلك هو الإسلام فى الذَّرْءِ الأوّل حيث قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ، وذلك هو دلائلهم الّتى فُطِرُوا

عليها من العقل المقتضى لأن يسلموا ، وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ .

وقال بعض المحقّقين : من أسلم طوعاً هو الذى طالع المثيب والمعاقِب ، لا الثواب والعقاب فأسلم له ، ومن أسلم كرها هو الذى طالع الثواب والعقاب ، فإنه أسلم رهبة ورغبة .

ونحو هذه الآية : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ وقوله : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ أى كلفة ومشقّة ، وقوله : ﴿ وَلَاكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ ﴾ أى لم يُرِد .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 346.348 ﴾

(183/409)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (15) ﴾

المؤمن يسجد لله طوعاً ، وإذا نزل به ضر ألجأه إلى أنْ يتواضع ويسجد ، وذلك معنى

سجوده كرهاً – وهذا قول أهل التفسير. والكافر يسجد طائعاً مختاراً، ولكن لمَّا كان سجودُه لطلب كَشْفِ الضرِّ قال تعالى: ﴿ إنه يسجد كرهاً ﴾ على مقتضى هذا كلُّ مَنْ يَسْجُدُ لابتغاءِ عِوَضٍ أو لكشفِ محنة.

ويقال السجود على قسمين: ساجدٌ بنَفْسِه وساجدٌ بقلبه؛ فسجودُ النَّفْسِ معهود، وسجودُ القلب من حيث الوجود.. وفَرْقٌ بين من يكون بنفسه، وواجد بقلبه.

ويقال الكلُّ يسجدون لله؛ إمّا من حيث الأفعال بالاختيار، أو من حيث الأحوال بنعت الافتقار والاستبشار: سجودٌ من حيث الدلالة على الوحدانية؛ فكلُّ جزءٍ من عين أو أثر فَعَلَى الوحدانية شاهدٌ، وعلى هذا المعنى للَّهِ ساجدٌ. وسجود من حيث الشهادة على قدرة الصانع واستحقاقه لصفات الجلال. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 222﴾

(184/409)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وِيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء العاشر بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء العاشر بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 16 ﴾ من سورة الرعد

وحتى الآية ﴿ 18 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما تبين قطعاً أنه سبحانه المدبر للسماوات والأرض القاهر لمن فيهما ، وتبين قطعاً أنه المختص بربوبيتهما فأمره تعالى أن يوجه السؤال نحوهم عن ذلك – ردّاً على عبدة الأصنام وغيرهم من الملحدين – بقوله : ﴿ قل ﴾ أي بعد أن أقمت هذه الأدلة القاطعة ، مقرراً لهم ﴿ من رب ﴾ أي موجد ومدبر ﴿ السماوات والأرض ﴾ أي وكل ما فيهما .

ولما مضى في غير آية أنهم معترفون بربوبيته مقرون بخلقه ورزقه ثم لم يزعهم ذلك عن الإشراك ، جعلوا هنا كأنهم منكرون لذلك عناداً ، فلم ينتظر جوابهم بل أمره أن يجيبهم بما يجيبون به ، إشارة إلى أنهم لا يتحاشون من التناقض في اتباع الهوى ولا تصونهم عقولهم الجليلة وآراؤهم الأصلية – بزعمهم – عن التساقط في مهاوي الردى ، فقال : ﴿ قل الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ، فثبت حينئذ أن لا ولي إلا هو ، فتسبب عن ذلك توجه

الإنكار عليهم في اعتماد غيره ، فأمره بالإنكار في قوله : ﴿ قل أفاتخذتم ﴾ أي فتسببتم عن انفراده بربوبيتكم أن أوجدتم الأخذ بغاية الرغبة ، فتسببتم الإشراك عما يجب أن يكون سبب التوحيد ، وبين سفول رتبتهم بقوله : ﴿ من دونه أولياء ﴾ لا يساوونكم في التسبب في الضر والنفع ، بل ﴿ لا يملكون لأنفسهم ﴾ فكيف بغيرهم ﴿ نفعاً ﴾ ونكره ليعم ، وقدمه لأن السياق لطلبهم منهم ، والإنسان إنما يطلب ما ينفعه .

(5/410)

ولما كان من المعلوم أنه لا قدرة لأحد على أن يؤثر في آخره أثراً لا يقدر على مثله في نفسه قال : ﴿ ولا ضرّاً ﴾ فثبت أن من سواهم بالله أضل الضالين ، لأنه يلزمه أن يسوي بين المتضادات ، فكان معنى قوله : ﴿ قل هل يستوي ﴾ والاستواء : استمرار الشيء في جهة واحده ﴿ الأعمى ﴾ في عينه أو في قلبه ﴿ والبصير ﴾ كذلك ﴿ أم هل تستوي ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ الظلمات والنور ﴾ : هل أدتهم عقولهم إلى أن سووا بين هذه المتضادات الشديدة الظهور لغباوة أو عناد حتى سووا من يخلق بمن لا يخلق ، فجعلوا له شريكاً كذلك لغباوة أو عناد ﴿ أم جعلوا لله ﴾ أي الذي له مجامع العظمة ﴿ شركاء ﴾ ثم بين ما يمكن أن يكون به الشركة ، فقال واصفاً لهم : ﴿ خلقوا كخلقه ﴾ وسبب عن ذلك قوله :

﴿ فتشابه ﴾ والتشابه : التشاكل بما يلتبس حتى لا يفصل فيه بين أحد الشيئين والآخر ﴿ الخلق عليهم ﴾ فكان ذلك الخلق الذي خلقه الشركاء سبب عروض شبهة لهم ، وساق ذلك في أسلوب الغيبة إعلاماً بأنهم أهل للإعراض عنهم ، لكونهم في عداد البهائم لقولهم ما لا يعقل بوجه من الوجوه ، وهذا قريب مما يأتي قريباً في قوله : ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ [الرعد : 33] .

أي بشبهة يكون فيها نوع ظهور لبعض الأذهان .

ولما كان من المعلوم قطعاً أن جوابهم أن الخلق كله لله .

(6/410)

ولم يمنعهم ذلك من تأله سواه ، أمره أن يجيبهم معرضاً عن جوابهم فقال ﴿ قل الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ خالق كل شيء ﴾ إشارة إلى أنهم في أحوالهم كالمنكر لذلك عناداً أو خرقاً لسياج الحياء وهتكاً لجلباب الصيانة ، وإذ قد ثبت أنه المنفرد بالخلق وجب أن يفرد بالتأله فقال : ﴿ وهو الواحد ﴾ الذي لا يجانسه شيء ، وكل ما سواه لا يخلو عن مجانس يماثله ، وأين رتبة من يماثل من رتبة من لا مثل له ﴿ القهار ﴾ الذي كل شيء تحت قهره بأنفسهم وظلالهم ، وهو القادر بما لا يمكن أن يغلبه غالب وهو لكل شيء غالب ، وهذا

إشارة - كما مضى في مثله غير مرة في سورة يوسف وغيرها - إلى برهان التمانع ، فإن أربابهم متعددون ، فلو كانت لهم حياة وكانوا متصرفين في الملك لأمكن بينهم تمانع وكان كل منهم معرضاً لأن يكون مقهورا ، فكيف وهم جماد ! فثبت قطعاً أنه لا شيء منهم يصلح للإلهية على تقدير من التقادير ؛ قال الرماني : والواحد على وجهين : شيء لا ينقسم أصلاً ، وشيء لا ينقسم في معنى كالدنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 138 . 139﴾

(7/410)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن كل من في السموات والأرض ساجد له بمعنى كونه خاضعاً له ، عاد إلى الرد على عبدة الأصنام فقال : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السموات والأرض قُلِ الله﴾ ولما كان هذا الجواب جواباً يقر به المسؤول ويعترف به ولا ينكره أمره صلى الله عليه وسلم أن يكون

هو الذاكر لهذا الجواب تنبيهاً على أنهم لا ينكرونه ألبتة ولما بين أنه سبحانه هو الرب لكل الكائنات قال : قل لهم فلم اتخذتهم من دون الله أولياء وهي جمادات وهي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً ولما كانت عاجزة عن تحصيل المنفعة لأنفسها ودفع المضرة عن أنفسها ، فبأن تكون عاجزة عن تحصيل المنفعة لغيرها ودفع المضرة عن غيرها كان ذلك أولى ، فإذا لم تكن قادرة على ذلك كانت عبادتها محض العبث والسفه ، ولما ذكر هذه الحجة الظاهرة بين أن الجاهل بمثل هذه الحجة يكون كالأعمى والعالم بها كالبصير ، والجهل بمثل هذه الحجة كالظلمات ، والعلم بها كالنور ، وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوي البصير ، والظلمة لا تساوي النور كذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوي العالم بها .

(8/410)

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وعمرو عن عاصم ﴿يَسْتَوِى الظلمات والنور﴾ بالياء ، لأنها مقدمة على اسم الجمع والباقون بالتاء ، واختاره أبو عبيدة ثم أكد هذا البيان فقال : ﴿أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ﴾ يعني هذه الأشياء التي زعموا أنها شركاء لله ليس لها خلق يشبه خلق الله حتى يقولوا إنها تشارك الله في الخالقية ،

فوجب أن تشاركه في الإلهية ، بل هؤلاء المشركون يعلمون بالضرورة أن هذه الأصنام لم يصدر عنها فعل ألبتة ، ولا خلق ولا أثر ، وإذا كان الأمر كذلك كان حكمهم بكونها شركاء لله في الإلهية محض السفه والجهل .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن أصحابنا استدلوا بهذه الآية في مسألة خلق الأفعال من وجوه .

الأول : أن المعتزلة زعموا أن الحيوانات تخلق حركات وسكنات مثل الحركات والسكنات التي يخلقها الله تعالى ، وعلى هذا التقدير فقد جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، ومعلوم أن الله تعالى إنما ذكر هذه الآية في معرض الذم والإنكار .

فدلت هذه الآية على أن العبد لا يخلق فعل نفسه .

قال القاضي : نحن وإن قلنا : إن العبد يفعل ويحدث ، إلا أنا لا نطلق القول بأنه يخلق ولو أطلقناه لم نقل إنه يخلق كخلق الله ، لأن أحدنا يفعل بقدرة الله ، وإنما يفعل لجلب منفعة ودفع مضرة ، والله تعالى منزه عن ذلك كله ، فثبت أن بتقدير كون العبد خالقاً ، إلا أنه لا يكون خلقه كخلق الله تعالى ، وأيضاً فهذا الإلزام لازم للمجبرة ، لأنهم يقولون عين ما هو خلق الله تعالى فهو كسب العبد وفعل له ، وهذا عين الشرك لأن الإله والعبد في خلق تلك الأفعال بمنزلة الشريكين اللذين لا مال لأحدهما إلا وللآخر فيه حق .

وأيضاً فهو تعالى إنما ذكر هذا الكلام عيباً للكفار وذماً لطريقتهم، ولو كان فعل العبد خلقاً لله تعالى لما بقي لهذا الذم فائدة، لأن للكفار أن يقولوا على هذا التقدير إن الله سبحانه وتعالى لما خلق هذا الكفر فينا فلم يذمنا عليه ولا ينسبنا إلى الجهل والتقصير مع أنه قد حصل فينا لا بفعلنا ولا باختيارنا.

والجواب عن السؤال الأول: أن لفظ الخلق إما أن يكون عبارة عن الإخراج من العدم إلى الوجود، أو يكون عبارة عن التقدير، وعلى الوجهين فبتقدير أن يكون العبد محدثاً فإنه لا بد وأن يكون حادثاً.

أما قوله: والعبد وإن كان خالقاً إلا أنه ليس خلقه كخلق الله.

قلنا: الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين والإخراج من العدم إلى الوجود، ومعلوم أن الحركة الواقعة بقدرة العبد لما كانت مثلاً للحركة الواقعة بقدرة الله تعالى، كان أحد المخلوقين مثلاً للمخلوق الثاني، وحينئذ يصح أن يقال: إن هذا الذي هو مخلوق العبد مثل لما هو مخلوق لله تعالى بل لا شك في حصول المخالفة في سائر الاعتبارات، إلا أن حصول المخالفة في سائر الوجوه لا يقدح في حصول المماثلة من هذا الوجه وهذا القدر يكفي في الاستدلال.

وأما قوله هذا لازم على المجبرة حيث قالوا : إن فعل العبد مخلوق لله تعالى ، فنقول هذا غير لازم ، لأن هذه الآية دالة على أنه لا يجوز أن يكون خلق العبد مثلاً لخلق الله تعالى ، ونحن لا نثبت للعبد خلقاً ألبتة ، فكيف يلزمنا ذلك ؟ وأما قوله : لو كان فعل العبد خلقاً لله تعالى ، لما حسن ذم الكفار على هذا المذهب .

قلنا : حاصله يرجع إلى أنه لما حصل المدح والذم وجب أن يكون العبد مستقلاً بالفعل ، وهو منقوض ، لأنه تعالى ذم أبا لهب على كفره مع أنه عالم منه أنه يموت على الكفر ، وقد ذكرنا أن خلاف المعلوم محال الوقوع ، فهذا تقرير هذا الوجه في هذه الآية .

(10/410)

وأما الوجه الثاني : في التمسك بهذه الآية قوله : ﴿ قُلِ الله خالق كُلّ شَىْء ﴾ ولا شك أن فعل العبد شيء فوجب أن يكون خالقه هو الله وسؤالهم عليه ما تقدم .

والوجه الثالث : في التمسك بهذه الآية وقوله : ﴿ وَهُوَ الواحد القهار ﴾ وليس يقال فيه أنه تعالى واحد في أي المعاني ، ولما كان المذكور السابق هو الخالقية وجب أن يكون المراد هو الواحد في الخالقية ، القهار لكل ما سواه ، وحينئذ يكون دليلاً أيضاً على صحة قولنا .

المسألة الثانية :

زعم جهم أن الله تعالى لا يقع عليه اسم الشيء .

اعلم أن هذا النزاع ليس إلا في اللفظ وهو أن هذا الاسم هل يقع عليه أم لا ، وزعم أنه لا يقع هذا الاسم على الله تعالى واحتج عليه بأنه لو كان شيئاً لوجب كونه خالقاً لنفسه ، لقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ولما كان ذلك محالاً ، وجب أن لا يقع عليه اسم الشيء ، ولا يقال : هذا عام دخله التخصيص ، لأن العام المخصوص إنما يحسن إذا كان المخصوص أقل من الباقي وأخس منه كما إذا قال : أكلت هذ الرمانة مع أنه سقطت منها حبات ما أكلها ، وههنا ذات الله تعالى أعلى الموجودات وأشرفها ، فكيف يمكن ذكر اللفظ العام الذي يتناوله مع كون الحكم مخصوصاً في حقه ؟

والحجة الثانية : تمسك بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] والمعنى : ليس مثل مثله شيء ، ومعلوم أن كل حقيقة فإنها مثل مثل نفسها ، فالباري تعالى مثل مثل نفسه ، مع أنه تعالى نبه على أن مثل مثله ليس بشيء ، فهذا تنصيص على أنه تعالى غير مسمى باسم الشيء .

والحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى فادعوه بِهَا﴾ [الأعراف: 180] دلت هذه الآية على أنه لا يجوز أن يدعى الله إلا بالأسماء الحسنى، ولفظ الشيء يتناول أخس الموجودات، فلا يكون هذا اللفظ مشعراً بمعنى حسن، فوجب أن لا يكون هذا اللفظ من الأسماء الحسنى، فوجب أن لا يجوز دعاء الله تعالى بهذا اللفظ، والأصحاب تمسكوا في إطلاق هذا الاسم عليه تعالى بقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شهادة قُلِ الله شَهِيدٌ بِيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 19].

وأجاب الخصم عنه: بأن قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شهادة﴾ سؤال متروك الجواب، وقوله: ﴿قُلِ الله شَهِيدٌ بِيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ كلام مبتدأ مستقل بنفسه لا تعلق له بما قبله.

المسألة الثالثة:

تمسك المعتزلة بهذه الآية في أنه تعالى عالم لذاته لا بالعلم وقادر لذاته لا بالقدرة.

قالوا: لأنه لو حصل لله تعالى علم وقدرة وحياة، لكانت هذه الصفات إما أن تحصل بخلق الله أو لا بخلقه، والأول باطل وإلا لزم التسلسل، والثاني: باطل لأن قوله: ﴿الله خالق كُلِّ شَىْءٍ﴾ يتناول الذات والصفات حكمنا بدخول التخصيص فيه في حق ذات الله تعالى فوجب أن يبقى فيما سوى الذات على الأصل.

وهو أن يكون تعالى خالقاً لكل شيء سوى ذاته تعالى، فلو كان لله علم وقدرة لوجب كونه تعالى خالقاً لهما وهو محال، وأيضاً تمسكوا بهذه الآية في خلق القرآن.

قالوا : الآية دالة على أنه تعالى خالق لكل الأشياء ، والقرآن ليس هو الله تعالى ، فوجب أن يكون مخلوقاً وأن يكون داخلاً تحت هذا العموم .

والجواب : أقصى ما في الباب أن الصيغة عامة ، إلا أنا نخصصها في حق صفات الله تعالى بسبب الدلائل العقلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 25.28 ﴾

(12/410)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قل من رب السموات والأرض ﴾

أمر الله تعالى نبيه أن يقول لمشركي قريش ﴿ من رب السموات والأرض ﴾ ثم أمره أن يقول لهم :

﴿ قل الله ﴾ إن لم يقولوا ذلك إفهاماً قالوه تقريراً لأنه جعل ذلك إلزاماً .

﴿ قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ﴾ ثم أمره صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذا بعد اعترافهم بالله : أفاتخذتم من دون الخالق المنعم آلهة من أصنام وأوثان فعبدتموها من دونه ، لا يملكون لأنفسهم نفعاً يوصلونه إليها ولا ضراً يدفعونه عنها ، فكيف يملكون لكم نفعاً أو ضراً ؟ وهذا إلزام صحيح .

ثم قال تعالى ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر كالأعمى والبصير ، والهدى والضلالة كالظلمات والنور ، فالمؤمن في هُداه كالبصير يمشي في النور ، والكافر في ضلاله كالأعمى يمشي في الظلمات ، وهما لا يستويان ، فكذلك المؤمن والكافر لا يتسويان ، وهذا من أصح مثل ضربه الله تعالى وأوضح تشبيه .

ثم قال تعالى : ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾ ومعناه أنه لما لم يخلق آلهتهم التي عبدوها خلقاً كخلق الله فيتشابه عليهم خلقُ آلهتهم بخلق الله فلما اشتبه عليهم حتى عبدوها كعبادة الله تعالى ؟

﴿ قل الله خالق كل شيء ﴾ فلزم لذلك أن يعبدوه كل شيء .

﴿ وهو الواحد القهار ﴾ .

وفي قوله ﴿ فتشابه الخلق عليهم ﴾ تأويلان :

أحدهما : فتماثل الخلق عليهم .

الثاني : فأشكل الخلق عليهم ، ذكرهما ابن شجرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ قل : من رب السماوات ﴾ الآية ،

جاء السؤال والجواب في هذه الآية من ناحية واحدة ، إذ كان السؤال والتقرير على أمر واضح لا مدافعة لأحد فيه ملزم للحجة ، فكان السبق إلى الجواب أفصح في الاحتجاج وأسرع في قطعهم من انتظار الجواب منهم ، إذ لا جواب إلا هذا الذي وقع البدار إليه ، وقال مكي : جهلوا الجواب وطلبوه من جهة السائل فأعلمهم به السائل ، فلما تقيد من هذا كله أن الله تعالى هو ﴿ رب السماوات والأرض ﴾ وقع التوبيخ على اتخاذهم ﴿ من دونه أولياء ﴾ متصفين بأنهم لا ينفعون أنفسهم ولا يضرونها ، وهذه غاية العجز ، وفي ضمن هذا الكلام : وتركتموه وهو الذي بيده ملكوت كل شيء ، ولفظة : ﴿ من دونه ﴾ تقتضي ذلك .

ثم مثل الكفار والمؤمنين بعد هذا بقوله : ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم : " تستوي الظلمات " بالتاء ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم : " يستوي " بالياء ، فالتأنيث حسن لأنه مؤنث لم يفصل بينه وبين عامله شيء . والتذكير شائع لأنه تأنيث غير حقيقي ، والفعل مقدم .

وشبهت هذه الآية الكافر ب ﴿ الأعمى ﴾ . والكفر ب ﴿ الظلمات ﴾ وشبهت المؤمن ب ﴿ البصير ﴾ والأيمان ب ﴿ النور ﴾ : ثم وقفهم بعد : هل رأوا خلقاً لغير الله فحملهم ذلك واشتباهه بما خلق الله على أن جعلوا إلهاً غير الله ؟ ثم أمر محمداً عليه السلام بالإفصاح بصفات الله تعالى في أنه ﴿ خالق كل شيء ﴾ وهذا عموم في اللفظ يراد به الخصوص في كل ما هو خلق الله تعالى . قال القاضي ابن الطيب وأبو المعالي وغيرهما من الأصوليين : ويخرج عن ذلك صفات ذاته – لا رب غيره – والقرآن ، ووصف نفسه ب ﴿ الواحد القهار ﴾ من حيث لا موجود إلا به ، وهو في وجوده مستغن عن الموجودات لا إله إلا هو العلي العظيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(14/410)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله ﴾

إِنما جاء السؤال والجواب من جهة ، لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء ، فلما لم ينكروا ، كان كأنهم أجابوا .

ثم ألزمهم الحُجة بقوله : ﴿ قل أفاتخذتم من دونه أولياء ﴾ يعني : الأصنام توليتموهم

فعبدتموهم وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فكيف لغيرهم ؟ ! ثم ضرب مثلاً للذي يعبد الأصنام والذي يعبد الله بقوله : ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ يعني المشرك والمؤمن ﴿ أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾ وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : "تستوي" بالتاء .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "يستوي" بالياء .

قال أبو علي : التأنيث حسنٌ ، لأنه فعل مُؤنثٍ ، والتذكير سائغ ، لأنه تأنيث غير حقيقي .

ويعني بالظلمات والنور : الشركَ والإِيمان .

﴿ أم جعلوا لله شركاء ﴾ قال ابن الأنباري : معناه : أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه خلق الله بخلق هؤلاء ؟ وهذا استفهام إِنكار ، والمعنى : ليس الأمر على هذا ، بل إِذا فكَّروا علموا أن الله هو المنفرد بالخلق ، وغيره لا يخلق شيئاً .

قوله تعالى : ﴿ قل الله خالق كل شيء ﴾ قال الزجاج : قُل ذلك وبيِّنه بما أخبرت به من الدلالة في هذه السورة مما يدل على أنه خالق كل شيء ، وقد ذكرنا في [يوسف : 39] معنى الواحد القهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَبُّ السماوات والأرض ﴾

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين : "قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ" ثم أمره أن يقول (لهم) : هو الله إلزاماً للحجة إن لم يقولوا ذلك ، وجهلوا مَن هو .

﴿ قُلْ أفاتخذتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ هذا يدلّ على اعترافهم بأن الله هو الخالق (وإلا) لم يكن للاحتجاج بقوله : ﴿ قُلْ أفاتخذتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ معنى ؛ دليله قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] أي فإذا اعترفتم فَلِمَ تعبدون غيره ؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضرّ ؛ وهو إلزام صحيح .

ثم ضرب لهم مثلاً فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق ، والمشرك الذي لا يبصر الحق .

وقيل : الأعمى مَثَلٌ لما عبدوه من دون الله ، والبصير مَثَلُ الله تعالى : ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظلمات والنور ﴾ أي الشرك والإيمان .

وقرأ ابن محيصِن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائي "يستوِي" بالياء لتقدم الفعل ؛ ولأن تأنيث "الظلمات" ليس بحقيقي .

الباقون بالتاء ؛ واختاره أبو عبيد ، قال : لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل .

و"الظلمات والنور" مثل الإيمان والكفر ؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك .

﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ ﴾ هذا من تمام الاحتجاج؛ أي خَلَق غير الله مثل خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم.

﴿ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي قل لهم يا محمد: "اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ"، فلزم لذلك أن يعبده كل شيء.

والآية ردّ على المشركين والقَدَرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله.

﴿ وَهُوَ الواحد ﴾ قبل كل شيء.

﴿ القهار ﴾ الغالب لكل شيء، الذي يغلب في مراده كل مريد.

(16/410)

قال القُشَيْريّ أبو نصر: ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع؛ أي سَلْهُم عن خالق السموات والأرض، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم، ويقرب الأمر من الضرورة؛ فإن عَجْز الجماد وعَجْز كل مخلوق عن خلق السموات والأرض معلوم؛ وإذا تقرّر هذا وبَان أن الصانع هو الله فكيف يجوز إعتداد الشريك له؟! وبيّن في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين؟!.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ قل من رب السموات والأرض ﴾

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذي يعبدون غير الله من رب السموات والأرض ، يعني من مالك السموات والأرض ، ومن مدبرهما وخالقهما فسيقولون : الله لأنهم مقرون بأن الله خالق السموات وما فيها ، والأرض ، وما فيها فإن أجابوك بذلك فقل : أنت يا محمد الله رب السموات والأرض .

وقيل : لما قال هذه المقالة للمشركين عطفوا عليه وقالوا أجب أنت فأمره الله أن يجيبهم بقوله ﴿ قل الله ﴾ أي قل يا محمد ﴿ الله ﴾ وقيل : إنما جاء السؤال والجواب من جهة واحدة لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء ، فلما لم ينكروا ذلك وأجاب النبي (صلى الله عليه وسلم) بقوله الله فكأنهم قالوا ذلك أيضاً ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الأصنام بقوله ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد للمشركين ﴿ أفاتخذتم من دونه ﴾ يعني من دون الله ﴿ أولياء ﴾ يعني الأصنام والولي الناصر ، والمعنى توليتم غير رب السموات والأرض واتخذتموهم أنصاراً يعني الأصنام ﴿ لا يملكون ﴾ يعني وهم لا يملكون ﴿ لأنفسهم نفعاً

ولا ضراً ﴾ فكيف لغيرهم .

ثم ضرب الله مثلاً للمشركين الذين يعبدون الأصنام وللمؤمنين الذين يعبدون الله .

(18/410)

فقال تعالى ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ قال ابن عباس : يعني المشرك والمؤمن ﴿ أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾ يعني الشرك والإيمان والمعنى كما لا يستوي الأعمى والبصير كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن وكما لا تستوي الظلمات والنور كذلك لا يستوي الكفر والإيمان ، وإنما شبه الكافر بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدي سبيلاً ، وكذلك الكافر لا يهتدي سبيلاً ﴿ أم جعلوا لله شركاء ﴾ هذا استفهام إنكار يعني جعلوا لله شركاء ﴿ خلقوا كخلقة ﴾ يعني خلقوا سموات وأرضين وشمساً وقمراً وجبالاً وبحاراً وجناً وإنساً ﴿ فتشابه الخلق عليهم ﴾ من هذا الوجه ، والمعنى هل رأوا غير الله خلق شيئاً فاشتبه عليهم خلق الله بخلق غيره ، وقيل : إنه تعالى وبخهم بقوله أم جعلوا لله شركاء خلقوا خلقاً مثل خلقه فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم ، وهذا استفهام إنكاري أي ليس الأمر كذلك حتى يشتبه عليهم الأمر ، بل إذ تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الأشياء والشركاء مخلوقون له أيضاً لا يخلقون شيئاً حتى يشتبه خلق الله بخلق

الشركاء ، وإذا كان الأمر كذلك فقد لزمتهم الحجة ، وهو قوله تعالى ﴿ قل الله خالق كل شيء ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الله خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقاً ، وقوله الله خالق كل شيء من العموم الذي يراد به الخصوص لأن الله تعالى خلق كل شيء وهو غير مخلوق ﴿ وهو الواحد ﴾ يعني والله تعالى هو الواحد المنفرد بخلق الأشياء كلها ﴿ القهار ﴾ لعباده حتى يدخلهم تحت قضائه وقدره وإرادته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(19/410)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

ولما كان السؤال عن أمر واضح لا يمكن أن يدفع منه أحد ، كان جوابه من السائل .

فكان السبق إليه أفصح في الاحتجاج إليهم وأسرع في قطعهم في انتظار الجواب منهم ، إذ لا جواب إلا هذا الذي وقعت المبادرة إليه ، كما قال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله ﴾ ويبعد ما قال مكي من أنهم جهلوا الجواب فطلبوه من جهة السائل فأعلمهم به السائل ، لأنه قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله

﴿ فإذا كانوا مقرين بأنّ منشىء السموات والأرض ومخترعها هو الله ، فكيف يقال : بأنهم جهلوا الجواب فطلبوه من السائل ؟ وقال الزمخشري : قل الله حكاية لاعترافهم تأكيد له عليهم ، لأنه إذا قال لهم : من رب السموات والأرض ؟ لم يكن لهم بد من أن يقولوا : الله ، كقوله ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله ﴾ وهذا كما يقول المناظر لصاحبه : أهذا قولك ؟ فإذا قال : هذا قولي ، قال : هذا قولك ، فيحكي إقراره تقريراً عليه واستئنافاً منه ، ثم يقول له : فيلزمك على هذا القول كيت وكيت .

ويجوز أن يكون تلقيناً أي : إنْ كفوا عن الجواب فلقنهم ، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه .

وقال الكرماني : قل يا محمد للكفار من رب السموات والأرض ؟ استفهام تقرير واستنطاق بأنهم يقولون الله ، فإذا قالوها قل : الله ، أي هو كما قلتم .

وقيل : فإن جابوك وإلا قل : الله ، إذ لا جواب غير هذا انتهى .

وهو تلخيص القولين اللذين قالهما الزمخشري .

وقال البغوي : روي أنه لما قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا : أجب أنت ، فأمره الله فقال : قل الله انتهى .

واستفهم بقوله : قل أفاتخذتم ؟ على سبيل التوبيخ والإنكار ، أي : بعد أن علمتم أنه تعالى هو رب السموات والأرض تتخذون من دونه أولياء وتتركونه ، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبباً للتوحيد من علمكم وإقراركم سبباً للإشراك ، ثم وصف تلك الأولياء بصفة العجز وهي كونها لا تملك لانفسها نفعاً ولا ضراً ، ومن بهذه المثابة فكيف يملك لهم نفعاً أو ضراً ؟ ثم مثل ذلك حالة الكافر والمؤمن ، ثم حالة الكفر والإيمان ، وأبرز ذلك في صورة الاستفهام للذي يبادر المخاطب إلى الجواب فيه من غير فكر ولا روية بقوله : قل هل يستوي الأعمى والبصير ؟ ثم انتقل إلى الاستفهام عن الوصفين القائمين بالكافر وهو : الظلمات ، وبالمؤمن وهو النور .

وتقدم الكلام في جمع الظلمات وإفراد النور في سورة البقرة .

وقرأ الأخوان وأبو بكر : أم هل يستوي بالياء ، والجمهور بالتاء ، أم في قوله : أم ، هل منقطعة تتقدر ببل ؟ والهمزة على المختار ، والتقدير : بل أهل تستوي ؟ وهل وإن نابت عن همزة الاستفهام في كثير من المواضع فقد جامعتها في قول الشاعر :

أهل رأونا بوادي القفر ذي الأكم . . .

وإذا جامعتها مع التصريح بها فلأنّ تجامعها مع أم المتضمنة لها أولى ، وهل بعد أم المنقطعة يجوز أن يؤتى بها لشبهها بالأدوات الإسمية التي للاستفهام في عدم الأصالة فيه كقوله :

﴿ أمّن يملك السمع والأبصار ﴾ ويجوز أن لا يؤتى بها بعد أم المنقطعة ، لأن أم تتضمنها ، فلم يكونوا ليجمعوا بين أم والهمزة لذلك .

وقال الشاعر في عدم الإتيان بهل بعد أم والإتيان بها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم . . .

أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

أم هل كبير بكى لم يقض عبرته . . .

إثر الأحبة يوم البين مشكوم

ثم انتقل من خطابهم إلى الإخبار عنهم غائباً إعراضاً عنهم ، وتنبيهاً على توبيخهم في جعل شركاء لله ، وتعجيباً منهم ، وإنكاراً عليهم .

(21/410)

وتضمن هذا الاستفهام التهكم بهم ، لأنّهُ معلوم بالضرورة أن هذه الأصنام وما اتخذوها من دون الله أولياء ، وجعلوهم شركاء لا تقدر على خلق ذرة ، ولا إيجاد شيء البتة ، والمعنى : أن هؤلاء الشركاء هم خالقون شيئاً حت يستحقوا العبادة ، وجعلهم شركاء لله أي : جعلوا لله شركاء موصوفين بالخلق مثل خلق الله ، فتشابه ذلك عليهم ، فيعبدونهم .

ومعلوم أنهم لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون فكيف يشركون في العبادة؟ ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ ثم أمره تعالى فقال: قل الله خالق كل شيء أي: موجد الأشياء كلها معبوداتهم وغيرها، وهم أيضاً مقرون بذلك، ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله ﴾ واحتمل أن يكون قوله: وهو الواحد القهار، داخلاً تحت الأمر بقل، فيكون قد أمر أن يخبر بأنه تعالى هو الواحد المنفرد بالألوهية، القهار الذي جميع الأشياء تحت قدرته وقهره.

واحتمل أن يكون استئناف إخبار فيه يقال بهذين الوصفين: الوحدانية، والقهر.

فهو تعالى لا يغالب، وما سواه مقهور مربوب له عز وجل. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(22/410)

وقال أبو السعود:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السموات والأرض ﴾.

فإنه لتحقيق أن خالقَهما ومتولّيَ أمرهما مع ما فيهما على الإطلاق هو الله سبحانه وقوله تعالى: ﴿ قُلِ الله ﴾ أمرٌ بالجواب من قِبله عليه الصلاة والسلام إشعاراً بأنه متعيّن

للجوابية فهو والخصمُ في تقريره سواءٌ ، أو أمرٌ بحكاية اعترافِهم إيذاناً بأنه أمرٌ لا بد لهم من ذلك كأنه قيل : احْكِ اعترافَهم فبكّتْهم بما يلزمهم من الحجة وألقِمْهم الحجَر ، أو أمرٌ بتلقينهم ذلك إن تلعثموا في الجواب حذراً من الإلزام فإنهم لا يتمالكون إذ ذاك ولا يقدرون على إنكاره ﴿ قُلْ ﴾ إلزاماً لهم وتبكيتاً ﴿ أفاتخذتم ﴾ لأنفسكم والهمزةُ لإنكار الواقعِ كما في قولك : أضربت أباك ؟ لا لإنكار الوقوع كما في قولك : أأضرب أبي ؟ والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة أي أعلمتم أن ربهما هو الله الذي ينقاد لأمره مَنْ فيهما كافةً فاتخذتم عَقيبَه ﴿ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ عاجزين ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا ﴾ يستجلبونه ﴿ وَلاَ ضَرًّا ﴾ يدفعونه عن أنفسهم فضلاً عن القدرة على جلب النفعِ لغيره ودفع الضررِ عنه لا على أن يكون الإنكارُ متوجّهاً إلى المعطوفَين معاً كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ إذا قُدّر المعطوف عليه ألا تسمعون ، بل إلى ترتب الثاني على الأول مع وجوب أن يترتبَ عليه نقيضُه كما إذا قدّر أتسمعون ، والمعنى أبعد أن عِلمتم أن ربّهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياءَ عجَزَةً ؟ والحال أن قضيةَ العلم بذلك إنما هو الاقتصارُ على تولّيه فعكستم الأمر ، كما في قوله تعالى :

﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾ ووصفُ الأولياء هاهنا بعدم المالكية للنفع والضر في ترشيح الإنكارِ وتأكيدِه كتقييد الاتخاذِ هناك بالجملة الحالية أعني قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ فإن كلاًّ منهما مما ينفي الاتخاذَ المذكور ويؤكد إنكاره .

﴿ قُلْ ﴾ تصوير لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى ﴾ الذي هو المشركُ الجاهل بالعبادة ومستحِقها ﴿ والبصير ﴾ الذي هو الموحِّد العالم بذلك أو الأولُ عبارةٌ عن المعبود الغافل والثاني إشارةٌ إلى المعبود العالِم بكل شيء ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظلمات ﴾ التي هي عبارةٌ عن الكفر والضلال ﴿ والنور ﴾ الذي هو عبارةٌ عن التوحيد والإيمان ، وقرىء بالياء .

(24/410)

ولمّا دل النظمُ الكريم على أن الكفرةَ فيما فعلوا من اتخاذ الأصنامِ أولياءَ من دون الله سبحانه في الضلال المحضِ والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانُه على أحد وأنهم في ذلك كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيء أصلاً وليس لهم في ذلك شبهةٌ تصلح أن تكون منشأً لغلطهم وخطئهم فضلاً عن الحجة أكّد ذلك فقيل : ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ ﴾ أي بل أجعلوا له ﴿

شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ ﴾ سبحانه ، والهمزةُ لإنكار الوقوعِ مع وقوعه وقوله : ﴿ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ ﴾ هو الذي يتوجه إليه الإنكار وأما نفسُ الجعل فهو واقعٌ لا يتعلق به الإنكارُ بهذا المعنى والمعنى أنهم لم يجعلوا لله تعالى شركاءَ خلقوا كخلقه ﴿ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ ﴾ بسبب ذلك وقالوا : هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادةَ كما استحقها ليكونَ ذلك منشأً لخطئهم بل إنما جعلوا له شركاءَ ما هو بمعزل من ذلك بالمرة ، وفيه ما لا يخفى من التعريض بركاكة رأيِهم والتهكم بهم ﴿ قُلْ ﴾ تحقيقاً للحق وإرشاداً لهم إليه ﴿ الله خالق كُلّ شَىْء ﴾ كافةً لا خالقَ سواه فيشاركَه في استحقاق العبادة ﴿ وَهُوَ الواحد ﴾ المتوحّدُ بالألوهية المتفرّدُ بالربوبية ﴿ القهار ﴾ لكل ما سواه فكيف يُتوهّم أن يكون له شريكٌ ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(25/410)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

تحقيق كما قال بعض المحققين لأن خالقهم ومتولي أمرهما مع ما فيهما على الإطلاق هو الله تعالى ، وقيل : إنه سبحانه بعد أن ذكر انقياد المظروف لمشيئته تعالى ذكر ما هو كالحجة

على ذلك من كونه جل وعلا خالق هذا الظرف العظيم الذي يبهر العقول ومدبره أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا من دونه أولياء من رب هذه الأجرام العظيمة العلوية والسفلية ؟ ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ أمر صلى الله عليه وسلم بالجواب إشعاراً بأنه متعين للجوابية فهو عليه الصلاة والسلام والخصم في تقريره سواء ، ويجوز أن يكون ذلك تلقيناً للجواب ليبين لهم ما هم عليه من مخالفتهم لما علموه ، وقيل : إنه حكاية لاعترافهم والسياق يأباه .

(26/410)

وقال مكي : إنهم جعلوا الجواب فطلبوه من جهته صلى الله عليه وسلم فأمر بإعلامهم به ، ويبعده أنه تعالى قد أخبر بعلمهم في قوله سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [لقمان : 25] وحينئذٍ كيف يقال : إنهم جعلوا الجواب فطلبوه ؟ نعم قال البغوي : روي أنه لما قال صلى الله عليه وسلم ذلك للمشركين عطفوا عليه فقالوا : أجب أنت فأمره الله تعالى بالجواب ، وهو بفرض صحته لا يدل على جهلهم كما لا يخفى ﴿ قُلْ ﴾ الزاماً لهم وتبكيتاً ﴿ أفاتخذتم ﴾ لأنفسكم ﴿ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ عاجزين ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لاِنْفُسِهِمْ ﴾ وهي أعز عليهم منكم ﴿ نَفْعاً ﴾ يستجلبونه ﴿ وَلاَ ضَرّاً ﴾ يدفعونه عنها فضلاً عن القدرة على جلب النفع للغير ودفع الضرر عنه ، والهمزة للإنكار ،

والمراد بعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء في غاية العجز عن نفعكم فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم سبب الإشراك ، فالفاء عاطفة للتسبب والتفريع دخلت الهمزة عليه لأن المنكر الاتخاذ بعد العلم لا العلم ولا هما معاً ، ووصف الأولياء بما ذكر مما يقوي الإنكار ويؤكده ، ويفهم على ما قيل من كلام البعض أن هذا دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء رجاء أن ينفعوهم ، واختلف في الدليل الأول فقيل : هو ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ وقيل : هو ما يفهم من قوله سبحانه : ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ [الرعد : 14] الخ فتدبر .

(27/410)

﴿ قُلْ ﴾ تصويراً لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الاعمى ﴾ الذي هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها ﴿ والبصير ﴾ الذي هو الموحد العالم بذلك وإلى هذا ذهب مجاهد ، وفي الكلام عليه استعارة تصريحية ، وكذا على ما قيل : إن المراد بالأول الجاهل بمثل هذه الحجة وبالثاني العالم بها ، وقيل : إن الكلام على التشبيه والمراد لا يستوي المؤمن والكافر كما لا يستوي الأعمى والبصير فلا مجاز .

ومن الناس من فسر الأول بالمعبود الغافل والثاني بالمعبود العالم بكل شيء وفيه بعد ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ﴾ التي هي عبارة عن الكفر والضلال ﴿ وَرَسُولِهِ والنور ﴾ الذي هو عبارة عن الإيمان والتوحيد وروي ذلك عن مجاهد أيضاً ، وجمع الظلمات لتعدد أنواع الكفر ككفر النصارى وكفر المجوس وكفر غيرهم ، وكون الكفر كله ملة واحدة أمر آخر .

و﴿ أَمْ ﴾ كما في "البحر" منقطعة وتقدر ببل والهمزة على المختار ، والتقدير بل أهل تستوي ، وهل وإن نابت عن الهمزة في كثير من المواضع فقد جامعتها أيضاً كما في قوله :

أهل رأونا بوادي القف ذي الأكم . . .

وإذا جامعتها مع التصريح بها فلأن تجامعها مع أم المتضمنة لها أولى ، ويجوز فيها بعد ﴿ أَمْ ﴾ هذه أن يؤتى بها لشبهها بالأدوات الاسمية التي للاستفهام في عدم الأصالة فيه كما في قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السمع والابصار ﴾ [يونس : 31] ويجوز أن لا يؤتى بها لأن ﴿ أَمْ ﴾ متضمنة للاستفهام ، وقد جاء الأمران في قوله :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم . . .

أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

أم هل كبير بكى لم يقض عبرته . . .

أثر الأحبة يوم البين مشكوم

وقرأ الإخوان .

وأبو بكر ﴿ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي ﴾ بالياء التحتية، ثم إنه تعالى أكد ما اقتضاه الكلام السابق من تخطئة المشركين فقال سبحانه: ﴿ أَمْ جَعَلُواْ ﴾ أي بل أجعلوا ﴿ لِلَّهِ ﴾ جل وعلا ﴿ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ ﴾ سبحانه وتعالى، والهمزة لإنكار الوقوع وليس المنكر هو الجعل لأنه واقع منهم وإنما هو الخلق كخلقه تعالى، والمعنى أنهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه ﴿ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ ﴾ بسبب ذلك وقالوا: هؤلاء خلقوا كخلق الله تعالى واستحقوا بذلك العبادة كما استحقها سبحانه ليكون ذلك منشأ لخطئهم بل إنما جعلوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً عما يقدر عليه الخالق، والمقصود بالإنكار والنفي هو القيد والمقيد على ما نص عليه غير واحد من المحققين.

وفي الانتصاف أن ﴿ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ ﴾ في سياق الإنكار جيء به للتهكم فإن غير الله تعالى لا يخلق شيئاً لا مساوياً ولا منحطاً وقد كان يكفي في الإنكار لولا ذلك أن الآلهة التي اتخذوها لا تخلق.

وتعقبه الطيبي بأن إثبات التهكم تكلف فإنه ذكر الشيء وإرادة نقيضه استحقاراً للمخاطب كما في قوله تعالى: ﴿ فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: 21] وههنا ﴿

كَخَلْقِهِ ﴾ جيء به مبالغة في إثبات العجز لآلهتهم على سبيل الاستدراج وارخاء العنان ، فإنه تعالى لما أنكر عليهم أولا اتخاذهم من دونه شركاء ووضفها بأنها لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً فكيف تملك ذلك لغيرها أنكر عليهم ثانياً على سبيل التدرج وصف الخلق أيضاً ، يعني هب أن أولئك الشركاء قادرون على نفع أنفسهم وعلى نفع عبدتهم فهل يقدرون على أن يخلقوا شيئاً ، وهب أنهم قادرون على خلق بعض الأشياء فهل يقدرون على ما يقدر عليه الخالق من خلق السموات والأرض اه .

(29/410)

والحق أن الآية ناعية عليهم متهكمة بهم فإن من لا يملك لنفسه شيئاً من النفع والضر أبعد من أن يفيدهم ذلك ، وكيف يتوهم فيه أنه خالق وأن يشتبه على ذي عقل فينبه على نفيه ، وهذا المقدار يكفي في الغرض فافهم ﴿ قُلْ ﴾ تحقيقاً للحق وارشاداً لهم ﴿ واللَّهُ خالق كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الجواهر والاعراض ، ويلزم هذا أن لا خالق سواه لئلا يلزم التوارد وهو المقصود ليدل على المراد وهو نفي استحقاق غيره تعالى للعبادة والألوهية أي لا خالق سواه فيشاركه في ذلك الاستحقاق .

وبعموم الآية استدل أهل السنة على أن افعال العباد مخلوقة له تعالى ، والمعتزلة تزعم

التخصيص بغير أفعالهم .

ومن الناس من يحتج أيضاً لما ذهب إليه أهل الحق بالآية الأولى وهو كما ترى ﴿ وَهُوَ الواحد ﴾ المتوحد بالألوهية المنفرد بالربوبية ﴿ القهار ﴾ الغالب على كل ما سواه ومن جملة ذلك آلهتهم فيكف يكون المغلوب شريكاً له تعالى ، وهذا على ما قيل كالنتيجة لما قبله ، وهو يحتمل أن يكون من مقول وأن يكون جملة مستأنفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(30/410)

وقال القاسمي :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

أي : خالقهما : ﴿ قُلِ اللّهُ ﴾ أمر بالجواب من قِبَلِهِ صلى الله عليه وسلم ؛ إشعاراً بتعينه للجواب ، فهو الخصم في تقريره سواء . أو أمره بحكاية اعترافهم ؛ إيذاناً بأنه أمر لا بد لهم منه . كأنه قيل : احك اعترافهم ، فبكتهم بما يلزمهم من الحجة : ﴿ قُلْ ﴾ أي : إلزاماً لهم وتبكيتاً : ﴿ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي : أبعد أن علمتموه رب السماوات والأرض

عبدتم من دونه غيره ، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم سبب الإشراك ؟ أفاده الزمخشري .

(31/410)

﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً ﴾ أي : لا يقدرون على نفع أنفسهم ولا على دفع الضر عنها ، فكيف يستطيعونه لغيرهم ؟ ! فإذن عبادتهم محض العبث والسفه ! : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ لما بيّن ضلالهم وفساد رأيهم في الحجة المذكورة ؛ بيّن أن الجاهل بها يكون كالأعمى ، والعالم بها كالبصير ، والجهل بمثلها كالظلمات ، والعلم بها كالنور . وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوي البصير ، والظلمة لا تساوي النور ، كذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوي العالم بها ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ أي : بل أجعلوا ، والهمزة للإنكار ، وقوله : ﴿ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴾ صفة لـ (شركاء) داخلة في حكم الإنكار : ﴿ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : خلق الله وخلقهم . والمعنى : أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق ، فيقولوا : هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها ، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق ، فضلاً عما يقدر

عليه الخالق .

قال الناصر : وفي قوله تعالى : ﴿ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴾ في سياق الإنكار ، تهكم بهم ؛ لأن غير الله لا يخلق خلقاً البتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة لله ، تقدس عن التشبيه ، ولا بطريق الانحطاط والقصور ، فقد كان يكفي في الإنكار عليهم ، أن الشركاء التي اتخذوها لا تخلق مطلقاً ، ولكن جاء في قوله تعالى : ﴿ كَخَلْقِهِ ﴾ تهكم يزيد الإنكار تأكيداً ! .

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : لا خالق غير الله ، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق ، فلا يكون له شريك في العبادة ! : ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ ﴾ أي : المتوحد بالربوبية : ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الذي لا يغالبُ ، وما عداه مربوب ومقهور ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل جـ 9 صـ 278 . 279 ﴾

(32/410)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

﴿ أم ﴾ للإضراب الانتقال في الاستفهام مقابل قوله : ﴿ أفأتخذتم من دونه أولياء لا

يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ﴾ ، فالكلام بعد (أم) استفهام حذفت أداته لدلالة (أم) عليها .

والتقدير ؛ ﴿ أم جعلوا لله شركاء ﴾ .

والتُفت عن الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عنهم لما مضى من ذكر ضلالهم .

والاستفهام مستعمل في التهكم والتغليط .

فالمعنى : لو جعلوا لله شركاء يخلقون كما يَخلق الله لكانت لهم شبهة في الاغترار واتخاذهم آلهة ، أي فلا عذر لهم في عبادتهم ، فجملة ﴿ خلقوا ﴾ صفة ل ﴿ شركاء ﴾ .

وشِبْه جملة ﴿ كخلقه ﴾ في معنى المفعول المطلق ، أي خلقوا خلقاً مثل مَا خلق الله .

والخلق في الموضعين مصدر .

وجملة ﴿ فتشابه ﴾ عطف على جملة ﴿ خلقوا كخلقه ﴾ فهي صفة ثانية ل ﴿ شركاء ﴾ ، والرابط اللام في قوله : ﴿ الخلق ﴾ لأنها عوض عن الضمير المضاف إليه .

والتقدير : فتشابه خلقهم عليهم .

والوصفان هما مصب التهكم والتغليط .

وجملة ﴿ قل الله خالق كل شيء ﴾ فذلكة لما تقدم ونتيجة له ، فإنه لما جاء الاستفهام التوبيخي في ﴿ أفاتخذتم من دونه أولياء ﴾ [سورة الرعد : 16] وفي أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ﴾ كان بحيث ينتج أن أولئك الذين اتخذوهم شركاء لله والذين تبين

قصورهم عن أن يملكوا لأنفسهم نفعاً أو ضراً ، وأنهم لا يخلقون كخلق الله إن هم إلا مخلوقات لله تعالى ، وأن الله خالق كل شيء ، وما أولئك الأصنام إلا أشياء داخلة في عموم ﴿ كل شيء ﴾ ؛ وأن الله هو المتوحد بالخلق ، القهّار لكل شيء دونه .

ولتعين موضوع الوحدة ومتعلق القهر حذف متعلقهما .

والتقدير : الواحد بالخلق القهّار للموجودات .

(33/410)

والقهر : الغلبة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ في سورة الأنعام (18) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(34/410)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحد القهار ﴾ .

أشار تعالى: في هذه الآية الكريمة إلى أنه هو المستحق لأن يعبد وحده لأنه هو الخالق ولا يستحق من الخلق أن يعبدوه إلا من خلقهم وأبرزهم من العدم إلى الوجود لأن المقصود من قوله ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ ﴾ [الرعد: 16] إنكار ذلك وأنه هو الخالق وحده بدليل قوله بعده ﴿ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي خالق كل شيء هو المستحق لأن يعبد وحده ويبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقان: 3] الآية وقوله ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: 191] وقوله ﴿ هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان: 11] إلى غير ذلك من الآيات لأن المخلوق محتاج إلى خالقه فهو عبد مربوب مثلك يجب عليه أن يعبد من خلقه وحده كما يجب عليك ذلك فأنتما سواء بالنسبة إلى وجوب عبادة الخالق وحده لا شريك له. انتهى انتهى. اهـ

﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(35/410)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ

نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

و" قل " هي أمر للرسول أنْ يقول للكافرين ، وهناك في آيات أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : 87]

ولقائل أن يسأل : لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالإجابة ؛ ولم يتركْها لتأتي منهم ؟

ونقول : إن مجيء الإجابة من الحق هنا عن الذي خلق السماوات والأرض أقوى مِمّا لو جاءت الإجابة منهم .

والمثل من حياتنا ؛ ولله المَثَل الأعلى ؛ قد تقول لابنك الصغير المُتَشاحِن مع أخيه الكبير : مَن الذي جاء لك بالحُلَّة الجديدة ؟ فيرتبك خجلاً ؛ لأنه يعلم أن مَنْ جاء له بالحلة الجديدة هو أخوه الأكبر الذي تشاحن معه ؛ فتقول أنت : جاء لك بها أخوك الأكبر الذي تشاحنتَ معه .

وهنا لحظة أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ما أمره الله أن يقول : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السماوات والأرض . . . ﴾ [الرعد : 16]

فسوف يرتكبون ؛ فيؤكد لهم بعد ذلك ما أمره الله أن يقول : ﴿ قُلِ الله . . . ﴾ [الرعد : 16]

ويتابع أمر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فيقول له الحق سبحانه : ﴿ قُلْ أفاتخذتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً . . . ﴾ [الرعد : 16]

وهكذا يكشف لهم الرسول ببلاغ الحق سبحانه مدى جهلهم ؛ وهم مَنْ سبق لهم الاعتراف بأن الله هو خالق السماوات والأرض ؛ ولم يجرؤ واحد منهم على أن ينسب خَلْق السماوات والأرض للأصنام .

وهنا يوضح لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما أمر الحقُّ سبحانه بإيضاحه : لقد خلق الله السماوات والأرض أفبعد ذلك تتخذون من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ؛ ولا ضراً ؟ بدليل أن الصنم من هؤلاء لا يقدر لهم على شيء .

(36/410)

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظلمات والنور أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ . . . ﴾ [الرعد : 16]

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يستوي الأعمى بالمبصر .

وساعة ترى " أَمْ " اعلم أنها ضَرْب انتقالي ، وهكذا يستنكر الحق ما فعلوه بالاستفهام عنه ؛ لأنه شيء مُنْكر فعلاً : ﴿ أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ . . . ﴾ [الرعد : 16]

أي : لو كان هؤلاء الشركاء قد خلقوا شيئاً مثل خَلْق الله ؛ لَكَان لهم أنْ يعقدوا مقارنة بين

خَلْق الله وخَلْق هؤلاء الشركاء ؛ ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوا مشاركين لله في الألوهية لا يَقْدرون على خَلْق شيء ؛ فكيف يختارونهم شركاء لله ؟

ويأتي الأمر من الحق سبحانه : ﴿ . . . قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحد القهار ﴾ [الرعد : 16]

وفي آية أخرى يُقدِّم الحق سبحانه تفسيراً لتلك الآية : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . . ﴾ [الحج : 73]

فهؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً ، ولن يستطيع أحد الإدعاء بأن هؤلاء الشركاء عندهم نية الخَلْق ، ولكن مجيء " لن " هنا يُؤكد أنهم حتى بتنبيههم لتلك المسألة ؛ فَلَسوف يعجزون عنها ؛ لأن نَفْي المستقبل يستدعي التحدِّي ؛ رغم أنهم آلهة متعددة ؛ ولو اجتمعوا فلن يخلقوا شيئاً .

يستمر التحدي في قوله سبحانه : ﴿ . . . وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : 73]

أي : لو أخذ الذباب بساقه الرفيعة شيئاً مِمَّا يملكون لَمَا استطاعوا أن يستخلصوه منه .

وهكذا يتضح أن الحق سبحانه وحده هو الخالق لكُلِّ شيء ؛ وتلزم عبادته وحده لا شريكَ له ؛ وهو جَلَّ وعَلا المتفرِّد بالربوبية والألوهية ؛ وهو القهار المتكبر ؛ والغالب على أمره أبداً ، فكيف يكون مَنْ دونه مساوياً له ؟

لذلك لا شريك له أبداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(38/410)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) (الرعد : 16) ، وفي سورة الفرقان : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (الفرقان : 3) ، للسائل أن يسأل عن تقديم النفع على الضر في سورة الرعد وعكس ذلك في سورة الفرقان ؟

والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن آية الفرقان قد عطف عليها بالواو المشركة في الإعراب والمعنى قوله تعالى : (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) ، وقدم قبلها ما عطفت عليه

بالواو أيضاً وذلك قوله تعالى : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (الفرقان : 3) ، فقد اتفقت هذه الجمل المعطوفات في انطواء كل جملة منها على متقابلين كالضدين ، ففي الأولى عدم الخلق في قوله : (لَا يَخْلُقُونَ) مقابلاً للخلق والحياة ، وبنى مجموعها على تأخير أشرف المتقابلين ، ففي الأولى الإشارة إلى الخلق في قوله تعال : (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) ، وكذا في الثانية الضر والنفع والنفع أشرف ، وفي الثالثة الموت والحياة والحياة أشرف ، فروعي تناسب الآي على ما أوضحنا ، فقدم الضر على النفع في آية الفرقان . أما آية الرعد فلم يعرض فيها ما يحمل على ما ذكر من التناسب فجاءت من حيث أفردت على ما يجب من تقديم النفع الذي هو مطلب العاقل ، وكأن قد قيل فيها : إذا لم ينفعوا أنفسهم فكيف ينفعونكم ؟ ثم أتبع بما يكمل به التعريف بحال (من) اتخذوهم أولياء من أنها لا تضر ولا تنفع ، فجاء كل على ما يجب ويناسب ، ولا يمكن خلافه .

(39/410)

فإن قلت : إذا كان تقديم النفع -كما في سورة الرعد - وارداً على ما يجب من (حيث) هو الذي تطلبه نفوس العقلاء فلم بنيت تلك (الجمل) المعطوفات في آية سورة الفرقان على تأخير الأشرف في تلك المتقابلات حتى لزم أن يتقدم فيها الضر (قبل) النفع ليتناسب ؟

وهلا كان بناؤها على عكس ذلك وكان يحسن التقابل (وورود النفع قبل الضر) كما في آية الرعد ؟ قلت : لما تقدم قبل الجمل المذكورة في سورة الفرقان قوله سبحانه : (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان : 2) ، ناسب هذا من ذكر آلهتهم وصفها بأنها لا تخلق فقيل : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (الفرقان : 3) ، ليحصل من وصفه سبحانه بأنه خالق كل شيء وأن آلهتهم لا تخلق شيئاً ما أفصح به من توبيخهم وتقريعهم في قوله تعالى : (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (النحل : 17) ، وتناسب هذا أوضح تناسب وأبينه ، ولا يمكن خلافه ، ثم بني عليه ما بعده لتناسب ذلك كله ، وحصل منه أن الوارد في كل من السورتين لا يمكن فيه العكس بوجه ، ولابنا سبحانه أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 279.280 ﴾

(40/410)

بحوث ذكرها صاحب الأمثل :

1 .الخالقية والرّبوبية يتطلّبان العبادة

يمكن أن يستفاد من الآية أعلاه أنّ الخالق هو الربّ المدبّر ، لأنّ الخلقة أمرٌ مستمر ودائمي ، وليس من خلق الكائنات يتركهم وشأنهم ، بل إنّه تعالى يفيض بالوجود عليهم باستمرار وكلّ

شيء يأخذ وجوده من ذاته المقدّسة، وعلى هذا فنظام الخلقة وتدبير العالم كلّها بيد الله، ولهذا السبب يكون هو النافع والضارّ. وغيره لا يملك شيء إلاّ منه، فهل يوجد أحدٌ غير الله أحقّ بالعبادة؟

2. كيف يسأل ويجيب بنفسه؟

بالنظر إلى الآية أعلاه يطرح هذا السؤال: كيف أمر الله نبيّه أن يسأل المشركين: من خلق السماوات والأرض؟ وبعدها بدون أن ينتظر منهم الجواب يأمر النّبي أن يجيب هو على السؤال... وبدون فاصلة يوبّخ المشركين على عبادتهم الأصنام، أي طراز هذا في السؤال والجواب؟

ولكن مع الإلتفات إلى هذه النقطة يتّضح لنا الجواب وهو أنّه في بعض الأحيان يكون الجواب للسؤال واضح جدّاً ولا يحتاج إلى الإنتظار. فمثلا نسأل أحداً: هل الوقت الآن ليل أم نهار؟ وبلا فاصلة نجيب نحن على السؤال فنقول: الوقت بالتأكيد ليل. وهذه كناية لطيفة، حيث أنّ الموضوع واضح جدّاً ولا يحتاج إلى الإنتظار للجواب، بالإضافة إلى أنّ المشركين يعتقدون بخلق الله للعالم ولم يقولوا أبداً أنّ الأصنام خالقة السّماء والأرض، بل كانوا يعتقدون بشفاعتهم وقدرتهم على نفع الإنسان ودفع الضرر عنه، ولهذا السبب كانوا يعبدوهم. وبما أنّ الخالقية غير منفصلة عن الرّبوبية يمكن أن نُخاطب المشركين بهذا الحديث ونقول: أنتم الذين تقولون بأنّ الله خالق، يجب أن تعرفوا أنّ الربوبية لله كذلك،

ويختصّ بالعبادة أيضاً لذلك.

3. العين المبصرة ونور الشمس شرطان ضروريان

(41/410)

يشير ظاهر المثالين (الأعمى والبصير) و (الظّلمات والنّور) إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ النظر يحتاج إلى شيئين: العين المبصرة، وشعاع الشمس، بحيث لو إنتفى واحد منهما فإنّ الرؤية لا تتحقّق، والآن يجب أن نفكّر: كيف حال الأفراد المحرومين من البصر والنّور؟ المشركون المصداق الواقعي لهذا، فقلوبهم عُميٌ ومحيطهم مليءٌ بالكفر وعبادة الأصنام، ولهذا السبب فهم في تيه وضياع. وعلى العكس فالمؤمنون بنظرهم إلى الحقّ، وإستلهامهم من نور الوحي وإرشادات الأنبياء عرفوا مسيرة حياتهم بوضوح.

4. هل أنّ خلق الله لكلّ شيء دليل على الجبر؟

إستدلّ جمعٌ من أتباع مدرسة الجبر أنّ جملة (الله خالق كلّ شيء) في الآية أعلاه لها من السعة بحيث تشمل حتّى عمل الأفراد، فالله خالق أعمالنا ونحن غير مختارين.

يمكن أن نجيب على هذا القول بطريقين:

أوّلا: الجمل الأُخرى للآية تنفي هذا الكلام، لأنّها تلوم المشركين بشكل أكيد فإذا كانت

أعمالنا غير إختيارية ، فلماذا هذا التوبيخ ؟ ! وإذا كانت إرادة الله أن نكون مشركين فلماذا يلومنا ؟ ! ولماذا يسعى بالأدلّة العقليّة لتغيير مسيرتهم من الضلالة إلى الهداية ؟ كلّ هذا دليل على أنّ الناس أحرار في إنتخاب طريقهم .

ثانياً : إنّ الخالقية بالذات من مختصّات الله تعالى . ولا يتنافى مع إختيارنا في الأفعال ، لأنّ ما نمتلكه من القدرة والعقل والشعور ، وحتّى الإختيار والحرية ، كلّها من عند الله ، وعلى هذا فمن جهة هو الخالق (بالنسبة لكلّ شيء وحتّى أفعالنا) ومن جهة أُخرى نحن نفعل بإختيارنا ، فهما في طول واحد وليس في عرض واُفق واحد ، فهو الخالق لكلّ وسائل الأفعال ، ونحن نستفيد منها في طريق الخير أو الشرّ .

(42/410)

فمثلا الذي يؤسّس معملا لتوليد الكهرباء أو لإنتاج أنابيب المياه ، يصنعها ويضعها تحت تصرّفنا ، فلا يمكن أن نستفيد من هذه الأشياء إلاّ بمساعدته ، ولكن بالنتيجة يكون التصميم النهائي لنا ، فيمكن أن نستفيد من الكهرباء لإمداد غرفة عمليات جراحية وإنقاذ مريض مشرف على الموت ، أو نستخدمها في مجالس اللهو والفساد ، ويمكن أن

نروي بالماء عطش إنسان ونسقي ورداً جميلا ، أو نستخدم الماء في إغراق دور الناس وتخريبها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل حـ 7 صـ 368 . 370 ﴾

(43/410)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

أخرج ابن مردويه عن أنس – رضي الله عنه – قال : قالوا يا رسول الله ، إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقناك كنا على غيره ، فنخاف أن يكون ذلك النفاق . قال : كيف أنتم وربكم ؟ قالوا : الله ربنا في السر والعلانية . قال : كيف أنتم ونبيكم ؟ قالوا : أنت نبينا في السر والعلانية . قال : ليس ذاكم بالنفاق .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ قال : المؤمن والكافر .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد – رضي الله عنه – ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل

تستوي الظلمات والنور ﴾ قال : أما الأعمى والبصير ، فالكافر والمؤمن . وأما الظلمات والنور ، فالهدى والضلال .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾ قال : ﴿ خلقوا كخلقه ﴾ فحملهم ذلك على أن شكوا في الأوثان .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ﴾ قال : ضربت مثلاً .

(44/410)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن جريج - رضي الله عنه - في قوله تعالى ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ﴾ قال : فأخبرني ليث بن أبي سليم ، عن ابن محمد ، عن حذيفة بن اليمان ، عن أبي بكر إما حضر ذلك حذيفة من النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر ، وإما حدثه إياه أبو بكر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل . قال أبو بكر : يا رسول الله ، وهل الشرك إلا ما عُبِدَ من دون الله ، أو ما دعي مع الله ؟ ! . . . قال : ثكلتك أمك . . . . الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل

، ألا أخبرك بقول يذهب صغاره وكباره ؟ أو قال : لصغيره وكبيره ؟ قال : بلى . قال : تقول كل يوم ثلاث مرات :

اللهم اني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، واستغفرك لما لا أعلم .

والشرك ، أن تقول أعطاني الله وفلان والند ، أن يقول الإنسان : لولا فلان ، قتلني فلان " .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد ، عن معقل بن يسار – رضي الله عنه – قال : انطلقت مع أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا أبا بكر ، للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ، فقال أبو بكر – رضي الله عنه – وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلها آخر ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده ، للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب قليله وكثيره ؟ قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، واستغفرك لما لا أعلم " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(45/410)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

وقرأ الأخوان وأبو بكر عن عاصم "يَسْتوي" بالياء من تحتُ ، والباقون بالتاء من فوق ، والوجهان واضحان باعتبار أنَّ الفاعلَ مجازيُّ التأنيث ، فيجوز في فِعْله التذكيرُ والتأنيثُ ، كنظائرَ له مرَّتْ .

وقوله : "أَمْ هَلْ" هذه "أم" المنقطعةُ ، فتتقدَّر ب "بل" والهمزةِ عند الجمهور ، و ب "بل" وحدَها عند بعضهم ، وقد تقدَّم ذلك محرِّراً ، وقد يَتَقَوَّى بهذه الآيةِ مَنْ يرى تقديرَها ب "بل" فقط بوقوع "هَل" بعدها ، فلو قَدَّرْناها ب "بل" والهمزةِ لزم اجتماعُ حرفَيْ معنى ، فتُقَدِّرها ب "بل" وحدها ولا تقويةَ له ، فإنَّ الهمزةَ قد جامَعَتْ "هل" في اللفظ كقول الشاعر :

2850- . . . . أهل رَأَوْنا

بوادِي القُفِّ ذي الأَكَمِ

فَأَوْلَى أن يجامِعَها تقديراً . ولقائلٍ أن يقول : لا نُسَلِّمُ أنَّ "هل" هذه استفهاميةٌ بل بمعنى "قد" ، وإليه ذهب جماعةٌ ، وإن لم يجامِعْها همزةٌ كقولِه تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ ﴾ [الإنسان : 1] ، أي : قد أتى ، فهنا أَوْلى ، والسماعُ قد ورَدَ بوقوع "هل" بعد "أم" وبعدمِه . فمِنَ الأوّلِ هذه الآيةُ ، ومن الثاني وما بعدها مِنْ قولِه : "أمْ جَعَلوا" ، وقد

جمع الشاعرُ أيضاً بين الاستعمالين في قوله :

2851- هل ما عَلِمْتَ وما استُودِعْتَ مكتومُ . . . أم حَبْلُها إذ نَأَتْكَ اليومَ مَصْرومُ

أَمْ هَلْ كبيرٌ بكى لم يَقْضِ عَبْرَته . . . إثرَ الأحبَّةِ يومَ البَيْنِ مَشْكُومُ

والجملةُ من قوله : خَلَقُوا " صفةٌ لشركاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 38.37﴾

(46/410)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى هل)

وهى كلمةُ استفهامٍ ، وقيل : حرفُ استِخْبارٍ ، أَمّا على سبيل الاستِفْهام فذلك لا يكونُ من الله تعالى .

وقيل : حرفٌ موضوعٌ لطَلَب التصديق الإِيجابىّ دون التَصَوّر ودُونَ التَّصْدِيق السَّلْبىّ ، فيمتنع نحو هَلْ زَيْداً ضَرَبْتَ ، لأَن تقديم الاسم يُشْعِر بحصول التَّصديق بنفس النِّسْبة .

ونحو : هل زيدٌ قائم أَم عَمْروٌ ، إِذا أَريد بأَمْ المتَّصلة ، وهل لم يَقُمْ زيدٌ .

ونظيرها فى الاختصاص بطَلَب التَّصْدِيق أَمْ المنقطعة، وعكسها أَمْ المتَّصِلة، وجميع أَسماءِ الاستفهام فإنهنّ لطَلَبِ التصورّ ليس غير.

وأَعمّ من الجميع الهمزةُ فإنَّها مشتركة بين الطلبين.

وتفترق "هَلْ" من الهمزة من عشرة أَوجه:

أَحدها: اختصاصُها بالتَّصديق.

والثانى: اختصاصُها بالإيجاب، تقول: هل قامَ دون هل لم يقم، بخلاف الهمزة نحو: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾، ﴿أَلَنْ يَكْفِيكُمْ﴾، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾.

الثالث: تخصِيصُها المضارعَ بالاستقبال نحو: هل يُسافر.

الرّابع والخامس والسّادس: أَنَّها لا تدخلُ على الشرط، ولا على "إِنَّ" ولا على اسمٍ بعده فِعْل، بخلاف الهمزة، بدليل: ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾، ﴿أَإِن ذُكِّرْتُم﴾، ﴿أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ﴾، ﴿أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ﴾.

والسّابع والثامن: أَنها تقع بعد العاطِف لا قبله، وبعد أَم نحو: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾.

التاسع: أَنها يُراد بالاستفهام بها النَّفْىُ، ولذلك دخلت على الخبر بعدها إِلاَّ نحو: ﴿هَلْ

جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ ، ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ ، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ ﴾ .

(47/410)

العاشر : أَنَّها تأْتى بمعنى قَدْ ، وذلك مع الفعل ، وبذلك فَسَّر قولَه تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ ﴾ جماعةٌ منهم ابنُ عباسٍ والفرّاءُ والكسائىّ والمَبِرّدُ ، وبالغ الزمخشرىّ أَنَّها بمعنى قد أَبداً ، وأَن الاستفهام هو مستفادٌ من همزة مقدّرة معها ، ونقله عن سيبويه فقال فى المفصَّل : وعند سيبويه أَنَّ هل بمعنى قد ، إِلاَّ أَنَّهم تركوا الأَلف قبلَها لأَنَّها لا تَقَعِ إِلاَّ فى الاستفهام .

وقد جاءَ دخولُها عليها فى قَوْله :

*سائل فوارِسَ يَرْبُوعٍ بشدّتِنَا * أَهَلْ رأَوْنا بسَفْحِ القاعِ ذى الأَكَمِ*

وقال فى الكشّاف : هل أَتى ، أَى قد أَتَى على معنى التقريرِ والتقريب جميعاً ، أَى أَتَى على الإِنسان قبل زمان قريب طائفةٌ من الزمّان [الطويل] الممتد لم يكن فيه شيئاً مذكوراً ، بل شيئاً منسيّاً ، نطفة فى الأَصلاب .

والمراد بالإِنسان الجِنْس بدليل : ﴿ إِنَّ خَلَقْنا الإِنْسانَ من نُطْفَة ﴾ .

وفَسَّرها غيرُه بقَدْ خاصّةً ولم يحمِلُوا قد على معنى التقريب بل على معنى التحقيق .

وقال بعضهم : معناها التوَقُّع ، كأَنَّه قيل لقوم يتوقَّعُون الخبرَ عن ما أَتَى على الإِنسان/ وهو آدمُ .

والحِين : زَمَن كان طِيناً .

وعكس قومٌ ما قاله الزمخشرىّ وقالوا : إِنّ هل لا تأْتِى بمعنى قد أَصْلاً ، وهذا هو الصّواب عند كثيرين .

وأُدْخِلَت عليها الأَلفُ واللام ، قيل لأَبى الدُّقَيْشِ : هَلْ لَكَ فى زُبْد وتَمْر فقال : أَشَدُّ الهَلِّ .

وثَقَّلَه لتَكْمُلَ عِدّةُ حُروف الأُصول .

وأَلْ لغة فى هَلْ .

وهَلاَّ كلمة تَحْضِيض مركَّبة من هَلْ و "لا" ، وتدخُل على الفعل ، وإِنْ دخلت على اسم فلا بدّ من تقدير كقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : "فهلاَّ بِكْراً" أَى هَلاَّ تزَوَّجْتَ .

وحَيَّهَل الثَّرِيدَ ، أَى هَلُمَّ .

وحَىَّ هَلَ الصّلاة ، أَى ائتوهَا .

وَحَىَّ هَلَكَ ، أَى رُوَيْدك .

قالوا : وتصغيره هُلَيْل وهُلَيّة ، وهُلَىّ .

قال بعضُ المفسّرين : "هل" ترد فى التنزيل على سبعة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى قَدْ ، وهو كلُّ موضع يكون بعده

أَتى كما تقدّم فى ﴿ هَلْ أَتَى ﴾ و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ ، ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ، وله نظائر .

الثَّانى : بمعنى ما النافِية ، وهذا فى كلِّ موضع يتلوه إِلاَّ ، نحو ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ ﴾ .

الثالث : بمعنى لَمْ وهذا فى كلِّ محلٍّ يكون بعده لا ، نحو : هَلاَّ فَعَلْتَ كذا ، وهَلاَّ قُلْتَ كذا .

الرّابع : بمعنى النَّفْى نحو : ﴿ هَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ ﴾ .

الخامسُ : لِتَقْرِيرِ القَسَمِ نحو قوله تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ .

السّادس : بمعنى الأَمْر إِذا اقْترن بِفعْل يدلُّ على معنى الأَمْرِ نحو قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ ، أَى انْتَهُوا ، ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَى أَسْلِموا .

السّابع : بمعنى السّؤال والاستفهام : ﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً ﴾ . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 333 . 337 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُل مَن رَّبُّ السَّماواتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفاتَّخَذْتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾ .

سَلْهُمْ - يا محمد - مَنْ موجِدُ السموات والأرض ومُقَدِّرُها ، ومُخْتَرِعُ ما يحدث فيها ومدبِّرها ؟ فإنْ أَسْكَتَهُمْ عن الجواب ما استكَنَّ في قلوبهم مِنَ الجهلِ فقُلْ الله منشيها ومجريها .

ثم قال : ﴿ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ : يعني الأصنام ، وهي جمادات لا تملك لنفسها نَفْعَاً ولاَ ضَرَّاً ، ويلتحق في المعنى بها كلُّ مَنْ هو موسومٌ برقم الحدوث ، فَمَنْ علَّقَ قلبَه بالحدثان ساوَى - مِنْ وجهٍ - مَنْ عَبَدَ الأصنام ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : 106] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ والنُّورُ ﴾ .

الأعمى مَنْ على بصيرته غشاوة وحجبة ، والبصيرُ مَنْ كَحَّلَ الحقُّ بصيرة سِرِّه بنور التوحيد . . لا يستويان !

ثم هل تستوي ظلماتُ الشِّرك وأنوارُ التوحيد ؟ ومن جملة النور الخروجُ إلى ضياء شهود التقدير .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ ﴾ .

أي لو كان له شريك لَوَجَبَ أن يكون له نِدٌّ مُضاهٍ وفي جميع الأحكام له موازٍ ولم يجدِ حينئذٍ التمييزُ بين فِعْلَيْهِما .

(50/410)

وكذلك لو كان له نِدٌّ . . فإنَّ إثباتهما شيئين اثنين يوجب اشتراكهما في استحقاق كل وصف ، وأن يكون أحدهما كصاحبه أيضاً مستحقاً له ، وهذا يؤدي إلى ألا يُعْرَفَ المَحَلُّ . . . وذلك محال .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ ﴾ .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ ﴾ تدخل فيه المخلوقات بصفاتها وأفعالها ، والمخاطِبُ لا يدخل في الخطاب .

﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ ﴾ : الذي لا خَلَفَ عنه ولا بَدَل ، الواحد الذي في فضله منزه عن فضل كل أحد ، فهو الكافي لكلِّ أحد ، ويستعين به كل أحد .

و﴿ الْقَهَّارُ ﴾ : الذي لا يجري بخلاف حُكْمِه – في مُلْكِه – نَفَسٌ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 222. 223 ﴾

(51/410)

قوله تعالى ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان حمل الماء في العلو لا يمكن إلا عن قهر ، وإنزاله في وقت دون غيره كذلك ، أتبع هذا

الختم قوله دليلاً مشاهداً عليه : ﴿ أنزل ﴾ ولما كان الإنزال قد يتجوز به عن إيجاد ما يعظم إيجاده ، حقق أمره بقوله : ﴿ من السماء ﴾ ولما كان المنزل منها أنواعاً شتى قال : ﴿ ماء فسالت ﴾ أي فتسبب عن إنزاله لكثرته أن سالت ﴿ أودية ﴾ أي مياهها منها الكبير والصغير ؛ والوادي : سفح الجبل العظيم الذي يقابله جبل أو تل فيجتمع فيه المطر ، فيجري في فضائه ، ومنه أخذت الدية - لجمع المال العظيم الذي يؤدى عن القتل ﴿ بقدرها ﴾ والقدر : اتزان الشيء بغيره من غير زيادة ولا نقصان ، فالمعنى أن المياه ملأت الأودية مع ما ذلك من الدلالة على التفرد بالربوبية مما هو مثال للحق والباطل ، وهو قوله : ﴿ فاحتمل ﴾ والاحتمال : رفع الشيء على الظهر بقوة الحامل له ﴿ السيل ﴾ وهو ماء المطر الجاري من الوادي بعظم ﴿ زبداً رابياً ﴾ أي عالياً بانتفاخه : والزبد : الرغوة التي تعلو الماء ، ومدار المادة على الخفة ، ويلزمها العلو ، ومنه زبد البحر والبعير - للرغوة الخارجة من شدقه ، والغضبان ، وزبدت المرأة القطن - إذا نفشته ، والزباد - كرمان : ضرب من النبت تنفرش أفنانه ، وشاة مزبدة أي سمينة ، ومنه الزباد - للطيب المعروف وهو وسخ يشبه الرغوة يجتمع تحت ذنب نوع من السنانير ، ومنه الزبد - بضم وسكون - لخالص اللبن فإنه أخفه ، يقال منه : زبدت فلاناً أزبده - إذا أطعمته الزبد ، ثم اتسع فيه حتى قيل لمطلق العطية ، ومنه : " نهى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن زبد المشركين " ؛ ومنه الزدب - بكسر ثم سكون ، وهو النصيب ، ويمكن أن يكون من زبد اللبن الزبادُ للنبت ، فإنه مرعى

ناجع ، كأنه شبه به أو لأنه سببه ، وكذا شاة مزبدة أي سمينة ويلزم الخفة الإسراع ، يقال : تزبد اليمين – إذا أسرع إليها ، أو إنها شبهت بالزبد في سهولة التقامه .

(52/410)

ولما الزبد أحسن مثل لمعبوداتهم ، وكان لا يختص بالماء الذي هو مائع بطبعه بجمع الأوضار والأقذار بجريه ، ذكر معه ما يشبهه في النفع من الجوامد الصلبة التي تزبد عند الإذابة مع كونها في حال الجمود في غاية الصفاء والخلوص عن الشوائب على ما يظهر ، فقال : ﴿ ومما يوقدون ﴾ أي إيقاداً مستعلياً ﴿ عليه ﴾ أي للإذابة ﴿ في النار ﴾ من المعادن ﴿ ابتغاء حلية ﴾ تتحلون بها من الأساور والحلق ونحوها ﴿ أو ﴾ ابتغاء ﴿ متاع ﴾ تتمعون به من الدراهم والدنانير والسيوف والأواني ونحوها ، وأصل المتاع : التمتع الحاضر ، فهذا تقسيم حاصر لأنواع الفلز المنوه إليها مع إظهار التهاون به وإن تنافس الناس فيه كما هو شأن الملوك يظهرون المجد والفخار بالاستهانة بما يتنافس الناس فيه ﴿ زبد مثله ﴾ أي مثل زبد الماء يكشط عن وجهه أو يعلق بأطراف الإناء فيذهب ويبقى ذلك الجوهر خالصاً كالحق إذا زالت عنه الشكوك وانزاحت الشبه .

ولما كان هذا في غاية الحسن والانطباق على المقصود ، كان سامعه جديراً بأن يهتز فيقول :

هذا مما لا يقدر على سوقه هكذا إلا الله تعالى ، فيا له من مثل ! فأجيب قوله :

﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الضرب ، العلي الرتب ، الغريب العجب ، المتين السبب

﴿ يضرب الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ الحق والباطل ﴾ أي مثلهما ؛ وضرب المثل :

تسييره في البلاد يتمثل به الناس .

ولما نبه بهذا الفصل على علو رتبه هذا المثل ، شرع في شرحه ، فقال مبتدئاً بما هو الأهم في هذا المقام ، وهو إبطال الباطل الذي أضلهم ، وهو في تقسيمه على طريق النشر المشوش ، فقال : ﴿ فأما الزبد ﴾ أي الذي هو مثل للباطل المطلق ﴿ فيذهب ﴾ متعلقاً بالاشجار وجوانب الأودية لأنه يطفو بخفته ويعلق بالأشياء الكثيفة بكثافته ﴿ جفاء ﴾ قال أبو حيان : أي مضمحلاً متلاشياً لا منفعة فيه ولا بقاء له ؛ وقال ابن الأنباري : متفرقاً ، من جفأت الريح الغيم – إذا قطعته ، وجفأت الرجل : صرعته – انتهى .

فهذا مثل الباطل من الشكوك والشبه وما أثاره أهل العناد ، لا بقاء له وإن جال جولة – يمتحن الله بها عباده ليظهر الثابت من المزلزل – ثم ينمحق سريعاً ؛ وقال الرماني : والجفاء : بنوّ مكان الشيء به حتى يهلك ﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ من الماء والفلز الذي هو مثل

الحق ﴿ فيمكث في الأرض ﴾ ينتفع الناس بالماء الذي به حياة كل شيء ، والفلز الذي به التمام ، فالماء والمعدن مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب وبقاء الشرع كما أن الماء يحيى الأراضي الميتة ، والمعادن تحيي موات العيش وتنظم المعاملات المقتضية لاختلاط بعض الناس ببعض وائتلافهم بالحاجة ، والأودية والأواني مثل القلوب يثبت منه فيها ما تحتمله على قدر سعة القلب وضيقه بحسب الطهارة وقوة الفاهمة .

ولما انقضى هذا المثل على هذا البيان الذي يعجز دونه الثقلان ، لأنه أحسن شيء معنى بأوجز عبارة وأوضح دلالة ، كان كأنه قيل : هل يبين كل شيء هذا البيان ؟ فقيل : نعم ، ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الضرب ﴿ يضرب الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة علماً وقدرة ﴿ الأمثال ﴾ فيجعلها في غاية الوضوح وإن كانت في غاية الغموض .

ومادة " جفا " - واوية ويائية مهموزة وغير مهموزة بكل ترتيب ، وهي جفأ جأف فجأ ، جفي جيف فيج ، جفو جوف فوج ، فجو وجف - تدور على الطرح : جفأ الوادي والقدر : رميا بالجفاء أي الزبد وجفأ القدر والوادي : مسح غثاءه أي فطرحه - وجفأه : صرعه ، والبرمة في القصعة : كفأها - أي طرح ما فيها - والباب : أغلقه وفتحه - ضد ، لأنه في كليهما كالمرمي به ، والبقل : قلعه من أصله ، والجفاء - كغزاب : الباطل ، لأنه أهل للقذف به والطرح ، والسفينة الخالية ، لأنا بمعرض قذف الماء لها .

وأجفا ماشيته : أتعبها بالسير ولم يعلفها أي سيرها سيراً كأنها يقذف بها ، وجفأ به : طرحه ، وجفات البلادُ : ذهب خيرها ، فكانت طرحته أو صارت هي أهلاً لأن تطرح وتبعد ، والعام جفأةُ إبلنا ، وهو أن ينتج أكثرُها ، لأنها طرحت أجنّتها .

ومن يائيه : جفيته أجفيه : صرعته ، والجفاية - بالضم : السفينة الفارغة ، والمجفي : المجفو .

ومن واويه : جفا الشيء يجفو - إذا لم يلزم مكانه ، كأنه فصل من مكانه فطرح به ، والجفاء والجفوة : ترك الصلة ، واجتفيته : أزلته عن مكانه ، وجفا عليه كذا : ثقل ، فصار أهلاً لطرحه والانفصال منه ، ورجل جافي الخلقة والخلق : كز غليظ ، لأن الشيء إذا غلظ لم يلتصق التصاق اللطيف ، وأجفى الماشية : أتبعها ولم يدعها تأكل ، وفيه جفوة أي هو جاف ، فإن كان مجفواً قيل : به جفوة .

ومن مقلوبه مهموزاً : جافة : صرعه وذعره أي قذف في قلبه رعباً : والشجرة : قلعها من أصلها ، والجآف - كشداد : الصيّاح ، كأنه يقذف بصوته ، ورجل مجأف : لا ثبات له - كأنه يقذف به من مكانه ، والمجؤوف : الجائع والمذعور ، كأنه من الجوف ، وإنما همزت واوه الأولى لانضمامها مع أنه يمكن تنزيله على أنه قذف فيه ذلك .

ومن يائيه : الجيفة : جثة الميت وقد أراح ، والجيّاف - كشداد : النباش ، وجافت تجيف

: أنتنت فصارت متهيئة للطرح والتغييب ، وجيّفه : ضربه ، لما رآه أهلاً للبعد ، وجيّف فلان في كذا وجُيّف أي فَزَّع وأفزع أي طرح في قلبه رعب ، فصار لا تسعه أرض ، بل يقذف بنفسه من مكان إلى آخر .

(55/410)

ومن واويه : الجوف : المطمئن من الأرض ، لأنه يسع ما يطرح فيه ويمسكه ، ومهما طرح من الجبال من شيء استقر به ، والجوف منك : بطنك ، لافتقاره إلى طرح الغذاء فيه ، وأهل الأغوار يسمون فساطيط عما لهم الأجواف – لطرح أنفسهم وأمتعتهم فيها – وجوف الليل : وسطه – تشبيه بالجوف ، والأجوفان : البطن والفرج ، والجوف – محركة السعة ، والجوفاء من الدلاء : الواسعة ، ومن القنا والشجر : الفارغة ، والجائفة : جراحة تبلغ الجوف ، وتلعه جائفة : قعيرة – لأنها لقعرها بالجوف أشبه منها بالجبل ، وجوائف النفس : ما تقعر من الجوف في مقارّ الروح ، والمجوف – كمعظم : من لا قلب له – كأن قلبه طرح من جوفه فصار خالياً .

والجُوفان – بالضم : أير الحمار – لسعة جوفه ، وأجفت الباب : رددته – كأنه من السلب ، لأنك سددت جوف البيت ، أو أنه شبه الإغلاق بطرح الباب .

ومن مقلوبه مهموزاً : فجئه الأمر – كسمعه ومنعه : هجم عليه من غير أن يشعر ، كأنه قذف به إليه ، وفجئت الناقة – كفرح : عظم بطنها ، كأنه قذف فيه بشيء ، وفجأ – كمنع : جامع ، لأنه طرحها وطرح نفسه عليها ، والمفاجىء : الأسد ، لأنه يخرج بغتة فيثب من غير توقف .

ومن مقلوبه واوياً : الفجوة : المتسع من الأرض والفرجة – لتهيئها لما يطرح فيها ، والفجوة – أيضاً : ساحة الدار وما بين حوافي الحوافر ، أي ميامنها ومياسرها ، وفجا قوسه : رفع وترها عن كبدها فهي فجواء ، وفجا بابه : فتحه ، فصار كالجوف ، والفجا : تباعد ما بين الركبتين أو الفخذين أو الساقين أو عرقوبي البعير ؛ فجي – كرضي فهو أفجى ، وعظم بطن الناقة ، والفعل كالفعل ، والتفجية : الكشف ، لأنك طرحت الغطاء ، والتفجية – أيضاً : التنحية ، وهي واضحة في الطرح ، وأفجى : وسّع النفقة على عياله – كأنه يقذف بها قذفاً .

ومن مقلوبه يائياً : أفاج الرجل – إذا أسرع ، ومنه الفيج – لرسول السلطان على رجليه – كأنه لسرعته يطرح به في الأرض – هذا هو الصحيح الذي صححه صاحب العباب ، لأنه

معرب بيك ، وقيل : إنه واوي ، أصله : فيوج ، ثم قيل : فيج - ككيس ، ثم خفف ، وجمعه الفيوج ، وقيل : الفيوج : الذين يدخلون السجن ويخرجون ويحرسون ، وأفاج في الأرض : ذهب ، والقوم : ذهبوا وانتشروا - كأنه قذف بهم ، والفيج : الوهد المطمئن من الأرض ، لأنه موضع لطرح ما في الأعالي .

ومن مقلوبه واوياً : الفوج : الجماعة ، كأنهم اقتطعوا من الجمهور فقذف بهم ، وفاح المسك : فاح وسطع ، أي انتشرت رائحته ، والنهار : برد ، إما بمعنى طرح برده على ما فيه ، وإما لإحواجه الحيوان إلى أن يطرح عليه ما يدفئه ، وأفاج : أسرع وعدا وأرسل الإبل على الحوض قطعة قطعة ، والفاتج : البساط الواسع من الأرض ، لتهيئه لما يطرح فيه ، من تسمية المحل باسم الحال ، وأفاج في عدوه : أبطأ .

فهو للسلب ، وفاجت الناقة برجيلها : نفحت بهما من خلفها ، والفائجة : متسع ما بين كل مرتفعين ، كأنه محل طرح ما ينزل منهما .

ومن مقلوبه : وجف يجف وجيفاً : اضطرب ، والوجف ضرب من سير الإبل والخيل ، وجف يجف وأوجفته واستوجف الحب فؤاده : ذهب به ، كأنه طرحه منه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 140. 144﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

اعلم أنه تعالى لما شبه المؤمن والكافر والإيمان والكفر بالأعمى والبصير والظلمات والنور ضرب للإيمان والكفر مثلاً آخر فقال : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ ومن حق الماء أن يستقر في الأودية المنخفضة عن الجبال والتلال بمقدار سعة تلك الأودية وصغرها ، من حق الماء إذا زاد على قدر الأودية أن ينبسط على الأرض ومن حق الزبد الذي يحتمله الماء فيطفو ويربو عليه أن يتبدد في الأطراف ويبطل ، سواء كان ذلك الزبد ما يجري مجرى الغليان من البياض أو ما يحفظ بالماء من الأجسام الخفيفة ، ولما ذكر تعالى هذا الزبد الذي لا يظهر إلا عند اشتداد جري الماء ذكر الزبد الذي لا يظهر إلا بالنار ، وذلك لأن كل واحد من الأجساد السبعة إذا أذيب بالنار لابتغاء حلية أو متاع آخر من الأمتعة التي يحتاج إليها في مصالح البيت ، فإنه ينفصل عنها نوع من الزبد والخبث ، ولا ينتفع به بل يضيع ويبطل ويبقى الخالص .

فالحاصل : أن الوادي إذا جرى طفا عليه زبد ، وذلك الزبد يبطل ويبقى الماء .

والأجساد السبعة إذا أذيبت لأجل اتخاذ الحلي أو لأجل اتخاذ سائر الأمتعة انفصل عنها خبث وزبد فيبطل ويبقى ذلك الجوهر المنتفع به ، فكذا ههنا أنزل من سماء الكبرياء والجلالة والإحسان ماء وهو القرآن ، والأودية قلوب العباد وشبه القلوب بالأودية ، لأن القلوب تستقر فيها أنوار علوم القرآن ، كما أن الأودية تستقر فيها المياه النازلة من السماء ، وكما أن كل واحد فإنما يحصل فيه من مياه الأمطار ما يليق بسعته أو ضيقه ، فكذا ههنا كل قلب إنما يحصل فيه من أنوار علوم القرآن ما يليق بذلك القلب من طهارته وخبثه وقوة فهمه وقصور فهمه ، وكما أن الماء يعلوه زبد الأجساد السبعة المذابة يخالطها خبث ، ثم إن ذلك الزبد والخبث يذهب ويضيع ويبقى جوهر الماء وجوهر الأجساد السبعة ، كذا ههنا بيانات القرآن تختلط بها شكوك وشبهات ، ثم إنها بالآخرة تزول وتضيع ويبقى العلم والدين والحكمة والمكاشفة في العاقبة ، فهذا هو تقرير هذا المثل ووجه انطباق المثل على الممثل به ، وأكثر المفسرين سكتوا عن بيان كيفية التمثيل والتشبيه .

المسألة الثانية :

في المباحث اللفظية التي في هذه الآية في لفظ الأودية أبحاث :

البحث الأول : الأودية جمع واد وفي الوادي قولان :

القول الأول : أنه عبارة عن الفضاء المنخفض عن الجبال والتلال الذي يجري فيه السيل ، هذا قول عامة أهل اللغة .

والقول الثاني : قال السهروردي يسمى الماء وادياً إذا سال قال : ومنه سمي الودى ودياً لخروجه وسيلانه ، وعلى هذا القول فالوادي اسم للماء السائل كالمسيل .

والأول هو القول المشهور إلا أن على هذا التقدير يكون قوله : ﴿ سَالَتْ أَوْدِيَةٌ ﴾ مجازاً فكان التقدير : سالت مياه الأودية إلا أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

(59/410)

البحث الثاني : قال أبو علي الفارسي رحمه الله : الأودية جمع واد ولا نعلم فاعلاً جمع على أفعلة قال : ويشبه أن يكون ذلك لتعاقب فاعل وفعيل على الشيء الواحد كعالم وعليم ، وشاهد وشهيد ، وناصر ونصير ، ثم إن وزن فاعل يجمع على أفعال كصاحب وأصحاب ، وطائر وأطيار ، ووزن فعيل يجمع على أفعلة ، كجريب وأجربة ثم لما حصلت المناسبة المذكورة بين فاعل وفعيل لا جرم يجمع الفاعل جمع الفعيل .

فيقال : واد وأودية ويجمع الفعيل على جمع الفاعل فيقال : يتيم وأيتام وشريف وأشراف

هذا ما قاله أبو علي الفارسي رحمه الله .

وقال غيره : نظير واد وأودية ، ناد وأندية للمجالس .

البحث الثالث : إنما ذكر لفظ أودية على سبيل التنكير ، لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فتسيل بعض أودية الأرض دون بعض .

أما قوله تعالى : ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : قال الواحدي : القدر والقدر مبلغ الشيء يقال كم قدر هذه الدراهم وكم قدرها ومقدارها ؟ أي كم تبلغ في الوزن ، فما يكون مساوياً لها في الوزن فهو قدرها .

البحث الثاني : ﴿ سَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ أي من الماء ، فإن صغر الوادي قل الماء ، وإن اتسع الوادي كثر الماء .

أما قوله : ﴿ فاحتمل السيل زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : قال الفراء : يقال أزبد الوادي إزباداً ، والزبد الاسم ، وقوله : ﴿ رَّابِيًا ﴾ قال الزجاج : طافياً عالياً فوق الماء .

وقال غيره : زائداً بسبب انتفاخه ، يقال : ربا يربو إذا زاد .

أما قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النار ابتغاء حِلْيَةٍ أَوْ متاع زَبَدٌ مّثْلُهُ ﴾ فاعلم أنه تعالى لما ضرب المثل بالزبد الحاصل من الماء ، أتبعه بضرب المثل بالزبد الحاصل من النار ، وفيه مباحث :

البحث الأول : قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ يُوقِدُونَ ﴾ بالياء ، واختاره أبو عبيدة لقوله : ﴿ يَنفَعُ الناس ﴾ وأيضاً فليس ههنا مخاطب .

(60/410)

والباقون بالتاء على الخطاب ، وعلى هذا التقدير ففيه وجهان .

الأول : أنه خطاب للمذكورين في قوله : ﴿ قُلْ أفاتخذتم مّن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ [الرعد : 16]

والثاني : أنه يجوز أن يكون خطاباً عاماً يراد به الكافة ، كأنه قال : ومما توقدون عليه في النار أيها الموقدون .

البحث الثاني : الإيقاد على الشيء على قسمين : أحدهما : أن لا يكون ذلك الشيء في النار ، وهو كقوله تعالى ﴿ فَأَوْقِدْ لِى ياهامان عَلَى الطين ﴾ [القصص : 38] والثاني : أن يوقد على الشيء ويكون ذلك الشيء في النار فإن من أراد تذويب الأجساد السبعة جعلها في النار ، فلهذا السبب قال ههنا : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النار ﴾ .

البحث الثالث : في قوله : ﴿ ابتغاء حِلْيَةٍ ﴾ قال أهل المعاني : الذي يوقد عليه لابتغاء حلية الذهب والفضة ، والذي يوقد عليه لابتغاء الأمتعة الحديد والنحاس والرصاص ، والأسرب يتخذ منها الأواني والأشياء التي ينتفع بها ، والمتاع كل ما يتمتع به وقوله : ﴿ زَبَدٌ

مّثْلُهُ ﴾ أي زبد مثل زبد الماء الذي يحمله السيل .

ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل ﴾ والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل .

ثم قال : ﴿ فأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس ﴾ قال الفراء : الجفاء الرمي والاطراح يقال : جفا الوادي غثاءه يجفوه جفاء إذا رماه ، والجفاء اسم للمجتمع منه المنضم بعضه إلى بعض وموضع جفاء نصب على الحال ، والمعنى : أن الزبد قد يعلو على وجه الماء ويربو وينتفخ إلا أنه بالآخرة يضمحل ويبقى الجوهر الصافي من الماء ومن الأجساد السبعة ، فكذلك الشبهات والخيالات قد تقوى وتعظم إلا أنها بالآخرة تبطل وتضمحل وتزول ويبقى الحق ظاهراً لا يشوبه شيء من الشبهات ، وفي قراءة رؤبة بن العجاج جفالاً ، وعن أبي حاتم لا يقرأ بقراءة رؤبة لأنه كان يأكل الفار .

أما قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبّهِمُ الحسنى ﴾ ففيه وجهان : الأول : أنه تم الكلام عند قوله : ﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ ثم استأنف الكلام بقوله ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبّهِمُ الْحُسْنَى ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 28. 30 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يعني بما قدر لها من قليل أو كثير .

الثاني : يعني الصغير من الأودية سال بقدر صغره ، والكبير منها سال بقدر كبره .

وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن وما يدخل منه في القلوب ، فشبه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه ، وشبه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية من الماء بحسب سعتها وضيقها .

قال ابن عباس : ﴿ أنزل من السماء ماءً ﴾ أي قرآناً ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ قال : الأودية قلوب العباد .

﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ الرابي : المرتفع . وهو مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل ، فالحق ممثل بالماء الذي يبقى في الأرض فينتفع به ، والباطل ممثل بالزبد الذي يذهب جُفاءً لا ينتفع به .

ثم ضرب مثلاً ثانياً بالنار فقال ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية ﴾ يعني الذهب والفضة .

﴿ أو متاع ﴾ يعني الصُفر والنحاس .

﴿ زبد مِثله . . . ﴾ يعني أنه إذا سُبِك بالنار كان له خبث كالزبد الذي على الماء يذهب فلا ينتفع به كالباطل ، ويبقى صفوة فينتفع به كالحق .

وقوله تعالى : ﴿ . . . فيذهب جفاءً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني منشقاً قاله ابن جرير .

الثاني : جافياً على وجه الأرض ، قاله ابن عيسى .

الثالث : مرمياً ، قاله ابن إسحاق .

وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ : جفالاً . قال أبو عبيدة : يقال أجفلت القدر إذا قَذَفَت بزبدها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(62/410)

وقال ابن عطية :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله ، وإقامة الحجة على الكفرة به ، فلما فرغ ذكر ذلك جعله مثالاً للحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والشك في الشرع واليقين به .

وقوله : ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ يريد به المطر ، و" الأودية " ما بين الجبال من الانخفاض

والخنادق ، وقوله : ﴿ بقدرها ﴾ يحتمل أن يريد بما قدر لها من الماء ، ويحتمل أن يريد بقدر ما تحتمله على قدر صغرها وكبرها .

وقرأ جمهور الناس : " بقدَرها " بفتح الدال ، وقرأ الأشهب العقيلي : " بقدْرها " بسكون الدال .

و" الزبد " ما يحمله السيل من غثاء ونحوه وما يرمي به ضفتيه من الجباب الملتبك ، ومنه قول حسان بن ثابت :

ما البحر حينَ تهبُّ الريحُ شاميةً . . . فيغطئُلُّ ويرمي العبر بالزبد

و" الرابي " : المنتفخ الذي قد ربا ، ومنه الربوة .

وقوله : ﴿ ومما ﴾ خبر ابتداء ، والابتداء قوله : ﴿ زبد ﴾ ، و﴿ مثله ﴾ نعت ل ﴿ زبد ﴾ .

والمعنى : ومن الأشياء التي ﴿ توقدون ﴾ عليها ابتغاء الحلي وهي الذهب والفضة ، ابتغاء الاستمتاع بما في المرافق ، وهي الحديد والرصاص والنحاس ونحوها من الأشياء التي ﴿ توقدون ﴾ عليها ، فأخبر تعالى أن من هذه إذا أحمي عليها يكون ﴿ زبد ﴾ مماثل للزبد الذي حمله السيل ، ثم ضرب تعالى ذلك مثالاً ل ﴿ الحق والباطل ﴾ أي أن الماء الذي تشربه الأرض من السيل فيقع النفع به هو " كالحق " - و﴿ الزبد ﴾ الذي يجمد

وينفش ويذهب هو كالباطل ، وكذلك ما يخلص من الذهب والفضة والحديد ونحوها هو كالحق ، وما يذهب في الدخان هو كالباطل .

(63/410)

وقوله : ﴿ في النار ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : كائناً أو ثابتاً - كذا قال مكي وغيره - ومنعوا أن يتعلق بقوله : ﴿ توقدون ﴾ لأنهم زعموا : ليس يوقد على شيء إلا وهو ﴿ في النار ﴾ وتعليق حرف الجر ب ﴿ توقدون ﴾ يتضمن تخصيص حال من حال أخرى .

وذهب أبو علي الفارسي إلى تعلقها ب ﴿ توقدون ﴾ وقال : قد يوقد على شيء وليس في النار كقوله تعالى : ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾ [القصص : 38] فذلك البناء الذي أمر به يوقد عليه وليس في النار لكن يصيبه لهبها .

وقوله : ﴿ جفاء ﴾ مصدر من قولهم : أجفأت القدر إذا غلت حتى خرج زبدها وذهب .

وقرأ رؤبة : " جفالاً " من قولهم : جفلت الريح السحاب ، إذا حملته وفرقته . قال أبو حاتم : لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن .

وقوله : ﴿ ما ينفع الناس ﴾ يريد الخالص من الماء ومن تلك الأحجار ، وقرأ ابن كثير ونافع

وأبو عمرو وابن عامر وعاصم – في رواية أبي بكر ، وأبو جعفر والأعرج وشيبة والحسن : " توقدون " بالتاء ، أي أنتم أيها الموقدون ، وهي صفة لجميع أنواع الناس ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وابن محيصن ومجاهد وطلحة ويحيى وأهل الكوفة : " يوقدون " بالياء ، على الإشارة إلى الناس ، و﴿ جفاء ﴾ مصدر في موضع الحال.

قال القاضي أبو محمد : وروي عن ابن عباس أنه قال : قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ يريد به الشرع والدين. وقوله : ﴿ فسالت أودية ﴾ : يريد به القلوب ، أي أخذ النبيل بحظه. والبليد بحظه.

(64/410)

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول لا يصح – والله أعلم – عن ابن عباس ، لأنه ينحو إلى أقوال أصحاب الرموز ، وقد تمسك به الغزالي وأهل ذلك الطريق ، ولا وجه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب لغير علة تدعو إلى ذلك ، والله الموفق للصواب برحمته ، وإن صح هذا القول عن ابن عباس فإنما قصد أن قوله تعالى : ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ معناه : ﴿ الحق ﴾ الذي يتقرر في القلوب المهدية ، ﴿ والباطل ﴾ : الذي يعتريها

أيضاً من وساوس وشبه حين تنظر في كتاب الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(65/410)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماءً ﴾

يعني : المطر ﴿ فسالت أودية ﴾ وهي جمع وادٍ ، وهو كل منفرَج بين جبلين يجتمع إِليه ماء المطر فيسيل ﴿ بقدرها ﴾ أي : بمبلغ ما تحمل ، فإن صَغُر الوادي ، قلَّ الماء ، وإِن هو اتسع ، كَثُر .

وقرأ الحسن ، وابن جبير ، وأبو العالية ، وأيوب ، وابن يعمر ، وأبو حاتم عن يعقوب : "بقدْرِها" بإسكان الدال .

وقوله : "فسالت أودية" توسُّع في الكلام ، والمعنى : سالت مياهها ، فحُذف المضاف ، وكذلك قوله : "بقدَرِها" أي : بقدر مياهها .

﴿ فاحتمل السيل زَبَداً رابياً ﴾ أي : عالياً فوق الماء ، فهذا مثل ضربه الله عز وجل .

ثم ضرب مثلاً آخر ، فقال : ﴿ ومما توقِدون عليه في النار ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو

عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: "توقِدون عليه" بالتاء.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم بالياء.

قال أبو علي: من قرأ بالتاء، فلِما قبله من الخطاب، وهو قوله: "أفاتخذتم"، ويجوز أن يكون خطاباً عامّاً للكافّة، ومن قرأ بالياء فلأنّ ذِكر الغَيبة قد تقدم في قوله: "أم جعلوا لله شركاء".

ويعني بقوله ﴿ ومما توقدون عليه ﴾ ما يدخل إلى النار فيُذاب من الجواهر ﴿ ابتغاء حِلية ﴾ يعني: الذهب والفضة ﴿ أو متاع ﴾ يعني: الحديد والصُّفْر والنحاس والرصاص تُتخذ منه الأواني والأشياء التي يُنتفع بها، ﴿ زَبَدٌ مثله ﴾ أي: له زبَد إذا أُذيب مثل زبَد السَّيل، فهذا مثل آخر.

وفيما ضُرب له هذان المثلان ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه القرآن، شُبِّه نزوله من السماء بالماء، وشُبِّه قلوبُ العِباد بالأودية تحمل منه على قدر اليقين والشك، والعقل والجهل، فيستكنّ فيها، فينتفع المؤمن بما في قلبه كانتفاع الأرض التي يستقر فيها المطر، ولا ينتفع الكافر بالقرآن لمكان شكِّه وكفره، فيكون ما حصل عنده من القرآن كالزبَد وكخبَث الحديد لا يُنتفع به.

والثاني : أنه الحق والباطل ، فالحق شُبِّه بالماء الباقي الصافي ، والباطل مشبَّه بالزَّبد الذاهب ، فهو وإن علا على الماء فانه سيمَّحِق ، كذلك الباطل ، وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال ، فإن الله سيُبطله .

والثالث : أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فمَثل المؤمن واعتقاده وعمله كالماء المنتفَع به ، ومثَل الكافر واعتقاده وعمله كالزبَد .

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي : كما ذُكر هذا ، يضرب الله مَثل الحق والباطل .

وقال أبو عبيدة : كذلك يمثّل الله الحق ويمثّل الباطل .

فأما الجُفاء ، فقال ابن قتيبة : هو ما رمى به الوادي إلى جنَباته ، يقال : أجفأتِ القِدرُ بزَبَدها : إذا ألقته عنها .

قال ابن فارس : الجُفاء : ما نفاه السيل ، ومنه اشتقاق الجَفاء .

وقال ابن الأنباري : "جُفاءً" أي : باليًا متفرقاً .

قال ابن عباس : إذا مُسَّ الزَّبَد لم يكن شيئاً .

قوله تعالى : ﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ من الماء والجواهر التي زال زَبَدها ﴿ فيمكث في الأرض ﴾ فيُنتفع به ﴿ كذلك ﴾ يبقى الحق لأهله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً ﴾

ضرب مثلاً للحق والباطل ؛ فشبّه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء ، فإنه يضمحلّ ويعلق

بجنبات الأودية ، وتدفعه الرياح ؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحلّ ، على ما نبيّنه .

قال مجاهد : "فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا" قال : بقدر ملئها .

وقال ابن جُرَيج : بقدر صغرها وكبرها .

وقرأ الأَشْهَبُ العُقَيْلي والحسن "بِقَدْرِهَا" بسكون الدال ، والمعنى واحد .

وقيل : معناها بما قدّر لها .

والأودية جمع الوادي ؛ وسمّي وادياً لخروجه وسيلانه ؛ فالوادي على هذا اسم للماء

السائل .

وقال أبو علي : "فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ" توسع ؛ أي سال ماؤها فحذف ؛ قال ومعنى "بِقَدَرِهَا"

بقدر مياهها ؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها .

"فاحتمل السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً" أي طالعاً عالياً مرتفعاً فوق الماء ، وتمّ الكلام ؛ قاله مجاهد .

ثم قال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ﴾ وهو المثل الثاني .

﴿ ابتغآء حِلْيَةٍ ﴾ أي حلية الذهب والفضة .

﴿ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ قال مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص .

وقوله : "زَبَدٌ مِثْلُهُ" أي يعلو هذه الأشياء زبد كما يعلو السيل ؛ وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبداً ، كذلك ما يوقد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما يَنبتّ فِي الأرض من المعادن فقد خالطه التراب ؛ فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله تراب الأرض .

وقوله : ﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ قال مجاهد : جموداً .

وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء : أَجْفَأَتِ القِدْرُ إذا غَلَت حتى ينصبّ زَبَدُها ، وإذا جَمَد في أسفلها .

والجُفاء ما أجفاه الوادي أي رمَى به .

وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤْبة يقرأ "جُفَالاً" قال أبو عبيدة : يقال أَجْفَلَت القِدْرُ إذا قذفت بزبدها ، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته .

﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض ﴾ قال مجاهد : هو الماء الخالص الصّافي .

وقيل : الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص ؛ وهو أن المثَلين ضربهما الله للحقّ في ثباته ، والباطل في اضمحلاله ، فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فإنه يضمحلّ كاضمحلال الزّبد والخَبَث .

وقيل : المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ؛ فَشبَّه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه ، وشَبَّه القلوب بالأودية ، يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقها .

قال ابن عباس : "أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً" قال : قرآناً ؛ "فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا" قال : الأودية قلوب العباد .

قال صاحب "سوق العروس" إن صحّ هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مَثّل القرآن بالماء .

ومَثّل القلوب بالأودية ، ومثل المُحْكَم بالصّافي ، ومثل المتشابه بالزّبد .

وقيل : الزبد مخايل النفس وغوائل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تِلَعها ، كما أن ماء السّيل يجري صافياً فيرفع ما يجد في الوادي باقياً ، وأما حلية الذهب

والفضة فمثل الأحوال السَّنية .

والأخلاق الزَّكية ؛ التي بها جمال الرجال ، وقوام صالح الأعمال ، كما أن من الذّهب والفضّة زينة النّساء ، وبهما قيمة الأشياء .

وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وحفص "يُوقِدُونَ" بالياء واختاره أبو عبيد ؛ لقوله : "يَنْفَعُ النَّاس" فأخبر ، ولا مخاطبة هاهنا .

الباقون بالتاء لقوله في أول الكلام : "أفاتخذتم مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ" الآية .

وقوله : "فِي النَّارِ" متعلق بمحذوف ، وهو في موضع الحال ، وذو الحال الهاء التي في "عَلَيْهِ" التقدير : ومما توقدون عليه ثابتاً في النار أو كائناً .

(69/410)

وفي قوله : "فِي النَّارِ" ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التي هي اسم ذي الحال ولا يستقيم أن يتعلق "فِي النَّارِ" ب"يوقدون" من حيث لا يستقيم أوقدتُ عليه في النار ؛ لأن الموقَد عليه يكون في النَّار ، فيصير قوله : "فِي النَّارِ" غير مفيد .

وقوله : "ابتغاء حِلْيَةٍ" مفعول له .

"زَبَدٌ مِثْلُهُ" ابتداء وخبر ؛ أي زبد مثل زبد السّيل .

وقيل : إن خبر "زبد" قوله : "فِي النَّارِ" الكسائي : "زَبَدٌ" ابتداء ، و"مِثْلُهُ" نعت له ، والخبر في الجملة التي قبله ، وهو "مِمَّا يُوقِدُونَ" .

﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ أي كما بيّن لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بيّنات . تم الكلام ، ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجابوا لِرَبِّهِمُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(70/410)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾

لما شبه الله الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير وشبه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور ضرب لذلك مثلاً فقال تعالى : أنزل من السماء ماء يعني المطر ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ أودية جمع واد وهو المفرج بين الجبلين يسيل فيها الماء وقوله : فسالت أودية فيه اتساع ، وحذف تقديره فسال في الوادي فهو كما يقال جري النهر والمراد جرى الماء في النهر فحذف في لدلالة الكلام عليه بقدرها .

قال مجاهد بمثلها وقال ابن جريج : الصغير بقدره والكبير بقدره ، وقيل : بمقدار مائها وإنما

نكر أودية لأن المطر إذا نزل لا يعم جميع الأرض ، ولا يسيل في كل الأودية بل ينزل في أرض دون أرض ويسيل في واد دون وادٍ .

فلهذا السبب جاء هذا بالتنكير .

(71/410)

وقال ابن عباس : أنزل من السماء ماء يعني قرآناً وهذا مثل ضربه الله تعالى فسالت أودية بقدرها يريد بالأودية القلوب شبه نزول القرآن الجامع للهدى والنور ، والبيان بنزول المطر لأن المطر إذا نزل عمّ نفعه وكذلك نزول القرآن وشبه القلوب بالأودية ، لأن الأودية يستكن فيها الماء وكذلك القلوب يستكن فيها الإيمان والعرفان ببركة نزول القرآن فيها ، وهذا خاص بالمؤمنين لأنهم الذين انتفعوا بنزول القرآن (ق) عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء نفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فتعلم ، وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي

أرسلت به " قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله ، وغيره في معنى هذا الحديث وشرحه أما الكلأ فبا غمز يقع على الرطب واليابس من الحشيش ، وأما قوله وكان منها أجادب فالجيم والدال المهملة والباء الموحدة كذا في الصحيحين ، وهي الأرض التي لا تنبت الكلأ جمع جدب على غير قياس وقياسه أجدب ، والجدب ضد الخصب .

(72/410)

وقال الخطابي : هي التي تمسك الماء ولم يسرع فيه النضوب وفي رواية الهروي أخاذات بالخاء المعجمة والذال المعجمة جمع آخاذة وهي الغدير الذي يمسك الماء ، وقوله : ورعوا كذا هو في صحيح مسلم من الرعي ، ووقع في صحيح البخاري وزرعوا بزيادة زاي من الزرع والقيعان بكسر القاف جمع قاع وهو المستوي من الأرض ، وقوله : فذلك مثل من فقه في دين الله يروى بضم القاف وهو المشهور وروي بكسرها ومعناه فهم الأحكام وأما معنى الحديث ومقصوده فهو أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ضرب مثلاً لما جاء به من الهدى ، والعلم بالأرض التي أصابها المطر .

قال العلماء : والأرض ثلاثة أنواع وكذلك الناس لأنهم منها خلقوا ، فالنوع الأول من أنواع الأرض الطيبة التي تنتفع بالمطر فتنبت به العشب فينتفع الناس به والدواب بالشرب

والرعي وغير ذلك وكذلك النوع الأول من الناس من يبلغه الهدى من غير ذلك من العلم فيحيا به قلبه ويحفظه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع به وينفع غيره .

قال مسروق : صحبت أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فوجدتهم كالأخاذات لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم .

النوع الثاني من أنواع الأرض : أرض لا تقبل الانتفاع في نفسها لكن فيها فائدة لغيرها ، وهي إمساك الماء لغيرها لينتفع به الناس والدواب وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة ، لكن ليس لهم أفهام ثاقبة فيبقى ما عندهم من العلم حتى يجيء المحتاج إليه المتعطش لما عندهم من العلم فيأخذه منهم فينتفع به هو وغيره ، النوع الثالث : من أنواع الأرض أرض سبخة لا تنبت مرعى ولا تمسك ماء كذلك النوع الثالث من الناس ليس لهم قلوبه حافظة ، ولا أفهام ثاقبة فإذا بلغهم شيء من العلم لا ينتفعون به في أنفسهم ولا ينفعون غيرهم والله وأعلم .

(73/410)

وقوله تعالى ﴿ فاحتمل السيل زبداً ﴾ الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة ، كالحبب وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها والمعنى فاحتمل السيل الذي حدث من ذلك الماء

زبداً ﴿ رابياً ﴾ يعني عالياً مرتفعاً فوق الماء طافياً عليه ، وها هنا تم المثل ثم ابتدأ بمثل آخر فقال تعالى ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ﴾ الايقاد جعل الحطب في النار لتتقد تلك النار تحت الشيء ليذوب ﴿ ابتغاء حلية ﴾ يعني لطلب زينة ، والضمير في قوله عليه يعود على الذهب والفضة ، وإن لم يكونا مذكورين لأن الحلية لا تطلب إلا منهما ﴿ أو متاع ﴾ يعني أو لطلب متاع آخر مما ينتفع به كالحديد والنحاس والرصاص ونحوه مما يذاب وتتخذ منه الأواني وغيرها مما ينتفع له ، والمتاع كل ما ويتمتع به .

ويقال لكل ما ينتفع به في البيت كالطبق والقدر ونحو ذلك من الأواني : متاع ﴿ زبد مثله ﴾ يعني أن ذلك الذي يوقد عليه في النار إذا أذيب ، فله أيضاً زبد مثل زبد الماء فالصافي من الماء ومن هذه الجواهر هو الذي ينتفع به وهو مثل الحق .

والزبد من الماء ومن هذه الجواهر وهو الذي لا ينتفع به ، وهو مثل الباطل وهو قوله تعالى ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ فالحق هو الجوهر الصافي الثابت ، والباطل هو الزبد الطافي الذي لا ينتفع به وهو قوله ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ يعني ضائعاً باطلاً والجفاء ما رمى به الوادي من الزبد إلى جوانبه .

وقيل : الجفاء المتفرق يقال جفأت الريح الغيم إذا فرقته والمعنى أن الباطل وإن علا في وقت فإنه يضمحل ويذهب ﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ يعني الماء الصافي والجوهر الجيد من هذه

الأجسام التي تذاب ﴿ فيمكث في الأرض ﴾ يعني يثبت ويبقى ولا يذهب ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ قال أهل التفسير والمعاني : هذا مثل ضربه الله للحق والباطل .

(74/410)

فالباطل وإن علا على الحق في بعض الأوقات والأحوال ، فإن الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافي الذي ينتفع به ، وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذي هو الكدر ، وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض كذلك الحق والباطل .

فالباطل وإن علا في وقت فإنه يذهب هو وأهله ، والحق يظهر هو وأهله .

وقيل : هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالإيمان كمثل الماء الصافي الذي ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كالزبد الذي لا ينتفع به البتة .

وقيل : هذا مثل ضربه الله للنور الذي يحصل في قلوب العباد على ما قسم لها في الأزل لأن الوادي إذا سال كنس كل شيء فيه من النجاسات والمستقذرات ، كذلك إذا سال وادي قلب العبد بالنور الذي قسم له على قدر إيمانه ومعرفته كنس كل ظلمة وغفلة فيه ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض يعني يذهب البواطل وهي

الأخلاق المذمومة ، وتبقى الحقائق وهي الأخلاق الحميدة كذلك يضرب الله الأمثال .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(75/410)

وقال أبو حيان :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

قال الزمخشري : هذا مثل ضربه الله للحق وأهله ، والباطل وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، مثلاً لهما .

فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية للناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع ، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلى منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى فيه ، وإن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً يثبت الماء في منافعه ، وتبقى آثاره في العيون والبئار والجبوب والثمار التي تنبت به مما يدخر ويكثر ، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة .

وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمي به ، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب .

وقال ابن عطية : صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى ، وإقامة الحجة على الكفرة به ، فلما فرغ ذكر ذلك جعله مثالاً للحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والشك في الشرع واليقين به انتهى .

وقيل : هذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن ، والقلوب ، والحق ، والباطل .

فالماء مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب ، وبقاء الشرع والدين والأودية مثل للقلوب ، ومعنى بقدرها على سعة القلوب وضيقها ، فمنها ما انتقع به فحفظه ووعاه وتدبر فيه ، فظهرت ثمرته وأدرك تأويله ومعناه ، ومنها دون ذلك بطبقة ، ومنها دونه بطبقات .

والزبد مثل الشكوك والشبه وإنكار الكافرين إنه كلام الله ، ودفعهم إياه بالباطل .

والماء الصافي المنتفع به مثل الحق انتهى .

وفي الحديث الصحيح ما يؤيد هذا التأويل وهو قوله (صلى الله عليه وسلم) : " مثل ما بعثت به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً وكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها طائفة أجادب فأمسكت الماء فانتفع الناس به وسقوا ورعوا وكانت منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل ما جئت به من

العلم والهدى ومثل من لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " وقال ابن عطية : وروي عن ابن عباس أنه قال : قوله تعالى أنزل من السماء ماء ، يريد به الشرع والدين ، فسالت أودية يريد القلوب ، أي : أخذ النبيل بحظه ، والبليد بحظه ، وهذا قول لا يصح والله أعلم عن ابن عباس ، لأنه ينحو إلى أقوال أصحاب الرموز ، وقد تمسك به الغزالي وأهل تلك الطريق ، ولا توجيه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير علة تدعو إلى ذلك ، والله الموفق للصواب .

وإن صح هذا القول عن ابن عباس ، فإنما قصد أن قوله تعالى : ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ ، معناه : الحق الذي يتقرر في القلوب ، والباطل الذي يعتريها أيضاً انتهى .

والماء المطر .

ونكر أودية لأنّ المطر إنما يدل على طريق المناوبة ، فتسيل بعض الأودية دون بعض .

ومعنى بقدرها أي : على قدر صغرها وكبرها ، أو بما قدر لها من الماء بسبب نفع الممطور عليهم لا ضررهم .

ألا ترى إلى قوله : وأما ما ينفع الناس ، فالمطر مثل للحق ، فهو نافع خال من الضرر .

وقرأ الجمهور : بقدرها بفتح الدال .

وقرأ الأشهب العقيلي ، وزيد بن علي ، وأبو عمرو في رواية : بسكونها .

وقال الحوفي : بقدرها متعلق بسالت .

وقال أبو البقاء : بقدرها صفة لأودية ، وعرف السيل لأنه عنى به ما فهم من الفعل ، والذي يتضمنه الفعل من المصدر هو نكرة ، فإذا عاد عليه الظاهر كان معرفة ، كما كان لو صرح به نكرة ، ولذلك تضمن إذا عاد ما دل عليه الفعل من المصدر نحو : من كذب كان شراً له أي : كان الكذب شراً له ، ولو جاء هنا مضمراً لكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من فسالت .

واحتمل بمعنى حمل ، جاء فيه افتعل بمعنى المجرد كاقتدر وقدر .

ورابياً منتفخاً عالياً على وجه السيل ، ومنه الربوة .

ومما توقدون عليه أي : ومن الأشياء التي توقدون عليها وهي الذهب ، والفضة ، والحديد ، والنحاس ، والرصاص ، والقصدير ، ونحوها مما يوقد عليه وله زبد .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص ، وابن محيصن ، ومجاهد ، وطلحة ، ويحيى ، وأهل الكوفة : يوقدون بالياء على الغيبة ، أي يوقد الناس .

وقرأ باقي السبعة والحسن ، وأبو جعفر ، والأعرج ، وشيبة : بالتاء على الخطاب وعليه متعلق بتوقدون وفي النار .

قال أبو علي ، والحوفي : متعلق بتوقدون .

وقال أبو علي : قد يوقد على كل شيء وليس في النار كقوله : ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾ فذلك البناء الذي أمر به يوقد عليه ، وليس في النار ، لكن يصيبه لهبها .

وقال مكي وغيره : في النار متعلق بمحذوف تقديره : كائناً ، أو ثابتاً .

ومنعوا تعليقه بقوله : توقدون ، لأنهم زعموا أنه لا يوقد على شيء إلا وهو في النار ، وتعليق حرف الجر بتوقدون يتضمن تخصيص حال من حال أخرى انتهى .

ولو قلنا : إنه لا يوقد على شيء إلا وهو في النار ، لجاز أن يكون متعلقاً بتوقدون ، ويجوز ذلك على سبيل التوكيد كما قالوا في قوله : يطير بجناحيه ، وانتصب ابتغاء على أنه مفعول من أجله ، وشروط المفعول من أجله موجودة فيه .

وقال الحوفي : هو مصدر في موضع الحال أي : مبتغين حلية ، وفي ذكر متعلق ابتغاء تنبيه على منفعة ما يوقدون عليه .

والحلية ما يعمل للنساء مما يتزين به من الذهب والفضة ، والمتاع ما يتخذ من الحديد والنحاس وما أشبههما من الآلات التي هي قوام العيش كالأواني ، والمساحي ، وآلات

الحرب، وقطاعات الأشجار، والسكك، وغير ذلك.

وزبد مرفوع بالابتداء، وخبره في قوله: ومما توقدون.

ومِن الظاهر أنها للتبعيض، لأن ذلك الزبد هو بعض ما يوقد عليه من تلك المعادن.

وأجاز الزمخشري أن تكون مِن لابتداء الغاية أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء، والمماثلة في كونهما يتولدان من الأوساخ والأكدار، والحق والباطل على حذف مضاف أي: مثل الحق والباطل.

شبه الحق بما يخلص من جرم هذه المعادن من الأقذار والخبث ودوام الانتفاع بها، وشبه الباطل بالزبد والمجتمع من الخبث والأقذار، ولا بقاء له ولا قيمة.

وفصل ما سبق ذكره مما ينتفع به ومن الزبد، فبدأ بالزبد إذ هو المتأخر في قوله: زبداً رابياً، وفي قوله: زبد مثله، ولكون الباطل كناية عنه وصف متأخر، وهي طريقة فصيحة يبدأ في التقسيم بما ذكر آخراً كقوله: ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم ﴾ والبداءة بالسابق فصيحة مثل قوله: ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار ﴾ وكأنه والله أعلم يبدأ في التفصيل بما هو أهم في الذكر.

وانتصب جفاء على الحال أي: مضمحلاً متلاشياً لا منفعة فيه ولا بقاء له.

والزبد يراد به ما سبق من ما احتمله السيل وما خرج من حيث المعادن، وأفرد الزبد بالذكر ولم يثن، وإن تقدم زبدان لاشتراكهما في مطلق الزبدية، فهما واحد باعتبار القدر

المشترك .

وقرأ رؤبة : جفالاً باللام بدل الهمزة من قولهم : جفلت الريح السحاب إذا حملته وفرقته .

وعن أبي حاتم : لا يقرأ بقراءة رؤبة ، لأنه كان يأكل الفار بمعنى : أنه كان أعرابياً جافياً .

وعن أبي حاتم أيضاً : لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن .

(79/410)

وأما ما ينفع الناس أي : من الماء الخالص من الغناء ومن الجوهر المعدني الخالص من الخبث

أي : مثل ذلك الضرب كمثل الحق والباطل .

يضرب الله الأمثال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(80/410)

وقال أبو السعود :

وبعد ما مُثّل المشركُ والشركُ بالأعمى والظلماتِ ، والموحدُ والتوحيدُ بالبصير والنور مُثّل

الحقُّ الذي هو القرآنُ العظيم في فيضانه من جناب القدسِ على قلوب خاليةٍ عنه متفاوتةٍ

الاستعداد وفي جريانه عليها ملاحظةً وحفظاً وعلى الألسنة مذاكرةً وتلاوةً وفي ثباته فيهما مع كونه مُمِدّاً لحياتها الروحانية وما يتلوها من الملكات السنية والأعمال المرضيّة بالماء النازلِ من السماء السائلِ في أودية يابسةٍ لم تجرِ عادتُها بذلك سيلاناً مقدراً بمقدار اقتضتْه الحكمةُ في إحياء الأرضِ وما عليها الباقي فيها حسبما يدور عليه منافعُ الناس، وفي كونه حليةً تتحلّى به النفوسُ وتصل إلى البهجة الأبدية ومتاعاً يُتمتّع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزّات التي يُتخذ منها أنواعُ الآلات والأدواتِ وتبقى منتَفعاً بها مدةً طويلةً، ومُثّل الباطلُ الذي ابتُلِيَ به الكفرةُ لقصور نظرِهم بما يظهر فيهما من غير مداخلةٍ له فيهما وإخلالٍ بصفائهما من الزبد الرابي فوقهما المضمحلّ سريعاً فقيل :

(81/410)

﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء ﴾ أي من جهتها ﴿ مَاء ﴾ أي كثيراً أو نوعاً منه وهو ماءُ المطر ﴿ فَسَالَتْ ﴾ بذلك ﴿ أَوْدِيَةٌ ﴾ واقعةٌ مواقعه لا جميعُ الأودية إذ الأمطارُ لا تستوعبُ الأقطارَ وهو جمعُ وادٍ وهو مفرَجٌ بين جبال أو تلالٍ أو آكام على الشذوذ كنادٍ وأندية وناج وأنجية، قالوا : وجهُه أن فاعلا يجيء بمعنى فعيل، كناصر ونصير، وشاهد وشهيد، وعالم وعليم، وحيث جُمع فعيل على أفعلة كجريب وأجرِبة جُمع فاعل أيضاً على أفعلة،

فإن أريد بها ما يسيل فيها مجازاً فإسنادُ السيلانِ إليها حقيقيٌّ وإن أريد معناها الحقيقيُّ فالإسنادُ مجازيٌّ كما في جرى النهرُ ، وإيثارُ التمثيل بها على الأنهار المستمرة الجريانِ لوضوح المماثلةِ بين شأنها وشأنِ ما مُثّل بها كما أشير إليه ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ أي سالت ملتبسةً بمقدارها الذي عينه الله تعالى واقتضتْه حكمتُه في نفع الناس أو بمقدارها المتفاوتِ قلةً وكثرةً بحسب تفاوتِ محالّها صِغرا وكِبَراً لا بكونها مالئةً لها منطبقةً عليها بل بمجرد قلّتها بِصغرها المستلزِم لقلة مواردِ الماء وكثرتها بكِبَرها المستدعي لكثرة الموارد ، فإن موردَ السيل الجاري في الوادي الصغير أقلُّ من مورد السيل الجاري في الوادي الكبير ، هذا إن أريد بالأودية ما يسيل فيها ، أما إن أريد بها معناها الحقيقيُّ فالمعنى سالت مياهُها بقدر تلك الأوديةِ على نحو ما عرفته آنفاً ، أو يراد بضميرها مياهُها بطريق الاستخدام ويراد بقدَرها ما ذكر أولاً من المعنيين ﴿ فاحتمل السيل ﴾ الجاري في تلك الأودية أي حملَ معه ﴿ زَبَدًا ﴾ أي غُثاء ورغوةً ، وإنما وُصف ذلك بقوله تعالى ﴿ رَّابِيًا ﴾ أي عالياً منتفخاً فوقه بياناً لما أريد بالاحتمال المحتمَل لكون الحميلِ غيرَ طافٍ كالأشجار الثقيلة وإنما لم يُدفع ذلك الاحتمال بأن يقال : فاحتمل السيلُ فوقه للإيذان بأن تلك الفوقيةَ مقتضى شأنِ الزبدِ لا من جهة المحتمَل تحقيقاً

للمماثلة بينه وبين ما مُثّل به من الباطل الذي شأنُه الظهورُ في بادي الرأي من غير مداخلةٍ في الحق ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النار ﴾ أي يفعلون الإيقادَ عليه كائناً في النار والضميرُ للناس أُضمر مع عدم سبق الذكرِ لظهوره وقرىء بالخطاب ﴿ ابتغاء حِلْيَةٍ أَوْ متاع ﴾ أي لطلب اتخاذِ حليةٍ وهي ما يُتزيّن ويُتجمّل به كالحِليِّ المتخَذةِ من الذهب والفضة أو اتخاذِ متاعٍ وهو ما يتمتع به من الأواني والآلات المتخَذةِ من الرصاص والحديد وغيرِ ذلك من الفِلزّات ﴿ زَبَدٌ ﴾ خبث ﴿ مّثْلِهِ ﴾ مثلُ ما ذكر من زبد الماء في كونه رابياً فوقه ، فقوله : زبدٌ مبتدأٌ خبرُه الظرفُ المقدم ، ومن ابتدائيه دالةٌ على مجرد كونِه مبتدأً وناشئاً منه لا تبعيضيةٌ معرِبة عن كونه بعضاً منه كما قيل ، لإخلال ذلك بالتمثيل ، وفي التعبير عن ذلك بالموصول والتعرضِ لما في حيّز الصلةِ من إيقاد النار عليه جريٌ على سنن الكِبرياء بإظهار التهاونِ به كما في قوله تعالى :

﴿ فَأَوْقِدْ لِى ياهامان ياهامان عَلَى الطين ﴾ وإشارةٌ إلى كيفية حصولِ الزبدِ منه بذوبانه ، وفي زيادة (في النار) إشعارٌ بالمبالغة في الاعتمال للإذابة وحصولِ الزبد كما أشير إليه ، وعدمُ التعرض لإخراجه من الأرض لعدم دخلِ ذلك العنوانِ في التمثيل كما أن لعنوان إنزالِ الماءِ من السماء دخلاً فيه حسبما فصّل فيما سلف بل له إخلالٌ بذلك .

﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلك الضربِ البديعِ المشتملِ على نُكت رائقةٍ ﴿ يَضْرِبُ اللهُ الحق والباطل ﴾ أي مثَلَ الحق ومثل الباطل ، والحذفُ للإنباء عن كمال التماثل بين الممثَّل والممثلِ به كأنه المثَلَ المضروبَ عينُ الحقِّ والباطلِ ، وبعد تحقيق التمثيلِ مع الإيماء في تضاعيف ذلك إلى وجوه المماثلة على أبدع وجوهٍ وآنقها حسبما أشير إليه في مواقعها بيِّن عاقبةُ كل من الممثّلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة من الذهاب والبقاءِ تتمةً للغرض من التمثيل من الحث على اتباع الحقِّ الثابتِ والردْعِ عن الباطل الزائد فقيل : ﴿ فَأَمَّا الزبد ﴾ من كل منهما ﴿ فَيَذْهَبُ جُفَاء ﴾ أي مرمياً به ، وقرىء جُفالاً والمعنى واحد ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس ﴾ منهما كالماء الصافي والفِلزِّ الخالص ﴿ فَيَمْكُثُ فِى الأرض ﴾ أما الماء فيثبت بعضُه في مناقعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنا والآبار وأما الفلزُّ فيصاغ من بعضه أنواعُ الحِليِّ ويتخذ من بعضه أصنافُ الآلات والأدوات فيُنتفع بكل من ذلك أنواعَ الانتفاعات مدةً طويلة ، فالمرادُ بالمكث في الأرض ما هو أعمُّ من المكث في نفسها ومن البقاء في أيدي المتقلّبين فيها وتغييرُ ترتيبِ اللفِّ الواقعِ في الفذْلكة الموافقِ للترتيب الواقع في التمثيلِ لمراعاة الملاءمةِ بين حالتي الذهاب والبقاءِ وبين

ذكرَيهما فإن المعتبَر إنما هو بقاءُ الباقي بعد ذهاب الذاهبِ لا قبله .

﴿ كذلك يَضْرِبُ الله ﴾ أي مثلَ ذلك الضرب العجيبِ يضرب ﴿ الأمثال ﴾ في كل باب إظهاراً لكمال اللطفِ والعنايةِ في الإرشاد والهداية ، وفيه تفخيمٌ لشأن هذا التمثيلِ وتأكيدٌ لقوله : ﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل ﴾ إما باعتبار ابتناءِ هذا التمثيلِ الأول أو بجعل ذلك إشارةً إليهما جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(84/410)

وقال الآلوسى :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء ﴾

أي من جهتها على ما هو المشاهد ، وقيل : منها نفسها ولا تجوز في الكلام .

واستدل له بآثار الله تعالى أعلم بصحتها ، وقيل : انزل منها نفسها ﴿ مَاء ﴾ أي كثيراً أو نوعاً منه وهو ماء المطر باعتبار أن مباديه منها وذلك لتأثير الإجرام الفلكية في تصاعد البخار فيتجوز في ﴿ مِنْ ﴾ ﴿ فَسَالَتْ ﴾ بذلك ﴿ أَوْدِيَةٌ ﴾ دافعة في مواقعه لا جميع الأودية إذ الأمطار لا تستوعب الأقطار وهو جمع واد .

قال أبو علي الفارسي : ولا يعلم أن فاعلاً جمع على افعلة ، ويشبه أن يكون ذلك لتعاقب

فاعل وفعيل على الشيء الواحد كعالم وعليم وشاهد وشهيد وناصر ونصير .

ثم ان وزن فاعل يجمع على أفعال كصاحب وأصحاب وطائر وأطيار .

ووزن فعيل بجمع على أفعلة كجريب وأجربة ، ثم لما حصلت المناسبة المذكورة بين فاعل وفعيل لا جرم يجمع فاعل جمع فعيل فيقال : واد وأودية ويجمع فعيل فاعل يتيم وأيتام وشريف وأشراف اه .

ونظير ذلك ناد وأندية وناج وأنجية قيل .

ولا رابع لها .

وفي شرح التسهيل ما يخالفه .

(85/410)

والوادي الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثيرة ، وبه سميت الفرجة بين الجبلين ويطلق على الماء الجاري فيه ، وهو اسم فاعل من ودي إذا سال فإن أريد الأول فالإسناد مجازي لو الكلام على تقدير مضاف كما قال الإمام أي مياه أودية ، وإن أريد الثاني وهو معنى مجازي من باب اطلاق اسم المحل على الحال فالإسناد حقيقي ، وإيثار التمثيل بالأودية على الأنهار المستمرة الجريات لوضوح المماثلة بين شأنها وما مثل بها كما سنشير إليه إن شاء

الله تعالى ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ أي بمقدارها الذي عينه الله تعالى واقتضته حكمته سبحانه في نفع الناس ، أو بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت محالها صغراً وكبراً لا بكونها مالئة لها منطبقة عليها بل بمجرد قلتها بصغرها المستلزم لقلة موارد الماء وكثرتها بكبرها المستدعى لكثرة الموارد ، فإن موارد السيل الجاري في الوادي الصغير أقل من موارد السيل الجاري في الوادي الكبير ، هذا إذا أريد بالأودية ما يسيل فيها أما أن أريد بها المعنى الحقيقي فالمعنى سالت مياهها بقدر تلك الأودية على نحو ما عرفته آنفاً أو يراد بضميرها مياهها بطريق الاستخدام ويراد بقدرها ما ذكر أولا من المعنيين قاله شيخ الإسلام ، والجار والمجرور على ما نقل عن الحوفي متعلق بسالت ، وقال أبو البقاء : إنه في موضع الصفة لأودية ، وجوز أن يكون متعلقاً بأنزل .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما .

والاشهب العقيلي .

وأبو عمرو في رواية ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ بسكون الدال وهي لغة في ذلك .

﴿ فاحتمل ﴾ أي حمل وجاء افتعل بمعنى المجرد كاقتدر وقدر ﴿ السيل ﴾ أي المار الجاري في تلك الأودية والتعريف لكونه معهوداً مذكوراً بقوله تعالى : ﴿ أَوْدِيَةٌ ﴾ ولم يجمع لأنه كما قال الراغب مصدر بحسب الأصل ، وفي البحر أنه إنما عرف لأنه عنى به ما فهم من الفعل والذي يتضمن الفعل من المصدر وإن كان مكرة إلا أنه إذا عاد في الظاهر كان معرفة كما كان لو صرح به نكرة ، وكذا يضمر إذا عاد على ما دل عليه الفعل من المصدر نحو من كذب كان شراً له أي الكذب ، ولو جاء هنا مضمراً لكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من سالت ا ه .

وأورد عليه أنه كيف يجوز أن يعني به ما فهم من الفعل وهو حدث والمذكور المعرف عين كما علمت .

وأجيب بأنه بطريق الاستخدام .

ورد بأن الاستخدام أن يذكر لفظ بمعنى ويعاد عليه ضمير بمعنى آخر حقيقياً كان أو مجازياً وهذا ليس كذلك لأن الأول مصدر أي حدث في ضمن الفعل وهذا اسم عين ظاهر يتص بتلك فكيف يتصور فيه الاستخدام .

نعم ما ذكروه أغلبي لا يختص بما ذكر فإن مثل الضمير اسم الإشارة وكذا الاسم الظاهر ا ه .

وانظر هل يجوز أن يراد من السيل المعنى المصدري فلا يحتاج إلى حديث الاستخدام أم لا ، وعلى الجواز يكون المعنى فاحتمل الماء المنزل من السماء بسبب السيل ﴿ زَبَدًا ﴾ هو

الغثاء الذي يطرحه الوادي إذا جاش مائه واضطربت أمواجه على ما قاله أبو الحجاج الأعلم ، وهو معنى قول ابن عيسى : إنه وضر الغليان وخبثه ، قال الشاعر :

وما الفرات إذا جاشت غواربه . . .

ترمي أواذيه العبرين بالزبد

(87/410)

﴿ رَّابِيًا ﴾ أي عالياً منتفخاً فوق الماء ، ووصف الزبد بذلك قيل : بياناً لما أريد بالاحتمال المحتمل لكون المحمول غير طاف كالأشجار الثقيلة ، وإنما لم يدفع ذلك بأن يقال فاحتمل السيل زبداً فوقه للإيذان بأن تلك الفوقية مقتضى شأن الزبد لا من جهة المحتمل تحقيقاً للمماثلة بينه وبين ما مثل به من الباطن الذي شأنه الظهور في مبادىء الرأي من غير مداخلة في الحق ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ ﴾ ابتداء جملة كما روي عن مجاهد معطوفة على الجملة الأولى لضرب مثل آخر أي ومن الذي يفعلون الايقاد ﴿ عَلَيْهِ ﴾ وضمير الجمع للناس أضمر مع عدم السبق لظهوره ، وقرأ أكثر السبعة .

وأبو جعفر .

والأعرج.

وشيبة ﴿ تُوقِدُونَ ﴾ بتاء الخطاب ، والجار متعلق بما عنده وكذا قوله تعالى : ﴿ فِى النار ﴾ عند أبي البقاء .

والحوفي ، قال أبو علي : قد يوقد على الشيء وليس في النار كقوله تعالى : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى ياهامان ياهامان عَلَى الطين ﴾ [القصص : 38] فإن الطين الذي أمر بالوقد عليه ليس في النار وإنما يصيبه لهبها ، وقال مكي .

وغيره : إن ﴿ فِى النار ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من الموصول أي كائناً أو ثابتاً فيها ، ومنعوا تعلقه بتوقدون قالوا : لأنه لا يوقد على شيء إلا وهو في النار والتعليق بذلك يتضمن تخصيص حال من حال أخرى ، وقال أبو حيان : لو قلنا : إنه لا يوقد على شيء إلا وهو في النار لجاز أيضاً التعليق على سبيل التوكيد كما قالوا في قوله تعالى :

﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] وقيل : إن زيادة ذلك للأشعار بالمبالغة في الاعتمال للاذابة وحصول الزبد ؛ والمراد بالموصول نحو الذهب .

والفضة .

والحديد .

والنحاس .

والرصاص ، وفي عدم ذكرها بأسمائها والعدول إلى وصفها بالايقاد عليها المشعر بضربها بالمطارق لأنه لأجله وبكونها كالحطب الخسيس تهاون بها إظهاراً لكبريائه جل شأنه على ما قيل ، وهو لا ينافي كون ذلك ضرب مثل للحق لأن مقام الكبرياء يقتضي التهاون بذلك مع الإشارة إلى كونه مرغوباً فيه منتفعاً به بقوله تعالى : ﴿ ابتغاء حِلْيَةٍ أَوْ متاع ﴾ ففي كل من المقامين حقه فما قيل : إن الحل على التهاون لا يناسب المقام لأن المقصود تمثيل الحق بها وتحقيرها لا يناسبه ساقط فتأمل .

ونصب ﴿ ابتغاء ﴾ على أنه مفعول له كما هو الظاهر ، وقال الحوفي : إنه مصدر في موضع الحال أي مبتغين وطالبين اتخاذ حلية وهي ما يتزين ويتجمل به كالحلى المتخذ من الذهب والفضة واتخاذ متاع وهو ما يتمتع به من الأواني والآلات المتخذة من الحديد والرصاص وغير ذلك من الفلزات ﴿ زَبَدٌ ﴾ خبث ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ أي مثل ما ذكر من زبد الماء في كونه رابياً فوقه رفع ﴿ زَبَدٌ ﴾ على أنه مبتدأ خبره ﴿ مِّمَّا تُوقِدُونَ ﴾ و﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية دالة على مجرد كونه مبتدأ وناشئاً منه .

واستظهر أبو حيان كونها للتبعيض لأن ذلك الزبد بعض ما يوقد عليه من تلك المعادن ولم يرتضه بعض المحققين لإخلاله على ما قال بالتمثيل ، وإنما لم يتعرض لإخراج ذلك من الأرض كما تعرض لعنوان انزال الماء من السماء لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل على ما ستعمله إن شاء الله تعالى كما أن للعنوان السابق دخلاً فيه بل له إخلال بذلك ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة : ﴿ يَضْرِبُ الله الحق والباطل ﴾ أي مثل الحق ومثل الباطل ، والحذف للابناء على كمال التمثال بين الممثل والممثل به كأن المثل المضروب عين الحق والباطل ﴿ فَأَمَّا الزبد ﴾ من كل من السيل وما يوقدون عليه ، وأفرد ولم يثن وإن تقدم زبدان لاشتراكهما في مطلق الزبدية فهما واحد باعتبار القدر المشترك ﴿ فَيَذْهَبُ ﴾ مرمياً به يقال : جفا الماء بالزبد إذا قذفه ورمى به ، ويقال : أجفأ أيضاً بمعناه ، وقال ابن الأنباري : جفاء أي متفرقاً من جفأت الريح الغيم إذا قطعته وفرقته وجفأت الرجل صرعته ، ويقال : جفأ الوادي وأجفأ إذا نشف ، وقرىء ﴿ جفالاً ﴾ باللام بدل الهمزة وهو بمعنى متفرقاً أيضاً أخذاً من جفلت الريح الغيم كفأت ونسبت هذه القراءة إلى رؤبة ، قال ابن أبي حاتم : ولا يقرأ بقراءته لأنه كان يأكل الفأر يعني أنه كان إعرابياً جافياً ، وعنه لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن ، والنصب على الحالية ﴿ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس ﴾ أي من الماء الصافي الخالص من الغثاء والجوهر المعدني الخالص من الخبث ﴿ فَيَمْكُثُ ﴾ يبقى ﴿ فِى الأرض ﴾ أما الماء فيبقى بعضه في مناقعه ويسلك

بعضه في عروق الأرض إلى العيون ونحوها ؛ وأما الجوهر المعدني فيصاغ من بعضه أنواع الحلى ويتخذ من بعضه أصناف الآلات والأدوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة فالمراد بالمكث في الأرض ما هو أعم من المكث في نفسها ومن البقاء في أيدي المتقلبين فيها ، وتغيير ترتيب اللف

الواقع في الفذلكة الموافق للترتيب الواقع في التمثيل قيل لمراعاة الملاءمة بين حالتي الذهاب والبقاء وبين ذكرهما فإن المعتبر إنما هو بقاء الباقي بعد ذهاب الذاهب لا قبله ، وقيل : النكتة في تقديم الزبد على ما ينفع أن الزبد هو الظاهر المنظور أولا وغيره باق متأخر في الوجود لاستمراره ، والآية من الجمع والتقسيم كما لا يخفى .

وحاصل الكلام في الآيتين أنه تعالى مثل الحق وهو القرآن العظيم عند الكثير في فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة الاستعداد وفي جريانه عليها ملاحظة وحفظاً وعلى الألسنة مذاكرة وتلاوة مع كونه ممدا لحياتها الروحانية وما يتلوها من الملكات السنية والأعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل في أودية يابسة لم تجر عادتها بذلك سيلاناً مقدراً بمقدار اقتضته الحكمة في إحياء الأرض وما عليها الباقي فيها حسبما

يدور عليه منافع الناس وفي كونه حلية تتحلى بها النفوس وتصل إلى البهجة الأبدية ومتاعاً يتمتع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التي يتخذ منها أنواع الآلات والأدوات وتبقى منتفعاً بها مدة طويلة ، ومثل الباطل الذي ابتلى به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما واخلال بصفائهما من الزبد الرابي فوقهما المضمحل سريعاً .

وصح عن أبي موسى الأشعري أنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم مثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أحادب اكتسبت الماء نفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله تعالى الذي أرسلت به "

وقال ابن عطية : صدر الآية تنبيه على قدرة الله تعالى وإقامة الحجة على الكفرة فلما فرغ من ذلك جعله مثالاً للحق والباطل والإيمان والكفر واليقين في الشرع والشك فيه ، وكأنه

أراد بعطف الإيمان وما بعده التفسير للمراد بالحق والباطل .

وعن ابن عباس جعل الزبد إشارة إلى الشك والخالص منه إشارة إلى اليقين ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الضرب العجيب ﴿ يَضْرِبُ اللهُ الامثال ﴾ في كل باب إظهار الكمال اللطف والعناية في الإرشاد ، وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله سبحانه : ﴿ يَضْرِبُ اللهُ الحق والباطل ﴾ إما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول أو بجعل ذلك إشارة إليهما جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(92/410)

وقال القاسمى :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾

أي : المزن : ﴿ مَاءً ﴾ أي : مطراً : ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ أي : بمقدار ملئها في الصغر والكبر ، أي : أخذ كل واحد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره : ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً ﴾ أي : فحمل ورفع من قوة الجيشان ، زبداً عالياً على وجه الماء : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ أي : من نحو الذهب والفضة والنحاس ، مما يسبك في النار : ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ﴾ أي : طلب زينة : ﴿ أَوْ مَتَاعٍ ﴾

كالآواني وآلات الحرب والحرث : ﴿ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ أي : مثل زبد السيل : وهو خبثه الذي ينفيه الكير : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ أي : مثلهما ، أي : إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما ، مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل . وقد بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ أي : مقذوفاً مرمياً به ، أي : فلا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح . وكذلك خبث ما يوقد عليه من المعادن يذهب ولا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا ما ينتفع به من الماء والمعدن كما قال : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : يبقى فيها منتفعاً به : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ ﴾ إلى أمثال الحق والباطل .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن هذه الآية مثل ضربه الله للحق وأهله ، والباطل وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما . فمثل الحق وأهله بالماء الذي يُنزله من السماء فتسيل به أودية الناس ، فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع . وبالمعدن الذي ينتفعون

به في صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً ، يثبت الماء في مناقعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار . وكذلك المعدن يبقى أزمنة متطاولة . وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة ، بزبد السيل وخبث المعدن ، فإنه – وإن علا وارتفع وانتفخ – إلا أنه أخيراً يضمحل . وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم ، إلا أنها في الآخرة تبطل وتضمحل وتزول ، ويبقى الحق ظاهراً لا يشوبه شيء من الشبهات ؛ لأنه لا بقاء إلا للنافع ، وما تصارع الحق والباطل ، إلا وفاز الحق بقرنه . . . . !

الثاني : قوله تعالى : ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ صفة (أودية) ، أو متعلق بـ (سالت) أو (أنزل) . وقرأ عامة القراء بفتح الدال ، وقرأ زيد بن علي والأشهب وأبو عَمْرو في رواية بسكونها .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ احْتَمَلَ ﴾ بمعنى حمل ، فالمزيد بمعنى المجرد . كذا قيل . ويظهر لي : أن إيثاره عليه لزيادة في معناه ، وقوة في مبناه ! .

الرابع : الأودية جمع واد ، وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام . والإسناد إليه مجاز عقلي ، كما في (جري النهر) .

قال السمين : وإنما نكَّر الأودية وعرَّف السيل ؛ لأن المطر ينزل في إيقاع على المناوبة فيسيل في بعض أودية الأرض دون بعض . وتعريف السيل ؛ لأنه قد فهم من الفعل قبله وهو (

فسالت) وهو لو ذكر لكان نكرة . فلما أعيد أُعيد بلفظ التعريف نحو : رأيت رجلاً فأكرمت الرجل . انتهى .

(94/410)

وأصله لأبي حيان حيث قال : عرّف السيل لأنه عنى به ما فهم من الفعل . والذي يتضمنه الفعل من المصدر وإن كان نكرة ، إلا أنه إذا عاد في الظاهر كان معرفة ، كما كان لو صرح به نكرة . وكذا يضمر إذا عاد على ما دل عليه الفعل من المصدر نحو : من كذب كان شراً له ، أي : الكذب . ولو جاء هنا مضمراً لكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من (فسالت) وأورد عليه : أنه كيف يجوز أن يعني به ما فهم من الفعل وهو حدث ، والمذكور المعرَّف عيْن ، فإن المراد به الماء السائل ؟ وأجيب : بأنه بطريق الاستخدام .

قال الشهاب : وهو غير صحيح ، لا تكلف – كما قيل – لأن الاستخدام أن يذكر لفظ بمعنى ويعاد عليه ضمير بمعنى آخر . سواء كان حقيقياً أو مجازياً ، وهذا ليس كذلك ، لأن الأول مصدر ، أي : حدث في ضمن الفعل ، وهذا اسم عين ظاهر يتصف بذلك الحدث ، فكيف يتصور فيه الاستخدام ؟ نعم ، ما ذكروه أغلبي لا يختص بما ذكر ، فإن مثل الضمير اسم الإشارة ، وكذا اسم الظاهر كما في قول بعضهم :

~أخت الغزالة إشرافاً وملتفتاً

فالحق أنه إنما عرّف لكونه معهوداً مذكوراً بقوله : ﴿ أَوْدِيَةٌ ﴾ وإنما لم يجمع لأنه مصدر بحسب الأصل .

(95/410)

الخامس : قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ جملة أخرى معطوفة على الجملة الأولى ، لضرب مثل آخر . و (زبد) مبتدأ قدم عليه خبره ، (من) في (مما) للابتداء أي : نشأ منه ، وجوز كونها للتبعيض ، أي : هو بعضه . ورده أبو السعود بأنه يخل بالتمثيل . وقوله : ﴿ فِي النَّارِ ﴾ صفة مؤسسة ؛ لأن الموقد عليه يكون في النار وملاصقاً لها ، وقيل : إنها مؤكدة . وقال أبو السعود : في زيادة النار إشعار بالمبالغة في الاعتمال للإذابة وحصول الزبد . وعدم التعرض لإخراجه من الأرض لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل ، كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلاً فيه حسبما فصل فيما سلف ، بل له إخلال بذلك . وسر التعبير الموصول في قوله : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ ﴾ الخ ، الإيجاز بجمعه لأنواع المعادن مع إظهار الكبرياء بالتهاون بها ، كأن أشرف الجواهر خسيس عنده تعالى ؛ إذ عبّر عن سبكه بإيقاد النار به ، المشعر بأنه كالحطب الخسيس ، وصوّره بحالة هي أحط

حالاته . وهذا لا ينافي كونه ضرب مثلاً للحق ؛ لأن مقام الكبرياء يقتضي التهاون به ، مع الإشارة إلى كونه مرغوباً فيه منتفعاً به بقوله : ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ ﴾ فوفى كلاًّ من المقامين حقه .

السادس : قدمنا أن قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ على حذف مضاف ، أي : مثلهما ، وسر الحذف : الإنباء عن إكمال التماثل بين الممثل والممثل به ، كأن المثل المضروب عين الحق والباطل .

(96/410)

السابع : بدأ بالزبد في البيان في قوله : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ ﴾ وهو متأخر في الكلام السابق ؛ لأن في التقسيم يبدأ بالمؤخر كما في قوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ ﴾ الخ [آل عِمْرَان : من الآية 106] ، وقد راعى الترتيب فيه ، ولك أن تقول : النكتة فيه أن الزبد هو الظاهر المنظور أولاً ، وغيره باق متأخر في الوجود لاستمراره . والآية من الجمع والتقسيم على ما فصله الطيبي . كذا في " العناية " .

الثامن : قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ إما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول ؛

بجعل ذلك إشارة إليهما . كذا في أبي السعود .

التاسع : أشار الحافظ ابن كثير إلى كثرة ضرب الأمثال النارية والمائية في التنزيل والسنة ، قال :

وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة مَثَلَيْن – ناري ومائي –

(97/410)

وهو قوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ﴾ [البقرة : من الآية 17] الآية ، ثم قال : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة : من الآية 19] الآية ، وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مَثَلَيْن أحدهما قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ [النور : من الآية 39] الآية ، والسراب إنما يكون في شدة الحر ، ولهذا جاء في " الصحيحين " : < فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون ؟ أي : ربنا ! عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا تردون ؟ فيردون النار ، فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً > . ثم قال تعالى في المثل الآخر : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ [النور : من الآية 40] الآية ، وفي " الصحيحين " عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل

غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير .

وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا .

وأصابت طائفة منها أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ! فذلك مثل من فقُه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ، ونفع به فَعَلِمَ وعَلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ، فهذا مثل الماء > . وفي " مسند الإمام أحمد " عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : < مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش ، وهذه الدواب التي يقعن في النار ، يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها . قال : فذلكم مثلي ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار ، هلم عن النار ! فتغلبوني فتتقحمون فيها . . . > وأخرجاه في " الصحيحين " أيضاً . فهذا مثل ناري . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 279 . 283 ﴾

(98/410)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

جملة ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ استئناف ابتدائي أفاد تسجيل حرمان المشركين من الانتفاع بدلائل الاهتداء التي من شأنها أن تهدي من لم يطبع الله على قلبه فاهتدى بها المؤمنون .

وجيء في هذا التسجيل بطريقة ضرب المثل بحالي فريقين في تلقي شيء واحد انتفع فريق بما فيه من منافع وتعلق فريق بما فيه من مضار .

وجيء في ذلك التمثيل بحالة فيها دلالة على بديع تصرف الله تعالى ليحصل التخلص من ذكر دلائل القدرة إلى ذكر عبَر الموعظة ، فالمركب مستعمل في التشبيه التمثيلي بقرينة قوله : ﴿ كذلك يضرب الله الحق ﴾ الخ .

شبه إنزال القرآن الذي به الهدى من السماء بإنزال الماء الذي به النفع والحياة من السماء .

وشبه ورود القرآن على أسماع الناس بالسيل يمر على مختلف الجهات فهو يَمرّ على التّلال والجبال فلا يستقر فيها ولكنه يمضي إلى الأودية والوهاد فيأخذ منه كُلٌّ بقدر سعته .

وتلك السيول في حال نزولها تحمل في أعاليها زَبَداً ، وهو رغوة الماء التي تربو وتطفو على سطح الماء ، فيذهب الزبد غير منتفع به ويبقى الماء الخالص الصافي ينتفع به الناس للشراب والسقي .

ثم شُبهت هيئة نزول الآيات وما تحتوي عليه من إيقاظ النظر فيها فينتفع به من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوة إيمانهم وعملهم ، ويمر على قلوب قوم لا يشعرون به وهم المنكرون

المعرضون ، ويخالط قلوبَ قوم فيتأملونه فيأخذون منه ما يثير لهم شبهات وإلحاداً .

كقولهم : ﴿ هل ندلّكم على رجل ينبئكم إذا مُزّقتم كلّ ممزّق إنكم لفي خلق جديد ﴾ .

ومنه الأخذ بالمتشابه قال تعالى : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ [سورة آل عمران : 7] .

(99/410)

شبه ذلك كله بهيئة نزول الماء فانحدَاره على الجبال والتلال وسيلانه في الأودية على اختلاف مقاديرها ، ثم ما يدفع من نفسه زبداً لا ينتفع به ثم لم يلبث الزبد أن ذهب وفني والماء بقي في الأرض للنفع .

ولما كان المقصود التشبيه بالهيئة كلها جيء في حكاية ما ترتب على إنزال الماء بالعطف بفاء التفريع في قوله : فسالت ﴾ وقوله : ﴿ فاحتمل ﴾ فهذا تمثيل صالح لتجزئة التشبيهات التي تركب منها وهو أبلغ التمثيل .

وعلى نحو هذا التمثيل وتفسيره جاء ما يبينه من التمثيل الذي في قول النبي صلى الله عليه وسلم " مثَل ما بعثني الله به من الهُدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقيّة قبلتْ الماء فأنبتت الكلأ والعُشبَ الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع

الله بها الناسَ فشربوا وسقَوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعَان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، مثل منْ فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدى الله الذي أرسلتُ به " .

والأودية : جمع الوادي ، وهو الحفير المتسع الممتد من الأرض الذي يجري فيه السيل .

وتقدم في سورة براءة عند قوله تعالى : ﴿ ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾ [سورة التوبة : 121] .

والقَدَر بفتحتين : التقدير ، فقوله : بقدرها ﴾ في موضع الحال من ﴿ أودية ﴾ ، وذكره لأنه من مواضع العبرة ، وهو أن كانت أخاديد الأودية على قَدْر ما تحتمله من السيول بحيث لا تفيض عليها وهو غالب أحوال الأودية .

وهذا الحال مقصود في التمثيل لأنه حال انصراف الماء لنفعٍ لا ضرّ معه ، لأنّ من السيول جواحف تجرف الزرع والبيوت والأنعام .

وأيضاً هو دال على تفاوت الأودية في مقادير المياه .

ولذلك حظ من التشبيه وهو اختلاف الناس في قابلية الانتفاع بما نزل من عند الله كاختلاف الأودية في قبول الماء على حسب ما يسيل إليها من مصاب السيول ، وقد تم التمثيل هنا .

وجملة ﴿ ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾ معترضة بين جملة ﴿ فاحتمل ﴾ الخ وجملة ﴿ فأما الزبد ﴾ الخ .

وهذا تمثيل آخر ورد استطراداً عقب ذكر نظيره يفيد تقريب التمثيل لقوم لم يشاهدوا سيول الأودية من سكان القرى مثل أهل مكّة وهم المقصود ، فقد كان لهم في مكة صواغون كما دل عليه حديث الإذخر ، فقرب إليهم تمثيل عدم انتفاعهم بما انتفع به غيرهم بمَثَل ما يصهْر من الذهب والفضة في البواتق فإنه يقذف زبداً ينتفي عنه وهو الخَبث وهو غير صالح لشيء في حين صلاح معدنه لاتخاذه حلية أو متاعاً .

وفي الحديث "كما ينفي الكير خبث الحديد " .

فالكلام من قبيل تعدّد التشبيه القريب ، كقوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ ثم قوله : ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ [سورة البقرة : 19] .

وأقرب إلى ما هنا قول لبيد :

فتنازعَا سَبطا يَطير ظِلالُه

كدُخان مُشْعَلَة يَشِبّ ضرامها . . .

مشمُولَةٍ غُلثت بنا بتِ عَرفَج

كدُخان نار سَاطع إسنامها . . .

وأفاد ذلك في هذه الآية قوله : زبد مثله ﴾ .

وتقديم المسند على المسند إليه في هذه الجملة للاهتمام بالمسند لأنّه موضع اعتبار أيضاً ببديع صنع الله تعالى إذ جعل الزبد يطفو على أرقّ الأجسام وهو الماء وعلى أغلظها وهو المعدن فهو ناموس من نواميس الخلقة ، فبالتقديم يقع تشويق السامع إلى ترقب المسند إليه .

وهذا الاهتمام بالتشبيه يشبه الاهتمام بالاستفهام في قول النبي صلى الله عليه وسلم في وصف جهنم " فإذا فيها كلاليبُ مثل حَسك السعدان هل رأيتم حسك السعدان " .

(101/410)

وعدل عن تسمية الذهب والفضة إلى الموصولية بقوله تعالى : ﴿ ومما توقدون عليه في النار ﴾ لأنها أخصر وأجمع ، ولأن الغرض في ذكر الجملة المجعولة صلة ، فلو ذكرت بكيفية غير صلة كالوصفية مثلاً لكانت بمنزلة الفضلة في الكلام ولطال الكلام بذكر اسم المَعْدنين مع ذكر الصلة إذ لا مَحيد عن ذكر الوقود لأنه سبب الزبد ، فكان الإتيان بالموصول قضاءً لحق ذكر الجملة مع الاختصار البديع .

ولأنّ في العدول عن ذكر اسم الذهب والفضة إعراضاً يؤذن بقلة الاكتراث بهما ترفعاً عن ولَع النّاس بهما فإن اسميهما قد اقترنا بالتعظيم في عرف النّاس .

و﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ ومما توقدون ﴾ ابتدائية .

و﴿ ابتغاء حلية أو متاع ﴾ مفعول لأجله متعلق بـ ﴿ توقدون ﴾ .

ذكر لإيضاح المراد من الصلة ولإدماج ما فيه من منة تسخير ذلك للناس .

لشدة رغبتهم فيهما .

والحلية : ما يتحلى به ، أي يتزين وهو المصوغ .

والمتاع : ما يتمتع به وينتفع ، وذلك المسكوك الذي يَتعامل به الناس من الذهب والفضة .

وقرأ الجمهور ﴿ توقدون ﴾ بفوقية في أوله على الخطاب ، وقرأه حمزة ، والكسائي ،

وحفص عن عاصم ، وخلف بتحتية على الغيبة .

وجملة ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ معترضة ، هي فذلكة التمثيل ببيان الغرض

منه ، أي مثل هذه الحالة يكون ضَرْب مثل للحق والباطل .

فمعنى ﴿ يضرب ﴾ يبيّن ويُمثل .

وقد تقدم معنى يضرب عند قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ﴾ في سورة

البقرة (26) .

فحُذف مضاف في قوله : يضرب الله الحق ﴾ ، والتقدير : يضرب الله مَثَلَ الحق والباطل ،

دلالة فعل ﴿ يضرب ﴾ على تقدير هذا المضاف .

وحذف الجار من ﴿ الحق ﴾ لتنزيل المضاف إليه منزلة المضاف المحذوف .

وقد علم أن الزبد مثَل للباطل وأن الماء مثَل للحق ، فارتقى عند ذلك إلى ما في المثلين من صفتي البقاء والزوال ليتوصل بذلك إلى البشارة والنذارة لأهل الحق وأهل الباطل بأن الفريق الأول هو الباقي الدائم ، وأن الفريق الثاني زائل بائد ، كقوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي َالصالحون إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ [الأنبياء : 105 ، 106] ، فصار التشبيه تعريضاً وكناية عن البشارة والنذارة ، كما دل عليه قوله عقب ذلك ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له ﴾ [الرعد : 18] الخ كما سيأتي قريباً .

فجملة فأما الزبد ﴾ معطوفة على جملة ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابيا ﴾ مفرّعةٌ على التمثيل .

وافتتحت بـ ﴿ أما ﴾ للتوكيد وصَرْف ذهن السامع إلى الكلام لما فيه من خفي البشارة والنذارة ، ولأنه تمام التمثيل .

والتقدير : فذهب الزبد جُفاء ومكُث ما ينفع الناس في الأرض .

والجُفاء : الطريح المرميُّ ، وهذا وعيد للمشركين بأنهم سيبيدون بالقتل ويبقى المؤمنون .

وعبر عن الماء بما ينفع الناس للإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو البقاء في الأرض تعريضاً للمشركين بأن يعرضوا أحوالهم على مضمون هذه الصلة ليعلموا أنهم ليسوا ما ينفع الناس ، وهذه الصلة موازنة للوصف في قوله تعالى : ﴿ إن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ [سورة الأنبياء : 105] .

واكتفي بذكر وجه شبه النافع بالماء وغير النافع بالزبد عن ذكر وجه شَبَه النافع بالذهب أو الفضة وغير النافع بزبدهما استغناء عنه .

وجملة كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ مستأنفة تذييلية لما في لفظ ﴿ الأمثال ﴾ من العموم . فهو أعم من جملة ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ لدلالتها على صنف من المثل دون جميع أصنافه فلما أعقب بمثل آخر وهو ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ جيء بالتنبيه إلى الفائدة العامة من ضرب الأمثال .

(103/410)

وحصل أيضاً توكيد جملة ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ لأن العام يندرج فيه الخاص .

فإشارة ﴿ كذلك ﴾ إلى التمثيل السابق في جملة ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ أي مثل ذلك

الضَرْب البديع يضرب الله الأمثال ، وهو المقصود بهذا التذييل .

والإشارة للتنويه بذلك المثل وتنبيه الأفهام إلى حكمته وحكمة التمْثيل ، وما فيه من المواعظ والعبر ، وما جمعه من التمثيل والكناية التعريضية ، وإلى بلاغة القرآن وإعجازه ، وذلك تبهيج للمؤمنين وتحدّ للمشركين ، وليعلم أن جملة ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ لم يؤت بها لمجرد تشخيص دقائق القدرة الإلهية والصنع البديع بل ولضرب المثَل ، فيعلمَ لمّمثل له بطريق التعريض بالمشركين والمؤمنين ، فيكون الكلام قد تم عند قوله : ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ كما في شأن التذييل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(104/410)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

وهو سبحانه يُنزِل الماء من جهة العُلو وهو السماء ، ونعلم أن الماء يتبخَّر من البحار والأنهار والأرض التي تتفجّر فيها العيون ليتجمع كسحاب ؛ ثم يتراكم السحاب بعضُه على بعض ؛ ويمرُّ بمنطقة باردة فيتساقط المطر .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السماآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا . . . ﴾ [الرعد :

والوادي هو المُنْخفض بين الجبلين ؛ وساعةَ ينزل المطر على الجبال فهو يسيل على الأودية ؛ وكل وادٍ يستوعب من المياه على اتساعه .

ولنا أن نلحظ أن حكمة الله شاءتْ ذلك كَيْلا يتحول الماء إلى طوفان ، فلو زاد الماء في تلك الأودية لَغرقتْ نتيجة ذلك القرى ، ولَخرِبت الزراعات ، وتهدمتْ البيوت .

والمَثَل على ذلك هو فيضان النيل حين كان يأتي مناسباً في الكمية لحجم المَجْرى ؛ وكان مثل هذا القَدْر من الفيضان هو الذي يُسعد أهل مصر ؛ أما إذا زاد فهو يُمثِّل خطراً يَدْهَم القرى ويخربها .

وهكذا نجد أن من رحمة الحق سبحانه أن الماء يسيل من السماء مطراً على قدر اتساع الأودية ؛ اللهم إلا إذا شاء غير ذلك .

والحق سبحانه هنا يريد أنْ يضرب مثلاً على ما ينفع الناس ؛ لذلك جاء بجزئية نزول الماء على قَدْر اتساع الأودية .

ومَنْ رأى مشهد نزول المطر على هذا القَدْر يمكنه أنْ يلحظ أن نزول السَّيْل إنما يكنس كل القَشِّ والقاذورات ؛ فتصنع تلك الزوائد رَغْوةً على سطح الماء الذي يجري في النهر ، ثم يندفع الماء إلى المَجْرى ؛ لِيُزيح تلك الرَّغاوى جانباً ؛ ليسير الماء من بعد ذلك صَافِياً رَقْراقاً

. ﴿ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً . . . ﴾ [الرعد : 17]

(105/410)

وهذا المَثَل يدركه أهل البادية ؛ لأنها صحراء وجبال ووديان ؛ فماذا عن مَثَلٍ يناسب أهل الحضر ؟

ويأتي الحق سبحانه بهذا المثل المناسب لهم ؛ فيقول : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ . . . ﴾ [الرعد : 17]

وأنت حين تذهب إلى موقع عمل الحداد أو صائغ الذهب والفضة ؛ تجده يُوقِد النار ليتحول المعدن إلى سائل مَصْهور ؛ ويطفو فوق هذا السائل الزَّبَد وهو الأشياء التي دخلت إلى المعدن ، وليست منه في الأصل ؛ ويبقى المعدن صافياً من بعد ذلك .

والصَّائغ يضع الذهب في النار لِيُخلِّصه من الشوائب ؛ ثم يضيف إليه من المواد ما يُقوِّي صلابته ؛ أو ينقله من حالة النقاء إلى درجة أقل نقاءً ، وحالة النقاء في الذهب هي ما نطلق عليه " عيار 24 " ، والأقل درجة هو الذهب من " عيار 21 " ، والأقل من ذلك هو الذهب من " عيار 18 " .

والذهب الخالص النقاء يكون لِيّناً ؛ لذلك يُضيفون إليه ما يزيد من صلابته ، ويصنع الصائغ من هذا الذهب الحُلي .

وهذا هو المَثَل المناسب لأهل الحضر ؛ حين يصنعون الحلي ، وهم أيضاً يصنعون أدواتٍ أخرى يستعملونها ويستعملها مثلهم أهل البادية كالسيوف مثلاً ، وهي لأبدّ أن تكون من الحديد الصُّلْب ؛ ذلك أن كل أداة تصنع منه لها ما يناسبها من الصّلابة ؛ فإنْ أراد الحدّاد أن يصنع سيفاً فلابد أنْ يختار له من الحديد نوعيةً تتناسب مع وظائف السيف .

والزَّبَد في الماء النازل من السماء إنما يأتي إليه نتيجة مرور المطر أثناء نزوله على سطح الجبال ؛ فضلاً عن غسيل مَجْرى النهر الذي ينزل فيه ؛ وعادة ما يتراكم هذا الزَّبَد على الحَوافّ ؛ ليبقى الماء صافياً من بعد ذلك .

وحين تنظر إلى النيل مثلاً فأنت تجد الشوائب ، وقد ترسبتْ على جانبي النهر وحَوافّه ، وكذلك حين تنظر إلى مياه البحر ؛ فأنت تجد ما تلقيه المركب ، وهو طافٍ فوق الأمواج ؛ لِتُلقيه الأمواج على الشاطئ .

وهكذا ضرب الله المَثَل لأهل البدو ولأهل الحضر بما يفيدهم في حياتهم ؛ سواء حلية يلبسونها ، أو أداة يقاتلون بها ، أو أداة أخرى يستخدمونها في أَوْجُه أعمالهم الحياتية ؛ وهم في كل ذلك يلجئون إلى تصفية المعادن التي يصنعون منها تلك الحلي أو الأدوات الحياتية ليستخلصوا المعادن من الخَبَث أو الزَّبَد .

وكذلك يفعل الحق سبحانه : ﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض . . . ﴾ [الرعد : 17]

وحين يضرب الله الحقّ والباطل ؛ فهو يستخلص ما يفيد الناس ؛ ويُذهب ما يضرُّهم ، وقوله : ﴿ فَيَذْهَبُ جُفَآءً . . . ﴾ [الرعد : 17]

أي : يبعده ؛ ف " جُفَاء " يعني " مَطْرودا " ؛ من الجَفْوة ؛ ويُقال : " فلان جَفَا فلاناً " أي : أبعده عنه .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿ . . . كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ [الرعد : 17]

وشاء سبحانه أن يُبيِّن لنا بالأمور الحِسّية ؛ ما يساوي الأمور المعنوية ؛ كي يعلمَ الإنسانُ أن الظُّلْمَ حين يستشري ويَعْلو ويَطْمِس الحق ، فهو إلى زوَال ؛ مثله مثل الزَّبَد . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

وقال صاحب الأمثل :

قوله تعالى ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً ﴾

التّفسير

وصف دقيق لمنظر الحقّ والباطل:

يستند القرآن الكريم ـ الذي يعتبر كتاب هداية وتربية ـ في طريقته إلى الوقائع العينيّة لتقريب المفاهيم الصعبة إلى أذهان الناس من خلال ضرب الأمثال الحسّية الرائعة من حياة الناس ، وهنا ـ أيضاً ـ لأجل أن يُجسّم حقائق الآيات السابقة التي كانت تدور حول التوحيد والشرك ، الإيمان والكفر ، الحقّ والباطل ، يضرب مثلا واضحاً جدّاً لذلك . .

يقول أوّلا: (أنزل من السّماء ماءً) الماء عماد الحياة وأصل النمو والحركة ،

(فسالت أودية بقدرها) تتقارب السواقي الصغيرة فيما بينها ، وتتكوّن الأنهار وتتّصل مع بعضها البعض ، فتسيل المياه من سفوح الجبال العظيمة والوديان وتجرف كلّ ما يقف أمامها ، وفي هذه الأثناء يظهر الزّبد وهو ما يرى على وجه الماء كرغوة الصابون من بين أمواج الماء حيث يقول القرآن الكريم: (فاحتمل السيل زبداً رابياً) .

"الرابي" من "الربو" بمعنى العالي أو الطافي ، والربا بمعنى الفائدة مأخوذ من نفس هذا الأصل .

وليس ظهور الزبد منحصراً بهطول الأمطار ، بل (وممّا يوقدون عليه في النّار إبتغاء حلية أو متاع زبد مثله) (1) أي الفلزات المذابة بالنّار لصناعة أدوات الزينة منها أو صناعة الوسائل اللازمة في الحياة.

بعد بيان هذا المثال بشكله الواسع لظهور الزبد ليس فقط في الماء بل حتّى للفلزات وللمتاع ، يستنتج القرآن الكريم (كذلك يضرب الله الحقّ والباطل) ثمّ يتطرّق إلى شرحه فيقول: (فأمّا الزبد فيذهب جفاءً وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) .

فأمّا الزبد الذي لا فائدة فيه فيذهب جفاءً ويصير باطلا متلاشياً ، وأمّا الماء الصافي النقي المفيد فيمكث في الأرض أو ينفذ إلى الأعماق وتتكوّن منه العيون والآبار تروي العطاش ، وتروي الأشجار لتثمر ، والأزهار لتتفتّح ، وتمنح لكلّ شيء الحياة.

وفي آخر الآية ـ للمزيد من التأكيد في مطالعة هذه الأمثال ـ يقول تعالى: (كذلك يضرب الله الأمثال) .

---

(1) تشير هذه الآية إلى الأفران التي تستعمل لصهر الفلزات ، فهذه الأفران تتميّز بوجود النّار من تحتها ومن فوقها يعني نارٌ تحت الفلز ونار فوقه ، وهذه من أفضل أنواع الأفران حيث تحيط بها النّار من كلّ جانب.

هذا المثال البليغ الذي عبّر عنه القرآن الكريم بألفاظ موزونة وعبارات منظّمة. وصوّر فيها الحقّ والباطل بأروع صورة، فيه حقائق مخفيّة كثيرة ونشير هنا إلى قسم منها:

1. ما هي علائم معرفة الحق والباطل؟

يحتاج الإنسان في بعض الأحيان لمعرفة الحقّ والباطل - إذا أشكل عليه الأمر - إلى علائم وأمثال حتّى يتعرّف من خلالها على الحقائق والأوهام. وقد بيّن القرآن الكريم هذه العلامات من خلال المثال أعلاه:

ألف: الحقّ مفيد ونافع دائماً، كالماء الصافي الذي هو أصل الحياة. أمّا الباطل فلا فائدة فيه ولا نفع، فلا الزبد الطافي على الماء يروي ظمآناً أو يسقي أشجاراً، ولا الزبد الظاهر من صهر الفلزات يمكن أن يستفاد منه للزينة أو للإستعمالات الحياتية الأُخرى، وإذا إستخدمت لغرض فيكون إستخدامها رديئاً ولا يؤخذ بنظر الإعتبار.. كما نستخدم نشارة الخشب للإحراق.

باء: الباطل هو المستكبر والمرفّه كثير الصوت، كثير الأقوال لكنّه فارغ من المحتوى، أمّا الحقّ فمتواضع قليل الصوت، وكبير المعنى، وثقيل الوزن.

جيم.الحقّ يعتمد على ذاته دائماً ، أمّا الباطل فيستمدّ إعتباره من الحقّ ويسعى للتلبّس به ، كما أنّ (الكذب يتلبّس بضياء الصدق) ولو فقد الكلام الصادق من العالم لما كان هناك من يصدق الكذب . ولو فقدت البضاعة السليمة من العالم لما وجد من يخدع ببضاعة مغشوشة . وعلى هذا فوجود الباطل راجع إلى شعاعه الخاطف وإعتباره المؤقّت الذي سرقه من الحقّ ، أمّا الحقّ فهو مستند إلى نفسه وإعتباره منه .

2.ما هو الزّبد ؟

"الزبد" بمعنى الرغوة التي تطفوا على السائل ، والماء الصافي أقلّ رغوة ، لأنّ الزبد يتكوّن بسبب إختلاط الأجسام الخارجية مع الماء ، ومن هنا يتّضح أنّ الحقّ لو بقي على صفائه ونقائه لم يظهر فيه الخبث أبداً ، ولكن لإمتزاجه بالمحيط الخارجي الملوّث فإنّه يكتسب منه شيئاً ، فتختلط الحقيقة مع الخرافة ، والحقّ بالباطل ، والصافي بالخابط . فيظهر الزبد الباطل إلى جانب الحقّ .

وهذا هو الذي يؤكّده الإمام علي (عليه السلام) حيث يقول: "لو أنّ الباطل خلص من مزاج الحقّ لم يخف على المرتادين ، ولو أنّ الحقّ خلص من لبس الباطل إنقطعت عنه ألسن

المعاندين" .

يقول بعض المفسّرين إنّ للآية أعلاه ثلاث أمثلة: "نزول آيات القرآن" تشبيهه بنزول قطرات المطر للخير ، "قلوب الناس" شبيهة بالأرض والوديان وبقدر وسعها يستفاد منها ، "وساوس الشيطان" شبيهة بالزبد الطافي على الماء ، فهذا الزبد ليس من الماء ، بل نشأ من إختلاط الماء بمواد الأرض الأُخرى ، ولهذا السبب فوساوس النفس والشيطان ليست من التعاليم الإلهية ، بل من تلوّث قلب الإنسان ، وعلى أيّة حال فهذه الوساوس تزول عن قلوب المؤمنين ويبقى صفاء الوحي الموجب للهداية والإرشاد .

3 .الإستفادة تكون بقدر الإستعداد واللياقة !

يستفاد من هذه الآية ـ أيضاً ـ أنّ مبدأ الفيض الإلهي لا يقوم على البخل والحدود الممنوعة ، كما أنّ السحاب يسقط أمطاره في كلّ مكان بدون قيد أو

شرط ، وتستفيد الأرض والوديان منها على قدر وسعها ، فالأرض الصغيرة تستفيد أقلّ والأرض الواسعة تستفيد أكثر ، وهكذا قلوب الناس في مقابل الفيض الإلهي .

4 .الباطل والأوضاع المضطربة

عندما يصل الماء إلى السهل أو الصحراء ويستقرّ فيها ، تبدأ المواد المختلطة مع الماء بالترشّح ويذهب الزبد فيظهر الماء النقي مرّةً ثانية ، وعلى هذا النحو فالباطل يبحث عن سوق مضطربة حتّى يستفيد منها ، ولكن بعد إستقرار السوق وجلوس كلّ تاجر في مكانه المناسب وتحقّق الإلتزامات والضوابط في المجتمع ، لا يجد الباطل له مكاناً فينسحب بسرعة !

5. الباطل يتشكّل بأشكال مختلفة

إنّ واحدة من خصائص الباطل هي أنّه يغيّر لباسه من حين لآخر ، حتّى إذا عرفوه بلباسه يستطيع أن يخفي وجهه بلباس آخر ، وفي الآية أعلاه إشارة لطيفة لهذه المسألة ، حيث تقول: لا يظهر الزبد في الماء فقط ، بل يظهر حتّى في الأفران المخصوصة لصهر الفلزات بشكل ولباس آخر ، وبعبارة أُخرى فإنّ الحقّ والباطل موجودان في كلّ مكان كما يظهر الزبد في السوائل بالشكل المناسب لها . وعلى هذا يجب أن لا نُخدع بتنوّع الوجوه وأن نعرف أوجه الباطل ونطرحه جانباً .

6. إرتباط البقاء بالنفع

تقول الآية: (وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) ليس الماء فقط يبقى ويذهب الزبد الطافي عليه ، بل حتّى الفلزات تلك التي تستعمل للزينة أو للمتاع

يبقى الخالص منها ويذهب خبثه . وعلى هذا النحو فالناس والمدارس والمبادىء لهم حقّ

الحياة على قدر منفعتهم ، وإذا ما رأينا بقاء أصحاب المباديء الباطلة لفترة فانّ ذلك بسبب وجود ذلك المقدار من الحقّ الذي إختلط فيه ، وبهذا المقدار له حقّ الحياة .

7. كيف يطرد الحقّ الباطل ؟

"الجفاء" بمعنى الإلقاء والإخراج ، ولهذا نكتة لطيفة وهي أنّ الباطل يصل إلى درجة لا يمكن فيها أن يحفظ نفسه ، وفي هذه اللحظة يُلقى خارج المجتمع ، وهذه العملية تتمّ في حالة هيجان الحقّ ، فعند غليان الحقّ يظهر الزبد ويطفو على سطح ماء القدر ويُقذف إلى الخارج ، وهذا دليل على أنّ الحقّ يجب أن يكون في حالة هيجان وغليان دائماً حتّى يُبعد الباطل عنه .

8. الباطل مدينٌ للحقّ ببقائه

كما قلنا في تفسير الآية ، فلو لم يكن الماء لما وجد الزبد ، ولا يمكن له أن يستمر ، كما أنّه لولا وجود الحقّ فانّ الباطل لا معنى له ولو لم يكن هناك أشخاص صادقون لما وقع أحد تحت تأثير الأفراد الخونة ولما صدّق بمكرهم ، فالشعاع الكاذب للباطل مدين في بقائه لنور الحقّ .

9. صراع الحقّ والباطل مستمر

المثال الذي ضربهُ لنا القرآن الكريم في تجسيم الحقّ والباطل ليس مثالا محدوداً في زمان ومكان معينين ، فهذا المنظر يراه الناس في جميع مناطق العالم المختلفة ، وهذا يبيّن أنّ عمل الحقّ والباطل ليس مؤقتاً وآنياً . وجريان الماء

العذب والمالح مستمر إلى نفخ الصور ، إلاّ إذا تحوّل المجتمع إلى مجتمع مثالي (كمجتمع عصر الظهور وقيام الإمام المهدي (عليه السلام) فعنده ينتهي هذا الصراع ، وينتصر الحقّ ويطوي بساط الباطل ، وتدخل البشرية مرحلة جديدة من تاريخها ، وإلى أن نصل إلى هذه المرحلة فالصراع مستمر بين الحقّ والباطل ، ويجب أن نحدّد موقفنا في هذا الصراع .

10 . تزامن الحياة مع السعي والجهاد

(112/410)

المثال الرائع أعلاه يوضّح هذا الأساس لحياة الناس ، وهو أنّ الحياة بدون جهاد غير ممكنة ، والعزّة بدون سعي غير ممكنة أيضاً ، لأنّه يقول: يجب أن يذهب الناس إلى المناجم لتهيئة مستلزمات حياتهم في المتاع والزينة (إبتغاء حلية أو متاع) . وللحصول على هذين الشيئين يجب تنقية المواد الخام من الشوائب بواسطة نيران الأفران للحصول على الفلز الخالص الصالح للإستعمال ، وهذا لا يتمّ إلاّ من خلال السعي والمجاهدة والعناء .

وهذه هي طبيعة الحياة حيث يوجد إلى جانب الورد الشوك ، وإلى جانب النصر توجد المصاعب والمشكلات ، وقالوا في القديم: (الكنوز في الخرائب وفوق كلّ كنز يوجد ثعبانٌ نائم) ، فإنّ هذه الخربة والثعبان تمثّلان المشاكل والصعوبات للحصول على الموفّقية في الحياة.

ويؤكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة وهي أنّ التوفيق لا يحصل إلاّ بتحمّل المصاعب والمحن ، يقول جلّ وعلا في الآية (214) من سورة البقرة: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضرّاء وزلزلوا حتّى يقول الرّسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب) .

الأمثال في القرآن:

إنّ دور المثال في توضيح وتفسير الغايات له أهمّية كبيرة غير قابلة للإنكار ، ولهذا السبب لا يوجد أي علم يستغني عن ذكر المثال لإثبات وتوضيح الحقائق وتقريب معناها إلى الأذهان ، وتارةً ينطبق المثال مع المقصود بشكل يجعل المعاني الصعبة تنزل من السّماء إلى الأرض وتكون مفهومة للجميع ، فيمكن أن يقال: إنّ المثال له دور مؤثّر في مختلف الأبحاث العلمية والتربوية والإجتماعية والأخلاقية وغيرها ، ومن جملة تأثيراته:

1 ـ المثال يجعل المسائل محسوسة:

من المعلوم أنّ الإنسان يأنس بالمحسوسات أكثر ، أمّا الحقائق العلمية المعقّدة فهي بعيدة

المنال . والأمثال تقرّب هذه الفواصل وتجعل الحقائق المعنوية محسوسة ، وإدراكها يسير ولذيذ .

2 ـ المثال يُقرّب المعنى:

(113/410)

تارةً يحتاج الإنسان لإثبات مسألة منطقية أو عقلية إلى أدلّة مختلفة ، ومع كلّ هذه الأدلّة تبقى هناك نقاط مبهمة محيطة بها ، ولكن عند ذكر مثال واضح منسّق مع الغاية يقرّب المعنى ويعزّز الأدلّة ويقلّل من كثرتها .

3 ـ المثال يعمّم المفاهيم

كثير من البحوث العلمية بشكلها الأصلي يفهمها الخواص فقط ، ولا يستفيد منها عامّة الناس ، ولكن عندما يصحبها المثال تكون قابلة للفهم ، ويستفيد منها الناس على إختلاف مستوياتهم العلمية ، ولهذا فالمثال وسيلة لتعميم الفكر والثقافة .

4 ـ المثال ، يزيدُ في درجة التصديق:

مهما تكن الكلّيات العقلية منطقية ، فإنّها لا تخلق حالة اليقين الكافية في ذهن الإنسان ، لأنّ الإنسان يبحث عن اليقين في المحسوسات ، فالمثال يجعل من المسألة الذهنيّة واقعاً عينيّاً ،

ويوضّحها في العالم الخارجي ، ولهذا السبب فإنّ له أثره في زيادة درجة تصديق المسائل وقبولها .

5 ـ المثال يُخرس المعاندين:

كثيراً ما لا تنفع الأدلّة العقليّة والمنطقيّة لإسكات الشخص المعاند حيث يبقى مصرّاً على عناده ولكن عندما نصب الحديث في قالب المثال نوصد الطريق عليه بحيث لا يبقى له مجال للتبرير ولا لإختلاق الأعذار .

ولا بأس أن نطرح هنا بعض الأمثلة حتى نعرف مدى تأثيرها :

نقرأ في القرآن الكريم أنّ الله سبحانه وتعالى يردُ على الذين أشكلوا على ولادة السّيد المسيح (عليه السلام) كيف أنّه ولد من اُمّ بغير أب (إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) .

لاحظوا جيداً ، فنحن مهما حاولنا أن نقول للمعاندين: إنّ هذا العمل بالنسبة إلى قدرة الله المطلقة لا شيء ، فمن الممكن أن يحتجّوا أيضاً ، ولكن عندما نقول لهم هل تعتقدون أنّ آدم خلقه الله من تراب ؟ فانّ الله الذي له هذه القدرة كيف لا يستطيع إيجاد شخص بدون أب ؟ !

وبالنسبة إلى المنافقين الذين يقضون في ظلّ نفاقهم أيّاماً مريحة ظاهراً ، فانّ القرآن الكريم يضرب مثالا رائعاً عن حالهم ، فيشبّههم بالمسافرين في الصحراء فيقول (يكاد البرق يخطف أبصارهم كلّما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إنّ الله على كلّ شيء قدير) . فهل يوجد أوضح من هذا الوصف للمنافق التائه في الطريق ، ليستفيد من نفاقه وعمله كي يستمرّ في حياته ؟

وعندما تقول للأفراد : إنّ الإنفاق يضاعفه لكم الله عدّة مرّات قد لا يستطيعون أن يفهموا هذا الحديث ، ولكن يقول القرآن الكريم: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أبنتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مئة حبّة) ، وهذا المثال الواضح أقرب للإدراك .

وغالباً ما تقول: إنّ الرياء لا ينفع الإنسان ، فقد يكون هذا الحديث ثقيلا على البعض ، كيف يمكن لهذا العمل أن يكون غير مفيد ، فبناء مستشفى أو مدرسة حتّى لو كان بقصد الرياء . . لماذا ليست له قيمة عند الله ؟ ! ولكن يضرب الله مثالا رائعاً حيث يقول: (فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً) .

ولكي لا نبتعد كثيراً فالآية التي نحن بصدد تفسيرها تبحث في مجال الحقّ والباطل وتجسّم هذه المسألة بشكل دقيق ، المقدّمات والنتائج ، والصفات والخصوصيات والآثار ، وتجعلها قابلة الفهم للجميع وتُسكت المعاندين ، وأكثر

من ذلك تكفينا تعب البحوث المطوّلة .

وفي مناظرة للإمام الصادق (عليه السلام) مع أحد الزنادقة حول قوله تعالى: (كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) قال: فما بال الغير؟

أجابه الإمام: "ويحك هي هي وهي غيرها !" قال: فمثّل لي ذلك شيئاً من أمر الدنيا !

قال: "نعم ، أرأيت لو أنّ رجلا أخذ لبنة فكسرها ثمّ ردّها في ملبنها ، فهي هي وهي غيرها " (1) .

(115/410)

ولابدّ هنا من ملاحظة هذه اللفظة وهي أنّ المثال وما له من تأثير كبير ودور فعّال يجب أن يكون مطابقاً وموافقاً للمقصود ، وإلاّ يكون ضالا ومنحرفاً .

ولهذا السبب يستفيد المنافقون من هذه الأمثلة المنحرفة ليضلّوا بها الناس البسطاء ، فهم يستعينون بشعاع المثال ليصدق الناس أكاذيبهم ، فيجب أن نحذر من هذه الأمثلة المنحرفة ونلاحظها بدقّة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الأمثل حـ 7 صـ 371. 381 ﴾

(116/410)

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ أنزل من السماء ماء . . . ﴾ الآية قال : هذا مثل ضربه الله تعالى احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك ، فما ينفع معه العمل . وأما اليقين ، فينفع الله به أهله . وهو قوله ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ وهو اليقين ، كما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه به ويترك خبيثه في النار ، كذلك يقبل الله تعالى اليقين ويترك الشك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ قال : الصغير ، قدر صغيره . والكبير ، قدر كبيره .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في الآية قال : هذا مثل ضربه الله تعالى بين الحق والباطل ، يقول : احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة ، ومما توقدون عليه في النار فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع النحاس والحديد ، وللنحاس

والحديد خبث ، فجعل الله تعالى مثل خبثه كمثل زبد الماء ، فأما ما ينفع الناس ، فالذهب والفضة . وأما ما ينفع الأرض ، فما شربت من الماء فأنبتت . فجعل ذلك مثل العمل الصالح الذي يبقى لأهله . والعمل السيء يضمحل من محله ، فما يذهب هذا الزبد ، فذلك الهدى والحق جاء من عند الله تعالى ، فمن عمل بالحق كان له . وما بقي كما يبقى ، ما ينفع الناس في الأرض . وكذلك الحديد ، لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل النار ، فتأكل خبثه فيخرج جيده فينتفع به ، كذلك يضمحل الباطل ، وإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال ، فيرفع الباطل ويهلك ، وينتفع أهل الحق بالحق .

(117/410)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق السدي ، عن أبي مالك وعن أبي صالح من طريق مرة ، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - في قوله ﴿ فسالت أودية بقدرها . . . ﴾ الآية . قال : فمر السيل على رأسه من التراب والغثاء حتى استقر في القرار وعليه الزبد ، فضربته الريح فذهب الزبد جفاء إلى جوانبه فيبس فلم ينفع أحداً ، وبقي الماء الذي ينتفع به الناس ، فشربوا منه وسقوا أنعامهم . فكما ذهب الزبد فلم ينفع ، فكذلك الباطل يضمحل يوم القيامة فلا ينفع أهله ، وكما نفع الماء فكذلك ينفع الحق أهله . هذا مثل

ضربه الله .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطاء – رضي الله عنه – في قوله ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ قال : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ حتى جرى الوادي وامتلأ بقدر ما يحمل ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ قال : زبد الماء .

﴿ ومما يوقدون عليه في النار ﴾ قال : زبد ما توقدون عليه من ذلك حلية ، وما سقط فهو مثل زبد الماء ، وهو مثل ضرب للحق والباطل . فأما خبث الحديد والذهب وزبد الماء فهو الباطل ، وما تصنعوا من الحلية والماء والحديد فمثل الحق .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن عطاء – رضي الله عنه – قال : ضرب الله تعالى مثل الحق والباطل . فضرب مثل الحق ، السيل الذي يمكث في الأرض فينتفع الناس به . ومثل الباطل ، مثل الزبد الذي لا ينفع الناس . ومثل الحق ، مثل الحلي الذي يجعل في النار ، فما خلص منه انتفع به أهله . وما خبث منه ، فهو مثل الباطل علم أن لا ينفع الزبد ، وخبث الحلي أهله ، فكذلك الباطل لا ينفع أهله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ قال : الصغير بصغيره ، والكبير بكبره ، ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ قال : عالياً ﴿ ومما يوقدون . . . ﴾ إلى قوله ﴿ فيذهب جفاء ﴾ والجفاء ، ما يتعلق بالشجر ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ هذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد ، يقول : كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينتفع به ولا يرجى بركته ، كذلك يضمحل الباطل عن أهله . وكما مكث هذا الماء في الأرض فأمرعت وربت بركته وأخرجت نباتها ، كذلك يبقى الحق لأهله . وقوله ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية ﴾ كما يبقى خالص هذا الذهب والفضة حين أدخل النار ، كذلك فيذهب خبثه ، كذلك يبقى الحق لأهله . وكما اضمحل خبث هذا الذهب والفضة حين أدخل في النار ، كذلك يضمحل الباطل عن أهله . وقوله ﴿ أو متاع زبد مثله ﴾ يقول هذا الحديد وهذا الصفر حين دخل النار وذهبت بخبثه ، كذلك يبقى الحق لأهله كما بقي خالصهما .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ قال : الكبير بقدره والصغير بقدره ﴿ زبداً رابياً ﴾ قال : ربا فوق الماء الزبد ﴿ ومما توقدون عليه في النار ﴾ قال : هو الذهب ، إذا ادخل النار بقي صفوه وذهب ما كان فيه من كدر . وهذا مثل ضربه الله للحق والباطل

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ يتعلق بالشجر ولا يكون شيئاً ، هذا مثل الباطل ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ هذا يخرج النبات ، وهذا مثل الحق ﴿ أو متاع زبد مثله . . . ﴾ قال : المتاع الصفر والحديد .

(119/410)

وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ قال : بملئها ما أطاقت ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ قال : انقضى الكلام ، ثم استقبل فقال ﴿ ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾ قال : المتاع الحديد والنحاس والرصاص وأشباهه ﴿ زبد مثله ﴾ قال : خبث ذلك الحديد ، والحلية مثل زبد السيل ﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ من الماء ﴿ فيمكث في الأرض ﴾ وأما الزبد ﴿ فيذهب جفاء ﴾ قال : جموداً في الأرض ، قال : فكذلك مثل الحق والباطل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن الحسن - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ الآية . قال : ابتغاء حلية الذهب والفضة ، أو متاع الصفر والحديد . قال : كما أوقد على الذهب والفضة والصفر والحديد خلص خالصه ،

كذلك بقي الحق لأهله فانتفعوا به .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عيينة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ قال : أنزل من السماء قرآناً فاحتمله عقول الرجال .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾ قال : الحياة والرزق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور جـ 4 صـ ﴾

(120/410)

فائدة

قال ابن القيم :

فصل : المثل في حق المؤمن :

وقد ذكر الله المثلين المائي والناري في سورة الرعد ولكن في حق المؤمنين فقال تعالى ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات وشبه

القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرا وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير فسالت أودية بقدرها واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبدا فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيتكدر بها شاربه وهي من تمام نفع الدواء فإنه أثارها ليذهب بها فإنه لا يجامعها ولا يشاركها وهكذا يضرب الله الحق والباطل ثم ذكر المثل الناري فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيرمى ويطرح ويذهب جفاء

(121/410)

فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم كذلك يستقر في قرار القبل وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما

فليس من أهلهما والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعلام الموقعين حـ 1 صـ 152 .

153 ﴾

(122/410)

وقال مفتاح دار السعادة :

شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي انزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم ثم شبه القلوب بالاودية فقلب كبير يسع علما كثيرا كواد عظيم يسع ماء كثيرا وقلب صغيرا إنما يسع علما قليلا كواد صغير إنما يسع ماء قليلا فقال فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا هذا مثل ضربة الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفو على وجه القلب كما يستخرج السيل من الوادي زبدا يعلو فقوق الماء وأخبر سبحانه انه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في ارض الوادي كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطفت فلا تستقر فيه بل تجفى وترمى فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاء وما يعقل عن الله امثاله إلا العالمون ثم ضرب سبحانه لذلك مثلا آخر فقال ومما

يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله يعني أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذي تلقيه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فإنه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده وضرب سبحانه مثلا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ومثلا بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق فآيات القرآن تحيي القلوب كما تحيا الارض بالماء وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم قال الله تعالى وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفتاح دار السعادة جـ 1 صـ 60. 61 ﴾

(123/410)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْدِيَةٌ ﴾ : هو جمع وادٍ ، وجمعُ فاعِل على أَفْعِلَة ، قال أبو البقاء : " شاذٌّ ،

ولم نَسْمَعْه في غيرِ هذا الحرف، ووجهُه: أنَّ فاعِلاً قد جاء بمعنى فَعِيل، وكما جاء فَعِيل وأَفْعِلَة كجَرِيْب وأَجْرِبَة، وكذلك فاعِل"، قلت: قد سُمع فاعِل وأَفْعِلة في حرفين آخرين، أحدُهما: قولهم: جائز وأَجْوِزة، والثاني: ناحِية وأَنْحِية.

قوله: "بقَدَرِها" فيه وجهان، أحدُهما "أنه متعلِّقٌ ب" سالَتْ"، والثاني: أنه متعلِّقٌ بمحذوفٍ لأنه صفةٌ ل"أَوْدِية". وقرأ العامَّةُ بفتح الدال، وزيد بن علي والأشهب العقيلي وأبو عمرو في روايةٍ بسكونها، وقد تقدَّم ذلك في سورة البقرة.

و"احتمل" بمعنى حَمَل فافْتَعَلَ بمعنى المجرد، وإنما نكَّر الأودية وعَرَّف السيلَ؛ لأنَّ المطر يَنْزِل في البِقاع على المناوبة، فتسيل بعضُ أوديةِ الأرض دونَ بعضٍ، وتعريفُ السيل لأنه قد فُهِم من الفعل قبله وهو "فسالَتْ" وهو لو ذُكِرَ لكان نكرةً، فلمَّا اُعيد اُعِيدَ بلفظِ التعريفِ نحو: "رايت رجلاً فأكرمت الرجل" [والزَّبَد: وَضَرُ الغَلَيان وخَبَثُه] قال النابغة:

2852- فما الفُراتُ إذا هَبَّ الرياحُ له ... تَرْمي غوارِبُه العِبْرَيْن بالزَّبَدِ

(124/410)

وقيل: هو ما يَحْتمله السَّيل مِنْ غُثاءٍ ونحوه، وما يرمي به [على] ضفَّته من الحَباب.

وقيل: هو ما يَطْرحُه الوادي إذا جاش ماؤه، وارتفعت أمواجُه. وهي عباراتٌ متقاربة

. والزُّبَد : المستخرجُ من اللبن . قيل : مشتقٌّ مِنْ هذا لمشابَهتِه إياه في اللون ، ويقال : زَبَدْتُه زَبْداً ، أي : أعطيته مالاً ، يُضرب به المثَل في الكثرة ، وفي الحديث : " غُفِرَتْ له ذنوبه وإن كانت مِثْل زَبَد البحر " .

قوله : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ ﴾ هذا الجارُّ [خبر مقدَّمٌ ، ومبتدؤه " زَبَدٌ "] . و " مثلُه " صفةُ المبتدأ ، والتقدير : ومن الجواهرِ التي هي كالنحاس والذهب والفضة زَبَدٌ ، أي : خَبَثٌ مثلُه ، أي : مثل زَبَدِ الماء ، ووجهُ المماثلةِ : أنّ كلاًّ منهما ناشئٌ مِن الأَكْدار .

وقَرأَ الأخَوانِ وحفصٌ " يُوقِدُوْن " بالياء من تحت ، أي : الناسُ ، والباقون بالتاء مِنْ فوقُ على الخطاب .

و " عليه " متعلقٌ ب " يوُقِدون " . وأمَّا " في النار " ففيه وجهان ، أحدُهما : أنه متعلقٌ ب يوقِدون ، وهو قول الفارسيِّ والحوفيِّ وأبي البقاء . الثاني : أنه متعلقٌ بمحذوف ، أي : كائناً أو ثابتاً ، قاله مكي وغيره . ومنعوا تعلُّقه ب " يُوقِدُون " لأنهم زعموا أنه لا يُوْقَد على شيء إلا وهو في النار ، وتعليقُ حرفِ الجر ب " يُوْقِدون " يقتضي تخصيصَ حالٍ من حالٍ أخرى . وهذا غيرُ لازمٍ . قال أبو علي : " قد يُوْقَد على الشيء وإن لم يكنْ في النارِ ، كقولِه تعالى : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي ياهامان عَلَى الطين ﴾

[القصص : 38] والطِّين لم يكن فيها ، وإنما يُصيبه لَهَبُها ، وأيضاً فقد يكونُ ذلك على سبيلِ التوكيدِ كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] .

قوله : " ابتغاءَ " فيه وجهان ، أظهرُهما : أنه مفعولٌ مِنْ اجله . والثاني : أنه مصدرٌ في موضع الحال ، أي : مُبْتَغِين حِلْية ، و " حِلْيةٍ " مفعولٌ معنىً . " أو متاعٍ " نَسَقٌ على " حِلْيةٍ " ، فالحلْيَةُ ما يُتَزَيَّن به ، والمَتَاع : مَا يَقْضُون به حوائِجَهم كالمَساحي من الحديد ونحوِها . و " مِنْ " في قوله : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ ﴾ تحتمل وجهين ، أحدُهما : أن تكونَ لابتداءِ الغاية ، أي : ومنه ينشأ زَبَدٌ مثل زُبَدِ الماء . والثاني : أنها للتبعيضَ ، بمعنى : وبَعْضُه زَبَدٌ .

قوله : " جُفاءً " حال . والجُفَاءُ : قال ابن الأنباري : " المتفرّق " . يقال : جَفَأَتِ الريحُ السحابَ ، أي : قَطَعَتْه وفرَّقته . وقيل : الجُفاء : ما يَرْمِي به السَّيْلُ . يُقال : جَفَأَتِ القِدْرُ بزَبَدِها تَجْفَأُ ، وجَفَأَ السَّيْلُ بزَبَدِه وأَجْفَأَ وأَجْفَلَ ، وباللامِ قرأ رُؤْبة بن العجاج . قال أبو حاتم : " لا يُقرأ بقراءةِ رؤبة ، لأنه كان يأكلُ الفارَ " يعني أنه أعرابيٌّ جافٍ . قلت : قد تقدَّم ثناءُ الزمخشري عيله أولَ البقرة ، وذِكْرُ فصاحتِه . وقد وجَّهوا قراءَتَه بأنها مِنْ أَجْفَلَتِ الريحُ الغنمَ ، أي : فرَّقَتْه قِطَعاً فهي في المعنى كقراءةِ العامَّة بالهمزة .

وفي همزة " جُفاء " وجهان ، أظهرهما : أنها أصلٌ لثبوتِها في تصاريف هذه المادةِ كما رأيتَ . والثاني : بدلٌ من واو ، وكأنه مختارُ أبي البقاء وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ مادة جفا يَجْفو لا يليق

معناها هنا ، والأصلُ عدمُ الاشتراكِ .

قوله : "كذلك يَضْرِب " / الكافُ في محلِّ نصبٍ ، أي : مثلَ ذلك الضَّرْبِ يَضْرِب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 38 . 41﴾

(126/410)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

هذه الآية تشتمل على أمثالٍ ضربها اللَّهُ لتشبيه القرآنِ المُنَزَّلِ بالماءِ المُنَزَّل من السماء ، وشبَّه القلوب بالأودية ، وشبَّه وساوسَ الشيطان وهواجسَ النَّفْس بالزَّبَدِ الذي يعلو الماء ، وشبَّه الخُلُق بالجواهر الصافية من الخَبَثِ كالذهب والفضة والنحاس وغيرها . وشبَّه الباطلَ بخَبَثِ هذه الجواهر . وكما أن الأودية مختلفة في صغرها وكبرها وأن بقدرها تحتمل الماء في القلة والكثرة - كذلك القلوبُ تختلف في الاحتمال على حسب الضعف والقوة . وكما أَن السيلَ إذا حَصَلَ في الوادي يُطَهِّرُ الوادي فكذلك القرآن إذا حصل حِفْظُهُ في القلوب نَفَى الوساوسَ والهوى في الوادي عنها ، وكما أَنَّ الماءَ قد يصحبه ما يكدره ،

يخلص بعضه مما يشوبه - فكذلك الإيمان وفَهْمُ القرآن في القلوب المؤمنين حين تخلص من نَزَعْاتِ الشيطان ومن الخواطر الرَّدِيَّة، فالقلوب بين صافٍ وكَدِرٍ.

وكما أنَّ الجواهَر التي تتخذ منها الأواني إذا أذيبت خَلَصتْ من الخَبَثِ كذلك الحق يتميز من الباطل، ويبقى الحقُّ ويضمحل الباطل.

ويقال إن الأنوار إذا تلألأت في القلوب نَفَت آثار الكفلة، ونور اليقين ينفي ظلمة الشك، والعلم ينفي تهمة الجهل، ونور المعرفة ينفي أثر النكرة، ونور المشاهدة ينفي آثار البشرية، وأنوار الجمع تنفي آثار التفرقة. وعند أنوار الحقائق تتلاشى آثار الحظوظ، وأنوار طلوعِ الشمس من حيث العرفان تنفي سَدَفَة الليل من حيث حسبان أثر الأغيار.

(127/410)

ثم الجواهر التي تتخذ منها الأواني مختلفة فَمِنْ إناءٍ يتخذ من الذهب وآخر من الرصاص، إلى غيره، كذلك القلوب تختلف، وفي الخبر: "إن لله تعالى أوانيَ وهي القلوب" فزاهد قاصدٌ ومحب واجِدٌ، وعابدٌ خائفٌ ومُوحِّدٌ عارفٌ، ومتعبِّدٌ متعفِّفٌ ومتهجِّدٌ متصوف، وأنشدوا:

ألوانُها شتَّى الفنونِ وإنما . . . تُسْقى بماءٍ واحدٍ من مَنْهَلِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 224 . 225 ﴾

(128/410)

قوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم ما للحق والباطل في أنفسهم من الثبات والاضطراب ، ذكر ما لأهلهما من الثواب والعقاب جواباً لمن كأنه قال : ما لمن تدبر هذه الأمثال ، وأبعد عما أشارت إليه من الضلال ، أو حاد عما دعت إليه ومال ؟ فأجيب بقوله : ﴿ للذين استجابوا ﴾ أي طلبوا من أنفسهم الإجابة وأوجدوها ﴿ لربهم ﴾ أي المحسن إليهم شكراً له ، الحالة ﴿ الحسنى ﴾ أي العظيمة في الحسن ، وهي القرار في الجنة فهو جزاءهم ؛ قال أبو حيان : وذلك هو النصر في الدنيا وما اختصوا به من نعمه تعالى ودخول الجنة في الآخرة - انتهى .

وقد تقدم في سورة يونس عليه الصلاة والسلام أنهم يزادون ما لا يعلم قدره إلا الذي فعلوا ذلك خوف عقابه ورجاء ثوابه .

ولما ذكر ما للطائعين ، أتبعه جزاء العاصين ، فقال مبتدئاً : ﴿ والذين لم يستجيبوا ﴾ أي يرغبوا في إيجاد الإجابة ﴿ له ﴾ وأخبر عن هذا الابتداء قوله معلماً بأن استعجالهم بالعذاب باستعجالهم بالسيئة قبل الحسنة جراءة منهم ناشئة عن جهل صرف تزول عند رؤيتهم عذابه سبحانه ، فيبلغون حينئذ بالافتداء غاية الذل فلا يقبل منهم - : ﴿ لو أن لهم ﴾ أي في ملكهم وتحت قدرتهم ﴿ ما في الأرض ﴾ وأكد بقوله : ﴿ جميعاً ومثله ﴾ وأوضح بقوله : ﴿ معه لافتدوا به ﴾ أي جعلوا فكاك أنفسهم بغاية جهدهم ، وأكده لادعاء الكفرة أنهم لا يذلون لشيء ولا يوهن قواهم شيء ، والافتداء : جعل أحد الشيئين بدلاً من الآخر على جهة الاتقاء به ، فكأنه قيل : ما الذي دهاهم حتى كان هذا حالهم ؟ فقيل - دلالة على أنه لا يقبل منهم الفداء ولو عظم - : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ لهم سوء الحساب ﴾ والحساب : إحصاء ما على العبد وله ، وسوء المؤاخذة ، وعدم العفو عن شيء ﴿ ومأواهم ﴾ أي مستقرهم ﴿ جهنم ﴾ أي الطبقة التي تلقى داخلها بالتجهم والعبوسة .

ولما كان المأوى إنما يأوى إليه صاحبه للراحة فيه بالاتكاء على فرش ونحوه ، قال معبراً بمجمع المذام : ﴿ وبئس المهاد ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 144 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى ﴾

ثم استأنف الكلام بقوله : ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمُ الحسنى ﴾ ومحله الرفع بالابتداء وللذين خبره وتقديره لهم الخصلة الحسنى والحالة الحسنى .

الثاني : أنه متصل بما قبله والتقدير : كأنه قال الذي يبقى هو مثل المستجيب والذي يذهب جفاء مثل من لا يستجيب ثم بين الوجه في كونه مثلاً وهو أنه لمن يستجيب الحسنى وهو الجنة ، ولمن لا يستجيب أنواع الحسرة والعقوبة ، وفيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير : كذلك يضرب الله الأمثال للذين استجابوا لربهم الاستجابة الحسنى ، فيكون الحسنى صفة لمصدر محذوف .

واعلم أنه تعالى ذكر ههنا أحوال السعداء وأحوال الأشقياء ، أما أحوال السعداء فهي قوله : ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمُ الحسنى ﴾ والمعنى أن الذين أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الرسل والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله فلهم

الحسنى .

قال ابن عباس : الجنة ، وقال أهل المعاني : الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن ، وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة الخالية عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والإجلال .

ولم يذكر الزيادة ههنا لأنه تعالى قد ذكرها في سورة أخرى ، وهو قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] وأما أحوال الأشقياء ، فهي قوله : ﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ ﴾ فلهم أنواع أربعة من العذاب والعقوبة .

فالنوع الأول ؛ قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ ﴾ والافتداء جعل أحد الشيئين بدلاً من الآخر ، ومفعول لافتدوا به محذوف تقديره : لافتدوا به أنفسهم أي جعلوه فداء أنفسهم من العذاب ، والكناية في "به" عائدة إلى "ما" في قوله : ﴿ مَّا فِى الأرض ﴾ .

واعلم أن هذا المعنى حق ، لأن المحبوب بالذات لكل إنسان هو ذاته ، وكل ما سواه فإنما يحبه لكونه وسيله إلى مصالح ذاته ، فإذا كانت النفس في الضرر والألم والتعب وكان مالكاً

لما يساوي عالم الأجساد والأرواح فإنه يرضى بأن يجعله فداء لنفسه ، لأن المحبوب بالعرض لا بد وأن يكون فداء لما يكون محبوباً بالذات .

والنوع الثاني : من أنواع العذاب الذي أعده الله لهم هو قوله : ﴿ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الحساب ﴾ قال الزجاج : ذاك لأن كفرهم أحبط أعمالهم .

وأقول ههنا حالتان : فكل ما شغلك بالله وعبوديته ومحبته فهي الحالة السعيدة الشريفة العلوية القدسية ، وكل ما شغلك بغير الله فهي الحالة الضارة المؤذية الخسيسة ، ولا شك أن هاتين الحالتين يقبلان الأشد والأضعف والأقل والأزيد ، ولا شك أن المواظبة على الأعمال المناسبة لهذه الأحوال توجب قوتها ورسوخها لما ثبت في المعقولات أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة ، ولا شك أنه لما كانت كثرة الأفعال توجب حصول تلك الملكات الراسخة وكل واحدة من تلك الأفعال حتى اللمحة واللحظة والخطور بالبال والالتفات الضعيف فإنه يوجب أثراً ما في حصول تلك الحالة في النفس فهذا هو الحساب ، وعند التأمل في هذه الفصول يتبين للإنسان صدق قوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7 ، 8] .

إذا ثبت هذا فالسعداء هم الذين استجابوا لربهم في الإعراض عما سوى الله وفي الإقبال بالكلية على عبودية الله تعالى ولا جرم حصل لهم الحسنى .

وأما الأشقياء فهم الذين لم يستجيبوا لربهم ، فلهذا السبب وجب أن يحصل لهم سوء

الحساب ، والمراد بسوء الحساب أنهم أحبوا الدنيا وأعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذي هو الدنيا وبقوا محرومين عن الفوز بخدمة حضرة المولى .

(131/410)

والنوع الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ وذلك لأنهم كانوا غافلين عن الاستسعاد بخدمة حضرة المولى عاكفين على لذات الدنيا ، فإذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شيء آخر يجبر هذه المصيبة ، فلذلك قال : ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ثم إنه تعالى وصف هذا المأوى فقال : ﴿ وَبِئْسَ المهاد ﴾ ولا شك أن الأمر كذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 30. 31 ﴾

(132/410)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾

فيها تأويلان :

أحدهما : الجنة ، رواه أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : أنها الحياة والرزق ، قاله مجاهد .

ويحتمل تأويلاً ثالثاً : أن تكون مضاعفة الحسنات .

﴿ والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثلَهُ معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ﴾ .

في ﴿ سوء الحساب ﴾ أربعة تأويلات :

أحدها : أن يؤاخذوا بجميع ذنوبهم فلا يعفى لهم عن شيء منها ، قاله إبراهيم النخعي .

وقالت عائشة رضي الله عنها : من نوقش الحساب هلك .

الثاني : أنه المناقشة في الأعمال ، قاله أبو الجوزاء .

الثالث : أنه التقريع والتوبيخ ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : هو أن لا تقبل حسناتهم فلا تغفر سيئاتهم .

ويحتمل خامساً : أن يكون سوء الحساب ما أفضى إليه حسابهم من السوء وهو العقاب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى ﴾

﴿ الذين استجابوا ﴾ : هم المؤمنون الذين دعاهم الله عز وجل على لسان رسوله فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من اتباع دينه ، و﴿ الحسنى ﴾ : هي الجنة وكل ما يختص به المؤمنون من نعم الله عز وجل ، ﴿ والذين لم يستجيبوا ﴾ هم : الكفرة ، و﴿ سوء الحساب ﴾ هو : التقصي على المحاسب وأن لا يقع في حسابه من التجاوز شيء – قاله شهر بن حوشب وإبراهيم النخعي ، وقاله فرقد السبخي وغيره – و" المأوى " : حيث يأوي الإنسان ويسكن و﴿ المهاد ﴾ : ما يفترش ويلبس بالجلوس والرقاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(134/410)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾

يعني : المؤمنين ، ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ يعني : الكفار .

قال أبو عبيدة : استجبت لك واستجبتك سواء ، وهو بمعنى : أجبت .

وفي الحُسنى ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها الجنة ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : أنها الحياة والرزق ، قاله مجاهد .

والثالث : كل خير من الجنة فما دونها ، قاله أبو عبيدة .

قوله تعالى : ﴿ لا فتدَوْا به ﴾ اي : لجعلوه فداء أنفسهم من العذاب ، ولا يُقبل منهم .

وفي سوء الحساب ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها المناقشة بالأعمال ، رواه ابو الجوزاء عن ابن عباس .

وقال النخعي : هو أن يحاسَب بذنبه كله ، فلا يُغفر له منه شيء .

والثاني : أن لا تُقبل منهم حسنة ، ولا يُتجاوز لهم عن سيئة .

والثالث : أنه التوبيخ والتقريع عند الحساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ

﴾

وقال القرطبى :

﴿ لِلَّذِينَ اَستجابوا لِرَبِّهِمُ ﴾ .

أي أجابوا ؛ واستجاب بمعنى أجاب ؛ قال :

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عند ذاكَ مُجيب . . . .

وقد تقدم ؛ أي أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات .

﴿ الحسنى ﴾ لأنها في نهاية الحسن .

وقيل : من الحسنى النصر في الدنيا ، والنعيم المقيم غداً .

﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ ﴾ أي لم يجيبوا إلى الإيمان به .

﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأَرض جَمِيعاً ﴾ أي من الأموال .

﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ ملك لهم .

﴿ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ ﴾ من عذاب يوم القيامة ؛ نظيره في "آل عمران" ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ الله شَيْئاً ﴾ [آل عمران : 10] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ ﴾ [آل عمران : 91]

حسب ما تقدم بيانه هناك .

﴿ أولئك لَهُمْ سواء الحساب ﴾ أي لا يقبل لهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة .

وقال فَرْقَدْ السَّبَخِيّ قال (لي) إبراهيم النَّخعيّ : يا فَرْقَد ! أتدري ما سوء الحساب ؟

قلت لا قال أن يحاسَب الرجل بذنبه كلّه لا يفقد منه شيء .

﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ أي مسكنهم ومقامهم .

﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أي الفراش الذي مهدوا لأنفسهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(136/410)

وقال الخازن:

قوله تعالى: ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾

قيل: اللام في للذين متعلقة بيضرب والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذي استجابوا لربهم يعني أجابوه إلى ما دعاهم إليه من توحيده والإيمان به وبرسوله وللكافرين الذين لم يستجيبوا، فعلى هذا يكون قوله كذلك يضرب الله الأمثال ثم للفريقين من المؤمنين والكافرين وقيل تم الكلام عند قوله كذلك يضرب الله الأمثال ثم استأنف بقوله للذين استجابوا لربهم الحسنى.

قال ابن عباس وجمهور المفسرين: يعني الجنة.

وقيل: الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن وهي المنفعة الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ يعني الكبار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه ﴿ لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ﴾ يعني

لبذلوا ذلك كله فداء لأنفسهم من عذاب النار يوم القيامة ﴿ أولئك ﴾ يعني الذين لم يستجيبوا لربهم ﴿ لهم سوء الحساب ﴾ قال إبراهيم النخعي : سوء الحساب أن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شيء ﴿ ومأواهم ﴾ يعني في الآخرة ﴿ جهنم وبئس المهاد ﴾ يعني وبئس ما مهد لهم في الآخرة ، وقيل : المهاد الفراش يعني وبئس الفراش يفرش لهم في جهنم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(137/410)

وقال أبو حيان :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ﴾

والظاهر أنه لما ضرب هذا المثل للحق والباطل انتقل إلى ما لأهل الحق من الثواب ، وأهل الباطل من العقاب ، فقال : للذين استجابوا لربهم الحسنى ، أي : الذين دعاهم الله على لسان رسوله (صلى الله عليه وسلم) فأجابوا إلى ما دعاهم إليه من اتباع دينه الحالة الحسنى ، وذلك هو النصر في الدنيا وما اختصوا به من نعمة الله ، ودخول الجنة في الآخرة .

فالحسنى مبتدأ ، وخبره في قوله : للذين .

والذين لم يستجيبوا مبتدأ ، خبره ما بعده .

وغاير بين جملتي الابتداء لما يدل عليه تقديم الجار والمجرور في الاعتناء والاهتمام ، وعلى رأي الزمخشري من الاختصاص أي : لهؤلاء الحسنى لا لغيرهم .

ولأن قراءة شيوخنا يقفون على قوله الأمثال ، ويبتدئون للذين .

وعلى هذا المفهوم أعرب الحوفي الحسني مبتدأ ، وللذين خبره ، وفسر ابن عطية وفهم السلف .

قال ابن عباس : جزاء الحسنى وهي لا إله إلا الله .

وقال مجاهد : الحياة الحسنى ما في الطيبة .

وقيل : الجنة لأنها في نهاية الحسنى .

وقيل : المكافأة أضعافاً .

وعلق الزمخشري للذين بقوله يضرب فقال : للذين استجابوا متعلقة بيضرب أي : كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا ، وللكافرين الذين لم يستجيبوا أي : هما مثلاً الفريقين .

والحسنى صفة لمصدر استجابوا أي : استجابوا الاستجابة الحسنى .

وقولهم : لو أن لهم كلام مبتدأ ، ذكر ما أعد لغير المستجيبين انتهى .

والتفسير الأول أولى ، لأنه فيه ضرب الأمثال غير مقيد بمثل هذين ، والله تعالى قد ضرب أمثالاً كثيرة في هذين وفي غيرهما ، ولأنه فيه ذكر ثواب المستجيبين بخلاف قول الزمخشري ،

فكما ذكر ما لغير المستجيبين من العقاب ، ذكر ما للمستجيبين من الثواب .

ولأنّ تقديره الاستجابة الحسنى مشعر بتقييد الاستجابة ، ومقابلتها ليس نفي الاستجابة مطلقاً ، إنما مقابلها نفي الاستجابة الحسنى ، والله تعالى قد نفى الاستجابة مطلقاً .

(138/410)

ولأنه على قوله يكون قوله : لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ، كلاماً مفلتاً مما قبله ، أو كالمفلت ، إذ يصير المعنى : كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين والكافرين .

لو أن لهم ما في الأرض ، فلو كان التركيب بحرف رابط لو بما قبلها زال التفلت ، وأيضاً فيوهم الاشتراك في الضمير ، وإن كان تخصيص ذلك بالكافرين معلوماً لهم .

وأيضاً فقد جاء هذا التركيب ، وتقدم تفسير مثل قوله : لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ، وسوء الحساب قال ابن عباس : أن لا تقبل حسناتهم ولا تغفر سيئاتهم .

وقال النخعي : وشهد وفرقران يحاسب على ذنوبه كلها ، ويحاسب ويؤاخذ بها من غير أن يغفر له شيء .

وقال أبو الجوزاء : المناقشة .

وقيل : للتوبيخ عند الحساب والتقريع ، وتقدم تفسير مثل ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(139/410)

وقال أبو السعود :

وبعد ما بِيّن شأنُ كل من الحق والباطلِ حالاً ومآلاً أُكملَ بيانٍ شُرع في بيان حالِ أهلِ كل منهما مآلاً تكميلاً للدعوة ترغيباً وترهيباً فقيل :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ﴾ إذ دعاهم إلى الحق بفنون الدعوةِ التي من جملتها ضربُ الأمثال فإنه ألطفُ ذريعةٍ إلى تفهيم القلوب الغبيةِ وأقوى وسيلةٍ إلى تسخير النفوسِ الأبية ، كيف لا وهو تصويرٌ للمعقول بصورة المحسوسِ وإبرازٌ

(140/410)

لأوابد المعاني في هيئة المأنوس فأيُّ دعوةٍ أولى منه بالاستجابة والقَبول ﴿ الحسنى ﴾ أي المثوبةُ الحسنى وهي الجنة ﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ ﴾ وعاندوا الحقَّ الجليَّ ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ

مَّا فِى الْأَرضِ ﴾ من أصناف الأموال ﴿ جَمِيعاً ﴾ بحيث لم يشِذَّ منه شاذٌّ في أقطارها أو مجموعاً غيرَ متفرقٍ بحسب الأزمان ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ ﴾ أي بما في الأرض ومثله معه جميعاً ليتخلّصوا عما بهم ، وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيانُ ، فالموصولُ مبتدأٌ والشرطيةُ كما هي خبرُه لكن لا على أنها وضُعت موضعَ السوآى فوقعت في مقابلة الحُسنى الواقعةِ في القرينة الأولى لمراعاة حسنِ المقابلة فصار كأنه قيل : وللذين لم يستجيبوا له السوآى كما يوهم ، فإن الشرطيةَ وإن دلت على كمال سوءِ حالِهم لكنها بمعزل من القيام مقامَ لفظ السوآى مصحوباً باللام الداخلةِ على الموصول أو ضميرِه ، وعليه يدور حصولُ المرام ، وإنما الواقعُ في تلك المقابلة سوءُ الحساب في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوء الحساب ﴾ وحيث كان اسمُ الإشارة الواقعُ مبتدأً في هذه الجملة عبارةً عن الموصول الواقعِ مبتدأً في الجملة السابقة كان خبرُها أعني الجملةَ الظرفية خبراً عن الموصول في الحقيقة ومبيّناً لإبهام مضمونِ الشرطيةِ الواقعةِ خبراً عنه أولاً ، ولذلك تُرك العطفُ فصار كأنه قيل : والذين لم يستجيبوا له لهم سوءُ الحساب ، وذلك في قوة أن يقال : وللذين لم يستجيبوا له لهم سوءُ الحساب مع زيادة تأكيدٍ فتم حسنُ المقابلة على أبلغ وجهٍ وآكدِه ، ثم بيّن مؤدى ذلك فقيل : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ أي مرجعهم ﴿

جَهَنَّمَ ﴾ وفيه نوعُ تأكيد لتفسير الحسنى بالجنة ﴿ وَبِئْسَ المهاد ﴾ أي المستقرُّ، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ، وقيل: اللام في قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمُ ﴾ متعلقةٌ بقوله: ﴿ يَضْرِبُ الله الامثال ﴾ أي الأمثالَ السالفةَ وقوله: ﴿ الحسنى ﴾ صفةٌ للمصدر أي استجابوا الاستجابةَ الحسنى وقوله: ﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ ﴾ معطوفٌ على الموصول الأولِ، وقوله: لو أن لهم الخ، كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان ما أُعدّ لغير المستجيبين من العذاب، والمعنى كذلك يضرب الله الأمثالَ للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين، أي هما مثلاً الفريقين.

وأنت خبير بأن عنوانَ الاستجابة وعدمَها لا مناسبة بينه وبين ما يدور عليه أمرُ التمثيل وأن الاستعمالَ المستفيضَ دخولُ اللامِ على من يُقصد تذكيره بالمَثَل، نعم قد يُستعمل في هذا المعنى أيضاً كما في قوله سبحانه: ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً لّلَّذِينَ * امرأة فِرْعَوْنَ إِذْ ﴾ ونظائرِه، على أن بعضَ الأمثالِ المضروبة لا سيما المثلُ الأخيرُ الموصول بالكلام ليس مثلَ الفريقين بل مثلٌ للحق والباطل ولا مساغ لجعل الفريقين مضروباً لهم أيضاً بأن يُجعل في حكم أن يقال: كذلك يضربُ الله الأمثالَ للناس إذ لا وجه حينئذ لتنويعهم إلى المستجيبين وغيرِ المستجيبين فتأمل. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

وبعد ما بين تعالى شأنه شأن كل من الحق والباطل حالاً ومآلاً أكمل بيان شرع في بيان حال أهل كل منهما مآلا تكميلا للدعوة ترغيباً وترهيباً فقال سبحانه :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ﴾

إذ دعاهم إلى الحق بفنون الدعوة التي من جملتها ضرب الأمثال فإن له لما فيه من تصوير المعقول بصورة المحسوس تأثيراً بليغاً في تسخير والنفوس ، والجار والمجرور خبر مقدم ، وقوله سبحانه : ﴿ الحسنى ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة كما قال قتادة .

وغيره ، وعن مجاهد الحياة الحسنى أي الطيبة التي لا يشوبها كدر أصلا .

وعن ابن عباس أن المراد جزاء الكلمة الحسنى وهي لا إله إلا الله وفيه من البعد ما لا يخفى مبتدأ مؤخر ﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ ﴾ سبحانه وعاندوا الحق الجلي ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى الأرض ﴾ من أصناف الأموال ﴿ جَمِيعاً ﴾ بحيث لم يشذ منه شاذ في أقطارها أو مجموعاً غير متفرق بحسب الأزمان ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ ﴾ أي بالمذكور مما في الأرض ومثله معه جميعاً ليتخلصوا عما بهم ، وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان ،

والموصول مبتدأ والجملة الشرطية خبره وهي على ما قيل واقعة موقع السوأي المقابلة للحسنى الواقعة في القرينة الأولى فكأنه قيل : وللذين لم يستجيبوا له السوأى .

وتعقب بأن الشرطية وان دلت على سوء حالهم لكنها بمعزل عن القيام مقام لفظ السوأى مصحوباً باللام الجارة الداخلة على الموصول أو ضميره وعليه يدور حصول المرام ؛ فالذي ينبغي أن يعول عليه أن الواقع في تلك المقابلة سوء الحساب في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الحساب ﴾ وحيث كان اسم الإشارة الواقع مبتدأ في هذه الجملة عبارة عن الموصول الواقع مبتدأ في الجملة السابقة كان خبره أعني الجملة الظرفية خبراً عن الموصول في الحقيقة ومبيناً لإبهام مضمون الشرطية الواقعة خبراً عنه أولا ولذلك ترك العطف فكأنه قيل : والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب وذلك في قوة أن يقال : وللذين لم يستجيبوا له سوء الحساب مع زيادة تأكيد فتم حسن المقابلة على أبلغ وجه وآكده .

واعتذر بأنه يمكن أن يكون المراد أن ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ إلى آخر الآية واقع موقع ذلك على معنى أن رعاية حسن المقابلة لقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبّهِمُ الحسنى ﴾ تقتضي أن يقال : وللذين لم يستجيبوا له السوأى ولا يزاد على ذلك لكنه جيىء

بقوله سبحانه : ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ﴾ الخ بدل ما ذكر ، ولعل في كلام الطيبي ما يستأنس به لذلك .

وإلى اعتبار السوأى في المقابلة ذهب أيضاً صاحب الكشف قال : إن قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ﴾ في مقابلة الحسنى يدل السوأى مع زيادة تصوير وتحسير ، وأوثر الأجمال في الأول دلالة على أن جزاء المستجيبين لا يدخل تحت الوصف فتدبر ، والمراد بسوء الحساب أي الحساب السيء على ما روي عن إبراهيم النخعي .

والحسن أن يحاسبوا بذنوبهم كلها لا يغفر لهم منها شيء وهو المعنى بالمناقشة .

وعن ابن عباس هو أن يحاسبوا فلا تقبل حسناتهم ولا تغفر سيآتهم ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ أي مرجعهم ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ بيان لمؤدي ما تقدم وفيه نوع تأييد لتفسير الحسنى بالجنة ﴿ وَبِئْسَ المهاد ﴾ أي المستقر ، والمخصوص بالذم محذوف أي مهادهم أو جهنم .

(144/410)

وقال الزمخشري : اللام في قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتجابوا ﴾ متعلقة ﴿ يَضْرِبُ الله الامثال ﴾ [الرعد : 17] وقوله سبحانه : ﴿ الحسنى ﴾ صفة للمصدر أي استجابوا الاستجابة الحسنى ، وقوله عز وجل : ﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ ﴾ معطوف على الموصول الأول ، وقوله جل وعلا : ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ﴾ الخ كلام مستأنف مسوق لبيان ما أعد لغير

المستجيبين من العذاب ، والمعنى كذلك يضرب الله تعالى الأمثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين أي هما مثلا الفريقين انتهى ، قال أبو حيان : والتفسير الأول أولى لأن فيه ضرب الأمثال غير مقيد بمثل هذين ، والله تعالى قد ضرب أمثالاً كثيرة في هذين وفي غيرهما ولأن فيه ذكر ثواب المستجيبين بخلاف هذا ولأن تقدير الاستجابة الحسنى مشعر بتقييد الاستجابة ومقابلها ليس نفي الاستجابة مطلقاً وإنما هو نفي الاستجابة الحسنى والله تعالى قد نفى الاستجابة مطلقاً ولأنه حينئذ يكون ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ﴾ الخ كلاماً مفلتاً أو كالمفلت إذ يصير المعنى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين والكافرين لو أن لهم الخ ، ولو كان هناك حرف يربط ﴿ لَوْ ﴾ بما قبلها زال التفلت ، وأيضاً أنه يوهم الإشراك في الضمير وإن كان تخصيص ذلك بالكافرين معلوماً : وتعقب بأنه لا كلام في أولوية التفسير الأول لكن كون ما ذكر وجهاً لها محل كلام إذ لا مقتضى في التفسير الثاني لتقييد الأمثال عموماً بمثل هذين ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ ثم إن فيه تفهيم ثواب المستجيبين أيضاً ألا يرى إلى القصر المستفاد من تقديم الظرف ، وأيضاً قوله تعالى : ﴿ الحسنى ﴾ صفة كاشفة لا مفهوم لها فإن الاستجابة لله تعالى لا تكون إلا حسنى وكيف يكون قوله سبحانه : ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ﴾ الخ مفلتاً وقد قالوا : إنه كلام مبتدأ لبيان حال المستجيبين يعنون انه استئناف بياني جواب للسؤال عن مآل حالهم ثم كيف يتوهم الإشتراك مع كون تخصيصه بالكافرين معلوماً

انتهى .

قال بعض المحققين : إن ما ذكر متوجه بحسب بادىء الرأي والنظرة الأولى أما إذا نظر بعين الانصاف بعد تسليم أن ذاك أولى وأقوى علم أن ما قاله أبو حيان وارد فإن قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ يقتضي أن هذا شأنه وعادته عز شأنه في ضرب الأمثال فيقتضي أن ما جرت به العادة القرآنية مقيد بهؤلاء وليس كذلك ، وما ذكره المتعقب ولو سلم فهو خلاف الظاهر .

وأما قوله : إن المستجيبين معلوم مما ذكره ففرق بين العلم ضمناً والعلم صراحة ، وأما أن الصفة مؤكدة أو لا مفهوم لها فخلاف الأصل أيضاً ، وكون الجملة غير مرتبطة بما قبلها ظاهر ، والسؤال عن حال أحد الفريقين مع ذكرهما ملبس ، وعود الضمير على ما قبله مطلقاً هو المتبارد وما ذكر لا يدفع الإيهام .

وفي إرشاد العقل السليم بعد نقل التفسير الأخير وحمل الأمثال فيه على الأمثال السابقة : وأنت خبير بأن عنوان الاستجابة وعدمها لا مناسبة بينه وبين ما يدور عليه أمر التمثيل وأن الاستعمال المستفيض دخول اللام على من يقصد تذكيره بالمثل .

نعم قد يستعمل في هذا المعنى أيضاً كما في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ امرأة فِرْعَوْنَ إِذْ ﴾ [التحريم : 11] ونظائره ، على أن بعض الأمثال المضروبة لا سيما المثل الأخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين بل مثل للحق والباطل ولا مساغ لجعل الفريقين

مضروباً لهم أيضاً بأن يجعل في حكم أن يقال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس إذ لا وجه حينئذ لتنويعهم إلى المستجيبين وغير المستجيبين ؛ ويؤيد هذا ما في الكشف حيث قال : إن جعل ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا ﴾ من تتمة الأمثال لا من صلة يضرب متكلف لأنهما مثلا الحق والباطل بالاصالة ومن صلة ﴿ يَضْرِبُ ﴾ [الرعد : 17] أبعد لأن الأمثال إنما ضربت لمن يعقل .

ثم إن كون المراد بالأمثال الأمثال السابقة مبني على أن ما تقدم كان أمثالاً والمشهور أنه مثلان ، نعم أخرج ابن جرير .

وغيره عن قتادة أنه قال في الآية : هذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد ، وبعد هذا كله لا شك في سلامة التفسير الأول من القيل والقال وانه الذي يستدعيه النظم الجليل لأن تمام حسن الفاصلة أن تكون كاسمها ولهذا انحط قول امرىء القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى . . .

بصبح وما إلا صباح منك بأمثل

عن قول المتنبي :

إذا كان مدحاً فالنسيب المقدم . . .

أكل فصيح قال شعراً متيم

وهو الذي فهمه السلف من الآية ، ومن هنا كان أكثر الشيوخ يقفون على الأمثال ويتبدءون بقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا ﴾ وقال صاحب المرشد : إنه وقف تام والوقف على ﴿ الحسنى ﴾ حسن وكذا على ﴿ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ ﴾ والعجب من الزمخشري كيف اختار خلاف ذلك مع وضوحه والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(147/410)

وقال ابن عاشور :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى ﴾

استئناف بياني لجملة ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ ، أي فائدة هذه الأمثال أن للذين استجابوا لربهم حين يضربها لهم الحسنى إلى آخره .

فمناسبته لما تقدم من التمثيلين أنهما عائدان إلى أحوال المسلمين والمشركين .

ففي ذكر هذه الجملة زيادة تنبيه للتمثيل وللغرض منه مع ما في ذلك من جزاء الفريقين لأن

المؤمنين استجابوا لله بما عقلوا الأمثال فجوزوا بالحسنى، وأما المشركون فأعرضوا ولم يعقلوا الأمثال، قال تعالى: ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [سورة العنكبوت: 43]، فكان جزاؤهم عذاباً عظيماً وهو سوء الحساب الذي عاقبته المصير إلى جهنم.

فمعنى استجابوا لربهم ﴾ استجابوا لدعوته بما تضمنه المثل السابق وغيره.

وقوله: ﴿ الحسنى ﴾ مبتدأ و ﴿ للذين استجابوا ﴾ خبره.

وفي العدول إلى الموصولين وصلتيهما في قوله: ﴿ للذين استجابوا ﴾ ﴿ والذين لم يستجيبوا ﴾ إيماء إلى أن الصلتين سببان لما حصل للفريقين.

وتقديم المسند في قوله: ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾ لأنه الأهم لأن الغرض التنويه بشأن الذين استجابوا مع جعل الحسنى في مرتبة المسند إليه، وفي ذلك تنويه بها أيضاً.

وأما الخبر عن وعيد الذين لم يستجيبوا فقد أجري على أصل نظم الكلام في التقديم والتأخير لقلة الاكتراث بهم.

وتقدم نظير قوله: ﴿ لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ﴾ في سورة العقود (36).

وأتي باسم الإشارة في أولئك لهم سوء الحساب ﴾ للتنبيه على أنهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة من الخبر بسبب ما قبل اسم الإشارة من الصلة.

و ﴿ سوء الحساب ﴾ ما يحف بالحساب من إغلاظ وإهانة للمحاسب.

وأما أصل الحساب فهو حسن لأنه عدل. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(148/410)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى ﴾

والذين يستجيبون للرب الذي خلق من عَدَم، وأوجد لهم مُقومِّات الحياة واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر؛ فإذا دعاهم لشيء فليعلموا أن ما يطلبه منهم مُتمِّم لصالحهم؛ الذي بدأه بإيجاد كل شيء لهم من البداية.

وهؤلاء الذين يستجيبون لهم الحُسْنى؛ فسبحانه جعل الدنيا مزرعة للآخرة، وأنت في الدنيا مَوْكُول لقدرتك على الأَخْذ بالأسباب؛ ولكنك في الآخرة مَوْكُول إلى المُسبِّب.

ففي الدنيا أنت تبذُر وتحرُث وتروي وتحصد، وقد تختلف حياتك شَظَفاً وتَرَفاً بقدرتك على الأسباب.

فإذا استجبْتَ لله واتبعتَ منهجه؛ فأنت تنتقل إلى حياة أخرى؛ تحيا فيها مع المسبب؛ لا الأسباب؛ فإذا خطر ببالك الشيء تَجِدْهُ أمامك؛ لأنك في الحياة الأخرى لا يكِلك الله إلى

الأسباب ، بل أنت مَوْكُول لذات الله ، والموكول إلى الذَّاتِ بَاقٍ ببقاء الذات .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ بالله واعتصموا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ . . . ﴾ [النساء : 175]

وبعض المُفسِّرين يقولون " إنها الجنة " وأقول : هذا تفسير مقبول ؛ لأن الجنة من رحمة الله ؛ ولكن الجنة باقية بإبقاء الله لها ؛ ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمُ الحسنى . . . ﴾ [الرعد : 18]

ويقول تعالى في آية أخرى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ . . . ﴾ [يونس : 26]

والحسنى هي الأمر الأحسن ؛ وسبحانه خلق لك في الدنيا الأسباب التي تكدح فيها ؛ ولكنك في الآخرة تحيا بكل ما تتمنى دون كدح ، وهذا هو الحسن .

وهَبْ أن الدنيا ارتقتْ ؛ والذين يسافرون إلى الدول المُتقدمة ؛ وينزلون في الفنادق الفاخرة ؛ يُقال لهم اضغط على هذا الزر تنزل لك القهوة ؛ والزِّر الآخر ينزل لك الشاي .

وكل شيء يمكن أن تحصل عليه فَوْر أن تطلبه من المطعم حيث يُعدُّه لك آخرون ؛ ولكن مهما ارتقتْ الدنيا فلن تصل إلى أنْ يأتي لك ما يمرُّ على خاطرك فَوْر أنْ تتمناه ؛ وهذا لن

يحدث إلا في الآخرة .

وكلمة " الحسنى " مُؤَنَّثة وأفعل تفضيل ؛ ويُقَال " حسنة وحُسْنى " ؛ وفي المذكر يُقَال " حسن وأحسن " . والمقابل لمن لم يستجيبوا معروف .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ . . . ﴾ [الرعد : 18]

أي : يقول خذوا ما أملك كله واعتقوني ، لكن لا يُستجاب له .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ . . . أولئك لَهُمْ سوء الحساب وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد ﴾ [الرعد : 18]

لأن الحساب يترتب عليه مرة خَيْر ؛ ويترتب عليه مرة أخرى شَرٌّ ؛ وجاء الحق سبحانه بكلمة : ﴿ وَبِئْسَ المهاد ﴾ [الرعد : 18]

هنا ؛ لأن الواحد من هؤلاء والعياذ بالله لن يستطيع أن يتصرف لحظة وَضْعه في النار ، كما لا يستطيع الطفل الوليد أن يتصرف في مِهَاده ؛ ومن المؤكد أن النار بِئْس المهاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18) ﴾

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾ قال : هي الجنة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن فرقد السبخي - رضي الله عنه - قال : قال لي شهر بن حوشب - رضي الله عنه - ﴿ سوء الحساب ﴾ أن لا يتجاوز له عن شيء .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وأبو الشيخ ، عن فرقد السبخي - رضي الله عنه - قال : قال لي إبراهيم النخعي - رضي الله عنه - : يا فرقد ، أتدري ما سوء الحساب ؟ قلت : لا . قال : هو أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر له منه شيء .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ ، عن الحسن - رضي الله عنه - قال : ﴿ سوء الحساب ﴾ أن يؤخذ العبد بذنوبه كلها ولا يغفر له منها ذنب .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن أبي الجوزاء -

رضي الله عنه – في الآية قال ﴿ سوء الحساب ﴾ المناقشة في الأعمال . انتهى ا . هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(151/410)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه متعلِّقٌ ب "يَضْرِب" وبه بدأ الزمخشريُّ . قال : "أي : كذلك يضرب الأمثالَ للمؤمنين الذين استجابوا ، وللكافرين الذين لم يَسْتَجيبوا " . والحُسْنى صفةٌ لمصدرِ "استجابوا" ، اي : استجابوا الاستجابةَ الحُسْنى . وقوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأرض ﴾ كلامٌ مبتدأٌ في ذِكْر ما أعَدَّ لغيرِ المستجيبين " . قال الشيخ : "والتفسيرُ الأول أَوْلى" يعني به أنَّ "للذين" خبرٌ مقدَّم ، و"الحُسْنى" مبتدأ مؤخر كما سيأتي إيضاحُه .

قال : "لأن فيه ضَرْبَ الأمثال غيرُ مقيَّدٍ بمثل هذين ، والله تعالى قد ضَرَبَ أمثالاً كثيرةً في هذين وفي غيرِهما ، ولأنَّ فيه ذِكْرَ ثواب المستجيبين ، بخلاف قولِ الزمخشريِّ ، فكما ذَكَر

ما لغيرِ المستجيبين من العقاب ذَكَرَ ما للمستجيبين من الثَّواب ، ولأنَّ تقديرَه بالاستجابة الحُسْنَى مُشْعِرٌ بتقييدِ الاستجابة ، ومقابلُها ليس نفيَ الاستجابةِ مطلقاً ، إنما مقابلُها نفيُ الاستجابةِ الحسنى ، واللهُ تعالى قد نفى الاستجابةِ مطلقاً ، ولأَّنه على قولِه يكون قولُه ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأَرض ﴾ مُفْلَتاً أو كالمُفْلَتِ ؛ إذ يصير المعنى : كذلك يَضْرِبُ اللهُ الأَمثالَ للمؤمنين وللكافرين لو أنَّ لهم ما في الأرض ، فلو كان التركيبُ بحرفٍ رابطٍ " لو " بما قبلَها زال التفلُّت ، وأيضاً فيُوهِمُ الاشتراكَ في الضمير ، وإن كان تخصيصُ ذلك بالكافرين معلوماً " .

(152/410)

قلت : قوله " لأنَّ فيه ضربَ الأمثال غيرُ مقيَّدٍ " ليس في قول الزمخشري ما يقتضي التقييدَ . وقوله : " ولأنَّ فيه ذِكْرُ ثوابِ المستجيبين " إلى آخره ، ما ذكره الزمخشري ايضاً يُؤْخذ مِنْ فحواه ثوابُهم . وقوله " واللهُ تعالى نفى الاستجابة مطلقاً " ممنوعٌ ؛ بل نفى تلك الاستجابةَ الأولى ، لا يُقال : فتَثْبَتُ استجابةٌ غيرُ حسنى ؛ لأنَّ هذه الصفةَ لا مفهومَ لها ؛ إذ الواقعُ أنَّ الاستجابةَ لله لا تكون إلا حُسْنى . وقوله : " يصيرُ مُفْلَتاً " كيف يكون مُفْلَتاً مع قول الزمخشري : [كلامٌ] مبتدأٌ في ذِكْر ما أعدَّ لهم ؟ وقوله : " وأيضاً فيوهِمُ الاشتراك " كيف يُتَوَهَّمُ هذا بوجه من الوجوه ؟ وكيف يقول ذلك مع قوله " وإنْ كان تخصيصُ ذلك بالكافرين

معلوماً " فإذا عُلِم كيف يُتوهَّم ؟

والوجه الثاني : أن يكونَ " للذين " خبراً مقدَّماً ، والمبتدأ " الحُسْنَى " ، و ﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ ﴾ مبتدأٌ ، وخبرُه الجملةُ الامتناعيةُ بعده . ويجوز على الوجه الأول أن يكون ﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ ﴾ مبتدأً ، وخبره الجملةُ الامتناعية بعده ، وإنما خصَّ بضرب الأمثال الذين استجابوا ، لانتفاعِهم دونَ غيرِهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 41.43 ﴾

(153/410)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18) ﴾

﴿ الحُسْنَى ﴾ : الوعد بقبول استجابتهم ، وذلك مِنْ أَجَلِّ الأشياءِ عندهم ؛ فلا شيء أعزُّ على المحبِّ مِنْ قبول محبوبه منه شيئاً .

أما الذين لم يستجيبوا له فلو أنّ لهم جميع ما في الأرض وأنفقوه عَمْداً لا يُقْبَل منهم ، ولهم سوءُ

الحساب ، وهو المناقشة في الحساب ، ثم مأواهم جهنم ودوام العذاب . انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 225 ﴾

(154/410)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ المر ﴾ قال ابن عباس : أنا الله أعلم وأرى ، ويقال : معناه أنا الله أرى ما تحت العرش إلى الثرى ، وما بينهما .

ويقال : أنا الله أعلم ، وأرى ما لا يعلم الخلق ، وما لا يرى .

ويقال : أنا الله أعلم ، وأرى ما يعملون ، ويقولون .

ويقال : هذا قسم أقسم الله به ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ قال قتادة : يعني : التي قبل القرآن .

يعني : التوراة والإنجيل ﴿ وَالَّذِي ﴾ يعني : القرآن ﴿ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ يعني : الكتب التي قبل القرآن ، والقرآن الذي أُنزل إليك ، كله من الله تعالى ، وهو الحق ، والإيمان به واجب .

وقال ابن عباس : ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ ، يعني : تلك آيات القرآن .

ومعناه : هذه آيات الكتاب .

والذي أُنزل من ربك هو الحق يعني : القرآن .

ويقال : ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ يعني : الأحكام ، والحجج ، والدلائل ﴿ والذي أنزل إليك ﴾ يعني : جبريل ، ليقرأ عليك من ربك الحق .

يعني : اتبعوه ، واعملوا به .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : لا يصدقون أنه من الله تعالى فلما ذكر أنهم لا يؤمنون بيّن في الدلائل التي توجب التصديق بالخالق .

ثم قال تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ يعني : ليس لها عمد ترونها .

وهذا قول الحسن وقتادة ، رفعها الله تعالى بغير عمد وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، معناه : لها عمد ، ولكن لا ترونها .

يعني : أنتم ترونها بغير عمد في المشاهدة ، ولكن لها عمد .

وكلا التفسيرين معناهما واحد .

لأن من قال : إن لها عمداً ، ولكن لا ترونها ، يقول : العمد هو قدرة الله تعالى التي تمسك السموات والأرض .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قال ابن عباس : كان فوق العرش حين خلق السموات والأرض ، وقد ذكرناه من قبل ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ يعني : ضوء الشمس بالنهار ، وضوء القمر بالليل ، ذلك لبني آدم ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يقول : يسير إلى وقت معلوم لا يجاوزه ، وللشمس والقمر منازل ، كل واحد منهما يغرب في كل ليلة في منزل ويطلع في منزل ، حتى ينتهي إلى أقصى منازله ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ يعني : يقضي القضاء ، ويبعث الملائكة بالوحي ، والتنزيل ﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ يقول : يبيّن العلامات في القرآن ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ يعني : تصدقون بالبعث .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ ﴾ يعني : بسط الأرض من تحت الكعبة على الماء . وكانت تكفي بأهلها ، كما تكفي السفينة ، فأرساها الله بالجبال ، وهو قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ يعني : الجبال الثوابت من فوقها ﴿ وَأَنْهَاراً ﴾ يعني : خلق في الأرض أنهاراً ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ يعني : خلق فيها من ألوان الثمرات ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ يعني : خلق من كل شيء لونين من الثمار ، حلواً وحامضاً .

ومن الحيوان ذكراً وأنثى .

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ يعني : يعلو الليل على النهار ، ويعلو النهار على الليل ، واقتصر بذكر أحدهما ، إذا كان في الكلام دليل عليه .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، في رواية أبي بكر : ﴿ يُغَشّي ﴾ بنصب الغين ، وتشديد الشين .

وقرأ الباقون : بالجزم والتخفيف .

ثم بيّن أن ما ذكر من هذه الأشياء ، فيه برهان وعلامات لمن تفكر فيها فقال : ﴿ إنّ فِي ذَلِكَ ﴾ يعني : فيما ذكر من صنعه ﴿ لآيَاتٍ ﴾ يعني : لعبرات ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في اختلاف الليل والنهار ، فيوحّدونه .

ثم بيّن أن في الأرض علامات كثيرة ، ودلائل كثيرة لوحدانيته ، لمن له عقل سليم فقال تعالى :

﴿ وَفِى الأرض قِطَعٌ متجاورات ﴾ يعني : بالقطع الأرض السبخة ، والأرض العذبة .

﴿ متجاورات ﴾ يعني : ملتزقات ، متدانيات ، قريبة بعضها من بعض ، فتكون أرض سبخة ، وتكون إلى جنبها أرض طيبة جيدة .

وقال قتادة : ﴿ قِطَعٌ متجاورات ﴾ أي : قرى متجاورات .

ويقال: العمران، والخراب، والقرى والمغاور.

﴿ وجنات مّنْ أعناب ﴾ يعني: الكروم ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صنوان وَغَيْرُ صنوان ﴾ قرأ بعضهم: بضم الصاد.

وقراءة العامة: بالكسر.

وهما لغتان ومعناهما واحد.

قال مجاهد وقتادة: الصنوان النخلة التي في أصلها نخلتان، وثلاث أصلهن واحدة.

وقال الضحاك: يعني: النخل المتفرق والمجتمع ويقال ﴿ صنوان ﴾ النخلة التي بجنبها نخلات وغير صنوان يعني: المنفردة.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لاَ تُؤْذُونِي فِي العَبَّاسِ، فإِنَّهُ بَقِيَةُ آبَائي، وإِنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ".

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم في رواية حفص: ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صنوان ﴾ كلها بالضم على معنى الابتداء.

وقرأ الباقون: كلها بالكسر على معنى النعت للجنات.

ويقال: على وجه المجاورة.

لأن الزرع لا يكون في الجنات.

ثم قال: ﴿ يسقى بِمَاء واحد وَنُفَضّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِى الاكل ﴾ يعني: الماء،

والتراب واحد .

وتكون الثمار مختلفة في ألوانها ، وطعومها ، لأنه لو كان ظهور الثمار بالماء والتراب ، لوجب في القياس ، أن لا تختلف الألوان والطعوم ، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا ثبت في مغرس واحد ، وسقي بماء واحد ، ولكنه صنع اللطيف الخبير .

وقال مجاهد : هذا مثل لبني آدم ، أصلهم من أب واحد ، ومنهم صالح ، ومنهم خبيث .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ يعني : فيما ذكر ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أنه من الله تعالى .

(157/410)

قرأ حمزة والكسائي : ﴿ يسقى ﴾ وَ ﴿ يُفَضِّلُ ﴾ بالياء وقرأ عاصم وابن عامر في إحدى الروايتين : ﴿ صنوان يسقى ﴾ بالياء بلفظ التذكير ، ﴿ وَنُفَضِّلُ ﴾ بالنون . وقرأ الباقون : تُسْقَى بالتاء ﴿ وَنُفَضِّلُ ﴾ بالنون .

ثم قال تعالى :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ قال الكلبي : يعني : إن تعجب من تكذيب أهل مكة لك ، وكفرهم بالله ، ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ يقول : أعجب من ذلك قولهم .

﴿ أءذا كُنَّا تُرَابًا ﴾ وقال مقاتل : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾ مما أوحينا إليك من القرآن ، تعجب .

قولهم : ﴿ أَءذا كُنَّا تُرَابًا ﴾ ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ إكذاباً منهم بالبعث .

قرأ الكسائي : ﴿ أَءذا ﴾ بهمزتين على وجه الاستفهام ، ﴿ أَنَّا لَفِى خَلْقٍ ﴾ بهمزة واحدة .

وقرأ عاصم وحمزة كليهما : بهمزتين .

وقرأ أبو عمرو : ﴿ آيِذَا ﴾ بهمزة واحدة مع المد ، وكذلك في قوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ آيُنَا ﴾ بالمد .

وقرأ ابن كثير : ﴿ أَيِذَا ﴾ بالياء ، وكذلك ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا ﴾ ، وقرأ ابن عامر ﴿ أَن كُنَّا ﴾ بهمزة واحدة بغير استفهام ، ﴿ أَيُّنَا ﴾ بالهمزة والمد .

قال : لأنهم لم يشكوا في الموت ، وإنما شكوا في البعث ، فينبغي أن يكون الاستفهام في الثاني دون الأول .

ثم قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ يعني : جحدوا بوحدانية الله تعالى ﴿ وَأُوْلَئِكَ الاغلال فِى أعناقهم ﴾ يعني : تغل أيمانهم على أعناقهم بالحديد في النار ﴿ وَأُوْلَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ أي : دائمون فيها ، ولا يخرجون منها .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ قال ابن عباس : سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم العذاب ، استهزاءً منهم بذلك ، فنزل ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ يعني : بالعذاب قبل العافية ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ يعني : العقوبات ، والنقمات قبل قريش فيمن هلك ، وأصل المثلة : الشبه ، وما يعتبر به ، وجمعه المثلات ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ يقول : تجاوز ﴿ لّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ يعني : على شركهم إن تابوا .

ويقال : بتأخير العذاب عنهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ لمن مات منهم على شركه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبّهِ ﴾ يعني : هلاّ أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم علامة من ربه لنبوته .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ ﴾ يعني : مخوف ، ومبلغ لهذه الأمة الرسالة ﴿ وَلِكُلّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ قال الكلبي : داعٍ يدعوهم إلى الضلالة ، أو إلى الحق .

وقال الضحاك : يعني : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ ﴾ وأنا الهادي .

وقال سعيد بن جبير الهادي ، هو الله .

وقال عكرمة : محمد صلى الله عليه وسلم هو نذير ، وهو الهادي .

يعني : يدعوهم إلى الهدى .

﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ وقال مجاهد : يعني : لكل قوم نبي .

قرأ ابن كثير .

﴿ هَادِيَ ﴾ بالياء عند الوقف .

وكذلك قوله : ﴿ وكذلك أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرعد : 37] وقرأ الباقون : بغير ياء .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أنثى ﴾ ذكراً أو أُنثى ، ويعلم ما في الأرحام سوياً أو غير سوي .

ثم قال : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الارحام ﴾ يعني : ما تنقص الأرحام من تسعة أشهر في الحمل ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ يعني : على التسعة أشهر في ذلك الحمل ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ قال قتادة : رزقهم ، وأجلهم ، وقال ابن عباس .

من الزيادة ، والنقصان ، والمكث في البطن ، والخروج ، كل ذلك بمقدار قدره الله تعالى ، فلا يزيد على ذلك .

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الارحام ﴾ يعني : الحامل إن ترى الدم

نقص من الولد ، وإن لم تر الدم ، يزيد في الولد .

وروى أسباط عن السدي قال : إن المرأة إذا حملت ، واحتبس حيضها ، كان ذلك الدم رزقاً للولد .

فإذا حاضت على ولدها ، خرج وهو أصغر من الذي لم تحض عليه ﴿ وَمَا تَغِيضُ الارحام ﴾ وهي الحيضة التي على الولد ، ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ .

فحين يستمسك الدم ، فلا تحيض وهي حبلى .

قال الفقيه : هذا الذي قال السدي .

إن الحامل تحيض ، إنما هو على سبيل المجاز ، لأن دم الحامل لا يكون حيضاً .

ولكن معناه : إذا سال منها الدم فيكون ذلك استحاضة .

قال : حدثنا الخليل بن أحمد ، قال : حدثنا ابن خزيمة .

قال : حدثنا عليّ .

قال : حدثنا إسماعيل ، عن عبد الله بن دينار ، أنه سمع ابن عمر رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : " مِفْتَاحُ الغَيبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ الله ، لا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ أَحَدٌ إلاَّ الله ، ولا يَعلَمُ مَا فِي غَدٍ أحَدٌ إلاَّ الله ، ولا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطرُ أحَدٌ إلاَّ الله ، ولاَ تَدْرِي نَفْسٌ بأيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إلاَّ الله ، ولاَ يَعْلَمُ أَحَدٌ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إلاَّ الله " .

ثم قال تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ يعني : ما غاب عن العباد ، وما شاهدوه .

ويقال: عالم بما كان، وبما لم يكن.

ويقال: عالم السر والعلانية ﴿ الكبير المتعال ﴾ يعني: هو أكبر وأعلى من أن تكون له صاحبة وولد.

(160/410)

قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول ﴾ يعني: سواء عند الله من أسر القول ﴿ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ يعني: من أخفى العمل، وأعلن العمل ﴿ وَمَنْ جهر بِهِ ومَنْ ﴾ يعني: في ظلمة الليل ﴿ وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ أي: منصرف في حوائجه.

يقال: سَرَبَ يَسْرُبُ إذا انصرف، ومعناه المختفي، والظاهر عنده سواء.

وقال مجاهد: المستخفي؛ المختفي بالمعصية، والسارب يعني: الظاهر بالمعاصي ﴿ لَهُ معقبات ﴾ قال ابن عباس: له حافظات ﴿ مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ يعني: بأمر الله حتى ينتهوا به إلى المقادير.

فإذا جاءت المقادير، خلوا بينه وبين المقادير، المعقبات يعني: الملائكة يعقب بعضهم بعضاً في الليل والنهار، إذا مضى فريق خلفه بعده فريق.

وروي عن عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، ﴿ لَهُ معقبات ﴾ قال: الملائكة يتعاقبون

بالليل والنهار ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ يعني : بأمر الله .

ويقال : للمؤمن طاعات وصدقات ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ أي : من عذاب الله عند الموت ، وفي القبر ، وفي يوم القيامة .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ يعني : لا يبدل ما بقوم من النعمة التي أنعمها عليهم ﴿ حتى يُغَيِّرُواْ ﴾ يقول : يبدلوا ﴿ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ بترك الشكر .

قال مقاتل : يعني : كفار مكة نظيرها في الأنفال .

﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا على قَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : 53] ، إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ، وأطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف ، فلم يعرفوها ، فغيّر ما بهم ، فجعل ذلك لأهل المدينة .

قال أبو الليث رحمه الله : في الآية تنبيه لجميع الخلق ، ليعرفوا نعمة الله عليهم ، ويشكروه ، لكيلا تزول عنهم النعم .

(161/410)

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ﴾ يعني : إذا أراد بهم عذاباً أو هلاكاً فلا مردّ لقضائه ﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ يعني : ليس لهم من عذابه ولي ، ولا

قريب يمنعهم ، ولا ملجأ يلجؤون إليه .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ البرق خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ يعني : خوفاً للمسافر ، وطمعاً للمقيم الحاضر ، ويقال : خوفاً لمن يخاف ضرر المطر ، وطمعاً لمن يحتاج إلى المطر ، لأن المطر يكون لبعض الأشياء ضرراً ، ولبعضها رحمة .

ثم قال : ﴿ وَيُنْشِىءُ السحاب الثقال ﴾ يعني : يخلق السحاب الثقال من الماء .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبّحُ الرعد بِحَمْدِهِ ﴾ يعني : بأمره .

قال : عمر بن محمد .

قال : حدثنا أبو بكر الواسطي .

قال : حدثنا إبراهيم بن يوسف .

قال : حدثنا وكيع عن عمرو بن أبي زائدة أنه قال : سمعت عكرمة يقول : الرعد ملك يزجر السحاب بصوته كالحادي بالإبل .

وروى وكيع ، عن المسعودي ، عن سلمة بن كهيل ، أنه سئل عن الرعد فقال : هو ملك يزجر السحاب .

وسئل عن البرق : فقال هو في مخاريق بأيدي الملائكة .

وسئل وهب بن منبه عن الرعد فقال : ثلاث ما أظن أحداً يعلمهن إلا الله عز وجل : الرعد ، والبرق ، والغيث ، وما أدري من أين هن ، وما هن .

فقيل له : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً ﴾ قال : نعم .

ولا ندري أنزل من السماء أو من السحاب ، ولقحت فيه أو يخلق في السحاب فيمطر .

وسمى السحاب سماء .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الرعد فقال : " هُوَ مَلَكٌ فِي السَّمَاءِ ، وَاسْمُهُ الرَّعْدُ ، وَالصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ هُوَ زَجْرُ السَّحَابِ ، وَيُؤَلِّفُ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ فَيَسُوقُهُ " .

(162/410)

ثم قال : ﴿ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ يقول : يسبح الملائكة كلهم خائفين لله تعالى ﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق ﴾ وهي نار من السماء لا دخان لها ﴿ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ من خلقه ﴿ وَهُمْ يجادلون فِى الله وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ قال ابن عباس هو الله تعالى ، ﴿ شَدِيدُ المحال ﴾ يعني : شديد العقاب .

ويقال : أصله في اللغة الحيلة .

وقال قتادة : يعني : الحيلة ، والقوة .

ويقال : هو شديد القدرة ، والعذاب .

ويقال : ﴿ المحال ﴾ في اللغة هو الشدة .

ويقال بعضهم : هو كناية عن الذي يجادل ، ويكون معناه ﴿ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ ﴿ وَهُمْ يجادلون فِى الله ﴾ يعني : يصيبهم في حال جدالهم .

وقال مجاهد : جاء يهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أخبرني من أي شيء ربك أمن لؤلؤ هو ؟ فأرسل الله عليه صاعقة فقتلته ، فنزل ﴿ وَهُمْ يجادلون فِى الله وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ يعني : شديد العداوة .

وقال قتادة : دخل عامر بن الطفيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أسلم على أن لك المدر ، ولي الوبر .

يعني : لك ولاية القرى ، ولِيَ ولاية البوادي فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أَنْتَ مِنْ المُسْلِمِينَ لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْهِمْ " ؟ قال عامر : لك الوبر ، ولي المدر .

فأجابه بمثل ذلك .

قال عامر : ولي الأمر من بعدك .

فأجابه بمثل ذلك .

فغضب عامر وقال : لأملأنها عليك رجالاً ألفا رجل أشعر ، وألفا أمرد ، فخرج ولقي أربد بن قيس ، فقال له ادخل على محمد وآلهه ، وأنا أقتله فدخلا عليه ، فجعل عامر يسأله ويقول : أخبرنا يا محمد عن إلهك ، أمن ذهب هو أم من فضة ؟ فلما طال حديثه قاما

وخرجا ، فقال مالك لم تقتله ؟ قال : كلما أردت أن أقتله وجدتك بيني وبينه .

فجاء جبريل ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فدعا عليه ، فأصابته صاعقة فقتلته .

(163/410)

فنزل ﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يجادلون فِى الله وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾ يعني : كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ، يدعو الخلق إليها .

ويقال معناه : له على العباد دعوة الحق أن يدعوه فيجيبهم ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني : الأصنام والأوثان ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْء ﴾ يقول : لا ينفعهم بشيء ﴿ إِلاَّ كباسط كَفَّيْهِ ﴾ يعني : كمادٍ يديه ﴿ إِلَى الماء لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ والعرب تقول لمن طلب شيئاً لا يجده ، هو كقابض الماء .

يعني : كمن هو مشرف يدعو الماء بلسانه ، ويشير إليه ﴿ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ يعني : فلا يناله أبداً .

وقال مجاهد كالذي يشير بيده إلى الماء ، فيدعوه بلسانه ، فلا يجيبه أبداً .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشرك الذي عبد مع الله إلها آخر ، أنه لا يجيبه الصنم ، ولا ينفعه كمثل العطشان الذي ينظر إلى الماء من بعيد ، ولا يقدر عليه ﴿ وَمَا دُعَاء الكافرين ﴾ يقول : ما عبادة أهل مكة ﴿ إِلاَّ فِى ضلال ﴾ يضل عنهم ، إذا احتاجوا إليه في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السموات والأرض ﴾ من الخلق ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ قال قتادة : أما المؤمن فيسجد لله طائعاً ، وأما الكافر فيسجد .

كرهاً ويقال : أهل الإخلاص يسجدون لله طائعين ، وأهل النفاق يسجدون له كرهاً ، ويقال : من ولد في الإسلام يسجد طوعاً ، ومن سبي من دار الحرب يسجد كرهاً .

ويقال : ﴿ يَسْجُدُ لِلَّهِ ﴾ يعني : يخضع له من في السموات والأرض ، ولا يقدر أحد أن يغير نفسه عن خلقته ﴿ وظلالهم ﴾ يعني : تسجد ظلالهم ، وسجود الظل دورانه .

ويقال : ظل المؤمن يسجد معه ، وظل الكافر يسجد لله تعالى إذا سجد الكافر للصنم .

﴿ بالغدو والاصال ﴾ يعني : أول النهار ، وآخره ، وقال أهل اللغة : الأصيل ما بين العصر إلى المغرب ، وجمعه أُصُل والآصال جمع الجمع .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السموات والأرض ﴾ يعني : قل يا محمد لأهل مكة من خالق السموات والأرض ؟ فإن أجابوك وإلا ف ﴿ قُلِ الله ﴾ .

ثم قال : ﴿ قُلْ أفاتخذتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ يعني : أفعبدتم غيره ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لاَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الاعمى والبصير ﴾ أي : كما لا يستوي الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن .

ويقال : الأعمى الجاهل الذي لا يتفكر ، ولا يرغب في الحق ، والبصير العالم الذي يتفكر ، ويرغب في الحق .

﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظلمات والنور ﴾ أي : كما لا تستوي الظلمات والنور ، فكذلك لا يستوي الإيمان والكفر .

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ يَسْتَوِى ﴾ بلفظ التذكير بالياء .

وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث ، لأن تأنيثه ليس بحقيقي ، فيجوز أن يذكر ويؤنث ، ولأن الفعل مقدم على الاسم .

ثم قال : ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء ﴾ يعني : بل جعلوا لله شركاء من الأصنام .

ويقال : معناه أجعلوا لله شركاء ، والميم صلة .

ثم قال : ﴿ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : هل خلق الأوثان خلقاً كما خلق الله فاشتبه عليهم خلق الله تعالى من خلق غيره ، فلما ضرب الله مثلاً لآلهتهم سكتوا .

قال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ خالق كُلّ شَىْء ﴾ قل يا محمد الله عز وجل خالق جميع الموجودين ﴿ وَهُوَ الواحد القهار ﴾ يعني : الذي لا شريك له ، القاهر لخلقه ، القادر عليهم .

(165/410)

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للحق والباطل ، لأن العرب كانت عادتهم أنهم يوضحون الكلام بالمثل ، وقد أنزل الله تعالى القرآن بلغة العرب ، فأوضح لهم الحق من الباطل بالمثل فقال : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء مَآء ﴾ يعني : المطر ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ يعني : سال في الوادي الكبير بقدره ، وفي الوادي الصغير بقدره ، فشبه القرآن بالمطر ، وشبه القلوب بالأودية ، وشبه الهدى بالسيل ﴿ فاحتمل السيل زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ يعني : عالياً على الماء . فشبه الزبد بالباطل يعني : احتملته القلوب على قدر أهوائها باطلاً كبيراً .

فكما أن السيل يجمع كل قدر ، كذلك الأهواء تحتمل الباطل ، وكما أن الزبد لا وزن له ، فكذلك الباطل لا ثواب له .

فذلك قوله : ﴿ فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَاء ﴾ يعني : يذهب كما جاء .

ويقال : ﴿ جُفَاء ﴾ أي سريعاً .

وقال مقاتل : ﴿ جُفَاء ﴾ أي يابساً ، فلا ينتفع به ، ويقذفه السيل .

وقال القتبي : الجفاء ما رمى به الوادي في جنباته .

ويقال : جفأت القدر بزبدها إذا ألقيته عنها ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِى الأرض ﴾

يعني : يبقى الماء الصافي .

فكذلك الإيمان واليقين ينتفع به أهله في الآخرة ، كما ينتفع بالماء الصافي في الدنيا .

والباطل ، لا ينتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة .

ثم ضرب مثلاً آخر بالذهب والفضة ، فقال تعالى : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النار ﴾ من الذهب والفضة ﴿ ابتغاء حِلْيَةٍ ﴾ يعني : النحاس ﴿ حِلْيَةٍ ﴾ تلبسونها .

يخرج منها الخبث ، ويبقى الذهب والفضة خالصاً .

ثم ضرب مثلاً آخر فقال : ﴿ أَوْ متاع زَبَدٌ مّثْلُهُ ﴾ يعني : النحاس ، والحديد ، والصفر يزول عنها الخبث ، ويبقى الصفر والحديد خالصاً ، فيتخذ منها المتاع .

فهذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد ، كما يضمحل هذا الزبد ، ويبقى خالص الماء ، وخالص الذهب ، والفضة ، والحديد ، والصفر ، فكذلك يضمحل الباطل عن أهله .

وكما يمكث الماء في الأرض ، ويخرج نباتها ، وكما يبقى خالص الذهب والفضة حين يدخلان النار ، فكذلك يبقى الحق ، وثوابه لصاحبه .

وقال القتبي في قوله : ﴿ فاحتمل السيل زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ قال : هذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل .

يقول : الباطل وإن ظهر على في بعض الأحوال وعلا فلان فإن الله سيمحقه ، ويبطله ، ويجعل العاقبة للحق وأهله ، مثل مطر سال في الأودية بقدرها ﴿ فاحتمل السيل زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ أي : عالياً على الماء كما يعلو الباطل تارة على الحق .

ومن جواهر الأرض التي تدخل الكير ، توقدون عليها ، بمعنى الذهب والفضة للحلية .

﴿ أَوْ متاع ﴾ يعني : الشبه ، والحديد ، والآنك ، يكون للآنية له خبث يعلوها مثل زبد الماء .

فأما الزبد ، فيذهب جفاء يتعلق بأصول الشجر ، وكنبات الوادي ، وكذلك خبث الفلز يعني : الجوهر يقذفه ، فهذا مثل الباطل .

وأما ما ينفع الناس ، وينبت المرعى ، فيمكث في الأرض .

فكذلك الصفر من الفلز يبقى صالحاً فهو مثل الحق .

ثم قال : ﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل ﴾ على وجه التقديم والتأخير .

يعني : هكذا يضرب الله المثل للحق والباطل .

ويقال : معناه هكذا يبيّن الحق من الباطل ﴿ فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِى الأرض ﴾ على معنى التقديم والتأخير ، وقد ذكرناه من قبل ﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الامثال ﴾ يعني : يبيّن الله الأشباه ، ويوضح الطريق ، ويقيم الحجة .

ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبّهِمُ الحسنى ﴾ يعني : للذين أجابوا ربهم بالطاعات في الدنيا ، لهم الجنة في الآخرة .

(167/410)

ثم قال : ﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ ﴾ يعني : لم يجيبوه ، ولم يطيعوه في الدنيا ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ يوم القيامة ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ يعني : وضعفه معه ﴿ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ ﴾ يقول : لفادوا به أنفسهم من العذاب ، ولو فادوا به لا يقبل منهم ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوء الحساب ﴾ يعني : شديد العقاب .

ويقال : المناقشة في الحساب .

وروي عن إبراهيم النخعي أنه قال : أتدرون ما سوء الحساب ؟ قالوا لا .

قال هو الذنب يحاسب عليه العبد ثم لا يغفر له .

وعن الحسن أنه سئل عن سوء الحساب ، وقال : يؤخذ العبد بذنوبه كلها فلا يغفر له منها ذنب .

ثم قال : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي : مصيرهم ومرجعهم إلى جهنم ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ يعني : الفراش من النار ويقال بئس موضع القرار في النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 215 . 224 ﴾

(168/410)

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة :

﴿ المر ﴾ قال ابن عباس : معناه : أنا الله أعلم وأرى ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ يعني تلك الأخبار التي قصصناها عليك آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدّمة ﴿ والذي أُنْزِلَ ﴾ يعني وهذا القرآن الذي أُنزل ﴿ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ هو ﴿ الحق ﴾ فاعتصم به واعمل بما فيه ، فيكون محلّ الذي رفعاً على الابتداء و (الحقّ) خبره ، وهذا كلّه معنى قول مجاهد وقتادة ، ويجوز أن يكون محلّ (الذي) خفضاً يعني تلك آيات الكتاب وآياتُ الذي أنزل إليك ثم ابتداء الحقّ يعني ذلك الحقّ كقوله : (وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقّ) يعني ذلك الحقّ .

وقال ابن عباس : أراد بالكتاب القرآن فيكون معنى الآية على هذا القول : هذه آيات

الكتاب يعني القرآن ، ثمّ قال : وهذا القرآن الذي أُنزل إليك من ربّك هو الحقّ ، قال الفرّاء : وإنْ شئت جعلت (الذي) خفضاً على أنّه نعت الكتاب وإن كانت فيه الواو كما تقول في الكلام : أتانا هذا الحديث عن أبي حفص والفاروق وأنت تريد ابن الخطّاب ، قال الشاعر :

أنا الملك القرم وابن الهُمام . . . وليث الكتيبة في المزدحم

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال مقاتل : نزلت هذه الآية في مشركي مكّة حين قالوا : إنّ محمّداً يقول القرآن من تلقاء نفسه ، ثمّ بين دلائل ربوبيّته وشواهد قدرته فقال عزّ من قائل : ﴿ الله الذي رَفَعَ السماوات ﴾ وهذه الآية من جملة مائة وثمانين آية أجوبة لسؤال المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّ الربّ الذي تعبده ما فعله وصنيعه ؟ وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ يعني السواري والدعائم واحدها عمود وهو العمد والبناء ، يقال : عمود وعمد مثل أديم وأدم ، وعمدان ، وكذا مثل رسول ورسل ، ويجوز أن يكون العمد جمع عماد ، ومثل إهاب وأُهب ، قال النابغة :

وخيس الجنّ إنّي قد أذنتُ لهم . . . يبنُون تدمُر بالصّفاحِ والعَمَدَ

واختلفوا في معنى الآية فنفى قومٌ العمد أصلا ، وقال : رفع السماوات بغير عمد وهو الأقرب الأصوب ، وقال جويبر عن الضحّاك عن ابن عباس : يعني ليس من دونها دعامة تدعمها ، ولا فوقها علاقة تمسكها ، وروى حمّاد بن سملة عن إياس بن معاوية قال : السماء مُقبّبة على الأرض مثل القبر ، وقال آخرون : معناه : الله الذي رفع السماوات بعمد ولكن لا ترونها ، فأثبتوا العمد ونفوا الرؤية ، وقال الفرّاء من تأوّل ذلك فعلى مذهب تقديم العرب الجملة من آخر الكلمة الى أوّلها كقول الشاعر :

إذا أُعجبتك الدهر حال من أمرئٍ . . . فدعه وأوكل حاله والليااليا

تُهين على ما كان عن صالح به . . . فان كان فيما لا يرى الناس آليا

معناه : وإن كان فيما يرى الناس لا يألو . وقال الآخر :

ولا أراها تزال ظالمة . . . تحدث لي نكبة وتنكرها

معناه : آراها لا تزال ظالمة فقدّم الجحد .

﴿ ثُمَّ اسْتوى عَلَى العرش ﴾ علا عليه وقد مضى تفسيره ، ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ أي ذلّلها لمنافع خلقه ومصالح عباده ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي كلّ واحد منهما يجري الى وقت قُدِّرَ له ، وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التي عندها تكور الشمس ويُخسف القمر وتنكدر النجوم ، وقال ابن عباس : أراد بالأجل المُسمّى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهين إليها لا يجاوزانها .

﴿ يُدبِّرُ الأمر ﴾ قال مجاهد : يقضيه وحده ﴿ يُفصِّلُ الآيات ﴾ ينتهيان ، ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ لكي توقنوا بوعدكم وتصدّقوه ﴿ وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض ﴾ بسطها ، ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ، واحدتها راسية وهي الثابتة ، يقال : إنّما رسيت السفينة ، وأرسيت الوتد في الأرض إذا أثبتّها ، قال الشاعر :

حبّذا ألقاه سائرين وهامد . . . وأشعث أرست الوليدة بالفهر

(170/410)

قال ابن عباس : كان أبو قبيس أوّل جبل وضع على الأرض ، ﴿ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ﴾ صنفين وضربين ﴿ اثنين ﴾ : قال أبو عُبيدة يكون الزوج واحداً واثنين ، وهو هاهُنا واحد ، قال القتيبي : أراد من كلّ الثمرات لونين حلواً وحامضاً ﴿ يُغْشِي اليل النهار إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يستدلّون ويعتبرون ﴿ وَفِي الأرض قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ أبعاض متقاربات متدانيات يقرب بعضها من بعض بالجوار ويختلف بالتفاضل ، ومنها عذبة ومنها طيبة ومنها طيبة منبت ؛ لأنها بجنته ومنها سبخة لا تنبت .

﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ رفعها ابن كثير وأبو عمرو

عطفاً على الجنات ، وكسرها الآخرون عطفاً على الأعناب . والصنوان جمع صنو ، وهي النخلات يجمعهن أصل واحد فيكون الأصل واحد ، ويتشعب به الرؤس فيصير نخلا ، كذا قال المفسرون ، قالوا : صنوان مجتمع وغير صنوان متفرق .

قال أهل اللغة : نظيرها في كلام العرب ، صنوان واحد ، واحدها صنو والصنو المثل وفيه قيل : شمَّ الرجل صنوانه ولا فرق فيهما بين التثنية والجمع إلاّ بالإعراب ؛ وذلك أن النون في التثنية مكسورة غير منونة وفي الجمع منونة تجري جريان الإعراب .

خالفوا كلهم على خفض الصاد من صنوان إلاّ أبا عبد الرحمن السلمي فإنه ضم صاده .

﴿ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ ﴾ . قرأ عاصم وحميد وابن الحسن وابن عامر : بالياء على معنى يسقى ذلك كله بماء واحد .

وقرأ الباقون : بالتاء لقوله جنات .

واختاره أبو عبيد قال : وقال أبو عمرو : مما يصدق التأنيث قوله بعضه على بعض ولم يقل بعضه . ﴿ وَنُفَضِّلُ ﴾ . قرأ الأعمش وحمزة والكسائي : بالياء رداً على قوله يدبّر ويفضّل ويغني .

وقرأها الباقون : بالنون بمعنى ونحن نفضل بعضها على بعض في الأُكُل .

قال الفارسي : والدقل والحلو والحامض .

قال مجاهد : كمثل صالح بني آدم وخبيثهم أبوهم واحد .

عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال : سمعت " النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعلي كرم الله وجهه : الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَفِي الأرض قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ حتى بلغ ﴿ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ ﴾ "

قال الحسن : هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم ، كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة فبسطها وبطحها فصارت الأرض قطعاً متجاورة ، فينزل عليها الماء من السماء فيخرج هذه زهرتها وثمرها وشجرها ويخرج قاتها ويحيي موتاها ويخرج هذه سبخها وملحها وخبثها وكلتاهما تسقى بماء واحد .

فلو كان الماء مجاً قيل : إنما هذه من قبل الماء ، كذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب فتخنع وتخشع ، وتقسوا قلوب فتلهو وتقسو وتجفو .

وقال الحسن : والله ما جالس القرآن أحد إلاّ قام من عنده إلاّ في زيادة ونقصان .

قال الله عزّ وجلّ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَاراً ﴾ [الإسراء : 82] ﴿ إِنَّ فِي ذلك ﴾ الذي ذكرت ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾ يا محمد من تكذيب هؤلاء المشركين واتخاذهم ما لا يضر ولا ينفع آلهة

يعبدونها من دون الله ، وهم قراؤ تعبدون من الله وامره وما ضرب الله من الأمثال ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ فتعجب أيضاً من قيلهم ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً ﴾ بعد الموت ﴿ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ فيعاد خلقنا جديداً كما كنا قبل الوجود .

(172/410)

قال الله : ﴿ أولئك الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأغلال فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ وأولئك أَصْحَابُ النار ﴾ جهنم ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ بالسيئة ﴾ بالبلاء والعقوبة ﴿ قَبْلَ الحسنة ﴾ الرخاء والعافية ، وذلك أنّهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن جاءهم العذاب فاستهزأ منهم بذلك .

وقالوا : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء ﴾ [الأنفال : 32] الآية ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ وقد مضت من قبلهم في الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها ، العقوبات المنكلات واحدتها : مَثُلة بفتح الميم وضم الثاء مثل صدُقة وصدُقات .

وتميم : بضم الثاء والميم جميعاً ، وواحدتها على لغتهم مُثْلَة بضم الميم وجزم الثاء مثل غُرُفة وغُرْفات والفعل منه مثلت به أمثل مثلا بفتح الميم وسكون الثاء .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

أحمد بن منبه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : ولما نزلت هذه الآية ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتّكل كل أحد " .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴾ يعني على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ آيَةٌ ﴾ علامة وحجة على نبوته ، قال الله : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ مخوف ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ داع يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ إمام يأتمون به .

وقال الكلبي : داع يدعوهم إلى الضلالة أو إلى الحق .

أبو العالية : قائد ، أبو صالح قتادة مجاهد : نبي يدعوهم إلى الله .

سعيد بن جبير : يعني بالهادي الله عزّ وجلّ .

وهي رواية العوفي ، عن ابن عباس قال : المنذر محمد ، والهادي الله .

عكرمة وأبو الضحى : الهادي محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وروى السدي عن عبد الله بن علي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ قال :

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " المنذر أنا ، الهادي رجل من بني هاشم يعني نفسه " .

وروى عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال : " " أنا المنذر " وأومأ بيده إلى منكب علي (رضي الله عنه) فقال : " فأنت الهادي يا علي ، بك يهتدي المهتدون من بعدي " " .

ودليل هذا التأويل : ما روي عن سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن زيد عن ربيع عن حذيفة : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن وليتموها أبا بكر فزاهد في الدنيا راغب في الآخرة وفي جسمه ضعف ، وإن وليتموها عمر فقوي أمين لا تأخذه في الله لومة لائم ، وإن وليتموها علياً فهاد مهدي يقيلمكم على طريق مستقيم " .

رداً على منكري البعث القائلين أءذا كنا تراباً أءنا لفي خلق جديد فقال سبحانه : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرحام ﴾ يعني تنقص .

قال المفسرون : غيض الأرحام الحيض على الحمل ، فإذا حاضت الحامل كان نقصاناً في غذاء الولد وزيادة في مدة الحمل ، فإنها بكل يوم حاضت على حملها يوم تزداد في طهرها حتى يستكمل ستة أشهر ظاهراً . فإن رأت الدم خمسة أيام ومضت التسعة أشهر وخمسة أيام ، وهو قوله : ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ .

روى ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : ما تغيض الأرحام خروج الدم حتى تَحِضْ ، يعني

حين المولد ، وما تزداد استمساك الدم إذا لم تهرق المرأة تم الولد وعظم ، وفي هذه الآية دليل على أنّ الحامل تحيض وإليه ذهب الشافعي .

وقال الحسن : غيضها ما تنقص من التسعة الأشهر وزيادتها ما تزداد على التسعة الأشهر .

الربيع بن أنس : ما يغيض الأرحام يعني السقط وما تزداد يعني توءمين إلى أربعة .

(174/410)

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : ما تغيض الأرحام يعني به السقط .

وروى عبيد بن سليمان عن الضحاك قال : الغيض النقصان من الأجل ، والزيادة ما يزداد على الأجل ، وذلك أنّ النساء لا يلدْنَ لعدّة واحدة ولا لأجل معلوم وقَدْ يُولد الولد لستة أشهر فيعيش ويولد لسنتين ويعيش .

قال : وسمعت الضحاك يقول : ولدت لسنتين قد نبتت ثناياي ، وروى هيثم عن حصين قال : مكث الضحاك في بطن أُمه سنتين .

وروى ابن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحوظل المغزل ، وإلى هذا ذهب أبو حنيفة وجماعة من الفقهاء .

وقال الشافعي وجماعة من الفقهاء : أكثر الحمل أربع سنين ، يدل عليه ما أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين الحافظ ، أحمد بن إبراهيم بن الحسين بن محمد قال : سمعت أبا محمد عبد الله بن أحمد بن الفرج الأحمري سمعت عباس بن نصر البغدادي سمعت صفوان ابن عيسى يقول : مكث محمد بن عجلان في بطن أُمه ثلاث سنين فشق بطن أُمه وأُخرج وقد نبتت أسنانه .

وروى ابن عائشة عن حماد بن سلمة قال : إنما سمي هرم بن حيان هرماً ؛ لأنه بقي في بطن أُمه أربع سنين .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ بحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، والمقدار مفعال من القدر ﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة الكبير ﴾ الذي كل شيء دونه ﴿ المتعال ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته ﴿ سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بالليل ﴾ في ظلمته ﴿ وَسَارِبٌ ﴾ ظاهر ﴿ بالنهار ﴾ ضوءه لا يخفى عليه من ذلك .

وقال أبو عبيدة : سارب بالنهار أي سالك في سربه أي مذهب ووجهة ، يقال : سارب سَربه بفتح السين أي طريقه .

قال قيس بن الحطيم :

إني سربتُ وكنتُ غيرَ سروبِ . . . وتقربُ الأحلامِ غيرُ قريبِ

الشعبي : سارب بالنهار منصرف في حوائجه يقال : سرب يسرب . قال الشاعر :

أرى كلَّ قوم قاربوا قيدَ فحلهم . . . ونحن خلعنا قيدَهُ فهو ساربُ

(175/410)

أي ذاهب .

قال ابن عباس : في هذه الآية هو صاحب ريبة مستخف بالليل ، فإذا خرج بالنهار رأى الناس أنه بريء من الإثم .

وقال بعضهم : مستخف بالليل أي ظاهر ، من قولهم : خفيت الشيء إذا أظهرته ، وسارب بالنهار أي متوار داخل في سرب .

﴿ لَهُ ﴾ أي لله تعالى ﴿ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار ، وإذا صعدت ملائكة النهار أعقبتها ملائكة الليل ، والتعقيب العود بعد المبدأ ، قال الله ولم يعقب وإنما ذكرها هنا بلفظ جمع التأنيث ؛ لأنّ واحدها معقب وجمعه عقبة ، ثم جمع المعقبة معقبات فهي جمع الجمع . كما قيل أما قال قد حالات بكم وقوله : ﴿ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ يعني من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار ومن خلفه من وراء ظهره .

قال ابن عباس : ملائكة يحفظونه من أمر الله من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء القدر خلوا عنه .

حماد بن سلمة عن عبد الله بن جعفر عن كنانه العمري قالوا : " دخل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أسألك عن العبد كم معه من ملك ؟ قال : ملك على يمينك يكتب حسناتك ، وهو أمين على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشراً ، وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين : أأكتب ؟ قال : لا ، لعله يستغفر الله أو يتوب فإذا قال ثلاثاً قال : نعم اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين هو ما أقل مراقبته لله عزّ وجلّ وأقل استحياء منا يقول الله ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ وملك قابض على ناصيتك ، فإذا تواضعت لله رفعك وإذا تجبرت على الله قصمك ، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلاّ الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وآله ، وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحيّة في فيك ، وملكان على عينيك هؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي

يتداولون ملائكة الليل على ملائكة النهار ؛ لأن ملائكة الليل أي ليسوا من ملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمي وإبليس مع بني آدم بالنهار وولده بالليل " .

قتادة وابن جريج : هذه ملائكة الله عزّ وجلّ يتعاقبون فيكم بالليل والنهار ، وذكر لنا أنّهم يجتمعون عند صلاة العصر وصلاة الصبح .

همام بن منبه عن أبي هريرة عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ قالوا : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون " .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال : ذكر [أنّ] ملكاً من ملوك الدنيا له حرس من دونه حرس فإذا جاء أمر الله لم ينفعوا شيئاً .

عكرمة : هؤلاء ملائكة من بين أيديهم ومن خلفهم لحفظهم .

شعبة عن شرقي عن عكرمة قال : الجلاوزة .

الضحاك : هو السلطان المحترس من الله وهم أهل الشرك ، وقوله ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ

﴾ اختلفوا فيه فقال قوم : يعني : بأمر الله ، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض ، وهذا قول مجاهد وقتادة ورواية الوالبي عن ابن عباس ، وقال الآخرون : يحفظونه من أمر الله ما لم يجئ القدر .

لبيد عن مجاهد : ما من عبد إلاّ به ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس الهوام فما منهم شيء بأمره يريده إلاّ قال فذاك لا يأتي بإذن الله عزّ وجلّ فيه فيصيبه .

وقال كعب الأحبار : لولا وكل الله بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذا يخيطكم الجن .

وروى عمار بن أبي حفصة عن أبي مجلز قال : جاء رجل من مراد إلى علي (رضي الله عنه) وهو يصلي ، فقال : احترس فإنّ ناساً من مراد يريدون قتلك . فقال : إنّ مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه وإنّ الأجل جنة حصينة ، وقال أهل المعاني : إنّ أوامر الله عزّ وجلّ على وجهين أحدهما قضى حلوله ووقوعه بصاحبه ، فذلك ما لا يدفعه أحد ولا يغيره بشر ولا حتى الجن ولم يقض حلوله ووقوعه ، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظة كقصة يونس (عليه السلام) ، وقال ابن جريج : معناه كنصون من الله أمر الله يعني يحفظون عليه الحسنات والسيئات ، وقال بعض المفسرين أن هذه الآية أنّ الهاء في قوله : ﴿ لَهُ ﴾ راجعة إلى رسول الله (عليه السلام) .

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ يعني محمد (عليه السلام) من الرحمن حراس من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، يعني من شر الجن والإنس ومن شر طارق الليل والنهار ، وقال عبد الرحمن بن زيد : نزلت هذه الآية في عامر بن الطفيل وزيد بن ربيعة وكانت قصتهما على ما روى محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح " عن ابن عباس قال : أقبل علينا . زيد بن ربيعة هو وعامر بن الطفيل يريدان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور ، وكان من أجمل الناس .

وقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل وهو مشرك .

فقال : دعه فإن يرد الله به خيراً يهذه ، فأقبل حتى قام عليه ، فقال : يا محمد ما لي إن أسلمت ؟ قال : لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين ، قال : تجعل لي الأمر بعدك .

قال : ليس ذلك إليَّ إنما ذاك إلى الله يجعله حيث يشاء .

قال : فاجعلني على الوبر وأنت على المدر ، قال الرجل : فماذا يجعل لي ؟ قال : أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها .

قال : أوليس ذلك لي اليوم ؟ قال : لا . قال : قم معي أُكلمك ، فقام رسول الله صلى الله

عليه وسلم وكان يوصي إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فَدُرْ من ورائهِ بالسيف فجعل يخاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدار أربد بن ربيعة خلف النبي صلى الله عليه وسلم ليضربه فاخترط من سيفه شبراً ثم حبسه الله عنه فلم يقدر على قتله وعامر يومئ إليه فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما منع بسيفه.

فقال: اللهم أكفنيهما بما شئت، فأرسل الله على أربد صاعقة في يوم صاح صائف وولى عامر هارباً.

وقال: يا محمد دعوت ربك فقتل أربد والله لأملأنها عليك خيلا جرداً وفتياناً مرداً.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يمنعك الله من ذلك وأبناء قيلة"

يعني الأوس والخزرج، فنزل عامر ببيت امرأة سلولية فأنشأ يقول:

بخير أبيت اللعن إن شئت ودّنا . . . فإن شئت حرباً بأس ومصدق

وإن شئت فنسيا ما يكفي أمرهم . . . يكبون كبش العارفين متألق

فلما أصبح ضم إليه سلاحه وقد تغير لونه، وهو يقول:

واللات لئن أصحر محمد إلي وصاحبه عني ملك الموت لأُنفذنهما برمحي، فلما رأى الله

تعالى ذلك منه أرسل ملكاً فلطمه بجناحه فأذراه في التارب ، وخرجت على ركبته غدة في الوقت كغدة البعير فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول : غدة كغدة البعير وموت في السلولية ثم مات على ظهر فرسه .

لعمري وما عمري علي بهين . . . لقد شان حمر الوجه طعنة مسهر

قد علم المزنوق أني أكرّ . . . على جمعهم كرّ المنيح المشهر

وأزود من وقع السنان زجرته . . . وأخبرته أني امرؤ غير مقصر

وأخبرته أن الفرار خزاية . . . على المرء ما لم يبل عذراً فيعذر .

لقد علمت عليا هوازن أنني . . . أنا الفارس الحامي حقيقة جعفر

فجعل يركض في الصحراء ويقول : أبرز يا ملك الموت ، ثم أنشأ يقول :

لاقرب المزنوق ولتجد ما أرى لنفر . . . من يوم شره غير حامد .

إلا قرباه إن غاية حرمناه إذا . . . قرب المزنوق بين الصفايد هو من عامر قدن

إذا ما دعوتهم أجابوا . . . ولبى منهم كل ماجد

وكان بعضهم يعيّر بعضاً النزول على سلولية ولذلك ركب فرسه ليموت خارجاً من بيتها ما أحس بالموت ، ثم دعا بفرسه يركبه ثم أجراه حتى مات على ظهره .

فأجاب الله تعالى دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم وقتل عامراً بالطاعون وأربد بالصاعقة ، فرثى لبيد بن ربيعة أخاه أربد بجملة من المراثي فمنها هذه :

واناالك فاذهب والحق . . . بأسرتك الكرام الغيب

ذهب الذين يعاش في أكنافهم . . . وبقيت في خلف كجلد الأجرب ،

يتآكلون مغالة وملاذة . . . ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

فنعد في هذا وقل في غيره . . . واذكر شمائل من أخ لك معجب

إنّ الرزيئة لا رزيئة بعدها . . . مثلها فقدان كل أخ كضوء الكوكب

(180/410)

من معشر بنت لهم آباؤهم . . . والعز لا يأتي بغير تطلب

يا أربد الخير الكريم جدوده . . . أفردتني أمشي بقرن أعضب

ومنها قوله :

ما أن تعزي المنون من أحد . . . لا والد مشنق ولا ولد

أخشى على أربد الحتوف . . . أرهب نوأ السماك والأسد

فعين هلا بكيت أربد إذ . . . قمنا وقام النساء في كبد

فجعني البرق والصواعق . . . بالفارس يوم الكريهة النجد

فأنزل الله تعالى في هذه القصة ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقول ﴾ الآية ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾

يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ يحفظونه ﴿ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ يعني تلك المعقبات من أمر الله وهي مقدم ومؤخر لرسول الله صلى الله عليه وسلم معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه تلك المعقبات من أمر الله وقال الذين [آمنوا :] ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

وقرأ ﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَمَا دُعَآءُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من العافية والنعمة ﴿ حتى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ من الحال لا [. . . . .] فيعصون ربهم ويظلمون بعضهم بعضاً .

(181/410)

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سوءاً ﴾ عذاباً وهلاكاً ﴿ فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ علمها المخاوف بالله وقيل : وال ولي أمرهم ما يدفع العذاب عنهم ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً ﴾ يخاف أذاه ومشقته ﴿ وَطَمَعاً ﴾ للمقيم يرجو بركته وشفعته أن يمطر ﴿ وَيُنْشِىءُ ﴾ بينهم ﴿ السحاب الثقال ﴾ يعني قال إن شاء الله السحابة فيشاء أي أبدأها فبدلت وأسحاب جمع واحدتها سحابة ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ ﴾ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : " أقبلت اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا

أبا القاسم نسألك خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك قال: فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قالوا: ﴿ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص: 28].

قال صلى الله عليه وسلم: " هاتوا "، قالوا: أخبرنا عن الرعد ماهو؟ قال: " ملك من الملائكة الموكلة بالسحاب معه مخاريف من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله ".

قالوا: فما هذا الذي نسمع؟ قال: " زجر السحاب إذا زجر حتى ينتهي إلى حيث أمر ". قالوا: صدقت " قال عطية: الرعد ملك، وهذا تسبيحه، والبرق سوطه الذي يزجر به السحاب فقال: لذلك الملك رعد وقد ذكرنا معنى الرعد والبرق بما أغنى عن إعادته.

وقال أبو هريرة: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [إذا سمع صوت الرعد] قال سبحانه من يسبح الرعد بحمده ".

عكرمة عن ابن عباس: " إنه كان إذا سمع الرعد قال: سبحان الذي سبحت له ".

وقال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة في خيفته وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقه فعلى ذنبه.

وروى مالك بن أنس عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويقول: إن هذا الوعيد لأهل الأرض شديد.

وروى حجاج بن أرطأة عن أبي مطر عن سالم يحدث عن أبيه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك " .

﴿ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ يعني ويسبح الملائكة من خيفة الله وخشيته ، وقيل أراد هو أنّ الملائكة أعوان الرعد ، جعل لله تعالى له أعواناً فهم جميعاً خائفون ، خاضعون طائعون به يرسل الصواعق . عن الضحاك عن ابن عباس قال : الرعد ملك يسوق السحاب ، وإنّ بجور الماء لفي نقرة إبهامه وإنه موكل بالسحاب يصرفه حيث ويؤمر وإنه يسبح الله فإذا سبح الرعد لم يبق ملك في السماء إلا رفع صوته التسبيح فعندها ينزل المطر ﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ أصاب أربد بن ربيعة .

قال أبو جعفر الباقر : الصواعق تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب ذاكراً .

﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي الله ﴾ وقد أصابت أربد وعامر ، وقيل نزلت هذه الآية في بعض كفار العرب .

حديث إسحاق الحنظلي عن ريحان بن سعيد الشامي عن عماد بن منصور عن عباس بن الناجي قالت : سألت الحسن عن قوله : ﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ الآية .

فقال كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي صلى الله عليه وسلم نفراً يدعونه إلى الله ورسوله والإسلام ، فقال لهم : أخبروني عن رب محمد هذا الذي يدعوني إليه وما هو ، ومم هو أمن فضة أم حديد أم نحاس ، فاستعظم القوم مقالته وانصرفوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما رأينا رجلاً آخر أكفر منه ، ولا أعتى على الله منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ارجعوا إليه " ، فرجعوا إليه فجعل يزيدهم على مثل مقالته الأُولى وقال : أُجيب محمداً إلى ربّ لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا إليه ، فقالوا : يا رسول الله ما زادنا على مقالته الأُولى إلاّ قوله : أُجيب محمداً إلى رب لا يعرفه ، فقال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ارجعوا إليه ، فرجعوا إليه فبينا هم عنده ينازعونه ويدعونه ويعظمون عليه ، وهو يقول : هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم فرعدت ثم برقت فرمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس فجاؤوا يسعون ليخبروا النبي صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا لهم : احترق صاحبكم .

قالوا : من أين علمتم ؟ قال : أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيُرْسِلُ

الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ فقال الحسن :

ما شديد المحال ؟ قال : شديد الحمل .

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : شديد الأخذ .

مجاهد : شديد القوة . أبو عبيدة : شديد العقوبة ، والمحال والمماحلة المماكرة والمغالبة .

وأنشد أبو عبيدة للأعشى :

فرع نبع يهتز في غصن المج . . . د غزير الندي شديد المحال

وقال الآخر :

ولبس بين أقوام كلّ . . . أعد له الشغازب والمحالا

﴿ لَهُ ﴾ لله عزّ وجلّ ﴿ دَعْوَةُ الحق ﴾ الصدق وأضيفت الدعوة إلى الحق لاختلاف الإسمين وقد مضت هذه المسألة .

قال علي (رضي الله عنه) : دعوة الحق التوحيد .

ابن عباس (رضي الله عنه) : شهادة أن لا إله إلاّ الله .

﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني المشركين الذين يعبدون الأصنام من دون الله ﴿ لاَ

يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ﴾ يريدونه منهم من نفع أو دفع ﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَآءِ ﴾ إلاّ كما ينفع باسط كفيه إلى الماء من العطش يبسطه إياهما إليه يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً .

علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : هذا مثل لمشرك عبد مع الله غيره ، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي نظر إلى خياله في الماء من بعيد فتصور أن يتناوله فلا يقدر عليه ،

عطية عنه يقول : مثل الأوثان التي يعبدون من دون الله كمثل رجل قد بلغه العطش حتى كربه الموت وكفاه في الماء وقد وضعهم الا يبلغان تناوله .

الضحاك عنه يقول : كما أنّ العطشان إذا يبسط كفيه إلى الماء لا ينفعه ما لم يحفظهما ويروي بهما الماء ولا يبلغ الماء فاه مادام باسط كفيه إلى الماء ليقبض على الماء ؛ لأن القابض على الماء لا شيء في يده .

قال ضاني بن الحرث المزني :

فإني وإيّاكم وشوقاً إليكم . . . كقابض ماء لم تسقه أنامله

وقال الشاعر :

وأصبحت مما كان بيني وبينها . . . من الود مثل القابض الماء باليد

﴿ وَمَا دُعَآءُ الكافرين ﴾ أصنامهم ﴿ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ يضل عنهم إذا احتاجوا إليه .

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : ما دعاء الكافرين ربهم إلاّ في ضلال ؛ لأن

أصواتهم تحجب عن الله تعالى .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ يعني الملائكة والمؤمنين ﴿ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ يعني المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسبعة .

وروى ابن المبارك عن سفيان قال : كان ربيع بن هشيم إذا قرأ هذه الآية قال : بل طوعاً يا رباه .

﴿ وَظِلالُهُم بالغدو والآصال ﴾ يعني ضلال الساجدين طوعاً أو كرهاً يسجد لله حين يفي ضلل أحدهم عن يمينه أو شماله .

قال ابن عباس : نظيرها في النحل .

(185/410)

قال الكلبي : إذا سجد بالغدو أو العشي سجد معه ظله .

وقال مجاهد : ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع ، وظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره ، والأصال جمع أُصل ، والأُصل جمع الأصيل وهو العشاء من العصر إلى غروب الشمس .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السماوات والأرض ﴾ أي خالقهما ومدبرهما فسيقولون الله ولابد لهم من ذلك فإذا أجابوك ﴿ قُلِ ﴾ أنت أيضاً ﴿ الله ﴾ ثم قيل لهم إلزاماً للحّجة ﴿ قُلْ

أفاتخذتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني الأصنام يعبدونها من دون الله وهي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً ثم نصرف لهم الأفعال ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ وكذلك لا يستوي الضال والمؤمن المهتدي .

وقرأ الأعمش وعاصم وحمزة والكسائي : ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظلمات والنور ﴾ بالياء .

الباقون : بالتاء واختاره أبو عبيد قال : لأنه يحصل من اسم المؤنث ومن الفعل مقابل والظلمات والنور مثل الكفر والإيمان ﴿ أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ ﴾ فأصبحوا لا يدرون أمن خلق الله هو أو من خلق آلهتهم ﴿ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحد القهار ﴾ [. . . . .] للحق والباطل مثلين . فقال عز من قائل ﴿ أَنزَلَ ﴾ هو ﴿ مِنَ السمآء ﴾ يعني المطر ﴿ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ الكبير بقدره والصغير بقدره ﴿ فاحتمل السيل ﴾ الذي حدث على ذلك الماء ﴿ زَبَداً رَّابِياً ﴾ حال تعريفها يود الماء فالماء الباقي الصافي النافع هو الحق .

والذاهب الزائل الباطل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية والأنهار وهو الباطل ويقال : إن هذا سيل القرآن ينزل من السماء فيحتمل منه القلوب حظها على قدر اليقين والشك والعقل والجهل فهذا مثل الحق والباطل .

والمثل الآخر قوله : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ﴾ .

قرأ حميد أبو محجن أبو وهب وحمزة والكسائي يوقدون بالياء ، واختاره أبو عبيد ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَنفَعُ الناس ﴾ ولا مخاطبة هاهنا ﴿ ابتغآءَ حِلْيَةٍ ﴾ أي زينة يتخذونها ﴿ أَوْ مَتَاعٍ ﴾ وهو ما ينتفع به وكلُّ ما تمتعت به فهو متاع .

قال المشعث :

تمتع يا مشعث أن شيئاً . . . سبقت به الممات هو المتاع

أراد به جواهر الأرض من الذهب والفضة .

والحديد والصفر والنحاس والرصاص ، ومنه يستخلص الأشياء مما ينتفع به من الحلي والأواني وغيرهما .

﴿ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ يقول : له زبد إذا أُنث مثل زبد السيل ، والباقي الصافي من هذه الجواهر فيذهب خبثه والزبد الذي لا يبقى ولا ينتفع به مثل الباطل .

قال الله تعالى : ﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد ﴾ الذي علا السيل . ﴿ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ سريعاً متفرقاً .

قال أبو عمرو : هو من قول العرب : أجفأت القدر النذر وجنات وذلك إذا غلت فأنصب زبدها أو سكنت لم يبقَ منه شيء .

وقال القبتي : الجفاء ما رمى به الوادي إلى جنانه . فقال : جفأته إذا صرعه .

وقال ابن الأنباري : جفاء يعني بالياً متفرقاً .

يقال : جفأت الريح بالغيم إذا فرقته وذهبت به .

قال بعضهم : يعني تباعد الأرض . يقال جفأ الوادي وأجفأ إذا نشف .

قال الفراء : إنما أراد بقوله جفاء الجفاء لأنه مصدر ، قولك جفأ الوادي غثاه جفاء فخرج مخرج الاسم وهو مصدر .

وكذلك يفعل العرب في مصدر كل ما كان من فعل شيء اجتمع بعضه إلى بعض كالقماش والرقاق والحطام والغنام يخرجه على مذهب الاسم ، كما فعلت ذلك في قولهم أعطيته عطاء بمعنى الاعطاء ، ولو أُريد من القماش المصدر على الصحة لقيل قمشته قمشاً .

(187/410)

﴿ وَأَمَّا مَا يَنفعُ الناس ﴾ من العوالق ﴿ فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ تم الكلام على هذا . ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجابوا لِرَبِّهِمُ ﴾ أطاعوه ﴿ الحسنى ﴾ بالجنة ﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ ﴾ يوم القيامة ، قال الله ﴿ أولئك لَهُمْ سواء الحساب ﴾ مجازياً بالعقوبة ، قال إبراهيم النخعي والزبد . أتدري ما سوء الحساب ؟ قلت : لا . قال هو أن يحاسب الرجل على معصية

فعلها ويكفر عنه خطيئته ، ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد ﴾ الفراش والمصير. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 267. 284 ﴾

(188/410)

وقال الزمخشرى :

سورة الرعد

([مدنية ، وقيل] مختلف فيها وهي ثلاث وأربعون آية [نزلت بعد سورة محمد]) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الرعد (13) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (1)

تِلْكَ إشارة إلى آيات السورة . والمراد بالكتاب السورة ، أى : تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ، ثم قال وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ من القرآن كله هو الْحَقُّ الذي لا مزيد عليه ، لا هذه السورة وحدها ، وفي أسلوب هذا الكلام قول الأنمارية : هم كالحلقة «1» المفرغة ، لا يدرى أين طرفاها ؟ تريد الكملة .

(1) . قوله «الأنمارية هم كالحلقة» أى في أولادها . (ع)

(189/410)

[سورة الرعد (13) : الآيات 2 إلى 3]

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3)

اللَّهُ مبتدأ . والَّذِي خبره ، بدليل قوله وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ويجوز أن يكون صفة . وقوله يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ خبر بعد خبر . وينصره ما تقدّمه من ذكر الآيات رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها كلام مستأنف استشهاد برؤيتهم لها كذلك . وقيل هي صفة لعمد . ويعضده قراءة أبىّ . ترونه . وقرئ : عمد ، بضمتين يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يدبر أمر ملكوته وربوبيته يُفَصِّلُ آياته في كتبه المنزلة لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ بالجزاء وبأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه . وقرأ الحسن : ندبر ، بالنون جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدّها ، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت . وقيل :

أراد بالزوجين: الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يلبسه مكانه، فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً. وقرئ: يغشى، بالتشديد.

[سورة الرعد (13) : آية 4]

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)

قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ بقاع مختلفة، مع كونها متجاورة متلاصقة: طيبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة، «1» وصلبة إلى رخوة، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على عكسها، مع انتظامها جميعاً في جنس الأرضية. وذلك دليل على قادر مريد، موقع لأفعاله على وجه دون وجه.

وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة في هذه القطع، مختلفة الأجناس والأنواع، وهي تسقى بماء واحد، وتراها متغايرة الثمر في الأشكال والألوان والطعوم والروائح، متفاضلة فيها.

---

(1). قوله «زهيدة» في الصحاح: واد زهيد قليل الأخذ للماء، وأرض زهاد: أى لا تسيل إلا عن مطر كثير. (ع)

وفي بعض المصاحف : قطعاً متجاورات على : وجعل . وقرئ : وجنات ، بالنصب للعطف على زوجين . أو بالجرّ على كل الثمرات . وقرئ : وزرع ونخيل ، بالجرّ عطفاً على أعناب أو جنات والصنوان : جمع صنو ، وهي النخلة لها رأسان ، وأصلهما واحد . وقرئ بالضم . والكسر : لغة أهل الحجاز ، والضم : لغة بنى تميم وقيس يُسْقى بالتاء والياء وَنُفَضِّلُ بالنون . وبالياء على البناء للفاعل والمفعول جميعاً فِي الْأُكُلِ بضم الكاف وسكونها .

[سورة الرعد (13) : آية 5]

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (5)

وَإِنْ تَعْجَبْ يا محمد من قولهم في إنكار البعث ، فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه ، لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يعي بخلقهنّ ، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره ، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب أَإِذا كُنَّا إلى آخر قولهم : يجوز أن يكون في محل الرفع بدلا من قولهم ، وأن يكون منصوباً بالقول . وإذا نصب بما دل

عليه قوله أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أولئك الكاملون المتمادون في كفرهم وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وصف بالإصرار ، كقوله إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا . ونحوه :

لَهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادُ «1»

أو هو من جملة الوعيد

[سورة الرعد (13) : آية 6]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (6)

بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ بالنقمة قبل العافية ، والإحسان إليهم بالإمهال . وذلك أنهم سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ أى عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزءوا .

والمثلة :

---

(1) ضلوا وإن سبيل الغى مقصدهم لهم عن الرشد أغلال وأقياد

سبيل الغى : مجاز عما هم عليه من الأحوال الخبيثة . والغل : ما تشد به اليد إلى العنق والقيد للرجلين «وهما مجاز عن الغفلة واتباع رأى النفس . يقول : سلكوا طريق الهوى وتركوا طريق الهدى .

العقوبة، بوزن السمرة. والمثلة لما بين «1» العقاب والمعاقب عليه من المماثلة، وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها ويقال: أمثلت الرجل من صاحبه وأقصصته منه. والمثال: القصاص. وقرئ الْمَثُلاتُ بضمتين لإتباع الفاء العين. والمثلات، بفتح الميم وسكون الثاء، كما يقال: السمرة «2». والمثلات بضم الميم وسكون الثاء، تخفيف المثلات بضمتين. والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات «3» لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ أى مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب. ومحله الحال، بمعنى ظالمين لأنفسهم «4» وفيه أوجه. أن يريد السيئات المكفرة لمجتنب الكبائر. أو الكبائر بشرط التوبة. أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال. وروى أنها لما نزلت قال النبي عليه الصلاة والسلام «لو لا عفو اللّه وتجاوزه ما هنأ أحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد» «5»

[سورة الرعد (13): آية 7]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (7)

لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عنادا، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى، من انقلاب العصا حية، وإحياء الموتى،

فقيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنما أنت رجل أرسالات منذراً ومخوّفاً لهم من سوء العاقبة ، وناصحا كغيرك من الرسل ، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر ، وصحة ذلك حاصلة بأية آية كانت ، والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوة بها لا تفاوت بينها ، والذي عنده كل شيء بمقدار يعطى كل نبى آية على حسب ما اقتضاه علمه بالمصالح وتقديره لها وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ من الأنبياء يهديهم إلى الدين ، ويدعوهم إلى اللّه بوجه من الهداية ، وبآية خص بها ، ولم يجعل الأنبياء شرعاً واحداً «6» في آيات مخصوصة. ووجه آخر : وهو أن يكون المعنى أنهم

---

(1) . قوله «المثلة لما بين» عبارة النسفي «والمثلة العقوبة لما بين . . . الخ . (ع)

(2) . قوله «كما يقال السمرة» لعله السمرة والسمرات . (ع)

(3) . قوله «كركبة وركبات» في الصحاح الركبة معروفة وجمع القلة ركبات وركبات وركبات . وفي هامشه عن مرتضى : أى بسكون الكاف وضمها وفتحها ، والراء مضمومة فيهن . (ع) [. . . . .]

(4) . قال محمود : «ومحل على ظلمهم الحال بمعنى ظالمين لأنفسهم . . . الخ» قال أحمد : والوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحد ، فان ظلمه أعنى شركه لا يغفر وما عدا الشرك فغفرانه في المشيئة . والزمخشري يبنى على عقيدته التي وضح فسادها ، في استحالة الغفران لصاحب الكبائر وإن كان موحدا إلا

بالتوبة، فيقيد مطلقا، ويحجر واسعا، والله الموفق.

(5) . أخرجه ابن أبى حاتم والثعلبي من رواية حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب: لما نزلت وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ الآية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره.

(6) . قوله «ولم يجعل الأنبياء شرعا واحدا» أى سواء، كذا في الصحاح. (ع)

(192/410)

يجحدون كون ما أنزل عليك آيات ويعاندون، فلا يهمنك ذلك، إنما أنت منذر، فما عليك إلا أن تنذر لا أن تثبت الإيمان في صدورهم، ولست بقادر عليه، ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالإلجاء، وهو الله تعالى. ولقد دل بما أردفه من ذكر آيات علمه وتقديره الأشياء على قضاء حكمته أن إعطاءه كل منذر آيات خلاف آيات غيره: أمر مدبر بالعلم النافذ مقدّر بالحكمة الربانية، ولو علم في إجابتهم إلى مقترحهم خيرا ومصلحة، لأجابهم إليه. وأما على الوجه الثاني، فقد دل به على أن من هذه قدرته وهذا علمه، هو القادر وحده على هدايتهم، العالم بأى طريق يهديهم، ولا سبيل إلى ذلك لغيره.

[سورة الرعد (13) : الآيات 8 إلى 9]

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (8) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (9)

اللَّهُ يَعْلَمُ يحتمل أن يكون كلاما مستأنفا، وأن يكون المعنى: هو اللّه، تفسيرا لهاد على الوجه الأخير، ثم ابتدئ فقيل يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى «وما» في ما تَحْمِلُ، وَما تَغِيضُ، وَما تَزْدادُ. إما موصولة، وإما مصدرية. فإن كانت موصولة، فالمعنى: أنه يعلم ما تحمله من الولد على أن حال هو. من ذكورة وأنوثة، وتمام وخداج «1»، وحسن وقبح، وطول وقصر، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة، ويعلم ما تغيضه الأرحام: أى تنقصه. يقال:

غاض الماء وغضته أنا. ومنه قوله تعالى وَغِيضَ الْماءُ وما تزداده: أى تأخذه زائدا، تقول: أخذت منه حقي، وازددت منه كذا. ومنه قوله تعالى وَازْدادُوا تِسْعاً ويقال: زدته فزاد بنفسه وازداد، ومما تنقصه الرحم وتزداده عدد الولد، فإنها تشتمل على واحد، وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة. ويروى أن شريكا كان رابع أربعة في بطن أمه. ومنه جسد الولد، فإنه يكون تاما ومخدجا. ومنه مدة ولادته، فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبى حنيفة، وإلى أربع عند الشافعي، وإلى خمس عند مالك. وقيل: إنّ الضحاك ولد لسنتين، وهرم بن حيان بقي في بطن أمّه أربع سنين، ولذلك سمى هرما. ومنه الدم، فإنه يقل ويكثر. وإن كانت مصدرية، فالمعنى أنه يعلم

حمل كل أنثى ، ويعلم غيض الأرحام وازديادها ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ، ومن أوقاته وأحواله . ويجوز أن يراد غيوض ما في الأرحام وزيادته ، فأسند الفعل إلى الأرحام وهو لما فيها ، على أنّ الفعلين غير متعدّيين ، ويعضده قول الحسن : الغيضوضة أن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك ، والازدياد أن تزيد

---

(1) . قوله و«خداج» في الصحاح : خدجت الناقة خداجا : ألقت ولدها قبل تمام الأيام ، فهي خادج ، وهو خديج ، أو أخدجت : إذا جاءت به ناقص الخلق ، فهو مخدج ، وهو مخدج اه . (ع)

(193/410)

على تسعة أشهر . وعنه . الغيض الذي يكون سقطاً لغير تمام ، والازدياد ما ولد لتمام بِمِقْدارٍ بقدر وحدّ لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، كقوله إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ . الْكَبِيرُ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه الْمُتَعالِ المستعلى على كل شيء بقدرته ، أو الذي كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها .

[سورة الرعد (13) : الآيات 10 إلى 11]

سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ (10) لَهُ

مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (11)

سارِبٌ ذاهب في سربه - بالفتح - أى في طريقه ووجهه. يقال: سرب في الأرض سروبا. والمعنى: سواء عنده من استخفى: أى طلب الخفاء في مختبإ بالليل في ظلمته، ومن يضطرب في الطرقات ظاهراً بالنهار يبصره كل أحد. فإن قلت: كان حق العبارة أن يقال: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار «1»، حتى يتناول معنى الاستواء المستخفى والسارب، وإلا فقد تناول واحداً هو مستخف وسارب. قلت: فيه وجهان: أحدهما أنّ قوله وَسارِبٌ عطف على من هو مستخف، لا على مستخف، والثاني أنه عطف على مستخف، إلا أن مَنْ في معنى الاثنين، كقوله:

نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذِئْبُ يَصْطَحِبانِ «2»

---

(1). قال محمود: «إن قلت كان من حق الكلام أن يقال: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار...

الخ» قال أحمد: فمقتضى السؤال الذي أورده الزمخشري أن تكون الواو عاطفة لإحدى الصفتين على الأخرى، ومقتضى ما أجاب به أن يعطف أحد الموصوفين على الآخر، وتحتمل الآية وجها آخر: وهو أن يكون الموصول محذوفا وصلته باقية. والمعنى: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار، وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع،

وخصوصا وقد تكرر الموصول في الآية ثلاثا ، ومنه قوله تعالى وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ والأصل : ولا ما يفعل بكم ، وإلا كان حرف النفي دخيلا في غير موضعه ، لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف لم يكن للنهى موقع ، وإنما صحب في الأول الموصول لا الصلة . ومنه :

فمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره سواء

أى ومن يمدحه وينصره ، واللّه أعلم .

(2) فبت أقد الزاد بيني وبينه على ضوء نار مرة ودخان

فقلت له لما تكشر ضاحكا وقائم سيفي من يدي بمكان

تعال فان عاهدتني لا تخوننى نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

أأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما أخيين كانا أرضعا بلبان

للفرزدق ، يصف ذئبا أتاه في مفازة فبات يقطع الزاد ويقسمه بينه وبينه ، حال كونهما مشرفين على ضوء نار تارة وعلى دخانها أخرى ، دلالة على تكرر إيقادها . وتكشر : أبدى أنيابه كالضاحك . وقائم سيفي : أى والحال أن مقبض سيفي بمكان عظيم من يدي ، دلالة على الحرص والجرأة . تعال : أى أقبل إلى نتعاهد . ويروى تعش أى كل العشاء ، فان عاهدتني بعد ذلك والتزمت أنك لا تخوننى : نكن مثل من يصطحبان يا ذئب . ومعنى «من» مثنى ، فعاد عليه الرابط كذلك . والنداء . اعتراض بين الصلة والموصول . وأ أنت

: استفهام توبيخي . وتكرير النداء فيه نوع توبيخ أيضا . وأخيين : مصغر أخوين . واللبان : لبن المرأة خاصة . شبه الذئب والغدر بتوأمين نشئا معا من صغرهما ترضعهما أم واحدة ، دلالة على كمال التلازم والتآلف . وتسمية الذئب امرأ ، مبنية على تنزيله منزلة العاقل المصحح لخطابه . وشبههما بالأخوين من نوع الإنسان ، كما دل على ذلك لفظ اللبان ، لأن التآلف فيه أكمل وأظهر منه في غيره .

(194/410)

كأنه قيل : سواء منكم اثنان : مستخف بالليل ، وسارب بالنهار . والضمير في لَهُ مردود على مِنْ كأنه قيل : لمن أسرّ ومن جهر ، ومن استخفى ومن سرب مُعَقِّباتٌ جماعات من الملائكة تعقب في حفظه وكلاءته ، والأصل : معتقبات ، فأدغمت التاء في القاف ، كقوله وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ بمعنى المعتذرون . ويجوز معقبات ، بكسر العين ولم يقرأ به . أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه ، كما يقال : قفاه ، لأنّ بعضهم يعقب بعضاً . أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ هما صفتان جميعاً ، «1» وليس مِنْ أَمْرِ اللَّهِ بصلة للحفظ ، كأنه قيل : له معقبات من أمر اللّه . أو يحفظونه من أجل أمر اللّه ، أى : من أجل أنّ اللّه أمرهم بحفظه . والدليل عليه قراءة على رضى اللّه عنه وابن عباس وزيد

بن على وجعفر بن محمد وعكرمة : يحفظونه بأمر اللّه . أو يحفظونه من بأس اللّه ونقمته إذا أذنب ، بدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينيب ، كقوله قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ وقيل : المعقبات الحرس والجلاوزة «2» حول السلطان ، يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر اللّه أى من قضاياه ونوازله ، أو على التهكم به ، وقرئ له معاقيب جمع معقب أو معقبة .

والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ من العافية والنعمة حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي مِنْ والٍ ممن يلي أمرهم ويدفعه عنهم .

[سورة الرعد (13) : الآيات 12 إلى 13]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (13)

---

(1) . عاد كلامه . قال : ومعنى قوله لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ هما صفتان جميعا وليس من أمر اللّه بصلة الحفظ كأنه قيل له . . . الخ» قال أحمد : وحقيقة هذا الوجه أنهم يحفظونه من الأمر الذي علم اللّه أنه يدفعه عنه بسبب دعائهم . ولولا هذا السبب لكان في علم اللّه أن النقمة تحل عليه ، لأن اللّه عز وجل يعلم ما لا يكون لو

كان كيف كان يكون ، وسع ربنا كل شيء علما .

(2) . قوله «و الجلاوزة» في الصحاح «الجلواز» الشرطي ، والجمع الجلاوزة . (ع)

(195/410)

خَوْفاً وَطَمَعاً لا يصح أن يكونا مفعولا لهما «1» لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف ، أى : إرادة خوف وطمع . أو على معنى إخافة وإطماعاً . ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق ، كأنه في نفسه خوف وطمع . أو على : ذا خوف وذا طمع . أو من المخاطبين ، أى : خائفين وطامعين . ومعنى الخوف والطمع : أنّ وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق ، ويطمع في الغيث . قال أبو الطيب :

فَتى كَالسَّحَابِ الْجُونِ تُخْشَى وَتُرْتَجَى يُرْجَى الْحَيَا مِنْهَا وُيُخْشَى الصَّوَاعِقُ «2»

وقيل : يخاف المطر من له فيه ضرر ، كالمسافر ، ومن له في جرينه التمر والزبيب ، ومن له بيت يكف «3» ، ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر ، ويطمع فيه من له فيه نفع ، ويحيا به السَّحابَ اسم الجنس ، والواحدة سحابة . والثِّقالَ جمع ثقيلة ، لأنك تقول سحابة ثقيلة ، وسحاب ثقال ، كما تقول : امرأة كريمة ونساء كرام ، وهي الثقال بالماء

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامدين له . أى

يضجون بسبحان اللّه والحمد للّه. وعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يقول «سبحان من يسبح الرعد بحمده» «4» وعن على رضى اللّه عنه: سبحان من سبحت له. وإذا اشتدّ الرعد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «اللهمّ لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك» «5» وعن ابن عباس أنّ اليهود سألت النبي صلى اللّه عليه وسلم عن الرعد ما هو؟ فقال: «ملك من

---

(1). قال محمود: «خوفا وطمعا لا يصح أن يكون مفعولا لهما لأنهما ليسا بفعل... الخ» قال أحمد: أو مفعولا لهما، على أن المفعول له في مثل هذا الفعل فاعل في المعنى، لأنه إذا أراهم فقد رأوا، والأصل: وهو الذي يريكم البرق فترونه خوفاً وطمعاً، أى: ترقبونه وتتراءونه، تارة لأجل الخوف وتارة لأجل الطمع، واللّه أعلم.

(2). يقول: هو فتى شجاع جواد، يخشى شره، ويرجى خيره، فهو كالسحاب الأسود. والجون: الأسود:

ويطلق على الأبيض. ورواه ابن جنى بالضم ليكون جمعا، أى السود المظلمات، لأن السحاب جمع في المعنى. يرتجى الحياء: أى المطر، منها. ونخشى صواعقها، وهي قطع النار التي تنزل منها.

(3). قوله «ومن له بيت يكف» وكف البيت يكف: قطر يقطر، كذا في الصحاح. (ع)

(4). أخرجه الطبري من رواية إسرائيل عن ليث عن رجل عن أبى هريرة رفعه «أنه كان

إذا سمع الرعد قال سبحان من يسبح الرعد بحمده» ورواه البخاري في الأدب المفرد ، موقوفا على كعب بن مالك .

(5) . أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد وأبو يعلى والحاكم من رواية الحجاج بن أرطاة عن أبى مضر عن سالم ابن عبد اللّه عن أبيه قال الترمذي : غريب .

(196/410)

الملائكة موكل بالسحاب ، معه مخاريق «1» من نار يسوق بها السحاب» «2» وعن الحسن : خلق من خلق اللّه ليس بملك . ومن بدع المتصوّفة . الرعد صعقات الملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم ، والمطر بكاؤهم وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ويسبح الملائكة من هيبته وإجلاله .

ذكر علمه النافذ في كل شيء واستواء الظاهر والخفي عنده ، وما دلّ على قدرته الباهرة ووجدانيته ثم قال وَهُمْ يعنى الذين كفروا وكذّبوا رسول اللّه وأنكروا آياته يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعادة الخلائق بقولهم مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ويردّون الواحدانية باتخاذ الشركاء والأنداد ، ويجعلونه بعض الأجسام المتوالدة بقولهم «الملائكة بنات اللّه» فهذا جدالهم بالباطل ، كقولهم وَجادَلُوا

بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وقيل : الواو للحال . أى : فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم . وذلك أنّ أربد أخا لبيد ابن ربيعة العامري قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - حين وفد عليه معه عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى اللّه عامراً بغدّة كغدّة البعير «3» وموت في بيت سلولية ، وأرسل على أربد صاعقة فقتلته - أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد ؟ «4» الْمِحالِ المماحلة ، وهي شدّة المماكرة والمكايدة . ومنه : تمحل لكذا ، إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه . ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان . ومنه الحديث : «ولا تجعله علينا ماحلا «5» مصدّقا» وقال الأعشى :

---

(1) . قوله «معه مخاريق من نار» في الصحاح المخراق : منديل يلف ليضرب به . (ع)

[.....]

(2) . أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد من رواية بكر بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال «أقبلت يهود إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم - فقالوا : أخبرنا يا أبا القاسم عن الرعد . فذكره - وزاد : قالوا : فما هذا الصوت قال : زجره للسحاب قالوا : صدقت» وفي الطبراني والأوسط من رواية أبى عمران الكوفي عن ابن جريج وعن عطاء عن جابر أن خزيمة بن ثابت وليس بالأنصارى «سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن الرعد . فقال : هو ملك بيده مخراق إذا رفع برق وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت ،

.

(3) . قوله «بغدة كغدة البعير» في الصحاح : غدة البعير : طاعونه . (ع)

(4) . أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس . وأخرجه الطبراني وابن مردويه عنه من رواية زيد بن أسلم عن عطاء عنه «أن أريد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة - فذكر الحديث مطولا» وأخرجه النسائي والطبري والعقيلي وأبو يعلى من رواية على بن أبى سارة عن ثابت عن أنس قال «بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رجلا إلى رجل من خزاعة العرب فقال : ادعه قال : يا رسول اللّه هو أخى من ذلك . قال : اذهب فادعه .

فأتاه . فقال : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يدعوك . قال : وما اللّه ؟ أمن ذهب هو أو من فضة ، أم من نحاس - الحديث . وفيه : فأنزل اللّه تعالى وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ . . . الآية

قال العقيلي : لا مانع على حديثه إلا من هو دونه .

وقد رواه البزار والبيهقي في الدلائل من رواية ديلم بن غزوان عن ثابت نحوه .

(5) . قلت : الذي في الحديث «القرآن شافع مشفع وما حل مصدق» أخرجه ابن حبان من رواية أبى سفيان عن جابر والحاكم من حديث معقل بن يسار ، والطبراني من حديث ابن مسعود عن أنس . أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن .

فَرْعُ نَبْعٍ يَهَشُّ فِى غُصُنِ الْمَجْدِ غَزِيرُ النّدَى شَدِيدُ الْمِحَالِ «1»

والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه، يأتيهم بالهلكة من حيث. لا يحتسبون. وقرأ الأعرج بفتح الميم، على أنه مفعل، من حال يحول محالا إذا احتال. ومنه: أحول من ذئب، أى أشدّ حيلة. ويجوز أن يكون المعنى: شديد الفقار «2»، ويكون مثلا في القوة والقدرة كما جاء:

فساعد اللّه أشدّ، وموساه أحدّ، لأن الحيوان إذا اشتدّ محاله، كان منعوتاً بشدّة القوّة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره. ألا ترى إلى قولهم: فقرته الفواقر؟ وذلك أن الفقار عمود الظهر وقوامه.

[سورة الرعد (13): آية 14]

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (14)

دَعْوَةُ الْحَقِّ فيه وجهان، أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق «3» الذي هو نقيض الباطل، كما تضاف الكلمة إليه في قولك: كلمة الحق، للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به، وأنها بمعزل من الباطل. والمعنى أن اللّه سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة، ويعطى الداعي سؤاله إن كان مصلحة له، فكانت دعوة ملابسة للحق، لكونه

حقيقاً بأن يوجه إليه الدعاء ، لما في دعوته من الجدوى والنفع ، بخلاف ما لا ينفع ولا يجدى دعاؤه . والثاني : أن

---

(1) . فرع كل شيء أعلاه . والنبع : شجر تتخذ منه القسي . والهش من كل شيء : ما فيه رخاوة وليونة . وهش إليه ، من باب تعب وضرب : ضحك وانبسط إليه ، أى هو كفرع النبع في العلو وللصلابة في الحروب . وشبه المجد بشجرة طيبة على طريق المكنية ، فاضافة الغصن إليه تخييل لذلك . ويحتمل أنه شبه قومه بأغصان الشجرة المثمرة على طريق التصريحية ، وإضافتها للمجد قرينة على ذلك . وفيها دلالة على أن المجد منهم كالثمر من الأغصان ، غزير الندى كثير العطاء شديد المحال ، أى المماحلة والمكايدة ، وهو كالتفسير التشبيه الأول ، وغزير الندى كالتفسير الثاني ، وهو من بديع الكلام .

(2) . قوله «ويجوز أن يكون المعنى شديد الفقار» في الصحاح : والمحالة أيضا : الفقارة ، وفيه «الفقارة» واحدة فقار الظهر . (ع)

(3) . قال محمود : «فيه وجهان : أحدهما أن تضاف الدعوة إلى الحق . . . الخ» قال أحمد : دس تحت تأويل الأول نبذة من الاعتزال على وجه الاختزال . فحجر واسعاً من لطف اللّه واستجابته أدعية عباده ، وحتم رعاية المصالح ، وجعل معنى إضافة الدعوة إلى الحق التباسها بالمصلحة ، وقد انكشف الغطاء وتبين أن اللّه تعالى لا تعلل أفعاله ولا

تقف استجابته على الشرط المذكور ، وغرضنا إيقاظ المطالع لهذه المواضع من غفلة يتحيز بها إلى بدعة وضلالة ، واللّه الموفق .

(198/410)

تضاف إلى الحق الذي هو اللّه عز وعلا ، على معنى : دعوة المدعوّ الحق الذي يسمع فيجيب .

وعن الحسن : الحق هو اللّه ، وكلّ دعاء إليه دعوة الحق . فإن قلت : ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبله «1» ؟ قلت . أما على قصة أربد فظاهر ، لأن إصابته بالصاعقة محال من اللّه ومكر به من حيث لم يشعر . وقد دعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عليه وعلى صاحبه بقوله : اللهمّ اخسفهما بما شئت ، فأجيب فيهما «2» ، فكانت الدعوة دعوة حق . وأما على الأوّل فوعيد للكفرة على مجادلتهم رسول اللّه بحلول محاله بهم ، وإجابة دعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن دعا عليهم فيهم وَالَّذِينَ يَدْعُونَ والآلهة الذين يدعوهم الكفار مِنْ دون اللّه لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ من طلباتهم إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه ، أى كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاءه

ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم. وقيل: شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه، فبسطهما ناشراً أصابعه، فلم تلق كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته من شربه.

وقرئ: تدعون، بالتاء. كباسط كفيه، بالتنوين إِلَّا فِي ضَلالٍ إلا في ضياع لا منفعة فيه، لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

[سورة الرعد (13) : آية 15]

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (15)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ أى ينقادون لإحداث ما أراده فيهم من أفعاله، شاءوا أو أبوا. لا يقدرون أن يمتنعوا عليه، وتنقاد له ظِلالُهُمْ أيضاً، حيث تتصرف على مشيئته في الامتداد والتقلص، والفيء والزوال. وقرئ: بالغدوّ والإيصال، من آصلوا: إذا دخلوا في الأصيل.

[سورة الرعد (13) : آية 16]

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (16)

---

(1) . قوله «اتصال هذين الوصفين بما قبله» عبارة النسفي: واتصال شَدِيدُ الْمِحالِ وَلَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ بما قبله. (ع)

(2) . ذكره الواحدي في الأسباب عن ابن عباس في القصة المذكورة . ولم أره فيها في الطريقين المتقدمين من رواية الكلبي وغيره .

(199/410)

قُلِ اللَّهُ حكاية لاعترافهم وتأكيد لم عليهم ، لأنه إذا قال لهم : من رب السموات والأرض ، لم يكن لهم بدّ من أن يقولوا اللّه . كقوله قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ وهذا كما يقول المناظر لصاحبه : أهذا قولك ، فإذا قال : هذا قولي قال : هذا قولك ، فيحكى إقراره تقريرا له عليه واستيثاقا منه ، ثم يقول له : فيلزمك على هذا القول كيت وكيت . ويجوز أن يكون تلقينا ، أى : إن كعوا عن الجواب «1» فلقنهم ، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء ، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم سبب الإشراك لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا عنها ضررا ، فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب ، فما أبين ضلالتكم ! أَمْ جَعَلُوا بل اجعلوا . ومعنى الهمزة الإنكار «2» وخَلَقُوا صفة لشركاء ، يعنى أنهم لم يتخذوا للّه شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق

الله فَتَشابَهَ عليهم خلق اللّه وخلقهم، حتى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقوا العبادة، فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد، إذ لا فرق بين خالق وخالق، ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلا أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق، فلا يكون له شريك في العبادة وَهُوَ الْواحِدُ المتوحد بالربوبية الْقَهَّارُ لا يغالب، وما عداه مربوب ومقهور.

[سورة الرعد (13): آية 17]

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (17)

---

(1). قوله «أى إن كعوا عن الجواب» أى امتنعوا جبناً أو احتبسوا. أفاده الصحاح. (ع)

(2). قال محمود: «أم مقدرة ببل والهمزة ومعناها هاهنا الإنكار... الخ» قال أحمد: وفي قوله تعالى خَلَقُوا كَخَلْقِهِ في سياق الإنكار تهكم بهم، لأن غير الله لا يخلق خلقا البتة، لا بطريق المشابهة والمساواة لله - تقدس عن التشبيه - ولا بطريق الانحطاط والقصور، فقد كان يكفى في الإنكار عليهم أن الشركاء التي اتخذوها لا تخلق مطلقا، ولكن جاء في قوله تعالى كَخَلْقِهِ تهكم يزيد الإنكار تأكيداً. والزمخشري لا يطيق التنبيه على هذه النكتة

مع كونه أفطن من أن تستتر عنه، لأن معتقده أن غير الّله يخلق وهم العبيد يخلقون أفعالهم على زعمه، ولكن لا يخلقون كخلق الّله، لأن الّله تعالى يخلق الجواهر والأعراض، والعبيد لا يخلقون سوى أفعالهم لا غير. وفي قوله عز من قائل اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ إلقام لأفواه المشركين الأولين، ثم لأفواه التابعة لهم في هذه الضلالة كالقدرية، فان الّله تعالى بت هذه البتة أن كل شيء يصدق عليه أنه مخلوق جوهراً كان أو عرضا، فعلا لعبيده أو غيره، فالّله خالقه، فلا يبقى بقية يحتمل معها الاشتراك إلا عند كل أثيم أفاك، يسمع آيات الّله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم، فلأمر ما تقاصر لسان الزمخشري عند هذه الآية وقرن شقاشقه، والّله الموفق.

(200/410)

هذا مثل ضربه الّله للحق وأهله والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلا لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به «1» في صوغ الحلىّ منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى به، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً، يثبت الماء في منافعه. وتبقى آثاره في العيون

والبئار والجبوب ، والثمار التي تنبت به مما يدّخر ويكنز ، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة ، بزبد السيل الذي يرمى به ، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب. فإن قلت : لم نكرت الأودية؟ قلت : لأن المطر لا يأتى إلا على طريق المناوبة بين البقاع ، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض. فإن قلت : فما معنى قوله بِقَدَرِها ؟

قلت : بمقدارها الذي عرف اللّه أنه نافع للممطور عليهم غير ضارّ. ألا ترى إلى قوله وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ لأنه ضرب المطر مثلا للحق ، فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع خالياً من المضرة ، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف «2». فإن قلت : فما فائدة قوله ابْتِغاءَ حلية أو متاع؟ قلت : الفائدة فيه كالفائدة في قوله بِقَدَرِها لأنه جمع الماء والفلز في النفع في قوله وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ لأنّ المعنى : وأما ما ينفعهم من الماء والفلز فذكر وجه الانتفاع مما يوقد عليه منه ويذاب ، وهو الحلية والمتاع. وقوله وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ عبارة جامعة لأنواع الفلز ، مع إظهار الكبرياء في ذكره على وجه التهاون به كما هو هجيرى الملوك ، نحو ما جاء في ذكر الآجر فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ و«من» لابتداء الغاية. أى : ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء. أو للتبعيض بمعنى وبعضه زبداً رابياً منفخاً مرتفعاً على وجه السيل ، أى يرمى به. وجفأت القدر بزبدها ، وأجفأ السيل وأجفل. وفي قراءة رؤبة ابن العجاج : جفالا. وعن أبى حاتم : لا يقرأ بقراءة رؤبة ،

لأنه كان يأكل الفأر. وقرئ:

يوقدون، بالياء: أى يوقد الناس.

---

(1). قوله «و بالفلز الذي ينتفعون به» في الصحاح «الفلز» بالكسر وتشديد الزاى: ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض اه فليحرر، ولعله ما يبقيه الكير... الخ. (ع)

(2). قوله «السيول الجواحف» في الصحاح «سيل جحاف» بالضم: إذا جرف كل شيء وذهب به. (ع)

(201/410)

[سورة الرعد (13): آية 18]

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (18)

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا اللام متعلقة بيضرب، أى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا، وللكافرين الذين لم يستجيبوا، أى: هما مثلا الفريقين. والْحُسْنى صفة لمصدر استجابوا، أى: استجابوا الاستجابة الحسنى. وقوله لَوْ أَنَّ لَهُمْ كلام مبتدأ في ذكر ما أعدّ لغير المستجيبين. وقيل: قد تم الكلام عند قوله كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ وما بعده كلام

مستأنف. والحسنى: مبتدأ، خبره لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا والمعنى: لهم المثوبة الحسنى، وهي الجنة وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا مبتدأ خبره. «لو» مع ما في حيزه وسُوءُ الْحِسابِ المناقشة فيه. وعن النخعي: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء. انتهى انتهى. اهـ

﴿ الكشاف حـ 2 صـ 511. 524 ﴾

(202/410)

وقال النسفى:

سورة الرعد مكية، وهي ثلاث وأربعون آية كوفي، وخمس وأربعون آية شامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ المر ﴾ أنا الله أعلم وأرى عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى آيات السورة ﴿ آيات الكتاب ﴾ أريد بالكتاب السورة أي تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ﴿ والذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي القرآن كله ﴿ الحق ﴾ خبر ﴿ والذي ﴾ ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيقولون تقوّله محمد ثم ذكر ما يوجب الإيمان فقال ﴿ الله الذي رَفَعَ السماوات ﴾ أي خلقها مرفوعة لا أن تكون موضوعة فرفعها و ﴿ الله ﴾ مبتدأ والخبر ﴿ الذي رفع السماوات ﴾ ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ حال وهو جمع

عماد أو عمود ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ الضمير يعود إلى السماوات أي ترونها كذلك فلا حاجة إلى البيان أو إلى عمد فيكون في موضع جر على أنه صفة ل ﴿ عمد ﴾ أي بغير عمد مرئية ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ استولى بالاقتدار ونفوذ السلطان ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ لمنافع عباده ومصالح بلاده ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو انقضاء الدنيا ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ أمر ملكوته وربوبيته ﴿ يُفَصّلُ الآيات ﴾ يبين آياته في كتبه المنزلة ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ لعلكم توقنون بأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع اليه .

﴿ وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض ﴾ بسطها ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ وأنهارا ﴾ جارية ﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ أي الأسود والأبيض والحلو والحامض والصغير والكبير وما أشبه ذلك ﴿ يُغْشِي اليل النَّهَارَ ﴾ يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً .

يغشِّي حمزة وعلي وأبو بكر ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيعلمون أن لها صانعاً عليماً حكيماً قادراً ﴿ وَفِي الأرض قِطَعٌ متجاورات ﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة

متلاصقة طيبة إلى سبخة وكريمة إلى زهيدة وصلبة إلى رخوة وذلك دليل على قادر مدبر مريد موقع لأفعاله على وجه دون وجه ﴿ وجنات ﴾ معطوفة على قطع ﴿ مِّنْ أعناب وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صنوان وَغَيْرُ صنوان ﴾ بالرفع مكي وبصري وحفص عطف على ﴿ قطع ﴾ غيرهم بالجر بالعطف على ﴿ أعناب ﴾ ، والصنوان جمع صنو وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد وعن حفص بضم الصاد وهما لغتان ﴿ يسقى بِمَاءٍ واحد ﴾ وبالياء عاصم وشامي ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ ﴾ وبالياء حمزة وعلي ﴿ فِي الأكل ﴾ في الثمر .

وبسكون الكاف نافع ومكي ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ عن الحسن مثل اختلاف القلوب في آثارها وأنوارها وأسرارها باختلاف القطع في أنهارها وأزهارها وثمارها ﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾ يا محمد من قولهم في إنكار البعث ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ خبر ومبتدأ أي فقولهم حقيق بأن يتعجب منه لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك كان الإعادة أهون شيء عليه وأيسره فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب ﴿ أءِذا كنا ترابا أءِنا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ في محل الرفع بدل من ﴿ قولهم ﴾ .

قرأ عاصم وحمزة كل واحد بهمزتين ﴿ أولئك الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ أولئك الكافرون المتمادون في كفرهم ﴿ وأولئك الأغلال فِي أعناقهم ﴾ وصف لهم بالإصرار أو من جملة

الوعيد ﴿ وأولئك أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ دل تكرار أولئك على تعظيم الأمر.

(204/410)

وَيسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ بالنقمة قبل العافية وذلك أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ أي عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزئوا والمثلة العقوبة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة.

﴿ وَجَزَاء سَيّئَةٍ سَيّئَةٌ مّثْلُهَا ﴾ [الشورى: 40] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ أي مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب ومحله الحال أي ظالمين لأنفسهم قال السدي يعني المؤمنين وهي أرجى آية في كتاب الله حيث ذكر المغفرة مع الظلم وهو بدون التوبة فإن التوبة تزيلها وترفعها ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ على الكافرين أو هما جميعاً في المؤمنين لكنه معلق بالمشيئة فيهما أي يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ ايَةٌ مّن رَّبّهِ ﴾ لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عناداً فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى من انقلاب العصا حية وإحياء الموتى فقيل لرسول الله

صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ ﴾ إنما أنت رجل أرسلت منذراً مخوفاً لهم من سوء العاقبة وناصحاً كغيرك من الرسل وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر وصحة ذلك حاصلة بأي آية كانت والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوى بها ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ من الأنبياء يهديهم إلى الدين ويدعوهم إلى الله بآية خص بها لا بما يريدون ويتحكمون.

(205/410)

﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ "ما" في هذه المواضع الثلاثة موصولة أي يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو من ذكورة وأنوثة وتمام وخداج وحسن وقبح وطول وقصر وغيره ذلك وما تغيضه الأرحام أي ويعلم ما تنقصه يقال غاض الماء وغضته أنا وما تزداده والمراد عدد الولد فإنها تشتمل على واحد واثنين وثلاثة وأربعة أو جسد الولد فإنه يكون تاماً ومخدجاً أو مدة الولادة فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عندنا وإلى أربع عند الشافعي وإلى خمس عند مالك أو مصدرية أي يعلم حمل كل أنثى ويعلم غيض الأرحام وازديادها ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ بقدر واحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه لقوله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [

القمر : 49]

﴿ عالم الغيب ﴾ ما غاب عن الخلق ﴿ والشهادة ﴾ ما شاهدوه ﴿ الكبير ﴾ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ﴿ المتعال ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته أو الذي كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها .

وبالياء في الحالين مكي ﴿ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ أي في علمه ﴿ وَمَنْ هو مستخفٍ بالّيْل ﴾ متوارٍ ﴿ وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ ذاهب في سربه أي في طريقه ووجهه يقال سرب في الأرض سروباً .

(206/410)

و ﴿ سارب ﴾ عطف على ﴿ من هو مستخف ﴾ لا على ﴿ مستخف ﴾ أو على ﴿ مستخف ﴾ غير أن ﴿ من ﴾ في معنى الاثنين والضمير في ﴿ لَهُ ﴾ مردود على ﴿ من ﴾ كأنه قيل لمن أسر ومن جهر ومن استخفى ومن سرب ﴿ معقبات ﴾ جماعات من الملائكة تعقب في حفظه والأصل معتقبات فأدغمت التاء في القاف أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه لأن بعضهم يعقب بعضاً أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه ﴿ مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي قدامه ووراءه ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ هما

صفتان جميعاً وليس من أمر الله بصلة للحفظ كأنه قيل له معقبات من أمر الله أو يحفظونه من أجل أمر الله أي من أجل أن الله تعالى أمرهم بحفظه أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من العافية والنعمة ﴿ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً ﴾ عذاباً ﴿ فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ﴾ فلا يدفعه شيء ﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ من دون الله ممن يلي أمرهم ويدفع عنهم.

﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمُ البرق خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ انتصبا على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع أو على ذا خوف وذا طمع أو من المخاطبين أي خائفين وطامعين والمعنى يخاف من وقوع الصواعق عند لمع البرق ويطمع في الغيث قال أبو الطيب

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجي . . .

يرجّى الحيا ومنه وتخشى الصواعق

(207/410)

أو يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر ومن له بيت يكف ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر ويطمع فيه من له نفع فيه ﴿ وَيُنْشِيءُ السحاب ﴾ هو اسم جنس

والواحدة سحابة ﴿ الثقال ﴾ بالماء وهو جميع ثقيلة ، تقول سحابة ثقيلة وسحاب ثقال

﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ ﴾ قيل يسبح سامعو الرعد من العباد الراجين للمطر أي

يصيحون بسبحان الله والحمد لله وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " " الرعد ملك

موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب" " والصوت الذي يسمع زجره

السحاب حتى ينتهي إلى حيث أمر ﴿ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ ويسبح الملائكة من هيبته

وإجلاله ﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء ﴾ الصاعقة : نار تسقط من السماء

لما ذكر علمه النافذ في كل شيء واستواء الظاهر والخفي عنده وما دل على قدرته الباهرة

ووحدانيته قال : ﴿ وَهُمْ يجادلون فِي الله ﴾ يعني الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه

وسلم يجادلون في الله حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعادة

الخلائق بقولهم : ﴿ مِنْ يحييا العظام وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] ويردون الوحدانية

باتخاذ الشركاء ويجعلونه بعض الأجسام بقولهم الملائكة بنات الله .

أو الواو للحال أي فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم وذلك أن أربد أخا لبيد بن ربيعة

العامري قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين

لقتله فرمى الله عامراً بغدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية وأرسل على أربد صاعقة

فقتله أخبرني عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد

﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ أي المماحلة وهي شدة المماكرة والمكايدة ومنه تمحل لكذا إذا

تكلف لاستعماله الحيلة واجتهد فيه ، ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه يأتيهم بالهلكة من يحث لا يحتسبون .

(208/410)

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾ أضيفت إلى الحق الذي هو ضد الباطل للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق وأنها بمعزل من الباطل والمعنى أن الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ويعطي الداعي سؤله فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقاً بأنه يوجه إليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه واتصال ﴿ شديد المحال ﴾ وله دعوة الحق بما قبله على قصة أربد ظاهر لأن إصابته بالصاعقة محال من الله ومكر به من حيث لم يشعر وقد دعا رسول الله عليه وعلى صاحبه بقوله : " اللهم اخسفهما بما شئت " فأجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق وعلى الأول وعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وإجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم إن دعا عليهم ﴿ والذين يَدْعُونَ ﴾ والآلهة الذين يدعوهم الكفار ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ من دون الله ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ﴾ من طلباتهم ﴿ إِلاَّ كباسط كَفَّيْهِ إِلَى الماء لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ الاستثناء من المصدر أي من الاستجابة التي دل عليها لا يستجيبون لأن

الفعل بحروفه يدل على المصدر وبصيغته على الزمان وبالضرورة على المكان والحال فجاز استثناء كل منها من الفعل فصار التقدير : لا يستجيبون استجابة إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء أي كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم .

واللام في ليبلغ متعلق ب ﴿ باسط كفيه ﴾ ﴿ وَمَا هُوَبِبَالِغِهِ ﴾ وما الماء ببالغ فاه ﴿ وَمَا دُعَاءُ الكافرين إِلاَّفِي ضلال ﴾ في ضياع لا منفعة فيه لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم

(209/410)

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ سجود تعبد وانقياد ﴿ طَوْعاً ﴾ حال يعني الملائكة والمؤمنين ﴿ وَكَرْهًا ﴾ يعني المنافقين والكافرين في حال الشدة والضيق ﴿ وظلالهم ﴾ معطوف على ﴿ من ﴾ جمع ظل ﴿ بالغدو ﴾ جمع غداة كقنىً وقناة ﴿ والآصال ﴾ جمع أصل أصيل .

قيل ظل كل شيء يسجد لله بالغدو والآصال ، وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كاره ، وظل

المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السماوات والأرض قُلِ الله ﴾ حكاية لاعترافهم لأنه إذا قال : لهم من رب السموات والأرض لم يكن لهم بد من أن يقولوا : الله ، دليله قراءة ابن مسعود وأبي ﴿ قالوا الله ﴾ أو هو تلقين أي فإن لم يجيبوا فلقنهم فإنه لا جواب إلا هذا ﴿ قُلْ أفاتخذتم مّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أبعد أن علمتموه رب السماوات والأرض اتخذتم من دونه آلهة ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرّاً ﴾ لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا ضرراً عنها فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب فما أبين ضلالتكم .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ أي الكافر والمؤمن أو من لا يبصر شيئاً ومن لا يخفى عليه شيء ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظلمات والنور ﴾ ملل الكفر والإيمان .

(210/410)

﴿ يستوي ﴾ كوفي غير حفص ﴿ أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ بل أجعلوا ومعنى الهمزة الإنكار ﴿ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ ﴾ خلقوا مثل خلقه وهو صفة ل ﴿ شركاء ﴾ أي أنهم لم يتخذوا الله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله ﴿ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ ﴾ فاشتبه عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه

فاستحقوا العبادة فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق ﴿ قُلِ اللهُ خالق كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي خالق الأجسام والأعراض لا خالق غير الله ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق فلا يكون له شريك في العبادة ، ومن قال إن الله لم يخلق أفعال الخلق وهم خلقوها فتشابه الخلق على قولهم ﴿ وَهُوَ الواحد ﴾ المتوحد بالربوبية ﴿ القهار ﴾ لا يغالب وما عداه مربوب ومقهور

﴿ أَنزَلَ ﴾ أي الواحد القهار وهو الله سبحانه ﴿ مِنَ السماء ﴾ من السحاب ﴿ مَآءً ﴾ مطراً ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ ﴾ جمع واد وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة وإنما نكر لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ بمقدارها الذي علم الله أنه نافع للممطور عليهم ضار ﴿ فاحتمل السيل ﴾ أي رفع ﴿ زَبَدًا ﴾ هو ما علا على وجه الماء من الرغوة والمعنى علاه زبد ﴿ رَّابِيًا ﴾ منتفخاً مرتفعاً على وجه السيل ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ ﴾ بالياء كوفي غير أبي بكر و"من" لابتداء الغاية أي ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء أو للتبعيض أي وبعضه زبد ﴿ فِي النار ﴾

حال من الضمير في عليه أي ومما توقدون عليه ثابتاً في النار ﴿ ابتغاء حِلْيَةٍ ﴾ مبتغين حلية فهو مصدر في موضع الحال من الضمير في توقدون ﴿ أَوْ متاع ﴾ من الحديد والنحاس والرصاص يتخذ منها الأواني وما يتمتع به في الحضر والسفر وهو معطوف على ﴿ حلية ﴾ أي زينة من الذهب والفضة ﴿ زَبَدٌ ﴾ خبث وهو مبتدأ ﴿ مّثْلُهُ ﴾ نعت له و ﴿ مما توقدون ﴾ خبر له أي لهذه الفلزّات إذا أغليت زبد مثل زبد الماء .

(212/410)

﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل ﴾ أي مثل الحق والباطل ﴿ فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ حال أي متلاشيا وهو ما تقذفه القدر عند الغليان والبحر عند الطغيان والجفء الرمي وجفأت الرجل صرعته ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس ﴾ من الماء والحلي والأواني ﴿ فَيَمْكُثُ فِي الأرض ﴾ فيثبت الماء في العيون والآبار والحبوب والثمار وكذلك الجواهر تبقى في الأرض مدة طويلة ﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ ليظهر الحق من الباطل وقيل هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفات وإن ذلك ماكث في الأرض

باقٍ بقاء ظاهراً يثبت الماء في منافعه وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة .

وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله بزبد السيل الذي يرمي به .

وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب .

قال الجمهور وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب والحق والباطل فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للأبدان والأدوية للقلوب .

ومعنى ﴿ بقدرها ﴾ بقدر سعة القلب وضيقه ، والزبد هواجش النفس ووساوس الشيطان ، والماء الصافي المنتفع به مثل الحق فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان ويبقى الحق كما هو وأما حلية الذهب والفضة فمثل للأحوال السنية والأخلاق الزكية وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للأعمال الممدة بالإخلاص المعدة للخلاص فإن الأعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب كما أن تلك الجواهر بعضها أداة النفع في الكسب وبعضها آلة الدفع في الحرب وأما الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل .

واللام في ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا ﴾ أي أجابوا متعلقة ب ﴿ يضرب ﴾ أي كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا ﴿ لِرَبِّهِمُ الحسنى ﴾ وهي صفة لمصدر ﴿ استجابوا ﴾ أي استجابوا الاستجابة الحسنى ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ أي للكافرين الذين لم يستجيبوا أي هما مثلاً الفريقين.

وقوله ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ ﴾ كلام مبتدأ في ذكر ما أعد لغير المستجيبين أي لو ملكوا أموال الدنيا وملكوا معها مثلها لبذلوه ليدفعوا عن أنفسهم عذاب الله والوجه أن الكلام قد تم على الأمثال وما بعده كلام مستأنف والحسنى مبتدأ خبره ﴿ للذين استجابوا ﴾ والمعنى لهم المثوبة الحسنى وهي الجنة ﴿ والذين لم يستجيبوا ﴾ مبتدأ خبره "لو" مع ما في حيزه ﴿ أولئك لَهُمْ سُوءُ الحساب ﴾ المناقشة فيه في الحديث " " من نوقش الحساب عذب" " ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ومرجعهم بعد المحاسبة النار ﴿ وَبِئْسَ المهاد ﴾ المكان الممهد والمذموم محذوف أي جهنم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 241 . 248 ﴾

وقال ابن جزي :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ ﴾

أي آيات هذه السورة ويحتمل أن يريد آيات الكتب على الإطلاق ، ويحتمل أن يريد القرآن على الإطلاق ، وهذا بعيد لتكرار القرآن بعد ذلك ﴿ والذي أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن وإعرابه مبتدأ وخبره الحق ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ أي بغير شيء تقف إلا قدرة الله ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ قيل : الضمير للسموات ، وترونها على هذا في موضع الحال أو استئنافاً ، وقيل : الضمير للعَمَد أي ليس لها عمد مرئية فيقتضي المفهوم من أن لها عَمداً لا تُرى ، وقال الجمهور : لا عمد لها البتة ، فالمراد نفي العمد ونفي رؤيتها ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العرش ﴾ ثم هنا لترتيب الأخبار ، لا لترتيب وقوع الأمر ، فإن العرش كان قبل خلق السموات ، وتقدّم الكلام على الاستواء في [الأعراف : 53] ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ يعني أمر الملكوت ﴿ يُفَصِّلُ الآيات ﴾ يعني آيات كتبه .

﴿ مَدَّ الأرض ﴾ يقتضي أنها بسيطة لا مكورة ، وهو ظاهر الشريعة ، وقد يترتب لفظ البسط والمدّ من التكوير ؛ لأن كل قطعة من الأرض ممدودة على حدتها ، وإنما التكوير لجملة الأرض ﴿ رواسى ﴾ يعني الجبال الثابتة ﴿ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ يعني صنفين من الثمر : كالأسود والأبيض ، والحلو والحامض ، فإن قيل : تقتضي الآية أنه تعالى خلق من كل ثمرة صنفين ، وقد خلق من كثير من الثمرات أصنافَ كثيرةً ، والجواب : أن ذلك زيادة في

الاعتبار ، وأعظم في الدلالة على القدرة ، فذكر الاثنين ، لأن دلالة غيرهما من باب أولى ، وقيل : إن الكلام تم في قوله : ﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ ثم ابتدأ بقوله : ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ﴾ يعني الذكر والأنثى والأول أحسن ﴿ يُغْشِى اليل النهار ﴾ أي يلبسه إياه فيصير له كالغشاء ، وذلك تشبيه .

﴿ قِطَعٌ متجاورات ﴾ يعني قطع متلاصقة مع تلاصقها ، فإن أرضها تتنوع إلى طيب ورديء وصلب ورخو ، وغير ذلك ، وكل ذلك دليل على الصانع المختار المريد القادر ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ الصنوان هي النخلات الكثيرة ، ويكون أصلها واحد وغير الصنوان المفترق فرداً فرداً ، وواحد الصنوان صنو ﴿ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأكل ﴾ حجة وبرهان على أنه تعالى قدير ومريد ، لأن اختلاف مذاقها وأشكالها وألوانها مع اتفاق الماء الذي تسقى به : دليل على القدرة والإرادة ، وفي ذلك ردّ على القائلين بالطبيعة .

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أي إن تعجب يا محمد فإن إنكارهم للبعث حقيق أن يتعجب منه ، فإن الذي قدر على إنشاء ما ذكرنا من السموات والأرض والثمار قادر على إنشاء الخلق بعد موتهم ، ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ هذا هو قول الكفار المنكرين للبعث ، واختلف القراء في هذا الموضع وفي سائر المواضع التي فيها استفهامان ، وهي أحد عشر موضعاً ، أولها هذا ، وفي الإسراء موضعان ، وفي المؤمنين موضع ، وفي النمل موضع ، وفي العنكبوت موضع ، وفي ألم السجدة موضع ، وفي الصافات موضعان وفي الواقعة موضع ، وفي النازعات موضع ، فمنهم من قرأ بالاستفهام في الأول والثاني ومنهم من قرأ بالاستفهام في الأول فقط وهو نافع ومنهم من قرأ بالاستفهام في الثاني فقط ، وأصل الاستفهام في المعنى ، وإنما هو عن الثاني في مثل هذا الموضع ، فإن همزة الاستفهام معناها الإنكار ، وإنما أنكروا أن يكونوا خلقاً جديداً ولم ينكروا أن يكونوا تراباً ، فمن قرأ بالاستفهام في الثاني فقط فهو على الأصل ومن قرأ بالاستفهام في الأول ، فالقصد بالاستفهام الثاني ، ومن قرأ بالاستفهام فيهما فذلك للتأكيد ﴿ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ يحتمل أن يريد الأغلال في الآخرة فيكون حقيقة ، أو يريد أنهم ممنوعون من الإيمان كقولك : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا في أعناقهم أغلالا ﴾ [يس : 8] ، فيكون مجازاً يجري مجرى الطبع والختم على القلوب .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أي بالنقمة قبل العافية ، والمعنى : أنهم طلبوا العذاب على وجه الاستخفاف ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ﴾ جمع مثلة على وزن ثمرة وهي العقوبة العظيمة التي تجعل الإنسان مثلاً ، والمعنى كيف يطلبون العذاب وقد أصابت العقوبات الأمم الذين كانوا قبلهم أفلا يخافون مثل ذلك ؟

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ يريد ستره وإمهاله في الدنيا للكفار والعصاة ، وقيل : يريد مغفرته لمن تاب ، والأول أظهر هنا .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية : اقترحوا نزول آية على النبي صلى الله عليه وسلم من نزول ملك معه أو شبه ذلك ، ولم يعتبروا بالقرآن ولا بغيره من الآيات العظام التي جاء بها ، وذلك منهم معاندة ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ أي إنما عليك إنذارهم ، وليس عليك أن تأتيهم بآية إنما ذلك إلى الله ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن يراد بالهادي الله تعالى ، فالمعنى إنما عليك الإنذار والله هو الهادي لمن يشاء إذا شاء ، والوجه الثاني : أن يريد بالهادي النبي صلى الله عليه وسلم ، فالمعنى إنما أنت نبي منذر ، ولكل قوم هاد من الأنبياء ينذرهم فليس أمرك ببدع ولا مستنكر . الثالث : رُوي أنها لما نزلت قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : أنا المنذر وأنت يا عليّ الهادي .

﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أنثى ﴾ كقوله : يعلم ما في الأرحام ، وهي من الخمس التي لا يعلمها إلا الله ، ويعني يعلم هل هو ذكر أو أنثى ، أو تام أو خداج ، أو حسن أو قبيح ، أو غير ذلك ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام وَمَا تَزْدَادُ ﴾ معنى تغيض تنقص ، ومعنى تزداد من الزيادة ، وقيل : إن الإشارة بدم الحيض فإنه يقل ويكبر وقيل : للولد فالغيض السقط ، أو الولادة لأقل من تسعة أشهر ، والزيادة إبقاؤه أكثر من تسعة أشهر ، ويحتمل أن تكون ما في قوله : ما تحمل وما تغيض وما تزداد : موصولة أو مصدرية .

(218/410)

﴿ سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ ﴾ المعنى إن الله يسمع كل شيء ، فالجهر والإسرار عنده سواء . وفي هذا وما بعده تقسيم ، وهو من أدوات البيان ، فإنه ذكر أربعة أقسام ، وفيه أيضاً مطابقة ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بالليل وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ المعنى ؛ سواء عند الله المستخفي بالليل وهو في غاية الاختفاء مع السارب بالنهار ، وهو في غاية الظهور ومعنى السارب : المتصرف في سربه بالفتح : أي في طريقه ووجهه ، والسارب والمستخفي اثنان قصد التسوية بينهما في اطلاع الله عليهما ، مع تباين حالهما ، وقيل : إن

المستخفي بالليل والسارب بالنهار : صفتان لموصوف بينهما في اطلاع الله عليهما مع تباين حالهما ، وقيل : إن المستخفي بالليل والسارب بالنهار : صفتان لموصوف واحد يستخفي بالليل ويظهر بالنهار ، ويعضد هذا كونه قال : وسارب ، فعطفه عطف الصفات ولم يقل ومن هو سارب بتكرار من كما قال ، من أسر القول ومن جهر به ، إلا أنَّ جَعْلهما اثنين أرجح ليقابل من أسر القول ومن جهر به ، فيكمل التقسيم إلى أربعة على هذا ، ويكون قوله : وسارب عطف على الجملة وهو قوله : ومن هو مستخف لا على مستخف وحده .

﴿ لَهُ معقبات ﴾ المعقبات هنا جماعة الملائكة ، وسميت معقبات لأن بعضهم يعقب بعضاً ، والضمير في له يعود على من المتقدّمة ، كأنه قال : لمن أسر ومن جهر ولمن استخفى ومن ظهر له معقبات ، وقيل : يعود على الله وهو قول ضعيف ؛ لأن الضمائر التي بعده تعود على العبد باتفاق ﴿ يَحْفَظُونَهُ ﴾ صفة للمعقبات ، وهذا الحفظ يحتمل أن يراد به حفظ أعماله أو حفظه وحراسته من الآفات ﴿ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ صفة للمعقبات أي معقبات من أجل أمر الله أي أمرهم بحفظه ، وقرئ بأمر الله ، وهذه القراءة تعضد ذلك ، ولا يتعلق من

أمر الله على هذا ليحفظونه ، وقيل : يتعلق به على أنهم يحفظونه من عقوبة الله إذا أذنب بدعائهم له واستغفارهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من العافية والنعم ﴿ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ بالمعاصي ، فيقتضي ذلك أن الله لا يسلب النعم ، ولا يترك النقم إلا بالذنوب .

﴿ يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ الخوف يكون من البرق من الصواعق والأمور الهائلة ، والطمع في المطر الذي يكون معه ﴿ السحاب الثقال ﴾ وصفها بالثقل ، لأنها تحمل الماء ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ ﴾ الرعد اسم ملك وصوته المسموع تسبيح ، وقد جاء في الأثر : أن صوته زجر للسحاب ، فعلى هذا يكون تسبيحه غير ذلك ﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق ﴾ قيل : إنه إشارة إلى الصاعقة التي نزلت على أربد [بن ربيعة] الكافر ، وقتلته حين هم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم هو وأخوه عامر بن الطفيل واللفظ أعم من ذلك ﴿ وَهُمْ يجادلون فِي الله ﴾ يعني الكفار ، والواو للاستئناف أو للحال ﴿ شَدِيدُ المحال ﴾ أي شديد القوة ، والمحال مشتق من الحيلة ، فالميم زائدة ، ووزنه مفعل ، وقيل : معناه شديد المكر من قولك : محل بالرجل إذا مكر به ، فالميم على هذا أصلية ووزنه فعال وتأويل المكر على هذا القول كتأويله في المواضع التي وردت في القرآن .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾ قيل : هي لا إله إلا الله ، والمعنى أن دعوة العباد بالحق لله ودعوتهم بالباطل لغيره ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ﴾ يعني بالذين : ما عبدوا من دون الله من الأصنام وغيرهم ، والضمير في يدعون للكفار ، والمعنى أن المعبودين لا يستجيبون لمن عبدهم ﴿ إِلاَّ كَباسط كَفَّيْهِ إِلَى المآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ ببالغه ﴾ شبَّه إجابة الأصنام لمن عبدهم بإجابة الماء لمن بسط إليه كفيه ، وأشار إليه بالإقبال إلى فيه ، ولا يبلغ فمه على هذا أبداً ؛ لأن الماء جماد لا يعقل المراد ، فكذلك الأصنام ، والضمير في قوله : وما هو الماء ، وفي ببالغة للفم .

﴿ وَللَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السموات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ من لا تقع إلا على من يعقل ، فهي هنا يراد بها الملائكة والإنس والجن ، فإذا جعلنا السجود بمعنى الانقياد لأمر الله وقضائه ؛ فهو عام في الجميع : من شاء منهم ومن أبى ، ويكون طوعاً لمن أسلم وكرها لمن كره وسخط ، وإن جعلنا السجود هو المعروف بالجسد ، فيكون لسجود الملائكة والمؤمنين من الإنس والجن طوعاً ، وأما الكره فهو سجود المنافق وسجود ظل الكافر ﴿ وظلالهم ﴾ معطوف على من والمعنى أن الظلال تسجد غدوة وعشية ، وسجودها انقيادها للتصرف بمشيئة الله سبحانه وتعالى ﴿ قُلِ الله ﴾ جواب عن السؤال المتقدم ، وهو من رب السموات والأرض ، وإنما جاء الجواب والسؤال من جهة واحدة ، لأنه أمر

واضح لا يمكن جحده ولا المخالفة فيه ، ولذلك أقام به الحجة على المشركين بقوله : ﴿ أفاتخذتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ .

(221/410)

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ الأعمى تمثيل للكافر ، والبصير تمثيل للمؤمن ﴿ الظلمات ﴾ الكفر ﴿ والنور ﴾ الإيمان ، وذلك كله على وجه التشبيه والتمثيل ﴿ أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ ﴾ أم هنا بمعنى بل والهمزة ، وخلقوا صفة لشركاء والمعنى : أن الله وقفهم [سألهم] هل خلق شركاؤهم خلقاً كخلق الله ، فحملهم ذلك واشتباهه بما خلق الله على أن جعلوا إلهاً غير الله ؟ ثم أبطل ذلك بقوله : ﴿ قُلِ الله خالق كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فحصل الردّ عليهم .

(222/410)

﴿ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ الآية : هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه ، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأودية ، وينتفع

به أهل الأرض ، وبالذهب والفضة والحديد والصفر [النحاس] وغيرها من المعادن التي ينتفع بها الناس ، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله وزواله بالزبد الذي يربى به السيل ويريد تلك المعادن التي يطفو فوقها إذا أذيبت ، وليس في الزبد منفعة ، وليس له دوام ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ يحتمل أن يريد ما قدر لها من الماء ، ويحتمل أن يريد بقدر ما تحتمله على قدر صغرها وكبرها ﴿ زَبَداً رَّابِياً ﴾ الزبد ما يحمله السيل من غثاء ونحوه ، والرابي المنتفخ الذي ربا ومنه الربوة ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ ﴾ المجرور في موضع خبر المقدم ، والمبتدأ زبدٌ مثله : أي ينشأ من الأشياء التي يوقد عليها زبد السيل ﴿ ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ متاع ﴾ الذي يوقد عليه ابتغاء الحلي : هو الذهب والفضة ، والذي يوقد عليه ابتغاء متاع هو الحديد والرصاص والنحاس والصفر وشبه ذلك ، والمتاع ما يستمتع الناس به في مرافقهم وحوائجهم ﴿ يَضْرِبُ الله الحق والباطل ﴾ أي يضرب أمثال الحق والباطل ﴿ جُفَآءً ﴾ يجفاه السيل ، أي يرمي به ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض ﴾ يريد الخالص من الماء ومن تلك الأحجار .

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الحسنى ﴾ الذين استجابوا هم المؤمنون ، وهذا استئناف كلام ، والحسنى : الجنة ، وإعرابها مبتدأ وخبرها : للذين استجابوا ، والذين استجابوا مبتدأ وخبره لو أن لهم ما في الأرض الآية فيوقف على الأمثال ، وعلى الحسنى ، وقيل : للذين استجابوا يتعلق بيضرب ، والحسنى مصدر من معنى استجابوا : أي استجابوا الاستجابة الحسنى ، والذين لم يستجيبوا معطوف على الذين استجابوا ، والمعنى : يضرب الله الأمثال للطائفتين ، وعلى هذا إنما يوقف على : والذين لم يستجيبوا له ﴿ سوء الحساب ﴾ أي المناقشة والاستقصاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 129 . 134﴾

(224/410)

وقال البيضاوى

سورة الرعد

قيل مكية إلا قوله : ﴿ ويقول الذين كفروا . . . الآية ﴾ وهي ثلاث وأربعون آية .

﴿ المر ﴾ قيل معناه أنا الله أعلم وأرى . ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب ﴾ يعني بالكتاب السورة و﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى آياتها أي : تلك الآيات آيات السورة الكاملة أو القرآن . ﴿ والذى

أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ هو القرآن كله ومحله الجر بالعطف على ﴿ الكتاب ﴾ عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى ، أو الرفع بالابتداء وخبره ﴿ الحق ﴾ والجملة كالحجة على الجملة الأولى ، وتعريف الخبر وإن دل على اختصاص المنزل بكونه حقاً فهو أعم من المنزل صريحاً أو ضمناً ، كالمثبت بالقياس وغيره مما نطق المنزل بحسن اتباعه . ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه .

(225/410)

﴿ الله الذى رَفَعَ السموات ﴾ مبتدأ وخبر ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبر ﴿ يُدَبّرُ الأمر ﴾ . ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ أساطين جمع عماد كإهاب وأهب ، أو عمود كأديم وأدم وقرىء ﴿ عَمَدٍ ﴾ كرسل . ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ صفة ل ﴿ عَمَدٍ ﴾ أو استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك ، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم فإن ارتفاعها على سائر الأجسام السماوية لها في حقيقة الجرمية ، واختصاصها بما يقتضي ذلك لا بد وأن يكون بمخصص ليس بجسم ولا جسماني يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات . ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ بالحفظ والتدبير . ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ ذللهما لما أراد منهما كالحركة المستمرة على حد

من السرعة ينفع في حدوث الكائنات وبقائها . ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره ، أو لغاية مضروبة ينقطع دونها سيره وهي ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ أمر ملكوته من الايجاد والإِعدام والإِحياء والإِماتة وغير ذلك . ﴿ يُفَصِّلُ الآيات ﴾ ينزلها ويبينها مفصلة أو يحدث الدلائل واحداً بعد واحد . ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ لكي تتفكروا فيها وتتحققوا كمال قدرته فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قدر على الإِعادة والجزاء .

﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ الأرض ﴾ بسطها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدام ويتقلب عليها الحيوان . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت من رسا الشيء إذا ثبت ، جمع راسيه والتاء للتأنيث على أنها صفة أجبل أو للمبالغة . ﴿ وأنهارا ﴾ ضمها إلى الجبال وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها . ﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ متعلق بقوله : ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ أي وجعل فيها من جمع أنواع الثمرات صنفين اثنين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض والصغير والكبير . ﴿ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ يلبسه مكانه فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر "يُغَشِّي"

بالتشديد . ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيها فإن تكونها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم دبر أمرها وهيأ أسبابها .

(227/410)

﴿ وَفِى الأرض قِطَعٌ متجاورات ﴾ بعضها طيبة وبعضها سبخة ، وبعضها رخوة وبعضها صلبة ، وبعضها تصلح للزرع دون الشجر وبعضها بالعكس . ولولا تخصيص قادر موقع لأفعاله على وجه دون وجه لم تكن كذلك ، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية وما يلزمها ويعرض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية ، من حيث أنها متضامة متشاركة في النسب والأوضاع . ﴿ وجنات مّنْ أعناب وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ وبساتين فيها أنواع الأشجار والزروع ، وتوحيد الزرع لأنه مصدر في أصله . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ وجنات ﴾ . ﴿ صنوان ﴾ نخلات أصلها واحد . ﴿ وَغَيْرُ صنوان ﴾ متفرقات مختلفات الأصول . وقرأ حفص بالضم وهو لغة بني تميم ك ﴿ قنوان ﴾ في جمع قنو . ﴿ تُسْقَى بِمَاء واحد وَنُفَضّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِى الأكل ﴾ في التمر شكلاً وقدراً ورائحة وطعماً ، وذلك أيضاً مما يدل على الصانع الحكيم ، فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادر

مختار . وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب "يسقى" بالتذكير على تأويل ما ذكر ، وحمزة والكسائي يفضل بالياء ليطابق قوله ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم بالتفكر ﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾ يا محمد من إنكارهم البعث . ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ حقيق بأن يتعجب منه فإن من قدر على إنشاء ما قص عليك كانت الإِعادة أيسر شيء عليه ، والآيات المعدودة كما هي دالة على وجود المبدأ فهي دالة على إمكان الإِعادة من حيث إنها تدل على كمال علمه وقدرته وقبول المواد لأنواع تصرفاته .

﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بدل من قولهم أو مفعول له ، والعامل في إذا محذوف دل عليه : ﴿ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ . ﴿ أُوْلَئِكَ الذين كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ ﴾ لأنهم كفروا بقدرته على البعث . ﴿ وَأُوْلَئِكَ الأغلال فِى

(228/410)

أعناقهم ﴾ مقيدون بالضلال لا يرجى خلاصهم أو يغلون يوم القيامة . ﴿ وَأُوْلَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ لا ينفكون عنها ، وتوسيط الفصل لتخصيص الخلود بالكفار .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ بالعقوبة قبل العافية ، وذلك لأنهم استعجلوا ما

هددوا به من عذاب الدنيا استهزاء . ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ﴾ عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لم يعتبروا بها ولم يجوزوا حلول مثلها عليهم ، والمثلة بفتح الثاء وضمها كالصَدُقَة والصُدْقَة ، العقوبة لأنها مثل المعاقب عليه ، ومنه المثال للقصاص وأمثلت الرجل من صاحبه إذا اقتصصته منه . وقرىء ﴿ المثلات ﴾ بالتخفيف و ﴿ المثلات ﴾ بإتباع الفاء العين و ﴿ المثلات ﴾ بالتخفيف بعد الاتباع ، و ﴿ المثلات ﴾ بفتح الثاء على أنها جمع مثلة كركبة وركبات . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ مع ظلمهم أنفسهم ، ومحله النصب على الحال والعامل فيه المغفرة والتقييد به دليل على جواز العفو قبل التوبة ، فإن التائب ليس على ظلمه ، ومن منع ذلك خص الظلم بالصغائر المكفرة لمجتنب الكبائر ، أو أول المغفرة بالستر والإمهال . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ للكفار أو لمن شاء ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " لولا عفو الله وتجاوزه لما هنأ أحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد " .

(229/410)

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ لعدم اعتدادهم بالآيات المنزلة عليه واقتراحاً لنحو ما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام . ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ مرسل

للإنذار كغيرك من الرسل وما عليك إلا الإتيان بما تصح به نبوتك من جنس المعجزات لا بما يقترح عليك. ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ نبي مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصواب، أو قادر على هدايتهم وهو الله تعالى لكن لا يهدي إلا من يشاء هدايته بما ينزل عليك من الآيات. ثم أردف ذلك بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره، تنبيهاً على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه وإنما لم ينزل لعلمه بأن اقتراحهم للعناد دون الاسترشاد، وأنه قادر على هدايتهم وإنما لم يهدهم لسبق قضائه بالكفر فقال:

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾ أي حملها أو ما تحمله على أي حال هو من الأحوال الحاضرة والمترقبة. ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام وَمَا تَزْدَادُ ﴾ وما تنقصه وما تزداده في الجنة والمدة والعدد، وأقصى مدة الحمل أربع سنين عندنا وخمس عند مالك وسنتان عند أبي حنيفة. روي أن الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان لأربع سنين وأعلى عدده لا حد له. وقيل نهاية ما عرف به أربعة وإليه ذهب أبو حنيفة رضي الله عنه، وقال الشافعي رحمه الله أخبرني شيخ باليمن أن امرأته ولدت بطوناً في كل بطن خمسة. وقيل المراد نقصان دم

الحيض وازدياده، وغاض جاء متعدياً ولازماً وكذا ازداد قال تعالى: ﴿ وازدادوا تِسْعًا ﴾ فإن جعلتهما لازمين تعين إما أن تكون مصدرية. وإسنادهما إلى الأرحام على المجاز فإنهما لله تعالى أو لما فيها. ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ بقدر لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين، وهيأ له أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك. وقرأ ابن كثير ﴿ هَادٍ ﴾ ﴿ ووالٍ ﴾ و﴿ وواق ﴾ ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ بالتنوين في الوصل فإذا وقف وقف بالياء في هذه الأحرف الأربعة حيث وقعت لا غير، والباقون يصلون ويقفون بغير ياء.

﴿ عالم الغيب ﴾ الغائب عن الحس. ﴿ والشهادة ﴾ الحاضر له. ﴿ الكبير ﴾ العظيم الشأن الذي لا يخرج عن علمه شيء. ﴿ المتعال ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه.

﴿ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول ﴾ في نفسه. ﴿ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ لغيره. ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ ﴾ طالب للخفاء في مختبأ بالليل. ﴿ وَسَارِبٌ ﴾ بارز. ﴿ بالنهار ﴾ يراه كل أحد من سرب سروباً إذا برز، وهو عطف على من أو مستخف على أن من في معنى الإثنين كقوله:

نكن مثل من يا ذئب يصطحبان . . . كأنه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار ، والآية متصلة بما قبلها مقررة لكمال علمه وشموله .

﴿ لَهُ ﴾ لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب . ﴿ معقبات ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه ، جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه إذا جاء على عقبه كأن بعضهم يعقب بعضاً ، أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها ، أو اعتقب فأدغمت التاء في القاف والتاء للمبالغة ، أو لأن المراد بالمعقبات جماعات . وقرىء "مَعَاقِيبُ" جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من حذف إحدى القافين . ﴿ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ من جوانبه أو من الأعمال ما قدم وأخر . ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ من بأسه متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له ، أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى . وقد قرىء به وقيل من بمعنى الباء . وقيل من أمر الله صفة ثانية ل ﴿ معقبات ﴾ . وقيل المعقبات الحرس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من العافية والنعمة . ﴿ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ﴾ فلا راد له فالعامل في ﴿ إِذَا ﴾ ما دل عليه الجواب . ﴿ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ ممن يلي أمرهم فيدفع عنهم السوء ، وفيه دليل على أن خلاف مراد الله تعالى محال .

(232/410)

﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ البرق خَوْفًا ﴾ من أذاه . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في الغيث وانتصابهما على العلة بتقدير المضاف ، أي إرادة خوف وطمع أو التأويل بالإخافة والإطماع ، أو الحال من ﴿ البرق ﴾ أو المخاطبين على إضمار ذو ، أو إطلاق المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة . وقيل يخاف المطر من يضره ويطمع فيه من ينفعه . ﴿ وَيُنْشِىءُ السحاب ﴾ الغيم المنسحب في الهواء . ﴿ الثقال ﴾ وهو جمع ثقيلة وإنما وصف به السحاب لأنه اسم جنس في معنى الجمع .

(233/410)

﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد ﴾ ويسبح سامعوه . ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ ملتبسين به فيضجون بسبحان الله والحمد لله ، أو يدل الرعد بنفسه على وحدانية الله وكمال قدرته ملتبساً بالدلالة على فضله ونزول رحمته . وعن ابن عباس رضي الله عنهما . سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد فقال : " ملك موكل بالسحاب معه مخازين من نار يسوق بها السحاب " ﴿

والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ من خوف الله تعالى وإجلاله وقيل الضمير ل ﴿ الرعد ﴾ . ﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ فيهلكه . ﴿ وَهُمْ يجادلون فِى الله ﴾ حيث يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم ، والجدال التشدد في الخصومة من الجدل وهو الفتل ، والواو إما لعطف الجملة على الجملة أو للحال فإنه روي أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين لقتله ، فأخذه عامر بالمجادلة ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف ، فتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة فقتلته ، ورمى عامراً بغدة فمات في بيت سلولية ، وكان يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية ، فنزلت . ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ المماحلة المكايدة لأعدائه ، من محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك ، ومنه تمحل إذا تكلف استعمال الحيلة ، ولعل أصله المحل بمعنى القحط . وقيل فعال من المحل بمعنى القوة . وقيل مفعل من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على أنه مفعل من حال يحول إذا احتال ، ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلاً في القوة والقدرة كقولهم : فساعد الله أشد وموساه أحد .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾ الدعاء الحق فإنه الذي يحق أن يعبد ويدعى إلى عبادته دون غيره ، أو له الدعوة المجابة فإن من دعاه أجابه ، ويؤيده ما بعده و﴿ الحق ﴾ على الوجهين ما يناقض الباطل وإضافة ال ﴿ دَعْوَةُ ﴾ لما بينهما من الملابسة ، أو على تأويل دعوة المدعو الحق . وقيل ﴿ الحق ﴾ هو الله تعالى وكل دعاء إليه دعوة الحق ، والمراد بالجملتين إن كانت الآية في أربد وعامر أن إهلاكهما من حيث لم يشعرا به محال من الله إجابة لدعوة رسوله صلى الله عليه وسلم أو دلالة على أنه على الحق ، وإن كانت عامة فالمراد وعيد الكفرة على مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وتهديدهم بإجابة دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم ، أو بيان ضلالهم وفساد رأيهم . ﴿ والذين يَدْعُونَ ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون ، فحذف الراجع أو والمشركون الذين يدعون الأصنام فحذف المفعول لدلالة . ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ عليه . ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ من الطلبات . ﴿ إِلاَّ كباسط كَفَّيْهِ ﴾ إلا استجابة كاستجابة من بسط كفيه . ﴿ إِلَى الماء لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ يطلب منه أن يبلغه . ﴿ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ لأنه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على إجابته والإتيان بغير ما جبل عليه وكذلك آلهتهم . وقيل شبهوا في قلة جدوى دعائهم لها بمن أراد أن يغترف الماء ليشربه فبسط كفيه ليشربه . وقرىء

"تدعون" بالتاء وباسط بالتنوين. ﴿ وَمَا دُعَاءُ الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ في ضياع وخسار وباطل.

(235/410)

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السموات والأرض طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ يحتمل أن يكون السجود على حقيقته فإنه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين، طوعاً حالتي الشدة والرخاء والكفرة كرهاً حال الشدة والضرورة. ﴿ وظلالهم ﴾ بالعرض وأن يراد به انقيادهم لإحداث ما أراده منهم شاؤوا أو كرهوا، وانقياد ظلالهم لتصريفه إياها بالمد والتقليص وانتصاب ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ بالحال أو العلة وقوله: ﴿ بالغدو والآصال ﴾ ظرف ل ﴿ يَسْجُدُ ﴾ والمراد بهما الدوام أو حال من الظلال، وتخصيص الوقتين لأن الظلال إنما تعظم وتكثر فيهما، والغدو جمع غداة كقنى جمع قناة، و ﴿ الآصال ﴾ جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل الغدو مصدر ويؤيده أنه قد قرىء و ﴿ الإِيصال ﴾ وهو الدخول في الأصيل.

(236/410)

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السموات والأرض ﴾ خالقهما ومتولي أمرهما . ﴿ قُلِ الله ﴾ أجب عنهم بذلك إذ لا جواب لهم سواه ، ولأنه البين الذي لا يمكن المراء فيه أو لقنهم الجواب به . ﴿ قُلْ أفاتخذتم مّن دُونِهِ ﴾ ثم ألزمهم بذلك لأن اتخاذهم منكر بعيد عن مقتضى العقل . ﴿ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرّاً ﴾ لا يقدرون على أن يجلبوا إليها نفعاً أو يدفعوا عنها ضراً فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضر عنه ، وهو دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء رجاء أن يشفعوا لهم . ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأعمى والبصير ﴾ المشرك الجاهل بحقيقة العبادة والموجب لها والموحد العالم بذلك . وقيل المعبود الغافل عنكم والمعبود المطلع على أحوالكم . ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظلمات والنور ﴾ الشرك والتوحيد . وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالياء . ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ بل أجعلوا والهمزة للإنكار وقوله : ﴿ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ ﴾ صفة لشركاء داخلة في حكم الإنكار . ﴿ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ ﴾ خلق الله وخلقهم ، والمعنى أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها ، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً عما يقدر عليه الخالق . ﴿ قُلِ الله خالق كُلّ شَىْءٍ ﴾ أي لا خالق غيره فيشاركه في العبادة ،

جعل الخلق موجب العبادة ولازم استحقاقها ثم نفاه عمن سواه ليدل على قوله : ﴿ وَهُوَ الواحد ﴾ المتوحد بالألوهية . ﴿ القهار ﴾ الغالب على كل شيء .

(237/410)

﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً ﴾ من السحاب أو من جانب السماء أو من السماء نفسها فإن المبادىء منها . ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ ﴾ أنهار جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه ، واستعمل للماء الجاري فيه وتنكيرها لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع . ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار أو بمقدارها في الصغر والكبر . ﴿ فاحتمل السيل زَبَدًا ﴾ رفعه والزبد وضر الغليان . ﴿ رَّابِيًا ﴾ عالياً . ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النار ﴾ يعم الفلزات كالذهب والفضة والحديد والنحاس على وجه التهاون بها إظهاراً لكبريائه . ﴿ ابتغاء حِلْيَةٍ ﴾ أي طلب حلى . ﴿ أَوْ متاع ﴾ كالأواني وآلات الحرب والحرث ، والمقصود من ذلك بيان منافعها . ﴿ زَبَدٌ مّثْلُهُ ﴾ أي ومما يوقدون عليه زبد مثل زبد الماء وهو خبثه ، و ﴿ مِنْ ﴾ للابتداء أو للتبعيض وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء على أن الضمير للناس وإضماره للعمل به . ﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل ﴾ مثل الحق والباطل فإنه مثل الحق في إفادته وثباته

بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به أنواع المنافع ، ويمكث في الأرض بأن يثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار ، وبالفلز الذي ينتفع به في صوغ الحلى واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة ، والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما وبين ذلك بقوله : ﴿ فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ يجفأ به أي يرمي به السبيل والفلز المذاب وانتصابه على الحال وقرىء جفالاً والمعنى واحد . ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس ﴾ كالماء وخلاصة الفلز . ﴿ فَيَمْكُثُ فِى الأرض ﴾ ينتفع به أهلها . ﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ لايضاح المشتبهات .

(238/410)

﴿ لِلَّذِينَ استجابوا ﴾ للمؤمنين الذين استجابوا . ﴿ لِرَبِّهِمُ الحسنى ﴾ الإستجابة الحسنى . ﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ ﴾ وهم الكفرة واللام متعلقة بيضرب على أنه جعل ضرب المثل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما . وقيل للذين استجابوا خبر الحسنى وهي المثوبة أو الجنة والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره . ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ ﴾ وهو على الأول كلام مبتدأ لبيان مآل غير المستجيبين . ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ

سُوءُ الحساب ﴾ وهو المناقشة فيه بأن يحاسب الرجل بذنبه لا يغفر منه شيء . ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ مرجعهم . ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد ﴾ المستقر والمخصوص بالذم محذوف .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 315 . 326 ﴾

(239/410)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

سورة الرعد

مكية إلا ﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ الآية ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً ﴾ الآية أو مدنية إلا ﴿ ولو أنّ قرآنا سيرت به الجبال ﴾ وهي ثلاث أو أربع أو خمس أو ست وأربعون آية وعدد كلماتها وخمس وخمسون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وسبعة أحرف .

﴿ بسم الله ﴾ الحق الذي كل ما عداه باطل ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ الرغبة والرهبة بعموم الرحمة ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص من شاء بما يرضاه عظيم الرهبة .

﴿ المر ﴾ قال ابن عباس معناه أنا الله أعلم وأرى . وقال في رواية عطاء : أنا الله الملك الرحمن . وقد تقدم الكلام على شيء من أوائل السور في أوّل سورة البقرة ، وقرأ قالون وابن كثير وحفص بالفتح ، وقرأ ورش بين بين والباقون بالإمالة ﴿ تلك ﴾ ، أي : هذه الآيات

﴿ آيات الكتاب ﴾ ، أي : القرآن ، والإضافة بمعنى من ، وقيل : المراد بالكتاب السورة الكاملة ، ووصفت بالكمال من تعريف الكتاب بأل ؛ لأنّ خبر المبتدأ إذا عرف بلام الجنس أفاد المبالغة ، وقوله تعالى : ﴿ والذي أنزل إليك من ربك ﴾ ، أي : القرآن مبتدأ وخبره ﴿ الحق ﴾ ، أي : الموضوع كل شيء منه في موضعه على ما تدعو إليه الحكمة الواضح الذي لا يتخلف شيء منه عن مطابقة الواقع من بعث ولا غيره ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ ، أي : مشركي مكة ﴿ لا يؤمنون ﴾ لإخلالهم بالنظر والتأمّل فيه .

قال مقاتل : نزلت في مشركي مكة حين قالوا : إنّ محمداً يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بذلك . ولما ذكر تعالى أنّ ﴿ أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ ذكر عقبه ما يدلّ على صحة التوحيد والمعاد بأمور أحدها قوله تعالى:

﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ﴾ ، أي : سواري جمع عمود كأدم وأديم أو عماد كأهب وإهاب ، والعمود جسم مستطيل يمنع المرتفع أن يميل ، وقوله جمع عمود كأدم وأديم الخ في "حاشية الجمل" : والعامة على فتح العين والميم وهو اسم جمع وعبارة بعضهم أنه جمع نظراً إلى المعنى دون الصناعة وقرأ أبو حيوة ويحيى بن وثاب عمد بضمتين ومفرده يحتمل

أن يكون عماداً كشهاب وشهب وكتاب وكتب وأن يكون عموداً كرسول ورسل اه .

﴿ ترونها ﴾ ، أي : وأنتم ترون السماء مرفوعة بغير عمد من تحتها تسندها ولا من فوقها علاقة تمسكها ، فالعمد منفية بالكلية ، قال إياس بن معاوية : السماء مقبية على الأرض مثل القبة ففي ذلك دلالة عظيمة على وحدانية الله تعالى ؛ لأنّ هذه الأجسام العظيمة بقيت واقفة في الجوّ العالي ، ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لأعيانها ولذاتها فهذا برهان باهر على وجود الإله القادر القاهر ، وقيل : الضمير راجع إلى العمد ، أي : أن لها عمداً ولكن لا ترونها أنتم ، ومن قال بهذا القول يقول : أن عمدها على جبل قاف وهو جبل من زمرّد محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة ، قال الرازي : وهذا التأويل في غاية السقوط ، لأنّ السموات لما كانت مستقرّة على جبل قاف فأي دلالة تبقى فيها على وجود الإله .

تنبيه : الله مبتدأ ، والذي رفع السموات خبره ، ويجوز أن يكون الموصول صفة ، والخبر يدبر الأمر .

ثانيها : قوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ بالحفظ والتدبير والقهر والقدرة ، أي : أنّ من فوق العرش إلى ما تحت الثرى في حفظه وتدبيره وفي الاحتياج إليه وتقدّم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما فيه كفاية .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وسخر ﴾ ، أي : ذلل ﴿ الشمس والقمر ﴾ لمنافع خلقه مقهوران يجريان على ما يريد ﴿ كل ﴾ منهما ﴿ يجري ﴾ في فلكه ﴿ لأجل مسمى ﴾ ، أي : إلى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها وعند مجيء ذلك الوقت تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك التسييرات ، كما وصف الله تعالى ذلك في قوله ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ (التكوير ،) ، ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ (التكوير ،) ، ﴿ وإذا السماء انشقت ﴾ (الإنشقاق ،) ، ﴿ وإذا السماء انفطرت ﴾ (التكوير ،) وعن ابن عباس للشمس وثمانون منزلاً كل يوم لها منزل وذلك يتمّ في ستة أشهر ثم أنها تعود مرّة أخرى إلى واحد واحد منها في ستة أشهر مرّة أخرى ، وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلاً ، فالمراد بقوله تعالى : ﴿ كل يجري لأجلٍ مسمى ﴾ هذا ، وتحقيقه أنه تعالى قدّر لكل واحد من تلك الكواكب سيراً إلى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء ، وحينئذ يلزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك . ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال : ﴿ يدبر الأمر ﴾ ، أي : يقضي أمر ملكه من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار ، ويدخل فيه إنزال الوحي وبعثة الرسل ، وتكليف العباد ، وفي ذلك دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك ؛ لأنّ هذا العالم المعلوم من إعلاء العرش إلى ما تحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها إلا الله عز وجل ، والدليل المذكور على أنّ

اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس إلا من الله تعالى ، ومن المعلوم أنّ من اشتغل بتدبير شيء آخر فإنه يشغله شأن ، عن شأن فالعاقل إذا تأمّل في هذه الآية علم أنه تعالى يدبر عالم الأجساد وعالم الأرواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير ، فلا يشغله شأن عن شأن ، ولا يمنعه تدبير عن تدبير ، وذلك يدل على أنه تعالى متعال في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته عن مشابهة المحدثات والممكنات .

(242/410)

ولما كان هذا بياناً شافياً لا لبس فيه قال تعالى : ﴿ يفصل ﴾ ، أي : يبين ﴿ الآيات ﴾ التي برزت إلى الوجود وتديرها الدالة على وحدانيته وكمال حكمته المشتملة عليها مبتدعاته فيفرقها ويباين بينها مباينة لا لبس فيها تقريبا لعقولكم وتدريباً لفهومكم لتعلموا أنها فعل الواحد المختار .

ولما كان هذا التدبير وهذا التفصيل دالاً على تمام القدرة وغاية الحكمة وكان البعث لفصل القضاء والحكم بالعدل وإظهار العظمة هو محط الحكمة علل ذلك بقوله ﴿ لعلكم ﴾ يا أهل مكة ﴿ بلقاء ربكم ﴾ بالبعث ﴿ توقنون ﴾ فتعلموا أنّ من قدر على خلق هذه الأشياء وتديرها على عظمتها وكثرتها قادر على إيجاد الإنسان وإحيائه بعد موته ،

يروى أنّ واحداً قال لعليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : أنه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة ، فقال : كما يرزقهم الآن دفعة واحدة ، وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة ، وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية والنيرات الكوكبية في الجوّ العالي لا يبعد أن يرد الأرواح إلى الأجساد ، وإن كان الخلق عاجزين عنه ، وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش إلى ما تحت الثرى لا يشغله شأن ، عن شأن فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن .

تنبيه : اليقين صفة من صفات العلم ، وهي فوق المعرفة ، والدراية وهي سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك . ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته من رفع السماء بغير عمد وأحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الأرضية بقوله تعالى : ﴿ وهو الذي مدّ الأرض ﴾ ، أي : بسطها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدام ويتقلب عليها الحيوان ولو شاء لجعلها كالجدار والأزج لا يستطاع القرار عليها هذا إذا قلنا أنّ الأرض مسطحة لا كرة ، وعند أصحاب الهيئة أنها كرة فكيف يقولون بذلك ومدّ الأرض ينافي كونها كرة ، كما ثبت بالدليل ؟

أجيب : بأنّ الأرض جسم عظيم والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح كما أنّ الله تعالى جعل الجبال أوتاداً مع أنّ العالم من الناس يستقرّون عليها ، فكذلك ومع هذا فالله تعالى قد أخبر أنه مدّ الأرض ودحاها وبسطها ، وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلاً وأبين دليلاً من أصحاب الهيئة هذا هو الدليل الأوّل من الدلائل الأرضية .

الثاني منها قوله : ﴿ وجعل ﴾ ، أي : وخلق ﴿ فيها ﴾ ، أي : الأرض ﴿ رواسي ﴾ ، أي : جبالاً ثوابت واحدها راسية ، أي : ثابتة باقية في حيزها غير منتقلة عن مكانها لا تتحرّك ولا يتحرك ما هي راسية فيه وهذا لا بدّ وأن يكون بتخليق القادر الحكيم قال ابن عباس : أوّل جبل وضع على وجه الأرض جبل أبي قبيس ولما غلب على الجبال وصفها بالرواسي صارت الصفة تغني عن الموصوف ، فجمعت جمع الاسم كحائط وكاهل قاله أبو حيان .

الثالث منها قوله تعالى : ﴿ وأنهاراً ﴾ ، أي : وجعل في الأرض أنهاراً جارية لمنافع الخلق ، والنهر المجرى الواسع من مجاري الماء ، وأصله الاتساع ، ومنه النهار لاتساع ضيائه . الرابع منها : قوله تعالى : ﴿ ومن كل الثمرات ﴾ وهو متعلق بقوله تعالى : ﴿ جعل فيها ﴾ ، أي : الأرض ﴿ زوجين اثنين ﴾ ، أي : وجعل فيها من جميع أنواع الثمار صنفين اثنين ، والاختلاف إمّا من حيث الطعم كالحلو والحامض أو اللون كالأسود والأبيض ، أو الحجم

كالصغير والكبير، أو الطبيعة كالحارّ والبارد.

فإن قيل: الزوجان لا بدّ وأن يكونا اثنين فما الفائدة في اثنين؟

أجيب: بأنه قيل: إنه تعالى أوّل ما خلق العالم وخلق فيه الأشجار خلق من كل نوع من الأنواع اثنين فقط فلو قال: خلق زوجين لم يعلم أنّ المراد النوع أو الشخص، فلما قال: اثنين علم أنه تعالى أوّل ما خلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد، فكما أنّ الناس وإن كان فيهم الآن كثرة فابتداؤهم من زوجين اثنين بالشخص آدم وحوّاء، فكذا القول في جميع الأشجار والزروع.

(244/410)

الخامس منها: قوله تعالى: ﴿يغشي﴾، أي: يغطي ﴿الليل﴾ بظلمته ﴿النهار﴾، أي: والنهار الليل بضوئه فيعتدل فعلهما على ما قدّره الله تعالى لهما في السير من الزيادة والنقصان، وذلك من الحكم النافعة في الدين والدنيا الظاهرة لكل ذي عقل أنها تدبيره بفعله واختياره وقهره واقتداره. وقرأ شعبة وحمزة والكسائي بفتح الغين وتشديد الشين، والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين. ولما ذكر تعالى هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة جمعها وناطها بالفكر فقال تعالى: ﴿إن في ذلك﴾، أي: الذي وقع التحدّث عنه من

الآيات ﴿لآيات﴾ ، أي: دلالات ﴿لقوم يتفكرون﴾ ، أي: يجتهدون في الفكر فيستدلون بالصنعة على الصانع، وبالسبب على المسبب والتفكر والتدبر تصرف القلب في طلب معاني الأشياء، ثم أنه تعالى ذكر دليلاً ظاهراً جدًّا بقوله تعالى:

﴿وفي الأرض﴾ ، أي: التي أنتم سكانها تشاهدون ما فيها مشاهدة لا تقبل الشك ﴿قطع﴾ ، أي: بقاع مختلفة ﴿متجاورات﴾ ، أي: متقاربات يقرب بعضها من بعض واحدة طيبة، والأخرى سبخة لا تنبت وأخرى صالحة للزرع لا للشجر، وأخرى بالعكس، وأخرى قليلة الريع، وأخرى كثيرته مع انتظام الكل في الأرضية، وهو من دلائل قدرته تعالى ﴿وجنات﴾ ، أي: بساتين فيها أنواع الأشجار من نخيل وأعناب وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿من أعناب وزرع ونخيل صنوان﴾ جمع صنو وهي النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في عمه العباس: "عمّ الرجل صنو أبيه" يعني أنهما من أصل واحد ﴿وغير صنوان﴾ ، أي: متفرقات مختلفة الأصول وسمي البستان جنة؛ لأنه يستر بأشجاره الأرض.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص برفع العين واللام والنون الثانية من صنوان والراء من غير مع التنوين في العين واللام والنون، وعدم التنوين في الراء، والباقون بالخفض في الأربعة وعدم التنوين في الراء. ولما كان الماء بمنزلة الأب والأرض بمنزلة الأم وكان الاختلاف مع اتحاد الأب والأم أعجب وأدل على الإسناد إلى الواحد المسبب لا إلى شيء من الأسباب قال: ﴿تسقى﴾ قراءة ابن عامر وعاصم بالياء على التذكير، أي: المذكور، وقراءة الباقين بالتاء على التأنيث، أي: الجنات وما فيها ﴿بماء واحد﴾ فتخرج أغصانها وثمراتها في وقت معلوم لا تتأخر عنه، ولا تتقدّم، والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام، وقيل في حدّه: جوهر سيال به قوام الأرواح ﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾، أي: في الطعم ما بين حلو وحامض وغير ذلك. وفي الشكل والرائحة والمنفعة وغير ذلك، وذلك أيضاً مما يدل على القادر الحكيم، فإنّ اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار، قال مجاهد: وذلك كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد. وقال الحسن: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم وكانت الأرض طينة واحدة في يد، أي: في قدرة الرحمن فسطحها فصارت قطعاً متجاورات، فينزل عليها الماء من السماء، فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها، وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد، وكذلك الناس خلقوا من آدم، فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع، وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع.

وقال الحسن: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال تعالى: ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ (الإسراء،) وقرأ حمزة والكسائي بالياء ليطابق قوله تعالى: ﴿ يدبر الأمر ﴾ والباقون بالنون وقرأ نافع وابن كثير بسكون الكاف، والباقون بالرفع ﴿ إن في ذلك ﴾ ، أي: الأمر العظيم الذي ذكرناه ﴿ لآيات ﴾ ، أي: دلالات ﴿ لقوم يعقلون ﴾ ، أي: يستعملون عقولهم بالتدبر والتفكر في الآيات الدالة على وحدانيته تعالى.

ولما ذكر تعالى الدلائل القاهرة الدالة على معرفة المبدأ ذكر بعده ما يدل على المعاد بقوله تعالى: ﴿ وإن تعجب ﴾ ، أي: يا أكرم الخلق من تكذيب الكفار لك بعد أن كنت تعرف عندهم بالصادق الأمين ﴿ فعجب ﴾ ، أي: فحقيق أن يتعجب منه ﴿ قولهم ﴾ ، أي: منكري البعث ﴿ أئذا كنا تراباً ﴾ ، أي: بعد الموت ﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾ ، أي: خلق بعد الموت كما كنا قبله، ولم يعلموا أنّ القادر على إنشاء الخلق وما تقدّم على غير مثال قادر على إعادتهم. وقيل: وإن تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرّهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع إقرارهم بأنّ الله تعالى خلق السموات، والأرض، وهو يضر وينفع، وقد

رأوا قدرة الله تعالى وما ضرب لهم به الأمثال فعجب قولهم ذلك ، والعجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة ، وقال المتكلمون : العجب هو الذي لا يعرف سببه ، وذلك في حق الله تعالى محال ؛ لأنه تعالى علام الغيوب لا تخفى عليه خافية ، وقرأ أبو عمرو وخلاد والكسائي بإدغام الباء في الفاء ، والباقون بالإظهار .

تنبيه : هنا آيتان في كل منهما همزتان ، فقرأ قالون بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الهمزة الثانية ، ويدخل بينهما ألفاً على الاستفهام ، وفي الآية الثانية بهمزة مكسورة وبعدها نون مشددة على الخبر ، وورش كذلك إلا أنه لا يدخل بين الهمزتين في أئذا ألفاً وينقل في الثاني على أصله ، وابن كثير يقرأ بالاستفهام فيهما من غير إدخال ألف بين الهمزتين مع تحقيق الأولى وتسهيل الثانية فيهما ، وأبو عمرو كذلك مع إدخال ألف بينهما ، وابن عامر في الأول بهمزة مكسورة بعدها ذال مفتوحة على الخبر ، وفي الثاني بهمزة مفتوحة محققة وهمزة مكسورة محققة على الاستفهام ، وأدخل هشام بينهما ألفاً بخلاف عنه ، والباقون بهمزتين محققتين الأولى مفتوحة ، والثانية مكسورة ولا ألف بينهما في الموضعين .

فائدة : جميع ما في القرآن من ذلك أحد عشر موضعاً في تسع سور ، والأحد عشر مكرّرة

فتصير اثنين وعشرين ، في هذه السورة موضع ، والثاني والثالث في سورة الإسراء ، والرابع في المؤمنون ، والخامس في النمل ، والسادس في العنكبوت ، والسابع في السجدة ، والثامن والتاسع في الصافات ، والعاشر في الواقعة ، والحادي عشر في النازعات . وأذكر إن شاء الله تعالى في كل سورة من السور المذكورة مذهبهم في محله .

﴿ أولئك ﴾ ، أي : الذين جمعوا أنواعاً من البعد من كل خير ﴿ الذين كفروا بربهم ﴾ ، أي : غطوا ما يجب إظهاره بسبب الاستهانة بالذي بدأ خلقهم ، ثم رباهم بأنواع اللطف ، فإذا أنكروا معادهم فقد أنكروا بدأهم ﴿ وأولئك ﴾ البعداء البغضاء ﴿ الأغلال ﴾ يوم القيامة ﴿ في أعناقهم ﴾ بسبب كفرهم ، والغل : طوق من حديد تقيد به اليد في العنق ، وقيل : المراد بالأغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الأسير الذليل بالغل ، وقيل : إنهم مقيدون بالضلال لا يرجى فلاحهم . ﴿ وأولئك ﴾ ، أي : الذين لا خسارة أعظم من خسارتهم ﴿ أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ، أي : ثابت خلودهم دائماً لا يخرجون منها ولا يموتون . ولما كان صلى الله عليه وسلم يهدّدهم تارة بعذاب يوم القيامة وتارة بعذاب الدنيا ، والقوم كلما هدّدهم بعذاب يوم القيامة أنكروا القيامة والبعث والحشر

والنشر ، وهو الذي تقدّم ذكره في الآية الأولى ، وكلما هدّدهم بعذاب الدنيا قالوا له : فجئنا بهذا العذاب ، وطلبوا منه إظهاره وإنزاله على سبيل الطعن وإظهار أنّ الذي يقول كلام لا أصل له نزل:

﴿ ويستعجلونك ﴾ ، أي : استهزاء وتكذيباً ، والاستعجال طلب التعجيل ، وهو تقديم الشيء قبل وقته الذي يقدر له ﴿ بالسيئة ﴾ ، أي : العذاب ﴿ قبل الحسنة ﴾ ، أي : الرحمة ، وذلك أنّ مشركي مكة كانوا يقولون : اللهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذا أليم .

(249/410)

تنبيه : قوله ﴿ قبل الحسنة ﴾ فيه وجهان : أحدهما : متعلق بالاستعجال ظرفاً له والثاني : أنه متعلق بمحذوف على أنه حال مقدرة من السيئة قاله أبو البقاء . ﴿ وقد ﴾ ، أي : والحال أنه قد ﴿ خلت من قبلهم المثلات ﴾ جمع مثلة بفتح الميم وضم المثلثة كصدقة وصدقات ، أي : عقوبات أمثالهم من المكذبين أفلا يعتبرون بها . ﴿ وإنّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ وإلا لم يترك على ظهرها دابة كما قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ (فاطر ،) . وقال ابن عباس : معناه لذو تجاوز

عن المشركين إذا آمنوا . ﴿ وإنّ ربك لشديد العقاب ﴾ للمصرين على الشرك الذين ماتوا عليه . وقال مقاتل : إنه لذو تجاوز عن شركهم في تأخير العذاب عنهم ، وشديد العقاب إذا عاقب . ولما بين سبحانه وتعالى أنّ الكفار طعنوا في نبوة النبيّ صلى الله عليه وسلم بسبب طعنهم في الحشر والنشر أوّلاً ، ثم طعنوا في نبوّته بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانياً ، ثم طعنوا في نبوّته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة . ثالثاً ، وهو المذكور في قوله تعالى:

﴿ ويقول الذين كفروا لولا ﴾ ، أي : هلا ﴿ أنزل عليه ﴾ ، أي : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ آية من ربه ﴾ ، أي : مثل عصا موسى وناقة صالح وذلك ؛ لأنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات ، وقالوا : هذا كتاب مثل سائر الكتب ، وإتيان الإنسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزاً مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم راغباً في إجابة مقترحاتهم لشدّة التفاته إلى إيمانهم قال الله تعالى له : ﴿ إنما أنت منذر ﴾ ، أي : ليس عليك إلا الإنذار والتخويف ، وليس عليك إتيان الآيات . ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ ، أي : نبيّ يدعوهم إلى ربهم بما يعطيه من الآيات لا بما

يقترحون . وقرأ ابن كثير في الوقف بياء بعد الدال ، وفي الوصل بغير ياء وتنوين الدال ، والباقون بغير ياء في الوقف والوصل مع تنوين الدال . ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات أخبرهم الله تعالى عن عظيم قدرته وكمال علمه بقوله تعالى:

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ من ذكر وغيره وواحد ومتعدّد وغير ذلك ﴿ وما تغيض ﴾ ، أي : تنقص ﴿ الأرحام ﴾ من مدّة الحمل ﴿ وما تزداد ﴾ ، أي : من مدّة الحمل فقد تكون سبعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند الإمام أبي حنيفة ، وإلى اربع عند الإمام الشافعي ، وإلى خمس عند الإمام مالك رضي الله تعالى عنهم .

(251/410)

وقيل : إنّ الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان بقي في بطن أمّه أربع سنين ، ولذلك سمي هرماً . وقيل : ما تنقصه الرحم من الأولاد وتزيده منهم . يروى أنّ شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمّه . وقيل : من نقصان الولد فيخرج ناقصاً والزيادة تمام خلقه . وقيل : ما تنقص بالسقط عن أن يتم وما يزداد بالتمام . وقيل : ما تنقص بظهور دم الحيض ، وذلك أنه إذا سال الدم في وقت الحمل ضعف الولد ونقص بمقدار حصول ذلك . قال ابن عباس : كلما سال الحيض في وقت الحمل يوماً زاد في مدّة الحمل يوماً ليحصل الجبر ويعتدل الأمر والآية

تحتمل جميع ذلك إذ لا تنافي في هذه الأقوال. ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وكل شيء﴾ من هذا وغيره من الآيات المقترحات وغيرها ﴿عنده﴾، أي: في علمه وقدرته ﴿بمقدار﴾ في كيفيته وكميته لا يجاوزه ولا يقصر عنه لأنه تعالى عالم بكيفية كل شيء وكميته على الوجه المفصل المبين.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿عنده﴾ يجوز أن يكون مجرور المحل صفة لشيء أو مرفوعه صفة لكل أو منصوبه ظرفاً لقوله: ﴿بمقدار﴾ أو ظرفاً للاستقرار الذي تعلق به الجار لوقوعه خبراً.

﴿عالم الغيب﴾ وهو ما غاب عن كل مخلوق ﴿والشهادة﴾ وهو ما شاهدوه، وقيل: الغيب هو المعدوم والشهادة هو الموجود. وقيل: الغيب ما غاب عن الحس، والشهادة ما حضر في الحس ﴿الكبير﴾، أي: العظيم ﴿المتعال﴾ عن خلقه بالقهر المنزه عن صفات النقص فهو تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامّة. وقرأ ابن كثير في الوقف والوصل بياء بعد اللام، والباقون بغير ياء وقفاً ووصلاً. ولما كان علمه تعالى شاملاً لجميع الأشياء قال تعالى:

﴿ سواء منكم ﴾ ، أي : في علمه تعالى ﴿ من أسرّ القول ﴾ ، أي : أخفى معناه في نفسه ﴿ ومن جهر به ﴾ ، أي : أظهره فقد استوى في علمه تعالى المسرّ بالقول والجاهر به ﴿ ومن هو مستخف ﴾ ، أي : مستتر ﴿ بالليل ﴾ ، أي : بظلامه ﴿ وسارب ﴾ ، أي : ظاهر بذهابه في سربه ﴿ بالنهار ﴾ والسرب : بفتح السين وسكون الراء الطريق ، و قال ابن عباس : سواء ما أضمرته القلوب و أظهرته الألسنة ، و قال مجاهد : سواء من يقدم على القبائح في ظلمات الليل ، ومن يأتي بها في النهار الظاهر على سبيل التواري والضمير في .

﴿ له ﴾ يعود إلى من في قوله ﴿ سواء منكم من أسّر القول ومن جهر به و من هومستخف بالليل ﴾ أو للإنسان ﴿ معقبات ﴾ ، أي : ملائكة تعقبه ، و الذي عليه الجمهور أنّ المراد بالملائكة الحفظة ، وإنما صح وصفهم بالمعقبات إما لأجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار ، وبالعكس وإما لأجل أنهم يتعقبون أعمال العباد و يبتغونها بالحفظ والكتب وكل من عمل عملاً ، ثم عاد إليه فقد عقب ، فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل و النهار ، روي عن عثمان أنه قال يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك فقال صلى الله عليه وسلم "ملك عن يمينك للحسنات وهو أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشراً وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال لصاحب اليمين : اكتب قال : لا لعله أن يتوب أو يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات فإذا قال ثلاثاً قال اكتب أراحنا الله

منه . فبئس القرين ما أقل مراقبته لله و استحيائه منا فهو قوله تعالى ﴿ له معقبات ﴾ ﴿ من بين يديه ﴾ ، أي : قدّامه ﴿ ومن خلفه ﴾ ، أي : ورائه ، وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لربك رفعك ، وإن تجبرت قصمك وملكان على شفتيك يحفظان عليك الصلاة ، وملك على فيك ، لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملكان على عينيك فهذه عشرة أملاك على كل أدمي" ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فهم عشرون ملكاً على كل آدمي .

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله تعالى وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون" . وقال مجاهد : ما من عبد إلا وله ملك موكل يحفظه من الجن والأنس والهوام في نومه ويقظته ، فإن قيل : الملائكة ذكور فلم ذكروا في جمع الإناث وهو المعقبات ؟ أجيب : بجوابين : الأول : قال الفراء : المعقبات ملائكة معقبة واحدها معقب ثم جمعت معقبة بمعقبات كما قيل أبناآت ورجالات جمع أبناء ورجال والذي على التذكير قوله تعالى

: ﴿ يحفظونه ﴾ والثاني : وهو قول الأخفش إنما أنث لكثرة ذلك منها نحو نسابة وعلامة وهو ذكر ، واختلف في المراد من قوله تعالى : ﴿ من أمر اللّه ﴾ على أقوال:

أحدها : إنه على التقديم والتأخير ، والتقدير له معقبات من أمر الله يحفظونه .

ثانيها : أنّ فيه إضماراً ، أي : ذلك الحفظ من أمر اللّه ، أي : مما أمر الله تعالى به فحذف الاسم وأبقى خبره .

وثالثهما : أنّ كلمة من معناها الباء والتقدير يحفظونه بأمر الله وبإعانته ، وقال كعب الأحبار : لولا أنّ الله تعالى وكّل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجنّ ، وقال ابن جريج : معنى يحفظونه ، أي : يحفظون عليه الحسنات والسيئات ، فإن قيل : ما الفائدة في تخصيص هؤلاء الملائكة مع بني آدم وتسليطهم عليهم ؟

أجيب : بأن الإنسان إذا علم أنّ الملائكة تحصي عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب ؛ لأنّ من اعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم ، فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها زجره الحياء منهم عن الإقدام إليها كما يزجره إذا حضر من

يعظمه من البشر ، وإذا علم أنّ الملائكة تحصي عليه تلك الأعمال ، كان ذلك أيضاً ردعاً له عنها ، وإذا علم أنّ الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل . ولما دل ذلك على غاية القدرة والعظمة قال تعالى : ﴿ إنّ الله ﴾ مع قدرته ﴿ لا يغير ما بقوم ﴾ ، أي : لا يسلبهم نعمته ﴿ حتى يغيروا ما ﴾ ، أي : الذي ﴿ بأنفسهم ﴾ من الأحوال الجميلة إلى الأحوال القبيحة ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءً ﴾ ، أي : هلاكاً وعذاباً ﴿ فلا مردّ له ﴾ أي لا يقدر أحد لا من المعقبات ولا من غيرها أن يرد ما نزل بهم من قضائه وقدره ﴿ وما لهم ﴾ ، أي : إن أراد الله بهم سوءاً ﴿ من دونه ﴾ ، أي : غير الله ﴿ من وال ﴾ يلي أمرهم وينصرهم ويمنع العذاب عنهم ، وقرأ ابن كثير في الوقف بإثبات الياء بعد اللام دون الوصل ، والباقون بغير ياء بعد اللام وقفاً ووصلاً . ولما خوّف الله تعالى بقوله: ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءً ﴾ اتبعه بذكر آيات تشبه النعم والإحسان من بعض الوجوه ، وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه بقوله تعالى:

﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً ﴾ ، أي : للمسافرين من الصواعق ﴿ وطمعاً ﴾ ، أي : للمقيم في المطر ، وقيل : إنّ كل شيء يحصل في الدنيا يحتمل الخير والشر ، فهو خير بالنسبة

إلى قوم وشر بالنسبة إلى آخرين ، فكذلك المطر خير في حق من يحتاج إليه في أوانه وشر في حق من يضرّه ذلك إما بحسب المكان وإما بحسب الزمان ، والبرق معروف وهو لمعان يظهر من بين السحاب ﴿ وينشىء ﴾ ، أي : يخلق ﴿ السحاب الثقال ﴾ ، أي : بالمطر . تنبيه خوفاً وطمعاً مصدران ناصبهما محذوف ، أي : تخافون خوفاً وتطمعون طمعاً ، ويجوز غير ذلك ، والسحاب قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : غربال الماء وهو غيم ينسحب في السماء ، وهو اسم جنس جمعي واحده سحابة وأكثر المفسرين على أنّ الرعد في قوله تعالى:

﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ على أنه اسم للملك الذي يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه ولا يردّ ذلك عطف الملائكة عليه في قوله تعالى : ﴿ والملائكة ﴾ ، أي : تسبحه ﴿ من خيفته ﴾ ، أي : الله ؛ لأنه أفرد بالذكر تشريفاً له ، كما في قوله تعالى : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ (البقرة ،) . قال ابن عباس : "أقبلت يهود على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : أخبرنا عن الرعد ما هو ؟ فقال : ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب" . قال ابن الأثير : والمخاريق جمع مخراق

وهو في الأصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً وهي آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه ، وقد جاء تفسير المخراق في حديث آخر ، وهو سوط من نور تزجر به الملائكة السحاب . وعن ابن عباس أنه قال : من سمع صوت الرعد فقال : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير ، فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته . وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . وفي بعض الأخبار يقول الله تعالى : "لو أنّ عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت الشمس عليهم بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد" . وفي رواية عن ابن عباس : الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث يؤمر وأنه يحوز الماء في نقرة إبهامه ، وأنه يسبح الله تعالى إذا سبح لا يبقى ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر . وعن الحسن أنّ الرعد خلق من خلق الله ليس بملك ، وقد اختلفت الروايات في ذلك ، ففي بعضها أنه ملك موكل بالسحاب ، وفي بعضها أنه ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه ، وفي بعضها أنه ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادي الإبل بحدائه ، وفي بعضها : أنه ملك سمي به وهو الذي تسمعون صوته ، وقد مرّت الإشارة إلى ذلك في البقرة ، وقيل : هؤلاء الملائكة أعوان الرعد جعل الله تعالى له أعواناً ، فهم خائفون خاضعون طائعون ،

وقيل : المراد

بهم جميع الملائكة واستظهر وقوله تعالى : ﴿ ويرسل الصواعق ﴾ جمع صاعقة وهي العذاب المهلك تنزل من البرق فتحرق من تصيبه ﴿ فيصيب بها من يشاء ﴾ فيهلكه ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ حيث يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب التشديد في الخصومة .

روي "أنّ عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين لقتله فأخذه عامر بالمجادلة ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف فتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللهمّ اكفنيهما بما شئت . فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة فقتلته ، ورمى عامر بغدة فمات في بيت سلولية فكان يقول : غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية فنزلت" . "وعن الحسن أنه قال : كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم نفراً يدعونه إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : أخبروني عن رب محمد الذي تدعونني إليه مم هو ؟ أمن ذهب أو

فضة أو حديد أو نحاس ؟ فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، ما رأينا رجلاً أكفر قلباً ولا أعتى على الله منه . فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا ، إليه فرجعوا إليه فجعل لا يزيدهم على مقالته الأولى وقال : أجيب محمد إلى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا وقالوا : يا رسول الله ، ما زادنا على مقالته الأولى وأخبث فقال : ارجعوا إليه فرجعوا فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس فجاؤوا يسعون ليخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : احترق صاحبكم فقالوا : من أين علمتم ؟ فقالوا : أوحى الله تعالى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله ﴾ " . ﴿ وهو شديد المحال ﴾

واختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ وهو

شديد المحال ﴾

فقال عليّ رضي الله عنه : شديد الأخذ . وقال ابن عباس : شديد الحول . وقال مجاهد : شديد القوة . وقال أبو عبيدة : شديد القوة والمغالبة . واختلف في قوله تعالى:

﴿ له ﴾ ، أي : الله ﴿ دعوة الحق ﴾ فقال عليّ : دعوة الحق التوحيد . وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله . وقال الحسن : الحق هو الله تعالى وكل دعاء إليه دعوة الحق .

﴿ والذين يدعون ﴾ ، أي : وهم الكفار . ﴿ من دونه ﴾ ، أي : غير الله وهي الأصنام ﴿ لا يستجيبون ﴾ ، أي : الأصنام ﴿ لهم ﴾ ، أي : الكفار ﴿ بشيء ﴾ مما يطلبونه من نفع أو دفع ضر ﴿ إلا ﴾ ، أي : الاستجابة ﴿ كباسط ﴾ ، أي : كاستجابة باسط ﴿ كفيه إلى الماء ﴾ ، أي : على شفير البئر يدعوه ﴿ ليبلغ فاه ﴾ ، أي : بارتفاعه من البئر إليه ﴿ وما هو ﴾ ، أي : الماء ﴿ ببالغه ﴾ ، أي : فاه أبداً ؛ لأنه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على إجابته ، فكذلك ما هم بمستجيبين لهم أبداً ؛ لأنّ أصنامهم كذلك ، وقيل : شبهوا في قلة فائدة دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسط كفيه ناشراً أصابعهما ، ولم يصل كفاه إلى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من مشربه ، ثم أنه تعالى عمم في أنه لا يستجاب لهم بقوله تعالى : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ ، أي : ضياع لا منفعة فيه ؛ لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم وإن دعوا آلهتهم لم تستطع إجابتهم ، وقيل : المراد بالدعاء في الحالين العبادة وقوله تعالى:

﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض ﴾ يحتمل أن يراد به السجود على حقيقته وهو وضع الجبهة ، وعلى هذا فيكون قوله تعالى : ﴿ طوعاً ﴾ للملائكة والمؤمنين من الثقلين

حالتي الشدّة والرخاء وقوله تعالى : ﴿ وكرهاً ﴾ للكافرين والمنافقين الذين أكرهوا على السجود بالسيف وأن يراد به التعظيم والاعتراف بالعبودية ، فكل من السموات والأرض معترف بعبودية الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله ﴾ (الزخرف ،) وأن يراد به الانقياد والخضوع وترك الامتناع ، وكل من في السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى ؛ لأنّ قدرته ومشيئته نافذة في الكل .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ إمّا مفعول من أجله وإمّا حال ، أي : طائعين وكارهين . واختلف في تفسير قوله تعالى : ﴿ وظلالهم بالغدوّ ﴾ ، أي : البكر ﴿ والآصال ﴾ ، أي : العشايا ، أي : تسجد فقال أكثر المفسرين : كل شخص سواء كان مؤمناً أو كافراً ، فإن ظله يسجد لله . قال مجاهد : ظل المؤمن يسجد لله تعالى وهو طائع ، وظل الكافر يسجد لله تعالى وهو كاره . وقال الزجاج : جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله . قال ابن الأنباريّ : ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال عقولاً وأفهاماً تسجد بها لله وتخشع . وقيل : المراد من سجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس وهي منقادة مسلسلة في

طولها وقصرها وميلها من جانب إلى جانب. وإنما خص الغدوّ والآصال بالذكر ؛ لأنّ الظلال إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين.

تنبيه : الغدوّ جمع غداة كقنى وقناة ، والآصال جمع الأصل ، والأصل جمع أصيل ، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس. ولما بيّن تعالى أن كل من في السموات والأرض ساجد لله تعالى عدل إلى الردّ على عباد الأصنام بقوله تعالى:

(261/410)

﴿ قل ﴾ يا أشرف الخلق على الله تعالى لقومك ﴿ من رب السموات والأرض ﴾ ، أي : من مالكهما وما فيهما ومدبرهما وخالقهما ؟ ﴿ قل الله ﴾ ، أي : أجب عنهم بذلك إن لم يقولوه ، ولا جواب لهم غيره ، ولأنه البين الذي لا يمكن المراء فيه ولقنهم الجواب به. وروي أنه لما قال للمشركين ذلك عطفوا عليه وقالوا : أجب أنت فأمره الله تعالى ، فأجاب بذلك ، ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الأصنام بقوله تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ أفاتخذتم من دونه ﴾ ، أي : غير الله ﴿ أولياء ﴾ ، أي : أصناماً تعبدونها ﴿ لا يملكون لأنفسهم نفعاً ﴾ يجلبونه ﴿ ولا ضرّاً ﴾ يدفعونه فكيف يملكون لكم ذلك ؟ وقرأ ابن كثير وحفص بإظهار الذال في اتخذتم عند التاء ، والباقون بالإدغام ، ثم ضرب الله تعالى مثلاً للمشركين الذين يعبدون

الأصنام والمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى : ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ قال ابن عباس : يعني المشرك والمؤمن ، وإنما مثل الكافر بالأعمى ؛ لأنه لا يهتدي سبيلاً ، فكذلك الكافر لا يهتدي سبيلاً . ثم ضرب الله مثلاً للإيمان والكفر بقوله تعالى : ﴿ أم هل تستوي الظلمات ﴾ ، أي : الكفر ﴿ والنور ﴾ ، أي : الإيمان ؟ الجواب : لا . وقرأ شعبة وحمزة والكسائي ﴿ يستوي ﴾ بالياء على التذكير ، والباقون بالتاء على التأنيث ، وأمّا اللام من هل هنا فلا تدغم على القراءتين . ﴿ أم جعلوا لله شركاء ﴾ والهمزة للانكار ، وقوله تعالى : ﴿ خلقوا كخلقه ﴾ صفة شركاء ، أي : خلقوا سموات وأرضين وشمساً وقمراً وجبالاً وبحارا وجناً وإنساً . ﴿ فتشابه الخلق ﴾ ، أي : خلق الشركاء بخلق الله ﴿ عليهم ﴾ من هذا الوجه فلا يدرون ما خلق الله ولا ما خلق آلهتهم ، فاعتقدوا استحقاق عبادتهم بخلقهم ، وهذا استفهام إنكار ، أي : ليس الأمر كذلك ولا يستحق العبادة إلا الخالق . ولما كان من المعلوم قطعاً أن جوابهم أن الخلق كله لله لزمتهم الحجة فقال تعالى : ﴿ قل ﴾ لهؤلاء المشركين ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ ، أي : مما يصح أن يكون مخلوقاً ، فهو من العموم الذي يراد به

الخصوص ، فلا يدخل

في ذلك صفات الله تعالى ، وإذا كان لا خالق غيره فلا يشاركه في العبادة أحد ، فوجب أن ينفرد بالإلهية كما قال تعالى : ﴿ وهو الواحد ﴾ ، أي : الذي لا يجانسه شيء ، وكل ما سواه لا يخلو عن مماثل يماثله ، وأين رتبة من يماثل من رتبة من لا مثل له ؟ ﴿ القهار ﴾ الذي كل شيء تحت قهره ، فيدخل تحت قضائه ومشيئته وإرادته ، ثم ضرب تعالى مثلاً للحق والباطل بقوله تعالى:

(263/410)

﴿ أنزل من السماء ﴾ ، أي : السحاب أو السماء نفسها ﴿ ماء ﴾ ، أي : مطراً ﴿ فسالت أودية ﴾ ، أي : أنهار جمع واد ، وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه ، واستعمل للماء الجاري فيه ، وتنكيرها ؛ لأنّ المطر يأتي على تناوب بين البقاع ﴿ بقدرها ﴾ ، أي : بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضارّ ، أو بمقداره في الصغر والكبر . ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ ، أي : عالياً هو ما على وجهه من قذر ونحوه ﴿ ومما توقدون عليه من النار ﴾ ، أي : من جواهر الأرض الذهب والفضة والنحاس والحديد ﴿ ابتغاء ﴾ ، أي : طلب ﴿ حلية ﴾ ، أي : زينة ﴿ أو متاع ﴾ ، أي

: ينتفع به كالأواني إذا أذيبت ، وآلات الحرب والحرث ، والمقصود من هذا بيان منافعها ﴿ زبد مثله ﴾ ، أي : مثل زبد السيل ، وهو خبثه الذي ينفيه الكير ، ومن للابتداء أو للتبعيض . وقرأ حفص وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة على أن الضمير للناس وإضماره للعلم به ، والباقون بالتاء على الخطاب ﴿ كذلك ﴾ ، أي : مثل هذا الضرب العلي الرتب المتبين السبب ﴿ يضرب الله ﴾ ، أي : الذي له الأمر كله ﴿ الحق والباطل ﴾ ، أي : مثلهما ، فإنه تعالى مثل الحق في إفادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة ، فينتفع به أنواع المنافع ، ويمكث في الأرض بأن يثبت بعضه في منافعه ، ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنيّ والآبار ، ومثل الباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما وهو قوله تعالى : ﴿ فأما الزبد ﴾ ، أي : من السيل وما أوقد عليه من الجواهر ﴿ فيذهب جفاء ﴾ .

قال أبو حيان : مضمحلاً ، أي : متلاشياً لا منفعة فيه ولا بقاء له . وقال ابن الأنباري : متفرّقاً ، وانتصابه على الحال . ﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ من الماء ومن الجواهر الذي هو مثل الحق . ﴿ فيمكث في الأرض ﴾ ، أي : يثبت ويبقى لينتفع به أهلها ﴿ كذلك ﴾ ، أي

: مثل ذلك الضرب ﴿ يضرب ﴾ ، أي : يبين ﴿ الله ﴾ الذي له الإحاطة الكاملة علماً وقدرة ﴿ الأمثال ﴾ فيجعلها في غاية الوضوح ، وإن كانت في غاية الغموض . قال أهل المعاني : هذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل ، فالباطل وإن علا على الحق في بعض الأوقات والأحوال ، فإن الله يمحقه ويبطله ، ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو على الماء ، فيذهب الزبد فيبقى الماء الصافي الذي ينفع ، وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ، ويذهب العلو الذي هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض كذلك الحق والباطل . وقيل : هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالإيمان كمثل الماء الصافي الذي ينتفع به الناس ، ومثل الكافر وخبث اعتقاده كمثل الزبد الذي لا ينتفع به البتة . ثم إنه تعالى لما ذكر الحق والباطل ذكر ما لأهلهما من الثواب والعقاب فقال تعالى:

(265/410)

﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ ، أي : أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعدل والنبوّة وبعث الأموات ، والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ الحسنى ﴾ قال ابن عباس وقال أهل المعاني : الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن ، وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرّة الدائمة الخالصة عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم

والإجلال ، ولم يذكر تعالى الزيادة هاهنا ؛ لأنه تعالى ذكرها في سورة أخرى وهي قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (يونس ،) هذا ما لأهل الحق ، وأمّا ما لأهل الباطل فهو ما ذكره بقوله جل من قائل : ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ وهم الكفرة فلهم أنواع ثلاثة من العذاب والعقوبة ، فالنوع الأوّل قوله تعالى : ﴿ لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ﴾ ، أي : جعلوه فكاك أنفسهم بغاية جهدهم ؛ لأنّ المحبوب بالذات لكل إنسان هو ذاته ، وكل ما هو سواه فهو إنما يحبه لكونه وسيلة إلى مصالح ذاته ، فإذا كانت النفس في الضر والألم والتعب وكان مالكاً لما يساوي عالم الأجناس والأرواح ، فإنه يرضى بأن يجعله فداء نفسه ؛ لأنّ المحبوب بالعرض لا بدّ وأن يكون فداء لما كان محبوباً بالذات ، والكناية في به عائدة إلى ما في قوله ما في الأرض .

والنوع الثاني من أنواع العذاب الذي أعده الله تعالى لهم ما ذكره بقوله تعالى : ﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾ وهو المناقشة فيه ، وعن النخعي بأن يحاسب العبد بذنبه كله لا يغفر منه شيء ، وإنما نوقشوا ؛ لأنهم أحبوا الدنيا وأعرضوا عن المولى ، فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذي هو الدنيا وبقوا محرومين من الفوز بسعادة خدمة المولى .

والنوع الثالث من عقوباتهم ما ذكره بقوله تعالى : ﴿ ومأواهم ﴾ ، أي : مرجعهم ﴿ جهنم ﴾ وذلك لأنهم كانوا غافلين عن الاشتغال بخدمة المولى عاشقين للذات الدنيا ، فإذا ماتوا فارقوا معشوقهم ، فيحترقون على مفارقتها ، وليس عندهم شيء آخر يجبر هذه المصيبة ، فلذلك كان مأواهم جهنم . ثم إنه تعالى وصف هذا المأوى بقوله عز من قائل : ﴿ وبئس المهاد ﴾ ، أي : الفراش ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي : جهنم . ونزل في حمزة وأبي جهل ، وقيل : في عمار وأبي جهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 209 . 226 ﴾

(267/410)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) ﴾

لما خوّف سبحانه عباده بإنزال ما لا مرد له أتبعه بأمور ترجى من بعض الوجوه ، ويخاف من بعضها ، وهي البرق ، والسحاب ، والرعد ، والصاعقة ، وقد مر في أول البقرة تفسير هذه الألفاظ وأسبابها .

وقد اختلف في وجه انتصاب ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ فقيل : على المصدرية ، أي : لتخافوا

ولتطمعوا طمعاً ، وقيل : على العلة بتقدير إرادة الخوف والطمع ، لئلا يختلف فاعل الفعل المعلل وفاعل المفعول له ، أو على الحالية من البرق ، أو من المخاطبين بتقدير ذوي خوف . وقيل غير ذلك مما لا حاجة إليه .

قيل : والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق ، وبالطمع هو الحاصل في المطر ، وقال الزجاج : الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر ، والطمع للحاضر .

لأنه إذا رأى البرق طمع في المطر ، الذي هو سبب الخصب ﴿ وَيُنْشِئُ السحاب الثقال ﴾ التعريف للجنس ، والواحدة سحابة ، والثقال : جمع ثقيلة ، والمراد أن الله سبحانه يجعل السحاب التي ينشئها ثقالاً بما يجعله فيها من الماء .

﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ ﴾ أي : يسبح الرعد نفسه بحمد الله أي : متلبساً بحمده ، وليس هذا بمستبعد ، ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] .

وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد في ذلك ، ويكون ذكره على الإفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له ، وعناية به ، وقيل : المراد : ويسبح سامعو الرعد ، أي يقولون : سبحان الله والحمد لله ﴿ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ أي : ويسبح الملائكة من خيفة الله سبحانه .

وقيل : من خيفة الرعد .

وقد ذكر جماعة من المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد .

(268/410)

وأن الله سبحانه جعل له أعواناً ﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء ﴾ من خلقه فيهلكه ، وسياق هذه الأمور هنا للغرض الذي سيقت له الآيات التي قبلها ، وهي الدلالة على كمال قدرته ﴿ وَهُمْ يجادلون فِى الله ﴾ الضمير راجع إلى الكفار ، المخاطبين في قوله : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ البرق ﴾ أي : وهؤلاء الكفرة مع هذه الآيات التي أراهم الله يجادلون في شأن الله سبحانه فينكرون البعث تارة ، ويستعجلون العذاب أخرى ، ويكذبون الرسل ويعصون الله ، وهذه الجملة في محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة .

﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ قال ابن الأعرابي : المحال المكر ، والمكر من الله : التدبير بالحق .

وقال النحاس : المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر .

وقال الأزهري : المحال : القوة والشدة ، والميم أصلية ، وما حلت فلاناً محالاً أينا أشد .

وقال أبو عبيد : المحال : العقوبة والمكروه .

قال الزجاج : يقال ما حلته محالاً : إذا قاويته حتى يتبين أيكما أشد ، والمحْل في اللغة : الشدة .

وقال ابن قتيبة : أي شديد الكيد ، وأصله من الحيلة جعل الميم كميم المكان ، وأصله من الكون ، ثم يقال : تمكنت .

قال الأزهري : غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة ، بل هي أصلية .

وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية ، مثل مهاد وملاك ومراسي وغير ذلك من الحروف .

وقرأ الأعرج " وهو شديد المحال " بفتح الميم .

وقد فسرت هذه القراءة بالحول .

وللصحابة والتابعين في تفسير المحال هنا أقوال ثمانية : الأول : العداوة .

الثاني الحول .

الثالث الأخذ .

الرابع : الحقد .

الخامس : القوة .

السادس : الغضب .

السابع: الهلاك.

الثامن: الحيلة.

(269/410)

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾ إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة، أي: الدعوة الملابسة للحق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه، كما يقال: كلمة الحق، والمعنى أنها دعوة مجابة واقعة في موقعها، لا كدعوة من دونه.

وقيل: الحق هو الله سبحانه، والمعنى: أن لله سبحانه دعوة المدعو الحق، وهو الذي يسمع فيجيب، وقيل: المراد بدعوة الحق ها هنا: كلمة التوحيد والإخلاص، والمعنى: لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له.

وقيل: دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه سواه كما قال تعالى: ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: 67].

وقيل: الدعوة: العبادة، فإن عبادة الله هي الحق والصدق: ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ أي: والآلهة الذين يدعونهم – يعني الكفار – من دون الله – عزّ وجلّ – لا يستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه منهم كائناً ما كان إلا استجابة كاستجابة الماء

لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه ؛ لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه ، ولا يدري أنه طلب منه أن يبلغ فاه .

ولهذا قال : ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أي : الماء ﴿ بِبَالِغِهِ ﴾ أي : ببالغ فيه .

قال الزجاج : إلاّ كما يستجاب للذي يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه ، والماء لا يستجيب ، أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوه إلى بلوغ فمه ، وما الماء ببالغه .

وقيل : المعنى : أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه .

وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقبض على الماء كما قال الشاعر :

فأصبحت مما كان بيني وبينها . . . من الود مثل القابض الماء باليد

وقال الآخر :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض . . . على الماء خانته فروج الأصابع

وقال الفراء : إن المراد بالماء هنا ماء البئر ، لأنها معدن للماء ، وأنه شبهه بمن مد يده إلى البئر بغير رشاء ، ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام .

﴿ وَمَا دُعَاءُ الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ أي : يضل عنهم ذلك الدعاء فلا يجدون منه شيئاً ، ولا ينفعهم بوجه من الوجوه ، بل هو ضائع ذاهب .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السموات والأرض * طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ إن كان المراد بالسجود معناه الحقيقي ، وهو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع والتذلل ، فذلك ظاهر في المؤمنين والملائكة ومسلمي الجن ، وأما في الكفار فلا يصح تأويل السجود بهذا في حقهم ، فلا بدّ أن يحمل السجود المذكور في الآية على معنى : حق لله السجود ووجب ، حتى يُناول السجود بالفعل وغيره ، أو يفسر للسجود بالانقياد .

لأن الكفار وإن لم يسجدوا لله سبحانه فهم منقادون لأمره ، وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحياة والموت والفقر والغنى .

ويدل على إرادة هذا المعنى قوله : ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ فإن الكفار ينقادون كرهاً كما ينقاد المؤمنون طوعاً ، وهما منتصبان على المصدرية ، أي : انقياد طوع وانقياد كره ، أو على الحال ، أي : طائعين وكارهين ، وقال الفراء : الآية خاصة بالمؤمنين فإنهم يسجدون طوعاً ، وبعض الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين ، فالآية محمولة على هؤلاء .

وقيل : الآية في المؤمنين ، فمنهم من سجد طوعاً لا يثقل عليه السجود ، ومنهم من يثقل عليه لأن التزام التكليف مشقة ولكنهم يتحملون المشقة إيماناً بالله وإخلاصاً له .

﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ وظلالهم : جمع ظل ، والمراد به : ظل الإنسان الذي

يتبعه ، جعل ساجداً بسجوده حيث صار لازماً له لا ينفك عنه .

قال الزجاج ، وابن الأنباري : ولا يبعد أن يخلق الله للظلال أفهاماً تسجد بها لله سبحانه ، كما جعل للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيحه ، فظل المؤمن يسجد لله طوعاً .

وظل الكافر يسجد لله كرهاً .

(271/410)

وخص الغدو والآصال بالذاكر ، لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما ، وهما ظرف للسجود المقدر ، أي : ويسجد ظلالهم في هذين الوقتين ، وقد تقدّم تفسير الغدوّ والآصال في الأعراف ، وفي معنى هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا خَلَقَ الله مِن شَىْء يَتَفَيَّأُ ظلاله عَنِ اليمين والشمآئل سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ داخرون ﴾ [النحل : 48] وجاء بمن في ﴿ من في السموات والأرض ﴾ تغليباً للعقلاء على غيرهم ، ولكون سجود غيرهم تبعاً لسجودهم ، ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم ﴿ لله ﴾ على الفعل من الاختصاص ، فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم ، ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله في الأمور التي يقرّون على أنفسهم بأنها من الله ، كالخلق والحياة والموت ، ونحو ذلك .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السموات والأرض ﴾ أمر الله سبحانه رسوله أن يسأل الكفار : من رب

السموات والأرض ؟ ثم لما كانوا يقرّون بذلك ويعترفون به كما حكاه الله سبحانه في قوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ [الزخرف : 9].

وقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [الزخرف : 87] أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب ، فقال : ﴿ قُلِ الله ﴾ فكأنه حكى جوابهم وما يعتقدونه ، لأنهم ربما تلعثموا في الجواب حذراً مما يلزمهم ، ثم أمره بأن يلزمهم الحجة ويبكتهم فقال : ﴿ قُلْ اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ والاستفهام للإنكار ، أي : إذا كان رب السموات والأرض هو الله كما تقرون بذلك وتعترفون به كما حكاه سبحانه عنكم بقوله :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ * السموات * السبع وَرَبُّ العرش العظيم * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون : 86 - 87] فما بالكم اتخذتم لأنفسكم من دونه أولياء عاجزين ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا ﴾ ينفعونها به ﴿ وَلاَ ضَرّا ﴾ يضرون به غيرهم أو يدفعونه عن أنفسهم ، فكيف ترجون منهم النفع والضر وهم لا يملكونهما لأنفسهم ، والجملة في محل نصب على الحال ، ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم .

فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ أي : هل يستوي الأعمى في دينه وهو الكافر ، والبصير فيه وهو الموحد ، فإن الأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه ، والثاني عالم بذلك .

قرأ ابن محيصن ، وأبو بكر ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي " أم هل يستوي الظلمات والنور " بالتحتية .

وقرأ الباقون بالفوقية .

واختار القراءة الثانية أبو عبيد ، والمراد بالظلمات : الكفر ، وبالنور : الإيمان ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أي : كيف يكونان مستويين وبينهما من التفاوت ما بين الأعمى والبصير ، وما بين الظلمات والنور ؟ ووحد النور وجمع الظلمات ، لأن طريق الحق واحدة لا تختلف ، وطرائق الباطل كثيرة غير منحصرة .

﴿ أَمْ جَعَلُواْ لله شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ ﴾ " أم " هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة ، أي : بل أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، والاستفهام لإنكار الوقوع .

قال ابن الأنباري : معناه أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل ما خلق الله فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم ، أي : ليس الأمر على هذا حتى يشتبه الأمر عليهم ، بل إذا فكروا بعقولهم وجدوا الله هو المنفرد بالخلق ، وسائر الشركاء لا يخلقون شيئاً ، وجملة : ﴿ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ ﴾ في محل نصب صفة لشركاء ، والمعنى : أنهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقه ﴿ فَتَشَـٰبَهَ ﴾ بهذا السبب ﴿ الخلق عَلَيْهِمْ ﴾ حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم ، بل إنما جعلوا له شركاء الأصنام ونحوها ، وهي بمعزل عن أن تكون كذلك ، ثم أمره الله سبحانه بأن يوضح لهم الحق ويرشدهم إلى الصواب فقال : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خالق كُلِّ شَىْءٍ ﴾ كائناً ما كان ليس لغيره في ذلك مشاركة بوجه من الوجوه .

قال الزجاج : والمعنى : أنه خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقاً ، ألا ترى أنه تعالى شيء وهو غير مخلوق ﴿ وَهُوَ الواحد ﴾ أي : المتفرّد بالربوبية ﴿ القهار ﴾ لما عداه ، فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب .

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر للحق وذويه ، وللباطل ومنتحليه فقال : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً ﴾ أي : من جهتها ، والتنكير للتكثير أو للنوعية ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ ﴾ جمع وادٍ ، وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما .

قال أبو علي الفارسي : لا نعلم فاعلاً جمع على أفعلة إلاّ هذا ، وكأنه حمل على فعيل فجمع على أفعلة مثل جريب وأجربة .

كما أن فعيلاً حمل على فاعل، فجمع على أفعال مثل يتيم وأيتام وشريف وأشراف، كأصحاب وأنصار في صاحب وناصر.

قال: وفي قوله: ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ ﴾ توسع أي: سال ماؤها، قال: ومعنى ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ بقدر مائها، لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها.

قال الواحدي: والقدر مبلغ الشيء، والمعنى: بقدرها من الماء، فإن صغر الوادي قلّ الماء وإن اتسع كثر، وقال في الكشاف: ﴿ بقدرها ﴾ بمقدارها الذي يعرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضارّ.

قال ابن الأنباري: شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر، إذ نفع نزول القرآن يعمّ كعموم نفع نزول المطر، وشبه الأودية بالقلوب: إذ الأودية يستكنّ فيها الماء كما يستكنّ القرآن والإيمان في قلوب المؤمنين.

﴿ فاحتمل السيل زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ الزبد: هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل، ويقال له: الغثاء والرغوة، والرابي: العالي المرتفع فوق الماء.

قال الزجاج: هو الطافي فوق الماء، وقال غيره: هو الزائد بسبب انتفاخه، من ربا يربو إذا

زاد .

والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء ، فإنه يضمحلّ ويعلق بجنبات الوادي وتدفعه الرياح.

فكذلك يذهب الكفر ويضمحلّ .

وقد تمّ المثل الأولّ ، ثم شرح سبحانه في ذكر المثل الثاني فقال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النار ﴾ " من " لابتداء الغاية ، أي : ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء ، أو للتبعيض ، بمعنى : وبعضه زبد مثله ، والضمير للناس ، أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره .

هذا على قراءة ﴿ يوقدون ﴾ بالتحتية ، وبها قرأ حميد وابن محيصن ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص .

وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد .

والمعنى : ومما توقدون عليه في النار فيذوب من الأجسام المنطرقة الذائبة .

﴿ ابتغاء حِلْيَةٍ ﴾ أي : لطلب اتخاذ حلية تتزينون بها وتتجملون كالذهب والفضة ﴿ أَوْ متاع ﴾ أي : أو طلب متاع تتمتعون به من الأواني والآلات المتخذة من الحديد والصفر

والنحاس والرصاص ﴿ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ المراد بالزبد هنا الخبث ، فإنه يعلو فوق ما أذيب من تلك الأجسام كما يعلو الزبد على الماء فالضمير في ﴿ مثله ﴾ يعود إلى ﴿ زبداً رابياً ﴾ وارتفاع ﴿ زبد ﴾ على الابتداء وخبره ﴿ مما يوقدون ﴾ ، ﴿ كذلك يَضْرِبُ اللهُ الحق والباطل ﴾ أي : مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل ، ثم شرع في تقسيم المثل فقال : ﴿ فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَاء ﴾ يقال : جفأ الوادي بالهمز جفاء : إذا رمى بالقذر والزبد .

قال الفراء : الجفاء الرمي .

يقال : جفأ الوادي غثاء جفاء : إذا رمى به ، والجفاء بمنزلة الغثاء .

وكذا قال أبو عمرو بن العلاء ، وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ " جفالاً " .

قال أبو عبيدة : يقال : أجفلت القدر إذا قذفت بزبدها .

وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته ، قال أبو حاتم : لا يقرأ بقراءة رؤبة ، لأنه كان يأكل الفأر .

واعلم أن وجه المماثلة بين الزبدين في الزبد الذي يحمله السيل والزبد الذي يعلو الأجسام المنطرقة ، أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبداً رابياً فوقه .

وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى يذوب من الأجسام المنطرقة ، فإن أصله من المعادن التي تنبت في الأرض فيخالطها التراب ، فإذا أذيبت صار ذلك التراب الذي خالطها خبثاً

مرتفعاً فوقها .

﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ منهما وهو الماء الصافي ، والذائب الخالص من الخبث ﴿ فَيَمْكُثُ فِى الأَرضِ ﴾ أي : يثبت فيها .

أما الماء فإنه يسلك في عروق الأرض فتنتفع الناس به ، وأما ما أذيب من تلك الأجسام فإنه يصاغ حلية وأمتعة .

(276/410)

وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه للحق والباطل ، يقول : إن الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه ، فإن الله سبحانه سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحلّ وكخبث هذه الأجسام فإنه وإن علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه ، فهذا مثل الباطل ؛ وأما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الأرض ، كذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شوب فيه ، وهو مثل الحق .

قال الزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياة كل شيء ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعاً بها ،

ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به .

وقد حكينا عن ابن الأنباري فيما تقدّم أنه شبه نزول القرآن إلى آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلاً ضربه الله للقرآن .

﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الامثال ﴾ أي : مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله الأمثال في كل باب لكمال العناية بعباده واللطف بهم ، وهذا تأكيد لقوله : ﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل ﴾ .

ثم بين سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده ، فقال : فيمن ضرب له مثل الحق ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبّهِمُ ﴾ أي : أجابوا دعوته إذ دعاهم إلى توحيده وتصديق أنبيائه والعمل بشرائعه ، و ﴿ الحسنى ﴾ صفة موصوف محذوف ، أي : المثوبة الحسنى وهي الجنة ، وقال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل ﴿ والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ ﴾ لدعوته إلى ما دعاهم إليه ، والموصول مبتدأ وخبره الجملة الشرطية ، وهي ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ من أصناف الأموال التي يتملكها العباد ويجمعونها بحيث لا يخرج عن

ملكهم منها شيء ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ أي : مثل ما في الأرض جميعاً كائناً معه ومنضماً إليه ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ أي : بمجموع ما ذكر وهو ما في الأرض ومثله .

والمعنى : ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير والهول العظيم ، ثم بين الله سبحانه ما أعدّه لهم فقال : ﴿ أولئك ﴾ يعني : الذين لم يستجيبوا ﴿ لَهُمْ سُوءُ الحساب ﴾ قال الزجاج : لأن كفرهم أحبط أعمالهم ، وقال غيره : سوء الحساب المناقشة فيه ؛ وقيل : هو أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي : مرجعهم إليها ﴿ وَبِئْسَ المهاد ﴾ أي : المستقرّ الذي يستقرون فيه .

والمخصوص بالذم محذوف .

وقد أخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ البرق خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قال : خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته ، وطمعاً للمقيم يطمع في رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : خوفاً لأهل البحر وطمعاً لأهل البر .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : الخوف ما يخاف من الصواعق ، والطمع : الغيث .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والخرائطي في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في سنّنه من طرق عن عليّ بن أبي طالب قال : البرق : مخاريق من نار بأيدي ملائكة السحاب يزجرون به السحاب .

وروي عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه ، ولعلنا قد قدّمنا في سورة البقرة شيئاً من ذلك .

وأخرج أحمد عن شيخ من بني غفار قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ينشىء السحاب فتنطق أحسن النطق وتضحك أحسن الضحك " قيل : والمراد بنطقها الرعد ، وبضحكها البرق .

وقد ثبت عند أحمد ، والترمذي ، والنسائي في اليوم والليلة ، والحاكم في مستدركه من حديث ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد والصواعق قال : " اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك " وأخرج العقيلي وضعفه ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ينشىء الله السحاب ثم ينزل فيه الماء ، فلا شيء أحسن من ضحكه ، ولا شيء أحسن من نطقه ، ومنطقه الرعد وضحكه البرق " وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله : "أن خزيمة بن ثابت ، وليس بالأنصاري ، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن منشأ السحاب فقال : " إن ملكاً موكلاً يلمّ القاصية ويلحم الدانية ، في يده مخراق ، فإذا رفع برقت وإذا

زجر رعدت ، وإذا ضرب صعقت " وأخرج أحمد ، والترمذي وصححه .

والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : "أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، إنا نسألك عن خمسة أشياء ، فإن أنبأتنا بهنّ عرفنا أنك نبيّ واتبعناك ، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال :

(279/410)

﴿ الله على ما نقول وكيل ﴾ [يوسف : 66] ، قال " هاتوا " ، قالوا : أخبرنا عن علامة النبيّ ؟ قال : " تنام عيناه ولا ينام قلبه " ، قالوا : أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر ؟ قال : " يلتقي الماءان ، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت " قالوا : أخبرنا عمّا حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : "كان يشتكي عرق النساء ، فلم يجد شيئاً يلائمه إلاّ ألبان كذا وكذا : يعني : الإبل ، فحرم لحومها " قالوا : صدقت ، قالوا أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : " ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله " ، قالوا : فما هذا الصوت الذي نسمع ؟ قال : " صوته " ، قالوا : صدقت إنما بقيت واحدة ، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا

، إنه ليس من نبيّ إلاّ له ملك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : " جبريل ، " قالوا : جبريل ذاك ينزل بالخراب والقتال والعذاب عدوّنا ، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان فأنزل الله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة : 97] إلى آخر الآية .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد ، وابن أبي الدنيا في المطر ، وابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان الذي سبحت له ، وقال : إن الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه .

وقد روي نحو هذا عنه من طرق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن الرعد صوت الملك ، وكذا أخرج نحوه أبو الشيخ عن ابن عمر .

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : الرعد ملك اسمه الرعد ، وصوته هذا تسبيحه ، فإذا اشتدّ زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه ، فتخرج الصواعق من بينه ، وأخرج ابن أبي حاتم ، والخرائطي ، وأبو الشيخ في العظمة عن أبي عمران الجوني قال : إن بحوراً من نار دون العرش يكون منها الصواعق .

وأخرج أبو الشيخ عن السدّي قال : الصواعق نار .

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المحال ﴾ قال: شديد القوّة.

وأخرج ابن جرير عن علي قال: شديد الأخذ.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه في قوله: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾ قال: التوحيد: لا إله إلاّ الله.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ دَعْوَةُ الحق ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلاّ الله.

وأخرج ابن جرير عن علي في قوله: ﴿ إِلاَّ كباسط كَفَّيْهِ إِلَى الماء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ قال: كان الرجل العطشان يمدّ يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال: هذا مثل المشرك الذي عبد مع الله غيره، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه.

وأخرج أبو الشيخ عنه في قوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الاعمى والبصير ﴾ قال: المؤمن والكافر.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه أيضاً في قوله: ﴿ أَنزَلَ

مِنَ السماء مَآء ﴾ الآية قال : هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله ، وهو قوله : ﴿ فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَاء ﴾ وهو الشك ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفعُ الناس فَيَمْكُثُ فِى الأرض ﴾ وهو اليقين ، وكما يجعل الحليّ في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه ، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك .

وأخرج هؤلاء عنه أيضاً : ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ قال : الصغير قدر صغره ، والكبير قدر كبره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(281/410)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) ﴾

تبدأ السورة بقضية عامة من قضايا العقيدة : قضية الوحي بهذا الكتاب ، والحق الذي اشتمل عليه . وتلك هي قاعدة بقية القضايا من توحيد لله ، ومن إيمان بالبعث ، ومن عمل صالح في الحياة . فكلها متفرعة عن الإيمان بأن الآمر بهذا هو الله ، وأن هذا القرآن وحي

من عنده سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ المر . تلك آيات الكتاب . والذي أنزل إليك من ربك الحق . ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ . .

ألف . لام . ميم . را . . ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ . . آيات هذا القرآن . أو تلك آيات على الكتاب تدل على الوحي به من عند الله . إذ كانت صياغته من مادة هذه الأحرف دلالة على أنه من وحي الله ، لا من عمل مخلوق كائناً من كان .

﴿ والذي أنزل من ربك الحق ﴾ . .

الحق وحده . الحق الخالص الذي لا يتلبس بالباطل . والذي لا يحتمل الشك والتردد . وتلك الأحرف آيات على أنه الحق . فهي آيات على أنه من عند الله . ولن يكون ما عند الله إلا حقاً لا ريب فيه .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ . .

لا يؤمنون بأنه موحى به ، ولا بالقضايا المترتبة على الإيمان بهذا الوحي من توحيد لله ودينونة له وحده ومن بعث وعمل صالح في الحياة .

هذا هو الافتتاح الذي يلخص موضوع السورة كله ، ويشير إلى جملة قضاياها . ومن ثم يبدأ في استعراض آيات القدرة ، وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق وحكمته وتدبيره ، الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس ؛ وأن يكون

هناك بعث لحساب الناس . وأن من مقتضيات تلك القدرة أن تكون مستطيعة بعث الناس ورجعهم إلى الخالق الذي بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم . وسخره لهم ليبلوهم فيما آتاهم .

وتبدأ الريشة المعجزة في رسم المشاهد الكونية الضخمة . . لمسة في السماوات ، ولمسة في الأرضين . ولمسات في مشاهد الأرض وكوامن الحياة . .

ثم التعجيب من قوم ينكرون البعث بعد هذه الآيات الضخام ، ويستعجلون عذاب الله ، ويطلبون آية غير هذه الآيات :

﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ .

﴿ وهو الذي مد الأرض ، وجعل فيها رواسيَ وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يُغشي الليل النهار . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

﴿ وإن تعجب فعجب قولهم : أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم .

وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب . ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ .

والسماوات أياً كان مدلولها وأياً كان ما يدركه الناس من لفظها في شتى العصور معروضة على الأنظار ، هائلة ولا شك حين يخلو الناس إلى تأملها لحظة . وهي هكذا لا تستند إلى شيء . مرفوعة ﴿ بغير عمد ﴾ مكشوفة ﴿ ترونها ﴾ . .

هذه هي اللمسة الأولى في مجالي الكون الهائلة وهي بذاتها اللمسة الأولى للوجدان الإنساني ، وهو يقف أمام هذا المشهد الهائل يتملاه ؛ ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفعها بلا عمد أو حتى بعمد إلا الله ؛ وقصارى ما يرفعه الناس بعمد أو بغير عمد تلك البنيان الصغيرة الهزيلة القابعة في ركن ضيق من الأرض لا تتعداه . ثم يتحدث الناس عما

في تلك البنيان من عظمة ومن قدرة و من إتقان ، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عمد ؛ وعما وراءها من القدرة الحقة والعظمة الحقة ، والإتقان الذي لا يتطاول إليه خيال إنسان !

ومن هذا المنظور الهائل الذي يراه الناس ، إلى المغيب الهائل الذي تتقاصر دونه المدارك والأبصار : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ . .

فإن كان علو فهذا أعلى . وإن كانت عظمة فهذا أعظم . وهو الاستعلاء المطلق ، يرسمه في صورة على طريقة القرآن في تقريب الأمور المطلقة لمدارك البشر المحدودة .

وهي لمسة أخرى هائلة من لمسات الريشة المعجزة . لمسة في العلو المطلق إلى جانب اللمسة الأولى في العلو المنظور ، تتجاوران وتتسقان في السياق . .

ومن الاستعلاء المطلق إلى التسخير . تسخير الشمس والقمر . تسخير العلو المنظور للناس على ما فيه من عظمة أخاذة ، أخذت بألبابهم في اللمسة الأولى ، ثم إذا هي مسخرة بعد ذلك لله الكبير المتعال .

ونقف لحظة أمام التقابلات المتداخلة في المشهد قبل أن نمضي معه إلى غايته ، فإذا نحن أمام ارتفاع في الفضاء المنظور يقابله ارتفاع في الغيب المجهول . وإذا نحن أمام استعلاء يقابله التسخير . وإذا نحن أمام الشمس والقمر يتقابلان في الجنس : نجم وكوكب ، ويتقابلان في الأوان ، بالليل والنهار . .

ثم نمضي مع السياق . . فمع الاستعلاء والتسخير الحكمة والتدبير :

﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ . .

(284/410)

وإلى حدود مرسومة ، ووفق ناموس مقدر . سواء في جريانهما في فلكيهما دورة سنوية ودورة يومية . أو جريانهما في مداريهما لا يتعديانه ولا ينحرفان عنه . أو جريانهما إلى الأمد المقدر لهما قبل أن يحول هذا الكون المنظور .

﴿ يدبر الأمر ﴾ . .

الأمر كله ، على هذا النحو من التدبير الذي يسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى .

. والذي يمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة في الفضاء فيجريها لأجل لا تتعداه ، لا شك عظيم التدبير جليل التقدير .

ومن تدبيره الأمر أنه ﴿ يفصل الآيات ﴾ وينظمها وينسقها ، ويعرض كلاً منها في حينه ، ولعلته ، ولغايته ﴿ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ حين ترون الآيات مفصلة منسقة ، ومن ورائها آيات الكون ، تلك التي أبدعتها يد الخالق أول مرة ، وصورت لكم آيات القرآن ما

وراء إبداعها من تدبير وتقدير وإحكام . . ذلك كله يوحي بأن لا بد من عودة إلى الخالق بعد الحياة الدنيا ، لتقدير أعمال البشر ، ومجازاتهم عليها . فذلك من كمال التقدير الذي توحي به حكمه الخلق الأول عن حكمة و تدبير .

وبعد ذلك يهبط الخط التصويري الهائل من السماء إلى الأرض فيرسم لوحتها العريضة الأولى :

﴿ وهو الذي مد الأرض ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشي الليل النهار . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . .

والخطوط العريضة في لوحة الأرض هي مد الأرض وبسطها أمام النظر وانفساحها على مداه . لا يهم ما يكون شكلها الكلي في حقيقته . إنما هي مع هذا ممدودة مبسوطة فسيحة . هذه هي اللمسة الأولى في اللوحة . ثم يرسم خط الرواسي الثوابت من الجبال ، وخط الأنهار الجارية في الأرض . فتتم الخطوط العريضة الأولى في المشهد الأرضي ، متناسقة متقابلة .

ومما يناسب هذه الخطوط الكلية ما تحتويه الأرض من الكليات ، وما يلابس الحياة فيها من كليات كذلك .

وتمثل الأولى فيما تنبت الأرض : ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ .

وتمثل الثانية في ظاهرتي الليل والنهار : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ .

والمشهد الأول يتضمن حقيقة لم تعرف للبشر من طريق علمهم وبحثهم إلا قريباً . هي أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التي كان مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور ، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة ، أو متفرقة في العود . وهي حقيقة تتضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد تملي ظواهره .

والمشهد الثاني مشهد الليل والنهار متعاقبين ، هذا يغشي ذاك ، في انتظام عجيب . هو ذاته مثار تأمل في مشاهد الطبيعة ، فقدوم ليل وإدبار نهار أو إشراق فجر وانقشاع ليل ، حادث تهوّن الألفة من وقعه في الحس ، ولكنه في ذاته عجب من العجب ، لمن ينفض عنه موات الألفة وخمودها ، ويتلقاه بحس الشاعر المتجدد ، الذي لم يجمده التكرار . . والنظام الدقيق الذي لا تتخلف معه دورة الفلك هو بذاته كذلك مثار تأمل في ناموس هذا الكون ، وتفكير في القدرة المبدعة التي تدبره وترعاه : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . .

ونقف كذلك هنا وقفة قصيرة أمام التقابلات الفنية في المشهد قبل أن نجاوزه إلى ما وراءه .

. . التقابلات بين الرواسي الثابتة والأنهار الجارية . وبين الزوج والزوج في كل الثمرات .

وبين الليل والنهار . ثم بين مشهد الأرض كله ومشهد السماء السابق . وهما متكاملان في المشهد الكوني الكبير الذي يضمهما ويتألف منهما جميعاً .

ثم تمضي الريشة المبدعة في تخطيط وجه الأرض بخطوط جزئية أدق من الخطوط العريضة الأولى :

﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ . .

وهذه المشاهد الأرضية ، فينا الكثيرون يمرون عليها فلا تثير فيهم حتى رغبة التطلع إليها ! إلا أن ترجع النفس إلى حيوية الفطرة والاتصال بالكون الذي هي قطعة منه ، انفصلت عنه لتتأمله ثم تندمج فيه . .

﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ . .

متعددة الشيات ، وإلا ما تبين أنها ﴿ قطع ﴾ فلو كانت متماثلة لكانت قطعة . . منها الطيب الخصب ، ومنها السبخ النكد . ومنها المقفر الجدب ، ومنها الصخر الصلد . وكل

واحد من هذه وتلك انواع وألوان ودرجات . ومنها العامر والغامر . ومنها المزروع الحي والمهمل الميت . ومنها الريان والعطشان . ومنها ومنها ومنها . . وهي كلها في الأرض متجاورات .

هذه اللمسة العريضة الأولى في التخطيط التفصيلي . . ثم تتبعها تفصيلات : ﴿ وجنات من أعناب ﴾ . ﴿ وزرع ﴾ . ﴿ ونخيل ﴾ تمثل ثلاثة أنواع من النبات ، الكرم المتسلق . والنخل السامق . والزرع من بقول وأزهار وما أشبه . مما يحقق تلوين المنظر ، وملء فراغ اللوحة الطبيعية ، والتمثيل لمختلف أشكال النبات .

ذلك النخيل . صنوان وغير صنوان . منه ما هو عود واحد . ومنه ما هو عودان أو أكثر في أصل واحد . . وكله ﴿ يسقى بماء واحد ﴾ والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعوم :

﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ .

فمن غير الخالق المدبر المريد يفعل هذا وذاك ؟ !

من منا لم يذق الطعوم مختلفات في نبت البقعة الواحدة . فكم منا التفت هذه اللفتة التي وجه القرآن إليها العقول والقلوب ؟ إنه بمثل هذا يبقى القرآن جديداً أبداً ، لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس ؛ وهي لا تنفد ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود ، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود .

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ . .

ومرة ثالثة نقف أمام التقابلات الفنية في اللوحة بين القطع المتجاورات المختلفات . والنخل صنوان وغير صنوان والطعوم مختلفات . والزرع والنخيل والأعناب . .

تلك الجولة الهائلة في آفاق الكون الفسيحة ، يعود منها السياق ليعجّب من قوم ، هذه الآيات كلها في الآفاق لا توقظ قلوبهم ، ولا تنبه عقولهم ، ولا يلوح لهم من ورائها تدبير المدبر ، وقدرة الخالق ، كأن عقولهم مغلولة ، وكأن قلوبهم مقيدة ، فلا تنطلق للتأمل في تلك الآيات :

﴿ وإن تعجب فعجب قولهم : أإذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

.

وإنه لعجيب يستحق التعجيب ، أن يسأل قوم بعد هذا العرض الهائل :

﴿ أإذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد ؟ ﴾ . .

والذي خلق هذا الكون الضخم ودبره على هذا النحو ، قادر على إعادة الأناسي في بعث جديد . إنما هو الكفر بربهم الذي خلقهم ودبر أمرهم . وإنما هي أغلال العقل والقلب .

فالجزاء هو الأغلال في الأعناق ، تنسيقاً بين غل العقل وغل العنق ؛ والجزاء هو النار خالدين فيها . فقد عطلوا كل مقومات الإنسان التي من أجلها يكرمه الله ، وانتكسوا في الدنيا فهم في الآخرة يلاقون عاقبة الانتكاس حياة أدنى من حياتهم الدنيا ، التي عاشوها معطلي الفكر والشعور والإحساس .

هؤلاء القوم الذين يعجبون من أن يبعثهم الله خلقاً جديداً . وعجبهم هذا هو العجب !

هؤلاء يستعجلونك أن تأتيهم بعذاب الله ، بدلاً من أن يطلبوا هدايته ويرجوا رحمته :

﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾ . .

وكما أنهم لا ينظرون في آفاق الكون ، وآيات الله المبثوثة في السماء والأرض ، فهم لا ينظرون إلى مصارع الغابرين الذين استعجلوا عذاب الله فأصابهم ؛ وتركهم مثلة يعتبر بها من بعدهم :

﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ . .

فهم في غفلة حتى عن مصائر أسلافهم من بني البشر ، وقد كان فيها مثل لمن يعتبر .

﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ . .

فهو بعباده رحيم حتى وإن ظلموا فترة، يفتح لهم باب المغفرة ليدخلوه عن طريق التوبة.

ولكن يأخذ بعقابه الشديد من يصرون ويلجون، ولا يلجون من الباب المفتوح.

﴿ إن ربك لشديد العقاب ﴾ ..

والسياق يقدم هنا مغفرة الله على عقابه، في مقابل تعجل هؤلاء الغافلين للعذاب قبل الهداية. ليبدو الفارق الضخم الهائل بين الخير الذي يريده الله لهم، والشر الذي يريدونه لأنفسهم. ومن ورائه يظهر انطماس البصيرة، وعمى القلب، والانتكاس الذي يستحق درك النار.

ثم يمضي السياق في التعجيب من أمر القوم، الذين لا يدركون كل تلك الآيات الكونية، فيطلبون آية واحدة ينزلها الله على رسوله. آية واحدة والكون حولهم كله آيات:

﴿ ويقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه! إنما أنت منذر، ولكل قوم هاد ﴾ ..

إنهم يطلبون خارقة. والخوارق ليست من عمل الرسول ولا اختصاصه. إنما يبعث بها الله معه، حين يرى بحكمته أنها لازمة. ﴿ إنما انت منذر ﴾ محذر ومبصر. شأنك شأن كل رسول قبلك، فقد بعث الله الرسل للأقوام للهداية ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ فأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد.

وبذلك تنتهي الجولة الأولى في الآفاق، والتعقيبات عليها. ليبدأ السياق جولة جديدة في واد آخر: في الأنفس والمشاعر والأحياء:

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار .

عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .

سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ﴾ . .

(289/410)

ويقف الحس مشدوهاً يرتعش تحت وقع هذه اللمسات العميقة في التصوير ، وتحت إيقاع هذه الموسيقى العجيبة في التعبير . يقف مشدوهاً وهو يقفو مسارب علم الله ومواقعه ؛ وهو يتبع الحمل المكنون في الأرحام ، والسر المكنون في الصدور ، والحركة الخفية في جنح الليل ؛ وكل مستخف وكل سارب وكل هامس وكل جاهر . وكل أولئك مكشوف تحت المجهر الكاشف ، يتتبعه شعاع من علم الله ، وتتعقبه حفظة تحصي خواطره ونواياه . . ألا إنها الرهبة الخاشعة التي لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله ، تطمئن في حماه . . وإن المؤمن بالله ليعلم أن علم الله يشمل كل شيء . ولكن وقع هذه القضية الكلية في الحس ، لا يقاس إلى وقع مفرداتها كما يعرض السياق بعضها في هذا التصوير العجيب .

وأين أية قضية تجريدية ، وأية حقيقة كلية في هذا المجال من قوله :

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار ﴾ ؟

حين يذهب الخيال يتتبع كل أنثى في هذا الكون . . المترامي الأطراف . . كل أنثى . . كل أنثى في الوبر والمدر ، في البدو والحضر ، في البيوت والكهوف والمسارب والغابات .

ويتصور علم الله مطلاً على كل حمل في أرحام هذه الإناث ، وعلى كل قطرة من دم تغيض أو تزداد في تلك الأرحام !

وأين أية قضية تجريدية وأية حقيقة كلية في هذا المجال من قوله :

﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ ؟

حين يذهب الخيال يتتبع كل هامس وكل جاهر ، وكل مستخف وكل سارب في هذا الكون الهائل . ويتصور علم الله يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه ، ويقيد عليه كل شاردة وكل واردة آناء الليل وأطراف النهار !

إن اللمسات الأولى في آفاق الكون الهائل ليست بأضخم ولا أعمق من هذه اللمسات الأخيرة في أغوار النفس والغيب ومجاهيل السرائر . وإن هذه لكفء لتلك في مجال التقابل والتناظر . .

ونستعرض شيئاً من بدائع التعبير والتصوير في تلك الآيات :

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار ﴾ . . فلما أن صور العلم بالغيض والزيادة في مكنونات الأرحام ، عقب بأن كل شيء عنده بمقدار . والتناسق واضح بين كلمة مقدار وبين النقص والزيادة . والقضية كلها ذات علاقة بإعادة الخلق فيما سبق من ناحية الموضوع .

كما أنها من ناحية الشكل والصورة ذات علاقة بما سيأتي بعدها من الماء الذي تسيل به الأودية ﴿ بقدرها ﴾ في السيولة والتقدير . . كما أن في الغيض والزيادة تلك المقابلة المعهودة في جو السورة على الإطلاق . .

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ . .

ولفظة ﴿ الكبير ﴾ ولفظة ﴿ المتعال ﴾ كلتاهما تلقي ظلها في الحس . ولكن يصعب تصوير ذلك الظل بألفاظ أخرى . إنه ما من خلق حادث إلا وفيه نقص يصغره . وما يقال عن خلق من خلق الله كبير ، أو أمر من الأمور كبير ، أو عمل من الأعمال كبير ، حتى يتضاءل بمجرد أن يذكر الله . . وكذلك ﴿ المتعال ﴾ . . تراني قلت شيئاً ؟ لا . ولا أي

مفسر آخر للقرآن وقف أمام ﴿ الكبير المتعال ﴾ !

﴿ سوآء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ . . والتقابل واضح في العبارة . إنما تستوقفنا كلمة ﴿ سارب ﴾ وهي تكاد بظلها تعطي عكس معناها ، فظلها ظل خفاء أو قريب من الخفاء . والسارب : الذاهب . فالحركة فيها هي المقصودة في مقابل الاستخفاء . هذه النعومة في جرس اللفظ وظله مقصودة هنا كي لا تخدش الجو . جو العلم الخفي اللطيف الذاهب وراء الحمل المكنون والسر الخافي والمستخفي بالليل والمعقبات التي لا تراها الأنظار . فاختار اللفظ الذي يؤدي معنى التقابل مع المستخفي ولكن في لين ولطف وشبه خفاء !

﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ . .

والحفظة التي تتعقب كل انسان ، وتحفظ كل شاردة وكل واردة وكل خاطرة وكل خالجة ، والتي هي من أمر الله ، لا يتعرض لها السياق هنا بوصف ولا تعريف . أكثر من أنها . . ﴿ من أمر الله ﴾ . . فلا نتعرض نحن لها : ما هي ؟ وما صفاتها ؟ وكيف تتعقب ؟ وأين تكون ؟ ولا نذهب بجو الخفاء والرهبة والتعقب الذي يسبغه السياق . فذلك هو المقصود

هنا ؛ وقد جاء التعبير بقدره ؛ ولم يجئ هكذا جزافاً ؛ وكل من له ذوق بأجواء التعبير يشفق من أن يشوه هذا الجو الغامض بالكشف والتفصيل !

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ . .

فهو يتعقبهم بالحفظة من أمره لمراقبة ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم فيرتب عليه الله تصرفه بهم . فإنه لا يغير نعمة أو بؤسى ، ولا يغير عزاً أو ذلة ، ولا يغير مكانة أو مهانة . . إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم ، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم . وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون . ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم ، ويجيء لاحقاً له في الزمان بالقياس إليهم .

وإنها لحقيقة تلقي على البشر تبعة ثقيلة ؛ فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته ، أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر ؛ وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم .

والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل . وهو يحمل كذلك إلى جانب التبعة دليل التكريم لهذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة الله ، أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه .

وبعد تقرير المبدأ يبرز السياق حالة تغيير الله ما بقوم إلى السوء ؛ لأنهم حسب المفهوم من الآية غيروا ما بأنفسهم إلى أسوء فأراد لهم الله السوء :

﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ . .

يبرز السياق هذا الجانب هنا دون الجانب الآخر لأنه في معرض الذين يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة . وقد قدم لهم هناك المغفرة على العذاب ليبرز غفلتهم ، وهو هنا يبرز العاقبة السوأى وحدها لإنذارهم حيث لا يرد عذاب الله عنهم إذا استحقوه بما في أنفسهم ولا يعصمهم منه وال يناصرهم . .

ثم يأخذ السياق في جولة جديدة في واد آخر ، موصول بذلك الوادي الذي كنا فيه . واد تجتمع فيه مناظر الطبيعة ومشاعر النفس ، متداخلة متناسقة في الصورة والظل والإيقاع . وتخيم عليه الرهبة والضراعة والجهد والإشفاق . وتظل النفس فيه في ترقب وحذر ، وفي تأثر وانفعال :

﴿ هو الذي يريكم البرق . خوفاً وطمعاً . وينشىء السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم ، بالغدو والآصال . قل : من

رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟ قل : هل يستوي الأعمى والبصير . أم هل تستوي الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ . .

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة ، وكذلك الصواعق التي تصاحبها في بعض الأحيان . وهي بذاتها مشاهد ذات أثر في النفس سواء عند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها والذين لا يعرفون عن الله شيئاً ! والسياق يحشدها هنا ؛ ويضيف إليها الملائكة والظلال والتسبيح والسجود والخوف والطمع ، والدعاء الحق والدعاء الذي لا يستجاب . ويضم إليها هيئة أخرى : هيئة ملهوف يتطلب الماء ، باسطاً كفيه ليبلغه ، فاتحاً فاه يتلقف منه قطرة . .

هذه كلها لا تتجمع في النص اتفاقاً أو جزافاً . إنما تتجمع لتلقي كلها ظلالها على المشهد ، وتلفه في جو من الرهبة والترقب ، والخوف والطمع ، والضراعة والارتجاف ، في سياق تصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر ، نفياً للشركاء المدعاة ، وإرهاباً من عقبى

الشرك بالله .

﴿ هو الذي يريكم البرق . خوفاً وطمعاً ﴾ . .

هو الله الذي يريكم هذه الظاهرة الكونية ، فهي ناشئة من طبيعة الكون التي خلقها هو على هذا النحو الخاص ، وجعل لها خصائصها وظواهرها . ومنها البرق الذي يريكم إياه وفق ناموسه ، فتخافونه لأنه بذاته يهز الأعصاب ، ولأنه قد يتحول إلى صاعقة ، ولأنه قد يكون نذيراً بسيل مدمر كما علمتكم تجاربكم . وتطمعون في الخير من ورائه ، فقد يعقبه المطر المدرار المحيي للموات ، المجري للأنهار .

﴿ وينشئ السحاب الثقال ﴾ . .

وهو كذلك الذي ينشئ السحاب والسحاب اسم جنس واحدته سحابة الثقال بالماء . فوفق ناموسه في خلقة هذا الكون وتركيبه تتكون السحب ، وتهطل الأمطار . ولو لم يجعل خلقة الكون على هذا النحو ما تكونت سحب ولا هطلت أمطار . ومعرفة كيف تتكون السحب ، وكيفية هطول الأمطار لا تفقد هذه الظاهرة الكونية شيئاً من روعتها ، ولا شيئاً من دلالتها . فهي تتكون وفق تركيب كوني خاص لم يصنعه أحد إلا الله . ووفق ناموس معين يحكم هذا التركيب لم يشترك في سنه أحد من عبيد الله ! كما أن هذا الكون لم يخلق نفسه ، ولا هو الذي ركب في ذاته ناموسه !

والرعد . . الظاهرة الثالثة لجو المطر والبرق والرعد . . هذا الصوت المقرقع المدوي . إنه أثر من آثار الناموس الكوني ، الذي صنعه الله - أياً كانت طبيعته وأسبابه - فهو رجع صنع الله في هذا الكون ، فهو حمد وتسبيح بالقدرة التي صاغت هذا النظام . كما أن كل مصنوع جميل متقن يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه بما يحمله من آثار صنعته من جمال وإتقان . . وقد يكون المدلول المباشر للفظ يسبح هو المقصود فعلاً ، ويكون الرعد ﴿ يسبح ﴾ فعلاً بحمد الله . فهذا الغيب الذي زواه الله عن البشر لا بد أن يتلقاه البشر بالتصديق والتسليم وهم لا يعلمون من أمر هذا الكون ولا من أمر أنفسهم إلا القليل !

وقد اختار التعبير أن ينص على تسبيح الرعد بالحمد اتباعاً لمنهج التصوير القرآني في مثل هذا السياق ، وخلع سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة لتشارك في المشهد بحركة من جنس المشهد كله كما فصلت هذا في كتاب التصوير الفني في القرآن والمشهد هنا مشهد أحياء في جو طبيعي . وفيه الملائكة تسبح من خيفته ، وفيه دعاء لله ، ودعاء للشركاء . وفيه باسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه . . ففي وسط هذا المشهد الداعي العابد المتحرك اشترك الرعد ككائن حي بصوته في التسبيح والدعاء . . ثم يكمل جو الرهبة والابتهال والبرق والرعد والسحاب الثقال . . بالصواعق يرسلها فيصيب بها من يشاء . والصواعق ظاهرة طبيعية ناشئة من تركيب الكون على هذا

المنوال ؛ والله يصيب بها أحياناً من غيروا ما بأنفسهم واقتضت حكمته ألا يمهلهم ، لعلمه أن لا خير في إمهالهم ، فاستحقوا الهلاك .

.

والعجيب أنه في هول البرق والرعد والصواعق ، وفي زحمة تسبيح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وزمجرة العواصف بغضبه . . في هذا الهول ترتفع أصوات بشرية بالجدل في الله صاحب كل هذه القوى وباعث كل هذه الأصوات التي ترتفع على كل جدال وكل محال :

﴿ وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾ !

وهكذا تضيع أصواتهم الضعيفة في غمرة هذا الهول المتجاوب بالدعاء والابتهال والرعد والقرقعة والصواعق ، الناطقة كلها بوجود الله الذي يجادلون فيه وبوحدانيته واتجاه التسبيح والحمد إليه وحده من أضخم مجالي الكون الهائل ، ومن الملائكة الذين يسبحون من خيفته (وللخوف إيقاعه في هذا المجال) فأين من هذا كله أصوات الضعاف من البشر وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ؟ !

وهم يجادلون في الله وينسبون إليه شركاء يدعونهم معه . ودعوة الله هي وحدها الحق ؛

وما عداها باطل ذاهب ، لا ينال صاحبه منه إلا العناء :

﴿ له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ . .

والمشهد هنا ناطق متحرك جاهد لاهف . . فدعوة واحدة هي الحق ، وهي التي تحق ، وهي التي تستجاب . إنها دعوة الله والتوجه إليه والاعتماد عليه وطلب عونه ورحمته وهداه . وما عداها باطل وما عداها ضائع وما عداها هباء . . ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء ؟ انظروا هذا واحد منهم . ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ويبسط كفيه . وفمه مفتوح يلهث بالدعاء . يطلب الماء ليبلغ فاه فلا يبلغه . وما هو ببالغه . بعد الجهد واللهفة والعناء . وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء :

﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ .

وفي أي جو لا يبلغ هذا الداعي اللاهف قطرة من ماء ؟ في جو البرق والرعد والسحاب الثقال ، التي تجري هناك بأمر الله الواحد القهار !

وفي الوقت الذي يتخذ هؤلاء الخائبون آلهة من دون الله ، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء ، إذا كل من في الكون يعنو لله . وكلهم محكومون بإرادته ، خاضعون لسنته ، مسيرون وفق ناموسه . المؤمن منهم يخضع طاعة وإيماناً ، وغير المؤمن يخضع أخذا وإرغاماً فما يملك أحد أن يخرج على إرادة الله ، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذي سنه للحياة :

﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم ، بالغدو والآصال ﴾ . .

ولأن الجو جو عبادة ودعاء ، فإن السياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود وهو اقصى رمز للعبودية ، ثم يضم إلى شخوص من في السماوات والأرض ، ظلالهم كذلك . ظلالهم بالغدو في الصباح ، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال . يضم هذه الظلال إلى الشخوص في السجود والخضوع والامتثال .

وهي في ذاتها حقيقة ، فالظلال تبع للشخوص . ثم تلقي هذه الحقيقة ظلها على المشهد ، فإذا هو عجب . وإذا السجود مزدوج : شخوص وظلال ! وإذا الكون كله بما فيه من شخوص وظلال جاثية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء . كلها تسجد لله . . وأولئك الخائبون يدعون آلهة من دون الله !

وفي جو هذا المشهد العجيب يتوجه إليهم بالأسئلة التهكمية . فما يجدر بالمشرك بالله في مثل هذا الجو إلا التهكم ، وما يستحق إلا السخرية والاستهزاء :

﴿ قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون

لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟ قل : هل يستوي الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوي الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار ﴾ . .

سلهم وكل من في السماوات والأرض مأخوذ بقدرة الله وإرادته رضي أم كره : ﴿ من رب السماوات والأرض ؟ ﴾ . . وهو سؤال لا ليجيبوا عنه ، فقد أجاب السياق من قبل . إنما ليسمعوا الجواب ملفوظاً وقد رأوه مشهوداً : ﴿ قل : الله ﴾ . . ثم سلهم : ﴿ أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟ ﴾ . . سلهم للاستنكار فهم بالفعل قد اتخذوا أولئك الأولياء . سلهم والقضية واضحة ، والفرق بين الحق والباطل واضح : وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، وبين الظلمات والنور . وفي ذكر الأعمى والبصير إشارة إليهم وإلى المؤمنين ؛ فالعمى وحده هو الذي يصدهم عن رؤية الحق الواضح الجاهر الذي يحس بأثره كل من في السماوات والأرض . وفي ذكر الظلمات والنور إشارة إلى حالهم وحال المؤمنين ، فالظلمات التي تحجب الرؤية هي التي تلفهم وتكفهم عن الإدراك للحق المبين .

أم ترى هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله ، خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله .

فتشابهت على القوم هذه المخلوقات وتلك ، فلم يدروا أيها من خلق الله وأيها من خلق الشركاء ؟ فهم معذورون إذن إن كان الأمر كذلك ، في اتخاذ الشركاء ، فلهم من صفات الله تلك القدرة على الخلق ، التي بها يستحق المعبود العبادة ؛ وبدونها لا تقوم شبهة في عدم استحقاقه !

وهو التهكم المر على القوم يرون كل شيء من خلق الله ، ويرون هذه الآلهة المدعاة لم تخلق شيئاً ، وما هي بخالقة شيئاً ، إنما هي مخلوقة . وبعد هذا كله يعبدونها ويدينون لها في غير شبهة . وذلك أسخف وأحط ما تصل العقول إلى دركه من التفكير . .

والتعقيب على هذا التهكم اللاذع ، حيث لا معارضة ولا جدال ، بعد هذا السؤال :

﴿ قل : الله خالق كل شيء . وهو الواحد القهار ﴾ . .

(298/410)

فهي الوحدانية في الخلق ، وهي الوحدانية في القهر أقصى درجات السلطان وهكذا تحاط قضية الشركاء في مطلعها بسجود من في السماوات والأرض وظلالهم طوعاً وكرهاً لله ؛ وفي ختامها بالقهر الذي يخضع له كل شيء في الأرض أو في السماء .

. وقد سبقته من قبل بروق ورعود وصواعق وتسبيح وتحميد عن خوف أو طمع . . فأين القلب الذي يصمد لهذا الهول ، إلا أن يكون أعمى مطموساً يعيش في الظلمات ، حتى يأخذه الهلاك ؟ !

وقبل أن نغادر هذا الوادي نشير إلى التقابلات الملحوظة في طريقة الأداء . بين ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ وبين البرق الخاطف والسحاب الثقال و ﴿ الثقال ﴾ هنا ، بعد إشارتها إلى الماء ، تشارك في صفة التقابل مع البرق الخفيف الخاطف وبين تسبيح الرعد بحمده وتسبيح الملائكة من خيفته . وبين دعوة الحق ودعوة الجهد الضائع . وبين السماوات والأرض ، وسجود من فيهن طوعاً وكرهاً . وبين الشخوص والظلال . وبين الغدو والآصال . وبين الأعمى والبصير . وبين الظلمات والنور . وبين الخالق القاهر والشركاء الذين لا يخلقون شيئاً ، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . . . وهكذا يمضي السياق على نهجه في دقة ملحوظة ولألاء باهر وتنسيق عجيب .

ثم نمضي مع السياق . يضرب مثلاً للحق والباطل . للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح . للخير الهادئ والشر المتنفج . والمثل المضروب هنا مظهر لقوة الله الواحد القهار . ولتدبير الخالق المدبر المقدر للأشياء . وهو من جنس المشاهد الطبيعية التي يمضي في جوها السياق .

﴿ أنزل من السماء ماء ، فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً : ومما يوقدون

عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله. كذلك يضرب الله الحق والباطل. فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ . .

(299/410)

وإنزال الماء من السماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقال في المشهد السابق؛ ويؤلف جانباً من المشهد الكوني العام، الذي تجري في جوه قضايا السورة وموضوعاتها. وهو كذلك يشهد بقدرة الواحد القهار. . وأن تسيل هذه الأودية بقدرها، كل بحسبه، وكل بمقدار طاقته ومقدار حاجته يشهد بتدبير الخالق وتقديره لكل شيء. . وهي إحدى القضايا التي تعالجها السورة. . وليس هذا أو ذلك بعد إلا إطاراً للمثل الذي يريد الله ليضربه للناس من مشهود حياتهم الذي يمرون عليه دون انتباه.

إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلم في طريقه غثاء، فيطفو على وجهه في صورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء في بعض الأحيان. هذا الزبد نافش راب منتفخ. . ولكنه بعد غثاء. والماء من تحته سارب ساكن هادئ. . ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة. . كذلك يقع في المعادن التي تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة، أو آنية أو

آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص، فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل.

ولكنه بعدُ خبثٌ يذهب ويبقى المعدن في نقاء..

ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة. فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً

ولكنه بعدُ زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه.

والحق يظل هادئاً ساكناً. وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات. ولكنه

هو الباقي في الأرض كالماء المحيي والمعدن الصريح، ينفع الناس، ﴿كذلك يضرب الله

الأمثال﴾ وكذلك يقرر مصائر الدعوات، ومصائر الاعتقادات. ومصائر الأعمال

والأقوال. وهو الله الواحد القهار، المدبر للكون والحياة، العليم بالظاهر والباطن، والحق

والباطل والباقي والزائل.

(300/410)

فمن استجاب لله فله الحسنى. والذين لم يستجيبوا له يلاقون من الهول ما يود أحدهم لو

ملك ما في الأرض ومثله معه أن يفتدى به. وما هو بمفتد، إنما هو الحساب الذي يسوء،

وإنما هي جهنم لهم مهاد. ويا لسوء المهاد!:

﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً

ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ . . . ويتقابل الذين يستجيبون مع الذين لا يستجيبون . وتتقابل الحسنى مع سوء العذاب . . ومع جهنم وبئس المهاد . . على منهج السورة كلها وطريقتها المطردة في الأداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2043 . 2054 ﴾

(301/410)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة : ﴿ المر ﴾ أي الذات الأحدية واسمه العليم واسمه الأعظم ومظهره الذي هو الرحمة ﴿ تِلْكَ ءايات ﴾ علامات ﴿ الكتاب ﴾ [الرعد : 1] الجامع الذي هو الوجود المطلق ﴿ الله الذى رَفَعَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ أي بغير عمد مرئية بل بعمد غير مرئية ، وجعل الشيخ الأكبر قدس سره عمادها الإنسان الكامل ، وقيل : النفس المجردة التي تحركها بواسطة النفس المنطبعة وهي قوة جسمانية سارية في جميع أجزاء الفلك لا يختص بها جزء دون جزء لبساطته وهي بمنزلة الخيال فينا وفيه ما فيه ، وقيل : رفع سموات الأرواح بلا مادة تعمدها بل مجردة قائمة بنفسها ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾

بالتأثير والتقويم ، وقيل : عرش القلب بالتجلي ﴿ وَسَخَّرَ الشمس ﴾ شمس الروح بإدراك المعارف الكلية واستشراف الأنوار العالية ﴿ والقمر ﴾ قمر القلب بإدراك ما في العالمين والاستمداد من فوق ومن تحت ثم قبول تجليات الصفات ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو كما له بحسب الفطرة ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ في البداية بتهيئة الاستعداد وترتيب المبادي ﴿ يُفَصّلُ الآيات ﴾ في النهاية بترتيب الكمالات والمقامات ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاء رَبّكُمْ ﴾ عند مشاهدة آيات التجليات

﴿ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : 2] عين اليقين .

(302/410)

وقال ابن عطاء : يدبر الأمر بالقضاء السابق ويفصل الآيات بأحكام الظاهر لعلكم توقنون أن الله تعالى الذي يجري تلك الأحوال لا بد لكم من الرجوع إليه سبحانه ﴿ وَهُوَ الذى مَدَّ الأرض ﴾ أي أرض قلوب أوليائه ببسط أنوار المحبة ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ ﴾ المعرفة لئلا تتزلزل بغلبة هيجان المواجيد وجعل فيها ﴿ أَنْهَاراً ﴾ من علوم الحقائق ﴿ وَمِن كُلّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ وهي ثمرات أشجار الحكم المتنوعة ﴿ يغشى وَهُوَ الذى ﴾ تجلى الجلال وتجلى الجمال ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : 3]

في آيات الله تعالى ، قال أبو عثمان : الفكر إراحة القلب من وساوس التدبير ، وقيل : تصفيته لوارد الفوائد ، وقيل : الإشارة في ذلك إلى مد أرض الجسد وجعل رواسي العظام فيها وأنهار العروق وثمرات الأخلاق من الجود والبخل والفجور والعفة والجبن والشجاعة والظلم والعدل وأمثالها والسواد والبياض والحرارة والبرودة والملاسة والخشونة ونحوها ، وتغشية ليل ظلمة الجسمانيات نهار الروحانيات وفي ذلك آيات لقوم يتفكرون في صنع الله تعالى وتطابق عالميه الأصغر والأكبر ﴿ وَفِى الأَرضِ قِطَعٌ متجاورات ﴾ فقلوب المحبين مجاورة لقلوب المشتاقين وهي لقول العاشقين وهي لقلوب الوالهين وهي لقلوب الهائمين وهي لقلوب العارفين وهي لقلوب الموحدين ، وقيل : في أرض القلوب قطع متجاورات قطع النفوس وقطع الأرواح وقطع الأسرار وقطع العقول والأولى تنبت شوك الشهوات والثانية زهر المعارف والثالثة نبات كواشف الأنوار والرابعة أشجار نور العلم وفيها ﴿ جنات مّن أعناب ﴾ أي أعناب العشق ﴿ وَزَرْعٌ ﴾ أي زرع دقائق المعرفة ﴿ وَنَخِيلٌ ﴾ أي نخل الإيمان ﴿ صنوان ﴾ في مقام الفرق ﴿ وَنَخِيلٌ صنوان ﴾ في مقام الجمع ، وقيل : صنوان إيمان مع شهود وغير صنوان إيمان بدونه ﴿ يسقى بِمَاء واحد ﴾ وهو التجلي الذي يقتضيه الجود المطلق ﴿ وَنُفَضّلُ

بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِى الأكل ﴾ [الرعد : 4] في الطعم الروحاني ، وقيل : أشير أيضاً إلى أن في أرض الجسد قطعاً متجاورات من العظم واللحم والشحم والعصب وجنات من أشجار القوى الطبيعية والحيوانية والإنسانية من أعناب القوى الشهوانية التي يعصر منها هوى النفس والقوى العقلية التي يعصر منها هوى النفس والقوى العقلية التي يعصر منها خمر المحبة والعشق وزرع القوى الإنسانية ونخيل سائر الحواس الظاهرة والباطنة صنوان كالعينين والاذنين وغير صنوان كاللسان وآلة الفكر والوهم يسقى بماء واحد وهو ماء الحياة ونفضل بعضها على بعض في أكل الإدراكات والملكات كتفضيل مدركات العقل على الحس والبصر على اللمس وملكة على العفة وهكذا ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ بعد ظهور الآيات ﴿ مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ولم يعلموا أن القادر على ذلك قادر على أن يحيي الموتى .

(304/410)

وقيل : إن منشأ التعجب أنهم أنكروا الخلق الجديد يوم القيامة مع أن الإنسان في كل ساعة في خلق آخر جديد بل العالم بأمره في كل لحظة يتجدد بتبدل الهيآت والأحوال والأوضاع

والصور ، وإلى كون العالم كل لحظة في خلق جيديد ذهب الشيخ الأكبر قدس سره فعنده الجوهر وكذا العرض لا يبقى زمانين كما أن العرض عند الأشعري كذلك ، وهذا عند الشيخ قدس سره مبني على أن الجواهر والإعراض كلها شؤنه تعالى عما يقوله الظالمون علواً كبيراً وهو سبحانه كل يوم أي وقت في شأن ، وأكثر الناس ينكرون على الأشعري قوله بتجدد الاعراض ، والشيخ قدس سره زاد في الشطرنج جملاً ولا يكاد يدرك ما يقوله بالدليل بل هو موقوف على الكشف والشهود ، وقد اغتر كثير من الناس بظاهر كلامه فاعتقدوه من غير تدبر فضلوا وأضلوا ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ فلم يعرفوا عظمته سبحانه ﴿ وَأُوْلَئِكَ الاغلال فِى أعناقهم ﴾ فلا يقدرون أن يرفعوا رؤوسهم المنتكسة إلى النظر في الآيات ﴿ وَأُولَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ [الرعد : 5] لعظم ما أتوا به ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ بمناسبة استعدادهم للشر ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ عقوبة أمثالهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ أنفسهم باكتساب الأمور الحاجبة لهم عن النور ولم ترسخ فيهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ [الرعد : 6] لمن رسخت فيه ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾ لعمى بصائرهم عن مشاهدة الآيات الشاهدة بالنبوة ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ ﴾ تشهد له صلى الله عليه وسلم بذلك ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ ﴾ ما عليك إلا انذارهم لا هدايتهم ﴿ وَلِكُلّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [

الرعد : 7] هو الله تعالى ، وقيل : لكل طائفة شيخ يعرفهم طريق الحق ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾ فيعلم ما تحمل أنثى النفس من ولد الكمال أي ما في قوة

(305/410)

كل استعداد ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام ﴾ أي تنقص أرحام الاستعداد بترك النفس وهواها ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ بالتزكية وبركة الصحبة ﴿ وَكُلُّ شيْء ﴾ من الكمالات ﴿ عِندَهُ ﴾ سبحانه ﴿ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8] معين على حسب القابلية ﴿ سَوَاء مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول ﴾ في مكمن استعداده ﴿ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ بإبرازه إلى الفعل ﴿ وَمَنْ هو مستخف بالليل ﴾ ظلمة نفسه

﴿ وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ [الرعد : 10] بخروجه من مقام النفس وذهابه في نهار نور الروح ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ إشارة إلى سوابق الرحمة الحافظة له من خاطفات الغضب أو الإمدادات الملكوتية الحافظة له من جن القوى الخيالية والوهمية والسبعية والبهيمية وإهلاكها أياه ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من النعم الظاهرة أو الباطنة ﴿ حتى يُغَيِّرُواْ مَّا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ من الاستعداد وقوة القبول ؛ قال النصر أبادي : إن هذا الحكم عام لكن مناقشة الخواص فوقة مناقشة العوام ، وعن بعض السلف أنه قال

: إن الفأرة مزقت خفي وما أعلم ذلك إلا بذنب أحدثته وإلا لما سلطها علي وتمثل بقول

الشاعر :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي . . .

بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

﴿ وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ [الرعد : 11] إذ

الكل تحت قهره سبحانه ، قال القاسم : إذا أراد الله تعالى هلاك قوم حسن موارده في

أعينهم حتى يمشون إليها بتدبيرهم وأرجلهم ، ولله تعالى در من قال :

إذا لم يكن عون من الله للفتى . . .

فأول ما يجنى عليه اجتهاده

(306/410)

﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ البرق ﴾ أي برق لوامع الأنوار القدسية ﴿ خَوْفًا ﴾ خائفين من

سرعة انقضائه أو بطء رجوعه ﴿ وَطَمَعًا ﴾ طامعين في ثباته أو سرعة رجوعه ﴿

وَيُنْشِىء السحاب الثقال ﴾ [الرعد : 12] برق المكاشف وينشي ء للعارفين سحاب

العظمة الثقال بماء الهيبة فيمطر عليهم ما يحييهم به الحياة التي لا تشبهها حياة ، وأنشدوا

للشبلى :

أظلت علينا منك يوماً غمامة . . .

أضاءت لنا رقاً وأبطا رشاشها

فلا غيمها يصحو فييأس طامع . . .

ولا غيثها يأتي فيروى عطاشها

وعن بعضهم أن البرق إشارة إلى التجليات البرقية التي تحصل لأرباب الأحوال وأشهر التجليات في تشبيهه بالبرق التجلي الذاتي ، وأنشدوا :

ما كان ما أوليت من وصلنا . . .

إلا سراجاً لاح ثم انطفى

وذكر الإمام الرباني قدس سره في المكوتبات أن التجلي الذاتي دائمي للكاملين من أهل الطريقة النقشبندية لا برقى وأطال الكلام في ذلك مخالفاً لكبار السادة الصوفية كالشيخ محيى الدين قدس سه .

وغيره ، والحق أن ما ذكره من التجلي الذاتي ليس هو الذي ذكروا أنه برقى كما لا يخفى على من راجع كلامه وكلامهم ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد ﴾ أي رعد سطوة التجليات الجلالية ويمجد الله تعالى عما يتصوره العقل ملتبساً ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ وإثبات ما ينبغي له عن شأنه ﴿ والملائكة ﴾ وتسبح ملائكة القوى الروحانية ﴿ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ من هيبتة جلاله جل

جلاله ﴿ وَيُرْسِلُ الصواعق ﴾ هي صواعق السبحات الإلهية عند تجلي القهر الحقيقي المتضمن للطف الكلى ﴿ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء ﴾ فيحرقه عن بقية نفسه ، وفي "الخبر" إن لله تعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" وقال ابن الزنجاني : الرعد صعقات الملائكة والبرق ذفرات أفئدتهم والمطر بكاؤهم ، وجعل الزمخشري هذا من بدع المتصوفة ، وكأني بك تقول : إن أكثر ما ذكر في باب الإشارة من هذا الكتاب من هذا القبيل .

والجواب إنا لا ندعي إلا الإشارة وأما أن ذلك مدلول اللفظ أو مراد الله تعالى فمعاذ الله تعالى من أن يمر بفكري ، واعتقاد ذلك هو الضلال البعيد والجهل الذي ليس عليه مزيد ، وقد نص المحققون من الصوفية على أن معتقد ذلك كافر والعياذ بالله تعالى ، ولعلك تقول : كان الأولى مع هذا ترك ذلك .

فنقول : قد ذكر مثله من هو خير منا والوجه في ذكره غير خفي عليك لو أنصفت ﴿ وَهُمْ يجادلون فِى الله ﴾ بالتفكر في ذاته والنظر للوقوف على حقيقة صفاته ﴿ وَهُوَ ﴾ سبحانه ﴿ شَدِيدُ المحال ﴾ [الرعد : 13] في دفع الأفكار والأنظار عن حرم ذاته

وحمى صفاته جل جلاله :

هيهات أن تصطاد عنقاء البقا . . .

بلعابهن عناكب الأفكار

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾ أي الحقة الحقيقة بالإجابة لا لغيره سبحانه ﴿ والذين يَدْعُونَ ﴾ الأصنام ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْء إِلاَّ كَباسط كَفَّيْهِ إِلَى الماء لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ أي إلا استجابة كاستجابة من ذكر لأن ما يدعونه بمعزل عن القدرة ﴿ وَمَا دُعَاء الكافرين ﴾ المحجوبين ﴿ إِلاَّ فِى ضلال ﴾ [الرعد : 14] أي ضياع لأنهم لا يدعون الإله الحق وإنما يدعون إلها توهموه ونحتوه في خيالهم ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ﴾ ينقاد ﴿ مَن فِى السموات والأرض ﴾ من الحقائق الروحانيات ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ شاؤا أم أبوا ﴿ وظلالهم ﴾ هياكلهم ﴿ بالغدو والاصال ﴾ [الرعد : 15] أي دائماً ؛ وقيل : يسجد من في السموات وهو الروح والعقل والقلب وسجودهم طوعاً ومن في الأرض النفس وقواها وسجودهم كرهاً .

وقيل : الساجدون طوعاً أهل الكشف والشهود والساجدون كرهاً أهل النظر والاستدلال ﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء ﴾ من سماء روح القدس ﴿ مَاء ﴾ أي ماء العلم ﴾

﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ ﴾ أي أودية القلوب ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ بقدر استعدادها ﴿ فاحتمل السيل زَبَدًا ﴾ من خبث صفات أرض النفس ﴿ رَّابِيًا ﴾ طافياً على ذلك ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النار ﴾ نار العشق من المعارف والكشوف والحقائق والمعاني التي تهيج العشق ﴿ ابتغاء حِلْيَةٍ ﴾ طلب زينة النفس لكونها كمالات لها ﴿ أَوْ متاع ﴾ من الفضال الخلقية التي تحصل بسببها فإنها مما تتمتع به النفس ما ﴿ زَبَدٌ ﴾ خبث ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ كالنظر إليها ورؤيتها والإعجاب بها وسائر ما يعد من آفات النفس ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ منفياً بالعلم ﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ من المعاني الحقة والفضائل الخالصة ﴿ فيمكث في الأرض ﴾ [الرعد : 17] أرض النفس ، وقال بعضهم : أنه تعالى شبه ما ينزل من مياه بحار ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله إلى قلوب الموحدين والعارفين والمكاشفين والمريدين بما ينزل من السماء إلى الأودية ، فكما تحمل الأودية حسب اختلافها ماء المطر تحمل تلك القلوب مياه هاتيك البحار حسب اختلاف حواصلها وأقدار استعداداتها في المحبة والمعرفة والتوحيد ، وكما أن قطرات الأمطار تكون في الأودية سيلاً فيحتمل السيل زبداً وحثالة وما يكون مانعاً من الجريان يكون تواتر أنوار الحق سبحانه سيل المعارف والكشوفات فيسيل في أودية القلوب فيحتمل من أوصاف البشرية وما دون الحق الذي يمنع القلوب من رؤية الغيوب ما يحتمله فيذهب جفاء فتصير حينئذ مقدسة عن زبد الرياء والسمعة والنفاق والخواطر المذمومة وتبقى سائحة في أنوار الأزل والأبد بلا مانع من العرش

إلى الثرى ، وشبه سبحانه أعمال الظاهر والباطن وما ينفتح بمفاتيحها من الغيب بجواهر الأرض والفضة وغيرهما إذا أذيبا للانتفاع بهما وبين تعالى أن لهما زبداً مثل زبد

السيل وأنه يذهب ويمكث أصلهما الصافي ، فكذلك أعمال الظاهر والباطن تدخل في بودقة الإخلاص ويوقد عليهما نيران الامتحان فيذهب ما فيه حظ النفس ويبقى ما هو خالص لله تعالى ، وهكذا الخواطر يبقى منها خاطر الحق ويضمحل سريعاً خاطر الباطل ، وعن بعضهم القلوب أوعية وفيها أودية فقلب يسيل فيه ماء التوبة وقلب يسيل فيه ماء الرحمة وقلب يسيل فيه ماء الخوف وقلب يسيل فيه ماء الرجاء وقلب يسيل فيه ماء المعرفة وقلب يسيل فيه ماء الإنس وكل ماء من هذه المياه ينبت في القلب نوعاً من القربة والقرب من الله عز وجل ومن القلوب ما حرم ذلك والعياذ بالله تعالى ، وقال ابن عطية : روى عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً ﴾ الخ يريد بالماء الشرع والدين وبالأودية القلوب ومعنى سيلانها بقدرها أخذ النبيل بحظه والبليد بحظه ، ثم قال : وهذا قول لا يصح والله تعالى أعلم عن ابن عباس لأنه ينحو إلى قول أصحاب الرموز ، وقد تامسك به الغزالي وأهل ذلك الطريق ، وفيه إخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير داع إلى

ذلك ، وإن صح ذلك عن ابن عباس فيقال فيه : إنما قصد رضي الله تعالى عنه أن قوله تعالى :

﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل ﴾ [الرعد : 17] معناه الحق الذي يتقرر في القلوب والباطل الذي يعتريها اه ونحن نقول : إن صح ذلك فمقصود الحبر منه الإشارة وإن كان يريد غير ظاهر فيه ، وحجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة أشد الناس على أهل الرموز القائلين بأن الظاهر ليس مراد الله تعالى كما لا يخفى على متتبعي كلامه ، وسمعت من بعض الناس أن أهل الكيمياء تكلموا في هذه الآية على ما يوافق غرضهم ولم أقف على ذلك ﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ بتصفية الاستعداد عن كدورات صفات النفس ﴿ الحسنى ﴾ المثوبة الحسنى وهو الكمال الفائض عليهم عند الصفاء ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ تعالى وبقوا في الرذائل البشرية والكدورات الطبيعية ﴿ لو أن لهم ما في الأرض ﴾ الجهة السفلية من الأموال والأسباب التي انجذبوا إليها بالمحبة فأهلكوا أنفسهم بها ﴿ ومثله معه لافتداو به ﴾ ما ينالهم من الحجاب والحرمان ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوء الحساب ﴾ لوقوفهم مع الأفعال في مقام النفس ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ الحرمان ﴿ وَبِئْسَ المهاد ﴾ [الرعد : 18] جهنم

والعياذ بالله تعالى ونسأله العفو والعافية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(311/410)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى عشر بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/411)

الجزء الحادى عشر بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 19 ﴾ من سورة الرعد

وحتى الآية ﴿ 25 ﴾ من نفس السورة

(4/411)

قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

(19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ

عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ

(24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما افترق حال ما أجاب ومن أعرض في الجزاء ، وكان ما مضى مستوفياً طرق البيان بإيضاح الأمر بالجزئيات والأمثلة مع الترغيب والترهيب .

(5/411)

فكان جديراً بترتيب الأثر عليه ، تسبب عنه الإنكار على من سوى بين العالم العامل وغيره التفاتاً إلى قوله ﴿ هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ وسوى بين الحق والباطل التفاتاً إلى قوله ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ فحسن قوله : ﴿ أفمن ﴾ بفاء السبب ﴿ يعلم ﴾ علماً نافعاً هو عامل به ﴿ أنما ﴾ أي الذي ﴿ أنزل ﴾ أي وجد إنزاله وفرغ منه ﴿ إليك من ربك ﴾ أي المحسن إليك بأحسن التدبير ﴿ الحق ﴾ أي الكامل في الحقية ، فهو نير العين للبصر والقلب للاستبصار والاعتبار ، يهتدي بما يعلم إلى طريق الرشد فيسلكها ، وإلى طريق الغي فيتركها ، ويفهم الأشارات ، وينتفع بالأمثال السائرات ، كما يبصر بالبصر طريق النجاة من طريق الهلاك ﴿ كمن هو أعمى ﴾ لا بصر له ولا بصيرة ، لأنه لا يعمل وإن كان عالماً ، فهو لا ينتفع بالأمثال ، فكأنه قيل : لا يستويان مثلاً أصلاً ، ثم علل هذا الإنكار بقوله

: ﴿ إنما ﴾ أي لأنه إنما يعلم ذلك بالتذكر ، وإنما ﴿ يتذكر ﴾ أي يطلب الذكر طلباً عظيماً فيعمل ﴿ أولوا ﴾ أي أصحاب ﴿ الألباب ﴾ أي العقول الصافية الخالصة القابلة للتذكر بالتفكر في أن ما أنزل من عند الله ثابت الأركان راسي القواعد ، لا قدر لأحد على إزالة معنى من معانيه ولا هدم شيء من مبانيه وأن ما عداه هلهل النسج رث القوى ، مخلخل الأركان ، دارس الرسم ، منطمس الأعلام ، مجهول المسالك ، مظلم الأرجاء ، جم المهالك ، وأما القلب الذي لا يرجع عن غيه لمثل هذا البيان فكأنه غير قابل للذكرى ، فاستحق أن يعد عدماً ، وأن يخص التذكر بالقلب ، ومن المعلوم أنه لا يستوي من له لب ومن لا لب له ؛ واللب والقلب : أجل ما في الشيء وأخلصه وأجوده .

ولما منح سبحانه من فيهم أهلية التذكر بالعقول الدالة على توحيده والانقياد لأوامره ، كان كأنه عهد في ذلك ، فقال يصف المتذكرين بما يدل قطعاً على أنه لا لب لسواهم : ﴿ الذين يوفون ﴾ أي يوجدون الوفاء لكل شيء ﴿ بعهد الله ﴾ أي بسبب العقد المؤكد من الملك الأعلى بأوامره ونواهيه ، فيفعلون كلاًّ منهما كما رسمه لهم ولا يوقعون شيئاً منهما مكان الآخر ؛ والعهد : العقد المتقدم على الأمر بما يفعل أو يجتنب ، والإيفاء : جعل الشيء على

مقدار غيره من غير زيادة ولا نقصان .

ولما كان الدليل العقلي محتماً للثبات عليه كما أن الميثاق اللفظي موجب للوفاء به ، قال تعالى : ﴿ ولا ينقضون الميثاق ﴾ أي الإيثاق ولا الوثاق ولا مكانه ولا زمانه ؛ والنقض : حل العقد بفعل ما ينافيه ولا يمكن أن يصح معه ، والميثاق : العقد المحكم وهو الأوامر والنواهي المؤكدة بحكم العقل .

ولما كان أمر الله جارياً على منهاج العقل وإن كان قاصراً عنه لا يمكن نيله له من غير مرشد ، قال : ﴿ والذين يصلون ﴾ أي من كل شيء على سبيل الاستمرار ﴿ ما أمر الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ؛ وقال : ﴿ به أن يوصل ﴾ دون " يوصله " ليكون مأموراً بوصله مرتين ، ويفيد تجديد الوصل كلما قطعه قاطع على الاستمرار لما تظافر على ذلك من دليلي العقل والنقل ؛ والوصل : ضم الثاني إلى الأول من غير فرج .

ولما كان الدليل يرشد إلى أن الله تعالى مرجو مرهوب قال : ﴿ ويخشون ربهم ﴾ أي المحسن إليهم ، من أن ينتقم منهم إن خالفوا بقطع الإحسان .

ولما كان العقل دالاً بعد تنبيه الرسل على القدرة على المعاد بالقدرة على المبدأ ، وكان الخوف منه أعظم الخوف ، قال تعالى : ﴿ ويخافون ﴾ أي يوجدون الخوف إيجاداً مستمراً ﴿ سوء الحساب ﴾ وهو المناقشة فيه من غير عفو ، ومن أول السورة إلى هنا تفصيل لقوله تعالى أول البقرة ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [البقرة : 1] مع نظره إلى قوله آخر يوسف ﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ [يوسف : 111] .

ولما كان الوفاء بالعهد في غاية الشدة على النفس ، قال مشيراً إلى ذلك مع شموله لغيره : ﴿ والذين صبروا ﴾ أي على طاعات الله وعن معاصيه وفي كل ما ينبغي الصبر فيه ، والصبر : الحبس ، وهو تجرع مرارة المنع للنفس عما تحب مما لا يجوز فعله ﴿ ابتغاء ﴾ أي طلب ﴿ وجه ربهم ﴾ أي المحسن إليهم ، وكأنه ذكر الوجه إثارة للحياء وحثاً عليه لا ليقال : ما أجلده ! ولا لأنه يعاب بالجزع ، ولا لأنه لا طائل تحت الهلع ولا خوف الشماتة .

ولما كانت أفراد الشيء قد تتفاوت في الشرف ، خص بالذكر أشياء مما دخل في العهد والميثاق تشريفاً لها فقال : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ لأنها في الوصلة بالله كالميثاق في الوصلة بالموثق له ، وقال - : ﴿ وأنفقوا ﴾ وخفف عنهم بالبعض فقال : ﴿ مما رزقناهم ﴾ - لأن الإنفاق من أعظم سبب يوصل إلى المقاصد ، فهذا إنفاق من المال ، وتلك إنفاق من القوى ، وقال : ﴿ سراً وعلانية ﴾ إشارة إلى الحث على استواء الحالتين تنبيهاً على الإخلاص ،

ويجوز أن يكون المراد بالسر ما ينبغي فيه الإسرار كالنوافل ، وبالعلانية ما يندب إلى إظهاره كالواجب إلا أن يمنع مانع ، وهذا تفصيل قوله تعالى

(8/411)

﴿ ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة : 3] ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] وقال : ﴿ ويدرؤون ﴾ أي يدفعون بقوة وفطنة ﴿ بالحسنة ﴾ أي من القول أو الفعل ﴿ السيئة ﴾ إشارة إلى ترك المجازاة أو يتبعونها إياها فتمحوها ، خوفاً ورجاء وحثاً على جميع الأفعال الصالحة ، فهي نتيجة أعمال البر ودرجة المقربين .

ولما ختم تلك بما يدل على ما بعد الموت ترهيباً ، ختم هذه بمثل ذلك ترغيباً فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ لهم عقبى الدار ﴾ وبينها بقوله : ﴿ جنات عدن ﴾ أي إقامة طويلة - ومنه المعدن وهي أعلى الجنان ؛ ثم استأنف بيان تمكنهم فيها فقال : ﴿ يدخلونها ﴾ .

ولما كانت الدار لا تطيب بدون الحبيب ، قال عاطفاً على الضمير المرفوع إشارة إلى أن النسب الخالي غير نافع : ﴿ ومن صلح ﴾ والصلاح : استقامة الحال على ما يدعو إليه

العقل والشرع ﴿ من آبائهم ﴾ أي الذين كانوا سبباً في إيجادهم ﴿ وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي الذين تسببوا عنهم ؛ ثم زاد في الترغيب بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم ﴾ لأن الإكثار من ترداد رسل الملك أعظم في الفخر وأكثر في السرور والعز .

ولما كان إتيانهم من الأماكن المعتادة مع القدرة على غيرها أدل على الأدب والإكرام ، قال : ﴿ من كل باب ﴾ يقولون لهم : ﴿ سلام عليكم ﴾ والسلام : التحية بالكرامة على انتفاء كل شائب من مضرة ، وبين أن سبب هذا السلام الصبر فقال : ﴿ بما صبرتم ﴾ أي بصبركم ، والذي صبرتم له ، والذي صبرتم عليه ، إشارة إلى أن الصبر عماد الدين كله .

ولما تم ذلك .

تسبب عنه قوله : ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ وهي المسكن في قرار ، المهيأ بالأبنية التي يحتاج إليها والمرافق التي ينتفع بها ؛ والعقبى : الانتهاء الذي يؤدي إليه الابتداء من خير أو شر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 145.147 ﴾

(9/411)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾

فهذا إشارة إلى المثل المتقدم ذكره وهو أن العالم بالشيء كالبصير ، والجاهل به كالأعمى ، وليس أحدهما كالآخر ، لأن الأعمى إذا أخذ يمشي من غير قائد ، فالظاهر أنه يقع في البئر وفي المهالك ، وربما أفسد ما كان على طريقه من الأمتعة النافعة ، أما البصير فإنه يكون آمناً من الهلاك والإهلاك .

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب ﴾ والمراد أنه لا ينتفع بهذه الأمثلة إلا أرباب الألباب الذين يطلبون من كل صورة معناها ، ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون بظاهر كل حديث إلى سره ولبابه .

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾

اعلم أن هذه الآية هل هي متعلقة بما قبلها أم لا ؟ فيه قولان :

القول الأول : إنها متعلقة بما قبلها ، وعلى هذا التقدير ففيه وجهان : الأول : أنه يجوز أن يكون قوله : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ صفة لأولي الألباب .

والثاني : أن يكون ذلك صفة لقوله : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾ [الرعد : 19] .

والقول الثاني : أن يكون قوله : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ مبتدأ : ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عقبى الدار ﴾ خبره كقوله : ﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله . . .

أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللعنة ﴾ [الرعد : 25] واعلم أن هذه الآية من أولها إلى آخرها جملة واحدة : شرط وجزاء ، وشرطها مشتمل على قيود ، وجزاؤها يشتمل أيضاً على قيود .

أما القيود المعتبرة في الشرط فهي تسعة :

(10/411)

القيد الأول : قوله : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ وفيه وجوه : الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد الذي عاهدهم عليه حين كانوا في صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ والثاني : أن المراد بعهد الله كل أمر قام الدليل على صحته وهو من وجهين : أحدهما : الأشياء التي أقام الله عليها دلائل عقلية قاطعة لا تقبل النسخ والتغيير .

والآخر : التي أقام الله عليها الدلائل السمعية وبين لهم تلك الأحكام ، والحاصل أنه دخل تحت قوله : ﴿ يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ كل ما قام الدليل عليه .

ويصح إطلاق لفظ العهد على الحجة بل الحق أنه لا عهد أوكد من الحجة والدلالة على ذلك أن من حلف على الشيء فإنما يلزمه الوفاء به ، إذا ثبت بالدليل وجوبه لا بمجرد اليمين ولذلك ربما يلزمه أن يحدث نفسه إذا كان ذلك خيراً له فلا عهد أوكد من إلزام الله تعالى إياه

ذلك بدليل العقل أو بدليل السمع .

ولا يكون العبد موفياً للعهد إلا بأن يأتي بكل تلك الأشياء كما أن الحالف على أشياء كثيرة لا يكون باراً في يمينه إلا إذا فعل الكل ، ويدخل فيه الإتيان بجميع المأمورات والانتهاء عن كل المنهيات ويدخل فيه الوفاء بالعقود في المعاملات ، ويدخل فيه أداء الأمانات ، وهذا القول هو المختار الصحيح في تأويل الآية .

القيد الثاني : قوله : ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ الميثاق ﴾ وفيه أقوال :

القول الأول : وهو قول الأكثرين إن هذا الكلام قريب من الوفاء بالعهد ، فإن الوفاء بالعهد قريب من عدم نقض الميثاق والعهد ، وهذا مثل أن يقول : إنه لما وجب وجوده ، لزم أن يمتنع عدمه ، فهذان المفهومان متغايران إلا أنهما متلازمان ، فكذلك الوفاء بالعهد يلزمه أن لا ينقض الميثاق .

واعلم أن الوفاء بالعهد من أجل مراتب السعادة .

قال عليه السلام : " لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له "

والآيات الواردة في هذا الباب كثيرة في القرآن .

والقول الثاني : أن الميثاق ما وثقه المكلف على نفسه ، فالحاصل : أن قوله : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ إشارة إلى ما كلف الله العبد به ابتداء .

وقوله : ﴿ ولَا يَنقُضُونَ الميثاق ﴾ إشارة إلى ما التزمه العبد من أنواع الطاعات بحسب اختياره نفسه : كالنذر بالطاعات والخيرات .

والقول الثالث : أن المراد بالوفاء بالعهد : عهد الربوبية والعبودية ، والمراد بالميثاق : المواثيق المذكورة في التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلهية على وجوب الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم عند ظهوره .

واعلم أن الوفاء بالعهد أمر مستحسن في العقول والشرائع ، قال عليه السلام : " من عاهد الله فغدر ، كانت فيه خصلة من النفاق " وعنه عليه السلام : " ثلاثة أنا خصمهم يوم القيام ، ومن كنت خصمه خصمته .

رجل أعطى عهداً ثم غدر ، ورجل استأجر أجيراً استوفى عمله وظلمه أجره ، ورجل باع حراً فاسترق الحر وأكل ثمنه " وقيل : كان بين معاوية وملك الروم عهد فأراد أن يذهب إليهم وينقض العهد فإذا رجل على فرس يقول : وفاء بالعهد لا غدر .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذن إليهم عهده ولا يحلها حتى ينقضي الأمد وينبذ إليهم على سواء " قال من هذا ؟ قالوا : عمرو بن عيينة فرجع معاوية .

القيد الثالث : ﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ وههنا سؤال : وهو أن الوفاء بالعهد وترك نقض الميثاق اشتمل على وجوب الإتيان بجميع المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات فما الفائدة في ذكر هذه القيود المذكورة بعدهما ؟

والجواب من وجهين : الأول : أنه ذكر لئلا يظن ظان أن ذلك فيما بينه وبين الله تعالى فلا جرم أفرد ما بينه وبين العباد بالذكر .

والثاني : أنه تأكيد .

(12/411)

إذا عرفت هذا فنقول : ذكروا في تفسيره وجوهاً : الأول : أن المراد منه صلة الرحم قال عليه السلام : " ثلاث يأتين يوم القيامة لها ذلق الرحم تقول : أي رب قطعت ، والأمانة تقول : أي رب تركت ، والنعمة تقول : أي رب كفرت "

والقول الثاني : أن المراد صلة محمد صلى الله عليه وسلم ومؤازرته ونصرته في الجهاد .

والقول الثالث : رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد ، فيدخل فيه صلة الرحم وصلة القرابة الثابتة بسبب أخوة الإيمان كما قال : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10] ويدخل في هذه الصلة امدادهم بإيصال الخيرات ودفع الآفات بقدر الإمكان وعيادة المريض

وشهود الجنائز وإفشاء السلام على الناس والتبسم في وجوههم وكف الأذى عنهم ويدخل فيه كل حيوان حتى الهرة والدجاجة ، وعن الفضيل بن عياض رحمه الله أن جماعة دخلوا عليه بمكة فقال : من أين أنتم ؟ قالوا : من خراسان .

فقال : اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم ، واعلموا أن العبد لو أحسن كل الإحسان وكان له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين ، وأقول حاصل الكلام : أن قوله : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَلاَ يِنقُضُونَ الميثاق ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله وقوله : ﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله .

القيد الرابع : قوله : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ والمعنى : أنه وإن أتى بكل ما قدر عليه في تعظيم أمر الله ، وفي الشفقة على خلق الله إلا أنه لا بد وأن تكون الخشية من الله والخوف منه مستولياً على قلبه وهذه الخشية نوعان : أحدهما : أن يكون خائفاً من أن يقع زيادة أو نقصان أو خلل في عباداته وطاعاته ، بحيث يوجب فساد العبادة أو يوجب نقصان ثوابها .

والثاني : وهو خوف الجلال وذلك لأن العبد إذا حضر عند السلطان المهيب القاهر فإنه وإن كان في غير طاعته إلا أنه لا يزول عن قلبه مهابة الجلالة والرفعة والعظمة .

القيد الخامس : قوله : ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴾ اعلم أن القيد الرابع إشارة إلى الخشية من الله وهذا القيد الخامس إشارة إلى الخوف والخشية وسوء الحساب ، وهذا يدل على أن المراد من الخشية من الله ما ذكرناه من خوف الجلال والمهابة والعظمة وإلا لزم التكرار .

القيد السادس : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ فيدخل فيه الصبر على فعل العبادات والصبر على ثقل الأمراض والمضار ، والغموم والأحزان ، والصبر على ترك المشتهيات وبالجملة الصبر على ترك المعاصي وعلى أداء الطاعات .

ثم إن الإنسان قد يقدم على الصبر لوجوه : أحدها : أن يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل .

وثانيها : أن يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع .

وثالثها : أن يصبر لئلا تحصل شماتة الأعداء .

ورابعها : أن يصبر لعلمه بأن لا فائدة في الجزع فالإنسان إذا أتى بالصبر لأحد هذه الوجوه لم يكن ذلك داخلاً في كمال النفس وسعادة القلب ، أما إذا صبر على البلاء لعلمه بأن ذلك البلاء قسمة حكم بها القسام العلام المنزه عن العيب والباطل والسفه ، بل لا بد أن تكون تلك القسمة مشتملة على حكمة بالغة ومصلحة راجحة ورضي بذلك ، لأنه تصرف

المالك في ملكه ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملكه أو يصبر لأنه صار مستغرقاً في مشاهدة المبلى فكان استغراقه في تجلي نور المبلى أذهله على التألم بالبلاء وهذا أعلى مقامات الصديقين ، فهذه الوجوه الثلاثة هي التي يصدق عليها أنه صبر ابتغاء وجه ربه ومعناه أنه صبر لمجرد ثوابه ، وطلب رضا الله تعالى .

(14/411)

واعلم أن قوله : ﴿ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ فيه دقيقة ، وهي أن العاشق إذا ضربه معشوقه ، فربما نظر العاشق لذلك الضارب وفرح به فقوله : ﴿ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ محمول على هذا المجاز ، يعني كما أن العاشق يرضى بذلك الضرب لالتذاذه بالنظر إلى وجه معشوقه ، فكذلك العبد يصبر على البلاء والمحنة ، ويرضى به لاستغراقه في معرفة نور الحق وهذه دقيقة لطيفة .

القيد السابع : قوله : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ .

واعلم أن الصلاة والزكاة وإن كانتا داخلتين في الجملة الأولى إلا أنه تعالى أفردها بالذكر تنبيهاً على كونها أشرف من سائر العبادات وقد سبق في هذا الكتاب تفسير إقامة الصلاة ولا يمتنع إدخال النوافل فيه أيضاً .

القيد الثامن : قوله تعالى : ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال الحسن : المراد الزكاة المفروضة فإن لم يتهم بترك أداء الزكاة فالأولى أداؤها سراً وإن اتهم بترك الزكاة فالأولى أداؤها في العلانية .

وقيل السر ما يؤديه بنفسه والعلانية ما يؤديه إلى الأمام ، وقال آخرون : بل المراد الزكاة الواجبة والصدقة التي يؤتى بها على صفة التطوع فقوله : ﴿ سِرًّا ﴾ يرجع إلى التطوع وقوله : ﴿ علانية ﴾ يرجع إلى الزكاة الواجبة .

المسألة الثانية :

قالت المعتزلة إنه تعالى رغب في الإنفاق من كل ما كان رزقاً ، وذلك يدل على أنه لا رزق إلا الحلال إذ لو كان الحرام رزقاً لكان قد رغب تعالى في إنفاق الحرام وأنه لا يجوز .

القيد التاسع : قوله : ﴿ وَيَدْرَؤُنَ بالحسنة السيئة ﴾ وفيه وجهان : الأول : أنهم إذا أتوا بمعصية درؤها ودفعوها بالتوبة كما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل : "إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها " والثاني : أن المراد أنهم لا يقابلون الشر

بالشر بل يقابلون الشر بالخير كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] وعن ابن عمر رضي الله عنهما ليس الوصول من وصل ثم وصل تلك المجازاة لكنه من قطع ثم وصل وعطف على من لم يصله ، وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى إذا هيجه قوم اهتاج ، لكن الحليم من قدر ثم عفا .

وعن الحسن : هم الذين إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا ، ويروى أن شقيق بن إبراهيم البلخي دخل على عبد الله بن المبارك متنكراً ، فقال من أين أنت ؟ فقال : من بلخ ، فقال : وهل تعرف شقيقاً قال نعم ، فقال : كيف طريقة أصحابه ؟ فقال : إذا منعوا صبروا وإن أعطوا شكروا ، فقال عبد الله : طريقة كلابنا هكذا .

فقال : وكيف ينبغي أن يكون فقال الكاملون : هم الذين إذا منعوا شكروا وإذا أعطوا آثروا .

واعلم أن جملة هذه القيود التسعة هي القيود المذكورة في الشرط .

أما القيود المذكورة في الجزاء فهي أربعة :

القيد الأول : قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عقبى الدار ﴾ أي عاقبة الدار وهي الجنة ، لأنها هي التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها .

قال الواحدي : العقبى كالعاقبة ، ويجوز أن تكون مصدراً كالشورى والقربى والرجعى ، وقد يجيء مثل هذا أيضاً على فَعلى كالنجوى والدعوى ، وعلى فِعلى كالذكرى والضيزى

، ويجوز أن يكون اسماً وهو ههنا مصدر مضاف إلى الفاعل ، والمعنى : أولئك لهم أن تعقب أعمالهم الدار التي هي الجنة .

القيد الثاني : قوله : ﴿ جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(16/411)

قال الزجاج : جنات عدن بدل من عقبى والكلام في جنات عدن ذكرناه مستقصى عند قوله تعالى : ﴿ ومساكن طَيّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ [التوبة : 72] وذكرنا هناك مذهب المفسرين ، ومذهب أهل اللغة .

المسألة الثانية :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله والباقون بفتح الياء وضم الخاء على إسناد الدخول إليهم .

القيد الثالث : ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءابَائِهِمْ وأزواجهم وَذُرّيَّاتِهِمْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن علية (صلح) بضم اللام قال صاحب الكشاف : والفتح أفصح .

المسألة الثانية :

قال الزجاج : موضع من رفع لأجل العطف على الواو في قوله ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ويجوز أن يكون نصباً كما تقول قد دخلوا وزيداً أي مع زيد .

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ قولان : الأول : قال ابن عباس : يريد من صدق بما صدقوا به وإن لم يعمل مثل أعمالهم وقال الزجاج : بين تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال الصالحة .

قال الواحدي : والصحيح ما قال ابن عباس ، لأن الله تعالى جعل من ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه في الجنة وذلك يدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع الآتي بالأعمال الصالحة ، ولو دخلوها بأعمالهم الصالحة لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به ، إذ كل من كان مصلحاً في عمله فهو يدخل الجنة .

واعلم أن هذه الحجة ضعيفة ، لأن المقصود بشارة المطيع بكل ما يزيده سروراً وبهجة فإذا بشر الله المكلف بأنه إذا دخل الجنة فإنه يحضر معه آباؤه وأزواجه وأولاده فلا شك أنه

يعظم سرور المكلف بذلك وتقوى بهجته به ، ويقال : إن من أعظم موجبات سروره هم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم في الدنيا ثم يشكرون الله على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال تعالى في صفة أهل الجنة إنهم يقولون : ﴿ قَالَ يَاليت قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ المكرمين ﴾ [يس : 26 ، 27] .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ وأزواجهم ﴾ ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ، ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه ، وما روي عن سودة أنه لما هم الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت : دعني يا رسول الله أحشر في زمرة نسائك ، كالدليل على ما ذكرناه .

القيد الرابع : قوله : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مّن كُلّ بَابٍ سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن عباس : لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم الملائكة من كل باب يقولون لهم : ﴿ سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ على أمر الله .

وقال أبو بكر الأصم : من كل باب من أبواب البر كباب الصلاة وباب الزكاة وباب الصبر ويقولون : ونعم ما أعقبكم الله بعد الدار الأولى .

واعلم أن دخول الملائكة إن حملناه على الوجه الأول فهو مرتبة عظيمة ، وذلك لأن الله تعالى أخبر عن هؤلاء المطيعين أنهم يدخلون جنة الخلد ، ويجتمعون بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم على أحسن وجه ، ثم إن الملائكة مع جلالة مراتبهم يدخلون عليهم لأجل التحية والإكرام عند الدخول عليهم يكرمونهم بالتحية والسلام ويبشرونهم بقوله : ﴿ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ ولا شك أن هذا غير ما يذكره المتكلمون من أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالإجلال والتعظيم ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يأتي قبور الشهداء رأس كل حول فيقول : " السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " والخلفاء الأربعة هكذا كانوا يفعلون ، وأما إن حملناه على الوجه الثاني فتفسير الآية أن الملائكة طوائف ، منهم روحانيون ومنهم كروبيون .

فالعبد إذا راض نفسه بأنواع الرياضات كالصبر والشكر والمراقبة والمحاسبة ، ولكل مرتبة من هذه المراتب جوهر قدسي وروح علوي يختص بتلك الصفة مزيد اختصاص ؛ فعند الموت إذا أشرقت تلك الجواهر القدسية تجلت فيها من كل روح من الأرواح السماوية ما يناسبها من الصفة المخصوصة بها فيفيض عليها من ملائكة الصبر كمالات مخصوصة

نفسانية لا تظهر إلا في مقام الصبر ، ومن ملائكة الشكر ، كمالات روحانية لا تتجلى إلا في مقام الشكر وهكذا القول في جميع المراتب .

المسألة الثانية :

تمسك بعضهم بهذه الآية على أن الملك أفضل من البشر فقال : إنه سبحانه ختم مراتب سعادات البشر بدخول الملائكة عليهم على سبيل التحية والإكرام والتعظيم فكانوا به أجل مرتبة من البشر ولو كانوا أقل مرتبة من البشر لما كان دخولهم عليهم لأجل السلام والتحية موجباً علو درجاتهم وشرف مراتبهم ، ألا ترى أن من عاد من سفره إلى بيته فإذا قيل في معرض كمال مرتبته أنه يزوره الأمير والوزير والقاضي والمفتي ، فهذا يدل على أن درجة ذلك المزور أقل وأدنى من درجات الزائرين فكذلك ههنا .

(19/411)

المسألة الثالثة :

قال الزجاج : ههنا محذوف تقديره الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ويقولون سلام عليكم فأضمر القول ههنا لأن في الكلام دليلاً عليه ، وأما قوله : ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ ففيه وجهان : أحدهما : أنه متعلق بالسلام .

والمعنى أنه إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم على الطاعات ، وترك المحرمات .

والثاني : أنه متعلق بمحذوف ، والتقدير : أن هذه الكرامات التي ترونها ، وهذه الخيرات التي تشاهدونها إنما حصلت بواسطة ذلك الصبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 31 . 37 ﴾

(20/411)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الْقَوْلُ فِي الْعَهْدِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْقَوْلُ فِي الْوَفَاءِ بِهِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُهُمَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي تَعْدِيدِ عُهُودِ اللَّهِ ، وَهِيَ كَثِيرَةُ الْعَدَدِ ، مُسْتَمِرَّةٌ [الْمَدَدِ وَ] الْأَمَدِ .

أَعْظَمُهَا عَهْدًا ، وَأَوْكَدُهَا عَقْدًا مَا كَانَ فِي صُلْبِ آدَمَ عَلَى الْإِيمَانِ .

الثَّانِي : مَا كَانَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الثَّالِثُ : مَا رَبَطَهُ الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ عِنْدَ الْإِقْرَارِ بِالشَّهَادَتَيْنِ ، فَإِنَّهَا أَلْزَمَتْ عُهُودًا ، وَرَبَطَتْ عُقُودًا ، وَوَظَّفَتْ تَكْلِيفًا ، وَذَلِكَ يَتَعَدَّدُ بِعَدَدِ الْوَظَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَيَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا ، مِنْهَا الْوَفَاءُ بِالْعِرْفَانِ ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّ الْإِحْسَانِ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ .

وَمِنْهَا الِانْكِفَافُ عَنْ الْعِصْيَانِ ، وَأَقَلُّهُ دَرَجَةً اجْتِنَابُ الْكَبَائِرِ ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَوَاثِيقِ فِي الذِّكْرِ أَلَّا تَسْأَلَ سِوَاهُ ، فَقَدْ كَانَ أَبُو حَمْزَةَ الْخُرَاسَانِيُّ مِنْ كِبَارِ الْعُبَّادِ سَمِعَ ﴿ أَنَّ نَاسًا بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَّا يَسْأَلُوا أَحَدًا شَيْئًا ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ إذَا وَقَعَ سَوْطُهُ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا رَفْعَهُ إلَيْهِ ﴾ ، فَقَالَ أَبُو حَمْزَةَ : رَبِّ ، إنَّ هَؤُلَاءِ عَاهَدُوا نَبِيَّكَ إذْ رَأَوْهُ ، وَأَنَا أُعَاهِدُكَ أَلَّا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا .

(21/411)

قَالَ : فَخَرَجَ حَاجًّا مِنْ الشَّامِ يُرِيدُ مَكَّةَ ، فَبَيْنَا هُوَ يَمْشِي فِي الطَّرِيقِ بِاللَّيْلِ إذْ بَقِيَ عَنْ أَصْحَابِهِ لِعُذْرٍ ، ثُمَّ اتَّبَعَهُمْ ، فَبَيْنَا هُوَ يَمْشِي إلَيْهِمْ إذْ سَقَطَ فِي بِئْرٍ عَلَى حَاشِيَةِ الطَّرِيقِ ، فَلَمَّا حَصَلَ فِي قَعْرِهِ قَالَ : أَسْتَغِيثُ ؛ لَعَلَّ أَحَدًا يَسْمَعُنِي فَيُخْرِجُنِي ، ثُمَّ قَالَ : إنَّ الَّذِي

عَاهَدْتُه يَرَانِي وَيَسْمَعُنِي ، وَاللَّهِ

لَا تَكَلَّمْتُ بِحَرْفٍ لِبَشَرٍ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا إِذْ مَرَّ بِتِلْكَ الْبِئْرِ نَفَرٌ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ عَلَى حَاشِيَةِ الطَّرِيقِ قَالُوا : إِنَّهُ لَيَنْبَغِي سَدُّ هَذِهِ الْبِئْرِ ، ثُمَّ قَطَعُوا خَشَبًا ، وَنَصَبُوهَا عَلَى فَمِ الْبِئْرِ وَغَطَّوْهَا بِالتُّرَابِ .

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَبُو حَمْزَةَ قَالَ : هَذِهِ مَهْلَكَةٌ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ لَا أَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ : أَلَيْسَ الَّذِي عَاهَدْتُ يَرَى ذَلِكَ كُلَّهُ ، فَسَكَتَ وَتَوَكَّلَ ، ثُمَّ اسْتَنَدَ فِي قَعْرِ الْبِئْرِ مُفَكِّرًا فِي أَمْرِهِ ، فَإِذَا بِالتُّرَابِ يَقَعُ عَلَيْهِ ، وَالْخَشَبُ يُرْفَعُ عَنْهُ ، وَسَمِعَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ : هَاتِ يَدَكَ .

(22/411)

قَالَ : فَأَعْطَيْتُهُ يَدِي ، فَأَقَلَّنِي فِي مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ إِلَى فَمِ الْبِئْرِ ، فَخَرَجْتُ وَلَمْ أَرَ أَحَدًا ، ثُمَّ سَمِعْتُ هَاتِفًا يَقُولُ : كَيْفَ رَأَيْتَ ثَمَرَةَ التَّوَكُّلِ ؟ وَأُنْشِدَ : نَهَانِي حَيَائِي مِنْكَ أَنْ أَكْتُمَ الْهَوَى

وَأَغْنَيْتَنِي بِالْعِلْمِ مِنْكَ عَنْ الْكَشْفِ تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شَاهِدِي إِلَى غَائِبِي

وَاللُّطْفُ يُدْرَكُ بِاللُّطْفِ تَرَاءَيْتَ لِي بِالْعِلْمِ حَتَّى كَأَنَّمَا تُخَبِّرُنِي بِالْغَيْبِ أَنَّكَ فِي كَفِّي أَرَانِي

وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَحْشَةٌ فَتُؤْنِسُنِي بِاللُّطْفِ مِنْكَ وَبِالْعَطْفِ وَتُحْيِي مُحِبًّا أَنْتَ فِي الْحُبِّ

حَتْفُهُ وذا عَجب كَوْنُ الْحيَاةِ مع الْحَتْفِ فهذا رَجُلٌ عَاهدَ اللَّهَ ، فوَجدَ الْوَفَاءَ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ ؛ فَبِهِ فَاقْتَدُوا تَهْتَدُوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(23/411)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها الرحم التي أمرهم الله تعالى بوصلها .

﴿ ويخشون ربهم ﴾ في قطعها ﴿ ويخافون سُوءَ الحساب ﴾ في المعاقبة عليها ، قاله قتادة .

الثاني : صلة محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله الحسن .

الثالث : الإيمان بالنبيين والكتب كلها ، قاله سعيد بن جبير .

ويحتمل رابعاً : أن يصلوا الإيمان بالعمل .

﴿ ويخشون ربهم ﴾ فيما أمرهم بوصله .

﴿ ويخافون سوءَ الحساب ﴾ في تركه .

قوله عز وجل : ﴿ ويدرءُون بالحسنة السيئة ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : يدفعون المنكر بالمعروف ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : يدفعون الشر بالخير ، قاله ابن زيد .

الثالث : يدفعون الفحش بالسلام ، قاله الضحاك .

الرابع : يدفعون الظلم بالعفو ، قاله جويبر .

الخامس : يدفعون سفه الجاهل بالحلم ، حكاه ابن عيسى .

السادس : يدفعون الذنب بالتوبة ، حكاه ابن شجرة .

السابع : يدفعون المعصية بالطاعة .

قوله عز وجل : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : معناه بما صبرتم على أمر الله تعالى ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : بما صبرتم على الفقر في الدنيا ، قاله أبو عمران الجوني .

الثالث : بما صبرتم على الجهاد في سبيل الله ، وهو مأثور عن عبد الله بن عمر .

الرابع : بما صبرتم عن فضول الدنيا ، قاله الحسن ، وهو معنى قول الفضيل بن عياض .

السادس : بما صبرتم عما تحبونه حين فقدتموه ، قاله ابن زيد .

ويحتمل سابعاً : بما صبرتم على عدم اتباع الشهوات .

﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فنعم عقبى الجنة عن الدنيا ، قاله أبو عمران الجوني .

الثاني : فنعم عقبى الجنة من النار ، وهو مأثور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(24/411)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ أفمن يعلم ﴾

استفهام بمعنى التقرير ، والمعنى : أسواء من هداه الله فعلم صدق نبوتك وآمن بك ، ومن لم يهتد ولا رزق بصيرة فبقي على كفره ، فمثل عز وجل ذلك بالعمى .

وروي أن هذه الآية نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل بن هشام ، وقيل : في عمار بن ياسر وأبي جهل بن هشام ، وهي بعد هذا مثال في جميع العالم .

و﴿ إنما ﴾ في هذه الآية حاصرة ، أي ﴿ إنما يتذكر ﴾ فيؤمن ويراقب الله من له لب وتحصيل .

ثم أخذ تعالى في وصف هؤلاء الذين يسرهم للإيمان فقال : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ﴾

وقوله : ﴿ بعهد الله ﴾ : اسم للجنس ، أي بجميع عهود الله وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيدة ، ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض وتجنب جميع المعاصي .

وقوله : ﴿ ولا ينقضون الميثاق ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق أي إذا اعتقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه . قال قتادة : وتقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية ويحتمل أن يشير إلى ميثاق معين وهو الذي أخذه الله على عباده وقت مسحه على ظهر أبيهم آدم عليه السلام .

ووصل ما أمر الله به أن يوصل : ظاهره في القرابات وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات .

و ﴿ سوء الحساب ﴾ هو أن يتقصى ولا تقع فيه مسامحة ولا تغمد .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾

" الصبر لوجه الله " يدخل في الرزايا والأسقام والعبادات وعن الشهوات ونحو ذلك .

(25/411)

و ﴿ ابتغاء ﴾ نصب على المصدر أو على المفعول لأجله ، و" الوجه " في هذه الآية ظاهره الجهة التي تقصد عنده تعالى بالحسنات لتقع عليها المثوبة ، وهذا كما تقول : خرج الجيش لوجه كذا ، وهذا أظهر ما فيه مع احتمال غيره و" إقامة الصلاة " هي الإتيان بها

على كمالها ، و﴿ الصلاة ﴾ هنا هي المفروضة وقوله : ﴿ وأنفقوا ﴾ يريد به مواساة المحتاج ، و" السر " هو فيما أنفق تطوعاً ، و" العلانية " فيما أنفق من الزكاة المفروضة ، لأن التطوع كله الأفضل فيه التكتم .

وقوله : ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ أي ويدفعون من رأوا منه مكروهاً بالتي هي أحسن ، وقيل : يدفعون بقوله : لا إله إلا الله ، شركهم وقيل : يدفعون بالسلام غوائل الناس .

قال القاضي أبو محمد : وبالجملة فإنهم لا يكافئون الشر بالشر ، وهذا بخلاف خلق الجاهلية ، وروي أن هذه الآية نزلت في الأنصار ثم هي عامة بعد ذلك في كل من اتصف بهذه الصفات .

وقوله : ﴿ عقبى الدار ﴾ يحتمل أن يكون ﴿ عقبى ﴾ دار الدنيا ، ثم فسر العقبى بقوله : ﴿ جنات عدن ﴾ إذ العقبى تعم حالة الخير وحالة الشر ، ويحتمل أن يريد ﴿ عقبى ﴾ دار الآخرة لدار الدنيا ، أي العقبى الحسنة في الدار الآخرة هي لهم .

وقرأ الجمهور : " جنات عدن " وقرأ النخعي : " جنة عدن يُدخَلونها " بضم الياء وفتح الخاء . و﴿ جنات ﴾ بدل من ﴿ عقبى ﴾ وتفسير لها . و﴿ عدن ﴾ هي مدينة الجنة ووسطها ، ومنها جنات الإقامة . من عدن في المكان إذا أقام فيه طويلاً ومنه المعادن ، و﴿ جنات عدن ﴾ يقال : هي مسكن الأنبياء والشهداء والعلماء فقط – قاله عبد

الله بن عمرو بن العاصي – ويروى : أن لها خمسة آلاف باب .

وقوله : ﴿ ومن صلح ﴾ أي من عمل صالحاً وآمن – قاله مجاهد وغيره – ويحتمل : أي من صلح لذلك بقدر الله تعالى وسابق علمه .

(26/411)

وحكى الطبري في صفة دخول الملائكة أحاديث لم نطول بها لضعف أسانيدها . والمعنى : يقولون : سلام عليكم ، فحذف – يقولون – تخفيفاً وإيجازاً ، لدلالة ظاهر الكلام عليه ، والمعنى : هذا بما صبرتم ، والقول في ﴿ عقبى الدار ﴾ على ما تقدم من المعنيين .

وقرأ الجمهور " فِنعْم " بكسر النون وسكون العين ، وقرأ يحيى بن وثاب " فنَعِم " بفتح النون وكسر العين .

وقالت فرقة : معنى ﴿ عقبى الدار ﴾ أي أن أعقبوا الجنة من جهنم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل مبني على حديث ورد ، وهو : أن كل رجل في الجنة فقد كان له مقعد معروف في النار ، فصرفه الله عنه إلى النعيم ، فيعرض عليه ويقال له : هذا كان مقعدك فبدلك الله منه الجنة بإيمانك وطاعتك وصبرك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أن ما أُنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾

قال ابن عباس : نزلت في حمزة ، وأبي جهل .

﴿ إنما يتذكر ﴾ أي : إنما يتّعظ ذوو العقول .

والتذكُّر : الاتعاظ .

قوله تعالى : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ﴾

في هذا العهد قولان :

أحدهما : أنه ما عاهدهم عليه حين استخرجهم من ظهر آدم .

والثاني : ما أمرهم به وفرضه عليهم .

وفي الذي أمر الله به ، عز وجل ، أن يوصل ، ثلاثة أقوال قد نسبناها إلى قائلها في أول سورة [البقرة : 27] ، وقد ذكرنا سوء الحساب آنفاً .

قوله تعالى : ﴿ والذين صبروا ﴾ أي : على ما أُمروا به ﴿ ابتغاء وجه ربهم ﴾ أي : طلباً لرضاه ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أتمُّوها ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ من الأموال في طاعة

الله.

قال ابن عباس: يريد بالصلاة: الصلوات الخمس، وبالإِنفاق: الزكاة.

قوله تعالى: ﴿ ويدرؤون ﴾ أي: يدفعون ﴿ بالحسنة السيئة ﴾.

وفي المراد بهما خمسة أقوال:

أحدها: يدفعون بالعمل الصالح الشرَّ من العمل، قاله ابن عباس.

والثاني: يدفعون بالمعروف المنكر، قاله سعيد بن جبير.

والثالث: بالعفو الظلمَ، قاله جُوَيبر.

والرابع: بالحلم السفهَ، كأنهم إِذا سُفه عليهم حَلُموا، قاله ابن قتيبة.

والخامس: بالتوبة الذنْبَ، قاله ابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ قال ابن عباس: يريد: عقباهم الجنة، أي: تصير الجنة آخر أمرهم.

قوله تعالى: ﴿ ومن صلح ﴾ وقرأ ابن أبي عبلة: "صلُح" بضم اللام.

ومعنى "صلح" آمن، وذلك أن الله تعالى ألحق بالمؤمن أهله المؤمنين إِكراماً له، لتقرَّ عينُه بهم.

﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ قال ابن عباس: بالتحية من الله والتحفة والهدايا.

قوله تعالى : ﴿ سلام عليكم ﴾ قال الزجاج : أُضمر القول هاهنا ، لأن في الكلام دليلاً عليه .

وفي هذا السلام قولان :

أحدهما : أنه التحية المعروفة ، يدخل المَلَك فيسلِّم وينصرف .

قال ابن الأنباري : وفي قول المسلِّم : سلام عليكم ، قولان : أحدهما : أن السلام : اللهُ عز وجل ، والمعنى : الله عليكم ، أي : على حفظكم .

والثاني : أن المعنى : السلامة عليكم ، فالسلام جمع سلامة .

والثاني : أن معناه : إنما سلَّمكم الله تعالى من أهوال القيامة وشرِّها بصبركم في الدنيا .

وفيما صبروا عليه خمسة أقوال :

أحدها : أنه أمر الله ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : فضول الدنيا ، قاله الحسن .

والثالث : الدِّين .

والرابع : الفقر ، روياعن أبي عمران الجَوني .

والخامس : أنه فقد المحبوب ، قاله ابن زيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(29/411)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾

هذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، ورُوِي أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وأبي جهل لعنه الله .

والمراد بالعَمَى عَمَى القلب ، والجاهل بالدين أعمى القلب .

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الألباب ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ هذا من صفة ذوي الألباب ، أي إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله .

والعهد اسم للجنس ؛ أي بجميع عهود الله ، وهي أوامره ونواهيه التي وصّى بها عَبيده ؛

ويدخل في هذه الألفاظ التزامُ جميع الفروض، وتجنبُ جميع المعاصي.

وقوله: ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق، أي إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه.

قال قَتَادة: تقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، وهو الذي أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم.

وقال القَفّال: هو ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات.

الثانية: روى أبو داود وغيره "عن عوف بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال: "ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم" وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك (حتى قالها ثلاثاً؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه، فقال قائل: يا رسول الله! إنا قد بايعناك) فعلى ماذا نبايعك؟ قال: "أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتُصلّوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتُطيعوا وأسرّ كلمةً خَفِيَّةً قال لا تسألوا الناس شيئاً" " قال: ولقد كان بعض أولئك النفر يسقط سَوْطه فما يسأل أحداً أن يناوله إيّاه.

قال ابن العربي : من أعظم المواثيق في الذكر ألاّ يُسأل سواه ؛ فقد كان أبو حمزة الخراساني من كبار العبّاد سمع أن أناساً بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألاّ يسألوا أحداً شيئاً ، الحديث ؛ فقال أبو حمزة : رب إن هؤلاء عاهدوا نبيّك إذ رأوه ، وأنا أعاهدك ألاّ أسأل أحداً شيئاً ؛ قال : فخرج حاجّاً من الشام يريد مكة فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم ، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق ؛ فلما حلّ في قعره قال : أستغيث لعل أحداً يسمعني .

ثم قال : إن الذي عاهدته يراني ويسمعني ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيراً إذ مرّ بذلك البئر نفر ، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبغي سدّ هذا البئر ؛ ثم قطعوا خشباً ونصبوها على فم البئر وغطّوها بالتراب ؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستغيث بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبداً ؛ ثم رجع إلى نفسه فقال : أليس قد عاهدت مَن يراك ؟ فسكتَ وتوكل ، ثم استند في قعر البئر مفكراً في أمره فإذا بالتراب يقع عليه ؛ والخشب يرفع عنه ، وسمع في أثناء ذلك من يقول : هات يدك ! قال : فأعطيته يدي فأقلّني في مرة واحدة إلى فم البئر ، فخرجت فلم أر أحداً ؛ فسمعت هاتفاً يقول : كيف رأيت ثمرة التوكل ؛ وأنشد :

نَهاني حَيائي منكَ أن أكشفَ الهوى . . .

فأغنيتني بالعِلْمِ منكَ عن الكَشْفِ

تَلَطَّفْتَ في أمري فأبديت شاهدي . . .

إلى غائبي واللّطفُ يُدرِكُ باللُّطْف

تَراءيتَ لي بالعلم حتى كأنما . . . .

تُخَبِّرُني بالغيب أنّكَ في كفّ

أَرَانِي وبي من هَيْبَتِي لَكَ وَحْشَةٌ . . . .

فتؤنِسُني باللُّطف مِنكَ وبالعطف

وتُحيِي مُحِبًّا أنت في الحبّ حَتْفُهُ . . . .

وذا عَجَبٌ كيف الحياةُ مَعَ الْحَتْفِ

قال ابن العربي : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا .

قال أبو الفرج الجوزيّ : سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسه ، وذلك لا يحلّ ؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة ؛ كما لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل بإخفائه الخروجَ من مكة ، واستئجاره

دليلاً ، واستكتامه ذلك الأمر ، واستتاره في الغار ، وقوله لسُرَاقة : " اخْفِ عَنّا " فالتوكل المدوح لا يُنال بفعل محظور ؛ وسكوت هذا الواقع في البئر محظور عليه ، وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجتلب بها النفع ، فإذا عطلها مدّعياً للتوكل كان ذلك جهلاً بالتوكل ، ورداً لحكمة التواضع ؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى ، وليس من ضرورته قطع الأسباب ؛ ولو أن إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار ؛ قاله سفيان الثّوري وغيره ، لأنه قد دلّ على طريق السلامة ، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه .

وقال أبو الفرج : ولا التفات إلى قول أبي حمزة : "فجاء أسد فأخرجني" فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله اتفاقا ، وقد يكون لطفاً من الله تعالى بالعبد الجاهل ، ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به ، إنما ينكر فعله الذي هو كَسْبه ، وهو إعانته على نفسه التي هي وديعة لله تعالى عنده ، وقد أمره بحفظها .

قوله تعالى : ﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾

ظاهر في صلة الأرحام ، وهو قول قَتَادة وأكثر المفسرين ، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات .

﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ قيل : في قطع الرَّحم .

وقيل : في جميع المعاصي .

﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ .

سوء الحساب الاستقصاء فيه والمناقشة ؛ ومن نوقش الحساب عُذّب .

وقال ابن عباس وسعيد بن جُبَيْر : معنى .

"يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ" الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم .

الحسن : هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم .

(32/411)

ويحتمل رابعاً : أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح ؛ "وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ" فيما أمرهم بوصله ، "وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ" في تركه ؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا ، وبالله توفيقنا .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ قيل : "الَّذِينَ" مستأنف ؛ لأن "صَبَرُوا" ماض فلا ينعطف على "يُوفُونَ" .

وقيل : هو من وصف مَن تقدّم ، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضي ، وتارة بلفظ المستقبل ؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا ؛ ولما كان "الَّذِينَ" يتضمن الشرط (و) الماضي في الشرط كالمستقبل جاز ذلك ؛ ولهذا قال : "الَّذِينَ يُوفُونَ" ثم قال : "وَالَّذِينَ صَبَرُوا" ثم

عطف عليه فقال: "وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ" قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله.

وقال عطاء: صبروا على الرزايا والمصائب، والحوادث والنوائب.

وقال أبو عِمْران الْجَوْني: صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله.

﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ أدّوها بفروضها وخشوعها في مواقيتها.

﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ يعني الزكاة المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القول في هذا في "البقرة" وغيرها.

﴿ وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون بالعمل الصالح السَّيىء من الأعمال، قاله ابن عباس.

ابن زيد: يدفعون الشر بالخير.

سعيد بن جُبير: يدفعون المنكر بالمعروف.

الضّحاك: يدفعون الفحش بالسلام.

جُوَيبر: يدفعون الظلم بالعفو.

ابن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة.

القُتَبي: يدفعون سفه الجاهل بالحلم؛ فالسّفه السّيئة، والحلم الحسنة.

وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا.

وقيل : يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله ؛ فهذه تسعة أقوال ، معناها كلها متقارب ، والأول يتناولها بالعموم ؛ ونظيره : ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ [هود : 114] ومنه قوله عليه السلام لمعاذ : " وَأَتْبِعْ السَّيِّئَة الْحَسَنَة تَمْحُهَا وخَالِق النَّاسَ بِخُلُق حَسَن "

قوله تعالى : ﴿ أولئك لَهُمْ عقبى الدار ﴾ أي عاقبة الآخرة ، وهي الجنة بدل النار ، والدار غداً داران : الجنة للمطيع ، والنار للعاصي ؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة .

وقيل : عنى بالدار دار الدنيا ؛ أي لهم جزاء ما عملوا من الطاعات في دار الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي لهم جنات عدن ؛ ف"جَنَّاتُ عَدْنٍ" بدل من "عُقْبَى" ويجوز أن تكون تفسيراً ل"عُقْبَى الدَّارِ" أي لهم دخول جنات عدن ؛ لأن "عُقْبَى الدَّارِ" حَدَث و"جَنَّاتُ عَدْنٍ" عين ، والحدث إنما يفسر بحدث مثله ؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول .

ويجوز أن يكون "جَنَّاتُ عَدْنٍ" خبر ابتداء محذوف .

و"جَنَّاتُ عَدْنٍ" وسط الجنة وقَصَبتها ، وسقفها عرش الرحمن ؛ قاله القُشَيري أبو نصر

عبد الملك .

وفي صحيح البخاري : " إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تُفَجّر أنهار الجنة " فيحتمل أن يكون "جنات" كذلك إن صحّ فذلك خبر .

وقال عبد الله بن عمرو : إن في الجنة قصراً يقال له عَدْن ، حوله البُرُوج والمروج ؛ فيه ألف باب ، على كل باب خمسة آلاف حِبَرَة لا يدخله إلا نبي أو صدّيق أو شهيد .

و"عدن" مأخوذ من عَدَن بالمكان إذا أقام فيه ؛ على ما يأتي بيانه في سورة "الكهف" إن شاء الله تعالى .

﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على "أُولَئِكَ" المعنى : أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار .

(34/411)

ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع في : "يَدْخُلُونَهَا" وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما .

ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم ؛ أي من كان صالحاً ، لا

يدخلونها بالأنساب .

ويجوز أن يكون موضع "مَنْ" نصباً على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آبائهم ، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامة لهم .

وقال ابن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول ، ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعيّة .

قال القُشَيري : وفي هذا نظر ؛ لأنه لا بد من الإيمان ، فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان .

فالأظهر أن هذا الصلاح في جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة غَداً تتمّ عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم في الجنة ، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه ؛ بل برحمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ أي بالتحف والهدايا من عند الله تكرمة لهم .

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم ﴾ أي يقولون : سلام عليكم ؛ فأضمر القول ، أي قد سلمتم من الآفات والمحن .

وقيل : هو دعاء لهم بدوام السلامة ، وإن كانوا سالمين ، أي سلمكم الله ، فهو خبر معناه الدعاء ؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية .

﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ أي بصبركم ؛ ف"ما" مع الفعل بمعنى المصدر ، والباء في "بما" متعلقة

بمعنى .

"سَلَامٌ عَلَيْكُمْ" ويجوز أن تتعلق بمحذوف ؛ أي هذه الكرامة بصبركم ، أي على أمر الله تعالى ونهيه ؛ قاله سعيد بن جُبَيْر .

وقيل : على الفقر في الدنيا ؛ قاله أبو عِمران الجونيّ .

(35/411)

وقيل : على الجهاد في سبيل الله ؛ كما روي عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : "المجاهدون الذين تُسدّ بهم الثغور وتُتّقى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار"

وقال محمد بن إبراهيم : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : "السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" " وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان ؛ وذكره البَيْهَقِيّ عن أبي هُريرة قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي الشهداء ، فإذا أَتَى فُرْضَةَ الشِّعْب يقول : "السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" " ثم كان أبو بكر

بعد النبي صلى الله عليه وسلم يفعله ، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله ، وكان عثمان بعد عمر يفعله .

وقال الحسن البصري رحمه الله : "بِمَا صَبَرْتُمْ" عن فضول الدنيا .

وقيل : "بِمَا صَبَرْتُمْ" على ملازمة الطاعة ، ومفارقة المعصية ؛ قال معناه الفُضَيْل بن عِيَاض .

ابن زيد : "بِمَا صَبَرْتُمْ" عما تحبونه إذا فقدتموه .

ويحتمل سابعاً : "بِمَا صَبَرْتُمْ" عن اتباع الشهوات .

وعن عبد الله بن سَلاَم وعلي بن الحسين رضي الله عنهم (أنهما قالا) : إذا كان يوم القيامة ينادي مناد ليقم أهل الصبر ؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة فتتلقّاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ؛ قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا نعم ! فيقولون : من أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبّرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبّرناها عن معاصي الله وصبّرناها على البلاء والمحن في الدنيا .

قال علي بن الحسين : فتقول لهم الملائكة : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

وقال ابن سَلاَم : فتقول لهم الملائكة : "سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ" .

"فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" أي نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها ؛ عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه ؛ فالعقبى على هذا اسم ، و"الدار" هي الدنيا .

وقال أبو عِمران الْجَوْني : "فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" الجنة عن النار .

وعنه : "فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" الجنة عن الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(37/411)

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق ﴾

يعني فيؤمن به ويعمل بما فيه ﴿ كمن هو أعمى ﴾ يعني أعمى البصيرة ، لا أعمى البصر وهو الكافر فلا يؤمن بالقرآن ولا يعمل بما فيه قال ابن عباس : نزلت في حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه سلم وأبي جهل بن هشام .

وقيل : نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل فالأول هو حمزة أو عمار الثاني هو أبو جهل وحمل الآية على العموم أولى ، وإن كان السبب مخصوصاً ، والمعنى : لا يستوي من يبصر الحق

ويتبعه ومن لا يبصر الحق ولا يتبعه وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدي لرشد ، وربما وقع في مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لا يهتديان للرشد وهما واقعان في المهلكة ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ يعني إنما يتعظ ذوو العقول السليمة الصحيحة ، وهم الذين ينتفعون بالمواعظ والأذكار .

قوله ﴿ الذين يوفون بعهد الله ﴾ يعني الذي عاهدهم عليه وهو القيام بما أمرهم به ، وفرضه عليهم وأصل العهد حفظ الشيء ، ومراعاته حالاً بعد حال وقيل أراد بالعهد ما أخذه على أولاد آدم حين أخرجهم من صلبه ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ﴿ ولا ينقضون الميثاق ﴾ بل يوفون به فهو توكيد لقوله الذين يوفون بعهد الله ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ قال ابن عباس : يريد الإيمان بجميع الكتب والرسل يعني يصل بينهم بالإيمان والا يفرق بين أحد منهم والأكثرون على أن المراد به صلة الرحم عن عبد الرحمن بن عوف .

قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " قال الله تبارك وتعالى : أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتتته " أخرجه أبو داود والترمذي (ق) .

عن عائشة ا قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله " (خ) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " من سره أن يبسط له في رزقه وأن يُنسأ له في أثره فليصل رحمه " صلة الرحم مبرة الأهل والأقارب والإحسان إليهم وضده القطع ، قوله : وان ينسأ له في أثره الأثر هنا الأجل سمي الأجل أثراً لأنه تابع للحياة وسابقها .

ومعنى ينسأ : يؤخر والمراد به تأخير الأجل .

وهو على وجهين : أحدهما أن يبارك الله في عمره فكأنما قد زاد فيه .

والثاني أن يزيده في عمره زيادة حقيقية والله يفعل ما يشاء (ق) عن جبير بن مطعم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " لا يدخل الجنة قاطع " في رواية سفيان يعني " قاطع رحم " (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " ليس الواصل بالمكافىء الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها " عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فان صلة الرحم محبة في الأهل ومثراة في المال ومنسأة في الأثر " أخرجه الترمذي .

وقوله تعالى : ﴿ ويخشون ربهم ﴾ يعني أنهم مع وفائهم بعهد الله وميثاقه والقيام بما أمر الله

به من صلة الرحم يخشون ربهم ، والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ﴿ ويخافون سوء الحساب ﴾ تقدم معناه .

﴿ والذين صبروا ﴾ يعني على طاعة الله وقال ابن عباس : على أمر الله .

وقال عطاء : على المصائب والنوائب .

(39/411)

وقيل : صبروا عن الشهوات وعن المعاصي وقيل : حمله على العموم أولى فيدخل فيه الصبر على جميع النوائب والمأمورات من سائر العبادات والطاعات ، وجميع أعمال البر وترك جميع المنهيات فيدخل فيه ترك جميع المعاصي من الحسد والحقد والغيبة ، وغير ذلك من المنهيات ، ويدخل فيه الصبر عن المباحات مثل جميع الشهوات والصبر على ما نزل به من الأمراض والمصائب ، وأصل الصبر حبس النفس عما يقتضيه العقل أو الشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه فالصبر لفظ عام يدخل تحته جميع ما ذكر ، وإنما قيد الصبر بقوله ﴿ ابتغاء وجه ربهم ﴾ لأن الصبر ينقسم إلى نوعين : الأول الصبر المذموم وهو أن الإنسان قد يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على ما تحمل من النوازل وقد يصبر لئلا يعاب على الجزع ، وقد يصبر لئلا تشمت به الأعداء ، وكل هذه الأمور وإن كان ظاهرها الصبر فليس

ذلك داخلاً تحت قوله : ﴿ ابتغاء وجه ربهم ﴾ لأنه لغير الله تعالى .

النوع الثاني : الصبر المحمود وهو أن يكون الإنسان صابراً لله تعالى راضياً بما نزل به من الله طالباً في ذلك الصبر ثواب الله محتسباً أجره على الله فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله ابتغاء وجه ربهم يعني صبروا على ما نزل بهم تعظيماً لله وطلب رضوانه ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ يعني الصلاة المفروضة .

وقيل : حمله على العموم أولى فيدخل صلاة الفرض والنفل والمراد بإقامتها إتمام أركانها وهيئآتها ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾ قال الحسن : المراد به الزكاة المفروضة فإن لم يتهم بترك أداء الزكاة فالأولى أن يؤديها سراً ، وإن كان متهماً بترك أداء الزكاة فالأولى أن يؤديها علانية .

قيل : إن المراد بالسر ما يخرج من الزكاة بنفسه والمراد بالعلانية ما يؤديه إلى الإمام .

(40/411)

وقيل : المراد بالسر صدقة التطوع والمراد بالعلانية الزكاة الواجبة وحمله على العموم أولى ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ قال ابن عباس : يدفعون بالعمل الصالح العمل السيء ، وهو معنى قوله : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ويدل على صحة هذا التأويل ما

جاء في الحديث أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية " وروى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل أخرى فانفكت أخرى حتى خرج إلى الأرض " وقال ابن كيسان : يدفعون الذنب بالتوبة وقيل : لا يكافئون الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير وقال القتيبي معناه إذا سفه عليهم حلموا والسفه السيئة والحلم الحسنة ، وقال قتادة : ردوا عليهم رداً معروفاً .

وقال الحسن : إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا وإذا قطعوا وصلوا .

قال عبد الله بن المبارك : هذه ثمان خلال مشيرة إلى أبواب الجنة الثمانية قلت إنما هي تسع خلال فيحتمل أنه عد خلتين بواحدة ولما ذكر الله هذه الخلال من أعمال البر ، ذكر بعدها ما أعد للعاملين بها من الثواب فقال تعالى ﴿ أولئك ﴾ يعني من أتى بهذه الأعمال ﴿ لهم عقبى الدار ﴾ يعني الجنة والمعنى إن عاقبتهم دار الثواب ﴿ جنَّات عدن ﴾ بدل من عقبى الدار يعني بساتين إقامة يقال عدن بالمكان إذا أقام به ﴿ يدخلونها ﴾ يعني الدار التي تقدم وصفها ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ يعني ومن صدق من آبائهم بما صدقوا به ، وإن لم يعمل بأعمالهم قاله ابن عباس .

وقال الزجاج : إن الإنسان لا ينتفع بغير أعماله الصالحة فعلى قول ابن عباس : معنى صلح صدق وآمن ووحد ، وعلى قول الزجاج معناه أصلح في عمله قال الواحدي والصحيح : ما قاله ابن عباس لأن الله تعالى جعل ثواب المطيع سروره بما يراه في أهله حيث بشره بدخوله الجنة مع هؤلاء ، فدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع العامل الآتي بالأعمال الصالحة ، ولو كان دخولهم الجنة بأعمالهم الصالحة ، لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به إذ كل من كان صالحاً في عمله ، فهو يدخل الجنة .

قال الإمام فخر الدين الرازي : قوله تعالى وأزواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ، ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه وروي أنه لما كبرت سودة أراد النبي (صلى الله عليه وسلم) طلاقها فسألته أن لا يفعل ، ووهبت يومها لعائشة فأمسكها رجاء أن تحشر في جملة أزواجه فهو كالدليل على ما ذكرناه .

وقوله تعالى ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ يعني من أبواب الجنة .

وقيل من أبواب القصور ، قال ابن عباس : يريد به التحية من الله والتحف والهدايا ﴿ سلام عليكم ﴾ يعني يقولون : سلام عليكم فأضمر القول ها هنا لدلالة الكلام عليه ﴿ بما صبرتم ﴾ يعني يقولون لهم : سلمكم الله من الآفات التي كنتم تخافونها في الدنيا وأدخلكم بما صبرتم في دار الدنيا على الطاعات ، وترك المحرمات الجنة وقيل : إن السلام قول والصبر

فعل ولا يكون القول ثواباً للفعل ، فعلى هذا يكون قوله : سلام عليكم دعاء من الملائكة لهم يعني سلمكم الله بما صبرتم .

قال مقاتل : إن الملائكة يدخلون عليهم في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم الهدايا والتحف من الله تعالى .

(42/411)

يقولون : سلام عليكم بما صبرتم ، وروى البغوي بسنده عن أبي أمامة موقوفاً عليه قال : " إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك من ملائكة الله يستأذن فيقوم أدنى الخدم إلى الباب فإذا بالملك يستأذن فيقول : للذي يليه ملك يستأذن ويقول الآخر : كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا له فيقول أقربهم إلى المؤمن ائذنوا له ويقول الذي يليه ائذنوا له وكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له ، فيدخل فيسلم ثم ينصرف " ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ يعني فنعم العقبى عقبى الدار .

وقيل : معناه فنعم عقبى الدار ما أنتم فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ

﴾

وقال أبو حيان :

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

قال ابن عباس : نزلت أفمن يعلم في حمزة وأبي جهل .

وقيل : في عمر بن الخطاب وأبي جهل .

وقيل : في عمار بن ياسر وأبي جهل .

قرأ زيد بن علي : أو من بالواو بدل الفاء ، إنما أنزل مبنياً للفاعل .

ولما ذكر تعالى مثل المؤمن والكافر ، وذكر ما للمؤمن من الثواب ، وما للكافر من العقاب ، ذكر استبعاد من يجعلها سواء وأنكر ذلك فقال : أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى أي : ليسا مشتبهين ، لأنّ العالم بالشيء بصير به ، والجاهل به كالأعمى ، والمراد أعمى البصيرة ولذلك قابله بالعلم .

والهمزة للاستفهام المراد به : إنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل في أن حال من علم إنما أنزل إليك من ربك الحق فاستجاب ، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب ، كبعد ما بين الزبد والماء ، والخبث والإبريز .

ثم ذكر أنه لا يتذكر بالموعظة، وضرب الأمثال إلا أصحاب العقول.

والفاء للعطف، وقدمت همزة الاستفهام لأنه صدر الكلام والتقدير: فأمن يعلم، ويبعدها أن يكون فعل محذوف بين الهمزة والفاء عاطفة ما بعدها على ذلك الفعل، كما قدره الزمخشري في قوله: ﴿ أفلم يسيروا ﴾ وقوله: ﴿ أفلا يعقلون ﴾ وجوزوا في الذين أنْ يكون بدلاً من أولوا، أو صفة له، وصفة لمن من قوله: أفمن يعلم وإنما يتذكر اعتراض، ومبتدأ خبره أولئك لهم عقبى الدار كقوله: ﴿ والذين ينقضون عهد الله ﴾ ثم قال: ﴿ أولئك لهم اللعنة ﴾ والظاهر عموم العهد.

وقيل: هو خاص، فقال السدي: ما عهد إليهم في القرآن.

وقال قتادة: في الأزل، وهو قوله: ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وقال القفال: ما في حيلتهم وعقولهم من دلائل التوحيد والنبوات.

وقيل: في الكتب المتقدمة والقرآن.

وقيل: المأخوذ على ألسنة الرسل.

وقيل : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والظاهر إضافة العهد إلى الفاعل أي : بما عهد الله .

والظاهر أن قوله : ولا ينقضون الميثاق ، جملة توكيدية لقوله : يوفون بعهد الله ، لأن العهد هو الميثاق ، ويلزم من إيفاء العهد انتفاء نقيضه .

وقال الزمخشري : وعهد الله ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى .

ولا ينقضون الميثاق ، ولا ينقضون كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله تعالى ، وغيره من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد تعميم بعد تخصيص انتهى .

فأضاف العهد إلى المفعول ، وغاير بين الجملتين بكون الثانية تعميماً بعد تخصيص انتهى .

إذ أخذ الميثاق عام بينهم وبين الله وبين العباد .

وقال ابن عطية : بعهد الله اسم الجنس أي : بجميع عهود الله ، وبين أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده .

ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض ، وتجنب جميع المعاصي .

وقوله : ولا ينقضون الميثاق .

أي : إذا اعتقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه .

قال قتادة : وتقدم وعيد الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية ،

ويحتمل أنه يشير إلى ميثاق معين وهو الذي أخذه تعالى على ظهر أبيهم آدم عليه السلام انتهى .

وقال ابن العربي : من أعظم المواثيق في الذكر أن لا يسأل سواه ، وذكر قصة أبي حمزة الخراساني وقوعه في البئر ، ومرور الناس عليه ، وتغطيتهم البئر وهو لا يسألهم أن يخرجوه ، إلى أن جاء من أخرجه بغير سؤال ، ولم ير من أخرجه ، وهتف به هاتف : كيف رأيت ثمرة التوكل ؟ قال ابن العربي : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام ، فاقتدوا به .

وقد أنكر أبو الفرج بن الجوزي فعل أبي حمزة هذا وبين خطأه ، وأن التوكل لا ينافي الاستغاثة في تلك الحال .

وذكر أنّ سفيان الثوري وغيره قالوا : إن إنساناً لو جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار .

(45/411)

ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف بأبي حمزة الجاهل .

وما أمر الله به أن يوصل ظاهره العموم في كل ما أمر به في كتابه وعلى لسان نبيه (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الحسن : المراد به صلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالإيمان به ، وقال نحوه ابن

جبير .

وقال قتادة : الرحم .

وقيل : صلة الإيمان بالعمل .

وقيل : صلة قرابة الإسلام بإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، ومراعاة حق الجيران ، والرفقاء ، والأصحاب ، والخدم .

وقيل : نصرة المؤمنين .

وأمر يتعدى إلى اثنين بحرف جر وهو به ، والأول محذوف تقديره : ما أمرهم الله به .

وأن يوصل في موضع جر بدل من الضمير أي : بوصله .

ويخشون ربهم أي : وعيده كله .

ويخافون سوء الحساب أي : استقصاءه فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

وقيل : يخشون ربهم يعظمونه .

وقيل : في قطع الرحم .

وقيل : في جميع المعاصي .

وقيل : فيما أمرهم بوصله .

وصبروا مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ، وميثاق التكليف .

وجاءت الصلة هنا بلفظ الماضي ، وفي الموصلين قبل بلفظ المضارع في قوله : الذين يوفون ،

والذين يصلون ، وما عطف عليهما على سبيل التفنن في الفصاحة ، لأنّ المبتدأ هنا في معنى اسم الشرط بالماضي كالمضارع في اسم الشرط ، فكذلك فيما أشبهه ، ولذلك قال النحويون : إذا وقع الماضي صلة أو صفة لنكرة عامة احتمل أن يراد به المضي ، وأن يراد به الاستقبال .

(46/411)

فمن المراد به المضي في الصلة ﴿ الذين قال لهم الناس ﴾ ومن المراد به الاستقبال ﴿ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ﴾ ويظهر أيضاً أن اختصاص هذه الصلة بالماضي وتينك بالمضارع ، أن تينك الصلتين قصد بهما الاستصحاب والالتباس دائماً ، وهذه الصلة قصد بها تقدمها على تينك الصلتين ، وما عطف عليهما ، لأنّ حصول تلك الصلات إنما هي مترتبة على حصول الصبر وتقدمه عليها ، ولذلك لم تأت صلة في القرآن إلا بصيغة الماضي ، إذ هو شرط في حصول التكاليف وإيقاعها والله أعلم .

وانتصب ابتغاء قيل : على أنه مصدر في موضع الحال ، والأولى أن يكون مفعولاً لأجله أي : إنّ صبرهم هو لابتغاء وجه الله خالصاً ، لا لرجاء أن يقال : ما أصبره ، ولا مخافة أن يعاب بالجزع ، أو تشمت به الأعداء ، كما قال :

وتجلدي للشامتين أريهم . . .

أني لريب الدهر لا أتضعضع

ولأنّ الجزع لا طائل تحته ، أو يعلم أنه لا مرد لما فات ولا لما وقع .

والظاهر في معنى الوجه هنا جهة الله أي : الجهة التي تقصد عنده تعالى بالحسنات لتقع

عليها المثوبة ، كما تقول : خرج زيد لوجه كذا .

ونبه على هاتين الخصلتين : العبادة البدنية ، والعبادة المالية ، إذ هما عمود الدين ، والصبر

عليهما أعظم صبر لتكرر الصلوات ، ولتعلق النفوس بحب تحصيل المال .

ونبه على حالتي الإنفاق ، فالسر أفضل حالات إنفاق التطوع كما جاء في "السبعة الذين

يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها " والعلانية أفضل

حالات إنفاق الفروض ، لأنّ الإظهار فيها أفضل .

وقال الزمخشري : مما رزقناهم من الحلال ، لأنّ الحرام لا يكون رزقاً ، ولا يسند إلى الله

انتهى .

وهذا على طريق المعتزلة .

وللسلف هنا في الصبر أقوال متقاربة .

قال ابن عباس : صبروا على أمر الله .

وقال أبو عمران الجوني : صبروا على دينهم .

وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب .

وقال ابن زيد : صبروا على الطاعة وعن المعصية ، ويدرؤون يدفعون .

(47/411)

قال ابن زيد : الشر بالخير .

وقال قتادة : ردوا عليهم معروفاً كقوله : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلام ﴾ وقال الحسن : إذا حرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا .

وقال القتبي : إذا سفه عليهم حلموا ، وقال ابن جبير : يدفعون المنكر بالمعروف .

وقال ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا ، وإذا هربوا أنابوا ليدفعوا عن أنفسهم بالتوبة معرّة الذنب ، وهذا المعنى قول ابن عباس في رواية الضحاك عنه .

وقيل : يدفعون بلا إله إلا الله شركهم .

وقيل : بالسلام غوائل الناس .

وقيل : من رأوا منه مكروهاً بالتي هي أحسن .

وقيل : بالصالح من العمل السيىء ، ويؤيده ما روي في الحديث أن معاذاً قال : أوصني يا رسول الله فقال : " إذا عملت سيئة فاعمل إلى جنبها حسنة تمحها السر بالسرّ والعلانية

بالعلانية " وقيل العذاب : بالصدقة .

وقيل : إذا هموا بالسيئة فكروا ورجعوا عنها واستغفروا .

وهذه الأقوال كلها على سبيل المجاز .

وبالجملة لا يكافئون الشر بالشر كما قال الشاعر :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة . . .

ومن إساءة أهل السوء إحساناً

وهذا بخلاف خلق الجاهلية كما قال :

جريء متى يظلم يعاقب بظلمه . . .

سريعاً وإن لا يبد بالظلم يظلم

وروي أنّ هذه الآية نزلت في الأنصار ، ثم هي عامة بعد ذلك في كل من اتصف بهذه الصفات .

وعقبي الدار : عاقبة الدنيا ، وهي الجنة ، لأنها التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا وموضع أهلها .

وجنات عدن بدل من عقبى الدار ، ويحتمل أن يراد عقبى دار الآخرة لدار الدنيا في العقبى الحسنة في الدار الآخرة هي لهم ، ويحتمل أن كون جنات خبر ابتداء محذوف .

وقرأ الجمهور : جنات ، والنخعي : جنة بالإفراد .

وروي عن ابن كثير ، وأبي عمرو : يدخلونها مبنياً للمفعول .

وقرأ ابن أبي عبلة : ومن صلح بضم اللام ، والجمهور بفتحها ، وهو أفصح .

وقرأ عيسى الثقفي : وذريتهم بالتوحيد ، والجمهور بالجمع .

(48/411)

وقرأ ابن يعمر : فنعم بفتح النون وكسر العين وهي الأصل ، كما قال الراجز :

نعم الساعون في اليوم الشطر . . .

وقرأ ابن وثاب : فنعم بفتح النون وسكون العين ، وتخفيف فعل لغة تميمية ، والجمهور نعم بكسر النون وسكون العين ، وهي أكثر استعمالاً .

قال مجاهد وغيره : ومن صلح أي عمل صالحاً وآمن انتهى .

وهذا يدل على أن مجرد النسب من الصالح لا ينفع ، إنما تنفع الأعمال الصالحة .

وقيل : يحتمل قوله : ومن صلح أي : لذلك بقدر الله تعالى وسابق علمه .

قال ابن عباس : هذا الصلاح هو الإيمان بالله وبالرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وهذه بشارة بنعمة اجتماعهم مع قراباتهم في الجنة .

والظاهر أنّ ومن معطوف على الضمير في يدخلونها وقد فصل بينهما بالمفعول .

وقيل: يجوز أن يكون مفعولاً معه أي: يدخلونها مع من صلح.

ويشتمل قوله: من آبائهم، أبوي كل واحد والده ووالدته، وغلب الذكور على الإناث، فكأنه قيل: ومن صلح من آبائهم وأمهاتهم.

والملائكة يدخلون عليهم من كل باب أي: بالتحف والهدايا من الله تعالى تكرمة لهم.

قال أبو بكر الورّاق: هذه ثمانية أعمال تشير إلى ثمانية أبواب الجنة، من عملها دخلها من أي باب شاء.

قال الأصم: نحو هذا قال: من كل باب باب الصلاة، وباب الزكاة، وباب الصبر.

ولأبي عبد الله الرازي كلام عجيب في الملائكة ذكر: أن الملائكة طوائف منهم روحانيون، ومنهم كروبيون، فالعبد إذا راض نفسه بأنواع الرياضات كالصبر والشكر والمراقبة والمحاسبة، فلكل مرتبة من هذه المراتب جوهر قدسي وروح علوي يحفظ لتلك الصفة مزيد اختصاص، فعند الموت إذا أشرقت تلك الجواهر القدسية تجلت فيها من كل روح من الأرواح السمائية ما يناسبها من الصفة المخصوصة، فيفيض عليها من ملائكة الصبر كمالات مخصوصة نفسانية لا تظهر إلا في مقام الصبر، ومن ملائكة الشكر كمالات روحانية لا تتجلى إلا في مقام الشكر، وهكذا القول في جميع المراتب انتهى.

وهذا كلام فلسفي لا تفهمه العرب ، ولا جاءت به الأنبياء ، فهو كلام مطرح لا يلتفت إليه المسلمون .

قال ابن عطية : وحكى الطبري رحمه الله في صفة دخول الملائكة أحاديث لم نطول بها لضعف أسانيدها انتهى .

وارتفع سلام على الابتداء ، وعليكم الخبر ، والجملة محكية بقول محذوف أي : يقولون سلام عليكم .

والظاهر أن قوله تعالى : سلام عليكم تحية الملائكة لهم ، ويكون قوله تعالى : بما صبرتم ، خبر مبتدأ محذوف أي : هذا الثواب بسبب صبركم في الدنيا على المشاق ، أو تكون الباء بمعنى بدل أي : بدل صبركم أي : بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ، هذه الملاذ والنعم .

وقيل : سلام جمع سلامة أي : إنما سلمكم الله تعالى من أهوال يوم القيامة بصبركم في الدنيا .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يتعلق بسلام أي : يسلم عليكم ويكرمكم بصبركم ، والمخصوص بالمدح محذوف أي : فنعم عقبى الدار الجنة من جهنم ، والدار : تحتمل الدنيا وتحتمل الآخرة .

وقالت فرقة : المعنى أن عقبوا الجنة من جهنم .

قال ابن عطية : وهذا التأويل مبني على حديث ورد وهو : "أن كل رجل في الجنة قد كان له مقعد معروف في النار ، فصرفه الله تعالى عنه إلى النعيم فيعرض عليه ويقال له : هذا مكان مقعدك ، فبدّلك الله منه الجنة بإيمانك وطاعتك وصبرك" انتهى .

ولما كان الصبر هو الذي نشأ عنه تلك الطاعات السابقة ، ذكرت الملائكة أن النعيم السرمدي إنما هو حاصل بسبب الصبر ، ولم يأت التركيب بالإيفاء بالعهد ، ولا بغير ذلك .

انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(50/411)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى . . . ﴾

المعنى : أسواءٌ مَنْ هداه الله ، فَعَلِمَ صدْقَ نبوَّتك ، وآمن بك ؛ كمن هو أعمَى البصيرةِ باقٍ على كُفْره ؛ روي أنَّ هذه الآية نزلت في حمزةَ بْنِ عَبْدِ المطَّلب ، وأَبِي جَهْل ، وهي بَعْدَ هذا مِثَالٌ في جميع العالم ، ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب ﴾ : «إنما» ؛ في هذه الآية : حاصرة ، أي : إِنما يتذكَّر ، فيؤمن ويراقب اللَّه مَنْ له لُبٌّ ، ثم أخذ في وصفهم ، فقال : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله . . . ﴾ الآية : قال الثعلبيُّ : قال عبد اللَّهِ بنُ المبارَكِ : هذه ثمانِ خِلاَلٍ مسيِّرةٌ إِلى

ثمانيةِ أبوابِ الجنةِ ، وقال أبو بَكْرٍ الورّاقُ : هذه ثمانِ جُسُورٍ ، فمن أراد القربةَ مِنَ اللَّه عَبرَهَا . انتهى . وباقي الآيةِ ألفاظها واضحَة ، وأنوارها لِذَوِي البصائرِ لائحَةٌ .

﴿ وَيَدْرَءُونَ ﴾ : يدفعون .

قال الغزَالِيُّ : لما ذكَرَ هذه الآيَةَ : والذي آثرَ غُرُورَ الدنيا على نعيمِ الآخرة ، فَلَيْسَ من ذوي الأَلْبَابِ ، ولذلك لا تَنْكَشِفُ له أَسْرارُ الكتاب ، انتهى .

و﴿ جنات ﴾ : بدل من ﴿ عُقْبَى ﴾ وتفسيرٌ لها ، و ﴿ عَدْنٍ ﴾ : هي مدينةُ الجَنَّة ووَسَطُها ، ومعناها : جنّاتِ الإِقامة ؛ مِنْ عَدَنَ في المَكَانِ ، إذا أقام فيه طويلاً ، ومنه المَعَادِنُ ، و ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ : يقال : هي مَسْكَنُ الأنبياءِ والشُّهَداء والعُلَماء فَقَطْ ؛ قاله عبد اللَّه بن عمرو بن العاصي ، ويروى أنَّ لها خَمْسَةَ آلافِ باب ، وقوله : ﴿ وَمَن صَلَحَ ﴾ : أي : عمل صالحاً ، ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سلام عَلَيْكُم ﴾ : أي : يقولون : سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ، والمعنى : هذا بما صَبَرْتُم ، وباقي الآيةِ واضحٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

من القرآن الذي مُثّل بالماء المنزل من السماء والإبريز الخالص في المنفعة والجدوى ﴿ الحق ﴾ الذي لا حق وراءه أو الحقُّ الذي أشير إليه بالأمثال المضروبة فيستجيب له ﴿ كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ عمى القلب لا يشاهده وهو نارٌ على علَمٍ ولا يقدر قدرَه وهو في أقصى مراتب العلوّ والعِظَم فيبقى حائراً في ظلمات الجهلِ وغياهبِ الضلال أو لا يتذكر بما ضرب من الأمثال أي كمن لا يعلم ذلك إلا أنه أريد زيادةُ تقبيحِ حالِه فعبر عنه بالأعمى ، وإيرادُ الفاء بعد الهمزةِ لتوجيه الإنكار إلى ترتيب توهمِ المماثلةِ على ظهور حال كلَ منهما بما ضُرب من الأمثال وبين المصيرِ والمآل ، كأنه قيل : أبعد ما بُين حال كُل من الفريقين ومآلُهما يُتوهّم المماثلةُ بينهما ثم استؤنف فقيل : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ بما ذكر من المذكّرات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتنائي ﴿ أُوْلُو الألباب ﴾ أي العقولِ الخالصةِ المبرّأة من مشايعة الإلْفِ ومعارضةِ الوهم .

﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ بما عقَدوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا : بلى ، أو ما عهِد الله عليهم في كتبه ﴿ وَلاَ يِنقُضُونَ الميثاق ﴾ ما وثّقوه على أنفسهم وقبِلوه من الإيمان بالله وغيرِه من المواثيق بينهم وبين الله وبين العبادِ وهو تعميمٌ بعد تخصيصٍ

، وفيه تأكيدٌ للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل .

﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾

(52/411)

من الرحِم وموالاةِ المؤمنين والإيمانِ بجميع الأنبياء المجمعين على الحق من غير تفريقٍ بين أحد منهم ، ويندرج فيه مراعاةُ جميعِ حقوقِ الناس في حقوق كل ما يتعلق بهم من الهرّ والدَّجاج ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ خشيةَ جلالٍ وهَيْبةٍ فلا يعصونه فيما أمر به ﴿ وَيَخَافُونَ سوء الحِسَابِ ﴾ فيحاسبون أنفسَهم قبل أن يحاسَبوا ، وفيه دلالةٌ على كمال فظاعتِه حسبما ذكر فيما قبل .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ على كل ما تكرهه النفسُ من الأفعال والتروك ﴿ ابتغاء وَجْهِ رَبّهِمْ ﴾ طلباً لرضاه خاصة من غير أن ينظروا إلى جانب الخلقِ رياءً وسُمعةً ولا إلى جانب النفس زينةً وعُجْباً ، وحيث كان الصبرُ على الوجه المذكور مَلاكَ الأمر في كل ما ذكر من الصلاة السابقة واللاحقةِ أُورد على صيغة الماضي اعتناءً بشأنه ودِلالةً على وجوب تحققِه فإن ذلك مما لا بد منه إما في أنفس الصلات كما فيما عدا الأولى والرابعةِ والخامسةِ أو في إظهار أحكامِها كما في الصلات الثلاثِ المذكورات فإنها وإن استغنت عن الصبر في

أنفسها حيث لا مشقةَ على النفس في الاعتراف بالربوبية والخشيةِ والخوف لكن إظهارَ أحكامِها والجريَ على موجبها غيرُ خالٍ عن الاحتياج إليه ﴿ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ ﴾ المفروضة ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أي بعضَه الذي يجب عليهم إنفاقُه ﴿ سِرّا ﴾ لمن لم يُعرفْ بالمال أو لمن لا يتهم بترك الزكاةِ أو عند إنفاقِه وإعطائه مَنْ تمنعه المروءةُ من أخذه ظاهراً ﴿ وَعَلاَنِيَةً ﴾ لمن لم يكن كما ذكر أو الأول في التطوع والثاني في الفرض .

(53/411)

﴿ وَيَدْرَؤُنَ بالحسنة السيئة ﴾ أي يُجازون الإساءةَ بالإحسان أو يُتْبِعون الحسنةَ السيئةَ فتمحوها . عن ابن عباس رضي الله عنهما : يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيىء غيرِهم . وعن الحسن : إذا حُرموا أعطَوا وإذا ظُلموا عفَوا وإذا قُطعوا وصلوا . وعن ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا . وقيل : إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره . وتقديمُ المجرور على المنصوب لإظهار كمالِ العنايةِ بالحسنة ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلةِ والملكات الجميلةِ وهو مبتدأٌ خبرُه الجملةُ الظرفيةُ أعني قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عقبى الدار ﴾ أي عاقبةُ الدنيا وما ينبغي أن يكون مآلَ أُمرِ أهلها وهي الجنة ، وقيل : الجارُ والمجرور خبرٌ لأولئك و (عقبى الدار) فاعلُ الاستقرار وأياً ما كان فليس فيه قصرٌ حتى يرِد أن

بعضَ ما في حيز الصلةِ ليس من العزائم التي يُخلّ إخلالُها بالموصول إلى حسن العاقبة ، والجملةُ خبرٌ للموصولات المتعاطفةِ ، صفاتٌ لأولي الألباب عن طريقة المدحِ من غير أن يُقصد أن يكون للصلات المذكورة مدخلٌ في التذكر .

(54/411)

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدلٌ من عُقبى الدار أو مبتدأٌ خبرُه ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ والعدْنُ الإقامةُ ثم صار علماً لجنة من الجنات أي جناتٌ يقيمون فيها ، وقيل : هو بُطنانُ الجنة ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءابَائِهِمْ ﴾ جمعُ أبوَيْ كل واحد منهم فكأنه قيل : من آبائهم وأمهاتهم ﴿ وأزواجهم وذرياتهم ﴾ وهو عطفٌ على المرفوع في يدخلون ، وإنما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخر ، أو مفعولٌ معه ، والمعنى إنه يُلحق بهم مَنْ صلح من أهلهم وإن لم يبلُغْ مبلغَ فضلِهم تبعاً لهم تعظيماً لشأنهم ، وهو دليلٌ على أنه الدرجة تَعلو بالشفاعة وأن الموصوفَ بتلك الصفات يُقرن بعضُهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنةِ زيادةً في أُنسهم ، وفي التقييد بالصلاح قطعٌ للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مّن كُلّ بَابٍ ﴾ من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوحِ والتحف قائلين : ﴿ سلام عَلَيْكُم ﴾ بشارةٌ لهم بدوام السلامة ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ متعلق بعليكم

أو بمحذوف أي هذه الكرامةُ العظمى بما صبرتم أي بسبب صبركم أو بدلُ ما احتملتم من مشاقّ الصبرِ ومتاعبِه ، والمعنى لئن تعِبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعةَ ، وتخصيصُ الصبر بما ذكر من بين الصلاتِ السابقةِ لما قدّمناه من أن له دخلاً في كل منها ومزيةً زائدةً من حيث إنه ملاكُ الأمر في كل منها وأن شيئاً منها لا يعتد به إلا بأن يكون لابتغاء وجهِ الربّ تعالى وتقدس ﴿ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ أي فنعم عقبي الدارِ الجنةُ ، وقرىء بفتح النون والأصل نَعَم فسُكّن العين بنقل حركتها إلى النون تارة وبدونه أخرى .

وعن النبي عليه السلام أنه كان يأتي قبورَ الشهداء على رأس كلّ حولٍ فيقول : " سلامٌ عليكم بما صبرتُم فنعِمَ عُقبى الدَّارِ " وكذا عن الخلفاء الأربعةِ رضوانُ الله عليهم أجمعين .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(55/411)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا إِلَيْكَ مِن رّبّكَ ﴾

من القرآن الذي مثل بالماء المنزل من السماء والإبريز الخالص في المنفعة والجدوى هو ﴿ الحق ﴾ الذي لا حق وراءه أو الحق الذي أشير إليه بالأمثال المضروبة فيستجيب له ﴿

كَمَنْ هُوَ أَعمى ﴾ عمى القلب لا يدركه ولا يقدر قدره وهو هو فيبقى حائراً في ظلمات الجهل وغياهب الضلال ولا يتذكر بما ضرب من الأمثال ، والمراد كمن لا يعلم ذلك إلا أنه أريد زيادة تقبيح حاله فعبر عنه بالأعمى ، والهمزة للإنكار وإيراد الفاء بعدها لتوجيه الإنكار إلى ترتب توهم المماثلة على ظهور حال كل منهما بما ضرب من الأمثال وما بين من المصير والمآل كأنه قيل : أبعد ما بين حال كل من الفريقين وما لهما يتوهم المماثلة بينهما .

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما ﴿ أَوْ مِن يَعْلَمْ ﴾ بالواو مكاناً الفاء ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ بما ذكر من المذكرات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتنائي ﴿ أُوْلُوا الأَلباب ﴾ أي العقول الخالصة المبرأة من متابعة الألف ومعارضة الوهم ، فاللب أخص من العقل وهو الذي ذهب إليه الراغب ، وقيل : هما مترادفات والقصد بما ذكر دفع ما يتوهم من أن الكفار عقلاء مع أنهم غير متذكرين ولو نزلوا منزلة المجانين حسن ذلك .

والآية على ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في حمزة رضي الله تعالى عنه .

وأبي جهل وقيل : في عمر رضي الله تعالى عنه .

وأبي جهل ، وقيل : في عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه .

وأبي جهل ، وقد أشرنا إلى وجه اتصالها بما قبلها ، والعلامة الطيبي بعد أن قرر وجه الاتصال بأن ﴿ فَمَن يَعْلَمْ ﴾ عطف على جملة ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا ﴾ [الرعد : 8] الخ والهمزة مقحمة بين المعطوف والمعطوف عليه ، وذكر من معنى الآية على ذلك ما ذكر قال : ثم إنك إذا أمعنت النظر وجدتها متصلة بفاتحة السورة يعني بقوله تعالى : ﴿ والذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد : 1] وهو كما ترى .

﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾

بما عقدوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا : بلى ، أو بما عهد الله تعالى عليهم في كتبه من الأحكام فالمراد به ما يشمل جميع الأمم ، وإضافة العهد إلى الاسم الجليل من باب إضافة المصدر إلى مفعوله على الوجه الأول ومن باب إضافة المصدر إلى الفاعل على الثاني ، وإذا أريد بالعهد ما عقده الله تعالى عليهم يوم قال سبحانه : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبّكُمْ ﴾ [الأعراف : 172] كانت الإضافة مطلقاً من باب إضافة المصدر إلى الفاعل وهو الظاهر كما في "البحر" ، وحكى حمل العهد على عهد ﴿ أَلَسْتَ ﴾ عن قتادة ، وحمله على ما عهد في الكتب عن بعضهم ، ونقل عن السدي حمله على ما عهد إليهم في القرآن ، وعن القفال حمله على ما في جبلتهم وعقولهم من دلائل التوحيد والنبوات إلى غير ذلك واستظهر حمله على العموم ﴿ وَلاَ يِنقُضُونَ الميثاق ﴾ ما وثقوا من المواثيق بين الله تعالى

وبينهم من الإيمان به تعالى والأحكام والنذور وما بينهم وبين العباد كالعقود وما ضاهاها ، وهو تعميم بعد تخصيص وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل .

(57/411)

وقال أبو حيان : الظاهر أن هذه الجملة تأكيد للتي قبلها لأن العهد هو الميثاق ويلزم من إيفاء العهد انتفاء نقضه ، وقال ابن عطية : المراد بالجملة الأولى يوفون بجميع عهود الله تعالى وهي أوامره ونواهيه التي وصى الله تعالى بها عبيده ويدهل في ذلك التزام جميع الفروض وتجنب جميع المعاصي ، والمراد بالجملة الثانية أنهم إذا عقدوا في طاعة الله تعالى عهداً لم ينقضوه اه ، وعليه فحديث التعميم بعد التخصيص لا يتأتى كما لا يخفى ، وقد تقدم الله سبحانه إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه بضع وعشرين آية من كتابه كما روى عن قتادة ، ومن أعظم المواثيق على ما قال ابن العربي أن لا يسأل العبد سوى مولاه جل شأنه . وفي قصة أبي حمزة الخراساني ما يشهد لعظم شأنه فقد عاهد ربه أن لا يسأل أحداً سواه فاتفق أن وقع في بئر فلم يسأل أحداً من الناس المارين عليه إخراجه منها حتى جاء من أخرجه بغير سؤال ولم ير من أخرجه فهتف به هاتف كيف رأيت ثمرة التوكيل ؟ فينبغي الاقتداء به في الوفاء بالعهد على ما قال أيضاً .

وقد أنكر ابن الجوزي فعل هذا الرجل وبين خطأه وأن التوكل لا ينافي الاستغاثة في تلك الحال ، وذكر أن سفيان الثوري وغيره قالوا : لو أن إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار ، ولا ينكر أن يكون الله تعالى قد لطف بأبي حمزة الجاهل .

نعم لا ينبغي الاستغاثة بغير الله تعالى على النحو الذي يفعله الناس اليوم مع أهل القبور الذين يتخيلون فيهم ما يتخيلون فآها ثم آها مما يفعلون .

﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾

(58/411)

الظاهر العموم في كل ما أمر الله تعالى به في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقال الحسن : المراد صلة الرسول صلى الله عليه وسلم بالإيمان به ، وروى نحوه عن ابن جبير ، وق لقتادة : المراد صلة الأرحام ، وقيل : الإيمان بالعمل ، وقيل : صلة قرابة الإسلام بإفشاء السلام وعيادة المرضى وشهود الجنائز ومراعاة حق الجيران والرفقاء والخدم ، ومن ذهب إلى العموم أدخل في ذلك الأنبياء عليهم السلام ووصلهم أن يؤمن بهم جميعاً ولا يفرق بين أحد منهم والناس على اختلاف طبقاتهم ووصلهم بمراعاة حقوقهم بل سائر الحيوانات ووصلها بمراعاة ما يطلب في حقها وجوباً أو ندباً ، وعن الفضيل بن عياض أن

جماعة دخلوا عليه بمكة فقال : من أين أنتم ؟ قالوا : من أهل خراسان قالوا : اتقوا الله تعالى وكونوا من حيث شئتم واعلموا أن العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن محسناً ، ومفعول ﴿ أَمَرَ ﴾ محذوف والتقدير ما أمرهم الله به ، و﴿ أَن يُوصَلَ ﴾ بدل من الضمير المجرور أي ما أمر الله بوصله ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي وعيده سبحانه والظاهر أن المراد به مطلقاً ، وقيل : المراد وعيده تعالى على قطع ما أمروا بوصله ﴿ وَيَخَافُونَ سُوء الحساب ﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام ، والخشية والخوف قيل بمعنى ، وفي فروق العسكري أن الخوف يتعلق بالمكروه ومنزله تقول خفت زيداً وخفت المرض والخشية تتعلق بالمنزل دون المكروه نفسه ، ولذا قال سبحانه : ﴿ يَخْشَوْنَ ﴾ أولاً ﴿ وَيَخَافُونَ ﴾ ثانياً ، وعليه فلا يكون اعتبار الوعيد في محله ، لكن هذا غير مسلم لقوله تعالى : ﴿ خَشْيَةَ إملاق ﴾ [الإسراء : 31] و﴿ لِمَنْ خَشِيَ العنت مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 25] وفرق الراغب بينهما فقال : الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله

مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] .

وقال بعضهم : الخشية أشد الخوف لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية أي يابسة ولذا خصت بالرب في هذه الآية ، وفرق بينهما أيضاً بأن الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قوياً والخوف من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمراً يسيراً ، يدل على ذلك أن تقاليب الخاء والشين والياء تدل على الغفلة وفيه تدبر ، والحق أن مثل هذه الفروق أغلبي لا كلي وضعي ولذا لم يفرق كثير بينهما ، نعم اختار الإمام أن المراد من ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ أنهم يخافونه بخوف مهابة وجلالة زاعماً أنه لولا ذلك يلزم التكرار وفيه ما فيه .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾

على كل ما تكرهه النفس من المصائب المالية والبدنية وما يخالفه هوى النفس كالانتقام ونحوه ويدخل فيما ذكر التكاليف ﴿ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ طلباً لرضاه تعالى من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء أو سمعة ولا إلى جانب أنفسهم زينة وعجباً ، وقيل : المراد طالبين ذلك فنصب ﴿ ابتغاء ﴾ على الحالية وعلى الأول هو منصوب على أنه مفعول له ، والكلام في مثل الوجه منسوباً إليه تعالى شهير .

وفي "البحر" أن الظاهر منه ههنا جهة الله تعالى أي الجهة التي تقصد عنده سبحانه بالحسنات ليقع عليها المثوبة كما يقال : خرج زيد لوجه كذا ، وفيه أيضاً أنه جات الصلة هنا بلفظ الماضي وفيما تقدم بلفظ المضارع على سبيل التفنن في الفصاحة لأن المبتدأ في

معنى اسم الشرط والماضي كالمضارع في اسم الشرط فكذلك فيما أشبهه ، ولذا قال النحويون : إذا وقع الماضي صلة أو صفة لنكرة عامة احتمل أن يراد به المضي وإن يراد به الاستقبال ، فمن الأول ﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس ﴾ [آل عمران : 173] ومن الثاني ﴿ إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : 34] ويظهر أيضاً أن اختصاص هذه الصلة بالماضي وما تقدم بالمضارع أن ما تقدم قصد به الاستصحاب .

(60/411)

والالتباس وأما هذه فقد قصد بها تقدمها على ذلك لأن حصول تلك الصلات إنما هي مترتبة على حصول الصبر وتقدمه عليها ولذا لم يأت صلة في القرآن إلا بصيغة الماضي إذ هو شرط في حصول التكاليف وإيقاعها .

(61/411)

وإرشاد العقل السليم حيث كان الصبر ملاك الأمر في كل ما ذكر من الصلات السابقة واللاحقة أورد بصيغة الماضي اعتناء بشأنه ودلالة على وجوب تحققه فإن ذلك مما لا بد

منه إما في نفس الصلات كما فيما عدا الأولى والرابعة والخامصة أو في إظهار أحكامها كما في الصلات الثلاث المذكورات فإنها وإن استغنت عن الصبر في أنفسها حيث لا مشقة على النفس في الاعتراف بالربوبية والخشية والخوف لكن إظهار أحكامها والجري على موجبها غير خال عن الاحتياج إليه وهو لا يخلو عن شيء ، والأولى على ما قيل الاقتصار في التعليل على الاعتناء بشأنه ، وعطف قوله سحانه : ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ وكذا ما بعده على ذلك على ما نص عليه غير واحد من باب عطف الخاص العام ، والمراد بالصلاة قيل الصلاة المفروضة وقيل مطلقاً وهو أولى ، ومعنى إقامتها إتمام إركانها وهيآتها ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ بعض ما أعطيناهم وهو الذي وجب عليهم إنفاقه كالزكاة وما ينفق على العيال والمماليك أو ما يشمل ذلك والذي نذب ﴿ سِرّا ﴾ حيث يحسن السر كما في إنفاق من لا يعرف بالمال إذا خشي التهمة في الإظهار أو من عرف به لكن لو أظهره ربما داخله الرياء والخيلاء ، وكما في الإعطاء لمن تمنعه المروءة من الأخذ ظاهراً ﴿ وَعَلاَنِيَةً ﴾ حيث تحسن العلانية كما إذا كان الأمر على خلاف ما ذكر ، وقال بعضهم : إن الأول مخصوص بالتطوع والثاني بأداء الواجب ، وعن الحسن أن كلا الأمرين في الزكاة المفروضة فإن لم يتهم بترك أداء الزكاة فالأولى أداؤها سراً وإلا فالأولى أداؤها علانية ، وقيل : السر ما يؤديه بنفسه والعلانية ما يؤديه إلى الإمام والأولى الحمل على العموم ، ولعل تقديم السر للإشارة إلى فضل صدقته ، وجاء في الصحيح عد المتصدق سراً من الذين

يظلهم الله تعالى في ظله يوم القيامة ﴿ وَيَدْرَءونَ بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون الشر بالخير ويجازون الإساءة بالإحسان على ما أخرجه ابن جرير عن

(62/411)

ابن زيد ، وعن ابن جبير يردون معروفاً على من يسيء إليهم فهو كقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] وقال الحسن : إذا حرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عفواً ، وإذا قطعوا وصلوا .

وقيل : يتبعون السيئة بالحسنة فتمحوها .

وفي الحديث أن معاذاً قال : أوصني يا رسول الله قال : " إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية " وعن ابن كيسان يدفعون بالتوبة معرفة الذنب .

وقيل : بلا إله إلا الله شركهم ، وقيل : بالصدقة العذاب .

وقيل : إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره ، وقيل وقيل ، ويفهم صنيع بعض المحققين اختيار الأول فهم كما قيل :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة . . .

ومن إساءة أهل السوء إحساناً

وهذا بخلاف خلق بعض الجهلة :

جريء متى يظلم يعاقب بظلمه . . .

سريعاً وإن لا يبد بالظلم يظلم

وقال في "الكشف" : الأظهر التعميم أي يدرؤون بالجميل السيء سواء كان لأذاهم أو لا مخصوصاً بهم أو لا طاعة أو معصية مكرمة أو منقصة ولعل الأمر كما قال ، وتقديم المجرور على المنصوب لإظهار كمال العناية بالحسنة ﴿ أولئك ﴾ أي المنعوتون بالنعوت الجليلة والملكات الجميلة ، وليس المراد بهم أناساً بأعيانهم وإن كانت الآية نازلة على ما قيل في الأنصار ، واسم الإشارة مبتدأ خبره الجملة الظرفية أعني قول سبحانه : ﴿ لَهُمْ عقبى الدار ﴾ أي عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أمر أهلها وهي الجنة ، فتعريف الدار للعهد والعاقبة المطلقة تفسر بذلك وفسرت به في قوله تعالى : ﴿ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : 128] وفسرها الزمخشري أيضاً بالجنة إلا أنه قال : لأنها التي أردا الله تعالى أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها ، وفيه على ما قيل شائبة اعتزال .

وجوز أن يراد بالدار الآخرة أي لهم العقبى الحسنة في الدار الآخرة ، وقيل : الجار والمجرور خبر اسم الإشارة و﴿ عقبى ﴾ فاعل الاستقرار ، وأياماً كان فليس فيه قصر حتى يرد أن بعض ما في حيز الصلة ليس من العزائم التي يخل إخلالها بالوصول إلى حسن العاقبة .

وقال بعضهم : إن المراد مآل أولئك الجنة من غير تخلل بدخول النار فلا بأس لو قيل بالقصر ، ولا يلزم عدم دخول الفاسق المعذب الجنة ، والقول إنه موصوف بتلك الصفات في الجملة كما ترى .

والجملة خبر للموصولات المتعاطفة إن رفعت بالابتداء أو استئناف نحوي أو بياني في جواب ما بال الموصوفين بهذه الصفات ؟ إنجعلت الموصولات المتعاطفة صفات لأولي الألباب على طريقة المدح من غير أن يقصد أن يكون للصلات المذكورة مدخل في التذكر ، والأول أوجه لما في الكشف من رعاية التقابل بين الطائفتين ، وحسن العطف في قوله تعالى : ﴿ والذين يَنقُضُونَ ﴾ [الرعد : 25] وجريهما على استئناف الوصف للعالم ومن هو كأعمى .

وقوله سبحانه : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدل من ﴿ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 22] كما قال الزجاج بدل كل من كل ، وجوز أبو البقا .

ء وغيره أن يكون مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ وتعقب بأنه بعيد عن المقام ، والأولى أن يكون مبتدأ محذوف كما ذكر في "البحر" ورد بأنه لا وجه له لأن الجملة بيان

لعقبى الدار فهو مناسب للمقام ، والعدن الإقامة والاستقرار يقال : عدن بمكان كذا إذا استقر ، ومنه المعدن لمستقر الجواهر أي جنات يقيمون فيها ، وأخرج غير واحد عن ابن مسعود أنه قال : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بطنان الجنة أي وسطها ، وروى نحو ذلك عن الضحاك إلا أنه قال : هي مدينة وسط الجنة فيها الأنبياء والشهداء وأئمة الهدى ، وجاء فيها غير ذلك من الأخبار ، ومتى أريد منها مكان مخصوص من الجنة كان البدل بدل بعض من كل .

(64/411)

وقرأ النخعي ﴿ جَنَّةُ ﴾ بالأفراد ، وروى عن ابن كثير وأبي عمرو ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءابَائِهِمْ ﴾ جمع أبوي كل واحد منهم فكأنه قيل : من آبائهم وأمهاتهم ﴿ وأزواجهم وذرياتهم ﴾ وهو كما قال أبو البقاء عطف على المرفوع في يدخلون وإنما ساغ ذلك مع عدم التأكيد للفصل بالضمير الآخر ، وجوز أن يكون مفعولاً معه .

واعترض بأن واو المعية لا تدخل إلا على المتبوع .

ورد بأن هذا إنما ذكر في مع لا في الواو وفيه نظر ، والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهليهم

وأن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعاً لهم تعظيماً لشأنهم .

أخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن جرير قال : يدخل الرجل الجنة فيقول : أين أمي أين ولدي أين زوجتي ؟ فيقال : لم يعملوا مثل عملك فيقول : كنت أعمل لي ولهم ثم قرأ الآية ، وفسر ﴿ مِنْ صالح ﴾ بمن آمن وهو المروي عن مجاهد وروى ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وفسر ذلك الزجاج بمن آمن وعمل صالحاً ، وذكر أنه تعالى بين بذلك أن الأنساب لا تنفع إذا لم يكن معها أعمال صالحة بل الآباء والأزواج والذرية لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال الصالحة .

ورد عليه الواحدي فقال : الصحيح ما روى عن ابن عباس لأن الله تعالى جعل ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه في الجنة ، وذلك يدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع الآتي بالأعمال الصالحة فلو دخلوها بأعمالهم لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به إذ كل من كان مصلحاً في عمله فهو يدخل الجنة .

وضعف ذلك الإمام بأن المقصود بشارة المطيع بكل ما يزويه سروراً وبهجة فإذا بشر الله تعالى المكلف بأنه إذا دخل الجنة يحضر معه أهله يعظم سروره وتقوى بهجته .

ويقال : إن من أعظم سرورهم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم في الدنيا ثم يشكرون الله تعالى على الخلاص منها ، ولذلك حكى سبحانه عن بعض أهل الجنة أنه يقول : ﴿ قَالَ ياليت قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ المكرمين ﴾ [يس : 26 ، 27] وعلى هذا لا تكون الآية دليلاً على أن الدرجة تعلو بالشفاعة .

ومنهم من استدل بها على ذلك على المعنى الأول لها .

وتعقب بأنها أيضاً لا دلالة لها على ما ذكر .

وأجيب بأنه إذا جاز أن تعلو بمجرد التبعية للكاملين في الإيمان تعظيماً لشأنهم فالعلو بشفاعتهم معلوم بالطريق الأولى .

وقال بعضهم : إنهم لما كانوا بصلاحهم مستحقين لدخول الجنة كان جعلهم في درجتهم مقتضى طلبهم وشفاعتهم لهم بمقتضى الإضافة .

والحق أن الآية لا تصلح دليلاً على ذلك خصوصاً إذا كانت الواو بمعنى مع فتأمل ، والظاهر أنه لا تمييز بين زوجة وزوجة وبذلك صرح الإمام ثم قال : ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه .

وما روى عن سودة أنها لما هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت : دعني يا رسول الله أحشر في جملة نسائك كالدليل على ما ذكر .

واختلف في المرأة ذات الأزواج إذا كانوا قد ماتوا عنها فقيل : هي في الجنة لآخر أزواجها .

ويؤيده كون أمهات المؤمنين زوجاته صلى الله عليه وسلم فيها مع كون أكثرهن كن قد تزوجن قبل بغيره عليه الصلاة والسلام .

وقيل : هي لأول أزواجها كامرأة أخبرها ثقة أن زوجها قد مات ووقع في قلبها صدقه فتزوجت بعد انقضاء عدتها ثم ظهرت حياته فإنها تكون له .

وتعقب بأن هذا ليس من هذا القبيل بل هو يشبه ما لو مات رجل وأخبر معصوم كالنبي بموته فتزوجت امرأته بعد انقضاء العدة ثم أحياه الله تعالى وقد قالوا في ذلك : إن زوجته لزوجها الثاني .

وقيل : إن الزوجة تخير يوم القيامة بين أزواجها فمن كان منهم أحسنهم خلقاً معها كانت له وارتضاه جمع .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ صالح ﴾ بضم اللام والفتح أفصح ؛ وعيسى الثقفي ﴿ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ بالتوحيد ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مّن كُلّ بَابٍ ﴾ من أبواب المنازل .

أخرج ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك أنه قرأ الآية حتى ختمها ثم قال : إن المؤمن لفي خيمة من درة مجوفة ليس فيها جذع ولا وصل طولها في الهواء ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل

ومال لها أربعة آلاف مصراع من ذهب يقوم على كل باب منها سبعون ألفاً من الملائكة مع كل ملك هدية من الرحمن ليس مع صاحبه مثلها لا يصلون إليه إلا بإذن بينه وبينهم حجاب"

وروى عن ابن عباس ما هو أعظم من ذلك.

وقال أبو الأصم: أريد من كل باب من أبواب البرك باب الصلاصة وباب الزكاة وباب الصبر، وقيل: من أبواب الفتوح والتحف، قيل: فعلى هذا المراد بالباب النوع و﴿ مِنْ ﴾ للتعليل، والمعنى يدخلون لاتحافهم بأنواع التحف، وتعقب بأن في كون الباب بمعنى النوع كالبابة نظراً فإن ظاهر كلام اوساس وغيره يقتضي أن يكون مجازاً أو كناية عما ذكر لأن الدار التي لها أبواب إذا أتاها الجم الغفير يدخلونها من كل باب فأريد به دخول الأرزاق الكثيرة عليهم وأنها تأتيهم من كل جهة وتعدد الجهات يشعر بتعدد المائتيات فإن لكل جهة تحفة.

(67/411)

﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ أي قائلين ذلك وهو بشارة بدوام السلامة، فالجملة مقول لقول محذوف واقع حالاً من فاعل ﴿ يَدْخُلُونَ ﴾ [الرعد: 23] وجوز كونها حالاً من غير تقدير أي مسلمين، وهي في الأصل فعلية أي يسلمون سلاماً، وقوله تعالى: ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ

﴿ متعلق كما قال أبو البقاء بما تعلق به ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ أو به نفسه لأنه نائب عن متعلقه ، ومنع هذا كما قال السيوطي السفاقسي وقال : لا وجه له ، والصحيح أنه متعلق بما تعلق به ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ وجوز الزمخشري تعلقه بسلام على معنى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم ؛ ومنعه أبو البقاء بأن فيه الفصل بين المصدر ومعموله بالأجنبي وهو الخبر ، ووجه ذلك في الدر المصون بأن المنع إنما هو في المصدر المؤول بحرف مصدري وهذا ليس منه مع أن الرضي جوز ذلك مع التأويل أيضاً وقال : لا أراه مانعاً لأن كل مؤول بشيء لا يثبت له جميع أحكامه ، وجوز لهذه العلة العلامة الثاني تقديم معمول المصدر المؤول بأن والفعل عليه في نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ ﴾ [النور : 2] وقال في "الكشف" : إن ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ نظراً إلى الأصل غير أجنبي فلذلك جاز أن يفصل به ، على أن الزمخشري لم يصرح بأنه معموله بل من مقتضاه ولذا قال : أي نسلم الخ فدل على أن التعلق معنوي يقدر ما يناسبه ، ولو جعل معمولاً للظرف المستقر أعني ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ فيكون متعلقاً معنى بسلام ضرورة لكان وجهاً خالياً عن التكليف ، وجعله أبو حيان خبر مبتدأ محذوف و ﴿ مَا ﴾ مصدرية والباء سببية أو بدلية أي هذا الثواب الجزيل بسبب صبركم في الدنيا على المشاق أو بدله .

وعن أبي عمران بما صبرتم على دينكم ، وعن الحسن عن فضول الدنيا ، وعن محمد بن النصر على الفقر ، والتعميم أولى ، وتخصيص الصبر بالذكر من بين الصلات السابقة لما أنه ملاك الأمر والأمر المعنى به كما علمت ﴿ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ أي فنعم عاقبة الدنيا الجنة ، وقيل : المراد بالدار الآخرة ، وقال بعضهم : المراد أنهم عقبوا الجنة من جهنم ، قال ابن عطية : وهذا مبني على ما ورد من أن كل رجل من أهل الجنة قد كان له مقعد من النار فصرفه الله تعالى عنه إلى النعيم فيعرض عليه ويقال له : هذا مقعدك من النار قد أبدلك الله تعالى بالجنة بإيمانك وصبرك .

وقرأ ابن يعمر ﴿ فَنِعْمَ ﴾ بفتح النون وكسر العين وذلك هو الأصل ، وابن وثاب ﴿ فَنِعْمَ ﴾ بفتح النون وسكون العين وتخفيف فعل لغة تميم ، وجاء فيها كما في "الصحاح" ﴿ نِعْمَ ﴾ بكسر النون واتباع العين لها ؛ وأشهر استعمالاتها ما عليه الجمهور .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن إبراهيم قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي قبول الشهداء على رأس كل حول فيقول : ﴿ سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ وكذا كان يفعل أبو بكر .

وعمر .

وعثمان رضي الله تعالى عنهم ، وتمسك بعضهم بالآية على أن الملك أفضل من البشر فقالوا

: إنه سبحانه ختم مراتب سعادات البشر بدخول الملائكة عليهم على سبيل التحية

والإكرام والتعظيم والسلام فكانوا أجل مرتبة من البشر لما كان دخولهم عليهم لأجل السلام

والتحية موجباً علو درجاتهم وشرف مراتبهم ، ولا شك أن من عاد من سفره إلى بيته فإذا

قيل في معرض كمال مرتبته أنه يزوره الأمير .

والوزير .

والقاضي .

والمفتي دل على أن درجة المزور أقل وأدنى من درجات الزائرين فكذا ههنا ، وهو من

الركاكة بمكان .

(69/411)

ولم لا يجوز أن يكون ما هنا نظير ما إذا أتى السلطان بشخص من عماله الممتازين عنده قد

أطاعه في أوامره ونواهيه إلى محل كرامته ثم بعد أن أنزله المنزل اللائق به أرسل خدمه إليه

بالهدايا والتحف والبشارة بما يسره فهل إذا قيل : إن فلاناً قد أحله السلطان محل كرامته

ودار حكومته وأنزله المنزل اللائق به وأرسل خدمه إليه بما يسره كان ذلك دليلاً على أن

أولئك الخدم أعلى درجة منه ؟ لا أظنك تقول ذلك .

نعم جاء في بعض الأخبار ما يؤيد بظاهره ما تقدم ، فقد أخرج أحمد .

والبزار .

وابن حبان .

والحاكم وصححه .

وجماعة عن عبد الله بن عمرو قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يدخل الجنة من خلق الله تعالى فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور وتتقي بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم فتقول الملائكة : ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم فيقول الله تعالى : إن هؤلاء عباد لي كانوا يعبدوني ولا يشركون بي شيئاً وتسد بهم الثغور وتتقي بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " ومن أنصف ظهر له أن هذا لا يدل على أن الملائكة مطلقاً أفضل من البشر مطلقاً كما لا يخفى ، وذكر الإمام الرازي في تفسير الآية على الوجه المروى عن الأصم في

تفسير دخول الملائكة من كل باب أن الملائكة طوائف منهم روحانيون ومنهم كروبيون

فالعبد إذا راض نفسه بأنواع الرياضات كالصبر والشكر والمراقبة والمحاسبة ولكل مرتبة

من هذه المراتب جوهر قدسي وروح علوى مختص بتلك الصفة مزيد اختصاص فعند

الموت إذا أشرقت تلك الجواهر القدسية تجلت فيها من كل روح من الأرواح السماوية ما

يناسبها من الصفات المخصوصة فيفيض عليها من ملائكة الصبر كمالات مخصوصة

نفسانية لا تظهر إلا في مقام الصبر ومن ملائكة الشكر كمالات روحانية لا تتجلى إلا في مقام

الشكر وهكذا القول في جميع المراتب اه .

وتعقبه أبو حيان بأنه كلام فلسفي لا تفهمه العرب ولا جاءت به الأنبياء عليهم السلام فهو

مطروح لا يلتفت إليه المسلمون .

وأنت تعلم أن مثل هذا كلام كثير من الصوفية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13

صـ ﴾

(71/411)

وقال القاسمى :

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ ﴾

أي : يصدق : ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ يعني القرآن : ﴿ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ أي : كمن لا يعلم ذلك ، إلا أنه أريد تقبيح حاله فعبر عنه بالأعمى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ أي : العقول المبرأة عن مشايعة الإلف ومتابعة الوهم .

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ ﴾ أي : مما كلفهم به : ﴿ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ أي : ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين العباد ، وهو تعميم بعد تخصيص ، وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل . أفاده أبو السعود .

(72/411)

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ أي : من أرحامهم وقراباتهم وإخوانهم المؤمنين ، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ، ونصرتهم ، والذب عنهم ، والشفقة عليهم ، والنصيحة لهم ، وكف الأذى عنهم : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي : يعملون له أو يخافون وعيده فلا يعصونه فيما أمر : ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي : يدفعون بالكلام الحسن الكلام السيئ إذا خاطبهم به الجاهلون ، كما قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنَ ﴾ [المؤمنون : من الآية 96] الآية

، أو يتبعون السيئة الحسنة لتمحوها : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أي : عاقبة الدنيا وهي الجنة ؛ لأنها مرجع أهلها . فتعريف الدار للعهد .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [23 - 24] .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أي : آمن ووحّد وعمل صالحاً من هؤلاء .

قال أبو السعود : وفي التقييد بالصلاح قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب .

وأصله للزجّاج حيث قال : بيّن تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة ، بل الآباء والأزواج والذاريات لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال الصالحة .

وقرئ - شاذاً - بضم لام (صَلُح) . قال الزمخشري : والفتح أفصح .

﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل جـ 9 صـ 283 . 285 ﴾

(73/411)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) ﴾

تفريع على جملة ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾ الآية [سورة الرعد : 13] .

فالكلام لنفي استواء المؤمن والكافر في صورة الاستفهام تنبيهاً على غفلة الضالّين عن عدم الاستواء ، كقوله : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ [سورة السجدة : 18] .

واستعير لمن لا يعلم أنّ القرآن حق اسمُ الأعمى لأنه انتفى علمه بشيء ظاهر بيّن فأشبه الأعمى ، فالكاف للتشابه مستعمل في التماثل .

والاستواء المراد به التماثل في الفضل بقرينة ذكر العَمَى .

ولهذه الجملة في المعنى اتصال بقوله في أول السورة ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق إلى يؤمنون ﴾ [سورة الرعد : 1] .

وجملة إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ تعليل للإنكار الذي هو بمعنى الانتفاء بأن سبب عدم علمهم بالحق أنهم ليسوا أهلاً للتذكر لأن التذكر من شعار أولي الألباب ، أي العقول .

والقصر بـ ﴿ إنما ﴾ إضافي ، أي لا غيرُ أولي الألباب ، فهو تعريض بالمشركين بأنهم لا عقول لهم إذ انتفت عنهم فائدة عقولهم .

والألباب : العقول .

وتقدم في آخر سورة آل عمران .

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) ﴾

يجوز أن تكون الّذين يوفون الذين يُوفُونَ بعَهْدِ اللهِ ولا ينقضُونَ الميثاق * والذين يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة أُولَئِكَ لَهُمْ عقبى الدار * جنات ﴾ ابتداء كلام فهو استئناف ابتدائي جاء لمناسبة ما أفادت الجملة التي قبلها من إنكار الاستواء بين فريقين .

(74/411)

ولذلك ذكر في هذه الجمل حال فريقين في المحامد والمساوي ليظهر أن نفي التسوية بينهما في الجملة السابقة ذلك النفي المرادَ به تفضيل أحد الفريقين على الآخر هو نفي مُؤيد بالحجة ، وبذلك يصير موقع هذه الجملة مفيداً تعليلاً لنفي التسوية المقصود منه تفضيل المؤمنين على المشركين ، فيكون قوله : ﴿ الذين يوفون ﴾ مسنداً إليه وكذلك ما عطف عليه .

وجُملة ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ مسنداً .

واجتلاب اسم الإشارة ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ للتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما بعد اسم الإشارة من أجْل الأوصاف التي قبل اسم الإشارة ، كقوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في أول سورة البقرة (5) .

ونظير هذه الجملة قوله تعالى : ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرّ مكاناً وأضل سبيلا ﴾ [سورة الفرقان : 34] من قوله : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ [سورة الفرقان : 33] .

وقد ظهر بهذه الجملة كلها وبموقعها تفضيل الذين يعلمون أن ما أنزل حق بما لهم من صفات الكمال الموجبة للفضل في الدنيا وحسن المصير في الآخرة وبما لأضدادهم من ضد ذلك في قوله : ﴿ والذين ينقضون عهد الله ﴾ إلى قوله : ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ [سورة الرعد : 25] .

والوفاء بالعهد : أن يحقّق المرء ما عاهد على أن يعمله .

ومعنى العهد : الوعد الموثّق بإظهار العزم على تحقيقه من يمين أو تأكيد .

ويجوز أن يكون الذين يوفون بعهد الله ﴾ نعتاً لقوله : ﴿ أولوا الألباب ﴾ وتكون جملة ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ نعتاً ثانياً .

والإتيان باسم الإشارة للغرض المذكور آنفاً .

وعهد الله مصدر مضاف لمفعوله ، أي ما عاهدوا الله على فعله ، أو من إضافة المصدر إلى فاعله ، أي ما عهد الله به إليهم .

(75/411)

وعلى كلا الوَجهين فالمراد به الإيمان الذي أخذه الله على الخلق المشار إليه بقوله : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ، وتقدم في سورة الأعراف (172) ، فذلك عهدهم ربهم .

وأيضاً بقوله : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني ﴾ [سورة يس : 60 61] ، وذلك عهد الله لهم بأن يعبدوه ولا يعبدوا غيره ، فحصل العهد باعتبار إضافته إلى مفعوله وإلى فاعله .

وذلك أمر أودعه الله في فطرة البشر فنشأ عليه أصلهم وتقلّده ذريته ، واستمر اعترافهم لله بأنه خالقهم .

وذلك من آثار عهد الله .

وطرأ عليهم بعد ذلك تحريف عهدهم فأخذوا يتناسون وتشتبه الأمور على بعضهم فطرأ عليهم الإشراك لتفريطهم النظر في دلائل التوحيد ، ولأنه بذلك العهد قد أودع الله في فطرة

العقول السليمة دلائل الوحدانية لمن تأمل وأسلم للدليل ، ولكن المشركين أعرضوا وكابروا ذلك العهد القائم في الفطرة ، فلا جرم أن كان الإشراك إبطالاً للعهد ونقضاً له ، ولذلك عطفت جملة ﴿ ولا ينقضون الميثاق ﴾ على جملة ﴿ يوفون بعهد الله ﴾ .

والتعريف في ﴿ الميثاق ﴾ يحمل على تعريف الجنس فيستغرق جميع المواثيق وبذلك يكون أعم من عهد الله فيشمل المواثيق الحاصلة بين الناس من عهود وأيمان .

وباعتبار هذا العموم حصلت مغايرة ما بينه وبين عهد الله .

وتلك هي مسوغة عطف ﴿ ولا ينقضون الميثاق ﴾ على ﴿ يوفون بعهد اللَّه ﴾ مع حصول التأكيد لمعنى الأولى بنفي ضدها ، وتعريضاً بالمشركين لاتصافهم بضد ذلك الكمال ، فعطفُ التأكيد باعتبار المغايرة بالعموم والخصوص .

والميثاق والعهد مترادفان .

والإيفاء ونفي النقض متحداً المعنى .

وابتدىء من الصفات بهذه الخصلة لأنها تنبىء عن الإيمان والإيمان أصل الخيرات وطريقها ، ولذلك عطف على ﴿ يوفون بعهد الله ﴾ قوله : ﴿ ولا ينقضون الميثاق ﴾ تحذيراً من كل ما فيه نقضه .

وهذه الصلات صفات لأولي الألباب فعطفها من باب عطف الصفات للموصوف الواحد ، وليس من عطف الأصناف .

وذلك مِثل العطف في قول الشاعر الذي أنشده الفراء في معاني القرآن :

إلى الملك القرم وابن الهمام

وليث الكتيبة في المزدحم . . .

فالمعنى : الذين يتصفون بمضمون كل صلة من هذه الصلات كلما عرض مقتض لاتّصافهم بها بحيث إذا وجد المقتضي ولم يتصفوا بمقتضاه كانوا غير متصفين بتلك الفضائل ، فمنها ما يستلزم الاتصاف بالضد ، ومنها ما لا يسْتلزم إلا التفريط في الفضل .

وأعيد اسم الموصول هذا وما عطف عليه من الأسماء الموصولة ، للدلالة على أنها صلاتها خصال عظيمة تقتضي الاهتمام بذكر من اتصف بها ، ولدفع توهم أن عقبى الدار لا تتحقق لهم إلا إذا جمعوا كل هذه الصفات .

فالمراد بـ ﴿ الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ ما يصدق على الفريق الذين يوفون بعهد الله .

ومناسبة عطفه أنّ وصْلَ ما أمر الله به أن يوصل أثر من آثار الوفاء بعهد الله وهو عهد الطاعة الداخل في قوله : ﴿ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ في سورة يس (61)

.

والوصل : ضم شيء لشيء .

وضده القطع .

ويطلق مجازاً على القُرب وضده الهجر .

واشتهر مجازاً أيضاً في الإحسان والإكرام ومنه قولهم ، صلة الرحم ، أي الإحسان لأجل الرحم ، أي لأجل القرابة الآتية من الأرحام مباشرة أو بواسط ، وذلك النسب الجائي من الأمهات .

وأطلقت على قرابة النسب من جانب الآباء أيضاً لأنها لا تخلو غالباً من اشتراك في الأمهات ولو بَعِدْنَ .

وما أمر الله به أن يوصل ﴾ عام في جميع الأواصر والعلائق التي أمر الله بالمودة والإحسان لأصحابها .

فمنها آصرة الإيمان ، ومنها آصرة القرابة وهي صلة الرحم .

وقد اتفق المفسرون على أنها مراد الله هنا ، وقد تقدم مثله عند قوله تعالى : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ في سورة البقرة (26 ، 27) .

وإنما أطنب في التعبير عنها بطريقة اسم الموصول ما أمر الله به أن يوصل ﴾ لما في الصلة من التعريض بأن واصلها آتتٍ بما يرضي الله لينتقل من ذلك إلى التعريض بالمشركين الذين قطعوا أواصر القرابة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَن معه من المؤمنين وأساءوا إليهم في كل حال وكتبوا صحيفة القطيعة مع بني هاشم .

وفيها الثناء على المؤمنين بأنهم يصلون الأرحام ولم يقطعوا أرحام قومهم المشركين إلا عندما حاربوهم وناووهم .

وقوله : ﴿ أن يوصل ﴾ بدل من ضمير ﴿ به ﴾ ، أي ما أمر الله بوصله .

وجيء بهذا النظم لزيادة تقرير المقصود وهو الأرحام بعد تقريره بالموصولية .

والخشية : خوف بتعظيم المخوف منه وتقدمت في قوله تعالى : ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ في سورة البقرة (45) .

وتطلق على مطلق الخوف .

والخوف : ظن وقوع المضرة من شيء .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله ﴾ في سورة البقرة (229) .

وسوء الحساب ﴾ ما يحفّ به مما يسوء المحاسَب ، وقد تقدم آنفاً ، أي يخافون وقوعه عليهم فيتركون العمل السيّء .

وجاءت الصلات ﴿ الذين يوفون ﴾ و ﴿ الذين يصلون ﴾ وما عطف عليهما بصيغة المضارع في تلك الأفعال الخمسة لإفادة التجدد كناية عن الاستمرار .

وجاءت صلة ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ وما عطف عليها وهو ﴿ وأقاموا الصلاة وأنفقوا ﴾ بصيغة المضيّ لإفادة تحقق هذه الأفعال الثلاثة لهم وتمكنها من أنفسهم تنويهاً بها لأنها أصول لفضائل الأعمال .

فأما الصبر فلأنه ملاك استقامة الأعمال ومصدرها فإذا تخلق به المؤمن صدرت عنها لحسنات والفضائل بسهولة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [سورة العصر : 32] .

(78/411)

وأما الصلاة فلأنها عماد الدين وفيها ما في الصبر من الخاصية لقوله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [سورة البقرة : 45] .

وأما الإنفاق فأصله الزكاة ، وهي مقارنة للصلاة كلما ذكرت ، ولها الحظ الأوفى من اعتناء الدين بها ، ومنها النفقات والعطايا كلها ، وهي أهم الأعمال ، لأن بذل المال يشق على

النفوس فكان له من الأهمية ما جعله ثانياً للصلاة .

ثم أعيد أسلوب التعبير بالمضارع في المعطوف على الصلة وهو قوله : ويدرءون بالحسنة السيئة ﴾ لاقتضاء المقام إفادة التجدد إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء ما يُحرص عليه لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت ، فوُصف لهم دواء ذلك بأن يدعوا السيّئات بالحسنات .

والقول في عطف ﴿ والذين صبروا ﴾ وفي إعادة اسم الموصول كالقول في ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ .

والصبر : من المحامد .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر ﴾ في سورة البقرة (45) .

والمراد الصبر على مشاق أفعال الخير ونصر الدين .

وابتغاء وجه ربهم ﴾ مفعول لأجله ل ﴿ صبروا ﴾ .

والابتغاء : الطلب .

ومعنى ابتغاء وجه الله ابتغاء رضاه كأنه فعل فعلاً يطلبُ به إقباله عند لقائه ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ في آخر سورة البقرة (272) .

والمعنى أنهم صبروا لأجل أن الصبر مأمور به من الله لا لغرض آخر كالرياء ليقال ما أصبره على الشدائد ولاتّقاء شماتة الأعداء .

والسر والعلانية تقدم وجه ذكرهما في قوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ﴾ أواخر سورة البقرة (274) .

والدرء : الدفع والطرد .

وهو هنا مستعار لإزالة أثر الشيء فيكون بعد حصول المدفُوع وقبلَ حصوله بأن يُعِدّ ما يمنع حصوله ، فيصدق ذلك بأن يُتبع السيّئة إذا صدرت منه بفعل الحسنات فإن ذلك كطرد السيئة .

(79/411)

قال النبي : يا معاذ اتّق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمْحُها .

وخاصة فيما بينه وبين ربه .

ويصدق بأن لا يقابل من فعل معه سيّئة بمثله بل يقابل ذلك بالإحسان ، قال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ [سورة فصلت : 34] بأن يصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه وذلك فيما بين الأفراد وكذلك بين الجماعات إذ لم يفض إلى استمرار الضر .

قال تعالى في ذلك : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ [سورة الأنفال : 3] .

ويصدق بالعدول عن فعل السيئة بعد العزم فإن ذلك العدول حسنة دَرَأَت السيّئة المعزوم عليه.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: من همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة.

فقد جمع يدرءون ﴾ جميعَ هذه المعاني ولهذا لم يعقب بما يقتضي أن المراد معاملة المُسيء بالإحسان كما أُتبع في قوله: ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ﴾ في سورة فصلت (34) .

وكما في قوله ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾ في سورة المؤمنون (96) .

وجملة أولئك لهم عقبى الدار ﴾ خبر عن ﴿ الذين يوفون بعهد الله ﴾ .

ودل اسم الإشارة على أن المشار إليهم جديرون بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة لأجل ما وصف به المشار إليهم من الأوصاف، كما في قوله: ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في أول سورة البقرة (5) .

ولهم عقبى الدار ﴾ جملة خبراً عن اسم الإشارة.

وقدم المجرور على المبتدأ للدلالة على القصر، أي لهم عقبى الدار لا للمتصفين بإضداد صفاتهم، فهو قصر إضافي.

والعقبى: العاقبة، وهي الشيء الذي يعقُب، أي يقع عقب شيء آخر.

وقد اشتهر استعمالها في آخرة الخير، قال تعالى: ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [سورة القصص : 83].

ولذلك وقعت هنا في مقابلة ضدها في قوله: ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ [سورة غافر : 52].

(80/411)

وأما قوله: ﴿ وعقبى الكافرين النار ﴾ [سورة الرعد : 35] فهو مشاكلة كما سيأتي في آخر السورة عند قوله: ﴿ وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار ﴾ [سورة الرعد : 42].

وانظر ما ذكرته في تفسير قوله تعالى: ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ في سورة القصص (37) فقد زدته بياناً.

وإضافتها إلى الدار ﴾ من إضفة الصفة إلى الموصوف.

والمعنى: لهم الدار العاقبة، أي الحسنة.

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)

﴿ جنات عدن ﴾ بدل من ﴿ عقبى الدار ﴾ .

والعَدْن : الاستقرار .

وتقدم في قوله : ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾ في سورة براءة [72] .

وذكر يدخلونها ﴾ لاستحضار الحالة البهيجة .

والجملة حال من ﴿ جنات ﴾ أو من ضمير ﴿ لهم عقبى الدار ﴾ ، والواو في ﴿ ومن صلح من آبائهم ﴾ واو المعية وذلك زيادة الإكرام بأن جعل أصولهم وفروعهم وأزواجهم المتأهلين لدخول الجنة لصلاحهم في الدرجة التي هم فيها ؛ فمن كانت مرتبته دون مراتبهم لَحِق بهم ، ومن كانت مرتبته فوق مراتبهم لحِقُوا هم به ، فلهم الفضل في الحالين .

وهذا كعكسه في قوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [سورة الصافات : 22] الآية لأن مشاهدة عذاب الأقارب عذابٌ مضاعف .

وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح أو خلف صالح أو زوج صالح ممن تحققت فيهم هذه الصلاة أنه إذا صار إلى الجنة لحق بصالح أصوله أو فروعه أو زوجه ، وما ذكر الله هذا إلا لهذه البشرى كما قال الله تعالى : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ [سورة الطور : 21] .

والآباء يشمل الأمهات على طريقة التغليب كما قالوا : الأبوين .

وجملة والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ عطف على ﴿ يدخلونها ﴾ فهي في موقع الحال.

وهذا من كرامتهم والتنويه بهم، فإن تردد رسل الله عليهم مظهر من مظاهر إكرامه.

وذكر ﴿ من كل باب ﴾ كناية عن كثرة غشيان الملائكة إياهم بحيث لا يخلو باب من أبواب بيوتهم لا تدخل منه ملائكة.

ذلك أن هذا الدخول لما كان مجلبة مسرة كان كثيراً في الأمكنة.

ويفهم منه أن ذلك كثير في الأزمنة فهو متكرر لأنهم ما دخلوا من كل باب إلا لأن كل باب مشغول بطائفة منهم، فكأنه قيل من كل باب في كل آنٍ.

وجملة ﴿ سلام عليكم ﴾ مقول قول محذوف لأن هذا لا يكون إلا كلاماً من الداخلين.

وهذا تحية يقصد منها تأنيس أهل الجنة.

والباء في ﴿ بما صبرتم ﴾ للسببية، وهي متعلقة بالكون المستفاد من المجرور وهو ﴿ عليكم ﴾.

والتقدير: نالكم هذا التكريم بالسلام بسبب صبركم.

ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف مستفادٍ من المقام، أي هذا النعيم المشاهد بما صبرتم.

والمراد: الصبر على مشاق التكاليف وعلى ما جاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

وفرع على ذلك ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ تفريع ثناء على حسن عاقبتهم .

والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة مقام الخطاب عليه .

والتقدير : فنعم عقبى الدار دار عُقْباكم .

وتقدم معنى ﴿ عقبى الدار ﴾ آنفاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ

﴾

(82/411)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19)

﴾

والمؤمن هو مَنْ يعلم أن القرآن الحامل للمنهج هو الذي أنزله سبحانه على رسوله ؛ ولا يمكن مقارنته بالكافر وهو الموصوف هنا من الحق سبحانه : ﴿ كَمَنْ هُوَ أعمى . . . ﴾ [الرعد : 19]

وجاء هنا ب " علم " و " عمى " ؛ لأن الآيات الدالة على القدرة من المرئيات .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ . . . إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الألباب ﴾ [الرعد : 19]

أي : أصحاب العقول القادرة على التدبُّر والتفكُّر والتمييز .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك عن أولي الألباب :

﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله . . . ﴾

والواحد من أولي الألباب ساعة آمن بالله ؛ فهو يعلم أنه قد تعاهد مع الله عهداً بألاَّ يعبد غيره ؛ وألاَّ يخضع لغيره ؛ وألاَّ يتقرَّب لغيره ؛ وألاَّ ينظر أو ينتظر من غيره ؛ وهذا هو العهد الأول الإيماني .

ويتفرّع من هذا العهد العقدي الأول كُلُّ عهد يُقطع سواء بالنسبة لله ، أو بالنسبة لِخَلْق الله ؛ لأن الناشئ من عهد الله مثله مثل عهد الله ؛ فإذا كنتَ قد آمنتَ بالله ؛ فأنت تؤمن بالمنهج الذي أنزله على رسوله ؛ وإذا أوفيتَ بالمنهج ؛ تكون قد أوفيت بالعهد الأول .

ولذلك نجد كل التكليفات المهمة البارزة القوية في حياة المؤمنين نجد الحق سبحانه يأتي بها في صيغة البناء ؛ فيما يسمى " البناء للمجهول " ؛ مثل قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام . . . ﴾ [البقرة : 183] .

وقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى . . . ﴾ [البقرة : 178]

وقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ . . . ﴾ [البقرة : 216]

وكُلُّ التكليفات تأتي مَسْبوقة بكلمة "كُتِب" والذي كتب هو الله ؛ وسبحانه لم يُكلِّف إلا من آمن به ؛ فساعةَ إعلان إيمانك بالله ؛ هي ساعة تعاقدك مع الله على أن تُنفِّذ ما يُكلِّفك به .

وأنت حُرٌّ في أنْ تؤمن أو لا تؤمن ؛ لكنك لحظةَ إيمانك بالله تدخل إلى الالتزام بما يُكلِّفك به ، وتكون قد دخلت في كتابة التعاقد الإيماني بينك وبين الله .

ولذلك قال الحق سبحانه "كُتِب" ولم يَقُلْ : "كتبْتُ" ؛ لأن العهد بينك وبين الله يقتضي أن تدخلَ أنت شريكاً فيه ، وهو سبحانه لم يُكلِّف إلا مَنْ آمن به .

وسبحانه هنا يقول : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَلاَ يَنقُضُونَ الميثاق ﴾ [الرعد : 20]

أي : أن العهد الإيماني مُوثّق بما أخذْتَه على نفسك من التزام .

ويواصل سبحانه وَصْفَ هؤلاء بقوله :

﴿ والذين يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ الله . . . ﴾

وأوّل ما أمر به الله أَنْ يُوصَل هو صِلَة الرَّحم ؛ أي : أن تَصل ما يربطك بهم نَسَبٌ . والمؤمن الحقُّ إذا سَلْسَل الأنساب ؛ فسيدخل كُلُّ المؤمنين في صِلَة الرَّحم ؛ لأن كل المؤمنين رَحِم مُتداخِل ؛ فإذا كان لك عَشْرة من المؤمنين تَصِلهم بحكم الرَّحِم ؛ وكل مؤمن يَصِل عشرة مثلك ، انظر إلى تداخل الدوائر وانتظامها ؛ ستجد أن كل المؤمنين يدخلون فيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في الحديث القدسي : " أنا الرحمن ؛ خلقت الرحم ، واشتققت لها اسماً من اسمي ؛ فمن وصلها وصلته ؛ ومن قطعها قطعته " .

وقد رَوَيْتُ من قَبْل قصةً عن معاوية رضي الله عنه ؛ فقد جاء حاجبه ليعلن له أن رجلاً بالباب يقول : إنه أخوك يا أمير المؤمنين .

(84/411)

ولابد أن حاجبَ معاوية كان يعلم أن معاوية بن أبي سفيان لا إخوةَ له ، لكنه لم يَشَأْ أنْ يتدخَّل فيما يقوله الرجل ؛ وقال معاوية لحاجبه : ألاَ تعرف إخوتي ؟ فقال الحاجب : هكذا يقول الرجل . فأذِنَ معاويةُ للرجل بالدخول ؛ وسأله : أي إخوتي أنت ؟ أجاب الرجل : أخوك في آدم . قال معاوية : رَحِم مقطوعة ؛ والله لأكونَ أوّلَ من يَصلها .

والتقى الفضيل بن عياض بجماعة لهم عنده حاجة ؛ وقال لهم : من أين أنتم ؟ قالوا : من خُراسان . قال : اتقوا الله ، وكونوا من حيث شِئْتم .

وقد أمرنا سبحانه أن نَصِلَ الأهلَ أولاً ؛ ثم الأقارب ؛ ثم الدوائر الأبعد فالأبعد ؛ ثم الجار ، وكُلُّ ذلك لأنه سبحانه يريد الالتحام بين الخلق ؛ ليستطرق النافع لغير النافع ، والقادر لغير القادر ، فهناك جارك وقريبك الفقير إنْ وصلْتَه وصلَك الله .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ومِنْ خلاله يأمر كل مؤمن برسالته :

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى . . . ﴾ [الشورى : 23]

وقال بعض مَنْ سمعوا هذه الآية : قُرْباك أنت في قُرْباك .

وقال البعض الآخر : لا ، القربى تكون في الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن القرآن قال في محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ . . . ﴾ [الأحزاب : 6]

وهكذا تكون قرابة الرسول أولى لكل مؤمن من قرابته الخاصة .

يستمر قول الحق سبحانه في وصف أُولِي الألباب : ﴿ . . . وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴾ [الرعد : 21]

والخشية تكون من الذي يمكن أن يُصيب بمكروه ؛ ولذلك جعل الحق هنا الخشية منه سبحانه ؛ أي : أنهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُربِّيهم ؛ خوف إجلال وتعظيم .

وجعل سبحانه المخاف من سوء العذاب ؛ وأنت تقول : خِفْتُ زيداً ، وتقول : خِفْتُ المرض ، ففيه شيء تخافه ؛ وشيء يُوقِع عليك ما تخافه .

وأولو الألباب يخافون سُوء حساب الحق سبحانه لهم ؛ فيدعهم هذا الخوف على أَنْ يَصِلوا ما أمر به سبحانه أنْ يُوصَل ، وأنْ يبتعدوا عن أي شيء يغضبه .

ونحن نعلم أن سوء الحساب يكون بالمناقشة واستيفاء العبد لكل حقوقه ؛ فسبحانه مُنزَّه عن ظلم أحد ، ولكن مَنْ يُناقش الحساب فهو مَنْ يَلْقى العذاب ؛ ونعوذ بالله من ذلك ، فلا أحد بقادر على أن يتحمل عذابَ الحق له .

ويواصل الحق سبحانه وَصْف أُولي الألباب فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ . . . ﴾

ونجد هذه الآية معطوفة على ما سبقها من صفات أولي الألباب الذين يتذكَّرون ويعرفون مَواطن الحق بعقولهم اهتداءً بالدليل ؛ الذين يُوفون بالعهد الإيماني بمجرد إيمانهم بالله في كُلِّيات العقيدة الوحدانية ، ومُقْتضيات التشريع الذي تأتي به تلك العقيدة .

ولذلك جعلها سبحانه صفقة أوضحها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً . . . ﴾ [التوبة : 111]

وهي صفقة إيجاب وقَبُول ، والعهد إيجاب وقبول ؛ وهو ميثاق مُؤكَّد بالأدلة الفِطْرية أولاً ، والأدلة العقلية ثانياً .

وهُمْ في هذه الآية مَنْ صبروا ابتغاءَ وجه ربهم ، والصبر هو تحمُّل متاعب تطرأ على النفس

الإنسانية لتخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يُخرِج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام في النفس يحتاج صبراً .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مَصْبوراً عليه ؛ والمَصْبور عليه في الأحداث قد يكون في ذات النفس ؛ كأنْ يصبر الإنسان على مشقّة التكليف الذي يقول " افعل " و " لا تفعل " .

(86/411)

فالتكليف يأمرك بتركِ ما تحب ، وأنْ تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهاك عنه ، وكُلُّ هذا يقتضي مُجَاهدة من النفس ، والصبر الذاتي على مشَاقِ التّكليف .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصلاة مثلاً : ﴿ . . . وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة : 45]

وهذا صَبْر الذّات على الذات . ولكن هناك صَبْر آخر ؛ صبر منك على شيء يقع من غيرك ؛ ويُخرِجك هذا الشيء عن استقامة نفسك وسعادتها .

وهو ينقسم إلى قسمين : قسم تجد فيه غريماً لك ؛ وقسم لا تجد فيه غريماً لك .

فالمرض الذي يُخرِج الإنسان عن حَيِّز الاستقامة الصِّحية ويُسبِّب لك الألم؛ ليس لك فيه غريم؛ لكنك تجد الغريم حين يعتدي عليك إنسانٌ بالضرب مثلاً؛ ويكون هذا الذي يعتدي عليك هو الغريم لك .

وكل صبر له طاقة إيمانية تحتمله؛ فالذي يَقْدر على شيء ليس فيه غريم؛ يكون صَبْره معقولاً بعض الشيء؛ لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره .

أما صبر الإنسان على ألَم أوقعه به مَنْ يراه أمامه؛ فهذا يحتاج إلى قوة ضَبْط كبيرة؛ كي لا يهيج الإنسان ويُفكِّر في الانتقام .

ولذلك تجد الحق يفصل بين الأمرين؛ يفصل بين شيء أصابك ولا تجد لك غريماً فيه، وشيء أصابك ولك من مثلك غريمٌ فيه .

ويقول سبحانه عن الصبر ليس لك غريم فيه: ﴿ . . . واصبر على مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان: 17]

ويقول عن الصبر الذي لك فيه غريم، ويحتاج إلى كَظْم الغيظ، وضبط الغضب: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى: 43]

وحينما يريد الحق سبحانه منك أن تصبر؛ فهو لا يطلب ذلك منك وحدك؛ ولكن يطلب من المقابلين لك جميعاً أَنْ يصبروا على إيذائك لهم؛ فكأنه طلب منك أنْ تصبر على الإيذاء الواقع من الغير عليك؛ وأنت فرد واحد .

وطلب من الغير أيضاً أنْ يصبر على إيذائك ، وهذا هو قمة التأمين الاجتماعي لحياة النفس الإنسانية ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تصبر على من آذاك ؛ فقد طلب مَنْ الناس جميعاً أن يصبروا على أذاك لهم .

فإذا بدرتْ منك بادرة من الأغيار ؛ وتخطئ في حق إنسان آخر وتؤلمه ؛ فإن لك رصيداً من صبر الآخرين عليك ؛ لأن الحق سبحانه طلب من المقابل لك أن يصبر عليك وأنْ يعفو .

وإذا كان لك غريم ؛ فالصبر يحتاج منك إلى ثلاث مراحل : أن تصبر صبراً أولياً بأن تكظم في نفسك ؛ ولكن الغيظ يبقى ، وإن منعت الحركة النُّزوعية من التعبير عن هذا الغيظ ؛ فلم تضرب ولم تَسُبّ ؛ ويسمى ذلك : ﴿ الكاظمين الغيظ . . . ﴾ [آل عمران : 134] والكَظْم مأخوذ من عملية رَبْط القِرْبة التي نحمل فيها الماء ؛ فإنْ لم نُحْكِم ربطها انسكب منها الماء ؛ ويُقال "كظم القربة" أي : أحكم ربطها .

ثم يأتي الحق سبحانه بالمرحلة الثانية بعد كظم الغيظ فيقول : ﴿ والعافين عَنِ الناس . . . ﴾ [آل عمران : 134] .

وهنا تظهر المسألة الأَرْقى ، وهي إخراج الغيظ من الصدر ؛ ثم التسامي في مرتبة الصِّدِّيقين ؛ فلا ينظر إلى مَنْ كظم غيظه عنه أولاً ؛ بل يعفو عنه ، ولا ينظر له بعداء ، بل بنظرة إيمانية .

والنظرة الإيمانية هي أن مَنْ آذاك إنما يعتدي على حَقِّ الله فيك ؛ وبذلك جعل الله في صَفِّك وجانبك ؛ وهكذا تجد أن مَنْ ظلمك وأساء إليك قد جعلك في معية الله وحمايته ؛ وعليك أن تُحسِن له .

والصبر له دوافع ؛ فهناك من يصبر كي يُقال عنه : إنه يملك الجَلَد والصبر ؛ وليبين أنه فوق الأحداث ؛ وهذا صبر ليس ابتغاء لوجه الله ؛ بل صبر كيلا يَشْمت فيه أعداؤه .

وصبر لأنه قد توصل بعقله أن جزعه لن ينفعه ، ولو كان حصيفاً لَصبر لوجه الله ، لأن الصبر لوجه الله يخفف من قَدَر الله .

(88/411)

ومَنْ يصبر لوجه الله إنما يعلم أن لله حكمة أعلى من الموضوع الذي صبر عليه ؛ ولو خُيِّر بين ما كان يجب أن يقع وبين ما وقع ؛ لاختار الذي وقع .

والذي يصبر لوجه الله إنما ينظر الحكمة في مَوْرد القضاء الذي وقع عليه ، ويقول : أحمدُكَ

ربي على كل قضائك وجميل قَدَرتك ؛ حَمْدَ الرضى بحكمك لليقين بحكمتك .

فمَنْ يصبر على الفاقة ؛ ويقول لنفسك : " اصبري إلى أن يفرجها الله " ولا يسأل أحداً ؛ سيجد الفرج قد أتى له من الله .

انظر إلى الشاعر وهو يقول :

إذَا رُمْتَ أنْ تستخرِجَ المالَ مُنْفقاً . . . عَلى شَهَواتِ النفْسِ في زَمَنِ العُسْرِ

فَسَلْ نفسَكَ الإنفاقَ مِنْ كَنْزِ صَبْرِها . . . عليْكَ وإنذاراً إلى سَاعةِ اليُسْرِ

فَإنْ فعلْتَ كنتَ الغنيَّ وإنْ أبيْتَ . . . فَكلُّ مُنوَّعٍ بعدَها وَاسِعُ العُذْرِ

أي : إنْ راودتْك نفسك لتقترض مالاً لتنفقه على شهوات النفس ، ورفضتَ تلك المُرَاودة ، وطلبت من نفسك أنْ تعطيك من كَنْز الصبر الذي تملكه ؛ وإنْ فعلتَ ذلك كنت الغنيَّ ، لأنك قدرتَ على نفسك .

والذي يلفت إلى الحَدَث وحده يتعب ؛ والذي يلتفت إلى الحدث مقروناً بواقعه من ربه ؛ ويقول : " لابد أن هناك حكمة من الله وراء ذلك " فهو الذي يصبر ابتغاء وجهه الله .

ويريد الله أنْ يخُصَّ مَنْ يصبر ابتغاء وجهه بمنزلة عالية ؛ لأنه يعلم أن الله له حكمة فيما يُجريه من أقدار .

ويتابع سبحانه وَصْفَ أُولي الألباب : ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً . . . ﴾ [الرعد : 22]

وسبق أن قلنا في الصلاة أقوالاً كثيرة ؛ وأن مَنْ يؤديها على مطلوبها ؛ فهو مَنْ يعلم أنها جَلْوة بين العبد وربه ، ويكون العبد في ضيافة ربه .

وحين تُعْرَض الصَّنْعة على صانعها خمس مرات في اليوم فلابد أنْ تنال الصَّنْعة رعاية وعناية مَنْ صمَّمها وخلقها ، وكما أن الله غَيْبٌ عنك ؛ فكذلك أسباب شفائك من الكروب يكون غيباً عنك .

(89/411)

وقد علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك " فكان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة " .

ومن عظمة الإيمان أن الله هو الذي يدعوك إلى الصلاة ؛ وهو سبحانه لا يمنع عنك القُرْب في أيِّ وقت تشاء ؛ وأنت الذي تُحدِّد متى تقف بين يديه في أي وقت بعد أن تُلبِّي دعوته بالفروض ؛ لتؤدي ما تحب من النوافل ؛ ولا يُنهِي سبحانه المقابلة معك كما يفعل عظماء الدنيا ؛ بل تُنهِي أنت اللقاء وقتَ أنْ تريد .

ولقد تأدَّب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأدب ربه ؛ وتخلَّق بالخُلق السامي ؛ فكان إذا وضع أحد يده في يد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فهو لا ينزع يده من يد مَنْ يُسلِّم عليه ؛ إلا أنْ يكون هو النازع .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ . . . ﴾ [الرعد : 22]

يعني : أنك لا يجب أن تنظر إلى ما يؤخذ منك ، ولكن انظر إلى أنك إنْ وصلتَ إلى أن تحتاج من الغير سيؤخذ لك ، وهذا هو التأمين الفعال ، ومَنْ يخاف أن يترك عيالاً دون قدرة ، ولو كان هذا الإنسان يحيا في مجتمع إيماني ، لوجد قول الحق مُطبّقاً : ﴿ وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواّ الله وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [النساء : 9]

وبذلك لا يشعر اليتيم باليُتْم ؛ ولا يخاف أحد على عياله ، ولا يسخط أحد على قَدَر الله فيه . وسبحانه يضع الميزان الاقتصادي حين يطلب منا الإنفاق ، والإنفاق يكون من مال زائد ؛ أو مال بلغ النصاب ، ولذلك فعليك أنْ تتحرك حركة نافعة للحياة ، ويستفيد منها الغير ، كي يكون لك مال تُنفِق منه ، وعلى حركتك أن تَسعَك وتسعَ غيرك .

وهناك مَنْ ينفق مِمَّا رزقه الله بأن يأخذ لنفسه ما يكفيها ، وينفق الباقي لوجه الله ؛ لأنه يضمن أن له إلهاً قادراً على أن يرزقه ، والمضمون عند الله أكثر مما في يده .

" وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل أبا بكر فيما ناله من غنائم ويقول له : ماذا صنعتَ بها يا أبا بكر ؟ فيقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه : تصدَّقْتُ بها كلها

. فيقول الرسول : وماذا أبقيت ؟ يقول أبو بكر : أبقيت الله ورسوله .

وسأل رسول الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وماذا فعلتَ يا عمر ؟ فيقول ابن الخطاب : تصدقْتُ بنصفها ولله عندي نصفها .

وكأنه يقول للرسول : " إن كان هناك مصرف تريدني أن أصرف فيه النصف الباقي لله عندي ؛ فلسوف أفعل " .

وهكذا رأينا مَنْ يصرف مِمَّا رزقه الله ؛ بكل ما رزقه سبحانه ، وهو أبو بكر الصديق ؛ ونجد مَنْ ينفق مِمَّا رزقه الله ومستعد لأن ينفق الباقي إن رأى رسول الله مصرفاً يتطلب الإنفاق .

ونجد من توجيهات الإسلام أن مَنْ يراعى يتيماً ؛ فليستعفف فلا يأخذ شيئاً من مال اليتيم إنْ كان الوليُّ على اليتيم له مال ؛ وإن كان الولي فقيراً فليأكل بالمعروف .

ولقائل أنْ يسأل : ولماذا نأتي بالفقير لتكون له ولاية على مال اليتيم ؟

وأقول : كي لا يحرم المجتمع من خبرة قادرة على الرعاية ؛ فيأتي الفقير صاحب الخبرة ؛ وليأكُل بالمعروف .

ونلحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿ وارزقوهم فِيهَا . . . ﴾ [النساء : 5]

ولم يَقُلْ " ارزقوهم منها " أي : خُذوا الرزق من المَطْمور فيها يملكون بالحركة في هذا المال .

وهكذا نفهم كيف يُنفق الإنسان المؤمن مِمَّا رزقه الله ؛ فهناك مَنْ ينفق كل ما عنده ؛ لأنه

واثق من رصيده عند ربه ، وهناك مَنْ ينفق البعض مما رزقه الله ؛ وقد تأخذه الأريحية والكرم فيعطي كل مَنْ يسأله ، وقد ينفق كل ما عنده ؛ مثل مَنْ يجلس في جُرْن القمح ويريد أن يُزكِّي يوم الحصاد ؛ فيعطي كل مَنْ يسأله ؛ إلى أن يفرغ ما عنده .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ . . . وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ [الأنعام : 141]

(91/411)

وهنا نجد الحق سبحانه يصف هؤلاء المُنْفِقين في سبيله : ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً . . . ﴾ [الرعد : 22]

والسر هو الصَّدقة المندوبة ، أما الإنفاق في العلانية ؛ فهي الصَّدقة الواضحة ؛ لأن الناس قد تراك غنياً أو يُشَاع عنك ذلك ، ولا يرونك وأنت تُخرِج الزكاة ، فتنالك ألسنتهم بالسوء ؛ وحين يَرَوْنَكَ وأنت تنفق وتتصدَّق ؛ فهم يعرفون أنك تؤدي حقّ الله ، وتشجعهم أنت بأن يُنفِقوا مما رزقهم الله .

وصدقة السِّر وصدقة العَلَن أمرها متروك لتقدير الإنسان ؛ فهناك مَنْ يعطي الصدقة للدولة لتتصرف فيها هي ؛ ويعطي من بعد ذلك للفقراء سراً ؛ وهذا إنفاق في العَلَن وفي

السر ؛ وجاء الحق بالسر والعلانية ؛ لأنه لا يريد أنْ يحجب الخير عن أيِّ أحد بأي سبب .

وقد يقول قائل : إن فلاناً يُخرِج الصدقة رياءً .

وأقول لِمَنْ يتفوَّه بمثل هذا القول : أَلَمْ يَسْتفِد الفقير من الصدقة ؟ إنه يستفيد ، ولا أحدَ يدخل في النوايا .

ويتابع سبحانه : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة . . . ﴾ [الرعد : 22]

والدَّرْء : هو الدَّفْع بشدة ؛ أي : يدفعون بالحسنة السيئة بشدة . وأول حسنة إيمانية هي أنْ تؤمن بالله ؛ وبذلك تدفع سيئة الشرك ، أو دفعتَ السيئة . أي : دفعتَ الذنب الذي ارتكبته وذلك بالتوبة عنه ؛ لأن التوبة حسنة ، وحين ترى مُنْكراً ، وهو سيئة ، فأنت تدفعه بحسنة النُّصْح .

أو : أن يكون معنى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة . . . ﴾ [الرعد : 22]

هو إنْ فعلتَ سيئة فأنت تتبعها بحسنة ، والكمال المطلق لله وحده ولرسوله ؛ لنفترض أن واحداً لديه سيئة مُلِحّة في ناحية من النواحي ؛ فالحقُّ سبحانه يأمره أن يدفع السيئة بأن يفعل بجانبها حسنة .

يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات . . . ﴾ [هود : 114]

وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لمعاذ رضي الله عنه : " اتق الله أينما تكون ، وأتبع السيئة حسنة تَمْحُها ، وخالق الناس بخلق حسن " .

ولذلك ، فأنت تجد أغلب أعمال الخير في المجتمع لا تصدر من أيِّ رجل رقيق لا يرتكب السيئات ؛ فلا سيئةَ تطارده كي يفعل الحسنة التي يرجو أنْ تمحو السيئة .

فالسيئة ساعةَ تُلهِب ضمير مَن ارتكبها ؛ ولا يستطيع أن يدفعها ؛ لأنه ارتكبها ؛ فهو يقول لنفسه " فَلأبنِ مدرسة " أو " أبني مسجداً " أو " أقيم مستشفى " أو " أتصدق على الفقراء " .

وهكذا نجد أن أغلب حركات الإحسان قد تكون من أصحاب السيئات ، فلا أحدَ بقادر على أنْ يأخذ شيئاً من وراء الله ؛ فمَنْ يرتكب سيئة لأبُدَّ أنْ تُلِحّ عليه بأحاسيس الذَّنب ؛ لتجده مدفوعاً من بعد ذلك إلى فعل الحسنات ؛ لعلَّ الحسنات تُعوِّض السيئات .

ومن دَرْء الحسنة بالسيئة أيضاً ؛ أنه إذا أساء إليك إنسان فأنت تَكْظِم غيظك وتعفو ؛ وبذلك فأنت تحسن إليه .

وتجد الحق سبحانه يقول : ﴿ . . . ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34]

وإذا أنت جرَّبْتَها في حياتك ؛ وأخلصْتَ المودة لمن دخل في العداوة معك ؛ ستجد أنه

يستجيب لتلك المودة ويصبح صديقاً حميماً لك .

ولكن هناك مَنْ يقول : جرَّبْتُ ذلك ولم تنفع تلك المسألة .

وأقول لمن يقول ذلك : لقد ظننتَ أنك قد دفعتَ بالتي هي أحسن ، لكنك في واقع الحال كنت تتربص بما يحدث منك تجاه مَنْ دخلتَ معه في عداوة ، ولم تُخلص في الدفع بالتي هي أحسن ، وأخذت تُجرِّب اختبار قول الله ؛ فذهبتْ منك طاقة الإخلاص فيما تفعل ؛ وظل الآخر العدو على عداوته .

لكنك لو دفعتَ بالتي هي احسن ستجد أن الآية القرآنية فيها كل الصِّدْق ؛ لأن الله لا يقول قضية قرآنية ثم تأتي ظاهرة كونية تُكذِّب القرآن .

ولذلك يقول الشاعر :

(93/411)

يَا مَنْ تُضايقه الفِعَالُ مِنَ التي ومِنَ الذي . . . دفع فِدْيتك بالتي حتَّى نَرى فإذَا الذِي

أي : يا مَنْ تضايقه أفعال الذي بينك وبين عداوة ؛ عليك أن تُحسن الدَّفْع التي هي أحسن ، حتى ترى أن العداوة التي كانت بينك وبين ما ذكره الحق سبحانه في قوله : ﴿ . . . فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34]

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ . . . أولئك لَهُمْ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 22]

أي : أن المتقدمين أولي الألباب الذين اجتمعت لهم تلك الصفات التِسعة ؛ بدايةً من أنهم يُوفُون بعهد الله ؛ ولا ينقضون الميثاق ؛ ويَصِلون ما أمر الله أنْ يُوصَل ويخشوْن ربهم ؛ ويخافون سُوء الحساب ؛ وصبروا ابتغاء وجه ربهم ؛ وأقاموا الصلاة ؛ وأنفقوا مما رزقهم الله سراً وعلانية ؛ ويَدْرءون بالحسنة السيئَة ، هؤلاء هم الذين لهم عُقْبى الدار .

وعُقْبى مأخوذة من العقب ؛ فالقدم له مقدم وله عَقِب ، وعقب هو ما يعقب الشيء ، ونقول في أفراحنا " والعافية عندكم في المسرات " أي : أننا نتمنى أن تتحقق لكم مَسرَّة مثل التي عندنا ، وتكون عقب المَسرَّة التي فرحنا نحن بها .

وهكذا تكون العقبى هي الشيء الذي يعقب غيره ، والذي يعقب الدار الدنيا هي الدار الآخرة . ولذلك يقول الحق سبحانه في الآية التالية مُوضِّحاً العاقبة لهؤلاء :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ . . . ﴾

إذن : فالدار الآخرة التي تعقب الدنيا بالنسبة لأُولِي الألباب هي جنات عَدْن . و " العَدْن " هو الإقامة الدائمة ؛ وجنات عدن هي جنات الإقامة الدائمة ، لأن الدنيا ليست دار إقامة .

وكل نعيم في الدنيا إما أن تفوته بالموت أو يفوتك بأغيار الحياة . أما جنات عَدْن فهي دار إقامة دائمة ؛ بما أن " عدن " تعني مرافقة دائمة للجنات .

والجنات معناها كما نفهم هي البساتين التي فيها أشجار وفيها ثمار ؛ وكل ما تشتهي الأنفس ، مع ملاحظة أن هذه الجنّات ليست هي المساكن ؛ بل في تلك الجنات مسكن بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ . . . ﴾ [التوبة : 72]

فالجنات هي الحدائق ؛ وفيها مساكن ، ونحن في حياتنا الدنيا نجد الفيلات في وسط الحدائق ، فما بالنا بما يَعِد به الله من طيب المساكن وسط الجنات ؟

لابد أن ينطبق عليه وصف الرسول صلى الله عليه وسلم للجنة في الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه :

" أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر "

.

وهكذا بيّن الله سبحانه عقبى الدار ؛ فهي : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ . . . ﴾ [الرعد : 23]

وآباء جمع " أب " أي : يدخلها مع أولي الألباب مَنْ كان صالحاً من الآباء مُتبعاً لمنهج الله .

وإنْ سأل سائل : وأين الأمهات ؟

أقول : نحن ساعة نثني المتماثلين نُغلّب الذَّكر دائماً ، ولذلك فآباؤهم تعني الأب والأم ، أَلَمْ يقُلِ الحق سبحانه في سورة يوسف : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش . . . ﴾ [يوسف : 100]

وهؤلاء هم الذين يدخلون الجنة من أُولِي الأَلْباب الذين استوفَوْا الشروط التسعة التي تحدّثنا عنها ؛ فهل استوفى الآباء والأزواج والأبناء الشروط التسعة ؟

ونقول : إن الحقَّ سبحانه وتعالى يعامل خَلْقه في الدنيا بمقتضى العواطف الموجودة في الذُّرية ؛ فالواحد مِنّا يُحِب أولاده وأزواجه وآباءه ؛ وما دام يحبهم وقد صلحوا كُلٌّ حَسْب طاقته ؛ فالحق سبحانه يُلحقهم به .

(95/411)

ولذلك تأتي آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهَينٌ ﴾ [الطور : 21]

وهنا يمسك القرآن القضية العقلية في الإلحاق بمعنى أنْ تُلحِق ناقصاً بكامل ، فلو كان مُساوياً له في العمل ما سُمِّي إلحاقاً ، فكل إنسان يأخذ حقَّه ؛ وقد اشترط الحق سبحانه

شرطاً واحداً في إلحاق الذرية بالآباء ، أو إلحاق الآباء بالذرية في الجنة ، وهو الإيمان فقط .

وأوضح لنا هنا أن الآباء قد تميّزوا بعمل إيماني بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ . . . ﴾ [الطور : 21]

فلم يأخذ سبحانه عمل الأب الذي عمل ؛ الابن الذي لم يعمل ، ومزج الاثنين ، ليأخذ المتوسط ، لا ، وذلك كي لا يظلم مَنْ عمل من الآباء أو الأبناء .

ثم إن ذلك لو حدث ؛ لما اعتُبِر تواجدُ الآباء مع الأبناء في الجنة إلحاقاً ؛ لأن الإلحاق يقتضي أن يبقى حَقّ كل مَنْ عمل ؛ ثم يتكرم سبحانه من بعد ذلك بعملية الإلحاق ؛ بشرط واحد هو أن يكون الشخص الْمُلحق مؤمناً .

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ . . . ﴾ [الطور : 21]

أي : أن الذرية مؤمنة ؛ والأزواج مؤمنون ؛ والأهل مؤمنون ؛ والأبوين مؤمنان ، ولكن الذي يلحق به هو مَنْ يُكرِمه الله بهذا الإلحاق كي يُدخِل الفرح على قَلْب المؤمن حين يرى أولاده معه في الجنة ما داموا مؤمنين ؛ وهذه قمة في العدالة ، لماذا ؟

والمَثل الذي أضربه على ذلك : هَبْ أن أباً قد حرص على أنْ يطعَم أهله من حلال ؛ فقد يعيش أولاده في ضيق وشَظَف ؛ بينما نجد أبناء المنحرف يعيشون في بُحْبُوحَة من العيش ؛ وهكذا يتنعَّم أبناء المنحرف الذي يأكل ويطعم أولاده من حرام ؛ بينما يعاني أبناء الأمين الذي قد يعتبره البعض مُتزمتاً ؛ لأنه يَرْعى حق الله ، ويرفض أكل الحرام .

وما دام أولاده الذين يأكلون من حلال قد يُعانون معه من عدم التنعُّم ؛ فالحق سبحانه يلحقهم في الجنة بنعيم يعيشه الأب ؛ لا يفوتهم فيه شيء ؛ ولا يفوته شيء .

وبذلك تسعد الذرية ؛ لأنها جاءت من صُلْب رجل مؤمن قضى حياته على جَادة الصواب ؛ رغم أن بعض الناس قد اتهمتْه في الدنيا بأنه مُتزمِّت .

ولقائل أنْ يقول : ألاَ يوجد تناقض بين هذا الإلحاق وبين قول الحق سبحانه : ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً . . . ﴾ [لقمان : 33]

وأقول : لا يوجد تناقض ؛ لأننا نصلي على الميت صلاة شرَّعها المُشرِّع ؛ وفائدتها أنْ تصل الرحمة للميت المؤمن ؛ والإيمان من عمله .

ولذلك يضيف له الحقُّ سبحانه فوق رصيد الإيمان ما يشاؤه هو سبحانه من الرحمة بصلاة الجنازة التي أقامها المسلمون عليه : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد : 23]

وكلمة " زوج " تعني المرأة التي يتزوجها الرجل ؛ وتعني الرجل الذي تتزوجه المرأة ، ونحن نخطئ خطأً شائعاً حين نقول " زوجة " ؛ بل الصحيح أن نقول " زوج " عن المرأة المنسوبة لرجل بعلاقة الزواج .

وسبحانه يقول : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ . . . ﴾ [الأحزاب : 6]

(97/411)

وهكذا نعلم أن جنات عَدْنٍ هي مكان ينتظم كل شيء ؛ ولهذا المكان أبواب متعددة ؛ هي أبواب الطاعات التي أَدَّتْ إلى خير الجَزَاءات ؛ فباب الصلاة يدخله أُناس ؛ وباب الزكاة يدخله أُناس ؛ وباب الصبر يدخله أُناس ؛ وهكذا تتعدد الأبواب ؛ وهي إمّا أبواب الطاعات أو أبواب الجزاءات التي تدخل منها الطيبات : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ . . . ﴾ [البقرة : 25]

فالباب يكون مفتوحاً ؛ تأتي منه الفاكهة والثَّمَرات والخيرات على اختلاف ألوانها ؛ فمرَّةً تأتي ثمار المانجو من باب ؛ وبعد ذلك تأتي ثمار التفاح .

وتلك الأبواب كما قلت هي إمّا للجزاءات ؛ أو هي أبواب الطاعات التي أدّت إلى الجزاءات ، وتدخل عليهم الملائكة من كُلِّ باب ؛ فماذا تقول الملائكة ؟

يقول الملائكة لأهل الجنة :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ . . . ﴾

والسلام يعني الاطمئنان والرضا الذي لا تأتي بعده الأغيار ؛ لأن السلام في الدنيا قد تُعكِّر أَمْنه أغيارُ الحياة ؛ فأنتم أيها المؤمنون الذين دخلتم الجنة بريئون من الأغيار .

وقال صلى الله عليه وسلم عن لحظات ما بعد الحساب : " الجنة أبداً ، أو النار أبداً " .

ولذلك يقول سبحانه عن خيرات الجنة : ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 33]

والملائكة كما نعلم نوعان :

الملائكة المهيمون الذين يشغلهم ذكر الله تعالى عن أيِّ شيء ولا يدرون بِنَا ؛ ولا يعلمون قصة الخَلْق ؛ وليس لهم شأنٌ بكُلِّ ما يجري ؛ فليس في بالهم إلا الله وهم الملائكة العَالُون ؛ الذين جاء ذكرهم في قصة السجود لآدم حين سأل الحق سبحانه الشيطان : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالِين ﴾ [ص : 75]

أي : أن العالين هنا هم مَنْ لم يشملهم أَمْرُ السجود ، وليس لهم علاقة بالخلق ، وكُلُّ مهمتهم ذكر الله فقط .

أما النوع الثاني فهم الملائكة المُدبِّرات أمراً ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد استدعى آدم إلى الوجود هو وذريته ، وأعدَّ له كل شيء في الوجود قبل أن يجئ ؛ الأرض مخلوقة والسماء مرفوعة ؛ والجبال الرَّواسي بما فيها من قُوتٍ ؛ والشمس والقمر والنجوم والمياه والسحاب .

والملائكة المُدبِّرات هم مَنْ لهم علاقة بالإنسان الخليفة ، وهم مَنْ قال لهم الحق سبحانه :

﴿ اسجدوا لأَدَمَ . . . ﴾ [البقرة : 34]

وهم الذين يتولَّوْن أمر الإنسان تنفيذاً لأوامر الحق سبحانه لهم ، ومنهم الحفظة الذين قال فيهم الحق سبحانه : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله . . . ﴾ [الرعد : 11]

أي : أن الأمر صادر من الله سبحانه ، وهم بَعْد أنْ يفرغوا من مهمتهم كحفظة من رقيب وعتيد على كل إنسان ، ولن يوجد ما يكتبونه من بعد الحساب وتقرير الجزاء ؛ وهنا سيدخل هؤلاء الملائكة على أهل الجنة ليحملوا ألطاف الله والهدايا ؛ فهم مَنُوط بهم الإنسان الخليفة .

وسبحانه حين يُورِد كلمة في القرآن بموقعها البياني الإعرابي ؛ فهي تُؤدِّي المعنى الذي أراده سبحانه . والمَثَل هو كلمة " سلام " ؛ فضيف إبراهيم من الملائكة : ﴿ قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ . . . ﴾ [هود : 69]

وكان القياس يقتضي أن يقول هو " سلاماً " ، ولكنها قضية إيمانية ، لذلك قال : ﴿ سَلاَمٌ . . . ﴾ [هود : 69]

فالسلام هنا يَأْتِ منصوباً ؛ بل جاء مرفوعاً ؛ لأن السلام للملائكة أمرٌ ثابت لهم ؛ وبذلك حَيَّاهم إبراهيم بتحية هي احسن من التحية التي حَيَّوه بها .

فنحن نُسلِّم سلاماً ؛ وهو يعني أن نتمنى حدوث الفعل ، ولكن إبراهيم عليه السلام فَطِنَ إلى أن السلام أمرٌ ثابت لهم .

(99/411)

وهكذا الحال هنا حين تدخل الملائكة على العباد المكرمين بدخول الجنة ، فَهُمْ يقولون : ﴿ سَلاَمٌ . . . ﴾ [الرعد : 24] وهي مرفوعة إعرابياً ؛ لأن السلام أمر ثابت مُستقِر في الجنة ، وهم قالوا ذلك ؛ لأنهم يعلمون أن السلام أمر ثابت هناك ؛ لا يتغير بتغيُّر الأغيار ؛ كما في أمر الدنيا .

والسلام في الجنة لهؤلاء بسبب صبرهم ، كما قال الحق سبحانه على ألسنة الملائكة : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ . . . ﴾ [الرعد : 24]

وجاء الصبر في صيغة الماضي ، وهي صيغة صادقة ؛ فهم قد صبروا في الدنيا ؛ وانتهى

زمن الصبر بانتهاء التكليف .

وهم هنا في دار جزاء ؛ ولذلك يأتي التعبير بالماضي في موقعه ؛ لأنهم قد صبروا في دار التكليف على مشقَّات التكليف ؛ صبروا على الإيذاء ؛ وعلى الأقدار التي أجراها الحقُّ سبحانه عليهم .

وهكذا يكون قول الحق سبحانه : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ . . . ﴾ [الرعد : 24] في موقعه تماماً .

وكذلك قوله الحق عمَّنْ توفّرت فيهم التسع صفات ، وهم في الدنيا : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ . . . ﴾ [الرعد : 22]

وجاء بالصبر هنا في الزمن الماضي ؛ رغم أنهم ما زالوا في دار التكليف ؛ والذي جعل هذا المعنى مُتّسعاً هو مَجِيء كل ما أمر به الله بصيغة المضارع ؛ مثل قوله تعالى : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله . . . ﴾ [الرعد : 20]

وهذه مسألة تحتاج إلى تجديد دائم ؛ وقوله : ﴿ . . . وَلاَ يَنقُضُونَ الميثاق ﴾ [الرعد : 20]

وقوله : ﴿ والذين يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ . . . ﴾ [الرعد : 21]

و﴿ وَيَخْشَوْنَ . . . ﴾ [الرعد : 21] ، ﴿ وَيَخَافُونَ . . . ﴾ [الرعد : 21]

هكذا نرى كل تلك الأفعال تأتي في صيغة المضارع، ثم تختلف الصيغة إلى الماضي في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ . . . ﴾ [الرعد : 22]

(100/411)

والمتأمل لكل ذلك يعلم أن كل تلك الأمور تقتضي الصبر؛ وكأن الصبر يسبق كل هذه الأشياء، وهو القاسم المشترك في كل عهد من العهود السابقة .

وقد عبر الحق سبحانه لأجل هذه اللفْتة بالماضي حين جاء حديث الملائكة لهم وهم في الجنة .

وهكذا تقع كلمة الصبر في موقعها ؛ لأن الملائكة تخاطبهم بهذا القول وهم في دار البقاء ؛ ولأن المتكلم هو الله ؛ فهو يُوضِّح لنا جمال ما يعيش فيه هؤلاء المؤمنون في الدار الآخرة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿ . . . فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 24]

وعلمنا أن "عُقْبى" تعني الأمر الذي يجيء في العَقِب، وحين يعرض سبحانه القضية الإيمانية وصفات المؤمنين المعايشين للقيم الإيمانية؛ فذلك بهدف أن تستشرفَ النفس أن تكون منهم، ولأبدّ أن تنفِرَ النفس من الجانب المقابل لهم .

والمثل هو قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار : 13]

ويأتي بمقابلها بعدها : ﴿ وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 14]

وساعة تقارن بأنهم لو لم يكونوا أبرارا ؛ لَكَانوا في جحيم ؛ هنا نعرف قَدْر نعمة توجيه الحق لهم ، ليكونوا من أهل الإيمان .

وهكذا نجد أنفسنا أمام أمرين : سلب مَضرّة ؛ وجَلْب منفعة ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن النار : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ [مريم : 71]

أي : كلنا سنرى النار .

ويقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ [التكاثر : 7]

وذلك لكي يعرف كل مسلم ماذا صنعتْ به نعمة الإيمان ؛ قبل أن يدخل الجنة ، وبذلك يعلم أن الله سلب منه مَضرّة ؛ وأنعم عليه بمنفعة ، سلب منه ما يُشقِى ؛ وأعطاه ما يُفيد .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ . . . ﴾ [آل عمران : 185] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(101/411)

فائدة

قال صاحب روح البيان :

واعلم أن الله تعالى أسند الإنفاق إليهم وإعطاء الرزق إلى ذاته تعالى تنبيهاً على أنهم أمناء الله فيما أعطاهم ووكلاؤه، والوكيل دخيل في التصرف لا أصيل، فينبغي له أن يلاحظ جانب الموكل لا جانب نفسه ولا جانب الخلق وقد قالوا من طمع في شكر أو ثناء فهو بياع لا جواد فإنه اشترى المدح بماله والمدح لذيذ مقصود في نفسه والجود هو بذل الشيء من غير غرض. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح البيان حـ 4 صـ 469﴾

(102/411)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق ﴾ قال : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه. ﴿ كمن هو أعمى ﴾ قال : عن الحق، فلا يبصره ولا يعقله ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ فبين من هم فقال : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه في قوله ﴿ أولوا الألباب ﴾ يعني ، من كان له لب أو عقل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن - رضي الله عنه - قال : إنما عاتب الله تعالى أولي الألباب ، لأنه يحبهم . ووجدت ذلك في آية من كتاب الله تعالى ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ فعليكم بالوفاء بالعهد ولا تنقضوا الميثاق ، فإن الله قد نهى عنه وقدم فيه أشد التقدمة ، وذكره في بضع وعشرين آية ، نصيحة لكم وتقدمة إليكم وحجة عليكم ، وإنما تعظم الأمور بما عظمها الله عند أهل الفهم وأهل العقل وأهل العلم بالله ، وذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يقول في خطبته " لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له " .

وأخرج الخطيب وابن عساكر، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن البر والصلة، ليخففان سوء العذاب يوم القيامة" ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - في قوله ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ يعني، من إيمان بالنبيين وبالكتب كلها ﴿ ويخشون ربهم ﴾ يعني، يخافون في قطيعة ما أمر الله به أن يوصل. ﴿ ويخافون سوء الحساب ﴾ يعني شدة الحساب.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ قال: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم، كان يقول: "اتقوا الله وصلوا الأرحام، فإنه أبقى لكم في الدنيا وخير لكم في الآخرة" وذكر لنا أن رجلاً من خثعم، أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقال: "أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال: نعم. قال: فأي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: الايمان بالله. قال: ثم ماذا؟ قال: صلة الرحم" وكان عبد الله بن عمرو يقول: إن الحليم ليس من ظلم ثم حلم، حتى إذا هيجه قوم اهتاج، ولكن الحليم من قدر ثم عفا، وإن الوصول ليس من وصل ثم وصل، فتلك مجازاة، ولكن الوصول من قطع ثم وصل وعطف على من لا يصله.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ، عن ابن جرير في قوله ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ قال: بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا لم تمش إلى ذي رحمك برجلك، ولم تعطه من مالك، فقد قطعته".

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) ﴾

(104/411)

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - في قوله ﴿ والذين صبروا ﴾ يعني على أمر الله ﴿ ابتغاء وجه ربهم ﴾ يعني ابتغاء رضا ربهم ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ يعني وأتموها ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ يعني من الأموال ﴿ سراً وعلانية ﴾ يعني في حق الله وطاعته ﴿ ويدرؤون ﴾ يعني يدفعون ﴿ بالحسنة السيئة ﴾ يعني يردون معروفاً على من يسيء إليه ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ يعني دار الجنة.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن الضحاك - رضي الله عنه ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ قال: يدفعون بالحسنة السيئة.

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة

﴿ قال : يدفعون الشر بالخير ، لا يكافئون الشر بالشر ، ولكن يدفعونه بالخير .

أما قوله تعالى : ﴿ جنات عدن ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في الجنة قصراً يقال له عدن ، حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب ، عند كل باب خمسة آلاف حيرة ، لا يدخله أو لا يسكنه إلا نبي أو صديق أو شهيد أو امام عادل " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد – رضي الله عنه – قال : قرأ عمر – رضي الله عنه – على المنبر ﴿ جنات عدن ﴾ فقال : أيها الناس ، هل تدرون ما جنات عدن ؟ قصر في الجنة له عشرة آلاف باب ، على كل باب خمسة وعشرون ألفاً من الحور العين ، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن ابن مسعود – رضي الله عنه – في قوله ﴿ جنات عدن ﴾ قال : بطنان الجنة ، يعني وسطها .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر، عن الحسن – رضي الله عنه – قال: ﴿ جنات عدن ﴾ وما يدريك ما جنات عدن؟.. قال: قصر من ذهب، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن الضحاك – رضي الله عنه – في قوله ﴿ جنات عدن ﴾ قال: مدينة وسط الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد، والجنات حولها.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن – رضي الله عنه – أن عمر قال لكعب: ما عدن؟ قال: هو قصر في الجنة، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل.

وأخرج ابن مردويه، عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جنة عدن قضيب غرسه الله بيده، ثم قال له: كن فكان".

أما قوله تعالى: ﴿ يدخلونها ومن صلح من آبائهم ﴾ الآية.

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير – رضي الله عنه – قال: يدخل الرجل الجنة فيقول: أين أمي، أين ولدي، أين زوجتي،؟؟... فيقال: لم يعملوا مثل عملك. فيقول: كنت أعمل لي ولهم، ثم قرأ ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح ﴾ يعني من آمن بالتوحيد بعد هؤلاء ﴿ من آباءهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ يدخلون معهم ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ قال: يدخلون عليهم على مقدار كل يوم من أيام

الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله ما ليس لهم في جنات عدن ، ويقولون لهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ يعني على أمر الله تعالى ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ يعني دار الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد – رضي الله عنه – ﴿ ومن صلح من آبائهم ﴾ قال : من آمن في الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي مجلز – رضي الله عنه – في الآية قال : علم الله تعالى أن المؤمن يحب أن يجمع الله تعالى له أهله وشمله في الدنيا ، فأحب أن يجمعهم له في الآخرة .

(106/411)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أنه قرأ ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح . . . ﴾ حتى ختم الآية قال : إنه لفي خيمة من درة مجوفة ، ليس فيها صدع ولا وصل ، طولها في الهواء ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ومال . لها أربعة آلاف مصراع من ذهب ، يقوم على كل باب منها سبعون ألفاً من الملائكة ، مع كل ملك هدية من الرحمن ليس مع صاحبه مثلها ، لا يصلون إليه إلا بإذن بينه وبينهم حجاب .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : أخس أهل الجنة منزلاً يوم

القيامة له قصر من درة جوفاء ، فيها سبعة آلاف غرفة ، لكل غرفة سبعون ألف باب ، يدخل عليه من كل باب سبعون ألفاً من الملائكة بالتحية والسلام .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن أبي عمران الجوني رضي الله عنه - في قوله ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ قال : على دينكم ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ قال : فنعم ما أعقبكم الله تعالى من الدنيا الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن الحسن - رضي الله عنه - في قوله ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ قال : صبروا على فضول الدنيا .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن نصر الحارثي - رضي الله عنه - ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ قال : على الفقر في الدنيا .

(107/411)

وأخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حيان وأبو الشيخ والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول من يدخل الجنة من خلق الله تعالى ، فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا

يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من الملائكة : ائتوهم فحيوهم . فتقول الملائكة : ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم ؟ ! . . . قال الله تعالى : إن هؤلاء عبادي كانوا يعبدونني في الدنيا ولا يشركون بي شيئاً ، وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال : إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة ، وعنده سماطان من خدم ، وعند طرف السماطين باب مبوّب ، فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول أقصى الخدم للذي يليه : ملك يستأذن ، ويقول الذي يليه للذي يليه : ملك يستأذن ، حتى يبلغ المؤمن فيقول : ائذنوا له . فيقول أقربهم إلى المؤمن : ائذنوا . ويقول الذي يليه للذي يليه : ائذنوا ، حتى تبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له ، فيدخل فيسلم عليه ثم ينصرف .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، عن أنس – رضي الله عنه – : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتي أحداً كل عام ، فإذا تفوّه الشعب ، سلم على قبور الشهداء ، فقال : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن إبراهيم - رضي الله عنه - قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ وأبو بكر وعمر وعثمان" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(109/411)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ ﴾ كقوله : "أَفَلَمْ" وقد تقدَّم تقريرُ القولين فيه ، ومذهب الزمخشري فيه بُعْدٌ هنا .

قوله تعالى : ﴿ الذين يُوفُونَ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ نعتاً لأُولي أو بدلاً منه أو بياناً له ، أو مرفوعاً على إضمار مبتدأ ، أو منصوباً على إضمار فِعْل ، كلاهما على المدح ، أو هو مرفوعٌ بالابتداء ، وما بعده عطفٌ عليه . و ﴿ أولئك لَهُمْ عقبى الدار ﴾ خبره .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ابتغاء وَجْهِ ﴾ يجوز أن يكونَ مفعولاً له وهو الظاهرُ ، وأن يكونَ حالاً ، أي : مُبْتَغِين ، والمصدرُ مضافٌ لمفعوله .

قوله : ﴿ عقبى الدار ﴾ يجوز أن يكونَ مبتدأً ، خبرُه الجارُّ قبله ، والجملةُ خبرُ " أولئك " ، ويجوز أَنْ يكونَ " لهم " خبرَ " أولئك " و " عُقْبى " فاعلٌ بالاستقرار .

قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ : يجوز أن يكون بدلاً مِنْ " عقبى " ، وأن يكونَ بياناً ، وأن يكونَ خبرَ مبتدأ مضمر ، وأن يكون مبتدأً خبرُه " يَدْخُلونها " وقرأ النخعيُّ " جنةُ " بالإِفراد . وتقدَّم الخلافُ في " يَدْخُلونها " .

والجملةُ مِنْ " يَدْخُلونها " تحتمل الاستئنافَ او الحاليةَ المقدرةَ .

قوله : ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ يجوز أن يكونَ مرفوعاً عطفاً على الواو ، وأغنى الفصلُ بالمفعول عن التأكيد بالضمير المنفصل ، وأن يكونَ منصوباً على المفعولِ معه ، وهو مرجوحٌ .

وقرأ ابن أبي عبلة " صَلُحَ " بضم اللام ، وهي لغةٌ مَرْجوحة .

قوله : ﴿ مِنْ آبَائِهِمْ ﴾ في محلِّ الحال مِنْ ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ و " مِنْ " لبيان الجنس . وقرأ عيسى الثقفي " وذُرِّيَّتهم " بالتوحيد .

قوله : " سلامٌ " الجملةُ محكيَّةٌ بقولٍ مضمر ، والقولُ المضمرُ حالٌ مِنْ فاعلِ " يَدْخُلون " ، أي : يَدْخُلون قائلين .

/ قوله : " بما صَبَرتم " متعلِّقٌ بما تعلَّق به " عليكم " ، و " ما " مصدريَّةٌ ، أي : بسبب صَبْركم . ولا يتعلَّقُ ب " سلامٌ " لأنه لا يُفْصَل بين المصدرِ ومعمولِه بالخبر .

قاله أبو البقاء . وقال الزمخشري : " ويجوز أن يتعلَّق ب " سلام " ، أي : نُسَلِّم عليكم ونُكْرِمكم بصبركم " ، ولمَّا نقله عنه الشيخ لم يَعْترض عليه بشيء . والظاهرُ أنه لا يُعْترَض عليه بما تقدَّم ؛ لأنَّ ذلك في المصدر المؤول بحرف مصدري ، وفعل ، وهذا المصدرُ ليس من ذلك . والباءُ : إمَّا سببيَّةٌ كما تقدَّم ، وإمَّا بمعنى بَدَل ، أي : بَدَلَ صبركم ، أي : بما احتملتم مَشاقَّ الصبر . وقيل : " بما صَبَرْتُم " خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هذا الثوابُ الجزيل بما صبرتم .

وقرأ الجمهور " فِنِعْمَ " بكسرِ النونِ وسكونِ العين ، وابن يعمر بالفتحِ والكسر ، وقد تقدَّم أنها الأصلُ كقوله :

2538- . . . . نَعِمَ السَّاعُون في القومِ الشُّطُرْ

وابنُ وثاب بالفتح والسكون ، وهي تخفيفُ الأصلِ ، ولغةُ تميم تسكينُ عينِ فَعِل مطلقاً .

والمخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ، أي: الجنة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 45.43﴾

(111/411)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) ﴾

استفَهام في معنى النفي، أي لا يستوي البصير و الضرير، ولا المقبول بالمردود بالحجبة، ولا المُؤَمَّل بالتقريب بالمُعَرَّض للتعذيب، ولا الذي أقصيناه عن شهودنا بالذي هديناه بوجودنا. إنما يتَّعِظ مَنْ عقله له تشريف، دونَ مَنْ عقله له سببُ إقصاءً وتعنيف.

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) ﴾

الوفاء بالعهد باستدامة العرفان، والوفاء بشرط الإحسان، والتوقيِّ من ارتكاب العصيان - بذلك أُبْرِمَ العقدُ يوم الميثاق و الضمان.

وميثاق قومٍ ألا يعبدوا شيئاً، وميثاق قومٍ ألا يسألوا سواه.

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) ﴾

الذين يَصِلون الإيمان به بالإيمان بالأنبياء والرسل .

ويقال الذين يصلون أنفاسَهم بعضاً ببعض ؛ فلا يتخلَّلُها نَفَسٌ لغير الله ، ولا بغير الله ، ولا في شهود غير الله .

ويقال يَصِلُون سَيْرَهم بسُرَاهم في إقامة العبودية ، والتبرِّي من الحول والقوة .

وقوله : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ : الخشية لجامٌ يُوقِفُ المؤمنَ عن الرَّكْضِ في ميادين الهوى ، وزِمامٌ يَجُرُّ إلى استدامة حكم التُّقَى .

وقوله : ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ هو أن يبدو من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ .

(112/411)

الصبر يختلف باختلاف الأغراض التي لأَجْلِها يصبر الصابر ، فالعُبَّاد يصبرون لخوف العقوبة ، والزهاد يصبرون طمعاً في المثوبة ، وأصحاب الإرادة هم الذين صبروا ابتغاء وجهِ ربهم ؛ وشرطُ هذا النوع من الصبر رَفْضُ ما يمنع من الوصول ، واستدامةُ التوقي منه ، فيدخل

فيه ترك الشهوات ، والتجردُ عن جميع الشواغل والعلاقات ، فيصبر عن العِلَّة والزَّلة ، وعن كل شيءٍ يشغل عن الله .

ومما يجب عليه الصبر الوقوفُ على حكم تَعزُّزِ الحق ، فإنَّه – سبحانه – يتفضّل على الكافة من المجتهدين ، ويتعزز – خصوصاً – على المريدين ، فيمنحهم الصبر في أيام إرادتهم ، فإذا صَدَقُوا في صبرهم جادَ عليهم بتحقيق ما طلبوا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ .

الأغنياء ينفقون أموالَهم . والعُبَّاد ينفقون نفوسَهم ويتحملون صنوف الاجتهاد ، ويصبرون على أداء الفرائض والأوراد . والمريدون ينفقون قلوبهم فيسرعون إلى أداء الفرائض والأوراد ويصبرون إلى أن يبوحَ علم من الإقبال عليهم . وأمَّا المحبون فينفقون أرواحَهم . .

وهي كما قيل :

ألست لي خَلَفاً ؟ كفى شرَفاً . . . فما وراءَك لي قَصْدٌ ومطلوبُ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ .

يعاشرون الناس بِحُسْنِ الخُلق ؛ فيبدأون بالإنصاف ولا يطلبون الانتصاف ، وإنْ عامَلَهم أحدٌ بالجفاء قابلوه بالوفاء ، وإنْ أذنب إليهم قومٌ اعتذروا عنهم ، وإن مرضوا عادوهم .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24) ﴾

(113/411)

يتم النعمة عليهم بأن يجمع بينهم وبين مَن يُحبون صحبتهم مِنْ أقاربهم وأزواجهم ، وقد ورد في الخبر : " المرءُ مع مَنْ أَحَب " فمَنْ كان محبوبُه أمثاله وأقاربه حُشِرَ معهم ، ومَنْ كان اليومَ بقلبه مع الله ، فهو غداً مع الله ، وفي الخبر : " أنا جليس مَنْ ذكرني " وهذا في العاجل ، وأمّا في الآجل ، ففي الخبر : " الفقراء الصابرون جُلَسَاءُ الله يومَ القيامةِ " . انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 225 ـ 228 ﴾

(114/411)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر ما للناجين ، ذكر مآل الهالكين فقال : ﴿ والذين ينقضون عهد الله ﴾ أي الملك

الأعلى فيعملون بخلاف موجبه ؛ والنقض : التفريق الذي ينفي تأليف البناء .

ولما كان النقض ضاراً ولو كان في أيسر جزء ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بعد ميثاقه ﴾ أي الذي أوثقه عليهم بما أعطاهم من العقول وأودعها من القوة على ترتيب المقدمات المنتجة للمقاصد الصالحة الدالة على صحة جميع ما أخبرت به رسله عليهم الصلاة والسلام والتحية والإكرام ؛ والميثاق : إحكام العقد بأبلغ ما يكون في مثله ﴿ ويقطعون ما ﴾ أي الشيء الذي ﴿ أمر الله ﴾ أي غير ناظرين إلى ما له من العظمة والجلال ، وعدل عن أن يوصله لما تقدم قريباً فقال : ﴿ به أن يوصل ﴾ أي لما له من المحاسن الجلية والخفية التي هي عين الصلاح ﴿ ويفسدون ﴾ أي يوقعون الإفساد ﴿ في الأرض ﴾ أي في أيِّ جزء كان منهم بوصل ما أمر الله به أن يقطع اتباعاً لأهوائهم ، معرضين عن أدلة عقولهم ، مستهينين بانتقام الكبير المتعال .

ولما كانوا كذلك ، استحقوا ضد ما تقدم للمتقين ، وذلك هو الطرد والعقاب والغضب والنكال وشؤم اللقاء ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ لهم اللعنة ﴾ أي الطرد والبعد ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ أي أن يكون دارهم الآخرة سيئة بلحاق ما يسوء فيها دون ما يسر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 148 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر صفات السعداء وذكر ما ترتب عليها من الأحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر حال الأشقياء ، وذكر ما يترتب عليها من الأحوال المخزية المكروهة ، وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ، ليكون البيان كاملاً فقال : ﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ ميثاقه ﴾ وقد بينا أن عهد الله ما ألزم عباده بواسطة الدلائل العقلية والسمعية لأنها أوكد من كل عهد وكل يمين إذ الأيمان إنما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل الدالة على أنها توجب الوفاء بمقتضاها ، والمراد من نقض هذه العهود أن لا ينظر المرء في الأدلة أصلاً ، فحينئذ لا يمكنه العمل بموجبها أو بأن ينظر فيها ويعلم صحتها ثم يعاند فلا يعمل بعمله أو بأن ينظر في الشبهة ، فيعتقد خلاف الحق والمراد من قوله : ﴿ مِن بَعْدِ ميثاقه ﴾ أي من بعد أن وثق الله تلك الأدلة وأحكمها ، لأنه لا شيء أقوى مما دل الله على وجوبه في أن ينفع فعله ويضر تركه .

فإن قيل : إذا كان العهد لا يكون إلا مع الميثاق فما فائدة اشتراطه تعالى بقوله : ﴿ مِن بَعْدِ ميثاقه ﴾ .

قلنا : لا يمتنع أن يكون المراد بالعهد هو ما كلف الله العبد ، والمراد بالميثاق الأدلة المؤكدة لأنه تعالى قد يؤكد إليك العهد بدلائل أخرى سواء كانت تلك المؤكدة دلائل عقلية أو سمعية .

(116/411)

ثم قال تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ وذلك في مقابلة قوله : ﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ [الرعد : 21] فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل ، والمراد به قطع كل ما أوجب الله وصله ويدخل فيه وصل الرسول بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين ، ووصل الأرحام ، ووصل سائر من له حق ، ثم قال : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ وذلك الفساد هو الدعاء إلى غير دين الله وقد يكون بالظلم في النفوس والأموال وتخريب البلاد ، ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الصفات قال : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللعنة ﴾ واللعنة من الله الإبعاد من خيري الدنيا والآخرة إلى ضدهما من عذاب ونقمة : ﴿ وَلَهُمْ سُوء الدار ﴾ لأن المراد جهنم ، وليس فيها إلا ما يسوء الصائر إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 37 . 38 ﴾

(117/411)

وقال ابن عطية :

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾

هذه صفة حالة مضادة للمتقدمة . وقال ابن جريج في قوله ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ إنه روي : إذا لم تمش إلى قريبك برجلك ولم تواسه بمالك فقد قطعته . وقال مصعب بن سعد : سألت أبي عن قوله تعالى : ﴿ هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 103-104] هم الحرورية ؟ قال : لا ولكن الحرورية : ﴿ هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ﴾ وأولئك هم الفاسقون ، فكان سعد بن أبي وقاص يجعل فيهم الآيتين .

و" اللعنة " : الإبعاد من رحمة الله ومن الخير جملة . و﴿ سوء الدار ﴾ ضد ﴿ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 23] والأظهر في ﴿ الدار ﴾ هنا أنها دار الآخرة ، ويحتمل أنها الدنيا على ضعف . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والذين ينقضون عهد الله ﴾

قد سبق تفسيره في سورة [البقرة : 27] .

وقال مقاتل : نزلت في كفار أهل الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ أولئك لهم اللعنة ﴾ أي : عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(118/411)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾

لما ذكر الموفين بعهده ، والمواصلين لأمره ، وذكر ما لهم ذكر عكسهم .

نقض الميثاق : ترك أمره .

وقيل : إهمال عقولهم ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى .

﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ أي من الأرحام .

والإيمان بجميع الأنبياء .

﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرض ﴾ أي بالكفر وارتكاب المعاصي ﴿ أولئك لَهُمُ اللعنة ﴾ أي الطّرد والإبعاد من الرحمة .

﴿ وَلَهُمْ سواء الدار ﴾ أي سوء المنقلَب ، وهو جهنم .

وقال سعد بن أبي وقّاص : والله الذي لا إله إلا هوا إنهم الْحَرُورِية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(119/411)

وقال الخازن :

﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾

لما ذكر الله أحوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات والخيرات ذكر بعده أحوال الأشقياء ، وما لهم من العقوبات فقال تعالى ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ ونقض العهد ضد الوفاء به ، وهذا من صفة الكفار لأنهم هم الذين نقضوا عهد الله يعني خالفوا أمره ، ومعنى من بعد ميثاقه من بعد ما أوثقوه على أنفسهم بالاعتراف والقبول ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ يعني ما بينهم وبين المؤمنين من الرحم والقرابة ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾ يعني بالكفر والمعاصي ﴿ أولئك ﴾ يعني من هذه صفته ﴿ لهم اللّعنة ﴾ يعني الطرد عن رحمة الله يوم القيامة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ يعني النار لأن منقلب الناس في العرف إلى دورهم ، ومنازلهم ، فالمؤمنون لهم عقبى الدار وهي الجنة ، والكفار لهم سوء الدار وهي النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(120/411)

وقال أبو حيان :

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾

قال مقاتل نزلت : والذين ينقضون في أهل الكتاب .

وقال ابن عباس : نزلت الله يبسط في مشركي مكة ، ولما ذكر تعالى حال السعداء وما ترتب لهم من الأمور السنية الشريفة ، ذكر حال الأشقياء وما ترتب لهم من الأمور المخزية .

وتقدم تفسير الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل الآية في أوائل البقرة وترتب للسعداء هناك التصريح بعقبي الدار وهي الجنة ، وإكرام الملائكة لهم بالسلام ، وذلك غاية القرب والتأنيس .

وهنا ترتب للأشقياء الإبعاد من رحمة الله .

وسوء الدار أي : الدار السوء وهي النار ، وسوء عاقبة الدار ، وتكون دار الدنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(121/411)

وقال أبو السعود :

﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله ﴾

أريد بهم مَنْ يقابل الأولين ويعاندهم في الاتصاف بنقائض صفاتهم ﴿ مِن بَعْدِ ميثاقه ﴾ من بعد ما أوثقوه من الاعتراف والقَبول ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ من الأيمان بجميع الأنبياءِ المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم ، ومن حقوق الأرحام وموالاةِ المؤمنين وغيرِ ذلك مما لا يراعون حقوقَه من الأمور المعدودةِ فيما سلف ، وإنما لم يتعرّض لنفي الخشيةِ والخوفِ عنهم صريحاً لدلالة النقضِ والقطع على ذلك ، وأما عدمُ التعرض لنفي الصبرِ المذكور فلأنه إنما اعتبر تحققُه في ضمن الحسناتِ المعدودةِ ليقَعْنَ معتدًّا بهن فلا وجه لنفيه عمّن بينه وبين الحسناتِ بعدُ المشرقين ، كما لا وجه لنفي الصلاةِ والزكاة ممن لا يحوم حول أصلِ الإيمان بالله تعالى فضلاً عن فروع الشرائعِ ، وإن أريد بالإنفاق التطوعُ فنفيُه مندرجٌ تحت قطعِ ما أمر الله تعالى بوصله ، وأما درءُ السيئة بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهرٌ مما سبق ولحِق فإن مَنْ يجازي إحسانَه عز وجل بنقض العهد ومخالفةِ الأمر ويباشر الفسادَ بدءاً حسبما يحكيه قوله عز وعلا : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرض ﴾ أي بالظلم وتهييج الفتنِ كيف يتصور منه مجازاةُ الإساءة بالإحسان على أن ذلك يُشعر بأن له دخلاً في الإفضاء إلى العقوبة التي ينبىء عنها قوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ الخ ، أي أولئك

الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ اللعنة ﴾ أي الإبعادُ من رحمة الله تعالى ﴿ وَلَهُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ سُوء الدار ﴾ أي سوءُ عاقبة الدنيا أو عذابُ جهنم فإنها دارُهم ، لأن ترتيبَ الحكمِ على الموصول مُشعرٌ بعلّية الصلةِ له ، ولا يخفى أنه لا دخلَ له في ذلك على أكثر التفاسير ، فإن مجازاةَ السيئةِ بمثلها مأذونٌ فيها .

(122/411)

ودفعُ الكلامِ السيىءِ بالحسن وكذا الإعطاءُ عند الظلم والوصلُ عند القطع ليس مما يورِثُ تركُه تبعةً ، وأما ما اعتبر اندراجُه تحت الصلةِ الثانيةِ من الإخلال ببعض الحقوقِ المندوبة فلا ضير في ذلك لأن اعتبارَه من حيث إنه من مستتبعات الإخلال بالعزائم بالكفر ببعض الأنبياءِ وعقوقِ الوالدين وتركِ سائر الحقوق الواجبةِ ، وتكريرُ لهم للتأكيد والإيذانِ باختلافهما واستقلالِ كل منهما في الثبوت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(123/411)

وقال الآلوسى :

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾

أريد بهم من يقابل الأولين ويعاندهم بالاتصاف بنقائص أوصافهم ﴿ مِن بَعْدِ ميثاقه ﴾ الاعتراف به ، قيل : المراد بالعهد قوله سبحانه : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 172] وبالميثاق ما هو اسم آلة أعني ما يوثق به الشيء وأريد به الاعتراف بقول : ﴿ بلى ﴾ وقد يسمى العهد من الطرفين ميثاقاً لتوثيقه بين المتعاهدين ؛ وفسر الإمام عهد الله تعالى بما ألزمه عباده بواسطة الدلائل العقلية لأن ذلك أوكد كل عهد وكل أيمان إذ الأيمان إنما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل الدالة على أنها توجب الوفاء بمقتضاها ، ثم قال : والمراد من نقضها أن لا ينظر المرء فيها فلا يمكنه حينئذٍ العمل بموجبها أو بأن ينظر ويعلم صحتها ثم يعاند فلا يعمل بعلمه أو بأن ينظر في الشبه فلا يعتقد الحق ، والمراد بقوله سبحانه : ﴿ مِن بَعْدِ ميثاقه ﴾ من بعد أن أوثق إليه تلك الأدلة وأحكامها لأنه لا شيء أقوى مما دل الله تعالى على وجوبه في أنه ينفع فعله ويضر تركه .

وأورد أنه إذا كان العهد لا يكون إلا بالميثاق فما فائدة ﴿ مِن بَعْدِ ميثاقه ﴾ ؟ وأجاب بأنه لا يمتنع أن يكون المراد مفارقة من تمكن من معرفته بالحلف لمن لم يتمكن أو لا يمتنع أن يكون المراد الأدلة المؤكدة لأنه يقال : قد تؤكد إليك بدلائل أخرى سواء كانت عقلية أو سمعية اه ولا يخفى أنه إذا أريد بالعهد ذلك القول وبالميثاق الاعتراف به لم يحتج إلى القيل

والقال ، وحمل بعضهم العهد هنا على سائر ما وصى الله تعالى به عباده كالعهد فيما سبق والميثاق على الإقرار والقبول .

(124/411)

والآية كما روي عن مقاتل نزلت في أهل الكتاب ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام المجتمعين على الحق حيث يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ومن حقوق الأرحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك ، وإنما لم يتعرض كما قال بعض المحققين لنفي الخشية والخوف عنهم صريحاً لدلالة النقض والقطع على ذلك .

(125/411)

وأما عدم التعرض لنفي الصبر المذكور فلأنه إنما اعتبر تحققه في ضمن الحسنات المعدودة ليقعن معتداً بهن فلا وجه لنفيه عمن بينه وبين الحسنات بعد المشرقين لا سيما بعد تقييده بكونه ابتغاء وجهه تعالى ، كما لا وجه لنفي الصلاة والإنفاق بناءً على أن المراد منه إعطاء الزكاة ممن لا يحوم حول الإيمان بالله تعالى فضلاً عن فروع الشرائع ، وإن أريد بالإنفاق ما

يشمل ذلك وغيره فنفيه مندرج تحت قطع ما أمر الله تعالى بوصله بل قد يقال باندراج نفي الصلاة أيضاً تحت ذلك ، وأما درء السيئة بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهر مما سبق ولحق فإن من يجازي إحسانه عز وجل بنقض عهده سبحانه ومخالفة الأمر ويباشر الفساد حسبما يحكيه قوله عز وجل : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ ﴾ بالظلم لأنفسهم وغيرهم وتهييج الفتن بمخالفة دعوة الحق وإثارة الحرب على المسلمين كيف يتصور منه الدرء المذكور ، على أنه قيل : إن ذلك يشعر بأن له دخلاً في الإفضاء إلى العقوبة التي ينبىء عنها قوله سبحانه : ﴿ أولئك ﴾ الخ أي أولئك الموصوفون بتلك القبائح ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ اللعنة ﴾ أي الإبعاد من رحمة الله تعالى ﴿ وَلَهُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ سُوءُ الدار ﴾ أي سوء عاقبة الدار ، والمراد بها الدنيا وسوء عاقبتها عذاب جهنم أو جهنم نفسها ، ولم يقل : سوء عاقبة الدار تفادياً أن يجعلها عاقبة حيث جعل العاقبة المطلقة هي الجنة ، وجوز أن يراد بالدار جهنم وبسوئها عذابها ، والأول أوجه لرعاية التقابل ولأن المبادر إلى الفهم من الدار الدنيا بقرينة السابق ولأنها الحاضر في أذهانهم ولما ذكر من النكتة السرية وذلك لأن ترتيب الحكم على الموصول يشعر بعلية الصلة له ، ولا يخفى أنه لا دخل له في ذلك على أكثر التفاسير فإن مجازاة السيئة بمثلها مأذون فيها ، ودفع الكلام السيء بالحسن وكذا الإعطاء عند المنع والعفو عند الظلم والوصل عند القطع ليس مما يورث تركه تبعة ؛ وأما ما اعتبر اندراجه تحت الصلة الثانية من

(126/411)

الإخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضير في ذلك لأن اعتباره من حيث أنه من مستتبعات الإخلال بالعزائم كالكفر ببعض الأنبياء عليهم السلام وعقوق الوالدين وترك سائر الحقوق الواجبة ، وقيد بالأكثر لأنه على الكثير مما ذكرناه في تفسيره المدخلية ظاهرة ، وقيل : إنه سلك في وصف الكفرة وذمهم وذكر مالهم في مآلهم ما لم يسلك في وصف المؤمنين ومدحهم وشرح ما أعد لهم وما ينتهي إليه أمرهم فأتى في أحدهما بموصولات متعددة وصلات متنوعة إلى غير ذلك ولم يؤت بنحو ذلك في الآخر تنبيهاً على مزيد الاعتناء بشأن المؤمنين قولاً وفعلاً وعدم الاعتناء بشأن أضدادهم فإنهم أنجاس يتمضمض من ذكرهم هذا ، مع الجزم بأن مقتضى الحال هو هذا ، وقيل : إن المسلكين من آثار الرحمة الواسعة فتأمل ، وتكرير ﴿ لَهُمْ ﴾ للتأكيد والإيذان باختلافهما واستقلال كل منهما في الثبوت .

انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(127/411)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) ﴾

الهمزة في قوله : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ ﴾ للإنكار على من يتوهم المماثلة بين من يعلم أنما أنزله الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة ، وهو القرآن ، وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك ، فإن الحال بينهما متباعد جداً كالتباعد الذي بين الماء والزبد ، وبين الخبث والخالص من تلك الأجسام ، ثم بين سبحانه أنه إنما يقف على تفاوت المنزلتين ، وتباين الرتبتين أهل العقول الصحيحة ، فقال : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألباب ﴾ .

ثم وصفهم بهذه الأوصاف المادحة ، فقال : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ أي : بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم ، أو فيما بينهم وبين العباد ﴿ وَلاَ يِنقُضُونَ الميثاق ﴾ الذي وثقوه على أنفسهم ، وأكدوه بالإيمان ونحوها ، وهذا تعميم بعد التخصيص ، لأنه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها ، ويحتمل أن يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود الله ، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده ، ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه ، ويراد بالميثاق : ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم الذرّ المذكور في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ ﴾ [الأعراف : 171] .

﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ظاهره شمول كل ما أمر الله بصلته ، ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده ، ويدخل تحت ذلك صلة الأرحام دخولاً أوّلياً ، وقد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم ، واللفظ أوسع من ذلك ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ خشية تحملهم على فعل ما وجب ، واجتناب ما لا يحلّ ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴾ وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد ، فمن نوقش الحساب عذب ، ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ قيل : هو كلام مستأنف ، وقيل : معطوف على ما قبله ، والتعبير عنه بلفظ المضيّ للتنبيه على أنه ينبغي تحققه ، والمراد بالصبر الصبر على الإتيان بما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه .

وقيل : على الرزايا والمصائب ، ومعنى كون ذلك الصبر لابتغاء وجه الله : أن يكون خالصاً له ، لا شائبة فيه لغيره ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أي : فعلوها في أوقاتها على ما شرعه الله سبحانه في أذكارها وأركانها مع الخشوع والإخلاص ، والمراد بها الصلوات المفروضة ، وقيل أعمّ من ذلك ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أي : أنفقوا بعض ما رزقناهم ، والمراد

بالسرّ : صدقة النفل ، والعلانية : صدقة الفرض ؛ وقيل : السرّ لمن لم يعرف بالمال ، أو لا يتهم بترك الزكاة ، والعلانية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترك الزكاة ﴿ وَيَدْرَءونَ بالحسنة السيئة ﴾ أي : يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه كما في قوله تعالى :

(129/411)

﴿ ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت : 34] ، أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيء ، أو يدفعون الشرّ بالخير ، أو المنكر بالمعروف ، أو الظلم بالعفو ، أو الذنب بالتوبة ، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الموصوفين بالصفات المتقدّمة ﴿ لَهُمْ عقبى الدار ﴾ العقبى مصدر كالعاقبة ؛ والمراد بالدار الدنيا ، وعقباها الجنة ؛ وقيل : المراد بالدار الدار الآخرة ، وعقباها الجنة للمطيعين ، والنار للعصاة .

﴿ جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ بدل من عقبى الدار أي : لهم جنات عدن ، ويجوز أن يكون مبتدأ ، وخبره يدخلونها ، والعدن أصله الإقامة ، ثم صار علماً لجنة من الجنان .

قال القشيري : وجنات عدن : وسط الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن ، ولكن في صحيح البخاري وغيره : " إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ، وأعلى

الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة "

﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءابَائِهِمْ ﴾ يشمل الآباء والأمهات ﴿ وأزواجهم وذرياتهم ﴾ معطوف على الضمير في يدخلون ، وجاز ذلك للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، أي : ويدخلها أزواجهم وذرياتهم ، وذكر الصلاح دليل على أنه لا يدخل الجنة إلاّ من كان كذلك من قرابات أولئك ، ولا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج ، أو الذرية بدون صلاح ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مّن كُلّ بَابٍ ﴾ أي : من جميع أبواب المنازل التي يسكنونها ، أو المراد من كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه .

(130/411)

﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ أي : قائلين سلام عليكم أي : سلمتم من الآفات أو دامت لكم السلامة ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ أي بسبب صبركم وهو متعلق بالسلام أي : إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم أو متعلق بعليكم ، أو بمحذوف أي : هذه الكرامة بسبب صبركم أو بدل ما احتملتم من مشاقّ الصبر ﴿ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمدح ما أعطاهم من عقبى الدار المتقدّم ذكرها للترغيب والتشويق .

ثم اتبع أحوال السعداء بأحوال الأشقياء ، فقال : ﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ

ميثاقه ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ وقد مرّ تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منهما تفسير النقض والقطع ، ولم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الأوصاف المتقدّمة لدخولها في النقض والقطع ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ بالكفر وارتكاب المعاصي والأضرار بالأنفس والأموال ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ اللعنة ﴾ : أي : الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه ﴿ وَلَهُمْ سُوء الدار ﴾ أي : سوء عاقبة دار الدنيا ، وهي النار أو عذاب النار .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبّكَ الحق ﴾ قال : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه ﴿ كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ قال : عن الحق فلا يبصره ولا يعقله ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب ﴾ فبين من هم ، فقال : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ أولوا الألباب ﴾ قال : من كان له لبّ ، أي : عقل .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة أن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين آية من القرآن .

وأخرج الخطيب ، وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن البرّ والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوء الحِسَابِ ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ يعني : من إيمان بالنبيين وبالكتب كلها ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ يعني : يخافون من قطيعة ما أمر الله به أن يوصل ﴿ وَيَخَافُونَ سُوء الحِسَابِ ﴾ يعني : شدّة الحساب .

وقد ورد في صلة الرحم وتحريم قطعها أحاديث كثيرة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ وَيَدْرَءونَ بالحسنة السيئة ﴾ قال : يدفعون بالحسنة السيئة .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وابن أبي شيبة ، وهناد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن ابن مسعود في قوله : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ قال : بطنان الجنة ، يعني : وسطها .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن عمر قال لكعب : ما عدن ؟ قال : هو قصر في الجنة لا يدخله إلاّ نبيّ أو صدّيق أو شهيد أو حكم عدل .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جنة عدن

قضيب غرسه الله بيده ، ثم قال له : كن فكان " وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءابَائِهِمْ ﴾ قال : من آمن في الدنيا .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن أبي عمران الجوني في قوله : ﴿ سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ قال : على دينكم ﴿ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ قال : نعم ما أعقبكم الله من الدنيا في الجنة .

(132/411)

وأخرج أحمد ، والبزار ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والحاكم ، وصححه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أوّل من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسدّ بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته ، في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم ؟ قال الله : إن هؤلاء عبادي كانوا يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً ، وتسدّ بهم الثغور

، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ "

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن أبي أمامة : "إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكة إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم ، وعند طرف السماطين باب مبوّب ، فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول أقصى الخدم للذي يليه : ملك يستأذن ، ويقول الذي يليه : ملك يستأذن ، حتى يبلغ المؤمن ، فيقول : ائذنوا له ، فيقول أقربهم إلى المؤمن : ائذنوا له ، ويقول الذي يليه للذي يليه : ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له فيدخل ويسلم عليه ، ثم ينصرف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدار ﴾ قال : سوء العاقبة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(133/411)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾

هذا شرح حال أضداد الذين يوفون بعهد الله ، وهو ينظر إلى شرح مجمل قوله : ﴿ كمن هو أعمى ﴾ [سورة الرعد : 19] .

والجملة معطوفة على جملة ﴿ الذين يوفون ﴾ [الرعد : 20] .

ونقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به .

وزيادة من بعد ميثاقه ﴾ زيادة في تشنيع النقض ، أي من بعد توثيق العهد وتأكيده .

وتقدم نظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وما يضلّ به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ﴾ في أوائل سورة البقرة : (26 27) .

وجملة أولئك لهم اللعنة ﴾ خبر عن ﴿ والذين ينقضون ﴾ وهي مقابل جملة ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ .

والبعد عن الرحمة والخزيُ وإضافة سوء الدار كإضافة عقبى الدار .

والسوء ضد العقبى كما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

وإذا كان الحق سبحانه قد وصف أُولي الألباب بالأوصاف المذكورة من قبل ؛ فهو يُبيِّن لنا أيضاً خيبة المقابلين لهم ؛ فيقول سبحانه :

﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله . . . ﴾

ولقائل أنْ يسأل : وهل آمن هؤلاء وكان بينهم وبين الله عهد ونقضوه ؟

ونقول : يصح أنهم قد آمنوا ثم كفروا ، أو : أن الكلام هنا ينصرف إلى عهد الله الأزلي .

يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى . . . ﴾ [الأعراف : 172]

وهنا يوضح سبحانه أن مَنْ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وتأكيده بالآيات الكونية التي تدل على وجود الخالق الواحد : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ . . . ﴾ [الرعد : 25]

والمقابل لهم هم أُولو الألباب الذين كانوا يَصِلون ما أمر سبحانه أن يُوصل وهؤلاء الكفرة نقضة العهد : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرض . . . ﴾ [الرعد : 25]

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بالمقابل لكُلِّ عمل أدَّاه أولو الألباب ؛ فلم يَقُل : " ولا يخشون ربهم " ؛ لأنهم لا يؤمنون بإله ؛ ولم يَقُلْ : " لا يخافون سوء الحساب " لأنهم لا يؤمنون بالبعث .

وهكذا يتضح لنا أن كل شيء في القرآن جاء بِقَدرٍ ، وفي تمام موقعه .

ونحن نعلم أن الإفساد في الأرض هو إخراجُ الصَّالح عن صلاحه ، فأنت قد أقبلتَ على الكون ، وهو مُعَدٌّ لاستقبالك بكل مُقوِّمات الحياة من مأكل ومَشْرب وتنفس ؛ وغير ذلك من الرزق ، واستبقاء النوع بأن أحلَّ لنا سبحانه أن نتزاوج ذكراً وأنثى .

والفساد في الكون أن تأتي إلى صالح في ذاته فتفسده ؛ ونقول دائماً : إن كنت لا تعرف كيف تزيد الصالح صلاحاً ؛ فاتركه على حاله ؛ واسمع قول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . . ﴾ [الإسراء : 36]

(135/411)

فلا تنظر في أيِّ أمر إلى الخير العاجل منه ؛ بل انظر إلى ما يؤول إليه الأمر من بعد ذلك ؛ أيضرُّ أم ينفع ؟

لأن الضُّرَّ الآجل قد يتلصص ويتسلل ببطء وأناة ؛ فلا تستطيع له دَفْعاً من بعد ذلك .

ويقول الحق سبحانه في آخر الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ . . . أولئك لَهُمُ اللعنة وَلَهُمْ سواء الدار ﴾ [الرعد : 25]

ونلحظ أن التعبير هنا جاء باللام مِمَّا يدل على أن اللعنة عشقتهم عِشْق المال للملوك : ﴿

. . . وَلَهُمْ سوءُ الدار ﴾ [الرعد : 25]

أي : عذابها ، وهي النار والعياذ بالله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(136/411)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

أخرج أبو الشيخ عن ميمون بن مهران – رضي الله عنه – قال : قال لي عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – : لا تؤاخين قاطع رحم ؛ فإني سمعت الله لعنهم في سورتين : في سورة الرعد وسورة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ قال : سوء العاقبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 ص ﴾

(137/411)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ والذين يَنقُضُونَ ﴾ : مبتدأ ، والجملة مِنْ قوله : ﴿ أولئك لَهُمُ اللعنة ﴾ خبرُه . والكلامُ في اللعنةِ كالكلام في ﴿ لَهُمْ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 22] . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 45 ﴾

(138/411)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25) ﴾

مَنْ كفر بعد إيمانه نَقَضَ عهدَ الإسلام في الظاهر ، ومن رجع إلى أحكام العادة بعد سلوكه

طريق الإرادة ، فقد نقض عَهْدَه في السَّرَّاء . . . فهذا مُرْتَدٌّ جهراً ، وهذا مرتَدٌّ سِرّاً ،

والمرتد جهراً عقوبته قطعُ رأسِه ، والمرتد سِرّاً عقوبته قَطْعُ سِرّه .

وقوله : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ ، هو نقض قوله : ﴿ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ [الرعد : 21] .

ويقال نقض العهد هو الاستعانة بالأغيار ، وتَرْكُ الاكتفاء بالله الجبّار .

ويقال نَقْضُ العهد الرجوع إلى الاختيار والتدبير بعد شهودِ الأقدار ، وملاحظة التقدير .

ويقال نقض العهد بِتَرْكِ نَفْسِه ، ثم يعود إلى ما قال بتركه . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 228 ﴾

(139/411)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرَيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثاني عشر بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/412)

الجزء الثاني عشر بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 26 ﴾ من سورة الرعد

وحتى الآية ﴿ 40 ﴾ من نفس السورة

(4/412)

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقدم الحث العظيم على الإنفاق ، وأشير إلى أنه من أوثق الأسباب في الوصلة لجميع أوامر الله ، وختم بأن للكافر البعد والطرد عن كل خير والسوء ، كان موضع أن يقول الكفار : ما لنا يوسع علينا مع بعدنا ويضيق على المؤمن مع وصله واتصاله ، وما له لا يبسط له رزقه ليتمكن من إنفاذ ما أمر به إن كان ذلك حقاً ؟ فقيل : ﴿ الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ يبسط الرزق ﴾ ودل على تمام قدرته سبحانه وتعالى بقوله – جلت قدرته – : ﴿ لمن يشاء ﴾ فيطيع في رزقه أو يعصي ﴿ ويقدر ﴾ على من يشاء فيجعل رزقه بقدر ضرورته فيصبر أو يجزع لحكم دقت عن الأفكار ، ثم يجعل ما للكافر سبباً في خذلانه ، وفقر المؤمن موجباً لعلو شأنه ، فليس الغنى مما يمدح به ، ولا الفقر مما يذم به ، وإنما يمدح ويذم بالآثار .

ولما كانت السعة مظنة الفرح إلا عند من أخلصه الله وهم أقل من القليل ، قال عائباً لمن

اطمأن إليها : ﴿ وفرحوا ﴾ أي فبسط لهؤلاء الرزق فبطروا وكفروا وفرحوا ﴿ بالحياة الدنيا ﴾ أي بكمالها ؛ والفرح : لذة في القلب بنيل المشتهى .

(5/412)

ولما كانت الدنيا متلاشية في جنب الدار التي ختم بها للمتقين ، قال زيادة في الترغيب والترهيب : ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة ﴾ أي في جنبها ﴿ إلا متاع ﴾ أي حقير متلاش ؛ قال الرماني : والمتاع : ما يقع به الانتفاع في العاجل ، وأصله : التمتع وهو التلذذ بالأمر الحاضر .

ولما كان العقل أعظم الأدلة ، وتقدم أنه مقصور على المتذكرين ، إشارة إلى أن من عداهم بقر سارحة ، وعرف أن ما دعا إليه الشرع هو الصلاح ، وضده هو الفساد ، وكان العقل إنما هو لمعرفة الصلاح فيتبع ، والفساد فيجتنب ، وكان الطالب لإنزال آية إلى غير ذلك لا سيما بعد آيات متكاثرة ودلالات ظاهرة موضعاً لأن يعجب منه ، قال على سبيل التعجب عطفاً على قوله ﴿ وفرحوا ﴾ مظهراً لما من شأنه الإضمار تنبيهاً على الوصف الذي أوجب لهم التعنت : ﴿ ويقول الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما دعتهم إليه عقولهم من الخير وما لله من الآيات عناداً ﴿ لولا ﴾ أي هلا ولم لا .

ولما كان ما تحقق أنه من عند الملك لا يحتاج إلى السؤال عن الآتي به ، بني للمفعول قوله :

﴿ أنزل عليه ﴾ أي هذا الرسول - صلى الله عليه وسلم - ﴿ آية ﴾ أي علامة بينة ﴿ من ربه ﴾ أي المحسن إليه بالإجابة لما يسأله لنهتدي بها فنؤمن به ، وأمره بالجواب عن ذلك بقوله : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء المعاندين : ما أشد عنادكم حيث قلتم هذا القول الذي تضمن إنكاركم لأن يكون نزل إلي آية مع أنه لم يؤت أحد من الآيات مثل ما أوتيت ، فعلم قطعاً أنه ليس إنزال الآيات سبباً للايمان بل أمره إلى الله ﴿ إن الله ﴾ أي الذي لا أمر لأحد معه ﴿ يضل من يشاء ﴾ إضلاله ممن لم ينب ، بل أعرض عن دلالة العقل ونقض ما أحكمه من ميثاق المقدمات المنتجة للقطع بحقية ما دعت إليه الرسل لما جبل عليه قلبه من الغلظة ، فصار بحيث لا يؤمن ولو نزلت عليه كل آية ، لأنها كلها متساوية الأقدام في الدعوة إلى ما دعا إليه العقل لمن له عقل ، وقد نزل قبل هذا آيات متكاثرة دالات أعظم دلالة على المراد ﴿ ويهدي ﴾ عند دعاء الداعين ﴿ إليه ﴾ أي طاعته .

بمجرد دليل العقل من غير طلب آية ﴿ من أناب ﴾ أي من كان قلبه ميالاً مع الأدلة رجاعاً إليها لأنه شاء إنابته كأبي بكر الصديق وغيره ممن تبعه من العشرة المشهود لهم بالجنة

وغيرهم ، ثم أبدل منهم ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف ﴿ وتطمئن قلوبهم ﴾ أي تسكن وتستأنس إلى الدليل بعد الاضطراب بالشكوك لإيجادهم الطمأنينة بعد صفة الإيمان إيجاداً مستمراً دالاً على ثبات إيمانهم لترك العناد ، وهذا المضارع في هذا التركيب مما لا يراد به حال ولا استقبال ، إنما يراد به الاستمرار على المعنى مع قطع النظر عن الأزمنة ﴿ بذكر الله ﴾ الذي هو أعظم الآيات في أن المذكور مستجمع لصفات الكمال ، فالآية من الاحتباك : ذكر المشيئة أولاً دال على حذفها ثانياً ، وذكر الإنابة ثانياً دال على حذف ضدها أولاً .

(7/412)

ولما كان ذلك موضع أن يقول المعاند : ومن يطمئن بذلك ؟ فقال : ﴿ ألا بذكر الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ، لا بذكر غيره ﴿ تطمئن القلوب ﴾ فتسكن عن طلب غيره آية غيره ، والذكر : حضور المعنى للنفس ، وذلك إشارة إلى أن من لم يطمئن به فليس له قلب فضلاً عن أن يكون في قلبه عقل ، بل هو من الجمادات ، أو إلى أن كل قلب يطمئن به ، فمن أخبر عن قلبه بخلاف ذلك فهو كاذب معاند ، ومن أذعن وعمل بموجب الطمأنينة فهو مؤمن ، ثم أخبر عما لهذا القسم بقوله : ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا وصف الإيمان

﴿ وعملوا ﴾ أي تصديقاً لدعواهم الإيمان ﴿ الصالحات ﴾ لطمأنينة قلوبهم إلى الذكر ﴿ طوبى لهم ﴾ أي خير وطيب وسرور وقرة عين ﴿ وحسن مآب ﴾ فكان ذلك مفهماً لحال القسم الآخر ، فكأنه قيل : ومن لم يطمئن أو اطمأن قلبه ولم يذعن بؤسي لهم وسوء مآب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 148 . 150 ﴾

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في شجرة طوبى :

ومن الإسرائيليات : ما ذكره بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ ﴾ .

فمن ذلك ما رواه ابن جرير بسنده ، عن وهب ، قال : إن في الجنة شجرة يقال لها : طوبى ، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، زهرتها رياط ، وورقها برود ،

وقضبانها عنبر ، وبطحاؤها ياقوت ، وترابها كافور ، ووحلها مسك ، يخرج من أصلها أنهار الخمر ، واللبن ، والعسل ، وهي مجلس لأهل الجنة ، فبينما هم في مجلسهم ؛ إذ أتتهم ملائكة من ربهم ، يقودون نجبًا (1) مزمومة بسلاسل من ذهب ، وجوهها كالمصابيح حسنا ، ووبرها كخز المرعزي من لينه ، عليها رحال (2) ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب ، وثيابها من سندس ، وإستبرق ، فيفتحونها ، يقولون : إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه ، وتسلموا عليه ، قال : فيركبونها فهي أسرع من الطائر ، وأوطأ من الفراش ، نجبا من غير مهنة ، يسير الرجل إلى جنب أخيه ، وهو يكلمه ، ويناجيه ، لا تصيب أذن راحلة منها أذن الأخرى ولا برك (3) راحلة برك الأخرى ، حتى أن الشجرة لتتنحى عن طريقهم ؛ لئلا تفرق بين الرجل وأخيه ، قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم ، فيسفر لهم عن وجهه الكريم ، حتى ينظروا إليه ، فإذا رأوه قالوا : اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، وحق لك الجلال والإكرام ، قال : فيقول تعالى عند ذلك : أنا السلام ، ومني السلام ، وعليكم السلام ، حقت رحمتي ومحبتي ، مرحبا بعبادي الذين خشوني بغيب ، وأطاعوا أمري ، قال : فيقولون : ربنا لم نعبدك حق عبادتك ، ولم نقدرك حق قدرك ، فأذن لنا في السجود قدامك ، قال : فيقول الله : إنها ليست بدار نصب ، ولا عبادة ولكنها دار ملك ونعيم ، وإني قد رفعت عنكم نصب العبادة فسلوني ما شئتم ، فإن لكل رجل منكم أمنية ، فيسألونه ،

حتى أن أقصرهم أمنية ليقول : ربي تنافس أهل الدنيا في دنياهم ، فتضايقوا فيها ، رب فآتني مثل كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا ، فيقول الله تعالى : لقد قصرت بك أمنيتك .

---

(1) أي : إبلًا كرامًا .

(2) الرحال : ما يوضع على البعير ليركب عليه .

(3) البرك : الصدر .

ولقد سألت دون منزلتك ، هذا لك مني ؛ لأنه ليس في عطائي نكد ، ولا قصر يد ، قال : ثم يقول : أعرضوا على عبادي ما لم يبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال ، قال : فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التي في أنفسهم ، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة ، على كل سرير منها قبة من ذهب ،

مفرغة ، في كل قبة منها فرش من فرش الجنة ، متظاهرة ، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين ، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة ، وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما ، ولا ريح ولا طيب إلا قد عبق بهما ، ضوء وجوههما غلظ القبة ، حتى يظن من يراهما أنهما

دون القبة ، يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء ، يريان له من الفضل على صاحبه كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ، ويرى هو لهما مثل ذلك ، ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ، ويتعلقان به ، ويقولان له : والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك ، ثم يأمر الله الملائكة فيسيرون بهم صفا في الجنة ، حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له .

وقد وصف ابن كثير في تفسيره هذا الأثر : بأنه غريب عجيب وساقه ، وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده ، عن وهب أيضا وزاد زيادات أخرى .

التفسير الصحيح لقوله : ﴿ طُوبَى لَهُم ﴾

والمأثور عن السلف في تفسير طوبى غير ذلك ، فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها : فرح لهم وقرة عين ، وقال عكرمة : نِعَم لما لهم ، وقال قتادة : حسنى لهم ، وقال إبراهيم النختي : خير لهم وكرامة .

وروي أيضًا عن بعض الصحابة ، وغير واحد من السلف : أن طوبى شجرة في الجنة ، بل وَرَدَ ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعا : "طوبى شجرة في الجنة ، ظلها مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها" .

بل قيل : إنها الشجرة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها" رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم في بعض روايات

أحمد والبخاري : اقرأوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ .

ونحن لا ننكر احتمال أن تكون هذه الشجرة المذكورة في الحديث الصحيح ، ولكن

(11/412)

الذي ننكره ، ونقول : إنه من الإسرائيليات : هذه الزيادات التي زادها وهب ، ومن أخذ عنه ، ونحن في غنية عن هذا بما ثبت في الأحاديث الصحاح ، وها نحن نرى أنها جاءت خالية من هذه التخريفات والتهويلات التي ننزه عنها الرواية الإسلامية . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 231. 234 ﴾

(12/412)

فصل

قال الفخر :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26) ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكم على من نقض عهد الله في قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون في الدنيا ومعذبون في الآخرة فكأنه قيل : لو كانوا أعداء الله لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات في الدنيا ، فأجاب الله تعالى عنه بهذه الآية وهو أنه يبسط الرزق على البعض ويضيقه على البعض ولا تعلق له بالكفر والإيمان ، فقد يوجد الكافر موسعاً عليه دون المؤمن ، ويوجد المؤمن مضيقاً عليه دون الكافر ، فالدنيا دار امتحان .

قال الواحدي : معنى القدر في اللغة قطع الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان .

وقال المفسرون : معنى (يقدر) ههنا يضيق ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق : 7] أي ضيق ، ومعناه : أنه يعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شيء .

وأما قوله : ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾ فهو راجع إلى من بسط الله له رزقه ، وبين تعالى أن ذلك لا يوجب

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾

اعلم أن الكفار قالوا : يا محمد إن كنت رسولاً فأتنا بآية ومعجزة قاهرة ظاهرة مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام .

فأجاب عن هذا السؤال بقوله : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ وبيان كيفية هذا الجواب من وجوه : أحدها : كأنه تعالى يقول : إن الله أنزل عليه آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة ، ولكن الإضلال والهداية من الله ، فأضلكم عن تلك الآيات القاهرة الباهرة ، وهدى أقواماً آخرين إليها ، حتى عرفوا بها صدق محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى النبوة ، وإذا كان كذلك فلا فائدة في تكثير الآيات والمعجزات ، وثانيها : أنه كلام يجري مجرى التعجب من قولهم وذلك لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التي ظهرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت أكثر من أن تصير مشتبهة على العاقل ، فلما طلبوا بعدها آيات أخرى كان موضعاً للتعجب والاستنكار ، فكأنه قيل لهم : ما أعظم عنادكم ﴿ إن الله يضل من يشاء ﴾ من كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة على الكفر فلا سبيل إلى اهتدائكم وإن أنزلت كل آية ﴿ ويهدي ﴾ من كان على خلاف صفتكم .

وثالثها : أنهم لما طلبوا سائر الآيات والمعجزات فكأنه قيل لهم لا فائدة في ظهور الآيات والمعجزات ، فإن الإضلال والهداية من الله فلو حصلت الآيات الكثيرة ولم تحصل الهداية فإنه لم يحصل الانتفاع بها ولو حصلت آية واحدة فقط وحصلت الهداية من الله فإنه يحصل الانتفاع بها فلا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا إلى الله في طلب الهدايات .

ورابعها : قال أبو علي الجبائي : المعنى إن الله يضل من يشاء عن رحمته وثوابه عقوبة له

على كفره فلستم ممن يجيبه الله تعالى إلى ما يسأل لاستحقاقكم العذاب والإضلال عن الثواب : ﴿ ويهدي إليه من أناب ﴾ أي يهدي إلى جنته من تاب وآمن قال وهذا يبين أن الهدى هو الثواب من حيث أنه عقبه بقوله : ﴿ من أناب ﴾ أي تاب والهدى الذي يفعله بالمؤمن هو الثواب ، لأنه يستحقه على إيمانه ، وذلك يدل على أنه تعالى إنما يضل عن الثواب بالعقاب ، لا عن الدين بالكفر على ما ذهب إليه من خالفنا .

(14/412)

هذا تمام كلام أبي علي وقوله : (أناب) أي أقبل إلى الحق وحقيقته دخل في نوبة الخير .

﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ (29) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ الذين آمنوا ﴾ بدل من قوله : ﴿ من أناب ﴾ قال ابن عباس : يريد إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت .

فإن قيل : أليس أنه تعالى قال في سورة الأنفال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ [الأنفال : 2] والوجل ضد الاطمئنان ، فكيف وصفهم ههنا بالاطمئنان ؟

والجواب من وجوه : الأول ، أنهم إذا ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من أن يقدموا على المعاصي

فهناك وصفهم بالوجل ، وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة ، سكنت قلوبهم إلى ذلك ، وأحد الأمرين لا ينافي الآخر ، لأن الوجل هو بذكر العقاب والطمأنينة بذكر الثواب ، ويوجد الوجل في حال فكرهم في المعاصي ، وتوجد الطمأنينة عند اشتغالهم بالطاعات .

الثاني : أن المراد أن علمهم بكون القرآن معجزاً يوجب حصول الطمأنينة لهم في كون محمد صلى الله عليه وسلم نبياً حقاً من عند الله .

أما شكهم في أنهم أتوا بالطاعات على سبيل التمام والكمال فيوجب حصول الوجل في قلوبهم .

الثالث : أنه حصلت في قلوبهم الطمأنينة في أن الله تعالى صادق في وعده ووعيده ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق في كل ما أخبر عنه ، إلا أنه حصل الوجل والخوف في قلوبهم أنهم هل أتوا بالطاعة الموجبة للثواب أم لا ، وهل احترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب أم لا .

واعلم أن لنا في قوله : ﴿ ألا بذكر تطمئن القلوب ﴾ أبحاثاً دقيقة غامضة وهي من وجوه :

الوجه الأول : أن الموجودات على ثلاثة أقسام : مؤثر لا يتأثر ، ومتأثر لا يؤثر ، وموجود يؤثر في شيء ويتأثر عن شيء ، فالمؤثر الذي لا يتأثر هو الله سبحانه وتعالى ، والمتأثر الذي لا يؤثر هو الجسم ، فإنه ذات قابلة للصفات المختلفة والآثار المتنافية ، وليس له خاصية إلا القبول فقط .

وأما الموجود الذي يؤثر تارة ويتأثر أخرى ، فهي الموجودات الروحانية ، وذلك لأنها إذا توجهت إلى الحضرة الإلهية صارت قابلة للآثار الفائضة عن مشيئة الله تعالى وقدرته وتكوينه وإيجاده وإذا توجهت إلى عالم الأجسام اشتقات إلى التصرف فيها ، لأن عالم الأرواح مدبر لعالم الأجسام .

وإذا عرفت هذا فالقلب كلما توجه إلى مطالعة عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والميل الشديد إلى الاستيلاء عليها والتصرف فيها ، أما إذا توجه القلب إلى مطالعة الحضرة الإلهية حصل فيه أنوار الصمدية والأضواء الإلهية ، فهناك يكون ساكناً فلهذا السبب قال : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

الوجه الثاني : أن القلب كلما وصل إلى شيء فإنه يطلب الانتقال منه إلى حالة أخرى أشرف منها ، لأنه لا سعادة في عالم الأجسام إلا وفوقها مرتبة أخرى في اللذة والغبطة .

أما إذا انتهى القلب والعقل إلى الاستسعاد بالمعارف الإلهية والأضواء الصمدية بقي واستقر فلم يقدر على الانتقال منه ألبتة ، لأنه ليس هناك درجة أخرى في السعادة أعلى

منها وأكمل ؛ فلهذا المعنى قال : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

والوجه الثالث : في تفسير هذه الكلمة أن الإكسير إذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسي انقلب ذهباً باقياً على كر الدهور والأزمان ، صابراً على الذوبان الحاصل بالنار ، فإكسير جلال الله تعالى إذا وقع في القلب أولى أن يقلبه جوهراً باقياً صافياً نورانياً لا يقبل التغيير والتبدل ، فلهذا قال : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ وفيه مسائل :

(16/412)

المسألة الأولى :

في تفسير كلمة ﴿ طوبى ﴾ ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنها اسم شجرة في الجنة ، روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده تنبت الحلي والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة" ، وحكى أبو بكر الأصم رضي الله عنه : أن أصل هذه الشجرة في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي دار كل مؤمن منها غصن .

والقول الثاني : وهو قول أهل اللغة إن طوبى مصدر من طاب ، كبشرى وزلفى ، ومعنى

طوبى لك ، أصبت طيباً ، ثم اختلفوا على وجوه : فقيل : فرح وقرة عين لهم .

عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل : نعم ما لهم عن عكرمة ، وقيل غبطة لهم عن الضحاك .

وقيل : حسنى لهم عن قتادة .

وقيل : خير وكرامة عن أبي بكر الأصم ، وقيل : العيش الطيب لهم عن الزجاج .

واعلم أن المعاني متقاربة والتفاوت يقرب من أن يكون في اللفظ .

والحاصل أنه مبالغة في نيل الطيبات ويدخل فيه جميع اللذات ، وتفسيره أن أطيب الأشياء في كل الأمور حاصل لهم .

والقول الثالث : أن هذه اللفظة ليست عربية ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : طوبى اسم الجنة بالحبشية ، وقيل اسم الجنة بالهندية .

وقيل البستان بالهندية ، وهذا القول ضعيف ، لأنه ليس في القرآن إلا العربي لا سيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" : ﴿ الذين آمنوا ﴾ مبتدأ و ﴿ طوبى لهم ﴾ خبره ، معنى طوبى لك أي أصبت طيباً ، ومحلها النصب أو الرفع ، كقولك طيباً لك وطيب لك وسلاماً لك وسلام لك ، والقراءة في قوله : ﴿ وحسن مآب ﴾ بالرفع والنصب تدلك على محلها ،

وقرأ مكوزة الأعرابي (طيب لهم) .

أما قوله : ﴿ وحسن مآب ﴾ فالمراد حسن المرجع والمقر وكل ذلك وعد من الله بأعظم النعيم ترغيباً في طاعته وتحذيراً عن المعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 38. 41 ﴾

(17/412)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : أي قليل ذاهب ، قاله مجاهد .

الثاني : زاد الراعي ، قاله ابن مسعود . ويحتمل

ثالثاً : وما جعلت الحياة الدنيا إلا متاعاً يتزود منها إلى الآخرة من التقوى والعمل الصالح .

قوله عز وجل : ﴿ والذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : بذكر الله بأفواههم ، قاله قتادة .

الثاني : بنعمة الله عليهم .

الثالث : بوعد الله لهم ، ذكره ابن عيسى .

الرابع : بالقرآن ، قاله مجاهد .

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : بطاعة الله .

الثاني : بثواب الله .

الثالث : بوعد الله تعالى لهم .

قوله عز وجل : ﴿ والذين ءامنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ فيه تسعة تأويلات :

أحدها : أن طوبى اسم من أسماء الجنة ، قاله مجاهد .

الثالث : معنى طوبى لهم حسنى لهم ، قاله قتادة .

الرابع : معناه نِعَم مالهم ، قاله عكرمة .

الخامس : معناه خير لهم ، قاله إبراهيم .

السادس : معناه غبطة لهم ، قاله الضحاك .

السابع : معناه فرح لهم وقرة عين ، قاله ابن عباس .

الثامن : العيش الطيب لهم ، قاله الزجاج .

التاسع : أن طوبى فُعلى من الطيب كما قيل أفضل وفضلى ، ذكره ابن عيسى .

وهذه معان أكثرها متقاربة .

وفيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها كلمة حبشية ، قاله ابن عباس .

الثاني : كلمة هندية ، قاله عبد الله بن مسعود .

الثالث : عربية ، قاله الجمهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(18/412)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ الآية ،

لما أخبر عمن تقدمت صفته بأن ﴿ لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ أنحى بعد ذلك على أغنيائهم ، وحقر شأنهم وشأن أموالهم ، المعنى : أن هذا كله بمشيئة الله ، يهب الكافر المال ليهلكه به ، ويقدر على المؤمن ليعظم بذلك أجره وذخره .

وقوله : ﴿ ويقدر ﴾ أي من التقدير ، فهو مناقض يبسط . ثم استجهلهم في قوله : ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾ وهي بالإضافة إلى الآخرة متاع ذاهب مضمحل يستمتع به قليلاً ثم يفنى . و" المتاع " : ما يتمع به مما لا يبقى وقال الشاعر : [الوافر]

تمَتَّعْ يا مشعث إن شيئاً . . . سبقت به الممات هو المتاع

وقوله تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية ﴾ الآية ، هذا رد على مقترحي الآيات من كفار قريش ، كسقوط السماء عليهم كسفاً ونحو ذلك من قولهم : سيِّر عنا الأخشبين واجعل لنا البطاح محارث ومغترساً كالأردن ، وأحي لنا قصيّاً وأسلافنا ، فلما لم يكن ذلك - بحسب أن آيات الاقتراح لم تجر عادة الأنبياء بالإتيان بها إلا إذا أراد الله تعذيب قوم - قالوا هذه المقالة ، فرد الله عليهم ﴿ قل . . . ﴾ أي أن نزول الآية لا تكون معه ضرورة إيمانكم ولا هداكم ، وإنما الأمر بيد الله ﴿ يضل من يشاء ويهدي ﴾ إلى طاعته والإيمان به ﴿ من أناب ﴾ إلى الطاعة وآمن بالآيات الدالة .

ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿ إليه ﴾ على القرآن الكريم ، ويحتمل أن يعود على محمد عليه السلام . و﴿ الذين ﴾ بدل من ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من أناب ﴾ و" طمأنينة القلوب " هي الاستكانة والسرور بذكر الله . والسكون به كمالاً به . ورضى بالثواب عليه وجودة اليقين .

ثم استفتح عز وجل الإخبار بأن طمأنينة القلوب بذكر الله تعالى . . وفي هذا الإخبار حض وترغيب في الإيمان ، والمعنى : أن بهذا تقع الطمأنينة لا بالآيات المقترحة ، بل ربما كفر بعدها ، فنزل العذاب كما سلف في بعض الأمم .

و ﴿ الذين ﴾ الثاني ابتداء وخبره : ﴿ طوبى لهم ﴾ ويصح أن يكون ﴿ الذين ﴾ بدلاً من الأول. و﴿ طوبى ﴾ ابتداء و﴿ لهم ﴾ خبره. و﴿ طوبى ﴾ اسم ، يدل على ذلك كونه ابتداء . وهي فعلى من الطيب في قول بعضهم ، وذهب سيبويه بها مذهب الدعاء وقال : هي في موضع رفع ، ويدل على ذلك رفع ﴿ وحسن ﴾ . وقال ثعلب : ﴿ طوبى ﴾ مصدر . وقرئ " وحسنَ بالنصب ف ﴿ طوبى ﴾ على هذا مصدر كما قالوا : سقياً لك ، ونظيره من المصادر الرجعى والعقبى . قال ابن سيده : والطوبى جمع طيبة عن كراع . ونظيره كوسى في جمع كيسة وضوفى في جمع ضيفة .

قال القاضي أبو محمد : والذي قرأ : " وحسنَ" بالنصب هو يحيى بن يعمر وابن أبي عبلة واختلف في معنى ﴿ طوبى ﴾ فقيل : خير لهم ، وقال عكرمة : معناه نعم ما لهم ، وقال الضحاك : معناه : غبطة لهم . وقال ابن عباس : ﴿ طوبى ﴾ : اسم الجنة بالحبشية ، وقال سعيد بن مسجوع : اسم الجنة ﴿ طوبى ﴾ بالهندية ، وقيل ﴿ طوبى ﴾ : اسم شجرة في الجنة – وبهذا تواترت الأحاديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " طوبى شجرة في الجنة ، يسير الراكب المجدّ في ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرؤوا إن شئتم " ﴿ وظل ممدود ﴾ [الواقعة : 30] وحكى الطبري عن أبي هريرة وعن مغيث بن سميّ وعتبة بن عبد يرفعه أخباراً مقتضاها : أن هذه الشجرة ليس دار في الجنة إلا وفيها من

أغصانها ، وأنها تثمر بثياب أهل الجنة ، وأنه يخرج منها الخيل بسروجها ولجمها ونحو هذا مما لم يثبت سنده .

و" المآب " : المرجع من آب يؤوب . ويقال في ﴿ طوبى ﴾ طيبى . انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(20/412)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾

أي : يوسِّع على من يشاء ﴿ ويقدر ﴾ أي : يضيِّق .

﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾ قال ابن عباس : يريد مشركي مكة ، فرحوا بما نالوا من الدنيا فطغَوْا وكذَّبوا الرسل .

قوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة ﴾ أي : بالقياس إِليها ﴿ إِلا متاع ﴾ أي : كالشيء الذي يُتمتع به ، ثم يفنى .

قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا ﴾

نزلت في مشركي مكة حين طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل آيات الأنبياء .

﴿ قل إن الله يُضل من يشاء ﴾ أي : يردُّه عن الهدى كما ردّكم بعدما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها ، ﴿ ويهدي إليه من أناب ﴾ أي : رجع إلى الحق ، وإنما يرجع إلى الحق من شاء الله رجوعه ، فكأنه قال : ويهدي من يشاء .

قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ﴾

هذا بدل من قوله : ﴿ أناب ﴾ ، والمعنى : يهدي الذين آمنوا ، ﴿ وتطمئن قلوبهم بذِكر الله ﴾ في هذا الذِّكر قولان :

أحدهما : أنه القرآن .

والثاني : ذِكر الله على الإطلاق .

وفي معنى هذه الطمأنينة قولان :

أحدهما : أنها الحُب له والأُنس به .

والثاني : السكون إليه من غير شك ، بخلاف الذين إذا ذُكر الله اشمأزت قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ ألا بذِكر الله ﴾ قال الزجاج : "ألا" حرف تنبيه وابتداء ، والمعنى : تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين ، لأن الكافر غير مطمئن القلب .

قوله تعالى : ﴿ طوبى لهم ﴾ فيه ثمانية أقوال :

أحدها : أنه اسم شجرة في الجنة .

روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن رجلاً قال : يا رسول الله

، ما طوبى ؟ قال : شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها " ،

وقال أبو هريرة : طوبى : شجرة في الجنة ، يقول الله عز وجل لها : تفتَّقي لعبدي عما شاء ، فتتفتق له عن الخيل بسروجها ولُجمها ، وعن الإِبل بأزمَّتها : وعمَّا شاء من الكسوة .

(21/412)

وقال شهر بن حوشب : طوبى : شجرة في الجنة ، كل شجر الجنة منها أغصانها ، من وراء سور الجنة ، وهذا مذهب عطية ، وشمر بن عطية ، ومغيث بن سُمَي ، وأبي صالح .

والثاني : أنه اسم الجنة بالحبشية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

قال المصنف : وقرأت على شيخنا أبي منصور عن سعيد بن مَسْجوح قال : طوبى : اسم الجنة بالهندية ، وممن ذهب إِلى أنه اسم الجنة عكرمة ، وعن مجاهد كالقولين .

والثالث : أن معنى طوبى لهم : فرح وقُرَّة عين لهم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والرابع : أن معناه : نُعمى لهم ، قاله عكرمة في رواية ، وفي رواية أخرى عنه : نِعم مالهم .

والخامس : غبطة لهم ، قاله سعيد بن جبير ، والضحاك .

والسادس : أن معناه : خير لهم ، قاله النخعي في رواية ، وفي أخرى عنه قال : الخير

والكرامة اللَّذان أعطاهم الله .

وروى معمر عن قتادة قال : يقول الرجل للرجل : طوبى لك ، أي : أصبتَ خيراً ، وهي كلمة عربية .

والسابع : حسنى لهم ، رواه سعيد عن قتادة عن الحسن .

والثامن : أن المعنى : العيش الطِّيب لهم .

"وطوبى" عند النحويين : فُعلى من الطيب ، هذا قول الزجاج .

وقال ابن الأنباري : تأويلها : الحال المستطابة ، والخَلَّة المستَلَذَّة ، وأصلها : "طُيْبى" فصارت الياء واواً لسكونها وانضمام ما قبلها كما صارت في "مُوقن" والأصل فيه "مُيْقن" لأنه مأخوذ من اليقين ، فغلبت الضمة فيه الياء فجعلتها واواً .

قوله تعالى : ﴿ وحسن مآب ﴾ المآب : المرجع والمنقلَب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(22/412)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾

لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بيّن أنه تعالى الذي يبسط الرزق ويقدر في الدنيا ، لأنها دار امتحان ؛ فبَسْط الرزق على الكافر لا يدلّ على كرامته ، والتّقتير على بعض المؤمنين لا يدلّ على إهانتهم .

"وَيَقْدِرُ" أي يضيق ؛ ومنه .

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] أي ضيّق .

وقيل : "يقدر" يعطي بقدر الكفاية .

﴿ وَفَرِحُواْ بالحياة الدنيا ﴾ يعني مشركي مكة ؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها ، وجهلوا ما عند الله ؛ وهو معطوف على "وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ" .

وفي الآية تقديم وتأخير ؛ التقدير : والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا .

﴿ وَمَا الحياة الدنيا فِي الآخرة ﴾ أي في جنبها .

﴿ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ أي متاع من الأمتعة ، كالقَصْعة والسُّكُرُّجَة .

وقال مجاهد : شيء قليل ذاهب ؛ من مَتَعَ النهارُ إذا ارتفع ، فلا بدّ له من زوال .

ابن عباس : زَادٌ كزاد الراعي .

وقيل : متاع الحياة الدنيا ما يُستمتع بها منها .

وقيل : ما يتزود منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ، "وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ" ثم ابتدأ .

"اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ" أي يوسّع ويضيّق .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾

بين في مواضع أن اقتراح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدلّ على الصدق ، والقائل عبد الله بن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات .

﴿ قُلْ إِنَّ الله ﴾ عزّ وجلّ ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها يضلّكم عند نزول غيرها .

﴿ ويهدي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي من رجع .

(23/412)

والهاء في "إليه" للحق ، أو للإسلام ، أو لله عزّ وجلّ ؛ على تقدير : ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه .

وقيل : هي للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ "الذين" في موضع نصب ، لأنه مفعول ؛ أي يهدي الله الذين آمنوا .

وقيل بدل من قوله : "مَنْ أَنَابَ" فهو في محل نصب أيضاً .

﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ﴾ أي تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن؛ قال: أي وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم؛ قاله قَتَادة.

وقال مجاهد وقَتَادة وغيرهما: بالقرآن.

وقال سفيان بن عيينة: بأمره.

مقاتل: بوعده.

ابن عباس: بالحلف باسمه، أو تطمئن بذكر فضله وإنعامه؛ كما تَوْجل بذكر عدله وانتقامه وقضائه.

وقيل: "بِذِكْرِ اللَّهِ" أي يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة.

﴿ أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ أي قلوب المؤمنين.

قال ابن عباس: هذا في الحلف؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه.

وقيل: "بِذِكْرِ اللَّهِ" أي بطاعة الله.

وقيل: بثواب الله.

وقيل: بوعد الله.

وقال مجاهد: هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات طوبى لَهُمْ ﴾ ابتداء وخبره.

وقيل: معناه لهم طُوبَى، ف"طُوبَى" رفع بالابتداء، ويجوز أن يكون موضعه نصباً على تقدير: جعل لهم طُوبى، ويعطف عليه "وَحُسْنُ مَآبٍ" على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب.

وذكر عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر عن يحيى بن أبي كَثِير عن عمرو بن أبي يزيد البِكَالِي عن عُتْبة بن عَبْد السُّلَمي قال: "جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الحوض فقال: فيها فاكهة؟ قال: "نعم شجرة تدعى طوبى" قال: يا رسول اللها أي شجرة أرضنا تشبه؟ قال: "لا تشبه شيئاً من شجر أرضك أأتيت الشام هناك شجرة تدعى الجوزة تنبت على ساق ويفترش أعلاها".

(24/412)

قال: يا رسول الله! فما عِظم أصلها قال: لو ارتحلت جَذَعة من إبل أهلك ما أَحَطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتها هَرَماً" وذكر الحديث، وقد كَتَبْنَاه بكماله في أبواب الجنة من كتاب "التذكرة"، والحمد لله.

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر عن الأشعث عن عبد الله عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوبى؛ يقول الله تعالى لها: تفتّقي لعبدي عما شاء

؛ فَتَفَتَّق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء ، وتَفَتَّق عن الراحلة بِرحلها وزمامها وهيئتها كما شاء ، وعن النّجائب والثّياب .

وذكر ابن وهب من حديث شهر بن حوشب عن أبي أُمامة الباهليّ قال : "طُوبَى" شجرة في الجنة ليس منها دار إلا وفيها غصن منها ، ولا طير حسن إلا هو فيها ، ولا ثمرة إلا هي منها ؛ وقد قيل : إن أصلها في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، ثم تنقسم فروعها على منازل أهل الجنة ، كما انتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا .

وقال ابن عباس : "طُوبَى لَهُمْ" فرح لهم وقرة عين ؛ وعنه أيضاً أن "طوبى" اسم الجنة بالحبشية ؛ وقاله سعيد بن جُبَير .

الربيع بن أنس : هو البستان بلغة الهند ؛ قال القُشَيري : إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين .

وقال قَتَادة : "طُوبَى لَهُمْ" حسنى لهم .

عِكْرِمة : نعمى لهم .

إبراهيم النَّخَعيّ : خير لهم ؛ وعنه أيضاً كرامة من الله لهم .

الضّحاك : غبطة لهم .

النحاس : وهذه الأقوال متقاربة ؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطّيب ؛ أي العيش الطّيب لهم ؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطّيب .

وقال الزّجاج : طُوبَى فُعْلَى من الطِّيب ، وهي الحالة المستطابة لهم ؛ والأصل طُيْبَى ، فصارت الياء واواً لسكونها وضم ما قبلها ، كما قالوا : موسِر وموقِن .

(25/412)

قلت : والصحيح أنها شجرة ؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه ، وهو صحيح على ما ذكره السُّهَيْلي ؛ ذكره أبو عمر في التمهيد ، ومنه نقلناه ؛ وذكره أيضاً الثعلبي في تفسيره ؛ وذكر أيضاً المهدوي والقُشَيري عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُنبت الحليّ والحُلَل وإن أغصانها لَتُرى من وراء سور الجنة" ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبيّ .

وقال ابن عباس : "طُوبَى" شجرة في الجنة أصلها في دار عليّ ، وفي دار كل مؤمن منها غُصْن .

وقال أبو جعفر محمد بن علي : " سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : "طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ" قال : "شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة" ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : "شجرة أصلها في دار عليّ وفروعها في الجنة" .

فقيل له : يا رسول اللها سئلت عنها فقلت : "أصلها في داري وفروعها في الجنة" ثم سئلت عنها فقلت : "أصلها في دار علي وفروعها في الجنة" فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن داري ودار عليّ غداً في الجنة واحدة في مكان واحد" وعنه صلى الله عليه وسلم : "هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دوركم إلا مُدلّى فيها غُصن منها" " ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ آب إذا رجع .

وقيل : تقدير الكلام الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وعملوا الصالحات طوبى لهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(26/412)

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾

يعني يوسع على من يشاء من عباده فيغنيه من فضله ، ويضيق على من يشاء من عباده فيفقره ويقتر عليه ، وهذا أمر اقتضته حكمة الله ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾ يعني مشركي مكة لما بسط الله عليهم الرزق أشروا وبطروا والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المشتهى .

وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا والركون إليها حرام ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة ﴾ يعني بالنسبة إلى الآخرة ﴿ إلا متاع ﴾ أي قليل ذاهب .

قال الكلبي : المتاع مثل السكرجة والقصعة والقدر ينتفع بها في الدنيا ثم تذهب كذلك الحياة لأنها ذاهبة لا بقاء لها ﴿ ويقول الذين كفروا ﴾ يعني من أهل مكة ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ يعني هلا أنزل على محمد آية ومعجزة مثل معجزة موسى وعيسى ﴿ قل ﴾ أي قل لهم يا محمد : ﴿ إن الله يضل من يشاء ﴾ فلا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات إن لم يهده الله وهو قوله ﴿ ويهدي إليه من أناب ﴾ يعني ويرشد إلى دينه والإيمان به من أناب بقلبه ورجع إليه بكليته ﴿ الذين آمنوا ﴾ بدل من قوله من أناب ﴿ وتطمئن قلوبهم ﴾ يعني وتسكن قلوبهم ﴿ بذكر الله ﴾ قال مقاتل : بالقرآن لأنه طمأنينة لقلوب المؤمنين والطمأنينة والسكون إنما تكون بقوة اليقين ، والاضطراب إنما يكون بالشك ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ يعني بذكره تسكن قلوب المؤمنين ويستقر اليقين فيها .

وقال ابن عباس : هذا في الحلف وذلك أن المسلم إذا حلف بالله على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه .

فإن قلت أليس قد قال الله تبارك وتعالى في أول سورة الأنفال ﴿ إنما المؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ والوجل استشعار الخوف ، وحصول الاضطراب وهو ضد الطمأنينة فكيف وصفهم بالوجل والطمأنينة وهل يمكن الجمع بينهما في حال واحد .

قلت : إنما يكون الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب الطمأنينة ، إنما تكون عند الوعد والثواب فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه وعقابه وتطمئن إذا ذكرت فضل الله ورحمته وكرمه وإحسانه .

﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم ﴾

اختلف العلماء في تفسير طوبى فقال ابن عباس : فرح لهم وقرة أعين .

وقال عكرمة : نعمى لهم .

وقال قتادة : حسن لهم وفي رواية أخرى ، عنه إن هذه الكلمة عربية يقول الرجل للرجل : طوبى لك أي أصبت خيراً .

وقال إبراهيم النخعي خير لهم وكرامة .

وقال الزجاج : طوبى من الطيب وقيل تأويلها الحال المستطابة لهم وهو كل ما استطابه هؤلاء في الجنة من بقاء بلا فناء وعز بلا ذل وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم .

قال الأزهري : تقول طوبى لك وطوباك لحن لا تقوله العرب وهو قول أكثر النحويين .

وقال سعيد بن جبير : طوبى اسم الجنة بالحبشية وروي عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي

الدرداء أن طوبى اسم شجرة في الجنة تظلل الجنان كلها .

وقال عبيد ابن عمير : هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي (صلى الله عليه وسلم) وفي كل دار وغرفة في الجنة منها غصن لم يخلق الله لوناً ولا زهرة إلا وفيها منه إلا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة إلا وفيها منها ينبع من أصلها عينان : الكافور والسلسبيل .

وقال مقاتل : كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله بأنواع التسبيح وروي عن أبي سعيد الخدري : أن رجلاً سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن طوبى فقال : " هي شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها " وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه .

قال : " طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة " هكذا ذكر البغوي هذه الحديثين بغير سند ، وروي بسنده موقوفاً عن أبي هريرة قال : " إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرؤوا إن شئتم وظل ممدود " فبلغ ذلك كعب الأحبار فقال : صدق والذي أنزل التوراة على موسى والقرآن على محمد لو أن رجلاً ركب فرساً أو حقة أو جذعة ، ثم دار بأصل

تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرماً إن الله غرسها بيده ، ونفخ فيها من روحه وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة ، وما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة .

فقال البغوي وبهذا الإسناد عن عبد الله بن المبارك عن الأشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال : " إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله لها تفتقي لعبدي عما يشاء فتفتق له عن فرس مسرجة بلجامها وهيئتها كما يشاء وتفتق له عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء عن وعن الثياب " (ق) عن سهل بن سعد ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال :

" إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها " (ق) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها " (ق) وعن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة " زاد البخاري في روايته " واقرؤوا إن شئتم وظل ممدود " .

وقوله تعالى ﴿ وحسن مآب ﴾ يعني ولهم حسن منقلب ومرجع ينقلبون ويرجعون إليه في الآخرة وهي الجنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ (26) ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتره على من يشاء ، لما له في ذلك من الحكمة والعدل . وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجا لهم وإمهالا كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : 55 ، 56] .

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ ﴾

كما قال : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا ﴾ [النساء : 77] وقال ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : 16 ، 17] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا حدثنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن

قيس ، عن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم ، فلينظر بم ترجع" وأشار بالسبابة . ورواه مسلم في صحيحه . (1)

وفي الحديث الآخر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجَدْيٍ أسكَّ ميتٍ - والأسك الصغير الأذنين - فقال : "والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه" . (2)

---

(1) المسند (4/228) وصحيح مسلم برقم (2858) .

(4) رواه مسلم في صحيحه برقم (2957) من حديث جابر ، رضي الله عنه .

(31/412)

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29) ﴾

يخبر تعالى عن قيل المشركين : ﴿ لَوْلا ﴾ أي : هلا ﴿ أُنزلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ كما قالوا : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء : 5] وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة ، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا . وفي الحديث : أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهبًا ، وأن يجري لهم ينبوعًا ، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها

مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا فإني أعذبهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: "بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة" (1)؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي: هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبهم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: 101] وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: 96، 97] وقال ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: 111]؛ ولهذا قال: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي: ويهدي من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه.

---

(1) رواه أحمد في المسند (1/242) من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي : تطيب وتركن إلى جانب الله ، وتسكن عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيرًا ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أي : هو حقيق بذلك .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ قال ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : فرح وقُرة عين . وقال عِكْرِمة : نعم ما لهم .

وقال الضحاك : غبطة لَهُم . وقال إبراهيم النَّخعي : خير لهم .

وقال قتادة : هي كلمة عربية يقول الرجل : "طوبى لك" ، أي : أصبت خيرًا . وقال في رواية : ﴿ طُوبَى لَهُمْ ﴾ حسنى لهم .

﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ أي : مرجع .

وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ طُوبَى لَهُمْ ﴾ قال : هي أرض الجنة بالحبشية .

وقال سعيد بن مَسْجُوح : طوبى اسم الجنة بالهندية . وكذا روى السدي ، عن عِكْرِمة : ﴿ طُوبَى لَهُمْ ﴾ أي : الجنة . وبه قال مجاهد .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ وذلك حين أعجبته .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب ، عن جعفر ، عن شَهْر بن حَوْشَب قال

: ﴿ طُوبَى ﴾ شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة.

وهكذا رُوي عن أبي هريرة، وابن عباس، ومغيث بن سُمَىّ، وأبي إسحاق السَّبِيعي وغير واحد من السلف: أن طوبى شجرة في الجنة، في كل دار منها غصن منها.

وذكر بعضهم أن الرحمن، تبارك وتعالى، غرسها بيده من حبة لؤلؤة، وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة، من عسل وخمر وماء ولبن.

وقد قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن درّاجا أبا السَّمْح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، [مرفوعا: "طوبى: شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها". (1)

---

(1) رواه الطبري في تفسيره (16/443) قال أحمد، رحمه الله: "أحاديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد فيها ضعف".

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، سمعت عبد الله بن لَهِيعة ، حدثنا دَرَّاج أبو السمح ، أن أبا الهيثم حدثه ، عن أبي سعيد الخدري] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن رجلا قال : يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك . قال : "طوبى لمن رآني وآمن بي ، ثم طوبى ، ثم طوبى ، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني" . قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : "شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها" . (1)

وروى البخاري ومسلم جميعًا ، عن إسحاق بن راهويه ، عن مغيرة المخزومي ، عن وَهيب ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها" قال : فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزّرَقي ، فقال : حدثني أبو سعيد الخُدْري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجَوَاد المضمَّرَ السريع مائة عام ما يقطعها" . (2)

وفي صحيح البخاري ، من حديث يزيد بن زُرَيع ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله : ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : 30] قال : "في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها" . (3)

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيْج ، حدثنا فُلَيْح ، عن هلال بن علي ، عن عبد الرحمن بن

أبي عمرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرءوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ أخرجاه في الصحيحين. (4)

وقال [الإمام] أحمد أيضًا: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا حدثنا شعبة، سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين - أو: مائة - سنة هي شجرة الخلد". (5)

(1) المسند (71/3).

(2) صحيح البخاري برقم (6552) وصحيح مسلم برقم (2827).

(3) صحيح البخاري برقم (3251).

(4) المسند (482/2).

(5) المسند (455/2).

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر

سدرة المنتهى ، قال : "يسير في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة – أو : قال – : يستظل في الفنن منها مائة راكب ، فيها فراش الذهب ، كأن ثمرها القلال" . رواه الترمذي . (1)

---

(1) سنن الترمذي برقم (2541) وقال الترمذي : "حديث حسن غريب" وفي بعض النسخ : "حسن صحيح غريب" .

(36/412)

وقال إسماعيل بن عياش ، عن سعيد بن يوسف ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلام الأسود قال : سمعت أبا أمامة الباهلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى ، فتفتح له أكمامها ، فيأخذ من أي ذلك شاء ، إن شاء أبيض ، وإن شاء أحمر ، وإن شاء أصفر ، وإن شاء أسود ، مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن" . (1)

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن مَعْمَر ، عن أشعث بن عبد الله ، عن شَهْر بن حَوْشَب ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : طوبى شجرة في الجنة ، يقول الله لها : "تَفَتَّقي لعبدي عَمّا شاء ؛ فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها ، وعن الإبل بأزمتها ، وعما شاء من الكسوة" . (2)

(1) رواه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة برقم (146) من طريق أبي عتبة، عن إسماعيل بن عياش، به.

(2) تفسير الطبري (16/438) ورواه ابن المبارك في الزهد برقم (265) من طريق معمر عن الأشعث، به. وشهر بن حوشب ضعيف.

(37/412)

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثرًا غريبًا عجيبا، قال وهب، رحمه الله: إن في الجنة شجرة يقال لها: "طوبى"، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، زهرها رياط، وورقها برود، وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، ووَحَلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة، فبينا هم في مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجبا مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسنا ووبرها كخز المرْعِزّي من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينيخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال: فيركبونها، فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش، نجبا من غير مَهَنَة، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أذن

راحلة منها أذن الأخرى ، ولا بَرك راحلة برك الأخرى ، حتى إن شجرة لتتنحَّى عن طريقهم ، لئلا تفرق بين الرجل وأخيه . قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه ، فإذا رأوه قالوا : اللهم ، أنت السلام ومنك السلام ، وحق لك الجلال والإكرام . قال : فيقول تعالى [عند ذلك] أنا السلام ومني السلام ، وعليكم حقت رحمتي ومحبتي ، مرحبا بعبادي الذين خشوني بغيب وأطاعوا أمري" .

قال : فيقولون : ربنا لم نعبدك حق عبادتك ، ولم نقدرك حق قدرك ، فأذن لنا في السجود قُدامك قال : فيقول الله : "إنها ليست بدار نصب ولا عبادة ، ولكنها دار مُلْك ونعيم ، وإني قد رفعت عنكم نصب العبادة ، فسلوني ما شئتم ، فإن لكل رجل منكم أمنيته" فيسألونه ، حتى أن أقصرهم أمنية ليقول : رب ، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها ، رب فآتنى مثل كل شيء كانوا فيه من

(38/412)

يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا . فيقول الله تعالى : "لقد قصرت بك أمنيتك ، ولقد سألت دون منزلتك ، هذا لك مني ، [وسأتحفك بمنزلتي] ؛ لأنه ليس في عطائي نكد ولا تَصريد" .

قال : ثم يقول : "اعرضوا على عبادي ما لم يبلغ أمانيهم ، ولم يخطر لهم على بال" . قال :

فيعرضون عليهم حتى تَقْصر بهم أمانيهم التي في أنفسهم ، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقْرنة ، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة ، على كل سرير منها قبة من ذهب مُفرَّغة ، في كل قبة منها فرش من فُرش الجنة مُتظاهرة ، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين ، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة ، وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما ولا ريح طيبة إلا قد عبقتا به ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة ، حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة ، يرى مخهما من فوق سوقهما ، كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء ، يريان له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ، ويرى هو لهما مثل ذلك ، ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعتنقانه به ، ويقولان له : والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك . ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفا في الجنة ، حتى ينتهي بكل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له . (1)

---

(1) تفسير الطبري (439/16) .

(39/412)

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده ، عن وهب بن منبه ، وزاد : فانظروا إلى موهوب ربكم الذي وهب لكم ، فإذا هو بقباب في الرفيق الأعلى ، وغرف مبنية من الدر

والمرجان ، وأبوابها من ذهب ، وسررها من ياقوت ، وفرشها من سندس وإستبرق ، ومنابرها من نور ، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء ، وإذا بقصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها ، فلولا أنه مُسَخر ، إذاً لالتمع الأبصارَ ، فما كان من تلك القصور من الياقوت [الأبيض ، فهو مفروش بالحرير الأبيض ، وما كان منها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقري الأحمر ، وما كان منها من الياقوت الأخضر] فهو مفروش بالسندس الأخضر ، وما كان منها من الياقوت الأصفر ، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر منزه بالزمرد الأخضر ، والذهب الأحمر ، والفضة البيضاء ، قوائمها وأركانها من الجوهر ، وشُرُفها قباب من لؤلؤ ، وبروجها غُرَف من المرجان . فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم ، قُرِّبت لهم براذين من ياقوت أبيض ، منفوخ فيها الروح ، تجَنَبها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة بِرْذَون من تلك البراذين ، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء ، منظومة بالدر والياقوت ، سُرُوجها سُرُرٌ موضونة ، مفروشة بالسندس والإستبرق . فانطلقت بهم تلك البراذين تَزَف بهم ببطن رياض الجنة . فلما انتهوا إلى

منازلهم ، وجدوا الملائكة قُعُودًا على منابر من نور ، ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامَةَ ربهم . فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تَطَاول به عليهم وما سألوا وتمنوا ، وإذا على باب كلّ قصر من تلك القصور أربعة جنان ، [جنتان] ذواتا أفنان ، وجنتان مُدْهامتان ، وفيهما عينان نضاختان ، وفيهما من كل فاكهة زوجان ، وحور مقصورات في الخيام ، فلما تَبَيَّنُوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم : هل وجدتم ما وعدتكم حقا ؟ قالوا : نعم وربِّنَا . قال : هل رضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا : ربنا ، رضينا فارض عنا قال : برضاي عنكم حللتم داري ، ونظرتم إلى وجهي ، وصافحتكم ملائكتي ، فهنيئًا هنيئًا لكم ، ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] ليس فيه تنغيص ولا تصريد . فعند ذلك قالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، وأدخلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ، إن ربنا لغفور شكور .

وهذا سياق غريب ، وأثر عجيب ولبعضه شواهد ، ففي الصحيحين : أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذي يكون آخر أهل الجنة دخولا الجنة : تمن" ، فيتمنى حتى إذا انتهت به الأماني يقول الله تعالى : "تمن من كذا وتمن من كذا" ، يذكره ، ثم يقول : "ذلك لك ، وعشرة أمثاله" . (1)

وفي صحيح مسلم ، عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله ، عز وجل يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ،

فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا ، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر" ، الحديث بطوله . (2)

وقال خالد بن مَعْدَان : إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى ، لها ضروع ، كلها ترضع صِبيَان أهل الجنة ، وإن سَقَط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة ، يتقلب فيه حتى تقوم القيامة ، فيبعث ابن أربعين سنة . رواه ابن أبي حاتم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير جـ 4 صـ 159.153 ﴾

---

(1) صحيح البخاري برقم (6573) وصحيح مسلم برقم (182) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد ، رضي الله عنهما .

(2) صحيح مسلم برقم (2577) .

(41/412)

وقال أبو حيان :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾

ولما كان كثير من الأشقياء فتحت عليهم نعم الدنيا ولذاتها أخبر تعالى أنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، والكفر والإيمان لا تعلق لهما بالرزق .

قد يقدر على المؤمن ليعظم أجره ، ويبسط للكافر إملاء لازدياد آثامه .

ويقدر مقابل يبسط ، وهو التضييق من قوله : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ وعليه يحمل ﴿ فظن أنْ لن نقدر عليه ﴾ وقول ذلك الذي أحرق وذري في البحر : "لئن قدر الله على" أي لئن ضيق .

وقيل : يقدر يعطي بقدر الكفاية .

وقرأ زيد بن علي : ويقدر بضم الدال ، حيث وقع والضمير في فرحوا عائد على الذين ينقضون ، وهو استئناف إخبار عن جهلهم بما أوتوا من بسطة الدنيا عليهم ، وفرحهم فرح بطر وبسط لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم ، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة بفضل الله به ، واستجهلهم بهذا الفرح إذ هو فرح بما يزول عن قريب وينقضي .

ويبعد قول من ذهب إلى أنه معطوف على صلات .

والذين ينقضون أي : يفسدون في الأرض ، وفرحوا بالحياة الدنيا .

وفي الكلام تقديم وتأخير .

ومتاع : معناه ذاهب مضمحل يستمتع به قليلاً ثم يفنى .

كما قال الشاعر :

تمتع يا مشعث إن شيئاً . . .

سبقت به الممات هو المتاع

وقال آخر :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى . . .

غير أن لا بقاء للإنسان

وقال آخر :

تمتع من الدنيا فإنك فان . . .

من النشوات والنساء الحسان

قال الزمخشري : خفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نذراً ، يتمتع به كعجالة الراكب ، وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق أو غير ذلك انتهى .

وهذا معنى قول الحسن : أعلم الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن الحياة الدنيا في جنب ما أعد الله لأوليائه في الآخرة نذر ليس يتمتع به كعجالة الراكب ، وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق أو غير ذلك .

وقال ابن عباس : زاد كزاد الرعي .

وقال مجاهد : قليل ذاهب من متع النهار إذا ارتفع فلا بد له من زوال .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾

نزلت : ويقول الذين كفروا ، في مشركي مكة ، طلبوا مثل آيات الأنبياء .

والملتمس ذلك هو عبد الله بن أبي أمية وأصحابه ، رد تعالى على مقترحي الآيات من كفار قريش كسقوط السماء عليهم كسفاً .

وقولهم : سير علينا الأخشبين ، واجعل لنا البطاح محارث ومغترساً كالأردن ، وأحي لنا مضينا وأسلافنا ، ولم تجر عادة الله في الإتيان بالآيات المقترحة إلا إذا أراد هلاك مقترحها ، فرد تعالى عليهم بأن نزول الآية لا يقتضي ضرورة إيمانكم وهداكم ، لأنّ الأمر بيد الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف يطابق قولهم : لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إن الله يضل من يشاء ؟ (قلت) : هو كلام يجري مجرى التعجب من قولهم ، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يؤتها نبي قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية ، فإذا جحدوها ولم يعتدوا بها وجعلوه كأنه لم ينزل عليه قط كان موضع التعجب والاستنكار ، فكأنه قيل لهم : ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم إن الله يضل من يشاء ، فمن كان على صفتكم من التصميم وشدة التسليم في الكفر فلا سبيل إلى اهتدائكم وإن أنزلت كل آية ، ويهدي إليه من كان على خلاف

صفتكم .

وقال أبو علي الجبائي : يضل من يشاء عن رحمته وثوابه عقوبة له على كفره ، ويهدي إليه من أناب أي : إلى جنته من أناب أي : من تاب .

والهدى تعلقه بالمؤمن هو الثواب لأنه يستحقه على إيمانه ، وذلك يدل على أنه يضل عن الثواب بالعقاب ، لا عن الدين بالكفر ، على ما ذهب إليه من خالفنا انتهى .

وهي على طريقة الاعتزال .

والضمير في إليه عائد على القرآن ، أو على الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

(43/412)

والظاهر أنه عائد على الله تعالى على حذف مضاف أي : إلى دينه وشرعه .

وأناب أقبل إلى الحق ، وحقيقته دخل في توبة الخير .

والذين آمنوا : بدل من أناب .

واطمئنان القلوب سكونها بعد الاضطراب من خشيته .

وذكر الله ذكر رحمته ومغفرته ، أو ذكر دلائله على وحدانيته المزيلة لعلف الشبه .

أو تطمئن بالقرآن ، لأنه أعظم المعجزات تسكن به القلوب وتنتبه .

ثم ذكر الحض على ذكر الله وأنه به تحصل الطمأنينة ترغيباً في الإيمان ، والمعنى : أنه بذكره تعالى تطمئن القلوب لا بالآيات المقترحة ، بل ربما كفر بعدها ، فنزل العذاب كما سلف في بعض الأمم .

وجوزوا في الذين أن يكون بدلاً من الذين ، وبدلاً من القلوب على حذف مضاف أي : قلوب الذين ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أي : هم الذين ، وأن يكون مبتدأ خبره ما بعده .

وطوبى : فعل من الطيب ، قلبت ياؤه واواً لضمة ما قبلها كما قلبت في موسر ، واختلفوا في مدلولها : فقال أبو الحسن الهنائي : هي جمع طيبة قالوا في جمع كيسة كوسى ، وصيفة صوفى .

وفعلى ليست من ألفاظ الجموع ، فلعله يعني بها اسم جمع .

وقال الجمهور : هي مفرد كبشرى وسقيا ورجعى وعقبى ، واختلف القائلون بهذا في معناها .

فقال الضحاك : المعنى غبطة لهم .

وعنه أيضاً : أصبت خيراً .

وقال عكرمة : نعمى لهم .

وقال ابن عباس : فرح وقرة عين .

وقال قتادة : حسنى لهم .

وقال النخعي : خير لهم ، وعنه أيضاً كرامة لهم .

وعن سميط بن عجلان : دوام الخير .

وهذه أقوال متقاربة ، والمعنى العيش الطيب لهم .

وعن ابن عباس ، وابن جبير : طوبى اسم للجنة بالحبشية .

وقيل : بلغة الهند .

وقال أبو هريرة ، وابن عباس أيضاً ، ومعتب بن سمي ، وعبيد بن عمير ، ووهب بن منبه : هي شجرة في الجنة .

وروي مرفوعاً إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من حديث عتبة بن عبيد السلمي أنه قال ، " وقد سأله أعرابي : يا رسول الله أفي الجنة فاكهة ؟ قال : "نعم فيها شجرة تدعى طوبى" " وذكر الحديث .

(44/412)

قال القرطبي : الصحيح أنها شجرة للحديث المرفوع حديث عتبة ، وهو صحيح على ما ذكره السهيلي ، وذكره أبو عمر في التمهيد والثعلبي .

وطوبى : مبتدأ ، وخبره لهم .

فإن كانت علماً لشجرة في الجنة فلا كلام في جواز الابتداء ، وإن كانت نكرة فمسوغ الابتداء بها ما ذهب إليه سيبويه من أنه ذهب بها مذهب الدعاء كقولهم : سلام عليك ، إلا أنه التزم فيه الرفع على الابتداء ، فلا تدخل عليه نواسخه هكذا قال : ابن مالك .

ويرده أنه قرئ : وحسن مآب بالنصب ، قرأه كذلك عيسى الثقفي ، وخرج ذلك ثعلب على أنه معطوف على طوبى ، وأنها في موضع نصب ، وحسن مآب معطوف عليها .

قال ثعلب : وطوبى على هذا مصدر كما قالوا : سقيا .

وخرجه صاحب اللوامح على النداء قال : بتقدير يا طوبى لهم ، ويا حسن مآب .

فحسن معطوف على المنادى المضاف في هذه القراءة ، فهذا نداء للتحنين والتشويق كما قال : يا أسفي على الفوت والندبة انتهى .

ويعني بقوله : معطوف على المنادى المضاف ، أنّ طوبى مضاف للضمير ، واللام مقحمة كما أقحمت في قوله : يا بؤس للجهل ضراراً لأقوام ، وقول الآخر : يا بؤس للحرب التي ، ولذلك سقط التنوين من بؤس وكأنه قيل : يا طوباهم وحسن مآب أي : ما أطيبهم وأحسن مآبهم ، كما تقول : يا طيبها ليلة أي : ما أطيبها ليلة .

وقرأ بكرة الأعرابي طيبي بكسر الطاء ، لتسلم الياء من القلب ، وإن كان وزنها فعلى ، كما كسروا في بيض لتسلم الياء ، وإن كان وزنها فعلاً كحمر .

وقال الزمخشري : أصبت خيراً وطيباً ، ومحلها النصب أو الرفع كقولك : طيباً لك ، وطيب لك ، وسلاماً لك ، وسلام لك ، والقراءة في قوله : وحسن مآب بالرفع والنصب بذلك على محلها ، واللام في لهم للبيان مثلها في سقيا لك .

وقرىء : وحسن مآب بفتح النون ، ورفع مآب .

فحسن فعل ماض أصله وحسن نقلت ضمة سينه إلى الحاء ، وهذا جائز في فعل إذا كان للمدح أو الذم كما قالوا : حسن ذا أدباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(45/412)

وقال أبو السعود :

﴿ الله يَبْسُطُ الرزق ﴾

أي يوسّعه ﴿ لِمَن يَشَاء ﴾ من عباده ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يضيّقه على ما يشاء حسبما تقتضيه الحكمةُ من غير أن يكون لأحد مدخلٌ في ذلك ولا شعورٌ بحكمته فربما يبسُطه للكافر إملاءً واستدراجا وربما يضيّقه على المؤمن زيادةً لأجره فلا يُغترّ ببسطه للكافر كما لا يَقنط بقدره المؤمنُ ﴿ وَفَرِحُواْ ﴾ أي أهلُ مكة فرَحَ أشَرٍ وبطر ، لا فرحَ سرورٍ بفضل الله تعالى ﴿ بالحياة الدنيا ﴾ وما بُسط لهم فيها من نعيمها ﴿ وَمَا الحياة الدنيا ﴾ وما

يتبعها من النعيم ﴿ فِى الآخرة ﴾ أي في جنب نعيمِ الآخرة ﴿ إِلَّا متاع ﴾ إلا شيءٌ نزْرٌ يُتمتع به كعُجالة الراكب وزادِ الراعي ، والمعنى أنهم رضُوا بحظ الدنيا معرِضين عن نعيم الآخرةِ ، والحال أن ما أشِروا به في جنب ما أعرضوا عنه شيءٌ قليل النفع سريعُ النفاد .

(46/412)

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي أهل مكة ، وإيثارُ هذه الطريقة على الإضمار مع ظهور إرادتِهم عقيبَ ذكرِ فرحِهم بالحياة الدنيا لذمهم والتسجيلِ عليهم بالكفر فيما حُكي عنهم من قولهم : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبّهِ ﴾ فإن ذلك في أقصى مراتبِ المكابرة والعِناد كأن ما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات العظامِ الباهرةِ ليس بآية حتى اقترحوا ما تقتضيه الحِكمةُ من الآيات المحسوسةِ التي لا يبقى لأحد بعد ذلك طاقةٌ بعدم القَبول ولذلك أُمر في الجواب بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاء ﴾ إضلالَه مشيئةً تابعة للحكمة الداعيةِ إليها أي يخلُق فيه الضلال لصرفه اختيارَه إلى تحصيله ويدعُه منهمكاً فيه لعلمه بأنه لا ينجَع فيه اللطفُ ولا ينفعه الإرشاد ، كمن كان على صفتكم في المكابرة والعِناد وشدةِ الشكيمةِ والغلوِّ في الفساد ، فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءتْه كلُّ آية ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ ﴾ أي إلى جنابه العليِّ الكبير هدايةً موصِلةً إليه لا دلالةً مطلقة على ما يوصِل إليه فإن ذلك

غيرُ مختصٍ بالمهتدين ، وفيه من تشريفهم ما لا يوصف ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ أقبل إلى الحق وتأملَ في تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحةِ ، وحقيقةُ الإنابة الدخولُ في نوبة الخير ، وإيثارُ إيرادِها في الصلة على إيراد المشيئةِ كما في الصلة الأولى لا للتنبيه على الداعي إلى الهداية بل إلى مشيئتها والإشعارِ بما دعا إلى المشيئة الأولى من المكابرة ، وفيه حث للكفرة على الأقلاع عما هم عليه من العتو والعِناد ، وإيثارُ صيغةِ الماضي للإيماء إلى استدعاء الهدايةِ لسابقة الإنابة كما أن إيثارَ صيغةِ المضارعِ في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئةِ حسب استمرار مكابرتهم .

﴿ الذين ءامَنُواْ ﴾

(47/412)

بدل ممن أناب فإن أريد بالهداية الهدايةُ المستمرةُ فالأمر ظاهر لظهور كونِ الإيمانِ مؤدياً إليها ، وإن أريد إحداثُها فالمراد بالذين آمنوا الذين صار أمرُهم إلى الإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ هُدًى لّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي الصائرين إلى التقوى وإلا فالإيمانُ لا يؤدّي إلى الهداية نفسها ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي هم الذين آمنوا أو منصوب على المدح ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي تستقر وتسكُن ﴿ بِذِكْرِ الله ﴾ بكلامه المعجزِ الذي لا ريب فيه كقوله تعالى : ﴿ وهذا

ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أنزلناه ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ ويعلمون أن لا آيةَ أعظمُ منه فيقترحوها ، والعدول إلى صيغة المضارعِ لإفادة دوامِ الاطمئنان وتجدّده حسبَ تجدّدِ الآيات وتعددها ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ الله ﴾ وحده ﴿ تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ دون غيرِه من الأمور التي تميل إليها النفوسُ من الدنيويات ، وهذا ظاهر ، وأما سائرُ المعجزات فالقصرُ من حيث إنها ليست في إفادة الطُّمأنينة بالنسبة إلى من لم يشاهدْها بمثابة القرآنِ المجيدِ فإنه معجزةٌ باقية إلى يوم القيامة يشاهدها كلُّ أحد وتطمئن به القلوبُ كافة ، وفيه إشعارٌ بأن الكفرةَ ليست لهم قلوبٌ تفقه وأفئدتهم هواءٌ حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدّوه آيةً وهو أظهرُ الآياتِ وأبهرُها ، وقيل : تطمئن قلوبُهم بذكر رحمتِه ومغفرته بعد القلق والاضطرابِ من خشية الله كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ أو بذكر دلائِله الدالةِ على وحدانيته أو بذكره جل وعلا أُنساً به وتبتلاً إليه فالمرادُ بالهداية دوامُها واستمرارُها .

(48/412)

﴿ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ بدلٌ من القلوب على حذف المضافِ بدلَ الكلِّ حسبما رُمز إليه أي قلوبُ الذين آمنوا ، وفيه إيماءٌ إلى أن الإنسان إنما هو القلبُ ، أو مبتدأٌ

خبرُه الجملة الدعائيةُ على التأويل أعني قوله : ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ أو خبرُ مبتدإٍ مضمر ، أو نُصب على المدح فطوبى لهم حالٌ عاملُها الفعلان وطوبى مصدرٌ من طاب كبُشرى وزلُفى ، والواوُ منقلبةٌ من الياء كموقن وموسر وقرأ مكوزة الأعرابي طيبى لتسلم الياء ، والمعنى أصابوا خيراً ومحلُّها النصبُ كسلاماً لك أو الرفعُ على الابتداء وإن كانت نكرةً لكونها في معنى الدعاء كسلامٌ عليك ، يدل على ذلك القراءة في قوله تعالى : ﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ بالنصب والرفع واللامُ في لهم للبيان مثلها في سُقياً لك . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(49/412)

وقال الآلوسى :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾

أي يوسعه ﴿ لِمَن يَشَاء ﴾ من عباده ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يضيق ، وقيل : يعطي بقدر الكفاية ، والمراد بالرزق الدنيوي لا ما يعم الأخروي لأنه على ما قيل غير مناسب للسياق ، وقال صاحب الكشف : إنه شامل للرزقين الحسي والمعنوي الدنيوي والأخروي وذكر في بيان ربط الآية على ذلك ما ذكر ، وهي كما روي عن ابن عباس نزلت في أهل مكة ثم إنها

وإن كانت كذلك عامة وكأنها دفع لما يتوهم من أنه كيف يكونون مع ما هم عليه من الضلال في سعة من الرزق فبين سبحانه أن سعة رزقهم ليس تكريماً لهم كما أن تضييق رزق بعض المؤمنين ليس لإهانة لهم وإنما كل من الأمرين صادر منه تعالى لحكم إلهية يعلمها سبحانه وربما وسع على الكافر إملاءً واستدراجاً له وضيق على المؤمن زيادة لأجره .

وتقديم المسند إليه في مثل هذه الآية للتقوى فقط عند السكاكي ، والزمخشري يرى أنه لا مانع من أن يكون للتقوى والتخصيص ولذا قال : أي الله وحده هو يبسط ويقدر دون غيره سبحانه ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ بضم الدال حيث وقع ﴿ وَفَرِحُواْ ﴾ استئناف ناع قبح أفعالهم مع ما وسعه عليه .

والضمير قيل لأهل مكة وإن لم يسبق ذكرهم واختاره جماعة ، وقال أبو حيان : للذين ينقضون ، وزعم بعضهم أن الجملة معطوفة على صلة ﴿ الذين ﴾ وفي الآية تقديم وتأخير ومحل هذا بعد ﴿ يُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ ولا يخفى بعده للاختلاف عموماً وخصوصاً واستقبالاً ومضياً أي فرحوا فرح أشر وبطر لا فرح سرور بفضل الله تعالى .

﴿ يا أيها الذين ﴾ أي بما بسط لهم فيها من النعيم لأن فرحهم ليس بنفس الدنيا فنسبة الفرح إليها مجازية أو هناك تقدير أي ببسط الحياة أو الحياة الدنيا مجاز عما فيها ﴿ وَمَا الحياة الدنيا فِى الآخرة ﴾ أي كائنة في جنب نعيمها ، فالجار والمجرور في موضع الحال وليس متعلقاً بالحياة ولا بالدنيا كما قال أبو البقاء لأنهما ليسا فيها .

و ﴿ فِى ﴾ هذه معناها المقايسة وهي كثيرة في الكلام كما يقال : ذنوب العبد في رحمة الله تعالى كقطرة في بحر وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق وهي الظرفية المجازية لأن ما يقاس بشيء يوضع بجنبه ، وإسناد ﴿ متاع ﴾ في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ متاع ﴾ إلى الحياة الدنيا يحتمل أن يكون مجازياً ويحتمل أن يكون حقيقياً ، والمراد أنها ليست إلا شيئاً نزراً يتمتع به كعجالة الراكب وزاد الراعي يزوده أهله الكف من التمر أو الشيء من الدقيق أو نحو ذلك ، والمعنى أنهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة والحال أن ما أشروا به في جنب ما أعرضوا عنه نزر النفع سريع النفاد ، أخرج الترمذي وصححه عن عبد الله بن مسعود قال :

" نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه فقلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك فقال : ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها " ، وقيل : معنى الآية كالخبر "الدنيا مزرعة الآخرة" يعني كان ينبغي أن يكون ما بسط لهم في الدنيا وسيلة إلى الآخرة كمتاع تاجر يبيعه بما يهمه وينفقه في مقاصده لا أن

يفرحوا بها ويعدوها مقاصد بالذات والأول أولى وأنسب .

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي أهل مكة عبد الله بن أبي أمية .

(51/412)

وأصحابه ، وإيثار هذه الطريقة على الإضمار مع ظهور إرادتهم عقيب ذكر فرحهم بناءاً على أن ضمير ﴿ فَرِحُواْ ﴾ [الرعد : 26] لهم لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبّهِ ﴾ فإن ذلك في أقصى مراتب المكابرة والعناد كأن ما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات العظام الباهرة ليست عندهم بآية حتى اقترحوا ما لا تقتضيه الحكمة من الآيات كسقوط السماء عليهم كسفاً وسير الأخشبين وجعل البطاح محالرث ومفترساً كالأردن وإحياء قضى لهم إلى غير ذلك ﴿ قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاء ﴾ إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها ، وهو كلام جار مجرى التعجب من قولهم ، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها صلى الله عليه وسلم لم يؤتها نبي قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية فإذا جحدوها ولم يعتدوا بها كان ذلك موضعاً للتعجب والإنكار ، وكان الظاهر أن يقال في الجواب : ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على الكفر ونحوه إلا أنه وضع هذا موضعه للإشارة إلى أن المتعجب منه يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ ﴾ الخ أي أنه تعالى يخلق فيمن يشاء الضلال بصرف اختياره إلى تحصيله ويدعه منهمكاً فيه لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد لسوء استعداده كمن كان على صفتكم في المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو في الفساد فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءته كل آية.

﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ ﴾ أي إلى جانبه العلي الكبير.

(52/412)

وقال أبو حيان: أي إلى دينه وشرعه سبحانه هداية مواصلة إليه لا دلالة مطلقة إلى ما يوصل فإن ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشريفهم ما لا يوصف، وقيل: الضمير للقرآن أو للرسول عليه الصلاة والسلام وهو خلاف الظاهر جداً ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي أقبل إلى الحق وتأمل في تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة وحقيقة الإنابة الرجوع إلى نوبة الخير، وإيثارها في الصلة على إيراد المشيئة كما في الصلة الأولى على ما قال مولانا شيخ الإسلام للتنبيه على الداعي إلى الهداية بل إلى مشيئتها والإشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى من المكابرة، وفيه حث للكفرة على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعناد، وإيثار صيغة الماضي للإيماء إلى استدعاء الهداية السابقة كما أن إيثار صيغة المضارع في الصلة الأولى

للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم ، والآية صريحة في مذهب أهل السنة في نسبة الخير والشر إليه عز وجل وأولها المعتزلة فقال أبو علي الجبائي : المعنى يضل من يشاء عن ثوابه ورحمته عقوبة له على كفرة فلستم ممن يجيبه الله تعالى إلى ما يسأل لاستحقاقكم العذاب والإضلال عن الثواب ويهدي إلى جنته من تاب وآمن ، ثم قال : وبهذا تبين أن الهدى هو الثواب من حيث علق بقوله تعالى : ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ والهدى الذي يفعله سبحانه بالمؤمن هو الثواب لأنه يستحقه على إيمانه ، وذلك يدل على أنه تعالى يضل عن الثواب بالعقاب لا عن الدين بالكفر على ما ذهب إليه من خالفنا اه ولا يخفى ما فيه .

(53/412)

﴿ الذين ءامَنُواْ ﴾ بدل من ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : 27] بدل كل من كل فإن أريد بالهداية الهداية المستمرة فالأمر ظاهر لظهور كون الإيمان مؤدياً إليها ، وإن أريد إحداثها فالمراد بالذين آمنوا الذين صار أمرهم إلى الإيمان كما قالوا في ﴿ هُدًى لّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] أي الصائرين إلى التقوى وإلا فالإيمان لا يؤدي إلى الهداية نفسها ، ويجوز أن يكون عطف بيان على ذلك أو منصوباً على المدح أو خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين آمنوا ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم ﴾ أي تستقر وتسكن ﴿ بِذِكْرِ الله ﴾ أي بكلامه المعجز الذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو المروى عن مقاتل ، وإطلاق الذكر على ذلك شائع في الذكر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ [الأنبياء : 50] و﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [الحجر : 9] وسبب اطمئنان قلوبهم بذلك علمهم أن لا آية أعظم ومن ذلك لا يقترحون الآيات التي يقترحها غيرهم ، والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد المنزل من الذكر ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ الله ﴾ وحده ﴿ تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ لله دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس من الدنياويات ، وإذا أريد سائر المعجزات فالقصر من حيث أنها ليست في إفادة الطمأنينة بالنسبة إلى من لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد فإنه معجزة باقية إلى يوم القيامة يشاهدها كل أحد وتطمئن به القلوب كافة ؛ وفيه إشعار بأن الكفرة لا قلوب لهم وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا به ولم يعدوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها ، وقيل : في الكلام مضاف مقدر أي لتطمئن قلوبهم بذكر رحمته تعالى ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته تعالى كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الزمر : 23] وهذا مناسب على ما في "الكشف" للإنابة إليه تعالى ، والمصدر عليه مضاف إلى الفاعل ؛ وقيل

: المراد بذكر الله دلائله سبحانه الدالة على وحدانيته عز وجل والاطمئنان عن قلق الشك والتردد ، وهذا مناسب لذكر الكفر ووقوعه في مقابلته ، وقيل : المراد بذكره تعالى أنساً به وتبتلاً إليه سبحانه فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها .

قيل : وهذا مناسب أيضاً حديث الكفر لأن الكفرة إذا ذكر الله تعالى وحده اشمأزت قلوبهم ، والمصدر على القولين مضاف إلى المفعول .

والوجه الأول أشد ملاءمة للنظم لا سيما لقوله تعالى : ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الرعد : 27] والمصدر فيه بمعنى المفعول .

ومن الغريب ما نقل في تفسير الخازن أن هذا في الحلف بالله وذلك أن المؤمن إذا حلف له بالله تعالى سكن قلبه ، وروي نحو ذلك أبو الشيخ عن السدي فإن الحمل عليه هنا مما لا يناسب المقام ، وأما ما روي عن أنس من أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه حين نزلت هذه الآية :

" هل تدرون ما معنى ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : من أحب الله تعالى ورسوله وأحب أصحابي " ومثله ما روي عن علي كرم الله تعالى وجهه من أنه عليه الصلاة والسلام قال حين نزلت : " ذاك من أحب الله تعالى ورسوله وأحب أهل بيتي صادقاً غير كاذب وأحب المؤمنين شاهداً وغائباً " فليس المراد منه تفسير المراد بذكر الله بل بيان أن الموصوفين بما ذكر من أحبه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم الخ ، وهو كذلك إذ لا

يكاد يتحقق الانفكاك بين هاتيك الصفات فليتأمل ، ولا تنافي بين هذه الآية على سائر الأوجه وقوله تعالى : ﴿ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : 2] لأن المراد هناك وجلت من هيبته تعالى واستعظامه جلت عظمته .

وذكر الإمام في بيان اطمئنان القلب بذكره تعالى وجوهاً فقال : إن الموجودات على ثلاثة أقسام : مؤثر لا يتأثر .

ومتأثر لا يؤثر وموجود يؤثر ويتأثر فالأول : هو الله تعالى .

(55/412)

والثاني : هو الجسم فإنه ليس له خاصية إلا القبول للآثار المتنافية والصفات المختلفة .

والثالث : الموجودات الروحانية فإنها إذا توجهت إلى الحضرة الإلهية صارت قابلة للآثار الفائضة عليها منها وإذا توجهت إلى أعلام الأجسام اشتاقت إلى التصرف فيها لأن عالم الأرواح مدبر لعالم الأجسام فإذا عرف هذا فالقلب كلما توجه إلى مطالعة عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والميل الشديد إلى الاستيلاء عليه والتصرف فيه وإذا توجه إلى مطالعة الحضرة الإلهية وحصلت فيه الأنوار الصمدية فهناك يكون ساكناً مطمئناً ،

وأيضاً أن القلب كلما وصل إلى شيء فإنه يطلب الانتقال منه إلى أمر آخر أشرف منه لأنه لا

سعادة في عالم الجسم إلا وفوقها مرتبة أخرى أما إذا انتهى إلى الاستسعاد بالمعارف الإلهية والأنوار القدسية ثبت واستقر فلم يقدر على الانتقال من ذلك ألبتة لأنه ليس هناك درجة أخرى في السعادة أعلى منه وأكمل ، وأيضاً إن الإكسير إذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسي انقلب ذهباً باقياً على ممر الدهور صابراً على الذوبان الحاصل بالنار فاكسير نور الله تعالى إذا وقع في القلب أولى أن يقلبه جوهراً باقياً صافياً نورانياً لا يقبل التغير والتبدل ، ولهذه الأوجه قال سبحانه : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ اه ، والأولى أن يقال : إن سبب الطمأنينة نور يفيضه الله تعالى عن قلب المؤمنين بسبب ذكره فيذهب ما فيها من القلق والوحشة ونحو ذلك ، وللمناقشة فيما ذكره مجال وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الإشارة ما يشبه ذلك .

(56/412)

﴿ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ بدل من ﴿ القلوب ﴾ [الرعد : 28] أي قلوب الذين آمنوا ، والأظهر أنه بدل الكل لأن القلوب في الأول قلوب المؤمنين المطمئنين وكذلك لو عمم القلب على معنى أن قلوب هؤلاء الأجلاء كل القلوب لأن الكفار أفئدتهم هواء ، وأما الحمل على بدل البعض ليعمم القلب من غير الملاحظة المذكورة واستنباط هذا المعنى من

البدل فبعيد ، وأما احتماله لبدل الاشتمال وإن استحسنه الطيبي فكلاًّ أو مبتدأ خبره الجملة الدعائية على التأويل أعني قوله سبحانه : ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ أي يقال لهم ذلك ، أو لا حاجة إلى التأويل والجملة خبرية أو خبر مبتدأ مضمر أو نصب على المدح فطوبى لهم حال مقدرة والعامل فيها الفعلان .

(57/412)

وقال بعض المدققين : لعل الأشبه وجه آخر وهو أن يتم الكلام عند قوله تعالى : ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : 27] ثم قيل : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الرعد : 28] في مقابلة ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ ﴾ [الرعد : 27] وقوله سبحانه : ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ الله ﴾ [الرعد : 28] جملة اعتراضية تفيد كيف لا تطمئن قلوبهم به ولا اطمئنان للقلب بغيره ، وقوله عز وجل : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ بدل من الأول ، وفيه إشارة إلى أن ذكر الله تعالى أفضل الأعمال الصالحة بل هو كلها و ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ خبر الأول فيتم التقابل بين القرينتين ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الرعد : 27] و ﴿ الذين ءامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ ﴾ [الرعد : 28] وبين جزئي التذييل : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : 27] ومن الناس من زعم أن الموصول الأول مبتدأ والموصول الثاني خبره و ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ

الله ﴾ [الرعد : 28] اعتراض و﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ دعاء وهو كما ترى ، ﴿ وطوبى ﴾ قيل مصدر من طاب كبشرى وزلفى والواو منقلبة من الياء كموسر وموقن ، وقرأ مكوزة الأعرابي ﴿ طيبي ﴾ ليسلم الياء ، وقال أبو الحسن الهنائي : هي جمع طيبة كما قالوا في كيسة كوسى .

وتعقبه أبو حيان بأن فعلى ليست من أبنية الجموع فلعله أراد أنه اسم جمع ، وعلى الأول فلهم في المعنى المراد عبارات .

فأخرج ابن جرير .

وغيره عن ابن عباس أن المعنى فرح وقرة عين لهم ، وعن الضحاك غبطة لهم ، وعن قتادة حسنى لهم .

وفي رواية أخرى عنه أصابوا خيراً ، وعن النخعي خير كثير لهم .

وفي رواية أخرى عنه كرامة لهم ، وعن سميط بن عجلان دوام الخير لهم ويرجع ذلك إلى معنى العيش الطيب لهم .

وفي رواية عن ابن عباس .

وابن جبير أن ﴿ الصالحات طوبى ﴾ اسم للجنة بالحبشية وقيل بالهندية ، وقال القرطبي : الصحيح أنها علم لشجرة في الجنة ، فقد أخرج أحمد .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم .

(58/412)

وابن حبان .

والطبراني .

والبيهقي في البعث والنشور ، وصححه السهيلي .

وغيره عن عتبة ابن عبد قال : " جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أفني الجنة فاكهة ؟ قال : نعم فيها شجرة تدعى طوبى هي نطاق الفردوس قال : أي شجر أرضنا تشبه ؟ قال : ليس تشبه شيئاً من شجر أرضك ولكن أتيت الشام ؟ قال : لا قال : فإنها تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة تنبت على ساق واحد ثم ينتشر أعلاها قال : ما عظم أصلها ؟ قال : لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتاها هرماً قال : فهل فيها عنب ؟ قال : نعم .

قال : ما عظم العنقود منه ؟ قال : مسيرة شهر للغراب إلا بقع "

والأخبار المصرحة بأنها شجرة في الجنة منتشرة جداً ، وحينئذٍ فلا كلام في جواز الابتداء

بها وإن كانت نكرة فمسوغ الابتداء بها ما ذهب إليه سيبويه من أنه ذهب بها مذهب الدعاء كقولهم : سلام عليك إلا أنه ذهب ابن مالك إلى أنه التزم فيها الرفع على الابتداء ، ورد عليه بأن عيسى الثقفي قرأ ﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ بالنصب ، وخرج ذلك ثعلب على أنه معطوف على طوبى وأنها في موضع نصب ، وهي عنده مصدر معمول لمقدر أي طاب واللام للبيان كما في سقيا له ، ومنهم من قدر جعل ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ وقال صاحب اللوامح : إن التقدير يا طوبى لهم ويا حسن مآب فحسن معطوف على المنادي وهو مضاف للضمير واللام مقحمة كما في قوله :

يا بؤس للجهل ضرار الأقوام . . .

ولذلك سقط التنوين من بؤس وكأنه قيل : يا طوباهم ويا حسن مآبهم أي ما أطيبهم وأحسن مآبهم كما تقول : يا طيبها ليلة أي ما أطيبها ليلة ولا يخفى ما فيه من التكلف .

وأجاب السفاقسي عن ابن مالك بأنه يجوز نصب ﴿ حُسْنُ ﴾ بمقدر أي ورزقهم حسن مآب وهو بعيد .

وقرئ ﴿ حُسْنُ مَئَابٍ ﴾ بفتح النون ورفع ﴿ مَئَابٍ ﴾ وخرج ذلك على أن ﴿ حُسْنُ ﴾ فعل ماض أصله حسن نقلت ضمة السين إلى الحاء ومثله جائز في فعل إذا كان للمدح أو الذم كما قالوا : حسن ذا أدبا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(60/412)

وقال ابن عجيبة :

لم يدروا أن الله ﴿ يبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ﴾ ، ولو كان من أهل الشقاء ، ﴿ ويَقْدِرُ ﴾ يُضيقه على من يشاء ، ولو كان من أهل السعادة والعناية ، ﴿ وفرحُوا بالحياة الدنيا ﴾ واطمأنوا بها ، وقنعوا بنعيمها الفاني ، ﴿ وما الحياةُ الدنيا ﴾ في جنب الآخرة ﴿ إلا متاعٌ ﴾ ؛ إلا متعة لا تدوم ، كعُجَالة الراكب وزاد الراعي . وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « مَا لِي وللدُّنْيا إنَّما مثلي ومَثَلُ الدُّنيا كَرَاكبٍ سَافَرَ في يَوْمٍ صائِفٍ ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرةٍ ، ثم رَاحَ عَنْها وَتَركَهَا » والمعنى : أنهم أشِروا بما نالوا من الدنيا ، ولم يصرفوها فيما يستوجبون به نعيم الآخرة ، واغتروا بما هو في جنبه نزر قليل النفع ، سريع الزوال . قاله البيضاوي .

الإشارة : لا شيء أفسد على المريد من نقض عهود المشايخ ، والرجوع عن صحبتهم ؛

فإنه لمَّا دخل في حماهم انقبض عنه الشيطان والدنيا والهوى، وأسفوا عليه، فإذا رجع إليهم، واتصلوا به، فعلوا به ما لم يفعلوا بغيره؛ كمن هرب من عدوه ثم اتصل به. وتنسحب عليه الآية من قوله: ﴿ والذين ينقضون عهد الله ﴾ إلى قوله: ﴿ أولئك لهم اللعنة ﴾؛ أي: البُعد عن الحضرة، ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ وهو: غم الحجاب والبقاء من وراء الباب. فإذا رجعت إليه الدنيا يقال له: ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾؛ فلا تغتر ولا تفرح بالعرض الفاني، فما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع قليل، ثم التحسر الويل.

(61/412)

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويقولُ الذين كفروا ﴾ من أهل مكة: ﴿ لولا أنزل عليه آيةٌ ﴾ ظاهرة ﴿ من ربه ﴾ كما أنزلتْ على مَنْ قبله فنؤمن حينئذٍ؟ ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ إنَّ اللّهَ يُضلّ مَن يشاء ﴾ بعد ظهور الآيات والمعجزات. وليس الإيمان والهداية بيد العبد في الحقيقة.

﴿ ويهدي إليه من أناب ﴾ أي: من أقْبل ورجع عن عناده من غير احتياج إلى معجزة.

قال البيضاوي : وهو جواب ، يجري التعجب من قولهم ، كأنه قال : قل لهم ما أعظم عنادكم ! ﴿ إن الله يُضِلُّ من يشاء ﴾ ممن كان على صفتكم ، فلا سبيل إلى اهتدائه ، وإن نزلت كل آية ، ويهدي إليه من أناب لما جئت به ، بل بأدنى منه من الآيات . أ هـ

الإشارة : تقدم مراراً أن من سبقت له من عند الله عناية الخصوصية ، لم يتوقف على ظهور آية . ومن لم يسبق له شيء في الخصوصية لا ينفع فيه ألف آية . فالله يضل من يشاء عن دخول حضرته ، ولو رأى من أولياء زمانه ما رأى ، ويهدي إلى حضرته من أناب ، ورجع بلا سبب . وبالله التوفيق .

(62/412)

﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ (29) ﴾

قلت : الموصول : بدل ممن أناب ، أو خبر عن مضمر ، أي : هم . والموصول الثاني بدل ثانٍ ، أو مبتدأ ، وجملة (طوبى) : خبر ، وهي فُعْلى ، من الطيب ، كبشرى من البشارة ، قلبت ياؤها واواً ؛ لضم ما قبلها ، ومعناها : أصبت خيراً وطيباً . وقيل : شجرة في الجنة . وسوغ الابتداء بها : ما فيها من معنى الدعاء .

يقول الحق جل جلاله : في وصف من سبقت له الهداية واتصفت بالإنابة : هم ﴿ الذين آمنوا ﴾ بالله وبرسوله إيماناً تمكَّن من قلوبهم ، واطمأنت إليه نفوسُهم ؛ فإذا حركتهم الخواطر والهواجم ، أو فتن الزمان وأهواله ﴿ تطمئن قلوبُهم بذِكر الله ﴾ ، وترتاح بذكر الله ؛ أُنساً به ، واعتماداً عليه ورجاء منه ، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته ، أو بذكر آلائه ، ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته ، أو بكلامه القرآن ، الذي هو أقوى المعجزات . قاله البيضاوي . وقال في القوت : معنى تطمئن بذكر الله : تهش وتستأنس به . قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرّحمن الفاسي بعد كلام : والحاصل أن المراد من الطمأنينة : السكون إلى المذكور ، والأنس به . ووجود الرَّوْحِ والفرح والانشراح ، والغنى به . أ هـ

قال تعالى : ﴿ ألا بذِكْرِ الله تطمئن القلوبُ ﴾ لا بغيره ، فلا تسكن إلا إليه ، ولا تعتمد إلا عليه ؛ فإن سكنت إلى غيره ذهب نورها ، وعظم قلقها . ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طُوبَى لهم ﴾ أي : لهم عيش طيب وحياة طيبة . أو الجنة ، أو شجرة فيها ، ﴿ وحُسنُ مآبٍ ﴾ أي : مرجع يرجعون إليه بعد الموت .

الإشارة : الطمأنينة على قسمين : طمأنينة إيمان وطمأنينة شهود وعيان . قوم اطمأنوا إلى غائب موجود ، وقوم إلى آخر مشهود . قوم اطمأنوا بوجود الله من طريق الإيمان على نعت الدليل والبرهان ، وقوم اطمأنوا بشهود الله من طريق العيان على نعت الذوق والوجدان . وهذه ثمرة الإكثار من ذكر الله .

قال الشيخ الشاذلي رضي الله عنه : حقيقة الذكر : ما اطمأن بمعناه القلب ، وتجلّى في حقائق سحاب أنوار سمائه الرب . انتهى انتهى . اهـ وقال الورتجبي : إنْ كان الإيمان من حيث الاعتقاد ، فطمأنينة القلب بالذكر ، وإن كان من حيث المشاهدة فطمأنينة القلوب بالله وكشف وجوده . انتهى انتهى . اهـ فطمأنينة الإيمان لأهل التفكر والاعتبار من عامة أهل اليمين . وطمأنينة العيان لأهل الشهود والاستبصار من خاصة المقربين . أهل الأولى يستدلون بالأشياء على الله ، وأهل الثانية يستدلون بالله على الأشياء ؛ فلا يرون إلا مظهر الأشياء . وشتان بين من يستدل به أو يستدل عليه ؛ المستدل به عرف الحق لأهله ، وأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه ، ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه ؟ ! . كما في الحِكَم .

وقال في المناجاة : « إلهي كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟ ! .

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك ؟ ! متى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟ ! .

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : « كيف يُعرف بالمعارف من به عُرفت المعارف ؟ ! أم كيف يُعرف بشيء مَنْ سَبَقَ وجودُه كلَّ شيء ؟ أي : وظهر بكل شيء » . وفي ذلك يقول الشاعر :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِي عَلَيْكَ شَهَادَةً . . . وَأَنْتَ الَّذي أَشْهَدْتَهُ كُلَّ شَاهِدِ

وقال آخر :

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَمَا تَخْفَى على أَحَدٍ . . . إلاَّ عَلَى أَكْمَهٍ لاَ يُبْصِرُ القَمَرَا

لَكِنْ بَطنْتَ بِما أَظْهَرْتَ مُحْتَجِباً . . . وكَيْفَ يُبْصِرُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرَا

وأهل طمأنينة الإيمان على قسمين ؛ باعتبار القرب والبُعد : فمنهم من يطمئن بوجود الحق على نعت القرب والأنس ، وهم أهل المراقبة من الزهاد والصالحين ، والعلماء العابدين المجتهدين ، وهم متفاوتون في القرب على قدر تفرغهم من الشواغل والعلائق ، وعلى قدر التخلية والتحلية . ومنهم من يطمئن إليه على نعت البعد من قلبه ، وهم أهل الشواغل والشواغب ، و العلائق والعوائق . وعلامة القرب : وجود حلاوة المعاملة ، كلذيذ المناجاة ، والأنس به في الخلوات ، ووجود حلاوة القرآن والتدبر في معانيه ، حتى لا يشبع منه من كل

أوان. وعلامة البعد : فقد الحلاوة المذكورة، وعدم الأنس به في الخلوة، وفقد الحلاوة القرآن، ولو كان من أعظم علماء اللسان.

(65/412)

وأهل طمأنينة الشهود على قسمين أيضاً : فمنهم من تشرق عليه أنوار، وتحيط به الأسرار ، فيغرق في الأنوار وتطمس عنه الآثار، فيكسر ويغيب عن الأثر في شهود المؤثر، ويسمى عندهم هذا المقام : مقام الفناء. ومنهم من يصحو من سكرته، ويفيق من صعقته، فيشهد المؤثر، لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقة عن جمعه، ولا يضره فناؤه عن بقائه، ولا بقاؤه، عن فنائه، يعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه، وهو مقام البقاء، ولا يصح وجوده إلا بعد وجود ما قبله، فلا بقاء إلا بعد الفناء، ولا صحو إلا بعد السكْر. ومن ترامى على هذا المقام أعني مقام البقاء من غير تحقيق مقام السكر والفناء فهو لم يبرح عن مقام أهل الحجاب.

واعلمْ أن طمأنينة الإيمان تزيد وتنقص، وطمأنينة العيان، إن حصلت، تزيد ولا تنقص. فمواد أسباب زيادة طمأنينة الإيمان أشياء متعددة، فمنهم من تزيد طمأنينته بالتفكر والاعتبار. إما في عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات، فيطمئن إلى صانعٍ عظيم

القدرة باهر الحكمة . وإما بالنظر في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وباهر علمه ، وعجائب حكمه وأسراره ، وإخباره بالأمور الغيبية السابقة والآتية ، مع كونه نبياً أمّياً . فإذا تحقق معرفة الرسول فقد تحقق بمعرفة الله ، واطمأن به ؛ لأنه الواسطة العظمى ، بين الله وبين عباده . ومنهم من تزيد طمأنينته بموالاة الطاعات وتكثير القربات ، كالذكر وغيره .

(66/412)

ومنهم من تزيد طمأنينته بزيادة الأولياء أحياء أو ميتين . ومادة الأحياء أكثر ، ونور طمأنينتهم أبهر ، لا سيما العارفين ، وفي الأثر : تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين .

وأما طمأنيته أهل الشهود : فزيادتها باعتبار زيادة الكشف وحلاوة الشهود ، والترقي في العلوم والأسرار ، والاتساع في المقامات إلى ما لا نهاية له ، في هذه الدار الفانية وفي الدار الباقية ، ففي كل نَفَس يُجدد لهم كشوفات وترقيات ومواهب وتُحف ، على قدر توجههم وتحققهم . حققنا الله بمقامهم ، وأتحفنا بما أتحفهم . آمين

ولا بد في تحصيل طمأنينة الشهود من صُحبة شيخ عارف طبيبٍ ماهر ، يقدح عين البصيرة حتى تنفتح ؛ فما حجب الناس عن شهود الحق إلا طمسُ البصيرة ؛ فإذا اتصل

بشيخٍ عارفٍ كحل عين بصيرته أولاً بإثمد على اليقين ، فيدرك شعاع نور الحق قريباً منه ، ثم يكحل عينه ثانياً بإثمد عين اليقين ، فيدرك عدمه لوجود الحق ، أي : يغيب عن حسه بشهود معناه القائم به . ثم يكحل عينه بإثمد حق اليقين ، فيدرك وجود الحق بلا واسطة قدرة وحكمة ، معنى وحساً ، لا يتحجب بأحدهما عن الآخر . وإلى هذا أشار في الحِكَم بقوله : « شعاع البصيرة يُشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يُشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يُشهدك وجود الحق ، لا عدمك ولا وجودك . وكان شيء معه ، وهو الآن على ما كان عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 23 . 27 ﴾

(67/412)

وقال القاسمى :

﴿ اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ [26] .

﴿ اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ هذا كقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : 55] ، وتنكير (متاع) للتقليل كما في آية : ﴿ قُلْ

مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : من الآية 77] ، وقال : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : 16 - 17] .

(68/412)

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ كقولهم : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء : من الآية 5] ، وتقدم الكلام على هذا غير مرّة . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ جملة جرت مجرى التعجب من قولهم ، مشيرة إلى أنه من باب العناد والاقتراح لما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التي لا يمهل أحد بعد مجيئها ، لا من باب طلب الهداية . وإلا فلو كان بغيتهم طلب الهداية بآية لكفاهم إنزال هذا الكتاب من مثله ، صلوات الله عليه ، آية ، فإنه آية الآيات . . . . ! . ولكنهم قوم آثروا الضلال على الهدى ، زاغوا عنه فأزاغ الله قلوبهم . فطوى ما دل عليه هذه الجملة ؛ إيجازاً للعلم بها .

قال أبو السعود : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها ، أي : يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره إلى تحصيله ، ويدعه منهمكاً فيه ؛ لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد ، كمن كان على صفتكم في المكابرة والعناد ، والغلو

في الفساد . فلا سبيل له إلى الاهتداء ، ولو جاءته كل آية .

ثم قال : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي : أقبل إلى الحق ، وتأمل في تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة . وحقيقة الإنابة الدخول في نوبة الخير . وإيثار إيرادها في الصلة على إيراد المشيئة ، كما في الصلة الأولى ؛ للتنبيه على الداعي إلى الهداية بل إلى مشيئتها ، والإشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى المكابرة . وفيه حث للكفرة على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعناد . وإيثار صيغة الماضي للإيماء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة ، كما أن إيثار صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم . انتهى .

وقوله تعالى :

(69/412)

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بدل من (من أناب) أي : آمنوا بالله ورسوله وكتابه : ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي : تسكن وتخشى عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً . والعدول إلى صيغة المضارع ؛ لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره : ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أي : بذكره دون غيره تسكن القلوب أُنساً به ، واعتماداً عليه ، ورجاءً منه . وقدر

بعضهم مضافاً ، أي : بذكر رحمته ومغفرته ، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته . ورأى آخرون أن المراد : ﴿ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ القرآن ؛ لأنه يسمى ذكراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء : من الآية 50] وقال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] لأنه آية بينة تسكن القلوب ، وتثبت اليقين فيها . وهذا المعنى يناسب قوله : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [يونس : من الآية 20] أي : هؤلاء ينكرون كونه آية ، والمؤمنون يعلمون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ببرد اليقين . قال الشهاب : وهو أنسب الوجوه .

(70/412)

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ الموصول إما مبتدأ ، و : ﴿ طُوبَى لَهُمْ ﴾ مبتدأ ثان وخبر في موضع الخبر الأول ، وإما خبر لمحذوف ، أي : هم ، وإما بدل من : ﴿ أناب ﴾ وجملة : ﴿ طُوبَى لَهُمْ ﴾ دعائية أو خبرية .

قال الزمخشري : (طوبى) مصدر من (طاب) كبشرى وزلفى . ومعنى (طوبى لك) أصبحت خيراً وطيباً ، ومحلها النصب أو الرفع كقولك : طيباً لك ، وطيب لك ، وسلاماً لك وسلام لك . والقراءة في قوله : ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ بالرفع والنصب تدلك على محليها

. واللام في : ﴿ لَهُمْ ﴾ للبيان مثلها في (سقياً لك) والواو في : ﴿ طُوبَى ﴾ منقلبة عن ياء ، لضمة ما قبلها . قال ثعلب : قرئ : ﴿ طوبىً لهم ﴾ بالتنوين .

قال الفاسي : ومن نوَّن : ﴿ طُوبَى ﴾ جعله مصدراً بغير ألف ، كسقيا . وزعم بعضهم أنها كلمة أعجمية ، وفي " لسان العرب " عن قتادة ، أنها كلمة عربية ، تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ، وأنشد :

~طوبى لمن يستبدل الطود بالقرى ورسلاً بيقطين العراق وفومها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 285.288 ﴾

(71/412)

وقال ابن عاشور :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾

هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً عما يهجس في نفوس السامعين من المؤمنين والكافرين من سماع قوله : ﴿ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ المفيد أنهم مغضوب عليهم ، فأما المؤمنون فيقولون : كيف بَسط الله الرزق لهم في الدنيا فازدادوا به طغياناً وكفراً وهلا عذبهم في الدنيا بالخصاصة كما قدر تعذيبهم في الآخرة ، وذلك مثل قول

موسى عليه السلام ﴿ ربّنَا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ [سورة يونس : 88] ، وأما الكافرون فيسخرون من الوعيد مزدهين بما لهم من نعمة .

فأجيب الفريقان بأن الله يشاء بسط الرزق لبعض عباده ونقصه لبعض آخر لحكمةٍ متصلة بأسباب العيش في الدنيا ، ولذلك اتّصال بحال الكرامة عنده في الآخرة .

ولذلك جاء التعميم في قوله : لمن يشاء ﴾ ، ومشيئته تعالى وأسبابها لا يطلع عليها أحد .

وأفاد تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله : ﴿ الله يبسط ﴾ تقويةً للحكم وتأكيداً ، لأن المقصود أن يعلمه الناس ولفت العقول إليه على رأي السكاكي في أمثاله .

وليس المقام مقام إفادة الحصر كما درج عليه "الكشاف" إذ ليس ثمة من يزعم الشركة لله في ذلك ، أو من يزعم أن الله لا يفعل ذلك فيقصد الرد عليه بطريق القصر .

والبسط : مستعار للكثرة وللدوام .

والقَدْر : كناية عن القلة .

ولما كان المقصود الأول من هذا الكلام تعليم المسلمين كان الكلام موجهاً إليهم .

وجيء في جانب الكافرين بضمير الغيبة إشارة إلى أنهم أقل من أن يفهموا هذه الدقائق لعنجهية نفوسهم فهم فرحُوا بما لهم في الحياة الدنيا وغفلوا عن الآخرة ، فالفرح المذكور فرحُ

بَطَر وطغيان كما في قوله تعالى في شأن قارون : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ [سورة القصص : 76] ، فالمعنى فرحوا بالحياة الدنيا دون اهتمام بالآخرة .

(72/412)

وهذا المعنى أفادهُ الاقتصار على ذكر الدنيا في حين ذكر الآخرة أيضاً بقوله : وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ .

والمراد بالحياة الدنيا وبالآخرة نعيمهما بقرينة السياق ، فالكلام من إضافة الحكم إلى الذات والمراد أحوالها .

و﴿ في ﴾ ظرف مستقر حال من ﴿ الحياة الدنيا ﴾ .

ومعنى ﴿ في ﴾ الظرفية المجازية بمعنى المقايسة ، أي إذا نُسبت أحوال الحياة الدنيا بأحوال الآخرة ظهر أن أحوال الدنيا متاعٌ قليل ، وتقدم عند قوله : ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ في سورة براءة (38) .

والمتاع : ما يتمتع به وينقضي .

وتنكيره للتقليل كقوله : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ﴾ [سورة آل عمران : 196 197] .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) ﴾

عطف غرض على غرض وقصةٍ على قصة .

والمناسبة ذكر فرحهم بحياتهم الدنيا وقد اغتروا بما هم عليه من الرزق فسألوا تعجيل الضرّ في قولهم : ﴿ اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [سورة الأنفال : 32] .

وهذه الجملة تكرير لنظيرتها السابقة ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ﴾ [سورة الرعد : 7] .

فأعيدت تلك الجملة إعادةَ الخطيب كلمةً من خطبته ليأتي بما بقي عليه في ذلك الغرض بعد أن يفصل بما اقتضى المقام الفصل به ثم يتفرغ إلى ما تركه من قبل ، فإنه بعد أن بَينتْ الآيات السابقة أنّ الله قادر على أن يعجل لهم العذاب ولكن حكمته اقتضت عدم التنازل ليتحدى عبيده فتبين ذلك كله كمال التبيين .

(73/412)

وكل ذلك لاحق بقوله : وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً إنا لفي خلق جديد [سورة الرعد : 5] ، وعود إلى المهم من غرض التنويه بآية القرآن ودلالته على صدق الرسول ، ولهذا أطيل الكلام على هدي القرآن عقب هذه الجملة .

ولذلك تعين أن موقع جملة إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ موقع الخبر المستعمل في تعجيب الرسول عليه الصلاة والسلام من شدة ضلالهم بحيث يوقن من شاهد حالهم أن الضلال والاهتداء بيد الله وأنهم لولا أنهم جبلوا من خلقة عقولهم على اتباع الضلال لكانوا مُهتدين لأن أسباب الهداية واضحة .

وتحت هذا التعجيب معان أخرى:

أحدها : أن آيات صدق النبي صلى الله عليه وسلم واضحة لولا أن عقولهم لم تدركها لفساد إدراكهم .

الثاني : أن الآيات الواضحة الحسية قد جاءت لأمم أخرى فرأوها ولم يؤمنوا ، كما قال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ [سورة الإسراء : 59] .

الثالث : ﴿ أن لعدم إيمانهم أسباباً خفية يعلمها الله قد أبهمت بالتعليق على المشيئة في قوله : ﴿ يضل من يشاء ﴾ منها ما يُومىء إليه قوله في مقابلة ﴿ ويهدي إليه من أناب ﴾ .

وذلك أنهم تكبروا وأعرضوا حين سمعوا الدعوة إلى التوحيد فلم يتأملوا ، وقد ألقيت إليهم الأدلة القاطعة فأعرضوا عنها ولو أنابوا وأذعنوا لهداهم الله ولكنهم نفروا .

وبهذا يظهر موقع ما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يجيب به عن قولهم : ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ بأن يقول : ﴿ إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ ، وأن ذلك تعريض بأنهم ممن شاء الله أن يكونوا ضالين وبأن حالهم مثار تعجب .

والإنابة : حقيقتها الرجوع .

وأطلقت هنا على الاعتراف بالحق عند ظهور دلائله لأن النفس تنفر من الحق ابتداء ثم ترجع إليه ، فالإنابة هنا ضد النفور .

(74/412)

﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ (29) ﴾

استئناف اعتراضي مناسبتهُ المُضادةُ لحال الذين أضلهم الله ، والبيانُ لحال الذين هداهم مع التنبيه على أن مثال الذين ضلوا هو عدم اطمئنان قلوبهم لذكر الله ، وهو القرآن ، لأن قولهم : ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ يتضمن أنهم لم يعدوا القرآن آية من الله ، ثم التصريح

بجنس عاقبة هؤلاء ، والتعريض بضد ذلك لأولئك ، فذكرها عقب الجملة السابقة يفيد الغرضين ويشير إلى السببين .

ولذلك لم يجعل ﴿ الذين آمنوا ﴾ بدلاً من ﴿ من أناب ﴾ [الرعد : 27] لأنه لو كان كذلك لم تعطف على الصلة جملة وتطمئن قلوبهم ﴾ ولا عطف ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ على الصلة الثانية .

ف ﴿ الذين آمنوا ﴾ الأول مبتدأ ، وجملة ﴿ ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب ﴾ معترضة و ﴿ الذين آمنوا ﴾ الثاني بدل مطابق من ﴿ الذين آمنوا ﴾ الأول ، وجملة ﴿ طوبى لهم ﴾ خبر المبدأ .

والاطمئنان : السكون ، واستعير هنا لليقين وعدم الشك ، لأن الشك يستعار له الاضطراب .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ في سورة البقرة (260) .

و (ذكر الله) يجوز أن يراد به خشية الله ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه .

ويجوز أن يراد به القرآن قال : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [سورة الزخرف : 44] ، وهو المناسب قولهم : لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ .

وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ [سورة الزمر : 22] ، أي للذين كان قد زادهم قسوة قلوب ، وقوله في آخرها : ﴿ ثم تلين

جُلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ [سورة الزمر : 23] .

والذكر من أسماء القرآن ، ويجوز أن يراد ذكر الله باللسان فإن إجراءه على اللسان ينبه القلوب إلى مراقبته .

(75/412)

وهذا وصف لحسن حال المؤمنين ومقايستهِ بسوء حالة الكافرين الذين غمر الشك قلوبهم ، قال تعالى : ﴿ بل قلوبهم في غمرة من هذا ﴾ [سورة المؤمنون : 63] .

واختير المضارع في تطمئن ﴾ مرتين لدلالته على تجدد الاطمئنان واستمراره وأنه لا يتخلله شك ولا تردد .

وافتتحت جملة ﴿ إلا بذكر الله ﴾ بحرف التنبيه اهتماماً بمضمونها وإغراء بوعيه .

وهي بمنزلة التذييل لما في تعريف ﴿ القلوب ﴾ من التعميم .

وفيه إثارة الباقين على الكفر على أن يتسموا بسمة المؤمنين من التدبير في القرآن لتطمئن قلوبهم ، كأنه يقول : إذا علمتم راحة بال المؤمنين فماذا يمنعكم بأن تكونوا مثلهم فإن تلك في متناولكم لأن ذكر الله بمسامعكم .

وطوبى : مصدر من طاب طيباً إذا حسن ، وهي بوزن البُشرى والزلفى ، قلبت ياؤها

واواً لمناسبة الضمة ، أي لهم الخير الكامل لأنهم اطمأنت قلوبهم بالذكر ، فهم في طيب حال : في الدنيا بالاطمئنان ، وفي الآخرة بالنعيم الدائم وهو حسن المئاب وهو مرجعهم في آخر أمرهم .

وإطلاق المآب عليه باعتبار أنه آخرُ أمرهم وقرارهم كما أن قرار المرء بيته يرجع إليه بعد الانتشار منه .

على أنه يناسب ما تقرر أن الأرواح من أمر الله ، أي من عالم الملكوت وهو عالم الخلد فمصيرها إلى الخلد رجوع إلى عالمها الأول .

وهذا مقابل قوله في المشركين ﴿ ولهم سوء الدار .

واللام في قوله : لهم ﴾ للملك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(76/412)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ الآية .

بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار اقترحوا عليه صلى الله عليه وسلم الإتيان بآية ينزلها عليه ربه وبين هذا المعنى في مواضع متعددة كقوله ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأولون

﴾ [الأنبياء : 5] إلى غير ذلك من الآيات وبين تعالى في موضع آخر أن في القرآن العظيم كفاية عن جميع الآيات في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت : 51] ويبين في موضع آخر حكمة عدم إنزال آية كناقة صالح ونحوها بقوله ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأولون وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَاقة ﴾ [الإسراء : 59] الآية كما تقدمت الإشارة إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(77/412)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26) ﴾

والبَسْط هو مَدُّ الشيء .

وقد أقام العلماء معركة عند تحديد ما هو الرزق ، فهل الرزق هو ما أحله الله فقط ؟ أم أن الرزق هو كل ما ينتفع به الإنسان سواء أكان حلالاً أم حراماً ؟

فمن العلماء مَنْ قال : إن الرزق هو الحلال فقط ؛ ومنهم من قال : إن الرزق هو كل ما يُنتفع به سواء أكان حلالاً أم حراماً ؛ لأنك إن قُلْتَ إن الرزق محصور في الحلال فقط ؛ إذن : فَمنْ

كفر بالله من أين يأكل ؟

أم يخاطب الحق سبحانه المكابرين قائلاً : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض . . . ﴾ [يونس : 31]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ﴾ [الذاريات : 58]

ويقول تعالى : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السمآء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : 22-23]

إذن : فالرزق هو من الله ؛ ومن بعد ذلك يأمر " افعل كذا " و " لا تفعل كذا " .

وقول الحق سبحانه : ﴿ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقَدِرُ . . . ﴾ [الرعد : 26]

أي : أنه سبحانه يمد الرزق لِمَن يشاء : ﴿ وَيَقَدِرُ . . . ﴾ [الرعد : 26]

من القَدْر . أي : في حالة إقداره على المُقَدَّر عليه ؛ وهو مَنْ يعطيه سبحانه على قَدْر احتياجه ؛ لأن القَدْر هو قَطْع شيء على مساحة شيء ، كأنْ يعطي الفقير ويبسط له الرزق على قَدْر احتياجه .

والحق سبحانه أمرنا أنْ نُعطِي الزكاة للفقير ؛ ويظل الفقير عائشاً على فقره ؛ لأنه يعيش على الكفاف .

أو : يقدر بمعنى يُضيِّق ؛ وساعة يحدث ذلك إياك أنْ تظن أنَّ التضييق على الفقير ليس لصالحه ، فقد يكون رزقه بالمال الوفير دافعاً للمعصية ؛ ومن العفة ألا يجد .

أو : يقدر بمعنى يُضيّق على إطلاقها ، يقول سبحانه : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ [الطلاق : 7]

ولأن الله قد آتاه فهذا يعني أنه بَسَط له بقدره .

ويتابع سبحانه : ﴿ وَفَرِحُواْ بِالْحَياةِ الدنيا . . . ﴾ [الرعد : 26]

وطبعاً سيفرح بها مَنْ كان رزقه واسعاً ؛ والمؤمن هو مَنْ ينظر إلى الرزق ويقول : هو زينة الحياة الدنيا ؛ ولكن ما عند الله خَيْر وأبقى .

أما أهل الكفر فقد قالوا : ﴿ . . . لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31]

ويردُّ الحق سبحانه عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . . ﴾ [الزخرف : 32]

وساعة تبحث في تحديد هذا البعض المبسوط له الرزق ؛ والبعض المُقدَّر عليه في الرزق ؛ لن تجد ثباتاً في هذا الأمر ؛ لأن الأغيار قد تأخذ من الغنيّ فتجعله فقيراً ؛ وقد تنتقل الثروة

من الغنيّ إلى الفقير .

وسبحانه قد ضمن أسباباً عُلْيا في الرزق ؛ لكل من المؤمن والكافر ؛ والطائع والعاصي ؛ وكلنا قد دخل الحياة ليأخذ بيده من عطاء الربوبية ؛ فإنْ قصَّر واحد ؛ فليس لهذا المَرْء من سبب سوى أنه لم يأخذ بأسباب الربوبية وينتفع بها .

وقد يأخذ بها الكافر وينتفع بها .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20]

(79/412)

إذن : فليس هناك تضييق إلا في الحدود التي يشاؤها الله ، مثل أن يزرع الإنسان الأرضَ ، ويتعب في الريّ والحَرْث ؛ ثم تأتي صاعقة أو برد مصحوب بصقيع فيأكل الزرع ويُميته .

وفي هذا لَفْتٌ للإنسان ؛ بأنه سبحانه قد أخذ هذا الإنسان من رزقه ؛ وهو العطاء منه ؛ كي لا يُفْتَنَ الإنسان بالأسباب ، وقد يأتي رزقه من بعد ذلك من منطقة أخرى ، وبسبب آخر . ﴿ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بالحياة الدنيا . . . ﴾ [الرعد : 26]

والفرح في حَدّ ذاته ليس ممنوعاً ولا مُحرّماً ، ولكن الممنوع هو فرح البطر كفرح قارون : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى فبغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعصبة أُوْلِي القوة إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ . . . ﴾ [القصص : 76]

والحق سبحانه قد قال : ﴿ . . . إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ [القصص : 76]

وهذا هو فرح البطر الذي لا يحبه الله ؛ لأنه سبحانه قال في موقع آخر : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : 58]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يأتي بفرحهم ؛ وسبب هذا الفرح وهو الحياة الدنيا ؛ أي : أنه سبب تافه للفرح ، لأنها قد تُؤخذ منهم وقد يُؤخذون منها ، ولكن الفرح بالآخرة مختلف ، وهو الفرح الحق .

ولذلك يقول فيه الحق سبحانه : ﴿ . . . فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : 58]

ويقيس الحق سبحانه أمامنا فرح الحياة الدنيا بالآخرة ، فيقول : ﴿ . . . وَمَا الحياة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ [الرعد : 26]

ومتاع الرجل هو ما يعده إعداداً يُنفقه في سفر قصير ، كالحقيبة الصغيرة التي تضع فيها بعضاً من الملابس والأدوات التي تخصُّك لسفر قصير .

والعاقل هو مَنْ ينظر إلى أقصى ما يمكن أنْ يفعله الإنسان في الحياة ؛ فقد يتعلم إلى أنْ يصل إلى أرْقى درجات العلم ؛ ويسعى في الأرض ما وَسِعه السَّعْي ؛ ثم أخيراً يموت .

والمؤمن هو مَن يَصل عمل دُنْياه بالآخرة ؛ ليصلَ إلى النعيم الحقيقي ، والمؤمن هو مَنْ يبذل الجهد لِيصِلَ نفسه برحمة الله ؛ لأنها باقية ببقاء الله ، ولأن المؤمن الحق يعلم أن كل غاية لها بَعْد ؛ لا تعتبر غاية .

ولذلك فالدنيا في حَدِّ ذاتها لا تصلح غايةً للمؤمن ، ولكن الغاية الحَقَّة هي : إمَّا الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

ونعلم أن " لولا " إذا دخلت على جملة اسمية فلها وَضْع يختلف عنه وَضْعها إذا دخلتْ على جملة فعلية ، فحين نقول : " لولا زيد عندك لَزُرْتُكَ " يعني امتناع حدوث شيء لوجود شيء آخر . وحين نقول : لولا تُذاكِر دروسك . فهذا يعني حضاً على الفعل .

والحق سبحانه يقول : ﴿ لَّوْلَا جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾ [النور : 13]

والجملة التي دخلت عليها " لولا " في هذه الآية هي جملة فعلية ، وكأن الحق سبحانه يحضُّنا

هنا على أن نلتفتَ إلى الآية الكبرى التي نزلت عليه صلى الله عليه وسلم ، وهي القرآن .

وقد تساءل الكافرون كَذِباً عن مجيء آية ؛ وكان تساؤلهم بعد مجيء القرآن ، وهذا كذب واقع ؛ يناقضون به أنفسهم ؛ فقد قالوا : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31]

وهم بذلك قد اعترفوا أن القرآن بلغ حَدّ الإعجاز وتمنَّوْا لو أنه نزل على واحد من عظماء القريتين مكة أو الطائف .

وهم مَنْ قالوا أيضاً : ﴿ وَقَالُواْ يا أيُّها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6]

(81/412)

ثم يعودون هنا لينكروا الاعتراف بالقرآن كمعجزة ، على الرغم من أنه قد جاء من جنس ما نبغوا فيه ، فهم يتذوقون الأدب ، ويتذوقون البيان ، ويتذوقون الفصاحة ؛ ويقيمون الأسواق ليعرضوا إنتاجهم في البلاغة والقصائد ، فهم أمة تطرَبُ فيها الأذن لما ينطقه اللسان .

ولكنهم هنا يطلبون آية كونية كالتي نزلت على الرسل السابقين عليهم السلام ، ونَسُوا أن الآية الكونية عمرها مَقْصور على وقت حدوثها ؛ ومَنْ رآها هو مَنْ يصدقها ، أو يصدقها مَنْ

يُخبره بها مصدر موثوق به .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبعوث لتنظيم حركة الحياة في دنيا الناس إلى أنْ تقوم الساعة ؛ ولو أنه قد جاء بآية كونية ؛ لأخذتْ زمانها فقط .

ولذلك شاء الحق سبحانه أنْ يأتي بآية معجزة باقية إلى أنْ تقومَ الساعةُ ، فضلاً عن أنه صلى الله عليه وسلم قد جاءتْ له معجزات حِسيّة ؛ كتفجُّر الماء من بين أصابعه ؛ وحفنة الطعام التي أشبعتْ جيشاً ؛ وأظلَّتْه السحابة ؛ وحَنَّ جِذْع الشجرة حنيناً إليه ليقف من فوقه خطيباً وجاءه الضَّبُّ مسلماً .

كل تلك آيات كونية هي حُجَّة على مَنْ رآها ، وكذلك معجزات الرُّسل السابقين ، ولولا أنَّ رواها لنا القرآن لَمَا آمنَّا بها ، وكانت الآيات الكونية التي جاءت مع الرسل هي مجرد إثبات لِمَنْ عاشوا في أزمان الرسل السابقين على أن هؤلاء الرسل مُبلّغون عن الله .

وقد شرح الحق سبحانه هذا الأمر بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . . ﴾ [الإسراء : 59]

أي : أن الرسل السابقين الذين نزلوا في أقوامهم وصحبتْهم الآياتُ الكونية قابلوا أيضاً المُكذِّبين بتلك الآيات ، وقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أيضاً :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنبُوعاً * أَوْ تكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 90-92]

ويقول الحق سبحانه في موقع آخر : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيؤمنوا . . . ﴾ [الأنعام : 111]

وهكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أنهم غارقون في العِنَاد ولن يؤمنوا ، وأن أقوالهم تلك هي مجرد حُجَج يتلكأون بها .

وهم هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقولون : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ . . . ﴾ [الرعد : 27]

وهكذا نجد أنهم يعترفون أن له رباً ؛ على الرغم من أنهم قد اتهموه من قبل أنه ساحر ، وأنه والعياذ بالله كاذب ، وحين فَتَر عنه الوحي قالوا : " إن ربَّ محمد قد قَلاَه " .

وأنزل الحق سبحانه الوحي : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 3-5]

أي : أن الوَحْي سوف يستمر ، وهكذا فضح الله كَذِبهم على مَرِّ سنوات الرسالة المحمدية .

وهم هنا يتعنتون في طَلَبِ الآيةِ الحِسّيةِ الكونية ؛ وكلمة آية كما عرفنا من قبل هي : إما آية كونية تُلفِت إلى وجود الخالق .

أو : آية من القرآن فيها تفصيلٌ للأحكام ؛ وليستْ تلك هي الآية التي كانوا يطلبونها .

أو : آية معجزة تدلُّ على صِدقْ الرسالة .

وكأنَّ طلبَ الآيات إنما جاء لأنهم لم يقتنعوا بآية القرآن ؛ وهذا دليل غبائهم في استقبال أدلَّة اليقين بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن القرآن جاء معجزةً ، وجاء منهجاً .

(83/412)

والمعجزة كما أوضحنا إنما تأتي من جنس ما نبغ فيه القوم ، ولا يأتي سبحانه بمعجزة لقوم لم يُحْسِنوا شيئاً مثلها ولم ينبغُوا فيه .

فالذين كانوا يمارسون السِّحْر جاءتْ المعجزة مع الرسول المرْسَل إليهم من نفس النوع ، والذين كانوا يعرفون الطبَّ ، جاء لهم رسول ، ومعه معجزة مما نبغُوا فيه .

وقد جاءت معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم من جنس ما نبغُوا فيه ؛ فضلاً عن أن القرآن معجزة ومنهج في آنٍ واحد ، بخلاف معجزة التوقيت والتقيد في زمن .

ومع ذلك ، فإن كفار مكة تعنتُوا ، ولم يكتفُوا بالقرآن معجزةً وآيات تدلُّهم إلى سواء السبيل ؛

بل اقترحوا هم الآية حسب أهوائهم ؛ ولذلك نجدهم قد ضلُّوا .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ . . . قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ويهدي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : 27]

وهنا نقف وَقْفة ؛ لأن البعض يحاول أن يُسقِط عن الإنسان مسئولية التكليف ؛ ويدَّعي أن الله هو الذي يمنع هداية هؤلاء الكافرين .

ونقول : إننا إن استقرأنا آياتِ القرآن ؛ سنجد قَوْل الحق سبحانه : ﴿ . . . والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ [البقرة : 264]

ونجد قول الحق سبحانه : ﴿ . . . إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [المائدة : 51]

ويقول سبحانه أيضاً : ﴿ . . . والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 108]

ومن كل ذلك نفهم أن العمل السابق منهم هو الذي يجعله سبحانه لا يهديهم ، لأن الإنسان مادام قد جاء له حُكْم أعلى ، ويؤمن بمصدر الحكم ؛ فمن أنزل هذا الحكم يُعطِي للإنسان معونة ، لكن مَنْ يكذب بمصدر الحُكْم الأعلى فسبحانه يتركه بلا معونة .

أما مَنْ يرجع إلى الله ؛ فسبحانه يهديه ويدلُّه ويعينه بكل المدَد .

ويواصل الحق ما يمنحه سبحانه من اطمئنان لمن يُنيب إليه ، فيقول :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾

ومعنى الاطمئنان سكونُ القلب واستقراره وأُنسُه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل ليناقشها من جديد .

ونعلم أن الإنسانَ له حواسٌّ إدراكية يستقبل بها المُحسَّات ؛ وله عقل يأخذ هذه الأشياء ويهضمها ؛ بعد إدراكها ؛ ويفحصها جيداً ، ويتلمس مدى صِدْقها أو كَذِبها ؛ ويستخرج من كل ذلك قضية واضحة يُبقِيها في قلبه لتصبح عقيدة ، لأنها وصلت إلى مرحلة الوجدان المحب لاختيار المحبوب .

وهكذا تمرُّ العقيدة بعدة مراحلَ ؛ فهي أولاً إدراك حِسِّي ؛ ثم مرحلة التفكّر العقلي ؛ ثم مرحلة الاستجلاء للحقيقة ؛ ثم الاستقرار في القلب لتصبح عقيدة .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ . . . ﴾ [الرعد : 28]

فاطمئنان القلب هو النتيجة للإيمان بالعقيدة ؛ وقد يمرُّ على القلب بعضٌ من الأغيار التي تزلزل الإيمان ، ونقول لمن تمرُّ به تلك الهواجس من الأغيار : أنت لم تُعْطِ الربوبية حقها ؛ لأنك أنت الملوم في أي شيء يَنَالُكَ .

فلو أحسنتَ استقبال القدر فيما يمرُّ بك من أحداث ، لَعلِمْتَ تقصيرك فيما لك فيه دَخْل بأيِّ حادث وقع عليك نتيجة لعملك ، أما مَا وقع عليك ولا دَخْل لك فيه ؛ فهذا من أمر القَدَر الذي أراده الحقُّ لك لحكمة قد لا تعلمها ، وهي خير لك .

إذن : استقبال القدر إن كان من خارج النفس فهو لك ، وإن كان من داخل النفس فهو عليك . ولو قُمْتَ بإحصاء ما ينفعك من وقوع القدر عليك لَوجدتَّه أكثرَ بكثير مما سَلَبه منك . والمَثَل هو الشاب الذي استذكر دروسه واستعدَّ للامتحان ؛ لكن مرضاً داهمه قبل الامتحان ومنعه من أدائه .

هذا الشاب فعلَ ما عليه ؛ وشاءَ الله أن ينزل عليه هذا القدر لحكمة ما ؛ كأنْ يمنع عنه حسَد جيرانه ؛ أو حسدَ مَنْ يكرهون أُمه أو أباه ، أو يحميه من الغرور والفتنة في أنه مُعتمِد على الأسباب لا على المُسبِّب . أو تأخير مرادك أمام مطلوب الله يكون خيراً .

(85/412)

وهكذا فعَلى الإنسان المؤمن أن يكون موصولاً بالمُسبِّب الأعلى ، وأنْ يتوكل عليه سبحانه وحده ، وأن يعلم أنْ التوكل على الله يعني أن تعمل الجوارح ، وأنْ تتوكَّل القلوب ؛ لأن التوكل عملٌ قلبي ، وليس عملَ القوالب .

ولينتبه كُلٌّ مِنّا إلى أن الله قد يُغيب الأسباب كي لا نغتر بها ، وبذلك يعتدل إيمانك به ؛ ويعتدل إيمان غيرك .

وقد ترى شاباً ذكياً قادراً على الاستيعاب ، ولكنه لا ينال المجموع المناسب للكلية التي

كان يرغبها ؛ فيسجد لله شكراً ؛ مُتقبّلاً قضاء الله وقَدَره ؛ فَيُوفّقه الله إلى كلية أخرى وينبغ فيها ؛ ليكون أحدَ البارزين في المجال الجديد .

ولهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وعسى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ والله يَعْلَمُ وَأُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 216]

وهكذا نجد أن مَنْ يقبل قَدر الله فيه ، ويذكر أن له رباً فوق كل الأسباب ؛ فالاطمئنان يغمرُ قلبه أمام أيِّ حدَثٍ مهْمَا كان .

وهكذا يطمئن القلب بذكر الله ؛ وتهون كُلّ الأسباب ؛ لأن الأسباب إنْ عجزتْ ؛ فلن يعجز المُسبِّب .

وقد جاء الحق سبحانه بهذه الآية في مَعرِض حديثه عن التشكيك الذي يُثيره الكافرون ، وحين يسمع المسلمون هذا التشكيك ؛ فقد توجد بعض الخواطر والتساؤلات : لماذا لم يَأْتِ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزة حِسّية مثل الرُّسُل السابقين لتنفضّ هذه المشكلة ، وينتهي هذا العناد ؟

ولكن تلك الخواطر لا تنزع من المؤمنين إيمانهم ؛ ولذلك يُنزِل الحق سبحانه قوله الذي يُطمئِن : ﴿ الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله . . . ﴾ [الرعد : 28]

والذّكْر في اللغة جاء لِمعَانٍ شتّى ؛ فمرّة يُطلق الذّكر ، ويُراد به الكتاب أي : القرآن : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9]

ويأتي الذكر مرّة، ويُرَاد به الصِّيت والشهرة والنباهة، يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: 44]

أي: أنه شَرَفٌ عظيم لك في التاريخ، وكذلك لقومك أنْ تأتي المعجزة القرآنية من جنس لغتهم التي يتكلمون بها.

وقد يطلق الذكر على الاعتبار؛ والحق سبحانه يقول: ﴿ . . . ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حتى نَسُواْ الذكر وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾ [الفرقان: 18]

أي: نسوا العِبَر التي وقعتْ للأمم التي عاشتْ من قبلهم؛ فنصرَ الله الدينَ رغم عناد هؤلاء.

وقد يطلق الذكر على كُلِّ ما يبعثه الحق سبحانه على لسان أيِّ رسول: ﴿ . . . فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 43]

وقد يُطلق الذّكْر على العطاء الخيّر من الله.

ويُطلق الذّكْر على تذكر الله دائماً؛ وهو سبحانه القائل: ﴿ فاذكروني أَذْكُرْكُمْ . . . ﴾ [البقرة: 152]

أي : اذكروني بالطاعة أذكركم بالخير والتجليّات ، فإذا كان الذِّكْر بهذه المعاني ؛ فنحن نجد الاطمئنان في أيٍّ منها ، فالذكر بمعنى القرآن يُورثِ الاطمئنان .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يا أَيُّها الذين آمَنُواْ اذكروا الله ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور وَكَانَ بالمؤمنين رَحِيماً ﴾ [الأحزاب : 4143]

فكُلُّ آية تأتي من القرآن كانت تُطمئِنُ الرسول صلى الله عليه وسلم أنه صادقُ البلاغِ عن الله ؛ فقد كان المسلمون قلة مُضطهدة ، ولا يقدرون على حماية أنفسهم ، ولا على حماية ذَوِيهم .

ويقول الحق سبحانه في هذا الظرف : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45]

ويتساءل عمر رضي الله عنه : أيُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا ؛ وقد هاجر بعضنا إلى الحبشة خوفاً من الاضطهاد ؟

(87/412)

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير إلى بدر ، ويُحدِّد أماكن مصارع كبار رموز الكفر من صناديد قريش ؛ ويقول : " هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان " ؛ بل ويأتي

بالكيفية التي يقع بها القتل على صناديد قريش ؛ ويتلو قول الحق سبحانه : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ [القلم : 16]

وبعد ذلك يأتون برأس الرجل الذي قال عنه رسول الله ذلك ؛ فيجدون الضربة قد جاءت على أنفه .

فمنْ ذَا الذي يتحكم في مواقع الموت ؟

إن ذلك لا يتأتى إلاَّ من إله هو الله ؛ وهو الذي أخبر محمداً صلى الله عليه وسلم بهذا الخبر : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45]

وقد طمأنَ هذا القولُ القومَ الذين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا يعلم الغيب ، ولا يعلم الكيفية التي يموت عليها أيّ كافر وأيّ جبار ؛ وهو صلى الله عليه وسلم يخبرهم بها وهُمْ في منتهى الضَّعْف .

وهذا الإخبار دليل على أن رصيده قويّ عند علاّم الغيوب .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ . . . أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28]

يعني : أن القلوب تطمئن بالقرآن وما فيه من أخبار صادقة تمام الصدق ، لتؤكد أن محمداً صلى الله عليه وسلم مُبلِّغ عن ربِّه ؛ وأن القرآن ليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم بل هو من عند الله .

وهكذا استقبل المؤمنون محمداً صلى الله عليه وسلم وصَدَّقوا ما جاء به ؛ فها هي

خديجة رضي الله عنها وأرضاها لم تكُنْ قد سمعت القرآن ؛ وما أنْ أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخاوفه من أنّ ما يأتيه قد يكون جناً ، فقالت : " إنك لَتَصِلُ الرَّحِم ، وتحمل الكَلَّ ، وتَكسِب المعدوم ، وتَقْري الضَّيْف ، وتُعينَ على نوائب الحق ، واللهِ ما يخزَيك الله أبداً " .

وها هو أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه يصدق أن محمداً رسول من الله ، فَوْرَ أن يخبره بذلك .

(88/412)

وهكذا نجده صلى الله عليه وسلم قد امتلك سِمَاتاً ؛ وقد صاغ الله لرسوله أخلاقاً ، تجعل مَنْ حوله يُصدِقون كُلَّ ما يقول فَوْرَ أنْ ينطق .

ونلحظ أن الذين آمنوا برسالته صلى الله عليه وسلم ؛ لم يؤمنوا لأن القرآن أخذهم ؛ ولكنهم آمنوا لأن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يَكْذِبهم القول ، وسيرته قبل البعثة معجزة في حَدّ ذاتها ، وهي التي أدّتْ إلى تصديق الأوّلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما الكفار فقد أخذهم القرآن ؛ واستمال قلوبهم ، وتمنَّوا لو نزل على واحد آخر غير محمد صلى الله عليه وسلم .

وحين يرى المؤمنون أن القرآن يُخبرهم بالمواقف التي يعيشونها ، ولا يعرفون لها تفسيراً ؛ ويخبرهم أيضاً بالأحداث التي سوف تقع ، ثم يجدون المستقبل وقد جاء بها وِفْقاً لما جاء بالقرآن ، هنا يتأكد لهم أن القرآن ليس من عند محمد ، بل هو من عند رَبِّ محمد صلى الله عليه وسلم .

ولذلك فحين يُثير الكفار خزعبلاتهم للتشكيك في محمد صلى الله عليه وسلم يأتي القرآن مُطَمْئِناً للمؤمنين ؛ فلا تؤثر فيهم خزعبلات الكفار .

والمؤمن يذكر الله بالخيرات ؛ ويعتبر من كل ما يمرُّ به ، وبكل ما جاء بكتاب الله ؛ وحين يقرأ القرآن فقلبه يطمئنُّ بذكر الله ؛ لأنه قد آمن إيمانَ صِدْقٍ .

وقد لمس المؤمنون أن أخبار النبي التي يقولها لهم قد تعدَّتْ محيطهم البيئيّ المحدود إلى العالم الواسع بجناحَيْه الشرقي في فارس ، والغربي في الروم .

وقد أعلن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل المثال خبر انتصار الروم على الفرس ، حين أنزل الحق سبحانه قوله : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ . . ﴾ [الروم : 1-4]

فأروني أيّ عبقرية في العالم تستطيع أن تتحكم في نتيجة معركة بين قوتين تصطرعان وتقتتلان؛ وبعد ذلك يحدد مَنَ الذي سينتصر ، ومنِ الذي سَيُهزم بعد فترة من الزمن تتراوح من خَمْس إلى تِسَع سنوات ؟

وأيضاً تأتي الأحداث العالمية التي لا يعلم عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، وتوافق ما جاء بالقرآن .

وكُلُّ ذلك يجعل المؤمنين بالقرآن في حالة اطمئنان إلى أن هذا القرآن صادق ، وأنه من عند الله ، ويُصدّق هذا قول الحق سبحانه : ﴿ الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28]

ونعلم أن الكون قد استقبل الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام استقبالاً ، وقد هُيِّئ له فيه كُلُّ شيء من مُقوّمات الحياة؛ وصار الإنسانُ يعيش في أسباب الله ، تلك الأسباب المَمْدودة من يَدِ الله؛ فنأخذ بها وتترقَّى حياتنا بقَدْر ما نبذل من جهْد .

وما أنْ نموتَ حتى نصِلَ إلى أرْقى حياة؛ إنْ كان عملنا صالحاً وحَسُنَ إيماننا بالله؛ فبعد أنْ كُنّا نعيش في الدنيا بأسباب الله الممدودة؛ فنحن نعيش في الآخرة بالمُسبِّب في جنته التي أعدَّها للمتقين .

وقول الحق سبحانه : ﴿ . . . أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28]

يعني : أن الاطمئنان مُستوْعِب لكل القلوب؛ فكل إنسان له زاوية يضطرب فيها قلبه؛ وما

أنْ يذكر الله حتى يجِدَ الاطمئنان ويتثبتَ قلبه .

وقد حاول المستشرقون أن يقيموا ضَجّة حول قوله تعالى : ﴿ . . . أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28]

وتساءلوا : كيف يقول القرآن هنا أن الذّكْر يُطمِئِن القلب ؛ ويقول في آية أخرى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . . ﴾ [الأنفال : 2]

فأيُّ المعنيَيْنِ هو المراد ؟

(90/412)

ولو أن المستشرقين قد استقبلوا القرآن بالمَلَكة العربية الصحيحة لَعلِموا الفارق بين : ﴿ . . . أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28]

وبين قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . . ﴾ [الأنفال : 2]

فكأنه إذا ذُكِر الله أمام الناس ؛ وكان الإنسان في غَفْلة عن الله ؛ هنا ينتبه الإنسان بوجَلٍ .

أو : أن الحق سبحانه يخاطب الخَلْق جميعاً بما فيهم من غرائز وعواطف ومواجيد ؛ فلا يوجد إنسان كامل ؛ ولكُلِّ إنسان هفوة إلا مَنْ عصم الله .

وحين يتذكر الإنسانُ إسرافه من جهة سيئة ؛ فهو يَوْجَل ؛ وحين يتذكر عَفْو الله وتوبته ومغفرته يطمئن .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29) ﴾

وطُوبَى من الشيء الطيِّب ؛ أي : سيُلاقُونَ شيئاً طيباً في كُلِّ مظاهره : شكلاً ولَوْناً وطَعْماً ومزاجاً وشهوة ، فكُلُّ ما يشتهيه الواحد منهم سيجده طيباً ؛ وكأن الأمر الطيب موجوداً لهم .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ [الرعد : 29]

أي : حُسْنُ مرجعهم إلى مَنْ خلقهم أولاً ، وأعاشهم بالأسباب ؛ ثم أخذهم ليعيشوا بالمُسبِّب الأعلى ؛ وبإمكانية "كُنْ فيكون" .

ويريد الحق سبحانه من بعد ذلك أنْ يُوضِّح لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه رسول من الرُّسُل ؛ وكان كل رسول إلى أيِّ أمة يصحب معه معجزة من صِنْف ما نبغ فيه قومه .

وقد أرسل الحق سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم ومعه المعجزة التي تناسب قومه ؛ فَهُمْ قد نبغوا في البلاغة والبيان وصناعة الكلام ، وقَوْل القصائد الطويلة وأشهرها المُعلَّقات السبع ؛ ولهم أسواق أدبية مثل : سوق عكاظ ، وسوق ذي المجاز .

ولذلك جاءت معجزته صلى الله عليه وسلم من جنس ما نبغُوا فيه ؛ كي تأتيهم الحُجَّة والتعجيز .

ولو كانت المعجزة في مجال لم ينبغوا فيه ؛ لقالوا : " لم نعالج أمراً مثل هذا من قبل ؛ ولو كُنَّا قد عالجناه لَنَبغْنَا فيه " .

وهكذا يتضح لنا أن إرسالَ الرسولِ بمعجزة في مجال نبغَ فيه قومه هو نَوْعٌ من إثبات التحدِّي وإظهار تفوُّق المعجزة التي جاء بها الرسول .

وهكذا نرى أن إرسال محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن وإنْ لم يُقنِع الكفار إنما كان مُطَابقاً لمنطق الوحي من السماء للرسالات كلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الرعد : 26) ، وفي سورة القصص : (وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا) (القصص : 82) ، وفي سورة العنكبوت : (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (العنكبوت : 62) ، وفي سورة سبأ : (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ) (سبأ : 39) ، وفي الشورى : (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الشورى : 12) ، للسائل أن يقول : إن هذه الآيات الخمس قد انطوت مطابقة على معنى واحد هو إخباره سبحانه بأنه المنفرد بالقبض والبسط ، كما أنفرد بالخلق والأمر ، فإذا اجتمعت في هذا المعنى فما وجه انفراد آية القصص وآية سبأ بزيادة ما ورد فيهما من التخصيص في قوله : (مِنْ عِبَادِهِ) وقوله : ((له)) ؟ ولِمَ لَمْ يرد ذلك في السورة الأخرى ؟

والجواب عنه ، والله أعلم : أن آية العنكبوت لما تقدم قبلها في قصة إبراهيم ، عليه السلام ، قوله لقومه : (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ

الرِّزْقَ ﴾ (العنكبوت : 17) ، ثم ضرب سبحانه مثلا لما عبد من دونه فقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت : 41) ، ثم أنس عباده المؤمنين بقوله : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ (العنكبوت : 56) ، ثم قال : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (العنكبوت : 60) فأخبر سبحانه أنه المنفرد برزق الكل كما انفرد بخلقهم ، فناسب هذا قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ (العنكبوت : 62) ، فخص بعد أن عم بقوله : ﴿ ا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ (العنكبوت : 60) تشريفاً للمؤمنين ليستأنسوا بما يجري لهم من الضربين ويذكروه في حال القبض والبسط بالإضافة إضافة تشريف ، ولما لم يتقدم في السور الأخرى مثل ما تقدم هنا بل فيها ما يفهم منه أن المؤمنين لم يقصد تخصيصهم بذلك الخطاب بوجه ، ألا ترى قوله في (آية) الرعد : ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الرعد : 26) ، وليس (هذا) من شأن المؤمن ، فإن الدنيا سجنه وإنما فرحه بربه وبما يرجوه منه في آخرته . وأما آية القصص (فمنصوص) فيها أن الذين تمنوا حال قارون ومكانه هم القائلون : ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ (القصص : 82) ، فإنما قالوه عالمين بأن الله سبحانه بسط (لقارون ما بسط) فعلموا أنه القابض والباسط وأنه لايمنع عن أحد ما بسط له .

وأما آية الشورى فقد تقدمها ما هو أبين (شيء) في تعميم المؤمن والكافر وذلك قوله تعالى : (لَهُ مَقَالِيدُ

(94/412)

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الشورى : 12) ، (فإذا كانت له مقاليد السماوات والأرض) فمن أين يُرزق المؤمن والكافر ؟ ليس إلا من عنده ، فلم يقصد في هذه الآية تخصيص المؤمن وتشريفه كما قصد في تلك ، فلما اختلف القصد اختلف الوارد ، فجاءت كل آية على ما يجب ، ولا يمكن خلافه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 280. 281 ﴾

(95/412)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [28] قال : الذكر من العلم السكون ،

والذكر من العقل الطمأنينة .

قيل : وكيف ذاك ؟ قال : إذا كان العبد في طاعة الله فهو الذاكر ، فإذا خطر بباله شيء فهو القاطع ، وإذا كان في فعل نفسه فحضر بقلبه ما يدله على الذكر والطاعة فهو موضع العقل .

ثم قال : كل من ادعى الذكر فهو على وجهين : قوم لم يفارقهم خوف الله عزَّ وجلَّ ، مع ما وجدوا في قلوبهم من الحب والنشاط ، فهم على حقيقة من الذكر ، وهم لله والآخرة والعلم والسنة .

وقوم ادعوا النشاط والفرح والسرور في جميع الأحوال ، فهم للعدو والدنيا والجهل والبدعة ، وهم شر الخلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 85 ﴾

(96/412)

بحوث مهمة ذكرها صاحب الأمثل :

1 . كيف يطمئن القلب بذكر الله ؟

إنّ الإضطراب والقلق من أكبر المصاعب في حياة الناس ، والنتائج الحاصلة منهما في حياة الفرد والمجتمع واضحة للعيان ، والإطمئنان واحد من أهمّ إهتمامات البشر ، وإذا حاولنا أن نجمع سعي وجهاد الإنسانية على طول التأريخ في بحثهم للحصول على الإطمئنان

بالطرق الصحيحة غير الصحيحة ، فسوف تتكوّن لدينا كتب كثيرة ومختلفة تعرض تلك الجهود .

يقول بعض العلماء : عند ظهور بعض الأمراض المُعدية ـ كالطاعون ـ فإنّ من بين العشرة الأفراد الذين يموتون بسبب المرض ـ ظاهراً ـ أكثرهم يموت بسبب القلق والخوف ، وعدّة قليلة منهم تموت بسبب المرض حقيقة . وبشكل عام "الإطمئنان" و "الإضطراب" لهما دور مهمّ في سلامة ومرض الفرد والمجتمع وسعادة وشقاء الإنسانية ، وهذه مسألة لا يمكن التغافل عنها ، ولهذا السبب أُلّفت كتب كثيرة في موضوع القلق وطرق التخلّص منه ، وكيفيّة الحصول على الراحة ، والتاريخ الإنساني مليء بالمواقف مؤسفة لتحصيل الراحة ، وكيف أنّ الإنسان يتشبّث بكلّ وسيلة غير مشروعة كأنواع الإعتياد على المواد المخدّرة لنيل الإطمئنان النفسي .

ولكن القرآن الكريم يبيّن أقصر الطرق من خلال جملة قصيرة ولكنّها كبيرة المعنى حيث يقول: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) !

ولتوضيح هذا المعنى ومعرفة عوامل القلق والإضطراب لابدّ من ملاحظة ما يلي:

أوّلا: يحدث الإضطراب مرّةً بسبب ما يجول في فكر الإنسان عن المستقبل المظلم ، فيحتمل زوال النعمة ، أو الأسر على يد الأعداء ، أو الضعف والمرض ، فكلّ هذه تؤلم الإنسان ، لكن الإيمان بالله القادر المتعال الرحمن الرحيم ، الله الذي تكفّل برحمة عباده . .

هذا الإيمان يستطيع أن يمحو آثار القلق والإضطراب ويمنحه الإطمئنان في مقابل هذه الأحداث ويؤكّد له أنّك لست وحيداً ، بل لك ربّ قادر رحيم .

(97/412)

ثانياً : ومرّةً يشغل فكر الإنسان ماضيه الأسود فيمسي قلقاً بسبب الذنوب التي إرتكبها وبسبب التقصير والزلّات ، ولكن بالنظر إلى أنّ الله غفّار الذنوب وقابل التوبة وغفور رحيم ، فإنّ هذه الصفات تمنح الإنسان الثقة وتجعله أكثر إطمئناناً وتقول له: إعتذر إلى الله من سوالف أعمالك السيّئة واتّجه إليه بالنيّة الصادقة .

ثالثاً : ضعف الإنسان في مقابل العوامل الطبيعيّة ، أو مقابل كثرة الأعداء يؤكّد في نفسه حالة القلق وأنّه كيف يمكن مواجهة هؤلاء القوم في ساحة الجهاد أو في الميادين الأُخرى ؟ ولكنّه إذا تذكّر الله ، وإستند إلى قدرته ورحمته . . هذه القدرة المطلقة التي لا يمكن أن تقف أمامها أيّة قدرة أُخرى ، سوف يطمئنّ قلبه ، ويقول في نفسه: نعم إنّني لست وحيداً ، بل في ظلّ القدرة الإلهيّة المطلقة !

فالمواقف البطولية للمجاهدين في ساحات القتال ، في الماضي أو الحاضر ، وشجاعتهم النادرة حتّى في المنازلة الفردية لهم ، كلّها تبيّن حالة الإطمئنان التي تنشأ في ظلّ الإيمان .

نحن نشاهد أو نسمع أنّ أحد الضبّاط المؤمنين فقد بصره مثلاً أو أصابته جراحات كثيرة بعد قتال شديد مع أعداء الإسلام ولكن عندما يتحدّث كأنّه لم يكن به شيء ، وهذه نتيجة الإستقرار والطمأنينة في ظلّ الإيمان بالله .

رابعاً : ومن جانب آخر يمكن أن يكون أصل المشقّة هي التي تؤذي الإنسان ، كالإحساس بتفاهة الحياة أو اللاهدفية في الحياة ، ولكن المؤمن بالله الذي يعتقد أنّ الهدف من الحياة هو السير نحو التكامل المعنوي والمادّي ، ويرى أنّ كلّ الحوادث تصبّ في هذا الإطار ، سوف لا يحسّ باللاهدفيّة ولا يضطرب في المسيرة .

(98/412)

خامساً : ومن العوامل الأُخرى أنّ الإنسان مرّةً يتحمّل كثيراً من المتاعب للوصول إلى الهدف ، ولكن لا يرى من يُقيّم أعماله ويشكر له هذا السعي ، وهذه العملية تؤلمه كثيراً فيعيش حالة من الإضطراب والقلق ، وأمّا إذا علم أنّ هناك من يعلم بهذا السعي ويشكره عليه ويثيبه ، فليس للإضطراب والقلق هنا محل من الإعراب .

سادساً : سوء الظنّ عامل آخر من عوامل الإضطراب والذي يصبّ كثيراً من الناس في حياتهم ويبعث فيهم الألم والهمّ ، ولكنّ الإيمان بالله ولُطفه المطلق وحُسن الظنّ به التي هي

من وظائف الفرد المؤمن سوف تزيل عنه حالة العذاب والقلق وتحلّ محلّها حالة الإطمئنان والإستقرار .

سابعاً : الهوى وحبّ الدنيا من أهمّ عوامل القلق والإضطراب ، وقد تصل الحالة في عدم الحصول على لون خاص في الملبس ، أو أي شيء آخر من مظاهر الحياة البرّاقة أن يعيش الإنسان حالة من القلق قد تستمر أياماً وشهوراً .

ولكن الإيمان بالله وإلتزام المؤمن بالزهد والإقتصاد وعدم الإستئسار في مخالب الحياة المادية ومظاهرها البرّاقة ينهي حالة الإضطراب هذه ، وكما قال الإمام علي (عليه السلام) : "دُنياكم هذه أهون عندي من ورقة في فمّ جرادة تقضمها" فمن كانت له مثل هذه الرؤية كيف يمكن أن تحدث عنده حالة الخوف والقلق نتيجة لعدم الحصول على شيء من وسائل الحياة المادّية أو فقدانها ؟ !

(99/412)

ثامناً : من العوامل المهمّة الأُخرى الخوف من الموت ، وبما أنّ الموت لا يحصل فقط في السنّ المتأخّرة ، بل في كافّة السنين وخصوصاً أثناء المرض والحروب ، والعوامل الأُخرى فالقلق يستوعب كافّة الأفراد . ولكن إذا إعتقدنا أنّ الموت يعني الفناء ونهاية كلّ شيء (كما

يعتقده الماديون) فإنّ الإضطراب والقلق في محلّه ، ولابدّ أن يخاف الإنسان من هذا الموت الذي يُنهي عنده كلّ الآمال والأماني والطموحات . ولكن الإيمان بالله يمنحنا الثقة بأنّ الموت هو باب لحياة أوسع وأفضل من هذه الحياة ، وبرزخ يمرّ منه الإنسان إلى دار فضاؤها رحب ، فلا معنى للقلق حينئذ ، بل إنّ مثل هذا الموت ـ إذا ما كان في سبيل الله يكون محبوباً ومطلوباً .

إنّ عوامل الإضطراب لا تنحصر بهذه العوامل ، فهناك عوامل كثيرة أُخرى ، ولكن كلّ مصادرها تعود إلى ما ذكرناه أعلاه .

وعندما رأينا أنّ كلّ هذه العوامل تذوب وتضمحلّ في مقابل الإيمان بالله سوف نصدّق أنّه (ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب) .

2 ـ الطمأنينة والخوف من الله

طرح بعض المفسّرين هنا هذا السؤال ، وخلاصته : نحن قرأنا في الآية أعلاه (ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب) ومن جانب آخر فإنّ الآية 2 من سورة الأنفال تقول : (إنّما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فهل إنّ هاتين الآيتين متناقضتين ؟

الجواب : إنّ الطمأنينة المحمودة هي ما كانت في مقابل العوامل المادية التي تقلق الإنسان ـ كما أشرنا إليه سابقاً ـ ولكن المؤمنين لابدّ وأن يكونوا قلقين في مقابل مسؤولياتهم ، وبعبارة أُخرى : إنّ المؤمنين لا يشكون من الإضطراب المدمّر الذي يشكّل غالبية أشكال القلق

والإضطرابات، ولكن القلق البنّاء الذي يحسّ به الإنسان تجاه مسؤولياته أمام الله فهو المطلوب ولابدّ منه، وهذا هو الخوف من الله.

3. ما هو ذكر الله، وكيف يتمّ؟

"الذكر" كما يقول الراغب في مفرداته: حفظ المعاني والعلوم، ويُستعمل الحفظ للبدء به، بينما الذكر للإستمرار فيه، ويأتي في معنى آخر هو ذكر الشيء باللسان أو القلب، لذلك قالوا: إنّ الذكر نوعين "ذكر القلب" و "ذكر اللسان" وكلّ واحد منها على نوعين: بعد النسيان أو بدونه.

وعلى أيّة حال ليس المقصود من الذكر ـ في الآية أعلاه ـ هو ذكره باللسان فقط فنقوم بتسبيحه وتهليله وتكبيره، بل المقصود هو التوجّه القلبي له وإدراك علمه وبأنّه الحاضر والناظر، وهذا التوجّه هو مبدأ الحركة والعمل والجهاد والسعي نحو الخير، وهو سدّ منيع عن الذنوب، فهذا هو الذكر الذي له كلّ هذه الآثار والبركات كما أشارت إليه عدّة من الرّوايات. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الأمثل جـ 5 صـ 406 ـ 410﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26) ﴾

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن عبد الرحمن بن سابط - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ قال : كان الرجل يخرج في الزمان الأول في إبله أو غنمه ، فيقول لأهله : متعوني . فيمتعونه ، فلقلة الخبز أو التمر . فهذا مثل ضربه الله للدنيا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ إلا متاع ﴾ قال : قليل ذاهب .

وأخرج الترمذي والحاكم ، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال " نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير ، فقام وقد أثر في جنبه ، فقلنا يا رسول الله ، لو اتخذنا لك . فقال : ما لي وللدنيا ! . . . ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها " .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ

أَنَابَ (27) الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ (29) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ويهدي إليه من أناب ﴾ أي من تاب. وفي قوله ﴿ وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ قال: هشت إليه واستأنست به.

وأخرج أبو الشيخ عن السدي - رضي الله عنه - ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ يقول: إذا حلف لهم بالله صدقوا ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قال: تسكن القلوب.

(102/412)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قال: محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وأخرج أبو الشيخ عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، حين نزلت هذه الآية ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾: " هل تدرون ما

معنى ذلك؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : من أحب الله ورسوله ، أحب أصحابي " .

وأخرج ابن مردويه عن علي - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما نزلت هذه الآية ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قال : " ذاك من أحب الله ورسوله ، وأحب أهل بيتي صادقاً غير كاذب ، وأحب المؤمنين شاهداً وغائباً ، ألا بذكر الله يتحابون " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ طوبى لهم ﴾ قال : فرح وقرة عين .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن عكرمة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ طوبى لهم ﴾ قال : نعم ما لهم .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ طوبى لهم ﴾ قال : غبطة لهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ طوبى لهم ﴾ قال : حسنى لهم . وهي كلمة من كلام العرب .

وأخرج ابن جرير عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ طوبى لهم ﴾ قال : هذه كلمة عربية ، يقول الرجل طوبى لك ، أي أحببت خيراً .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن إبراهيم - رضي الله عنه - في قوله ﴿ طوبى لهم ﴾

قال: الخير والكرامة الذي أعطاهم الله سبحانه وتعالى.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ طوبى لهم ﴾ قال: الجنة.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ طوبى لهم ﴾ قال: الجنة بالحبشية.

(103/412)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ وذلك حين أعجبته.

وأخرج جرير وأبو الشيخ، عن سعيد بن مسجوح - رضي الله عنه - قال ﴿ طوبى ﴾ اسم الجنة بالهندية.

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - قال ﴿ طوبى ﴾ اسم الجنة بالهندية.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ﴿ طوبى ﴾ اسم شجرة في الجنة.

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : ﴿ طوبى ﴾ شجرة في الجنة ، يقول الله تعالى لها : تفتقي لعبدي عما شاء . فتنفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها ، وعن الإبل برحالها وأزمتها ، وعما شاء من الكسوة .

وأخرج ابن جرير من طريق معاوية بن قرة – رضي الله عنه – عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " طوبى ، شجرة غرسها الله تعالى بيده ، ونفخ فيها من روحه ، تنبت بالحلى والحلل ، وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة " .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور ، عن عتبة بن عبد – رضي الله عنه – قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " يا رسول الله ، في الجنة فاكهة ؟ قال : نعم ، فيها شجرة تدعى طوبى ، هي نطاق الفردوس . قال : قال أي شجر أرضنا تشبه ؟ قال : ليس تشبه شيئاً من شجر أرضك . ولكن ، أتيت الشام ؟ قال : لا . قال : فإنها تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة ، تنبت على ساق واحد ثم ينتشر أعلاها . قال : ما عظم أصلها ؟ قال : لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحطت بأصلها حتى تتكسر ترقوتاها هرماً . قال فهل فيها عنب ؟ قال : نعم . قال : ما عظم العنقود منه ؟ قال : مسيرة شهر للغراب الأبقع " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه والخطيب في تاريخه ، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن رجلاً قال : " يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك ؟ قال : ﴿ طوبى ﴾ لمن رآني وآمن ، وطوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني . قال رجل : وما طوبى ؟ ! . . . قال : شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ، تخرج من اكمامها " .

وأخرج ابن أبي شيبة في صفة الجنة ، وابن أبي حاتم عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد يدخل الجنة ، إلا انطلق به إلى طوبى ، فتنفتح له أكمامها فيأخذ له من أي ذلك شاء . إن شاء أبيض وإن شاء أحمر وإن شاء أخضر وإن شاء أصفر وإن شاء أسود . مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين - رضي الله عنه - قال : شجرة في الجنة أصلها في حجرة علي ، وليس في الجنة حجرة إلا وفيها غصن من أغصانها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر رجل من أهل الشام قال إن ربك أخذ لؤلؤة فوضعها ثم دملجها ثم فرشها وسط الجنة فقال لها امتدي حتى تبلغي مرضاتي . ففعلت ثم أخذ شجرة فغرسها وسط اللؤلؤة ثم قال لها : امتدي ففعلت فلما استوت تفجرت من أصولها أنهار الجنة وهي طوبى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن فرقد السبخي – رضي الله عنه – قال : أوحى الله إلى عيسى ابن مريم عليه السلام في الإِنجيل " يا عيسى ، جد في أمري ولا تهزل ، واسمع قولي وأطع أمري . يا ابن البكر البتول ، إني خلقتك من غير فحل ، وجعلتك وأمك آية للعالمين ، فإياي فاعبدْ وعليّ فتوكل ، وخذ الكتاب بقوة . قال عيسى عليه السلام : أي رب ، أي كتاب آخذ بقوّة ؟ . . . قال : خذ كتاب الإِنجيل بقوّة ، ففسره لأهل السريانية ، وأخبرهم أني أنا الله لا إله إلا أنا الحي القيوم البديع الدائم ، الذي لا زوال له ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يكون في آخر الزمان ، فصدقوه واتبعوه صاحب الجمل والمدرعة والهراوة والتاج ، الانجل العين ، المقرون الحاجبين ، صاحب الكساء الذي إنما نسله من المباركة – يعني خديجة – يا عيسى ، لها بيت من لؤلؤ من قصب موصل بالذهب ، لا يسمع فيه أذى ولا نصب ، لها ابنة – يعني فاطمة ، ولها ابنان فيستشهدان يعني الحسن والحسين – طوبى لمن سمع كلامه وأدرك زمانه وشهد أيامه . قال عيسى عليه السلام : يا رب ، وما طوبى ؟ قال : شجرة في الجنة ، أنا غرستها بيدي وأسكنتها ملائكتي ، أصلها من رضوان ، وماؤها من تسنيم " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن مجاهد - رضي الله عنه - قال: ﴿ طوبى ﴾ في الجنة، حملها مثال ثدي النساء، فيه حلل أهل الجنة.

وأخرج ابن أبي الدنيا في العزاء، وابن أبي حاتم عن خالد بن معدان - رضي الله عنه - قال: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، ضروع كلها، ترضع صبيان أهل الجنة، فمن مات من الصبيان الذين يرضعون، رضع من طوبى؛ وأنّ سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، وعن شهر بن حوشب قال: ﴿ طوبى ﴾ شجرة في الجنة، كل شجرة في الجنة منها أغصانها من وراء سور الجنة.

(106/412)

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن وهب بن منبه - رضي الله عنه - قال: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، زهرها رياط، وورقها برود، وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، ووحلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس من مجالس أهل الجنة، ومتحدث بينهم.

فبينما هم في مجلسهم، إذْ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون خيماً مزمومة بسلاسل من ذهب

، وجوهها كالمصابيح من حسنها ووبرها كخد المرعزي من لينه ، عليها رحال ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب ، وثيابها من سندس واستبرق ، فينيخونها ويقولون : ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه . فيركبوها ، فهي أسرع من الطائر واوطأ من الفراش ، نجباء من غير مهنة ، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه ، لا يصيب إذن راحلة منها إذن صاحبتها ، ولا تزل راحلة بزلل صاحبتها ، حتى أن الشجرة لتنحى عن طرقهم لئلا يفرق بين الرجل وأخيه ، فيأتون إلى الرحمن الرحيم ، فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه ، فإذا رأوه قالوا : " اللهم أنت السلام ومنك السلام وحق لك الجلال والإكرام . ويقول عز وجل ، عند ذلك : أنا السلام ومني السلام وعليكم حققت رحمتي ومحبتي ، مرحباً بعبادي الذين خشوني بالغيب وأطاعوا أمري . فيقولون : ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدرك حق قدرك ، فأذن لنا في السجود قدامك . فيقول الله عز وجل : إنها ليست بدار نصب ولا عبادة ، ولكنها دار ملك ونعيم ، وإني قد رفعت عنكم نصب العبادة فسلوني ما شئتم ، فإن لكل رجل منكم أمنيته . فيسألونه حتى إن أقصرهم أمنية ليقول : ربّ ، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها . ربّ ، فائتني كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا ، فيقول الله عز وجل : لقد قصرت بك أمنيتك ، ولقد سألت دون منزلتك ، هذا لك مني وسأتحفك بمنزلتي ؛ لأنه ليس في عطائي نكد ولا تصريد ، ثم يقول : اعرضوا

(107/412)

على عبادي ما لم تبلغ أمانيهم ولم يخطر على بال فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التي في أنفسهم ، فيكون فيما يعرضون عليهم : براذين مقرنة ، على كل أربعة منهم سرير من ياقوتة واحدة ، على كل منها قبة من ذهب مفرغة ، في كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة ، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين ، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة ، وليس في الجنة ألوان إلا وهو فيهما ، ولا ريح طيبة إلا وقد عبقتا به ينفذ ضوء وجوهما غلظ القبة ، حتى يظن من يراهما أنهما من دون القبة ، يرى مخهما من فوق أسرتهما كالسلك الأبيض من ياقوتة حمراء ، يريان له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل .

ويرى هو لهما مثل ذلك ، ثم يدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ، ويقولان له : والله ما ظننا أن الله يخلق مثل ذلك . ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفاً في الجنة ، حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزله الذي أعد له " .

(108/412)

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر ، عن وهب بن منبه – رضي الله عنه – عن محمد بن علي بن الحسين بن فاطمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى ، لو يسير الراكب الجواب في ظلها ، لسار فيه مائة عام قبل أن يقطعه ، وورقها برود خضر ، وزهرها رياط صفر ، وأقتادها سندس واستبرق ، وثمرها حلل خضر ، وصمغها زنجبيل وعسل ، وبطحاؤها ياقوت أحمر وزمرد أخضر ، وترابها مسك وعنبر ، وكافور أصفر ، وحشيشها زعفران منبع ، والأجوج ناجحان في غير وقود ، ينفجر من أصلها . أنهارها السلسبيل والمعين في الرحيق ، وظلها مجلس من مجالس أهل الجنة يألفونه ، ومتحدث يجمعهم . فبينما هم يوماً في ظلها يتحدثون ، إذ جاءتهم ملائكة يقودون نجباً جبلت من الياقوت ثم نفخ فيها الروح ، مزمومة بسلاسل من ذهب كأن وجوهها المصابيح نضارة ، وبرها خز أحمر ومرعز أحمر يختلطان . لم ينظر الناظرون إلى مثله حسناً وبهاء ، ولا من غير مهانة ، عليها رحال ألواحها من الدر والياقوت ، مفضضة باللؤلؤ والمرجان فأناخوا إليهم تلك النجائب ، ثم قالوا لهم : ربكم يقرئكم السلام ويستزيركم لتنظروا إليه وينظر إليكم ، وتحيونه ويحييكم ، وتكلمونه ويكلمكم ويزيدكم من فضله وسعته إنه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم ، فتحوّل كل رجل منهم على راحلته حتى انطلقوا صفاً واحداً معتدلاً ، لا يفوت منه شيء ولا يفوت اذن ناقة إذن صاحبتها ، ولا بركة ناقة بركة صاحبها ، ولا يمرون بشجرة من أشجار الجنة إلا أتحفتهم بثمرها ورجلت

لهم عن طريقها كراهية أن تثلم صفهم ، أو تفرق بين رجل ورفيقه ، فلما دفعوا إلى الجبار تعالى ، سفر لهم عن وجهه الكريم وتجلى لهم في عظمته العظيم يحييهم بالسلام . فقالوا : " ربنا أنت السلام ، ومنك السلام ، لك حق الجلال والإِكرام . قال لهم ربهم : أنا السلام ومني السلام ولي حق الجلال والأكرام ، فمرحباً بعبادي الذي حفظوا وصيتي ورعوا عهدي وخافوني بالغيب ،

(109/412)

وكانوا مني على كل حال مشفقين . قالوا : أما وعزتك وعظمتك وجلالك وعلو مكانك ، ما قدرناك حق قدرك ، ولا أدينا إليك كل حقك ، فأذن لها بالسجود لك . قال لهم ربهم : إني قد وضعت عنكم مؤنة العبادة وأرحت لكم أبدانكم طالما نصبتم لي الأبدان وأعنتم لي الوجوه ، فالآن أفضتم إلى روحي ورحمتي وكرامتي وطولي وجلالي وعلو مكاني وعظمة شأني . فما يزالون في الأماني والعطايا والمواهب حتى أن المقصر منهم في أمنيته ليتمنى مثل جميع الدنيا منذ يوم خلقها الله تعالى إلى يوم يفنيها . قال لهم ربهم : لقد قصرتم في أمانيكم ورضيتم بدون ما يحق لكم ، فقد أوجبت لكم ما سألتم وتمنيتم ، وألحقت بكم وزدتكم ما قصرت عنه أمانيكم . . . فانظروا إلى مواهب ربكم التي وهبكم . . . . فإذا

بقباب في الرفيق الأعلى وغرف مبنية من الدر والمرجان ، أبوابها من ذهب وسررها من ياقوت وفرشها من سندس واستبرق ، ومنابرها من نور يفور من أبوابها ، وأعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء ، وإذا بقصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهر نورها . فلولا أنه مسخر إذن لالتمع الأبصار ، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض ، فهو مفروش بالحرير الأبيض . وما كان منها من الياقوت الأحمر ، فهو مفروش بالعبقري . وما كان منها من الياقوت الأخضر ، فهو مفروش بالسندس الأخضر . وما كان منها من الياقوت الأصفر ، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر مبوبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء . قواعدها وأركانها من الجوهر ، وشرفها قباب من لؤلؤ ، وبروجها غرف من المرجان . فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم ، قربت لهم براذين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح ، بجنبها الولدان المخلدون ، بيد كل وليد منهم حكمة برذون من تلك البراذين ، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت ، سروجها سرر موضونة مفروشة بالسندس والاستبرق ، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم وتطأ رياض الجنة ،

فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنوهم كرامة ربهم. فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم ربهم مما سألوا وتمنوا ، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان ﴿ جنتان ﴾ ﴿ ذواتا أفنان ﴾ وجنتان ﴿ مدهامتان ﴾ و ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ [الرحمن : 66] وفيهما من كل فاكهة زوجان و ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ [الرحمن : 72] فلما تبوأوا منازلهم واستقروا قرارهم ، قال لهم ربهم : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم وربنا . قال : هل رضيتم بثواب ربكم ؟ قالوا : ربنا رضينا فارض عنا . قال برضاي عنكم حللتم داري ونظرتم إلى وجهي وصافحتم ملائكتي ، فهنيئاً لكم عطاء غير مجذوذ ليس فيه تنغيص ولا تصريد ، فعند ذلك قالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وأحلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ، إن ربنا لغفور شكور " .

وأخرج عبد بن حميد ، عن زيد مولى بني مخزوم قال : سمعت أبا هريرة - رضي الله عنه - يقول : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، واقرؤوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾ فبلغ ذلك كعباً - رضي الله عنه - فقال : صدق والذي أنزل التوراة على موسى ، والفرقان على محمد صلى الله عليه وسلم .

لو أن رجلاً ركب حقة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرماً .

إن الله عز وجل غرسها بيده ونفخ فيها من روحه ، وإن أفنانها من وراء سور الجنة ، وما في الجنة نهر إلا يخرج من أصل تلك الشجرة .

(111/412)

وأخرج ابن جرير عن مغيث بن سميّ – رضي الله عنه – قال : ﴿ طوبى ﴾ شجرة في الجنة ، لو أن رجلاً ركب قلوصاً جذعاً أو جذعة ، ثم دار بها ، لم يبلغ المكان الذي ارتحل منه حتى يموت هرماً . وما من أهل الجنة منزل إلا غصن من تلك الشجرة متدل عليهم ، فإذا أرادوا أن يأكلوا من الثمرة تدلى إليهم فيأكلون ما شاؤوا . ويجيء الطير فيأكلون منه قديداً وشوياً ما شاؤوا ثم يطير .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي صالح – رضي الله عنه – قال : ﴿ طوبى ﴾ شجرة في الجنة ، لو أن راكباً ركب حقة أو جذعة فأطاف بها ، ما بلغ ذلك الموضع الذي ركب فيه حتى يقتله الهرم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ طوبى ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا أبا بكر ، هل بلغك طوبى ؟ قال : الله تعالى ورسوله أعلم . قال : ﴿ طوبى ﴾ شجرة في الجنة لا يعلم طولها إلا الله تعالى ،

يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفاً . ورقها الحلل ، يقع عليها الطير كأمثال البخت . قال أبو بكر – رضي الله عنه – : إن ذلك الطير ناعم ، قال : أنعم منه من يأكله ، وأنت منهم يا أبا بكر إن شاء الله " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " طوبى ، شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه ، وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة ، تنبت الحلى ، والثمار منهدلة على أفواهها " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد بن السري في الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مغيث بن سمي – رضي الله عنه – قال : ﴿ طوبى ﴾ شجرة في الجنة ليس في الجنة دار إلا يظلها غصن من أغصانها ، فيه من ألوان الثمر . ويقع عليها طير أمثال البخت ، فإذا اشتهى الرجل طيراً دعاه فيقع على خوانه ، فيأكل من إحدى جانبيه شواء ، والآخر قديداً ، ثم يصير طائراً فيطير فيذهب .

وأخرج ابن أبي الدنيا في العزاء ، وابن أبي حاتم عن خالد بن معدان – رضي الله عنه – قال : إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى ، كلها ضروع ، فمن مات من الصبيان الذين

يرضعون رضع من طوبى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير – رضي الله عنه – في قوله ﴿ طوبى لهم ﴾ قال : غبطة ﴿ وحسن مآب ﴾ قال : حسن مرجع .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي – رضي الله عنه – ﴿ وحسن مآب ﴾ قال : حسن منقلب .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك – رضي الله عنه – مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(113/412)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26) ﴾

وقرأ زيدُ بنُ عليّ " ويَقْدُر " بضم العين .

قوله " وفَرِحوا " هذا استئنافُ إخبار . وقيل : بل [هو عطفٌ على صلةِ " الذين "] قبله

. وفيه نظرٌ : من حيث الفصل بين أبعاض الصلةِ بالخبر ، وأيضاً فإنَّ هذا ماضٍ وما قبله مستقبلٌ ، ولا بد من التوافق في الزمان ، إلا أن يُقال : المقصودُ استمرارُهم بذلك ، وإنَّ الماضي متى وقع صلةً صَلَحَ للمُضِيِّ والاستقبال .

قوله : ﴿ وَمَا الحياة الدنيا فِي الآخرة ﴾ ، أي : في جنب الآخرة . وهذا الجارُّ في موضع الحال تقديرُه : وما الحياةُ القريبةُ كائنةً في جنب الآخرة إلا متاعٌ ، ولا يجوز تعلُّقُه بالحياة ولا بالدنيا لأنهما لا يقعان في الآخرة .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) ﴾

والضميرُ في " عليه " عائدٌ على الله تعالى ، أي : إلى دينِه وشَرْعه . وقيل : على الرسول . وقيل : على القرآن .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ ﴾ يجوز فيه خمسةُ أوجهٍ ، أحدُها : أن يكون مبتدأً خبرُه الموصولُ الثاني ، وما بينهما اعتراضٌ . [الثاني : أنه بدلٌ] مِنْ " مَنْ أناب " . الثالث : أنه عطفُ بيانٍ له . الرابع : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ . أنه منصوبٌ بإضمارِ فعل .

قوله : ﴿ بِذِكْرِ الله ﴾ يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب " تطمئنُّ " فتكون الباءُ سببيةً ، أي : بسببِ ذِكْرِ الله . وقال أبو البقاء : " ويجوز أن يكونَ مفعولاً به ، أي : الطمأنينة تَحْصُل بذكْر الله ، الثاني : أنه متعلِّقٌ بمحذوف على أنه حالٌ مِنْ " قلوبُهم " أي : تطمئنُّ وفيها ذِكْرُ الله " .

﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ (29) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ﴾ : فيه أوجه : أن يكونَ بدلاً من " القلوبُ " على حَذْفِ مضاف ، أي : قلوب الذين آمنوا ، وأن يكونَ بدلاً مِن " مَنْ أناب " ، وهذا على قولِ مَنْ لم يجعلِ الموصولَ الأول بدلاً مِن " مَنْ أناب " ، وإلا كان يَتَوالَى بدلان . وأن يكونَ مبتدأً ، و " طُوبَى لهم " جملةٌ خبرية ، وأن يكونَ خبرَ مبتدأ مضمر . وأن يكونَ منصوباً بإضمارِ فعلٍ . والجملةُ مِنْ " طُوبَى لهم " على هذين الوجهين حالٌ مقدَّرة ، العاملُ فيها " آمَنُوا وعَمِلوا " .

وواوُ " طُوبَى " منقلبةٌ عن ياءٍ لأنها من الطِّيب ، وإنما قُلِبَتْ لأجلِ الضمة قبلها كمُوسِر ومُوْقِن من اليُسْر واليقين . واختلفوا فيها : فقيل : هي اسمٌ مفردٌ مصدر كبُشْرى ورُجْعى ، مِنْ طاب يطيب . وقيل : بل هي جمعُ " طَيِّبة " كما قالوا : كُوْسَى في جمع كَيِّسَة ، وضُوْقَى في جمع ضَيِّقة . ويجوز أن يقال : " طِيْبى " بكسر الفاء وكذلك الكِيْسَى

والضِيقَى . وهل هي اسمٌ لشجرةٍ بعينِها أو اسمٌ للجنة بلغةِ الهند أو الحبشة ؟ خلافٌ مشهور .

(115/412)

وجاز الابتداءُ ب " طُوبَى " : إمَّا لأنها عَلَمٌ لشيءٍ بعينه ، وإمَّا لأنها نكرةٌ في معنى الدعاء كسَلام عليك ووَيْل له ، كذا قال سيبويه . وقال ابن مالك : " إنه يُلزم رَفْعُها بالابتداء ، ولا تدخُلُ عليها نواسِخُه " . وهذا يَرُدُّ عليه : أنَّ بعضَهم جعلها في الآيِة منصوبةً بإضمارِ فِعْلٍ ، أي : وجَعَلَ لهم طُوْبَى ، وقد يتأَيَّد ذلك بقراءةِ عيسى الثقفي " وحُسْنَ مآب " بنصب النون . قال : " إنه معطوفٌ على " طُوْبَى " ، وإنها في موضع نَصْبٍ " . قال ثعلب : " وطُوْبَى على هذا مصدرٌ كما قالوا : سُقْياً " . وخَرَّج هذه القراءةَ صاحبُ " اللوامح " على النداء ك ﴿ ياأسفى ﴾ [يوسف : 84] على الفَوْت ، يعني أنَّ " طُوبَى " تضاف للضمير ، واللام/ مقحمةٌ ، كقوله :

2845- . . . . يا بُؤْسَ للجهلِ

ضَرَّاراً لأقوامِ

و[قوله] :

2855- يا بُوسَ للحَرْبِ التي . . . وَضَعَتْ أراهِطَ فاستراحوا

ولذلك سقط التنوينُ مِنْ " بؤس " كأنه قيل : يا طِيْباهم ، أي : ما أَطيبَهم وأحسنَ مآبَهم .

قال الزمخشري : " ومعنى طُوْبى لك : أَصَبْتَ خيراً وطِيباً ، ومحلُّها النصبُ أو الرفع كقولك : طِيباً لك وطِيبٌ لك ، وسلاماً لك ، وسلامٌ لك ، والقراءةُ في قوله : " وحُسن مآب " بالنصب والرفع تدلُّ على مَحَلَّيْها ، واللامُ في " لهم " للبيان ، مثلها في " سَقْياً لك " . فهذا يدلُّ على أنها تتصرَّفُ ولا تلزم الرفعَ بالابتداء .

وقرأ مَكْوَزَةُ الأعرابي " طِيْبَى " بكسرِ الطاء لِتَسْلَمَ الياءُ نحو : بِيْض ومَعِيْشة .

وقُرِئ " وحُسْنَ مآبٌ " بفتح النون ورفع " مآب " على أنه فعلٌ ماضٍ ، أصلُه " حَسُنَ " فَنُقِلَتْ ضمةُ العينِ إلى الفاءِ قَصْداً للمدح ، كقولهم :

2856- . . . .

. . . . حُسْنَ ذا أَدَبا

و " مآبٌ " فاعلُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 46 . 49 ﴾

(116/412)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ .

يبسط الرزق للأغنياء ويُطَالِبُهم بالشكر ؛ ويُضَيِّقُ على الفقراء ويطالبهم بالصبر . وَعَدَ الزيادةَ للشاكرين ، ووعد المَعِيَّةَ للصابرين . للأغنياء الأموال بمزيدها ، وللفقراء التجرد في الدارين عن طريفها وتليدها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ فِى الْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ .

فَرِحَ الأغنياءُ بزكاء أموالهم ، وفَرِحَ الفقراء بصفاء أحوالهم .

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ فِى الْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ قليلٌ بالإضافة إلى ما وعدهم الله ، فأموالُ الأغنياء - وإنْ كَثُرَت - قليلةٌ بالإضافة إلى ما وعَدَهم من وجود أفضاله ، وأحوال الفقراء - وإنْ صَفَتْ - قليلة بالإضافة إلى ما وعدهم من شهود جماله وجلاله .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) ﴾

﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ : وهم الذين لم يشهدوا ما أعطى نبينا - صلى الله عليه وسلم - من الشواهد والبرهان حتى (. . .) الزيادة .

﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [النور : 46] : وهم الذين أبصروا بعيون أسرارهم ما خُصَّ به

من الأنوار فسكنوا بنور استبصارهم .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) ﴾

قومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكرهم الله ، وفي الذكر وجَدُوا سَلْوَتَهم ، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم . وقومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكر الله فذَكَرَهُمْ الله - سبحانه - بلطفه ، وأَثْبَتَ الطمأنينةَ في قلوبهم على وجه التخصيص لهم .

(117/412)

ويقال إذا ذكروا أَنَّ الله ذَكَرَهم استروحت قلوبُهم ، واستبشرت أرواحُهم ، واستأنست أسرارُهم ، قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ لِمَا نالت بذِكْرِه من الحياة ، وإذا كان العبدُ لا يطمئن قلبُه بذكر الله ، فذلك لِخَلَلٍ في قلبه ، فليس قلبه بين القلوب الصحيحة .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29) ﴾

طابت أوقاتُهم وطابت نفوسُهم .

ويقال طوبى لمن قال له الحقُّ : طوبى .

طوبى لهم في الحال ، وحُسْنُ المآب في المآل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 228 . 230 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) ﴾

التفسير : لما خوّف عباده بإنزال ما لا مردّ له أتبعه دلائل تشبه اللطف من بعض الوجوه والقهر من بعضها وهي أربعة : البرق والسحاب والرعد والصاعقة . وقد مر في أوّل سورة البقرة تفسير هذه الألفاظ وقول الحكماء في أسباب حدوثها . وانتصاب ﴿ خوفاً وطعماً ﴾ إما على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع والتقدير ذا خوف وطمع ، أو من المخاطبين أي خائفين وطامعين ، وإما على أنه مفعول له على تقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وطمع . وإنما وجب تقدير المضاف ليكون فعلاً لفاعل الفعل المعلل كما هو شرط نصب المفعول له . ومعنى الخوف والطمع من وقوع الصواعق والطمع في نزول الغيث . وقيل : يخاف المطر من له فيه ضرر إما بحسب الزمان وإما بحسب المكان ، فمن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر ويطمع فيه من له فيه نفع . وعن ابن عباس أن اليهود سألت النبي عن الرعد فقال : ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار

يسوق بها السحاب . فعلى هذا الصوت المسموع هو صوت ذلك الملك الموكل المسمى بالرعد . وعن الحسن . خلق الله ليس بملك . وعن النبي صلى الله عليه وسلم :

(119/412)

" إن الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك فنطقه الرعد وضحكه البرق " وهذا غير مستبعد من قدرة الله وخصوصاً عند من لا يجعل البنية شرطاً في الحياة . وقيل : المضاف محذوف أي يسبح سامعو الرعد من العباد الراجلين للمطر حامدين له أو متلبسين بسبحان الله والحمد لله . وعن علي رضي الله عنه : سبحان من سبحت له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا اشتد الرعد : " اللَّهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك " وقيل : معنى تسبيح الرعد أن هذا الصوت المخصوص لهوله ومهابته يدل على وجود إله قهار كقوله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ [الإسراء : 44] . قال في الكشاف : ومن بدع المتصوّفة الرعد صعقات الملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم . والمطر بكاؤهم . أما قوله : ﴿ والملائكة من خيفته ﴾ أي ويسبح الملائكة من هيبته وجلاله فقد ذكر جمع من المفسرين أنه عنى بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد فإنه سبحانه جعل له أعواناً . قال ابن عباس : إنهم خائفون من الله لا

كخوف ابن آدم فإن أحدهم لا يعرف من على يمينه ومن على يساره ولم يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شيء . وقالت الحكماء : إنما تتم الآثار العلوية بقوى روحانية فلكية ، فللسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره وكذا القول في الرياح وفي سائر الآثار فهذا هو المراد بالملائكة في الآية . قوله : ﴿ ويرسل الصواعق ﴾ قد عرفت أنها نار تتولد من السحاب وتنزل بقوّة شديدة فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان . ووجه الاستدلال بها على الصانع أن النار حارة يابسة وطبيعة السحاب يغلب عليها الرطوبة والبرودة للأجزاء المائية فيه ، وحصول الضد من الضد لا يكون بالطبع وإنما يكون بتدبير القادر المختار وتسخيره .

ولما بين دلائل كمال العلم في قوله : ﴿ والله يعلم ﴾ ودلائل كمال القدرة في هذه الآية قال : ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ لأن إنكار المدلول بعد وضوح الدليل جدال بالباطل وعناد محض ، ويحتمل أن تكون الواو للحال أي فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم ويؤكده ما روي عن ابن عباس في رواية أبي صالح وابن جريج وابن زيد أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد بن ربيعة أقبلا يريدان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل من

أصحابه . يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك . فقال : دعه فإن يردِ الله به خيراً يهده . فأقبل حتى قام عليه فقال : يا محمد ما لي إن أسلمت . فقال : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم . قال تجعل لي الأمر بعدك . قال : لا ليس ذلك إليّ إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء قال : فتجعلني على الوبر وأنت على المدر . قال : لا .

(121/412)

قال : فماذا تجعل لي ؟ قال : أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها . قال : أوليس ذلك إليّ اليوم ؟ وكان أوصى إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فدر عليه من خلفه فاضربه بالسيف . فجعل يخاصم رسول الله ويراجعه ويجادل في الله يقول أخبرني عن ربك أمن نحاس هو أم من حديد ، فدار أربد خلف النبي صلى الله عليه وسلم ليضربه فاخترط من سيفه شبراً ثم حبسه الله فلم يقدر على سله ، وجعل عامر يومىء إليه فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما يصنع بسيفه فقال : اللَّهم أكفيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة في يوم صائف صاح فأحرقته وولى عامر هارباً وقال : يا محمد دعوت ربك فقتل أربد والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً وفرساناً مرداً . فقال رسول الله : يمنعك الله من ذلك وأبناء قيلة – يريد الأوس والخزرج – فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما

أصبح ضم عليه سلاحه وخرج وهو يقول : واللات لئن أصحر إليّ محمد وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذنهما برمحي فأرسل الله إليه ملكاً فلطمه بجناحه فأذراه في التراب وخرجت على ركبته غدة في الوقت عظيمة فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول : أغدّة كغدة البعير وموت في بيت السلولية ؟ ثم مات على ظهر فرسه وأنزل الله الآية في هذه القصة .

قوله : ﴿ وهو شديد المحال ﴾ معناه شديد المكر والكيد لأعدائه ، والمماحلة شدة المماكرة ومنه تمحل لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه ، ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان ومنه الحديث : " اللّهم اجعله – أي القرآن – لنا شافعاً مشفعاً ولا تجعله علينا ماحلاً مصدّقاً " ومن سنة المحل لشدتها وصعوبة أمرها . وأما عبارات المفسرين فقال مجاهد وقتادة : شديد القوّة . أبو عبيدة : شديد العقوبة . الحسن : شديد النقمة . وقيل : شديد الحقد ومعناه راجع إلى إرادة إيصال الشر إلى مستحقه مع إخفاء تلك الإرادة عنه ثم أثنى على نفسه بالحقية وشهد على الأصنام بالبطلان فقال : ﴿ له دعوة الحق ﴾ فأضاف

الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل كما تضاف الكلمة إلى الحق والمراد أنه سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة إذا أراد فهو حقيق بأن يوجه إليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا فائدة في دعائه . وعن الحسن : الحق هو الله والمعنى له دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب ولهذا أجاب النبي صلى الله عليه وسلم في الكافرين حين دعا عليهما . وعن ابن عباس : دعوة الحق قوله لا إله إلا الله . وقيل : الدعوة العبادة فإن عبادته هي الحق والصدق وقد سلف تحقيق الحق في أوّل هذا الكتاب في تفسير البسملة .

﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي الآلهة الذين يدعوهم أو يعبدهم الكفار من دون الله .

﴿ لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ إلا استجابة كاستجابة الماء من بسط يديه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر به .

والحاصل أن الكفار وذلك الطالب كليهما مشترك في الخيبة لاشتراكهما في دعاء الجماد .

وقيل : شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطهما ناشراً أصابعه فلا جرم لا يبلغ طلبته . ثم أكد خيبتهم بقوله : ﴿ وما دعاء الكافرين إلى في ضلال ﴾ في ضياع وذهاب عن المنفعة لأنهم إن دعوا الله لا يجيبهم لحقارة أمرهم عنده ، وإن دعوا الآلهة لم تستطع أجابتهم .

ثم زاد في الثناء فقال : ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض ﴾ فإن كان السجود بمعنى وضع الجبهة فذلك ظاهر في المؤمنين لأنهم يسجدون له ﴿ طوعاً ﴾ أي بسهولة ونشاط ﴿ وكرهاً ﴾ أي على تعب واصطبار ومجاهدة . وأما في حق الكفار فمشكل ووجهه أن يقال : المراد حق له أن يسجد لأجله جميع المكلفين من الملائكة والثقلين فعبر عن الوجوب بالوقوع ، وإن كان بمعنى الانقياد والخضوع والاعتراف بالإلهية وترك الامتناع عن نفوذ مشيئته فيهم فلا إشكال نظيره قوله : ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض ﴾ [آل عمران : 83] وقد مر في "آل عمران" أما قوله : ﴿ وظلالهم ﴾ فقد قال جمع المفسرين . كمجاهد والزجاج وابن الأنباري : لا يبعد أن يخلق الله للظلال أفهاماً تسجد بها لله وتخضع له كما جعل للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيحه فظل المؤمن يسجد لله طوعاً وهو طائع وظل الكافر يسجد لغير الله كرهاً ويسجد لله طوعاً . وقال آخرون : المراد من سجود الظلال تقلصها وامتدادها بحسب ارتفاع الشمس وانحطاطها فهي منقادة مستسلمة لما أتاح الله لها في الأحوال . وتخصيص الغدوّ والآصال بالذكر لغاية ظهورها وازديادها في الوقتين . ومعنى الغدّو والآصال قد مر في آخر "الأعراف" . واعلم أنه سبحانه ذكر آية السجدة في النحل بعبارة أخرى فقال : ﴿ ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة ﴾ [الآية : 49] لأنه تقدم ذكر ما خلق الله على العموم

ولم يكن فيه ذكر الملائكة ولا الإنس بالصريح فعمم ليشمل الإنس وصرح بالملائكة . وقال في "الحج " ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ﴾ [الحج : 18] بتكرير " من " لأنه تقدم ذكر المؤمنين وسائر الأديان فقدم ذكر ﴿ من في السموات ﴾ تعظيماً لهم ولها وذكر ﴿ من في الأرض ﴾ لأنهم هم الذين تقدم ذكرهم . وأما في هذه السورة فقد تقدم ذكر العلويات من الرعد والبرق ، ثم ذكر الملائكة وتسبيحهم ، ثم انجر الكلام إلى ذكر الأصنام

(124/412)

والكفار فبدأ في آية السجدة بذكر من في السموات والأرض وذكر الأرض تبعاً ولم يذكر من فيها استخفافاً بالكفرة وأصنافهم فتبين أنه أورد كل آية بما لاق بمقامها والله تعالى أعلم بمراده .

(125/412)

ثم أخبر عن التسخير بسؤال التقرير ردّاً على عبدة الأصنام فقال: ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله ﴾ وهذه حكاية لاعترافهم لأنهم كانوا يعترفون بأنه الإله الأعظم وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك؟ فإذا قال هذا قولي قال هذا قولك فيحكي إقراره استئنافاً منه يقول له: فيلزمك على هذا القول كيت وكيت وذلك قوله: ﴿ قل أفاتخذتم ﴾ ويجوز أن يكون تلقيناً لما ليسوا منكرين له. والهمزة في ﴿ أفاتخذتم ﴾ للإنكار والمعنى أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم ﴿ من دونه أولياء ﴾ جمادات عجزة عن تحصيل المنافع والمضارّ لأنفسهم فضلاً عن غيرهم. وموضع الإنكار أنهم جعلوا ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من العلم والإقرار سبب الإشراك، ثم جعلوا مع ذلك أخس الأشياء مكان أشرف الذوات وهذا جهل لا مزيد عليه فلهذا شبههم بالأعمى وشبه جهالتهم بالظلمات وأنكر أن يكون شيء منهما مساوياً لنقيضه فقال: ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾ جمع الظلمات ووحد النور لأن السبل المنحرفة غير محصورة والصراط المستقيم واحد. ثم أكد الإنكار المذكور بقوله: ﴿ أم جعلوا ﴾ والمراد بل جعلوا ﴿ لله شركاء ﴾ خالقين مثل خلقه ﴿ فتشابه الخلق ﴾ أي خلق الله وخلقهم ﴿ عليهم ﴾ أي ليس لهذه الشركاء خلق مثل خلق الله حتى يشتبه الأمر عليهم بل ليس لهم خلق أصلاً بل كان ما سوى الله عاجز عن الخلق بدليل قوله: ﴿ قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ المتوحد بالربوبية الذي لا يغالب

وما عداه مربوب ومقهور . قالت المعتزلة : للعبد فعل وتأثير ولكنا لا نقول إنه يخلق كخلق الله لأن العبد يفعل لجلب منفعة أو دفع مضرة والله تعالى منزه عن ذلك . وأجيب بأن المخالفة من بعض الوجوه لا تقدح في المماثلة من وجه آخر ، فلو كان فعل العبد كالتحريك مثلاً واقعاً بقدرته لكان مثلاً للتحريك الواقع بقدرة الله تعالى وهذا الإشكال وارد أيضاً على من يثبت للعبد

(126/412)

كسباً . ثم ضرب مثلاً آخر للحق وذويه والباطل ومنتحليه فقال : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية أي مياهها والوادي الفضاء المنخفض عن الجبال والتلال الذي يجري فيه السيل . وقيل : الوادي اسم للماء من ودى إذا سال ، والمعنى سالت مياه . قال الفارسي : لا نعلم فاعلاً جمع على " أفعلة " إلا هذا وكأنه حمل على " فعيل " فجمع على " أفعلة " كجريب وأجربة كما أن فعيلاً حمل على فاعل فجمع على " أفعال " مثل يتيم وأيتام وشريف وأشراف كأصحاب وأنصار في صاحب وناصر . وقال غيره : نظير وادٍ وأودية نادٍ وأندية . ومعنى التنكير في أودية أن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض . قال في الكشاف : معنى ﴿ بقدرها ﴾ بمقدارها الذي

عرف الله أنه نافع للممطور عليهم بدليل قوله : ﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ وقال الواحدي : معناه سالت مياه الأودية بقدر الأودية فإن صغر الوادي قل الماء وإن اسع كثر الماء .

(127/412)

والزبد هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل ونحوه . ومعنى ﴿ رابياً ﴾ قال الزجاج : طافياً فوق الماء . وقال غيره : زائداً بسبب انتفاخه من ربا يربو إذا زاد . ثم قال سبحانه إظهاراً للكبرياء كما هو ديدن الملوك ﴿ ومما يوقدون عليه ﴾ " من " لابتداء الغاية أي ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء . أو للتبعيض بمعنى بعضه زبد مثله أراد به الأجسام المتطرقة المتفرقة الرابية . والإيقاد على الشيء قسمان : أحدهما أن لا يكون ذلك الشيء في النار كالآجر في قوله : ﴿ أوقد لي ياهامان على الطين ﴾ [القصص : 38] والثاني أن يكون في النار كأنواع الفلز ولهذا قال ههنا بزيادة لفظة ﴿ في النار ﴾ قال في الكشاف : فائدة قوله ﴿ ابتغاء حلية أو متاع ﴾ مثل فائدة قوله ﴿ بقدرها ﴾ لأنه جميع بين لماء والفلز في النفع في قوله : ﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ أي وأما ما ينفعهم به من الماء والفلز فذكر وجه الانتفاع بالفلز وهو اتخاذ الحلي من الذهب والفضة واتخاذ سائر أثاث البيت وأمتعته من الحديد والنحاس والرصاص والأسرب وما يتركب منها والمتاع كل ما تمتع به . ﴿ وكذلك يضرب

الله الحق والباطل ﴾ أي يضرب الأمثال للحق والباطل ومثله في آخر الآية فاختصر الكلام بأن حذف الأمثال من الأوّل والحق والباطل من الثاني تأكيداً للمقصود مع رعاية الاختصار . ثم شرع في تتميم المثل قائلاً ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ نصب على الحال وهو اسم لما ينفيه السيل . يقال : جفأ الوادي بالهمزة جفأ إذا رمى بالقذر والزبد ، وكذلك القدر إذا رمت بزبدها عند الغليان ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ حاصل المثل أن الوادي إذا جرى طفا عليه زبد وذلك الزبد يبطل ويبقى الماء النافع في العيون والآبار والأنهار ، وكذا الأجساد المتطرقة إذا أذيبت لأجل اتخاذ الحلي أو سائر الأمتعة انفصل عنها خبث وزبد فيبطل ويتلاشى ويبقى ذلك الجوهر المنتفع به أزمنة متطاولة . وتطبيق المثل على الحق والباطل أنه سبحانه أنزل

من سماء الوحي ماء بيان القرآن فسالت أودية القلوب بقدرها فإن كل قلب إنما يحصل فيه من أنوار علم القرآن ما يليق بذلك القلب على قدر استعداده . ثم إنه يختلط بذلك البيان شكوك وشبهات ولكنها بالآخرة تضمحل ويبقى العلم واليقين ، فزبد السيل والفلز مثل للباطل في سرعة اضمحلاله وانسلاخه من المنفعة ، والماء والفلز الصافي مثل للحق في

البقاء والانتفاع به .

ثم ذكر أحوال السعداء وتبعات الأشقياء فقال ﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ أي فيما دعاهم إليه من التوحيد والنبوة والتكاليف ﴿ الحسنى ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ مبتدأ آخر خبره الجملة الشرطية بعده .

وقيل : إن الكلام متصل بما قبله أي يضرب الله الأمثال لهذين الفريقين . وقوله : ﴿ الحسنى ﴾ صفة لمصدر استجابوا أي الاستجابة الحسنى . وقوله : ﴿ لو أن لهم ﴾ كلام مبتدأ في ذكر ما أعدّ لغير المستجيبين ومن ذلك قوله ﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾ قال الزجاج : لأن كفرهم أحبط أعمالهم . وقال غيره : سوء الحساب المناقشة فيه . وعن النخعي : هو أن يحاسب الرجال بذنبه كله لا يغفر منه شيء . وقال الحكماء : هو ظهور آثار الملكات الردية والهيئات الذميمة على النفس ولم يكن قبل ذلك له شعور بها لاشتغاله بعالم الحس . ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ لأنهم أقبلوا على الدنيا وأعرضوا عن المولى فلا جرم إذا ماتوا فارقوا معشوقهم فأورثهم الحرمان والخسران والاحتراق بنار الفراق . ثم أنكر بعد هذه البيانات أن يسوّى بين الناقد والبصير والجاهل الضرير فقال ﴿ أفمن يعلم أنما ﴾ أي

أن الذي ﴿ أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ القلب ﴿ إنما يتذكر ﴾ أي لا ينتفع بالأمثال إلا ﴿ أولوا الألباب ﴾ الذي يعبرون من القشر إلى الباب . ثم وصفهم بقوله : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ﴾ ويجوز أن يكون نصباً على الندح وأن يكون مبتدأ خبره ﴿ أولئك ﴾ أما عهد الله فعن ابن عباس : هو المذكور في قوله : ﴿ وإذا أخذ ربك من بني آدم ﴾ [الأعراف : 172] وقيل : هو كل ما قام عليه دليل عقلي أو سمعي من الأفعال والتروك ولا عهد أوكد من الحجة بدليل أن من حلف على الشيء فإنما يلزمه الوفاء به إذا ثبت بالدليل جوازه ﴿ ولا ينقضون الميثاق ﴾ تأكيد للوفاء بالعهد بعبارة أخرى تلزم الأولى كقولك : لما وجب وجوده لزم أن يمتنع عدمه . وقيل : الوفاء بعهد الله إشارة إلى ما كلف الله العبد به ابتداء ، وعدم نقض الميثاق أراد به ما التزمه العبد بالنذر . وقيل : الوفاء بالعهد عهد الربوبية والعبودية والميثاق أعم لشموله كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله ومن سائر المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد ، والوفاء

بالعهد أمر مستحسن في العقول والشرائع كلها قال صلى الله عليه وسلم : " من عاهد الله فغدر كانت فيه خصلة من النفاق " ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ إفراد لما

بينه وبين العباد بالذكر فقيل : المراد صلة الرحم . وقيل : هو مؤازة النبي صلى الله عليه وسلم ومعاونته ونصرته في الجهاد . وقيل : رعاية جميع حقوق الناس بالشفقة عليهم والنصيحة في كل حال وكل حين ومن ذلك عيادة المريض وشهود الجنائز ومراعاة الرفقاء والجيران والخدم ومن يطيف به حتى الهرة والدجاج ﴿ ويخشون ربهم ﴾ وإن أتوا بكل ما قدروا عليه في باب التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله خوفاً من وعيده كله ﴿ ويخافون ﴾ خصوصاً ﴿ سوء الحساب ﴾ ويلزم ذلك أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

وقيل : الخشية نوعان : خشية الجلال كالعبد إذا حضر بين يدي السلطان ومن ذلك خشية الملائكة ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ ﴿ النحل : 50] وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ ويخشون ربهم ﴾ وخشية أن يقع في العبادة خلل أو نقص يوجب فسادها أو نقصان ثوابها . وإليه الإشارة بقوله : ﴿ ويخافون سوء الحساب ﴾ .

(131/412)

﴿ والذين صبروا ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات وعلى المصائب ﴿ ابتغاء وجه ربهم ﴾ لا لأجل أن يقال ما أورعه وما أزهده وما أصبره وغير ذلك من الأغراض الفاسدة

، وإنما يصبر على التكاليف لأنها أحكام المعبود الحق ويصبر على الرزايا لأنها قسمة قسام متصرف في ملكه كيف يشاء ، أو لأنه مشغول بالمقدر والقاضي لا بالقدر والقضاء . وقد يرضى العاشق بالضرب والإيلام لالتذاذه بالنظر إلى وجه معشوقه فهكذا العارف يصبر على البلايا والمحن لاستغراقه في بحر العرفان وفيضان أنوار المعروف عليه . ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ ولا يمتنع دخول النوافل فيها لقوله : " ما زال العبد يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحببته " ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾ يتناول النفل لأنه في السر أفضل ، والفرض لأنه في الجهر أفضل كما مر في أواخر سورة البقرة ﴿ ويدرءُون بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون بالتوبة وهي الخصلة الحسنة المعصية . قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل " إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها " وقيل لا يقابلون الشر بالشر وإنما يقابلونه بالخير كما روي عن الحسن : إذا حرموا أعطوا ، وإذا قطعوا وصلوا . وعن ابن عباس : يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيىء غيرهم . يروى أن شقيق بن إبراهيم البلخي دخل على عبد الله بن المبارك متنكراً فقال : من أين أتيت ؟ قال : من بلخ . فقال : وهل تعرف شقيقاً ؟ فقال : نعم . فقال : كيف طريقة أصحابه ؟ فقال : إذا منعوا صبروا وإذا أعطوا شكروا فقال عبد الله : هكذا طريقة كلابنا ، وإنما الكاملون الذين إذا منعوا شكروا وإذا أعطوا آثروا . وقيل مراد الآية أنهم إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ عاقبة الدنيا وهي الجنة التي أرادها الله تعالى أن تكون مرجع أهلها .

والعقبى مصدر كالعاقبة ومثله البشرى والقربى ، ويجوز أن يكون مضافاً إلى الفاعل والمعنى أولئك لهم أن يعقب أعمالهم الدار التي هي الجنة . ومعنى ﴿ جنات عدن ﴾ تقدم

(132/412)

في سورة براءة ﴿ ومن صلح ﴾ معطوف على فاعل ﴿ يدخلونها ﴾ ويجوز أن يكون مفعولاً معه . قال ابن عباس : يريد من صدق بما صدقوا به وإن لم يعمل مثل أعمالهم . وقال الزجاج : بين أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة . قال الواحدي : والأول أصح لأن الله تعالى جعل من ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه في الجنة فلو دخلوها بأعمالهم الصالحة لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ، ويمكن أن يوجه قول الزجاج بأن المقصود بشارة المؤمن بأن أهل الصلاح من أصوله وفصوله وأزواجه يجتمعون به في دار الثواب فقد يمكن أن يكونوا جميعاً في الجنة ولا يجتمعون في موضع .

ولقائل أن يقول : الدخول أعم من الاجتماع ولا دلالة للعام على الخاص فصح اعتراض الواحدي . والآباء جميع أبوي كل واحد منهم فكأنه قيل : من آبائهم وأمهاتهم . وليس في الآية ما يدل على التمييز بين زوجه وزوجة ولعل من مات عنها أو ماتت عنه ويؤيده ما روي

عن سودة أنه لما هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت : دعني يا رسول الله أحشر في زمرة نسائك .

قال ابن عباس : لهم خيمة من درة مجوّفة فرسخ وعرضها فرسخ لها أبواب مصاريعها من ذهب يدخل عليهم الملائكة من كل باب يقولون لهم عليكم بما صبرتم على أمر الله . وقال أبو بكر الأصم : من كل باب من أبوب البر كباب الصلاة وباب الزكاة وباب الصبر ويقولون : نعم ما أعقبكم الله بعد الدار الأولى . وهذا يناسب قول حكماء الإسلام إن لكل مرتبة من مراتب الكمالات جوهراً قدسياً وروحاً علوياً يختص بتلك الصفة ، فبعد المفارقة يفيض على النفس الكاملة من ملك الصبر كمال مخصوص ، ومن ملك الشكر كذلك وعلى هذا القياس . وقد يستدل بالآية على أن الملك أفضل من البشر وإلا فلم يكن دخولهم على المؤمنين موجباً لتحيتهم وإكرامهم . ويمكن أن يجاب بأن وجه التكريم هو مجيئهم بإذن الله ومن عنده لا مجرد المجيء : والباء في قوله : ﴿ بما صبرتم ﴾ يتعلق بالسلام . والمعنى إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم على الطاعات وعن المحرمات . وقيل : يتعلق بمحذوف أي هذا الثواب بسبب صبركم أو بدل صبركم . وروي عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . ثم أتبع أحوال السعداء أحوال الأشقياء وقد مر تفسيره في أوّل " البقرة " على أن الضد قد يعلم من الضد بسهولة وقد مر آنفاً . وقوله : ﴿ سوء الدار ﴾ في مقابلة ﴿ عقبى الدار ﴾ كأن العاقبة لا تطلق إلا على العاقبة الحميدة كقوله ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [الأعراف : 128] لأن غير الحميدة ل تستأهل لأن تكون عاقبة .

(134/412)

وقال في الكشاف : المراد سوء عاقبة الدنيا ولا حاجة إلى هذا الإضمار بناء على ما قلنا . قال : ويجوز أن يراد بالدار جهنم وسوئها عذابها ذكر أهل النظم أنه لما بين سوء حال الناقصين كان لقائل أن يقول : فما بالهم قد فتح الله عليهم أبواب الرزق في الدنيا فأجاب بقوله : ﴿ الله يبسط الرزق ﴾ والمراد أن الدنيا دار امتحان لا دار جزاء ، فقد يتفق أن يكون الجاهل الكافر خليّ البال والعالم المؤمن رديّ الحال ولا تعلق لهذا المعنى بالكفر والإيمان .

(135/412)

والتركيب للحصر أي هو وحده يوسع الرزق على من يشاء كأهل مكة و ﴿ يقدر ﴾ أي يضيق ومعناه أنه يعطيه بقدر الضرورة وسد الرمق لا يفضل منه شيء ﴿ وفرحوا ﴾ يعني أهل مكة وأضرابهم بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح تحدث بنعمة الله وإظهاراً لفضله عليهم ﴿ وما الحياة الدنيا ﴾ ونعيمها في جنب نعيم الآخرة ﴿ إلا متاع ﴾ شيء نزر يتمتع به أياماً قلائل ثم بعد ذلك حسرات لا نهاية لها ، ومثل هذا لا يوجب الفرح بل لا يجوّزه . ثم حكى نوعاً آخر من قبائح الكفرة فقال : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ وقد مر مثله في هذه السورة وذكرنا أنه ليس بتكرار محض إلا أن قوله في جوابهم ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ أقبل على الحق وحقيقته دخل في نوبة الخير فيه غموض . وأجيب بأنه يجري مجرى التعجب كأنه قيل : ما أعظم عنادكم بعدما أنزلت من الآيات الباهرة أن الإضلال والهداية من الله ، أو المراد لا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا إلى الله في طلب الهدايات فإن الذي أضله الله يرى الآية سحراً ، والذي هداه يراها معجزة . وقال الجبائي : المعنى إن الله يضل من يشاء عن طريق الصواب ويهدي إليه أقواماً آخرين فلولا أنكم تستحقون العقاب لهداكم إلى الصواب بإنزال ما اقترحتموه . وقيل : المراد أنه تعالى أنزل آيات ظاهرة ولكن الإضلال والهداية من الله فلو شاء لهداكم فلا فائدة في تكثير المعجزات ﴿ الذين آمنوا ﴾ بدل ممن

أناب ﴿ وتطمئن قلوبهم ﴾ عن ابن عباس : يريد إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت . والاطمئنان بآيات الوعد لا ينافي الوجل من آيات الوعيد حيث قال ﴿ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ [الأنفال : 2] أو المراد أن علمهم بكون القرآن معجزاً يوجب حصول الطمأنينة لهم بأنه سبحانه واحد لا شريك له صادق في وعده ووعيده وبأن محمداً نبي حق ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ التحقيق فيه أن الإنسان متوسط الرتبة بين عالم الأرواح

(136/412)

وعالم الأجساد ، فإذا توجه إلى عالم الجسد اشتاق إلى التصرف فيه فيظهر له هناك أمور ضرورية في التعيش أدونها ليس بأهون من خرط القتاد فيتوزع فكره وتضطرب أحواله ، أما إذا توجه إلى عالم الروح فإنه يزول الاضطراب ويتوحد المطلب ويحصل الاستغراق في بحر العرفان والاستنارة بنور الإيقان ، ومن وقع في لجة البحر لا يبالي أين وقع :

أنا الغريق فما خوفي من البلل . . . وقيل : إن الإكسير إذا وقعت منه ذرة على النحاس انقلب ذهباً صافياً باقياً على كر الدهور ، فإكسير جلال الله إذا وقع في القلب السليم كيف لا يقلبه جوهراً صافياً نورانياً آمناً من التغير والزوال ﴿ الذين آمنوا ﴾ مبتدأ خبره

﴿ طوبى لهم ﴾ وجوّز في الكشاف أن يكون بدلاً على حذف المضاف أي قلوب الذين آمنوا .

و﴿ طوبى ﴾ مصدر من طاب يطيب كبشرى وواو منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها واللام للبيان مثل " سقيا لك " . والمعنى طيب لهم على الدعاء أو الخبر . عن ابن عباس : فرح وقرة عين . الضحاك : غبطة لهم . قتادة : حسنى لهم . الأصم : خير وكرامة . الزجاج : عيش طيب . والكل متقارب والعبارة الجامعة أن أطيب الأشياء في كل الأمور حاصل لهم . وقيل : طوبى شجرة في الجنة . حكى الأصم أن أصلها في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي دار كل مؤمن منها غصن . روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " طوبى شجرة غرسها الله بيده تنبت الحلي والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة " وعن بعضهم أن طوبى هي الجنة بالحبشية والمآب المرجع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 147.157 ﴾

(137/412)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ هو الذي يريكم ﴾ برق أنوار الجلال فيغلب عليكم خوف الانقطاع واليأس ، ويريكم برق أضواء الجمال فيغلب عليكم طمع الوصل ورجاء الاستئناس ﴿ وينشيء السحاب ﴾ النوال والأفضال ﴿ الثقال ﴾ بمطر القبول والإقبال ﴿ ويسبح الرعد ﴾ وهو الملك المخلوق من نور الهيبة والجلال فتع الهيبة في قلوب الخلق كلهم حتى الملائكة فيسبحون من خيفته ، ويرسل صواعق القهر ﴿ فيصيب بها من يشاء ﴾ من أهل الخذلان فيحرق حسن استعدادهم في قبول الإيمان . ومن نتائج ذلك أنهم يجادلون في ذات الله وفي صفاته كالفلاسفة الذين لا يتابعون الأنبياء والشرئع ، وكبعض المتكلمين من أهل الأهواء والبدع ﴿ له دعوة الحق ﴾ أي دعوته حق لمن دعاه فيستجيبه كما قالت السموات والأرض أتينا طائعين له دعاة يدعون الخلق بالحق إلى الحق ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي بغير الحق ﴿ لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ إذ لا يؤثر في الخلق نصحهم كمن يبسط يده إلى الماء إراءة إلى الحق أنه يريد شربه ﴿ وما هو ببالغه ﴾ فلا يستجابون على الحقيقة وإن استجيبوا في الظاهر لأنهم استجابوا لهم على الهوى كما دعوا إلى الحق بالهوى يدل عليه قوله : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ولله يسجد من في السموات والأرض

﴿ من الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء والصلحاء ﴿ طوعاً ﴾ ومن أرواح الكافرين والمنافقين والشياطين ﴿ كرهاً ﴾ بالتذليل والتسخير تحت الأحكام والتقدير ﴿ وظلالهم ﴾ أي نفوسهم فإن النفوس ظلال الأرواح، وليس السجود ن شأنها لأنها أمارة بالسوء إلا ما رحم الرب فإنها تسجد بتبعية الروح. معنى آخر: ولله يسجد من في سموات القلوب من صفات القلوب والأرواح والعقول، طوعاً ومن في أرض النفوس من صفات النفس والقوى الحيوانية والسبعية والشيطانية كرهاً، وظلالهم وهي آثارها ونتائجها. آخر: ولله يسجد الأرواح في الحقيقة وظلالهم وهي أجسادهم بالتبعية، وهذا السجود بمعنى وضع الجبهة، وخص الوقتان بالذكر لأن آثار

القدرة فيهما أكثر، وإن أريد الانقياد والتسخير احتمل أن يراد بالوقتين وقتا الانتباه والنوم، ففي الأول تطلع شمس الروح من أفق الجسد، وفي الثاني تغرب فيه أنزل من سماء القلوب ماء المحبة.

﴿ فسالت أودية ﴾ النفوس ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ من الأخلاق الذميمة النفسانية والحيوانية ، أو أنزل من سماء الأرواح ماء مشاهدة أنواع الجمال ﴿ فسالت أودية ﴾ القلوب ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ من الأوصاف البشرية ، أو أنزل من سماء الأسرار ماء كشوف الجمال ﴿ فسالت أودية ﴾ الأرواح ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ من أنانية الروحانية ، أو أنزل من سماء الجبروت ماء تجلي صفات الألوهية ﴿ فسالت أودية ﴾ الأسرار بقدرها ﴿ فاحتمل السيل ﴾ زبد الوجود المجازي ﴿ ومما توقدون عليه ﴾ من البقاء في نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة فلا تبقي ولا تذر وهي التذكية بالفناء ﴿ ابتغاء حلية ﴾ وهي التحلية بالبقاء الحقيقي ﴿ أو متاع ﴾ وهو التمتع به ﴿ زبد مثله ﴾ مثل زبد البشرية وهو زبد المعرفة والتوحيد ﴿ فأما الزبد ﴾ في الأحوال كلها ﴿ فيذهب جفاء ﴾ بالفناء ﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ من البقاء بالله ﴿ فيمكث في ﴾ أرض الوحدة المستعدة لقبول الفيض الإلهي . ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾ وهي العناية الأزلية التي الاستجابة من نتائجها كقوله : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ حين دعاهم للوصول والوصال لو حصل لهم ما في أرض البشرية من أنواع اللذات والحظوظ وأضعافها لجعلوه فداء ألم عذاب القطيعة ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ أي انفصلوا عما سواه

ليتصلوا به ﴿ سراً ﴾ بالانقطاع عما يشغل بواطنهم ﴿ وعلانية ﴾ بالانفصال عما يشغل ظواهرهم ﴿ ويدرءُون ﴾ بالأعمال والأحوال الحسنة في صدق الطلب الأحوال السيئة من الوقائع والفترات ﴿ والملائكة يدخلون عليهم ﴾ تبركاً وتيمناً بهم تبعاً لهم من كل باب دخلوه بالاستقلال على أقدام السير بالله إلى الله ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ عن غير الله وعلى صدق الطلب ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ القلوب أربعة: قلب قاس كقلوب الكفار والمنافقين فاطمئنانه بالدنيا وشهواتها رضوا

بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وقلب ناس وهو قلب المسلم المذنب كقوله : ﴿ فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ [طه : 115] فاطمئنانه بالتوبة فتاب عليه وهدى ، وقلب مشتاق وهو قلب المؤمن فاطمئنانه بذكر الله كما في الآية . وقلب وحداني وهو قلب الأنبياء وخواص الأولياء فاطمئنانه بالله وصفاته كقول الخليل صلى الله عليه وسلم ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة : 260] أي بتجلي صفات الأحياء ، وإذا صار القلب مطمئناً انعكس نور الاطمئنان من مرآة قلبه على نفسه فتصير مطمئنة أيضاً فيستحق بجذبات العناية لخطاب ﴿ ارجعي ﴾ [الفجر : 28] ثم أشار إلى أنّ الاطمئنان ثمرة غرس شجرة الإيمان

والعمل الصالح في أرض القلب فقال : ﴿ الذين آمنوا ﴾ الآية . فالإشارة بطوبى إلى حقيقة شجرة " لا إله إلا الله " مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ولم يكن إلا في قلب النبي صلى الله عليه وسلم وبتبعيته في قلوب المؤمنين ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : " طوبى شجرة أصلها في داري وفرعها على أهل الجنة " فافهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 157.158 ﴾

(142/412)

فائدة

وقال ابن القيم :

منزلة الطمأنينة

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الطمأنينة

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : 28] وقال تعالى: 0 ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : 27-30] الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه ومنه الأثر المعروف: الصدق طمأنينة والكذب ريبة أي

الصدق يطمئن إليه قلب السامع ويجد عنده سكونا إليه والكذب يوجب له اضطرابا وارتيابا ومنه قوله: البر ما اطمأن إليه القلب أي سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه وفي ذكر الله ها هنا قولان: أحدهما: أنه ذكر العبد ربه فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين إذا حلف المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنت ويروى هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما

ومنهم من قال: بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه يسكن إليه قلبه ويطمئن والقول الثاني: أن ذكر الله ههنا القرآن وهو ذكره الذي أنزله على رسوله به طمأنينة قلوب المؤمنين فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه واضطرابه وقلقه من شكه والقرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك والظنون والأوهام فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به وهذا القول هو المختار وكذلك القولان أيضا في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: 36] والصحيح: أن ذكره الذي أنزله على رسوله وهو كتابه من أعرض عنه:

قيض له شيطانا يضله ويصده عن السبيل وهو يحسب أنه على هدى وكذلك القولان أيضا في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: 124]

والصحيح: أنه ذكره الذي أنزله على رسوله وهو كتابه ولهذا يقول المعرض عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴾ قال: ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [طه: 125126]

وأما تأويل من تأوله على الحلف: ففي غاية البعد عن المقصود فإن ذكر الله بالحلف يجري على لسان الصادق والكاذب والبر والفاجر والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلى الصادق ولو لم يحلف ولا تطمئن قلوبهم إلى من يرتابون فيه ولو حلف وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم وجعل الغبطة

والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة فطوبى لهم وحسن مآب وفي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ﴾ [الفجر: 27-28] دليل على أنها لا ترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة فهناك ترجع إليه وتدخل في عباده وتدخل جنته وكان من

دعاء بعض السلف: اللهم هب لي نفسا مطمئنة إليك

فصل قال صاحب المنازل: الطمأنينة: سكون يقويه أمن صحيح شبيه بالعيان وبينها وبين السكينة فرقان: أحدهما: أن السكينة صوله تورث خمود الهيبة أحيانا و الطمأنينة سكون أمن في استراحة أنس والثاني: أن السكينة تكون نعتا وتكون حينا بعد حين و الطمأنينة لا تفارق صاحبها الطمأنينة موجب السكينة وأثر من آثارها وكأنها نهاية السكينة فقوله: سكون يقويه أمن أي سكون القلب مع قوة الأمن الصحيح الذي لا يكون أمن غرور فإن القلب قد يسكن إلى أمن الغرور ولكن لا يطمئن به لمفارقة ذلك السكون له و الطمأنينة لا تفارقه فإنها مأخوذة من الإقامة يقال: اطمأن بالمكان والمنزل: إذا أقام به وسبب صحة هذا الأمن المقوى للسكون: شبهه بالعيان بحيث لا يبقي معه شيء من مجوزات الظنون والأوهام بل كأن صاحبه يعاين ما يطمئن به فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتيابه وأما الفرقان اللذان ذكرهما بينها وبين السكينة فحاصل الفرق الأول: أن السكينة تصول على الهيبة الحاصلة في القلب فتخمدها في بعض الأحيان فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السكون وذلك في بعض الأوقات

فليس حكما دائما مستمرا وهذا يكون لأهل الطمأنينة دائما ويصحبه الأمن والراحة بوجود الأنس فإن الاستراحة في السكينة قد تكون من الخوف والهيبة فقط والاستراحة في منزل الطمأنينة تكون مع زيادة أنس وذلك فوق مجرد الأمن وقدر زائد عليه وحاصل الفرق

الثاني: أن الطمأنينة ملكة ومقام لا يفارق و السكينة تنقسم إلى سكينة هي مقام ونعت لا يزول وإلى سكينة تكون وقتا دون وقت هذا حاصل كلامه والذي يظهر لي في الفرق بينهما أمران سوى ما ذكر:

أحدهما: أن ظفره وفوزه بمطلوبه الذي حصل له السكينة بمنزلة من واجهه عدو يريد هلاكه فهرب منه عدوه فسكن روعه والطمأنينة بمنزلة حصن رآه مفتوحا فدخله وأمن فيه وتقوى بصاحبه وعدته فللقلب ثلاثة أحوال أحدها: الخوف والاضطراب والقلق من الوارد الذي يزعجه ويقلقه

الثاني: زوال ذلك الوارد الذي يزعجه ويقلقه عنه وعدمه الثالث: ظفره وفوزه بمطلوبه الذي كان ذلك الوارد حائلا بينه وبينه وكل منهما يستلزم الآخر ويقارنه فالطمأنينة تستلزم السكينة ولا تفارقها وكذلك بالعكس لكن استلزام الطمأنينة للسكينة أقوى من استلزام السكينة للطمأنينة الثاني: أن الطمأنينة أعم فإنها تكون في العلم والخبر به واليقين والظفر بالمعلوم ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به ومعرفته والهداية به في ظلم الآراء والمذاهب واكتفت به منها وحكمته عليها وعزلتها وجعلت له الولاية بأسرها كما

جعلها الله فبه خاصمت وإليه حاكمت وبه صالت وبه دفعت الشبه وأما السكينة: فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه وسكونه

وزوال قلقه واضطرابه كما يحصل لحزب الله عند مقابلة العدو وصولته والله سبحانه أعلم

فصل قال: وهي على ثلاث درجات الدرجة الأولى: طمأنينة القلب بذكر

الله وهي طمأنينة الخائف إلى الرجاء والضجر إلى الحكم والمبتلى إلى المثوبة قد تقدم أن الطمأنينة بذكر الله بكلامه وكتابه ولا ريب أن الذي ذكره في هذه الدرجة: هو من جملة الطمأنينة بذكره وهي أهم من ذلك فذكر طمأنينة الخائف إلى الرجاء فإن الخائف إذا طال عليه الخوف واشتد به وأراد الله عز وجل أن يريحه ويحمل عنه: أنزل عليه السكينة فاستراح قلبه إلى الرجاء واطمأن به وسكن لهيب خوفه وأما طمأنينة الضجر إلى الحكم فالمراد بها: أن من أدركه الضجر من قوة التكاليف وأعباء الأمر وأثقاله ولا سيما من أقيم مقام التبليغ عن الله ومجاهدة أعداء الله وقطاع الطريق إليه فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويتحملونه فلابد أن يدركه الضجر ويضعف صبره فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه: أنزل عليه سكينته فاطمأن إلى حكمه الديني وحكمه القدري ولا طمأنينة له

بدون مشاهدة الحكمين وبحسب مشاهدته لهما تكون طمأنينته فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أنه دينه الحق وهو صراطه المستقيم وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني: علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له وأنه ما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان فإن المحذور والمخوف: إن لم يقدر فلا سبيل إلى وقوعه وإن قدر فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أبرم تقديره فلا جزع حينئذ لا مما قدر ولا مما لم يقدر نعم إن كان له في هذه النازلة حيلة فلا ينبغي أن يضجر عنها وإن لم يكن

فيها حيلة فلا ينبغي أن يضجر منها فهذه طمأنينة الضجر إلى الحكم وفي مثل هذا قال القائل:

ما قد قضى يا نفس فاصطبري له . . . ولك الأمان من الذي لم يقدر

وتحققي أن المقدر كائن . . . يجري عليك حذرت أم لم تحذري

وأما طمأنينة المبتلى إلى المثوبة فلا ريب أن المبتلى إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض وإنما يشتد به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب وقد تقوى

ملاحظة العوض حتى يستلذ بالبلاء ويراه نعمة ولا تستبعد هذا فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذ به وملاحظته لنفعه تغيبه عن تألمه بمذاقه أو تخففه عنه والعمل المعول عليه: إنما هو على البصائر والله أعلم

فصل قال: الدرجة الثانية: طمأنينة الروح في القصد إلى الكشف وفي الشوق إلى العدة وفي التفرقة إلى الجمع طمأنينة الروح أن تطمئن في حال قصدها ولا تلتفت إلى ما وراءها والمراد بالكشف: كشف الحقيقة لا الكشف الجزئي السفلي وهو ثلاث درجات: كشف عن الطريق الموصل إلى المطلوب وهو الكشف عن حقائق الإيمان وشرائع الإسلام وكشف عن المطلوب المقصود بالسير: وهو معرفة الأسماء والصفات ونوعي التوحيد وتفاصيله ومراعاة ذلك حق رعايته وليس وراء ذلك إلا الدعاوى والشطح والغرور وقوله: وفي الشوق إلى العدة

يعني أن الروح تظهر في اشتياقها إلى ما وعدت به وشوقت إليه فطمأنينتها بتلك العدة: تسكن عنها لهيب اشتياقها وهذا شأن كل مشتاق إلى محبوب وعد بحصوله إنما يحصل لروحه الطمأنينة بسكونها إلى وعد اللقاء وعلمها بحصول الموعود به قوله وفي التفرقة إلى الجمع أي وتطمئن الروح في حال تفرقتها إلى ما اعتادته من الجمع بأن توافيها روحه فتسكن إليه وتطمئن به كما يطمئن الجائع الشديد الجوع إلى ما عنده من الطعام ويسكن إليه قلبه وهذا إنما يكون لمن أشرف على الجمع من وراء حجاب رقيق وشام برقه فاطمأن بحصوله

وأما من بينه وبينه الحجب الكثيفة: فلا يطمئن به

فصل قال: الدرجة الثالثة: طمأنينة شهود الحضرة إلى اللطف وطمأنينة

الجمع إلى البقاء وطمأنينة المقام إلى نور الأزل هذه الدرجة الثالثة تتعلق بالفناء والبقاء فالواصل إلى شهود الحضرة: مطمئن إلى لطف الله و حضرة الجمع يريدون بها الشهود الذاتي فإن الشهود عندهم مراتب بحسب تعلقه فشهود الأفعال: أول مراتب الشهود ثم فوقه: شهود الأسماء والصفات ثم فوقه: شهود الذات الجامعة إلى الأفعال والأسماء والصفات والتجلي عند القوم: بحسب هذه الشهود الثلاثة فأصحاب تجلي الأفعال: مشهدهم توحيد الربوبية وأصحاب تجلي الأسماء والصفات: مشهدهم توحيد الإلهية: وأصحاب تجلي الذات: يغنيهم به عنهم وقد يعرض لبعضهم بحسب قوة الوارد وضعف المحل عجز عن القيام والحركة فربما عطل بعض الفروض وهذا له حكم أمثاله من أهل العجز والتفريط والكاملون منهم قد يفترون في تلك الحال عن الأعمال الشاقة ويقتصرون على الفرائض وسننها وحقوقها ولا يقعد بهم ذلك الشهود والتجلي عنها ولا يؤثرون

عليه شيئا من النوافل والحركات التي لم تعرض عليهم ألبتة وذلك في طريقهم رجوع وانقطاع

وأكمل من هؤلاء: من يصحبه ذلك في حال حركاته ونوافله فلا يعطل ذرة من أوراده والله سبحانه قد فاوت بين قوى القلوب أشد من تفاوت قوى الأبدان وفي كل شيء له آية وصاحب هذا المقام آية من آيات الله لأولي الألباب والبصائر

(149/412)

والمقصود: أنه لولا طمأنينته إلى لطف الله لمحقه شهود الحضرة وأفناه جملة فقد خر موسى صعقا لما تجلى ربه للجبل وتدكدك الجبل وساخ في الأرض من تجليه سبحانه هذا ولا يتوهم متوهم أن الحاصل في الدنيا للبشر كذلك ولا قريب منه أبدا وإنما هي المعارف واستيلاء مقام الإحسان على القلب فقط وإياك وترهات القوم وخيالاتهم ورعوناتهم وإن سموك محجوبا فقل: اللهم زدني من هذا الحجاب الذي ما وراءه إلا الخيالات والترهات والشطحات فكليم الرحمن وحده مع هذا لم تتجل الذات له وأراه ربه تعالى أنه لا يثبت لتجلي ذاته لما أشهده من حال الجبل وخر الكليم صعقا مغشيا عليه لما رأى ما رأى من حال الجبل عند تجلي ربه له ولم يكن تجليا مطلقا قال الضحاك: أظهر الله من نور الحجب مثل منخر ثور وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه وكعب الأحبار: ما تجلى من عظمة الله للجبل إلا مثل سم الخياط حتى صار دكا وقال السدي: ما تجلى إلا قدر الخنصر وفي

مستدرك الحاكم من حديث ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال: هكذا ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل وإسناده على شرط مسلم ولما حدث به حميد عن ثابت استعظمه بعض أصحابه وقال: تحدث بهذا فضرب بيده في

صدره وقال: يحدث به ثابت عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنكره أنت ولا أحدث به فإذا شهد لك المخدوعون بأنك محجوب عن ترهاتهم وخيالاتهم فتلك الشهادة لك بالاستقامة فلا تستوحش منها وبالله التوفيق وهو المستعان

فصل وأما طمأنينة الجمع إلى البقاء فمشهد شريف فاضل وهو مشهد الكمل

فإن حضرة الجمع تعفي الآثار وتمحو الأغيار وتحول بين الشاهد وبين رؤية القلب للخلق فيرى الحق سبحانه وحده قائما بذاته ويرى كل شيء قائم به متوحدا في كثرة أسمائه وأفعاله وصفاته ولا يرى معه غيره ولا يشهده عكس حال من يشهد غيره ولا يشهده وليس الشأن في هذا الشهود فإن صاحبه في مقام الفناء فإن لم ينتقل منه إلى مقام البقاء وإلا انقطع انقطاعا كليا ففي هذا المقام: إن لم يطمئن إلى حصول البقاء وإلا عطل الأمر وخلع ربقة

العبودية من عنقه فإذا اطمأن إلى البقاء طمأنينة من يعلم أنه لا بد له منه وإن لم يصحبه وإلا فسد وهلك كان هذا من طمأنينة الجمع إلى البقاء والله أعلم

فصل وأما طمأنينة المقام إلى نور الأزل فيريد به: طمأنينة مقامه إلى السابقة التي سبق بها في الأزل فلا تتغير ولا تتبدل ولهذا قال: طمأنينة المقام ولم يقل: طمأنينة الحال فإن الحال يزول ويحول ولو لم يحل لما سمى حالا بخلاف المقام فإذا اطمأن إلى السابقة والحسنى التي سبقت له من الله في الأزل كان هذا طمأنينة المقام إلى الأزل وهذا هو شهود أهل البقاء بعد الفناء والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 520.512 ﴾

(151/412)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الذكر)

قال الله تعالى : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ أَى ذُكر فيه قصص الأَوّلين والآخرين .

وقيل : ذى الشَّرف .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ أى شرفكم وما تُذكرونَ به .

وكذلك كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ ﴾ أى بما فيه شرفُهم .

والذِّكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن الإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة ، وهو كالحفظ إلاَّ أنَّ الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه ، والذِّكرُ يقال اعتباراً باستحضاره .

وتارة يقال لحضور الشىءِ القلب أَو القولَ ، ولِهذَا قيل : الذِّكر ذِكْرَان : ذكر بالقلب وذكر باللسان ، وكلٌّ واحد منهما ضربان : ذكر عن نسيان ، وذكر لا عن نسيان ، بل [عن] إدامة الحفْظ .

وكلُّ قول يقال له ذِكْر .

فمن الذِّكْرِ باللّسان قوله : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ أَى القرآن ، وقوله : ﴿ فَاسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ أَى الكتب المتقدّمة .

وقوله : ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَّسُولاً ﴾ فقد قيل : الذِّكْرُ هنا وصف للنبىِّ صلىَّ اللهُ عليه وسلَّم ، كما أَنَّ الكلمة وصف لعيسى عليه السّلام من حيث إنَّه بشِّر به فى الكتب المتقدّمة ، فيكون قولُه (رَسُولاً) بدلاً منه .

وقيل : (رسولاً) منتصب بقوله (ذكرًا) ، كأَنَّه قيل : قد أَنزلنا كتابًا ذاكرًا ورسولاً يتلو .

ومن الذكر عن النّسيان قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ .

ومن / الذِّكر بالقول واللِّسان قوله : ﴿ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي

الزَّبور مِن بَعْدِ الذِّكر ﴾ أى من بعد الكتاب المتقدّم .

وقوله : ﴿ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ أى موجودًا بذاته وإن كان موجودًا في علم الله .

(152/412)

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾ أى أَوَلا يذكر الجاحد للبعث أَوَّل خلقه ، فيستدِلّ بذلك على إعادته ؟ ! وقوله :

﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى ذكر الله لعبده أَكبر من ذكر العبد له ، وذلك حَثٌّ على الإِكثار من ذِكره .

وقيل : إن ذكر الله إذا ذكره العبدُ خير للعبد من ذكر العبد للعبد .

وقيل : معناه أَنّ ذكر الله ينهى عن الفحشاءِ والمنكر أَكثر مِمَّا تَنْهَى الصلاة .

وقوله تعالى : ﴿ أَهذا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ يريد : يَعيب آلهتكم .

كذلك قوله : ﴿ فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ من قولك للرّجل : لئن ذكرتنى لتندمنّ ، وأَنت تريد : بسوءٍ ، فيجوز ذلك ، قال عنترة بن شدّاد يخاطب امرأَته :

*لاتذكرى فرَسى وما أَطعمتُه * فيكونَ جِلْدُكِ مثل جلد الأَجرب*

أَى لا تعيبى مُهْرى ، فجعل الذكر عيباً .

وأنكر أَبو الهيثم أَن يكون الذكر عيبًا ، وقال في قول عنترة : "لا تذكري فرسي" : لا تولَعي بذكره وذكر إِيثاري إِيّاه على عيالي باللَّبن .

وقوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ معناهُ : ذكر ربك عبده برحمته .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ أَي تذكُّرًا .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أَي لو جاءَنا ذكر كما جاءَ غيرنا من الأَوّلين .

وقوله تعالى : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ أَي ادرُسوا ما فيه .

وقوله : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أَي احفظوها ولا تضيِّعوا شُكرها ، كما يقول العربيّ لصاحبه : اذكر حَقِّي عليك ، أي احفظه ولا تضيّعه .

وتقول : ذكرته ذِكْرَى غير مجراة .

وقوله تعالى : ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذّكرى اسم أُقيم مُقام التذكير ، كما تقول : اتَّقيت تَقْوى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أَي وعبرة لهم .

وقوله عزّ وجلّ : ﴿ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ أي يُذكّرُون بالدار الآخرة ويزهّدون في الدنيا .

ويجوز أن يكون المعنى : يكثرون ذكر الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ يقول : فيكف لهم إذا جاءتهم السّاعة بذكراهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ أي يتُوب ومن أين له التّوبة .

والتذكِرة : ما يُتذكّرُ به الشيءُ ، وهو أعمّ من الدّلالة والأَمارة .

وقوله : ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾ قيل معناه : تعيد ذكره ، وقيل : تجعلها ذكَرًا فى الحكم .

وقال بعض العلماءِ فى الفرق بين قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ وبين ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ﴾ أنّ قوله (اذكرونى) مخاطبة أصحاب النبىّ صلّى الله عليه وسلّم الّذين حصل لهم فضلُ قوّة بمعرفته تعالى ، فأمرهم بأن يذكروه من غير واسطة ، وقوله ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ﴾ مخاطبة لبنى إسرائيل الّذين لم يعرفوا الله إلا بالآية ، فأمرهم أن يتصوّروا نعمته فيتوصّلوا بها إلى معرفته تعالى .

والتذكير : الوعظ ، قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ، وفى الحديث : "إنّ القرآن ذكَرٌ فذكّرُوه" ، أى جليل نبيه خطير فأجِلُّوه ، واعرفوا له ذلك وصِفُوه به .

قالوا : رجل ذكَرٌ للشهم الماضى فى الأُمور .

وقال بعضهم : ذكر الله الذّكر فى القرآن على عشرين وجهًا :

الأوّل : ذِكر اللّسان ﴿ فاذْكُرُوا اللَّهَ كذِكرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ .

الثانى : ذِكر / بالقلب ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ فاستَغْفَرُوا لذنوبهمْ ﴾ .

الثَّالث : بمعنى الوعظ ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .

الرّابع : بمعنى التوراة ﴿ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ .

الخامس : بمعنى القرآن ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ .

(154/412)

السّادس : بمعنى اللَّوح المحفوظ ﴿ ولَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ .

السَّابع : بمعنى رسالة الرّسول ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى رسالة .

الثَّامن : بمعنى العِبْرة ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً ﴾ أى العِبَر .

التَّاسع : بمعنى الخَبَر ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ .

العاشر : بمعنى الرّسول ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَّسُولاً ﴾ .

الحادى عشر : بمعنى الشّرف ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أى شرف .

الثانى عشر : بمعنى التَّوبة ﴿ ذلك ذِكْرَى لِلذاَّكِرِينَ ﴾ .

الثالث عشر : بمعنى الصَّلوات الخمس ﴿ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم ﴾ .

الرابع عشر : بمعنى صلاة العصر خاصّة ﴿ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ .

الخامس عشر : بمعنى صلاة الجمعة ﴿ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

السّادس عشر : بمعنى العُذْر من التَّقصير ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ ﴾ .

السَّابع عشر : بمعنى الشَّفاعة ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ .

الثامن عشر : بمعنى التَّوحيد ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ .

التَّاسع عشر : بمعنى ذكر المنَّة ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ ، ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

العشرون : بمعنى الطَّاعة والخِدمة ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ أَى اذكرونى بالطَّاعة أَذكركم بالجنَّة .

والذَّكَرُ : خلاف الأُنثى ، وجمعه ذكور وذُكْران ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ أَى ومَنْ خلق ، وقال : ﴿ خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ أَى آدم وحوّاء .

وقال : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ وقال : ﴿ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ .

(155/412)

وقال بمعنى التّوأمين ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ .

وبمعنى مَرْيم البتُول : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴾ ، وقال ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ وقال :

﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ

الْأُنثَيَيْنِ ﴾ وقال ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ ، وقال : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 16.9 ﴾

(156/412)

قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان في ذلك فطم عن إنزال المقترحات ، وكان إعراض المقترحين قد طال ، وطال البلاء بهم والصبر على أذاهم ، كان موضع أن يقال من كافر أو مسلم عيل صبره : أولست مرسلاً يستجاب لك كما كان يستجاب للرسل ؟ فقيل : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل إرسال الرسل الذي قدمنا الإشارة إليه في آخر سورة يوسف عليه الصلاة والسلام في قولنا ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾ [الأنبياء : 7] الآية ، وفي هذه السورة في قولنا ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ ومثل هذا الإرسال البديع الأمر البعيد الشأن ، والذي دربناك عليه غير مرة من أن المرجع إلى الله والكل بيده ، فلا قدرة لغيره على هدى ولا ضلال ، لا بإنزال الآية ولا غيره ﴿ أرسلناك ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ في أمة ﴾ وهي جماعة كثيرة من الحيوان ترجع إلى معنى خاص لها دون غيرها ﴿ قد خلت ﴾ .

(157/412)

ولما كانت الرسل لمن تعم بالفعل الزمان كله ، قال : ﴿ من قبلها أمم ﴾ طال أذاهم لأنبيائهم ومن آمن بهم واستهزاءهم في عدم الإجابة إلى المقترحات وقول كل أمة لنبيها عناداً بعد ما جاءهم من الآيات ﴿ لولا أنزل عليه آية ﴾ حتى كأنهم تواصوا بهذا القول حتى فعل الرسل وأتباعهم في إقبالهم على الدعاء وإعراضهم عمن يستهزىء بهم – فعل الآئس من الإنزال

﴿ لتتلوا ﴾ أي أرسلناك فيهم لتتلو ﴿ عليهم ﴾ أي تقرأ ؛ والتلاوة : جعل الثاني يلي الأول بلا فصل ﴿ الذي أوحينا إليك ﴾ من ذكر الله الذي هو أعظم الآيات ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم ﴿ يكفرون ﴾ لا تمل تلاوته عليهم في تلك الحال فإن لنا في هذا حكماً وإن خفيت ، وما أرسلناك ومن قبلك من الرسل إلا لتلاوة ما يوحى ، لا لطلب الإجابة إلى ما يقترح الأمم من الآيات ظناً أنها تكون سبباً لإيمان أحد ، نحن أعلم بهم ، وهذا كله تسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقوله : ﴿ بالرحمن ﴾ إشارة إلى كثرة حلمه وطول أناته ، وتصوير لتقبيح حالهم في مقابلتهم الإحسان بالإساءة والنعمة بالكفر بأوضح صورة وهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان وأبعدهم من الكفران .

ولما تضمن كفرهم بالرحمن كفرهم بالقرآن ومن أنزل عليه ، وكان الكفر بالمنعم في غاية القباحة ، كان كأنه قيل : فماذا أفعل حينئذ أنا ومن اتبعني ؟ لا نتمنى إجابتهم إلى مقترحاتهم إلا رجاء إيمانهم ، وكان جوابهم عن الكفر بالموحى أهم ، بدأ به فقال :

﴿ قل ﴾ عند ذلك إيماناً به ﴿ هو ﴾ أي الرحمن الذي كفرتم به ﴿ ربي ﴾ المربي لي بالإيجاد وإدرار النعم ، والمحسن إليّ لا غيره ، لا أكفر إحسانه كما كفرتموه أنتم ، بل أقول : إنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أنا به واثق في التربية والنصرة وغيرها .

ولما كان تفرده بالإلهية علة لقصر الهمم عليه ، قال : ﴿ عليه ﴾ أي وحده لا شريك له ﴿ توكلت ﴾ والتوكل : التوثيق في تدبير النفس برده إلى الله على الرضى بما يفعل ﴿ وإليه ﴾ أي لا إلى غيره ﴿ متاب ﴾ أي مرجعي ، معنى بالتوبة وحساً بالمعاد ، وهذا تعريض بهم في أن سبب كفرتم إنكار يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 151.150 ﴾

(159/412)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ متابي ﴾ و ﴿ عقابي ﴾ و ﴿ مآبي ﴾ بالياء في الحالين : يعقوب والسرنديبي عن قنبل وافق سهل وعباس في الوصل ﴿ بل زين ﴾ ونحوه بالإدغام : علي وهشام ﴿ وصدوا ﴾ بضم الصاد وكذا في " حم المؤمن " : عاصم وحمزة وعلي وخلف ويعقوب . الباقون بفتحها . ﴿ ويثبت ﴾ مخففاً من الإثبات : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب وعاصم . الآخرون بالتشديد من التثبيت ﴿ الكافر لمن ﴾ على التوحيد : أبو

عمرو وأبو جعفر ونافع وابن كثير. الباقون ﴿ الكفار ﴾ على الجمع.

الوقوف: ﴿ بالرحمن ﴾ ط ﴿ إلا هو ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتحاد القائل: ﴿ متاب ﴾ 5 ﴿ الموتى ﴾ ط لأن جواب "لو" محذوف أي لكان هذا القرآن. ﴿ جميعاً ﴾ ط في الموضعين ﴿ وعد الله ﴾ ط ﴿ الميعاد ﴾ 5 ﴿ أخذتهم ﴾ ج للاستفهام مع الفاء ﴿ عقاب ﴾ 5 ﴿ بما كسبت ﴾ ج لحق الخبر المحذوف التقدير كمن ينفع ولا يضر، ولأن قوله: ﴿ وجعلوا ﴾ يصلح استئنافاً أو حالاً بإضمار "قد" ﴿ شركاء ﴾ ط ﴿ سموهم ﴾ ط لحق الاستفهام ﴿ من القول ﴾ ط ﴿ عن السبيل ﴾ 5 ﴿ هاد ﴾ 5 ﴿ أشق ﴾ ج لاتفاق الجملتين مع النفي في الثانية ﴿ واق ﴾ 5 ﴿ المتقون ﴾ 5 ط لأن التقدير فما يتلى عليك مثل الجنة وللوصول وجه يذكر في التفسير. ﴿ الأنهار ﴾ ط ﴿ وظلها ﴾ ط ﴿ اتقوا ﴾ ق قد قيل: والوصل أجوز لأن الجمع بين بيان الحالين أدل على الانتباه ﴿ النار ﴾ 5 ﴿ بعضه ﴾ ط ﴿ ولا أشرك به ﴾ ط ﴿ مآب ﴾ 5 ﴿ عربياً ﴾ ط ﴿ العلم ﴾ لا لأن ما بعده جواب. ﴿ واق ﴾ 5 ﴿ وذرية ﴾ ط ﴿ بإذن الله ﴾ ط ﴿ كتاب ﴾ 5 ﴿ ويثبت ﴾ ج والوصل أجوز لتمام مقصود الكلام ﴿ الكتاب ﴾ 5 ﴿ الحساب ﴾ 5 ﴿ أطرافها ﴾ ط ﴿ لحكمه ﴾ ط ﴿ الحساب ﴾ 5 ﴿ جميعاً ﴾ ط ﴿ كل نفس ﴾ ط ﴿ الدار ﴾ 5 ﴿ مرسلاً ﴾ ط ﴿ وبينكم

﴿ ط للعطف ﴿ الكتاب ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 159 . 160 ﴾

(160/412)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

اعلم أن الكاف في ﴿ كذلك ﴾ للتشبيه فقيل وجه التشبيه أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء قبلك في أمة قد خلت من قبلها أمم ، وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة ، وقيل : كما أرسلنا إلى أمم وأعطيناهم كتباً تتلى عليهم ، كذلك أعطيناك هذا الكتاب وأنت تتلوه عليهم فلماذا اقترحوا غيره ، وقال صاحب "الكشاف" : ﴿ كذلك أرسلناك ﴾ أي مثل ذلك الإرسال ﴿ أرسلناك ﴾ يعني أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات .

ثم فسر كيف أرسله فقال : ﴿ في أمة قد خلت من قبلها أمم ﴾ أي أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم فهي آخر الأمم وأنت آخر الأنبياء .

أما قوله : ﴿ لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ﴾ فالمراد : لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ أي وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن الذي رحمته وسعت كل شيء وما بهم من نعمة فمنه ، وكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز عليهم ﴿ قل هو ربي ﴾ الواحد المتعالي عن الشركاء : ﴿ لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ في نصرتي عليكم ﴿ وإليه متاب ﴾ فيعينني على مصابرتكم ومجاهدتكم قيل : نزل قوله : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ في عبد الله بن أمية المخزومي وكان يقول أما الله فنعرفه ، وأما الرحمن فلا نعرفه ، إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ [الإسراء : 110] وكقوله : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾ [الفرقان : 60] وقيل : إنه عليه السلام حين صالح قريشاً من الحديبية كتب : " هذا ما صالح عليه محمد رسول الله " فقال المشركون : إن كنت رسول الله وقد قاتلناك فقد ظلمنا .

ولكن اكتب، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فكتب كذلك، ولما كتب في الكتاب: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ قالوا: أما الرحمن فلا نعرفه، وكانوا يكتبون باسمك اللهم، فقال عليه السلام: "اكتبوا كما تريدون".

واعلم أن قوله: ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ إذا حملناه على هاتين الروايتين كان معناه أنهم كفروا بإطلاق هذا الاسم على الله تعالى، لا أنهم كفروا بالله تعالى.

وقال آخرون: بل كفروا بالله إما جحداً له وإما لاثباتهم الشركاء معه.

قال القاضي: وهذا القول أليق بالظاهر، لأن قوله تعالى: ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ يقتضي أنهم كفروا بالله وهو المفهوم من الرحمن، وليس المفهوم من الاسم كما لو قال قائل: كفروا بمحمد وكذبوا به لكان المفهوم هو، دون اسمه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 41.42 ﴾

(162/412)

وقال الماوردى:

قوله تعالى: ﴿ . . . وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي ﴾

قال قتادة وابن جريج نزلت في قريش يوم الحديبية حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

بكتب القضية بينه وبينهم ، فقال للكاتب : " اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فقالوا ما ندري ما الرحمن وما نكتب إلا : باسمك اللهم . وحكي عن ابن إسحاق أنهم قالوا : قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا الذي تأتي به رجل من أهل اليمامة يقال له الرحمن ، وإنا والله لن نؤمن به أبداً ، فأنزل الله تعالى ﴿ وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو ﴾ يعني أنه إله واحد وإن اختلفت أسماؤه .

﴿ عليه توكلت وإليه متاب ﴾ قال مجاهد يعني بالمتاب التوبة .

ويحتمل ثانياً : وإليه المرجع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(163/412)

وقال ابن عطية :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

الكاف في ﴿ كذلك ﴾ متعلقة بالمعنى الذي في قوله : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ [الرعد : 27] أي كما أنفذ الله هذا ﴿ كذلك ﴾ أرسلتك - هذا قول - والذي يظهر لي أن المعنى كما أجرينا العادة بأن الله يضل ويهدي ، لا بالآيات المقترحة .

فكذلك أيضاً فعلنا في هذه الأمة : ﴿ أرسلناك ﴾ إليها بوحي ، لا بآيات مقترحة ، فيضل

الله من يشاء ويهدي من يشاء .

وقوله : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ قال قتادة وابن جريج : نزلت حين عاهدهم رسول الله عام الحديبية ، فكتب الكاتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال قائلهم : نحن لا نعرف الرحمن ولا نقرأ اسمه .

قال القاضي أبو محمد : والذي أقول في هذا : أن " الرحمن " يراد به الله تعالى وذاته ، ونسب إليهم الكفر به على الإطلاق ، وقصة الحديبية وقصة أمية بن خلف مع عبد الرحمن بن عوف ، إنما هي إباية الاسم فقط ، وهروب عن هذه العبارة التي لم يعرفوها إلا من قبل محمد عليه السلام .

ثم أمر الله تعالى نبيه بالتصريح بالدين والإفصاح بالدعوة في قوله : ﴿ قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ و" المتاب " : المرجع كالمآب ، لأن التوبة الرجوع . انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(164/412)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ كذلك أرسلناك ﴾

أي : كما أرسنا الأنبياء قبلك .

قوله تعالى : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال :

أحدها : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لكفار قريش : اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن ؟ فنزلت هذه الآية ، وقيل لهم : إِن الرحمن الذي أنكرتم هو ربي ، هذا قول الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنهم لما أرادوا كتاب الصلح يوم الحديبية ، كتب عليّ عليه السلام : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل بن عمرو : ما نعرف الرحمن إِلا مسيلمة ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة ، وابن جريج ، ومقاتل .

والثالث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً في الحِجْر يدعو ، وأبو جهل يستمع إِليه وهو يقول : يا رحمن ، فولى مُدْبراً إِلى المشركين فقال : إِن محمداً كان ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إِلهين ! فنزلت هذه الآية ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري .

قوله تعالى : ﴿ وإِليه متاب ﴾ قال أبو عبيدة : هو مصدر تُبت إِليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير ـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾

أي أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك ؛ قاله الحسن .

وقيل : شبّه الإنعام على من أُرسل إليه محمد عليه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله .

﴿ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن .

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ قال مقاتل وابن جُريج : نزلت في صُلح الحُدَيْبِيَة حين أرادوا أن يكتبوا كتاب الصُّلْح ، " فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون : ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة ، يعنون مُسَيْلِمَة الكذاب ؛ اكتب باسمك اللهم ، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : "اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله" فقال مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك ؛ ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : دعنا نقاتلهم ؛ فقال : "لا ولكن اكتب ما يريدون" فنزلت " وقال ابن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : "اسجدوا لِلرَّحْمَنِ" قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ فنزلت .

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : الذي أنكرتم .

﴿ هُوَ رَبِّي لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ ولا معبود سواه ؛ هو واحد بذاته ، وإن اختلفت أسماء صفاته .

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ واعتمدت ووثقت .

﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي مرجعي غداً ، واليوم أيضاً عليه توكلت ووثقت ، رِضاً بقضائه ، وتسليماً لأمره .

وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحِجْر ويقول : "يا الله يا رحمن" فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل : "قُلِ ادعوا اللَّهَ أَوِ ادعوا الرَّحْمَنَ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى جـ 9 صـ ﴾

(166/412)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم ﴾

يعني كما أرسلناك يا محمد إلى هذه الأمة كذلك أرسلنا أنبياء قبلك إلى أمم قد خلت ومضت ﴿ لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ﴾ يعني لتقرأ على أمتك الذي أوحينا إليك من القرآن وشرائع الدين ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج : هذه

الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية وذلك أن سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لعلي بن أبي طالب: "اكتب بسم الله الرّحمن الرّحيم" فقالوا لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب اكتب كما نكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن يعني أنهم ينكرونه ويجحدونه والمعروف أن الآية مكية.

وسبب نزولها أن أبا جهل سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو في الحجر يدعو ويقول في دعائه: "يا الله يا رحمن" فرجع أبو جهل إلى المشركين وقال: إن محمداً يدعو إلهين يدعو الله ويدعو إلهاً آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعو فله الأسماء الحسنى ﴾ وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾ فقال الله تعالى ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد إن الرحمن الذي أنكرتم معرفته ﴿ هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ يعني عليه اعتمدت في أموري كلها ﴿ وإليه متاب ﴾ يعني وإليه توبتي ورجوعي. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

قال قتادة ، وابن جريج ، ومقاتل : لما رأوا كتاب الصلح يوم الحديبية وقد كتب بسم الله الرحمن الرحيم قال سهيل بن عمرو : ما يعرف الرحمن إلا مسيلمة ، فنزلت .

وقيل : سمع أبو جهل الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول : يا رحمن ، فقال : إن محمداً ينهانا عن عبادة آلهة وهو يدعو إلهين فنزلت .

ذكر هذا علي بن أحمد النيسابوري ، وعن ابن عباس : لما قيل لكفار قريش اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن فنزلت .

قال الزمخشري مثل ذلك الإرسال أرسلناك يعني : أرسلناك آرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات انتهى .

ولم يتقدم إرسال يشار إليه بذلك ، إلا إن كان يفهم من المعنى فيمكن ذلك .

وقال الحسن : كإرسالنا الرسل أرسلناك ، فذلك إشارة إلى إرساله الرسل .

وقيل : الكاف متعلقة بالمعنى الذي في قوله : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ كما أنفذ الله هذا كذلك أرسلناك .

وقال ابن عطية : والذي يظهر لي أنّ المعنى كما أجرينا العادة بأنّ الله يضل من يشاء ويهدي

بالآيات المقترحة ، فكذلك فعلنا في هذه الأمة أرسلناك إليهم بوحي ، لا بالآيات المقترحة ، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء انتهى .

وقال الحوفي : الكاف للتشبيه في موضع نصب أي : كفعلنا الهداية والإضلال ، والإشارة بذلك إلى ما وصف به نفسه من أنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء .

وقال أبو البقاء : كذلك التقدير الأمر كذلك .

قد خلت من قبلها أمم أي : تقدمتها أمم كثيرة ، والمعنى : أرسلت فيهم رسل فمثل ذلك الإرسال أرسلناك .

ودل هذا المحذوف الذي يقتضيه المعنى على أنّ الإشارة بذلك إلى إرساله تعالى الرسل كما قال الحسن ، ولتتلو أي : لتقرأ عليهم الكتاب المنزل عليك .

وعلة الإرسال هي الإبلاغ للدين الذي أتى به الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهم يكفرون أي : وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن جملة حالية أي : أرسلناك في أمة رحمة لها مني وهم يكفرون بي أي : وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن بالبليغ الرحمة .

والظاهر أنّ الضمير في قوله : وهم ، عائد على أمة المرسل إليهم الرسول إعادة على المعنى

، إذ لو أعاد على اللفظ لكان التركيب وهي تكفر ، والمعنى : أرسلناك إليهم وهم يدينون دين الكفر ، فهدى الله بك من أراد هدايته .

وقيل : يعود على الذين قالوا : ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ وقيل : يعود على أمة وعلى أمم ، والمعنى : الإخبار بأنّ الأمم السالفة أرسلت إليهم الرسل والأمة التي أرسلت إليها جميعهم جاءتهم الرسل وهم يدينون دين الكفر ، فيكون في ذلك تسلية للرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، إذ أمته مثل الأمم السالفة .

ونبه على الوصف الموجب لإرسال الرسول وهو الرحمة الموجبة لشكر الله على إنعامه عليهم ببعثة الرسول والإيمان به .

قل : هو أي الرحمن الذي كفروا به هو ربي الواحد المتعال عن الشركاء ، عليه توكلت في نصرتي عليكم ، وجميع أموري ، وإليه مرجعي ، فيثبتني على مجاهدتكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(169/412)

وقال أبو السعود :

﴿ كذلك ﴾ مثلَ ذلك الإرسالِ العظيمِ الشأن المصحوبِ بهذه المعجزة الباهرة ﴿

أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي مضت ﴿ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ كثيرة قد أُرسل إليهم رسل ﴿ لِّتَتْلُوَ ﴾ لتقرأ ﴿ عَلَيْهِمُ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ من الكتاب العظيمِ الشأن وتهديَهم إلى الحق رحمةً لهم ، وتقديمُ المجرور على المنصوب من قبيل الإبهام ثم البيان كما في قوله تعالى :

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾

وفيه ما لا يخفى من ترقب النفس إلى ما سيرِدُ وحسنِ قولها عند ورودِه عليها ﴿ وَهُمْ ﴾ أي والحالة أنهم ﴿ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ بالبليغ الرحمةِ الذي وسعت كلَّ شيء رحمتُه وأحاطت به نعمتُه . والعدول إلى المُظهر المتعرّض لوصف الرحمةِ من حيث أن الإرسالَ ناشىءٌ منها كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ فلم يقدِروا قدرَه ولم يشكروا نِعمَه لا سيما ما أنعم به عليهم بإرسال مثلِك إليهم وأنزل القرآنَ الذي هو مدارُ المنافع الدينية والدنيويةِ عليهم ، وقيل : نزلت في مشركي مكةَ حين أُمروا بالسجود فقالوا : وما الرحمن ؟

(170/412)

﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أي الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿ رَبّى ﴾ الربُّ في الأصل بمعنى التربية وهي تبليغُ الشيء إلى كمالِه شيئًا فشيئًا ثم وُصف به مبالغةً كالصوم والعدْل ، وقيل

: هو نعت ، أي خالقي ومبلّغي إلى مراتب الكمالِ ، وإيرادُه قبل قوله : ﴿ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي لا مستحقَّ للعبادة سواه تنبيهٌ على أن استحقاقَ العباد منوطٌ بالربوبية ، وقيل : إن أبا جهل سمع النبي عليه الصلاة والسلام يقول : " يا أللهُ يا رحمن " فرجع إلى المشركين فقال : إن محمداً يدعو إلهين فنزلت ، ونزل قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ الآية ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في جميع أموري لا سيما في النصرة عليكم لا على أحد سواه ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ خاصة ﴿ مَتَابِ ﴾ أي توبتي كقوله تعالى : ﴿ واستغفر لِذَنبِكَ ﴾ أُمر عليه السلام بذلك إبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفةُ الأنبياء وبعثاً للكفرة على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجهٍ وألطفه فإنه عليه السلام حيث أُمر بها وهو منزّهٌ عن شائبة اقترافِ ما يوجبها من الذنب وإن قل فتوبتُهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصي مما لا بد منه أصلاً وقد فُسّر المتابُ بمطلق الرجوعِ ، فقيل : مرجعي ومرجعُكم وزِيد : فيحكُم بيني وبينكم ، وقد قيل : فيثيبُني على مصابرتكم فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ ﴾

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المصحوب بالمعجزة الباهرة ، ويجوز أن يراد مثل إرسال الرسل قبلك ﴿ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ ﴾ فيكون قد شبه إرساله صلى الله عليه وسلم بإرسال من قبله وإن لم يجر لهم ذكر لدلالة قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي مضت ﴿ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ كثيرة قد أرسل إليهم رسل عليهم وروي هذا عن الحسن ، وقيل : الكاف متعلقة بالمعنى الذي في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء ﴾ [الرعد : 27] الخ أي كما أنفذنا ذلك أرسلناك ونقل نحوه عن الحوفي ؛ وقال ابن عطية : الذي يظهر أن المعنى كما أجرينا العادة في الأمم السابقة بأن نضل ونهدي بوحي لا بالآيات المقترحة كذلك أيضاً فعلنا في هذه الأمة وأرسلناك إليهم بوحي لا بالآيات المقترحة فنضل من نشاء ونهدي من أناب ، وقال أبو البقاء : التقدير الأمر كذلك ، والحسن ما قدمناه وما روي عن الحسن .

(172/412)

و ﴿ فِى ﴾ بمعنى إلى كما في قوله تعالى : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [إبراهيم : 9] وقيل : هي على ظاهرها ، وفيها إشارة إلى أنه من جملتهم وناشىء بينهم ولا تكون بمعنى إلى إذ لا حاجة لبيان من أرسل إليهم وفيه نظر ظاهر ، وهي متعلقة بالفعل المذكور ، وقول الزمخشري : في تفسير الآية يعني أرسلنا إرسالاً له شأن وفضل على الإرسالات ثم فسر كيف أرسله بقوله : ﴿ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أي أرسلناك في أمة قد تقدمها أمم كثيرة فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء لم يرد به أنها لا تتعلق بالمذكور بل أراد أن المشار إليه المبهم لما كان ما بعده تفخيماً كان بيانه بصلة ذلك الفعل حتى يزول الإبهام ، ويجوز أن يريد ذلك فيقدر أرسلناك ثانياً ويكون قوله : أي أرسلناك في أمة إظهاراً للمحذوف أيضاً لا بياناً لحاصل الآية وهو الذي آثره العلامة الطيبي ، والتعلق بالمذكور هو الظاهر ، وجملة ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ الخ في موضع الصفة لأمة وفائدة الوصف بذلك قيل : ما أشار إليه الزمخشري .

(173/412)

واعترض بأنه لا يلزم من تقدم أمم كثيرة قبل أن لا يكون أمة يرسل إليها بعد حتى يلزم أن يكون صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء عليهم السلام ، وبحث فيه الشهاب بأن المراد بكون

إرساله عليه الصلاة والسلام عجيباً أن رسالته أعظم من كل رسالة فهي جامعة لكل ما يحتاج إليه فيلزم أن لا نسخ إذ النسخ إنما يكون للتكميل والكامل أتم كمال غير محتاج لتكميل كما قال تعالى: ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: 3] اه ولعمري أن الاعتراض قوي والبحث في غاية الضعف إذ لا يلزم من كون إرساله صلى الله عليه وسلم عجيباً ما ادعاه، ولو سلمنا ذلك لا يلزم منه أيضاً كونه عليه الصلاة والسلام خاتماً إذ بعثه مقرر دينه الكامل كما بعث كثير من أنبياء بني إسرائيل لتقرير دين موسى عليه السلام لا يأبى ما ذكر من جامعية رسالته عليه الصلاة والسلام ولزوم عدم النسخ لذلك كما لا يخفى، ولعله لهذا اختار بعضهم ما روي عن الحسن وقال: منبهاً على فائدة الوصف يعني مثل إرسال الرسل قبلك أرسلناك إلى أمم تقدمتها أمم أرسلوا إليهم فليس ببدع إرسالك إليها ﴿ لِّتَتْلُوَاْ ﴾ لتقرأ ﴿ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي الكتاب العظيم الشأن، ويشعر بهذا الوصف ذكر الموصول غير جار على موصوف، وإسناد الفعل في صلته إلى ضمير العظمة وكذا الإيصال إلى المخاطب المعظم بدليل سابقه على ما سمعت أولاً، وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الإبهام ثم البيان كما في قوله تعالى:

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ [الشرح: 2] وفيه ما لا يخفى من ترقب النفس إلى ما سيرد وحسن قبولها له عند وروده عليها، وضمير الجمع للأمة باعتبار معناها كما روعي في ضمير ﴿ خَلَتِ ﴾ لفظها.

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ أي بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسعت كل شيء رحمته فلم يشكروا نعمه سبحانه لا سيما ما أنعم به عليهم بإرسالك إليهم وإنزال القرآن الذي هو مدار المنافع الدينية والدنيوية عليهم بل قابلوا رحمته ونعمه بالكفر ومقتضى العقل عكس ذلك ، وكان الظاهر بنا إلا أنه التفت إلى الظاهر وأوثر هذا الاسم الدال على المبالغة في الرحمة للإشارة إلى أن الإرسال ناشيء منها كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] وضمير الجمع للأمة أيضاً ، والجملة في موضع الحال من فاعل ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ لا من ضمير ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ إذ الإرسال ليس للتلاوة عليهم حال كفرهم ، ومنهم من جوز ذلك والتلاوة عليهم حال الكفر ليقفوا على إعجازه فيصدقوا به لعلمهم بأفانين البلاغة ولا ينافي تلاوته عليهم بعد إسلامهم ، وجوز في الجملة أن تكون مستأنفة الضمير حسبما علمت ، وقيل : أنه يعود على الذين قالوا : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبّهِ ﴾ [الرعد : 27] وقيل : يعود على ﴿ أُمَّةٍ ﴾ وعلى ﴿ أُمَمٌ ﴾ ويكون في الآية تسلية له صلى الله عليه وسلم ، وعن قتادة .

وابن جريج .

ومقاتل أن الآية نزلت في مشركي مكة لما رأوا كتاب الصلح يوم الحديبية وقد كتب فيه علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾ فقال : سهيل بن عمرو : ما نعرف الرحمة إلا مسيلمة ، وقيل : سمع أبو جهل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا الله يا رحمن فقال إن محمداً ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إليهن فنزلت ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه لما قيل لكفار قريش :

(175/412)

﴿ اسجدوا للرحمن قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ [الفرقان : 60] ؟ فنزلت ، وضعف كل ذلك بأنه غير مناسب لأنه يقتضي أنهم يكفرون بهذا الاسم وإطلاقه عليه سبحانه وتعالى والظاهر أن كفره بمسماه ﴿ قُلْ ﴾ حين كفروا به سبحانه ولم يوحدوه ﴿ هُوَ ﴾ أي الرحمن الذي كفرتم به ﴿ رَبّى ﴾ خالقي ومتولي أمري ومبلغي إلى مراتب الكمال ، وإيراد هذا قبل قوله تعالى : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ أي لا مستحق للعبادة سواه تنبيه على أن استحقاق العبادة منوط بالربوبية ، والجملة داخلة في حيز القول وهي خبر بعد خبر عند بعض ، وقال بعض آخر : إنه تعالى بعد أن نعى على الكفرة حالهم وعكسهم مقتضى العقل أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن ينبههم على خاصة نفسه ووظيفته من الشكر ومآل أمره

تأنيباً لهم فقال: هو ربي الذي أرسلني إليكم وأيدني بما أيدني ولا رب لي سواه ﴿ عَلَيْهِ ﴾ لا على أحد سواه ﴿ تَوَكَّلْتُ ﴾ في جميع أموري لا سيما في النصرة عليكم ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ خاصة ﴿ مَتَابِ ﴾ أي مرجعي فيثيبني على مصابرتكم ومجاهدتكم، وقوله سبحانه: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ هُوَ ﴾ اعتراض أكد به اختصاص التوكل عليه سبحانه وتفويض الأمور عاجلاً وآجلاً إليه، ومثله قوله تعالى: ﴿ اتبع مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ [الأنعام: 106] اه وإلى القول بالاعتراض ذهب "صاحب الكشف" حيث ذكر بعد ﴿ هُوَ رَبِّى ﴾ الواحد المتعالي عن الشركاء فقال: جعله فائدة الاعتراض بلا إله إلا هو أي هذا البليغ الرحمة ولا إله إلا هو فهو بليغ الانتقام كما هو بليغ الرحمة يرحمني وينتقم لي منكم، وهو تمهيد أيضاً لقوله: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ولم يجعل خبراً بعد خبر إذ ليس المقصود الأخبار بأنه تعالى متوحد بالإلهية بل المقصود أن المتوحد بها ربي وذلك يفيده الاعتراض؛ وأما أن المفهوم من كلامه أنه حال ولذلك أجرى مجرى الوصف فكلا إلا أن يجعل حالاً مؤكدة

ولا يغاير الاعتراض إذاً كثير مغايرة لكن الأول أملأ بالفائدة اه ولا يخفى ما في توجيه كلام الكشاف بذلك من الخفاء ، وفي كون المقصود أن المتوحد بالإلهية ربي دون الأخبار بأنه تعالى متوحد بها على ماقيل تأمل .

ولعل مبناه أن ما أثبته أوفق بالغرض الذي يشير كلامه إلى اعتباره مساقاً للآية ، وفيه من المبالغة في وصفه تعالى بالتوحد ما لا يخفى .

نعم قيل للقول بالاعتراض وجه وأنه حينئذ لا يبعد أن يقال : إنه تعالى بعد أن ذكر إرساله صلى الله عليه وسلم إليهم وأن حالهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة ولا يقابلون رحمته بالشكر فيؤمنوا به ويوحدوه أمره بالإخبار بتخصيص توكله واعتماده على ذلك البليغ الرحمة ورجوعه في سائر أموره إليه إيماء إلى أن إصرارهم على الكفر لا يضره شيئاً وأن له عليه الصلاة والسلام عاقبة محمودة وأنه سبحانه سينصره عليهم ، وفي ذلك من تسفيه رأيهم في الإصرار على الكفر واستنهاضهم إلى اتباعه ما فيه إلا أنه عز شأنه أمره أولاً أن يقول : ﴿ هُوَرَبِّى ﴾ توطئة لذلك وجيء بلا إله إلا هو اعتراضاً للتأكيد ، والذي يميل إليه الطبع بعد التأمل وملاحظة الأسلوب القول بالاعتراض ، ثم لا يخفى أن حمل ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ على إليه رجوعي في سائر أموري خلاف الظاهر وأنه على ذلك يكون كالتأكيد لما قبله ، وقال شيخ الإسلام في تفسيره : أي إليه توبتي كقوله تعالى :

﴿ واستغفر لذنبكَ ﴾ [غافر : 55] أمر عليه الصلاة والسلام بذلك إبانة لفضل التوبة

ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفة الأنبياء وبعثاً للكفرة على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطفه، فإنه عليه الصلاة والسلام حيث أمر بها وهو منزه عن شائبة اقتراف ما يوجبها من الذنب وإن قل فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصي مما لا بد منه أصلاًاه.

(177/412)

وفيه أن هذا إنما يصلح باعثاً للإقلاع عن الذنب على أبلغ وجهه وألطفه لو كان الكلام مع غير الكفرة الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولعل ذلك ظاهر عند المنصف، وقال العلامة البيضاوي، في ذلك: أي إليه مرجعي ومرجعكم وكأنه أراد أيضاً فيرحمني وينتقم منكم، والانتقام من الرحمن أشد كما قيل: أعوذ بالله تعالى من غضب الحليم.

وتعقب بأنه إنما يتم لو كان المضاف إليه المحذوف ضمير المتكلم ومعه غيره أي متابنا إذ يكون حينئذ مرجعي ومرجعكم تفصيلاً لذلك ولا يكاد يقول به أحد مع قوله بكسر الباء فإنه يقتضي أن يكون المحذوف الياء على أن ذلك الضمير لا يناسب ما قبله، ولعل العلامة اعتبر أن في الآية اكتفاء على ما قيل: أي متابي ومتابكم أو أن الكلام دال عليه التزاماً وهذا أولى على ما قيل فتأمل. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26) ﴾

لما ذكر الله سبحانه عاقبة المشركين بقوله : ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدار ﴾ كان لقائل أن يقول : قد نرى كثيراً منهم قد وفر الله له الرزق وبسط له فيه ، فأجاب عن ذلك بقوله : ﴿ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ فقد يبسط الرزق لمن كان كافراً ، ويقتره على من كان مؤمناً ابتلاءً وامتحاناً ، ولا يدلّ البسط على الكرامة ولا القبض على الإهانة ، ومعنى يقدر : يضيق ، ومنه ﴿ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] أي : ضيق .

وقيل : معنى يقدر يعطي بقدر الكفاية ، ومعنى الآية : أنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره ﴿ وَفَرِحُواْ بالحياة الدنيا ﴾ أي : مشركو مكة فرحوا بالدنيا وجهلوا ما عند الله ، قيل : وفي هذه الآية تقديم وتأخير ، والتقدير : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا ، فيكون ﴿ وفرحوا ﴾ معطوفاً على يفسدون ﴿ وَمَا الحياة الدنيا فِى الآخرة إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ أي : ما هي

إلاّ شيء يستمتع به ، وقيل : المتاع واحد الأمتعة كالقصعة والسكرجة ونحوهما ، وقيل : المعنى : شيء قليل ذاهب ، من متع النهار : إذا ارتفع فلا بدّ له من زوال ، وقيل : زاد كزاد الراكب يتزوّد به منها إلى الآخرة .

(179/412)

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مّن رَّبّهِ ﴾ أي يقول : أولئك المشركون من أهل مكة هلا أنزل على محمد آية من ربه ؟ وقد تقدّم تفسير هذا قريباً ، وتكرر في مواضع ﴿ قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاء ﴾ أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بهذا ، وهو أن الضلال بمشيئة الله سبحانه ، من شاء أن يضله ضلّ كما ضلّ هؤلاء القائلون ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ ، ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي : ويهدي إلى الحق ، أو إلى الإسلام ، أو إلى جنابه – عزّ وجلّ – ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ : أي : من رجع إلى الله بالتوبة والإقلاع عما كان عليه ، وأصل الإنابة الدخول في نوبة الخير .

كذا قال النيسابوري ، ومحل الذين آمنوا النصب على البدلية من قوله : ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي : أنهم هم الذين هداهم الله وأنابوا إليه ، ويجوز أن يكون ﴿ الذين أمنوا ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي : هم الذين آمنوا ، أو منصوب على المدح ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ﴾ أي

: تسكن وتستأنس بذكر الله سبحانه بألسنتهم، كتلاوة القرآن، والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم، وقد سمي سبحانه القرآن ذكراً قال: ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزلناه ﴾ [الأنبياء: 50]، وقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [الحجر: 9].

قال الزجاج: أي إذا ذكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ اشمأزت قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾

(180/412)

[الزمر: 45] وقيل: تطمئن قلوبهم بتوحيد الله، وقيل: المراد بالذكر هنا: الطاعة، وقيل: بوعد الله، وقيل: بالحلف بالله، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه، وقيل: بذكر رحمته، وقيل: بذكر دلائله الدالة على توحيده ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ الله ﴾ وحده دون غيره ﴿ تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ والنظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه وإن كان يفيد طمأنينة في الجملة، لكن ليست كهذه الطمأنينة، وكذلك النظر في المعجزات من الأمور التي لا يطيقها البشر، فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر الله، فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب من القصر.

﴿ الذين امَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات طوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ الموصول مبتدأ خبره الجملة الدعائية، وهي طوبى لهم على التأويل المشهور، ويجوز أن يكون الموصول في محل نصب على المدح، وطوبى لهم خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من القلوب على حذف مضاف أي: قلوب الذين آمنوا.

قال أبو عبيدة، والزجاج، وأهل اللغة: طوبى فعلى من الطيب.

قال ابن الأنباري: وتأويلها الحال المستطابة، وقيل: طوبى شجرة في الجنة، وقيل: هي الجنة، وقيل: هي البستان بلغة الهند، وقيل: معنى ﴿ طوبى لهم ﴾: حسنى لهم، وقيل: خير لهم، وقيل: كرامة لهم، وقيل: غبطة لهم، قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة، والأصل طيبى فصارت الياء واواً لسكونها وضم ما قبلها، واللام في لهم للبيان مثل سقياً لك ورعياً لك، وقرىء (حسن مآب) بالنصب والرفع، من آب إذا رجع أي: وحسن مرجع، وهو الدار الآخرة.

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أي: مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة، أرسلناك يا محمد، وقيل: شبه الأنعام على من أرسل إليه

محمد صلى الله عليه وسلم بالأنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله ، ومعنى ﴿ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ في قرن قد مضت من قبله قرون ، أو في جماعة من الناس قد مضت من قبلها جماعات ﴿ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي : لتقرأ عليهم القرآن ﴿ يَكْفُرُونَ * بالرحمن ﴾ أي : بالكثير الرحمة لعباده ، ومن رحمته لهم إرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] وجملة ﴿ قُلْ هُوَ رَبّى ﴾ مستأنفة بتقدير سؤال كأنهم قالوا : وما الرحمن ؟ فقال سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ هُوَ رَبّى ﴾ أي : خالقي ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ أي : لا يستحق العبادة له والإيمان به سواه ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في جميع أموري ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ لا إلى غيره ﴿ مَتَابِ ﴾ أي : توبتي ، وفيه تعريض بالكفار وحثّ لهم على الرجوع إلى الله والتوبة من الكفر والدخول في الإسلام .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن سابط في قوله : ﴿ وَمَا الحياة الدنيا فِى الآخرة إِلاَّ متاع ﴾ قال : كزاد الراعي يزوده أهله الكف من التمر أو الشيء من الدقيق ، أو الشيء يشرب عليه اللبن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : كان الرجل يخرج في الزمان الأول في إبله ، أو غنمه ، فيقول لأهله : متعوني فيمتعونه فلقة الخبز أو التمر ، فهذا مثل ضربه الله للدنيا .

وأخرج الترمذي وصححه عن عبد الله ابن مسعود قال : "نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه ، فقلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك ؟ فقال " ما لي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلاّ كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها " وأخرج مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن المستورد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما الدنيا في الآخرة إلاّ كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع ؟ وأشار بالسبابة "

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ﴾ قال : هشت إليه واستأنست به ، وأخرج أبو الشيخ عن السدّي في الآية قال : إذا حلف لهم بالله صدقوا .

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ قال : تسكن .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال : بمحمد وأصحابه .

وأخرج أبو الشيخ عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين نزلت هذه الآية " ﴿ ألا بذكر الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ " هل تدرون ما معنى ذلك ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : " من أحبّ الله ورسوله وأحبّ أصحابي "

وأخرج ابن مردويه عن عليّ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ قال : " ذاك من أحبّ الله ورسوله ، وأحبّ أهل بيتي صادقاً غير كاذب ، وأحبّ المؤمنين شاهداً وغائباً ، ألا بذكر الله يتحابون "

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ قال : فرح وقرّة عين .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وهناد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله : ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ قال : نعم ما لهم .

(183/412)

وقد روي عن جماعة من السلف نحو ما قدّمنا ذكره من الأقوال ، والأرجح تفسير الآية بما روي مرفوعاً إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم كما أخرجه أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي عن عتبة ابن عبد قال : " جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله في الجنة فاكهة ؟ قال : نعم فيها شجرة تدعى طوبى "

الحديث .

وأخرج أحمد ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والخطيب في تاريخه عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك ، قال : " طوبى لمن آمن بي ورآني ، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني " ، فقال رجل : وما طوبى ؟ قال : " شجرة في الجنة مسير مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها " وفي الباب أحاديث وآثار عن السلف ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة ، اقرءوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : 30] وفي بعض الألفاظ "إنها شجرة الخلد " وأخرج أبو الشيخ عن السديّ ﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ قال : حسن منقلب .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب في الكتاب : "بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالت قريش : أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه : دعنا نقاتلهم ، فقال : "لا ، ولكن اكتبوا كما يريدون" .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن جريج في هذه الآية نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ قال : توبتي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(184/412)

وقال القاسمى :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ ﴾

أي : مضت : ﴿ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي : لتبلغهم هذا الوحي العظيم والذكر الحكيم ، كما بلغ من خلا قبلك من المرسلين أممهم . وقوله : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ جملة حالية أو مستأنفة ، أي : يكفرون بالبليغ الرحمة ، الذي وسعت رحمته كل شيء ، والعدول إلى المظهر الدال على الرحمة ، إشارة إلى أن الإرسال ناشئ منها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] وإلى أنهم لم يشكروا نعمة هذا الوحي الذي هو مدار المنافع الدينية والدنيوية ، وإلى أن الرحمن من أسمائه الحسنى ونعوته العليا ، وقد كانوا يتجافون هذا الاسم الكريم . ولهذا لم يرضوا يوم الحديبية أن يكتبوا " بسم الله الرحمن الرحيم " وقالوا : ما ندري ما الرحمن الرحيم ؟ كما في الصحيح . وقد قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ [الإسراء : من

الآية 110] . وفي " صحيح مسلم " عن ابن عمر مرفوعاً : < أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن > .

﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أي : الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته : ﴿ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي : توبتي وإنابتي . فإنه لا يستحق ذلك غيره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 288 ﴾

(185/412)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

هذا الجواب عن قولهم : ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ لأن الجواب السابق بقوله : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ﴾ جواب بالإعراض عن جهالتهم والتعجب من ضلالهم وما هنا هو الجواب الرادّ لقولهم .

فيجوز جعل هذه الجملة من مقول القول ، ويجوز جعله مقطوعة عن جملة ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ﴾ .

وأيّا ما كان فهي بمنزلة البيان لجملة القول كلها ، أو البيان لجملة المقول وهو التعجب .

وفي افتتاحها بقوله : ﴿ كذلك ﴾ الذي هو اسم إشارة تأكيد للمشار إليه وهو التعجب من ضلالتهم إذ عموا عن صفة الرسالة .

والمشارُ إليه : الإرسال المأخوذ من فعل ﴿ أرسلناك ﴾ ، أي مثل الإرسال البين أرسلناكَ ، فالمشبه به عين المشبّه ، إشارة إلى أنه لوضوحه لا يبين ما وضح من نفسه .

وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ في سورة البقرة (143) .

ولما كان الإرسال قد علق بقوله : في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك ﴾ صارت الإشارة أيضاً متحملة لمعنى إرسال الرسل من قبله إلى أمم يقتضي مرسَلين ، أي ما كانت رسالتك إلاّ مثل رسالة الرسل من قبلك .

كقوله : ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل ﴾ [سورة الأحقاف : 9] وقوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ [سورة الفرقان : 20] لإبطال توهم المشركين أن النبي لما لم يأتهم بما سألوه فهو غير مرسل من الله .

وفي هذا الاستدلال تمهيد لقوله : ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ [سورة الرعد : 31] الآيات .

ولذلك أردفت الجملة بقوله : لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك ﴾ .

والأمّة : هي أمة الدعوة ﴿ فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ .

وتقدم معنى ﴿ قد خلت من قبلها أمم ﴾ في سورة آل عمران عند قوله : ﴿ قد خلت من قبلكم سُنن ﴾ [سورة آل عمران : 137] .

ويتضمن قوله : قد خلت من قبلها أمم ﴾ التعريض بالوعيد بمثل مصير الأمم الخالية التي كذبت رسلها .

وتضمن لام التعليل في قوله : ﴿ لتتلوا عليهم ﴾ أن الإرسال لأجل الإرشاد والهداية بما أمر الله لا لأجل الانتصاب لخوارق العادات .

والتلاوة : القراءة .

فالمقصود لتقرأ عليهم القرآن ، كقوله : ﴿ وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ [سورة النمل : 92] الآية .

وفيه إيماء إلى أن القرآن هو معجزته لأنه ذكره في مقابلة إرسال الرسل الأولين ومقابلة قوله : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ [سورة الرعد : 7] .

وقد جاء ذلك صريحاً في قوله : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ [سورة العنكبوت : 51] .

وقال النبي : ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحاه الله إلي .

وجملة وهم يكفرون بالرحمن ﴾ عطف على جملة ﴿ كذلك أرسلناك ﴾ ، أي أرسلناك بأوضح الهداية وهم مستمرون على الكفر لم تدخل الهداية قلوبهم ، فالضمير عائد إلى المشركين المفهومين من المقام لا إلى ﴿ أمة ﴾ لأن الأمة منها مؤمنون .

والتعبير بالمضارع في ﴿ يكفرون ﴾ للدلالة على تجدد ذلك واستمراره .

ومعنى كفرهم بالله إشراكهم معه غيره في الإلهية ، فقد أبطلوا حقيقة الإلهية فكفروا به .

واختيار اسم (الرحمن) من بين أسمائه تعالى لأن كفرهم بهذا الاسم أشد لأنهم أنكروا أن يكون اللّهُ رحمان .

قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمان ﴾ في سورة الفرقان (60) ، فأشارت الآية إلى كفرين من كفرهم : جحدِ الوحدانية ، وجحدِ اسم الرحمان ؛ ولأن لهذه الصفة مزيد اختصاص بتكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام وتأييده بالقرآن لأن القرآن هُدًى ورحمة للناس .

وقد أرادوا تعويضه بالخوارق التي لا تكسب هدْياً بذاتها ولكنها دالة على صدق من جاء بها .

قال مقاتل وابن جريج : نزلت هذه الآية في صلح الحديبية حين أرادوا أن يكتبوا كتاب الصلح فقال النبي للكاتب اكتب بِسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل بن عَمرو : ما نعرف الرحمان إلا صاحب اليمامة ، يعني مسيلمة ، فقال النبي اكتب باسمك اللّهم .

ويبعده أن السورة مكية كما تقدم .

وعن ابن عباس نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فنزلت .

وقد لقن النبي بإبطال كفرهم المحكي إبطالاً جامعاً بأن يقول : ﴿ هو ربي ﴾ ، فضمير ﴿ هو ﴾ عائد إلى (الرحمان) باعتبار المسمى بهذا الاسم ، أي المسمى هو ربي وأن الرحمان اسمه .

وقوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ إبطال لإشراكهم معه في الإلهية غيره .

وهذا مما أمر الله نبيه أن يقوله ، فهو احتراس لرد قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى رب واحد وهو يقول : إن ربه الله وإن ربه الرحمان ، فكان قوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ دالاً على أن المدعو بالرحمان هو المدعو بالله إذ لا إله إلا إله واحد ، فليس قوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ إخباراً من جانب الله على طريقة الاعتراض .

وجملة ﴿ عليه توكلت وإليه متاب ﴾ هي نتيجة لكونه رباً واحداً .

ولكنها كالنتيجة لذلك فصلت عن التي قبلها لما بينهما من الاتصال .

وتقديم المجرورين وهما ﴿ عليه ﴾ و ﴿ إليه ﴾ لإفادة اختصاص التوكل والمتاب بالكون عليه ، أي لا على غيره ، لأنه لما توحد بالربوبية كان التوكل عليه ، ولما اتّصف بالرحمانية كان المتاب إليه ، لأن رحمانيته مظنة لقبوله توبة عبده .

والمتاب : مصدر ميمي على وزن مفعل ، أي التوبة ، يفيد المبالغة لأن الأصل في المصادر الميمية أنها أسماء زمان جعلت كناية عن المصدر ، ثم شاع استعمالها حتى صارت كالصريح .

ولما كان المتاب متضمناً معنى الرجوع إلى ما يأمر الله به عدّي المتاب بحرف ﴿ إلى .

وأصل مُتَاب ﴾ متابي بإضافة إلى ياء المتكلم فحذفت الياء تخفيفاً وأبقيت الكسرة دليلاً على المحذوف كما حذف في النادى المضاف إلى الياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

فكما أرسلك الله إلى أمتك ؛ فقد سبق أنْ أرسل سبحانه رُسُلاً إلى الأمم التي سبقتْ ؛ ولم يُرسِل مع أيٍّ منهم معجزة تناقض ما نبغ فيه قومُه ؛ كَيْ لا يقولَ واحدٌ أن المعجزة التي جاءتْ مع الرسول تتناول ضُرْباً لم يَأْلفوه ؛ ولو كانوا قد أَلِفوه لَمَا تفوّق عليهم الرسول .

وقول الحق : ﴿ كَذَلِكَ . . . ﴾ [الرعد : 30] يعني : كهذا الإرسال السابق للرسل جاء بَعْثُكَ إلى أمتِك ، كتلك الأمم السابقة .

ويأتي الحق سبحانه هنا بالاسم الذي كان يجب أن يَقْدروه حقَّ قَدْره وهو " الرحمن " فلم يَقُلْ : وهم يكفرون بالله بل قال : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن . . . ﴾ [الرعد : 30]

فهم يعيشون رغم كُفْرهم في رزق من الله الرحمن ، وكُل ما حولهم وما يُقيتهم وما يَسْتمتعون به من نِعَم عطاءاتٌ من الله .

وهم لا يقومون بأداء أيٍّ من تكاليف الله ؛ فكان من اللياقة أن يذكروا فَضْل الله عليهم ؛ وأنْ يؤمنوا به ؛ لأن مطلوب الألوهية هو القيام بالعبادة .

وهو سبحانه هنا يأتي باسمه " الرحمن " ؛ والذي يفيد التطوع بالخير ؛ وكان من الواجب أن يقدرُوا هذا الخيْر الذي قدَّمه لهم سبحانه ، دون أن يكون لهم حَوْلٌ أو قوة .

وكان يجب أن يعتبروا ويعلنوا أنهم يتجهون إليه سبحانه بالعبادة ؛ وأنْ يُنفّذوا التكليف العباديّ .

وفي صُلْح الحديبية دارتْ المفاوضات بين المسلمين وكفار قريش الذين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخول مكة ، ولكنهم قَبِلوا التعاهد معه ، فكان ذلك اعترافاً منهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وصَحْبه الذين صاروا قوة تُعاهِدُ ؛ تأخذ وتعطي .

ولذلك نجد سيدنا أبا بكر رضي الله عنه يقول : " ما كان في الإسلام نصرٌ أعظم من نَصْر الحديبية " .

(190/412)

فقد بدأتْ قريش في الحديبية الاعترافَ برسول الله وأمة الإسلام ؛ وأخذوا هُدْنة طويلة تمكَّن خلالها محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته من أنْ يغزُوا القبائل التي تعيش حول قريش ؛ حيث كانت تذهب سَرِية ومعها مُبشِّر بدين الله ؛ فتُسلِم القبائل قبيلة من بَعْد قبيلة .

وهكذا كانت الحديبية هي أعظم نصْر في الإسلام ؛ فقد سكنتْ قريش ؛ وتفرَّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَنْ معه لدعوة القبائل المحيطة بها للإسلام .

ولكن الناس لم يتسع ظنُّهم لما بين محمد وربِّه . والعباد دائماً يَعْجلون ، والله لا يَعْجل بعَجلةِ العباد حتَّى تبلغَ الأمورُ ما أراد .

" وحين جاءت لحظة التعاقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش في الحُدَيْبية ، وبدأ عليٌّ بن أبي طالب في كتابة صيغة المعاهدة ، كتب " هذا ما صَالح عليه محمد رسول الله " فاعترض سهيل بن عمرو وقال : لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب : " هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو " .

وأصر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن تُكتب صفة محمد كرسول ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " والله إني لرسول الله وإن كذبتموني . اكتب محمد بن عبد الله " .

ولكن علياً كرَّم الله وجهه يُصِرُّ على أن يكتب صفة محمد كرسول من الله ؛ فيُنطق الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ليقول لعليّ : " ستسام مثلها فتقبل " . ولما تولَّى عليٌّ كرم الله وجهه بعد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، وقامت المعركة بين علي ومعاوية ؛ ثم اتفق الطرفان على عَقْد معاهدة ؛ وكتب الكاتب " هذا ما قاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب " فقال عمرو بن العاص مندوب معاوية : " اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم وليس أميرنا " .

وهنا تذكَّر علي كرم الله وجهه ما قاله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سَتُسَام مثلها فتقبَّل " وقَبِلها فقال : " امْحُ أمير المؤمنين ، واكتب هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب " " .

وتحققت مقولة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن الوقائع التي تُثبّتُ الإيمانَ ؛ نجد قصة عمار بن ياسر ، وكان ضمن صُفوف علي كرَّم الله وجهه وأرضاه في المواجهة مع معاوية ؛ وقتله جُنود معاوية ؛ فصرخ المسلمون وقالوا : " ويح عمار ، تقتله الفئة الباغية . وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال .

وبذلك فَهِم المسلمون أن الفئة الباغية هي فئة معاوية ، وانتقل كثير من المسلمين الذين كانوا في صَفِّ معاوية إلى صَفِّ علي بن أبي طالب ؛ فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : تفشَّت في الجيش فَاشِية ، إن استمرتْ لن يبقى معنا أحد ؛ فقد قتلنا عمار بن ياسر ؛ وذكر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : " وَيْحَ عمار ، تقتله الفِئة البَاغِية " وقد فَهِم المقاتلون معنا أن الفئة الباغية هي فئتنا .

وكان معاوية من الدهاء بمنزلة ؛ فقال : اسْعَ في الجيش وقُلْ : " إنما قتله مَنْ أخرجه " ويعني عليّاً . ولما وصل هذا القول لعليٍّ قال : ومَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ، وقد أخرجه للقتال محمد صلى الله عليه وسلم ؟ !

وهنا في قول الحق سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ . . . ﴾ [الرعد : 30]

إنما يعني أن الحق قد أرسلك يا محمد بمعجزة تُناسب ما نبغ فيه قومك ، وطَلَبُ غير ذلك هو جَهْل بواقع الرسالات وتعنُّت يُقصَد منه مزيدٌ من ابتعادهم عن الإيمان .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرحمن قُلْ هُوَ رَبِّي . . ﴾ [الرعد : 30]

أي : أنهم حين يُعلنون الكفر فأنت تصادمهم بإعلان الإيمان ، وتقول : ﴿ هُوَ رَبِّي لا إله إِلاَّ هُوَ . . . ﴾ [الرعد : 30]

(192/412)

وكلمة " ربي " تنسجم مع كلمة " الرحمن " الذي يُنعِم بالنعم كلها ؛ وهو المُتولِّي تربيتي ؛ ولو لم يفعل سِوَى خَلْقي وتربيتي ومَدّي بالحياة ومُقوِّماتها ؛ لَكانَ يكفي ذلك لأعبده وحده ولا أشرك به أحداً .

ولو أن الإنسان قد أشرك بالله ؛ لالتفتَ مرة لذلك الإله ؛ ومرة أخرى للإله الآخر ؛ ومرة ثالثة للإله الثالث وهكذا ، وشاء الله سبحانه أن يريح الإنسان من هذا التشتت بعقيدة

التوحيد .

ويأتي القرآن ليُطمئن القلوب أيضاً وليذكر : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحمد للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 29]

وهكذا يعرض لنا القرآن صورتين :

الصورة الأولى : لرجل يملكه أكثر من سيد ، يعارضون بعضهم البعض .

والصورة الثانية : لرجل آخر ، يملكه سيد واحد .

ولأبدَّ للعقل أن يعلمَ أن السيد الواحد افضل من الأسياد المتعددين ؛ لأن تعدُّد الأسياد فساد وإفساد ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 22]

والعاقل هو مَنْ لا يُسلِّم نفسه إلا لسيِّد واحد يثق أنه أمين عليه ، ونحن في حياتنا نقول : ما يحكم به فلان أنا أرضى به ؛ وقد وكَّلْته في كذا . ولا أحد مِنّا يُسلِّم نفسه إلا لمَنْ يرى أنه أمين على هذا الإسلام ، ولأبدَّ أن يكون أمينا وقوياً ، ويقدر على تنفيذ مطلوبه .

والرسول صلى الله عليه وسلم في المعركة العنيفة مع صناديد قريش قال : " إِنِّي متوكل على الله " ، وهذه شهادة منه على أنه توكل على القوي الأمين الحكيم ؛ والرسول لم يَقُلْ توكلت عليه ؛ ولكنه قال : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . . . ﴾ [الرعد : 30]

والفارق بين القَوْلَيْنِ كبير ، فحين تقول " عليه توكلت " فأنت تَقْصر التوكُّل عليه وحده ؛ ولكن إنْ قُلت : " توكلت عليه " . فأنت تستطيع أن تضيف وتعطف عدداً آخر مِمَّنْ يمكنك التوكل عليهم .

ولذلك نقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ . . . ﴾ [الفاتحة : 5]

ونحصر العبادة فيه وله وحده سبحانه ؛ فلا نتعداه إلى غيره ؛ ولو أنها أُخِرَّتْ لجاز أن يعطف عليه . ويُقَال في ذلك " اسم قصر " أي : أن العبادة مَقْصورة عليه ؛ وكذلك التوكُّل . ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إله إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . . . ﴾ [الرعد : 30]

أي : أنني لا آخذ أوامري من أحد غيره ومرجعي إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (30) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ قال : ذكر لنا " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية – حين صالح قريشاً ، كتب في الكتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم . فقالت قريش : أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون : باسمك اللهم . فقال أصحابه : دعنا نقاتلهم . قال : لا ، ولكن اكتبوا كما يريدون "

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج في الآية قال : هذا لما كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً في الحديبية ، كتب " بسم الله الرحمن الرحيم . فقالوا : لا نكتب الرحمن وما ندري ما الرحمن ! . . . . وما نكتب إلا باسمك اللهم " فأنزل الله تعالى ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد – رضي الله عنه – ﴿ وإليه متاب ﴾ قال : توبتي .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ ﴾ : الكافُ في محلِّ نصب كنظائرها . قال الزمخشري : " مثلَ ذلك الإِرسالِ أَرْسلناك ، يعني : ارسلناك إرسالاً له شأن " . وقيل : الكافُ متعلِّقةٌ بالمعنى الذي في قوله ﴿ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ويهدي ﴾ [الرعد : 27] ، أي : "كما أنفذ اللهُ هذا كذلك ارسلناك " . وقال ابن عطية : " الذي يظهر لي أن المعنى : كما أَجْرَيْنا العادةَ بأنَّ اللهَ يُضِلُّ ويَهْدِي لا الآياتِ المقترحةَ ، فكذلك أيضاً فَعَلنا في هذه الأمَّةِ : أرسَلْناك إليها بوحيٍ لا بآيات مقترحة " .

وقال أبو البقاء : "كذلك " [التقديرُ :] الأمر كذلك فجعلها في موضعِ رفعٍ . وقال الحوفي : " الكافُ للتشبيه في موضع نصب ، أي : كفِعْلنا الهدايةَ والإِضلال " . والإِشارةُ ب " ذلك " إلى ما وَصَفَ به نفسَه مِنْ أنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يشاء ويَهْدِي مَن يشاء .

قوله : ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ جملةٌ [في محلِّ جرٍّ صفةً] . و " لِتَتْلُوَ " متعلِّقٌ ب " أَرْسَلْناك " .

قوله : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ يجوز أن تكونَ هذه الجملةُ استئنافيةً وأن تكونَ حاليةً ، والضميرُ في " وهم " عائدٌ على " أمة " من حيث المعنى ، ولو عاد على لفظِها لكان

التركيبُ" وهي تكفر" . وقيل: الضميرُ عائدٌ على "أمَّة" وعلى "أُمَم" . وقيل: على الذين قالوا : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ ﴾ [الرعد : 27] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 39 . 50﴾

(196/412)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

لئن أرسلناك بالنبوة إليهم فلقد أرسلنا قبلك كثيراً من الرسل ، ولئن أصابك منهم بلاءٌ فلقد أصاب مَنْ قَبْلَك كثيرٌ من البلاء ، فاصْبِرْ كما صَبَرُوا تُؤْجَرْ كما أُجِرُوا .

قوله جلّ ذكره ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ .

لئن كفروا بنا فآمِنْ أنت ، وإذا آمنتَ فلا تبالِ بِمَنْ جحَد ، فإنَّك أنت المقصودُ من البَرِيَّة ، والمخصوصُ بالرسالة والمحبة .

لو كان يجوز في وصفنا أن يكون لنا غرضٌ في أفعالنا .

ولو كان الغرض في الخِلْقَة فأنت سيد البَشَر ، وأنت المخصوص من بين البشرية بحسن الإقبال (1) ، فهذا مخلوق يقول في مخلوق :

وكنتُ أُخَرّتُ أوطاري لوقت . . . فكان الوقت وقتك والسلام

وكنت أطالِبُ الدنيا بِحُبّ . . . فكنتَ الحُبَّ . . واِنقطع الكلام . انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 230 . 231 ﴾

---

(1) هذه أقصى درجة فى التصور لشخصية الرسول صلوات اللّه عليه – في نظر هذا الصوفي . . قارن ذلك بأقوال باحث آخر كابن عربى أو الجيلي عن «الإنسان الكامل» ، لتلحظ الفرق الهائل بين الاتجاهين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث عشر بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/413)

الجزء الثالث عشر بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 31 ﴾ من سورة الرعد

وحتى الآية ﴿ 39 ﴾ من نفس السورة

(4/413)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فرغ من الجواب عن الكفر بالموحى ، عطف على " هو ربي " الجواب عن الكفر بالوحي فقال : ﴿ ولو ﴾ إشارة إلى أنه يعتقد في القرآن ما هو أهله بعد ما أخبر عن اعتقاده في الرحمن ، أي وقل : لو ﴿ أن قرآناً ﴾ كانت به الآيات المحسوسات بأن ﴿ سيرت ﴾ أي بأدنى إشارة من مشير ما ﴿ به الجبال ﴾ أي فأذهبت على ثقلها وصلابتها عن وجه الأرض ﴿ أو قطعت ﴾ أي كذلك ﴿ به الأرض ﴾ أي على كثافتها فشققت فتفجرت منها الأنهار ﴿ أو كلم به الموتى ﴾ فسمعت وأجابت لكان هذا القرآن ، لأنه آية لا مثل لها ، فكيف يطلبون آية غيره ! أو يقال : إن التقدير : لو كان شيء من ذلك بقرآن غيره لكان به - إقراراً لأعينكم - إجابة إلى ما تريدون ، لكنه لم تجر عادة لقرآن قبله بأن يكون به ذلك ، فلم يكن بهذا القرآن ، لأن الله لم يرد ذلك لحكمه علمها ، وليس لأحد غير الله أمر في خرق شيء من العادات ، لا لولي ولا لنبي ولا غيرهما حتى يفعل لأجلكم بشفاعة أو بغيرها شيئاً

لم يرده الله في الأزل ﴿ بل ﴾ ويجوز أن يكون التقدير : لو وجد شيء من هذا بقرآن يوماً ما لكان بهذا القرآن ، فكان حينئذ يصير كل من حفظ منه شيئاً فعل ما شاء من ذلك ، فسير له ما شاء من الجبال إلى ما أراد من الأراضي لما رام من الأغراض ، وقطع به ما طلب من الأرض أنهاراً وجناناً وغيرها ، وكلم به من اشتهى من الموتى ، ثم إذا فتح هذا الباب فلا فرق بين القدرة على هذا والقدرة على غيره ، فيصير من حفظ منه شيئاً قادراً على شيء ، فبطلت حينئذ حكمة اختصاص الله سبحانه بذلك من أراد من خلص عباده ، وأدى ذلك إلى أن يدعي من أراد من الفجرة أن أمر ذلك بيده ، يفعل فيه ما يشاء متى شاء ، فيصير ادعاءه مقروناً بالفعل شبهة في الشرك ، وليعلم قطعاً أنه ليس في يد أحد أمر ، بل ﴿ الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال وحده ﴿ الأمر ﴾ وهو ما يصح أن يؤمر فيه وينهى ﴿ جميعاً ﴾ في ذلك وغيره ، لا لي ولا لأحد من الأنبياء الذين قلتم إني لست أدنى منزلة منهم ،

وأما الخوارق التي كانت لهم فلولا أن شاءها لما كانت ، فالأمر إليه وحده ، مهما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وكأن هذا جواب لما حكي في السيرة النبوية أن الكفار تفتنوا به ؛ قال ابن

إسحاق : ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء ، فاجتمع أشرافهم فأرسلوا إليه .صلى الله عليه وسلم .فكلموه في الكف عنهم وعرضوا عليه أن يملكوه عليهم وغير ذلك فأبى وقال :

" " إن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً " " ، فقالوا : فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليخرق فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق – زاد البغوي : فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال تسبح معه ، أو سخر لنا الريح فنركبها إلى الشام لميرتنا ، ونرجع في يومنا فقد سخرت الريح لسليمان كما زعمت – رجع إلى ابن إسحاق : وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ! فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك إلينا رسولاً كما تقدم – زاد البغوي : فإن عيسى كان يحيي الموتى ، ولست بأهون على ربك منه " فكان سؤالهم هذا متضمناً لادعائهم أن دعواه إنزال القرآن لا تصح إلا أن فعل هذه الاشياء .

ولما كان هذا كله إقناطاً من حصول الإيمان لأحد بما يقترح ، تسبب عنه الإنكار على من لم يفد فيه ذلك فقال تعالى : ﴿ أفلم ﴾ بفاء السبب ﴿ ييئس الذين آمنوا ﴾ من إيمان مقترحي الآيات بما يقترحون لعلمهم ﴿ أن ﴾ أي بأنه ﴿ لو يشاء الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال - هداية كل أحد مشيئة مقترنة بوجوده ﴿ لهدى الناس ﴾ وبين أن اللام للاستغراق بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ أي بأيسر مشيئة ، والعلم بالشيء يوجب اليأس من خلافه ، لكنه لم يهدهم جميعاً فلم يشأ ذلك ، ولا يكون إلا ما شاءه ، فلا يزال فريق منهم كافراً ، فقد وضح أن ﴿ ييئس ﴾ على بابها ، وكذا في البيت الذي استشهدوا به على أنها بمعنى " علم " يمكن أن يكون معناه : ألم تيأسوا عن أذاي أو عن قتلي علماً منكم بأني ابن فارس زهدم ، فلا يضيع لي ثأر ، وكذا قراءة علي ومن معه من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين - أفلم - يتبين الذين آمنوا - أي أن أهل الضلال لا يؤمنون لآية من الآيات علماً منهم بأن الأمر لله جميعاً ، وأن إيمانهم ليس موقوفاً على غير مشيئته .

ولما علم من ذلك أن بعضهم لا يؤمن ، ضاقت صدور المؤمنين لذلك لما يعاينونه من أذى الكفار فأتبعه ما يسليهم عاطفاً على ما قدرته من نتيجة عدم المشيئة ، فقال : ﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ أي ستروا ضياء عقولهم ﴿ تصيبهم بما صنعوا ﴾ أي مما مرنوا عليه من الشر حتى صار لهم طبعاً ﴿ قارعة ﴾ أي داهية تزعجهم بالنقمة من بأسه على يد من يشاء ، وهو من الضرب بالمقرعة ﴿ أو تحل ﴾ أي تنزل نزولاً ثانياً تلك القارعة ﴿ قريباً من دارهم ﴾ أي فتوهن أمرهم ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ أي الملك الأعظم بفتح مكة أو بالنصر على جميع الكفرة في زمن عيسى عليه السلام فينقطع ذلك ، لأنه لا يُبقي على الأرض كافراً ، وفي غير ذلك من الأزمان كزمن فتح مكة المشرفة ، فيكون المعنى خاصاً بالبعض ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له مجامع الكمال ﴿ لا يخلف الميعاد ﴾ أي الوعد ولا زمانه ولا مكانه ؛ والوعد : عقد الخبر بتضمن النفع ، والوعيد : عقده بالزجر والضر ، والإخلاف : نقض ما تضمن الخبر من خير أو شر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 151. 153 ﴾

(8/413)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾

[31] ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى بَل لِلَّهِ الأمر جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الذين ءامنوا أَن لَّوْ يَشَاءُ الله لَهَدَى الناس جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حتى يَأْتِىَ وَعْدُ الله إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ اعلم أنه روي أن أهل مكة قعدوا في فناء مكة ، فأتاهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض الإسلام عليهم ، فقال له عبد الله بن أمية المخزومي : سير لنا جبال مكة حتى ينفسخ المكان علينا واجعل لنا فيها أنهاراً نزرع فيها ، أو أَحْيِ لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أو بطال ، فقد كان عيسى يحيى الموتى ، أو سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان ، فنزل قوله : ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ أي من أماكنها ﴿ أو قطعت به الأرض ﴾ أي شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿ أو كلم به الموتى ﴾ لكان هو هذا القرآن الذي أنزلناه عليك .

وحذف جواب "لو" لكونه معلوماً ، وقال الزجاج : المحذوف هو أنه ﴿ لو أن قرآناً سيرت به

الجبال ﴾ وكذا وكذا لما آمنوا به كقوله : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ﴾ [الأنعام : 111] .

ثم قال تعالى : ﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ يعني إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وليس لأحد أن يتحكم عليه في أفعاله وأحكامه .

ثم قال تعالى : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ أفلم ييأس ﴾ قولان :

القول الأول : أفلم يعلموا وعلى هذا التقدير ففيه وجهان :

(9/413)

الوجه الأول : ﴿ ييأس ﴾ يعلم في لغة النخع وهذا قول أكثر المفسرين مثل مجاهد والحسن وقتادة .

واحتجوا عليه بقول الشاعر :

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه . . وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

وأنشد أبو عبيدة :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني . . إلم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

أي ألم تعلموا .

وقال الكسائي : ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت ألبته .

والوجه الثاني : ما روي أن علياً وابن عباس كانا يقرآن : ﴿ أفلم يأس الذين آمنوا ﴾ فقيل لابن عباس أفلم ييأس فقال : أظن أن الكاتب كتبها وهو ناعس أنه كان في الخط يأس فزاد الكاتب سنة واحدة فصار ييأس فقرئ ييأس وهذا القول بعيد جداً لأنه يقتضي كون القرآن محلاً للتحريف والتصحيف وذلك يخرجه عن كونه حجة قال صاحب "الكشاف" : ما هذا القول والله إلا فرية بلا مرية .

والقول الثاني : قال الزجاج : المعنى أو يئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء لأن الله لو شاء لهدى الناس جميعاً .

وتقريره أن العلم بأن الشيء لا يكون يوجب اليأس من كونه والملازمة توجب حسن المجاز ، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ اليأس لإرادة العلم .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بقوله : ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ وكلمة "لو" تفيد انتقاء الشيء لانتفاء غيره .

والمعنى : أنه تعالى ما شاء هداية جميع الناس ، والمعتزلة تارة يحملون هذه المشيئة على مشيئة الإلجاء ، وتارة يحملون الهداية على الهداية إلى طريق الجنة ، وفيهم من يجري الكلام على الظاهر ، ويقول إنه تعالى ما شاء هداية جميع الناس لأنه ما شاء هداية الأطفال والمجانين فلا يكون شائياً لهداية جميع الناس .

والكلام في هذه المسألة قد سبق مراراً .

أما قوله تعالى : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ فيه قولان :

(10/413)

القول الأول : قيل : أراد به جميع الكفار لأن الوقائع الشديدة التي وقعت لبعض الكفار من القتل والسبي أوجب حصول الغم في قلب الكل ، وقيل : أراد بعض الكفار وهم جماعة معينون والألف واللام في لفظ الكفار للمعهود السابق هو ذلك الجمع المعين .

المسألة الثانية :

في الآية وجهان.

الأول: ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا من كفرهم وسوء أعمالهم قارعة داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم، أو تحل القارعة قريباً منهم، فيفزعون ويضطربون ويتطاير إليهم شرارها، ويتعدى إليهم شرورها حتى يأتي وعد الله وهو موتهم أو القيامة.

والقول الثاني: ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من العداوة والتكذيب قارعة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتختطف منهم وتصيب مواشيهم، أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم بجيشك كما حل بالحديبية حتى يأتي وعد الله وهو فتح مكة، وكان الله قد وعده ذلك. ثم قال: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ والغرض منه تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وإزالة الحزن عنه.

قال القاضي: وهذا يدل على بطلان قول من يجوز الخلف على الله تعالى في ميعاده، وهذه الآية وإن كانت واردة في حق الكفار إلا إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إذ بعمومه يتناول كل وعيد ورد في حق الفساق.

وجوابنا: أن الخلف غير، وتخصيص العموم غير، ونحن لا نقول بالخلف، ولكنا نخصص

عمومات الوعيد بالآيات الدالة على العفو. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 42.44﴾

(11/413)

وقال الماوردى:

قوله عز وجل: ﴿ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال أو قطعت به الأرض﴾ الآية.

وسبب ذلك ما حكاه مجاهد وقتادة أن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن يسرَّكَ أن نتبعك فسيِّرْ جبالنا حتى تتسع لنا أرضنا فإنها ضيقة، وقرب لنا الشام فإننا نتَّجر إليها، وأخرج لنا الموتى من القبور نكلمها، فأنزل الله تعالى. ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال﴾ أي أُخرت. ﴿أو قطعت به الأرض﴾ أي قربت.

﴿أو كُلِّم به الموْتَى﴾ أي أُحيوا.

وجواب هذا محذوف وتقديره لكان هذا القرآن، لكنه حذف إيجازاً لما في ظاهر الكلام من الدلالة على المضمر المحذوف.

ثم قال تعالى: ﴿بل لِله الأمر جميعاً﴾ أي هو المالك لجميع الأمور الفاعل لما يشاء منها.

﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ وذلك أن المشركين لما

سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سألوه استراب المؤمنون إليه فقال الله تعالى ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ .

وفيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : معناه أفلم يتبين الذين آمنوا ، قاله عطية ، وهي في القراءة الأولى : أفلم يتبين الذين آمنوا . وقيل لغة جرهم ﴿ أفلم ييأس ﴾ أي يتبين .

الثاني : أفلم يعلم ، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد ، ومنه قول رباح ابن عدي :

ألم ييأس الأقوام أنّي أنا ابْنُهُ . . . وإن كنتُ عن أرض العشيرة نائيا

الثالث : أفلم ييأس الذين آمنوا بانقطاع طمعهم .

وفيما يئسوا منه على هذا التأويل وجهان :

أحدهما : ييأسوا مما سأله المشركون ، قاله الفراء .

الثاني : يئسوا أن يؤمن هؤلاء المشركون ، قاله الكسائي .

﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لهداهم إلى الإيمان .

الثاني : لهداهم إلى الجنة .

﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهُم بما صنعوا قارعة ﴾ فيها تأويلان :

أحدهما : ما يقرعهم من العذاب والبلاء ، قاله الحسن وابن جرير .

(12/413)

الثاني : أنها الطلائع والسرايا التي كان ينفذها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله عكرمة .

﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أو تحل القارعة قريباً من دارهم ، قاله الحسن .

الثاني : أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم ، قاله ابن عباس وقتادة

﴿ حتى يأتي وَعْدُ الله ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : فتح مكة ، قاله ابن عباس .

الثاني : القيامة ، قاله الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(13/413)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءانًا ﴾

ويحتمل قوله : ﴿ ولو أن قرآنا ﴾ الآية ، أن يكون متعلقاً بقوله : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ فيكون معنى الآية الإخبار عنهم أنهم لا يؤمنون ولو نزل " قرآن تسير به الجبال وتقطع به الأرض " - هذا تأويل الفراء وفرقة من المتأولين - وقالت فرقة : بل جواب ﴿ لو ﴾ محذوف ، تقديره : ولو أن قرآنا يكون صفته كذا لما آمنوا بوجه ، وقال أهل هذا التأويل - ابن عباس ومجاهد وغيرهما - إن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أزح عنا وسير جبلي مكة فقد ضيقا علينا ، واجعل لنا أرضنا قطع غراسة وحرث ، وأحي لنا آباءنا وأجدادنا وفلاناً وفلاناً - فنزلت الآية في ذلك معلمة أنهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كله ، وقالت فرقة : جواب ﴿ لو ﴾ محذوف ، ولكن ليس في هذا المعنى ، بل تقديره : لكان هذا القرآن الذي يصنع هذا به ، وتتضمن الآية - على هذا - تعظيم القرآن ، وهذا قول حسن يحرز فصاحة الآية .

وقوله : ﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ يعضد التأويل الأخير ويترتب مع الآخرين .

وقوله : ﴿ أفلم ييئس الذين آمنوا ﴾ الآية ، ﴿ ييئس ﴾ معناه : يعلم ، وهي لغة هوازن - قاله القاسم بن معن - وقال ابن الكلبي : هي لغة هبيل حي من النخع ، ومنه قول سحيم بن وثيل الرياحي : [الطويل]

أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني . . . ألم تيئسوا أني ابن فارس زهدم

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يكون اليأس في هذه الآية على بابه ، وذلك أنه لما أبعد

إيمانهم في قوله: ﴿ ولو أن قرآناً ﴾ الآية – على التأويلين في المحذوف المقدر – قال في هذه الآية: أفلم ييئس المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة، علماً منهم ﴿ أن لو يشاء لهدى الناس جميعاً ﴾.

وقرأ ابن كثير وابن محيصن "يأيس" وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس وابن أبي مليكة وعكرمة والجحدري وعلي بن حسين وزيد بن علي وجعفر بن محمد "أفلم يتبين".

(14/413)

ثم أخبر تعالى عن كفار قريش والعرب أنهم لا يزالون تصيبهم قوارع من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزواته.

وفي قراءة ابن مسعود ومجاهد: "ولا يزال الذين ظلموا" ثم قال: ﴿ أو تحل ﴾ أنت يا محمد ﴿ قريباً من دارهم ﴾ هذا تأويل فرقة منهم الطبري وعزاه إلى ابن عباس ومجاهد وقتادة – وقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى ﴿ أو تحل ﴾ القارعة ﴿ قريباً من دارهم ﴾.

وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير: "أو يحل" بالياء "قريباً من ديارهم" بالجمع.

و"وعد الله" – على قول ابن عباس وقوم – فتح مكة، وقال الحسن بن أبي الحسن: الآية

عامة في الكفار إلى يوم القيامة ، وأن حال الكفرة هكذا هي أبداً . و" وعد الله " : قيام الساعة ، و" القارعة " : الرزية التي تقرع قلب صاحبها بفظاعتها كالقتل والأسر ونهب المال وكشف الحريم ونحوه. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(15/413)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال ﴾

سبب نزولها أن مشركي قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لو وسَّعت لنا أودية مكة بالقرآن ، وسيَّرت جبالها فاحترثناها ، وأحييت من مات منا ، فنزلت هذه الآية ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وقال الزبير بن العوّام : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع الله أن يسيِّر عنا هذه الجبال ويفجِّر لنا الأرض أنهاراً فنزرع ، أو يحيي لنا موتانا فنكلمهم ، أو يصيِّر هذه الصخرة ذهباً فتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف فقد كان للأنبياء آيات ، فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون ﴾ [الاسراء : 59] .

ومعنى قوله : ﴿ أو قطِّعت به الأرض ﴾ أي : شقِّقت فجُعلت أنهاراً ، ﴿ أو كلِّم به الموتى ﴾ أي : أُحيوا حتى كلّموا .

واختلفوا في جواب "لو" على قولين :

أحدهما : أنه محذوف .

وفي تقدير الكلام قولان : أحدهما : أن تقديره : لكان هذا القرآن ، ذكره الفراء ، وابن قتيبة .

قال قتادة : لو فُعل هذا بقرآن غيرِ قرآنكم .

لفُعل بقرآنكم .

والثاني : أن تقديره : لو كان هذا كلّه لما آمنوا .

ودليله قوله تعالى : ﴿ ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة . . .

﴾ إلى آخر الآية [الأنعام : 111] ، قاله الزجاج .

والثاني : أن جواب "لو" مقدَّم ، والمعنى : وهم يكفرون بالرحمن ، ولو أنزلنا عليهم ما سألوا ، ذكره الفراء أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ أي : لو شاء أن يؤمنوا لآمنوا ، وإذا لم يشأْ ، لم ينفع ما اقترحوا من الآيات .

ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ وفيه أربعة أقوال :

أحدها : أفلم يتبيّن ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وروى عنه عكرمة أنه كان يقرؤها كذلك ، ويقول : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس ، وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، وأبي مالك ، ومقاتل .

(16/413)

والثاني : أفلم يعلم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد .

وقال ابن قتيبة : ويقال : هي لغة للنَّخَع "ييأس" بمعنى "يعلم" قال الشاعر :

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَنِي . . .

أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

وإِنما وقع اليأس في مكان العِلم ، لأن في علمك الشيء وتيقُّنك به يأسَك من غيره .

والثالث : أن المعنى : قد يئس الذين آمنوا أن يَهدوا واحداً ، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً ، قاله أبو العالية .

والرابع : أفلم ييأس الذين آمنوا أن يؤمن هؤلاء المشركون ، قاله الكسائي .

وقال الزجاج : المعنى عندي : أفلم ييأس الذين آمنوا من إِيمان هؤلاء الذين وصفهم الله

بأنهم لا يؤمنون ، لأنه لو شاء لهدى الناس جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم جميع الكفار ، قاله ابن السائب .

والثاني : كفار مكة ، قاله مقاتل .

فأما القارعة ، فقال الزجاج : هي في اللغة : النازلة الشديدة تنزل بأمر عظيم .

وفي المراد بها هاهنا قولان :

أحدهما : أنها عذاب من السماء ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : السرايا والطلائع التي كان يُنفِذها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله عكرمة .

وفي قوله : ﴿ أو تَحُلُّ قريباً من دارهم ﴾ قولان :

أحدهما : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالمعنى : أو تَحُلُّ أنت يا محمد ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة .

والثاني : أنها القارعة ، قاله الحسن .

وفي قوله : ﴿ حتى يأتيَ وعد الله ﴾ قولان :

أحدهما : فتح مكة ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : القيامة ، قاله الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾

هذا متصل بقوله : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الرعد : 27] .

وذلك أن نفراً من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية المخزوميّان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم ؛ فقال له عبد الله : إن سرّك أن نتبعك فسَيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأَذْهبها عنّا حتى تنفسح ؛ فإنها أرض ضيّقة ، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً ، حتى نغرس ونزرع ؛ فلستَ كما زعمتَ بأهون على ربك من داود حين سخّر له الجبال تسير معه ، وسَخِّر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضي عليها مِيرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنا ؛ فقد كان سليمان سخّرت له الريح كما زعمتَ ؛ فلستَ بأهون على ربك من سليمان بن داود ، وأَحْيِ لنا قُصَيّا جدّك ، أو من شئتَ أنت من موتانا نسأله ؛ أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى ، ولست بأهون على الله منه ؛ فأنزل الله تعالى : "وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ" الآية ؛ قال معناه الزّبير بن العوام ومجاهد وقَتَادة والضّحاك ؛ والجواب محذوف تقديره : لكان هذا القرآن ، لكن حذف إيجازاً ، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه ؛ كما قال امرؤ القيس :

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَموتُ جَمِيعةً . . .

ولكِنَّها نفسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

يعني لهان عليّ ؛ هذا معنى قول قَتَادة ؛ قال : لو فَعَل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم .

وقيل : الجواب متقدم ، وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ أي وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا .

الفراء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن .

(18/413)

الزّجاج : "وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً" إلى قوله : "الْمَوْتَى" لما آمنوا ، والجواب المضمر هنا ما أظهر في قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة ﴾ [الأنعام : 111] إلى قوله : ﴿ مَّا كَانُواْ لِيؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ [الأنعام : 111] .

﴿ بَل للَّهِ الأمر جَمِيعاً ﴾ أي هو المالك لجميع الأمور ، الفاعل لما يشاء منها ، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن ، إنما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الذين آمنوا ﴾

قال الفراء قال الْكَلْبي : "ييئس" بمعنى يعلم ، لغة النَّخَع ؛ وحكاه القُشَيْري عن ابن عباس ؛ أي أفلم يعلموا ؛ وقاله الجوهري في الصحاح .

وقيل : هو لغة هَوَازِن ؛ أي أفلم يعلم ؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن .

وقال أبو عبيدة : أفلم يعلموا ويتبيّنوا ، وأنشد في ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْرِي :

أَقُولُ لَهُمْ بالشَّعْب إذْ يَيْسِرُونَنِي . . .

أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابن فَارِس زَهْدَمِ

يَيْسرونني من المَيْسر ، وقد تقدم في "البقرة" ويروى يأسرونني من الأَسْر .

وقال رَبَاح بن عديّ :

أَلَمْ يَيْئَسِ الأَقوامُ أَنِّي (أنا) ابنه . . .

وإنْ كنتُ عن أرضِ الْعَشِيرةِ نائيَا

في كتاب الرّد "أني أنا ابنه" وكذا ذكره الغزنوي : ألم يعلم ؛ والمعنى على هذا : أفلم يعلم الذين

آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات .

وقيل : هو من اليأس المعروف ؛ أي أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، لعلمهم

أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم ؛ لأن المؤمنين تَمنَّوا نزول الآيات طمعاً في إيمان الكفار .

وقرأ عليّ وابن عباس : "أَفَلَمْ يَتَبَيَّنَ الَّذِينَ آمَنُوا" من البيان .

قال القُشَيْرِي : وقيل لابن عباس المكتوب "أَفَلَمْ يَيْئَسِ" قال : أظن الكاتب كتبها وهو

ناعس ؛ أي زاد بعض الحروف حتى صار "ييئس" .

قال أبو بكر الأنباريّ : روي عن عِكرمة عن ابن أبي نَجيح أنه قرأ "أفلم يتبين الذين آمنوا" وبها احتج من زعم أنه الصواب في التلاوة ؛ وهو باطل عن ابن عباس ، لأن مجاهداً وسعيد بن جُبَير حكيا الحرف عن ابن عباس ، على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جُبَير عن ابن عباس ؛ ثم إن معناه : أفلم يتبين ؛ فإن كان مراد الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها ، وتأتي بتأويلها ، وإن أراد الله المعنى الآخر الذي اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما أوردوا ؛ وأَمّا سقوطه يبطل القرآن ، ولزوم أصحابه البهتان .

﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ اللهُ ﴾ "أَنْ" مخففة من الثقيلة ، أي أنه لو يشاء الله ﴿ لَهَدَى الناس جَمِيعاً ﴾ وهو يردّ على القَدَرية وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ أي داهية تفجؤهم بكفرهم وعتوّهم ، ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجمع قَوارِع ؛ والأصل في القرع الضرب ؛ قال :

أَفْنَى تِلاَدِي وَمَا جَمَّعْتُ مِن نَشَبٍ . . .

قَرْعُ الْقَوَاقِيزِ أَفْوَاهَ الأَبَارِيقِ

أي لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أَرْبُدَ أو من قتل أو من

أسر أو جدب ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء ؛ كما نزل بالمستهزئين ، وهم رؤساء المشركين .

وقال عِكرِمة عن ابن عباس : القارعة النكبة .

وقال ابن عباس أيضاً وعكْرمة : القارعة الطلائع والسرايا التي كان يُنفِذها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم .

﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ أي القارعة .

﴿ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ ﴾ قاله قتادة والحسن .

وقال ابن عباس : أو تَحُلّ أنت قريباً من دارهم .

وقيل : نزلت الآية بالمدينة ؛ أي لا تزال تصيبهم القوارع فتنزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقُرى المدينة ومكة .

﴿ حتى يَأْتِيَ وَعْدُ الله ﴾ في فتح مكة ؛ قاله مجاهد وقتادة .

(20/413)

وقيل : نزلت بمكة ؛ أي تصيبهم القوارع ، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد ، فتحلّ قريباً من دارهم ، أو تحلّ بهم محاصراً لهم ؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، ولِقلاع خَيْبَر ، ويأتي

وعد الله بالإذن لك في قتالهم وقهرهم .

وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(21/413)

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ﴾ الآية

نزلت في نفر من مشركي قريش منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية ، جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا خلف النبي (صلى الله عليه وسلم) فأتاهم وقيل : إنه مر بهم وهم جلوس فدعاهم إلى الله فقال له عبد الله بن أبي أمية إن سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فادفعها عنا حتى تتفتح فإنها أرض ضيقة لمزارعنا واجعل لنا فيها أنهاراً وعيوناً لنغرس الأشجار ، ونزرع ونتخذ البساتين فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود ، حيث سخر له الجبال تسير معه أو سخر لنا الريح لنركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع في يومنا كما سخرت لسليمان كما زعمت فلست بأهون على ربك من سليمان أو أحي لنا جدك قصياً أو من شئت من موتانا لنسأله عن أمرك أحق أو باطل فإن عيسى كان يحيي الموتى ولست بأهون على الله من عيسى فأنزل الله هذه الآية ﴿ ولو أن قرآنا سيِّرت

به الجبال ﴾ فأذهبت عن وجه الأرض ﴿ أو قطِّعت به الأرض ﴾ يعني شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿ أو كلِّم به الموتى ﴾ فأحياها واختلفوا في جواب لو فقال قوم جواب لو محذوف ، وإنما حذف اكتفاء بمعرفة السامع مراده وتقديره ولو أن قرآناً فعل به كذا وكذا لكان هذا القرآن فهو كقول الشاعر :

فأقسم لو شيء أتانا رسوله . . .

سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

(22/413)

أراد : لو شيء أتانا رسوله سواك لرددناه ، وهذا معنى قول قتادة فإنه قال معناه لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقال آخرون : جواب لو تقدم تقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ، ولم يؤمنوا به لما سبق في علمنا فيهم كما قال : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا ﴾ ثم قال تعالى ﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ يعني في هذه الأشياء وفي غيرها إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ قال أكثر المفسرين : معناه أفلم يعلم ؟ قال الكلبي : هذه لغة النخع وقيل هي لغة هوازن

واختلف أهل اللغة في هذه اللفظة فقال الليث وأبو عبيد ألم ييأس ألم يعلم واستدلوا لهذه اللغة بقول الشاعر :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني . . .

ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

يعني ألم تعلموا .

واستدلوا عليه أيضاً بقول شاعر آخر :

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه . . .

وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

يعني ألم يعلم الأقوام .

قال قطرب : يئس بمعنى علم لغة للعرب .

قالوا : ووجه هذه اللغة أنه إنما وقع اليأس في مكان العلم لأن علمك بالشيء ويقينك به ييئسك من غيره .

وقيل : لم يرد أن اليأس في موضع كلام العرب للعلم وإنما قصد أن يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضي أن يحصل العلم بانتفائه فإذن معنى يأسهم يقتضي حصول العلم .

وقال الكسائي ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت قال وهذا الحرف في القرآن من اليأس المعروف لا من العلم وذلك أن المشركين لما طالبوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم

) بهذه الآيات اشرأَبَّ المسلمون لذلك وأرادوا أن يظهر لهم آية ليجتمعوا على الإيمان ، فقال الله تعالى : أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء ويعلموا علماً يقيناً ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ يعني من غير ظهور آية .

(23/413)

وقال الزجاج : القول عندي أن معناه أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء لأن الله لو يشاء لهدى الناس جميعاً .

وحاصله أن في معنى الآية قولين : أحدهما أن ييأس بمعنى علم .

والقول الثاني : أنه من اليأس المعروف وتقدير القولين ما تقدم وتمسك أهل السنة بقوله أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً على أن الله لم يشأ هداية جميع الخلائق ﴿ ولا يزال الذين كفروا كانوا تصيبهم بما صنعوا ﴾ يعني من الكفر والأعمال الخبيثة ﴿ قارعة ﴾ أي نازلة وداهية تقرعهم بأنواع البلايا أحياناً مرة بالجدب ، ومرة بالسلب ومرة بالقتل والأسر .

وقال ابن عباس : أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يبعثها إليهم ﴿ أو تحل ﴾ يعني السرايا أو البلية ﴿ قريباً من دارهم ﴾ وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ يعني النصر والفتح وظهور رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) ودينه وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لأن الله يجمعهم فيه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ والغرض منه تشجيع قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) وإزالة الحزن عنه لعلمه بأن الله لا يخلف الميعاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(24/413)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾

القارعة : الرزية التي تقرع قلب صاحبها أي : تضربه بشدة ، كالقتل ، والأسر والنهب ، وكشف الحريم .

وقال الشاعر :

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه . . .

ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

أي ضربنا بقوة .

وقال الزجاج القارعة في اللغة النازلة الشديدة تنزل بأمر عظيم .

﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد .

ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ :

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : إن الكفار قالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) : سير جبلي مكة فقد ضيقا علينا ، واجعل لنا أرضاً قطعاً غراساً ، وأحي لنا آباءنا وأجدادنا ، وفلاناً وفلاناً ، فنزلت معلمة أنهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كله .

ولما ذكر تعالى علة إرساله ، وهي تلاوة ما أوحاه إليه ، ذكر تعظيم هذا الموحى وأنه لو كان قرآناً تسير به الجبال عن مقارها ، أو تقطع به الأرض حتى تتزايل قطعاً قطعاً ، أو تكلم به الموتى فتسمع وتجيب ، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ، ونهاية في الإنذار والتخويف .

كما قال : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ الآية فجواب لو محذوف وهو ما قدرناه ، وحذف جواب لو لدلالة المعنى عليه جائز نحو قوله تعالى : ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ﴾ ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ وقال الشاعر :

وجدك لو شيء أتانا رسوله . . .

سواك ولكن لم نجد عنك مدفعا

وقيل : تقديره لما آمنوا به كقوله تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا ﴾ قال الزجاج.

(25/413)

وقال الفراء : هو متعلق بما قبله ، والمعنى : وهم يكفرون بالرحمن .

ولو أن قرآناً سيرت به الجبال وما بينهما اعتراض ، وعلى قول الفراء : يترتب جواب لو أن يكون لما آمنوا ، لأنّ قولهم وهم يكفرون بالرحمن ليس جواباً ، وإنما هو دليل على الجواب .

وقيل : معنى قطعت به الأرض شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً .

ويترتب على أن يكون الجواب المحذوف لما آمنوا قوله : بل لله الأمر جميعاً أي : الإيمان والكفر ، إنما يخلقهما الله تعالى ويريدهما .

وأما على تقدير لكان هذا القرآن ، فيحتاج إلى ضميمة وهو أن يقدر : لكان هذا القرآن الذي أوحينا إليك المطلوب فيه إيمانهم وما تضمنه من التكاليف ، ثم قال : بل لله الأمر جميعاً أي : الإيمان والكفر بيد الله يخلقهما فيمن يشاء .

وقال الزمخشري : بل لله الأمر جميعاً على معنيين : أحدهما : بل لله القدرة على كل شيء ، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها ، إلا أن علمه بأن إظهارها مفسدة .

والثاني : بل لله أن يلجئهم إلى الإيمان وهو قادر على الإلجاء .

لولا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار ، ويعضده قوله تعالى : أفلم ييئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله ، مشيئة الإلجاء والقسر لهدى الناس جميعاً انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال .

واليأس القنوط في الشيء ، وهو هنا في قول الأكثرين بمعنى العلم ، كأنه قيل : ألم يعلم الذين آمنوا .

قال القاسم بن معن هي : لغة هوازن ، وقال ابن الكلبي : هي لغة من النخع وأنشدوا على ذلك لسحيم بن وثيل الرياحي وقال ابن الكلبي :

أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني . . .

ألم تيأسوا إني ابن فارس زهدم

وقال رباح بن عدي :

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه . . .

وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

وقال آخر :

حتى اذا يئس الرماة وارسلوا . . .

غضفاً دواجن قافلاً أعصامها

أي إذا علموا أنّ ليس وجد إلا لذي وارا .

وأنكر الفراء أن يكون ييئس بمعنى علم ، وزعم أنه لم يسمع أحد من العرب يقول : يئست بمعنى علمت انتهى .

(26/413)

وقد حفظ ذلك غيره ، وهذا القاسم بن معن من ثقاة الكوفيين وأجلائهم نقل أنها لغة هوزان ، وابن الكلبي نقل أنها لغة لحي من النخع ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ .

وقيل : إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه ، لأنّ اليائس من الشيء عالم بأنه لا يكون ، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف ، والنسيان في معنى الترك .

وحمل جماعة هنا اليأس على المعروف فيه في اللغة وهو : القنوط من الشيء ، وتأولوا ذلك .

فقال الكسائي : المعنى أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان الكفار من قريش المعاندين لله ورسوله ؟ وذلك أنه لما سألوا هذه الآيات اشتاق المؤمنون إليها وأحبوا نزولها ليؤمن هؤلاء الذين علم الله تعالى منهم أنهم لا يؤمنون ، فقال الذين آمنوا من إيمانهم .

وقال الفراء : وقع للمؤمنين أن لو يشاء هدى الناس جميعاً فقال : أفلم ييأسوا ؟ علمنا بقول

آبائهم ، فالعلم مضمر كما تقول في الكلام : يئست منك أن لا تفلح كأنه قال : علمته علماً قال : فيئست بمعنى علمت وإن لم يكن قد سمع ، فإنه يتوجه إلى ذلك بالتأويل .

وقال أبو العباس : أفلم ييأسوا بعلمهم أن لا هداية إلا بالمشيئة ؟ وإيضاح هذا المعنى أن يكون : أن لو يشاء الله متعلقاً بآمنوا أي : أفلم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ، ولهداهم إلى الإيمان أو الجنة .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون اليأس في هذه الآية على بابه ، وذلك أنه لما أبعد إيمانهم في قوله : ولو أن قرآناً الآية على التأويل في المحذوف المقدر .

قال في هذه : أفلم ييأس المؤمنون انتهى .

وهذا قول الفراء الذي ذكرناه ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يتعلق أن لو يشاء الله بآمنوا على أو لم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً انتهى .

(27/413)

وهذا قول أبي العباس ، ويحتمل عندي وجه آخر غير ما ذكروه ، وهو أن الكلام تام عند قوله : أفلم ييأس الذين آمنوا ، إذ هو تقرير أي : قد يئس المؤمنون من إيمان هؤلاء المعاندين .

وأنْ لو يشاء جواب قسم محذوف أي : وأقسموا لو شاء الله لهدى الناس جميعاً ، ويدل على إضمار هذا القسم وجود أنْ مع لو كقول الشاعر :

أما والله أن لو كنت حراً . . .

وما بالحر أنت ولا القمين

وقول الآخر :

فاقسم أن لو التقينا وأنتم . . .

لكان لنا يوم من الشر مظلم

وقد ذكر سيبويه أنّ أن تأتي بعد القسم ، وجعلها ابن عصفور رابطة للقسم المقسم بالجملة عليها ، وأما على تأويل الجمهور فإن عندهم هي المخففة من الثقيلة أي : أنه لو يشاء الله . وقرأ علي وابن عباس قال الزمخشري وجماعة من الصحابة والتابعين ، وقال غيره ، وعكرمة ، وابن أبي مليكة ، والجحدري ، وعلي بن الحسين ، وابنه زيد ، وأبو زيد المزني ، وعلي بن نديمة ، وعبد الله بن يزيد : أفلم يتبين من بينت كذا إذا عرفته .

وتدل هذه القراءة على أنّ معنى أفلم ييأس هنا معنى العلم ، كما تظافرت النقول أنها لغة لبعض العرب .

وهذه القراءة ليست قراءة تفسير لقوله : أفلم ييأس ، كما يدل عليه ظاهر كلام الزمخشري ، بل هي قراءة مسندة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وليست مخالفة للسواد إذ كتبوا

ييئس بغير صورة الهمزة ، وهذا كقراءة : ﴿ فتبينوا ﴾ و﴿ فتثبتوا ﴾ وكلتاهما في السبعة .

وأما قول من قال : إنما كتبه الكاتب وهو ناعس ، فسوى أسنان السين فقول زنديق ملحد .

(28/413)

وقال الزمخشري : وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام ، وكان متقلباً في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله المهتمين عليه ، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع ، والقاعدة التي عليها البناء ، وهذه والله فرية ما فيها مرية انتهى .

وقال الفراء : لا يتلى إلا كما أنزل : أفلم ييأس انتهى .

والكفار عام في جميع الكفار ، وهذا الأمر مستمر فيهم إلى يوم القيامة قاله : الحسن ، وابن السائب ، أو هو ظاهر اللفظ .

وقال ابن عطية : كفار قريش ، والعرب لا تزال تصيبهم قوارع من سرايا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وغزواته .

وقال مقاتل والزمخشري : كفار مكة .

قال الزمخشري : تصيبهم بما صنعوا من كفرهم وسوء أعمالهم قارعة داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، أو تحل القارعة قريباً منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير إليهم شررها ، وتتعدى إليهم شرورها حتى يأتي وعد الله وهو موتهم ، أو القيامة انتهى .

وقال الحسن : حال الكفرة هكذا هو أبداً ، ووعد الله قيام الساعة .

والظاهر أنّ الضمير في تحل عائد على قارعة قاله الحسن .

وقالت فرقة : التاء للخطاب ، والضمير للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم بجيشك كما حلّ بالحديبية ، وعزاه الطبري إلى : ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وقاله عكرمة .

ويكون وعد الله فتح مكة ، وكان الله قد وعده ذلك ، وقاله ابن عباس ومجاهد .

وقرأ مجاهد ، وابن جبير : أو يحل بالياء على الغيبة ، واحتمل أن يكون عائداً على معنى القارعة راعى فيه التذكير لأنها بمعنى البلاء ، أو تكون الهاء في قارعة للمبالغة ، فذكر واحتمل أن يكون عائداً على الرسول (صلى الله عليه وسلم) أي : ويحل الرسول قريباً .

وقرأ أيضاً من ديارهم على الجمع .

وقال ابن عباس : القارعة العذاب من السماء .

وقال عكرمة : السرايا والطلائع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(30/413)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا ﴾

أي قرآناً ما وهو اسمُ أن والخبر قوله تعالى : ﴿ سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ وجوابُ لو محذوفٌ لانسياق الكلام إليه بحيث يتلقفه السامعُ من التالي والمقصودُ إما بيانُ عِظم شأنِ القرآنِ العظيم وفساد رأي الكفرة حيث لم يقدروا قدرَه العليَّ ولم يعدّوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره مما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام وإما بيانُ غلوهم في المكابرة والعِنادِ وتماديهم في الضلال والفساد فالمعنى على الأول لو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال أي بإنزاله أو بتلاوته عليها وزُعزعت عن مقارّها كما فُعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿ أَوْ قُطّعَتْ بِهِ الأرض ﴾ أي شُقّقت وجُعلت أنهاراً وعيوناً كما فُعل بالحجر حين ضربه عليه

السلام بعصاه أو جعلت قطعاً متصدّعة ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى ﴾ أي بعد أن أحييَ بقراءته عليها كما أُحييتْ لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآنَ لكونه الغايةَ القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل كقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ لا في الإعجاز إذ لا مدخل له في هذه الآثار ولا في التذكير والإنذار والتخويفِ لاختصاصها بالعقلاء مع أنه لا علاقةَ لها بتكليم الموتى ، واعتبارُ فيض العقول إليها مُخلٌّ بالمبالغة المقصودة ، وتقديمُ المجرور في المواضع الثلاثة على المرفوع لما مر غيرَ مرة من قصد الإبهام ثم التفسيرِ لزيادة التقرير ، لأن بتقديم ما حقُّه التأخيرُ تبقى النفسُ مستشرفةً ومترقّبةً إلى المؤخر أنه ماذا ؟ فيتمكّن عند ورودِه عليها فضلَ تمكن ، وكلمةُ أو في الموضعين لمنع الخلوّ لا لمنع الجمع ، واقتراحُهم وإن كان متعلقاً بمجرد ظهورِ مثل هذه الأفاعيلِ العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآنِ لكن ذلك حيث كان مبنياً على عدم اشتمالِه في زعمهم على الخوارق نيط ظهورُها به مبالغةً في بيان

(31/413)

اشتمالِه عليها وأنه حقيقٌ بأن يكون مصدراً لكل خارقٍ ، وإبانةً لركاكة رأيهم في شأنه الرفيعِ كأنه قيل : لو أن ظهورَ أمثالِ ما اقترحوه من مقتَضيات الحِكمة لكان مظهرُها هذا القرآنَ الذي لم يعدّوه آية ، وفيه من تفخيم شأنه العزيزِ ووصفِهم بركاكة العقلِ ما لا يخفى ﴿ بَل للَّهِ الأمر جَمِيعًا ﴾ أي له الأمرُ الذي عليه يدور فلكُ الأكوان وجوداً وعدماً يفعل ما يشاء ويحكمُ ما يريد لما يدعو إليه من الحِكَم البالغةِ ، وهو إضرابٌ عما تضمنته الشرطيةُ من معنى النفي لا بحسب منطوقِه بل باعتبار موجبِه ومؤدّاه أي لو أن قرآناً فُعل به ما ذكر لكان ذلك هذا القرآنَ ، ولكن لم يُفعل بل فُعل ما عليه الشأنُ الآن لأن الأمرَ كلَّه له وحده فالإضرابُ ليس بمتوجّهٍ إلى كون الأمرِ لله سبحانه بل إلى ما يؤدّي إليه ذلك من كون الشأنِ على ما كان لما تقتضيه الحِكمة من بناء التكليف على الاختبار .

(32/413)

﴿ أَفَلَمْ يَيأَس الَّذِينَ آمنواْ ﴾ أي أفلم يعلموا على لغة هوازنَ أو قومٍ من النَّخْع أو على استعمال اليأس في معنى العِلم لتضمّنه له ، ويؤيده قراءة علي وابن عباس وجماعةٍ من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أفلم يتبينْ بطريقي التفسير . والفاءُ للعطف على مقدر أي أغفَلوا عن كون الأمرِ جميعاً لله تعالى فلم يعلموا ﴿ أَن لَّوْ يَشَاء الله ﴾ على حذف

ضميرِ الشأنِ وتخفيفِ أن ﴿ لَهَدَى الناس جَمِيعًا ﴾ بإظهارِ أمثالِ تلك الآثارِ العظيمةِ فالإنكارُ متوجهٌ إلى المعطوفين جميعاً ، أو أعلموا كونَ الأمر جميعاً لله فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلمُ مما ذكر فهو متوجّهٌ إلى ترتب المعطوفِ على المعطوف عليه ، أي تخلف العلم الثاني عن العلم الأول وعلى التقديرين فالإنكارُ إنكارُ الوقوعِ كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ لا إنكارِ الواقع كما في قولك ألم تخفِ الله حتى عصيتَه ، ثم إن مناطَ الإنكار ليس عدمَ علمهم بمضمون الشرطية فقط بل مع عدم علمِهم بعدم تحققِ مقدَّمها ، كأنه قيل : ألم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتَهم لهداهم وأنه لم يشأْها وذلك لأنهم كانوا يؤيدون أن يظهر ما اقترحوا من الآيات ليجتمعوا على الإيمان ، وعلى الثاني لو أن قرآناً فُعل به ما فُصّل من التعاجيب لما آمنوا به كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى ﴾ الآية ، فالإضرابُ حينئذٍ متوجّهٌ إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شُرح أي فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعاً إن شاء الله أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعيةُ الحكمةِ من غير أن يكون لأحد عليه تحكّم أو اقتراحٌ واليأسُ بمعنى القنوط ، أي ألم يعلم الذين آمنوا حالَهم هذه فلم يقنَطوا من إيمانهم حتى أحبّوا ظهورَ مقترحاتِهم ؟ فالإنكارُ متوجهٌ إلى المعطوفين أو أعلِموا ذلك فلم يقنطوا من

إيمانهم ؟ فهو متوجهٌ إلى وقوع المعطوفِ بعد المعطوفِ عليه أي إلى تخلف القنوط عن العلم المذكور ، والإنكارُ على التقديرين إنكارُ الواقع كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ونظائره ، لا إنكارُ الوقوع فإن عدم قنوطِهم منه مما لا مردّ له ، وقوله تعالى : ﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ ﴾ الخ ، متعلّقٌ بمحذوف أي أفلم ييأسوا من إيمانهم علماً منهم أو عالمين بأنه لو يشاء الله لهدى الناسَ جميعاً وأنه لم يشأ ذلك أو لآمنوا أي أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ؟ على معنى أفلم ييأس من إيمانهم المؤمنون ؟ بمضمون الشرطية وبعدم تحققِ مقدّمها المنفهم من مكابرتهم حسبما تحكيه كلمةُ لو فالوصفُ المذكورُ من دواعي إنكارِ يأسِهم ، وقيل : إن أبا جهل وأضرابه قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبياً سيّر بقرآنك الجبالَ عن مكة حتى تتسعَ لنا ونتخذ فيها البساتين والقطائع ، وقد سُخّرت لداود عليه السلام فلست بأهونَ على الله منه إن كنت نبياً كما زعمت ، أو سخّر لنا به الريحَ كما سُخّرت لسليمان عليه السلام لنتّجر عليها إلى الشام فقد شق علينا قطعُ الشُقةِ البعيدة أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا فنزلت .

فمعنى تقطيعِ الأرض حينئذ قطعُها بالسير ولا حاجة حينئذ إلى الاعذار في إسناد الأفاعيلِ المذكورة إلى القرآن كما احتيج إليه في الوجهين الأولين ، وعن الفراء أنه متعلقٌ بما قبله من قوله : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ وما بينهما اعتراضٌ وهو بالحقيقة دالٌّ على

الجواب والتقدير ولو أن قرآناً سُيّرت به الجبالُ أو قطعت به الأرض أو كُلم به الموتى لكفروا بالرحمن ، والتذكير في كلم به الموتى لتغليب المذكر من الموتى على غيره .

(34/413)

﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ ﴾ من أهل مكةَ ﴿ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ ﴾ أي بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادي فيه ، وعدمُ بيانه إما للقصد إلى تهويله أو استهجانه وهو تصريحٌ بما أَشعر به بناءُ الحكم على الموصول من علّية الصلةِ له مع منافي صيغة الصنعِ من الإيذان برسوخهم في ذلك ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ داهيةٌ تقرعهم وتقلقهم وهو ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائبِ من القتل والأسر والنهب والسلبِ ، وتقديم المجرورِ على الفاعل لما مر مراراً من إرادة التفسير إثرَ الإبهام لزيادة التقرير والإحكامِ مع ما فيه من بيانِ أن مدارَ الإصابة من جهتهم آثرَ ذي أثير ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ تلك القارعةُ ﴿ قَرِيبًا ﴾ أي مكاناً قريباً ﴿ مّن دَارِهِمْ ﴾ فيفزَعون منها ويتطاير إليهم شَرارُها ، شبّهت القارعةُ بالعدو المتوجّه إليهم فأُسند إليها الإصابةُ تارة والحلولُ أخرى ففيه استعارةٌ بالكناية وتخييلٌ وترشيحٌ ﴿ حتى يَأْتِىَ وَعْدُ الله ﴾ أي موتُهم أو القيامةُ فإن كلاًّ منهما وعدٌ محتومٌ لا مرد له ، وفيه دِلالةٌ على أن ما يصيبهم عند ذلك من العذاب في غاية الشدةِ وأن ما ذكر سابقةُ نفحةٍ يسيرة

بالنسبة إليه ثم حُقق ذلك بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ أي الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادةِ والتوثقةِ لاستحالة ذلك على الله سبحانه . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أراد بالقارعة السرايا التي كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يبعثها وكانوا بين إغارةٍ واختطاف وتخويفٍ بالهجوم عليهم في ديارهم فالإصابة والحلولُ حينئذ من أحوالهم ويجوز على هذا أن يكون قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم مراداً به حلولُه الحديبيةَ ، والمرادُ بوعد الله ما وعد به من فتح مكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(35/413)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءانًا ﴾

أي قرآناً ما ، والمراد به المعنى اللغوي ، وهو اسم أن والخبر قوله تعالى شأنه : ﴿ سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف لانسياق الكلام إليه كما في قوله :

فأقسم لو شيء أتانا رسوله . . .

سواك ولكن لم نجد لك مدفعاً

والمقصود إما بيان عظم شأن القرآن العظيم وفساد رأي الكفرة حيث لم يقدروا قدره ولم يعدوه من قبيل الآيات واقترحوا غيره ؛ وإما بيان غلوهم في المكابرة والعناد وتماديهم في الضلالة والفساد ، والمعنى على الأول لو أن كتاباً سيرت بإنزاله أو بتلاوته الجبال وزعزعت عن مقارها كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه السلام ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض ﴾ أي شققت وجعلت أنهاراً وعيوناً كما فعل بالحجر حين ضربه موسى عليه السلام بعصاه أو جعلت قطعاً متصدعة ﴿ أَوْ كُلّمَ بِهِ الموتى ﴾ أي كلم أحد به الموتى بأن أحياهم بقراءته فتكلم معهم بعد ، بعد ، وذلك كما وقع الأحياء لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل كقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [الحشر : 21] قاله بعض المحققين ، وقيل : في التعليل لكونه الغاية في الإعجاز والنهاية في التذكير والإنذار .

(36/413)

وتعقب بأنه لا مدخل للإعجاز في هذه الآثار والتذكير والإنذار مختصان بالعقلاء مع أنه لا علاقة لذلك بتكليم الموتى واعتبار فيض العقول ليها مخل بالمبالغة القصودة ، وبحث فيه بأن

ما ذكر أولاً من مزيد الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى أمر يرجع إلى الهيبة وهي أيضاً مما لا يترتب عليها تكليم الموتى بل لعلها مانعة من ذلك لأنها حيث اقتضت تزعزع الجبال وتقطع الأرض فلأن تقتضي موت الأحياء دون إحياء الأموات الذي يكون التكليم بعده من باب أولى وفيه نظر ، والباء في المواضع الثلاثة للسببية وجوز في الثالث منها أن تكون صلة ما عندها وتقديم المجرور فيها على المرفوع لقصد الإبهام ، ثم التفسير لزيادة التقرير على ما مر غير مرة .

و﴿ أَوْ ﴾ في الموضعين لمنع الخلو لا الجمع ، والتذكير في ﴿ كلام ﴾ لتغليب المذكر من الموتى على غيره ، واقتراحهم وإن كان متعلقاً بمجرد ظهور مثل هذه الأفاعيل العجيبة على يده صلى الله عليه وسلم لا بظهورها بواسطة القرآن لكن ذلك حيث كان مبنياً على عدم اشتماله في زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به مبالغة في شأن اشتماله عليها وأنه حقيق بأن يكون مصدراً لكل خارق وإبانة لركاكة رأيهم في شأنه الرفيع كأنه قيل : لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرها هذا القرآن الذي لم يعدوه آية ، وفيه من تفخيم شأنه العزيز ووصفهم بركاكة العقل ما لا يخفى كذا حققه بعض الأجلة وهو من الحسن بمكان ، وعلى الثاني لو أن قرآناً فعلت به هذه الأفاعيل العجيبة لما آمنوا به كقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى ﴾ [الأنعام : 111] والكلام على ما

استظهره الشهاب على التقديرين حقيقة على سبيل الفرض كقوله :

ولو طار ذو حافر قبلها . . .

لطارت ولكنه لم يطر

(37/413)

وجعله على الأول تمثيلاً كالآية المذكورة هناك على ما قال لا وجه له ، وتمثيل الزمخشري بها لبيان أن القرآن يقتضي غاية الخشية ، وصنيع كثير من المحققين ظاهر في ترجيح التقدير الأول ، وفي "الكشف" لو تأملت في هذه السورة الكريمة حق التأمل وجدت بناء الكلام فيها على حقية الكتاب المجيد واشتماله على ما فيه صلاح الدارين وأن السعيد كل السعيد من تمسك بحبله والشقي كل الشقي من أعرض عنه إلى هواه حيث قال تعالى أولاً : ﴿ والذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾ [الرعد : 1] ثم تعجب من إنكارهم ذلك بقوله سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ ﴾ [الرعد : 7] ثم قال تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق ﴾ [الرعد : 14] فأثبت حقيته بالحجة ، ثم قال جلا وعلا : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً ﴾ [الرعد : 17] وهو مثل للحق الذي هو القرآن ومن انتفع به على ما فسره المحققون ، ثم صرح تعالى بنتيجة ذلك كله بالبرهان النير في قوله سبحانه : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ

أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ [الرعد : 19] ثم أعاد جل شأنه قوله :
﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الرعد : 27] دلالة على إنكارهم أول ما أتاهم وبعد رصانة علمهم بحقيته فهم متمادون في الإنكار ، ثم كر إلى بيان الحقية فيما نحن فيه وبالغ المبالغة التي ليس بعدها سواء جعل داخلاً في حيز القول أو جعل ابتداء كلام منه تعالى تذييلاً وهو الأبلغ ليكون مقصوداً بذاته في الإفادة المذكورة مؤكداً لمجموع ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ ﴾ [الرعد : 30] من تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام وما أنزل عليه وشدة إنكارهم وتصميمهم لا علاوة في أن لم يبق إلا التوكل والصبر على مجاهدتكم إذ لا وراء هذا القرآن حتى أجيء به لتسلموا ثم فخمه ونعى عليهم مكابرتهم بقوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه حُكْمًا عَرَبِيًا ﴾ [الرعد : 37

(38/413)

] وأيد حقية الكتاب فيمن أنزل عليه في خاتمة السورة بقوله جل وعلا : ﴿ كفى بالله ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ عِلْمُ الكتاب ﴾ [الرعد : 43] تنبيهاً على أنه مع ظهور أمره في إفادة الحقائق العرفانية والخلائق الإيمانية لا يعلم حقيقة ما فيه إلا من تفرد به وبإنزاله تبارك وتعالى اه .

وفي سبب النزول وستعلمه قريباً إن شاء الله تعالى ما يؤيد الثاني ، والظاهر على حقيقة وأشرنا إليه أولاً أن الآية على الأول متعلقة بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ ﴾

[الرعد : 27] وهي على الثاني متعلقة بقوله سبحانه ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ [الرعد : 30] بياناً لتصميمهم في كفرهم وإنكارهم الآيات ومن أتى بها لا بذلك لبعد المرمى من غير ضرورة ، وقوله تعالى : ﴿ بَل للَّهِ الأمر جَمِيعًا ﴾ أي له الأمر الذي يدور عليه فلك الأكوان وجوداً وعدماً يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد حسبما تقتضيه الحكم البالغة ، قيل : إضراب عما تقتضيه الشرطية من معنى النفي لا بحسب منطوقه بل باعتبار موجبه ومؤداه أي لو أن قرآناً فعل به ما ذكر لكان ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل سبحانه بل فعل ما عليه الشأن الآن لأن الأمر كله له وحده ، فالإضراب ليس بمتوجه إلى كون الأمر لله تعالى بل إلى ما يؤدى إليه ذلك من كون الشأن على ما كان لما تقتضيه الحكمة ، وقيل : إن حاصل ازضراب لا يكون تسيير الجبال مع ما ذكر بقرآن بل يكون بغيره مما أراده الله تعالى فإن الأمر له سبحانه جميعاً ، وزعم بعضهم أن الأحسن العطف على مقدر أي ليس لك من الأمر شيء بل الأمر لله جميعاً ، ومعنى قوله سبحانه : ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الذين ءامَنُواْ ﴾ أفلم يعلموا وهي كما قال القاسم بنمعن لغة هوازن ، وقال : ابن الكلبي : هي لغة حي من النخع ، وأنشدوا على ذلك قوله سحيم بن وثيل الرباحي :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني . . .

ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

وقول رباح بن عدي :

(39/413)

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه . . .

وإن كنت عن رض العشيرة نائياً

فإنكار الفراء ذلك وزعمه أنه لم يسمع أحد من العرب يقول يئست بمعنى علمت ليس في محله ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، والظاهر أن استعمال اليأس في ذلك حقيقة ، وقيل : مجاز لأنه متضمن للعلم فإن الآيس عن الشيء عالم بأنه لا يكون ، واعترض بأن اليأس حينئذ يقتضي حصول العلم بالعدم وهو مستعمل في العلم بالوجود ، وأجيب بأنه لما تضمن العلم بالعدم تضمن مطلق العلم فاستعمل فيه ، ويشهد لإرادة العلم هنا قراءة علي كرم الله تعالى وجهه ، وابن عباس .

وعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم .

وعكرمة .

وابن أبي مليكة.

والجحدري.

وأبي يزيد المدني.

(40/413)

وجماعة ﴿ أَفَلَمْ يَتَبَيَّنَ ﴾ من تبينت كذا إذا علمته وهي قراءة مسندة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست مخالفة للسواد إذ كتبوا ييئس بغير صورة الهمزة وأما قول من قال: إنما كتبه الكاتب وهو ناعس فسوى اسنان السين فهو قول زنديق ابن ملحد على ما في "البحر"، وعليه فرواية ذلك كما في "الدر المنثور" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما غير صحيحة، وزعم بعضهم أنها قراءة تفسير وليس بذاك، والفاء للعطف على مقدر أي أغفلوا عن كون الأمر جميعه لله تعالى فلم يعلموا ﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ بتخفيف أن وجعل اسمها ضمير الشأن والجملة الامتناعية خبرها وأن وما بعدها ساد مسد مفعولي العلم ﴿ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أي بإظهار أمثال تلك الآثار العظيمة، والإنكار على هذا متوجه إلى المعطوفين جميعاً أو أعلموا كون الأمر جميعاً لله تعالى فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلم مما ذكر، وحينئذ هو متوجه إلى ترتب المعطوف على المعطوف عليه أي تخلف العلم

الثاني عن العلم الأول ، وأياً كان فالإنكار إنكار الوقوع لا الواقع ومناط الإنكار ليس عدم علمهم بمضمون الشرطية فقط بل عدم علمهم بعدم تحقق مقدمها كأنه قيل : ألم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم وأنه سبحان لم يشأ ذلك ، وذلك لما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الكفار لما سألوا الآيات ود المؤمنون أن يظهرها الله تعالى ليجتمعوا على الايمان هذا على التقدير الأول ، وأما على التقدير الثاني فالإضراب متوجه إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شرح ، والمعنى فليس لهم ذلك بل لله تعالى الأمر إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء سبحانه لم يأت به حسبما تستدعيه حكمته الباهرة من غير أن يكون لأحد عليه جل جلاله حكم أو اقتراح ، واليأس بمعنى القنوط كما هو الشائع في معناه أي ألم يعلم الذين آمنوا حالهم هذه فلم يقنطوا من إيمانهم حتى ودوا ظهور مقترحاتهم فالإنكار متوجه إلى

(41/413)

المعطوفين أو أعلموا ذلك فلم يقنطوا من إيمانهم فهو متوجه إلى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه أي إلى تخلف القنوط عن العلم المذكور ، والإنكار على هذين التقديرين إنكار الوقاع لا الوقوع فإن عدم قنوطهم من ذلك مما لا مرد له ، وقوله تعالى : ﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ إلى

آخره مفعول به لعلماً محذوف وقع مفعولاً له أي أفلم ييأسوا من إيمان الكفار علماً منهم بأنه لو يشاء الله لهدي الناس جميعاً وأنه لم يشأ ذلك ، وقد يجعل العلم في موضع الحال أي عالمين بذلك ، ولم يعتبر التضمين لبعده ، ويجوز أن يكون متعلقاً بآمنوا بتقدير الباء أي أفلم يقنط الذين آمنوا وصدقوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً على معنى أفلم ييأس من إيمان هؤلاء الكفرة المؤمنون بمضمون هذه الشرطية وبعدم تحققها المنفهم من مكابرتهم حسبما يحكيه كلمة ﴿ لَوْ ﴾ فالوصف المذكور من دواعي إنكار يأسهم ، وبما أشرنا إليه ينحل ما قيل : من أن تعلق الإيمان بمضمون الشرطية وتخصيصه بالذكر يقتضي أن لذلك دخلا في اليأس من الايمان مع أن الأمر بالعكس لأن قدرة الله تعالى على هداية جميع الناس يقتضي رجاء إيمانهم لا اليأس منه وذلك لاعتبار العلم بعدم تحقق المضمون أيضاً .

وقال بعضهم في الجواب عن ذلك : إن وجه تخصيص الإيمان بذلك أن إيمان هؤلاء الكفرة المصممين كأنه محال متعلق بما لا يكون لتوقفه على مشيئة الله تعالى هداية جميع الناس وذلك ما لا يكون بالاتفاق وهو في معنى ما أشير إليه ، وذكر أبو حيان احتمالاً آخر في الآية وهو أن الكلام قد تم عند قوله سبحانه : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ وهو تقرير أي قد يئس المؤمنون من إيمان هؤلاء المعاندين و ﴿ أَن لَّوْ يَشَاء ﴾ الخ جواب قسم محذوف أي أقسم لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ، ويدل على إضمار القسم وجود أن مع لو كقوله :

وقوله :

أما والله أن لو كنت حرا . . .

وما بالحر أنت ولا العتيق

فأقسم أن لو التقينا وأنتم . . .

(42/413)

لكان لنا يوم من الشر مظلم

وقد ذكر سيبويه أن أن تأتي بعد القسم ، وجعلها ابن عصفور رابطة للقسم بالجملة المقسم عليها انتهى ، وفيه من التكلف ما لا يخفى ، ومن الناس من جعل الإضراب مطلقاً عما تضمنه ﴿ لَوْ ﴾ من معنى النفي على معنى بل الله تعالى قادر على الإتيان بما اقترحوا إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك لعلمه سبحانه بأنه لا تلين له شكيمتهم ، ولا يخفى أنه ظاهر على التقدير الثاني .

وأما على التقدير الأول فقد قيل : إن إرادة تعظيم شأن القرآن لا تنافي الرد على المقترحين ، وأيد جانب الرد بما أخرجه ابن أبي شيبة .

وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت نبياً كما تزعم فباعد جبلي مكة أخشبيها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة فإنها

ضيقة حتى نزرع فيها ونرعى وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي أو احملنا إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى الحيرة حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت أنك فعلته فنزلت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير .

وأبو الشيخ عن ابن عباس أنهم قالوا : سير بالقرآن الجبال ، قطع بالقرآن الأرض ، أخرج به موتانا فنزلت ، وعلى هذا لا حاجة إلى الاعتذار في إسناد الأفاعيل المذكورة إلى القرآن كما احتيج إليه فيما تقدم ، وعلى خبر الشعبي يراد من تقطيع الأرض قطعها بالسير ، ويشهد للتفسير بما قدمنا أولاً ما أخرجه أبو نعيم في الدلائل .

(43/413)

وغيره من حديث الزبير بن العوام أنه لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ [الشعراء : 214] صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي قبيس يا آل عبد مناف أني نذير فجاءته عليه الصلاة والسلام قريش فحذرهم وأنذرهم فقالوا ، تزعم أنك نبي يوحي إليك وإن سليمان سخر له الريح والجبال وإن موسى سخر له البحر وإن عيسى كان يحيى الموتى فادع الله تعالى أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً فنتخذ محارث فنزرع

ونأكل وإلا فادع الله تعالى أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا وإلا فادع الله تعالى أن يجعل هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف فإنك تزعم أنك كهيئتهم .

الخبر ، وفيه فنزلت : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالايات إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا الاولون ﴾ [الإسراء : 59] إلى تمام ثلاث آيات ، ونزلت ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا ﴾ الآية هذا .

وعن الفراء أن جواب ﴿ لَوْ ﴾ مقدم وهو قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ [الرعد : 30] وما بينهما اعتراض وهو مبني كما قيل على جواز تقديم جواب الشرط عليه ، ومن النحويين من يراه ، ولا يخفى أن في اللفظ نبوة عن ذلك لكون تلك الجملة اسمية مقترنة بالواو ، ولذا أشار السمين إلى أن مراده أن تلك الجملة دليل الجواب والتقدير ولو أن قرآناً فعل به كذا وكذا لكفروا بالحرمن ، وأنت تعلم أنه لا فرق بين هذا وتقدير لما آمنوا في المعنى ، وجوز جعل ﴿ لَوْ ﴾ وصلية ولا جواب لها والجملة حالية أو معطوفة على مقدر .

﴿ وَلَا يَزَالُ الذين كَفَرُواْ ﴾ من أهل مكة على ما روى عن مقاتل ﴿ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ ﴾ أي بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادي فيه ، وإبهامه إما لقصد تهويله أو استهجانه ، وهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له مع ما في صيغة الصنع من الإيذان برسوخهم في ذلك ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ من القرع وأصله ضرب شيء بشيء بقوة ، ومنه قوله :

ولما قرعنا النبع بالنبع بعضه . . .

ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

(45/413)

والمراد بها الرزية التي تقرع قلب صاحبها ، وهي هنا ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر والنهب والسلب ، وتقديم المجرور على الفاعل لما مر غير مرة من إرادة التفسير إثر الإبهام لزيادة التقرير والأحكام مع ما فيه من بيان أن مدار الإصابة من جهتهم أثر ذي أثير ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ تلك القارعة ﴿ قَرِيبًا ﴾ مكاناً قريباً ﴿ مّن دَارِهِمْ ﴾ فيفزعون منها ويتطاير إليهم شررها ، شبه القارعة بالعدو المتوجه إليهم فأسند إليها الإصابة تارة والحلو أخرى ففيه استعارة بالكناية وتخييل وترشيح ﴿ حتى يَأْتِىَ وَعْدُ الله

﴿ أي موتهم أو القيامة فإن كلاً منهما وعد محتوم لا مرد له ، وفيه دلالة على أن ما يصيبهم حينئذ من العذاب أشد ، ثم حقق ذلك بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أي الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة ، ولعل المراد به ما يندرج تحته الوعد الذي نسب إليه الإتيان لا هو فقط ، قال القاضي : وهذه الآية تدل على بطلان من يجوز الخلف على الله تعالى في ميعاده وهي وإن كانت واردة في حق الكفار إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وعمومه يتناول كل وعيد ورد في حق الفساق ، وأجاب الإمام بأن الخلف غير وتخصيص العمول غير ، ونحن لا نقول بالخلف ولكنا نخصص عمومات الوعيد بالآيات الدالة على العفو ، وأنت تعلم أن المشهور في الجواب أن آيات الوعد مطلقة وآيات الوعيد وإن وردت مطلقة لكنها مقيدة حذف قيدها لمزيد التخويف ومنشأ الأمرين عظم الرحمة وغاية الكرم ، والفرق بين الوعد والوعيد أظهر من أن يذكر .

نعم قد يطلق الوعد على ما هو وعيد في نفس الأمر لنكتة وليتأمل فيما هنا على الوجه الذي تقرر .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها كانوا بين غارة واختطاف وتخويف بالهجوم عليهم في دارهم .

فالإصابة والحلول حينئذ من أحوالهم ، وجوز على هذا أن يكون قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مراداً به حلول الحديبية ، والمراد بوعد الله تعالى ما وعد به من فتح مكة .

وعزا ذلك الطبري إلى ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة .

وروى عن مقاتل .

وعكرمة .

وذهب ابن عطية إلى أن المراد بالذين كفروا كفار قريش .

والعرب ، وفسر القارعة بما ينزل بهم من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن الحسن .

وابن السائب أن المراد بهم الكفار مطلقاً قالا : وذلك الأمر مستمر فيهم إلى يوم القيامة ، ولا يتأتى على هذا أن يراد بالقارعة سرايا رسول الله عليه الصلاة والسلام فيراد بها حينئذ ما ذكر أولاً ، وأنت تعلم أنه إذا أريد جنس الكفرة لا يلزم منه حلول ما تقدم بجميعهم .

وقرأ مجاهد .

وابن جبري ﴿ أَوْيَحِلَّ ﴾ بالياء على الغيبة ، وخرج ذلك على أن يكون الضمير عائداً على القارعة باعتبارهم أنها بمعنى البلاء أو يجعل هائها للمبالغة أو على أن يكون عائداً على الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقرءا أيضاً ﴿ مِن ديارهم ﴾ على الجمع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(47/413)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً ﴾

أي : قرآناً مّا : ﴿ سُيِّرَتْ بِهِ ﴾ أي : بإنزاله أو بتلاوته : ﴿ الْجِبَالُ ﴾ أي : أذهبت عن مقارّها ، وزعزعت عن أماكنها : ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ ﴾ أي : شققت حتى تتصدع وتصير قطعاً : ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ أي : خوطبت بعد أن أحييت بتلاوته عليها ، والجواب محذوف ، أي : لكان هذا القرآن ؛ لكونه غاية في الهداية والتذكير ، ونهاية في الإنذار والتخويف . وعلى هذا التقدير فالقصد بيان عظم شأن القرآن وفساد رأي الكفرة ، حيث لم يقدروا قدره العليّ ولم يعدوه من قبيل الآيات ، فاقترحوا غيره مما أوتي

موسى وعيسى عليهما السلام . وقدر الزجاج الجواب : (لما آمنوا به) كقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى ﴾ [الأنعام : من الآية 111] الآية ، وعليه فالقصد بيان غلوهم في المكابرة والعناد وتماديهم في الضلال والفساد .

ونقل عن الفراء ؛ أن الجواب مقدم عليه وهو قوله : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ وما بينهما اعتراض ، وفيه بُعْدٌ وتكلف . وأشار بعضهم إلى أن مراده أنها دليل الجواب ، والتذكير في (كلم) لتغليب المذكر من الموتى على غيره .

(48/413)

وقوله تعالى : ﴿ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ أي : له الأمر الذي عليه يدور فلك الأكوان وجوداً وعدماً ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة ، وهو إضراب عما تضمنته : ﴿ لَوْ ﴾ من معنى النفي ، أي : لو أن قرآناً فعل به ما ذكر لكان هذا القرآن ، ولكن لم يفعل ، بل فعل ما عليه الشأن الآن ؛ لأن الأمر كله له وحده ، وعلى تقدير الزجاج السالف ، فالإضراب متوجه إلى ما سلف اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شرح . أي : فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعاً ، إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه الحكمة ، من غير أن يكون عليه تحكم أو اقتراح . كذا في أبي السعود .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ أي : أفلم يعلم ويتبين كقوله :

~ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

وقوله :

~أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

أي : لم تعلموا ! وييسرونني من إيسار الجزور ، أي : يقسمونني ، ويروى : يأسرونني من (الأسر) . أي : أفلم يعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم ؛ لأن الأمر له . ولكن قضت الحكمة أن يكون بناء التكليف على الاختيار .

(49/413)

﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي : من أهل مكة : ﴿ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ أي : بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادي فيه ، وعدم بيانه لتهويله أو استهجانه . والقارعة : الداهية التي تقرع وتقلق ، يعني : ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر والنهب والسلب : ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ أي : تلك القارعة : ﴿ قَرِيباً ﴾ أي : مكاناً قريباً : ﴿ مِّن دَارِهِمْ ﴾ فيفزعون منها ويتطاير إليهم شررها : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ أي : فتح

مكة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أي : لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ [إبراهيم : من الآية 47] ، وفي الآية وجه آخر ، وهو حمل : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ على جميع الكفار ، أي : لا يزالون ، بسبب تكذيبهم ، تصيبهم القوارع في الدنيا ، أو تصيب من حولهم ليعتبروا ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف : 27] ، وقوله : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الأنبياء : من الآية 44] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 289 . 290 ﴾

(50/413)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى بَل للَّهِ الأمر جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيئَسِ الذين ءامنوا أَن لَّوْ يَشَآءُ الله لَهَدَى الناس جَمِيعًا ﴾ .

يجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿ كذلك أرسلناك في أمة ﴾ لأن المقصود من الجملة

المعطوف عليها أن رسالته لم تكن إلا مثل رسالة غيره من الرسل عليهم السّلام كما أشار إليه صفة ﴿ أمة قد خلت من قبلها أمم ﴾ ، فتكون جملة ﴿ ولو أن قرآناً ﴾ تتمة للجواب عن قولهم : ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ .

ويجوز أن تكون معترضة بين جملة ﴿ قل هو ربي ﴾ وبين جملة ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس ﴾ [سورة الرعد : 33] كما سيأتي هنالك .

ويجوز أن تكون محكية بالقول عطفاً على جملة هو ربي لا إله إلا هو ﴾ .

والمعنى : لو أن كتاباً من الكتب السالفة اشتمل على أكثر من الهداية فكانت مصادر لإيجاد العجائب لكان هذا القرآن كذلك ولكن لم يكن قرآنٌ كذلك ، فهذا القرآن لا يتطلب منه الاشتمال على ذلك إذ ليس ذلك من سُنن الكتب الإلهية .

وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف لدلالة المقام عليه .

وحذفُ جواب ﴿ لو ﴾ كثير في القرآن كقوله : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ [سورة الأنعام : 27] وقوله : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم ﴾ [سورة السجدة : 12] .

ويفيد ذلك معنى تعريضياً بالنداء عليهم بنهاية ضلالتهم ، إذ لم يهتّدوا بهدي القرآن ودلائله والحال لو أن قرآناً أَمَر الجبال أن تسير والأرض أن تتقطع والموتى أن تتكلم لكان هذا القرآن بالغاً ذلك ولكن ذلك ليس من شأن الكتب ، فيكون على حدّ قول أُبَيّ بن سُلْمَى من

الحماسة :

ولو طَارَ ذو حافر قَبلها

لطارتْ ولكنه لم يَطِر . . .

(51/413)

ووجه تخصيص هذه الأشياء الثلاثة من بين الخوارق المفروضة ما رواه الواحدي والطبري عن ابن عباس : أن كفار قريش ، أبا جهل وابن أبي أميّة وغيرهما جلسوا خلف الكعبة ثم أرسلوا إلى النبي فقالوا : لو وسّعْت لنا جبال مكّة فسيرتها حتى تتسع أرضنا فنحتَرثها فإنها ضيقة ، أو قرّب إلينا الشام فإنا نتجر إليها ، أو أخرج قصَيًا نكلمه .

وقد يؤيد هذه الرواية أنه تَكرر فرض تكليم الموتى بقوله في سورة الأنعام ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى ﴾ [سورة الأنعام : 111] ، فكان في ذكر هذه الأشياء إشارةٌ إلى تهكمهم .

وعلى هذا يكون قطعت به الأرض ﴿ قطعت مسافات الأسفار كقوله تعالى : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [سورة الأنعام : 94] .

وجملة بل لله الأمر جميعاً ﴾ عطف على ﴿ ولو أن قرآناً ﴾ بحرف الإضراب ، أي ليس

ذلك من شأن الكتب بل لله أمر كل محدَث فهو الذي أنزل الكتاب وهو الذي يخلق العجائب إن شاء ، وليس ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا عند سؤالكم ، فأمر الله نبيئه بأن يقول هذا الكلام إجراء لكلامهم على خلاف مرادهم على طريقة الأسلوب الحكيم ، لأنهم ما أرادوا بما قالوه إلا التهكم ، فحمل كلامهم على خلاف مرادهم تنبيهاً على أن الأولى بهم أن ينظروا هل كان في الكتب السابقة قُرآن يتأتى به مثل ما سألوه .

ومثل ذلك قول الحجاج للقبعثري : لأحملنّك على الأدهم (يريد القيد) .

فأجابه القبعثري بأن قال : مثلُ الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، فصرفه إلى لون فرس .

والأمر هنا : التصرف التكويني ، أي ليس القرآن ولا غيره بمكوّن شيئاً مما سألتم بل الله الذي يكوّن الأشياء .

وقد أفادت الجملتان المعطوفة والمعطوف عليها معنى القصر لأن العطف بـ ﴿ بل ﴾ من طرق القصر ، فاللام في قوله : ﴿ الأمر ﴾ للاستغراق ، و ﴿ جميعاً ﴾ تأكيد له .

وتقديم المجرور على المبتدأ لمجرد الاهتمام لأن القصر أفيد بـ ﴿ بل ﴾ العاطفة .

(52/413)

وفرع على الجملتين ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ استفهاماً إنكارياً إنكاراً لانتفاء يَأسي الذين آمنوا ، أي فهم حقيقون بزوال يأسهم وأن يعلموا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً .

وفي هذا الكلام زيادة تقرير لمضمون جملة ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ [سورة الرعد : 27] .

وييأس ﴾ بمعنى يوقن ويعلم ، ولا يستعمل هذا الفعل إلا مع ﴿ أن ﴾ المصدرية ، وأصله مشتق من اليَأس الّذي هو تيقّن عدم حصول المطلوب بعد البحث ، فاستعمل في مطلق اليقين على طريقة المجاز المرسل بعلاقة اللزوم لتضمن معنى اليأس معنى العلم وشاع ذلك حتى صار حقيقة ، ومنه قول سُحَيم بن وَثيل الرياحي :

أقول لهم بالشّعْب إذ يَيْسَرُونَنِي

ألم تأيسوا أني ابنُ فارس زهدم . . .

وشواهد أخرى .

وقد قيل : إن استعمال يَئس بمعنى عَلِم لغة هَوازن أو لغة بِني وَهْبيل (فخذ من النخَع سمي باسم جَد) .

وليس هنالك ما يلجىء إلى هذا .

هذا إذا جعل ﴿ أن لو يشاء الله ﴾ مفعولاً ل ﴿ ييأس ﴾ .

ويجوز أن يكون متعلق ﴿ ييأسْ ﴾ محذوفاً دل عليه المقام.

تقديره: مِن إيمان هؤلاء، ويكونَ ﴿ أن لو يشاء الله ﴾ مجرورا بلام تعليل محذوفة.

والتقدير: لأنه لو يشاء الله لهدى الناس، فيكون تعليلاً لإنكار عدَمِ يأسهم على تقدير حصوله.

﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حتى يَأْتِىَ وَعْدُ الله إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾.

معطوفة على جملة ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ على بعض الوجوه في تلك الجملة.

وهي تهديد بالوعيد على تعنتهم وإصرارهم على عدم الاعتراف بمعجزة القرآن، وتهكمهم باستعجال العذاب الذي توعدوا به، فهددوا بما سيحلّ بهم من الخوف بحلول الكتائب والسرايا بهم تنال الذين حلّت فيهم وتخيف من حولهم حتى يأتي وعد الله بيوم بدر أو فتح مكّة.

(53/413)

واستعمال ﴿ لا يزال ﴾ في أصلها تدل على الإخبار باستمرار شيء واقع، فإذا كانت هذه الآية مكية تعين أن تكون نزلت عند وقوع بعض الحوادث المؤلمة بقريش من جوع أو

مرض ، فتكون هذه الآية تنبيهاً لهم بأن ذلك عقاب من الله تعالى ووعيد بأن ذلك دائم فيهم حتى يأتي وعد الله .

ولعلها نزلت في مدة إصابتهم بالسنين السبع المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ [سورة البقرة : 155] .

ومن جعلوا هذه السورة مدنية فتأويل الآية عندهم أن القارعة السرية من سرايا المسلمين التي تخرج لتهديد قريش ومن حولهم .

وهو لا ملجىء إليه .

والقارعة : في الأصل وصف من القرع ، وهو ضرب جسم بجسم آخر .

يقال : قرع الباب إذا ضربه بيده بحلقة .

ولما كان القرع يحدث صوتاً مباغتاً يكون مزعجاً لأجل تلك البغتة صار القرع مجازاً للمباغتة والمفاجأة ، ومثله الطّرْق .

وصاغوا من هذا الوصف صيغة تأنيث إشارة إلى موصوف مُلتزم الحذف اختصاراً لكثرة الاستعمال ، وهو ما يؤوّل بالحادثة أو الكائنة أو النازلة ، كما قالوا : داهية وكارثة ، أي نازلة موصوفة بالإزعاج فإن بغت المصائب أشد وقعاً على النفس .

ومنه تسمية ساعة البعث بالقارعة .

والمراد هنا الحادثة المفجعة بقرينة إسناد الإصابة إليها .

وهي مِثل الغارة والكارثة تحلّ فيهم فيصيبهم عذابها ، أو تقع بالقرب منهم فيصيبهم الخوف من تجاوزها إليهم ، فليس المراد بالقارعة الغزو والقتال لأنه لم يتعارف إطلاق اسم القارعة على موقعة القتال ، ولذلك لم يكن في الآية ما يدل على أنها مما نزل بالمدينة .

ومعنى بما صنعوا ﴾ بسبب فعلهم وهو كفرهم وسوء معاملتهم نبيئَهم .

وأتي في ذلك بالموصول لأنه أشمل لأعمالهم .

(54/413)

وضمير ﴿ تحل ﴾ عائد إلى ﴿ قارعة ﴾ فيكون ترديداً لحالهم بين إصابة القوارع إياهم وبين حلول القوارع قريباً من أرضهم فهم في رعب منها وفزع ويجوز أن يكون ﴿ تحل ﴾ خطاباً للنبيء صلى الله عليه وسلم أي أو تحل أنتَ مع الجيش قريباً من دارهم .

والحلول : النزول .

وتُحلّ : بضم الحاء مضارع حَلّ اللازم .

وقد التزم فيه الضم .

وهذا الفعل مما استدركه بحرق اليمني على ابن مالك في شرح لامية الأفعال ، وهو وجيه .

و﴿ وعد الله ﴾ من إطلاق المصدر على المفعول ، أي موعود الله ، وهو ما توعدهم به

من العذاب ، كما في قوله : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ [سورة آل عمران : 12] ، فأشارت الآية إلى استئصالهم لأنها ذكرت الغلب ودخول جهنم ، فكان المعنى أنه غلبُ القتل بسيوف المسلمين وهو البطشة الكبرى .

ومن ذلك يوم بدر ويوم حنين ويوم الفتح .

وإتيان الوعد : مجاز في وقوعه وحلوله .

وجملة إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ تذييل لجملة ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ إيذاناً بأن إتيان الوعد المغيا به محقق وأن الغاية به غاية بأمر قريب الوقوع .

والتأكيد مراعاة لإنكار المشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(55/413)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبال أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى ﴾ الآية .

جواب لو في هذه الآية محذوف قال بعض العلماء تقديره لكان هذا القرآن وقال بعضهم تقديره لكفرتم بالرحمن ويدل لهذا الأخير قوله قبله . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ [الرعد

: 30] وقد قومنا شواهد حذف جواب لو في سورة البقرة وقد قدمنا في سورة يوسف أن الغالب في اللغة العربية أن يكون الجواب المحذوف من جنس المذكور قبل الشرط ليكون ما قبل الشرط دليلاً على الجواب المحذوف . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(56/413)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾

و(لو) حَرْف شَرْط يلزم لها جوابُ شَرْطٍ ، وقد ترك الحق سبحانه جواب الشَّرْط هنا اعتماداً على يقظة المُسْتمع . وإنْ كان مثل هذا القول ناقصاً حين ننطق نحن به ، فهو ليس كذلك حين يأتي من قَوْل الله سبحانه ؛ فهو كامل فيمن تكلَّم ، وقد تركها ليقظة المُسْتمع للقرآن الذي يتدبر المعاني ، ويتذكَّر مع هذه الآية قوله الحق : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كفروا إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : 7]

وكذلك قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : 111]

إذن : من كل نظائر تلك الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نأخذ جواب الشرط المناسب

لها من تلك الآيات ؛ فيكون المعنى : لو أن قُرْآناً سُيِّرتْ به الجبال ، أو قُطِّعَتْ به الأرض ، أو كُلِّمَ به المُوْتى لَمَا آمنوا .

(57/413)

ويُرْوى أن بعضاً من مُشْرِكي قريش مثل : أبي جهل وعبد الله ابن أبي أمية جَلَسَا خلف الكعبة وأرسلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقال له عبد الله : إن سَرَّكَ أن نتبعك فَسَيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عَنَّا حتى تنفسح ، فإنها أرض ضَيِّقة ، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً ، حتى نغرس ونزرع ، فلستَ كما زعمْتَ بأهْونَ على ربِّك من داود حين سخَّر له الجبال تسير معه ، وسَخِّر لنا الرِّيح فنركبها إلى الشام نقضي عليها مَيْرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنا ، فقد سخِّرَتْ الريحُ لسليمانَ بن داود ، ولسْتَ بأهونَ على ربِّك من سليمان ، وأحْيي لنا قَصَبَ جَدِّك ، أو مَنْ شئتَ أنت من موتانا نسأله ، أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يُحيي المُوْتَى ، ولستَ بأهونَ على الله منه ، فأنزل الحق سبحانه هذه الآية وما قبلها للرد عليهم .

وكانت تلك كلها مسائل يتلكَّكُونَ بها ليبتعدوا عن الإيمان ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء بمعجزة من جِنْس ما نَبغُوا فيه ؛ وجاء القرآن يَحْمِل منهج السماء إلى أنْ تقومَ

الساعة .

وقد طلبوا أنْ تبتعد جبال مكة ليكونَ الوادي فسيحاً ؛ ليزرعوا ويحصدوا ؛ وطلبوا تقطيع الأرض ، أي : فَصْل بقعة عن بقعة ؛ وكان هذا يحدث بحَفْر جداول من المياه ، وقد قال الكافرون : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً ﴾ [الإسراء : 90]

والمراد من تقطيع الأرض حسب مطلوبهم أن تقصُرَ المسافة بين مكان وآخر ، بحيث يستطيع السائر أنْ يستريح كل فَتْرة ؛ فالمسافر يترك في كل خطوة من خطواته أرضاً ؛ ويصل إلى أرض أخرى ، وكُلٌّ يقطع الأرض على حَسْب قدرته ووسيلة المواصلات التي يستخدمها .

(58/413)

فالمُتْرَف يريد أن يكون المسافة كبيرة بين قطعة الأرض والأخرى ؛ لأنه يملك الجِيَاد التي يمكن أن يقطع بها المسافة بسهولة ، أما مَنْ ليس لديه مطية ؛ فهو يحب أن تكون المسافات قريبة ليستطيع أنْ يستريح .

ونلحظ أن ذلك في زماننا المعاصر ، فحين زادَ الترف صارتْ السيارات تقطَع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية دون توقُّف ؛ عَكْس ما كان يحدث قديماً حين كانت السيارات

تحتاج إلى راحة ومعها المسافرون بها ، فيتوقفون في مُنتصَفِ الطريق .

ومثل ذلك قد حدث في مملكة سبأ ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وظلموا أَنفُسَهُمْ . . . ﴾ [سبأ : 19]

أي : اجعل المسافة بين مكان وآخر بعيدة ، كي يتمتع المُسافِر القادرُ بالمناظر الطيبة .

ولاحظنا أيضاً تمادي المشركين من قريش في طلب المعجزات الخارقة ؛ بأنْ طلبوا إحياء المَوْتى في قول الحق سبحانه : ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى . . . ﴾ [الرعد : 31]

وبعضهم طلب إحياء قصي بن كلاب الجد الأكبر لرسول الله ولقريش ؛ ليسألوه : أحَقٌّ ما جاء به محمد ؟ ولكن القرآن لم يَأْتِ لِمثْل تلك الأمور ؛ وحتى لو كان قد جاء بها لَمَا آمنوا .

ومهمة القرآن تتركز في أنه منهج خَاتَمٌ صالح لكل عصر ؛ وتلك معجزته .

ويقول سبحانه : ﴿ بَل للَّهِ الأمر جَمِيعاً . . . ﴾ [الرعد : 31]

وكلمة " أمر " تدلُّ على أنه شيء واحد ، وكلمة " جميعاً " تدل على مُتعدّد ، وهكذا نجد أن تعدُّد الرسالات والمُعْجِزات إنما يدلُّ على أن كُلَّ من أمر تلك الرسالات إنما صدرَ عن الحق سبحانه ؛ وهو الذي اختار كلَّ مُعْجزة لتناسب القومَ الذين ينزل فيهم الرسول .

ويتابع سبحانه : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الذين آمنوا أَن لَّوْ يَشَآءُ الله لَهَدَى الناس جَمِيعاً . . . ﴾ [الرعد : 31]

وكلمة " ييأس " يُقَال إنها هنا بمعنى " يعلم " ؛ فهي لغة بلهجة قريش ، أي : ألم يعلم الذين آمنوا أن هؤلاء الكفار لم يهتدوا ؛ لأن الله لم يَشأ هدايتهم .

وكان المؤمنون يودُّون أن يؤمنَ صناديدُ قريش كي يَخِفَّ الجهد عن الفئة المسلمة ؛ فلا يضطهدونهم ، ولا يضايقونهم في أرزاقهم ولا في عيالهم .

ويوضح الحق سبحانه هنا أن تلك المسألةَ ليست مُرتبطة برغبة المؤمن من هؤلاء ؛ بل الإيمان مسألة تتطلب أنْ يُخرِجَ الإنسان ما في قلبه من عقيدة ، وينظر إلى القضايا بتجرُّد ، وما يقتنع به يُدخِله في قلبه .

وبذلك يمتلئ الوعَاء العقديّ بما يُفيد ؛ كي لا تدخل في قلبك عقيدة ، ولا تأتي عقيدة أخرى تطردُ العقيدة ، أو تُزيغ قلبك عمَّا تعتقد ، يقول تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . . . ﴾ [الأحزاب : 4]

فالوعاء القلبي كالوعاء الماديّ تماماً ؛ لا يقبل أنْ يتداخل فيه جِرْمَان أبداً ، فإنْ دخل جِرْم على جِرْم ؛ إنْ كان أقوى فهو يطرد من القلب الأَدْنى منه .

والمَثَلُ على ذلك : لنفترض أن عندنا إناءً ممتلئاً عن آخره ؛ ويحاول واحدٌ منا أنْ يضعَ فيه كُرةً صغيرة من الحديد ؛ هنا سيجد أن الماءَ يفيضُ من حَوافِّ الإناء بما يُوازِي حجم كرة الحديد ، وهذا ما يحدث في الإناء الماديّ ، وكذلك الحال في الإناء العَقَديّ .

ولذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي :

"لا يجتمع حبي وحب الدنيا في قلب" .

وهكذا نرى أن هناك حَيِّزاً للمعاني أيضاً مثلما يوجد حَيِّز للمادة ، فإذا كنتَ تريد حقيقةَ أن تُدخِلَ المعاني العَقَدية الصحيحة في قلبك ؛ فلأبُدَّ لك من أنْ تطردَ أولاً المعاني المناقضة من حَيِّز القلب ، ثم ابحَثْ بالأدلة عن مدى صلاحية أيٍّ من المعنيين ؛ وما تجده قويَّ الدليل ؛ صحيحَ المنطق ؛ موفورَ القوة والحُجَّة ؛ فَأَدخِلْه في قلبك .

(60/413)

ولم يفعل الكفار هكذا ؛ بل تمادَوْا في الغَيِّ إصراراً على ما يعتقدون من عقيدة فاسدة ؛ أما مَنْ أسلم منهم فقد أخرج من قلبه العقيدة القديمة ؛ ولم يُصِر على المُعْتَنق القديم ؛ بل درسَ وقارنَ ؛ فأسرع إلى الإسلام .

أما مَنْ كان قلبه مشغولاً بالعقيدة السابقة ؛ ويريد أنْ يُدخِل العقيدة الإسلامية في قلبه ؛ فهو لم ينجح في ذلك ؛ لأن قلبه مشغولٌ بالعقيدة القديمة .

وإذا كنت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم تريد من هؤلاء أن يؤمنوا ؛ فلابد أن يعتمد ذلك على إرادتهم ، وأنْ يُخرِجوا من قلوبهم العقيدة الفاسدة ؛ وأنْ يبحثوا عن الأصحِّ

والأفضل بين العقيدتين .

ولذلك يعلمنا الحق سبحانه كيف نصل إلى الحقائق بسهولة ، فيقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ . . . ﴾ [سبأ : 46]

أي : قُلْ يا محمد لِمَنْ كفر بك : إنِّي أعظكم عِظَة ، وأنت لا تَعِظ إلا مَنْ تحب أن يكون على الحق ؛ وهذا يُفسر قول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128]

ولهذا يريد صلى الله عليه وسلم أن تكونوا مؤمنين ؛ لذلك يدعوكم أن تقوموا لله ؛ لا لِجَاهِ أحد غيره ؛ لأن جاه أيِّ كائن سيزول مَهْمَا كان هذا الواحد ، ولا تقولن لنفسك : إن العبيد سيتساوون معك .

بل قُمْ لله إما مثنى أي أن تكون قائماً ومعك آخر ؛ أو يقوم غيرك اثنين اثنين ليناقش كل منكم مع من يجلس معه ؛ ولا يتحيز أحد منكم لِفكْرٍ مُسْبق بل يُوجِّه فكره كله متجرداً لله .

وليتساءل كل واحد : محمد هذا ، صفته كذا وكذا ، وقد فعل كذا ، والقرآن الذي جاء به يقول كذا ، وسيجد الواحد منكم نفسه وقد اهتدى للحق بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مَنْ جلس معه ليناقشه فيستعرضان معه تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به .

وحين يتناقش اثنان لن يخاف أيٌّ منهما أن يهزمه الآخر ، لكن لو انضمَّ إليهما ثالثٌ ؛ فكل واحد يريد أن يعتز برأيه ؛ ويرفض أن يقبل رأْي إنسان غيره ، ويخشى أن يُعتبر مهزوماً في المناقشة ؛ ويرفض لنفسه احتمال أنْ يستصغره أحد .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ . . . ﴾ [سبأ : 46]

و" الجِنَّة " هي اختلال العقل ؛ أي : أن مَنْ به جِنَّة إنما يتصرف ويسلُك بأعمال لا يرتضيها العقل .

ويقرن الحق سبحانه بين العقل وبين الخُلُق ، فيقول : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4]

ويُقَال : فلان على خُلق . أي : يملك من الصفات ما يجعله على الجَادَّة من الفضائل ؛ مثل الصِّدْق والأمانة ؛ وهذه صفاتٌ يُنَظِمها في مواقفها الفِكْر العقليّ ؛ وهو الذي يُميِّز لنا أيَّ المواقف تحتاج إلى شِدّة ؛ أو لِينٍ ؛ أو حكمة ، وكلُّ هذه أمور يُرتِّبها العقل .

والخُلُق الرفيع لا يصدر عن مجنون ؛ لأنه لا يعرف كيف يختار بين البدائل ؛ لذلك لا نحاسبه

نحن ؛ ولا يحاسبه الله أيضاً .

وحين يأمرهم الحق سبحانه أن يبحثوا : هل محمد يعاني من جِنَّة ؟ فالحق سبحانه يعلم مُقدَّماً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادتهم يتمتَّع بكمال الخلق ؛ بدليل أن أهمَّ ما كانوا يملكونه كانوا يستأمنون عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبدليل أنه صلى الله عليه وسلم حينما دخل عليهم وكانوا مختلفين في أمر بناء الكعبة ؛ ارتضوه حَكَماً .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : 1-2]

(62/413)

وهكذا رأينا أن هؤلاء الكفار ما كانوا ليؤمنوا ؛ ولم يَكُنِ الله لِيهدِيَهم ؛ لأنهم كانوا لا يملكون أَدْنى استعداد للهداية ؛ وكأنهم أدمنُوا الكفر والعياذ بالله ؛ وقد طبع الله على قلوبهم فزادهم كفراً ؛ فما في تلك القلوب من كفر لا يخرج منها ؛ وما بخارجها لا يدخل فيها .

وقد ظَنَّ بعض من المسلمين أن كُفْر هؤلاء قد يُشقِي المؤمنين بزيادة العَنتِ من الكافرين ضدهم ؛ لذلك يوضح الحق سبحانه لأهل الإيمان أن نَصْره قريب ، فيقول سبحانه : ﴿ .

. . ﴿ وَلَا يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حتى يَأْتِيَ وَعْدُ الله إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ [الرعد : 31]

أي : اطمئنوا يا أهل الإيمان ؛ فلن يظلّ حال أهل الكفر على ما هو عليه ؛ بل ستصيبهم الكوارث وهم في أماكنهم ، وسيشاهدون بأعينهم كيف ينتشر الإيمان في المواقع التي يسودونها ؛ وتتسع رقعة أُرض الإيمان ، وتضيق رقعة أهل الكفر ؛ ثم يأتي نَصْر الله وقد جاء نَصْر الله ولم يَبْقَ في الجزيرة العربية إلا مَنْ يقول : " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله " .

وهكذا تنبأتْ الآية بمجيء الأمل بعد اليأس ، كي لا يظلّ اليأس مُسَيْطراً على حركة المسلمين وعلى نفوسهم ، واستجاب الحق سبحانه لدعوته صلى الله عليه وسلم حين دعاه قائلاً : " اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف " .

وقُتِل صناديدُهم واحداً وراء الآخر ؛ ولكن عنادهم استمر ؛ وبلغ العناد حَدّاً أن ابنتَيْ رسول الله صلى الله عليه وسلم كانتا مُتزوِّجتيْن من ابنيْ أبي لَهَبٍ ؛ فلما أعلن النبي صلى الله عليه وسلم رسالته ؛ قال أبو لهب وزوجته : لابد أن يُطلِّق أبناؤنا بنات محمد ؛ فلما طلَّق أوَّلهما بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً :

" أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه " .

وها هو أبو لهب الكافر يقول : " لا تزال دعوة محمد على ابني تشغل بَالي وتُقلقني ، وأخاف أن أبعث بولدي إلى رحلة الشام كي لا تستجيب السماءُ لدعوة محمد " .

وكان من المناسب ألاَّ يخاف ، وجاء ميعاد السفر لقافلة الشام . وسافر أبو لَهَبٍ مع ولديه ، وحين جاء ميعاد النوم أمر أبو لهب الرجال أن يقيموا سياجاً حول ولده وكأن الرجال حوله كخط بارليف الذي بنتْه إسرائيل على قناة السويس ليمنع عنها صَيْحة النصر التي حملت صرخة الله أكبر ثم أصبح الصبح فوجدوا أن وحشاً قد نهش ابن أبي لَهَب .

وقال الناس : كان أبو لَهَب يخشى دعوة محمد ؛ ورغم ذلك فقد تحققت . فقال واحد : ولكن محمداً دعا أن ينهشَه كلب وقال له " أكلك كلب من كلاب الله " ولم يَقُلْ فلينهشْكَ سبع ، فرد عليه مَنْ سمعه : وهل إذا نُسب كلب الله أيكون كلباً ؟ لابد أن يكون الكائن المنسوب لله كبيراً .

وهكذا دقَّتْ القارعة بيت الرجل الذي أصرَّ على الكفر ، وتحقق قول الله : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ . . . ﴾ [الرعد : 31]

نعم ، فهم قد أسرفوا في الكُفْر والعِناد ؛ فجاءتْهم القارعة ؛ والقارعة هي الشيء الذي يطرق بعنف على هادئ ساكن ، ومنها نأخذ قَرْع الباب ، وهناك فَرْق بين " نَقْر البابِ " و " قَرْع الباب " .

وقَوْل الحق سبحانه : ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ . . . ﴾ [الرعد : 31]

يُوضِّحه أمْر صُلْح الحديبية الذي جاء بشارةً للمسلمين ؛ فقد صار كفار قريش يفاوضون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث بالسرايا إلى المناطق المحيطة بمكة ؛ فتأتي القبائل أفواجاً وهي تعلن إسلامها ؛ ويبلغ ذلك قريشاً بأن الإسلام يواصل زَحْفه ؛ ثم تأتيهم القارعة بأن يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة ؛ ويتحقق وعد الله بأن يدخلوا هم أيضاً إلى حظيرة الإسلام .

(64/413)

أو : أن يكون المقصود ب : ﴿ حتى يَأْتِيَ وَعْدُ الله . . . ﴾ [الرعد : 31]

هو مجيء يوم القيامة الذي يحمل وَعْد الله بأن يَحُلَّ عليهم ما يستحقونه من عذاب .

وفي هذا القول تطمين لِمَنْ قال الحق سبحانه في أول هذه الآية : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ . . . ﴾ [الرعد : 31]

ذلك أن الله لا يُخلِف وعده ، وهو القائل في تذييل هذه الآية : ﴿ . . . إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ [الرعد : 31]

ونعلم أن كلمة " وَعْد " عادة تأتي في الخير ، أما كلمة " وعيد " فيه فتأتي غالباً في الشر .

والشاعر يقول :

وَإِنِّي إِذَا أَوْعدْتُه أَوْ وعدْته . . . لَمُنجزُ مِيعَادِي ومُخلِفُ مَوْعِدي

فالإيعاد دائماً يكون بِشَرٍّ ؛ والوَعْد يعني الخير ، إلا أن بعض العرب يستعمل الاثنين . أو نستطيع أن نقول : إن المسألة بتعبير المؤمنين ؛ أن الله سينصر المؤمنين بالقارعة التي تصيب أهل الكفر ؛ أو تأتي حَوْل ديارهم ، وفي ذلك وَعْد يُصبِّر به سبحانه المؤمنين ؛ وهو في نفس الوقت وعيدٌ بالنسبة للكافرين .

وقوله سبحانه : ﴿ . . . إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ [الرعد : 31]

هو قضية قرآنية ستتحقق حَتْماً ؛ في كل عصر وأوان ، إذا ما أخذ المسلمون بأسباب الإيمان ؛ وهي كقضية تختلف عن وَعْد أو وَعِيد البشر ؛ لأن الإنسان قد يَعِد أو يتوعَّد ؛ لكن أغيار الحياة تُصِيبه ؛ فتُعطل قدرته على إنفاذ الوَعْد أو الوعيد .

أما حين يَعِدُ الله فالأمر يختلف ؛ لأن وَعْده هو وَعْد مُطْلق ؛ وهذا هو معنى : ﴿ . . . إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ [الرعد : 31] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(65/413)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً ﴾ : جوابُها محذوفٌ ، أي : لكان هذا القرآنُ ، لأنه في غاية ما يكونُ من الصحة . وقيل : تقديرُه : لما آمنوا . ونُقِل عن الفراء أنَّ جوابَ " لو " هي الجملة مِنْ قولِه ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ ففي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ ، وما بينهما اعتراضٌ . وهذا في الحقيقة دالٌّ على الجوابِ . وإنما حُذِفَت التاءُ في قوله " وكُلِّم به المَوْتى " وثَبَتَتْ في الفعلَيْن قبله لأنه من باب التغليب ؛ لأنَّ " المَوْتى " يشمل المذكرَ والمؤنث .

قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الذين ﴾ أصلُ اليَأْسِ : قَطْعُ الطمعِ عن الشيء والقُنوطُ فيه .

واختلف الناسُ فيه ههنا : فقال بعضهم : هو هنا على بابه ، والمعنى : أفلم يَيْئَسِ الذين آمنوا من إيمانِ الكفَّار من قريش ، وذلك أنَّهم لمَّا سألوا هذه الآياتِ طَمِعوا في إيمانِهم وطلبوا نزولَ هذه الايات ليؤمِنَ الكفار ، وعَلِمَ اللهُ أنهم لا يؤمنون فقال : أفلم يَيْئَسوا من إيمانهم ، قاله الكسائي .

وقال الفراء : " أَوْقَعَ اللهُ للمؤمنين أنْ لو يشاء اللهُ لهدى الناسَ جميعاً فقال : أفلم يَيْئَسوا عِلْماً ، يقول : أَيْئَسهم العِلْم مضمراً ، كما تقول في الكلام : يَئِست منك أن لا تفلح ، كأنه قال :

عَلِمه علماً " ، قال : فيَئِسَتْ بمعنى عَلِمَت ، وإنْ لم يكنْ قد سمع ، فإنه يتوجَّه إلى ذلك بالتأويل " .

(66/413)

وقال ابن عطية : " ويحتمل أن يكونَ " اليأسُ " في هذه الآية على بابه ، وذلك : أنه لمَّا أَبْعَدَ إيمانَهم في قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا ﴾ على التأويلين في المحذوفِ المقدَّر قال في هذه : أفلم يَيْئَسِ المؤمنون من إيمانِ هؤلاءِ عِلْماً منهم أن لو يشاء الله لهُدى الناسَ جميعاً " .

وقال الزمخشري : " ويجوز أن يتعلَّق ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ﴾ بآمنوا على : أولم يَقْنَطْ عن إيمانِ هؤلاءِ الكَفَرَة الذين آمنوا بأن لو يشاءُ الله لهدى الناسَ جميعاً ولهداهم " وهذا قد سبقه إليه أبو العباس .

وقال الشيخ : " ويُحْتَمَلُ عندي وجهٌ آخرُ غيرُ الذي/ ذكروه : وهو أنَّ الكلامَ تامٌّ عند قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الذين آمنوا ﴾ وهو تقريرٌ ، أي : قد يَئِس المؤمنون من إيمان المعاندين ، و ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ الله ﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ ، أي : وأُقْسِمُ لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ، ويدلُّ على هذا القَسَمِ وجودُ " أنْ " مع " لو " ، كقول الشاعر :

2857- أَمَا واللهِ انْ لو كنتَ حُرَّاً ... وما بالحُرِّ أنت ولا القَمينِ

وقول الآخر :

2858- فأُقسمُ أنْ لَو التقينا وأنتمُ . . . لكان لكم يومٌ من الشرِّ مظلِمُ

وقد ذكر سيبويه أنَّ " أنْ " تأتي بعد القَسَم ، وجعلها ابنُ عصفور رابطةً للقَسَم بالجملة المُقْسَمِ عليها .

وقال بعضُهم : " بل هو هنا بمعنى عَلِمَ وتَبَيَّن . قال القاسم بن معن وهو من ثقاتِ الكوفيين : " هي لغة هوازن " .

وقال ابن الكلبي : " هي لغةُ حيّ من النَّخَع ، ومنه قولُ رباح بن عدي :

2859- ألم يَيْئَسِ الأقوامُ أني أنا ابنُهُ . . . وإن كنتُ عن أرضِ العشيرةِ نائيا

وقول سحيم :

2860- أقولُ لهم بالشّعْبِ إذ يأْسِرونني . . . ألم تَيْئَسُوا أني ابنُ فارسِ زَهْدَمِ

وقول الآخر :

2861- حتى إذا يَئِسَ الرُّماةُ وأَرْسَلوا . . . غُضْفاً دواجنَ قافِلاً أعْصامُها

وردَّ الفراء هذا وقال : " لم أَسْمَعْ يَئِسْتُ بمعنى عَلِمْتُ " . ورُدَّ عليه : بأنَّ مَنْ حَفِظ حجةٌ على مَنْ لم يَحْفَظْ ، ويَدُلُّ على ذلك قراءةُ عليّ وابن عباس وعكرمة وابن أبي مُلَيْكة والجحدري وعلي بن الحسين وابنه زيد وجعفر بن محمد وابن يزيد المديني وعبد الله بن يزيد وعلي ابن بَذِيمة : " أو لم يتبيَّنْ " ، مِنْ تبيَّنْتُ كذا إذا عَرَفْتَه . وقد افترى مَنْ قال : " إنما كتبه الكاتب وهو ناعِسٌ ، وكان أصله " أفلم يتبيَّن " فَسَوَّى هذه الحروف فَتُوُهِّمَ أنها سين " .

قال الزمخشري : " وهذا ونحوُه ممَّا لا يُصَدَّقُ في كتاب [كتاب الله الذي لا يأتيه] الباطل مِنْ [بينِ] يديه ولا مِنْ خلفِه ، وكيف يَخْفَى هذا حتى يَبْقى بين دَفَّتَيْ الإِمام ، وكان متقلَّباً في أيدي أولئك الأعلامِ المحتاطِيْنَ في دين الله ، المهيمنين عليه ، لا يَغْفُلون عن جلائِله ودقائقِه ، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجعُ ، والقاعدةُ التي عليها المبنى ، هذه والله فِرْيَةٌ ، ما فيها مِرْيَةٌ " . وقال الزمخشري أيضاً : " وقيل : إنما استُعْمل اليأسَ بمعنى العِلْم ، لأن الآيسَ عن الشيء عالمٌ بأنه لا يكونُ ، كما استُعْمل الرجاءَ في معنى الخوف والنسيان والترك لتضمُّن ذلك " .

ويُحتمل في " أَنْ " قولان ، أحدُهما : أنها المخففةُ من الثقيلة فاسمُها ضميرُ الشأن ، والجملةُ الامتناعيةُ بعدها خبرُها ، وقد وقع الفصلُ ب " لو " ، و " أَنْ " وما في حَيِّزها إن عَلَّقْناها ب " آمنوا " تكونُ في محلِّ نصبٍ أو جرّ على الخلاف بين الخليلِ وسيبويه ، إذ أصلُها الجرُّ

بالحرفِ، أي: آمَنوا بأن لو يشاءُ الله، وإن عَلَّقْناها ب "يَيْئَس" على أنه بمعنى "عَلِمَ" كانت في محلِّ نصب لسَدِّها مَسَدَّ المفعولين.

والثاني: أنها رابطةٌ بين القَسَمِ والمُقْسِمِ عليه كما تقدم.

(68/413)

قوله: ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ يجوز أن يكونَ فاعلُه ضميرَ الخطاب [أي:] أو تَحُلُّ أنت يا محمدُ، وأن يكونَ ضميرَ القارعة، وهذا أَبْيَنُ، أي: تُصيبهم قارعَةٌ، أو تَحُلُّ القارعة.

وقرأ ابن جبير ومجاهد "يَحُلُّ" بالياء مِنْ تحتُ، والفاعلُ على ما تقدم: إمَّا ضميرُ القارعة، وإنما ذكَّر الفعلَ لأنها بمعنى العذاب، أو لأن التاءَ للمبالغة، والمرادُ قارِع، وإمَّا ضميرُ الرسول، أتى به غائباً. وقرأ أيضاً "مِنْ ديارهم" وهي واضحة. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 50.55 ﴾

(69/413)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ .

لو كان شيء من المخلوقات يظهر بغيرنا في الإيجاد لكان يحصل بهذا القرآن ، ولكن المنشئ الله ، والخير والشر جملةً من الله ، والأمر كله لله . فإذا لم يكن شيء من الحدثان بالقرآن - والقرآن كلام الله العزيز - فلا تكون ذرة من النفي والإثبات لمخلوق . . فإن ذلك محال .

قوله جلّ ذكره ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

معناه أفلم يعلم الذين آمنوا ، ويقال أفلم ييأسوا من إيمانهم وقد علموا أنه من يهديه الحق فهو المهتدي ؟

قوله جلّ ذكره ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

يعني شؤم كفرهم لا يزال واصلاً إليهم ، ومقتضّ فعلهم لاحِقٌ بهم أبداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات جـ 2 صـ 231 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم الجواب عن كفرهم بالموحي وما أوحاه إليه وما اشتد تعلقه به ، عطف على ذلك تأسية بالموحى إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لأن الحاث على تميز الإجابة إلى الآيات المقترحات استهزاء الكفار ، فقال : ﴿ ولقد استهزىء ﴾ أي من أدنى الخلق وغيرهم ﴿ برسل ﴾ .

ولما كان الإرسال لم يعم جميع الأزمان فضلاً عن الاستهزاء ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبلك ﴾ لعدم إتيانهم بالمقترحات ؛ والاستهزاء : طلب الهزوء ، وهو الإظهار خلاف الإضمار للاستصغار ﴿ فأمليت ﴾ أي فتسبب عن استهزائهم ذلك أني أمليت ﴿ للذين كفروا ﴾ أي أمهلتهم في خفض وسعة كالبهيمة يملى لها ، أي يمد في المرعى ، ولم أجعل ذلك

سبباً لإجابتهم إلى ما اقترحوا ولا معاجلتهم بالعذاب فعل الضيق الفطن ﴿ ثم ﴾ بعد طول الإملاء ﴿ أخذتهم ﴾ أي أخذ قهر وانتقام ﴿ فكيف ﴾ أي فكان أخذي لهم سبباً لأن يسأل من كان يستبطىء رسلنا أو يظن بنا تهاوناً بهم ، فيقال له : كيف ﴿ كان عقاب ﴾ فهو استفهام معناه التعجب مما حل بالمكذبين والتقرير ، وفي ضمنه وعيد شديد .

فلما تقرر - بما مضى من قدرته تعالى على الثواب والعقاب وخفضه الأرضين ورفعه السماوات ونصبه الدلالات بباهر الآيات البينات - أن ليس لأحد غيره أمر ما ، وتحرر أن كل أحد في قبضته ، تسبب عن ذلك أن يقال : ﴿ أفمن هو قائم ﴾ ولما كان القيام دالاً على الاستعلاء أوضحه بقوله : ﴿ على كل نفس ﴾ أي صالحة وغيرها ﴿ بما كسبت ﴾ - يفعل بها ما يشاء من الإملاء والأخذ وغيرهما - كمن ليس كذلك ، مثل شركائهم التي ليس لها قيام على شيء أصلاً .

(71/413)

ولما كان الجواب قطعاً : ليس كمثله شيء ، كان كأنه قيل استعظاماً لهذا السؤال : من الذي توهم أن له مثلاً ؟ فقيل : الذين كفروا به ﴿ وجعلوا لله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ شركاء ﴾ ويجوز أن يقدر ل " من " خبر معناه : لم يوحدوه ، ويعطف عليه ﴿ وجعلوا ﴾ ، فكأنه قيل

: فماذا يفعل بهم ؟ فقيل : ﴿ قل سموهم ﴾ بأسمائهم الحقيقية ، فإنهم إذا سموهم وعرفت حقائقهم أنها حجارة أو غير ذلك مما هو مركز العجز ومحل الفقر ، عرف ما هم عليه من سخافة العقول وركاكة الآراء ، ثم قل لهم : أرجعتم عن ذلك إلى الإقرار بأنهم من جملة عبيده ﴿ أم تنبئونه ﴾ أي تخبرونه إخباراً عظيماً ﴿ بما لا يعلم ﴾ وعلمه محيط بكل شيء ﴿ في الأرض ﴾ من كونها آلهة ببرهان قاطع .

﴿ أم بظاهر من القول ﴾ أي بحجة إقناعية تقال بالفم ، وكل ما لا يعلمه فليس بشيء ، وهذا قريب مما مضى في قوله ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ﴾ [الرعد : 16] في أنه لو كان كذلك كان شبهه فيها ظهور ما ، وهذه الأساليب منادية على الخلق بالعجز ، وصادحة بأنه ليس من كلام الخلق .

ولما كان التقدير : ليس لهم على شيء من ذلك برهان قاطع ولا قول ظاهر ، بنى عليه قوله : ﴿ بل زين ﴾ أي وقع التزيين بأمر من لا يرد أمره على يد من كان ﴿ للذين كفروا ﴾ أي لهم ، وعبر بذلك تنبيهاً على الوصف الذي دلاهم إلى اعتقاد الباطل ، وهو ستر ما أدى إليه برهان العقل المؤيد بدليل النقل ﴿ مكرهم ﴾ أي أمرهم الذي أرادوا به ما يراد بالمكر من إظهار شيء وإبطان غيره ، وذلك أنهم أظهروا أن شركاءهم آلهة حقاً ، وهم يعلمون بطلان ذلك ، وليس بهم في الباطن إلا تقليد الآباء ، وأظهروا أنهم يعبدونها لتقربهم إلى الله

زلفى ولتشفع لهم ، أو أنهم غيروا في وجه الحق بما ختلوا به الضعفاء وتمادى بهم الحال حتى اعتقدوه حقاً .

(72/413)

ومادة مكر بأي ترتيب كان : مكر ، ركم ، رمك ، كرم ، كمر ؛ تدور على التغطية والستر ، فالمكر : الخديعة ، قالوا : وهو الاحتيال بما لا يظهر ، فإذا ظهر فذلك الكيد ، ويلزم منه الاجتهاد في ضم أشتات الأمر لستر ما يراد ، فمن الضم المكر الذي هو حسن خدالة الساق أي امتلائها ، ويلزم منه خصب البدن ونعمته ، وكان منه المكر – لضرب من النبات ، والواحدة مكرة ، سميت مكرة لارتوائها ، أبو حنيفة : المكر من عشب القيظ ، وهي عشبة غبراء ليس فيها ورق ، وهو ينبت في السهل والرمل – كأنه شبه بالساق لخلوه من الورق أو لأنه لغبرته وتجرده كالمستور ، والمكر : طين أحمر يشبه بالمغرة – كأنه سمي بذلك لما فيه من الكدرة ، والمكرة من البسر : التي ليست برطبة ولكن فيها لين – كأنها سميت به لكون لونها حينئذ يأخذ في الكدرة ؛ والركم : إلقاء الشيء بعضه على بعض فهو مركوم وركام ، وتراكم الشيء – إذا تكاثف بعضه على بعض ، وذلك مظنة الخفاء ، والركمة : الطين المجموع وكذا التراب المجموع ، وقال : وجُز عن مرتَكم الطريق – يريد المحجة ، لأن

ترابها تلبد فاشتد تلبده ، والرمك والرمكة – بالضم – من ألوان الإبل وهو أكدر من الورقة وهو لون خالطت غبرته سواداً ، فهو أرمك – لأنه مظنة لخفاء ما فيه ، ومنه اشتقاق الرامك ، وهو أخلاط تخلط بالمسك فتجعل سكّاً ، ورمك الرجل بالمقام – إذا أقام به ، لأنه يستره بنفسه وأمتعته ويستتر هو فيه ، وأرمكت غيري – إذا ألزمته مكاناً يقيم فيه ، والرمكة : الأنثى من البراذين – فارسي معرب ، لأنها تستر أصالة العربي إذا ولدته ، ورمكان : موضع معروف – معرفة ، ويقال : رمك الرجل – إذا هزل وذهب ما في يده فستر عنه أو صار هو مستوراً بعد أن كان بحسن حاله مشهوراً ، ورمكت البازي والصقر ترميكاً – إذا أشرت إليه بالطير لأنك سلبت عنه الستر ؛ واليرموك : مكان به لهب عظيم ، يستر ما يكون فيه ؛ والكريم : ضد اللئيم ، وهو البخيل المهين النفس ،

(73/413)

والخسيس الآباء ، فإذا كان شحيحاً ولم تجتمع له هذه الخصال قيل له : بخيل ، ولم يُقل : لئيم ، فالكريم إذن من ستر مساوىء الأخلاق بإظهار معاليها ، وتكرّم – إذا تنزه عن الدناءة ورفع نفسه عنها ، وأصل الكرم في اللغة : الفصل والرفعة ، فإذا قالوا : فلان كريم ، فإنما يريدون رفيعاً فاضلاً ، فيلزم الكرم ستر العيوب ، والله الكريم أي الفاضل الرفيع – كذا قال

بعض أهل اللغة ، وقيل : الصفوح عن الذنوب ، وقيل : الذي لا يمن إذا أعطى ، وإذا قالوا : فلان أكرم قومه ، فإنما يريدون : أرفعهم منزلة وأفضلهم قدراً ، وكل هذا يلزم منه السخاء وستر الذنوب ، ومن هذا قيل : فرس كريم ، وشجرة كريمة – إذا كانت أرفع من نظائرها وأفضل ،

﴿ إني ألقي إليّ كتاب كريم ﴾ [النحل : 29] أي رفيع شريف – كأنه أطلق هنا على ما فيه مجرد فضل تشبيهاً بالكريم في جزء المعنى ، وكارمت الرجل : فعل كل منا في حق صاحبه مقتضى الكرم ، والكرم : شجر العنب ولا يسمى به غيره ، والكروم : قلائد تتخذها النساء كالمخانق ، لدلالتها على قدر صاحبتها ، والكرامة : طبق يوضع على رأس الحب – لأنه غطاءه ، ولا يغطى إلا ما له فضل ، ومنه يقولون : لك الحب والكرامة ، والكرم : القصير من الرجال – كأنه شبه بطبق الحب ؛ والكمرة – محركة : طرف قضيب الإنسان خاصة ، سميت بذلك لسترها القلفة ، ورجل مكمور – إذا قطع الخاتن كمرته ، وتكامر الرجلان – إذا تكابرا بأيريهما ، وقال في القاموس : وتكامرا : نظرا أيهما أعظم كمرة ، والكمري : الرطب ما لم يرطب على شجره ، بل سقط بسراً فأرطب في الأرض – كأنه سمي بذلك لأنه يكون أكدر مما يرطب على الشجر ، وهو أيضاً يشبه الكمرة في تكوينها ، والكمري عن ابن دريد : الرجل القصير ، كأنه شبه بالرطبة ، وقال غيره : وهو اسم مكان .

ولما ذكر تزيين مكرهم ، أتبعه الدلالة عليه فقال : ﴿ وصدوا ﴾ أي فلزموا ما زين لهم ، أو فمكروا به حتى ضلوا في أنفسهم وصدوا غيرهم ﴿ عن السبيل ﴾ الذي لا يقال لغيره سبيل وهو المستقيم ، فإن غيره جور وتيه وحيرة فهو عدم ، بل العدم أحسن منه ، فلم يسلكوا السبيل ولا تركوا غيرهم يسلكه ، فضلوا وأضلوا ، ليس ذلك بعجب فإن الله أضلهم ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي الذي له الأمر كله بإرادة ضلاله ﴿ فما له من هاد ﴾ فكأنه قيل : فماذا لهم على ما فعلوا من ذلك ؟ فقيل : ﴿ لهم ﴾ أي الذين كفروا ﴿ عذاب ﴾ وهو الألم المستمر ، ومنه العذب لأنه يستمر في الحلق ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ شاق ، بممانعة حزب الله لهم في صدهم عن السبيل إلى ما يتصل بذلك من قتل وأسر ، ولهم في الآخرة إن ماتوا على ذلك عذاب ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ أي أشد في المشقة ، وهي غلظ الأمر على النفس بما يكاد يصدع القلب ﴿ وما لهم من الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ من واق ﴾ أي مانع يمنعهم إذا أراد بهم سوءاً في الدنيا ولا في الآخرة ، والواقي فاعل الوقاية ، وهي الحجر بما يدفع الأذية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 154 .

﴾ 157

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32) ﴾

[32] ﴿ وَلَقَدِ استهزئ بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [33] ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى الأرض أَم بظاهر مّنَ القول بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السبيل وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [34] ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الحياة الدنيا وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَقُّ وَمَا لَهُم مّنَ الله مِن وَاقٍ ﴾ اعلم أن القوم لما طلبوا سائر المعجزات من الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يتأذى من تلك الكلمات فالله تعالى أنزل هذه الآية تسلية له وتصبيراً له على سفاهة قومه فقال له إن أقوام سائر الأنبياء استهزؤا بهم

كما أن قومك يستهزئون بك : ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ أي أطلت لهم المدة بتأخير العقوبة ثم أخذتهم فكيف كان عقابي لهم .

(76/413)

واعلم أني سأنتقم من هؤلاء الكفار كما انتقمت من أولئك المتقدمين والإملاء الإمهال وأن يتركوا مدة من الزمان في خفض وأمن كالبهيمة يملى لها في المرعى ، وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ، ثم إنه تعالى أورد على المشركين ما يجري مجرى الحجاج وما يكون توبيخاً لهم وتعجيباً من عقولهم فقال : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ والمعنى : أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات وإذا كان كذلك كان عالماً بجميع أحوال النفوس ، وقادراً على تحصيل مطالبها من تحصيل المنافع ودفع المضار ومن إيصال الثواب إليها على كل الطاعات ، وإيصال العقاب إليها على كل المعاصي .

وهذا هو المراد من قوله : ﴿ قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ وما ذاك إلا الحق سبحانه ونظيره قوله تعالى : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ [آل عمران : 18] .

واعلم أنه لا بد لهذا الكلام من جواب واختلفوا فيه على وجوه :

الوجه الأول : التقدير : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ كمن ليس بهذه الصفة ؟ وهي الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ، وهذا الجواب مضمر في قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ والتقدير : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم التي لا تضر ولا تنفع ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وما جاء جوابه لأنه مضمر في قوله : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ [الزمر : 22] فكذا ههنا ، قال صاحب "الكشاف" : يجوز أن يقدر ما يقع خبراً للمبتدأ ، أو يعطف عليه قوله : ﴿ وجعلوا ﴾ والتقدير : أفمن هو بهذا الصفة لم يوحدوه ولم يمجدوه وجعلوا له شركاء .

(77/413)

الوجه الثاني : وهو الذي ذكره السيد صاحب "حل العقد" فقال : نجعل الواو في قوله : ﴿ وجعلوا ﴾ واو الحال ونضمر للمبتدأ خبراً يكون المبتدأ معه جملة مقررة لإمكان ما يقارنها من الحال ، والتقدير : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ موجود .

والحال أنهم جعلوا له شركاء ثم أقيم الظاهر وهو قوله (لله) مقام المضمر تقريراً للإلهية وتصريحاً بها ، وهذا كما تقول : جواد يعطي الناس ويغنيهم موجود ويحرم مثلي .

واعلم أنه تعالى لما قرر هذه الحجة زاد في الحجاج فقال : ﴿ قل سموهم ﴾ وإنما يقال ذلك

في الأمر المستحقر الذي بلغ في الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال : سمه إن شئت .

يعني أنه أخس من أن يسمى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل ، فكأنه تعالى قال : سموهم بالآلهة على سبيل التهديد ، والمعنى : سواء سميتموهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به ، فإنها في الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها ، ثم زاد في الحجاج فقال : ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ والمراد : أتقدرون على أن تخبروه وتعلموه بأمر تعلمونه وهو لا يعلمه ، وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها ، وإن لم يكن شريك ألبته ، لأنهم ادعوا أن له شركاء في الأرض لا في غيرها ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ يعني تموهون بإظهار قول لا حقيقة له ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ [التوبة : 30] ثم إنه تعالى بين بعد هذا الحجاج سوء طريقتهم فقال على وجه التحقير لما هم عليه : ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ قال الواحدي : معنى (بل) ههنا كأنه يقول : دع ذكر ما كنا فيه زين لهم مكرهم ، وذلك لأنه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد قولهم ، فكأنه يقول : دع ذكر الدليل فإنه لا فائدة فيه ، لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم فلا ينتفعون بذكر هذه الدلائل .

(78/413)

قال القاضي : لا شبهة في أنه تعالى إنما ذكر ذلك لأجل أن يذمهم به ، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون ذلك المزين هو الله ، بل لا بد وأن يكون إما شياطين الإنس وإما شياطين الجن .

واعلم أن هذا التأويل ضعيف لوجوه : الأول : أنه لو كان المزين أحد شياطين الجن أو الإنس فالمزين في قلب ذلك الشيطان إن كان شيطاناً آخر لزم التسلسل ، وإن كان هو الله فقد زال السؤال ، والثاني : أن يقال : القلوب لا يقدر عليها إلا الله ، والثالث : أنا قد دللنا على أن ترجيح الداعي لا يحصل إلا من الله تعالى وعند حصوله يجب الفعل .

أما قوله : ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ فاعلم أنه قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ وصدوا ﴾ بضم الصاد وفي حم ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ [النساء : 167] على ما لم يسم فاعله بمعنى أن الكفار صدهم غيرهم ، وعند أهل السنة أن الله صدهم .

وللمعتزلة فيه وجهان : قيل الشيطان ، وقيل أنفسهم وبعضهم لبعض كما يقال : فلان معجب وإن لم يكن ثمة غيره وهو قول أبي مسلم والباقون ، وصدوا بفتح الصاد في السورتين يعني أن الكفار صدوا عن سبيل الله ، أي أعرضوا وقيل : صرفوا غيرهم ، وهو لازم ومتعد ، وحجة القراءة الأولى مشاكلتها لما قبلها من بناء الفعل للمفعول ، وحجة القراءة الثانية قوله : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ [النساء : 167] .

ثم قال : ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ اعلم أن أصحابنا تمسكوا بهذه الآية من وجوه : أولها : قوله : ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ وقد بينا بالدليل أن ذلك المزين هو الله .

وثانيها : قوله : ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ بضم الصاد ، وقد بينا أن ذلك الصاد هو الله .

وثالثها : قوله : ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ وهو صريح في المقصود وتصريح بأن ذلك المزين وذلك الصاد ليس إلا الله .

(79/413)

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق ﴾ أخبر عنهم أنهم سيقعون في عقاب الآخرة وإخبار الله ممتنع التغير وإذا امتنع وقوع التغير في هذا الخبر ، امتنع صدور الإيمان منه وكل هذه الوجوه قد لخصناها في هذا الكتاب مراراً ، قال القاضي : ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي عن ثواب الجنة لكفره وقوله : ﴿ فما له من هاد ﴾ منبيء بذلك أن الثواب لا ينال إلا بالطاعة خاصة فمن زاغ عنها لم يجد إليها سبيلا ، وقيل : المراد بذلك من حكم بأنه ضال وسماه ضالاً ، وقيل المراد من يضلله الله عن الإيمان بأن يجده كذلك ، ثم قال والوجه الأول أقوى .

واعلم أن الوجه الأول ضعيف جداً لأن الكلام إنما وقع في شرح إيمانهم وكفرهم في الدنيا ولم يجز ذكر ذهابهم إلى الجنة ألبتة فصرف الكلام على المذكور إلى غير المذكور بعيد .

وأيضاً فهب أنا نساعد على أن الأمر كما ذكروه ، إلا أنه تعالى لما أخبر أنهم لا يدخلون الجنة

فقد حصل المقصود لأن خلاف معلوم الله ومخبره محال ممتنع الوقوع .

واعلم أنه تعالى لما أخبر عنهم بتلك الأمور المذكورة بين أنه جمع لهم بين عذاب الدنيا ، وبين عذاب الآخرة الذي هو أشق ، وأنه لا دافع لهم عنه لا في الدنيا ولا في الآخرة .

(80/413)

أما عذاب الدنيا فبالقتل ، والقتال ، واللعن ، والذم ، والإهانة ، وهل يدخل المصائب والأمراض في ذلك أم لا ؟ اختلفوا فيه ، قال بعضهم : إنها تدخل فيه ، وقال بعضهم : إنها لا تكون عقاباً ، لأن كل أحد نزلت به مصيبة فإنه مأمور بالصبر عليها ، ولو كان عقاباً لم يجب ذلك ، فالمراد على هذا القول من الآية القتل ، والسبيء ، واغتنام الأموال ، واللعن ، وإنما قال : ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ لأنه أزيد إن شئت بسبب القوة والشدة ، وإن شئت بسبب كثرة الأنواع ، وإن شئت بسبب أنه لا يختلط بها شيء من موجبات الراحة ، وإن شئت بسبب الدوام وعدم الانقطاع ، ثم بين بقوله : ﴿ وما لهم من الله من واق ﴾ أي أن أحداً لا يقيهم ما نزل بهم من عذاب الله .

قال الواحدي : أكثر القراء وقفوا على القاف من غير إثبات ياء في قوله (واق) وكذلك في قوله : ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ وكذلك في قوله : ﴿ وال ﴾ وهو الوجه لأنك

تقول في الوصل : هذا هاد ووال وواق ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين ، فإذا وقفت انحذف التنوين في الوقف في الرفع والجر ، والياء كانت انحذفت فيصادف الوقف الحركة التي هي كسرة في غير فاعل فتحذفها كما تحذف سائر الحركات التي تقف عليها فيصير هاد ، ووال ، وواق .

وكان ابن كثير يقف بالياء في هادي ووالي وواقي ووجهه ما حكى سيبويه أن بعض من يوثق به من العرب يقول : هذا داعي فيقفون بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 44.46﴾

(81/413)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفسٍ بما كسبت ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم الملائكة الذين وكلوا ببني آدم ، قاله الضحاك .

الثاني : هو الله القائم على كل نفس بما كسبت ، قاله قتادة .

الثالث : أنها نفسه .

وفي قوله تعالى : ﴿ قائم ﴾ وجهان :

أحدهما : يعني والياً ، كما قال تعالى ﴿ قائماً بالقسط ﴾ أي والياً بالعدل .

الثاني : يعني عالماً بما كسبت ، قال الشاعر :

فلولا رجالٌ من قريش أعزةٌ . . . سرقتم ثياب البيت والله قائم

ويحتمل ﴿ بما كسبت ﴾ وجهين :

أحدهما : ما كسبت من رزق تفضلاً عليها فيكون خارجاً مخرج الامتنان .

الثاني : ما كسبت من عمل حفظاً عليها ، فيكون خارجاً مخرج الوعد والوعيد

﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ يعني أصناماً جعلوها آلهة .

﴿ قل سموهم ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : قل سموهم آلهة على وجه التهديد .

الثاني : يعني قل صفوهم ليعلموا أنهم لا يجوز أن يكونوا آلهة .

﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ أي تخبرونه بما لا يعلم أن في الأرض إلهاً غيره .

﴿ أم بظاهر مِن القول ﴾ فيها أربعة تأويلات :

أحدها : معناه بباطل من القول ، قاله قتادة ، ومنه قول الشاعر :

أعَيّرتنا ألبانها ولحومها . . . وذلك عارٌ يا ابن ريطة ظاهر

أي بالحل .

الثاني : بظن من القول ، وهو قول مجاهد .

الثالث : بكذب من القول ، قاله الضحاك .

الرابع : أن الظاهر من القول هو القرآن ، قاله السدي .

ويحتمل تأويلاً خامساً : أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم ، ويكون معنى الكلام : أتخبرونه بذلك مشاهدين أم تقولون محتجّين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(82/413)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ ولقد استهزىء ﴾ الآية ،

هذه آية تأنيس للنبي عليه السلام ، أي لا يضيق صدرك يا محمد بما ترى من قومك وتلقى منهم ، فليس ذلك ببدع ولا نكير ، قد تقدم هذا في الأمم و" أمليت لهم " أي مددت المدة وأطلت ، والإملاء : الإمهال على جهة الاستدراج ، وهو من الملاوة من الزمن ، ومنه : تمليت حسن العيش . وقوله : ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ تقرير وتعجيب ، في ضمنه وعيد للكفار المعاصرين لمحمد عليه السلام .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾

هذه الآية راجعة بالمعنى إلى قوله : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربي لا إله إلا هو ﴾ [الرعد : 30] والمعنى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ أحق بالعبادة أم الجمادات التي لا تنفع ولا تضر ؟ - هذا تأويل - ويظهر أن القول مرتبط بقوله : ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ كأن المعنى : أفمن له القدرة والوحدانية ويجعل له شريك أهل أن ينتقم ويعاقب أم لا ؟ .

و " الأنفس " من مخلوقاته وهو قائم على الكل أي محيط به لتقرب الموعظة من حس السامع . ثم خص من أحوال الأنفس حال كسبها ليتفكر الإنسان عند نظر الآية في أعماله وكسبه .

وقوله : ﴿ قل سموهم ﴾ أي سموا من له صفات يستحق بها الألوهية ثم أضرب القول وقرر : هل تعلمون الله ﴿ بما لا يعلم ﴾ ؟ .

وقرأ الحسن : " هل تنْبئونه " بإسكان النون وتخفيف الباء و ﴿ أم ﴾ هي بمعنى : بل ، وألف الاستفهام - هذا مذهب سيبويه - وهي كقولهم : إنها لإبل أم شاء .

ثم قررهم بعد ، هل يريدون تجويز ذلك بظاهر من الأمر ، لأن ظاهر الأمر له إلباس ما وموضع من الاحتمال ، وما لم يكن إلا بظاهر القول فقط فلا شبهة له .

وقرأ الجمهور " زُين " على بناء الفعل للمفعول " مكرُهم " بالرفع ، وقرأ مجاهد " زَين " على بنائه للفاعل " مكرَهم " بالنصب ، أي زين الله ، و﴿ مكرهم ﴾ : لفظ يعم أقوالهم وأفعالهم التي كانت بسبيل مناقضة الشرع . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي " وصُدوا " بضم الصاد ، وهذا على تعدي الفعل وقرأ الباقون هنا ، وفي " صم " المؤمن – بفتحها ، وذلك يحتمل أن يكون " صَدوا " أنفسهم أو " صدوا " غيرهم ، وقرأ يحيى بن وثاب : " وصِدوا " بكسر الصاد .

وقوله : ﴿ لهم عذاب ﴾ الآية ، آية وعيد أي لهم عذاب في دنياهم بالقتل والأسر والجدوب والبلايا في أجسامهم وغير ذلك مما يمتحنهم الله ، ثم لهم في الآخرة عذاب ﴿ أشق ﴾ من هذا كله ، وهو الاحتراق بالنار ، و﴿ أشق ﴾ أصعب من المشقة ، و" الواقي " : الساتر على جهة الحماية من الوقاية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(84/413)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾

يعني : نفسه عز وجل .

ومعنى القيام هاهنا : التولي لأمور خَلقه ، والتدبير لأرزاقهم وآجالهم ، وإِحصاء أعمالهم للجزاء ، والمعنى : أفمن هو مجازي كلّ نفس بما كسبت ، يثيبها إِذا أحسنت ، ويأخذها بما جنت ، كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام ؟

قال الفراء : فتُرِكَ جوابه ، لأن المعنى معلوم ، وقد بيَّنه بعد هذا بقوله : ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ كأنه قيل : كشركائهم .

قوله تعالى : ﴿ قل سمَّوهم ﴾ أي : بما يستحقونه من الصفات وإِضافةِ الأفعال إِليهم إِن كانوا شركاء لله كما يُسمى الله بالخالق ، والرازق ، والمحيي ، والمميت ، ولو سمَّوهم بشيء من هذا لكذبوا .

قوله تعالى : ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ هذا استفهام منقطع مما قبله ، والمعنى : فإِن سمَّوهم بصفات الله ، فقل لهم : أتنبئونه ، أي : أتخبرونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلم لنفسه شريكاً ، ولو كان لَعَلِمَه .

قوله تعالى : ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أم بظن من القول ، قاله مجاهد .

والثاني : بباطل ، قاله قتادة .

والثالث : بكلام لا أصل له ولا حقيقة .

قوله تعالى : ﴿ بل زُيِّن للذين كفروا مكرُهم ﴾ قال ابن عباس : زين لهم الشيطان الكفر .

قوله تعالى : ﴿ وصدّوا عن السبيل ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر :

"وَصَدُّوا" بفتح الصاد ، ومثله في (حم المؤمن) [غافر : 37] .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : "وصُدُّوا" بالضم فيهما .

فمن فتح ، أراد : صَدُّوا المسلمين ، إِما عن الإِيمان ، أو عن البيت الحرام .

ومن ضم ، أراد : صدهم الله عن سبيل الهدى .

قوله تعالى : ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾

وهو القتل ، والأسر ، والسقم ، فهو لهم في الدنيا عذاب ، وللمؤمنين كفَّارة ، ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ أي : أشد ﴿ وما لهم من الله من واق ﴾ أي : مانع يقيهم عذابه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(85/413)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ تقدّم معنى الاستهزاء في "البقرة" ومعنى الإملاء في "آل عمران" أي سُخِر بهم ، وأُزْرِي عليهم ؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم ؛ فلما حقّ القضاء أخذتهم بالعقوبة .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي فكيف رأيت ما صنعت بهم ، فكذلك أصنع بمشركي قومك .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ليس هذا القيام القيام الذي هو ضدّ القعود ، بل هو بمعنى التولّي لأمور الخلق ؛ كما يقال : قام فلان بشغل كذا ؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب ، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها ؛ فالمعنى : أنه حافظ لا يغفل ، والجواب محذوف ؛ والمعنى : أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل .

وقيل : "أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ" أي عالم ؛ قاله الأعمش .

قال الشاعر :

فلولا رجالٌ من قريشٍ أَعِزّة . . .

سَرَقْتُمْ ثيابَ البيتِ واللَّهُ قائمُ

أي عالم ؛ فالله عالم بكسب كل نفس .

وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم ، عن الضحاك .

﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ حال ؛ أي أو قد جعلوا ، أو عطف على "اسْتُهْزِىءَ" أي استهزؤوا وجعلوا ؛ أي سمّوا ﴿ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ يعني أصناماً جعلوها آلهة .

﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد : "سَمُّوهُمْ" أي بيّنوا أسماءهم ، على جهة التهديد ؛ أي إنما يسمّون : اللاّت والعُزّى ومَنَاة وهُبَل .

﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأرض ﴾ "أم" استفهام توبيخ ، أي أتنبئونه ؛ وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدّم في المعنى ؛ لأن قوله : "سَمُّوهُمْ" معناه : أَلَهُمْ أسماء الخالقين .

"أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ" .

وقيل : المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه .

(86/413)

"أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ" يعلمه ؟ فإن قالوا : بباطن لا يعلمه أحالوا ، وإن قالوا : بظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ؛ فإذا سموهم اللاّت والعُزّى فقل لهم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً .

وقيل : "أَمْ تُنَبِّئُونَهُ" عطف على قوله : "أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ" أي أفمن هو قائم ، أم تنبئون الله بما لا يعلم ؛ أي أنتم تدعون لله شريكاً ، والله لا يعلم لنفسه شريكاً ؛ أفتنبئونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلمها وإنما خصّ الأرض بنفي الشريك عنها وإن لم يكن له شريك في غير الأرض لأنهم ادعوا له شركاء في الأرض .

ومعنى .

﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ القول ﴾ : الذي أنزل الله على أنبيائه .

وقال قَتَادة : معناه بباطل من القول ؛ ومنه قول الشاعر :

أَعَيَّرْتَنَا أَلْبَانَهَا ولُحُومَهَا . . .

وذِلِك عارٌ يا بن رَيْطَةَ ظَاهِرُ

أي باطل .

وقال الضّحاك : بكذب من القول .

ويحتمل خامساً : أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم ؛ ويكون معنى الكلام : أتخبرونه بذلك مشاهدين ، أم تقولون محتجين .

﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ ﴾ أي دع هذا بل زين للذين كفروا مكرهم ؛ قيل : استدراك على هذا الوجه ، أي ليس لله شريك ، لكن زين للذين كفروا مكرهم .

وقرأ ابن عباس ومجاهد : "بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ" مسمَّى الفاعل ؛ وعلى قراءة

الجماعة فالذي زَيّن للكافرين مكرهم الله تعالى ، وقيل : الشيطان .

ويجوز أن يسمى الكفر مكراً ؛ لأن مكرهم بالرسول كان كفراً .

﴿ وَصُدُّواْ عَنِ السبيل ﴾ أي صدّهم الله ؛ وهي قراءة حمزة والكسائي .

الباقون بالفتح ؛ أي صدّوا غيرهم ؛ واختاره أبو حاتم ، اعتباراً بقوله : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [الأنفال : 47] وقوله : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾ [الفتح : 25] .

(87/413)

وقراءة الضم أيضاً حسنة في "زين" و"صدّوا" لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك في مذهب أهل السنة ؛ ففيه إثبات القَدر ، وهو اختيار أبي عبيد .

وقرأ يحيى بن وثّاب وعلقمة "وصدّوا" بكسر الصاد ؛ وكذلك .

﴿ هذه بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ [يوسف : 65] بكسر الراء أيضاً على ما لم يسم فاعله ؛ وأصلها صدِدوا وردِدت ، فلما أدغمت الدال الأولى في الثانية نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ بخذلانه .

﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي موفّق ؛ وفي هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم ؛ لقوله : "وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ" ، فكذلك قوله : "وَصَدُّوا" .

ومعظم القراء يقفون على الدّال من غير الياء ؛ وكذلك "والٍ" و"واقٍ" ؛ لأنك تقول في الرجل : هذا قاضٍ ووالٍ وهادٍ ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين .

وقرىء "فَمَا لَهُ مِنْ هَادِي" ، و"وَالِي" و"وَاقِي" بالياء ؛ وهو على لغة من يقول : هذا داعي ووالي وواقي بالياء ؛ لأن حذف الياء في حالة الوصل لالتقائها مع التنوين ، وقد أمنا هذا في الوقف ؛ فردّت الياء فصار هادي ووالي وواقي .

وقال الخليل في نداء قاضٍ : يا قاضي بإثبات الياء ؛ إذ لا تنوين مع النداء ، كما لا تنوين في نحو الداعي والمتعالي .

قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الحياة الدنيا ﴾ أي للمشركين الصادّين ، بالقتل والسَّبْي والإسار ، وغير ذلك من الأسقام والمصائب .

﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَقُّ ﴾ أي أشدّ ؛ من قولك : شَقّ عليّ كذا يَشُقّ .

﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ الله مِن وَاقٍ ﴾ أي مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع .

و"مِن" زائدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك ﴾

وذلك أن كفار مكة إنما سألوا هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله هذه الآية تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمعنى أنهم إنما طلبوا منك هذه الآيات على سبيل الاستهزاء ، وكذلك قد استهزئ برسل من قبلك ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ يعني فأمهلتهم وأطلت لهم المدة ﴿ ثم أخذتهم ﴾ يعني بالعذاب بعد الإمهال فعذبتهم في الدنيا بالقحط والقتل والأسر وفي الآخرة بالنار ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ يعني فكيف كان عقابي لهم ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ يعني أفمن هو حافظها ورازقها وعالم بها وبما عملت من خير وشر ويجازيها بما كسبت فيثيبها إن أحسنت ويعاقبها إن أساءت وجوابه محذوف ، وتقديره كمن ليس بقائم بل هو عاجز عن نفسه ومن كان عاجزاً عن نفسه فهو عن غيره أعجز وهي الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ يعني وهو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي جعلوها لله شركاء ﴿ قل سموهم ﴾ يعني له .

وقيل : صفوهم بما يستحقون ثم انظروا هل هي أهل لأن تعبد ﴿ أم تنبئونه ﴾ يعني أم تخبرون الله ﴿ بما لا يعلم في الأرض ﴾ يعني أنه لا يعلم أن لنفسه شريكاً من خلقه وكيف يكون المخلوق شريكاً للخالق وهو العالم بما في السموات والأرض ولو كان لعلمه والمراد من ذلك نفي العلم بأن يكون له شريك ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ يعني أنهم يتعلقون بظاهر من القول مسموع وهو في الحقيقة باطل لا أصل له وقيل : معناه بل بظن من القول لا يعلمون حقيقته ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ قال ابن عباس : زين لهم الشيطان الكفر وإنما فسر المكر بالكفر لأن مكرهم برسول الله (صلى الله عليه وسلم) كفر منهم والمزين في الحقيقة هو الله تعالى لأنه هو الفاعل المختار على الإطلاق لا يقدر أحد أن يتصرف في الوجود إلا بإذنه فتزيين الشيطان إلقاء الوسوسة فقط ، ولا يقدر على إضلال أحد وهدايته إلا الله تعالى ويدل على هذا سياق الآية وهو قوله : ومن يضلل الله فما له من هاد ، وقوله ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ قرئ بضم الصاد ومعناه صرفوا عن سبيل الدين والرشد والهداية ومنعوا من ذلك والصاد المانع لهم هو الله تعالى ، وقرئ وصدوا بفتح الصاد ومعناه أنهم صدوا عن سبيل الله غيرهم أي عن الإيمان ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ الوقف عليه بسكون الدال وحذف الياء في قراءة أكثر القراء ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ يعني بالقتل والأسر ونحو ذلك مما فيه غيظهم ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾

يعني أشد وأغلظ لأن المشقة غلظ الأمر على النفس وشدته مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذي هو الصدع ﴿ وما لهم من الله ﴾ يعني من عذاب الله ﴿ من واق ﴾ يعني من مانع يمنعهم من عذابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(90/413)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

وفي قوله : ولقد استهزىء الآية ، تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام ، وأنّ حالك حال من تقدمك من الرسل ، وأنّ المستهزئين يملى لهم أي : يمهلون ثم يؤخذون .

وتنبيه على أنّ حال من استهزأ بك ، وإن أمهل حال أولئك في أخذهم ووعيد لهم .

وفي قوله : فكيف كان عقاب استفهام معناه التعجب بما حل ، وفي ضمنه وعيد معاصري الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الكفار .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾

من موصولة صلتها ما بعدها ، وهي مبتدأ والخبر محذوف تقديره : كمن ييئس ، كذلك من شركائهم التي لا تضر ولا تنفع ، كما حذف من قوله : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو

على نور من ربه ﴾ تقديره : كالقاسي قلبه الذي هو في ظلمة .

ودل عليه قوله تعالى : وجعلوا لله شركاء ، كما دل على القاسي ﴿ فويل للقاسية قلوبهم ﴾ ويحسن حذف هذا الخبر كون المبتدأ يكون مقابله الخبر المحذوف ، وقد جاء مثبتاً كثيراً كقوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ ﴿ أفمن يعلم ﴾ ثم قال : ﴿ كمن هو أعمى ﴾ والظاهر أنّ قوله تعالى : وجعلوا لله شركاء ، استئناف إخبار عن سوء صنيعهم ، وكونهم أشركوا مع الله ما لا يصلح للألوهية .

نعى عليهم هذا الفعل القبيح ، هذا والباري تعالى هو المحيط بأحوال النفوس جليها وخفيها .

ونبه على بعض حالاتها وهو الكسب ، ليتفكر الإنسان فيما يكسب من خير وشر ، وما يترتب على الكسب في الجزاء ، وعبر بقائم عن الإحاطة والمراقبة التي لا يغفل عنها .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يقدر ما يقع خبراً للمبتدأ ، ويعطف عليه وجعلوا لله أي : وجعلوا ، وتمثيله : أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه ، وجعلوا له شركاء ، وهو الله الذي يستحق العبادة وحده انتهى .

وفي هذا التوجيه إقامة الظاهر مقام المضمر في قوله : وجعلوا لله أي : وجعلوا له ، وفيه حذف الخبر عن المقابل ، وأكثر ما جاء هذا الخبر مقابلاً .

وفي تفسير أبي عبد الله الرازي قال : الشديد صاحب العقد ، الواو في قوله تعالى : وجعلوا واو الحال ، والتقدير : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت موجود ، والحال أنهم جعلوا له شركاء ، ثم أقيم الظاهر وهو لله مقام المضمر تقديراً لألوهيته وتصريحاً بها ، كما تقول : معطي الناس ومغنيهم موجود ، ويحرم مثلي انتهى .

وقال ابن عطية : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أحق بالعبادة أم الجمادات التي لا تضر ولا تنفع ؟ هذا تأويل .

ويظهر أنّ القول مرتبط بقوله : وجعلوا لله شركاء ، كأنّ المعنى : أفمن له القدرة والوحدانية ويجعل له شريك ، هل ينتقم ويعاقب أم لا ؟ وأبعد من ذهب إلى أنّ قوله : أفمن هو قائم المراد به الملائكة الموكلون ببني آدم ، حكاه القرطبي عن الضحاك .

والخبر أيضاً محذوف تقديره : كغيره من المخلوقين .

وأبعد أيضاً من ذهب إلى أن قوله : وجعلوا معطوفاً على استهزىء ، أي : استهزؤوا وجعلوا ، ثم أمره تعالى أن يقول لهم : سموهم أي : اذكروهم بأسمائهم ، والمعنى : أنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى ، إنما يذكر ويسمى من هو ينفع ويضرّ ، وهذا مثل من يذكر لك أن شخصاً يوقر ويعظم وهو عندك لا يستحق ذلك فتقول لذاكره : سمه حتى أبين لك زيفه وأنه ليس

كما تذكر .

وقريب من هذا قول من قال في قوله : قل سموهم ، إنما يقال ذلك في الشيء المستحقر الذي يبلغ في الحقارة إلى أنْ لا يذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال له : سمه إن شئت أي : هو أخس من أن يذكر ويسمى .

ولكن إن شئت أن تضع له اسماً فافعل ، فكأنه قال : سموهم بالآلهة على جهة التهديد .

والمعنى : سواء سميتموهم بهذا الاسم أم لم تسموهم به فإنها في الحقارة بحيث لا يستحق أن يلفت العاقل إليها .

وقيل : سموهم إذا صنعوا وأماتوا وأحيوا لتصح الشركة .

(92/413)

وقيل : طالبوهم بالحجة على أنها آلهة .

وقيل : صفوهم وانظروا هل يستحقون الإلهية ؟ وقال الزمخشري : جعلتم له شركاء فسموهم له من هم ، ونبئوهم بأسمائهم .

وقيل : هذا تهديد كما تقول لمن تهدده على شرب الخمر : سم الخمر بعد هذا .

وأم في قوله : أم تنبؤونه منقطعة ، وهو استفهام توبيخ .

قال الزمخشري : بل أتنبؤونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض ، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم ، والمراد نفي أن يكون له شركاء ، ونحوه : ﴿ قل أتنبؤون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾ انتهى .

فجعل الفاعل في قوله : بما لا يعلم ، عائداً على الله .

والعائد على بما محذوف أي : بما لا يعلمه الله .

وكنا قد خرجنا تلك الآية على الفاعل في قوله : بما لا يعلم ، عائد على ما ، وقررنا ذلك هناك ، وهو يتقرر هنا أيضاً .

أي : أتنبؤون الله بشركة الأصنام التي لا تتصف بعلم البتة .

وذكر نفي العلم في الأرض ، إذ الأرض هي مقر تلك الأصنام ، فإذا انتفى علمها في المقر التي هي فيه ، فانتفاؤه في السموات أحرى .

وقرأ الحسن : تنبؤونه من أنبأ .

وقيل : المراد تقدرون أنْ تعلموه بأمر تعلمونه أنتم وهو لا يعلمه ، وخص الأرض بنفي الشريك بأنه لم يكن له شريك البتة ، لأنهم ادَّعوا أنَّ لله شريكاً في الأرض لا في غيرها .

والظاهر في أم في قوله : أم ، بظاهر أنها منقطعة أيضاً أي : بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة أي : أنكم تنطقون بتلك الأسماء وتسمونها آلهة ولا حقيقة لها ، إذ أنتم لا تعلمون أنها لا تتصف بشيء من أوصاف الألوهية كقوله : ﴿ ما

تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها ﴾ وقال مجاهد : أم بظاهر من القول .

وقال قتادة : بباطل من القول ، لا باطن له في الحقيقة .

ومنه قول الشاعر :

أعيرتنا ألبانها ولحومها . . .

وذلك عار يا بن ريطة ظاهر

أي باطل .

وقيل : أم متصلة ، والتقدير : أم تنبئونه بظاهر من القول لا حقيقة له كقوله : ﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ ثم قال بعد هذا الحجاج على وجه التحقير لما هم عليه : بل زين للذين كفروا مكرهم .

وقال الواحدي : لما ذكر الدلائل على فساد قولهم وقال : دع ذلك الدليل لأنهم لا ينتفعون به ، لأنه زيّن لهم مكرهم .

وقرأ مجاهد : بل زين على البناء للفاعل مكرهم بالنصب .

والجمهور : زين على النباء للمفعول مكرهم بالرفع أي : كيدهم للإسلام بشركهم ، وما

قصدوا بأقوالهم وأفعالهم من مناقضة الشرع .

وقرأ الكوفيون : وصدّوا هنا ، وفي غافر بضم الصاد مبنياً للمفعول ، فالفعل متعد .

وقرأ باقي السبعة : بفتحها ، فاحتمل التعدّي واللزوم أي : صدوا أنفسهم أو غيرهم .

وقرأ ابن وثاب : وصدوا بكسر الصاد ، وهي كقراءة ردت إلينا بكسر الراء .

وفي اللوامح الكسائي لابن يعمر : وصدوا بالكسر لغة ، وفي الضم أجراه بجرف الجر نحو قبل ، فأما في المؤمن فبالكسر لابن وثاب انتهى .

وقرأ ابن أبي إسحاق : وصد بالتنوين عطفاً على مكرهم .

قال الزمخشري : ومن يضلل الله ، ومن يخذله يعلمه أنه لا يهتدي ، فما له من هاد فما له من واحد يقدر على هدايته انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال .

والعذاب في الدنيا هو ما يصيبهم بسبب كفرهم من القتل والأسر والنهب والذلة والحروب والبلايا في أجسامهم ، وغير ذلك مما يمتحن به الكفار .

وكان عذاب الآخرة أشق على النفوس ، لأنه إحراق بالنار دائماً ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ﴾ ومن واق : من ساتر يحفظهم من العذاب ويحميهم ، ولما ذكر ما أعد للكفار في الآخرة ذكر ما أعد للمؤمنين فقال : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون . . . . . ﴾ . انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(94/413)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدِ اسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ ﴾

كثيرة خلت ﴿ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي تركتهم ملاوةً من الزمان في أمن ودعةٍ كما يملى للبهمية في المرعى . وهذا تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقيَ من المشركين من التكذيب والاقتراحِ على طريقة الاستهزاءِ به ووعيدٌ لهم ، والمعنى أن ذلك ليس مختصاً بك بل هو أمرٌ مطردٌ قد فُعل ذلك برسل كثيرة كائنةٍ من قبلك فأمهلت الذين فعلوه بهم ، والعدول في الصلة إلى وصف الكفر ليس لأن المملى لهم غيرُ المستهزئين بل لإرادة الجمعِ بين الوصفين أي فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم لا باستهزائهم فقط ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي عقابي إياهم ، وفيه من الدلالة على تناهي كيفيته في الشدة والفظاعة ما لا يخفى .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ ﴾

(95/413)

أي رقيبٌ مهيمنٌ ﴿ على كُلِّ نَفْسٍ ﴾ كائنة من كانت ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ من خير أو شر لا يخفى عليه شيء من ذلك بل يجازي كلاًّ بعمله وهو الله تعالى والخبرُ محذوفٌ أي كمن ليس كذلك إنكاراً لذلك، وإدخالُ الفاء لتوجيه الإنكارِ إلى توهم المماثلة غِبَّ ما عُلم مما فعل تعالى بالمستهزئين من الإملاء المديدِ والأخذ الشديد ومن كونِ الأمرِ كله لله تعالى وكونِ هداية الناس جميعاً منوطةً بمشيئته تعالى ومن تواتر القوارعِ على الكفرة إلى أن يأتيَ وعدُ الله كأنه قيل: الأمرُ كذلك، فمن هذا شأنُه كما ليس في عداد الأشياء حتى تُشركوه به؟ فالإنكار متوجهٌ إلى ترتب المعطوفِ أعني توهّمَ المماثلة على المعطوف عليه المقدر أعني كونَ الأمر كما ذُكر كما في قولك: أتعلم الحقَّ فلا تعمل به؟ لا إلى المعطوفين جميعاً كما إذا قلت ألا تعلمه فلا تعمل به، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء ﴾ جملةٌ مستقلة جيء بها للدلالة على الخبر أو حالية، أي أفمن هذه صفاتُه كما ليس كذلك وقد جعلوا له شركاءَ لا شريكاً واحداً، أو معطوفةٌ على الخبر إن قدّر ما يصلح لذلك أي أفمن هذا شأنُه لم يوحّدوه وجعلوا له شركاءَ؟ ووضعُ المظهرِ موضعَ المضمر للتنصيص على وحدانيته ذاتاً واسماً وللتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادةِ مع ما فيه من البيان بعد الإبهام بإيراده موصولاً للدلالة على التفخيم، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ تبكيتٌ لهم إثرَ تبكيتٍ أي سمُّوهم من هم وماذا أسماؤهم أو صِفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشِركة ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ ﴾ أي بل أتنبئون الله ﴿ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى الأرض

﴿ أي بشركاءَ مستحقين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى ولا يعزُب عنه مثقالُ ذرة في السموات والأرض وقرىء بالتخفيف ﴿ أَم بظاهر مّنَ القول ﴾ أي بل أتسمونهم بشركاء بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى وحقيقةٌ كتسمية الزنجيّ كافوراً

(96/413)

كقوله تعالى : ﴿ ذلك قَوْلُهُم بأفواههم ﴾ وها تيك الأساليبُ البديعة التي ورد عليها الآيةُ الكريمةُ مناديةٌ على أنها خارجةٌ عن قدرة البشر من كلام خلاقِ القُوى والقدَر فتبارك الله رب العالمين .

﴿ بَلْ زُيّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وضع الموصولُ موضع المضمر ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالكفر ﴿ مَكْرِهِمْ ﴾ تمويهُهم الأباطيلَ أو كيدهم للإسلام بشركهم ﴿ وَصُدُّواْ عَنِ السبيل ﴾ أي سبيلِ الحق ، من صدّه صداً ، وقرىء بكسر الصاد على نقل حركة الدالِ إليها وقرىء بفتحها أي صدوا الناس أو من صد صدوداً ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ أي يخلق فيه الظلالَ بسوء اختياره أو يخذله ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يوفقه للهدى .

﴿ لَّهُمْ عَذَابَ ﴾ شاق ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب فإنها إنما تصيبهم عقوبةً على كفرهم ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَقُّ ﴾ من ذلك

بالشدة والمدة ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ ﴾ من عذابه المذكور ﴿ مِن وَاقٍ ﴾ من حافظ يعصمهم من ذلك ، فمن الأولى صلة للوقاية والثانية مزيدة للتأكيد . انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(97/413)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

أي ركتهم ملاوة أي من الزمان ومنه الملوان في أمن ودعة كما يملي للبهيمة في المرعى ، وهذا تسلية للحبيب صلى الله عليه وسلم عما لقي من المشركين من الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام وتكذيبه وعدم الاعتداد بآياته واقتراح غيرها وكل ذلك في المعنى استهزاء ووعيد لهم ، والمعنى أن ذلك ليس مختصاً بك بل هو أمر مطرد قد فعل برسل جليلة كثيرة كائنة من قبلك فأمهلت الذين فعلوه بهم ، والعدول في الصلة إلى وصف الكفر ليس لأن المملي لهم غير المستهزئين بل للإشارة إلى أن ذلك الاستهزاء كفر كما قيل .

وفي الإرشاد لإرادة الجمع بين الوصفين أي فأمليت للذين كفروا بكفرهم مع استهزائهم لا

باستهزائهم فقط ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي عقابي إياهم ، والمراد التعجيب مما حل بهم وفيه من الدلالة على شدته وفظاعته ما لا يخفى .

(98/413)

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ ﴾ أي رقيب ومهيمن ﴿ على كُلِّ نفسٍ ﴾ كائنة ما كانت ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ فعلت من خير أو شر لا يخفى عليه شيء من ذلك ولا يفوته ما يستحقه كل من الجزاء وهو الله تعالى شأنه ، وما حكاه القرطبي عن الضحاك من أن المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم فمما لا يكاد يعرج عليه هنا ، و ﴿ مَنْ ﴾ مبتدأ والخبر محذوف أي كمن ليس كذلك ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإسلام فَهُوَ على نُورٍ مّن رَّبّهِ ﴾ [الزمر : 22] وحسن حذفه المقابلة ، وقد جاء مثبتاً كثيراً كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [النحل : 17] وقوله سبحانه : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ [الرعد : 19] إلى غير ذلك ، والهمزة للاستفهام الإنكاري ، وإدخال الفاء قيل : لتوجيه الإنكار إلى توهم المماثلة غب ما علم مما فعل سبحانه بالمستهزئين من الإملاء والأخذ ومن كون الأمر كله له سبحانه وكون هداية الناس جميعاً منوطة بمشيئته جل وعلا ومن تواتر القوارع على الكفرة حتى يأتي وعده تعالى كأنه قيل :

الأمر كذلك فمن هذا شأنه كما ليس في عداد الأشياء حتى يشركوه به فالإنكار متوجه إلى ترتب المعطوف أعني توهم المماثلة على المعطوف عليه القدر أعني كون الأمر كما ذكر لا إلى المعطوفين جميعاً وفي "الكشف" أنه ضمن هذا التعقيب الترقي في الإنكار يعني لا عجب من إنكارهم لآياتك الباهرة مع ظهورها إنما العجب كل العجب جعلهم القادر على إنزالها المجازي لهم على إعراضهم عن تدبر معانيها وأمثالها بقوارع تترى واحدة غب أخرى يشاهدونها رأى عين تترامى بهم إلى دار البوار وأهوالها كمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عمن اتخذه رباً يرجو منه دفعاً أو جلباً .

وزعم بعضهم أن الفاء للتعقيب الذكري أي بعد ما ذكر أقول هذا الأمر وليس بذاك ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء ﴾ جملة مستأنفة وفيها دلالة على الخبر المحذوف ، وجوز أن تكون معطوفة على ﴿ كَسَبَتْ ﴾ على تقدير أن تكون ﴿ مَا ﴾ مصدرية لا موصولة والعائد محذوف ، ولا يلزم اجتماع الأمرين حتى يخص كل نفس بالمشركين ، وأبعد من قال : إنها عطف على ﴿ اسهزىء ﴾ [الرعد : 32] وجوز أن تكون حالية على معنى أفمن هذه صفاته كمن ليس كذلك ؟ وقد جعلوا له شركاء لا شريكاً واحداً ، وقال صاحب

حل العقد : المعنى على الحالية أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت موجود والحال أنهم جعلوا له شركاء ، وهذا نظير قولك : أجواد يعطي الناس ويغنيهم موجود ويحرم مثلي .

ومنهم من أجاز العطف على جملة ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ كمن ليس كذلك لأن الاستفهام الإنكاري بمعنى النفي فهي خبرية معنى ، وقدر آخرون الخبر لم يوحدوه وجعل العطف عليه أي أفمن هذا شأنه لم يوحدوه وجعلوا له شركاء وظاهر كلامهم اختصاص العطف على الخبر بهذا التقدير دون تقدير كمن ليس كذلك ، قال البدر الدماميني : ولم يظهر وجه الاختصاص ، ووجه ذلك الفاضل الشمني بأن حصول المناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه التي هي شرط قبول العطف بالواو إنما هو على التقدير الأخير دون التقدير الأول .

ويدل على الاشتراط قول أهل المعاني : زيد يكتب ويشعر مقبول دون يعطي ويشعر .

(100/413)

وتعقبه الشهاب بأنه من قلة التدبر فإن مرادهم أنه على التقدير الأول يكون الاستفهام إنكارياً بمعنى لم يكن نفياً للتشابه على طريق الإنكار فلو عطف جعلهم شركاء عليه يقتضي أنه لم يكن وليس بصحيح ، وعلى التقدير الأخير الاستفهام توبيخي والإنكار فيه

بمعنى لم كان وعدم التوحيد وجعل الشركاء واقع موبخ عليه منكر فيظهر العطف على الخبر ، وأما ما ذكر من حديث التناسب فغفلة لأن المناسبة بين تشبيه الله سبحانه بغيره والشرك تامة ؛ وعلى الوجه الأخير عدم التوحيد عين الإشراك فليس محلاً للعطف عند أهل المعاني على ما ذكره فهو محتاج إلى توجيه آخر .

(101/413)

واختار بعض المحققين التقدير الأول ، وفي ذلك الحذف تعظيم للقالة وتحقير لمن زن بتلك الحالة ، وفي العدول عن صريح الاسم في ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ ﴾ تفخيم فخيم بواسطة الإبهام المضمر في إيراده موصولا مع تحقيق أن القيام كائن وهم محققون ، وفي وضع الاسم الجليل موضع الراجع إلى ﴿ مِنْ ﴾ تنصيص على وحدانيته تعالى ذاتاً واسماً وتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة مع ما فيه من البيان بعد الإبهام ، ولعل توجيه الوضع المذكور مما لا يختص به تقدير دون تقدير وخصه بعضهم فيما يحتاج عليه إلى ضمير ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ تبكيت إثر تبكيت أي سموهم من هم وماذا أسماؤهم ؟ وفي البحر أن المعنى أنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى إنما يذكر ويسمى من ينفع ويضر ، وهذا مثل أن يذكر لك أن شخصاً يوقر ويعظم وهو عندك لا يستحق ذلك فتقول لذاكره : سمه حتى أبين لك زيفه وإنه

بمعزل عن استحقاق ذلك ، وقريب منه ما قيل : إن ذلك إنما يقال في الشيء المستحقر الذي يبلغ في الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم فيقال سمه على معنى أنه أخس من أن يذكر ويسمى ولكن إن شئت أن تضع له اسماً فافعل فكأنه قيل : سموهم بالآلهة على التهديد ، والمعنى سواء سميتموهم بذلك أم لم تسموهم به فانهم في الحقارة بحيث لا يستحقون أن يلتفت إليهم عاقل ، وقيل : إن التهديد هنا نظير التهديد لمن نهى عن شرب الخمر ثم قيل له : سم الخمر بعد هذا وهو خلاف الظاهر ، وقيل : المعنى اذكروا صفتهم وانظروا هل فيها ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ﴿ أَمْ ﴾ أي بل أتخبرون الله تعالى ﴿ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى الأرض ﴾ أي بشركاء مستحقين للعبادة ر يعلمهم سبحانه وتعالى ، والمراد نفيها بنفي لازمها على طريق الكناية لأنه سبحانه إذا كان لا يعلمها وهو الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فهي لا حقيقة لها أصلاً ، وتخصيص الأرض بالذكر لأن المشركين إنما زعموا أنه سبحانه له

شركاء فيها ، والضمير المستقر في ﴿ يَعْلَمْ ﴾ على هذا التفسير لله تعالى والعائد على ﴿ مَا ﴾ محذوف كما أشرنا إلى ذلك .

وجوز أن يكون العائد ضمير ﴿ يَعْلَمْ ﴾ والمعنى اتنبؤن الله تعالى بشركة الأصنام التي لا تتصف بعلم البتة ، وذكر نفي العلم في الأرض لأن الأرض مقر الأصنام فإذا انتفى علمها في المقر التي هي فيه فانتفاؤه في السموات العلى أحرى ، وقرأ الحسن ﴿ أتنبؤنه ﴾ بالتخفيف من الانباء ﴿ الأرض أَم بظاهر مّنَ القول ﴾ أي بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير معنى متحقق في نفس الأمر كتسمية الزنجي كافوراً كقوله تعالى : ﴿ ذلك قَوْلُهُم بأفواههم ﴾ [التوبة : 30] وروي عن الضحاك .

وقتادة أن الظاهر من القول الباطل منه ، وأنشدوا من ذلك قوله :

أعيرتنا البانها ولحومها . . .

وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر

ويطلق الظاهر على الزائل كما في قوله :

وعيرها الواشون أني أحبها . . .

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

ومن أراد ذلك هنا فقد تكلف ، وعن الجبائي أن المراد من ظاهر من القول ظاهر كتاب أنزل الله تعالى وسمي به الأصنام آلهة حقه ، وحاصل الآية نفي الدليل العقلي والدليل السمعي على حقية عبادتها واتخاذها آلهة ، وجوز أن تكون ﴿ أَمْ ﴾ متصلة والانقطاع هو الظاهر ، ولا يخفى ما في الآية من الاحتجاج والأساليب العجيبة ما ينادي بلسان طلق ذلق أنه ليس من كلام البشر كما نص على ذلك الزمخشري ، وبين ذلك صاحب الكشف بأنه لما كان قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ ﴾ كافياً في هدم قاعدة الإشراك للتفرع السابق والتحقق بالوصف اللاحق مع ما ضمن من زيادات النكت وكان إبطالاً من طرف الحق وذيل بإبطاله من طرف النقيض على معنى وليتهم إذ اشركوا بمن لا يجوز أن يشرك به اشركوا من يتوهم فيه ادنى توهم وروعى فيه أنه لا أسماء للشركاء فضلاً عن المسمى على الكناية الإيمائية ثم بولغ فيه بأنه لا يستأهل السؤال عن حالها بظهور فسادها وسلك فيه مسلك الكناية التلويحية من نفي العلم بنفي المعلوم ثم منه بعدم الاستئهال ، والهمزة المضمنة فيها تدل على التوبيخ وتقرير أنهم يريدون أن ينبئوا عالم السر والخفيات بما لا يعلمه وهذا محال على محال ، وفي جعله اتخاذهم شركاء ومجادلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتة سرية بل نكت سرية ثم أضرب عن ذلك .

وقيل : قد بين الشمس لذي عينين وما تلك التسمية إلا بظاهر من القول من غير أن يكون تحته طائل وما هو إلا مجرد صوت فارغ حق لمن تأمل فيه حق التأمل أن يعترف بأنه كلام

مصون عن التعمل ، صادر عن خالق القوى والقدر ، تتضاءل عن بلوغ طرف من أسراره افهام البشر .

(104/413)

وقد ذيل الزمخشري كلامه بقوله فتبارك الله أحسن الخالقين ، وهي كما في الانتصاف كلمة حق أريد بها باطل يدندن بها من هو عن حلية الانصاف عاطل هذا ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ اضراب عن الاحتجاج عليهم ، ووضع الموصول موضع المضمر ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالكفر كأنه قيل : دع هذا فانه لا فائدة فيه لأنهم زين لهم ﴿ مَكْرِهِمْ ﴾ كيدهم للاسلام بشركهم أو تمويههم الأباطيل فتكلفوا إيقاعها في الخيال من غير حقيقة ثم بعد ذلك ظنوها شيئاً لتماديهم في الضلال ، وعلى هذا المراد مكرهم بأنفسهم وعلى الأول مكرهم بغيرهم ، وإضافة مكر إلى ضميرهم من إضافة المصدر إلى الفاعل ، وجوز على الثاني أن يكون مضافاً إلى المفعول وفيه بعد .

وقرأ مجاهد ﴿ بَلْ زُيِّنَ ﴾ على البناء للفاعل و﴿ مَكْرِهِمْ ﴾ بالنصب ﴿ وَصُدُّواْ عَنِ السبيل ﴾ أي سبيل الحق فتعريفه للعهد أو ما عداه كأنه غير سبيل ، وفاعل الصد اما مكرهم ونحوأ و الله تعالى بختمه على قلوبهم أو الشيطان باغوائه لهم ، والاحتمالان

الأخيران جاريان في فاعل التزيين ، وقرأ ابن كثير .

ونافع .

وأبو عمرو .

وابن عامر ﴿ وَصُدُّواْ ﴾ على البناء للفاعل وهو كالأول من صده صداً فالمفعول محذوف أي صدوا الناس عن الإيمان ، ويجوز أن يكون من صد صدواً فلا مفعول .

وقرأ ابن وثاب ﴿ وَصُدُّواْ ﴾ بكسر الصاد ، وقال بعضهم : إنه قرأ كذلك في المؤمن والكسر هنا لابن يعمر ، والفعل على ذلك مجهول نقلت فيه حركة العين إلى الفاء إجراء له مجرى الأجوف .

وقرأ ابن أبي اسحق ﴿ وَصُدَّ ﴾ بالتنوين عطفاً على مكرهم ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ أي يخلق فيه الضلال لسوء استعداده ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يوفقه للهدى ويوصله إلى ما فيه نجاته .

(105/413)

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ ﴾

شاق ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب فانها إنما

تصيبهم عقوبة من الله تعالى على كفرهم ، وأما وقوع مثل ذلك للمؤمن فعلى طريق الثواب ورفع الدرجات ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرةِ أَشَقُّ ﴾ من ذلك لشدته ودوامه ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ ﴾ أي عذابه سبحانه ﴿ مِن وَاقٍ ﴾ من حافظ يعضمهم من ذلك فمن الأولى صلة ﴿ وَاقٍ ﴾ والثانية مزيدة للتأكيد ، ولا يضر تقديم معمول المجرور عليه لأن الزئد لا حكم له . وجوز أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ الأولى ظرفاً مستقراً وقع حالاً من ﴿ وَاقٍ ﴾ وصلته محذوفة ، والمعنى ما لهم واق وحافظ من غذاب الله تعالى حال كون ذلك الواقي من جهته تعالى ورمته و﴿ مِنْ ﴾ على هذا للتبيين ، وجوز أيضاً أن تكون لغواً متعلقة بما في الظرف أعني ﴿ لَهُمْ ﴾ من معنى الفعل وهي للابتداء ، والمعنى ما حصل لهم من رحمة الله تعالى واق من العذاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(106/413)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي : أمهلتهم وتركتهم ملاوةً من الزمن ، في أمن ودعة ، كما يملى للبهيمة في المرعى : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي : عقابي إياهم . وفيه من الدلالة على فظاعته ما لا يخفى . والآية تسلية لرسول

الله صلى الله عليه وسلم عما لقي من المشركين من التكذيب والاقتراح ، على طريقة الاستهزاء به ، ووعيد لهم .

(107/413)

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي : مراقب لأحوالها ومشاهد لها ، لا يخفى عليه ما تكسبه من خير أو شر . فهو مجاز ؛ لأن القائم على الشيء عالم به ، ولذا يقال : وقف عليه ، إذا علمه فلم يخف عليه شيء من أحواله ، والخبر محذوف تقديره : كمن ليس كذلك . وإنما حذف اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء ﴾ أي : عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ، وقوله : ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ تبكيت لهم إثر تبكيت ، أي : سموهم من هم ، وماذا أسماؤهم ؟ فإنهم لا حقيقة لهم ! أو صفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ؟ .

وقال الرازي : إنما يقال ذلك في الأمر المستحقر الذي بلغ في الحقارة إلى ألا يذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال : سمه إن شئت ، يعني : أنه أخس من يسمى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل . فكأنه تعالى قال : سموهم بالآلهة ، على سبيل التهديد ، والمعنى : سواء سميتموهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به ، فإنها في الحقارة بحيث لا تستحق

أن يلتفت العاقل إليها .

﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : بشركاء لا يعلمهم سبحانه . وإذا كان لا يعلمهم ، وهو عالم بكل شيء مما كان ومما يكون ، فهم لا حقيقة لهم . فهو نفي لهم بنفي لازمهم على طريق الكناية .

قال الناصر : وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشركاء ، وأن الله لا يعلمهم كذلك ؛ لأنهم ليسوا كذلك ، وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله ، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة . ولكن مجيء النفي على هذا السنن المتلو بديع لا تكتنه بلاغته وبراعته . ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التصريف البديع لكان : وجعلوا لله شركاء وما هم بشركاء . فلم يكن بهذا الموقع الذي اقتضته التلاوة .

(108/413)

وقوله تعالى : ﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ أي : بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، كتسمية الزنجي كافوراً من غير بياض فيه ولا رائحة طيبة ، لفرط الجهل وسخافة العقل ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة : من الآية 30] : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ [يوسف : من الآية 40] ،

وعن الضحاك إن الظاهر بمعنى الباطل ، كقوله :

~وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر

تنبيه :

قال الزمخشري : هذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها ، منادٍ على نفسه بلسان طلق ذلق ؛ أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه .

قال شارحوه : فإن قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ ﴾ لما كان كافياً في هدم قاعدة الإشراك مع السابق واللاحق وما ضمن من زيادات النكت ، وكان إبطالاً من طريق حق ، مذيلاً بإبطال من طرف النقيض على معنى : ليتهم إذ أشركوا بمن لا يجوز أن يشرك به ، أشركوا من يتوهم فيه ذلك أدنى توهم ، وروعي فيه أنه لا أسماء للشركاء ولا حقيقة لها فضلاً عن المسمى على الكناية الإيمائية . ثم بولغ بأنها لا تستأهل أن يسأل عنها على الكناية التلويحية استدلالاً بنفي العلم عن نفي المعلوم . ثم منه إلى عدم الاستئهال مع التوبيخ ، وتقدير أنهم يريدون أن ينبئوا عالم السر والخفيات بما لا يعلمه وهو محال على محال وفي جعل اتخاذهم شركاء ، ومجادلة الرسول عليه الصلاة والسلام إنباء له تعالى ؛ نكتة بل نكت سرية . ثم أضرب عن ذلك . وقيل : قد بين الشمس لذي عينين ، وما تلك التسمية إلا بظاهر من القول لا طائل تحته بل هو صوت فارغ .

فمن تأمل حق التأمل ، اعترف بأنه كلام خالق القُوَى والقُدَر ، الذي تقف دون أستار أسراره أفهام البشر . . . . !

(109/413)

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ ﴾ إضراب عن الاحتجاج عليهم . كأنه قيل : دع ذكر ما كنا فيه من الدلائل على فساد قولهم ؛ لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم ، فلا ينتفعون بهذه الدلائل .

وقوله تعالى :

﴿ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أي : عن سبيل الله ، وقرئ بفتح الصاد أي : صدوا الناس :
﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ ﴾ أي : يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ، أو يخذله : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي : من أحد يهديه .

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وهو ما نالهم على أيدي المؤمنين ، أو ما فيه من عذاب الحيرة والضِلَّة . فإن نفس غير المؤمنين في نكد مستمر وداء دوِيّ لا برء له إلا الإيمان ، كما فصل في موضع آخر ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أي : من عذاب الدنيا كمّاً وكيفاً : ﴿

﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ أي : حافظ يعصمهم من عذابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 290 . 293 ﴾

(110/413)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32) ﴾

عطف على جملة ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ [سورة الرعد : 31] الخ ، لأن تلك المُثُل الثلاثة التي فرضت أريد بها أمور سألها المشركون النبي استهزاءً وتعجيزاً لا لترقب حصولها .

وجاءت عقب الجملتين لما فيها من المناسبة لهما من جهة المُثُل التي في الأولى ومن جهة الغاية التي في الثانية .

وقد استهزأ قوم نوح به عليه السلام ﴿ وكلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ [سورة هود : 38] ، واستهزأت عاد بهود عليه السلام ﴿ فأسقط علينا كِسْفاً من السماء إن كنتَ من الصادقِين ﴾ [سورة الشعراء : 187] ، واستهزأت ثمود بصالح عليه السلام

﴿ قال الملأ الّذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة ﴾ [سورة الأعراف : 66] ، واستهزأوا بِشُعيْب عليه السلام ﴿ قالوا يا شُعيب أصلواتك تأمُرك أن نتْرك ما يَعبد آبَاؤنَا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنّك لأنت الحليم الرشيد ﴾ [سورة هود : 87] ، واستهزأ فرعون بموسى عليه السلام ﴿ أم أنا خير من هذا الّذي هو مَهين ولا يكاد يبين ﴾ [سورة الزخرف : 43] .

والاستهزاء : مبالغة في الهَزْء مثل الاسْتسْخار في السخرية .

والإملاء : الإمهال والترك مُدة .

ومنه واهجرني ملياً .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم ﴾ في [سورة الأعراف : 182] .

والاستفهام في فكيف كان عقاب للتعجيب .

وعقاب أصله عقابي مثل ما تقدم آنفاً في قوله : وإليه متاب ﴾ .

والكلام تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ووعيد للمشركين .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾

الفاء الواقعة بعد همزة الاستفهام مؤخرة من تقديم لأن همزة الاستفهام لها الصدارة .

فتقدير أصل النظم : فأمن هو قائم .

فالفاء لتفريع الاستفهام وليس الاستفهام استفهاماً على التفريع ، وذلك هو الوجه في وقوع حروف العطف الثلاثة الواو والفاء وثم بعد الاستفهام وهو رأي المحقيقين ، خلافاً لمن يجعلون الاستفهام وارداً على حرف العطف وما عَطفه .

فالفاء تفريع على جملة ﴿ قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ [الرعد : 30] المجابِ به حكاية كفرهم المضمن في جملة ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ [الرعد : 30] ، فالتفريع في المعنى على مجموع الأمرين : كفرهم بالله ، وإيمان النبي بالله .

ويجوز أن تكون تفريعاً على جملة ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ [الرعد : 31] ، فيكون ترقياً في إنكار سؤالهم إتيان معجزة غير القرآن ، أي إن تعجب من إنكارهم آيات القرآن فإن أعجب منه جعلهم القائم على كل نفس بما كسبت مماثلاً لمن جعلوهم لله شركاء .

واعتُرض أثرَ ذلك بردّ سُؤالهم أن تُسيّر الجبال أو تُقَطّع الأرض أو تُكلّم الموتى ، وتذكيرهم بما حل بالمكذبين من قبلهم مع إدماج تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم فرع على ذلك الاستفهام الإنكاري .

وللمفسرين في تصوير نظم الآية محامل مختلفة وكثير منها متقاربة ، ومرجع المتجه منها إلى أن

في النظم حذفاً يدل عليه ما هو مذكور فيه ، أو يدل عليه السياق .

والوجه في بيان النظم أن التفريع على مجموع قوله : وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو ﴾ أي أن كفرهم بالرحمان وإيمانك بأنه ربّك المقصورة عليه الربوبية يُتفرع على مجموع ذلك استفهامُهم استفهامَ إنكار عليهم تسويتهم من هو قائم على كلّ نفس بمن ليس مثله من جعلوهم له شركاء ، أي كيف يشركونهم وهم ليسوا سواء مع الله .

وما صدق ﴿ من هو قائم على كلّ نفس ﴾ هو الله الإله الحق الخالق المدبّر .

وخبر ﴿ من هو قائم ﴾ محذوف دلت عليه جملة ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ .

والتقدير : أمن هو قائم على كل نفس ومن جعلوهم به شركاء سواء في استحقاق العبادة .

(112/413)

دل على تقديره ما تقتضيه الشركة في العبادة من التسوية في الإلهية واستحقاق العبادة .

والاستفهام إنكار لتلك التسوية المفاد من لفظ ﴿ شركاء ﴾ .

وبهذا المحذوف استغني عن تقدير معادل للهمزة كما نبّه عليه صاحب "مغني اللّبيب" ، لأن هذا المقدّر المدلول عليه بدليل خاص أقوى فائدة من تقدير المعادل الّذي حاصله أن يقدر : أم من ليس كذلك .

وسيأتي قريباً بيان موقع ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ .

والعدول عن اسم الجلالة إلى الموصول في قوله : ﴿ أفمن هو قائم ﴾ لأن في الصلة دليلاً على انتفاء المساواة ، وتخطئة لأهل الشرك في تشريك آلهتهم لله تعالى في الإلهية ، ونداء على غباوتهم إذ هم معترفون بأن الله هو الخالق .

والمقدر باعتقادهم ذلك هو أصل إقامة الدليل عليهم بإقرارهم ولما في هذه الصلة من التعريض لما سيأتي قريباً .

والقائم على الشيء : الرقيب ، فيشمل الحفظ والإبقاء والإمداد ، ولتضمنه معنى الرقيب عدي بحرف ﴿ على ﴾ المفيد للاستعلاء المجازي .

وأصله من القيام وهو الملازمة كقوله : ﴿ إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ [سورة آل عمران : 75] .

ويجيء من معنى القائم أنه العليم بحال كل شيء لأن تمام القيومية يتوقف على إحاطة العلم .

فمعنى قائم على كل نفس ﴾ مُتولّيها ومدبّرها في جميع شؤونها في الخلق والأجل والرزق ، والعالم بأحوالها وأعمالها ، فكان إطلاق وصف ﴿ قائم ﴾ هنا من إطلاق المشترك على معنييه .

والمشكرون لا ينازعون في انفراد الله بهذا القيام ولكنهم لا يراعون ذلك في عبادتهم غيره ،

فمن أجل ذلك لزمتهم الحجة ولمراعاة هذا المعنى تعلق قائم بقوله : ﴿ على كل نفس ﴾ ليعم القيام سائر شؤونها .

والباء في قوله : ﴿ بما كسبت ﴾ للملابسة .

(113/413)

وهي في موقع الحال من ﴿ نفس ﴾ أو من ﴿ قائم ﴾ باعتبار ما يقتضيه القيام من العلم ، أي قياماً ملابساً لما عملته كل نفس ، أي قياماً وفاقاً لأعمالها من عمل خير يقتضي القيامَ عليها باللطف والرضى فتظهر آثار ذلك في الدنيا والآخرة لقوله : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيّبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [سورة النحل : 97] ، وقال : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾ [سورة النور : 55] ؛ أو من عَمَل شر يقتضي قيامَه على النفس بالغضب والبلايا .

ففي هذه الصلة بعمومها تبشير وتهديد لمن تأمل من الفريقين .

فهذا تعريض بالأمرين للفريقين أفادته صلة الموصول .

وجملة وجعلوا لله شركاء ﴾ في موضع الحال، والواو للحال، أي والحال جعلوا له شركاء.

وإظهار اسم الجلالة إظهار في مقام الإتيان بضمير ﴿ من هو قائم ﴾ .

وفائدة هذا الإظهار التعبير عن المسمى باسمه العَلَم الذي هو الأصل إذ كان قد وقع الإيفاء بحق العدول عنه إلى الموصول في الجملة السابقة فتهيأ المقام للاسم العَلَم، وليكون تصريحاً بأنه المراد من الموصول السابق زيادة في التصريح بالحجة.

وجملة ﴿ قل سموهم ﴾ استئناف أعيد معها الأمر بالقول لاسترعاء الأفهام لوَعي ما سيذكر.

وهذه كلمة جامعة، أعني جملة ﴿ سموهم ﴾ ، وقد تضمنت رداً عليهم.

فالمعنى: سموهم شركاء فليس لهم حظ إلا التسمية، أي دون مسمى الشريك، فالأمر مستعمل في معنى الإباحة كناية عن قلة المبالاة بادعائهم أنهم شركاء مثل ﴿ قل كونوا حجارة ﴾ [سورة الإسراء: 50]، وكما تقول للذي يخطىء في كلامه: قُل ما شئتَ.

والمعنى: إن هي إلا أسماء سميتموها لا مسميات لها بوصف الإلهيّة لأنها حجارة لا صفات لها من صفات التصرف.

وهذا كقوله تعالى:

﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ [سورة يوسف : 40] وقوله : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها ﴾ [سورة النجم : 23] .

وهذا إفحام لهم وتسفيه لأحلامهم بأنهم ألّهوا ما لا حقائق لها فلا شبهة لهم في ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾ [سورة الرعد : 16] .

وقد تمحل المفسرون في تأويل قل سموهم ﴾ بما لا مُحَصّل له من المعنى .

ثم أضرب عن ذلك بجملة ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ وهي ﴿ أم ﴾ المنقطعة .

ودلت ﴿ أم ﴾ على أن ما بعدها في معنى الاستفهام ، وهو إنكاري توبيخي ، أي ما كان لكم أن تفتروا على الله فتضعوا له شركاء لم ينبئكم لوجودهم ، فقوله : ﴿ بما لا يعلم في الأرض ﴾ كناية عن غير الموجود لأن ما لا يعلمه الله لا وجود له إذ لو كان موجوداً لم يَخْفَ على علم العلام بكل شيء .

وتقييد ذلك بـ ﴿ الأرض ﴾ لزيادة تجهيلهم لأنه لو كان يخفى عن علمه شيء لخفي عنه ما لا يرى ولما خفيت عنه موجودات عظيمة بزعمكم .

وفي سورة يونس (18) ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ﴾ زيادة في التعميم .

وأم ﴾ الثانية متصلة هي معادلة همزة الاستفهام المقدرة في ﴿ أم تنبئونه ﴾ .

وإعادة الباء للتأكيد بعد ﴿ أم ﴾ العاطفة .

والتقدير : بل أتنبئونه بما لا يعلم في الأرض بل أتنبئونه بظاهر من القول .

وليس الظاهر هنا مشتقاً من الظهور بمعنى الوضوح بل هو مشتق من الظُهور بمعنى الزوال كناية عن البطلان ، أي بمجرد قبول لا ثبات له وليس بحق ، كقول أبي ذؤيب :

وتلكك شكاة ظاهر عنككِ عارُها

وقول سبرة بن عمرو الفقعسي :

أعيّرْتَنا ألبانها ولحومها

وذلك عاراً يا ابنَ رَيْطة ظاهر . . .

وقوله : ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ إضراب عن الاحتجاج عليهم بإبطال إلهية أصنامهم إلى كشف السبب ، وهو أن أئمة المشركين زيّنوا للذين كفروا مكرهم بهم إذ وضعوا لهم عبادتَها .

والمكر: إخفاء وسائل الضر.

وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ في أوائل سورة آل عمران (54)، وعند قوله: ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ في سورة الأعراف (99)، وعند قوله: ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ في سورة الأنفال (30).

والمراد هنا أن أئمة الكفر مثل عَمْرو بن لُحَيّ وضعوا للعرب عبادة الأصنام وحسّنوها إليهم مظهرين لهم أنها حق ونفع وما أرادوا بذلك إلا أن يكونوا قادة لهم ليسودُوهم ويُعبّدوهم.

فلما كان الفعل المبني للمجهول يقتضي فاعلاً منويّاً كان قوله: زين للذين كفروا ﴾ في قوة قولك: زيّن لهم مزين.

والشيء المزيّن (بالفتح) هو الذي الكلام فيه وهو عبادة الأصنام فهي المفعول في المعنى لفعل التزيين المبني للمجهول، فتعين أن المرفوع بعد ذلك الفعل هو المفعول في المعنى، فلا جرم أن مكرهم هو المفعول في المعنى، فتعيّن أن المكر مراد به عبادة الأصنام.

وبهذا يتجه أن يكون إضافة (مكر) إلى ضمير الكفار من إضافة المصدر إلى ما هو في قوة المفعول وهو المجرور بباء التعدية، أي المكر بهم ممن زينوا لهم.

وقد تضمن هذا الاحتجاج أساليب وخصوصيات:

أحدها: توبيخهم على قياسهم أصنامهم على الله في إثبات الإلهية لها قياساً فاسداً

لانتفاء الجهة الجامعة فكيف يسوي من هو قائم على كل نفس بمن ليسوا في شيء من ذلك .

ثانيها : تبهيلهم في جعلهم أسماءَ لا مسميات لها آلهةً .

ثالثها : إبطال كون أصنامهم آلهة بأن الله لا يعلمها آلهة ، وهو كناية عن انتفاء إلهيتها .

رابعها : أن ادعاءهم آلهة مجرد كلام لا انطباق له مع الواقع ، وهو قوله : ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ .

خامسها : أن ذلك تمويه باطل روجه فيهم دعاة الكفر ، وهو معنى تسميته مكراً في قوله : ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ .

سادسها : أنهم يصدون الناس عن سبيل الهدى .

وعُطف ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ على جملة ﴿ زين للذين كفروا مكرهم ﴾ .

(116/413)

وقرأه الجمهور بفتح الصاد فهو باعتبار كون مضمون كلتا الجملتين من أحوال المشركين : فالأولى باعتبار كونهم مفعولين ، والثانية باعتبار كونهم فاعلين للصدّ بعد أن انفعلوا بالكفر .

وقرأه عاصم ، وحمزة ، والكسائيّ ، وخلف ﴿ وصدوا ﴾ بضم الصاد فهو كجملة ﴿

زين للذين كفروا ﴾ في كون مضمون كلتيهما جعْل الذين كفروا مفعولاً للتزيين والصدّ .

وجملة ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ تذييل لما فيه من العموم .

وتقدم الخلاف بين الجمهور وابن كثير في إثبات ياء ﴿ هاد ﴾ في حالة الوصل عند قوله تعالى : ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ في هذه السورة (7) .

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34) ﴾

استئناف بياني نشأ عن قوله : ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ [الرعد : 33] لأن هذا التهديد يومىء إلى وعيد يسال عنه السامع .

وفيه تكملة للوعيد المتقدم في قوله : ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ مع زيادة الوعيد بما بعد ذلك في الدار الآخرة .

وتنكير ﴿ عذاب ﴾ للتعظيم ، وهو عذاب القتل والخزي والأسر .

وإضافة ﴿ عذاب ﴾ إلى ﴿ الآخرة ﴾ على معنى ﴿ في ﴾ .

و﴿ من ﴾ الداخلة على اسم الجلالة لتعدية ﴿ واق ﴾ .

و﴿ من ﴾ الداخلة على ﴿ واق ﴾ لتأكيد النفي للتنصيص على العموم .

والواقي : الحائل دون الضُرّ .

والوقاية من الله على حذف مضاف ، أي من عذابه بقرينة ما ذكر قبله . انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32) ﴾

ويقال " هزَأَ بفلان " أي : سخر منه ، أما " اسْتُهزِئ بفلان " أي : طُلِب من الغير أنْ يهزأ بشخص معين ، وهذا عليه إثمه وإثم مَنْ أوعز له بالسخرية من هذا الشخص .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدِ استهزئ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ . . . ﴾ [الرعد : 32]

أي : لستَ بِدعاً يا محمد في أن يقف بعض الكافرين منك هذا الموقف . والمَثَلُ هو الحَكَم بين أبي العاص أبو مروان الذي كان يُقلِّد مشية النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وكان رسول الله يمشي كأنما يتحدَّر من صبب ؛ وكان بصره دائماً في الأرض .

" ولم يكن الناس مُعْتادين على تلك المِشْية الخاشعة ؛ فقد كانوا يسيرون بغرور مستعرضين مناكبهم .

وحين قلَّد الحَكَمُ رسول الله رآه صلى الله عليه وسلم بنور البصيرة ، فقال له صلى الله عليه وسلم : "كُنْ على هذا " ، فصارت مِشْيته عاهة ، بينما كانت مِشْية رسول الله تطامناً

إلى ربه ، وتواضعاً منه صلى الله عليه وسلم .

ونَفَى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحَكَم إلى الطائف ؛ وراح يَرْعى الغنم هناك ، ولم يَعْفُ النبي صلى الله عليه وسلم عنه ؛ وكذلك أبو بكر في خلافته ؛ ولا عمر بن الخطاب ؛ ولكن الذي عفا عنه هو عثمان بن عفان ، وكان قريباً له .

وشهد عثمان بن عفان وقال : " والله لقد استأذنتُ رسول الله فيه فقال لي : إن استطعت أن تعفوَ عنه فَاعْفُ ، وحين وَلِيتُ أمرَ المسلمين عَفَوْتُ عنه " .

وحدث من بعد ذلك أن تولَّى عبد الملك بن مروان أمر المسلمين ؛ وكان لابنه الوليد خَيْل تتنافس مع خيل أولاد يزيد بن معاوية ؛ واحتال أولاد يزيد بالغش ، ووضعوا ما يُعرقِل خَيْل الوليد .

وحدث خلاف بين الفريقين فشتم الوليدُ أبناء يزيد ؛ فذهب أولاد يزيد إلى عبد الملك يشكون له ولده ؛ وكان الذي يشكو لا يتقن نُطْق العربية دون أخطأ ؛ فقال له عبد الملك : مَا لَكَ لا تقيم لسانك من اللحْن ؟ فردَّ الذي يشكو ساخرا : " والله لقد أعجبتْنِي فصاحةُ الوليد " . ويعني : أن حال لسان ابن عبد الملك لا يختلف عن حال لسان مَنْ يشكو ؛

فكلاهما لا ينطق بسَلاسَة ، ويكثر اللحْنَ في النُّطْق بالعربية .

فقال عبد الملك : أتُعيِّرني بعبد الله ابني الذي لا يُتقِن العربية دون لَحْن ؟ إن أخاه خالداً لا يلحن . وتبع ذلك بقوله : اسكُتْ يا هذا ، فلستَ في العِير ولا في النَّفِير .

وهذا مَثَلٌ نقوله حالياً ، وقد جاء إلينا عَبْر قريش ؛ حيث كانت السلطةُ فيها ذات مَصْدرين ؛ مصدر العِير ؛ أي : التجارة التي تأتي من القوافل عَبْر الشام وقائدها أبو سفيان ؛ والنَّفِير ؛ وهم القَوْم الذين نَفَرُوا لنجْدةِ أبي سفيان في موقعة بدر ؛ وكان يقودهم عتبة .

فقال ابن يزيد : ومَنْ أَوْلَى بالعِير والنَّفِير مِنّي ؟ ويعني أنه حفيدُ أبي سفيان من ناحية الأب ؛ وحفيدُ عُتْبة من ناحية الأم .

وأضاف : لكن لو قُلْت شُوَيْهات وغُنَيْمات وذكرت الطائف لكنتَ على حق ؛ ورَحِم الله عثمان الذي عفَا عن جَدِّك ، وأرجعه من المَنْفى .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر : 95]

وكان أيّ إنسان يسخر من رسول الله صلى الله عليه وسلم يَلْقَى عقاباً إلهياً .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : 32]

فأنت يا رسول الله لست بِدْعاً في الرسالة ، ولك أسوة في الرسالة ، والحق سبحانه يَعِدُكَ هنا في مُحْكم كتابه : ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ﴾ [الرعد : 32]

(119/413)

أي : أمهلتُ الذين كفروا ، والإملاء بمعنى الإمهال ليس معناه تَرْك العقوبة على الذّنب ، وإنما تأخير العقوبة لذنب قادم ، والمثَل هو أن تترك مخطئاً ارتكب هَفْوة ؛ إلى أنْ يرتكب هَفْوة ثانية ؛ ثم ثالثة ، ثم تُنْزِل به العقاب من حيث لا يتوقع .

وإذا كان هذا ما يحدث في عالم البشر ؛ فما بَالُنا بقوة الحق سبحانه اللامتناهية ، وهو القائل : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 182]

ويقول تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْمَاً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : 178]

تماماً مِثْلما نجد مَنْ يصنع فَخّاً لعدوه .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدِ استهزئ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : 32]

وكلمة : ﴿ . . . فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : 32]

توضح أنه كان عقاباً صارماً ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في موقع آخر : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 2936]

إذن : فلسوف يَلْقَى الذين استهزءوا بالرسل العقاب الشديد .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ . . . ﴾

ولقائل أنْ يتساءل : أَلَمْ يكُنْ من الواجب ما دام قد قال : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ . . . ﴾ [الرعد : 33]

(120/413)

أن يأتي بالمقابل ، ويقول : كمَنْ ليس قائماً على كل نفس بما كسبت ؟

ولمثل هذا السائل نقول : إنها عظمة القرآن الذي يترك للعقل ما يمكن أن يستنبطه ؛ فيأتي بأشياء تتطلَّب التفكير والاستنباط ، كي يتنبَّه الإنسان أنه يستقبل كلام ربٍّ حكيم ؛

وعليه أن يبحث فيه .

ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن مسعود : " ثَوِّروا القرآن " أي : أثيروه ، كي تكتشفوا ما فيه من كنوز .

ونحن نعلم أن كلمة " قائم على الأمر " تعني أنه هو الذي يُدِيره ويُدبِّره ، ولا تَخْفَى عليه خافية . وجاء الحق سبحانه هنا بصيغة القيام ؛ كي نعلم أن الحق سبحانه لا يدير الأمر من حالة قعود ؛ بل يديره وهو قائم عليه ، فكل أمر هو واضح عنده غير خَفِيّ .

وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبتْ إن خيراً فخيْر ؛ وإنْ شراً فشرّ ، ولكنكم أيها الكافرون المشركون لا تملكون لأنفسكم ضراً ولا نَفْعاً ؛ فهل يمكن لعاقل أنْ يساوي بين الذي يقوم على أمر كل نفس ، بغيره مِمَّن ليس كذلك ؟

ولكن هناك مَنْ قال فيهم الحق سبحانه في نفس الآية : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ . . . ﴾ [الرعد : 33]

أي : جعلوا للقائم على أمر كُلِّ نفس شركاء لا يقدر الواحد فيهم على أمر نَفْسه ؛ وبالتالي لا يقدر على أمر غيره ؛ بل قد يُصَابُ الصَّنم من هؤلاء بشَرْخ ؛ فيأتي مَنْ يعبدونه ليقوموا على أمره صارخين بأن إلههم قدْ انشرخَ ؛ ويحتاج إلى مسمارين لتثبيته ، فكيف يُسوُّونَ ذلك الصنم بالله الذي لا يحدُّه شيء ولا يُحَدُّ قدرته شيء ؟

وقَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ . . . ﴾ [الرعد : 33]

دليل على النص المحذوف : "كمن هو غير قائم على كل نفس" ، فسبحانه ليس كهذه الأصنام العاجزة ؛ لأنه سبحانه قائم على كل نفس ؛ نفسك ونفس غيرك ونفس كل إنسان عاش أو سيعيش .

(121/413)

ولذلك يقول سبحانه بعدها : ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأرض أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ القول . . . ﴾ [الرعد : 33]

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يقول للكافرين بالله : قُولوا أسماء مَنْ تعبدونهم من غير الله ؛ وهي أحجار ، والأحجار لا أسماءَ لها ؛ وهم قد سَمَّوْا الأصنام بأسماء كاللاّت والعُزّى وهُبَل ؛ وهي أسماء لم تُضِفْ لتلك الأصنام شيئاً ، فهي لا تقدر على شيء ؛ ولو سَمَّوْهَا لَنسِبت لعمرو بن لُحَيّ ، الذي أوجدهم ؛ وهُمْ سَمَّوْها ساعة أنْ نحتُوها .

والإله الحق لا يسميه أحد ، بل يُسمِّي هو نفسه ، ولكن بما أن المسألة كَذِب في كَذِب ، لذلك يسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أسماء تلك الآلهة .

ويقول لهم : هل تنبئون أنتم الله خالق كل الكون بما لا يعلم في كونه الذي أوجده من عدم ؟ سبحانه يعلم كل ما خلق ؛ وأنتم لا تعبدون إلا أصناماً ينطبق عليها أنها من ظاهر القول ؛

أي : قول لا معنى له ؛ لأنهم أطلقوا أسماء على أشياء لا باطن لها ولا قدرة تستطيعها ، وهم اكتفوْا بالظاهر والمُسمَّى غير موجود .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ السبيل . . . ﴾ [الرعد : 33]

أي : أنهم ظنوا أنهم يمكرون على الله ، ويقولون إن تلك الأصنام آلهة ، وهي ليست كذلك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ . . . وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد : 33]

أي : أن العذاب الذي يَلْقوْنَه في الحياة الدنيا هو لصيانة حركة المجتمع من الفساد ، ولابد أنْ يقعَ لهم عذابٌ في الحياة الدنيا ؛ ولأن مَنْ يؤجّل عذابه للآخرة ؛ لابد أن يرى في نفسه آية العذاب قبل أن يَلْقى عذابه في الآخرة .

(122/413)

إذن : فعذاب الدنيا هو لحماية حركة الحياة ؛ ولذلك نجد القوانين وهي تُسَنُّ لتُطبق على المنحرف ؛ ومَنْ يرتكب الجُرْم يخاف أن تقع عليه العين ؛ وإن رآه أحد فهو يبلغ عنه ليلقى عقابه ؛ وبذلك تستقيم حركة الحياة .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في سورة الكهف : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ [الكهف : 83-87]

أي : أنه قد أخذ تفويضاً بأن يقيم الأمر في هؤلاء الناس ، فأقامه على أساسٍ من الثواب والعقاب ؛ فمَنْ أحسن فَلَهُ الجزاء الحسن ؛ ومَنْ أساء يَلْقى العقاب ، وهكذا نجد عذاب الدنيا ضرورياً لسلامة حركة الحياة من بَطْش مَنْ لا يؤمنون بالله .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . ﴾

ولهؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة عذابٌ في الدنيا بالقتل والأَسْر والمصائب والكوارث التي لا يقدرون عليها ، وفَوْق ذلك لهم عذاب في الآخرة أكثر شدةً من عذاب الدنيا ؛ فليس لهم مَنْ يحميهم ، أو يُقيم بينهم وبين عذاب الله وقاية أو عِصْمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) (الرعد : 32) ، وفي سورة الحج : (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) (الحج : 44) للسائل أن يسأل عن وجه تعقيب الأولى بقوله : (فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) والثانية بقوله : (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) مع تساوي الآيتين (في) مقصود الوعيد لمكذبي الرسل ، عليهم السلام ؟

والجواب ، والله أعلم : أن العقاب أشد موقعاً من النكير لأن الإنكار يقع على ما لا عقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل ، وأما مسمى العقاب فإنما يراد به في الغالب أخذ بعذاب مناسب لحال المجرم إثر معصيته وعقيب جريمته ، وقد تقدم في آية الرعد قوله تعالى : (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) (الرعد : 32) ، والاستهزاء (أمر) مرتكب زائد على التكذيب من التهاون ، والاستخفاف بجريمة مرتكبة أشنع جريمة ، فناسبها الإفصاح بالعقاب . أما آية الحج فإن الوعيد (بها) للمذكورين بالتكذيب ولم يذكر منهم استهزاء ، قال تعالى : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى) (الحج : 42-44) ، فلم يخبر عن هؤلاء بغير التكذيب ليس كالاستهزاء ، فقد يؤمن المكذب ويصلح حاله ، أما

المستهزئ فلا يصلح ، وقد كفى الله نبيه إياهم ، قال تعالى : (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) (الحجر : 95) ، فناسب النظم تعقيب كل آية بما يناسب مرتكب من قدم ، ولم يكن عكس الوارد ليناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 281. 282 ﴾

(124/413)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾

أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إن كان كما تقول ، فأرنا أشياخنا الذين من الموتى نكلمهم ، وافسح لنا هذه الجبال – جبال مكة – التي قد ضمتنا . فنزلت ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن عطية العوفي – رضي الله عنه – قال :

قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم " لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعتْ لنا الأرض كما كان سليمان عليه السلام يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى عليه السلام يحيي الموتى لقومه . فأنزل الله تعالى ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال . . . ﴾ الآية ، إلى قوله ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ قال : أفلم يتبين الذين آمنوا ؟ " قالوا : هل تروي هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال المشركون من قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو وسعت لنا أودية مكة وسيرت جبالها فاحترثناها ، وأحييت من مات منا واقطع به الأرض ، أو كلم به الموتى . . . فأنزل الله تعالى ﴿ ولو أن قرآناً ﴾ .

وأخرج أبو يعلى وأبو نعيم في الدلائل ، وابن مردويه عن الزبير بن العوّام - رضي الله عنه - قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي قبيس : " يا آل عبد مناف ، إني نذير فجاءته قريش ،

فحذرهم وأنذرهم . فقالوا : تزعم أنك نبي يوحى إليك ، وأن سليمان عليه السلام سخرت له الريح والجبال ، وإن موسى عليه السلام سخر له البحر ، وإن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى ، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ، ويفجر لنا الأرض أنهاراً فنتخذها محارث ، فنزرع ونأكل وإلا ، فادع الله أن يحيي لنا الموتى فنكلمهم ويكلمونا وإلا ، فادع الله أن يجعل هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف ، فإنك تزعم أنك كهيئتهم . فبينا نحن حوله ، إذ نزل عليه الوحي ، فلما سرى عنه الوحي قال : والذي نفسي بيده لقد أعطاني الله ما سألتم ، ولو شئت لكان ، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم ، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة ولا يؤمن مؤمنكم ، فاخترت باب الرحمة ويؤمن مؤمنكم ، وأخبرني إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم يعذبكم عذاباً لا يعذب به أحداً من العالمين "

فنزلت ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الأولون ﴾ [الإسراء : 59] حتى قرأ ثلاث آيات . ونزلت ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال . . . ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة أن هذه الآية ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ﴾ مكية .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال

﴾ الآية . قال : قول كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم : سيّر جبالنا تتسع لنا أرضنا فإنها ضيقة ، أو قرب لنا الشام فإنا نتجر إليها ، أو أخرج لنا آباءنا من القبور نكلمهم .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قالوا سير بالقرآن الجبال ، قطع بالقرآن الأرض ، أخرج به موتانا .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك – رضي الله عنه – قال : قال كفار مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم : " سيّر لنا الجبال كما سخرت لداود ، وقطع لنا الأرض كما قطعت لسليمان عليه السلام فاغدُ بها شهراً ، ورح بها شهراً ، أو كلم لنا الموتى كما كان عيسى عليه السلام يكلمهم . يقول : لم أنزل بهذا كتاباً ، ولكن كان شيئاً أُعطيته أنبيائي ورسلي " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الشعبي – رضي الله عنه – قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبياً كما تزعم ، فباعد عن مكة اخشبيها هذين مسيرة أربعة أيام ، أو خمسة أيام ، فإنها ضيقة حتى نزرع فيها أو نزعى ، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا إنك نبي ، أو احملنا إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى الحيرة ، حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت إنك فعلته . فأنزل

الله تعالى ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ الآية .

وأخرج إسحق وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ، ولم يكن ليفعل .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه كان يقرأ ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن الأنباري في المصاحف ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قرأ [أفلم يتبين الذين آمنوا] فقيل له : إنها في المصحف ﴿ أفلم ييأس ﴾ فقال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس .

وأخرج ابن جرير عن علي – رضي الله عنه – أنه كان يقرأ [أفلم يتبين الذين آمنوا] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿ أفلم ييأس ﴾ يقول : يعلم .

وأخرج الطستي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ قال : أفلم يعلم ، بلغة بني مالك . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم . أما سمعت مالك بن عوف يقول :

لقد يئس الأقوام أني أنا ابنه . . . وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

وأخرج ابن الأنباري ، عن أبي صالح - رضي الله عنه - قال : في قوله ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ قال : أفلم يعلم ، بلغة هوازن ، وأنشد قول مالك بن عوف النضري :

أقول لهم بالشعب إذ ييئسونني . . . ألم تعلموا أني ابن فارس زهدم ؟ ! . . .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ قال : أفلم يعلم الذين آمنوا ؟ .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة - رضي الله عنه - ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ قال : أفلم يعرف الذين آمنوا .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد - رضي الله عنه - ﴿ أفلم ييأس ﴾ أفلم يعلم . ومن الناس من يقرؤها "أفلم يتبين" وإنما هو كالاستنقاء ، أفلم يعقلوا ليعلموا أن الله يفعل ذلك ؟ لم ييأسوا من ذلك وهم يعلمون أن الله تعالى لو شاء فعل ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن أبي العالية - رضي الله عنه - ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ قال : يئس الذين آمنوا أن يهدوا ، ولو شاء الله ﴿ لهدى الناس جميعاً ﴾ .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن مردويه من طريق عكرمة - رضي الله عنه - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ قال : السرايا .

وأخرج الطيالسي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طريق سعيد بن جبير رضي الله عنه - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ قال: سرية ﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ قال: أنت يا محمد ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ قال فتح مكة.

(128/413)

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ قال: سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أو تحل ﴾ يا محمد ﴿ قريباً من دارهم ﴾.

وأخرج ابن شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في الدلائل، عن مجاهد - رضي الله عنه - قال: ﴿ القارعة ﴾ السرايا ﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ قال: الحديبية ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ قال: فتح مكة.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ولا يزال الذين كفروا ... ﴾ الآية.

قال: نزلت بالمدينة في سرايا النبي صلى الله عليه وسلم. ﴿ أو تحل ﴾ أنت يا محمد ﴿

قريباً من دارهم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ قال : نكبة .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ قال : عذاب من السماء ﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ يعني ، نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وقتاله إياهم .

وأخرج ابن جرير عن الحسن - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ قال : أو تحل القارعة قريباً من دارهم ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ قال : يوم القيامة .

أما قوله تعالى : ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه ، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : "كان رجل خلف النبي صلى الله عليه وسلم يحاكيه ويلمطه ، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " كذلك فكن " . فرجع إلى أهله فلبث به مغشياً شهراً ، ثم أفاق حين أفاق وهو كما حاكى رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ قال : يعني بذلك نفسه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن عطاء - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ قال: الله تعالى، قائم بالقسط والعدل.

وأخرج ابن جرير عن قتادة - رضي الله عنه - ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ قال: ذلكم ربكم تبارك وتعالى قائم على بني آدم بأرزاقهم وآجالهم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ قال: الله عز وجل، القائم على كل نفس ﴿ بما كسبت ﴾ على رزقها وعلى علمها. وفي لفظ: قائم على كل بر وفاجر، يرزقهم ويكلؤهم ثم يشرك به منهم من أشرك ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ يقول: آلهة معه ﴿ قل سموهم ﴾ ولو سموا آلهة لكذبوا وقالوا في ذلك غير الحق؛ لأن الله تعالى واحد لا شريك له ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ يقول: لا يعلم الله تعالى في الأرض إلهاً غيره ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ يقول: أم بباطل من القول وكذب.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن ابن جريج - رضي الله عنه - ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ يعني بذلك نفسه، يقول ﴿ قائم على كل نفس ﴾ على كل بر وفاجر ﴿ بما كسبت ﴾ وعلى رزقهم، وعلى طعامهم، فأنا على ذلك وهم عبيدي،

ثم جعلوا لي شركاء ﴿ قل سموهم ﴾ ولو سموهم كذبوا في ذلك لا يعلم الله تعالى من إله غير الله، فذلك قوله ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ .

(130/413)

وأخرج أبو الشيخ عن ربيعة الجرشي - رضي الله عنه - أنه قام في الناس يوماً، فقال: اتقوا الله في السرائر وما ترخى عليه الستور . . . ما بال أحدكم ينزع عن الخطيئة للنبطي يمر به، والأمة من إمائه، والله تعالى يقول ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ ويحكم فأجلوا مقام الله سبحانه وتعالى: ما يؤمن أحدكم أن يمسخه قرداً أو خنزيراً بمعصيته إياه، فإذا هو خزي في الدنيا وعقوبة في الآخرة. فقال رجل من القوم: والله الذي لا إله إلا هو، ليكونن ذاك يا ربيعة، فنظر القوم من الحالف فإذا هو عبد الرحمن بن غنم.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ قال: بظن ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ قال: قولهم.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ قال: الظاهر من القول، هو الباطل. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ ﴾ : " مَنْ " موصولةٌ ، صلتُها " هو قائم " والموصولُ مرفوعٌ بالابتداء ، وخبرُه محذوفٌ تقديرُه : كمَنْ ليس كذلك مِنْ شركائِهم التي لا تَضُرُّ ولا تنفع . ودلَّ على هذا المحذوفِ قولُه ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ ونحوُه قولُه تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ [الزمر : 22] تقديره : كمَنْ قَسا قلبُه ، يَدُلُّ عليه ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وإنما حَسَّن حَذْفَه كونُ الخبرِ مقابلاً للمبتدأ . وقد جاء منفياً كقولِه ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [النحل : 17] ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ [الرعد : 19] .

قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ يجوز أن يكونَ استئنافاً وهو الظاهرُ ، جيء به للدلالةِ على الخبرِ المحذوفِ كما تقدم تقريرُه . وقال الزمخشري : " ويجوز أن يُقَدَّر ما يقع خبراً للمبتدأ ، ويُعْطَفَ عليه و " جعلوا " ، وتمثيلُه : أفَمَنْ هو بهذه الصفةِ لم يوحِّدوه ، / وجعلوا له وهو

اللهُ الذي يستحقُّ العبادةَ وحدَه شركاءَ . قال الشيخ : " وفي هذا التوجيهِ إقامةُ الظاهر مُقامَ المضمر في قوله " وجعلوا لله : أي له " ، وفيه حَذْفُ الخبرِ عن المقابل ، وأكثرُ ما جاء هذا الخبرُ مقابلاً " . وقيل : الواو للحال والتقدير : أفَمَنْ هو قائمٌ على نفس موجودٌ ، والحالُ أُنهم جعلوا له شركاءَ ، فأُقيم الظاهرُ -وهو الله- مُقامَ المضمرِ ، تقريراً للإلهية وتصريحاً بها .

(132/413)

وقال ابن عطيَّة : " ويظهر أن القولَ مرتبطٌ بقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ كأن التقديرَ : أَفَمَنْ له القدرةُ والوحدانيةُ ، ويُجْعَلُ له شريكٌ ، أَهْلٌ أن ينتقمَ ويعاقِبَ أم لا " . وقيل : " وجعلوا " عطفٌ على " استُهزِئ " بمعنى : ولقدِ استهزَؤُوا وجعلوا .

وقال أبو البقاء : " وهو معطوفٌ على " كَسَبَت " ، أي : وبجَعْلِهم لله شركاءَ " .

قوله : ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ ﴾ أم هذه منقطعةٌ مقدَّرةٌ ب " بل " والهمزة ، والاستفهامُ للتوبيخ : بل أَتُنَبِّئونه شركاء لا يعلمهم في الأرض ، ونحوُه : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض ﴾ [يونس : 18] ، فجعل الفاعلَ ضميراً عائداً على الله ، والعائدُ على " ما " محذوفٌ ، تقديرُه : بما لا يعلمُه اللهُ ، وقد تقدَّم في تلك الآيةِ أنَّ الفاعلَ ضميرٌ يعودُ على

" ما " وهو جائزٌ هنا أيضاً .

قوله : ﴿ أَم بِظَاهِرٍ ﴾ الظاهرُ أنها منقطعة . و " الظاهر " هنا قيل : الباطلُ . وأنشدوا :

2862- أَعَيَّرْتَنا ألبانَها ولحومَها . . . وذلك عارٌ يا بنَ رَيْطَةَ ظاهِرُ

أي باطِلٌ ، وفَسَّره مجاهدٌ " بكذب ٍ " وهو موافقٌ لهذا . وقيل : " أم " متصلةٌ ، أي : اتنبئونه بظاهرٍ لا حقيقةَ له .

قوله : ﴿ وَصُدُّواْ ﴾ قرأ الكوفيون " وصُدُّوا " مبنياً للمفعول ، وفي غافر ﴿ وَصُدَّ عَنِ السبيل ﴾ [الآية : 37] كذلك . وباقي السبعة مبنيِّين للفاعل . و " صَدَّ " جاء لازماً ومتعدياً فقراءةُ الكوفةِ من المتعدِّي فقط ، وقراءةُ الباقين تتحمل أن يكونَ من المتعدِّي ومفعولُه محذوفٌ ، أي : وصَدُّوا غيرَهم أو أنفسَهم ، وأن يكونَ مِنَ اللازم ، أي : أَعْرَضوا وتَوَلَّوا .

وقرأ ابنُ وثاب " وصِدُّوا " و ﴿ وصِدَّ عن السبيل ﴾ بكسرِ الصاد ، وهو مبنيٌّ للمفعول ، اجراه مُجْرى قِيْل وبِيْع ، فهو كقراءة ﴿ رِدَّت إلينا ﴾ ، [وقوله :]

2863- وما حِلَّ مِنْ جهلٍ حُبا حُلَمائِنا . . . .

وقد تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 55 . 58 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32) ﴾

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما كان يلاقيه منهم .

وكما أن هؤلاء في التكذيب جرَوْا على نهجهم فنحن أَدَمْنا سُنَّتَنا في التعذيب معهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ .

الجواب فيه مضمر ؛ أي أفمن هو مُجْري ومنشئ الخَلْق والمُطَّلِع عليهم ، لا يَخْفَى عليه منهم شيءٌ كَمَنْ ليس كذلك ؟ لا يستويان غداً أبداً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ القَوْلِ ﴾ .

قُلْ لهم أروني أي تأثير منهم ، وأي نفع لكم فيهم ، وأي ضرر لكم منهم ؟ أتقولون ما يعلم الله بخلافه ؟ وهذا معنى قوله : ﴿ بِمَا لاَ يَعْلَمُ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

أي قد تبين لكم أن ذلك من كيد الشيطان ، وزين للذين كفروا مكرهم ، وصاروا مصدودين عن الحق ، مسدودة عليهم الطُّرُق ، فإنّ مَنْ أَضلَّه حُكْمُه - سبحانه - لا يهديه أحدٌ قطعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 232 ﴾

(134/413)

قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما توعدهم على تفريطهم في جانب الله ، تشوفت النفس إلى ما لأضدادهم ، فكان كأنه

قيل : فما لمن عاداهم في الله ؟ فقيل : الجنة ، فكأنه قيل : وما هي ؟ فقيل : إنها في الجلال ، وعلو الجمال ، وكرم الخلال ، مما تعالى عن المنال ، إلا بضرب الأمثال ، فقيل : ما مثلها ؟ فقيل : ﴿ مثل الجنة التي ﴾ ولما كان المقصود حصول الوعد الصادق ولا سيما وقد علم أن الوعد هو الله ، بنى للمفعول قوله : ﴿ وعد المتقون ﴾ والخبر محذوف تقديره : ما أقص عليكم ، وهو أنها بساتين : قصور وأشجار ، فقال الزجاج : الخبر جنة مخبر عنها بما ذكر ليكون تمثيلاً لما غاب عنا بما نشاهد ﴿ تجري ﴾ .

ولما كانت - لو عمها الماء الجاري - بحراً لا بساتين ، أدخل الجار للدلالة على أنه خاص ببعض أرضيها فقال : ﴿ من تحتها ﴾ أي قصورها وأشجارها ﴿ الأنهار ﴾ وقيل : هذا المذكور هو الخبر كما تقول : صفة زيد أسمر .

ولما كان هذا ريّاً حقيقياً في أرض هي في غاية الخلوص والطيب ، كان سبباً لدوام ثمرها واستمساك ورقها ، فلذلك أتبعه قوله : ﴿ أكلها ﴾ أي ثمرها الذي يؤكل ﴿ دائم ﴾ لا ينقطع أبداً ﴿ وظلها ﴾ ليس كما في الدنيا ، لا ينسخ بشمس ولا غيرها ، قال أبو حيان : تقول : مثلت الشيء - إذا وصفته وقربته للفهم ، وليس هذا ضرب مثل ، فهو كقوله ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ [النحل : 60] ، أي الصفة العليا - كذا قال ، ويمكن أن يكون ذلك حقيقة ، ويكون هناك محذوف ، وهو جنة من جنان الدنيا تجري من تحتها الأنهار - إلى آخره ، وهو من قول الزجاج .

ثم ابتدأ إخباراً آخر تعظيماً لشأنها وتفخيماً لأمرها في قوله تعالى : ﴿ تلك ﴾ أي الجنة العالية الأوصاف ﴿ عقبى ﴾ أي آخر أمر ﴿ الذين اتقوا ﴾ ثم كرر الوعيد للكافرين فقال : ﴿ وعقبى ﴾ أي منتهى أمر ﴿ الكافرين ﴾ بالرحمن ، المتضمن للكفر بالوحي والموحى إليه ﴿ النار ﴾ .

(135/413)

ولما وصف العالمين بأن المنزل إليه هو الحق برجاحة العقول وأصالة الأداء المؤدية إلى الصلاح الموجب لكل سعادة ، والكافرين به بضعف العقول الدافع إلى الفساد الموصل إلى سوء الدار ، ومر فيما يلائمه إلى أن ختمه بمثل ما ختم به ذلك ، عطف على ذلك قوله - ويمكن أن يكون اتصاله بما قبله أنه معطوف على محذوف هو علة لختم الآية السالفة ، تقديره : لأنهم ساءهم ما أنزل إليه حسداً وجهلاً - : ﴿ والذين آتيناهم ﴾ أي بما لنا من العظمة التي استنقذتهم من الضلال ﴿ الكتاب ﴾ ولم يكفروا بالرحمن ولا بما أنزل ولا بمن أرسل ﴿ يفرحون بما ﴾ ولما كان المنزل دالاًّ بإعجازه على المنزل ، بنى للمفعول قوله : ﴿ أنزل إليك ﴾ أي من هذا الكتاب الأعظم لموافقته تلك الكتب لأن كلام الله كله من مشكاة واحدة ، وتخصيصهم لأنهم هم المنتفعون بالكتاب دون غيرهم ، فكأنه ما أنزل إلا

إليهم، وهذا العطف يرجح أن يكون الموصول هناك مرفوعاً بالابتداء ﴿ومن الأحزاب﴾ من أهل الأوثان والكتاب الذين تحزبوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿من ينكر بعضه﴾ كالتوحيد ونعت الإسلام ونبوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يتبع ذلك مما حرفوه وبدلوه، ويريد أن يكون الأمر تابعاً فيه لغرضه، فالمشركون يريدون أن يمدح آلهتهم في بعض الآيات أو أن يسقط وصفها بالعيب، واليهود يريدون أن ينزل ما يوافق فروع التوراة كما أنزل ما وافق الأصول، وينكرون النسخ، وأهل الإنجيل يريدون أن ينزل في المسيح ما يهوون ونحو ذلك؛ قال المفسرون: كانوا لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعل مما هو ثابت في كتبهم غير محرف، فلكفرهم بذلك البعض أمره أن يعلمهم باعتقاده كفروا أو شكروا فقال: ﴿قل إنما أمرت﴾ أي وقع الأمر الجازم الذي لا شك فيه ولا تغير ممن له الأمر كله ﴿أن أعبد الله﴾ أي الذي لا شيء مثله وحده، ولذلك قال: ﴿ولا أشرك به﴾ لا أفعل إلا ما يأمرني به من غير نظر إلى سواه، ديني مقصور على ما

أنكرتموه ﴿إليه﴾ وحده ﴿أدعوا وإليه﴾ خاصة ﴿مآب﴾ أي إيابي ومكانه وزمانه، معنى بالتوبة عند الفتور عن القيام بحقه، وحسّاً بالبعث للجزاء؛ والكتاب: الصحيفة

التي فيها الخط - وهو الكتابة ، وهي تأليف الحروف التي تقرأ في الصحيفة ، والفرح : لذة القلب التي تجلي الهم بنيل المشتهى ، والحزب : الجماعة التي تقوم بالنائبة .

ولما بينت هذه الآيات من مراتب الإعجاز ما بينت ، أتبع تعالى ذكر ما أنزل قوله :

﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل هذا الإنزال ، البديع المثال ، البعيد المنال ؛ ولا يبعد أن يكون عطفاً على ﴿كذلك أرسلناك ﴾ أو مثل إنزال كتب أهل الكتاب ﴿ أنزلناه ﴾ بما لنا من العظمة حال كونه ﴿ حكماً عربيّاً ﴾ أي ممتلئاً حكمة تقضي بالحق ، فائقاً لجميع الكتب بهذا الوصف ؛ والحكم : القطع بالمعنى على ما تدعو إليه الحكمة ، وهو أيضاً فصل الأمر على الحق ؛ فالمعنى أنه لا يقدر أحد على نقض شيء منه ، فإن ذلك في الحقيقة هو الحكم ، وما ليس كذلك فليس بحكم ، والعربي : الجاري على مذاهب العرب في كلامها ، فلا تلتفت إلى ما تدعوهم إليه أهويتهم فيقترحونه من تأييدك بملك أو إتحافك بكنز أو تركك لبعض ما يوحى إليك من سبب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم أو غير ذلك من طلباتهم التي لو أتيتهم بها لم يكونوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله - هذا في عباد الأوثان ، وكذا في أهل الكتاب فيما يدعون إليه من العود إلى قبلتهم ونحوه ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ في شيء من ذلك من النسخ أو غيره في القبلة أو غيرها ولا سيما مما يطلبونه من الآيات المقترحة كما قال تعالى :

﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ [البقرة : 145] .

(137/413)

ولما كان المراد التعميم في الزمان ، نزع الجار ، وأتى ب " ما " لأنها أعم من " الذي " وأشد إبهاماً ، فهي الخفيّ معنى ، فناسب سياق الوحي الذي هو غيب ، ومعناه غامض - إلا لبعض الأفراد - في الأغبياء بخلاف آية البقرة الأولى فإنها في الملة الإبراهيمية المدركة بنور العقل الناشىء عن نظر المحسوسات فقال : ﴿ بعدما جاءك ﴾ ولما كان قد أنعم عليه- صلى الله عليه وسلم- بأشياء غير العلم ، بين المراد بقوله : ﴿ من العلم ﴾ أي بالوحي بأن ذلك الاتباع لا يردهم سواء كان ذلك الاتباع في أصول الشريعة أو فروعها خفية كانت أو جلية .

ولما كان المشروط استغراق جميع زمان البعد باتباع الأهواء ، قال : ﴿ ما لك ﴾ حينئذ ﴿ من الله ﴾ أي الملك الأعلى وأعرق في النفي فقال : ﴿ من ولي ﴾ أي ناصر يتولى من نصرك وجميع أمرك ما يتولاه القريب مع قريبه .

ولما كان مدلول " ما " أعم من مدلول " الذي " لشمولها الظاهر والخفي ، وكان من خالف

الخفي أعذر ممن خالف الظاهر ، نفى الأخص من النصير فقال : ﴿ ولا واق ﴾ أي يقيك بنفسه فيجعلها دون نفسك ، وقد يوجد من الأنصار من لا يسمع بذلك ، وهذا بعث للأمة وتهييج على الثبات في الدين والتصلب فيه ، والهوى - مقصوراً : ميل الطباع إلى الشيء بالشهوة ، والعلم : تبين الشيء على ما هو به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 160.157 ﴾

(138/413)

فصل

قال الفخر :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما ذكر عذاب الكفار في الدنيا والآخرة ، أتبعه بذكر ثواب المتقين وفي قوله : ﴿ مثل الجنة ﴾ أقوال : الأول : قال سيبويه : ﴿ مثل الجنة ﴾ مبتدأ وخبره محذوف والتقدير : فيما قصصنا عليكم مثل الجنة .

والثاني : قال الزجاج : مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا .

والثالث : مثل الجنة مبتدأ وخبره تجري من تحتها الأنهار ، كما تقول صفة زيد اسم .

والرابع : الخبر هو قوله : ﴿ أكلها دائم ﴾ لأنه الخارج عن العادة كأنه قال : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار ﴾ كما تعلمون من حال جنا تكم إلا أن هذه أكلها دائم .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى وصف الجنة بصفات ثلاث : أولها : تجري من تحتها الأنهار .

وثانيها : أن أكلها دائم .

والمعنى : أن جنات الدنيا لا يدوم ورقها وثمرها ومنافعها .

أما جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطعة .

وثالثها : أن ظلها دائم أيضاً ، والمراد أنه ليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة ونظيره قوله تعالى : ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ [الإنسان : 13] ثم إنه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين أن ذلك عقبى الذين اتقوا يعني عاقبة أهل التقوى هي الجنة ، وعاقبة الكافرين النار .

وحاصل الكلام من هذه الآية أن ثواب المتقين منافع خالصة عن الشوائب موصوفة بصفة الدوام .

واعلم أن قوله : ﴿ أكلها دائم ﴾ فيه مسائل ثلاث :

المسألة الأولى :

أنه يدل على أن أكل الجنة لا تفنى كما يحكى عن جهم وأتباعه .

المسألة الثانية :

أنه يدل على أن حركات أهل الجنة لا تنتهي إلى سكون دائم ، كما يقوله أبو الهذيل وأتباعه .

المسألة الثالثة :

قال القاضي : هذه الآية تدل على أن الجنة لم تخلق بعد ، لأنها لو كانت مخلوقة لوجب أن تفنى وأن ينقطع أكلها لقوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ [الرحمن : 26] .

و ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [القصص : 88] لكن لا ينقطع أكلها لقوله تعالى : ﴿ أكلها دائم ﴾ فوجب أن لا تكون الجنة مخلوقة .

ثم قال : فلا ننكر أن يحصل الآن في السموات جنات كثيرة يتمتع بها الملائكة ومن يعد حياً من الأنبياء والشهداء وغيرهم على ما روي في ذلك ، إلا أن الذي نذهب إليه أن جنة الخلد خاصة إنما تخلق بعد الإعادة .

والجواب : أن دليلهم مركب من آيتين : أحدهما : قوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ والأخرى قوله : ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾ فإذا أدخلنا التخصيص في أحد هذين العمومين سقط دليلهم فنحن نخصص أحد هذين العمومين بالدلائل الدالة على أن الجنة مخلوقة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ [آل عمران : 133] .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) ﴾

اعلم أن في المراد بالكتاب قولين : الأول : أنه القرآن والمراد أن أهل القرآن يفرحون بما أنزل على محمد من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والأحكام والقصص ، ومن الأحزاب الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار من ينكر بعضه وهو قول الحسن وقتادة .

فإن قيل : الأحزاب ينكرون كل القرآن .

قلنا : الأحزاب لا ينكرون كل ما في القرآن ، لأنه ورد فيه إثبات الله تعالى وإثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الأنبياء ، والأحزاب ما كانوا ينكرون كل هذه الأشياء .

والقول الثاني : إن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل ، وعلى هذا التقدير ففي الآية قولان :

الأول : قال ابن عباس : الذين آتيناهم الكتاب هم الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بأرض الحبشة وفرحوا بالقرآن ، لأنهم آمنوا به وصدقوه والأحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين قال القاضي : وهذا الوجه أولى من الأول لأنه لا شبهة في أن من أوتي القرآن فإنهم يفرحون بالقرآن ، أما إذا حملناه على هذا الوجه ظهرت الفائدة ويمكن أن يقال : إن الذين أوتوا القرآن يزداد فرحهم به لما رأوا فيه من العلوم الكثيرة والفوائد العظيمة ، فلهذا السبب حكى الله تعالى فرحهم به .

والثاني : والذين آتيناهم الكتاب اليهود أعطوا التوارة ، والنصارى أعطوا الإنجيل ، يفرحون بما أنزل في هذا القرآن ، لأنه مصدق لما معهم ومن الأحزاب من سائر الكفار من ينكر بعضه ، وهو قول مجاهد .

قال القاضي : وهذا لا يصح ، لأن قوله : ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعم جميع ما أنزل إليه ، ومعلوم أنهم لا يفرحون بكل ما أنزل إليه ويمكن أن يجاب فيقال إن قوله : ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ لا يفيد العموم بدليل جواز ادخال لفظتي الكل والبعض عليه ، ولو كانت كلمة "ما" للعموم لكان إدخال لفظ الكل عليه تكريراً وإدخال لفظ البعض عليه نقصاً .

ثم إنه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء إليه في معرفة المبدأ والمعاد في ألفاظ قليلة منه فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ وهذا الكلام جامع لكل ما ورد التكليف به ، وفيه فوائد : أولها : أن كلمة "إنما" للحصر ومعناه إني ما أمرت إلا بعبادة الله تعالى ، وذلك يدل على أنه لا تكليف ولا أمر ولا نهي إلا بذلك .

(141/413)

وثانيها : أن العبادة غاية التعظيم ، وذلك يدل على أن المرء مكلف بذلك .

وثالثها : أن عبادة الله تعالى لا تمكن إلا بعد معرفته ولا سبيل إلى معرفته إلا بالدليل ، فهذا يدل على أن المرء مكلف بالنظر والاستدلال في معرفة ذات الصانع وصفاته ، وما يجب ويجوز ويستحيل عليه .

ورابعها : أن عبادة الله واجبة ، وهو يبطل قول نفاة التكليف ، ويبطل القول بالجبر المحض .

وخامسها : قوله : ﴿ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ وهذا يدل على نفي الشركاء والأنداد والأضداد بالكلية ، ويدخل فيه إبطال قول كل من أثبت معبوداً سوى الله تعالى سواء قال : إن ذلك المعبود هو الشمس أو القمر أو الكواكب أو الأصنام والأوثان والأرواح العلوية أو يزدان وأهرمن على ما يقوله المجوس أو النور والظلمة على ما يقوله الثنوية .

وسادسها : قوله : ﴿ إِلَيْهِ ادعوا ﴾ والمراد منه أنه كما وجب عليه الإتيان بهذه العبادات فكذلك يجب عليه الدعوة إلى عبودية الله تعالى وهو إشارة إلى نبوته .

وسابعها : قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ مَابِ ﴾ وهو إشارة إلى الحشر والنشر والبعث والقيامة فإذا تأمل الإنسان في هذه الألفاظ القليلة ووقف عليها عرف أنها محتوية على جميع المطالب المعتبرة في الدين .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى شبه إنزاله حكماً عربياً بما أنزل إلى ما تقدم من الأنبياء ، أي كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسانهم ، كذلك أنزلنا عليك القرآن .

والكناية في قوله : ﴿ أنزلناه ﴾ تعود إلى "ما" في قوله : ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ فيه وجوه : الأول : حكمة عربية مترجمة بلسان العرب .

الثاني : القرآن مشتمل على جميع أقسام التكاليف ، فالحكم لا يمكن إلا بالقرآن ، فلما كان القرآن سبباً للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة .

الثالث : أنه تعالى حكم على جميع المكلفين بقبول القرآن والعمل به فلما حكم على الخلق بوجوب قبوله جعله حكماً .

واعلم أن قوله : ﴿ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ نصب على الحال ، والمعنى : أنزلناه حال كونه حكماً عربياً .

المسألة الثالثة :

قالت المعتزلة : الآية دالة على حدوث القرآن من وجوه : الأول : أنه تعالى وصفه بكونه منزلاً وذلك لا يليق إلا بالمحدث .

الثاني : أنه وصفه بكونه عربياً والعربي هو الذي حصل بوضع العرب واصطلاحهم وما كان كذلك كان محدثاً .

الثالث : أن الآية دالة على أنه إنما كان حكماً عربياً ، لأن الله تعالى جعله كذلك ووصفه بهذه الصفة ، وكل ما كان كذلك فهو محدث .

والجواب : أن كل هذه الوجوه دالة على أن المركب من الحروف والأصوات محدث ولا نزاع فيه والله أعلم .

المسألة الرابعة :

روي أن المشركين كانوا يدعونه إلى ملة آبائه فتوعده الله تعالى على متابعتهم في تلك المذاهب مثل أن يصلي إلى قبلتهم بعد أن حوله الله عنها .

قال ابن عباس : الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، وقيل : بل الغرض منه حث الرسول عليه السلام على القيام بحق الرسالة وتحذيره من خلافها ، ويتضمن ذلك أيضاً تحذير جميع المكلفين ، لأن من هو أرفع منزلة إذا حذر هذا التحذير فهم أحق بذلك وأولى . انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 47. 50 ﴾

(143/413)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ فِي الْأُكُلِ يَعْنِي بِهِ الْمَأْكُولَ لَا الْفِعْلَ .

وَصَفَ اللَّهُ طَعَامَ الْجَنَّةِ بِأَنَّهُ غَيْرُ مَقْطُوعٍ وَلَا مَمْنُوعٍ ، وَطَعَامُ الدُّنْيَا يَنْقَطِعُ وَيُمْنَعُ فَيَمْتَنِعُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ إبْرَاهِيمُ بْنُ نُوحٍ : سَمِعْت مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ يَقُولُ : " لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِنْ ثِمَارٍ مَا يُشْبِهُ ثِمَارَ الْجَنَّةِ إلَّا الْمَوْزُ " لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ وَأَنْت تَجِدُ الْمَوْزَ فِي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ .

قَالَ الْقَاضِي : وَكَذَلِكَ رُمَّانُ بَغْدَادَ ، شَاهَدْت الْمُحَوَّلَ قَرْيَةً مِنْ قُرَى نَهْرِ عِيسَى وَفِي شَجَرِ الرُّمَّانِ حَبُّ الْعَامَيْنِ يَجْتَمِعُ تَقْطَعُ مِنْهُ مَتَى شِئْت صَيْفًا وَشِتَاءً ، وَقَيْظًا وَخَرِيفًا ، إلَّا أَنَّ الْحَبَّةَ الَّتِي بَقِيَتْ فِي الشَّجَرَةِ عَامًا لَا تَفْلِقُهَا إلَّا بِالْقَدُومِ مِنْ شِدَّةِ الْقِشْرِ ، فَإِذَا انْفَلَقَتْ ظَهَرَ تَحْتَهُ حَبُّ الرُّمَّانِ أَجْمَلَ مَا كَانَ وَأَيْنَعَهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(144/413)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ مثل الجنة التي وُعِدَ المتقون ﴾

فيه قولان :

أحدهما : يشبه الجنة ، قاله علي بن عيسى .

الثاني : نعت الجنة لأنه ليس للجنة مثل ، قاله عكرمة .

﴿ تجري من تحتها الأنهار أُكُلُها دائم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ثمرها غير منقطع ، قاله القاسم بن يحيى .

الثاني : لذتها في الأفواه باقية ، قاله إبراهيم التيمي .

ويحتمل ثالثاً : لا تمل من شبع ولا مرباد لمجاعة .

﴿ وظلها ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : دائم البقاء .

الثاني : دائم اللذة .

قوله عز وجل : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ﴾

فيهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فرحوا بما أنزل عليه من القرآن ، قاله قتادة وابن زيد .

الثاني : أنهم مؤمنو أهل الكتاب ، قاله مجاهد .

الثالث : أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى فرحوا بما أنزل عليه من تصديق كتبهم ، حكاه ابن عيسى .

﴿ ومِن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم اليهود والنصارى والمجوس ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنهم كفار قريش .

وفي إنكارهم بعضه وجهان :

أحدهما : أنهم عرفوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبهم وأنكروا نبوته .

الثاني : أنهم عرفوا صِدْقه وأنكروا تصديقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(145/413)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ مثل الجنة ﴾ الآية ،

قال قوم : ﴿ مثل ﴾ معناه ، صفة ، وهذا من قولك : مثلت الشيء ، إذا وصفته لأحد وقربت عليه فهم أمره ، وليس بضرب مثل لها ، وهو كقوله : ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ [الروم : 27] أي الوصف الأعلى . ويظهر أن المعنى الذي يتحصل في النفس مثالاً للجنة هو جري الأنهار وأن أكلها دائم .

وراجعه عند سيبويه فقدر قبل ، تقديره : فيما يتلى عليكم أو ينص عليكم مثل الجنة .

وراجعه عند الفراء قوله : ﴿ تجري ﴾ أي صفة الجنة أنها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾

ونحو هذا موجود في كلام العرب ، وتأول عليه قوم : أن ﴿ مثل ﴾ مقحم وأن التقدير : ﴿ الجنة التي وعد المتقون تجري ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا قلق .

وقرأ علي بن أبي طالب وابن مسعود " أمثال الجنة " .

وقد تقدم غيره مرة معنى قوله : ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ وقوله : ﴿ أكلها ﴾ معناه : ما يؤكل فيها . و" العقبى " والعاقبة والعاقب : حال تتلو أخرى قبلها . وباقي الآية بين.

وقيل : التقدير في صدر الآية ، مثل الجنة جنة تجري – قاله الزجاج – فتكون الآية على هذا ضرب مثل لجنة النعيم في الآخرة .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾

اختلف المتأولون فيمن عنى بقوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ فقال ابن زيد : عنى به من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وشبهه .

قال القاضي أبو محمد : والمعنى : مدحهم بأنهم لشدة إيمانهم يسرون بجميع ما يرد على النبي عليه السلام من زيادات الشرع .

وقال قتادة : عنى به جميع المؤمنين ، و﴿ الكتاب ﴾ هو القرآن ، و﴿ بما أنزل إليك ﴾ يراد به ، جميع الشرع . وقالت فرقة : المراد ب ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ اليهود

والنصارى ، وذلك أنهم لهم فرح بما ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم من تصديق شرائعهم وذكر أوائلهم .

(146/413)

قال القاضي أبو محمد : ويضعف هذا التأويل بأن همهم به أكثر من فرحهم ، ويضعف أيضاً بأن اليهود والنصارى ينكرون بعضه . وقد فرق الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه وبين الذين آتيناهم الكتاب .

و ﴿ الأحزاب ﴾ قال مجاهد : هم اليهود والنصارى والمجوس ، وقالت فرقة : هم أحزاب الجاهلية من العرب . وأمره الله تعالى أن يطرح اختلافهم ويصدع بأنه إنما أمر بعبادة الله وترك الإشراك ، والدعاء إليه ، واعتقاد " المآب " إليه وهو الرجوع عند البعث يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وكذلك ﴾ المعنى : كما يسرنا هؤلاء للفرح ، وهؤلاء لإنكار البعض ، كذلك ﴿ أنزلناه حكماً عربياً ﴾ ، ويحتمل المعنى : والمؤمنون آتيناهموه يفرحون به لفهمهم به وسرعة تلقيهم .

ثم عدد النعمة بقوله : " كذلك جعلناه " أي سهلنا عليهم في ذلك وتفضلنا .

و﴿ حكماً ﴾ نصب على الحال ، و" الحكم " هو ما تضمنه القرآن من المعاني ، وجعله ﴿ عربياً ﴾ لما كانت العبارة عنه بالعربية .

ثم خاطب النبي عليه السلام محذراً من اتباع أهواء هذه الفرق الضالة ، والخطاب لمحمد عليه السلام ، وهو بالمعنى يتناول المؤمنين إلى يوم القيامة .

ووقف ابن كثير وحده على " واقي " و" هادي " و" والي " بالياء . قال أبو علي : والجمهور يقفون بغير ياء ، وهو الوجه . وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(147/413)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ مَثَل الجنة ﴾

أي : صفتها أن الأنهار تجري من تحتها ، هذا قول الجمهور ، وقال ثعلب : خبر المَثَل مُضمَر قبله ، والمعنى : فيما نصف لكم مَثَل الجنة ، وفيما نقصُّه عليكم خبر الجنة ﴿ أُكُلُها دائم ﴾ قال الحسن : يريد أن ثمارها لا تنقطع كثمار الدنيا ﴿ وظِلُّها ﴾ لأنه لا يزول ولا تنسخه الشمس .

قوله تعالى : ﴿ تلك عقبى الذين اتقوا ﴾ أي : عاقبة أمرهم المصير إليها .

قوله تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾

فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم مسلمو اليهود ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وقال مقاتل : هم عبد الله بن سلام وأصحابه .

والثاني : أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله قتادة .

والثالث : مؤمنو أهل الكتابين من اليهود والنصارى ، ذكره الماوردي .

والذي أُنزل إليه : القرآن ، فرح به المسلمون وصدَّقوه ، وفرح به مؤمنو أهل الكتاب ، لأنه صدَّق ما عندهم .

وقيل : إن عبد الله بن سلام ومن آمن معه من أهل الكتاب ، ساءهم قِلَّة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذِكره في التوراة ، فلما نزل ذِكره فرحوا ، وكفر المشركون به ، فنزلت هذه الآية .

فأما الأحزاب ، فهم الكفار الذين تحزَّبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعاداة ، وفيهم أربعة أقوال :

أحدها : أنهم اليهود والنصارى ، قاله قتادة .

والثاني : أنهم اليهود والنصارى والمجوس ، قاله ابن زيد .

والثالث : بنو أمية وبنو المغيرة وآل أبي طلحة بن عبد العزّى ، قاله مقاتل .

والرابع : كفار قريش ، ذكره الماوردي .

وفي بعضه الذي أنكروه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه ذِكر الرحمن والبعثِ ومحمدٍ صلى الله عليه وسلم ، قاله مقاتل .

والثاني : أنهم عرفوا بعثة الرسول في كتبهم وأنكروا نبوّته .

والثالث : أنهم عرفوا صِدقه ، وأنكروا تصديقه ، ذكرهما الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾

أي : وكما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلغاتهم ، أنزلنا عليك القرآن ﴿ حكماً عربياً ﴾ قال ابن عباس : يريد ما فيه من الفرائض .

وقال أبو عبيدة : ديناً عربيّاً .

قوله تعالى : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : في صلاتك إِلى بيت المقدس ﴿ بعد ما جاءك من العِلم ﴾ أن قبلتك الكعبة ، قاله ابن السائب .

والثاني : في قبول ما دعوك إليه من مِلَّة آبائك ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ مالك من الله من وليّ ﴾ أي : مالك من عذاب الله من قريب ينفعك ﴿ ولا واق ﴾ يقيك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(149/413)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون ﴾

اختلف النحاة في رفع "مَثَلُ" فقال سيبويه : ارتفع بالابتداء والخبر محذوف ؛ والتقدير : وفيما يتلى عليكم مَثَلُ الجنة .

وقال الخليل : ارتفع بالابتداء وخبره "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ" أي صفة الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار ؛ كقولك : قولي يقوم زيد ؛ فقولي مبتدأ ، ويقوم زيد خبره ؛ والمثل بمعنى الصفة موجود ؛ قال الله تعالى : ﴿ ذِلَكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل ﴾ [الفتح : 29] وقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ [النحل : 60] أي الصفة العليا ؛ وأنكره أبو علي وقال : لم يسمع مَثَل بمعنى الصفة ؛ إنما معناه الشبه ؛ ألا تراه يجري مجراه في مواضعه ومتصرفاته ، كقولهم : مررت برجل مثلك ؛ كما تقول : مررت برجل شبهك ؛ قال

: ويفسد أيضاً من جهة المعنى ؛ لأن مثلاً إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام : صفة الجنة التي فيها أنهار ، وذلك غير مستقيم ؛ لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها .

وقال الزجاج : مَثَّلَ اللهُ عزّ وجلّ لنا ما غاب عنا بما نراه ؛ والمعنى : مَثَلُ الجَنّة جَنّةٌ تجري من تحتها الأنهار ؛ وأنكره أبو عليّ فقال : لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه ، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله ؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح ، لأنك إذا قلت : صفة الجنّة جنّة ، فجعلت الجنة خبراً لم يستقم ذلك ؛ لأن الجنة لا تكون الصفة ، وكذلك أيضاً شبه الجنة جنة ؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين ، وهو حدَث ؛ والجنّة غير حدَث ؛ فلا يكون الأول الثاني .

وقال الفرّاء : المثل مقحم للتأكيد ؛ والمعنى : الجنّة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار ؛ والعرب تفعل ذلك كثيراً بالمثل ؛ كقوله : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [الشورى : 11] ؛ أي ليس هو كشيء .

وقيل التقدير : صفة الجنة التي وعِد المتقون صفة جنّة "تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ" .

وقيل معناه : شبه الجنة التي وعد المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب

والشدّة والخلود ؛ قاله مقاتل .

﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾ لا ينقطع ؛ وفي الخبر : "إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى" وقد بيناه في "التذكرة" .

﴿ وظِلُّهَا ﴾ أي وظلها كذلك ؛ فحذف ؛ أي ثمرها لا ينقطع ، وظلّها لا يزول ؛ وهذا ردّ على الْجَهْمِيّة في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى .

﴿ تِلْكَ عقبى الذين اتقوا وَّعُقْبَى الكافرين النار ﴾ أي عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها .

قوله تعالى : ﴿ والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾

أي بعض من أوتي الكتاب يفرح بالقرآن ، كابن سَلاَم وسَلْمان ، والذين جاؤوا من الحبشة ؛ فاللفظ عام ، والمراد الخصوص .

وقال قَتَادة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يفرحون بنور القرآن ؛ وقاله مجاهد وابن زيد .

وعن مجاهد أيضاً أنهم مؤمنو أهل الكتاب .

وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم .

وقال أكثر العلماء : كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في أوّل ما أنزل ، فلما أسلم عبد الله بن سَلاَم وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة ؛ فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسمآء الحسنى ﴾ [الإسراء : 110] فقالت قريش : ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين ، الله والرحمنا والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب ؛ فنزلت : ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 36] ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ [الرعد : 30] ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ﴿ وَمِنَ الأحزاب ﴾ يعني مشركي مكة ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس .

وقيل : هم العرب المتحزبون على النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : ومن أعداء المسلمين من ينكر بعض ما في القرآن ؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله ولاا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفاً على "أعبد" .

وقرأ أبو خالد بالرفع على الاستئناف أي أفرده بالعبادة وحده لا شريك له ، وأتبرّأ عن

المشركين ، ومن قال : المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، ومن اعتقد التشبيه كاليهود .

﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس .

﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أي أرجع في أموري كلها .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً ﴾

أي وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكماً عربياً ؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربيّ ، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضاً .

(152/413)

وقيل نظم الآية : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكماً عربياً ، أي بلسان العرب ؛ ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام .

وقيل : أراد بالحكم العربي القرآن كله ؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم .

﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم ﴾ أي أهواء المشركين في عبادة ما دون الله ، وفي التوجيه إلى غير الكعبة .

﴿ بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم مَا لَكَ مِنَ الله مِن وَلِيٍّ ﴾ أي ناصر ينصرك .

﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ يمنعك من عذابه ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد الأمة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(153/413)

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾

أي صفة الجنة التي وعد المتقون ﴿ تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم ﴾ لا ينقطع أبداً ﴿ وظلها ﴾ يعني أنه دائم لا ينقطع أبداً وليس في الجنة شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ، ولا يزول وفي الآية رد على جهم وأصحابه فإنهم يقولون : إن نعيم الجنة يفنى وينقطع وفي الآية دليل على أن حركات أهل الجنة لا تنتهي إلى سكون دائم .

كما يقول أبو الهذيل واستدل القاضي عبد الجبار المعتزلي بهذه الآية على أن الجنة لم تخلق بعد .

قال : ووجه الدليل أنها لو كانت مخلوقة لوجب أن تفنى وينقطع أكلها لقوله تعالى ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ فوجب أن لا تكون الجنة مخلوقة لقوله : أكلها دائم يعني لا ينقطع قال ولا ينكر أن تكون في السموات جنات كثيرة تتمتع بها الملائكة ، ومن يعد حياً من

الأنبياء والشهداء وغيرهم على ما روي إلا أن الذي نذهب إليه أن جنة الخلد لم تخلق بعد .

والجواب عن هذا أن حاصل دليلهم مركب من آيتين : إحداهما : قوله تعالى : كل شيء هالك إلا وجهه ، والأخرى قوله : أكلها دائم وظلها ، فإذا أدخلنا التخصيص على هذين العمومين سقط دليلهم فنخص هذين الدليلين بالدلائل الدالة على أن الجنة مخلوقة .

منها قوله تعالى : ﴿ وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ وقوله تعالى ﴿ تلك عقبى الذين اتقوا ﴾ يعني أن عاقبة أهل التقوى هي الجنة ﴿ وعقبى الكافرين النار ﴾ يعني في الآخرة .

(154/413)

قوله ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ﴾ في المراد بالكتاب هنا قولان : أحدهما أنه القرآن والذين أتوه المسلمون وهم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمراد أنهم يفرحون بما يتجدد من الأحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت بتجدد نزول القرآن ﴿ ومن الأحزاب ﴾ يعني الجماعات الذين تحزبوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الكفار واليهود والنصارى ﴿ من ينكر بعضه ﴾ وهذا قول الحسن وقتادة .

فإن قلت : إن الأحزاب من المشركين وغيرهم من أهل الكتاب ينكرون القرآن كله فكيف قال ومن الأحزاب من ينكر بعضه .

قلت : إن الأحزاب لا ينكرون القرآن بجملته لأنه قد ورد فيه آيات دالّات على توحيد الله وإثبات قدرته وعلمه وحكمته ، وهم لا ينكرون ذلك أبداً والقول الثاني أن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل والمراد بأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ومن أسلم من النصارى ، وهم ثمانون رجلاً أربعون من نجران وثلاثون من الحبشة وعشرة ممن سواهم فرحوا بالقرآن لكونهم آمنوا به وصدقوه ، ومن الأحزاب يعني بقية أهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين من ينكر بعضه .

(155/413)

وقيل : كان ذكر الرحمن قليلاً في القرآن في الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن معه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة ، فلما كرر الله تعالى ذكر لفظه الرحمن في القرآن فرحوا بذلك فأنزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب يعني مشركي مكة من ينكر بعضه وذلك لمَّا كتب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه بسم الله

الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله ﴿ وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي ﴾ وإنما قال ومن الأحزاب من ينكر بعضه لأنهم كانوا لا ينكرون الله وينكرون الرحمن ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد ﴿ إنما أمرت أن أعبد الله ﴾ يعني وحده ﴿ ولا أشرك به ﴾ شيئاً ﴿ إليه أدعو ﴾ إي إلى الله وإلى الإيمان به أدعوا الناس ﴿ وإليه مآب ﴾ يعني مرجعي يوم القيامة.

﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾

أي كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلغاتهم، أنزلنا إليك يا محمد هذا الكتاب وهو القرآن عربياً بلسانك ولسان قومك.

وإنما سمي القرآن حكماً لأن فيه جميع التكاليف والأحكام والحلال والحرام والنقض والإبرام، فلما كان القرآن سبباً للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة، وقيل إن الله لما حكم على جميع الخلق بقبول القرآن والعمل بمقتضاه سماه حكماً لذلك المعنى ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ قال جمهور المفسرين: إن المشركين دعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى ملة آبائهم فتوعده الله على اتباع أهوائهم في ذلك.

وقال ابن السائب: المراد به متابعة آبائهم في الصلاة لبيت المقدس ﴿ بعد ما جاءك من العلم ﴾ يعني بأنك على الحق، وأن قبلتك الكعبة هي الحق.

وقيل : ظاهر الخطاب فيه للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمراد به غيره وقيل : هو حث للنبي (صلى الله عليه وسلم) على تبليغ الرسالة والقيام بما أمر به ويتضمن ذلك تحذير غيره من المكلفين لأن من هو أرفع منزلة وأعظم قدراً وأعلى مرتبة إذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الأولى ﴿ ما لك من الله من ولي ولا واق ﴾ يعني من ناصر ولا حافظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(157/413)

وقال أبو حيان :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾

مثل الجنة أي : صفتها التي هي في غرابة المثل ، وارتفع مثل على الابتداء في مذهب سيبويه ، والخبر محذوف أي : فيما قصصنا عليكم مثل الجنة ، وتجري من تحتها الأنهار تفسير لذلك المثل .

تقول : مثلت الشيء إذا وصفته وقربته للفهم ، وليس هنا ضرب مثل لها فهو كقوله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ أي الصفة العليا ، وأنكر أبو عليّ أن يكون مثل بمعنى صفة قال :

إنما معناه التنبيه .

وقال الفراء : أي صفتها أنها تجري من تحتها الأنهار ، ونحو هذا موجود في كلام العرب انتهى .

ولا يمكن حذف أنَّها ، وإنما فسر المعنى ولم يذكر الإعراب .

وتأول قوم على القرآن مثل مقحم ، وأنّ التقدير : الجنة التي وعد المتقون تجري ، وإقحام الأسماء لا يجوز .

وحكوا عن الفراء أنّ العرب تقحم كثيراً المثل والمثل ، وخرج على ذلك : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ أي : كهو شيء .

فقال غيرهما : الخبر تجري ، كما تقول : صفة زيد اسمر ، وهذا أيضاً لا يصح أن يكون تجري خبراً عن الصفة ، وإنما يتأول تجري على إسقاط أنْ ورفع الفعل ، والتقدير : أنْ تجري خبر ثان الأنهار .

وقال الزجاج : معناه مثل الجنة جنة تجري على حذف الموصوف تمثيلاً لما غاب عنا بما نشاهد انتهى .

وقال أبو علي : لا يصح ما قال الزجاج ، لا على معنى الصفة ، ولا على معنى الشبه ، لأن الجنة التي قدرها جنة ولا تكون الصّفة ، ولأن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين وهو حدث ، والجنة جنة فلا تكون المماثلة .

وقرأ علي وابن مسعود : مثال الجنة على الجمع أي : صفاتها .

وفي اللوامح على السلمى أمثال الجنة جمع ، ومعناه : صفات الجنة .

وذلك لأنها صفات مختلفة ، فلذلك جمع نحو الحلقوم والإسعال .

(158/413)

والأكل ما يؤكل فيها ، ومعنى دوامه : أنه لا ينقطع أبداً ، كما قال تعالى : ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ وقال إبراهيم التيمي : أي لذاته دائمة لا تزاد بجوع ولا تمل من شبع .

وظلها أي : دائم البقاء والراحة ، لا تنسخه شمس ، ولا يميل لبرد كما في الدنيا .

أي : تلك الجنة عاقبة الذين اتقوا أي : اجتنبوا الشرك .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾

نزلت في مؤمني أهل الكتابين ، ذكره الماوردي ، واختاره الزمخشري فقال : من أسلم من اليهود كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما ، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً : أربعون من نجران ، وثمانية من اليمن ، وإثنان وثلاثون من الحبشة .

ومن الأحزاب يعني : ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالعداوة نحو : كعب بن الأشرف وأصحابه ، والسيد والعاقب أسقفي

نجران وأشياعهما ، من ينكر بعضه لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم غير محرف ، وكانوا ينكرون ما هو نعت الإسلام ، ونعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مما حرفوه وبدلوه انتهى .

وعن ابن عباس ، وابن زيد : في مؤمني اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه ، وعن قتادة في أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، مدحهم الله تعالى بأنهم يسرون بما أنزل إليك من أمر الدين .

وعن مجاهد ، والحسن ، وقتادة : أن المراد بأهل الكتاب جميعهم يفرحون بما أنزل من القرآن ، إذ فيه تصديق كتبهم ، وثناء على أنبيائهم وأحبارهم ورهبانهم الذين هم على دين موسى وعيسى عليهما السلام .

وضعف هذا القول بأنّ همهم به أكثر من فرحهم ، فلا يعتد بفرحهم .

وأيضاً فإنّ اليهود والنصارى ينكرون بعضه ، وقد قذف تعالى بين الذين ينكرون بعضه وبين الذين آتيناهم الكتاب .

والأحزاب قال مجاهد : هم اليهود ، والنصارى ، والمجوس .

وقالت فرقة : هم أحزاب الجاهلية من العرب .

وقال مقاتل : الأحزاب بنو أمية ، وبنو المغيرة ، وآل أبي طلحة .

ولما كان ما أنزل إليه يتضمن عبادة الله ونفي الشريك ، أمر بجواب المنكرين ، فقيل له : قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، فإنكاركم لبعض القرآن الذي أنزل لعبادة الله وتوحيده ، وأنتم تدعون وجوب العبادة ونفي الشريك إليه ، أدعوا إلى شرعه ودينه ، وإليه مرجعي عند البعث يوم القيامة في جميع أحوالي في الدنيا والآخرة .

وقرأ أبو جليد عن نافع : ولا أشركُ بالرفع على القطع أي : وأنا لا أشرك به .

وجوز أن يكون حالاً أي : أنْ أعبد الله غير مشرك به .

وكذلك أي : مثل إنزالنا الكتاب على الأنبياء قبلك ، لأن قوله : والذين آتيناهم الكتاب ، يتضمن إنزاله الكتاب ، وهذا الذي أنزلناه هو بلسان العرب ، كما أن الكتب السابقة بلسان من نزلت عليه : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ وأراد بالحكم أنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم .

وقال ابن عطية : وقوله وكذلك المعنى : كما يسرنا لهؤلاء الفرح ولهؤلاء الإنكار لبعض كذلك أنزلناه حكماً عربياً انتهى .

وانتصب حكماً على الحال من ضمير النصب في أنزلناه ، والضمير عائد على القرآن ، والحكم ما تضمنه القرآن من المعاني .

ولما كانت العبارة عنه بلسان العرب نسبه إليها .

ولئن اتبعت : الخطاب لغير الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، لأنه معصوم من اتباع أهوائهم .

وقال الزمخشري : هذا من باب الإلهاب والتهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه .

أن لا يزال زال عند الشبه بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من شدة الشكيمة بمكان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(160/413)

وقال أبو السعود :

﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾

أي صفتُها العجيبة الشأنِ التي في الغرابة كالمثل ﴿ التى وُعِدَ المتقون ﴾ عن الكفر والمعاصي وهو مبتدأ خبرُه محذوفٌ عند سيبويه أي فيما قصصنا عليك مثلُ الجنة وقوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ تفسير لذلك المثَل على أنه حالٌ من الضمير المحذوف من الصلة العائدِ إلى الجنة أي وعدها وهو الخبرُ عند غيره ، كقولك : شأنَ زيد

يأتيه الناسُ ويعظمونه أو على حذف موصوفٍ أي مثلُ الجنة جنةٌ تجري الخ ﴿ أُكُلُهَا ﴾ ثمرُها ﴿ دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع ﴿ وظِلُّهَا ﴾ أيضاً كذلك لا تنسخه الشمسُ كما تنسخ ظلالَ الدنيا ﴿ تِلْكَ ﴾ الجنة المنعوتةُ بما ذكر ﴿ عقبى الذين اتقوا ﴾ الكفرَ والمعاصيَ أي ما لهم ومنتهى أمرِهم ﴿ وَّعُقْبَى الكافرين النار ﴾ لا غيرُ ، وفيه ما لا يخفى من إطماع المتقين وإقناطِ الكافرين .

﴿ والذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد اللَّه بنِ سلام وكعبٍ وأضرابِهما ومَنْ آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً : أربعون بنجرانَ ، وثمانيةٌ باليمن ، واثنانَ وثلاثون بالحبشة ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ إذ هو الكتابُ الموعودُ في التوراة والإنجيل ﴿ وَمِنَ الاحزاب ﴾ أي من أحزابهم وهم كفرتُهم الذين تحزّبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الأشرفِ والسيدِ والعاقبِ أسقُفيْ نجرانَ وأتباعِهما ﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ وهو الشرائعُ الحادثة إنشاءً أو نسخاً لا ما يوافق ما حرفوه وإلا لنُعيَ عليهم من أول الأمر أن مدارَ ذلك إنما هو جناياتُ أيديهم ، وأما ما يوافق كتبهم فلم ينكروه وإن لم يفرحوا به ، وقيل : يجوز أن يراد بالموصول الأول عامتُهم فإنهم أيضاً يفرحون به لكونه مصداقاً لكتبهم في الجملة فحينئذ يكون قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأحزاب ﴾ الخ ، تتمةً بمنزلة أن يقال : ومنهم من ينكر بعضه .

﴿ قُلْ ﴾ إلزاماً لهم ورداً لإنكارهم ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أي شيئاً من الأشياء أو لا أفعل الإشراكَ به ، والمراد قصرُ الأمر بالعبادة على الله تعالى لا قصرُ الأمرِ مطلقاً على عبادته تعالى خاصة ، أي قل لهم : إنما أمرتُ فيما أُنزل إلي بعبادة الله وتوحيده ، وظاهرٌ أن لا سبيلَ لكم إلى إنكاره لإطباق جميعِ الأنبياءِ والكتبِ على ذلك كقوله تعالى :

﴿ قُلْ يا أهل * أَهْلِ الكتاب تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَن لَا نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾

فما لكم تشركون به عُزيراً والمسيحَ ؟ وقرىء ولا أشركُ به بالرفع على الاستئناف أي وأنا لا أشرك به ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى الله تعالى خاصة على النهج المذكورِ من التوحيد أو إلى ما أمرت به من التوحيد ﴿ أَدْعُو ﴾ الناسَ لا إلى غيره أو لا إلى شيء آخر مما يُطبق عليه الكتبُ الإلهية والأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام فما وجهُ إنكارِكم ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ إلى الله تعالى وحده ﴿ مَآبِ ﴾ مرجعي للجزاء ، وحيث كانت هذه الحجةُ الباهرة لازمةً لهم لا يجدون عنها محيصاً أُمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبَهم بذلك إلزاماً وتبكيتاً لهم ، ثم شرُع في رد إنكارِهم لفروع الشرائع الواردةِ ابتداءً أو بدلاً من الشرائع المنسوخةِ ببيان الحكمةِ في ذلك فقيل :

﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أي ما أنزل إليك ، وذلك إشارةٌ إلى مصدر أنزلناه أو أنزل إليك ، ومحلُّه النصبُ على المصدرية أي مثلَ ذلك الإنزالِ البديعِ المنتظم لأصول مجمَعٍ عليها وفروعٍ متشعبة إلى موافِقة ومخالِفة حسبما تقتضيه قضيةُ الحكمةِ والمصلحة أنزلناه ﴿ حُكْمًا ﴾ حاكماً يحكم في القضايا والواقعات بالحق أو يُحكم به كذلك ، والتعرضُ لذلك العنوان مع أن بعضَه ليس بحكم لتربية وجوبِ مراعاتِه وتحتم المحافظةِ عليه ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ مترجماً بلسان العربِ ، والتعرضُ لذلك للإشارة إلى أن ذلك إحدى موادِّ المخالفة للكتب السابقةِ مع أن ذلك مقتضى الحكمةِ إذ بذلك يسهُل فهمه وإدراكُ إعجازه ، والاقتصارُ على اشتمال الإنزالِ على أصول الديانات المجمِع عليها حسبما يفيده قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ ﴾ الخ ، يأباه التعرّض لاتباع أهوائِهم وحديثِ المحو والإثبات ، وأنْ لكل أجلٍ كتابٌ فإن المجمَع عليه لا يتصور فيه الاستتباعُ والاتباع ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم ﴾ التي يدعونك إليها من تقرير الأمور المخالفةِ لما أنزل إليك من الحق كالصلاة إلى بيت المقدس بعد التحويل ﴿ بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم ﴾ العظيمِ الشأن الفائضِ من ذلك الحُكم العربيّ أو العلم بمضمونه ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللهِ ﴾ من جنابه العزيز ، والالتفاتُ من التكلم إلى الغَيبة وإيرادُ

الاسم الجليلِ لتربية المهابة ، قال الأزهري : لا يكون إلها حتى يكون معبوداً وحتى يكون خالقاً ورازقاً ومدبراً . ﴿ مِن وَلِىّ ﴾ يلي أمرك وينصرك على من يبغيك الغوائلَ ﴿ وَلاَ وَاقٍ ﴾ يقيك من مصارع السوءِ وحيث لم يستلزم نفيُ الناصرِ على العدو نفيَ الواقي من نكايته أُدخل على المعطوف حرفُ النفي للتأكيد ، كقولك : ما لي دينارٌ ولا درهم ، أو ما لك من بأس الله من ناصر وواقٍ لاتباعك أهواءَهم . وأمثالُها تيك القوارعِ إنما هي لقطع أطماعِ الكفرة وتهييجِ المؤمنين على

الثبات في الدين ، واللام في لئن موطئةٌ وما لك سادٌّ مسدَّ جوابي الشرط والقسم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(163/413)

وقال الآلوسى :

﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾

أي نعتها وصفتها كما أخرجه ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن عكرمة ، فهو على ما في البحر من مثلت الشيء إذا وصفته وقربته للفهم ، ومنه ﴿ وَلَهُ المثل الاعلى ﴾ [الروم : 27] أي الصفة العليا ، وأنكر أبو علي ذلك وقال :

إن تفسير المثل بالصفة غير مستقيم لغة ولم يوجد فيها وإنما معناه الشبيه .

وقال بعض المحققين : إنه يستعمل في ثلاثة معان .

فيستعمل بمعنى الشبيه في أصل اللغة ، وبمعنى القول السائر المعروف في عرف اللغة ، وبمعنى الصفة الغريبة ، وهو معنى مجازي له مأخوذ من المعنى العرفي بعلاقة الغرابة لأن المثل إنما يسير بين الناس لغرابته ، وأكثر المفسرين على تفسيره هنا بالصفة الغريبة ، وهو حينئذ مبتدأ خبره عند سيبويه محذوف أي فيما يقص ويتلى عليكم صفة الجنة ﴿ التى وُعِدَ المتقون ﴾ أي عن الكفر والمعاصي ، وقدر مقدما لطول ذيل المبتدأ ولئلا يفصل بينه وبين ما يتعلق به معنى ، وقوله تعالى ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ جملة مفسرة كخلقه من تراب في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] أو مستأنفة استئنافاً بيانياً أو حال من العائد المحذوف من الصلة أي التي وعدها ، وقيل : هي الخبر على طريقة قولك : شأن زيد يأتيه الناس ويعظمونه .

واعترض بأنه غير مستقيم معنى لأنه يقتضي أن الأنهار في صفة الجنة وهي فيها لا في صفتها ، وفيه أيضاً تأنيث الضمير العائد على ﴿ مَثَلُ ﴾ حملا على المعنى ، وقد قيل : إنه قبيح .

وأجيب بأن ذاك على تأويل أنها تجري ، فالمعنى مثل الجنة جريان الأنهار أو أن الجملة في

تأويل المفرد فلا يعود منها ضمير للمبتدأ أو المراد بالصفة ما يقال فيه هذا إذا وصف ، فلا حاجة إلى الضمير كما في خبر ضمير الشأن .

(164/413)

وقال الطيبي : إن تأنيث الضمير لكونه راجعاً إلى الجنة لا إلى المثل ، وإنما جاز ذلك لأن المقصود من المضاف عين المضاف إليه وذكره توطئة وليس نحو غلام زيد .

وتعقب كل ذلك الشهاب بأنه كلام ساقط متعسف لأن تأويل الجملة بالمصدر من غير حرف سابك شاذ ، وكذا التأويل بأنه أريد بالصفة لفظها الموصوف به وليس في اللفظ ما يدل عليه وهو تجوز على تجوز ولا يخفى تكلفه ، وقياسه على ضمير الشأن قياس مع الفارق ، وأما عود الضمير على المضاف إليه دون المبتدأ في مثل ذلك فأضعف من بيت العنكبوت فالحزم الاعراض عن هذا الوجه ، وعن الزجاج أن الخبر محذوف والجملة المذكورة صفة له ، والمراد مثل الجنة جنة تجري إلى آخره ، فيكون سبحانه قد عرفنا الجنة التي لم نرها بما شاهدناه من أمور الدنيا وعايناه .

وتعقبه أبو علي على ما في البحر بأنه لا يصح لا على معنى الصفة ولا على معنى الشبه لأن الجنة التي قدرها جثة ولا تكون صفة ولأن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين الشيئين وهو

حدث فلا يجوز الاخبار عنه بالجنة الجثة .

ورد بأن المراد بالمثل المثيل أو الشبيه فلا غبار في الأخبار ، وقيل : إن التشبيه هنا تمثيلي منتزع وجهه من عدة أمور من أحوال الجنان المشاهدة من جريان أنهارها وغضارة أغصانها والتفاق أفنانها ونحوه ، ويكون قوله تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وظِلُّهَا ﴾ بياناً لفضل تلك الجنان وتمييزها عن هذه الجنان المشاهدة ، وقيل : إن هذه بيان لحال جنان الدنيا على سبيل الفرض وأن فيما ذكر انتشاراً واكتفاء في النظير بمجرد جريان الأنهار وهو لا يناسب البلاغة القرآنية وهو كما ترى .

ونقل عن الفراء أن الجملة خبر أيضاً إلا أن المثل بمعنى الشبه مقحم ، والتقدير الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار إلى آخره ، وقد عهد اقحامه بهذا المعني ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : 11] وتعقبه أبو حيان بأن اقحام الأسماء لا يجوز ، ورد بأنه في كلامهم كثير كثم اسم السلام عليكما ولا صدقة إلا عن ظهر غني إلى غير ذلك ، والأولى بعد القيل والقال الوجه الأول فإنه سالم من التكلف مع ما فيه من الإيجاز والإجمال والتفصيل ، والظاهر أن المراد من الأكل ما يؤكل فيها ، ومعنى دوامه أنه لا ينقطع

أبداً ، وقال إبراهيم التيمي : إن لذته دائمة لا تزاد بجوع ولا تمل بشبع وهو خلاف الظاهر . وفسر بعضهم الأكل بالثمرة ، فقيل : وجهه أنه ليس في جنة الدنيا غيره وإن كان في الموعودة غير ذلك من الأطعمة ، واستظهر أن ذلك لإضافته إلى ضمير الجنة والأطعمة لا يقال فيها أكل الجنة وفيه تردد ، والظل في الأصل ضد الضح وهو عند الراغب أعم من الفيء فإنه يقال : ظل الليل ولا يقال فيؤه ، ويقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل ولا يقال الفيء إلا لما زالت عنه ، وفي القاموس هو الضح والفيء أو هو بالغداة والفيء بالعشى جمعه ظلال وظلول وإظلال ، ويعبر به عن العزة والمنعة وعن الرفاهة ، والمشهور تفسيره هنا بالمعنى الأول ، وهو مبتدأ محذوف الخبر أي وأكلها كذلك أي دائم ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ، ومعنى دوامه أنه لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس إذ لا شمس هناك على الشائع عند أهل الأثر أو لأنها لا تأثير لها على ما قيل ، ويجوز عندي أن يراد بالظل العزة أو الرفاهة وان يراد المعنى الأول ويجعل الكلام كناية عن دوام الراحة ، وأكفر خارجة بن معصب كما روي عنه ذلك ابن المنذر .

وأبو الشيخ القائل بعدم دوام الجنة كما يحكي عن جهم .

وأتباعه لهذه الآية .

وبها استدل القاضي على أنها لم تخلق بعد لأنها لو كانت مخلوقة لوجب أن يفنى وينقطع أكلها لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ [القصص : 88] لكن أكلها لا ينقطع ولا يفنى للآية المذكورة فوجب أن لا تكون مخلوقة بعد ، ثم قال : ولا ننكر أن يكون الآن جنان كثيرة في السماء يتمتع بها من شاء الله تعالى من الأنبياء والشهداء وغيرهم إلا أنا نقول : إن جنة الخلد إنما تخلق بعد الإعادة .

وأجاب الإمام عن ذلك بأن دليله مركب من شيئين قوله تعالى : ﴿ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] وقوله سبحانه : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ فإذا أدخلنا التخصيص في أحد هذين العمومين سقط الدليل فنحن نخصص أحدهما بالدلائل الدالة على أن الجنة مخلوقة كقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السماء والأرض أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ [الحديد : 21] اه .

ويرد على الاستدلال أنه مشترك الالزام إذ الشيء في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] الموجود مطلقاً كما في قوله تعالى : ﴿ خالق كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : 62] والمعنى أن كل ما يوجد في وقت من الأوقات يصير هالكاً بعد وجوده فيصح أن يقال : لو وجدت الجنة في وقت لوجب هلاك أكلها تحقيقاً

للعموم لكن هلاكه باطل لقوله تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ فوجدها في وقت من الأوقات باطل .

(167/413)

وأجيب بأنه لعل المراد من الشيء الموجود في الدنيا فإنها دار الفناء دون الموجود في الآخرة فإنها دار البقاء وهذا كاف في عدم اشتراك الإلزام وفيه أنه ان أريد أن معنى الشيء هو الموجود في الدنيا فهو ظاهر البطلان ، وان أريد أن المراد ذلك بقرينة كونه محكوماً عليه بالهلاك وهو إنما يكون في الدنيا لأنها دار الفناء فنقول : إنه تخصيص بالقرينة اللفظية فنحن نخصصه بغير الجنة لقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133] و﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ فلا يتم الاستدلال .

وأجاب غير الإمام بأن المراد هو الدوام العرفي وهو عدم طريان العدم زماناً يقيد به وهذا لا ينافي طريان العدم عليه وانقطاعه لحظة على أن الهلاك لا يستلزم الفناء بل يكفي فيه الخروج عن الانتفاع المقصود ، ولو سلم يجوز أن يكون المراد أن كل ممكن فهو هالك في حد ذاته بمعنى أن الوجود الإمكاني بالنظر إلى الوجود الواجبي بمنزلة العدم ، وقيل : في الجواب أيضاً : إن المراد بالدوام المعنى الحقيقي أعني عدم طريان العدم مطلقاف ، والمراد بدوام الأكل

دوام النوع وبالهلاك هلاك الأشخاص ، ويجوز أن لا ينقطع النوع أصلاً مع هلاك الأشخاص بأن يكون هلاك كل شخص معين من الأكل بعد وجود مثله ، وهذا مبني على ما ذهب إليه الأكثرون من أن الجنة لا يطرأ عليها العدم ولو لحظة ، وأما على ما قيل : من جريانه عليها لحظة فلا يتم لأنه يلزم منه انقطاع النوع قطعاً كما لا يخفى .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

(168/413)

وابن مسعود رضي الله تعالى عنه ﴿ أصحاب الجنة ﴾ وفي اللوامح عن السلمي ﴿ أصحاب الجنة ﴾ أي صفاتها ﴿ تِلْكَ ﴾ الجنة المنعوتة بما ذكر ﴿ عقبى الذين اتقوا ﴾ الكفر والمعاصي أي مآلهم ومنتهى أمرهم ﴿ وَّعُقْبَى الكافرين النار ﴾ لا غير كما يؤذن به تعريف الخبر ، وحمل الاتقاء على اتقاء الكفر والمعاصي لأن المقام مقام ترغيب وعليه يكون العصاة مسكوتاً عنهم ، وقد يحمل على إتقاء الكفر بقرينة المقابلة فيدخل العصاة في الذين اتقوا لأن عاقبتهم الجنة وإن عذبوا .

﴿ والذين ءاتيناهم الكتاب ﴾

نزلت كما قال الماوردي في مؤمني أهل الكتابين كعبد الله بن سلام .

وكعب .

وأضرابهما من اليهود وكالذين أسلموا من النصارى كالثمانين المشهورين وهم أربعون رجلاً بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة ، فالمراد بالكتاب التوراة والانجيل ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ذ إذ هو الكتاب الموعود فيما أوتوه ﴿ وَمِنَ الاحزاب ﴾ أي من أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الأشرف .

وأصحابه .

والسيد .

والعاقب أسقفي نجران .

وأشياعهما ، وأصله جمع حزب بكسر وسكون الطائفة المتحزبة أي المجتمعة لأمر ما كعداوة وحرب وغير ذلك ، وإرادة جماعة مخصوصة منه بواسطة العهد ﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ وهو ما لا يوافق كتبهم من الشرائع الحادثة إنشاء أو نسخاً وأما ما يوافق كتبهم فلم ينكروهر وإن لم يفرحوا به ، وعن ابن عباس .

وابن زيد أنها نزلت في مؤمني اليهود خاصة .

فالمراد بالكتاب التوراة وبالأحزاب كفرتهم .

وعن مجاهد .

والحسن .

وقتادة أن المراد بالموصول جميع أهل الكتاب فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم .

(169/413)

فالمراد بما أنزل إليك بعضه وهو الموافق ، واعترض عليه بأنه يأباه مقابلة قوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ الاحزاب مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ لأن إنكار البعض مشترك بينهم ، وأجيب بأن المراد من الأحزاب من حظه انكار بعضه فحسب ولا نصيب له من الفرح ببعض منه لشدة بغضه وعداوته وأولئك يفرحون ببعضه الموافق لكتبهم ، وقيل : الظاهر أن المعنى أن منهم من يفرح ببعضه إذا وافق كتبهم وبعضهم لا يفرح بذلك البعض بل يغتم به وان وافقها وينكر الموافقة لئلا يتبع أحد منهم شريعته صلى الله عليه وسلم كما في قصة الرجم ، وأنت تعلم أن الجوابين ليسا بشيء ، وعلى تفسير الموصول بعامة أهل الكتاب فسر البعض البعض بما لم يوافق ما حرفوه ، وبين ذلك بأن منهم من يفرح بما وافق ومنهم من ينكره لعناده وشدة فساده ، وانكارهم لمخالفة المحرف بالقول دون القلب لعلمهم به أو هو بالنسبة لمن لم يحرفه ، ولعل نعى الإنكار أوفق بالمقام من نعى التحريف عليهم على ما لا يخفى على المتأمل ، وقيل : المراد بالموصول مطلق المسلمين وبالأحزاب اليهود والنصارى والمجوس .

وأخرج ذلك ابن جرير عن قتادة ، فالمراد بالكتاب القرآن ، ومعنى ﴿ يَفْرَحُونَ ﴾ استمرار فرحهم وزيادته وقالت فرقة : المراد بالأحزاب أحزاب الجاهلية من العرب ، وقال مقاتل : هم بنو أمية .

وبنو المغيرة .

وآل أبي طلحة ﴿ قُلْ ﴾ صادعاً بالحق غير مكترث بمنكر بعض ما أنزل إليك ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أي شيئاً من الأشياء أو لا أفعل الإشراك به سبحانه ، والظاهر أن المراد قصر الأمر على عبادته تعالى خاصة وهو الذي يقتضيه كلام الإمام حيث قال : إن ﴿ إِنَّمَا ﴾ للحصر ومعناه إني ما أمرت إلا بعبادة الله تعالى وهو يدل على أنه لا تكليف ولا أمر ولا نهي إلا بذلك ، وقيل : معناه انما أمرت بعبادته تعالى وتوحيده لا بما أنتم عليه .

(170/413)

وفي إرشاد العقل السليم أن المعنى الزاماً للمنكرين ورداً لانكارهم إنما أمرت إلى آخره ، والمراد قصر الأمر بالعبادة على الله تعالى لا قصر الأمر مطلقاً على عبادته سبحانه أي قل لهم : إنما أمرت فيما أنزل إلي بعبادة الله تعالى وتوحيده .

وظاهر أن لا سبيل لكم إلى إنكاره لاطباق جميع الأنبياء عليهم السلام والكتب على ذلك

لقوله تعالى : ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾

[آل عمران : 64] فما لكن تشركون به عزيراً .

والمسيح عليهما السلام ، ولا يخفى أن هذا التفسير مبني على كون المراد من الأحزاب كفرة أهل الكتابين وهذا الكلام إلزام لهم ، واعترض بأن منهم من ينكر التوحيد وإطباق جميع الأنبياء والكتب عليه كالمثلثة من النصارى .

وأجيب بأنهم مع التثليث يزعمون التوحيد ولا ينكرونه كما يدل عليه قوله : باسم الأب والابن وروح القدس إلهاً واحداً ، وأنت تعلم أن هذا مما لا يحتاج إليه والاعتراض ناشيء من الغفلة عن المراحد ، وقد يقال : المعنى إنما أمرت بعبادة الله تعالى وعدم الإشراك به وذلك أمر تستحسنه العقول وتصرح به الدلائل الآفاقية والانفسية :

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

فانكاره دليل الحماقة وشاهد الجهالة لا ينبغي لعاقل أن يلتفت إليه ، ويجري هذا على سائر تفاسير الأحزاب .

وقرأ أبو خليد عن نافع ﴿ وَلَا أُشْرِكُ ﴾ بالرفع على القطع أي وأنا لا أشرك ، وجوز أن يكون حالاً أي أن أعبد الله غير مشرك به قيل : وهو الأولى لخلو الاستئناف عن دلالة الكلام على أن المأمور به تخصيص العبادة به تعالى وفيه بحث ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أو إلى ما أمرت به من التوحيد ﴿ أَدْعُو ﴾ الناس لا إلى غيره ولا إلى شيء آخر مما لا يطبق عليه الكتب الإلهية والأنبياء عليهم السلام فما وجه انكاركم ؟ قاله في الإرشاد أيضاً ، والأولى عود الضمير على الله تعالى كنظيره السابق وكذا اللاحق في قوله سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ أي الله تعالى وحده ﴿ مَئَابِ ﴾ أي مرجعي للجزاء وعلى ذلك اقتصر العلامة البيضاوي وكان قد زاد ومرجعكم فيما تقدم غير بعيد ، واعترض بأنه كان عليه أن يزيده هنا أيضاً بل هذا المقام أنسب بالتعميم ليدل على ثبوت الحشر عموماً وهو المروى عن قتادة ، وقد جعل الإمام هذه الآية جامعة لكل ما يحتاج المرء إليه من معرفة المبدأ والمعاد فقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ جامع لكل ما ورد التكليف به وقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ مشير إلى نبوته عليه الصلاة والسلام .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَإِلَيْهِ مَابِ ﴾ إشارة إلى الحشر والبعث والقيامة .

وأجاب الشهاب عن ذلك بقوله : إن قول الزمخشري إليه لا إلى غيره مرجعي وأنتم تقولون

مثل ذلك فلا معنى لانكاركم فيه بيان لنكتة التخصيص من أنهم ينكرون حقيقة أو حكماً فلا حاجة إلى ما يقال لا حاجة لذكره هنا لدلالة قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عقبى الذين اتقوا وَّعُقْبَى الكافرين النار ﴾ [الرعد : 35] انتهى .

وهو كما ترى ، ولعل الاظهر أن يقال : إن دلالة الكلام عليه هنا ليست كدلالته عليه هناك إذ مساق الآية فيه للتخويف اللائق به اعتباره ومساقها هنا لأمر آخر والاقتصار على ذلك كاف فيه .

(172/413)

وأنت تعلم أنه لا مانع من اعتباره ويكون معنى الآية قل في جوابهم : إني إنما أمرني الله تعالى بما هو من معالي الأمور وإليه أدعو وقتاً فوقتا وإليه مرجعي ومرجعكم فيثيبني على ما أنا عليه وينتقم منكم على إنكاركم وتخلفكم عن اتباع دعوتي أو فحينئذ يظهر حقية جميع ما أنزل إلي ويتبين فساد رأيكم في إنكاركم شيئاً منه ، وقد ، يقال على عدم اعتباره نحو ما قيل فيما قبل : إن المعنى قل في مقابلة إنكارهم إني إنما أمرني الله تعالى بما أمرني به وإليه ادعو وإليه مرجعي فيما يعرض لي في أمر الدعوة وغيره فلا أبالي بانكاركم فانه سبحانه كاف من رجع إليه ، ولعل هذا المعنى هنا من حيث انه فيه تأسيس محض أولى منه هناك ،

واقتصر في الإرشاد على جعل الكلام إلزاماً وجعله نكتة أمره صلى الله عليه وسلم بأن يخاطبهم بذلك وذكر أن قوله تعالى :

﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾

شروع في رد إنكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلاً من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة في ذلك وأن الضمير راجع لما أنزل إليك والإشارة إلى مصدر ﴿ أنزلناه ﴾ أو ﴿ أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد : 36] أي مثل ذلك الإنزال البديع الجامع لأصول مجمع عليها وفروع متشعبة إلى موافقة ومخالفة حسبما يقتضيه قضية الحكمة أنزلناه حاكماً يحكم في القضايا والواقعات بالحق ويحكم به كذلك ، والتعرض لهذا العنوان مع أن بعض ليس بحكم لتربيته وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه ، والتعرض لكونه عربياً أي مترجماً بلسان العرب للإشارة إلى أن ذلك إحدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة إذ بذلك يسهل فهمه وإدراك إعجازه يعني بالنسبة للعرب ، وأما بالنسبة إلى غيرهم فلعل الحكمة أن ذلك يكون داعياً لتعلم العلوم التي يتوقف عليها ما ذكر .

ومنهم من اقتصر على اشتمال الإنزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده على رأي قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ ﴾ [الرعد : 36] إلى آخره ، وتعقب بأنه يأباه التعرض لا تباع أهوائهم وحديث المحو والإثبات وإنه لكل أجل كتاب فإن المجمع عليه لا يتصور فيه الاستتباع والاتباع ، وقيل : إن الإشارة إلى إنزال الكتب السالفة على الأنبياء عليهم السلام ، والمعنى كما أنزلنا الكتب على من قبلك أنزلنا هذا الكتاب عليك لأن قوله تعالى : ﴿ والذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ [الرعد : 36] يتضمن إنزاله تعالى ذلك وهذا الذي أنزلناه بلسان العرب كما أن اكلتب السابقة بلسان من أنزلت عليه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ اِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : 4] وإلى هذا ذهب الامام .

وأبو حيان ، وقال ابن عطية : المعنى كما يسرنا هؤلاء للفرح وهؤلاء لإنكار البعض أنزلناه حكماً إلى آخره وليته ما قيل ، وإلا بلغ الاحتمال الأول مما أشرنا إليه ، ونصب ﴿ حُكْمًا ﴾ على الحال من منصوب ﴿ نزلناه ﴾ وإذا أريد به حاكماً كان هناك مجاز في النسبة كما لا يخفى ، ونصب ﴿ عَرَبِيّاً ﴾ على الحال أيضاً أما من ضمير ﴿ أنزلناه ﴾ كالحال الأولى فتكون حالا مترادفة أو من المستتر في الأولى فتكون حالاً متداخلة ، ويصح أن يكون وصفا لحكما الحال وهو موطئة وهي الاسم الجامد الواقع حالا لوصفه بمشتق وهو الحال في الحقيقة ، والأول أولى لأن ﴿ حُكْمًا ﴾ مقصود بالحالية هنا والحال الموطئة لا تقصد بالذات .

واختار الطبرسي أن معنى ﴿ حُكْمًا ﴾ حكمة كما في قوله تعالى : ﴿ الكتاب والحكم والنبوة ﴾ [الأنعام : 89] وهو أحد أوجه ذكرها الإمام ، ونصبه على الحال أيضاً فلا تغفل .

واستدلت المعتزلة بالآية على حدوث القرآن من وجوه الأول أنه تعالى وصفه بكونه منزلاً وذلك لا يليق إلا بالمحدث .

(174/413)

الثاني أنه وصفه بكونه عربياً والعربي أمر وضعي وما كان كذلك كان محدثاً .

الثالث أنها دلت على أنه إنما كان حكماً عربياً لأن الله تعالى جعله كذلك والمجعول محدث .

وأجاب الإمام بأن كل ذلك إنما يدل على أن المركب من الحروف والأصوات محدث ولا نزاع فيه أي بين المعتزلة والإشاعرة وإلا فالحنابلة على ما اشتهر عنهم قائلون بقدم الكلام اللفظي ، وقد أسلفنا في المقدمات كلاماً نفيساً في مسألة الكلام فارجع إليه ولا يهولنك قعاقع المخالفين لسلف الأمة .

﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم ﴾ التي يدعونك إليها كالصلاة إلى بيت المقدس بعد تحويل القبلة إلى الكعبة وكترك الدعوة إلى الإسلام ﴿ بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم ﴾ العظيم الشأن الفائض

عليك من ذلك الحكم العربي أو العلم بمضمونه ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللهِ ﴾ من جنا به العزيز جل شأنه والالتفات من التكلم إلى الغيبة وإيراد الاسم الجليل لتربية المهابة ﴿ مِن وَلِيٍّ ﴾ يلي أمرك وينصرك على من يبغيك الغوائل ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ يقيك من مصارع السوء ، وحيث لم يستلزم نفي الناصر على العدو نفي الواقي من نكايته أدخل في المعطوف حرف النفي للتأكيد كقولك : ما لي دينار ولا درهم أو مالك من بأس الله تعالى من ناصر وواق لاتباعك أهواءهم بعدما جاءك من الحق ، وأمثال هذه القوارع إنما هي لقطع أطماع الكفرة وتهييج المؤمنين على الثبات في الدين لا للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه عليه الصلاة والسلام بمكان لا يحتاج فيه إلى باعث أو مهيج ، ومن هنا قيل : إن الخطاب لغيره صلى الله عليه وسلم ، واللام في لئن موطئة و ﴿ مِنْ ﴾ الثانية مزيدة و ﴿ مالك ﴾ ساد مسد جوابي الشرط والقسم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(175/413)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾

قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ قيل : هذا متصل بقوله : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ 7] وأن جماعة من الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة ، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن ، وفساد رأي الكفار حيث لم يقنعوا به وأصرّوا على تعنتهم وطلبهم ، ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية ، من عدم إنزال الآيات التي يؤمن عندها جميع العباد .

ومعنى ﴿ سيّرت به الجبال ﴾ أي : بإنزاله وقراءته فسارت عن محل استقرارها ﴿ أَوْ قُطّعَتْ بِهِ الأرض ﴾ أي : صدّعت حتى صارت قطعاً متفرقة ﴿ أَوْ كُلّمَ بِهِ الموتى ﴾ أي : صاروا أحياء بقراءته عليهم ، فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء .

وقد اختلف في جواب " لو " ماذا هو؟ فقال الفراء : هو محذوف ، وتقديره : لكان هذا القرآن ، وروي عنه أنه قال : إن الجواب : لكفروا بالرحمن ، أي : لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن ، وقيل : جوابه لما آمنوا كما سبق في قوله : ﴿ مَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ [الأنعام : 111] وقيل : الجواب متقدّم ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، أي : وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآناً إلى آخره ، وكثيراً ما تحذف العرب جواب " لو " إذا دلّ عليه سياق الكلام ، ومنه قول امرىء القيس :

فلو أنها نفس تموت جميعةً . . . ولكنها نفس تساقط أنفساً

أي : لهان عليّ ذلك ﴿ بَل للهِ الأمر جَمِيعًا ﴾ أي : لو أن قرآنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن ، ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن ، فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا ، وإذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات ، فالإضراب متوجه إلى ما يؤدّى إليه كون الأمر لله سبحانه ، ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته ، ويدلّ على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ .

قال الفراء : قال الكلبي : ﴿ أفلم ييأس ﴾ بمعنى : أفلم يعلم ، وهي لغة النخع .

قال في الصحاح : وقيل : هي لغة هوازن ، وبهذا قال جماعة من السلف .

قال أبو عبيدة : أفلم يعلموا ويتبينوا ، قال الزجاج : وهو مجاز لأن اليائس من الشيء عالم بأنه لا يكون ، نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف ، والنسيان في الترك لتضمنهما إياهما ، ويؤيده قراءة عليّ ، وابن عباس ، وجماعة " أفلم يتبين " ، ومن هذا قول رباح بن عديّ :

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه . . . وإن كنت عن أرض العشيرة نائبا

أي : لم يعلم ، وأنشد في هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النضري :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني . . . ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

أي : لم تعلموا ، فمعنى الآية على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات ، وقيل : إن الإياس على معناه الحقيقي أي : أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم ؛ لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي اقترحها الكفار طمعاً في إيمانهم ﴿ وَلَا يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ هذا وعيد للكفار على العموم أو لكفار مكة على الخصوص أي : لا يزال الذين كفروا تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب للرسل قارعة أي : داهية تفجؤهم ، يقال : قرعه الأمر إذا أصابه ، والجمع قوارع ، والأصل في القرع الضرب .

قال الشاعر :

أفنى تلادي وما جمعت من نشب . . . قرع القراقير أفواه الأباريق

والمعنى : أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم داهية مهلكة من قتل أو أسر أو جدب أو نحو ذلك من العذاب ، وقد قيل : إن القارعة النكبة ، وقيل : الطلائع والسرايا ، ولا يخفى

أن القارعة تطلق على ما هو أعمّ من ذلك ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ أي: القارعة ﴿ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ فيفزعون منها ويشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم وترعد منه بوادرهم.

وقيل: إن الضمير في ﴿ تَحُلُّ ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم.

والمعنى: أو تحلّ أنت يا محمد قريباً من دارهم محاصراً لهم آخذاً بمخانقهم كما وقع منه لأهل الطائف ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ ﴾ وهو موتهم، أو قيام الساعة عليهم، فإنه إذا جاء وعد الله المحتوم حلّ بهم من عذابه ما هو الغاية في الشدّة، وقيل: المراد بوعد الله هنا الإذن منه بقتال الكفار، والأوّل أولى ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة.

(178/413)

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ التنكير في رسل للتكثير أي: برسل كثيرة، والإملاء: الإمهال، وقد مرّ تحقيقه في الأعراف ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ بالعذاب الذي أنزلته بهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ الاستفهام للتقريع والتهديد أي: فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزءوا بالرسل، فأمليت لهم ثم أخذتهم.

ثم استفهم سبحانه استفهاماً آخر للتوبيخ والتقريع يجري مجرى الحجاج للكفار واستركاك صنعهم والإزراء عليهم ، فقال : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ ﴾ القائم الحفيظ والمتولي للأمور ، وأراد سبحانه نفسه ، فإنه المتولي لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق ، وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت ، والجواب محذوف أي : أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضرّ .

(179/413)

قال الفراء : كأنه في المعنى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله ، والمراد من الآية إنكار المماثلة بينهما ، وقيل : المراد بمن هو قائم على كل نفس الملائكة الموكلون ببني آدم ، والأوّل أولى ، وجملة ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَاء ﴾ معطوفة على الجواب المقدّر مبينة له أو حالية بتقدير قد أي : وقد جعلوا ، أو معطوفة على ﴿ وَلَقَدِ استهزىء ﴾ أي : استهزءوا وجعلوا ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي : قل يا محمد جعلتم له شركاء فسموهم من هم ؟ وفي هذا تبكيت لهم وتوبيخ ؛ لأنه إنما يقال هكذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحّق أن يلتفت إليه ، فيقال : سمه إن شئت يعني : أنه أحقر من أن يسمى ؛ وقيل : إن المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون ، فيكون ذلك تهديداً لهم ﴿

﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ ﴾ أي : بل أتنبئون الله ﴿ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ ﴾ من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما في السموات والأرض ﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ أي : بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن تكون له حقيقة ؛ وقيل : المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه ؟ فإن قالوا : بباطن لا يعلمه فقد جاءوا بدعوى باطلة ، وإن قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ، فإذا سموا اللات والعزى ونحوهما ، فقل لهم إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً ، وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها ، وإن لم يكن له شريك في غير الأرض ، لأنهم ادّعوا له شريكاً في الأرض .

وقيل : معنى ﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ أم بزائل من القول باطل ، ومنه قول الشاعر :

أعيرتنا ألبانها ولحومها . . . وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر

أي : زائل باطل ، وقيل : بكذب من القول ، وقيل : معنى ﴿ بظاهر من القول ﴾ بحجة من القول ظاهرة على زعمهم ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ أي : ليس لله شريك ، بل زين للذين كفروا مكرهم .

وقرأ ابن عباس " زين " على البناء للفاعل على أن الذي زين لهم ذلك هو مكرهم .

وقرأ من عداه بالبناه للمفعول ، والمزين هو الله سبحانه ، أو الشيطان ويجوز أن يسمى المكر كفراً ، لأن مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كان كفراً .

وأما معناه الحقيقي فهو الكيد ، أو التمويه بالأباطيل ﴿ وَصُدُّواْ عَنِ السبيل ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿ صدّوا ﴾ على البناء للمفعول أي : صدهم الله ، أو صدهم الشيطان .

وقرأ الباقون على البناء للفاعل أي : صدّوا غيرهم ، واختار هذه القراءة أبو حاتم .

وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الصاد ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي : يجعله ضالاً وتقتضي مشيئته إضلاله ، فما له من هادٍ يهديه إلى الخير .

قرأ الجمهور ﴿ هاد ﴾ من دون إثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة .

وقرىء بإثباتها على اللغة القليلة ، ثم بين سبحانه ما يستحقونه ، فقال : ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الحياة الدنيا ﴾ بما يصابون به من القتل والأسر وغير ذلك ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَقُّ ﴾ عليهم من عذاب الحياة الدنيا ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ الله مِن وَاقٍ ﴾ يقيهم عذابه ، ولا عاصم يعصمهم منه .

ثم لما ذكر سبحانه مما يستحقه الكفار من العذاب في الأولى والأخرى ، ذكر ما أعدّه للمؤمنين ، فقال : ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ أي : صفقتها

العجيبة الشأن التي هي في الغرابة كالمثل ، قال ابن قتيبة : المثل الشبه في أصل اللغة ، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته ، يقال : مثلت لك كذا أي : صوّرته ووصفته ، فأراد هنا بمثل الجنة وصورتها وصفتها ، ثم ذكرها ، فقال : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ وهو كالتفسير للمثل .

قال سيبويه : وتقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة .

وقال الخليل وغيره : إن ﴿ مثل الجنة ﴾ مبتدأ والخبر ﴿ تجري ﴾ .

وقال الزجاج : إنه تمثيل للغائب بالشاهد ، ومعناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار ، وقيل : إن فائدة الخبر ترجع إلى ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ أي : لا ينقطع ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 33] وقال الفراء : المثل مقحم للتأكيد ، والمعنى : الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار ، والعرب تفعل ذلك كثيراً ﴿ وِظِلُّهَا ﴾ أي : كذلك دائم لا يتقلص ولا تنسخه الشمس ، والإشارة بقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إلى الجنة الموصوفة بالصفات المتقدّمة ، وهو مبتدأ خبره ﴿ عقبى الذين اتقوا ﴾ أي : عاقبة الذين اتقوا المعاصي ، ومنتهى أمرهم ﴿ وَّعُقْبَى الكافرين النار ﴾ ليس لهم عاقبة ولا منتهى

إلاّ ذلك .

وقد أخرج الطبراني ، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول من الموتى نكلمهم ، وافسح لنا هذه الجبال جبال مكة التي قد ضمتنا ، فنزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن عطية العوفي قال : قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى كما كان يحيي عيسى الموتى لقومه ، فأنزل الله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ أفلم ييأس الذين ءامنوا ﴾ قال : أفلم يتبين الذين آمنوا ، قالوا : هل تروي هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ؟ قال : عن أبي سعيد الخدريّ : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم قال : حدّثنا أبو زرعة ، حدّثنا منجاب بن الحرث ، أخبرنا بشر بن عمارة ، حدّثنا عمر بن حسان ، عن عطية العوفي فذكره .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس نحوه مختصراً .

وأخرج أبو يعلى، وأبو نعيم في الدلائل، وابن مردويه عن الزبير بن العوام في ذكر سبب نزول الآية نحو ما تقدّم مطوّلاً.

وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ بَل للَّهِ الأمر جَمِيعًا ﴾ لا يصنع من ذلك إلاّ ما يشاء ولم يكن ليفعل.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ أفلم ييأس ﴾ يقول: يعلم.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ من طريق أخرى عنه نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي العالية ﴿ وَلَوْ أَنَّ ﴾ قال: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ قال: السرايا.

وأخرج الطيالسي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عنه نحوه، وزاد ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مّن دَارِهِمْ ﴾ قال: أنت يا محمد حتى يأتي وعد الله.

قال: فتح مكة.

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد نحوه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ قال : نكبة .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه من طريق العوفي عنه قارعة قال : عذاب من السماء ، ﴿ أو تحلّ قريباً من دارهم ﴾ : يعني نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وقتاله آباءهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ قال : يعني بذلك نفسه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عطاء في الآية قال : الله تعالى قائم بالقسط والعدل على كل نفس .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ أم بظاهر مّنَ القول ﴾ قال : الظاهر من القول هو الباطل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله : ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ قال : نعت الجنة ، ليس للجنة مثل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن إبراهيم التيمي في قوله : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ قال : لذّاتها دائمة في أفواههم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾

أي : عن الكفر والمعاصي : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ .

في الآية وجوه من الإعراب :

(الأول) : أن (مثل) مبتدأ خبره محذوف ، أي : فيما يقص ويتلى عليكم صفة الجنة ، وجملة (تجري) مفسرة أو مستأنفة استئنافاً بيانياً أو حال من ضمير (وعد) أي : وعدها مقدراً جريان أنهارها . وهذا الوجه سالم من التكلف ، مع ما فيه من الإيجاز والإجمال والتفصيل . وقُدِّرَ الخبر فيه مقدماً لطول ذيل المبتدأ ، أو لئلا يفصل به بينه وبين ما يفسره ، أو هو كالمفسر له .

(الثاني) : أن خبره (تجري) – على طريقة قولك : صفة زيد أسمر – قيل : هو غير مستقيم معنى ؛ لأنه يقتضي أن الأنهار في صفة الجنة ، وهي فيها لا في صفتها . مع تأنيث الضمير العائد على المثل حملاً على المعنى .

(الثالث) : أن ثمة موصوفاً محذوفاً ، أي : مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار ، وقوله (وظلها) مبتدأ محذوف الخبر أي : كذلك .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ لأنه يحصل لهم به من المعاني والدلائل وكشف الشبهات ما لم يحصل لهم من تلك الكتب السالفة . قيل : عنى بهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام ، فإنهم يفرحون بما أنزل من القرآن ؛ لما يرون فيه من الشواهد على حقيته التي لا يمترى فيه ، ومن المعارف والمزايا الباهرة التي لا تحصى ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ [البقرة : من الآية 121] ﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ ﴾ يعني بقية أهل الكتاب والمشركين : ﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ وهو ما يخالف معتقدهم ، وجوز أن يراد (بالموصول) من يفرح به منهم لمجرد تصديقه لما بين يديه وتعظيمه له وإن لم يؤمنوا . وبـ : ﴿ الأَحْزَابِ ﴾ المشركون ، خاصة المنكرين لما فيه من التوحيد . ولذا أمر برد إنكارهم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أي : لا إلى غيره : ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أي : مرجعي للجزاء ، لا إلى غيره .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً ﴾ أي : حاكماً بالحق ، أو حكمة عربية : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴾ أي : لئن تابعتهم

على دين ، ما هو إلا أهواء بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج ؛ فلا ينصرك ناصر ولا يقيك واق . وهذا من باب الإلهاب والتهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب ، وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة . وإلا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة الشكيمة بمكان . كذا في "الكشاف" . انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 293. 294 ﴾

(185/413)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾

استئناف ابتدائي يرتبط بقوله : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم ﴾ [سورة الرعد : 29] .

ذُكر هنا بمناسبة ذكر ضدّه في قوله : ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ [الرعد : 34] .

والمَثَل : هنا الصفة العجيبة ، قيل : هو حقيقة من معاني المثل ، كقوله تعالى : ﴿ ولله المثَل الأعلى ﴾ [النحل : 60] ، وقيل : هو مستعار من المَثَل الذي هو الشبيه في حالة عجيبة أطلق على الحالة العجيبة غير الشبيهة لأنها جديرة بالتشبيه بها .

وجملة تجري من تحتها الأنهار ﴾ خبر عن ﴿ مَثَل ﴾ باعتبار أنها من أحوال المضاف إليه ، فهي من أحوال المضاف لشدة الملابسة بين المتضايفين ، كما يقال : صفة زيد أسمر .

وجملة ﴿ أكلها دائم ﴾ خبر ثان ، والأكل بالضم : المأكول ، وتقدم .

ودوام الظل كناية عن التفاف الأشجار بحيث لا فراغ بينها تنفذ منه الشمس ، كما قال تعالى : ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ [سورة النبأ : 16] ، وذلك من محامد الجنات وملاذّها .

وجملة تلك عقبى الذين اتقوا ﴾ مستأنفة .

والإشارة إلى الجنة بصفاتها بحيث صارت كالمشاهدة ، والمعنى : تلك هي التي سمعتم أنها عقبى الدار للذين يوفون بعهد الله إلى قوله : ﴿ ويدرأون بالحسنة السيّئة إلى قوله فنعم عقبى الدار ﴾ [سورة الرعد : 24] هي الجنة التي وعد المتّقون .

وقد علم أن الذين اتقوا هم المؤمنون الصالحون كما تقدم .

وأول مراتب التقوى الإيمان .

وجملة وعقبى الكافرين النار ﴾ مستأنفة للمناسبة بالمضادة .

وهي كالبيان لجملة ﴿ ولهم سوء الدار .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾

الواو للاستئناف .

وهذا استئناف ابتدائي انتقل به إلى فضل لبعض أهل الكتاب في حسن تلقيهم للقرآن بعد الفراغ من ذكر أحوال المشركين من قوله : ﴿ كذلك أرسلناك في أمة ﴾ [سورة الرعد : 30] الخ ، ولذلك جاءت على أسلوبها في التعقيب بجملة ﴿ قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ﴾ [سورة الرعد : 36] .

والمناسبة هي أن الذين أرسل إليهم بالقرآن انقسموا في التصديق بالقرآن فِرقاً ؛ ففريق آمنوا بالله وهم المؤمنون ، وفريق كفروا به وهم مصداق قوله : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ [سورة الرعد : 30] ، كما تقدم أنه عائد إلى المشركين المفهومين من المقام كما هو مصطلح القرآن .

وهذا فريق آخر أيضاً أهل الكتاب وهو منقسم أيضاً في تلقي القرآن فرقتين : فالفريق الأول صدّقوا بالقرآن وفرحوا به وهم الذين ذُكروا في قوله تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ في سورة العقود (83) ، وكلهم من النصارى مثل ورقة بن نوفل وكذلك غيره ممن بلغهم القرآن أيام مُقام النبي بمكة قبل أن تبلغهم دعوة النبي فإن اليهود كانوا قد سُرُّوا بنزول القرآن مصدّقاً للتوراة ، وكانوا يحسبون دعوة النبي مقصورة على العرب فكان اليهود يستظهرون بالقرآن على المشركين ، قال تعالى : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ [سورة البقرة : 89] .

وكان النصارى يستظهرون به على اليهود ؛ وفريق لم يثبت لهم الفرحُ بالقرآن وهم معظم اليهود والنصارى البعداء عن مكة وما كفر الفريقان به إلا حين علموا أن دعوة الإسلام عامة .

وبهذا التفسير تظهر بلاغة التعبير عنهم بيفرحون والذين آتيناهم الكتاب يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأحزاب مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ دون ﴿ يؤمنون ﴾ .

(187/413)

وإنما سلكنا هذا الوجه بناءً على أن هذه السورة مكية كان نزولها قبل أن يُسلم عبد الله بن سلام وسَلْمان الفارسي وبعض نصارى نجران وبعض نصارى اليمن ، فإن كانت السورة مدنية أو كان هذا من المدني فلا إشْكال .

فالمراد بالذين آتيانا هم الكتاب الذين أوتوه إيتاء كاملاً ، وهو المجرد عن العصبية لما كانوا عليه وعن الحسد ، فهو كقوله تعالى : ﴿ الذين آتينا هم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ [سورة البقرة : 121] .

فالأظهر أن المراد بالأحزاب أحزابُ الذين أوتوا الكتاب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ في سورة مريم (37) ، أي ومن أحزابهم من ينكر بعض

القرآن ، فاللام عوض عن المضاف إليه .

ولعل هؤلاء هم خبثاؤهم ودُهاتهم الذين توسموا أن القرآن يبطل شرائعهم فأنكروا بعضه ، وهو ما فيه من الإيماء إلى ذلك من إبطال أصول عقائدهم مثل عُبودية عيسى عليه السلام بالنسبة للنصارى ، ونبوءته بالنسبة لليهود .

وفي التعبير عنهم بالأحزاب إيماء إلى أن هؤلاء هم المتحزبون المتصلبون لقومهم ولما كانوا عليه .

وهكذا كانت حالة اضطراب أهل الكتاب عندما دمغتهم بعثة النبي وأخذ أمر الإسلام يفشو .

أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلن للفريقين بأنه ما أمر إلا بتوحيد الله كما في الآية الأخرى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ [سورة آل عمران : 64] ، فمن فرح بالقرآن فليزدد فرحاً ومن أنكر بعضه فليأخذ بما لا ينكره وهو عدم الإشراك .

وقد كان النصارى يتبرؤون من الشرك ويعُدّون اعتقاد بُنوة عيسى عليه السلام غير شرك .

وهذه الآية من مجاراة الخصم واستنزال طائر نفسه كيلا ينفر من النظر .

وبهذا التفسير يظهر موقع جملة قل إنما أمرت أن أعبد الله ﴾ بعد جملة ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون ﴾ وأنها جواب للفريقين .

(188/413)

وأفادت ﴿ إنما ﴾ أنه لم يؤمر إلا بأن يعبد الله ولا يشرك به ، أي لا بغير ذلك مما عليه المشركون ، فهو قصر إضافي دلت عليه القرينة .

ولما كان المأمور به مجموع شيئين : عبادة الله ، وعدم الإشراك به في ذلك آل المعنى : أني ما أمرت إلا بتوحيد الله .

ومن بلاغة الجدل القرآني أنه لم يأت بذلك من أول الكلام بل أتى به متدرّجاً فيه فقال : ﴿ أن أعبد الله ﴾ لأنه لا ينازع في ذلك أحد من أهل الكتاب ولا المشركين ، ثم جاء بعده ﴿ ولا أشرك ﴾ به لإبطال إشراك المشركين وللتعريض بإبطال إلهية عيسى عليه السلام لأن ادعاء بنوته من الله تعالى يؤول إلى الإشراك .

وجملة ﴿ إليه أدعوا وإليه مآب ﴾ بيان لجملة ﴿ إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ﴾ ، أي أن أعبده وأن أدعو الناس إلى ذلك ، لأنه لما أمر بذلك من قبل الله استفيد أنه مرسل من الله فهو مأمور بالدعوة إليه .

وتقديم المجرور في الموضعين للاختصاص ، أي إليه لا إلى غيره أدعُو ، أي بهذا القرآن ، وإليه لا إلى غيره مئَابي ، فإن المشركين يرجعون في مهمّهم إلى الأصنام يستنصرونها ويستغيثونها ، وليس في قوله هذا ما ينكره أهل الكتاب إذ هو مما كانوا فيه سواء مع الإسلام .

على أن قوله : ﴿ وإليه مآب ﴾ يعم الرجوع في الآخرة وهو البعث .

وهذا من وجوه الوفاق في أصل الدين بين الإسلام واليهودية والنصرانية .

وحذف ياء المتكلم من ﴿ مآبي ﴾ كحذفها في قوله : ﴿ عليه توكلت وإليه متاب ﴾ [الرعد : 30] ، وقد مضى قريباً .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37) ﴾

(189/413)

اعتراض وعطف على جملة ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ﴾ [الرعد : 36] لما ذكر حال تلقي أهل الكتابين للقرآن عند نزوله عُرج على حال العرب في ذلك بطريقة التعريض بسوء تلقي مشركيه له مع أنهم أولَى الناس بحسن تلقيه إذ نزل بلسانهم مشتملاً على ما فيه صلاحهم وتنوير عقولهم .

وقد جُعل أهم هذا الغرض التنويهَ بعلوّ شأن القرآن لفظاً معنى .

وأدمج في ذلك تعريض بالمشركين من العرب .

والقول في اسم الإشارة في قوله : وكذلك ﴾ مثل ما تقدم في قوله : ﴿ كذلك أرسلناك في أمة ﴾ [سورة الرعد : 30] .

وضمير الغائب في أنزلناه ﴾ عائد إلى ﴿ ما أنزل إليك ﴾ في قوله : ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ .

والجار والمجرور من اسم الإشارة نائب عن المفعول المطلق .

والتقدير ؛ أنزلناه إنزالاً كذلك الإنزال .

و﴿ حكماً عربياً ﴾ حالان من ضمير ﴿ أنزلناه ﴾ .

والحكم : هنا بمعنى الحكمة كما في قوله : ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ [سورة مريم : 12] .

وجُعل نفس الحكم حالاً منه مبالغة .

والمراد أنه ذو حكم ، أي حكمة .

والحكمة تقدمت .

وعربياً ﴾ حال ثانية وليس صفة ل ﴿ حكماً ﴾ إذ الحكمة لا توصف بالنسبة إلى الأمم وإنما المعنى أنه حكمة معبر عنها بالعربية .

والمقصود أنه بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأجملها وأسهلها ، وفي ذلك إعجازه .

فحصل لهذا الكتاب كمالان : كمال من جهة معانيه ومقاصده وهو كونه حكماً ، وكمال من جهة ألفاظه وهو المكنى عنه بكونه عربياً ، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله لأن الحكمة أشرف المعقولات فيناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتعبير عن الحكمة ، قال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ [سورة الشعراء : 192 195] .

%

(190/413)

ثم في كونه عربياً امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء بأنه بلغتهم وبأن في ذلك حسن سمعتهم ، ففيه تعريض بأفن رأي الكافرين منهم إذ لم يشكروا هذه النعمة كما قال تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ [سورة الأنبياء : 10] .

قال مالك : فيه بقاء ذكركم .

وجملة ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ﴾ معترضة ، واللام موطئة للقسم وضمير الجمع في قوله : ﴿ أهواءهم ﴾ عائد إلى معلوم من السياق وهم المشركون الذين

وجه إليهم الكلام .

واتباع أهوائهم يحتمل السعي لإجابة طلبتهم إنزال آية غير القرآن تحذيراً من أن يسأل الله إجابتهم لما طلبوه كما قال لنوح عليه السلام ﴿ فلا تسألني ما ليس لك به علم إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ .

ومعنى ﴿ ما جاءك من العلم ﴾ ما بلغك وعُلّمته ، فيحتمل أن يراد بالموصول القرآن تنويهاً به ، أي لئن شايعَتهم فسألَتنا آية ير القرآن بعد أن نزل عليك القرآن ، أو بعد أن أعلمناك أنا غير متنازلين لإجابة مقترحاتهم .

ويحتمل اتباع دينهم فإن دينهم أهواء ويكون ما صدق ﴿ ما جاءك من العلم ﴾ هو دين الإسلام .

والوليّ : النصير .

والواقي : المدافع .

وجعل نفي الولي والنصير جواباً للشرط كناية عن الجواب ، وهو المؤاخذة والعقوبة .

والمقصود من هذا تحذير المسلمين من أن يركنوا إلى تمويهات المشركين ، والتحذير من الرجوع إلى دينهم تهييجاً لتصلبهم في دينهم على طريقة قوله تعالى : ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [سورة الزمر : 65] ، وتأييس المشركين من الطمع في مجيء آية توافق مقترحاتهم .

ومن ﴾ الداخلة على اسم الجلالة تتعلق بـ ﴿ ولي ﴾ و ﴿ واق ﴾ .

و﴿ من ﴾ الداخلة على ﴿ ولي ﴾ لتأكيد النفي تنصيصاً على العموم .

(191/413)

وتقدم الخلاف بين الجمهور وابن كثير في حذفهم ياء ﴿ واق ﴾ في حالتي الوصل والوقف وإثبات ابن كثير الياء في حالة الوقف دون الوصل عند قوله تعالى : ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ في هذه السورة [الرعد : 7] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(192/413)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾

والمصدر الأساسي الذي وعد المتقين بالجنة هنا هو الله ، وقد بلّغ عنه الرسل عليهم السلام هذا الوعد ، وتَلاهُمُ العلماء المُبلّغون عن الرسل .

وأنت حين تنظر إلى فعل يشيع بين عدد من المصادر ، تستطيع أن تبحث عن المصدر

الأساسي ، والمَثَل هو قول الحق سبحانه : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا . . . ﴾ [الزمر : 42]

ويقول في موقع آخر من القرآن : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ . . . ﴾ [السجدة : 11]

وهكذا تكون التَّوْفية قد آلتْ إلى الله ؛ وآلتْ إلى مَلَكِ الموت ، وقد أخذ مَلَكَ الموْت مسئولية التَّوفية من إسناد الحق له تلك المهمة ؛ ويكون نسبتها لِملَكِ الموت هو نوع من إيضاح الطرف الذي يُوكِّل له الحق سبحانه تنفيذ المهمة .

ومرة يأتي الحق سبحانه بالمصدر الأصلي الذي يُصدِر الأمر لملَكِ الموْت بمباشرة مهمته .

وهنا في الآية الكريمة نجد قول الحق سبحانه : ﴿ وُعِدَ المتقون . . . ﴾ [الرعد : 35]

وهي مَبْنية لِمَا لم يُسَمّ فاعله ؛ فالوعد منه سبحانه . " ونعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يَعِد أيضاً ، فها نحن قد جاء إلينا خبر بيعة العقبة ؛ حين أخذ البيعة من الأنصار ، وقالوا له : خُذْ لنفسك ، فأخذ لنفسه ما أراد ، ثم قالوا له : وماذا نأخذ نحن إنْ أدَّيْنا هذا ؟ فقال لهم : " لكم الجنة " .

وقال صلى الله عليه وسلم ذلك ؛ لأن العمل الذي فعلوه ؛ لا يكفيه أجراً إلا الجنة ، ومن المعقول أن أيَّ واحد من الذين حضروا العقبة قد يتعرض للموت من بعد معاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو أنه وعدهم بِمَا في الدنيا من متاع قد يأخذه البعض فيما بعد ؛ فالذي يموت قبل هذا لأبدَّ أن يدرك شيئاً مِمّا وعد الرسول مَنْ عاهدوه ؛ ولذلك أعطاهم ما لا ينفد ، وهو الوَعْد بالجنة .

والحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول : ﴿ مَّثَلُ الجنة . . . ﴾ [الرعد : 35]

أي : أنه يضرب لنا المَثَل فقط ؛ لأن الألفاظ التي تتخاطَبُ بها نحن قد وُضِعتْ لِمَعان نعرفها ؛ وإذا كانت في الجنة أشياء لم ترَها عَيْنٌ ولم تسمعها أُذنٌ ، ولم تخطر على بال بشر ؛ فمنَ المُمْكِن أن نقول إنه لا توجد ألفاظ عندنا تؤدي معنى ما هناك ، فيضرب الله الأمثال لنا بما نراه من الملذَّات ؛ ولكن يأخذ منها المُكدّرات والمُعكّرات .

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين " مثل الجنة " وبين " الجنة " ، فالمَثَل يعطيني صورة أسمعها عن واقع لا أعلمه ؛ لأن معنى التمثيل أن تُلحِق مجهولاً بمعلوم لتأخذَ منه الحكم .

مثلما تقول لصديق : أتعرف فلاناً ؛ فيقول لك : " لا " . فتقول له : " إنه يشبه فلاناً الذي تعرفه " .

وأنت تفعل ذلك كي تشبه مجهولاً بمعلوم ؛ لتأتي الصورة في ذِهْن سامعك .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم شرحاً لما أجْمله القرآن : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين . . . ﴾ [الزخرف : 71]

ويضيف صلى الله عليه وسلم : " فيها مَا لا عَيْن رأتْ ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خَطر على قَلْب بشرٍ " .

(194/413)

وحين تُدقِّق في هذا القول النبويّ الكريم تجد الترقِّي كاملاً ؛ فقوله : " ما لا أُذن سمعتْ " جاء لأنه يعلم أن مُدْركَاتِ العيْنِ محدودة بالنسبةِ لِمَا تعلمُ الأذن ؛ لأن الأذن تسمع ما لا تدركه العين ؛ فهي تسمع ما يراه غيرُك بالإضافة إلى ما تراه أنت .

فالأذن تسمع القريب وتسمع البعيد وتنقل صوته وتستحضره ثم تميزه ، بخلاف العين فهي محدودة المسافة حسب قوة الإبصار ، ومع كل فنعيم الجنة فوق كل هذا الفوق .

ثم يأتي الترقِّي الأكبر في قوله : " ولا خطر على قلب بشر " . والخواطر أوسَعُ من قدرة الأذن وقُدْرة العين ؛ فالخواطر تتخيَّل أشياء قد تكون غيرَ موجودة .

وهكذا نرى عَجْز اللغة عن أنْ تُوجد بها ألفاظ تعبر عن معنى ما هو موجود بالجنة ، ولا

أحدَ فينا يعلم ما هي الأشياء الموجودة بالجنة ، وما دام أحد منا لم يَرَ الجنة ؛ وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " .

فلابُدَّ أنْ نعلم قَدْر عَجْز اللغة عن التعبير عَمَّا في الجنة ، فإذا أراد الله أنْ يُعبِّر عَمَّا فيها ؛ فهو يُوضِّح لنا بالمثَلِ ؛ لا بالوصف ، لأنه يعلم أن لغتنا تضع الألفاظ لِمَا هو موجود في حياتنا ؛ ولا توجد ألفاظ في لغتنا تُؤدِّي معاني ما في الجنة .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى . . . ﴾ [محمد : 15]

ومع أن الحق سبحانه يضرب مثلاً ، إلا أنه خلَّص المَثَل من شوائبه التي نعرفها في الدنيا ، فالمياه عندما تجري ؛ تكون حُلْوة ورائقة وصَافية ؛ وإنْ ركدتْ فهي تأْسُن وتكون عَطِنة .

(195/413)

ولذلك يُوضِّح لنا الحق سبحانه أن المياه في الجنة غير آسنة ؛ وأنها تكون أنهاراً منزوعاً من مياهها ما يُكدِّرها .

وكذلك المثل بأنهار من لبن لم يتغير طَعْمه . واللبن كما نعرف هو غذاء البدو ؛ فَهُمْ يحلبون الماشية ، ويحتفظون بألبانها في قِرَب لِمُدةٍ طويلة ؛ فيتغير طَعْم اللبن ؛ ولذلك يضرب لهم المثَل بوجود أنهار من لبن لم يتغير طَعْمه .

وأيضاً يضرب المثل بوجود أنهار من عَسَل مُصفَّى ، والعسل كما نعرف كان في الأصل يأتي من النحْل الذي كان يسكن الجبال قبل استئناسه ؛ ووَضْعه في مناحل في الحدائق .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل : ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾

[النحل : 68]

وحين بحث علماء الحشرات عن تاريخ النحل ، وجدوا أن أقدمَ عسل في العالم هو الذي كان موجوداً في الكهوف الجبليّة ؛ ثم يليه في العمر العسل الذي جاء من خلايا النحل ؛ تلك الخلايا التي أقامها النحل بعد استئناسه ؛ ومن بعد ذلك يأتي العسل الذي أقمْنَا نحن له المنَاحل .

وقد ميَّزوا العسل القديم عن المتوسط عن الجديد ، بأن أحرقوا بعضاً من كل نوع من أنواع العسل ، فنتج من الاحتراق عنصر الكربون ؛ ومن هذا العنصر اكتشفوا عمر كل نوع من الثلاثة .

ويوضح الحق سبحانه أن بالجنة أنهاراً من عَسَل مُصفًّى ، وبذلك يُقدِّم لنا خَيْر ما كنا نُحِبه

من عسل الدنيا ، ولكن بدون ما يُكدِّره .

ويوضِّح سبحانه أيضاً أن في الجنة أنهاراً من خمر ، ولكنها خَمْر تختلف عن خمر الدنيا ؛ فهي لا تؤثر على التكوين العضْوي للعقل ، كما أن خمر الدنيا ليس فيها لذةٌ للشاربين ؛ لأنها من كحول يَكْوي الفم ويَلْسعه ؛ ولذلك تجد مَنْ يشربها وهو يسكْبها في فمه لِتمُرَّ بسرعة فلا يشعر بلسعها في فمه ، فتذهب إلى معدته مباشرة فتلهبها .

(196/413)

ويختلف الحال لو كان المشروب هو شراب عصير المانجو أو البرتقال أو القصب ؛ حيث تستطيب النفس مذاقَ تلك الفواكه ؛ فنجد مَنْ يشربها يتمهَّل ليستبقى أثرها في فمه .

ويقول الحق سبحانه عن خمر أنهار الجنة : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ . . . ﴾ [الصافات : 47]

أي : أنه سبحانه ينفي عن خَمْر أنهار الجنة كُلَّ المكدِّرات التي توجد في خمر الدنيا .

إذن : فساعةَ تسمع مثلاً عن الجنة ؛ فاعلم أنه مَثَلٌ تقريبيّ ؛ لأنه لا يمكن أن تأتي الحقيقة ، حيث لا يوجد لفظ يُعبِّر عنها ؛ وهي لم توجد عندنا ؛ وسبحانه لا يخاطبنا إلا بما نعلم من اللغة ؛ لذلك يأتي لنا بالمثَلِ المضروب لنأخذ منه صورة تقريبية .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ

المتقون تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . . ﴾ [الرعد : 35]

ونعلم أن عَصَب حياة العرب أيام نزول القرآن كان هو الماء ؛ ألم يطلبوا من الرسول أن يُفجِّر لهم الأنهار تفجيراً ؟

نجد الحق سبحانه قد جاء بالتعبير القرآني عن أنهار الجنة بصورتين مختلفتين :

أولهما : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . . ﴾ [الرعد : 35]

مثلما قال في الآية التي نحن بصَدَدِ خواطرنا عنها .

ومرَّة يقول سبحانه : ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار . . . ﴾ [التوبة : 100]

والفارق بين العبارتين هو استيعاب الكمالية في النص ، بمعنى أن : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . . ﴾ [الرعد : 35]

تُوضِّح أن منابع تلك الأنهار تأتي من تحت تلك الجنة مباشرة ؛ فلا يَقِلّ الماء في تلك الأنهار أبداً .

ويُقال : إن الفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق في الأرض لها شواطئ تحتضنها ؛ أما أنهار الآخرة فهي تسير على الأرض دون شواطئ تحجزها .

ونجد أنهار الخمر تسير أيضاً في الأرض ، ولا تتداخل مع أنهار الماء ، وكذلك أنهار اللبن ، وكُلُّ ذلك من صَنْعة رَبٍّ حكيم قادر .

أما قوله : ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار . . . ﴾ [التوبة : 100]

أي : أن منابعها ليست من تحتها مباشرة ؛ ولكنها تأتي دون نَقْصٍ من جهة أنت لا تعلمها ؛ وهو سبحانه قادر على كل شيء .

ويتابع سبحانه ، فيقول عن تلك الجنة : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ . . . ﴾ [الرعد : 35]

والأكل هو ما يُؤكَل ، وسبحانه القائل : ﴿ تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا . . . ﴾ [إبراهيم : 25]

وقوله : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ . . . ﴾ [الرعد : 35]

أي : لا ينقطع ، ونعلم أن الإنسان حين يأكل ؛ فهو يفعل ذلك بهدف إشباع جُوعه ؛ وبعد أن يُشبِع جُوعَه ؛ قد يطلب أن يُرفعَ الطعام من أمامه ، إلى أنْ يجوع ، فيطلب الطعام من جديد .

ومنْ يحبون الطعام في حياتنا الدنيا نرى الواحد منهم وهو يقول : "أشعر ببعض الضيق لأني شبعتُ" ، فهو في عراك بين نفس تشتهي وبين بطن لا تشبع ، وكأنه كان يريد أنْ يستمر في تناول الطعام طوال الوقت .

وقول الحق سبحانه : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ . . . ﴾ [الرعد : 35]

شغل هذا القول الرومان الذين كانوا أصحاب إمبراطورية عُظْمى زلْزلها الإسلام بحضارته

الوليدة ، وأرسل إمبراطورهم مَنْ يطلب من أحد الخلفاء إرسال رجل قادر على شرح قول الحق : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ . . . ﴾ [الرعد : 35]

فأرسل لهم أحدَ العلماء ؛ وسألوه : يقول قرآنكم إن أُكُل الجنة دائم ؛ ونحن وأنتم تعلمون أن كل شيء يُؤخذ منه لأبدَّ له أن ينقص ؛ فكيف يكون أُكُل الجنةِ دائماً ؟

قال العالم لهم : هاتوا مصباحاً . فأحضروا له المصباح وأشعله أمامهم . وقال لكل منهم : فَليأْتِ كل منكم بمصباحه . فأحضر كل منهم مصباحه . وقال لهم : فَلْيُشعِل كل منكم مِصبْاحه .

وهنا سألهم : ما الذي أنقصه إشعال مصابيحكم من هذا المصباح؟ قالوا : لا شيء .

فقال لهم : هكذا ضرب الله لنا المَثل بأُكُل الجنة .

(198/413)

وبطبيعة الحال كان يجب أن يلتفتوا إلى أن المصباح يعتمد في اشتعاله على الزيت المخزون فيه ، ويأتيه منه المدد ، أما الجنة فمددُها من الله .

وهناك مَنْ قال : هل نتغوّط في الجنة؟ فَردَّ عليه واحد من العارفين : لا . فتساءل : وأين تذهب بقايا ما نأكل من طعام الجنة؟

فقال العارف بالله : مثلما تذهب بقايا ما يتغذى عليه الطفل في بطن أمه ؛ حيث يحترق هذا الفائض في مَشِيمة الطفل ؛ والطفل في بطن أمه إنما ينمو بشكل مستمر ، مُعتمِداً على غذاء يأتيه من أمه عَبْر الحَبْل السُّرّيّ .

وكل تلك الأمور تقريبية تجعلنا نعبر الفجوة بين ما نشهده في حياتنا اليومية ، وبين ما أعدَّه الله للمتقين ، وهو القيُّوم على كُلّ أمْرٍ .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ . . . ﴾ [الرعد : 35]

يعني : أن الطعام موجود ولا ينتهي وكذلك الظل . والظل حَجْب المضيء من مكان ؛ أو حَجْب مكان عن المضيء ، ولا أحد يعلم أنه ستوجد هناك شمس أم لا ؛ والعقل البشري قاصر عن تخيُّل ذلك ؛ فهو من فعل الله ، وهو سبحانه قادر على كل شيء .

وهو القائل سبحانه : ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء : 57]

وهو القائل سبحانه : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : 30]

ويتابع سبحانه : ﴿ . . . تِلْكَ عقبى الذين اتقوا وَّعُقْبَى الكافرين النار ﴾ [الرعد : 35]

أي : يا متقي الله ؛ وضعتَ بينك وبين صفات جلاله وقاية ، ولم تقربْ محارمه واتبعتَ

منهجه ؛ ستجد أنه سبحانه يُجازِيك بصفات كَماله وجَماله ؛ فينزِلك الجنة التي وعدكَ بها .

(199/413)

لذلك إن وجدت مشقَّة في التكليف فعليك أن تعلمَ أن جزاء تلك المشقَّة هو الجزاء الجميل ؛ لأنك صدَّقْتَ رسولك صلى الله عليه وسلم حين قال : " حفت الجنة بالمكاره ؛ وحفت النار بالشهوات " .

والعاقل ساعةَ يرى تكليفاً يحُدُّ من حريته ؛ فهو يستحضر الجزاء على تلك المشقَّة ، وهو أيضاً حين يرى أمراً يبدو في ظاهره شهوة عاجلة ؛ فهو يستحضر العقاب على تلك الشهوة العاجلة فيستبعدها .

وأي من الجزاء الطيب أو العقاب قد يأتي فجأة ؛ لأن الموتَ لا ميعادَ له ؛ ونحن نُصدِّق قول رسولنا صلى الله عليه وسلم : " الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته " .

وهكذا يُضخِّم الحق سبحانه من جزاء المؤمن المُتقي فيعشق العمل ، ويتحمل مشاقّ التكليف ليكون مَوْصُولاً بالجزاء الطيب ، فهذا الجزاء هو عُقْبى العمل الحسن في الدنيا ، فالغاية الحقيقية من كل مراحل الوجود هي ألاَّ يوجد بَعْد للغاية ؛ لأنها غاية الخلود لا تعرف

البعدية .

ومادامت الجنة تضمن الخلود أبداً ، فهي تستحق أن تكون غايةَ المؤمن وعاقبةَ عمله ، والتزامِه بالتكاليف الإيمانية .

تماماً كما تكون النار هي عاقبة الكافرين المُكذّبين ؛ حيث يروْنَ الخير مصير المؤمنين ؛ ويروْنَ الشرَّ مصيرهم ؛ فيُجمع عليهم التنغيصُ ؛ مرة بوجود الخير عند أهل الإيمان ؛ ومرة بأن يَرَوْا ما أُعِدَّ لهم من شَرٍّ .

لذلك قال سبحانه : ﴿ . . . وَّعُقْبَى الكافرين النار ﴾ [الرعد : 35]

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب . . . ﴾

ونعلم أن الإسلام قد سُبق بدينين ؛ دين النصارى قَوْم عيسى عليه السلام ؛ ومن قبله دين اليهود قوم موسى عليه السلام ؛ وكِلاَ الدينين له كتاب ؛ الإنجيل كتاب المسيحية ؛ والتوراة كتاب اليهودية ؛ والقرآن هو كتاب الله المهيمن الخاتم ؛ كتاب الإسلام ، وهناك كتب سماوية أخرى مثل : صحف إبراهيم ؛ وزبور داود ، وغير ذلك .

وكان على مَنْ نزل عليهم التوراة والإنجيل أن يواصلوا الإيمان بمَددِ السماء ، والخير القادم منها إلى الأرض ، وقد سبق أن أخذ الله من أنبيائهم الميثاق على ذلك ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين ﴾ [آل عمران : 81]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد شاء أن يستقبل كُلُّ دين سابق الدينَ الذي يليه بالإيمان به ؛ وفي كل دين سابق لآخر كانت النصوص تؤكد ضرورة الإيمان بالرسول القادر ، كي لا يحدث اقتراع بين الأديان الناسخة والأديان المنسوخة .

فمِنْ صميم مواد أيِّ دين سابق أن ينتظر الدين الذي يليه ، وإذا ما جاء الدين الجديد فهو يستقبله فرْعاً وتكملة ، ولا يستقبله كدين يُضادّ الدين السابق .

وإذا كان الإسلام هو الدين الذي تُختم به مواكب الرُّسُل ؛ فلابُدَّ أن الأديان السابقة عليه قد بَشَّرَتْ به ، وكل مؤمن بالأديان السابقة مُوصى بضرورة الإيمان به .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ . . . ﴾ [الشورى : 13]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ . . . ﴾ [

[الرعد : 36]

أي : أن أهل التوراة والإنجيل يفرحون بما جاء يا محمد من القرآن ، والإنسان لا يفرح بشيء إلا إذا حقَّق له غايةً تُسْعِده ، ولأبدَّ أن تكون هذه الغاية منشورة ومعروفة .

وهم قد فرحوا بما نزل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه حقق لهم ما جاء في كتبهم من نبوءة به .

(201/413)

ومعنى ذلك أن كتبهم قد صدقتْ ، ومَنْ جاء بالرسالة الخاتم صادق ، وكان عليهم أن يكونوا أول المُبَادرين إلى الإيمان به .

ذلك أن الفرحة هي العملية التعبيرية أو النُّزوعية من مواجيد الحب ، والإنسان إنما يفرح بتحقيق أمر طيِّب كان ينتظره .

ولذلك كان يجب أن يُهرولوا للإيمان بالدين الجديد ، وأنْ يعلنوا الإيمان به مثلما فعل كعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي الذي جاب أغلب البلاد باحثاً عن الدين الحق .

وهؤلاء هم مجرد أمثلة لِمَنْ أرادوا أنْ يُعبِّروا بالفرحة واستقبال مَددِ السماء عَبْر مجيء

النبي الخاتم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلنوا البيعة للرسول الجديد كما بشَّرَتْ به الكتب السماوية السابقة على بعثته ، ثم وقفوا موقف العداء من الذين لم يفرحوا بِمقْدمِ الرسول ، ثم غيَّروا ما جاء في كتبهم السماوية طمعاً في السلطة الزمنية .

وعرف مَنْ آمنوا برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذين أنكروا نبوة محمد بن عبد الله قد دَلَّسوا على أنفسهم وعلى غيرهم ، وأتوْا بأشياء لم تكن موجودة في كتبهم المُنزَّلة على رسلهم كادعائهم أن لله أبناء ، وسبحانه مُنزَّه عن ذلك .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه : ﴿ والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأحزاب مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله ولا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ [الرعد : 36]

تلك عدالة من القرآن ؛ لأن القرآن لم ينكر الكتب السماوية السابقة بأصولها ، لكنه أنكر التحريف في العقائد ، وأنكر مواقف مَنْ حرَّفوا وادَّعوْا كذباً أن هناك بنوة لله .

هذا التحريف لم يَنَلْ من القرآن إنكاراً لكل ما جاء بالكتب السابقة على القرآن ؛ ولكنه أنكر التحريف فقط .

وقد أثبتَ القرآن ما لله وما للرسول ، وأنكر التحريف الذي أرادوا به السلطة الزمنية ؛ وادعاء القداسة ، والتجارة بصكوك الغفران وبيع الجنة ، وتلقِّي الاعترافات ، وغير ذلك مما لم ينزل به كتاب سماوي .

وحين جاء الإسلام ليُحرِّم ذلك دافعوا عن سلطتهم التي يتاجرون بها في أمور الدين ، وهي ليست من الدين .

وانظر إلى قول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦ . . . ﴾ [الرعد : 36]

وهذا القول دليلٌ على أن هؤلاء المُغيِّرين في الكتب السماوية أو الذين أنكروا وحدانية الله ؛ هؤلاء جاء لهم بالقول الفَصْل : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ . . . ﴾ [الرعد : 36]

أي : أنه يُقِر بأن هناك ديناً قد اُختِير له من قِبَل مُربٍّ ؛ ولم يَختَرْ محمد شيئاً أعجبه ليعبده ، ولكنه كرسول من الله يَشْرُف بالانتماء لما جاءه الأمر به من السماء ، وهو لا يشرك به أحد .

ونجد الرسول صلى الله عليه وسلم يتعصَّب لِمَا يتعلق بربه ؛ وقد يتهاون بما يتعلق بشخصه .

ولذلك وجدنا بعض الملاحدة وقد قالوا له : نحن نؤمن بالله وبالسماء والوحي وبكل شيء ، لَكِنّا لا نؤمن بك أنت ، ولم يغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولو كان يُدخِل ذاته

أو أنانيته في الأمر لَغضِب ، ولكنه لم يغضب .

والدليل على هذا هو أن مواجيده صلى الله عليه وسلم كانت مع الروم المؤمنين بكتاب سماوي ضد المشركين الذين لا يؤمنون بدين سماوي وهم الفُرْس ؛ وحزن صلى الله عليه وسلم حين غُلبت الروم ، فنزل إليه القول الحق بنبأ النصر القادم في بِضْع سنين ؛ تسليةً له صلى الله عليه وسلم : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ العزيز الرحيم ﴾

[الروم : 1–5]

(203/413)

وهؤلاء في قلب رسول الله كانوا أقربَ من غيرهم ؛ لأنهم يتبعون ديناً سماوياً ؛ وساعة يرى رائحة صاحب خير يرجحه على صاحب الشر ؛ فهو يطلب لهم النصر ويُبشّره الله بخير نصرهم في بِضْع سنين ، وهم يحملون رائحة الخير ، رغم أنهم لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومعنى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله ولا أُشْرِكَ بِهِ . . . ﴾ [الرعد : 36]

أي : أنني سأعبد الله وحده ، ولن أعطف على عبادته شيئاً ؛ ويدعو لعبادته وحده ؛ لأنه يعلم أنه سيؤوب إليه ، كما سيؤوب إليه كُلُّ إنسان ؛ فلا أحدَ ينفلِتُ من ربه وخالقه ، ولأبدَّ لكل إنسان أن يُعِد عُدّتَه لهذا المآب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً . . . ﴾

والمقصود ب "كذلك " إشارة إلى إرسال الرسل المُتقدّمين بمعجزات شاءها الحق سبحانه ، ولم يقترحها أحد .

وقوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ . . . ﴾ [الرعد : 37]

ساعةَ نسمعه نرى أن هناك مكانة عَلِيّة يُنزل منها شيئاً لمكانة أدْنَى ، ومثل ذلك أمر معروف في الحِسّيات ، وهو معروف أيضاً في المعنويات .

بل وقد يكون هذا الشيء لم يَصِل إلى السماء ؛ ولكنه في الأرض ، ومع ذلك يقول فيه الحق سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . . ﴾ [الحديد : 25]

وهو إنزالٌ ، لأنه أمر من تدبير السماء ، حتى وإنْ كان في الأرض : ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً . . . ﴾ [الرعد : 37]

والحكم هو المُعْنى ، والمقصود بالإنزال هنا هو القرآن ، وهو كتاب ؛ والكتاب مَبْنى ومَعْنى

، وشاء الحق سبحانه هنا أن يأتي بوصف المبالغة ليأتي الوصف وكأنه الذات ، أي : أنه أنزل القرآن حُكْماً ؛ وهذا يعني أن القرآن في حَدِّ ذاته حكم .

(204/413)

وأنت حين تصف قاضياً يحكم تمام العدل ؛ لا تقول " قَاضٍ عادلٌ " بل تقول " قَاضٍ عَدْل " أي : كأن العدل قد تجسم في القاضي ؛ وكأن كل تكوينه عدل . والحق سبحانه هنا يوضح أن القرآن هو الحكم العدل ، ويصفه بأنه : ﴿ حُكْماً عَرَبِيّاً . . . ﴾ [الرعد : 37] لأن اللسان الذي يخاطب به الرسول القوم الذين يستقبلون بآذانهم ما يقوله لهم لابد أن يكون عربياً . ولذلك يقول في آية أخرى . ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : 44]

أي : أنه شرفٌ كبير لك ولقومك ، أن نزل القرآن بلغة العرب .

وقد حفظ القرآن لنا اللغة العربية سليمة صافيةً ؛ بينما نجد كل لغات العالم قد تشعَّبتْ إلى لهجات أولاً ، ثم استقلتْ كل لهجة فصارتْ لغة ، مثل اللغة اللاتينية التي خرجتْ منها أغلب لغات أوربا المعاصر من : إنجليزية وفرنسية وإيطالية ، ووجدنا تلك اللغات تتفرّق إلى لغات استقلالية ، وصار لكل منها قواعد مختلفة .

بل إن اللغة الإنجليزية على سبيل المثال صارت " إنجليزية إنجليزية " يتكلم بها أهل بريطانيا ؛ و " إنجليزية أمريكية " يتكلم بها أهل الولايات المتحدة .

ولو تركنا نحن لغة التخاطب بيننا كمسلمين وعرب إلى لغة التخاطب الدارجة في مختلف بلادنا ؛ فلن يفهم بعضنا البعض ، ومرجع تفاهمنا مع بعضنا البعض حين تكلم هو اللغة الفصحى .

ودليلنا ما رأينا في مغربنا العربي ، فنجد إنساناً تربّى على اللغة الفرنسية ، أو تكون لغة جَمْعاً بين لهجات متعددة من البربرية والفرنسية وبقايا لغة عربية ، فإذا حدثته باللغة العامية لا يفهم منك شيئاً ، وإن تحدثت معه باللغة العربية استجاب وأجاب ؛ لأن فطرته تستقبل الفصحى فهماً وإدراكاً .

وهكذا رأينا كيف صان القرآن الكريم اللغة العربية واللسان العربي .

ومن ضمن معاني قول الحق سبحانه : ﴿ حُكْماً عَرَبِيّاً .

. . ﴾ [الرعد : 37]

أي : أن الذي يصُون ويعصِم هذا اللسان العربي هو القرآن الكريم .

ويتابع سبحانه بقوله : ﴿ . . . وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴾ [الرعد : 37]

وهذا خطاب مُوجَّه منه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم يكشف فيه الحق سبحانه أمام رسوله صلى الله عليه وسلم مَضارّ وخطورة اتباع الهوى ؛ وهو خطاب يدل على أن الدين الذي نزل على موسى ثم عيسى ، وهما السابقان لرسول الله ؛ لم يَعُدْ كما كان على عهد الرسولين السابقين ؛ بل تدخّل فيه الهوى ؛ ولم يَعُدْ الدين متماسكاً كما نزل من السماء .

ولذلك يقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض . . . ﴾ [المؤمنون : 71]

ذلك أنه سبحانه لو اتبع أهواءهم لَضَاع نظام الكون ؛ ألم يقولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً . . . ﴾ [الإسراء : 92]

ولو استجاب الحق مثلاً لهذه الدعوة ، ألم تكن السماء لتفسد ؟

إذن : فبعد أن نزل القرآن من السماء حكماً وعلماً ومنهجاً يسهل عليهم فهمه ، لأنه بلُغتِهم ، وهم يحمل كامل المنهج إلى أن تقوم الساعة ، وفيه دليل السعادة في الدنيا والآخرة .

لذلك فليس لأحد أن يتبع هواه ؛ فالهوى كما نعلم يختلف من إنسان لآخر ، والخطاب

المُوجَّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم يتضمن في طيّاته الخطاب لأمته صلى الله عليه وسلم .

ومن يفعل ذلك فليس له من دون الله وليّ يؤازره أو ينصره ، أو يقيه عذاب الحق : شقاءً في الدنيا ، وإلقاءً في الجحيم في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(206/413)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) (الرعد : 37) ، وفي سورة طه : (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) (طه : 113) ، والمراد بالمنزل في الموضعين واحد وهو القرآن ثم اختلف العبارة عنه في السورتين ، للسائل أن يسأل عن وجه ذلك ؟

والجواب ، والله أعلم : أن سورة الرعد لم يتقدم فيها شيء من القصص الإخبارية وإنما المتقدم فيها تفاصيل أحكام مرجعها بجملتها إلى اختلاف أحوال المكلفين جرياً على ما سبق من قضائه فيهم ، وتفصيل أحوالهم بحسب ما قدره سبحانه في أزله وما حكم به عليهم كقوله سبحانه : (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى) (الرعد :

19) ، ثم يبين تعالى حكم كل من الفريقين بعد وصفهم ، ثم أعقب بمآل الفريقين فقال فيمن هداه فعلم : (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا) (الرعد : 23) إلى قوله : (فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (الرعد : 24) ، وأتبع بحال الآخرين الموصوفين بنقض عهده سبحانه ، وأخبر بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار ، وبين تعالى حكمه في بسط الرزق لمن يشاء (وقبضه عمن يشاء ، فقال تعالى : (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) (الرعد : 26) ، وأعلم الله تعالى أنه يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ، ثم وصفهم بإيمانهم واطمئنان قلوبهم بذكره في قوله تعالى : (طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) (الرعد : 29) ، ودارت الآي بعد على أن كل جار في خلقه فبتقديره ، وتناسب ذلك إلى الآية ، وكل ما تقدم فهو حكمه السابق في خلقه ، فأعقب هذا بقوله : (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) (الرعد : 37) ، قال الزمخشري : حكمة عربية أي مترجمة بلسان العرب .

(207/413)

ولما تقدم آية سورة طه قصص موسى ، عليه السلام ، وما جرى من فتنة قومه بعده بفعل السامري/ وما كان من قول هارون ، عليه السلام ، وتذكيره إياهم ، وقول بني إسرائيل (لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى) (طه : 91) إلى قوله : (ذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ

أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا) (طه : 99) ، والمراد به القرآن ، ثم أتبع هذا بما يلائمه إلى قوله : (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) (طه : 113) أي قصصاً مقروءاً بلسان العرب مذكراً من وفق لاعتباره والاتعاظ به : (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) (طه : 113) ، فناسب كل من العبارتين موضعه أتم مناسبة ، ولم يكن العكس ليناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 282.283 ﴾

(208/413)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ .الآية

هذه الآية الكريمة تدل بظاهرها على إيمان أهل الكتاب ، لأن الفرح بما أنزل على النبي – صلى الله عليه وسلم – دليل الإيمان .

ونظيره قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ ، وقوله ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ الآية .

وقد جاءت آيات تدل على خلاف ذلك ، كقوله : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب

والمشركين منفكين ﴾ إلى أن قال : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ﴾ ويبن في موضع آخر أن الكافرين من أهل الكتاب أكثر ، وهو قوله : ﴿ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110) سورة آل عمران ﴾ .

والجواب : أن الآية من العام المخصوص ، فهي في خصوص المؤمنين من أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام ومن أسلم من اليهود ، وكالثمانين الذين أسلموا من النصارى المشهورين ، كما قاله الماوردي وغيره ، وهو ظاهر ويدل عليه التبعيض في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ . . ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 167 . 168﴾

(209/413)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ : مبتدأ ، وخبرُه محذوفٌ تقديره : فيما قَصَصْنا ، أو فيما يُتْلَى عليكم مَثَلُ الجَنَّة ، وعلى هذا فقولُه ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ تفسيرٌ لذلك المَثَل . وقال أبو البقاء : " فعلى هذا " تَجري " " حالٌ من العائدِ المحذوف في " وُعِد " ، أي : وُعِدَها مُقَدَّراً جَرَيَانُ أنهارها " . ونَقَل عن الفراء أنه جعل الخبر قوله " تجري " . قال : " وهذا خطأٌ عند البصريين " . قال : " لأنَّ المَثَل لا تَجْري مِنْ تحتِه الأنهارُ ، وإنما هو من صفاتِ المضافِ إليه ، وشُبْهَتُه : انَّ المَثَل هنا بمعنى الصفة فهو كقولِه " صِفَةُ زيدٍ أنه طويلٌ " ، ويجوز أن يكونَ " تجري " مستأنفاً " .

قلت : وهذا الذي ذكره ابو البقاء نَقَل نحوَه الزمخشريُّ : ونَقَل غيرُه عن الفراء في الآية تاويلين آخرين ، أحدُهما : على حذف لفظةِ " أَنَّها " والأصلُ : صفةُ الجَنَّة أنها تجري ، وهذا منه تفسيرُ معنىً لا إعرابٍ ، وكيف يَحْذِفُ " أنها " من غير دليلٍ . والثاني : أنَّ لفظةَ " مثل " زائدةٌ ، والأصل : الجنة تجري مِنْ تحتِها الأنهار ، وزيادةُ " مَثَل " كثيرةٌ في لسانِهم . ومنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] ﴿ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ ﴾ [البقرة : 137] وقد تقدَّم .

وقال الزمخشري : " وقال غيرُه : -أي سيبويه - الخبر ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ كما تقول : صفةُ زيدٍ أسمرُ " . قال الشيخ : " وهذا أيضاً لا يَصِحُّ أن يكونَ " تَجْري " خبراً عن الصفةِ ، ولا " أسمر " خبراً عن الصفة ، وإنما يُتَأَوَّل " تجري " على إسقاطِ " أنْ " ورفعِ الفعل ، والتقدير : أَنْ تجْري ، أي : جرَيانُها .

وقال الزجَّاج : " مَثَل الجنَّة جَنَّةٌ تجري ، على حَذْفِ الموصوفِ تمثيلاً لما غاب عنَّا بما نشاهده " . وردَّ عليه أبو عليٍ قال : " لا يَصِحُّ ما قال الزجاج ، لا على معنى الصفة ، ولا على معنى الشَّبَه ؛ لأنَّ الجنَّةَ التي قَدَّرها جثةٌ ولا تكونُ الصفة ، ولأنَّ الشَّبَه عبارةٌ عن المماثلةِ التي بين المتماثلين وهو حدَثٌ ، والجنَّةُ جثَّةٌ فلا تكون المماثلةُ ، والجمهورُ على أن المَثَلَ هنا بمعنى الصفة فليس هنا ضَرْبُ مَثَلٍ ، فهو كقولِه تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ المثل الأعلى ﴾ [النحل : 60] وأنكر أبو علي أَنْ تكون بمعنى الصفة ، وقال : معناه الشبه .

وقرأ عليٌّ وابن مسعود " أمثال الجنة " ، أي : صفاتها .

و ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾ كقوله " تَجْرِي " في الاستئناف التفسيري أو الخبرية أو الحالية . وقد تقدَّم خلافُ القرَّاءِ فيه في البقرة " .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) ﴾

قوله تعالى : [﴿ ولا أُشْرِكَ ﴾] : قرأ نافع في روايةٍ عنه برفع ﴿ ولا أُشْرِكُ ﴾ وهي

تحتمل القطع ، أي : وأنا لا أُشْرِك ، وقيل : هي حالٌ . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ المنفيَّ ب "لا" كالمُثْبتِ في عدمِ مباشرةِ واوِ الحال له .

(211/413)

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37) ﴾

و﴿ حُكْماً ﴾ حال/ من مفعولِ "أنزلناه" . والكاف في "كذلك" نصب ، أي : وكما يَسَّرنا هؤلاء للفرحِ ، وهؤلاء لإِنكار البعضِ كذلك أنْزَلْناه حُكْماً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 58 . 60 ﴾

(212/413)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ

اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35) ﴾

المَثَل أي الصفة ، فصفة الجنة التي وعد المتقون هي أنها جنة تجري من تحتها الأنهار ، وأُكُلها دائم وظلها دائم ، أي أن اللذاتِ فيها متصلةٌ . وإنما لهم جنات معجلة ومؤجلة ، فالمؤجَّلَةُ ما ذكره الله – سبحانه – في نص القرآن ، والمعجلة جنة الوقت . . والدرجات – من حيث البسط – فيها متصلة ، ونفحاتُ الأُنْسِ لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ .

يريد بهم مؤمني أهل الكتاب الذين كانوا يفرحون بما ينزل من القرآن لصدق يقينهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ .

أي الأحزاب الذين قالوا كان محمد يدعو إلى إله واحد ، فالآن هو ذا يدعو إلى إلهين لمَّا نزل : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ [الإسراء : 110] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَئَابِ ﴾ .

قل يا محمد : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴾ . والعبوديةُ المبادرة إلى ما أُمِرْتُ به ، والمحاذرة مما زجُرْتُ عنه ، ثم التبرِّي عن الحَوْل والمُنَة ، والعتراف بالطوْل والمِنَّة .

وأصل العبودية القيام بالوظائف ، ثم الاستقامة عند روْح اللطائف .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37) ﴾

(213/413)

أي حُكْماً ببيان العرب ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى أرسل الرسلَ في كلِّ وقتٍ كُلّاً بلسان قومه ليهتدوا إليه .

ويقال مِنْ صفات العرب الشجاعة والسخاء ومراعاة الذِّمام وهذه الأشياء مندوبٌ إليها في الشريعة .

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ : أي ولئن وافقتهم ، ولم تعتصم بالله ، ووَقَعَتْ على قلبك حشمةٌ من غير الله – فَمَا لَكَ مِن واقٍ من الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 232.234﴾

(214/413)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39) وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ

﴿ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما حسمت الأطماع عن إجابتهم رجاء الاتباع أو خشية الامتناع ، وكان بعضهم قد قال : لو كان نبياً شغلته نبوته عن كثرة التزوج ، كان موضع توقع الخبر عما كان للرسل في نحو ذلك ، فقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ رسلاً ﴾ ولما كانت أزمان الرسل غير عامة لزمان القبل ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبلك ﴾ أي ولم نجعلهم ملائكة بل جعلناهم بشراً ، ﴿ و ﴾ أثقلنا ظهورهم بما يدعو إلى المداراة والمسالمة بإرضاء الأمم في بعض أهوائهم ، أو فصل الأمر عند تحقق المصارمة بإنجاز الوعيد بأن ﴿ جعلنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ لهم أزواجاً ﴾ أي نساء ينكحونهن ؛ والزوج : القرين من الذكر والأنثى ، وهو هنا الأنثى ﴿ وذرية ﴾ وهي الجماعة المتفرقة بالولادة عن أب واحد في الجملة ، وفعل بهم أممهم ما يفعل بك من الاستهزاء ، فما اتبع أحد منهم شيئاً من أهواء أمته ﴿ و ﴾ لم نجعل إليهم الإتيان بما يقترح المتعنتون من الآيات تالفاً لهم ، بل ﴿ ما كان لرسول ﴾ أي رسول كان ﴿ أن يأتي بآية ﴾ مقترحة أو آية ناسخة لحكم من أحكام شريعته أو شريعة من قبله أو غير ذلك ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة ، فإن الأمور عنده ليست على غير نظام ولا مفرطاً فيها ولا ضائعاً شيء منها بل ﴿ لكل أجل ﴾ أي غاية أمر قدره

وحده لأن يكون عنده أمر من الأمور ﴿ كتاب ﴾ قد أثبت فيه أن أمر كذا يكون في وقت كذا من الثواب والعقاب والأحكام والإتيان بالآيات وغيرها ، إثباتاً ونسخاً على ما تقتضيه الحكمة ، والحكمة اقتضت أن النبوة يكفي في إثباتها معجزة واحدة ، وما زاد على ذلك فهو إلى المشيئة ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ يمحوا الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ ما يشاء ﴾ أي محوه من الشرائع والأحكام وغيرها بالنسخ فيرفعه ﴿ ويثبت ﴾ ما يشاء إثباته من ذلك بأن يقره ويمضي حكمه كما قال تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننساها ﴾ [البقرة : 106] إلى قوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : 106] كل ذلك بحسب

المصالح التابعة لكل زمن ، فإنه العالم بكل شيء ، وهو الفعال لما يريد لا اعتراض عليه ، وقال الشافعي رحمه الله تعالى في الرسالة : يمحو فرض ما يشاء ويثبت فرض ما يشاء . وإثبات واو " يمحوا " في جميع المصاحف مشير - بما ذكر أهل الله من أن الواو معناه العلو والرفعة - إلى أن بعض المحوات تبقى آثارها عالية ، فإنه قد يمحو عمر شخص بعد أن كانت له آثار جميلة ، فيبقيها سبحانه وينشرها ويعليها ، وقد يمحو شريعة بنسخها ويبقى

منها آثاراً صالحة تدل على ما أثبت من الشريعة الناسخة لها ، وأما حذفها باتفاق المصاحف أيضاً في ﴿ يمح الله الباطل ﴾ في الشورى مع أنه مرفوع أيضاً ، فللبشارة بإزهاق الباطل إزهاقاً هو النهاية - كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وذلك لمشابهة الفعل بالأمر المقتضي لتحتم الإيقاع بغاية الاتقان والدفاع ، وقال : ﴿ وعنده ﴾ مع ذلك ﴿ أم ﴾ أي أصل ﴿ الكتاب ﴾ لمن وهمه مقيد بأن الحفظ بالكتابة ، وهو اللوح المحفوظ الذي هو أصل كل كتاب ، وقد تقدم غير مرة أنه الكتاب المبين الذي هو بحيث يبين كل ما طلب علمه منه كلما طلب ؛ قال ابن عباس -رضى الله عنهما - : هما كتابان : كتاب سوى أم الكتاب ، يمحو منه ما يشاء ويثبت ، وأم الكتاب الذي لا يغير منه شيء - انتهى .

(216/413)

والمراد - والله أعلم - أنه يكون في أم الكتاب أنا نفعل كذا - وإن كان في الفرع على غير ذلك ، فإنه بالنسبة إلى شريعة دون أخرى ، فإذا نقضت الشريعة الأولى فإنا نمحوه في أجل كذا ، أو يكون المعنى : يمحو ما يشاء من ذلك الكتاب بأن يعدم مضمونه بعد الإيجاد ، ويثبت ما يشاء بأن يوجده من العدم وعنده أم الكتاب ؛ قال الرازي في اللوامع : وقد أكثروا القول فيها ، وعلى الجملة فكل ما يتعلق به المشيئة من الكائنات فهو بين محو وإثبات ، محو

بالنسبة إلى الصورة التي ارتفعت ، إثبات بالنسبة إلى الصورة الثانية ، والقضاء الأزلي ، والمشيئة الربانية مصدر هذا المحو والإثبات ، فلذلك هو القضاء وهذا هو القدر ، فالقضاء مصدر القدر ، والقدر مظهر القضاء ، والله تعالى وصفاته منزه عن التغير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 160 . 161 ﴾

(217/413)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39) ﴾

اعلم أن القوم كانوا يذكرون أنواعاً من الشبهات في إبطال نبوته .

فالشبهة الأولى : قولهم : ﴿ ماهذا الرسول يأْكُلُ الطعام ويَمْشِى فِى الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] وهذه الشبهة إنما ذكرها الله تعالى في سورة أخرى .

والشبهة الثانية : قولهم : الرسول الذي يرسله الله إلى الخلق لا بد وأن يكون من جنس الملائكة كما حكى الله عنهم في قوله : ﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بالملئكة ﴾ [الحجر : 7] وقوله :

﴿ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : 8] .

فأجاب الله تعالى عنه ههنا بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ يعني أن الأنبياء الذين كانوا قبله كانوا من جنس البشر لا من جنس الملائكة فإذا جاز ذلك في حقهم فلم لا يجوز أيضاً مثله في حقه .

الشبهة الثالثة : عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة الزوجات وقالوا : لو كان رسولاً من عند الله لما كان مشتغلاً بأمر النساء بل كان معرضاً عنهن مشتغلاً بالنسك والزهد ، فأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ وبالجملة فهذا الكلام يصلح أن يكون جواباً عن الشبهة المتقدمة ويصلح أن يكون جواباً عن هذه الشبهة ، فقد كان لسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة مهيرة ، وسبعمائة سرية .

ولداود مائة امرأة .

(218/413)

والشبهة الرابعة : قالوا لو كان رسولاً من عند الله لكان أي شيء طلبنا منه من المعجزات أتى به ولم يتوقف ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه ليس برسول ، فأجاب الله عنه بقوله :

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ وتقريره : أن المعجزة الواحدة كافية في إزالة العذر والعلة ، وفي إظهار الحجة والبينة ، فأما الزائد عليها فهو مفوض إلى مشيئة الله تعالى إن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها ولا اعتراض لأحد عليه في ذلك .

الشبهة الخامسة : أنه عليه السلام كان يخوفهم بنزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه . ثم إن ذلك الموعود كان يتأخر فلما لم يشاهدوا تلك الأمور احتجوا بها على الطعن في نبوته ، وقالوا : لو كان نبياً صادقاً لما ظهر كذبه .

فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ يعني نزول العذاب على الكفار وظهور الفتح والنصر للأولياء قضى الله بحصولها في أوقات معينة مخصوصة ، ولكل حادث وقت معين ﴿ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ فقبل حضور ذلك الوقت لا يحدث ذلك الحادث فتأخر تلك المواعيد لا يدل على كونه كاذباً .

الشبهة السادسة : قالوا : لو كان في دعوى الرسالة محقاً لما نسخ الأحكام التي نص الله تعالى على ثوبتها في الشرائع المتقدمة نحو التوراة والإنجيل ، لكنه نسخها وحرفها نحو تحريف القبلة ، ونسخ أكثر أحكام التوراة والإنجيل ، فوجب أن لا يكون نبياً حقاً .

فأجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله : ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾

ويمكن أيضاً أن يكون قوله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ كالمقدمة لتقرير هذا الجواب ، وذلك لأنا نشاهد أنه تعالى يخلق حيواناً عجيب الخلقة بديع الفطرة من قطرة من النطفة ثم يبقيه مدة مخصوصة ثم يميته ويفرق أجزاءه وأبعاضه فلما لم يمتنع أن يحيي أولاً ، ثم يميت ثانياً فكيف يمتنع أن يشرع الحكم في بعض الأوقات ، ثم ينسخه في سائر الأوقات فكان المراد من قوله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ما ذكرناه ، ثم إنه تعالى لما قرر تلك المقدمة قال : ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ والمعنى : أنه يوجد تارة ويعدم أخرى ، ويحيي تارة ويميت أخرى ، ويغني تارة ويفقر أخرى فكذلك لا يبعد أن يشرع الحكم تارة ثم ينسخه أخرى بحسب ما اقتضته المشيئة الإلهية عند أهل السنة أو بحسب ما اقتضته رعاية المصالح عند المعتزلة فهذا تمام التحقيق في تفسير هذه الآية ، ثم ههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ فيه أقوال .

الأول : أن لكل شيء وقتاً مقدراً فالآيات التي سألوها لها وقت معين حكم الله به وكتبه في اللوح المحفوظ فلا يتغير عن ذلك الحكم بسبب تحكماتهم الفاسدة ولو أن الله أعطاهم ما التمسوا لكان فيه أعظم الفساد .

الثاني : أن لكل حادث وقتاً معيناً قضى الله حصوله فيه كالحياة والموت والغنى والفقر

والسعادة والشقاوة ، ولا يتغير ألبتة عن ذلك الوقت .

والثالث : أن هذا من المقلوب والمعنى : أن لكل كتاب منزل من السماء أجلاً ينزله فيه ، أي لكل كتاب وقت يعمل به ، فوقت العمل بالتوراة والإنجيل قد انقضى ووقت العمل بالقرآن قد أتى وحضر .

(220/413)

والرابع : لكل أجل معين كتاب عند الملائكة الحفظة فللإنسان أحوال أولها نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يصير شاباً ثم شيخاً ، وكذا القول في جميع الأحوال من الإيمان والكفر والسعادة والشقاوة والحسن والقبح .

الخامس : كل وقت معين مشتمل على مصلحة خفية ومنفعة لا يعلمها إلا الله تعالى ، فإذا جاء ذلك الوقت حدث ذلك الحادث ولا يجوز حدوثه في غيره .

واعلم أن هذه الآية صريحة في أن الكل بقضاء الله وبقدره وأن الأمور مرهونة بأوقاتها ، لأن قوله : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ معناه أن تحت كل أجل حادث معين ، ويستحيل أن يكون ذلك التعيين لأجل خاصية الوقت فإن ذلك محال ، لأن الأجزاء المعروضة في الأوقات المتعاقبة متساوية ، فوجب أن يكون اختصاص كل وقت بالحادث الذي يحدث فيه بفعل

الله تعالى واختياره وذلك يدل على أن الكل من الله تعالى وهو نظير قوله عليه السلام : " جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة "

المسألة الثانية :

﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ ساكنة الثاء خفيفة الباء من أثبت يثبت ، والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء من التثبيت ، وحجة من خفف أن ضد المحو الإثبات لا التثبت .

ولأن التشديد للتكثير ، وليس القصد بالمحو التكثير ، فكذلك ما يكون في مقابلته ، ومن شدد احتج بقوله : ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾ [النساء : 66] وقوله : ﴿ فَثَبِّتُوا ﴾ [الأنفال : 12] .

المسألة الثالثة :

المحو ذهاب أثر الكتابة ، يقال : محاه يمحوه محواً إذا أذهب أثره ، وقوله : ﴿ وَيُثَبِّتُ ﴾ قال النحويون : أراد ويثبته إلا أنه استغنى بتعدية للفعل الأول عن تعدية الثاني ، وهو كقوله تعالى : ﴿ والحافظين فُرُوجَهُمْ والحافظات ﴾ [الأحزاب : 35] .

المسألة الرابعة :

في هذه الآية قولان :

القول الأول : إنها عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ .

قالوا : إن الله يمحو من الرزق ويزيد فيه ، وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر ، وهو مذهب عمر وابن مسعود .

والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله تعالى في أن يجعلهم سعداء لا أشقياء ، وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والقول الثاني : أن هذه الآية خاصة في بعض الأشقياء دون البعض ، وعلى هذا التقرير ففي الآية وجوه : الأول : المراد من المحو والإثبات : نسخ الحكم المتقدم وإثبات حكم آخر بدلاً عن الأول .

الثاني : أنه تعالى يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة ، لأنهم مأمورون بكتابة كل قول وفعل ويثبت غيره ، وطعن أبو بكر الأصم فيه فقال : إنه تعالى وصف الكتاب بقوله : ﴿ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] وقال أيضاً : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7 ، 8] .

أجاب القاضي عنه : بأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الذنوب والمباح لا صغيرة ولا كبيرة ، وللأصم أن يجيب عن هذا الجواب فيقول : إنكم باصطلاحكم خصصتم الصغيرة بالذنب

الصغير ، والكبيرة بالذنب الكبير ، وهذا مجرد اصطلاح المتكلمين .

أما في أصل اللغة فالصغير والكبير يتناولان كل فعل وعرض ، لأنه إن كان حقيراً فهو صغير ، وإن كان غير ذلك فهو كبير ، وعلى هذا التقرير فقوله : ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] يتناول المباحات أيضاً .

الثالث : أنه تعالى أراد بالمحو أن من أذنب أثبت ذلك الذنب في ديوانه ، فإذا تاب عنه محي من ديوانه .

الرابع : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ وهو من جاء أجله .

ويدع من لم يجيء أجله ويثبته .

الخامس : أنه تعالى يثبت في أول السنة حكم تلك السنة فإذا مضت السنة محيت ، وأثبت كتاب آخر للمستقبل .

(222/413)

السادس : يمحو نور القمر ، ويثبت نور الشمس .

السابع : يمحو الدنيا ويثبت الآخرة .

الثامن : أنه في الأرزاق والمحن والمصائب يثبتها في الكتاب ثم يزيلها بالدعاء والصدقة ، وفيه

حث على الانقطاع إلى الله تعالى .

التاسع : تغير أحوال العبد فما مضى منها فهو المحو ، وما حصل وحضر فهو الإثبات .

العاشر : يزيل ما يشاء ويثبت ما يشاء من حكمه لا يطلع على غيبه أحداً فهو المنفرد بالحكم كما يشاء ، وهو المستقل بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار بحيث لا يطلع على تلك الغيوب أحد من خلقه .

واعلم أن هذا الباب فيه مجال عظيم .

فإن قال قائل : ألستم تزعمون أن المقادير سابقة قد جف بها القلم وليس الأمر بأنف ، فكيف يستقيم مع هذا المعنى المحو والإثبات ؟

قلنا : ذلك المحو والإثبات أيضاً مما جف به القلم فلا يمحو إلا ما سبق في علمه وقضائه محوه .

المسألة الخامسة :

قالت الرافضة : البداء جائز على الله تعالى ، وهو أن يعتقد شيئاً ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقده ، وتمسكوا فيه بقوله : ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ .

واعلم أن هذا باطل لأن علم الله من لوازم ذاته المخصوصة ، وما كان كذلك كان دخول التغير والتبدل فيه محالاً .

المسألة السادسة :

أما ﴿ أُمُّ الكتاب ﴾ فالمراد أصل الكتاب ، والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أماً له ومنه أم الرأس للدماغ ، وأم القرى لمكة ، وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى ، فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلاً لجميع الكتب ، وفيه قولان :

القول الأول : أن أم الكتاب هو اللوح المحفوظ ، وجميع حوادث العالم العلوي والعالم السفلي مثبت فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كان الله ولا شيء معه ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق إلى قيام الساعة" قال المتكلمون : الحكمة فيه أن يظهر للملائكة كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات على سبيل التفصيل ، وعلى هذا التقدير : فعند الله كتابان : أحدهما : الكتاب الذي يكتبه الملائكة على الخلق وذلك الكتاب محل المحو والإثبات .

والكتاب الثاني : هو اللوح المحفوظ ، وهو الكتاب المشتمل على تعين جميع الأحوال العلوية والسفلية ، وهو الباقي .

روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أن الله سبحانه وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره ، فيمحو ما يشاء ويثبت

ما يشاء " وللحكماء في تفسير هذين الكتابين كلمات عجيبة وأسرار غامضة .

والقول الثاني : إن أم الكتاب هو علم الله تعالى ، فإنه تعالى عالم بجميع المعلومات من الموجودات والمعدومات وإن تغيرت ، إلا أن علم الله تعالى بها باق منزه عن التغير ، فالمراد بأم الكتاب هو ذاك ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 50. 53 ﴾

(224/413)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولقد أرسلنا رُسُلاً من قبلك وجعلنا لهم أزوجاً وذرية ﴾ يعني بالأزواج النساء ، وبالذرية الأولاد .

وفيه وجهان :

أحدهما : معناه أن من أرسلناه قبلك من المرسلين بشر لهم أزواج وذرية كسائر البشر ، فلمَ أنكروا رسالتك وأنت مثل من قبلك .

الثاني : أنه نهاه بذلك عن التبتل ، قاله قتادة .

وقيل إن اليهود عابت على النبي صلى الله عليه وسلم الأزواج ، فأنزل الله تعالى إلى ذلك

فيهم يعلمهم أن ذلك سُنَّة الرسل قبله .

﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ قيل إن مشركي قريش سألوه آيات قد تقدم ذكرها في هذه السورة فأنزل الله تعالى ذلك فيهم .

﴿ لكل أجل كتابٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه لكل كتاب نزل من السماء أجل . وهو من المقدِّم والمؤخر ، قاله الضحاك .

الثاني : معناه لكل أمر قضاه الله تعالى كتاب كتبه فيه ، قاله ابن جرير .

الثالث : لكل أجل من آجال الخلق كتاب عند الله تعالى ، قاله الحسن .

ويحتمل رابعاً : لكل عمل خَبر .

قوله عز وجل : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يغيران ، قاله ابن عباس .

الثاني : يمحو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء في كتاب سوى أُم الكتاب ، وهما كتابان أحدهما : أم الكتاب لا يغيره ولا يمحو منه شيئاً كما أراد ، قاله عكرمة .

الثالث : أن الله عز وجل ينسخ ما يشاء من أحكام كتابه ، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه ، قاله قتادة وابن زيد .

الرابع : أنه يمحو مَنْ قد جاء أجلُه ويثبت من لم يأت أجلُه ، قاله الحسن .

الخامس : يغفر ما يشاء من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفره ، قاله سعيد بن جبير .

السادس : أنه الرجل يقدم الطاعة ثم يختمها بالمعصية فتمحو ما قد سلف ، والرجل يقدم المعصية ثم يختمها بالطاعة فتمحو ما قد سلف ، وهذا القول مأثور عن ابن عباس أيضاً .

(225/413)

السابع : أن الحفظة من الملائكة يرفعون جميع أقواله وأفعاله ، فيمحو الله عز وجل منها ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب ، قاله الضحاك .

﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : الحلال والحرام ، قاله الحسن .

الثاني : جملة الكتاب ، قاله الضحاك .

الثالث : هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق ، قاله كعب الأحبار .

الرابع : هو الذكر ، قاله ابن عباس .

الخامس : أنه الكتاب الذي لا يبدل ، قاله السدي .

السادس : أنه أصل الكتاب في اللوح المحفوظ ، قاله عكرمة . انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ﴾ الآية .

في صدر هذه الآية تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم ورد على المقترحين من قريش بالملائكة المتعجبين من بعثة الله بشراً رسولاً . فالمعنى : أن بعثك يا محمد ليس ببدع فقد تقدم هذا في الأمم . ثم جاء قوله : ﴿ وما كان لرسول ﴾ الآية ، لفظه لفظ النهي والزجر ، والمقصود به إنما هو النفي المحض ، لكنه نفي تأكد بهذه العبارة ، ومتى كانت هذه العبارة عن أمر واقع تحت قدرة المنهي فهي زجر ، ومتى لم يقع ذلك تحت قدرته فهو نفي محض مؤكد ، و﴿ بإذن الله ﴾ معناه : إلا أن يأذن الله في ذلك .

وقوله : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ لفظ عام في جميع الأشياء التي لها آجال ، وذلك أنه ليس كائن منها إلا وله أجل في بدئه أو في خاتمته .

وكل أجل مكتوب محصور ، فأخبر تعالى عن كتبه الآجال التي للأشياء عامة ، وقال الضحاك والفراء : المعنى : لكل كتاب أجل .

قال القاضي أبو محمد : وهذا العكس غير لازم ولا وجه له ، إذ المعنى تام في ترتيب القرآن

، بل يمكن هدم قولهما بأن الأشياء التي كتبها الله تعالى أزلية باقية كتنعيم أهل الجنة وغيره يوجد كتابها لا أجل له .

وقوله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي " ويثّبت " بشد الباء . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم " ويثبت " بتخفيفها .

(227/413)

وتخبط الناس في معنى هذه الألفاظ ، والذي يتخلص به مشكلها : أن نعتقد أن الأشياء التي قدرها الله تعالى في الأزل وعلمها بحال ما لا يصح فيها محو ولا تبديل ، وهي التي ثبتت في ﴿ أم الكتاب ﴾ وسبق بها القضاء ، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره من أهل العلم ، وأما الأشياء التي قد أخبر الله تعالى أنه يبدل فيها وينقل كعفو الذنوب بعد تقريرها ، وكنسخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها –ففيها يقع المحو والتثبيت فيما يقيده الحفظة ونحو ذلك ، وأما إذا رد الأمر للقضاء والقدر فقد محا الله ما محا وثبت ما ثبت . وجاءت العبارة مستقلة بمجيء الحوادث ، وهذه الأمور فيما يستأنف من الزمان فينتظر البشر ما يمحو أو ما يثبت وبحسب ذلك خوفهم ورجاؤهم ودعاؤهم .

وقالت فرقة – منها الحسن – هي في آجال بني آدم ، وذلك أن الله تعالى في ليلة القدر ، وقيل

: – في ليلة نصف شعبان – يكتب آجال الموتى فيمحى ناس من ديوان الأحياء ويثبتون في ديوان الموتى. وقال قيس بن عباد: العاشر من رجب هو يوم ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت ﴾.

قال القاضي أبو محمد: وهذا التخصيص في الآجال أو غيرها لا معنى له، وإنما يحسن من الأقوال هنا ما كان عاماً في جميع الأشياء، فمن ذلك أن يكون معنى الآية أن الله تعالى يغير الأمور على أحوالها، أعني ما من شأنه أن يغير –على ما قدمناه– فيمحوه من تلك الحالة ويثبته في التي نقله إليها. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن عبد الله بن مسعود أنهما كانا يقولان في دعائهما: اللهم إن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة فامحنا وأثبتنا في ديوان السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت.

قال القاضي أبو محمد: وهذا دعاء في غفران الذنوب وعلى جهة الجزع منها. أي اللهم إن كنا شقينا بمعصيتك وكتب علينا ذنوب وشقاوة بها فامحها عنا بالمغفرة، وفي لفظ عمر في بعض الروايات بعض من هذا، ولم يكن دعاؤهما البتة في تبديل سابق القضاء ولا يتأول عليهما ذلك.

وقيل : إن هذه الآية نزلت لأن قريشاً لما سمعت قول الله تعالى : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ ، قال : ليس لمحمد في هذا الأمر قدرة ولا حظ ، فنزلت ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ أي ربما أذن الله من ذلك فيما تكرهون بعد أن لم يكن يأذن .

وحكى الطبري عن ابن عباس أنه قال : معنى الآية " يمحو الله ما يشاء ويثبت " من أمور عباده إلا السعادة والشقاوة والآجال فإنه لا محو فيها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا نحو ما أحلناه أولاً في الآية .

وحكي عن فرقة أنها قالت : " يمحو الله ما يشاء ويثبت " من كتاب حاشى أمر الكتاب الذي عنده الذي لا يغير منه شيئاً . وقالت فرقة معناه : يمحو كل ما يشاء ويثبت كل ما أراد ، ونحو هذه الأقوال التي هي سهلة المعارضة .

وأسند الطبري عن إبراهيم النخعي أن كعباً قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة . قال : وما هي ؟ قال : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ . وذكر أبو المعالي في التلخيص : أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي قال هذه المقالة المذكورة عن كعب .

قال القاضي أبو محمد : وذلك عندي لا يصح عن علي .

واختلفت أيضاً عبارة المفسرين في تفسير ﴿ أم الكتاب ﴾ فقال ابن عباس : هو الذكر ، وقال كعب : هو علم الله ما هو خالق ، وما خلقه عاملون .

قال القاضي أبو محمد : وأصوب ما يفسر به ﴿ أم الكتاب ﴾ أنه كتاب الأمور المجزومة التي قد سبق القضاء فيها بما هو كائن وسبق ألا تبدل ، ويبقى المحو والتثبيت في الأمور التي سبق في القضاء أن تبدل وتمحى وتثبت – قال نحوه قتادة – وقالت فرقة : معنى ﴿ أم الكتاب ﴾ الحلال والحرام – وهذا قول الحسن بن أبي الحسن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(229/413)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك . . . ﴾ الآية ،

سبب نزولها أن اليهود عيَّروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة التزويج ، وقالوا : لو كان نبياً كما يزعم ، شغلته النبوَّة عن تزويج النساء ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

ومعنى الآية : أن الرسل قبلك كانوا بشراً لهم أزواج ، يعني النساء ، وذريَّة ، يعني : الأولاد .

﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ أي : بأمره ، وهذا جواب للذين اقترحوا عليه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : لكل أجل من آجال الخَلق كتاب عند الله ، قاله الحسن .

والثاني : أنه من المقدّم والمؤخّر ، والمعنى : لكل كتاب ينزل من السماء أجل .

قاله الضحاك والفراء .

والثالث : لكل أجل قدَّره الله عز وجل ، ولكل أمر قضاه ، كتاب أُثبت فيه ، ولا تكون آية ولا غيرها إلا بأجل قد قضاه الله في كتاب ، هذا معنى قول ابن جرير .

قوله تعالى : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم : "ويثبت" ساكنة الثاء خفيفة الباء .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "ويثبِّت" مشددة الباء مفتوحة الثاء .

قال أبو علي : المعنى : ويثبِّته ، فاستغنى بتعدية الأول من الفعلين عن تعدية الثاني .

واختلف المفسرون في المراد بالذي يمحو ويثبِت على ثمانية أقوال :

أحدها : أنه عامّ ، في الرزق ، والأجل ، والسعادة .

والشقاوة ، وهذا مذهب عمر ، وابن مسعود ، وأبي وائل ، والضحاك ، وابن جريج .

والثاني : أنه الناسخ والمنسوخ ، فيمحو المنسوخ ، ويثبت الناسخ ، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، والقرظي ، وابن زيد .

وقال ابن قتيبة : "يمحو الله ما يشاء" أي : ينسخ من القرآن ما يشاء "ويثبت" أي : يدعه ثابتاً لا ينسخه ، وهو المُحكَم .

(230/413)

والثالث : أنه يمحو ما يشاء ، ويثبت ، إلا الشقاوة والسعادة ، والحياة والموت ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، ودليل هذا القول ، ما روى مسلم في "صحيحه" من حديث حذيفة بن أَسِيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا مضت على النطفة خمس وأربعون ليلة ، يقول المَلَك الموكَّل : أذكر أم أنثى ؟ فيقضي الله تعالى ، ويكتب المَلَك ، فيقول : أشقي ، أم سعيد ؟ فيقضي الله ، ويكتب المَلَك ، فيقول : عمله وأجله ؟ فيقضي الله ، ويكتب المَلَك ، ثم تطوى الصحيفة ، فلا يزاد فيها ولا يُنقص منها " .

والرابع : يمحو ما يشاء ويثبت ، إلا الشقاوة والسعادة لا يغيَّران ، قاله مجاهد .

والخامس : يمحو من جاء أجله ، ويُثبت من لم يجىء أجله ، قاله الحسن .

والسادس : يمحو من ذنوب عباده ما يشاء فيغفرها ، ويثبت ما يشاء فلا يغفرها ، روي عن سعيد بن جبير .

والسابع : يمحو ما يشاء بالتوبة ، ويثبت مكانها حسنات ، قاله عكرمة .

والثامن : يمحو من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب ، قاله الضحاك ، وأبو صالح .

وقال ابن السائب : القول كلُّه يُكتَب ، حتى إِذا كان في يوم الخميس ، طُرِح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ، مثل قولك : أكلتُ ، شربت ، دخلت ، خرجت ، ونحوه ، وهو صادق ، ويُثبت ما فيه الثواب والعقاب .

قوله تعالى : ﴿ وعنده أُمُّ الكتاب ﴾ قال الزجاج : أصل الكتاب .

قال المفسرون : وهو اللوح المحفوظ الذي أُثبت فيه ما يكون ويحدث وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِن الله تعالى في ثلاث ساعات يبقَين من الليل ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره ، فيمحو ما يشاء ويثبت " وروى عكرمة عن ابن عباس قال : هما كتابان ، كتاب سوى أم الكتاب يمحو منه ما يشاء ويثبت ، وعنده أُمُّ الكتاب لا يغيَّر منه شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(231/413)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قيل : إن اليهود عابوا على النبي صلى الله عليه وسلم الأزواج ، وعيرته بذلك وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النّساء والنكاح ، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوّة عن النّساء ؛ فأنزل الله هذه الآية ، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ أي جعلناهم بشراً يقضون ما أحلّ الله من شهوات الدنيا ، وإنما التخصيص في الوحي .

الثانية : هذه الآية تدلّ على الترغيب في النكاح والحض عليه ، وتنهى عن التَّبَتُّل ، وهو ترك النكاح ، وهذه سنّة المرسلين كما نصّت عليه هذه الآية ، والسنّة واردة بمعناها ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " تزوّجوا فإني مكاثِر بكم الأمم " الحديث .

وقد تقدّم في "آل عمران" وقال : " من تزوج فقد استكمل نصف الدّين فليتقِ الله في النصف الثاني " .

ومعنى ذلك أن النكاح يعفّ عن الزنى ، والعفاف أحد الْخَصْلَتين اللتين ضَمِن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما الجنة فقال : " من وقاه الله شر اثنتين وَلَجَ الجنّة ما بين لَحْييه وما بين رجليه " خرجه الموطأ وغيره .

وفي صحيح البخاري عن أنس قال : جاء ثلاثة رَهْط إلى بيوت أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تَقَالُّوها فقالوا :

وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ا قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخّر .

فقال أحدهم : أمّا أنا فإني أُصلّي الليل أبداً ، وقال الآخر : إني أصوم الدهر فلا أُفطر .

وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (إليهم) فقال : " أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأُفطر وأصلّي وأرقد وأتزوّج النساء فمن رغب عن سنّتي فليس مني " .

خرجه مسلم بمعناه ؛ وهذا أبين .

وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقّاص قال : أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولو أجاز له ذلك لاخْتَصَيْنا ، وقد تقدّم في "آل عمران" الحضّ على طلب الولد والرّدّ على من جهل ذلك .

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول : إني لأتزوج المرأة وما لي فيها من حاجة ، وأطؤها وما أشتهيها ؛ قيل له : وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : حبّي أن يخرج الله مِنّي من يكاثر به النبي صلى الله عليه وسلم النبيّين يوم القيامة ؛ وإني سمعته يقول : " عليكم بالأبكار فإنهنّ أَعْذَب أفواهاً وأحسن أخلاقاً وأَنْتَق أرحاماً وإني

مكاثر بكم الأمم يوم القيامة "

يعني بقوله : "أنتق أرحاماً" أَقْبَل للولد ؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق ؛ لأنها ترمي بالأولاد رمياً .

وخرج أبو داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال "لا" ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة فقال : " تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم " .

صححه أبو محمد عبد الحق وحَسْبُك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات ما تقدّم ذكره في هذه السورة فأنزل (الله) ذلك فيهم ؛ وظاهر الكلام حَظْر ومعناه النفي ؛ لأنه لا يحظر على أحدٍ ما لا يقدر عليه .

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله ؛ قاله الحسن .

وقيل : فيه تقديم وتأخير ، المعنى : لكل كتاب أجل ؛ قاله الفراء والضّحاك ؛ أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت ، ووقت معلوم ؛ نظيره .

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ [الأنعام : 67] ؛ بيّن أن المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب ، بل لكل أجل كتاب .

وقيل : المعنى لكل مدة كتاب مكتوب ، وأمر مقدّر لا تقف عليه الملائكة .

وذكر الترمذيّ الحكيم في "نوادر الأصول" عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال : لما ارتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طور سيناء رأى الجَبَّارُ في إصبعه خاتماً ، فقال : يا موسى ما هذا ؟ وهو أعلم به ، قال : شيء من حُليّ الرجال ، قال : فهل عليه شيء من أسمائي مكتوب أو كلامي ؟ قال : لا ، قال : فاكتب عليه "لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ" .

قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾

أي يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به .

"وَيُثْبِتُ" ما يشاء ؛ أي يؤخره إلى وقته ؛ يقال : محوت الكتاب محواً ، أي أذهبت أثره .

"وَيُثْبِتُ" أي ويثبته ؛ كقوله : ﴿ والذاكرين الله كَثِيراً والذاكرات ﴾ [الأحزاب : 35] أي والذاكرات الله .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم "وَيُثْبِتُ" بالتخفيف ، وشَدّد الباقون ؛ وهي قراءة ابن عباس ، واختيار أبي حاتم وأبي عبيد لكثرة من قرأ بها ؛ لقوله : ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمَنُواْ ﴾ [إبراهيم : 27] .

وقال ابن عمر : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا

السعادة والشقاوة والموت " وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء ؛ الخَلق والخُلُق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة ؛ وعنه : هما كتابان سوى أمّ الكتاب ، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت .

﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ الذي لا يتغيّر منه شيء .

قال القُشَيْريّ : وقيل السعادة والشقاوة والخَلق والخُلُق والرزق لا تتغير ؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء ؛ وفي هذا القول نوع تحكّم .

قلت : مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد ، وإنما يؤخذ توقيفاً ، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده ، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء ، وهو الأظهر والله أعلم ؛ وهذا يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن مسعود وأبي وائل وكعب الأحبار وغيرهم ، وهو قول الكَلْبِيّ .

وعن أبي عثمان النَّهْدِيّ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول : اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها ، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم

الكتاب.

وقال ابن مسعود: اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء واكتبني في السعداء؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت؛ وعندك أمّ الكتاب.

وكان أبو وائل يكثر أن يدعو: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامح واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب.

وقال كعب لعمر بن الخطاب: لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. "يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ".

وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لها: اللهم إن كان في بطنها جارية فأبدِلها غلاماً فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب.

وقد تقدّم في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " من سرّه أن يُبسَط له في رزقه ويُنسَأ له في أثَرِه فلْيَصِلْ رَحِمَه"

ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ أَحَبَّ" فذكره بلفظه سواء؛ وفيه تأويلان: أحدهما: معنوي، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكأنه لم يمت.

والآخر: يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ؛ والذي في علم الله ثابت لا تبدّل له، كما قال: "يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ".

وقيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أحبّ أن يمد الله في عمره وأجله ويبسط له في رزقه فليتق الله وَلْيَصِلْ رَحِمَه" كيف يزاد في العمر والأجل؟ فقال: قال الله عز وجل: ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ﴾ [الأنعام: 2].

فالأجل الأوّل أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثاني يعني المسمى عنده من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البَرْزَخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحِمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البَرْزَخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أَجَل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البَرْزَخ؛ فإذا تحتم الأَجل في علمه السابق امتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس: 61] فتوافق الخبر والآية؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأَجَل على ظاهر اللفظ، في اختيار حبر الأمة، والله أعلم.

وقال مجاهد: يُحكم الله أمر السَّنَة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه.

وقال الضّحاك : يمحو الله ما يشاء من ديوان الحَفَظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب ؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس .

وقال الْكَلْبي : يمحو من الرزق ويزيد فيه ، ويمحو من الأجل ويزيد فيه ، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم سئل الكَلْبي عن هذه الآية فقال : يكتب القول كله ، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ، مثل قولك : أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه ، وهو صادق ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب .

وقال قَتَادة وابن زيد وسعيد بن جُبَيْر : يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله ، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أمّ الكتاب ؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدويّ عن ابن عباس ؛ قال النحاس : وحدّثنا بكر بن سهل ، قال حدّثنا أبو صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، "يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ" يقول : يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه ، "ويثبت" ما يشاء فلا يبدله ، "وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ" يقول : جملة ذلك عنده في أمّ الكتاب ، الناسخ والمنسوخ .

وقال سعيد بن جُبَير أيضاً : يغفر ما يشاء يعني من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفره .

وقال عِكرمة : يمحو ما يشاء يعني بالتوبة جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات (قال تعالى) : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ [مريم : 25] الآية .

وقال الحسن : "يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ" من جاء أجله ، "وَيُثْبِتُ" من لم يأت أجله .

وقال الحسن : يمحو الآباء ، ويثبت الأبناء .

وعنه أيضاً : يُنْسى الحفظة من الذنوب ولا يُنْسَى .

وقال السدّي : "يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ" يعني : القمر ، "وَيُثْبِتُ" يعني : الشمس ؛ بيانه قوله : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليل وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : 12] وقال الربيع بن أنس : هذا في الأرواح حالة النوم ، يقبضها عند النوم ، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه ، ومن أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه ؛ بيانه قوله : ﴿ الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] الآية .

وقال عليّ بن أبي طالب يمحو الله ما يشاء من القرون ، كقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون ﴾ [ياس : 31] ويثبت ما يشاء منها ، كقوله : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً

آخَرِينَ ﴾ [المؤمنون : 31] فيمحو قَرْناً ، ويثبت قرناً .

وقيل : هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله ، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله ؛ فهو الذي يمحو ، والذي يثبت : الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من ديوان السيئات ، ويثبته في ديوان الحسنات ؛ ذكره الثعلبيّ والماورديّ عن ابن عباس .

وقيل : يمحو الله ما يشاء يعني الدنيا ويثبت الآخرة .

وقال قيس بن عُبَاد في اليوم العاشر من رجب : هو اليوم الذي يمحو الله فيه ما يشاء ، ويثبت فيه ما يشاء ؛ وقد تقدّم عن مجاهد أن ذلك يكون في رمضان .

وقال ابن عباس : إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام ، من درّة بيضاء ، لها دَفّتان من ياقوتة حمراء للَّهِ فيه كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة ، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء .

وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله سبحانه يفتح الذكر في ثلاث ساعات يَبقين من الليل فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء " .

والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله ؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء ، وقد تقدّم أن من القضاء ما يكون واقعاً محتوماً ، وهو الثابت ؛ ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب ، وهو المحوّ ، والله أعلم .

الغزنويّ : وعندي أن ما في اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة ؛ فيحتمل التبديل ؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال ؛ وما في علمه من تقدير الأشياء لا يبدّل .

﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ أي أصل ما كتب من الآجال وغيرها .

وقيل : أمّ الكتاب اللوح المحفوظ الذي لا يبدّل ولا يغير .

وقد قيل : إنه يجري فيه التبديل .

وقيل : إنما يجري في الجرائد الأخر .

وسئل ابن عباس عن أمّ الكتاب فقال : عِلْم الله ما هو خالق .

وما خلْقُه عاملون ؛ فقال لعلمه : كن كتاباً ، ولا تبديل في علم الله ، وعنه أنه الذّكْر ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر ﴾ [الأنبياء : 105] وهذا يرجع معناه إلى الأوّل ؛ وهو معنى قول كعب .

قال كعب الأحبار : أمّ الكتاب عِلم الله تعالى بما خَلَق وبما هو خالق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ﴾

روي أن اليهود ، وقيل المشركين ، قالوا : إن هذا الرجل يعنون النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ليس له همة إلا في النساء فعابوا عليه ذلك وقالوا لو كان كما يزعم أنه رسول الله لكان مشتغلاً بالزهد وترك الدنيا فأجاب الله عن هذه الشبهة ، وعما عابوه به بقوله ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ﴾ يا محمد ﴿ وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ فإنه قد كان لسليمان ثلثمائة امرأة حرة وسبعمائة امرأة سرية فلم يقدح ذلك في نبوته وكان لأبيه داود مائة امرأة فلم يقدح ذلك أيضاً في نبوته فكيف يعيبون عليك ذلك ، ويجعلونه قادحاً في نبوتك والمعنى : ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك يأكلون ويشربون وينكحون ، وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ هذا جواب لعبد الله بن أبي أمية ، وغيره من المشركين الذي سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، الآيات واقترحوا عليه أن يريهم المعجزات ، وتقدير هذا الجواب أن المعجزة الواحدة كافية في إثبات النبوة وقد أتاهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمعجزات كثيرة يعجز عن مثلها البشر ، فما لهم أن يقترحوا عليه شيئاً ، وإتيان الرسول بمعجزات ليس إليه بل هو مفوض إلى مشيئة الله فإن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها ﴿ لكل أجل

كتاب ﴾ وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم فلما استبطئوا ذلك، وقد كانوا يستعجلون نزوله أخبر الله أن لكل قضاء قضاه كتاباً قد كتبه فيه ووقتاً يقع فيه لا يتقدم ولا يتأخر.

(240/413)

والمعنى: أن لكل أجل أجله الله كتاباً قد أثبته فيه، وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره لكل كتاب أجل ومدة والمعنى أن الكتب المنزلة لكل كتاب منها وقت ينزل فيه ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ وذلك أنهم لما اعترضوا على رسول الله فقالوا: إن محمداً يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمرهم بخلافه غداً، وما سبب ذلك إلا أنه يقوله من تلقاء نفسه، أجاب الله عن هذا الاعتراض بقوله ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾.

(241/413)

قال سعيد بن جبير وقتادة: يمحو الله ما شاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدله، وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت

إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة ، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن حذيفة بن أسيد قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصورهما وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء فيكتب الملك ، ثم يقول يا رب أجله فيقول : ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول : الملك يا رب رزقه فيقول : ما يشاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك الصحيفة ، فلا يزيد على أمر ولا ينقص " أخرجه مسلم (ق) عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ، قال حدثنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : وهو الصادق والمصدوق " إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه نطفة أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح ، فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " فإن قلت : هذا الحديث والذي قبله صريح بأن الآجال والأرزاق مقدرة ، وكذا السعادة والشقاوة لا تتغير عما قدره الله وعلمه في الأزل فيستحيل زيادتها ونقصانها ، وكذلك يستحيل أن ينقلب السعيد شقيا أو الشقي سعيداً ، وقد صح في فضل صلة الرحم أن صلة الرحم تزيد في العمر فكيف الجمع بين هذه

الأحاديث ، وبين قوله تعالى : يمحو الله ما يشاء ويثبت ؟ .

قلت : قد تكرر بالدلائل القطعية أن الله عالم الآجال والأرزاق وغيرها .

(242/413)

وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه فإذا علم الله أن زيداً يموت في وقت معين استحال أن يموت قبله أو بعده وهو قوله تعالى ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ فدل ذلك على أن الآجال لا تزيد ولا تنقص .

وأجاب العلماء عما ورد في الحديث في فضل صلة الرحم من أنها تزيد في العمر بأجوبة الصحيح منها : أن هذه الزيادة تكون بالبركة في عمره بالتوفيق للطاعات ، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة ، وصيانتها عن الضياع وغير ذلك .

والجواب الثاني : منه أنها بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة في اللوح المحفوظ أن عمر زيد مثلاً ستون سنة ، إلا أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له أربعون سنة ، وقد علم الله في الأزل ما سيقع من ذلك ، وهو معنى قوله تعالى : يمحو الله ما يشاء ويثبت أي بالنسبة لما يظهر للمخلوقين من تصوير الزيادة .

وأما انقلاب الشقي سعيداً أو السعيد شقياً فيتصور في الظاهر أيضاً لأن الكافر قد يسلم

فينقلب من الشقاوة إلى السعادة ، وكذا العاصي ونحوه وقد يتوب فينقلب من الشقاوة إلى السعادة وقد يرتد المسلم ، والعياذ بالله تعالى ، فيموت على ردته فينقلب من السعادة إلى الشقاوة ، والأصل في هذا الاعتبار بالخاتمة عند الموت وما يختم الله به له وهو المراد من علم الله الأزلي الذي لا يتغير ولا يتبدل .

والله أعلم .

وأصل المحو : إذهاب أثر الكتابة وضده الإثبات فمن العلماء من حمل الآية على ظاهرها فجعلها عامة في كل شيء يقتضيه ظاهر اللفظ ، فيزيد الله ما يشاء في الرزق والأجل .

وكذا القول في السعادة والشقاوة والإيمان بالله والكفر .

ونقل نحو هذا عن عمر وابن مسعود فإنهما قالا : يمحو السعادة والشقاوة ويمحو الرزق والأجل ويثبت ما يشاء .

وروي عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول : اللهم إن كنت كتبتني من أهل السعادة والمغفرة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب وروي مثله عن ابن مسعود وقد ورد في بعض الآثار " أن الرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمد إلى

ثلاثين سنة " هكذا ذكر البغوي بغير سند .

وروي بسنده عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه سلم " ينزل الله تبارك وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر في الساعة الأولى منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره ، فيمحو ما يشاء ويثبت " ومن العلماء من حمل معنى الآية على الخصوص في بعض الأشياء دون بعض فقال : المراد بالمحو والإثبات نسخ الحكم المتقدم وإثبات حكم آخر عوضاً عن الحكم المتقدم ، وقيل : إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ، ولا عقاب مثل قول القائل أكلت ، شربت ، دخلت ، خرجت ، ونحو ذلك من الكلام ، وهو صادق فيه ويثبت ما فيه ثواب وعقاب .

وهذا قول الضحاك .

وقال الكلبي : يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب .

وقال ابن عباس : هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله فهو الذي يمحو والذي يثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يموت ، وهو في طاعته فهو الذي يثبت ، وقال الحسن : يمحو الله ما يشاء يعني من جاء أجله فيذهبه ويثبت من لم يجىء أجله وقال سعيد بن جبير يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت ما يشاء منها

فلا يغفرها .

وقال عكرمة : يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات .

وقال السدي : يمحو الله ما يشاء يعني القمر ويثبت الشمس .

وقال الربيع : هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه وأمسكه ، ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه ، وقيل : إن الله يثبت في أول كل سنة حكمها فإذا مضت السنة محاه وأثبت حكماً آخر للسنة المستقبلة وقيل : يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة .

وقيل : هو في المحن والمصائب فهي مثبتة في الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة .

وقيل : إن الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء لا اعتراض لأحد عليه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

فان قلت مذهب أهل السنة أن المقادير سابقة وقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فكيف يستقيم مع هذا المحو والإثبات .

قلت : المحو والإثبات مما جف به القلم وسبق به القدر فلا يمحو شيئاً ولا يثبت شيئاً إلا ما سبق به علمه في الأزل وعليه يترتب القضاء والقدر .

مسألة : استدلت الرافضة على مذهبهم في البداء بهذه الآية : قالوا : إن البداء جائز على الله وهو أن يعتقد شيئاً ثم يظهر له خلاف ما اعتقده وتمسكوا بقوله ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ والجواب عن هذه المسألة أن هذا مذهب باطل ظاهر الفساد لأن علم الله قديم أزلي ، وهو من لوازم ذاته المخصوصة ، وما كان كذلك كان دخول التغيير والتبديل فيه محالاً كذا ذكره الإمام فخر الدين الرازي في تفسير هذه الآية .

(245/413)

وقوله تعالى ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ يعني أصل الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل ، وسمي اللوح المحفوظ أم الكتاب لأن جميع الأشياء مثبتة فيه ومنه تنسخ الكتب المنزلة ، وقيل : إن العلوم كلها تنسب إليه وتتولد منه ، قال ابن عباس : هما كتابان كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت ما يشاء وأم الكتاب الذي لا يغير شيء منها وروى عطية عن ابن عباس قال : إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة ، لله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، وسأل ابن عباس كعباً عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه وما هم عاملون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾

المحو الإزالة محوت الخط أذهبت أثره ومحا المطر رسم الدار أذهبه وأزاله ويقال في مضارعه يمحو ويمحي لأن عينه حرف حلق والإثبات ضد محو .

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب .

يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ .

قال الكلبي : عيرت اليهود الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء ، فنزلت هذه الآية .

قيل : وكانوا يقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ ، فرد الله تعالى عليهم بأنّ الرسل قبله كانوا مثله ذوي أزواج وذرية ، وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم ، ولا يأتون بما يقترح عليهم . ومن الشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات ، فلكل وقت حكم يكتب فيه على العباد أي : يفرض عليهم ما يريده تعالى .

وقوله : لكل أجل كتاب ، لفظ عام في الأشياء التي لها آجال ، لأنه ليس منها شيء إلا وله أجل في بدئه وفي خاتمته ، وذلك الأجل مكتوب محصور .

وقال الضحاك والفراء : المعنى لكل كتاب أجل ، ولا يجوز ادعاء القلب إلا في ضرورة الشعر وأما هنا فالمعنى في غاية الصحة بلا عكس ولا قلب بل ادعاء القلب هنا لا يصح المعنى عليه ، إذ ثم أشياء كتبها الله تعالى أزلية كالجنة ونعيم أهلها ، لا أجل لها .

والظاهر أنّ المحو عبارة عن النسخ من الشرائع والأحكام ، والإثبات عبارة عن دوامها وتقررها وبقائها أي : يمحو ما يشاء محوه ، ويثبت ما يشاء إثباته .

وقيل : هذا عام في الرزق والأجل والسعادة والشقاوة ، ونسب هذا إلى : عمر ، وابن مسعود ، وأبي وائل ، والضحاك ، وابن جريج ، وكعب الأحبار ، والكلبي .

(247/413)

وروي عن عمر ، وابن مسعود ، وأبي وائل في دعائهم ما معناه إنْ كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم ، أو في الأشقياء فامحني منهم .

وإنْ صح عنهم فينبغي أن يتأول على أن المعنى : إنْ كنت أشقيتنا بالمعصية فامحها عنا بالمغفرة .

ومعلوم أنّ الشقاء والسعادة والرزق والخلق والأجل لا يتغير شيء منها .

وقال ابن عباس : يمحوا الله ما يشاء من أمور عباده إلا السعادة والشقاوة والآجال ، فإنه لا محو فيها .

وقال الحسن وفرقة : هي آجال بني آدم تكتب في ليلة القدر .

وقيل : في ليلة نصف شعبان آجال الموتى ، فتمحى ناس من ديوان الأحياء ويثبتون في ديوان الأموات .

وقال قيس بن عباد : في العاشر من رجب يمحو الله ما يشاء ويثبت .

وقال ابن عباس : والضحاك : يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة ، لأنهم مأمورون بكتب كل قول وفعل ، ويثبت غيره .

وقيل : يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة ، ويثبت إيمانهم وطاعتهم .

وقيل : يمحو بعض الخلائق ويثبت بعضاً من الأناسي ، وسائر الحيوان والنبات والأشجار وصفاتها وأحوالها .

وقال الزمخشري : يمحو الله ما يشاء ، ينسخ ما يستصوب نسخه ، ويثبت به له ما يرى المصلحة في إثباته ، أو يتركه غير منسوخ ، والكلام في نحو هذا واسع المجال انتهى .

وهو وقول : قتادة ، وابن جبير ، وابن زيد قالوا : يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه .

وقال مجاهد : يحكم الله أمر السنة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة .

وقال الكلبي : يمحو من الرزق ويزيد فيه .

وقال ابن جبير أيضاً : يغفر ما يشاء من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفر .

وقال عكرمة : يمحو يعني بالتوبة جميع الذنوب ، ويثبت بدل الذنوب حسنات .

قال تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات ﴾ وقيل : ينسى الحفظة من الذنوب ولا ينسى .

(248/413)

وقال الحسن : يمحو الله ما يشاء أجله ، ويثبت من يأتي أجله .

وقال السدي : يمحو الله يعني القمر ، ويثبت يعني الشمس بيانه ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ الآية .

وقال ابن عباس : إنّ لله لوحاً محفوظاً وذكر وصفه في كتاب التحبير ، ثم قال : لله تعالى فيه في كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة ، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء .

وقال الربيع : هذا في الأرواح حالة النوم يقبضها عند النوم إذا أراد موته فجأة أمسكه ، ومن

أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه ، بيانه قوله تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ الآية .

وقال علي بن أبي طالب : يمحو الله ما يشاء من القرون لقوله : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ ويثبت ما يشاء منها لقوله تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ فيمحو قرناً ويثبت قرناً .

وقال ابن عباس : يمحو يميت الرجل على ضلالة وقد عمل بالطاعة الزمن الطويل ، يختمه بالمعصية ويثبت عكسه .

وقيل : يمحو الدنيا ويثبت الآخرة .

وفي الحديث عن أبي الدرداء : " أنه تعالى يفتح الذكر في ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر ما في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء " وقال الغزنوي : ما في اللوح المحفوظ خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة ، فيحتمل التبديل وإحاطة الخلق بجميع علم الله تعالى ، وما في علمه تعالى من تقدير الأشياء لا يبدل انتهى .

وقيل : غير ذلك مما يطول نقله .

وقد استدلت الرافضة بقوله : يمحو الله ما يشاء ويثبت ، على أنّ البدء جائز على الله تعالى ، وهو أنْ يعتقد شيئاً ثم يظهر له أنّ الأمر خلاف ما اعتقده ، وهذا باطل لأنّ علمه تعالى من لوازم ذاته المخصوصة ، وما كان كذلك كان دخول التغيير والتبديل فيه محالاً .

وأما الآية فقد احتملت تلك التأويلات المتقدمة ، فليست نصاً فيما ادعوه ، ولو كانت نصاً وجب تأويله .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم : ويثبت مخففاً من أثبت ، وباقي السبعة مثقلاً من ثبت .

وأما قوله : أم الكتاب فقال ابن عباس : أم الكتاب الذكر ، وقال أيضاً وهو كعب هو علم ما هو خالق وما خلقه عاملون .

وقالت فرقة : الحلال والحرام ، وهو قول الحسن .

وقال الزمخشري : أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ ، لأنّ كل كائن مكتوب فيه انتهى .

وما جرى مجرى الأصل للشيء تسميه العرب ، أمّا كقولهم : أم الرأس للدماغ ، وأم القرى مكة .

وقال ابن عطية : وأصوب ما يفسر به أم الكتاب أنه ديوان الأمور المحدثة التي قد سبق في القضاء أن تبدل وتمحى ، أو تثبت .

وقال نحوه قتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا ﴾

كثيرةً كائنة ﴿ مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ نساء وأولاداً كما جعلناها لك وهو رد لما كانوا يَعيبونه صلى الله عليه وسلم بالزواج والولاد ، كما كانوا يقولون : ما لهذا الرسولِ يأكل الطعام ؟ الخ ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ منهم أي ما صح وما استقام ولم يكن في وسعه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا ﴾ مما اقترح عليه وحكمٍ مما التُمس منه ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ومشيئته المبنية على الحِكم والمصالحِ التي عليها يدور أمرُ الكائنات لا سيما مثلُ هذه الأمورِ العظام ، والالتفاتُ لما قدمناه ولتحقيق مضمون الجملةِ بالإيماء إلى العلة ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ ﴾ أي لكل مدةٍ ووقت من المُدد والأوقات ﴿ كِتَابٌ ﴾ حكمٌ معينٌ يُكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمة فإن الشرائعَ كلها لإصلاح أحوالِهم في المبدأ والمعاد ومن قضية ذلك أنه يختلف حسب اختلافِ أحوالِهم المتغيّرة حسب تغيّرِ الأوقات كاختلاف العِلاج حسب اختلافِ أحوالِ المرضى بحسب الأوقات .

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾

(251/413)

أي ينسخ ما يشاء نسخَه من الأحكام لما تقتضيه الحكمةُ بحسب الوقت ﴿ وَيُثَبِّتُ ﴾ بدلَه ما فيه المصلحةُ أو يبقيه على حاله غيرَ منسوخ أو يثبتُ ما شاء إثباتَه مطلقاً أعمَّ منهما ومن الإنشاء ابتداءً ، أو يمحو من ديوان الحَفَظةِ الذين ديدنُهم كَتْبُ كلِّ قولٍ وعملٍ ما لا يتعلق به الجزاءُ ويثبت الباقيَ ، أو يمحو سيئاتِ التائب ويثبت مكانها الحسنةَ أو يمحو قَرْناً ويثبت آخرين أو يمحو الفاسداتِ من العالم الجُسماني ويثبت الكائناتِ ، أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة ، وبه قال ابن مسعود وابنُ عمر رضى الله عنهم والقائلون به يتضرعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداءَ وهذا رواه جابر عن النبي عليه الصلاة والسلام ، والأنسبُ تعميمُ كل من المحو والإثبات ليشمل الكل ، ويدخلُ في ذلك موادُّ الإنكار دخولاً أولياً وقرىء بالتشديد ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ أي أصلُه وهو اللوحُ المحفوظُ إذ ما من شيء من الذاهب والثابت إلا وهو مكتوبٌ فيه كما هو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(252/413)

وقال الآلوسي :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا ﴾

كثيرة كائنة ﴿ مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أي نساء وأولاداً كما جعلنا ها لك ، روي عن الكلبي أن اليهود عيرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء فنزلت رداً عليهم حيث تضمنت أن التزوج لا ينافي النبوة وأن الجمع بينهما قد وقع في رسل كثيرة قبله . ذكر أنه كان لسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة مهرية وسبعمائة سرية وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ، ولم يتعرض جل شأنه لرد قولهم : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء للإشارة إلى أنه لا يستحق جواباً لظهور أنه عليه الصلاة والسلام لم يشغله أمر النساء عن شيء ما من أمر النبوة ، وفي أدائه صلى الله عليه وسلم للأمرين على أكمل وجه دليل وأي دليل على مزيد كماله ملكية وبشرية .

ومما يوضح ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان يجوع الأيام حتى يشد على بطنه الشريف الحجر ومع ذا يطوف على جميع نسائه في الليلة الواحدة ولا يمنعه ذاك عن هذا .

وفي تكثير نسائه عليه الصلاة والسلام فوائد جمة ، ولو لم يكن فيه سوى الوقوف على استواء سره وعلنه لكفى ، وذلك لأن النساء من شأنهم أن لا يحفظن سراً كيفما كان فلو كان منه

عليه الصلاة والسلام في السر ما يخالف العلن لوقفن عليه مع كثرتهن ولو كن قد وقفن لأفشوه عملا بمقتضى طباع النساء لا سيما الضرائر .

(253/413)

ومن وقف على الآثار وأحاط خبراً بما روى عن هاتيك النساء الطاهرات علم أنهن لم يتركن شيئاً من أحواله الخفية إلا ذكروه ، وناهيك ما روى أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم اختلفوا في الإيلاج بدون إنزال هل يوجب الغسل أم لا ؟ فسألوا عائشة رضي الله تعالى عنها فقالت ولا حياء في الدين : فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاغتسلنا جميعاً ؛ وروي أنهم طعنوا في نبوته بالتزوج وبعدم الإتيان بما يقترحونه من الآيات فنزل ذلك وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي وما صح وما استقام ولم يكن في وسع رسول الله من الرسل الذين من قبل أن يأتي من أرسل إليهم بآية ومعجزة يقترحونها عليه إلا بتيسير الله تعالى ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح التي يدور عليها أمر الكائنات ، وقد يراد بالآية الآية الكتابية النازلة بالحكم على وفق مراد المرسل إليهم وهو أوفق بما بعد ، وجوز إرادة الأمرين باعتبار عموم المجاز أي الدال مطلقاً أو على استعمال اللفظ في معنييه بناء على جوازه ، والالتفات لما تقدم ولتحقيق مضمون الجملة

بالإيمان إلى العلة .

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ ﴾ أي لكل وقت ومدة من الأوقات والمدد ﴿ كِتَابٌ ﴾ حكم معين يكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمة ، فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوالهم في المبدأ والمعاد ، ومن قضية ذلك أن تختلف حسب أحوالهم المتغيرة حسب تغير الأوقات كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب الأوقات ، وهذا عند بعض رد لما أنكروه عليه عليه الصلاة والسلام من نسخ بعض الأحكام كما أن ما قبله رد لطعنهم بعدم الإتيان بالمعجزات المقترحة .

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾

أي ينسخ ما يشاء نسخه من الأحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ بدله ما فيه الحكمة أو يبقيه على حاله غير منسوخ أو يثبت ما يشاء إثباته مطلقاً أعم منهما ومن الإنشاء ابتداء ، وقال عكرمة : يمحو بالتوبة جميع الذنوب ويثبت بدل ذلك حسنات كما قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالحا فَأُوْلَئِكَ يُبَدّلُ اللَّهُ سَيّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ [الفرقان : 70] وقال ابن جبير : يغفر ما يشاء من ذنوب عباده ويترك ما

يشاء فلا يغفره ، وقال : يمحو ما يشاء ممن حان أجله ويثبت ما يشاء ممن لم يأت أجله ، وقال علي كرم الله تعالى وجهه : يمحو ما يشاء من القرون لقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون ﴾ [يس : 31] ويثبت ما يشاء منها لقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً ءاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون : 42] وقال الربيع : هذا في الأرواح حالة النوم يقبضها الله تعالى إليه فمن أراد موته فجأة أمسك روحه فلم يرسلها ومن أراد بقاءه أرسل روحه ، بيانه قوله تعالى : ﴿ الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] الآية ، وعن ابن عباس .

والضحاك يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا بسيئة لأنهم مأمورون بكتب كل قول وفعل ويثبت ما هو حسنة أو سيئة ، وقيل : يمحو بعض الخلائق ويثبت بعضاً من الأناسى وسائر الحيوانات والنباتات والأشجار وصفاتها وأحوالها ، وقيل : يمحو الدنيا ويثبت الآخرة ، وقال الحسن .

وفرقة : ذلك في آجال بني آدم يكتب سبحانه في ليلة القدر ، وقيل : في ليلة النصف من شعبان آجال الموتى فيمحو أناساً من ديوان الأحياء ويثبتهم في ديوان الأموات ، وقال

السدي: يمحو القمر ويثبت الشمس بيانه قوله تعالى: ﴿ فَمَحَوْنَا ءايَةَ الليل وَجَعَلْنَا ءايَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: 12] وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يمحو الله تعالى ما يشاء من أمور عباده ويثبت إلا السعادة والشقاوة والآجال فإنها لا محو فيها، ورواه عنه مرفوعاً ابن مردويه، وقيل: هو عام في الرزق والأجل والسعادة والشقاوة ونسب إلى جماعة من الصحابة والتابعين وكانوا يتضرعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداء، فقد أخرج ابن أبي شيبة في "المصنف".

وغيره عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: ما دعا عبد قط بهذه الدعوات إلا وسع عليه في معيشته يا ذا المن ولا يمن عليه يا ذا الجلال والإكرام يا ذا الطول لا إله إلا أنت ظهر اللاجئين وجار المستجيرين ومأمن الخائفين إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً فامح عني اسم الشقاوة وأثبتني عندك سعيداً وإن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محروماً مقتراً على رزقي فامح حرماني ويسر رزقي وأثبتني عندك سعيداً موفقاً للخير فإنك تقول في كتابك الذي أنزلت ﴿ يَمْحُو الله مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾.

وأخرج عبد بن حميد.

وغيره عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال: وهو يطوف بالبيت: اللهم إن كنت كتبت عليّ شقوة أو ذنباً فامحه واجعله سعادة ومغفرة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب.

وأخرج ابن جرير عن شقيق أبي وائل أنه كان يكثر الدعاء بهذه الدعوات اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحنا واكتبنا سعداء وإن كنت كتبتنا سعداء فاثبتنا فإنك تمحو ما تشاء وتثبت .

واخرج ابن سعد .

(256/413)

وغيره عن الكلبي أنه قال : يمحو الله تعالى من الرزق ويزيد فيه ويمحو من الأجل ويزيد فيه فقيل له : من حدثك بهذا ؟ فقال : أبو صالح عن جابر بن عبد الله بن رئاب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(257/413)

وأبو حيان يقول : إن صح شيء من ذلك ينبغي تأويله فمن المعلوم أن السعادة والشقاوة والرزق والأجل لا يتغير شيء منها ، وإلى التعميم ذهب شيخ الإسلام قال بعد نقل كثير من الأقوال : والأنسب تعميم كل من المحو والإثبات ليشمل الكل ويدخل في ذلك مواد الإنكار

دخولاً أولياً ؛ وما أخرجه ابن جرير عن كعب من أنه قال لعمر رضي الله تعالى عنه : يا أمير المؤمنين لولا آية في كتاب الله تعالى لأنبئنك بما هو كائن إلى يوم القيامة قال : وما هي ؟ قال قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ الآية يشعر بذلك ، وأنت تعلم أن المحو والإثبات إذا كانا بالنسبة إلى ما في أيدي الملائكة ونحوه فلا فرق بين السعادة والشقاوة والرزق والأجل وبين غيرها في أن كلاً يقبل المحو والإثبات ، وإن كانا بالنسبة إلى ما في العلم فلا فرق أيضاً بين تلك الأمور وبين غيرها في أن كلاً لا يقبل ذلك لأن العلم إنما تعلق بها على ما هي عليه في نفس الأمر وإلا لكان جهلاً وما في نفس الأمر مما لا يتصور فيه التغير والتبدل ، وكيف يتصور تغير زوجية الأربعة مثلاً وانقلابها إلى الفردية مع بقاء الأربعة أربعة هذا مما لا يكون أصلاً ولا أظنك في مرية من ذلك ، ولا يأبى هذا عموم الأدلة الدالة على أنه ما شاء الله تعالى كان لأن المشيئة تابعة للعلم والعلم بالشيء تابع لما عليه الشيء في نفس الأمر فهو سبحانه لا يشاء إلا ما عليه الشيء في نفس الأمر ، قيل : ويشير إلى أن ما في العلم لا يتغير قوله سبحانه : ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ ﴾ بناءً على أن ﴿ أُمّ الكتاب ﴾ هو العلم لأن جميع ما يكتب في صحف الملائكة وغيرها لا يقع حيثما يقع إلا موافقاً لما ثبت فيه فهو أم لذلك أي أصل له فكأنه قيل : يمحو ما يشاء محوه ويثبت ما يشاء إثباته مما سطر في الكتب وثابت عنده العلم الأزلي الذي لا يكون شيء إلى على وفق ما فيه ، وتفسير ﴿ أُمّ الكتاب ﴾ بعلم الله تعالى مما رواه عبد الرزاق .

وابن جرير عن كعب رضي الله تعالى عنه ، والمشهور أنها اللوح المحفوظ قالوا : وهو أصل الكتب إذ ما من شيء من الذاهب والثابت إلا وهو مكتوب فيه كما هو .

والظاهر أن المراد الذاهب والثابت مما يتعلق بالدنيا لا مما يتعلق بها وبالآخرة أيضاً لقيام الدليل العقلي على تناهي الإبعاد مطلقاً والنقلي على تناهي اللوح بخصوصه ، فقد جاء أنه من درة بيضاء له دفتان من ياقوت طوله مسيرة خمسمائة عام وامتناع ظرفية المتناهي لغير المتناهي ضروري ، ولعل من يقول بعموم الذاهب والثابت يلتزم القول بالإجمال حيث يتعذر التفصيل .

وقد ذهب بعضهم إلى تفسير ﴿ أُمُّ الكتاب ﴾ بما هو المشهور ، والتزم القول بأن ما فيه لا يتغير وإنما التغير لما في الكتب غيره ، وهذا قائل بعدم تغير ما في العلم لما علمت .

ورأيت في نسخة لبعض الأفاضل كانت عندي وفقدت في حادثة بغداد ألفت في هذه المسألة وفيها أنه ما من شيء إلا ويمكن تغييره وتبديله حتى القضاء الأزلي واستدل لذلك بأمور .

منها أنه قد صح من دعائه صلى الله عليه وسلم في القنوت : "وقني شر ما قضيت" وفيه

طلب الحفظ من شر القضاء الأزلي ولو لم يمكن تغييره ما صح طلب الحفظ منه .

ومنها ما صح في حديث التراويح من عذره صلى الله عليه وسلم عن الخروج إليها ، وقد اجتمع الناس ينتظرونه لمزيد رغبتهم فيها بقوله : " خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها " فإنه لا معنى لهذه الخشية لو كان القضاء الأزلي لا يقبل التغيير ، فإنه إن كان قد سبق القضاء بأنها ستفرض فلا بد أن تفرض وإن سبق القضاء بأنها لا تفرض فمحال أن تفرض على ذلك الفرض ، على أنه قد جاء في حديث فرض الصلاة ليلة المعراج بعد ما هو ظاهر في سبق القضاء بأنها خمس صلوات مفروضة لا غير فما معنى الخشية بعد العلم بذلك لولا العلم بإمكان التغيير والتبديل .

ومنها ما صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يضطرب حاله الشريف ليلة الهواء الشديد حتى أنه لا ينام وكان يقول في ذلك : " أخشى أن تقوم الساعة " فإنه لا معنى لهذه الخشية أيضاً مع إخبار الله تعالى أن بين يديها ما لم يوجود إذ ذاك كظهور المهدي وخروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج ودابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك مما يستدعي تحققه زماناً طويلاً فلو لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أن

القضاء يمكن تغييره وإن ما قضى من أشراطها يمكن تبديله ما خشي صلى الله عليه وسلم من ذلك .

ومنها أن المبشرين بالجنة كانوا من أشد الناس خوفاً من النار حتى أن منهم من كان يقول : ليت أمي لم تلدني ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول : لو نادى مناد كل الناس في الجنة إلا واحداً لظننت أني ذلك الواحد ، وهذا مما لا معنى له مع إخبار الصادق وتبشيره له بالجنة والعلم بأن القضاء لا يتغير .

ومنها أنه لولا إمكان التغيير للغا الدعاء إذ المدعو به إما أن يكون قد سبق القضاء بكونه فلا بد أن يكون وإلا فمحال أن يكون ، وطلب ما لا بد أن يكون أو محال أن يكون لغو مع أنه قد ورد الأمر به ، والقول بأنه لمجرد إظهار العبودية والافتقار إلى الله تعالى وكفى بذلك فائدة يأباه ظاهر قوله تعالى : ﴿ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : 60] وأيضاً أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : "لا ينفع الحذر من القدر ولكن الله تعالى يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر ، وأخرج ابن مردويه .

وابن عساكر عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ الآية فقال له عليه الصلاة والسلام : "لأقرن عينك بتفسيرها ولأقرن عين أمتي بعدي بتفسيرها ، الصدقة على وجهها وبر الوالدين واصطناع المعروف محول الشقاء سعادة ويزيد في العمر ويقي مصارع السوء" وهذا لا يكاد يعقل على تقدير أن القضاء لا يتغير ، وفي الأخبار والآثار مما هو ظاهر في إمكان التغير ما لا يحصى كثرة ، ولعل من ذلك الدعاء المار عن ابن مسعود ، ثم إن القضاء المعلق يرجع في المآل إلى القضاء المبرم عند مثبته فلا يفيده التعلق بذلك في دفع ما يرد عليه ، ودفع ما يرد على القول بالتغير من أنه يلزم منه التغير في ذاته تعالى لما أنه ينجر إلى تغير العلم وهو يوجب التغير في ذاته تعالى من صفة إلى أخرى أو يلزم من ذلك الجهل ، وهذا مأخوذ من الشبهة التي ذكرها جمهور الفلاسفة في نفي علم الله تعالى بالجزئيات المتغيرة فإنهم قالوا : إنه تعالى إذا علم مثلاً أن زيداً في الدار الآن ثم خرج عنها فإما أن يزول ذلك العلم ولا يعلم سبحانه أنه في الدار أو يبقى ذلك العلم بحاله ، والأول يوجب التغير في ذاته سبحانه ، والثاني يوجب الجهل وكلاهما نقص يجب تنزيه الله تعالى عنه بما دفعوا به تلك الشبهة ، وهو ما ذكر في المواقف وشرحه من منع لزوم التغير فيه تعالى بل التغير إنما هو في الإضافات لأن العلم عندنا إضافة مخصوصة وتعلق بين العالم والمعلوم ، أو صفة حقيقية ذات إضافة ، فعلى الأول يتغير نفس

العلم ، وعلى الثاني يتغير إضافاته فقط ، وعلى التقديرين لا يلزم تغير في صفة موجودة بل في مفهوم اعتباري وهو جائز .

(261/413)

وأجاب كثير من الأشاعرة والمعتزلة بأن العلم بأن الشيء وجد والعلم بأنه سيوجد واحد فإن من علم أن زيداً سيدخل البلد غداً فعند حصول الغد يعلم بهذا العلم بأنه دخل البلد الآن إذا كان علمه هذا مستمراً بلا غفلة مزيله له ؛ وإنما يحتاج أحدنا إلى علم آخر متجدد يعلم به أنه دخل الآن لطريان الغفلة عن الأول ، والباري تعالي يمتنع عليه الغفلة فكان علمه سبحانه بأنه وجد عين علمه بأنه سيوجد فلا يلزم من تغير المعلوم تغير في العلم ؛ ونهاية كلامه في هذا المقام أنه يجوز أن يتغير ما في علم الله تعالى وإلا لتعين عليه سبحانه الفعل أو الترك وفيه من الحجر عليه جل جلاله ما لا يخفى ، ولا يلزم من ذلك التغير سوى التغير في التعلقات وهو غير ضار ، واعترض بأنه على هذا القول لا يبقى وثوق بشيء من الأخبار الغيبية كالحشر والنشر وكذا لا يبقى وثوق بالأخبار بأنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين لجواز أن يكون الله تعالى قد علم ذلك حين أخبر ثم تعلق علمه بخلافه لكنه سبحانه لم يخبر ولا نقص في الإخبار الأول لأنه إخبار عما كان متعلق العلم إذ ذاك ، وأيضاً يلزم من ذلك نفي

نفس الأمر أو نفي كون تعلق العلم على وفقه وكلا النفيين كما ترى.

بقي الجواب عما تمسك به وهو عن بعض ظاهر وعن بعض يحتاج إلى تأمل فتأمل.

واستدل بالآية بعض الشيعة القائلين بجواز البداء على الله سبحانه وفيه ما فيه هذا.

ويخطر لي في الآية معنى لم أر من ذكره وهو أن يراد بقوله سبحانه: ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ ﴾ ما ذكرناه أولاً قبل حكاية الأقوال وهو مما رواه البيهقي في المدخل.

وغيره عن ابن عباس، وابن جرير عن قتادة ويخصص ذلك بالأحكام الفرعية، ويراد بأم الكتاب الأحكام الأصلية فإنها مما لا تقبل النسخ وهي أصل لكل كتاب باعتبار أن الأحكام الفرعية التي فيه إنما تصح ممن أتى بها لكن لا يساعد على هذا المأثور عن السلف.

نعم هو مناسب للمقام كما لا يخفى، وزعم الضحاك.

(262/413)

والفراء أن في الآية قلباً والأصل لكل كتاب أجل.

وتعقب بأنه لا يجوز ادعاء القلب إلا في ضرورة الشعر على أنه لا داعي إليه هنا بل قد يدعي فساد المعنى عليه؛ وأياً ما كان فأل في الكتاب للجنس فهو شامل للكثير، ولهذا فره

غير واحد بالجمع .

وقرأ نافع .

وابن عامر ﴿ وَيُثَبِّتُ ﴾ بالتشديد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(263/413)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآَبِ (36) ﴾

اختلف المفسرون في تفسير الكتاب المذكور فقيل : هو التوراة والإنجيل ، والذين يفرحون بما أنزل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هم من أسلم من اليهود والنصارى ، وقيل : الذين يفرحون هم أهل الكتابين لكون ذلك موافقاً لما في كتبهم مصدّقاً له ، فعلى الأوّل يكون المراد بقوله : ﴿ وَمِنَ الأحزاب مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ من لم يسلم من اليهود والنصارى ، وعلى الثاني يكون المراد به المشركين من أهل مكة ومن يماثلهم ، أو يكون المراد به البعض من أهل الكتابين أي : من أحزابهما ، فإنهم أنكروه لما يشتمل عليه من كونه ناسخاً لشرائعهم فيتوجه فرح من فرح به منهم إلى ما هو موافق لما في الكتابين ، وإنكار من أنكر منهم إلى ما

خالفهما ، وقيل : المراد بالكتاب القرآن ، والمراد بمن يفرح به المسلمون ، والمراد بالأحزاب المتحزّبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين واليهود والنصارى ، والمراد بالبعض الذي أنكروه من خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقادهم .

(264/413)

واعترض على هذا بأن فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة في ذكره ، وأجيب عنه بأن المراد زيادة الفرح والاستبشار ، وقال كثير من المفسرين : إن عبد الله بن سلام والذين آمنوا معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة ، فأنزل الله ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ [الإسراء : 110] ففرحوا بذلك ، ثم لما بين ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والإنكار للبعض صرّح بما عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يقول لهم ذلك ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أي : لا أشرك به بوجه من الوجوه أي قل لهم : يا محمد إلزاماً للحجة ، وردّاً للإنكار : إنما أمرت فيما أنزل إليّ بعبادة الله وتوحيده ، وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المقتدية بالرسل .

وقد اتفق القرّاء على نصب : ﴿ ولا أشرك به ﴾ عطفاً على ﴿ أعبد ﴾ .

وقرأ أبو خليد بالرفع على الاستئناف ، وروى هذه القراءة عن نافع ﴿ إِلَيْهِ ادعوا ﴾ أي : إلى الله لا إلى غيره أو إلى ما أمرت به ، وهو عبادة الله وحده ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ فإن الضمير لله سبحانه أي : إليه وحده : لا إلى غيره مرجعي .

ثم ذكر بعض فضائل القرآن ، وأوعد على الإعراض عن اتباعه مع التعرّض لردّ ما أنكروه من اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال : ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيّا ﴾ أي : مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا القرآن مشتملاً على أصول الشرائع وفروعها .

(265/413)

وقيل : المعنى : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم ، كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب ، ونريد بالحكم ما فيه من الأحكام ، أو حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ، وانتصاب ﴿ حكماً ﴾ على الحال ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم ﴾ التي يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتك لشيء مما يعتقدونه ﴿ بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم ﴾ الذي علمك الله إياه ﴿ مالك مِنَ الله ﴾ أي : من جنابه ﴿ مِن وَلِيّ ﴾ يلي أمرك وينصرك ﴿ وَلاَ وَاقٍ ﴾ يقيك من عذابه .

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعريض لأمته ، واللام في ﴿ ولئن اتبعت ﴾

هي الموطئة للقسم، و ﴿ مالك ﴾ سادّ مسدّ جواب القسم والشرط.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أي: إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر، لهم أزواج من النساء، ولهم ذرّية توالدوا منهم ومن أزواجهم، ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية.

وفي هذا ردّ على من كان ينكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوّجه بالنساء أي: أن هذا شأن رسل الله المرسلين من قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه؟! ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي: لم يكن لرسول من الرسل أن يأتي بآية من الآيات، ومن جملتها ما اقترحه عليه الكفار إلاّ بإذن الله سبحانه، وفيه ردّ على الكفار حيث اقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات ما اقترحوه بما سبق ذكره.

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي: لكل أمر مما قضاه الله، أو لكل وقت من الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم.

وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، والمعنى : لكل كتاب أجل أي : لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ، ووقت معلوم ، كقوله سبحانه : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ [الأنعام : 67] وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه ويختاره .

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ أي : يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه ، يقال : محوت الكتاب محواً إذا أذهبت أثره .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ﴿ ويثبت ﴾ بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب ، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر ، أو خير أو شرّ ، ويبدل هذا بهذا ، ويجعل هذا مكان هذا ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وأبو وائل ، وقتادة ، والضحاك ، وابن جريج وغيرهم .

وقيل : الآية خاصة بالسعادة والشقاوة .

وقيل : يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة ، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب .

وقيل : يمحو ما يشاء من الرزق ، وقيل يمحو من الأجل .

وقيل : يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه .

وقيل : يمحو ما يشاء من ذنوب عباده ويترك ما يشاء .

وقيل : يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة ، ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة .

وقيل : يمحو الآباء ويثبت الأبناء .

وقيل : يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله : ﴿ فَمَحَوْنَا ءايَةَ الليل وَجَعَلْنَا ءايَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : 12] وقيل : يمحو ما يشاء من الأرواح التي يقبضها حال النوم فيميت صاحبه ويثبت ما يشاء فيردّه إلى صاحبه .

وقيل : يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها .

وقيل : يمحو الدنيا ويثبت الآخرة .

(267/413)

وقيل : غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره ، والأوّل أولى كما تفيده " ما " في قوله ؛ ﴿ ما يشاء ﴾ من العموم مع تقدم ذكر الكتاب في قوله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ومع قوله : ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ أي : أصله ، وهو اللوح المحفوظ ، فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته ، وهذا لا ينافي ما ثبت عنه من قوله صلى الله عليه وسلم : "جفّ القلم" ،

وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه .

وقيل : إن أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ قال : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فرحوا بكتاب الله وبرسله وصدّقوا به ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ يعني : اليهود والنصارى والمجوس .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال : هؤلاء من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب يفرحون بذلك .

﴿ ومنهم من يؤمن به ، ومنهم من لا يؤمن به ﴾ [يونس : 40] .

﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ قال : الأحزاب الأمم اليهود والنصارى والمجوس .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ قال : إليه مصير كل عبد .

وأخرج ابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه من طريق قتادة عن الحسن عن سمرة قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبتل ، وقرأ قتادة : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن سعد بن هشام قال : دخلت على عائشة فقلت : إني أريد أن أتبتل ؟ قالت : لا تفعل ، أما سمعت الله يقول : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ .

وقد ورد في النهي عن التبتل والترغيب في النكاح ما هو معروف .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : قالت قريش حين أنزل : ﴿ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ ما نراك يا محمد تملك من شيء ، ولقد فرغ من الأمر ، فأنزلت هذه الآية تخويفاً لهم ووعيداً لهم ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا شيئاً ، ويحدث الله في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وابن جرير ، وابن نصر ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ قال : ينزل الله في كل شهر رمضان إلى سماء الدنيا ، فيدبر أمر السنة إلى السنة فيمحو ما يشاء ويثبت ، إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة ، فهو الذي يمحو ، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية

الله وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله.

وأخرج ابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أيضاً في الآية قال: هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت، وعنده أم الكتاب، أي: جملة الكتاب.

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درّة بيضاء، له دفتان من ياقوت، والدفتان لوحان: لله كل يوم ثلاث وستون لحظة ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾.

(269/413)

وإسناده عند ابن جرير هكذا: حدّثنا محمد بن شهر بن عسكر، حدّثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس فذكره.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل فيفتح الذكر في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت" الحديث.

وأخرج الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه بإسناد .

قال السيوطي : ضعيف ، عن ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يمحو الله ما يشاء ويثبت إلاّ الشقاوة والسعادة والحياة والممات " وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : "لا ينفع الحذر من القدر ، ولكنّ الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر" .

وأخرج ابن جرير عن قيس بن عباد قال : العاشر من رجب وهو يوم يمحو الله فيه ما يشاء .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عنه نحوه بأطول منه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب ؛ أنه قال وهو يطوف بالبيت : اللهمّ إن كنت كتبت عليّ شقوة أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أمّ الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني عن ابن مسعود نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في المدخل عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ قال : يبدّل الله ما يشاء من القرآن فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدّله ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ يقول : وجملة ذلك عنده في أمّ الكتاب :

الناسخ والمنسوخ ، ما يبدّل ، وما يثبت كل ذلك في كتاب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ قال : الذكر .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله .

(270/413)

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير عن يسار ، عن ابن عباس : أنه سأل كعباً عن أمّ الكتاب ، فقال : علم الله ما هو خالق ، وما خلقه عالمون ، فقال لعلمه : كن كتاباً ، فكان كتاباً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(271/413)

وقال ابن عجيبة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولقد أرسلنا رُسُلاً من قَبلكَ ﴾ يا محمد ، ﴿ وجعلنا لهم أزواجاً ﴾ كثيرة : كداود عليه السلام ؛ كان له مائة امرأة ، وابنه كان له ألف ، على ما قيل

، وغيرهما من الأنبياء والرسل . ﴿ و ﴾ جعلنا لهم منهن ﴿ ذُرِيَةً ﴾ ، وأنت يا محمد منهم ؛ فليس ببدع أن يكون الرسول بشراً ، يتزوج النساء ، ويحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر ، إلا أنه لا يشغله ذلك عن أداء الرسالة ، ونصيحة الأمة ، وإظهار شريعة الدين ، والقيام بحقوق رب العالمين . ولما أجابهم بشبهتهم قالوا : أظهر لنا معجزة كما كانت لهم ، كالعصا وفلق البحر ، وإحياء الموتى ؟ فأنزل الله ﴿ وما كان لرسول ﴾ ؛ ما صح له ولم يكن في وسعه ﴿ أن يأتي بآيةٍ ﴾ تُقترح عليه ، ويظهرها ﴿ إلا بإذن الله ﴾ وإرادته ؛ فإنه القادر على ذلك . ﴿ لكل أجلٍ ﴾ من آجال بني آدم وغيرهم ، ﴿ كتابٌ ﴾ يُكتب فيه وقت موته ، وانتقاله من الدنيا .

﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ من ديوان الأحياء ، فيكتب في الأموات ، ﴿ ويُثبتُ ﴾ من لا يموت . قيل : إن هذا الكتاب يُكتب ليلة القدر ، أو ليلة النصف من شعبان ، ويجمع بينهما بأن الكتابة تقع ليلة النصف ، وإبرازه للملائكة ليلة القدر ، ﴿ وعنده أُمُّ الكتاب ﴾ أي : الأصل المنسوخ منه كتب الآجال ، وهو اللوح المحفوظ ، أو العلم القديم . وهذا التفسير يناسب اقتراح الآيات ؛ لأنهم إذا أجيبوا بظهور الآية ولم يؤمنوا ، عوجلوا بالهلاك ، وذلك له

كتاب محدود . قال الورتجبي : بيَّن الحق سبحانه أن أوان إتيان الآية بأجل معلوم في وقت معروف ، بقوله : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ أي : لكل مقدور في الأزل في قضية مرادة وقت معلوم في علم الله ، لا يأتي إلا في وقته . أ هـ

أو : ﴿ لكل أجل ﴾ أي : عصر وزمان ، ﴿ كتاب ﴾ فيه شريعة مخصوصة على ما يقتضيه استصلاحهم . ﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ : ينسخ ما يستصوب نسخه من الشرائع ، ﴿ ويُثبتُ ﴾ ما تقتضي الحكمة عدم نسخه . ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ وهو : اللوح المحفوظ ؛ فإنه جامع للكائنات . وهذا يترتب على قوله : ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ ، وهو ما لا يوافق شريعتهم . قال سيدي عبد الرحمن الفاسي : ﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ ما يستصوب نسخه ، ﴿ ويُثبت ﴾ ما تقتضيه حكمته ، فلا ينكر مخالفته للشرائع في بعض الأحكام مع موافقته للحكم ، وهو الأصول الثابتة في أصول الشرائع ، ولذا قال : ﴿ وعنده أمُّ الكتاب ﴾ أي : لا يبدل . انتهى انتهى . ا هـ وقريب منه للبيضاوي .

وقيل : إن المحو والإثبات عام في جميع الأشياء . قال ابن جزي : وهذا ترده القاعدة المتقررة بأن القضاء والقدر لا يتبدل ، وعلم الله لا يتغير . انتهى انتهى . ا هـ قلت : أما القضاء المبرم

، وهو : علم الله القديم الذي استأثر الله به ، فلا شك أنه لا يتبدل ولا يغير ، وأما القضاء الذي يبرز إلى علم الخلائق من الملائكة وغيرهم ، فيقع فيه المحو والإثبات ، وذلك أن الحق تعالى قد يُطلعهم على بعض الأقضية ، وهي عنده متوقفة على أسباب وشروط يخفيها عنهم بقهريته ، ليظهر اختصاصه بالعلم الحقيقي ، فإذا أراد الملائكة أن ينفذوا ذلك الأمر محاه الله تعالى ، وأثبت ما عنده في علم غيبه ، وهو أُمُّ الكتاب ، حتى قال بعضهم : إن اللوح المحفوظ له جهتان : جهة تلي عالَم الغيب ، وفيه القضاء المبرم ، وجهة تلي عالَم الشهادة ، وفيه القضاء الذي يُرد ويُمْحى ؛ لأنه قد تكتب فيه أمور ، وهي متوقفة على شروط وأسباب في علم الغيب ، لم تظهر في هذه الجهة التي تلي عَالَم الشهادة ، فيقع فيها المحو والإثبات ، وبهذا يندفع إشكالات كقوله في الحديث :

« لا يَرُدُّ القَضَاءَ إلا الدُّعَاءُ ، وصلة الرحم تزيد في العُمُر » .

وقول ابن مسعود ، وعمر رضي الله عنهما : اللهم إن كنت كتبتنا في ديوان الشقاء فامحنا ، واكتبنا في ديوان السعادة ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت . انتهى انتهى . ا هـ أي : إن كنت أظهرت شقاوتنا فامحها ، وأظهر سعادتنا ؛ فإنك تمحو ما تشاء . . . إلخ . وفي ابن عطية

ما يشير إلى هذا ، قال : وأصوب ما يفسر به أم الكتاب ، أنه كتاب الأمور المجزومة التي سبق القضاء فيها بما هو كائن ، وسبق ألا تبدل ، ويبقى المحو والتثبيت في الأمور التي سبق في القضاء أن تبدل وتُمحى وتثبت . قال نحوه قتادة . أ هـ

الإشارة : قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك . . . ﴾ الآية ، قد أثبت تعالى لأهل خصوصية النبوة والرسالة الأزواج والذرية ، وكان ذلك كمالاً في حقهم . وكذلك أهل خصوصية الولاية ، تكون لهم أزواج وذرية ، ولا يقدح في مرتبتهم ، بل يزيد فيها ، وذلك بشرط أن يقع ذلك بعد التمكين ، أو يكون في صحبة شيخ عارف كامل عند أمره ونهيه ، يكون فعل ذلك بإذنه ، فإذا كان هذا الشرط فإن التزوج يزيد صاحبه تمكيناً من اليقين . قال الورتجبي في هذه الآية : أعْلَمَ تعالى ، بهذه الآية ، الجُهّال أنه إذا شرَّف وليّاً أو صدّيقاً بولايته ومعرفته لم يَضُرِّه به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد ، ولم يكن بسْط الدنيا له قدحاً في ولايته . أ هـ

(275/413)

وقال الغزالي في الإحياء ، في الترغيب في النكاح : قال تعالى في وصف الرسل ومَدْحِهم : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذُرية ﴾ ، فذكر ذلك في معرض

الامتنان وإظهار الفضل، ومدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء، فقال تعالى: ﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: 74] الآية، ويقال: إن الله تعالى لم يذكر في كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين. وقالوا: إن يحيى عليه السلام قد تزوج فلم يجامع. قيل: إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السُّنة، وقيل: لغض البصر. وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض، ويولدُ له.

(276/413)

وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم: «النِّكَاحُ سُنَّتِي، فَمَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي» وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: «تَنَاكَحُوا تَكَاثَرُوا؛ فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، حَتَّى السِّقْطِ» وقال أيضاً: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي، وإِنَّ مِنْ سُنَّتِي النِّكَاحَ، فَمَنْ أَحَبَّنِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي» وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ تَرَكَ التَّزَوُّجَ مَخَافَةَ العَيْلَةِ فَلَيْسَ مِنَّا» وقال صلى الله عليه وسل: م «مَنْ نَكَحَ للهِ وأَنْكَحَ للهِ اسْتَحَقَّ ولايَةَ اللهِ».

ثم قال: وقال ابن عباس لابنه: لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج. وكان ابن مسعود يقول: لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج، لا ألقى الله عزَبًا. وكان معاذ رضي

الله عنه مطعوناً وهو يقول : زوجوني ، لا ألقي الله عزباً . وكان ماتت له زوجتان بالطاعون . وكان عُمَرُ يكثر النكاح ، ويقول : لا أتزوج إلا للولد ، وكان لعليّ رضي الله عنه أربع نسوة ، وسبع عشرة سرية ، وهو أزهد الصحابة . فدل أن تزوج النساء لا يدل على الرغبة في الدنيا .

قال سفيان : كثرة النساء ليس من الدنيا . واستدل بقضية عليّ رضي الله عنه قال : وكان أزهد الصحابة . ورُوي أن بشر الحافي رُئيَ في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : رفعت إلى منازلي في الجنة فأشرفت على مقامات الأنبياء ، ولم أبلغ منازل المتأهلين . وفي رواية : قال لي : ما كنت أحب أن تلقاني عَزَبًا ، قال الرائي : فقلت له : ما فعل أبو نصر التمار ؟ قال : رُفع فوقي بسبعين درجة ؛ بصبره على بُنياته وعياله . وقد قيل : فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد ، وركعةٌ مِنْ متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب . انتهى انتهى . ا هـ كلام الغزالي باختصار .

(277/413)

وقوله تعالى : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويُثبت ﴾ ، من جملة ما يقع فيه المحو والإثبات الواردات الإلهية التي ترد على القلوب من تجليات الغيوب ؛ فإن القلب إذا تطهر من الأكدار ، وصفا

من الأغيار ، كان كل ما يتجلى فيه من الغيوب فهو حق ، إلا أنه ينسخ بعضها بعضاً ؛ فقد يخبر الولي بأمر ، يكون أوْلا يكون على حساب ما تجلى في قلبه ، ثم يمحو الله ذلك ، ويثبت في قلبه خلافه . أو يظهر في الوجود خلاف ما أخبر ، وليس بكذب في حقه ، ولكن الحق تعالى يُظهر لخلقه أموراً من مقدوراته ، متوقفاً وجودُها على أسبابٍ وشروطٍ أخفاها الحق تعالى عن خلقه ، ليظهر عجزهم عن إحاطة علمه ، فالنسخ إنما يقع في فعله لا في أصل علمه .

قال الأستاذ القشيري : المشيئة لا تتعلق إلا بالحدوث ، والمحو والإثبات لا يكون إلا من أوصاف الحدوث ، فصفات ذات الحق سبحانه ؛ من كلامه وعلمه ، لا يدخل تحت المحو والإثبات ، إنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله .

(278/413)

وقال سهل رضي الله عنه : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ الأسباب ، ﴿ وعنده أُمّ الكتاب ﴾ ؛ القضاء المبرم . أ هـ

وقال شيخ شيوخنا ، سيدي عبد الرحمن الفاسي : ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ : العلم الأول الثابت الذي لا يطرأ عليه تغيير ولا تبديل ، ولا يقبل النسخ والتحريف . ومطالعته :

بالفناء عن الحقيقة الخَلْقِية ، والبقاء بالأنوار الصمدانية ، والأنفاس الرحمانية . قال في القوت : والمحبة من أشرف المقامات ، ليس فوقها إلا مقام الخُلَّة ، وهو مقام في المعرفة الخاصة ، وهي : تخلّل أسرار الغيب ، فيطلع على مشاهدة المحبوب ، بان يعطى إحاطة بشيء من علمه بمشيئته ، على مشيئته التي لا تتقلب ، وعلمه القديم الذي لا يتغير . وفي هذا المقام : الإشراف على بحار الغيوب ، وسرائر ما كان في القديم وعواقب ما يدب .

ومنه : مكاشفة العبد بحاله ، وإشهاده من المحبة مقامه ، والإشراف على مقامات العباد في المآل ، والاطلاع عليهم في تقلبهم في الأبد ؛ حالاً ومآلاً . أ هـ

قلت : هذا الاطلاع إنما هو إجمالي لا تفصيلي ، وقد يقع فيه المحو والإثبات ؛ لأنه من جملة المعلومات التي دخلت عالم التكوين ، التي يقع فيها التبديل والتغيير .

ثم قال صاحب القوت : وقد قال أحسن القائلين : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : 255] ، والاستثناء واقع على إعطاء الإحاطة بشيء من شهادة علمه ، بنورٍ ثاقبٍ من وصفه ، وشعاعٍ لائحٍ من سبحاته ، إذا شاء ، وذلك إذا أخرجت النفس من الروح ، فكان روحانياً ، خُروجَ الليلِ من النهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 34.38 ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾

أي : مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم ، وهو رد لقولهم : لو كان نبياً لكان من جنس الملائكة كما قالوا : ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : من الآية 7] ، وإعلام بأن ذلك سنة كثير من الرسل ، فما جاز في حقهم لِمَ لا يجوز في حقه ؟ وقد قال تعالى له : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الكهف : من الآية 110]

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي : ما صح له ولا استقام ولم يكن في وسعه أن يأتي بما يقترح عليه ، إلا بإرادته تعالى في وقته ؛ لأن الآيات معينة بإزاء الأوقات التي تحدث فيها ، من غير تغير وتبدل وتقدم وتأخر . فأمرها منوط بمشيئته تعالى ، المبنية على الحكم والمصالح التي عليها يدور أمر الكائنات : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي : لكل وقت من الأوقات أمر مكتوب ، مقدر معين أو مفروض في ذلك الوقت على الخلق حسبما تقتضيه الحكمة ، فالشرائع معينة عند الله بحسب الأوقات ، في كل وقت يأتي ، بما هو صلاح ذلك الوقت ، رسولٌ من عنده . وكذا جميع الحوادث من الآيات وغيرها ، فليس الأمر على إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه تعالى ويختاره ، وفيه رد لاستعجالهم الآجال وإتيان الخوارق والعذاب .

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي: ينسخ ما يشاء نسخه من الشرائع لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت: ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ أي: بدَلَهُ ما فيه المصلحة، أو يبقيه على حاله غير منسوخ: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أي: أصله.

قال الرازي: العرب تسمي كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أُمّاً له، ومنه أم الرأس: للدماغ، وأم القرى: لمكة. وكل مدينة فهي أُمٌّ لما حولها من القرى. فكذلك أُمّ الكتاب، هو الذي يكون أصلاً لجميع الكتب. روى عليٌّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية يقول: يبدل الله ما يشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ والمنسوخ. وما يبدل وما يثبت. كل ذلك في كتاب. وعن قتادة: أن هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة: من الآية 106] الآية.

تنبيه:

تمسك جماعة بظاهر قوله تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ فقالوا: إنها عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ. قالوا: يمحو الله من الرزق ويزيد فيه. وكذا القول في

الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر .

قال الرازي : هو مذهب عمر وابن مسعود . والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله تعالى في أن يجعلهم سعداء لا أشقياء . انتهى .

أشار بذلك إلى آثار أخرجها ابن جرير عن عمر وابن مسعود . وليس في الصحيح شيء منها .

ظهر لي في دمر في 12 ربيع الأول سنة 1324 :

إن ما يستدل به الكثير من الآيات لمطلبٍ ما ، أن يدقق النظر فيه تدقيقاً زائداً ، فقد يكون سياق الآية لأمرٍ لا يحتمل غيره ، ويظن ظان أنه يستدل بها في بحث آخر ، وقد يؤكده ما يراه من إطباق كثير من أرباب التصانيف على ذلك وإنما المدار على فهم الأسلوب والسياق والسباق .

خُذ لك مثلاً قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ فكم ترى من يستدل بها على العلم المعلق ، ومحو ما في اللوح الذي يسمونه (لوح المحو والإثبات) ويوردون من الإشكالات والأجوبة ما لا يجد الواقف عليه مقنعاً ولا مطمأناً .

مع أن هذه الآية ، لو تمعن فيها القارئ ؛ لعلم أنها في معنى غير ما يتوهمون . وذلك أنهم كانوا يقترحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوائل البعثة ، أن يأتي بآية كآية موسى وعيسى ؛ توهماً أن ذلك هو أقصى ما يدل على نبوة النبي في كل زمان ومكان ، فأعلمهم الله تعالى أن دور تلك الآيات الحسية انقضى دورها ، وذهب عصرها . وقد استعد البشر للتنبه إلى الآية العقلية وهي آية الاعتبار والتبصر . وإن تلك الآيات محيت كما محي عصرها . وقد أثبت تعالى غيرها مما هو أجلى وأوضح وأدل على الدعوة ، وهو قوله تعالى قبلها : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 295 ـ 297 ﴾

(282/413)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾

هذا عود إلى الردّ على المشركين في إنكارهم آية القرآن وتصميمهم على المطالبة بآية من مقترحاتهم تُماثل ما يؤثر من آيات موسى وآيات عيسى عليهما السلام ببيان أن الرسول لا

يأتي بآيات إلاّ بإذن الله ، وأن ذلك لا يكون عى مقترحات الأقوام ، وذلك قوله : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ ، فالجملة عطف على جملة ﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾ [الرعد : 37] .

وأدمج في هذا الرد إزالة شبهة قد تعرض أو قد عرضت لبعض المشركين فيطعنون أو طعنوا في نبوءة محمد بأنه يتزوج النساء وأن شأن النبي أن لا يهتم بالنساء .

قال البغوي : روي أن اليهود وقيل إن المشركين قالوا : إن هذا الرجل ليست له همة إلا في النساء أهـ .

فتعين إن صحت الرواية في سبب النزول أن القائلين هم المشركون إذ هذه السورة مكية ولم يكن لليهود حديث مع أهل مكة ولا كان منهم في مكة أحد .

وليس يلزم أن يكون هذا نازلاً على سبب .

وقد تزوج رسول الله خديجة ثم سودة رضي الله عنهما في مكة فاحتمل أن المشركين قالوا قالةَ إنكار تعلقاً بأوهن أسباب الطعن في النبوءة .

وهذه شبهة تعرض للسذج أو لأصحاب التمويه ، وقد يموّه بها المبشرون من النصارى على ضعفاء الإيمان فيفضلون عيسى عليه السلام على محمد بأن عيسى لم يتزوج النساء .

وهذا لا يروج على العقلاء لأن تلك بعض الحظوظ المباحة لا تقتضي تفضيلاً .

وإنما التفاضل في كل عمل بمقادير الكمالات الداخلة في ذلك العمل .

ولا يدري أحد الحكمة التي لأجلها لم يتزوج عيسى عليه السلام امرأةً .

وقد كان يحيى عليه السلام حَصوراً فلعل عيسى عليه السلام قد كان مثله لأن الله لا يكلفه

بما يشق عليه وبما لم يكلف به غيره من الأنبياء والرسل .

(283/413)

وأما وصف الله يحيى عليه السلام بقوله : وحصوراً ﴾ فليس مقصوداً منه أنه فضيلة

ولكنه أعلم أباه زكرياء عليه السلام بأنه لا يكون له نسل ليعلم أن الله أجاب دعوته فوهب له

يحيى عليه السلام كرامة له ، ثم قدّر أنه لا يكون له نسل إنفاذاً لتقديره فجعل امرأته عاقراً .

وقد تقدم بيان ذلك في تفسير سورة آل عمران .

وقد كان لأكثر الرسل أزواج ولأكثرهم ذرية مثل نوح وإبراهيم ولوط وموسى وداود

وسليمان وغير هؤلاء عليهم السلام .

والأزواج : جمع زوج ، وهو من مقابلة الجمع بالجمع ، فقد يكون لبعض الرسل زوجة واحدة

مثل : نوح ولوط عليهما السلام ، وقد يكون للبعض عدة زوجات مثل : إبراهيم وموسى

وداود وسليمان عليهم السلام .

ولما كان المقصود من الردّ هو عدم منافاة اتخاذ الزوجة لصفة الرسالة لم يكن داعٍ إلى تعداد

بعضهم زوجات كثيرة .

وتقدم الكلام على الزوج عند قوله تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ في سورة البقرة (35) .

والذرية : النسل .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ في سورة البقرة (124) .

وجملة وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ هي المقصود وهي معطوفة على جملة ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ﴾ .

وتركيب ﴿ ما كان ﴾ يدل على المبالغة في النفي ، كما تقدم عند قوله : ﴿ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ في سورة العقود (116) .

والمعنى : أن شأنك شأن من سبق من الرسل لا يأتون من الآيات إلاّ بما آتاهم الله .

وإذن الله : هو إذن التكوين للآيات وإعلام الرسول بأن ستكون آية ، فاستعير الإتيان للإظهار ، واستعير الإذن للخلق والتكوين .

تذييل لأنه أفاد عموم الآجال فشمل أجل الإتيان بآية من قوله : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ .

وذلك إبطال لتوهم المشركين أن تأخر الوعيد يدل على عدم صدقه .

وهذا ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ [سورة العنكبوت : 53] فقد قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ الآية [سورة الأنفال : 32] .

وإذ قد كان ما سألوه من جملة الآيات وكان ما وعدوه آية على صدق الرسالة ناسب أن يذكر هنا أن تأخير ذلك لا يدل على عدم حصوله ، فإن لذلك آجالاً أرادها الله واقتضتها حكمته وهو أعلم بخلقه وشؤونهم ولكن الجهلة يقيسون تصرفات الله بمثل ما تجري به تصرفات الخلائق .

والأجل : الوقت الموقت به عمل معزوم أو موعود .

والكتاب : المكتوب ، وهو كناية عن التحديد والضبط ، لأن شأن الأشياء التي يراد تحققها أن تكتب لئلا يخالف عليها .

وفي هذا الرد تعريض بالوعيد .

والمعنى : لكل واقع أجلٌ يقع عنده ، ولكل أجل كتاب ، أي تعيين وتحديد لا يتقدمه ولا يتأخر عنه .

وجملة يمحوا الله ما يشاء ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن جملة ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ تقتضي أن الوعيد كائن وليس تأخيره مزيلاً له .

ولما كان في ذلك تأييس للناس عقب بالإعلام بأن التوبة مقبولة وبإحلال الرجاء محلّ اليأس، فجاءت جملة ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت ﴾ احتراساً.

وحقيقة المحو: إزالة شيء، وكثر في إزالة الخط أو الصورة، ومرجع ذلك إلى عدم المشاهدة، قال تعالى: ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ [سورة الإسراء: 12].

ويطلق مجازاً على تغيير الأحوال وتبديل المعاني كالأخبار والتكاليف والوعد والوعيد فإن لها نسباً ومفاهيم إذا صادفت ما في الواقع كانت مطابقتُها إثباتاً لها وإذا لم تطابقه كان عدم مطابقتها محواً لأنه إزالة لمدلولاتها.

والتثبيت: حقيقته جعل الشيء ثابتاً قاراً في مكان، قال تعالى: ﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ [سورة الأنفال: 45].

ويطلق مجازاً على أضداد معاني المحو المذكورة.

فيندرج في ما تحتمله الآية عدةُ معانٍ: منها أنه يُعدم ما يشاء من الموجودات ويبقي ما يشاء منها، ويعفو عما يشاء من الوعيد ويُقرر، وينسخ ما يشاء من التكاليف ويبقي ما يشاء.

وكل ذلك مظاهر لتصرف حكمته وعلمه وقدرته .

وإذ قد كانت تعلقات القدرة الإلهية جارية على وفق علم الله تعالى كان ما في علمه لا يتغير فإنه إذا أوجَدَ شيئاً كان عالماً أنه سيوجده ، وإذا أزال شيئاً كان عالماً أنه سيزيله وعالماً بوقت ذلك .

وأبهم الممحو والمثبت بقوله : ما يشاء ﴾ لتتوجه الأفهام إلى تعرّف ذلك والتدبر فيه لأن تحت ذا الموصول صوراً لا تحصى ، وأسبابُ المشيئة لا تحصى .

ومن مشيئة الله تعالى محوَ الوعيد أن يلهم المذنبين التوبة والإقلاع ويخلق في قلوبهم داعية الامتثال .

ومن مشيئة التثبيت أن يصرف قلوب قوم عن النظر في تدارك أمورهم ، وكذلك القول في العكس من تثبيت الخير ومحوه .

ومن آثار المحو تغير إجراء الأحكام على الأشخاص ، فبينما ترى المحارب مبحوثاً عنه مطلوباً للأخذ فإذا جاء تائباً قبل القدرة عليه قُبل رجوعه ورفع عنه ذلك الطلب ، وكذلك إجراء الأحكام على أهل الحرب إذا آمنوا ودخلوا تحت أحكام الإسلام .

وكذلك الشأن في ظهور آثار رضى الله أو غضبه على العبد فبينما ترى أحداً مغضوباً عليه مضروباً عليه المذلة لانغماسه في المعاصي إذا بك تراه قد أقلع وتاب فأعزه الله ونصره .

ومن آثار ذلك أيضاً تقليب القلوب بأن يجعل الله البغضاء محبةً ، كما قالت هند بنتُ عتبة للنبيء صلى الله عليه وسلم بعدَ أن أسلمتْ : " ما كان أهل خباء أحبّ إليّ أن يذلوا من أهل خِبائك واليوم أصبحتُ وما أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا من أهل خبائك " .

وقد محا الله وعيد من بقي من أهل مكة فرفع عنهم السيف يوم فتح مكة قبل أن يأتوا مسلمين ، ولو شاء لأمر النبي صلى الله عليه وسلم باستئصالهم حين دخوله مكة فاتحاً .

(286/413)

وبهذا يتحصل أن لفظ ﴿ ما يشاء ﴾ عام يشمل كل ما يشاؤه الله تعالى ولكنه مجمل في مشيئة الله بالمحو والإثبات ، وذلك لا تصل الأدلة العقلية إلى بيانه ، ولم يرد في الأخبار المأثورة ما يبينه إلا القليل على تفاوت في صحة أسانيده .

ومن الصحيح فيما ورد من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم " إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينَه وبينها إلاّ ذراعٌ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها .

وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " .

والذي يلوح في معنى الآية أن ما في أم الكتاب لا يقبل محواً ، فهو ثابت وهو قسيم لما يشاء الله محوه .

ويجوز أن يكون ما في أم الكتاب هو عين ما يشاءُ الله محوه أو إثباته سواء كان تعييناً بالأشخاص أو بالذوات أو بالأنواع وسواء كانت الأنواع من الذوات أو من الأفعال ، وأن جملة ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ أفادت أن ذلك لا يطلع عليه أحد .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ مراداً به الكتاب الذي كتبت به الآجال وهو قوله : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ ، وأن المحو في غير الآجال .

ويجوز أن يكون أم الكتاب مراداً به علم الله تعالى ، أي يمحو ويثبت وهو عالم بأن الشيء سيُمحى أو يثبت .

وفي تفسير القرطبي عن ابن عمر قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " يمحو الله ما يشاء ويثبت إلاّ السعادة والشقاوة والموت " .

وروى مثله عن مجاهد .

وروى عن ابن عباس ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت ﴾ إلا أشياء الخَلْقَ بفتح الخاء وسكون اللام والخُلُق بضم الخاء واللام والأجل والرزقَ والسعادة والشقاوة ، ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ الذي لا يتغيّر منه شيء .

قلت : وقد تفرع على هذا قول الأشعري : إن السعادة والشقاوة لا يتبدلان خلافاً

للماتريدي .

وعن عمر وابن مسعود ما يقتضي أن السعادة والشقاوة يقبلان المحو والإثبات .

(287/413)

فإذا حمل المحو على ما يجمع معاني الإزالة ، وحُمل الإثبات على ما يجمع معانيَ الإبقاء ، وإذا حمل معنى ﴿ أم الكتاب ﴾ على معنى ما لا يقبل إزالة ما قرر أنه حاصل أو أنه موعود به ولا يقبل إثبات ما قرر انتفاؤه ، سواء في ذلك الأخبار والأحكام ، كان ما في أم الكتاب قسيماً لما يمحى ويثبت .

وإذا حمل على أن ما يقبل المحو والإثبات معلوم لا يتغيّر علم الله به كان ما في أم الكتاب تنبيهاً على أن التغييرات التي تطرأ على الأحكام أو على الأخبار ما هي إلا تغييرات مقررة من قبلُ وإنما كان الإخبار عن إيجادها أو عن إعدامها مظهراً لما اقتضته الحكمة الإلهية في وقت ما .

و﴿ أم الكتاب ﴾ لا محالة شيء مضاف إلى الكتاب الذي ذُكر في قوله : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ .

فإن طريقَة إعادة النكرة بحرف التعريف أن تكون المُعادة عينَ الأولى بأن يجعل التعريف

تعريف العهد ، أي وعنده أم ذلك الكتاب ، وهو كتاب الأجل .

فكلمة ﴿ أمّ ﴾ مستعملة مجازاً فيما يُشبه الأم في كونها أصلاً لما تضاف إليه ﴿ أمُّ ﴾ لأن الأمّ يتولد منها المولود فكثر إطلاق أمّ الشيء على أصله ، فالأمّ هنا مراد به ما هو أصل للمحو والإثبات اللذيْن هما من مظاهر قوله : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ ، أي لِما مَحْوُ وإثباتُ المشيئات مظاهرُ له وصادرة عنه ، فأُمّ الكتاب هو علم الله تعالى بما سيريد محوه وما سيريد إثباته كما تقدم .

والعِندية عندية الاستئثار بالعلم وما يتصرف عنه ، أي وفي ملكه وعلمه أمّ الكتاب لا يَطلع عليها أحد .

ولكن الناس يرون مظاهرها دون اطلاع على مدى ثبات تلك المظاهر وزوالها ، أي أن الله المتصرف بتعيين الآجال والمواقيت فجعل لكل أجل حداً معيناً ، فيكون أصل الكتاب على هذا التفسير بمعنى كله وقاعدته .

ويحتمل أن يكون التعريف في ﴿ الكتاب ﴾ الذي أضيف إليه ﴿ أم ﴾ أصل ما يُكتب ، أي يُقدر في علم الله من الحوادث فهو الذي لا يُغيّر ، أي يمحو ما يشاء ويثبت في الأخبار من

وعد ووعيد ، وفي الآثار من ثواب وعقاب ، وعنده ثابتُ التقادير كلها غير متغيرة .

والعندية على هذا عندية الاختصاص ، أي العلم ، فالمعنى : أنه يمحو ما يشاء ويثبت فيما يبلغ إلى الناس وهو يعلم ما ستكون عليه الأشياء وما تستقر عليه ، فالله يأمر الناس بالإيمان وهو يعلم مَن سيؤمن منهم ومن لا يؤمن فلا يفجؤه حادث .

ويشمل ذلك نسخَ الأحكام التكليفية فهو يشرعها لمصالح ثم ينسخها لزوال أسباب شرعها وهو في حال شَرْعها يعلم أنها آيلة إلى أن تنسخ .

وقرأ الجمهور ﴿ ويثبّت ﴾ بتشديد الموحدة من ثبّت المضاعف .

وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، ويعقوب ﴿ ويُثْبت ﴾ بسكون المثلثة وتخفيف الموحدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(289/413)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ الآية .

بين في هذه الآية الكريمة أن الرسل قبله صلى الله عليه وسلم من جنس البشر يتزوجون ويلدون وليسوا ملائكة وذلك أن الكفار استغربوا بعث آدمي من البشر كما قال تعالى : ﴿

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : 94] فأخبر أنه يرسل البشر الذين يتزوجون ويأكلون كقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : 20] وقوله ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ [الأنبياء : 8] الآية إلى غير ذلك من الآيات كما تقدمت الإشارة إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(290/413)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾

وأنت يا محمد لست بِدْعاً من الرسل في مسألة الزواج والإنجاب . وهي تحمل الرد على مَنْ قالوا : ﴿ مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق . . . ﴾ [الفرقان : 7]

ومنهم مَنْ قال : ما لهذا الرسول يتزوج النساء ؟ ألم يكن من اللائق أن يتفرغ لدعوته ؟

وهؤلاء الذين قالوا ذلك لم يستقرئوا الموكب الرسالي ، لأنهم لو فعلوا لوجدوا أن أغلب الرسل قد تزوّجوا وأنجبوا .

وحين تكون حياة الرسول قريبةً كمثال واضح من حياة الناس الذين أُرسل إليهم ؛ ليكون

أُسْوة لهم ؛ فالأُسْوَة تتأَتّى بالجنس القابل للمقارنة ؛ وحين تكون حياة الرسول كحياة غيره من البشر في إطارها العام ؛ كأبٍ وزوجٍ ، فالأسوة تكون واضحة للناس .

ونعلم أن هناك مَنْ جاء إلى رسول الله ؛ ليطلب الإذن بالتفرُّغ التامّ للعبادة من : صوم وصلاة وزُهْد عن النساء ، فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال في حديث شريف :

"إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني" .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ . . . وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : 38]

أي : ما كان لأحد أن يقترح على الله الآية التي تأتي مع أيّ رسول من الرسل ، ولم يكُنْ لأيِّ رسول حق في اختيار الآية المصاحبة له .

وبهذا القول حسم الحق سبحانه قضية طلب المشركين لآيات الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن كل رسول جاء لزمنه ولقومه ؛ وكل معجزة كانت من اختيار الله ، وكل رسول يؤدي ما يُكلِّفه به الله ؛ وليس للرسول أن يقترح على الله آيةً ما ؛ لأن الخالق الأعلى هو الأعلم بما يصلح في هذه البيئة على لسان هذا الرسول .

ونأخذ من قوله الحق : ﴿ . . . لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : 38]

أن لكل رسالة رسولها ، ولكل رسالة مكانها ، ولكل رسالة معجزتها ، فإذا كان الأمر كذلك فدعوا محمد صلى الله عليه وسلم وما اختاره الله له ؛ في المكان الذي شاءه سبحانه ، وفي الزمان ؛ وفي المعجزة المصاحبة له صلى الله عليه وسلم .

ولكن ، أهناك تغيير بعد أن يقول الحق سبحانه : ﴿ . . . لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : 38]

نعم هناك تغيير ، وانظروا إلى قول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يَمْحُواْ اللهُ مَا يَشَآءُ . . . ﴾

والمَحْو كما نعلم هو الإزالة ، والتثبيت أي : أن يُبقِي الحق ما يراه ثابتاً .

وقد فهم بعض الناس خطأ أن كل حُكْم في القرآن قد جاء ليثبُتَ وسيظلّ هكذا أبدَ الدهر ؛ ولكن عند التطبيق ظهر أن بعض الأحكام يقتضي تغييرها يغيرها الله لحكمة فيها خير البشرية .

ونقول : لا ، لم يحدث ذلك ، ولكن كانت هناك أحكام مَرْحلية ؛ ولها مُدَّة مُحدَّدة ؛ ولذلك جاء قول الحق سبحانه : ﴿ . . . وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ [الرعد : 39]

أي : عنده اللوح المحفوظ الذي تحدَّدتْ فيه الأحكام التي لها مُدَّة مُحدَّدة ؛ وما أن تنتهي إلا

وينزل حُكْم آخر مكانها ، وعلى هذا المعنى يمكن أن نقول : إنه لم يوجد نَسْخٌ للأحكام ، لأن معنى النَّسْخ أن يُزحزِح حُكْماً عن زمانه ؛ وهنا لم نجد حُكْماً يتزحزح عن زمانه ؛ لأن كل حُكْم موقوتٌ بوقت محدود ؛ وما أن ينتهي الوقت حتى يبدأ حُكْم جديد .

أقول ذلك كي أنبِّه العلماء إلى ضرورة أنْ يجلسوا معاً لدراسة ذلك ، حتى لا يختلف العلماء : أهناك نَسْخ أم لا ، وأقول : فَلْنُحدد النَّسْخ أولاً ، لأن البعض يظن أن هناك حكماً كان يجب أن ينسحب على كل الأزمنة ، ثم جاء حُكْم آخر ليحل محله لحكمة تقتضيها مصلحة البشرية والمراد لله منها .

(292/413)

ولا يوجد حُكْم أنهى حُكْماً وطرأ عليه ساعة الإنهاء ؛ بل كل الأحكام كانت مُقدَّرة أزلاً ؛ وعلى ذلك فلا يوجد نَسْخ لأيِّ حُكم ، ولكن هناك أحكام ينتهي وقتها الذي قدّره الله لها ؛ ويأتي حُكْم سبق تقديره أزلاً ليواصل الناسُ الأخذ به ؛ وما دام الأمر كذلك فلا يوجد نسخ .

ولنَنْظُر إلى قول الحق سبحانه : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . . . ﴾ [البقرة : 106]

ويتضح من منطوق الآية ومفهومها أن عند نسخ حكم يأتي الله بمثله أو خير منه . إذن : ليس هناك نسخ وإنما هناك أحكام تؤدي مهمتها في زمن ثم يأتي زمن يحتاج إلى حكم خير منه أو مثله في الحكم ، ولكنه يوافق المصالح المرسلة مع مراد الله .

ولقائل أنْ يقول : مادام سيأتي بخير من الآية المنسوخة أو المُنْسَأة فذلك افضل ، ولكن لماذا يأتي بالمِثْل ؟

وأقول : لأنك إنْ جاءك ما هو خَيْر منها قد تَسْتسِيغه ، ولكن حين ننتقل إلى مِثْل ما جاءت به الآية ؛ فهذا مَحَكّ الإيمان .

والمثل هو التوجُّه في الصلاة إلى بيت المقدس في أول الدعوة ؛ ثم مَجِيء الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة ؛ فلا مشقَّة في ذلك .

ولكن هنا يتم اختبار الالتزام الإيماني بالتكليف ، وهنا الانصياعُ للحكم الذي يُنزِله الله ، وهو حُكم مقدر أزَلاً ؛ وفي هذا اختبار لليقين الإيمانيّ في إدارة توجيه المُدبِّر لهذا السير .

وكذلك في الحج يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم لِيُقبّل الحجر الأسود ؛ ثم يرجم الحجر الذي يرمز لإبليس ، ونحن نفعل ذلك أُسْوة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما حجر ، ولكِنّنا نمتثل لأمره صلى الله عليه وسلم .

فتقبيل الحجر الأسود ورجم الحجر الذي يشير إلى رمزية إبليس ، كل هذا استجابة لأمر الآمر .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتَاب ﴾ [الرعد : 39]

فهو يعني أنه سبحانه يُنهِي زمن الحكم السابق الذي ينتهي زمنه في أُمِّ الكتاب أي اللوح المحفوظ ؛ ثم يأتي الحكم الجديد .

والمثال : هو حكم الخمر ؛ وقد عالجها الحق سبحانه أولاً بما يتفق مع قدرة المجتمع ؛ وكان المطلوب الأول هو تثبيت العقيدة ؛ ثم تجيء الأحكام من بعد ذلك .

وهناك فرق بين العقيدة وهي الأصل وبين الأحكام ، وهي تحمل أسلوب الالتزام العقديّ ، وكان الحكم في أمر العقيدة ملزماً ومستمراً .

أما الأحكام مثل حكم الخمر فقد تدرج في تحريمها بما يتناسب مع إلْف الناس ؛ واعتيادهم ؛ فقلَّل الحق سبحانه زمن صُحْبة الخمر ؛ ثم جاء التحريم والأمر بالاجتناب ، وعدم القُرْب منها .

والمثل في حياتنا ؛ حيث نجد مَنْ يريد أن يمتنع عن التدخين وهو يُوسِّع من الفجوة الزمنية بين سيجارة وأخرى ، إلى أن يقلع عنها بلطف ، وينفيها من حياته تماماً .

ونجد القرآن يقول في الخمر : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا . . . ﴾ [النحل : 67]

وهنا يمتنُّ الله عليهم بما رزقهم به ؛ ولكن أهل الذَّوْق يلتفتون إلى أنه لم يَصِف الخمر بأنها من الرزق الحسن ؛ ووصف البلح والعنب بأنه رزق حسن ؛ لأن الإنسان يتناوله دون أن يفسده .

وهكذا يلتفت أهل الذوق إلى أن الخمر قد يأتي لها حكم من بعد ذلك ، ثم يُنزِل الحق سبحانه عظة تقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . . ﴾ [البقرة : 219]

وهكذا أوضح الحق سبحانه ميْل الخمر والميسر إلى الإثم أكثر من مَيْلهما إلى النفع ، ثم جاء من بعد ذلك قوله بحكم مبدئي : ﴿ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ . . . ﴾ [النساء : 43]

ومعنى ذلك أن تتباعد الفترات بين تناول الخمر ، فلا يحتسي أحد الخمر طوال النهار وجزء من الليل ، وفي ذلك تدريب على الابتعاد عن الخمر .

ثم يأتي التحريم الكامل للخمر في قوله تعالى : ﴿ . . . إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : 90]

وهكذا أخذ الحكم بتحريم الخمر تدرّجه المناسب لعادات الناس ، وتمَّ تحريم الخمر بهوادة وعلى مراحل .

وهكذا نفهم النَّسْخ على أنه انتهاء الحكم السابق زمناً وبداية الحكم الجديد ، وهذا يعني أن الحكم الأول لم يكن مُنْسحِباً على كل الزمن ثم أزلناه وجئنا بحكم آخر ؛ ولكن توقيت الحكم الأول أزلاً قد انتهى ؛ وبدأ الحكم الجديد .

وهكذا لا يوجد مجال للاختلاف على معنى النسخ ، ذلك أن الحق سبحانه أرجع المَحْو والإثبات إلى أم الكتاب ؛ ففيها يتحدد ميعاد كل حكم وتوقيته ؛ وميعاد مجيء الحكم التالي له .

وما دام كل أمر مرسوم أزلاً ؛ فعلى مَنْ يقولون أن البَدَاء محرم على الله أن ينتبهوا إلى أن هذا المحو والإثبات ليس بَداءً ؛ لأن البداء يعني أن تفعل شيئاً ، ثم يبدو لك فسادُه فتُغيِّره .

والحق سبحانه لم يظهر له فساد ما أنزل من أحكام أو آيات ؛ بل هو قدَّر كل شيء أزلاً في أم الكتاب ، وجعل لكل حكم ميقاتاً وميلاداً ونهاية .

ويصح أن يتسع معنى قول الحق سبحانه : ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَاب ﴾ [الرعد : 39]

ليشمل نسخ رسالة برسالة أخرى ؛ فيكون قد محا شيئًا وأثبت شيئًا آخر ، وكل شيء فيه تغيير إلى الخير ويصح فيه المَحْو والإثبات ، وهو من عند الرقيب العتيد : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18]

(295/413)

أي : أنه القادر على أن يأمر الرقيب العتيد بأن يُثبتا الواجبات والمحرمات ، وأنْ يتركا الأمور المباحة ، وهو القادر على أنْ يمحوَ ما يشاء من الذنوب ، ويُثبت ما يشاء من التوبة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(296/413)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً) (الرعد : 38) ، وفي سورة الروم : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) (الروم : 47) فقد ذكر الرسل على المجرور في سورة الرعد فقيل : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ) ، وورد في سورة الروم بتقديم المجرور فقيل : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ) ، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك ؟ وما روعي فيه ؟

(297/413)

والجواب عن ذلك : أن المتقرر في الكتاب العزيز أنه إذا ورد اسم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع غيره من الرسل ، عليهم السلام ، مفصحاً بأسمائهم في آية واحدة فإنه يتقدن اسمه ظاهراً كان أو مضمراً ، ثم يذكر بعده من تضمنته الآية منهم ، عليه السلام ، كقوله تعال : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) (النساء : 163) ، وقوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ . . . .) (الأحزاب : 7) الآية ، فإن قيل : فقد قدم هنا قبله قوله : (مِنَ النَّبِيِّينَ) قلت : المجموع جمع السلامة بالواو والنون رفعاً والياء والنون نصباً وجراً من ألفاظ العموم عند الأصوليين ، فقوله : (مِنَ النَّبِيِّينَ) يعم نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من النبيين ، عليهم لسلام ، (ثم) لما أفصح بمن ذكر في

الآية من أولي العزم إشعاراً بتفضيلهم على من سواهم بدئ به، عليه السلام، فقيل: ﴿مِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ ﴿الأحزاب: 7﴾ .... الآية، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾ ﴿البقرة: 98﴾ ثم قال: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وقد دخلا تحت عموم ﴿وملائكته﴾، مع أن لفظ النبيين بالألف واللام أوضح في العموم إذ ليس المضاف في العموم كالمعرف بالألف واللام، فأقول: إنما قدم المجرور في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ ﴿الروم: 47﴾ في سورة الروم لمكان ضميره صلى الله عليه وسلم. أما آية الرعد فموازن لها ومناسب ما تقدمها من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ﴿الرعد: 32﴾ فتأخر الضمير في الآيتين للموازنة والتقابل، والثانية منهما محمولة على الأولى في رعي ما ذكر.

فإن قلت: فلم تأخر ضميره صلى الله عليه وسلم في الآية الأولى ﴿عن ذكر الرسل﴾؟

قلت: لأن ذكرهم هنا، عليه السلام، لم يرد معرفاً بأحوالهم وما منحوا من الاصطفاء والتكريم، ولو ورد ذكرهم لهذا الغرض لكان اسمه، عليه السلام، متقدم الذكر كما في الآية الواردة بذلك، وإنما ذكر هنا إساءة مكذبي أممهم إليهم ونيلهم منهم ضروب المضرات،

وليس ذلك مما يعرف بمناصبهم في التفضيل وإنما ذكر (ذلك) ليقاس بهم نبينا صلى الله عليه وسلم في الصبر والتحمل ، وليقتدي بهداهم كما أمر في قوله تعالى : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ) (الأحقاف : 35) ، ثم له صلى الله عليه وسلم السيادة المعروفة والمكانة المتقررة ، فتقدم ذكرهم في قوله (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) وتأخير ضميره صلى الله عليه وسلم لما ذكر ، ثم وردت الآية بعد فجري الإخبار فيها على ذلك إحرازاً للمناسبة والموازنة أيضاً ن فليس ذكرهم مجملاً غير مفصل كذكرهم على التعيين بأسمائهم ، وقد تقد الإيماء إلى هذا ، (والله سبحانه أعلم بما أراد) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 283.284 ﴾

(299/413)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن عكرمة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ مثل الجنة ﴾

قال : نعت الجنة ، ليس للجنة مثل .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن إبراهيم التيمي – رضي الله عنه – في قوله ﴿ أكلها دائم ﴾ قال : لذتها دائمة في أفواههم .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ ، عن خارجة بن مصعب – رضي الله عنه – قال : كفرت الجهمية بآيات من القرآن ، قالوا : إن الجنة تنفد ، ومن قال تنفد فقد كفر بالقرآن . قال الله تعالى ﴿ إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾ [ص : 54] وقال : ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ [الواقعة : 33] فمن قال إنها تنقطع فقد كفر . وقال عطاء غير مجذوذ ، فمن قال إنها تنقطع فقد كفر . وقال ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾ فمن قال إنها لا تدوم ، فقد كفر .

وأخرج ابن المنذر وابو الشيخ ، عن مالك بن أنس – رضي الله عنه – قال : ما من شيء من ثمار الدنيا أشبه بثمار الجنة من الموز ، لأنك لا تطلبه في صيف ولا شتاء إلا وجدته . قال الله تعالى ﴿ أكلها دائم ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39) وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ﴾ قال: أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فرحوا بكتاب الله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وصدقوا به ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ يعني اليهود والنصارى والمجوس.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ﴾ قال: هذا من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب، يفرحون بذلك. وقرأ ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ﴾ [يونس: 40] ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ قال: الأحزاب، الأمم اليهود والنصارى والمجوس، منهم من آمن به، ومنهم من أنكره.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ومن الأحزاب ﴾ قال: من أهل الكتاب ﴿ من ينكر بعضه ﴾ قال: بعض القرآن.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ؛ عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وإليه مآب ﴾ قال : إليه مصير كل عبد .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ما لك من الله من ولي ولا واق ﴾ قال : من أحد يمنعك من عذاب الله تعالى .

وأخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبتل ، وقرأ قتادة - رضي الله عنه - ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن سعد بن هشام قال : دخلت على عائشة - رضي الله عنها - فقلت : إني أريد أن أتبتل . قالت : لا تفعل ، أما سمعت الله يقول ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي ، عن أبي أيوب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع من سنن المرسلين : التعطر والنكاح والسواك والختان " .

وأخرجه عبد الرزاق في المصنف بلفظ " الختان والسواك والتعطر والنكاح من سنتي " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ يقول: لكل كتاب ينزل من السماء أجل فيمحو الله من ذلك ما يشاء ﴿ ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ .

وأخرج ابن شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد - رضي الله عنه - . قال: قالت قريش حين أنزل ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ ما نراك يا محمد تملك من شيء ولقد فرغ من الأمر . فأنزلت هذه الآية تخويفاً لهم ووعيداً لهم ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا ، ويحدث الله تعالى في كل رمضان فيمحو الله ما يشاء ﴿ ويثبت ﴾ من أرزاق الناس ومصائبهم، وما يعطيهم وما يقسم لهم.

(302/413)

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال: ينزل الله تعالى في كل شهر رمضان إلى سماء الدنيا، يدبر أمر السنة إلى السنة في ليلة القدر، فيمحو ما يشاء، إلا الشقوة والسعادة، والحياة والممات.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ هو الرجل ، يعمل الزمان بطاعة الله ، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله ، فهو الذي يمحو والذي يثبت ، الرجل يعمل بمعصية الله تعالى وقد سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله سبحانه وتعالى .

وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال : من أحد الكتابين هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ أي جملة الكتاب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء ، له دفتان من ياقوت ، والدفتان لوحان لله كل يوم ثلاث وستون لحظة يمحو ما يشاء ﴿ ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ .

(303/413)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني ، عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل فينسخ الذكر في الساعة الأولى منها ، ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد

غيره ، فيمحو ما يشاء ويثبت . ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن ، وهي داره التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر ، لا يسكنها من بني آدم غير ثلاثة : النبيين والصديقين والشهداء ، ثم يقول : طوبى لمن نزلك . ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى السماء الدنيا بروحه وملائكته ، فتنتفض ، فيقول : قومي بعزتي ، ثم يطلع إلى عباده فيقول : هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من داع فأجيبه ؟ حتى يصلي الفجر ، وذلك قوله ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ [الإسراء : 78] يقول : يشهده الله وملائكة الليل والنهار " .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف ، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ إلا الشقوة والسعادة ، والحياة والموت " .

وأخرج ابن سعد وابن جرير وابن مردويه ، عن الكلبي - رضي الله عنه - في الآية قال : " يمحو من الرزق ويزيد فيه ، ويمحو من الأجل ويزيد فيه " . فقيل له : من حدثك بهذا ؟ قال : أبو صالح عن جابر بن عبد الله بن رباب الأنصاري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال : " ذلك كل ليلة القدر ، يرفع ويخفض ويرزق ، غير الحياة والموت والشقاوة والسعاة ، فإن ذلك لا يزول " .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر ، عن علي – رضي الله عنه – أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال له " لأقرن عينيك بتفسيرها ، ولأقرن عين أمتي بعدي بتفسيرها ، الصدقة على وجهها ، وبر الوالدين ، واصطناع المعروف ؛ يحول الشقاء سعادة ويزيد في العمر ويقي مصارع السوء " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : لا ينفع الحذر من القدر ، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر .

وأخرج ابن جرير عن قيس بن عباد – رضي الله عنه – قال : العاشر من رجب ، هو يوم يمحو الله فيه ما يشاء .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب ، عن قيس بن عباد – رضي الله عنه – قال : لله أمر في كل ليلة العاشر من أشهر الحرام ، أما العشر من الأضحى ، فيوم النحر . وأما العشر من المحرم ، فيوم عاشوراء . وأما العشر من رجب ، ففيه ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال : ونسيت ما قال في ذي القعدة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه قال وهو يطوف بالبيت : اللهم إن كنت كتبت علي شقاوة أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب فاجعله سعادة ومغفرة .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي الدنيا في الدعاء ، عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : ما دعا عبد قط بهذه الدعوات ، إلا وسع الله له في معيشته ؛ يا ذا المن ولا يمن عليه ، يا ذا الجلال والإِكرام ، يا ذا الطول ، لا إله إلا أنت ظهر اللاجين وجار المستجيرين ومأمن الخائفين ، إن كنت كتبتني عندم في أم الكتاب شقياً فامح عني اسم الشقاء ، وأثبتني عندك سعيداً ، وإن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محروماً مقتراً عليّ رزقي ، فامح حرماني ويسر رزقي وأثبتني عندك سعيداً موفقاً للخير ، فإنك تقول في كتابك الذي أنزلت ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ .

(305/413)

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن السائب بن ملجان من أهل الشام – وكان قد أدرك الصحابة رضي الله عنهم – قال : لما دخل عمر – رضي الله عنه – الشام ، حمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا خطيباً كقيامي فيكم ، فأمر بتقوى الله وصلة الرحم وصلاح ذات البين ، وقال : " عليكم بالجماعة ، فإن يد الله على الجماعة وإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد . لا يخلونّ رجل بامرأة ، فإن الشيطان ثالثهما ، ومن ساءته سيئته

وسرته حسنته ، فهو أمارة المسلم المؤمن ، وأمارة المنافق الذي لا تسوءه سيئته ولا تسره حسنته ، إن عمل خيراً لم يرج من الله في ذلك ثواباً ؛ وإن عمل شراً لم يخف من الله في ذلك الشر عقوبة ، وأجملوا في طلب الدنيا فإن الله قد تكفل بأرزاقكم ، وكلّ سيتم له عمله الذي كان عاملاً ، استعينوا الله على أعمالكم ، فإنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب " صلى الله على نبينا محمد وآله وعليه السلام ورحمة الله ، السلام عليكم . قال البيهقي – رضي الله عنه – : هذه خطبة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – على أهل الشام ، أثرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(306/413)

وأخرج ابن مردويه والديلمي ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : كان أبو رومي من شر أهل زمانه ، وكان لا يدع شيئاً من المحارم إلا ارتكبه . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " لئن رأيت أبا رومي في بعض أزقة المدينة ، لأضربن عنقه " ؛ وإن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، أتاه ضيف له فقال لامرأته : اذهبي إلى أبي رومي فخذي لنا منه بدرهم طعاماً حتى ييسره الله تعالى . فقالت له : إنك لتبعثني إلى أبي رومي وهو من أفسق أهل المدينة ؟ ! . . فقال : اذهبي ، فليس عليك منه بأس إن شاء الله

تعالى . فانطلقت إليه فضربت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ قالت : فلانة . قال : ما كنت لنا بزوّارة ، ففتح لها الباب فأخذها بكلام رفث ومدّ يده إليها ، فأخذها رعدة شديدة . فقال لها : ما شأنك ؟ قالت إن هذا عمل ما عملته قط . قال أبو رومي : ثكلت أبا رومي أمه ، هذا عمل عمله منذ هو صغير لا تأخذه رعدة ولا يبالي ، على أبي رومي عهد الله ، إن عاد لشيء من هذا أبداً ، فلما أصبح ، غدا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

" مرحباً بأبي رومي ، وأخذ يوسع له المكان ، وقال له يا أبا رومي ، ما عملت البارحة ؟ فقال : ما عسى أن أعمل يا نبي الله ؟ أنا شر أهل الأرض . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله قد حوّل مكتبك إلى الجنة " فقال ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ .

وأخرج يعقوب بن سفيان وأبو نعيم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان أبو رومي من شر أهل زمانه ، وكان لا يدع شيئاً من المحارم إلا ارتكبه ، فلما غدا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم من بعيد قال : " مرحباً بأبي رومي ، وأخذ يوسع له المكان ، فقال : يا أبا رومي ، ما عملت البارحة ؟ قال : ما عسى أن أعمل يا نبي الله ؟ أنا شر أهل الأرض ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله قد حول مكتبك إلى الجنة ، فقال ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال : إن الله ينزل كل شيء يكون في السنة في ليلة القدر ، فيمحو ما يشاء من الآجال والأرزاق والمقادير ، إلا الشقاء والسعادة ، فإنهما ثابتان .

وأخرج ابن جرير عن منصور - رضي الله عنه - قال : سألت مجاهداً - رضي الله عنه - فقلت : أرأيت دعاء أحدنا يقول : اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم ، وإن كان في الأشقياء فامحه منهم ، واجعله في السعداء ؟ . . . . فقال : حسن . ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر من ذلك ، فسألته عن ذلك فقال ﴿ انا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ [الدخان : 3 و4] قال : يعني في ليلة القدر ، ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة ، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء . فأما كتاب الشقاء والسعادة ، فهو ثابت لا يغير .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال : إلا الحياة والموت ، والشقاء والسعادة ، فإنهما لا يتغيران .

وأخرج ابن جرير ، عن شقيق بن أبي وائل قال : كان مما يكثر أن يدعو بهؤلاء الدعوات : اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء ، فامحنا واكتبنا سعداء ؛ وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني ، عن ابن مسعود – رضي الله عنه – أنه كان يقول : اللهم إن كنت كتبتني في السعداء ، فأثبتني في السعداء ؛ وإن كنت كتبتني في الأشقياء ، فامحني من الأشقياء وأثبتني في السعداء ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب .

وأخرج ابن جرير عن كعب – رضي الله عنه – أنه قال لعمر – رضي الله عنه – يا أمير المؤمنين ، لولا آية في كتاب الله ، لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة .

قال : وما هي ؟ قال : قول الله ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ .

(308/413)

وأخرج ابن جرير عن الضحاك – رضي الله عنه – في الآية ، قال : يقول انسخ ما شئت واصنع في الآجال ما شئت ، وإن شئت زدت فيها وإن شئت نقصت ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ قال : جملة الكتاب وعلمه ، يعني بذلك ما ينسخ منه وما يثبت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في المدخل ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال : يبدل الله ما يشاء من القرآن فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ يقول : وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ والمنسوخ ، وما يبدل وما يثبت ، كل ذلك في كتاب الله تعالى .

وأخرج ابن جرير عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال : هي مثل قوله ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ [البقرة : 106] وقوله ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ أي جملة الكتاب وأصله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في الآية قال ﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ مما ينزل على الأنبياء ﴿ ويثبت ﴾ ما يشاء مما ينزل على الأنبياء ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ لا يغير ولا يبدل .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج – رضي الله عنه – ﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ قال : ينسخ ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ قال : الذكر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال : يمحو الله الآية بالآية ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ قال : أصل الكتاب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الحسن – رضي الله عنه – في قوله ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ قال : أجل بني آدم في كتاب ﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ قال : من جاء أجله ﴿ ويثبت ﴾ قال : من لم يجيء أجله بعد ، فهو يجري إلى أجله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن – رضي الله عنه – في الآية قال : ﴿ يمحو الله ﴾ رزق هذا الميت ﴿ ويثبت ﴾ رزق هذا المخلوق الحي .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - في قوله ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال : يثبت في البطن الشقاء والسعادة ، وكل شيء هو كائن ، فيقدم منه ما يشاء ويؤخر ما يشاء .

وأخرج الحاكم عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ مخففة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ قال : الذكر .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد - رضي الله عنه - ﴿ عنده أم الكتاب ﴾ قال : الذكر .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير ، عن سيار عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه سأل كعباً رضي الله عنه عن أم الكتاب ، فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون . فقال لعلمه : كن كتاباً . فكان كتاباً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي - رضي الله عنه - ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ يقول : عنده الذي لا يبدل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور جـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39) ﴾

وقرأ أبو عمروٍ وابن كثيرٍ وعاصمٌ : " ويُثْبِتُ " مخففاً مِنْ أَثْبَتَ ، والباقون بالتشديد والتضعيف ، والهمزةُ للتعدية . ولا يَصِحُّ أن يكونَ التضعيفُ للتكثير ، إذ من شرطِه أن يكون متعدياً قبل ذلك . ومفعول "يُثْبِتُ" محذوفٌ ، أي : ويُثْبِتُ ما يشاء . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 60 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ

لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

أي أرسلنا رسلاً من قبلك إلى قومهم ، فلم يكونا إلا من جنسك ، وكما لكم أزواج وذرية كانت لهم أزواج وذرية ، ولم يكن ذلك قادحاً في صحة رسالتهم ، ولا تلك العلاقات كانت شاغلة لهم .

ويقال إن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الأشغال لا تؤثر في حاله ؛ ولا يضره ذلك .

قوله جلّ ذكره ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ .

أي لكل شيء أجل مثبت في كتاب الله وهو المحفوظ ، وله وقت قُسِمَ له ، وأنه لا اطلاعَ لأحدٍ على علمه ، ولا اعتراضَ لأحدٍ على حُكْمه .

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39) ﴾

المشيئة لا تتعلق بالحدوث ، والمحو والإثبات متصلان بالحدوث .

فصفات ذات الحق – سبحانه – من كلامه وعلمه ، وقولِه وحُكْمِه لا تدخل تحت المحو والإثبات ، وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله ؛ المحوُ يرجع إلى العدَم ، والإثباتُ إلى الإحداثِ ، فهو يمحو من قلوب الزُّهاد حُبَّ الدنيا ويُثْبتُ بدَلَه الزهدَ فيها ، كما في خبر حارثَةَ : " عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حَجَرُها وذَهَبُها " .

ويمحو عن قلوب العارفين الحظوظَ ، ويُثْبتُ بدلها حقوقَه تعالى ، ويمحو عن قلوب المُوحِّدين شهودَ غير الحق ويثبت بدَلَه شهود الحق ، ويمحو آثار البشرية ويثبت أنوار شهود

الأحدية .

ويقال يمحو العارفين عن شواهدهم ، ويثبتهم بشاهد الحق .

ويقال يمحو العبد عن أوصافه ويثبته بالحقِّ فيكون محواً عن الخْلق مثبتاً بالحق للحق .

ويقال يمحو العبد فلا يجري عليه حكم التدبير ، ويكون محواً بحسب جريان أحكام التقدير ، ويثبت سلطانَ التصديق والتقليب بإدخال ما لا يكون فيه اختيار عليه على ما يشاء .

(312/413)

ويقال يمحو عن قلوب الأجانب ذِكْرَ الحق ويثبت بَدَلَه غلبات الغفلةِ وهواجمَ النسيان .

ويقال يمحو عن قلوب أهل الفترة ما كان يلوح فيها من لوامع الإرادة ، ويثبت بدلها الرجوعَ إلى ما خرجوا عنه من أحكام العادة .

ويقال يمحو أوضارَ الزَّلّة عن نفوس العاصين ، وآثار العصيان عن ديوان المذنبين (ويثبت) بدل ذلك لَوْعَةَ النّدم ، وإنكسار الحَسْرَة ، والخمودَ عن متابعة الشهوة .

ويقال يمحو عن ذنوبهم السيئةَ ، ويثبت بدلها الحسنة ، قال تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان : 70] .

ويقال يمحو الله نضارةَ الشباب ويثبت ضعفَ المشيب .

ويقال يمحو عن قلوب الراغبين في مودة أهل الدنيا ما كان يحملهم على إيثار صحبتهم ، ويثبت بدلاً منه الزهد في صحبتهم والاشتغال بِعِشْرَتِهم .

ويقال يمحو الله ما يشاء من أيام صَفَتْ من الغيب ، وليالٍ كانت مُضاءةً بالزلفة والقربة ويثبت بدلاً منه ذلك أياماً في أشدُّ ظلاماً من الليالي الحنادس ، وزمانا يجعل سَعَةَ الدنيا عليهم محابِس .

ويقال يمحو العارفين بكشف جلاله ، ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله .

ويقال يمحوهم إذا تجلَّى لهم ، ويثبتهم إذا تعزَّز عليهم .

ويقال يمحوهم إذا ردّهم إلى أسباب التفرقة لأنهم يبصرون بنعت الافتقار والانكسار ، ويثبتهم إذا تجلَّى لقلوبهم فيبصرون بنعت الاستبشار ، ويشهدون بحكم الافتخار .

قوله جلّ ذكره ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ .

قيل اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما سبق به عِلْمُه وحُكْمُه مما لا تبديلَ ولا تغييرَ فيه .

ويقال إنه إشارة إلى علمه الشامل لكل معلوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 234.236 ﴾

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman

Bin Mohammed

AL-QAMMASH

21